نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

يقول كارل بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» ٤/ ٣٣٣: «إن التأليف العربي على الطريقة الموسوعية بدأ مع كتاب «مفاتيح العلوم» لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي المتوفَّى سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م». غير أن هذا النوع من التأليف لم يستمر بنفس الوتيرة والزّخم نفسه حتى القرن الثامن الهجري، حيث امتاز هذا القرن (في مصر خصوصًا) بظاهرة ثقافية مميزة، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية الكبرى؛ فقد ظهرت فيه طائفة من العلماء الذين توفّروا على جمع أشتات العلوم والفنون المعروفة في هذا العصر، في مؤلّفات جامِعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل، وكتب فيه عدّة موسوعات جليلة ما زالت تتبوّأ مقامها الفذّ في تراث الأدب العربي.

وأقطاب هذه الحركة ثلاثة من أكابر العلماء والكُتّاب المصريين، هم: أحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفَّى سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م، صاحب كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وأحمد بن فضل الله العمري، المتوفَّى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م صاحب كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»[١]، وأحمد بن علي القلقشندي (أبو العباس) المتوفَّى سنة ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م، صاحب كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا».

والمُلفِت للنظر أن بين هذين التاريخين (منتصف القرن الرابع الهجري، ومنتصف القرن الثامن الهجري)، كان هناك حَدَث مُرَوِّع ترك بصماته السيئة على تاريخ الثقافة العربية والإسلامية، وهو الغزو المغولي ودخول جيوش هولاكو إلى بغداد سنة ٦٥٦ هـ واستباحتها وقتل العديد من علمائها وأُدبائها وإحراق مكتباتها التي

(١) سيصدر إن شاء الله عام (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م) كاملًا عن دار الكتب العلمية محققاً على نسخة مخطوطة ملفقة.

كانت تحوي خُلاصة ما توصّل إليه التأليف العربي الإسلامي، ناهيك عن أنها كانت عاصمة العالم، لكونها حاضِرة الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من ذلك نجدنا أمام تلك الظاهرة المُلفِتَة التي تميَّزت بالحيوية الفكرية والثقافية والتي أنتَجَت تلك الأعمال التي أشرنا إليها وغير ذلك في أواسط العصر المملوكي الذي استمر من سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م إلى سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٧ م.

والحقيقة أن العنوان الواحد من تلك الكتب قد يُفهَم منه أن مُؤلِّفه يعالج فيه موضوعًا واحدًا، مثل كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» فهو يشير إلى الجانب الجغرافي، أو كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» فهو يشير إلى فنّ الإنشاء على وجه التحديد، أو كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» فهو يشير إلى الجانب الأدبي... ولكن القارىء لأيّ كتاب من هذه الكتب يجده موسوعةً ضخمةً تجمع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والاجتماع والعلوم الدينية ونظم الحكم والتراجم والفنون والعلوم... وغيرها من ضروب المعرفة التي تجعل منه دائرة معارف ثمينة يفخر بها الفكر العربي وتعتزّ بها الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى.

هذا كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري أحمد بن عبد الوهاب، نقدّمه للقارىء الكريم بطبعة كاملة وغير منقوصة، وقد أضَفْنا إليها كمية كبيرة من التعليقات والحواشي كتبها عدد كبير من الأساتذة ذَوي العلم والاختصاص في مجال التحقيق والشرح.

وتتلخص خطواتنا في إصدار هذا السفر النفيس بما يلي:

١ ـ قام المحقّقون بمقابلة المخطوط الكامل للكتاب مع المطبوع، ثم وُضِعَت عليه التعليقات المناسبة. وسنضع في آخر هذه المقدمة بعض الصور من المخطوط.

٢ ـ لقد حاولنا في هذه الطبعة ـ ما أمكننا ـ استدراك بعض ما فات مُحَقّقي الطبعة السابقة، من ملء بعض الفراغات التي جاءت بالأصل، أو إضافة بعض الزيادات التي يقتضيها المقام والمقارنة، وذلك استنادًا إلى المراجع والمصادر التي تبحث في نفس الموضوع. ونشير إلى أننا استفدنا كثيراً من الطبعة المصرية السابقة التي بدأت دار الكتب المصرية في إصدارها منذ سنة (١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م)، وفي تلك السنة ظهر السِّفْر الأول منها بإشراف القسم الأدبي، ثم تتابعت صدور أجزائه حتى عام ١٩٩٨م.

٣ ـ لقد بذلنا ما أمكَنَنا من الجهد في مقابلة ومقارنة النصوص التي أوردها النويري في كتابه والتي أخذها من مصادر التراث، وأشرنا إلى ذلك في مواضعه.

٤ ـ اجتهدنا في ضبط أسماء الأعلام والمواضع التي أوردها المؤلف على أُمّهات المعاجم والمراجع التي توفَّرت لنا، وأشرنا إلى الضبط المختلف أو الروايات المتعددة بهذا الشأن.

٥ ـ وضعنا في حواشي الكتاب تعريفًا مختصرًا (مع ذكر المراجع) بمعظم الأعلام الواردة في الكتاب وما أهملناه من ذلك إما معروف مشهور ولم نجد ضرورة لنافِل القول فيه، وإما لم نَهْتَدِ إليه فيما بين أيدينا من المراجع، وقد أشرنا إلى ذلك أيضًا.

٦ ـ وضعنا في حواشي الكتاب تعريفات مختصرة بالأماكن والكتب والمصطلحات الواردة في المتن (مع ذكر المراجع والمصادر).

٧ ـ خرَّجنا الأحاديث النبوية والآثار استنادًا إلى كتب الحديث المُعتَبَرَة.

٨ ـ خرَّجنا جميع الآيات القرآنية على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

٩ ـ وضعنا بحور الشعر لكل الشواهد الشعرية الواردة في المتن.

١٠ ـ شرحنا في حواشي الكتاب ما في مَتْنه من غريب اللغة أو صعب المُتَناوَل منها، وذلك استنادًا إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

١١ ـ سنقوم بإذن الله، بإنجاز الفهارس العلمية المفصلة بعد صدور الكتاب.

ونشير أخيراً إلى أننا بدأنا ـ في دار الكتب العلمية ـ بتحقيق هذا الكتاب منذ سنة ١٩٨٥م، إلى أن أنجزنا جميع الأجزاء في سنة ٢٠٠٣م. وفيما يلي قائمةٌ بأسماء محقّقي هذا السِّفْر النفيس:

١ ـ الدكتور مفيد قميحة: الأجزاء ١ و٢ و١٣ و١٤.

٢ ـ الدكتور حسن نور الدين: الجزء الثالث.

٣ ـ الدكتور يحيى الشامي: الأجزاء ٤ و٥ و١١.

٤ ـ الدكتور علي بو ملحم: الأجزاء ٦ و٧ و٨.

٥ ـ الدكتور محمد رضا مروة: الجزء التاسع.

٦ ـ الدكتور يوسف طويل: الجزء العاشر والجزء ١٥.

٧ ـ الاستاذ علي محمد هاشم: الجزءان ١٦ و١٧.

٨ ـ الاستاذ عبد المجيد ترحيني: الأجزاء ١٨ و١٩ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦.

٩ ـ الأستاذ عماد علي حمزة: الجزء ٢٠.

١٠ ـ الدكتور نجيب مصطفى فواز والدكتورة حكمت كشلي فواز: الأجزاء ٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١.

١١ ـ الأستاذ إبراهيم شمس الدين: الجزءان ٣٢ و٣٣.

وأخيرًا نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى ولله الكمال وحده وهو وليُّ التوفيق.

الناشــر

١٠ / ١ / ٢٠٠٤

ترجمة المؤلِّف[1]

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة البكري النويري.

على هذا الكثرةُ ممّن أرّخوا له مثل المقريزي وابن تغري بردي وابن حبيب والسيوطي.

وذهب ابن حجر إلى أنه: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم النويري. وهذه الرواية توافق ما أورده علي مبارك.

وذهب الأدفوي إلى أنه: أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكري، ثم قال: يُنعَت بالشهاب النويري.

واجتزأ ابن كثير بِذِكر اسمه واسم أبيه فقال: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.

وثمّة رواية جاءت بخط النويري نفسه آخر السفر الأول من كتابه «نهاية الأرب» تؤيّد ما أورده ابن حجر وما شاركه فيه علي مبارك، تقول: نجّز السفر الأول من

---

(١) انظر ترجمته في:

١ ـ السلوك للمقريزي (ج ٢، ق ٢) ص ٣٦٣.

٢ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٩/ ٢٩٩.

٣ ـ المنهل الصافي لابن تغري بردي ١/ ٣٦١.

٤ ـ درّة الأسلاك لابن حبيب: حوادث سنة ٧٢٣.

٥ ـ حُسْن المحاضرة للسيوطي ١/ ٢٦٦.

٦ ـ الدرر الكامنة لابن حجر ١/ ١٩٧.

٧ ـ الخطط التوفيقية لعلي مبارك ١١/ ١٥.

٨ ـ الطالع السعيد للأدفوي ص ٤٦.

٩ ـ البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ١٦٤.

١٠ ـ تراث الإنسانية ٧/ ٣٣٣ ـ ٣٥١. مقالة للأستاذ إبراهيم الأبياري تحت عنوان «نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري»، والصفحات التالية مُقتَبَسَة من هذه المقالة مع بعض التصرّف.

كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» على يد مُؤَلِّفه فقير رحمة ربّه: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التميمي القرشي، عُرِفَ بالنويري، عفا الله عنه.

وقد تكرّرت هذه العبارة في نهاية السفر الخامس أيضًا، وجاءت في آخر الجزء التاسع بخط ناسخ له يُدعى نور الدين بن شرف الدين بن أحمد العاملي، وذلك في سنة ٧٦٦ هـ. أي بعد وفاة المؤلّف بنحو ثلاث وثلاثين سنة.

ولم يعرض من بين هؤلاء المؤرّخين جميعًا لنسبته إلى بكر إلا اثنان، هما: ابن كثير، وعلي مبارك.

أما ابن كثير فقال: نسبته إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وقال علي مبارك: يُنسَب إلى قبيلة بكر، وهي بطن من طيىء.

غير أنه يقول بعد ذلك: وقد ذكر النويري في بعض كتبه ترجمة والده فقال: هو تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أبي عبد الله محمد بن عبد الدائم بن منجى البكري، تيمي قرشي، يُلَقَّب بالنويري.

أما عن النويرة التي نُسِبَ إليها أحمد فهي قرية بالصعيد الأدنى في مصر، كانت قديمًا من إقليم «بهنسا» وهي الآن من محافظة بني سويف شرقي أهناس بنحو ثلاثة كيلومترات ونصف.

ولم تكن النويرة القرية التي وُلِدَ فيها أحمد ونشأ، وإنما كانت منشأ آبائه، فلقد مرّ بك فيما ساقه علي مبارك عن والد أحمد أنه كان يُلَقَّب بالنويري. ويضيف الأدفوي وهو يترجم لأحمد: النويري المَحتد، القوصي المولد والمَنشأ. وهو يعني أن النويرة كانت موطن آبائه وعنها نزحوا إلى قوص حيث كان مولده ومَرباه. ويظهر أن النويرة لم تكن كذلك القرية التي ولد فيها الأب، ففي ترجمة أحمد لأبيه ما يشير إلى أنه وُلِد في الفسطاط، فهو يقول: «وولادته بالفسطاط سنة ٦١٨ هـ». فهذه النسبة ـ التي علقت باسم الأب كما علقت باسم الابن ـ تدلّنا ـ كما قلت ـ على أن الأُسرة كانت لها صلة قديمة بالنويرة لم تستطع أن تمحوها صلات أخرى ببلدان أخرى.

وكان والده من علماء المالكية، يشير إلى ذلك ما كتبه هو عنه، ونقله علي مبارك حيث يقول: «ومات رحمه الله قبل صلاة المغرب يوم الخميس اثنين وعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٦٩٩ هـ في المدرسة الصالحية النجمية في قاعة تدريس المالكية».

ثم قوله: وقد دُفِن في تربة قاضي القضاة زين الدين المالكي. فهاتان الاثنتان ترجّحان ما ذهبنا إليه من أنه كان مالكي المذهب، ولم نكن لنلتفت إلى هذه لولا ذلك التنصيص على شافعية الابن التي ذكرها غير واحد ممّن أرّخوا له، فلقد ذكرها المقريزي في كتابه «السلوك»، وذكرها ابن تغري بردي في كتابيه «النجوم الزاهرة» و«المنهل الصافي».

وكما كان الأب شيخًا في مذهبه المالكي، كان الابن كذلك شيخًا في مذهبه الشافعي، والعهد بالأُسرة قديمًا وحديثًا الوحدة المذهبية، ولا يتأتّى خروج على هذه الوحدة بين أُسرة تُملي عن رأي مثل أُسرة النويري إلا إذا كان ثمّة خلاف في رأي أو خلاف في الاتجاه تتطلّبه الرغبات العلمية المحيطة حينذاك، ولعل اتخاذ الدولة حينذاك «المذهب الشافعي» المذهب الرسمي لها كان له أثره في أخذ أحمد به.

ويذكر الأدفوي من شيوخ أحمد ـ ويكاد يكون هو المرجع الوحيد الذي استوعب في ذلك ـ الشريف موسى بن علي، ويعقوب بن أحمد بن الصابوني، وأحمد الحجّار، وزينب بنت منجى، وقاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة، ولا يذكر أباه، ولقد كان فقيهًا وشيخًا. ونكاد نعزو هذا إلى أن الابن نشأ بعيدًا عن الأب ويكاد يكون اختلاف البلاد، بين النويرة والفسطاط وقوص، يؤكّد ما ذهبنا إليه. وإذا صحّ هذا كان غير بعيد ألّا نجد الأب في شيوخ الابن، وكان غير بعيد أن نجد الابن شافعيًا والأب مالكيًا.

والمؤرِّخون يُجمِعون على نعت أحمد بحميد الصفات، يقول الأدفوي وقد صحبه: كان ذكيّ الفِطرة، حَسَن الشكل، وفيه مَكرُمَة وأريحية وودّ لأصحابه، وله نظم يسير، ونثر لا بأس به.

ويقول ابن حجر: وكان حَسَن الشكل، ظريفًا متودِّدًا.

ويقول ابن كثير: كان لطيف المعاني ناسخًا مُطبِقًا، وبالجملة كان نادرًا في وقته.

ويقول ابن تغري بردي: كان فقيهًا فاضلًا، وله مشاركة جيدة في علوم كثيرة وكتب الخط المنسوب.

ويقول ابن حبيب وقد جوّد في صفته: أديب تضاعف أدبه، وظهر سعيه ودأبه، وارتفعت منازله ورُتَبه، واشتهرت مؤلّفاته وكتبه، كان لطيف الذات، حَسَن الصّفاء والصفات، جميل الحاضِرة، بديع المُذاكرة، حصّل وجمع، وأفاد ونفع.

وهذا الرجل الذي انتهى إليه هذا كله، انتهى إلى أن يتصل بالسلطان الناصر، وصله به رافع بن عبادة، وما أن اتصل بالناصر حتى وكّل إليه الناصر بعض أُموره، وما زال يرقى عنده حتى ولّاه نظر الجيش بطرابلس. ثم ولّاه نظر الديوان بالدقهلية والمرتاحية... وهنا تحرّكت نفس ابن عبادة وأخذ يحقد عليه، فوشى به إلى السلطان وِشاية، حَسْبُنا عن عنفها ما كان من عنف السلطان بأحمد إذ أمر بضربه بالمقارع.

وأظن أن هذه التي حدثت بينه وبين الناصر كانت القاطِعة لصلته بالديوان السلطاني، وأظن أن الرجل عاش بعدها على النسخ، وقد مرّ بك قول ابن كثير فيه: «كان ناسخًا مطبقًا». وأزيدك عليه تتمة قوله فيه: «كان يكتب في اليوم ثلاث كراريس، وكتب صحيح البخاري ثماني مرات، ويقابله ويجلده ويبيع النسخة من ذلك بألف ونحوه».

ومثل هذا ما قاله ابن تغري بردي عنه في المنهل الصافي: «كتب صحيح البخاري ثماني مرات. وكان يبيع كل نسخة من البخاري بخطّه بألف درهم».

وهذا الذي سُقناه عن ابن كثير وابن تغري بردي، يؤكد أن الرجل عاش على النسخ لا يجد له مَنفسًا غيره، ونكاد نظن إلى هذا أن غَضْبَة السلطان عليه امتدت إلى منعه من أن يُحاضِر أو يُدرِّس، إذ لا نجد له في ثنايا تراجمه المختلفة إشارة إلى حضوره حلقة من حلقات التدريس كما رأينا لأبيه.

وكما فرّغ أحمد إلى عمله نهاره، فرغ إلى ربه مساءه. فكان إذا ما صلّى العصر أخذ في قراءة القرآن إلى قريب من المغرب، وإذا أمسى أخذ في القراءة والجمع يعدّ لتاريخه الكبير الذي سنحدّثك عنه. وقد قَسَت الحياة على الرجل حين ضيّقت عليه بعدما أفسَحَت له، وحين آذته بأصدقائه بعدما آنسته بهم، وحين أرهقت أصابع يمينه فإذا هو بهذا الإرهاق يشكو وجعًا بها يمهّد إلى غيره مما كان سبب موته. يقول الأدفوي: ثم حصل له وجع في أطراف أصابع يده وكان ذلك سبب وفاته.

هذه الحياة بقسوتها تلك أخرجته منها مُبكِرًا، وهو من أبناء الخمسين، فمات في الحادي والعشرين من شهر رمضان من سنة سبعمائة واثنتين وثلاثين، وقيل: ثلاث وثلاثين، لم يذكر الأولى من المؤرّخين غير حاجي خليفة في «كشف الظنون» وعلي مبارك في «خططه» وابن تغري بردي في «المنهل الصافي» وقد عاد ابن تغري بردي فاتفق مع جميع مَن قدّمت لك من المؤرّخين في الثانية، في كتابه «النجوم الزاهرة». وهؤلاء المؤرّخون جميعًا لم يذكروا شيئًا عن مولده كما لم يذكروا عمره، وأنه كان

من أبناء الخمسين حين مات، غير ابن تغري بردي في كتابه، وابن حبيب في «درّة الأسلاك».

«كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب»

وبين حياة الكسب وحياة التحصيل اجتمعت للرجل مادة علمية كثيرة هيّأته لهذا التأليف الكبير.

وما نشكّ في أن حياته الأولى مع إقبال الدنيا عليه حين تقلّب في الدواوين، وحين كان إليه نظر الجيش بطرابلس، وحين كان إليه نظر الديوان بالدقهلية والمرتاحية، مهّدت له، وكانت لها أثر قوي في هذا العمل الديواني الضخم، ثم ما نشكّ في أن إقبال الرجل على النسخ مكّنه من تقليب كتب وصفحات زوّدته بالكثير مما يحبّ، وما نشكّ في أن خلوته إلى نفسه بعد ما خَلَت الحياة به، أفسحت له أن يفرغ إلى هذا التأليف الكبير.

ونعني أن الرجل أخذ في تأليف كتابه هذا بعد ما خرج من حياة السلطان ودخل حياته هو، من أجل هذا لم نره يرفع كتابه إلى الناصر ولا يهديه إليه، غير أنه إذ كان في الباب الثاني عشر من القسم الخامس من الفن الخامس من الكتاب مؤرّخًا لملوك الديار المصرية في أيامه، لم يستطع أن يغفل الحديث عن الناصر، فإذا هو يقول: إلى حين وضعنا لهذا التأليف سنة... وسبعمائة في أيام مولانا السلطان السيد الأجَلّ المالِك الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين أبي الفتح محمد، ابن السلطان الشهير، الملك المنصور سيف الدنيا والدين أبي المظفر قلاوون الصالحي، خلّد الله مُلْكَه على مرّ الزمان، وسقى عهد والده صوب الرحمة والرضوان ببركة سيد ولد عدنان.

ولم يجىء بعد هذا ما يُشير إلى إهدائه إلى الناصر. وهذا الكتاب الذي لم يتركه صاحبه دون أنْ يشير إلى عنوانه، حيث قال في مقدمته: ولمّا انتهت أبوابه وفصوله وانحصرت جملته وتفصيله تَرْجَمْتُهُ «نهاية الأرب في الفنون والأدب»، لم يتركه المؤرِّخون دون أن يختلفوا في اسمه، فيقول ابن تغري بردي في كتابيه وابن كثير وابن حبيب: وله كتاب سمّاه «مُنتهى الأرب في علم الأدب»، ويسكت المقريزي وابن حجر والأدفوي ثم السيوطي عن ذكر اسم الكتاب ويقولون: «وجمع تاريخًا كبيرًا»، ولكنهم كلهم بعد ذلك متفقون على أن الكتاب في ثلاثين جزءًا أو مجلدًا.

وهذا التقسيم الذي اتفقوا عليه لم يُشِر إليه النويري من قُرْب أو بُعْد، وكل ما قاله أنه قسم الكتاب إلى فنون، وجعل كل فن سفرًا، والفنون إلى أقسام والأقسام إلى أبواب، وهي جميعها مذكورة في مقدمة الجزء الأول من الكتاب[1].

وما أملى النويري هذا كله عن وعي وحفظ، بل هو خلاصة كتب كثيرة ومراجع مختلفة تكاد تجد في ثناياه كتبًا بجملتها بعد أن لُخِّصَت تلخيصًا. منها: «إحياء علوم الدين للغزالي»، و«اللمعة النورانية في الأوراد الربانية» للبوني، و«المِلَل والنِّحَل» للشهرستاني، و«القصيدة العبدونية وشرحها»، و«فقه اللغة» للثعالبي، و«الأمثال» للميداني، و«الحماسة» لأبي تمام، ودواوين كثيرة من الشعر، مثل: «ديوان المتنبي»، و«ديوان البحتري»، و«ديوان البستي»، ثم بعد هذا كله تجد فيه تلخيصًا وافيًا لكتاب «مباهج الفكر ومناهج العِبَر» للوطواط، وكذلك «نزهة المشتاق واختراق الآفاق» للإدريسي.

وما يملك الرجل الموسوعي غير ما ملكه النويري لتستوي له مثل هذه الموسوعة الكبيرة، وحسبه فيها أن يُحسِن الاختيار وأن يجيد الاختصار، وأن يعرف من أين يستقي، وأين مكان ما يريد، وأيّ المراجع أوفى، وأيّها أغنى، وأيّها أصدق، وأيّ هذا كله أحبّ للقارىء وأنفع للمفيد، ثم كيف يبوّب هذا كله ويسوق هذا كله. وإنك لتقرأ له إذ يقول في منهجه: «وما أوردت إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه، أو أن الخواطر تشتمل عليه، ولو علمت أن فيه خطأً لقبضت بناني وغضضتُ طرْفي».

فنحن نرى الرجل بهذا قد تحرّى الحقيقة وُسعه، وسعى إلى تحقيق حاجة الناس جهده، وما نرجو من عامل أكثر من هذا الذي ألزم به النويري نفسه.

وهذه الموسوعة الكبيرة أخذ مؤلّفها في كتابتها في أوائل العقد الثالث من القرن السابع الهجري، إذ تراه يكتب بخطه في نهاية السفر الأول أو نهاية الفن الأول: نجز السفر الأول من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» على يد مؤلّفه بعد النص. ووافق الفراغ من كتابه في يوم السبت المبارك لعشر بقين من ذي القعدة عام إحدى وعشرين وسبعمائة، أحسن الله تقضّيه. وذلك بالقاهرة المصرية عمّرها الله تعالى، يتلوه إن شاء الله تعالى أول السفر الثاني «الفن الثاني في الإنسان وما يتعلق به».

---

(١) انظر الصفحات ٥ إلى ١٦ من هذا الجزء.

ونرى في آخر السفر الخامس: «كَمُل السفر الخامس من كتاب نهاية الأرب في الفنون والأدب على يد مؤلِّفه فقير رحمة ربّه... ووافق الفراغ من كتابته في يوم الأحد المبارك لثمانٍ بقيت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المصرية».

وقبل أن نودّع النويري وكتابه «نهاية الأرب» نحبّ أن نشير إلى أنه لم يكن له ثمة كتاب له عُرِفَ غير هذا الكتاب. والذين ترجموا له كلهم لم يشيروا إلى كتاب آخر، غير أن عبارة علي مبارك التي أوردها عن النويري والتي تقول: «وقد ذكر النويري في بعض كتبه ترجمة والده»، تثير شكًّا بأن ثمّة كتبًا أخرى له.

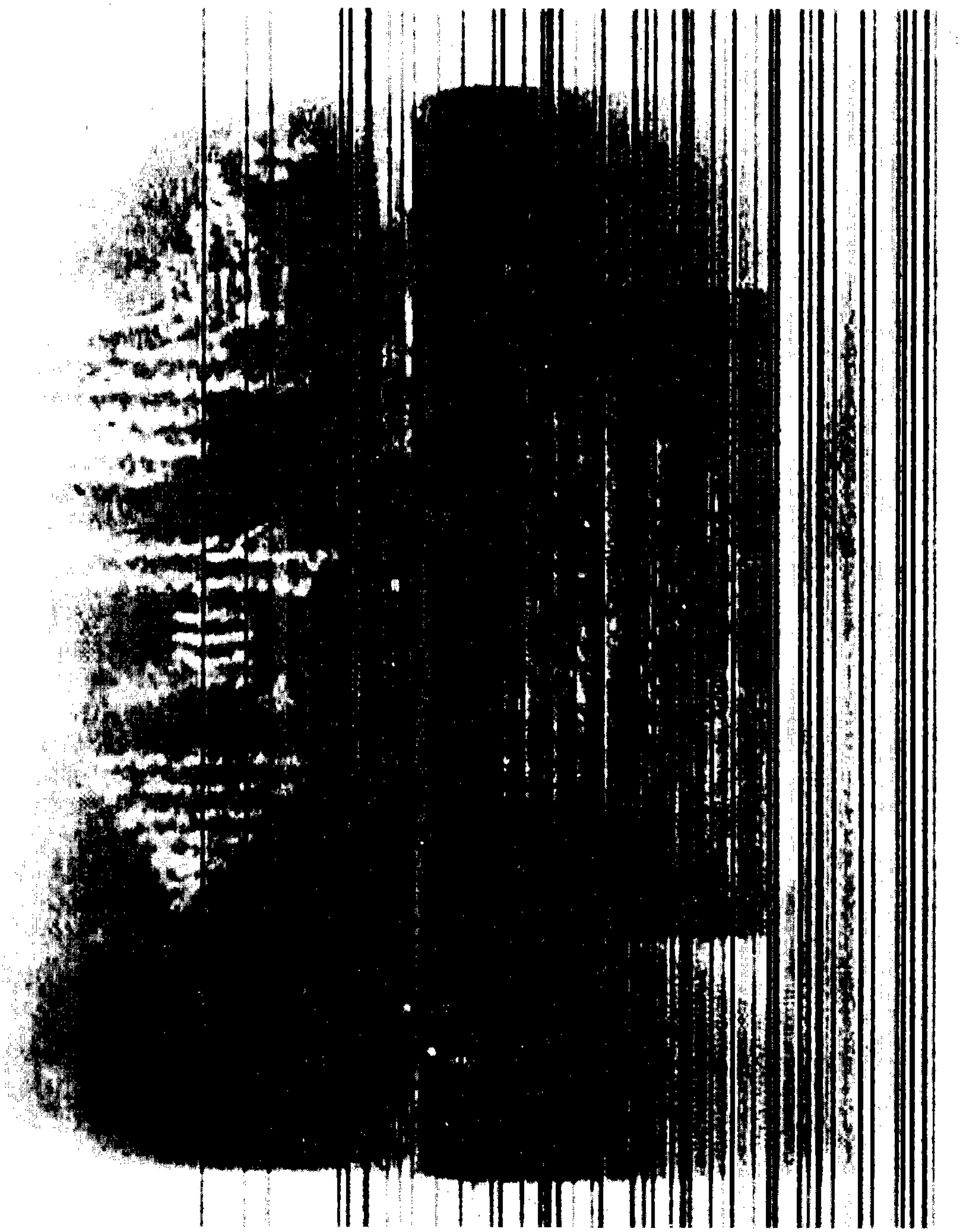

صورة أول الجزء الأول

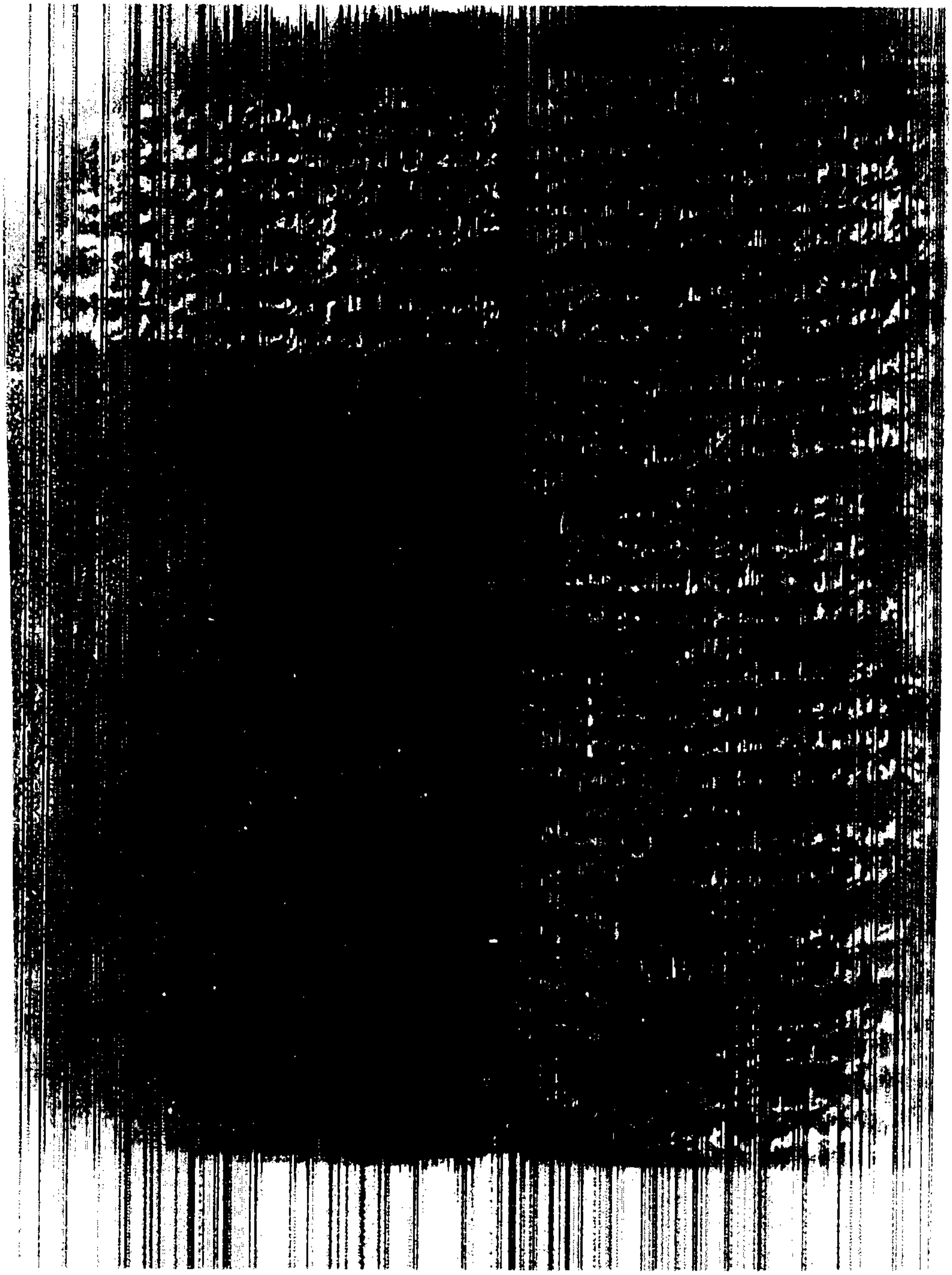

صورة آخر الجزء الأول

الجزء الثامن من كتاب
نهاية الأرب في فنون الأدب
تأليف العبد الفقير إلى عفو ربه القدير أحمد بن
عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي
المعروف بالنويري عفا الله عنه

صورة عنوان القسم الأول من الجزء الثامن

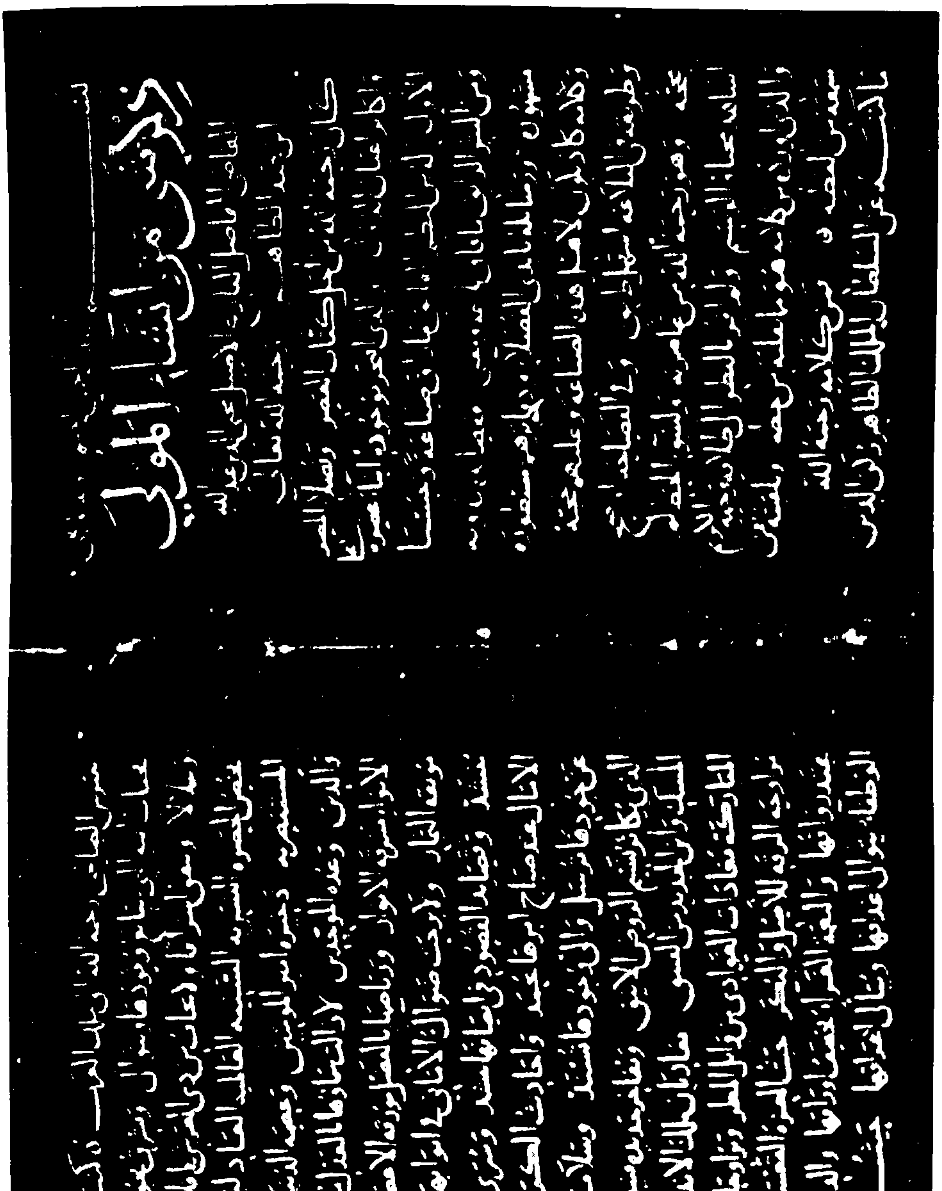

صورة بداية القسم الأول من الجزء الثامن

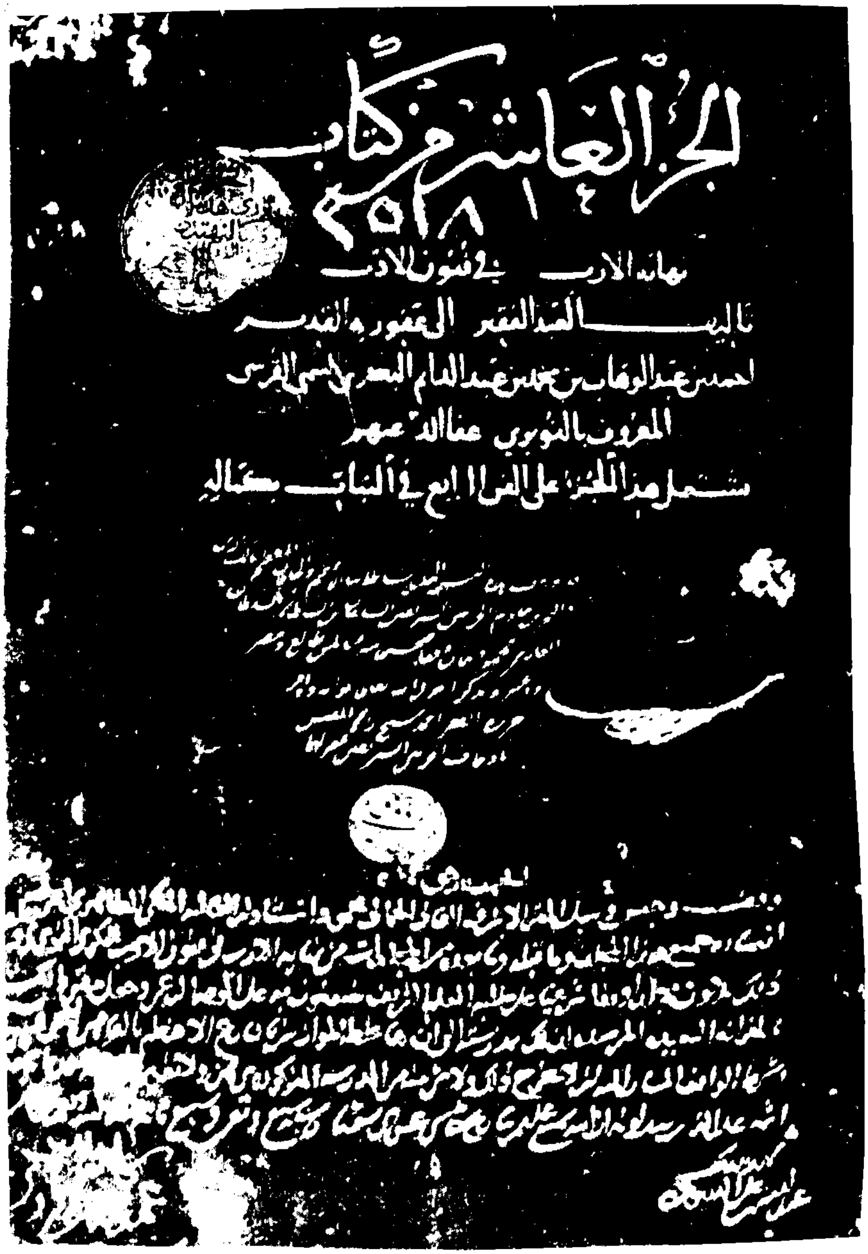
الجزء العاشر من كتاب
نهاية الأرب في فنون الأدب
تأليف العبد الفقير إلى عفو ربه القدير
أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي
المعروف بالنويري عفا الله عنهم
يشتمل هذا الجزء على القسم الرابع في النبات

صورة عنوان القسم الأول من الجزء العاشر

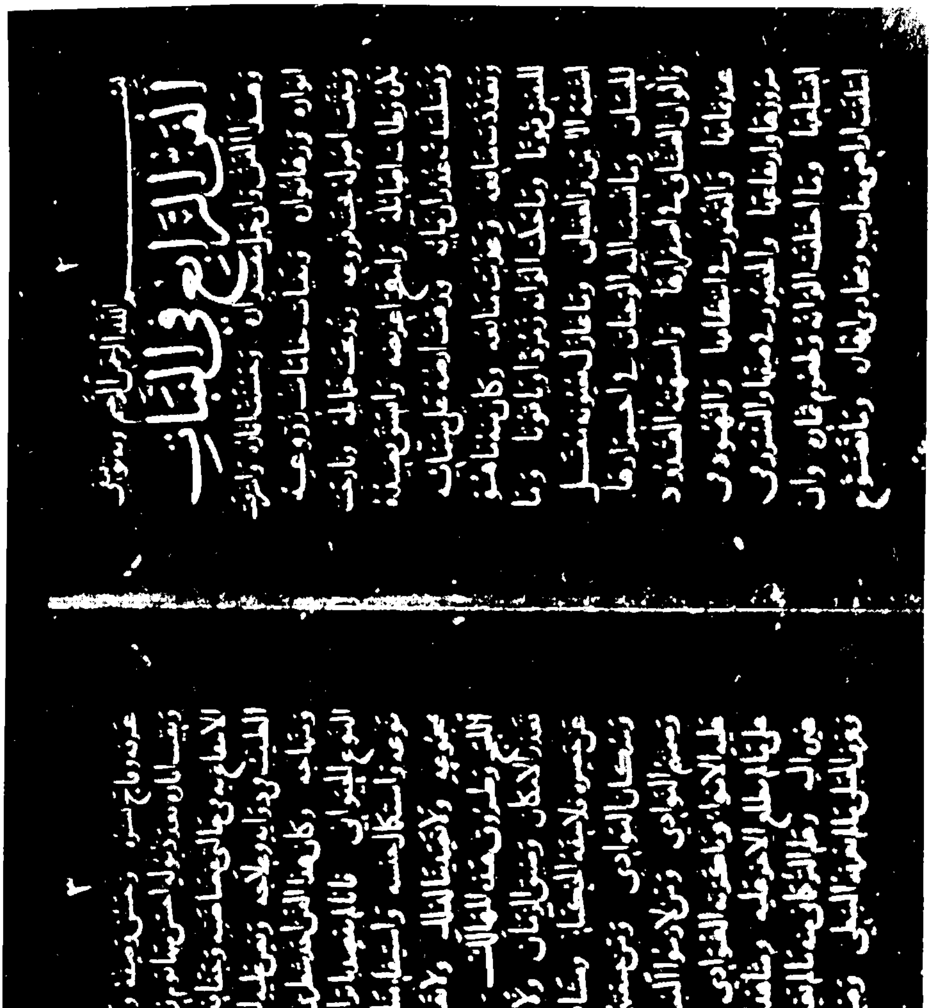

صورة بداية القسم الأول من الجزء العاشر

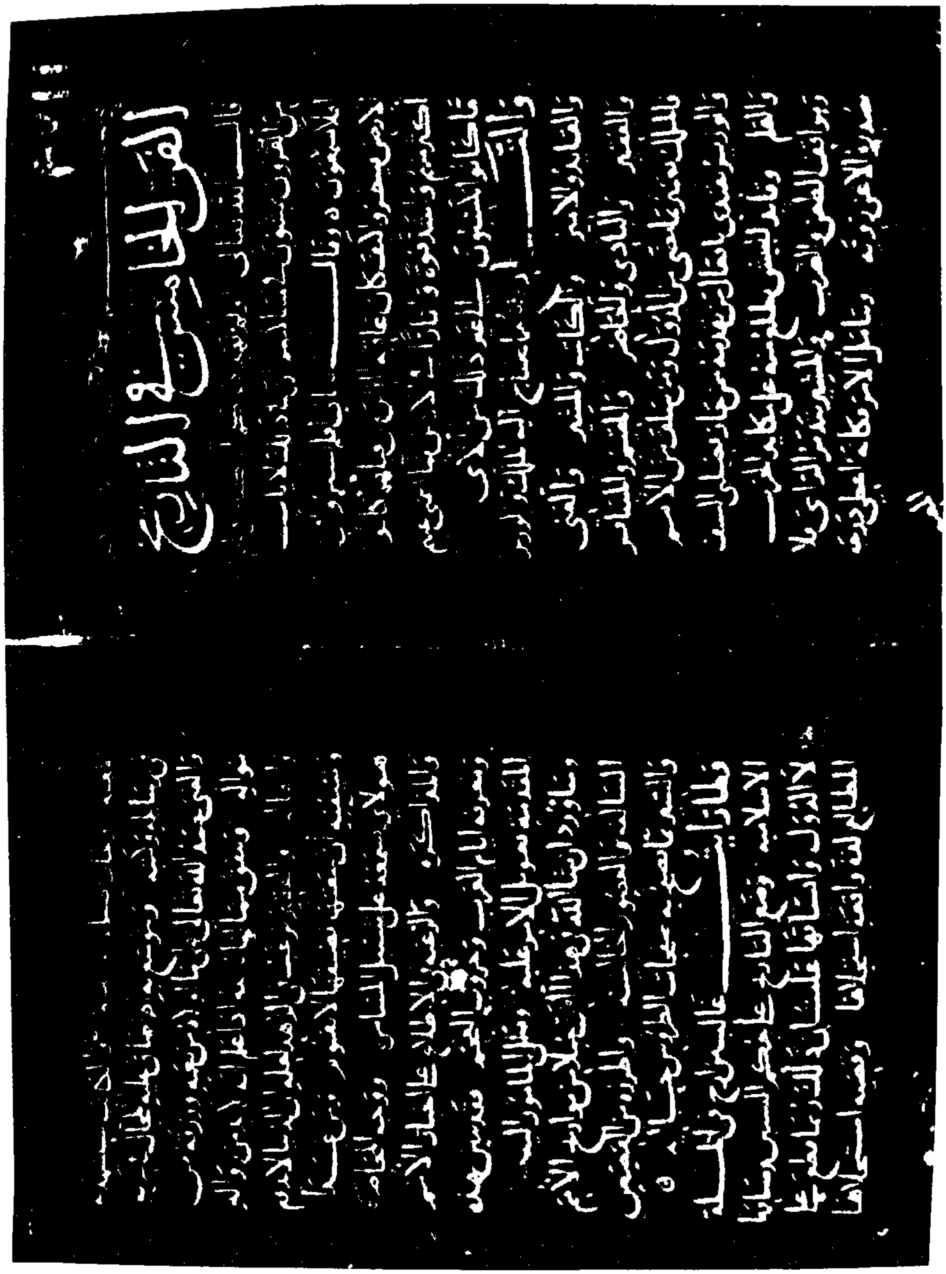

صورة بداية القسم الأول من الجزء الحادي عشر

٤٥١٤

الجزء الثالث عشر من [illegible]

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف الفقير إلى عفو ربه القدير أحمد بن عبد الوهاب

ابن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي المعروف بالنويري

يشتمل هذا الجزء على بقية الباب الأول من القسم الرابع

من الفن الخامس والباب الثالث والرابع والخامس من

القسم المذكور يحتوي على بقية أخبار ملوك مصر

أخبار ملوك الأمم من الأعاجم وهم ملوك الفرس الأول

وملوك الطوائف منهم والملوك الساسانية منهم وملوك

اليونان والسريان والكلدانيين والروم والقياصرة

والتكرور والافرنجة والكلابقة وطوائف السودان

وأخبار ملوك العرب و[illegible] العرب [illegible]

ودياناتهم في الجاهلية

صورة بداية القسم الأول من الجزء الثالث عشر

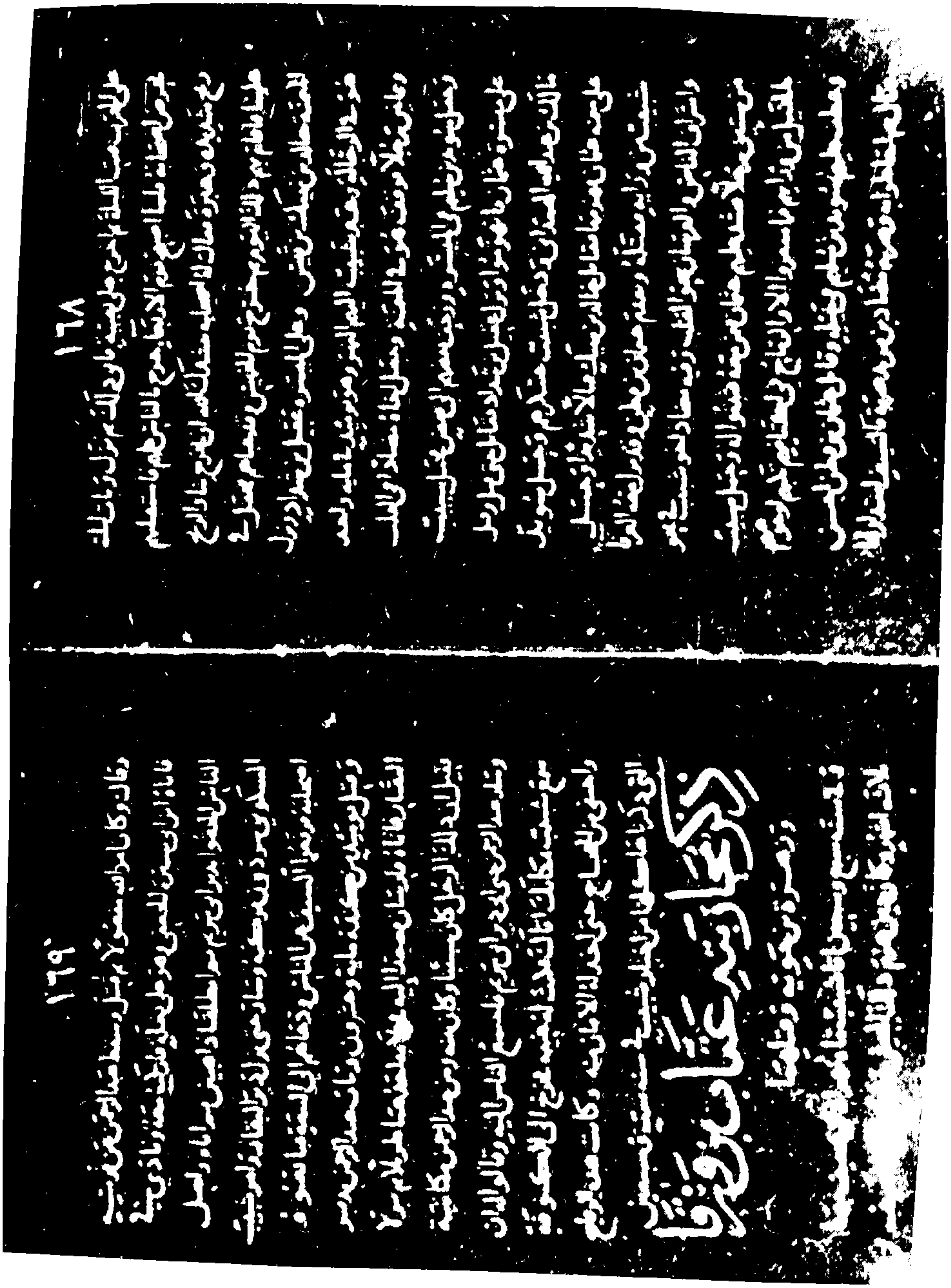

صورة بداية القسم الثاني من الجزء التاسع عشر

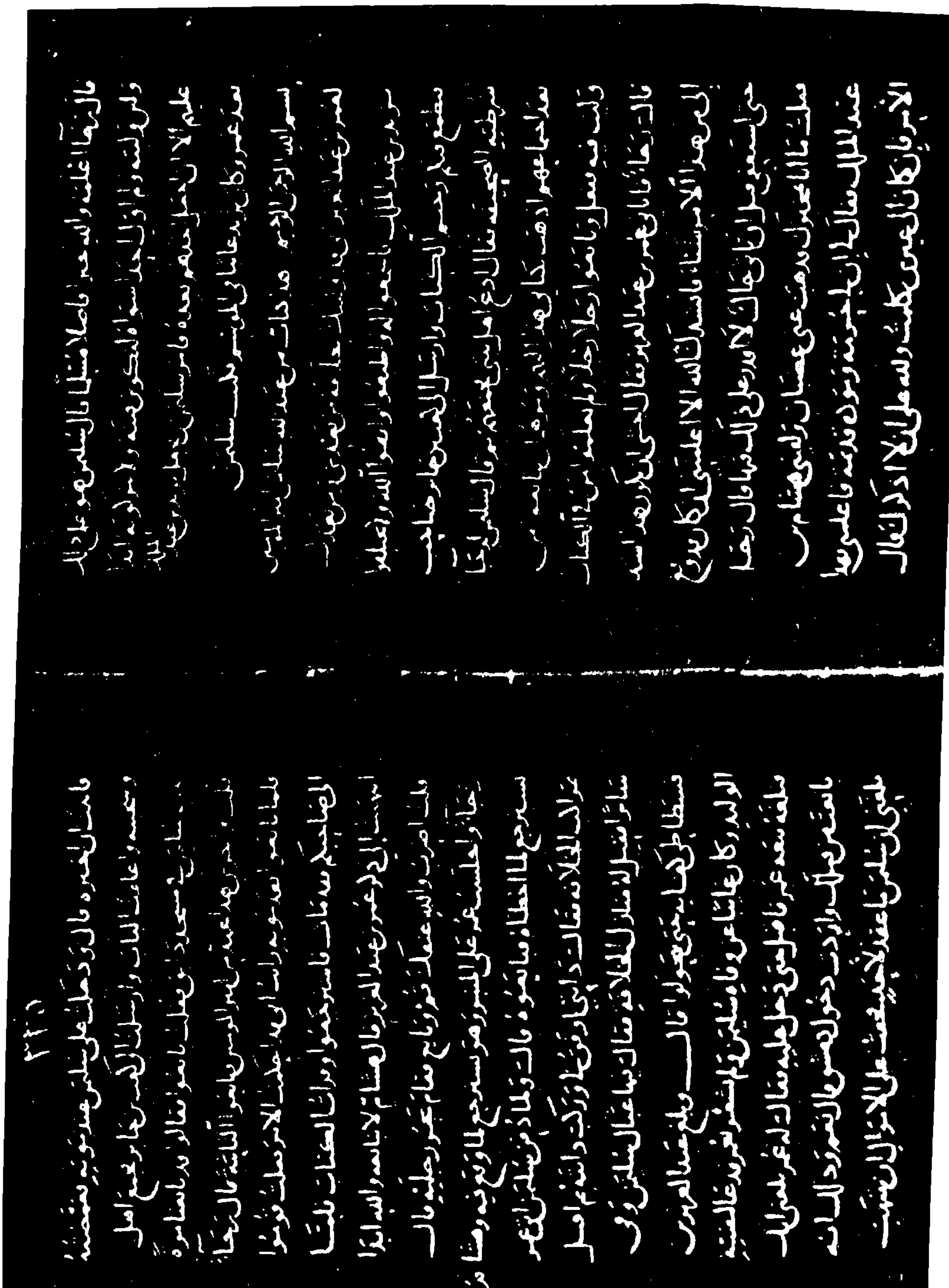

صورة آخر القسم الثاني من الجزء التاسع عشر

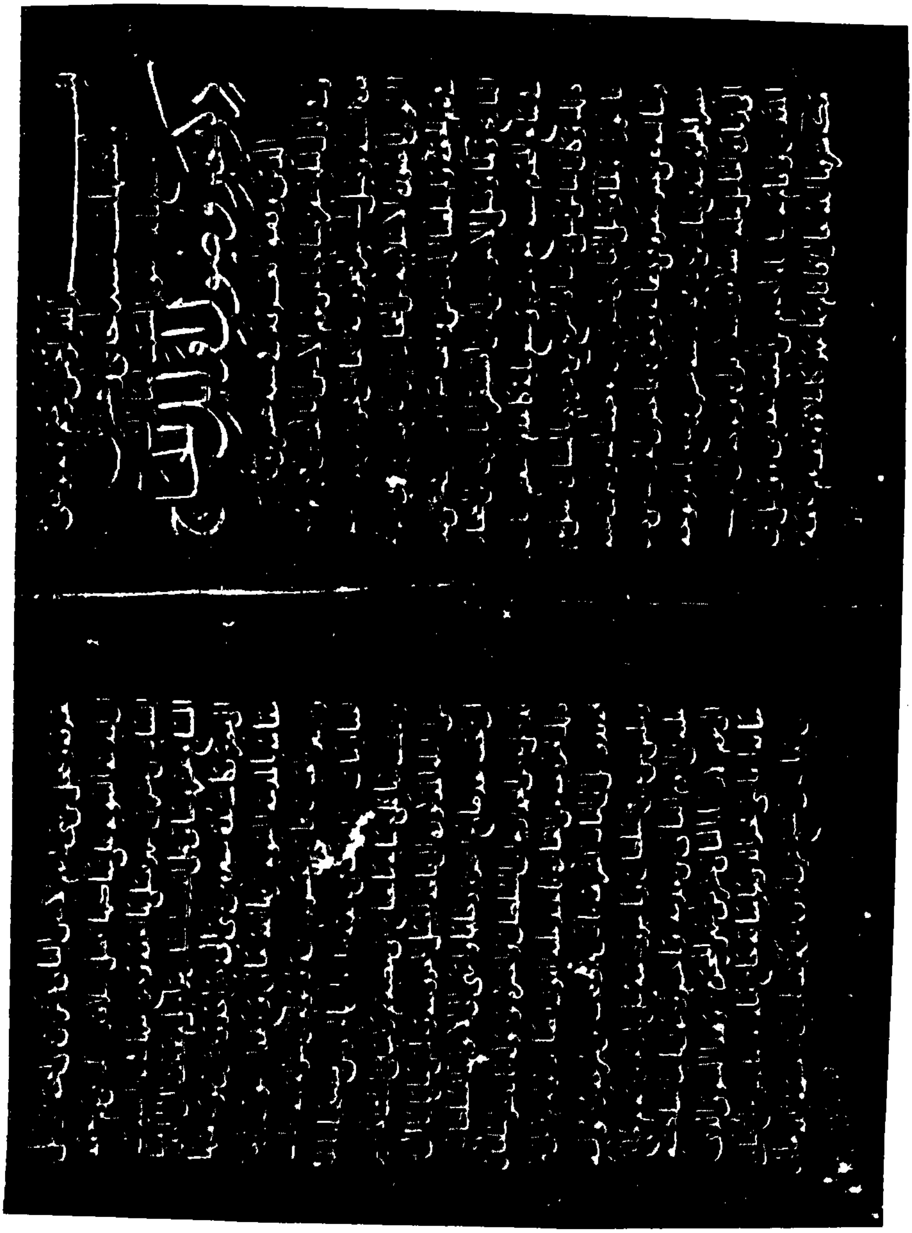

صورة بداية القسم الأول من الجزء ٣١ وهو الجزء الأخير

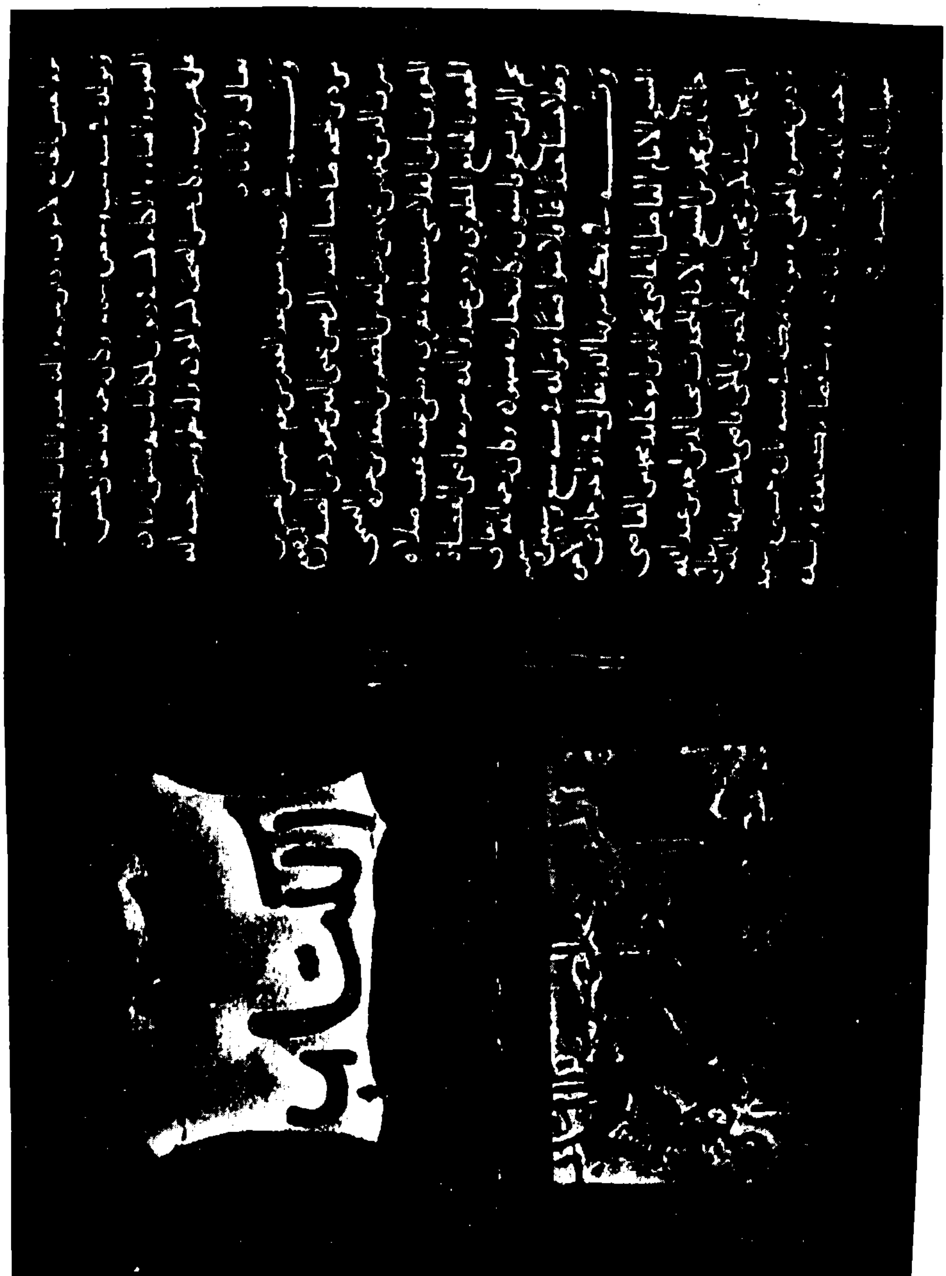

صورة من نهاية الكتاب

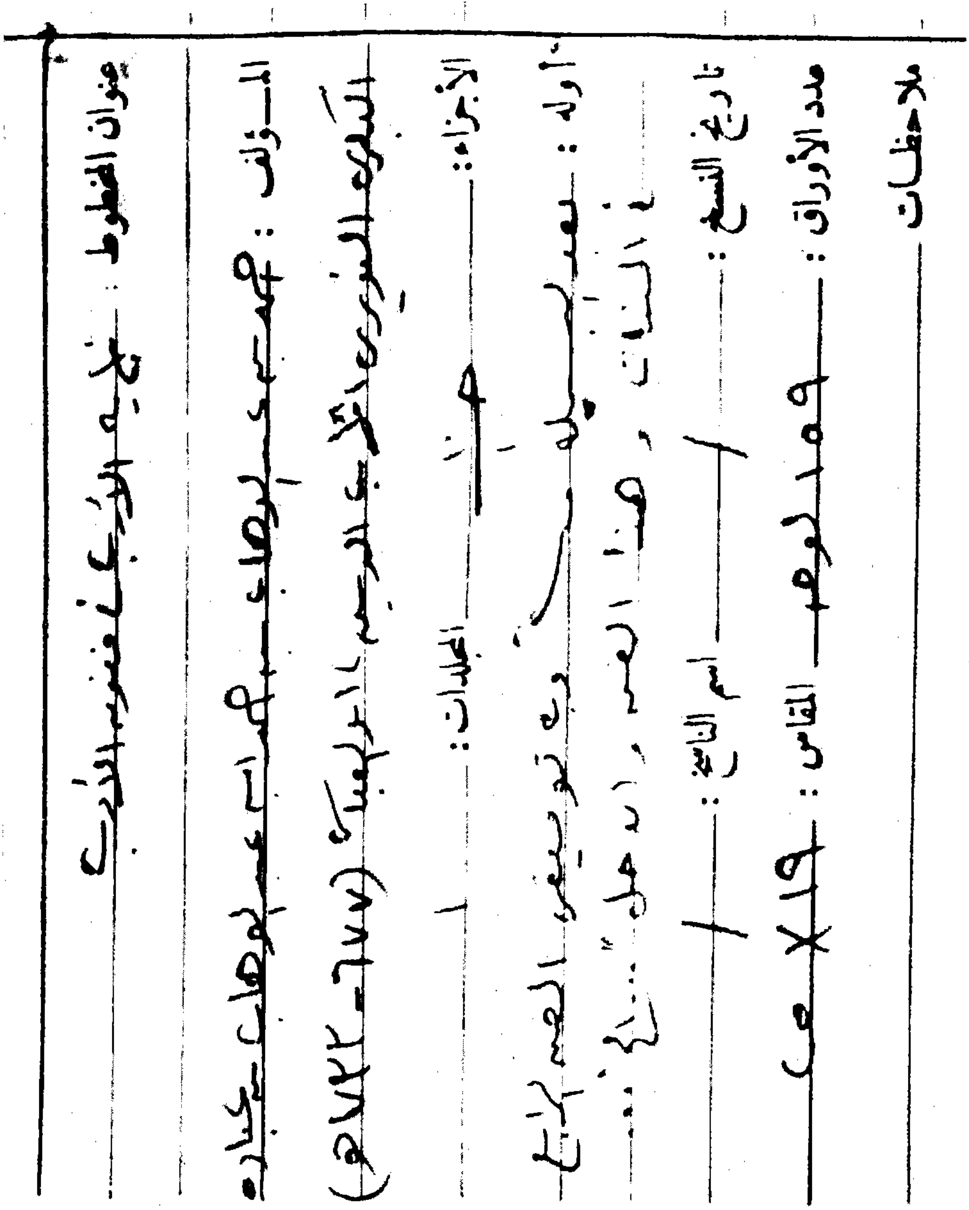

صورة عليها مواصفات القسم الأول من الجزء العاشر

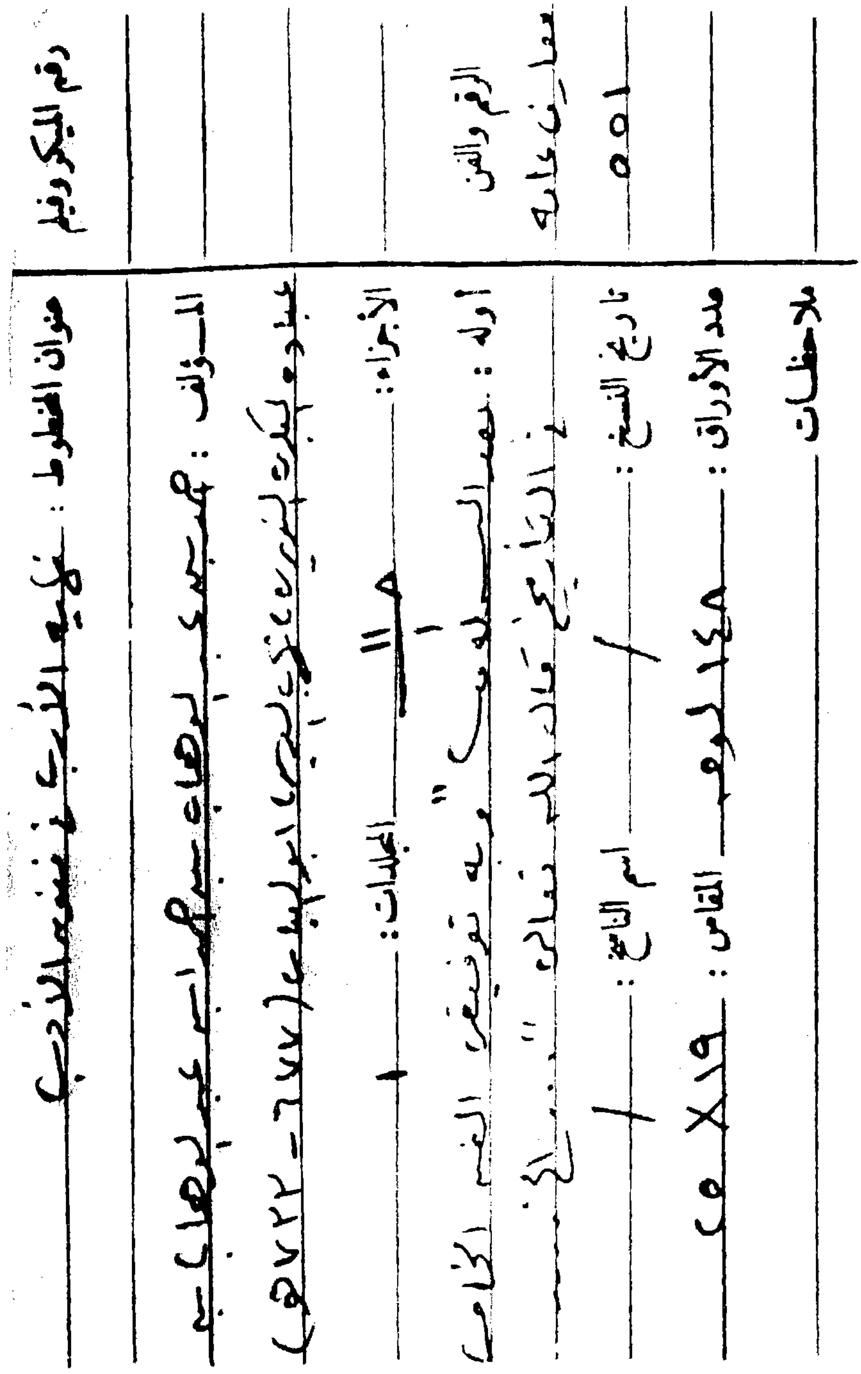

رقم الميكروفيلم	عنوان المخطوط : نهاية الأرب في فنون الأدب
	المؤلف : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبادة البكري النويري شهاب الدين أبو العباس (٦٧٧ - ٧٢٢ هـ)
	الأجزاء : ١١ المجلدات : ١
الرقم والفن معارف عامة ٥٥١	أوله : بسم الله الرحمن الرحيم "وبه توفيقي" القسم الخامس في التاريخ قال الله تعالى "..." الخ
	تاريخ النسخ : / اسم الناسخ : /
	عدد الأوراق : ١٤٨ ورقة المقاس : ١٩×٢٥
	ملاحظات

صورة عليها مواصفات القسم الأول من الجزء الحادي عشر

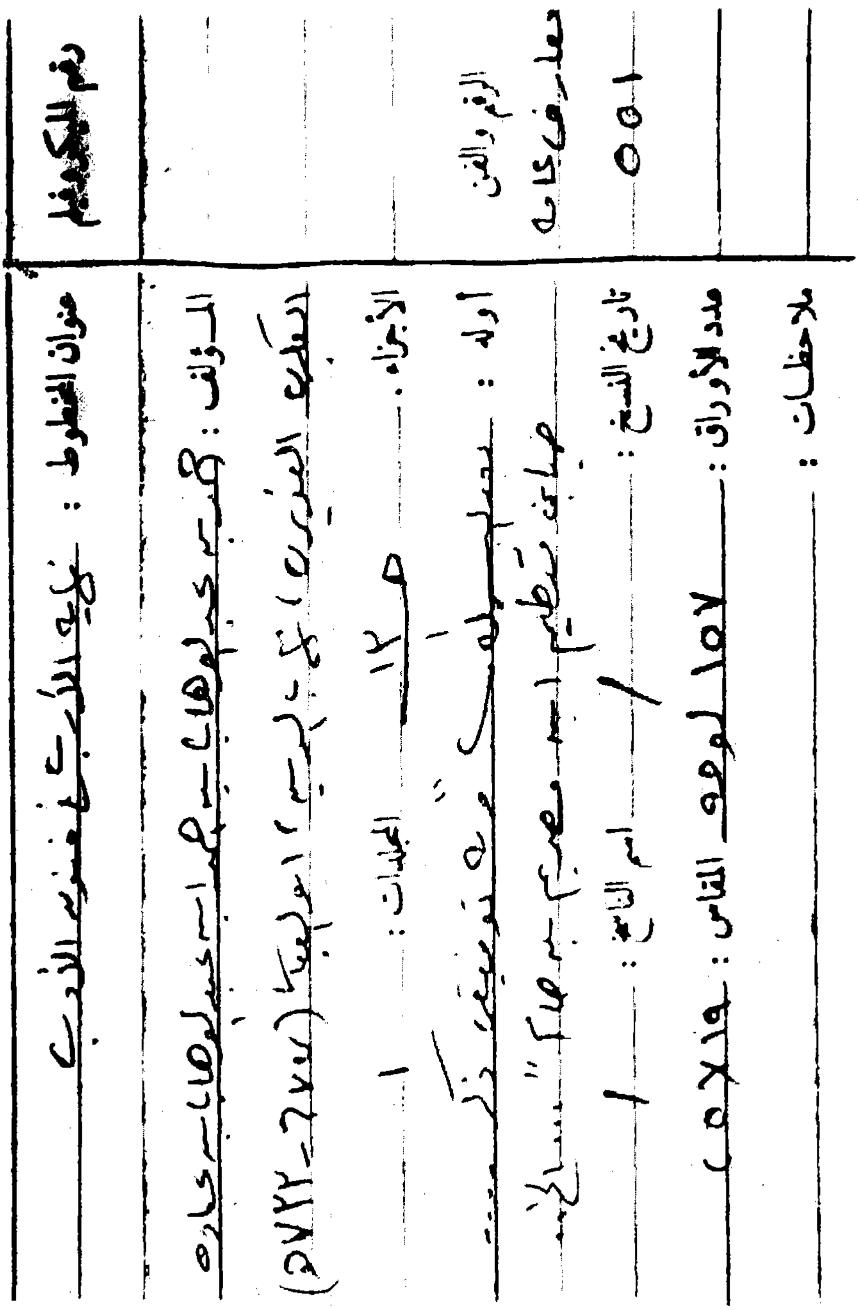

صورة عليها مواصفات القسم الأول من الجزء الثالث عشر

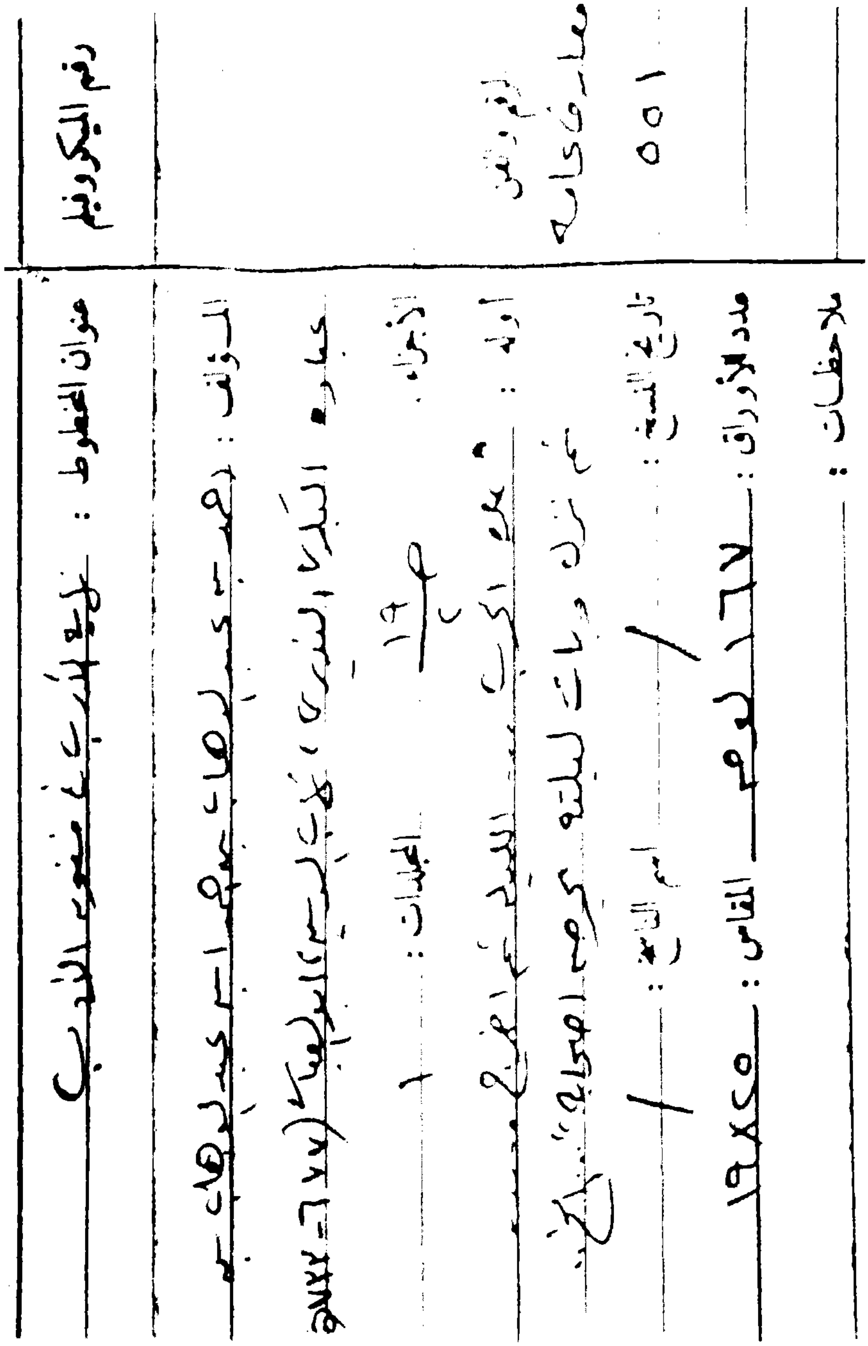

رقم الميكروفيلم	عنوان المخطوط : نهاية الأرب في فنون الأدب
	المؤلف : أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبادة البكري التيمي، شهاب الدين النويري (٦٧٧-٧٣٣هـ)
	الأجزاء . ص ١٩ / ٢ — المجلدات : ١
الرقم والفن معارف عامة ٥٥١	أوله : ... ثم نزل وبات ليلته ...
	تاريخ النسخ : / — اسم الناسخ : /
	عدد الأوراق : ١٦٧ لوحة — المقاس : ١٩×٢٥
	ملاحظات :

صورة عليها مواصفات القسم الثاني من الجزء التاسع عشر

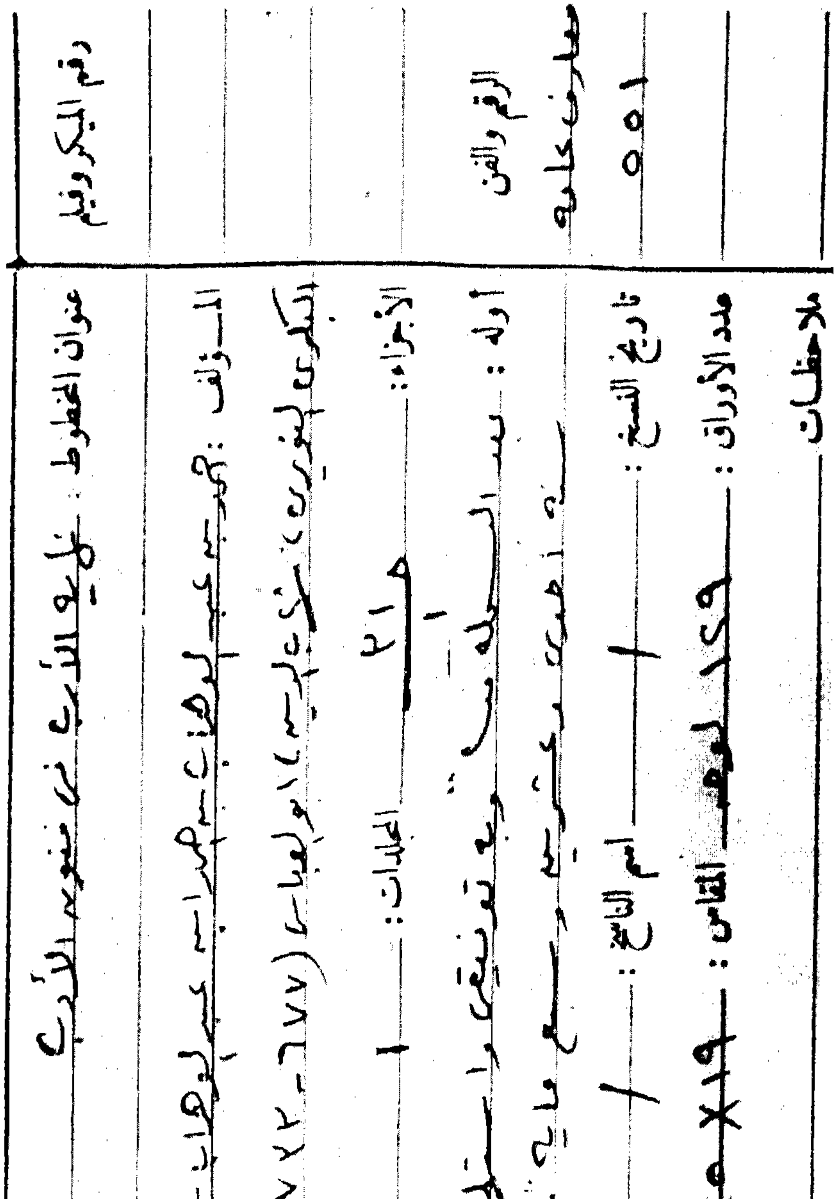

صورة عليها مواصفات القسم الأول من الجزء ٣١

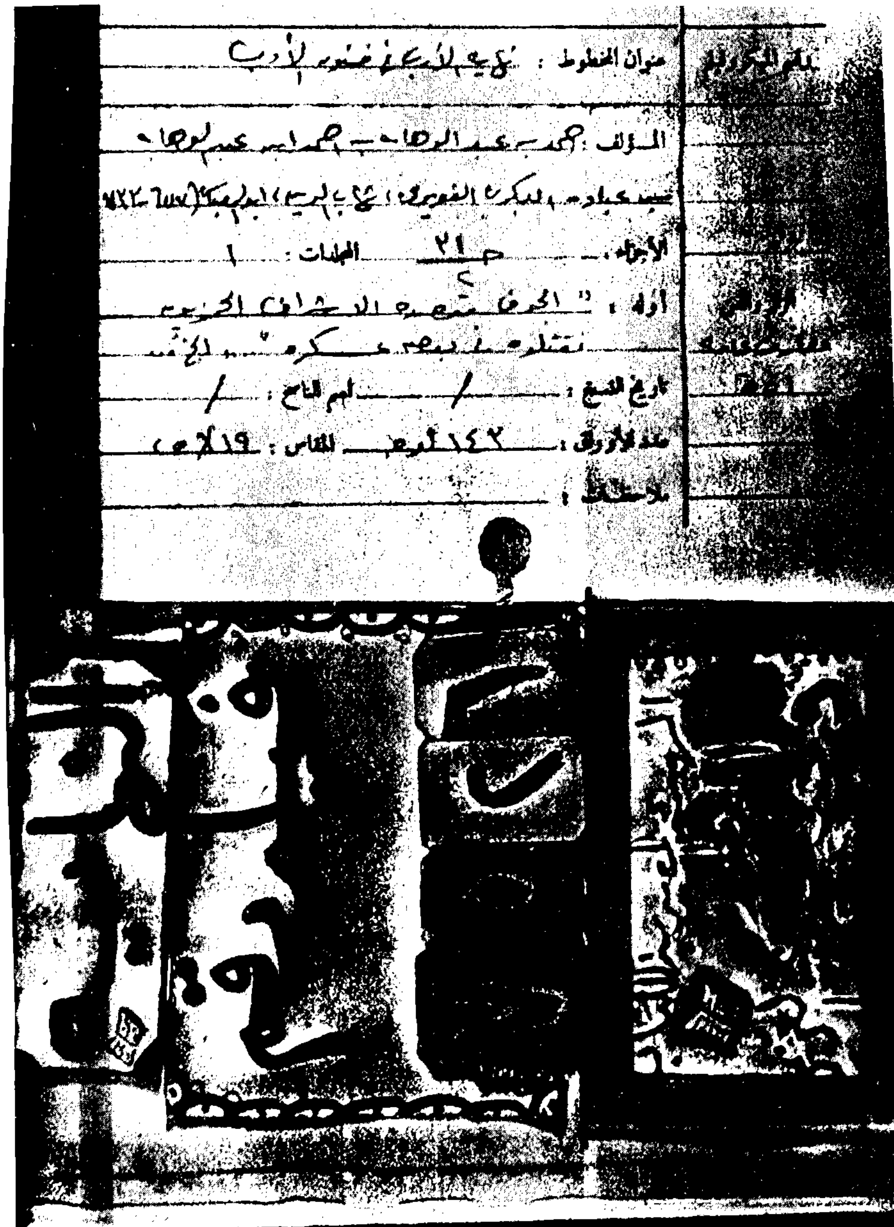

صورة يظهر فيها رقم الميكروفيلم الأخير من الكتاب

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الأول

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رافِع السَّماءِ وفاتِقِ رَتْقِها[١]، ومُنشيء السَّحاب ومُوكِفِ وَدْقِها[٢]؛ ومُجري الأفلاك ومُدبِّرِها، ومُطْلِع النَّيِّرات ومُكَوِّرها، ومُرْسِلِ الرياح ومُسخِّرِها؛ ومُزَيِّن سماء الدنيا بزينة الكواكب، وحافِظها عند استراق السّمع بإرسال الشُّهُب الثواقب[٣]، وهادي الساري بمطالع نجومها في ظُلَم الغياهب؛ وجاعِل الليلِ سَكَنًا ولباسًا، ومُبَدِّلِ وحشة ظَلْمائه بفَلَق الإصباح إيناسًا؛ ومَاحِي آيته بآية النهار المُبْصِرَة، ومُذهِب دُجُنَّته[٤] بإشراق شمسه النَّيِّرة؛ وباسطِ الأرضِ فِراشًا ومِهادًا، ومُرسِي الجبالِ وجاعِلِها أوتادًا؛ ومُفجِّرِ العيونِ من جوانبها وخلالها، ومُضْحِك ثغورِ الأزهار ببكاء عيون الأمطار وانهمالها؛ ومُكَرِّم بنِي آدمَ بتفضيلهم على كثير من خَلْقه، ومُذَلِّلِ الأرض لهم ليمشُوا في مناكبها وليأْكلوا من رزقه؛ وحامِلِهم على ظهر اليمِّ في بطون الجواري[٥] المُنْشآت، ومُعَوِّضِهم عن أعواد السُّفُن غواربَ[٦] اليَعْمَلات[٧]. خلق كلّ دابَّة من ماء وأودعها من خفيّ حِكَمِهِ ما أودع، وباين بين أشكالهم ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: الآية ٤٥]. وهدى الطير إلى ما اتخذَتْهُ من الأوكار واتُّخِذَ لها من المباني، وجعلها من رسائل المنايا ووسائل الأماني.

أحمده على نِعَمه التي كم أَوْلَتْ من مِنَّة؛ ومِنَنِه التي كم والَت من نِعْمة، وأشكره على ألطافه التي كم كشفت من غُمَّة، وأزالت من نِقْمَة.

وأشهد أن لا إلـه إلّا الله وحدَه لا شريك له، شَهادةَ عبدٍ نطق بها لسانُه وقلبُه، وأَنِسَ بها ضميره ولُبُّه.

---

(١) رتقها يقال رتق الثوب أو الخرق أو الفتق: أصلحه وضمّ بعضه إلى بعض.
(٢) الوَدْق: المطر شديده وهيّنه.
(٣) الثواقب: جمع ثاقب، وهو النجم المضيء.
(٤) دجنته: ظلمته وسواده.
(٥) الجواري: جمع جارية وهي السفينة التي تجري على ظهر الماء.
(٦) الغوارب: جمع غارب، ويعني به ظهور الدواب، والغارب: أعلى كلّ شيء.
(٧) اليعملات: جمع يعملة، وهي الناقة النجيبة المطبوعة.

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، الذي جُعلت له الأرضُ مسجدًا وترابُها طَهورًا، وأُنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: الآيتان ٤٥، ٤٦]. صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلى المراتب، وتسنَّموا من ذِرْوَة الشرف والثّناء كاهلَ الكواكب، وعلى أصحابه الذين اتَّطدت[١] بهم قواعد الشريعة وعلا منارُها، وهُدِمت معاقلُ الكفر وعَفَتْ[٢] آثارُها؛ وأنفقوا من قَبْل الفتح وقاتلوا، وجالدوا في دين الله وجادلوا: صلاةً ترفع منار قائلها، وتُرسِل عليه سحائب المغفرة بوابلها[٣]!

وبعد، فمِن أَوْلى ما تدبّجت به الطروس[٤] والدفاتر، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر؛ وأصدرته ذوو الأذهان السليمة، وانتسبت إليه ذوو الأنساب الكريمة؛ وجعله الكاتب ذريعةً يتوصَّل بها إلى بلوغ مقاصده، ومَحَجَّةً لا يَضِلُّ سالكها في مصادره وموارده: فنُّ الأدب الذي ما حلّ الكاتب بِوَاديه، إلَّا وعَمَرت بَوَاديه؛ ولا وَرَدَ مشارعه[٥]، إلّا واستعذَبَ شرائعه[٦]؛ ولا نَزَلَ بساحته إلّا واتّسعت له رِحابها، ولا تأمّل مشكلاته إلّا وتبيّنت له أسبابها.

وكنتُ ممّن عدل في مباديه، عن الإلمام بناديه؛ وجعل صناعة الكتابة فَنَنَه[٧] الذي يستظلّ بوارفه، وفنَّه الذي جُمِع له فيه بين تليده وطارفه[٨]. فعرَفتُ جَليَّها، وكشفتُ خَفِيَّها؛ وبسطتُ الخرائد[٩] ونظمتُ منها الارتفاع، وكنتُ فيها كمُوقِد نارٍ على يفَاع. واسترفعتُ القوانين، ووضعتُ الموازين؛ وعانيتُ المُقْتَرَحات، واعتمدتُ على المقايسات[١٠]؛ وفَذْلكتُ[١١] على الأصل وما أُضيف إليه، وحرّرتُ ما بعد الفَذْلَكَة فكان العمل على ما استقرَّت الجملة عليه؛ واستخرجتُ وحصّلت، وجمّلتُ

---

(١) اتّطدت: من وطد الشيء يطده وطدًا وطده: أي أثبته، وقد اتّطد ووطّد له عنده منزلة: مهّدها «اللسان: مادة وطد».

(٢) عفت آثارها: امّحت.

(٣) الوابل: المطر الشديد الضخم القطْر.

(٤) تدبّجت به الطروس: دبّج: كتب وزوّق، والطروس: جمع طرس، وهي الصحيفة.

(٥) المشارع: جمع شريعة، وهي مورد الماء.

(٦) الشّرائع: جمع شريعة، وهي ما شرّعه الله وسَنّه للناس من القوانين والأحكام.

(٧) الفنن: الغصن المستقيم من الشجرة.

(٨) التّليد: المجد القديم، والطارف: المجد الحديث.

(٩) الخرائد: جمع خريدة، وهي اللؤلؤة التي لم تُثقَب، والخريدة: البكر.

(١٠) المقايسات: جمع مقايسة، وهي التقدير، يقال: قايس الشيء بغيره أو إلى غيره: أي قدّره به.

(١١) فذلكت: الفذلكة: مصدر فذلك، وهي خلاصة ما فُصِّل أوّلًا من حسابٍ أو غيره، وفذلك الحساب: فرغ منه وأنهاه.

من عرضه وخصّلت؛ وسُقتُ الحواصل، وأوردتُ المحاسيب وفَذْلكتُ على الواصل؛ وطردتُ ما انساق إلى الباقي والموقوف، ونضَّدْتُ شواهد المصروف؛ وشطبتُ شواهد الارتفاع، وقَرَنْتُ أعمال المبيع بالمبتاع؛ واستوفيتُ أعمال الاعتصار وتوالي الغلّات، وتأمّلتُ سياق الأصناف والآلات؛ ونظرتُ في سياقات العُلوفات[١] والعوامل، وأجبتُ على المُخْرَج والمردود فأعجزتُ المُناظر والمُناضل[٢]؛ وأتقنتُ موادّ هذه الصناعة، وتاجرتُ فيها بأنفس بضاعة.

ثمّ نبذتُها وراء ظهري، وعزمتُ على تركها في سِرِّي دونَ جَهْري؛ وسألتُ الله تعالى الغُنْية عنها، وتضرّعتُ إليه فيما هو خيرٌ منها. ورغِبتُ في صناعة الآداب وتعلّقتُ بأهدابها، وانتظمتُ في سلك أربابها، فرأيتُ غرضي لا يتمُّ بتلقّيها من أفواه الفضلاء شفاهًا، ومَوْرِدي منها لا يصفو ما لم أُجرِّد العزم سفاهًا[٣].

فامتطيتُ جواد المطالعة، وركضتُ في ميدان المراجعة. وحيث ذلّ لي مَرْكَبُها، وصَفَا لي مشرَبها، آثرتُ أن أُجرِّد منها كتابًا أستأْنِسُ به وأرجعُ إليه، وأُعَوِّل فيما يعرِض لي من المهمّات عليه. فاستخرتُ الله سبحانه وتعالى وأثبتُّ منها خمسة فنون حَسَنة الترتيب، بيِّنة التقسيم والتبويب: كلُ فنّ منها يحتوي على خمسة أقسام.

الفن الأوّل في السماء والآثار العُلويّة، والأرض والمعالم السُّفليّة. ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأول: في السماء وما فيها. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في مبدأ خلق السماء.

الباب الثاني: في هيئتها.

الباب الثالث: في الملائكة.

الباب الرابع: في الكواكب السبعة.

الباب الخامس: في الكواكب الثابتة.

---

(١) العُلوفات: جمع علوفة، وهي الناقة أو الشاة تُعلَف للسِّمَنِ ولا ترسل للرعي، وهي كلّ ما يُعلَف من الدواب.

(٢) المناضِل: من ناضل مناضلة، وهي المباري، يقال: ناضله: أي باراه في رمي السّهام، وناضل عنه: حامَى ودافع.

(٣) سفاهًا: من السّفه: وهو الجهل والخفّة والطيش.

القسم الثاني: في الآثار العُلويّة. وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في السَّحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج، والبَرَد.

الباب الثاني: في الصواعق، والنَّيَازك، والرعد، والبرق.

الباب الثالث: في أُسْطُقُسّ[1] الهواء.

الباب الرابع: في أُسْطُقُسّ النار، وأسمائها.

القسم الثالث: في الليالي، والأيام، والشهور، والأعوام، والفصول، والمواسم، والأعياد. وفيه أربعة ابواب:

الباب الأول: في الليالي، والأيّام.

الباب الثاني: في الشهور، والأعوام.

الباب الثالث: في الفصول.

الباب الرابع: في المواسم، والأعياد.

القسم الرابع: في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في مبدأ خلق الأرض.

الباب الثاني: في تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث: في طول الأرض، ومِساحتها.

الباب الرابع: في الأقاليم السبعة.

الباب الخامس: في الجبال.

الباب السادس: في البحار، والجزائر.

الباب السابع: في الأنهار، والغُدْران، والعيون.

القسم الخامس: في طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها، وخصائصها، والمباني القديمة، والمعاقل، والقصور، والمنازل. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها.

الباب الثاني: في خصائص البلاد.

---

(١) أسطقس: أي العنصر.

الباب الثالث: في المباني القديمة.

الباب الرابع: فيما وُصِفَتْ به المعاقل.

الباب الخامس: فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل.

الفن الثاني في الإنسان وما يتعلّق به. ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأول: في اشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه، ووصف أعضائه، وتشبيهها، والغَزَل، والنّسيب، والمحبة، والعشق، والهوى، والأنساب. وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في اشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه.

الباب الثاني: في وصف أعضائه، وتشبيهها، وما وُصِفَ به طِيب الرِّيق، والنَّكهة، وحُسْن الحديث والنَّغمة، واعتدال القُدُود، ووصف مشْي النساء.

الباب الثالث: في الغَزَل، والنسيب، والهوى، والمحبّة، والعشق.

الباب الرابع: في الأنساب.

القسم الثاني: في الأمثال المشهورة عن النبي ﷺ، وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد[١] العرب، وأخبار الكَهَنة، والزّجر، والفأل، والطِّيرَة، والفِرَاسة، والذَّكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجيّ، والألغاز. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في الأمثال.

الباب الثاني: في أوابد العرب.

الباب الثالث: في أخبار الكَهَنة، والزّجْر، والفأْل، والطِّيرَة، والفِرَاسة، والذَّكَاء.

الباب الرابع: في الكنايات، والتعريض.

الباب الخامس: في الأحاجيّ، والألغاز.

القسم الثالث: في المدح، والهجْو، والمُجُون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمعاقرة، والنُّدمان، والقِيَان، ووصف آلات الطرب. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في المدح. وفيه ثلاثة عشر فصلاً وهي:

(١) الأوابد: جمع آبدة وهي هنا القافية الشاردة من أشعار العرب.

حقيقة المدح، وما قيل فيه. ما قيل في الجُود، والكرم، وأخبار الكرام. ما قيل في الإعطاء قبل السؤال. ما قيل في الشجاعة، والصبر، والإقدام. ما قيل في وُفور العقل. ما قيل في الصدق. ما قيل في الوفاء، والمحافظة. ما قيل في التواضع. ما قيل في القناعة، والنزاهة. ما قيل في الشكر، والثّناء. ما قيل في الوعد، والإنجاز. ما قيل في الشفاعة. ما قيل في الاعتذار، والاستعطاف.

الباب الثاني: في الهجاء. وفيه أربعة عشر فصلًا:

ما قيل في الهجاء، ومَن يستحقُّه. ما قيل في الحَسَد. ما قيل في السِّعاية والبَغْي. ما قيل في الغِيبة والنميمة. ماقيل في البُخل واللُّؤْم، وأخبار البخلاء، واحتجاجهم. ما قيل في التطفُّل، ويتصل به أخبار الأَكَلَة والمؤاكلة. ما قيل في الجُبْن، والفِرار. ما قيل في الحُمق، والجهل. ما قيل في الكَذِب. ما قيل في الغدر، والخيانة. ما قيل في الكِبْر، والعُجْب. ما قيل في الحِرص، والطمع. ما قيل في الوعد، والمَطْل. ما قيل في العِيِّ، والحَصَر.

الباب الثالث: في المُجون، والنوادر، والفُكاهات، والمُلَح.

الباب الرابع: في الخمر، وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها. وأخبار مَن تنزّه عنها في الجاهليّة، ومَن حُدّ فيها من الأشراف، ومَن اشتهر بها، ولبس ثوبَ الخَلَاعة بسببها. وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل في وصف آلاتها، وآنيتها، وما قيل في مبادرة اللذّات، وما وُصفت به المجالس، وما يجري هذا المجرى.

الباب الخامس: في النُّدمان، والسُّقاة.

الباب السادس: في الغِناء، والسَّماع، وما ورد في ذلك من الحَظْر والإباحة، ومَن سمع الغِناء من الصحابة رِضوان الله عليهم، والتابعين، والأئمة، والعُبَّاد، والزُّهَّاد، ومَنْ غنّى من الخلفاء، وأبنائهم، والأشراف، والقوّاد، والأكابر، وأخبار المُغنِّين ممّن نقل الغناء من الفارسيّة إلى العربية.

الباب السابع: فيما يَحتاج إليه المُغنِّي، ويُضْطَرُّ إلى معرفته، وما قيل في الغِناء، وما وُصفت به القِيَان، وما وُصِفَت به آلات الطرب.

القسم الخامس: في المَلِك، وما يُشتَرط فيه، وما يَحْتاج إليه؛ وما يجب له على الرعيّة، وما يجب للرعيَّة عليه. ويتّصل به ذكر الوزراء، وقادة الجيوش، وأوصاف السلاح، ووُلاة المناصب الدينيّة، والكتّاب، والبُلَغاء. وفيه أربعة عشر بابًا:

الباب الأول: في شروط الإمامة: الشرعيّة، والعُرفيّة.

الباب الثاني: في صفات المَلِك وأخلاقه، وما يفضُل به على غيره. وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدّالّة على عُلُوّ همّتهم، وكرم شيمتهم.

الباب الثالث: فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة، والنصيحة، والتعظيم، والتوقير.

الباب الرابع: في وصايا الملوك.

الباب الخامس: فيما يجب على الملِك للرعايا.

الباب السادس: في حُسن السياسة، وإقامة المملكة. ويتّصل به الحزم، والعزم، وانتهاز الفُرْصة، والحلم، والعفْو، والعقوبة، والانتقام.

الباب السابع: في المَشُورة، وإعمال الرأي، والاستبداد، ومَن يُعتمَد على رأيه، ومَن كَرِه أن يستشير.

الباب الثامن: في حفظ الأسرار، والإذن، والحجاب.

الباب التاسع: في الوزراء، وأصحاب المَلِك.

الباب العاشر: في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب، ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل في أوصاف السلاح.

الباب الحادي عشر: في القضاة، والحكّام.

الباب الثاني عشر: في ولاية المظالم، وهي نيابة دار العدل.

الباب الثالث عشر: في نَظَر الحِسبة، وأحكامها.

الباب الرابع عشر: في ذكر الكتّاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرّع عنها من الوظائف والكتابات، وهي: كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان، والتصرُّف، وكتابة الحُكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة التعليم.

الفن الثالث في الحيوان الصامت. ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأوّل: في السِّباع، وما يتصل بها من جنسها. وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الأسَد، والببْر، والنَّمِر.

الباب الثاني: في الفَهْد، والكلب، والذئب، والضَّبُع، والنِّمْس.

الباب الثالث: في السِّنجاب، والثعلب، والدُّبّ، والهرّ، والخنزير.

القسم الثاني: في الوحوش، والظِّباء، وما يتَّصل بها من جنسها. وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: فيما قيل في الفيل، والكَرْكَدَّنِ، والزَّرافة، والمَهَاة، والإِيَّل.

الباب الثاني: في الحُمُر الوحشيّة، والوَعْل، واللَّمْط.

الباب الثالث: فيما قيل في الظَّبْي، والأرنب، والقرد، والنَّعام.

القسم الثالث: وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: في الخيْل.

الباب الثاني: في البغال، والحمير.

الباب الثالث: في الإبل، والبقر، والغَنَم.

القسم الرابع: وفيه بابان:

الباب الأول: في ذوات السموم القواتل.

الباب الثاني: فيما هو ليس بقاتل بفعله، من ذوات السموم.

القسم الخامس: وفيه سبعة أبواب: ستَّة منها في الطيْر، وباب في السمك. (وذيَّلتُ عليه بباب ثامن، أوردت فيه ما قيل في آلات صيد البرّ، والبحر).

الباب الأوّل: في سِباع الطير، وهي: العِقْبان، والبوازي، والصقور، والشواهين.

الباب الثاني: في كلاب الطير، وهي: النَّسْر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغُراب.

الباب الثالث: في بهائم الطير، وهي: الدُّرَّاج، والحُبَارى، والطاووس، والدِّيك، والدَّجَاج، والإوَزّ، والبطّ، والنُّحَام، والأنيس، والقاوَند، والخُطَّاف، والقِيق، والزُّرْزور، والسُّمَانَى، والهُدْهُد، والعَقْعَق، والعصافير.

الباب الرابع: في بُغَاث الطيْر، وهو: القُمْري، والدُّبْسِيّ، والوَرَشَانُ، والفَوَاخِتُ، والشِّفْنِين، والعَبَطْبَط، والنوَّاح، والقَطَاة، واليَمَام، وأصنافه، والبَبَّغاء.

الباب الخامس: في الطيْر الليليّ، وهو: الخُفَّاش، والكَرَوان، والبُوم، والصّدى.

الباب السادس: في الهَمَج، وهو: النمل، والزُّنبور، والعنكبوت، والجراد، ودود القَزّ، والذُّباب، والبَعوض، والبراغيث، والحُرْقُوص.

الباب السابع: في أنواع الأسماك.

الباب الثامن: يشتمل على ذكر شيء مما وُصفت به آلات الصيد في البرّ، والبحر، ووصف رُماة البُندق، وما يجري هذا المجرى.

الفن الرابع في النبات. ويشتمل على خمسة أقسام: (وذيّلتُ على هذا الفن، في القسم الخامس، بشيء من أنواع الطِّيب، والبَخُورات، والغوالي، والنُّدود، والمُستقطَرات، وغير ذلك).

القسم الأول: في أصل النبات، وما تختصُّ به أرضٌ دون أرض. (ويتصل به ذكر الأقوات، والخضْراوات، والبُقولات). وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في أصل النبات، وترتيبه.

الباب الثاني: فيما تختصّ به أرض دون أرض، وما يستأصل شأْفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة.

الباب الثالث: في الأقوات، والخَضراوات، والبقولات.

القسم الثاني: في الأشجار. وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: فيما لثمره قشر لا يؤكل.

الباب الثاني: فيما لثمره نوًى لا يؤكل.

الباب الثالث: فيما ليس لثمره قشر ولا نوًى.

القسم الثالث: في الفواكه المشمومة. وفيه بابان:

الباب الأول: فيما يُشَمُّ رَطْبًا، ويُستقطر. ويشتمل على أربعة أنواع: وهي «الوَرْد، والنِّسْرِينُ، والخِلَافُ، والنَّيْلُوفَرُ».

الباب الثاني: فيما يُشَمُّ رَطْبًا، ولا يُستقطَر. ويشتمل على ما قيل في البَنَفْسَجِ، والنرجس، والياسَمين، والآس، والزعفران، والحَبَق.

القسم الرابع: في الرياض، والأزهار. (ويتصل به الصُّموغ، والأَمْنَان، والعصائر). وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في الرياض، وما وُصفت به نظمًا، ونثرًا.

الباب الثاني: في الأزهار، وما وُصفت به.

الباب الثالث: في الصموغ. وفيه ثمانية وعشرون صِنفًا.

الباب الرابع: في الأمنان.

القسم الخامس: في أصناف الطيب، والبَخُورات، والغوالي، والنُّدود، والمُستقطَرات، والأدهان، والنَّضُوحات، وأدوية الباه، والخواصّ. وفيه أحد عشر بابًا:

الباب الأول: في المسك، وأنواعه.

الباب الثاني: في العنبر، وأنواعه، ومعادنه.

الباب الثالث: في العُود، وأصنافه، وأنواعه، ومعادنه.

الباب الرابع: في الصَّنْدل، وأصنافه، ومعادنه.

الباب الخامس: في السُّنْبُل الهنديّ، وأصنافه، والقَرَنْفُل، وجوهره.

الباب السادس: في القُسْط، وأصنافه.

الباب السابع: في عمل الغَوَالي، والنُّدود.

الباب الثامن: في عمل الرامَك، والسُّكّ من الرامَك والأدهان.

الباب التاسع: في عمل النَّضوحات، والمياه المستقطَرة، وغير المستقطرة.

الباب العاشر: في الأدوية التي تزيد في الباه، وتُلذِّذ الجماع، وما يتصل بذلك.

الباب الحادي عشر: فيما يفعل بالخاصِّيَّة.

الفن الخامس في التاريخ، ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأوّل: في مبدأ خلق آدم عليه السلام وحوّاء، وأخبارهما، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ. وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأوّل: في مبدأ خلق آدم عليه السلام، وموسى عليه السلام، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما.

الباب الثاني: في خبر شيث بن آدم عليهما السلام، وأولاده.

الباب الثالث: في أخبار إدريس: النبيّ عليه السلام.

الباب الرابع: في قصة نوح عليه السلام، وخبر الطُّوفان.

الباب الخامس: في قصة هود عليه السلام مع عاد، وهلاكهم بالريح العقيم.

الباب السادس: في قصة صالح عليه السلام مع ثمود، وعَقْرهم الناقة، وهلاكهم.

الباب السابع: في أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة، والقصرِ المَشِيد، وهلاكهم.

الباب الثامن: في أخبار أصحاب الرّسّ، وما كان من أمرهم.

القسم الثاني: في قصّة إبراهيم، الخليل عليه السلام، وخبره مع نُمْرود، وقصّة لوط، وخبر إسحٰق، ويعقوب، وقصة يوسف، وأيُّوب، وذي الكِفْل، وشُعيب عليهم السلام. وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في قصّة إبراهيم، الخليل عليه الصلاة والسلام، وأخبار نمرود بن كنعان

الباب الثاني: في خبر لوط عليه السلام مع قومه، وقلب المدائن.

الباب الثالث: في خبر إسحٰق، ويعقوب عليهما السلام.

الباب الرابع: في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

الباب الخامس: في قصّة أيوب عليه السلام، وابتلائه، وعافيته.

الباب السادس: في خبر ذي الكِفْل بن أيوب عليهما السلام.

الباب السابع: في خبر شُعَيْب عليه السلام، وقصته مع مَدْيَنَ.

القسم الثالث: يشتمل على قصّة موسى بن عِمْران عليه السلام، وخبره مع فِرْعَوْن، وخبر يُوشَع، ومَن بعده، وحِزْقِيلَ، وإلياس، والْيَسَع، وعيلا، وأَشْمَوِيل، وطالوت، وجالوت، وداود، وسليمان بن داود، وشعيا، وأرميا، وخبر بُخْتَ نَصَّرَ، وخراب بيت المقدس، وعمارته، وما يتصل بذلك من خبر عُزَير، وقصّة يُونس بن متّى، وخبر بلوقيا، وزكريا، ويحيىٰ، وعِمران، ومريم، وعيسى عليهم السلام، وقصص الحواريِّين، وما كان من أمرهم فيمن أُرْسِلوا إليه، وخبر جرجيس. وفيه ستة أبواب: (وذيَّلتُ على هذا القسم ذيلًا يشتمل على أربعة أبواب، ذكرتُ فيها ما قيل

في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض ومدّة إقامته بها، ووفاته، وما يكون بعده، وشيئًا من أخبار الحشر والمعاد).

الباب الأوّل: في قصّة موسى بن عِمْران، وهارون، وغرق فِرْعَون، وأخبار بني إسرائيل، وأخبار قارون، وخبر بلعم بن باعوراء، والجبّارين، وغير ذلك.

الباب الثاني: فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليه السلام من أخبار يُوشَع بن النون، ومَن بعده، وخبر حِزْقِيل، وإلياس، والْيَسَع، وعيلا، وأشمويل، وطالوت، وجالوت، وداود، وسليمان.

الباب الثالث: في أخبار شعيا، وأرميا، وخبر بُخْتَ نَصَّرَ، وخراب بيت المقدس، وعمارته، وما يتّصل بذلك من خبر عُزَير.

الباب الرابع: في قصّة ذي النون يونُس بن متّى عليه السلام، وخبر بلوقيا.

الباب الخامس: في خبر زكريّا، ويحيىٰ، وعِمْران، ومريم ابنته، وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

الباب السادس: في أخبار الحواريِّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام، وما كان من أمرهم بعد رفعه، وخبر جرجيس.

التذييل على هذا القسم ـ ويشتمل على أربعة أبواب:

الباب الأول: في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم.

الباب الثاني: في خبر نزول عيسى إلى الأرض، وقتل الدجال، وخروج يأجوج، ومأجوج، وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام.

الباب الثالث: في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم إلى النفخة الأُولى.

الباب الرابع: في أخبار يوم القيامة والحشر، والمعاد، والنفخة الثانية في الصُّور.

القسم الرابع: في أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم، والطوائف، وخبر سيل العَرِم، ووقائع العرب في الجاهلية. وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في أخبار ذي القرنين، المذكور في سورة الكهف.

الباب الثاني: في أخبار ملوك الأصقاع، وهم: ملوك مصر، والهند، والصين، وجبل الفتح.

الباب الثالث: في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم: ملوك الفُرْس الأُول، وملوك الطوائف منهم، والملوك الساسانيّة، وملوك اليونان والسريان، والكلدانيين، والصقالبة، والبوكبرد، والإفْرِنْجة، والجَلَالقة، وطوائف السودان.

الباب الرابع: في أخبار ملوك العرب. (ويتّصل به خبر سَيْل العَرِم).

الباب الخامس: في أيّام العرب، ووقائعها في الجاهليّة.

القسم الخامس: في أخبار الملّة الإسلاميّة، وذكر شيء من سيرة نبيِّنا محمد ﷺ، وأخبار الخلفاء من بعده رضي الله عنهم، وأخبار الدولة الأُمَويّة، والعباسيّة، والعلويّة، ودول ملوك الإسلام، وأخبارهم، وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم ـ على ما سنبيّن ذلك ـ إن شاء الله تعالى. وفيه اثنا عشر بابًا:

الباب الأول: في سيرة سيّدنا رسول الله ﷺ.

الباب الثاني: في أخبار الخلفاء من بعده: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وابنه الحَسَن رضي الله عنهم أجمعين.

الباب الثالث: في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشام وغيره.

الباب الرابع: في أخبار الدولة العباسيّة بالعراق، ومصر.

الباب الخامس: في أخبار الدولة الأُمَوِيَّة بالأندلس، وأخبار الأندلس بعد انقراض الدولة الأموية.

الباب السادس: في أخبار إفريقية، وبلاد المغرب، ومَن وَلِيَها من العُمَّال، ومَن استقلَّ منهم بالمُلك.

الباب السابع: في أخبار مَن نهض في طلب الخلافة من الطالبيّين، في مدّة الدولتين: الأُمَوِيّة، والعباسية، فقُتل دونها، بعد مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما.

الباب الثامن: في أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والخوارج بالموصل.

الباب التاسع: في أخبار مَن استقلَّ بالمُلك، والممالك، بالبلاد الشرقيّة والشماليّة، في خلال الدولة العباسية، وهم: ملوك خُراسان، وما وراء النهر، والجبال، وطَبَرسْتَان، وغَزْنَة، والغَوْر، وبلاد السند، والهند: كالدولة السامانيّة، والصَّفّاريّة، والغزنويّة، والغُوريّة، والدَّيْلميّة الختليّة.

الباب العاشر: في أخبار ملوك العراق، وما والاه، وملوك المَوْصل، والديار الجَزِيريّة، والبكريّة، والبلاد الشاميّة، والحَلَبيّة: كالدولة الحَمْدانيّة، والدَّيلميّة البُوَيهيّة، والسُّلْجُقيّة، والأتابكيّة.

الباب الحادي عشر: في أخبار الدولة الخُوَارَزْميّة، والجنكزخانيّة، وهي دولة التتار، وما تفرّع منها.

الباب الثاني عشر: في أخبار ملوك الديار المصريّة الذين ملكوا في خلال الدولة العباسيّة، نيابةً عن خلفائها، وهم: الملوك العُبَيْدِيُّون الذين انتسبوا إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وما كان من أمرهم، وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف استولَوْا على الديار المصريّة، والبلاد الشاميّة، والحَلَبيّة، والثغور، والسواحل، وغير ذلك إلى أن انقرضت دولتهم، وقيام الدولة الأيُوبيّة، وأخبار ملوكها بمصر، والشام إلى حين انقراضها، وقيام دولة الترك، ومَن مَلَكَ منهم من أبنائهم، وما حازوه من الأقاليم، وما فتحوه من الممالك، وغير ذلك من أخبارهم، وما استقرّ في ملك مُلوك هذه الدولة إلى حين وضعنا لهذا التأليف في سنة . . . وسبعمائة (في أيّام مولانا السلطان السيد الأجلّ المالك الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد، الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، أبي المظفر قلاوون، الصالحيّ. خلّد الله مُلكه على ممرّ الزمان، وسقى عهد والده صَوْب الرَّحمة والرِّضوان، ببركة سيد ولد عدنان!).

هذا مجموعُ ما يشتمل عليه هذا الكتاب، من فنون وأقسام وذيول وأبواب. ثم ينطوي كل باب منها على فصول وأخبار، ويحتوي على وقائع وآثار.

ولمّا انتهت أبوابه وفصوله، وانحصرت جملته وتفصيله، ترجمتُه: بنهاية الأَرَب في فنون الأدب؛ وأتيتُ فيه بالمقصود والغرض، وأثبتُّ الجوهر(١) ونفيتُ العَرَض(٢)، وطوّقتُه بقلائد من مقولي، ورصَّعتُه بفرائد من منقولي. فكلامي فيه كالسارية(٣) تلتها السحائب، أو السّرِيّة(٤) رَدِفَتْها الكتائب(٥). فما هو إلّا مترجِمٌ عن فنونه، وحاجب لعيونه.

---

(١) الجوهر: من الشيء: ما خلقت عليه طبيعته، وهو في الفلسفة: القائم بنفسه.
(٢) العَرَض: الزائل الذي لا يدوم، وهو من كلّ شيء: ما ليس جوهرًا ثابتًا.
(٣) السّارية: السّحابة التي تأتي ليلًا. (٤) السّرية: القطعة من الجيش.
(٥) الكتائب: جمع كتيبة، وهي القطعة من الجيش، وهي أكبر من السّريّة.

وما أوردتُ فيه إلّا ما غلب على ظنّي أنّ النفوس تميل إليه، وأن الخواطر تشتمل عليه. ولو علمتُ أنّ فيه خطأ لقبضتُ بناني[١]، وغضضتُ طَرْفِي[٢]، ولو خَبَرتُ طريق المعترض لعطفتُ عِناني[٣]،وثنيتُ عِطفي[٤]. لكنّي تبعتُ فيه آثار الفضلاء قَبْلي، وسلكتُ منهجهم فوصلتُ بحبالهم حبلي، فإنْ يكن اعتراض، فعلى عُلاهم لا عليَّ العار. وقد علمتُ أنه مَن صنّف كتابًا فقد استهدف، وأصمَّ[٥] الأسماع وإنْ كان لبعضها قد شنّف[٦].

وخليق للواقف عليه أن يسُدّ ما يجد به من خَلَل، وأن يغفر ما يلمح فيه من زَلَل. فأسبِلْ[٧] عليها سِتْرَ معروفك الذي سترتَ به قِدْمًا على عَوَاريّ[٨]. والذي أدّى إليه اجتهادي من تأليفه فقد أصدرتُه، والذي وَقَفَتْ عنده غايتي فقد أوردتُه. قد تبلّغتُ فيه وُسعي، لكنْ ليس من عثرة[٩] الكِتاب أمان. وبالله سبحانه المُستعان! وعليه أتوكّل، وإليه أتضرّع[١٠] في التيسير وأتوسل؛ ومن فضله أستمدّ الصواب، وباسمه أستفتح الكتاب!.

---

(١) البنان: أطراف الأصابع، وقبض بنانه: أي أمسك عن الكتابة.
(٢) غضّ الطّرف: أطرق حياءً، وهنا بمعنى: امتنع حياءً.
(٣) عطف عنانه: أي انصرف عن الأمر الذي توجّه إليه، وعطف: انصرف، والعنان: سير اللّجام الذي تمسك به الدّابّة، يريد: أنه لو علم أنّ هناك اعتراضًا من مُعتَرِض، لانصرف عنه.
(٤) ثنى عِطفه: أعرَضَ عنه وجفاه، والعطف من الإنسان: جانبه من جهة رأسه إلى وركيه.
(٥) أصمّ الأسماع: الأصمّ: الذي ثقل سمعه أو ذهب، وأصمّ الأسماع: أثقلها بما لا تحبّ: أو حمّلها ما تشتكي منه.
(٦) شنّف: أطرب الأسماع وأمتعها بالكلام المزيّن.
(٧) أسْبِلْ: فعل أمر من أسبل: أي أسدل وأرخى، يقال: أسبل الستر: أي أسدله وأرخاه.
(٨) عواري: من العُرْي، والعُريان: مَن ليس عليه ثياب، وجمعه: عُراة، وعُريانة: جمعها عوارٍ.
(٩) العثرة: الزّلل والسّقوط. (١٠) أتضرّع: أبتهل، والضّراعة: الخضوع.

الفن الأول
في السماء والآثار العُلويّة والأرض والمعـــالم السُّــفليّة

وقد أوردتُ في هذا الفن نُبذة[1] من وصف السماء، التي هي قبلة الدّعاء[2]، وباب الرجاء؛ والكواكب السيّارات[3] ذوات السَّنا والسَّناء[4]، والملائكة الذين هم أُولو أجنحة، مَثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباع؛ والسحائب التي تجود بوَبْلها[5] فتعدلُ في قَسْمها بين السّهل واليَفاع[6]؛ والرّعدِ الذي إن وَنَتْ[7] يَحُثُّها؛ والريح الذي إن اجتمعت يبُثُّها[8]؛ والبرق الذي شُبِّه ببنان الحاسب[9] والكفّ الخضيب؛ والثلج الذي خَلَع على الأرض رداء المشيب؛ وقوس السَّحاب الذي تنكَّبهُ[10] الجوُّ فأفرغ عليه مُصَبَّغات الحُلَل، ورميٰ الجدْب ببنادق[11] البَرَد فتباشرت بالخصب أهل الحِلَل؛ والنِّيران وعُبَّادِها وعَدَدِها، والمياه وأعدادها

(١) النبذة: القطعة من الشيء.
(٢) قبلة الدعاء: يريد أنّ الإنسان حين يدعو الله فإنّه يتوجّه بأنظاره إليها.
(٣) الكواكب السيّارة: التي تدور حول الشمس وتستمدّ منها نورها.
(٤) السنا: الضوء الساطع، والسّناء: العلو والارتفاع.
(٥) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر.
(٦) اليفاع: المرتفع من الأرض والجبل والرّمل.
(٧) ونت: ضعفت.
(٨) يبثّها: ينشرها ويفرّقها.
(٩) البنان: أطراف الأصابع، والحاسب: الذي يقدّر الأمور ويُحسِن النظر فيها.
(١٠) تنكبّ: اتّكأ عليه، وتنكّب القوس: ألقاها على منكبه، والمنكب مجتمع رأس الكتف والعضد.
(١١) البنادق: جمع بندق: وهو رصاص كرويّ الشكل صغير يُستعمل في بعض القذائف للقتال أو للصّيد.

ومَدَدِها؛ والليالي والأيام، والشهور والأعوام؛ والسَّنةِ وفصولِها ومباديها، والأعيادِ والمواسم ومُتَّخِذِيها؛ والأرضِ والجبال، والبراري والرمال؛ والجزائِر والبحار، والعيون والأنهار؛ وطبائِع البلاد، وأخلاقِ مَن سكنها من العبَاد؛ والمباني والمعاقل[1]، والقصور والمنازل.

وجعلتُه خمسة أقسام يُستدلُّ بها عليه، ويُتَوَصَّل من أبوابها إليه.

(١) المعاقل: جمع معقل، وهو الحصن والملجأ.

القسم الأوَّل
في السماء وما فيها

وفيه خمسة أبواب:

الباب الأوّل
من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ ـ في مبدأ خلق السماء

قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: الآيات ٢٧ - ٢٩].

والسماء تُذَكَّر وتُؤَنَّث.

فشاهِد التذكير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المُزمّل: الآية ١٨]؛ وقول الشاعر: [من الوافر]

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قومًا لَحِقْنا بالسماء مع السَّحاب!

وشاهد التأنيث، قوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفِطار: الآية ١]؛ وقول الشاعر: [من الرجز]

* يا ربِّ، ربَّ الناس في سماته![1] *

٢ ـ ذكر ما قيل في أسماء السماء وخَلْقِها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء.

منها: الجَرْباء. وسُمِّيَتْ بذلك لكثرة النُّجوم بها.

ومنها: الخَلْقاء[2]. لملاستها.

وبرقع[3]. والرَّقيع. ومنه قول رسول الله ﷺ لسعد بن مُعاذ: «لقد حكمتَ فيهم بحُكم الله من فوق سبع أرقعة». أي من فوق سبع سمٰوات.

---

(١) هكذا في الأصول، أي بالتاء المثناة، ولو هُمِزَت وقيل: «في سمائه» لفات الشاهد.

(٢) الخلقاء: يقال ثوب خلق أي أملس. (٣) البرقع: قناع تسترُ به المرأة وجهها.

ومنها: الطرائق[1] قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٧].

والسماء مخلوقة من دُخَان.

٣ ـ حُكِيَ في سبب حدوثه

أنَّ الله تعالى خلق جوهرة، وَصف من طولها وعرضها عظمًا. ثم نظر إليها نظرَ هيبة، فانْماعت[2]، وعَلاها من شدّة الخوف زَبَدٌ[3] ودُخَان. فخلق الله من الزّبد الأرضَ، وفتقها سبعًا؛ ومن الدخَان السماءَ، وفتقها سبعًا. ودليله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فُصّلَت: الآية ١١]. قال: ولما فتق الله تعالى السمٰوات، أوحى في كل سماء أمرها. واختلف المفسِّرون في الأمر، ما هو؟ فقال قوم: خلق فيها جبالًا من بَرَد وبحارًا؛ وقال قوم: جعل في كل سماء كوكبًا، قدّر عليه الطلوع والأُفول، والسير والرجوع. وقال قوم: أسكنها ملائكة سخَّرهم للعالَم السُّفليّ، فوكّل طائفة بالسحاب وطائفة بالريح، وجعل منهم حَفَظَة لبني آدم وكاتِبين لأعمالهم ومُستغفِرين لذنُوبهم.

الباب الثاني

١ ـ في هيئتها

ذهب المفسِّرون لِكتاب الله عزَّ وجلَّ أنَّ السماء مسطوحة، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآيات ١٧ - ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلَاق: الآية ١٢].

ويُطلق على مجموعها فَلَكٌ، لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يَس: الآية ٤٠].

وذهب الحَسَن إلى أنّ الفَلَكَ[4] غيرُ السمٰوات، وأنّه الحامل بأمر الله تعالى للشمس والقمر والنجوم.

---

(١) الطرائق: السمٰوات، والعرب تسمّي كلّ شيء فوق شيء، طريقة.

(٢) انماعت: أصابها الميعان أي الانصهار والذّوبان.

(٣) الزّبد: ما يعلو الماء من الرّغوة.

(٤) الفلك: مدار النجوم.

قالوا: ولمّا فتق الله تعالى رَتْق السمٰوات[١]، جعل بين كلّ سماء وسماء مسيرةَ خمسمائة عام.

ورُوِيَ عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه، قال: «بينما رسول الله ﷺ جالسٌ هو وأصحابه، إذ أتى عليهم سَحاب. فقال النبيّ ﷺ: «هل تدرون ما هذا»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا العنان[٢]، هذه رَوَايا[٣] الأرض، يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه». ثم قال: «أتدرون ما فوقكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا الرّقيع: سقف محفوظ، وموج مكفوف». ثم قال: «هل تدرون ما بينكم وبينها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها خمسمائة سنة». ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «سماءٌ في بُعد ما بينهما خمسمائة سنة». قال ذلك حتى بلغ سبع سمٰوات، ما بين كل سماءين، ما بين السماء والأرض. ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنَّ فوق ذلك العرش[٤]. وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين». ثم قال: «هل تدرون ما تحتكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنّها الأرض». ثم قال: «أتدرون ما تحت ذلك»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إنَّ تحتها أرضًا أخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة». حتى عدّ سبع أرضين، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة». أخرجه أبو عيسى الترمذي[٥]، في «جامعه».

ويُروَى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كان جالسًا بالبطحاء[٦]، بين أصحابه، إذ مرَّت عليهم سحابة. فنظروا إليها. فقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما اسم هذه»؟ قالوا: نعم. هذا السحاب. فقال ﷺ: «والمُزْن»[٧]؟ قالوا: والمُزْن. قال: «والعَنَان»؟ قالوا: والعَنان. فقال: «هل تدرون ما بين السماء

(١) رتق السمٰوات: أي أنّ السمٰوات السّبع التي أشار إليها القرآن الكريم كانت متلاحمة ومتصلة، ففتق الله بينها.

(٢) العنان: السّحاب. (٣) روايا الأرض: أي التي ترويها بالماء.

(٤) العرش: سرير المُلك، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

(٥) هو محمد بن عيسى الترمذي، من أئمة علماء الحديث وحفّاظه، تتلمذ للبخاري، وكان يُضرَب به المثل في الحفظ، مات بترمذ سنة ٨٩٢ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٣٢٢».

(٦) البطحاء: يريد بطحاء مكة، وهي معروفة لانبطاحها، والبطحاء: مسيلٌ فيه دقاق الحصى، وقيل بطحاء الوادي: ترابٌ ليّن ممّا جرّته السُيول. «اللسان مادة بطح».

(٧) المُزن: السّحاب ذو الماء.

والأرض»؟ قالوا: لا ندري. قال: «خمسمائة عام. وبينها وبين السماء التي فوقها كذلك». (حتى عدّ سبع سمٰوات). ثم قال: «وفوق السماء السابعة بحرٌ، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء» (وفي لفظٍ: كما بين السماء والأرض). «وفوق ذلك ثمانية أوْعال[١]، بين أظلافهم ورُكَبهم[٢] مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض.

وجاء في رواية أخرى ذكر الكُرسيّ[٣]، وقال: «ثم ما بين السماء السابعة والكرسيّ مسيرة خمسمائة عام. ثم ما بين الكرسيّ إلى الماء مسيرة خمسائة عام. والعرش فوق الماء». ولم يذكر الأوْعال.

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسيّ، وأنّ السمٰواتِ في ضمنه. وهي بالنسبة إليه كحلْقة مُلقاة في أرض فلاة، والكُرْسيّ بالنسبة إلى العرش كذَرّة[٤] مُلقاة في أرض فلاة فيحاء[٥]. (وفي رواية كحلقة).

ورُوِيَ أن أبا ذرّ رضي الله عنه قال: «يا رسول الله: أيُّ آية أُنزِلَت عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسيّ»[٦]. ثم قال: «يا أبا ذرّ! أتدري ما الكرسيّ»؟ قلتُ: لا؛ فعلِّمني يا رسول الله، مما علّمك الله. فقال: «ما السمٰوات والأرض وما فيهنَّ في الكرسيّ، إلّا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وما الكرسيّ في العرش، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وما العرش في الماء، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وما الماء في الريح، إلا كحلْقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة. وجميع ذلك في قبضة الله كالحبّة، وأصغر من الحبّة، في كفِّ أحدكم. تعالى الله سبحانه»». رواه أبو حاتم في كتاب العَظَمة.

والقول في هيئة السماء، على مذاهب أصحاب علم الهيئة[٧]، كثير. أغضينا[٨] عنه، لأنه لا يقوم عليه دليل واضح. فلذلك اقتصرنا على ذكر المنقول دون المعقول.

---

(١) الأوعال: مفردها وعل، وهو تيس الجبل، له قرنان قويّان منحنيان كسيفين أحدبين.
(٢) في الترمذي: بين أظلافهنّ وركبهنّ... وظهورهنّ.
(٣) الكرسيّ: وهي العرش، ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥].
(٤) الذرّة: أصغر جزء في العنصر البسيط، وقد عُرِفَت عند العرب «بالجوهر الفرد».
(٥) الفيحاء: الواسعة.
(٦) آية الكرسي: سورة البقرة الآية ٢٥٥.
(٧) علم الهيئة: علم الفلك.
(٨) أغضى: تجاوز وأغفل الحديث عن الشيء.

فلْنذكُرْ ما جاء في الأمثال التي فيها ذكر السماء، وما وصفها الشعراء به وشبَّهوها.

٢ ـ أما الأمثــال

فقولهم: أرفع من السماء، للبالغة.

وقول الشاعر: [من الكامل]

* مَــن ذا رأى أرضًــا بــغــيــر ســمــاء؟*

إنَّ السماء تُرَجَّى حين تَحتجِبُ. [من البسيط]

إنَّ الـسـمـاء، إذا لـم تـبـكِ مُـقـلتُـهـا لم تضحكِ الأرضُ عن شيء من الزَّهَرِ[١]

٣ ـ وأما الوصف والتشبيه

فمنه قول عبد الله بن المعتزّ[٢]: [من الوافر]

كَـأَنَّ سـمـاءَنَـا، لـمّـا تَـجَـلَّتْ خِـلالَ نُـجُـومـهـا عِـنْـدَ الـصَّـبَـاح

ريـاضُ بَـنَـفْـسَـج خَـضِـلٍ، نَـدَاه تَـفـتَّـح بَـيْـنَـه نَـوْرُ الأَقَـاح[٣]

وقال آخر: [من الوافر]

كـأنَّ سـمَـاءَنـا، والـشُّـهْـبُ فـيـهـا وأصـغـرُهـا لأكـبـرهـا مُـزاحِـمْ[٤]

بِـســاطُ زُمُــرُّد نُــثِــرَتْ عــلـيــه دَنَـانِـيـرٌ تُـخَـالِطُـهـا دَرَاهِـمْ[٥]

ونحوه قول الآخر: [من الطويل]

كـأنّ سَـمـاءَ الأرض نِـطْـعُ زُمُـرُّدٍ وقد فُرِشَت فيه الدَّنانِيرُ للصَّرْفِ[٦]

---

(١) يريد: إذا لم تمطر السّماء، لا تنبت الأرض الورود والرّياحين، وفي البيت تضادّ واستعارة.

(٢) هو عبد الله بن المعتز، أبو العبّاس، الشاعر، الأمير الخليفة ليوم وليلة، آلت إليه الخلافة، وخلعه غلمان المقتدر، قتل سنة ٩٠٩ م. «فهرس الأعلام ٤/١١٨».

(٣) الخضل: الطّريّ الندي النّاعم، والنّور: الزهر، والأقاح: هو الأقحوان، نبات له زهرة صفراء صغيرة في الوسط تحيط بها أوراق من الزّهر الأبيض، يشبّه بها الشعراء الأسنان.

(٤) الشّهب: النجوم المضيئة.

(٥) الزمرّد: حجر كريم شديد الخضرة، والدّينار: قطعة من النّقد، ذهبيّة تعامَل بها العرب قديمًا، والدّرهم: قطعة من النقد فضّيّة، والدّرهم والدّينار الآن، قطع من النقد ورقيّة يتعامل بها بعض الدول العربية.

(٦) النّطع: بساط من الجلد، والصّرف: التداول.

وقال آخر: [من الوافر]

ورأيتُ السَّماءَ كالبَحْرِ إلَّا أنَّ مَرْسُوبَهُ من الدُّرِّ طافي[(١)]
فيه ما يَمْلأُ العُيُونَ كبيرٌ وصغيرٌ ما بَيْنَ ذلكَ خافي

وقال التَّنُوخيّ[(٢)] يصف ليلةً: [من مجزوء الرجز]

كأنَّما نُجُومُها نُصْبَ عُيونِ الرُّمَّقِ[(٣)]
دَرَاهِمٌ قد نُثِرَتْ على بِساطٍ أزرَقِ[(٤)]

وقال أبو طالب الرَّقِّيّ[(٥)]: [من الكامل]

وكَأَنَّ أجْرامَ السماء، لَوامعًا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِساطٍ أَزْرَقِ[(٦)]

وقال ظافر الحدّاد[(٧)]: [من الطويل]

كأنَّ نُجُوم الليلِ، لما تبلَّجتْ توقُّدُ جَمْرٍ في خِلَال رَمادِ[(٨)]
حكىٰ، فوق ممْتَدّ المَجَرَّة شَكْلُها فَوَاقِعَ تَطْفُو فَوْقَ لُجَّة وادِي[(٩)]

وقال آخر: [من المتقارب]

كأنَّ النُّجُومَ، نجومَ السما وقد لُحْنَ للعَيْنِ من فَرْط بُعْدِ[(١٠)]
مَسَامِيرُ من فِضَّةٍ سُمِّرَتْ على وجه لَوْحٍ من اللَّازَوَرْدِ[(١١)]

---

(١) مرسوبه: أي ما رسب فيه، وطافٍ: عائم على السطح منه.

(٢) لعلّهُ القاضي التنوخي علي بن محمد، أبو القاسم الأديب الشاعر، وُلِدَ بأنطاكية وكان من جُلَساء الوزير المهلبي، وزار سيف الدولة الحمداني، له ديوان شعر توفي بالبصرة سنة ٩٥٣ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٢٤، ٣٢٥».

(٣) الرُّمَّق: التي فيها ضعفٌ وانكسار، ورمق إلى الشيء: أدام النظر إليه.

(٤) نُثرت: نُشرت.

(٥) أبو طالب الرّقّي: يقول صاحب اليتيمة: لم أجد ذِكرًا له إلّا عند أبي بكر الخوارزمي وسمعته يقول: إنه أحد المُقِلّين المحسنين. «يتيمة الدهر ١/ ٣٤٦ دار الكتب العلمية».

(٦) الأجرام: النّجوم.

(٧) هو ظافر بن القاسم بن منصور الجذامي، أو نصر، شاعر من أهل الإسكندرية له ديوان شعر مطبوع، توفي بمصر سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٣٦».

(٨) تبلّجت: أشرقت ونوّرت.

(٩) المجرّة: نجوم كثيرة في السّماء لا تُدرَك بمجرّد البصر، وإنّما ينتشر ضوؤها فيُرى كأنه بقعة بيضاء، والفاقع: الخالص الصافي من الألوان، أو الخالص الصّفرة.

(١٠) فَرْط بعد: أي كثرة بُعد، والفرْط هنا: تجاوز الحدّ في البُعد.

(١١) اللازورد: معدن شهير، أجود أنواعه الشفّاف الصافي الأزرق الضّارب إلى خُضرة وحُمرة، يُتّخَذ=

وقال محمد بن عاصم[١]: [من الطويل]

تُرَىٰ صَفْحةُ الخَضْراء، والنَّجْمُ فَوْقهَا ... ككفٍّ سُدُوسيّ بَدَا فِيهِ دِرْهَمُ[٢]

تُرىٰ، وعلى الآفاق أثْوابُ ظُلمةٍ ... وأزْرَارُها مِنْها شَمَالٌ ومِرْزَمُ[٣]

٤ ـ ومما قيل في الفَلَك

قال أبو العَلاء المَعَرّيُّ: [من البسيط]

يا ليتَ شِعْري! وهَلْ لَيْتٌ بنافِعةٍ؟ ... ماذا وراءَكَ أو ما أنتَ يا فَلَكُ؟

كَمْ خَاضَ في إثْرِكَ الأقوامُ واختلفُوا ... قِدْمًا! فما أوْضَحُوا حَقًّا ولا تَرَكُوا[٤]

شمسٌ تَغِيبُ ويَقْفُو إثْرَها قَمَرٌ ... ونُورُ صُبحٍ يُوَافِي بَعْدَه حَلَكُ[٥]

طَحَنْتَ طَحْنَ الرَّحىٰ مِن قَبْلِنا أُمَمًا ... شَتَّى، ولم يَدْرِ خَلْقٌ أيّةَ سَلَكُوا[٦]

وقال، إنَّكَ طَبْعٌ خامِسٌ، نَفَرٌ ... عَمْرِي! لقد زعموا بُطْلًا وقد أفَكُوا[٧]!

رامُوا سَرائِرَ للرَّحْمٰن حَجَّبَها ... ما نالَهُنَّ نَبيٌّ، لا ولا مَلَكُ[٨]

وقال الرئيس أبو عليّ بن سينا[٩]: [من الوافر]

بِربِّكَ! أيُّها الفَلَكُ المُدَارُ ... أقَصْدٌ ذا المَسِيرُ أمِ ٱضْطِرارُ[١٠]؟

= للحليّ، وله منافع في الطب.

(١) محمّد بن عاصم، هو محمد بن عاصم الموقفي، من شعراء اليتيمة، مصري، في شعره رقّة وإجادة. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨١».

(٢) الخضراء: السّماء، والسُّدوسي: الطيلسان الأخضر، يريد أن يقول: ككفٍّ أخضر فيه درهم، والدّرهم: يكون من فضّة: أي أنّ النّجم يسطع في راحة كفٍّ أخضر.

(٣) الشّمال: المشدود، والمرزم: الثابت.

(٤) خاض: يقال: خاض القوم في الحديث: أي اندفعوا وأسرعوا.

(٥) يقفو: يتبع، والحلك: الظلام.

(٦) طحنت: يريد أهلكت وأفنيت، والرّحى: الطاحون.

(٧) طبع خامس: الطبائع عند القدماء أربع هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وقد زاد البعض «الفلك»، وأفكوا: من الإفك: وهو الكذب.

(٨) السّرائر: الخفايا والأسرار، وحجّبها: أي سترها.

(٩) ابن سينا: هو الحسين بن عبد الله، شرفُ الملك الفيلسوف الرّئيس، صاحب التصانيف في الطبّ والمنطق والطبيعيات والإلٰهيات، أصله من بلخ، ونشأ وتعلّم في بخارى، وتقلّد الوزارة في همذان، ومات فيها سنة ١٠٣٧ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٤١».

(١٠) قال صاحب عيون الإنباء (١/ ٢٤٨، ٢٤٩): إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن=

مَدارُكَ، قُلْ لنا، في أيِّ شيءٍ؟ ففِي أفْهامِنَا مِنْكَ انْبهَارُ[١]!
وعِنْدك تُرفَع الأرواحُ؟ أم هَلْ مَعَ الأجسادِ يُدركُها البَوارُ[٢]؟
وفيك الشَّمْسُ رافِعةٌ شُعاعًا بأجْنِحَةٍ قَوَادِمُها قِصَارُ[٣]؟
قُطُوفٌ، ذِي النُّجومُ أم اللآلي؟ هِلَالٌ أم يدٌ فيها سِوارُ[٤]؟
وشُهْبٌ، ذي المَجَرَّةُ أمْ ذُبالٌ عليها المَرْخُ يُقدَحُ والعَفارُ[٥]؟
وترصيعٌ، نُجومُك أمْ حَبَابٌ تُؤلِّف بينها اللُّجَج الغِزَارُ[٦]؟
تُمَدُّ رُقومُها لَيْلًا وتُطْوَىٰ نَهارًا، مِثْلَ ما طُوِيَ الإزارُ[٧]!
فَكَمْ بصِقَالِهَا صَدِىءَ البَرَايا! وما يَصْدا لها أبدًا غِرَارُ[٨]
وتبدو ثُمَّ تَخْنِس راجِعَاتٍ وتكنِس مثلَ ما كنَس الصُوارُ[٩]
فبَيْنا الشَّرْقُ يُقْدِمُها صُعُودًا تَلَقَّاها من الغَرْبِ انْحِدَارُ[١٠]
هي العَشْواءُ، ما خَبَطتْ هَشِيمٌ هي العَجْمَاء، ما جَرَحَتْ جُبَارُ[١١]

= سينا وليست له، ونصّ على أنّها لابن الشّبل البغدادي، وقد أوردها في خمسين بيتًا.

(١) المدارُ: الدائرة، ومدار الكوكب: دائرة يرسُمها على الكرة السّمْوية في يوم، والانبهار: الذهول والدّهشة.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) القوادم: جمع قادمة، وهي ريشات في مقدّمة الجناح، وهي كبار الرّيش.

(٤) قطوف: مفردها قطف، وهو ما يُقطَف من ثمار، ويريد هنا بالقطوف: العناقيد من العنب، لأن النجوم في السّماء تبدو كحبّات العناقيد من العنب الأبيض.

(٥) الذبال: الفتائل، مفردها: ذُبالة وهي فتيلة السّراج، والمرخ: شجر سريع الوَرى: أي الاشتعال، والعفار: شجرٌ يُتَّخَذ منه الزّناد، وهو من شجر النّار.

(٦) الحباب: الفقاقيع البيض التي تعلو زبد الماء.

(٧) الرّقوم: جمع رقيم، وهو الكتاب، يريد أن صفحات ذلك الكتاب الذي هو الفلك تُقرَأ ليلًا وتُطوَى نهارًا أي تُحجَب.

(٨) صقالها: من صقل صقلًا السيف أو المرآة أو نحوهما: جلاه، والغِرار: الحدّ، يريد أن نجوم الفلك دائمًا بيضاء لا يصيبها الصدأ، بينما غيرها يصدأ ويَفنَى.

(٩) تخنس: تختفي، وتكنِس: أي تأوي إلى كِناسها، والكِناس بيت الغزال في الشجر، والصّوار: القطيع من البقر.

(١٠) يريد أنّ المتطلّع نحو الشرق يتدرّج في نظره إليها صاعدًا به، بينما الناظر إليها غربًا ينحدر نظره من أعلى إلى أسفل.

(١١) العشواء: الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيدها كلّ شيء، والعجماء: البهيمة، والجُبار: الهَدَر.

وقال أبو عُبادة البُحتُريّ: [من الوافر]

أنـاةً! أيُّـهـا الـفَـلَـكُ الـمُـدَارُ! أَنَـهْـبٌ مـا تُـصـرِّف أم خِـيـارُ[1]؟

ستَبلىٰ مِثْلَ ما نَبلىٰ، وتَفْنىٰ كما نَفْنىٰ، ويُؤخَذُ مِنْكَ ثارُ

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ - في ذكر الملائكة

قال رسول الله ﷺ: «أَطَّتِ[2] السماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ. ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ، إلّا وعليه مَلَكٌ قائم أو راكع أو ساجد».

والملائكة أولو أجنحة: مَثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر من ذلك. فإنه قد ورد أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، وهي الصورة التي رآه النبيّ ﷺ فيها مرّتين.

إحداهما في الأرض، وقد سدّ ما بين الخافِقَين. ووصفه الله تعالى بالقوّة، فقال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التّكوير: الآية ٢٠]. ومن قوّته، أنه اْقتلع مدائن قوم لوط، وكانت خمس مدائن، من الماء الأسود، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، حتى إنَّ أهل السماء يسمعون نُبَاح كِلابهم، وأصوات دَجاجهم؛ ثُمَّ قَلَبَها.

والمرَّة الثانية، رآه ﷺ عند سِدْرَة المنتهى[3]. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النّجم: الآيتان ١٣، ١٤].

وكان هبوط جبريل عليه السلام على الأنبياء صلوات الله عليهم ورجوعه في أَوْحَىٰ[4] من رَجْع الطَّرْف[5].

---

(١) أناةً: أي رفقًا وتمهُّلًا وصبرًا، والنّهب: السّرقة، تصرّف: تدبّر وتبدّل، وصروف الدّهر: مصائبه، يقول: رفقًا بالناس أيّها الفلك المدار ويعني به الزّمن، فإننا لا ندري هل تصرّفك في أرواح الناس تسرّع منك أم أنه خيارٌ لا بدّ منه.

(٢) أطّت السّماء: صوَّتت.

(٣) سدرة المنتهى: قيل إليها ينتهي كلّ مَن كان على سُنَّة رسول الله ﷺ ومنهاجه، وهي شجرة في أقصى الجنّة عن يمين عرش الله.

(٤) أوحى: أسرع.

(٥) الطّرف: النظر، ورجع الطّرف: إعادته بعد التأمُّل.

وعُظماء الملائكة أربعة، وهم: إسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، وعزرائيل. وأقربهم من الله تعالى منزلةً، إسرافيل.

فإذا أراد الله تعالى بوحْيٍ، جاء اللوحُ المحفوظُ[(١)] حتى يقرعَ جَبْهة إسرافيل رأسه، فينظر فيه. فإن كان إلى السماء، دفعه إلى ميكائيل؛ وإن كان إلى الأرض، دفعه إلى جبرائيل؛ وإن كان بموت أحد، أمر به عزرائيل. صلوات الله عليهم!.

وقد رُوِيَ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النَّازعَات: الآية ٥]، هم أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. فجبريل على الجنود والرياح، وميكائيل على القَطْر والنبات، وعزرائيل على قبض الأرواح، وإسرافيلُ يبلِّغهم ما يُؤمَرون به.

وجعل الله تعالى لهم أن يتمثّلوا للبشر على ما شاؤوا من الصور، كما كان جبريل يتمثَّل لسيِّدنا رسول الله ﷺ على صورة دِحْية الكلبِيِّ[(٢)] مرارًا، وفي صورة غيره من الرجال؛ وكما تمثَّل لمريم عليها السلام بشرًا سَوِيًّا[(٣)]. ونزلت الملائكة في غزوة بدر[(٤)] على الخيول المُسَوَّمة[(٥)]، وقد سدلوا ذوائب[(٦)] عمائمهم على مناكبهم[(٧)]. وهم مخلوقون من نور. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!.

الباب الرابع
من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ ـ في الكواكب السبعة المتحيّرة

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التّكوير: الآيتان ١٥،

---

(١) اللّوح المحفوظ: أُمّ الكتاب المحفوظ من الزيادة والنقصان منه.

(٢) دحية الكلبي: هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابي، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، وكان حَسَن الصورة، حضر كثيرًا من المواقع، توفي سنة ٦٦٥ م.

(٣) بشرًا سَوِيًّا: أي بشرًا تامّ الخلق. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٣٧».

(٤) غزوة بدر: بدر: ماء بعينه، قال الشعبي: بدر بئر كانت لرجل يدعى بدرًا ومنه يوم بدر وهو يومٌ انتصر فيه المسلمون على كفّار مكّة. «راجع الطبري: ٢/ ١٣١ وما بعدها».

(٥) المسوّمة: المُعلّمة.

(٦) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر في مقدّم الرأس.

(٧) المناكب: جمع منكب، وهو مجتمع رأس الكتف والعضُد.

١٦]. ذهب المُفَسِّرون إلى أنها هي الكواكب السبعة: زُحَلُ، والمُشتري، والمِرِّيخ، والشمسُ، والزُّهرَة، وعُطاردٌ، والقمر.

وقالوا: إن هذه الكواكب هي المعنيَّة بقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝﴾ [النَّازعَات: الآية ٥].

وسُمِّيَت كُنَّسًا لأنها تجري في البروج[١] ثم تَكْنِس أي تستتر كما تكنس[٢] الظِّباء؛ وخُنَّسًا[٣] لاستقامتها ورجوعها. وقيل الخُنَّس والكُنَّس منها خمسة، دون الشمس والقمر. وسُمِّيَت خُنَّسًا لأن الخُنُوس في كلام العرب الانقباض. وفي الحديث الشريف «الشيطانُ يُوَسْوِس للعبد، فإذا ذكر الله تعالى خَنَس» أي ٱنقبض ورجع. فيكون في الكوكب بمعنى الرجوع. وكُنَّسًا من قول العرب كَنَس الظبيُ إذا دخل الكِنَاس، وهو مقرّه؛ ويكون في الكوكب ٱختفاءه تحت ضوء الشمس.

وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقّة من صفاتها.

فقالوا في زُحَل: زَحَل فلانٌ إذا أبطأ، وبذلك سُمِّيَ هذا الكوكب لبطئه في السماء. وقيل الزَّحْل والزَّحِيل[٤] الحقد وهو في طبعه. وهذا الكوكب عند المُفَسِّرين هو المعنيّ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝﴾ [الطّارق: الآيات ١ - ٣].

وقالوا في المُشتري: إنه إنما سُمِّيَ بذلك لحُسْنه، كأنه اشترى الحُسْنَ لنفسه. وقيل لأنه نجم الشِّراء والبيع، ودليل الأموال، والأرباح.

وقالوا في المِرِّيخ: إنه مأخوذ من المَرْخ (وهو شجر تحتكّ بعض أغصانه ببعض فتُورِي نارًا) فسُمِّي بذلك لاحمراره. وقال آخرون المرِّيخ سهمٌ لا ريش له إذا رُمِيَ به لا يستمرّ في ممرّه. وكذلك المِرِّيخ، فيه ٱلتواء كثير في سيره وحكمه، فشُبِّه بذلك.

---

(١) البروج: جمع بُرج وهو قسمٌ من اثني عشر قسمًا من دائرة وهميّة في الفلك.

(٢) تكنس الظّباء: أي تستتر في كناسها، والكناس: بيت الغزال في الشجر.

(٣) والخُنَّس: المختفية.

(٤) الزّحل والزّحيل: وهو الذّحل بالذّال المعجمة، ولم يذكره أحدٌ من أئمة اللغة في الزّاي» فهو اشتباه على الناقل، وفي اللسان: وقيل «كوكب زُحل» لأنه زحل أي بَعُد، ويقال: إنّه في السماء السابعة. «اللسان مادة: زحل».

وقالوا في الشمس: إنها لمَّا أن كانت واسِطة بين ثلاثة كواكب عُلْويَّة وثلاثة سُفلية، سُمِّيَت بذلك لأن الواسطة[١] التي في المِخْنَقة[٢] تسمَّى «شمسة».

وقالوا في الزُّهَرَة: إنها مشتقّة من الزاهر، وهو الأبيض النَّيِّر من كل شيء.

وقالوا في عُطارد: إنه النّافذ في الأمور، ولهذا سُمِّيَ بالكاتب. وهكذا هذا الكوكب كثير التصرّف مع ما يُلابسه[٣] ويقارنه.

وقالوا في القمر: إنه مأخوذ من القُمْرة، وهي البياض؛ والأقمر الأبيض.

والفُرس تسمِّي هذه الكواكب بلغتها «كِيوان»، ويعنون به زُحَل؛ و«تير»، ويعنون به المُشتري (وبعضهم يسمّيه «البِرْجِيس»)؛ و«بَهْرام» ويعنون به المِرِّيخ؛ و«مِهْر» ويعنون به الشمس؛ و«أناهيد» ويعنون به الزُّهَرَة (وبعضهم يسمِّيها «بِيدُخْتْ»)، و«هِرْمِسْ» (ويعنون به عُطارد)، و«ماه» (ويعنون به القمر).

وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال: [من البسيط]

لا زلْتَ تَبْقىٰ وتَرْقىٰ للعُلَا أبدًا ... ما دامَ للسَّبْعَةِ الأفْلاكِ أحْكامُ[٤]!

مِهْرٌ، وماهٌ، وكِيوانٌ، وتيرُ معًا ... وهِرْمِسٌ، وأَناهيدٌ، وبَهْرامُ!

وقال أبو إسحٰق الصابي[٥]: [من السريع]

نَلِ المُنىٰ في يَوْمكَ الأجْوَدِ ... مُسْتَنْجِحًا بالطَّالعِ الأسْعدِ[٦]!

وأرقَ كمَرْقىٰ زُحَلٍ صاعدًا ... إلى المَعَالِي أشرفَ المَقْصِدِ!

وفِضْ كفَيْضِ المُشتَري بالنَّدىٰ ... إذا اْعْتَلىٰ في أُفْقِه الأبعدِ!

وزِدْ على المِرِّيخ سَطْوًا بمَنْ ... عاداكَ مِنْ ذي نَخْوةٍ أَصْيدِ[٧]!

---

(١) الواسطة: وهي الجوهرة في وسط العقد، وهي أجود جواهره.

(٢) المِخنقة: القِلادة.

(٣) يلابسه: يخالطه.

(٤) ترقى: تصعد.

(٥) أبو إسحٰق الصابي: هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحرّاني نابغة كتّاب جيله، تقلّد دواوين الرسائل والمظالم أيام المطيع لله العبّاسي وتقلّب في مناصب الدولة، وكان صلبًا في دين الصابئة، ولم يسلم، وله كتب ورسائل وديوان شعر. «فهرس الأعلام ١/٧٨».

(٦) الطّالع: ما يُنتظر أو يُتَنَبَّأ به من سعدٍ أو نحسٍ، يقال: هو حَسَن الطّالِع.

(٧) السّطو: القوّة والقهر والبطش، والأصيد: الذي يرفع رأسه تكبُّرًا، والأصيد: الملك.

وأَطْلُعْ كما تَطْلُعُ شمسُ الضُّحىٰ كاسفةً للحِنْدِسِ الأسْوَدِ[١]!
وخُذْ من الزُّهرةِ أفعالَها في عَيْشِكَ المُسْتَقْبَلِ الأرغدِ!
وَضَاهِ بالأقْلامِ في جَرْيِها عُطارِدَ الكاتِبَ ذا السُّودَدِ[٢]!
وبَاهِ بالمَنْظَرِ بَدْرَ الدُّجىٰ وأَفْضُلْهُ في بَهْجَتِه وٱزْدَدِ!

وقد اختُصَّ كلُّ كوكب من هذه الكواكب بقول. سنذكر من ذلك ما تقوم به الحجّة، وينهض به الدليل من الكتاب والسُّنَّة، وما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكرها، وما ورد في ذلك من الأوصاف والتشبيهات: نظمًا ونثرًا مما وقفتُ عليه في أثناء مطالعتي لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم. وعدلتُ عن أقوال المنجِّمين[٣] لما فيها من سوء الطَّوِيَّة[٤] وقُبْح الاعتقاد: لأن منهم مَن يرى أن للنجوم في الوجود تأثيرات وأفعالًا. أعاذنا الله تعالى من ذلك.

٢ ـ ذكر ما قيل في الشمس
والشمس هي النَّيِّر الأعظم

وقد ذهب بعضُ المُفَسِّرين لكتاب الله تعالى إلى أن نور الشمس والقمر في سائر السمٰوات بدليل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: الآية ١٦]. وجاء في الحديث عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفاؤهما إلى الأرض» وفي حديث آخر «وجوههما إلى العرش وأقفاؤهما إلى الأرض». وفي حديث آخر «أن الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمٰن».

وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حَمِئَةٍ. ومعنى حَمِئة ذات حَمْأة[٥].

---

(١) الحندس: الليل الشديد السّواد.
(٢) وضاهِ: فعل أمر من ضاهى أي شابه، وضاهاه: شابهه، والسؤدد: المجد والسّيادة، مصدر ساد يسود.
(٣) المنجّمين: جمع مُنجِّم وهو مَن ينظر في النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ليعلم بها أحوال العالم، ويزعم معرفة حظوظ الناس بحسب مواقع النجوم.
(٤) الطَّويَّة: النّيَّة والضمير.
(٥) الحمأة: الطين الأسود الفاسد الرائحة.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: الآية ٣٨] أي إلى موضع قرارها، لأنها تجري إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومَن قرأ «لا مستقرّ» لها أي هي دائبة السير ليلًا ونهارًا. وهي قراءة شاذة[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٣] ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنها تجري لمستقر لها تحت العرش، فتخرّ ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتى يُؤْذَن لها في الطلوع. ويوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها.

وذهب وَهْب بن مُنَبِّه[٢] إلى أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة[٣]، وقد تعلّق بكل عروة مَلَكٌ؛ يجرُونها في السماء ودونها البحر المسجور[٤] في موج مكفوف[٥] كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما على وجه الأرض من شيء حتى الجبال والصخور. ورُوِيَ عن كعب[٦] أنه قال: «خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار».

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٥، ١٦]. والسراج لا يكون إلا من نار؛ وهما مضيئان لأهل السمٰوات؛ كما يضيئان لأهل الأرض.

وقد تقدم الدليل على ذلك.

٣ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر الشمس

يقال: أشهرُ من الشمس. أحسنُ من الشمس. أدلُّ على الصّبح من الشمس.

---

(١) استقرّ علماء الفلك أخيرًا على هذا الرأي بعد التحقيق والتدقيق.

(٢) هو وهب بن منبّه الصنعاني الذماري، أبو عبد الله، مؤرِّخ، عالِم بالأساطير والإسرائيليات، مات بصنعاء سنة ٧٣٢ م، وقد ولّاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. «فهرس الأعلام ٨/ ١٢٥».

(٣) العروة: من الثوب: ما يُدخَل فيه الزرّ.

(٤) المسجور: المملوء ماءً.

(٥) المكفوف: من كفّ يكفّ الشيء: أي يجمعه ويضمّه.

(٦) هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحٰق، ويسمّى كعب الأحبار، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم زمن أبي بكر، قَدِم المدينة في خلافة عمر، وأخذ عنه الصحابة كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، توفي بحمص سنة ٦٥٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٨».

ومن أنصاف الأبيات:

* وهَـلْ شـمـسٌ تـكـونُ بـلا شُـعـاعِ *

* في طَلْعةِ الشمسِ ما يُغنِيكَ عن زُحَلِ *

* ولو لـم تَغِبْ شمسُ النهار، لمُلَّتِ *

* الـشـمـسُ نـمَّـامـةٌ والـلَّـيـلُ قَـوَّادُ[١] *

* الـشـمـسُ طـالـعـةٌ إنْ غُـيِّـب الـقـمَـرُ *

* ورُبَّــمـا تَــنْــكَــسِــفُ الــشــمْــسُ *

* والشمسُ تنحطُّ في المَجْرىٰ وترتفِعُ *

* إذا الشمسُ لم تغرُبْ، فلا طَلَع البَدْرُ *

ومن الأبيات قول الطائي[٢]: [من الطويل]

فإنِّي رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ محبَّةً   إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَد[٣]

وقال عليّ بن الجهم[٤]: [من الكامل]

والشَّمْسُ لولا أنها مَحْجُوبةٌ   عن ناظرَيْكَ لما أضاءَ الفَرْقدُ[٥]

وقال أبو تمّام: [من الطويل]

وإنَّ صَريح الرأيِ والحَزْمِ لامْرِىءٍ   إذا بلغَتْهُ الشمسُ، أن يَتَحَوَّلا[٦]

---

(١) النمّامة: الواشية، والقوّاد: سمسار المرأة البغيّ.

(٢) الطائي: هو حبيب بن أوس الطائي، أبو تمّام، الشاعر العباسي المشهور والبيت من قصيدة مطلعُها:

غدت تستجير الدمع خوف نوى غدِ   وعاد قتادًا عندها كلّ مرقد

«ديوان أبي تمام ص ٩٠ دار صعب».

(٣) السّرمد: الدائم الأبدي الذي لا ينقطع.

(٤) هو عليّ بن الجهم، أبو الحسن، من بني سامة بن لؤي بن غالب، شاعر أديب من أهل بغداد، قتل في غزوٍ له سنة ٨٦٣ م، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٦٩، ٢٧٠».

(٥) البيت في ديوانه ص ٤٢ تحقيق خليل مردم بك ـ دار الآفاق الجديدة، وهو من أبيات مقطوعة يمدح بها جعفرًا المتوكّل ومطلعها:

قالت حُبستَ فقلت ليس بضائرِ   حبسي وأيُّ مهندٍ لا يُغمدُ

والفرقد: نجم قريب من القُطب الشمالي، يُهتَدَى به.

(٦) صريح الرأيك الخالص من العيب.

وقوله: [من الطويل]

وكلُّ كُسُوفٍ في الدَّرارِي شنيعةٌ ولكِنَّه في الشمْسِ والبَدْر أشْنَعُ[١]

وقوله أيضًا: [من البسيط]

أعِنْدكَ الشمسُ تَجرِي في مَنَازِلِهَا وأنْتَ مُشتَغِلُ الألْحاظِ بالقَمَر[٢]؟

وقال البُحتُرِيُّ: [من الوافر]

كَذاكَ الشَّمسُ تَبْعُد أن تُسامىٰ ويَدْنُو الضَّوْءُ منها والشُّعاعُ[٣]

وقال ابن الرومي: [من الكامل]

ورأيتُهُ كالشَّمْس: إن هي لم تُنَلْ فالدِّفْء منها والضِّياء يُنَالُ

وقال أيضًا: [من الكامل الأحذ]

كالشَّمْس لا تَبْدُو فَضِيلتُها حتّى تُغَشَّى الأرضُ بالظُّلَمِ[٤]

وقال أيضًا: [من الكامل]

كالشمسِ في كَبِدِ السماءِ مَحَلُّها وشعاعُها في سائرِ الآفاقِ

وقال العبّاس بن الأحنف[٥]: [من المتقارب]

هِيَ الشمسُ مَسْكَنُها في السما ءِ فعَزِّ الفُؤادَ عَزَاءً جمِيلا!

وقال أبو عبيد البكريّ[٦]: [من الكامل الأحذ]

والشمسُ يُستَغْنىٰ، إذا طَلَعَتْ أن يُستَضاءَ بغرّة البَدْرِ

---

(١) الكسوف: احتجاب الشّمس في النهار جزئيًا أو كليًا لحلول القمر بينها وبين الأرض، والدّراري: النجوم المضيئة.

(٢) المنازل: مجاريها التي تحلّ بها، والألحاظ: العيون، وقد ورد البيت في ديوان أبي تمّام على هذه الصّورة:

أعندك الشّمس قد راقت محاسنُها وأنت مشتغل الأحشاء بالقمر

«ديوان أبي تمام ص ٣٥٦ ، دار صعب».

(٣) تسامى: تبارى وتفاخر.

(٤) تغشّى: تُسْتَر وتُغطّى.

(٥) هو العباس بن الأحنف، أبو الفضل، من بني حنيفة، نشأ في بغداد، وكان صاحب غزل، ولم يكن يمدح ولا يهجو، له ديوان شعر مطبوع، توفي ببغداد سنة ٨٠٨ م. راجع: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٦٠ دار الكتب العلمية، وفهرس الأعلام للزركلي ٤/٢٥٩.

(٦) هو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، أبو عبيد، مؤرّخ، جغرافي، علّامة بالأدب، توفي ١٠٩٤ م. «فهرس الأعلام ٤/٩٨».

وقال أبو الطيب المتنبي: [من المنسرح]

كالشمس لا تبتغي بما صَنَعَتْ … مَنْفَعَةً عِنْدَهُمْ ولا جاهَا

وقال ابن لَنْكَك البصريّ[١]: [من البسيط]

وهَبْكَ كالشَّمْس في حُسْنٍ؛ ألم تَرَها … يُفَرُّ منها إذا مالَتْ إلى الضَّرر[٢]؟

وقال ابن عَبَّاد[٣]: [من المتقارب]

فقلتُ: وشمسُ الضُّحى تُحْتَمىٰ … إذا بَسطَتْ في المَصِيف الأذىٰ

وقال ابن مسعويه الخالديّ: [من البسيط]

لا يُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ القَصْرِ تَنْزِلُه … فَضِيلةُ الشمسِ لَيْسَتْ في مَنازلها

وقال أبو الفتح البُسْتِيّ[٤]: [من البسيط]

فالحُرُّ حُرٌّ عَزيزُ النَّفْسِ حَيْثُ ثَوىٰ … والشَّمسُ في كُلِّ بُرْجٍ ذاتُ أنوارِ[٥]

٤ ـ ذكر ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها

من ذلك قول الوزير المهلَّبي[٦]: [من السريع]

الشَّمْسُ في مَشْرِقِها قد بَدَتْ … مُنِيرةً لَيْسَ لها حاجِبُ

كأنَّها بَوْدَقَةٌ أُحْمِيَتْ … يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائِبُ[٧]

---

(١) هو محمد بن محمد بن جعفر البصري، أبو الحسن، شاعر، وصفه الثعالبي بفرد البصرة وصدر أدبائها، وقال: أكثر شعره مُلَح وطُرَف، توفي نحو سنة ٩٧٠ م. «راجع يتيمة الدهر ٢/ ٤٠٧ دار الكتب العلمية».

(٢) هبك: هب: أمر من فعل وهب بمعنى «احسب» ينصب مفعولين.

(٣) هو إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس، الصّاحب، وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علمًا وفضلًا وتدبيرًا وجودة رأي، وُلِد في الطالقان، له كتب ورسائل وديوان شعر، توفي سنة ٩٩٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣٨٦».

(٤) هو علي بن محمد الكاتب، البستي الشاعر المشهور صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس. «وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦».

(٥) ثوى: أقام.

(٦) هو الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون الأزدي، أبو محمد، من كبار الوزراء الأدباء الشعراء، كان وزيرًا لمعزّ الدولة بن بويه، لُقِّب بذي الوزارتين، وُلِد بالبصرة، وتوفي في طريق واسط، سنة ٩٦٣ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢١٣».

(٧) البودقة: البوتقة، الوعاء الذي يُذاب فيه المعدن.

وقال ظافر الحدّاد: [من الكامل الأحذ]

أُنْظُرْ لِقَرْنِ الشَّمْسِ بازِغَةً في الشَّرْق تَبْدُو ثم تَرْتَفِع[١]!
كَسَبِيكَةِ الزَّجَّاج ذائِبةً حَمْراءَ يَنْفُخُها فتَتَّسِع[٢]

وقال أبو هلال العسكري[٣]: [من الكامل]

والشمسُ واضحةُ الجَبِينِ كأنَّها وجهُ المَلِيحةِ في الخِمَار الأزْرق!
وكأنَّها عِنْد انْبِساطِ شُعاعِها تِبْرٌ يذُوبُ على فُرُوع المَشْرِق[٤]!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ: [من الكامل]

أوَ مَا تَرى شمسَ الأصِيلِ عَلِيلةً تَزْدَادُ من بَيْنِ المَغَارِب مَغْرِبا؟
مالَتْ لتحْجُبَ شَخْصَها فكأنها مَدَّتْ على الدُّنيا مُلاءً مُذْهَبَا[٥]!

ومما وُصِفَتْ به ـ وقد قابلت القمر ـ قول الشاعر: [من المنسرح]

أما تَرى الشمسَ، وهْيَ طالِعَةٌ تمنَعُ عنَّا إدامةَ النَّظَر؟
حَمْراءَ صَفْراءَ في تَلَوُّنِها كأنَّها تَشْتَكِي من السَّهَر
مِثْل عَرُوسٍ غَدَاةَ لَيْلتِها تُمْسِكُ مِرْآتَها من القمر

وقال مؤيد الدين الطغرائي[٦]، عفا الله عنه ورحمه: [من الكامل]

وكأنَّما الشمسُ المُنِيرةُ إذ بَدَتْ والبَدْرُ يَجْنَحُ للمَغِيبِ وما غَرَبْ[٧]
مُتحارِبان: لِذَا مِجَنٌّ صاغَهُ من فِضَّة، ولِذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ[٨]

---

(١) قرن الشمس: أوّل ما يبدو منها عند طلوعها.
(٢) السَّبيكة: كتلة مصبوبة على شكل معين، أو كلّ قطعة مستطيلة من المعدن.
(٣) هو الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال، عالِم بالأدب، له شعر، نسبته إلى عسكر مُكرم، من كور الأهواز، له مصنّفات عديدة في اللغة والأدب وله ديوان شعر، توفي حوالي سنة ١٠٠٥ م. «فهرس الأعلام ٢/١٩٦».
(٤) التبر: قراضة الذّهب.
(٥) الملاء: ثوب من قطعة واحدة ذو شقّين متضامّين، أو هو الملحفة.
(٦) هو أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الملقّب مؤيد الدين الأصبهاني المنشىء المعروف بالطغرائي، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر، وكان يُنعَت بالأستاذ، أشهر شعره لامية العجم، توفي سنة ١١٢٠ م. «فهرس الأعلام ٢/٢٤٦».
(٧) يجنح: يميل. (٨) المجنّ: الترس.

ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزّوال والغروب قول أعرابيّ: [من الطويل]

مُـخَـبَّـأةٌ: أمّـا إذا الـلَّيْـلُ جَـنَّـهـا فتَخْفىٰ وأما في النَّهارِ فتظهَرُ(١)
إذا ٱنْشَقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وٱنْجَلىٰ دُجى الليل وٱنجابَ الحِجَابُ المُسترُ
وأُلْبِـس عَـرْضُ الأُفْـق لَوْنًـا كـأنَّـهُ على الأُفُقِ الغربيّ ثَوْبٌ مُعَصْفَر(٢)
عـلـيـهـا دُرُوع الـزَّعْـفـران، يَـشُـوبُـه شُعـاعٌ تَـلألَا فَـهْـو أبيـضُ أصْـفَـرُ(٣)
تـرىٰ الظِّلَّ يُطوىٰ حين تَبْدُو وتـارَةً تـراه إذا زالَتْ عـن الأرْضِ يُـنْـشَـرُ
فأفنَتْ قُرُونًا، وَهْيَ في ذاك لم تَزَلْ تَـمُوتُ وتـحْيَا كلَّ يومٍ وتُنْشَرُ(٤)!

وقال آخر: [من الكامل]

وبـدا لـنـا تُرسٌ من الذَّهَب الذي لـم يُنْتَزَعْ مـن مَعْدِن بـتـعَـمُّـل(٥)
مِـرْآة نُـور لـم تُـشَـنْ بِـصـيَـاغـة كَلَّا ولا جُلِيتْ بكفِّ الصَّيْقَل(٦)
تـسمُـو إلـى كَـبِـد الـسـمـاء كـأنَّـهـا تبغِي هُناكَ دِفاعَ أمرٍ مُعْضِل(٧)
حتّى إذا بَلَغَتْ إلى حيثُ انتهَتْ وقَـفـتْ كـوقْـفـة سائـلٍ عـن مَـنْـزِل
ثـم ٱنثـنَـتْ تـبـغِـي الـحُـدورَ كـأنـهـا طيرٌ أَسَفَّ مَخَافَةً من أجْدلِ(٨)

ومما وصفت به، وقد قابلت الغيم، قول ابن المعتز: [من الوافر]

تـظَـلُّ الـشـمـسُ تـرمُـقُـنـا بـطَـرْفٍ خَـفِـيٌّ لَحْظُـه مـن خَلْفِ سِتْرِ(٩)
تُـحـاوِلُ فَـتْـقَ غَـيـمٍ وهـو يـأبـىٰ كـعِـنِّـيـنٍ يُـحـاوِلُ نَـيْـلَ بِـكْـرِ(١٠)

---

(١) جنّها: سترها.
(٢) المعصفر: ما صُبغ بالعصفر، والعُصفر نبات يُستَخرَج منه صبغ أحمر يُصبَغ به الحرير ونحوه.
(٣) الزعفران: نبات له أصلٌ كالبصل، زهره أحمر إلى الصُفرة.
(٤) تموت وتحيا: يريد تغرب وتشرق.
(٥) الترس: قطعة من المعدن أو الجلد يحملها المُحارِب بإحدى يديه ويتّقي بها الضربات، والتعمّل: التكلّف.
(٦) تُشَنْ: تُعَبْ، والصّيقل: الذي يصقل السيوف وغيرها ويجلوها.
(٧) تسمو: تصعد وترتقي، وكبد السماء: وسطها، والمُعضل: الشائك الذي يبدو حلّه صعبًا.
(٨) الحدور: النزول، وأسفّ: دنا من الأرض، والأجدل: الصقر.
(٩) ترمق: تنظر، والطرف: النظر.
(١٠) العنّين: الذي يعجز عن الجماع لمرض يصيبه.

وقال آخر: [من الوافر]

وعَيْنُ الشمسِ تَرْنُو من بَعِيدٍ رُنُوَّ البِكْرِ من خَلْفِ السُّتُور(١)

وقال محمد بن رشيق: [من الرّمل]

فكأنَّ الشَّمسَ بِكْرٌ حُجِّبتْ وكأنَّ الغَيْمَ سِتْرٌ قد سُتِرْ(٢)

٥ ـ ذكر شيء مما وُصِفَت به على طريق الذّمّ

فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن عمير، وقد سُئِلَ عنها فقال: مُظْهِرة للدّاء، مثقِّلة للهواء، مَبْلاة للثوب، جالِبَة للّهَب.

وقال آخر: الشمس تشحب اللون، وتغيِّر العَرَق، وتُرخِي البدن، وتُثِير المِرّة(٣). إذا ٱحتجمت(٤) فيها، أمرضتك؛ وإن أطَلْتَ النوم فيها، أفلجتك(٥)؛ وإن قَرُبتَ منها، صرت زَنْجيًّا، وإن بعدت عنها، صرت صقلبيًّا.

وقال ابن سناء الملك(٦): [من السريع]

لا كانت الشمسُ! فكَمْ أصْدأتْ صَفْحةَ خدٍّ كالحُسَام الصَّقيلْ(٧)!

وكَمْ وكَمْ صَدَّتْ بِوَادِي الكَرىٰ طيفَ خيالٍ جاءنِي عن خَليلْ(٨)!

وأعدمَتْنِي من نُجُوم الدُّجىٰ ومنه روْضًا بين ظِلٍّ ظليلْ!

تَكْذِبُ في الوَعْد؛ وبُرهَانُه أنّ سَرَاب القَفْرِ منها سَليلْ(٩)

وهْيَ إذا أبصَرَها مُبْصِرٌ حَدِيدُ طرفٍ، راحَ عنها كَلِيلْ(١٠)

---

(١) ترنو: تنظر.
(٢) كذا بالأصل، ولعلّ يد الناسخ حرّفته عن «سدل» أو لعله: سِترٌ قد سَتَرْ.
(٣) المرّة: خلط من أخلاط البدن، وهو الصفراء أو السّوداء.
(٤) احتجم: من الحجام بالمحجمة، وهي آلة كالكأس توضع على جسم المريض فينجذب الدّم.
(٥) أفلجتك: أي أصابتك بالفالج، وهو شلل يحدث في أحد شقيّ البدن.
(٦) هو هبة الله بن جعفر، أبو القاسم، القاضي السعيد، شاعر مجيد، من النبلاء مصري المولد والوفاة، ولّاه الملك الكامل ديوان الجيش، وكتب في ديوان الإنشاء وله رسائل بديعة، توفي سنة ١٢١٢. «فهرس الأعلام ٨/ ٧١».
(٧) الصقيل: المصقول والمجلوّ.
(٨) صدّت: منعت، والكرى: النعاس، والخليل: الصاحب.
(٩) السّراب: ما يُشاهَد في الصحراء أثناء الحرّ كأنّه ماء، والسّليل: أي هو من نسلها.
(١٠) حديد الطرف: قويّ النظر، والكليل: الضعيف.

يا عِلَّة المَهمُومِ، يا جِلدةَ الـ ـمحموم، يا زَفْرةَ صَبٍّ نحِيلْ[١]!
يا قَزَحَةَ المَشْرِق عند الضُّحىٰ وسَلْحَةَ المَغْرِبِ عِنْدَ الأصِيلْ!
أنتِ عَجُوزٌ، لِمْ تبرَّجْتِ لِي وقد بَدَا منْكِ لُعَابٌ يَسِيلْ[٢]؟

وقال التيفاشيّ[٣]، عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من السريع]

في خِلْقةِ الشمس وأخلاقِها شَتَّى عُيُوبٌ ستة تُذْكَرُ
رَمْداءُ، عَمْشاءُ، إذا أصبحَتْ عَمياءُ عِنْد اللَّيلِ، لا تُبصِرُ[٤]
ويَغْتدِي البدرُ لها كاسِفًا وجِرْمُها من جِرْمِهِ أكبَرُ[٥]
حُرورُها في القَيْظِ لا تُتَّقىٰ ودِفْؤُها في القُرِّ مُستَحْقَرُ[٦]
وخُلْقُها خُلْقُ المَلِيك الذي يَنْكُثُ في العهد ولا يَصبِرُ[٧]
ليسَتْ بحسناءَ. وما حُسْنُ مَنْ يَحْسِرُ عنه اللَّحْظُ لا يُبصِرُ[٨]؟

وقال أبو الطيب المتنبي: [من البسيط]

تُسوِّدُ الشَّمسُ منَّا بِيضَ أَوْجُهنا ولا تُسوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ[٩]
وكان حالُهما في الحكم واحدةً لو ٱخْتَصمْنا من الدُّنْيا إلى حَكَمِ

٦ ـ ذكر ما قيل في الكسوف

رُوِيَ أن الشمس كُسِفَت في عهد رسول الله ﷺ ووافق ذلك موتُ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس: إنما كُسِفَت الشمس لأجله فقال النبي ﷺ: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله تعالى يُخَوِّف بهما عباده، وإنهما لا يكسفان

(١) الصبّ: العاشق. (٢) تبرّجت: تزيّنت.

(٣) التيفاشيّ: هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون، عالِم بالحجارة الكريمة، غزير العلم بالأدب وغيره، من أهل تيفاش من قرى قفصة بأفريقيا، وُلِد بها وتعلّم بمصر، ووُلّي القضاء في بلده، توفي بالقاهرة سنة ١٢٥٣ م، له مصنّفات عديدة. «فهرس الأعلام ١/٢٧٣».

(٤) الرّمداء: مَن أصابها الرّمد، وهو مرض يصيب العين فتلتهب منه ويرم منه بياضها وجفناها، والعمشاء: التي أصابها العمش، وهو ضعف يلحق بالعين فيقلّ بصرها ويسيل دمعها.

(٥) الجرم: الجسم.

(٦) الحرور: مفردها حرارة وهي الحرّ، والقُرّ: البرد.

(٧) ينكُثُ: يخلُّ. (٨) يحسر: يتعب ويضعف. واللّحظ: النظر.

(٩) العذر: مفردها عِذار، وهو جانب اللحية، واللِّمم: مفردها لمّة، وهي شعر الرأس الذي تجاوز شحمة الأذن.

لموت أحدٍ ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك، فادعُوا الله وكبِّروا وصلُّوا حتّى يُكشَفَ ما بكم».

وقال محمد بن هانيء[١] في الكسوف: [من البسيط]

هي الحوادثُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ! ما لِلْبَرِيَّة من مَحْتُومِها وَزَرُ[٢]!

لَوْ كان يُنْجِي عُلُوٌّ من بَوَائِقِها لم تُكْسَفِ الشمسُ بل لم يُخْسَفِ القمرُ[٣]!

٧ ـ ذكر أسماء الشمس اللغوية

وللشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها: ذُكاءُ، والجارية، والجَوْنة، والغَزَالة، واللاهة[٤]، والضُّحىٰ، والضِّحُ، ويُوح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشَّرْق، وحَنَاذِ، والعَيْن، والمؤوِّبة، والسِّراج.

٨ ـ ذكر عُبَّاد الشمس

قال الشهرستانيّ[٥] في كتابه المترجم «بالمِلَل والنِّحَل»: إن عَبَدَة الشمس طائفةٌ من الهنود يُسَمَّوْن الديبكينية[٦] أي عبّاد الشمس؛ ومذهبهم مذهب الصابئة[٧]. وتوجّههم إلى الهياكل[٨] السمٰوية دون قصر الإلـٰهية والربوبيَّة عليها. ويزعمون أن الشمس ملَك من الملائكة، وأن لها نفسًا وعقلًا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكوّن الموجودات السّفلية. وهي مَلَك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير،

---

(١) هو محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم أشعر المغاربة على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين، له ديوان شعر مطبوع، قُتِل غِيلة في برقة سنة ٩٧٣ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٣٠».

(٢) البَرِيّة: الخلق، والوزر: الملجأ.

(٣) البوائق: مفردها بائقة، وهي الدّاهية أو الشرّ.

(٤) الذي في كتب اللغة أن اللاهة اسم للحيّة، وأما الشمس فاسمها إلاهة، فلعلّ ما هنا تصحيف من الناسخ.

(٥) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، من فلاسفة الإسلام، كان إمامًا في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، ويلقّب بالأفضل، توفي في بلده شهرستان سنة ١١٥٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢١٥».

(٦) الذي في كتاب الشهرستاني «الدينكيتيّة» وهو الأقرب للصواب، ويقول مترجمه الألماني: لعلّه من «ديناكرت» ومعناه صانع النهار. «المِلَل والنِّحَل ص ٧٢٣ دار الكتب العلمية».

(٧) الصابئة: قومٌ يعبدون النجوم، يقولون: إنّهم على ملّة نوح عليه السلام.

(٨) الهياكل: جمع هيكل، وهو البناء المرتفع المُشرِف، ويُقصَد بالهياكل هنا: النّجوم.

والدّعاءَ. ومن سُنَّتهم[١] أنهم اتخذوا لها صنمًا بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاصٌ بنوه باسمه ووقفوا عليه ضِياعًا، وله سَدَنَة[٢] وقُوّام[٣]. فتأتي هذه الطائفة إلى البيت، ويصلُّون فيه ثلاث كَرَّات[٤]. ويأتي أصحاب العِلَل والأمراض فيصومون له، ويصلُّون، ويدعون، ويستشفون به.

٩ ـ ذكر ما قيل في القمر وهو النَّيِّر الثاني

ذهب وَهْبُ بن مُنَبِّه أن القمر موضوع على عجلة في فَلَك، والفلَك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجرّها ثلثمائة وستون ملكًا إلى ناحية المشرق؛ وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم؛ وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة.

ويقال: إن القمر كان كالشمس في الضياء. فلم يكن يُعرَف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمرّ عليه بجناحه، فمرّ عليه، فمحاه. فهو ما ترى فيه من السواد.

وبهذا القول فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسرَاء: الآية ١٢].

قالوا: ولا يسمّى قمرًا إلا بعد مضيّ ثلاث ليالٍ من ٱستهلاله. والأقمر هو الأبيض.

١٠ ـ ذكر ما قيل في القمر من استهلاله إلى انقضاء الشهر وأسماء لياليه

قالوا: وللقمر من أوّل الشهر إلى آخره خمسُ حالات؛ ولِلياليه عشرة أسماء.

أما حالاته الخمس:

فالأُولى: الهلالية، وهي خروجه من تحت شُعاع الشمس وظهوره في الغرب في أوّل الشهر.

الثانية: أن يفضل[٥] فيه النور على الظلمة، وذلك في الليلة السابعة من الشهر.

---

(١) السُّنَّة: الشريعة.
(٢) السّدنة: خدم بيت العبادة وحجّابه.
(٣) القوّام: الذين يقومون برعايته وخدمته.
(٤) كرّات: جمع كرّة، وهي المرّة.
(٥) يفضل: يزيد.

الثالثة: الاستقبال، وهو كونه في البرج[١] السابع من بروج الشمس، ويسمّى الامتلاءَ لامتلاء القمر فيه نورًا، وذلك في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، ويسمّى القمر فيها بدرًا لكماله، ويسمّى بذلك لامتلائه، وقيل: لمبادرته الشمسَ بالطلوع، وتسمّى الليلة التي قبلها (وهي الثالثة عشرة) ليلة السَّواء لاستواء القمر فيها، وقيل: لاستواء ليلها ونهارها في الضياء، وهي ليلة التمام[٢].

الرابعة: أن تفضل الظلمة فيه على النور، وذلك في الليلة الثانية والعشرين من الشهر.

الخامسة: المِحاقيَّة[٣]، وهي مُدَّة استتاره بشُعاع الشمس، ويسمّى ذلك أيضًا سِرارًا، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث ليالٍ لا يُرى ويهلّ في اليوم الرابع، ويسمّى حينئذٍ قمرًا لا هلالًا؛ والشمس تعطيه من نورها كلَّ ليلة ما يستضيء به نصفُ سُبع قُرصه حتّى يكمل، ثم يُسْلَبُه من الليلة الخامسةَ عشرةَ، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر.

وأمّا أسماء لياليه، فإنه يقال لأوّل ثلاثة منها غُرَر[٤]، والثانية شُهب، والثالثة زُهْر، والرابعة بُهْر[٥]، والخامسة بِيض، والسادسة دُرَع[٦]، والسابعة حَنادِس[٧]، والثامنةُ ظُلَم، والتاسعة دَآدِ[٨]، والعاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار؛ ويسمُّون الليلة الثامنة والعشرين الدَّعْجاء[٩]، والليلة التاسعة والعشرين الدَّهْماء[١٠]، والليلة المُوفِيَةَ ثلاثين اللَّيْلاءَ[١١]، ويسمُّونها ليلة البَرَاء لتبرّي القمر من الشمس.

---

(١) البرج: قسم من اثني عشر قسمًا من دائرة وهميّة في الفلك.

(٢) ليلة التّمام: ليلة أربع عشرة من الشهر القمري، حيث يكون القمر بدرًا.

(٣) المحاقية: من المحاق، حيث يكون القمر في الليالي الثلاث من آخر الشهر القمري محتجبًا.

(٤) الغُرر: البيض. (٥) البُهر: المغمورة بالضوء.

(٦) الدّرع: الليالي السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة من الشهر القمري.

(٧) الحنادس: المظلمة، والحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٨) الدّآد: من الليالي: الشديدة الظلمة.

(٩) الدّعجاء: وهي أولى ليالي المحاق، والدّعج: شدّة السّواد.

(١٠) الدّهماء: الشديدة السّواد، وهي الليلة الثانية من ليالي المحاق.

(١١) الليلاء: الشديدة الظلمة والسّواد.

١١ ـ ذكر أسماء القمر اللُّغوية

وللقمر أسماء نطقَت بها العرب، فمنها: القَمر، والباهر، والبَدْر، والطَّوْسُ، والجَلَمُ، والغاسِقُ، والوَبَّاص، والزِّبْرِقانُ، والمُنْشَقُّ، والواضِح[1]، والباحُور، والأبرص، والزَّمْهَرير. ومنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسَان: الآية ١٣]، وقول بعض العرب: [من الرجز]

وليلةٍ ظَلامُها قد اعتكرْ   قَطَعْتُها والزَّمهريرُ ما ظهَرْ[2]

ومن أسمائه: السِّنِمَّار، والسَّاهُور.

والفَخْت ضوءُه، والأَخْذ[3] مَنزلته، وكذلك الوَكْس، وهي المنزلة التي يُكْسَف فيها. والهالَة دارتُه.

١٢ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر القمر

يقال في أمثالهم:

أضْيَعُ من قمر الشتاء! قيل: لأنه لا يُجْلَس فيه.

إن يَبْغِ عليكَ قومُكَ، لا يَبْغِ عليك القمر[4].

ويقال: أضوأ من القمر، وأتمُّ من البدر.

ومن أنصاف الأبيات:

* أُرِيها السُّهَا[5] وتُرِينِي القَمَرْ *

* لا تَخْرُجُ الأقمارُ من هالاتِها *

* هكذا البَدْرُ في الظَّلام يُوافِي *

* كذاك كُسُوفُ البدرِ عِنْدَ تمامِه *

ومن الأبيات قول الطائيّ: [من الكامل]

إنَّ الهِلَالَ إذا رأيتُ نُموَّه   أيقنتُ أنْ سيَكُونُ بَدْرًا كامِلا

(١) الذي في كتب اللغة الوَضح: وهو القمر، فلعله تحريف من الناسخ.

(٢) الزمهرير: شدّة البرد.

(٣) في اللسان مادة «أخذ» ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها.

(٤) بغى: جارَ وظلم. (٥) السُّها: كوكبٌ صغيرٌ خفيّ الضوء.

وقال ابن أبي البغل، والبيت الثاني لابن بحر[١]: [من البسيط]

المَرْءُ مِثْلُ هِلَالٍ حين تُبْصِرُه يَبْدُو ضَعِيفًا ضَئِيلًا ثم يَتَّسِق[٢]

«يَزْدَادُ حتّى إذا ما تَمَّ أعْقَبَه كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمَحق»[٣]

وقال أبو الفرج الببغا[٤]: [من الطويل]

سَتَخْلُصُ من هذا السِّرَار وأيُّما هلالٌ تَوارى في السِّرارِ فما خَلَصْ![٥]

١٣ ـ ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتزّ في الهلال: [من الكامل]

وانْظُرْ إليهِ كزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ قد أثْقَلَتْه حُمولَةٌ من عَنْبَرِ!

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقليّ[٦]: [من البسيط]

ورُبَّ صُبْحٍ رقَبْناهُ، وقد طَلَعتْ بَقِيَّةُ البَدْرِ في أُولى بَشَائِرِهِ!

كأنَّما أدْهَمُ الإظْلامِ حينَ نَجا من أَشْهبِ الصُّبْح، ألقى نَعْلَ حافِرِهِ![٧]

وقال آخر: [من المنسرح]

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلةُ الصِّيامِ وقد بَشَّر سُقْمُ الهِلَالِ بالعِيدِ!

يَتْلُو الثُّريَّا كفاغِرٍ شَرِهٍ يَفْتَحُ فاهُ لأَكْلِ عُنْقودِ![٨]

---

(١) هو أبو الفرج سلامة بن بحر أحد قضاة سيف الدولة، شاعر رقيق الشعر يجري شعره مع الماء لطافة وسَلاسة. «يتيمة الدهر ١/ ١٢٩ دار الكتب العلمية».

(٢) يتّسق: يكتمل.

(٣) كرّ الجديدين: تتابع الليل والنهار، وينمحق: يختفي.

(٤) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي من أهل نصيبين، نجم الآفاق، وأحد أفراد الدّهر في النظم والنثر. «يتيمة الدهر ١/ ٢٩٣ دار الكتب العلمية».

(٥) السّرار: ليالي المحاق.

(٦) هو عبد الجبار بن حمديس الصقلي الأزدي الصقلي، أبو محمد، شاعر مبدع، ولد في جزيرة صقلية ورحل إلى الأندلس فمدح المعتمد بن عبّاد، فأجزل عطاياه، توفي بجزيرة ميورقه سنة ١١٣٣ م، وله ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٧٤».

(٧) الأدهم: الأسود، والأشهب: المضيء، وفي الكلام تضادّ.

(٨) الثريّا: مجموعة من الكواكب، والفاغر: الفاتح.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الخفيف]

فـي هِـلَالٍ كـأنَّـهُ حَـيَّـةُ الـرَّمْـ ـلِ أصابَتْ على اليَفَاع مَقِيلا[١]
بـاتَ فـي مِعْـصَـمِ الظَّلامِ سِوَارًا وعلى مَفْرَقِ الدُّجَى إكْلِيلا[٢]

وقال آخر: [من الكامل]

والـجَـوُّ صـافٍ والـهِـلالُ مُـشَـنَّـفٌ بالزُّهرة الزَّهْراء نَحْوَ المَغْرب[٣]
كـصَحِيفَـةٍ زَرْقـاءَ فـيـهـا نُـقْـطَـةٌ من فضة من تحت نُون مُذْهَب

وقال آخر: [من الخفيف]

قُلْتُ لَمَّا دنَتْ لمَغْرِبِها الشَّمْـ ـسُ ولاحَ الـهِـلالُ لـلـنُّـظَّـار
أقرضَ الشَّرْقُ صِنْوَه الغَرْبَ دينَا رًا فأعطاهُ الرَّهْنَ نِصْفَ سِوَار[٤]

وقال أبو العلاء المعرّي: [من الطويل]

ولاحَ هِـلالٌ مِـثْـلُ نُـونٍ أجـادَهَـا بذَوْب النُّضَار الكاتِبُ ابنُ هِلال[٥]

وقال آخر: [من الخفيف]

وكـأنّ الـهِـلالَ نُـونُ لُجَـيْـنٍ غَـرِقـتْ فـي صَـحِـيـفـةٍ زَرْقـاء[٦]

وقال أبو عاصم البصريّ[٧]، من شعراء اليتيمة: [من المتقارب]

رأيـتُ الـهِـلالَ، وقـد أحْـدَقَـتْ نُـجُـومُ الـثُّـريَّـا لـكـي تَـسْـبِـقَـه[٨]
فـشَـبَّـهْـتُـهُ وَهْـو فـي إثْـرهـا وبـيـنَـهُـمـا الـزُّهْـرَةُ الـمُـشْـرِقـه
بـقَـوْسٍ لِرامٍ رَمـى طـائـرًا فـأتْـبَـع فـي إثْـرِه بُـنْـدُقـه[٩]

(١) اليفاع: المرتفع من كلّ شيء، يكون في المشرف من الأرض والجبل والرّمل وغيرها.
(٢) السّوار: نوعٌ من الحلي يلبس في معصم اليد.
(٣) مشنّفٌ: مزيّن، والزهرة: نجم، والزّهراء: البيضاء المضيئة.
(٤) الصّنو: النظير والمثيل.
(٥) النّضار: الذهب، وابن هلال: هو إبراهيم بن هلال بن زهرون، أبو إسحٰق الصابىء أوحد الدّنيا في إنشاء الرسائل. «فهرس الأعلام ١/ ٧٨».
(٦) اللّجين: الفضّة.
(٧) أبو عاصم البصري، ورد ذكره في يتيمة الدهر ٢/ ٤٣٢، وهو أحد شعراء البصرة.
(٨) في اليتيمة: «وقد أحدقتهُ» بدلًا من: «وقد أحدقت».
(٩) البندق: رصاص كروي الشكل يستعمل في بعض القذائف للقتال والصّيد.

وقال آخر: [من الوافر]

ولاح لَنا الهِلالُ كشَطْرِ طَوْقٍ عـلى لَبَّاتِ زَرقاءِ اللَّبَاسِ[١]

وقال الوأواء الدمشقيّ[٢] رحمه الله: [من الوافر]

وكأنّ الهِلالَ تَحْتَ الثُّرَيَّا مَلِكٌ فَوْقَ رأسه إكليلُ!

وقال إبراهيم بن محمد المراديّ، من شعراء الأُنموذج[٣]، ملغّزًا فيه: [من السريع]

دَعْ ذا! وقُلْ للنَّاس: ما طارقٌ يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا ولا يَتَّقِي؟[٤]
ليس له رُوحٌ على أنَّهُ يَرْكَبُ ظَهْرَ الأَدْهَمِ الأَبْلَقِ[٥]
شَيْخٌ رأى آدَمَ في عَصْرِهِ وَهْوَ إلى الآنَ بخدٌ نَقِي
ومدّوَسْطَ السِّجْنِ مع قَوْمِه لا يَنْبَرِي من نَهْجِه الضَّيِّق
هذا ويَمْشِي الأرضَ في لَيْلةٍ أَعْجِبْ به من مُوثَقٍ مُطْلَق
فتارةً يَنْزِلُ تحتَ الثَّرى وتارةً وَسْطَ السَّما يَرْتقي
وتارةً يُوجَدُ في مَغْرِبٍ وتارةً يُوجَد في المَشْرِق
وتارةً تَحْسَبُه سابِحًا يَسْرِي بشاطِي البَحْرِ كالزَّوْرَق
وتارةً تَحْسَبُهُ وَهْوَ في أستارِهِ والبعضُ منه بَقِي
ذُبابةً من صارمٍ مُرْهَفٍ بارزةً من جَفْنِه المُطْبَق[٦]
يَدْنُو إلى عِرْسٍ له حُسْنُها يختَطِفُ الأبصارَ بالرَّوْنَق[٧]
حتّى إذا جامعها يَرْتَدِي بحُلَّةٍ سَوْداء كالمُحْرَق

(١) اللّبّات: مفردها لبّة، وهي موضع القلادة من العنق.

(٢) هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسّاني الدمشقي، الملقّب بالوأواد، من حسنات الشام، وصاغة الكلام، كان مناديًا في دار البطيخ بدمشق، ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه. «اليتيمة ١/ ٣٣٤».

(٣) الأنموذج: من مصنّفات ابن رشيق «وفي اليتيمة ٤/ ٨٥» ذكر لأبي الحسين محمد بن محمد المرادي شاعر بخارى.

(٤) الطارق: الضّيف يأتي ليلًا.

(٥) الأدهم: الحصان الأسود، والأبلق: ما كان في لونه سوادٌ وبياض.

(٦) ذبابة السيف: طرفه الذي يضرب به، والصارم: السيف، والمرهف: المسنون.

(٧) الرّونق: الحسن والإشراق.

وهــو عــلى عــادتِــهِ دائــمًــا ... يُــجــامِــعُ الأنــثــى ولا يــتَّــقِــي
ثـم يَـجُـوبُ الـقَـفْـرَ مـن أجْـلِـهـا ... مُـشْـتَـمِـلًا فـي مُـطْـرَفٍ أزرقِ[1]
حــتّــى إذا قــابَــلَــهــا ثــانِــيًــا ... تَـشُـكُّـه بـالـرُّمْـح فـي الـمَـفْـرِقِ[2]
وبَــعْــد ذا تُــلْــبِــسُــه حُــلَّــةً ... يا حُسْنَها في لَوْنها المُونِقِ!
فـجِـسْـمُـه مـن ذهـبٍ جـامِـدٍ ... وجِـلْـدُه صِـيـغَ مـن الـزِّئْـبَـقِ
وهــو إذا أبــصــرتــه هــكــذا ... أمـلحُ مـن صـاحـبـة الـقُـرْطَـقِ[3]

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

نَـظَـرْتُ فـي يَـوْمِ لَذَّةٍ عَـجَـبًـا ... وافـى بـه لـلـسُّـعـودِ مِـقْـدارُ[4]
يقـابِـلُ الـشـمـسَ فـيـه بـدرُ دُجـى ... يـأخُـذُ مـن نُـورهـا ويَـمـتـارُ[5]
كَـصَـيْـرفـيٍّ يـروحُ مـنـتَـقِـدًا ... فـي كَـفِّـه دِرْهَـمٌ ودِيـنـارُ[6]

وقال عبد الله بن عليّ الكاتب[7]: [من الخفيف]

كَـشَـفَ الـبـدرُ وجْـهَـهُ لـتـمـامٍ ... فـوُجُـوه الـنُّـجُـوم مـسـتَـتِـراتُ[8]
وكـأنّ الـبَـدْرَ الـتَّـمـامَ عَـرُوسٌ ... وكـأنّ الـنُّـجُـومَ مُـسْـتـنـقِـبـاتُ[9]

١٤ ـ ذكر شيء مما قيل فيه على طريق الذم

حُكِيَ أنّ أعرابيًّا رأى رجلًا يُرقُب الهلال، فقال له: ما ترقب فيه، وفيه عيوب لو كانت في الحمار لَرُدَّ بها؟ قال: وما هي؟ فقال: إنه يهدم العمرَ، ويقرّب الأجل، ويُحِلُّ الدَّين، ويَقْرِض الكتّان[10]، ويشجب اللّون[11]، ويفسد اللحم، ويَفْضَح الطارق، ويَدُلُّ السارق.

---

(١) المطرف: رداء أو ثوب من خزّ مربّع ذو أعلام.
(٢) تشكُّهُ: تطعنه، والمفرق: المكان الذي يفرق فيه الشّعر.
(٣) القرطق: قباء أبيض، وهو تعريب «كُرْتَهْ». «اللسان مادة: قرطق»
(٤) السّعود: يريد طالع السّعد. (٥) يمتار: يجمع نفسه مؤنة من النور.
(٦) الصيرفي: من يبيع النقود بنقودٍ من نوع آخر.
(٧) هو عبد الله بن علي بن جعفر المعروف بالعفيف، شاعر، كان من كتّاب الإنشاء في الدولة المؤيديّة، توفي في زبيد سنة ١٣١٣ م. «فهرس الأعلام ٤/١٠٦».
(٨) تمام البدر: في الليلة الرابعة عشرة من الشهر القمري.
(٩) مستنقبات: أي لابساتٌ النّقاب، وهو ما تستُر المرأة به وجهها.
(١٠) الكتان: نباتٌ له زهر أزرق تنسج منه الثياب، وبذره يستخرج منه زيت للإضاءة.
(١١) يشجب اللون: لعله يُشحِبُ اللّون، وهو تصحيف من الناقل.

ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام في ضوئه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، ويهيج عليه الزكام والصُّداع، وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة في ضوئه، تغيَّرت طعومها وروائحها.

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

رُبَّ عِرْضٍ مُنزَّهٍ عن قَبِيحٍ دنَّسَتْه مُعرِّضاتُ الهِجاء[1]
لو أرادَ الأدِيبُ أن يَهْجُوَ البَدْ رَ، رَماهُ بالخُطَّة الشَّنْعاء[2]
قال: يا بَدْرُ أنتَ تَغْدُرُ بالسَّا ري وتُزْرِي بزَوْرَة الحَسْناء[3]
كَلَفٌ في شُحُوبِ وجْهِكَ يَحْكِي نُكَتًا فوقَ وَجْنةٍ بَرْصاءِ[4]
يَعْتَرِيكَ المِحاقُ ثمَّ يُخَلِّيـ ـك شَبِيهَ القُلَامة الحَجْناء[5]
ويَلِيكَ النُّقْصانُ في آخِرِ الشَّهْـ ـر فيمْحُوكَ من أديم السَّماء[6]
فإذا البَدْرُ نِيلَ بالهَجْوِ، هَلْ يأ مَنُ ذُو الفَضْل ألسُنَ الشُّعراء؟
لا لأجْل المَدِيح، بل خِيفَةَ الهَجْـ ـو أخَذْنا جَوَائِزَ الخُلَفاء!

هذا ما أمكن إيراده في القمر، فلنذكر خبر عُبّاد القمر.

١٥ ـ ذكر عُبَّاد القمر

قال الشهرستانيُّ: عُبَّاد القمر طائفة من الهنود يسمَّوْن الحندربكتية[7]، أي عُبَّاد القمر، يزعمون أن القمر ملَك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفليّ، ومنه نُضْج الأشياء المتكوّنة واتصالها إلى كمالها؛ وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، وهو تِلْو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه، ومن سُنَّتهم أنهم اتّخذوا صنمًا على عجلة تجرّه أربعة، وبيده

(١) دنّسته: ألحقت به الدّنس، وهو القبح والعيب.
(٢) الخطّة الشنعاء: الأمر الذي يقبّحه به.
(٣) السّاري: الذي يسير عامة اللّيل، وتُزري تعيب وتستهين.
(٤) الكلف: شيءٌ يعلو صفحة الوجه ويُعرف «بالنّمش»، ونكّت: عاب، والبرصاء: من البرص: وهو داءٌ يُحدث في الجسم بقعًا بيضاء.
(٥) القلامة: من الظفر: ما سقط من طرفه، وهي مثلٌ في الخسّة والحقارة والحجناء: المعْوَجَّة.
(٦) أديم السّماء: ما ظهر منها.
(٧) في كتاب الملل والنّحل للشهرستاني «الجندريكنية» «جندراكا» معناه القمر في لغتهم. «الملل والنّحل ص ٧٢٣».

جوهرة، ومن دينهم[١] أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم؛ فإذا استهلّ الشهر عَلَوْا السُّطوح، وأوقدوا الدُّخَن[٢]، ودعَوْا عند رؤيته، ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة. وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف[٣] بين يدي الصنم والقمر.

١٦ ـ ذكر ما قيل في الكواكب المتحيّرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمّى المتحيّرة، ثلاثة منها علويّة تعلو أفلاكُها فلكَ الشمس، وهي: زُحَل، والمشترِي، والمِرّيخ، واثنان سفليّة فلكهما تحت فلك الشمس، وهي: الزُّهرَة، وعُطارد.

وسمّيت هذه الكواكب المتحيّرة، لأنها ترجع أحيانًا عن سَمْت[٤] مسيرها بالحركة الشرقية، وتتبع الغربية، فهذا الارتداد فيها شبه التحيّر.

١٧ ـ ذكر عبّاد الروحانيات[٥] وما احتجّوا به في سبب عبادتهم لها

وعبّاد الروحانيات هم الصابئة، يقال: صبأ الرجل إذا مال وزاغ.

ومذهب هؤلاء أن للعالَم صانعًا فاطرًا حكيمًا مقدّسًا عن سِمات الحدثان[٦].

وكانت الصابئة تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه، إلى متوسط[٧]؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيًا لا

(١) دينهم: عادتهم واعتقادهم.
(٢) الدُّخن: ما يحدث دُخنة، وهي ما يتبخّر به من الطّيب.
(٣) المعازف: آلات تحدث أصواتًا حين يضرب عليها.
(٤) السّمت: الطريق.
(٥) الروحانيات: وهي مذاهب المؤمنين بالرّوح المترفّعين عن المادّة.
(٦) سمات الحدثان: السِّمة: العلامة، والحدثان: أي ما هو محدث ومخلوق، أي هو منزه عن علامات المخلوقات.
(٧) المتوسط: أي الوسيط.

جسمانيًا[١]. وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من ربِّ الأرباب، والجسمانيّ بشر مثلنا يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في الصورة والمادّة.

قالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣٤].

وقالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرّب إليه بالمتوسّطات المقرّبين لديه، وهم الروحانيون المقدّسون المطهّرون، جوهرًا وفعلًا وحالة[٢].

أما الجوهر، فهم المقدّسون عن الموادّ الجسمانية، المبرّؤون عن القوى الجسدانية، أي منزّهون عن الحركات المكانية، والتغييرات الزمانية، قد جُبلوا على الطهارة، وفُطروا[٣] على التقديس والتسبيح: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: الآية ٦].

وإنما أرشدنا إلى هذا معلّنا الأوّل، عاذيمون، وهُرْمُس، فنحن نتقرّب إليهم، ونتوكّل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند ربّ الأرباب، وإلـٰه الآلهة؛ فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات. فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبأ[٤] في جميع أمورنا إليهم؛ فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم، وهذا التطهير والتهذيب ليس إلّا باكتسابنا، ورياضتنا، وفِطامنا لأنفسنا عن دَنِيّات الشهوات، باستمداد من جهة الرّوحانيات، والاستمداد هو التضرّع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات والمشروبات، وتقريب القرابين[٥] والذبائح، وتبخير البَخُورات[٦]، وتعزيم العزائم[٧]، فيحصل لنفوسنا استعداد أو استمداد من غير واسطة، بل يكون حكمنا وحكم من يدّعي الوحي[٨] واحدًا.

---

(١) جسمانيًا: يعنون به المادة، لأن الجسم يتألف من «مادة» و«روح».
(٢) الحالة: ما كان عليه الإنسان أو الحيوان أو الشيء من هيئة وصفات.
(٣) فطروا: ولدوا، والفطرة: صفة الإنسان الطبيعية.
(٤) نصبأ: ندين ونعتمد، والصابئة: الذين يعبدون النجوم على مذهب نوح عليه السلام كما يزعمون.
(٥) القرابين: ما يُتقرب به إلى الله من ذبيحة أو غيرها.
(٦) البخورات: أصماغ ونباتات ذات رائحة طيبة يتبخّر بها.
(٧) تعزيم الغرائم: قراءة الرُّقى.
(٨) الوحي: ما يُوحى به من الله إلى الأنبياء.

قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع، وأشكالنا في الصورة، ومشاركونا في المادّة، يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، ويساهموننا في الصورة، أناس بشرٌ مثلنا، فمن أين لنا طاعتهم، وبأيّة مزية لهم لَزْم مشايعتهم؟[١] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣٤].

قالوا: وأما الفعل، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع، والإيجاد، وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال، يستمدّون القوّة من الحضرة[٢] القدسية، ويفيضون الفيض[٣] على الموجودات السفلية.

فمنها: مدبّرات الكواكب السبعة السيّارة في أفلاكها، وهي هياكلها، فلكلِّ روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحانيّ إلى ذلك الهيكل الذي اختصّ به نسبة الروح إلى الجسد، فهو ربّه ومديره ومدبّره.

وكانوا يسمون الهياكل أربابًا وربما يسمونها آباء، والعناصرَ[٤] أُمّهاتٍ.

ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات فتتبعها قوًى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان. ثم قد تكون التأثيرات كليّة[٥] صادرة عن روحانيّ كلّي، وقد تكون جزئية[٦] صادرة عن روحانيّ جزئيّ، فمع جنس المطر ملك، ومع كل قطرة مَلَك.

ومنها: مدبّرات الآثار العلويّة الظاهرة في الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبَرَد والرياح، وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشُّهُب؛ وما يحدث في الجوّ من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُزَح وذوات الأذناب[٧]

---

(١) مشايعتهم: اتباعهم والتزام مواقفهم.

(٢) الحضرة القدسيّة: أي من الذّات الإلهية لقربهم منها ووجودها معهم.

(٣) الفيض: وهي نظرية فلسفيّة تقول: بإشراق العالم وفيضه عن الله ويفيضون الفيض: أي يشرقون على الناس بأنوار الله.

(٤) العناصر: جمع عُنصر، وهو الجسم البسيط الذي لا يستحيل إلى جسم آخر.

(٥) كلّيّة: جمعها كلّيّات، وهي الفلسفة: الحقائق التي لا تقع تحت حكمَ الحواس بل تدرك بالعقل والمنطق.

(٦) جزئية: جمعها جزئيات، وهي ما يقع تحت حكم الحواس.

(٧) ذوات الأذناب: أي المذنّبات، وهي نجومٌ لها أذناب.

والهالة[١] والمَجَرّة[٢]، وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلى غير ذلك.

ومنها: متوسّطات القوى السارية[٣] في جميع الموجودات، ومدبّرات الهداية[٤] الشائعة في جميع الكائنات، حتى لا ترى موجودًا ما خاليًا عن قوّة وهداية، إذا كان قابلًا لهما.

قالوا: وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الرَّوْح[٥]، والرَّيْحان[٦]، والنّعمة، واللذّة، والراحة، والبهجة، والسرور في جوار ربّ العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد، وأُنسهم بذكر الله وطاعته، فمن قائم وراكع وساجد، ومن قاعد لا يريد تبدّل حالته لما هو فيه من النعمة واللذّة، ومن خاشع بصره لا يرفع، ومن ناظر لا يغمض، ومن ساكن لا يتحرّك، ومتحرّك لا يسكن، وكَرُوبيّ[٧] في عالم القبض، وروحانيّ في عالم البسط ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التّحريم: الآية ٦].

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء[٨] في المفاضلة بين الروحانيّ المحض[٩] والبشرية النبوية، ليس هذا موضع إيرادها.

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل، تلو ما ذكرناه من عبّاد الروحانيات ومحتجّاتهم![١٠]

١٨ ـ ذكر بيوت الهياكل وأماكنها ونسبتها إلى الكواكب

قالوا: ثم لم تقتصر الصابئة على التقرّب إلى الروحانيات بأعيانها، والتلقّي بذواتها حتى اتخذوا أصنامًا على هيئة الكواكب السبعة، وجعلوا لها بيوتًا، وسمَّوْا

(١) الهالة: دارة القمر، أو دائرة من الضوء تحيط بجرم سماوي.
(٢) المجرّة: نجوم بعيدة جدًا لا ترى ولكن يدرك أثر ضوئها في السّماء.
(٣) القُوى: العقل.
(٤) الهداية: الدّلالة على ما يوصل به إلى المطلوب من معتقدٍ وغيره.
(٥) الرّوح: الراحة والرحمة.
(٦) الرّيحان: الرزق والرحمة، والريحان: كل نبات طيّب الرائحة.
(٧) الكروبيون: سادة الملائكة المقرّبون الكروبي المقرّب وكرب الأمر: دنا. «الملل والنّحل/ ٢٩٤».
(٨) الحنفاء: من كان على دين إبراهيم في الجاهلية، والدّين الحنيف بعد الجاهلية: هو الإسلام.
(٩) المحض: الخالص الصافي الذي لا يخالطه شيء آخر.
(١٠) محتجّاتهم: أي ما يحتجّون به من القرائن تدليلًا على صواب معتقداتهم وشرحها.

البيوتَ بالهياكل، وجعلوا الهياكل بيوت الأفلاك للكواكب، وعظَّموا هذه الأصنام التي صنعوها، وزعموا أنهم إذا عظُموها تحرّكت لهم الكواكب السبعة العلويّة بكل ما يريدون.

وحكى المسعوديّ[١] في كتابه المترجم بـ مروج الذهب ومعادن الجوهر أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زُحَل، وإنما طال بقاء هذا البيت على مرور الدهور، معظمًا في سائر العصور، لأن زُحَل تولّاه؛ إذ من شأنه الثبوت.

ومن البيوت المشهورة:

بيت على رأس جبل أصفهان[٢]، يسمّى مارس[٣]، ثم اتخذه بعض ملوك المجوس[٤] بيت نار؛ وبيت ببلاد الهند؛ وبيت ببلخ[٥]، بناه منوشهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدانته[٦] يسمونه برمك، وإليه تنسب البرامكة؛ وبيت غُمْدان[٧] باليمن، بناه الضحّاك على اسم الزُهرة؛ وبيت بفَرْغانة[٨]، على اسم الشمس، يعرف بكاوسكان، بناه كاوس أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد بالله[٩]؛ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل بن يافث، وقيل: بناه بعض ملوك الترك.

---

(١) المسعودي: هو عليّ بن الحسين، أبو الحسن، من ذرّيّة عبد الله بن مسعود، وهو مؤرّخ رحّالة، من كتبه «مروج الذّهب» أقام بمصر وتفوي فيها سنة ٩٥٧ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٧٧».

(٢) أصفهان: أو أصبهان، وهي أشهر بلاد الجبال وأصلها بالفارسيّة «سباهان» وسباه: معناه عسكر، وهان: الجمع، وكانت مجتمع العساكر. «إعجام الأعلام ص ٢٠٦».

(٣) راجع الشهرستاني الملل والنّحل (ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٤) المجوس: طائفة يعبدون النّار أو الشّمس.

(٥) بلخ: هي مدينة في مستوٍ من الأرض، ولها نهر يسمّى الدّهّاش يجري في ربضها، وبها الأترج وقصب السكر، وتقع في نواحيها الثلوج. «صبح الأعشى ٤/ ٣٩٥».

(٦) السّدانة: الخدمة.

(٧) غُمدان: قصر في اليمن بناه كما يقول ابن الكلبي: لِيَشرح بن يحصُب، وقيل: بناه سليمان عليه السلام وهو واحد من قصور ثلاثة لبلقيس، وقد هدمه عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فقيل له: إنّ كهّان اليمن يزعمون أن الذي يهدمه يقتل، فأمر بإعادة بنائه. «معجم البلدان ٤/ ٢١٠، ٢١١».

(٨) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان، ويقال: إنّ أنوشروان قد بناها، ونقل إليها من كلّ أهل بيت واحدًا وسمّاها«أزهر خانه» أي من كلّ بيت. «معجم البلدان ٤/ ٢٥٣».

(٩) المعتضد بالله: هو الخليفة العباسي السادس عشر، أبو الفتح، أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الرّبيع سليمان، توفي في العاشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وقال الشهرستاني: إن الذي خرّبه هو المعتصم. «صبح الأعشى ٣/ ٢٨٠».

وحكى غير المسعودي أن البيت الأول الكعبة، ويذكرون أن إدريس عليه السلام أوصى به، وأوصى أن يكون الحجّ إليه وهو عندهم بيت زحل، والبيت الثاني وهو بيت المرّيخ، يزعمون أنه كان بصور من الساحل الشامي[١]؛ والبيت الثالث وهو بيت المشتري، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأمويّ؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية إلى وقتنا هذا[٢]؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمَنْبِج[٣] وخرِب؛ والبيت السادس بيت عُطارد، وكان بصَيْدا من الساحل الشاميّ وخَرِب؛ والبيت السابع وهو بيت القَمَر، كان بحرّان[٤]، وهو بيت الصابئة الأعظم.

الباب الخامس

من القسم الأوّل من الفن الأول

١ - في الكواكب الثابتة

ذهب بعض مَن تكلّم في ذلك أن هذه الكواكب معلّقة في سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور.

وقال آخرون: إنها معلّقة بأيدي ملائكة، وفسّر بهذا القول قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفِطار: الآيتان ١، ٢]، يقال: انتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة.

وهذه الكواكب في سماء الدنيا بنصّ الكتاب العزيز؛ لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: الآية ٥].

---

(١) الساحل الشّامي: حاليًا اللبناني، وصور مدينة لبنانية على الساحل الجنوبي اللبناني، وسمّي الساحل الشامي: نسبة إلى الشّام.

(٢) زالت هذه الآثار الآن.

(٣) منبج: بالفتح ثمّ السكون، بلد قديم، وهو موطن البحتري وأبي فراس، وهي مدينة كبيرة ذات خيرات وأرزاق، وهي لصاحب حلب. «معجم البلدان ٥/ ٢٠٦».

(٤) حرّان: بتشديد الرّاء، قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم، قيل: سمّيت بهاران أخي إبراهيم عليه السّلام لأنّه أوّل من بناها فعرّبت فقيل حرّان، والحرّان: العطشان. «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

وقال قتادة[١]: خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة: جعلها زينة للسماء، ورجومًا[٢] للشياطين، وعلامات يُهتدى بها في البرّ والبحر، فمن تأوّل[٣] غير هذا فقد أخطأ.

قالوا: وإنما سُمِّيت بالثّوابت، وإن كانت متحرّكة لأنها ثابتة الأبعاد على الأبد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا تتغيّر عن جهاتها؛ لأنها تتحرّك بحركتها الطبيعية حول قطبي[٤] العالم، ولهذا سُمِّيت ثابتة، وهي في فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيّارة، ودليل ذلك أنّ للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه.

٢ ـ ذكر ما يتمثّل به ممّا فيه ذكر الكواكب

يقال: أنْأى من كوكب؛ أبعد من مَنَاط النجم[٥]؛ أهدى من النجم.

ومن أنصاف الأبيات:

* وأيْـنَ نَـزِيـلُ الأَرضِ عِـنـد الـكَـواكِـبِ؟ *

* وأَيْـنَ الـثُّـرَيَّـا مِـنْ يَـدِ الـمُـتَـنـاوِلِ؟ *

* والكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقي الأرضَ أحْيَانَا *

ومن الأبيات قول أبي تمَّام عفا الله عنه: [من الكامل]

كالنَّجْم إن سافَرْتَ كان مُوَاكِبًا ... وإذا حَطَطْتَ الرحْلَ كان جَلِيسا[٦]

وقال أبو نُوَاس: [من مجزوء الكامل]

أيـنَ الـنُّـجُـومُ الـثَّـابِـتـا ... تُ مِـنَ الأَهِـلَّةِ والـبُـدورِ؟

---

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة، أبو الخطّاب السّدوسي الأعمى، الحافظ، المفسّر مات سنة ١١٨ هـ. «الكاشف ٢/ ٣٤١».

(٢) الرجوم: شهبٌ تظهر في السّماء وكأنها نجوم تتساقط، والرّجم: حجارة يرجم بها.

(٣) تأوّل: فسّر، وقدّر الكلام فأخرج معانيه الخفيّة أو البعيدة.

(٤) قطبي العالم: وهما القطب الشّمالي، والقطب الجنوبي.

(٥) المناط: مكان التعليق، ومناط النجم: مكانه الذي يظهر فيه.

(٦) الرّحل: ما يوضع على ظهر الدّابة، ويريد هنا: حططت الرّحل: أي نزلت للإقامة.

وقال آخر: [من الوافر]

وكُنَّا في اجْتِماعٍ كالثُّريَّا فصِرْنا فُرْقةً كبَنات نَعْش![١]

وقال آخر: [من الكامل]

كالفَرْقَدَيْنِ إذا تأمَّلَ ناظِرٌ لم يُعْلِ موضِعَ فَرْقدٍ من فَرْقدِ[٢]

وقال الوزير أبو الفتح البُسْتيّ[٣]: [من الطويل]

ولِلنَّجْمِ من بَعْدِ الرُّجُوع اسْتِقامةٌ وللشَّمْسِ من بَعْد الغُرُوب طُلُوعُ

وقال جَحْظَةُ[٤]: [من مجزوء الكامل المرفّل]

مِثْلُ الَّذي يَرْجُو البُلو غَ إلى الكَواكب وهو مُقْعَدْ

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من الخفيف]

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْرَكَ اللهَ! كَيْفَ يَلْتَقِيانِ؟[٥]

هِيَ شامِيَّةٌ إذا ما اسْتَهَلَّتْ وسُهَيْلٌ إذا استهَلَّ يَمَانِي

وقال آخر: [من الوافر]

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه لعَمْرُ أبِيكَ، إلَّا الفَرْقَدانِ![٦]

---

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبّهت بحملة النّعش.

(٢) الفرقد: نجمٌ قريب من القطب الشمالي.

(٣) هو عليّ بن محمّد بن الحسين، أبو الفتح، شاعر عصره وكاتبه، ولد في بست «قرب سجستان»، وإليها نسبته، كان من كتّاب الدولة السامانية في خراسان، له ديوان شعر مطبوع توفي في بلدة (أوزجند) ببخارى عام ١٠١٠ م. «فهرس الأعلام ٤/٣٢٦».

(٤) هو أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيىٰ بن خالد بن برمك، المعروف بجحظة البرمكي، النديم، أبو الحسن، لقبه ابن المعتز بذلك اللقب، فلزمه مليح الشعر، حاضر النادرة، متقن للموسيقى والغناء توفي سنة ٩٣٦ م. «وفيات الأعيان ١/١٣٣، وفهرس الأعلام ١/١٠٧».

(٥) الثّريا: مجموعة من الكواكب، وسهيل: نجمٌ في السّماء.

(٦) الفرقدان: مثنّى فرقد، وهو نجم في القطب الشمالي، والفرقدان: نجمان في السّماء لا يغربان، ولكنّهما يطوفان بالجدي. «اللّسان مادة: فرقد».

٣ ـ ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ابن حَجّاج[١] في المَجَرّة: [من الكامل]

يا صاحِبَيَّ اسْتَيْقِظَا من رَقْدةٍ تُزْرِي على عَقْلِ اللَّبِيبِ الأكْيَسِ![٢]
هذي المَجرّةُ والنُّجومُ كأنَّها نَهْرٌ تَدَفَّق في حَديقةِ نَرْجِسِ![٣]

وقال آخر: [من الخفيف]

وكأنَّ المَجَرّ جَدْولُ ماءٍ نَوّرَ الأُقْحُوانُ في جانِبَيْهِ

وقال المهذب بن الزبير فيها[٤]: [من الكامل]

وتَرى المَجَرَّةَ والنُّجومَ كأنَّها تَسْقِي الرياضَ بجَدْولٍ ملآنِ
لو لم يكُنْ نَهْرًا، لما عامَتْ بِهِ أَبَدًا نُجُومُ الحُوت والسَّرطَانِ[٥]

وقال أبو هِلال العسكريّ: [من البسيط]

تَبْدُو المَجَرَّةُ مُنْجَرًّا ذوائبُها كالماء يَنْساحُ أو كالأَيْم يَنْسابُ[٦]

وقال هشام بن إلياسَ في الجوزاء: [من الكامل]

فكأنَّما جَوْزاؤه في غَرْبِها بَيضاءُ سابحةٌ ببركة زِئبَقِ[٧]
وكأنَّما أوْمتْ ثلاثُ أنامِلٍ منها تَقُول: إلى ثلاثٍ نلتَقي!

وقال آخر: [من الخفيف]

وكأنَّ الجَوْزاءَ لَمَّا اسْتَقَلَّتْ وتَدَلَّتْ، سُرادِقٌ مَمْدُودُ[٨]

---

(١) ابن حجّاج: هو حسين بن أحمد، أبو عبد الله، شاعر فحل من كتاب العصر البويهي، غلب عليه الهزل، وفي شعره عذوبة وسلاسة توفي سنة ١٠٠١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٣١».
(٢) الأكيس: العاقل.
(٣) النّرجس: نباتٌ من الرياحين، أصلُه بصل صغار، له زهرٌ أبيض مستدير.
(٤) هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير، أبو محمّد، الملقّب بالمهذب، شاعر من أهل أسوان، توفي بالقاهرة سنة ١١٦٦ م، كان أشعر أهل مصر في زمانه. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٠٢».
(٥) الحوت والسّرطان: من أبراج النجوم.
(٦) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر مقدّم الرأس، والأيم: ضربٌ من الحيات.
(٧) الجوزاء: برج من بروج السّماء.
(٨) السّرادق: بيت من شعر يمدّ فوق ساحة الدّار.

وقال العلويّ[١] فيها أيضًا: [من السريع]

هـا إنَّـهـا الـجَـوْزاءُ فـي أُفْـقِـهـا واهِـيَـةٌ نـاعِـسَـةٌ تُـسْـحَـبُ
نِـطـاقُـهـا وَاهٍ لـدى أُفْـقِـهـا يَنْسَلُ منها كَوْكَبٌ كَوْكَبُ[٢]

وقال ابن وكيع[٣] فيها: [من مجزوء الرجز]

قُـمْ فـاَسْـقِـنـي صـافِـيَـةً تَـهْـتِـكُ جُـنْـحَ الـغَـسَـقِ![٤]
أَمَـا تَـرى الـصُّـبْـحَ بَـدَا فـي ثَـوْبِ لـيـلٍ خَـلَقِ؟[٥]
أمَـا تَـرى جَـوْزاءَهُ كـأنَّـهـا فـي الأُفُـقِ
مِـنْـطَـقَـةٌ مـن ذَهَـبٍ فَـوْق قَـبـاءٍ أزْرَقِ؟[٦]

وقال كعب الغَنَويّ[٧]: [من الطويل]

وقد مالَتِ الجَوْزاءُ حتى كأنَّها فَسَاطِيطُ رَكْب بالفَلَاة نُزُولُ[٨]

وقال امرؤ القيس في الثُّرَيَّا: [من الطويل]

إذا ما الثُّريَّا في السَّماء تعرّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ[٩]

وقال ابن الطَّثَرِيَّة[١٠]: [من الطويل]

إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماءِ كأنَّها جُمَانٌ وَهىٰ من سِلْكِهِ، فتبدّدَا[١١]

---

(١) لعلّه أبو البركات علي بن الحسين العلوي، أحد شعراء اليتيمة، اشتهر ببراعة أدبه، ويقول شعرًا صادرًا عن طبعٍ شريف وفكر لطيف. «يتيمة الدّهر ٤/ ٤٨٤».
(٢) النطاق: المدى، والنّطاق: ما تأتزر به المرأة في وسطها، والواهي: الضعيف.
(٣) هو أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي، شاعر بارع، وعالم جامع برع في شعره على أهل زمانه، ولم يتقدّمه أحدٌ في أوانه. «يتيمة الدهر ١/ ٤٣٤».
(٤) الغسق: الظلام، وتهتك جُنح الغسق: أي تشق أو تمزق ما أرخى من ظلام.
(٥) خلقٍ: بالٍ، وخلق الثوب: ملُس.
(٦) المنطقة: ما يشدّ به الوسط، والقباء: ثوبٌ يُلبس فوق القميص.
(٧) هو كعب بن سعد بن عمرو الغنوي، شاعر جاهلي، ومن شعراء معركة ذي قار، حيث قتل له أخوان فيها، توفي نحو سنة ٦١٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٧».
(٨) الفسطاط: البيت من شعر.
(٩) تعرّضت: التعرّض: الاستقبال، والأثناء: النواحي، والوشاح: سيرٌ من الجلد، والمفصّل: الذي فُصل بين خرزه بالذهب أو غيره.
(١٠) هو يزيد بن سلمة بن سمرة، شاعر مطبوع من شعراء بني أميّة، كان حسن الشعر، حلو الحديث، متلافًا للمال، وصاحب غزلٍ وظرف وشجاعة وفصاحة قتله بنو حنيفة سنة ٧٤٤ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٨٣».
(١١) الجُمان: اللؤلؤ، والسِّلك: الخيط الذي ينتظم حبّات العقد.

وقال المبرّد[١]: [من الطويل]

إذا ما الثُّريَّا في السَّماءِ تعرّضَتْ يَراهَا حَدِيدُ العَيْنِ ستَّةَ أنْجُم[٢]
على كَبِدِ الجَرْباء وَهْيَ كأنَّها جَبِيرةُ دُرٍّ رُكِّبتْ فَوْقَ مِعْصَمِ[٣]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الطويل]

فنَاولَنِيها، والثُّريَّا كأنَّها جَنَّى نَرْجِس حَيَّا النَّدامى بها السّاقِي

وقال أيضًا: [من الطويل]

كأنَّ الثُّرَيَّا في أواخِرِ لَيْلِهَا تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضَّضُ[٤]

وقال السلاميّ[٥]، شاعر اليتيمة فيها: [من الخفيف]

فسَمَوْنا، والفَجْرُ يَضْحَكُ في الشَّرْ قِ إلَيْنَا مُبَشِّرًا بالصَّبَاح
والثُّرَيَّا كرَايَةٍ أو لِجَام أو بَنانٍ أو طائرٍ أو وِشَاح
وكأنَّ النُّجومَ في يَدِ ساق يَتَهادَى تَهادِيَ الأقْداح

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

ولاحَتْ لِسارِيها الثُّرَيَّا كأنَّها على الأُفُقِ الغَرْبيّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ[٦]

وقال أبو نضلة: [من مجزوء الرّمل]

وتَأمَّلْت الثُّرَيَّا في طُلُوعٍ ومَغِيبِ
فتخَيَّرْتُ لَهَا التَّشْ بِيهَ في المَعْنى المُصِيبِ
وَهْيَ كَأْسٌ في شُرُوقٍ وهي قُرْطٌ في غُرُوبِ

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد، المعروف بالمبرّد، عالم نحوي مشهور وهو صاحب كتاب «الكامل في اللغة والأدب» ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٨٩٩ م. «راجع فهرس الأعلام ٧/ ١٤٤».

(٢) حديد العين: شديد البصر، وقويّه.

(٣) الجرباء: السّماء، والجبيرة: ما يشدُّ على العظم المكسور من عيدان أو نحوها.

(٤) النَّور: الزهر، واللّجام: سير تشدّ به الدابة.

(٥) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله السّلامي، من أشهر شعراء العراق قولًا بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق، ولد في كرخ بغداد سنة ٣٣٦ هـ. «يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٥».

(٦) القرط: ما يعلّق في شحمة الأذن من درٍّ أو ذهب أو فضّة أو نحوها.

وقال آخر: [من الطويل]

كـأنّ الـثُّـرَيَّـا هَـوْدَجٌ فَـوْقَ نـاقَـةٍ يَسِير بـهـا حادٍ مَعَ اللّيل مُزْعِجُ
وقد لـمعَتْ بَيْنَ النُّجوم كأنَّـها قَـوارِيرُ فـيـهـا زِئْبَـقٌ يَـتَـرَجْـرَجُ[١]

وقال ابن سكرة الهاشميّ[٢]: [من المنسرح]

تَـرَى الـثُّرَيَّا، والـغَـرْبُ يَـجْـذِبُـهـا والـبَـدْرُ يَـهْـوِي والـفَـجْـرُ يَـنْـفَـجِـرُ
كـفَّ عَـرُوسٍ لاحَـتْ خَـوَاتِـمُـهَـا أو عِـقْـدَ دُرٍّ فـي الـبَـحْـرِ يَـنْـتَـثِـرُ

وقال محمد بن الحسن الحاتميّ[٣]: [من الطويل]

وخِلْتُ الثُّرَيَّا كَفَّ عَذْراءَ طَفْلَةٍ مُـخَـتَّـمـةٍ بـالـدُّرّ مـنـهـا الأنـامِـلُ[٤]
تـخـيَّـلْتها فـي الـجوِّ طُرَّةَ جَعْبةٍ مُـلُوكـيَّـةٍ لـم تَـعْـتَـلِـقْـهـا حَـمَـائِلُ[٥]
كـأنَّ نِـبَـالًا سِـتَّـةً مـن لآلِيءٍ يُوَافِي بها في قُبَّةِ الأُفْقِ نابِلُ[٦]

وقال أحمد بن إبراهيم الضبّيّ[٧]، شاعر اليتيمة: [من مجزوء الرّجز]

خِـلْـتُ الـثـريَّـا إذْ بَـدَتْ طـالـعـةً فـي الـحِـنْـدِسِ[٨]
مُـرْسَـلـةً مـن لُؤْلُؤٍ أو بـاقـةً مـن نَـرْجِـسِ

---

(١) يترجرج: يضطرب ويتحرّك.
(٢) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي وهو من ولد علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، وهو شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، وأحد الفحول الأفراد. «يتيمة الدهر ٣/٣، وفيات الأعيان ٤/٤١٠».
(٣) هو محمد بن الحسن الحاتمي، أبو علي، أديب نقّاد، من أهل بغداد، من كتبه «الرسالة الحاتمية» توفي سنة ٩٩٨ م. «فهرس الأعلام ٦/٨٢».
(٤) الطَفلة: الرّخصة الناعمة.
(٥) الطّرة: الجبهة، وطرف كلّ شيء وحرفُه، والجَعبة: الكنانة، والوعاء التي تجعل فيه السّهام والحمائل: من السيف: أي عواتقه وأضلاعه وصدره. «اللسان: مادة حمل».
(٦) النابل: الذي يرمي بالنّبل.
(٧) هو أحمد بن إبراهيم الضبّي، أبو العبّاس، وزير فخر الدولة البويهي له شعرٌ رقيق، مات في بردجرد ودفن في مشهد الإمام الحسين سنة ١٠٠٨ م. «فهرس الأعلام ١/٨٦».
(٨) الحندس: الليل المظلم.

وقال أبو العلاء المعرّيّ في سُهيل: [من الخفيف]

وسُهَيْلٌ كوَجْنَة الحِبِّ في اللَّوْ ... ن وقَلْب المُحِبِّ في الخَفَقان

مُسْتَبِدًّا كأنَّه الفارِسُ المُعْـ ... ـلَمُ يُبْدُو مُعَارِضَ الفُرْسان[1]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الطويل]

وقَدْ لاحَ لِلسَّارِي سُهَيْلٌ كأنَّهُ ... على كُلِّ نَجْمٍ في السَّماءِ رَقيبُ!

وقال الشريف بن طباطبا[2]: [من الخفيف]

وسُهَيْلٌ كأنَّهُ قَلْبُ صَبٍّ ... فاجَأَته بالخَوْفِ عَيْنُ الرقيب[3]

وقال أبو عبادة البُحْتُرِيّ: [من الطويل]

كأنَّ سُهَيْلًا شَخْصُ ظمآنَ جانحٌ ... من اللَّيْلِ في نَهْرٍ من الماءِ يَكْرَع[4]

وقال ابن طباطبا: [من الطويل]

كأنَّ سُهَيْلًا، والنُّجُومُ أمامَه ... يُعَارِضُها، راعٍ أمامَ قطيعِ

وقال الشريف الرضيّ في الفرقدين: [من الطويل]

وهَبَّتْ لضَوْءِ الفرقَدَيْنِ نَواظري ... إلى أن بَدَا ضَوْءٌ من الفَجْرِ ساطِعُ

كأنَّهُما إلفانِ قال كِلَاهُمَا ... لشَخْصِ أخِيهِ: قُلْ فإنِّيَ سامعُ!

وقال آخر: [من الخفيف]

قُلْتُ للفَرْقَدَيْنِ واللَّيْلُ مُرْخٍ ... سِتْرَ ظَلْمائِه على الآفاقِ[5]

ابْقَيا ما بَقِيتُما سَوْفَ يُرْمىٰ ... بَيْنَ شَخْصَيْكُما بسَهْمِ الفِراق!

---

(١) المُعلَم: الفارس الذي يشار إليه بأنّه فارس الكتيبة.

(٢) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم، نقيب الطالبيين بمصر، وأحد الشعراء المترقين في الزّهد والغزل، ولد في مصر وتوفي فيها سنة ٩٥٦ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٨، وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٢».

(٣) الصبّ: العاشق، والرقيب: الحارس الذي يحمي الحريم.

(٤) يكرع: الذي يتناول الماء بفيه من موضعه، والجانح: المائل، والجانب.

(٥) الفرقدان: نجما القطب.

وقال القاضي التنُوخيّ[١]: [من البسيط]

وأشقر الجوّ قد لاحتْ كواكبُه فيه كدُرٍّ على الياقوت مَنْثُور

وقال القاضي الفاضل[٢]، عبد الرحيم من رسالة:

«سِرْنا، وروضةُ السماء فيها من الزهر زَهَر، ومن المجرّة نَهَر؛ والليل كالبَنَفْسَج تخلّله من النجوم أَقَاح، أو كالزَّنج[٣] شعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب لا مُعَرّس[٤] لها دون الصَّباح؛ وسهيل كالظمآن تدلّى إلى الأرض ليشرب، أو الكريم أَنِفَ من المُقام بدار الذُّل فتغرّب؛ فكأنّه قَبَسٌ[٥] تتلاعب به الرّياح، أو زينة قدمها بين يَدَي الصباح؛ أو ناظر يغُضُّه[٦] الغيظ ويفتحه، أو معنًى يغمضه الحسن ثم يشرحه؛ أو صديقٌ لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيبٌ على المواكب مُواكِب؛ أو فارسٌ يحمِي الأعقاب[٧]، أو داع به إليها وقد شَرَدت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب؛ أو الشجرة المنوّرة، أو الحبرة[٨] المصوّرة، والثريَّا قد همَّ عُنقودها أن يتدلَّى، وجيش الليل قد همَّ أن يتولّى».

(١) هو القاضي التنوخي، أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم، من أعيان أهل العلم والأدب، كان يتقلّد قضاء البصرة والأهواز، ورد على سيف الدولة فأكرمه، جيد الشعر وحسن الذكر. «يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٣».

(٢) هو القاضي الفاضل عبد الرحيم بن القاضي الأشرف، صاحب ديوان الإنشاء، وأحد الشعراء والكتّاب المجيدين، وصاحب الطريقة الفاضلية في الكتابة. «وفيات الأعيان ٣/ ١٥٨».

(٣) الزَّنج: قومٌ من السّودان، مفردها زنجي.

(٤) المعرّس: المكان ينزل فيه المسافر آخر الليل.

(٥) القبس: الضوء، أو النار.

(٦) يغضُّه: يجعله يطرق ويغضي.

(٧) الأعقاب: من الجنود المؤخرة، أو هو يحمي ظهورهم.

(٨) الحبرة: نوع من الثياب القطنية أو الكتانيّة المخطّطة، اشتهرت اليمن بصناعتها.

القسم الثاني
من الفن الأوّل في الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل
من القسم الثاني من الفن الأوّل

١ ـ في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثَّلْجِ والبَرَد

والسحاب من الآثار العلويّة.

روى أبو الفرج بن الجوزيّ[١] بإسناد يرفعه إلى عبيد ابن عمير[٢]، أنّه قال: يبعث الله ريحًا فتقُمُّ[٣] الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السّحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتمجُّه، في السحاب، ثم يَمْرِيه[٤] فيَدِرُّ كما تدرّ اللِّقْحة[٥].

وقد رُوِيَ في الأثر أنّ الرياح أربع: ريح تَقُمّ، وريح تُثِير، فتجعله كِسَفًا[٦]؛ وتريح تؤلِّف، فتجعله رُكامًا[٧]؛ وريح تُمْطر.

ورُوِيَ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: إن الله تعالى يرسل الرياح فتُثِير سحابًا، وينزل عليه المطر فتتمخّض[٨] به الريح كما تمخص النَّتوج[٩] بولدها.

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، علّامة عصره في التاريخ والحديث، ونسبته إلى مشرعة الجوز في بغداد، توفي سنة ١٢٠١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١٦».

(٢) هو عبيد بن عمير الليثي قاصّ مكة، ذكر ثابت البناني أنه قصّ على عهد عمر، مات سنة ٦٨ هـ. «الكاشف للذهبي ٢/ ٢٠٩».

(٣) تقمّ الأرض: تكنسها.

(٤) يمريه: أمرى الضّرع: درّ لبنها واستخرجه.

(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٦) الكسف: الحاجب، وكسفت الشمس: احتُجبت، وكسف الشيء: غطّاه.

(٧) الرُّكام: الشيء يتراكم بعضه فوق بعض، كتراكم السحاب.

(٨) تتمخّض: تتحرّك.

(٩) النتوج: الحامل، يقال للناقة وغيرها نتوج.

ورُوِيَ عن عكرمة[١] رضي الله عنه أنّه قال: يُنزل الله الماء من السماء السابعة فتقع القطرة على السحاب مثل البعير، والسحابُ للمطر كالغربال ينزل منه بِقَدَر، ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض.

وقال الزمخشريّ[٢] في تفسيره: السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر، ويؤيّد ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٣].

٢ ـ ذكر ما قيل في ترتيب السحاب وأسمائه اللغوية وأصنافه

قال أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبيّ[٣] في فقه اللغة، ينقله عن أئمّتها:

أوّل ما ينشأ السحاب، فهو نَشْء.

فإذا انسحب في الهواء، فهو السّحابُ.

فإذا تغيَّرت وتغمَّمت له السماء، فهو الغَمَام.

فإذا كان غيم ينشأ في عُرْض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العَقْر.

فإذا أطلّ وأظلّ السماء، فهو العارِضُ.

فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو العَرَّاصُ.

فإذا كانت السحابة قِطَعًا صغارًا متدانيًا بعضُها من بعض، فهي النَّمِرَةُ.

فإذا كانت متفرّقة، فهي القَزَعُ.

فإذا كانت قطعًا متراكمة، فهي الكِرْفِىءُ (واحدتها كِرْفِئَة).

فإذا كانت قطعًا كأنها قطع الجبال، فهي قَلَعٌ، وكَنَهْوَرٌ (واحدتها كَنَهْوَرَةٌ).

---

(١) لعلّه عكرمة أبو عبد الله المفسّر، محدّث ثقة، قال الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة مات سنة ١٠٦ هـ وقيل: ١٠٧ هـ. «الكاشف ٢/٢٤١».

(٢) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب، جاور في مكة زمنًا له مؤلّفات عديدة توفي في الجرجانية من قرى خوارزم سنة ١١٤٤ م. «فهرس الأعلام ٧/١٧٨».

(٣) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، ولد في نيسابور سنة ٣٥٠ هـ، عالم باللغة والأدب والتاريخ، واسمه الثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب توفي سنة ١٠٣٨ م. «راجع فقه اللغة للثعالبي، دار الكتب العلمية بيروت».

فإذا كانت قطعًا رِقاقًا، فهي الطَّخَارِيرُ (واحدتها طُخْرُورٌ).

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلَةٌ.

فإذا كانت سوداء، فهي طَخْياءُ، ومُتَطَخْطِخَة.

فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُخَيِّلة.

فإذا غَلُظ السحاب وركب بعضُه بعضًا، فهو المُكْفَهِرّ.

فإذا ارتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ.

فإذا تقطّع في أقطار السماء وتلبَّدَ بعضُه فوق بعض، فهو القَرِدُ.

فإذا ارتفع وحمل الماء وكَثُف وأَطْبَق، فهو العَمَاء، والعَمَاية، والطَّخَاء، والطَّخَاف، والطَّهَاء.

فإذا اعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحَبِيُّ.

فإذا عنّ، فهو العَنَان.

فإذا أظلّ الأرض، فهو الدَّجْن.

فإذا اسودّ وتراكب، فهو المُحْمَوْمِي[(١)].

فإذا تعلّق سحاب دون السُّحاب، فهو الرَّبَاب.

فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغِفَارَةُ.

فإذا تدلّى ودنا من الأرض مثل هُدْب القَطِيفة[(٢)]، فهو الهَيْدَبُ.

فإذا كان ذا ماءٍ كثير، فهو القَنِيف.

فإذا كان أبيض، فهو المُزْن، والصَّبير.

فإذا كان لرعْده صوتٌ، فهو الهَزِيم.

فإذا اشتدّ صوتُ رعده، فهو الأَجَشُّ.

فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصُّرَّاد[(٣)].

فإذا كان ذا صوت شديد، فهو الصَّيِّب.

فإذا أهرق ماءه، فهو الجَهَام (وقيل: بل الجَهَام الذي لا ماء فيه).

---

(١) المحمومي: اسم فاعل من احمومى الشيء: إذا اسود، يوصف به نحو السّحاب والليل.

(٢) القطيفة: ثوب يلقيه الرجل على نفسه.

(٣) في فقه اللغة بعده: فإذا كان خفيفًا تسفرُه الريح فهو الزّبرج. «راجع فقه اللغة ص ٢٨٠، دار الكتب العلمية».

٣ ـ ذكر ما قيل في ترتيب المطر

قال الثعالبيّ رحمه الله: أخفُّ المطر وأضعَفُه الطَّلُّ، ثم الرَّذَاذُ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ ومثله الرَّكُّ، ثم الرِّهْمة.

ويقال أيضًا: أوّله رَشٌّ وطَشّ، ثم طَلٌّ ورَذَاذ، ثم نَضْح ونَضْخ، وهو قَطْرٌ بين قَطْرين، ثم هَطْل وتَهْتانٌ، ثم وابِلٌ وجَوْدٌ.

٤ ـ ذكر ما قيل في فعل السحاب والمطر

يقال إذا أتت السماءُ بالمطر اليسيرِ الخَفِيف: حَفَشت[١]، وحَشَكَت.

فإذا استمرّ قَطْرها، قيل: هَطَلتْ، وهَتَنَتْ.

فإذا صبَّت الماءَ، قيل: هَمَعت، وهَضَبتْ.

فإذا ارتفع صوتُ وَقْعها، قيل: انْهَلَّت، واستَهلَّتْ.

فإذا سالَ المطرُ بكثرة، قيل: انْكَسَبَ، وانْبَعَقَ.

فإذا سال يركب بعضُه بعضًا، قيل: اثْعَنْجَرَ، واثْعَنْجَجَ.

فإذا دام أيامًا لا يُقْلِع[٢]، قيل: أَثْجَم، وأَغْبَط، وأَدْجَنَ.

فإذا أقْلع، قيل: أَنْجَمَ، وأَفْصَمَ، وأَفْصَى.

٥ ـ ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب: أوّل ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء، فاسمه الخَرِيفُ، ثم يليه الوَسْمِيّ[٣]، ثم الرَّبيع، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم[٤].

وقيل: المطر الأوّل هو الوَسْمِيّ، ثم يَلِيه الوَلْيُ[٥]، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم.

---

(١) كذا في فقه اللغة، وفي اللسان مادة «حفش» حفشت السّماء تحفش حفشًا: جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت، ومثله حشكت وأغبّت، فالحفشة والحشكة والغبّة بمعنى واحد.

(٢) يقلع: ينقطع.

(٣) الوسميّ: مطر أوّل الربيع.

(٤) الحميم: الماء الذي يأتي بعد اشتداد الحرّ.

(٥) الولي: المطر بعد المطر.

٦ ـ ذكر أسماء المطر اللغوية

قال الثعالبيّ:

إذا أحيا الأرض بعدَ موتها، فهو الحَيَا.

فإذا جاء عقيبَ المَحْل أو عند الحاجة إليه، فهو الغَيْثُ.

فإذا دام مع سكون، فهو الدِّيمةُ. والضَّرْب فوق ذلك قليلًا، والهَطْلُ فوقه.

فإذا زاد، فهو الهَتَلَان[١]، والهَتَّان، والتَّهْتانُ.

فإذا كان القطر صغارًا كأنه شَذْرٌ[٢]، فهو القِطْقِطُ.

فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي الرِّهْمَةُ.

فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهي الغَبْيَة، والحَفْشَة، والحَشْكَة.

فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهي الذِّهَابُ، والهَمِيمَةُ[٣].

فإذا كان المطر مستمرًّا، فهو الوَدْق.

فإذا كان ضَخْمَ القَطْر شديدَ الوَقْع، فهو الوَابِل.

فإذا انْبَعَق بالماء، فهو البُعَاق.

فإذا كان يروي كل شيءٍ، فهو الجَوْد.

فإذا كان عامًّا، فهو الجَدَا.

فإذا دام أيّامًا لا يُقْلِع، فهو العَيْن.

فإذا كان مستَرْسِلًا سائِلًا، فهو المُرْثَعِنُّ.

فإذا كان كثير القطر، فهو الغَدَق.

فإذا كان شديد الوَقْع كير الصَّوْب، فهو السَّحِيفَةُ[٤].

فإذا كان شديدًا كثيرًا، فهو العِزُّ، والعُبَاب.

---

(١) في نسخة أخرى: فهو الهطلان. (٢) الشّذر: حبّات اللؤلؤ الصغار.

(٣) في فقه اللغة: فهي الذّهاب والهيمة، بإسقاط الميم الأولى، وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس. «راجع فقه اللغة ص ٢٨٤».

(٤) نقل صاحب اللّسان «مادة سحف» عن الأصمعي: إن السحيفة بالفاء المطرة الشديدة التي تجرف كل شيء، والسحيقة بالقاف: المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض، وهو عكس ما نقله النويري والثعالبي.

فإذا جرَف ما مرّ به، فهو السَّحيقَةُ[١].

فإذا قشرتْ وجه الأرض، فهي السَّاحِيَةُ.

فإذا أثّرت في الأرض من شدّة وقعها، فهي الحَرِيصةُ.

فإذا أصابت القطعةَ من الأرض وأخطأت الأُخرى، فهي النُّفْضَةُ.

فإذا جاءت المطرة لما يأتي بعدها، فهي الرَّصْدة، والعِهَادُ نحوٌ منها.

فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الوَلْيُ.

فإذا رجع وتكرّر، فهو الرَّجْعُ.

فإذا تتابَعَ، فهو اليَعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعات، فهي الشَّآبِيبُ.

٧ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبردُ من غِبٍّ[٢] المطر، أرقُّ من دَمْع الغمام، أسْرَعُ من السيل إلى الحُدُود، أطغى من السيل، أغْشَمُ من السيل، أمضى من السيل، يذهب يومُ الغيم ولا يُشْعَر به، قد بلغ السيل الزُّبَى[٣]، اِضطره السيل إلى مَعْطَشِه، أرِنيها نَمِره، أُريكَهَا مَطِره؛ سبق سيله مَطَرَه، قبل السحاب أصابني الوَكْف[٤].

ومن أنصاف الأبيات:

* هَلْ يُرْتَجَى مَطَرٌ بِغَيْرِ سَحَابِ *

* وأوَّلُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم يَنْسَكِبُ *

* سَحَابةُ صَيْفٍ عن قَرِيبٍ تَقَشَّعُ *

* فَدَرّكما دَرّ السَّحاب على الرَّعْدِ *

* أسْرَعُ السُّحْبِ في المَسِير الجَهَامُ *

* ومَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العارِضِ الهَطِلِ؟ *

---

(١) في فقه اللغة: ص ٢٨٤، السّحيتة. (٢) غبَّ يغِبّ غبًّا: جاء زائرًا بعد أيام.

(٣) الزّبى: جمع زبية الأسد، وهي حفرة تحفر له في مكان مرتفع ليصطاد، مثل يضرب في الشرّ المفظع. «المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ١٤، دار الكتب العلمية».

(٤) الوكف: العرق.

* سَحَابٌ عَدَانِي فَيْضُه وَهْوَ صَيِّبُ *
* يَحْسَبُ المَمْطُورُ أنْ كُلٌّ مُطِرْ *
* سالَ بِهِ السَّيْلُ وما يَدْرِي بِهِ *

ومن الأبيات قول الطائيّ: [من الكامل]

وكذا السَّحائبُ، قَلَّمَا تَدْعُو إلى مَعْرُوفِهَا الرُّوّادَ ما لم تَبْرُقِ(١)

وقال البحتريّ عُفي عنه: [من الكامل]

وٱعْلَمْ بأنَّ الغَيْثَ ليس بنافعٍ ما لم يَكُنْ لِلنَّاس في إبَّانِهِ(٢)

وقال أبو الطَّيِّب: [من البسيط]

لَيْتَ الغَمامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ يُزِيلُهُنَّ إلى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ!(٣)

وقال كُثَيِّر(٤): [من الطويل]

كما أبْرَقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْها، أقْشَعَتْ وتَجَلَّتِ

وقال آخر: [من الوافر]

أنَا في ذِمَّة السَّحابِ وأظما! إنَّ هذا لَوَصْمَةٌ في السَّحابِ!(٥)

وقال آخر: [من البسيط]

والله يُنْشِي سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النُّـ ـفُوسُ من قَبْل بَلِّ الأرْضِ بالمَطَرِ

---

(١) في ديوان أبي تمام: دار صعب ص ١٨٨ «إن لم تبرق» والمعروف: هنا المطر، وهو رمز الخير، والرّواد: جمع رائد، وهو الممهّد والسّبّاق.

(٢) إبّانه: أوانه.

(٣) الصواعق: جمع صاعقة، وهي النار الناتجة عن مجرى كهربائي بين سحابتين تسقط من السّماء، والدّيم: جمع دِيمة، وهي الغيمة الممطرة.

(٤) هو كُثَيِّر بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر المعروف بكُثَيِّر عَزَّة، شاعر متيّم، من أهل المدينة له ديوان شعر مطبوع توفي سنة ٧٢٣ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢١٩».

(٥) الوصمة: العار والعيب.

٨ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر

قال أبو تَمَّام الطائيّ: [من الرجز]

سَحَابَةٌ صادِقَةُ الأنْواءِ   تَجُرُّ أَهْدابًا على البَطْحَاءِ[١]
تَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحْكِ والبُكَاءِ   بَدَتْ بِنَارٍ وثَنَتْ بماءِ[٢]

وقال أبو عُبادة البُحْتُرِيّ عفا الله تعالى عنه: [من الرجز]

ذات ارْتِجاسٍ بِحَنِينِ الرَّعْدِ   مَجْرُورَة الذَّيْل صَدُوق الوَعْدِ[٣]
مَسْفُوحة الدَّمْعِ بِغَيْرِ وَجْدِ   لَهَا نَسِيمٌ كَنَسِيم الوَرْد[٤]
ورنَّةٌ مثل زئير الأُسْد   ولَمْعُ برقٍ كسيُوف الهِنْد
جاءتْ بها ريحُ الصَّبا من نَجْدِ   فانتثرتْ مثلَ انتثار العِقْد[٥]
وراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ   من وَشْيِ أنوار الثَّرَى في بُرْدِ[٦]
كأنما غُدْرانُها في الوَهْد   يَلْعَبْنَ تَرْحابًا بها بالرَّنْدِ[٧]

وقال أبو الحسن عليّ بن القاسم القاشانيّ[٨]، من شعراء اليتيمة عُفي عنه: [من المنسرح]

إذا الغُيُومُ ارْجَحَنّ باسِقُها   وحَفّ أرجاءَها بَوارِقُها[٩]
وعُبِّيتْ لِلثَّرَى كتائبُها   وانتصبتْ وسْطَها عَقائقُها[١٠]
وجَلْجَلَ الرعدُ بَيْنها فحكى   خَفْقَ طُبُولٍ ألَحَّ خافِقُها[١١]
وابتسَمتْ فَرْحةً لوامِعُها   واختلفَتْ عَبرةً حَمَالِقُها[١٢]

---

(١) الأنواء: الأمطار، والأهداب: الأطراف، والبطحاء: مكان متّسع منبسط يسيل فيه الماء.
(٢) أي بدأت بالبرق كناية عن النّار ثم تلاه المطر.
(٣) الارتجاس: الرّعد الشديد، وحنين الرّعد: صوته.
(٤) الوجد: العشق.
(٥) الصّبا: الريح الباردة تهبّ من الشرق.
(٦) الوشي: التطريز، والبُرد: الثوب.
(٧) الوهد: الأرض المنخفضة، والرّند: شجرٌ صغيرٌ طيّب الرائحة، أزهاره بيض صغار.
(٨) في اليتيمة ٢/ ٣٨٧ هو أبو القاسم علي بن القاسم القاشاني، بقيّة الكتاب المتقدمين في البراعة، المالكين لأزمّة البلاغة «وليس أبو الحسن».
(٩) أرجحن: حرّكن، وفي اليتيمة: «أرجفن».
(١٠) العقائق: جمع عقيقة: وهو السّهم الذي يرمى به نحو السّماء، وهي من البرق ضوؤه.
(١١) الخافق: الضارب.
(١٢) الحمالق: العيون.

وقيل: طُوبَى لبلدةٍ نُتِجتْ ... بِجَوٍّ أكنافِها بَوَارِقُها
أيّةُ نَعْماءَ لا تَحُلُّ بها؟ ... وأيُّ بأسَاءَ لا تُفارِقُها؟

وقال القاضي التّنوخيّ: [من الطويل]

سحابٌ أتى كالأَمْنِ بعد تَخَوُّفٍ ... له في الثّرى فِعْلُ الشِّفاء بمُدْنَفِ[١]
أكبَّ على الآفاقِ إكْبابَ مُطْرِقٍ ... يُفكِّرُ أو كالنّادم المُتلهف
ومَدَّ جناحَيْه على الأرضِ جانِحًا ... فراحَ عَلَيْها كالغُراب المُرَفْرِف
غدا البَرُّ بحرًا زاخِرًا وانثنى الضُّحى ... بظلْمته في ثَوْبِ ليلٍ مُسَجَّف[٢]
فعبَّسَ عن بَرْقٍ به مُتَبَسِّم ... عُبُوسَ بَخِيلٍ في تبسُّم مُعْتَفِ[٣]
تُحاوِلُ منه الشمسُ في الجوِّ مَخْرَجًا ... كما حَاوَلَ المغلوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَف[٤]

وقال ابن الروميُّ: [من الطويل]

سَحَائبُ قِيسَتْ بالبِلاد فأُلْفِيَتْ ... غِطاءَ على أغوارِهَا ونُجُودِهَا[٥]
حَدَتْها النُّعَامى مُقْبِلاتٍ فأقْبَلَتْ ... تَهادى رُوَيْدًا سَيْلُها كرُكُودِها

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

وبَرْقٍ سَرى، واللّيْلُ يُمْحَى سَوادُه ... فَقُلْتُ: سِوارٌ في مَعَاصِم أَسْمَرَا!
وقد سَدّ عُرْضَ الأُفْقِ غَيْمٌ تَخالُه ... يَزُرُّ على الدُّنيا قَمِيصًا مُعَنْبَرا[٦]
تَهادى على أيْدِي الجَنائبِ والصَّبَا ... كخِرْقٍ من الفِتْيانِ نازَعَ مُسْكرا[٧]
تَخالُ بِهِ مِسْكًا وبالقَطْرِ لُؤْلؤًا ... وبالرَّوْضِ ياقُوتًا وبالوَحْل عَنْبَرا
سَوَادُ غَمَام يَبْعَثُ الماءَ أبيضًا ... وغُرّة أرضٍ تُنبِتُ الزّهْرَ أَصْفَرا
أَتتْكَ بِهِ أَنْفَاسُ رِيح مَرِيضَةٍ ... كمُفْظَعة رَعْناءَ تَسْتاقُ عَسْكَرًا[٨]

---

(١) المدنف: المريض.
(٢) المسجّف: الذي غطّى بالسُّجف، وهي الستور.
(٣) المعتفي: طالب المعروف. (٤) المرهف: السّيف.
(٥) الأغوار: ما انخفض من الأرض، والنجود: ما علا منها.
(٦) يزرّ: شدّ الأزرار وأدخلها في العروة، يريد: يلبسها، والمعنبر: ذو الرائحة الطيبة المنبعثة عن العنبر وهو مادّة صلبة تنبعث منها رائحة طيبة إذا أُحرقت.
(٧) الخرق: الفتى الجاهل.
(٨) المفظعة: الشديدة الشنيعة، والرّعناء: الهوجاء.

فألقى على الغُدْرانِ دِرْعًا مُسَرَّدًا وأهدى إلى القِيعانِ بُرْدًا مُحَبَّرًا[١]
تَخال الحَيَا في الجَوّ دُرًّا مُنظَّمًا وفي وَجَناتِ الرَّوْضِ دُرًّا مُنَثَّرًا
وأقْبَلَ نَشْرُ الأَرْضِ في نَفَسِ الصَّبَا فباتَ بِهِ ثَوْبُ الهَوَاءِ مُعَطَّرا
إذا ما دَعَتْ فيه الرُّعُودُ فأسْمَعَتْ أجابَ حُدَاةً واستَهَلَّ فأغْزَرَا[٢]
ويَبْكِي إذا ما أَضْحَكَ البَرْقُ سِنَّهُ فيجْعَلُ نارَ البَرْق ماءً مُفَجَّرا
كأنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّباب خريدةً قد اتَّخَذَتْ ثِنْيَ السَّحابَةِ مِعْجَرا[٣]
فثغرٌ يُرِينا من بَعِيدٍ تَبَلُّجًا ودَمْعٌ يُرِينَا من بعيدٍ تَحَدُّرًا[٤]

وقال مؤيّد الدين الطُّغرائيّ[٥]: [من الرجز]

سارِيَةٌ ذاتُ عُبُوسٍ بَرْقُها يَضْحَك والأجْفانُ منها تَهْمِلُ[٦]
كَحُلَّةٍ دَكْناءَ في حاشِيَةٍ فيها طِرازٌ مُذْهَبٌ مُسَلْسَلُ[٧]
إذا دَنَتْ عِشَارُها، صاحَ بِهَا قاصِفُ رَعْدٍ وحدَتْها الشَّمْأَلُ[٨]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من البسيط]

ومُزْنَةٍ جاد من أجْفانها المطَرُ فالرَّوْضُ منتَظِمٌ والقَطْرُ منتَثِرُ[٩]
ترى مواقِعَهُ في الأرضِ لائحةً مِثْلَ الدَّراهِمِ تَبْدُو ثم تَسْتَتِرُ

(١) المسرّد: الدّرع فيه حلقات.
(٢) الحداة: الذين يسوقون الإبل وحدت الريح السّحاب: ساقته، واستهلّ: أمطر.
(٣) الرؤد: من الفتيات: الشابّات الحسناوات، والخريدة: البكر، والمعجر: الثوب تشدّه المرأة على رأسها.
(٤) التبلّج: الضوء الصادر عن الابتسامة، والتحدُّر: السقوط.
(٥) هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، شاعرٌ من الوزراء الكتاب، ولد بأصبهان، واتصل بالسلطان مسعود السلجوقي صاحب الموصل أشهر أشعاره لامية العرب، توفي سنة ١١٢٠ م. «فهرس الأعلام ٢/٢٤٦».
(٦) السارية: السحابة.
(٧) الحلّة: الثوب، والدّكناء: التي يميل لونها إلى السّواد.
(٨) العشار: يريد الحامل، والعشار: جمع عشراء: وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر.
(٩) المزنة: السحابة.

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ما ترى نِعْمَةَ السَّماء على الأر ضِ وشُكْرَ الرِّياضِ للأَمْطارِ؟
وكأنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوسًا وكأنَّا مِنْ قَطْرِهِ في نِثَارِ![1]

وقال ابن عوف الكاتب في إطباق الغيم وقُربه: [من مخلّع البسيط]

في مُزْنةٍ أطبقَتْ فكادَتْ تُصافِحُ التُّرْب بالغَمام

وقال آخر: [من المتقارب]

تَبَسَّمَتِ الرِّيحُ، ريحُ الجَنُو بِ فِيها هَوًى غالِبًا وادِّكارا[2]
وساقَتْ سَحَابًا كمِثْلِ الجبالِ إذا البَرْقُ أَوْمَضَ فيه، أَنَارَا[3]
إذا الرَّعْدُ جَلْجَلَ في جَانِبَيْـ ـهِ، رَوّى النَّباتَ وأَرْوى الصَّحارى
تُطَالِعُنا الشَّمْسُ مِنْ دُونِهِ طِلَاعَ فَتاةٍ تَخَافُ اشْتِهارا
تَخَافُ الرَّقِيبَ على نَفْسِهَا وتَحْذَرُ من زَوْجِها أن يَغَارَا
فتَسْتُرُ غُرَّتَهَا بالخِمَا رِ طَوْرًا، وطَوْرًا تُزِيلُ الخِمَارَا[4]
فلمَّا رآهُ هُبُوبُ الجَنُو بِ وانْهَمَرَ الماءُ فِيه انْهِمارا
تَبَسَّمَتِ الأَرْضُ لَمَّا بكَتْ عَلَيْهَا السَّماءُ دُمُوعًا غِزَارَا!

وقال الأسعد بن بُليطة[5] من شعراء الذُّخيرة: [من الكامل]

لَوْ كُنْتَ شاهِدَنا عَشِيَّةَ أَمْسِنا والمُزْنُ تَبْكِينا بعَيْنَيْ مُذْنِبِ
والشَّمسُ قد مَدَّتْ أَدِيمَ شُعَاعِها في الأَرْضِ تَجْنَحُ غَيْرَ أَنْ لم تَذْهَبِ
خِلْتَ الرَّذَاذَ بُرادةً مِنْ فِضَّةٍ قد غُرْبِلَتْ مِنْ فَوْقِ نِطْعٍ مُذْهَبِ![6]

(١) النثار: قراضة الذهب.
(٢) الادّكار: التذكُّر.
(٣) أومض: لمع.
(٤) الخمار: الستر، وهو ثوبٌ تغطي به المرأة رأسها.
(٥) هو الأسعد بن إبراهيم بن أسعد بن بلّيطه، أصله من حضرة قرطبة، وتردّد بأقطار الجزيرة شرقًا وغربًا، وكان بها في وقته أحد الغرائب، وأعجوبة في عيون العجائب، شاعر سرد المعاني أحسن سرد. «الذخيرة ٢/ ٧٩٠، ٧٩١».
(٦) البرادة: النثار، والنّطع: أديم من الجلد يفرش.

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها: [من الكامل]

راحَتْ تُذَكِّرُ بالنَّسِيم الرَّاحا وَطْفاءُ تَكْسِر للجُنُوحِ جَنَاحَا[١]
أخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلامُ فأَوْقَدَتْ من بَرْقها، كي تَهْتَدِي، مِصْبَاحَا
وكأنّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحَابِها حادٍ إذا وَنَتِ السحائبُ، صَاحَا[٢]
جادَتْ على التَّلَعَاتِ فاكتَسَتِ الرُّبا حُلَلًا أقامَ لها الرَّبِيعُ وِشَاحَا[٣]

وقال ابن بُرد الأصغر الأندلسيّ[٤] من شعرائها: [من المتقارب]

وما زِلْتُ أحْسَبُ فيه السَّحاب ونارُ بَوَارِقِهَا تَلْتَهِبْ
بَخَاتِيَّ تُوضِعُ في سَيْرِهَا وقد قُرِعَتْ بِسِياط الذَّهَبْ[٥]

ومما ورد في وصفها نثرًا

قال بعض الأنْدَلُسِيِّينَ من رسالة:

ثم أرسل الله الرياح من كنائنها، وأخرجها من خزائنها؛ فجرَّتْ ذيولَها، وأجرت خيولها؛ خافقة بنودُها، متلاحقة جنودُها؛ فأثارتِ الغمام، وقادَتْه بغير زِمام؛ وأنشأت بَحْرِيَّةً من السَّحاب، ذات أتراب وأصحاب؛ كثيرًا عددُها، غزيرًا مددُها، فبشَّرتْ بالقَطْر كلَّ شائم[٦]، وأنذرت بالوِرْد كلَّ حائم[٧]، والريح تَنُثُّها[٨]، والبرق يحثُّها، كأنه قضيب من ذهب، أو لسان من لهب؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد، ومن صوت الرعد حاد؛ والريح توسع بلُحْمتِها سَدَاها[٩]، وتُسْرع في حياكتها يداها؛ فلما التحم فَتْقُها، والتأم رَتْقُها؛ وامتدّت أشْطانها[١٠]، واتّسعت أعطانها[١١]؛ وانفسحت

(١) الرّاح: الخمر، ومن الأيام: الشديد الرّيح، والوطفاء: السّحابة تدلّت ذيولها.
(٢) ونت: ضعفت وأبطأ سيرها. (٣) التلعات: المرتفعات، والرّبا: الأعالي.
(٤) هو أحمد بن محمد بن برد، أبو حفص، شاعر أندلسي، من بلغاء الكتّاب توفي سنة ١٠٤٨ م. «فهرس الأعلام ١/٢١٣».
(٥) البخاتي: البخت والبختية: دخل في العربية، أعجمي معرّب، وهي الإبل الخراسانيّة، والبعض يقول: إن البُخت عربي. «اللسان مادة: بخت».
(٦) الشائم: الناظر والمتطلّع ببصره. (٧) الحائم: الطالب.
(٨) تنثها: تنشر عطرها.
(٩) السَّدى: من الثوب: ما مدَّ من خيوطه طولًا.
(١٠) الأشطان: مفردها الشّطن، وهو الحبل الطويل يُستقى به من البئر.
(١١) الأعطان: مفردها العطن: وهو مبرك الإبل، ومربض الغنم عند الماء.

أجنابها، وانسدلت أطنابها؛ وتهدّل خملها[١]، وتمخّض حملها؛ ومدّت على آفاق السماء نطاقَها[٢]، وزرّت على أعناق الجبال أطواقَها[٣]، كأنها بناء على الجوّ مقبوب، أو طَبَقٌ على الأرض مكبوب؛ تمشي من الثقل هَوْنًا، وتستَدْعِي من الريح عَوْنًا؛ ومخايلها تقوى[٤]، وعارضها أحوى[٥]، فلما أذن الله لها بالانحدار، وأنزل منه الوَدْق بمقدار، أرسلت الريحُ خُيوطَ القطر من رُود[٦] السحائب، وأسبلتها إسبال الذوائب؛ فدرَّت من خِلْفٍ مَصْرُور[٧]، ونثرت طلَّها نَثْر الدرور؛ ثم انخرق جيبُها، وانبثق سيبُها؛ وصار الخيط حبلًا، والطلُّ وَبْلًا، فالسحاب يتعلّق، والبرق يتألّق، والرعد يرتجس[٨]، والقطر ينبجس[٩]، والنُّقَط تترامى طِباقًا، وتتبارى اتّساقًا؛ فيَرْدِف السابقُ المصلّي[١٠]، ويتّصل التابع بالمولّي؛ كما يقع من المُنْخُل البُر، وينتثر من النظام[١١] الدُّرّ؛ فجيوب السماء تُسقطه، وأكفُّ الغُدْران تلقُطه؛ والأرض قد فَتَحت أفواهًا، وجَرَعت أمواهًا؛ حتى أخذت رِيَّها من المطر، وبلغت منه غاية الوطر، خفي من الرعد تسبيحه[١٢]، وطَفِئت من البرق مصابيحه، وحَسَرت السماء نِقابها، وولَّت المطر أعقابها؛ وحكت في ردّها طِلْق السابق[١٣]، وهَرَب الآبق[١٤].

ومن رسالة لمحمد بن شرف القيروانيّ[١٥]:

بريء عليل البرى، وأثرى فقير الثرى، وتاريخ ذلك انصرام[١٦] ناجِر، وقد بلغتِ القلوبُ الحناجر، محمارّةٌ احمرت لها خضرة السماء، واغبرَّت مِرْآة الماء،

---

(١) الخمل: شيء كالزغب على وجه الطنفسة يكون من أصل النسيج، والخملة: القطيفة وهي ثوب يلقيه الرجل على نفسه.
(٢) النطاق: ثوب تلبسه المرأة وتشدّ به وسطها، وواسع النطاق: مترامي الأطراف.
(٣) الأطواق: جمع طوق، وهو ما يحيط بالعنق.
(٤) المخايل: جمع مخيلة وهي من السّحب التي تحسب ممطرة وليست كذلك.
(٥) الأحوى: الذي خلط الحمرة بسواد.
(٦) الرّود: من الأغصان الرّطب الرخيص اللين.
(٧) الخلف المصرور: الضرع الذي شدّ بالصّرار لئلا يُرضع.
(٨) يرتجس: يشتدّ. (٩) ينبجس: ينهلّ ويتقطّر.
(١٠) المصلّي: الذي يتلو السابق من خيل السّباق.
(١١) النظام: السلك الذي ينتظم الدرّ في عقد.
(١٢) إشارة إلى الآية الكريم: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٣].
(١٣) طلق السابق: سرعته وانطلاقه. (١٤) الآبق: الهارب.
(١٥) هو محمد بن سعيد بن شرف الجذامي القيرواني، أبو عبد الله، كاتبٌ شاعر مترسّل، ولد في القيروان، توفي سنة ١٠٦٨ م. «فهرس الأعلام ٦/١٣٨».
(١٦) انصرام: مُضيّ، وناجر: شهر رجب أو صفر، وكلّ شهرٍ من شهور الصيف.

حتى انهلّ طالعَ وسْمِيّ، وتلاه تابع ولِيّ، دنا فأسفّ[١]، ووكَفَ[٢] فما كفَّ؛ فما فتىء مسكوبًا قَطْرُه، محجوبًا شمسه وبدرُه، وجليت عروسُ الشمس، معتذرةً عن مغيبها بالأمس؛ فعندها مُزِّق عن الدقعاء[٣] صحيحُ إهابها[٤]، واختُزِن دُرّ البر في أصداف ترابها، فما مرَّت أيام إلا والقِيعان مسندَسة[٥]، والآكام مطوَّسة[٦].

ومن رسالة لأبي القاسم، محمد بن عبد الله بن أبي الجدّ[٧] في وصف مطر بعد قَحْط:

قال: لله تعالى في عباده أسرار، لا تُدْرِكها الأفكار، وأحكام، لا تنالُها الأوهام. تختلف والعدل مُتَّفِق، وتفترق والفضل مجتمع مُتَّسق؛ ففي مِنَحها نفائس المأمول، وفي مِحَنِها مداوِس[٨] العقول. وفي أثناء فوائدها حدائقُ الإنعام رائقة، وبين أرجاء سرائرها بوارق الإعذار والإنذار خافقة؛ وربما تفتّحت كمائم[٩] النوائب، عن زَهَرات المواهب، وانسكبت غمائم الرّزايا، بنفحات العطايا، وصدع ليلَ اليأس صبحُ الرجاء، وخلع عاملَ البأس والِي الرخاء؛ ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدبير العزيز القدير!

ولما ساءت بتثبط[١٠] الغيث الظُّنون، وانقبض من تبسّط الشك اليقين، واسترابت حياض الوِهاد، بعهود العِهاد[١١]، وتأهّبت رياضُ النِّجاد[١٢]، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد[١٣] النقع المُثَار، وتعطّلت أجياد الأنوار، من حُلى الديمة المِدْرار، أرسل الله بين يدَيْ رحمته ريحًا بَلِيلةَ الجَناح، مُخِيلَة النَّجاح،

---

(١) أسفّ: قرب من الأرض. (٢) وكف: هطل وسال.
(٣) الدقعاء: التراب، أو الأرض لا نبات فيها.
(٤) الإهاب: الجلد، أو القشرة التي تعلو وجه الأرض.
(٥) المسندسة: المزيّنة بالسندس، وهو نوع من رقيق الحرير.
(٦) مطوّسة: صارت كالطاووس في زينتها.
(٧) هو محمد بن عبد الله بن الجدّ الفهري، أبو القاسم، مفتي «لبلة» بالأندلس تقلّد وزارة الراضي بن المعتمد ابن عباس، له شعر ونثر توفي سنة ١١٢١ م. «فهرس الأعلام ٦/٢٢٨».
(٨) المداوس: مفردها مدوس، وهي خشبة يشدّ عليها المسنّ، يدوس بها الصيقل السيف حتى يجلوه، يريد: مصاقل العقول.
(٩) الكمائم: الزهر قبل أن يتفتح. (١٠) تثبّط: تريّث، وتمهّل.
(١١) العهاد: المطر. (١٢) النّجاد: الأماكن المرتفعة.
(١٣) الإثمد: الكحل، والنّقع: الغبار.

سريعة الإلقاح، فنظمتْ عقودَ السحاب، نظم السِّخاب[١]، وأحكمت برود الغَمام، رائقة الأعلام؛ وحين ضربت تلك المُخِيلَةُ في الأفق قِبابَها، ومدّت على الأرض أطْنابَها، لم تلبث أن انهتك رُواقها، وانبتك[٢] وَشِيكًا نِطاقُها، وانبرت مدامعُها تبكي بأجفان المُشْتاق، غداة الفِراق، وتحكي بَنَان الكرام، عند أريحيّة المُدام، فاستغربت الرياض ضحكًا ببُكائها، واهتزّ رُفَات النبات طَرَبًا لتغريد مُكَّائها[٣]، واكتست ظهور الأرض من بيض إنائها، خُضْرَ مُلائها؛ فكأنّ صنعاء قد نشرت على بسيطها بِساطًا مُفَوَّفًا[٤]، وأهدت إليها من زخارف بَزِّها[٥] ومطارف[٦] وَشْيها ألطافًا وتحفًا، وخُيِّل للعُيون أن زواهر النجوم، قد طلعت من مواقع التُّخُوم[٧]، ومباسم الحسان، قد وصلت بافترار الغيطان[٨]، فيا بَرَد موقِعها على القلوب والأكباد! ويا خلوص ريّها إلى غُلَل النفوس الصوَّاد[٩]! كأنما استعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشَّفَت شَنَب[١٠] الثنايا العِذاب، أو تحمّلتْ ماء الوِصال، إلى نار البلبال[١١]، أو سَرَتْ على أنداء الأسحار وريحان الآصال؛ لقد تبيّن للصنع الجليل، من خلال ديمها تنفّس ونصول، وتمكّنَ للشكر الجميل، من ظلال نعمها معرّس[١٢] ومقيل؛ فالحمد لله على ذلك ما انسكب قطر، وانصدع فجر، وتوقّد قبَس، وتردّد نَفَس؛ وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمى، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزّته!

وقال الوزير أبو عمرو الباجيّ في مثل ذلك:

إن لله تعالى قضايَا واقعةً بالعدل، وعطايَا جامعةً للفضل؛ ونِعَمًا يبسطها إذا شاء إنعامًا وتَرْفِيهًا، ويقبضها متى أراد إلهامًا وتنبيهًا؛ ويجعلها لقوم صلاحًا وخيرًا،

---

(١) السّخاب: قلادة تتخذ من قرنفل وغيره، وقيل: كلّ قلادة كانت ذات جواهر أو لم تكن. «اللّسان: ماد سخب».
(٢) انبتك: انقطع.
(٣) المكّاء: طائر صغير يألف الريف، يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيرًا حسنًا.
(٤) المفوّف: الموشّى والمزيّن.
(٥) البزّ: الثياب، ومتاع البيت.
(٦) المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من حرير ذو أعلام.
(٧) التخوم: الحدود الفاصلة بين مكانين وأرضين.
(٨) الغيطان: مفردها غاط، وهو المنخفض الواسع من الأرض.
(٩) الصواد: الظامئة.
(١٠) الشنب: الفم رمّت أسنانه وابيضت، والشنب والشنية: البرودة.
(١١) البلبال: شدّة الهمّ والوسواس.
(١٢) المعرّس: المكان ينزل فيه المسافر للاستراحة.

ولآخرين فسادًا وضيرًا، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٨]، وإنه كان من امتساك السُّقْيا، وتوقُّف الحيا؛ ما رِيعَ به الآمن، واستُطِير له الساكن، ورجَفَت الأكباد فزعًا، وذَهَلت الألبابُ جَزَعًا، وأذكَتْ ذُكاءُ[1] حَرَّها، ومنعت السماءُ دَرّها؛ واكتسَتْ الأرضُ غُبرة بعد خُضْرة، ولبست شُحوبًا بعد نَضْرة؛ وكادت بُرُودُ الرياض تُطْوَى، ومُدُود نِعَم الله تُزْوَى[2]؛ ثم نشر الله تعالى رحمته، وبسط نِعمته، وأتاح مِنَّته، وأزاح مِحْنته؛ فبعث الرياح لَوَاقِح، وأرسل الغَمَام سَوَافِح؛ بماء يتدفَّق، ورَوَاء غَدَق، من سماء طَبَق؛ استهلَّ جفنها فدمَع، وسمح دمعها فهَمَع[3]، وصاب وعبْلُها فنقع[4]؛ فاستوفت الأرضُ رَيًّا، واستكملت من نَباتها أثاثًا[5] ورِيًّا؛ فزينة الأرض مشهورة، وحُلَّة الزهر منشورة، ومِنَّة الربّ موفورة؛ والقلوب ناعمة بعد بُؤسها[6]، والوجوه ضاحكة إثر عُبُوسها؛ وآثار الجَزَع ممحوّه، وسُوَر الشكر متلوّة؛ ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سَواء الطريق؛ ونستعيذ به من المِنَّة أن تعود فتنة، والمنحة أن تصير محنة! والحمد لله ربّ العالمين.

٩ ـ ذكر شيء مما وصف به الثلج والبَرَد

قال أبو الفتح كشاجم[7]: [من البسيط]

الثَّلْجُ يسقُطُ أم لُجَيْنٌ يُسْبَكُ ... أم ذا حَصى الكافور ظَلَّ يُفرّكُ؟[8]
راحتْ به الأرضُ الفَضَاءُ كأنَّها ... في كُلِّ ناحيةٍ بثَغْر تَضْحَكُ!
شابَتْ ذوائبُها فبَيَّنَ ضَحْكَها ... طربًا وعَهْدِي بالمَشِيب يُنَسِّكُ!
وتَرَدَّت الأشجارُ منه مُلاءةً ... عَمَّا قَليلٍ بالرِّياحِ تُهَتَّكُ![9]

---

(١) ذكاء: الشمس. (٢) تزوى: تذهب وتُنحّى.
(٣) همع: يقال: همعت العين: أي دمعت وأسالت الدّمع.
(٤) الوبل: المطر، ونقع: روى. (٥) أثاثًا: آثّ النبات: تكاثف والتفّ.
(٦) بوسها: أي بؤسها.
(٧) هو محمود بن حسين أو (ابن محمد بن الحسين) ابن (سندي بن شاهك) شاعر متفنّن، أديب، من كتاب الإنشاء، من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، استقر في بلاط سيف الدّولة بحلب توفي سنة ٩٧٠ م. «فهرس الأعلام ٧/١٦٧، ١٦٨».
(٨) الكافور: نبتٌ طيّب زهره كزهر الأقحوان. (٩) تهتّك: تفتضح.

وقال أيضًا: [من المنسرح]

ثَـلْجٌ وشـمـسٌ وصَـوْبُ غـاديـةٍ فـالأرْضُ مـن كُـلّ جـانـب غُـرّه!
بـاتـت، وقِـيـعـانُـهـا زَبَـرْجـدةٌ فأصبحَتْ قد تحوّلتْ دُرّه![1]
كـأنّـهـا والـثُّـلُوجُ تُـضْـحِـكُـهـا تُـعـار مـمـن أُحـبُّـه ثَـغْـرَه!
شابَتْ فسُرَّتْ بذاك وابتهَجَتْ وكان عهدي بالشَّيْب يُسْتَكْره!

وقال الصاحب ابن عبّاد[2]: [من الخفيف]

أقْبَـلَ الـثَّـلجُ فـي غـلائـل نَـوْرٍ تَـتَـهَـادَى بـلؤلـؤ مَـنْـثُـورِ![3]
فـكـأنّ الـسـمـاءَ صـاهَـرَتِ الأر ضَ فصار النِّثار من كافُور![4]

وقال النميريّ[5]: [من الكامل]

أهـدى لـنـا بَـرَدًا يَـلُوحُ كـأنّـه في الجوّ حَبُّ لآلِىءٍ لم يُثْقَبِ
أو ثَـغْـرُ حَـوَاءِ الـلّثَاتِ تَـبَـسَّـمَـتْ عن واضِح مثل الأقَاحي أشْنَب![6]

الباب الثاني
من القسم الثاني من الفن الأوّل
في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قُزَح
أ ـ فأما النيازك[7]

فهو ما يُرى من الذوائب المتّصلة بالشُّهُب والكواكب.

---

(١) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرّد، وهو ذو ألوان كثيرة، أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

(٢) هو إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس، أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدّهر علمًا وفضلًا وتدبيرًا وجودة رأي، توفّي بالرّي سنة ٩٩٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣١٦».

(٣) الغلائل: مفردها غلالة، وهي ثوب رقيق يلبس تحت الدّثار.

(٤) النّثار: قراضة الذهب، والكافور نبات طيّب الرائحة.

(٥) لعلّهُ الشاعر النُميري محمد بن عبد الله الثقفي، شاعر غزل من شعراء العصر الأموي ولد ونشأ وتوفي بالطائف نحو سنة ٧٠٨ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٠».

(٦) الأشنب: شديد بياض الأسنان.

(٧) النيازك: جمع نيزك، وهو جرمٌ صغير يسقط أحيانًا شهابًا نيّرًا إلى الأرض.

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال لجماعة من الأنصار: «ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يُرمى به؟ قالوا: يا رسول الله، كنّا نقول إذا رأيناها يرمى بها: مات ملك، وولد مولود»، فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالى كان إذا قضى في خلقه أمرًا سمعه الملائكة فيسبّحون، فيسبِّح مَن تحتهم لتسبيحهم، فيسبِّح من تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبّحون، ثم يقولون: ألا تسألون من فوقكم ممّا يسبّحون؟ فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا، للأمر الذي كان؛ فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدّثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف. ثم يأتون به الكُهَّان، فيصيبون بعضًا، ويُخطئون بعضًا. ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقْذَفون بها، فانقطت الكَهَانة(١)، فلا كَهَانَة اليومَ».

والشهب التي يُقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التي منها البروج والمنازل؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: الآية ٥].

وقال بعض الشعراء: [من البسيط]

وكَوْكَبٍ نَظَرَ العَفْريتَ مُسْتَرِقًا ... للسَّمْعِ فانْقَضَّ يُذْكي إثْرَه لَهَبَه(٢)

كفارسٍ حلَّ من تِيهٍ عمامَته ... وجَرَّها كُلّها من خَلْفِه عَذَبَه(٣)

وكتب ابن الحرون إلى صديق له، وقد كثر انقضاض(٤) الكواكب، وذلك في أيام المتوكّل على الله:

أمّا بعد؛ فإن الفلك قفد تفرَّى(٥) عن شُهُبٍ ثواقب(٦)، كنيران الحُبَاحِب(٧)، مُتَّقِدَة كشرر الزنود، وشُعَل زُبَر الحديد؛ مازجها عرض حمرة البَهْرَمَان(٨)، وصفرة

(١) الكهانة: حرفة الكاهن الذي يتنبّأ بالغيب ويدّعي معرفة أسراره وأحواله.
(٢) يذكي: يُوري.
(٣) العذبة: طرف الشيء، يقال: عذبة السّوط، وعذبة الفَنن، وعذبة اللسان.
(٤) انقضاض: سقوط.
(٥) تفرّى: انشق، وتفرّت العين: انشقت ونبع منها الماء.
(٦) الثواقب: المضيئة.
(٧) نار الحباحب: ما تطاير من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة أو نحو ذلك.
(٨) البهرمان: النسبة من البهرم، وهو العُصفر.

العِقْيَان[١]، فهي كأرْسال[٢] جرادٍ منتشِر، وهشيمٍ ذَرَتْه ريحٌ صرصَرٌ[٣]، في سُرْعة الكفِّ، ووَحَى[٤] لحظِ الطَّرْف.

ب ـ وأمّا الصواعق

فهي ما قاله الزمخشريّ في تفسيره: الصاعقة قصفة من رعد ينقضُّ معها شُقَّة من نار.

وقالوا: إنها تنقدح من السحاب إذا اصطكَّت أجرامُه، وهي نار لطيفة حديدة لا تمرّ بشيء إلا أتت عليه، إلّا أنها مع حدّتها سريعةُ الخمود، على أنّها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليَها.

وقال صاحب كتاب «مناهج الفكر ومباهج العبر» في كتابه:

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكِيس، ولا تُخرِق الكِيس؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال، قال: وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه، وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويبس، فتكوّن منها أجرام حجرية، أو حديدية، أو نحاسية، وربما طبعَت الحديد سيوفًا لا يقوم لها شيء.

ج ـ وأمّا الرعد وما قيل فيه

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ١٣]، قال المفسّرون: الرعد مَلَكٌ موكل بالسحاب، معه كَرٌّ[٥] من حديد، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله؛ فكلّما خالف سحاب، صاح به فزجره، فالذي يُسْمَع هو صوت المَلَك.

وقال الزمخشريّ من تفسيره: الرعد الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حَدَتها[٦] الريح فتصوّت عند ذلك.

وأمّا صوت الرعد، تقول العرب: رَعَدت السماء.

فإذا ازداد صوتها، قيل: ارتَجَسَتْ.

---

(١) العقيان: الذّهب.

(٢) أرسال: جماعات.

(٣) الصّرصر: الشديدة البرد والصوت.

(٤) الوحى: السرعة.

(٥) الكرّ: الحبل.

(٦) حدتها الرّيح: ساقتها.

فإذا زاد، قيل أرزَمَت، وقَعْقَعَتْ[١].

فإذا بلغت النهاية، قيل: جَلْجَلَتْ، وهَدْهَدَتْ.

المثـــل

رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة[٢]. (للبخيل المتكبّر).

د ـ وأما البرق وما قيل فيه

فقد ذهب المفسّرون لقول الله تعالى إلى أنه ضَرْبُ المَلَك الذي هو الرعد للسحاب بمِخْراق[٣] من حديد، وروي عن مجاهد[٤]: إن الله عزّ وجلّ وكّل بالسحاب مَلَكًا، فالرعد قَعْقَعة صوته، والبرق سَوْطه.

وأما ترتيبه في لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسّم، وذلك بقدر ما يريك سوادَ الغَيْم من بياضه: ٱنْكَلَّ ٱنْكلالًا.

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل: أوْشَمَت السماءُ، ومنه قيل: أوشَمَ النبتُ (إذا) أبصرت أوّلَهُ.

فإذا بَرَق بَرْقًا ضعيفًا، قيل: خَفَا.

فإذا لمع لمعًا خفيفًا، قيل: لَمَحَ، وأَوْمَضَ.

فإذا تشقّق، قيل: ٱنعقَّ انْعِقَاقًا.

فإذا ملأ السماء وتكشف واضطرب، قيل: تبوَّجَ.

فإذا كثر وتتابع، قيل: ارتَعَجَ.

فإذا لمع وأَطْمَعَ ثم عَدَلَ، قيل له: خُلَّبٌ.

---

(١) عبارة فقه اللغة ص ٢٨١ دار الكتب العلمية: فإذا زاد قيل: أرزمت ودوّت، فإذا زاد واشتدّ: قيل قصفت وقعقعت. ويقال: قعقع الشيء: أحدث صوتًا عند التحريك.

(٢) الصلف: التكبُّر والغرور.

(٣) المخراق: السيف أو منديل أو نحوه يلوى، فيضرب به.

(٤) هو مجاهد بن جبر، مولى بني مخزوم، تابعي، مفسّر من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ القرّاء والمفسرين مات سنة ١٠٣ هـ بمكة. «فهرس الأعلام ٢٧٨/٥».

المثـــل

«ليس في البرق اللَّامِعِ مُسْتَمْتَعٌ».

هـ ـ ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكريّ، عفا الله عنه: [من الكامل]

والـرّعـدُ فـي أرجـائـه مُـتَـرنِّـم والـبـرقُ فـي حـافـاتـه مـتـلَهِّبُ(١)
كالبُلْق ترمَحُ، والصَّوارمُ تُنْتَضَى والجوّ يَبْسِمُ، والأنامل تَحْسُبُ(٢)

وقال آخر: [من الطويل]

إذا وَنَتِ السُّحْبُ الثِّقالُ وحثَّها من الرعد حادٍ ليس يُبْصِرُ أكْمَهُ(٣)
أحـاديـثُه مُـسْـتَـهْـوِلاتٌ وصَـوْتُـه إذا انخفضت أصواتُهُنّ مُقَهْقِهُ(٤)
إذا صـاح فـي آثـارهـنّ حـسِـبْـتَـه يـجـاوبُـه مـن خَلْفِه صـاحـبٌ لـه

وقال ابن الدقّاق الأندَلُسيّ: [من الطويل]

أرى بـارقًا بـالأبـلق الـفَـرْد يُـومِض يُذَهِّب أكناف الدُّجَى ويُفَضِّضُ(٥)
كـأنَّ سُلَيْمَى من أعاليه أشْرَفَتْ تَمُدّ لنا كفًّا خضيبًا وتَقْبِضُ(٦)

وقال إبراهيم بن خفاجة الأنْدَلُسيّ(٧): [من المتقارب]

ويـــوم جَـــرى بـــرقُـــهُ أشْـــقَـــرًا يُـطـارِدُ مـن مُـزْنـه أشـهَـبـا(٨)
تَـرى الأرضَ فـيـه وقـد فُـضِّـضَـتْ ووجـهَ الـسَّـمـاءِ وقـد ذُهِّـبَـا!

---

(١) حافاته: أطرافه وأواخره.
(٢) البلق: مفردها أبلق: وهو الفرس ونحوه إذا كان فيه سواد وبياض.
(٣) وَنت: فترت وضعفت، والأكمه: الأعمى.
(٤) مستهولات: من استهول الشيء أو الأمر: استفظعه.
(٥) أكناف: جواب، والدّجى: الليل.
(٦) الخضيب: المصبوغ بالحنّاء، وأشرفت: أطلّت.
(٧) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله، الهواري الأندلسي، شاعر غزل رقيق من الكتّاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرّياض والطبيعة. «فهرس الأعلام ١/ ٥٧».
(٨) الأشهب: ما كان لونه الشهبة، وهي بياض غلب على السواد، أو خالطه السّواد.

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ[١]، شاعر الذخيرة: [من الطويل]

ولما تجلّى اللّيْلُ والبَرْقُ لامِعٌ كما سَلَّ زَنْجيٌّ حُسامًا من التِّبرِ[٢]
وبِتُّ سَمِيرَ النجم وهو كأنّه على مِعْصم الدّنيا جبائرُ من دُرّ[٣]

وقال محمد بن عاصم[٤]، شاعر الخريدة عفا الله عنه: [من الطويل]

أضاءَ بوادِي الأثْلِ واللَّيْلُ مُظْلِمُ بُرَيْقٌ كحدِّ السَّيْف ضَرَّجَهُ الدَّمُ[٥]
إذا البرقُ أجرى طَرْفه فصهيله إذا ما تفرَّى رعدُه المُتَرَنِّمُ
فشبّهتُه إذ لاحَ في غسَق الدُّجَى بأسنانِ زَنْجِيٍّ بَدَتْ تَتبسَّمُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

والبرقُ يَضْحَك كالحبيب وعِنْده رَعْدٌ يُخَشِّنُ كالرَّقيب مَقَالَهُ!

وقال آخر: [من المتقارب]

أرِقْتُ لبرقٍ غَدَا مَوْهِنًا خَفِيٍّ كغَمْزِكَ بالحاجب
كأنَّ تألُّقَه في السما يدَا كاتبٍ أو يدَا حاسِبِ

وقال عبد الله بن المعتزّ، يشير إلى سحابة: [من السريع]

رأيتُ فيها بَرْقها مُنْذُ بدتْ كمثل طَرْف العين أو قَلْبٍ يُجِبْ
ثم حَدَتْ بها الصَّبا حتّى بدا فيها إلى البرق كأمثال الشُّهُب[٦]
تَحْسَبُه فيها إذا ما انْصَدَعَتْ أحْشَاؤها عنه شُجاعًا يَضْطَرِبْ[٧]
وتارةً تُبْصِرُه كأنّهُ أبْلَقُ مالَ جُلُّه حِينَ وَثَبْ[٨]
حتّى إذا ما رَفَعَ اليَوْمُ الضُّحَى حَسِبْتَه سَلاسَلًا مِنَ الذَّهَبْ

---

(١) هو أبو أحمد، عبد العزيز بن خيرة القرطبي، المشتهرة معرفته بالمنفتل، وليس أحمد بن عبد العزيز كما أورده صاحب النهاية وقال عنه صاحب الذّخيرة: هو ممن نثر الدرّ المفصّل، وطبّق في بعض ما نظم المفصل. «الذخيرة ٢/ ٧٥٤، دار الثقافة بيروت».
(٢) التّبر: الذهب.
(٣) السّمير: الأنيس، والجبائر: ما يجبر بها العظم إذا انكسر.
(٤) هو محمد بن عاصم الموقفي، ويقال له: ابن عاصم، من شعراء اليتيمة مصري، في شعره رقة وإجادة وصف توفي سنة ٨٣٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨١».
(٥) الأثل: شجر من الفصيلة الطرفاوية، طويل مستقيم، يعمّر، جيّد الخشب.
(٦) الصّبا: ريحٌ تهبّ من الشرق، والشُّهب: مفردها شهاب وهو الشعلة الساطعة من النار.
(٧) الشّجاع: الأفعى. (٨) الأبلق: الحصان الذي لونه سوادٌ وبياض.

قوله شجاعًا يضطرب مأخوذ من قول دِعْبِل[١]: [من الطويل]

أرِقْتُ لبَرْقٍ آخِرَ اللّيلِ مُنْصِب خَفِيٍّ كبطن الحَيَّة المُتَقَلِّبِ[٢]

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما زِلْتُ أكْلأُ بَرْقًا في جَوانِبِه كَطَرْفَةِ العَيْنِ تَخْبُو ثم تَخْتَطِفُ[٣]

بَرْقٌ تجاسَرَ من حَفَّان لامِعُه يَقْضِي اللُّبانَةَ من قَلْبي ويَنْصَرِفُ[٤]

و ـ وأمّا قوس قزح وما قيل فيه

قالوا: وإنما سمّي بذلك لتلوّنه.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يكره أن يسمّيَه قوس قُزَحَ، ويسمّيه قوس الله، ويقول: قُزَحُ اسم الشيطان.

وزعم القدماء في علة تلوّنه وتكوّنه، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب انصبغ ذلك الجزء، وانعطف منه الضوء إلى ما يليه من الهواء، كالحمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نُورها، وانعطف منه ألوان مختلفة إلى ما يقرب منها، وحمرته وصفرته من قِبَل الرُّطوبة واليُبْس.

قالوا: وقياس ذلك النارُ، فإنها إذا كانت من حطب رَطْب، كان لونها أحمر كَدِرًا[٥]، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافيًا.

وقال آخرون: القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته[٦]، حتى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما تُرسم الأشباح في المَرَايا، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار الرطب فيتولّد، فيكون منها تلك الألوان. وإنما توجد دائرة على الناظر؛ لأن الشمس أبدًا تكون في قفاها، ولذلك تُرى في مقابلة الجهة التي تكون فيها الشمس، فتُرى في المغرب إذا كانت الشمس في المشرق، وتُرى في المشرق إذا كانت في المغرب.

(١) هو دعبل بن علي بن رزين، من خزاعة، ويكنّى أبا علي، أحد شعراء العصر العباسي. «الشعر والشعراء ص ٥٧٦، دار الكتب العلمية».

(٢) المنصِب: المتعب.

(٣) أكلأ: أنظر إليه متأمّلًا بإعجاب.

(٤) اللّبانة: الحاجة من غير فاقة، وحفّان: موضع، وتجاسر: أقدم واجترأ.

(٥) الكدر: الذي اعتكر لونه، وخالطه الغبار والسّواد.

(٦) الصقالة: الملاسة والرّقة الناتجة عن الصّقل.

وزعم بعض القدماء أن أثر القوس غير حقيقيّ، وإنما هو تخييل لا وجودَ له في نفسه، وقال: إن إدراكه على نحو إدراك صورة الإنسان في المرآة من غير أن تكون منطبعة على الحقيقة فيها ولا قائمةً بها؛ وذلك بحسب غِلَظ الحسّ الباصر، وهو لا يُرى إلّا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذاك يكون كالمرآة مؤدّيًا للبصر على نحو تأدية البِلَّوْرِ، إذا جعل وراءه شيء غير مشفٌ، ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البِلَّوْر وحده، ولا عن غير المُشِفّ وحده، والله أعلم.

ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الوأواء[١]، عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من البسيط]

سَقْيًا ليومٍ بَدَا قَوْسُ الغَمَامِ به ... والشَّمْسُ طالِعةٌ والبرقُ خَلَّاسُ![٢]
كأنّه قَوْسُ رامٍ والبُروقُ له ... رَشْقُ السِّهام وعينُ الشمس بُرْجاسُ[٣]

وقال سعيد بن حميد القيروانيّ[٤]، رحمة الله عليه: [من المنسرح]

أما ترى القوسَ في الغَمَامِ وقد ... نَمَّقَ فيه الهَواءُ نُوَّارا؟
حَكى الطَّواوِيسَ وهي جاعلةٌ ... أذْنابَها لِلمِيَاهِ أسْتارا
أخْضَرُ في أحمرٍ على يَقَقٍ ... على وِشاحِ السَّحابِ قَد دارا[٥]
كأنما المُزْنُ وهي راهبةٌ ... شَدَّتْ على الأُفْقِ مِنْه زُنّارا

وقال ظاهر الدين الحريري، شاعر الخريدة عفا الله عنه: [من المتقارب]

ألستَ ترى الجوَّ مُسْتَعْبِرًا ... يُضاحِكُه برقُهُ الخُلَّبُ؟[٦]

---

(١) هو محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، أبو الفرج، شاعر مطبوع، حلو الألفاظ في معانيه رقة، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٥/ ٣١٢».
(٢) الخلّاس: الذي يستلب الشيء في نهزة ومخاتلة.
(٣) البرجاس: هدفٌ يُنصب على رمح أو سارية.
(٤) هو سعيد بن حميد، شاعر، ورد اسمه في الذخيرة لابن بسّام ٣/ ١٣٨ و٤/ ٧٢٩، طبعة دار الثقافة.
(٥) اليقق: الشديد البياض، الناصع.
(٦) الخلّب: هو السّحاب الذي يلمع برقه ولا مطر فيه.

وقد باتَ من قُزَحٍ قَوْسُه ... بَعِيدًا وتحسَبه يَقْرُبُ؟
كطاقَيْ عَقِيقٍ وفَيْرُوزَجٍ ... وبينهما آخَرُ مُذْهَبُ[(١)]

وقال سيف الدولة بن حمدان[(٢)]، من أبيات: [من الطويل]

وقد نشرَتْ أيْدِي الجَنُوبِ مَطَارِفًا ... على الجَوِّ دُكْنًا والحَواشي على الأرض[(٣)]
يُطَرِّزُها قَوْسُ السَّحابِ بأصفرٍ ... على أحمرٍ في أخْضَرٍ وَسْطَ مُبْيَضٌ
كأذْيالِ خَوْدٍ أقبلَتْ في غَلَائلٍ ... مُصَبَّغةٍ، والبعضُ أقصرُ من بعضِ[(٤)]

وقال عبد المحسن الصُوريّ[(٥)]، عفا الله تعالى عنه: [من السريع]

تأمَّلِ الجَوَّ ترى واليَا ... قد وليَ العَهْدَ على السُّحْبِ!
سارَ، وقَوْسُ الله تاجٌ له ... رَكْضًا من الشَّرْقِ إلى الغَرْبِ!

الباب الثالث

من القسم الثاني من الفن الأول

١ ـ في أُسطقسّ[(٦)] الهواء

رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الريح من رَوْح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فلا تسبُّوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرّها»، أخرجه البيهقيّ[(٧)] في سننه.

وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده أن الريح تنقسم إلى قسمين: رحمة وعذاب؛ وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام، ولكل قسم اسم؛ فأسماء أقسام قسم

---

(١) العقيق: خرزٌ أحمر، والفيروزج: حجرٌ كريم أزرق يميل إلى الخضرة.

(٢) تنسب هذه الأبيات أيضًا إلى ابن الرومي الشاعر.

(٣) الجنوب: الرّيح الجنوبية، والمطارف: جمع مِطرف، وهو رداء من حرير ذو أعلام، والدّكن: مفردها: دكناء، وهي من الشيء ما اغبرّ لونه ومال إلى السّواد.

(٤) الخود: الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق.

(٥) هو عبد المحسن بن محمد بن غالب الصّوري، يلقّب «بابن غلبون» شاعر حسن المعاني، من أهل صور، مولده ووفاته فيها سنة ١٠٢٨ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٥٢».

(٦) أسطقس: كلمة معرّبة عن اليونانية معناها: العنصر.

(٧) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، من أئمة الحديث، ترك تراثًا ضخمًا من الكتب والمصنّفات، مات في نيسابور سنة ١٠٦٦ م. «فهرس الأعلام ١/ ١١٦».

الرحمة: المبشِّرات، والنُّشُر، والمرسَلات، والرُّخاء. وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف، والقاصف (وهما في البحر)، والعقيم، والصرصر (وهما في البرّ).

وقد جاء القرآن بكل هذه الأسماء.

٢ ـ ذكر ما قيل في حدّ(١) الهواء

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في حدّه: الهواء جِرم بسيط، طباعه أن يكون حارًّا رطبًا مشفًّا متحرّكًا إلى المكان الذي تحت كرة النار التي فوق كرة الأرض والماء.

وقال إبُقراط(٢): إنّ تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس مرّة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهمّ والسرور، وغير ذلك. وإذا استوت حالات الهواء، استوت حالات الناس وأخلاقهم.

وقال: إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرّف الهواء، إذا برد مرّة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجًا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلًا، ومرة كثيرًا، ومرّة حارًّا، ومرة باردًا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم. وإذا استوى واعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلًا، فاعتدلت بذلك الصور والمزاجات. قال: والعلّة(٣) في تشابه التُّرك، هو أنه لما استوى هواء بلادهم في البرد استوت صورهم وتشابهوا.

وقال: إنّ الرياح تقلب الحيوان حالًا إلى حال، وتصرفه من حرّ إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن؛ وإنها تغير ما في البيوت من أصناف المآكل؛ كالتمر، والعسل، والسمن، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلّبها مرة، وتيبِّسها مرة. وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها، وإذا تغير الهواء، تغير بتغيّره كل شيء.

---

(١) الحدّ: التعريف الجامع لصفات الشيء، والحدّ الأرسطي: يهدف إلى الوصول إلى الماهيّة، أو إلى الجوهر، والحدّ عند الفقهاء والنحويين يهدف إلى التمييز.

(٢) هو السابع من الأطباء اليونانيين الكبار، وكان اسقليبوس أولهم، تعلّم صناعة الطبّ من أبيه ومن جدّه، وكانت مدّة حياته خمسًا وتسعين سنة. «راجع عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء ص ٤٣ ـ ٦١».

(٣) العلّة: السّبب.

وقال: إنّ الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّدته، وسخنت البحار والأنهار؛ فكل شيء في رطوبة تغير لونه وحالاته، وهي ترخي الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثِقَلًا في الأسماع، وغشَاوة في الأبصار. وأمّا الشَّمَال فإنها تصلب الأبدان، وتصحّح الأدمغة، وتحسّن اللون، وتصفي الحواس، وتقوّي الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر.

وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء: أن الجنوب إذا هبّت بأرض العراق، تغير الورد، وتناثر الورق، وتشقّق القُنَّبِيط[١]، وسخُن الماء، واسترخت الأبدان، وتكدّر الهواء.

وزعم آخرون من القدماء: أن الهواء جسم رقيق متى تموّج من المشرق إلى المغرب سُمّي ريح الصَّبا.

قيل: سمّيت ريحَ الصَّبا؛ لأن النفوس تصبو إليها لِطِيب نسيمها ورَوْحها، والصَّبْوة المَيْل. وجاء في بعض الآثار: ما بعث نبيّ إلا والصَّبا معه، وهي الريح التي سُخِّرت لسليمان عليه السلام، «غدوُّها شهر» أي من أوّل النهار إلى الزوال، «ورواحها شهر»، أي من الزوال إلى المغرب. كان يغدو مِن تَدْمُر[٢] من بلاد الشام فيَقِيل في إصْطَخْر[٣] من بلاد فارس، ويبيت بكَابُل[٤] من بلاد الهند.

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور[٥]».

وإذا تموّج من الجَنُوب إلى الشّمال، سمي ريحَ الجنوب، وهي الريح التي أهلك الله عزّ وجلّ بها عادًا.

وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في الفن الخامس من كتابنا هذا.

وإذا تموّج من الشَّمال إلى الجَنوب، سمي ريحَ الشَّمال.

---

(١) القنّبيط: نبات من فصيلة الكرنب، يطبخ، يعرف: بالقرنبيط.

(٢) تدمر: مدينة قديمة في برّية الشام، سُمّيت بتدمر بنت حسّان بن أذينة السّميدع. «معجم البلدان ٢/ ١٦».

(٣) إصطخر: مدينة من أقدم مدن فارس، وبها كان سرير الملك في القديم بها آثار عظيمة. «صبح الأعشى ٤/ ٣٨، دار الكتب العلميّة».

(٤) كابل مدينة بين هند وغزنة، ونسبتها إلى الهند أولى، غزاها المسلمون في أيام بني مروان. «معجم البلدان ٤/ ٤٢٦».

(٥) الدّبور: ريحٌ تهب من المغرب.

وهم يزعمون أن مبادىء الرياح شَمَالِية أخَذَتْ إلى الجَنوب، وغربيةٌ أخذت إلى المشرق للطف الهواء في هاتين الجهتين.

والعرب تُحبُّ الصَّبَا لرقّتها، ولأنها تجيء بالسّحاب، والمطرُ فيها والخِصْبُ، وهي عندهم اليمانية.

٣ ـ ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبيّ في فقه اللغة:

إذا وقعتِ الريحُ بين رِيحَيْنِ، فهي النَّكْباءُ.

فإذا وقعت بين الجَنوب والصَّبَا، فهي الجِرْبِيَاء.

فإذا هَبَّتْ من جهات مختلفة، فهي المتناوِحة.

فإذا كانت لَيِّنَةً، فهي الرَّيْدانةُ.

فإذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْح[١]، فهي النَّسيمُ.

فإذا كان لها حَنين[٢] كحَنِينِ الإبل، فهي الحَنُونُ.

فإذا ابتدأت بشدّة[٣]، فهي العاصف، والسَّيْهُوج.

فإذا كانت شديدة ولها زَفْزَفة وهي الصوت، فهي الزَّفْزَافَةُ.

فإذا اشتدّت حتى تَقْلَع الخيامَ، فهي الهَجُوم.

فإذا حرَّكت الأغصانَ تحريكًا شديدًا أو قَلعت الأشجار، فهي الزَّعْزاع، والزَّعْزعَانُ، والزَّعْزَعُ.

فإذا جاءت بالحَصْباء[٤]، فهي الحاصِبَةُ.

فإذا دَرَجَتْ حتى ترى لها ذيلًا كالرَّسَن في الرمل، فهي الدَّرُوج.

فإذا كانت شديدة المرُور، فهو النَّؤوج.

فإذا كانت سريعة، فهي المُجْفِل، والجافِلَةُ.

---

(١) الرّوح: نسيم الريح.

(٢) الحنين: صوت الإبل، وصوت القوس عند إنباضها.

(٣) في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٢٧: فإذا ابتدأت بشدّة فهي النافجة، فإذا كانت شديدة فهي العاصف...

(٤) الحصباء: الحصى الصغار.

فإذا هبَّتِ من الأرض كالعَمُود نحوَ السماء، فهي الإعْصَار.

فإذا هبَّت بالغَبَرة، فهي الْهَبوة.

فإذا حَملَتِ المُورَ[١] وجَرَّت الذيل، فهي الهَوْجاء.

فإذا كانت باردةً، فهي الحَرْجَف، والصَّرْصَر، والعَرِيَّة.

فإذا كان مع بَرْدها ندًى، فهي البَلِيل.

فإذا كانت حارّةً، فهي الحَرُور، والسَّمُوم.

فإذا كانت حارّةً وأتتْ من قِبَل اليَمَن، فهي الهَيْف.

فإذا كانت باردةً شديدة تَخْرِق البيوت، فهي الخَرِيق[٢].

فإذا ضعُفت وجرت فُوَيْقَ الأرض، فهي المُسَفْسِفَة.

فإذا لم تُلْقِحْ شجرًا ولم تَحْمل مطرًا، فهي العَقِيم. (وقد نطق بها القرآن).

٤ ـ فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

يقال: الرياح الحواشِك: المختلفة الشديدة. البوارح: الشَّمال الحارّة في الصيف. الأعاصير: التي تهيج بالغُبَار. المُعْصِرات: التي تأتي بالأمطار. المُبَشِّرات: التي تَهُبُّ بالسحاب والغيث. السَّوافي: التي تسفي[٣] التراب.

٥ ـ ذكر ما يُتَمَثَّلُ به مما فيه ذكر الهواء

يقال: أخَفُّ من النسيم، أسرع من الرِّيح، ريحهما جَنوب (يضرب للمتصافِيَيْن). هو ساكن الريح (إذا كان حليمًا). قد هبَّتْ ريحه (إذا قامت دولته).

ومن أنصاف الأبيات:

* إن كنتَ رِيحًا فقد لاقَيْتَ إعصارًا *

* وبعضُ القولِ يَذهبُ بالرياح *

* تَجْري الرياحُ بما لا تشتهِي السُّفنُ *

* لو كنتَ ريحًا كانتِ الدَّبُورا *

---

(١) المور: الغبار المتردّد في الهواء.

(٢) في اللّسان: أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها خُرقت.

(٣) تسفي التّراب: تذروه وتنثره.

ومن الأبيات: [من الوافر]

إذا هَبَّتْ رِياحُكَ، فاغتنمها فإن لكلّ خافقةٍ سُكُونُ![١]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

وكلُّ ريحٍ لها هُبُوبٌ يومًا فلا بدَّ من رُكُودِ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

والريحُ ترجعُ عاصفًا من بعد ما ابتدأتْ نسيما

وقال أبو تَمَّام، عفا الله عنه: [من البسيط]

إنّ ارياحَ إذا ما أعْصَفَتْ، قَصَفَتْ عِيدانَ نَجْدٍ ولم يَعْبَأْنَ بالرَّتَمِ[٢]

وقال ابن الروميّ، رحمة الله عليه: [من الكامل]

لا تُطْفِئَنَّ جَوًى بلَوْمٍ إنّه كالريح تُغْرِي النَّارَ بالإحْراق[٣]

٦ ـ ذكر ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتزّ، رحمة الله عليه: [من الخفيف]

ونَسيمٌ يُبَشِّرُ الأرضَ بالقَطْـ ـر كذَيْل الغِلالةِ المَبْلول[٤]
ووجوهُ البلاد تنتظِرُ الغيـ ـثَ انتظار المُحِبِّ ردَّ الرسول

وقال ابن الروميّ: [من البسيط]

حَيَّتْك عنّا شَمَالٌ طَافَ طائفُها تحيَّةً، فجرَتْ رَوْحًا ورَيْحَانا
هبَّت سُحَيْرًا فناجى الغُصْنُ صاحبَه سِرًّا بها، وتنادى الطيرُ إعلانا[٥]
وُرْقٌ تُغَنِّي على خُضْرٍ مُهَدَّلة تَسْمُو بها وتَشَمُّ الأرضَ أحيانًا[٦]
يُخَالُ طائرُها نَشوانَ من طرَبٍ والغصنُ من هَزِّه عِطْفَيْه نَشْوانا[٧]

(١) يقصد: هبّت رياحُك: أي أقبل عليك الدّهر باليمن، والسكون: الهدوء.
(٢) الرَّتم: جنس نبات من الفصيلة القرنيّة، صحراوي، وقد يغرس للزّينة.
(٣) الجوى: اشتداد الوجد.
(٤) الغلالة: ثوبٌ رقيق يلبس تحت الدّثار.
(٥) ناجى: بثّه عواطفه.
(٦) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة التي يميل لونها إلى الخضرة.
(٧) عطفا الرّجل: جانباه.

وقال أيضًا: [من الوافر]

كأنَّ نَسِيمَها أرَجُ الخُزَامى ... وَلَاهَا بَعْدَ وَسْمِيٍّ وليٌّ[(١)]
هَدِيَّة شمألٍ هبَّتْ بليلٍ ... لأفنان الغُصون بها نجيٌّ[(٢)]
إذا أنفاسُها نَسَمَتْ سُحَيْرًا ... تَنَفَّسَ كالشَّجيّ لها الخَلِيُّ[(٣)]

وقال آخر: [من الوافر]

وأنفاسٌ كأنفاسِ الخُزَامى ... قُبَيْلَ الصُّبْح بلَّتْها السماءُ
تَنَفَّسَ نشرُها سَحَرًا فجاءتْ ... به سَحَريَّة المَسْرَى رُخاءُ[(٤)]

وقال إسحٰق الموصليّ[(٥)]: [من الكامل]

يا حبَّذا ريحُ الجَنُوب إذا جَرَتْ ... في الصُّبح وهي ضَعِيفَةُ الأنفاسِ!
قد حُمِّلت بَرْدَ النَّدى وتَحمَّلتْ ... عَبَقًا من الجَثْجاث والبَسْباس![(٦)]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

إذا خلَا الجَوّ من هَواءٍ ... فعَيْشُهم غُمَّةٌ وبُوسُ[(٧)]
فَهْو حَياةٌ لكلِّ حيٍّ ... كأنّ أنفاسَه نُفُوسُ

وقال ابن سعيد الأندلسيّ[(٨)]: [من الكامل]

الرِّيحُ أقودُ ما يَكُونُ لأنَّها ... تُبْدي خَفَايا الرِّدْف والأعْكَانِ[(٩)]

---

(١) الأرج: الرائحة الذّكيّة، والخزامى: جنسٌ من النبات، أنواعه عطرة، من أطيب الأفاويه، والوسميّ: أول مطر الربيع، والولي: المطر بعد المطر.

(٢) الشمأل: الريح الباردة، والأفنان: جمع فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة.

(٣) الشجيّ: من بها شجًى أي حزنًا من العشق، والخليّ: الذي ليس به عشق.

(٤) النشر: الريح الطيّبة.

(٥) هو إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، أبو محمد، النّديم الشاعر الموسيقي، فارسيّ الأصل ولد ببغداد ومات فيها سنة ٨٥٠ م؛ عمي قبل موته بسنتين. «فهرس الأعلام ١/ ٢٩٢».

(٦) الجثجاث: شجرٌ أصفر مرّ، طيّب الريح، تستطيبه العرب وتكثر من ذكره، قيل: إنّه ينبت بالقبط، له زهرة صفراء، كأنها زهرة العرفجة والبسباس: نبات طيّب الريح، وهو معروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي «الرازيانج» اللسان مادة «جثث» «وبسبس».

(٧) بُوسُ: يعني بؤس، خفّف الهمزة.

(٨) هو علي بن موسى بن سعيد المغربي، من ذريّة عمار بن ياسر، مؤرّخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب، توفي بتونس سنة ١٢٨٦ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٦».

(٩) أقود: من القود، وهي السمسرة للنساء، والرِّدف: ما بدا من العجيزة، الكفل، والأعكان: =

وتُمَيِّلُ الأغْصانَ بعدَ عُلوِّها — حتّى تُقَبِّلَ أوجُهَ الغُدْرانِ
وكذلكَ العُشَّاقُ يَتَّخِذُونَها — رُسُلًا إلى الأحْباب والأوْطانِ

وقال آخر: [من الطويل]

أيا جَبَلَيْ نَعمانَ باللهِ خَلِّيا — سَبِيلَ الصَّبا يَخْلُصْ إليّ نَسِيمُها[1]
أجِدْ بَرْدَها أو تَشْفِ منّي حرارةً — على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صَمِيمُها[2]
فإنَّ الصَّبا رِيحٌ إذا ما تنَفَّسَتْ — على كَبِدٍ حرَّاءَ، قَلَّتْ هُمُومُها[3]

وقال ابن هُتَيْمِل اليمنيّ: [من البسيط]

هبَّتْ لنا سَحَرًا، والصبحُ ملتَثِمُ — واللَّيْلُ قد غابَ فِيه الشَّيْبُ والهَرَمُ
سَقيمةٌ من بَنَاتِ الشَّرْقِ أضْعَفَهَا — عن قُوَّة السَّيْر، لَمَّا هبَّت، السَّقَمُ
فبلَّغتْ بلِسانِ الحالِ قائلةً — ما لم يُبَلِّغهُ يومًا إليَّ فَمُ
سِرًّا لغانِيَةٍ تَسْرِي إليّ بِهِ — من النَّسِيم رَسُولٌ ليس يُتَّهَمُ
أُصافِحُ الرِّيحَ إجلالًا لِمَا حَمَلَتْ — إليّ من ريح بُرْدَيْها وأسْتَلِمُ[4]

الباب الرابع
من القسم الثاني من الفن الأوّل

١ ـ في أُسطقس النار وأسمائها، وعبّادها، وبيوت النيران

حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض وحجّ، نزل جبلَ أبي قُبَيْسٍ[5]، فأنزل الله إليه مَرْخَتَيْن[6] من السماء، فحكّ إحداهما بالأخرى فأوْرَيا نارًا، فلهذا سمي الجبل بأبي قُبَيْسٍ.

ويدلّ على أن النار من الشجر، قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: الآية ٨٠].

= جمع عُكنة، وهي ما تثنّى من لحم البطن سِمنًا.
(١) الصّبا: ريح تهبّ من الشرق إلى الغرب، طيّبٌ نسيمها، تصبو النفوس إليه، ويخلُص: يصل.
(٢) الصّميم: من الكبد والعظم، الذي به قوام العضو.
(٣) الحرّاء: الملتهبة الظمأى. (٤) البرد: كساء مخطّط يلتحف به.
(٥) جبل أبي قُبيس: جبل مشرف على مكة، وفي الصّحاح: جبل بمكّة. «اللّسان مادة: قبس».
(٦) المرخ: شجر رقيق يخرج النّار بسرعة، وهو شجر من العضاه، ليس له ورق ولا شوك.

والعرب تقول: «في كل شجر نار، واستَمْجَد المَرْخُ والعَفَار»[١]، لأنهما أسرع اقتداحًا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾ [الواقِعَة: الآيتان ٧١، ٧٢].

وقال أصحاب الكلام في الطبائع: إن الله عزّ وجلّ جمع في النار الحركة، والحرارة، واليبُوسة، واللّطافة، والنور؛ وهي تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى.

فبالحركة تُعلي الأجسام، وبالحراة تسخن، وباليبوسة تجفّف، وباللّطافة تنفذ، وبالنور تضيء ما حولها.

ومنفعة النار تختصّ بالإنسان دون سائر الحيوان، فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى في حالٍ من الأحوال.

ولهذا عظّمتها المجوس[٢]، وقالوا: إذ أفردتنا بنفعها، فنفردها بتعظيمها، على أنهم يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد، فلا يدفنون موتاهم في الأرض، ولا يستنجون[٣] في الأنهار.

٢ ـ ذكر أسماء النار وأحوالها في معالجتها وترتيبها

أما أسماؤها، فمنها:

النار، والصِّلاء، والسَّكَن، والضَّرَمةُ، والحَرَق، والحَمَدةُ (وهو صوتُ التهابها)، والحَدَمةُ، والجَحِيم، والسَّعِير، والوَحَى.

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها، فقد قال الثعالبيّ في فقه اللغة:

إذا لم يُخْرِج الزَّنْدُ النارَ عند القَدْح، قيل: كَبَا يَكْبُو.

فإذا صوّت ولم يخرج، قيل: صَلَدَ يَصْلِد.

فإذا أخرج النار، قيل: وَرَى يَرِي.

فإذا ألقى الإنسانُ عليها ما يحفَظُها ويُذْكِيها[٤]، تقول: شيّعتها وأثقبْتها.

---

(١) العفار: شُجيرة لها ثمر لبّي أحمر، يتخذ منها الزّناد فيسرّع الوري.

(٢) المجوس: لفظٌ مشتق من «موغ» و«مُغ» ومعناه النور في اللّغة الطورانية، والمجوس: قومٌ يعبدون النّار أو الشمس.

(٣) يستنجون أي يلوّثون الارض «بالبراز».

(٤) يُذكيها: يزيد في لهبها.

فإذا عالجها لتلتهبَ، قال: حَضَأْتُها وأَرَّثْتُها[١].

فإذا جعل لها مَذْهَبًا[٢] تحت القِدْر، قال: سَخَوْتُها.

فإذا زاد في إيقادها وإشْعالها، قال: أَجَّجْتُها.

فإذا اشتدّ تأَجُجُها، فهي جاحمَة[٣].

فإذا طَفِئت البتّةَ، فهي هامدةٌ.

فإذا صارت رَمادًا، فهي هابِيَة.

والله تعالى أعلم.

٣ ـ ذكر عُبَّاد النار وسبب عبادتها وبيوت النيران

أوّل مَن عبد النار قابيلُ بنُ آدم.

وذلك أنّه لما قتل أخاه هابيل هرب من أبيه إلى اليمن،فجاءه إبليس لعنه الله، وقال له: إنما قُبِل قُرْبان هابيلَ وأكلتْه النارُ لأنه كان يخدمها ويعبُدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولِعقبِكَ، فبنى بيت نار.

فهو أوّل مَن نَصَب النار وعَبَدها.

وأوّل مَن عظمها من ملوك الفرس، جم، وهو أحد ملوك الفرس الأُوَل، عظّمها ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب، لأن النور عنده أفضل من الظلمة.

ثم عُبدت النار بالعراق، وأرض فارس، وكَرْمان، وسِجِسْتان، وخُرَاسان، وطَبَرِسْتَان، والجبال، وأَذْرَبِيجان، وأَرَّان[٤]، وفي بلاد الهند، والسّند، والصين.

وبُنِيَ في جميع هذه الأماكن بيوت للنِّيران، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) في فقه اللغة للثعالبي: وأرّشتها بالشّين، وعبارة القاموس في مادة «أرش»: وتأريش النار تأريثها. «راجع فقه اللغة ص ٣٢١».

(٢) المذهب: الطريق الذي تخرج منه ألسنة اللّهب.

(٣) عبارة فقه اللغة بعده، فإذا سكن لهبُها ولم يطفأ حرُّها فهي خامدة، وبعد: فإذا طفئت البتّة الخ... «راجع فقه اللغة ص ٣٢١».

(٤) أرّان: اسم أعجمي لبلاد كثيرة وولاية واسعة، منها جنزه وتسميها العامّة كنجة، وبين أذربيجان وأرّان: نهر يقال له الرس، ويقال لها مملكة أرّان. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٦١ وما بعدها».

ثم انقطعت عبادة النيران من أكثر هذه الأماكن إلّا الهند، فإنهم يعبدونها إلى يومنا هذا، وهم طائفة تدعى الإكنواطرية[١]. زعموا أن النار أعظم العناصر[٢] جِرْمًا، وأوسعُها حيّزًا، وأعلاها مكانًا، وأشرفها جوهرًا، وأنورها ضياءً وإشراقًا، وألطفها جسمًا وكيانًا، وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع، ولا نور في العالم إلّا بها، ولا نموّ ولا انعقاد إلّا بممازجتها.

وعبادتهم لها أن يحفِروا أُخْدُودًا[٣] مربّعًا في الأرض ويحشُوا النار فيه، ثم لا يَدَعُون طعامًا لذيذًا، ولا شرابًا لطيفًا، ولا ثوبًا فاخرًا، ولا عطرًا فائحًا، ولا جوهرًا نفيسًا، إلا طرحوه فيها؛ تقرّبًا إليها، وتبرّكًا بها. وحرّموا إلقاء النفوس فيها، وإحراق الأبدان بها، خلافًا لجماعة أخرى من زهّاد الهند.

وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها، يعظّمون النار لجوهرها تعظيمًا بالغًا، ويقدّمونها على الموجودات كلّها.

ومنهم زهّاد وعُبّاد يجلسون حول النار صاغين، يسدّون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نَفَسٌ صَدَرَ عن صَدْر مجرم، وسُنَّتهم الحثّ على الأخلاق الحسنة، والمنع من أضدادها، وهي: الكذب، والحسَد، والحِقْد، والكِفَاح، والحرص، والبغي، والبطر؛ فإذا تجرّد الإنسان عنها، تقرّب من النار.

٤ ـ وأما بيوت النيران، ومَن رسمها من ملوك الفرس

قال المسعوديّ:

أوّل مَن حُكِي ذلك عنه أفْريدون[٤] الملك، وذلك أنه وجد نارًا يعظّمها أهلها، [وهم][٥] معتكفون على عبادتها، [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها، فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها][٥]، وأنها واسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها من جنس الآلهة النورية، وأشياء ذكروها له. وجعلوا للنور مراتب

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة من «أجنيُهترا» وهي النار المقدّسة، أي التي تؤجّج إكرامًا للإله أجْني.

(٢) العناصر: جمع عنصر، الجسم البسيط الذي لا يستحيل إلى جسم آخر.

(٣) الأخدود: الشقّ المستطيل في الأرض.

(٤) هو أفريدون بن أثفيان الأصبهاني، حسب رواية ابن الكلبي. «معجم البلدان ٢/ ٤٧٥».
وقد ذُكر أنه تملّك على الفرس بعد أن قضى على الضّحاك من ملوكهم، وقضى على الظلم والفساد، وسُمّي يوم انتصاره وظفره يوم المهرجان. «صبح الأعشى ١/ ٤٩٢».

(٥) الزيادة عن المسعودي. «مروج الذهب».

وقوانين [وفرّقوا بين طبع(١) النار والنور](٢)، وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور، فيحرق نفسه: كالفَرَاش الطائر بالليل فما لَطف جسمه، يطرح نفسه في السراج فيحرقها. وغير ذلك مما يقع في صيد الليل من الغِزلان، والوحش، والطير؛ وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج في الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة في الليل، فإنهم يجعلون السُرُج حوالي المركب، فيثب السمك من الماء إليها، وأن بالنور صلاح هذا العالم، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك.

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى خراسان، فحُملت، فاتّخذ لها بيتًا بطوس(٣)، [واتخذ بيتًا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة](٤).

وبيتًا آخر بسجستان كواكر(٥)، كان اتّخذه بَهمن بن إسفنديار بن يُسْتاسْف بن يهراسف.

وبيت آخر ببلاد الشير والرّان، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان(٦)، وقيل: إنه صادف هذا البيت، وفيه نار معظّمة، فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة.

وبيت آخر للنار يقال له: كوسجة(٧)، بناه كيخسرو الملك.

وقد كان بقومس(٨) بيت نار معظم لا يُدْرى من بناه، قال له حريش(٩)، ويقال: إن الإسكندر لما غلب عليها، تركها ولم يطفئها.

---

(١) الطبع: الطبيعة التي وجد عليها الشيء، أو السَجية التي جبل منها الإنسان وغيره.
(٢) الزيادة من المسعودي. «مروج الذهب».
(٣) طوس، أربع مدن، وبها آثار أبنية إسلامية جليلة، وفي بعض بساتينها قبر الإمام عليّ بن موسى الرّضا، وقبر هارون الرشيد. «معجم البلدان ٤/١٤٩».
(٤) سمّاه الشهرستاني «قباذان». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».
(٥) سمّاه الشهرستاني «كركرا». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».
(٦) هو كسرى أنوشروان، أحدُ ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس، وقد ولد الرّسول في آخر أيامه. «صبح الأعشى ٢/٤٣».
(٧) سمّاه الشهرستاني «كويسة». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».
(٨) قُومس: صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل، وهي بلدة بأصبهان أيضًا وقد ضبطها بفتح الميم صاحب القاموس، وبكسرها صاحب معجم البلدان. «أعجام الأعلام ص ٢٣٢ دار الكتب العلمية».
(٩) سمّاه الشهرستاني: «جَرير». «الملل والنّحل ص ٢٨٣».

وبيت نار آخر يسمّى كَنْكَدَز، بناه سياوش بن كاوس الجبار، وذلك في زمن لُبْثِهِ بشرق الصين مما يلي البركة.

وبيت نار بمدينة أرّجان من أرض فارس، بناه قمار.

وبيت بأرض فارس اتُّخِذ في أيام يهراسف[١].

فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت[٢].

ثم اتّخذ زرادشت بعد ذلك بيوتًا للنيران، فكان مما اتّخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان، وبيت بمدينة نَسا والبيضاء من أرض فارس، وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك بطلب نار كان يعظّمها جَمْ[٣] فطلبت، فوجدت بمدينة خوارزم، فنقلها يستاسف إلى مدينة دَارَابْجِرْد من أرض فارس. . . والمجوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت. . . وللفرس بيت نار بإصطخر فارس، يعظّمه المجوس. كان في قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن اسبنديار وجعلته بيت نار، ثم نقلت عنه النار فخرب. . . وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم اتّخذه دارا بن دارا. وفي مدينة جور[٤] من أرض فارس. . . بيت بناه أردشير بن بابك. . . . . . وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس. وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود ابن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية، ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهديّ. وكان سابور اشترط على الروم بقاء هذا البيت. . . . . . وبأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام، بنته بُوران[٥] بنت كسرى أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيبا[٦].

---

(١) هو لهراسب.

(٢) زرادشت: صاحب الديانة الزرادشتية «المجوسيّة» وادّعى النبوّة، وقال بوحدانية الله، وأنّه خالق النور والظلمة، وأتى بكتاب صنّفه، وأن النّور لا بدّ أن يتغلّب على الظلمة. «راجع صبح الأعشى ١٣/ ٢٩٥».

(٣) جم: هو الملك جمشيد.

(٤) جور: مدينة بفارس، بينها وبين شيراز عشرون فرسخًا، وفي وسطها بناء مثل الدكّة تسميه العرب «الطربال» وهو من بناء أردشير، وقد بني في أعلاه بيت نار، وهي مدينة طيبة وإليها ينسب الورد الجوري، والعرب تسمّيها «كور». «معجم البلدان ٢/ ١٨١».

(٥) بوران: هي بنت كسرى أبرويز، ملّكها الفرس وألبسوها التاج، كانت حسنة السيرة في رعيتها. «انظر الشاهنامه ٢/ ٢٦١».

(٦) لم نجدها فيما رجعنا إليه من مصادر كتب البلدان.

وبيوت النيران كثيرة تعظّمها المجوس، والذي ذكرناه هو المشهور منها.

٥ ـ ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارًا:

١ ـ نار المُزْدَلِفة[١]، توقد حتى يراها مَن دفع من عرفة، وأوّل من أوقدها قُصيّ بن كلاب[٢].

٢ ـ نار الاستسقاء، كانت الجاهلية الأولى، إذا تتابعت عليهم الأَزمات، واشتدّ الجدب، واحتاجوا إلى الأمطار، يجمعون لها بَقَرًا، معلّقة في أذنابها وعراقيبها[٣] السَّلَع[٤] والعُشر[٥]، ويصعدون بها إلى جبل وَعْر، ويشعلون فيها النار، ويَضجُّون بالدعاء والتضرّع، وكانوا يرَوْن ذلك من الأسباب المتوصَّل بها إلى نزول الغيث[٦]، وفي ذاك يقول الوديك الطائيّ: [من البسيط]

لا دَرَّ دَرُّ رجالٍ خابَ سَعْيُهُمُ يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الأزماتِ بالعُشَرِ!
أجاعِلٌ أنت بَيْقُورًا مُسَلَّعةً ذَريعةً لَكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرِ؟[٧]

وقال أُمية بن أبي الصَّلْت[٨]: [من الخفيف]

ويَسُوقُون باقِرَ السَّهْلِ لِلطَّوْ دِ مَهَازِيلَ خَشْيةَ أن تَبُورَا[٩]

---

(١) المزدلفة: مكان بمكّة المكرمة.
(٢) هو قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، سيّد قريش في عصره، وهو الأب الخامس في سلسلة النسب النبوي الشريف. «فهرس الأعلام ١٩٨/٥».
(٣) العراقيب: مفردها عرقوب، وهو من الدّابة ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها، وكلّ ذي أربع عرقوباه في رجليه، وركبتاه في يديه.
(٤) السّلع: نبات وقيل: شجر، وقيل: إنّه سمّ، له ورقة صغيرة شاكّة كأنّ شوكها زغب.
(٥) العشر: من كبار شجر العضاه، وهو ذوي صمغ خلو، وحرّاق مثل القطن يقتدح به، وهو عريض الورق. «راجع كتاب النبات للأصمعي طبعة بيروت ١٩٠٨».
(٦) الغيث: المطر، والإفرنج يستنزلونه بإطلاق المدافع لإحداث الدويّ والالتهاب في الجوّ.
(٧) البيقور: بقر وباقر، وقير، وبيقور: أسماء جمع اسم الجنس «البقرة» من الأهلي والوحشي.
(٨) هو أميّة بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، أدرك الإسلام ولم يسلم. «فهرس الأعلام ٢٣/٢».
(٩) باقر السّهل: يريد البقر.

عـاقِـدِيـنَ الـنِّـيـرانَ فـي بُـكَـر الأَذْ نَـابِ مِنْها، لِكَيْ تَهِيجع النُّحُورا
سَـلَعٌ مَّـا ومِـثْـلُه عُـشَـرٌ مَّـا عـائِلٌ مَّـا وعـالَتِ الـبَـيْـقُـورا[١]

٣ ـ نار الزائر والمسافر، ويسمُّونها نار الطَّرْد، وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص، أوقدوا خلفه نارًا ودعَوْا عليه، ويقولون في الدعاء: أبعده الله وأسحقه! وأوقدوا نارًا إثره. قال الشاعر: [من الطويل]

وجُمَّة قَوْمٍ قد أَتَوْكَ ولم تَكُنْ لِتُوقِدَ نـارًا خَـلْفَـهـا لـلتَـنَـدُّمِ

والجُمَّة: الجماعة يمشون في الدّم، وفي الصلح. ومعنى هذا البيت: لم تندم على ما أعطيت في الحَمَالة[٢] عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارًا كي لا يعُودوا.

٤ ـ نار التحاليف: كانوا لا يعقِدون حِلْفهم إلا عليها، فيذكرون منافعَها، ويدعُون الله بالحِرْمان والمنعِ من منافعها على الذي ينقضُ العهدَ، ويطرحُون فيها الكبريتَ والمِلْح، فإذا فرقعتْ هُوّل على الحالف. قال الكُمَيْت[٣]: [من الطويل]

هُمُو خَوَّفُونِي بالعَمى هُوَّة الرَّدَى كما شَبَّ نارَ الحالِفِينَ المُهَوِّلُ[٤]

وقال أَوْس بن حَجَر: [من الطويل]

إذا استَقْبَلَته الشَّمْسُ، صَدَّ بِوَجْهِهِ كما صَدّ عن نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ

٥ ـ نار الغَدْر، كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره، أوقدوا له نارًا بمِنى[٥]، أيّامَ الحجّ على الأخشَب (وهو الجبل المطلّ على منًى)، ثم صاحوا: هذه غَدْرة فلان. قالت امرأة من هاشم: [من الوافر]

فإنْ نَـهْـلِكْ فـلم نَـعْـرِفْ عُـقُـوقًـا ولـم تُـوقَـدْ لـنـا بـالـغَـدْرِ نـارُ[٦]

٦ ـ نار السَّلامة: وهي نار توقد للقادم من سفره، إذا قدم بالسلامة والغنيمة. قال الشاعر: [من مجزوء الرمل المسبغ]

يـا سُـلَيْـمَـى أَوْقـدِي الـنّـارا إنَّ مَـنْ تَـهْـوَيـنَ قَـدْ زَارَا

---

(١) السّلع: آثار النار في الجلد.
(٢) الحمالة: الدّية، أو الغرامة يحملها قومٌ عن قوم.
(٣) هو الكميت بن زيد الأسدي، شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في عصر الأمويين، وكان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها توفي سنة ٧٤٤ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٣٢».
(٤) شبّ: أوقد، والحالفين: الحلفاء، والمهوّل: الذي يشنّع بالأمر ويبالغ فيه حتى يجعله هائلًا.
(٥) مِنى: مكان بمكة.
(٦) العقوق: قطع الأرحام.

٧ ـ نار الحرب، وتسمَّى نار الأُهْبَة والإنذار، توقد على يَفَاعٍ[١]، فتكون إعلامًا لمن بَعُد. قال ابن الروميّ: [من الوافر]

لـه نـارَان: نـارُ قِـرًى وحَـرْبٍ ... تـرى كِـلْتَيْـهِـمَـا ذاتَ الْتِـهـابِ[٢]

٨ ـ نار الصَّيْد: يوقدونها لصيد الظِّباء، لتُعْشِيَ أبصارها.

٩ ـ نار الأَسَد: كانت العرب توقدها إذا خافوه؛ فإن الأسد إذا عاين النار حدّق إليها وتأمّلها.

١٠ ـ نار السَّلِيم[٣]: توقَد للملدوغ، والمجروح، ومَن عضّه الكَلْب الكَلِب حتى لا يناموا فيشتدّ بهم الألم. قال النابغة: [من الطويل]

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمامِ سَلِيمُها ... لِحلْيِ النِّساءِ في يَدَيْهِ قَعاقِعِ[٤]

وذلك لأنهم كانوا يعلّقون عليه حَلْي النساء ويتركونه سبعة أيّام.

١١ ـ نار الفداء: وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبَوْا قبيلة وخرجت إليهم السادات في الفداء وفي الاستيهاب[٥]، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارًا فيفتضِحْن. وأمّا في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسون من الصفيّ[٦] لأنفسهم، وقدرُ ما يجودون به، وما يأخذون عليه الفداء، فيقدون لذلك النار. قال الشاعر: [من الطويل]

نِـسـاءُ بـنـي شَـيْـبَـانَ يَـوْمَ أُوَارَةٍ ... على النَّارِ إذ تُجْلَى له فَتَياتُها[٧]

١٢ ـ نار الوَسْم: كانوا يقولون للرجل: ما نارك؟ (في الاستخبار عن الإبل) أو ما سِمَتُك؟ [فيقول]: حياط[٨]، أو عِلاط[٩]، أو حَلْقة[١٠]، أو كذا، أو كذا.

حُكِي أن بعض اللصوص قرّب إبلًا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتّى إلى بعض الأسواق، فقال له بعض التجّار: ما نارُك؟ وإنما سأله عن ذلك، لأنهم

(١) اليفاع: المرتفع من الأرض. (٢) القِرى: الضيافة.
(٣) السّليم: من الأضداد، وتطلق على الملدوغ تفاؤلًا بالسّلامة.
(٤) القعاقع: الأصوات. (٥) الاستيهاب: طلب الهبة.
(٦) الصفيّ: المختار.
(٧) أوارة: اسم ماء أو جبل لبني تميم، وهي يومٌ من أيّام العرب.
(٨) حياط: ربّما كانت سمة على شكل هلال، فالحوط: هلالٌ من فضّة. «اللّسان: مادة حوط».
(٩) علاط: علامة في جانب العنق تكون خطًا أو أكثر بالعرض، أو حبل يحيط بالعنق.
(١٠) الحلقة: سمة على شكل الحلقة.

كانوا يعرفون مِيسَم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها، فقال: [من الرجز]

تَسْأَلُنِي الباعةُ: ما نِجَارُها إذ زَعْزَعُوهَا فسَمَتْ أبصارُها؟[١]
وكلُّ دارٍ لأُناسٍ دارُها! وكلُّ نارِ العالَمِين نارُها!

١٣ ـ نار القِرى: وهي من أعظم مفاخر العَرَب، كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القِرَى؛ فكلّما كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أفخر، وهم يتمادحون بها؛ قال الشاعر: [من الوافر]

له نارٌ تُشَبُّ بكُلِّ وادٍ إذا النِّيرانُ أُلْبِسَتِ القِنَاعا

وقال إبراهيم بن هَرمة[٢]: [من الطويل]

إذا ضلَّ عنهم ضَيْفُهم، رَفَعُوا له من النار في الظَّلْماء أَلْوِيةً حُمْرا

١٤ ـ وكانت للعرب نار عظمى تسمّى نار الحرّتين[٣]، وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسيّ[٤]، وكانت حَرَّة ببلاد عبس، تسمّى حرَّة الحدثان.

رُوِيَ عن ابن الكلبيّ[٥] أنّه قال: كان يخرج منها عنق فيسبح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمرّ بشيء إلّا أحرقته. وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجُلًا فخرج بهم نحوها، ومعه درّة حتى انتهى إلى طَرَفها، وقد خرج منها عُنُق كأنه عُنُقُ بعير فأحاط بهم، فقالوا: هلكتْ والله أشياخ بني عبس آخِرَ الدهر! فقال خالد: كلّا! وجعل يضرب ذلك العُنُق بالدِّرّة ويقول: «بَدًّا بَدًّا[٦]، كلُّ هَدْيِ الله

(١) النّجار: الأصل.

(٢) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة، وهو الخلْجُ، وهو شاعر مولع بالشّراب، حدّه صاحب شرطة المدينة أيام أبي العبّاس السّفاح، مدح المنصور الذي كتب إلى عامله على المدينة: من أتاك بابن هرمة سكران، فاجلده مائة جلدة واجلد ابن هرمة ثمانين، وبذلك تخلّص من الجلد وتحاشاه الناس توفي سنة ١٥٠ هـ. «اعجام الأعلام، ص ٤٤، دار الكتب العلمية».

(٣) الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنّها أحرقت.

(٤) هو خالد بن سنان العيسي، حكيم، من أنبياء العرب في الجاهلية، كان في أرض بني عبس يدعو الناس إلى دين عيسى، وردت ابنته على رسول الله ﷺ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وقال: ابنة نبيّ ضيّعه أهله. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٦».

(٥) هو هشام بن محمّد، أبي النضر ابن الشائب بن بشر الكلبي، أبو المنذر مؤرّخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، كثير التصانيف من أهل الكوفة توفي سنة ٨١٩ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٨٧، ٨٨».

(٦) بدًّا بدًّا، أي تبدّدي وتفرقي، ويقال: بددْتُ بدًّا، وبدّدت تبديدًا. «اللسان مادة: بدد».

يُؤَدّى! أنا عبد الله خالد بن سنان!»، فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعه والقوم معَه كأنه ثُعبانٌ يتملّك حجارة الحرّة حتى انتهى إلى قَلِيب(١)، فانساب فيه وتقدّم عليه، فمكث طويلًا، فقال ابن عمّ لخالد، يقال له عروة بن شبّ: لا أرى خالدًا يخرج إليكم أبدًا! فخرج يَنْطُف(٢) عَرقًا، وهو يقول: زعم ابن راعية المعْزى أني لا أخرج، فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن.

وفي هذه النار يقول الشاعر: [من الوافر]

كنار الحَرّتَيْن لها زَفيرٌ تُصِمُّ مَسَامِعَ الرجل السَّميع

٦ ـ ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية؛ منها:

نار البرق: وقد وصفها بعض الأعراب فقال: [من البسيط]

نارٌ تُجَدِّد لِلْعِيدانِ نَضْرتَها والنارُ تُشْعِل عِيدانًا فتَحْترِق

إشارة إلى أن النار تُحْرق العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث.

نار المَعِدَةِ: وهي التي تهضم الطعام، وهي كنار الحياة، ونار الغريزة، وقوّتها مادّة للصحة؛ كما أن ضعفها سبب للعلّة.

نار الحُمَّى: وقد قيل: النيران ثلاثة: نار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار الآخرة؛ ونار تأكل وتشرب، وهي نار الحمّى، تأكل اللحم وتشرب الدّم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهي نار الدّنيا.

ومن النيران المجازية:

نار الشوق، نار الشَّرَه(٣)، نار الشباب، نار الشراب.

قال شاعر يمدح بعض الملوك: [من المنسرح]

وُقِيتَ نارَ الجَحِيم يا مَلِكُ أربعُ نِيرانِه له نَسَقُ!
نارُ شَبابٍ تَرُوقُ نَضْرتُها ونارُ راحٍ مأنَّهُ شَفَقُ(٤)
ونارُ سُلْطانِهِ، تقارِنُها نارُ قِرًى لا تَزالُ تأْتَلِقُ(٥)

---

(١) القليب: البئر.
(٢) ينطف: يقطر.
(٣) الشَّره: الحدّة والإفراط.
(٤) الراح: الخمر.
(٥) تأتلق: تشتعل.

٧ ـ ذكر النيران التي يضرب المثل بها

يُضْرب المثل: بنار الحُباحِب، وهي نار لبخيل كان يوقدها، فإذا استضاء بها إنسان، أطفأها.

وقيل: إنها النار التي تُوريها الخيل بسنابكها[١] من الحجارة. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ [العَاديَات: الآية ٢]. وقال النابغة: [من الطويل]

* ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحبِ[٢] *

وهذا المثل يضرب لما لا منفعةَ فيه ولا حاصلَ له.

نار الغَضى[٣]: يضرب بها المثل في الحَرَارة، وهي جمر أبيض لا يصلح إلّا للوقود.

نار العَرْفَج[٤]: هي نار تتّقد سريعًا، قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين: «لَلسُّؤدُد أسرع إليك من النار في يبِس العرفج»، إذا التهبت فيه النار انتشرت.

وتسمى نار الزَّحْفتين، لأن العرفج إذا انتشرت فيه النار عَظُمت واستفاضت؛ فمن كان بالقرب منها زحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفىء من ساعتها، فيحتاج الذي زحف عنها أن يزحف إليها، فلا يزال المصطلي بها كذلك، فلذلك سمّيت نار الزحفتين.

نار الحَلْفاء[٥]: يضرب بها المثل في سرعة الاتّقاد؛ كما قيل: [من الهزج]

فما ظَنُّك بالحَلْفا ... ءِ أذْنَيْت له نارا

وفي سرعة الانطفاء، كما قيل: نار الحَلْفاءِ، سريعة الانطفاء.

٨ ـ ذكر ما جاء عنها على لفظ أفْعَل

يقال: آكل من النار؛ أحرّ من النار؛ أحرّ من الجمر؛ أحْسَنُ من النار؛ أسرع من شرارة في قَصْباء[٦].

---

(١) سنابك: مفردها سنبك، وهو طرف الحافر.
(٢) الحباحب: ما تطاير من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة أو نحو ذلك.
(٣) الغضى: شجرٌ من الأثل؛ خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلًا.
(٤) العرفج: نبت، وقيل: هو ضرب من النبات سهليّ سريع الانقياد، وهو طيّب الرائحة.
(٥) الحلفاء نوع من النبات، تتّقد بسرعة.
(٦) القصباء: جماعة القصب الثابت الكثير.

ويقال: فلان واري الزناد؛ وَرِيَتْ بك زِنَادي؛ فلان ثاقب الزَّنْدِ؛ فلان كَابِي الزِّنَادِ؛ صَلَدَتْ زِنَادُه؛ فلان ما يُصْطَلَى بِنَارِهِ؛ هو القَابِسُ[1] العَجْلان؛ هما زَنْدَانِ في وِعاء.

ومن أنصاف الأبيات:

* والنار قد يُخْمِدُها النَّافِخُ *

* كَمُلْتَمِسٍ إطفاءَ نارٍ بنافِخٍ *

* والجمرُ يُوضَعُ في الرَّماد فيَخْمُدُ *

* كذا كُلُّ نارٍ رُوِّحَتْ تَتَوَهَّجُ[2] *

* هَيْهاتَ تُكْتَمُ في الظَّلام مَشَاعِلُ *

ومن الأبيات قول عليّ بن الجَهْم: [من الكامل]

والنّارُ في أحْجَارها مَكْنُونةٌ ... لا تُصْطَلى إن لم تُثِرْها الأَزْنُدُ[3]

وقال آخر: [من الكامل]

والنارُ بالماء الذي هو ضدُّها ... تُعْطِي النُّضَاجَ، وطَبْعُها الإحراقُ[4]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

والكَاتِمُ الأمْرِ ليس يَخْفى ... كالمُوقِدِ النارِ باليَفَاعِ

وقال آخر: [من السريع]

لا تَتَّبِعْ كلَّ دُخَانٍ تَرى ... فالنَّارُ قد تُوقَدُ لِلْكَيِّ

وقال أبو تمّام: [من الكامل]

لولا اشْتِعالُ النَّار فيما جاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[5]

---

(١) القابس: طالب النّار.
(٢) روّحت: أصابتها الرّيح.
(٣) المكنونة: المختفية، والأزند: جمع زند: وهو موصل طرف الذّراع في الكتف من الرّجل، والزّند: العود الأعلى الذي تقدح به النار.
(٤) النّضاج: من نضج الثمر أي أتى أوان أكله.
(٥) العَرف: الرائحة مطلقًا، وأكثر ما يستعمل في الرائحة الطيبة.

وقال آخر: [من الكامل]

وفَتِيلَةُ المصباح تُحْرِقُ نَفْسَهَا وتُضِيءُ للسَّاري، وأَنْتَ كَذَاكَا

٩ ـ ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتزّ، غفر الله له: [من المتقارب]

كأنَّ الشَّرَارَ على نارها وقد راق مَنْظَرُها كُلَّ عَيْن
سُحَالَةُ تِبْرٍ إذا ما عَلَا فإمّا هَوى فَفُتَاتُ اللُّجَيْن(١)

أخذه العسكريّ، فقال: [من مخلّع البسيط]

أَوْقَدْتَ بعد الهُدُوِّ نارًا لها على الطارقين عَيْنُ
شَرَارُها إنْ عَلَا نُضَارٌ لَكِنَّهُ إنْ هَوى لُجَيْنُ(٢)

وقال السَّريّ الرّفّاء(٣): [من المنسرح]

والْتَهَبَتْ نارُنا، فمَنْظَرُها يُغْنِيكَ عن كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ
إذا رَمَتْ بالشَّرارِ فاطَّرَدَتْ على ذُرَاها مَطارِدُ اللَّهَبِ
رأيتَ ياقوتةً مُشَبَّكَةً تَطِيرُ عنها قُراضَةُ الذَّهَبِ(٤)

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من الكامل]

حَمْراءُ نازَعَتِ الرِّيَاحَ رِدَاءَها وَهْنًا وزاحَمَتِ السَّماءَ بِمَنْكِبِ(٥)
ضَرَبَتْ سَماءً من دُخَانٍ فوقها لم تدرِ منها شُعْلَةً من كوكب
وتَنَفَّحَتْ عن كُلِّ نفحةِ جَمْرةٍ باتت لها ريحُ الشَّمالِ بِمَرْقَبِ(٦)
قد أُلْهِبَتْ فتذهَّبتْ فكأنّها شَقْراءُ تَمْرَحُ في عَجاجٍ أَكْهَبِ(٧)

---

(١) السُّحالة: برادة الذّهب والفضة، والتبر: برادة الذهب، واللّجين: الفضّة.
(٢) النّضار: الذهب.
(٣) هو السّري بن أحمد الكندي، صاحب سرّ الشعر، الجامع بين نظم عقود الدرّ، أسلم صبيًا في الرّفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرز إلى أن قضى باكورة الشّباب، وتكسّب بالشعر، اتصل بسيف الدولة فطلع سعده واشتهر أمره. «انظر: يتيمة الدّهر ١٣٧/٢ وما بعدها».
(٤) قراضة الذّهب: نثاره عند قرضه.
(٥) الوهن: الضعف، والمنكب: ما بين العنق والعاتق.
(٦) تنفّحت: تنسّمت وتحركت وانتشرت رائحتها، والنّفحة: العطيّة، يقال: نفحه أي أعطاه.
(٧) العجاج: الغبار والدّخان، والأكهب: ما علته غبرة مشربة بسواد، والكهبة: لون ليس بخالص=

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ: [من المنسرح]

كـأنّـمـا الـنـارُ والـرَّمـادُ وقـد كـاد يُـوارِي مـن نُـورِهـا الـنّـورَا
وَرْدٌ جَـنِـيٌّ الـقِـطـافِ أحـمـرُ قـد ذَرّتْ عـلـيـه الأكُـفُّ كـافُـورَا(١)

وقال تاج الملوك بن أيّوب: [من المنسرح]

أمَا تَرى النّارَ وهي تُضْرَمُ في أحـشـاء كـانُـونِـهـا وتـلْـتَـهِـبُ؟
كـأنّـمـا الـفـحـمُ فـوقـهـا قُـضُـبٌ مـن عَـنْـبَـرٍ وهـي تَـحْـتَـهُ ذَهَـبُ

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخِصَال(٢): [من الخفيف]

لابنة الزَّنْدِ في الكوانين جَمْرٌ كـالـدَّرارِيّ فـي دُجـى الـظَّـلـمـاءِ
خَبِّرُونِي عنها ولا تَكْتُمُونِي أَلَدَيْـهـا صِـنـاعَـةُ الـكِـيـمـيَـاءِ؟
سَبَكَتْ فَحْمَها صَفَائِحَ تِبْرٍ رَصَّعَتْها بالفِضَّة البيضاءِ(٣)
كُلّما رَفْرَف النَّسِيمُ عَلَيْها رَقَصَتْ في غِلالةٍ حَمْراءِ(٤)

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجيّ: [من الكامل]

وكـأنّـهـا والـريـحُ عـابـثـةٌ بـهـا تُزْهَى فَتَرْقُصُ في قميصٍ أحمرِ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الكامل]

نـارٌ تَـلَـعَّـبُ بـالـسُّـقـوفِ كـأنّـهـا حُـلَـلٌ مُـشَـقَّـقَـةٌ عـلى حُـبْـشَـان
رَدَّتْ عليها الرِّيحُ فَضْلَ دُخانها فأَتَتْ به سُبَجًا على عقْيَان(٥)
فالجوُّ يَضْحَكُ في ابْيضاضِ شَرائرٍ منها ويَعْبِسُ في اسْوِدَاد دخَان

وقال ابن أبي الخِصَال: [من الطويل]

وعُـوجُـوا عـلى يـاقـوتـةٍ ذَهَـبِـيَّـةٍ يَهِيمُ بها المقرورُ بالسَّبَراتِ(٦)
إذا ما ارتَمَتْ من فَحْمِهَا بِشَرَارِها رَأَيْتَ نُجومَ اللّيْلِ مُنْكَدِراتِ

= في الحمرة، وهو في الحمرة خاصة.

(١) ذرّت: نثرت، والكافور: نبتٌ طيّبٌ زهره، تؤخذ من شجره مادّة عطريّة تستخدم في الطبّ.
(٢) هو عبد الملك بن مسعود بن فرج بن عطية الغافقي، كاتب أندلسي من أهل شقورة، سكن قرطبة، له رسائل لطيفة توفي سنة ١١٤٤. «فهرس الأعلام ٤/ ١٦٥».
(٣) سبكت: أسالت، وصبّت في قالب، فجعلته سبيكة.
(٤) الغلالة: ثوبٌ رقيق يلبس تحت الدّثار. (٥) السّبج: الخرز الأسود.
(٦) المقرور: الذي أصابه القرّ، وهو البرد الشديد، والسبرات: جمع سبرة وهي الغداة الباردة.

وقال سيف الدّولة بن حمدان: [من المنسرح]

كـأنّـمـا الـنـارُ والـرَّمـادُ مـعًـا وضَـوْءُهـا فـي ظـلامِـهِ يُـحْـجَـبُ
وَجْـنَـةُ عَـذْراءَ مَـسَّـهَـا خَـجَـلٌ فاسْتَتَرَتْ تَحْت عَنْبَرٍ أَشْهَبْ[١]

وقال آخر: [من المنسرح]

فَـحْـمٌ كـيـومِ الـفِـرَاق تُـشْـعِـلُهُ نـارٌ كـنـارِ الـفِـرَاق فـي الـكَـبِـدِ
أسْـوَدُ قَـدْ صـار تـحـت حُـمْـرتـهـا مِـثْـلَ الـعُـيـونِ اكْـتَـحَـلْنَ بـالـرَّمَـدِ

وقال أبو طالب المَأْمونيّ[٢]: [من الخفيف]

ما تَرى النّارَ كيف أسْقَمَهَا الْقُـ ـرُّ فأضحت تخبو وطورًا تَسَعَّرْ؟[٣]
وَغَـدَا الـجـمـرُ والـرَّمـادُ عَـلَـيْـهِ فـي قـمـيـصٍ مُـذَهَّـبٍ ومُـعَـنْـبَـرْ؟

وقال أبو فراس الحَمْدانيّ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

لله بَـــرْدٌ مـــا أشــــ ـدَّ ومَـنْـظَـرٌ مـا كـان أَعْـجَـبْ!
جـــاء الـــغـــلامُ بـــنـــارِهِ هَـوْجـاءَ فـي فَـحْـم تَـلَـهَّـبْ
فـكـأنّـمـا جَـمَـعَ الـحُـ ـلِيّ فَـمُـحْـرَقٌ مِـنـه ومُـذْهَـبْ
ثـم انـطـفـت فـكـأنّـهـا مـا بـيـنـنـا نَـدٌّ مُـعَـشَّـبْ[٤]

١٠ ـ ذكر شيء مما قيل في الشَّمْعَة والشَّمْعدان والسراج[٥] والقِنْديل[٦]

١ ـ أما الشمعة، فمن جَيّدِ ما قيل فيها قولُ الأَرّجانيّ[٧]: [من البسيط]

نَمَّتْ بأسْرار لَيْلٍ كان يُخْفِيها وأَطْلَعَتْ قلبَها للنَّاسِ مِنْ فِيهَا[٨]

---

(١) العنبر: الزعفران، والأشهب: ما كان لونه الشبهة، بياض غلب على السّواد.
(٢) هو عبد السّلام بن الحسين، شاعر من العلماء الأدباء، يتّصل نسبه بالمأمون ولد في بغداد، وكان يسمو إلى الخلافة، مات ولم يبلغ الأربعين. «فهرس الأعلام ٤/ ٥».
(٣) تخبو: يخفت لهيبها، وتسعَّر: يتوقّد. (٤) النّدّ: ضربٌ من النبات يتبخّر بعوده.
(٥) إن «سُورج» و«سُرج» معناهما الشمس في اللغة الهندية عن السنسكريتيّة.
(٦) والقنديل معرّب من اللاتينية، ومعناه في تلك اللغة «الشمعة» ثم نقله العرب بمعنى المصباح المعروف بالقنديل.
(٧) هو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر، شاعر في شعره رقّة وحكمة، توفي بتستر، وقال ابن خلّكان: إنّه عربيّ المحتد. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٥».
(٨) نمّت: وشت.

قَلْبٌ لها لم يَرُعْنَا وهو مُكْتَمِنٌ ... إلا بِرُقْيَةِ نار من تَرَاقِيهَا[١]
سقيمةٌ لم يَزَلْ طولُ اللّسان لها ... في الحيِّ يَجْني عليها ضَرْبَ هَاديها
غَرِيقةٌ في دُمُوعٍ، وهي تُحْرِقُها ... أنفاسُها بدَوَامٍ من تَلَظِّيها
تَنَفَّسَتْ نَفَسَ المَهْجُور إذْ ذَكَرَتْ ... عَهْدَ الخَليط فبات الوَجْدُ يُبْكِيها[٢]
يُخْشَى عليها الرَّدَى مَهْمَا ألمّ بها ... نَسِيمُ رِيحٍ إذا وافى يُحَيِّيها
بَدَتْ كنَجْمٍ هوى في إثْرِ عِفْرِيَةٍ ... في الأرض فاشتعَلَتْ منه نَوَاصيها[٣]
نجم رأى الأرضَ أولى أن يُبَوِّأها ... من السماءِ، فأمْسى طَوْعَ أهلِيها
كأنها غُرَّةٌ قد سالَ شادِخُها ... في وَجْه دَهْماءَ يُزْهيها تَجَلِّيها[٤]
أو ضَرَّةٌ خُلِقَتْ للشَّمْسِ حاسِدَةً ... فكُلَّما حُجِبَتْ، قامت تُحاكِيهَا
وَحِيدةٌ كشَبَاةِ الرُّمْحِ هازمَةٌ ... عساكِرَ اللّيل إنْ حَلَّتْ بِوَادِيها[٥]
ما طَنَّبَتْ قَطُّ في أرض مخيّمةً ... إلا وأقْمَرَ للأبصارِ داجِيهَا[٦]
لَهَا غَرائِبُ تَبْدُو من مَحَاسِنها ... إذا تَفَكَّرْتَ يَوْمًا في مَعَانيها
كصَعْدةٍ في حَشَا الظَّلْماءِ طاعنةٍ ... تَسْقِي أساقِلُها رَيًّا أَعاليها[٧]
فالوَجْنَةُ الوَرْدُ إلا في تناوُلِها ... والقامةُ الغُصْنُ إلا في تَثَنّيهَا
صَفْراءُ هِنْدِيَّةٌ في اللَّوْن إن نُعِتَتْ ... والقدُّ واللِّين إن أَتْمَمْتَ تَشْبيها
فالهِندُ تَقْتُلُ بالنِّيرانِ أنْفُسَها ... وعِنْدَها أنَّ ذاكَ القَتْلَ يُحْيِيها
قد أثْمَرَتْ وردةً حمراءَ طالِعةً ... تَجْني على الكَفِّ إن أهْوَيْتَ تَجْنِيها
وَرْدٌ تُشَاكُ به الأَيْدِي إذا قُطِفَتْ ... وما على غُصْنِها شوك يُوَقِّيها

(١) الرقية: العوذة التي يرقى بها المريض، والتراقي: جمع ترقوة: العظمة بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر.
(٢) الخليط: العشير.
(٣) العفرية: الجنيّة، يقصد بالنجم: الشهاب الذي يتبع الشياطين في الفضاء حين يسترقون السّمع، والنّواصي: جمع ناصية وهي شعر مقدّم الرأس.
(٤) الغرّة: البياض في الجبهة، وكلّ ما بدا من ضوء أو صباح، الشادخ: ما انشدخ منها وسال بفعل النّار، والدّهماء: الظُّلمة.
(٥) شباة الرّمح: حدُّ طرفه.
(٦) طنّبت: أي أقامت خيامها، والطُّنب: أعمدة الخيمة.
(٧) الصّعدة: القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف.

ما إن تَزَالُ تَبِيتُ اللَّيْلَ ساهرةً وما بلها غُلَّةٌ في الصَّدْر تُطْفِيها[١]
صُفْرٌ غَلَائلُها، حُمْرٌ عمائِمُها سودٌ ذوائبُها، بيضٌ لياليها[٢]
تُحْيِي الليالي نُورًا، وهي تَقْتُلُها بِئْس الجَزاءُ لعَمْرُ اللهِ تَجْزِيها!
قُدَّتْ على قَدِّ ثوبٍ قد تَبَطَّنها ولم يُقَدِّرْ عليها الثوبَ كاسِيها
غَرَّاءُ فَرْعاءُ ما تنفكُ قالِيَةً تقصُ لِمَّتَها طَوْرًا وتَفْلِيها[٣]
شَبَّاءُ شَعْثاءُ لا تُكْسي غدائِرُها لَوْنَ الشَّبِيبة إلا حينَ تُبْلِيها[٤]
قَناةُ ظَلْماءَ لا تنفكّ يأكلُها سِنانُها طولَ طَعْنٍ أو يُشَظِّيها[٥]
مَفْتوحةُ العين تُفْنِي ليلها سَهَرًا نَعَمْ، وإفناؤُها إيَّاهُ يُفْنِيها
ورُبَّما نالَ من أطْرافِها مَرَضٌ لم يُشْفِ منه بغير القَطْع مُشْفِيها

وقال آخر: [من الكامل]

بَيْضاءُ أضْحَكَتِ الظلامَ فَراعَها فبَكَتْ وأسْبَلَتِ الدُّمُوعَ بَوَادِرا[٦]
جَفَّت دُمُوعُ جُفُونِها فكأنَّما كُسِيَتْ من الطَّلْع النَّضِيد ضَفَائِرا[٧]

وقال أبو القاسم المطرّز[٨] من أبيات: [من البسيط]

ولِلشُّمُوعِ عُيُونٌ كُلَّما نظَرَتْ تَظَلَّمَتْ من يَدَيْها أنْجُم الغَسَق
من كلِّ مُرْهَفَة الأعْطاف كالغُصْن الـ ـمَيَّاد لكنَّه عارٍ من الوَرَق[٩]
إني لأعْجَبُ مِنها وهي وادِعَةٌ تَبْلى، وعَيْشَتُها من ضَرْبة العُنُق!

---

(١) الغلّة: الظمأ.
(٢) الغلائل: جمع غلالة، وهي ستر رقيقٌ يتدثّر به تحت الثوب.
(٣) الغرّاء: البيضاء، والفرعاء: الغزيرة الشعر الأسود، واللّمّة: الشعر الذي تجاوز شحمة الأذن، أو ما تفرق من الشعر، وتفليها: تنثرها.
(٤) الشّباء: المشتعلة، والشعثاء: التي بها شعث، وهو تلبّد الشّعر وتغيّره.
(٥) القناة: الرّمح، وَيشظّيها: يفرّقها ويقطعها. (٦) أسبلت: أسالت.
(٧) الطّلع: من النخل، شيء كالكوز يخرج منه وفيه حبّ منضود منسّق، والضفائر: خصل الشعر المضفورة.
(٨) هو عبد الواحد بن محمد بن يحيىٰ بن أيوب، شاعر بغدادي، كثير الشعر، سائر القول في المديح والهجاء والغزل، قرأ عليه الخطيب البغدادي أكثر شعره، توفي سنة ١٠٤٧ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٧٧».
(٩) المرهفة: الدقيقة، والأعطاف: جمع عطف، وهو من الإنسان جانباه.

وقال آخر: [من المنسرح]

جـاءتْ بِـجِـسْـمٍ كـأنَّـه ذَهَـبٌ تَبْكِي وتَشْكِي الهَوى وتلتهِبُ
كـأنّـهـا فـي أكُـفِّ حـامِـلِهَـا رمحُ لـجيـنٍ سِنـانُـه ذَهَـبُ[1]

وقال محمد بن أبي الثبات، شاعر اليتيمة: [من المتقارب]

ومَـجْـدُولـةٍ مـثـل صَـدْرِ الـقـنـاة تـعـرّت، وبـاطِـنُـهـا مُـكْـتَـسِـي[2]
لــهــا مُــقْــلَـةٌ هــي رُوحٌ لَهَـا وتـاجٌ عـلى الـرأس كـالـبُـرْنُـسِ[3]
إذا غـازَلَتْـهـا الـصَّـبَـا حَـرَّكَـتْ لِسَــانَـا مــن الــذَّهَــبِ الأمْـلَـسِ
وتُـنْـتَـجُ مـن حَـيْـثُ مـا أَلْقَـحَـتْ ضِياءً يُجَلِّي دُجى الحِنْدِسِ[4]
فـنَـحْـنُ مـن الـنُّـور فـي أسْـعُـدٍ وتِـلْـك مـن الـنـارِ فـي أنْـحُـسِ!

وقال آخر: [من الكامل]

ورشيقةٍ بيضاءَ تُطْلِعُ في الدُّجى صُبْحًا وتَشْفِي الناظِرينَ بِدَائها
شـابَـتْ ذوائِبُـهـا أوانَ شَـبَـابِـهـا واسْوَدّ مَـفْـرِقُـهـا أوانَ فَـنَـائِهـا[5]
كـالـعَـيْن: في طَبَقَاتِهَا ودُمُوعِها وبَـيَـاضِـهـا وسـوادِهـا وضِـيَـائِهـا

وقال الصاحب بن عبّاد: [من مخلّع البسيط]

وشَــمْــعــةٍ قُــدِّمَــتْ إلَيْــنَــا تَـجْـمَـعُ أوْصـافَ كُـلِّ صَـبٍّ[6]
صُـفْـرةُ لـونٍ، وذَوْبُ جِـسْـمٍ وفَــيْــضُ دَمْــعٍ، وحَــرّ قَــلْـبٍ

وقال السريّ الرفّاء: [من مجزوء الرّجز]

مَــفْــتُــولَةٌ مَــجْــدُولَةٌ تَـحْـكِـي لَنَـا قَـدّ الأسَـلْ[7]
كــأنَّــهَــا عُــمْــرُ الــفَــتــى والــنــارُ فِــيــهَــا كــالأجَـلْ

---

(١) اللّجين: الفضّة، وأسنان الرمح: حديدته التي يطعن بها.
(٢) القناة: الرمح.
(٣) البرنس: كلّ ثوبٍ رأسه منه.
(٤) الحندس: الظلمة، أو الليل الشديد الظلمة.
(٥) الذوائب: جمع ذوآبة، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٦) الصبّ: العاشق.
(٧) الأسل: الرّماح.

ومما ورد في وصفها نثرًا:

من رسالة لابن الأثير الجزريّ جاء منها:

وكان بين يديّ شمعةٌ تعمُّ مجلسِي بالإيناس، وتغنِي بوجودها عن كثرة الجُلّاس؛ وكانت الريح تَتَلَعَّبُ بِشُعَبها، وتدور على قُطْب لَهَبها؛ فطَوْرًا تقيمه فيصير أنمُله[١]، وطورًا تُميله فيصير سِلْسِله؛ وتارة تُجَوّفه فيصير مُدْهُنَه، وتارة تجعله ذا وَرَقات فيمثل سَوْسَنَة[٢]؛ وآونة تنشره فيبسط مِنْدِيلا، وآونة تَلُفُّه على رأسها فيستدير إكْلِيلا.

ومن رسالة أخرى له:

وكانت الريح تَتَلَعَّبُ بِلَهَبِها لدى الخادم فتشكله أشكالًا، فتارة تُبْرِزُه نجمًا، وتارة تُبْرِزه هِلالًا؛ ولربما سطع طورًا كالجُلّنارَة[٣] في تضاعيف أوراقها، وطورًا كالأصابع في انضمامها وافتراقها.

وقال سيف الدّين المشدّ[٤] في الفانوس: [من الكامل]

وكأنّما الفَانُوسُ في غَسَقِ الدُّجى دَنِـفٌ بَـراهُ سُـقْـمُـهُ وسُـهَـادُه[٥]

حُـنِـيَـتْ أضـالِعُـه ورَقَّ أدِيـمُـه وجَـرَتْ مَـدَامـعُـه وذابَ فُـؤادُه[٦]

٢ ـ ومما قيل في السراج:

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال، جاء منها:

عذرًا إليك أيَّدَك اللهُ! فإنّي خططت[٧] والنوم مُغَازِل، والقُرُّ نازل؛ والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صَوْلَةَ الحجَّاج[٨]؛ فطورًا تبرزه سنانًا، وتحرّكه لسانًا؛ وآونةً

(١) الأنملة، عقدة الإصبع أو سُلاماها.
(٢) السوسنة: نبات من الرياحين طيّب الرائحة كثير الأنواع.
(٣) الجلّنار: زهر الرمّان.
(٤) هو علي بن عمر بن قزل التركماني المصري، سيف الدين، شاعر من أمراء التركمان كان مشدّ الديوان بدمشق، ولد بمصر وتوفي بدمشق سنة ١٢٥٨ م، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٥».
(٥) الدّنف: المريض.
(٦) الأديم: الجلد.
(٧) خططت: كتبت وحبَّرت.
(٨) الحجّاج: يريد الحجّاج بن يوسف الثقفي، والي عبد الملك بن مروان على العراق، والصولة: البطش والقوّة.

تَطْويه جُنَّابَه[١]، وأخرى تنشره ذُؤَابه[٢]؛ وتارة تقيمه إبْرة لهب[٣]، وتعطفه بُرَةَ ذَهب[٤]؛ وحينًا تقوّسه حاجب فتاة، ذات غمزات؛ وتسلّطه على سليطه[٥]، وتديله[٦] على خليطه؛ وربما نصبته أُذُنَ جَوَاد، ومسخته حَدَقَ جَرَاد؛ ومشَقَتْه حروف برق، بكفٍّ وَدْق؛ ولَثَمت بسناه قِنْدِيلَه، وألقت على أعطافه مِنْدِيلَه؛ فلا حظَّ منه للعين، لا هداية في الطّرس[٧] لليدين.

٣ ـ رسالة القِنْديل والشمعدان:

من إنشاء المولى الفاضل البارع البلغ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني[٨]، سمعتُها من لفظه، وقرأتها عليه، وأجاز لي روايتها عنه. وهي الموسومة[٩] بـ «زهر الجِنان، في المفاخرة بين القنديل والشمعدان».

ابتدأها بأن قال:

الحمد لله الذي أنار حَالِك الظَّلَماء، بأنوار بَدْر السماء؛ وحلّى جيدها، بعقود النجوم، وحرسَ مَسِيدها، بسِهَام الرجوم[١٠]؛ وجعلها عبرة للاستبصار، ونزهة للأبصار؛ غِشَاؤها لَازَوَرْدٌ[١١] مكلّل بِنُضَار، أو أقاحيّ خميلة تفتّحت فيها أزرارُ الأزهار؛ تَهْدِي السّاريَ بسواريها، وتُزْرِي بالدّرر أنوارُ دراريها؛ كرع في نهر مَجَرّتها النَّسْرَان[١٢]، ورتع في مراعي رياضها الفَرْقَدَان[١٣].

أحمده على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان، ولا يؤدّي واجب حقّها إنسان؛ حمدًا يجلِبُ إلى الحامد أنواعَ الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحِسان.

---

(١) الجنّاب: الرفيق المساير إلى الجنب، أي تجعله إلى جنبها.

(٢) الذؤابة: شعر مقدّم الرأس.

(٣) إبرة اللهب: طرفه.

(٤) البرّة حلقة في أنف المرأة، أو كل حلقة من سوار وقرط وخلخال.

(٥) السّليط: الزّيت.

(٦) تديله: تظفره به.

(٧) الطرس: الصحيفة.

(٨) هو عبد الباقي بن عبد المجيد اليمني المخزومي المكّي، له نظمٌ واشتغال بالأدب والتاريخ، ولد بمكة ورحل إلى الشام ومصر وتفوي بالقاهرة سنة ١٣٤٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٧٢».

(٩) الموسومة: المزيّنة والمعلمة والمعنونة.

(١٠) الرّجوم: الشّهب التي ترمى بها الشياطين في السّماء.

(١١) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي، أو بنفسجي.

(١٢) النّسران: مجموعتان من النجوم، الأولى تعرف «بالنسر الطائر» والثانية: بالنسر الواقع وذلك لمشابهتهما للنسر.

(١٣) الفرقدان: نجما القطب.

وأصلّي وأسلّم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظُلْمة الوجود، وأظهر بظهوره أفعالَ الركوع والسجود؛ صلّى الله عليه وعلى آله الوافين بالعهود، وعلى أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاةً وسلامًا دائمين إلى اليوم الموعود!

وبعد، فإن فُنونَ الآداب كثيرة الشعوب، متباينة الأُسْلُوب؛ طالَمَا تلاعب الأديب بفنونها بين جِدٍّ ومُجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون[١]. وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز مُلَحِ الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب؛ فتمَثَّل في خاطري المفاخرة بين الشمعدان والقِنْديل، ولا بدّ من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل؛ لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مزّقا جِلْباب[٢] الدُّجى بأضوائهما، وحسما مادّة[٣] الظلمة بأنوارهما؛ وطلعا في سماء المجالس بدورًا، وأخجلا نَوْر الرّياض لما أصدرا من جوهرهما نورًا، سَمَا[٤] كل واحد منهما إلى أنه الأصل، وأن بمدحه يَحْسُن الفصل والوصل؛ وأنه الجوهرة اليتيمة، والبَدْرَةُ[٥] التي ليست لها قيمة؛ سارت بمحاسنه ركائب الركبان، ونُظِمت في جيد مجده قلائدُ العِقْيان.

فأحببت أن أنْظِمها في مَيْدان المناظرة لِيُبْرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة، ويُظْهِرَ نقائص صاحبه الفاضحة؛ وليتسنَّم غارب[٦] الاستحقاق بالفضيلة، ويؤكّد في تقرير فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لا تقبل الدَّعاوى إلّا بالبرهان، ولعمري لقد قيل قدْمًا: [من الخفيف]

مَـن تَـحَـلَّى بِـغَـيْـرِ مـا هُـو فِـيـهِ فَـضَـحَـتْـه شَـواهِـدُ الإمْـتِـحـان

فأتلع[٧] الشمعدان جِيدَه للمطاولة[٨]، وعَرَض سَمْهَرِيَّه[٩] اللجينيَّ للمناضلة[١٠]. وقال: [من الرجز]

* إسْـتَـنَّـت الـفِـصـالُ حـتّـى الـقَـرْعـى[١١] *

---

(١) الشجون: من الشجن، وهو الحزن.
(٢) الجلباب: القميص، أو الثوب الواسع الذي تغطي به المرأة رأسها وصدرها.
(٣) المادّة: ما يتركّب منه الشيء ويقوم به، وهي في الفلسفة قوّة موضوعة لحمل الصور، منفعلة، وتعرف أيضًا «بالهيولي».
(٤) سما: تطلّع وطمح.
(٥) البدرة: صرّة النّقود، كيس توضع فيه النقود.
(٦) الغارب: السّنام، ومن كلّ شيء أعلاه. (٧) أتلع: مدّ عنقه.
(٨) المطاولة: المفاخرة والمزايدة في الشرف. (٩) السمهريّ: الرمح الصّلب العود.
(١٠) المناضلة: المدافعة والمباراة في الرميّ.
(١١) استنّت: كبُرت، والفصال: الفطام للأطفال، والقرعى: التي سقط شعر رأسها أم لم ينبت بعد.

لستَ بنديم الملوك في المجالس، كلّا ولا الروضةِ الغَنّاءِ للْمُجالس! طالما أحدقتْ بي عساكرُ النظّار، ووقفت في استحسان هياكلي رؤيةُ الأبصار، وحُمِلْتُ على الرؤوس إذا عُلِّقْتَ بآذانك، وجُلِيتُ كجِلاء المرهَفَات إذا اسودّ وجهك من دُخَانك.

فنضنض[١] لسانُ القِنديل نضنضة الصِّلّ[٢]، وارتفع ارتفاع البازيِّ المُطِلّ، وقال:

إن كان فخرك بمجالسة السلاطين، فافتخاري بمجالسة أهل الدّين! طالما طلعتُ في أفق المحراب نجمًا ازداد عُلا، وازدانت الأماكن المقدّسة بشموس أنواري حُلا؛ جمع شكلي مجموع العناصر، فعلى مثلي تُعْقَد الخناصر، يحسَبُني الرائي جوهرة العقد الثمين، إذا رأى اصفرار لونك كصُفْرة الحزين؛ ولقد علوتك في المجالس زمانًا، ومن صبر على حرّ المشقّة ارتفع مكانًا.

فنظر إليه الشمعدان مُغْضَبًا، وهمّ بأن يكون عن جوابه منكّبًا[٣]، وقال:

أين ثمنك من ثمني، ومسكنك من مسكني؟ صفائحي صَفَحات الإبريز[٤]، فلذا سمَوْت عليك بالتَّبْريز، تَنَزّه العيونُ في حمائلي الذهبيّة، وتسرّ النفوسُ ببزُوغ أنواريَ الشّمسيّة؛ ولا يملكني إلّا من أوطنته السعادة مِهادَها؛ وقرَّبَتْ له الرياسة جِيَادها؛ ولقد نفعتُ في الصحّة والسَّقَم، وازدادت قيمتي إذا نقصتَ في القيم؛ إن انفصمت عُراكَ فلا تُشْعَبْ، ولا تُعاد إلى سَبْكِ نار فتصبّ وتُقْلَبْ، لست من فُرْسان مناظرتي، ولا من قُرَناء مفاخرتي.

فالتفت القنديل التفات الضِّرغام[٥]، وفَوّق[٦] إلى قرينه سهامَ الملام، وقال:

أنت عندي كثُعالة[٧]، لا محالة؛ طالك العنقود، فأبرزت أنواع الحقود؛ وأين الثريّا من يد المتناول؟ أم أين السها[٨] من كفّ المتطاول؟ تالله إنك في صرفك بصُفرك مغلوط! لقد خُصِصْتُ بالعلوّ وخُصِصْتَ بالهُبوط. ترى باطني من ظاهري مشرقًا، وتخالني لخزائن الأنوار مطلقًا؛ فحديث سيادتي مُسَلْسَل، وتاج فضائلي بجواهر العلوّ مكلَّل. ,فلحظه الشَّمعدان بطرَف طَرْفه[٩]، وأرسل في مَيْدان المناظرة

---

(١) نضنض: تحرّك وقلق وتمايل. (٢) الصلّ: الحيّة من أخبث الحيّات.
(٣) منكبًا: متنحيًا. (٤) الإبريز: الذهب الخالص.
(٥) الضّرغام: الأسد.
(٦) فوّق: عمل له فوقًا، والفُوق من السهم حيث يثبت الوتر منه.
(٧) الثعالة: الثّعلب. (٨) السّها: كوكب ضعيف الضوء.
(٩) الطَّرف: العين.

عِنان طِرْفه(١)، وقال:

إنّ افتخارك بالعلوّ غير مفيد، ومزية اختصاصك به ليس له أُبَّهة مزيد؛ طالما عَلَا القَتَام(٢) وانحطّت الفُرسان، ومكث الجمر وسَمَا الدُّخَان؛ ولقد صَيَّرتكَ كنظر المشنوق حاله، وكضوء السُّهاد ذُبَاله(٣)؛ وأنت الخليق بما قيل: [من الطويل]

* وقَـلْـبٌ بـلا لُـبٍّ، وأُذْنٌ بـلا سَـمْـعِ *

وسلاسلك تشعر بعقلك، وعلوّك ينبىء عن غلوّ إسقاطٍ كمثلك؛ عادلت التبر كفَّة بِكفِّه، ووزنته إذ كان فيه خفّة؛ فأصِخْ(٤) لمفاخري الجليلة، واستمع مناقبي الجميلة، أُطارِد جيوش الظَّلْماء برمحي، وأمزّق أثواب الديجور بصبحي؛ جمع عاملي بين طلع النخل، وحلاوة النحل، يتلو سورة النور لساني، ويقوى في مصادمة عساكر الليل البهيم(٥) جَنَاني(٦)؛ أُسامر المليك خَلْوه، ويستجلي من محاسني أحسن جَلْوَه.

ولله درّ القائل: [من البسيط]

أُنظر إلى شَمْعِدانٍ شَكْلُه عَجَبُ كروضة رَوّضتْ أزهارَها السُّحُبُ
يُطارِدُ الليلَ رمحٌ فيه من وَرِق سنَانُه لَهَبٌ من دونه الذَّهَبُ

فمثل هذه المناقب تتلىٰ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجْلَى.

فأضرم نار تبيينه، في أحشاء قرينه، فعندها قال القنديل:

لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك، لمّا وقفَتْ في المناظرة ركائبُ سيرك؛ فاشكر اليد البيضاء من شمعك، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك؛ وأمّا افتخارك بتلاوة سورة النور، فأنا أحقّ بها منك إذ محلّي الجوامع، والفرقان(٧) فارق بيني وبينك مع أنه ليس بيننا جامع؛ ففضيلتي فيه بيّنة، وآية نوري في سورة النور مبيّنة؛ فاقطع موادّ اللّجاجة(٨)، واقرأ الآية المشتملة على الزجاجة(٩)، يظهر لك من هو

---

(١) الطِّرف: الكريم من الخيل.
(٢) القتام: الغبار الأسود.
(٣) الذّبالة: الفتيلة في السّراج.
(٤) أصِخْ: فعل أمر من أصاخ أي استمع وأصغى.
(٥) البهيم: الأسود المظلم.
(٦) الجنان: العقل والقلب.
(٧) الفرقان: القرآن الكريم.
(٨) اللّجاجة: الجدال والعناد والخصومة.
(٩) الزجاجة: يريد الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النّور: الآية ٣٥].

الأعلى، ومن بالافتخار الأولى؛ تخالني دُرة عُلّقت في الهواء، أو كوكبًا من بعض كواكب الجوزاء.

ولله درّ القائل: [من السريع]

قِنْديلُنا فاقَ بأنْوارِهِ نَوْرَ رِياض لم تَزَلْ مُزْهرهْ
ذُبالةٌ فيه إذا أُوقِدَتْ حَكَتْ بحُسْن الوَضْعِ نَيْلُوفَرَهْ[١]

لا يحمل الأقذاء[٢] خاطري، ولا يغتمّ مشاهدي وناظري؛ فأنا خلاصك السّبك، والتبر الذي لا يفتقر إلى الحكّ؛ اشتِقاق اسمك من النحوس، ومن جِرْمِك[٣] تقام هياكل الفلوس؛ لقد عرّضتَ نفسك للمنيّة، وانعكست عليك موادّ الأمنيّة؛ مع أن الحق أوضحُ من لبّة الصباح[٤]، وأسطعُ من ضوء المصباح؛ والآن غُصِصْتَ بِرِيقك، وخفيتْ لوامع بُرُوقك، فهذه الشهباء والحَلْبَة، وهذه ميادين المناضلة رَحْبَة.

فحار الشمعدان في الجواب، وجعل ما أبداه أوّلًا فصل الخطاب.

فقال القنديل:

لا بدّ من الإقرار بأن قِدْحي المعلّى[٥]، وأني عليك بالتقديم الأولى؛ وأنّ مقامي العالي، ونوري المتوالي.

فقال الشمعدان:

لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك، وكونك الكوكب الدّريّ الذي قَصُر عن بلوغك باعُ مثيلك.

فجنح الشمعدان للسَّلْم، وترفع عن استيطان مواطن الإثم؛ وشرع يُبْدِي شعائر الخضوع، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع؛ وقال:

لولا حَمِيَّةُ النفوس، ما تجَمَّلَت بمفاخرنا صفحات الطروس[٦]؛ ولولا القال والقيل، ما ضَمَّنا معرض التمثيل؛ ولكن أين صفاؤك من كدري، وأين نظرك من نظري؛ خصّك الله بنوره، وذكرك في فرقانه وزبوره.

---

(١) النيلوفر: جنس نباتات مائية تنبت في الأنهار والمناقع.
(٢) الأقذاء: جمع قذى، وهو ما يتكوّن في العين من أذى تقذفه.
(٣) الجرم: الجسم.
(٤) لبّة الصّباح: قلادته، واللّبة: موضع القلادة من الصّدر.
(٥) المعلّى: سابع سهام القمار. (٦) الطروس: الصّحف.

فعندها تهلّلت أسارير القِنْديل، وتبسّم فرحًا بالتعظيم والتبجيل؛ وقال:

حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف، وإظهار محاسن الأوصاف؛ ففضلك لا يبارى، ووصفك لا يُجارى؛ يحسبك الرائي خميلة نَوْر تفتّحت أزهارها، وحديقة نرجس اطّردت أنهارها؛ تُسَرّ بك النفوس، وتدار على نضارتك الكؤوس؛ وإن اللائق بحالنا طيّ بساط المنافسة، وإخماد شرر المقابسة[١]؛ والاستغفار فيما فرط من كلامنا، والرجوع إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا.

ونقول:

الأصل فيما نقلناه عدمه، فقد حَفِيَ كل واحد منا في إبراز معايبه قَلَمُه. ونسأل الله أن تدوم لنا نِعَمُه، ويتعاهدنا في المساء والصباح كرمه! بمنّه وجوده وكرمه! آمين!

(١) المقابسة: الترامي بشرر النار، والقبس: شعلة النّار.

القسم الثالث
من الفن الأول
في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل
من هذا القسم

١ ـ في الليالي والأيام

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «خلق الله الخلق في ظلمة، (ورُوي: في عَمَاء)، ثم رشّ عليهم من نوره».

وهذا يدلّ على أن الظلمة خلقت قبل النور.

ورُوِيَ أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سئل عن الليل، أكان قبل أو النهار؟ قال: أرأيتم حيث كانت السمٰوات والأرض رتقًا[1]، هل كان بينهما إلّا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار.

والذي ورد في القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله عزّ وجلّ بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور.

ويُروَى أن الله عزّ وجلّ لما خلق السماء والأرض، وقع ظلّ السماء على الأرض فأظلمت فـ ﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: الآية ٥].

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين: ليلًا ونهارًا؛ فجعل حصّة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس؛ فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة.

---

(١) رتْقًا: من رتق أي ضمّ، والمرتوق: الملتئم.

فلمّا أراد الله عزّ وجلّ خلق النوع الإنسانيّ ـ وعلم أنه لا غِنى له عن حركته للمعاش نهارًا وسكونه للراحة ليلًا ـ أمر جبريل فأمرّ جناحه على القمر فمحا نوره، فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلمًا، والنهار مبصرًا.

ورُوِيَ أيضًا أن الله عزّ وجلّ خلق حجابًا من ظلمة مما يلي المشرِق، ووكَّل به مَلَكًا يقال له سراهيل، فإذا انقضت مدّة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة واستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعي الشفق؛ فإذا غاب الشفق بسط كفّه فطبق الدنيا ظلمة، فإذا انقضت مدّة الليل، قبض كفّه على الظلمة، إصبعًا بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام، حتى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب، وذلك من أشراط الساعة، والله أعلم!

٢ ـ ذكر ما قيل في الليل وأقسامه

الليل طبيعيّ، وشرعيّ.

أما الطبيعيّ، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها.

وأمّا الشرعيّ، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧].

والليل ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعتها العرب، وهي:

الشاهد، ثم الغَسَقُ، ثم العَتَمَةُ، ثم الفَحْمَةُ، ثم المَوْهِنُ، ثم القِطْعُ، ثم الجَوْشَنُ، ثم العبكة(١)، ثم التَّباشير، ثم الفجر الأوّل، ثم الفجر الثاني، ثم المُعْتَرِض.

هذا ما ذكره ابن النحاس في وصف صناعة الكتاب.

وحكى الثعالبيّ في فقه اللغة ـ عن حمزة الأصفهانيّ، قال: وعليه عهدته ـ أسماء غير هذه، وهي:

الجَهْمَةُ، والشَّفَقُ، والغَسَقُ، والعَتَمَةُ، والسُّدْفَةُ، والزُّلَّة(٢)، والزُّلْفَةُ، والبُهْرَةُ، والسَّحَر، والفجر، والصُّبْح، والصَّباح.

---

(١) كذا بالأصل، والذي في كتب اللغة بهذا المعنى: الهُتكة، فلعلّ ما هنا تحريفٌ من الناسخ.

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى في اللّسان، ولا في القاموس، ولا في مستدرك شارحه، وهذا هو الذي دعا الثعالبي، لجعل العهدة على حمزة الأصفهاني.

فصـــل

وقد عُبِّر بالليالي عن الأيام؛ كقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ [الفجر: الآيتان ١، ٢]، فعبّر عن الأيّام بالليالي؛ لأن كل ليلة تتضمّن يومًا.

٣ ـ ذكر الليالي المشهورة

من الليالي المشهورة:

ليلة البَرَاءة، وهي ليلة النصف من شعبان، قيل: سمّيت بذلك لأنها بَراءة لمن يُحييها؛ وليلة القَدْر، والصحيح أنها في مفرَدات العشر الأخير من شهر رمضان؛ وليلة الغَدِير، وهي ليلة الثامن عشرَ من ذي الحجّة؛ وليلة الهَرِير(١)، وهي ليلة من ليالي صِفِّين، قُتِل فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب معاوية رضي الله عنه؛ وليلة الخُلَعاء، وهي ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحان القَيْنيّ(٢) عند دَيْرانية، فأكل طَفَيْشَلها(٣) بلحم الخنزير، وشرب خمرها، وزنى بها، وسرق كساءها؛ وليلة النابغة(٤)، يُضْرب بها المثل في الخوف؛ وليلة المتوكّل(٥)، تضرَب مثلًا في موت نتج من سرور؛ لأنه قُتِل في مجلس أُنسه، على ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

٤ ـ ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الليل

يقال: أطغى من الليل، أطْفَل(٦) من ليل على نهار، أحْيَرُ من الليل، أسْتَرُ من الليل، أظْلم من الليل، أندى من ليلةٍ ماطرة.

---

(١) الهرير: الصوّيت: وهرّ الكلب صوّت دون أن ينبح، والهرير: صوت القوس.

(٢) هو حنظلة بن الشرقيّ، وكان خليعًا فاسقًا، أحد الشعراء الجاهليين، من المعمّرين، لم يدرك الإسلام، وكان من عشراء الزبير بن عبد المطلب، وهو ترب له. «راجع الشعر والشعراء ص ٢٤٦، وفهرس الأعلام ٢/ ٢٨٦».

(٣) الطفيشل: نوعٌ من المرق.

(٤) هو النابغة الذبياني، الشاعر الجاهلي المشهور، وقد أشار النابغة إلى تلك الليلة بقوله:

فَبِتُّ كأنّي ساورتني ضئيلة ... من الرّقش في أنيابها السّمُّ ناقعُ

«ديوانه ص ٨٠ دار صادر».

(٥) المتوكّل: هو الخليفة العباسي جعفر بن محمد، أبو الفضل، اغتيل بسامرّاء ليلًا سنة ٨٦١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٢٧».

(٦) أطفل الليل: أي أقبل بظلمته.

ويقال: الليل أخفى للويل، الليل نهار الأريب، الليل طويل وأنت مُقْمر، الليل وأهضام[١] الوادي، الليل الأعور (لأنه لا يُبْصَر فيه).

ويقال: اتّخذ الليلَ جَمَلًا[٢]، شَمِّرْ ذَيْلًا، وادّرعْ ليلًا، أمرُ نهارٍ قُضِي بليل.

ومن أنصاف الأبيات:

* اللّيل حُبْلَى ليس تَدْرِي ما تَلِد *

* ما أقصرَ الليلَ على الرّاقد! *

* ما أشْبَهَ الليلةَ بالبارِحَهْ! *

* وليلُ المُحِبِّ بلا آخر *

* إحدى لياليكِ فهِيسِي هِيسِي[٣] *

* فإنّكَ كالليل الذي هو مُدْرِكي *

ومن الأبيات: [من البسيط]

إنّ اللّيالِيَ لم تُحْسِنْ إلى أحدٍ إلّا أسَاءتْ إليه بَعْدَ إحسان

[من الخفيف]:

واللّيالي كما عَهِدتَ حَبَالَى مُقْرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلّ عَجِيبِ

[من الرّجز]:

أمَا ترى اللّيْلَ والنّهارا جَارَيِنِ لا يُبْقِيان جارًا؟

وقال حميد بن ثور[٤]: [من الطويل]

ولَنْ يَلْبَث العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ إذا طَلَبَا أن يُدْرِكا ما تمنَّيَا!

وقال أبو حيّة النُّميري[٥]: [من الطويل]

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضيا

---

(١) أهضام الوادي: مفردها هضم وهو بطن الوادي.

(٢) هو مثل يضرب في الحثّ على مزاولة الجهد ليُظفر بالمطالب، والمعنى: عليك بركوب اللّيل، وكابد السُّرى تنل بغيتك. «الزمخشري ١/ ٤١».

(٣) فهيسي هيسي: كلمة تقال عند إمكان الأمر، والإغراء به.

(٤) هو حميد بن ثور الهلالي، من بني عامر بن صعصعة، إسلاميّ مجيد في شعره. «الشعر والشعراء ص ٢٤٧».

(٥) هو الهيثم بن الربيع، وكان يروي عن الفرزدق، وكان كذّابًا، وقد ذكر ابن قتيبة نتفًا من كذبه، =

٥ ـ ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه

قد أكثر الشعراء في وصف الليل بالطُّول والقصَر، وذكروا سببَ الطول الهُمُومَ، وسبَب القِصر السرورَ.

ولهذا أشار بعض الشعراء في قوله: [من الكامل]

إنّ اللّيالِيَ للأنامِ مَناهلٌ ... تُطوى وتُنْشَرُ بينها الأعمارُ
فقِصارهُنّ مع الهُمُومِ طويلةٌ ... وطِوالهُنّ مع السرورِ قِصارُ

وقال آخر: [من البسيط]

إنّ التَّواصُلَ في أيامِهِ قِصَرٌ ... كما التهاجُر في أيّامِه طُولُ
فليس يَعْرِف تَسْهِيدًا ولا رَمَدًا ... جفنٌ برؤية مَنْ يهواهُ مشغولُ[(١)]

وقال ابن بَسَّام[(٢)]: [من السريع]

لا أَظْلِمُ الليلَ ولا أَدّعي ... أنّ نجومَ الليلِ ليستْ تَغُورْ
ليلي كما شاءت فإنْ لم تَزُر ... طالَ؛ وإنْ زارَتْ، لَيْلي قَصِيرْ

أصله من قول عليّ بن الخليل: [من السريع]

لا أَظْلِمُ الليلَ ولا أَدّعي ... أنّ نجوم الليلِ ليسَتْ تَعُولْ[(٣)]
ليلي كما شاءَتْ قصيرٌ إذا ... جادَتْ، وإن صدَّتْ، فليلي طوِيلْ

وقال آخر: [من البسيط]

أخُو الهَوى يستطِيلُ الليلَ مِن سَهرٍ ... واللّيلُ في طُوله جارٍ على قَدَرِهْ
ليلُ الهوى سَنَةٌ في الهَجْر مدّتُه ... لكِنَّه سِنَةٌ في الوَصْل مِنْ قِصَرِهْ[(٤)]

= وهو شاعر من شعراء العصر الأموي. «الشعر والشعراء ص ٥٢٢».

(١) التسهيد: النعاس، والرّمد: مرضٌ يصيب العين فتلتهب، وتمنع الكرى.

(٢) هو عليّ بن محمد بن نصر، أبو الحسن، شاعر هجاء، من الكتّاب، عالم بالأدب والأخبار، من أهل بغداد توفي سنة ٩١٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٢٤».

(٣) تعول: يقال: عالت النجوم: أي ذهبت.

(٤) سَنَة، وسِنَة، جناس تام، السَّنة بمعنى العام، والسِّنة بمعنى النعاس والغفلة.

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك[١]: [من البسيط]

لا أسألُ اللهَ تغييرًا لما صَنَعَتْ نامَتْ وقد أسهرتْ عَيْنَيّ عيناها
فاللّيلُ أطولُ شيءٍ حينَ أَفْقِدُها واللّيلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

٦ ـ وأما ما وصف به من الطُّول

قال الخبّاز[٢]: [من المتقارب]

ولَيْلٍ كَوَاكِبُه لا تَسِيرْ ولا هُوَ مِنْها يُطِيقُ البَرَاحَا[٣]
كيومِ القِيَامةِ في طُولِهِ على مَنْ يُراقِبُ فيه الصَّبَاحا

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

ما لِي أرى الليلَ مُسْبِلًا شَعَرًا عَن غُرّةِ الصُّبْحِ غَيْرَ مَفْروقِ

وقال بشّار: [من الطويل]

خَلِيلَيّ! ما بالُ الدُّجى لا يُزَحْزَحُ وما بالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لا يَتَوَضَّحُ؟
أضَلَّ النَّهارُ المستَنِيرُ طَرِيقَهُ؟ أمِ الدّهْرُ لَيْلٌ كُلُّه لَيْسَ يَبْرَحُ؟

وقال الرفّاء: [من الطويل]

أَلَا رُبَّ لَيْلٍ بِتُّ أَرعى نُجومَهُ فلم أَغْتَمِضْ فيه ولا اللَّيْلُ أَغْمَضَا
كأنَّ الثُّرَيَّا راحةٌ تَشْبُرُ الدُّجى لتَعْلَمَ طالَ اللَّيْلُ لي أم تَعَرَّضَا[٤]
عَجِبْتُ لِلَيْلٍ بَيْنَ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ يُقاس بِشِبْرٍ كَيْفَ يُرجىٰ له انْقِضَا؟

وقال محمد بن عاصم: [من السريع]

أقول، واللَّيْلُ دُجًى مُسْبَلُ والأَنْجُمُ الزُّهْر به مُثَّلُ
يا طُولَ لَيْلٍ ما لَهُ آخِرٌ مِنْكَ، وصُبْحٌ ما له أَوَّلُ!

(١) هو الخليفة الأموي، أبو العباس، كان شاعرًا ماجنًا انهمك باللهو والغناء وسماع الموسيقى، قتل سنة ٧٤٤ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٢٣».
(٢) هو أبو بكر الخباز محمد بن أحمد بن حمدان، المعروف بالخبّاز البلدي، ومن عجيب شأنه أنه كان أمّيًا، وشعره كله ملح وتحف، وغرر وطرف. «يتيمة الدهر ٢/ ٢٤٤».
(٣) البراح: الظهور، أي هو لا يطيق رؤيتها لأنّه يودّ انقشاع الليل.
(٤) الرّاحة: اليد، وتشبر الدّجى: تقيسه بالشّبر.

وقال التنوخيّ: [من الرجز]

وليلةٍ كأنّها قُرْبُ أَمَلْ ظلامُها كالدّهر ما فيه خَلَلْ
كأنّما الإصباحُ فيها باطِلٌ أزهقَهُ اللهُ بحقٍّ، فبَطَلْ
ساعاتُها أطولُ من يَوْمِ النّوى وليلةِ الهَجْرِ وساعات العَذَلْ[1]
مؤصَدَةٌ على الورى أبوابُهَا كالنّار لا يَخْرُجُ منها مَن دخلْ[2]

وقال أبو محمد، عبد الله بن السيِّد البَطْليُوسِي[3]: [من الطويل]

تَرى لَيْلَنا نواصِيه كِبْرَةً كما شَبَّ، أو في الجَوِّ رَوْضُ نَهَارِ[4]؟
كأنّ اللّيالي السَّبعَ في الأُفْقِ جُمِّعَتْ ولا فصلَ فيما بَيْنَها بنهارِ

وقال الشريف البياضيّ[5]: [من الطويل]

أقولُ لصَحْبِي والنجومُ كأنّها وقد رَكَدَتْ في بَحْرِ حِنْدِسِها غَرْقَى[6]
أرى ثوبَ هذا اللَّيْلِ لا يَعْرِفُ البِلَى! فهل أَرَيَنْ للصُّبْحِ في ذَيْله فَتَقَا؟

وقال أيضًا: [من الوافر]

أقولُ ولِلدُّجى عُمْرٌ مَديدٌ وآخِرُه يُردّ إلى مَعادِ
وقد ضَلَّتْ كواكِبُه، فظَلَّتْ حَيَارى ما لَها في الأُفْقِ هادي
لعلَّ اللّيلَ ماتَ الصُّبْحُ فيه فلازَمَ بعده لُبْسَ الحِداد

وقال آخر: [من الوافر]

أمَا لِظَلَامِ لَيْلِي من صَبَاحِ؟ أمَا لِلنَّجْمِ فيه من بَرَاحِ؟
كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ، فَلَيْسَ يُرْجى به نَهْجٌ إلى كُلِّ النواحي[7]

---

(١) النّوى: البعد. (٢) المؤصدة: المغلقة.
(٣) هو عبد الله بن محمد بن السيّد، من العلماء باللغة والأدب، ولد ونشأ في بطليوس بالأندلس، انتقل إلى بلنسية ومات فيها سنة ١١٢٧ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٢٣».
(٤) نواصيه: جمع ناصية، وهي مقدّم الرأس، والكبرة: كبر السّن.
(٥) هو مسعود بن عبد العزيز بن الحسن بن عبد الرزاق البياضي، أبو جعفر، شاعرٌ هاشميّ من أهل بغداد مولدًا ووفاة، والبياضي نسبة إلى لبس البياض، يقول ابن خلّكان: له ديوان شعر صغير قد رآه، وهو في غاية الحسن والرّقة، توفي سنة ١٠٧٦ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٢١٨».
(٦) الحندس: الظلمة. (٧) النّهج: الطريق المستقيم الواضح.

كأنَّ الشَّمْسَ قد مُسِخَتْ نُجومًا تَسِيرُ مَسِيرَ رُوَّادٍ طِلَاحِ[(١)]
كأنّ الصُّبْحَ مَهجُورٌ طريدٌ كأنّ الليلَ مات صَريعَ راحِ[(٢)]
كأنّ بنات نَعْشٍ مُتْنَ حُزْنًا كأنّ النسرَ مَكسور الجَناحِ[(٣)]

وقال آخر: [من السريع]

يا لَيْلَةً طالَتْ على عاشِقٍ مُنْتَظِرٍ للصُّبْحِ مِيعَادَا!
كادَتْ تَكونُ الحَوْلَ في طُولِها إذا مضى أوّلُها، عادَا

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

رُبَّ لَيْلٍ كأنَّهُ الدَّهْرُ طُولًا قد تَناهَى فلَيْسَ فيه مَزِيدُ
ذِي نُجُومٍ كأنَّهُنَّ نُجوم الشَّـ ـيْبِ لَيْسَتْ تَزُولُ، لَكِنْ تَزِيدُ

وقال أبو الأحنف[(٤)]: [من الخفيف]

حَدِّثُوني عن النَّهارِ حَدِيثًا أو صِفُوهُ فقد نَسِيتُ النَّهارا

وقال بشّار: [من الرّمل]

طالَ هذا اللَّيْلُ بَلْ طالَ السَّهَرْ! ولَقَدْ أعْرِفُ لَيْلِي بالقِصَرْ
لم يَطُلْ حتّى دَهانِي في الهوَى ناعِمُ الأطْرافِ فَتّانُ النَّظَرْ
فكأنَّ الهَجْرَ شَخْصٌ ماثِلٌ كُلَّما أبْصَرَه النَّوْمُ نَفَرْ

وقال إبراهيم بن خفاجة الأَنْدَلُسِيّ: [من المجتثّ]

يا لَيْلَ وَجْدٍ بِنَجْدٍ أما لِطَيْفِكَ مَسْرَى؟[(٥)]
وما لِدَمْعِي طَلِيقٌ وأَنْجُمُ الجَوِّ أَسْرَى؟
وقد طَمَا بَحْرُ لَيْلٍ لم يُعْقِبِ المَدَّ جَزْرَا[(٦)]
لا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فيه غَيْرَ المَجَرَّةِ جِسْرَا[(٧)]

---

(١) الطّلاح: مفردها الطّلح، وهو المهزول. (٢) الرّاح: الخمرة.
(٣) بنات نعش: سبعة كواكب، تشاهد جهة القطب الشمالي، شبّهت بحملة النّعش.
(٤) لعلّه ابن الأحنف، العبّاس، أبو الفضل، شاعر الغزل الرقيق، نشأ في بغداد وتوفي بها سنة ٨٠٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥٩».
(٥) الطّيف: الخيال الذي يتراءى للعاشق عند التذكّر.
(٦) طما البحر: علا موجه وعمّ.
(٧) المجرّة: نجوم في السّماء يبدو ضوؤها ولا ترى لبعدها.

وقال أبو مروان بن أبي الخصال: [من الطويل]

وليلٍ كأنَّ الدّهرَ أَفْضى بعُمْره جميعًا إلَيْه، فانتهى في ابْتِدائه
يُحَدِّثُ بعضُ القومِ بَعْضًا بطُولِهِ ولم يَمْضِ منه غيرُ وَقْتِ عِشَائِه

وقال إبراهيم ولد ابن لنكك البصريّ[1]، شاعر اليتيمة: [من السريع]

ولَيْلَةٍ أَرّقَنِي طُولُها فبِتُّها في حَيْرَة الذَّاهِلِ
كأنّما اشْتُقَّتْ لإفراطها في طُولها من أمل الجاهل

وقال امرؤ القيس: [من الطويل]

وليلٍ كمَوْجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُدولَه عليَّ بأنواع الهُمُوم ليبتلي[2]
فقُلتُ له لما تمَطّى بصُلْبِه وأردفَ أعجازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ[3]
ألَا أيُّها الليلُ الطويلُ، ألَا انْجلي بصُبْحٍ! وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ![4]
فيا لَك من ليلٍ كأنّ نُجومَه بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ[5]

وقال آخر: [من الوافر]

أُراقبُ في السَّماءِ بناتِ نعشٍ ولو أَسْطِيعُ، كنتُ لهنَّ حادي
كأنَّ اللّيْلَ أُوثِقَ جانِبَاهُ وأوسَطُه بأمراسٍ شِدَاد

وقال أخرم بن حميد: [من الطويل]

وليلٍ طويلِ الجانِبَيْنِ قطعتُه على كَمَدٍ، والدَّمْعُ تَجْرِي سَوَاكِبُهْ[6]
كواكِبه حَسرى عليه كأنّها مُقَيَّدةٌ دونَ المَسِيرِ كَواكِبُه

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن محمد، فرد البصرة وصدر أدبائها، وأكثر شعره ملح وظرف وجلّه في شكوى الزّمان وأهله، أبدع في المقطوعات ولم يبدع في القصائد. «يتيمة الدّهر ٢/ ٤٠٧».

(٢) في الديوان ص ١١٧ دار الكتب العلميّة: «أرخى سدوله» والسّدول: الستور، يريد بها ظلمة الليل.

(٣) الكلكل: الصّدر.

(٤) أمثل: يريد أن الإصباح ليس بأفضل من الإمساء.

(٥) صواب البيت:

فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه بكلِّ مغار الفتل شدّت بيذبل

(٦) الكمد: الحزن والغيظ. «الديوان ص ١١٧ دار الكتب العلميّة».

وقال ابن الرقّاع[1]: [من الكامل]

وكأنَّ لَيْلي حينَ تغرب شَمْسُهُ ... بسواد آخَرَ مثلِهِ مَوْصُولُ

أَرْعى النُّجومَ، إذا تغيّبَ كوكبٌ ... أبصرتُ آخَرَ كالسِّراج يَجُولُ[2]

وقال آخر: [من السّريع]

ما لِنُجُومِ اللَّيْلِ لا تَغْرُبُ؟ ... كأنَّها مِنْ خَلْفِهَا تُجْذَبُ!

روَاكِدٌ ما غارَ في غَرْبِهَا ... ولا بَدَا من شَرْقِهَا كَوْكَبُ[3]

وقال سعيد بن حميد[4]: [من مجزوء الرّجز]

يا لَيْلُ، بَلْ يا أَبَدُ! ... أنائِمٌ عَنْكَ غَدُ؟

يا لَيْلُ لو تَلْقَى الَّذي ... أَلْقَى بها أو تَجِدُ

قَصَّرَ مِنْ طُولِكَ أو ... ضَعَّفَ مِنْكَ الجَلَدُ!

وقال سيف الدّين المشدّ: [من المجتثّ]

ماتَ الصَّباحُ بِلَيْلٍ ... أَحْيَيْتُه حِينَ عَسْعَسْ![5]

لو كانَ في الدّهرِ صُبْحٌ ... يَعِيشُ، كانَ تَنَفَّسْ

٧ ـ أما ما وصف به من القِصَر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العبّاس[6]: [من الرجز]

ولَيْلةٍ إحْدَى اللّيالي الزُّهْرِ ... قابلتُ فيها بَدْرَها بِبَدْري

لم تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وفَجْرِ ... حتّى تَوَلَّتْ وهي بِكْرُ الدَّهْرِ

---

(١) هو عدي بن زيد بن مالك، من عاملة، شاعر كبير من أهل دمشق كان معاصرًا لجرير، مقدّمًا عند بني أميّة، مات في دمشق نحو سنة ٧١٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٢١».

(٢) أرعى النجوم: أراقبها.

(٣) غار: اختفى.

(٤) هو سعيد بن حميد بن سعيد، أبو عثمان، من الشعراء الكتّاب، عبّاسي رقيق الشعر، توفي نحو سنة ٦٨٤ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٩٣».

(٥) عسعس الليل: أظلم.

(٦) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، شاعرٌ أديب، قال المسعودي: لا يعلم فيمن تقدّم وتأخّر من الكتّاب أشعر منه، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».

وقال الشريف الرضيّ: [من المنسرح]

يا لَيْلَةً كادَ مِنْ تَقاصُرها ... يَعْثُرُ فيها العِشَاءُ بالسَّحَرِ

وقال آخر: [من البسيط]

يا ليلةٍ جَمَعَتْنا بعد فُرْقَتِنَا ... فبِتُّ من صُبْحِها لَمَّا بدا، فَرِقا[١]

لما خَلَوْتُ بآمالي بها، قَصُرتْ ... وكاد يَسْبِقُ فيها فجرُها الغَسَقَا

وقال آخر: [من البسيط]

يا رُبَّ لَيْلِ سُرُورٍ خِلْتُه قِصَرًا ... يُعارِضُ البرق في أُفْقِ الدُّجى بَرَقَا

قد كاد يَعْثُرُ أولاه بآخِرِهِ ... وكادَ يسبِقُ منه فَجْرُهُ الشَّفَقَا[٢]

وقال القاضي السعيد ابن سناء الملك[٣]: [من البسيط]

يا لَيْلَةَ الوَصْلِ، بل يا ليلَةَ العُمْر! ... أحسَنْتِ، إلّا إلى المشتاق، في القِصَر

يا ليتَ زِيدَ بحكم الوصل فيكِ لنا ... ما طوّلَ الهَجْرُ من أيّامِكِ الأُخَر

أو لَيْتَ نَجمكِ لم تَقْفُلْ ركائبُه ... أو ليتَ صُبْحَكِ لم يَقدُم من السَّفَر

أو ليتَ لم يَصْفُ فيكِ الشَّرقُ من غَبَشٍ ... فذلك الصَّفْوُ عِنْدِي غايةُ الكَدَر[٤]

أو ليتَ كُلّاً من الشرقَيْنِ ما ابْتَسَمَا ... أو ليتَ كُلّاً من النَّسْريْنِ لم يَطِرِ

أو ليتَ كنتِ كما قد قال بعضهم ... «لَيْلَ الضَّرير فصُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَر»

أو ليتَ فَجرَكِ لم يَنْفُرْ به رَشَئِي ... أو ليتَ شَمْسَكِ ما جارَتْ على قَمَري[٥]

أو ليتَ قَلْبِي وطَرْفِي تحتَ مِلْك يَدِي ... فزِدْتُ فيه سَوادَ القلب والبَصَرِ

أو ليتَ ألقى حَبِيبِي سِحْرَ مُقْلَتِهِ ... على العِشَاء فأبقاها بلا سَحَرِ

أو ليتَ كنت سألتيه مُساعدةً ... فكان يَحْبُوكِ بالتكحيل والشَّعَر

---

(١) الفرق: الخف.

(٢) عثر: زلّ، والشفق: حمرة تعلو الأفق عند غروب الشّمس.

(٣) هو هبة الله بن جعفر، أبو القاسم، القاضي السّعيد، شاعرٌ من النبلاء مصريّ المولد والوفاة، وافر الفضل، جيد الشعر، توفي سنة ١٢١٢ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٧١».

(٤) الغبش: الكدرة، وعدم الانقشاع.

(٥) الرّشأ: ولد الظبية، إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه، ويريد به: الفتاة الصّبيّة.

كأنّها حينَ ولَّتْ قمتُ أجْذِبُها ... فأنقدّ في الشَّرْق منها الثَّوْبُ من دُبُرِ[١]

لا مَرْحبًا بصباحٍ جاءني بَدَلًا ... من غُرّة النَّجْم أو من طَلْعَة القمر!

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من مجزوء الكامل]

يا ليلةَ ما كان أطْـ ... ـيبَها سِوى قِصَرِ البقاء!

أحييتُهَا فأمتُّها ... وطَوَيْتُها طَيَّ الرِّدَاء

حتّى رأيتُ الشَّمْسَ تتـ ... ـلو البَدْرَ في أُفقِ السَّماء

فكأنّه وكأنّها ... قَدَحانِ من خمرٍ وماء

وقال المهلبيّ[٢]: [من المنسرح]

قد قَصُرَ اللَّيْلُ عِنْدَ أُلْفَتِنَا ... كأنّ حادِي الصَّباح صَاحَ بِهِ

وقال آخر: [من المنسرح]

كأنَّما اللَّيْلُ راكِبٌ فرسًا ... منهزِمًا والصَّباح في طَلَبِهْ

٨ ـ أما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسيّ: [من مجزوء الخفيف]

رُبَّ ليلٍ عَمَرتُه ... فيكَ خالٍ من الفِكَرْ

كَثُرتْ حَوْلَه الحُجو ... لُ وسارَتْ به الغُرَرْ[٣]

وقال أبو بكر الصنوبريّ[٤]: [من الكامل]

يا ليلةٍ طَلَعَتْ بأسْعَدِ طالِعِ ... تاهَتْ على ضَوْء النَّهارِ السَّاطعِ[٥]

بِمَحاسِنٍ مَقْرُونةٍ بمَحَاسِنٍ ... وبَدائع مَوْصُولةٍ بِبَدَائِعِ

---

(١) الدُّبر: الظهر، خلاف ما تقدّم من وجه الإنسان وجسده.

(٢) هو يزيد بن محمد بن المهلّب بن المغيرة، شاعر محسن راجز، من الندماء الرواة اشتهر ومات في بغداد سنة ٨٧٣ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٨٧».

(٣) الحجول: مفردها الحجل، وهو القيد أو الخلخال، والغُرر: البيض.

(٤) هو أحمد بن محمد الضبّي الحلبي الأنطاكي، أبو بكر، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرّياض والأزهار، وكان ممّن يحضر مجالس سيف الدّولة، توفي سنة ٩٤٦ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٧».

(٥) تاهت: افتخرت.

ضَوْءُ الشُّمُوع وضَوْءُ وجْهِكَ مازجًا ضَوْءَ العُقَارِ وضوءَ برقٍ لَامِعِ[(١)]
فكأنَّما أَلْقَى الدُّجى جلبابَه وأراك جِلْبابَ النَّهارِ الساطعِ

٩ ـ أما ما وصف به من الظلمة

قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: الآية ٤٠]، فهذه أتمّ أوصاف الظلمة.

وقال مُضَرِّس بن رِبْعِيّ[(٢)]: [من الطويل]

وليلٍ يقولُ الناس في ظُلُماته سَواءٌ صحيحاتُ العُيُونِ وعُورُها
كأنّ لَنا منه بُيوتًا حَصِينَةً مُسُوحٌ أعاليها وسَاجٌ كُسُورُها[(٣)]

وقال أبو تمام: [من الطويل]

إليكَ هَتَكْنا جُنْحَ ليل كأنّما قد اكتحلَتْ منه البلادُ بإثمدِ[(٤)]

وقال أبو نواس: [من الوافر]

إِبِنْ لي: كيف صِرْتَ إلى حَرِيمِي وجَفْنُ الليلِ مُكْتَحِلٌ بقار[(٥)]

وقال العَلَوِيُّ الأصفهانيّ: [من المنسرح]

وربَّ لَيْلٍ باتَتْ عَسَاكِرُهُ تحملُ في الجوّ سُودَ راياتِ
لامعةٌ فوقَها أَسِنَّتُها مثلُ الأزاهير وَسْطَ رَوْضَات

ومن رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال، جاء منها:

والليل زنجيّ الأديم، تبريُّ النجوم[(٦)]؛ قد جلَّلَنا ساجهُ[(٧)]، وأغرقتنا أمواجهُ؛ فلا مجال لِلَّحْظ، ولا تعارُف إلا باللفظ؛ ولو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلت، ولو خُضبتْ به الشَّيبة ما نَصَلَتْ[(٨)].

---

(١) مازجًا: خالطًا، والعقار: الخمرة.

(٢) هو مضرّس بن ربعي بن لقيط الأسدي، شاعر حسن التشبيه والوصف، جاهلي، وقال المرزباني: له خبرٌ مع الفرزدق، وبذلك إن صحّ لا يكون جاهليًا. «فهرس الأعلام ٧/ ٢٥٠».

(٣) المسوح: مفردها المسح، وهو الكساء من شعر، والسّاج: خشب شجر الساج، وهو صلب أسود.

(٤) الإثمد: عنصر معندي بلوريّ الشكل، قصديري اللّون، صلب هش، يكتحل به.

(٥) القار: الزفت.

(٦) تبريُّ النجوم: أي أن نجومه تلمع كالتّبر أي الذهب.

(٧) جلّلنا: علانا، والساج: شجرٌ خشبه جيد أسود. (٨) نصل الخضاب: زال لونه وتغيّر.

١٠ ـ ومما قيل في تباشير الصباح

قال أبو محمد العلويّ: [من الطويل]

كأنّ اخِضْرارَ الجوّ صَرْحٌ ممرَّدٌ وفيه لآلٍ لم تُشَنْ بثُقُوبِ(١)

كأنّ سَوَادَ اللّيْلِ في ضَوْءِ صُبْحِه سوادُ شَبابٍ في بياضِ مَشِيبِ

وقال أبو عليّ بن لؤلؤ(٢)، الكاتب: [من الخفيف]

رُبَّ فجرٍ كطَلْعَةِ البدر جَلَّى جُنْحَ ليلٍ كطلعةِ الهِجْرَانِ

زَارَ في حُلَّة البُزاة فولَّى اللـ ـيلُ عنه في حُلَّةِ الغِرْبانِ

وقال الخالديّان(٣): [من الكامل]

وكأنّما الصُّبْحُ المنيرُ وقد بدا بازٌ أطارَ من الظّلامِ غُرابًا(٤)

وقال النظامُ البلخيّ، من شعراء الخريدة: [من الوافر]

فَلاحَ الصبحُ مبتسِمَ الثَّنَايَا وطارَ اللَّيْلُ مَقْصُوصَ الجَناحِ

يَطِيرُ غُرابُ أوْكارِ الدّيَاجِي إذا ما حَلَّ بازِيُّ الصَّباحِ

وقال تميم بن المعزّ(٥): [من الخفيف]

وكأنَّ الصَّباحَ في الأُفْقِ بازٌ والدُّجى بين مِخْلَبَيْهِ غُرابُ

وقال ابن وكيع: [من الرمل]

غَرَّدَ الطيرُ فنبِّهْ من نَعَسْ وأدِرْ كاسَكَ فالعيشُ خُلَسْ!(٦)

---

(١) لم تُشن: أي لم يلحقها عيب.

(٢) هو عبد العزيز بن طلحة بن لؤلؤ، أبو منصور، شاعر، كان صاحب بريد الخليفة القادر بالله العباسي، أورد الثعالبي نماذج رقيقة من شعره في اليتيمة. «فهرس الأعلام ٤/ ١٨».

(٣) هما أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم الخالديان، كانا يشتركان في نظم الشعر وينفردان، ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان. «يتيمة الدّهر ٢/ ٢١٤».

(٤) الباز: نوعٌ من الصّقور، وأشدّ الجوارح تكبّرًا وأضيقها خلقًا، يستخدم في الصّيد.

(٥) هو تميم بن المعزّ، أبو يحيىٰ الصّنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجيّة بإفريقيا الشمالية وكان شجاعًا أديبًا، عالمًا بالأدب، ينظم الشعر الحسن، له ديوان شعر، توفي سنة ١١٠٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٨٨».

(٦) الخُلس: ما يختلس من الزّمن، وهي فرص العيش.

سُلَّ سَيْفُ الفجر من غِمْدِ الدُّجى وتعرّى الصبحُ من ثوبِ الغَلَسْ[١]
وانْـجَـلى فـي حـلّةٍ فـضّيَّـةٍ ما بـهـا مـن ظُـلْمة الـلَّيـل دَنَـسْ

وقال أبو مروان بن أبي الخصال: [من الطويل]

ولَمّا رأيتُ الغَرْبَ قد غُصَّ بالدُّجى وفي الشَّرْق من ثوب الصَّباح دلائلُ
توهَّمتُ أن الغربَ بحرٌ أخُوضُهُ وأن الذي يَبْدُو من الشَّرْق ساحلُ

وقال أسعد بن بليطة الأندلسِيّ: [من البسيط]

جَرَتْ بِمِسْكِ الدُّجى كافُورةُ السَّحَر فغاب، إلا بَقَايَا منه في الطُّرَرِ[٢]
صبحٌ يَفِيض وجُنْحُ الليلِ مُنْغَمِسٌ فيه كما غَرِقَ الزنْجِيُّ في نَهَر
قد حَارَ بينَهُما في بَرْزَخٍ قَمَرٌ يلُوحُ كالشَّنْفِ بين الخَدِّ والشَّعَرِ[٣]

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ: [من البسيط]

بِتْنا كأنَّ حِدَاد اللَّيْلِ شَمْلتنَا حتى بدا الصُّبْحُ في ثوبٍ سَحُوليّ[٤]
كأنَّ ليلتَنَا، والصبح يتبعُها زنْجِيَّةٌ هربتْ قُدّام رُوميّ

وقال أبو نُوَاس: [من البسيط]

فقُمْتُ والليلُ يَجْلُوه الصَّباحُ، كَما جَلَا التَّبسمُ عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ[٥]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الرّجز]

قد أغْتَدي واللَّيْلُ في جِلْبَابِهِ كـالـحَبَشِيِّ فَرّ من أصحابِهِ
والصُّبحُ قد كَشَّرَ عن أنْيابِهِ كأنَّما يَضْحَك من ذَهَابه

وقال السريّ[٦]: [من البسيط]

وشَرَّدَ الصبحُ عنّا الليلَ فاتَّضَحَتْ سُطُورُه البيضُ في آياتِهِ السُّود

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصّباح.
(٢) الطّرر: ما طرّ من نبات وغيره، أي طلع، وطرّ شاربه: طلع.
(٣) الشّنف: القرط.
(٤) السّحل: ثوب لا يبرم غزله، لا يفتل طاقتين.
(٥) الثنايا: مفردها ثنيّة، وهي إحدى الأسنان الأربع في مقدّم الفم، والغرّ: أبيض.
(٦) هو السّريُّ الرّفاء بن أحمد الكندي، شاعر أديب من أهل الموصل، تقدّم ذكره. «انظر فهرس الأعلام ٣/ ٧١».

وقال أبو فراس: [من الطويل]

مَدَدْنَا علينا اللَّيْلَ، والليلُ راضِعٌ إلى أن تَرَدَّى رأسُه بمَشِيبِ[١]

بحالٍ تَرُدُّ الحاسدينَ بغَيْظِهم وتَطْرِفُ عنَّا عينَ كُلِّ رَقِيبِ[٢]

إلى أنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّباح كأنَّه مَبَادِي نُصُولٍ في عِذَارِ خَضِيبِ[٣]

وقال عبد الصمد بن بابك[٤]، شاعر اليتيمة: [من الخفيف]

واشتهلَّتْ لِمَصْرَعِ اللّيل وُرْقٌ ثاكلاتٌ، حدادُها التَّطْويقُ[٥]

فتضاحَكْتُ شامِتًا وكأنَّ الصـ ـبحَ جَيْبٌ على الدّجى مَشْقُوقُ

وقال أبو بكر الصنوبريّ: [من السريع]

وليلَةٍ كالرَّفرفِ المُعْلَمِ مَحْفُوفةِ الظَّلماء بالأنْجُمِ[٦]

تَعَلَّق الفجرُ بأرجائها تَعَلُّقَ الأشْقَرِ بالأدْهَمِ

وقال السلاميّ[٧]، شاعر اليتيمة: [من الطويل]

وقد خالطَ الفجرُ الظَّلامَ كما التقى على روضةٍ خَضْراءَ وَرْدٌ وأَدْهَمُ

وعَهْدِي بها، واللّيلُ ساقٍ ووَصْلُنا عُقَارٌ، وفُوها الكأسُ أو كأسُها الفمُ[٨]

إلى أن بَدَرْنَا بالنجوم، وغربُها يَفُضُّ عُقُودَ الدُّرِّ والشَّرقُ يَنْظِم[٩]

ونَبَّهتُ فِتْيانَ الصَّبُوحِ للذَّة تلوحُ كدينارٍ يُغَطِّيه دِرْهَمُ[١٠]

---

(١) في الديوان: «لبسنا رداء الليل» ص ٣١، دار الفكر عمان.
(٢) الرقيب: المراقب.
(٣) النّصل: حديدة السيف والسّهم، والعذار: جانب اللحية.
(٤) هو عبد الصّمد بن منصور بن الحسن، أبو القاسم، شاعر مجيد، من أهل بغداد، وتوفي بها سنة ١٠٢٠ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١١».
(٥) الورق: الحمائم. (٦) الرّفرف: الستر، والمعلم: المخطط.
(٧) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي، من أشهر أهل العراق، شاعر مجيد. «اليتيمة ٢/ ٤٦٦»
(٨) العقار: الخمر.
(٩) يفضُّ: ينثر، وينظم: يعيد ترتيبها في سلكٍ واحد.
(١٠) الصّبوح: شرب الخمرة صباحًا، وفتيان الصّبوح: أي الذين يتعاطون شرابها في الصّباح.

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني[١]، عفا الله عنه، جاء منها:

«فلما قضى الليلُ نحبَه، وأرسلَ الصباحُ على دُهْمِهِ شُهْبَه؛ شمَّر الليلُ إزارَه، ووضع النجمُ أوزاره[٢]؛ ونزحَ بالطَّيْف طاردًا، وظلّ وراء الصبح ناشدا؛ وفجَرَ الفجرُ نهر النهار، واستردّ البنفسجَ وأهدى البهَار[٣]؛ فمواكِب الكواكب منهزمَه، وغرَّة الفجر كغرّة مولاي مبتسمَه».

ومما يدخل في هذا الباب، ما حُكِي أنّ بعض الأعراب تزوّج بأربع نسوة، فأراد أن يخبر عقولهنّ.

فقال لإحداهنّ: إذا دنا الصبحُ فأيقظيني، فلما دنا الصبح قالت له: قم، فقد دنا الصبح! فقال: وما يدريكِ؟ قالت: غارت صغار النجوم وبقي أحسنها وأضوؤُها وأكبرها، وبَرَد الحُليُّ على جسدي، واستلذذت باستنشاق النسيم، فقال لها: إنّ في ذلك دليلًا.

ثم بات عند الثانية، فقال لها مثل مقالته للأولى، فلما دنا الصبح، أيقظته، فقال لها: وما يُدريكِ؟ قالت: ضحكت السماءُ من جوانبها، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحُها، وعيني تطالبني بإغفاءة الصباح، فقال: إنّ في ذلك دليلًا.

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك، فلما دنا الصبح، أيقظَتْه، فقال لها: وما يدريك؟ فقالت: لم يبق طائر إلّا غرَّد، ولا ملبوس إلا بَرَد، وقد صار للطَّرْف في الليل مجال، وليس ذلك إلّا من دنوّ الصباح، فقال لها: إن في ذلك لدليلًا.

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك، فلما دنا الصبح، قالت له: قم، فقد دنا الصبح! فقال لها: وما يُدريكِ؟ قالت: أبَتْ نفسي النوم، وطلبني فمي بالسّواك[٤]، واحتجت إلى الوَضُوء. فقال لها: أنت طالق، فإنكِ أقبحهنّ وصفًا.

---

(١) هو عبد الرحيم بن علي بن السّعيد اللخمي، وزيرٌ من أئمّة الكتاب، ولد بعسقلان في فلسطين، وانتقل إلى الإسكندرية ثم أقام في القاهرة وتوفي بها سنة ١٢٠٠ م، كان من وزراء صلاح الدين الأيّوبي، وكاتبه، كثر الرسائل وجيّدها. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٤٦».

(٢) أوزاره: مفردها: الوزر، وهو الحمل الثقيل.

(٣) البهار، كل نبت طيّب الرائحة، وكل شيء حسن منير.

(٤) السّواك: عود يتّخذ من شجر الأراك ونحوه، يُستاك به وتنظف الأسنان ممّا علق فيها من طعام.

١١ ـ ذكر ما قيل في النهار

والنهار طبيعيّ[١]، وشرعيّ[٢].

فالطبيعيّ زمانٌ بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه في المغرب. والشرعيّ ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

والفجر فجران: الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل؛ والفجر الصادق بياض مستطير[٣].

وقد وضعت العربُ لساعات النهار أسماء؛ كما وضعت لساعات الليل، وهي:

الذُّرُورُ، ثم البُزوغُ، ثم الضُّحى، ثم الغَزَالةُ، ثم الهاجِرة، ثم الزَّوالُ، ثم الدُّلُوكُ، ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصَّبُوبُ، ثم الحَدُودُ، ثم الغُروبُ.

ويقال أيضًا: البُكورُ، ثم الشُّروق، ثم الإشراق، ثم الرَّأْدُ، ثم الضُّحى، ثم المُتُوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل، ثم العَشِيّ، ثم الغُرُوب.

ذكر ذلك أبو جعفر النحاس[٤].

وحكى الثعالبيّ في كتاب فقه اللغة ـ عن حمزة بن الحسن ـ قال: وعليه عهدتها:

الشُّروق، ثم البُكورُ، ثم الغُدْوةُ، ثم الضُّحى، ثم الهاجرة، ثم الظَّهيرة، ثم الرَّواحُ، ثم العصر، ثم القَصْر، ثم الأصيل، ثم العشِيُّ، ثم الغروب.

وكانت العرب العاربة[٥] تُسَمِّي أيامَ الأُسبوع بأسماءٍ غير هذه التي تتداولها الناس في وقتنا هذا، وهي:

«أوّلُ» وهو الأحد، «أهْوَنُ» وهو الاثنان، «جُبَارٌ» وهو الثلاثاء، «دُبَارٌ» وهو الأربعاء، «مُؤْنِسٌ» وهو الخميس، «عَرُوبةُ» وهو الجمعة، «شِيَارٌ» وهو السبت.

---

(١) الطبيعي: المنسوب إلى الطّبع، وهو السّجيّة التي جُبل عليها الإنسان.

(٢) الشّرعي: المنسوب إلى الشّرع، وهو ما شرعه الله وسنّه للناس.

(٣) مستطير: السّاطع المنتشر.

(٤) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يوسف المرادي، النحوي المصري، المعروف بالنّحاس، رحل إلى بغداد والكوفة والأنبار، والتقى هناك بأئمّة اللغة والأدب، وعاد إلى مصر ومات فيها سنة ٣٣٨ هـ. «راجع ترجمته في شرح القصائد المشهورات: دار الكتب العلميّة».

(٥) العاربة: من العرب: الصّرحاء الخلّص، أو القبائل البائدة.

نظم ذلك شاعرٌ، فقال: [من الوافر]

أؤمِّلُ أن أَعِيشَ وأنَّ يومي ... لأَوّلَ أو لأَهونَ أو جُبَارِ
أو التالي دُبارَ وإن أفُتْه ... فمؤنِس أو عَرُوبةَ أو شِيارِ

١٢ ـ ذكر الأيام التي خُصَّتْ بالذكر

منها:

الأيّام المعلومات: وهي عشر ذي الحجّة، وفيها يوم التَّرْوية، وهو اليوم الثامن، سُمِّي بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده؛ لأن مِنًى لا ماء بها.

الأيام المعدودات: هي أيّام التشريق، وعدّتها ثلاثةٌ بعد يوم النحر، سمّيت بذلك لأنهم كانوا يشرّقون فيها لحومَ الأضاحي في الشمس والهواء، لئلا تَفْسُدَ.

أيام العجوز: ويقال فيها الأيام الأعجاز، وهي سبعة: أوّلها السادس والعشرون من شباط من شهور الروم، والخامس من برمهات من شهور القِبط، وهي لا تخلو من رياح وبردٍ، وسمّيت بالعجوز لأنها في عَجُزِ الشتاء.

يوم عَبِيد: مَثَلٌ لليوم المنحوس، كان عَبِيد بن الأبرص[١] قد تصدّى للنعمان[٢] في يوم بؤسه الذي لا يُفْلِحُ مَن لقيه فيه، كما لا يَخِيبُ مَن لقيه في يوم نعيمه، قال أبو تمّام: [من الكامل]

مِنْ بعدِ ما ظَنَّ الأعادي أنّه ... سيكونُ لي يومٌ كيوم عَبِيدِ

يوم المطر: يضرب مثلًا في كفر النعمة، وذلك أنه حُكي عن المعتمد على الله ابن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية في مجلس أُنس، والزمان فيه قيظٌ، فتمَنَّتْ عليه غيمًا ومطرًا، فأمر بمجامر[٣] العنبر والعود[٤] والنَّدِّ[٥]، حتى انعقد الدُّخان كالضَّباب، ثم أمر برشِّ صحن المجلس بماء الورد من أعلاه، وحصل

(١) هو عبيد بن الأبرص الأسدي، الشاعر الجاهلي المشهور، عدّه البعض من أصحاب المعلّقات.

(٢) هو النعمان بن المنذر، ملك الحيرة من قبل الفرس، ولكن حادثه عبيد بن الأبرص ومقتله كانت مع المنذر بن ماء السّماد جدّ النعمان بن المنذر. «راجع الأغاني ١٠/٨٦، ٨٧، دار الكتب العلمية».

(٣) المجامر: النار يوضع فيها الطيب. (٤) العود: نوعٌ من الطيب يتبخر به.

(٥) النَّدّ: عودٌ يتبخّر به.

بينهما بعد ذلك نَبْوةٌ، فقالت له: ما رأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قطُّ! فقال لها: ولا يوم المطر؟[١]

صدق رسول الله ﷺ في قوله: «إنَّهُنَّ يَكْفُرْنَ العَشِيرَ»[٢].

يوم عاشوراء: وهو اليوم العاشر من المحرّم، ورد في فضله أحاديث كثيرة. ويقال إن نوحًا عليه السلام ركب السفينةَ فيه فصامه وأمرَ من معه بصومه.

وصحّ أن رسول الله ﷺ لما هاجر، رأى اليهود في المدينة صِيَامًا في هذا اليوم، فسألهم عنه، فقالوا: هذا اليوم الذى نجّى الله تعالى فيه موسى وبني إسرائيل، وأغرق فرعون وقومه، فنحن نصومه شكرًا لله تعالى، فقال عليه الصّلاة والسلام: «أنا أحقُّ بأخي موسى»، ثم أمر مناديًا فنادى: «مَن أكل فليُمْسِكْ، ومَن لم يأكل فليصُم»!

وفيه قُتِل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما.

١٣ ـ ذكر أيام أصحاب الملل الثلاث

يوم الجمعة: للمسلمين، وسبب اتّخاذهم له أنه اليوم الذي أتمّ الله فيه خلق العالَم، وأوجد فيه أبا البشر آدم عليه السلام وفيه قُبِضَ[٣]، وفيه يكون النفخُ في الصُور، وفيه الصَّعْقُ[٤]، وفيه الساعة التي لا يُصادفُها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له.

يوم السبت، لليهود. وحُجَّتهم على اتّخاذهم له أن الله تعالى ابتدأ خلق العالَم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يومُ فراغٍ ودَعَةٍ، ولهم في ذلك أقوال كثيرة.

يوم الأحد: للنصارى، ذكر في سبب اتّخاذهم له أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الأشياء.

١٤ ـ ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر النهار

يقال: أطولُ من يوم الفِراق، أضْوَأُ من نهارٍ، أنورُ من وضَحِ النهار.

---

(١) راجع رواية نفح الطيب للمقرّي، وقد سمّاه «يوم الطين». «١/ ٢٨٧، طبعة لندن».
(٢) العشير: الزوج الذي يعاشر المرأة.
(٣) قُبض: توفي.
(٤) الصّعق: الإصابة بالصاعقة، أو الهلاك.

ويقال: يَذْهَبُ يومُ الهَمِّ ولا يُشْعَرُ به، ما يومُ حَليمةَ بِسِرٍّ[١]، من يُرِ يومًا يُرَ بِهِ، يومُ السُّرورِ قصيرٌ، اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ[٢]، اليومَ عَيْشٌ وغَدًا خَيْشٌ[٣]، اليومَ فِعْلٌ وغدًا ثوابٌ، يومٌ لنا ويومٌ علينا، لِكُلِّ قَوْمٍ يومٌ.

ومن أنصاف الأبيات:

* وهل يَخْفَى على الناس النهارُ *

* وفي اللَّيالي والأيام مُعْتَبَرُ *

ومن الأبيات: [من الرّمل]

وَٱللّهُ ما أمكنَ يومٌ صالِحٌ إنَّ يومَ الشَّرِ لا كانَ عَتِيدُ![٤]

وقال آخر: [من الرجز]

أُمَامَ! لا أَدْرِي، وإن سَأَلْتِ ما نُسْكُ يومِ جمعةٍ من سَبْتِ[٥]

وقال آخر: [من الوافر]

وأيامُ! الشُّرورِ مُقَصَّصاتٌ وأيّامُ السُّرورِ تَطِيرُ طَيرَا[٦]

وقال آخر: [من الكامل]

لا تَحْمِلَنَّ هُمُومَ أيّامٍ على يومٍ، لعلّكَ أن تُقَصِّرَ عن غَده

١٥ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر، يصفه بالقِصَر: [من الطويل]

ويومُ سُرورٍ قد تكامَلَ وصفُه سِوى قِصَرٍ، لا عَيْبَ فيه سِواهُ!

وعَهْدِي به كالرُّمْح طُولًا، فعندَمَا هَزَزْناهُ لِلَّهو الْتَقى طَرَفَاه

(١) يوم حليمة: يومٌ معروف، وهو أحد أيّام العرب المشهورة، وهو يوم التقى المنذر الأكبر والحرث الغسّاني، وحليمة بنت الحرث بن أبي شمّر الغسّاني، ولما خرج أبوها للقاء المنذر، أخرجت حليمة للجيش مِركنًا فطيّبتهم. «اللسان: مادة حلم».

(٢) هو ما أرسله مثلًا امرؤ القيس الشاعر بعد أن قُتِل أبوه، وكان في لهوٍ له، فأتاه خبر مقتله فقال لصاحبه في لهوه ذلك القول، عندما همّ بالانقطاع عن منادمته. «راجع الشعر والشّعراء ص ٥٠».

(٣) الخيش: ثياب تتخذ من أردأ الكتّان. (٤) العتيد: الحاضر.

(٥) أمامَ: منادى مرخّم حذفت منه التاء والأصل «أمامة» والنُّسك: التعبُّد والزّهد.

(٦) المقصّصات: المقطّعة، يريد أنها متتابعة.

وقال آخر: [من الخفيف]

بـأبـي مَـنْ نَـعِـمْـتُ مـنـه بـيـومٍ ... لـم يَـزَلْ لِلسُّـرور فـيـه نُـمُـوُّ!
يـومُ لَهْـوٍ، قـد الـتـقـى طَـرَفـاهُ ... فـكـأنَّ الـعَـشـيَّ فـيـه غُـدوُّ

وقال آخر: [من البسيط]

لم يَنْتَشِرْ فَلَقُ الإصْباح مِنْ قِصَرٍ ... فيه إلى أن طَواهُ فَيْلَقُ الغَسَقِ[(١)]
ولم يكن مُلْتَقَى جَفْنَيْ أخي رَمَدٍ ... كملتقى طرفيه: الصُّبحِ والشَّفَقِ
وما تناولْتُ فيه الرِّطَلُ مُصْطَبِحًا ... إلا أعادَتْه منِّي كَفُّ مُغْتَبِقِ[(٢)]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

للهِ يَـــــوْمُ مَـــــسَـــــرَّةٍ ... أَضْـوَا وأقـصـرُ مـن ذُبـالَهْ![(٣)]
لـمـا نَـصَـبْـنَـا لـلمُـنـى ... فـيـه بـأَشْـراكِ حِـبـالَهْ
طـارَ الـنَّـهـارُ مُـرَوّعًـا ... فـيـه وأجْـفَـلَتِ الـغَـزَالَهْ![(٤)]

وقال آخر: [من البسيط]

حُثَّ الكُؤوسَ! فذا يومٌ بهِ قِصَرٌ ... وما به من تمام الحُسْنِ تَقْصِيرُ
صَحْوٌ وغَيْمٌ، يَرُوقُ الطَّرفَ حُسْنُهُما ... فالصَّحوُ فَيْرُوزَجٌ، والغيمُ بَلُّورُ[(٥)]

وقال آخر: [من الطويل]

ويـومٍ كَـحَـلْي الـغـانِـيَـاتِ سَـلبتُـه ... حُلِيَّ الرُّبَا حتّى انْثَنَى وهو عاطِلُ[(٦)]
سبقت إليه الشمس، والشمسُ غَضَّةٌ ... وصِبْغُ الدّجى من مَفْرِق الفجرِ نَاصِلُ[(٧)]

---

(١) الفلق: الصّبح، أو بيان ظهوره بعد الإظلام، والفيلق: القطعة العظيمة من الجيش، والغسق: وقت الإظلام.
(٢) الرّطل: معيارٌ للوزن يساوي اثنتي عشرة أوقيّة إجمالًا، والمصطبح: الذي يشرب الخمرة صباحًا، والمغتبق: شرب الخمرة مساءً.
(٣) الذّبالة: فتيلة السّراج. (٤) الغزالة: الشمس.
(٥) الفيروزج: حجرٌ كريم شفافٌ لونه سماويّ أزرق.
(٦) العاطل: الجيد الذي لا حليّ فيه، أو المرأة دون حليّ.
(٧) الناصل: يقال لحية نصل خضابها أي زال عنها.

ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسيّ:

اليومُ يومٌ بكت أمطارُه، وضحِكت أزهاره؛ وتقنّعت شمسُه، وتعطّر نسيمُه؛ وعندنا بُلْبُلٌ هَزِج[١]، وساقٍ غَنِج؛ وسُلافتانِ[٢]: سُلَافةُ إخوان، وسُلَافةُ دِنَان[٣]؛ وقد تشاكلتا في الطِّباع، وازدوجتا في إثارة السرور، فأْخرِق إلينا سُرادقَ الدّجْنِ[٤] تجد مَرْأى لم يحسن إلا لك، ولا يتمُّ إلّا بك.

ومن كلامه أيضًا:

لم نلتق منذ عرّينا مَرْكَبَ اللّهو، وأخلينا رَبْعَ الأُنس، وقَصَصنا جناحَ الطَّرَب، وعبَسْنا في وجوه اللذّات، فإن رأيت أن تخِفَّ إلى مجلس قد نُسِخت فيه الرياحين بالدواوين، والمجامر[٥] بالمحابر، والأطباق بالأوراق، وتنازح المدام بتنازع الكلام، واستماع الأوتار باستماع الأخبار، وسجع البلابل بسجع الرسائل، كانَ أشحذ[٦] لذهنك، وأرشدَ لرأيك.

١٦ ـ ذكر شيء مما وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهلُ هذا الفن لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلُّون بها على معرفة ما مضى من ذلك وما بقِي، ولتحرير المواقيت: كالاصْطرلاب[٧]، والطَّرْجَهَارة[٨] والبنكام[٩].

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما نقف عليه.

---

(١) الهزج: كلّ صوت فيه ترنّم خفيفٌ مطرب. (٢) السّلافة: أفضل الخمر وأخلصها.
(٣) الدنّ: وعاء من جلد توضع فيه الخمرة.
(٤) الدّجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السّماء، والسُّرادق بيت من شعر يمدُّ فوق ساحة الدّار.
(٥) المجامر: جمع مجمر، وهو وعاء يوضع فيه الجمر مع الطّيب.
(٦) أشحذ: أمضى وأقوى على العطاء.
(٧) الاصطرلاب: منظار تراقب فيه النجوم والفلك.
(٨) الطرجهارة: من الآلات التي تعرف بها السّاعات. «انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٢٣٥، طـ. لندن».
(٩) البنكام: ساعة الرّمل.

١ ـ فأما الاصطرلاب وما قيل فيه:

فقال أبو طالب، عبد السلام المأموني: [من الخفيف]

وشبيهٍ بالشَّمْسِ يَسْتَرِقُ الأنـ ـوارَ من نُورِ جِرْمِها في خفاء
فتَراهُ أدْرى وأعلَم منها وهو في الأرض، بالذي في السَّماء

وقال أيضًا: [من السريع]

وعالم بالغيبِ مِنْ غيرِ مَا سَمْعٍ، ولا قَلْبٍ، ولا ناظرِ!
يُقابلُ الشَّمسَ فيأتي بما ضُمِّنَها من خبرٍ حاضرِ
كأنّها ناجتْهُ لَمَّا بَدَا لِعَيْنِها بالفكر والخاطرِ
وألهَمَتْه علمَ ما يَحْتَوِي عليه صَدْرُ الفلكِ الدّائرِ

وقال أبو إسحٰق الصابي، وقد أهداه في مهرجان إلى مخدومه: [من البسيط]

أهْدَى إليكَ بَنُو الآمالِ واجتهدُوا في مَهْرجانٍ جديدٍ أنت تُبْلِيه
لكنَّ عبدَكَ إبراهيمَ، حين رأى سموَّ قَدْرِكَ عن شَيْءٍ يساميه
لم يرضَ بالأرض يُهْدِيهَا إليك فقد أهدى لك الفَلَكَ الأعلى بما فيه!

وقال أبو الصلت أُميَّة بن عبد العزيز(١): [من المنسرح]

أفْضَلُ ما اسْتَصْحَبَ النبيلُ فلا يُعْدَل به في المُقَام والسَّفَرِ
جِرْمٌ إذا ما الْتَمَسْتَ قيمتَه جَلَّ عن التِّبر وهو من صُفُرِ(٢)
مُخْتَصَرٌ وهو إذْ تُفَتِّشُه عن مُلَحِ العلم غيرُ مُخْتَصَرِ
ذُو مُقْلةٍ تَسْتَنيرُ ما رَمَقَتْ عن صائِبِ اللحظِ صادقَ النَّظَرِ(٣)
تَحْمِلُه وهو حاملٌ فَلَكًا لو لم يُدَرْ بالبَنَان لم يَدُرِ
مَسْكَنُه الأرضُ وهو يُنْبِئنا عن جُلِّ ما في السماء من خَبَرِ
أبدعَهُ رَبُّ فِكْرَةٍ بَعُدَتْ في اللُّطْفِ عن أنْ تُقَاسَ بالفِكَرِ
فاسْتَوْجَبَ الشُّكرَ والثناءَ به من كلِّ ذي فطنةٍ من البَشَرِ
فهو لذِي اللُّبِّ شاهدٌ عَجَبٌ على اختلاف العُقُولِ والفِطَرِ

---

(١) هو أميّة بن عبد العزيز الأندلسي الدّاني، أبو الصلت، حكيم أديب من أهل «دانية» بالأندلس، له مؤلّفات في علم الهيئة وأدواتها، وله شعر فيه رقة وجودة. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٣».
(٢) الصّفر: النّحاس.
(٣) رمقت: نظرت، وأتبعت النظر.

وكتب أبو الفرج الببغاء[١] يصف اصطرلابًا أهداه، فقال:

آثرتك ـ أيّدك الله ـ ببرهان الحكمة ونسبها، ومدار[٢] الفلسفة وقطبها[٣]؛ ومُرشد الفكر ومناره، وميزان الحسنِ ومِعياره؛ ونافِي الشك ومُزِيله، وشاهدِ الأثير ودليله؛ مصوّر الحكمة ومُمثّلها، ومقسم البروج ومعدّلها؛ وموقّف النجوم ومسيِّرها، وجامع الأقاليم ومدبِّرها؛ مرآة الحبك[٤]، وصورة الفلك؛ وأمين الكواكب، وحدّ المشارق والمغارب؛ مما اخترعت العقولُ تسطيحَه، وأتقنَ الحُسَّابُ تصحيحَه؛ وتمارت[٥] الفطَنُ في ترتيبه، واصطلحتِ الحكماءُ على تركيبه؛ فأوضحت بالنقش تقسيمَه، وأبانتْ بالكتابة رُسومَه؛ إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته، وحصرَ متفرّقَ الأمور في خَرْقَيْ عضادته[٦]؛ واحتوى على قُطْرَيِ الشَّمال والجَنُوب، واطّلع باللّطف على خَفِيّات الغيوب؛ الملقّب بالاصطرلاب، الفاصل بين الخطإ والصّواب.

وقال أبو نصر الكاتب فيه:

قطبُ الزمن ومدارُه، وميزانُ الفلك ومعيارُه؛ وأساسُ الحكمة وموضوعها، وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها؛ الناطقُ في صمته، المُوفى على نعته؛ مظهرُ السِّر المكنون[٧]، المخبر بما كان وما يكون؛ ذو شكل مقمّر مستدير، ولون مشمّس مستنير؛ ومنطَقة[٨] محيطة بأجزائه، وخطوطه معدّلة على أعضائه؛ وكتابة مطبقة بتدويره، ورموز بائحة بضميره؛ متقابل الأهداف، متكامل الأوصاف؛ بحجرة مسكونة، وصفائح مصونة؛ وقدّ مومومق[٩]، وباب مطروق؛ للعلم فتحه ورتاجه[١٠]، وعليه طريقه ومنهاجه؛ إذا انتصب قال فحمد، وأذا اضطجع عيّى فلم يُفِدْ؛ صِفْريُّ الانتساب، ذهبيّ الإهاب؛ يخترق الأنوار من نقابه، ويستخدم الشَّمسَ في حسابه، يجمع الشرقَ والغرب في صفحته، ويستره الحامل في راحته؛ رافعه ينظر من تحته، وأخباره تسند عن خُرْته[١١].

---

(١) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، من أهل نصيبين،نجم الآفاق، وأحد أفراد الدهر في النّظم والنثر، اتّصل بسيف الدولة ونادم ملوك عصره وأمراءه. «اليتيمة ١/ ٢٩٣».

(٢) المدار: من الشيء: ما يدور عليه. (٣) القطب: مدار الشيء وقوامه.

(٤) الحبك: التدبير. (٥) تمارت: تجادلت.

(٦) العضادة: يقال: عضادتا الباب: خشبتاه من جانبيه، والعضادة: من الطريق: ناحيته.

(٧) المكنون: المستور.

(٨) المنطقة: ما يشدّ به الوسط، والمنطقة: القطعة المحدودة من الأرض.

(٩) الموموق: المحبوب.

(١٠) رتاجه: إغلاقه، ورتاج الباب: ما يقفل به. (١١) الخُرت: الثقب.

٢ ـ ومما قيل في طَرْجَهَارَة:

قال أبو الفتح كُشَاجم يصفها: [من البسيط]

رُوحٌ من الماء في جِسْم من الصُّفْرِ ... مؤلَّفٌ بلطيف الحِسِّ والفكْر[1]
له على الظَّهر أجفانٌ مُحَجَّرةٌ ... ومُقْلةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ
تُنْشا له حَركاتٌ في أسافِلِهِ ... كأنّها حَرَكاتُ الماءِ في الشَّجَرِ[2]
وفي أعاليه حُسَّابٌ مُفَصَّلةٌ ... للناظرينَ بلَا ذِهْنٍ ولا نَظَرِ
إذا بكى، دارَ في أحشائه فَلَكٌ ... خافِي المَسِير؛ وإن، لم يَبْكِ لم يَدُرِ
ومُخرِجٌ لك بالأجزاء ألطَفَها ... من النهار، وقَوْسُ اللَّيل في السَّحَر
مُتَرْجِمٌ عن مواقيتٍ يُخَبِّرُنا ... عنها فيوجَدُ فيها صادقَ الخبر
تُقْضَى به الخمسُ في وقت الوجوب وإن ... غُطِّي على الشمس أو غُطِّي على القمر[3]
وإن سَهِرْتُ لأسباب تُؤَرِّقُني ... عَرَفْتُ مقدارَ ما ألقى من السَّهَر
مُحَدِّدٌ كُلَّ مِيقَاتٍ، تَخَيَّرَهُ ... ذَوُو التَّخَيُّر للأَسْباب والسَّفَر

الباب الثاني
من القسم الثالث من الفن الأول
في الشهور والأعوام

نذكر في هذا الباب الشهورَ العربيّةَ، واشتقاقها، والشهورَ العجميّةَ، ودخول بعضها في بعض، والسنين القمريّة، والشمسيّة، والنسيء[4] ومعناه، وما يجري هذا المجرى، مما لمحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته، وإيّاه أسأل التوفيق بكرمه ومنته!

١ ـ ذكر الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعيّ، وإما اصطلاحيّ.

---

(١) الصّفر: النّحاس.

(٢) تنشا: خفّفت همزتها للضرورة الشعريّة «أصلها تنشأ».

(٣) الخمس: يريد الصلوات الخمس اليوميّة.

(٤) النّسيء: التأخير، وهو شهرٌ كانت العرب تؤخّره في الجاهلية، فنهى الله عزّ وجّل عنه، وقال: إنّما النّسيء زيادةٌ في الكفر. «اللسان: مادة نسأ».

فالطبيعيّ هو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرّة أخرى.

وقال آخرون: هو عَود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأوّل.

وأما الاصطلاحي، فهو مدّة قطع الشمس مقدارَ برج من بروج الفلك، وذلك ثلاثون يومًا، وثلثُ عُشْرِ يوم بالتقريب. وهذا مذهب الروم، والسّريان، والفُرْس، والقبط، والله سبحانه وتعالى أعلم!

٢ ـ ذكر الأشهر العربية وما يختص بها من القول

والأشهر العربية قسمان: قسم غير مستعمل، وهو الذي وضعته العرب العاربة؛ وقسم مستعمل، وهو الذي وضعته العرب المستعربة. وكِلَا القسمين موضوع على الأشهر القمريّة.

فأمّا القسم غير المستعمل، فهو أسماء كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها، وهي:

مؤتمر، ناجر، خَوّان، صوان (ويقال فيه: بُصَان)، رُنَّى، أيِّدة، الأصَمُّ، عادِل، ناطِلٌ، واغلٌ، وَرْنةٌ، بُرَك.

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة، والذي ذكرناه منها هو المشهور، ويدلّ عليه قول الشاعر: [من الوافر]

بمؤتَمِرٍ وناجرِ ابتدأنا ... وبالخَوّانِ يَتْبعُه البُصَانُ
ورُنَّى ثُم أيِّدةٌ تليه ... تَعودُ أصَمُّ صُمَّ به السِّنانُ
وعادله وناطله جميعًا ... وواغِله فَهم غُررٌ حِسَانُ
ووَرْنَةُ بعدها بُرَكٌ فتمتْ ... شُهورُ الحول يَعْقدها البَنَانُ

وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة:

المحرّمُ، صَفَر، الربيعان، الجُمَاديان، رَجَبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجَّة.

قيل: وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت في كل شهر، فسمّى الشهر بها عند ابتداء الوضع، فسمّوا المحرّم محرّمًا لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرّموا القتال فيه، فسَمَّوْه محرّمًا؛ وسمّوا صَفَرًا

لِصَفَرِ[١] بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات، وقيل: لأنهم كانوا يُغيرُون على الصُّفريَّة[٢]، وهي بلاد. وشهرا ربيع: لأنهم كانوا يُخْصِبون فيهما بما أصابوا في صفر، والربيع الخِصْب. والجُمَاديان: من جَمَد الماءُ، لأن الوقت الذي سمّيا فيه بهذه التسمية كان الماء جامدًا فيه لبرده. ورجب: لتعظيمهم له، والترجيب والتعظيم، وقيل: لأنه وسطُ السنة فهو مشتقّ من الرواجب، وهي أنامل الأصبع الوسطى، وقيل: إن العود رجب النبات فيه أي أخرجه، فسمّي بذلك. وكذلك تشعّب العود في الشهر الذي يليه، فسمّي شعبان، وقيل: سُمّي بذلك لتشعّبهم فيه للغارات. وسُمّي رمضان، أي شهر الحر، مشتق من الرمضاء. وشوّال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع. وذو القعدة: لقعودهم فيه عن القتال؛ إذ هو من الأشهر الحرم. وذو الحجّة، لأن الحجّ اتفق فيه، فسُمّي به.

ويقال: إنّ أول من سمّاها بهذه الأسماء، كلاب بن مُرّة[٣].

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْد[٤]، وهي: ذو القَعْدة، وذو الحجّة، والمحرم؛ وواحد فرد، وهو رجب.

هذا ما رواه الأصمعيّ عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم، واختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرّم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجّة، لتكون الأربعة أشهر في سنة واحدة؛ وهذا مرويّ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلّا مضافة[٥]، وهي: شهرا ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان.

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها.

---

(١) الصفر: يقال: صفر البيت منه: خلا.

(٢) في معجم البلدان: الصّفرة، موضع باليمامة. «معجم البلدان ٣/ ٤١٣».

(٣) هو كلاب بن مرّة بن كعب، أبو زهرة، من قريش، جدّ جاهلي، من سلسلة النّسب النبوي الشريف، تفرّع نسله عن ابنيه «قصيّ» «وزهرة». «فهرس الأعلام ٥/ ٢٣٠».

(٤) سَرْد: أي متتابعة متتالية.

(٥) مضافة: أي مضافة إلى غيرها، والمضاف في اللغة: اسم يضاف إلى اسم آخر يعرف بالمضاف إليه، وهنا تعني: إضافة الشهر إلى الشهر فينطق بهما معًا: شهرا ربيع: أي ربيع أوّل وربيع ثاني.

٣ ـ وأما شهور اليهود

فأسماؤها: تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيّار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

٤ ـ وأما الشهور العجمية

فإنها شمسيّة، وهي أقسام، بحسب الأمم التي تنسب إليهم.

فمنها الشهور القبطيّة(١)، وتنسب لدقلطيانوس(٢)، وكل شهر منها ثلاثون يومًا. وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسًا(٣) في آخر شهر منها، وهي:

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى.

وأوّل توت يكون النوروز(٤)، وفي أوّل يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهي أربعون يومًا باردة تؤذن بالشتاء. وفي الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهي أيام حارّة تؤذن بالصّيف.

ومنها شهور السّريان(٥) والروم(٦)، وهما متّفقان في العدد والدُّخول. والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطش(٧)، وهو قيصر. وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها. وفيها يقول الكيزانيّ(٨):

---

(١) القبطيّة: نسبة إلى القبط، وهو قوم من النصارى يسكنون مصر منذ القدم.

(٢) دقلطيانوس: ملك قبطي، تملّك قبل الهجرة بثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وثلثمائة وعشرين يومًا، وقد ابتدأ به التاريخ القبطي. «راجع صبح الأعشى ٦/٢٢٨ و٢٤٩».

(٣) السنة الكبيسة: وهي السّنة التي يزاد فيها يوم على شهر شباط مرّةً كلّ أربع سنوات، فيصير ٢٩ يومًا.

(٤) النوروز: أوّل يوم من أيام السّنة الشمسيّة عند الفرس.

(٥) السّريان: طائفة مسيحيّة، تتكلّم اللغة السّريانية، وتنتسب إلى الأصل السّرياني من الشعوب السّاميّة.

(٦) الرّوم: البيزنطيون.

(٧) هو القيصر الروماني المشهور، وتقول نحن اليوم «أغسطس» في تسمية هذا الشهر.

(٨) هو محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرح الكناني المعروف بابن الكيزاني واعظ، شاعر مصري، تصوّف ونسبت إليه الكيزانية، له ديوان شعر أكثره في الزّهد، توفي بالقاهرة سنة ١١٦٦ م. «فهرس الأعلام ٥/٢٩٦».

[من الهزج]

شهورُ الروم ألوانُ زياداتٌ ونقصانُ
فتشرينُهم الثاني وأيلولٌ ونيسانُ
ثلاثون، ثلاثون سَواءٌ، وحَزِيران
وأشباطٌ ثمانٌ بعد عشرين له شَانُ

والسبعة التي تركها، كل شهر منها يزيد يومًا.

ووضع لها بعض المغاربة ضابطًا، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها في أربع كلمات، وهي: «فازَ رجلٌ خَتم بحجّ»، وجمعها آخر في مثل ذلك فقال: «غاب عنك زيدٌ فحجَّ»، فما كان معجمًا[١] فهو أحد وثلاثون يومًا، وما كان مهملًا[٢] فهو ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون.

وأوّل سنة السّريان تشرين الأوّل، ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم تشرين الثاني، ودخوله في الخامس من هتور، ويوافقه نُوَمبر[٣] من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا؛ ثم كانون الأوّل، ودخوله في الخامس من كيهك، ويوافقه دچنبر[٤] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم كانون الثاني، ودخوله في السادس من طوبه، ويوافقه يَنَيرِ[٥] من شهور الروم، وهو أوّل سنتهم، وعدد أيّامه أحد وثلاثون يومًا؛ ثم شباط، ودخوله في السابع من أمشير ويوافقه فبرير[٦] من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يومًا وربع يوم؛ ثم آذار، ودخوله في الخامس من برمهات، ويوافقه مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم نيسان، ودخوله في السادس من برمودة، ويوافقه أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا؛ ثم أيّار، ودخوله في السادس من بشنس، ويوافقه مايه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم حزيران، ودخوله في السابع من بؤونه، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا؛ ثم تموز، ودخوله في السابع من نأبيب، ويوافقه يوليه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يومًا؛ ثم آب، ودخوله في الثامن من مسرى، ويوافقه أغشت[٧] من شهور الروم، وهو أحد

(١) المعجم: من الحروف ما هو منقوط.
(٢) المهمل: من الحروف ما هو بغير نقط.
(٣) نومبر: أي نوفمبَر.
(٤) دچنبر: أي ديسمبَر.
(٥) ينير: أي يناير.
(٦) فبرير: فبراير.
(٧) أغشت: أغسطس.

وثلاثون يومًا؛ ثم أيلول، ودخوله في الرابع من توت، ويوافقه ستنبر[(١)] من شهور الروم، وهو ثلاثون يومًا.

ونظم بعض الشعراء أرجوزة في مداخلة الشهور، فقال: [من الرجز]

وإن حفِظتَ أشهرَ السُّرْيانِ   وكنتَ من ذاكَ على بيان
ورُمْتَ منها عَمَلَ المنازل   فإنها معلومةُ التداخل
أيلولُ يبدو رابعًا من تُوتِ   هذا بحكم النظر المثبوتِ
وهكذا تشرينُ وهو الأوّلُ   من بابة أربعة تكمل
أوّل تشرين الأخير يدخلُ   ومن هتور خمسة يا رجلُ
أوّل كانون وأعني الأوّلا   وخامس من كيهك تعدّلا
أوّل كانون الأخير سادس   من طوبة فيها يقيس القائس
ومن شباط أوّلٌ يوافي   سابع أمشير بلا خلاف
أوّل آذار حسابٌ صادقُ   من برمهات خامسًا يوافِقُ
برمودة سادسُه وأوّلُ   نيسانَ وَفْقٌ ليس عنه مَعْدل
أوّل أيّار بغير لبسِ   يوافقُ السادسَ من بشنسِ
بؤونة وافق منه سابعه   أوّل حزيران لما يتابعه
أوّل تموز على الترتيبِ   يدخلُ في السابع من أبيب
أوّل آب ثامن من مسرى   العلم بالمرء اللّبيب أحرى

وقال بعض الشعراء في مثل ذلك: [من الرجز]

متى تشأ معرفة التداخُل   من أوّل الشهور في المَنَازل
فعدّ من توت بلا تطويل   أربعةً فهي ابتدا أيلول
وبابة كذاك من تشرين   الأوّل السابق في السِّنين
والخامسُ المعدودُ من هاتور   أوّل تشرينهِم الأخيرِ
أوّلُ كانون بغير دُلْسَهْ   إذا نقصت من كيهك خمسه[(٢)]
وطوبة إن مرّ منه سِتَّهْ   أتاك كانونُ الأخيرُ بَغْتَهْ
ومن شباط أوّل يوافِقُ   سابعَ أمشير، حسابٌ صادقُ

(١) شنبر: أي سبتمبر.

(٢) الدّلسة: الظلمة، والدّلس: الخديعة.

أوّل آذار إذا جـعـلتَـه لـبـرمـهـات خـامسًـا وجـدتَـه
أوّلُ نـيـسـانَ لـدى الـتـجـريـد الـسـادسُ الـمـعـدودُ مـن بـرمـودِ
ومـثـلـه أيّـار مـع بـشـنـس واحـدةٌ مـقـرونـةٌ بـخـمـس
أمـا حـزيـرانُ فـيـحـسُـبُـونـهْ مـن أوّل الـسـابـع مـن بـؤونـه
كـذلـك الـسـابـع مـن أبـيـبِ أوّلُ تـمـوز بـلا تـكـذيـب
أوّل آب عـنـد مـن يُـحَـصِّـل ثـامنُ مسرى ذاك ما لا يُجْهَلُ

وأما شهور الفرس، فهي موافقة لشهور القبط في العدد؛ لأن كل شهر منها ثلاثون يومًا، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء(١)، ويسمّونها الاندركاه. ولكل يوم من أيّام الشهر اسم خاص، يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به، فأسماء المشهور منها: أفريدون ماه (وهو رأس سنتهم)، أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، بر ماه، مهر ماه، أبان ماه، أدر ماه، دى ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه، ويعنون بقولهم «ماه» القمر.

المثل: قول بعض الشعراء: [من الوافر]

شُـهُـورٌ يـنـقـضـيـنَ ومـا شَـعَـرنـا بـأنْـصـافٍ لَهُـنَّ ولا سَـرَارِ(٢)

٥ ـ ذكر ما يختصّ بالسنة من القول وما جاء من اختلاف الأُمم في ابتدائها وانتهائها، والفرق بين السنة والعام

أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون: «سَنةٌ جَدْبٌ» و«عامٌ خِصْبٌ». قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسُف: الآية ٤٩].

والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمًّى واحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العَنكبوت: الآية ١٤].

والسنة طبيعيّة، واصطلاحيّة.

(١) النّسيء: التأخير.
(٢) السّرار: حين يكون القمر في المحاق، أي الليالي الأخيرة التي يختفي بها.

فالطبيعية قمريّة؛ وأوّلها استهلال القمر في غُرَّة المحرّم، وانسلاخُها بِسَرَارِه في ذي الحجّة، وهي اثنا عشر شهرًا، وعدد أيامها ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يومًا وخمس وسدس يوم تقريبًا؛ ويتمّ من هذا الخمس والسدس في ثلاث سنين يومٌ، فتصير السنة في الثالثة ثلاثمائة وخمسة وخمسين يومًا، ويبقى شيء يتمّ منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف في السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلًا بأحد عشر يومًا عند تمام ثلاثين سنة، وتسمّى تلك السنين كبائس العرب[١].

وأما السَّنةُ الاصطلاحيةُ فإنها شمسِيَّةٌ، وعددُ أيامها عند سائر الأُمم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يومًا وربعُ يوم، فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخُمسًا من خُمس يوم.

ويقال: إنهم كانوا في صدر الإسلام يُسْقِطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنةً عربيّةً سنةً، ويسمّونها الازدلاف[٢]؛ لأن كل ثلاث وثلاثين سنةً قمرية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبًا. وذلك لتحرّزهم من الوقوع في النسيء الذي أخبر الله عزّ وجلّ أنه زيادة في الكفر. وهذا الازدلاف هو الذي نسمّيه في عصرنا هذا بين كتاب التصرّف «التحويل»؛ لأنا نحوّل السنة الخراجية[٣] إلى الهلالية، ولا يكون ذلك إلّا بأمر السلطان.

وسنة العالم ـ على ما اتّفق عليه المنجّمون ـ هي من حين حلول الشمس رأس الحمل، وهو الاعتدال الربيعيّ، ومنهم من يجعل أوّلها من حين حلول الشمس رأس الميزان، وهو الاعتدال الخريفيّ.

وابتداء سنة القبط قطع الشمس اثنتي عشرة درجة من السنبلة[٤]، وابتدؤوا بفعل ذلك في زمن أغسطش، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الزيجات[٥].

---

(١) السنة الكبيسة: التي يكون فيها شهر شباط ٢٩ يومًا وذلك مرّة كلّ أربع سنوات.
(٢) الازدلاف: وهو الاجتماع، والإزدلاف: الاقتراب، لأنها اقتراب من الله والمزدلفة: المشعر الحرام ومصلّى الإمام، وهي فرسخٌ من مِنى بها مصلى وسقاية ومنارة. «راجع معجم البلدان ٥/ ١٢١».
(٣) السّنة الخراجية: مشتقة من الخراج، وهو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس، أو المال المفروض على الأرض وعلى غلّتها.
(٤) السّنبلة: برج في السّماء.
(٥) الزّيجات: مفردها الزّيج، وهي في علم الفلك: جدول يدلُّ على حركة الكواكب، ومنه يُستخرج التقويم.

وأما الفُرْس، فأوّل سنتهم عند حلول الشمس أوّلَ نقطة من الحمَل[١].

وأما السُّريانيون، فأوّل سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ستَّ عشرة درجة.

٦ ـ ذكر النسيء ومذهب العرب فيه

يقال: إن عمرو بن لُحَيّ[٢]، وهو خُزاعة ـ ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعيّ ـ هو أوّل من نَسَأ الشهور، وبَحر البحيرةَ[٣]، وسَيَّب السائبة[٤]، وجعل الوصيلة[٥]، والحامي[٦]، وهو أوّل من دعا الناس إلى عبادة هُبَلَ[٧]، قدم به معه من هِيت[٨].

ومعنى النسيء أنهم يُنْسِئُونَ المحرمَ إلى صَفَر، ورجبَ إلى شعبان.

وكان جملة ما يعتقدونه من الدّين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة[٩]، وكانوا يتحرَّجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهرًا من أشهر الحلّ، ويقولون: نُسِىء الشهر.

---

(١) الحمل: وهو برجٌ من أبراج السّماء، وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن.

(٢) هو عمرو بن لُحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قحطان، أوّل من غيّر العرب عن دين إسماعيل، ودعاهم إلى عبادة الأوثان، وفي العلماء من يجزم بأنه مضريّ من عدنان، وهو جدّ خزاعة عند كثير من النسابين. «فهرس الأعلام ٥/ ٨٤».

(٣) البحيرة: الناقة إذا نُتجت خمسة أبطن، عُمِد إلى الخامس، فإذا لم يكن ذكرًا، بتك آذانها أي شقّها، ثمّ لا يجُزُّ لها وبرًا ولا يذوق لها لبنًا وسمّاها لآلهتهم.

(٤) السّائبة: وهي الماشية المسيّبة المخلاة، وكانوا في الجاهلية يفعلون ذلك ببعض ماشيتهم فيحرّمون الانتفاع بها على أنفسهم.

(٥) الوصيلة: الشاة إذا ولدت سبعًا، عمد إلى السّابع، فإذا كان ذكرًا ذبح لآلهتهم وإن كان أنثى، تركت، وإن كان في بطنها اثنان: ذكر وأنثى، يتركان ولا يذبحان.

(٦) الحامي: الفحل يكون عند الرّجل، فإذا لقّح عشر سنين، قيل: قد حمى ظهره، وسمّي «حام». «راجع القرآن الكريم المفسّر: سورة المائدة، الآية: ١٠٣».

(٧) هُبل: صنم من أصنام الجاهلية، كان لقريش في الكعبة.

(٨) أهيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الأنبار، وسمّيت هيت: لأنّها في هوّة من الأرض. «معجم البلدان: ٥/ ٤٢٠، ٤٢١».

(٩) الأشهر الحرم الأربعة: هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، وكانت الجاهلية تحرّم فيها القتال. «انظر القرآن الكريم المفسّر: سورة التوبة، الآية: ٣٦».

وحكى ابن إسحٰق[١] صاحب السيرة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أوّل من نَسأ الشهور على العرب، وأحلّ منها ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، القَلَمَّسُ وهو حذيفة بن فُقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أُميّة، ثم قام بعد أُمية ابنه عوف، ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجّها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: «اللّهمّ إني لا أخافُ ولا أُعافُ[٢]، ولا مردّ لما قضيتُ! اللّهمّ إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهرًا من الأشهر الحرم، وقع اتّفاقهم على شنّ الغارات فيه)، وأنسأته إلى العام القابل (أي أخّرت تحريمه)، وحرمتُ مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي!».

وكانوا يحلّون ما أحلّ، ويحرّمون ما حرّم.

وفي ذلك يقول عمرو بن قيس بن جذْل الطِّعان، من أبيات يفتخر: [من الوافر]

أَلَسْنَا النَّاسِئينَ على مَعَدٍّ شُهُورَ الحِلِّ، نجعلُها حَرامَا؟

وحكى السهيليّ[٣] في كتابه المترجم بـ «الروض الأُنُف» أن نسيء العرب كان على ضربين، أحدهما: تأخير المحرّم إلى صفر لحاجاتهم إلى شنّ الغارات وطلب الثأر، والثاني تأخير الحجّ عن وقته تحرّيًا[٤] منهم للسنة الشمسية، فكانوا يؤخّرونه في كل عام أحد عشر يومًا حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته، فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حجّ بالناس أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فوافق حجّه في ذي القَعدة، ثم حجّ رسول الله ﷺ في العام القابل فوافق عود الحجّ إلى وقته في ذي الحجّة كما وضع أوّلًا، فلمّا قضى رسول الله ﷺ حجّه، خطب فكان

---

(١) هو محمد بن إسحٰق بن يسار المطّلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرّخي العرب، من أهل المدينة، له السيرة النبويّة، وهو من أحسن النّاس سياقًا للأخبار، سكن بغداد ومات فيها سنة ٧٦٨ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٨».

(٢) في اللّسان: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، ولا يردّ لي قضاء، وأعاف: أُترك.

(٣) هو عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي، حافظ، عالم بالسّير واللغة، ولد في مالقة وعمي وعمره ١٧ سنة، ونبغ له تصانيف عدّة اتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه إليها وأكرمه، ومات فيها سنة ١١٨٥ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١٣».

(٤) تحرّيًا: بحثًا.

مما قال في خطبته ﷺ: «إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰواتِ والأرض»، يعني أن الحجّ قد عاد في ذي الحجّة.

٧ ـ ذكر السنين التي يضرب بها المثل

يُضْرب المثل:

بعام الجراد: كان سنة ثمان من الهجرة.

عام الحزن: وهي السنة التي مات فيها أبو طالب عمّ النبيّ ﷺ وخديجة رضي الله عنها، وهي سنة عشر من الهجرة، وكان موتها بعده بثلاثة أيّام وقيل: بسبعة.

عام الرَّمَادةِ: كان سنة ثماني عشرة من الهجرة، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أصاب الناسَ فيه قحطٌ حتى صارت وجوههم في لون الرماد من الجوع. وقيل: كانت الريح تَسْفِي[١] ترابًا كالرَّمادِ لشدّة يُبْس الأرض، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في «التاريخ».

عام الرُّعَاف: كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمّي بذلك لكثرة ما أصاب الناسَ فيه من الرُّعاف[٢].

عام الجماعَةِ: كان سنة أربعين من الهجرة، فيه سَلَّم الحسن بن عليّ رضي الله عنهما الخلافة لمعاوية، فاجتمعت الكلمة فيه.

عام الجُحَافِ: كان سنة ثمانين من الهجرة، وقع بمكّة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول.

عام الفقهاء: وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة، فيها مات عليّ بن الحسين زين العابدين، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، وسعيد بن المسيَّب[٣]، وعروة بن الزبير[٤]، وعطاء بن يسار[٥]، وسعيد بن زيد بن

---

(١) تسفي التّراب: تنثره وتنقله. (٢) الرّعاف: الدّم الذي يخرج من الأنف.

(٣) هو سعيد بن المسيّب بن حزن الإمام أبو محمد المخزومي، أحد الأعلام وسيّد التابعين، ثقة وحجة رفيع الذّكر، مات سنة ٩٤ هـ. «الكاشف ١/ ٢٩٦».

(٤) هو عروة بن الزبير، أبو عبد الله، كان فقيهًا عالمًا ثبتًا بالحديث. «الكاشف ٢/ ٢٢٩».

(٥) هو عطاء بن يسار الهلالي القاصي، مولى ميمونة، من كبار التابعين وعلمائهم مات سنة ١٠٣ هـ، الكاشف ٢/ ٢٣٣.

ثابت[(١)]، وفيه قَتَل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيدَ بن جبير[(٢)].

سُنَيَّاتُ خالد: يُضربُ بها المثلُ في الجدب، وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبي مطير، كان قد تولَّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتى أجلى أهل البوادي.

سنة عشر ومائة: مات فيها قرينان[(٣)] في الزهد: الحسن البصري[(٤)] ومحمد بن سيرين[(٥)]، وقرينان في الشعر: جرير والفرزدق.

سنة ست وخمسين وثلاثمائة: مات فيها جماعة من الملوك، وهم: شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان، ومعزّ الدّولة بن بويه، وكافور الإخشيديّ، صاحب مصر، ويقفور ملك الروم، وأبو عليّ محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدّولة بن حمدان ممدوح المتنبّي، والحسن بن فيرزان صاحب أَذْرَبِيجَان.

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الأول

١ ـ في الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء؛ ولكل فصل منها ثلاثة بروج[(٦)]، وثلاثة أشهر، وسبع منازل[(٧)]، وموافقة من الطبائع الأربع[(٨)].

١ ـ فأمّا فصل الربيع، وهو عند العرب الصيف، فطبعه حارّ رَطْب، ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل، والثور، والجوزاء. وهذه البروج عندهم تدلّ على

---

(١) هو سعيد بن زيد بن ثابت، كاتب الوحي.

(٢) هو سعيد بن جبير الوالبي، أحد الأعلام، قتل شهيدًا في شهر شعبان سنة ٩٥ هـ بسبب خروجه مع ابن الأشعث. «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٣) القرينان: الصاحبان والمثيلان.

(٤) هو الحسن البصري أبو سعيد إمام أهل البصرة، وخير أهل زمانه، وأمّه مولاة أمّ سلمة، وكان ربّما أعطته أم سلمة ثديها في صغره تعلّله به، وكان عالمًا فصيحًا حجّة. «شذرات الذهب ١/ ١٣٧».

(٥) هو محمد بن سيرين، شيخ البصرة، وكاتب أنس بن مالك، وهو غاية في العلم، نهاية في العبادة. «شذرات الذهب ١/ ١٣٨».

(٦) البروج: أبراج في السّماء.

(٧) المنازل: الأماكن والمواضع في الفلك.

(٨) الطبائع الأربع عند القدماء هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

الحركة، وله من السنّ الطفوليةُ والحداثةُ، ومن الرياح الجنوب، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة، ومن القوى القوّة الجاذبة، ومن الأخلاط[١] الدّم، ومن الكواكب القمرُ والزُّهَرَة، ومن المنازل بعض الفَرْغ المقدّم والفرغ المؤخر، والرشاء، والسَّرَطَان، والبُطَيْن، والثُّريَّا، والدَّبَران، وبعض الهَقْعة، وعدد أيّامه أربعة وتسعون يومًا.

وحلول الشمس في الثاني عشر من آذار، ويوافقه مارس من شهور الروم، وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط، وفي العشرين من اسفندار ماه من شهور الفرس. وإذا حلّت الشمس برج الحمل، اعتدل الليل والنهار، وصار كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة، ثم يأخذ النهار في الزيادة، والليل في النقصان.

وفي هذا الفصل تتحرّك الطبائع، وتظهر الموادّ المتولّدة في الشتاء، فيطلع النبات وتُزْهِرُ الأشجار وتُورِق، ويَهيجُ الحيوان للسِّفاد[٢]، وتذوب الثلوج، وتنبُع العيون، وتسيل الأودية.

ذكر ما قيل في وصف فصل الربيع وتشبيهه نظمًا ونثرًا

فمن ذلك ما قاله الصنوبريّ: [من البسيط]

ما الدَّهْرُ إلَّا الرَّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا ... جاء الرَّبيعُ، أتاكَ النَّوْر والنُّورُ[٣]
فالأرضُ ياقوتةٌ، والجوُّ لُؤلُؤةٌ ... والنَّبْتُ فَيروزَجٌ، والماءُ بَلُّورُ

وقال آخر: [من الكامل]

إِشْرَبْ هنيئًا قد أتاكَ زَمَانُ ... مُتَعَطِّرٌ، مُتَهَلِّلٌ، نَشْوانُ!
فالأرضُ وَشْيٌ، والنَّسِيمُ مُعَنْبَرٌ ... والماءُ راحٌ، والطُّيورُ قِيَانُ[٤]

وقال الثعالبيّ[٥]: [من الطويل]

أظُنُّ الرَّبيعَ العَامَ قد جَاءَ زائرًا ... ففي الشَّمسِ بَزّازًا، وفي الرّيح عَطَّارا[٦]

(١) الأخلاط: جمع خلط، وهو الشيء يؤلف مع أشياء أخرى.
(٢) السّفاد: النّزو. (٣) النور: الزهر الأبيض.
(٤) الراح: الخمر، والمعنبر: ما ضمّخ بالعنبر.
(٥) هو أبو منصور بن عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري «تقدّمت ترجمته».
(٦) البزّاز: الذي يبيع البزّ، وهي نوعٌ من الثيّاب. والعطّار: الذي يبيع أصناف الطّيب.

وما العَيْشُ إلا أن تُواجِهَ وَجْهَهُ ... وتَقْضِيَ بين الوَشْيِ والمِسْكِ أَوْطَارا[١]

وقال آخر: [من المتقارب]

وفصَّلَ فَصْلُ الربيع الرّياض ... عقودًا ورصّع منها حُلِيًّا
وفاخَرَ بالأرضِ أُفْقَ السَّماء ... فحَلَّى الثَّرى بنجوم الثُّريَّا

وقال الحسن بن وهب[٢]: [من الكامل]

طَلَعَتْ أوائلُ للرَّبيعِ فبشَّرت ... نَوْرَ الرّياضِ بجِدَّةٍ وشَبابِ!
وغَدَا السحابُ يكادُ يَسْحَبُ في الثَّرى ... أذيالَ أَسْحَمَ حَالكِ الجِلْبَابِ[٣]
فَترى السَّماءَ إذا أجَدَّ رَبَابُها ... فكأنَّما التحفَتْ جَنَاحَ غُرَابِ[٤]
وترى الغُصُونَ إذا الرّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... مُلْتَفَّةً كَتَعَانُقِ الأحْبَابِ

وقال بعض فضلاء أصفَهَان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانيّ في الخريدة:

أمّا بعد؛ فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحُه، وسِرّ حكمةٍ إلٰهيةٍ وبه كَشْفُه ووضُوحُه؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه، ومنهلٌ جَمٌّ[٥] وهو نَميره[٦] وصافِيه؛ ودَوْحَة[٧] خَضِرَةٌ وهو يَنْعُها[٨] وجَنَاها، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها؛ فمن لم يَسْتَهو طباعَه نسيمُ هوائه، ولم يُدْرِك شِفَاء دَائه في صَفَاء دَوَائه؛ لم يَذُقْ لِطَعْم حياته نفعًا، ولم يجد لخفض حظّه من أيّامه رفعًا.

٢ ـ وأمّا فصل الصّيف، فإن طبيعته الحرارة واليبس، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان، والأسد، والسنبلة.

---

(١) الوشي: الموشّى من الأثواب وغيرها، والمسك: نوع من الطّيب يكون من دم حيوان كالغزال «فإن المسك بعض دم الغزال» والأوطار: مفردها وطر: وهو الحاجة.

(٢) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو الحارثي، أبو علي، كاتب من الشعراء كان معاصرًا لأبي تمّام، استكتبه الخلفاء ومدحه أبو تمام، ورثاه البحتري، مات نحو سنة ٨٦٥ م. «فهرس الأعلام ٢/٢٢٦».

(٣) الأسحم: الأسود، والجلباب: الثوب المشتمل.

(٤) الرّباب: السحاب الأبيض.

(٥) الجمّ: الوفير الكثير.

(٦) النمير: العذب الصافي من الماء.

(٧) الدوحة: الشجرة العظيمة المتشعّبة ذات الفروع الممتدّة.

(٨) الينع: أواه القطاف.

وهذه البروج تدلّ على السكون، وله من السنّ الشباب؛ ومن الرياح الصّبا؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة؛ ومن القوى القوّة الماسكة؛ ومن الأخلاط المرَّة الصفراء[١]؛ ومن الكواكب المرّيخ والشمس؛ ومن المنازل بعض الهَقْعة[٢]، والهَنْعَة[٣]، والذراع، والنَّثْرة والطَّرْف والجَبْهة (وهي أربعة عشر يومًا)، والخَرَاتَانِ وبعض الصَّرْفة. وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران، وعدد أيّامه ثلاثة وتسعون يومًا، ويوافقه ينير من شهر الروم؛ وفي العشرين من بؤونه، وإذا حلّت الشمس برج السرطان، أخذ الليل في الزيادة، والنهار في النقصان، والله أعلم.

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظمًا ونثرًا

فمن ذلك ما قاله ذو الرمّة[٤]: [من المتقارب]

وَهَاجِرَةٍ حَرُّهَا وَاقِدٌ ... نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي

تَلُوذُ مِن الشَّمْس أطْلَاؤُهَا ... لِيَاذَ الغَرِيم من الطَّالِبِ[٥]

وتَسْجُدُ للشمس حَرْبَاؤُهَا ... كما يَسْجُدُ القَسُّ لِلرَّاهِب

وقال مسكين الدّارمي[٦]: [من الطويل]

وهَاجرةٍ ظَلَّتْ كأنّ ظِبَاءَهَا ... إذا ما اتَّقَتْها بالقرون سُجُودُ

تَلُوذُ بِشُؤْبُوبٍ من الشمس فوقَها ... كما لَاذَ من حَرِّ السِّنَانِ طَرِيدُ[٧]

وقال ابن الفقيسيّ: [من الخفيف]

في زَمَانٍ يَشْوِي الوُجُوهَ بِحَرٍّ ... ويُذِيبُ الجُسومَ لو كُنَّ صَخْرا

(١) المرّة الصفراء: خلطٌ من أخلاط البدن. (٢) الهقعة: دائرة تكون بعرض زور الفرس.
(٣) الهنعة: نجمان في السّماء، وهما المنزل السّادس من منازل القمر.
(٤) ذو الرُّمَّة: هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، شاعر من فحول الطبقة الثانية كان أسود دميمًا، وأكثر شعره في التشبيب والبكاء على الأطلال. «فهرس الأعلام ٥/ ١٢٤».
(٥) الأطلاء: جمع طلو، وهو الذئب.
(٦) هو ربيعة بن عامر بن أنيف من بني دارم، ومسكين لقب له، قال:

سمّيت مسكينًا وكانت لحاجةً ... وإنّي لمسكينٌ إلى الله راغب

وهو أحد شعراء العصر الأموي، مات ولا عقب له. «راجع الشعر والشعراء ص ٣٦٥».
(٧) شؤبوب الشمس: شدّة حرّها، والشؤبوب: الدفعة من المطر.

لا تَـطِـيـرُ الـنُّـسُـورُ فـيـه إذا مـا ... وَقَـفَـتْ شَـمْـسُـه وقـارَبَ ظُـهْـرَا
ويَـوَدُّ الـغُـصْـنُ الـنَّـضِـيـرُ بـهِ ... لَوْ أَنَّـه مِـن لِحَـائِه يَـتَـعَـرَّى[١]

وقال أيضًا: [من السريع]

يـا لـيـلةً بِـتُّ بـهـا سَـاهِـدًا ... مِن شِـدَّةِ الـحَـرِّ وفَـرْطِ الأُوارْ[٢]
كـأنّـنـي فـي جُـنْـحِـهَـا مُـحْـرِمٌ ... لـو أنَّ لِلْعَـوْرَةِ مِـنِّـي اسْـتِـتَـارْ
وكـيـف لا أُحْـرِمُ فـي لَـيْـلةٍ ... سَمَاؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِي الجِمَار؟[٣]

وقال آخر: [من الطويل]

ويـوم سَـمُـومٍ خِـلْتُ أنَّ نَـسِـيـمَـهُ ... ذَوَاتُ سُـمُـومٍ لـلقُـلوبِ لَوادِغُ[٤]
ظَلِلْتُ به أشكـو مِكَابَدَةَ الـهوى ... فَـكُـوزيَ مَـلآنٌ وَمَـائِي فَـارِغُ[٥]

وقال محمد بن أبي الثياب، شاعر اليتيمة: [من الطويل]

وهَـاجِـرَةٍ تَـشْـوِي الـوُجُـوهَ كـأنَّـهَـا ... إذا لَفَـحَـتْ خَـدَّيَّ نـارٌ تـوهَّـج
ومـاء كـلونِ الـزيـتِ مِـلْح كـأنَّـه ... بِوَجْدِيَ يَغْلِي أو بِهَجْرِكَ يُمْزَجُ

وقال الثعالبيّ: [من الخفيف]

رُبَّ يَـوْمٍ هَـوَاؤُهُ يَـتَـلَـظَّـى ... فَـيُـحَـاكِـي فُـؤَادَ صَـبٍّ مُـتَـيَّـمْ
قُـلْتُ إذ صَـكَّ حَـرُّهُ حُـرَّ وَجْـهِـي ... «رَبَّنا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمْ»![٦]

ومما وصف به من النثر قول بعضهم:

أَوقَدَتِ الظَّهِيرةُ نارَها، وأَذْكَتْ أُوَارَهَا[٧]؛ فأذابت دماغ الضبّ[٨]، وألهبت قلب الصبّ[٩]؛ هاجرة كأنها من قلوب العُشّاق، إذا اشتعلت بنيران الفراق؛ حرّ تهرُب له الحرباء من الشمس، وتستجير بمتراكب الرمس[١٠]؛ لا يطيب معه

---

(١) اللّحاء: القشر الخارجي للغصن والجذع. (٢) الأوار: شدّة الحرّ ولهب النّار.
(٣) الجمار: الحصى التي يرمى بها الشيطان أثناء الحجّ.
(٤) السّموم: الريح الحارة تهبّ غالبًا في الصيف، واللوادغ: اللواسع.
(٥) الكوز: إناءٌ بعروة يشرب به الماء. (٦) صك: دفع وضرب بقوّة.
(٧) أذكت أوارها: اشتدّ حرّها ولهيبها.
(٨) الضبّ: حيوان من جنس الزواحف، غليظ الجسم خشنه وله ذنب عريض حرش أعقد.
(٩) الصّبّ: العاشق. (١٠) الرمس: القبر على وجه الأرض مستويًا.

عيش، ولا ينفع معه سرج[(١)] ولا خيش؛ فهو كقلب المهجور، أو كالتّنور المسجور[(٢)].

٣ ـ وأما فصل الخريف: فإن طبعه بارد يابس؛ ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان والعقرب والقوس.

وهذه البروج تدلّ على الحركة؛ وله من السن الكُهُولة، ومن الرياح الشّمال، ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة، ومن القوى القوّة الهاضمة، ومن الأخلاط المِرَّة السوداء[(٣)]؛ ومن الكواكب زُحَلٌ، ومن المنازل بعض الصَّرفة والعَوّاءُ[(٤)] والسِّمَاك[(٥)] والغَفْر[(٦)] والزُّبانَيَانِ[(٧)] والقلب وبعض الشولة[(٨)]، وعدد أيامه تسعة وثمانون يومًا؛ ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول، ويوافقه ستمبر من شهور الروم، وفي الثامن عشر من توت.

وفي هذا الفصل يبرد الهواء، ويتغيّر الزمان، وتُصْرم الثمار، ويغبرّ وجه الأرض، ويصفرّ ورق الشجر، وتهزل البهائم، وتموت الهوامّ، وتنجحر الحشرات، وتطلب الطير المواضع الدّفئة، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة.

ويقال: فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين.

والله أعلم.

ذكر ما قيل في وصف فصل الخريف وتشبيهه نظمًا ونثرًا

فمن ذلك ما قاله الصنوبريّ، عفا الله عنه: [من الخفيف]

ما قضَى في الربيع حَقَّ المَسَرَّا ... تِ مُضِيعٌ زَمَانَهُ في الخريفِ

نحنُ منه على تَلَقِّي شِتاءٍ ... يُوجِبُ القَصْفَ أو وَدَاعِ مَصِيفِ[(٩)]

---

(١) السّرج: الرّحل، أو ما يوضع على ظهر الفرس ليركب.
(٢) المسجور: المتّقد.
(٣) المرّة السوداء: خلط من أخلاط البدن وهما المرّة الصفراء والمرّة السّوداء.
(٤) العوّاء: منزل من منازل القمر. (٥) السّماك: نجم منير.
(٦) الغُفر: منزل للقمر، ثلاثة أنجمة في برج السّنبلة.
(٧) الزبانيان: نجمان في الميزان، هما المنزل السادس عشر من منازل القمر.
(٨) الشّولة: منزلة من برج العقرب، ينزل فيها القمر، والشّولة نجمان متقابلان في ذلك البرج.
(٩) القصف: الإقامة في الأكل والشّراب واللهو.

في قَمِيصٍ من الزمان رَقِيقٍ ... ورداءٍ من الهَوَاءِ خَفِيفِ
يَرْعُدُ الماءُ منه خوفًا إذا ما ... لَمَسَتْه يَدُ النَّسِيم الضَّعِيفِ

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الخفيف]

طَابَ شُرْبُ الصَّبوح في أيلولِ! ... بَرَدَ الظلُّ في الضُّحى والأَصِيلِ![1]
وخَبَتْ جَمْرَةُ الهَواجِر عَنَّا ... واستَرَحْنَا من النهار الطَّوِيلِ[2]
وخَرَجْنَا من السَّمُومِ إلى بَرْ ... دِ نَسِيمٍ، وطيب ظلٍّ ظَلِيلِ
وشَمالٍ تبشُّر الأرض بالقَطْـ ... ـر كذيل الغِلَالة المبلولِ[3]
فكأنّا نزداد قُرْبًا إلى الجـ ... ـنّة في كلّ شارق وأصيلِ
وَوُجوهُ البِقَاعِ تَنْتَظِرُ الغَيْـ ... ـثَ انْتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ[4]
تَبْتَغِي غُلَّةً لِتَعْمَلَ رَوْضًا ... بكثيرٍ من الحَيَا أو قَلِيلِ

وقال آخر: [من الكامل]

اِشْرَبْ على طِيبِ الزَّمَانِ فقد حَدَا ... بالصَّيْف من أَيْلُولَ أَسْرَعُ حَادِ
وأَشَمَّنَا باللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ ... فارتاحتِ الأرواحُ في الأجسادِ
وافاكَ بالأنْداءِ قُدَّامَ الحَيَا ... فالأرضُ للأمطارِ في اسْتِعْدَادِ
كم في ضَمائِرِ تُربِها من رَوْضَةٍ ... بِمَسِيلِ مَاءٍ أو قَرَارَةِ وَادِ
تَبْدُو إذا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ ... فكأنّما كانَا على مِيعَادِ

وقال آخر: [من البسيط]

لا تَصْغِ لِلَّوْمِ إنَّ اللَّوْمَ تَضْلِيلُ ... واشْرَبْ ففي الشُّرْبِ للأحزانِ تَحْلِيلُ
فقد مَضَى القَيْظُ واجْتُثَّتْ رَوَاحِلُه ... وطَابَتِ الرَّاحُ لما آلَ أَيْلُولُ[5]
وليس في الأَرْضِ نَبْتٌ يَشْتَكِي رَمَدًا ... إلّا ونَاظِرُهُ بالطَّلِّ مَكْحُولُ[6]

(١) الصّبوح: شرب الخمرة صباحًا.
(٢) خبت: اختفت وانطفأت، والهجير: وقت اشتداد الحرّ في هاجرة النّهار.
(٣) الغلالة: السّتر الرقيق.
(٤) البقاع: الأماكن، والغيث: المطر.
(٥) القيظ: شدّة الحرّ في أشهر الصيف، والرّاح: الخمر.
(٦) الرّمد: مرض يصيب العين، الطلّ: الندى.

وقال آخر يذمّه: [من الكامل]

خُذْ بالتَّدَثُّرِ في الخَرِيفِ فإِنَّهُ مُسْتَوْبَلٌ، ونَسِيمُه خَطَّافُ[١]
يَجْرِي معَ الأَيَّام جَرْيَ نِفَاقِهَا لِصَدِيقِهَا «ومن الصَّديق يُخَافُ»!

ومما وصف به من النثر:

قال أبو إسحٰق الصابي يصفه:

الخريفُ أصح فصول السنة زمانًا، وأسهلُها أوانًا؛ وهو أحد الاعتدالين، المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدتِ الأرضُ عن ثمرتها، وصرَّحَتْ عن زينتها؛ وأطلقت السماءُ حوافِلَ أنوائِها، وتأَذَّنَتْ بانكساب مائها؛ وصارَتِ الموارد، كمُتُونِ المَبَارِدِ[٢]؛ صَفَاءَ من كَدَرِها، وتَهَذُّبًا من عَكَرِها؛ واطِّرادًا مع نَفَحات الهواء، وحركات الريح الشَّجْوَاء[٣]؛ واكْتَسَتِ الماشيةُ وَبرها القَشِيبَ[٤]، والطائر رِيشَه العَجيب.

وقال ابن شبل[٥]:

كُلُّ ما يَظْهَر في الربيع نُوَّاره، ففي الخَرِيفِ تُجْتَنَى ثِمَارُه؛ فهو الحاجِبُ أَمَامَه، والمُطْرِقُ قُدَّامَه.

وقال ضياء الدّين ابن الأثير الجزريّ[٦] عن الخريف يفتخر على فصل الربيع: أنا الذي آتِي بذَهاب السَّمُوم، وإيابِ الغُيُوم، واعتصار بناتِ الكُروم، وتكاثر ألوان المشروب والمطعوم؛ وفيَّ يترقرقُ صفاءُ الأنهار، فتشتبه القوابلُ[٧] بالأسحار، وأيامي هي الذهبيات، وتلك نسبة كريمة النِّجار[٨]؛ ومن ثمراتي ما لا تزال أمّهاته حوامل، وأوراقه نواضر وغيرها ذوابل، وقد شبّه بالمصابيح وشبّهت أغصانه بالسلاسل.

---

(١) المستوبل: الوبيء والوخيم والرديء.
(٢) المبارد: جمع مِبرَدْ وهو آلة تسنُّ بها الأدوات الحادّة.
(٣) الشجواء: المحزنة. (٤) القشيب: الجديد النّظيف المعجب.
(٥) لعلّه محمّد بن الحسين بن الشّبل، البغدادي، أبو علي، شاعر حكيم، من أهل بغداد، أقرأ علوم الفلسفة والأدب ونظم الشعر الجيد، توفي في بغداد سنة ١٠٨٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٠٠».
(٦) هو نصر الله بن محمد، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، وزير من العلماء المترسّلين، له مصنّفات عديدة، مات ببغداد سنة ١٢٣٩ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٣١».
(٧) القوابل: من الأمور: أوائلها، أو هو المتهيّأ للقبول والانفعال.
(٨) النّجار: الأصل والحسب.

ولقد أنصف من قال: [من الوافر]

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيف بِهِنَّ فَخْرٌ … على زمن الرّبيع، وأيُّ فَخْرِ!
به صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بردٍ … يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وعقيبَ حَرّ[١]

٤ ـ **وأما فصل الشتاء**، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدي والدّلو والحوت.

وهذه البروج تدلّ على السكون، وله من السنّ الشيخوخة؛ ومن الرياح الدّبور[٢]، ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة، ومن القوى القوّة الدافعة، ومن الأخلاط البلغم، ومن الكواكب المشترِي وعُطارِد، ومن المنازل بعض الشولة[٣] والنعائم والبلدةُ وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وسعد السعود وسعد الأخبية[٤] وبعض الفرغ المقدّم، وعدد أيامه تسعة وثمانون يومًا.

ويكون حلول الشمس برأس الجدي في الثالث عشر من كانون الأوّل، ويوافقه دجنبر من شهور الروم، وفي السابع عشر من كيهك من شهور القبط. وإذا حلّت الشمس ببرج الجدي يشتدّ البرد، ويخشن الهواء، ويتساقطُ ورق الشجر، وتنجحرُ[٥] الحيوانات، وتضعُفُ قوى الأبدان، وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوّ، وتصير الدّنيا كأنها عجوز هَرِمة قد دنا منها الموت.

ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: «توقَّوُا البرد في أوّله، وتلَقَّوْه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار: أوّله يُحْرِق، وآخره يُورق».

ذكر ما قيل في وصف فصل الشتاء وتشبيهه

فمن ذلك ما قاله جرير شاعر الحماسة[٦]: [من البسيط]

في لَيْلَةٍ من جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ … لا يُبْصِرُ الكَلْبُ في ظَلْمَائِها الطُّنُبَا[٧]
لا يَنْبَحُ الكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ … حتّى يَلُفَّ على خَيْشُومِهِ الذَّنَبَا[٨]

---

(١) نزحه: ابتعاده ورحيله. (٢) الدّبور: ريحٌ تهبُّ من المغرب.
(٣) الشولة: منزلة من منازل القمر، وهي نجمان متقابلان في برج العقرب.
(٤) الأخبية: جمع خباء، وهو بيت من شعر أو وبر أو صوف.
(٥) تنحجر: تدخل إلى جحورها داخل الأرض.
(٦) الحماسة: كتاب لأبي تمّام الطائي الشاعر العبّاسي المشهور، جمع فيه بعضًا من أشعار العرب، وجرير هو الشاعر الأموي المشهور.
(٧) الطنُب: حبلٌ يشدُّ به الخباء والسرادة. (٨) الخيشوم: أعلى الأنف.

وقال ابن حِكِّينا البغداديّ[١]: [من الكامل]

اِلْبَسْ إذا قَدِمَ الشِّتاءُ بُرُودَا ... وافْرُشْ على رَغْمِ الحَصِيرِ لُبُودَا[٢]
الرِّيقُ في اللَّهَوَاتِ أَصْبَحَ جامِدًا ... والدَّمْعُ في الآماقِ صَارَ بَرُودَا[٣]
وإذا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ في الهَوا ... عادَتْ عَلَيْكَ من العَقِيقِ عُقُودَا
وتَرى على بَرْدِ المِياهِ طُيُورَها ... تختَارُ حَرَّ النَّارِ والسَّفُّودَا[٤]
يا صَاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهْمِلْهُمَا ... أَوْقِدْ لَنَا عُودًا، وحَرِّكْ عُودَا!

وقال آخر: [من السريع]

ويومُنا أرواحُه قَرَّةٌ ... تُخمِّشُ الأبدانَ من قَرْصِها[٥]
يومٌ تَوَدُّ الشمسُ من بَرْدِه ... لو جَرَّتِ النَّارَ إلى قُرْصِهَا!

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من السريع]

قد مَنَعَ الماءُ من اللَّمْسِ ... وأَمْكَنَ الجَمْرُ من المَسِّ
فلَيْسَ نَلْقَى غَيْرَ ذِي رِعْدَةٍ ... ومُسْلم يَسْجُدُ للشَّمْسِ!

وقال آخر: [من الخفيف]

ليس عندي من آلَةِ البردِ إلَّا ... حُسْنُ صَبْرِي، ورِعْدَتِي، وقُنُوعِي[٦]
فكأنِّي لِشِدَّةِ البَرْد هِرٌّ ... يَرْقُبُ الشَّمْسَ في أوان الطُّلُوع

وقال ابن سُكَّرة الهاشميّ[٧]، عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من مجزوء الرّمل]

قيل: ما أعدَدْتَ للبَرْ ... دِ وقد جَاءَ بِشِدَّهْ؟
قلت: دُرَّاعَةُ بَرْد ... تحتَها جُبَّةُ رِعْدَهْ[٨]

---

(١) هو الحسن بن أحمد، أبو محمد، من ظرفاء الشعراء الخلعاء، من أهل بغداد، كان لطيف الشعر، سار شعره وحُفظ مات سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٨١».
(٢) اللبود: مفردها لُبدة، وهي كلّ ثوبٍ من شعرٍ أو صوف.
(٣) الأماق: مجاري الدّمع. (٤) السّفود: حديدة يشكُّ فيها اللحم ليُشوى.
(٥) أرواحه: رياحه، والقرص: اللسع الذي يترك الألم.
(٦) الرّعدة: اضطراب الجسم من خوف أو برد أو مرض، والقنوع: التذلُّل.
(٧) هو ابن سكرة الهاشمي محمد بن عبد الله بن محمد، شاعر اليتيمة، وهو فائق في قول الملح والطرف، وأحد الفحول الأفراد. «انظر اليتيمة ٣/ ٣ وما بعدها».
(٨) الدّراعة: جُبّة أو ثوب من صوف.

وقال أبو سعيد المخزوميّ: [من المتقارب]

إذا كُنْتَ في بلدةٍ نازلًا ... وحَلَّ الشّتاءُ حُلولَ المُقِيمْ[١]
فلا تَبْرُزَنَّ إلى أن ترى ... من الصَّحْو يومًا صحيحَ الأَدِيمْ[٢]
فكم زَلْقَةٍ في حَواشِي الطريق ... تَرُدُّ الثياب بخِزْيٍ عَظِيمْ![٣]
وكَمْ مِنْ لئيمٍ غدًا راكبًا ... يُحِبُّ البلاءَ لماشٍ كَريم!

وقال الصاحب بن عبّاد: [من البسيط]

أنّي رَكِبْتُ فكفُّ الأرضِ كاتِبَةٌ ... على ثِيابِي سُطورًا ليس تَنْكَتِمُ
فالأرضُ مِحْبَرَةٌ، والحِبْرُ مِنْ لَثَقٍ ... والطِّرْسُ ثَوْبِي، ويُمْنَى الأَشْهَبِ القَلَمُ[٤]

قال أبو عليّ كاتب بكر[٥]، شاعر اليتيمة: [من السريع]

يا بلدةً أسلَمَني بَرْدُهَا ... وبَرْدُ مَنْ يَسْكُنُها للقَلَقْ
لا يَسْلَمُ الشّاتِي بها من أذًى ... من لَثَقٍ، أو دَمَقٍ، أو زَلَقْ[٦]

ومما وصف به نثرًا قول بعضهم:

إذا حلّتِ الشمسُ برجَ الجدي مدّ الشتاءُ رِوَاقَه[٧]، وحَلَّ نِطَاقَه[٨]، ودَبَّتْ عَقَارِبُ البردِ لَاسِبَهْ[٩]، ونَفَعَ مَذْخُورُ الكَسْبِ كَاسِبَهْ.

ومن رسالة لابن أبي الخصال، جاء منها:

الكلب قد صافح خيشومه ذنبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، والْتَوَى التِوَاءَ الحُبَاب[١٠]، واستدارَ استدارة الغراب، وجَلَده الجليد، وضربه الضَّريب[١١] وصعّد أنفاسَه

---

(١) حلول المُقيم: يريد أنّ الشّتاء سيستمرّ لمدّة، وليس شتاءً عابرًا.
(٢) الأديم: الوجه والظاهر من كل شيء.
(٣) الزلقة: السقطة والزلّة، والخزي: الفضيحة والذلّ.
(٤) اللثق: الماء والطين مختلطان.
(٥) لعله أبو علي السّلامي كاتب، موفق للتجويد منخرط في سلك أبي بكر بن محتاج، شاعر شعره متفرّق في الكتب. «انظر اليتيمة ٤/ ١٠٨».
(٦) الدمق: البرد مع الريح يغشى الإنسان من كلّ أوب.
(٧) الرواق: بيت كالخيمة يحمل على عمود طويل.
(٨) النطاق: قطعة من ثوب أو جلد تشدّها المرأة على وسطها.
(٩) اللّاسبة: التي تلسب أي تلذع.
(١٠) الحباب: طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الريح.
(١١) الضريب: الصقيع والثلج.

الصعيد[١]؛ فَحِماه مباح، ولا هَرير [٢] له ولا نُباح، والنارُ كالصَّدِيق، أو كالرَّحيق[٣]؛ كلاهما عَنْقاء[٤] مُغْرب، أو نجم مُغَرِّب.

وقال بعضهم: بردٌ يُغيِّر الألوان، وينشّف الأبدان، ويُجَمّدُ الريقَ في الأشداق، والدَّمعَ في الآماق[٥]؛ بردٌ حالَ بين الكلب وهَريره، والأسدِ وزَئيره، والطيرِ وصَفيرِه، والماء وخَرِيره.

وقيل لبعضهم: أيُّ البرد أشدُّ؟ فقال: إذا دمعت العيناه، وقَطر المَنْخَران، وتلجلج[٦] اللّسان، واصطَكَّت[٧] الأسنان.

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة، فقال: [من الرجز]

عِنْدِي في وَصْف الفُصول الأربَعْه　　مَقَالَةٌ تُغْني اللَّبيبَ مُقْنِعَهْ

ذكر ما قيل في فصل الصّيف: [من الرجز]

أمّا المصيفُ، فاستمِعْ ما فيه　　من فَطِنٍ يُفْهِمُ سَامِعِيهِ
فصل من الدّهْر إذا قِيلَ حَضَرْ　　أذْكَرَنا بِحَرّه نارَ سَقَرْ
يَظَلُّ فيه القلبُ مُقْشَعِرًّا　　والأرضُ تشكو حَرّه المُضِرَّا
أوّلُه فيه نَدًى مُنَغِّصٌ　　كأنه على القُلُوبِ يَقْنِص
يَلْصَقُ منه الجلدُ بالثِّيابِ　　ويَعْلَقُ التُّرابُ بالأثوابِ
حتّى إذا ما طَرَدَتْه الشمسُ　　وفَرِحَتْ بأن يَزُولَ النَّفْسُ
فَتَّحَتِ النَّارُ لنا أبوابَها　　وشَبَّ فِيهَا مالكٌ شِهَابَها[٨]
حَرٌّ يَحِيلُ الأوجهَ الغُرَّانا　　حتّى تُرى الرومُ به حُبْشَانَا[٩]
يَغْلُو بِهِ الكَرْبُ ويَشْتَدُّ القَلَقْ　　وتَنْضَحُ الأبدانُ فيه بالعَرَقْ[١٠]

---

(١) الصّعيد: الوجع والمشقة، يقال: تنفّس الصعداء: أي تنفس طويلًا من توجّع.
(٢) الهرير: صوت الكلب دون نباح.　　(٣) الرّحيق: ضربٌ من الطيب.
(٤) العنقاء: طائر متوهّم لا وجود له.
(٥) الأماق: مجاري الدمع، والأمق: طرف العين الذي يلي الأنف.
(٦) تلجلج: تردّد في الكلام ولم يبينه.　　(٧) اصطكت: اضطربت من البرد وارتجفت.
(٨) مالك: خازن النار، ورد ذكره في القرآن الكريم، وشبّ: أوقد وأضرم.
(٩) يُحيل: يحوّل، والغرّ: البيض، والحبشان: السّود..
(١٠) تنضح: نضح الشيء: رشّه بالماء.

تُبْصِرُه فوقَ القَميصِ قد عَلَا حتّى ترى مُبيَضَّهُ مُصَنْدَلَا(١)
إنْ كانَ رَثًّا، زادَ في تَمْزيقِهِ أو مُسْتَجِدًّا، جَدَّ جَبْلَ زيقِهِ(٢)
ثُمّ يُعيدُ الماءَ نارًا حَامِيَهْ يَزيدُ في كرب القُلوبِ الصَّادِيَهْ(٣)
شَارِبُه يَكْرَعُ في حَميمِ كأنَّهُ من ساكِنِي الجَحِيمِ(٤)
يُنْسِيهِ ما يَلْقَى من الْتِهَابِه أن يَحْمَدَ الله على شَرَابِه
حتّى إذا أَعْيَا، انْقَضَى نهارُهُ وأُرْخِيَتْ من لَيْلِهِ أستارُهُ
تَحَرَّكَتْ في جُنْحِهِ دَوَاهِي سَارِيَةٌ، وأنتَ عَنْهَا لَاهِي
من عَقْرَبٍ يَسْعى كسَعْيِ اللِّصِّ سِلَاحُها في إثْرِهِ كالشِّصِّ(٥)
وَحَيَّةٍ تَنْفُثُ سُمًّا قَاتِلَا تُزَوِّدُ المَلْسُوعَ حَتْفًا عَاجِلَا
تُبْصِرُ ما بِجِلْدِها من الرَّقَشْ كَوَجْنَةٍ مُصْفَرَّةٍ فِيها نَمَشْ(٦)
لو نَهَشَتْ بالنَّابِ منها الخِضْرَا لَنَشَرَتْ منه الحياةَ نَشْرَا(٧)
فلا تَقُلْ إن جاء يومًا أهْلَا فَلَعْنَةُ الله عليهِ فَضْلَا

ذكر ما قيل في فصل الخريف: [من الرجز]

حتّى إذا زَالَ، أتى الخريفُ فَصْلٌ بِكُلِّ سَوْأَةٍ مَعْرُوفُ
أَهْوَنُهُ يُسْرِعُ في حَلِّ الجَسَدْ وهو كطَبْعِ المَوْتِ يُبْسٌ وبَرَدْ
يَجْنِي على الأجْسَامِ من آفَاتِهِ وأرْضُهُ قَرْعَاءُ من نَبَاتِهِ(٨)
لا يُمْكِنُ النَّاسَ اتِّقاءُ شَرِّهِ ولا خِلافُ بَرْدِهِ وحَرِّهِ
تُبْصِرُهُ مثلَ الصَّبِيِّ الأرْعَنِ من كثرةِ العُشّاقِ والتَلَوُّنِ(٩)
فأنتَ منه خائفٌ على حَذَرْ لأنّه يمزُجُ بالصَّفْوِ الكَدَرْ

---

(١) المصندل: الذي تطيّب بالصّندل، والصندل: نوع من الطّيب.
(٢) الزّيق: من القميص أو الثوب: ما أحاط منه بالعنق.
(٣) الكرب: الحزن الشديد، والصادي: الذي اشتدّ عطشه.
(٤) الحميم: الماء الحار.
(٥) الشّص: حديدة عنقاء يصاد بها السمك.
(٦) الرّقش والرقشاء من الحيات: المنقطة بسوادٍ وبياض، والنمش: بقع بُنيّة اللون تعلو الوجه.
(٧) الخضر: من العبّاد الصالحين، ورد ذكره في القرآن الكريم، ويقال: إنّه حيّ حتى اليوم. «انظر القرآن الكريم، سورة الكهف».
(٨) القرعاء: أي التي لا نبات فيها.
(٩) الأرعن: الأحمق.

أَحْسَنُ مَا يُهْدِي لَكَ النَّسِيمَا يَقْلِبُهُ فِي سَاعَةٍ سَمُومَا[١]
وهو على المعدودِ من ذُنُوبِهِ خيرٌ من الصَّيْفِ على عُيُوبِهِ

ذكر ما قيل في فصل الشتاء: [من الرجز]

حتّى إذا ما أقبَلَ الشِّتاءُ جَاءتكَ منه غُمَّةٌ عَمْيَاءُ
لو أنَّهُ رُوحٌ، لكان فَدْمَا أو أنه شَخْصٌ، لكان جَهْمَا[٢]
يلقاكَ منه أَسَدٌ يَزِيرُ له وَعِيدٌ وله تَحْذِيرُ[٣]
تأتِيكَ في أيّامِهِ رِيَاحُ لَيسَ على لَاعِنِها جُنَاحُ
حَرَاكُها لَيسَ إلى سُكُونِ تَضُرّ بالأَسْمَاعِ والعُيُونِ
يَحْدُثُ من أفعالِهَا الزُّكَامُ هذا إذا ما فاتَكَ الصُّدَامُ
ثم يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمُ كأنه خَصْمٌ لنا مُلَازِمُ
يَقْطَعُنَا بَعْضًا عن الطَّرِيقِ وعن قَضاء الحَقِّ للصَّدِيقِ
وربما خَرَّ عليكَ السَّقْفُ فإن عَفا عنكَ أتاكَ الوَكْفُ[٤]
وإنْ أردتَ في النَّهارِ الشُّرْبَا فيه، فقد قَاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا
واحتجتَ أن تُوقِدَ فيه نَارَا تُطِيرُ نحو الحَدَقِ الشَّرَارَا
يَتْرُكُ مُبيَضَّ الثِّيَابِ أَرْقَطَا يَحْكِي السَّعِيديَّ لَكَ المُنَقَّطَا[٥]
وبَعْدَ ذَا تُسَدِّدُ النِّقَابَا من خوفه وتُغْلِقُ الأَبْوَابَا[٦]
نعم، وتُرْخِي دُونَه السُّتُورَا حتّى ترى صَبَاحَه دَيْجُورَا
وإن أردتَ الشُّرْبَ في الظَّلَامِ عاقَكَ عن تَنَاوُلِ المُدَامِ
حَسْبُكَ أنْ تَنْدَسَّ في اللِّحافِ من خَشْيةِ البَرْدِ على الأطرافِ!
ورَعْدُهُ يَشْغَلُ عن كُلِّ عَمَلْ ويُؤْثِر النَّوْمَ وَيَسْتَحْلِي الكَسَلْ
حتّى إذا جئتَ إلى الرُّقَادِ نِمْتَ على فرشٍ من القَتَادِ[٧]

---

(١) السّموم: الرّيح الحارة التي تلفح الوجوه.
(٢) الفدم: أي الثقيل والعيي، والجهم: العابس الوجه والكريه المنظر.
(٣) يزير: أي ذو زئير، والزئير: صوت الأسد. (٤) الوكف: الماء الذي يسقط من السقف.
(٥) الأرقط: ما كان لونه الرّقطة، وهو لون مؤلف من سواد وبياض.
(٦) النّقاب: القناع الذي تجعله المرأة على أنفها فتستر به وجهه.
(٧) القتاد: نباتٌ صلبٌ له شوكٌ كالإبر.

إنَّ البراغيثَ عذابٌ مُزعِجٌ ... لكُلِّ قلبٍ ولجِلْدٍ ينضجُ
لا يَسْتَلِذُّ جِلدُكَ المَضاجِعَا ... كأنما أفْرَشَهُ مَباضِعَا[1]
تَنَحَّ فَضلًا فوق ما ذَمَمْتُهُ ... لو أنّه يَظْهَرُ لي، قَتَلْتُهُ
حتّى إذا ما هُوَ عَنَّا بانَا ... وزالَ عَنَّا بَعْضُه، لَا كَانَا!

ذكر ما قيل في فصل الربيع: [من الرجز]

جاءَ إلَيْنَا زَمنُ الرَّبيعِ ... فجاءَ فصلٌ حَسَنُ الجَميعِ
لِبَرْدِهِ وحَرِّه مِقْدارُ ... لم يكتَنِفْ حَدَّهُمَا إكْثارُ
عُدِّلَ في أوْزَانِهِ حتى اعْتَدَلْ ... وحُمِدَ التَّفْصِيلُ منهُ والجُمَلْ
نهارُهُ في أحْسَنِ النَّهَارِ ... في غايَةِ الإشْرَاقِ والإسْفَارِ
تَضْحَكُ فيه الشَّمْسُ من غيرِ عَجَبْ ... كأنّها في الأُفْقِ جَامٌ من ذَهَبْ[2]
ولَيْلُهُ مُسْتَلْطَفُ النَّسِيمِ ... مُقَوَّمٌ في أحْسَنِ التَّقْوِيمِ
لِبَدرِهِ فَضْلٌ على البُدُورِ ... في حُسْنِ إشْرَاقٍ وفَرْطِ نُورِ
كَجَامَةِ البَلُّورِ في صَفَائِهَا ... أذابَتِ الجرادَ في نِقَابِهَا[3]
كأنَّها إذا دَنَتْ من بَدْرِهِ ... جَوْزَاؤه قَبلَ طُلُوع فجرِه
رُومِيَّةٌ حُلَّتُهَا زَرْقَاءُ ... في الجِيدِ منها دُرَّةٌ بَيْضَاءُ[4]
هذا وكم تجمعُ مِن أُمورِ ... إطْراءُ مُطْرِيهَا من التَّقْصِيرِ
فيه تَظَلُّ الطَّيرُ في ترنُّمِ ... حَاذِقَةً بالَّلحن لم تُعَلَّمِ
غِنَاؤُهَا ذُو عُجْمَةٍ لا يَفْهَمُهْ ... سامِعُهُ وهو على ذا يغرمُهْ[5]
من كُلِّ دُبْسِيّ له رَنِينُ ... وكُلِّ قُمْرِيّ له حَنِينُ[6]
في قُرْطَقٍ أعْجِلَ أن يُوَرَّدَا ... خَاطَ له الخَيَّاطُ طَوْقًا أسْوَدَا[7]

---

(١) المباضع: جمع مبضع، والمشرط.
(٢) الجام: إناءٌ للطعام والشّراب يكون من فضّة أو ذهب أو نحوهما.
(٣) النّقاب: القناع الذي تجعله المرأة على أنفها فتستر به وجهها.
(٤) الدرّة: اللؤلؤة العظيمة الكبيرة. (٥) ذو عُجمة: أي في لسانه لكنة.
(٦) القمري: ضربٌ من الحمام مطوّق، حسن الصوت، والحنين: صوت فيه طربٌ أو حزن.
(٧) القرطق: قباء.

تُبْصِرُه منهُ على الحَيْزُومِ كمِثْلِ عِقْدِ سَبَجٍ مَنْظُومِ[١]
هَذَا وفيه للرّياضِ مَنْظَرُ يُفْشِي الثَّرى من سِرِّه ما يُضْمِرُ
سِرٌّ نَباتٍ حُسْنُهُ إعْلَانُهُ إذا سِوَاهُ زَانَهُ كِتْمَانُهُ
فيه ضروبٌ لنَبَاتِ الغَضِّ يَحْكِي لِبَاسَ الجُنْدِ يَوْمَ العَرْضِ[٢]
من نرجِسٍ أبيضَ كالثُّغُورِ كأنَّه مَخَانِق الكَافُورِ[٣]
ورَوْضَةٍ تُزهِرُ من بَنَفْسَجِ كأنَّها أَرْضٌ من الفَيْرُوزَجِ
قَدْ لَبِسَتْ غلَالَةً زَرْقَاءَ وكَايَدَتْ بلَوْنِهَا السَّمَاءَ[٤]
يَضْحَكُ مِنْها زَهَرُ الشَّقِيق كأنَّه مَدَاهِنُ العَقِيقِ
مُضَمَّنات قِطَعًا من السَّبَجْ قد أَشْرَقَتْ من احمرَارٍ ودَعَجْ[٥]
كأنَّما المُحْمَرُّ في المُسْوَدِّ منهُ إذا لَاحَ عُيونُ الرُّمْدِ
وارْمِ بِعَيْنَيْكَ إلى البَهَارِ فإنَّهُ من أَحْسَنِ الأزْهَارِ[٦]
كأَنَّهُ مَدَاهِنٌ من عَسْجَدِ قد سُمِّرَتْ في قُضُبِ الزَّبَرْجَد[٧]
فانْهَضْ إلى اللَّهْوِ ولا تَخَلَّفِ فلَسْتَ في ذلكَ بالمُعَنَّفِ
واشْرَبْ عُقَارًا طَالَ فِينَا كَونُهَا يَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ المِزَاجِ لَوْنُها[٨]
دونَكَ هذِي صِفَةُ الزَّمَانِ مَشْروحةً في أَحْسَنِ التِّبْيانِ!
وارْضَ بِتَقْليدِيَ فيمَا قُلْتُهُ فإنَّني أَدْرَى بما وصَفْتُهُ

---

(١) السّبج: خرزٌ أسود منظوم.
(٢) فيه ضروب لنبات الغض: لعله يريد للنّبات الغضّ، والضّروب: الأنواع والعرض: الاستعراض والزّينة.
(٣) الكافور: شجرٌ من الفصيلة الغارية، تستخرج منه مادة عطرية، ويريد الشاعر هنا زهرُه الذي يشبه زهر الأقحوان، والمخانق: القلائد من زهر الكافور.
(٤) كايدت: ماثلت، أو خادعت.
(٥) الدّعج: اشتداد سواد العين وبياضها، مع اتساع العين.
(٦) إرْمِ: اقصد، فعل أمر من رمى يرمي، والبهار: نباتٌ طيّب الرائحة.
(٧) العَسجد: الذّهب، والزّبرجد: حجر كريم يشبه الزمرّد.
(٨) العقار: الخمر، وكونها: وجودها، يريد خمرًا معتّقة.

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفن الأول
في ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب اتخاذهم لها، وما قيل في ذلك

والذي أُورِدُه في هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتي للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لمّا تعذر عليّ مَنْ أتلقاه مِنْ فِيهِ. وضمنته أعياد المسلمين، والفُرْس والنصارى، واليهود.

١ ـ ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة اثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحى.

والسبب في اتخاذهما، ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «أنه قَدِم المدينةَ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنّا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله عزّ وجلّ قد بدّلكم خيرًا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى»، فأوّل ما بدىء به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، وفيها كان عيد الأضحى.

وعيد ابتدعته الشِّيعة، وسمّوه عيد الغَدِير، وسبب اتّخاذهم له مؤاخاة النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم غَدِير خُمّ. والغدير على ثلاثة أيام[١] من الجُحْفة[٢] بسُرَّةِ الطَّريق[٣]، قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثيرٌ ملتفٌ بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجدٌ لرسول الله ﷺ واليوم الذي ابتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذي الحجّة؛ لأن المؤاخاة كانت فيه في سنة عشرة من الهجرة، وهي حجّة الوداع، وهم يُحْيون ليلتها بالصلاة، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال، وشِعارُهم فيه لبس الجديد، وعتق الرّقاب، وبرّ الأجانب، والذبائح.

---

(١) في صبح الأعشى «٢/ ٤٤٥» ثلاثة أميال، وفي المعجم: بينه وبين الجُحفة ميلان.
(٢) الجحفة: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرّوا على المدينة. «انظر معجم البلدان ٢/ ١١١».
(٣) سُرّة الطريق: وسطها، وفي صبح الأعشى «يسرة الطريق ٢/ ٤٤٥».

وأوّل من أحدثه معز الدّولة أبو الحسن عليّ بن بويه[١]، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد واتّخذوه من سُنَنهم، عمل عوامُّ السُّنَّة يومَ سرورٍ نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة. وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله ﷺ الغار هو وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وأظهروا في هذا اليوم الزينةَ، ونصبَ القِبَابِ، وإيقادَ النيران.

٢ ـ ذكر أعياد الفُرس

وأعياد الفُرس كثيرة جدًا، وقد صنّف عليّ بن حمزة الأصفهانيّ[٢] فيها كتابًا مستقلّاً ذكر فيه أعيادهم، وسبب اتّخاذهم لها، وسُنَنَ ملوكهم فيها. وقد رأيتُ أن أقتصر على المشهور منها، وهي ثلاثة أعياد: النَّيْرُوزُ، والمَهْرَجانُ، والسَّدَقُ.

١ ـ فأمّا النَّيْروز، فهو أعظم أعيادهم وأجَلُّها. يقال: إنّ أوّل من اتّخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأُوَل. ويقال: فيه جمشاد، ومعنى جم القمر، وشاد الشعاع والضياء؛ وسبب اتّخاذهم لهذا العيد أن طهومرت لما هلك، ملك بعده جمشاد، فسمّي اليوم الذي ملك فيه نُوروز، أي اليوم الجديد.

ومن الفرس من يزعم أن النَّيْرُوز اليومُ الذي خلق الله عزّ وجلّ فيه النورَ، وأنّه كان مُعَظَّمَ القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران.

ومدّته عندهم ستة أيام، أوّلها اليوم الأوّل من شهر أفريدون ماه، الذي هو أوّل شهور سنتهم. ويسمّون اليوم السادس النّوروزَ الكبير؛ لأن الأكاسرة كانوا يقضُون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجالس أُنسهم مع خواصِّهم.

وحكى ابن المُقَفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتي الملِكَ من الليل رجلٌ جميلُ الوجه، قد أُرْصد لما يفعله، فيقف على الباب حتى يُصْبِح، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان؛ فإذا رآه الملك، يقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلتَ؟

---

(١) هو معزّ الدولة أبو الحسن عليّ بن بويه «عماد الدولة» أوّل من لقب بالملك من حكام الدّولة البويهيّة. «انظر صبح الأعشى ٥/ ٤١٥».

(٢) لعلّه حمزة بن الحسن الأصفهاني، المؤرخ الأديب، وهو الذي صنف لعضد الدولة ابن بويه كتاب الخصائص والموازنة بين العربية والفارسية. «انظر فهرس الأعلام ٢/ ٢٧٧».

وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأيّ شيء وردتَ؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، واسمي المبارك، ومن قِبَل الله أقبلتُ، والملكَ السعيدَ أردتُ، وبالهناء[١] والسلامة وردتُ، ومعي السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضّة، وفيه حنطة، وشعير، وجُلْبَانٌ[٢]، وحِمَّصٌ، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبّات)، وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديدان؛ فيضع الطبق بين يدي الملك. ثم تدخل عليه الهدايا، ويكون أوّل من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج[٣]، ثم صاحب المَعُونَة[٤]، ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدَّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع في سَلَّةٍ، فيأكل منه ويُطْعِم من حضره؛ ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدّد فيه ما أخلق[٥] من الزمانُ، وأحَقُّ الناس بالفضل والإحسان الرأسُ لفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجوه دولته ويصلهم[٦] ويفرّق فيهم ما حُمِل إليه من الهدايا.

وكانت عادةُ عوامّ الفرس فيه رفعَ النار في ليلته، ورشَّ الماء في صبيحته، وفي ذلك يقول المعوج: [من البسيط]

كيف ابْتهاجُكَ بالنَّيْرُوزِ يا سكَنِي؟ وكُلُّ ما فيه يَحْكِينِي وأَحْكِيهِ!
فنارُه كلهيبِ النار في كَبِدِي! وماؤه كتَوَالِي عَبْرَتِي فِيهِ!

وقال آخر: [من مجزوء الرّمل]

نَوْرَزَ النَّاسُ ونَوْرَزْ تُ، ولَكِنْ بدموعي!
وذَكتْ نَارُهُمُ، والنَّـ ـارُ ما بينَ ضُلوعِي!

٢ ـ وأما المهرجان، فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السُّرْيان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس.

---

(١) لا يوجد هذا المصدر في القاموس واللّسان بهذا المعنى، والمصدر الهنء والتهنئة. إلّا أن العامة جمعت بينه وبين الشفاء فتقول: بالهناء والشّفاء.
(٢) الجُلبان: حبٌّ يشبه حبّ الماش، وهو حبٌّ كالكرسنّة يؤكل مطبوخًا.
(٣) الخراج: الضريبة أو الجزية أو المال المفروض على الأرض وغلّتها.
(٤) المعونة: العون والمساعدة. (٥) أخلق: أصابه البلى.
(٦) يصلهم: أي يهبهم العطايا والصّلات.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء: [من الوافر]

أُحِبُّ المَهْرَجَانَ لأنَّ فيه سُرُورًا للملوك ذَوِي السَّنَاءِ[١]
وبَابًا للمصير إلى أَوَانٍ تُفَتَّحُ فيه أبوابُ السَّماءِ

وهو ستّة أيّام، ويسمّى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعوديّ: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمّون شهورهم بأسماء ملوكهم. وكان لهم ملك يسمّى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف؛ فمات في نصف الشهر الذي يسمونه مهرماه، فسمّي ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره «نفس مهر ذهبت» وهذه لغة الفرس الأُوَل، وزعم آخرون أن «مهر» بالفارسيّة حِفَاظ و «جان» الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٢] ذلك، فقال: [من المتقارب]

إذا ما تَحَقَّقَ بالمَهَرَجَا نِ مَنْ لَيس يَعْرِفُ معناهُ، غَاظَا
ومَعْنَاهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فِيهِ فَسَمَّوْهُ للرُّوحِ حَقًّا حِفَاظَا

ويقال: إنه إنما عُمِلَ في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم «إدراك الثأر».

وسبب اتّخاذهم له، أن بيوراسف (وهو الضحاك)، ويقال له أزدهاق ذو الحيَّتَيْنِ والأفواه الثلاثة، والأعين الستّة، الدّاهِي الخبيث المتمرّد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غيّر دين المجوسية. وجاء إبليس في صورة خادم، فقبَّل منكبيه، فنبت فيهما حيّتان، فكان يُطْعِمهما أدمغة الناس، فأجحف[٣] ذلك بالرعيّة، فخرج رجل بأصبهان، يقال له كابي، ويقال فيه كابيان، ودعا الناس إلى قتاله، فاجتمع له خلق كثير. فشخص الضحاك لقتاله، فهاب كثرةَ جمعه وفرّ منهم، فاجتمع الناس على كابي ليملكوه عليهم، فأبى ذلك وقال: ما أنا من أهل المُلك، وأخرج صبيًّا من ولد جمشاد، يسمّى أفريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم.

---

(١) السّناء: العلو والارتفاع.
(٢) هو عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر الخزاعي، أبو أحمد ويعرف «بابن طاهر» أمير من الأدباء الشعراء، وُلّيَ شرطة بغداد وتوفي فيها سنة ٩١٣ م، له تصانيف عدّة، منها الإشارة في أخبار الشعراء. «فهرس الأعلام ٤/ ١٩٥».
(٣) أجحف: اشتدّ بهم الضّرر.

وخرج أفريدون في طلب الضحاك ليأخذ ثأر جدّه فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيدًا، وسمّاه المهرجان. ويقال: إن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك، أوّل ملوك الفرس الساسانية[١].

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز: [من الطويل]

أخَا الفُرْسِ إنّ الفُرْسَ تَعْلَمُ أنّه   لأَطْيَبُ من نَيْرُوزِهَا مَهْرجَانُهَا
لإِدْبارِ أيّام يَغُمُّ هواؤُهَا   وإقبالِ أيّامٍ يَسُرُّ زَمَانُها

وكان مذهب الفرس فيه أن يَدَّهِنَ ملوكُهم بدُهن البان[٢] تبرُّكًا، وكذلك عوامهم، وأن يلبس القَصَبَ والوَشْيَ[٣]، ويتوجّ بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها[٤] الدّائرة عليها، ويكون أوّل من يدخل عليه المُوبَذَان[٥] بطبق فيه أُتْرُجَّةٌ[٦]، وقطعة سُكَّر، ونَبْق[٧]، وسَفَرْجَل، وعُنَّاب، وتُفّاح، وعُنْقُودُ عنب أبيض، وسبعُ طاقات آسٍ[٨] قد زَمْزِم[٩]، ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك.

وكان أردشير، وأنوشروان يأمران بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرُشِ، فتُفَرَّقُ كلُّها في الناس على مراتبهم، ويقولون: إن الملوكَ تستغني عن كُسوة الصيف في الشتاء، وعن كُسوة الشتاء في الصّيف، وليس من أخلاقهم أن يَخْبؤوا كسوتهم في خزائنهم ويساووا العامّة في فعلها.

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عَمِلته الفُرْسُ قبل المهرجان بألفَيْ سنة وخمسِمائة سنة.

٢ ـ وأما السَّذَقُ[١٠]، فإنه يعمل في ليلة الحادي عشر من شهر بهمن ماه، ويسمّى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأنّ لكل يوم من أيّام الشهر عندهم اسمًا.

---

(١) الساسانيّة: من عقب ساسان بن «أردشير بهمن» وهم الطبقة الرابعة من حكّام إيران يدعون «الأكاسرة». «انظر صبح الأعشى ٢/ ٤١٢».
(٢) البان: ضرب من الشجر، ليّن، ورقه كورق الصفصاف.
(٣) الوشي: نقش الثوب، أو نوعٌ من الثّياب الموشّاة.
(٤) الحجلة: القبّة. (٥) الموبذان: كبير الكهنة.
(٦) الأترجة: ثمرة الأترج، وهو شجر وثمر من جنس الليمون تسمّيه العامة «الكبّاد».
(٧) النبق: دقيق يخرج من لبّ جذع النخلة، حلو، يستعمل في صنع النبيذ.
(٨) الآس: شجرٌ دائم الخضرة، أبيض الزّهر، بيضيّ الورق.
(٩) زمزم: جمعت أطرافه، والزمزمة: صوت، ورطنة.
(١٠) السّدق: احتفال توقد فيه النيران والشموع، وتقام الأفراح «عيد».

ويقال في سبب اتّخاذهم له: إن فراسياب لما ملك، سار إلى بلاد بابِلَ[١] وأكثر فيها الفساد، وخرَّب العمران، فخرج عليه دقّ بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلى بلاد التُّرك. وكان ذلك في يوم أبان روز، فاتّخذ الفُرْسُ هذا اليوم عيدًا، وجعلوه ثالثًا ليوم النيروز، والمهرجان.

ويقال أيضًا في سبب اتّخاذهم له: إن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت، لما كمل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسًا أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، واستسنّه الفُرْسُ بعده.

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان[٢]، ويزيدون في الوَلُوع بها، حتى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات.

وفي ذلك يقول ابن حجاج[٣] من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه: [من مخلّع البسيط]

مَـوْلَايَ يـا مَـنْ نَـدَاهُ يَـعْـدُو ... فَـفَـاتَ سَبْتًا ولَيْسَ يُـلْحَقْ[٤]
لَيْـلَتُـنـا حُـسْـنُـهَـا عَـجِـيـبٌ ... بـالـقَـصْـفِ والـعَـزْفِ قـد تَـحَـقَّـقْ
لِنَـارِهَـا فـي الـسَّـمَـا لِسَـانٌ ... عـن نُـورِ ضَـوْءِ الـصَّـبَاحِ يَـنْـطِـقْ
والـجَـوُّ مـنـهـا قـد صـار جَـمْـرًا ... والـنجـمُ منـهـا قد كَادَ يُـحْـرِقْ[٥]
ودِجْـلَـةٌ أَضْـرَمَـتْ حَـرِيـقًـا ... بـأَلْفِ نَـارٍ وأَلْفِ زَوْرَقْ
فَـمَـاؤُهـا كُـلّهـا حَـمِـيـمٌ ... قَـدْ فَـارَ مـمـا غَـلَى وبَـقْـبَـقْ[٦]

(١) بابل مملكة مشهورة في التاريخ وبابل عاصمتها، قال ابن حوقل: هي أقدم أبنية العراق، وإليها يُنسب إقليم بابل، وكانت ملوك الكنعانيين يقيمون بها. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

(٢) الأدهان: جمع دهن، وهو مادة دسمة جامدة حيوانيّة ونباتيّة.

(٣) هو حسين بن أحمد، أبو عبد الله، شاعر فحل، من كتاب العصر البويهي تقدّم ذكره. «انظر فهرس الأعلام ٢/ ٢٣١».

(٤) النّدى: الكرم، والسَّبت من الخيل: الجواد الكثير العدو.

(٥) في البيت خللٌ عروضيّ، ولعلّ الصواب ليستقيم الوزن:
والـجـوّ مـنـهـا يـصـيـرُ جـمـرًا ... والـنـجـم مـنـهـا يـكـاد يـحـرق

(٦) الحميم: الحار، وبقبق: سمع صوت غليانه.

وقال أبو القاسم المطرّز[١]، في سَدَق عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران في السُّميْرِيَّات[٢] بدِجْلَةَ، وذلك في سنة أربع وثمانين وأربعمائة: [من البسيط]

وكُلُّ نارٍ على العُشَّاقِ مُضْرَمَةٌ مِن نارِ قَلْبِيَ أو من ليلة السَّدَقِ
نارٌ تجلَّتْ بها الظَّلْمَاءُ فاشتَبَهَتْ بسَدْفَة الليل فيها غُرَّةُ الفَلَقِ![٣]
وزارَتِ الشَّمْسُ فيها الليلَ واصطلحا على الكواكب بعد الغَيْظِ والحَنَقِ
مدّتْ على الأرض بُسْطًا من جَوَاهِرِهَا ما بين مُجْتَمِعٍ وَارٍ ومُفْتَرِقِ[٤]
مثل المَصَابيحِ إلَّا أَنَّها نَزَلَتْ من السماءِ بلا رَجْمٍ ولا حَرَقِ[٥]
أعْجِبْ بنارٍ ورِضْوَانُ يُسَعِّرُهَا ومالكٌ قائم منها على فَرَقِ![٦]
في مجلسٍ ضَحِكت روضُ الجِنَانِ له لما جلا ثَغْرُهُ عن واضحٍ يَقَقِ[٧]

٣ ـ ذكر أعياد النصارى القبْط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيدًا: سبعة يسمّونها كبارًا، وسبعة يسمّونها صغارًا. فأمّا الكبار:

١ ـ فمنها عيد البِشَارة، ويعنون بها بشارة غبريال، وهو عندهم جبريل عليه السلام على ما يزعمون أنه بشّر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى عليهما السلام، وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم.

٢ ـ ومنها عيد الزيتونة، وهوعيد الشَّعانين، وتفسيره التسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم. وسُنَّتهم فيه أن يخرجوا بِسَعَفِ النخل من الكنيسة، ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليَعْفُور في القدس، وهو الحمار، ودخوله

(١) هو عبد الواحد بن محمد، أبو القاسم المطرّز شاعر بغدادي كثير الشعر، تقدّم ذكره. «انظر فهرس الأعلام ٤/١٧٧».
(٢) السّميريّات: أنواع من السُّفن.
(٣) السّدفة: الظلمة، والفلق: الصبح ينشق من ظلمة الليل.
(٤) وارٍ: مشتعل ومتقدٍ، حذفت «ياء واري» للتنوين.
(٥) الرّجم: الضرب، وهي مأخوذة من الشّهب التي ترجم بها الشياطين في الفضاء.
(٦) رضوان: خازن الجنّة، ومالك: خازن النار، والفرق: الخوف.
(٧) اليقق: شدّة البياض.

صِهْيَوْن[١] وهو راكب، والناس يسبّحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٣ ـ ومنها الفِصْحُ، وهو العيد الكبير عندهم، يقولون: إن المسيح قام فيه بعد الصَّلَبُوت[٢] بثلاثة أيام.

٤ ـ ومنها خميس الأربعين، ويسمّيه الشاميّون السُّلَّاق[٣]، وهو الثاني والأربعون من الفِطْر. يزعمون أن المسيح عليه السلام تَسَلَّق فيه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس.

٥ ـ ومنها عيد الخميس، وهو العُنْصُرة يُعمل بعد خمسين يومًا من يوم القيام، يقولون: إن روح القدس حلّت بالتلاميذ، وتفرّقت عليهم ألسنة الناس، فتكلّموا بجميع الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذي تكلّم به يدعوهم إلى دين المسيح.

٦ ـ ومنها الميلاد، وهو اليوم الذي وُلد فيه المسيح. يقولون: إنه ولد في يوم الاثنين فيجعلون عشيّة الأحد ليلة الميلاد، وهم يوقدون فيه المصابيح بالكنائس ويزيّنونها، ويعمل في التاسع والعشرين من كيهك من شهورهم.

٧ ـ ومنها الغطاس، ويعمل في الحادي عشر من طوبة من شهورهم. ويقولون: إن يحيى بن زكريا، وينعتونه بالمعمدان، غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأُرْدُنّ، ويزعمون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتّصل به روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم في الماء فيه، ووقته شديد البرد.

وأما الأعياد الصغار:

١ ـ فمنها الختان، ويعمل في سادس بؤونة، ويقولون: إن المسيح ختن في هذا اليوم، وهو الثامن من الميلاد.

---

(١) صهيون: قيل هي بيت المقدس، وقال ياقوت: موضع معروف بالبيت المقدس أو محلّة فيها كنيسة صهيون. «انظر معجم البلدان ٣/ ٤٣٦».

(٢) الصّلبوت: الصلب.

(٣) في الأصل: السُّلاقي، وفي القاموس: وكرّمان عيد للنصارى، وفي صبح الأعشى: «السُّلَّاق» بغير ياء على الصّواب «٢/ ٤٥٤».

٢ ـ ومنها الأربعون، وهو عند دخول الهيكل. يقولون: إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أُمّه [الهيكل](١) وبارك عليه، ويعمل في ثامن أمشير من شهورهم.

٣ ـ ومنها خميس العهد، ويعمل قبل الفِصْح بثلاثة أيام، وسُنَّتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماءً ويزمزموا(٢) عليه، ثم يغسل البطريك(٣) به أرجل سائر الناس. ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل مثل هذا بتلاميذه في مثل هذا اليوم، يعلّمهم التواضع، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض. وعوامّ النصارى يسمّون هذا الخميس خميس العَدَس، وهم يطبخون فيه العدس المقشور على ألوان، ويسمّيه أهل الشام خميس الأرز، ومنها خميس البيض أيضًا، ويسمّيه أهل الأنْدَلُس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم.

٤ ـ ومنها سَبْت النُّور، وهو قبل الفِصح بيوم. يقولون: إن النور يظهر على مَقْبُرة المسيح في هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس، وليس كذلك، بل هو من تخييلاتٍ فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم. وقيل: إنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح، ويتحيّلون في إيصال النار إليها بأن يمدّوا على سائرها شريطًا من حديد في غاية الدقّة، يدهنونه بدُهْن البَلَسان(٤) ودهن الزَّنْبق(٥)، فإذا صلَّوْا، وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح، فدخل الناس إليه، وقد أُشْعِلت فيه الشموع. ويتوصّل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار، فتسري عليه، فتقِدُ القناديل واحدًا بعد واحد بسبب الدّهن.

٥ ـ ومنها حدّ الحُدُود، وهو بعد الفِصْح بثمانية أيّام، يعمل أوّل أحد بعد الفطر؛ لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم، وفيه يجدّدون الآلات، والأثاث، واللّباس، ويأخذون في المعاملات، والأُمور الدُّنيوية.

(١) ما بين قوسين زيادة من «صبح الأعشى ٢/ ٤٥٦».
(٢) يزمزموا: يرطنوا بكلماتٍ غير مفهومة.
(٣) البطريك: أو البطريرك: رئيس رؤساء الأساقفة عند النّصارى.
(٤) البلسان: شجر له زهرٌ أبيض صغير كهيئة العناقيد، ويستخرج من بعض أنواعه دهن عطر.
(٥) الزّنبق: نبات له هرٌ جميلٌ طيّب الرّائحة، ألوانه متعدّدة وأشهرها الأبيض، والزّنبق: دُهن الياسمين.

٦ ـ ومنها التجلّي، يقولون: إن المسيح عليه السلام تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِع، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضِر لهم إيليا(١)، وموسى، فأحضرهما لهم في مصلّى بيت المقدس، ثم صعد، ويعمل في ثالث عشر مسرى من شهورهم.

٧ ـ وعيد الصّليب، وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية، وبنى كنيسة قسطنطينية العظمى، وسائر كنائس الشام.

وسبب ذلك ـ على ما نقله المؤرّخون ـ أنه كان مجاورًا للبُرْجان(٢)، فضاق بهم ذَرْعًا من كثرة غاراتهم على بلاده، فهمّ أن يصانعهم، ويقرّر لهم عليه إتاوة(٣) في كل عام ليكفُّوا عنه. فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فحاربت البُرْجان فهزموهم، فلما أصبح، عمل أعلامًا وصوّر فيها صلبانًا، ثم قاتل بها البرجان فهزمهم.

وقيل: إنه رأى في المنام صلبانًا من نور في السماء، وقائلًا يقول له: اعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر. فلما أصبح، أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤوس أعلامه وقاتل بها فنُصِر، فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدُّخول في دين النصرانية، وأن يقصّوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم. وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبلُ يأمرونهم بالتعبّد بدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومَثَّلُوا بهم هذه المثلةَ(٤) نَكَالًا بهم، ففعلوا ذلك تأسِّيًا بهم.

ولما تنصَّر قسطنطين، خرجت أمه هيلاني إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح، على ما يزعمون، وكانت مدفونة في مزبلة، فأُخرجتْ منها، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُمِلَتْ إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها، واتّخذت يوم رؤيتها لها عيدًا.

قال المسعوديّ: وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط، وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذي وجدت فيه الخشبة ثلاثمائة وثمان وعشرون سنة.

---

(١) إيليّا: مار الياس عند الطوائف المسيحية.

(٢) البرجان: جنس من الرّوم. «القاموس ١/ ١٨٥، وانظر صبح الأعشى ٢/ ٤٥٧».

(٣) الإتاوة: الضريبة.

(٤) المثلة: العقوبة والتنكيل، والآفة.

وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الروم في فنّ التاريخ، وهو في الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب.

٤ ـ ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توراتهم خمسة:

١ ـ منها عيد رأس السنة: ويسمّونه رأس هيشا، أي عيد رأس الشهر، وهو أوّل يوم من تشرين. ينزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا. ويقولون: إن الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم بذبح إسحٰق ابنه عليهما السلام فيه، وفداه بذبح عظيم.

٢ ـ ومنها عيد صوماريا: ويسمّى الكبور، وهو عندهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم، ويقتل من لم يصمه. ومدّة الصوم خمس وعشرون ساعة، يبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين، ويختم بمضيّ ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر. ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار، وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام. ولا يجوز أن يقع عندهم في يوم الأحد، ولا يوم الثلاثاء، ولا في يوم الجمعة. ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم، إلا الزنا بالمُحْصَنات، وظلم الرجل أخاه، وجحد ربوبية الله تعالى.

٣ ـ ومنها عيد المِظَلّة: وهو ثمانية[١] أيام، أوّلها الخامس عشر من تشرين، وكلها أعياد، واليوم الأخير منها يسمّى عرابًا[٢]، وتفسيره شجر الخلاف، وهو أيضًا حجّ لهم، وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون والخلاف[٣]، وسائر الشجر الذي لا ينتشر ورقه على الأرض، ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالى إيّاهم في التّيه[٤] بالغمام.

٤ ـ ومنها عيد الفطير: ويسمّونه الفِصْح، ويكون في الخامس عشر من نَيْسَان، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير؛ لأنها عندهم الأيام التي خلص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التّيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير، وهم بذلك فَرِحُون، وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون.

---

(١) في صبح الأعشى: سبعة أيام «٢/ ٤٦٤».

(٢) في صبح الأعشى: عرايا «٢/ ٤٦٤».

(٣) الخلاف: شجر الصفصاف.

(٤) التّيه: الذّهاب في الأرض تحيّرًا، الضّلال فيها.

٥ ـ ومنها عيد الأسابيع: وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمل فيها الدّين. ويسمّى عيد العنصرة، وعيد الخطاب. ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. يقولون: إنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طور سينا[١]، وإن من جملة ما خُوطبوا به العشر كلمات، وهي وصايا تتضمن أمرًا ونهيًا؛ وهو: من حجوجهم، وحجوجهم ثلاثة: الأسابيع، والفطير، والمظلّة؛ وهم يعظّمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلًا عن المنّ[٢] الذي أُنزل عليهم في هذا اليوم، على ما يزعمون، واتّخاذهم لهذا العيد في اليوم السادس من سيوان.

٦ ـ وعيد الفوز: وهو عيد أحدثوه، ويسمّونه الفوريم، وذكروا في سبب اتخاذهم له أن بختنصر[٣] لما أجلى من كان ببيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم مدينة جَيّ، وهي إحدى مدينتي أصفَهَان، فلما ملك أردشير بن بابك، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمّونه بلغتهم هيمون، ولليهود يومئذ حَبْرٌ[٤] يسمّى بلغتهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عَمٍّ جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها، فطلب تزويجها منه، فأجابه إلى ذلك، فتزوّجها، وحظيت عنده، وصار مردوخاي قريبًا منه. فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدًا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتّب مع نوّاب الملك في سائر الأعمال أن يقتل كلٌّ واحد منهم من يعلمه من اليهود، وعيّن لهم يومًا وهو النصف من آذار، وإنما خصّ هذا اليوم دون غيره؛ لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام وُلد فيه، وتوفّي فيه. وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم، وبموت موسى عليه السلام.

فبلغ مردوخاي ذلك، فأرسل إلى ابنة عمه يُعْلِمُها بما بلغه، ويحضّها على إعمال الحيلة في خلاصهم. فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله على ذلك الحسد، لقرب مردوخاي منه، فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أمان لليهود؛ فاتّخذوه عيدًا، واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام.

---

(١) طور سينا: قال الليث: طور سيناء جبل، وقال أبو إسحٰق: قيل: إن سيناء حجارة والله أعلم، اسم المكان، وهو اسم جبل قرب أيلة وعنده بليد فتح في زمن النبي. «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٨».

(٢) المنّ: طلٌّ ينزل من السّماء على شجر أو حجر ينعقد ويجفّ، وهو حلوٌ يؤكل.

(٣) بختنصر: أحد ملوك الطبقة الرابعة من الفرس، أقام ببابل سبعًا وخمسين سنة وشهرًا إلى أن مات. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥».

(٤) الحبر: رئيس الكهنة عند اليهود.

وهذا العيد عندهم عيد سرور، ولهو، وخَلَاعة، وهدايا يهديها بعضهم لبعض، ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون، ويملؤون بطن الصورة نخالة ويلقونها في النار حتى تحترق.

٧ ـ وعيد الحنكة، وهو أيضًا مما أحدثوه، وهو ثمانية أيام، أوّلها ليلة الخامس والعشرين من كسلا، وهم يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سرجًا، وفي الثانية سراجين، ويَضْعُف ذلك في كل ليلة إلى ثماني ليال، فيكون في الثامنة ثمانية سُرُج.

وسبب اتخاذهم لهذا العيد، أن بعض الجبابرة تغلّب على البيت المقدّس وقتل من كان فيه من بني إسرائيل، وافتضَّ أبكارهم[١]، فوثب عليه أولاد كاهنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم؛ فطلب اليهود زيتًا لوقود الهيكل[٢] فلم يجدوا إلا يسيرًا، وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى ثمان ليال، فاتّخذوا هذه الأيام عيدًا وسمّوه الحنكة، وهو مشتقّ من التنظيف؛ لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار.

(١) افتضّ أبكارهم: أي استباح حرمات بناتهم، والبكر: الفتاة التي لم تتزوّج بعد.
(٢) الهيكل: الكنيسة، أو الموضع الذي تقدّم فيه الذّبائح والقرابين.

القسم الرابع
من الفن الأوّل
في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول
من هذا القسم

١ - في مبدأ خلق الأرض

قال الله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: الآية ٦١].

والأرض سبع، كما أن السمٰوات سبع. والدّليل على ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: الآية ١٢].

واختلف فيها هل هي سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟ فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبْعَ سمٰوات متطابقات متعاليات، وسَبْعَ أرضين متطابقات متسافلات؛ وبين كل أرض وأرض، كما بين كل سماء وسماء، خمسمائة عام. وفُسر بهذا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣٠]، أي كانت سماء واحدة ففتقناهما سبعًا.

قيل: ولكل أرض أهل وسُكّان مختلفو الصور والهيئات، ولكل أرض اسمٌ خاص.

وذهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرّقات لا متطابقات، فجعلوا الصّين أرضًا، وخراسان أرضًا، والسّند والهند أرضًا، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب أرضًا، والجزيرة والشام وبلاد إرْمينِيَّة أرضًا، ومصر وإفْريقيَّة أرضًا،

وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلالِقة[١] والأنْكَبُرْدَة[٢] وسائر طوائف الروم أرضًا.

ويقال: إنها كانت على ماء، والماء على صخرة، والصخرة على سَنَام ثور، والثور على كمكم[٣]، والكمكم على ظهر حوت، والحوت على الماء، والماء على الريح، والريح على حجاب ظلمة، والظلمة على الثرى، وإلى الثرى انقطع علم المخلوقين.

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه: الآية ٦].

وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرةً، وتحت الصخرة الحوت، وتحت الحوت الماء، وتحت الماء الظلمة، وتحت الظلمة الهواء، وتحت الهواء الثرى.

وقد تقدّم في الباب الأوّل من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزَّبَد، فلا فائدة في تكراره.

الباب الثاني
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، في الاتّساع، والاستواء، والبعد والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة[٤]، والارتفاع، والانخفاض، وغير ذلك

قال الثعالبيّ في كتابه المُتَرْجَم بـ «فقه اللغة» وأسنده إلى أئمّة اللغة:

---

(١) الجلالقة: جليقية هي غاليسيا، والجلالقة ينسبون إليها، وقد غزا ملكهم ابن الأدفونش بلاد الأندلس. «انظر صبح الأعشى ٥/ ٢٤٩ و٣٩١».

(٢) الأنكبردة: لعلهم الأنبردية، وهم طائفة مشهورة من الفرنج، قال في تقويم البلدان: وهي ناحية من الأرض الكبيرة وتحيط بها الجبال إلى حدّ جنوة. «انظر صبح الأعشى ٥/ ٣٩٢».

(٣) الكمكم: كذا بالأصل، وفي اللّسان مادة كمم: الكمكام: أي الرجل الغليظ الكثير اللحم.

(٤) الحزونة: الأرض الغليظة.

إذا اتَّسعت الأرض ولم يتخلّلها شجر أو خَمَر[١]، فهي الفَضَاءُ والبَرَازُ والبَرَاحُ، ثم الصَّحْراءُ، والعَرَاءُ، ثم الرَّهَاءُ والجَهْرَاءُ.

فإذا كانت مستوية مع الاتّساع، فهي الخَبْتُ والجَدَدُ، ثم الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ، ثم القَاعُ والقَرْقَرُ، ثم القَرِقُ والصَّفْصَفُ.

فإذا كانت مع الاستواء والاتّساع بعيدة الأكْنَاف والأطراف، فهي السَّهْب والخَرْقُ، ثم السَّبْسَبُ والسَّمْلَقُ والمَلَق.

فإذا كانت مع الاتّساع والاستواء والبُعْد لا ماء فيها، فهي الفَلَاةُ والمَهْمَهُ، ثم التَّنُوفَةُ والفَيْفَاءُ، ثم النَّفْنَفُ والصَّرْمَاءُ.

فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدى فيها لطريق، فهي اليَهْمَاءُ والغَطْشاء.

فإذا كانت تُضِلُّ سالكَها، فهي المُضِلَّةُ والمَتِيهَةُ.

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهي المَجْهَلُ والهَوْجَلُ.

فإذا لم يكن بها أثر، فهي الغُفْلُ.

فإذا كانت فَقْرَاءُ، فهي القِيُّ.

فإذا كانت تُبِيدُ[٢] سالكَها، فهي البَيْداءُ، والمَفَازَةُ[٣] كنايةٌ عنها.

فإذا لم يكن فيها شيء من النَّبْت، فهي المَرْتُ والمَلِيعُ.

فإذا لم يكن فيها شيء، فهي المَرَوْرَاةُ والسُّبْرُوتُ والبَلْقَعُ.

فإذا كانت الأرض غليظةً صُلْبةً، فهي الجَبُوبُ، ثم الجَلَدُ، ثم العَزَازُ، ثم الصَّيْداء، ثم الجَدْجَدُ.

فإذا كانت صُلْبةً يابسة من غير حصًى، فهي الكَلَدُ، ثم الجَعْجَاعُ.

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل، فهي البُرْقَةُ والأَبْرَقُ.

فإذا كانت ذات حصًى، فهي المَحْصَاةُ والمَحْصَبةُ.

فإذا كانت كثيرة الحصى، فهي الأَمْعَزُ والمَعْزَاءُ.

---

(١) الخَمَرُ: ما يواري الشيء من شجر أو بناءٍ أو جبل أو نحوه.

(٢) تبيد: تهلِك وتفني.

(٣) المفازة: من الأضداد، وهي الأرض المهلكة، وسمّيت مفازة على طريق التفاؤل بالنّجاة.

فإذا اشتملت عليها كلّها حجارة سودٌ، فهي الحرَّة واللّابَةُ.

فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكينُ، فهي الحَزِيزُ.

فإذا كانت الأرض مطمئنة[١]، فهي الجَوْفُ والغَائِطُ، ثم الهَجْلُ والهَضْمُ.

فإذا كانت مرتفعة، فهي النَّجْد والنَّشْزُ.

فإذا جمعت الأرض الارتفاع والصَّلَابة والغلَظ، فهي المَتْنُ والصَّمْدُ، ثم القُفُّ والفَدْفَدُ والقَرْدَدُ.

فإذا كان ارتفاعها مع اتّساع، فهي اليَفَاعُ.

فإذا كان طولها في السماء مثل البيت، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع، فهي التَّلُّ، وأطول وأعرض منها الرَّبْوَةُ والرَّابِيَةُ، ثم الأَكَمَةُ، ثم الزُّبْيَةُ، وهي التي لا يعلوها الماء. وبها ضُرب المثل في قولهم: «بلغ السيل الزُّبى»[٢]، ثم النَّجْوَةُ، وهي المكان الذي تظن أنه نجاؤك، ثم الصَّمَّانُ، وهي الأرض الغليظة دون الجبل.

فإذا ارتفعت عن موضع السيل وانحدرت عن غِلَظِ الجَبَل، فهي الخَيْفُ.

فإذا كانت الأرض ليّنة سهلة من غير رَمْل، فهي الرَّقَاقُ والبَرْثُ، ثم المَيْثَاءُ والدَّمِثَةُ.

فإذا كانت طيّبة التربة كريمة المَنْبِت بعيدة عن الأَحْسَاء[٣] والنُّزُور[٤]، فهي العَذَاةُ.

فإذا كانت مخيلة[٥] للنبت والخير، فهي الأَرِيضَةُ.

فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شيء يختلط بها، فهي القَرَاحُ والقِرْوَاحُ.

فإذا كانت مهيّأة للزراعة، فهي الحَقْلُ والمَشَارَةُ والدَّبْرَةُ.

[فإذا لم تهيأ للزراعة، فهي بُوْرٌ][٦].

---

(١) الأرض المطمئنة: التي فيها انخفاض وهبوط.

(٢) الزُّبى: حُفَر للأسد في المكان العالي، «تقدّم المثل وشرحه».

(٣) الأحساء: هو الماء الذي تنشفه الأرض من الرّمل، فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر العرب الرمل عنه، وتستخرجه.

(٤) النّزور: ما يتحلب أو يسيل من الماء على الأرض.

(٥) المخيلة: الظنّ.

(٦) الزيادة من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٣، ٢٩٤، دار الكتب لعلميّة.

فإذا لم يصبها المطر، فهي الفَلُّ والجُرُزُ.

فإذا كانت غير ممطورة وهي بين أرضين ممطورتين، فهي الخَطِيطة.

فإذا كانت ذات ندًى ووَخَامَة[١]، فهي الغَمِقَةُ.

فإذا كانت ذات سِباخ[٢]، فهي السَّبْخَةُ.

فإذا كانت ذات وباء، فهي الوَبِئَةُ والوَبِيئَةُ.

فإذا كانت كثيرة الشجر، فهي الشَّجْرَاءُ والشَّجِرَةُ.

فإذا كانت ذات حَيّات، فهي المُحَوَّاةُ[٣].

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهي المَسْبَعَةُ والمَذْأَبَةُ.

٢ ـ ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

قال الثعالبي رحمه الله تعالى:

الصَّعِيد، تراب وجه الأرض.

والبَوْغَاءُ، والدَّقْعَاءُ، التراب الرّخو الرقيق الذي كأنه ذَرِيرَةٌ[٤].

والثَّرى، التراب النَّدِيّ: وهو كل تراب لا يصير طينًا لَازِبًا[٥] إذا بُلَّ.

المُورُ، التراب الذي تَمُورُ[٦] به الريح.

الهَبَاءُ، التراب الذي تُطَيِّره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم [يَلْزَق لُزُوقًا][٧].

[والهَابِي، الذي دقَّ وارتفع][٨].

السَّافِياءُ، التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح.

النَّبِيثَةُ، التراب الذي يُخْرَجُ من البئر عند حفرها.

---

(١) الوخامة: أي الأرض الوخمة التي لا ينجح كلؤها ولا توافق ساكنها.

(٢) السّباخ: آي السبخة وهي أرض ذاتُ ملح ونزّ، لا تكاد تنبت.

(٣) كذا ضبط في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٥.

(٤) الذريرة: فتاة من قصب الطيب يجاءُ به من الهند، أو هي ما أُنتج من ذلك القصب. «انظر اللّسان مادة ذرر».

(٥) اللّازب: من الطين: إذا لصق وتماسك. (٦) تمور: تسري به الريح وتحرّكه.

(٧) الزيادة من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٦.

(٨) الزيادة من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٦ «عن الكسائي».

الرَّاهِطَاءُ والدَّامَّاء، التراب الذي يُخرجه اليربوع[١] من جُحْرِهِ ويجمعه.

الجُرْثُومَةُ، التراب الذي يجمعه النمل عند قريته.

العَفَاءُ، التراب الذي يُعَفِّي الآثار، وكذلك العَفَرُ.

الرَّغَامُ، التراب المختلط بالرمل.

السَّمَادُ، التراب الذي يُسَمَّدُ به النبات، فإذا كان مع السِّرْقين[٢]، فهو الدَّمَالُ.

٣ ـ ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

النَّقْعُ والعَكُوبُ، الغبار الذي يَثُور من حوافر الخيل وأَخْفاف الإبل.

العَجَاج، الغبار الذي تُثيره الريح.

الرَّهَجُ والقَسْطَلُ، غبار الحرب.

الخَيْضَعَةُ، غبار المَعْرَكَةِ.

العِثْيَرُ، غبار الأقدام.

المَنِينُ ما تقطَّع منه.

٤ ـ ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال:

إذا كان الطين حُرًّا يابسًا، فهو الصَّلْصَالُ.

فإذا كان مطبوخًا، فهو الفَخَّارُ.

فإذا كان عَلِكًا[٣] لاصقًا، فهو اللَّازِبُ.

فإذا غَيَّره الماء وأفسده، فهو الحَمَأ.

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة).

فإذا كان رطبًا، فهو الثَّأْطَةُ والثُّرْمُطَةُ والطَّثْرَة.

فإذا كان رقيقًا، فهو الرَّدَاغُ.

---

(١) اليربوع: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير، وله ذنب طويل، ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين، طويول الرّجلين.

(٢) السّرقين: السّرجين: الزّبل.

(٣) العلك: الطري اللاصق، اللّزج.

فإذا كان تَرْتَطِم فيه الدواب، فهو الوَحَلُ. وأشدّ منه الرَّدَغَة والرَّزَغَةُ. وأشدّ منها الوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدِر على التخلُّص منها؛ ثم صارت مثلًا لكلّ شِدّة يقع فيها الإنسان.

فإذا كان حُرًّا طيبًا عَلِكًا وفيه خضرة، فهو الغَضْراءُ.

فإذا كان مخلوطًا بالتبن، فهو السَّيَاعُ.

فإذا جُعِل بين اللَّبِن[1]، فهو المِلَاط.

٥ ـ ذكر تفصيل أسماء الرّمال

قال:

العَدَابُ، ما استرقّ[2] من الرمل.

الحَبْلُ، ما استطال منه.

اللَّبَبُ، ما انحدر منه.

الحِقْفُ، ما اعْوَجَّ منه.

الدِّعْصُ، ما استدار منه.

العَقِدَةُ، ما تعقَّد منه.

العَقَنْقَلُ، ما تراكم منه.

السِّقْطُ، ما جَعَل يتقطَّع ويتّصل منه.

النُّبْهُورَةُ، ما أشرف منه.

التَّيْهُورُ، ما اطمأنّ منه.

الشَّقِيقَة، ما انقطع وغَلُظَ منه.

الكَثِيبُ والنَّقَا، ما احْدَوْدَبَ وانهال منه.

العَاقِرُ، ما لا يُنْبِت شيئًا منه.

الهِدَمْلَةُ، ما كثر شجره منه.

---

(١) اللّبن: المضروب من الطين للبناء.

(٢) في الأصل: ما اشتدّ، ولكن الذي في القاموس وفقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٩ (ما استرقّ).

الأَوْعَسُ، ما سَهُل ولانَ منه.

الرَّغَامُ، ما لان منه، وليس هو الذي يسيل من اليد.

الهَيَامُ، ما لا يتمالك أن يُمْسك باليد منه للينه.

الدَّكْدَاكُ، ما التبد بالأرض منه.

العَانِكُ، ما تعقَّد منه حتى لا يقدِر البعير على المسير فيه.

٦ ـ ذكر ترتيب كمية الرمل

قال الثعالبيّ:

الكثير يقال له: العَقَنْقَلُ.

فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ.

فإذا نقص، فهو عَوْكَلٌ.

فإذا نقص عنه، فهو سِقْطٌ.

فإذا نقص عنه، فهو عَدَابٌ.

فإذا نقص، فهو لَبَبٌ.

وقال في كتابه «الغريب»(١):

إذا كانت الرملة مجتمعة، فهي العَوْكَلَةُ.

فإذا انبسطت وطالت، فهي الكَثِيبُ.

فإذا انتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرّياح وبقي منه شيء رقيق، فهو اللَّبَبُ.

فإذا نقص، فهو العَدَابُ.

٧ ـ ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال الثعالبيّ:

المِرصاد والنَّجْدُ، الطريق الواضح؛ وكذلك الصِّراطُ.

والجادّة والمَنْهَجُ واللَّقَمُ والمَحَجَّةُ، وسَطُ الطريق ومُعْظمه.

---

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبي، وإنّما هو كتاب «الغريب المصنّف» لأبي عمرو الشيباني، الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصريّة.

واللَّاحِبُ، الطريق المُوَطَّأ.

المَهْيَعُ، الطريق الواسع.

الوَهْمُ، الطريق الذي يَرِدُ فيه الموارد.

الشَّارعُ، الطريق الأعظم.

النَّقْبُ والشِّعْبُ، الطريق في الجبل.

الخَلُّ، الطريق في الرمل.

المَخْرَفُ، الطريق في الأشجار؛ ومنه الحديث: «عائدُ المريضِ في مَخَارِفِ الجنّة».

النَّيْسَبُ، الطريق المستقيم؛ وقيل: إنه الطريق المستدقّ الواضح، كطريق النمل والحية وحمر الوحش.

والله أعلم.

الباب الثالث
من القسم الرابع من الفن الأوّل
في طول الأرض ومسافتها

ذهب المتكلّمون في ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام: ثُلُثٌ عمران، وثُلُثٌ خراب، وثُلُثٌ بِحَار؛ وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة: تسعون منها ليأجوج ومأْجوج[1]، واثنا عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأُمم.

وقيل: إن الدّنيا سبعة أجزاء: ستة منها ليأْجوج ومأْجوج، وواحدٌ لسائر الناس.

وقيل: إن الأرض خمسمائة عام: البحار منها ثلاثمائة، ومائة خراب، ومائة عمران.

وقيل: إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ: للسودان منها اثنا عشر ألفًا، وللروم ثمانية آلاف فرسخ، ولفارس ثلاثة آلاف، وللعرب ألفٌ.

---

(١) يأجوج ومأجوج: قومٌ ذكرهم القرآن الكريم.

وقال وهب بن منبه: ما العمارة من الدنيا في الخراب إلا كفُسْطاط[١] في الصحراء.

وقال أردشير بن بابك[٢]: إن الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك، وجزء للعرب، وجزء للفُرْس، وجزء للسُّودان.

وقيل: إنّ الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحي خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق[٣] مائتا ألف وستّة وخمسون ألفًا.

وقال الخُوَارَزْميّ[٤] صاحب الزيج[٥]: دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سُدُس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار. والباقي خراب يَبَاب لا نباتَ فيه ولا حيوانَ.

ومثّل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسّند، والجناح الأيسر الخزر، وصدره مكّة والعراق والشام ومصر، وذَنَبه الغرب.

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلًا، وأن دَوْرها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل. وذلك جميع ما أحاطت به من برٍّ وبحر.

وإنما علم ذلك وحرّر من عبد الله المأمون، وذلك أنّه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدّمون من مقدار الأرضِ بعث جماعة من أهل الخِبرة بالحساب والنجوم - منهم عليّ بن عيسى[٦] - إلى بَرِّيةِ سِنجَار[٧]، وتفرّقوا من هناك؛ فذهب بعضهم إلى جهة

(١) الفسطاط: بيت يُتخذ من الشعر.

(٢) هو أردشير بن بابك، ويلقب بساسان الأصغر، وهو أوّل من جمع أمّة الفرس بعدما تفرقت على يد الإسكندر، وكان مقر ملكه مدينة اصطخر. «انظر إعجام الأعلام ص ٦٢ دار الكتب العلمية».

(٣) الرساتيق: واحده الرستاق، فارسيّ معرّب، وقال ابن السّكيت: سِداق ورُزداق، ولا تقل رستاق، والرّساتيق: وهي السّواد من الأرض.

(٤) الخوارزمي: هو محمّد بن موسى بن شاكر، أبو عبد الله، عالم بالهندسة والحكمة والموسيقى والنّجوم. «فهرس الأعلام ٧/ ١١٦، ١١٧».

(٥) الزّيج: في علم الفلك: جدول يدلُّ على حركة الكواكب، ومنه يستخرج التقويم.

(٦) لعلّه عليّ بن عيسى وزير المقتدر العباسي والقادر، وهو أحد العلماء والرؤساء من أهل بغداد، فارسي الأصل توفي سنة ٩٤٦ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٧».

(٧) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، وهي في لحف جبل عال، قيل: إن سفينة نوح عليه السّلام مرّت به فنطحته، فقال: هذا سنّ جبل جار علينا فسُمّيت سنجار. «معجم البلدان ٣/ ٢٦٢».

القطب الشماليّ، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبيّ، وسار كل منهم في جهته إلى أن وصل غاية ارتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغيّر عن الموضع الذي اجتمعوا فيه وتفرّقوا منه، مقدار درجة واحدة؛ وكانوا قد ذرعوا[(١)] الطريق في ذهابهم، فنصبوا السّهام، ووتدوا الأوتاد، وشدّوا الحبال، ثم رجعوا وامتحنوا الذرع ثانية، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت[(٢)] وجه بسيط الأرض ستّة وخمسين ميلًا وثلثي ميل. (والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع ستّ قبضات، والقبضة أربع أصابع، والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلى بعض، والشعيرة ست شعرات من شعر الخليل). فضربت هذه الأميال في جميع درجات الفلك، وهي ثلثمائة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل. فحكم بأن ذلك دور الأرض.

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخيّ[(٣)]: مسافة طول الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المَغْرِب نحو من أربعمائة مَرْحَلة، ومسافة عرضها من حيث العُمْران الذي من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلى حيث العمران الذي من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة؛ وما بين براري يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة.

ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ[(٤)].

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر» رحمه الله.

الباب الرابع
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب إلى المشرق، وعرضه من الجنوب إلى الشمال.

---

(١) ذرعوا الطريق: قاسوها بالذراع. (٢) سامتت: وازت.

(٣) هو أحمد بن سهل البلخي، أبو زيد، أحد كبار الأفذاذ من علماء الإسلام، له مؤلّفات عديدة منها أقسام العلوم، وصور الأقاليم الإسلامية توفي سنة ٩٣٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٣٤».

(٤) الفرسخ: مقياس قدرُهُ نحو ثمانية كيلومترات.

١ ـ فأما الإقليم الأوّل. فمبدؤه من مشرق أرض الصين إلى مدائن أبوابها. وهي الأنهار التي تدخل السفن فيها من البحر إلى المدائن الجليلة، مثل خانقو وخانفور[١]. وفيه جزيرة سرنديب[٢]. ومن أرض اليمن ما كان جنوبيًا من صنعاء، مثل ظَفَارِ وحضرموت وعَدَن. وفيه من بلد التوبة دُنْقُلَة؛ ومن بلد السودان غَانَة. ثم ينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من خط الاستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة.

وذهب بعض الناس إلى أن أوّل المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء ثنتي عشرة درجة ونصف وربع درجة، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عِداد الوحوش والبهائم. وعدّ فيه بَطْلَيْمُوس[٣] من البلاد ذوات العروض ستين مدينة. وأهل هذا الإقليم سود، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه.

٢ ـ وأما الإقليم الثاني. فيبتدىء من بلاد الصين، ويمرّ على بعض بلاد الهند الساحلية، مثل تانة[٤]، وصَيْمُور، وسَنْدَان؛ ومن بلاد السند على المَنْصُورة ودَيْبُل، ثم يبلغ عُمَان. ويكون فيه من أرض العرب: نَجْران، وهَجَر، وجَنَّابة[٥]، ومَهَرَة، وسَبَأ، وتَبَالَة[٦]، والطائف، وجُدَّة، ومَكَّة، والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البُجة[٧]، وأُسْوان، وقوص، والصعيد الأعلى، وجنوب بلاد المغرب حتَّى ينتهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الأوّل إلى سبع وعشرين درجة واثنتي عشرة دقيقة.

وزعم بَطْلَيْمُوس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة. وأهله بين السمرة والسواد، وهو كثير الذهب.

---

(١) كذا بالأصل، والصواب: «خانجو» عن كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفدا.

(٢) سرنديب: هي جزير عظيمة في بحر هركند بأقصى الهند، وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السّلام. «معجم البلدان ٣/ ٢١٦».

(٣) هو بطليموس صاحب علم الفلك، وهو الذي ألّف كتاب المجسطي. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٧٧».

(٤) اسم لمدينة ببلاد الهند، قال البيروني: هي على السّاحل والنسبة إلهيا «تانَشى» ومنها الثياب التانشية. «انظر تقويم البلدان».

(٥) جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس، وهي في الإقليم الثالث. «معجم البلدان ٢/ ١٦٦».

(٦) موضع ببلاد اليمن، وتبالة الحجاج: بلدة مشهورة من أرض تهامة. «معجم البلدان ٢/ ٩».

(٧) البجّة: يقول ياقوت: هي مدينة بين فارس وأصبهان. «معجم البلدان ١/ ٣٤٠».

٣ ـ وأما الإقليم الثالث. فمبدؤه من شرق أرض الصين، وفيه مدينة مملكتها، حمدان[١]؛ وفيه من بلاد الهند تانش والقُنْدُهَار، ومن ببلاد السند المُولْتَان وقُزْدَار[٢]. ثم يمرّ ببلاد سِجِسْتَان، وكَرْمَان، وفارس، وأصْبَهان، والأهواز، والبصرة، والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشام، وفِلَسْطِين، وبيت المقدس. والقُلْزُم، والتِّيه، وأرض مصر، والإسكندرية، وبلاد بَرْقَة، وإفْرِيقِيَّة، وتَاهَرْت[٣]، وبلاد طَنْجَة، والسُّوس، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه تسعًا وخمسين مدينة، وأهله سمر.

٤ ـ وأما الإقليم الرابع. فمبدؤه من أرض الصين، ويمرّ على التُّبَّت[٤] والحتن[٥]، ثم على جبال قِشْمِير، ووخان[٦]، وتل حسان، وكَابُل، والغُور، وهَرَاة، وبَلْخ، وطَخَارِسْتَان؛ ويمتدّ إلى الريّ، وقُمّ، وهَمَذان، وحُلوان[٧]، وبغداد، والموصل، وأَذْرَبِيجَان، ويمتدّ على مَنْبِج، وطَرَسُوس، والثغور، وأَنْطَاكِيَة، وجزيرة قُبْرُس، وصِقِلِّيَّة، ثم على الزُّقاق إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة. وأهله بين السمرة والبياض.

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلّ المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم خمدان ببلاد الصّين.

(٢) في الأصل كرورا، وهو تحريف، وقزدار، من نواحي الهند ويقال لها «قصدار» أيضًا. «انظر معجم البلدان ٤/ ٣٤١».

(٣) تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، القديمة والمحدثة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٧».

(٤) التبّت: مملكة متاخمة لأرض الصين والهند والترك، وفيها مدن وعمائر كثيرة. «انظر معجم البلدان ٢/ ١٠».

(٥) في ياقوت: خُتن، وهو الصّواب بلد وولاية دون كاشغر من بلاد تركستان. «معجم البلدان ٢/ ٣٤٧».

(٦) لعلّها وخّاب، بلد وراء بلاد الخُتّل، وهي للترك، يقع فيها المسك والرقيق. «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٦٤».

(٧) هي حلوان العراق، في آخر حدود السّواد ممّا يلي الجبال من بغداد، قيل: إنها سُمّيت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، كان بعض الملوك أقطعه إيّاها. «معجم البلدان ٢/ ٢٩٠».

٥ ـ وأما الإقليم الخامس. فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج إلى كَاشْغر، وبَلاسَاغُون، وفَرْغَانة، وإسْبيجَاب[١]، والشَّاش، وأُشْرُوَسَنة، وسَمَرْقَنْد، وبُخارىٰ، وخُوَارَزْم، وبحر الخزر[٢] إلى باب الأبواب، وبَرْذَعَة، ومَيَّافَارِقِين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمرّ على رُومِيَة الكبرى، وأرض الجَلَالِقَة[٣]، وبلاد الأَنْدَلُس؛ وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثماني عشرة دقيقة.

وذكر بطليموس أن فيه سبعًا وتسعين مدينة. وأكثرأهله بيض.

٦ ـ وأما الإقليم السادس. فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكَيْمَاك، والتُّغُزْغُر، ثم على بلاد الخُوز من شمال تخومها، والَّلانِ، والسَّرير، وأرض بَرْجَان، ثم على قُسْطَنْطِينِيَّة، وأَفْرَنْجَة[٤]، وشمال الأَنْدَلُس؛ وينتهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه ثلاثًا وثلاثين مدينة، وهو كثير الأعداد والثلوج. وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور.

٧ ـ وأما الإقليم السابع. فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو في المشرق غياض[٥] وجبال يأوي إليها طوائف من الترك كالمتوحشين. ويمرّ على بلاد البَجَنَاك[٦]، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم السادسي إلى تتمة خمسين درجة ونصف. وفيه الأرض المحفورة، وهي وَهْدة[٧] لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعد قعرها. يسكنها أُمّة من الناس لا يُدرىٰ مَن هم. وإنما علم أنها معمورة برؤية الدّخان فيها نهارًا، والنار ليلًا. يشقها نهر يجري، والعمارة محيطة به.

---

(١) هي المشهورة أيضًا باسم: اسفيجاب، وموقعها في الإقليم السّادس، وهي من ثغور الترك. «صبح الأعشى ٤/ ٤٤٠».

(٢) الخزر: اسم إقليم من قصبة إتل، وأهله من النصارى والمسلمين. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٦٧ وما بعدها».

(٣) الجلالقة: هم أهل جيليقا، من الإفرنج تقدّم ذكرهم.

(٤) إفرنجا: أي فرنسا.

(٥) الغياض: مفردها: غيضة، وهي الأجمة أو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتفّ.

(٦) البجناك: لعلّهم قوم من الأتراك. (٧) الوهدة: الأرض المنخفضة.

وزعم بطليموس أن فيها ثلاثًا وعشرين مدينة. وأهل هذا الإقليم بيض صهب[١] الشعور.

وما بقي من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه. يسكنه طوائف من الناس، هم بالبهائم في الخَلْق والخُلُق أشبه منهم ببني آدم.

٢ ـ ذكر ما يتمثّل به مما فيه ذكر الأرض

يقال: أحملُ من الأرض. أكتَمُ من الأرض. أصبر من الأرض. آمن من الأرض. أوثق من الأرض. أوطأ من الأرض. أحفظ من الأرض. أكثر من الرمل. أظلم من الرمل. أعطش من الرمل. أوجد من التراب.

ويقال: قتل أرضًا عالِمُها، وقتلت أرضٌ جاهلَها. رماه بين سَمْع الأرض وبَصَرها. أخذت الأرض زخارفها. أَفِقْ قبل أن يُحفَر ثَرَاك. اِبتغوا الرزق في خَبايَا الأرض.

ومن أنصاف الأبيات:

* الأرضُ من تُربةٍ والناسُ من رجُلِ *
* وأنّى تُمْطِرُ الأرضَ السماءَ *

ومن الأبيات: [من السّريع]

والأرضُ لا تُطعِمُ مَنْ فَوْقَها إلا لِكَيْ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهْ

وقال آخر: [من الطويل]

إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنْتَ زارعٌ
من البَذْرِ، فهي الأرضُ. نَاهِيكَ من أرْضِ![٢]

وقال آخر: [من الطويل]

ولا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلا تَوَاضُعًا فَكَمْ تَحتَها قَومٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ!

---

(١) الصُّهب: مفردها أصهب، وهو ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.
(٢) الرّيع: الغلّة والمرجوع، وناهيك: كلمة يتعجّب بها، أي هي أرض تكفيك عن غيرها.

وقال آخر: [من المنسرح]

يـا أرضُ كَـمْ وافِـدٍ أتـاكِ فَـلَمْ يَـرْجِـع إلـى أهْـلِهِ ولـم يَـؤُبِ![١]

٣ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل[٢]: [من الطويل]

وتَـيْـهـاءَ مِـمْـحـالٍ كـأنّ نَـعَـامَـهـا بأرجائها القُصْوى أباعِرُ هُمَّلُ[٣]
تَـرى لامِـعَـاتِ الآلِ فـيـهـا كـأنّـهـا رجـالٌ تَـعـرّىٰ تـارةً وتَـسَـرْبَـلُ[٤]
وجَـوْزَ فَـلاةٍ لا يُـغَـمِّـضُ رَكْـبُـهـا ولا عينُ هادِيها من الخَوْف تَغْفُلُ
وكـلَّ بَـعـيـدِ الـغَـوْر لا يُـهـتـدى لَهُ بِـعـرْفـانِ أعـلام ولا فِـيـهِ مَـنْـهَـلُ
مَـلَاعـب جِـنَّـانٍ كـأنَّ تُـرابَـهـا إذا اطَّردَتْ فيها الرِّياحُ تُغَرْبَلُ[٥]
تَرى الثعْلَبَ الحَوْليَّ فيها كأنَّهُ إذا ما عَلَا نَشْزا حِصَانٌ مُحَجَّلُ[٦]

وقال ذو الرمّة: [من الطويل]

ودَوِّيَّــةٍ جَــرْدَاءَ جَــدَّاءَ خَــيَّــمــتْ بها هَبَواتُ الصَّيْف من كلِّ جانِبِ[٧]
سَبَاريتُ يَخْلُو سَمْعُ مُجتازِها بِهَا من الصَّوْتِ، إلا مِنْ صياحِ الثَّعالِبِ[٨]

وقال ذو الرمّة: [من الوافر]

وهـاجِـرةِ الـسَّـرَابِ مـن الـمَـوَامِـي تَـرقَّـصُ فـي عَـسَـاقـلهـا الأُرُومُ[٩]

---

(١) يؤب: يرجع.
(٢) هو الأخطل الأموي غيّاث بن غوث، من بني تغلب، شاعر نصراني مشهور، له علاقة وطيدة مع الأمويين، وهو واحد من شعراء المثلّث الأموي. «انظر فهرس الأعلام ٥/١٢٣».
(٣) التيهاء: الأرض الواسعة، والصحراء، والأباعر: مفردها بعير، وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل.
(٤) الآل: السّراب، وتسربل: أي ترتدي السِّربال، وهو كلّ ما يلبس من قميصٍ أو نحوه.
(٥) الجنّان: من الجنّ وهو ما يسكن القفار، واطّردت: تتابعت.
(٦) النشز: ما ارتفع من الأرض، والمحجّل: من الخيل ما كان في قوائمه بياض.
(٧) الدويّة: الفلاة القفر، والجداء: اليابسة القحلة، والهبوات: مفردها هبوة وهي الغبرة المرتفعة في الجوّ.
(٨) السّباريت: الأرض التي لا ينبت فيها شيء. «اللسان: مادة سبرت»
(٩) الهاجرة: وقت اشتداد الحرّ من النهار، والموامي: جمع موماة وموماء: وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، والعساقل: واحدها عسقل، وهو جزء من ساق نباتية، أو من جذر نباتي فيه مواد غذائية، والأروم: الأصول من النبت والشجر.

تَـمـوتُ قَـطَـا الـفَـلَاةِ بِـهَـا أُوَامًـا ... ويَـهْـلِكُ في جَـوَانِـبِـهـا النَّسِيمُ[١]

مَـلِلْتُ بـهـا الـمُـقَـامَ فـأرَّقَـتْـنِـي ... هُـمُـومٌ لا تَـنَـامُ ولا تُـنِـيـمُ

وقال ضابىء البرجميّ[٢]: [من الطويل]

ودَاوِيَّـةٍ تِـيـهٍ يَـحَـارُ بِـهَـا الـقَـطَـا ... عَلى من عَلاهَا من ضَلُولٍ وَمُهْتَدي

مُـسَـافِـهَـةٍ لِلْعِـيـسِ نَـاءٍ نِـيَـاطُـهَـا ... إذا سَارَ فِيـهـا رَاكِبٌ لَم يُغَـرِّدِ[٣]

وقال مسلم بن الوليد: [من الطويل]

وقَـاطِعَـةٍ رِجْـلَ الـسَّـبِـيـلِ مَـخُـوفَـةٍ ... كـأنَّ عـلـى أرجـائـهَـا حَـدّ مِـبْـرَدِ

مُـؤَزَّرَةٍ بـالآلِ فـيـهـا كـأنَّـهـا ... رِجـالٌ قُـعُـودٌ في مُلَاءٍ مُـعَـمَّـدِ[٤]

وقال الصاحب بن عباد: [من الطويل]

وتَـيْـهَـاءَ لـم تُـطْـمَـثْ بِـخُـفٍّ وحَـافِـرٍ ... ولـم يَـدْرِ فِيـهَـا النَّجْمُ كَيْفَ يَغُورُ[٥]

مَـعَـالِـمُـهَـا أَنْ لَا مَـعَـالِـمَ بـيـنـهَـا ... وآيـاتُـهَـا أَنَّ الـمَـسِـيـرَ غُـرُورُ

ولو قيلَ للْغَيث، اسقهَا: ما اهتدَى لها ... ولـو ظَلَّ مِلْءَ الأرضِ وهو جَزُورُ[٦]

تَجَشَّمْتُهَا، واللَّيلُ وَحْفٌ جَنَاحُه ... كـأنِّـيَ سِـرٌّ والـظَّـلامُ ضَـمِـيـر[٧]

وقال الشريف الرضي: [من مجزوء الكامل المرفّل]

وتَـنُـوفَـةٍ حَـصْـبَـاؤُهـا ... خُـلِقَـتْ لـنـارِ الـقَـيْـظِ جَـمْـرَا[٨]

---

(١) القطا، مفردها قطاة، وهي نوع من اليمام يؤثر العيش في الصحراء، يطير جماعات ويقطع مسافات، وبيضه مرقّط، والأوام: العطش.

(٢) هو ضابىء بن الحارث بن أرطأة التيمي البرجمي، شاعر خبيث اللسان، كثير الشرّ عُرف في الجاهلية وأدرك الإسلام. «انظر فهرس الأعلام ٣/ ٢١٢».

(٣) مسافهة: شاتمة، ومتعبة، والعيس: النوق والإبل، والنّياط: من الأرض الواسعة: التي بعُد طريقها.

(٤) الآل: السّراب.

(٥) التيهاء: الصحراء القفر الواسعة، وتُطمث: تستباح حرمتها، أي أنها أرضٌ لم يطرقها بعد أحد، وكأنّها بكر.

(٦) الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل وغيرها.

(٧) الوحف: الكثير الريش، يريد: ليلٌ شديد الظلمة.

(٨) التنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان، والقيظ: شدّة الحرّ والحصباء: كثيرة الحصى الصّغار.

تُـبْـدِي جَـنَـادِبُـهـا الأنِـ ... ـينَ أسًى على المُجْتاز ظُهْرَا[(١)]
وتـرى بـهـا الـعُـضْـفُـور مُـتَّـ ... ـخِـذًا وِجَـارَ الـضَّـبِّ وَكْـرَا[(٢)]

وقال المتنبي: [من الطويل]

مَهَالِكُ لم يَصْحَبْ بِهَا الذِّئبُ نَفْسَه ... ولا حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوادمُهْ[(٣)]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي[(٤)]: [من الكامل]

ومـفـازةٍ لا نَـجْـمَ فـي ظَـلْـمـائـهـا ... يَـسْـري ولا فَـلَـكٌ بِـهـا دَوّارُ
تَـتَـلَهَّـب الـشِّـعْـرى بِـهـا فـكـأنَّـهـا ... فـي كَـفِّ زِنْـجِـيِّ الـدُّجى دِيـنـارُ[(٥)]
تُرْمَى بـهـا الـغـيـطـانُ فـيـهـا والـرُّبى ... آلٌ كـمـا يَـتَـمَـوَّجُ الـتَّـيَّـارُ[(٦)]
والـقُـطْـبُ مُـلْـتَـزِمٌ لـمـركَـزِه بِـهَـا ... فـكـأنَّـه فـي سَـاجِـهِ مِـسْـمَـارُ[(٧)]
قد لفّني فـيـهـا الظَّلامُ وطَـافَ بِـي ... ذِئْبٌ يُـلِـمُّ مـع الـدُّجـى زَوَّارُ
طَـرَّاقُ سَـاحَـاتِ الـدِّيَـارِ مُـغَـاوِرٌ ... خَـبِـثٌ لأبـنـاء الـسُّـرى غَـدَّارُ[(٨)]
يَسْري، وقد فَضَح الدّجى وجْهُ الضِّيا ... فـي فَـرْوةٍ قَـدْ مَـسَّـهـا اقْـشـعْـرار
فَعَشَوْت في ظَلْماءَ لم يُقْدحْ بها ... إلا لـمُـقْـلَـتِـه، وبـأسِـي نـارُ[(٩)]
وَرَفَـلْـتُ فـي خِـلَـعِ عَـلَـيّ مِـن الـدُّجـى ... عُـقِـدَتْ بـهـا مِـن أنـجُـم أزْرَارُ[(١٠)]
والـلَّـيْـلُ يَـقْـصِـر خَـطْـوَه، ولَرُبَّـمـا ... طـالَـتْ لَـيـالِـي الـرَّكْـبِ وهـي قِـصَـارُ

(١) الجنادب: مفردها جندب، وهو نوعٌ من الجراد يصرّ ويقفز ويطير.
(٢) الوجار: الجُحر، والضبّ: حيوان من الزّحافات، كثير عقد الذّنب خشنة.
(٣) القوادم: ريشُ مقدّمة الجناح، وهي أطول الرّيش.
(٤) ...
(٥) الشّعرى: كوكبٌ نيّر يطلع عند اشتداد الحرّ.
(٦) الغيطان: مفردها الغيط، وهي المطمئن من الأرض والواسع، والآل: السّراب.
(٧) القطب: يريد نجم القطب، والسّاج: شجر خشبه يميل إلى السّواد، أي كأن النجم القطبي مسمارٌ يلمع في خشب أسود هو الليل.
(٨) الطرّاق: الذي ينزل السّاحات ليلًا، والسُّرى: السّير في الليل.
(٩) عشوت: يريد رأى ضوء عينيه فقصده ولم يخف منه.
(١٠) رفل: جرّ ذيله وتبختر في سيره، وخلعِ من الدّجى: أي في قطع من الليل.

وقال آخر: [من الطويل]

ومَجْهولةِ الأَعْلَامِ طامسةِ الصُّوىٰ إذا عَسَفَتْها العِيسُ بالرَّكْبِ، ضَلَّتِ[١]
إذا ما تَهَادى الرَّكْبُ في فَلَواتِها أجابَتْ نِداءَ الرَّكْبِ فيها فأصْدَتِ[٢]

وقال مسعود، أخو ذي الرمّة يصف بُعدَ فلاة: [من الرجز]

ومَهْمَةٍ فيها السَّرَابُ يَلْمَحُ يَدْأَبُ فيها القَوْمُ حتَّى يَطْلَحُوا[٣]
ثُمَّ يَظَلُّون كأنْ لم يَبْرَحُوا كأنَّما أمْسَوْا بحيثُ أصْبَحُوا

وقال مسلم: [من البسيط]

تَجْري الرِّيَاحُ بها مَرْضى مُوَلَّهةً حَسْرى تَلُوذُ بأطْراف الجَلَاميد[٤]

وقال آخر: [من الطويل]

ودَوِّيَّةٍ مِثْلِ السَّماءِ قَطَعْتُها مُطَوَّقةٍ آفاقُها بسَمائها

وقال بعض الأعراب[٥] في الآل: [من الطويل]

كَفَى حَزَنًا أنّي تَطَالَلْتُ كَيْ أرى ذُرىٰ عَلَمِيْ دَمْخ فَمَا يُرَيَانِ![٦]
كأنَّهمَا، والآلُ ينجابُ عنهما من البُعْدِ عَيْنَا بُرقُعٍ خَلَقَانِ[٧]

قال أبو هلال[٨]: وهذا من أغرب ما رُوِيَ من تشبيهات القدماء.

---

(١) الصّوى: مفردها صوّة، وهي أرض غليظة لا معالم فيها ولا طرق، وعسفتها: سارت على غير أثر.
(٢) أصدت: من الصّدى، وهو الصوت الذي يصدّه حاجز فيرجع.
(٣) المهمه: المفازة البعيدة والأرض القفر، ويطلحوا: يجوعوا ويتعبوا.
(٤) المولّهة: الحزينة، وتلوذ: تستجير، والجلاميد: الصّخور.
(٥) هو طهمان بن عمرو الدّارمي، كما في معجم البلدان لياقوت ٢/٤٦٢، وقد أورد القصيدة بتمامها وهي ١٥ بيتًا.
(٦) دمخ: قيل: دمخ الدّماخ، وهو جبل من جبال ضخام في حمى ضرية، والدّماخ: جبال بنجد. «انظر معجم البلدان ٢/٤٦١».
(٧) الآل: السّراب، والبُرقع: قناع تستر به المرأة وجهها، والخَلَق: الدّارس البالي.
(٨) هو أبو هلال العسكري، صاحب كتاب «الصناعتين» تقدّم ذكره.

وقال آخر: [من الكامل]

والآل تَـنْـزُو بـالـصّـوىٰ أَمْـواجُـه　　نَزْوَ القَطَا الكُدْرِيِّ في الأشْرَاكِ[١]
والـظِّـلُّ مَـقْـرُونٌ بِـكُـلِّ مَـطِـيَّـةٍ　　مَشْيَ المِهَارِ الدُّهْم بين رِمَاكِ[٢]

وقال ابن المعتز: [من الطويل]

وما راعَـنِـي بـالـبَـيْـن إلّا ظَـعَـائِنٌ　　دَعَوْنَ بُكائِي، فاستَجابَ سَوَاكِبُه[٣]
بَدَتْ في بياض الآلِ والبُعْدُ دُونَهُ　　كأسْطُرِ رَقٍّ أَمْرضَ الخَطَّ كاتِبُه[٤]

الباب الخامس
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في الجبال

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النّحل: الآية ١٥].

قال المفسرون: خلق الله عزَّ وجلّ الأرض على الماء فمادت[٥] وتكفّأت[٦]، كما تتكفّأ السفينة، فأثبتها بالجبال، ولولا ذلك ما أقرّت عليها خلقًا.

وروى أبو حاتم في كتاب العظمة، أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلَتْ تَميد. فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرّت. فعجبت الملائكة من خلق الجبال، وقالت: يا رب هل خلقت خلقًا أشدّ من الجبال؟ قال: الحديد، قالت: فهل من خلق أشدّ من الحديد؟ قال: النار، قالت: فهل من خلق أشدّ من النار؟ قال: الماء، قالت: فهل من خلق أشدّ من الماء؟ قال: الريح، قالت: فهل من خلق أشدّ من الريح؟ قال: ابن آدم، يتصدّق بيمينه فيخفيها عن شماله».

---

(١) الآل: السّراب، وتنزو: تثب، والقطا: ضربٌ من الحمام، والكدريّ: الذي يميل لونه إلى الكدرة أي هو أغير اللون، والأشراك: حبال تنصب للإيقاع بذلك الحمام.
(٢) المهار: جمع مهر وهو أوّل ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية، والدّهم: السّود والرّماك: جمع رمكة، وهي الفرس التي تتخذ للنّسل.
(٣) الظعائن: النّساء الظاعنات من مكان إلى آخر وهنّ على الهوادج، والسواكب: أي الدموع.
(٤) الرّق: جلدٌ رقيق يكتب عليه، أو هو صحيفة بيضاء.
(٥) مادت: اضطربت وتحرّكت.
(٦) تكّفأت: أي حرّكها الموج من جانبٍ إلى جانب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السمٰوات والأرض. فبعث الله ريحًا فعصفت الماء فأبرز عن حشفة[١] في موضع البيت. فدحا[٢] الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال».

فكان أوّل جبل وُضِعَ، جبلُ أبي قُبَيْس. وهو الجبل المطلُّ على الكعبة.

وفي كنيته بأبي قبيس قولان:

أحدهما: أن آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس (وقد تقدّم بيان ذلك في الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفنّ في ذكر النِّيران).

الثاني: أنه أضيف إلى رجل من جُرْهُم[٣] كان يتعبد فيه، اسمه أبو قبيس.

ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال. وكان من قبل يسمَّى بالأمين.

وقال محمد بن السائب الكلبيّ: «إن الله عزَّ وجلّ لما خلق الأرض، مادت بأهلها. فضربها بجبل السَّراة[٤] فاطمأنت».

وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرًا، ويسمَّى الحجاز. وهو الذي حجز بين تهامة ونجد. فتهامة من جهته الغربية مما يلي البحر، ونجد من جهته الشرقية. وهو آخذ من قعر عدن إلى أطرار[٥] الشأم». ويسمَّى هناك جبل لُبْنان. فإذا تجاوز اللاذقية ومرّ بالثغور، سمِّيَ جبل اللُّكَّام[٦]. ثم يمتدّ في بلاد الروم إلى بلاد أرمينية، فيسمَّى هناك حارثًا وحويرثًا. ثم يمتدّ إلى بحر الخزر[٧]، وفيه «الباب والأبواب».

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [قٓ: الآية ١] إنه جبل محيط بالعالم من زمرّدة خضراء، وإن جبال الدّنيا متفرّعة عنه.

---

(١) الحشفة: صخرة تكون في البحر. (٢) دحا الأرض: بسطها.

(٣) جرهم الأولى: هم قبيلة من العرب كانوا على عهد عاد فبادوا، «انظر صبح الأعشى ١/ ٣٦٦»، وجرهم الثانية: هم بنو جرهم بن قحطان بن نوح، كانت سكناهم قرب مكة، تزوّج منهم إسماعيل (ع). «انظر صبح الأعشى ٤/ ٢٥١».

(٤) السّراة: قال الأصمعي: إنه الجبل الذي فيه طرف الطائف إلى بلاد أرمينية. «معجم البلدان ٣/ ٢٠٤».

(٥) أطرار الشام: يعني أطرافها، وكذلك أطرار الوادي: أي نواحيه.

(٦) اللّكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس. «معجم البلدان ٥/ ٢٢».

(٧) الخزر: اسم إقليم قومه من النّصارى والمسلمين تقدّم ذكره.

وقال قوم: إن السماء مطبقة عليه والشموس تغرب فيه، وهو الحجاب الساتر لها عن أعين الناس، في أحد الوجوه المفسَّر بها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [صَ: الآية ٣٢].

وقال قوم: إن منه إلى السماء مقدار ميل[١]، وإن الذي يُرى من خضرة السماء مكتسب من لونه.

وقال ابن حوقل[٢]: جميع الجبال الموجودة في الدّنيا متفرّعة عن الجبل الخارج من بلاد الصين، مشرقًا ذاهبًا على خط مستقيم إلى بلاد السودان مغرّبًا.

وقال أبو الفرج قُدامة بن جعفر[٣] في «كتاب الخَرَاج»: وجدت خلف خط الاستواء في الجنوب وقبل الإقليم الأوّل جبالًا تسعة: خمسةٌ منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربعمائة ميل إلى خمسمائة ميل؛ وجبلًا طوله سبْعُمائة ميل؛ وجبل القَمَر، وطوله ألف ميل؛ وجبلًا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الأوّل؛ وجبلًا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الثاني.

قال: ومجموع ما عُرف في الأقاليم السبعة من الجبال مائةٌ وثمانيةٌ وتسعون جبلًا. منها في الإقليم الأوّل سبعةَ عشرَ جبلًا، وفي الإقليم الثاني تسعةٌ وعشرون جبلًا، وفي الإقليم الثالث أحدٌ وثلاثون جبلًا، وفي الإقليم الرابع أربعةٌ وعشرون جبلًا، وفي الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلًا، وفي الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلًا، وفي الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلًا.

٢ ـ ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض إلى أن يبلُغ الجبل

ثم ما ارتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم، وترتيب ذلك قال الثعالبيّ في كتابه المترجم «بفقه اللغة» وأسنده إلى أئمتها:

أصغرُ ما ارتَفَع من الأرض النَّبَكة؛ ثم الرابِيَة أعلى منها؛ ثم الأَكَمة؛ ثم الزُّبْية؛ ثم النَّجْوة؛ ثم الرِّيعُ؛ ثم القُفُّ؛ ثم الهَضْبة (وهي الجبل المنبسِط على الأرض)؛ ثم

---

(١) الميل: قياس قدرُهُ ١٦٠٩ أمتار.

(٢) هو محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم، رحّالة من علماء البلدان، له كتاب: «المسالك والممالك». «فهرس الأعلام ٦/ ١١١».

(٣) هو قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي، كاتبٌ من البلغاء المتقدّمين في علم المنطق والفلسفة، يضرب به المثل في البلاغة، له كتب عديدة منها: نقد الشعر، وجواهر الألفاظ توفي ببغداد سنة ٩٤٨ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٩١».

القَرْن (وهو الجبل الصغير)؛ ثم الدُّكُّ (وهو الجبل الذليل[١])؛ ثم الضِّلَع (وهو الجبل[٢] الذي ليس بالطويل)؛ ثم النِّيقُ (وهو الجبل الطويل)؛ ثم الطَّوْد؛ ثم الباذِخُ والشَّامِخُ؛ ثم الشَّاهِق؛ ثم المُشْمَخِرُّ؛ ثم الأَقْوَدُ والأَخْشَب؛ ثم الأَيْهَم؛ ثم القَهْب (وهو العظيم)؛ ثم الخُشَام.

٣ ـ ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبيّ:

أوّل الجَبَل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصْل الجبل.

ثم السَّفْح، وهو ذيله.

ثم السنَد، وهو المرتفع في أصله.

ثم الكِيحُ، وهو عَرْضه.

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به.

ثم الرَّيْد، وهو ناحيته المشرِفة على الهواء.

ثم العُرْعُرَة، وهي غلظه ومعظمه.

ثم الحَيْد، وهو جَنَاحه.

ثم الرَّعْن، وهو أنفه.

ثم الشَّعَفة، وهي رأسه.

وقال صاحب كتاب «الفاخر»: يقال من أسماء الجبال: العظيم منها الطّور، والطَّوْد، والكَفِرُ، والقَهْب، والعَمُود، والعَلَم، والأرْعَن[٣]، والمُشْمَخِرّ.

والأَيْهم الطويل، وهو الشامِخُ، والشاهِقُ، والباذِخُ، والباسِقُ، والأَقْودُ.

والأَخْشَب، الخَشِن.

والعِقَابُ، الصِّعاب.

والثَّنَايَا، التي ليست بصَعْبة.

(١) في الأصل: الجبل الديكك، والتصويب من فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٤.
(٢) في فقه اللغة للثعالبي ص ٢٩٤ «الجبيل».
(٣) الأرعن: الذي في فقه اللغة ص ٢٩٥ الرَّعن، وكذلك في اللّسان: مادة «رعن»، الرّعن: أنف الجبل المتقدّم، أو الجبل الطويل.

والهِرْشَمُّ، النَّخِر.

والخُشَام، جبل طويل ذو أَنْف.

والوَزَر، والمَلْجَأ، والقَلْعة، ما يُحَصَّن فيه.

والقَرْن، جبل صغير.

والضِّلَعُ والدُّكُّ، فيه دِقَّة وانْحِناء.

والنِّيق، الذي لا يُستطاع أن يُرْتقى إليه.

وأعلى الجبل قُلَّته وقُنَّته وذُؤابتُه.

وعُرْعُرَته، غِلَظه.

والفِنْد، القَطْعة منه.

وشَعَفُه ومَصَاده، أعلاه.

والكِيحُ والْكَاح، عُرْضه.

والرُّكْحُ[١]، ناحيته المُشْرِفة على الهواء.

والحَضِيض، أسفله.

قال: وصغار الجبال، اليَفَع، والضِّرْس، والضَّرب والعنتيبة[٢]، والعُنْتُوتُ، والأَكَمة، والهَضْبة.

والذَّرِيحة، ما انبسَط على وجه الأرض.

واللَّوْذ، حِضْن الجبل وما يُطِيف به.

والرَّيْد والرُّيُود، نَوَاحِيه المحدّدة.

والحَيْدُ، شاخصٌ يتقدّم كالجَنَاح. ومثله الشُّنْعُوفُ.

والصَّدْع والشَّقْب، شَقٌّ فيه.

والغارُ والكَهْف، مثل البُيُوت فيه.

---

(١) في الأصل: الوكح، بالواو، وهو تصحيف، وقد صحّحناه اعتمادًا على ما في «القاموس» و«المخصّص».

(٢) العنتيبة: كذا بالأصل، ولم نعثر عليها في القاموس واللّسان والمخصّص، ولا في كتاب فقه اللغة للثعالبي.

والقُرْدُوعة، الزاوية فيه.

واللِّهْب والنَّفْنَفُ والغارُ، مَهْواة بين جبلين.

والشُّؤون، خُطُوط فيه.

والمَخْرِم، مُنقَطَع أنْفه.

والقُرْناس، شِبْه الأنْف.

والإِرَم، العَلَم فيه.

٤ ـ ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي:

إذا كانت صغيرة، فهي حَصَاة.

فإذا كانتْ مثلَ الجَوْزة وصلحت للاستنجاء[١] بها، فهي نَبَلة. وفي الحديث: «اِتَّقُوا المَلَاعِنَ وأعِدّوا النَّبَل». يعني عند إتيان الغائط.

فإذا كانت أعظم من الجَوْزة، فهي قُنْزُعَة.

فإذا كانت أعظم منها وصَلَحت للقَذْف، فهي مِقْذاف ورُجْمَة ومِرْداة. ويقال: إن المِرْداة، حَجَر الضبِّ الذي ينصِبه علامة لحجره.

فإذا كانت مِلءَ الكفِّ، فهي يَهْيَرٌ.

فإذا كانت أعظم منها، فهي: فِهْر، ثم جَنْدل، ثم جَلْمَد، ثم صَخْرة، ثم قَلَعَة. وهي التي تنقلِع من عُرْض الجبل. وبها سميت القَلْعَة التي هي الحِصْن.

وقال صاحب كتاب «الفاخر»: من أسمائها، الحِجَارة؛ والجُلْمود والجَلْمَد الحجر الصُّلْب.

والبِرْطِيلُ، الصَّخْرة العظيمة.

والصَّفْوانُ، الأملسُ.

والرَّضَمة، الحجر العظيم.

والأَتَان، صخرة في مَسِيل ماء أو حافة نهر.

---

(١) الاستنجاء: أي غسل موضع النجو أو مسحه، والنّجو: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط.

والإزَاء، التي عند مهراق الدلو.

والرُّجمة، ما تطوىٰ به البئر.

والكَذَّانُ، الرَّخو.

واليَرْمَع، الأبيضُ الرِّخو.

والمُدُقُّ والمَدَاك والصَّلَايَة، حجر العطار الذي يسحق عليه العِطر.

والفِهْر، ما يملأ الكَفَّ ويُسْحَق به العِطْر.

والمِرْداة، ما يكسر به الحجر.

والمِرْداس، ما يُرْمىٰ به في البئر لينظر أفيها ماء أم لا. قال الشاعر: [من السريع]

مَـنْ جَـعَـل الـعِـدّ الـقَـدِيـمَ الَّذِي   أنـــت لـــه عِـــدّةُ أحـــراسِ
إلــى ظَـنُـون أنـتَ مـن مـائِهِ   مـنـتَـظِـرٌ رَجْـعَـةَ مِـرْداسِ

والنَّشَفُ، حجر تُدْلَك به الرِّجْل في الحَمَّام.

والنَّقَلُ، ما كان في طرق الجبال.

والأُثْفِيَّة، ما يُنْصَب عليه القدر.

والقُلَاعة، ما يُرمىٰ به في المِقْلاع.

والظِّرَّان، حِجارة محدّدة يذبَحُ بها.

والصَّفِيح، ما رَقَّ منه وعَرُض.

واللِّخَافُ، حِجارة عِرَاض.

والفَلَك، قِطْعة مستديرة وترتفع عما حولها.

والمُدَمْلَك، المدوّر.

والكَلِيت، حَجَر مستدير يسدّ به وِجَار[1] الضَّبُع.

والبِلِّيت[2]، التام.

---

(١) الوجار: جُحر الضّبع وغيرها.

(٢) البلّيت: كذا بالأصل، وعبارة القاموس «البلّيت كسِكّيت لفظًا ومعنى، وفي اللّسان: البلّيت: الرّجل الزّمّيت، وهو الحليم السّكن القليل الكلام».

وقال ابن الأعرابيّ: القَبِيلة، صخرة على رأس البئر؛ والعُقَابان من جنبتيها يعضدانها.

ومنها المَرْو، وهي البِيض كالحصى.

والحَصْباء، الصغار.

والرَّضْراض، نحوها.

والقَضِيض، أصغر منها:

والزَّنَانير، واحدها زُنَّيْرٌ، أصغر ما يكون.

٥ ـ ذكر ما يُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل. يقال:

أثقلُ من ثَهْلان(١). أثقل من نَضَادِ(٢). أثقلُ من أُحُد(٣). أصلَبُ من الحَجَر. أصلبُ من الجَنْدل(٤). أقسى من الحجر. أصبَرُ من حجر. أيْبسُ من صَخْر. أبقىٰ من النَّقْش في الحجر.

ويقال:

رُمِي فلان بحجره. رُدَّ الحجرَ من حيثُ جاءك. وَجِّهِ الحجرَ وِجْهةً مَا، أي دَبِّر الأمر على وَجْهه. ألقِمْه الحجر، أي جاوِبْه بجوابٍ مُسْكت. رماه بثالثة الأَثافِي. أنجدَ مَنْ رأى حَضَنا (وحَضَنٌ جبل بنجد) أي من رآه لم يحتجْ أن يسأل هل بلغ نَجْدا أم لا. الليل يُوارِي حَضَنا، أي يُخْفِي كل شيء حتَّى الجبل.

ومن أنصاف الأبيات:

* كـأنَّـهُ عَـلَـمٌ فـي رأسـه نـارُ(٥) *

---

(١) ثهلان: جبل في بلاد بني نمير، به ماءٌ ونخيل. «معجم البلدان ٢/ ٨٨».

(٢) نضاد: جبل بالعالية، قال الأصمعي: هناك جبل لغنيّ يقال له نضاد. «معجم البلدان ٥/ ٢٩٠».

(٣) أُحُد: جبل بالمدينة المنوّرة «ومعركة أُحُد» تنسب إليه.

(٤) الجندل: الصخر الصلب.

(٥) هذا الشطر الثاني من بيتٍ للخنساء الشاعرة، تماضر بنت الشّريد، وتمامه:

وإنّ صخرًا لتأتمُّ الهُداة به كأنّه علمٌ في رأسه نارُ

والعلم: الجبل. «انظر ديوان الخنساء ص ٤٩ دار صادر».

* إذا قطعنا علَمًا بدا علَمْ *

* قُومُوا انظُروا كَيْفَ تَزُول الجِبال *

(يضرب لموت الرؤساء):

* جَنْدلتانِ اصْطَكّتا اصْطِكاكَا[١] *

(يضرب لقِرنين يتصاولان).

ومن الأبيات: [من البسيط]

ولو بَغى جَبَلٌ يَوْمًا على جَبَلٍ لانهَدَّ مِنْهُ أعالِيهِ وأسْفَلُهُ!

[من الكامل]

تَتَناثَرُ الأطْوادُ وهي شَوامِخٌ حتَّى تَصِيرَ مَدَاوسَ الأقْدامِ[٢]

[من مجزوء الرّمل]

جُدْ فَقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْـ ـرةُ بالماءِ الزُّلالِ

٦ ـ ذكر شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموءل بن عاديا[٣]: [من الطويل]

لَنا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَن نُجِيرُه مَنِيعٌ يَرُدّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ![٤]

رَسَا أصْلُه تحت الثَّرى وسَمَا بِهِ إلى النَّجْم فَرْعٌ لا يُرامُ طَويلُ!

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من الطويل]

وأرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابة باذخٍ يطَاوِل أعْنانَ السَّماءِ بغَاربِ[٥]

يَصُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ من كُلِّ وجْهةٍ ويَزْحَمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بالمَنَاكِبِ[٦]

---

(١) اصطكتا: اضطربتا واصطدمتا.

(٢) الأطواد: جمع طود، وهو الجبل العظيم الذّاهب صُعُدًا في الجوّ.

(٣) هو السّموأل بن غريض بن عاديا الأزدي، شاعر جاهليٌّ حكيم، من سكّان خيبر في شمال المدينة كان ينتقل بينها وبين حصنٍ له سمّاه «الأبلق». «فهرس الأعلام ٣/ ١٤٠».

(٤) الطّرف: النظر، والكليل: الضعيف الفاتر.

(٥) الأرعن: الجبل الطويل، والباذخ: العالي، والغاب: الأعلى في كلّ شيء.

(٦) يصدُّ: يمنع، ويزحم: يطاول ويجاري، والشُّهب: النجوم المضيئة والمناكب، جمع منكب، =

وَقُـور عـلى ظـهـر الـفَـلَاة كـأنّـه … طِـوَالَ الـلَّـيـالِي نـاظِرٌ فـي الـعَـوَاقِـبِ
يَـلُوثُ عـليـه الـغَـيْـمُ سُـودَ عَـمَـائِمٍ … لَهَـا مِنْ وَمِيض البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِبِ[1]
أَصَـخْـتُ إلـيه وهْـوَ أخْـرَسُ صـامتٌ … فَحدَّثَنِي لَيْلَ السُّرى بـالـعَجَائِبِ[2]
وقـال: ألَا كَـمْ كُـنْـتُ مَـلْجأَ فـاتِـكٍ … ومَـوْطِـنَ أَوَّاهٍ ومَـوْئِلَ تـائِبِ!
وكَـمْ مَـرّ بِـي مِـنْ مُـدْلِجٍ ومُـؤَوِّبٍ … وقَالَ بِسَفْحِي مِنْ مَطِيٍّ وراكِبِ![3]
ولَاطَمَ مِنْ نُكْبِ الـرِّيـاحِ مَعَـاطِـفِي … وزاحَمَ من خُضْرِ البِحارِ جَوَانِبِي!
فَـمـا كـانَ إلّا أنْ طَـوَتْـهُـمْ يَـدُ الـرَّدى … فطارَتْ بِهِم رِيحُ النَّوى والنَّوائِبِ[4]
ومـا غَـيَّـضَ الـسُّـلْوانُ دَمْـعِـي وإنَّـمَـا … نزَفْتُ دُمُوعِي من فِراق الأصَاحِبِ[5]
وأسْـمَـعَـنِـي مـن وَعْـظِـه كـلَّ عِـبْـرةٍ … يُـتَـرْجِـمُـهـا عـنـه لِسـانُ الـتَّـجـارِب
فسَلَّى بما أبْكى، وسَرَّ بما شَجى … وكان على ليل السُّرى خَيْرَ صاحِبِ
وقُـلْـتُ وقـد نَـكَّـبْـتُ عـنـه مَـطِـيَّـتِـي … سَلَامٌ فـإنّـا مـن مُـقِـيـمٍ وذاهِـبِ![6]

وقال أيضًا عفا الله عنه: [من الطويل]

وأشْـرفَ طَـمَّـاحِ الـذُّؤابـة شـامِـخٍ … تَمَنْطَقَ بالجَوْزاء لَيْلًا له خَصْرُ[7]
وَقُـورٍ عـلى مَـرّ الـلَّـيـالي كـأنَّـمـا … يُصِيخُ إلى نَجْوى وفي أُذْنِه وَقْرُ[8]
تَـمَـهَّـدَ مـنـه كُـلُّ رُكْـنٍ زَكَـا بـه … فقَطَّبَ إطْراقًا وقد ضَحِكَ البَدْرُ[9]

= وهو ما بين الكتف والعاتق.

(١) يلوث: يلفّ، والذوائب: جمع ذؤابة، وهو شعر مقدّم الرأس.

(٢) أصختُ: أنصتُّ وأصغيت، والسُّرى: السّير ليلًا.

(٣) المدلج: السائر في الدلجة، وهي العتمة، والمؤوّب: الذي يسير النهار كلّه إلى الليل، وقال: استراح، من القيلولة وهي عند الظهيرة واشتداد الحرّ.

(٤) النّوى: البعد، والنّوائب المصائب والكوارث.

(٥) غيّض: منع سيل الدموع، والسُّلوان: الصّبر والنّسيان.

(٦) نكّبت: نحّيت وأبعدت.

(٧) الأشرف: الجبل العالي المشرف، وطمّاح الذؤابة: كبيرها، والشامخ: العالي وتمنطق: شدّ وسطه بالمنطقة، والجوزاء: برجٌ من أبراج السّماء.

(٨) يصيخ: يصغي، والنجوى: السرّ، والوقر: الصّمم.

(٩) زكا: نما وزاد، وقطّب إطراقًا: أي تجهّم وأطرق برأسه.

وَلَاذَ بـه نَـسْـرُ الـسَّـمـاءِ كـأنَّـمـا يُجَرّ إلى وكْرٍ به ذلك النَّسْرُ[١]
فلم أَدْرِ من صَمْتٍ له وسَكِينةٍ أكَبْرَةُ سنٍّ وَقَّرتْ منه أم كِبْرُ[٢]

وقال أيضًا يصفه نثرًا من رسالة كتبها إلى بعض الرؤساء:

وكيف لي بقُرْبك ودونَك كل عَلَم باذخ، مَجَّ الليلُ عليه رُضَابَه[٣]، وصافحت النجومُ هِضَابه؛ قد ناء بطَرْفه، وشمخ بأنْفِه، وسال الوَقَار على عِطْفه؛ قد لاثَ من غَمَامه عِمَامه، وأرسل من رَبَابه ذُؤابه؛ تُطرِّزها البُروق الخواطف، وتهفو بها الرياح العواصف؛ بحيث مدّه البسيطُ بِساطًا، وضُرِبت السماء فُسْطاطا[٤].

الباب السادس
من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ ـ في ذكر البحار والجزائر

رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما أراد الله عزَّ وجلّ أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسمكها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يترقرق لا يثبت في ضحضاح[٥]. فما يرى من التموّج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى؛ ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه؛ ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء». وفسري بهذا قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: الآية ٧].

٢ ـ ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر مانيطش[٦]، ثم بحر الخزر.

---

(١) النّسر: طائر معروف، ونسر السّماء: كوكب، والنّسران: كوكبان هما: «النّسر الطائر» «والنسر الواقع».
(٢) الكبرة: الكبر والتقدّم في العمر، وقّرت: أي زادته وقارًا وهيبة.
(٣) الرُّضاب: ما تقطّع من النّدى على الشجر ونحوه، والرّضاب: الريق.
(٤) الفسطاط: البيت من شعر.
(٥) الضّحضاح: القليل، والماء الضحضاح: القليل الذي لا عمق فيه.
(٦) بحر مانيطش: كذا في الأصل، وفي كثير من كتب الجغرافية العربية، وهو المعروف في كتاب «أبي الفدا» ببحر آزق، وعند الأتراك: ببحر آزوق.

فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمَّى باليونانية أوقيانوس، ويسمَّى بحر الظلمات، سمِّي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهوائه، لم يَعلَم العالَمُ من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذي عُلم به من الجزائر ستةٌ من جهة المغرب، تسمَّى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.

قال أبو عبيد البكريّ[١] في كتابه المترجم «بالمسالك والممالك»: وبإزاء طنجة الجزائر المسماة باليونانية، فُرطناتُس أي السعيدة. وسميت بذلك لأن في شَعْرائها[٢] وغياضها كلِّها أصنافَ الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك. وهي متفرّقة متقاربة.

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر، فنزل مَنْ فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه[٣] وأنواع اليواقيت كل مستحسن. فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس. فسألهم ملكها من أين لهم هذا. فأخبروه بأمرهم، فجهّز مراكب وسيّرها، فلم يقفوا على جزيرة منها. وعدمت المراكب لعظم البحر وشدّة عصف الريح فلم يرجع منها شيء.

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالناس. وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء.

ويقال إن في جهة المشرق مما يلي بلاد الصين ستة جزائر أخرى، تسمَّى جزائر السيلى. يقال إن ساكنيها قوم من العلويين، وقعوا إليها لما هربوا من بني أُمية.

ويقال إن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها في عيش قشيف[٤].

وفي هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة برطانية، وهي تحاذي جزيرة الأندلس، وأهلها صُهْب الشعور، زُرْق العيون.

---

(١) هو أبو عبيد، عبد الله بن عزيز البكري الأندلسي، مؤرّخ، جغرافي، ثقة، علّامة بالأدب نسبته إلى بكر بن وائل. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٨».

(٢) الشَعْراء: الأرض ذات الشجر.

(٣) الأفاويه: الطيب.

(٤) عيشٍ قشيف: عيش فيه ضيق وشدّة.

ومما يلي بلاد إفرانسية جزائر يغْمُرها خلق من الفرنج، لا ينقادون لبلد، ولا يدينون بدين.

وفيما يلي الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة، يحيط بها سبعمائة ميل وخمسون ميلًا، وفيها أربع مدائن، في كل مدينة ملك.

وجزيرة برفاغة. يحيط بها أربعة آلاف ميل، وفيها ثلاث مدائن عامرة. والدّاخل إليها قليل. وهي كثيرة الأنواء[١] والأمطار. وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم، ويجعلونه في بيت ويوقدون النار حوله حتّى يجف.

وجزيرة أنقلطرة. فيها مدائن عامرة، وجبال شاهقة، وأودية، وأرض سهلة. والشتاء بها دائم. وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سعته اثنا عشر ميلًا.

وفيه مما يلي الصقالبة[٢] جزيرتان: إحداهما جزيرة أمرنانيوس النساء، لا يسكنها غير النساء فقط. وتسمّى الأخرى أمرنانيوس الرجال، لا يسكنها غير الرجال. وهم في كل عام يجتمعون زمان الربيع، ويتناكحون نحوا من شهر ثم يفترقون.

ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام، وظلمة البحر، وعظم الأمواج.

٣ ـ ذكر ما يتفرّع من البحر المحيط

يتفرّع من البحر المحيط خليجان: أحدهما من جهة المغرب، ويسمى البحر الروميّ. والآخر من جهة المشرق، ويسمّى البحر الصينيّ، والهنديّ، والفارسيّ، واليمنيّ، والحبشيّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلاد.

وهما المرادان بقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمٰن: الآيتان ١٩، ٢٠]. أي لا يبغي هذا على هذا.

والبرزخ[٣] أرض بين الفَرَما التي هي على بحر الروم، وبين مدينة القُلْزُم التي هي على بحر الحبش[٤]، مسافتها ثلاثة أيام. وقيل: البرزخ إرسال ماء البحر الحلو

---

(١) الأنواء: الأمطار والرّياح واضطراب البحر.
(٢) الصقالبة: قومٌ عند الإسرائيليين من بني بازان بن يافث بن نوح، وبلادهم بين بلغار وقسطنطينية. «انظر معجم البلدان ٣/٤١٦، وصبح الأعشى ١/٤٢٢».
(٣) البرزخ: الأرض الضيقة بين بحرين تصل أرضًا بأرض.
(٤) في الأصل: بحر فارس، وكان الأصوب أن يعبّر باللفظ الذي اختاره لهذا المقام، وهو=

على ماء البحر الملح، لأنه مَغِيض[١] له. فلا سبيل لأحدهما على الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزًا وهو البرزخ.

فأما البحر الروميّ وجزائره، فإن المؤرّخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط. ويقولون إن جزيرة الأندلس وبلاد البربر كانت أرضًا واحدة يسكنها الإشبان والبربر. وكان بعضهم يُغير على بعض، والحرب بينهم سجال[٢]. فلما ملك الإسكندر، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأى أن يجعل بينهما خليجًا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى. فحفر زُقاقًا[٣] طوله ثمانية عشر ميلًا، وعرضه اثنا عشر ميلًا. وبنى بجانبيه سكرين[٤]، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حرّاسًا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائبًا عنه في بلاد الإشبان. وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فطما وغطّى السِّكْرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادًا وطغا على أخرى. حتّى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب في بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين.

فعظم طولًا وعرضًا، وصار بحرًا[٥].

قال صاحب كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر»: وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه في زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلًا.

قال: وزعم السالكون فيه أن البحر ربما جزر في بعض الأوقات، فترى القنطرة. قالوا: وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط.

وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرًا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم[٦] اللام. وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.

= البحر الحبشي.
(١) المغيض: أي يأتيه الماء فيغيض به ويذهب في الأرض.
(٢) الحرب سجال، أي أن الغلبة مداولة فيها. (٣) الزقاق: الطريق الضيّق.
(٤) السِّكر: بكسر السّين: هو ما سُدّ به النهر.
(٥) هو المسمّى بحر الزّقاق، واسمه الآن مجاز جبل طارق.
(٦) لعلّه يشير إلى خليج ليون، فهو مشهور بشدّة التّيار وبصعوبة السّلوك.

ومبدأ جريه من البحر الروميّ من الإقليم الرابع. فإذا خرج من الزقاق يمرّ مشرّقًا في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يمرّ بالمغرب الأوسط، إلى إفريقية، إلى برقة، إلى الإسكندرية، إلى شمال أرض التيه وأرض فِلَسْطِين. فيمرّ بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التي هي فرضة[1] أنطاكية، وعندها حجز البحر. ومنها يعطف فيمرّ على العلايا وأنطالية (وهما فرضتان لبلاد الروم)، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهي إلى المكان الذي منه خرج، وطوله خمسة آلاف ميل، وقيل ستة آلاف. وعرضه مختلف: ففي موضع ثلثمائة ميل، وفي موضع ستمائة ميل، وفي موضع سبعمائة.

ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة. كانت عامرة بطوائف من الفرنج، أخرب المسلمون أكثرها بالمغازي[2] في صدر الإسلام.

وأجلّ ما ملك المسلمون منها، ثم انتُزع أكثره من أيديهم:

١ ـ جزيرة الأندلس.

٢ ـ وجزيرة يابسة. وهي حيال جزيرة الأندلس، ومسافتها يومان في يوم. وفيها مدينة صغيرة مسوّرة.

٣ ـ وجزيرة منرقة، ومسافتها يومان في نصف يوم. وفيها مدينة عامرة.

٤ ـ وجزيرة ميورقة. ويقال فيها مايورقة. ومسافتها يومان في يومين، وبها مدينة.

٥ ـ وجزيرة رودس. وهي حيال بلاد أفرنجة[3]. ويحيط بها ثلثمائة ميل. وفيها حصنان.

٦ ـ وجزيرة سردانية. وطولها مائتان وثمانون ميلًا، وعرضها مائة وثمانون ميلًا. وفيها ثلاث مدائن كبار. وسكانها قوم من الفرنج متوحشون. وبها معدن فضة.

٧ ـ وجزيرة صقلية. وهي حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس. وشكلها مثلث. يحيط بها خمسمائة ميل. كثيرة الجبال، والحصون، والأمصار، والأنهار، والأشجار.

---

(١) الفرضة: محطّ السّفن.
(٢) المغازي: مفردها غزوة، وهي السّير إلى القتال وانتهاب الدّيار.
(٣) هذا الوصف لا ينطبق على جزيرة رودس، بل على جزيرة قورسقة التي هي حيال بلاد افرنجة، أي فرنسا، وهي تابعة لها.

ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر:

بلرمو. وبها يكون الملك؛ وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الناس منها إلى الخالصة. وهي محدثة. بنيت في أيام القائم ابن المهديّ العبيديّ في سنة خمس وعشرين وثلثمائة. ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضًا[١] لها.

وقطانية. وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذي في الجزيرة. فبنى الإمبراطور مدينة عوضها، وسماها غشطارة.

ومسينى. وهي على أحد أركان الجزيرة.

وسرقوسة. وهي على الركن الآخر، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها.

وطرابنش. وهي على الركن الثالث، والبحر محيط بها. ولها مجاز.

ومن بلاد هذه الجزيرة البرية: والشاقة، ومازر، وكركنت، ونوطس، وطبرمين، وقصريانة، والنور، ورغوص، وغيطة، وغير ذلك.

وبهذه الجزيرة. (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان، وهو أطيمة[٢] يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار، فتعلو في الهواء ليلًا ثم تسقط في البحر، فتطفو على وجه الماء. ومنها يكون حجر المرو الذي تحكّ به الأرجل.

٧ ـ وجزيرة بلونس. ودورها ألف ميل. ولها مجاز إلى البر الطويل، عرضه ستة أميال. فيها ما يزيد على خمسين مدينة؛ القواعد منها خمس عشرة مدينة، وهي مشهورة عند الفرنج.

٨ ـ وجزيرة مالطة. وطولها أربعة وعشرون ميلًا، وعرضها اثنا عشر. وفي وسطها مدينة واحدة.

٩ ـ وجزيرة قوسرة. وفيها مواضع متوحشة.

١٠ ـ وجزيرة أقريطش. وهي حيال برقة. طولها ثلثمائة ميل، وعرضها مائة وثلاثون ميلًا. وبها مدينتان: إحداهما تسمَّى الخندق، والأخرى تسمّى ربض الجبن. وفيها معدن ذهب.

---

(١) الرّبض: الناحية من الشيء، أو ما حول المدينة.

(٢) كانت بالأصل «أطمة» والصواب «أطيمة» كما أثبتناه. وانظر الحاشية ٤ صفحة ٢٢٥.

١١ ـ وجزيرة قُبْرُس. وهو اسم النحاس، لأن بها معدن نحاس. يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل. وفيها من المدن الجليلة، ليمسون، والپاف بباء مفخمة، والماغوصة. وكلها في البحر. وفي وسط الجزيرة مدينة الأفقسية، وهي القصبة. وبها يكون متولى الجزيرة.

٤ ـ ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة، والآخر يسمى خليج القسطنطينية.

١ ـ فأما خليج البنادقة. فإنه خليج كبير متسع ليس له فُوَّهة. وإنما هو جونٌ له ركنان، سعة ما بينهما سبعون ميلًا. يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة. وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة.

ومبدؤه من شرقيّ بلاد قلورية عند مدينة تسمى أُذْرَنْت(١)، ومنتهاه بلاد إيكلاية(٢). ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل. وفيه ست جزائر، ثلاثة منها في ضفة، وثلاثة في أخرى، بها مدن عامرة. وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة لا ساكن بها.

٢ ـ وأما خليج القسطنطينية. ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة لجزيرة رودس، وسعتها غلوة(٣) سهم. ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها.

ويمرّ هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلًا إلى أن ينتهي إلى القسطنطينية فتكون في غربيه، يحيط بجهتين منها.

وهي مدينة عظيمة مشهورة. وعرض البحر عندها أربعة أميال.

ثم يمرّ ستين ميلًا حتّى ينصب في بحر مانيطش. وهو بحر سوداق. وعرض فوهته هناك عشرة أميال. وفي موضع أقلّ، وفي موضع أكثر.

فهذا البحر الرومي وجزائره وما تفرّع منه.

والله أعلم.

---

(١) في الأصل «أكدنت» وهو تحريف لمدينة أذرنت، قال في نزهة المشتاق: خليج البنادقيين ومبدؤه من شرق بلاد فلوريه. . . من عند أذرنت. . . وينتهي طرفه إلى بلاد إيكلاية.

(٢) في الأصل: أنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية اليت ذكرها الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق.

(٣) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدّر بثلاثمائة ذراع إلى أربع مئة.

٥ ـ وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء. ويجري إلى جهة الغرب، فيجتاز ببلاد الواق[١]، وبلاد سُفالة الزنج؛ ثم ببلاد الزنج حتّى يصل إلى بلاد بربرا، وهناك حجزه.

وأما الشرقيّ: فمبدؤه من لوقين، وهي أوّل مرافىء الصين ثم بخانقو فُرْضَة[٢] الصين العظمى؛ ثم إلى سمَنْدُور من بلاد الهند؛ ثم إلى حارتين، إلى قندرينه[٣]، إلى تانة، إلى سندابور، إلى بَرْوَص (ويقال بَرْوَج، وإليها ينسب القماش البَرْوَجى)، إلى صَيْمُور[٤]، إلى سَنْدَان، إلى سوتارة، إلى كنباية. (وإليها ينسب القماش الكنبايتي)، إلى دَيْبُل (وهي أوّل مرافىء السند)؛ ثم إلى سرون، ثم إلى التِّيز[٥] من بلاد مُكْرَان، وهي أحد ركني الخليج الفارسيّ. والركن الآخر يسمى رأس الجُمْجَمَة: وهو جبل خارج في البحر، ومن هناك يسمى بحر اليمن، ثم يمتدّ على ظَفَارِ[٦]؛ ثم على الشِّحْر ساحل بلاد مَهَرَة؛ ثم على شُرْمَةَ ولَسْعا (ساحلي بلاد حضرموت)، ثم على أَبْيَن، ثم على عَدَن، ثم المَخْنَق، ثم العارة، ثم يمتدّ إلى باب المندب.

ومن هناك يخرج خليج القُلْزُم[٧]، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف. في موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفي موضع ألفان، وفي موضع دون ذلك.

ويقال: إن بينه وبين البحر المحيط بحرًا آخر يسمى البحر الزفتي، سمي بذلك لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل.

---

(١) جزيرة الوقواق، من جملة قمير، وهو اسم لا كما تظنّه العوام من أنه شجرة حملها كرؤوس الناس، ولكن قمير قوم ألوانهم إلى البياض، قصار القدود، على صورة الأتراك ودين الهنود، مخرّمي الآذان، وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان، والناس فيهم أرغب، ويجلب منهم الآبنوس الأسود، وهو لبّ شجرة تلقي حواشيها، فأما الملمع والشوحط والصّندل الأصفر فمن الزنج. «البيروني: كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٠٣».

(٢) الفرضة: محطُ السّفن، الميناء.

(٣) لعلّها قندابيل، مدينة بالسّند ذكرها ياقوت في معجمه ٤/ ٤٠٢.

(٤) صيمور، ويقال لها صيمون بلد من بلاد الهند الملاصقة للسّند. «معجم البلدان ٣/ ٤٤٠».

(٥) هي قصبة بلاد مكران بالسّند. «انظر معجم البلدان ٢٥/ ٦٦».

(٦) ظفار: هي مدينة باليمن في موضعين، أحدهما قرب صنعاء، فأما ظفار المشهورة اليوم، فليست إلّا مدينة على ساحل بحر الهند، وهي من أعمال الشّحر. «معجم البلدان ٤/ ٦٠».

(٧) والقلزم على بحر الهند، وهي مدينة، وسمّي بحر القلزم قلزمًا لالتهامه المراكب. «انظر معجم البلدان ٤/ ٣٨٧».

وهذا البحر - أعني الهنديّ - بجملته قسمه السالكون له سِتَّ قطع، وضعوا لها أسماء مختلفة.

١ - فالذي يمرّ بأرض الصين يسمى بحر صنجى[١]، ينسب لمدينة في جزيرة من جزائره. وهو بحر كثير الأمواج مهول. فإذا كان في أوّل هياجه ظهر فيه بالليل أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقلّ من ذلك. يصعدون إلى المراكب ولا يضرون أحدًا. فإذا عاينهم السُّفَّار[٢]، أيقنوا بالدّمار. وإذا قدّر الله تعالى نجاتهم من هذه الشدّة، أراهم على رأس الدَّقل[٣] طائرًا أبيض كأنما خلق من النور، فيتباشرون به. فإذا ذهب عنهم الروع، فقدوه.

وفيه من الجزائر المعمورة:

جزيرة شريرة[٤]. يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل. فيها مدائن كثيرة، أجلها المدينة التي تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور[٥].

وجزيرة صنجى. وإليها تنسب هذه القطعة. وطولها مائتا ميل؛ وعرضها أقلّ من ذلك. وفيها جواميس وبقر بغير أذناب.

وجزيرة أنفوجة. يحيط بها أربعمائة ميل. عمارتها متصلة.

٢ - ويلي هذه القطعة قطعة تسمَّى ببحر الصَّنْف. في جزيرة من جزائره مدينة. وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة. وفي جباله معادن الذهب والرصاص، وفيه مغاصُ اللؤلؤ، وفي غياضه[٦] الخيزران. وفيه مملكة المهراج. ويشتمل على جزائر لا تحصى، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة. وفيها أنواع الطيب من الكافور، والقَرَنْفُل، والعود[٧]، والصَّنْدل، والجَوْزبَوّي، والبَسْبَاسَة، والكَبَابَة[٨].

---

(١) لعلّ هذا الاسم هو و«شنجو» لمسمّى واحد، وهي المعروفة عند العرب باسم مدينة «زيتون» وهي فرضة الصين. «راجع أبا الفدا تقويم البلدان».

(٢) السُّفَّار: مفردها السّافر، وهو المسافر.

(٣) الدّقل: خشبة طويلة تشدّ في وسط السفينة، يمدّ عليها الشراع، وتسمّيه البحرية: الصاري.

(٤) سمّاها أبو الفداء في تقويم البلدان «سريرة».

(٥) الكافور: شجر تؤخذ منه مادة عطرية تستخدم في الطبّ، وزهر كزهر الأقحوان.

(٦) الغياض: مفردها غيضة، وهي الموضع الكثير الشجر والماء.

(٧) العود: نوعٌ من الطيب يتبخر به.

(٨) الكبابة: ثمرة شجرة من الفصيلة الفلفليّة، تنبت في جزائر الهند الشرقية، وهي طيبة الريح، حريفة الطعم، تستخدم في الطبّ مطهرًا للمجاري البوليّة.

ومن جزائره المشهورة:

جزيرة الزانج. وتكسيرها سبعمائة فرسخ، وبها يكون المهراج، وهو اسم يطلق على كل من ملكها.

وجزيرة البركان. وهي جزيرة فيها جبل يرمى بالشرر ليلًا، وبالرعود القواصف نهارًا، وهي أحد أطايم(١) الدّنيا المشهورة.

وجزيرة قُمار. وإليها ينسب العود القماريّ. وبها شجر الصندل. دورها أربعة أشهر. وهي مأوىٰ عُبَّاد الهند وعلمائهم. يسمَّى ملكها قامرون.

وجزائر الرامي(٢). وهي نحو ألف جزيرة معمورة. بها الملوك. وفيها معادن الذهب، وشجر الكافور.

وجزائر لنجيالوس. ويقال لنكيالوس. وهي كثيرة، وأهلها سود، مشوّهو الصور لقُرْبها من خط الاستواء. وبها معادن الحديد.

٣ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمّى بحر لاروي، وبحر كَلَه، وبحر الجاوه، وبحر فنصور. وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمرّ عليه من البلاد والجزائر. وهو بحر لا يدرك قعره. وفيه نحو ألف جزيرة تسمَّى جزائر النارجيل(٣)، لكثرته بها. وكلها عامرة بالناس. وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ(٤) والفرسخان. وليس يوجد في سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره في سائر المهن. وبيوت أمواله الوَدَعُ(٥).

ومن جزائره المشهورة مما يلي أوائل بلاد الهند:

جزيرة المانِد. وهي جزيرة يحيط بها ألف ميل. وفيها ثلاث مدن كبار.

وجزيرة كرمون. يحيط بها ثلثمائة ميل.

---

(١) كذا بالأصل؛ والصواب «أطايم» واحد الأطيمة؛ لأن الآطام واحدها الأطم وهو الحصن، ولا معنى لتسمية بركان النار باسم الحصن؛ وإنما المناسب أن يسمى بالموقد والأتون بجامع التوقّد والتلظّي والرمي بالشرر، وهذا معنى الأطيمة.

(٢) في الأصل: الراق، وفي نزهة المشتاق: الرامي.

(٣) النّارجيل: جوز الهند، واحدته نارجيلة، شجرته مثل النخلة سواء. «اللسان مادة نرجل»

(٤) الفرسخ: مقياس قدره ثمانية كيلومترات.

(٥) الودع: خرز بيض جوف، في بطونها شقّ كشقّ النواة تتفاوت في الصغر والكبر.

وجزيرة بلى. منسوبة لمدينة من الهند على ساحله. يأتيها التجار لأجل الفلفل.

وجزائر الذئاب. وهي كثيرة. وأكبرها جزيرة ديبى. وسكانها قبائل من العرب. يحيط بها أربعمائة ميل. وفيها الموز، وقصب السكر.

وجزيرة السيلان. وطولها ستمائة ميل، وعرضها قريب من ذلك. وفيها مدن كثيرة. وإليها ينسب العود السيلي.

وجزيرة كَلَه. وإليها ينسب البحر. وهي جزيرة خطيرة، طولها ثمانمائة ميل، وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلًا. وبها من المدن فنصور. فيها شجر الكافور (وفيها العود الفاخر) وملاير، ولاروي، وكله (وإليها ينسب الدّهن). ولكل مدينة من هذه المدن خَوْر(١) تعبره المراكب من البحر.

وجزيرة صندابولات. وطولها نحو من مائتي ميل، وعرضها نحو مائة ميل. تنسب إلى مدينة هي فيها.

وجزائر بداميان. فيما أمم سود، قِبَاح الوجوه. قامة الرجل منهم أقلّ من ذراع. ليس لهم مراكب. فإذا وقع إليهم غريق أو من يَتِيه من التجّار، أكلوه.

٤ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هَرْكَنْد، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدّتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس في الحياكة، ينسجون القميص بكمّيه ودَخَارِيزِه(٢) قطعة واحدة.

وفيه من الجزائر المشهورة:

جزيرة سرنديب(٣). وهي مدوّرة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقُّها جبل الراهون، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام من الجنة. وفي أوديتها الياقوت والماس والسُّنْبَاذَج(٤). وطولها مائتان وستون ميلًا. ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى

(١) الخور: الخليج أو مصبُّ الماء في البحر، أو المنخفض في الأرض بين مرتفعين ص ٢٤١.

(٢) لم نقع عليها في لسان العرب، والدخرص: ما يوصل به بدن الثوب، أو يتسع «ج» دخاريص. «انظر اللّسان مادة دخرص».

(٣) قال البيروني: سنكّريب، وهي جزيرة سرنديب «تحقيق ما للهند: ص ١٠٢».

(٤) السُّنباذج: حجر المسنّ.

أَغْنا، يسكنها مسلمون، ونصارى، ويهود، ومجوس. ولكل أهل ملة من هذه الملل حاكم. لا يبغي بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغباب(١).

٥ ـ ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوّله بحر الجُمْحة، وهو بلاد مَهَرَة. معترض في البحر فيمرّ بحاسك (وهو أوّل مرافىء اليمن)؛ ثم يمرّ بمِرْبَاط(٢) (ساحل بلاد ظَفَارِ)؛ ثم يمرّ بالشِّحْر (ساحل بلاد مَهَرَة)؛ ثم بُشْرَمَة ولَسْعَا (ساحلي بلاد حضرموت)؛ ثم بأَبْيَنَ؛ ثم بعدن؛ ثم بالمخنق؛ ثم بالعارة؛ ثم الباب بالمندب.

وفيه من الجزائر المشهورة:

جزيرة سقوطرة. وطولها نحو من مائة وثمانين ميلًا، وعرضها في الوسط نحو خمسة عشر ميلًا. وبها الصبر. يسكنها قوم من اليونان، تغلبوا على من كان فيها من الهند في زمن الإسكندر. وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد في العقل. ولهذا سميت في الكتب القديمة جزيرة العقل.

ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا؛ ويسمى ساحله الزنجبار.

وفيه مما يلي بلاد اليمن جزائر. منها:

جزيرة دعون(٣)، وهي مدوّرة.

وجزيرة السود.

وجزيرة حورتان.

وجزيرة مروان. وفيها مدن يسكنها السُرَّاق(٤)، وهي مقابلة لبلاد مهرة.

وجزائر الديبجات. وهي كثيرة. وأهلها مفرطون في السواد. وجميع ما عندهم أسود، حتّى قصب السكر والكافور.

---

(١) الأغباب: واحدها غبّ، وهو كما قال البيروني: كالزاوية أو العطفة، يدخل من البحر إلى البرّ، وتخافه السّفن وخاصة لجهة المدّ والجزر.

(٢) مُرباط: هي مدينة بين حضرموت وعمان، وهي الفرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها.

(٣) من المعلوم أنّ العرب يسمّون شبه الجزيرة بالجزيرة، ولم أجد لهذا الاسم أثرًا في المصادر المتوفّرة، فلعلّها هي التي ذكرها ياقوت باسم «دغوث» وقال: إنها بلد بنواحي الشّحر من أرض عمان. «معجم البلدان ٢/ ٤٥٧».

(٤) السُرَّاق: واحدها سارق، وهو اللصّ.

وجزيرة القُمْر. وتسمى جزيرة ملاي. وطولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها يزيد على عشرين يومًا. وهي تحاذي جزيرة سرنديب. وفيها بلاد كثيرة أجلها كيدانة، وملاي (وإليها تنسب الجزيرة) ودهمى، وبليق، وخافورا، ودعلى، وقُمْرية (وإليها ينسب القُمْر). ويقال: إن بهذه الجزيرة خشبًا، ينحت من الخشبة منه شانٍ[١] يكون طوله ستين ذراعًا، يجذف على ظهره مائة وستون رجلًا. ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم. ومنها يخرج نهر النيل[٢].

٦ ـ ويخرج من هذا البحر الذي يجمع هذه القطع خليجان

أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس.

١ ـ فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المَنْدَب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلًا، وسَعَة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البرّ الآخر. فإذا قارب المَنْدَب يمرّ في جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجَرَدَة، ثم الشَّرْجَة، ثم عَثَّرَ (وكانت مقرّ ملك قديم) ثم بالسِّرَّيْن، وحَلْي، وعُسْفَان، والجَارُ (وهي فرضة المدينة) والجُحْفَة، والصَّفْراء، والحَوْراء، ومَدْيَن، وأَيْلَةَ، والطُّور، وفَارَان، ثم القُلْزُم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة). ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمرّ بالقُصَير (وهي فرضة لقوص) ثم إلى عَيْذَاب (وهي فُرْضة لبلاد البُجَّة)، ثم يمتدّ إلى زَيْلع (وهي ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا.

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل. وعرضه في مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك إلى مائتي ميل إلى ما دون ذلك.

وهو بحر كريه المنظر والرائحة.

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ[٣] عُمَان. لأنه في سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَتِه انقطعت بنصفين على شُعْبَتَيْن متقابلتين؛ ثم يخرج من كُمِّيْ هاتين الشعبتين، فيثير البحر فتتبلَّد السفن باختلاف الريح

(١) شانٍ: أي تصنع منه السّفن المعروفة «بالشّواني».

(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرًا بين هذه الجزائر المعروفة «بالقُمْر» بضم فسكون، وبين الجبل المعروف بالقَمْر، بفتح فسكون، فيجعلونها شيئًا واحدًا، ويقولون بخروج منابع النّيل من تلك الجزائر، وهذا أمر غير معقول.

(٣) الدردور: دوامة البحر التي يخشى فيها الغرق.

فلا تكاد تسلم. وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغُرُنْدُن(١). ويقال: إنها التي أغرق الله فرعون وقومه فيها. فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه.

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهي:

جزيرة دَهْلَك. يحيط بها نحو مائتي ميل؛ يسكنها قوم من الحبوش. مسلمون.

وجزيرة سواكن. وهي أقل من ميل في ميل. وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البُجَّة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وجزيرة النعمان. وبها نويس(٢) تعيش من لحوم السلاحف.

وجزيرة السامريّ. يسكنها قوم من اليهود، سامرةٌ، في عيش قَشِيف.

٢ ـ وأما خليج فارس. فإنه مثلث الشكل على هيئة القِلع(٣).

أحد أضلاعه من تِيزِ مُكْرَان. فيمرّ في بلاد كَرْمان على هُرْمُز، ومن بلاد فارس على سِيرَاف، وتوح(٤)، ونَجِيرَم، وجَنّابة، ودَارِين، وسِينِيز، ومَهْرُوبان؛ ومنها يُفضي البحر إلى عَبَّادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمرّ بالخط، وهو ساحل بلاد عُمَان إلى صور، وهي ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتدّ إلى رأس الجُمْحَة من بلاد مَهَرَة.

والضلع الآخر يمتدّ على سطح البحر من تِيزِ مُكْرَانَ إلى رأس الجُمْحَة.

وهذه الأضلاع غير متفاوتة في الطول؛ فإن الضلع الذي يمتدّ على سطح البحر طوله خمسمائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدىء من تِيزِ مُكْرَان إلى أن ينتهي إلى عَبّادان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجُمْحَة، تسعمائة ميل.

وفيه مما يلي عَبَّادان مكان يعرف بالدُّرْدُور. وهو بين جبلين، أحدهما يسمى كُسَير، والآخر عُوَير. ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه «وآخر ما فيه خير» لشدّة ما يرى بها من الأهوال. وهي جبال سود ذاهبة في الهواء يتكسر الماء على شُعَبها. ولا بدّ للمراكب أن تمرّ بينها، وقلَّما تسلم.

---

(١) الذي في تقويم البلدان «الغرندل». (٢) نويس: تصغير ناس.

(٣) القلع: شراع السفينة.

(٤) هكذا في الأصل، وقال ياقوت: إنها توّج، وهي التي تسمّى أيضًا توز، وهي مدينة بفارس قريبة من كازرون، شديدة الحرّ لأنها في غور من الأرض. «معجم البلدان ٢/٥٦».

وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربعة عامرة، وهي:

جزيرة خارَك. يحيط بها اثنا عشر ميلًا. وهي عامرة آهلة كثيرة البساتين. وبها مغاص اللؤلؤ.

وجزيرة كِيش. وبها مغاص اللؤلؤ أيضًا. وهي آهلة. وتسمى هذه الجزيرة في عصرنا هذا «قِيس».

وجزيرة أَوال. وهي تجاه ساحل البحرَيْن، وبينهما يوم. وبها مدينة وأوال مدينة من مدائن البحرين.

وجزيرة لافْت. وتعرف بجزيرة بني كاوان[١]. وطولها اثنان وخمسون ميلًا، وعرضها تسعة أميال. وهي آهلة.

وهاتان الجزيرتان معدودتان في بلاد جُور من أعمال فارس.

ويقال أيضًا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث في شمال الصقالبة، ويمتدّ قرب بلد بلغار المسلمين، ويسمى بحر أدريك، منسوب إلى أمّة على ساحله في جهة الشمال، ثم ينحرف نحو المشرق؛ وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة.

فهذا البحر المحيط وما يتفرّع منه.

٧ ـ وأما بحر مانيطش[٢]

ويُسمَّى البحر الأسود وبحر سوداق. وهي مدينة على ساحله. هي فرضة لبلاد القفجاق مما يلي القسطنطينية. وعليه أيضًا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِرِم[٣]، مقصودة من كل الجهات. وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء. وهي محدثة. مُصِّرَتْ فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية. ويسمى هذا البحر أيضًا بحر الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارىٰ. وهو بحر ضخم كثير الأخوار[٤]

(١) ويسمّيها الإدريسي في كتابه: نزهة المشتاق: ابن كاوان، ويسمّيها غيره «بركاوان».

(٢) جرى المؤلّف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الأسود، والحقيقة أن بحر نيطش هو المعروف الآن بالبحر الأسود، وأمّا «مانيطش» فهو المعروف ببحر آزاق، أو بحر آزوف.

(٣) قِرِم: وبها سمّيت شبه الجزيرة الموجودة في البحر الأسود، وهي شبه جزيرة القرم ص ٢٤٧.

(٤) الأخوار: مفردها الخورة وهو الخليج.

والتروش[١] والجبال الجرش[٢]. وطوله من الشمال إلى الجنوب ألف ميل وثلثمائة، وعرضه مختلف. ففي موضع ستمائة ميل، وفي موضع ثلثمائة ميل. والناس مختلفون فيه. فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية. وأكثرهم على أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره. وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط على ظهر بلاد الصقالبة، ويحيط به بلاد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأزكشية، وبلاد الشركسية، وبلاد العلان[٣] والعنكر والناشقرد.

وفيه ست جزائر عامرة، وهي كثيرة المدن والقرى، يسكنها الروس.

٨ ـ وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم. وذلك بحسب ما يمرّ عليه من البلاد. وهو ـ على ما حكاه ابن حوقل[٤] ـ مدوّر الشكل، ليس له اتصال ببحر آخر.

قال: ولو أن إنسانًا طاف به، لانتهى إلى الموضع الذي ابتدأ منه، لا يقطعه عن ذلك إلّا نهرٌ يصب فيه.

وفي شرقيّ هذا البحر بعض بلاد الديلم[٥]، وبلاد طبرستان، وجُرْجان، وبعض المسافة التي بين جرجان وخوارزم؛ وغربيه بلاد أرّان، وبلاد الخزر، وبعض مفازة الغزية[٦]؛ وشماليه مفازة الطُغُزْغُزية؛ وجنوبيه الجيل[٧]، والديلم. وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل.

وقال صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق»: طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتِل ستمائة ميل، وخمسون ميلًا وهو يقطع عرضًا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب في أسبوع بالريح

(١) التروش: في الأصل: التروس، والإدريسي يستعمل كلمة «التروش» ومعناها الشُّعَب: أي الصخور التي تكون تحت سطح الماء قليلًا فتتكسّر السفن وتتحطم إذا اصطدمت بها.
(٢) الجُرْش: السّود، والجُرش من الليل: الطائفة أو القسم منه..
(٣) العلّان: ترك تنصّروا وهم خلق كثير، ويعرفون في كتب العرب باسم «اللّان».
(٤) ابن حوقل، رحّالة من علماء البلدان، تقدّم ذكره.
(٥) الدّيلم: جماعة من العجم، كانوا في الأصل صنفًا من الأكراد.
(٦) في الأصل: الغرنة، والتصحيح عن كتاب أبي الفدا. «تقويم البلدان».
(٧) في الأصل: الختل، وهو تحريف من الناسخ.

الطيبة، وفيه أربع جزائر، وهي:

جزيرة سياكوه[١]. وهي تجاه آبسكون، فرضة جرجان. يسكنها طائفة من الترك. يصاد بها البزاة البيض.

وجزيرة سهلان. وطولها نحو مائة ميل، وعرضها نحو خمسين ميلًا.

وجزيرة البركان[٢]. وهي أطيمة[٣] عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشمخ[٤] ما يكون من الجبال. ترى من نحو مائة فرسخ من البر.

وجزيرة تجاه باب الأبواب. كثيرة المروج والأنهار. وهذا البحر يقال: إنه كثير التنانين[٥].

وقد اختلف فيها. فمن الناس مَن يقول إنها دواب تعظم في قعر البحر فتؤذي ما به من دواب، فيبعث الله عزَّ وجلّ عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعامًا لهم. وهذا مما يحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من رأى أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب، كالزَّوْبعة التي تثور من الأرض وتستدير ثم تطول في الهواء. فيتوهم الناس أنها حيّات سود.

وسائر البحار تَمُدّ[٦] وتَجْزُر[٧]، خلا هذا البحر.

ويقال إن علة المدّ والجزر تكون عن وضع المَلَك الموكل بقاموس البحر عقبه[٨] في أقصى بحر الصين، فيفور فيكون منه المدّ؛ ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر. (ومنهم من روى مكان العقب الإبهام).

ومنهم مَن قال إن العلة فيه غير هذا كله. والله أعلم!

---

(١) في الأصل: بساه كوه، والتصحيح عن كتاب أبي الفدا. «تقويم البلدان».

(٢) هي شبه الجزيرة المعروفة الآن باسم «أبشرون» وفيها مدينة «باكو» المشهورة وهذه المدينة سمّاها أبو الفدا «باكوي» وسمّاها المسعودي «باكه» وقال: إن بها معدن النفط الأبيض «أي البترول» ثم قال: وفي هذه النفاطة أطمة وهي عينٌ من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تتضرّم الصعداء، فهذا هو الذي عناه النويري باسم «البركان».

(٣) كانت بالأصل «أطمة» والصواب «أطيمة» كما أثبتناه. وراجع الحاشية ٤ صفحة ٢٢٥.

(٤) الشامخ: العالي.

(٥) التنانين: مفردها «تنّين» وهو حيوان أسطوري يجمع بين الزّواحف والطّير.

(٦) المدّ: ارتفاع ماء البحر وامتداده إلى البر.

(٧) الجزر: انحسار ماء البحر وتراجعه عن الشاطىء.

(٨) العقب: عظم مؤخر القدم.

ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب

وفي المعمور بحيرات مالحة، فالذي اشتهر منها:

بحيرة خُوَارَزْم. وشكلها مثلث كالقِلْع[١]، وليس في المعمور بحيرة أعظم منها. يحيط بها أربعمائة فرسخ. يصبُّ فيها نهرا سيحون وجيحون، اللذان في أرض الهياطلة[٢]، وغيرُهما من الأنهار العظيمة الجارية في بلاد الترك. وهي مع ذلك لا تزيد ولا تعذُب.

وزعم صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» أن في هذه البحيرة حيوانًا يظهر على سطحها في صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعًا، بلغة لا تُفْهَم ثم يغوص. وظهوره عندهم يدل على موت مَلِك من ملوك ذلك الحين.

ومنها بحيرة الطِّرِّيخ[٣]: لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلى سائر بلاد أرمينيَةَ وأذْرَبيجان. وطولها أربع مراحلَ، وعرضها مرحلة. يُجْمَع من أطرافها البُورَق[٤]. والسمكُ يوجد بها في زمان مخصوص، يأتيها في نهر يصب إليها، ويكثر حتّى يصاد بالأيدي. فإذا انقضى ذلك الزمان، لا يوجد منه شيء البتة.

وفي بلاد أذربيجان بحيرة كَبُوذان[٥]. وكَبُوذان قرية في جزيرة، يسكنها ملَّاحُو المراكب التي يُرْكَب فيها من هذه البحيرة. وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك. وفيها جزائر: منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمّى تلا. ولا يكون بهذه البحيرة حيوان البتةَ، لأن ماءها منتن رديء.

---

(١) القلع: شراع السّفينة.

(٢) الهياطلة: هم الصغدر والغور والعلّان، ويقال: اللّان والشركس والرّوس وكلّهم من جبل الترك. «انظر صبح الأعشى ١/ ٤٢١».

(٣) واسمُها في كتب الجغرافية العربية بحيرة «أرجيش» وهذا السّمك الذي سمّيت به كما في القاموس، سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل، وقد ذكره ابن حوقل وقال: إنه صغير مقدار الشّبر، ويحمل إلى الجزيرة والموصل والرّقة... وبلاد أخرى.

(٤) البورق: ملح يذوب بسهولة في الماء الدافىء، وبصعوبة في الماء البارد.

(٥) هي التي ذكرها أبو الفدا باسم «بحيرة تلا» وياقوت باسم «بحيرة أرمية» وقد ذكر أن في وسطها جبلًا يقال له «كبوذان» وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكُنُها ملّاحو سفن هذا البحر. «معجم البلدان ١/ ٢٥١».

وفي بلاد البَحريْنِ بُحَيرة. وبها بالبحر الكبير سميت أرض هَجَر: «البحرين».

وفي الشام بأرض الغَوْر بحيرة زُغَر، وتسمّى المُنتِنةَ والميتة. لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شيء مما يتكوّن في المياه الجارية والراكدة من الحيوانات. وطولها ستون ميلًا، وعرضها اثنا عشر مِيلًا.

ويقال إنها ديار قوم لوط التي خَسَفهم الله بها. ويقال إنها كانت خمس مُدُن، أسماؤها: «ضيعه»، و «ضعوه»، و «عمره»، و «دوما»، و «سذوم». وكانت سذوم أكبرها وأعظمها.

ويُصبُّ في هذه البحيرة نهر الأُرْدُنّ وغيرُه من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكَرَك وغيرها، فلا تزيد. ويقال إن لها مَنْفَذًا إلى بحر القُلْزم. وبساحلها الشرقيّ إلى حدّ أَرِيحا معدِنُ الكبريت الأبيض، يُحْفَر عليه ويُخْرَج. ويتكوّن في هذه البحيرة شيء على شكل البقر، ويطفو على وجهها ويتفقع، فيجمع منه شيء أسود يسمونه «الحُمّرَ»[١] وينقل إلى قلعة الكَرَك يدَّخر بها، يدخل في النِّفط.

وفي أعمال مصر بحيرة تِنِّيس، مقدارها إقلاع يوم في [عرض][٢] نصف يوم. يكون ماؤها في أكثر السنة مِلْحًا من دخول ماء البحر الروميّ إليها، فإذا مَدّ النيلُ صبَّ فيها فتحلو فإذا جَزَرَ مَلُحت.

ويقال: إنه كان في مكانها بَرٌّ مسلوك تغَلَّب عليه البحر في ليلة واحدة، فما كانت أرضه مستفِلة غرق، وما كانت أرضه عالية مثل تِنِّيس وتُونَةَ بقي.

وفي وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجار، يسكنها قوم صيادون.

وقال إبراهيم بن وصيف شاه في «كتاب العجائب الكبير»: إن بحيرة تِنِّيس كانت أجِنَّةً وكروما ومنازلَ ومنتَزَهات، وكانت مقسومة بين مَلِكين من ولد أَتْرِيبَ بن مصر، وكان أحدهما مؤمنًا والآخر كافرًا، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البِرّ حتَّى باع حصته من أخيه وفرّق مالها أيضًا، فأصلحها أخوه وزاد فيها غُرُوسًا وفَجَّر فيها أنهارًا وبنى فيها بنيانًا، واحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يمنَعُه ويفتخِر عليه بما في يده

(١) الحمّر: لعلّها مأخوذة من حِمِرّ: أي الشديد، وغيث حمرّ مثل فِلِزّ، أي شديد يقشر وجه الأرض، وحمّارة القيظ: شدّتها. «انظر اللّسان مادة حمر».

(٢) ما بين قوسين زيادة من معجم ياقوت ٢/ ٥١.

من المال والأجِنَّة[١]، فخاطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه، وقال: أنا أَكْثَرُ مِنك مالًا وولدًا وخيرًا، فقال له أخوه: فما أراك شاكرًا لله تعالى على ما رزقك، ويوشك أن ينزع ذلك منك. ويقال: إنه دعا عليه فعرّق ماء البحر ما كان له في ليلة واحدة.

وقيل: إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٣٢] الآيات؛ والله تعالى أعلم.

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأُشْتُوم، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها في خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمّى الجدية، والأخرى تسمّى أتلو[٢] كثيرة المقاثي والنخل، وكلها في الرمل. ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمّى «الحافر» طوله نصف يوم إقلاعًا، وهو كثير الطير والسمك والعُشْب.

وفي بلاد إفريقِية بحيرة بَنْزَرْت. ماؤها مِلْح، وطولها ستة عشر ميلًا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة ماؤها عذب تسمّى بحيرة مِتّيجة[٣]. فإذا جاء الشتاء وكثُرت السيول، غاضت بحيرة بنْزَرْت، وفاضت بحيرة متّيجة حتّى تمدّها ستة شهور فلا يحلو ماؤها؛ فإذا انقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متّيجة، وفاضت بحيرة بنْزَرْت فلا يملُح ماؤها. ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة نوعٌ من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغيُّر السمك فيها.

وحكى صاحب كتاب «مَبَاهج الفِكَر ومَنَاهج العبر»: أن بتخوم بلاد أرمِينِيَةَ بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستةَ أشهر كواملَ، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع. وهذا دأْبها مدى الزمان.

وبِخلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضِفْدَع ولا سَرَطان عشرةَ أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين.

---

(١) الأجِنّة: جمع جنة، وهي الحديقة ذات الشّجر.

(٢) كذا بالأصل، وفي معجم ياقوت «أتكو» بليدة قديمة من نواحي مصر قرب رشيد. «معجم البلدان ١/ ٨٧».

(٣) وزنها في القاموس «سِكّينة» أي «مِتّيْجَة».

وبقرية من ناحية بَنجهِير من بلاد خراسان بحيرةٌ، ما غُمِس فيها شيءٌ إلا ذاب: حديدًا كان أو خشبًا.

وكذلك بركة النَّطْرون التي بأرض مصر ما وقع فيها شيء إلا صار نَطْرونا[١] حتّى العظم والحجارة.

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل).

يقال: أعْمَقُ من البحر. أندى[٢] من البحر.

ويقال: حدِّثْ عن البَحْر ولا حَرَجَ.

ويقال: جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ. والطِّم البحر؛ والرِّم البر.

ومن أنصاف الأبيات:

* وهل يملِكُ البحرُ أن لا يَفِيضَا؟ *

* ومَنْ وردَ البحرَ استقَلَّ السَّواقِيَا! *

* أنا الغريق، فما خوفي من البلل؟ *

ومن الأبيات: [من الطويل]

هو البحرُ إلا أنّه عَذْبُ مَوْرِدٍ ... وذا عجبٌ أنَّ العُذُوبةَ في البَحْر!

وقال ابن الروميّ: [من الكامل الأحذّ]

كالبَحْرِ يَرْسُبُ فيه لُؤْلُؤه ... سُفْلًا، وتَعْلُو فوقَهُ جِيَفُهْ

ومثله قول الآخر: [من الوافر]

كمثلِ البَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَيٌّ ... ولا ينْفَكُّ تطفُو فيه جيفَهْ

وقال ابن الروميّ: [من المتقارب]

ألا فارْجُهُ واخْشَه إنَّه ... هو البحرُ: فيه الغنى والغَرَقْ!

---

(١) النطرون: «البورق» وهو مادة أقوى من الملح.

(٢) أندى: أكرم.

وقال أبو نُوَاس: [من مجزوء الكامل المرفّل]

مَــنْ قــاسَ غــيْــرَكُــمُ بِــكُــمْ قــاس الــثِّـمـادَ إلـى الـبُـحُـورِ![1]

وقال آخر: [من الطويل]

إذا كنتُ قُرْبَ البَحْرِ ما لِيَ مَخلَصٌ إليه، فما يُغْني اقْتِرابِي من البحر!

وقال آخر: [من الكامل]

كالبحر يَقْذِفُ للقَرِيبِ جَواهِرًا منه، ويُرْسِلُ للبَعيد سَحائبا

ذكر شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه

قال ابن رشيق عفا الله عنه: [من السريع]

الـبـحـرُ مُـرُّ الـمَـذَاقِ صَـعْـبٌ لا جُـعِـلَـتْ حـاجـتِـي إلـيْـهِ
ألـيـس مـاءً ونـحـنُ طِـيـنٌ فـمـا عـسـى صَـبْـرُنـا عـلـيـهِ؟

وقال ابن حمديس[2]: [من المجتث]

لا أركـبُ الـبـحـرَ، أخـشـى عَـلَـيّ مـنـه الـمَـعَـاطِـبْ!
طِـيـنٌ أنَـا وهـو مـاءٌ والـطِّـيـنُ فـي الـمـاء ذائـبْ

وقال آخر: [من السريع]

وزاخِـرٍ لـيـس لـه صَـوْلَةٌ إلّا إذا مـا هَـبَّـتِ الـرِّيـحُ[3]
فـهُـو إذا مـا سـكـنَـتْ سـاكِـنٌ كـأنّـمـا الـرِّيـح لـه رُوحُ

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت: [من الوافر]

تناهىٰ البحرُ في عَرْضٍ وطُولٍ وليس له على التحْقِيقِ كُنْهُ[4]
وأعْـجَـبُ كـلّما شاهدتُ فيه سـلامَـتَـنـا عـلى الأهـوال مِـنْـهُ
فـحـسـبـي أنْ أراهُ مـن بَـعِـيـدِ وأهـرُبُ فـوق ظَـهْـرِ الأرض عـنْـهُ

---

(١) الثِّماد: الماء القليل الذي ليس له مدد.
(٢) ابن حمديس: هو عبد الجبّار بن أبي بكر الصقلي «تقدّم ذكره».
(٣) الصّولة: السّطوة في الحرب أو غيرها، والزّاخر: الملآن.
(٤) الكنه: المعرفة.

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم[(١)]: [من الوافر]

أُطَاعِنُ صَفَّهم ولقد أَرَانِي عـلى زَوْرَاء تسجُد للرِّياحِ[(٢)]
إذَا اعترضَتْ براكبِها خليجًا تَـذَكَّر مـا عـليه من جُنَاحِ[(٣)]
ونحنُ على جوانِبِها قعودٌ نغُضُّ الطَّرْف كالإبل القِمَاحِ[(٤)]

وقال ابن تولو من أبيات: [من الطويل]

تحثُّ بِنَا فيه قِلَاصٌ كأنها وِعَالٌ، تبدّتْ من جِبالٍ شواهِقِ[(٥)]
لها كافِلَا ماءٍ وريح كِلَاهُما يعلِّمُها في الجَرْيِ سبْقَ السَّوابِقِ
إذا انحدَرَتْ؛ فالماءُ ألطفُ قائدٍ وإن صَعِدتْ، فالريحُ أعسَفُ سائقِ

وقال السلاميّ: [من الوافر]

ومَيْدانٍ تَجُول به خُيُولٌ تقودُ الدَّارِعِينَ ولا تُقَاد
رِكِبتُ به إلى اللَّذَّات طِرْفا له جِسْمٌ، وليس له فُؤادُ![(٦)]
جرىٰ فظَنَنْتُ أنّ الأرض وَجْهٌ ودِجلَة ناظِرٌ، وهو السَّوَاد

وقال محمد بن هانيء[(٧)]: [من الطويل]

مُعَطَّفةُ الأعناقِ نَحْوَ مُتُونِها كما نَبَّهتْ أيْدِي الحُواةِ الأَفَاعِيَا
إذا أعمَلُوا فيها المَجَاذِيف سُرْعةً ترىٰ عَقْربا منها على الماء ماشِيَا
إذا ما ورَدْنَ الماءَ شَوْقًا لبَرْدِهِ صدَرْنَ ـ ولم يَشْرَبْنَ ـ غَرْثىٰ صَوَادِيا[(٨)]

---

(١) هو بشر بن أبي خازم، من بني أسد، جاهليٌّ قديم، شهد حرب أسد وطيء، وكان في شعره إقواء، وهو اختلاف حركة الرويّ. «انظر الشعر والشعراء، ص ١٦٤».
(٢) الزوراء: السّفينة التي تميل مع الرّيح. (٣) الجناح: الذّنب.
(٤) القماح: الإبل التي ترد الماء وترفع رأسها ممتنعة من الشّراب.
(٥) القلاص: مفردها قلوص: وهي الناقة، والوعال: جمع وعل: وهو تيس الجبل، له قرنان منحنيان.
(٦) الطّرف: الكريم من الخيل.
(٧) هو محمد بن هانيء بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم، أشعر المغاربة على الإطلاق، يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة توفي سنة ٩٧٣ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٣٠».
(٨) وردن: قصدن الماء للشرب، والغرثى: الجوعى، والصّوادي: الظّماء.

وقال الرستميّ[(١)]: [من الخفيف]

لم نَزَلْ مُشْفِقِينَ مُذْ قيل: سارَتْ بـك دُهْـمٌ قـليـلةُ الأوْضـاحِ[(٢)]
أصلُها البَرُّ وهي ساكنةٌ في البـ ـحـر سُـكْـنـىٰ إقـامـةٍ لا بَـراحِ
هِيَ في الماءِ وهي صِفْرٌ من الما ءِ سوىٰ نَضْحِ مَوْجِها النَّضَّاحِ
فـإذا أوقِـرَتْ، فـذاتُ وَقَـارٍ وإذا أُخْلِيتْ، فذاتُ جِمَاحِ[(٣)]
وتَـرَاها فـي الـلُّجِّ ذاتَ جـنـاحـ ـيـنِ وإن لـم تكنْ بِذاتِ جَنَاحِ[(٤)]
مِنْ مَطَايا لا يَغْتَذِيـن ولا يَسْـ ـأمْنَ سَيْرَ البُكُورِ بعدَ الرَّوَاحِ[(٥)]
مُنْشَآتٌ مـن الـجَـوَارِي الـلَّواتِـي لَسْنَ من صَنْعة الجَوَارِي المِلَاحِ[(٦)]
والـداتٌ مُـوَلَّداتٌ بـلا حِـ ـلِ نِـكـاحٍ ولا حَـرامِ سِـفَـاحِ
لا مِنَ البِيضِ بل من السُّودِ ألوا نٌ وذاتِ الألْواحِ والأزْواحِ
طـائـراتٌ مـع الـرِّيـاحِ، وطَـوْرًا كـاسِـراتٌ بِـالـجَـرْيِ حَدّ الـرِّيَـاحِ
سائِراتٌ لا يَشْتِكِينَ سُرىٰ اللـيـ ـل ولا يـرتَـقِـبْـنَ ضَـوْءَ الـصَّـبَـاحِ
سـاكِـنَـاتٌ بـلا خُـضُـوعٍ سُـكُـونٍ جـامِـحَـاتٌ بـلا عُـرَامِ جِـمَـاحِ[(٧)]
لا يَـخَـفْـنَ الـغِـمـارَ يُـقْـذَفْـن فـيـهـا ويـخَـفْـنَ الـمُـرُورَ بـالـضَّـحْـضـاحِ[(٨)]
إنْ صَدَمْنَ الحصىٰ عَطِبْنَ ولا يعطَـ ـبْـنَ إمَّـا صَـدَمْـنَ حَـدّ الـرِّمـاحِ
ما رأىٰ الناسُ من قصورٍ على الما ءِ سِـوَاهَـا يَـسِـيـرُ سَـيْـرَ الـقِـداحِ
يـتـسَـبْـسَـبْـنَ كـالأَسـاوِدِ فـي الـخِـفَّـ ـة لا فـي مـعـادة الأشْـبـاحِ[(٩)]

(١) هو محمد بن الحسن بن علي بن رستم، من أبناء أصبهان، ومن يقول الشعر في الرّتبة العليا، ومن شعراء العصر في الطبقة الكبرى. «انظر اليتيمة ٣/ ٣٥٥ وما بعدها».
(٢) الدُّهم: الخيل التي يميل لونها إلى السّواد، والأوضاح: جمع وضح، وهو البياض، أو البياض في القوائم.
(٣) أوقرت: حُمِّلت، والجماح: التمرّد يقال جمحت الفرس: تمرّدت وراحت تجري على هواها.
(٤) اللُّجّ: معظم الماء الذي لا يدرك قعره، ولجّ البحر: عرضه.
(٥) اليكور والرّواح: سير النهار واللّيل.
(٦) الجواري الأولى: السُّفن، والجواري الثانية: جمع جارية وهي المرأة غير حرّة، وفي الكلام جناسٌ تام.
(٧) جامحات: جمحت السفينة: تركت قصدها دون أن يستطيع الملاحون التحكُّم في سيرها.
(٨) الغمار: اللجُّ والماء البعيدة الغور، والضحضاح: الماء القليل والقريب القعر.
(٩) يتسبسبن: يجرين، والمعادة: التردّد ذهابًا وإيابًا، والأشباح: الظلال المترائية.

فـإذا مـا تـقَـابـلَـتْ، قـلـت: ذوْدٌ ... مـن كِـبـاشٍ تـقـابـلَـتْ لـلـنِّـطـاحِ[١]
شُرْعُها البِيضُ كالغمامات في الصَّيْـ ... ـفِ صِحَاحًا منها وغيْرَ صِحَاحِ[٢]
كـم مُـدِلٍّ بـالـجـاه والـمـالِ فـيـهـا ... وبـه حـاجـةٌ إلـى الـمَـلَّاحِ!
قـائـدٍ جُـنْـدَه لـهـمْ أدواتٌ ... نَـفْـعُـهـا ثَـمَّ فـوقَ نـفـعِ الـسِّـلَاحِ
فإذا الـبحرُ صالَ، صالُوا عليهـا ... بِـمَـاضٍ تَـمْـضـي بـغـيْـرِ جِـراحِ
يُكْثُرون الصِّياحَ حتَّى كأنَّ السـ ... ـفْنَ تَجري من خَوْف ذاكَ الصِّياحِ

ومما وصفت به البحار والسفن نثرًا

قال أبو عمرو[٣] صاحب الصلاة القرطبيّ يصف شانِيًا[٤] سافر فيه:

«فارقتُ مولايَ حين أخذتُ للسَّفَر عُدَّة الحَزْم، وشدَدْتُ عُقدة العزم؛ وانتظمتُ مع السَّفْر في سلك، وركبنا على اسم الله ظهْرَ الفُلْك[٥]؛ في شانٍ عظيم الشان، أحدقَتْ به النُّطقُ[٦] إحداقَ الحَيَازِم[٧]، وأمسكَتْه إمساك الأَبَازِم[٨]؛ ثم تُتُبِّع خلَلُه فسُدّ، ورِخْوه فشُدّ؛ حذرًا على ألواحه من الانخلاع[٩]، واتصلتْ بعَرَانِيسِه[١٠] اتصالَ الجلود بالأضْلاع؛ ثم جُلْبِبتْ جِلْبابًا من القار[١١]، وضُمِّخ في المتنَيْنِ والفَقَار؛ فامتاز بأغرب مِيسَم، وعاد كالغُراب الأَعْصم[١٢]؛ قد حَسُن منه المَخْبر، وكأنّ الكافور قد قُرِن فيه بالعَنْبر. له من التماسيح أجنابُها، ومن الخَطَاطيف أذنابُها؛ واستقلَّت ر جله بفِراشها، استِقلالَ السِّهام برِيَاشها؛ وقد مدّ قِلْعيه[١٣] ذراعيه متلقيًا من وَفْد الرياح

(١) الذّود: القطيع من ثلاثة إلى عشرة.
(٢) الشُرْعْ: جمع شراع، وهي قطع بيض من كتان أو غير تشرّع وتساعد السفينة على الجري.
(٣) هو يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ، أبو عمر، من كبار حفّاظ الحديث، مؤرّخ أديب بحّاثة، له مؤلّفات عديدة. «انظر فهرس الأعلام ٨/ ٢٤٠».
(٤) الشّاني: السّفينة.
(٥) الفلك: السفينة للمذكّر والمؤنث والواحد والجمع.
(٦) النّطق: يريد بها الحبال، والنّطاق ما تشدّ به المرأة وسطها.
(٧) الحيازم: مفردها حيزوم: وهو وسط الصدر.
(٨) الأبازم: جمع إبزيم، وهو عروة معدنية لها لسان يدخل فيها طرف الحزام أو الحبل الآخر لتثبيت الحزام على الوسط.
(٩) الانخلاع: التفكّك.
(١٠) العرانيس: مفردها عرنوس، وهو قضيب أو شعبة من خشب ونحوه.
(١١) القار: الزفت.
(١٢) الأعصم: الذي في جناحيه بياض.
(١٣) القلع: شراع السفينة.

مصافِحه، ومستهديًا منها منافحه. تقلَّد الحكم عليها إشتِيَامٌ[١] ذو تيقظ واستبصار، واستدلالٍ على الأعماق والأقصار؛ يستدِلُّ باختلاف المياه إذا جَرى، ويهتدي بالنجوم إذا سرى؛ قد جعل السماء مِرْآة ينظُر فيها، ويحذَر من دَجْنٍ[٢] يُوافيها؛ فإذا أصدأها الظلامُ بحَنَادِسه[٣]، وصقلها الضياء بمَدَاوسه؛ يسبِّح الله في مَصْبَحه ومَمْساه، ويُبَسْمِل[٤] في مَجْراه ومَرْساه، ويذكر ربًّا يحفَظُه ولا ينساه. قد اتَّخذ فيه مُوَاتِيَه[٥]، من أنجد النَّواتِيه[٦]؛ مشمِّرين الأثواب، مدَبِّرين بالصواب؛ يفهَمُون عنه بالإيماء، ويتصرَّفون له تصرُّف الأفعال للأسماء؛ ويترَّنمون عند الجَذْب والدَّفْع، والحطِّ والرفْع: بهَيْنَمَةٍ[٧] تبعثهم على النَّشَاط. والجَمَام[٨]، وتؤدِّيهم في عملهم بالتمام. فخرجنا ونَفْحُ الريح نَسِيم، ووجه البحر وَسِيم؛ وراحةُ الرِّيح تُصافحُ عُبَابه مُصافَحة الخِلّ، وتطوِي حُبابه طَيَّ السِّجِل[٩]؛ وتجول من لجُجَه أبرادًا، وتَصُوغُ من حُبُكه أزرادًا: كأنما ترسُم في أديم رَقْشًا، أو تفتَحُ في فُصوصٍ نَقْشًا. فلما توسطنا ثَبَج[١٠] البَحْر، وصرنا منه بين السَّحْر والنَّحر؛ صَحَتِ الريح من سُكْرِها، وطارت من وَكْرِها؛ فسمعنا من دَوِيّ البحر زئيرًا، ومن حبال الشانِي صَفِيرًا؛ ورأيناه يُزْبِد ويضطرب، كأنَّه بكأس الجنوب[١١] قد شَرِب؛ واستقبلنا منه وجهٌ باسر[١٢]، وطارت من أمواجه عِقْبانٌ كواسِرْ؛ يضْطَرِب ويصْطَفق، ويختلَف ولا يتَّفِق؛ كأن الجوّ يأخُذُ بنواصِيها[١٣]، ويجْذِبها من أقاصيها؛ والشاني تلعب به أكُفُّ الموج، ويَفْحَص منها بكلكله[١٤] فوجًا بعد فَوْج؛ ويجوب منها ما بين أنْجاد وأَغْوار، وخنادقَ وأصوار؛ والبحرُ تحتَنا كأرض تميد بأهلها، وتتزلزل بوعْرِها وسَهْلِها؛ ونحن قُعودٌ، دُودٌ على عُود؛ قد نبَتْ بنا من القَلَق أمكنَتُنا، وخَرِستْ من الفَرَقِ[١٥] ألسنتُنا؛ والرَّشُّ[١٦] يكتَنِفُنا من كل جانب، ويَسِيلُ من أثوابنا سيلَ المَذَانِب. فشمِمْنا رِيحَ الموت، وظنَّنا التلفَ والفَوْت؛ وبقينا

---

(١) الإشتيام: هو رئيس الملاحين، لفظ أعجمي أخذه العرب.

(٢) الدّجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السّماء.

(٣) الحندس: الظلمة الشديدة.

(٤) يُبسمل: يقول: «بسم الله الرحمٰن الرحيم».

(٥) المواتية: العمّال الذين يطيعون.

(٦) النّواتيه: البحارة.

(٧) الهينمة: إصدار الأصوات الخفيّة.

(٨) الجمام: الارتياح، وذهاب التعب.

(٩) السِّجل: الكتاب والصحيفة.

(١٠) الثبج: من البحر وسطه.

(١١) الجنوب: الرّيح تهبّ من الجنوب.

(١٢) الباسر: العابس المتجهّم.

(١٣) النّواصي: مفردها ناصية، وهي مقدّم الرأس من الناس.

(١٤) الكلكل: الصدر.

(١٥) الفرق: الخوف.

(١٦) الرش: الماء الذي يتساقط على السفينة بعد أن يضربها الموج.

في هَمٍّ ناصب، وعذابٍ واصب[١]؛ حتَّى انتهينا إلى كَنَف الجَوْن[٢]، وصرنا منه في كنّ وصَوْن؛ وهدأ من البحر ما استشرىٰ، وتنادَيْنا بالبُشْرىٰ؛ ووطِئْنا من الأرض جدَدًا[٣]، ولبسنا أثواب الحياة جُدُدا!. . . . . .».

ومن رسالة لأبي عامر بن عقال الأندلسيّ عفا الله عنه

جاء منها:

« . . .وكان جَوَازه[٤]، أيده الله على بحر ساكن، قد ذل بعد استصعابه، وسَهُل بعد أن رأى الشامخَ من هِضَابه؛ وصار حيُّه مَيْتًا، وهديره صَمْتًا؛ وجِبالُه لا تَرى بها عِوَجًا ولا أَمْتًا[٥]؛ وضَعُف بعد تعاطيه، وعقَدَ السِّلْم بين موجه وشاطِيه. فعبرَ آمِنًا من لَهَواته[٦]، متملِّكًا لصَهَواته؛ على جواد يقطَع البحر سَبْحًا، ويكاد يسبِق الريحَ لَمْحًا؛ لا يحمل لِجامًا ولا سَرْجًا، ولا يعرف غير اللُّجَّة سَرْجًا؛ فللَّه هو من جواد، له جسمٌ وليس له فُؤاد؛ يخترِق الهواء ولا يَرْهَبُه، ويركض في الماء ولا يَشْرَبُه!. . . . . .».

ومن رسالة للأُستاذ ابن العميد[٧] في مثل ذلك

جاء منها:

« . . .وكأن العشاريات[٨] وقد رُدِّيتْ بالقار، وحُلِّيت باللُّجَين والنُّضَار[٩]؛ عرائسُ منشورةُ الذوائب، مخضوبة الحواجب؛ موشحةُ المَناكِب، مقلَّدة الترائب؛ متوَّجة المَفَارق، مكلَّلة العواتِق، فِضِّية الحُلَلِ والقَرَاطق[١٠]؛ أو طواويس أَبْرزَتْ رقابها، ونشرت أجنحتها وأذنابهَا؛ وكأنها إذا جدّتْ في اللَّحَاق، وتنافست في السِّباق؛ نوافِرُ نَعام، أو حوافِلُ أنعام؛ أو عقاربُ شالت[١١] بالإبَر، أو دُهْمُ الخيل

---

(١) الواصب: الثابت الدّائم.

(٢) كنف الجون: الكنف: الحضن، والجون: الخليج الصغير، يريد أنهم دخلوا الخليج حيث تحطّ السّفن رحالها.

(٣) الجدد: الأرض المستوية.

(٤) جوازه: مروره.

(٥) الأمَت: العيب.

(٦) اللّهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، يريد أنه عبر البحر وهوَ آمنٌ ابتلاعه والوقوع بين فكّيه.

(٧) ابن العميد: هو محمد بن الحسين، أبو الفضل، وزير، من أئمّة الكتّاب، قصده الشعراء ومدحوه لكرمه، ومنهم المتنبّي. «انظر فهرس الأعلام ٦/٩٨».

(٨) العشاريات: نوع من السّفن.

(٩) اللّجين: الفضة، والنّضار: الذهب.

(١٠) القراطق: جمع قرطق.

(١١) شالت: رفعت ذنبها.

واضحة الحجول[١] والغُرَر؛ وكأن المجاديف طير تنْفُض خوافيها[٢]، أو حبائبُ[٣] تعانِقُ حبائب بأيدِيها. . . . . . .».

الباب السابع
من القسم الرابع من الفن الأوّل
في العيون والأنهار والغُدْران
وما وُصِفت به البرك والدوالِيبُ[٤] والنَّواعِير والجَداوِل

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٢١].

قال المفسرون: هو المطر. ومعنى سَلَكه أدخله في الأرض، وجعله عيونًا ومسالك ومجارِيَ كالعُروق في الجسَد.

قال أبو الفرج، قدامةُ بن جعفر: مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهرًا، منها:

في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهرًا؛ وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرًا.

ثم قال: وفي هذه الأنهار ما جَرَيانه من المشرق إلى المغرب، كنهر نَهاوَنْد ونهر سِجِسْتان؛ وما جَرَيانه من الشمال إلى الجنوب كدِجْلة؛ وما جَرَيانه من الجنوب إلى الشمال، كنهر النِّيل ونهر مِهْران[٥]؛ وما جَرَيانه مركَّب من هذه الجهات، كنهر الفرات وجَيْحُون ونهر الكُرِّ[٦].

---

(١) الحجول: بياض في قوائم الفرس.
(٢) الخوافي: وهي ريش مؤخّرة الجناح، إذا ضمّ الطائر جناحه خفيت.
(٣) الحبائب: جمع حبيب.
(٤) الدّواليب: مفردها دولاب، وهو آلة مستديرة من حديد أو خشب تدور على محور.
(٥) مهران: اسم أعجمي، موضع لنهر السّند، وأصله بالفارسية «مهران روذ» يصبّ في بحر فارس. «معجم البلدان ٥/ ٢٣٢».
(٦) هو نهر بأرض أرمينية، يأتي ذكره بعد قليل في الكتاب.

وسنذكر المشهور منها.

فأما نهر النيل

فزعم قُدامة بن جعفر أن انبعاثَه من جبل القمر وراء خطِّ الاستواء، من عين تجري منها عشرة أنهار، كلُّ خمسة منها تنصب إلى بَطِيحة[١]. ثم يخرج من كل بطيحة نهران، وتجري الأنهار الأربعة إلى بَطِيحة كبيرة في الإقليم الأوّل. ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل.

وقال صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق»: «إن هذه البحيرة تسمَّى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحِّشون: يأكلون من وقع إليهم من الناس. ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانَةَ، ونهر الحبشة؛ فإذا خرج النِّيل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد نته (طائفة من السودان أيضًا، وهم بين كانم والنُّوبة)، فإذا بلغ دُنْقُلة (مدينة النوبة) عَطَف من غربيها إلى المغرب، وانحدر إلى الإقليم الثاني، فيكون على شطَّيه عمارة النُّوبة. وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى. ثم يشرِّق[٢] إلى الجَنَادل[٣]، وإليها تنتهي مراكب النوبة انحدارًا، ومراكب الصعيد إقلاعًا. وهناك أحجار مضرسة[٤] لا مُرورَ للمراكب عليها إلا في إبَّان زيادة النيل. ثم يأخذ على الشَّمال فيكون على شرقيّه مدينة أُسْوان من بلاد الصعيد الأعلى؛ ثم يمرّ بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصرَ، أحدهما شرقيّ والآخر غربيّ حتّى يأتي مدينة مصر فتكون في شرقيه. فإذا تجاوزها بمسافة يوم، انقسم قسمين: أحدهما يمرّ حتّى يصب في بحر الروم عند مدينة دمْياط، ويسمّى بحر الشرق؛ والآخر ـ وهو عمود النيل ومعظمه ـ يمرّ إلى أن يصب في بحر الروم أيضًا عند مدينة رَشِيد، ويسمّى بحر الغرب.

قالوا: وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب في رشيد سَبْعمائةِ فرسخ وثمانيةً وأربعين فرسخًا. وقيل إنه يجري في الخراب أربعةَ أشهر، وفي بلاد السودان شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرًا».

وروى البخاري في «صحيحه» عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبيّ ﷺ في حديث المعراج، قال: «ثم رُفِعتُ إلى

(١) البطيحة: المكان المتسع يمرّ منه السّيل، فيترك فيه الرّمل والحصى الصغار.
(٢) يشرّق: أي يتّجه شرقًا. (٣) الجنادل: الصخور الكبيرة.
(٤) مضرّسة: أي تشبه الضّرس، مسنّنة.

سِدْرة المنتهىٰ[١]، فإذا نَبْقُهَا[٢] مثلِ قلَال[٣] هَجَر[٤]، وإذا ورَقُها مثلُ آذانِ الفِيلَة. (قال: هذه سدرة المنتهىٰ) وإذا أربعةُ أنهار نهرانِ باطنانِ، ونهرانِ ظاهرانِ، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: أمّا الباطنانِ، فنهران في الجنة؛ وأمّا الظاهران، فالنيلُ والفُراتُ». وليس في الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض، غيره. وذلك أنّ زيادته تكون في القيظ الشديد في شمس السَّرطان والأسد والسنُبُلة.

وقد حكي في فضائل مصر أن الأنهار تمدّه بمائها، وذلك عن أمر الله تعالى.

وقال قوم: إن زيادته من ثلوج يُذِيبها الصيفُ على حسب مَدَدها، كثيرة كانت أو قليلة؛ وفي مَدَده اختلاف كثير.

وكان منتهىٰ زيادته قديمًا ستة عشر ذراعًا، والذراع أربعة وعشرون إصبعًا، بمقياس مصر. فإن زاد عن ذلك ذراعًا واحدًا، زاد في الخراج مائة ألف دينار: لما يُرْوىٰ من الأراضي العالية.

والغاية القصوىٰ في الزيادة ثمانية عشر ذراعًا[٥] في مقياس مصر. فإذا انتهىٰ إلى هذا الحدّ، كان في الصعيد الأعلى اثنين وعشرين ذراعًا: لارتفاع البِقاع التي يمرّ عليها.

فإذا انتهت زيادتُه، فتحت خُلْجانات[٦] وترع[٧] تتخرّقُ المياه فيها يمينًا وشمالًا إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل.

وللنيل ثماني خُلْجانات، وهي: خليج الإسكندرية؛ وخليج دِمياط؛ وخَليج مَنْف؛ وخليج المَنْهىٰ (حفره يوسفُ الصدّيق عليه السلام)؛ وخليج أَشْموم طَنَّاح؛ وخليج سَرْدُوس (حفره هامانُ لفرعونَ)؛ وخليج سَخَا؛ وخليجٌ حفره عَمْرو بن العاص، يجري إلى أن يصُبَّ في السِّباخ[٨].

---

(١) سدرة المنتهى: شجرة في أقصى الجنّة عن يمين عرش الله.
(٢) النبق: ثمر السّدر.
(٣) القلال: جمع قلّة، وهي إناء يشرب به ويكون من الفخّار.
(٤) هجر: قرية قرب المدينة، وقال: بل عُملت بالمدينة على مثل قلال هجر. «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٩٣».
(٥) الذراع: مقياس طوله ما بين الخمسين إلى السبعين سنتمترًا.
(٦) الخلجانات: جمع خليج ـ وهو القطعة من البحر داخل البرّ.
(٧) التّرع: جمع ترعة وهي مضيق يحفره الإنسان بين بحرين أو نهرين، أو القناة الواسعة التي تتخذ للسّقي.
(٨) السّباخ: من الأرض ما لم يفلح ولم يغمر لملوحته.

ويحصل لأهل مصر إذا وفىٰ النيلُ ستة عشر ذراعًا ـ وهي قانون الريّ ـ فَرَحٌ عظيم: بحيث إن السلطان يركَبُ في خواصّ دولته وأكابر الأمراء في الحَرَاريق[1] إلى المِقْياس، ويمدّ فيه سماطًا[2] يأكل منه الخواصّ والعوامّ، ويَخْلَع على القَيَّاس، ويَصله بصلة مقرّرةٍ له في كلّ سنة.

وقد ذكر بعض المفسرين «للكتاب العزيز» أن يوم «وفاء النيل» هو اليوم الذي وَعَد فيه فرعون موسى بالاجتماع، وهو قوله تعالى إخبارًا عن فرعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: الآية ٥٩]، والعادة جارية أن اجتماع الناس للتخليق[3] في هذا الوقت.

ومتى قصَّر النيل عن هذا المقدار، غَلتِ الأسعارُ.

وهو إذا ابتدأ في زيادته يكون مخْضَرًّا، ثم محمرًّا، ثم كَدِرًا.

وإذا انتهى في الزيادة غشَّى الأرض، وتصير القرى فوقَ الرَّوابي فلا يُتوصَّل إليها إلا في المراكب أوِ على الجسور الممتدّة التي تُنفَق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء.

فإذا انتهى ريّ مكان وأخذ حدّه، قُطِع جِسْر ذلك المكان من مكان معروف (يعرفه خَوَلة[4] البلاد ومشايخها) ترَوىٰ منه الجهة التي تليها مع ما تجمع فيها من الماء المختص بها. ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لقَلَّ الانتفاع بالنيل.

وقد حكي أنه كان يُرْصَد لعمارة الجسور في كل سنة ثلثُ الخَرَاج لعنايتهم بها: لما يترتب عليها من المصالح، ويحصُل بها من النفع في ريّ البلاد.

وقد وصف بعض الشعراء، النيل طلوعه وهُبُوطه، فقال: [من الكامل]

واهًا لهذا النِّيلِ، أيُّ عَجِيبةٍ   بِكْرٍ بمثل حديثِها لا يُسْمَعُ![5]
يَلْقىٰ الثرىٰ في العام وهو مسَلِّم   حتى إذا ما مَلَّ عادَ يُوَدِّعُ
مستَقْبَلٌ مثلَ الهلال، فدهْرُه   أبدًا يَزِيد كما يَزيد ويَرْجعُ

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات، نذكرها بعدُ إن شاء الله تعالى في موضعها.

---

(١) الحراريق: أنواع من السّفن ترمي الأعداء بالنيران في البحر.
(٢) السّماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.
(٣) التخليق: أي الاختلاق، وهو افتراء القول واختراعه.
(٤) الخولة: العبيد والإماء.
(٥) واهًا: كلمة تعجّب من طيب الشيء.

وهذا النهر مخالف في جريه لسائر الأنهار، لأنه يجري مما يَلِي الجنوب مستقبل الشمال. وكذلك نهر مِهْرانَ بالسِّند، ونهر الأُرُنْط، وهو نهر حِمْص وحَمَاة، ويسمّى العاصيَ لمخالفته للأنهار في جريها. وما عداها من الأنهار جريُها من الشمال إلى الجَنُوب: لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه.

وهو أخفُّ المياه وأحلاها وأعمُّها نفعًا وأكثَرُها خراجًا.

وقد حُكي أنه جُبِي في أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأُوَل) مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار؛ وجباه عمرو بن العاص اثنَيْ عشرَ ألف ألف دينار؛ ثم رَذُل إلى أن جُبِيَ أيام القائد جوهر[١] (مَوْلىٰ المعزّ العُبيديّ) ثلاثةَ آلاف ألف ومائتَيْ ألف دينار.

وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنْفَق في حفر تُرعه وإتقان جسوره وإزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالقَصَب والحَلْفاء[٢].

وحكى ابن لَهِيعة[٣] أن المرتَّبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل: سبعُون ألفًا للصعيد، وخمسون ألفًا للوجه البحريّ.

وحكى ابنُ زولاق[٤] أن أحمد بن المدبر لما وَلِي الخراج بمصر، كشَف أرضها فوجد غامرها[٥] أكثَرَ من عامرها، فقال: والله لو عَمَرها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا.

وقيل إنها مُسِحَتْ أيامَ هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه الماء العامر والغامر مائةَ أَلِف ألف فدان[٦]. والفدان أربعمائة قصبة[٧]، والقصبة عشرة أذرع.

---

(١) هو جوهر الصقلي بن عبد الله الرومي، أبو الحسن، القائد، باني مدينة القاهرة والجامع الأزهر، كان من موالي المعزّ العبيدي، وكان شجاعًا كثير الإحسان، لم يبق في مصر شاعرٌ إلّا رثاه توفي بالقاهرة سنة ٩٩٢ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٤٨».

(٢) الحلفاء: نبات محدّد الأطراف يصنع من ورقه القفف والحُصر والحبال ونحوها.

(٣) ابن لهيعة: هو عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري، قاضي الدّيار المصرية، وكان من الكتّاب للحديث والجمّاعين للعلم والرّحالين فيه. «فهرس الأعلام ٤/ ١١٥»

(٤) ابن زولاق: هو الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي، كان فاضلًا في التاريخ، وله فيه مصنّف جيد، وله كتب في خطط مصر، وكتاب «أخبار قضاة مصر» جعله ذيلًا على كتاب أبي عمرو الكندي الذي ألّفه في أخبار قضاة مصر. «وفيات الأعيان ٢/ ٦١، ٦٢»

(٥) الغامر: الأرض الخراب.

(٦) الفدّان: في المساحة نحو ٤٢٠٠ م^2.

(٧) القصبة: مقياس قدره عشرة أذرع.

واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزراعة بمصر في وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرينَ ألف ألف فدان. والباقي استَبْحَر وتَلِف.

واعتبر مدّة الحَرْث فوجدها ستين يومًا. والحراث يحرُث خمسين فدانًا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وثمانين ألف حرّاث.

وأما الفرات

فهو أحد الرّافدين، ويقال الوافِدين، والآخر دجلة، سميا بذلك لأنهما يجريان في جانبي بغداد: دجلة من شرقيها، والفرات من غربيها: يأتي إليها من دجلة من واسط، والبصرة، والأُبُلة، والأهواز، وفارس، وعُمَان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين؛ ويأتي إليها من الفرات من الموْصِل، وأَذْرَبِيجان، وأرْمينِيَة، والجزيرة، والثغور، والشام، ومصر، والمغرب؛ وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخاري أنه يجري من تحت سدرة المنتهىٰ.

وأما مبتدأ جريه الذي يعرفه الناس، فمن مدينة قاليقَلَا من نهر يسمَّى أودَخش، ويجري مقدار أربعمائة وخمسين ميلًا مغرّبًا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتّى يمرّ بين ثغرَيْ[1] مَلَطْية، وسُمَيساط؛ ثم إلى جَسْر مَنْبِج؛ ثم يعطف ويأخذ جهةَ الجنوب حتّى يصل إلى بالِسَ ويمر بنَصِيبين، والرَّقة، وقَرْقِيسيا، والرَّحْبة؛ فَيَلْتَحِف على عانات؛ ثم يمتدّ حتّى يمر بهِيت[2] والأنبار[3]. فإذا جاوزها انقسم قسمين: قسم يأخذ نحو الجنوب قليلًا وهو المسمّى بالعَلْقم، ينتهي إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحِلَّة، إلى البَطِيحة التي بين البصرة وواسط؛ والقسم الآخر يسمّى نهر عيسىٰ، منسوب لعيسىٰ بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهي إلى بغداد، ويمرّ حتّى يصبّ في دجلة.

قال المسعوديّ: وقد كان الأكثر من ماء الفُرَات ينتهي إلى بلاد الحيرة؛ ثم يتجاوزُها ويصب في البحر الفارسيّ، وكان البحر يوم ذاك في الموضع المعروف بالنَّجَف في هذا الوقت، وكانت مراكب الهِند والصين ترد على ملوك الحِيرة فيه.

---

(١) الثغر: الفرجة في الجبل أو غيره.

(٢) هيت: سمّيت هيت لأنها في هوّة من الأرض، وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار. «معجم البلدان ٥/ ٤٢١».

(٣) الأنباء: مدينة في العراق، وهي من نواحي بغداد على شاطىء الفرات، قال ابن حوقل: هي أوّل بلاد العراق، ومنها نقل الخطّ العربي إلى مكّة. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٣٦».

قال: والموضع الذي كان يجري فيه بَيِّن إلى زمَن وضعي هذا الكتاب، يعني «كتاب مروج الذهب» وهو في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية[١].

وطول الفُرات من حيث يخرُج عند ملَطْية إلى أن يأتي ما يأتي منه إلى بغداد ستُّمائةِ فرسخ وثلاثةٌ وعشرون فرسخًا، وفي شطِّه مُدُن في جزائر تعدّ من أعمال الفُرات، وهي الريسة، والناوُوسة، والقَصْر، والحَدِيثة، وعانات، والدَّاليةُ.

وأما نهر دجلة

ويسمّى السلامة، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين، والثاني السلام على الخلفاء فيها.

وهذا النهر فارز بين العِراق والجزيرة، وانبعاثه من أعين بجبال آمد، ويصب إليه نهران يخرجان من أَرْزَن الروم ومَيَّا فَارِقِين وعيون أخرى من جبال السلسلة، فيمرّ ببلد، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية بين بلاد سورا وقبر سابور؛ ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ من الحديثة. ويسمى المجنون لحدّته وشدّة جريه، ثم تمرّ دِجلة فيصب فيها الزاب الأوسط، ومخرجه من الفرات ويجري بين إرْبِل ودَقُوقاء، ويصب في دِجلة أيضًا الزاب الأصغر، ومخرجه أيضًا من الفرات.

وهذه الزوابي الثلاثة أنبطها[٢] زاب بن طِهماسب: أحد ملوك الفرس الأول، ثم تمرّ دِجلة بتَكْريت[٣] إلى أن تتجاوز سامَرًّا قليلًا فيقع فيها نهر عيسى ويمرّ حتّى يشقَّ بغداد. فإذا تجاوزها صب فيه نهرٌ يخرُج من بلاد أرمينيَةَ يسمّى تامَرًّا بعد أن يمرّ بناصلو ثم ببَاجِسْرَا فيسمّى النهروان، ويشق مدينةً تعرف به، ثم تمرّ دجلة بجَرْجَرايَا والنُّعمانية ثم بواسِط، ثم إلى البطائح، ثم تخرج منها فتمرّ بالبصرة وتجري حتّى تنتهي إلى عَبَّادان، وعندها تصبُّ في البحر الفارسيّ.

---

(١) القادسيّة: مدينة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا، سمّيت القادسيّة بقادس هراة وبها كان يوم القادسيّة بين المسلمين والفرس. «انظر معجم البلدان ٤/ ٢٩١».

(٢) أنبطها: أظهرها بعد اختفاء.

(٣) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، ولها قلعة حصينة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٨».

وما يمرّ من دجلة بالبصرة يملُح إذا مدّ البحرُ فلا يُشرب منه البتة؛ ويحلو إذا جَزَر.

فأهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجَزْر، وهو يمدّ بكرةً ويَجْزِر عِشاء.

وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخُل في دِجلة من بحر فارس إلى مدينة المَدَاين، فاتفق أن انبثَق في أسافل كَسْكر[1] بَثْقٌ[2] عظيم على عهد قُباذ بن فيروز[3] فأهمل حتّى طغىٰ ماؤه وغَرّق عماراتٍ وضياعا فصارتْ بطائح.

ويسمّى هذا البَثْق دِجلة العَوْراء لتحوّل الماء عنه. وصار بين دِجلة الآن ودِجلة العوراء مسافة بعيدة تسمّى بطن جُوخىٰ، وهو من حدّ فارس من أعمال واسط إلى نحو السُّوس من أعمال خُوزِستان.

ويقال إن كسرى أنفق أموالًا عظيمة على أن يحوّل الماء إليها فأعياه ذلك. ورامه خالد بن عبد الله القَسْري[4] فعجَز عنه.

ومقدار مسافة جَرْيِ نهر دِجلة إلى أن يصب في البحر الفارسي ثلثمائة فرسخ؛ ومقدار البطائح ثلاثون فرسخًا طولًا وعرضًا. وهي تفيض في كثير من الأوقات حتى يخشىٰ على بغداد الغرق.

وأما نهر سِجِسْتان

ويسمّى الهِنْدمَنْد[5]، فيقال إن منوچهر بن أيراج[6] بن أفريدون أَنبطه.

وهو يجري من عيون في بلاد الهند ويمرّ ببلد الغُور؛ فإذا تجاوزها، مرَّ من أعالي سجِستان على برزُخّج، ثم على بُسْط[7]، ثم على

---

(١) كسكر: معناه عامل الزّرع، وهي كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية. «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١».

(٢) البثق: موضع انبثاق الماء من نهرٍ ونحوه.

(٣) هو قباذ بن فيروز من الطبقة الرابعة لملوك الفرس «الأكاسرة» في عهده ظهر مزدك الزّنديق وادّعى النبوّة. «صبح الأعشى ٤/ ٤١٣».

(٤) هو خالد بن عبد الله القسري، أبو الهيثم، أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم يمانيّ الأصل، رُمي بالزّندقة قتل سنة ٧٤٣ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٧».

(٥) سمّاه المسعودي: «الهرمند» في كتاب التنبيه والأشراف.

(٦) سمّاه المسعودي: «أيران» وقال: إن أيران تسميه الفرس «أيراج».

(٧) هي «بُست» المدينة المشهورة التي منها «أبو الفتح البستي» الشاعر المعروف.

دونج[١] فتتفرّع منه أنهار تجري في شوارعها. ثم يمرّ عمود النهر حتّى يصب في بحيرة زَرَة.

وطول هذا النهر من حيث يبتدىء إلى نهايته مائة فرسخ.

وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكَنْك.

وأما نهر مِهْران

وهو نهر السند[٢]، فهو يشبه نِيلَ مصر في زيادته ونَقْصه وأصناف حيوانه وما يتفرّع منه من الخُلْجان.

وهو يستمدّ من أربعة أنهر: نهران يجريان من السند، ونهر من ناحية كابُل، ونهر من بلاد قِشْمير. وتجتمع فتكون نهرًا واحدًا، ويجري حتّى ينتهي إلى الدور فيمرّ بها، ومن ثم يسمّى نهر مِهْران، ثم يمرّ بالمُولْتان، ثم بالمنصورة، ثم يجري إلى دَيْبُل. فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها.

وطوله ألف فرسخ.

وأما نهر جَيْحون[٣]

ويسمّى بالفارسية «به روذ» وهو «نهر بلخ»[٤].

وانبعاثه من بحيرة في بلاد التُبَّتِ، مقدارها طولًا وعرضًا أربعون ميلًا، تجتمع من أنهار الخُتَّل.

فإذا خرج منها مر بوَخَّان فيسمّى نهر جرياب[٥]، ويجري من المشرق إلى المرغب إلى أعلى حدود بَلْخ. ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى التِّرْمِذ، ثم منها إلى زَمّ وآمُل من بلاد خُراسان. ثم يجري إلى أن يمرّ ببلاد خُوارَزْم فيشُق قصَبَها.

(١) لعلها المدينة التي ذكرها ياقوت وغيره باسم «زرنج» وقال: إنها قصبة سجستان. «انظر معجم البلدان ٣/ ١٣٨».

(٢) لا يزال اسم «مهران» علمًا يطلقه بعض الهنود إلى الآن على القسم الأسفل من نهر السِّند.

(٣) في الأصل: «جيحان» وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر في آسيا الصغير، ويعرف بنهر المصيصة ويصب في بحر الشّام. «انظر معجم البلدان ٢/ ١٩٦».

(٤) يسمّى أيضًا نهر كالف، باسم قلعة حصينة، قال ياقوت: إنّها قائمة على طرفه شبيهة بالمدينة.

(٥) في الأصل: «جوّاب» والتصحيح عن ابن حوقل والاصطخري.

فإذا تجاوزها تشعَّب منه أنهار وخُلجان يمينًا وشمالًا، تصُب إلى مستنقَعات وبطائحَ يصاد فيها السمك.

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودًا[١] واحدًا، تجري مقدارَ أربعة وعشرين فرسخًا، ثم تصب في بحيرة خوارزم.

ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخًا. وقيل: أربعمائة.

وساحله يسمّى الرُّوذَبار[٢].

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سَمْتَ المغرب حتّى يقرب من كَرْمان، ثم يمضي حتّى يصبَّ في بحر فارس.

ونهر جَيْحون ربما جَمَد في الشتاء حتّى تعبر عليه القفول[٣]. قالوا: ويبتدىء جمودُه من ناحية خوارزم.

وأما نهر سَيْحُون

ويسمّى نهر الشَّاش، وهو فارزٌ بين بلاد الهياطلة وبلاد تُرْكِسْتان.

قال ابن حوقل: مبتدؤُه من أنهار تجتمع في حدود بلاد التُّرك والإسلام، فتصير عمودًا واحدًا وتجري حتّى تظهر في حدود أُوزْكَنْد من بلاد فَرْغانة فتصب فيه فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتدّ إلى فارابَ. فإذا تجاوزها يجري في برّية فيكون على جانبيه الأتراك الغُزِّيَّة، ويمرّ إلى أن يصب في نهر جَيْحون[٤].

وبين موقعه في النهر وبين بُحيرة خوارزم عشرة أيام.

---

(١) عمودًا واحدًا: أي خطًا مستقيمًا.

(٢) قال ياقوت: كان معناه بالفارسية: موضع النهر، ثم نقل عن السمعاني أنّ الروذبار لفظه لمواضع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرّقة، ثم ذكر روذبار «بلخ» ثم قال: وبالشّاش أيضًا قرية يقال لها «روذبار» من وراء جيحون. «معجم البلدان ٣/ ٧٧».

(٣) القفول: جمع قافلة وهي الرفقة الراجحة من السفر أو المبتدئة به ومعها دوابُّها.

(٤) اختصر المؤلّف كلام ابن حوقل اختصارًا خفيفًا، انظر كلام ابن حوقل في كتابه: المسالك والممالك ص ٣٩٢، ٣٩٣».

وأما نهر الكَنْك[١]

وهو نهر تعظِّمه الهند، فينبعث من بلاد قِشْمير ويجري في أعالي بلاد الهند.

وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظِّمونه غاية التعظيم.

ومن عجائبه أنه إذا أُلقي فيه شيء من القاذورات، أظلم جَوُّه ورجَفَتْ أرجاؤه وكثُرت الأمطارُ والرياحُ والصواعقُ.

وقد وصفه العُتْبيّ[٢] في «التاريخ اليمنيّ» فقال:

«وهذا النهر الذي يتواصف الهنود قدرَه وشرفَه، فيروْن من عين الخلد التي في السماء مُغتَرفه؛ إذا أُحْرق منهم ميت ذَرّوه فيه بعظامه، فيظنون أنّ ذلك طُهُر لآثامه؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيُغْرِق نفسه فيه، يرى أنَّ هذا الفعل يُنْجيه. والهنود يُفْرِطون في تعظيمه حتّى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفْسَه وألقى رماده فيه، أو يأتي إلى النهر (وهناك شجر القَنَا[٣] في غاية الارتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيرْبِط نفسه في طَرَف قناة، ثم يحزُّ رأسَه بيده فيبقَى الرأس معلقًا في طَرَف القناة وتسقط الجثةُ، أو يلقي نفسَه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيتقطع، ومنهم من يلقِي نفسه في النهر فيَغْرق».

وأما نهر الكُر

فهو نهر بأرض أرمينِيَة.

وانبعاثه من بلاد الّلان[٤]، فيمرّ ببلاد الأبخازَ[٥] حتّى يأتي ثغر تَفْليس فيشقُّه ويجري في بلاد الساوَرْدية[٦]. ثم يخرج بأرض بَرْذعَة، ويجري إلى بَرْزَنج فيصب فيه نهر الرَّسّ.

---

(١) قال أبو الفدا في كتابه تقديم البلدان: إنّ اسمه الهندي: «كانكو» وسمّاه المسعودي «جنجس» في كتاب التنبيه والأشراف.

(٢) العتبي: هو محمد بن عبد الجبّار، أبو نصر، مؤرّخ من الكتّاب الشعراء، توفي سنة ١٠٣٦ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨٤، ١٨٥».

(٣) القنا: شجرٌ في غاية الارتفاع تصنع منه الرّماح.

(٤) اللّان: بلاد واسعة في طرف أرمينية، وأهلها نصارى. «معجم البلدان ٥/ ٩».

(٥) في الأصل «الأبحار» والأصوب: «الأبخار» وهو ما ذكره ابن حوقل والاصطخري والمسعودي وابن خرداذبة وهو اسم لجهة من بلاد أرمينية.

(٦) هم جيل من الأرمن يسمّيهم العرب أيضًا «السياوردية» ويصفونهم بأنّهم أهل العبث والفساد والتلصّص. «مسالك الممالك للأصطخري حاشية ص ١٩٢».

وهذا النهر هو المذكور في القرآن العزيز في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ [الفُرقان: الآية ٣٨] على ما ذهب إليه بعض المفسرين. فإذا صب فيه هذا النهر، صارا نهرًا واحدًا يصب في بحر الخَزَر.

ونهر الرَّسِّ يخرج من أقاصي بلاد الروم، على ما زعم المسعودي.

وأما نهر إتِل

وهو نهر عظيم، فهو نهر الخَزَر.

ويمرّ جانبه الشرقيّ على ناحية خَزْخِيز، ويجري ما بين الكيماكية والغُزِّية. ثم يمتدّ غربًا على ظهر بُلْغار[1] وبُرْطاس والخَزَر. ثم ينقسم قسمين: أحدهما إلى مدينة إتل يشقُّها بنصفين ويجري إلى أن يصب في بحر الخَزَر، ويجري الآخر فيمرّ ببلد الرُّوس حتّى يصب في بحرهم وهو بحر سُوداق.

ويقال إنه يتشعب منه نَيِّف وتسعون نهرًا، وإذا وقع في البحر، يجري فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه.

وقيل إنه يجمدُ في الشتاء، ويتبين لونه في لون البحر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما في المعمور
من الأنهار والعيون التي يُتعجَّب منها

قال صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» في كتابه:

وذكر المعتَنُون بتدوين العجائب في كتبهم التي وضعوها لذلك أن في المعمور أنهارًا وعيونًا يُتعجَّب منها إذا أُخْبِر عنها. فذكروا منها نهر الكَنْك (وقد تقدّم ذكره) وأن بأرض الهند مكانًا يعرف بعقبة عَوْرك فيه عين ماء لا تقبل نَجَسًا ولا قَذَرًا، وإن أُلقي فيها شيء من ذلك، اكفهرَّت السماء وهبَّت الريح وكثر الرعد والبرق والمطر. فلا تزال كذلك إلى أن يُخْرَج منها ما طُرِح فيها.

---

(١) هي مدينة كانت على نهر الإتل ببلاد الروسيا، ومنها خرج البلغار إلى البلاد المعروفة الآن باسمهم.

وذكروا أن في ناحية البامِيَان عينا تسمّى دِيوَاش تفور من الأرض كغَلَيان القِدر؛ متى بصق فيها إنسان أو رمىٰ فيها شيئًا من القاذورات، ازداد غَلَيانها وفَوَرانها وفاضت. فربما أدركَتْ من جعل ذلك فيها فغرّقته.

وبناحية الباميان أيضًا عين تجري من جبل في بعض الأحيان. فإذا خرج ماؤها، صار حجرًا أبيضَ.

وبقرية من أعمال فارس كَهْف بين جبال شاهقةٍ فيه حُفْرة بقدر الصَّحْفة[١]، يقْطُر فيها من أعلى الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن شرب منه ألف عَمَّهم وأرواهم.

وبناحية أردشيرجرد[٢] عين يجري منها ماء حلو يُشرَب لشَفْية الجوف. فمن شرب منه قَدَحًا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة.

وبدارِينَ من أعمال فارس نهر ماؤه شَرُوب. إذا غُطَّت فيه الثيابُ خَضَّرها.

وفي بعض رساتيق هَمَذان عيون متى خرج منها الماء تحَجَّر.

وبنواحيها أيضًا ماء يخرُج من تحت قلعة ويجري في جَداوِلَ إلى بعض الرساتيق[٣]. فما تشبَّث منه في صَدْع أو شقٍّ صار حجرًا صَلْدًا، وإذا صُبَّ في خَزَفة وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كُسِرت، وجد في جوفها أخرى قد تحجرت من الماء.

وبناحية تَفْليس عين تنبُعُ، فإذا خرج منها الماء صار حَيَّات.

وبأرض القُدْموس من حصون الدَّعْوة بَرَبَضها[٤] حَمَّام يجري إليها الماء من عين هناك. فإذا كان في أوّل شهر تَمُّوز ينبُع في الحمَّام حَيَّات في طول شبرين أوّلًا، ثم في طول شبر، وتكثر. ولا توجد في غير الحمام. فإذا انقضىٰ شهر تَمُّوزَ، عُدمت تلك الحيَّات، فلا توجد إلى العام القابل.

وبأرض أرْمِينِيَة واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يُدْرىٰ ما هو. إذا وضعت القدر على ضَفَّته غلتْ ونَضِج ما فيها. وفيها واد عليه الأَرْحَاء[٥] والبساتينُ. ماؤه حامض؛ فإذا نزل في الإناء، عَذُب وحَلَا.

---

(١) الصحفة: إناء من آنية الطعام. (٢) في معجم ياقوت: «أردشيرخرّه».

(٣) الرساتيق: وهي السّواد من الأرض مفردها رستق.

(٤) الرَّبَض: ما حول المدينة من مساكن «ضواحي المدينة».

(٥) الأرحاء: جمع رحى، وهي الطاحون.

وبالمَرَاغة عيون إذا خرج ماؤها لَمْ يلبثْ إلا قليلًا حتى يتحجَّر. فمنه تُفْرَش دورهم.

وبنواحي أرْزَن الروم ماء يستقىٰ فيستحجِر ويصير مِلْحًا.

وأكثرُ مياه بلاد اليمن تستحيل شَبًّا[1].

وبنواحي واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة: من الحُمْرة والصُفْرة والخُضْرة. تسيل إلى مستنقَعات، فتكون مِلْحًا بحسب ألوانها.

وفي هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلًا عن الخَلّ.

وبنواحي أُسْوان من الصعيد الأعلى مستنقعاتٌ منها النِّفط.

وكذلك بتَكْرِيت من أرض العراق.

وبأرض كتامة[2] من بلد إفريقِيَّة عين تسمّى عينَ الأوْقات. تجري في أوقات الصلوات الخمس. فإذا حضرَ جُنُبٌ أو امرأة حائضٌ، لا تَبِضُّ[3] بشيء من الماء. وإذا اتُّهِم رجلان، أتتْ بالماء للصادق وشحَّتْ على الكاذب.

وببلد إفريقية أيضًا عين تنبُع بالمِداد، يكتُب به أهل تلك الناحية.

وبطَرْطُوشَة من بلاد الأنْدَلُس وادٍ يجري رملًا.

قال: وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طَحَا من كُورة الأُشْمونين من صعيد مصر بئر فيها ماء مَعِين يُشْرب منها طولَ أيام السنة فيكون الماء كسائر المياه، حتّى إذا كان أوّلُ يوم من برمودة[4] من شهور القبط فمن شَرِب من ذلك الماء يومئذٍ خدمَتْه الطبيعة مقدار ما شَرِب. فإذا كان وقتُ الزوال عاد الماء إلى حالته الأولى، ثم لا يفعل كذلك إلا في مثل ذلك اليوم من العام القابل.

وقال: إنه كان بمدينة الأُشْمونَيْنِ[5] كنيسة تعرف ببُوجُرج إلى جانبها بئر لا نداوةَ فيها ولا بلَلَ في سائر أيام السنة، فإذا كان اليوم العاشر من

(١) الشبّا: الطحلب.

(٢) في الأصل: «كمامة» وهو خطأ من الناسخ، لأن كتامة: قبيلة من البربر منتشرة فيما بين برقة إلى أرض الجزائر.

(٣) تبضّ: تسيل.

(٤) برمودة: هو الشهر الثامن من شهور القبط.

(٥) الأشمونين: هي أشمون، وأهل مصر يقولون «الأشمونين»، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل. «معجم البلدان ١/ ٢٠٠».

طوبة[١] من شهور القبط تمتلىء تلك البئر ماءً شَرُوبًا. فلا يبقى أحد من نصارى ذلك البلد إلا ويأخذ من ذلك الماء للتبرُّك به. حتّى إذا كان عند الزوال، غاض الماء فلا يبقى في البئر منه شيء ويجِفُّ لوقته.

وبأرض مَرْمَنِيثا من عمل حصن الأكراد عين تسمّى الفَوّارة. تكون في غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقديرُ ثلاثة أذرع. وتفور في بعض الأيام ويخرج منها ماءٌ يدير أرحية[٢] الطواحين ويسقِي البساتينَ فيستمرّ كذلك بعضَ يوم ثم يغور. ويتكرر ذلك في الأسبوع مرتين وثلاثة.

«وبقلعة بغْلَبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لا يُرىٰ فيها الماء إلا إذا حُوصرت. فإنها عند ذلك تمتلىء حتّى تفيض. فإذا زال الحِصار جَفَّتْ».

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل

الأمثال: يقال:

أسْرَعُ من الماء إلى قَراره.

أرَقُّ من الماء.

أحمقُ من لاعِقِ[٣] الماء.

أحمقُ من القابض على الماءِ.

أصفىٰ من ماء المَفَاصِل[٤].

أعذَبُ من ماء المَفَاصل.

أجْرىٰ من الماء.

أعذَبُ من ماء الحَشْرَج[٥].

(١) طوبة: هو الشهر الخامس من شهور القبط.
(٢) الأرحية: مفردها رحى، وهي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران، يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.
(٣) اللاعق: الذي يلحس الماء بإصبعه أو بلسانه.
(٤) المفاصل: ما بين الجبلين من رمل وحصى صغار ويكون ماؤه صافيًا رقيقًا.
(٥) الحشرج: نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو ويعذب.

أعذَبُ من ماء البارِق[١].

ألْطفُ من الماء.

أوجد[٢] من الماء.

ويقال:

أنْ تَرِدِ الماءَ بماء أكْيَسُ.

ماءٌ ولا كصَدَّاء[٣].

قد بَلَغ الماء الزُّبىٰ.

ويقال:

فلان يرقُم[٤] على الماء. (إذا كان حاذقًا).

ثَأْطَةٌ[٥] مُدّتْ بماء. (للأمر يزداد فسادًا).

ليس الرِّيُّ في التَّشَافّ[٦]. (في ذم الاستقصاء).

الماءُ إذا طال مكثُه، ظهر خبْثُه؛ وإذا سكَنَ مَتْنه، تحرّك نَتْنه.

الكَدَر من رأس العَيْن.

إذا عَذُبتِ العُيون، طابَتِ الأنهار.

هذا غَيْض من فَيْض، وبَرْضٌ[٧] من عدّ. (أي قليل من كثير).

ومن أنصاف الأبيات:

* والـمـرءُ يَـشْـرَق بـالـزُّلاَل الـبـارِد![٨] *

* كـذلـك غَـمْـرُ الـمـاءِ يُـرْوِي ويُـغْـرِق![٩] *

---

(١) البارق: السّحاب ذو البرق، والبارق: الماء المتلألىء الصافي.

(٢) أوجدُ: من الوَجد، وهو منقع الماء، يريد: أنقع من الماء.

(٣) مثل يضرب لما يحمد بعض الحمد ويفضّل عليه غيره، وصدّاء: ركيّة عذبة الماء.

(٤) في المستقصى للزمخشري: يرقمُ في الماء، وقيل: معناه يفعل ما لا طائل تحته، ٢/ ٤١٢. «المستقصى للزمخشري ٢/ ٣٢٩».

(٥) الثأطة: الحمأة، والوحل الفاسد.

(٦) التّشافّ: هو أن يشرب الإنسان ماء الإناء كلّه.

(٧) البرض: القليل.

(٨) يشرق: يغصّ.

(٩) الغمر: الماء الكثير.

* والـمَـشْـرَبُ الـعَـذْبُ كَـثِـيـر الـزِّحـام! *

* مَـوَاقِـع الـمـاء مـن ذي الـغُـلَّـةِ الـصـادِي![١] *

* وكـيـف يَـعَـافُ الـرَّنْـقَ مَـنْ كـان صـادِيًـا؟[٢] *

ومن الأبيات: [من البسيط]

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدّتْ مَوارِدُه — أمَا إليكِ سَبِيلٌ غيْرُ مسدودِ؟

لحائِمٍ حامَ حتّى لا حِيَام به — مُحَلَّاءٍ عن طريق الماء مَصْدُودِ![٣]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أيَـجُـوزُ أخْـذُ الـمـاءِ مـن — مـتَـلَهِّـبِ الأحـشـاءِ صـادِي؟

وقال آخر: [من الوافر]

أرىٰ مـاءً وبـي عـطَـشٌ شـديـدٌ — ولـكـن لا سـبِـيـلَ إلـى الـوُرُود!

وقال آخر: [من البسيط]

مَنْ غُصَّ داوىٰ بشُرْب الماء غُصَّتَه — فكيف يَصْنَعُ من قد غُصَّ بالماءِ؟

وقال آخر: [من الطويل]

وما كُنْتَ إلّا الماءَ جئنا لشُرْبه — فلَمَّا وردْناه إذا الماءُ جامدُ!

وقال آخر: [من الطويل]

وفي نَظْرة الصادي إلى الماء حَسْرةٌ — إذا كان ممنوعًا سَبِيلَ الموَارِد!

وقال آخر: [من الطويل]

وإنِّيَ للماءِ المخالِط للقَذى — إذا كَثُرتْ وُرّادُه، لَعَيُوفُ![٤]

وقال آخر: [من الوافر]

سأقْنَع بالثِّمادِ، لَعلّ دهْرًا — يَسُوقُ الماءَ من حُرٍّ كَرِيمِ![٥]

---

(١) الغلّة: شدة العطش وحرارته، والصادي: الظامىء.

(٢) الرَّنق: الماء فيه ترابٌ وقذى ونحوه «الكدر».

(٣) المحلأ: المبعد.

(٤) العيوف: التارك له.

(٥) الثّماد: القليل من الماء.

وقال آخر: [من الطويل]

ومَنْ يَأْمَنِ الدنيا يَكُنْ مِثْلَ قابضٍ على الماء، خانَته فُروجُ الأصابعِ[١]

وقال آخر: [من الطويل]

وإنّي وإشْرافي عليك بِهمَّتي لَكَالمبتغي زُبْدًا من الماء بالمَخْض[٢]

وقال آخر: [من الهزج]

فقُلْ في مَكْرَعٍ عَذْبٍ وقد وافَاهُ عَطْشانُ!

وقال آخر: [من الوافر]

وكيف الصَّبْرُ عنك، وأيُّ صَبْرٍ لظمآنٍ عن الماءِ الزُّلَال؟

وقال آخر: [من الوافر]

وإنَّ الماءَ في العِيدانِ يَجْرِي ورُبَّتَما تغَيَّر في الحُلُوق!

وقال آخر: [من الطويل]

إذا أنا عاتَبْتُ المَلُولَ فإنَّما أخُطُّ بأقلامٍ على الماءِ أحْرُفا!

وقال آخر: [من البسيط]

والماء ليس عجيبًا أنّ أعذَبَهُ يفنىٰ، ويمتدّ عُمْر الآجِنِ الأَسِنِ[٣]

وقال آخر: [من الكامل]

المالُ يُكْسِب أهلَه، ما لم يفضْ في الراغبين إليه، سُوءَ ثناءِ
كالماء تَأْسِنُ بِئرُه إلا إذا خَبَط السُّقاةُ جِمامَه بِدِلاءِ[٤]

ذكر شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه

فأما ما اختص به نهر النيل من الوصف.

---

(١) فروج الأصابع: ما بينها من مسافة يمكن أن يخرج منها الماء إذا غُرِف منه.

(٢) الزّبد: ما يستخرج من اللبن عند مخضه، والمخض: تحريك اللبن بشدّة.

(٣) الآجن: المستنقع الذي تغيّر لونه وطعمه، والأسن: الذي فسد وتغيّر طعمه ورائحته.

(٤) خبط: حرّك، والجمام: استقرار الماء، والدّلاء: جمع دلو، وهو ما يغرف به الماء، يريد أنّ ماء البئر إذا حرّك بالدّلاء واستخرج ماؤه لا يأسن.

فمن ذلك قول ابن النَّقِيب[١]: [من الوافر]

كأنَّ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ لما يَبْدُو لِعَيْنِ الناس مِنْه
فَيأْتِي حِينَ حاجَتِهِم إليهِ ويَمْضِي حِينَ يَسْتَغْنُون عنه!

وقال تميم بن المعزّ العُبَيديّ[٢]: [من الكامل الأحذّ]

يَوْمٌ لنا بالنِّيل مختَصَرُ ولكُلِّ يوم مَسَرَّةٍ قِصَرُ
والسُّفْن تَجْري كالخُيُول بنا صُعُدًا، وجيْشُ الماءِ مُنْحَدِرُ
فكأنّما أمواجُه عُكَنٌ وكأنما داراتُه سُرَرُ[٣]

ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني قال:

وأما النيل فقد ملأ البِقَاع، وانتقل من الإصبع إلى الذِّراع. فكأنما غار على الأرض فغَطَّاها، وعار[٤] عليها فاستَقْعدها وما تخَطَّاها. فما يوجد بمصر قاطِعُ طريق سواه، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إيَّاه.

وأما ما اختصت به دجلة من الوصف.

قال التنوخيّ: [من الكامل]

وكأنّ دِجلَةَ إذ تغَمَّض موجُها مَلِكٌ يُعَظَّم، خِيفةً ويبَجَّلُ
عذُبَتْ، فما أَدْري أماءٌ ماؤها عند المَذَاقةِ أم رَحِيقٌ سَلْسَلُ؟[٥]
وكأنّها ياقوتةٌ أو أعينٌ زُرْق يُلاءَم بَيْنها ويُوصَّلُ
ولها بمَدٍّ بعد جَزْر ذاهِبٍ جَيْشانِ: يُدْبرذا، وهذا يُقْبِلُ

وقال محمد بن عبد الله السلاميّ، شاعر «اليتيمة»: [من الوافر]

وميدانٍ تَجُولُ به خُيولٌ تَقُود الدَّارِعينَ ولا تُقادُ[٦]

---

(١) هو الحسن بن شادر، ابن النقيب الكناني، المعروف بالنفيسي، شاعرٌ من أفاضل مصر له ديوان شعر، وشعره عذب، وكان من رجال الجهاد توفي سنة ١٢٨٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٩٢».

(٢) هو تميم بن المعزّ العبيدي الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية، كان شجاعًا ذكيًا له عناية بالأدب وينظم الشعر الحسن توفي سنة ١١٠٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٨٨».

(٣) العكن: اللحم من البطن تجمّع بعضه فوق بعض، والسُّرر: جمع سُرَّة، وهي ما يبقى ظاهرًا في البطن من تجويف بعد الولادة.

(٤) عارَ: تردّد في ذهاب ومجيء.

(٥) الرحيق: العذب الصافي، والسلسل: الماء العذب الصافي.

(٦) الدّارعين: اللابسين الدّروع استعدادًا للحرب.

رَكِبْتُ به إلى اللَّذَّاتِ طِرْفًا ... له جِسْمٌ وليس له فُؤادُ[١]
جرى فظَنَنْتُ أن الأرضَ وجهٌ ... ودِجلةَ ناظرٍ وهو السَّوادُ

وقال الصنوبريّ: [من الطويل]

فلَمَّا تعالى البدرُ واشتدّ ضَوْءُه ... بدِجْلةَ في تَشْرين بالطُّول والعَرض
وقد قابل المَاءَ المفَضَّض نُورُه ... وبعضُ نجوم الليل يُطْفِي سَنا بَعْضِ[٢]
تَوهَّم ذُو العينِ البَصِيرة أنه ... يَرى ظاهِرَ الأفلاكِ في باطِنِ الأرض

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبري: [من المنسرح]

والعَوَجانُ الذي كَلِفتُ به ... قد سُوِّي الْحُسْنُ فيه مُذْ عَوَّجْ[٣]
ما أخْطأ الأيْمَ في تَعَوُّجِه ... شيئًا إذا ما استقام أو عَرَّجْ[٤]
تُدرِّجُ الريحُ متْنَه فتَرى ... جَوْشَنَ ماء عليه قد دَرَّج[٥]
إن أعْنَقتْ بالجَنُوب أعْنَقَ في ... لُطْف، وإن هَمْلَجتْ به هَمْلَج[٦]
من أيْنَ طافَتْ شمسُ النهارِ به ... حَسِبْتَ شَمْسًا من جَوْفِه تَخْرُج

وقال أبو فراس: [من مجزوء الكامل المرفّل]

والماءُ يَفْصِل بيْنَ زَهْـ ... ـر الرَّوض في الشَّطَّيْن فَصْلا
كبِسَاطِ وَشْيٍ جَرَّدتْ ... أيْدِي القيون عليه نَصْلا[٧]

وقال الناجم[٨]: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أُنظُرْ إلى الرَّوض الذّ ... كيِّ فَحُسْنُه للعين قُرَّهْ

---

(١) الطِّرف: الكريم من الخيل. (٢) السّنا: الضوء.
(٣) العوجان: ما به عوج، يريد النّهر الذي يجري في غير استقامة.
(٤) الأيم: الذكر من الحيّات. (٥) الجوشن: الدرع يوضع على الصّدر.
(٦) أعنقت: سارت سيرًا فسيحًا واسعًا، وأعنقت الريح: أطارت التُّراب وفرّقته وهملجت: سارت سيرًا حسنًا في سرعة.
(٧) جرّدت: أخرجت وشهرت، والنّصل: حديدة السيف والرّمح وغيرهما.
(٨) هو سعيد بن الحسين بن شدّاد السّمعي، المعروف بالنّاجم، أديب من الشعراء كان يصحب ابن الرومي، ويروي أكثر شعره، توفي سنة ٩٢٦ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٨٤».

فكأنَّ خُضرتَه السماءُ، ونَهْرُه فيه المَجَرّهْ[١]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الكامل]

وتَرى الرِّياحَ إذا مَسَحْنَ غَدِيره صَفَيْنه وَنَفَيْنَ كُلَّ قذاةِ[٢]
ما إنْ يزالُ عليه ظَبْيٌ كارِعٌ كتَطَلُّع الْحَسْناءِ في المِرْآةِ

ومثله قول الآخر: [من الخفيف]

وغَدِيرٍ رقَّتْ حواشِيهِ حتى بانَ في قَعْره الذي كان ساخَا[٣]
وكأنَّ الطُّيورَ إذ وَرَدَتْه من صَفاءٍ بِه، تَزُقُّ فِراخَا[٤]

وقال آخر: [من الكامل]

والنَّهْرُ مَكْسُوٌّ غِلالة فِضَّةٍ فإذا جَرَت أُصل، فثوْبُ نُضَارِ
وإذا استَقَام، رَأَيْتَ صَفْحَة مُنْصُل وإذا استدارَ، رأيتَ عَطْف سِوَارِ[٥]

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخصال: [من الكامل]

النَّهْرُ قد رَقَّتْ غَلالةُ خَصْرِه وعليه من صِبغ الأصِيلِ طِرَازُ
تترَقْرَقُ الأمواجُ فيه كأنَّها عُكَنُ الخُصُور تهُزُّها الأعْجازُ[٦]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي: [من الكامل]

للهِ نَهْرٌ سالَ في بَطْحاءِ أشهىٰ وُرُودا من لَمىٰ الحَسْناءِ![٧]
وغدَتْ تَحُفُّ به الغُصونُ كأنَّها هُدُبٌ تحُفُّ بمُقْلة زَرْقاءِ
والرِّيح تعْبَثُ بالغُصُون وقد جَرى ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَيْن الماءِ!

---

(١) المجرّة: مجموعة من الكواكب يرى ضوؤها ولا ترى لبعدها.
(٢) القذاة: ما يكون فيه من قشٍّ وغيره.
(٣) الحواشي: الجنبات، وساخ: غاص في قعر الماء.
(٤) تزقّ: تطعم بمناقيدها. (٥) المنصل: السيف، وعطف سوار: دورته.
(٦) العكن: اللحم الذي تجمع بعضه فوق بعض، والأعجاز: الأرداف.
(٧) البطحاء: مسيل الماء في متّسع حيث يترك التراب والرّمل والحصى، واللّمى: الشّفة السمراء.

وقال أبو القاسم بن العطار[١]: [من الطويل]

مَرَرْنا بشاطِي النَّهر بيْنَ حدائقٍ بها حَدَقُ الأزْهار تستَوْقفُ الحَدَقْ[٢]
وقد نَسَجتْ كَفُّ النَّسيم مُفاضةً عليه، وما غَيْرُ الحُبَابِ لها حَلَقْ![٣]

وقال محمد بن سهل البلخي[٤]، شاعر «الذخيرة»: [من مجزوء الرّمل]

راقَنَا النهرُ صَفَاءَ بعدَ تَكْدِيرِ صَفائِهْ
كان مثْلَ السيفِ مُدْمًى فجَلَوْهُ من دِمَائِهْ
أو كمِثْلِ الوَرْدِ غَضًّا فهو اليومَ كمائِهْ[٥]

وقال القاضي التنُوخي، شاعر «اليتيمة»: [من الكامل]

أحْبِبْ إليَّ بنهْرِ مَعْقِلِ الذي فيه لقَلْبِي من هُمُومي مَعْقِلُ!
عَذْبٌ إذا ما عَبَّ فيه ناهِلٌ فكأنَّه من رِيقِ حِبٍّ يَنْهَلُ
متسَلْسِلٌ فكأنَّه لصَفَائِه دمعٌ بخدَّيْ كاعِبٍ يتَسَلْسَلُ[٦]
فإذا الرِّياح جَرَيْن فوقَ مُتُونِه فكأنَّها دِرْعٌ جلاه الصَّيْقَلُ!

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَائِيّ في الغدير: [من السريع]

عُجْنا إلى الجَزْع الذي مدّ فِي أرجائِهِ الغَيْمُ بِسَاطَ الزَّهَرْ[٧]
حَوْلَ غَدِيرٍ ماؤُه المنتمِي إلى بنَاتِ المُزْنِ يَشْكُو الخَصَرْ[٨]
لولاذَهُ الرِّيحُ سَمُومًا به لانقلبَتْ وهي نَسِيمُ السَّحَرْ[٩]

---

(١) لعلّه أحمد بن محمد بن علي شهاب الدّين، ابن العطّار الدّنيسري، أديب وشاعر له نظم كثير، وله مؤلّفات عدّة توفي بالقاهرة سنة ١٣٩٢ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٢٥».
(٢) الحدق الأولى: هي حدائق الأزهار أي المستدير منها، والحدق الثانية: هي حدق العيون، وهو المستدير وسط العين، وفيه يكون الناظر، وفي الكلام جناس بين لفظين.
(٣) المفاضة: الدّرع.
(٤) الذي في المصادر «أحمد بن سهل البلخي» أحد علماء الإسلام، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون، له مؤلّفات عدة، توفي في بلخ سنة ٩٣٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٣٤».
(٥) الغض: الطّري.
(٦) الكاعب: الفتاة التي برز نهداها.
(٧) عاج: رجع ومال وعطف، والجزع: وسط الوادي حيث يجتمع الماء.
(٨) المزن: السّحاب الممطر، والخصير: البرودة.
(٩) في الديوان: «لو لاذت» وهو الصّواب، ولاذ: استجار واحتمى، والسّموم: الريح الحارّة.

حَـصْـبَــاؤه دُرٌّ ورَضْــراضُــه ... سُحالةُ العَسْجِد حَوْلَ الدُّرَر[١]
وقد كسَتْه الرِّيحُ من نَسْجِها ... دِرْعًا به يلْقَىٰ نِبَال المَطَرْ
وألبستْهُ الشَّمسُ من صِبْغِها ... نُورًا به يَخْطِفُ نُورَ البصَرْ
كأنَّها المِرْآة مَجْلُوَّةً ... على بِساطٍ أخْضَرٍ قد نُشِرْ

وقال أيضًا: [من السريع]

مِلْنا إلى النَّشْر الذي تَرْتَقِي ... إليه أنْفاسُ الصبا عاطِرَهْ[٢]
حوْلَ غديرٍ ماؤه دارعٌ ... والأرضُ من رِقَّتِه حاسِرَهْ[٣]
والشمسُ إن حاذتْه رأْدَ الضُّحىٰ ... حَسْناءُ في مِرْآتها ناظِرَهْ[٤]
والشُّهْب إن حاذته جُنْحَ الدُّجىٰ ... تَسْبَحُ في لُجَّتِه الزاخِرَهْ[٥]
قد رُكِّبَ الخَضْراءُ فيه، فمِنْ ... حَصْبائِهِ أنجُمُها زاهِرَهْ
يخْصَرُ إن مرت بأرجائِه ... لَفْحُ سَمُومٍ في لَظىٰ هاجِرَهْ[٦]
أُنْموذَجُ الماءَ الذي جاءنا الـ ... ـوعدُ بأن نُسْقاه في الآخِرَهْ![٧]

ومما وصفت به البرك

قال البحتريّ عفا الله عنه: [من البسيط]

يا مَنْ رأى البِركةَ الحَسْناءَ رؤيتها ... والآنساتِ التي لاحَتْ مَغانِيها!
ما بالُ دِجْلةَ كالغَيْرىٰ تُنافسُها ... في الْحُسْن طَوْرًا، وأطْوارًا تُباهيها؟
كأنَّ جِنّ سُلَيْمانَ الذين وَلَوْا ... إبْداعَها فأدَقُّوا في مَعَانِيها[٨]
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُض ... قالتْ: هي الصَّرْح تمثيلًا وتَشْبِيها[٩]

---

(١) الرضراض: الحصى الدقاق في مجاري الماء، وسحالة العسجد: برادة الذهب.
(٢) النّشر: الرّيح الطيبة.
(٣) الدّارع: الذي يلبس الدّرع، والحاسر: الكاشف عن وجهه.
(٤) رأد الضّحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط النّور في أوّل النّهار.
(٥) جنح الدّحى: أي وقت يخيّم الليل بجناحه فيستر النّور.
(٦) يخصر: يبرد، والسّموم: الريح الحارة، والهاجرة: وقت اشتداد الحرّ من النّهار.
(٧) الأنموذج: المثيل. (٨) وَلَوا: تولّوا وتكفّلوا.
(٩) بلقيس: ملكة سبأ، ورد ذكر قصتها مع سليمان عليه السلام في القرآن الكريم سورة «سبأ» والصّرح: العرش.

تنصَبُّ فيها وُفُود الماء مُعْجِلَةً كالخَيْل خارجةً من حَبْل مُجْرِيها[(١)]
كأنَّما الفِضَّةُ البيضاء سائلةً من السبائك تَجْرِي في مَجَارِيها
إذا عَلَتْها الصَّبا أبدَتْ لها حُبُكًا مثلَ الجَواشِنِ مَصْقُولًا حَوَاشِيها[(٢)]
إذا النُّجُوم تراءتْ في جَوَانِبِها ليلًا، حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبتْ فيها
لا يبْلُغ السَّمَكُ المحْصُور غايَتَها لبُعْدِ ما بينَ قاصِيهَا ودانِيهَا
يَعُمْن فيها بأوْساطِ مجنَّحَةٍ كالطيْرِ تنْقَضُّ في جوٍّ خَوَافِيها[(٣)]
كأنها حين لَجَّتْ في تَدفُّقها يَدُ الخليفة لَمَّا سالَ وَاديها!

وقال ابن طباطبا: [من الكامل]

كَمْ ليلةٍ ساهَرْتُ أنْجمَها لَدىٰ عَرَصات أرضٍ ماؤها كسمائِها[(٤)]
قد سُيِّرتْ فيها النجُومُ كأنَّما فَلَكُ السماءِ يَدُور في أرجائِها
أحْسنْ بها بَحرًا إذا التَبَس الدُّجىٰ كانتْ نجومُ الليل من حَصْبائِها!
تَرْنُو إلى الجَوْزاء وهي غَرِيقةٌ تَبْغِي النَّجاءَ، ولاتَ حِينَ نَجائِها!
تَطْفُو وتَرْسُب في اصطفاق مِياهِها لا مُستعانَ لها سِوىٰ أسمائِها[(٥)]
والبَدْر يَخْفُقُ وَسْطَها فكأنَّه قَلْبٌ لها قد ريعَ في أحْشائِها

وقال عبد الجبار بن حَمْديس، يصف بركة يجري إليها الماء من شاذَرْوان[(٦)] من أفواهِ طيور وزَرَافات وأُسُود، من أبيات: [من الكامل]

والماءُ منه سَبائكٌ من فِضَّةٍ ذابَت على دُولَابِ شَاذَرْوان!
فكأنَّما سَيْفٌ هُناك مشَطَّبٌ ألقَتْه يومَ الرَّوعِ كفُّ جَبَانِ![(٧)]
كم شاخِصٍ فيه يُطِيل تعَجُّبًا من دَوْحة نَبتَتْ من العقْيانِ![(٨)]
عَجبًا لها تَسقِي هُناك ينائعًا يَنَعَتْ من الثَّمرات والأغصانِ!

---

(١) وفود الماء: ما انساب منه في قناة وغيرها.
(٢) الحبُك: النسيج، والجوشن: الدرع، والحواشي: الجوانب.
(٣) الخوافي: ريش مؤخّرة الجناح إذا ضمّه الطائر اختفت وهي تساعد ريش القوادم على الطيران.
(٤) العرصة: ساحة الدّار.
(٥) اصطفاق المياه: تحرّكها.
(٦) الشاذروان: لعلّه تمثال من حجر، فيه فوّارات للماء.
(٧) المشطّب: الذي تتراءى في متنه خطوط وفلول.
(٨) الشّاخص: المحدّق الناظر، والعقيان: الفضّة.

خُصَّت بطائرة على فَنَنٍ لها ... حَسُنت، فأُفرِد حسنُها من ثاني!
قُسُّ الطيورِ الساجعاتِ بلاغةً ... وفَصاحةً من مَنْطِق وبَيَانِ[١]
فإذا أُتِيحَ لها الكلامُ تكلَّمَتْ ... بخَرِير ماء دائم الهَمَلانِ[٢]
وكأنَّ صانِعَها استبدّ بصنْعةٍ ... فَخَر الجمادُ بها على الحَيَوانِ!
أوْفَتْ على حَوْضٍ لها فكأنَّها ... منها إلى العَجَب العُجَاب رَوَان[٣]
وكأنَّها ظنَّتْ حلاوةَ مائِها ... شَهْدًا، فذاقَتْه بكُلِّ لِسان
وزَرَافة في الجَوِّ من أُنْبوبِها ... ماءٌ يُريكَ الجَرْيَ في الطَّيَران
مَرْكُوزة كالرُّمْح حيثُ تَرى له ... من طَعْنه الحَلَق انْعطافَ سنَان[٤]
وكأنَّما تَرْمِي السماءَ ببُنْدُقٍ ... مُستَنْبَطٍ من لُؤْلؤ وجُمَانِ![٥]
لو عادَ ذاكَ الماءُ نِفْطًا، أحرَقت ... في الجوّ منه قمِيصَ كلِّ عنان
في بِرْكةٍ قامتْ على حافاتِهَا ... أُسْدٌ تَذِلُّ لِعِزَّة السُّلطان!
نَزَعتْ إلى ظُلْم النفوس نُفوسُها ... فلذلك انْتُزِعتْ من الأبْدان
وكأنَّما الحَيَّاتُ من أفْواهِها ... يَطْرَحْنَ أنْفُسَهنّ في غُدْران
وكأنَّما الحِيتانُ إذ لم تَخْشَها ... أخذَتْ من المَنْصُور عَهْدَ أمان!

وقال آخر: [من الكامل]

ولقد رأَيتُ، وما رأَيْتُ كبِركة ... في الْحُسْنِ ذاتِ تدَفُّق وخَرِير!
عَقَدتْ لها أيْدِي المِياهِ قَنَاطِرًا ... من جَوْهَرٍ في لُجَّةٍ من نُورِ!

وقال عليّ بن الجهم، يصف فوّارة: [من المتقارب]

وفَوّارةٍ ثارُها في السَّماءِ ... فليسَتْ تُقَصِّر عن ثارِهَا!
تَرَاها إذا صَعِدت في السَّماءِ ... تعودُ إلينا بأخْبارها
تَرُدُّ على المُزْن ما أنزَلَتْ ... على الأرضِ من صَوْبِ مِدْرارها![٦]

---

(١) قسّ الطيور: يريد قس بن ساعدة الإيادي، خطيب مشهور في الجاهلية وكان من الأحناف. «انظر فهرس الأعلام ٥/١٩٦».
(٢) الهملان: السيلان والجريان.
(٣) أوفت: أشرفت، والرّوان: المتطلعة، من رنا يرنو: أدام النظر.
(٤) الانعطاف: الانحناء والميل، والسّنان: حديدة الرّمح.
(٥) البندق: رصاص كروي الشكل يستعمل في بعض القذائف للصّيد.
(٦) الصوب: المطر المتساقط، والمدرار: الكثير القطر والدرّ.

وقال ابن حجاج فيها: [من السريع]

عَـلِمْـتُ فـي دارِكَ فَـوّارةً غـرّقَـتِ الأفْـقُ بـهـا الأنـجُـمـا![1]
فاضَ على نَجْم السما ماؤُها فأصبحَتْ أرضُك تَسْقِي السما![2]

وقال تميم بن المعزّ العبيديّ: [من الطويل]

وقـاذِفـةٍ بـالـمـاءِ فـي وَسْـط بـركـةٍ قد التَحَفَتْ ظِلّاً من الأيْك سَجْسَجا[3]
إذا أيْنَعتْ بـالـمـاء سَلَّتْه مُنْصُلًا وعاد عليها ذلك النَّصْلُ هَوْدَجا[4]
تُـحـاولُ إدْراكَ الـنُّـجـومِ بـقَـذْفـهـا كأنَّ لها قَلْبًا على الجوّ مُحْرَجا!

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وَضَّاح: [من الكامل]

لله دُولابٌ يَـطُـوفُ بـسَـلْسَـلٍ في رَوْضةٍ فقد أيْنَعَتْ أفنانا![5]
قَدْ طارحَتْ فيه الحَمائِمُ شَجْوَها بنَحيبِها، وتُرَجِّعُ الألحانَا[6]
فكأنَّه دَنِفٌ يطُوفُ بمعْهَدٍ يَبْكِي ويسْأل فيه عمَّنْ بانَا[7]
ضاقَتْ مَجارِي طَرْفِه عن دَمْعِه فتفتَّحَتْ أضْلاعُه أجْفانَا!

وقال الموفقيّ، رحمه الله: [من السريع]

نـاعـورةٌ تُـحـسَـبُ من صَوْتِـهـا مُـتَـيَّـمًـا يَـشْـكُـو إلـى زائِرِ[8]
كـأنّـمـا كِـيـزانُـهـا عُـصْـبـةٌ رُمُوا بصَرْف الزَّمَنِ الواتِرِ[9]
قد مُنِعُوا أن يلْتَقُوا فاغتَدَوْا أوّلُهُم يَبْكِي على الآخِرِ!

---

(١) الفوّارة: منبع الماء.
(٢) فاض الماء: علا وسال، يريد أن نجوم السّماء تبدو ليلًا في قعر البركة التي يفور منها الماء، وكأنّ النجوم في الأسفل، والماء في الأعلى.
(٣) السجسج: الظلّ الذي لا حرّ فيه ولا هو بارد.
(٤) سلّته: شهرته، والمنصل: السّيف.
(٥) الدّولاب: الآلة التي تريدها الدّابة ليستقى بها، والفنن: الغصن.
(٦) الترجيع: ترديد الصوت أو اللحن وإعادته تكرارًا بنغم.
(٧) الدّنف: المريض الذي أثقله المرض، وبان: بعد ورحل.
(٨) المتيّم: العاشق.
(٩) صرف الزمن: أحداثه وغيرُه، والواتر: الذي يصيب بالمكروه، وينتقص أعمار الناس.

وقال آخر: [من الطويل]

ونـاعـورةٍ قـد ضـاعـفَـتْ بـنُـوَاحِـهـا ... نُـواحي، وأجْرَتْ مُقْلَتيَّ دُمُوعُـهـا!
وقد ضَعُفتْ مما تئِنُّ، وقد غَدَتْ ... من الضَّعْف والشَّكْوىٰ تُعَدُّ ضُلوعُها!

وقال ابن مُنيرِ الطرابلسي[١]: [من الخفيف]

لِنَـواعِـيـرِهـا عـلى الـمـاءِ ألـحـا ... نٌ تَهِيجُ الشَّجا لِقَلْبِ المَشُوق[٢]
فَهْي مِثْلُ الأفلاكِ شَكْلًا وفِعْلًا ... قُسمَتْ قَسْمَ جاهلٍ بالحُقُوق
بيـنَ عـالٍ، سامٍ، يُنَكِّسُه الحَـ ... ـظَّ ويَـعْـلو بِـسـافـلٍ مَـرْزُوق

وقال أبو الفرج الوأواء: [من الكامل]

وكـريـمـةٍ سقَت الـريـاضَ بـدَرِّهـا ... فغَدَتْ تَنُوبُ عن السَّحاب الهامِع[٣]
بِلبَاسِ مَحْزونٍ، ودَمْعة عاشِقٍ ... وحَـنِـيـنِ مُـشْـتـاقٍ، وأنَّـةِ جـازع
فـكـأنَّـهـا فَـلَكٌ يَـدُورُ، وعُـلْوهُ ... يَرْمِي القَرَار بكلِّ نَجْم طالِعِ

وقال الصنوبريّ[٤]: [من الكامل]

فلَكٌ من الدُّولابِ فيه كَواكِبٌ ... من مائه تَنْقَضُّ ساعة تَطْلُع
متلوِّنُ الأصْوات: يَخْفِضُ صَوْتَه ... بـغِـنـائِه، طَـوْرًا وطَـوْرًا يَـرْفَـعُ

ومما وصفت به نثرًا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستَدْعي منه ثلاثة أسهم ومَلِيَّات[٥]. جاء منها:

« . . . والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثةِ أسهم، كأنها هَقْعةُ[٦] الأنجم؛ ممتدّةٍ امتداد الرُّمْح، مقوَّمةٍ تقويم القِدْح؛ غير مشَعَّثةِ الأطراف، ولا معَقَّدة الأعطاف؛ ولا مُسوّسة

(١) هو أحمد بن منير الطّرابلسي، أبو الحسين، شاعر مشهور من أهل طرابلس الشّام، سكن دمشق، وكان هجّاءً مرًّا، نفاه صاحب دمشق إلى حلب بعد أن كاد يقطع لسانه وتوفي فيها سنة ١١٥٣. «فهرس الأعلام ١/ ٢٦٠».
(٢) الشّجا: الحزن والهمّ.
(٣) الهامع: الهاطل الممطر.
(٤) هو أبو بكر الصنوبري، أحمد بن محمد الضبّي الأنطاكي، شاعرٌ تقدّم ذكره.
(٥) المليّة: إناءٌ من فخّار يحفظ به الماء، والسّهم: قدحٌ يشرب به.
(٦) الهقعة: ثلاثة نجوم بعضها قريبٌ من بعض عند رأس كوكبة الجبار، وهي منزل من منازل القمر.

الأجْواف؛ تُحاسِن الغُصُون بقَوَامها، والقُدودَ بتمامها؛ وتخالِفُ هَيَفَها[١] بامتلاء خُصُورِها، وتُسَاوي بين هَوادِيها[٢] وصُدُورِها؛ معتَدِلة القُدود، ناعمةِ الخدود؛ مع مَلِيَّات أخذَتِ النارُ منها مأْخَذَها فاسودّت، وتطاوَلَتْ عليها مُدّةُ الجَفافِ فاشتدّتْ؛ وترامَتْ بها مدّةُ القِدَم، كأنها في حيِّز العَدَم؛ صِلابِ المَكاسر، غلاظ المآزِر؛ تُشْبه أخلاقه[٣] في هيجاء السِّلم، وتحكِي صَلابةَ آرائه في نَفاذ الرأي ومَضَاء العزْم؛ تَكْظِم على الماء بغَيْظها، فتجود على الأرض بفَيْضها؛ تمدّ يد أيْدها[٤] في اقتضاء إرادتها، وتطلُع طلوعَ الأنجم في فَلَك إدارتها؛ وتُعانق أخَواتها معانقةَ التشييع، فآخِرُ التسليم أوّلُ التوديع؛ على أنها تُؤذن بحقائق الاعتبار، وتجري جَرْيَ الفلك المُدَار في قناة الأعمار: [من الطويل]

تَمُرُّ كأنفاس الفَتى في حَيَاتِهِ ... وتَسْعى كسَعْيِ المرء أثْناءَ عُمْرِهِ
يُفارِقُ خلٌّ خِلَّهُ، وهو سائِرٌ ... على مثل حال الخِلّ في إثْر سَيْرِهِ[٥]
ويُعْلِمُه التَّدوارُ، لو يَعْقل الفتى ... بأن مُرورَ العُمْر فيه كَمَرِّهِ
فمَنْ أدركَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرها ... فقد أدْركَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِهِ
ومَنْ فاته، الإدْراكُ أدْركَه الرَّدى ... إذا جُرِّعَتْ أنفاسُه كأسَ مُرِّه»

ومما وصفت به الجداول

قال ابن المعتز، عفا الله عنه: [من الطويل]

على جَدْولٍ رَيَّانَ، لا يقبَلُ القَذى ... كأنّ سواقِيهِ مُتُونُ المَبَارد[٦]

وقال الناجم: [من الطويل]

أحاطَتْ أزاهيرُ الرَّبيعِ سويَّةً ... سِماطَيْنِ مُصْطَفَّيْنِ، تستَنْبِتُ المَرْعى[٧]
على جَدْولٍ رَيَّانَ كالسَّهْم مُرْسَلا ... أو الصارِمِ المسْلُولِ، أو حَيَّةٍ تَسْعى

(١) الهيف: الضّمور.
(٢) الهوادي: الأعناق.
(٣) أي تشبه أخلاق المرسل إليه.
(٤) الأيد: القوّة.
(٥) الخلّ: الصديق المختص «يستوي فيه المذكر والمؤنث».
(٦) الريّان: الناعم الجاري بالماء، والمتون: جمع متن وهو الحدّ، والمبارد: جمع مبرد، وهو آلة تشحذ بها الأدوات الحادة لتصبح أكثر مضاءً.
(٧) السّماط: الصّف، والسّماط من الطريق: جانباه، والسّماط: ما يبسط ليوضع عليه الطّعام.

وقال المفجّع[1]: [من الطويل]

عـلى جَـدْولٍ رَيَّانَ يـنـسـابُ مَـتْـنُـه   صَقيلًا، كمتْنِ السيف وافىٰ مجَرَّدا
إذا الـرِّيـح نـاغَـتْـه، تـحـلَّقَ وجْـهُـه   دُرُوعًـا وِضَـاءً، أو تَـحَـزَّر مِـبْـرَدَا[2]

وقال ابن الروميّ: [من الرّجز]

عـلى حِـفَـافَـيْ جَـدْولٍ مَـسْـجُـورِ   أبيضَ مِثْلِ الـمُـهْـرَق الـمَـنْـشُـورِ[3]
أو مثْلِ متْنِ الـمُـنْـصُـل الـمَـشْـهُـور   يَـنْـسـابُ مثلَ الـحـيَّـةِ الـمَـذْعُـور[4]

وقال ذو الرمّة: [من الطويل]

فما انْشَقَّ ضَوءُ الصُبْح حتَّى تبَيَّنَتْ   جَدَاوِلُ: أمثالُ السُّيُوفِ القَوَاطِعِ

وحيث انتهينا من ذكر المياه إلى هذه الغاية فلنذكر عباد الماء.

ذكر عُبَّاد الماء

وعُبَّاد الماء طائفةٌ من الهند يُسمَّوْن الجَلَهَكِيَّة[5]، يزعمُون أن الماء مَلَك، ومعه ملائكة، وأنه أصلُ كل شيء، وبه كلُّ ولادة ونموّ ونُشُوء وبقاء وطَهَارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلّا ويحتاج إلى الماء.

فإذا أراد الرجل منهم عبادتَه، تجرّد وسترَ عورتَه. ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه، فيقيم ساعتين وأكثَرَ. ويأخذ ما أمكنه من الرّياحين فَيُقَطِّعها صغارًا ويُلْقِي في الماء بعضَها بعد بعض، وهو يُسبِّح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف، حرّك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقَّط على رأسه ووجهه وسائر جسده. ثم يسجُدُ وينصرف.

(١) المفجّع: هو محمد بن أحمد البصري، أبو عبد الله، شاعر عالم بالأدب، له مصنّفات عدّة توفي سنة ٩٣٢ م. «فهرس الأعلام ٥/٣٠٨».
(٢) ناغته: غازلته وحادثته بلطف.
(٣) المسجور: الممتلىء، والمهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٤) المنصُل: السيف.
(٥) في الأصل: المهكنيّة، وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه من الملل والنّحل للشهرستاني. «٣/ ٧٢٧».

القسم الخامس
من الفن الأوّل
في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَباني القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل

وفيه خمسة أبواب:

الباب الأوّل
من هذا القسم
في طبائع البلاد، وأخلاق سُكَّانها

رُوِيَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعبَ الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سُكَّانها، فقال: إن الله تعالى لما خلق الأشياءَ، جعل كل شيء لشيء. فقال العقل: أنا لاحقٌ بالشأم، فقالت الفَتنةُ: وأنا معك. وقال الخِصْب: أنا لاحق بمصر، فقال الذُّلُّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحقٌ بالبادية، فقالت الصِّحَّة: وأنا معك.

وقال محمد بن حبيب(١): لَمَّا خلق الله تعالى الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق: الإيمان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء. فقال الإيمان: أنا لاحق باليمن، فقال الحياء: وأنا معك. وقالت النجدة: أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الكبر: أنا لا حق بالعِراق، فقال النِّفاق: وأنا معك. وقال الغِنىٰ: أنا لاحق بمصر، فقال الذلُّ: وأنا معك. وقال الفقر: أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

---

(١) هو محمد بن حبيب بن أميّة بن عمرو الهاشمي، علّامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، مولده ببغداد ووفاته بسامرّاء سنة ٨٦٠ م. «فهرس الأعلام ٦/٧٨».

وحُكِيَ عن الحجاج أنه قال: لما تبوّأتِ الأشياءُ منازلَها، قال الطاعون[1]: أنا نازلٌ بالشأم، فقالت الطاعة: وأنا معك. وقال النِّفاق: أنا نازلٌ بالعراق، فقالت النعمة: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا نازل بالبادية، فقال الصبْر: وأنا معك.

نوع آخر منه

رُوِيَ عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن الله تعالى خلق البَرَكة عشرة أجزاء: فتسعةٌ منها في قريش، وواحد في سائر الناس. وجعل الكرم عشرة أجزاء: فتسعة منها في العَرَب، وواحد في سائر الناس. وجعل الغَيْرة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأكراد، وواحدٌ في سائر الناس. وجعل المكر عشرة أجزاء: فتسعة منها في القِبْط، وواحد في سائر الناس. وجعل الجفاء عشرةَ أجزاء: فتسعة منها في البَرْبَرِ، وواحد في سائر الناس. وجعل النَّجابة[2] عشرة أجزاء: فتسعة منها في الرُّوم، وواحد في سائر الناس. وجعل الصناعة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الصين، وواحد في سائر الناس وجعل الشهوةَ عشرة أجزاء: فتسعة منها في النِّساء، وواحد في سائر الناس. وجعل العمل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأنبياء، وواحد في سائر الناس. وجعل الحسَدَ عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

ويقال: قُسِم الحقد عشرة أجزاء: فتسعة منها في العرب، وواحد في سائر الناس. وقُسِم البخل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الفرس، وواحد في سائر الناس. وقسم الكِبْر عشرة أجزاء: فتسعة منها في الروم، وواحد في سائر الناس. وقسم الطَّرَب عشرة أجزاء: فتسعة منها في السُّودان، وواحد في سائر الناس. وقسم الشَّبَق[3] عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

ويقال: أربعة لا تعرف في أربعة: السَّخاء في الروم، والوَفَاء في التُّرك، والشجاعة في القِبْط، والغَمُّ في الزِّنْج.

---

(١) الطاعون: مرض خبيث ذو حمىً شديدة ينتقل إلى الإنسان من الفئران.
(٢) النّجابة: الفضل والكرم وكرم الحسب والنّباهة.
(٣) الشّبق: اشتداد الشهوة.

نوع آخر منه

حُكِيَ عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القِرِّيَّة[١] عن طبائع أهل البلاد، فقال: أهل الحجاز أسرعُ الناس إلى فتنة وأعجزُهم عنها؛ رجالها جُفاة، ونساؤها كُساة عراةٌ. وأهل اليمن أهلُ سَمْع وطاعة، ولزومِ الجماعة. وأهل عُمَان عرب استَنْبَطُوا[٢]. وأهل البحرين نَبَطٌ استَعْرَبوا. وأهل اليمامة أهلُ جَفاء، واختلافِ آراء. وأهل فارس أهلُ بأسٍ شديد، وعِزٍّ عَتِيد[٣]. وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره، وأضيَعُهم لكبيره. وأهلِ الجزيرة أشجع فُرْسان، وأقتلُ للأقران. وأهل الشام أطوعُهم لمخلوق وأعصاهم لخالق. وأهل مصر عبيدٌ لمن غَلَب؛ أكيسُ[٤] الناس صغارًا، وأجهلُهم كِبارًا.

وحُكِيَ عن أبي عثمان «عمرو بن بحر الجاحظ» أنه قال: كنا نُعلَّم في المكْتب[٥] كما نُعلَّم القرآن: اِحذوروا حماقَةَ أهل بُخارى، وغلَّ[٦] أهل مَرْو، وشَغَب أهل نَيْسابور، وحسد أهل هَرَاةَ، وحِقْد أهل سِجِسْتان.

وقال أبو حامد القاضي: أعياني أن أرى خُراسانيًّا ذكيًّا، وطبريًّا رَزِينًا[٧]. وهَمَذَانيًّا لبيبًا، وبَصْريًّا ركيكًا، وكُوفيًّا رئيسًا، وبغداديًّا سخِيًّا، ومَوْصِليًّا لَطِيفًا، وشاميًّا خَفيفًا، وحجازيًّا منافقًا، وبَدَويًّا ظريفًا.

وقال بختيشوع[٨]: تسعة لا تخلو من تسعة: قُمِّيٌّ من رُعونة[٩]، ويماني من جنون، وواسطيّ من غفلة، وبصريّ من جَدَل، وكوفيّ من كَذِب، وسَوَاديّ من جَهْل، وبغداديّ من مَخْرَقة[١٠]، وخوزيّ من لؤْم، وطبريّ[١١] من زَرَق.

---

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي، أحد بلغاء الدّهر خطيب يضرب به المثل، والقرّيّة أمه، قتله الحجّاج سنة ٧٠٣. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٧».

(٢) استنبطوا: أي التحقوا بالنبط، وهم قومٌ كانوا يسكنون بين العراق والأردن، أقاموا دولة عاصمتها البتراء.

(٣) العتيد: الحاضر والشديد التّام. (٤) الكيس: العقل.

(٥) المكتب: أي الكتّاب، وهي موضع التعليم «المدرسة».

(٦) الغلّ: العداوة والحقد.

(٧) الرزين: العاقل، والطبري: نسبة إلى طبرستان.

(٨) بختيشوع: هو بختيشوع بن جبرائيل ابن بختيشوع بن جرجس طبيب سرياني، قرّبه العباسيون. «فهرس الأعلام ٢/ ٤٤».

(٩) القميّ: نسبة إلى قم وهي مدينة في إيران، والرعونة: الحمق والهوج.

(١٠) المخرقة: الحماقة.

(١١) طبريّ: نسبة إلى طبرستان وليس إلى طبريّة لأنّ النسبة إليها «طبرانيّ» والزرق: العمى أو=

وقيل: جاوَرَ أهلُ الشام الرومَ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلةَ الغيرة. وجاور أهلُ الكوفة أهلَ السواد، فأخذوا عنهم السَّخاء والغيرة. وجاور أهلُ البصرة الخُوزَ، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء.

ويقال: إن القدماء اعتبروا البلاد وما امتاز به بعضُها عن بعض من الطبائع، فوجدوا أخصبَ بقاع الدنيا ثمانيةَ مواضع: أَرْمِينِيَة، وأَذْرَبِيجان، ومَاهُ دينَور، ومَاهْ نَهاود، وكَرْمان، وأَصْبهَان، وقُومَس، وطَبَرِسْتَان.

ووجدوا أخفّ بقاع الدنيا ماءً، ماءَ ثمانية مواضع: دجلة، والفرات، وزَنْدرُود أصبَهَان، وماء سوران، وماء هَفيجَان، وماء جُنْدَيْسابُور، وماء بَلْخ، وماء سَمَرْقَنْد. (وغفلوا عن نيل مصر، ولعله أحقُّها بهذه الخصوصية من سائر المياه).

ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع: النُّوبَنْدَجان، وسابُور خُوَاسْت، وجُرْجان، وحُلْوان[1]، وبَرْذَعه، وزَنْجان. (وغفلوا عن شَيْزَر).

ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة: أهل أصبَهان، والحِيرة، والمداين، ومَاهْ دِينَوَر، وإصْطَخْر، ونَيسابور، والرَّيّ، وطَبَرِسْتان، ونَشَوَىٰ (وهي نَقْجَوان).

ووجدوا أسرى[2] أهلِ بقاع الدنيا أهلَ سبعة مواضع: طوسفون (وهي المداين)، وبلاشون (وهي حُلْوان)، وماسَبَذان، ونَهاوند، والرَّيّ، وأصبَهَان، ونَيْسابور.

ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع: ماسَبَذَان، ومِهْرِجانْقَذَق[3]، وسُوَرْستان، والرَّيّ، والرَّويان، وأذْرَبيجان، والمَوْصل، وأرمينِيَة، وشَهْرزُور، والصَّامَغَان.

ووجدوا البخل في أهل ثماني بقاع: مَرْو، وإصطَخْر، ودارَابْجِرد، وخُوزستان، وماسَبَذَان، ودَبْيُل، وماه دينور، وحُلْوان.

= هي القذارة.

(١) حلوان: هي حلوان العراق، لا حلوان مصر.

(٢) أسرى: يقال: أسرى إسراء: سار ليلًا، وبما كانت بمعنى أكرم.

(٣) هذا الاسم يتركّب من ثلاث كلمات: مهر: أي الشمس المحبة الشفقة، جان: أي النفس الروح، قذق: بضمّ القاف، ولعلّه اسم رجل، فيكون معناه: محبة أو شمس نفس قذق، وهي كورة حسنة من نواحي بلاد الجبل. «معجم البلدان ٥/٢٣٣».

ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة: أهل السِّدجان[1]، وبادَرايا، وماكسَايَا، وخُوزستان.

ووجدوا أقل أهل الأرض نظرًا في العواقب أهلَ سبعة مواضع: طَبَرِسْتان، وأرمينِيَة، وقُومس، وكَرْمان، وكُوسان، ومُكْران، وشَهْرزُور.

ويقال: إنه وَفَد رجل من عجم خُراسان على كِسْرىٰ، فقال له: أخبرني مَنْ أحسنُ أهل خُراسان لقاءً؟ قال: أهل بُخارى. قال: فمن أوسَعُهم بَذْلًا للخُبْز والمِلْح؟ قال: أهل جُوزْجان. قال: فمن أحسنُهم ضِيافةً؟ قال: أهل سَمَرْقند. قال: فمن أدقُّهم نظرًا وتقديرًا؟ قال: أهل مَرْو. قال: فمن أسوأهم طاعة؟ قال: أهل خُوارَزْم. قال: فمن أخبثهم طَوِيَّة؟ قال: أهل مَرْو الروذ، إن رضي بذلك أهل أَبِيورد. قال: فمن أسقطهم عقلًا؟ قال: أهل طُوس، إن رضيَ بذلك أهل نَسَا. قال: فمن أكثرهم شَغَبًا وجَدَلًا؟ قال: أهل سَرَخْس، إن رضي بذلك أهل قُوهِسْتان. قال: فمن أضعفهم وأخبثهم؟ قال: أهل نَيْسابور. قال: فمن أقلُّهم غيرةً على النساء؟ قال: أهل هَراةَ.

الباب الثاني
من القسم الخامس من الفن الأوّل
في خصائص البلاد

ولنبدأ من ذلك بمكّة ويثرِب، وأُعْرِب عما أنقله من فضلهما ولا أُغْرب؛ وأَصِلُه بذكر البيت المقدّس والمسجد الأقصى، ولا أشترط الاستيعابَ لأن فضائلها لا تحصىٰ.

فأما مكة شرّفها الله تعالى وعظمها

ففضائلها مشهورة بَيِّنة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: الآيتان ٩٦، ٩٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: الآية ١٢٥].

---

(١) كذا في الأصل، ولم يذكرها ياقوت، وإنّما ذكر «السيرجان» مدينة بين كرمان وفارس فلعلّها مصحّفة عنها. «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٩٥».

قال بعض المفسرين: «أمْنًا» من النار. وقيل: كان يأمَنُ من الطلب مَنْ أحدث حَدَثًا ولجأ إليه في الجاهلية.

وحكىٰ القاضي عياض[١] في «كتاب الشفا» أنه حُدِّث أن قومًا أتوا سَعْدون الخَوْلاني بالمُنَسْتِير[٢]، وأعلموه أن كُتَّامَةَ قتلوا رجلًا وأضرموا عليه النارَ طولَ الليل، فلم تعمل فيه وبقِيَ أبيضَ البَدن، فقال: لعله حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ؟ قالوا: نعم. قال: حُدِّثتُ أن «من حَجَّ حَجَّة أدّى فرضَه، ومن حَجَّ ثانية دايَنَ[٣] ربَّه، ومن حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ حَرّم اللهُ شَعَرَه وبَشَره على النار».

ولما نظر رسولُ الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مَرْحبًا بكِ من بَيْتٍ، ما أعْظَمَكِ وأعْظَمَ حُرْمَتكِ!». وجاء في الحديث عنه ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ يَدْعو الله عند الرُّكْن الأسْودِ إلا استجَابَ له». وكذلك عند الركن[٤].

وعنه ﷺ: «مَنْ صَلَّى خَلْفَ المَقَامِ ركعتيْنِ، غُفر له ما تَقَدّم من ذَنْبه وما تأَخَّر وحُشِر يومَ القيامة مع الآمِنِينَ».

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السمٰوات والأرض

قال أبو الوليد الأزرقيّ[٥] بسند يرفعه إلى كعب الأحبار أنه قال: كانت الكعبة غُثَاء[٦] على الماء قبل أن يخلُق الله عزَّ وجلّ السمٰوات والأرضينَ بأربعين سنةً. ومنها دُحِيَتِ[٧] الأرضُ.

(١) هو القاضي عيّاض بن موسى اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، كان من أعلم الناس بأيّام العرب وأنسابهم له تصانيف عدّة، توفي بمراكش سنة ١١٤٩ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٩٩».

(٢) منستير: هو موضع بين المهديّة وسوسة بإفريقيا، يسكنها قومٌ من أهل العبادة والعلم. «معجم البلدان ٥/ ٢٠٩».

(٣) داين ربّه: عامله بالدّين.

(٤) كذا في جميع النّسخ، ولعلّه الرّكن اليماني، والرّكن من البيت: أحد الجوانب القويّة التي يستند إليها.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن الوليد بن عقبة بن الأزرق، مؤرّخ يماني الأصل، له أخبار مكة جزآن، مطبوع، مات نحو ٨٦٥ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٢».

(٦) الغثاء: ما يحمله السّيل من رغوة ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض.

(٧) دحيت: جعلت على شكل الدّحية أي البيضة، سطحت كما هي الآن.

وقال يرفعه إلى مجاهد: خلق الله تعالى هذا البيتَ قبل أن يخلُق شيئًا من الأرضِينَ. وعنه يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما كان العَرْش على الماء قبل أن يخلُق الله السمٰوات والأرضَ بعث الله ريحًا فصفَّقت[١] المَاء فأبرزَتْ عن حَشَفة[٢] في موضع البيت كأنها قُبّة. فدحا الله عزَّ وجلّ الأرضَ من تحتها فمادَتْ ثم مادَتْ. فأوْتَدها الله تعالى بالجبال، فكان أوّلَ جبل وضع فيها أبُو قُبَيْس، فلذلك سميت مكةُ أمَّ القُرىٰ.

وعنه يرفعه إلى مجاهد أنه قال: لقد خلق الله عزَّ وجلّ موضعَ هذا البيت قبل أن يخلُق شيئًا من الأرض بألفَيْ سنة، وإنّ قواعده لفي الأرض السابعة السُّفْلىٰ.

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام ومبدأ الطواف

قال أبو الوليد الأزرقيّ، يرفعه إلى عليّ بن الحسين رضي الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله، فقال له: عَمَّ تسأَلُ؟ فقال: أسألك عن بَدْء الطواف بهذا البيت لِمَ كان؟ وأنّى كان؟ وحيث كان؟ وكيف كان بالحجر؟ فقال له: نعم، من أينَ أنتَ؟ فقال: من أهل الشام. فقال: أين مَسْكَنُك؟ قال: في بيت المقدس. قال: فهل قرأت الكتَابَينِ؟ (يعني التوراة والإنجيل). قال له الرجل: نعم. فقال له: يا أخا أهل الشام احفَظْ، ولا ترويَنَّ عَنّي إلا حقًّا:

أمّا بَدْء هذا الطواف بهذا البيت، فإنّ الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، قالت الملائكة: أي رَبِّ، أخَلِيفة من غيرنا: ممن يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء، ويتحاسدُون، ويتباغَضُون، ويتنازَعُون؟ أيْ رَبِّ، اجعل ذلك الخليفةَ منّا، فنحن لا نُفْسِد فيها، ولا نَسْفِك الدماء، ولا نتباغَضْ، ولا نتحاسَدُ، ولا نتباغىٰ؛ ونحن نُسَبّح بحمدك ونقدّس لك، ونُطِيعك ولا نَعْصِيك. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]. قال: فظنَّت الملائكة أن ما قالوه ردٌّ على ربهم عزَّ وجلّ وأنه قد غَضِب من قولهم، فلاذُوا بالعرش، ورفعُوا رؤُوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرَّعون ويبكُون إشفاقًا لغَضَبه. فطافوا بالعرش ثلاثَ ساعاتٍ. فنظر الله عزَّ وجلّ إليهم، فنزلت الرحمةُ عليهم، فوضع اللهُ سبحانه

---

(١) صفّقت الماء: ضربتها.
(٢) الحشفة: صخرة تكون في البحر.

تحت العرش بيتًا على أربع أساطِينَ[(١)] من زَبَرْجَد[(٢)]، وغَشَّاه بياقوتة حمراءَ وسمَّى البيت الضرَاحَ[(٣)]. ثم قال للملائكة: طُوفُوا بهذا البيت، ودَعُوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهْونَ عليهم، وهو البيتُ المعمور الذي ذكره الله عزَّ وجلّ: يدخُلُه كلَّ يوم وليلة سبعُون ألفَ ملَك لا يعُودون فيه أبدًا. ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال: ابْنُوا لي بيتًا في الأرض بمثاله وقَدْرِه. فأمر الله سبحانه مَنْ في الأرض من خلقه أن يطُوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمورِ.

فقال الرجل: صَدَقْتَ يا ابنَ بنتِ رسول الله ﷺ، هكذا كان.

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقيّ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إن جبريل عليه السلام وقَفَ على رسول الله ﷺ، وعليه عِصابة[(٤)] حمراءُ قد علاها الغُبارُ، فقال له النبيّ ﷺ: ما هذا الغبارُ الذي أرىٰ على عِصابتك، أيُّها الرُّوح الأمينُ؟ قال: إني زرتُ البيتَ فازدحمت الملائكةُ على الركن، وهذا الغبار الذي ترى مما تُثِير بأجْنِحَتها.

وقال، ورفعه إلى ليث بن معاذ[(٥)] رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: هذا البيتُ خامسُ خمسةَ عشر بيتًا، سبعةٌ منها في السماء إلى العرش، وسبعةٌ منها إلى تخوم الأرض السُّفْلىٰ، وأعلاها الذي يلي العرشَ: البيتُ المعمور. لكل بيت منها حَرَم كَحَرم هذا البيت. لو سقط منها بيتٌ، لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السُّفْلىٰ، ولكل بيتٍ من أهل السماء ومن أهل الأرض من يَعْمُره، كما يُعْمَر هذا البيتُ.

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض
وبنيانِه الكعبة المشرَّفة وحجه وطوافِه بالبيت

قال الأزرقيّ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عزَّ وجلّ آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسُه في السماء ورِجْلاه في

(١) الأساطين: الأعمدة.

(٢) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرد، متعدّد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر.

(٣) الضراح: البيت المتسع ففي اللسان: الانضراح: الاتساع «اللّسان مادة ضرح».

(٤) العصابة: العمامة أو التاج.

(٥) لعلّه ليث بن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، الصّحابي الجليل. «انظر فهرس الأعلام ٧/ ٢٥٨، والكاشف ٣/ ١٣٥».

الأرض. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته[١]. قال: فطأطأ الله عزَّ وجلّ منه إلى الأرض ستين ذراعًا، فقال: يا رب مالي لا أسمَعُ أصوات الملائكة ولا حِسَّهم؟ قال: خطيئتُك يا آدم، ولكن اذهب فابْنِ لي بيتًا تَطُفْ به واذكُرْني حوله كنحو ما رأيتَ الملائكة تصنَعُ حولَ عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطّى، فطُوِيتْ له الأرض وقُبِضت له المَفاوِز[٢]، فصارت كل مفازة يمرُّ بها خَطوةً، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ أو بحرٍ فجعله خَطْوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمْرانًا وبَرَكةً حتّى انتهىٰ إلى مكة. فبنىٰ البيت الحرام. وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أسٍّ[٣] ثابت في الأرض السُّفْلىٰ فقذفت الملائكة فيه الصخرَ، ما يُطِيق الصخرةَ منها ثلاثون رجلًا. وإنه بناه من خمسة أجْبُل: من لُبْنانَ، وطُورزَيْتا[٤]، وطُورِسِينَا، والجُودي[٥]، وحِراء[٦]، حتّى استوىٰ على وجه الأرض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فكان أوّلُ من أسس البيتَ وصلّى فيه وطاف به، آدمَ عليه السلام. حتّى بعث الله سبحانه الطُّوفانَ، فدَرَس موضعُ البيت في الطُّوفان. حتّى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعدَه وأعلامَه ثم بنَتْه قريش بعد ذلك. وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سَقَط إلا عليه.

وقال أبو الوليد أيضًا، ورفعه إلى وهب بن منَبِّه: إن الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عليه السلام، أمره أن يسيرَ إلى مكة. فَطوىٰ له الأرضَ وقَبضَ له المفاوِزَ، فصارت كلُّ مفازة يمرُّ بها خَطْوة، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ[٧] ماء أو بحر

---

(١) الرّعدة: اضطراب الجسم من فزعٍ أو حمى أو غيرهما.

(٢) المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها.

(٣) أسّ: أساس يقدم عليه البناء.

(٤) طورزيتا: جبل قرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر، ومنه رُفع عيسى بن مريم عليه السّلام، وهو مطل على المسجد الأقصى. «معجم البلدان ٤/ ٤٧، ٤٨».

(٥) الجوديّ: هو جبل مطلٌّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح عليه السّلام. «معجم البلدان ٢/ ١٧٩».

(٦) حراء: جبل من جبال مكّة على ثلاثة أميال، وهو معروف، ومن الناس من يؤنّثه فلا يصرفه، وقيل: إن رسول الله ﷺ ارتقى ذروته. «معجم البلدان ٢/ ٢٣٣».

(٧) المخاض: ما يجب قطعه من ماءٍ في بحرٍ أو نهر.

فجعله له خَطْوة. فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمْرانًا وبَرَكَةً حتّى انتهى إلى مكة. وكان قبل ذلك قد اشتدّ بكاؤه وحُزْنه لِما كان فيه من عظم المصيبة، حتّى إن كانت الملائكة لَتَحْزَن لحُزْنه ولَتَبْكِي لبُكائه. فعَزَّاه الله عزَّ وجلّ بخيمة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة. وتلك الخيمةُ ياقوتة حمراءُ من ياقوت الجنة: فيها ثلاثة قناديلَ من ذهبٍ من تِبْر الجنة، فيها نُور يتلَهَّب من نُور الجنة. ونزّل معها الركْنَ، وهو يومئذٍ ياقوتةٌ بيضاء من رَبَض[١] الجنة. وكان كُرْسيًّا لآدم عليه السلام، يجلس عليه. فلما صار آدم بمكة، حرسها الله تعالى، حرسه الله تعالى وحرس تلك الخيمة بالملائكة. كانوا يحرُسُونها ويَذُودون عنها ساكنَ الأرض، وساكنوها يومئذٍ الجنُّ والشياطين، فلا ينبغي لهم أن ينظُروا إلى شيء من الجنة، لأنه مَنْ نظر إلى شيء من الجنة وجبت له. والأرض يومئذٍ طاهرة نَقِيَّة لم تَنْجُس ولم يُسْفك فيها الدمُ، ولم تُعْمل فيها الخطايا. فلذلك جعلها الله عزَّ وجلّ مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ، لَا يَفْتُرُونَ[٢]: وكان وقوفهم على أعلام الحَرَم صَفًّا واحدًا مستديرين بالحرم كلِّه: الحِلُّ من خلفهم، والحَرَمُ كله من أمامهم. ولا يجوزهم جنيٌّ ولا شيطان. ومن أجل مُقام الملائكة، حُرِّم الحرم حتّى اليوم. ووضعت أعلامُ حيث كان مقامُ الملائكة. وحرم الله على حوّاء دخولَ الحرم والنظرَ إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأتْ في الجنة. فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتّى قُبضت. وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها لِيُلِمَّ بها للولد، خرج من الحرم كله حتّى يلقاها. فلم تزل خيمةُ آدمَ مكانها حتّى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها اللهُ. وبنىٰ بنو آدم بها من بعْدها مكانًا: بيتًا بالطِّين والحجارة. فلم يزل معمورًا، يَعْمرُونه ومَنْ بعدهم حتّى كان زمنُ نوح عليه السلام. فَنَسفه الغَرَق وخَفِي مكانُهُ. فلما بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام طلب الأساسَ، فلما وصل إليه ظلَّل الله مكان البيت بغمامة. فكانت حِفَافَ[٣] البيت الأوّل، ثم لم تزل راكزة على حِفَافِه تُظِلُّ إبراهيم عليه السلام وتَهْدِيه مكانَ القواعد حتّى رفع الله القواعد قامةً. ثم انكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحجّ: الآية ٢٦] أي الغمامةَ التي ركزت على الحِفَاف لتَهْدِيَهُ مكان القواعد.

(١) الربض: ناحية من النواحي، أو هو الضاحية.
(٢) يفترون: يصيبهم العناء والتّعب.
(٣) حفاف البيت: ما أحدق بأساسه وأركانه، أو ما استدار حوله.

وعن وهب بن منبه أنه قال: قرأتُ في كتاب من الكتب الأُوَل، ذُكر فيه أمرُ الكعبة، فوجدتُ فيه أن ليس من مَلَك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلا أمَرَه بزيارة البيت. فينقَضُّ من عند العرش مُحْرِمًا ملبِّيًا، حتّى يستلِمَ الحجر. ثم يطوفُ بالبيت سبعًا ويركعُ في جوفه ركعتين، ثم يَصعَد.

وقال الأزرقيّ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلى موضع البيت الحرام. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته. ثم أنزل عليه الحجرَ الأسودَ يعني الركنَ، وهو يتلألأ من شدّة بياضه. فأخذه آدم ﷺ فضمَّه إليه أُنْسًا به. ثم أنزلَتْ عليه العصى فقيل له: تخَطَّ يا آدم، فتخطَّى، فإذا هو بأرض الهند والسند. فمكَثَ هنالك ما شاء الله، ثم استوحش إلى الركن فقيل له: احْجُجْ، قال: فحج فلقيَتْه الملائكة فقالوا: بَرّ حجُّك يا آدمُ، لقد حَججْنا هذا البيت قبلك بألفَيْ عامٍ.

قال: وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب الأحبار فقال: أخبِرْني عن البيت الحرام. فقال كعب: أنزله الله من السماء ياقوتةً مجوّفةً مع آدم، فقال له: يا آدم إن هذا بيتي أنزلتُه معك، يُطَاف حوله كما يُطَاف حولَ عَرْشي، ويصلّى حوله كما يصلّى حول عرشي. ونزلتْ معه الملائكة فرفعوا قواعِدَه من حجارة ثم وضع البيت عليه. فكان آدم يطوف حوله كما يُطاف حول العرش، ويصلِّي عنده كما يصلّى عند العرش. فلما أغرق الله تعالى قومَ نوح، رفعه إلى السماء وبقيت قواعدُه.

وقال وهب بن منبه: كان البيت الذي بوّأه(١) الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذٍ من ياقوت الجنة. وكان من ياقوتةٍ حمراء تلتَهِب، لها بابانِ: أحدُهما شرقيّ والآخر غربيّ. وكان فيه قناديلُ من نُور آنيتها ذهبٌ من تِبْر الجنة. وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض. والركن يومئذٍ نجم من نجومه وهو يومئذٍ ياقوتة بيضاء.

والله أعلم.

ذكر فضل البيت الحرام، والحَرَم

قال أبو الوليد، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال: إن آدم لما أُهْبِط إلى الأرض استوْحش فيها لِمَا رأى من سَعَتِها ولم ير فيها أحدًا غيره، فقال: يا رب، أما لأرضك

(١) بوأه: أحلّه فيه.

هذه من عامر يسبِّحك فيها ويقدّس لك غيري؟ قال: إني سأجعَلُ فيها من ذُرِّيتك مَنْ يسبِّح بحمدي، ويقدّس لي، وسأجعل فيها بيوتًا تُرفَع لذكرى ويسبِّحُني فيها خلقي، وسأُبوّئك فيها بيتًا أختاره لنفسي، وأخصُّه بكرامتي، وأُوثِره على بيوت الأرض كلها باسمي، فأسمِّيه بيتي، وأُنْطِعُه[١] بعظمتي، وأحوزه[٢] بحرماتي، وأجعله أحق بيوت الأرض كلها وأولاها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فإني اخترت مكانه يوم خلقتُ السمٰواتِ والأرضَ؛ وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتي من البيوت، ولستُ أسكُنه، وليس ينبغي لي أن أسكُنَ البيوتَ؛ ولا ينبغي لها أن تَسَعَني، ولكن على كرسيِّ الكِبرياء والجبروت؛ وهو الذي استقَلَّ بعزتي، وعليه وضعتُ عظمتي وجَلَالي، وهنالك استقرّ قَرَاري؛ ثم هو بعدُ ضعيف عنِّي لولا قُوَّتي؛ ثم أنا بعد ذلك مِلْءُ كل شيء، وفوق كلِّ شيء، ومحيط بكلِّ شيء، وأمامَ كلِّ شيء، وخلف كلِّ شيء، وليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقْدُر قدرتي، ولا يبلُغ كُنْه شاني. أيجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حَرَمًا وأمْنًا، أُحَرِّم بحرماته ما فوقه وما تحته وما حوله. فمن حرّمه بحرمتي فقد عظَّم حُرُماتي، ومن أحلّه فقد أباح جُرُماتي، ومن أمَّن أهلَه فقد استوجب بذلك أماني، ومَنْ أخادفهم أخفرني[٣] في ذمتي، ومن عظَّم شأنَه عَظُم في عيني، ومن تهاوَنَ به صَغُر في عيني؛ ولكل مَلِك حيازةُ ما حواليه مما حواليه، وبطنُ مكة خِيرتي وحِيازتي؛ وجِيرانُ بيتي وعُمَّارها وزوّارها، وفَدْي وأضيافي في كنفي[٤] وأفنِيتي[٥]، ضامنون على ذمتي وجِواري؛ فأجعله أوّل بيتٍ وُضِع للناس، وأعمرُه بأهل السماء وأهل الأرض: يأتونه أفواجًا شُعْثًا غُبْرًا ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٢٧]، يَعُجُّون[٦] بالتكبير عَجِيجًا، ويَرُجُّون بالتلبية[٧] رَجِيجًا[٨]، وينتَحبون بالبكاء نَحِيبًا. فمن اعتمره لا يريد غيره، فقد زارني ووَفَد إليّ ونزل بي؛ ومَنْ نزل بي، فحقيق علَيّ أن أُتحِفه بكرامتي؛

---

(١) كذا بالأصل؛ والصواب «أنطّقه» بالقاف المثناة وتشديد الطاء، من نطقه إذا جعل له نطاقًا. والمعنى أنه تعالى جعل لبيته المكرم نطاقًا من عظمته، أي أنه أحاطه بعظمته فكان عظيمًا جليلًا في الأمم والشعوب.

(٢) كذا بالأصل؛ والصواب «أعوّذه» أي أنه تعالى جعله حرمًا آمناف فكان ذلك بمثابة عوذة له تقيه وتحميه.

(٣) خفر الذِّمة: نقض العهد وغدر.

(٤) الكنف: الجانب والظل والرّعاية.

(٥) الفناء: السّاحة التابعة للدّار.

(٦) يعجّون: يصيحون بصوت مرتفع.

(٧) التلبية: هي أن يقول الحاج «لبّيك اللّهم لبّيك».

(٨) الرّجيج: الاهتزاز والحركة.

وحقٌّ على الكريم أن يُكْرِم وفده وأضيافه، وأن يُسْعِف كل واحد منهم بحاجته. تَعْمُره يا آدم ما كنتَ حيًّا، ثم تعمُره من بعدك الأممُ والقرونُ والأنبياء: أمةٌ بعد أمة، وقرنٌ بعد قرن، ونبيٌّ بعد نبيّ، حتّى ينتهي ذلك إلى نبيٍّ من ولدك وهو خاتَمُ النبيين، فأجعلَهُ من عُمَّاره وسُكَّانه وحُمَاته، ووُلاته وسُقاته. يكون أميني عليه ما كان حيًّا. فإذا انقلب إليّ، وجدني قد ذَخَرت له من أجره وفضيلته ما يتمكن به القربةَ مني والوسيلةَ إليّ، وأفضل المنازل في دار المقام. وأجعل اسمَ ذلك البيت وذِكْره وشرفَه ومجدَه وثناءه ومَكْرُمته لنبيٍّ من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضي علي يديه عمارتَه، وأُنبِط[١] له سِقايته، وأُريه حِلَّه وحَرَمه ومَوَاقفه، وأُعْلِمه مشاعره[٢] ومناسكه[٣]، وأجعله أُمةً[٤] واحدة قانتًا لي، قائمًا بأمري، داعيًا إلى سبيلي؛ أَجْتبيه وأهْدِيه إلى صراط مستقيم؛ أبتليه فيَصْبِر، وأُعافيه فيشكر؛ وينذِرُ لي فيفي؛ ويَعِدني فيُنْجِز؛ وأستجيب له في ولده وذرّيته من بعده وأُشَفِّعه فيهم، وأجعلهم أهل ذلك البيت ووُلَاته وحُمَاتَه وسُقَاته وخُدّامَه وخُزَّانَه وحُجَّابَه[٥] حتّى يبتدعوا ويغيروا؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل مَنْ أشاء بمن أشاء. أجعل إبراهيم إمام أهلِ ذلك البيت وأهل تلك الشريعة، يأتمُّ به مَنْ حضر تلك المواطن من جميع الإنس والجن؛ يطئون فيها آثاره، ويتبعون فيها سُنَّته، ويقتدون فيها بهَدْيه. فمن فعل ذلك منهم أوفىٰ نذره، واستكمل نُسُكه؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيَّع نسكه، وأخطأ بُغْيَته. فمن سأل عني يومئذٍ في تلك المواطن: أين أنا؟ فأنا مع الشُّعْثِ[٦] الغُبْر المُوفِين بنذورهم، المستكملين مناسكهم، المبتهلين إلى ربهم الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون. وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذي قصصت عليك شأنه؛ يا آدم، بزائدي في ملكي ولا عَظَمتي ولا سلطاني ولا شيءٍ مما عندي إلا كما زادتْ قطرةٌ من رُشَاش[٧] وقعتْ في سبعة أبحر تمدّها من بعدها سبعةُ أبحر لا تحصىٰ، بل القطرة أزيد في البحر من هذا الأمر في شيء مما عندي. ولو لم أخلُقْه لم ينتقص شيء من مُلْكي ولا عظمتي ولا مما عندي من الغَناء[٨] والسَّعة، إلا كما نقصت

---

(١) أُنبط: أظهر بعد خفاء. (٢) المشاعر: مناسك الحجّ.
(٣) المناسك: طريقة النّسك والعبادة. (٤) الأمة: الطريقة والدّين.
(٥) الحجّاب: الذين يقومون على أمر أبوابه.
(٦) الشُعث: الذين تغيّرت شعورهم من وعثاء السّفر.
(٧) الرّشاش: ما ترشّش من السّوائل. (٨) الغناء: الكفاية والنفع.

الأرضَ ذرّةٌ وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرّة أنقص للأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه. ليس مما عندي ويعدّ هذا مثلًا للعزيز الحكيم.

ذكر ما جاء في طواف سفينة نوح عليه السلام بالبـــيـــت

قال أبو الوليد الأزرقيّ، ورفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلًا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا في السفينة مائةً وخمسين يومًا، وإن الله جل ثناؤه وَجَّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يومًا، ثم وجهها إلى الجُوديّ فاستقرّت عليه.

وقال عن مجاهد: كان موضع الكعبة قد خَفِيَ ودَرَس[١] زمنَ الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. فكان موضعه أكمةً[٢] حمراءَ مدوّرة، لا تعلوها السيول. غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعُه. وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عِنْده المكروب. فقلَّ مَنْ دعا هنالك، إلا استجيب له. وكان الناس يحجُّون إلى مكة، إلى موضع البيت، حتّى بوّأ[٣] الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام. فلم يزل منذ أَهْبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظمًا محرّمًا تتناسخه الأمم والملل أمّةٌ بعد أمّة، وملَّةٌ بعد ملة. قال: وكانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام.

ذكر ما جاء من تخيّر إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج: بلغنا والله أعلم أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عُرِج به إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارِقِها ومغاربِها، فاختار موضع الكعبة. فقالت له الملائكة: يا خليل الرحمٰن اخترتَ حرمَ الله في الأرض، قال: فبناه من حجارةِ سبعة أجبُل (ويقولون خمسة). وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال.

---

(١) درس: عفا وذهب أثره.
(٢) الأكمة: التلّ.
(٣) بوّأ المكان له: أعدّه وأحلّه فيه.

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحٰق: لما فرغ إبراهيمُ خليلُ الرحمٰن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال: طُفْ به سبعًا، فطاف به سَبْعًا، هو وإسماعيل. يستلمان الأركانَ كلَّها في كل طواف، فلما أكملا سبعًا، صلَّيَا خلف المقام ركعتين. قال: فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها: الصَّفا والمَرْوة ومِنًى ومُزْدلِفة وعرفةَ. فلما دخل منًى وهبط من العقبة، مُثِّل له إبليس عند جَمْرة[١] العقبة، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات. فغاب عنه؛ ثم برَزَ له عند الجمرة الوسطى، فقال له جبريل: ارمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات، فغاب عنه؛ ثم برز له عند الجمرة السفلىٰ، فقال له جبريل: ارمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخَذْف[٢]، فغاب عنه إبليس؛ ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتَّى انتهى إلى عرفة. فلما انتهى إليها، قال له جبريل: أعَرَفْتَ مناسِكَكَ؟ قال: نعم، قال: فسميت عرفات بذلك. قال: ثم أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا ربِّ وما يبلُغُ صوتِي؟ قال الله جل ثناؤه: أذِّن، وعليّ البلاغُ، قال: فَعَلا إبراهيم على المقام فأشرف به حتَّى صار أرفع الجبال وأطولها فجُمعت له الأرض يومئذٍ: سهلُها، وجبلُها، وبَرُّها، وبحرُها، وإنسها، وجِنُّها حتّى أسمعهم جميعًا، فأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا وبدأ بشق اليمين فقال: «أيها الناس كُتِب عليكم الحجُّ إلى البيت العتيق، فأجيبوا ربكم» فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقَطَع التراب من أقطار الأرض كلها: (لَبَّيكَ، اللهمَّ لَبَّيْك). قال: وكانت الحجارة على ما هي اليوم، إلا أن الله عزَّ وجلّ أراد أن يجعل المقام آية[٣]. فكان أثَرُ قدميه في المقام آية إلى اليوم. قال: أفلا تراهم اليوم يقولون: (لبيك، اللهم لبيك). فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم. وأثر قدمَيْ إبراهيم في المقام آية. وذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧].

(١) جمرة العقبة: في آخر مِنى ممّا يلي مكة، وهي موضع رمي الجمار بمنى، وسمِّيت جمرة العقبة والجمرة الكبرى لأنه يرمى بها يوم النّحر. «معجم البلدان ٢/ ١٦٢».

(٢) الخذف: يقال خَذَفَ بالنّوى وبالحصى، أي جعل النّواة أو الحصاة بين سبّابتيه ورمى بها.

(٣) الآية: العلامة والأمارة والمعجزة.

قال ابن إسحٰق: وبلغني أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم، وحجَّه إسحٰقُ وسارةُ[١] من الشام. قال: وكان إبراهيم يحجُّه كل سنة على البُرَاق[٢]. قال: وحَجَّتْ بعد ذلك الأنبياء والأمم.

وعن مجاهد، قال: حج إبراهيم وإسماعيل، ماشيين.

وعن عبد اللَّه بن ضمرة السلولي[٣]: ما بين الركْن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيًّا، جاؤوا حجَّاجًا فقُبِروا هنالك.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: كان النبيُّ من الأنبياءِ إذا هلكَتْ أمَّتُه لحق بمكة فتعبّد بها النبيُّ ومن معه حتَّى يموت. فمات بها: نوح، وهود، وصالح، وشعيب. وقبورهم بين زمزم والحِجْر.

وعن مجاهد: حج موسى النبيّ عليه السلام على جمل أحْمَر. فمرّ بالرَّوْحاء[٤] عليه عباءتان قَطَوانِيَّتان[٥] متَّزِرٌ بإحداهما، مرتدٍ بالأخرى. فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة. فبينما هو يلبِّي بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتًا من السماء يقول: (لَبَّيك عبدي، أنا مَعَك) قال: فخرّ موسى ساجدًا.

وعن عُرْوة بن الزبير[٦] رضي الله عنهما قال: بلغني أن البيتَ وُضع لآدم يطوفُ به ويعبد الله عنده؛ وأنَّ نوحًا قد حَجَّه وجاءه وعظمه قبل الغرق. فلما أصاب البيتَ ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوةً حمراء معروفًا مكانه؛ فبعث الله هودًا إلى عاد، فتشاغل بأمر قومه حتَّى هلك، ولم يحجَّه. ثم بعث الله تعالى صالحًا إلى

---

(١) سارة: هي زوجة إبراهيم الخليل عليه السّلام.

(٢) البُراق: دابة ركبها رسول الله ﷺ ليلة المعراج.

(٣) هو عبد الله بن ضمرة السلولي، محدّث، عدّه ابن حيان والعجلي من الثقاة، روى عن أبي الدّرداء وأبي هريرة. «الكاشف ٢/ ٨٨».

(٤) الرّوحاء: من الرّوح والراحة والاستراحة، ويقال: لمّا رجع تبعٌ من قتال أهل المدينة يريد مكّة نزل بالرّوحاء، وهي من عمل الفرع، والرّوحاء: قرية من قرى بغداد على نهى عيسى. «معجم البلدان ٣/ ٧٦».

(٥) قطوانيّتان: نسبة إلى قطوان، وهو موضع ذكره الحديث الشريف أنّه يبعث منه سبعون ألف شهيد، وقال أبو الفضل بن طاهر المقدسي: قطوان موضع بالكوفة، وإليه يُنسب أبو الهيثم خالد بن مخلد القطواني المحدّث المشهور. «معجم البلدان ٤/ ٣٧٥».

(٦) هو عروة بن الزبير، أبو عبد الله، محدّث، قال ابن سعد: كان فقيهًا عالمًا كثير الحديث ثبتًا مأمونًا، وقال هشام: صام أبي الدّهر، ومات وهو صائم سنة ٩٣ هـ أو ٩٤ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٢٩».

ثمود، فتشاغل بهم حتَّى هلك، ولم يحجَّه. ثم بوّأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فحجَّه وأعلم مناسكه ودعا إلى زيارته. ثم لم يبعث الله نبيًّا بعد إبراهيم، إلا حجه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لقد سَلَك فَجَّ[١] الرَّوْحاء سبعون نبيًّا، حُجَّاجًا: عليهم لباسُ الصُّوف مخطَّمي[٢] إبلهم بحبال اللِّيف. ولقد صلَّى في مسجد الخَيْف[٣] سبعون نبِيًّا.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد مَرَّ بفَجِّ الرَّوْحاء (أو لقد مَرَّ بهذا الفَجِّ) سبعون نبيًّا على نُوقٍ حُمْر خُطُمها الليفُ، لَبُوسُهم العباء وتلبيتهم شتَّى. فمنهم يونس بن متَّى. فكان يونس يقول: (لبَّيْك فرّاجَ الكُرب، لبَّيْك)؛ وكان موسى يقول: (لبَّيْك، أنا عبدُك لديْك، لبَّيْك) قال: وتلبية عيسى: (لبَّيْك، أنا عبدك ابن أمَتِك بنتِ عبديك، لَبَّيْك)».

وعن عطاء بن السائب[٤] أن إبراهيم رأى رجلًا يطوف بالبيت فأنكره، فسأله: ممن أنْتَ؟ فقال: من أصحاب ذي القَرْنيْنِ[٥]، قال: وأيْنَ هو؟ قال: هو بالأبطح[٦]. فتلقَّاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه، فقال لذي القرنين: ألا تركب؟ قال: ما كنتُ لأركبَ، وهذا يشمي، فحجَّ ماشيًا.

ذكر ما جاء من مسألة إبراهيم عليه السلام الأمْنَ والرزقَ لأهل مكة والكتبِ التي وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقيّ، يرفعه إلى محمد بن كعب القُرَظي[٧] أنه قال: دعا إبراهيم عليه السلام للمؤمنين، وترك الكُفَّار لم يدعُ لهم بشيء، فقال الله

---

(١) الفجّ: الطريق الواسع البعيد.

(٢) خطم الناقة: جعل أنفها خطامًا، وهو الزّمام.

(٣) مسجد الخيف: الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سُمِّي مسجد الخيف من مِنى، وقال ابن جنّي: أصل الخيف الاختلاف، ومنه الناس أخياف: أي مختلفون. «معجم البلدان ٢/ ٤١٢».

(٤) هو عطاء بن السّائب الثقفي الكوفي أحد الأعلام في الحديث، قال أحمد عنه: ثقة ثقة رجل صالح يختم القرآن كل ليلة مات سنة ١٣٦ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٣٢».

(٥) ذو القرنين: يقال: إنه أفريدون التاسع من ولد جمشيد الطبقة الأولى الفارسية، كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السّلام. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٦) الأبطح: مسيلٌ واسع فيه دقاق الحصى، ومنه أبطح مكة، وهو مسيل واديها. «اللّسان: مادة بطح».

(٧) هو محمد بن كعب القرضي، من علماء الحديث، ثقة حجّة. «انظر الكاشف ٣/ ٨١».

تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦].

وقال عثمان بن ساج: وأخبرني محمد بن السائب الكلبيّ[1] قال: قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦]، فاستجاب الله عزَّ وجلّ له فجعله بلدًا آمنًا وآمن فيه الخائفَ ورزقَ أهلَه من الثمرات، تُحمَل إليهم من الآفاق.

وقال مجاهد: جعل الله هذا البلد آمنًا، لا يخاف فيه مَنْ دخله.

وقال سعيد بن السائب بن يَسَار[2]: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرضَ الطائف من الشام فوضعها هنالك: رزقًا للحرم.

ورُوِيَ عن محمد بن المنكدر[3]، عن النبيّ ﷺ أنه قال: لما وضع الله الحرم نقل له الطائفَ من الشام.

وعن الزُّهْريّ[4] أنَّ الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبًا، ووجد امرأته الآخرة، وهي السيدة بنتُ مُضاض بن عمرو الجُرْهُمي. فوقف وسلم فردَّت عليه السلام واستنزلته وعَرَضت عليه الطعامَ والشراب، فقال: ما طعامُكم وشرابكم؟ قالت: اللحم والماءُ، قال: هل من حَبٍّ أو غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال: بارك الله لكم في اللحم والماء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول رسول الله ﷺ: «لو وَجَدَ عندها يومئذٍ حَبًّا لدعا لهم بالبَرَكة فيه، فكانت تكون أرضًا ذاتَ زرعٍ».

---

(١) هو محمد بن السّائب بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسّابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها سنة ٧٦٣ هـ. «فهرس الأعلام ٦/١٣٣».

(٢) هو سعيد بن السّائب الطائفي، محدّث ثقة، بكاء، راهب. «الكاشف ١/٢٨٦».

(٣) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمي المدني، الحافظ، إمامٌ بكّاء متأله، من المحدّثين الثقات توفي سنة ١٣٠ هـ. «الكاشف ٣/٨٨».

(٤) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزُّهري، أبو بكر، أحد أعلام الحديث قال ابن المديني: له نحو ألفي حديث مات في رمضان سنة ١٢٤ هـ. «الكاشف ٣/٨٥».

وعن سعيد بن جُبَيْرٍ[١] مثله، وزاد فيه: «ولا يخلُو أحدٌ على اللحم والماء في غير مكةَ إلا وَجِع بَطْنُه؛ وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وُجِد في المقام كتاب فيه «هذا بيت الله الحرامُ بمكة، توكَّل الله برزق أهله من ثلاث سُبُل[٢]، مباركٌ لأهله في اللحم واللَّبَن».

ووجد في حَجَر في الحِجْر كتابٌ من خِلْقة الحجرِ «أنا الله ذو بَكَّة[٣] الحرام صُغْتها يوم صُغْت الشمس والقمرَ وحَفَفتها بسبعة أملاك حُنَفَاء[٤] لا تزول حتّى يزول أخْشَباها[٥] مبارك لأهلها في اللحم والماء».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما هدموا البيت وبلَغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا في حجر من الأساس كتابًا، فدعَوْا له رجلًا من أهل اليمن، وآخَرَ من الرُّهبان، فإذا فيه: «أنا الله ذو بكة حرَّمتها يوم خلقت السمٰوٰاتِ والأرضَ والشمسَ والقمرَ ويوم صُغْت هذين الجبلين وحفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن».

وعن مجاهد رضي الله عنه قال: وجد في بعض الزبور «أنا الله ذو بَكَّة جعلتُها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحَفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبُل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادي وأسفلِه وكُدَى[٦] وباركت لأهلها في اللحم والماء».

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ابن أبي نَجِيح قال: إنما سُمِّيت «الكعبةَ» لأنها مُكَعَّبة على خِلْقة الكَعْب[٧].

---

(١) هو سعيد بن جبير الوالبي، أحد المحدّثين الأعلام، قتله الحجّاج في شهر شعبان شهيدًا سنة ٩٥ هـ. «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٢) سُبُل: مفردها سبيل وهو الطريق.

(٣) بكّة: يعني مكّة المكرّمة وقد ورد ذلك في القرآن الكريم. فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٦].

(٤) حنفاء: أي مسلمين وعلى ملّة إبراهيم.

(٥) الأخشبان: جبلا مكة، وأخشبا مكة جبلاها، وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان. «اللسان مادة خشب».

(٦) الكدَى: الصحراء، أو هو موضع بمكّة.

(٧) الكعب: في الهندسة: المجسّم الذي له ستة سطوح مربّعة متساوية.

قال: وكان الناس يبْنُون بيوتهم مدوّرة تعظيمًا للكعبة. فأوّل من بنىٰ بيتًا مربَّعًا حُمَيد بن زُهَير، فقالت قريش: «رَبَّع حميدُ بنُ زُهَيْر بيتًا، إمّا حياةً وإمّا موتًا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إنما سمِّيت «بكة» لأنه يجتمع فيها الرجالُ والنساء جميعًا. وقالوا: «بَكَّةُ» موضع البيت، ومكَّة القرية.

وقال ابن أبي أنيسة: «بَكَّةُ» موضع البيت، ومكة هو الحرمُ كلُّه.

وكان ابن جريح يقول: إنما سميت «بكة» لتَبَاكِّ[1] الناس بأقدامهم قدّامَ الكعبة.

ويقال: إنما سميت «بكة» لأنها تَبُكُّ[2] أعناقَ الجبابرة.

وعن الزهري: أنه بلغه إنما سمِّي «البيتَ العتيقَ» من أن الله تعالى أعتقه من الجبابرة.

وعن مجاهد والسدّي[3]: إنما سمي «البيت العتيقَ» الكعبةُ، أعتقها الله من الجبابرة؛ فلا يَتَجبَّرون فيه إذا طافلوا. وكان البيت يدعى «قادسًا» ويدعى «بادرًا» ويدعى «القرية القديمة» ويدعى «البيت العتيق».

وعن مجاهد قال: من أسمائها «مكَّة» و«بكَّة» و«أمُّ رُحْم» و«أمُّ القُرى» و«صَلَاحِ» و«كُوثىٰ» و«الباسَّة».

وعن ابن أبي نجيح قال: بلغني أن أسماء مكة «مكةُ»؛ و«بكةُ»؛ و«أم رُحْم»؛ و«أم القُرى»: و«الباسَّةُ»؛ و«البيتُ العتيقُ»؛ و«الحاطمةُ»: (تحْطِم[4] من يستخفُّ بها)؛ و«الناسَّة» (تنُسُّهم، أي تخرجهم إخراجًا إذا غَشَموا وظلموا).

ذكر ما جاء في فضل الركن الأسود

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الأرض من الجنة إلا الرُّكْن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتانِ من جواهر الجنة؛ ولولا ما مَسَّهما من أهل الشِّرك ما مسَّهما ذُو عانة إلا شفاه الله عزَّ وجلّ.

---

(١) تباكّ الناس: زحم بعضهم بعضًا. (٢) بكَّ عنقه: أي كسرها.

(٣) السّدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن، الكوفي محدّث، حسن الحديث توفي سنة ١٢٧. «الكاشف ١/ ٧٥».

(٤) تحطم: تهلك.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال في الرُّكْن الأسود: لولا ما مَسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم[١]، ما مَسَّه ذو عاهة إلا بَرَأ. وقال: نزل الركن، وإنه لأشدّ بياضًا من الفِضَّة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها، وهي تطوف معه بالكعبة حين استَلَم الركَن: «لولا ما طُبع على هذا الحجر، يا عائشةُ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذَنْ لاستُشْفِيَ به من كل عاهة، وإذن لألفِي كهيئته يوم أنزله الله، وليعيدنه الله إلى ما خلقه أوّل مرة، وإنه لياقوتة بيضاءُ من يواقيت الجنة، ولكنَّ الله غيره بمعصية العاصين، وستر زِينتَه عن الظَّلَمة والأَثَمة لأنهم لا ينبغي لهُم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة».

وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يبعثُ الركنَ الأسودَ، وله عينان يبْصر بهما، ولِسان يَنطِق به: يشهد لمن استلمه بحق».

وعنه رضي الله عنه: الركن يمينُ الله في الأرض: يصافِحُ بها عباده كما يصافح أحدُكم أخاه.

وعن أبي سعيد الخُدري[٢] رضي الله عنه قال: خرجْنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة. فلما دخَلْنا الطوافَ، قام عند الحجر وقال: والله إني لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفَع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك، ما قبَّلتك، ثم قبَّله ومضىٰ في الطواف فقال له عليّ رضي الله عنه: بل يا أمير المؤمنين هو يضرّ وينفع، قال: وبم قلتَ ذلك؟ قال: بكتاب الله، قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قال: قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢]، فلما خلق الله تعالى آدم مسح ظهرَه وأخرج ذرّيته من صلبه فقرّرهم أنه الربُّ وهم العبيد، ثم كتب ميثاقهم في رَقٍّ[٣]، وكان هذا الحجر له عينانِ ولسانٌ، فقال له: افتح فاك، فألقمه ذلك الرَّقَّ وجعله في هذا الموضع، وقال: تشهد لمن وافاك[٤] بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر: أعوذ بالله أن أعيشَ في قوم لستَ فيهم، يا أبا الحسن.

---

(١) الأرجاس: مفردها الرجس وهو القذر والحرام والكفر.

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، صحابي، كان من ملازمي النبيّ ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة توفي في المدينة سنة ٦٩٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٨٧».

(٣) الرقّ: جلدٌ رقيق يكتب فيه، أو الصحيفة البيضاء.

(٤) وافى موافاةً: أعطى الشيء حقّه تامًا، أو أدركه.

وعن عِكْرِمة: أنّ الحجر الأسود يمينُ الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الركنَ فقد بايع الله ورسولَه.

وعن مجاهد: يأتي الركنُ والمَقَام يوم القيامة، كلُّ واحد منهما مثلُ أبي قُبَيس: يشهدان لمن وافاهما بالموافاة.

والله أعلم.

ذكر ما جاء في فضل استلام الركن الأسود، واليماني

عن عطاء بن السائب[١] أن عبيد بن عمير قال لابن عمر رضي الله عنهما: إني أراك تُزاحم على هذين الركنين، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ استلامَهُما يحُطُّ[٢] الخَطايا حَطًّا».

وسئل رضي الله عنه، فقيل له: إنا نراك تفعل خِصالًا أربعًا لا يفعلُها الناسُ: نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجرَ والركن اليمانِيَ، ونراك لا تلْبَس من النِّعال إلى السِّبْتية[٣]، ونراك تُضَفِّر[٤] شعرك وقد يصبُغ الناس بالحنَّاء، ونراك لا تُحْرم حتَّى تستوي[٥] بك راحلتك وتَوَجَّهَ. فقال عبد الله: إني رأيت رسول الله ﷺ يفعلُ ذلك.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُ الركنَ الأسود والركن اليمانِيَ أن يستلمهما في كل طواف أتىٰ عليهما. قال: كان لا يَدَعُهما في كل طواف طاف بهما حتَّى يستلمَهما، لقد زاحم على الركن مرةً في شدّة الزحام حتَّى رُعِف[٦]، فخرج فغسل عنه ثم رجع. فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتَّى رُعِف الثانية، فخرج فغسل عنه ثم رجع. فما تركه حتَّى استلم.

وعن نافع قال: لقد رأيت ابن عمر رضي الله عنهما؛ زاحم مرةً على الركن اليَمَاني حتَّى انبهر[٧] فتنحَّى فجلس في ناحية الطواف حتَّى استراح، ثم عاد فلم يدَعْهُ حتَّى استلمه. قالوا: وليس هذا واجبًا على الناس، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله ﷺ.

---

(١) هو عطاء بن السّائب الثقفي الكوفي أحد الأعلام في الحديث. «الكاشف ٢/ ٢٣٢».
(٢) يحطّ: يسقط وينزل ويزيل.
(٣) السّبت: الجلد المدبوغ، ومنه النعال السبتيّة.
(٤) ضفّر شعره: نسخ بعضه على بعض عريضًا، أو جدّله.
(٥) تستوي: تستقر، واستوى على ظهر الدّابة: استقرّ.
(٦) الرّعاف: دم ينزل من أنف الإنسان. (٧) انبهر: انقطع نفسه من التعب أو المشقّة.

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ طافَ بالبَيْتِ، كتَبَ اللهُ له بكُلِّ خَطْوة حسنةً ومحا عنه سيِّئةً».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خَرجَ المرْءُ يُريدُ الطَّوافَ بالبيْتِ، أقبلَ يُرِيد الرحمةَ. فإذا دَخَله غمَرْته. ثم لا يرفَعُ قدَمًا[1] ولا يَضعُ قدَمًا إلا كتَبَ اللهُ له بكلِّ قَدَم خمْسَمِائة حسنةٍ، وحَطَّ عنه خمْسَمِائةِ سيئةٍ (أو قال خطيئةٍ)، ورُفِعت له خَمْسُمِائة درجةٍ. فإذا فَرَغ من طوافه فصلَّى ركعتين دُبُر المَقام، خرج من ذنوبه كيومَ ولَدَتْه أمّه، وكُتِب له أجْرُ عِتْق عشرِ رقابٍ من ولد إسماعيل، واستقبله مَلَكٌ على الركن فقال له: استأنِفِ العمل فيما بقيَ فقد كُفِيت ما مضى، وشُفِّع في سبعين من أهل بيتِه».

وعن حَسَّان بن عطية[2]: أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُنزِلُها في كل يوم، فسِتُّون منها للطائفين، وأربعون للمصلِّين، وعشرُون للناظرين. قال حسان: فنظَرْنا فإذا هي كلها للطائفين هو يطوف ويصلي ويَنْظُر.

ذكر ما جاء في فضل زمزم

عن وهب بن منبِّه أنه قال في زمزم[3]: والذي نفسي بيده، إنها لفي كتاب الله مَضْنُونة[4]، وإنها لفي كتاب الله بَرَّة[5]، وإنها لفي كتاب الله شَرَابُ الأبرار، وإنها لفي كتاب الله طعامُ طُعْم وشفاءُ سُقْم.

وعن ابن خُثَيم[6] قال: قَدِم علينا وهب بن منبه مكةَ فاشتكىٰ، فجِئْناه نعوده، فإذا عنده من ماء زمزمَ. قال: فقلنا له: لو استعذبْتَ، فإن هذا ماء فيه

(١) الفدم: يقال: فدم الإبريق أي غطاه، والفدام من الناقة: ما يوضع على فمها ليمنعها الأكل والعضّ.
(٢) هو حسّان بن عطيّة، أبو بكر المحاربي، محدّث ثقة عابد نبيل، لكنه يقول «بالقدر». «الكاشف ١/ ١٥٦».
(٣) زمزم: هي البئر المشهورة المباركة، قيل: سمّيت زمزم لكثرة مائها، وقال ابن عباس: سمّيت بضمّ هاجر أم إسماعيل عليه السلام لمائها حين انفجرت وزمّها إيّاه. «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».
(٤) المضنونة: أي المصانة والمحروسة، وضنّ بالشيء: بخل به لنفاسته.
(٥) البرّة: الخيّرة والصالحة.
(٦) هو عبد الله بن عثمان بن خثيم المكي، حليف الزهريين، قال أبو حاتم: صالح الحديث توفي سنة ١٣٢ هـ. «الكاشف ٢/ ٩٦».

غِلَظ[١]؟ قال: ما أريد أن أشرب حتَّى أخرج منها غيْرَه، والذي نفس وهب بيده، إنها لفي كتاب الله زمزم لا تُنْزَف[٢] ولا تُذَم، وإنها لفي كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مَضْنونة، وإنها لفي كتاب الله طَعامٌ من طُعْم وشفاءٌ من سُقْم، والذي نفس وهب بيده لا يعمدُ أحد إليها فيشربُ منها حتَّى يَتضلّع[٣] إلا نزعَتْ منه داءً أو أحدَثَتْ له شفاءً.

وعن كعب أنه قال لزمزم: إنا نجدها مضنونةً ضَنَّ بها لكم، وإن أوّل مَنْ سُقيَ ماءَها إسماعيلُ عليه السلام، طعامٌ من طُعْمٍ[٤]، وشفاءٌ من سُقْمٍ.

وعن مجاهد قال: ماءُ زمزمَ لما شُرِب له، إن شربته تريد به شفاءَ شفاكَ الله، وإن شربته لظمإٍ أرواكَ الله، وإن شربته لجُوعٍ أشبعكَ الله، وهيَ هَزْمةُ[٥] جبريل عليه السلام بعَقِبه[٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التضلُّع من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النِّفاق».

وعن الضحاك بن مزاحِم[٧] أنه قال: بلغني أنَّ التضلع من ماء زمزم براءةٌ من النفاق، وأن ماءها يَذْهَبُ بالصُّدَاع، وأن التطلُّع فيها يجلو البصَر، وأنه سيأتي عليها زمان تكون أعذبَ من النيل والفرات. قال: قال لنا الخزاعيّ: وقد رأينا ذلك في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكةَ أمطارٌ كبيرة وسال واديها في سنة تسع وسبعين، وسنة ثمانين ومائِتينَ، فكثُر ماء زمزم وارتفع حتَّى قارب رأسَها، فلم يكن بينه وبين شَفتِها العليا إلا سبعُ أذرع أو نحوها. وعذُبت حتَّى كان ماؤها أعذبَ مياه مكة التي يشربها أهلها. وإنا رأيناها أعذبَ من مياه العيون.

وعن الضحاك بن مزاحم أيضًا أن الله عزَّ وجلّ يرفع المياه العِذَابَ قبل يوم القيامة غير زمزَمَ، وتغور المياه العَذْبة غيرَ زمزم.

---

(١) الغلظ: الشدّة والخشونة.
(٢) تنزف: أي تستهلك فتغور أو تنضب.
(٣) يتضلّع: يرتوي.
(٤) الطعم: الرزق، أو القدرة.
(٥) الهزمة: النقرة في الأرض أو الصّخر.
(٦) العقب: عظم مؤخّر القدم.
(٧) هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، وثّقه أحمد وابن معين مات سنة ١٠٥ هـ. «الكاشف ٢/ ٣٣».

ذكر ما جاء من اتّساع مِنًى أيام الحج ولِمَ سُمِّيت مِنًى

عن أبي الطُّفَيل[1]، قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يُسْأَلُ عن منًى، ويقال له: عجبًا لضيقه في غير أيام الحج! فقال ابن عباس: إن منًى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد.

وعن ابن عباس، قال: إنما سميت منًى منًى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له: تمنَّ، قال: أتمنَّى الجنة، فسميت منًى لتمنّي آدم.

وقيل: إنما سُمِّيت منًى لِمَنْي[2] الدماء بها.

ذكر ما جاء في فضائل مقبرة مكة

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «نِعْمَ المقْبُرةُ هذه!» (لمقبرة أهل مكة).

وعن محمد بن عبد الله بن صيفيّ أنه قال: من قُبِر في هذه المقبرة، بُعِث آمنًا يوم القيامة (يعني مقبرة مكة).

ذكر شيء من خصائص مكة

من خصائصها أن الذئب فيها يروّع الظبي[3] ويعارضه ويصيده. فإذا دخل الحَرَم، كَفَّ عنه.

ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلًا؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلُوَها. والله أعلم.

وأما المدينة المشرفة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

ففضائلها أوسعُ من أن أحصرَها، وأعظم من أن أسبُرَها[4]، ناهيك بها من بلد اختاره الله تعالى لرسوله، ونص على فضله في محكم تنزيله، قال الله عزَّ

---

(١) أبو الطفيل: هو عامر بن واثلة بن عمرو الليثي الكناني القرشي، شاعر كنانة وأحد فرسانها روى عن النّبي تسعة أحاديث، توفي بمكة سنة ٧١٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥٥».

(٢) مَنْي الدماء: إراقتها.

(٣) يروّع: يخيف.

(٤) أسبُرها: أصل إلى إدراك كنهه، وسبر الشيء: خبره ليعرف معناه.

وجلّ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: الآية ١٠٨].

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه سُئل: أيّ مسجد هو؟ فقال: مسجدي هذا، وهو قول ابن المسيَّب وزيد بن ثابت وابن عمر رضي الله تعالى عنهم، وبه أخذ مالك رحمه الله. وقال ابن عباس: هو مسجد قباءٍ(١).

ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «صلاةٌ في مسجِدِي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواه، إلا المسجدَ الحَرَامَ».

قال القاضي عياض رحمه الله: اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهمم في المفاضلة بين مكة والمدينة. فذهب مالك أن الصلاة في مسجد الرسول ﷺ أفضلُ من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة في مسجد النبيّ ﷺ أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف. واحتج مالك وأشهبُ وابن نافع وجماعةُ أصحابه بما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «صلاة في المسجد الحرام خيرٌ من مائة صلاة فيما سواه» فتأتي فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف. وهذا مبنيّ على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين.

وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة. وهو قول عطاء وابن وهب وابن حبيب، من أصحاب مالك. وحكاه الباجي عن الشافعي.

قال القاضي أبو الوليد الباجي(٢): الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة.

قال القاضي عياض: ولا خلاف أن موضع قبر النبي ﷺ أفضلُ بقاع الأرض.

قال النبيّ ﷺ: «ما بين بَيتي ومِنْبَرِي روضةٌ من رِيَاض الجنة». قالوا: هذا يحتمل معنيين:

---

(١) قباء: قرية على بعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكّة، وهناك مسجد التقوى الذي بناه المهاجرون والأنصار، فلمّا هاجر النبي ﷺ ورد قباء وصلّى بهم فيه، وأهل قباء يقولون: هو المسجد الذي أسّس على التقوى من أول يوم. «معجم البلدان ٤/ ٣٠٢».

(٢) أبو الوليد الباجي: هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبي، فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث، مولده في باجة بالأندلس، ولي قضاء الأندلس، ورحل إلى المشرق له مصنّفات عديدة توفي سنة ١٠٨١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٢٥».

أحدهما: أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل: «الجنةُ تحتَ ظِلال السُّيوف».

والثاني: أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها. قاله الداوديّ.

وروى ابن عمر وجماعةٌ من الصحابة رضي الله عنهم أن النبيّ ﷺ قال في المدينة: «لا يَصْبِر على لأوائها[١] وشدّتها أحدٌ، إلا كنتُ له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة».

وقال ﷺ فيمن تحمَّل[٢] عن المدينة: «والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلَمُون». وقال: «إنما المَدينةُ كالكِيرِ[٣]: تَنْفِي خَبَثَها[٤] وتَنْصَع[٥] طِيبَها».

وقال: «لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيْرًا منه».

وعنه ﷺ: «مَنْ مات في أحد الحرمين حاجًّا أو معتَمِرًا، بعثه الله يومَ القيامة لا حِسابَ عليه ولا عَذَاب». وفي طريق آخر: «بُعث من الآمنِين يومَ القيامة».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «مَنِ استطاع أن يموتَ بالمدينة، فليمُتْ بها فإنِّي أشفَعُ لمن يموتُ بها».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ طَلَع له أُحُدٌ فقال: «هذا جبَلٌ يحبُّنا ونحبُّه. اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة، وأنا أُحَرِّم ما بين لابَتَيْها»[٦].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبتَ إلينا مكةَ أو أشدَّ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفة[٧]، اللهم بارِكْ لنا في صاعنا[٨]

---

(١) اللأواء: ضيق العيش وشدّته. (٢) تحمّل: ارتحل.
(٣) الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النّار لإشعالها.
(٤) الخبث: الصدأ والأذى. (٥) تنصَع: تظهر.
(٦) اللّابة: الحرّة من الأرض، وهي الأرض ذات الحجارة السّود.
(٧) الجحفة: قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة، وكان اسمُها مهيعة، وإنّما سمّيت الجحفة لأن السّيل احتجفها وحمل أهلها في بعض الأعوام، وقال الكلبي: إن العماليق أخرجوا بني عقيل، وهم إخوة عاد بن ربّ فنزلوا الجحفة، ولمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة استوبأها وحُمَّ أصحابه، فدعا الله أن ينقل حمّاها إلى الجحفة. «معجم البلدان ٢/ ١١١».
(٨) الصاع: مكيال تكال به الحبوب ونحوها، وقدّره أهل الحجاز قديمًا بأربعة أمداد.

ومُدِّنا[١]». ودعا النبيّ ﷺ لأهل المدينة فقال: «اللهم باركْ لهم في مكْيالهم، وبارك لهم في صاعهم ومُدِّهم».

وقال ﷺ: «مَنْ زار قَبْرِي، وجبَتْ له شفاعَتِي».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زارنِي في المدينةِ مُحْتَسِبًا، كان في جِوَارِي وكنتُ له شَفِيعًا يومَ القيامة».

وكان مالك رحمه الله لا يركب في المدينة دابَةً، ويقول: أستحْيِي من اللهِ أنْ أطأَ تُربةً فيها رسول الله ﷺ بحافِرِ دابةً.

ورُوِيَ أنه وَهَب للشافعيّ كُرَاعًا[٢] كثيرًا، فقال له الشافعيّ: أَمْسِك منها دابَّة. فأجابه بمثل هذا الجواب.

وحكىٰ القاضي عياض في «كتاب الشفاء» قال: حُدّث أن أبا الفضل الجوهريّ لمَّا ورد المدينة زائرًا وقَرُب منها، ترجَّل ومشى باكيًا منشدًا: [من الطويل]

ولَمَّا رأيْنا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنا ... فُؤادًا لعِرْفانِ الرُّسُوم ولا لُبَّا
نزَلْنا عنِ الأكوارِ نَمْشي، كرامةً ... لِمَنْ بانَ عنه أن نُلِمَّ به رَكْبا[٣]

قال: وحكى بعض المريدين[٤] أنه لما أشرف على مدينة رسول الله ﷺ، أنشأ يقول متمثّلًا: [من الكامل]

رُفِع الحِجابُ لنا فَلَاحَ لناظِرٍ ... قَمَرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ
وإذا المَطِيّ بنا بلَغْنَ محمدًا ... فظُهورُهُنّ على الرِّجال حَرامُ
قَرَّبْننا من خَيْرِ مَنْ وَطِىءَ الثَّرىٰ ... فلها علَيْنا حُرمةٌ وذِمامُ

وأفتىٰ مالك رحمه الله فيمن قال: «تربة المدينة رِديَّة» يضرب ثلاثين دِرّة[٥]، وأمر بحبسه؛ وكان له قَدْر. وقال: «ما أحْوجَه إلى ضَرْب عُنُقه، تربةٌ دفن فيها النبيّ ﷺ، يزعمُ أنها غير طَيِّبة!».

(١) المدّ: مكيال قديم اختلف في تقديره.
(٢) الكراع: من الغنم والإبل: مستدقّ السّاق العاري من اللحم «يذكر ويؤنّث» ويريد بالكراع هنا: الماشية ممّا ذكرنا.
(٣) الأكوار: جمع كور، وهو الرّحل أو ما يجعل على ظهر الجمل كالسّرج.
(٤) المُريدين: المتصوّفة والنّساك.
(٥) الدرّة: السّوط يضرب به.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في المدينة: «مَنْ أحدَثَ فيها حَدَثًا أو آوى مُحْدِثًا، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفًا[١] ولا عَدْلًا».

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

من خصائصها، أن العِطْر والبَخُور يوجد لهما فيها من الضَّوْع[٢] والرائحةِ الطيِّبة أضعافُ ما يوجَد في سائر البلاد؛ ولها في قصبتها فَغْمة[٣] طيِّبة ورائحة عَطِرة، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب البتةَ. ولهذا سميت «طَيْبة» و«طابَة».

قال الشاعر: [من الكامل]

ماذَا عَلى مَنْ شَمَّ تُربةَ أحْمَدٍ أن لا يَشَمُّ مَدىٰ الزمان غَوَالِيَا؟[٤]

وهذا البيت يُنسَب لفاطمةَ الزهراء رضي الله عنها.

ومن أسمائها «طَيْبة» و«طابةُ» و«يَثْرِب» و«المدينةُ» و«الدارُ».

قال القاضي عياض رحمه الله: وجَدِيرٌ بمواطن عَمَرت بالوحْي والتنزيل، وتردّدَ بها جبريلُ وميكائيل، وعَرَجت منها الملائكةُ والرُّوح، وضَجَّت عَرَصاتها[٥] بالتقديس والتسبيح؛ واشتملَتْ تربتُها على جَسَد سيد البَشَر، وانتَشَر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتَشَرْ؛ مَدَارسُ آيات، ومَسَاجدُ جماعاتٍ وصلوات، ومشاهدُ الفضل والخيرات، ومعاهدُ البراهين والمعْجِزات، ومناسكُ الدين، ومَشَاعر المسلمين؛ ومواقفُ سيد المرسلين، ومتبوَّأ خاتَم النبيين؛ حيث انفجرت النبوّة، وأيْن فاض عبابُها[٦]، ومواطن مَهْبَط الرسالة، وأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدَ المصطفى ترابُها: أن تُعَظَّم عَرَصاتها، وتُتَنَسَّم نفحاتها، وتُقَبَّل ربُوعُها وجدراتها.

وقال: [من الكامل]

يا دارَ خَيْرِ المرسَلِينَ ومَنْ بِه هُدِيَ الأنامُ وخُصَّ بالآياتِ

---

(١) الصّرف: هنا بمعنى العمل أو الإنفاق خيرًا. (٢) الضّوع: انتشار الطيب.
(٣) الفغمة: الرّائحة. (٤) الغوالي: الأطياب.
(٥) العرصة: ساحة الدّار.
(٦) العباب: الخير الكثير، والعُباب من الماء: كثرته.

عِنْدِي لأَجْلِكِ لَوْعةٌ وصَبابَةٌ ... وتَشَوُّقٌ متوقِّدُ الجَمَراتِ[(١)]
وعَلَيّ عهدٌ إن ملأتُ مَحاجِري ... من تِلْكُمُ الجُدُرات والعَرَصاتِ[(٢)]
لأُعَفِّرنَّ مَصُونَ شَيْبي بيْنَها ... من كثْرَة التقْبِيلِ والرَّشَفَاتِ[(٣)]
لولا العَوَادِي والأَعَادِي، زُرْتُها ... أبَدًا ولو سَحْبًا على الوَجَناتِ[(٤)]
لكن سَأُهْدِي من حَفيل تَحِيَّتي ... لِقَطين تِلْكَ الدارِ والحُجُراتِ[(٥)]
أذكىٰ من المِسْك المفَتَّق نَفْحةً ... تَغْشاه بالآصال والبُكُراتِ[(٦)]
وتخُصُّه بزَواكِي الصَّلواتِ ... ونَوامِي التسليم والبَرَكات

وأما البيت المقدّس، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدّس أحدُ القبلتين، والمسجد الأقصى ثالثُ الحرمين، إليه تُشَدّ الرِّحال[(٧)]، ويكثُر النزولُ والارتحال؛ وفي الأرض المقدّسة تُحشَر الخلائق ليوم العَرض[(٨)]، ويبْسُط الله تعالى الصخرةَ الشريفة حتَّى تكونَ كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحَديد: الآية ١٣].

ولنبدأ بذكر الأرض المقدّسة

قال الله عزَّ وجلّ إخبارًا عن موسى عليه السلام: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٢١]. قال الزَّجاج[(٩)]: والمقدّسة المطهّرة.

وقيل للسَّطْل «القَدَس» لأنه يتطهَّر منه. وسمي بيت المقْدس لأنه يتطهَّر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدّسة لأنها طُهِّرت من الشرك وجعلت مسكنًا للأنبياء والمؤمنين.

---

(١) الصبابة: الشوق ورقّته.
(٢) المحاجر: العيون والنواظر، والجدرات: أي الجدران، والجديرة: الحظيرة من الحجارة.
(٣) عفر: مرغ في العفر، وهو التراب. (٤) العوادي: من الدّهر نوائبه.
(٥) الحفيل: الكثير، والقطين: القاطن والساكن.
(٦) الآصال: مفردها الأصيل، وهو الوقت الذي تصفرّ فيه الشمس لغروبها.
(٧) تشدُّ الرّحال: أي تهيّأ الرواحل للسفر إليه وزيارته، والرّحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب.
(٨) العرض: يريد يوم المحشر أي يوم القيامة.
(٩) هو إبراهيم بن السّريّ بن سهل، أبو إسحٰق الزجاج، عالم بالنّحو واللغة ولد ومات في بغداد سنة ٩٢٣ م، له مؤلّفات عديدة. «فهرس الأعلام ١/ ٤٠».

وقد اختلف في الأرض المقدّسة ما هي؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أَرِيحا.

وقال السُّدّي: أَرِيحا هي أرض بيت المقْدِس. وقال مجاهد: هي الطُّور وما حوله.

وقال الضحاك[١]: هي إيلياء وبيت المَقْدس. وقال الكلبي: دِمَشْق وفِلَسطين وبعض الأُردُنّ. وقال قتادة: هي الشام كلها.

وقال عبد الله بن عمر: والحرم محرَّمٌ مِقدارُه من السمٰوات والأرض، وبيت المقدس مقدّسٌ مقدارُه من السمٰوات والأرض.

وقال ابن قتيبة[٢]. وقرأت في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال: اللهمَّ إنك اخترتَ من الأنعام الضائنةَ[٣]، ومن الطير الحمامةَ، ومن البُيوت مكةَ وإيلياءَ، ومن إيلياءَ بيتَ المقدس.

وقال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: الآية ١].

والمسجد الأقصى بيتُ المقْدِس: سمِّي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار. وقيل: لبعد المسافة بين المسجدين. وقوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسرَاء: الآية ١] قيل: بالماء والأنهار والأشجار والثمار. وقال مجاهد: سماه مباركًا لأنه مقرّ الأنبياء، وفيه مَهْبَط الملائكة والوحي، وهو الصخرة، ومنه يُحشَر الناس يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التِّين: الآيات ١ - ٣].

قال الثعلبيّ[٤] في تفسيره: قال كعب الأحبار وقتادةُ وابنُ زيد وعبدُ الرحمٰن بن غنم: «التِّين مسجدُ دمشقَ، والزيتونُ بيتُ المقدسِ». وقال الضحاك: «هما مسجدان

(١) هو الضّحاك بن مزاحم تقدّمت ترجمته، وهو من أعلام المحدثين.

(٢) ابن قتيبة: هو عبد الله بن قتيبة الدّينوري، أبو محمّد، أحد أئمّة اللغة والنحو والأدب ولد في بغداد وقيل: في الكوفة سنة ٢١٣ هـ وهو صاحب: عيون الأخبار، والشعر والشعراء، وغيرهما كثير، توفّي في بغداد سنة ٨٨٩ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٣٧».

(٣) الضائنة: الضعيفة اللّينة، والضأن من الغنم.

(٤) لعلّه عطيّة بن بسر المازني، صحابي، روى عنه مكحول وسليم بن عامر. «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

بالشام». وقال محمد بن كعب: «التينُ مسجد أصحابِ الكهف، والزيتون مسجدُ إيلياءَ». ومجازه على هذا التأويل: مَنَابِت التينِ والزيتونِ.

وروى عطية(١) عن ابن عباس: «التينُ مسجدُ نوح عليه السلام الذي بنى على الجُودي، والزيتون بيت المَقْدس».

وروى نهشل(٢) عن الضحاك: «التين المسجد الحرامُ، والزيتونُ المسجدُ الأقصى» قال: «وطورِ سينينَ، يعني جبل موسى عليه السلام».

قال عكرمة: «السِّينِينُ الحسن بلغة الحبشة». وعنه: كل جبل يُنْبِتُ فهو سِينِينُ.

وقال مجاهد: «الطُّور الجبل، وسينين المبارك».

وقال قتادة: «المُبارك الحسَنُ».

وقال مقاتل(٣): «كل جبل فيه شجر فهو سينين، وسيناءُ وهو بلغة النَّبَط».

وقال الكلبيّ: «يعني الجبل المُشْجِر».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أربعة أجبال مقدّسة بين يدَي الله تعالى: طُور تينَا، وطور زَنْتا، وطور سِينَا، وطور تيمانا.

فأما طور تينا: فدمشق.

وأما طور زَيْتا: فبيت المقدِس.

وأما طور سِينا: فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام.

وأما طور تيمانا: فمكّةُ.

والبلد الأمين مكة بلا خلاف».

ومسجد بيت المقدس أحدُ المساجد الثلاثة التي لا تشدّ الرحال إلا إليها، لقول رسول الله ﷺ، فيما ورد في الصحيح: «لا تُشَدّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ: المسجدُ الحرام، ومسجدي هذا، والمسجدُ الأقْصى».

---

(١) الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحٰق، مفسّر، من أهل نيسابور، له مصنّفات عدة منها: تفسير الثعلبي. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٢».

(٢) هو نهشل بن سعيد الخراساني، محدّث، فيه ضعف. «الكاشف ٣/ ١٨٥».

(٣) هو مقاتل بن حيان البلخي، أبو بسطام الخزاز، ثقة عالم توفي قبل العام ١٥٠ هـ. «الكاشف ٣/ ١٥١».

وفي الصحيح أيضًا «أن موسى عليه السلام، لما حضرتْه الوفاةُ سأل الله تعالى أن يدنيه من الأرض المقدّسة رميةً بحَجَر».

ووكانت عمارة مسجد البيت المقدّس بأمر الله عزَّ وجلّ لنبيه داود عليه السلام أن يعْمُره ثم لم يقدّر له عمارتَهُ وقدّر الله تعالى ذلك على يدي سليمان بن داود عليهما السلام، فهو الذي عمره. وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبينًا في الفن الخامس في التاريخ.

وقد وردت آثارٌ وأحاديثُ في فضل بيت المقدس، وفضل زيارته، وثوابِ الصلاة فيه، ومضاعفةِ الحسنات والسيئات فيه، وفضلِ السكنى فيه، والإقامةِ به، والوفاة فيه، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومحراب داود، وعين سُلْوانَ[١]، وما ورد في أن الحشر منه، وما ورد في فضل الصخرة والصلاة إلى جانبها، وما ورد من أن الله عزَّ وجلّ عَرَج بنبيه من بيت المقدس إلى السماء، وثواب الإهلال من بيت المقدس، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرةَ يوم القيامة.

وسنذكر من ذلك طرفًا نقف عليه إن شاء الله تعالى ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبةً في الاختصار فنقول، وبالله التوفيق.

أما فضل بيت المقدس

فقد ورد عن الزهريّ أنه قال: لم يبعثِ اللهُ عزَّ وجلّ نبيًّا، إلا جعل قبلته صخرةَ بيت المقدس. وقد صلّى إليه رسول الله ﷺ بعد هجرته سبعة عشر شهرًا، كما رُوِيَ في الصحيحين[٢]، حتّى أنزل الله عزَّ وجلّ على رسوله ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٤].

وتحويلُ القبلة أوّلُ ما نُسِخ[٣] من أمور الشرع. وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة. فلما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، أمره

(١) عين سلوان: هي عينٌ نضّاحة يتبرّك بها ويُستشفى منها بالبيت المقدس وقال ابن بنّاء البشّاري: سلوان محلّة في ربض بيت المقدس، تحتها عين عذبة تستقي جنانًا عظيمة، وقفها عثمان بن عفّان رضي الله عنه على ضعفاء بيت المقدس تحتها بئر أيوب عليه السّلام. «معجم البلدان ٣/ ٢٤١».

(٢) الصحيحان: «هما صحيحا البُخاري ومسلم» من كتب الحديث النبوي الشريف.

(٣) نُسِخ: أبطل العمل به وحوّل إلى غيره.

الله تعالى أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقربَ إلى تصديق اليهود إيَّاه إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة.

هذا قول عامّة المفسرين، على ما حكاه الثعلبيّ عنهم.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد: قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١١٥]، فقال رسول الله ﷺ: «هٰؤلاءِ يَهُودُ يستَقْبِلونَ بيتًا من بُيُوتِ اللهِ». فاستقبله النبيّ ﷺ. قالوا جميعًا: فصلى النبي ﷺ وأصحابه نحو بيت المقدس سبعةَ عشرَ شهرًا، وكانت الأنصار قد صلَّتْ قِبَل بيت المقدس ستين يومًا، قبل قدوم النبيّ ﷺ.

وكانت الكعبة أحبّ القبلتين إلى رسول الله ﷺ.

واختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوىٰ قبلةَ الكعبة.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنها كانت قبلةَ أبيه إبراهيم عليهما السلام.

وقال مجاهد: من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا، ويتّبع قبلتنا!

وقال مقاتل بن حَيَّان: لما أُمِر رسول الله ﷺ أن يصلي نحوَ بيت المقدس، قالت اليهود: يزعم محمد أنه نبي، وما نراه أحدَثَ في نبوّته شيئًا! أليس يصلي إلى قبلتنا ويستسنُّ[1] بسنتنا؟ فإن كانت هذه نبوّةً. فنحن أقدمُ وأوفرُ نصيبًا.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فشقّ عليه وزاده شوقًا إلى الكعبة.

وقال ابن زيد: لما استقبل النبيّ ﷺ نحو بيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول: والله ما درىٰ محمد وأصحابُه أين قبلتهم حتَّى هديناهم، قالوا جميعًا: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: وَدِدتُ أن الله صَرَفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فإني أُبْغِضهم وأُبْغِض موافقتهم، فقال جبريل: إنما أنا عبدٌ مثلُك، ليس لي من الأمري شيءٌ؛ فسَلْ ربَّك، فعرَّج جبريل. وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يَنْزِلَ جبريل بما يُحِبُّ من أمر القبلة. فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٤] الآية.

---

(١) يستسنّ: أي يتّبع سنّتهم في العبادة والأمور الدينيّة والشّرعية.

فلما صُرِفَتِ[١] القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكة: قد تردّدَ[٢] على محمد أمره، واشتاق إلى مولده ومولد آبائه، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلًا، وتكلم اليهود والمنافقون[٣] في تحويلها. فأنزل الله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٢].

ورُوِيَ عن كعب أنه قال: إن الله عزَّ وجلّ ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين.

وأما فضل زيارته، وفضل الصلاة فيه

فقد رُوِيَ عن مكحول[٤] أنه قال: مَنْ زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء في الجنة وَغَبَطُوه[٥] بمنزلته من الله تعالى؛ وأيُّما رُفْقةٍ خرجوا يريدون بيت المقدس، شيَّعهم عشرةُ آلاف من الملائكة: يستغفرون لهم ويصلُّون عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المقدس، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاةُ سبعين مَلَكًا؛ ومَن دخل بيت المقدِس طاهرًا من الكبائر[٦]، تلقاه الله بمائة رحمة، ما منها رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوَسِعتهم؛ ومن صلَّى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بـ «فاتحة الكتاب»[٧] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: الآية ١] خرج من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمّه، وكان له بكل شعرة على جسده حسنةٌ؛ ومَن صلى في بيت المقدس أربعَ ركعات، مرّ على الصراط[٨] كالبَرْق وأُعْطِيَ أمانًا من الفزع الأكبر يوم القيامة؛ ومَن صلى في بيت المقدس ستَّ ركعات، أُعْطِيَ مائةَ دعوة مستجابة، أدناها براءةٌ من النار، ووجبت له الجنةُ؛ ومَن صلَّى في بيت المقدس ثماني ركعات، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمٰن؛ ومَنْ صلَّى في بيت المقدس عشرَ ركعات، كان رفيق داود وسليمان في الجنة؛ ومَن استغفر للمؤمنين

(١) صُرفت: حوّلت. (٢) تردّد أمره: أي لم يثبت على أمر.
(٣) المنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر.
(٤) . . .
(٥) غبطوه: تمنّوا مثل ما له من النعمة والمنزلة من غير أن يحسدوه عليها.
(٦) الكبائر: الذنوب الكبيرة، كالشّرك بالله. (٧) فاتحة الكتاب: هي «سورة الحمد».
(٨) الصّراط: الطريق، ويكون يوم القيامة، يمرّ عليه الناس، فمن تخطاه يكون قد كتب له الفوز من العذاب.

والمؤمناتِ في بيت المقدس ثلاثَ مرات، كان له مثلُ حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرةً، وغُفِر له ذنوبُه كلُّها.

ورُوِيَ عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلَّى ببيتِ المقْدِس خمسَ صلوات نافلةً[١]، كلُّ صلاة أربعُ ركعات يقرأ في الخمس صلوات عشرةَ آلافِ مرةٍ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١]، فقد اشترى نفسَه من الله عزَّ وجلَّ؛ ليس للنار عليه سلطانٌ».

وعنه أيضًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرجلِ في بيتِه بصلاةٍ واحدةٍ، وصلاتُه في مسجدِ القبائل[٢] بستٍّ وعشرين، وصلاتُه في المسجد الذي يُجمع[٣] فيه بخمسمائةِ صلاةٍ، وصلاتُه في المسجد الأقصى بخمسينَ ألفَ صلاةٍ، وصلاتُه في المسجد الحرام بمائة أَلِف صلاةٍ».

وعن مكحول أنّ ميمونة[٤] رضي الله عنها سألتْ رسولَ الله ﷺ عن بيت المقدس قال: «نِعمَ المَسْكنُ بيتُ المقدِس! ومَنْ صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه. قالت: فمن لم يُطِق ذلك؟ قال: يُهدِي له زَيْتًا»[٥].

وعن مكحول عن النبيّ ﷺ، قال: لا يسمَع أهلُ السماء من كلام بني آدمَ شيئًا غير أذانِ مؤذِّنِ بيت المقدِس.

وأما ما ورد
في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد رُوِيَ عن نافع[٦]، قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما، ونحن في بيت

---

(١) النافلة: التي يتطوّع فيها الإنسان تقرّبًا من الله، وهي غيرُ الواجبة من الصلوات.
(٢) مسجد القبائل: اسم لمسجد، والقبائل: جمع قبيلة.
(٣) يجمع فيه: أي تكون فيه الصلاة جماعة.
(٤) هي ميمونة بنت الحارث الهلاليّة، أمّ المؤمنين، توفّيت بسرف وهي بلدة بين مكة والمدينة سنة ٥١ هـ. «الكاشف ٣/ ٤٣٥».
(٥) رُوِيَ الحديث بنصّ آخر: قالت ميمونة مولاة رسول الله ﷺ: قلت لرسول الله ﷺ: أفتنا عن بيت المقدس، قال: نعم المصلّى، هو أرض المحشر وأرض المنشر، إيتوه فصلّوا فيه، فإنّ الصلاة فيه كألف صلاة، قلت: بأبي وأمّي أنت، من لم يطق أن يأتيه، قال: فليُهد إليه زيتًا يُسرج فيه، فإنّه من أهدى إليه، كان كمن صلّى فيه. «ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان المطبوع في ليدن سنة ١٣٠٢ هـ ١٨٨٥ م».
(٦) هو نافع بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي محدّث ثقة. «الكاشف ٣/ ١٧٣».

المقدس: يا نافعُ، اخرُج بنا من هذا البيت، فإن السيئات تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسناتُ.

وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو(١): الحسنة في بيت المقدس بألف، والسيئة بألف.

وأما فضل السكنى فيه والإقامةِ والوفاةِ به

فقد رُوِيَ عن ذي الأصابع أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيتَ يا رسولَ الله إن ابتُلِينا بالبقاء بعدكَ، فأين تأمرنا؟ قال: «عليكَ ببيت المقْدِس، لعلَّ الله يرزقُك ذرّية تغدُو إليه وتَرُوح».

وعن أبي أُمامة الباهليّ(٢)، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرين على الحقِّ، لعدوّهم قاهِرين، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم، حتَّى يأتيهم أمر الله عزَّ وجلّ وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأينَ هُمْ؟ قال: ببيت المقدِس وأكناف بيت المقدس».

وعن عطاء، قال: لا تقوم الساعةُ حتَّى يسوق الله عزَّ وجلّ خيارَ عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدّسةِ، فيُسكِنَهم إيَّاها.

وعن كعب، قال: قال الله عزَّ وجلّ لبيت المقدس: أنتَ جنتي وقُدْسي وصفوتي من بلادي، مَنْ سكنكَ فبرحمة مني، ومَنْ خرج منك فبسخط منّي عليه.

وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جِيرانُ الله، وحقٌّ على الله عزَّ وجلّ أن لا يعذِّب جيرانَه؛ ومن دُفِن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر(٣) وضِيقه.

وعن كعب، قال: اليومُ في بيت المقدس كألِف يوم، والشهر فيه كألفِ شهر، والسنةُ فيه كألف سنة؛ ومَنْ مات فيه فكأنما مات في السماء، ومَنْ مات حوله فكأنما مات فيه.

---

(١) لعلّه صفوان بن عمرو السكسكي، نسبة إلى بطن من كندة يسمّى السكاسك محدّث ثقة مات سنة ١٥٥ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٧».

(٢) لعلّه عبد الرحمن بن ربيعة بن يزيد الباهلي، من الصحابة، كان يلقّب ذا النور ولاه عمر بن الخطاب قضاء الجيش الذي وجهه إلى القادسية، استشهد سنة ٦٥٢ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٠٦».

(٣) فتنة القبر: محنته وعذابه.

وعن خالد بن مَعْدان[١] قال: سمعت كعبًا يقول: مقبورُ بيتِ المقدس لا يعذَّب.

وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سُلْوان

ففي الأرض المقدّسة قبرُ إبراهيم الخليل، وإسحٰق، ويعقوبَ، ويوسفَ عليهم السلام.

وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرَتْه الوفاةُ سأل الله عزَّ وجلّ أن يُدْنِيه من الأرض المقدّسة، رميةَ حَجرٍ.

وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بِشْر بن بكر[٢] عن أمِّ عبد الله عن ابنها أنه قال: من أتى بيت المقدس، فليأت محراب داود، فليصلِّ فيه، ويَسْبَح في عين سلوان فإنها من الجنة.

وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز[٣]، قال: كان في زمانِ بني إسرائيل في بيت المقدس عند عَيْن سُلْوان عينٌ. وكانت المرأة إذا قُذِفت[٤]، أتَوْا بها فشرِبت منها فإن كانت بريئة لم تضرَّها، وإن كانت نَطِفةً[٥] ماتت. فلما حملَتْ مريمُ حملوها، فشربتْ منها فلم تزدَدْ إلا خيرًا. فدعت الله أن لا يفضَح بها امرأةً مؤمنة. فغارت العينُ.

وأما ما ورد
في أن الحشر من البيت المقدس

فقد رُوِيَ عن أبي ذرّ[٦] رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله «أخبِرْنا عن بيتِ المقدس. قال: أرضُ المحشَر والمنْشَر. إيتوه فصلُّوا فيه وليأتِيَنَّ على بيت

(١) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، أبو عبد الله، تابعي، ثقة، وهو ممّن اشتهروا بالعبادة، أصله من اليمن مات بقية سنة ٧٢٢ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٩».

(٢) هو بشر بن بكر التنيسي، محدّث ثقة، توفي بمدينة دمياط سنة ٢٥٠ هـ. «الكاشف ١/ ١٠١».

(٣) هو سعيد بن عبد العزيز التنوخي، مفتي دمشق وعالمها، محدّث ثقة ثبت، مات سنة ١٦٧ هـ. «الكاشف ١/ ٢٩١».

(٤) قذفت: رُميت بالزّنى.

(٥) نطفة: أي فاسدة، أو هي التي حملت سفاحًا.

(٦) هو أبو ذرّ الغفاري، قيل: اسمه جندب بن جنادة وقيل: بريد بن جنادة، قال النبي ﷺ: ما أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذرّ، مات بالرّبذة. «الكاشف ٣/ ٢٩٣».

المقدس زمانٌ، ولَبَسْطَةُ قوسٍ أو مَسْحَةُ قوس في بيت المقدس أو من حيث يُرى بيت المقدس أفضلُ وخير من كذا وكذا».

وعن كعب قال: العَرْض والحساب من بيت المقدس.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: الآية ٤١] قال: من صخرة بيت المقدس.

وعن يزيد بن جابر ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾ قال: يقف إسرافيل[1] على صخرة بيت المقدس فينفُخ في الصُور فيقول: أيَّتها العظامُ النَّخِرة[2]، والجلود المتمزِّقة، والأشعار المتقطِّعة؛ إن الله تعالى أمركِ أن تجتمعي للحساب.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾ [ق: الآية ٤١] هو أن إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: «يا أيها الناس، هَلُمُّوا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وهذه هي النفخة الأخيرة».

والمكان القريب صخرة بيت المقدس.

قال كعب ومقاتل: هي أقرب إلى السماء بثمانيةَ عشرَ ميلًا. وقال ابن السائب: باثنَيْ عشرَ ميلًا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: الآية ١٣] قال: هو حائط بيت المقدس الشرقيُّ الذي من ورائه وادٍ يقال له وادي جهنم، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة.

وأما ما ورد
في فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها

فقد رُوِيَ عن أنس بن مالك، قال: إن الجنة لتَحِنّ شوقًا إلى بيت المقدس، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس، وهي[3] سُرَّة الأرض.

---

(١) إسرافيل: ملك من الملائكة وهو الذي ينفُخ في الصور يوم القيامة.

(٢) النّخرة: البالية.

(٣) سُرّة الأرض: أي صخرتها.

وعن أبي إدريس الخَوْلانيّ[١]: قال: يحوِّل الله صخرةَ بيت المقدس مَرْجانةً بيضاء كعرض السماء والأرض، ثم يَنْصِبُ عليها عرشَه، ثم يقضِي بين عباده: يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار.

وعن أبي العالية[٢] في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبيَاء: الآية ٧١] قال: من بركتها أن كلّ ماءٍ عَذْبٍ يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ، قال: «الأنهارُ كلُّها والسَّحابُ والبِحارُ والرياحُ من تحتِ صخرةِ بيتِ المقْدِس».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة.

قال الزجاج: يقال إنها في وَسَط الأرض.

وعن كعب قال: مَنْ أتى بيتَ المقدس فصلَّى عن يمين الصخرة وشِمالها، ودعا عند موضع السِّلْسِلة[٣]، وتصدّق بما قلَّ أو كثُر، استُجيب دعاؤه، وكشف الله حُزْنه، وخرج من ذنوبه كيوم ولدتْه أمّه؛ وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها.

وأما ورد في أن الله عزّ وجلّ عرج من بيت المقدس إلى السماء

فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده إلى سوادة بن عطاء الحضرميّ، قال: نجِد في الكتاب مكتوبًا أن الله عزَّ وجلّ لَمَّا أن خلق الأرضَ وشاء أن يعرُج إلى السماء وهي دُخَانٌ، استشرف[٤] لذلك الجبالُ أيُّها يكون ذلك عليه؟ وخشَعَتْ صخرةُ بيت المقدس تواضُعًا لله عزَّ وجلّ، فشكر اللهُ لها ذلك وجعل المعراج[٥] عنها. وكان عليها ما شاء الله أن يكون. قال: فمدّ الجبار يديه حتَّى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال: «هذه جنتي غربًا، وهذه ناري شرقًا، وهذا موضع ميزاني طَرَف الجبل، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدِّين» وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة.

---

(١) هو عايذ الله، أبو إدريس الخولاني، أحد المحدّثين الأعلام، كان عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء، ولد يوم حنين، ومات سنة ثمانين هـ. «الكاشف ٢/ ٥٢».

(٢) هو أبو العالية البراء البصري زياد، وقيل: كلثوم محدّث ثقة. «الكاشف ٣/ ٣١١».

(٣) السلسلة: اسم موضع، وسلسلة الحديد التي تتصل حلقاتها بعضها ببعض.

(٤) استشرف: نظر ليختار.

(٥) المعراج: أي عروج الرسول ﷺ إلى السّماء.

وروى أيضًا بسنده إلى هانيء بن عبد الرحمٰن، ورُدَيح بن عطية عن إبراهيم بن أبي عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادةُ بن الصامت[١] ورافع بن خَدِيج[٢] وكانا عقَبِيَّين[٣] بدرِيَّين[٤]، فقيل لهما: أرأيتما ما يقول الناسُ في هذه الصخرة أحقًّا هو فنأخذ به، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندَعُه؟ فقال كلاهما: سبحانَ الله! ومَنْ يشكُّ في أمرها، إن الله عزَّ وجلّ لما استوى إلى السماء، قال لصخرة بيت المقدِس: «هذا مَقامي وموضعُ عرشِي يوم القيامة، ومَحْشَرُ عبادي، وهذا موضع ناري عن يسارِها وفيه أنصِبُ ميزاني أمامَها، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدِّين» ثم أستوي إلى عِلِّيِّين.

وروى أيضًا بسنده عن كعب، قال: إن في التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس «أنت عرشي الأدنى ومنكِ ارتفعتُ إلى السماء، ومن تحتك بسطتُ الأرضَ وكلُّ ما يسيل من ذِرْوة الجبال من تحتِك؛ مَن مات فيك فكأنما مات في السماء، ومن مات حولك فكأنما مات فيك، لا تنقضِي الأيامُ والليالي حتَّى أرسل عليك نارًا من السماء فتأكلَ آثارَ أكُفِّ بني آدم وأقدامِهم منك، وأُرْسِلَ عليك ماءً من تحت العرش فأغسلَك حتَّى أتركك كالمِرآة، وأضربَ عليك سُورًا من غمامٍ غِلَظُهُ اثنا عشر ميلًا، وسِياجًا من نار؛ وأجعل عليكِ قبةً جَبَلْتُها بيدي، وأُنْزل فيك رُوحِي وملائكتي يُسبِّحون لي فيك؛ لا يدخلكِ أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة؛ فمَنْ يَرَ ضوءَ تلك القبَّة من بعيد، يقول: طوبى[٥] لوجه يَخِرّ فيك لله ساجدًا، وأضرب عليك حائطًا من نار، وسياجًا من الغَمامَ، وخمسةَ حيطان من ياقوت ودرّ وزبَرْجَد؛ أنت البَيْدَر[٦]، وإليك المحشَر، ومنك المَنْشَر».

وروى أبو الفرج عبد الرحمٰن بن عليّ بن محمد بن الجوزيّ رحمه الله في ذلك حديثين، ثم تكلم عليهما وضعَّف رُواتهما.

---

(١) هو عبادة بن الصامت، أبو الوليد الخزرجي من بني عمرو بن عوف، بدريٌّ نقيب، وهو أحد من جمع القرآن، مات بالرملة سنة ٣٤ هـ. «الكاشف ٢/ ٥٧».

(٢) هو رافع بن خديج الحارثي، أُحدي، عاش ستًا وثمانين سنة توفي سنة ٧٤ هـ. «الكاشف ١/ ٢٣٢».

(٣) عقبيّين: نسبة إلى مبايعة النبيّ ﷺ في العقبة التي بين منى ومكّة.

(٤) بدريّين: نسبة إلى أنّه شهد معركة «بدر» مع رسول الله ﷺ.

(٥) طوبى: الحسنى والخير، وهي شجرة في الجنّة، وطوبى فعل من الطّيب كأن أصله طُيبى، فقلبوا الياء واوًا للضمّة قبلها. «انظر اللسان مادة طيب».

(٦) البيدر: حيث تجمع الغلال، وهو مكانٌ متّسع.

أما أحدهما، فقال: أخبرنا المبارك بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال: أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النّصيبي، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقري، قال: حدّثنا عيسى بن عبيد الله، قال: حدّثنا علي بن جعفر الرازي، قال: حدّثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال: حدّثنا عبد الله بن عمر المقدسي، قال: حدّثنا بكر بن زياد الباهليّ، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن زرارة بن أوْفى[١]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أُسْرِي بي إلى بيت المقدس مَرّ بي جبريلُ عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال: انزل، فصلِّ هٰهنا ركعتين، هٰهنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مَرّ بي ببيتِ لحم، فقال: انزل، صلِّ هٰهنا ركعتين، فإن هٰهنا وُلِد أخوك عيسى. ثم أتى بي إلى الصخرة فقال: من هٰهنا عَرَج ربك إلى السماء».

قال الحافظ أبو حاتم بن حَبَّان[٢]: هذا حديث لا يشك عوامُّ أصحاب الحديث أنه موضوع. وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات.

وأما الحديث الثاني، فرواه بسند إلى إبراهيم بن أعين عن ردَيح بن عطية بن النعمان، عن عبد الله بن بسر الحمصيّ، عن كعب الأحبار، قال: يقول الله عزَّ وجلّ لبيت المقدس: أنت عرشي الذي منك ارتفعت إلى السماء، ومنك بسطْتُ الأرضَ، ومن تحتك جعلت كل ماءٍ عذبٍ يطلعُ في رؤوس الجبال.

قال أبو حاتم الرازيّ[٣]: إبراهيم بن أعين مُنْكَرُ الحديث.

هذا ما ورد في هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم.

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد رُوِيَ عن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ ورضي عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَهَلَّ[٤] مِن بيتِ المقدسِ، غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأَخّر».

---

(١) هو زرارة بن أوفى، أبو حاجب الحرشيّ، قاضي البصرة، عُدّ من الثقات، مات سنة ٩٣ هـ. «الكاشف ١/ ٢٥٠».

(٢) هو محمد بن حبان بن معاذ التميمي، أبو حاتم البستي، مؤرّخ علّامة محدّث، قال ياقوت أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره، من كتبه «المسند الصحيح». «فهرس الأعلام ٦/ ٧٨».

(٣) هو محمد بن إدريس بن المنذر، أبو حاتم الرّازي، حافظ للحديث، من كتبه «تفسير القرآن» وطبقات التابعين، توفي ببغداد سنة ٨٩٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٧».

(٤) أهلّ: رفع صوته بذكر الله، أو رفع صوته بالتّلبية.

قال سالم: وأهلَّ ابن عمر رضي الله عنهما من بيت المقدس بعُمْرة[١].

ورُوِيَ عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحرمَ منْ بَيْتِ المَقْدِس، قَدِم مكةَ مغفورًا له».

وأما ما ورد
من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد رُوِيَ عن كعب الأحبار قال: لا تقوم الساعة حتَّى يزور البيتُ الحرامُ بيتَ المقدس، فينقادان جميعًا إلى الجنة وفيهما أهلوهما.

ورُوِيَ عن خالد بن مَعْدان[٢] قال: يحشر الله الكعبةَ إلى الصخرة زَفًّا[٣] إليها زَفًّا، متعلقين بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبًا: بالزائرة والمزور إليها.

هذا ما اتفق إيراده في فضائل البيت المقدّس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخباره طرفًا آخر وهو في الباب الثاني، من القسم الثالث، من الفن الخامس في التاريخ عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما اسلام. فلنذكر خلاف ذلك.

وأما اليمن وما يختص به

فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الإيمانُ يمانٍ، والحكة يمانيةٌ».

وقال الجاحظ: من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ[٤]، والقُرود.

ويقال: إن السيف متى قُلِع بالهند وطبع باليمن، فناهِيكَ[٥] به!

(١) العُمرة: أفعال مخصوصة تسمّى بالحجّ الأصغر، وأفعالها أربعة: الإحرام والطّواف، والسّعي بين الصفا والمروة، والحلق، وتكون في غير ميقات الحجّ الأكبر.

(٢) هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي، تابعي ثقة، وهو ممّن اشتهروا بالعبادة مات سنة ٧٢٢ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٩».

(٣) زفًا: أي كما يطير الطائر بجناحيه ويبسطهما، وزفَّ البرق: لمع، وزفّت الريح هبَّت.

(٤) البرود: مفردها البرد، وهو كساء مخطّط يلتحف به.

(٥) ناهيك: كلمة يتعجّب بها، يريد «هو سيفٌ يكفيك عن غيره».

وقال الأصمعيّ[١]: أربعة ملأتِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن، وهي الوَرْس[٢]، والكُنْدُر[٣]، والخَضَض[٤]، والعَقِيق[٥].

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطِن الأنبياء عليهم السلام، ومعدِن الزُّهَّاد والعُبَّاد.

وحُكي أن الأبدالَ[٦] السبعين بأرض الشام، بجبل لُكَام[٧] وجبل لُبْنان.

ومن خصائص الشام:

مسجد دمشقَ

الذي ما عُمِر على وجه الأرض مثلُه وكانت عمارته في سنة ست وثمانين، عمَّره الوليد بن عبد الملك. ووقع الحريق فيه في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فَدَثرت محاسنُه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة.

وعن قتادة، قال: أقسم الله تعالى بمساجدَ أربعة، قال: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التِّين: الآية ١] وهو مسجد دمشق، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: الآية ١] وهو بيت المقدس، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: الآية ٢] وهو حيث كلم الله موسى، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التِّين: الآية ٣] وهو مكة.

وقال محمد بن شعيب[٨]: سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرًا من تينٍ قبل أن يَبْنِيَهُ الوليد.

---

(١) هو عبد الملك بن قريب الباهلي، أبو سعيد الأصعمي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللّغة والشعر والبلدان، له مصنّفات عديدة، وكان الرّشيد يسمّيه «شيطان الشعر» توفي سنة ٨٣١ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٦٢».

(٢) الورس: نبت من الفصيلة القرنية، يوجد عليه زغب قليل يستعمل لتلوين الملابس الحريرية.

(٣) الكندر: اللّبان، وهو نبات من الفصيلة الجوريّة، يفرز صمغًا.

(٤) الخضض: الخرز البيض الصّغار، تلبسه الإماء.

(٥) العقيق: حجر كريم أحمر، يعمل منه الفصوص، ويكون باليمن وسواحل المتوسط.

(٦) الأبدال: جمع بدل: وهو الشريف الكريم، وهنا: الزّهاد النسّاك.

(٧) لكام: هو الجبل المشرف على انطاكية وطرسوس وتلك الثغور. «معجم البلدان ٥/ ٢٢».

(٨) هو محمد بن شعيب بن شابور الدمشقي، مولى الوليد بن عبد الملك قال البعض: إنّه محدّث ثقة، مات سنة ٢٠٠ وقيل: سنة ١٩٩ هـ. «الكاشف ٣/ ٤٧».

وعن هشام بن عبد الملك قال: لما أَمَر الوليد ببناء مسجد دمشق، وجدوا في الحائط القبليّ من المسجد لَوْحًا فيه نقش فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم، فلم يستخرجوه. فدُلَّ على وهب بن منَبِّه فبعث إليه، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام.

وعن زيد بن واقد[١] قال: وكّلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مَغَارةً فعرّفْنا الوليد ذلك. فلما كان الليل وافى، وبين يديه الشَّمَع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة: ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صُندوق، ففُتِح فإذا فيه سَفَطٌ[٢]، وفي السَّفَط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: «هذا رأس يحيى بن زكريا». فأمر الوليد، فرُدّ إلى مكانه، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيّرًا من الأعمدة، فجعلوا عليه عمودًا مُسَفَّط الرأس. وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغيّر.

وقال أبو زُرعة[٣]: مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بنُ الجرّاح، وكذلك مسجد حِمْص. وقيل: لما قدم المهديّ[٤] يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعريّ كاتبه، فقال: يا أبا عبد الله سبَقَنا بنو أمية بثلاثٍ، قال: وما هنّ يا أمير المؤمنين؟ قال: بهذا البيت (يعني المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثلَه، وبنُبْل الموالي فإن لهم مواليَ ليس لنا مثلهم، وبعُمَر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدًا! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة، فقال: يا أبا عبد الله وهذه رابعة.

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصاريّ[٥] قال: حَسَبوا ما أُنفق على الكرمة التي في قبلة مسجد دمشق، فإذا هو سبعون ألف دينار.

وقال أبو قصيّ: أُنْفق في عمارة مسجد دمشق أربعمائة صُندوق، كل صُندوق أربعةَ عشَر ألفَ دينار.

---

(١) هو زيد بن واقد القرشي الدمشقي، محدّث ثقة توي سنة ١٣٨ هـ. «الكاشف ١/ ٢٦٨».
(٢) السّفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النّساء، أو هو وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها، وهنا يحتمل المعنى الأول «صندوق الطيب».
(٣) هو أبو زرعة بن عمرو بن جرير البجلي، عدّه البعض من المحدّثين الثقات. «الكاشف ٣/ ٢٩٧»
(٤) المهديّ: هو الخليفة العباسيّ ابن أبي جعفر المنصور، والد هارون الرّشيد، ولد في بإيذج من كور الأهواز، ومات في ماسبذان صريعًا عن دابته في الصيد سنة ٧٨٥ م. «الأعلام ٦/ ٢٢١».
(٥) هو عمرو بن مهاجر الأنصاري الدمشقي، محدّث ثقة، مات سنة ١٣٩ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٩٦».

وقال بعض شعراء المُحْدَثين في وصفه: [من المنسرح]

دمَشْقُ قد شاع ذِكْرُ جامعها ... وما حَوَتْه رُبى مَرابِعِها[١]
بديعةُ المُدْنِ في الكمال لِمَا ... يُدْرِكُه الطَّرْفُ من بَدائِعها
طَيِّبةٌ أرضُها مباركَةٌ ... باليُمْن والسَّعد أخْذُ طالِعها[٢]
جامعُها جامعُ المحاسِن قَدْ ... فاقتْ به المُدْنَ في جَوامِعها
تُذْكَر في فَضْلِه ورفْعتِه ... أخبارُ صِدقٍ راقت لسامِعها
قد كان قبلَ الحَريق مَدْهشةً ... فغَيّرته نارُ بلاقعِها[٣]
فأذهبَتْ بالحريقِ بهجَتَه ... فليس يُرْجى إيابُ راجعها
إذا تفَكَّرْتَ في الفُصوص وما ... فيها، تَيقَّنْتَ حذْقَ واضعها[٤]
أشجارُها لا تزالُ مثمرةً ... لا تَرْهَبُ الريحَ في مَدافِعها[٥]
كأنَّها من زُمُرُّدٍ غُرستْ ... في أرض تِبْرٍ يُغشى بفاقِعِها[٦]
فيها ثِمارٌ تَخالُها يَنَعَتْ ... وليس يُخْشى فسادُ يانِعِها
تُقْطَف باللحظ لا بجارحة الأيْـ ... ـدي ولا تُجْتَنى لبائِعها
وتحتَهَا من رُخامه قِطعٌ ... لا قَطَع اللهُ كفَّ قاطِعِها
أحكَمَ ترخيمَها المرخِّم قد ... بانَ عليها إحكامُ صانِعِها[٧]
وإنْ تفكَّرْتَ في قناطِره ... وسَقْفه، بانَ حذْق رافعها
وإن تبيَّنْتَ حُسْنَ قُبَّتِه ... تحَيَّر اللُّبُّ في أضالِعِها[٨]
تخترِقُ الريحُ في مَخارِمها ... عَصْفًا فتقْوى على زَعازعها[٩]
وأرْضُه بالرُّخام قد فُرِشَتْ ... يَنْفسِحُ الطَّرْف في مَوَاضِعِها[١٠]

---

(١) المرابع: جمع مربع وهو المكان الذي يقام فيه في فصل الربيع.
(٢) الطالع: ما ينتظر وينبأ به من نحسٍ أو سعد «يقال: هو حسن الطالع» أي جميله.
(٣) البلاقع: مفردها بلقع، وهو القفر الخالي من كلّ شيء.
(٤) الفصوص: مفردها فصّ، ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة وغيرها.
(٥) المدافع: من دفع، أي هي لا ترهب الرّيح في دفعها لها لأنه قويّة وغضّة.
(٦) التبر: الذهب، ويغشى: يُطلى، والفاقع: اللون الخالص الصفرة.
(٧) الترخيم: الصّقل، والإحكام: الإتقان.
(٨) اللّبّ: العقل، وأضالعها: خطوطها المائلة كالضلوع.
(٩) المخارم: الفتحات والطّرق، والزعازع: الرّياح الشديدة، واحدها زعزع.
(١٠) ينفسح: يسرح في انبساط وسعة، والطّرف: النّظر.

مـجـالِسُ الـعِـلْم فـيـه مُـوثَـقَـةٌ   يَـنْشرِحُ الـصدْرُ فـي مـجـامِـعِـهـا
وكــلُّ بــابٍ عــلـيـه مِـطْـهـرةٌ   قــد أمِـنَ الـنـاسُ دَفْـعَ مـانِـعِـهـا
يـرتـفِـقُ الـخـلْقُ مـن مَـرافِـقِـهـا   ولا يُـصَـدُّونَ عـن مَـنـافِـعِـهـا[1]
ولا تـزالُ الـمِـيـاهُ جـاريـةً   فـيـهـا لـمـا شُـقَّ من مَـشَارِعِـهـا[2]
وسـوقُـهـا لا تـزالُ آهِـلَـةً   يـزدَحِـمُ الـنـاسُ فـي شَـوارِعِـهـا
لِمَـا يَـشـاؤُون مـن فـواكِـهِـهـا   ومـا يُـريـدون مـن بَـضـائـعـهـا
كـأنَّـهـا جَـنَّـة مـعـجَّـلـةٌ   في الأرض، لولا سُرى فجائِعِها
دامـتْ بـرَغْـم الْعِـدا مُـسَـلَّـمـةً   وحـاطَـهـا الله مـن قَـوارِعِـهـا[3]

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفَا قبر وسبعُمائة قبر؛ وقبرُ موسى بدمشق؛ ودمشق معقِل الناس في آخر الزمان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مَنْ أراد أن ينظر إلى الموضع الذي قال الله عزَّ وجلّ فيه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠] فليأت النَّيْرب[4] الأعلى بدمشق بين النهرين، وليَصْعد الغارَ في جبل قاسِيُونَ، فلْيُصَلِّ فيه فإنه بيتُ عيسى وأمِّه. ومن أراد أن ينظر إلى إرَمَ، فليأت نهرًا في دمشق يقال له برَدَى. ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريمُ بنتُ عمران والحواريُّونَ[5]. فليأت مقبُرة الفراديس[6].

ومن خصائصها التُّفَّاح الذي يضرَبُ به المثل في الحسن والطِّيب. وكان يحمل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة.

وبها الغُوطةُ، وهي أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة. وهي أجَلُّها.

وسنذكر وصفها في باب الرياض إن شاء الله تعالى.

---

(١) يرتفق الخلق: ينتفعون ويستعينون ويستفيدون، والمرفق: هو ما يستعان به ويرتفق.
(٢) المشارع: موارد الماء. (٣) القوارع: المصائب، مفردها «قارعة».
(٤) النّيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين، أنزه موضع رأيته يقال: إنّ فيه مصلّى الخضر عليه السّلام. «معجم البلدان ٥/ ٣٣٠».
(٥) الحواريون: أنصار عيسى عليه السّلام، وقد ذكرهم القرآن الكريم في سورة المائدة، الآية: ١١٢.
(٦) الفراديس: مفردها فردوس، وهو البستان الجامع لكلّ البساتين، والمراد هنا موضع قرب دمشق وباب الفراديس: باب من أبواب دمشق. «معجم البلدان ٤/ ٢٤٢».

وأما مصرُ وما يختصُّ بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعًا.

منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير.

فأما صريح اللفظ، فقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: الآية ٦١].

وقوله تعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ [الزّخرُف: الآية ٥١].

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ [يُونس: الآية ٨٧].

وأما ما دلت عليه القرائن، فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ [يُونس: الآية ٩٣].

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٠]. قال ابن عباس، وسعيد بن المسيب، ووهب بن منبه وغيرهم: هي مصر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٥٧، ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧]. يعني مصر.

وقوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدّخَان: الآيات ٢٥ - ٢٨]. يعني قوم فرعون، وأن بني إسرائيل ورثوا أرض مصرَ.

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القَصص: الآيتان ٥، ٦].

وقوله تعالى مخبرًا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: الآية ٢١].

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: الآية ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٧].

وقوله تعالى مخبرًا عن قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٧]. يعني أرض مصر.

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: الآية ٥٦].

وقوله عزَّ وجلّ مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: الآية ٨٨].

وقوله تعالى مخبرًا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: الآية ٢٦]. يعني أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: الآية ٢٠].

وقوله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: الآية ٤].

وقوله تعالى مخبرًا عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ [يوسف: الآية ٨٠]. يعني أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: الآية ١٩].

وذكر ابن عباس مصر، فقال: سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن. والله تعالى أعلم.

وأما ما ورد فيها من الحديث النبوي صلوات الله وسلامه على قائله.

فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرُ، فاسْتَوْصُوا بِقِبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُم ذِمَّةً وَرَحِمًا».

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا فَتح اللهُ عليكم مصرَ فاتَّخِذُوا بها جُنْدًا كَثِيفًا، فذَلك الجندُ خَيْر أجنادِ الأرضِ» فقال أبو بكر رضي الله عنه: ولِمَ يَا رَسُولَ الله؟ فقال: «لأنهم وأزواجَهُم في رِبَاطٍ[1] إلى يوم القيامة».

وعنه ﷺ، وذكر مصر: «ما كادَهُمْ أحدٌ إلا كَفَاهُم الله مَؤُونَتُه».

وتكررت الأحاديث في فضلها.

وقال عبد الله بن عمرو: وأهلُ مصرَ أكرمُ الأعاجم كلِّها، وأسمحُهم يدًا، وأفضَلُهم عُنصرًا، وأقربُهم رَحِمًا بالعرب عامةً وبقريش خاصَّةً.

وقال أيضًا: لما خلق الله عزَّ وجلّ آدم، مثَّل له الدنيا: شرقَها، وغَرْبها، وسَهْلَها، وجبلها، وأنهارها، وبحارها، وبناءها، وخرابها، ومَن يسكنها من الأمم، ومَن يملكها من الملوك. فلما رأى مصر، رآها أرضًا سهلةً ذات نهر جار، مادّتُه من الجنة، تنحدِر فيه البركة، ورأى جبلًا من جبالها مكسوًّا نورًا لا يخلو من نظر الربّ عزَّ وجلّ إليه بالرحمة. في سفحه أشجار مثمرة، فروعها[2] في الجنة تسقى بماء الرحمة. فدعا آدمُ في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصرَ بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجَبَلها سبع مرات. وقال: «يا أيها الجبل المرحوم، سفحُك جنة وتربتك مسْكَةٌ تدفن فيها عرائس الجنة، أرض خاضعة مطيعة رحيمة. لا خَلَتْكِ يا مصر بركةٌ، ولا زال بك حفظ، ولا زال منك مُلْك وعِزٌّ، يا أرضَ مصر فيكِ الخِباء والكُنوز، ولك البِر والثَّروة، سال نهرُكِ عَسَلًا. كثَّر الله زرعَكِ، ودَرّ ضرعُكِ، وزكَا[3] نباتُكِ، وعظُمت بركتُكِ وخَصُبت، ولا زال فيك يا مصر خيرٌ ما لم تتجبَّري وتتكبَّري أو تخونِي، فإذا فعلت ذلك، عراك شرّ، ثم تَغَوَّر[4] خيرك».

(١) رباط: أي استعداد للدفاع عن دين الله وأرض المسلمين، ومنه «رباط الخيل».
(٢) فروع الشجرة: أغصانها. (٣) زكا: نما وزاد.
(٤) تغوّر خيرك: زال وذهب، وغار الماء: غاض في الأرض.

فكان آدم أوّلَ من دعا لها بالخِصْب والرحمة والرأفة والبركة.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: دعا نوح عليه السلام لابن ابنه بيصر بن حام وهو أبو مصر، فقال: اللهم إنه قد أجاب دَعْوتي، فبارِكْ فيه وفي ذرّيته وأسكِنْه الأرضَ الطيبةَ المباركَةَ التي هي أمُّ البلاد.

قال عبد الله بن عمرو: لما قَسَّم نوح عليه السلام الأرضَ بين ولده، جعل لحامٍ مصر وسواحلَها والمغربَ وشاطىءَ النيل. فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريشَ، قال: «اللهم إن كانت هذه الأرضُ التي وعدتَنا على لسان نبيك نوح عليه السلام وجعلتها لنا منزلًا فاصرف عنا وباها، وطَيِّب لنا ثَرَاها، واجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد» وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به. والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام بن نوح.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر وبنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو في الفن الخامس في التاريخ.

وعن كعب الأحبار: لولا رَغْبتي في بيت المقدِس لما سكنْتُ إلا مصر. فقيل له: ولم؟ فقال: لأنها معافاةٌ من الفِتَن ومن أرادها بسوء كَبَّه الله على وجهه، وهو بلد مبارَكٌ لأهله فيه.

وقال أبو بَصْرة الغفاري: سلطان مصر سلطان الأرض كلِّها.

قال: وفي التوراة مكتوب: مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، فمن أرادها بسوء قصمه[١] الله تعالى.

وقال عمرو بن العاص: ولايةُ مصر جامعةٌ، تعدِل الخلافةَ.

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضي العراق: سألت أحمد بن المدبِّر عن مصر فقال: كشفتها فوجدتُ غامرها[٢] أضعاف عامرِها. ولو عَمَرَها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا.

---

(١) قصمه الله: أهلكه.

(٢) الغامر: من الأرض ما لا يصلح للزراعة.

ذكر مَن وُلد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومَن كان بها منهم

ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعةٌ، منهم: موسى، وهرونُ، ويُوشَعُ بن نون، ودانِيالُ، وأرْمِيَا، ولُقمانُ، وعيسى بن مريم. ولدته أمّه بأهناس[(١)]، وبها النخلة التي ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال.

ولما سار عيسى إلى الشأم أخذ على سَفْح المقطم ماشيًا، عليه جبةُ صوف مربوط الوسط بشَرِيط، وأمّه تمشي خَلْفَه، فالتفت إليها وقال: يا أمّاه، هذه مقبرة أمّة محمد ﷺ.

وأما مَن كان بها منهم، فكان: إبراهيم الخليلُ، وإسماعيلُ، ويعقوبُ، ويوسفُ عليهم السلام، واثنا عشر سِبْطًا[(٢)].

ذكر مَن كان بها من الصدّيقين والصدّيقات رضي الله عنهم

كان بها من الصدّيقين مؤمِن آل فرعون الذي ذكره الله عزَّ وجلّ في القرآن.

وقيل: إنه ابن لفرعون لصُلْبه. آمن بموسى ولَحِق به وجعله الله نبيًا وآيةً.

وكان بها وزراءُ فرعونَ الذين وصفهم الله تعالى وفضَّلهم على قوم نمرود حين قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: الآية ١١١]، وقال وزراء النمرود: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٤].

وأخرجتْ مصر السحرةَ الذين أحضرهم فرعونُ لموسى. وكانت عدّتهم مائتي ألف واثنين وثلاثين ألفًا وقيل أكثر من ذلك، آمنوا كلُّهم في ساعة واحدة. ولم نعلم ممن آمن في ساعة واحدة مثلَ هذا العدد.

ومن فضائل مصر ونُبْل أهلها أنهم لم يُفْتَنوا بعبادة العجل.

---

(١) هناس: اسم لموضعين بمصر، أحدهما في الصعيد، ويقال لقصبتها: أهناس المدينة وهي المراد هنا، والثانية أهناس الصّغرى، وأهناس المدينة قديمة أزلية وقد خرّب أكثرها، وهي على غربي النّيل ليست ببعيدة عن الفسطاط. «انظر معجم البلدان ١/ ٢٨٤».

(٢) السّبط: ولد الإبن والابن، والسبط: من اليهود كالقبيلة من العرب، وهو المراد هنا.

وكان بها من الصدِّيقات آسيةُ بنتُ مُزاحم امرأة فرعون، وأم إسحٰقَ، ومريمُ ابنةُ عمران، وماشطةُ بنتُ فرعون، التي مشطها فرعون بأمشاط الكتَّان لمّا آمنت بموسى.

وقال رسول الله ﷺ: «شَمِمتُ ليلة أُسْرِي بي في الجنة رائحةً ما شَمِمْت أطيبَ منها، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذا رائحة ماشطة بنتِ فِرْعون».

ذكر مَن صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

منهم: إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجَر أمّ إسماعيل.

ويوسف الصدّيق، تزوّج بنت صاحب عين شمس، وتزوّج زليخا بعد أن عجزت وعميت. دعا الله لها فردّها الله إلى حالتها الأولى، ورُزق منها الولد.

وتسرَّى سيدنا رسول الله ﷺ بمارِيَةَ القِبْطية التي أهداها له المقوقِس[١]، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في السّيرة النبوية.

ذكر مَن أظهرته مصر من الحكماء الذين عَمَروا الدنيا بكلامهم وحِكَمهم وتدبيرهم وأظهروا ما خَفِيَ من العلوم[٢]

قال الحسن بن إبراهيم، صاحب تاريخ مصر:

منهم: ذو القَرْنيْنِ، وهو الإسكندر[٣] من قرية يقال لها لُوبِيَةُ[٤]. وهو الذي قتل دَارَا بْنَ دَارَا[٥]. وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى في التاريخ في ذكر ملوك اليونان.

---

(١) المقوقس: هو صاحب مصر، وكان الرسول عليه الصلاة والسّلام قد أرسل إليه حاطب بن أبي بلتعة، يدعوه إلى الإسلام. «انظر صبح الأعشى ١/ ١٢٥».

(٢) بعض المذكورين في هذا الفصل، ليسوا من أهل مصر، بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدّة بين القليلة والكثيرة.

(٣) هو الإسكندر الأكبر، ابن فيلبّوس، وهو ليس من مصر، وإنّما غزاها بجيوشه، وأسّس فيها مدينة الإسكندرية، التي صارت بعده حاضرة العلم والحكمة. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٣٥٦».

(٤) هذا اللفظ محرّف عن «بيلا» وهي إحدى مدائن إغريقية، وفيها كانت ولادة الإسكندر الأكبر.

(٥) هو دارا بن دارا ملك الفرس، ويقال له: داريوس الثالث، هزمه الإسكندر في «أسوس» سنة ٣٣٣ ق.م. «انظر الموسوعة العربيّة الميسّرة ص ٧٧٣».

ومنهم: هرمس، وهو المثلث بالنعمة: نبيّ، وحكيم، ومَلِك: وهو الذي صير الرَّصاصَ ذهبًا، وبنى الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال. وقيل: هو إدريس عليه السلام.

ومنهم تلميذاه: أغاثاذيمون وفيثاغورس، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء، والنُّجوم، والسِّحر، وعلم النارنجيات[١]، والطلسمات[٢]، والبرابي[٣]، وأسرار الطبيعة.

ومنهم أوسلا وسيزوارس وبندقليس، أصحاب الكَهَانة والزَّجْر.

ومنهم سقراط، صاحب الحِكمة، والكلام على البارىء جل ذكره، وهو صاحب البلاغة.

ومنهم أفلاطون، صاحب السِّياسة، والنواميس، والكلامِ على المُدُن والملوك.

ومنهم بطليموس، صاحب الرَّصَد، والمِساحة، والحِساب؛ وهو صاحب كتاب المجَسْطِي[٤] من كتب الأفلاك، وحركة الشمس، والقمر، والكواكب المتحيرة والثابتة، وصورة فَلَك البروج. وله صفة الأمم الذين يَعْمُرون الأرض، وكتاب الثمرة في علم النجوم وتسطيح الكُرَة.

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطِق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعي، ورسالة نَبْت الذهب، قالوا: وليعقوب بن إسحٰق الكِنديّ[٥] نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس.

---

(١) النارنجيّات: لعلّها من النّيرج: وهو أُخَذٌ تشبه السّحر، وليست بحقيقته، ولا كالسّحر إنّما هو تشبيه وتلبيس. «اللسان مادة نرج»

(٢) الطلسمات: مفردها طلسم، خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفليّة، وهو لفظ يوناني لكلّ ما هو غامض ومبهم.

(٣) البرابي: معابد الأقباط في مصر «تقدّم ذكرها».

(٤) كتاب المجسطي، كتاب قديم في الهندسة والفلك، وضعه بطليموس الفلكي المصري نحو سنة ١٤٠ م، وترجم إلى العربيّة في عهد المأمون، وعدّ حجّة في بابه. «صبح الأعشى ٣/ ٤٧٧».

(٥) هو يعقوب بن إسحٰق الكندي، أبو يوسف، فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة، ترك تراثًا ضخمًا من المؤلّفات بلغ نحو ٣٠٠ مؤلف. توفي نحو سنة ٨٧٣ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٩٥».

ومنهم أراطُس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة في تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، واثنان وعشرون كوكبًا من الكواكب الثابتة، والزيج[١].

ومنهم أنطوليوس[٢]، صاحب الفِلاحة.

ومنهم إبّرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق.

ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه.

ومنهم أُسْطَنِسْ، ودُرُوثْيُوس، ووالنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم انتشر ذلك.

ومنهم إيرُن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جر الأثقال، والحيل الروحانية، وعمل البَنَاكِيم[٣] والآلات لقياس الساعات.

ومنهم فيلون البُزَنْطِي، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة.

ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمَرَايا المحرقة وعمل المَجَانيق[٤] ورمي الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر برًّا وبحرًا.

ومنهم ماريه وقلبطره، أصحاب الطِّلّسْمات، والخواص للطبائع.

ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط.

ومنهم ثيودوسيُس، وهو صاحب كتاب الأكر[٥].

ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب.

ومنهم أوطوقيُس، وله كتاب الكرة والأسطوانة.

ومنهم المشاؤون[٦]، أصحاب الرواق[٧].

---

(١) الزّيج: كل كتاب يتضمّن جداول فلكية يعرف منها سير النجوم ويستخرج بواسطتها التقويم سنة فسنة.

(٢) ورد هذا الاسم في الأصل «اظطيونس» وليس هناك رجل بهذا الاسم وإنّما المشهور بكتابه في الفلاحة هو «أنطونيوس الإغريقي» وقد ذكره ابن العوام في كتاب «الفلاحة الأندلسية» ونقل عنه.

(٣) البناكيم: مفردها البنكام، وهي ساعة الرّمل.

(٤) المجانيق: مفردها منجنيق، آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

(٥) الأكر: الفلاحة.

(٦) المشاءون: أصحاب المذهب الذي عرفهم العرب وأسموهم بهذا الاسم وهم أتباع أرسطو.

(٧) الرواق: بيت كالخيمة يحمل على عمود طويل.

وبمصر من العلوم التي عَمَرت بها الدنيا علمُ الطب اليوناني، وعلمُ النجوم، وعلمُ المساحة، وعلم الهندسة، وعلمُ الكيمياء، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة.

وبادى[١] الإسكندراني صاحب الزيج.

والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أَخَذ.

ومنهم ديسقريد: صاحب الحشائش، وديوچانس، وأركاغانس، وأُرِبَاسيوس، وفريقونوس، وروفس، وهؤلاء أصحاب الطب اليوناني.

فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها وُلدوا؛ ومنها انتشرت علومُهم في الأرض.

قال الحسن بن إبراهيم: وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأوّل طلبةُ العلم وأصحابُ العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوّة الذكاء ودقة الفطنة. والله تعالى أعلم.

ومن فضائل مصر

أنها تَمير الحرمين الشريفين، ولولا مصرُ لما أمكن أهلَ الحرمين وأعمالهم المقامُ بهما، ولَمَا توصل إليهما من يَرِد من أقطار الأرض.

ومنها أنها فُرْضة[٢] الدنيا، يحمل من خيرها إلى سواحلها، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين، وإلى جُدّة، وإلى عُمَان، وإلى الهند، وإلى الصين، وصنعاء، وعَدَن، والشَّحْر، والسِّند، وجزائر البحر.

ومن جهة تِنّيسَ، ودِمْياط، والفَرَما فُرْضة بلد الروم، وأقاصي الأفرنجه، وقبرس، وسائر سواحل الشام، والثغور إلى حدود العراق.

ومن جهة الإسكندرية فُرضة أقْرِيطِش، وصِقِلِّيَّة، وبلد الروم، والمغرب كلّه إلى طَنْجة، ومغرب الشمس.

---

(١) لعلّ هذا الاسم معرّف عن «تاون» الذي سبق ذكره.

(٢) الفُرضة: يقال: فرضة النّهر: مشرب الماء منه، وفرضة البحر: محطّ السّفن وفرضة الدنيا: أي محطّ رحال الناس. «اللسان مادة فرض».

ومن جهة الصعيد فرضة بلد النُّوبة، والبُجة، والحَبَشة، والحِجاز، واليمن.

وفيها من ثغور الرِّباط: البَرَلُّس، ورَشِيد، والإسكندريةُ، ورباط ذات الحمام، ورباط البُحَيرة، ورباط إخْنا، ورباط دمْياط، وشَطَا، وتِنِّيس، والأُشْتوم، والفرَمَا، والورّاده، والعَرِيش، والشَّجَرتين، ورباط الحَرَس، وجهة الحَبَشة، والبُجة. ورباط أُسْوان على النُّوبة. ورباط الواحات على البَرْبر والسُّودان. ورباط قُوص.

وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة، ما لم يكن في غيرها. ولو استقصينا ذلك، لطال به الشرح وانبسط القول.

وقال سعيد بن عقبة: كنتُ بحضرة المأمون حتَّى قال، وهو في قبة الهواء: لعن الله فِرعونَ حين يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرُف: الآية ٥١] فلو رأى العراقَ!. فقلت: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عزَّ وجلّ قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٧]! فما ظنُّك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقِيَّتُه؟.

قال: ثم قلت: لقد بلغني أن أرضًا لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها. وكانت الأنهار بقناطِرَ وجسورٍ وتقديرٍ حتَّى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفْنِيتهم: يحبِسونه متى شاؤوا، ويرسلونه متى شاؤوا، وكانت البساتين بحافَتَي النيل من أوّله إلى آخره، ما بين أُسوان إلى رشيد إلى الشام متصلةً لا تنقطع. ولقد كانت الأَمَة تضع المِكْتَل[١] على رأسها فيمتلىءُ مما يسقُط من الشجَر. وكانت المرأة تخرج حاسرةً[٢] لا تحتاجُ إلى حِمَار لكثرة الشجر.

ومن فضائلها النيل، وقد تقدّم ذكره في باب الأنهار.

ومن عجائبها الهرمان وسيأتي ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى.

ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا.

---

(١) المكتل: زنبيل يعمل من الخوص، تجمع به الفواكه والخضار.
(٢) الحاسرة: الكاشفة عن رأسها ووجهها.

وفيها ما ليس في غيرها، وهو حيوان السَّقَنْقُور[١]، والنِّمس[٢]. ولولاه لأكلت الثعابين أهلَها؛ وهو لها كقنافذ[٣] سِجِسْتانَ لأهلها.

وفيها سمك يسمَّى الرَّعَّاد. وهو سمك إذا أمْسَكه إنسان أو أمسَك ما يتصل به من خيط الصِّنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ارتعدَتْ يدُه.

والحَطَبُ السَّنْط الذي لو وُقِد منه يومًا وجُمِع ما وُجد من رَمَاده كان ملْءَ كفٍّ. وهو صُلْب العُود، سريعُ الوُقُود، بطِيءُ الخُمود. ويقال: إنه الآبنوسُ[٤]، وإنما البُقْعة قَصَّرت عن الكيَان فجاء أحمرَ شديدَ الحمرة.

ودُهْنُ البَلَسان[٥]. والأَفْيُون، وهو عُصارة الخَشْخاش. وكان بها اللَّبَخ، وهو ثمر في قَدْر اللوزن الأخضرِ إلا أن المأكول منه الظاهرُ. ورأيته أنا بها وأكلْت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

وبها الأُتْرُجُّ[٦] الأبلق.

وبها من المعادن: مَعْدِن الزُّمُرُّذ، ومعدِن النِّفْط، والشَّبِّ[٧]، والبِرَام، والرُّخَام[٨].

وقيل: إن بها سائر المعادن كلِّها.

وأهلها يأكلون صَيْد بحر الرُّوم وبحر فارس[٩] طرِيًّا.

وفي كل شهر من شهور القبط صِنْف من المأكول والمَشْروب والمَشْموم، يوجد فيه دون غيره. فيقال: رُطَب توت، ورُمَّان بابه، ومَوْز هاتُور، وسَمَك كيهك، وماء

---

(١) الإسقنقور: نوع من الزّحافات في البلاد الحارة، قصير الذّنب.
(٢) النمس: جنس حيوان من الثدييات اللواحم والفصيلة الزبادية، فيه أنواع كالمصري والهندي.
(٣) القنفذ: دابة صغيرة أعلاها مغطى بريش حاد، تقي نفسها به، إذ تجتمع مستديرة تحته، تخرج من مخبئها في الليل.
(٤) الآبنوس: شجر في أفريقيا الاستوائية، خشبه أسود صلب ثقيل.
(٥) البلسان: شجر له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد، يستخرج من بعض أنواعه دهن عطر، ينبت بعين شمس بظاهر القاهرة.
(٦) شجر وثمر من جنس الليمون تسمّيه العامة «الكبّاد».
(٧) الشّبّ: ملح متبلّر.
(٨) الرّخام: حجر كلسي صلب جدًّا مختلف الألوان، أشهره الأبيض.
(٩) يشير إلى البحر الأحمر المتّصل بالخليج الفارسي بواسطة بحر الهند.

طُوبة، وخَرُوف أمشير، ولَبَن برمهات. ووَرْد برموده، ونَبِق[١] بشنس، وتين بؤونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى.

ومنها أن صيفها خَرِيفٌ، وشتاءها ربيعٌ؛ وما يقطَعُه الحرّ والبرد في سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها في الحرّ والبرد: لأنها في الإقليم الثالث والرابع، فسلمت من حرّ الأوّل والثاني، وبَرْد السادس والسابع.

ويقال: لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغنى في الصيف عن الخيش والثلج وبطون الأرض، وفي الشتاء عن الوَقودُ والفراء.

ومما وصفت به

أن صعيدها[٢] حجَازيّ. حَجَره كحجر الحجاز ينبت النخلَ والدَّوم[٣] (وهو شجر المُقْل)، والعُشَر، والقَرَظ[٤]، والإهْلِيلَج[٥]، والفُلْفل، والخِيَارَ شَنْبَرَ، وأسفل أرضها شامِيٌّ: يمطر كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنْبت التينَ والزيتونَ والعنبَ والجوزَ واللَّوز والفستُق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين.

وهي ما بين أربع صفات: فضة بَيْضاء، أو مِسْكة سوداء، أو زبَرْجَدة خضراء، أو ذَهَبة صفراء. وذلك أن النيل يعمُّ أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصَبُّ عنها فتصير مسكة سَوْداء، ثم تُزْرَع فتصير زبرجدةً خضراء، ثم تَسْتَحْصِد فتصير ذهبة صفراء[٦].

وحكى ابن زولاق[٧] في «فضائل مصر» أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمي][٨] وقف بالمَيْدان عند بِرْكة الحبش، فالتفت يمينًا وشِمالًا، وقال لمن كان معه: أتَرَوْن ما أَرى؟ قالوا: وما يَرى الأمير؟ قال: أَرى عجبًا ما في الدنيا مثله!

(١) النبق: دقيق حلو يخرج من لبّ جذع النخلة، يُقوّى بالدّبس، ويجعل نبيذًا.
(٢) الصعيد: المرتفع من الأرض، وهي هنا محلّة في جنوب مصر.
(٣) الدّوم: شجر ثمر في حجم التّفاح، ذو قشر صلب أحمر ونواة ضخمة ذات لبّ.
(٤) القرظ: شجر عظام لها سوق غلاظ، أمثال شجر الجوز، يستخرج منه صمغ مشهور.
(٥) الإهليلج: شجر ينبت في الهند والصين وكابل، ثمره على هيئة حبّ الصّنوبر الكبار.
(٦) قارن ذلك بما ورد عند المقريزي في خططه ١/٢٦ ط. بولاق.
(٧) النّبق: ثمر السّدر.
(٨) هو والي مصر في أيّام الرشيد العباسي سنة ١٧٥ هـ والزّيادة التي بين قوسين هي عن المقريزي ٢/١٥٣ ط. بولاق.

فقالوا: يقول الأميرُ! فقال: أرى مَيْدان رِهان[١]، وحِيطان نخلٍ، وبُستانَ شجر، ومنازلَ سكنى، وذروة جبل، وجَبَّانةَ أموات، ونهرًا عَجَّاجًا، وأرضَ زرع، ومراعِيَ ماشية، ومَرَاتع خيل، وساحل بحر. وصائد نهر وقانصَ وحش، وصائدَ سمكٍ، ومَلَّاح سفينة، وحادِيَ إبل، ومفازَةَ رمل، وسَهْلًا، وجَبَلًا! فهذه ثمانية عشر متنزَّهًا في أقل من ميل في ميل.

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنَس بالبصرة حيث يقول: [من البسيط]

زُرْوادِيَ القَصْرِ نِعْمَ القَصْرُ والوادِي! ... لا بُدّ من زَوْرةٍ من غير مِيعاد
زُرْهُ فليس لهُ شيءٌ يشاكله ... من مَنْزِلٍ حاضرٍ إن شئتَ أو بادِي[٢]
تَرى به السُّفْن والظُّلْمانَ حاضرةً ... والضبَّ والنونَ والمَلَّاح والحادِي[٣]

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسيّ، يصف جبل الرَّصَد مثل ما وُصِف به قصر أنَس: [من البسيط]

يا نُزْهةَ الرَّصَدِ المصريّ قد جمعت ... من كلّ شيءٍ حَلَا في جانب الوادي
فذا غَدِيرٌ، وذا رَوْضٌ، وذا جَبَلٌ ... فالضَّبُّ والنُّون والمَلَّاح والحادي

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة في الاختصار، لكانت فضائلها تكون كتابًا مفردًا.

وأما جزيرة الأَنْدَلُس

فقد اقتصرتُ في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها[٤]، فقال:

«. . . أرضها شاميَّة في طِيبها، تِهاميَّة في اعتدالها واستوائها، أهْوازية في عِظَم خَراجها وجِبايتها، عَدَنِيَّة في منافع سواحلها، صِينيَّة في مَعادنها، هِنْدية في عطْرها

(١) ميدان رهان: أي ميدان سباق للخيل.
(٢) يشاكله: يشابهه، والحاضر والبادي: من الحاضرة والبادية، أو يريد أن يقول من قصر موجود أو من قصر كان موجودًا ولكنّه تهدّم إلّا أن ذكره مشتهر.
(٣) الظّلمان: مفردها الظليم، وهو ذكر النعام، والنّون: الحوت، أو الأسماك.
(٤) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام توفي في بادية الأندلس سنة ١٠٦٤ م، وقد ترك تراثًا ضخمًا من المؤلّفات والمصنّفات والرسائل. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٥٤».

وطِيبِها وذَكائها. وأهْلها عرَب في الأنساب والعِزَّة والأنَفَة، وفصاحة الألْسُن، وطِيب النُفوس، وإباءِ الضيم، وقلَّة احتمال الذل والإهانة، والنَّزاهة عن الخُضُوع، هِنْديُّون في فرط عنايتهم بالعلوم وحُبِّهم لها؛ بغدادِيُّون في ظَرْفهم ونظافَتِهم، ورِقَّة أخلاقهم ونَبَاهتهم، ولطافة أذهانهم، وحدّة أفكارهم، نَبَطِيُّون في استنباط المياه، ومُعَاناتهم للغِراسة، وتركيب الشجر والفِلاحة صِينيُّون في إتقان الصنائع العلمية، وإحكام المهَن الصورية؛ تُركِيُّون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، والنظر في مهمَّاتها».

قال إبراهيم بن خفاجة، يصفها: [من الرّمل]

إنَّ لِلجـنَّـةِ بـالأنْـدَلُس مـجـتَـلى عـيـن وريَّـا نَـفَـسِ![1]

فـسَـنـا صُـبْـحـتـهـا مـن شَـنَـبٍ ودُجـى لـيـلـتـهـا مـن لَعَـس[2]

وقد أظهرت الأندلُس جماعةً من الفضلاء والأعيان والأكابر، ذكرهم ابن بسَّام[3] في كتابه المترجم «بالذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة». وذكرهم الفتح بن خاقان[4] في كتابه «المطمح» و «قلائد العقيان» وغيرهما.

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وابتداء عمارتها وملوكَها عند ذكرنا فتحها، وهو في الباب الخامس من القسم الأوّل من الفن الخامس في التاريخ من أخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مَرْوان في سنة ٩٢ من الهجرة.

وأما البَصْرة وما اختصت به

فمن خصائصها أن للغِرْبان بها ضربا من العَجَب. وذلك أنها تقَع إليها بالخريف حتّى تكون الأرض بها سوداء، وتقع على كل نخلة أُصْرِم[5] ثمرها، ولا تقع على ما لم تُصرَم، ولو بقي عليها عِذْق[6] واحد.

---

(١) الريّا: الرّيح الطيّبة.

(٢) السّنا: الضّياء، والشّنب: صفاء الأسنان وبياضها، واللّعس: سواد أو سمرة مستحسنة في باطن الشّفة.

(٣) هو علي بن بسّام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن، أديب، من الكتّاب الوزراء توفي سنة ١١٤٧ م. «فهرس الأعلام ٤/٢٦٦».

(٤) هو الفتح بن خاقان بن أحمد غرطوج، أبو محمد، أديب، شاعر، فصيح، كان في نهاية الفطنة والذّكاء، فارسي الأصل، اتخذه المتوكّل العباسي أخًا ووزيرًا له. «فهرس الأعلام ٥/١٣٣».

(٥) أصرم ثمرها: أي اجتُز وقطع، وأصرم النخل: حان وقت اجتزازه.

(٦) العذق: عنقود النخل.

ومن عجائبها أيضًا، أن التمر يكون مصبوبًا في بيادره، فلا يقع عليه شيءٌ من الذُّباب لا في الليل ولا في النهار.

وأهل البصرة يتخذون المِظَلَّات[١] على التمر والعجوة[٢] خوفًا عليها من الخُفَّاش. ومن عادة الذباب الفِرار من الشمس إلى الظلّ، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة. فيتوهمُ المتوهِّم أن هاتين الحالتين من طِلَّسْم، له من الخاصية ما يمنع الغِرْبان والذباب. وليس كذلك، وإنما هو من حماية الله ووقايته.

ووصف خالد بن صفوان[٣] البصرة، فقال: منابِتها قَصَب، وأنهارها عَجَب، وسماؤها رُطَب[٤]، وأرضها ذَهَب.

وفي الكوفة عدم الوفاء.

وأما بغداد وما اختصت به

فإنه يقال: إنها جنةُ الأرض، ومجتَمَع الوافدَيْنِ: دجلةَ والفُراتِ، وواسطةُ الدنيا، ومدينةُ السلام، وقبة الإسلام، لأنها غُرَّة البلاد، ودارُ السلام والخِلافة، ومجمع الطَّرائف والطيبات، ومعدِن المحاسن واللطائف، وبها أرباب النِّهايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع.

وكان أبو إسحٰق الزجَّاج يقول: بغدادُ حاضرةُ الدنيا، وما عداها باديةٌ.

وكان أبو الفضل بن العميد[٥] إذا طرأ عليه أحد وأراد امتحانَ عقلهِ سأله عن بغداد. فإن فَطن لفضائلها وخواصِّها، جعل ذلك مقدّمةَ فضله وعنوانَ عقله.

---

(١) المظلّات: مفردها مظلّة، وهي ما يستظل له، أو هي نوعٌ من الشّباك لا يخترقها الطير فيقع على الثّمار.

(٢) العجوة: التّمر المخلوط بعضه ببعض.

(٣) هو خالد بن صفوان بن الأصمّ التميمي المنقري، من فصحاء العرب المشهورين كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وأدرك خلافة السّفاح وحظي عنده توفي سنة ٧٥٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٧».

(٤) الرّطب: ما نضج من البلح قبل أن يصير تمرًا.

(٥) هو محمد بن الحسين، أبو الفضل ابن العميد، وزير من الكتّاب الأذكياء، لقّب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسّله، كان وزيرًا لركن الدولة البويهي، كريمًا ممدوحًا، مات بهمذان سنة٩٧٠ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٩٨».

وقال ابن زُرَيق الكوفيّ، الكاتب: [من البسيط]

سَافَرْتُ أبغِي لَبْغدادٍ وساكِنِها ... مِثْلًا، فحاوَلْت شَيْئًا دُونَه الياسُ
هيهاتَ! بغدادُ الدنيا بأجمعها ... عندي، وسُكَّانُ بغدادٍ همُ الناسُ

وقال آخر: [من المتقارب]

سقى اللهُ بَغْدادَ من جنةٍ ... غدَتْ للوَرى نُزْهةَ الأنفُس
على أنَّها مُنْيةُ المُوسِرين ... ولكِنَّها حَسْرةُ المُفْلِس

وأما الأهواز وما اختصت به

فقال أبو عثمان «عمرو بن بحر الجاحظ»: إن قَصَبة الأهواز مخصوصة بالحمَّى الدائمة اللازمة، حتَّى إنها ليست إلى الغريب بأسرَعَ منها إلى القريب.

وقال إبراهيم بن العباس[١] عن مَشْيَخة من أهلها عن القوابل[٢] بها: إنهن ربما قَبِلن الطِّفْل المولود بها فيجِدْنَه محمومًا؛ ولا تكاد تُوجَد بها وجنةٌ حمراء لصبيّ ولا صبية، ولا دمٌ ظاهر.

ومن عجائب خصائصها: أن جميع أصناف الطِّيب تستحيلُ رائحتُه فيها جذًّا[٣]، حتَّى لا تكاد توجد له رائحةٌ. وذلك من كثرة الرُّطوبات، وغلَظ الهواء، والأبخرة الفاسدةِ. (وهذا موجود بأنطاكِيَةَ والقُسْطنطينِيَّة). ويقال: إن الخيل لا تنْزُو[٤] بها ولا تصْهَل، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن؛ لما يلحقها من الرَّبْو[٥]، لنداوة البلد وعفونته.

وأما فارس وما اختصت به

فمن خصائصها: ماء الورد الذي لا يُوجَد مثله في سائر البلاد طيبًا، والجُورِي[٦] الموصوف من أحد بلادها يُجْلبَ إلى أقاصي البلاد، ويُضرَب به المثل.

---

(١) هو إبراهيم بن العباس الصّولي، أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، كان شاعرًا وكاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل من خلفاء بني العبّاس، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».

(٢) القوابل: مفردها قابلة، وهي المرأة التي تساعد الوالدة عند الولادة فتتلقّى الطفل الذي تضعه.

(٣) الجذّ: المنقطع، أو الذي تمتنع عن نشر الرائحة.

(٤) تنزو: تثب.

(٥) الرّبو: علّة في الرّئة يضيق منها التنفّس.

(٦) الجوريّ: هو الورد الجوري المنسوب إلى «جور» تقدّم ذكره.

ولشيرازَ من بلاد فارس فَغْمة[١] طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس.

وأما أصفَهان وما اختصت به

فهي موصوفة بصحة الهواء، وجَوْدة التُربة، وعُذُوبة الماء.

وحُكي أن الحجاجَ ولّى بعض خواصّه أصفَهان، فقال له: قد ولَّيتك بلدةً حَجَرُها الكُحْل، وذُبابُها النَّحل، وحشيشُها الزَّعْفَران.

ومن خصائص الرَّيّ: بُرودُها[٢] موصوفة كبُرود اليَمن، وتسمَّى العَدَنِيَّات تشبيهًا لها ببرودِ عَدَن. وفيها الثياب المنيَّرة.

قالوا: واللص الحاذق ينسب إلى الرَّيّ.

وأما جُرْجان وما اختصت به

فهي سُهْلِيَّة جَبلِية، برِّية بحرِيَّة. وأهلها يَعُدّون زيادةً على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبُقُول، والحشائش الصَّحْراوية، والثمارِ والحبوب السُّهْلية التي هي مبذولة بها للفُقراء والغُرَباء.

ومن خصائصها: العُنَّاب الذي لا يكون في سائر البلاد مثلُه، ويقال: هي بغداد الصُغرى، إلا أنها وبِيَّةٌ، مختلفة الهواء في اليوم الواحد، قَتَّالة للغرباء، كثيرة الأنداء[٣].

ويقال: جُرْجان مقْبُرة أهل خُرَاسان.

وفي بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُسَاق إليها قصار الأعمار من الناس.

وكان أبو تراب النيسابوريّ[٤] يقول: لما قُسمت البلادُ بين الملائكة، وقعَتْ جُرجانُ في قسم أبي يحيىٰ (يعني مَلَك الموت).

---

(١) الفغمة: الرائحة.

(٢) البرود: مفردها بُرد: وهو كساء مخطَّط يلتحف به.

(٣) الأنداء: مفردها ندى: وهو بخار الماء المتكاثف الذي يسقط في بعض الليالي.

(٤) لعلّه يحيىٰ بن يحيىٰ بن بكر التميمي النيسابوري، قال الإمام أحمد: ما أخرجت خراسان بعد ابن المبارك مثله محدّث فقيه ثبت، مات سنة ٢٢٦ هـ. «الكاشف ٣/ ٢٣٨».

وأما نيسابور وما اختصت به

فحكي عن عمرو بن الليث الصَّفَّار[١] أنه كان يقول: كيف لا أقاتِلُ عن بَلْدة حشيشها الرِّيباس[٢]، وتُرابها النُّقْل، وحَجَرها الفيروزج، أراد بقوله: «تُرابها النُّقْل» طينَ الأكل الذي لا يوجدَ مثله في الأرض، ويحمل منها إلى أقاصي البلاد وأدانِيها، ويُتْحف به الملُوك. قالوا: وربما بيع الرِّطل[٣] منه بدينار. قال المأمون يصفه: [من السريع]

جُدْ لِي من النُّقْل، فذَاكَ الذِي ... منه خُلِقْنا وإليه نَصِيرْ
ذاكَ الذي يُحْسَب في شَكْله ... أحجارَ كافورٍ عليها عبيرْ

قالوا: والفَيْروزَج[٤] لا يكون إلا في نَيْساور، وربما بلغت قيمة الفَصّ منه ـ الذي إذا أربى وزنه على مثقال[٥]، وجمع الخضرة والاستدارة، وصَبَر على النار، وامتنع على المِبْرد، ولم يتغير بالماء الحارّ ـ مائتي دينار.

ويقال إن له خاصية في تقوية القلب بالنظَر إليه، كما أنَّ للياقوت[٦] خاصِّيَّة في مَسَرَّة النفس.

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد السامَانِيُّ[٧]، مِلِكُ ما وراءَ النهر وخُراسان، استحسنها واستطابها، وقال: يا لها من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان! كان ينبغي أن تكون مياهُها التي في باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها[٨] التي على ظهرها في بطنها.

---

(١) هو عمرو بن اللّيث الصّفّار، ثاني أمراء الدولة الصفّارية، وأحد الشجعان الدّهاة. «انظر فهرس الأعلام ٥/ ٨٤».

(٢) الرّيباس: نبات معمّر ينبت في البلاد الباردة، والجبال ذوات الثلوج، تؤكل ضلوعه وتربّب، ويعصر منه شراب الرّيباس.

(٣) الرّطل: معيار يوازي اثنتي عشرة أوقية إجمالاً.

(٤) الفيروزج: حجر كريم أزرق يميل إلى الخضرة.

(٥) المثقال: ما يوزن به.

(٦) الياقوت: حجر كريم صلب صافٍ شفّاف، ذو ألوان مختلفة ما بين الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق.

(٧) هو إسماعيل بن أحمد بن سامان، أبو إبراهيم، ثاني أمراء الدولة السامانيّة في ما وراء النهر ولّاه المعتضد خراسان، وكان موفّقًا في قمع الثورات توفي ببخارى سنة ٩٠٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣٠٨».

(٨) المسالح: موضع السّلاح، أو هي موضع السّلح وهو الأصوب هنا.

ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرِّقاق.

وأهلها لا يكرِمون الغريب. قال المراديّ[١]: [من البسيط]

لا تنْزِلَنَّ بنَيْسابُورَ مغْتَرِبًا ... إلَّا وحَبْلُك موصولٌ بسُلْطانِ
أوْلَا، فلا أدبٌ يُغْني ولا حَسَبٌ ... يُجْدِي ولا حُرمةٌ تُرْعى لإنسانِ

وقال أيضًا فيها: [من البسيط]

قال المُرَادِيّ قَولًا غيرَ متَّهَم ... والنُّصحُ ما كان من ذي اللُّبِّ مقبولُ
لا تنزِلَنَّ بنَيْسابُورَ مُغْترِبًا ... إنَّ الغريبَ بنَيْسابُورَ مَخْذولُ

وأما طُوس وما اختصت به

فمن خصائصها السَّبَج[٢] الذي لا يكون إلا بها، ومنها يُنْقل إلى الآفاق، والحجر الأبيض الذي تتخذ منه القُدُور.

ويقال: إن الله عزَّ وجلّ ألَانَ لأهلها الحجارةَ كما ألَان لداود الحديدَ، حتَّى إنهم يتخذُون منها ما يتخذ غيرُهم من الزُّجاج من سائر الأواني.

وأما بَلْخ وما اختصت به

فيقال: هي من أقدم البلاد وأخصِّها بالملوك، وهي شبيهة بالعِراق، وخُراسان، والهند. وإليها ينسَبُ جَيْحون، فيقال: نهر بلخ.

وكان سعيد بن الحسن يقول: العَيْش في الصيف ببَلْخ كتَصْحِيفها[٣].

ومن خصائصها البخاتي[٤] والنَّيْلُوفر[٥].

---

(١) هو أبو الحسين محمد بن محمد المرادي، شاعر بخارى، وهو الذي نزل نيسابور لحاجةٍ في نفسه، فرأى من أهلها جفاء فقال هذين البيتين. «انظر يتيمة الدّهر ٤/ ٨٥ وما بعدها».

(٢) السّبج: خرز أسود.

(٣) أي مثل «ثلج» والتصحيف: تغيّر الكلمة أثناء الكتابة من صوابٍ إلى خطأ وذلك عن طريق إبدال بعض الحروف ببعض، وخاصة الحروف المعجمة.

(٤) البخاتي: نوع من النّياق اشتهرت بها هذه المدينة.

(٥) النّيلوفر: نبات ينبت في المياه الراكدة، أصله كالجزر، ويطول بحسب عمق الماء منه أنواع تزرع لورقها وزهرها.

وأما بُسْت وما اختصت به

فيقال: إن هواءها كهواء العِراق، وماءَها كماء الفُرات؛ ومن خصائصها الإجَّاص الذي لا يوجد مثله في غيرها. ويقال: إن مَنْ مات ببُسْت مغفورًا له فقد انتقل من جَنَّة إلى جَنَّة.

وأما غَزْنة وما اختصت به

فهي موصوفة بصحة الهواء، وجودة التُّربة، وعُذوبة الماء، وهي جَبَلية شَمَالية؛ ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة، والأمراض قليلة. قالوا: وهي أرضٌ تنبت الذهب، ولا تولد الحياتِ والعقاربَ والحشرات المؤذية. ومنها خرج الأجِلَّاء الأنجاد[1] من الرجال.

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان: لم أر بلدة في الصيف أطيب، وفي الربيع أشبه، ومن الحشرات أنظف من غزنةَ. ثم قال: إن قلَّة ثِمَارها من منافعها، لأن كثرة الثمار مقترِنةٌ بكثرة الأمراض. وقد وصفها صاحب كتاب «لطائف المعارف» فقال: [من مجزوء الكامل المرقّل]

واهًـــا لـــغَـــزْنـــةَ إذ غَـــدَتْ ... لـــلـمُــلْكِ والإســلام دَارَا[2]
مــن كَـعْـبـةٍ قــد أصـبـحَـتْ ... لــلمَـجْـدِ والـعَـلْـيَـا مَـدَارَا[3]
فـــي صَـدْرهـا الـمـلكُ الَّذي ... قُـطْـبُ الـسُّـعـود عـلـيـه دَارَا

وقال أيضًا فيها: [من البسيط]

يا دار مُلْكٍ نرى كُلَّ الجمال بها ... وأسعد الدهر تَبْدو من جَوانِبها
كأنما جَنَّة الفِرْدوس قد نزلَتْ ... بأرض غَزْنةَ تعجيلًا لصاحِبِها

وأما سِجِستان وما اختصت به

فيقال فيها: ماؤها وَشَل[4]، وثَمَرُها دَقَل[5]، ولِصُّها بَطَل.

---

(١) الأنجاد: مفردها نجد، أي الرّجل الماضي فيما لا يستطيعه سواه، ومنه النّجدة: الشجاعة والاستهانة بالموت.
(٢) واهًا: كلمة تعجّب من طيّب الشيء. (٣) المدار: الفلك.
(٤) الوشل: الماء القليل، يتحلّب من جبل أو صخرة، ولا يتّصل قطره.
(٥) الدّقل: أردأ التّمر.

ومما تختص به الطاسات وجلاجل[١] البُزَاة، والطبولُ المَوْكِبية، والفُرُش الدِّيباج[٢].

وأما الهند وما اختصت به

فيقال: الهند بحرها دُرّ، وجبلُها ياقوت، وشجرُها عُود، وورَقُها عطْر.

وعُود الهند يذكر مع أمّهات الطيب.

وفي الهند الفِيل، والكَرْكَدَّن، والبَبْر، والطاوُوس، والبَبْغاء.

وفيه الياقوتُ الأحمر، والصَّنْدل الأبيضُ، والعاجُ، وأصناف العِطر، والثياب المُخْمَلة وغيرها، واللّانس[٣]، والأقمشة.

وأما الصين وما اختصَّ به

فإن العرب تقول لكل طُرْفة[٤] من الأواني: صينِيَّة كائنةً ما كانت: لاختصاص الصين بالطَّرائف.

وأهلُ الصين خُصُّوا بصناعة الطُّرَف، والمُلَح، وخَرْط التماثيل، والإبداع في عمل النُّقُوش والتصاوير، حتَّى إن مصوّرهم يصوّر الإنسان فلا يغادر شيئًا إلا الرُّوح، ثم لا يرضى بذلك حتَّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخَجل، وبين المتبسِّم والمستغرب، وبين ضَحِك المسرور والهازىء؛ ويركِّب صُورة في صورة.

وفيه مناديل الغَمَر[٥] التي إذا اتَّسخت وأُلْقيت في النار، نَقِّيت ولم تحترق.

وفيه الحديد. وربما اشترِي بأضعاف وزنه فضةً.

وفيه السِّنجاب الفارحانيّ الذي هو من أنفس الأوبار. وفيه اللُّبُود[٦] الجياد.

---

(١) الجلاجل: مفردها جلجلٍ، وهو الجرس الصغير.

(٢) الدِّيباج: ضربٌ من الثيابِ، سداه ولحمته حرير.

(٣) كذا بالأصل، ولعلّها محرّفة عن القلانس. (٤) الطّرفة: كلّ شيء مستحدث عجيب.

(٥) الغمر: منديل، ويقال: لمنديل الغمر المشوّش، والثوب المغمّر: المطلي بالزعفران. «انظر اللّسان مادة غمر».

(٦) اللُّبود: مفردها «اللّبد» وهو ضربٌ من البُسط.

قال الجاحظ في كتاب «النظر في التجارة»: إن خير اللُّبُود الصينية، ثم المغربية الحُمْر، ثم الطالَقَانيَّة[١] البِيض.

وأما سمَرْقَنْد وما اختصت به

قال قُتَيبة بن مسلم[٢]، لما أشرف على سمرقند لأصحابه: شَبِّهوها، فلم يأتوا فيها بشيء، فقال: كأنها السماء في الخُضْرة، وكأن قصورَها النجومُ الزاهرة، وكأن أنهارَها المَجرّة[٣]. فاستحسنوا هذا التشبيه.

ومن خصائصها: الكَوَاغدُ[٤] التي عطَّلتْ قراطيس مصر، والجلودَ التي كان الأوائل يكتُبون عليها، لأنها أحسَنُ وأنعمُ وأرفَقُ وأرقُّ. ولا تكون إلا بها وبالصين.

ومن خصائصها: الثياب الوَذَارية[٥]، والنشادر[٦]، والزِّئبَق، والبُنْدُق.

وأما بلاد التُّرك وما اختصت به

فإنه يقال: إنها توازِن بلاد الهند في كثرة الخصائص.

وفيها المِسْك والسِّنجاب والسَّمُّور[٧] والقاقُم[٨] والفَنَك[٩] والثَّعالب السُّود والأرانب البيض وغير ذلك. وفيها البُزاة البيضُ والخيل.

---

(١) الطالقانية: نسبة إلى طالقان، وهي مدينة في طخارستان، تخرج منها جماعة من الفضلاء. «معجم البلدان ٤/٦، ٧».

(٢) هو قتيبة بن مسلم الباهلي، أبو حفص، أميرٌ فاتح من مفاخر العرب، ومن ولاة الدولة الأموية، كان عظيم المكانة مرهوب الجانب، قتل بفرغانة سنة ٧١٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٨٩».

(٣) المجرّة: مجموعة كبيرة من النجوم تركّزت حتى تراءت من الأرض كوشاحٍ أبيض يعترض السّماء.

(٤) الكواغد: مفردها «الكاغد» وهو القرطاس.

(٥) الوذارية: نسبة إلى وذار، وهي من قرى سمرقند على أربعة فراسخ منها، فيها منارة وحصن وجامع، وهي كبيرة كثيرة البساتين والزروع. «معجم البلدن ٥/ ٣٦٩».

(٦) النّشادر: مادة بيضاء تميل إلى الصفرة، تستعمل استنشاقًا في حالات الإغماء.

(٧) السّمّور: حيوان برّي لحوم، يشبه الهرّ، يُتخذ من جلده فروٌ ثمين.

(٨) القاقم: حيوان على شكل الفأرة، رائحته كريهة، تصنع من جلوده الفراء.

(٩) الفنك: ضرب من الثعالب، فروته أجود أنواع الفراء.

ولتُبّت من بلاد الترك خاصيّةٌ: أنه من أقام بها اعتراه سُرور لا يدرِي ما سبَبُه، ولا يزال متبسمًا ضاحكًا؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخُل على أهله كبيرُ حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب.

وأما خُوَارَزْم وما اختصَّتْ به

فإنها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها في الخصائص والمتاجر.

ومن خصائصها البِطيخ الذي يقال له «النارَنْج» يقال إنه أحْلى البطاطيخ وأطيبُها. وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص، معَبَّاة في الثلج. فكانت تُقوّم الواحدة منه ـ إذا سلمت ووصلت ـ بسبعمائة درهم. والله أعلم.

ذكر الخصائص التي تجري مجرى الطِّلَّسْمات

منها: مدينة «خَبِيص» من مُدُن كَرْمان. لا يُمطِر المطر فيها داخلَ السور أبدًا حتَّى إن الرجل يُخْرِج يده من سورها إلى خارجها، فتبتلُّ يدُه ولا يبتلُّ ساعده.

وبقرية من قُرى كَرْمان أيضًا «حصن عادي» ليس فيه فأر. وإذا دخل إليه فأر، مات.

ومدينة «حمص» لا يُوجَدُ فيها عَقْرب. وإذا نُثِر ترابُها على ظهر عَقْرب، ماتت. وكذلك قلعة أعزاز من أعمال حلب. ويقال إنه لا يدخل مدينتها حيَّة. ومتى نُثِر عليها من ترابها، ماتت لوقتها. ولا يوجد فيها بَعُوضٌ البتةَ. وإن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها؛ فإذا أدخل يده، طار عنها.

و«بمصر»(١) أن التماسيح إذا ساقها الماءُ إليها وحاذَتْها، انقلبت على ظهرها. فإذا بَعُدت عنها، لا تضر أحدًا. بخلاف ما هي في بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ما تظْفَر به من الحيوان حتَّى الخيل. ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس.

ومدينة «سجِلْماسة» لا يوجد فيها ذُباب البتةَ.

(١) يعني مصر العتيقة أي الفساط.

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة

وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفُرُش، والمراكب، والحيواناتُ ذواتُ السموم، والحَلْوى، والثمار، والرياحين، والخَلْق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العُلْوية

أما خصائصها العلمية والعملية، فيقال: حُكماء اليونان، وأطباء جُنْدَيْسَابور[١]. وصاغة حَرَّان[٢]، وحاكَةُ اليمن، وكُتَّاب السَّوَاد.

ومن خصائصها في الجواهر، يقال: فَيْروزَج نَيْسابورَ، وياقوت سَرَنْدِيب، ولؤلؤ عُمَان، وزبرجَدُ مِصْر، وعَقِيق اليمن، وجَزْع[٣] ظَفَارِ، وبجاديّ بلخ[٤]، ومَرْجانُ إفْرِيقِيَّة.

ومن خصائصها في الملابس، يقال: «بُرُود اليمن، ووَشْيُ[٥] صنعاء، ورَيْط[٦] الشام، وقَصَب[٧] مصر، وديباج[٨] الرُّوم، وقَزُّ[٩] السُّوس، وحَرِير الصين، وأكْسِية فارس، وحُلَل أصْبَهان، وسَقْلاطُون[١٠] بغداد، وعَمَائم الأُبُلَّة، ومُنَيَّر[١١] الريّ، ومُلْحَم[١٢] مَرْو، وتِكَك[١٣] أرمِينِيَة، ومَنَاديل الدَّامَغان، وجَوَارِب قَزْوِين.

---

(١) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه، وأسكنها سبي الرّوم وطائفة من جنده، وهي تعريب: به از انديوشافور، ومعناه: خيرٌ من أنطاكية. «معجم البلدان ٢/ ١٧٠».

(٢) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، على طريق الموصل والشّام والرّوم، سمّيت «بهاران أخي إبراهيم عليه السّلام» لأنه أوّل من بناها، وقيل: إنّها أوّل مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان. «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

(٣) الجزع: ضرب من العقيق، يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

(٤) كذا بالأصل، وهو تحريف صوابه «بخاتيّ بلخ» وهي ضرب من النياق اشتهرت بها بلاد بلخ.

(٥) الوشي: نقش الثوب وتزيينه من كلّ لون.

(٦) الرّيط: مفردها «ريطة» وهي الملاءة كلّها نسج واحد وقطعة واحدة، أو كلّ ثوب ليّن رقيق.

(٧) القصب: ثياب رقاق ناعمة من الكتّان.

(٨) الدّيباج: ثوب سُداه ولحمته من الحرير.

(٩) القزّ: الحرير.

(١٠) السقلاطون: نوع من الثياب، قال أبو حاتم: عرضته على روميّة وقلت لها ما هذا؟ قالت: سجلّاطُس. «اللّسان مادة سقلطن».

(١١) المنيّر: ثوب منسوج على نيرين.

(١٢) الملحَم: نوع من الثياب، وهو ما كان سُداه حريرًا أبيض ولحمته غير حرير.

(١٣) التّكك: مفردها التكّة، وهي رباط السّراويل.

ومن خصائصها في الأوبار، يقال: سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب الخَزَر، وفَنَك كاشْغر(١)، وحَوَاصل هَرَاة(٢)، وقَاقُم تغزغز(٣).

ومن خصائصها في الفرش، يقال: بُسُط أرمينِيَة، وزَلَالِيُّ(٤) قالِيقَلَا، ومَطَارِحُ(٥) مَيْسان، وحُصْر بغداد(٦).

ومن خصائصها في المراكب، يقال: عِتَاق(٧) البادية، ونَجَائِب(٨) الحِجاز، وبَراذين(٩) طَخَارستان، وحَمِير مصر، وبِغَال بَرْذعة(١٠).

ومن خصائصها في الحيوانات ذوات السموم، يقال: أفاعي سجِسْتان، وحَيَّات أصْفَهان، وثَعابِينُ مصر، وعَقَارِب شَهْرَزُور، وجرّارات(١١) الأهواز، وبَراغِيث أرمِينِيَة، وفأر أرْزَن، ونمل مَيَّا فارقِينَ، وذبابُ تل فَافَانَ، وأقداح نلد(١٢).

ومن خصائصها في الحلواء، يقال: سُكَّر الأهواز، وعَسَل أصفَهَان، وفانيذ(١٣) ماكسان(١٤) ودِبْسُ أَرّجان.

---

(١) الفنك: حيوان يشبه الثعلب تستخرج من جلده فراء جيّدة، وكاشغر: مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند، وهي وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون. «معجم البلدان ٤/ ٤٣٠».

(٢) الحواصل: مفردها حاصل، وهو هنا نوعٌ من الطيور يعمل من جلده الخفاف الناعمة وهراة: مدينة مشهورة عظيمة من أمّهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، محشوّة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء. «معجم البلدان ٥/ ٣٩٦».

(٣) القاقم: حيوان كالفأر، رائحته كريهة، وفروه ثمين، وتغزغز: لم أجد لها ذكرًا في معجم البلدان، ولعلّها «غزنيز» من قرى خوارزم. «راجع معجم البلدان ٤/ ٢٠٢».

(٤) الزّلالي: لم أجد لها ذكرًا في اللّسان ولعلها الزّرابي، وهي ما بُسط واتكىء عليه من الطنافس ونحوها.

(٥) المطارح: ما يطرح من بسط أو فرش ويجلس عليها.

(٦) لعلّه مصحّف عن «حصر عبادان» لأن المقريزي يتكلّم عن الحصر العبدانيّة في مواضع كثيرة.

(٧) العتاق: النّوق الكريمة. (٨) النّجائب: الإبل الكريمة.

(٩) البراذين: مفردها «برذون» وهو دابة دون الفرس غليظة الأعضاء ضخمة تتخذ للحمل خصوصًا.

(١٠) برذعة: أو بردعة «بالدال» وهي قاعدة مملكة أرّان، قال ابن حوقل: هي مدينة كبيرة كثيرة الخصب، نزهة، على مقربة من نهر الكرّ. «صبح الأعشى ٤/ ٣٦٢».

(١١) جرّارات: مفردها «جرّارة» وهي عقرب صفراء صغيرة على شكل التّبنة، وهي من أخبث العقارب.

(١٢) القدوح: الذّباب، والقدح والقادح أكّال يقع في الشجر والأسنان «وَنَلَد» هكذا في الأصل، ولعلّها محرّفة عن «بلد» المدينة المشهورة في العراق.

(١٣) الفانيذ: نوعٌ من السكر لا يوجد إلّا بمكران ومنها يحمل إلى سائر البلدان. «معجم البلدن ٥/ ٤٢».

(١٤) ماكسان: كذا بالأصل والصواب: ماسكان، بلد مشهور بالنواحي المجاورة لمكران وراء=

ومن خصائصها في الثمار، يقال: رُطَب العراق، وتَمْر كَرْمان، وعُنَّاب جُرْجان، وإجَّاص بُسْت، وسَفَرْجَل نيسابور، وتُفَّاح الشام، ومِشْمِش طوس، وكُمَّثْرى نَهَاوَنْد، وأُتْرُجُّ طبرستان، ونارَنْج[١] البصرة، وتِين حُلْوان، وعنَب بغداد، وقِشْمش[٢] هراة، ومَوْز اليمن، وجَوْز الهند، وبِطِّيخ خُوارَزْم، وباقِلاء الكوفة.

ومن خصائصها في الرياحين، يقال: نَرْجِس جُرْجان، ووَرْد جُور، ونَيْلُوفر[٣] السِّيرَوان، ومنثُورَ[٤] بغداد، وزَعْفران قُمّ، وشاهسْفَرم[٥] سمرقند.

ومن خصائصها في الخَلْق والأخلاق، يقال: شُقْرة الروم، وسَوَاد الزِّنْج، وغلَظ الترك، وجَفَاء الجِيل، ودَمَامَة الصِّين، وقِصَر يأجُوج.

ومن خصائصها في الأمراض، يقال: طواعينُ الشام، وطِحَال البحرين، ودَمَامِيل الجزيرة، وحُمَّى خيبَرَ، وجُنُون حمْص، وعَرَق اليمن، ووَبَاء مصر، وبِرْسام[٦] العراق، والنارُ الفارسية، وقُرُوح بَلْخ.

ومن خصائصها في الآثار العلوية، يقال: شِتَاء أرمينِيَةَ، ومَصيف عُمَان، وصواعق تِهَامه، وزَلازِلُ دَبِيل.

وقال الجاحظ في «كتاب الأمصار»: الصناعة بالبصرة، والفَصَاحة بالكوفة، والتَّخْنِيث ببغداد، والطَّرْمذَة[٧] بسمرقند، والغَيّ بالرَّيّ، والجَفَاء بنَيْسابور، والحُسْن بهَراةَ، والمُروءة ببلخ، والبُخْل بمرو، والعجائب بمِصْر.

وحكي عن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا، أنه قال لقومه لما تحقق كونَ سيلِ العَرِم[٨]:

= سجستان، ولا يوجد الفانيذ إلا بهذا الموضع. «معجم البلدان ٥/ ٤٢».

(١) النّارنج: نوعٌ من الليمون يعرف عند بعض العامة «البوصفير» تتخذ منه المربّيات.

(٢) القشمش: ما يعرف عندنا بالمشمش.

(٣) النّيلوفر: جنس نباتات مائية ينبت في الأحواض والمناقع «تقدّم ذكره».

(٤) المنثور: جنس زهر ذو رائحة ذكيّة، وهو كثير في مصر.

(٥) الشاهفرم: ريحان الملك، قال أبو حنيفة هي فارسية دخلت في كلام العرب وقد ذكرها الأعشى في قصيدة له. «اللّسان مادة شهم».

(٦) البرسام: داء الجنب، وهو التهاب يصيب غشاء الرّئة.

(٧) الطرمذة: الرّجل الذي لا يحقق الأمور أي الذي له كلام وليس له فعل. «اللسان مادة طرمذ».

(٨) سيل العرم: ذكر في القرآن الكريم ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ [سَبَأ: الآية ١٦]، والعرم قال أبو عبيدة جمع العرمة، وهي السّكر والمسنّاة التي تسدّ بها المياه وتقطع، وقيل: العرم: اسم وادٍ بعينه، وقيل: العرم هاهنا: اسم الجرذ الذي نقب السّكر عليهم، وقيل: العرم: المطر الشديد، وسيل العرم: هو الذي خرّب سدّ مأرب. «انظر معجم البلدن ٤/ ١١٠».

من كان ذا شاءٍ وبَعير وجملٍ غير شَرُود، فليلحق بالشِّعب[١] من كُوفان، فلحقتْ به هَمْدان؛ ومَن كان ذا سِياسة وصَبْر على أزَمات الدهر فليلحَق ببطن مَرّ[٢]، فلحقت به خُزَاعة. ومَن كان يريد الراسخات في الوَحْل؛ المُطعِمات في المَحْل، فليلحَقْ بيَثْرِب ذاتِ النخل، فلحقت بها بنو قَيْلةَ، وهم الأوس والخَزْرَج؛ ومن كان يريد الخَمر والخَمِير والأمر والتأمير فليلحق ببُصْرى وسَدير (وهي من أرض الشام)، فلحقَتْ به غَسَّان؛ ومَن كان يريد الثياب الرِّقاق، والخُيول العِتَاق، والذَّهَب والأوراق، فليلحَقْ بالعراق، فلحقت به لَخْم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الثالث
من القسم الخامس من الفن الأوّل
في المباني القديمة

والمباني القديمة كثيرة، فلنذكر منها ما عَظُم خَطَره، وشاع في الآفاق ذِكْره.

ذكر أوّل بناء وُضِع على وجه الأرض

قيل: أوّل ما بنى على وجه الأرض «الصَّرْح» ويسمَّى «المِجْدل» بناه النُّمرود الأكبَرُ ابن كُوش بن حام بن نوح، بكُوثي رَبّى من أرض بابل[٣]. قيل: وبها إلى هذا العصر من أثره كالجبال. وكان طوله في الهواء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع. وكان مبنيًا بالحجارة والرَّصاص والكِلْس والشَّمَع واللِّبان[٤]. بناه ليمنعه وقومَه من بأس الله عزَّ وجلّ. وكان قد كفر وطغى وادّعى الألوهية، فأرسل الله تعالى إليه جبريل، فضربه بخافية جناحه فهدمه، وهام مَن كان حوله على وجهه، وقد تبلبلت[٥] ألسِنَتُهم من الدَّهَش والذُّعْر، فكانت عنه هذه اللغاتُ التي

---

(١) الشّعب: انفراج بين جبلين (ج) شعاب.

(٢) بطن مرّ، وهو وادٍ من أودية الحجاز في الشّمال عن مكة على مرحلة منها على طريق حجّاج مصر والشّام، وفي تقويم البلدان: بقعة بها عدّة عيون ومياه تجرى ونخيل. «صبح الأعشى ٤/ ٢٦٥».

(٣) بابل: قال ابن حوقل: هي أقدم أبنية العراق، وإليها ينسب إقليم بابل لقدمها وكانت ملوك الكنعانيين وغيرهم يقيمون بها، ويقال: إن الضحّاك أحد ملوك الفرس هو الذي بناها. «صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

(٤) اللّبان: اللَّبِنة واللِّبْنة: التي يبنى بها، وهو المضروب من الطين مربّعًا. «اللّسان مادة لبن».

(٥) تبلبلت: تفرّقت، وبلبل الله ألسنة الخلق: فرّقها.

يتكلم بها سائرُ الأمم، وهي اثنتان وسبعون لغةً، وسميت تلك الأرض التي كان بها بابِلَ.

ذكر خبر إرَمَ ذاتِ العماد

وهي التي ذكرها الله عزَّ وجلّ في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيات ٦ - ٨].

وكان سبب عمارتها أن شدّادَ بن عاد بن إرَم لما سَمِع وصفَ الجنة سوّلتْ له نفسه أن يبنى مثلها. فبنى مدينة بين حَضْرَمَوْتَ وصنعاءَ، طُولها اثنا عشر فرسخًا، وعرضُها مثلُ ذلك. وأحاط بها سورًا ارتفاعه خمسمائة ذراع، غَشَّاه بصفائح الفضة المموّهةِ بالذهب، فلا يُدركه البصر إذا أشرقتْ عليه الشمسُ. وبنى داخلها مائةَ ألف قصر (بعَدَد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفِضَّة، وكذلك جُذُوع سُقُوفها وأعمدتُها. وأجرى في وسطها نهرًا صَفَّح أرضه بالذهب، وجعل على حافتيه أنواعَ الجواهر واليواقيت بدلًا من الحصباء وألقى فيه المسْك والعنبرَ بدلًا من الحَمْأة[١]. وفرّع منه جداول إلى تلك القُصور والمنازل، وغَرَس على شُطوطها من الأوشجار ما كان لزَهَره عَرْفٌ[٢] طيِّبٌ ورائحةٌ ذكِيَّة.

زعموا أنه أقام في بنائها ثلثمائة سنة، فلما تَمَّ بناؤها، زاد في طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكُنَها. فلما أشرف عليها جاءته صَيْحة[٣] من السماء فأهلكَتْه هو وجنوده.

ويروى أن عبد الله بنَ قِلابة خرج في طلب إبل له ندَّتْ[٤] فوقع عليها، فحمل ما قَدَر عليه، فبلغ معاويةَ خبرُه، فاستحضره وسأله فقصَّ عليه قصته. فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار، فقال: هي إرمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك: أحمرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عقِبه خال، يخرج في طلب إبل له ندَّتْ. ثم التفت فرأى ابن قلابة فقال: هذا والله ذاك الرجُلُ.

---

(١) الحمأة: الطين الأسود المنتن.

(٢) العُرف: الرائحة مطلقًا، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.

(٣) الصيحة: العذاب، والمرّة من الصوت القوي.

(٤) ندّت: نفرت وشردت.

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سميت ذات العماد. وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شَديد وشَدّاد، ابني عاد؛ وهو في الباب الخامس من القسم الأوّل، من الفن الخامس في التاريخ، وذلك في السِّفر الحادي عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. والله تعالى أعلم.

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو في الإقليم السادس في آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء.

قال صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» إن الواثق بالله لما رأى في المنام كأنّ السَّدّ الذي بناه ذو القرنين[١] مفتوح، أحضر سَلَّاما الترجمان وقال له: اذهب فانظر إلى هذا السدّ وجئني بخبره وحاله وما هو عليه، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه، عددهم خمسون رجلًا، ووصله بخمسة آلاف دينار، وأعطاه ديتَه[٢] عشرة آلاف درهم، وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألفَ درهم ورزقَ سنة، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد. قال سلام الترجمان: فشَخَصْنا[٣] من سامَرَّا بكتاب الواثق إلى إسحٰق بن إسماعيل صاحب أرمينِيَة بالنظر إلى تنفيذنا من هناك؛ فكتب لنا كتابًا إلى ملك السَّرِير[٤] وأنفذنا إليه. فلما ورَدْنا عليه، أشخَصَنا إلى ملك اللَّان[٥]. فلما وصلنا إليه، أشخَصَنا إلى صاحب فيلان[٦] شاه. فلما وردنا عليه أرسلنا إلى ملك الخزر وهو اختار لنا خمسة أدِلّاء يدُلُّون على الطريق. فسرنا من عنده

---

(١) ذو القرنين: هو «إفريدون» ويقال: إنّه التاسع من ولد «جمشية» من ملوك الفرس، وفي أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السّلام، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضًا وقسّمها بين بنيه ومات. «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٢) الدّية: المال الذي يستحق لأهل القتيل.

(٣) شخص: أي حمل الكتاب شخصيًا، وحل، وخرج.

(٤) السّرير: مملكة واسعة بين اللّان وباب الأبواب، وليس لها إلّا مسلكين: مسلك إلى بلاد الخزر، ومسلك إلى أرمينية، وأهل السّرير نصارى. «معجم البلدان ٣/ ٢١٩».

(٥) اللّان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورون للخَزَر وهم نصارى تجلبُ منهم عبيد أجلاد. «معجم البلدان ٥/ ٨، ٩».

(٦) فيلان شاه: بلدة وولاية قرب باب الأبواب من نواحي الخزر، وهم نصارى ولهم لسان ولغة. «معجم البلدان ٤/ ٢٨٦».

سبعة وعشرين يومًا في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدّة كريهة الرائحة، فشققناها في عشرة أيام. وكنا قد تزوّدنا لقطعها أشياء نشمها خوفًا من أذى روائحها الكريهة. ثم انفصلنا عنها. فسرنا مدّة شهر في بلادٍ خراب قد دَرَست أبنيتُها ولم يبقَ منها إلا رسوم يُستدل بها عليها. فسألنا من معنا عن تلك المُدُن، فأخبرونا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخرِّبونها. ثم سِرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شُعبة السدّ وذلك في ستة أيام. وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية. وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب. فسألونا من أينَ أقبلنا، فأخبرناهم أنّا رُسُل أمير المؤمنين الواثق بالله، فعجِبوا منا ومن قولنا «أمير المؤمنين» ثم سألونا عن أمير المؤمنين: أشيخ هو أم شابٌ؟ فقلنا: شابٌ، فعجبوا أيضًا. ثم قالوا: وأين يكون؟ قلنا: هو بالعراق بمدينة سُرَّ مَنْ رأى. فعجبوا أيضًا من ذلك، وقالوا: ما سمعنا هذا قطُّ. فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومَنْ علَّمه لهم؟ فقالوا: وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العُنق طويلة اليديْن والرجلين، لها في موضع صلبها حَدَبة، (فعلمنا أنهم يصفون الجمل) قالوا: فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه، ثم علَّمَنا شرائع الإسلام فقبلناها، وعلمنا أيضًا القرآن ومعانيَه فتعلمناه وحفِظناه. قال سلام: ثم خرجنا بعد هذا إلى السدّ لنُبْصِره، فسرنا عن المدينة نحوًا من فرسخين، فوصلنا السدّ. فإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعًا، وله في وسط هذا الفِناء باب من حديد طوله خمسون ذراعًا قد اكتنفه عِضادتان[1]، عرض كل عِضادة منهما خمسة وعشرون ذراعًا. والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب. وكله مبنيّ بلَبِن الحديد مغيب بالنُّحاس. وارتفاع العضادتين خمسون ذراعًا، وعلى أعْلى العضادتين دَرَوند حديد[2]، طوله مائة وعشرون ذراعًا. والدَّروَنْد للعتبة العليا، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع. ومن فوق الدَّرَوَنْد بنيانٌ متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مدّ البصر. وفوقه شُرُفات حديد، في طَرَف كل شُرَّافة قرنتان تَنْثَنِي أطراف كل واحدة منهما على الأخرى، وللباب مصراعان مُغْلَقان، عرض كل مِصْراع خمسون ذراعًا في ثِخَن خمسة أذرع؛ وقائمتاهما في دوّارة على قدر الدروند. وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غِلَظ ذراع في الاستدارة؛ وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا. وفوق

(١) العضادتان: مثنّى عضادة، وعضادة الباب: خشبتان منصوبتان مثبتتان في الحائط على جانبيه.

(٢) الدروند: لم أجد ذكرًا له في المعاجم، ولكن يستفاد من سياق الكلام أنه جسرٌ من حديد.

القفل بخمسة أذرع غَلَقٌ[١] طوله أكثر من طول القُفْل، وعلى الغَلَق مِفْتاح طوله ذراع ونصف، وله اثنتا عشرة دنداجة[٢]، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج[٣] الهواوين، مُعلقٌ كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق[٤]. وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين، الظاهر منها خمسة أذرع. وكلها مكتالة بالذراع السواديّ. ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس، مع كل فارس إرزبَّة[٥] حديد، كل إرزبَّة خمسةُ أمنان[٦]. فيضرب القفل بتلك الإرزبَّات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب. فيعلم أنَّ هناك حفظةً، وليعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا في الباب حَدَثًا. وإذا ضرب أصحابُ الإرزبَّات القفل، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب، فيسمعون من ورائه دوِيًا يَدلُّ على أن خلفه بشرًا. وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة فراسخ في عشرة فراسخ. ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع؛ وبين هذين الحصنين عينُ ماء عذبةٌ، في أحد الحصنين آلةُ البناء التي بُنِي بها السدّ من قُدور الحديد ومَغَارف الحديد؛ والقدور فوق دِيكْدَانات[٧] على كل دِيكْدَان أربع قدور مثل قدور الصابون؛ وهناك أيضًا بقايا من لَبِن الحديد التي بني بها السدّ وقد التصق بعضها ببعض من الصدإ، وطول اللَّبِنة ذراع ونصفٌ في ارتفاع شبر.

قال سلام الترجمان: وقد سألْنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رَأَوا أحدًا من يأجوج ومأجوج قطُّ، فأخبرونا أنهم رأَوْا منهم مرّة عددًا فوق شرُفات الردم، فهبَّتْ عليهم ريح عاصفة، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا[٨]. وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفًا.

---

(١) الغلق: ما يغلق به الباب، «المغلاق».

(٢) هذه رواية الإدريسي، والذي في رواية ابن خرداذبة «المسالك والممالك» «دندانكة» وهي كلمة فارسية معناها «سنّ» والمراد أسنان المفتاح.

(٣) الدستج: كلمة فارسية معناها «يد الهاون» أي المدق الذي تدقّ به الأشياء في الهاون.

(٤) الذي في رواية ابن خرداذبة يفيد أنّ المفتاح وحده هو المعلّق في السلسلة وهذا نصّ روايته: معلّق في سلسلة ملجومة بالباب، طولُها ثماني أذرع في استدارة أربعة أشبار، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق، والمنجنيق: آلة من آلات الحصار ترمي الأسوار بحجارة كبيرة فتدكُّها.

(٥) الإرزبّة: المطرقة الكبيرة تكسر بها الحجارة، أو عصيّة من حديد.

(٦) المنّ: كيل أو ميزان بين ١٨٠ مثقالًا و٢٨٠ مثقالًا.

(٧) الديكدان: كلمة فارسية يقابلها عند العرب «الأثافي» حجارة الموقد.

(٨) في رواية ابن خرداذبة: فهبّت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم، وهذا هو المعقول، لأن مقدار=

قال سلام: فكتبت هذه الصفاتِ كلَّها، ثم انصرفنا مع الأدِلَّاء من تلك الحصون، فأخذوا بنا على ناحية خُراسان. فسرنا إلى مدينة بختان، إلى غُرْيان، إلى مدينة برساخان، إلى انطرار، إلى سمرقند، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر[1]، ثم وصلنا إلى الريّ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خَروجنا عنها. فكان مغيبنا في سفرنا ثمانية وعشرين شهرًا.

قال: فهذا جميع ما حدّث به سلام.

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبيّ في تفسيره: إن ارتفاع السدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعًا. قال: وروى في طوله ما بين طرفي الجبل ين مائةُ فرسخ، وفي عرضه خمسون ذِراعًا. نقله عن وهب بن منبه.

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار السدّ وكيفية بنائه وطوله وعرضه، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذي القرنين. فتأمّله هناك، وهو في الباب الأوّل من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا.

ذكر مباني الفُرْس المشهورة

ومباني الفرس كثيرة: قديمة وحديثة.

فمن قديمها «سَدُّ اللَّبِن». بناه قُبَاذ بن فيروز، وقيل إن الذي بناه ابنه كسرى بن قباذ بن فيروز. كذا ورد في التاريخ.

وهذا السدّ من أرض شَرْوانَ إلى بلاد اللّان، وبينهما مائة فرسخ، بين شعاب جبل القَبْق. وهو جبل عظيم قد اشتمل على اثنتين وسبعين أمّة، لكل أمّة لسان وملك، لا يعرف بعضهم بعضًا لكثرة غياضه وأشجاره؛ وفيه عيون وأنهار؛ وتقدير مسافته طولًا وعرضًا نحوُ شهرين.

= قامتهم الذي ذكره، يعني أنّه كان في رأي العين من هذا العلو.

(١) هو عبد الله بن طاهر بن زريق الخزاعي بالولاء، أبو العبّاس، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، ولّاه المأمون خراسان وظهرت كفاءته فألحق به أطراف تلك الناحية ومات في نيسابور وقيل في مرو سنة ٨٤٤ م وللشعراء فيه مدائح ومراثٍ كثيرة. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٣، ٩٤».

ومبدأ السُّور من جوف بحر الخَزَر على مقدار مسافة ميل مارًّا إلى البرّ، ثم يمرّ إلى أن يتصل بقلعة طبر شروان. وهو مبنيّ بالصخر والحديد والرَّصاص. بناه على زِقَاق(١) البقر المنفوخة، فكان كلما ارتفع البناء نزلت تلك الزِّقاقُ إلى أن استقرّتْ في قعر البحر، فغاصتِ الرجالُ بالخناجر فشقُّوها فتمكن البناء. وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور وأقل وأكثر بابًا من الحديد على حسب الطريق التي تجعل من أجله، وبنى عليه حصنًا وأسكن فيه مَنْ يحفظ ذلك الباب ويحرسه.

وزعم المؤرّخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الخَزَر(٢) كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ هَمَذان والموصل، فحجزهم بهذا السور.

ومن مباني الفرس إيوان كسرى

زعم المسعوديّ أن سابُورَذا الأكتاف بناه في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين ذراعًا في ارتفاع مائة ذراع، وطول كل شُرْفة منه خمسة عشر ذراعًا.

ولما ملك المسلمون المداين، أحرق ستر هذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهبًا.

ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن ينقُضَه(٣) ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمَك(٤) في ذلك فنهاه، وقال: «هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذي بناه لا يُزِيل ملكه إلا نبيّ والمؤونة على نقضه أكثر من الارتفاق به». فقال له: «أبيتَ إلا ميلًا إلى العجم» فَهُدِمت منه ثلمةٌ(٥). فبلغت النفقةُ عليها مالًا كثيرًا، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد: «أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدْمه لئلا يتحدّث الناس بعجزك عن هَدْم ما بناه غيرك» فلم يفعل.

---

(١) الزّقاق: الجلد، والزّق: من الجلد، والتزقيق: السّلخ وقال أبو حنيفة: الزقّ هو الذي ينقل فيه. «انظر اللسان مادة زقق».

(٢) الخزر: هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف «بالدّربند» قريب من سدّ ذي القرنين. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٦٧».

(٣) ينقضه: يهدمه.

(٤) هو خالد بن برمك بن جاماس بن يستافس، أبو البرامكة، وزير السّفاح وأبي جعفر المنصور، كان سخيًا عاقلًا سريًا فيه نبل مات سنة ٧٨٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٥».

(٥) الثّلمة: جانبٌ منه فيه تشقق.

وحكى مثل هذه القصة أنها وقعَتْ ليحيىٰ بن خالد مع الرشيد، وهو إذ ذاك في اعتقاله. وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزًا فأراد هَدْمه واستشار يحيىٰ فأشار عليه بمثل هذا.

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرُفاته هُدمت وجُعِلت في أساس سور بغداد.

وقال ابن الأثير[١] في تاريخه إن الإيوان باقٍ إلى الآن. (وكان يوم ذاك في سنة خمس وعشرين وستمائة)، والله أعلم.

ومن المباني القديمة الحَضْر

وكان حِصْنًا حصينًا مبنِيًا بالرُّخام، يسكنه ملوك الضَّيَازن[٢]. وهو بين دَجْلة والفرات، بحيال تكريت.

ويقال إن بانيه الساطِرون[٣]. وذُكِر أن قصر ملكه قائمٌ إلى وقتنا هذا في وسط المدينة، وفي وسطه هيكلٌ مربَّع مبنيّ بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني.

حكى أن سابورَ الجنودِ حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه. واتفق أن بنت ملكه وهي النضرة[٤] بنت الضَّيْزَن حاضت، فأُخْرِجت من القصر إلى رَبَضه لأجل ذلك. فرأت سابورَ، وكان جميل الصورة، فعِشقته. فأرسلت إليه تقول: إن ملَّكْتك الحصن فما تجعل لي؟ قال: حَكَّمتك. قالت: تتزوّجُ بي. فأجابها إلى ذلك، فقالت له: خُذْ حمامة ورقاء[٥] مطوّقةً، فاخْضِب رجليها بدم حيض جاريةٍ بكر زرقاءَ، وأرسِلْها. فإنها تقع على سور البلد فيقع لوقته. وكان ذلك حلّ طِلَّسْم[٦] له. ففعل ذلك، فوقع السُّور ودخل سابور الحصن وقتل ملِكَه وأصحابَه واصطفَى ابنته لنفسه. فلما كانت ليلةُ دخولها عليه، لم تزل متململة قَلِقة طول ليلتها، فالتمس سابورُ ما الذي قلِقَتْ من

(١) هو علي بن محمد، أبو الحسن عزّ الدين بن الأثير الجزري، المؤرّخ الإمام، من العلماء بالنّسب والأدب، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل، من تصانيفه الكامل، وأسد الغابة في معرفة الصحابة توفي سنة ١٢٣٣ م. «فهرس الأعلام ٤/٣٣١».

(٢) الضّيزن: قوم مثل المجوس، يتزوّج الرّجل منهم امرأة أبيه وامرأة ابنه. «اللسان مادة ضزن».

(٣) السّاطرون: أحد ملوك الضّيزن.

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢/٢٦٨ «النضيرة بنت الضّيزن».

(٥) الورقاء: الحمامة يشوب سوادها بياض، والمطوّقة: ذات الطّوق.

(٦) الطلسم: خطوط وأعداد يستعملها السّحرة.

أجله، فإذا ورقةُ آس[١] قد لصِقتْ بعُكْنة[٢] من عُكَنها، فقال لها: ما كان أبُوكِ يغْذُوكِ؟ فقالت: الزُّبد والمُخّ وشُهد أبكار النحل والخمر، فقال لها: أنا أحقُّ منكِ بثأر أبيكِ، ثم أمر رجلًا أن يركب فرسًا جَمُوحًا وأن يربِطَ غدائرها[٣] في ذَنَبه ويركُضَ به. ففعل ذلك، فتقطَّعت.

وهذا الحصن قد اختُلِف في موضعه. فقيل: بحيال تَكْريت بين دَجْلة والفرات. وقيل: بالجزيرة. ويقال إنه كان حاجزًا بين الرُّوم والفُرس، وملكَتْه الزَّبَّاء بنت مليح[٤] واسمها فارعة.

وفيه يقول عديّ بن زيد العِبَاديّ[٥] من قصيدة: [من الخفيف]

وأخو الحَضْر إذ بَنَاه وإذ دِجْـ ـلةُ تُجْبى إليه والخابُورُ[٦]
شادَهُ مَرْمَرًا وكَلَّله كِلْـ ـسًا فللطَّيْر في ذُراه وُكُور[٧]
لم يَهَبْه ريب المنون فباد الْـ ـمُلْك عنه فبابُه مهجُورُ

ومن المباني القديمة القَلِيس

وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح، ملك اليمن بصنعاء. ونقل إليها الرخام المجزَّع[٨] والملوَّن، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بِلْقِيس. وكان أراد أن يرفع بناءها حتَّى يشرِف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعالى وفرّق ملكه، أقفر ما حول هذه الكنيسة، وكثُرت حولها السِّباع والحَشَرات. وبقيت إلى زمن

---

(١) الآس: نبات ذو ثمار كروية بيضاء وسوداء، ورقه عطر، خضرته دائمة يسمّى أيضًا الرّيحان.
(٢) العكنة: ما انطوى من لحم وتثنّى بعضه فوق بعض سُمنًا.
(٣) الغدائر: جمع غديرة، وهي الشعر المضفور من شعر المرأة.
(٤) كذا في الأصل: «بنت فريح» وهي الزّبّاء بنت عمرو بن الظرب بن حسّان بن أذينة بن السّميدع، الملكة المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة، أمّها يونانيّة من ذرّيّة كليوبترا ملكة مصر، كانت غزيرة المعارف بارعة الجمال، تحسن أكثر اللّغات الشائعة في عصرها، وكتبت تاريخًا للشرق، ماتت نحو سنة ٢٨٥ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٤١».
(٥) هو عديّ بن زيد بن حمّاد بن أيّوب، من زيد مناة بن تميم، وكان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف، فثقل لسانه، واحتُمل عنه شيء كثير جدًّا، وعلماؤنا لا يرون شعره حُجّة. «الشعر والشعراء ص ١٣٠».
(٦) الخابور: هو القاع الذي ينبت السّدر، وهو الأرض الرّخوة، وهو هنا اسم لنهر الخابور، وهو نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٣٤».
(٧) الوكور: جمع وكر وهو البيت أو «العش» للطير.
(٨) المجزّع: الذي حكّ بعضه ببعض حتى ابيضّ الموضع المحكوك منه.

السَّفّاح فذُكر له أمرها، فبعث إليها من خَرّبها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلي[١] في «الروض الأنف».

وحكى أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها بابٌ من نحاس طولُه عشرة أذرع وعَرْضه أربعةَ أذرع، يدخل منه إلى بيتٍ طوله ثمانون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، مسقَّف بالساج[٢] المنقوش، مسمَّر بمسامير الذهب والفِضَّة. ثم يُدْخَل من البيت إلى إيوانٍ معقود طوله أربعون ذراعًا، عن يمينه ويساره عُقود مزخْرَفة. ثم يُدخَل من الإيوان إلى قبَّة، ثلاثون ذراعًا في ثلاثين ذراعًا، جُدُرها مموَّهة بالذهب والفضة. وفي صدر القُبَّة مِنْبر من الآبنُوس[٣] المرصَّع بالعاج، المصفَّح بالذهب والفضة. ولما تم بناؤها، خرج رجلٌ من بني كنانة فقعد فيها لَيْلًا (أي أحدث)، فأغضب أبرهةَ ذلك، فحلف ليهدِمنّ الكعبةَ، فخرج بجيشٍ كثيفٍ من الحبشة، فكان من أمره ما قصّه الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: الآيات ٥٠ - ٥٢].

وذُكر لي أن الذي خَرَّبها العباسُ بن الربيع بن عبد الله العامريّ، عامل المنصور على اليمن.

ومن المباني المشهورة قنطرة صَنْجَة

وهي من مباني الروم على نهر عظيم يسمَّى بهذا الاسم. يصُبُّ في الفُرات، لا يمكن خوضه: لأن قراره[٤] رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال. وهو ما بين حِصن منصور وكَيْسوم من ديار بكر.

وهذه القنطرة طاقٌ[٥] واحد، ما بين جُدْرانها مائةُ خَطْوة. وهي مبنية بحجارة مهندَمة، طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع.

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن عبد الله الخثعمي السّهيلي، عالم باللغة والسّير، ضرير، ولد في مالقة وعمي وعمره ١٧ سنة، ونبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه. «فهرس الأعلام ٣/٣١٣».

(٢) السّاج: ضربٌ من الشجر، يعظم ويذهب طولًا وعرضًا وله ورقٌ كبير، وخشبه أسود جيّد.

(٣) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه صلبٌ أسود، ويصنع منه الآثار وغيره.

(٤) القرار: القعر.

(٥) الطاق: ما جعل من الأبنية كالقوس في القناطر والنوافذ.

ومن المباني القديمة مَلْعبا بعلبك

وهما كبير وصغير.

فالكبير، يُحكى أنه من بناء سُلَيمان بن داود عليهما السلام. وهو مبنيٌّ على عَمد شاهقة. وحجارتُه منها ما هو عشرة أذرع وأكثر.

والمَلْعَب الصغير تهدّم أكثره، وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعًا وارتفاعه كذلك. ليس فيه إلا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.

ويقال إنه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى «بعلًا»(١).

ذكر مباني العرب المشهورة

وهي غُمْدان، وحصن تَيْما، والخوَرْنَق، والسَّدِير، والغَرِيَّانِ.

قال الجاحظ: أحبَّت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتنفرِد بالشعر، فبَنَوْا: غُمْدان، وكعبة نَجْران، وحِصن موارِد، والأبْلَقَ الفردَ.

فأما غُمْدان

فكان بصنعاء. زعم بعض المؤرّخين أن بانيه حام بن نوح. وزعم آخرون أن بيوراسب(٢) بناه على اسم الزُّهَرة.

وقال ابن هشام إن الذي أسسه يَعْرُب بن قَحْطان، وأكمله بعده وائلُ بنُ حِمْير بن سبإٍ بن يعرب. وخَرَّبه عثمانُ بن عَفَّان، رضي الله عنه.

وقيل في صفته إنه كان مُرَبَّعًا، أحدُ أركانه مبنيّ بالرخام الأبيض، والثاني بالرُّخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرُّخام الأحمر. وفيه سبعة سُقُوف طِباقًا، ما بين السَّقْف والآخر خمسون ذراعًا. وعلى كل ركن تِمْثالُ أسدٍ من نُحاس، إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُره وخرجت مِنْ فيه، فيسمعُ لها صوت كزَئير الأسد.

---

(١) البعل: الرّب والإله والمالك.

(٢) بيوراسب: من ملوك الطبقة الأولى «القيشداذية في فارس» ويعرف بالدّهّاك، ومعناه: عشر آفات، والعامة تسمّيه الضّحاك، وكان جائرًا ظالمًا، ويقال: إنّه كان قبل الطوفان. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

وقال ابن الكلبيّ: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب «أسلَمْ غُمدانْ، مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوانْ».

ويقال: إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطينَ أن يبنُوا لبِلْقِيسَ أربعة قصور: غُمْدان، وصِرْواح، وبَيْنِين، وسَلْحِين. وكلُّها باليمن.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لا يستقيمُ أمر العرَب ما دام فيها غُمْدانها. وهذا القول هو الذي حضَّ عثمان على هدمه.

ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا، وإنه تلٌ عالٍ مطلٌ على صنعاء.

وأما حصن تَيْماءَ

فهو الأبلَقُ الفَرْد. سمِّي بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيًا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تَيماء(١).

بناه السمَوْءل بن عاديا اليهوديّ. ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام.

وبه تضرب العربُ المَثَل في المَنَعة والحَصَانة. وفيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

طَلَبَ الأبْلَقَ العَقُوقَ فلَمَّا ... لم يَنَلْهُ أراد بَيْضَ الأَنُوقِ(٢)

وقصدت الزَّبَّاءُ هذا الحصن وحِصْنَ ماردٍ فلم تقدر عليهما، فقالت: «تمرّدَ ماردٌ وعَزَّ الأبْلَقُ».

ومارد حصن كان بدُومَة الجَنْدل، مبنيّ بحجارةٍ سود. ويقال إنه أيضًا من بناء السموءل بن عاديا، اليهوديّ.

وأما الخَوَرْنق والسَّدِير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحِيرة، والسَّدِير في برّيةٍ بالقُرْب منها.

---

(١) تيماء: بليد في أطراف الشام، بين الشّام ووادي القرى على طريق حاجّ الشام ودمشق والتيماء: الأرض التي لا ماء فيها. «معجم البلدان ٢/ ٦٧».

(٢) الأبلق: الفحل إذا جاءت أولاده بلقًا، وهو من ذكور الخيل، والعقوق: الحامل، وهذا مثل لما لا يكون «الأبلق العقوق» أي ذكر الخيل لن يكون حاملًا، والأنوق: العقاب أو الرّخمة.

بناهما النعمان بن امرىء القيس، وهو النعمان الأكبر. ويقال في سبب بنائه لهما: إن يَزْدَجُرْد بن سابور[١] كان لا يَعِيش له ولد، فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء. فذُكر له ظَهْرُ الحِيرة. فدفع ابنه بَهْرام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق. فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة. بناه له رجل يسمَّى سِنِمّار.

فلما فرغ من بنائه، عَجِب النُّعمانُ من حسن بنائه وإتقانه، فأمر أن يلقى سِنِمّار من أعلاه حتَّى لا يبنِيَ مثله لأحد. ويقال: إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه، شَكَره على عمله ووَصَله، فقال: لو علمتُ أن الملك يحسن إليّ هذا الإحسان، لبنيتُ له بناء يَدُور مع الشمس كيفما دارت، فقال له النعمان: وإنك لتقدِر على أن تبنِيَ أفضل منه، ولم تبنه؟ فأمر به؛ فطُرِح من أعلاه.

وقيل: بل قال: أنا أعرف فيه حجرًا متى أُخذ من موضعه، تداعى البِناء. فخاف النعمان إن هو لم يُنْصفه في أجرته فعل ذلك، فقتله.

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعمان مع سِنمَّار في المكافأة على الفعل الحَسَن بالقبيح، فيقال: جازاه مُجَازاة سِنِمَّار.

وفيه يقول بعض الشعراء: [من الطويل]

جَـزَانِـي جَـزَاه اللهُ شَـرّ جَـزَائـه ... جَزَاءَ سِنمَّارٍ، وما كانَ ذَا ذَنْبِ
سوى رفعِه البُنيانَ عِشْرينَ حِجَّةً ... يُعَلِّي عليه بالقَرَامِيدِ والسَّكْبِ[٢]

والْخَوْرنق تعريب خُورَنْقاه[٣]، وهو الموضع الذي يؤكَل فيه ويشرَب. والسَّدِير تعريب سادل أي قُبَّة في ثلاثِ قِباب متداخلة.

وفي هذه الأبنية يقول الأسود بن يَعْفُر[٤]: [من الكامل]

مـاذا أُؤَمِّـلُ بَـعْـد آلِ مُـحَـرِّقٍ ... تَـرَكُـوا مـنـازِلَهُـمْ، وبَـعْـدَ إيـاد؟
أهـلِ الْخَـورْنَـقِ والـسَّـدِيـر وبـارِقٍ ... والقَصْرِ ذِي الشُّرُفاتِ من سِنْداد

---

(١) هو يزدجرد بن سابور من أسرة الطبقة الرّابعة الفارسية «الأكاسرة» ويُعرف بالأثيم. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٣».

(٢) عشرين حجّة؛ أي عشرين عامًا، والسّكب: النّحاس أو الرّصاص.

(٣) الأصح: «خانقامه» من هامش الأصل.

(٤) هو الأسود بن يُعفُر، شاعر جاهلي من بني حارثة بن سلمى بن جندل بن نهش بن دارم، ويكنّى أبا الجرّاح، وكان أعمى، ولا عقب له. «الشعر والشعراء ص ١٥٢».

وقال عديّ بن زيد العِبَاديّ: [من الخفيف]

وتَـفَـكَّـرْ رَبُّ الـخـوَرْنـقِ إذْ أشْـ ـرفَ يَـوْمًـا، وَلِلهُـدى تَـفْـكـيـرُ
سَـرّه مُـلْكُـه وكـثْـرةُ مـا يَـحْـ ـوِيه والـبحـرُ مُعْـرِضًـا والسَّـدِيرُ
فـارْعَـوى قلْبُـه، فـقـال: فـمـا غِبْـ ـطة حَيٍّ إلى الـمَمَات يَصِيرُ»[1]

وأما الغَرِيَّانِ

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة.

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنتيْنِ تَغنّيان بين يديه. فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغرِيَّيْنِ.

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسَّانيّ، وكان بينهما وقعة على عين أُبَاغ[2]، وهي من أيام العرب المشهورة. فقُتِل للحارث ولدان، وقُتِل المنذر وانهزمت جيوشه. فأخذ الحارث ولَدَيْه وجعلهما عِدْلين على بعير، وجعل المنذر فوقهما، وقال: «ما العِلَاوة بِدُون العِدْلين!» فذهبت مثلًا. ثم رحل إلى الحيرة فانتهبها وحَرَّقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغَرِيَّين عليهما. حكاه ابن الأثير في تاريخه «الكامل».

وأمر المنصور بهدم أحدهما، لكنز توهَّم أنه تحتهما. فلم يجد شيئًا.

وقيل في سبب بنائهما غير ذلك. والله أعلم.

ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

وهي الأهرام، وحائط العَجُوز، ومَلْعب أُنْصِنا، ومدينة عَيْنِ شَمْس، والبَرابي، وحَنِيَّة اللازَورد، ومنارة الإسكندرية، ورُواق الإسكندرانيِّين.

فأما الأهرام

التي بأرض مصر فهي كثيرة. وأعظمها الهَرَمان اللذان بالجيزة غَرْبيّ مصر. وقد اختلف في بانيهما.

---

(١) ارعوى: كفّ وارتدع، والغبطة: السّرور والسعادة.

(٢) عين أباغ: إن كان عربيًا فهو من بغى يبغي بغيًا، وقال أبو الحسين التميمي النسّابة: وكانت منازل إياد بن نزار بعين أباغ، وأباغ: رجل من العمالقة نزل ذلك الماء فنُسب إليه، وعين أباغ: ليست بعين ماء، وإنّما هو وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشّام. «معجم البلدان ٤/ ١٧٥».

فقال قوم: بانيهما سُورِيد بن سهلوق بن سرناق. بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصَّها على الكَهَنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث في العالم، فأقاموا مراكزها في وقت المسألة. فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض. فأمر حينئذٍ ببناء البَرَابي[١] والأهرام، وصوّر فيها صُور الكواكب ودَرَجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس[٢] وعمل الصنعة.

ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذي يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو إدريس عليه السلام) استدلّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان. فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائفَ العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور[٣].

وكل هَرَم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعًا، يحيط به أربعة سطوح متساوياتُ الأضلاع، كل ضِلَع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعًا، ويرتفع إلى أن يكون سطحُه مقدارَ ستة أذرع في مثلها.

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكَبَّة[٤] فرمته الرياح العواصف.

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعْزَعة الزلازل؛ وطولُ الحجر منه خمسة أذرعٍ في سَمْك ذراعين.

ويقال إن بانِيهما جعل لهما أبوابًا على آزاجٍ[٥] مبنيةٍ بالحجارة في الأرض، طول كل أَزَج منها عشرون ذراعًا. وكل باب من حجر واحد يدور بلولب[٦]، إذا أطبق لم يعلم أَحد أنه باب. فأَزَجُ الشرقيّ منها في ناحية الجنوب، وأَزَجُ الغربيّ في ناحية الغرب. يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة؛ وكلها مُقْفلة بأقفال. وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوّف، إحدى يديه على فيه، وفي جبهته كتابةٌ بالمُسْنَد[٧] إذا قرئت انفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها.

---

(١) البرابي: بيوت حكمة القبط، يجلس فيها الكهنة على كراسٍ من ذهب.
(٢) النواميس: بيوت العبادة والوحي، والنّاموس: الشريعة.
(٣) الدّثور: البلى والفناء.
(٤) المكبّة: ما جمع من الغَزْل، على شكل كرة أو أسطوانة.
(٥) آزاج: مفردها آزج، وهو بناء مستطيل مقوّس السّقف.
(٦) اللولب: أداة من خشب أو حديد ذات محور، منه دوائر حلزونيّة ناتئة أو داخلة.
(٧) المُسند: خطّ لحمير باليمن، مخالف لخطّنا هذا.

والقبط يزعمون أنها والهرمَ الصغير الملوّن قبورٌ: فالهرم الشرقيّ فيه سوريد الملك، وفي الهرم الغربيّ أخوه هوحيت[١].

والصابئة[٢] تزعم أن أحدها قبر أغاثُذِيمُون، والآخر قبر هرمس، والملوّن قبر صاب بن هرمس؛ وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم؛ وهم يحجُّون إليها ويذبحون عندها الدِّيكة والعجول السُّودَ، ويُبَخرون بدُخَن[٣]؛ ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطراب ما يذبحون حالةَ الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية.

وقَصُرت هممُ الملك والخلفاء عن معرفة ما في هذين الهرمين، إلى أن وَلي عبد الله المأمون الخلافةَ وورد مصر، أمر بفتح واحد منها. ففتح بعد عناء طويل، واتفق لسعادته أنه وقع النَّقْب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب، وهو زَلَّاقة[٤] ضيقة من الحجر الصوّان الماتع[٥] الذي لا يعمل فيه الحديد، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد نُقِر في الزَّلَّاقة حُفَر، يتمسك السالك بتلك الحفر، ويستعين بها على المشي في الزَّلَّاقة لئلا يَزْلَق، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر. ويقال إن أسفل البئر أبواب يُدْخَل منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب. وانتهت بهم الزَّلَّاقة إلى موضع مربَّع في وسَطه حوض من حجر صَلْد مغطًّى. فلما كُشِف عنه غطاؤه، لم يوجَدْ فيه إلا رِمّة[٦] بالية. فأمر المأمون بالكف عما سواه.

وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك.

وقال بعض أهل النظر، وقد عاين الأهرام: «كلُّ بناءٍ يُخاف عليه من الدّهر، إلا هذا البناء فإني أخاف على الدّهر منه».

---

(١) كذا بالأصل، وكذلك في خطط المقريزي «وفي معجم البلدان لياقوت ٥/ ٤٠٠» فلمّا مات سويد دفن في الهرم الشرقي، ودفن «هوجيب» في الهرم الغربي.
(٢) الصّابئة: قومٌ يعبدون النجوم يقولون: إنهم على ملّة نوح عليه السّلام.
(٣) الدّخن: نبات عشبي من النّجيليات، حبّه صغير، أملس كحبّ السمسم.
(٤) الزلّاقة: الموضع الذي لا تثبت عليه القدم. (٥) الماتع: الطويل الجيد.
(٦) الرمّة: العظام البالية.

ونظم عمارة اليمنيّ[١] هذا القول، فقال: [من الطويل]

خَلِيلَيَّ، ما تَحْتَ السماءِ بَنِيَّةٌ   تُماثِلُ في إتْقانِها هَرَمَيْ مِصْرِ!
بِناءٌ يَخافُ الدّهرُ منه، وكلُّ ما   على ظاهر الدنيا يَخَاف من الدّهْرِ!
تَنَزَّه طَرْفِي في بَدِيع بنائها   ولم يتَنَزَّهْ في المُراد بها فكْرِي

وقال بعض الشعراء: [من الكامل]

حَسَرتْ عقُولَ ذَوِي النُّهى الأهْرامُ   واستصغرتْ لعظيمها الأعْلامُ[٢]
مُلْسٌ مُنَيَّفَةُ البِناءِ شَواهِقٌ   قَصُرت لعالٍ دُونهنّ سِهامُ![٣]
لم أدْر حين كَبا التفكُّرُ دُونَها   واستَبْهَمَتْ لعَجيبها الأوهامُ[٤]
أقُبُورُ أملاكِ الأعاجم هنّ، أمْ   طِلَّسْمُ رَمْلٍ هُنّ، أم أعلامُ؟[٥]

وقال أبو الطيّب المتنبي: [من الكامل]

أيْنَ الذِي الهَرَمان من بُنْيانِهِ؟   ما قَوْمُه؟ ما يَوْمُه؟ ما المَصْرَعُ؟
تتخَلَّفُ الآثارُ عن أصْحابِها   حِينًا، ويُدْرِكُها الفَناءُ فتَتْبَعُ

وقال أُميّة بن عبد العزيز الأندلسيّ: [من الطويل]

بعَيْشِكَ هلْ أبصَرْتَ أحْسَنَ مَنْظَرًا   على طُولِ ما عايَنْتَ من هَرَمَيْ مِصْرِ؟
أَنافَا بأعْنان السَّماء وأشْرَفَا   على الجوّ إشْرافَ السِّماكِ أو النَّسْرِ[٦]
وقد وافَيَا نَشْزًا من الأرض عالِيًا   كأنَّهما ثَدْيانِ قامَا على صَدْرِ[٧]

وقال آخر: [من الكامل الأحذّ]

أُنظُرْ إلى الهَرَمَيْنِ إذ بَرَزَا   للعَيْنِ في عُلْوٍ وفي صَعَدِ!

---

(١) هو عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي اليمني، أبو محمد، مؤرّخ ثقة، وشاعر فقيه أديب، ولد في تهامة، قدم مصر برسالة من القاسم بن هشام أمير مكة إلى الفائز الفاطمي، فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم ومدحهم مات سنة ١١٧٤ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٣٧».

(٢) النّهى: جمع نهية، وهي العقل، وحسرت: أتعبت.

(٣) المنيفة: المرتفعة. (٤) كبا: تعثّر.

(٥) الطّلّسم: الخطوط والأعداد التي يستعملها السَّحرة.

(٦) أنافا: ارتفعا، والسّماك: نجم منير يكون في الشمال أو الجنوب، والنّسر: مجموعة من النجوم معروفة بمشابهتها للنسر.

(٧) النّشز: المرتفع من الأرض.

وكأنما الأرضُ العريضةُ إذ ... ظَمِئتْ لفَرْط الحَرِّ والْوَمَدِ[١]
حَسَرتْ عن الثَّدْيَيْنِ بارزةً ... تَدْعُو الإلهَ لفُرْقة الوَلَدِ
فأجابها: لَبَّيْكِ! يُوسِعها ... رِيًّا ويَشْفِيها من الكَمَدِ[٢]

وقال ابن الساعاتيّ[٣]: [من الكامل]

ومن العَجائبِ، والعَجائبُ جَمَّةٌ ... دَقَّتْ عن الإكْثارِ والإسْهابِ
هَرَمان قد هَرِمَ الزمانُ وأدبَرتْ ... أيّامُه، وتَزِيدُ حُسْنَ شَبابِ
لِلَّهِ! أَيُّ بَنِيَّةٍ أزليَّةٍ ... تَبْغِي السَّماء بأطولِ الأسْبابِ؟
ولرُبَّما وقفَتْ وُقُوفَ تَبلُّدٍ ... أسَفًا على الأيّام والأحْقابِ
كَتمَتْ عن الأسماع فَصْل خطَابِها ... وغدَتْ تُشِير به إلى الألْباب

وقال سيف الدين بن جُبارة[٤]: [من الكامل]

لله! أيُّ غريبةٍ وعجيبةٍ ... في صَنْعة الأهْرام للألْباب؟
أخفَتْ عن الأسماعِ قِصَّة أهلها ... ونَضَتْ عن الإبْداعِ كلَّ نِقَابِ[٥]
فكأنّما هي كالخيام مُقامةً ... من غير ما عَمَدٍ ولا أَطْنابِ

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزريّ في ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها: بلدٌ أشهَدُ بفضله على البِلاد، ووجدتُه هو المصرَ وما عداه فهو السَّواد. فما رآه راءٍ إلا ملأ عينَه وصدرَه، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدُرْه قَدْره. وبه عجائبُ من الآثار، لا يضْبطها العِيَان ولا الإخبار. فمن ذلك الهَرَمان، اللذان هَرِم الدهرُ وهما

(١) فرط الحرّ: شدّته، والومد: شدّة حرّ اليوم والليل.
(٢) يوسعها: يجود عليها بسعة، والرّيّ: الإرواء، والكمد: الحزن والغمّ.
(٣) هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز، أبو الحسن، شاعر مشهور، خراساني الأصل، ولد ونشأ في دمشق، تعانى الجنديّة وسكن مصر وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٠٨ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٣٠».
(٤) هو علي بن إسماعيل بن إبراهيم بن جبارة الكندي السخاوي، أبو الحسن شرف الدّين، شاعر مصري ولد في سخا، وتوفيّ بالقاهرة، سنة ١٢٣٥ م، وكفّ بصره آخر عمره، له شعر رقيق، وكتاب سمّاه نظم الدرّ في نقد الشعر، انتقد به شعر ابن سناء الملك، وقد نعته المؤلف «بسيف الدين ـ والذي في فهرس الأعلام، مشرف الدين». «فهرس الأعلام ٤/ ٢٦٤».
(٥) نضت: يقال: نضامن الشيء: أخرج منه، والنّقاب: القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها، ونضا الثوب: خلعه.

لا يَهْرَمان؛ قد اختص كل منهما بعظم البِناء، وسَعةِ الفِناء؛ وبلغ من الارتفاع غايةً لا يبلغها الطيرُ على بُعْد تحليقه، ولا يُدرِكها الطَّرْف على مدّة تحديقه؛ فإذا أُضْرِم برأسه قَبَسٌ[١] ظنه المتأمل نَجْمًا، وإذا استدارت عليه قوسُ السماء كان لها سَهْمًا».

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامّة «أبو الهول» لعظمه. والقبط يزعمون أنه طِلَّسم للرمل الذي هناك، لئلا يغلب على أرض الجيزة.

وأما حائط العجوز

والعجوز هي دَلُوكا ملكة مصر.

وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهي حدّ مصر من جهة النوبة)، شاملًا للديار المصرية من الجانب الشرقيّ.

وزعمت القبط أنّ سبب بنائها أن الله عزَّ وجلّ لما أغرق فرعونَ وقومه، خافت دَلُوكا على مصر أن يطمع الملوكُ فيها. فبنته، وزوّجت النساءَ بالعبيد حتَّى يكثر النَّسل والذرّية.

وقيل في سبب بنائه: إن دَلُوكا ولدت ولدًا فأخذت لمولده رصدًا[٢]، فرأت أن التمساح يقْتُله، فبنت هذا الحائط وقايةً له من التِّمساح. فلما شبّ الغلام رأى في مولده ذلك، فأحب أن يراه. فصُوِّر له من خشب. فلما رآه، هاله منْظَرُه واستولى على نفسه الوهم والفزع، فمات[٣].

وأما ملعب أنْصِنا

فإنه كان مقياسًا للنيل.

ويقال: إنه من بناء دَلُوكا. وكان بناؤه كالطَّيْلسان[٤]، وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر الماتع، بين العمود والعمود خَطْوة. وكان النيل يدخل إليه من فُوهَةٍ فيه عند زيادة النيل. فإذا بلغ الحدّ الذي يحصُل به الرِّيّ، جلس الملك في

(١) القبس: النار، أو شعله.
(٢) الرّصد: اسم لموضع تعيّن فيه حركات الكواكب.
(٣) انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ١/٢٣٩، حيث لم يرضَ بذكر هذه الخرافة في كتابه.
(٤) الطيلسان: معرّب فارسي، وأصله «تالشان» والطيلسان: كساء أخضر لا تفصيل له ولا خياطة.

مُشْترف له، ويصعد قوم إلى رؤوس الأعمدة فيتعادَوْن[١] عليها ما بين ذاهب وآت. فمن زلَّت به قدمه منهم، سقط إلى البِرْكة.

وأما مدينة عين شمس

فهي من المباني التي دَرَسَتْ.

وكانت مصرَ فرعونِ موسى، ومنها خرج بجنوده في طلب موسى وبني إسرائيل؛ وكانت عدّتهم ستمائة ألف، ليس فيهم ابن عشرين سنة ولا ابن ستين سنة واستقلَّ فرعون هذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٥٤]. وكان بها هيكل الشمس فخرِب.

والفُرس تزعم أن هرسيك بناها.

ويقال: إنه كان قد بقي منها عمودان من حجر صلد، فَلَكاتُ[٢] طولِ كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعًا، على رأس كل عمود صورةُ إنسان على دابة، وعلى رأسيهما شبهُ الصومعتين[٣] من نحاس. فإذا كان (النِّيْلُ)، قَطَر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركّب عليه. والموضع الذي يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبًا.

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة.

وأما البرابي

وهي بيوت حكمة القبط. ويقال: إنه كان لكل كُورة من كُوَر مصر بِرْباةٌ، يجلس فيها كاهن على كرسيّ من ذهب.

ومن أعجب البرابي وأعظمها (برباةُ إخميم). وهي مبنية بحجر المَرْمر[٤]، طول كل حجر خمسة أذرع في سَمك ذراعين. وهي سبعة دهاليز، سقوفها حجارة، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعًا في عرض خمسة أذرع، مدهونة باللازَورد[٥] وسائر

(١) يتعادون: من العدو، وهو الجري.
(٢) الفلكة: القطعة المستديرة ترتفع عمّا حولها.
(٣) الصومعة: مكان منفرد يسكنه الزّاهد أو المتعبّد ابتعادًا عن الناس وشؤون الدنيا.
(٤) المرمر: نوعٌ من الرّخام شديد الصّلابة والصّفاء.
(٥) اللّازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سمٰوي أو بنفسجي.

الأصباغ، يخالها الناظر إليها كأنما فَرغ الدّهّان منها. يقال إن كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة. وجُدْران هذه الدهاليز منقوشة بصُوَر مختلفة الهيئات والمقادير، يقال إنها رموز على علوم القبط، وهي: الكيمياء، والسِّيمياء[١]، والطِّلَّسْمَات، والطب. أودعوها هذه الصور.

ويقال إن ذا النون المصريَّ[٢] العابد فكَّ منها علم الكيمياء.

وأما حَنِيَّة اللازورد

وهي بأرض مَنْف. ومَنْف هذه هي التي تسمَّى مصر القديمة.

يقال إن عَقْد الحَنِيَّة أحسنُ من عَقْد قنطرة صَنْجةَ التي تقدّم ذكرها. والحَنِيَّة معقودة من حجارة مهندمة، طولُ كل حجر منها أكثر من خمسةَ عشرَ ذراعًا. وفيها نقوش وكتابة وطِلَّسْمَات مموّهة باللّازورد. وهي من الشرق إلى الغرب، وفي صدرها فَضَاء فيه بناء مرتفع، عليه بَلَاطةٌ من الصوّان الأسود، مكتوب فيها بالقلب البِرْباوي[٣] ثلاثون سطرًا. يقال إنه قبر الذي بنى الحَنِيَّة، وأنه دِيساره: ملك كان بمصر، حكيمٌ.

وللقبط عيد يسمَّى ديساره: وهو عيد هذا الملك، ويسمَّى عيد العنب.

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مضَبَّبة[٤] بالرصاص، على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان[٥] من نحاس. وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضُها فوق بعض، تصعَدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها. وللبيوت طاقات يُنْظر منها إلى البحر.

وبين أهلِ التاريخ خلافٌ فيمَن بناها.

---

(١) السِّيماء: نوع من السّحر.

(٢) ذو النون المصري: هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، أحد رجال الطريقة، اشتهر بالزهد والعبادة والحكمة، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك. «وفيات الأعيان ١/ ٣١٥».

(٣) البرباوي: نسبة إلى «بربا» التي جمعها برابي، وهي مواضع للعبادة صنعتها ملكة مصر دلوكة، وقد بنته بحجارة في وسط مدينة منف وجعلت له أربعة أبواب إلى أربع جهات، وصوّرت فيه الخيل والبغال والسّفن والرّجال، وبعض الكتابات. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٣٥٥».

(٤) المضبّبة: الملبّسة.

(٥) السّرطان: حيوان بحري من القشريات العشريّات الأرجل.

فزعم بعضُهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبّس المَقْدونيّ. وزعم آخرون أنها من بناء دَلُوكا، ملكة مصر. ويقال إن على جانبها الشرقيّ كتابةً، وإنها نقلت إلى اللسان العربيّ فوجدت «بنَتْ هذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب».

ويقال: إن طولها كان ألف ذراع.

وكان في أعلاها تماثيل من نحاس.

منها تِمْثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس: أينما كانت من الفلك، يدور معها حيثما دارت.

ومنها تِمْثال وجهه في البحر متى صار العدوّ منهم على نحو من ليلة، سُمِعَ له صوت هائل يعْلَم به أهل المدينة طُروقَ[١] العدوّ.

ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة، صوّت صوتًا مطربًا.

ويقال: إنه كان بأعلاها مرآة تُرى منها قُسْطنطينِيَّة، وبينهما عرض البحر. وكلما جهز الروم جيشًا رؤي في المِرْآة.

وحكى المسعوديّ في «مروج الذهب» أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية، وأنها تعدّ من بناء العالَم العجيب، بناها بعض البَطَالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر، لِمَا كان بينهم وبين الروم من الحروب في البرّ والبحر. فجعلوا هذه المنارة مَرْقَبا، وجعلوا في أعلاها مِرْآة من الأحجار المُشِفَّة[٢]، تشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومِيَة على مسافة تعجِز الأبصار عن إدراكها.

ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون، فاحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَواصّه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام. فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام، وأخرج كنوزًا ودفائن كانت في الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدّعيه. ثم قال له: إن تحت المنارة أموالًا ودفائنَ وأسلحة، دفنها الإسكندر. فصدّقه وجَهَّزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية، فهدم ثلث المنارة وأزال المِرْآة، ثم فطن الناس أنها مكيدة، فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدّةً له. ثم بُنِي ما هُدِم بالجِصّ[٣] والآجُرّ.

(١) الطّروق: أي هجوم العدوّ عليهم وإتيانهم ليلًا.
(٢) المشفّة: التي تحجب ما وراءها.
(٣) الجصّ: الكلس، أو ماد ترابية تتخذ من حجر يحرق، والآجر: الفخّار.

ثم قال المسعوديّ: وطول المنارة في هذا الوقت (يعني الوقت الذي وضع فيه كتابه، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعًا. وكان طولها قديمًا نحوًا من أربعمائة ذراع.

وهي في عصرنا هذا ثلاثة أشكال: فمنها تقدير الثلث مربع مبنيّ بالحجارة، ثم بعد ذلك بناء مُثَمَّنُ الشكل بالآجُرّ والجِص نحو ستين ذراعًا، وأعلاها مدوّر الشكل.

ويقال إن أحمد بن طولون[1] بنى في أعلاها قبة من الخشب فهَدمتْها الرياح. فبنى في مكانها مسجدًا في الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى. ثم هُدِم في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة بسبب الزَّلْزلة الحادثة. ثم بنى في شهور سنة ثلاث وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور، ثبت الله دولته، وكان المندوب لذلك الأميرَ ركنَ الدين بيبرس الدَّوَادار المنصوريّ، نائب السلطنة الشريفة في الغيبة.

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية.

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدرويّ: [من الطويل]

وساميةِ الأرجاءِ تُهدي أخا السُّرى ... ضياءً، إذا ما حِنْدِسُ الليلِ أظْلَما[2]

لبِسْتُ لها بُرْدًا من الأُنْسِ ضافيًا ... فكانَ بتَذْكار الأحِبَّةِ مُعْلَمَا[3]

وقد ظلَلْتنِي من ذُرَاها بقُبَّةٍ ... أُلاحِظُ فيها من صِحَابِيَ أنْجُما

فخُيِّلْتُ أنَّ البحْرَ تحْتِي غمامَةٌ ... وأنِّيَ قد خَيَّمْتُ في كَبِدِ السَّما!

وقال أبو الفتح الأغرّ بن قلاقس[4]: [من البسيط]

ومَنْزِلٍ جاوَزَ الجَوْزاءَ مُرْتَقِيا ... كأنّما فيه للنَّسْرَيْن أوْكارُ

---

(١) هو أحمد بن طولون أبو العبّاس، صاحب الدّيار المصريّة والشامية، تركي مستعرب، كان شجاعًا جوادًا حسن السّيرة، وقد بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة، توفي سنة ٨٨٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٤٠».

(٢) السُّرى: المسير ليلًا، والحندس: شدة الظلام.

(٣) الضافي: الفضفاض، والمُعلم: المتزيّن، وقدح معلم: أي فيه علامة، والعلامة: السّمة، والمعلم: ما جعل علامة وعلمًا للطرق. «اللّسان مادة علم».

(٤) هو أبو الفتوح نصر بن عبد الله بن قلاقس الإسكندري الأزهري، شاعر مجيد، رحل إلى اليمن، ومدح بعض رجالها، وعاد بثروة فانكسر المركب فغرق ما كان معه بالقرب من دهلك، فعاد إلى اليمن ثم انتقل إلى صقلية وتوفي بعيذاب على شاطىء البحر الأحمر من بلاد مصر سنة ٥٦٧ هـ وقلاقِس: جمع قلقاس، وهو النّبات المعروف. «إعجام الأعلام ص ٣٤».

راسِي القَرَارةِ سامِي الفَرْعِ في يَدِه   لِلنُّور والنُّون أخْبَارٌ وأخْيارُ[(١)]
أطلَقْتُ فيه عِنَانَ القولِ فاطَّرَدَتْ   خيلٌ لها في بَدِيع الشِّعْرِ مِضْمارُ[(٢)]

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو مَلْعَب كان بالإسكندرية.

كانوا حكماءَ يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئًا دون الآخر، ووجهُ كل واحد منهم ـ وإن اختلفت جهاتُهم ـ تلقاء وجه الآخَرِ. وإن عمل أحد منهم شيئًا أو تكلم، سمعه الآخَرُ. ونظرُ القريبِ والبعيدِ فيه سواءٌ.

وقد بقيت منه بقايا عَمَد تكسرت، غير عمود منها يسمَّى عمود السَّواري في غاية الطول والغلظ من الحجر الصوّان الأحمر.

ذكر شيء من عجائب المباني

قال صاحب كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر»:

ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب، أن الفرس تزعم أن أوشهنج بني بأرض بابل سبع مدائن، جعل في كل مدينة منها أعجوبة ليست في الأخرى.

فكان في الأولى ـ التي يكون فيها الملك ـ مثالُ أنهار الدنيا كلِّها. فإذا التوى[(٣)] عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم[(٤)]، خَرَّج نهرًا من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فغَرِقوا. فإذا أدَّوُا الخراجَ، سدّ عليهم من عنده فانسدّ عنهم.

وفي الثانية حوض. فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب، أتى من أحبَّ منهم بشراب له خاص فيصبه في الحوض. يفعل ذلك كل إنسان منهم، فيختلط الجميع. ثم تقوم السُّقاة فتأخذ الأواني ويُسْقى كلُّ واحد من شرابه الذي جاء به.

وفي الثالثة طبل. فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره، أحيٌّ هو أو ميت، ضربوا الطبلَ: فإن كان حيًّا صوّت، وإن كان ميتًا لم يصوّت.

---

(١) النّون: الحوت، وأخيار: هكذا في الأصل، وفي مسالك الأبصار: إخبارٌ وأخبار.
(٢) المضمار: المكان تضمر فيه الخيل أو تتسابق.
(٣) التوى: خالف.
(٤) الخراج: ضريبة على الأرض وأهل الذّمة وغير ذلك.

وفي الرابعة المِرْآة. فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حالَه، نظروا في المرْآة فرأَوْه في الحالة التي هو عليها.

وفي الخامسة إوَزَّةُ نُحاسٍ. فإذا دخل المدينة غريب، صَفَّرت. فيعلمون أن غريبًا دخلها.

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء. فيجيء المُحِقُّ والمُبْطِل ليجلسا معهما. فيجلس المحق، ويرسب المبطل.

وفي السابعة شجرة. لا تظل إلا ساقها. فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف. فإن زاد على الألف واحد، قعدوا كلهم في الشمس.

وكنتُ قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها، فرأيت ابن الجوزيّ وضعها في كتابه الذي سماه «سلوة الأحزان» فأوردتُها.

وحكي أنه كان بمدينة قَيْسَارِيَّة(١) ـ لما كانت في أيدي الروم ـ كنيسةٌ بها مِرْآة. إذا اتهم الرجلُ امرأته بزنًا، نظر في تلك المرآة، فيرى وجه المتَّهَم فيها. وأن بعض الناس اتُّهم فرأوه فيها فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرآة حَمِيَّةً فكسروها.

وحكى الواقديّ(٢) في فتوح السند: أن عبد الله العبديّ عامل معاوية على السند غزا بلد القِيقَان(٣)، فأصاب منهم غنائمَ كثيرةً، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هَدايَا كان فيها قطعة من مِرْآة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام، لما كَثُر ولده وانتشروا في الأرض، فكان ينظر فيها فيرى من بَعُدَ منهم على الحالة التي هو عليها من خير أو شر، فحملها عبد الله إلى معاوية،

---

(١) قيسارية: بلدة على ساحل الشّام تعدّ في أعمال فلسطين، وكانت قديمًا من أعيان أمّهات المدن، واسعة الرّقعة طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، وأمّا الآن فليس كذلك، وهي بالقرى أشبه منها بالمدن وقيسارية أيضًا مدينة كبيرة وعظيمة في بلاد الرّوم، وهي كرسيّ مُلك بني سلجوق ملوك الرّوم أولاد قليج أرسلان. «معجم البلدان ٤/ ٤٢١».

(٢) الواقدي: هو محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي الولاء، أبو عبد الله، من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، ولد بالمدينة، وكان يبيع الحنطة، انتقل إلى بغداد أيام الرّشيد واتصل بخالد البرمكي فأكرمه، توفي سنة ٨٢٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٣١١».

(٣) قيقان: بلاد قرب طبرستان، والقيقان: من بلاد السّند ممّا يلي خراسان غزاها المهلّب بن أبي صفرة سنة ٤٤ هـ، وولّى عبد الله بن عامر عليها عبد الله بن سوار العبدي زمن معاوية سنة ٤٥ هـ. «معجم البلدان ٤/ ٤٢١، ٤٢٢».

فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بني العباس، فضاعت فيما فُقِد من الذخائر[١].

وقيل: إن بِنَهَاوَنْد[٢] حجرًا يسمَّى الكيلان، بالقرب منه صخرة، من أراد أن يتعرّف حال غائب أو آبق[٣] أو سارق، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها، فيرى في النوم حال ما تَعَرف به على ما هو عليه. وعجائب المباني كثيرة، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة في أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، فتأمّله هناك تجده.

الباب الرابع
من القسم الخامس من الفن الأوّل
فيما وصفت به المعاقل والحصون

وهذا الباب قد ترجمتُ عليه في الفن الثاني الذي يلي هذا الفن فيما يحتاج إليه الملك. وإنما ضممتُه إلى هذا الفن لمناسبته له وشَبَهه به، واستثنيته من الفن الثاني واقتصرت فيه على مجرّد الترجمة. وبالله التوفيق.

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتاب والبلغاء القولَ في هذا المعنى وتواردُوا فيه، فاقتصرنا على ما نورده من ذلك، وهو قليل من كثير.

فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار:

«. . . وهذه القلعةُ التي انتهينا إلى قرارها[٤]، واستولَيْنا على أقطارها؛ أرحبُ المدن أمدًا[٥] للعيون، وأخصبها بَلَدًا إذا أَمْحلَتِ السِّنون؛ فُرُوعها فوق الثُّريَّا شامخة، وعروقها تحت الثَّرى راسخة؛ تباهي بأزهارها نجوم السماء، وتُناجي بأسرارها أُذُنَ الجوزاء؛ وكانت في الزمن الغابر، عتَتْ على عظيم القياصر؛ فنازلَهَا بأكثَرَ من النجوم

(١) بهامش الأصل ما نصّه: «قد ذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه أن هذه المرآة كانت عند أبي جعفر المنصور، فالله أعلم أين صارت بعده».

(٢) نهاوند: هي مدينة عظيمة في قبلة همذان، ويقال: إنها من بناء نوح عليه السّلام. «معجم البلدان ٥/ ٣١٣».

(٣) الآبق: الهارب.

(٤) القرار: أي امتلاكها والسّكن فيها، وصار الأمر إلى قراره: أي انتهى وثبت.

(٥) الأمد: الغاية والنهاية.

عددًا، وطاولها بأوفى من البحر مَدَدًا[١]؛ فأبتْ على طاعته كلَّ الإباء، واستعصَتْ على مقارعته أشدَّ استعصاء، ومَرَدت[٢] مرود ماردٍ على الزَّباء؛ فأمكننا الله من ذِرْوتها، وأنزل رُكَّابَها لنا عن صهْوتها».

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني رحمه الله، يصف آمِدَ[٣] من رسالة جاء منها:

« . . .وآمدُ ذِكْرها بين العالَم متعالَم، وطالما صادَمَ جانبُها مَنْ تَقَادَم، فرجع عنها مَقْدوعًا[٤] أنفُه وإن كان فحلًا، وفرّ عَنها فَريدًا بهمّه وإن استصحب خيلًا ورَجْلًا؛ ورأى حجرها فقدّر أنه لا يُفَكُّ له حَجْر، وسوادَها فظنّ أنه لا ينْسَخه فَجْر، وحَمِيَّة أنْف أُنفَتِها فاعتقد أنه لا يستجِيبُ لزَجْر؛ من ملوك كلهم قد طوى صدْرَه على الغليل[٥] إلى مَوْرِدها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يفُزْ بما أمَّل من سؤال مَعْهَدها».

وقال من أخرى يصفها:

« . . .وهي العقيلة[٦] التي صَدْرُ الصُّدورِ الأوَّلِ مُحَلَّأُ[٧] عن وِرْدها، والطريدة التي حصل منها على راحة يأسه وتعب طَرْدها؛ والمحجَّبةُ التي كُشِفتْ ستورُها، ودار لعِصْمتها كِسوار مِعْصَمِها سُورُها، وغلَتْ على أنها السوداء على خُطَّابها لأن المُهَج مُهورُها؛ ولربما نأى بجانبها الإعراض[٨]، ونبا جوهرُها عن الأَعْراض[٩]. وطاشَتْ دون أو صافها سِهَام الأغراض؛ ودَرَجتِ الملوك على حَسْرتها فلم تَحْسُر لها لِثَامًا، وما استطاعت لثغرها ثَلْمًا ولا له الْتِثامًا».

وقال من أخرى يصف قلعة نَجْم، وهي من عيون الرسائل، جاء منها:

---

(١) المدد: كثرة العدد، وهو يمدّ به الجيش لتقويته وإعانته، من الجند والعتاد.

(٢) مردت: طغت وجاوزت الحدّ.

(٣) آمد: هي مدينة في ديار بكر، من الجزيرة، وهي مدينة أزليّة على الدّجلة، قال ابن حوقل: عليها سورٌ في غاية الحصانة، مبني من الحجارة السّود. «صبح الأعشى ٤/ ٣٢٧».

(٤) مقدُوعًا: يقال: «قُدِع» الفحل: أي ضرب أنفه بشيء ليرتدّ.

(٥) الغليل: الحقد والغيظ.

(٦) العقيلة: سيّدة القوم، أو السّيّدة المخدّرة.

(٧) المحلَّأ: المحبوس، وحلّأه عن ورود الماء: حبسه ومنعه.

(٨) الإعراض: الصدّ والامتناع.

(٩) نبا: ابتعد وتجافى، والأعراض: الزائل الذي لا يدوم، وهو من كلّ شيء ما ليس جوهرًا ثابتًا، وفي الكلام جناسٌ تام بين «الإعراض» و«الأعراض».

«... هي نَجم في سَحَاب، وعُقَاب في عِقَاب؛ وهامةٌ[١] لها الغمامة عِمَامه، وأنملة[٢] إذا خَضَبها الأصِيلُ كان الهلال لها قُلَامه؛ عاقدةٌ حُبْوةً[٣] صَالَحها الدهْرُ أن لا يَحُلّها بقَرْعه[٤]، بادية عصمة صافحها الزمن على أن لا يروِّعها بخُلْعه[٥]؛ فاكتنفَتْ بها عقاربُ منجنيقات لم تُطْبع طَبْع حِمْصَ في العقارب، وضربتها بحجارة أظهرتْ فيها العَدَاوة المعلومة في الأقارب؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثَّرتْ فيها الحجارةُ جُدَرِيًّا يضربها، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحرُ مؤذِن بنَقْبها؛ فاتسعَ الخرقُ على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع؛ وفُتحت الأبراج فكانت أبوابًا؛ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: الآية ٢٠].

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس، جاء منها:

«... زاوَلَ[٦] المدينةَ من جانب فإذا هو أودِيَةٌ عميقة؛ ولُجَجُ وَعْرٍ غريقة؛ وسور قد انعطف عَطْفَ السِّوار، وأَبْرِجة قد نَزلت مكانَ الواسطةِ من عُقْد الدار؛ وقدّم المَنْجنِيقات التي تتولّى عِقابَ الحصون عِصيُّها وحبَالُها، وأوتر لهم قِسِيَّها[٧] التي تَضْرب ولا تفارق سهامَها ولا سهامَها نِصالُها؛ فصافَحت السُّور فإذا سهامُها في ثَنَايا شُرُفاتها سِوَاك[٨]، وقدَّم النصر بشرى من المجنيق تُخْلِد إخلاده إلى الأرض وتعلو عُلُوّه إلى السِّماك[٩]؛ فشَجَّ مَرَابع أبراجها، وأسمَعَ صوتَ عجيجها[١٠]، ورفع مَثَار عَجَاجِها[١١]؛ وأسفَرَ النُّقَّاب عن الخَرَاب النِّقَاب، وأعاد الحجرَ إلى خِلْقته الأولى من التُّراب؛ ومَضَغ سَرْد حجارته بأنيابِ مِغوله[١٢]، وأظهر من صناعته الكثيفةِ ما يدلُّ على لَطَافة أنمله، وأسمع الصخرةَ الشريفة أَنِينَه إلى أن كادت ترقّ لمقتله».

---

(١) الهامة: الرأس أو أعلى الشيء. (٢) الأنملة: عقد الأصابع أو سلاماها.
(٣) الحبوة: ما يحتبى به من ثوب وغيره.
(٤) القرع: الدقّ والنقر، وقرع الباب: دقه ونقر عليه، وقرعه الدّهر: رماه بما لا يحبّ.
(٥) الخلعه: الطّلاق. (٦) زاول: باشر.
(٧) أوتر: أي شدّ أوتار القوس استعدادًا للرّمي، والقسي: مفردها قوس: وهو آلة على هيئة هلال ترمى به السّهام.
(٨) السّواك: عودٌ يُستاك به وتخلّل به الأسنان.
(٩) السّماك: نجم نيّر يكون في السّماء إلى ناحتي الشّمال والجنوب.
(١٠) العجيج: الصياح والجلبة. (١١) العجاج: الغبار.
(١٢) المغول: حديدة تجعل في السّوط فيكون لها غلافًا، أو هو سيفٌ دقيق له حدّ ماضٍ، والمغول: ما يهلك به الشيء.

وقال أيضًا من أخرى:

«... فنصبْنا عليها المَنْجَنِيقاتِ تمطر سماؤُها نَبْلَ الوَبَال[١]، وتملأ أرضَها بالنِّكاية والنَّكال، وتهدّ بسارِيَات[٢] حجارتها راسِياتِ[٣] الجبال؛ وتُنْزِل نوازلَ الأسْواء بالأسوار، وتُوسِع مجالَ الدَّوائر[٤] في الدِّيار، وتَخْطَف بخُطَّافاتها أعمارَ الأعْمار؛ وتُطِير حمَامَها بكُتُب الحِمام، وتديم إغراء سِهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام؛ وكشَفَ النَّقابون نِقابَ السُّور المحجوج المحجوب، فتهدّم بنيانُه، وتداعت أركانه، بتظاهر المجنيقات عليها والنُّقوب».

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال:

«فسَلَّمتْ كأنَّها بَنَان، ونضْنَضَت[٥] كأنها لسان، وأطَّت[٦] كأنها مِرْنان[٧]، واهتزَّتْ كأنها جانّ، وتقوّمت كأنها سِنَان، وانعطفَتْ كأنها عِنَان، وأقدمت كأنها شُجَاع وأحجمت كأنها جبان، ورمَتْ رؤوسَهم الموقَّرة[٨] من أحجارها بأمثال الرؤوس المحلّقة، فأعادَتْهم إلى الخلقة الأولى «مخلَّقةٍ[٩] وغيرَ مَخلَّقة».

ووصف النامي[١٠] المنجنيق فقال: [من الطويل]

وحِصْنِ زيادٍ غُدوةَ السَّبْت نافثًا ... سِمَاما، أَراكَ ابْنَ الأراقِم أرقَمَا[١١]

نصبْتُ له في الأرضِ بِنت حَدَيقةٍ ... تَمُدُّ لها في الجوّ كَفًّا ومِعْصَما

لـهـا أخَـواتٌ لـلمَـنَـايَـا كَـوَامِـنٌ ... وإنْ لـم يكـن ما أضمَرَتْه مُكَتَّما

---

(١) الوبال: سوء العاقبة.

(٢) الساريات: يريد الحجارة التي انهمرت كماء السّحاب.

(٣) والراسيات: مفردها راسية، وهي الثابتة التي لا تبرح مكانها ولا يطاق تحويلها.

(٤) الدّوائر: يريد صروف الدّهر وتقلباته من الحسن إلى السّيىء.

(٥) نضنضت: تحرّكت. (٦) أطّت: صوّتت.

(٧) المرنان: القوس المصوّت.

(٨) الموقّرة: أي الثقيلة، والوقر: الحمل الثقيل، ووقرت الأذن: ثقل سمعها أو صُمّت.

(٩) المخلّقة: أي مخلوقة، وهنا يشير إلى الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: الآية ٥].

(١٠) النّامي: هو أبو العبّاس أحمد بن محمّد الدارمي المصيصي، الشاعر المشهور، كان رقيق الشعر، اتصل بسيف الدولة، وحظي عنده، وله ديوان شعر، مات في حلب سنة ١٠٠٩ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٠، ووفيات الأعيان ١/ ١٢٥».

(١١) الأرقم: ذكر الحيّات أو أخبثها.

عَذارى، ولكن قد وُجِدْن حوامِلًا ... بـعُـرْسٍ تَـراه لـلجَـنـادِل مَـأْتَـمـا[١]
ترى الصَّخْر فيه الصَّخْرُ وهو نَسِيبه ... عَـدُوًّا بـيـوم أرضُـه تُـمْـطِـر الـسَّـمـا
إذا أقْعدَتْ جُذْرًا قيامًا، رأيتَها ... تُـنَـبِّـه قِـيـعـانًـا مـن الـتُّـرب نُـوَّمـا!

ومما وصفت به المعاقل والحصون نظمًا.

فمن ذلك قول كعب الأشقري[٢]، يصف قلعة: [من الطويل]

مُـحَـلِّـقَـةٌ دُونَ الـسَّـمـاء كـأنَّـهـا ... غمامةُ صَيْفٍ زالَ عنها سَحَابُها
ولا يَبْلُغُ الأَرْوى شماريخَهَا العُلى ... ولا الطَّيْرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها[٣]
ولا خُوِّفَتْ بالذِّئْبِ وِلْدانُ أهْلِها ... ولا نَـبـحَـتْ إلا الـنُّـجُـومَ كِـلَابُـهـا

وقال أبو تمام، يصف عَمُّورية[٤]: [من البسيط]

وبَـرْزَةُ الـوجـه قـد أعـيَـتْ رِيـاضَـتُـهـا ... كِسرى وصَدّت صُدُودًا عن أبي كَرِب[٥]
بِـكْـرٌ، فـمـا افْـتَـرعَـتْـهـا كَـفُّ حـادثـةٍ ... ولا تَـرقَّـتْ إلـيـهـا هِـمَّـةُ الـنُّـوَبِ[٦]
مـن عَـهْـد إسـكَـنْـدرٍ أو قَـبْـل ذاكَ، فـقـد ... شابَتْ نَواصِي اللَّيالي وهي لم تَشِب![٧]

وقال الخالديان[٨]: [من الطويل]

وخَلْقاءَ قد تاهَتْ على من يَرُومُها ... بمَرْقَبِها العالي وجانِبِها الصَّعبِ[٩]
يَـزُرُّ عـلـيـهـا الـجَـوُّ جَـيْـبَ غَـمَـامِـه ... ويُـلْـبِـسُـهـا عِـقْـدًا بـأنْـجُـمِـهِ الـشُّـهْـبِ

---

(١) الجنادل: الصّخور.
(٢) هو كعب بن معدان الأشقري، أبو مالك، فارس شاعر خطيب، من شعراء خراسان. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٩».
(٣) الأروى: مفردها الأروية، تقع على الذكر والأنثى من الوعل.
(٤) عمّورية: بلد في بلاد الرّوم غزاه المعتصم، قيل: سمّيت بعمورية بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام. «معجم البلدان ٤/ ١٥٨».
(٥) البرزة: الحسنة الوجه الجميلة، وكسرى ملك فارسي «كسرى أنوشروان» وأبو كرب: ملك يمني، وأبو كُرب: هو النعمان بن الحارث الغسّاني.
(٦) افترعتها: افتضّت بكارتها، وترقّت: سمت.
(٧) الإسكندر: هو الإسكندر المقدوني، والنّواصي: شعر مقدّم الرأس، مفردها ناصية.
(٨) الخالديان: هما أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان، كانا يشتركان معًا في نظم الشعر ويفترقان ولا يكادا في الحضر والسّفر يفترقان. «انظر اليتيمة ٢/ ٢١٤».
(٩) المرقب: المكان العالي يكون للمراقبة والحراسة، والخلقاء: الحسنة الخلق.

إذا ما سَرى بَرْقٌ، بَدتْ من خِلَالِهِ كما لَاحتِ العَذْراءُ من خِلَلِ الحُجْب
سَمَوتَ لَها بالرأْي: يُشْرِق في الدُّجى ويَقْطَع في الجُلَّى، ويَصْدَع في الهَضْبِ
فأبْرَزْتَها مهتُوكةَ الجيب بالقَنا وغادَرْتَها ملصوقَةَ الخَدِّ بالتُّرْبِ![1]

وقالا أيضًا في قلعة: [من البسيط]

وقَلْعةٍ عانَقَ العَيُّوقُ سافِلَها وجار مِنطقة الجَوْزا أعالِيها[2]
لا تَعْرِفُ القَطْرَ، إذ كان الغَمَامُ لها أرضًا تَوَطَّأُ قُطْرِيْهِ مَواشِيها
إذا الغمامةُ لاحَتْ، خاضَ ساكنُها حِياضَها قبل أن تَهْمِي عَزَالِيها[3]
يُعَدُّ من أنجُم الأفلاكِ مَرْقَبُها لَوْ أنَّه كان يَجْرِي في مَجَارِيها
على ذُرى شامِخٍ وَعْرٍ: قد امتلأَتْ كِبْرًا بِهِ، وهو مَمْلُوء بها تِيهَا
له عِقَابٌ: عُقَابُ الجوّ حائمةٌ من دُونِها، فَهْي تَخْفى في خَوافيها[4]

وقال أبو بكر الخوارزميّ[5]: [من الطويل]

وبِكْرٍ تحامَتْها البُعُولُ مَخافةً فقد تُرِكَتْ من كَثْرة المَهْرِ أَيِّما[6]
ممنَّعةٌ لم يَغْلَط الدّهرُ باسْمِها ولم يَرَها في النَّوْم إلا تَوَهُّما
تَزِلُّ عُقابُ الجَوِّ عن شُرُفاتِهَا وتَبْغي إلَيْها الرِّيحُ مَرْقًى وسُلَّما!
ويُسْمَع في الأفلاكِ صَيْحةُ دِيكها فتَحْسَبُ ديكَ العَرْش صاح تَرَنُّما
عَجَوزٌ، تُرى في صِحَّة الجِسْم كاعِبًا ولو أُرِّخَتْ، كانَتْ مِنَ الدَّهْر أقْدَما!
تُوارِي أَسَاسًا بالتُّخُوم مُؤَزَّرا وتُبْرِزُ رأسًا بالنُّجُوم مَعَمَّما
تُنازِعُها الأرضَ السَّماءُ وتَدَّعى لَدَيْها بها حَقًّا لها مُتَهَضَّما[7]
وتَحْسَبُها زُهْرُ الكواكب كَوْكَبًا هَوى خَلْفَ شَيْطانٍ رَجيمٍ، فخَيَّما!

---

(١) القنا: الرّمح.
(٢) العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، والجوزاء: برجٌ في السّماء.
(٣) تهمي: تمطر، والعزالي: السّحاب.
(٤) الخوافي: الرّيش في مؤخّرة الجناح تختفي إذا ضمّ الطائر جناحه.
(٥) هو أبو بكر محمد بن العبّاس الكاتب الشاعر، الخوارزمي، كان إمامًا في اللغة، جاب كثيرًا من البلدان وطارح شعراءها، قال فيه صاحب اليتيمة: يافعة الدّهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف. «انظر التيمية ٤/ ٢٢٣».
(٦) الأيّم: من النّساء من لا زوج لها سواءً كانت بكرًا أو مطلّقة أو أرملة.
(٧) المتهضّم: المنتقص، وهضم حقه: انتقصه وظلمه واعتصبه.

الباب الخامس
من القسم الخامس من الفن الأوّل
فيما وصفت به القصور والمنازل

ولنبدأ بذكر ما بناه المتوكل من القُصور وما أُنْفق عليها، ثم نذكُر ما قيل في وصفها، وما وُصِفت به المنازل الخالية، وما قيل في حُبِّ الوطن.

فأما قصور المتوكل، فهي: الكامِلُ، والجَعْفَرِيّ، وبركوانا، والعَرُوس، والبِرْكة، والجَوْسَق، والمُخْتار، والغَرِيب، والبَدِيع، والصَّبِيح، والمَلِيح، والقَصْر، والبُرْج، والمتوكِّلِيَّة، والقُلَّاية.

حكى المؤرّخون أنه أنفق في بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينًا، ومائتا ألف ألف وثمانيةٌ وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم.

قالوا: وكان «البرج» من أحسنها. كان فيه صُوَر عظيمةٌ من الذهب والفضة، وبركةٌ عظيمة غُشِّي[1] ظاهرُها وباطنها بصفَائِح الفضة، وجعل عليها شجرةٌ من الذهب فيها طُيُور تصوت وتصَفِّر سماها «طُوبى» بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار.

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السريّ[2]: [من الخفيف]

مـجْـلِسٌ فـي فِـنـاء دَجْـلةَ، يَـرْتـا ... حُ إلـيـه الـخَـلِيـع والـمَـسْـتُـورُ[3]
طائرٌ في الهواءِ، فالبَرْق يَسْري ... دُونَ أعـلاهُ والـحَـمَـامُ يَـطِـيـرُ[4]
فـإذا الـغَـيْـمُ «شـعْـرُهُ» أُسْبِـل مـنْـه ... حُــلَـلٌ دون جُــدْرِه وسُــتُـــور
وإذا غـارَت الـكَـواكـبُ صُـبْـحًـا ... فـهـو االـكَـوْكَـبُ الـذي لا يَـغُـور!

(١) غشّي: غطّي.
(٢) هو السّريّ بن أحمد الكندي المعروف بالرّفاء، صاحب سرّ الشعر، يقول صاحب اليتيمة فيه: لله درّه ما أعذب بحره، وأصفى قطره وأعجب أمره، وقد أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة الدّهر. «انظر اليتيمة ٢/ ١٣٧».
(٣) الخليع: من تبرّأ منه أهله، وهنا: من خلع ثيابه للرّاحة أو غيرها.
(٤) يسري: يلتمع أو يرتفع.

وقال أيضًا: [من الخفيف]

مَـنْـزِلٌ كـالـرَّبـيـع حَـلَّت عـلـيـهِ　　حالِياتُ السَّحاب عقدَ النِّطاق[١]

يُمْتِع العَيْنَ في طرائِف حُسْنٍ　　تـتـحـامـى بـهـا عـن الإطْـراق[٢]

بَـيْـنَ سـاجٍ كـأنَّـهُ ذائِبُ الـتِّـ　　ـبرِ عـلـى مِـثْـل ذائـبِ الأَوْراق[٣]

وقال أيضًا: [من البسيط]

والقصرُ يَبْسِم عن وجه الضُّحى، فترى　　وجْهَ الضُّحى ـ عِندما أبدى له ـ شَجِبا

يَـبِـيـتُ أعْـلاهُ بـالـجَـوْزاء مـنْـتَـطِـقًـا　　ويَغْتَدِي بردَاءِ الغَيْم محتَجبا![٤]

وقال أبو سعيد الرستميّ[٥]، يصف دارًا بناها الصاحب بن عَبَّاد: [من الطويل]

وسَـامِـيَـةِ الأعْـلام تَـلْـحَـظُ دُونَـهـا　　سَنَا النَّجْم في آفاقِها مُتَضائِلَا

نسَخْتَ بها إيوانَ كِسْرى بنِ هُرْمُزٍ　　فأصبَحَ في أرضِ المَداين عاطلَا[٦]

فلو أبصَرَتْ ذاتُ العِمادِ عِمَادَها　　لأمسَتْ أعَالِيها حَيَاءً أسافلَا[٧]

ولو لحظَتْ جَنَّاتُ تَدْمُرَ حُسْنَها　　درَتْ كيف تَبْنِي بعدَهُنَّ المَجادِلَا[٨]

متى تَرَها خِلْتَ السماءَ سُرادقًا　　عليها وأعْلامَ النُّجومِ تَماثِلَا[٩]

وقال عليّ بن يوسف الإياديّ، يذكر دارًا بناها المعز العُبَيديّ بمصر وسماها «العروسين»: [من الطويل]

بَنى مَنْظَرًا يُسْمى «العَرُوسَيْن» رِفْعةً　　كأنَّ الثُّريَّا عَرّسَتْ في قِبَابِهِ[١٠]

إذا الـلـيـلُ أخْـفـاهُ بـحُـلْـكـةِ لَوْنِـهِ　　بَدَا ضَوْءُه كالبَدْر تحت سَحَابِهِ

تـمـكَّـنَ من سَعْدِ السُّعُود محلُّه　　فأَضْحى ومِفْتاحُ الغِنى فَتْحُ بابِهِ

---

(١) النّطاق: حزام يشدّ به الوسط. (٢) الإطراق: الإغضاء.
(٣) السّاج: ضربٌ من الشجر يعظم جدًّا ويذهب طولًا وعرضًا، خشبُهُ أسود صلب.
(٤) الجوزاء: برج من أبراج السّماء.
(٥) أبو سعيد الرستمي، من شعراء اليتيمة، وقد مدح الصاحب بن عبّاد. «انظر اليتيمة ٣/ ٢٦٠».
(٦) العاطل: الذي لا حلية يلبسها.
(٧) ذات العماد: يريد إرم ذات العماد، التي ذكرها القرآن الكريم في حديثه عن قوم عاد فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝﴾ [الفجر: الآيتان ٧، ٨].
(٨) المجادل: القصور.
(٩) السّرادق: بيت من شعر يمدّ فوق ساحة الدّار.
(١٠) عرّست: أقامت، والتعريس: الإقامة ليلًا.

ولـو شـادَهُ عَـزْمُ الـمُـعِـزّ ورأيـهُ   على قَدْره في مُلْكه ونِصَابه[١]
لكانَ حَصى الياقُوت والتِّبْرِ مُفْرَغًا   على المسْك من آجُرِّه وتُرابِهِ[٢]

وقال عبد الجِبار بن حمديس الصقليّ[٣]، يصف دارًا بناها المعتمد بن عبّاد[٤] من أبيات: [من الطويل]

ويـا حَـبَّـذَا قَـضـى اللهُ أنَّـهـا   يُـجَدَّد فـيـهـا كُلُّ عِزٍّ ولا يَبْلى!
ومـا هِـيَ إلَّا خِـطَّـةُ الـمَـلِك الَّتـي   يـحُـطُّ إلَيْـهـا كُـلُّ ذِي أمَلٍ رَحْلا[٥]
إذا فُـتِـحَـتْ أبْـوابُـهـا، خِلْتَ أنَّـهَـا   تـقُـولُ بـتَـرْحِـيـبٍ لـداخِلِها: أهْلَا
وقـد نـقَـلَتْ صُنَّـاعُـهـا مـن صِفَـاتِهِ   إلـيـهـا أفانِينًـا، فـأحسَنَتِ النَّقْلا
فـمن صَدْرِه رُحْبًا، ومـن نُوره سَنًا   ومن صِيتِهِ فَرْعًا، ومن حِلْمِه أصْلا![٦]
فـأعـلَتْ بـه فـي رُتْبـةِ الـمُـلْكِ نـادِيًا   وقَلَّ له فَوْقَ السِّماكَيْنِ أن يُعْلى[٧]
نَـسِـيت بِـهِ إيـوانَ كِـسْرى، لأنَّـنِي   أراهُ له مَوْلًى من الحُسن لا مِثْلا
تَـرى الـشَّـمْسَ فـيه لِيقَـةً تستَمِدُّها   أكُفٌّ، أقامتْ من تَصاوِيرها شَكْلا[٨]
لـهـا حَـرَكَـاتٌ أُودِعـتْ فـي سكُونِهـا   فـمـا تَـبِـعـتْ مـن نَـقْـلِهِنّ يَـدٌ رِجْلا
ولـمـا عَـشِـيـنَـا مـن تـوَقُّـد نُـورِهـا   تَـخِذْنـا سَنَاهُ في نواظِرِنَا كُحْلا[٩]

---

(١) النّصاب: الأصل.   (٢) المفرغ: المصبوب في قالب.

(٣) هو عبد الجبّار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، أبو محمد، شاعر مبدع عاش ثمانين سنة، وفقد بصره توفي بجزيرة ميورقة سنة ١١٣٣ هـ، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٧٤».

(٤) هو محمد بن عبّاد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم، صاحب إشبيلية وقرطبة، وأحد أفراد الدهر حزمًا وشجاعة وضبطًا للأمور، قصد الأدباء والشعراء توفي سنة ١٠٩٥ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٨١».

(٥) الخطّة: المكان الذي يختطّ للعمارة.

(٦) السّنا: الضوء، والفرع: الأصل والشرف، وفرع الشيء: ما يبنى على غيره ويتفرّع منه، هذا الشيء فرعٌ من ذلك الأصل.

(٧) السّماكان: نجمان نيّران، أحدهما في الشّمال، وهو السّماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السّماك الأعزل.

(٨) الليقة: الطينة اللزجة تلين باليد ثمّ يرمى بها الحائط فتلزق به، يريد أن الشمس لا تفارق ذلك القصر، وكأنها ملاصقة له.

(٩) عشى البصر: ضعف، والأعشى: الضعيف البصر.

وقال أيضًا من قصيدة يصف فيها دارًا بناها المنصور[١] ببُجاية، جاء منها:

واعْمُرْ بقَصْر المُلْكِ ناديكَ الّذِي ... أضْحى بمَجْدِكَ بَيْتُه مَعْمورَا!

قَصْرٌ لو انَّكَ قد كَحَلْتَ بنُورِه ... أعمى، لعادَ على المقامِ بصيرا

واشتُقَّ مِن مَعْنى الحياةِ نَسِيمُه ... فيكَادُ يُحْدِث للعِظام نُشُورا[٢]

فَلَو أنّ بالإيوانِ قُوبِلَ حُسْنُه ... ما كان شَيْئًا عِنْده مَذْكُورا[٣]

نُسِيَ «الصَّبِيحُ» مع «المَلِيح» بذكره ... وسَمَا ففلّقَ «خَوَرْنقًا» و«سَديرَا»[٤]

أعَيْت مطالِعُه على الفُرْس الألى ... رَفَعُوا البِناءَ وأحْكَمُوا التدْبِيرا

ومضَتْ على القَوْمِ الدُّهُورُ وما بَنَوْا ... لِمُلُوكِهِمْ شَبَهًا له ونَظِيرَا

أذكَرْتَنا الفِرْدَوْسَ حِين أرَيْتَنا ... غُرَفًا رفَعْتَ بِناءَها، وقُصُورا

فلكٌ مِن الأفْلاكِ، إلّا أنه ... حَقَر البُدُور فأطْلَع «المَنْصُورا»

أبصَرْتُه فرأيتُ أبْدَعَ مَنْظَرًا ... ثم انثَنَيْتُ بناظِري مَحْسُورا[٥]

وظَنَنْتُ أنّيَ حالِمٌ في جَنَّةٍ ... لَمَّا رأيتُ المُلْكَ فيه كَبِيرا

وإذا الوَلائِدُ فتَّحتْ أبوابَها ... جعلَتْ تُرَحِّبُ بالعُفَاة صَرِيرا[٦]

عَضَّتْ على حَلَقاتِهِنَّ ضَراغِمٌ ... فغَرَتْ بها أفْواهَهَا تَكْشِيرا[٧]

فكأنَّها لَبَدَتْ لتَهْصِر عندها ... مَنْ لم يَكُنْ بدُخُولِهِ مأمُورا[٨]

تَجْري الخَواطرُ مُطْلَقاتِ أعِنَّةٍ ... فيه، فتَكْبُو عن مَداهُ قُصُورا

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد أبي عامر بن الوليد المعافري القحطاني، أمير الأندلس المعروف بالمنصور ابن أبي عامر، أحد الشجعان الدّهاة، مات سنة ١٠٠٢ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٦».

(٢) النّشور: البعث والإحياء.

(٣) الإيوان: القصر، أو المكان المتسع من البيت.

(٤) فلّق: ظهر وفاق شهرة، والخورنق: قصر كان بظاهر الحيرة، أمر ببنائه النعمان بن امرىء القيس، وبناه له رجل من الرّوم يقال له سنمار، والسّدير: قصر، وهو معرّب وأصله بالفارسية «سه دله» أي فيه قباب مداخله مثل الجاري بكمّين، وقيل: إنه قصر قريب من الخورنق اتخذه النعمان الأكبر لبعض ملوك العجم. «انظر معجم البلدان ٢/ ٤٠١، ٣/ ٢٠١».

(٥) المحسور: المتعب، والآسف.

(٦) العفاة: أصحاب الحاجة، والصّرير: الطّنين.

(٧) الضراغم: الأسود، وفغر فاه: فتحه، والتكشير: إبداء الأسنان والأنياب.

(٨) تهصر: تكسر وتفترس.

بمرَخَّم الساحاتِ تَحْسَب أنَّهُ ... فرشَ البَها وتَوَشَّح الكافُورا[١]
ومُحصَّب بالدُّرِّ تَحْسَبُ تُربه ... مِسكًا تضوَّعَ نَشْرُه وعَبِيرا[٢]
يَسْتَخْلِفُ الإصْبَاحُ منه إذا انقضى ... صُبْحًا على غَسَقِ الظَّلام مُنِيرا
ضَحِكَتْ مَحاسِنُه إلَيْكَ كأنَّما ... جُعلتْ له زُهْرُ النُّجوم ثُغُورا[٣]
ومُصَفَّح الأبْوابِ تِبْرًا نَظَرُوا ... بالنَّقْشِ بين شُكُولِهِ تَنْظِيرا
تَبْدُو مَسامِيرُ النُّضَارِ كما عَلَتْ ... فَلَكُ النُّهودِ من الحِسَان صُدُورا
خلَعَتْ عليه غَلَائِلًا وَرْسِيَّةً ... شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عنه حَسِيرا[٤]
فإذا نَظَرْتَ إلى غرائبِ حُسْنِه ... أبصَرْتَ رَوْضًا في السَّماء نَضيرا
وعَجِبْتَ من خُطَّاف عَسْجَدِهِ الَّتِي ... حامَتْ لتَبْنِي في ذُرَاه وُكُورا[٥]
وضَعَتْ به صُنَّاعُه أقلامَهَا ... فأرَتْكَ كُلَّ طَرِيدةٍ تَصْوِيرا
فكأنَّما للشَّمْسِ فيه لِيقَةٌ ... مَشَقُوا بها التَّزْوِيقَ والتَّشْجيرا[٦]
وكأنَّما فرَشُوا عليه مُلَاءَةً ... تَرَكُوا مَكَانَ وِشَاحِها مَقْصُورا
يا مالكَ المُلْكِ الذي أضْحى لَهُ ... ملكُ السَّماءِ على العُدَاة نَصِيرا
كَمْ من قُصُورٍ للمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ ... فاستوْجَبَتْ بقُصُورِك التأخِيَرا
فعَمَرْتَها وملَكْتَ كلَّ رِياسَةٍ ... منها، ودَمَّرتْ العِدا تَدْمِيرا

وقال عمارة اليمنيّ، يصف دارًا بناها فارس الإسلام من أبيات: [من الكامل]

فتَمَلَّ دارًا شَيَّدَتْها هِمَّةٌ ... يَغْدُو العَسِيرُ بأمْرِها متَيَسِّرا
فاقَتْ على الإطْلاقِ كُلَّ بَنِيَّةٍ ... وسمَتْ بسَعْدِكَ عِزَّةً وتكَبُّرا[٧]
أنْشَأْتَ فيها لِلعُيُونِ بدائعًا ... دَقَّتْ، فأذهَلَ حُسْنُها مَنْ أبصَرا

---

(١) البها: الجمال، وتوشّح: لبس الوشاح، والكافور: نبتٌ طيّب زهره كزهر الأقحوان.
(٢) المحصّب: المزيّن: يريد: أن حصاه درًا، وتربه مسكًا، وتضوّع نشره: أي انتشر طيبه.
(٣) زهر النجوم: أي النجوم البيضاء المتألّقة.
(٤) الغلائل: مفردها غلالة، وهي الثوب الرقيق، والورسيّة: المصبوغة بالورس، وهو نبت يستعمل ثمره لتلوين الأثواب الحريريّة فتستحيل حمراء.
(٥) الخطّاف: طائر السّنونو، والعسجد: الذهب.
(٦) الليقة: العجينة الملتصقة، أي أن للشمس فيه صورة ملتصقة، ومشق: جذب ليمتدّ، والتزويق: التنميق في الصور والنقوش والزخرفة، والتشجير: التفنّن بتصوير الأشجار.
(٧) البنيَّة: ما بُني من البناء.

فمِنَ الرُّخَام: مُسَيَّرًا، ومسَهَّمَا ... ومُنَمْنَمًا، ومُدَرْهَمًا، ومُدنَّرا[١]
وسقَيْتَ من ذَوْبِ النُّضَارِ سُقُوفَها ... حتّى يَكادَ نُضَارُها أن يَقْطُرا
لم يبْقَ نَوْعٌ صامِتٌ أو ناطِقٌ ... إلا غَدَا فِيها الجَمِيعُ مُصَوَّرا
فيها حَدائقُ لم تَجُدْها دِيمَةٌ ... كَلّا ولا نَبَتَتْ على وَجْهِ الثَّرى[٢]
لم يَبْدُ فيها الروضُ إلا مُزْهِرا ... والنخْلُ والرمَّانُ إلا مُثْمِرا
والطَّيْرُ مُذْ وقعَتْ على أغصانِها ... وثمَارها، لم تَسْتَطِعْ أن تَنْفرا
وبها مِنَ الحَيوانِ كُلُّ مُشَبَّهٍ ... لَبِس الحريرَ العَبْقَرِيَّ مُصَوَّرا[٣]
لا تَعْدَمُ الأبصارُ بين مُرُوجِها ... لَيْثًا ولا ظَبْيًا بوجَرْةَ أعْفَرا[٤]
أَنِسَتْ نوافِرُ وَحْشِها لِسبَاعِها ... فظِبَاؤُها لا تَتَّقِي أُسْدَ الشَّرى[٥]
وكأنَّ صولَتَك المُخِيفَةَ أمَّنَتْ ... أسْرابَها أن لا تَخاف فتُذْعَرا[٦]
وبِها زَرَافاتٌ كأنَّ رقَابَها ... في الطُّول ألْوِيَةٌ تَؤُمُّ العَسْكَرا[٧]
نُوبِيَّةُ المَنْشَا تُرِيكَ من المَهَا ... رَوْقًا، ومن بُزْلِ المَهارِي مِشْفَرا[٨]
جُبِلَتْ على الإقْعاءِ من أعْجازِها ... فتَخالُها في التِّيهِ تَمْشِي القَهْقَرى![٩]

---

(١) المسيّر: المحزّز وكأنه سير من السّيور المستطيلة، والمسهّم: من السّهام والمدرهم والمدنّر: أي الذي هو على شاكلة الدّرهم والدّينار، وهما عادة من الفضّة والذّهب.
(٢) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون.
(٣) العبقري: نسبة إلى عبقر، وهي أرض كان يسكنها الجن، يقال في المثل: كأنّهم جنّ عبقر، وقيل: إن عبقرًا كان يوشّى فيه البُسط وغيرها، وقال الفرّاء: العبقري: الطنافس الثّخان، وقال مجاهد: العبقريّ: الدّيباج. «انظر معجم البلدان ٤/ ٧٩، ٨٠».
(٤) وجرة: موضع بين مكّة والبصرة، ليس فيها منزل فهي مربٌ للوحش، والأعفر: الظبي يعلو بياضه حمرة. «انظر معجم البلدن ٥/ ٣٦٢».
(٥) الشّرى: موضع تكثر فيه الأسود.
(٦) الصّولة: القوّة والبطش والهيبة، والأسراب: القطعان، مفردها سرب.
(٧) تؤم: تتقدّم، وأمّ المكان: قصده.
(٨) نوبيّة: نسبة إلى نوبة، وهي بلاد واسعة في جنوب مصر، ومدينة النوبة: اسمها دنقلة «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٠٩»، والمها: البقرة الوحشية، والرّوق: القرن، والبازل: الذي طلعت نابه من الإبل، والمهاري: المنسوبة إلى مهرة: وهي بلاد تنسب إليها الإبل المهريّة، وهي مهرة بن حيران ابن قضاعة قبيلة باليمن، «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٣٤»، والمشفر: شفة الجمل.
(٩) الإقعاء: الجلوس على الألية ونصب الساقين والفخذين، والتّيه: التكبّر، أو الأرض الواسعة، والقهقرى: الرّجوع إلى الوراء.

وقال أبو الصلت أُميَّة بن عبد العزيز، يصف قصرًا بناه عليّ بن تميم بن المعزّ بمصر:

لِلَّهِ، مَجْلِسُكَ المُنِيفُ! فَبَابُهُ ... بِمُوطَّدٍ فَوْقَ السِّمَاكِ مُؤَسَّسِ[١]
مُوفٍ على حُبُكِ المَجَرّة تَلْتَقِي ... فيه الجَوارِي بالجَوَارِ الكُنَّسِ[٢]
تَتَقَابَلُ الأنْوارُ في جَنَباتِهِ ... فاللَّيْلُ فيه كالنَّهار المُشْمِسِ
عُطِفَتْ حَنَاياه دُوَيْنَ سَمائِهِ ... عَطْفَ الأهِلَّةِ والحَواجِبِ والقِسِي[٣]
واستَشْرَفَتْ عَمَدُ الرُّخَام وظُوهِرَتْ ... بأجَلَّ من زَهْرِ الرَّبِيعِ وأنْفَسِ
فهَواؤُه من كُلِّ قَدٍّ أهْيَفٍ ... وقَرارُه من كُلِّ خَدٍّ أمْلَسِ[٤]
فَلَكٌ تَحَيَّرَ فِيهِ كُلُّ مُنَجِّمٍ ... وأقَرَّ بالتقصِيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِ
فَبَدا لِلَحْظِ العَيْنِ أحْسَنَ مَنْظَرًا ... وغَدَا لِطِيبِ العَيْشِ خَيْرَ مُعَرَّسِ[٥]
فاطْلُعْ به قَمَرًا، إذا ما أَطْلَعَتْ ... شمسُ الخُدورِ عليك شَمْسَ الأكْؤُس
فالناسُ أجْمَعُ دُونَ قَدْرِك رُتْبةً ... والأرضُ أجمَعُ دُونَ هذا المَجْلِسِ!

وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أُميَّة: [من مجزوء الكامل]

يا دارُ، آمَنَكِ الزَّما ... نُ خُطوبَه ونَوائِبَهْ[٦]
وجَرَتْ سُعُودُك بالَّذِي ... يَهْوِي نَزِيلُكِ دَائِبَهْ[٧]
فلَنِعْمَ مَأْوى الضَّيْفِ أنْـ ... ـتِ، إذا تَحَامَوْا جانِبَهْ
خَطَرٌ شَأَوْتِ به الدُّنْيا ... رَ، فأذْعَنَتْ لَكِ قاطِبَهْ[٨]

---

(١) المنيف: العالي المشرف، الموطّد: المثبّت والمقوّي، والسّماك: نجمان في السّماء، شمالًا وجنوبًا، تقدّم ذكرهما.
(٢) موفٍ: مشرفٍ، أوفى على المكان: أشرف عليه، والمجرّة: نجوم بعيدة في السّماء يلتحم نورها فيشكل طريقًا أبيض، والجواري: جمع جارية؛ وهي: الفتاة، والجوار الكنّس: ورد في القرآن الكريم: فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس، قال الزّجّاج: الكنّس النجوم تطلع جارية، وكنوسها أن تغيب في مغاربها التي تغيب فيها. «اللّسان مادة: كنس»
(٣) عُطفت: أميلت، والحنايا: الأظلع، أو كل ما فيه اعوجاج من البدن، والأهلّة: جمع هلال، وهو القمر في لياليه الأولى، والقسي: جمع قوس.
(٤) القدّ الأهيف: الذي دق خصره وضمر بطنه، والقرار: المستقرّ.
(٥) المعرّس: مكان التعريس، وهو الإقامة والنزول ليلًا للرّاحة.
(٦) أمنك الزّمان: أي جنّبك، والخطوب: الأمور المكروهة، والنّوائب: المصائب.
(٧) النزيل: القاطن، والدّائب: الدائم.
(٨) الشأو: السبق، والخطر: ارتفاع القدر والرتبة والشّرف، وأذعنت: خضعت، وقاطبة: عامّة.

وقال أبو صخر القرطبيّ: [من الطويل]

دِيـارٌ عـلَيْـهـا مـن بَـشَـاشَـةِ أهـلِهَـا ... بَقَايَا، تَسُرّ النَّفْسَ أُنْسًا ومَنْظَرا[١]

رُبُوعٌ كَساها المُزْنُ من خِلَع الحَيَا ... بُرُودًا، وحَلَّاها من النَّوْرِ جَوْهَرا[٢]

وقال الشريف الرضيّ: [من الكامل]

مـا زلْتُ أطَّرقُ الـمَـنَـازِلَ بـاللِّوى ... حـتَّـى نـزَلْتُ مَـنَـازِلَ الـنُّـعـمـان[٣]

بـالـحِيرةِ الـبَيْـضـاءِ حيثُ تقابَلَتْ ... شُـمُّ الـعِـمادِ، عَـرِيضَـةُ الأعْـطانِ[٤]

شـهِدَتْ بـفَـضْلِ الـرَّافِـعِينَ قِبابـهـا ... ويَـبِـيـن بـالـبُـنْـيـانِ فَـضْـلُ الـبـانِـي!

مـا يَـنْفَـع الـمـاضِينَ أنْ بَقِيَتْ لـهـم ... خِـطَـطٌ مُـعَـمَّـرةٌ بـعُـمْـرِ فـانِـي!

وأما ما وُصفت به المنازل الخالية

فمن ذلك ما قاله البحتريّ يشير إلى «الكِرْمان» الذي بناه كسرى أنو شروان من أبيات: [من الخفيف]

فَـكَـأنَّ الـكِـرْمـانَ مـن عَـدَمِ الأُنْـ ... ـسِ وإخْـلائِه بَـنِـيَّـةُ رَمْـسِ[٥]

لـو تَـراه، عَـلِمْـتَ أنَّ الـلَّيـالِـي ... خـلَعَـتْ فـيـه مَـأْتَـمًـا بـعـد عُـرْسِ

وهْـوَ يُـنْـبِـيـك عـن عَـجَـائـبِ قـومٍ ... لا يُـشَـابُ الـبَـيـانُ فـيـهـا بـلَبْسِ[٦]

وإذَا مـا رأَيْـتَ صُـورَةَ أَنْـطـ ... ـاكِـيَـةَ، ارتَـعْـتَ بَـيْـنَ رُومٍ وفُـرْسِ[٧]

---

(١) البشاشة: حسن اللّقاء والترحيب، وبشّ وجهه: تهلّل وأشرق.

(٢) الحيا: الخصب والمطر، والنّور: الزّهر.

(٣) أطّرق: أجوب زائرًا، والطارق: الزّائر ليلًا، واللّوى: ما التوى وانعطف وانثنى من الرمل أو مسترقّه، والنعمان: هو النعمان بن امرىء القيس بن عمرو اللخمي، ملك الحيرة في الجاهلية من قبل الفرس، وكان شجاعًا فاتكًا كثير الغارات، داهية رفيع الذكر. «انظر فهرس الأعلام ٨/ ٣٥».

(٤) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النّجف، وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من لخم النعمان وآبائه. «معجم البلدان ٢/ ٣٢٨».
وشمّ العماد: أي الأعمدة المرتفعة، والأعطان: مفردها عطن وهو مربض الغنم ومبرك الجمال حول الماء.

(٥) الرّمس: القبر الذي يستوي على وجه الأرض.

(٦) يشاب: يمزج ويخلط، واللّبس: الإبهام والغموض.

(٧) ارتعت: فزعت.

والـمَـنَـايَـا مـوائِلٌ وأنـو شـ ـرْوانُ يُزْجِي الصُّفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ![1]

وقال أيضًا من قصيدة يرثي فيها المتوكل، ويذكر قصره «الجعفريّ»: [الطويل]

مَحَلٌّ على القَاطُولِ أَخْلَقَ دارُهُ — وعادَتْ صُروفُ الدّهْرِ جَيْشًا تُعاوِرُهْ[2]
كأنَّ الصَّبَا تُوفِي نُذُورًا، إذا انبرَتْ — تَجُرُّ به أذيالَهَا وتُبَاكِرُهْ[3]
ورُبَّ زَمانٍ ناعِمٍ تَمَّ عَهْدُه — تَرِقُّ حَواشِيه ويونِقُ ناظِرُهْ[4]
تغَيَّر حُسْنُ «الجَعْفَرِيِّ» وأُنْسُه — وقُوِّضَ بادِي «الجَعْفَرِيِّ» وحاضِرُهْ[5]
تحَمَّلَ عنه ساكِنُوه فُجاءَةً — فعادَتْ سَواءً دُورُه ومَقَابِرُهْ
إذا نَحْنُ زُرْناه، أَجَدَّ لنا الأَسى — وقَدْ كان قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زائِرُهْ
ولم أَنسَ وَحْشَ القَصْرِ إذ رِيعَ سِرْبُهُ — وإذْ ذُعِرَتْ أَطْلاؤُه وجَآذِرُهْ[6]
وإذْ صِيحَ فيه بالرَّحِيلِ فهُتِّكَتْ — على عَجَلٍ أستَارُه وسَرَائِرُه
وأوْحَشَه حتَّى كأنْ لم يَكُنْ به — أنِيسٌ، ولم تَحْسُنْ لعين مناظِرُهْ
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخِلافَةُ طَلْقَةً — بشَاشَتُها، والمُلْكُ يُشْرِق زاهِرُهْ
ولم تَجْمَعِ الدُّنْيا إلَيْهِ بَهَاءَها — وبَهْجتَها، والعَيْشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ[7]
فأيْنَ الحِجابُ الصَّعْبُ حيث تمنَّعتْ — بهَيْبَتِها أبوابُهُ وسَتَائِرُهْ؟
وأيْنَ عَمُودُ المُلْكِ في كُلِّ نَوْبَةٍ — تَنُوبُ، وناهِي الدّهْر فيه وآمِرُهْ!

---

(١) المنايا: الحتوف، ومواثل: قائمه بادية، وأنوشروان: هو كسرى ملك الفرس، ويسمّى الملك العادل، وفي آخر أيّامه ولد النبيُّ ﷺ، وهو الذي قتل مزدك الزّنديق، وغلب على اليمن وانتزعها من الحبشة. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٣».
ويزجي: يحثّ ويتقدّم، والدّرفس: الرّاية الكبيرة.

(٢) القاطول: نهر مشهورٌ معروف، والقاطول: موضع على دجلة «اللّسان مادة قطل»، وأخلق: درس، وصروف الدّهر: غِيَرُه وأحداثه، وتعاوره: تتداوله وتعرّضه للهلاك والتّلف.

(٣) الصّبا: الريح الباردة، والنذور: جمع نذر، وهو: ما يقطعه الإنسان على نفسه من نذر لقاء حاجة.

(٤) يونق: يعجب.

(٥) قوّض: هدّم، والبادي: الماضي.

(٦) ريع: من الروع وهو: الخوف والذّعر، والسّرب: القطيع، والأطلاء: مفردها: الطّلا وهو: ولد الغزال، والجآذر: مفردها جؤذر وهو: ولد البقرة الوحشيّة.

(٧) الغضّ: الناعم الطري، وغضٌّ مكاسرهُ: يريد أن العيش كان مواتيًا وسمحًا.

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من السّريع]

يا دارُ، أمْسى دارِسًا رَسْمُها ... وَحْشًا قِفارًا ما بها آهلُ؟
قد جَرّتِ الرِّيحُ بها ذَيْلَها ... واستَنَّ في أطْلالِها الوابِلُ[١]

وقال شاعر أندلسيّ: [من الخفيف]

قُلْتُ يومًا لدارِ قومٍ تفانَوْا ... أيْنَ سُكّانُكِ الكِرامُ لَدَيْنا؟
فأجابَتْ: هنا أقامُوا قليلًا ... ثم سارُوا، ولَسْتُ أعلَمُ أيْنا!

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسيّ: [من البسيط]

يا دارَ عَلْوةَ، قد هَيَّجت لي شَجَنًا ... وزدْتِني حَزَنًا! حُيِّيتِ من دارِ[٢]!
كَمْ بِتُّ فِيك على اللّذّاتِ مُعْتَكِفًا ... واللّيْلُ مُدَّرِعٌ ثَوْبًا من القارِ[٣]
كأنَّهُ راهِبٌ في المِسْحِ مُلتَحِفٌ ... شَدّ المَجَرُّ له وَسْطًا بزُنّارِ!

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكيّ: [من الخفيف]

إنَّ رَبْعًا عرَفْتُه مألُوفًا ... كان للبِيضِ مَرْبَعًا ومَصيفًا[٤]
غَيَّرتْ آيَهُ صُروفُ اللّيالي ... وغَدَا عنه حُسْنُه مَصْروفا[٥]
ما مرَرْنا عليه، إلّا وَقَفْنا ... وأطَلْنا شَوْقًا إليه الوُقُوفا
آلِفًا للبُكاءِ فيه، كأنّي ... لم أكُنْ فيه للغَواني أليفا
حاسِدًا للجُفونِ لَمّا أذالَتْ ... في مَغانِيهِ دَمْعها المَذْرُوفا![٦]

وقال الشريف الرضيّ من أبيات: [من الكامل]

ولَقد رَأيْتُ بِدَيْرِ هِنْدٍ مَنْزِلًا ... أَلِمًا من الضَّرّاءِ والحَدَثانِ![٧]

---

(١) استنّ: سال وجرى وانصبّ، والأطلال: مفردها الطّلل: وهو الشّاخص من آثار الدّار وبقاياها، والوابل: المطر.
(٢) هيَّجَتْ أشجانه: أثارت مواجده وحزنه.
(٣) المدّرع: الذي يلبس الدّرع، وادّرع الليل: دخل في ظلمته، والقار: الزفت.
(٤) البيض: يريد: النساء، أو الأفعال، والمربع والمصيف: الإقامة ربيعًا وصيفًا.
(٥) آيَهُ: علاماته، وصروف الليالي: أحداثه، والمصروف: المبتعد المطرود.
(٦) أذالت دمعها: أرسلته.
(٧) الحدثان: من الدهر: نوائبه وحوادثه، ودير هند: من قرى دمشق، قال ابن أبي العجائز وهو يذكر من كان من بني أميّة بدمشق يسكن بدير هند من إقليم بيت الآبار. «انظر معجم البلدان ٢/٥٤٣».

بـالِي الـمَـعَـالِم، أطْـرَقَـتْ شُـرُفـاتُـه إطْراقَ مُـنْجَذِبِ الـقَـرِيـنـة عـانِـي(١)
أمَـقَـاصِـرَ الـغِـزْلان، غَـيَّـرِكِ الـبِـلى حـتَّـى غَـدَوْتِ مَـرَاتِـعَ الـغِـزْلانِ!(٢)
ومَلَاعِبَ الإِنْسِ الجَميع طوى الرَّدى مِنْهم، فَصِرْتِ مَلَاعِبَ الجِنَّانِ!(٣)

وقال أبو الحسن عليّ القابوسيّ نثرًا:

«قد كان منزِلهُ مَألَف الأضياف، ومَأْنَس الأشراف؛ ومُنتَجَع الرَّكْب، ومقصد الوَفْد؛ فاستبْدَل بالأُنْس وَحْشه، وبالنَّضَارة غُبْره، وبالضِّياء ظُلْمه،؛ واعتاض من تزاحم المواكب، بالأدْم(٤) النَّوادِب؛ ومن ضجيج النِّداء والصَّهِيل، عجيجَ البكاء والعويل».

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزريّ، جاء منها:

«... دارٌ لَعِبت بها أيدي الزمن، وفرّقت بين الساكن والسَّكَن. كانت مقاصيرَ جَنَّة، فأضحت وهي ملاعب جِنَّة. ولقد عَمِيَتْ أخبار قُطَّانها، وعَفَّت(٥) آثارُها آثارَ وُطَّانها، حتى شابهت إحداهما في الجفا، الأخرى في العفا. وكنت أظن أنها لا تُسْقي بعدهم بغمام، ولا يُرفَع عنها جلْبابُ ظلام، غير أن السحاب بَكَاهم وأجرى بها سوافِحَ دموعه، والليل شقَّ عليهم جُيوبَه فظهر الصَّباح من خلال صُدُوعه»(٦).

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الروميّ (وهو أوّل من بَيَّن السبب في حبّ الوطن): [من الطويل]

ولِي مَـنْـزِلٌ آلَيْـتُ أن لا أبِـيـعَـهُ وأن لا أرى غَيْرِي له الدّهْرَ مَالِكَا!
عَهِدتُ به شَرْخَ الشَّباب ونِعْمةً كنِعْمة قوم أصبَحُوا في ظلالِكَا(٧)
فـقـد أَلِفَـتْـه الـنـفـسُ حـتَّـى كـأنَّـهُ لها جَسَدٌ، إن غاب غُودِرْتُ هالِكا

(١) القرينة: القيد، والعاني: الأسير.
(٢) المقاصر: مفردها مقصورة، وهي حجرة للمرأة تصونها وتخصّها، والغزلان الأولى: يريد بها النّساء، ومراتع الغزلان: أي أماكن للغزلان ترتع فيها وترعى بعد أن أصبحت قفرًا.
(٣) الرّدى: الموت والهلاك، والجنّان: يريد الجن التي يقال إنّها: تسكن الخرائب والقفار.
(٤) الأدم: مفردها أدماء، وهي التي اشتدت سُمرتها.
(٥) عفّت: درست، والوطّان: السكان.
(٦) الصدوع: الشقوق التي تظهر في البيت إذا تصدّع.
(٧) شرخ الشباب: أوّله وأفضله.

وحَبَّب أوطانَ الرِّجالِ إلَيهِمُ مآربُ قَضَّاها الشَّبابُ هُنالِكَا
إذا ذَكَرُوا أوطانَهُمْ ذكَّرَتْهُمُ عُهودَ الصِّبا فيها فَحَنُّوا لذلِكا!

ذكر شيء مما قيل في الحَمَّام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من السريع]

أهْلًا ببَيْتِ النارِ من مَنْزِلِ شِيدَ لِأبْرارٍ وفُجَّارِ![1]
يدخُلُهُ ملتَمِسٌ لَذَّةً فيدخُلُ الجنةَ في النارِ!

وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسيّ[2]: [من المنسرح]

إنْعَمْ، أبَا عامرٍ بِلَذَّتِه واعْجَبْ لأمرَيْنِ فيه قد جُمِعا!
نِيرانُهُ من زِنادِكُمْ قُدِحَتْ وماؤه من بَنانِكُمْ نَبَعا![3]

وقال عليّ بن عطية البَلَنْسِيّ[4]: [من مجزوء الرّمل]

رُبَّ حَمَّامٍ تَلَظَّى كتلَظِّي كُلِّ وامِقْ[5]
ثم أذْرَتْ عَبَراتٌ صوبُها بالوجْدِ ناطِقْ[6]
فغَدَا مِنِّي ومنه عاشِقٌ في جَوْفِ عاشِقْ!

وقال أبو طالب المأمونيّ[7]، شاعر اليتيمة: [من الطويل]

وبيتٍ كأحشاءِ المُحِبِّ دخَلْتُه وما لِي ثِيابٌ فيه غيْرُ إهابِي[8]

---

(١) الأبرار: الأخيار الفضلاء الأتقياء، والفجّار: الكفرة.
(٢) هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شُهَيْد، أبو عامر الأشجعي، وزير، من كبار الأندلسيين علمًا وأدبًا له شعر جيّد، مولده ووفاته بقرطبة سنة ١٠٣٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٦٣».
(٣) الزّند: العود الذي تقدح به النار، والبنان: الأصابع أو أطرافها.
(٤) هو علي بن عطيّة بن مطرِّف، أبو الحسن اللخمي البلنسي، ويعرف بابن الزّقاق، شاعر، له غزلٌ رقيق ومدائح اشتهر بها عاش أقلّ من أربعين سنة ومات سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٢».
(٥) الوامق: المحبّ.
(٦) أذرت عبرات: انصبّت دموع، والصوب: المطر المتصبّب، والوجد: شدّة العشق والشوق.
(٧) هو أبو طالب عبد السّلام بن حسين المأموني، من أولاد الخليفة المأمون، شاعرٌ فيّاض الخاطر، بديع الصنعة مليح الصيغة. «انظر اليتيمة ٤/ ١٣٨ وما بعدها».
(٨) الإهاب: الجلد.

أُرى مُحْرِمًا فيه وليس بكَعْبةٍ ... فَمَا ساغَ إلَّا فيه خَلْعُ ثيابِي[١]
بماءٍ كدَمْع الصَّبِّ في حرّ قَلْبِه ... إذا آذنَتْ أحْشَاؤه بذَهَابِ[٢]
توهَّمْتُ فيه قِطْعةً من جَهَنَّم ... ولكنَّها من غير مَسِّ عقابِ[٣]
يُثِيرُ ضَبابًا بالبُخَار مجلّلًا ... بُدور زُجاج في سَماءِ قِبَاب![٤]

وقال آخر: [من مجزوء الرّمل]

إنَّ حَمَّامَك هذا ... غَيْرُ مَذْمُوم الجِوارِ
ما رأيْنَا قَبْل هذا ... جَنَّةً في وسَطْ نارِ!

وأنشدني جمال الدّين محمد بن الحكم[٥] لنفسه: [من الكامل]

قالوا: نَراكَ دخَلْتَ حَمَّامًا، وما ... حِلْفُ الهوَى يلتذُّ بالأهواءِ
فأجبْتُهم: لم تَكْفِ أدْمُعُ مُقْلتِي ... حتَّى بكَيْتُ بجُملة الأعضاءِ

تم السفر الأوّل

(١) المحرم: الذي دخل مكة يريد فريضة الحجّ.
(٢) آذنت بذهاب: أي كادت أن تتفطّر من شدّة العشق أو الشّوق.
(٣) توهّم: تخيّل، والمسّ: اللّمس؛ يريد أنّه رأى فيه لشدّة ناره نار جهنّم ولكن ذلك دون أن يقترف ذنبًا ليُعاقب عليه.
(٤) المجدّل: المضفّر.
(٥) لعلّه محمّد بن حكم الجذامي السرقسطي، أبو جعفر، عالم بالعربيّة والأدب وأصول الفقه، استقرّ بمدينة فاس، ومات بتلمسان سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ١٠٨/٦».

فهرس المصادر
المستخدمة في التحقيق

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **التوراة**.

٣ ـ **إعجام الأعلام**، محمود مصطفى، دار الكتب العلمية.

٤ ـ **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب العلمية.

٥ ـ **تاريخ الطبري**، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

٦ ـ **تقويم البلدان**، لأبي الفداء «الملك المؤيّد».

٧ ـ **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، ط مصر.

٨ ـ **ديوان أبي تمام**، دار صعب ـ بيروت.

٩ ـ **ديوان أبي فراس**، دار الفكر، عمان.

١٠ ـ **ديوان امرىء القيس**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١ ـ **ديوان الخنساء**، دار صادر ـ بيروت.

١٢ ـ **ديوان كشاجم**، محمود بن الحسين، دار صادر ـ بيروت.

١٣ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، دار صادر ـ بيروت.

١٤ ـ **الذخيرة**، لابن بسّام، دار الثقافة ـ بيروت.

١٥ ـ **الشاهنامة**، للفردوسي.

١٦ ـ **شذرات الذّهب**، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي.

١٧ ـ **شرح القصائد المشهورات**، لأبي جعفر النحّاس، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٨ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٠ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، لأحمد بن القاسم «ابن أبي أصيبعة».

٢١ ـ **فقه اللغة**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.

٢٢ ـ **الفلاحة الأندلسية**، لابن العوّام الاشبيلي «يحيىٰ بن محمد».

٢٣ ـ **فهرس الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين.

٢٤ ـ **قاموس الصّحاح**، للجوهري.

٢٥ ـ **القاموس المحيط**، للفيروزأبادي.

٢٦ ـ **الكاشف**، للإمام الذهبي، دار الكتب العلميّة.

٢٧ ـ **كتاب النّبات**، للأصمعي، ط بيروت ١٩٠٨.

٢٨ ـ **كتاب تحقيق ما للهند من مقولة**، للبيروني.

٢٩ ـ **لسان العرب**، لابن منظور.

٣٠ ـ **معجم الشعراء**، للمرزباني، دار الكتب العلمية.

٣١ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ـ بيروت.

٣٢ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

٣٣ ـ **المستقصى في أمثال العرب**، للزمخشري، دار الكتب العلمية.

٣٤ ـ **مجمع الأمثال**، للميداني، دار الكتب العلمية.

٣٥ ـ **المسالك والممالك**، لابن حوقل.

٣٦ ـ **مسالك الممالك**، للإصطخري.

٣٧ ـ **المسالك والممالك**، لابن خرداذبة.

٣٨ ـ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري.

٣٩ ـ **المِلَل والنِّحَل**، للشهرستاني، دار الكتب العلمية.

٤٠ ـ **المواعظ والاعتبار في ممالك الأمصار**، والمعروف بـ «خطط المقريزي».

٤١ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلّكان.

٤٢ ـ **يتيمة الدّهر**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات

الفن الأول

في السماء والآثار العُلويّة والأرض والمعــالم السُّـفليّة

القسم الأوَّل

في السماء وما فيها

القسم الثاني
من الفن الأوّل في الآثار العلوية

القسم الثالث
من الفن الأول في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

القسم الرابع

من الفن الأوّل في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

القسم الخامس
من الفن الأوّل في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَباني القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢-٣

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة | الدكتور حسن نور الدين

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9782745138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفن الثاني
في الإنسان وما يتعلق به

وهذا الفن قد اشتمل على معانٍ مؤنسة للسامع، مشنِّفة[1] للمسامع؛ مرصَّعة لصدور الطروس[2] والدفاتر، جاذبةٍ لنوافر القلوب والخواطر؛ واضحةِ البيان، معربة عن وصف الإنسان.

فمن تشبيهاتٍ فائقة، وغَزَلِيَّات رائقة، وأنسابٍ طاهرة، ووقائعَ ظاهرة، وأمثالٍ امتدّت أطنابها[3]، وتبينَتْ أسبابُها، وأوابِدَ[4] جعلتها العرب لها عادةً ودليلًا، واتخذتها ضَلالة وتبديلًا، ونصبتها أحكامًا ونُسُكًا، وصيّرتها عبادة ومُدَاواة فتبوّأت بها من النار دَرَكًا[5]، وشيءٍ من أخبار الكُهَّان، وزَجْر عَبَدة الأوثان، وكناياتٍ نَقَلت الألفاظ إلى معانٍ أبهى من معانيها، وبَلَغت النفوسُ بعُذُوبتها غاية أمانِيها، وألغازٍ غوّرَتْ[6] بالمعاني وأَنْجَدت[7]، وأشارتْ إليها بالتأويل حتى إذا قرّبتها من الأفهام أبعدَتْ، ومدائحَ رفعتْ للممدوح من الفضل مَنَارًا، وأهاجِيَ صيَّرت المهجُوَّ

---

(١) المشنّفة: المطريّة، وشنّف الكلام: زيّنه.

(٢) الطروس: مفردها الطِّرس، وهي الصحيفة.

(٣) الأطناب: مفردها طُنُب، وهو حبلٌ تشدّ به الخيمة إلى الوتد.

(٤) الأوابد: جمع آبدة، وهي القافية الشّاردة.

(٥) الدّرك: أسفل كلّ شيء ذي عمق.

(٦) غوّرت بالمعاني: أي ابتعدت بها وتعمّقت، والغور: ما انخفض من الأرض.

(٧) أنجدت: أي وضحت واستبانت، والنجد: ما أشرف من الأرض وارتفع.

من القوم يتوارى، ومُجُون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس، ويبتسم عند سماعها ذو الوجهِ العَبُوس، وشيءٍ مما قيل في الخمر والمُعاقَرة، وأرباب الطَّرب وذوِي المسامرة، وتَهَانٍ نَشَرتْ من البشائر مُلَاء، ورفعتْ من المَحَامد لِوَاء، وتَعازٍ حسرَتْ نِقاب الحَسَرات، وأبرزتْ مَصُون العَبَرات.

وأوردتُ فيه نبذةً من الزهد والإنابة[١]، وجملةً من الدعَوات المستجابة.

وطرّزتُهُ بذكر ملِك، مدّ رِواق العدل، ونشر لِواء الفضل، وقام بفُروض الجهاد وسُنَنه، وأراع العدُوّ في حالتي يقظته ووَسَنه[٢]، وعمّ الأولياء بمواصلة برّه وموالاة نَواله، وقهر الأعداء بمراسلة سِهامه ومناضلة[٣] نِصاله، وشَمِل رعاياه بعدله وجُوده، وأردف سَراياه[٤] بجيوشه وجُنُوده، فهو الملك الذي جَمَع بين شِدّة البأس، ولين النَّدى، وأزال مَرَارة الإياس، بحلاوة العطا.

وما يحتاج إليه لإقامة المملكة: من نائبٍ[٥] ناهيك[٦] به من نائب! يكُفُّ بعزمه كَفَّ الحوادث ويفُلُّ[٧] بحَزْمه ناب النوائب، ويُنْصِف الضعيف من القويّ، ويفرّق ببديهته بين المُرِيب والبريّ؛ ويتفقّد أحوال الجيوش ويصْرِف همّته إليهم، ويجعل اهتمامه بهم وفكرتَهُ فيهم وتعويلَهُ عليهم، إلى غير ذلك من استكمال عَدَدها، والمطالبة بعَرْض خيولها وإصلاح عُدَدها، وسَدِّ ثغور الممالك، وضبط الطرق وتسهيل المسالك، وقَمْع

(١) الإنابة: يقال: أناب إلى الله: أي تاب ورجع.
(٢) الوسن: النّعاس.
(٣) المناضلة: المدافعة، يقال: ناضله: باراه في رمي السّهام، وناضل عنه: حامى ودافع.
(٤) السّرايا: مفردها سريّة: وهي القطعة من الجيش.
(٥) النائب: من قام مقام غيره في أمرٍ أو عمل.
(٦) ناهيك: كلمة يتعجّب بها، والمعنى: ناهيك به من نائبٍ يكفيك عن غيره.
(٧) يفلّ: فَلَّ السّيف: تثلّم حدّه.

المفسدين، وإرغام المُلْحدين، وبثّ السَّرايا، وتيسير الأرزاق والعطايا. ووزيرٍ يشيِّد قواعد ملكه بحسن تدبيره وجميل سَدَاده، ويُعْمِل فكره فيما يستقرّ بسببه نِظامُ الملك على مِهادة[١]، ويأمر بتحصيل الأموال من جهات حِلِّها، ويقرّ مناصب الدّولة الشريفة في الكُفَاة من أهلها، ويتصفَّح الأقاليم والمعاملاتِ والأعمال، ويستكفِي لمباشرتها أمناءَ النظّار[٢] ومحقِّقي المستوفين وكُفَاةَ العمّال.

وقائد جيوش إن انتدبه للقاء عدوّ بَدَرَ[٣] الكتائب، وأنهل[٤] من دمائهم السُّمْر العوالي وعَلَا هامهم بالبيض القواضب[٥]، تتبعه عساكر تَنْفِرُ قلوبهم عن الفِرار، ويُحِلُّوا مَنْ قاتلهم من أعداء الله دارَ البَوار، يَدَّرِعون السابِرِيَّة[٦] الذوائل، ويعتقلون السَّمْهريّة الذَّوابل[٧]، ويتقلّدون المَشْرَفية[٨] البواتر، ويتنكَّبون القِسِيّ النواتر[٩]، ويمتطُون من كل جواد صَفَا منه أديمُه[١٠] وعيناه وحوافره، واتّسع منه جوفُه وجبهته ومنَاخِره، وطال منه أنفه وعنقه وذراعه، وقَصُر منه ظهره وساقه وعَسِيبه[١١] وامتدّ عند الحُضْر[١٢] باعه: فهو من أكرم الأصائل،

(١) المهاد: مفردها المهد، وهو السّرير، والمهاد: الأرض السهلة المستوية.
(٢) النظّار: مفردها «الناظر»، وهو الذي يتولّى عملًا إداريًا بارزًا في السياسة والإدارة وغيرهما، ناظر الخارجيّة، ناظر الشرطة...
(٣) بدر: أسرع وتقدّم.
(٤) أنهل: سقى، والسّمر العوالي: الرّماح.
(٥) القواضب: القواطع، والبيض: السّيوف.
(٦) السّابريّة: هي دروع دقيقة النسيج في إحكام، والذوائل: جمع ذائلة وهي الطويلة «القاموس».
(٧) السّمهريّة: الرماح الصلبة العود، المنسوبة إلى «سمهر» وهو رجل كان يقدّم الرّماح، وامرأته «ردينة» التي تنسب إليها الرّماح الدينيّة. والذوابل من الرّماح: الدقيقة.
(٨) المشرفيّة: سيوف تجلب من المشارف، منسوبة إليها، والبواتر: الماضية القاطعة.
(٩) النّواتر: مفردها ناترة وهي القوس تقطع وترها لصلابتها، وتنكّب: ألقى القوس على منكبه، والمنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.
(١٠) الأديم: الجلد.
(١١) العسيب: عظم الذّنب، أو منبت الشعر منه.
(١٢) الحُضر: عدوٌ فيه وثبٌ.

والمعنيّ بقول القائل: [من المتقارب]

وَقَد أغْتَدِي قَبْلَ ضَوْء الصَّباحِ
ووِرْدِ القَطَا في الغُطَاطِ الحَثَاث[١]
بصافِي الثَّلاث عريضِ الثلاث
قصيرِ الثلاث طويلِ الثَّلاث

وذكرتُ ما ورد في فضل الرباط والجهاد، وما أعدّ الله تعالى من الثواب لمن أنفق فيه الطَّوارف والتِّلاد[٢]، وبذل الكريمين: (النفسَ والمال) لحسن المآل، وهجر الحبيبين: (الوطنَ والعِيال) لبلوغ الآمال.

ومِن قاضٍ يحكُم بين الناس بالعدل، ويقدّم ذوي النباهة والفضل.

ومتولِّي مظالمَ يردّها على أهلها بقهره وسلطانه، وسطوته وأعوانه.

وناظر حِسْبةٍ[٣] يُجرِي الأمور على قواعدها الشرعيّة[٤]، وأوضاعها العُرفيّة[٥] وقوانينها المَرْضيّة.

إلى غير ذلك:

من كاتب، ذي رأي صائب، وفهم ثاقب، انقادت له المعاني بأسهل زمام، وأغنت صحائفه عن صَفَحات

(١) الغطاط: اختلاط ظلام آخر الليل بضياء أوّل النّهار، والقطاة: واحدة القطا، وهي نوعٌ من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، والحثاث: النوم الخفيف يسرع إلى العين.

(٢) الطارف والتليد: المال حديثه وقديمه.

(٣) الحسبة: منصب في الدّوَل الإسلامية القديمة كان يتولّاه مسؤول عن مراقبة الأسعار ونحوها «ناصر الحسبة».

(٤) الشّرعية: المنسوبة إلى أحكام الشرع الإسلامي.

(٥) العرفيّة: المنسوبة إلى العُرف: وهو سلوك تعارف عليه الناس في عاداتهم وتقاليدهم وتصرّفاتهم «الاصطلاح».

الحُسَام: [من الكامل]

لَوْ لاحظَتْ عينُ ابن أوْسٍ كُتْبَهُ
ما قال: «إنّ السّيف منها أصْدقُ»[١]

وكاتِب خراج[٢] ضَبَط بقلمه الأموال، وحرّر بنَبَاهته الغِلال، وبسط الموازين، ووضع القوانين، وفصل بين الخراجيِّ[٣] والهلاليّ[٤]، وميّز ما بين الأعمال والتوالي.

وما لا بدّ للملك منه من خواصّ[٥] جُبلتْ على محبّته قلوبُهم، وتجافَتْ عن المضاجع في خدمته جُنُوبُهم.

ومن معقِل[٦] شَمخ على الجوزاء بأنْفه، واتّخذ الثريّا وِشاحاً لعَطْفه[٧]، تَوَارى في قَرار التخوم أساسُه، ولاح للساري ككوكب الظلماء مِقْباسُه[٨]. فالأرض تدّعيه: لأنه ثبتَ على مناكبها، والسماء تنازعها فيه: لأنّه تمَنْطَق[٩] بكواكبها، والجبال تقول متى اتُّخِذت أحجارُه، والمياه تقول عليّ استقرّ قرارُه، وجفن السحاب يَهْمَع[١٠]

---

(١) ابن أوس: يريد أبا تمّام الطائي حبيب بن أوس، ويشير إلى قوله:
السّيف أصدقُ إنباءً من الكتب ... في حدِّه الحدُّ بين الجدّ واللّعب
وهو مطلع قصيدة يمدح فيها المعتصم بن هارون الرّشيد، ويذكر فتح عموريّة. «انظر ديوانه ص ١٤ دار صعب، بيروت».

(٢) الخراج: الجزية التي كانت تفرض على أهل الذمّة، أو على غلّة الأرض.

(٣) الخراجيّ: نسبة إلى الخراج.

(٤) الهلاليّ: عبارة عمّا تُستأدى أجوره مشاهرة، كأجر الأملاك المسقّفة من الآدرّ والحوانيت والحمّامات والأفران وغيرها.

(٥) الخواصّ: المقرّبون من الحاكم من وزراء ورجال ومستشارين.

(٦) المعقل: الحصن والقصر.

(٧) العطف: من الإنسان من لدن رأسهِ إلى وركه.

(٨) المقباس: العود ونحوه ممّا تقبس به النّار.

(٩) تمنطق: شدّ وسطه بالمنطقة، وهي قطعة من جلدٍ أو قماش.

(١٠) يهمع: يهطل ويدمع.

لانحطاطه عن هذه الرتبة، والطير تقول إن لم أبلغه فقد اتّحَدَ به مَنْ بيني وبينه نِسْبَة.

وضمَّنتُ هذا الفن من المنقول ما يسهُل تعاطيه على الأفهام، ووضعتُه على خمسة أقسام.

القسم الأوّل

في اشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه، ووصفه، وتشبيهه، والغَزَل، والنَّسيب، والهوى، والمحبّة، والعشق، والأنسباب

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل

من القسم الأوّل من الفن الثاني

في اشتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، وما يتصل بذلك

فأمّا اشتقاقه وتسميته، فقد اختلف الناس في ذلك: هل هو من الأُنْس الذي هو نقيض الوحشة، أو النَّوْس[1] الذي هو نقيض السكون، أو الإيناس الذي هو بمعنى الإبصار، أو النِّسيان الذي هو نقيض الذِّكْر.

قال الشريف السيّد ضياء الدين أبو السعادات هبة الله المعروف بابن الشجري في «أماليه» (في المجلس التاسع عشر وهو يوم السبت سابعَ عشرَ رجب سنة أربع وعشرين وخمسمائة) في شرح قول أعشى تَغْلِب[2]: [من الطويل]

وكانُوا أُناسًا يَنْفَحُون فأصبَحُوا   وأكثَرُ ما يُعْطُونَك النظَرُ الشَّزْرُ[3]

قوله: «وكانوا أُناسًا ينفَحون» وزن أناس فُعال، وناس منقوص منه عند أكثر النحويّين: فوزنه عالٌ. والنقص والإتمام فيه متساويان في كثرة الاستعمال ما دام

---

(١) النَّوس: الحركة.

(٢) أعشى تغلب: هو كهمس بن قعنب بن وعلة بن عطيّة العكلي، أعشى بني عُكل، شاعرٌ كان في عصر جرير، من آثاره ديوان شعر: «المؤتلف والمختلف للآمدي: ص ١٨، دار الكتب العلمية، بيروت».

(٣) ينفحون: يعطون كرمًا، والنّظر الشّزر: أي صاروا ينظرون إلى الطالبين نظرة إعراض، أو غضب أو استهانة، ونظر شزرًا: أي نظر بمؤخّر عينه غضبًا أو إعراضًا.

منكورًا، فإذا دخلت عليه الألف واللام، التزموا فيه الحذفَ، فقالوا: «الناس» ولا يكادون يقولون: «الأُناس» إلّا في الشعر؛ كقوله: [من مجزوء الكامل المزمّل]

إنَّ الـمَـنَـايَـا يَـطَّـلِعْـــ ـنَ عـلـى الأُنَـاسِ الآمـنـيـنَـا

وحجّة هذا المذهب وقوع الأُنس على الناس، فاشتقاقه من الأُنْس نقيض الوحشة؛ لأن بعضهم يأنس إلى بعض. وبه[1] أخذ بعض الشعراء في قوله: [من الطويل]

ومـا سُـمِّـيَ الإنـسـانُ إلا لأُنْـسِـه ولا الـقـلـبُ إلا أنّـه يـتـقـلَّـبُ

قال: وذهب الكسائيُ[2] إلى أن «الناس» لغة مفردة، وهو اسم تامّ وألفه منقلبة عن واو، واستدلَّ بقول العرب في تحقيره نُوَيْس.

قال: ولو كان منقوصًا من أناس لردّه التحقير إلى أصله، فقيل: «أُنَيِّس».

وقال بعضُ مَنْ وافق الكسائيّ في هذا القول: إنه مأخوذ من النَّوس، مصدر ناس يَنُوس إذا تحرّك. ومنه قيل لملِك من ملوك حمير ذو نُوَاس[3]: لضفيرتين كانتا تَنُوسان على عاتقه.

قال الفرّاء[4]: والمذهب الأوّل أشبه، وهو مذهب المشيخة.

وقال أبو عليّ الفارسيّ[5]: أصل الناس الأناس، فحذفت الهمزة التي هي فاء، ويدلّك على ذلك الإنْسُ والأَنَاسِيّ، فأمّا قولهم في تحقيره نُوَيْس فإن الألف لما

---

(١) لم نجد هذه الزّيادة في أمالي ابن الشجريّ، الموجود منها نسخة مخطوطة «بدار الكتب المصريّة».

(٢) الكسائي: أبو الحسن عليّ بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي بالولاء الكوفي، المعروف بالكسائي، أحد القرّاء السّبعة، وإمامًا في النّحو واللّغة والقراءات، توفي سنة ١٨٩ هـ. «انظر: إعجام الأعلام: ص ١٧٣، دار الكتب العلمية».

(٣) ذو نواس: آخر ملوك حمير في اليمن، وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن الكريم، كان يدين باليهودية. «فهرس الأعلام ٣/ ٨».

(٤) الفرّاء: هو يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، أبو زكريا، إمام الكوفيّين وأعلمهم بالنّحو واللغة والأدب، ولد بالكوفة، وتوفي في طريق مكّة سنة ٨٢٢ م، وكان فقيهًا ومتكلّمًا وعالمًا بأيّام العرب وأخبارها. «فهرس الأعلام: ٨/ ١٤٥».

(٥) أبو علي الفارسيّ: هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أحد الأئمّة في علم العربيّة، ولد في «نسا» من أعمال فارس، وتجوّل في بغداد وكثير من البلدان وقدم حلب، فأقام مدّة عند سيف الدولة الحمدانيّ، له مؤلّفات ومصنّفات عديدة، توفي ببغداد سنة ٩٨٧ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٧٩».

صارت ثانية وهي زائدة أشبهت ألف فاعل، يعني: أنها أشبهت بكونها ثانية، وهي زائدة أَلِفَ «ضاربٍ» فقيل: نويس، كما قيل ضويرب.

وقال سَلَمَة بن عاصم[١]، وكان من أصحاب الفراء: الأشبه في القياس أن يكون كلُّ واحد منهما أصلًا بنفسه فأناس من الأنس، وناس من النوس لقولهم في تحقيره نويس كبويب في تحقير باب.

هذا ما قاله ابن الشجريّ في أماليه.

وذهب أبو عمرو الشَّيبانيّ[٢]: أنه مشتقّ من الإيناس، الذي هو بمعنى الإبصار؛ وحجّته قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ [طه: الآية ١٠]، أي أبصرت نارًا.

وذهب الكوفيّون[٣] إلى أنّه مشتقّ من النِّسْيان، وحجّتهم أن أصله إنسِيَان، فحذفت الياء تخفيفًا وفتحت السين لأن الألف تطلب فتح ما قبلها، ولأن العرب حين صغّرته قالت فيه أُنَيْسِيان، فزادت الياء. والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها، ولو لم تكن في المكبر لما رُدَّت في المصغَّر، وبه أخذ أبو تمام في قوله: [من الكامل]

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهود فإنما سُمِّيَت إنسانًا لأنك ناسِي

وأنكر البصريّون[٤] ذلك، وقالوا: لا حجّة فيه، لأن العرب قد صغّرت أشياء على غير قياس، كما قالوا في تصغير رجل بمعنى راجل رُوَيْجل، وفي تصغير ليلة لُيَيْلِية، وفي تصغير عَشِيّة عُشَيْشة.

وقال ابن عبّاس: إنما سُمّي الإنسان إنسانًا لأنه عُهِد إليه فنَسِي.

وهذا هو الأرجح، والله تعالى أعلم.

---

(١) هو سلمة بن عاصم النّحوي، أبو محمد، من أهل الكوفة، عالم بالعربيّة لهُ كتب منها: «معاني القرآن»، وغريب الحديث، توفي سنة ٩٢٢ م. «فهرس الأعلام: ٣/ ١١٣».

(٢) أبو عمرو الشيبانيّ: هو إسحٰق بن مرار الشيباني بالولاء، أبو عمرو، لغويٌّ أديب من رمادة الكوفة، سكن بغداد ومات بها سنة ٨٢١ م، له مصنّفات كثيرة منها: كتاب اللّغات، وكتاب الخيل، وكتاب «النوادر» و «غريب الحديث». «فهرس الأعلام: ١/ ٢٩٦».

(٣) الكوفيّون: أصحاب المذهب الكوفي التابع لمدرسة الكوفة «في اللغة والنحو والأدب»، وكانوا يحترمون كلام العرب، ولا يأخذون بالقياس.

(٤) البصريّون: أصحاب المذهب البصري التابع لمدرسة البصرة «في اللغة والنحو والأدب»، وكانوا يعملون بالقياس لضبط اللغة وقواعدها.

فصل

قال أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب العقد[١] في كتابه يرفعه إلى وهب بن منبّه[٢] أنّه قال: قرأت في «التوراة» أن الله عزّ وجلّ حين خلق آدم رَكَّب جسده من أربعة أشياء، ثم جعلها وِرَاثَة في ولده، تنمى في أجسادهم، وينمون عليها إلى يوم القيامة. رَطْب، ويابس، وسُخْن، وبارد. قال: وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء، وجعل فيه يُبْسًا ورطوبة، فيبوسة كل جسد من قِبَل التراب، ورطوبته من قِبَل الماء، وحرارتُه من قِبَل النفس، وبرودته من قِبَل الروح. ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأوّل أربعةَ أنواع أُخَر وهي مِلَاكُ الجسد وقِوَامه، لا يقوم الجسد إلّا بهنّ، ولا تقوم واحدة منهنّ إلّا بأخرى: المِرّة[٣] السوداء، والمرّة الصفراء، والدم الرطب الحارّ، والبلغم[٤] البارد. ثم أسكن بعضَ هذا الخلق في بعض، فجعل مَسْكن اليبوسة في المِرّة السوداء، ومسكن الرطوبة في الدّم، ومسكن البرودة في البلغم، ومسكن الحرارة في المِرّة الصفراء، فأيّما جسدٍ اعتدلت فيه هذه الفِطَر الأربع وكانت كلُّ واحدة فيه وفقًا لا تزيد ولا تنقص، كَمُلت صحّته واعتدل بناؤه، فإن زادت واحدة منهنّ عليهنّ وقهَرتْهنّ ومالت بهنّ، دخل على أخواتها السُّقْم من ناحيتها بقدر ما زادت، وإن كانت ناقصة عنهنّ، مِلْن بها وعلونها وأدخلن عليها السُّقْم من نواحيهنّ، لغلبتهنّ عليها حتّى تضعُف عن طاقتهنّ وتعجزَ عن مقاومتهنّ.

قال وهب: وجعل عقله في دماغه، وشَرَهه[٥] في كُلْيتيه، وغضبه في كبده، وصَرَامته[٦] في قلبه، ورغبته في رئته، وضحكه في طحاله، وحزنه وفرحه في وجهه، وجعل فيه ثلاثمائة وستّين مَفْصِلًا.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربّه، صاحب كتاب «العقد» الموسوم بالفريد، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ هـ، يقول عنه الثعالبي في اليتيمة: «إنه أحد محاسن الأندلس علمًا وفضلًا وأدبًا ومثلًا وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة». أصيب بالفالج في أواخر حياته، وتوفي سنة ٣٢٨ هـ. «انظر مقدمة العقد: دار الكتب العلمية، بيروت».

(٢) هو وهب بن منبّه الأنباري الصنعانيّ الذماري، أبو عبد الله، مؤرّخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأوّلين، ولا سيّما الإسرائيليّات، ولد ومات بصنعاء سنة ٧٣٢ م. «فهرسُ الأعلام: ٨/ ١٢٥».

(٣) المرّة: خلطٌ من أخلاط البدن، وهو المسمّى المزاج.

(٤) البلغم: خلطٌ من أخلاط الجسم، وهو أحد الطبائع الأربع «قديمًا» أو اللّعاب المختلط بالمخاط الخارج من المسالك التنفسيّة.

(٥) الشّره: اشتداد الحرص على الطعام واشتهاؤه. (٦) الصّرامة: القسوة.

ويقال: إنما لُقّب الإنسان بالعالم الصغير، لأنهم مَثَّلوا رأسه بالفلك، ووجهه بالشمس إذ لا قِوام للعالَم إلّا بها كما لا قِوام للجسد إلا بالرُّوح، وعقلَه بالقمر لأنّه يزيد وينقص ويذهب ويعود، ومثّلوا حواسَّه الخمسَ ببقية الكواكب السيَّارة، وآراءه بالنجوم الثابتة، ودمعه بالمطر، وصوته بالرعد، وضحكه بالبرق، وظهره بالبَرّ، وبطنه بالبحر، ولحمه بالأرض، وعظامه بالجبال، وشعره بالنبات، وأعضاءه بالأقاليم[١]، وعروقه بالأنهار، ومغار عروقه بالعيون.

ومنها: أن فيه ما يشاكل الجمعة، والشهر، والأيام، والسنة.

أمّا أيام الجمعة، فإن بدنه سبعة أجزاء، وهي اللحم، والعظام، والعروق، والأعصاب، والدّمُ، والجلد، والشعر.

وأمّا الشهور، فإن لبدنه أثني عشر جزءًا مدبرةً: ستّة منها باطنة، وهي الدماغ، والقلب، والكَبِد، والطِّحال، والمعدة، والكُلْيتان؛ وستّة ظاهرة، وهي العقل، والحواسُّ الخمس؛ فهذه الاثنا عشر مقابلة لشهور السنة.

وأمّا الأيام، فإن فيه ثلاثمائة وستين عظمًا؛ منها ما هو لبِنْية الجسد مائتان وثمانية وأربعون عظمًا. والإنسان ينقسم إلى أربعة أنواع: الرأسُ، واليدان، والبدن، والرِّجْلان؛ ففي الرأس اثنان وأربعون عظمًا؛ وفي اليدين اثنان وثمانون عظمًا؛ وفي البدن أربعون عظمًا؛ وفي الرجلين أربعة وثمانون عظمًا؛ والباقي سُمْسُمانية[٢] لسدّ الفروج[٣] التي تكون بين العظام، وفيه ثلاثمائة وستّون عِرْقًا.

وأمّا فصول السنة: فإن فيه أربعة أخلاط طَبْعُها طبعُ الفصول الأربعة، فالدّم كالربيع في حرارته ورطوبته، والمِرّة الصفراء كالصيف في حرّه ويبسه، والمرّة السوداء كالخَريف في برده ويبسه، والبلغم كالشتاء في برده ورطوبته. وهذه الأخلاط[٤] من أوّل مزاج الأركان التي هي العناصر الأربعة، وهي: النار، والهواء، والماء، والأرض.

---

(١) الأقاليم: جمع إقليم، وهو قسم من الأرض، يختصّ بمميّزات معيّنة.

(٢) السّمسانيّة: نسبة إلى السّمسمان، وهو الخفيف اللطيف من كلّ شيء أو إلى السُّمسم: لصغرها.

(٣) الفروج: مفردها «فرج» وهو الشقّ والفتق.

(٤) الأخلاط: جمع خلط، وهو ما خالط الشيء، «وأخلاط البدن» أربعة: الدمّ، والمرّة الصفراء، والمرّة السّوداء، والبلغم.

فصـل

وأمّا ترتيب أحواله، وتنقّل السنّ به إلى أن يتناهى:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحجّ: الآية ٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١٢ - ١٤].

وقال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: الآية ٦٧].

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يكون عَلَقَةً مِثْلَ ذٰلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً[1] مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يبعثُ الله تعالى مَلَكًا فيؤمَرُ بأرْبَع: برزقه وأجله وشقيّ أو سعيد» الحديث.

وعنه ﷺ أنّه قال: «وكّلَ الله بالرحم مَلَكًا، فيقولُ: أيْ ربّ نطفةٌ! أي ربِّ علَقةٌ! أي ربِّ مضغةٌ! فإذا أراد الله أن يقْضِيَ خَلْقَها قال: أيْ ربِّ ذكَرٌ أم أنثى؟ أشقيٌّ أم سعِيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ[2]؟ فيُكتَبُ كذلك في بطن أُمِّه».

خرّج ذلك البخاريّ في «صحيحه» في باب القَدَر.

وقال الثعلبيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق: الآية ١٩]:

(١) المضغة: القطعة من اللّحم، صغيرة.
(٢) الأجل: الوقت يحدّد لانتهاء الشيء أو حلوله، يقال: جاء أجله: إذا حان موته.

«قالت الحكماء: يشتمل الإنسانُ من كونه نطفة إلى أن يهرَمَ ويموت على سبعة وثلاثين[١] حالًا، وسبعة وثلاثين اسمًا: نُطْفة، ثم عَلَقة، ثم مُضْغة، ثم عَظْمًا، ثم خَلْقًا آخر، ثم جَنِينًا، ثم وَلِيدًا، ثمّ رَضِيعًا، ثم فَطِيمًا، ثم يافِعًا، ثم ناشِئًا، ثم مُتَرَعْرِعًا، ثم حَزَوَّرًا، ثم مُرَاهِقًا، ثم مُحْتَلِمًا، ثم بالِغًا، ثم أمْرَدَ، ثم طارًّا، ثم باقلًا، ثم مُسْيَطِرًا، ثم مُصْرِخًا، ثم مُخْتَطًّا، ثم صُمُلًّا، ثم مُلْحِيًا، ثم مستريمًا، ثم مصعدًا، ثم مُجْتَمِعًا».

وقال غيره:

ما دام الولد في الرَّحِم، فهو جَنِين؛ فإذا وُلِد، فهو وَلِيد، وما دام لم يَسْتَتِمَّ سبعةَ أيام، فهو صَدِيغ: لأنّ لم يشتدّ صُدْغُه إلى تمام السّبعة، ثم ما دام يَرْضَع، فهو رَضِيع، فإذا قُطِع عنه اللبن، فهو فَطِيم؛ ثم إذا غلُظ وذهبت عنه تَرارة[٢] الرَّضاعة، فهو جَحْوَش.

قال الهذليّ[٣]: [من الوافر]

قَـتَـلْنَـا مَـخْـلدًا وابـنَـيْ حُـراقٍ ... وآخَرَ جَحْوَشًا فوقَ الفَطِيم[٤]

ثم إذا دَبَّ ونَمَا، فهو دارِج.

فإذا بلغ طُولُه خمسةَ أشبار، فهو خُمَاسيّ.

فذا سقطت رواضعُه، فهو مَثْغور.

فإذا نبتت أسنانه بعد السُّقُوط، فهو مُثَّغِر ومتَّغِر معًا.

فإذا تجاوز[٥] عشر سنين أو جاوزَها، فهو مترعْرِع وناشىء.

فإذا كاد أن يبلُغَ الحُلُم أو بلغه، فهو يافِعٌ ومراهِق.

---

(١) البيانات التالية بعده، سبعة وعشرون، فلعلّها محرّفة عنها.

(٢) الترارة: امتلاء الجسم، وتروّي العظم. (٣) الهذلي: هو المعترض بن حبواء الضفري.

(٤) ورد هذا البيت في «شرح أشعار الهذليين: ٢/٦٧٨»، وقد جاء في الشّرح: كانت بنو ظفر من بني سليم وبنو خناعة، حربًا، فدلّ رجلٌ من بني خناعة بني ظفر على بني وائلة بن مطحل، وهمّ بالقدوم من نعمان فبيّتوهم، فقتلوا ابني وائلة: خالدًا ومخلّدًا، وصبية ثلاثة من بني حُراق، فقال المعترض بن حبواء الظفري هذا البيت. والجحوش: الصبيّ ابن ثلاث أو أربع سنين. «انظر كذلك فقه اللغة للثعالبي: ص ٨٢، دار الكتب العلمية».

(٥) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل، وفي فقه اللغة للثعالبي ص ٨٢: «فإذا كاد يجاوز العشر السّنين أو جاوزها فهو مترعرعٌ وناشىء»، وهو الصّواب.

فإذا احتلم[١] واجتمعَتْ قوّتُه، فهو حَزَوّر؛ واسمه في جميع هذه الأحوال التي تقدّم ذكرها غُلَام.

فإذا اَخَضَرَّ[٢] شاربه وأخذ عِذارُه[٣] يَسِيل، قيل فيه قد بَقَل[٤] وجهُه.

فإذا صار ذا فَتَاءٍ، فهو فتًى وشارخ[٥].

فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غايةَ شبابه، فهو مجتمِع.

ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين، فهو شابٌّ، ثم هو كَهْل إلى أن يستوفِيَ الستّين.

فصل في ظهور الشّيب وعمومه[٦]

يقال للرجل أوّلَ ما يظهر به الشيبُ، قد وَخَطَه[٧] الشّيب.

فإذا زاد، قيل خَصَّفه[٨] وخَوَّصه.

فإذا ابيضَّ بعضُ رأسه، قيل: قد أخْلَس رأسُه، فهو مُخْلِس.

فإذا غلب بياضُه سوادَه، فهو أغثَمُ.

فإذا شَمِطت[٩] مواضعُ من لحيته، قيل: وخَزَه القَتير[١٠] ولَهزه.

---

(١) في فقه اللغة ص ٨٢: «فإذا أدرك».

(٢) اخضرّ شاربه: اسودّ.

(٣) العذار: جانب اللحية.

(٤) بقل وجهه: نبتت لحيته.

(٥) الشارخ: الشّابّ.

(٦) قوله (فصل في ظهور الشيب وعمومه): مَن تصفّح هذا الفصل المركّب من أربع صفحات ظهر له أن مضامينه ملفّقة تلفيقًا: فإنه افتُتح بذكر الشيب. وبعد أسطر قطع الكلام في الشيب وقال: (وقيل ما السرور؟) فكتب سطرًا واحدًا ثم قال: (وأما النفس الغضبية) فكتب سطرًا واحدًا عنها ثم قال: (وقيل لحصين بن المنذر ما السرور الخ). ثم بعده (وقيل لفلان ولفلان ما السرور الخ). ثم رجع وقال: (وأما النفس البهيمية) وبعدما كتب عنها نحو نصف صفحة قال: (وقيل لامرىء القيس ما السرور) فأجاب كذا وكذا وقيل لفلان وقيل لفلان وهكذا إلى آخر الفصل. وظاهر أن تقسيم النفس إلى غضبية وبهيمية لا علاقة له بالشيب وكذلك اختلاف الناس فيما هو السرور. مع أن المؤلف عاد فعقد للشيب في ص ٢١ فصلاً خاصًا أسهب فيه القول أيّما إسهاب.

(٧) وخطه الشيب: خالط سواد شعره.

(٨) في فقه اللغة للثعالبي ص ٨٣: «قد خَصَفه»، دون تشديد «الصّاد».

(٩) شمطت: اختلط شعرها الأسود والأبيض.

(١٠) القتير: أوّل ما يظهر من الشّيب، وهو رؤوس المسامير في الدّرع، ولهزه: طعنه، ولهزه الشّيب: خالط سواد شعره.

فإذا كَثُر فيه الشيبُ وانتشر، قيل: فيه قد تقشَّع[١] فيه الشيبُ.

ويقال أيضًا: شابَ الرجل، ثم شَمِط، ثمّ شاخَ، ثم كَبِر، ثم توجَّه، ثم دَلَف، ثم دَبَّ، ثم مَجَّ، ثم هَدَج، ثم ثَلَّب، ثم الموت.

وقيل: ما السرور؟ قال: إدراكُ الحقيقة، واستنباط الدَّقيقة.

* * *

وأما النفس الغضبية، فهمُّ صاحبها منافَسَة الأكْفاء[٢] ومغالبة الأقْران ومكاثرة العشيرة.

ومن ذلك ما أجاب به حضين بن المنذر[٣]، وقد قيل له: ما السُّرور؟ قال: لواءٌ منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليكَ أيها الأمير.

وقيل للحسن بن سهل[٤]: ما السرور؟ قال: توقيعٌ جائز، وأمرٌ نافذ.

وقيل لعبد الله بن الأهتم[٥]: ما السرور؟ قال: رفعُ الأولياء، ووَضْع الأعداء، وطول البقاء، مع الصحَّة والنماء.

وقيل لزياد[٦]: ما السرور؟ قال: من طال عُمُره، ورأى في عدوّه ما يسُرُّه.

---

(١) كذا بالأصل، وفي فقه اللغة ص ٨٣: «قد تفشّع» وهو الصّواب، قال في القاموس: وتفشّع فيه الشيب أو الدم: انتشر وكثر.

(٢) الأكفاء: مفردها كفء، وهو المماثل.

(٣) هو حصين بن المنذر بن الحارث الذهلي الشيباني الرّقاشي، أبو ساسان أو أبو اليقظان، تابعي، من سادات ربيعة وشجعانهم، ومن ذوي الرأي، كان صاحب راية عليّ بن أبي طالب يوم صفّين، توفي سنة ٧١٥ م. «فهرس الأعلام: ٢/ ٢٦٣».

(٤) هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسيّ، أبو محمّد، وزير المأمون العبّاسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره، اشتهر بالذّكاء المفرط، والأدب والفصاحة والكرم وحسن التوقيعات، توفي سنة ٨٥١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٩٢».

(٥) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميميّ المنقري، من فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالبصرة، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمّه، مات بعد أن كفّ بصره سنة ٧٥٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٧».

(٦) لعلّه زياد بن أبيه، الأمر، من الدّهاة والقادة الفاتحين والولاة، وهو من الخطباء المشهورين. «انظر فهرس الأعلام ٣/ ١٥٣».

وقيل لأبي مسلم(١)، صاحب الدعوة: ما السُّرور؟ قال: ركوب الهَمَالجة(٢)، وقتل الجبابرة. وقيل: ما اللذّة؟ قال: إقبال الزمان، وعِزُّ السلطان.

* * *

وأمّا النفس البهيمة، فهمُّ صاحبها طلبُ الراحة، وانهماك النَّفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح.

وعلى هذه الطبيعة البهيمية قسمت الفُرْسُ دهرها كلَّه، فقالوا:

يوم المَطَر للشرب، ويوم الريح للنوم، ويوم الدَّجْن(٣) للصيد، ويوم الصَّحْو للجلوس.

وقيل: ولما بلغ ابن خالويه(٤) ما قسمته الفرس من أيّامها قال: ما كان أعْرَفَهم بسياسة دنياهم! ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الرُّوم: الآية ٧].

ولكنّ نبيّنا ﷺ جَزَّأ نهارَه ثلاثةَ أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه؛ ثم جَزَّأ جزاءه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصّة على العامّة، ويقول: «أبْلِغُوا حاجةَ مَنْ لا يَسْتَطِيعُ إبلاغي، فإنّه مَنْ أبلغ حاجةَ مَنْ لا يستطيع، آمنه الله يوم الفَزَع الأكبر».

قالوا: والطبيعة البهيمية هي أغلبُ الطبائع على الإنسان: لأخذها بمَجَامع هواه، وإيثار الراحة وقلّة العمل.

ومن ذلك قولهم: الرأي نائم، والهوى يقظانُ، وقولهم: الهوى إلهٌ معبودٌ.

---

(١) أبو مسلم الخراساني: هو عبد الرحمٰن بن مسلم، مؤسس الدولة العباسيّة وأحد كبار القادة، ولد في «ماه البصرة»، ممّا يلي أصبهان، كان فصيحًا في العربية والفارسية، قتل سنة ٧٥٥ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٣٧».

(٢) الهمالجة: الهملاج: ما ذلّل وسلس قياده من الدّواب.

(٣) الدّجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السّماء.

(٤) ابن خالويه: هو الحسين بن أحمد أبو عبد الله، لغويّ، من كبار النحاة، أصله من همذان، استوطن حلب، وأحلّه بنو حمدان منزلة رفيعة، وتوفي في حلب سنة ٩٨٠ م، له مؤلّفات عدّة منها: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، وليس في كلام العرب. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٣٠».

ومن ذلك ما أجاب به ٱمرؤ القيس، وقد قيل له: ما السرور؟ فقال: بيضاء رُعْبُوبة[١]، بالطيب مَشْبوبة[٢]، باللحم مَكْروبة[٣]. «وكان مفتونًا بالنساء».

وقيل لأعشى بكر[٤]: ما السرور؟ قال: صَهْباءُ صافية، تَمْزُجُها ساقية، من صَوْب غادية[٥]. «وكان مغرمًا بالشراب».

وقيل لطَرَفة بن العبد: ما السرور؟ قال: مَطْعم هَنِيّ، ومَشْرَب رَوِيّ، ومَلْبَس دَفِيّ، ومَرْكَب وَطِيّ. «وكان يؤثر الخفض[٦] والدَّعة»، وهو القائل: [من الطويل]

فلولا ثَلاثٌ هنّ من عِيشةِ الفتى ... وعَيْشِك! لم أحْفِلْ متى قام عُوَّدي[٧]
فمنهنّ سبقي العاذلات بشَرْبة ... كُمَيتٍ متى ما تُعلَ بالماء تزبدِ[٨]
وكَرِّي إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبا ... كسيدِ الغَضا نبَّهْتَه المتورِّدِ[٩]
وتقصيرُ يوم الدَّجْن والدَّجْنُ مُعْجِب ... ببَهْكَنةٍ تحت الخِبَاء المُعَمَّد[١٠]

وسمع هذه الأبياتَ عمر بن عبد العزيز فقال: وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدي: لولا أن أعدِل في الرعيّة، وأقسِم بالسويَّة، وأنفِرَ في السَّرِيَّة[١١].

وقال عبد الله بن نَهِيك، عفا الله تعالى عنه: [من الطويل]

فلولا ثلاثٌ هنّ من عِيشة الفتى ... وعَيْشِك لم أحْفِل متى قام رامسُ[١٢]
فمنهنّ سَبْقُ العاذلات بشربة ... كأنَّ أخاها مطلَعَ الشمس ناعِسُ[١٣]

---

(١) الرعبوبة: الغضّة البيضاء الممتلئة الجسم والطويلة.
(٢) المشبوبة: المضمّخة بالطيب. (٣) المكروبة: المثقلة باللحم.
(٤) أعشى بكر: هو ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل الشاعر الجاهلي المشهور، وأحد أصحاب المعلّقات، كان مفتونًا بالخمر والنّساء والقمار، أدرك الإسلام ولم يسلم. «انظر المؤتلف والمختلف للآمدي، ص ١٢».
(٥) الغادية: السّحابة تنشأ فتمطر غدوة. (٦) الخفض: الدعة والحياة الوادعة المنعّمة.
(٧) العوّد: جمع عائد، وهو الزّائر للمريض.
(٨) العاذلة: اللائمة، والشربة: الجرعة، والكميت: الخمرة التي فيها سوادٌ وحمرة.
(٩) الكرّ: العطف، والمضاف: الخائف المذعور، والمضاف: الملجأ، والمحنّب: الذي في يده انحناء، السيّد: الذئب، والغضا: شجر، والمتورّد: المتقدّم لورود الماء.
(١٠) الدّجن: الغيم، البهكنة: المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة، وفي الديوان الطّراف بدل الخباء. «انظر ديوان طرفة ص ٣٣، دار صادر».
(١١) انفر في السّرية: أي أتقدّم الجيش للجهاد، والسّريّة: القطعة من الجيش.
(١٢) أحفل: أهتمّ، والرّامس: من الرّمس وهو القبر.
(١٣) العاذلات: اللائمات، والناعس: الذي أخذه فتورٌ في أعضائه وحواسه.

ومنهنّ تجريدُ الكَواعب كالدُّمى إذا ابْتُزَّ عن أكفالهنّ الملَابِسُ(١)
ومنهنّ تقريط الجَوَاد عِنانَه إذا ابتدر الشخصَ الخفيّ الفوارسُ(٢)

وقيل ليزيد بن مزيد(٣): ما السرور؟ فقال: قُبْلة على غفلة.

وقيل لحُرقَة بنت النعمان: ما كانت لذّةُ أبيك؟ قالت: شربُ الجِرْيال(٤)، ومحادثة الرجال.

وقيل للحسن بن هانىء(٥): ما السرور؟ فقال: مجالسة الفِتْيان، في بيوت القيَان، ومنادمة الإخوان، على قُضُبِ الرَّيْحَان؛ ثمّ أنشد: [من مجزوء الرمل]

قلتُ بالقُفْص لموسى ونَدَامايَ نِيَامُ(٦)
يا رضيعي ثدي أمٍّ ليس لي عنه فِطَامُ
إنما العَيْشُ سَمَاعٌ ومُدَامٌ ونِدَامُ
فإذا فَاتَكَ هذا فعلى الدُّنيا السلامُ!

الباب الثاني
من القسم الأوّل من الفن الثاني
في وصف أعضاء الإنسان وتشبيهها

وما وصف به طِيب الريق والنَّكْهة، وحسن الحديث، والنَّغْمة، واعتدال القدود(٧)، ووصف مَشْي النساء، وهو مرتّب على ترتيب بِنْية الإنسان في المذكّر والمؤنّث.

***

(١) الكواعب: مفردها «كاعب» وهي الفتاة التي نهد ثديُها وأشرف، والدّمى: مفردها دمية: وهي الفتاة المزيّنة الحسنة الخلق والمظهر، والكفل: العجُز في الإنسان.
(٢) تقريط الجواد عنانه: أي وضع اللجام وراء أذن الجواد عند الركض.
(٣) هو يزيد بن مزيد بن زائدة الشيبانيّ، أبو خالد، أمير من القادة الشجعان، أخبار كرمه وشجاعته مشهورة، وقد انتدبه الرشيد لقتال الخارجين عليه. توفي بـ «بردعة» من بلاد أذربيجان سنة ٨٠١ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٨٨».
(٤) الجريال: صبغٌ أحمر، وهو هنا: الخمر.
(٥) الحسن بن هانىء: هو الشاعر المشهور بأبي نواس، شاعر العراق في عصره، وشاعر الخمرة والمجون، وهو من كبار الشعراء في العصر العباسي، توفي سنة ٨١٤ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٢٥».
(٦) القفص: قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا، وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزه، ومجالس الفرح، تنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة. «معجم البلدان ٤/ ٣٨٢».
(٧) القدود: جمع قدّ وهو القوام.

فأمّا الشَّعَر وما قيل فيه، قال الثعالبيّ عن أئمّة اللغة:

العَقِيقة، الشَّعَر الذي يولَدُ به الإنسان.

الفَرْوة، شعر معظم الرأس.

الناصِيَة، شعر مقدّم الرأس.

الذُّؤابة، شعر مؤخَّر الرأس.

الفَرْع، شعر رأس المرأة.

الغَدِيرة، شعر ذُؤابتها.

الغَفَر، شعر ساقها(١).

الدَّبَب، شعر وجهها.

الوَفْرة، ما بلغ شحمةَ الأذن من الشعر.

اللِّمَّة، ما ألَمَّ بالمَنْكِب(٢) منه.

الطُّرَّة، ما غشَّى الجَبهة منه.

الجُمَّة والغَفْرة، ما غطَّى الرأس منه.

الهُدْب، شعر أشفار العين.

الشارب، شعر الشَّفَة العليا.

العَنْفَقَة، شعر الشفّة السُّفلى.

المَسْرَبة، شعر الصدر. وفي الحديث أنّه كان عليه الصّلاة والسلام دقيق المَسْرَبة.

الشِّعْرة، العانة.

الإسْب، شعر الاست.

الزَّبَب، شعر بدن الرجل. ويقال: بل هو كثرة الشعر في الأذنين.

* * *

(١) في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٢، الغفر: الشعر الناعم.

(٢) المنكب: من الإنسان مجتمع رأس الكتف والعضد.

فصل في تفصيل أوصافه

يقال: شعر جُفَال، إذا كان كثيرًا.

ووَحْفٌ، إذا كان متّصلًا.

وكَثٌّ، إذا كان كثيرًا كثيفًا مجتمعًا.

ومُغْلَنِكس، ومُغْلَنْكك، إذا زادت كثافَتُه[١].

ومُنْسدِر، إذا كان منبسطًا.

وسَبِط، إذا كان مستَرْسِلًا.

ورَجْل، إذا كان غير جَعْد ولا سبط.

وقَطَطٌ، إذا كان شديد الجُعُودة.

ومُقْلَعِطٌّ، إذا زاد على القَطَط.

ومُفَلْفَل، إذا كان نهايةً في الجُعُودة كشعر الزِّنج.

وسُخَام، إذا كان حسنًا لَيِّنًا.

ومُغْدَوْدِن، إذا كان طويلًا ناعِمًا.

وقال الأصمعيّ[٢]: من لم يَخِفَّ شعره قبل الثلاثين لم يَصْلَع أبدًا؛ ومن لم يحمل اللحمَ قبل الثلاثين لم يحمله أبدًا.

* * *

ومما وُصف به الشَّعَرُ، قال نصر بن أحمد[٣]، عفا الله تعالى عنه: [من الخفيف]

سَلْسَل الشَّعْر فوقَ وجهٍ فحاكى ظُلْمَةَ الليل فوقَ ضَوْءِ الصَّباحِ

---

(١) في فقه اللغة ص ٩٣: «ومُعلنكس ومعلنكك»: إذا زادت كثاثته وهو الأصوب.

(٢) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد، راوية العرب وأحد أئمّة العلم باللغة والشعر والبلدان، مولده ووفاته بالبصرة سنة ٨٣١ م، له مؤلفات عديدة، وكان يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. «فهرس الأعلام ٤/ ١٦٢».

(٣) هو نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري، أبو القاسم، شاعر غزل، علت شهرته ويعرف «بالخبزأرُزي»، وكان أميًّا يخبز «خبز الأرز»، توفي سنة ٩٣٩ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٢١».

وقال ابن الروميّ: [من المنسرح]

وفاحم واردٍ يُقبِّلُ مَمـ ـشاه إذا اخْتالَ مُرْسِلاً غُدُرَهْ[١]
أقْبَلَ كالليْل من مَفارِقه منحدِرًا لا يَذُمُّ منحَدَرَهْ
حتّى تناهى إلى مَواطِئِه يَلْثِمُ من كلّ مَوْطِىء عَفَرَهْ[٢]
كأنّه عاشِقٌ دَنا شَغَفًا حتّى قضى من حَبِيبه وَطَرَهْ[٣]

وقال فتح الدّين بن عبد الظاهر[٤]: [من السريع]

حَلّ ثلاثًا يوم حَمّامِه ذوائبًا يَعْبَقُ منها الغَوالْ[٥]
فقلتُ والقَصْدُ ذُؤاباتُه يا سَهَري في ذي اللّيالِ الطّوالْ!

وقال آخر: [من السريع]

قد عُلّق القلب بدَبُّوقةٍ وجُنّ منها فهو مَفْتونْ؟[٦]
واعجَبًا لِلْعِشق في حُكْمِه بشَعْرة قُيِّد مَجْنُونْ!

وقال آخر: [من الطويل]

رأيتُ على قَدِّ الحَبِيبِ ذُؤابةً فعَيْنِي على تلك الذُّؤابة تَهْمَعُ[٧]
يقول لِيَ الواشُونَ: ما لَك باكِيًا؟ فقلت: بِعَينِي شَعْرةٌ فهي تَدْمَعُ[٨]

وقال آخر: [من السريع]

وشَعْرةٍ عايَنَها ناظِري على قَوَام مائِس الخَطْرَهْ[٩]
فسالَ دَمْعًا وَهْمي جَفْنُه والدَّمْعُ لا شَكَّ من الشَّعْرَهْ

---

(١) الفاحم: الشعر الأسود، والغدر: مفردها غديرة وهي الذؤابة المضفورة من شعر المرأة.
(٢) عفره: العفر: وجه الأرض، والتراب. (٣) الوطر: الحاجة.
(٤) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذاميّ السّعدي محيي الدّين، قاضٍ أديب مؤرّخ، من أهل مصر مولدًا ووفاةً، كان كاتب الإنشاء في الدّيار المصرية له كتب عدّة، منها: الروضة البهيّة الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، وله شعر حسن. توفي سنة ١٢٩٣ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٨».
(٥) الغوال: الطيب. (٦) الدّبوقة: الشعر المفتول المضفور.
(٧) تهمع: تدمع.
(٨) الواشون: مفردها واشٍ، وهو النّمام الكذّاب.
(٩) عاينها: أبصرها، والخَطرة: من خطر يخطر: تبختر في مشيته.

وقال آخر: [من الكامل]

وَلَرُبَّ مَمْشُوقِ القَوَامِ تَضُمُّه ... ممشوقةٌ فَتَعَانَقَا غُصْنَيْنِ
أرْخَتْ ذوائبَها وأسبلَ شَعْرَه ... فتقابَلَا قمرَيْن في لَيْلَيْنِ!

* * *

ومما وُصِفت به شعورُ النساء، قال بكر بن النطّاح[1]: [من الكامل]

بَيْضاءُ تسْحَبُ من قِيامٍ فَرْعَها ... وتَغيبُ فيه فَهْو جَثْلٌ أسْحَمُ[2]
فكأنَّها فيه نهارٌ ساطِعٌ ... وكأنَّه لَيْلٌ عليها مُظْلِمُ

وقال آخر: [من الكامل]

نشرَتْ عَلَيَّ ذوائبًا من شَعْرِها ... حَذَرَ الكَواشِحِ والعَدُوِّ المُحْنَقِ
فكأنَّني وكأنَّها وكأنَّهُ ... صُبْحانِ باتَا تحت ليلٍ مُطْبِقِ

وقال عمرُ بن أبي ربيعة: [من الطويل]

سَبَتْه بوَحْفٍ في العقاص كأنَّهُ ... عَنَاقِيدُ دَلَّاهَا من الكَرْمِ قاطِفُ[3]
أسِيلاتُ أبدانٍ دقاقٌ خُصُورُها ... وَثِيراتُ ما التفَّتْ عليه المَلَاحِفُ[4]

وقال المتنبّي: [من الطويل]

ومَنْ كُلَّمَا جَرَّدْتُها من ثِيابِها ... كَسَاها ثِيابًا غَيْرَها الشَّعَرُ الوَحْفُ

وقال أيضًا: [من المنسرح]

دَعَتْ خَلاخيلُها ذوائبَها ... فجِئْنَ مِن فَرْقِها إلى القَدَمِ[5]

---

(١) هو بكر بن النطّاح الحنفي، أبو وائل، شاعر غزل، من فرسان بني حنيفة من أهل اليمامة، انتقل إلى بغداد في عصر الرّشيد، ومدح أبا دلف العجلي، فأجرى عليه رزقًا إلى أن توفي سنة ٨٠٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٧٠».

(٢) الجثل: الشعر إذا طال وغلظ والتفّ، والأسحم: الأسود.

(٣) سبته: أسرته بجمالها، والوحف: الشعر الكثير الأسود، والعقاص: خيطٌ تشدّ به أطراف الذّوائب.

(٤) الأسيل: ما ملس واستوى، والوثير: الرابي المكتنز.

(٥) الخلاخيل: جمع خلخال، وهي حلية من فضة أو نحوها تجعلها المرأة في رجلها. والفَرْق: الخطّ الفاصل بين صفّين من شعر الرأس.

وقال في أخرى: [من الكامل]

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذوائبٍ من شَعْرِها ... في لَيْلةٍ فأرَتْ لَيالِيَ أرْبَعَا
وٱستَقْبَلَتْ قمَرَ السماءِ بوجْهِهَا ... فأرَتْنِي القَمرَيْنِ في وَقْتٍ مَعَا

وقد ألَمَّ في ذلك بقول ابن المعتزّ: [من الطويل]

سَقَتْنِي في لَيْلٍ شَبِيهٍ بشَعْرِها ... شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ
فأمْسَيْتُ في لَيْلَيْنِ بالشَّعْرِ والدُّجى ... وَشَمْسَيْنِ من خَمْرٍ وخَدِّ حَبِيب

وقال ابن المعتزّ: [من الوافر]

فلَمَّا أنْ قَضَتْ وَطَرًا وهَمَّتْ ... على عَجَلٍ بأخْذِ للرِّداءِ[(١)]
رأتْ شَخْصَ الرَّقِيبِ على تَدانٍ ... فأسْبَلَتِ الظَّلامَ على الضِّياءِ
وغابَ الصُّبْحُ مِنْها تحتَ ليلٍ ... وظَلَّ الماءُ يَقْطُرُ فَوْقَ ماءِ

وقال ابن لَنْكَك[(٢)]: [من البسيط]

هَلْ طالبٌ ثَأرَ مَنْ قد أهْدَرَتْ دَمَهُ ... بيضٌ، عليهنّ نَذْرٌ قتلُ مَنْ عَشِقا؟
مِنَ العقائل ما يَخْطِرْنَ عن عُرُضٍ ... إلَّا أرَيْنَكَ في قَدٍّ قَنًا وَنَقَا[(٣)]
رَوَاعِفٌ بخُدُودٍ زانَها سَبَجٌ ... قد زَرْفَنَ الحسنُ في أصداغِها حَلَقا[(٤)]
نَواشِرٌ في الضُّحَى من فَرْعِهَا غَسَقًا ... وفي ظَلام الدُّجى من وَجْهِها فَلَقا[(٥)]
أعَرْنَ غِيدَ ظِباءٍ رُوِّعتْ غَيَدًا ... والوَرْدَ تَوْريدَ خدٍّ والمَهَا حَدَقَا[(٦)]

---

(١) قضت وطرًا: أنجزت حاجة.

(٢) ابن لنكك: هو أبو الحسن محمد بن محمد البصريّ، فرد البصرة وصدر أدبائها وبدر ظرفائها في زمانه، أجاد في المقطوعات القصيرة، وأمّا القصيد فلم ينجح في نظمه. «انظر اليتيمة ٢/ ٤٠٧».

(٣) العقائل: النساء الكريمات المصونات. ويخطرن: يتبخترن، ونظر إليه من عُرُض: أي من جانب، والقنا: الرّمح، والنقا: الكثيب من الرّمل، يريد: أنه يرى قوامًا كالرّمح، وأردافًا كأنها كثب الرمل.

(٤) الرواعف: من رعف: وهو الدم الذي يسيل، يريد أن خدودهنّ حمراء كأنّ الدم قد سال عليها، والسّبج: الخرز الأسود وزرفن صدغيه: جعلهما كالزّرفين وهو حلقة الباب، والصّدغ: ما بين العين والأذن.

(٥) الغسق: ظلمة الليل، والفلق: الصّبح ينشق من ظلمة الليل، يريد أن شعرها ليل في نهار، ووجهها نهارٌ في ليل.

(٦) الغيد: النعومة في التّمايل، والمها: مفردها المهاة: وهي البقرة الوحشيّة.

وقال ابن دُريد الأزديّ[١]: [من الكامل]

غرَّاءُ لو جَلَتِ الخُدودُ شُعاعَها ... للشَّمْس عند طُلُوعها لم تُشْرِقِ[٢]
غُصْنٌ على دِعْصٍ تألَّقَ فَوْقَهُ ... قمرٌ تألَّقَ تحتَ لَيْلٍ مُطْبِقِ[٣]
لو قِيل للحُسْنِ: ٱحْتَكِمْ لم يَعْدُها ... أو قيل: خاطِبْ غَيْرَها! لم يَنْطِقِ[٤]
فكأنَّنا مِن فرعها في مَغْرِبٍ ... وكأنَّنا من وَجْهِها في مَشْرِقِ[٥]

وقال آخر: [من الوافر]

جُعودةُ شعرها تَحْكِي غَدِيرًا ... يُصَفِّقه الجَنوبُ مع الشَّمالِ[٦]

ذكر ما قيل
في الشّيب والخضاب من المدح والذمّ

فأمّا مدح الشَّيْب، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «مَنْ شابَ شَيْبَةً في الإسلام كانتْ له نُورًا يومَ القِيامةِ».

وقال ابن أبي شيبة[٧]: «نهى رسول الله ﷺ عن نَتْفِ الشَّيْب، وقال: هو نور المؤمِن».

وفي الحديث عن النبيّ ﷺ: «إنَّ أوّلَ مَنْ رأى الشَّيْب إبراهيمُ الخليل عليه السّلام، فقال: يا ربِّ ما هذا؟ فقال له: الوقارُ، فقال: ربِّ زِدْني وِقارًا».

وتأمّل حكيمٌ شيبَه فقال: مرحبًا بزَهْرة الحُنْكة[٨] ويُمْن الهدى ومقدِّمة العفَّة ولباس التّقوى.

---

(١) ابن دريد: هو محمد بن الحسن الأزديّ، أبو بكر، من أئمّة اللغة والأدب، وكانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشّعراء، ولد في البصرة وأقام في بغداد إلى أن توفي سنة ٩٣٣ م، من مؤلّفاته: الاشتقاق. «فهرس الأعلام ٦/ ٨٠».
(٢) الغرّاء: البيضاء.
(٣) الدّعص: القطعة من الرّمل المستديرة.
(٤) لم يعدُها: أي لم يتجاوزها.
(٥) الفرع: الشعر الأسود الفاحم.
(٦) الجنوب: الرّيح الجنوبية والشّمال: الريح الشمالية، ويصفّقه: يحرّكه.
(٧) ابن أبي شيبة: هو عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسيّ، أبو بكر، حافظ للحديث، له فيه كتب منها «المسند، والمصنّف في الأحاديث»، وغيرها. توفي سنة ٨٤٩ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١١٧».
(٨) الحنكة: التجربة والبصر بالأمور.

وقيل: دخل أبو دُلَف[١] على المأمون وعنده جارية له، وكان أبو دُلَف قد ترك الخِضاب، فأشار المأمون إلى الجارية، فقالت له: شِبْتَ يا أبا دُلَف، إنا لله وإنّا إليه راجعون، فسكتَ عنها أبو دلف، فقال له المأمون: أجبها، فقال: [من البسيط]

تهزَّأتْ إذ رأتْ شَيْبي فقلتُ لها لا تَهْزَئي مَنْ يَطُلْ عمرٌ به يَشِبِ!
شَيْبُ الرِّجالِ لهم زَيْنٌ ومَكْرُمَةٌ وشَيْبُكنّ لكُنَّ الويلُ فاكتَئِبي!
فينا لكُنَّ ـ وإن شَيْبٌ بَدَا ـ أرَبٌ وليس فيكُنَّ بعد الشَّيْبِ من أرَبِ!

وقال آخر: [من الكامل]

أهلًا وسَهْلًا بالمشيب ومرحبًا أهْلًا به من وافِدٍ ونَزيلِ!
أهْدى الوقارَ وذادَ كلَّ جَهالة كانتْ وساقَ إليَّ كلَّ جميلِ[٢]
فصَحبتُ في أهل التقى أهل النهى ولُقِيتُ بالتعظيم والتبجيلِ
ورأى ليَ الشُّبَّانُ فضلَ جلالةٍ لما اكتَهَلْتُ وكنتُ غير جَليلِ
فإذا رأوْني مقبلًا نهضُوا معًا فِعْلُ المِقرّ لهيبة التفضيلِ
إن قلتُ كنتُ مصدَّقًا في مَنْطِقي ماضي المَقَالة حاضرَ التعديلِ

وقال مُسْلم بن الوليد: [من البسيط]

الشَّيْبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أن يُفارقَني اِعجبْ لشيءٍ على البغضاءِ موْدُود

وقال عليّ بن محمد الكوفيّ[٣]: [من الوافر]

بكى للشَّيْب ثم بَكى عليه وكان أعَزَّ من فقد الشَّبابِ
فقُلْ للشَّيْب: لا تبْرَحْ حَمِيدًا إذا نادى شبابُكَ بالذَّهاب

---

(١) أبو دلف: هو القاسم بن عيسى بن إدريس، من بني عجل، أمير الكرخ، وسيّد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء، كان من قوّاد المأمون وللشعراء فيه مدائح كثيرة، وله مؤلّفات منها: سياسة الملوك، ويقول الشعر، توفي ببغداد سنة ٨٤٠ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٧٩».

(٢) ذاد: منع وحجب ودفع.

(٣) هو عليّ بن محمّد الكوفي بن جعفر الكوفي الحماني، شاعر، من آثاره ديوان شعر. «إيضاح المكنون ١/ ٤٩٩».

وقال العسكري[(١)]: [من مجزوء الكامل]

يـــوَدُّ أنَّ شَـــيْـــبَـــهُ إذ جـــاءَ لا يَـــنْـــصَـــرِفُ
يَـخْـلُفُ رَيْـعَـانَ الـصِّـبـا والـمَـوتُ مـنـه خَـلَفُ

وقال ابن المعتزّ: [من الخفيف]

قد يَشِيبُ الفتَى وليس عَجِيبًا أن يُرى النَّوْرُ في القَضِيب الرَّطِيبِ[(٢)]

وقال أبو تمّام: [من البسيط]

ولا يُؤرِّقْكَ إيماضُ القَتِير بِهِ فإنَّ ذاكَ ٱبتسامُ الرأيِ والأدَبِ[(٣)]

وقال أبو الفتح البستي[(٤)]: [من الكامل]

يا شَيْبَتِي دُومِي ولا تتَرَحَّلِي وتيقَّنِي أنِّي بوصْلِكِ مُولعُ
قد كنتُ أجْزَعُ من حُلولكِ مرةً فالآن من خوفِ ٱرْتِحالِكِ أجْزَعُ!

وقال آخر: [من المتقارب]

فأمَّا المَشِيبُ فصُبْحٌ بدا وأمّا الشَّبابُ فلَيْل أَفَلْ[(٥)]
سَقى الله هذا وهذا معًا فنِعْمَ المُولِّي ونِعْمَ البَدَلْ![(٦)]

وقال أبو الفتح كشاجم[(٧)]: [من الطويل]

تفكَّرْتُ في شَيْبِ الفَتَى وشبابِهِ فأيقنْتُ أن الحقَّ للشَّيْبِ واجِبُ
يصاحبُني شَرْخُ الشَّبابِ فينقَضِي وشَيْبِيَ لي حتَّى المَماتِ مصاحِبُ[(٨)]

---

(١) العسكري: هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران العسكريّ، أبو هلال، عالمٌ بالأدب، له شعر، نسبته إلى «عسكر مُكرم» من كور الأهواز، له كتبٌ عدّة منها «الصناعتين»، توفي سنة ١٠٠٥ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٩٦».

(٢) النَّور: الزّهر.

(٣) الإيماض: التبسّم، والقتير: أوّل ما يظهر من الشّيب.

(٤) أبو الفتح البستي: هو علي بن محمد بن عبد العزيز البستيّ، أبو الفتح، شاعر عصره وكاتبه، ولد في «بست» قرب سجستان، وإليها نسبته، وكان من كتّاب الدولة السامانيّة، له ديوان شعر، توفي سنة ١٠١٠ م. «فهرس الأعلام ٣٢٦».

(٥) أفل: غاب. (٦) سقى الله: دعاءٌ لما يحبّ من الأمور.

(٧) هو محمود بن الحسين السّندي، أبو الفتح الرملي، المعروف بكشاجم، شاعرٌ متفنّن أديب، من كتّاب الإنشاء، من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، كان من شعراء سيف الدولة، توفي سنة ٩٧٠ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٦٧».

(٨) شرخ الشباب: أوّله ونضارته وحدّته.

وقال أبو العلاء السرويّ[١]، شاعر اليتيمة: [من الخفيف]

حيٌّ شَيْبًا أتى لغير رحيلِ وشبابًا مضى لغيرِ إيابِ!
أيُّ شيءٍ يكونُ أحْسَنَ من عا جِ مَشِيبٍ في آبنوس شَبابِ؟[٢]

وقال أبو عَوانة الكاتب[٣]: [من الخفيف]

هَزِئتْ إذ رأتْ مَشِيبي، وهل غَيْرُ الْمَصابِيح زينةٌ للسماءِ؟
وتولَّتْ فقلتُ قولًا بإفصا حٍ لها، لا بالرَّمْز والإيماء
إنما الشَّيْبُ في المَفَارق كالنُّو رِ بَدَا والسَّوادُ كالظلماء
لا مَحِيصَ عن المَشِيبِ أو المو تِ، فكُنْ للحَوْباء أو للنَّماء![٤]
إن عُمْرًا عُوِّضتَ فيه عن المو تِ بِشَيْبٍ من أعظَم النَّعماء!

وقال ابن عبد ربّه: [من الوافر]

كأنَّ سوادَ لِمّته ظلامٌ يُطِلُّ من المَشِيبِ عليه نُورُ

وقال أبو عبد الله الأسباطيّ: [من الخفيف]

لا يَرُعْكِ المَشيبُ، يا ابنة عبد اللهِ، فالشَّيْبُ زينةٌ ووَقارُ!
إنما تحسُنُ الرِّياضُ إذا ما ضَحِكتْ في ظلالها الأنوار[٥]

***

وأمّا ما ورد في ذمّ الشيب، قال قيس بن عاصم[٦] رحمة الله عليه: الشَّيبُ خِطامُ[٧] المنيَّة.

---

(١) أبو العلاء السّروي، واحد طبرستان أدبًا وفضلًا، ونظمًا ونثرًا، وله كتب وشعر سائر مشهور، كثير الظرف والملح. «انظر اليتيمة ٤/٥٦».
(٢) العاج: ناب الفيل، والأبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، أسود صلب.
(٣) أبو عوانة: لعلّه يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم النيسابوريّ، من أكابر حفّاظ الحديث. «انظر فهرس الأعلام ٨/١٩٦».
(٤) الحوباء: النفس.
(٥) الأنوار: مفردها «النّور» وهو الزّهر الأبيض.
(٦) هو قيس بن عاصم بن سنان المنقري السّعدي التميمي، أبو عليّ، أحد أمراء العرب وعقلائهم الموصوفين بالحلم والشجاعة، كان شاعرًا اشتهر وساد في الجاهليّة، وقد وفد على النبيّ وأسلم، وقال النبيّ ﷺ عنه: هذا سيّد أهل الوبر، توفي بالبصرة نحو سنة ٦٤٠ م. «فهرس الأعلام ٥/٢٠٦».
(٧) الخطام: حبلٌ يجعل في عنق الحمل ويثنى في خطمه ليقاد به.

وقال غيره: الشَّيبُ نذير الموت.

وقد ورد في بعض التفاسير في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: الآية ٣٧]، قيل: هو الشّيب.

وقال أعرابيّ: كنتُ أنكر البيضاء[١]، فصرت أُنكر السوداء؛ فيا خَيْرَ مبدول ويا شرّ بَدَل.

وقيل للنبيّ ﷺ: عَجَّلَ عليك الشَّيبُ يا رسول الله، قال: «شَيَّبَتني هودٌ وأخَواتُها»، قيل: هي عَبَس، والمرسلات، والنازعات[٢].

وقيل لعبد الملك بن مروان: عَجَّلَ عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال: شيّبني ٱرتقاءُ المنابِر وتوقُّع اللحْن[٣].

وقال بعضهم: خرجت إلى ناحية الطُّفَاوة[٤]، فإذا أنا بامرأة لم أرَ أجمل منها، فقلت: أيّتها المرأةُ، إن كان لك زوج فبارك الله له فيكِ، وإلا فأعلميني، قال: فقالت: وما تصنَعُ بي؟ وفيّ شيء لا أراك ترتضيه. قلتُ: وما هو؟ قالت: شيبٌ في رأسي. قال: فثنيتُ عِنَان دابتي راجعًا، فصاحتْ بي: على رِسْلك[٥]، أخبرك بشيء، فوقفتُ وقلت: وما هو، يرحمكِ الله؟ قالت: والله ما بلغت العشرين بعدُ، وهذا رأسي فكشفَتْ عن عناقيد كالحُمَم[٦]، وقالت: والله ما رأيتُ برأسي بياضًا قطُّ، ولكن أحببت أن تعلم أنّا نكره منك ما تكره منّا، وأنشدت: [من الوافر]

أرى شيبَ الرِّجال من الغَوَانِي بموضعِ شيبهِنّ من الرجال![٧]

قال: فرجعتُ خَجِلًا، كاسف البال.

قال أبو تمّام: [من الطويل]

غَدَا الشيبُ مختطًا بفَوْدَيّ خِطَّةً سبيلُ الرَّدى منها إلى النفس مَهْيَعُ[٨]

---

(١) البيضاء: أي الشعرة البيضاء.
(٢) عبس، والمرسلات، والنازعت: سورٌ من القرآن الكريم.
(٣) اللّحن: الوقوع في الأخطاء النحوية واللغويّة.
(٤) الطفاوة: موضع معيّن. (٥) على رسلك: أي تمهّل.
(٦) الحمم: الفحم.
(٧) الغواني: جمع غانية، وهي المرأة الغنيّة بحسنها وجمالها عن الزّينة.
(٨) الفودين: جانبي الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام، والمهيع: الطريق الواسع البيّن.

هو الزَّور يُجْفَى، والمُعاشِر يُجْتَوى ... وذو الإلف يُقْلى، والجديد يرقَّعُ[(١)]
له مَنْظَرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ ... ولكنّه في القلبِ أسودُ أسْفَعُ[(٢)]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

تقول لَمَّا رأتْ مَشِيبي ... بدَا، وعِندي له انقباضُ[(٣)]
لا ترجُ عَطْفًا عليكَ مِنِّي ... سوّدَ ما بيننا البَياضُ!

وقال آخر: [من الطويل]

وقالوا: مَشِيبُ المَرْءِ فيه وقارُه ... وما علموا أن المَشِيبَ هو العَيْبُ
وأيُّ وقارٍ لامرىءٍ عُرِّيَ الصِّبا ... ومن خَلْفِه شَيْبٌ وقدّامه شيبُ؟

وقال آخر: [من مخلع البسيط]

مَنْ شابَ، قد مات وَهْو حَيٌّ ... يمشِي على الأرضِ مشيَ هالكْ!
لو كان عُمْرُ الفتى حسابًا ... كان له شَيْبُه فذالِكْ[(٤)]

وقال محمود الورّاقُ[(٥)]: [من مجزوء المتقارب]

بَكَيْتُ لقُرْبِ الأجَلْ ... وبُعْدِ فواتِ الأَمَلْ[(٦)]!
ووافق شَيْبٌ طَرَا ... بعَقْب شبابٍ رحَلْ[(٧)]
شَبَابٌ كأن لم يَكُنْ ... وشيبٌ كأن لم يَزَلْ
طوى صاحبٌ صاحبًا ... كذاكَ اختلافُ الدُّوَلْ!

---

(١) يجتوى: يكره، ويُقلى: يبغض.
(٢) الأسفع: الذي كان لونه أسود مشربًا بحمرة.
(٣) الانقباض: الاشمئزاز والحزن.
(٤) الفذالك: جمع الفذلكة، أي نتاج الحساب التي يقال عندها: فذلك يكون كذا. «انظر شفاء الغليل للخفاجي».
(٥) هو محمود بن حسن الورّاق، شاعر أكثر شعره في المواعظ والحكم، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٧/ ١٦٧».
(٦) الأجل: الموت.
(٧) طرا: أصلها «طرأ» خفّفت الهمزة للضرورة الشعريّة.

وقال عَبِيد بن الأبرص[(١)]: [من البسيط]

والشيبُ شيْنٌ لمن أمسى بساحته! ... لله درُّ شَباب اللِّمة الخالي[(٢)]

وقال البحتري: [من الطويل]

ودِدْتُ بياضَ السيف يوم لقينني ... مكانَ بياض الشَّيب حلّ بمَفْرِقي

وقال أبو العتاهية[(٣)]: [من الوافر]

عَريتُ عن الشباب، وكان غَضًّا ... كما يَعرى من الورق القَضِيبُ[(٤)]

ألَا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا ... فأُخْبِرَهُ بما فعل المَشِيبُ!

وقال آخر: [من السريع]

يا حَسْرَتَا أين الشبابُ الذي ... على تَعَدِّيه المشيبُ اُعتدى؟[(٥)]

شِبْتُ، فما أنْفَكُّ من حسرةٍ ... والشيبُ في الرأس رسولُ الرَّدى![(٦)]

إنَّ مدى العُمْر قريبٌ فما ... بقاءُ نَفْسي بعد قُرْب المَدَى؟

وقال آخر: [من الكامل]

هذا عِذارُك بالمَشِيب مُطرَّزُ ... فقبولُ عُذْرك في التصابي مُعْوزُ[(٧)]!

ولقد علمتُ ـ وما علمتُ توهُّمًا ـ ... أن المَشيبَ لهَدْم عمرك يَرْمُزُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

ألَسْتَ ترى نُجومَ الشَّيْب لاحَتْ ... وشَيْبُ المرْءِ عنوانُ الفساد!

---

(١) هو عبيد بن الأبرص الأسديّ، أبو زياد، أحد الشعراء المعمّرين، وأحد أصحاب المعلّقات. انظر «فهرس الأعلام الشعر والشعراء ص ١٦١».

(٢) في الديوان: «والشيب شينٌ لمن يحتلُّ ساحته» ص ١١١، دار صادر، واللِّمة: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن، والخالي: الماضي.

(٣) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم، أبو إسحٰق، الشاعر العبّاسي الكبير، «انظر: فهرس الأعلام ١/ ٣٣١».

(٤) الغضّ: الناضر الناعم.

(٥) يا حسرتا: منادى، والألف زائدة، لأن المنادى هنا للندبة والتفجّع.

(٦) الرّدى: الهلاك والموت.

(٧) العذار: جانب اللحية.

وقال أيضًا: [من البسيط]

أَبلى جَدِيدَيَ هذان الجديدانِ ... والشأن في أنّ هذا الشَّيْبَ يَنْعَاني[1]!
كأنّما أعتَمَّ رأسِي منه بالجَبَلِ الرّ ... اسِي، فأوْهنني ثِقْلًا وأوهاني[2]

وقال آخر: [من الكامل]

لما رأتْ وَضَح المَشِيب بعارضي ... صدّتْ صُدودَ مُجانِبٍ متحَمِّل[3]
فجعلتُ أطلُب وصلَها بتلطُّفٍ ... والشَّيْبُ يغمِزُها بأن لا تَفْعَلِي[4]!

وقال كُشاجم: [من المديد]

ضَحِكتْ! من شَيْبةٍ ضَحِكتْ ... لِسَواد اللِّمَّة الرجِلَهْ[5]
ثم قالتْ وهي هازئةٌ: ... جاء هذا الشيبُ بالعَجَلَهْ!
قُلت: من حُبِّيك، لا كِبرٌ ... شاب رأسي فانثنت خَجِلَهْ
وثَنَتْ جَفْنًا على كَحَلٍ ... هي منه الدَّهرَ مكتَحِلَهْ[6]
أكثَرَتْ منه تعجُّبَها! ... فَهْي تَجْنِيه وتعْجَبُ لَهْ

وقال أبو تمام: [من الخفيف]

دقّةٌ في الحياة تُدْعى جَلَالا ... مثلَ ما سُمّي اللَّدِيغ سليما[7]
غُرَّة مُرَّة ألَا إنَّما كنـ ... ـتُ أغرًّا أيامَ كنتَ بَهِيمَا[8]

وقال ابن المعتزّ: [من الوافر]

لقد أبغضتُ نفسي في قَشيبي ... فكيف تُحبُّني الخُودُ الكعَابُ[9]

---

(١) الجديدان: الليل والنّهار. (٢) أوهن وأوهى: أضعف.
(٣) الوضح: البياض من كلّ شيء، والعارض: صفحة الخدّ.
(٤) يغمزها: يشير إليها بكسر العين أو الحاجب.
(٥) الرّجلة: يقال شعر رجل: أي بين السبوطة، أي الاسترسال، وبين الجعودة.
(٦) ثنت: طوت.
(٧) الجلال: العظيم من الأمور، والسّليم: من الأضداد، وقد قيل للّديغ: سليمًا على سبيل التفاؤل بالشّفاء.
(٨) الغرّة: الخدعة، والأغرّ: الأبيض والكريم من الأفعال، والبهيم: الأسود. وفي الديوان ص ٢٥٧، دار صعب: «غرّة بهمة».
(٩) الخود: الشّابة الناعمة الحسنة الخلق، والكعاب: الفتاة التي نهد ثدياها.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من المتقارب]

فلا تعجَبَا أن يَعِبْنَ المَشِيبا فما عِبْنَ من ذاك إلّا مَعِيبا[١]!

إذا كان شَيْبي بَغِيضًا إليّ فكيف يكونُ إليها حَبِيبا؟

وقال محمد بن أُميّة: [من الطويل]

رأينَ الغَوانِي الشّيبَ لاحَ بعارِضِي فأعْرَضْنَ عنّي بالخُدود النَّواضر[٢]

وكُنّ إذا أبصرنَنِي أو سمعْنَ بِي دَنَوْنَ فرقَّعْن اللِّوَى بالمَحَاجِر[٣]

وقال آخر: [من مخلع البسيط]

قالت، وقد راعها مَشِيبي: كنتَ ابنَ عمٍّ فصرتَ عَمَّا

واستهزأتْ بي، فقلتُ أيضًا: قد كنتِ بنتًا فصِرتِ أُمَّا

وقال آخر: [من مجزوء الرجز]

تضاحكتْ لَمَّا رأتْ شَيْبًا تِلَألَا غُرَرُهْ

قلتُ لها: لا تعجَبي أنبِيكِ، عندي خَبَرُهْ

هذا غَمَامُ للرَّدَى ودمعُ عيني مَطَرُهْ

* * *

ومما قيل في الخضاب[٤] من المدح، ما رُوِي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «غَيِّرُوا هذا الشيبَ، وجَنِّبُوه السوادَ».

وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يَخْضِب بالحِنّاء وبالكَتَم[٥].

وقد مدح الشعراء الخِضابَ.

---

(١) عاب المشيب: ذمّه في المرأ.

(٢) العارض: صفحة الخدّ، والإعراض: الصدود والامتناع.

(٣) اللِّوى: ما التوى وانعطف وانثنى من الرّمل أو مسترقّه.

(٤) الخضاب: ما يخضب به، وخضب شعره: غيّر لونه بالخضاب.

(٥) الحنّاء: نبات ورقه كورق الرّمان يُتّخذ منه الخضاب الأحمر، والكتم: نباتٌ يلوّن به الشعر ويصنع منه حبرٌ للكتابة.

فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ: [من المتقارب]

وقالوا: النُّصولُ مشيبٌ جَدِيدْ! فقلتُ: الخِضاب شباب جَدِيدْ![١]
إسـاءةُ هـذا بـإحسـانِ ذَا فـإن عـادَ هـذا فـهـذا يَـعـودْ

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من الطويل]

وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنهُ قَبِيحٌ، ولكن أحسنُ الشَّعْر فاحِمُه

وقال محمود الورّاق: [من الكامل]

لِلضَّيْفِ أن يُقْرى ويُعْرفَ حقُّه! والشَّيبُ ضيفُك، فأقْرِهِ بخِضابِ[٢]

وقال عبدان الأصبهانيّ[٣]: [من الخفيف]

في مَشيبي شَمَاتَةٌ لعِداتِي وهو ناعٍ منغِّصٌ لحياتي
ويعيبُ الخِضابَ قومٌ، وفيه أيّ أُنْسٍ إلى حُضُور وفاتي
لا ومَنْ يعلَمُ السرائرَ منّي ما به رُمْتُ خُلَّةَ الغانياتِ[٤]
إنما رمتُ أن يُغيَّبَ عنّي ما تُرينِيهِ كلَّ يوم مِراتِي[٥]
وهو ناعٍ إليَّ نفْسِي، ومَنْ ذا سَرَّه أن يرى وجوهَ النُّعَاتِ؟

وقال ابن الرومي: [من الخفيف]

يا بياضَ المَشِيبِ سوّدتَ وَجْهي عند بِيض الوجوه سُودِ القرون![٦]
فلعَمْري، لأُخفِينَّكَ جُهْدِي عن عِياني وعن عِيان العُيُونِ![٧]
ولعمْري، لأَمْنَعَنَّكَ أنْ تضحـ ـك في رأسِ آسفٍ محزونِ!
بخضابٍ فيه ابْيضاضٌ لوَجْهي وسوادٌ لوجهك الملعون!

(١) النّصول: يقال نصلت اللحية: أي خرجت من الخضاب، ونصل لون الثوب: تغيّر وزال.
(٢) القِرى: ما يقدم إلى الضّيف.
(٣) عبدان الأصبهاني: لعلّه عبدان بن أحمد بن موسى بن زياد العسكريّ الأهوازي الجواليقي.
(٤) رام: قصد، والخلّة: الصداقة والمحبّة.
(٥) مراتي: يريد مرآته، وقد خفّفت الهمزة الممدودة للضرورة الشعريّة.
(٦) القرون: مفردها القرن: وهو من رأس الإنسان جانبه، وموضع القرن فيه، ويقصد «بسود القرون» النّساء الشّابات.
(٧) العيان: المشاهدة.

وقال آخر: [من الوافر]

نَهى الشيبُ الغوانيَ عن وِصَالِي   وأوْقَع بين أحبابي وبَيْنِي
فلستُ بتاركٍ تدبير ذَقْنِي   إلى أن ينقضي أمدي لحَيْنِي
أُدَبِّر لِحْيتي ما دمتُ حيًّا   وأعتِقُها ولكن بَعْدَ عَيْنِي[١]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرمّل]

قالوا: فلانٌ لم يَشِبْ   وأرى المَشِيبَ عليه أبْطا
فأجبتُهُمْ: لولا حديـ   ـثُ الصَّبْغ لانكشَفَ المُغَطَّى

* * *

ومما قيل في ذمّ الخضاب، قال محمود الورّاق، رحمه الله: [من مجزوء الكامل المرمّل]

يا خاضِبَ الشَّيْبِ الَّذِي   في كُلّ ثالثةٍ يَعُودُ
إنّ النُّصُولَ إذا بدَا   فكأنّه شَيْبٌ جَدِيدٌ[٢]
ولـه بَدِيهةُ رَوْعةٍ   مكروهُها أبداً عَتِيدُ[٣]
فدَعِ المَشِيبَ لِمَا أرَا   د فلنْ يعودَ لما تُرِيدُ

وقال آخر: [من الوافر]

تَسَتَّرَ بالخِضاب، وأيّ شيءٍ   أدلُّ على المشيب من الخِضَابِ؟

وقال ابن الروميّ: [من الكامل]

قُلْ للمسوِّدِ حين سوّدَ: هكذا   غِشُّ الغواني في الهوى إيَّاكا!
كَذَبَ الغوانِيَ في سَواد عِذارِه   فكذبْنَه في وُدِّهنَّ كذاكا!

وقال المتنبّي: [من البسيط]

ومِنْ هوى كلِّ مَنْ ليست مموِّهة   تركتُ لونَ مشيبي غيرَ مخضوبِ[٤]
ومِنْ هوى الصدقِ في قولي وعادتِه   رغبتُ عن شَعَرٍ في الوجه مكذوبِ

---

(١) أعتق: حرّر وأصلح.   (٢) النّصول: زوال الخضاب عن الشعر.
(٣) البديهة: المفاجأة أو البداية، والعتيد: الحاضر المهيّأ، والجسيم.
(٤) المموّهة: من موّه الشيء: أي غيّر حقيقته.

وقال الأمير شهاب الدين بن يغمور عفا الله عنه: [من البسيط]

يا صابغَ الشَّيْبِ، والأيامُ تُظْهِره: هذا الشبابُ، وحَقِّ الله مصنوعُ! (١)
إن الجديد إذا ما كان في خَلَقٍ يَبينُ للناس أنّ الثوبَ مرقوعُ (٢)

* * *

وأمّا ما وصف به الوجه، فمن ذلك ما قيل في المذكر:

قال الوجيهيّ: [من البسيط]

مستَقْبَلٌ بالذي يهوى، وإن كثرت منه الإساءة، معذورٌ بما صَنَعا
في وجهه شافعٌ يمحو إساءتَهُ من القلوب، وجيهًا حيثما شَفَعا (٣)

وقال الآخر: [من المتقارب]

رأيتُ الهِلالَ على وجْهِهِ فلم أدرِ أيُّهما أنورُ؟
سوى أنَّ ذاكَ قريبُ المَزَارِ وهذا بعيد لمن يَنْظُر
وذاك يَغِيبُ وذا حاضِرٌ فما مَنْ يَغِيبُ كمن يَحْضُر
ونَفْعُ الهلالِ كثيرٌ لنا ونَفْعُ الحبيبِ لنا أكْثَرُ

وقال ابن لنكك: [من مجزوء الكامل]

البَدْرُ والشمس المُنِيـ ـرةُ والدُّمى والكَوْكَبُ (٤)
أضْحَتْ ضرائرَ وجهه من حيثُ يَطْلُعُ تغرُبُ (٥)
وكأنّ جَمْرَ جوانِحِي في خدّه يتلهَّبُ (٦)
وكأنّ غُصْنَ قَوامِه من ماءِ دمعِي يشرَبُ
وصَوالِجِ في صُدْغه بسواد قلبي تَلْعَبُ (٧)

---

(١) مصنوع: أي ليس شبابًا صحيحًا، بل هو مصطنع.
(٢) الخَلَق: البالي. (٣) الشافع: الشفيع الذي يساعد ويُعين.
(٤) الدُّمى: مفردها «دمية» وهي الصورة الممثّلة، والفتاة الحسناء.
(٥) ضرائر: مفردها «ضرّة» وهي إحدى امرأتي الرّجل، أو إحدى نسائه ويكون بينها الحسد والغيرة.
(٦) الجوانح: أوائل الأضلاع مما يلي الصّدر.
(٧) الصوالج: مفردها «صولج» وهي العصا المعقوفة الرأس التي يضرب بها الفارس الكرة في بعض الألعاب.

وقال ابن المعذِّل[(١)]: [من الطويل]

نَظرتُ إلى مَنْ زيَّن الله وجْهَه فيا نظرةً كادتْ على عاشقٍ تقضِي!
وكبَّرتُ عشرًا، ثم قلتُ لصاحِبي متى نَزَل البدرُ المنيرُ إلى الأرضِ؟

وقال الخُبْزأَرُزِّي[(٢)]: [من المتقارب]

رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيبْ فكانا هلالَيْنِ عند النَّظَرْ
فلَمْ أدرِ من حَيْرتِي فيهما هلالَ الدُّجى من هلال البشَرْ!
فلولا التورّدُ في الوجنتيْنِ وما راعنِي من سَواد الشَّعَرْ
لكنت أظنُّ الهلالَ الحبيبْ وكنتُ أظنُّ الحبيبَ القمَرْ!

وقال أبو الشّيص[(٣)]: [من المنسرح]

تَخْشَعُ شمسُ النهارِ طالعةً حينَ تراه، ويخشع القَمَرُ
تَعْرِفُه أنه يفوقُهما بالحسنِ، في عين مَنْ له بَصَر

وقال أبو هلال العسكريّ: [من المتقارب]

ووَجْه تَشَرَّب ماء النعيمْ فلو عُصِرَ الحسنُ منه انعصَر
يمُرّ فأمنحُه ناظري فينثُرُ وَرْدًا عليه الخفَرْ[(٤)]
تمتَّعت العينُ في حُسْنه فما حَفَلتْ بطلوع القَمَرْ

وقال ابن المعتزّ: [من السريع]

يا مُفرَدًا بالحسن والشَّكْلِ مَنْ دلّ عينيك على قَتْلي؟
البدرُ من شمس الضُّحى نُورُهُ والشمسُ من وجهك تَسْتَملي[(٥)]

---

(١) ابن المعذِّل: هو عبد الصمد بن غيلان بن حكم العبدي، أبو القاسم، شاعر من شعراء الدولة العبّاسية، كان هجّاءً شديد العارضة، ولد ونشأ بالبصرة، توفي سنة ٨٥٤ م. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ١١».

(٢) الخبزأرزي: هو نصر بن أحمد، شاعر تقدّم ذكره، شاعر غزلٍ كان أُميًّا. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ١٦٢».

(٣) أبو الشّيص: هو محمد بن علي بن عبد الله بن رزين، أبو سليمان بن تميم الخزاعي المعروف بأبي الشيص «أبو جعفر»، شاعر مطبوع، سريع الخاطر رقيق الألفاظ من أهل الكوفة، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٨١١ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٧١».

(٤) الخفر: الحياء.

(٥) تستملي: تستمتع وتستكمل نورها.

وقال ابن المعذّل يصف عُتْبَة: [من مجزوء الوافر]

لِعُتبةَ صفحتَا قمرٍ ... يفوق سَناهما القَمَرَا[١]
يَزيدُكَ وجهُه حسنًا ... إذا ما زدتَهُ نَظَرَا

وقال السريّ الرفاء[٢]: [من الكامل]

قمرٌ تفرّد بالمحاسن كلِّها ... فإليه يُنْسَب كلُّ حسنٍ يوصَف
فجبينه صُبْحٌ، وطُرّته دُجَى ... وقَوامُه غصنٌ رطيب أهيفُ[٣]
لله ذاك الوجهُ! كيف تألّفتْ ... فيه محاسنُ لم تكن تتألَّفُ؟

وقال آخر: [من الطويل]

وفي أربعٍ منّي حلَتْ منك أربعٌ ... فما أنا أدري أيُّها هاجَ لي كَرْبي؟[٤]
أوَجْهُك في عينِي، أم الرِّيقُ في فَمي ... أم النطقُ في سمعي، أم الحُبُّ في قلبي؟

ومثله قول يعقوب الكندي[٥]: [من الطويل]

وفي خمسةٍ منّي حلَتْ منك خمسةٌ ... فريقُك منها في فَمِي طيِّب الرَّشْفِ[٦]
ووجهُكَ في عيني، ولَمْسُك في يدي ... ونُطْقُك في سمعي، وعَرْفُك في أنفي[٧]

وقال أبو نُوّاس: [من المنسرح]

كأنّما الوجهُ إذ بَدَا قمرٌ ... مُرَكَّب فوق قامة الغُصُن
يا ذا الذي أصبح العِبادُ به ... في فتنةٍ من عظائم الفِتَن!
أقْبِلْ بوجهِ الهَوى إليّ، فقد ... أطَلْتَ بالصدّ مُعرضًا حَزَني![٨]

---

(١) وصفحتا قمر: هما خدّاها.
(٢) السّريّ الرّفاء: هو السّري بن أحمد الكندي، صاحب سرّ الشعر، الجامع بين نظم عقود الدّرر والنفث في عقد السّحر، أسلم صبيًا في الرّفائين بالموصل، كان يرفو ويطرز ويتكسب بالشعر، ثم اشتد باعه في النظم، فانتقل إلى حياكة القريض. «اليتيمة ٢/ ١٣٧».
(٣) الأهيف: الذي دقّ خصره وضمُر بطنه. (٤) هاج: أثار، والكرب: الحزن.
(٥) يعقوب الكندي: هو يعقوب بن إسحٰق الكندي، أبو يوسف، فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء ملوك كندة، نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد، فتعلّم واشتهر بالطبّ والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك، توفي نحو سنة ٨٧٣ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٩٥».
(٦) الرّشف: المصّ بالشفتين.
(٧) العُرف: الرائحة مُطلقًا، وأكثر ما يستعمل في الطيّبة منها.
(٨) الصدّ: الإعراض، والحزن: الغمّ.

وقال محمد بن وُهَيْب[١]: [من المديد]

نَـمْ فـقـد وَكَّـلْتَ بـي الأرَقَـا ... لاهَـنَـا بَـعْـدُ لـمـن عَـشِـقَـا
إنـمـا أبـقـيـتَ مـن جَـسَـدِي ... شَـبَـحًـا غـيـر الـذي خُـلِقَـا
مـا لـمـن تَـمَّـتْ مـحـاسِـنـهُ ... أن يُـعـادِي طَـرْفَ مَـن رَمَـقَـا[٢]
لـك أن تُـبْـدي لـنـا حَـسَـنًـا ... ولـنـا أن نُـعْـمِـل الـحَـدَقَـا[٣]

* * *

ومن ذلك ما قيل في المؤنّث، قال ابن سكرة[٤]: [من المنسرح]

فـي وَجْـهِ إنـسـانـةٍ كَـلِفـتُ بـهـا ... أربـعـةٌ مـا ٱجـتـمـعْـنَ فـي أحـد
فـالـخـدُّ وَرْدٌ والـصُّـدغ غـالـيـةٌ ... والـرِّيق خمرٌ والـثغرُ من بَـرَدِ[٥]
لـكـلِّ جُـزء مـن حُـسـنِـهـا بِـدَعٌ ... تُـودِعُ قـلـبـي ودائِعَ الـكَـمَـد![٦]

وكان مكتوبًا على عِصابةِ[٧] وَرْد جارية الماهانيّ[٨]: [من السريع]

تمَّتْ! وتَـمَّ الـحسنُ في وجهِها! ... فـكـلُّ شـيءٍ مـا سـواهـا مُـحـالْ
لـلـنـاس فـي الـشـهـر هِـلالٌ، ولـي ... فـي وَجْـهـهـا كـلَّ صـباحٍ هـلالْ!

وقال آخر: [من الخفيف]

وإذا الـدُّرّ زانَ حُـسْـنَ وجُـوهٍ ... كـان لـلـدُّرّ حـسـنُ وجـهِـك زَيْـنـا
وتَـزِيـديـن طَـيِّـبَ الـطـيـب طِـيبًـا ... إن تَـمـسِّـيـه! أيـنَ مـثـلُك أيـنـا؟

---

(١) محمد بن وهيب: هو محمّد بن وهيب الحميري، أبو جعفر، من شعراء الدولة العباسية، تكسّب بالمديح، وله مراثٍ في أهل البيت، واختصّ بالحسن بن سهل، ومدح المأمون والمعتصم، توفي سنة ٨٤٠ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٣٤».
(٢) رَمَقَهُ ببصره: أتبعه النظر. (٣) الحدق: الأنظار.
(٤) ابن سكّرة: هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، شاعرٌ متّسع الباع في أنواع الإبداع، أحد الفحول الأفراد، كان يقال: إن زمانًا جاد بابن سكرة وابن الحجاج السخيّ جدًا. «اليتيمة ٣/ ٣».
(٥) الغالية: الطيب، والبَرَد: يريد بياض الأسنان في الثّغر.
(٦) الكمد: الحزن والغمّ.
(٧) العصابة: ما يعصب به من منديل أو نحوه.
(٨) الماهاني: لعلّه علي بن عيسى بن ماهان، من كبار القادة في عصر الرّشيد والأمين العباسيّين وهو الذي حرّض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد، قتل على يد طاهر بن الحسين سنة ٨١٠ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٧».

وقال آخر: [من المديد]

لـيـس فـيـهـا أن يُـقـالَ لـهـا: كـمـلَتْ، لـو أن ذا كَـمُـلا
كـلُّ جـزءٍ مـن مـحـاسـنـهـا صـائـر مـن حـسـنِـهـا مَـثَـلا

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من الرّمل]

وفـتـاةٍ إن يـغِـبْ بـدر الـدُّجـى فـلنـا فـي وَجْـهـهـا عـنـه خَـلَفْ
أجـمـع الـنـاسُ عـلى تـفـضِـيـلها وهـواهُـمْ فـي سـواهـا مـخـتـلِفْ

وقال الحمّانيّ[1] من أبيات: [من المتقارب]

نـرى الـشـمـسَ والـبـدرَ معناهما بـهـا واحـدًا، وهـمـا مَـغْـنـيـانْ
إذا طـلَـعـتْ وجـهـهـا، أشـرقـا بـطـلـعـتـهـا، وهـمـا آفِـلَانْ[2]

* * *

ومما وُصِف به صفاء الوجه ورقّة البشرة، فمن ذلك ما قيل مذكرًا.

قال أبو نُوَاس: [من المتقارب]

نـظـرتُ إلـى وجـهـه نـظـرةً فـأبـصـرتُ وجـهِـيَ فـي وجـهـه

وقال آخر: [من الوافر]

أعِـدْ نـظَـرًا! فـمـا فـي الـخـدِّ نـبـتٌ حـمـاهُ الله مـن رَيْـب الـمَـنُـونِ[3]!
ولـكـنْ رَقَّ مـاءُ الـوجـه حـتَّـى أراك مـثـالَ أهـداب الـجُـفُـون!

ومثله قول الآخر: [من الطويل]

ولـمـا اْسـتـدارتْ أعـيـنُ الـنـاسِ حـولَهُ تُـلاحِـظُـه كـيـف اسـتـقـلَّ وسـارا[4]
تـمـثَّـلتِ الأهـدابُ فـي مـاء وجـهـه فظَـنُّـوا خـيـالَ الـشَّـعْـر فـيـه عِـذارا[5]

---

(١) الحمّانيّ: لعلّه علي بن محمد الكوفي الحمّاني، شاعر، من آثاره ديوان شهر مطبوع، عاش في الكوفة وكان منزله فيها ببني حمان، فنسب إليهم، وكان وجيه الكوفة في عصره. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ٣٢٤».

(٢) آفَلَ: غاب. (٣) المنون: الموت، والدّهر.

(٤) استقلّ: ارتفع، يقال: استقلّ الطائر في طيرانه: أي ارتفع.

(٥) ماء الوجه: رونقه وشبابه ونضرته.

وقال الأرّجانيّ[١]: [من السريع]

ما أنْسَ، لا أَنْسَى له مَوْقِفًا والعِيسُ قد ثَوَّرَهُنَّ الحُدَاهْ[٢]
لَمَّا تجلَّى وجهُه طالعًا وقد ترامَتْ نَظَراتُ الوُشَاهْ[٣]
قابلَنِي حين بدتْ أدمُعِي في خَدِّه المصقولِ مثل المِراهْ
يُوهِم صَحْبي أنه مُسْعِدِي بأدمعٍ لم تُذْرِها مقلتاهْ
وإنما قلَّدنِي مِنَّةً بدَمْع عينٍ من جُفوني ٱمتَرَاهْ[٤]
ولم تقعْ في خدِّه قطرةٌ إلّا خَيالاتِ دمُوع البُكَاهْ

وقال أيضًا: [من الوافر]

وأغْيدَ رقَّ ماءُ الوجهِ منه فلو أرخى لِثَامًا عنه، سالا[٥]
تبينُ سوادَها الأبصارُ فيه فحيثُ لحظتَ منه، حَسِبْتَ خالَا[٦]

* * *

ومن ذلك ما قيل في المؤنث، قال بشار[٧]: [من الطويل]

وما ظَفِرتْ عيني غَداةَ لقيتُها بشيءٍ، سوى أطرافها والمَحَاجِر[٨]
بحَوْراءَ من حُور الجنان عزيزةٍ يَرى وجهَهُ في وجهها كلُّ ناظِرِ[٩]

---

(١) الأرّجاني: هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين، الملقب «ناصح الدّين»، كان قاضيًا، لـ «تستر» و«عسكر مكرم»، وله شعر رائع في نهاية الحسن، ذكره العماد الأصبهاني في الخريدة، توفي بتستر سنة ١١٤٩ م. «انظر فهرس الأعلام ١/ ٢١٥».
(٢) العيس: النّوق، ثوّرهن: أهاجهنّ، والحداة: مفردها الحادي، وهو الذي يسوق الإبل.
(٣) تجلّى: أسفر، وترامت: تتابعت، والوشاة: مفردها «واشٍ» وهو النّمّام الكذوب.
(٤) المنّة: الفضل والحسنى، وامتراه: حلبه واستخرجه.
(٥) الأغيد: الوسنان المائل العنق الليّن الجانب، والناعم المنثني.
(٦) الخال: بثرة سوداء في الوجه، يقول: إن العيون إذا نظرت إلى صفحة وجهه الرقيقة الصافية انعكست صورتها فيها فبدت الأحداق كالخال الأسود في مرآة ذلك الوجه.
(٧) بشّار: هو بشّار بن بُرد العقيلي بالولاء، أبو معاذ، أشعر المولدين على الإطلاق، أصله من طخارستان، كان ضريرًا نشأ في البصرة وقدم بغداد، قتل سنة ٧٨٤ م بسبب اتهامه بالزندقة، له ديوان ورسائل. «فهرس الأعلام ٢/ ٥٢».
(٨) المحاجر: مفردها المحجر، وهو ما أحاط بالعين.
(٩) الحوراء من النّساء: البيضاء، ولا يقصد بقوله حور عينيها.

وقال السريّ الرفّاء: [من البسيط]

بيضاءُ تنظُر من طَرْفٍ تقلِّبُهُ   مفرِّقٍ بين أجسادٍ وأرواح
ماءُ النعيمِ على دِيباجِ وَجْنتِها   يجولُ بين جَنى وَرْدٍ وتُفّاحِ[١]
رَقَّتْ: فلو مُزِجَ الماءُ القَراحُ بها   والراحُ، لامتزجَتْ بالماء والراحِ![٢]

وقال الأرّجانيّ من أبيات: [من الطويل]

ولمَّا تلاقَيْنا، وللعينِ عادةٌ   تُثِيرُ وُشاةً عند كلِّ لِقاءِ
بدتْ أدمُعي في خدِّها من صقالِهِ   فغارُوا وظنّوا أن بكَتْ لبُكائي![٣]

* * *

ومما قيل في صفرة الوجه، فمن ذلك ما قيل مذكّرًا:

قال أبو عبادة البحتري: [من الطويل]

بدَتْ صُفرةٌ في وجهه، إنَّ حَمْدَهُمْ   من الدُّرّ ما اُصفرَّت نواحيه في العِقْدِ

وقال آخر: [من الخفيف]

لم تَشِنْ وجهَه المليحَ، ولكن   جعلَتْ وَرْد وجنتيه بَهَارا[٤]

وقال الأرّجانيّ وأجاد: [من الخفيف]

راقَ ماءُ الحياةِ من وجنتيهِ   فهو مِرْآةُ أوجُهِ العُشّاقِ![٥]

* * *

ومن ذلك ما قيل في المؤنّث، قال سَلْم الخاسر[٦]: [من الطويل]

تبدّتْ فقلتُ: الشمسُ عِند طلوعها   بوجهٍ غنيِّ اللّون عن أثَر الوَرْسِ[٧]!
فقلتُ لأصحابِي، وبي مثلُ ما بهم   على مِرْيةٍ: ما هٰهنا مطلَعُ الشمس[٨]!

(١) الدّيباج من الوجه: حسن بشرته، والديباج: ثوبٌ سُداه ولحمته من الحرير.
(٢) القراح: العذب الصافي، والرّاح: الخمر. (٣) صقال الخدّ: صفاؤه ونقاؤه.
(٤) البهار: نبات طيّب الرائحة، والبهار: كلّ شيء حسن منير.
(٥) راق: صفا، وماء الحياة: أي ماء الشباب والحيويّة.
(٦) هو سلم الخاسر بن عمرو بن حماد، شاعرٌ خليع ماجن، من أهل البصرة، سكن بغداد، له مدائح في المهدي والرّشيد، وأخبار مع بشار وأبي العتاهية، وشعر رقيق رصين، سمّي الخاسر لأنه باع مصحفًا واشترى خمرًا. «فهرس الأعلام ٣/ ١١٠ ـ ١١١».
(٧) الورس: نبات كالسّمسم تغطي ثمره غددٌ حمر، يصبغ به.
(٨) المرية: الشكّ.

وقال أبو تمام: [من الكامل]

صفراءُ ـ صفرةَ صحّةٍ ـ قد رُكِّبتْ   جُثمانُها في ثوب سُقمٍ أصفَر

وقال مسعود الأصبهانيّ[1]، شاعر الخريدة: [من السريع]

وقَينةٍ قال لها ناقصٌ   كَمُلْتِ، لولا صُفرة اللونِ
قلتُ: اتَّئِد! فالشمسُ مصفَرّةٌ   وَهْيَ صلاحُ الأرض في الكَوْن![2]

* * *

ومما قيل في السُّمْرة، قال شاعر: [من مجزوء الرمل]

كيفَ لا أعْشَقُ ظَبْيًا   سارحًا في ظِلِّ مَلك
إنما السُّمْرة فيه   مَزْجُ كافورٍ بمِسْكِ[3]

وقال آخر: [من السريع]

ياذا الذي يُذْهِبُ أموالَهُ   في حُبِّ هذا الأسمر الفائِق!
ما الذهبُ الصامتُ مستكْثَرًا   إذهابُه في الذهَب الناطِق!

وقال آخر: [من المديد]

ذَهبيُّ اللّون! تحسَبُ مِن   وجنتيه النارَ تُقْتَدَحُ
خوّفوني مِن فضيحتهِ!   ليتَهُ وافى، وأفتضِحُ![4]

* * *

(١) لعلّه مسعود بن سعد بن سلمان بن سلمان الهمذاني اللّاهوري، أديب شاعر باللغات الثلاث، العربية والفارسية والهندية، وله في كلّ منها ديوان. «انظر فهرس الأعلام ٧/ ٢١٧».

(٢) اتَّأد: تمهّل وتأنى وتروّى.

(٣) الكافور: نبتٌ طيّب زهره كزهر الأقحوان، وتؤخذ منه مادّة عطرية، والمسك: نوعٌ من الطّيب، يتكوّن من دم حيوان كالغزال، وقد ذكر ذلك المتنبي في قوله:

فإنْ تفقِ الأنام وأنت منهم   فإنّ المسك بعض دم الغزال

«ديوان المتنبي ٢/١١٦، دار الكتب العلمية».

(٤) وافى: أقبل وأتى.

ومما قيل في السَّواد (وهو يختصُّ بالمؤنث):

قال الزركشيّ في «دنانير»[١] البرمكيّة: [من السريع]

أشْبَهَكِ المسكُ، وأشبهتِهِ قائمةً في لونه قاعدَهْ
لا شكَّ، إذ لونُكما واحدٌ أنّكما من طينةٍ واحده

وقال ابن الروميّ: [من المنسرح]

أكْسَبها الحُبَّ أنها صُبِغَتْ صبغةَ حَبِّ القلوب والحَدَقِ[٢]
فأقبلتْ نحوَها الضمائرُ والأ بصارُ، يعبَقْن أيَّما عَبَقِ[٣]!
يفترُّ ذاكَ السوادُ عن يَقَقٍ في ثغرها كاللَّآلىءِ النَّسَقِ[٤]
كأنَّها، والمِزاحُ يُضْحِكها ليلٌ تفرّى دُجاه عن غَسَقِ[٥]

وقال الصنوبريّ[٦]: [من السريع]

يا غُصُنًا من سَبَجٍ رَطْبِ أصبح منكِ الدرّ في كَرْبِ[٧]!
حبُّكِ من قلبي مكانَ الذي أشبهتِه من حَبَّة القَلْبِ

وقال محمد بن عبد السلاميّ[٨]، شاعر اليتيمة عفا الله عنه: [من البسيط]

يا رُبَّ غانيةٍ بيضاءَ تَصْبَحُني من العتاب كُؤوسًا ليس تَنْساغُ[٩]

---

(١) دنانير: مغنيّة نسب إليها كتاب في الأغاني، كانت مولاة لرجل من أهل المدينة، خرّجها وأدّبها واشتراها يحيىٰ بن خالد البرمكي، فينعت في بيته، وممّن أعجب بها الرشيد، فلمّا نكب البرامكة، امتنعت عن الغناء لغيرهم، فأمرها الرشيد، فأبت الغناء. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٤١».

(٢) حَبّة القلب: مهجته.

(٣) عبق الطّيب: انتشرت رائحته.

(٤) اليقق: الأبيض الصافي.

(٥) تفرّى: تشقّق، والدّجى: الليل، والغسق: الظلمة.

(٦) الصنوبري: هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبّي الحلبي الأنطاكي، أبو بكر، شاعرٌ سكن حلب ودمشق، وتوفي في رجب سنة ٣٣٤ هـ. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٧».

(٧) السّبج: الخرز الأسود.

(٨) السّلامي: هو أبو الحسن محمد بن عبد الله السّلامي، من أشعر أهل العراق، قولًا بالإطلاق وشهادة بالاستحقاق، ولد في كرخ بغداد سنة ٣٣٦ هـ، وقال الشعر وهو ابن عشر سنين. «اليتيمة ٢/ ٤٦٦».

(٩) تنساغ: تنشرب، أو يسهل شرابها وارتشافها، تستطاب.

أشتاقُ طُرّتَها أو صُدْغَها ومعِي — من كلِّها طررٌ سُودٌ وأصداغ!
كأننا، لا أتاح الله فُرْقتَنا! — يا كعبةَ المِسْك، يا زَنْجيَّةً، زاغُ[1]

وقال آخر: [من الطويل]

أُحِبُّ النساءَ السُّودَ من أجْل تُكْتَم — ومن أجْلِها أحببتُ مَنْ كان أسودَا!
فجئني بمثلِ المسك أطيبَ نفحةً! — وجئتني بمثل اللّيل أطْيَبَ مَرْقَدا!

وقال العسكريّ: [من البسيط]

صرفتُ وُدّي إلى السّودانِ من هَجَرِ — ولا ٱلتفتُّ إلى رُومٍ ولا خَزَرِ![2]
أصبحْتُ أعشَقُ من وجْهٍ ومن بَدَنٍ — ما يعشَقُ الناسُ من عينٍ ومن شَعَرِ
فإن حسِبْتَ سَوادَ الخدِّ مَنْقَصةً — فانظرْ إلى سُفْعةٍ في وَجْنة القَمَر![3]

وقال بشّار وأجاد: [من الوافر]

يكونُ الخالُ في خدٍّ نقيٍّ — فيُكسِبُه المَلَاحة والجَمالَا
ويُونِقُه لأعيُنِ مُبْصِرِيه — فكيف إذا رأيتَ اللون خالا؟[4]

وقال أبو عليّ بن رشيق[5]: [من مخلّع البسيط]

دعَا بكِ الحسنُ فاستجيبي — باسمكِ في صِبغةٍ وطِيب
تيهي على البِيض وٱستطيلي — تيهَ شبابٍ على مَشِيب![6]
ولا يَرُعْكِ ٱسْوِدادُ لونٍ — كمُقْلة الشادِنِ الرَّبِيب[7]
فإنّما النُّور عن سَوَادِ — في أعيُنِ الناس والقُلُوبِ!

---

(١) الزّاغ: الغراب.

(٢) الخزر: جيل خزر العيون، من التركمان، وفي الإسرائيليات أنهم من ولد توغربحا بن كومر بن يافث بن نوح، وقيل: هم من بني طيراش بن يافث، وقيل: نوع من الترك. «صبح الأعشى ١/ ٤٢١».

(٣) السّفع: ما كان لونه أسود مشربًا حمرة.

(٤) يونقه: يجعله جميلًا معجبًا مستحسنًا، والخال: شامة سوداء في الخدّ.

(٥) هو الحسن بن رشيق القيرواني، أبو علي، الأديب المغربيّ المشهور، صاحب كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، ولد بالمسيلة سنة ٣٩٠ هـ، وتوفي بـ «مازر» سنة ٤٦٤ هـ. «انظر مقدّمة كتاب العمدة ص ٥، دار الكتب العلمية».

(٦) تيهي: افتخري.

(٧) الشّادن: ولد الظبية، والرّبيب: الولد إذا تعهّده أحدهم بما يغذّيه وينمّيه ويؤدّبه.

وقال آخر: [من السريع]

إنْ أزهَـرَتْ لَيْـلًا نـجـومُ الـسَّـمـا بِـيضًـا عـلى أسـودَ مُرْخي الإزارْ[١]

وأجـب الـعـكـسُ مـثـالًا لـهـا فـالـسُّـود في الأرض نـجومُ الـنهارْ

***

ومما وصف به أثر الجُدَريّ[٢] في الوجه، فمن ذلك قول الناجم[٣]: [من السريع]

يـا قـمـرًا جَـدّر لـمـا ٱسـتـوى وٱكتسب الملحَ بتلك الكُلُومْ![٤]

أظنُّه غنًّى لـشـمـس الـضُّـحـى فـنـقَّـطـتـه فَـرَحًـا بـالـنُّـجـومْ

وقال آخر: [من الوافر]

وقـالـوا: شـابَهْ الـجُـدَرِيُّ، فـانظُرْ إلـى وجـهٍ بـه أثـرُ الـكُـلومِ!

فـقـلتُ: مـلاحـةٌ نُـثِـرت عـلـيـه! ومـا حُـسْـنُ الـسمـاء بلا نُـجُـومِ؟

ومثله قول الآخر: [من الخفيف]

أيُّـهـا الـعـائـبـونَ وجـهًـا مَـلِـيـحًـا نَـثر الـحُـسْـنُ فيه نَبْذَ خُـدُوشِ!

أيُّ أُفْـقٍ بَـهَـا بـغـيـر نُـجـوم؟ أيُّ ثـوبٍ زَهَـا بـغـيـر نُـقُـوشِ؟

وقال أبو زيد القاضي: [من الخفيف]

غـايـةُ الـحـاسـدِ الـذي لامَ فـيـه أن أرى فـوقَ خـدِّه جُـدَرِيًّـا[٥]

إنـمـا وجـهُـه هـلالُ تَـمـامٍ جـعـلُـوا بُـرْقُـعًـا عـلـيه الـثـريّـا![٦]

---

(١) أزهرت: أضاءت.
(٢) الجدري: مرض تنتج عنه قروحٌ في الجسم، وتظلّ آثارها بادية في الجلد.
(٣) الناجم: هو سعد بن الحسين بن شدّاد السمعي، أبو عثمان، المعروف بالناجم، شاعر أديب، كان يصحب ابن الرومي، ويروي أكثر شعره، توفي سنة ٩٢٦ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٨٤».
(٤) الكلوم: الجروح.
(٥) غاية الحاسد: قصده.
(٦) البرقع: قناعٌ تلبسه النساء، يغطّي الوجه والرأس. والثريّا: مجموعة من الكواكب.

وقال أبو تمام بن رباح: [من مخلّع البسيط]

خَـدُّك مِـرْآةُ كـلِّ حُـسْـنِ   تحسُنُ من حُسْنها الصِّفاتُ![١]
مـا لـي أرى فـوقَـهُ نُـجُـومًـا   قـد كُـسفـتْ وهـي نَـيِّـراتُ؟[٢]

* * *

ومما قيل في الحواجب، فمن محاسنها: الزَّجَجُ، والبَلَج.

فأما الزَّجج، فدقّة الحاجبين وامتدادُهما.

وأما البَلَج، فهو أن يكون بينهما فُرْجة. والعرب تستحبّ ذلك.

ومن معايبها: القَرَن، والزَّبَب، والمَعَط.

فالقرن، اتصال الحاجبين، والعرب تكرهه.

والزَّبب، كثرة شعرهما.

والمَعط، تساقط الشعر عن بعض أجزائهما.

* * *

ومما وُصِفت به الحواجب، قال الزاهي[٣]: [من الطويل]

وأغْـيـدَ مـجـدولِ الـقَـوامِ جـبـيـنُـه   سَنا القمر البَدْريّ في الغُصُن الرَّطْب[٤]
تـنـكَّـب قـوسَ الـحـاجـبَـيـنِ فـسـهـمـه   لواحظُه المَرْضى، وبِرجاسُه قلبي![٥]

وقال عبد الله بن أبي الشيص[٦]: [من الطويل]

حَذِرتُ الهوى حتَّى رُميتُ من الهوى   بأصْردِ سهمٍ من قِسِيِّ الحواجبِ[٧]

---

(١) الصّفات: جمع صفة، وهي الحُسن والنّعت.

(٢) كسفت: حجب نورها، والكسوف: احتجاب الشمس كلّيًا أو جزئيًا لحلول القمر بينها وبين الأرض.

(٣) الزاهي: هو علي بن إسحٰق بن خلف الزّاهي البغدادي، أبو القاسم، شاعر، وصّاف، محسن، كثير الملح، أكثر شعره في آل البيت النبويّ، توفي سنة ٩٦٣ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٦٣».

(٤) السّنا: الضوء والنّور.

(٥) تنكّب القوي: ألقاها على منكبه، والمنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد، والبرجاس: هدفٌ ينصب على رمح أو سارية.

(٦) هو محمد بن عبد الله بن رزين، وهو ابن عمّ دعبل الخزاعي، شاعرٌ مطبوع سريع الخاطر رقيق الألفاظ، من أهل الكوفة، وأبو الشّيص لقب عمي في آخر عمره. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٧١».

(٧) الأصرد: السّهم النافذ.

وقال محمد بن عبد الرحمٰن الكوفيّ: [من الطويل]

ومستلِبِ عينَ الغزال وقد تُرى بجبهته عينُ الغزالة ماثِلا[١]
تناول قوسَ الحاجبين مُفَوَّقا بأسهم ألحاظٍ تشُكُّ المَقَاتِلا[٢]

وقال آخر: [من الطويل]

غَزَانِي الهوى في جيشه وجُنوده وعبَّى عليَّ الخيلَ من كلِّ جانبِ[٣]
بميمنةٍ أعلامُها أعينُ المَهَا وميسرةٍ تقضي بزُجِّ الحواجبِ[٤]

وقال آخر: [من الطويل]

لها حاجبان، الحُسْن والغُنْج منهما كأنّهما نونان من خطِّ ماشق[٥]

* * *

ومما قيل في العيون ووصفها، فمن محاسنها:

الدَّعَج، وهو شدّة السَّواد مع سَعَة المُقْلة.

البَرَج، وهو شدّة سوادها وشدّة بياضها.

النَّجَل، سَعَتها.

الكَحَل، سواد جُفُونها من غير كُحْل.

الحَوَر، اتّساع سوادها كأعيُنِ الظباء، وقيل: هو سواد العين وشدّةُ بياضها.

الوطَف، طول أشفارها؛ وفي الحديث أنّه كان عليه الصّلاة والسّلام في أشفاره وَطَفٌ.

الشُّهْلة، حمرة في سوادها.

ومن معايبها:

الحَوَص، ضيق العين.

الخَوَص، غُؤُورها مع الضّيق.

---

(١) عينُ الغزالة: يريد الشّمس ونورها، أي أن جبينه مضيئًا.
(٢) فوّق السّهم: جعل له فوقًا، والفوق: موقع الوتر من رأس السهم.
(٣) عبّى: هيّأ وأحاط بي.
(٤) المها: مفردها مهاة وهي البقرة الوحشيّة، والزجّ: حديدة في أسفل الرّمح.
(٥) نونان: مثنّى «النون» من أحرف الهجاء، والماشق في الكتابة: هو الذي يمدّ الحرف.

الشَّتَر، انقلاب الجفن.

العَمَش، هو أن العين لا تزال سائلةً رامصةً[١].

الكَمَش، أن لا تكاد تُبصر.

الغَطَش، شبه العَمَش.

الجَهَر، أن لا تبصر نهارًا.

العَشا، أن لا تبصر ليلًا.

الخَزَر، أن ينظر بمؤخر عينه.

الغضَنُ، أن يكسر عينه حتَّى تَتَغَضَّنَ[٢] جُفونُه.

القَبَل، أن يكون كأنه ينظر إلى أنْفه، وهو أهون من الحَوَل.

الشُّطور، أن تراه ينظُرُ إليك وهو ينظر إلى غيرك، وهو قريب من صفة الأحول، وفيه يقول الشاعر:

حَمِدْتُ إلٰهي إذ بَلانِي بحبِّه ... وبي حوَلٌ أغنى عن النظَر الشَّزْرِ[٣]

نظرتُ إليه ـ والرقيبُ يظنُّني ... نظرت إليه ـ فاسترحتُ من العذرِ

الشَّوَص[٤]، أن ينظر بإحدى عينيه ويُميلَ وجهه في شقّ العين التي ينظر بها.

الخَفَش، صِغَر العين وضَعْف البصر. ويقال: إنه فساد في العين يضيق له الجَفنُ من غير وجع.

الدَّوَش، ضيق العين وفساد البصر.

الإطْراق، استرخاءُ الجفن.

الجُحُوظ، خروج المُقْلة وظهورها من الحِجَاج[٥].

البَخَق، أن يذهب البصر، والعين منفتحةٌ.

الكَمَه، أن يولد الإنسان وهو أعمى.

البَخَص، أن يكون فوق العين أو تحتها لحم ناتيء[٦].

---

(١) الرمص: يقال رمصت العين، أي: اجتمع في موقها وسخٌ أبيض.

(٢) تغضّن: تثنّى وتجعّد.

(٣) الشزر: نظرة الإعراض والاشمئزاز والغضب.

(٤) في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٦: «الشّوس» بالسين.

(٥) الحجاج: عظم الحاجب، والحجاج من كلّ شيء: حرفه وناحيته.

(٦) الناتيء: البارز.

فصل في عوارض العين

يقـــال:

حَسِرتْ عينُه، إذا اعتراها كَلَال[١] من طول النظر.

زَرَّتْ[٢] عينُه، إذا توقَّدت من خوف.

سَدِرتْ عينه، إذا لم تكد تبصر.

اِسْمَدَرّت عينه، إذا لاحت لها سمادِيرُ، وهي ما يتراءى لها من أشباه الذُّباب وغيره.

قَدِعت عينُه، إذا ضعُفتْ من الإكباب[٣] على النظر.

حَرِجتْ عينه، إذا حارتْ[٤].

قال ذو الرمّة[٥]: [من البسيط]

* وتَـحْـرَجُ الـعيـنُ فيـهـا حِيـنَ تَـنْـتَـقِـبُ *

هَجَمتْ[٦]، إذا غارت.

ونقْنقَتْ، إذا زاد غؤورها، وكذلك حَجَلتْ وهَجَّجتْ.

ذَهِبت، إذا رأتْ ذَهَبًا كثيرًا فحارتْ فيه.

شَخَصت، إذا لم تكد تَطْرف من الحَيْرة.

فصل في كيفية النظر وهيئته

إذا نظر الإنسانُ إلى الشيء بمجامع عينيه، قيل: قد رَمَقه.

فإذا نظر من جانب أذنه، قيل: لَحَظه.

---

(١) الكلال: الضعف والفتور.

(٢) الذي في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٧ «رأرأت عينه» وهو الصواب، ففي بعض النسخ زرّت عينه، وهو خطأ.

(٣) الإكباب: يقال: كبّ على الشيء: أقبل عليه ولزمه وشُغل به.

(٤) حارت العين: نظرت إلى الشيء فارتدّ البصر عنه.

(٥) ذو الرُّمة: هو غيلان بن عقبة بن نهيس العدوي، أبو الحارث، صاحب ميّة المنقريّة، من فحول الطبقة الثانية، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٧٣٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٢٤».

(٦) الذي في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٧: هجّت عينه، وهو الصواب، فقد ورد في بعض النسخ هجمت وهَجَت، وكلاهما خطأ.

فإذا نظر إليه بعَجَلة، قيل: لَمَحه.

فإذا رماه ببصره مع حِدَّة، قيل: حَدَجه بطَرْفه.

(وفي حديث ابن مسعود[١]: «حَدِّث القومَ ما حَدَجُوك بأبصارهم»).

فإن نظر إليه بشدّة وحِدّة، قيل: أرْشَقَه وأسَفَّ النظرَ إليه.

(وفي حديث الشعبيّ أنّه كَرِه أن يُسِفَّ الرجلُ إلى أمّه وأخته وابنته).

فإن نظَر إليه نظر المتعجِّب أو الكاره المبغِض، قيل: شَفَنه وشَفَن إليه شُفُونًا وشَفْنًا.

فإن أعاره لَحْظَ العداوةِ، قيل: نظر إليه شَزْرًا.

فإن نظر إليه بعينِ المَحبّة، قيل: نظر إليه نَظْرَة ذي عَلَق[٢].

فإن نظر إليه نظرة المستَثْبت، قيل: تَوضَّحه.

فإن نظر إليه واضعًا يده على حاجبه مستظلًّا بها من الشمس ليستبين المنظورَ إليه، قيل: استكَفَّه واستَوْضَحه واستَشْرَفَه.

فإن نشر الثوبَ ورفعه لينظر إلى صَفَاقته[٣]: قيل استَشَفَّه.

فإن نظر إلى الشيء كاللَّمْحة ثم خفِيَ عنه، قيل: لاحه لوحةً. قال الشاعر: [من الطويل]

* وهَلْ تَنْفَعَنِّي لوحةٌ لو أُلُوحُها *

فإن نظر إلى جميع ما في المكان حتَّى يعرفه، قيل: نَفَضه نَفْضًا.

فإن نظر في كتاب أو حساب[٤]، قيل: تَصَفَّحه.

فإن فتح عينيه لشدّة النظر، قيل: حَدّق.

فإن لَألأَهُمَا[٥]، قيل: برَّقَ.

---

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمٰن، من كبار الصحابة الأوّلين، مات بالمدينة سنة ٣٢ هـ. «الكاشف ٢/ ١١٦».

(٢) العلق: المحبّة والعشق.

(٣) الصفاقة: كثافة النسج، وفي فقه اللغة للثعالبي ص ٩٨، قال: فإن نشر الثوب ورفعه لينظر إلى صفاقته أو سخافته ويرى عوارًا إن كان به قيل: استشفّه.

(٤) في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٨ ـ ٩٩: فإن نظر في كتاب أو حساب ليهذّبه ويستكشف صحبته وسقمه قيل: تصفّحه.

(٥) يقال: لألأ النجم، أي: لمع في اضطراب.

فإن انقلب حُمْلاق[١] عينيه، قيل: حَمْلَق.

فإن غاب سواد عينيه من الفَزع، قيل: بَرَقَ بصرُه.

فإن فتح عين مُفَزَّع أو مهدَّد، قيل: حَمَّج.

فإن بالغ في فتحها وأحدَّ النظرَ عند الخوف، قيل: حَدَّج.

فإن كسر عينه عند النظر، قيل: دَنْقَشَ[٢] وطَرْفَش.

فإن فتح عينه وجعل لا يَطْرف، قيل: شَخَص. وفي القرآن العزيز: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَـرُوا۟﴾ [الأنبياء: الآية ٩٧].

فإن أدام النظر مع سكون، قيل: أَسْجَدَ.

فإن نظر إلى أُفُق الهلال ليراه، قيل: تَبَصَّره.

فإن أتبع الشيءَ بصرَه، قيل: أتْأرَه بصَرَه[٣].

وقد أوسع الشعراء في وصف العيون ووصفوها بالمَرَض والسَّقْم، وإن كانت صحيحةً؛ فمن ذلك قول الشاعر: [من الخفيف]

بَرَّحَ السُّقْمُ بي وليس صَحِيحًا ... مَنْ رأَتْ عينُه عُيُونًا مِرَاضا[٤]
إنَّ لـلأَعْيُـنِ الـمِـرَاضِ سِـهـامًـا ... صيَّرتْ أنفُسَ الورَى أغْراضا[٥]
جَوْهَرُ الحُسْنِ منذُ أعرضَ للقَلْـ ... ـب ثَـنـى الـجـسـمَ كـلَّه أعْـراضـا

وقال جرير: [من البسيط]

إنَّ العيونَ التي في طَرْفها مَرَضٌ ... قـتَـلْـنَـنَـا ثُـمَّ لـم يُـحْـيِـيـنَ قـتْـلانَـا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لَا حَرَاكَ به ... وهُـنَّ أضعفُ خَلْقِ اللهِ أرْكـانَـا[٦]

وقال ذو الرمَّة: [من الطويل]

وعـيـنـانِ قـال اللهُ كُـونَـا فـكـانَـتَـا ... فَعُولين بالألباب ما تَفْعَل الخمرُ[٧]

---

(١) الحملاق: ما يسوده الكحل من باطن أجفان العين.
(٢) في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٩: دنقس وطرفش، ويقال: دنقس وطرفس، أو دنقش وطرفش، وهما بالمعنى ذاته.
(٣) في فقه اللغة للثعالبي ص ٩٩: أتأره وأتار إليه البصر.
(٤) برّح: اشتدّ، والسقم: المرض، والعيون المراض: اللواتي فيهنّ فتورٌ وانكسار.
(٥) الورى: الخلق، والأغراض: الأهداف. (٦) اللّبّ: العقل والحجى.
(٧) المشهور في رواية البيت: فعولان: بالرّفع، وصفٌ للعينين.

ومما وصفت به العيون على لفظ التذكير، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ[١]: [من الطويل]

عَليمٌ بما تحتَ الصُّدورِ من الهَوَى ... سريعٌ بكَرِّ اللَّحظِ والقلبُ جازعُ
ويجْرَح أحشائي بعينٍ مَريضةٍ ... كما لانَ مسُّ السيفِ والسيفُ قاطعُ

وقال خالد[٢]: [من المديد]

عينُه سَفَّاكةُ المُهَجِ ... من دَمِي في أعظم الحَرَجِ[٣]
أسْهَرَتْني وهي لاهيةٌ ... باحْوِرار العينِ والدَّعَجِ[٤]

وقال الهَمْدانيّ: [من المديد]

تَعْمَلُ الأجفانُ بالدَّعَجِ ... عملَ الصَّهباءِ بالمُهَجِ[٥]
قُلْ لظَبْيٍ تُسْترقُّ له ... مُهَجُ الأحرار بالدَّعَجِ
أنتَ والأجفانُ ما لَحَظَتْ ... من فُتورُ العينِ في حَرَجِ
كيفَ أدعُو اللهَ أسألُهُ ... فَرَجًا ممَّنْ به فَرَجِي؟

وقال خالد: [من الكامل]

ومَريض طَرْفٍ ليس يَصْرِف طَرْفَه ... نحوَ امْرِىءٍ، إلّا رماه بحَتْفِهِ
قد قلتُ إذ أبصَرْته متمايِلًا ... والرِّدْفُ يجْذب خصْرَه من خَلْفه[٦]
يا مَنْ يُسَلِّم خَصْرَه من رِدْفه ... سَلِّمْ فُؤادَ محبِّهِ مِنْ طَرْفِه!

وقال أبو هفّان: [من الوافر]

أخُو دَنَفٍ رمَتْه فأقصَدَتْهُ ... سِهامٌ من جُفُونك لا تَطِيشُ[٧]
قواتِلُ لا قِداحَ سِوى احْوِرارٍ ... بهنَّ، ولا سِوى الأهداب رِيشُ[٨]

---

(١) عبد الله بن المعتزّ: هو عبد الله بن محمد المعتزّ الخليفة العباسيّ ليومٍ وليلة، شاعر كبير، مات خنقًا سنة ٩٠٩ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١١٨».

(٢) هو خالد بن يزيد البغدادي، أبو الهيثم المعروف بالكاتب، شاعر غزل من الكتاب، أصله ومولده في خراسان عاش وتوفي في بغداد سنة ٨٧٦ م، شعره رقيق أكثره غزل. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٠١».

(٣) المهج: مفردها مهجة، وهي الرّوح.

(٤) الدّعج: اشتداد السّواد واتّساع البياض.

(٥) الصهباء: الخمرة، والمهج النفوس.

(٦) الرّدف: العجز أو الكفل.

(٧) الدنف: المرض الثقيل، وأقصدته: رمته وقضت عليه.

(٨) القداح: العيب.

وقال أبو تمام: [من مخلّع البسيط]

يا سَقَم الجفنِ من حَبِيبِي ... أَلْبستني حُلَّة السِّقَامِ!
كَمْ قتلَتْ مُقْلتاك ظُلْمًا ... مِنْ عاشقِ القلب مُسْتهام[١]
يا مَنْ بعينيه لي غرامٌ ... قَرَّبَ من مُهْجَتي حمامي![٢]
قد رَوِيَتْ من دمي، فحسْبي ... صوائبُ النَّبْلِ والسِّهامِ!

وقال العسكريّ: [من الوافر]

فأزعى تحتَ حاشِيَةِ الدَّيَاجِي ... شَقائقَ وَجْنةٍ سُقيَتْ مُدامًا[٣]
إذا كَرَّتْ لواحِظُ مقلتَيْه ... حَسِبْتَ قُلوبَنا مُطرت سِهامًا

وقال ابن المعلم: [من مجزوء الكامل المزمّل]

سَلْ مَنْ بعينَيْه يَصُولْ ... أهِيَ اللِّحاظُ أم النُّصُولُ؟[٤]
ما جُرِّدت يَوْمَ النَّوى ... إلا لتختَلِسَ العُقُولُ![٥]
شَهَرت عيونُهمُ سُيُو ... فًا، ما بمَضْربها فُلُولُ[٦]
تُصْمِي بغَيْرِ جِراحةٍ ... تَفْري بغير دمٍ يَسِيلُ[٧]
ولَها بأفئدةِ الهوَى ... فَتْكٌ، وليس لها صَلِيلُ

وقال آخر: [من الكامل]

رُوحِي الفداءُ لمَنْ أدار بلَحْظِه ... صهباءَ في عَقْلِي لها تأثير!
ومن العَجائب أن يُديرَ بلَحْظه ... مشمولَةً، وإناؤها مَكْسُورُ!

---

(١) المقلة: العين، والمستهام: المحبّ العاشق.
(٢) الحِمام: الموت.
(٣) الحاشية: الجانب والطرف، والدّياجي: الظلمات، والمدام: الخمر.
(٤) يصول: يسطو ويثب ويقهر، واللّحاظ: مؤخّر العين مما يلي الصدغ، والنّصول: مفردها «نصل» وهو حديدة السيف والسّهم والسّكين.
(٥) النّوى: البعد والهجر، وتختلس: تأسر وتستبي.
(٦) الفلول: الشّطب التي تكون في حدّ السيف.
(٧) تصمي: ترمي وتقتل، وتفري: تشقّ وتجرح.

وقال آخر[١]: [من]

القَلْب بك المَسْلُوب والملسوب ... والصبّ بك المَعْتُوب والمتعُوب[٢]
يا مَنْ طَلَبَتْ لحاظُه سفْكَ دمي ... مَهْلًا، ضعُفَ الطالبُ والمَطْلوب!

وقال أبو تمام: [من الكامل الأحذّ]

مُتَطَلِّبٌ بِصُدُودِهِ قَتْلِي ... فردُ المَحَاسِنِ وَجْهُه شُغْلي
ألحاظُه في الخَلْقِ مُسْرِعَةٌ ... فيما تُرِيدُ كسُرْعَة النَّبْل

وقال آخر: [من السريع]

ألحاظُكُمْ تجرَحُنا في الحَشَا ... ولحظنا يجرحكم في الخُدُودْ
جَرْحٌ بجَرْحٍ، فاجعلُوا ذا بِذَا! ... فما الَّذِي أوجبَ هذا الصُّدُود؟[٣]

وقال آخر: [من الوافر]

ومُقْلةِ شادِنٍ أوْدَتْ بقلبِي ... كأنَّ السُّقْمَ لي ولها لِباسُ[٤]
يَسُلُّ اللحظُ منها مَشْرَفِيًّا ... لقَتْلي، ثم يُغْمِدُه النُّعاسُ[٥]

وقال ابن الروميّ: [من مجزوء الرّمل]

يا عَليلًا، جعلَ العِـ ... ـلَّةَ مِفْتاحًا لظُلْمي!
ليس في الأرضِ عَليلٌ ... غير جَفْنَيْكَ وجِسْمِي
بك سُقْمٌ في جُفُون ... سُقْمُها أكَّد سُقْمي

وقال تاج الدين بن أيّوب[٦]: [من المنسرح]

أسْقَمَنِي طَرْفُك السَّقيمُ، وقد ... حكاه مِنِّي في سُقْمِهِ الجَسَدُ!
هَبَّ نسيمٌ من نحوِ أرضِك لي ... فزادني في هَواكَ ما أجِدُ
وهاج شَوْقي، والنّارُ ما بَرِحَتْ ... عند هُبُوب الرِّياح تتَّقِدُ

---

(١) هذان البيتان لا يخضعان لقواعد العروض المعروفة، ولا ينتميان إلى أي بحر من بحور العروض الستّة عشر المتعارف عليها.
(٢) الملسوب: الملدوغ.
(٣) الصدود: الإعراض.
(٤) الشّادن: ولد الظبية، وأودت: ذهبت.
(٥) المشرفيّ: السّيف.
(٦) تاج الملوك بن أيوب: هو أبو سعيد بدري بن أيوب بن شادي بن مروان، الملقب مجد الدين، أخو السلطان صلاح الدين، كان أصغر أولاد أبيه، له ديوان شعر فيه الغثّ والسّمين... «وفيات الأعيان ١/ ٢٩٠».

وقال ابن المعتزّ: [من مجزوء الرجز]

ضـعـيـفـةٌ أجـفـانُـهُ والـقَـلْـبُ مـنـه حَـجَـرُ!
كـأنّـمـا ألـحـاظُـه مـن فِـعْـله تَـعْـتَـذِرُ

* * *

ومما وصفت به العيون على لفظ التأنيث، فمن ذلك ما قاله عديّ بن الرقاع[١]: [من الكامل]

وكـأنَّـهـا بـيـنَ الـنّـساءِ أعـارَهـا عينيه أحْورُ من جآذرِ جَاسِم
وَسْنانُ أقْصدهُ النُّعاسُ فرنَّقَتْ في عينه سِنَةٌ وليس بنائم[٢]

وقال الناجم: [من مجزوء الكامل]

كـاد الـغَـزالُ يَـكُـونُـهـا لـكِـنَّـمـا هـو دُونَـهَـا
والـنَّـرجِـسُ الـغَـضُّ الـجــ ـنيّ أغـضُّ مـنـه جُـفُـونُـهـا
مَـنْ كـان يـعـرف فـضـلَهـا فـعـن الـقـيَـاس يَـصُـونُـهـا[٣]

وقال أبو دلف: [من السريع]

نَـقْـتـنِـصُ الآسـادَ مِـنْ غِـيـلِهـا وأعـيُـن الـعِـيـنِ لـنـا صـائِدَهْ![٤]
يَنْبُو الحُسامُ العَضْبُ عنَّا وقد تَكْلِمُ فينا النظرةُ القاصِدَهْ![٥]
تـهـابُنـا الأُسْـدُ، ونَـخْـشَـى الـمَـهَـا آبِـدَةٌ مـا مِـثْـلُهـا آبِـدَهْ![٦]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المزمّل]

للهِ مـا صـنَـعَـتْ بـنـا تلك المَحَاجِرُ في المَعَاجِرْ![٧]
أمـضـى وأنـفـذُ فـي الـقـلـو ب من الخَنَاجر وفي الحَنَاجِرْ!

---

(١) عديّ بن الرّقاع: هو عديّ بن زيد بن مالك، من عاملة، شاعرٌ كبير من أهل دمشق كان معاصرًا لجرير، مهاجيًا له، له ديوان شعر، مات نحو سنة ٧١٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٢١».
(٢) الوسنان: النعسان، وأقصده النّعاس: غلب عليه، ورنقت: رفرفت أو حلّت بها، والسِّنة: النعاس والغفلة.
(٣) القياس: في اللغة ردّ الشيء إلى مثيله.
(٤) الغيل: الشجر الكثيف الملتفّ، وموضع الأسد.
(٥) ينبو: لم يصب، والعضب: القاطع، وتكلم: تجرح، والقاصدة: القاتلة.
(٦) المها: البقر الوحشي، والآبدة الأولى: الوحش، والآبدة الثانية: الداهية والمصيبة.
(٧) المعاجر: من العجار، وهو ثوبٌ تلفّه المرأة على استدارة رأسها.

وقال آخر: [من الكامل]

يَنْظُرْنَ من خَلَلِ السُّجُوف كأنَّما ... يُمْطِرْنَ أحشاءَ الكريم نِبالا![1]

وقال أبو فراس الحمدانيّ عفا الله تعالى عنه ورحمه: [من الطويل]

وبِيضٍ بألحاظ العُيونِ كأنّما ... هَزَزْنَ سُيوفًا أو سَلَلْنَ خَناجِرَا

تَصَدَّيْنَ لي يومًا بمَنْعَرج اللِّوى ... فغادَرْنَ قلبي بالتصبُّر غادرا[2]

سَفَرْن بُدورًا، وانتقبْنَ أهلَّةً ... ومِسْن غُصُونًا، والْتفتْنَ جآذِرا[3]

وأطْلَعْنَ في الأجياد للدُّرّ أنْجمًا ... جُعِلْنَ لحَبَّات القلوب ضَرائِرَا[4]

وقال ابن الروميّ: [من الكامل]

نظَرَتْ، فأقصدتِ الفُؤاد بطَرْفِها ... ثم انثنَتْ عنِّي، فكِدتُ أَهِيمُ![5]

وَيْلايَ! إن نظَرَتْ وإن هي أعرضَتْ ... وقعُ السِّهامِ ونزعُهنَّ أَلِيمُ!

وقال أيضًا: [من البسيط]

لطَرْفُها وهو مصروفٌ كموْقِعِه ... في القلب حِينَ يَروعُ القلبَ مَوقعُه[6]

تصُدّ بالطَّرْف لا كالسَّهم تَصْرِفهُ ... عنِّي، ولكنَّه كالسَّهْم تَنْزِعُه

وقال الأرّجانيّ: [من الخفيف]

نَقّبُوهُنَّ خَشْيَةَ العُشَّاق! ... أَوَ لم تَكْفِ فِتنةُ الأحْداق؟

إنّ في الأعينِ المِراضِ لَشُغْلًا ... للمُعَنَّى عن الخُدود الرِّقاق![7]

كلُّ ما فاتَ في الليالِي المواضِي ... فهو في ذمّة اللَّيالِي البَواقي

---

(١) الخلل: الفتحات، والسجوف: مفردها «سجف» وهو أحد السترين المقرونين بينهما فرجة.
(٢) منعرج اللِّوى: المنعرج: المنعطف، واللِّوى: ما انعطف والتوى من الرّمل أو مسترقّه.
(٣) سفرن: أي أسفرن عن وجوههنّ وأبدين زينتهنّ، وانتقبن: أي ارتدين النّقاب، وهو ما تستر به المرأة رأسها ووجهها، والجآذر: أولاد البقرة الوحشيّة.
(٤) الأجياد: الأعناق، مفردُها «جيد»، وحبّات القلوب: مُهجُها.
(٥) أقصدت: رمت وأصابت، والطرف: العين، وهام على وجه: لم يدر إلى أين يتّجه.
(٦) مصروف: مبعد وموجّه إلى غيره، ويروع القلب: يجعله يخفق.
(٧) المعنّى: الأسير.

وقال أيضًا: [من المتقارب]

سَتَرْنَ المَحاسِنَ إلّا العُيُونَا ... كما يَشْهَد المَعْرَكَ الدَّارِعُونَا[١]

سَلَلْنَ سُيُوفًا ولاقَيْنَنَا! ... فلا تَسْأل اليومَ ماذا لَقِينا

كَسَرْنَ الجُفُونَ ولولا الرِّضا ... بحُكْم الغَرامِ كَسَرْنا الجُفُونَا

وحَسْبُ الشهيدِ سُرورًا بأن ... يُعايِنَ حُورًا مع القَتْل عينًا[٢]

وقال أبو نُوَاس: [من الطويل]

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْف تَحْسَبُ أنّها ... قريبةُ عَهْدٍ بالإفاقةِ من سُقم[٣]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

يا مَنْ تكَحَّل طَرْفُها ... بالسِّحْر لا بالإثْمِدِ![٤]

نَفْسي كما عَذَّبْتِها ... وقَتَلْتِها بالإثْمِ، دِي![٥]

* * *

ومما قيل في أدواء العين، فمن ذلك:

الغَمَص، أن لا تزال العين تَرْمَص[٦].

اللَّحَح، أسوأ الغَمَص.

اللَّخَص، التِصاق الجُفُون.

العائر، الرَّمَد الشديدُ. وفيه يقول النابغة[٧]:

وباتَ وباتَتْ له ليلةٌ ... كليلة ذي العائِرِ الأرْمَد

---

(١) الدّارع: الذي يلبس الدّرع.

(٢) الحور: مفردها حوراء، وهي من النساء: البيضاء، والعين: مفردها العيناء، وهي الحسنة العين الواسعتها.

(٣) الكرّ: الهجوم والانقضاض، ويقصد بضعيفة كرّ الطّرف: يريد أنها فاترة العيون وكأنّ فيها انكسار.

(٤) الإثمد: عنصر معدنيٌّ يكتحل به.

(٥) دِي: فعل أمر للمؤنث من «ودى» بمعنى دفع الدّية بسبب الإثم الذي وقع منها.

(٦) الرّمص: ما يظهر في موق العين من وسخ أبيض.

(٧) هو النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب، أبو أمامة، والنابغة لقبه، شاعرٌ جاهليّ مشهور، توفي نحو سنة ٦٠٤ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٥٤».

وكذلك الساهِكُ.

الغَرْب، ورَم في المآقي[١].

السَّبَل، أن يكون على بياضها وسوادها شِبْه غِشَاء.

السَّجَا[٢]، أن يعسُر على الإنسان فتحُ عينيه إذا انتبه من النوم.

الظَّفَر، ظهور ظَفَرة (وهي جُلَيدة تغشى العين من تلقاء المآقي).

الطَّرْفة، أن يحدُث في العين نقطةٌ حمراء.

الانْتِشَار، أن يتّسع ثقب الناظِر حتَّى يلحق البياضَ من كل جانب.

الحَثَر، أن يخرُج في العين حَبٌّ وهو الجَرَب.

القَمَر، أن يعرض للعين فَتْرة[٣] وفساد، يقال: قَمِرت عينه.

* * *

ومما قيل في أرمد، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ (وقيل: إنها لابن الروميّ، وقيل للناجم): [من المنسرح]

قالوا: اشتكَتْ عينُه! فقُلتُ لهم ... من كَثْرةِ الفَتْك نالَهَا الوَصَبُ![٤]

حُمرتُها من دماءِ مَنْ قَتَلَتْ ... والدمُ في النَّصْل شاهدٌ عَجَبُ[٥]

وقال ابن منير الطرابلسيّ[٦]: [من مخلّع البسيط]

رَنَا وفي طَرْفِه احمرارٌ ... يغُضُّ من سِحْر مقلتَيْهِ

وفاضَ من نَرْجِسَيْه ماءٌ ... ضَرَّجه وَرْدُ وجنتَيْهِ[٧]

---

(١) المآقي: مفردها «مؤق» وهو طرف العين مما يلي الأنف.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) الذي في فقه اللغة للثعالبي ص ١٠٠: «القمرُ أن تعرض للعين فترة وفساد من كثرة النظر إلى الثلج، يقال: قمرت عينه» والفترة: الضعف والانكسار.

(٤) الوصب: التعب والفتور، والأوصاب: الأمراض.

(٥) النّصل: حديدة السيف والسّهم والسّكين.

(٦) ابن منير الطرابلسي: هو أحمد بن منير، أبو الحسين، شاعر مشهور من أهل طرابلس الشام ولد بها وسكن دمشق، وكان شاعرًا هجّاءً، توفي بحلب سنة ١١٥٣ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٦٠».

(٧) ضرّج: لطّخ، وضرّج الثوب: صبغه بالحمرة.

فقلتُ يا ممرضي بوجهٍ أظنُّ دائي سرى إليه![1]
هيهاتِ، لا تجحدَنّ قتلي! هذا دمِي شاهدٌ عليه![2]

وقال الواثق بالله[3]: [من الخفيف]

لي حبيبٌ قد طال شوقِي إليه لا أُسَمِّيه من حِذَاري عَلَيْه
لم تكن عينُه لِتجَحَدَ قتلي ودمِي شاهدٌ على وجنتَيْهِ!

وقال الصوليّ[4]: [من السريع]

يَكْسِرُ لي طَرْفًا به حُمرةٌ قد خَلَطَ النَّرجِسَ في وَرْدِهْ
ما احمرّت العينُ، ولكنَّهُ يَكْحُلُها من وردتَيْ خَدِّهْ!

وقال آخر: [من السريع]

قالوا: بَدَتْ في عينه حُمْرةٌ قد حازَها مِن وَرْدة الخدّ
فقلتُ: لم يَرْمَدْ ولكنّهُ يُصافِحُ النَّرجسَ بالوَرْدِ![5]

وقال أبو عبد الله بن الحدّاد[6] الوزير: [من الكامل]

يا شاكيَ الرَّمَدِ الذي بِشَكَاتِه قد صار دهرِي فيه ليلةَ أرمدَا![7]
اللهُ والإشفاق يعلم أنَّني لو أستطيعُ فِدًا، لكنتُ لك الفِدَا!

---

(١) الداء: المرض.
(٢) هيهاتِ: اسم فعل معناه «بعُد» هيهات أن يعود ما مضى.
(٣) الواثق بالله: هو الخليفة العباسيّ أبو جعفر هارون، ابن المعتصم، مات بسامرّاء سنة ٢٢٧ هـ. «صبح الأعشى ٣/ ٢٧٠».
(٤) الصولي: هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، الصولي، «أبو إسحٰق»، أحد البلغاء الشعراء الفصحاء الكتّاب، كان ظريفًا نبيلًا مات بسامرّاء سنة ٨٥٧ م، قال المسعوديّ: لا يعلم فيمن تقدّم وتأخّر من الكتّاب أشعر منه، له «ديوان رسائل» وديوان شعر. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».
(٥) الرّمد: مرضٌ يصيب العين فتلتهب منه، ويرم منه بياضها وجفناها.
(٦) ابن الحدّاد: هو محمد بن أحمد بن عثمان القيسيّ، أبو عبد الله شاعر أندلسيّ له ديوان شعر، وكتاب «المستنبط في العروض»، سكن المرية واختصّ بابن صمادح، توفي سنة ١٠٨٧ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٣١٥».
(٧) الشكاة: المرض، أو ما يشتكى من أوصاب المرض.

كَمْ من دمٍ سفكَتْ جُفونُكَ لم تَزَلْ   تُخْفِي وتَكْتُم سَفْكَه حتَّى بدا
لـم يَشْتَمِلْ بدمٍ غِرارُ مهنَّدٍ   إلا وقد أهْدى النفوسَ إلى الرَّدَى[١]

وقال أبو الفرج الببغاء[٢]: [من الطويل]

بنفسِيَ ما يشكوه مَن راحَ طَرْفُهُ   ونَرْجِسُه مما دهى حسنَهُ وَرْدُ!
أراقتْ دمِي ظُلْمًا محاسنُ وجهه   فأضحتْ وفي عينيه آثارُه تبدُو!
غدَتْ عينُه كالجَمْر حتَّى كأنما   سقى عينَهُ من ماء تَوْرِيده الخدُّ
لَئِن أصبحتْ رمداءَ مُقْلةُ مالكي   لقد طال ما ٱستَشْفَتْ به مُقَلٌ رُمْدُ!

وقال آخر: [من الخفيف]

قُضُب الهندِ والقَنا أخدانُكْ!   والمَقاديرُ في الورى أعوانُكْ![٣]
أيُّها ذا الأميرُ ما رَمِدت عَيْـ   ـنك! حاشَا لها، ولا أجفانُكْ!
بل حكَتْ فِعلَكَ الكريمَ ليضحي   شانُها في العُلى سواءً وشانُك
فهي تَحْمَرُّ مثل سيفك في الرَّو   ع، وتصفُو كما صَفَا إحسانُك

وقال آخر وأجاد: [من الطويل]

لقد جارَ ما تشكوه في الحُكْم وٱعتدى   وأسْرفَ في أفعاله وتَمَرّدا!
فمَنْ لي بأنْ لو كنتُ أعرِفُ حِيلةً   تُصَيِّر أجفاني لأجفانِكَ الفِدا؟
دهَتْ عينَك العينُ التي قد قضى القَضا   بأنك فيها سوفَ تُصْبِح أرمدا[٤]
فما بُدِّلَتْ مِن نرجِسٍ بشقائقٍ   أعادَتْ لُجَيْنَ الدَّمْعِ مِنِّيَ عَسْجَدَا[٥]
سَلَلْتَ حُسامَ اللَّحظ منها على الورى   وقد كان أحْرى أن يُصانَ ويُغْمَدَا![٦]

---

(١) الغِرار: حدّ السيف، والمهنّد: السّيف، والرّدى: الموت والهلاك.

(٢) أبو الفرج الببغاء: هو عبد الرحمٰن بن نصر المخزومي، من أهل نصيبين، شاعر مشهور، سمّي بالببغاء للثقة فيه، كان متصلًا بسيف الدولة الحمداني. «اليتيمة ١/ ٢٩٣ وما بعدها».

(٣) القُضُب: مفردها «القضيب» وهو السيف القاطع، والقنا: الرّماح، والأخدان: مفردها «خدن» وهو الصّديق والعون.

(٤) دهت: أصابت بداهية، ويقصد بالعين: الإصابة بالعين.

(٥) الشّقائق: نباتٌ أحمر الزهر مبقع بنقط سود، واللّجين: الفضّة، والعسجد: الذهب.

(٦) أحرى: أجدر وأحقّ، والغمد: غلاف السّيف.

فأنتَ الذي أبْلَيْتَهَا بالذي بها إذا السيفُ لم يُغْمَدْ تراكبه الصَّدَا[١]

* * *

ومما قيل في أرمد غطّى عينيه بشَعْريّة[٢]، قول السراج الورّاق[٣]: [من المنسرح]

شَعْريَّتِي، مُذْ رَمِدتُ قد حَجَبَتْ طَرْفيَ عَنْكمْ، فصِرْتُ محبوسَا
الحمدُ لله! زادنِي شَرَفًا كنتُ سِراجًا فصِرْتُ فانُوسا

وقال آخر: [من السريع]

غَطّى على عينيه شَعْرِيَّةً تُشْعِل في القلب لَهِيبَ الغَرامْ
كأنَّه البدرُ بدا نِصْفُه ونصفُه الآخَرُ تحتَ الغَمام!

وقال آخر: [من السريع]

لا تَحْسَبُوا شَعْرِيَّةً أصبحَتْ من رَمَدٍ في وجهه مُرْسَلَهْ
وإنما وجنته كعبةٌ أستارها من فَوقها مُسْبَلَهْ[٤]

ومن رقعة كتبها أرمد (وهو عبد الله بن عثمان الواثقيّ) عفا الله عنه، قال:

صادف وُرُودُ كتابه رمدًا في عيني قد حصرني في الظُّلمة، وحبسني بين الغمّ والغُمَّة، وتركني أُدْرِك بيدي ما كنت أدرك بعيني: كليلَ سِلاح البصر، قصير خَطْو النظر، قد ثَكِلْتُ مصباح وجهي، وعَدِمت بعضي، الذي هو آثَرَ عندي من كُلِّي، فالبِيض عندي سُود، والقريب منِّي بعيد! قد أحاط الوجعُ أجفاني، وقبض عن التصرُّف بَنَاني، ففراغي شُغْل، ونهاري ليل، وطوال الخُطا قصار، وقِصار أوقاتي طِوال. وأنا ضرير وإن عُدِدتُ في البصراء، وأمّيّ وإن كنت من جملة الكُتَّاب والقرّاء. قد قصرت العلّة خطوتَيْ قلمي وبَنَانِي، وقامت بين يدي ولساني.

---

(١) تراكبه: حلّ بصفحته وتجمّع فوقها، والصدأ: ما يلحق بالمعادن عندما تتعرّض للماء والشمس والهواء.

(٢) الشّعريّة: غشاءٌ أسود رقيق يكون على وجه الأرمد والنّساء، وأصله أن ينسج من الشّعر، ثم يطلق على كلّ ما شابهه، وهي كلمة مولّدة.

(٣) السّراج الورّاق: هو عمر بن محمد، أبو حفص، شاعر مصر في عصره، له ديوان شعر كبير، توفي بالقاهرة سنة ١٢٩٦. «فهرس الأعلام ٥/ ٦٣».

(٤) المسبلة: المتدلّية، وأسبل السّتار: أرخاه.

وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات، فيقولون:

القِلَّة ذِلَّة، والوَحْدة وَحْشة، والهَوى هَوان، والأقارب عَقارب، والمَرَض حَرَض[١]، والرَّمد كمد[٢]، والعلَّة قِلَّة، والقاعد مُقْعد.

والله تعالى أعلم.

فصل في ترتيب البكاء

إذا تَهَيأ الرجل للبكاء، قيل: أَجْهَشَ.

فإذا امتلأتْ عينه دُموعًا، قيل: ٱغرَوْرَقت عينهُ، وتَرَقْرقتْ.

فإذا سالَتْ، قيل: دَمَعَتْ، وهَمَعَت.

فإذا كَثُرتْ دموعه، قيل: هَمَتْ.

فإن كان لبكائه صوت، قيل: نَحَب ونَسَج.

فإذا صاح مع بكائه، قيل: أعول.

قال سَلْم الخاسر: [من المتقارب]

أَتَتْني تُؤنِّبني في البُكاء ... فأَهْلًا بها، وبتأْنِيبِها![٣]
تقول، وفي قولها حِشْمةٌ ... أَتَبْكِي بِعين تَرانِي بِها؟
فقلتُ: إذا ٱستحسنَتْ غيْرَكُم ... أمرتُ الدُّموعَ بتأدِيبِها

فصل فيما قيل في الأنف

الشَّمَم[٤]، ارتفاعُ قصبة الأنف مع استواء أعلاها.

القَنَا، طُول الأنف، ودِقَّة أرنبته، وحَدَبٌ في وَسَطه.

الفَطَس، تطامُن[٥] قصبته مع ضِخَم الأرنبة.

الخَنَس، تأخُر الأنف عن الوجه.

الذَّلَف، شُخوص طَرْفه مع صغر أرنبته.

---

(١) الحرض: الهلاك.
(٢) الكمد: الحزن والغمّ.
(٣) التأنيب: اللّوم.
(٤) في فقه اللغة للثعالبي ص ١٠٢: الشّحم، ولعلّ الصواب هو الذي ورد في كتاب النّويري.
(٥) التطامُن: الانخفاض والهبوط.

الخَشَم، فِقْدان حاسَّة الشمّ.

الخَرَم، شَقٌّ في المَنْخِرين.

الخَثَم[١]، عِرَض الأنف. (يقال: ثورٌ أخْثَمُ).

القَعَم، اعوجاج في الأنف. قال الشاعر: [من الخفيف]

لَيِّن المَنْخرين معتدلُ الما   رن لا سائلٌ ولا جَعْدُ[٢]

* * *

ومما قيل في الشِّفاه والفَمِ[٣]، الشَّدَق، سَعة الشِّدقين.

الضَّجَم، مَيْل في الفم وفيما يليه.

الضَّزَز، لُصوق الحنَك الأعلى بالأسفل.

الهَدَل، استرخاء الشفتين وغلظُهما.

اللَّطَع، بياضٌ يعتريهما.

القَلَب، انقلابهما.

الجَلَع، قصَرهما[٤] عن الانضمام.

فصل في تقسيم ماء الفم

ما دام فيه[٥]، فهو رِيق، ورُضَاب.

فإذا عَلِك، فهو عَصيب.

فإذا سال، فهو لُعَاب.

فإذا رمى به، فهو بُزَاق، وبُصَاق.

---

(١) في فقه اللغة للثعالبي ص ١٠٢: الخشم، والخثم والخشم: يقتربان في المعنى، فالخشم: اتّساع الخيشوم.

(٢) المارن من الأنف: ما لانَ منه.

(٣) في فقه اللغة للثعالبي ص ١٠٣: ذكر ما أثبته النويري من قول في الشفاه والفم تحت عنوان «في معايب الفم».

(٤) في فقه اللغة للنويري ص ١٠٤: الجلع قصورهما عن الانضمام، ولعلّه الأصوب.

(٥) في فقه اللغة للثعالبي ص ١٠٤: ما دام في فم الإنسان، ولذلك فإن الضمير في «فيه» عائد إلى الفم.

فصل في ترتيب الضحك

التبسُّم أوّل مراتبه، ثم الإهلاس وهو إخفاؤه، ثم الافتِرار، ثم الانْكلال وهما الضحِك الحَسَن، ثم الكَتْكتة أشدّ منهما، ثم القَهْقَهة والقَرْقرة والكَرْكرة، ثم الاسْتِغراب، ثم الطَّخْطَخَة، ثم الإهْزاق والزَّهْزقة، وهو أن يذهب الضحك به كلَّ مذهب.

قال كُشاجم: [من الرمل]

عَـذُبـتْ فـي الـرَّشْـفِ منـه شَـفَـةٌ ... مَصُّها أطيبُ من نَيْل الأمَلْ![1]

وعــلـيــهــا حُــمْــرةٌ فــي لَعَــسٍ ... تستعيرُ اللونَ من صِبْغ الخَجَل![2]

هِــيَ فــيــمــا خِــلْتُ آثــارُ دَمٍ ... من فؤادي، عَلَّ فيه ونَهَلْ![3]

وقال ابن سُكَّرَة الهاشميّ[4]: [من المنسرح]

يا ضاحِكاً، يستهِلُّ مَضْحَكُه ... عن بَرَد واضح وعَنْ شَنَبِ![5]

أعـطيـتَـنـي قُبْلة رشفْتُ بـهـا ... الشَّهْدَ مَشُوباً بعَبْرة العنَب[6]

كـأنَّـنـي إذ لـثـمـتُ فـاكَ بـهـا ... لـثـمـتُ تُـفَّـاحـةً مـن الـذهَـب

وقال كشاجم: [من الطويل]

كأنَّ الشفاه اللعْسَ منها خَواتِمٌ ... من التِّبْر مختومٌ بهنَّ على دُرّه

وقال سيف الدولة بن حمدان، في صباه: [من مجزوء الوافر]

أُقَــبِّــلُه عــلى عَــجَــلٍ ... كـشُـرْب الـطـائـر الـفَـزِعَ

---

(١) الرّشف: المصّ بالشفتين.

(٢) اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة، ويبدو جليًا في الشفة السّفلى. وصبغ الخجل: الفتاة إذا خجلت احمرّت وجنتاها، وإذا فزعت لحقتهما صفرة.

(٣) خلتُ: ظننتُ وحسبتُ، والعلّ: أن يشرب المرء ثانيةً بعد الشّرب الأوّل، والنهل: أوّل الشّرب.

(٤) ابن سكرة الهاشميّ: هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، شاعر اليتيمة. «تقدّمت ترجمته».

(٥) يستهلّ: يكشف، والبرد الواضح: الأسنان البيضاء، والشّنب: صفاء الأسنان وبياضها.

(٦) المشوب: الممزوج، والعبرة: الدمعة، وعبرة العنب: أي الخمر.

رأى مــاءً فــأطْــمــعــه فـخـاف عَـواقِـبَ الـطَّـمَـعِ
فـصـادف فُـرْصـة فـدَنَـا ولـم يـلـتـذَّ بـالـجَـرَعِ[١]

* * *

ومما قيل في طيب الريق والنَّكْهة على لفظ التذكير، فمن ذلك قول ابن الروميّ: [من الخفيف]

أهيفُ الغُصْن، أهيلُ الدِّعْصِ لمّا يَـقْـتـسِـمْ قـدَّه وِشـاحٌ ومِـرْطُ[٢]
طَـيِّـب طـعـمُـه إذا ذُقـتَ فـاه والثُّريَّا في جانب الغَرْب قُرْطُ[٣]

وقال آخر: [من الكامل]

يا مانِعِي طيبَ المَنامِ، ومانِحِي ثَـوْبَ السُّقـامِ، وتـارِكـي كـالآل![٤]
عمَّن أخذتَ جَوازَ منعِي ريقَكَ الـ ـمعسول، يا ذا المَعْطِف العَسَّال؟[٥]
عن ثَغركَ النظَّام، أم عن شَعْرك الـ ـفحَّام، أم عن طَرْفك الغَزَّال؟[٦]

وقال آخر: [من المتقارب]

أتَـدْرون شَـمْـعـتـنـا لِمَ هَـوَتْ؟ لـتـقـبـيـلِ ذا الـرَّشـأ الأكـحـلِ![٧]
درَتْ أن ريــقــتَــه شُــهْــدةٌ فــحــنَّــتْ إلــى إلْفــهـا الأوّل

وقال بشار بن بُرْد: [من البسيط]

يا أطيبَ الناس ثَغْرًا غير مختَبَرٍ إلَّا شهادة أطرافِ المَسَاويكِ![٨]

---

(١) الجرع: شرب الماء.
(٢) الأهيف: الضامر، والغصن: يريد به القوام، وأهيل الدّعص: يريد الأرداف المكتنزة، كالكثيب من الرّمل، والمرط: كساءٌ من خزّ أو صوف أو كتان يؤتزر به، وتتلفّع به المرأة.
(٣) القرط: ما تضعه المرأة في أذنها من حليّ. (٤) الآل: السّراب.
(٥) المعطف العسّال: يريد القوام المنتصب كالرّمح، والعسّال: الرّمح يهتزّ لينًا.
(٦) النظّام: المستوية فيه أسنانه والمنتظمة، والفحّام: الأسود والغزّال: الكثير الغزل، أو الذي يأسر بشباك نظراته.
(٧) الرشأ: ولد الظبية.
(٨) المساويك: مفردها مسواك، وهو عودٌ تخلّل به الأسنان.

وقال ابن وكيع التّنيسي[(١)]: [من السريع]

ريـقٌ إذا مـا ٱزْدَدْتُ مـن شُـرْبـه ... رِيًـا، ثـنـانـي الـرِّيُّ ظـمـآنـا
كـالـخـمـر أروى مـا يـكـون الـفـتـى ... مـن شُـرْبـهـا أعـطَـشُ مـا كـانـا

وقال ابن الروميّ: [من السريع]

يـا رُبَّ ريـقٍ بـاتَ الـدُّجـى ... يـمـجُّـه بـيـن ثَـنـايَـاكـا
يُـرْوي ولا يـنـهـاك عـن شُـرْبـه ... والـمـاء يُـرويـكَ ويَـنْـهـاكـا

وقال أبو الفتح كشاجم: [من المديد]

بَـلَـغَـتْـهُ الـكـأْسُ فـارتـعـدَتْ ... طَـرَبًـا مـنـهـا إلـى فَـمِـهِ
مـنَـعـتْـه أن يـؤخِّـرهـا ... فـي يـديـه مـن تـحَـشُّـمِـه
فـحَـسَـاهـا ثـم أعـقـبـهـا ... أرَجًـا مـن طِـيـبِ مَـبْـسِـمِـه[(٢)]

وقال آخر: [من المتقارب]

بـقَـدْر الـصَّـبـابـة عـنـد الـمَـغِـيـب ... تكـونُ الـمَـسرّةُ عـنـد الـحُـضُـورِ[(٣)]
وأطـيـبُ مـا كـان بـردُ الـثُّـغُـورِ ... إذا هُـوَ صـادفَ حَـرّ الـصُّـدور

* * *

ومما وصف به على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول ابن مَيّادة[(٤)]: [من الطويل]

كـأنَّ عـلـى أنـيـابـهـا الـمِـسْـكَ شـابَـهُ ... بُعَيْدَ الكَرى من آخر الليل عابِقُ![(٥)]
ومـا ذُقْـتـه إلّا بـعـيـنِـي تَـفـرّسًـا ... كما شِيمَ في أعلى السحابة بارِقُ[(٦)]
يـضـم إلـيّ الـلـيـلُ أذيـالَ حُـبِّـهـا ... كما ضمَّ أردانَ القميص البنائقُ[(٧)]

(١) هو ابن وكيع التنيسيّ، أبو محمد، الحسن بن علي، شاعر بارع، وعالم جامع، قد برع في إبّانه على أهل زمانه، فلم يتقدّمه أحدٌ في أوانه. «اليتيمة ١/ ٤٣٤».
(٢) حساها: شربها، والأرج: الرائحة الطيّبة.
(٣) الصبابة: رقة الشوق والحب.
(٤) ابن ميادة: هو الرّمّاح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني، أبو شرحبيل، شاعر رقيق هجّاء، من مخضرمي الدولتين الأموية والعبّاسية، كان مقامه بنجد، توفي سنة ٧٦٦ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١».
(٥) شابه: خالطه.
(٦) التفرّس: إدامة النظر والتحديق، وشام البرق: نظر إليه.
(٧) الأردان: أطراف الكمّ الواسع، أو أصلُ الكمّ. والبنائق: مفردها بنيقة وهي رقعة تخاط في أعلى=

وقال البحتريّ: [من الطويل]

كأنَّ على أنيابها بعد هَجْعةٍ ... إذا ما نُجومُ الليل حانَ ٱنْحِدارُها
مُجاجةَ مِسْك صُفِّقَتْ بمُدامةٍ ... معتَّقة صَهباءَ، حان ٱعْتِصارُها[١]

وقال ذو الرمّة: [من الطويل]

أسِيلةُ مَجْرى الدّمع هَيفاءُ طَفْلةٌ ... عَرُوبٌ، كإيماض الغمام ٱبتسامُها[٢]
كأنّ على فيها، وما ذُقت طَعْمَهُ ... زُجَاجةَ خمرٍ طابَ فيها مُدامُها

وقال كشاجم: [من السريع]

البدرُ لا يُغْنيكَ عنها إذا ... غابَتْ وتُغْنِيك عنِ البَدْرِ
في فَمِها مِسْك ومشمولةٌ ... صِرْفٌ ومنظومٌ من الدُّرّ[٣]
فالمِسْك للنَّكْهة، والخمْر للـ ... ـرِّيقة، واللُّؤلؤ للثَّغْر

وقال الهذليّ[٤]: [من الوافر]

وما صَهباءُ صافِيَةٌ شمولٌ ... كعين الدّيك مُنجابٌ قَذَاها[٥]
تُشَجُّ بماءِ سارِيةٍ عَريض ... على ظمإٍ به رصف صَفَاها[٦]
بأطيبَ نَكْهةً من طَعْمِ فيها ... إذا ما طار عن سنَةٍ كَرَاها[٧]

وقال ابن الروميّ: [من الطويل]

وما تَعْتَريها آفةٌ بَشَرِيَّةٌ ... من النَّوم إلا أنّها تَتَخَتَّرُ[٨]

= القميص أو الزيق الذي تثبت فيه الأزرار.

(١) المجاجة: العصارة، وصفّقت: مزجت أو صفّيت، والصهباء: الخمر.

(٢) الطفلة؛ الرّخصة الناعمة، والعروب: المرأة المتحبّبة إلى زوجها، وإيماض الغمام: برقُه.

(٣) المشمولة: الخمر الباردة.

(٤) الهذلي: الشّعراء الهذليون كثير، ولعلّه أبو صخر الهذلي، عبد الله بن سلمة السّهمي، شاعر من الفصحاء، كان مواليًا لبني أُميّة، توفي نحو سنة ٧٠٠ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٠».

(٥) عين الديك: يريد أنها صافية، والمنجاب: المجلو والمبعد، والقذى: ما يقع في العين من وسخ أو أذى.

(٦) تشجّ: تمزج وتخلط، والسارية: السّحابة التي تمطر ليلًا، والعَريض: من العارض أي الممطر، والرّصف: الماء المنحدر من الجبال على الصخر، ويكون أبيض صافيًا.

(٧) السنة: النعاس، والكرى: النوم.

(٨) الآفة: العلّة، وتتختّر: تسترخي وتضعف من شراب أو غيره.

كـذلِك أنْـفـاسُ الـرِّيـاضِ بِـسُـحْـرةٍ ... تَـطِـيـبُ وأنـفـاسُ الأنـامِ تَـغَـيَّـرُ(١)

ومـا ذُقْـتُـه إلا بِـشَـمِّ ٱبْـتِـسـامِـهـا ... وكـم مُـخْـبـرٍ يُـدْنِـيه لـلعين مَـنْـظَـر

وغيرُ عـجيبٍ طِيبُ أنفاسِ روضة ... مُـنَـوَّرة بـاتـت تُـرَاح وتُـمْـطَـرُ(٢)

وقال جميل(٣): [من الكامل]

وكـأنَّ طـارِقَـهـا على عِـلَـل الـكَـرَى ... والـنـجـمُ وَهْـنًـا قـد دَنَـا لـتـغَـوُّر(٤)

يَـسْـتـافُ رِيـحَ مُـدامـةٍ مَـعْـلُـولـة ... بذكِيِّ مِسْكٍ أو سَحِيق العَنْبرِ(٥)

وقال الشريف الموسويّ(٦)، شاعر اليتيمة: [من السريع]

يـا عَـذْبـةَ الـمَـبْـسِـم! بُـلِّي الْجَـوى ... بـنَـهْـلـةٍ مـن ريـقِـكِ الـبـارِدِ!(٧)

أرى غَــدِيــرًا ســيِّــحًــا مــاؤه ... فـهـلْ لـذاكَ الـمـاء مـن وارد؟(٨)

مَـنْ لـي بـذاك الـعسلِ الذائب الـ ... ـجـاري خِـلَال الـبَـرَد الـجـامـد؟

* * *

(١) السُّحرة: أي وقت السّحر، يريد أن أنفاس الرياض وقت السحر يعبق شذاها طيّبًا بينما أنفاس الأنام في ذلك الوقت المتأخّر من الليل تتغيّر رائحتها.

(٢) تراح: أي تفوح فيها رائحة الشراب، وهو الرّاح.

(٣) جميل: هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري، أبو عمرو، شاعر من عشّاق العرب، وعشيقته بثينة، شعره يذوب رقّة، وأكثره في النسيب والغزل، توفي سنة ٧٠١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٣٨».

(٤) العَلَل: الشرب مرّة بعد مرّة يتعلّل به، استعير للكرى وهو النّعاس، والوهن: نحو نصف الليل أو بعد ساعة منه، ودنا: قرب، والتغوّر: الاختفاء.

(٥) يَستاف: يشمّ، والمعلولة: الممزوجة، وذكيّ المسك: رائحته المنتشرة، وسحيق العنبر: أي العنبر المسحوق الذي تفوح رائحته عند السّحق، وفي الديوان: يستاف ريح مدامة «معجونة» ص ٦٠، دار صادر، بيروت.

(٦) الشريف الموسوي: هو الشّريف أبو الحسن محمد بن الحسين الرّضي الموسوي النقيب، ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ، وهو من كبار شعراء الدولة العباسيّة. «اليتيمة ٣/ ١٥٥».

(٧) بلّي: من بلّ الشيء أي غمره بالماء، والجوى: اشتداد الوجد والاحتراق من العشق. والنّهل: أوّل الشّرب.

(٨) السيّح: الجاري، والوارد: الشارب.

ومما قيل في طيب عَرْف[١] النساء، قالوا: من أجود ما قيل في ذلك من قديم الشعر قول الأعشى[٢]: [من البسيط]

ما رَوضةٌ مِن رياض الحَزْنُ معشبةٌ خضراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ[٣]
يُضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مؤزَّرٌ بِعَمِيم النبت مكتَهِلُ[٤]
يوماً بأطيبَ نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصُلُ[٥]

وقول القطاميّ[٦]: [من الطويل]

وما رِيحُ قاعٍ ذي خُزامى وحَوْلَهُ شَذًا أرَجٍ من طيِّب النَّبْت غاربِ[٧]
بأطْيَب من مَيٍّ إذا ما تقلَّبَتْ من الليل وَسْنى جانباً بعد جانِبِ[٨]

أخذه ابن المعتزّ ببعض لفظه وزاد زيادة حسنة، فقال: [من الطويل]

وما ريحُ قاعٍ زاهرٍ مَسَّت النَّدى وروضٍ من الرَّيحان سَحَّت سحائِبُه[٩]
فجاء سُحَيْرًا بين يومٍ وليلةٍ كما جَرَّ من ذيل الغِلَالة ساحبُه[١٠]

---

(١) العرف: الرائحة الطيّبة.
(٢) هو ميمون بن قيس بن بكر بن وائل الشاعر الجاهلي المشهور المقدّم، وأحد أصحاب المعلّقات، شاعر خمرة ومديح، أدرك الإسلام ولم يسلم. «انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٢».
(٣) الحزن: الأرض الغليظة: المسبل الهطل: المطر الغزير.
(٤) يضاحك الشمس: يدور معها حيث دارت، وكوكب كلّ شيء: معظمه، والمراد هنا: الزّهر، والمؤزّر: أي مؤتزر بالإزار، والشّرق: الرّيّان الممتلىء ماء، والعميم: التام السنّ، والمكتهل: الذي أدرك التمام.
(٥) النشر: فوح الرائحة الطيبة، والأصل: مفردها «أصيل»، وهو الوقت الذي يكون بين العصر والعشاء.
(٦) القطاميّ: هو عُمير بن شُييم بن عمرو بن عبّاد، من بني جُشم بن بكر، أبو سعيد التغلبي، شاعر غزل فحل، من نصارى تغلب وأسلم، له ديوان شعر، مات نحو سنة ٧٤٧ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٨٨».
(٧) الخزامى: جنسُ نبات، أنواعه عطرة، من أطيب الأفاويه، والغارب: أعلى كلّ شيء.
(٨) الوسنى: النّعسة.
(٩) القاع: الأرض السهلة المطمئنة، وسحّت: أمطرت.
(١٠) السُّحِر: من السّحر، آخر الليل قبيل الفجر، والغلالة: لباسٌ رقيق يلبس تحت الثوب أو تحت الدّرع.

بـأطـيَـبَ مـن أنـيـابِ سَـرَّةَ مَـوْهِـنًـا إذا الليلُ أدجى وأَرجَحنَّت كتائِبه[١]

إذا رَغِبتْ عـن جانـبٍ من فِرَاشِـها تـضـوّعَ مِـسْـكًـا أيـن مـالَـتْ جـوانـبُـه

وقال ابن الروميّ: [من البسيط]

والـعَـرْفُ نَـدٌّ ذكـيٌّ، وهـي ذاكِـيَـةٌ إذا أساء جِـوارَ الـعِـطْـر أبـدانُ[٢]

نـعـيـمُ كـلّ بـهـارٍ مـن مَـجَـامِـرِهـا ويُشْمِسُ الليلُ منها فهو ضَحْيانُ[٣]

كـأنّـهـا، وعُـثَـانُ الـنَّـدّ يـشـمَـلُـهـا شمسٌ عليها ضَباباتٌ وأدْجانُ[٤]

وقال ابن الأحنف[٥]: [من الطويل]

ذَكَـرتُـكِ بـالـرَّيـحـان لَـمَّـا شَـمِـمْـتُـه وبالراح لما قابلَتْ أوجُهَ الشَّرْبِ

تـذكَّـرتُ بـالـريـحـانِ منكِ روائحًا وبالراح طَعْمًا من مُقَبَّلِكِ العَذْبِ

ومن البليغ قول سحيم[٦]: [من الطويل]

فـمـا زالَ بُـرْدِي طَـيِّـبًـا مـن ثِـيـابـهـا إلى الحول، حتَّى أَنْهَجَ البُرْدُ باليا[٧]

وأبلغ منه قول الأحنف: [من الخفيف]

وجَدَ الناسُ ساطِعَ المِسْك من دِجْـ ـلةَ قـد أوسع الـمَـشَـارِعَ طيبـا[٨]

فـهُـمُ يُـنـكِـرُونَ ذاكَ ومـا يَـدْ رونَ أن قـد حَـلَلْتِ مـنـهـا قَـريـبـا

---

(١) سرّة: اسم على، وأدجى: أظلم، وارجحنّت: ثقلت ومالت واهتزّت، والكتائب: جمع كتيبة، ويقصد بها هنا قطع الليل.

(٢) العرف: الرائحة الطيّبة، والندّ: عودٌ من الطّيب يتبخّر به.

(٣) البهار: جنس زهر طيّب الرائحة، ينبت أيّام الربيع، والمجامر، مفردها مجمر، وهو ما يوضع فيه الجمر مع البخّور والطّيب، والضحيان: من الضّحى وهو وقت ارتفاع الشمس أو النهار.

(٤) العثان: الدخان، وأكثر ما يستعمل في الدّخان المتصاعد من مجامر الطّيب، والأدجان: مفردها «دُجى» وهو وقت الدخول في الظلام.

(٥) ابن الأحنف: هو العبّاس بن الأحنف اليمامي، أبو الفضل، شاعر غزل رقيق، أصله من نجد، ونشأ ببغداد وتوفي بها، وقيل: بالبصرة سنة ٨٠٨ م. «فهرس الأعلام ٣/٢٥٩».

(٦) سحيم: هو سُحيم بن الأعرف من بني الهُجيم بن عمرو بن تميم شاعر معاصر لجرير، ذكره ابن قتيبة. «انظر الشعر والشعراء ص ٤٢٨».

(٧) أنهج البُرد: خلق وبلِيَ.

(٨) المشارع: مفردها «المشرع» وهو مورد الماء.

وقال آخر، وأحسَنَ: [من السريع]

جاريةٌ أطيبُ من طِيبِها والطِّيبُ فيها المِسْكُ والعنْبرُ
ووجْهُها أحسنُ من حَلْيِها والحَلْيُ فيها الدّرّ والجوهَرُ

وقال أمرؤ القيس: [من الطويل]

ألم تَرَ أنّي كُلَّما جئتُ طارقًا وجدْتُ بها طيباً، وإن لم تَطَيَّب(١)

وقال آخر: [من الطويل]

أتَاها بعِطْرٍ أهلُها فتضاحَكَتْ وقالت: وهل يَحتاجُ عِطْر إلى عِطْر؟

وقد بالغوا حتَّى وصفوا طيب المواضع التي وَطِئها المحبوبُ.

وأوّل من قال ذلك النميريّ(٢) الشاعر في زينبَ بنت يوسف أخت الحجاج، فقال: [من الطويل]

تَضوّعَ مِسْكًا بطنُ نَعْمانَ أن مشَتْ به زينبٌ في نِسْوةٍ خَفِرات(٣)

وقال جميل: [من الطويل]

ألَا أيُّها الربعُ الذي غيَّر البِلى! عَفَا وخَلَا، من بعد ما كان لا يخلُو(٤)
تَداءبَ ريحُ المِسك فيه وإنما به المسكُ أن جَرّتْ به ذيلَها جُمْلُ(٥)

---

(١) في الديوان ص ٢٩، دار الكتب العلمية: «ألم ترياني» وهو الصواب، لأن مطلع القصيدة يقول: خليليّ مرّا بي على أمّ جندب.

(٢) النّميري: هو محمد بن عبد الله الثقفيّ النميري شاعر غزل، من شعراء العصر الأموي، كان كثير التشبيب بزينب أخت الحجاج، له ديوان شعر صغير، توفي سنة ٧٠٨ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٠».

(٣) نعمان: وادٍ يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، بين أدناه ومكة نصف ليلة، وبنعمان من بلاد هذيل وأجبالها الأصدار، وهي صدور الوادي التي يجيء منها العسل إلى مكة. «معجم البلدان ٥/ ٢٩٣».

(٤) عفا: درس وبلى وامّحى.

(٥) قوله (تداءب ريح المسك فيه) أي في الربع الذي غيّره البلى. و(تداءَب) كذا بالدال المهملة من باب التفاعل. وصوابه (تذأب) بالذال المعجمة من التفعّل يقال (تذأبت الريح) إذا جاءت مرة كذا ومرة كذا كما يفعل الذئب. فالتذؤب مأخوذ من مادة (الذئب) وإنما ذكّر الفعل مع أن الريح مؤنثة لأن تأنيثها مجازيّ ومثله يجوز تذكير فعله وتأنيثه. وجُمل: ترخيم لنداء جميلة.

وقول الآخر: [من الطويل]

أرى كلَّ أرض دُستِ فيها، وإن مضت لـهـا حِـجَـجٌ، يـزدادُ طـيـبـاً تُـرابُـهـا!

* * *

ومما قيل في الأسنان، فمن محاسنها:

الشَّنَب، وهو رِقَّة الأسنان واستواؤها وحُسْنها.

الرَّتَل، حُسْن تنضيدها واتّساقها.

التَّفْلِيج، تفرُّج ما بينها.

الشَّتَت، تفرّقها من غير تباعد بل في استواء وحسن. (يقال: ثغر شَتِيت، إذا كان مُفَلَّجًا حسنًا أبيضَ).

الأَشَرُ، تحزيز في أطراف الثنايا يدلّ على حَدَاثة السنّ.

الظَّلْم، الماء الذي يجري على الأسنان من البَريق لا من الرِّيق.

فصل في مقابحها

الرَّوَق، طولها.

الكَسَسُ، صِغَرها.

الثَّعَلُ، تراكُبُها وزيادة سِنٍّ فيها.

الشّغا، اختلاف منابتها.

اللَّصَصُ، شدّة تقارُبها وانضمامها.

اليَلَلُ، إقبالها على باطن الفم.

الدَّفَقُ، اْنصبابُها إلى قدّام.

الفَقَمُ، تقدّم سُفْلاها على العليا.

القَلَحُ، صُفْرتها.

الصُّرَامةُ، خُضْرتها[1].

الحَفَرُ، ما يلزَق بها.

---

(١) في فقه اللغة للثعالبي ص ١٠٣: «الطَّرامة» بالطاء المشدّدة المفتوحة.

الدَّرَدُ، ذَهَابها.

الهَتَمُ، انكسارها.

اللَّطَطُ، سقوطها.

فصل في ترتيب الأسنان

وهي: أربعُ ثَنايا، وأربعُ رَباعِيات، وأربعُ أنياب، وأربعُ ضَوَاحِك، وثِنْتا عَشْرَة رَحًا[١]، وأربعةُ نواجذَ[٢].

قال أبو الفتح كُشاجم: [من الطويل]

عَرَضْن! فعرَّضْنَ القُلوبَ من الجوى ... لأسْرَع في كَيِّ القُلوبِ من الجَمْر![٣]
كأن الشِّفاهَ اللُّعْسَ فيها خواتِمٌ ... من المِسْك، مختومٌ بهنَّ على دُرّ[٤]

وقال أيضًا: [من مخلّع البسيط]

كالغُصْن في روضةٍ تمِيسُ ... تَصْبُو إلى حسنها النُّفُوسُ
ما شَهِدَتْ والنِّسَاءَ عُرْسًا ... فشُكَّ في أنها عَرُوسُ!
تَبْسِمُ عن باسِم بَرُودٍ ... تَعْبَقُ من طِيبة الكُؤوسُ
يجْمَعُ فيه لمجتنِيه: ... مسكٌ، ووَرْدٌ، وخَنْدَرِيسُ[٥]

وقال المتنبّي: [من الطويل]

ويَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تقلَّدْنَ مثلَهُ ... كأنَّ التَّراقِي وُشِّحتْ بالمبَاسم[٦]

وقال الصنوبريّ: [من المنسرح]

تلك الثَّنايا من عقْدها نُظمتْ ... بل نُظِم العِقدُ من ثَنَايَاها[٧]

---

(١) الرّحا والرّحى: بالألف الطويلة الممدودة والمقصورة: الطاحون.
(٢) النواجذ: أقصى الأضراس في الفم.
(٣) عرضن: ظهرن، وعرّضن: جعله عرضةً، والجوى: شدّة الوجد والاحتراق من العشق.
(٤) اللّعس: التي في حمرتها سمرة.
(٥) الخندريس: الخمر المعتقة.
(٦) التّراقي: مفردها «ترقوة»، وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق، ووشّحت: زيّنت.
(٧) الثنايا: الأسنان الأربع في مقدّم الفم.

وقال البحتريّ: [من البسيط]

ويَرْجِعُ الليلُ مُبيضًّا إذا ضَحِكتْ ... عن أبيضٍ خَصِلِ السِّمْطيْنِ وَضَّاحِ[١]

وقال ابن الروميّ: [من الوافر]

كأنّي لم أبِتْ أُسْقَى رُضاباً ... يموتُ به ويحيَا المُستهَامُ![٢]

تُعَلِّلُنيه واضحةُ الثَّنايَا ... كأنّ لِقاءَها حَوْلًا لِمَامُ

تَنَفَّسُ كالشَّمول ضُحَى شَمالٌ ... إذا ما فُضَّ عن فَمها الخِتامُ[٣]

وقال النابغة: [من الكامل]

تجلُو بقادمَتَيْ حمامةِ أيكةٍ ... بَرَدًا، أسِفَّ لِثاته بالإثْمِدِ[٤]

كالأُقْحُوان غداةَ غِبِّ سَمائِهِ ... جفَّتْ أعالِيه، وأسفَلُه نَدِي[٥]

وقال شقيق بن سليل[٦]: [من الطويل]

وتَبْسِم عن ألْمى اللِّثاثِ، مَفَلَّجٍ ... خَليقِ الثَّنايا بالعُذوبة والبَرْدِ[٧]

وقال جميل: [من الطويل]

بِذي أُشُرٍ كالأُقْحوان يَزِينُه ... نَدَى الطَّلِّ، إلا أنّه هو أمْلَحُ[٨]

وقال السمهريّ: [من الطويل]

كأنَّ وميضَ البرق بيني وبينها ... إذا حانَ من بعض البُيوتِ، ٱبتسامُها[٩]

(١) الخصل: الذي فيه خلّة أو انفراج بين الأسنان، والسّمطين: مفرد «سمط»، وهو العقد.
(٢) الرّضاب: الرّيق، والمستهام: العاشق.
(٣) الشّمول: الخمر التي يفوح عبقها، والشّمال: الريح الباردة، وفضّ: انتزع.
(٤) تجلو: تكشف، والقوادم: الريش المقدّم في جناح الطائر، والأيكة: الشجر الكثيف الملتفّ، والبرد: يقصد به الأسنان البيضاء، واللثات: مغرز الأسنان، والإثمد: الكحل، ومن عادة العرب أن يذروا عليه الإثمد ليبين بياض الأسنان. «انظر الديوان ص ٤٠، دار صادر، بيروت».
(٥) الأقحوان: نَوْرٌ أبيض، وأشدّ ما يكون صفاؤه غبّ المطر، أي بعد هطوله، إذ يزول ما عليه من الغبار بالماء.
(٦) شقيق بن سليل.
(٧) الألمى: ما اسودّ أو اسمرّ.
(٨) بذي أشر: أي بأسنان صغيرة كأسنان المنجل، والطّلّ: النّدى.
(٩) وميض البرق: لمعانه.

وقال آخر: [من الطويل]

أُحاذرُ في الظلماء أن تستَشِفّني عيونُ العَبارَى في ومِيض المَضاحِك![١]

* * *

ومما قيل في السِّواك، قول بعض الشعراء: [من الطويل]

أقولُ لمِسْواك الحبيب: لك الهَنا بلَثْم فَم ما ناله ثَغْرُ عاشِقِ!
فقال، وفي أحشائه حُرَقُ الجوى مقَالَةَ صَبٍّ للديار مُفارقِ
تذكَّرتُ أوطاني فقَلْبِي كما ترى أُعلِّله بين العُذَيْب وبارق![٢]

وقال آخر: [من الكامل]

نقلَ الأراكُ بأنّ رِيقةَ ثَغْرِه من قهوةٍ، مُزِجت بماءِ الكَوْثَرِ[٣]
قد صحَّ ما نقل الأراكُ لأنه قد جاء يروي عن «صِحاح الجوهري»[٤]

وقال آخر: [من السريع]

باللهِ، إن جُزْتَ بوادِي الأراكْ وقَبّلَتْ أغصانُه اللُّدْنُ فاكْ[٥]
فابعث إلى المملوكِ من بعضِها فإنّني والله ما لِي سِوَاكْ!

* * *

ومما قيل في اللّسان، فمن محاسنه:

إذا كان الرجلُ حادّ اللسان قادرًا على الكلام، فهو ذَرِب اللّسان، وفَتِيقُ اللّسان.

فإذا كان جَيِّده، فهو لَسِن.

فإذا كان يضعه حيثُ أراد، فهو ذليق.

فإذا كان فصيحًا بَيِّن اللَّهْجة، فهو حُذَاقيّ.

فإذا كان مع حِدّة اللسان بليغًا، فهو مِسْلاق.

---

(١) استشف: رأى من خلال ستر الظلام، والعبارى: الناظرة في الشيء.
(٢) العُذيب: الماء الطيّب، كناية عن الرّيق، والبارق: الثغر الذي تبرق أسنانه عند الضحك.
(٣) الأراك: مفردُها أراكة، وهي شجرة المسواك، والكوثر: الشّراب العذب.
(٤) صحاح الجوهري: هو قاموس الصّحاح للجواهري، معروف، من معاجم اللّغة.
(٥) جاز: مرّ قاطعًا، واللّدن: الطّريّة.

فإذا كان لا يعترضُ لسانَه عُقْدة، ولا يتحيَّفُ بيانَهُ عُجْمَةٌ[١]، فهو مِصْقَع.

فإذا كان المتكلمَ عن القوم، فهو مِدْرَةٌ.

فصل في عيوبه

الرُّتَّة، حُبْسَةٌ في لسان الرجل، وعَجَلة في كلامه.

اللُّكْنة والحُكْلَة، عُقْدة في اللسان وعُجْمة في البيان.

الهَتْهَتة (بالتاء والثاء)، حكايةُ التواء اللسان عند الكلام.

التَّعْتعة (بالتاء والثاء)، حكايةُ صوت الألَكنِ والعَيّ.

اللُّثْغة، أن يُصيِّر الراءَ لامًا من كلامه.

الفَأْفأة، أن يتردّد في الفاء.

التَّمتمة، أن يتردّد في التاء.

اللَّفَف، أن يكون في اللسان ثِقَل وانعقاد.

اللَّيَغ، أن لا يُبيِّن الكلام.

اللَّجْلَجةُ، أن يكون فيه عِيّ وإدخال بعض كلامه في بعض.

الخَنْخَنَةُ، أن يتكلّم من لَدُنْ أنفه، ويقال: هي أن لا يُبيِّن الرجل كلامه فيُخَنْخن في خياشيمه.

المَقْمَقة، أن يتكلّم من أقصى حلقه.

فصل في ترتيب العِيّ

يقال: رجل عَيِيٌّ، ثم حَصِر، ثم فَهٌّ، ثم مُفْحَم، ثم لَجْلَاج، ثم أبْكَمُ.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المرءُ مخبُوٌّ تحت لسانه.

وقال شاعر: [من الطويل]

وما المَرْءُ إلّا الأصغَرانِ: لسانُه ومعقولهُ، والجسم خَلْقٌ مصوَّرُ

---

(١) يتحيّف: ينتقص، والعُجْمَة: اللكنة في اللّسان.

وقال اُمرؤ القيس: [من المتقارب]

وذلــكَ مــن نَــبَــإٍ جــاءنــي وخُـبِّـرتُـه عـن أبـي الأسْـودِ[١]

ولـو عـن نَـثَـا غـيـره جـاءنـي وجُرح الـلسـان كـجُرح الـيَـد[٢]

(النَّثا: القبيح من الكلام).

وقال جرير: [من الطويل]

لسانِي وسيْفِي: صارمانِ كلاهُما! وللسَّيْفُ أشوى وقعةً من لسانيا![٣]

(قوله: أشوى إذا أخطأ المَقْتَل).

وقال آخر: [من الوافر]

وجُـرْحُ الـسيـفِ تَـدْمُـله فـيَـبْـرى وجُرْحُ الدّهر ما جَرح اللسانُ![٤]

* * *

ومما وصف به حسن الحديث والنغمة، فمن ذلك قول ذي الرمّة: [من الطويل]

ولـمَّا تلاقَيْنا، جَرَتْ من عُيُونِنا دموعٌ كفَفْنا غَرْبها بالأصابعِ[٥]

ونِـلْنا سُـقـاطًا مـن حـديـثٍ كـأنّـهُ جَنى النحلِ ممزوجًا بماء الوقائِعِ[٦]

وقال أيضًا: [من الطويل]

وإنّـا لـيَـجْـرِي بـيـنَـنَـا حـيـنَ نَـلْـتَـقِـي حـديـثٌ لـه وَشْـيٌ كـوَشْـي الـمَـطَـارِفِ![٧]

حديثٌ كوَقْعِ القَطْر في المَحْلِ يُشْتفَى به من جَوًى في داخلِ القَلب، لاطف[٨]

---

(١) في الدّيوان ص ٥٣، دار الكتب العلمية: «وأُنبئته عن أبي الأسود»، وأبي الأسود: رجلٌ من كنانة، يظهر أنّه كان هجا امرىء القيس، وقال الشنقيطي في حماسته: إنّه أبا الأسود الكندي، وهو عمّ امرىء القيس من بني الجون من كندة، وكان زمانًا ينازع امرأ القيس حقّه في الملك، فواعده موضعًا فالتقيا كلّ منهما في كبكبة من أصحابه، فشدّ أصحاب امرىء القيس على أصحاب أبي الأسود فهزموهم وكشفوهم، وشدّ امرؤ القيس على أبي الأسود فطعنه فأنفذ حضنيه، فمات أبو الأسود وحصل الملك لامرىء القيس.

(٢) وجرح اللسان كجرح اليد: هذا مثل صحيح، يعني أنّ في الكلام ما يؤثّر في النفس أثر السّلاح في الجسم.

(٣) الصارم: السيف القاطع.

(٤) يبرى: يشفى ويندمل: يداوى.

(٥) الغرب: الدمع أو مسيله.

(٦) السُّقاط: الجانب، والوقائع: ماء السّحاب الرقيق.

(٧) الوشي: التطريز، والمطارف: مفردها مطرف: وهو رداءٌ من حرير ذو أعلام.

(٨) لاطف: لاصق، يقال: ألطفت الشيء بجنبي واستلطفته إذا ألصقته وهو ضدّ جافيته «اللسان=

وقال ابن الروميّ: [من مجزوء الكامل]

ولـقـد سئـمـتُ مـآرِبـي ... فـكـأنَّ طَـيِّـبَـهـا خَـبِـيـثْ
إلّا الـحـديـثَ فـإنَّـهُ ... مثلُ ٱسمِه أبدًا حَدِيثْ

وقال بشّار: [من مجزوء الكامل]

وكـأنَّ رَجْـعَ حـديـثِـهـا ... قِـطَـعُ الـريـاضِ كُـسِـيـنَ زَهْـرا
وكـأنَّ تـحـتَ لـسـانِـهَـا ... هـارُوتَ يَـنْـفُـثُ فيه سِـحْـرا[1]
وتَـخـالُ مـا ٱشـتـمَـلَـتْ عـلـيـ ... ـه ثـيـابُـهـا: ذَهَـبـا وعِـطْـرا

وقال البحتريّ: [من الطويل]

فلَمَّا التقينا ـ والنَّقا موعِدٌ لنا ـ ... تعجَّب رائي الدُّرّ حُسْنًا ولاقِطُه[2]
فمن لُؤلؤٍ تجلُوه عند ابتسامِها ... ومن لُؤلؤٍ عند الحديث تُساقطُهْ!

وقال آخر: [من الطويل]

ظَـلِـلْـنـا نَـشَـاوى عـنـد أُمِّ مـحـمـدٍ ... بنَوْمٍ، ولـم نَشْربْ شرابًا ولا خَمْرا!
إذا صمتَتْ عنَّا، صَحَوْنا بصَمْتها ... وإن نطَقتْ، هاجتْ لألبابنا سُكْرا[3]

وقال ابن الروميّ عفا الله عنه: [من الكامل]

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ، لو انّه ... لم يَجْنِ قَتْلَ العاشق المتحرِّزِ[4]
إنْ طالَ لم يُملَلْ، وإن هي أوجزَتْ ... ودّ الـمـحـدِّثُ أنـهـا لـم تُـوجِـزِ
شَرَكُ القلوب، وفتنةٌ ما مثلُها ... للمطمئِنّ، وعُقْلةُ المستوفِزِ[5]

وقال القطاميّ: [من البسيط]

فهنَّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ به ... مواقِعَ الماءِ من ذي الغُلَّة الصادِي[6]

= مادة لطف».

(١) هاروت: رفيق ماروت، وهما ملكان هبطا ببابل فعلّما الناس السّحر، وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢].

(٢) النّقا: كلّ قطعة من الرّمل محدودبة. (٣) الألباب: العقول.

(٤) المتحرّز: المتوقّي.

(٥) المستوفز: المتحفّز للقيام، واستوفز في قعدته: انتصب فيها غير مطمئن، والعقلة: العقال، حبلٌ أو شرك يشدّ به.

(٦) ينبذن: يطرحن، ونبذ العرق: نبض وضرب، وذو الغلّة: الظمآن، والصّادي: الذي به عطش=

وقال عليّ بن عطية البلنسيّ(١): [من الخفيف]

كلَّمتْني فخِلْتُ دُرًّا نَثِيرًا وتأمَّلتُ عِقْدها هل تَناثَرْ
فازْدهاها جمالُها، فأرَتْني عِقْد دُرٍّ من التبسُّم آخَرْ!

وقال الوأواء الدّمشقيّ(٢): [من مجزوء الرمل]

وحديثٍ كأنَّه أوبةٌ من مُسافِرِ
كانَ أحْلى من الرُّقا د لدى طَرْف ساهِرِ
بِتُّ ألهو بِطِيبِه في رِياضٍ زَواهِرِ
بَيْنَ ساقٍ وسامرِ ومُغَنٍّ وزامرِ

وقال الطائيّ(٣): [من الكامل]

مَدَّتْ إليكَ بنانةً أُسْرُوعَا تَشْكُو الفِراقَ، ومُقْلةً يَنْبُوعا(٤)
كادَتْ لعِرْفانِ النَّوى ألفاظُها من رِقَّةِ الشَّكْوَى تكون دُمُوعا

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

وسرّ أحاديثٍ عِذَابٍ لَوَ انَّها جَنى النحل، لم تَمْجُجْ حلاوتَها النحلُ(٥)

* * *

ومما قيل في الأذن، الصَّمَعُ، صِغرها.
السَّكَكُ، كونها في نِهَاية الصِّغَر.
القَنَفُ، اسْتِرخاؤهما وإقبالهما إلى الوجه.
الخَطَلُ، غلظهما.

= شديد.
(١) عليّ بن عطية البلنسي، أبو الحسن، بن مطرف، ويُعرف بابن الزقّاق، شاعر له غزل رقيق ومدائح اشتهر بها، عاش أقلّ من أربعين سنة، توفي سنة ١١٣٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٢».
(٢) الوأواء الدّمشقي: هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسّاني، من حسنات أهل الشام وصاغة الكلام، كان مناديًا في دار البطيخ بدمشق على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه. «اليتيمة ١/ ٣٣٤».
(٣) الطائي: هو أبو تمّام الطائي حبيب بن أوس.
(٤) الأسروع: واحدة الأساريع، وهو دودٌ بيض حُمْرُ الرؤوس تتغذّى بالأوراق والأثمار، وتشبّه بها أصابع النساء. «انظر اللّسان، مادة سرع».
(٥) لم تمجج: لم تلفظ، ومجّ الرّيق أو الشراب من فمه: قذفه ورمى به.

فصل في ترتيب الصَّمَم

يقال:

بأُذُنه وَقْرٌ.

فإذا زاد، فهو صَمَمٌ.

فإذا زاد، فهو طَرَشٌ.

فإذا زاد حتَّى لا يسمع الرعدَ، فهو صَلَخٌ.

* * *

ومما وصف به الصُّدْغ[١]، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ: [من الكامل الأحذّ]

رِيمٌ! يَتِيهُ بحُسْنِ صُورتِهِ   عبَثَ الفتورُ بلحظ مُقْلتِهِ[٢]
فكأن عَقْرَبَ صُدْغه وقفَتْ   لما دَنَتْ من نارِ وجْنَتِهِ[٣]

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

أبدًا نحنُ في خِلافٍ: فمِنِّي   فرطُ حُبٍّ ومنك لي فرط بُغْض
فبصدْغَيْكَ فوقَ خطِّ عذارٍ   ظُلُماتٌ، وبعضُها فوقَ بعض[٤]

وقال الصاحب بن عبّاد[٥]: [من الوافر]

وعهدِي بالعَقارِبِ حين تَشْتُو   تُخَفِّف لَدْغها وتَقِلُّ ضُرّا
فما بالُ الشتاء أتَى، وهذا   عقاربُ صُدْغِه يزدَدْنَ شَرًّا؟

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

أمِنْ سَبَجٍ في عارِضَيْه صوالِجٌ   مُعطَّفةٌ تُفَّاحَ خدّيه تضرِبُ؟[٦]

---

(١) الصدغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن.

(٢) الرّيم: الظبي الخالص البياض، والفتور: الضعف والانكسار.

(٣) عقرب الصّدغ: يريد الشعر المتدلّي على الصّدغ.

(٤) العذار: الشعر الذي يحاذي الأذن من جانب اللحية.

(٥) الصاحب بن عبّاد: هو أبو القاسم إسمٰعيل بن عباد، وزير أديب شاعر من الكتّاب، كان نادرة عطارد في البلاغة، وواسطة عقد الدّهر في السّماحة، قصده الأدباء من كلّ صوب. «انظر اليتيمة ٣/ ٢٢٥، الباب الثالث».

(٦) السّبج: خرز أسود، والصوالج: مفردها «صولج»، وهي العصا المعقوفة الرأس التي يضرب بها=

وما ضرَّه نارٌ بخدَّيه أُلهِبَتْ ... ولكِنْ بها قلب المُحِبِّ يُعَذَّبُ؟
عناقيدُ صُدْغَيْهِ بخدَّيْه تلتوي ... وأمواجُ رِدْفَيْه بخَصْرَيْه تَقْلِبُ
شَربْتُ الهوى صِرْفًا زُلالًا، وإنّما ... لواحظُه تَسْقِي وقلبِي يَشْرَبُ

وقال الثعالبيّ: [من السريع]

وصَوْلَجانٍ في يدَيْ شادنٍ ... لا يسمَحُ العاشقُ أن يذْكُرَهْ[١]
وصولجانُ المِسْك في خدِّه ... متَّخذٌ حبَّةَ قلبي كُرَهْ

وقال الناشىء الأصغر[٢]: [من مجزوء الخفيف]

لك صُدْغٌ كأنّما ... نُونُه نونُ كاتِبْ
يَلْدَغُ الناسَ إذ تَعَقْـ ... ـرَبَ لَدْغَ العقارِبْ

وقال الصاحب بن عبّاد: [من السريع]

يا شادنًا في وَجْهه عَقْربٌ ... ما يَستجيبُ الدّهرَ للراقِي
يَسْلَمُ خدَّاه على لدغها ... ولَدْغُها في كَبِدي باقِي!

وقال عمر المطوعيّ[٣]: [من الطويل]

بنفسِيَ من تمَّتْ محاسِنُ وجهه! ... فما هُو إلا البدرُ عند تَمامِ
وأرسلَ صُدْغًا فوقَ خدٍّ كأنّهُ ... جَناحُ غرابٍ فوق طوقِ حَمامِ

وقال آخر: [من الكامل]

حَلَّتْ عقاربُ صُدْغِه في خَدِّهِ ... قَمَرًا، فجَلَّ بها عن التشبيهِ!
ولقد عَهِدْناهُ يحِلُّ ببُرْجِها ... فمن العجائب كيفَ حَلَّتْ فيهِ؟[٤]

= الفارس الكرة في بعض الألعاب.

(١) الصولجان: العصا المعقوفة، والشادن: ولد الظبي أو الغزال.

(٢) الناشىء الأصغر: هو علي بن عبد الله بن وضيف، أبو الحسن، شاعر مجيد من أهل بغداد، كان إماميًا، له قصائد كثيرة في أهل البيت، قصد سيف الدولة وأملى ديوان شعره في مسجد الكوفة فحضر مجلسه بها المتنبّي وهو صغير، توفي ببغداد سنة ٩٧٦ هـ. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٠٤».

(٣) عمر المطوعيّ: هو عمر بن عليّ، أبو حفص أديبٌ من أهل نيسابور له شعر رقيق، له مؤلّفات عدّة وخدم الأمير أبا الفضل المكيالي، توفي نحو سنة ١٠٤٨ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٥٥».

(٤) يريد «بالبرج» برج العقرب، وهو من أبراج السماء.

وقال العماد الأصبهاني[١]: [من الكامل]

وإذا بَدَا لكَ صُدْغُه في وجهه ... أبصرتَه قمرًا بدَا في العَقْرب!

وقال أبو الفتح كُشاجم: [من الكامل]

ومَنعْنَ وَرْدَ خدودهنَّ فلم نُطِقْ ... قَطْفًا لها لعَقَارب الأصْداغِ!

* * *

ومما وصفت به الخدود والوَجَنات، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

قال أبو الفتح كُشاجم: [من الوافر]

غَدَا، وغَدَا تورُّدُ وجنتَيْهِ ... لعينِ محبّه يصف الرِّياضَا
على خدّيْهِ ماءٌ عَسْجَديٌّ ... فلو نظَر الرقيبُ إليه، غَاضَا[٢]

وقال آخر: [من الطويل]

دعوتُ بماءٍ في زُجاجٍ، فجاءَنِي ... حبيبي به خَمْرًا نَظَرْتُ له شَزْرا
فقال: هو الماء القَرَاح وإنّما ... تجلَّى له خدّي فأوهمكَ الخمرَا!

وقال أبو القاسم عبد الغفار المصريّ[٣]، شاعر اليتيمة: [من مجزوء الكامل]

وَرْدُ الخدودِ أرقُّ من ... وَرْد الرِّياضِ وأنْعَمُ
هذا تَنَشَّقُهُ الأنُو ... فُ، وذا يقبِّلُهُ الفَمُ
فإذا عدَلْتَ، فأفضلُ الـ ... ـورْدَيْنِ وَرْدٌ يُلْثَمُ

وقال أيضًا (ويروى للوأواء الدمشقي): [من السريع]

لا تظلِمُوا الناسَ ولا تطْلُبُوا ... بثارِيَ اليوم أذَى مُسْلِمِ!
ويا لقَوْمي دونَكُم شادنًا ... معتدِلَ القامة والمَبْسِمِ!
فإنْ أبى إلّا جحودَ الهوى ... وأكتم الأمرَ ولم يُعْلِمِ
قولوا له يكشِفُ عن خدِّه ... فإن فيه نُقَطًا من دمِي

---

(١) العماد الأصبهاني: هو محمد بن محمّد، أبو عبد الله عماد الدّين، مؤرّخ، عالم بالأدب، من كبار الكتّاب، من كتبه الخريدة، توفي سنة ١٢٠١ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٢٦».
(٢) العسجد: الذّهب، وغاض الماء: غار وغاب.
(٣) هو أبو القاسم عبد الغفّار المصري، ذكره صاحب اليتيمة في الفصل الذي خصّصه لشعراء الشام ومصر والمغرب، الباب التاسع. «اليتيمة ١/ ٥٢٤».

وقال ابن الرّوميّ: [من الخفيف]

وغـزالٍ تـرى عـلى وجـنـتـيـهِ ... قَطْرَ سهميه من دماء القُلوبِ
لَهْفَ نفسِي لتِلْكَ من وجَنَاتٍ ... وَرْدُها وَرْدُ شارقٍ مهضُوبِ![1]
أُنهِلَتْ صِبْغَ نفسِها ثم عُلَّتْ ... من دماء القَتْلى بغير ذُنُوبِ[2]
جرحتْه العيونُ فاقتَصَّ منها ... بجوًى في القلوب دامِي النُّدوبِ[3]

وقال أيضًا: [من المنسرح]

يا وجنَتَيْهِ اللتينِ من بَهَجِ ... في صُدْغَيْه اللّذين من دَعَجِ![4]
ما حُمرةٌ فيكما: أمن خَجَلٍ ... أم صِبْغَةُ الله، أم دَمْ المُهَجِ؟[5]

وقال أبو الفتح البستيّ[6]: [من الكامل]

ومُهَفْهَفٍ غَنِجِ الشمائلِ أَزْعجَتْ ... قلبي محاسن وجهه إزعاجَا[7]
دَرَتِ الطبيعةُ أنّ فاحِمَ شَعْرِه ... ليلٌ فأذْكتْ وجنتَيْه سراجا[8]

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من الكامل]

يا مَنْ يجودُ بموعِدٍ من لحظه ... ويصُدّ حينَ أقولُ: أين المَوْعِدُ؟
ويظَلُّ صَبَّاغُ الحياء بخدِّه ... تَعبًا: يُعَصْفِر تارةً ويُورِّدُ[9]

وقال الراضي بالله[10]: [من المنسرح]

يَصْفَرُّ وجهي إذا تأمَّلَني ... خَوْفًا، ويحمرُّ خدُّه خَجَلا
حتَّى كأنَّ الذي بوَجْنته ... من ماء وَجْهي إليه قد نُقِلا

---

(١) لهف نفسي: كلامٌ فيه تحسّر وحزنٌ على ما فات، والشّارق: الشديد الحمرة والمهضوب: الذي بلّله المطر.
(٢) أنهلت: من النّهل أوّل الشرب، وعُلّت: من العلل، وهو الشّرب ثانية بعد الشرب الأوّل.
(٣) اقتصّ: أخذ منه القصاص، أي عاقب، والنّدوب: أثر الجروح الدامية.
(٤) الدّعج: سعةٌ في العين مع اشتداد سوادها وبياضها.
(٥) المهج: مفردها مهجة وهي الرّوح ودمُ القلب.
(٦) أبو الفتح البستي: هو علي بن محمد الكاتب البستي، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس، شاعر من غرر أهل بست. «انظر اليتيمة ٤/ ٣٤٥».
(٧) المهفهف: الضامر الخصر والقدّ، والشّمائل: الصفات.
(٨) أذكت: أشعلت وأورت.
(٩) يعصفر: من عصفر، أي صبغه بالعصفر، وهو نبات يستخرج منه صبغٌ أحمر.
(١٠) الرّاضي بالله: أبو العباس أحمد بن المقتدر، الخليفة العبّاسيّ، توفي سنة ٣٢٩ هـ. «صبح=

وقال الخُبْزأرُزّي: [من الخفيف]

صِلْ بخدِّي خَدَّيْكَ، تَلْقَ عَجِيبًا ... من معانٍ يَحارُ فيها الضميرُ

فبِخَدَّيْكَ للرَّبيعِ رِياضٌ ... وبخدَّيَّ للدُّموعِ غَديرُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

أظْهرَ الكِبْرياءَ من فَرْط زَهْوٍ ... فتلقَّيْتُهُ بذُلِّ الخُضوعِ

وحَبَاني ربيعُ خدّيْه بالوَرْ ... دِ فأمطَرْتُه سَحابَ الدُّموعِ

وقال الصنوبريّ: [من المنسرح]

رَقَّ، فلو كلَّفتْهُ أعيُننا ... أن يرشَح الخمرَ خدُّهُ، رَشَحا[1]

وقال المفجّع[2]: [من السريع]

ظَبْيٌ إذا عقْربَ أصداغَهُ ... رأيتَ ما لا يُحْسِن العقْربُ

تُفَّاح خدّيْهِ له نَضْرةٌ ... كأنّه من دَمْعتي يَشْرَبُ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

ومُبيحُ أسرارِ القُلو ... ب بوجنتَيْه وحاجِبَيْهِ

جمَعَ الإلهُ له المحَا ... سنَ ثم أفْرغَها عليهِ

وكأنَّ مِرْآتين عُلْـ ... ـقتا بصَفْحة عارِضَيْهِ[3]

وكأنَّ وَرْدَ الجُلَّنـ ... ـار مُضَعَّف في وجنتَيْهِ[4]

وقال عليّ بن عطيّة البلنسيّ في غلام جُرِح خدّه: [من المتقارب]

وأحْوَى رَمَى عن قسِيِّ الحَوَرْ ... سهامًا يُفوِّقُهنّ النظَرْ[5]

= الأعشى ٣/ ٢٧٤».

(١) يرشح الخمر أو الماء: يندى.

(٢) المفجّع: هو محمد بن أحمد بن عبيد الله البصري، أبو عبد الله، شاعرٌ عالم بالأدب، من أهل البصرة، توفي سنة ٩٣٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٣٠٨».

(٣) العارض: الخدّ.

(٤) الجلّنار: زهر الرّمّان.

(٥) الأحوى: من كان به حوّة، وهي لون صدأ الحديد، سمرة مشبّعة بحمرة، والحور: يريد به هنا العين التي اشتدّ بياضها وسوادها، والفوق: موقع الوتر من رأس السهم.

يـقـولـون: وجـنـتُـهُ قُـسِّـمَـتْ ورسـمُ مـحـاسـنـه قـد دَثَـرْ[١]
ومـا شَـقَّ وجـنَـتَـه عـابِـثًـا ولـكـنَّـهـا آيـةٌ لـلـبَـشَـرْ
جَـلَاهـا لـنـا الله كـيـمـا نَـرى بـهـا كـيـفَ كـان ٱنْشـقـاقُ الـقـمَـرْ

* * *

ومما وصفت به على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ: [من الكامل]

نُجْلُ العُيون، سواحِرُ اللحَظاتِ هيَّجْنَ منك سواكنَ الحَركاتِ[٢]
أقبَلْنَ يرمين الجِمار تَنَسُّكًا فجعَلْن قلْبَك موضِعَ الجَمَراتِ[٣]
فكأنهنّ غُصونُ بانٍ ناعمٍ يحمِلْنَ تُفَّاحًا على الوَجَناتِ[٤]

وقال ابن الروميّ: [من الرّمل]

تَشْرَعُ الألحاظُ في وجْنتِها فتُلاقي الرِّيّ من مَشْرَبِها[٥]
فَهْي حَسْبُ العينِ من نُزْهتها وَهْي حَسْبُ الأُذْن من مَطْرَبِها

وقال ديك الجنّ[٦]: [من مجزوء الكامل]

بـأبـي الـثـلاثُ الآنـسـا تُ الـرائـقـاتُ الـغـانِـيَـاتْ!
أقـبـلن، والأصـداغُ فـي وجَـنَـاتـهـنَّ مُـعَـقْـرَبَـاتْ!
ألـفـاظُـهـنَّ مـؤنَّـثـا تٌ والـجُـفُـون مُـذَكَّـراتْ!
حـتَّـى إذا عـايـنـتـهـن ولـلأُمُـور مـسـبَّـبَـاتْ

(١) دثر: امّحى.
(٢) النّجْل: العيون الواسعة الحسنة.
(٣) الجمار: من مناسك الحجّ، وهي رمي الحجارة أو الحصى، أن نظرات العيون رمت القلوب فأصابت الرّمية.
(٤) البان: شجر ليّن، ورقه طويل، أبيض الزّهر.
(٥) تَشرع: تشرب، وشرع في الأمر خاض، يريد أن الألحاظ تنظر إليها فترتوي من حسنها، وكأنّها تشرع من ماء عذب.
(٦) ديك الجنّ: هو عبد السّلام بن رغبان بن حبيب الكلبيّ، شاعرٌ مجيد، فيه مجون من شعراء العصر العبّاسي، سمّي بديك الجنّ لأن عينيه كانتا خضراوين، توفي بحمص سنة ٨٥٠ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٥».

جـمَّـشـتَـهـنَّ، وقـلـتَ: طـيــ ـبُ عِـنـاقـكُـنَّ هـو الـحـيـاةْ![١]
فـخـجـلْنَ حـتَّـى خـلـتُ أنَّ خـدودَهـنَّ مـعـصْـفَـراتْ[٢]

* * *

ومما وصفت به الخيلان[٣]، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

قال بعض الشعراء: [من السريع]

فـي الـسـاعِـدِ الأيـمـنِ خـالٌ لـه مـثـلُ الـسُّـوَيْـداءِ عـلى الـقَـلْبِ[٤]
كـأنّـه مـن سَـبَـجٍ فـاحِـمٍ مُـرَكَّـب مـن لُؤلـؤ رَطْـبِ[٥]

وقال ابن منير الطرابلسي: [من المنسرح]

لاحَ لـنـا عـاطِـلًا، فـصِـيـغَ لـه مَـنـاطِـقٌ من مَـرَاشِـقِ الـمُـقَـلِ[٦]
حـيـاةُ رُوحِـي وفـي لـواحِـظِـهِ حَـتْـفِـيَ بـيـن الـنَّـشـاطِ والـكَـسَـلِ
مـا خـالُهُ مِـنْ فَـتـيـتِ عَـنـبرِ صُـدْ غَـيْـهِ لا قَـطْـرِ صِـبْـغـة الـكَـحَـلِ
لـكـنْ سُـوَيـداءُ قـلـبِ عـاشِـقِـهِ طـفَـتْ عـلى نـارِ وَرْدَةِ الـخَـجَـلِ

وقال أيضًا: [من الرمل]

أنـكـرتْ مُـقْـلَـتُـه سَـفْـكَ دِمـي وعـلى وجْـنَـتِـه فـاعـتـرفَـتْ
لا تَـخـالُوا خـالَهُ فـي خـدِّه قَـطرةً من صِبْغ جَفْنٍ نطَفَتْ[٧]
تـلـكَ مـن نـارِ فُـؤادي جَـذْوةٌ فيه ساخَتْ وانْطفَتْ ثم طفَتْ![٨]

---

(١) جمّش المرأة: أي غازلها ولاعبها.
(٢) المعصفرات: المصبوغة بالعصفر، وهو نباتٌ يستخرج منه صبغٌ أحمر.
(٣) الخيلان: مفردها «الخال»، وهو شامة سوداء تكون في الوجه أو الجسم.
(٤) السّويداء: حبّة القلب ومهجته. (٥) السّبج: خرز أسود.
(٦) العاطل: الذي لا يلبس في جيده الحليّ، والمناطق: مفردها منطقة، وهي ما يشدّ به الوسط، ويريد بالمناطق هنا: أن العيون قد أحاطته بالنظر وكأنّها ألبسته نطاقًا في الجيد أو الخصر.
(٧) نطفت: سالت.
(٨) طفت: علت، يريد أن ذلك الخال هو جذوة أو قبس من نار قلبه ارتسمت على ذلك الخدّ.

وقال آخر: [من الرّمل]

لا تَخالُ الخالَ يعلُو خدَّهُ نَقْطَ مِسْكٍ ذابَ من طُرَّتِهِ[1]
ذاكَ قلبي سُلِبتْ حبَّتُهُ فاْستَوتْ خالًا على وجْنتِه

وقال ابن منير: [من البسيط]

كأنَّ خدّيْهِ ديناران قد وُزِنا وحَرّرَ الصَّيْرَفيُّ الوَزْنَ واحتاطا
فخفَّ إحداهما عن وَزْن صاحبِه فحطَّ فوقَ الذي قد خَفَّ قيراطا

وقال آخر: [من الكامل]

أضْحَى ليوسُفَ في الجمالِ خَليفةً يخشاهُ كلُّ العالمين إذا بَدَا[2]
عَرِّجْ معي واْنظر إليه لِكَيْ تَرى في خدّه عَلَمَ الخِلافةِ أسودَا

وقال آخر: [من السريع]

كم قلتُ للنفْس: إليه اْذهَبي فحبُّه المشهورُ من مَذْهَبي!
مُهفهفُ القَدِّ له شامَةٌ من عَنْبرٍ في خدّه المُذْهَبِ
آيَسنِي التوبةَ من حُبِّه طلوعُه شمسًا من المَغْرِب![3]

وقال آخر: [من الكامل]

ومُهَفْهَفٍ من شعره وجبينِهِ يغدُو الوَرَى في ظُلمةٍ وضِيَاءِ[4]
لا تنكروا الخالَ الذي في خَدِّه كلُّ الشقيق بنُقْطةٍ سوداءِ[5]

وقال آخر: [من الوافر]

لَهيبُ الخدّ حينَ رأتْه عينِي هوى قلبي عليه كالفَراشِ
فأحرقَهُ فصار عليه خالًا وها أثرُ الدُّخان على الحَواشِي![6]

---

(١) النقط: البثرة، والطرّة: ما تطرّه المرأة من الشعر الموفي على جبهتها وتصفّفه.
(٢) يوسف: يراد به «يوسف النبيّ»، ابن يعقوب، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم «سورة يوسف، الرقم ١٢»، وكان غايةً في الحسن والجمال، كما ذكر القرآن الكريم.
(٣) آيس: من اليأس، أي أيأسه.
(٤) الورى: الخلق، والمهفهف: الرقيق المتمايل.
(٥) الشقيق: يريد ورد الشقيق: وهو وردٌ أحمر الزهر منقّط بنقط سود، يقال له: شقائق النّعمان.
(٦) الحواشي: الأطراف.

وقال آخر: [من البسيط]

بَـدَا عـلى خـدّهِ خـالٌ يـزيِّـنُـه ... فـزادنِي شغَفًا منه إلى شَغَفِي[١]

كـأنَّ حـبَّـةَ قـلبـي عـنـد رُؤيـتـه ... طارتْ فقلتُ لها: في الخَدِّ منه قِفي!

وقال آخر: [من المجتثّ]

خِـيـلانُ خـدِّك ردّتْ ... صـحـيـحَ قـلبـي مَـريـضَـا

فـي الـعـيـن سُـودٌ، ولـكـنْ ... مـا زِلْنَ فـي الـقَـلْب بِـيـضَـا

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

خـدُّك مِـرآةُ كـلِّ حُـسـنٍ ... يـحسُنُ من حسنها الصِّفاتُ

مـا لـي أرى فـوقَـهُ نُـجـومًـا ... قـد كُـسِـفَـتْ وهـي نَـيِّـراتُ؟

وقال آخر: [من السريع]

حـجَّـتْ إلـى وَجْـهـك أبـصـارُنـا ... طـائـفـةً، يـا كـعـبـةَ الـحـسْـنِ!

تـمـسـحُ خـالًا مـنـك فـي وجْـنـةٍ ... كـالـحـجَـر الأسـود فـي الـركْـنِ

وقال الأسعد بن بليطة[٢]: [من الكامل]

سكرانُ لا أدري - وقد وافى بنا - ... أمِن المَلاحةِ أم من الجِرْيالِ[٣]

تـتـنـفَّـسُ الـصَّـهـبـاء فـي لَـهَـواتِـه ... كتنَفُّس الرَّيْحان في الآصالِ[٤]

وكـأنّـمـا الـخِـيـلانُ فـي وجَـنَـاتِـه ... سـاعـاتُ هَـجْـرٍ فـي لَـيَـال وصـالِ

* * *

ومما وصفت به على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول أبي الفتح كُشاجم: [من البسيط]

فـدَيـتُ زائـرةً فـي الـعـيـد واصـلةً ... لـمـسـتـهـام بـهـا لـلوصـل مُـنْـتـظِـرِ

فـلـم يـزلْ خـدُّهـا رُكْـنـا ألُوذُ بـه ... والخالُ في صَحْنه يُغْني عن الحَجَرِ[٥]

---

(١) الشغف: الحبّ والولع.

(٢) الأسعد بن بليطة: هو الأسعد بن إبراهيم بن بلّيطة، تردّد على ملوك الطوائف، وهو فارس جحفل، وشاعر محفل. «انظر المغرب في حلى المغرب ٢/١٧».

(٣) الجريال: صبغٌ أحمر، والمراد هنا: الخمرة.

(٤) الصهباء: الخمر، واللهوات: مفردها اللّهاة، وهي اللّحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم، والآصال: جمع أصيل، وهو وقت غروب الشمس.

(٥) الرّكن: أحد الجوانب التي يستند إليها الشيء ويقوم بها، ولاذ به: احتمى.

وقال العباس بن الأحنف: [من الطويل]

ومحجوبةٍ في الخِدْرِ عن كلِّ ناظرٍ ولو برزَتْ، ما ضلَّ بالليل مَنْ يَسْرِي[١]
بِخالٍ بذاك الخدّ أحسنَ مَنْظَرًا من النُّقطة السَّوْداء في وَضَح البَدْرِ

* * *

ومما قيل في العِذار[٢]، فمن ذلك ما ورد فيه على سبيل المدح.

قال ماني المَوَسوِس[٣] عفا الله عنه ورحمه: [من الوافر]

وما غاضتْ محاسنُه، ولكنْ بماء الحُسْن أوْرَقَ عارضاهُ[٤]
سمعتَ به فَهِمتَ إليه شَوْقًا فكَيْفَ لك التصبُّرُ، لو تراهُ؟

وقال أبو فِرَاس: [من الكامل]

مِن أينَ للرشإ الغَريرِ الأحْوَرِ في الخدّ مثلُ عِذاره المتحدِّرِ؟[٥]
يا مَنْ يلومُ على هواهُ سَفاهةً! أُنْظُرْ إلى تلك السوالف، تَعْذُرِ
قمرٌ كأنَّ بعارضَيْهِ كِلَيْهِمَا مِسْكٌ تساقَطَ فوق وردٍ أحمرِ

وقال ابن المعدّل: [من مجزوء الكامل]

سالتْ مسايِلُ عارضَـ ـيْه بنَفْسجًا في وَرْدِهِ
فكأنَّهُ من حُسْنِه عَبَثَ الربيعُ بخدِّهِ

وقال الخبّاز[٦] البلدي: [من المنسرح]

وعارضٍ مثل دارة البَدْرِ دارَ بوجهٍ كليلةِ القَدْرِ
فلَوْ تراهُ وحسنَ منظَرِهِ شهدْتَ أنّ الجمالَ للشَّعْرِ

---

(١) الخدر: سترٌ يمدُّ للمرأة في ناحية البيت، وكلّ ما يستُر.
(٢) العذار: جانب اللحية.
(٣) ماني الموسوس: هو محمد بن القاسم، من أهل مصر، يكنّى أبا الحسن، شاعرٌ ليّن الشعر رقيقه، لم يقل شيئًا إلّا في الغزل. «انظر الأغاني ٢٣/ ١٩٠، دار الكتب العلمية».
(٤) غاضت: خفيت وغابت، والعارض: جانب الوجه.
(٥) الرشأ: الغزال، والغرير: الحسن الخلق، والأحور: الذي اشتدّ سواد عينه واشتدّ بياضها.
(٦) الخبّاز البلدي: هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان، من بلدة يقال لها «بلد» من بلاد الجزيرة التي فيها الموصل.

وقال ابن المعتزّ: [من المديد]

وتـكـادُ الـشـمـسُ تُـشـبِـهُـهُ ... ويـكـادُ الـبـدرُ يَـحْـكِـيـهِ

كـيـف لا يـخـضـرُّ عـارضُـهُ ... ومـيـاه الـحُـسْـن تـسـقِـيـهِ؟

وقال محمد بن وَهيب[1]: [من الوافر]

صُدُودُكَ في الورى هَتَكَ استتاري ... وساعده البكاءُ على اشتهاري[2]

ولـم أخْـلَعْ عِـذَارِي فـيـك إلّا ... لِمَا عاينتُ من حُسْنِ العِذارِ

وكم أبصرتُ من حُسْنٍ، ولٰكنْ ... عليك من الورى وقَعَ اختياري

وقال أبو الفرج الوأواء: [من الطويل]

وشـمـسٌ بـأعـلاهُ ولـيْـلانِ أسْـبِـلا ... بـخـدّيْـه، إلّا أنّـهـا لـيـس تَـغْـرُبُ

ولَمَّا حوى نصفَ الدّجى نصفُ خدّه ... تـحـيَّـر حتّـى ما درى أيـن يَـذْهَـبُ

وقال الخُبْزَأرُزّي: [من البسيط]

أُنظر إلى الغُنْج يجري في لَواحِظِهِ ... وانظرْ إلى دَعَجٍ في طَرْفه الساجي![3]

وانـظُـر إلـى شَـعَـراتٍ فـوق عـارضِـهِ ... كـأنـهـنّ نِـمـالٌ سِـرْنَ فـي الـعـاجِ![4]

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل]

وجـهٌ تـكـامـلَ حُـسْـنُـه ... لـمـا تَـطَـرَّفـه عِـذارُهْ[5]

والـسـيـفُ أحـسـنُ مـا تَـرَى ... مـا كـان مُـخْـضَـرًّا غِـرارُهْ[6]

وقال الأمير سيف الدّين المشدّ[7]: [من مخلّع البسيط]

ولائـمٍ فـي عِـذار بَـدْرِ ... لـم أستطِعْ عـن هـواه مَـيْـلا

---

(١) هو محمّد بن وهيب الحميري، أبو جعفر، شاعر مطبوع مكثر، من شعراء الدولة العباسيّة، تقدّمت ترجمته. «انظر فهرس الأعلام ٧/ ١٣٤».

(٢) الصّدود: الإعراض، وهتك السّتر: خرقه وفضحه.

(٣) السّاجي: السّاكن.

(٤) النّمال: مفردها نملة، وهي حشرة خفيفة ضئيلة الجسم، والعاج: ناب الفيل.

(٥) تطرّفه: أي تدلّى على حرفه ونهايته، والعذار: الشعر الذي ينبت محاذيًا للأذن.

(٦) الغرار: من السّيف: حدّه.

(٧) الأمير سيف الدّين المشدّ: هو عليّ بن عمر بن قزل التركماني المصري، سيف الدين، شاعر من أمراء التركمان، توفي بدمشق سنة ١٢٥٨ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣١٥».

فقلتُ، والدَّمعُ في جُفُوني لفرطِ وجدي تسيل سَيْلا
ضَلَلْتُ في خَدِّه نهاراً! كيفَ رشادي، وصار ليلا؟

وقال أيضًا: [من الوافر]

ولَمَّا أن بدا في الخدّ شَعْرٌ توقَّف عند منتصَفِ العِذارِ
فقلتُ للائمي فيه: تعجَّبْ لنصف الليل في نِصْف النهار!

وقال أيضًا: [من الكامل]

ومُهفهفٍ يَحْمي وُرُودَ رُضابِه بصوارِمِ سُلَّتْ من الأجفانِ[1]
كتب العِذارُ بليقةٍ مِسْكيَّةٍ في خدّه سَطْرًا من الرَّيْحان[2]

وقال أيضًا: [من المتقارب]

يقولُ العَواذلُ لمَّا بدا على خدِّه شعَرٌ زائرُ
ذَوَى وَرْدُ خدّيه، قلت: اقْصروا فنرجسُ ألحاظِهِ وافِرُ![3]

وقال آخر: [من المتقارب]

وقالوا: تسلَّى فقد شانَهُ عِذارٌ أراحك من صَدِّه
فقلت: وهِمْتم، ولكنَّني خلَعْتُ العِذارَ على خدّهِ

وقال آخر: [من الطويل]

بروحِي وقلبي ذلك العارضُ الذي غدا مِسْكُه فوق السَّوالف سائلا
درَى خدُّه أنّي أُجَنُّ من الهوَى فأظهر لي قبل الجُنون سَلَاسلا!

وقال آخر: [من الكامل]

أصبحتُ مأسورًا بغُنْجِ لِحاظه ومقيَّدًا من صُدْغه بسلَاسِل
حتَّى بدا سيفُ العذار مجرَّدًا فخشيتُ منه، فقلتُ هذا قاتلِي!

وقال آخر: [من الخفيف]

قالت: اسودَّ عارضاكَ بشَعْرٍ وبه تقْبُح الوجوهُ الحِسانُ!
قلتُ: أشعلَتْ في فؤادي نَارًا فعلى عارضَيَّ منه دُخَان!

---

(١) الورود: أي إتيان الماء للشرب، والرّضاب: الريق، يريد أنه يمتنع عن العبث به بصوارم الأجفان والعيون.
(٢) الليقة: صوفة الدواة.
(٣) ذوى: ذبل، وأقصروا: أي كفّوا وامتنعوا.

وقال آخر: [من السريع]

قلتُ، وقد أبصرتُه مُقْبِلًا ... وقد بدا الشَّعْر على الخدِّ
صُعُودُ ذا النملِ على خدّه ... يشهد أن الرِّيق من شَهْدِ

ومثله قول الآخر: [من السريع]

قالوا: ٱلْتحى، فٱصبُ إلى غيره! ... قلتُ لهم: لستُ إذًا أسْلُو![١]
لو لم يكُنْ من عسلٍ رِيقُه ... ما دَبَّ في عارضه النمْلُ

وقال آخر: [من السريع]

عِذارُه أحسنُ ما فيه ... وتيهُهُ من أحسنِ التِّيهِ[٢]
في فَمِهِ الشَّهْد، فلا تَعْجَبُوا ... إن دَبَّ نملٌ بعذاريهِ

وقال آخر: [من الكامل]

أصْلَى بنار الخدِّ عَنْبر خاله ... فغدا العذارُ دُخانَ ذاك العنبرِ[٣]

وقال آخر (وقد تقدّم إيراده في صفاء الخدّ): [من الوافر]

أعِدْ نظرًا، فما في الخدّ نبْتٌ ... حماه اللهُ من رَيْب المَنُونِ!
ولكن رقَّ ماءُ الوجه حتَّى ... أراكَ مثالَ أهدابِ الجُفُونِ

ومثله قول الآخر (وقد تقدّم إيراده): [من الطويل]

ولَمَّا استدارَتْ أعينُ الناس حَوْلَهُ ... تُلاحظُه كيف استقَلَّ وسارا
تمثَّلت الأهدابُ في ماءِ وجْهِهِ ... فظنُّوا خيال الشَّعْر فيه عِذارا

وقال الحاجري[٤]: [من الطويل]

وما اخضَرَّ ذاكَ الخدُّ نَبْتًا، وإنّما ... لكثرة ما شُقَّت عليه المَرائِرُ[٥]

---

(١) صبا يصبو: مال وعشق غيره، والسّلوّ: الصبر والنسيان.
(٢) التّيه: التكبُّر.
(٣) أصلى النار: أضرمها، والعنبر: مادة صلبة تنبعث منها رائحة ذكيّة، إذا أحرقت.
(٤) الحاجري: هو عيسى بن سنجر بن بهرام، حسام الدين، شاعر رقيق الألفاظ، حسن المعاني، تركيّ الأصل من أهل إربل، ينسب إلى الحاجر من بلاد الحجاز، له ديوان شعر، قتل غدرًا بأربيل سنة ١٢٣٥ م. «فهرس الأعلام ٥/١٠٣».
(٥) اخضرّ: يقال اخضرّ اللّيل أي اسودّ، ونبت الخدّ: أي الشّعر والمرائر: جمع مرارة، وهي لحمة=

وقال آخر: [من السريع]

يا لائِمي في حُبِّ ذي عارضٍ ما البَلَدُ المُخْصِبُ كالماحلِ!
يَموجُ ماء الحسنِ في وجههِ فيَقْذِفُ العنْبَرَ في الساحل

وقال آخر: [من السريع]

ولَمَّا بدَا خطُّ العِذار بوجههِ كظُلْمة ليلٍ في ضِياء نهار
تغَلْغَل في قلبي هواه فلم أزَلْ خليعَ عِذار في جَديدِ عِذار(١)

وقال آخر: [من البسيط]

قالوا: التحَى، فامتحَتْ بالشَّعر بهجَتُه! فقلت: لولا الدُّجَى لم يحسُنِ القمرُ(٢)
مَن كان مُنتظِرًا للصبر عنه بِه فإنَّني لغَرامِي كنتُ أنتَظِرُ
خَطَّتْ يدُ الحسنِ منه فوق وجنَتِهِ هذي محاسنُ، يا أهلَ الهوَى، أُخرُ!

وقال آخر: [من الوافر]

وقلتُ: الشَّعْر يُسْليني هواه! ولم أعلم بأنَّ الشَّعْر حَيْنِي(٣)
فَظَلْتُ لشِقْوتي أفْدِي وأحمِي سوادَ عِذاره بسَوادِ عيني

وقال محمد بن عبد الله السلاميّ(٤)، شاعر اليتيمة: [من المتقارب]

عذارُكَ جادَتْ عليه الرِّيا ضُ بأجْفانها وبآماقها(٥)
وطال غرامُ الغَواني به فقد طَرّزَتْهُ بأحداقها

وقال ابن سُكَّرَةَ الهاشميّ(٦): [من الخفيف]

وغزالٍ لولا نميمةُ شَعْرٍ ذكَّرتْه، لقلتُ: إحدى الجَوَارِي(٧)
شاربٌ أشْرَبَ الصَّبابةَ قَلبي وعذارٌ خلعْتُ فيه عِذاري

= شبه كيس لازقة بالكبد تكون فيها الصفراء.

(١) تغلغل: دخل وانغرز، والخليع: المتهتّك الماجن.

(٢) الدّجى: ظلمة اللّيل. (٣) الحين: الهلاك.

(٤) محمد بن عبد الله السّلامي: من شعراء اليتيمة، تقدّمت ترجمته.

(٥) آماق العين: مفردها «موق»، وهو مجرى الدّمع من العين.

(٦) ابن سكرة الهاشمي: من شعراء اليتيمة، تقدّمت ترجمته.

(٧) النميمة: هي وسواس همس الكلام، والهمس والحركة، ونمّ الحديث: نقله ونمَّ الحديث: أظهره، والمراد هنا أنّ شعره قد أظهر أنه ذكرٌ وليس أنثى. «انظر اللسان، مادة نمم».

وقال آخر: [من البسيط]

قالوا: ٱلْتحَى وستَسْلُو عنه، قلتُ لهم   هل يحسنُ الروضُ ما لم يطْلُعِ الزَّهَرُ؟
هَلِ ٱلتحَى طَرْفُهُ الساجي، فأهْجُرَه؟   وهل تَزَحْزَحَ عن ألحاظه الحَوَرُ؟

وقال أبو الفتح كُشاجم: [من الرّمل]

مَنْ عَذِيري من عِذارَيْ قمرٍ   عرّض القلْبَ لأسبابِ التلَفْ؟[١]
زِيدَ حُسْنًا وضياءً بهما   فَهُو الآنَ كبَدْرٍ في سَدَفْ[٢]
خَمَّشا خدَّيْه ثم انعطَفا   آه ما أحسنَ ذاك المنعطَفْ!
عَلِمَ الشَّعْرُ الذي عاجَلَهُ   أنّه جارَ عليه، فوقَفْ
فهو في وقْفته معترِفٌ   بالتناهي في التعدِّي والسَّرَفْ[٣]

وقال آخر[٤]:

لا تعتقِدُوا ما لاحَ في وجْنَتِهِ   شَعْرًا، غَلَطًا! ما ذاك من شِيمتِهِ!
بل ساكنُ ماءِ الحسن قد حَرَّكه   مَوْجٌ قذف العنبرَ في حافَتِه

وقال عبد الله بن سارة الإشبيليّ[٥]: [من الكامل]

ومُعذِّرٍ رقَّت حواشي حُسنِهِ   فقلوبُنا حَذَرًا عليه رِقاقُ
لم يُكْسَ عارضُه السوادَ، وإنّما   نفضَتْ عليه صباغَها الأحداقُ

وقال أبو بكر الدّانيّ، شاعر الذخيرة: [من مخلّع البسيط]

بدا على خدِّه عِذارٌ   في مثله يُعذَر الكئيبُ
وليس ذاك العِذارُ شَعْرًا   لكنّما سِرُّه غريبُ[٦]
لَمَّا أراق الدّماء ظُلْمًا   بدَتْ على خدّه الذُّنوبُ

---

(١) العذير: العاذر والنّصير، والتّلف: الهلاك. (٢) السّدف: الظُّلمة.
(٣) السّرف: التجاوز في التعدّي.
(٤) هذان البيتان من الأبيات الشعريّة التي لا تخضع لقواعد العروض المعروفة ببحور الخليل الشّعريّة.
(٥) هو عبد الله بن سارة الإشبيلي، الشنتريني، أبو محمد، من القلائد، نادرة الدّهر وزهرة الأيام، ولج مدينة الشعر من كلّ باب، سكن إشبيلية وتعيّش فيها بالوراقة وتحوّل في بلاد الأندلس شرقًا وغربًا. «انظر المغرب في حلى المغرب ١/٤١٩، دار المعارف بمصر».
(٦) العذار: صفحة الخدّ.

وقال عبد الجليل الأندلسيّ: [من الكامل]

وَمُعذِّرين كأنّما بخُدودِهِمْ طُرُقُ العيون ومَنْهَجُ الأوهاجِ[١]
وكأنما صقَلُوا الجمالَ فأظهرُوا مَشْيَ النِّمال على مُتُونِ العاجِ[٢]

* * *

ومما وصف به العِذار على طريق الذمّ، فمن ذلك ما قاله الوزير أبو المغيرة بن حَزْم[٣]، عندما عُرِضت عليه رسالة بديع الزمان[٤] في الغلام الذي خطب إليه وُدّه بعد أن عَذَّر، قال:

«ورد كتابك يَنْشُد ضالَّة وُدّنا، ويَرْقَع خَلَقَ[٥] عهدنا، ويطلُب ما أفاءتْه جريرتك[٦] إلينا، وذهبتْ به جنايتُك علينا؛ أيامَ غصنُك ناضر، وبدرُك زاهر؛ لا نجد رسولًا إليك، غير لحظة تَخْرِق حجاب الدُّموع، أو زفرةٍ تُقِيم مُنْآدَ[٧] الضُّلوع؛ فإنْ رُمْنا شكوى يَنْفُث بها مَصْدُورنا، ويستريح إليها مَهْجُورنا؛ لقينا دُونَها أمنع سدّ، وأقبح كفٍّ وصدّ، وأفدح[٨] رَدّ».

وفي فصل منها:

«حتّى إذا طَفِئتْ تلك النِّيران، وانتصف لنا منك الزمان؛ بشَعَراتٍ أغشَتْ[٩] هلالَكَ كُسوفًا، وقلبَتْ ديباجك[١٠] صُوفًا؛ وأعادت نهارَك ليلًا، وناحتْ عليك تلَهُّفًا

(١) المنهج: الطريق، والأوهاج: مفردها «وهج» وهو اتّقاد النّار أو انتشار الطّيب.
(٢) الصّقل: يقال صقل السّيف: جلاه، والمتون: مفردها «متن» وهو الظهر، ومتن الشيء: ما ظهر منه، والعاج: ناب الفيل.
(٣) ابن حزم: هو عبد الوهاب بن أحمد بن سعيد، أديبٌ أندلسيّ، من الكتّاب، من أهل قرية الزاوية، كتب عند عدّة ملوك، وألّف تآليف، واتّسعت ثروته، مات شابًا سنة ١٠٤٦ م. «فهرس الأعلام ٤/١٧٩».
(٤) بديع الزمان الهمذاني: هو أحمد بن الحسين بن يحيىٰ الهمذاني، أبو الفضل، وأحد أئمّة الكتّاب، له «المقامات»، كان قويّ الحافظة، يضرب المثل بحفظه، وله ديوان شعر ورسائل عدّة، توفّي في هراة سنة ١٠٠٨ م. «فهرس الأعلام ١/١١٥».
(٥) الخَلَق: البالي.
(٦) الجريرة: الذنب.
(٧) تقيم مُنْآد الضلوع: أي ما اعوجّ منها.
(٨) أفدح بالفاء من فدح الأمر بهظ وصعب وكان ثقيلًا لا يحتمل.
(٩) أغشت: غطّت.
(١٠) الديباج: الحرير، أو ثوب سُداه ولحمته من الحرير.

ووَيْلًا؛ وأطار حَمامَك غرابُك، وحجب ضياءَك ضَبابُك؛ فصار عُرسك مأتَمًا، وعاد وصلُكَ محرّمًا»، قال القائل: [من المتقارب]

وبِتَّ مُداماً تُسِرُّ النزيف ... فأصبحتَ تُجْرَع خَلًّا ثَقِيفًا[١]
وصرتَ حِجَازًا جديبَ المحَلِّ ... وقد كنتَ للطالب الخِصْبَ رِيفًا[٢]

«أقبلْتَ تتسَلَّل إلينا لِوَاذًا[٣]، وتطلُب منّا عِيَاذا؛ قد أنساك ذُلُّ العزل عِزَّ الوِلاية، وأولاك طمَعًا نِسيانُنا تِلْك الجناية؛ أيّامَ ترشُقنا سهامُ ألحاظك رَشْقا، وتقتُلنا سيوفُ ألفاظك عِشْقا؛ وتَمِيس غصنًا، فتثير حُزْنًا؛ وتطلعُ شمسًا، فتفَتِّت نفسًا».

«فالآن نلقاك بدمع قد جَفّ، ووجْد قد كَفّ؛ وعزاء قد أبّد[٤]، وصبر قد أغار وأنْجد؛ وننظر منك إلى روض قد صَوّح[٥]، وسار قد أصبح؛ وأعجَم قد أفصَح، ومُبْهَم قد صرّح؛ فلا شكَّ قد رُفِع الغِطاء، ولا إفكَ[٦] قد بَرِحَ الخَفاء، ولا لومَ قد وقَّع الجزاء؛ وهلّا ذكرت المَثَل الممتَهَن «الصَّيْفَ ضَيَّعتِ اللبن!»[٧]، ونسيتَ من أحرقتَ قلبه صدًّا، وأقلَقت جنبه رَدًّا؛ وملأت جوانحه نارًا، وتركتَ نومه غِرَارًا[٨]؛ أن يُوفِيَك قَرْضًا، ويجازيَك حتّى ترضى؛ حين نُكِّس علَمُك، وعثَرت قدمُك؛ وضاقت طُرُقك، وأظلم أُفُقك؛ وهوى نجمُك، وخاب قِدْحُك، وفُلَّ سيفُك، وحُطِّم رُمْحُك؛ فاْطْوِ ثوبَ وصلك فلا حاجة لنا إلى لباسه، وأزْوِ[٩] طارقَ شخصِك فلا رغبةَ لنا في إيناسه؛ فما يشتهِي اليومَ زيارةَ رَمْس، مَنْ زَهِد فيه

---

(١) النزيف: السكران، والخلّ: ما حمض من عصير العنب أو نحوه، وثقيفًا: يريد الخلّ المنسوب إلى ثقيف، وثقيفٌ حيٌّ من قيس أو قبيلة، وقد ثَقُف الخلّ ثقافة وثَقِف، فهو ثقيفٌ وثِقِّيف، بالتشديد، الأخيرة على النسب: حذق وحَمُض جدًا مثل بصلٍ حرّيف «اللسان مادة ثقف».

(٢) الحجاز: قال الأصمعيّ: ما احتزمت به الحرار، حرّة شوران وحرّة ليلى وحرّة واقم وحرّة النار وعامة منازل بني سليم إلى المدينة، فذلك الشقّ كلّه حجاز، وقال أبو بكر الأنباري: في الحجاز وجهان: يجوز أن يكون مأخوذًا من قول العرب: حجز الرجل بعيره، يحجزه: إذا شدّه شدًّا يقيّده به، ويقال للحبل: حجاز، ويجوز أن يكون سمّي حجازًا لأنه يحتجر بالجبال. «معجم البلدان ٢/٢١٨». والحجاز هنا: الأرض الجدباء.

(٣) لواذًا: تستُّرًا.
(٤) أبّد: خلّد.
(٥) صوّح: يبس وتشقّق.
(٦) الإفك: الكذب.

(٧) الصّيف ضيّعتِ اللبن: مثلٌ يضرب لمن يطلب شيئًا قد فوّته على نفسه، ويروى: في الصّيف ضيّعت اللبن، «انظر مجمع الأمثال للميداني ٢/٨٣، دار الكتب العلمية».

(٨) الغرار: القليل من النّوم.

(٩) ازو: فعل أمر من زوى أي اصرف وابعد، والطارق: الشخص: الزّائر ليلًا.

أمس». قال: [من البسيط]

«حانتْ منيتُه فاسودَّ عارضُهُ مما تُسوِّدُ بعد الميِّتِ الدارُ
يا من نعَتْهُ إلى الإخوان لحيتُه أدبرتَ، والناسُ إقبالٌ وإدبارُ!
فيا لِدَهرٍ مضى ما كان أحسنَهُ! إذ أنت ممتنِعٌ والشَّرْطُ دينار
أيَّامَ وجهُك مصقولٌ عوارضه وللرياض على خدّيْكَ أنوارُ!»

وقال عليّ بن نصر الكاتب(١) تعزيةً لمن طلعت لحيته:

«لكل حادثة يفجع بها الدهر ـ أحسن الله معونتك ـ حدٌّ من القلق والالتياع، ومَبْلغٌ من التحرّق والارتياع؛ تستوجب فنًا من التعزية، وتستحق نصيبًا من العظة والتسلية؛ والاختصار فيها لما قرب خطبه وشانه، والإكثار لما جلّ محلّه ومكانه».

«ومُصابُك هذا ـ أعانك الله ـ في بياض عارضك لما اَسودّ، كمُصابك في سواده إذا ابيضَّ، والألم ببياض رَوْضه جَميمًا(٢)، نظير الألَمِ به يوم يعود هشيمًا(٣)».

«فليس أحد يدفع عظيمَ النازل بك، ولا يستصغر جسيمَ الطارق لك؛ وإن كان ما يتعقّبه من المشيب أقذى(٤) للعيون».

«التفتتْ عنك النواظر، وكانت ملتفتة إليك، ووقفت عنك الخواطر، وكانت موقوفة عليك؛ وصيَّرك قَذَى الأجفان وكنت جِلَاها(٥)، وجعلَكَ كُرْبة النفوس وكنت هواها؛ وأبدلك من أنس التقبّل، وحشة التنقّل؛ وعوّضك من رقّة الترفرف، كلفة التأفُّف؛ فتبارك الله الذي صرف عنك الأبصار، ونقَّل فيه الأطوار!(٦)... فعويلًا دائمًا وبكاء! وعزاء عن الذكر الجميل عزاء! فلكلّ أجل كتاب، وعلى كل جائحة(٧) ثواب».

---

(١) علي بن نصر الكاتب: هو محمد بن علي بن نصر الثعلبي، أبو الحسن، أديب، من أهل بغداد، له كتاب «المفاوضة»، قال ابن خلّكان: وهو من الكتب الممتعة في ثلاثين كراسة، وله رسائل، ولد ببغداد، ومات بواسط سنة ١٠٤٥ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٧٥».

(٢) الجميم: الكثير المجتمع من كلّ شيء.

(٣) الهشيم: الضعيف البدن، واليابس من كلّ شيء.

(٤) أقذى: من القذى: وهو ما يتكوّن في العين من رمصٍ وغمصٍ وغيرها.

(٥) جلاها: أي صقالها، وجلا الشيء: صقله.

(٦) الأطوار: مفردها «طور» وهو الحال والهيئة.

(٧) الجائحة: المصيبة تحلّ بالرجل.

«ولقد استوفيت أمد الصِّبا والصبابة، واستنبْتَ الحسرة عليها والكآبة، فرزيَّتُك راسية والرزايا سوائر(١)، ومصيبتُك ثابتة والمصائب عوائر(٢)، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٦]».

«ثم لا حيلة، فإنها الأيام التي لا تثبت على حالة، ولا تعرف غَيْرَ التنقل والاستحالة! فآجرك الله في وجه نَضَب ماؤه، وذهب رُوَاؤه(٣) ومات حَياؤه! وفي ضيعة استأجم(٤) برُّها، واستدغل(٥) نَوْرها؛ وأسبغ طريقُها، واتّسعت تَنُوفتُها(٦)! وفي جاه كان عامرًا فخَرب، ودَخْلٍ كان وافرًا فذهب، وتَذْكار كان واصلًا إلى القلوب فحُجِب! فأصبحَت مسبوق السُّكَيت، وظلِلْت حيًّا وأنت الميْت؛ فلا حول ولا قوّة إلّا بالله من مِحَنٍ دُفعتَ إليها، ولم تُعَنْ بحالٍ عليها».

«وقد يشغل الإنسانَ عن نوائبه المشاركون فيها، ويسلّيه عنها المساهمون في مَغْنَى معانيها؛ وأنت من بين هذه المنزلة لا شريك لك، فإنّهم يعتاضون عنها ولستَ بمعتاض، ويركُضون للعيش ولست بركّاض. والدهر يطوِي محاسنَكَ طيَّ السجلِّ(٧) كتابه، وينشر مَقابِحك نشر اليماني(٨) أثوابه. ويَمَلُّ الطرف رؤيتك فلا يُفِيق عليك جفنًا، ويمجُّ السمع ذكرَك فلا يجد عنده أذنًا».

ومنـها:

«وقد جعلتُ رُقعتي هذه جامعةً بين البكاء عليك والأنين، وناظمةً بين العزاء والتأبين. لها حلاوةُ النثر، وعليها طَلاوة الشعر. نتجتْها قريحةٌ عليك، ونسجتها خواطر خاطرت إليك؛ تخفِّف غرامك والناس مشاغيلُ بتثقيله، وتكرم مكانك والإجماع واقع على تهوينه، فإن عرفتَ لي ذاك، وإلا عرفه الصِّدق؛ وإن شكرتَه، وإلا شكره الحق».

«والسلام عليك من أسير لا يخلص بالفدية، وقتيل بسيف السِّبال(٩) واللّحية».

---

(١) الرّاسية: الثابتة المقيمة، والرّزايا: المصائب، وسوائر: متنقّلة.
(٢) العوائر: مفردها عائرة، وهي الكثيرة والعظيمة.
(٣) ذهب رواؤه: أي ذهب شبابه ونضرته.
(٤) استأجم: أصبح كالأجمة، والأجمة: الشجر الكثير الملتفّ.
(٥) استدغل: أصبح كالدغل، وهو الشجر الكثير الملتفّ الذي يُتوارى فيه للختل والغيلة.
(٦) التنوفة: الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.
(٧) السّجل: الكتاب والصحيفة.
(٨) اليماني: نسبة إلى اليمن، ويريد: نشر البرود اليمانية، وهي معروفة ومشهورة.
(٩) السِّبال: مفردها «السّبلة» وهي طرف الشارب من الشعر، أو مقدّم اللّحية.

وقال الصنوبريّ: [من الخفيف]

مـا بـدَتْ شَـعْـرةٌ بـخَـدِّك إلَّا قـلتُ فـي نـاظـرَيَّ أو فـي فُـؤادِي
أنت بـدرٌ جَنَى الـخسوفُ عليه ظـلمـةً، لا أرى لـهـا مـن نَـفَـاد
فـاسوداد الـعِذارِ بـعدَ ابيضاضٍ كـابْيِضـاضِ الـعِذار بـعد اسْوِدادِ

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أصْبـحَ نَـحْـسًـا ـ وكـان سَـعْـدًا ـ مَـنْ كـان مَـوْلًـى فـصـار عَـبْـدا
بـكـى عـلـى حُـسْـنِـهِ زمـانـا لـمـا رأى الـشَّـعْـرَ قـد تَـبَـدّى[١]
لـو نَـبـت الـشَّـعْـرُ فـي وِصـالٍ لـعـادَ ذاكَ الـوِصـالُ صَـدّا!

وقال الخبزأرزّي: [من المتقارب]

بَـدا الـشَّـعْـرُ في وَجْهِه، فانتقَمْ لـعـاشـقـه مـنـه لَـمَّـا ظَـلَـمْ
ومـا سـلَّطَ الله نَـبْـتَ الـلِّحـى عـلى الـمُـرْدِ إلَّا زَوالَ الـنِّـعَـمْ[٢]
تَـوَحَّـشـتِ الـعـيـنُ فـي وجْـهِـهِ وحَـقّ لـهـا وحـشَـةٌ فـي الـظُّـلَـم
إذا اسْـوَدّ فـاضـلُ قِـرْطـاسِـه فـمـا ظَـنُّـه بِـمَـجـارِي الـقَـلَـم؟[٣]
ولـم يَـغْـلُ فـي خَـدِّه كـالـدُّخـا ن إلَّا وأسْـفَـلُـه كـالـحُـمَـمْ[٤]

وقال التَّنُوخيّ[٥]: [من السريع]

قـلْـتُ لأصـحـابِـي، وقـد مَـرّ بِـي مُـنْـتَـقِـبًـا بـعـدَ الـضِّـيَـا بـالـظُّـلَـمِ[٦]
بـالله، يـا أهْـلَ وِدَادِي! قِـفُـوا كَـيْ تُـبْـصِـرُوا كَـيْـفَ زَوالُ الـنِّـعَـمِ![٧]

---

(١) تبدّى: ظهر.
(٢) المُرد: مفردها أمرد، وهو الفتى الذي بلغ ولم تبدُ لحيتُه بعد.
(٣) القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها، ويريد: صفحة الوجه البيضاء.
(٤) الحَمم: الفحم.
(٥) التنوخي: هو أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي، من أعيان العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشيم، تقلّد قضاء البصرة، واتّصل بسيف الدولة الحمداني، فأكرمه. «يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٣».
(٦) المنتقِب: الذي وضع على رأسه النقاب، وهو القناع.
(٧) في اليتيمة ص ٤٠٤: «كيف تزول النّعم».

وقال إبراهيم بن خَفاجة الأندلسيّ[(١)] في ملتحٍ: [من الكامل]

ما للعِذارِ، وكانَ وَجْهُكَ قِبلةً قد خَطَّ فيه من الدُّجَى مِحْرابا

وإذا الشَّبابُ ـ وكان ليس بخاشعٍ ـ قد خَرّ فيه رَاكعًا، وأنَابا[(٢)]

وقال أيضًا: [من الكامل]

وافى بأوّله صحيفةُ صَفْحةٍ جعل العِذارُ بها يَسِيل مِدَادَا

مُتَجَهِّمًا ثُكْلَ الشَّبَابِ كأنّما لَبِس العِذارَ على الشَّباب حِدَادَا[(٣)]

وقال عمر المطوعيّ، من شعراء اليتيمة: [من الوافر]

غَدَا ـ مُنْذُ الْتَحى ـ لَيْلًا بَهِيمًا وكان كأنَّه القَمَرُ المُنِيرُ

فقد كتَبَ السَّوادُ بعارِضَيْهِ لمن يقرا: «وَجَاءَكُمُ النَّذِير»

وقال عبد الجليل الأندلسيّ، من شعراء الذخيرة: [من الوافر]

وأمْردَ يَسْتَهِيمُ بكل وادٍ ويَنْصِب للحَشَا خَدًّا صَلِيبا[(٤)]

دعوتُ دُعاءَ مظلومٍ عليه وكان الله مستَمِعًا مُجِيبا

فَطَوّقه الزمانُ بما جَنَاه وعلَّقَ من عِذَارَيْه الذُّنُوبَا

* * *

ومما قيل في العُنُق، يقال:

الجَيَد، طولها ـ التَّلَع، إشرافها ـ الهَنَع، تطامُنُها[(٥)] ـ الغَلَب، غِلَظُها ـ البَتَع، شِدّتُها ـ الصَّعَر، ميلُها ـ الوَقَص، قِصَرها ـ الخَضَع، خُضُوعها ـ الحَدَل، عوجها.

---

(١) إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسيّ، شاعر غزل، من الكتاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرّياض ومناظر الطبيعة، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ١١٣٨ م. «فهرس الأعلام ١/ ٥٧».

(٢) أناب: تاب ورجع إلى رشده.

(٣) المتجهّم: المقطّب الوجه والجبين من حزنٍ أو غضب، والثّكل: فقد الحبيب.

(٤) الحشا: ما انضمّت عليه الضّلوع، والصّليب: الممتلىء لحمًا وشحمًا، أو الخدّ الذي أحرقته الشمس فبدت حمرته شديدة.

(٥) التطامن: الانخفاض والسكون.

وقال دِعْبل[١]: [من الوافر]

أتاحَ لكَ الهوى بيضٌ حِسَانٌ ... سلَبْنكَ بالعُيونِ وبالنُّحُورِ

نَظرْتَ إلى النُّحورِ فكِدْتَ تَقْضِي ... فأوْلى لو نظَرتَ إلى الخُصُورِ

وقال قيس بن الخطيم[٢]: [من الطويل]

وجِيدٍ كجيد الرِّيم صافٍ يَزِينُه ... توقُّدُ ياقوتٍ وفَصْلُ زَبَرْجَد[٣]

كأنَّ الثريَّا فوقَ ثُغْرة نَحْرِها ... تَوَقَّدُ في الظَّلْماء أيَّ تَوَقُّدِ[٤]

* * *

ومما قيل في اليد إذا باشرَتْ[٥] وما يَعْلَق بها، يقال:

من اللحم غَمِرة، ومن الشحم زَهِمة، ومن السمن نَسِمة، ومن الزُّبد وَضِرَة، ومن الجُبْن نَشِمة، ومن اللبن مَذِقة، ومن البَيْض زَهِكة، ومن السمك صَمِرة، ومن الزيت قَنِمة، ومن الخمر عَتِكة، ومن الخل خَمِطة، ومن العسل ونحوه لَزِجة، ومن الطِّيب عَطِرة، ومن الغالية[٦] عَبِقة، ومن الزعفران رَدِعة، ومن العنبر لَطِخة، ومن الخَلُوق[٧] ضَمِخة، ومن الحنَّاء قَنِئة، ومن الدّم ضَرِجة، ومن الماء بَلِلَة، ومن الطين لَثِقة ورَدَغة، ومن البرد صَرِدة، ومن التراب كَثِبة وغَضِرة، ومن القارِ[٨] حَلِكة، ومن الفحم حَمِمة، ومن المداد طَرِسة، ومن الحديد سَهِكة، ومن الفضّة سَبِكة، ومن الذهب نَضِرة، ومن النار شَعِلة، ومن الرياحين فَوِحة، ومن البقل زَهِرة، ومن الفاكهة الرطبة لَزِقة، ومن اليابسة فَكِهة، ومن العمل مَجِلة ونَفِطة، ومن الخُشونة شَثِنة وثَفِنة،

(١) هو دِعبل بن علي الخزاعي، أبو علي، شاعر هجاء، أصله من الكوفة، شعره جيّد، له ديوان شعر، توفّي بعد أن طال عمره ببلدة تدعى «الطيب» سنة ٨٦٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٣٩».

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد، شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، ومات قبل أن يدخل فيه، له ديوان شعر، مات سنة ٦٢٠ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٠٥».

(٣) الياقوت: حجرٌ كريم شفافٌ صلب، ذو ألوان مختلفة منها الأحمر والأزرق والأصفر والأخضر، والزّبرجد: حجرٌ كريم يشبه الزمرّد، والجيد: العنق، والرّيم: الغزال.

(٤) الثريّا: مجموعة من النجوم في صورة الثور، وثغرة النحر: نقرته.

(٥) باشرت: لامست، أو بدا عليها أثر الشيء.

(٦) الغالية: الطّيب، أو أخلاط منه كالمسك والعنبر.

(٧) الخلوق: ضرب من الطّيب.

(٨) القار: الزّفت، مادة سوداء تطلى بها السّفن والجمال وغيرها.

ومن الشوك مَشطة وشَظِية، ومن الحطب حَزِمة، ومن الرمح كَعِبة، ومن الصولجان لَعِبة، ومن الجود سَبِطة، ومن العَطية مَنِحة، ومن البخل جَعِدَة، ومن المنع لَحِزة، ومن العدم تَرِبة، ومن الرزّ زَنِخة، ومن الصابون حَفرة، ومن الفِرصاد[١] قانِية، ومن الرجيع[٢] قَئِمة، ومن كل القاذورات قَذِرة، ومن الوسخ دَرِنة اهـ.

* * *

ومما مُدِحت به اليدُ، قال مؤيّد الدّين الطُّغْرائي: [من الكامل الأحذّ]

ويدٍ تُمِدُّ المالَ راحتُها أبدًا، ويغْمرُ ظهْرَها القُبَلُ
إن ضَنَّ غيثٌ أو خَبَا قمرٌ فجَبِينُه ويمينُه البَدَلُ[٣]

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانيّ: [من السريع]

قالوا: بدَتْ عارِضةٌ ـ لا بدَتْ! ـ في كفِّ ذاكَ السيِّدِ الأوحدِ
راحتُه راحةُ من يَجْتَدِي وكفُّه كفُّ الذي يَعْتَدِي[٤]
فلا أصابَتْ يَدَه آفةٌ! فكم يَدٍ عِندي لتلك اليَدِ![٥]

وقال ابن دُرَيْد[٦]: [من الكامل]

يا مَنْ يقَبِّلُ كفَّ كُلِّ مُمَخْرقٍ هذا ابن يحيى ليس بالمِخْراقِ![٧]
قَبِّلْ أنامِلَهُ، فلَسْنَ أنامِلًا لكنهنَّ مَفَاتحُ الأرْزاق!

وقال إبراهيم بن العباس بن محمّد[٨]: [من مجزوء المتقارب]

لفضلِ بنِ سَهْلٍ يدٌ تقاصَرَ عنها المَثَلْ[٩]

(١) الفرصاد: صبغٌ أحمر. (٢) الرّجيع: الرّوث.
(٣) ضنّ: بخل، وخبا: غاب، والبدل: العوض.
(٤) يجتدي: يسأل الحاجة، والرّاحة: الكفّ أو باطن الكفّ الذي لا ينبت فيه الشعر.
(٥) الآفة: المصيبة، فكم يدٍ عندي لتلك اليد: يريد أنّ لها حقوقًا عليه.
(٦) ابن دريد: هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تقدت ترجمته. «انظر فهرس الأعلام ٦/ ٨٠».
(٧) الممخرق: الرّجل الطويل الحسن الجسم، والمخراق هنا: الكاذب والجاهل.
(٨) هو إبراهيم بن العباس بن محمّد الصّولي، أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، وشاعد مجيد، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».
(٩) هو الفضل بن سهل السّرخسي، أبو العبّاس، وزير المأمون، ويلقّب بذي الرياستين «الحرب والسياسة» كان حازمًا عاقلًا فصيحًا، قُتل غيلة في الحمام سنة ٨١٨ م. «فهرس الأعلام=

فبــاطــنُــهــا لــلنَّــدَى وظــاهِــرُهــا لــلقُــبَــلْ
وبَــسْــطــتُــهــا لــلغــنَــى وسَــطْــوتُــهــا لــلأجَــلْ(١)

وقال ابن الروميُّ: [من الكامل]

فأمْـدُدْ إلـيَّ يـدًا تـعـوَّد بَطْنُـهـا بذلَ النَّوالِ، وظَهْرُها التقبيلا

وقال أبو نُوّاس: [من السريع]

يـا قَـمَـرًا، أبـرزَهُ مـأتَـمُ يَنْدُبُ شَجْوًا بيـن أتْـراب!(٢)
يَبْكي فيُذْري الدُّرَّ من نَرْجِس ويَـلْطـم الـوَرْدَ بـعُـنَّـاب(٣)

وقال الناشي(٤): [من الكامل]

مِـنْ كـفِّ جـاريـةٍ كـأنَّ بَـنـانَـهـا من فِضَّـةٍ قـد طُرِّفـت عُـنَّـابـا
وكـأنّ يُـمْـنـاهـا إذا نَـطَـقَـتْ بـهـا تُلْقِي على يدها الشِّمالِ حِسَابَا

وقال الراضي بالله: [من الكامل]

قالوا: الرَّحِيلَ! فأنْشبت أظفارَها في خدِّهَا، وقد اعتلَقْنَ خِضَابا
فاخْضَرَّ تحتَ بَنانِها فكأنَّها غرسَتْ بأرضِ بنَفْسَجٍ عُنَّابا

وقال ابن كيغلغ(٥): [من الكامل]

لَمَّا اعتنَقْنَا للوَدَاع وأعربَتْ عَبَراتُنا عنَّا بدَمْعٍ ناطقِ(٦)
فرَّقْن بينَ مَعَاجِرٍ ومحاجِرٍ وجمعْنَ بينَ بَنَفْسَجٍ وشَقائقِ(٧)

= ١٤٩/٥». وتقاصر عنها المثل: أي لم يستطع أن يجد لها أوصافًا تشبهها.

(١) البِسطة: كناية عن العطاء، وبسط كفّه: فتحها عكس «قبضها»، والسّطوة: البطش، والأجل: الموت.

(٢) شجوًا: حزنًا، والأتراب: الأصحاب في سنٍّ واحد.

(٣) يذري: يذرف، والورد هنا: الخدود، والعنّاب: كناية عن أصابع الكفّ.

(٤) الناشي: هو علي بن عبد الله بن وصيف، أبو الحسن المعروف بالناشيء الأصغر، شاعر مجيد من أهل بغداد، قصد سيف الدولة، مات سنة ٩٧٦ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٠٤».

(٥) ابن كيغلغ: هو منصور بن كيغلغ من أولاد أمراء الشام، شاعرٌ رقيق النّظم، ذكره صاحب اليتيمة وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٣/ ٢٤٤، توفي نحو سنة ٩٦٠ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٣٠٣».

(٦) أعربت: أظهرت وأفصحت.

(٧) المعاجر: مفردها «العجار» ثوبٌ تلفّه المرأة على استدارة وجهها. والمحاجر: ما أحاط بالعين.

وقال كُشاجم: [من الطويل]

فما أنْسَها، لا أنْسَ منها إشارةً بسبَّابةِ اليُمنى إلى خاتَم الفَم!
وأعلنتُ بالشكوى إليها فأومَأتْ حِذارًا من الواشينَ أنْ لا تَكَلَّمِ
فلم أرَ شَكْلًا واقعًا فوقَ شَكْله كَعُنَّابةٍ تُومِي بها فوق عَنْدمِ(١)

* * *

ومما قيل في النهود، يُقال:

ثُنْدُوة الرّجل، ثَدْي المرأة، خِلْف الناقةِ، ضَرْع الشاة والبقرة، طُبْيُ الكَلْبة.

قال ابن الروميّ: [من الوافر]

صُدورٌ فوقَهُنَّ حِقاقُ عاجٍ وحَلْيٌ زانَهُ حُسْنُ اتِّساقِ!(٢)
يقولُ الناظِرُونَ إذا رأَوْها أهذا الحَلْيُ من هٰذِي الحِقَاقِ؟
وما تِلْكَ الحِقَاقُ سِوَى ثُدِيٍّ قُدِرْنَ من الحِقاقِ على وِفَاقِ(٣)
نَواهِدُ لا يُعَدُّ لهنَّ عَيْبٌ سِوى مَنْعِ المُحِبِّ من العِنَاقِ

وهو مأخوذ من قول بعض الأعراب: [من الكامل]

أبَتِ الرّوادِفُ والثُّدِيُّ لقُمْصِها مَسَّ البُطون، وأن تَمَسَّ ظُهُورَا(٤)

وقال محمد بن مبادر: [من المديد]

ولَها ثَدْيانِ ما عَدَوَا من حِقَاقِ العاج أن كَعَبَا(٥)
قُسِمَتْ نِصْفَيْنِ دِعْصَ نَقًا وقَضِيبًا لانَ، فاضْطَرَبَا(٦)

---

(١) الشّكل: صورة الشيء وهيئته أو المثل والشبيه، والعنّاب: ثمرٌ أحمر حلو لذيذ الطّعم على شكل ثمرة النّبق، والعندم: نباتٌ يصبغ به.

(٢) الحقاق: مفردها «حقّ» وهو وعاء صغير يتّخذ من عاجٍ أو زجاج، وتوضع به أنواع الطّيب، والاتّساق: النظام والمماثلة.

(٣) قُدرن: جُعلن، وقدر الله عليه الأمر: أي حكم به عليه، وقدر الرزق: قسمه.

(٤) الروادف: مفردها ردفٍ وهو الكفل، والقمص: مفردها قميص وهو الشّعار تحت الدّثار، يريد أن الأرداف الممتلئة والنهود البارزة منعت القميص أن يمسّ صفحة البطن الضامرة.

(٥) ما عدوا: ما تجاوزوا، وكعب النهد: برز في صدر الفتاة.

(٦) الدّعص: الكثيب، والنّقا: القطعة من الرّمل المحدودبة، يريد: لأن قوامها ودق، وعظُمت أردافها.

وقال عبد الله بن أبي السِّمْط بن مَرْوَان[١]: [من المتقارب]

كـأنَّ الـثُّـدِيّ إذا مـا بَـدَتْ وَزانَ الـعُـقـودُ بـهـنَّ الـنُّـحـورَا
حِـقـاقٌ مـن الـعـاجِ مـكـنـونَـةٌ يَـسَـعْـنَ مـن الـدُّرّ شَـيْـئًا كَـثِـيـرا

وقال عليّ بن الجَهْم: [من الرّمل]

كنتُ مُشْتاقًا وما يَحْجُزُني عَـنْـك إلا حـاجـزٌ يَـمْـنَـعُـنـي
شاخصٌ في الصَّدْرِ، غَضْبانٌ على قَـبَـبِ الـبَـطْـن وطَـيِّ الـعُـكَـنِ[٢]
يـمَـلأُ الـكَـفَّ ولا يَـفْـضُـله وإذا أثْـنَـيْـتـه لا يَـنْـثَـنِـي

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

مـلقـمـاتٌ أطـفـالَهُـنَّ ثُـديًـا نَـاهِـداتٍ كـأحـسَـنِ الـرُّمَّـانِ[٣]
مُـفْـعـمـاتٌ كـأنّـهـا حـافـلاتٌ وهـي صِـفْـرٌ مـن دِرّة الألـبـانِ[٤]

وقال ابن المعتزّ: [من المتقارب]

قَـبِـيـحٌ بـمـثـلك أن تَـهْـجُـري وأقـبـحُ مـن ذاكَ أن تُـهْـجَـري
أقـاتِـلتـي بـفُـتُـور الـجُـفُـون ورُمَّـانـتـيْـن عـلى مِـنْـبَـرِ
كـحُـقّـيْـن مـن لُـبِّ كـافـورةٍ بـرأسَـيْـهِـمَـا نُـقـطـتَـا عـنـبـرِ!

* * *

ومما قيل في البطن، يقال:

الدّحَل، عِظَمُه ـ الحَبَن، خروجه ـ الثَّجَل، استرخاؤه ـ القَمَل، ضخمَهُ ـ الضّمُور، لَطافته ـ العَجَر والبَجَر، شُخُوصه[٥] ـ التَّخَزْخُر، اضطرابه.

---

(١) عبد الله بن أبي السّمط بن مروان: لعلّه مروان بن أبي حفصة، الذي يكنّى أبا السّمط لبيتٍ قاله، وهو شاعر مفلّق مدح معن بن زائدة الشيبانيّ، وهلك في زمن الرشيد سنة ١٨٢ هـ. «المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٣٩٦، دار الكتب العلمية».

(٢) شاخص: بارز، والقبب: ضمور البطن ودقّة الخصر، والعُكن: مفردها «عكنة» وهي ما انطوى وتثنّى من لحم البطن سمنًا.

(٣) ملقمات: أي مرضعات.

(٤) المفعم: المليء، وهي صفرٌ: أي خالية، والدرّة: ما يدرّه ثدي المرضع من لبن.

(٥) الشّخوص: ما عظم وضخم وبرز.

قال محمد بن مبادر: [من مخلّع البسيط]

والبَطنُ ذو عُكْنةٍ لطيفٌ صِفْرٌ وِشَاحاه جائلانِ[١]
أشْرَف من فوقِهِ عليه ثَدْيانِ مَيْلان ناهِدانِ

* * *

ومما قيل في الأرداف والخصور، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

فمنه قول عبد الله بن طاهر[٢]: [من السريع]

صبٌّ كئيبٌ يشتكيكَ الهوى كما اشتكى خَصْرُك من رِدْفكا
لسانُه عن وَصْفِ أسقامِه أكَلُّ منه عن مدَى وَصْفكا[٣]

وقال ابن أبي البغل: [من المنسرح]

كأنَّهُ في اعتداله غُصُن وفي السَّراويل منه أمواجُ[٤]
إذا مشى كالقَضِيب جاذبَهُ رِدْفٌ له كالكَثِيب رَجْراجُ[٥]
ويعلَمُ الله أنَّني رجُل إليه مذ قد كَبرتُ محتاجُ

وأنشد أبو بكر بن دُرَيْد عفا الله عنه ورحمه: [من الكامل]

قد قلتُ لَمَّا مَرَّ يَخْطِرُ ماشِيًا والرِّدفُ يَجْذِب خَصْرَه من خَلْفه
يا مَنْ يُسَلِّم خَصْره من رِدْفِه سَلِّمْ فُؤادَ محبِّه من طَرْفه

وقال السريّ الرَّفاء: [من الكامل]

ضَعُفتْ معاقِدُ خَصْره وعُهودُه فكأنَّ عَقْدَ الخَصْر عَقْدُ وفائه

وقال المتنبّي: [من الوافر]

وخَصْرٍ تثبتُ الأبصارُ فيه كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطَاقا[٦]

---

(١) الوشاح: نسيج عريض تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها، وجائلان: لا يستقرّان.
(٢) عبد الله بن طاهر: لعلّ المقصود غير عبد الله بن طاهر الخزاعيّ أمير خراسان، وأحد أكبر قادة المأمون العباسي وأكرمهم، بل المقصود: طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر شاعر خراسان «أبو الطيب»، وهو شاعر هجاء. «انظر اليتيمة ٤/ ٧٩».
(٣) أكلّ: أضعفُ وأعجز.
(٤) يريد بالأمواج هنا: الأرداف.
(٥) والرّجراج: المتحرك والمضطرب كالموج.
(٦) تثبت الأبصار: تطيل النظر، والحدق: العيون، والنّطاق: حزام يشدّ به الوسط.

وقال السريّ الرفّاء: [من الطويل]

أحاطَتْ عيونُ الناظرينَ بخَصْره فـهُـنّ لـه دونَ الـنِّـطـاق نـطـاقُ

وقال الأمير سيف الدّين المشدّ: [من مخلّع البسيط]

وأَهْـيـف الـقـدِّ بـتُّ أشـكُـو لـه تَـلافِـي ومـا تَـلافَـى(١)
فـلَانَ عِـطْـفًـا ودقَّ خَـصْـرًا وإنـمـا رِدْفُـه تـجـافَـى

وقال أبو نُوَاس: [من الرمل]

لَيِّـن الـقَـدِّ لَذِيـذُ الـمُـعْـتَـنَـقْ يُشْبِهُ البـدرَ إذا الـبـدرُ اتَّـسَقْ(٢)
مـثـقَـلُ الـرَّدِف إذا ولَّى حـكـى مُوثَقًا في القيد يَمْشِي في زَلَقْ(٣)
وإذا أقـبـلَ كـادتْ أعـيُـنٌ نَـحْـوه تَـجْـرَحُ فـيـه بـالـحَـدَقْ

وقال آخر وأجاد: [من الهزج]

أيـامَـنْ نِـصْـفُـهُ غُـصـنٌ يـمـيـلُ ونِـصْـفُـه كـفَـلُ(٤)
صـفـاتُـكَ فـي تَـبـايُـنـهـا فـمُـنْـفَـصِـلٌ ومُـتَّـصِـلُ
فـنـصـفُـك مـوجُ عـاصـفـةٍ ونـصـفُـك شـاربٌ ثَـمِـلُ

* * *

ومما وصفت به على لفظ التأنيث، فمنه قول أبي عُبَادة البحتُريّ: [من البسيط]

كـأنـهـنّ وقـد قـارَبْـنَ فـي نَـظَـرِي ضِدّيْنِ في الحسن تَثْقِيلًا وإخْطافا(٥)
رَدَدْنَ ما خفَّفتْ عنه الخُصور إلى ما في الـمآزر فـاستَثْقَلْنَ أرْدافا

وقال آخر: [من الوافر]

لـهـا رِدْفٌ تـعَـلَّقَ فـي لَطِـيـفٍ فـذاكَ الـرِّدف لـي ولـهـا ظَـلُومُ(٦)
يُـعَـذِّبُـنـي إذا فـكَّـرتُ فـيـه ويُـتْـعِـبـهـا إذا قـصَـدَتْ تـقُـومُ

---

(١) الأهيف: الضامر، والتلاف: الهلكة، وتلافى: توقّى واحترز.
(٢) اتّسق البدر: اكتمل.
(٣) ولّى: مشى مبديًا دُبُرَهُ، وحكى: شابه، والزّلق: الموضع الذي لا تثبت عليه قدم لملامسته.
(٤) الكفل: العُجْز من الإنسان والدّابة، مؤخّر كلّ شيء أو مؤخّر الجسم.
(٥) الإخطاف: الهزال والضّعف، أو خفّة اللحم، يريد بالضدّين: ثقل الأرداف وضمور الخصر.
(٦) اللطيف: الضامر، أراد به الخصر.

وقال مؤمل وأفرط: [من مجزوء الخفيف]

مَـنْ رأى مـثـلَ حِـبَّـتـي تُـشْـبِـه الـبـدرَ إذ بَـدا[1]
تـدخُـلُ الـيـومَ ثـم تَـدْ خُـلُ أردافُـهـا غَـدَا

وقال أبو هلال: [من الكامل]

تَمْشِي بأرْدافٍ أبَيْنَ قُعُودَها بين النّساءِ كما أبَيْنَ قِيَامَها

وقال عليّ بن عطية البلنسي: [من الطويل]

وإنْسِيَّةٍ زارتْ من اللَّيْلِ مَضْجَعي فعانقْتُ غُصنَ البان منها إلى الفَجْر
أسائلُها أيْنَ الوِشَاحُ؟ وقد سرَتْ مُعَطَّلةً منه، معَطَّرةَ النَّشْر[2]
فقالَتْ: وأومَتْ، للسّوارِ نقَلْتُه إلى مِعْصَمِي لما تقَلْقَلَ في خَصْرِي[3]

وقال الطائيّ: [من الطويل]

من الهِيف لو أنَّ الخَلاخلَ صُيِّرت لها وُشُحًا جالتْ عليها الخَلاخلُ

وقال إسحٰق الموصليّ[4]: [من الهزج]

ظِـبـاءٌ كـالـيَـعَـافِـيـرِ كُـنُـوسٌ في المَقَاصِيرِ[5]
وأدبـرنَ بـأعْـجـازٍ كـأوْسـاط الـزَّنـابِـيـرِ[6]

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من الخفيف]

يتقابَلْنَ كالبُدُورِ على الأغْـ ـصانِ في مُثْقَلٍ من الأرْدَافِ
بخُصُورٍ تَحْكِي خُصُورَ الزَّنابـ ـير ضعافٍ هَمَمْنَ بالانْقصاف

---

(١) حبّتي: أي من يحب ويهوى، وبدا: ظهر.
(٢) المعطّلة: التي لا تلبس هنا الوشاح، ويقال: جيدٌ معطّل: إذا خلا من الحليّ، والنّشر: الرائحة الطيّبة.
(٣) أومت: أشارت، والسّوار: حلقة من ذهب تتّخذ في المعصم حلية، وتقلقل: تحرّك، أراد أن خصرها بات لضموره ونحافته كمعصم اليد.
(٤) إسحٰق الموصلي: هو إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، أبو محمد، من أشهر ندماء الخلفاء، تفرّد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الكلام والدّين، شاعرًا وراوية أشعار، توفي سنة ٨٥٠ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٩٢».
(٥) اليعافير: مفردها «يعفور»، وهو ظبيٌ لونه العفر، وهو بياضٌ تخالطه الحمرة، وكنوس: من كنس الظبي: إذا دخل كناسه، أي بيته، والمقاصير: مفردها مقصورة: وهي الدّار الواسعة المحصّنة التي لا يدخلها إلّا صاحبها.
(٦) الزنابير: مفردها «زنبور» وهي حشرة أليمة اللسع من الفصيلة الزنبوريّة.

وقال آخر: [من الكامل]

عظُمَتْ روادِفُها فآذَتْ خَصْرَها ووشاحُها قَلِقٌ كقَلْبِ المُغْرَمِ

وقال آخر: [من المنسرح]

آخِرُها مُتْعِبٌ لأوّلِها فبعضُها جائِرٌ على بَعْضِ

وقال آخر: [من الكامل الأحذّ]

تَمْشِي فتُثْقِلُها روادِفُها فكأنَّها تمشي إلى خَلْف

وقال البجليّ: [من الكامل]

إنّ العزيزَ عليَّ خَصْرُكِ إنّه بالرِّدْفِ حُمِّل منكِ ما لا يُحْمَلُ

فخُذِي له جِسْمي مَكانَ وشاحه إنّ العَليل بشَكْله يتعَلَّلُ[١]

* * *

ومما قيل في السُّوق[٢]، فمن ذلك قول الأمير سيف الدّين المشدّ: [من المنسرح]

ساقٍ تَجَلَّى كأنّه قَمَرُ يَحمل شمسًا، أفْدِيه من ساقِ!

شَمَّر عن ساقِه غلائِلَهُ فقلْتُ: مهلًا، وٱكْفُفْ عن الباقي![٣]

لَمَّا رآني، وقد فُتِنْتُ به من فَرْطِ وَجْدِي وعُظْم أشواقِي

غنَّى وكأسُ المُدامِ في يَدِه قامتْ حروبُ الهوى على ساق

وقال عُرْوة[٤]: [من الطويل]

فقُمْنَ بطيئًا مَشْيهُنَّ تأوُّدًا على قَصَبٍ قد ضاقَ عنه خَلاخِلُهْ

كما هَزَّتِ الميزانَ رِيحٌ فحرَّكتْ أعالِيه منه وارجَحنَّتْ أسافِلُهْ[٥]

---

(١) العليل: المريض، ويتعلّل: يتداوى ويشفى.
(٢) السُّوق: مفردها السّاق، وهو ما بين الرّكبة والقدم.
(٣) الغلائل: مفردها غلالة، وهي الثوب الرقيق يلبس تحت الدّثار.
(٤) عروة: هو عُروة بن حزام بن مهاجر الضّني، من بني عذرة، شاعرٌ من متيّمي العرب، كان يحبّ ابنة عمه «عفراء»، مات ودفن في وادي القرى قرب المدينة نحو سنة ٦٥٠ م، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٢٦».
(٥) ارجحنّت: تحرّكت واهتزّت وتمايلت.

وقال كُثَيِّر عَزَّة[(١)]: [من الوافر]

ويَجْعلْنَ الخلاخِلَ حين تَلْوِي ... بأَسْوُقِهِنَّ في قَصَبٍ خِدَال[(٢)]

وقال كُشاجم: [من السريع]

قلتُ: وقد أبصرتُها حاسِرًا ... عن ساقِها فاضلَ سِرْبالِها

لو لم تَكُنْ من بَرَدٍ ساقُها ... لاحتَرَقَتْ من نارِ خَلْخالِها

وله أيضًا: [من مجزوء الكامل]

وإذا لَبِسْنَ خَلاخِلًا ... كذَّبْنَ أسماءَ الخَلَاخِل

* * *

ومما وصفت به القدود، فمن ذلك قول أبي فِرَاس الحمدانيّ: [من مجزوء الوافر]

غُلامٌ فوقَ ما أصِفُ ... كأنَّ قَوَامَهُ ألِفُ

إذا ما مالَ يُرْعِبُني ... أخافُ عليه يَنْقَصِفُ

وأشْفَقُ من تأَوُّده ... أخافُ يُذيبه التَّرَفُ[(٣)]

وقال الخُبْزَأَرُزِّي: [من المنسرح]

أهْيفُ يَحْكِي بقدِّهِ الألِفَا ... يَخسَر مَن لم يَكُنْ به كَلِفا[(٤)]

أحسنُ من بهجة الخلافة والأمـ ... ـن لمن قد يُحاذرُ التَّلَفا

لو أبْصرَ الوجهَ منه مُنْهزمٌ ... يطلُبُه ألْفُ فارسٍ، وقَفَا

وقال ماني[(٥)]: [من الخفيف]

أتَمَنَّى الذي إذا أنا أوْمَـ ... ـأتُ إليه بطَرْف عيني، تَجَنَّى

أهْيفٌ كالقَضِيبِ لو أنَّ ريحًا ... حرَّكتْ هُدْبَ ثوبِه، لتثنَّى!

---

(١) كُثَيِّر عَزَّة: هو كثيّر بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعيّ، أبو صخر، شاعر متيّم مشهور، من أهل المدينة، أخباره مع عزّة بنت جميل الضمريّة كثيرة، توفي سنة ٧٢٣ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢١٩».

(٢) الخلاخل: جمع خلخال وهو حلية تلبسها النساء في سوقهنّ، والخدال: الممتلىء التامّ.

(٣) تأوّده: ميله والتوائه، والترف: التنعّم وسعة العيش.

(٤) الأهيف: الضامر، والكلف: المحبّ.

(٥) ماني: هو ماني الموسوس، محمد بن القاسم، تقدمت ترجمته. «انظر الأغاني ٢٣/ ١٩٠».

وقال آخر: [من الطويل]

أَيَا سائلي عن قَدِّ محبوبِيَ الَّذِي كَلِفْتُ به وَجْدًا وهِمْتُ غَرَاما
أَبَى قِصَرَ الأغصانِ ثُمَّ رأى القَنَا طِوالًا، فأضْحى بينَ ذاكَ قَوَاما[1]

وقال آخر، وهو محمد بن التلمسانيّ[2]: [من مجزوء الكامل]

يا مُخْجِلًا بِقَوَامِهِ أغْصانَ بناتِ اللِّوَى![3]
ما أنتَ عِنْدِي والقَضِيـ ـبُ اللَّدْنُ في حدٍّ سَوَى![4]
هذاكَ حَرَّكَه الهَوَا ءُ وأنْتَ حَرَّكْتَ الهَوَى!

وقال آخر: [من مجزوء الرجز]

يا غُصُنًا راحَ الصَّبَا يَثْنِيه، لا رِيحُ الصَّبَا![5]
ما إنْ بدَا للعَيْنِ إلا ارتاحَ قَلْبِي وصَبَا[6]
ولا انْثَنَى يَخْطر إلا ازْداد قلبي وصَبَا[7]

وقال آخر، وهو كُشاجم: [من السريع]

مُعْتدلٌ من كُلِّ أعطافه مُسْتحسَنُ القامةِ والمُلْتَفَتْ
لو قيستِ الدُّنيا ولذَّاتُها بساعةٍ من وَصْله، ما وَفَتْ
سُلِّطت الألحاظُ منه على قلبِي، فلو أوْدَتْ به ما اشتَفَتْ[8]
واستعذبَتْ رُوحِي هَواه فلا تَصْحُو ولا تَسْلُو، ولو أُتْلِفَتْ

* * *

(١) القنا: الرّماح، والقوام: الاعتدال.
(٢) محمد بن التلمسانيّ: هو محمد بن سليمان بن عليّ التلمساني المعروف بـ «الشاعر الظّريف»، ويقال له: ابن العفيف، شاعر مترقّق، مقبول الشعر، له ديوان شعر مطبوع، توفي بدمشق سنة ١٢٨٩ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٥٠».
(٣) بانات: مفردها «بانة» وهي ضرب من الشجر الليّن، ورقه طويل، أبيض الزهر، واللّوى: ما انعطف والتوى وانثنى من الرّمل أو مسترقه.
(٤) اللّدن: الطريّ الميّاس.
(٥) الصِّبا: الشباب وميعته، والصَّبا: ريحٌ باردة تهبّ فتنعش.
(٦) صَبا: مال وحنّ.
(٧) انثنى: تمايل، ويخطر: يتبختر في مشيته، والوَصَب: الألم والوَجع.
(٨) أودت به: ذهبت وأهلكته.

ومما قيل في العِناق، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير.

فمنه قول الحسين بن الضّحّاك[١]: [من الكامل]

ومُوَشَّحٍ، نازعتُ فضلَ وِشَاحِه وكسوْتُهُ من ساعِدَيَّ وِشَاحا
بات الغَيُور يشُقُّ جلدةَ خَدِّه وأمالَ أعطافًا عليَّ مِلَاحًا[٢]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

بِتُّ وبدرُ الدُّجَى نديمِي وهو مُوَاتٍ بلا ٱمْتِناعِ
فقلتُ للحاسِدينَ لَمَّا أشرقَتِ الشمسُ بالشُّعَاع
القَلْبُ والطَّرْفُ مَنْزِلاهُ وَهْو إلى الآنَ في الذِّراع

وقال ابن المعتزّ: [من السريع]

ما أقْصَرَ الليلَ على الراقدِ! وأهْونَ السُّقْمَ على العائدِ![٣]
يَفْدِيكَ ما أبقيْتَ من مُهْجَتِي لستُ لِمَا أوْليتَ بالجاحِدِ
كأنَّني عانَقْتُ رَيحانةً تنفَّستْ في ليلِها البارِدِ
فلو ترانَا في قَميص الدُّجَى حَسِبْتَنا في جَسَدٍ واحد

وقال أبو هلال في نحو ذلك: [من السريع]

ونحنُ في نَظْم الهوَى واحِدٌ كأنَّنا عِقْدانِ في نَحْرِ

وقال ابن الصوليّ[٤]: [من مجزوء الرّمل]

طالَ عُمْرُ اللّيلِ عِنْدِي إذ تَوَلَّعْتَ بصَدْ
يا ظَلُومًا نقضَ العَهْـ ـدَ ولم يُوفِ بعَهْد!
أنَسِيتَ الوصل إذ بِتْـ ـنا على مَرْقدِ وَرْدِ

---

(١) هو الحسين بن الضحّاك: المعروف بالخليع، أبو علي، أصله من خراسان، بصريّ المولد والمنشأ، وهو شاعر ماجن، عداده في الطبقة الأولى من شعراء الدولة العباسية المجيدين، ولد سنة ١٦٢ هـ، وتوفي في بغداد سنة ٢٥٠ م. «معجم الأدباء ٣/ ١٢٨».

(٢) الأعطاف: مفردها «عطف»، وهو من الإنسان من لدنّ رأسه إلى وركه.

(٣) العائد: الذي يزور مريضًا.

(٤) ابن الصّولي: هو إبراهيم بن العبّاس بن محمد بن صول، أبو إسحٰق، تقدّمت ترجمته. «انظر فهرس الأعلام ١/ ٤٥».

واعـتَـنَـقـنـا كـوِشـاح　　وانـتـظَـمْـنـا نَـظْـمَ عِـقْـدِ
وتـعَـطَّـفْـنـا كـغُـصْـنـيـن فـقَـدّانـا كـقَـدٍّ[١]

وقال ابن عَبْدَكان[٢] الكاتب: [من الرمل]

وكِـلانـا مُـرْتَـدٍ صـاحِـبَـه　　كارتِداء السَّيْفِ في يَوْمِ الوَغَى
بـخُـدودٍ شـافـيـاتٍ مـن جَـوًى　　وشِـفـاهٍ مُـرْوِيـاتٍ مـن ظَـمَـا
نَـتَـسـاقـى الـريـقَ فـيـمـا بـيـنَـنـا　　زَقَّ أُمَّاتِ القَطَا زُغْبَ القَطَا[٣]

وقال عليّ بن الجَهْم: [من الطويل]

سَقَى الله ليلًا ضَمَّنا بعد فُرْقةٍ　　وأدْنى فؤادًا من فُؤادٍ مُعذَّبِ!
فبِتْنا جميعًا: لو تُراق زُجاجةٌ　　من الخَمْر فيما بَيْننا، لم تَسَرَّبِ[٤]

وقال الخُبْزَأَرُزِّيّ: [من الكامل]

طوّقْتُه طَوْقَ العِنَاقِ بساعِدِي　　وجعلتُ كفِّي للِّثام وِشاحَا
هذا هو الفَوْزُ العظيمُ فخلْنا　　مُتَعانقَيْن فما نُريدُ بَرَاحا![٥]

وقال صالح بن يونس: [من السريع]

لِي سـيِّـدٌ مـا مـثْـلُه سـيِّـدٌ　　تَصَدَّتِ الحمَّى له فاشتكَى[٦]
عـانـقْـتُـه عِـنْـدَ مُـوافـاتِـهِ　　والأُفْقُ بالليلِ قد اْحْلَوْلَكا[٧]
فـجـاءتِ الـحـمَّـى كـعـاداتِـهـا　　فلم تجِدْ ما بَيْنَنا مَسْلَكا!

وقال الحسين بن عليّ بن بِشْر الكاتب: [من المنسرح]

ضَمَمْتُه ضَمَّ مُفْرِط الضَّمِّ　　لا كَأَبٍ مُشْفِقٍ ولا أُمِّ[٨]

---

(١) تعطّفنا: تمايلنا، والقدّ: القامة أو القوام.
(٢) ابن عبدكان الكاتب: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن مودود، أبو جعفر، كاتب من كبار المنشئين، ولي البريد بدمشق وحمص، له رسائل مدوّنة في عشر مجلّدات، وله شعر، توفي سنة ٨٨٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٣».
(٣) زقّه الطعام: أطعمه بمنقاره، والقطا: طائر صحراوي يشبه الحمام، والزُّغب: الفراخ التي ظهر أوّل ريشها.
(٤) لم تسرّب: لم تنفذ من مكانها إلى مكانٍ آخر، ويقصد هنا شدّة الالتحام.
(٥) ما نريد براحًا: أي ما نريد مغادرة.
(٦) تصدّت له: اعترضته وهاجمته.
(٧) موافاته: إتيانه لزيارته ولقائه.
(٨) المفرط: المكثر.

ولـم نَـزَلْ، والـظـلامُ حـارِسُـنـا جسمَيْنِ مستودَعَيْنِ في جِسْم
أَلْثُمـه فـي الـدُّجَـى، وبَـرْقُ ثَـنَـا يَـاهُ يُـرِيـنِـي مـواضِـعَ الـلَّثْـم(١)
ثُـمَّ افـترقْـنـا عِـنْـد الـصباحِ وقَـدْ أثَّـرت فـيـه كـهَـيْـئَةِ الـخَـتْـمِ(٢)

وقال أبو عبد الله الحامديّ: [من الطويل]

سَقَانِي وحَيَّاني وباتَ مُعَانِقي! فيا عَطْفَ مَعْشوقٍ على ذُلِّ عاشِقِ!
ويـا لـيـلةً، بـاتَـتْ سَـواعِـدُنـا بـهـا تَدُورُ على الأعناقِ دَوْرَ المَخَانِقِ!(٣)
نَبُثُّ من الشَّكْوَى حديثًا كأنَّهُ قـلائدُ دُرٍّ فـي نُـحـورِ الـعَـواتِـقِ(٤)

* * *

ومما ورد على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول أبي إسحٰق الصابي(٥): [من المجتثّ]

هَـيـفـاءُ تَـحْـكِـي قَـضِـيـبًـا قـد جَـمَّـشَـتْـه الـرِّيـاحُ(٦)
تَـفْـتَـرُّ عـن سِـمْـطِ دُرٍّ عـلـيـه مِـسْـكٌ وراحُ(٧)
جَـرَّدتُـهـا واعـتـنَـقْـنـا كـلٌّ لِـكُـلٍّ وِشـاحُ!
بـاتَـتْ، وكـلٌّ مَـصُـونٍ لـي مـن جِـمَـاهـا مُـبـاحُ
فـي لـيـلةٍ لـم يَـعِـبْـهـا فـي الـدّهـرِ إلا الـصَّـبَـاحُ

(١) ألثمه: أقبّله، والثنايا: الأسنان الأربع في مقدّمة الفم.
(٢) أثرت فيه كهيئة الختم: يريد أنّ القبل قد تركت آثارًا في جسمه كما يترك الختم آثارًا على الورق.
(٣) المخانق: مفردها «مخنقة»، وهي القلادة تحيط بالعنق.
(٤) نبثّ: نظهر، والعواتق: الكرائم والحرائر من النساء.
(٥) أبو إسحٰق الصّابي: هو إبراهيم بن هلال الحرّاني، نابغة كتّاب جيله، كان صلبًا في دين الصابئة، وأحبّه الصّاحب بن عبّاد، وتعصّب له، له كتب عدّة، وديوان شعر، توفي سنة ٩٩٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ٧٨».
(٦) جمّشته: داعبته ولاعبته وغازلته.
(٧) تفترّ: تبتسم، وسمطُ الدرّ: كناية عن أسنانها التي تشبه عقدًا من الدرّ.

وقال أيضًا: [من الطويل]

أقولُ وقد جَرَّدتُها من ثيابِها ... وعانَقْتُها كالبَدْرِ في ليلة التِّمّ(١)

لَئِن آلمَتْ صَدْرِي بشِدّة ضَمِّها ... لقد جَبَرَتْ قلبي وإنْ أوهنَتْ عَظْمِي!(٢)

وقال أبو الفضل الأصبهانيّ(٣): [من مجزوء الكامل]

يا ليلةً قُرِنتْ لنا ... فيها المآرِبُ بالنَّجاحْ

بِتْنا بِرَغْم وُشاتِنَا ... متعانِقَيْنِ إلى الصَّباحْ

متمازِجَيْن كأنَّنا ... رُوحانِ من ماء وراحْ(٤)

ظنَّ الوشاةُ لفَرْط ضَمِّـ ... ـي أنَّنِي بعضُ الوِشَاحْ!

* * *

ومما قيل في وصف مَشْيِ النساء، يقال:

تَهالَكَتِ المرأةُ، إذا انفتلَتْ في مِشْيتها.

تأوّدتْ، إذا اختالتْ في تَثَنٍّ وتكسُّر.

بَدَحتْ وتبدَّحتْ، إذا أحسنت مِشْيتها.

تَهزَّعتْ تهزُّعًا، إذا اضطربت في مِشْيتها.

قَرْصَعَتْ قَرْصعةً، وهي المِشْية القبيحة؛ وكذلك مَثَعتْ مَثْعًا.

وقال الأعشى: [من البسيط]

غَرَّاءُ، فَرْعاءُ، مَصْقُولٌ عوارِضُها ... تَمْشِي الهُوَيْنَى كما يمشِي الوجِي الوَحِلُ(٥)

كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارَتِها ... مَرُّ السَّحابةِ: لا ريث ولا عَجَلُ(٦)

---

(١) ليلة التمّ: أي ليلة التّمام، وهي ليلة أربع عشرة من الشهر القمري حيث يكون القمر بدرًا.

(٢) أجبرت قلبي: ضمّدت انكساره وأنعشته، وأوهنت: أضعفت.

(٣) أبو الفضل الأصبهاني: لعلّه، يقصد أبو الفضل الهمداني «بديع الزّمان» تقدّمت ترجمته. «انظر فهرس الأعلام ١/ ١١٥، ويتيمة الدهر ٤/ ٢٩٣».

(٤) الراح: الخمرة.

(٥) الغرّاء: البيضاء، والفرعاء: الطويلة الشعر، والعوارض: الأسنان، والوجي: الدّابة التي تشتكي حافرها، والوحل الواقع في الوحل.

(٦) الرّيث: البطء.

وقال آخر: [من الكامل]

يَمْشين مَشْيَ قَطا البِطاحِ تَأَوُّدًا ... قبّ البطونِ، رواجِح الأكْفالِ[١]

وقال ابن عائشة[٢] من أبيات: [من الكامل الأحذّ]

فكأنّهنّ إذا أردْنَ خُطًا ... يَقْلَعْنَ أرجُلَهنَّ من وَحَلِ

وقال أبو الفتح كُشاجم: [من المتقارب]

وتهتَزُّ في مَشْيها مِثْلَ ما ... تَهُزُّ الصَّبا غُصْنًا ناعِما

وتأْمُرُ بالأمْرِ فيه الذي ... كَرهتُ فأرضَى به راغما[٣]

وقال آخر: [من الكامل]

شبَّهتُ مِشْيَتها بمِشْيَةِ ظافِرٍ ... يختالُ بَيْنَ أسنَّةٍ وسُيوفِ[٤]

صَلِفٍ تباهَتْ نفسُه في نَفْسِه ... لما انْثنَى بسِنَانِه المَرْعُوفِ[٥]

وقال آخر: [من المنسرح]

تَمْشِي الهُوَيْنَى إذا مَشَتْ فُضُلًا ... مَشْيَ النَّزيفِ المخمُورِ في صَعَدِ[٦]

تَظَلُّ من زَوْرِ بَيْتِ جارتِها ... واضعةً كفَّها على الكَبِدِ

وقال المُنَخَّل اليَشْكُريّ[٧]: [من مجزوء الكامل]

ولقد دَخَلْتُ على الفَتا ... ةِ الخِدْرَ في اليَوْمِ المَطِيرْ[٨]

---

(١) القطا: طائر صحراوي أغبر اللون يشبه الحمام، والبطاح: جمع أبطح وبطحاء، وهو المكان المتّسع المنبسط الذي يسيل فيه الماء فيخلّف التراب والحصى الصغار. والتأوّد: الميل والاعوجاج، وقبّ البطون: ضامراتها، ورواجح الأكفال: ثقيلات العُجُز.

(٢) ابن عائشة: هو عبد الرحمٰن بن عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، شاعر متأدّب من أهل البصرة، قصد بغداد، واتّصل بالقافي أحمد بن أبي دؤاد فمدحه ولم يجد ما يرضيه، فهجاه، توفي سنة ٨٤٢ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١٥».

(٣) راغمًا: مُكرهًا.

(٤) الظافر: المنتصر، ويختال: يمشي متبخترًا فخورًا، والأسنّة: الرّماح.

(٥) الصّلف: المتكبّر، والمرعُوف: الذي يقطر دمًا.

(٦) الهويني: التؤدة والرفق، وامرأةٌ فُضُل: متفضّلة بثوب واحد، والنّزيف: السكران، والصّعد: المشقة والتعب.

(٧) المنخّل اليشكري: هو المنخّل بن عُبيد بن عامر، من بني يشكر، شاعرٌ قديم جاهلي كان يشبّب بهذا أخت عمرو بن هند، وقد اتّهم بالمتجرّدة امرأة النعمان بن المنذر، وكان جميلًا، قتله عمرو بن هند. «الشعر والشعراء: ص ٢٥٥».

(٨) الخدر: سترٌ يمدُّ للمرأة في ناحية البيت.

فـدفَـعْـتُـهـا فـتـدافـعَـتْ مَـشْيَ الـقَـطَاة إلى الـغَـدِيرْ[١]
ولَثِـمْـتُـهـا فـتـنـفَّـسَـتْ كـتـنَفُّس الـظَّبْي الـبَـهِـيرْ[٢]

وقال عمر بن أبي ربيعة: [من المنسرح]

أبْـصَـرْتُـهـا لـيـلةً، ونِـسْـوتُـهـا يـمشِينَ بين المقامِ والـحَـجَرِ[٣]
يرفُلْن في الرِّيْط والـمُرُوط كـما تَـمْشِي الهُـوَيْنَى سواكنُ البَقَر[٤]

وقال ابن مُقْبِل[٥]: [من البسيط]

يَهْـزُزْنَ لـلمَشْي أوصالًا منعَّـمةً هَزَّ الجَنُوبِ ضُحًى عَيْدانَ يَبْرِينَا[٦]
أو كـاهْـتِـزَازِ رُدَيْـنـيٍّ تـداوَلَـهُ أيْدِي التِّجَار فزادُوا مَتْنه لِينَا[٧]
يَمْشِينَ هَيْلَ النَّقَا مالتْ جوانِبُه يَنْهالُ حِينًا وينهالُ الثَّرَى حِينا[٨]

وقال أشجعُ السلميّ[٩]: [من الطويل]

وماجَتْ كمَوْجِ الماء بَيْنَ ثِيابِها يَمِيلُ بها شَطْرٌ ويَعْدِلُها شَطْرُ
إذا وصَفَتْ ما فَوْقَ مَجْرَى وِشاحِها غلائلُها رَدَّتْ شهادَتَها الأُزْرُ[١٠]

---

(١) دفعتها: غازلتها وحرّكتها. (٢) البهير: المجهد.
(٣) المقام والحجر: بين ركن الكعبة والحجر الأسعد، يريد أنهنّ في الطّواف.
(٤) يرفُلن: يجرُرن أثوابهنّ، والرّيط: مفردها الرّيطة، وهي الملاءة من نسج واحد، والمروط: مفردها المرط وهو كساءٌ من خزٍّ أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفّع به المرأة.
(٥) ابن مقبل: هو تميم بن أبي بن مقيل، من بني العجلان، أبو كعب، شاعر جاهلي إسلامي، أدرك الإسلام وأسلم، ورثى عثمان بن عفان، له ديوان شعر، وهو أوصف العرب لقدح، مات بعد سنة ٦٥٧. «الشعر والشعراء: ص ٢٩٧».
(٦) الأوصال: أجزاء الجسم وأعضاؤه، والجنوب: الرّيح تهبّ جنوبًا، والعيدان: النخل الطوال، ويبرين: اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة، من أصقاع البحرين بينه وبين الإحساء وهجر مرحلتان. «معجم البلدان ٥/ ٤٢٧».
(٧) الرّديني: الرّمح، والتّجار: المتاجرين به، والمتن: ما ظهر من الشيء.
(٨) الهيل: ما انهال من الرمل، والنقا: الكثيب من الرّمل، وينهال: يسقط.
(٩) أشجع السّلمي: هو أشجع بن عمرو، من بني سُليم، كان مُتصلًا بالبرامكة، وله فيهم أشعارٌ كثيرة، من شعراء العصر العبّاسي، وقد مدح الرّشيد وغيره. «الشعر والشعراء: ص ٦٠١».
(١٠) الوشاح: نسيجٌ عريض يرصّع بالجوهر، وتشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها، والغلائل: جمع غلالة وهي الستر الرقيق الذي يلبس تحت الثوب، والأزر: مفردها إزار وهو الملحفة، أو الثوب الذي يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

وقال العباس بن الأحنف: [من البسيط]

شمسٌ مقدّرةٌ في خَلْق جاريةٍ كأنما كَشْحُها طَيُّ الطَّوامِيرِ(١)
كأنها حينَ تمشي في وَصائِفها تَخْطُو على البَيْضِ أو خُضْر القَوارِيرِ!(٢)

* * *

انتهى الغرض في وصف الأعضاء، وما شاكلها واتصل بها.

* * *

فلنذكُرْ إن شاء الله تعالى ما جاء فيما قدمناه من الأمثال.

فأمّا ما جاء منها في الإنسان، يقال:

شدِيدٌ على الإنسان ما لم يعَوَّد.

وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليَعْلما.

الناسُ من جهة التمثِيلِ أكْفَاء.

الناس أخْيافٌ(٣) وشَتَّى في الشِّيَم.

الناس بزَمانهم أشبهُ منهم بآبائِهم.

وما النّاس إلّا هالكٌ وابنُ هالك.

[من البسيط]

والناسُ أولادُ عَلّاتٍ فمن عَلِمُوا أن قد أقَلَّ فمَهْجُورٌ ومحقُورُ(٤)

---

(١) الكشح: ما بين الخاصرة والسرّة ووسط الظّهر من الجسم، والطّوامير: مفردها «الطامور» وهو الصحيفة.

(٢) الوصائف: مفردها «الوصيفة» وهي هنا الخادمة، والقوارير: جمع قارورة وهي وعاء الطيب المصنوع من الزّجاج، تطلق على المرأة تشبيهًا بها في سهولة الكسر.

(٣) في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٩٤، دار الكتب العلمية: النّاس إخوانٌ وشتّى في الشّيم. والإخوان: الأشباه والأشكال، وشتّى: من الشتّ وهو التفرّق، والشّيم: الأخلاق الكريمة، أي إنّهم وإن كانوا مجتمعين بالأشخاص فشيمهم مختلفة، والأخياف: الضّروب المختلفة في الأخلاق والأشكال، أو النّاس الذين أمّهم واحدة وآباؤهم شتّى، يقال: الناس أخياف أي لا يستوون، ويقال: ذلك في الإخوة. «اللسان، مادة خيف».

(٤) بنو العلّات: أي أبناء الرجل الواحد من أمّهات شتّى، والعلّة: الضّرة.

وقال آخر: [من البسيط]

النَاسُ أكيسُ من أن يحسُدُوا رجُلًا حتَّى يَرَوْا عنده آثار إحْسَان[١]

ويقال:

المرءُ أعلم بشأنِه.

المرءُ مَعَ من أحَبّ.

دَعِ ٱمرءًا وما ٱخْتار.

كلُّ ٱمْرِىءٍ في شأنِه ساع.

كلُّ ٱمرِىءٍ مُصبَّحٌ في أهله.

كلُّ ٱمْرِىءٍ من شَجْو صاحِبِهِ خلْو[٢].

المَرْء يَعْجَزُ لا مَحَالة.

المرء تَوَّاقٌ إلى ما لَمْ يَنَلْ.

المرء يجمعُ، والزمانُ يفَرِّقُ.

ويقال:

الرِّجالُ بالأموال.

تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامعُ.

ولكلِّ دهر دولةٌ ورجالٌ.

* * *

ومما يتمثّل به في ذكر النفس، يقال:

النفسُ مُولعَةٌ بحُبِّ العاجلِ.

النفس أعْلَمُ مَنْ أخُوك النافِعُ.

أكْذِبِ النفسَ إذا حدّثْتَها.

ما عاتَبَ الرجلَ اللبيبَ كنَفْسِه.

---

(١) أكيس: أعقل.

(٢) الشجو: الحزن، والخلو: المستريح والمفارق.

الجُودُ بالنّفس أقصى غايةِ الجُود.

نَفْسُ عِصامٍ سَوّدتْ عصَاما[(١)].

* * *

ومما يتمثّل به من أعضاء الإنسان الظاهرة والباطنة:

ما قيل في الرأس والشعر:

مَنْ نَجَا برأسِه فقد رَبِحَ.

رماه بأقْحافِ رأسِه، أي بالدواهي.

اختلفَتْ رُؤوسها فرتَعَتْ[(٢)].

كلُّ رأسٍ به صُدَاع.

ويقال:

أدقُّ من الشَّعر.

أهْونُ من الشَّعر الساقِط.

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الوجه:

وجهُ المحرِّش أقبَحُ، أي وجه مبلِّغ القبيح أقبح من وجه قائله.

في وَجْه مالكٍ تُعْرف إمرتُه.

قَبْل البُكاء كان وجْهُك عابسًا.

قال أبو تمّام: [من البسيط]

وما أُبالي، وخَيْرُ القولِ أصدَقُه حقَنْتَ لي ماءَ وجهي أم حقَنْتَ دَمِي

---

(١) نفسُ عصامٍ سوّدت عصامًا: هو شطر بيت من الرَّجز للنابغة الذبياني، وتمامه:

نفسُ عصام سوّدت عصاما وعلّمته الكرّ والإقداما

ويقال: هو حاجب النّعمان الذي قال له النابغة: ما وراءك يا عصام؟ «انظر المستقصى في أمثال العرب ٢/٣٦٩، دار الكتب العلمية». «وانظر ديوان النابغة الذبياني ص ١١٨ دار صادر».

(٢) رتعت الماشية: رعت في خصب وبحبوحة، يريد: إذا اختلف رؤوس القوم اهتمّ كلّ واحدٍ منهم باستمالة الرّعية إليه.

وقال ابن الروميّ: [من البسيط]

وقَلَّ مَنْ ضَمِنتْ خَيْرًا طَوِيَّتُه   إلّا في وَجْهِه للخَيْرِ عُنْوَانُ[١]
له مُحَيًّا جميلٌ يُسْتَدَلُّ به   على جميلٍ، وللبُطْنان ظُهْرانُ

وقال آخر: [من السريع]

صَلَابةُ الوَجْهِ صَلَاحُ الفتى   ورِقَّةُ الوَجْهِ من الخُرْقةِ[٢]

* * *

ما يتمثّل به من ذكر العين، يقال:

أسْرَعُ من طَرْف العَيْنِ.

أسْرَعُ من لَمْحِ البَصَر.

العَيْنُ تَرْجُمانُ القلب.

شاهِدُ البُغْض اللحظُ.

رُبَّ عَيْنٍ أنَمُّ من لسان[٣].

ليس لِمَا قَرّتْ به العينُ ثَمَن.

نظرةٌ مِن ذِي عَلَق[٤].

عينٌ عَرَفَتْ فذَرَفَتْ.

لحظهُ أصدقُ من لفظِه.

ليس لعينٍ ما رأتْ، ولٰكِنْ لِكفٍّ ما أخذَتْ.

لا تطلُبْ أثرًا بعد عَيْنٍ[٥].

---

(١) الطويّة: الضّمير. (٢) الخرقة: الطيش والجهل.
(٣) هذا مثلٌ كقولهم: جلّى محبٌّ نظره، وكقولهم: شاهد اللحظ أصدق. «انظر مجمع الأمثال للميداني ١/٣٩٧». وأنمّ من النميمة، وهي الوشاية.
(٤) نظرةٌ من ذي علق: أي ذي مودّة، مثل يضرب في نظر المحب. «المستقصى في أمثال العرب ٢/٣٦٨».
(٥) الأثر: ما بقي من رسم الشيء، ويطلب أثرًا بعد عين: أي يترك شيئًا يراه ثم يتبع أثره بعد فوت عينه.

من أطاع طَرْفَه، أصاب حَتْفَه.

وأيُّ عارٍ على عين بلا حَوَر.

والدَّمعُ قد يُعْلِنُ ما في الصُّدُور.

ومن الأبيات: [من الطويل]

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَلِيلةٌ ولكنَّ عين السُّخْط تُبْدِي المَسَاوِيَا[١]

وقال الأمير أبو الفضل الميكاليّ[٢]: [من السريع]

كَمْ والدٍ يَخْرِمُ أولادَه وخَيْرُه يَحْظَى به الأبْعَدُ[٣]

كالعين لا تنظُر ما حَوْلَها ولَحْظُها يُدْرِك ما يَبْعُدُ

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الأنف:

أنْفُك مِنْك وإن كان أَجْدَعَ[٤]، يضرب في القريب السَّوْء.

شفَيْتُ نَفْسِي وجَدَعْتُ أنْفِي.

لأمرٍ مَّا جُدِعَ قَصِيرٌ أنفُه[٥].

كلُّ شيءٍ أخطأ الأنْفَ جَلَل[٦].

لُدِغتُ حيثُ لا يضَعُ الرَّاقِي أنْفُه، يضرب للأمر الذي لا دواء له.

---

(١) الكليلة: الضعيفة، أو هي التي تغضي، والسّخط: الغضب.

(٢) الأمير أبو الفضل الميكالي: هو الأمير عُبيد الله بن أحمد الميكالي، مكانه من آل ميكال كواسطة العقد، يتفرّد بمزيّة الأدب الذي هو ابن بجدته، وأبو عذرته، وأخو جملته، وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأعمّ بلاغة. «انظر اليتيمة ٤/٤٠٧ وما بعدها».

(٣) الأبعد: الذي لا ينتمي إليه بصلة نسبٍ أو قرابة.

(٤) الأجدع: المقطوع.

(٥) في المستقصى من أمثال العرب: «لأمرٍ ما حزَّ قصير أنفه»، وهو قصير بن سعد، أخذ ثأر جذيمة، قال المتلمّس:

ومن حذر الأيّام ما حزّ أنفه قصيرٌ ورام الموت بالسّيف بيهس

«انظر المستقصى في أمثال العرب ٢/٢٤٠».

(٦) كلّ شيء أخطأ الأنف جلل: أي يسير وهيّن، وأصله أن رجلًا صرع رجلًا، وأراد جدع أنفه فأخطأه، وجرح وجهه، فحدّث به رجل فقال ذلك، مثل يضرب في وجوه المحاماة عن العزّ. «المستقصى في أمثال العرب ٢/٢٢٦».

رُبَّ حامٍ لأنفِه وهو جادِعُه، يُضرب لمن أنِفَ من الشيء فتُوقعه الأَنَفَةُ في أشدّ منه.

مات حَتْفَ أنفِه(١).

جَدَع الحلالُ أنفَ الغيرَةِ، قاله رسول الله ﷺ.

أنفٌ في السَّماءِ، وآسْتٌ في السماء!(٢)

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الفم، واللسان، والأسنان:

كلُّ جانٍ يدُه إلى فِيه.

حدِّثْنِي، فاهُ إلى فِيّ.

فلان خفيفُ الشَّفَة، أي قليل المسألة.

سكتَ ألْفًا، ونَطَق خَلْفًا(٣).

قَرَع سِنّ النادِم(٤).

كَدَمْتَ في غير مَكْدَمٍ(٥)، أي طلب غير مَطْلَب.

---

(١) مات حتف أنفه: هو أن يموت على فراشه من غير أن يقتل، فتخرج نفسه من أنفه وفمه. «المستقصى في أمثال العرب ٢/٣٣٨».

(٢) أنفٌ في السّماء وإستٌ في الماء: مثلٌ يضرب لمن رفع نفسه وهو لئيم الحسب، قال النابغة الجعدي:

بالأرض استاههم عجزًا وأنفهم ... عند الكواكب بغيًا يا لذا عجبا

«المستقصى في أمثال العرب ١/ ٣٩٥».

(٣) سكت ألفًا ونطق خلفًا: أي رديئًا، وهو مثل قيل في رجلٍ أطال الصمت عند الأحنف حتى أعجبه، ثمّ تكلّم فقال له: يا بابحر! أتقدر أن تمشي على شُرَف المسجد، فقال الأحنف ذلك. «المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١١٩».

(٤) قرع سنّ النادم: أي ندم، قال الكميت:

سيقرع منها سنّ خزيان نادمٍ ... إذ اليوم ضمّ الناكثين العصبصب

وقال جرير:

إذا ركبت قيسٌ بخيل مغيرةٍ ... على القين يقرع سنّ خزيان نادم

«المستقصى في أمثال العرب ٢/١٩٦».

(٥) كدمت في غير كلام: أي عضِضت غير معضّ، مثلٌ يضرب لمن طلب الشيء في غير مطلبه. «المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٢١٧».

وجُرْح الدّهْرِ ما جَرَحَ اللِّسانُ.

وجُرْح اللّسان كجُرْح اليد.

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الأُذُن:

جاء فلانٌ ناشِرًا أُذُنَيْه.

لَبِستُ على ذلك أُذُنَيّ.

أساءَ سَمْعًا فأساء إجابةً.

كلامُه يدخُل في الأُذُن بلا إذْن.

جعلْتُ ذلك دَبْرَ أُذُنِي[١].

* * *

ما يتمثّل به من ذكر العُنُق:

حَسْبُكَ من القِلادة ما أحاط بالعُنُق.

أذَلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال.

وقال أبو الفتح البستيّ: [من الوافر]

فَكَمْ دَقَّتْ وشَقَّتْ واسترقَّتْ ... فُضُولُ العيش أعناقَ الرِّجالِ[٢]

* * *

ما يتمثّل به من ذكر اليد:

أهْدَى من اليدِ إلى الفَم.

ألزمُ من اليمينِ للشِّمال.

يَدَاكَ أوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخ[٣].

---

(١) في «المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٥٣»: جعلتُهُ دَبْرَ أُذُني: أي ألقيته خلفي ولم ألتفت إليه، والضمير في «جعلته» للقول.

(٢) فُضُول العيش: طلب الزّيادة على الحاجة والمطلوب.

(٣) يداك أوكتا وفوك نفخ: مثلٌ يضرب للجاني على نفسه، وأصله أنّ رجلًا نفخ في زقّ ولم يوثق وكاءَه، فركبه ليعبر نهرًا، فلمّا توسّط انحلّ الوكاء، وخرجت الرّيح، فغرق، وحين غشيه الموت استغاث برجل فقال له ذلك. «المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٤١٠».

اليَدُ العُلْيَا خيرٌ من اليد السُّفْلَى.

آثَرُ لدَيْه من يمين يَدَيْه.

ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَا، أي متفرّقين.

بالساعِدِ تَبْطشُ الكفُّ.

على يَدِي دارَ الحديثُ، إذا كان خبيرًا بالأمر.

هو على حَبْل ذراعِه، أي موافق له.

تَرِبَتْ[١] يَدَاه، دعاء عليه بالفَقْر.

ما تَبُلُّ إحدَى يدَيْهِ الأُخْرَى، للبخيل.

تَرَكَه على أَنْقَى من الراحة.

فلان يُقَلِّب كَفَّيْه.

سُقِط في يَدَيْه، للنادم.

أَعْطاهُ عن ظَهْر يدٍ، أي ابتدأه لا عن مُكافَأة.

ما سَدَّ فَقْرَكَ مثلُ ذاتِ يَدِك.

إن الذَّلِيلَ الذي ليسَتْ له عَضُدُ[٢].

يَدٌ تَشِحُّ، وأُخْرَى منك تَأْسُونِي[٣].

على اليَدِ ردُّ ما أخذَتْ.

وما الكَفُّ إلا إصْبَعٌ ثم إصْبَعُ.

---

(١) تربت يداك: مثلٌ يضرب في الدّعاء على الرجل بالفقر، قال سليمان بن ربيعة:

تـربـت يـداك وهـل رأيـت لـقـومـه مـثـلي عـلى يُسـري وحـيـن تـعـلّتي

«المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٢٣».

(٢) الذّليل: الخضوع المقهور، والعضُد: السّاعد، وهو من المرفق إلى الكتف. يريد: يذلّ المرء حين لا يتّكل على نفسه.

(٣) في «المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٤١١»: يدٌ تشُحُّ وأخرى منك تأسوني، ومن ذلك قول الشاعر:

إنّـي لأكـثـر مـمّـا سـمـتـنـي عـجـبًـا يـدٌ تـشـحُّ وأخـرى مـنـك تـأسـونـي

مثلٌ يضرب لمن يسيء ويحسن.

ومن الأبيات: [من المنسرح]

قد تَطْرِفُ الكَفُّ عَيْنَ صاحِبِهَا ولا يَـرَى قَـطْعَـهـا مـن الـرَّشِـدِ[١]

وقال آخر: [من الطويل]

فـلَوْ أنّـهـا إحْـدَى يَـدَيّ رُزِئْـتُـهـا ولكنْ يَدِي بانتْ على إثْرِها يَدُ[٢]

وقال أبو تمام: [من الطويل]

وهل يَسْتعيضُ المرءُ من خَمْسِ كَفِّه ولو صاغَ من حُرّ اللُّجَيْنِ بَنانَها؟[٣]

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الصدر والقلب:

صَدْرُك أوسع لسرِّك.

صُدُور الأحرار، قبُورُ الأسْرار.

لا بدّ للمَصْدُور من أن يَنْفُثَ[٤].

أَلْزَمُ له من شعَرَات صَدْره.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤].

القَلْب طَلِيعةٌ.

القلوبُ تتقلَّب.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

مَتَى تجمعِ القلْبَ الذَّكِيَّ وصارمًا وأنْفًا حَمِيًا، تجتَنِبْكَ المَظَالِمُ[٥]

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

إنَّ الـتـبـاعُـدَ لا يـضُـ ـرُّ إذا تـقـارَبـتِ الـقُـلُوبْ

* * *

(١) تطرف: تصيبها بأذى. (٢) رزئتها: أصبت بها، وبانت: بعدت.

(٣) صاغ: صنع، والحرّ: الخالص من الشوائب، واللُّجين: الفضة.

(٤) المصدور: المسلول، أو من يشكو صدره، وينفُث: يخرج ما في صدره.

(٥) الذّكي: المتوقد، والقلب هنا: العقل، والصارم: السيف، والحميّة: الأنفة والكبرياء.

ما يتمثّل به من ذكر الظهر والبَطْن والجَنْب:

استظْهِر[١] على الدّهر بخِفَّة الظَّهْر.

قَلَب الأمْرَ ظهرًا لبَطْنٍ.

لا تجعل حاجتي بظَهْرٍ، أي لا تُلْقِها وراء ظهرِك.

انقطَعَ السَّلى[٢] في البَطْن، لتناهي الشِّدّة.

نَزَتْ[٣] به البِطْنَة، لمن لا يحتمل النِّعمة.

لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ.

لجَنْبه فلْتكُن الوَجْبَة، في الدعاء عليه.

دمِّثْ[٤] لجَنْبِك قبلَ النَّوْم مُضْطَجَعًا.

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الكبد والدّم والعروق:

يا بَرْدَها على الكَبِد!

فلانٌ بين الخِلْب[٥] والكَبِد.

ما ينفَعُ الكَبِد يَضُرّ الطِّحَال.

ويقال:

جَرَى منه مَجْرَى الدّم في العرُوق.

هو أعَزُّ من دَمِ الفُؤاد.

---

(١) استظهر: تقوَّ.

(٢) انقطع السَّلى في البطن: السَّلى: هو الذي يكون فيه الولد تثنيته سليان، وهو مثلٌ يضرب للأمر المتفاقم. «المستقصى في أمثال العرب ١/ ٣٩٧».

(٣) نزت به البطنة: مثل يضرب لمن لا يحتمل النعمة، قال غسان بن ذهبل:

ولقد نزت بك من شقائك بطنةٌ أردتك حتى طحت في القمقام

«المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٣٦٦».

(٤) دمّث لجنبك قبل النوم مضطجعًا: هو من قول لقيط:

إذ عابه عائب يومًا فقال له دمّث لجنبك قبل النوم مضطجعا

ويروى: «قبل الليل» مثل يُضرَب في الاستعداد للأمر قبل حصوله. «المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٨١».

(٥) الخلب: حجابٌ ما بين القلب والكبد.

سِرُّك مِنْ دَمِك.

لا تَكايَلْ[١] بالدّم.

لا يَحْزُنك دمٌ هَراقَهُ أهْلُه، للجاني على نفسه.

فلانٌ لا يشرَبُ الماء إلا بدَمٍ.

العِرْق نَزَّاع[٢].

ألَا إنَّ عرْقَ السُّوء لا بُدّ مُدْرِكُ!

* * *

ما يتمثّل به من ذكر الساق والقدم، يقال:

الْتفَّتِ الساقُ بالساق، في الشدّة.

كشفَتِ الحربُ عن ساقها، وكَشرتْ عن نابِها.

قَدَحَ في ساقِه، إذا عمل في شيء يكرهه.

لا يُرسلُ الساقَ إلا مُمسكًا ساقًا.

قد شَمَّرتْ عن ساقِها، فشمِّري! في الحثّ على الجِدّ.

ويقال:

له قَدَم في الخيرِ، أي سابقةٌ.

إنك لا تَسْعَى برجْلَيْ مَنْ أتَى.

وقال الشاعر: [من الرجز]

إنَّ قُرَيْشًا ـ وهي من خَيْرِ الأُمَمْ ـ لا يَضَعُونَ قَدَمًا على قَدَمْ

* * *

من ضُرِب به المثلُ من الرجال على لفظ أفعل للتفضيل:

يقولون:

أسْخَى من حاتِم[٣].

---

(١) التكايُل: يقال: تكايل الرّجلان: إذا تعارضا بالشّتم.

(٢) **العرق**: الأصل، ونزّاع: ميّال، ونزع الولد أباه: أشبهه.

(٣) السّخاء: الكرم، وحاتم: هو حاتم الطائي الشاعر الجاهلي المعروف. وفي «المستقصى من أمثال العرب ١/ ٥٣»: أجود من حاتم.

أجودُ من كَعْبِ بن مامَةَ[١].

أجودُ من هَرِم. قال الميداني: هو هَرِم بنُ سِنان بن أبي حارثة.

وفيه يقول زُهَيْر بن أبي سُلمى: [من البسيط]

إنَّ البَخِيلَ مَلُومٌ حيثُ كانَ ولـٰـكِنَّ الجوادَ على عِلَّاتِه هرِمُ[٢]

أقْرى من مَطاعِيم الرِّيح. ومطاعيم الريح أربعة: منهم أبو مِحْجَن الثقفيّ.

وكان لبيدُ بن ربيعة العامريّ يُطْعِم إذا هَبَّت الصَّبا.

أشْجَعُ من ربيعة بن مُكَدَّم[٣].

أعزُّ من كُلَيْب بن وائل[٤].

أعزُّ من مَرْوان القرَظِ[٥].

أسْودُ من قَيْسِ بن عاصم.

أحْلَمُ من الأحنفِ بن قيس.

أزْكَنُ من إياس بن معاويةَ[٦].

---

(١) أجود من كعب بن مامة الأيادي، ومامه اسم أمّه، يقال: خرج كعب في شهر ناجر مع رفاقٍ له، فضلّ الركب الطريق فتصافنوا الماء، فانتهى القعب إلى كعب، ورأى رجلًا من النّمر بن قاسط ينظر إليه، فقال للسّاقي: اسق أخاك النمري! وفعل اليوم الثاني كذلك حتى وردوا الماء فقال له: رد كعبُ إنّك وراد، فعجز عن الجواب، وتركوه فغاظ، أي مات. «المستقصى في أمثال العرب ١/ ٥٤».

(٢) على علّاته: على ما ينوبه من قلّة ذاتِ يدٍ وعَوَز.

(٣) هو ربيعة بن مكدم، من بني كنانة، أحد فرسان مُضَر المعدودين في الجاهلية، له أخبارٌ أشهرها حماية الظعن بعد مقتله، قتل نحو سنة ٥٥٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٧».

(٤) هو كليب بن ربيعة بن تغلب بن وائل، سيّد ربيعة وقائد نزار كلّها، وكان لا يظلم إلّا القويّ، ويحمي الكلأ فلا يقرب، ولقّب بكليب وائل، لأنه كان يكنع قوائم كلبه فيلقيه في روضة تروقه فحيث بلغ عواء الكلب كان حمىً لا يرعى. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٤٦».

(٥) هو مروان بن زنباع العبسيّ، كان حمى القرظ بعزّه، وقيل: كان يغزو اليمن، وهي منابت القرظ. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٤٧».

(٦) أزكن: أعلم وأفهم، وإياس بن معاوية، أبو وائلة، المعروف بالقاضي إياس، أحد أعاجيب الدّهر في الفطنة والذكاء، يضرب المثل بذكائه وزكنه، توفي بواسط سنة ٧٤٠ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٣».

أَفْتَكُ من البَرَّاض بن قيس النمريّ، خليع بني كنانَة. فتك بعُرْوة الرحّال، والمُسَاور بن مالك الغَطَفانيّ، وأسد بن خيثم الغنويّ بسبب لَطِيمة النعمان، وبسبب ذلك كانت أيّام الفجار الأخر(١)؛ وسنذكرها في وقائع العرب إن شاء الله تعالى.

أَوْفَى من الحارث بن عُبَاد، وخبره مشهور مع مهلْهِل أخي كُلَيْب لما أمنه يوم تَحْلاق اللِّمم(٢).

أوْفَى من عَوْفِ بن مُحَلِّم(٣).

أوْفَى من هانِيء بنِ قَبِيصة، وخبره مشهور في أدرع النعمان؛ وبسببها كانت وقعة ذي قار(٤).

أوفَى من السَّمَوْأل بن عادياء.

أجملُ من ذِي العِمامةِ، وهو سعيدُ بنُ العاص بن أمية، ويكنَى أبا أُحَيْحَة؛ وهو المقول فيه: [من البسيط]

أبُو أُحَيْحَة مَنْ يَعْتَمُّ عِمَّتَه يُضرَبْ ولو كان ذا مالٍ وذا وَلَدِ

أمضَى من سُلَيْك المَقَانب(٥).

أغلَى فِداءً من حاجب بنِ زُرَارة؛ ومن بِسْطام بنِ قَيْس؛ ومن الأشعث. أسَرَتْه مَذْحِج ففدى نفسَه بثلاثة آلاف بعير.

أعْدَى من الشَّنْفَرَى، ومن السُّلَيْك بن السُّلَكة.

---

(١) يوم الفجار: قيل: أيام الفجار أربعة، وسمّت قريش هذه الحرب فجارًا لأنها كانت في الأشهر الحرم، فقالوا: قد فجرنا إذا قاتلنا فيها، أي فسقنا. «انظر مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥١٢».

(٢) يوم تحلاق اللّمم أو «يوم التحالق»، كان ذلك اليوم بين بكر وتغلب، سمّي بذلك لأنّهم حلقوا رؤوسهم، أعني أحد الفريقين، ليكون علامةً لهم. «مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٢٢».

(٣) عوفِ بنِ محلّم: هو أبو خماعة، من بني شيبان، من أشراف العرب في الجاهلية، طلب منه الملك عمرو بن هند رجلًا كان قد أجاره، فمنعه، وكانت تضرب له قبّة في عكاظ. «فهرس الأعلام ٥/ ٩٦».

(٤) يوم ذي قار: كان من أعظم أيام العرب، وهو يومٌ لبني شيبان، انتصرت فيه العرب على جيش إبرويز ملك العجم. «انظر معجم الأمثال للميداني ٢/ ٥١٣».

(٥) سُليك المقانب: هو عُمير بن يثرب السعديّ، الذي يقال له: سليك بن السلكة وسليك المقانب، أحد الأغربة، والسلكة أمّه، وكانت سوداء. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٣٨».

أبطَأُ من فنْد، وهو مولًى لعائشة بنت طلحة؛ وقال أبو هلال العسكري: عائشة بنت سعد بن أبي وَقَّاص، بعثت به مولاته ليقتبس[١] نارًا، فأتى مصر، فأقام بها سنة، ثم جاء يَشْتَد ومعه نارٌ، فتبدّدت فقال: تَعِسَت العجلةُ!

أنْوَمُ من عبُّود، كان عبود عبدًا أسودَ، وكان الله عزّ وجلّ قد بعث نبيًّا إلى قومه. قال الميداني: إن النبيّ هو خالدُ بن صفوانَ، نبيُّ أهل الرَّسِّ، فلم يؤمن به أحد منهم إلا ذلك العبدُ الأسودُ، وإن قومه احتفروا له بئرًا فصيّروه فيها وأطبقوا عليه صخرةً، فكان ذلك الأسود يخرج من القرية فيحتطب، ويبيع الحطب فيشتري به طعامًا وشرابًا، ثم يأتي به إليه فيُعينُه الله تعالى على الصخرة فيرفعها ويدلي إليه الطعامَ والشرابَ، فاحتطب يومًا وجلس فنام على شقِّه الأيسر سبعَ سنين، ثم هبَّ من نومه فانقلب على شقِّه الأيمن، فنام سبع سنين، وهو يظن أنه نام ساعة من نهار. ثم احتمل حُزْمته وأتى القريةَ، فباع الحطب وجاء إلى الحفرة فلم يجد النبيّ وكان قد بدا للقوم فأخرجوه، فكان يسأل عن الأسود، فيقولون: لا نَدْري، فضُرب به المثل لمن ينامُ نومًا طويلًا، وقيل فيه غير ذلك. وذكره الميداني في أمثاله ولم يذكر السبعة الثانية، وإنما ذكرها صاحب كتاب المفاخر[٢].

أنْعَمُ من خُرَيْم الناعم، وهو رجل من ولد سنان بن أبي حارثة، كان في زمن الحجّاج.

أبْلَغُ من سَحْبانِ وائلٍ، ويقال أخْطَبُ من سَحْبان، وهو الذي يقول: [من الطويل]

لَقَدْ عَلِمَ الحَيُّ اليَمَانُون أنّني إذا قلتُ: أمَّا بعدُ، أنّي خَطيبُها

أخْطَبُ من قُسٍّ، هو قُسُّ بن ساعدة بن حُذَافة بن زُهَيْر بن إيَاد بن نزَار، وكان من حكماء العرب وهو أوّل من كتب من فلان إلى فلان؛ وأوّل من أقرّ بالبَعْث من غير علم؛ وأوّل من قال: «البيِّنةُ على من ادّعى، واليمين على من أنكر»، وقيل: إنه عُمِّر مائةَ وثمانينَ سنةً.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: وفَدَ وَفْد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ! فلما فرغ من حوائجهم، قال: أفيكُمْ مَنْ يعرفُ قُسَّ بنَ ساعدة

---

(١) يقتبس النار: أي يأتي بقبسٍ أو جذوة منها.

(٢) هو كتاب: الفاخر، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصريّة.

الإياديّ؟ فقالوا: كلّنا نعرفه! قال: ما فعل؟ قالوا: هَلَك! فقال النبيّ ﷺ: كأنّي به على جملٍ أحمرَ بعُكاظ قائمًا، يقول: «أيها الناسُ اجتمعوا واسمعوا وعُوا! كلُّ مَنْ عاش ماتَ، وكلُّ مَنْ ماتَ فاتَ، وكل ما هو آتٍ آت! إنّ في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا: مهادٌ[١] موضوع، وسَقْف مرفوع، وبحارٌ تَمُوج، وتجارةٌ لن تَبُور، وليلٌ داجٍ[٢]، وسماءٌ ذات أبراج! أقسَم قُسٌّ حقًّا: إن كان في الأرض رضًا ليكونَنَّ بعده سخط! وإن لله عزّ وجلّ دينًا وهو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم إليه! ما لي أرى الناس يذهبونَ فلا يرجِعُون! أرَضُوا فأقاموا؟ أم تُرِكوا فناموا!»، ثم أنشد أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه شِعْرًا حفظه له، وهو: [من مجزوء الكامل]

في الذاهبينَ الأوّلـ ... ـين من القُرون لنا بَصائِرْ
لمَّا رأيتُ مَوارِدًا ... للموت ليس لهَا مَصَادِرْ[٣]
ورأيتُ قَوْمِي نَحْوَها ... تسعى: الأصاغِر والأكابر
لا يَرْجِعُ الماضي إلَيّ ... ولا من الباقين غابِرْ[٤]
أيقنتُ أنّي لا مَحَا ... لةَ حيثُ صار القومُ صائِرْ!

ويقال: أعْيا من باقلٍ، وهو رجل من ربيعة ابتاع ظَبْيًا وحْشِيًّا بأحدَ عشرَ درهمًا، وجعل بقية الدراهم في فيه. فسُئل عن ثمنه، ففعل بيديه تُجاه السائل أي فتح أصابعَه وفغر فاه وأدلى لسانه يشير بذلك إلى ثمنه، فحصل من ذلك انفلات الظبي، وسقوطُ الدراهم، والإساءة على السائل، فضُرِب به المثل.

أبَرُّ من العَمَلَّس، كان بَرًّا بأُمّه فكان يحملها على عاتقه.

أبَرُّ من فَلْحَسٍ، وهو رجل من شيبان، حمل أباه على ظهره وحجّ به.

---

(١) المهاد: الفراش، أو الأرض المنخفضة المستوية.
(٢) الداجي: المظلم الذي يعمّ بظلمته كلّ شيء.
(٣) الموارد: الذين يردون إلى الموت ليشربوا كأسه الذي لا يبقى ولا يذر، والمصادر: الذين يعودون بعد الشرب، ولكن في الموت لا يعود أحد، أي لا يصدر أحدٌ بعد أن يشرب كأس الموت.
(٤) الغابر: الباقي، أي لن يبقى أحدٌ بسبب الموت.

وفيه أيضًا يقال:

أسْألُ من فَلْحَسٍ، كان سيّدًا عزيزًا، يَسْألُ سهمًا في الجيش وهو في بيته فيُعطى لعزّه؛ فإذا أُعْطِي سأل لامرأته، فإذا أُعْطِي سأل لبعيره، وكان له ولد يقال له زاهر، فكان مثلَه، فقيل فيه: «العَصَا من العُصَيَّة».

ويقـال:

أخيبُ صفقةً من شيخِ مَهْو، وهو حيّ من عبد القيس اشتروا الفَسْوَ(١) من إياد، وكانوا يُعْرَفون به، فعرفت به عبد القيس. قال الميداني: هذا الشيخ اسمه عبد الله بن بيدرة، اشترى الفَسْوَ من إياد ببُرْدَيْ حِبَرَةٍ(٢)، وقال لقومه: اشريتُ لكم عار الدهر، فقالت عبد القيس في ذلك: [من الرجز]

إنّ الـفُـسَـاةَ قـبـلنـا إيَـادُ ونـحـن لا نَـفْـسُـو ولا نَـكَـادُ

وفيهم يقول شاعر: [من الرجز]

يـا مَنْ رأى كـصَـفْـقَـةِ ابن بَـيْـدَرَهْ مـن صَـفْـقَـةٍ خـاسـرة مُـخَـسَّـرَهْ؟
الـمُـشْـتَرِي الـعـارَ بـبردَيْ حِـبَرَهْ! شَلَّتْ يمينُ صافِقٍ ما أخْسَرَهْ!(٣)

أخسرُ صَفْقَةً من أبي غَبْشَانَ، فإنه باع مفاتيح الكعبة من قُصَيّ بزِقِّ خمر(٤).

أضَلُّ من سِنَانٍ، وهو ابن أبي حارثة المرّي، وكان قومه عنفوه على الجود، فركب ناقة له ورمى بها الفلاة، فلم يُرَ بعد ذلك. وسمّته العرب ضالَّة غَطَفان، وقالوا: إنّ الجانَّ استفحلته(٥) تطلبُ كرم نجله.

أبْطَشُ من دَوْسَر، وهي كتيبة النعمان.

أهْدى من قَيْس بن زُهَيْر.

أفرغُ من حَجَّام(٦) ساباطَ، يقال: إنه كان إذا أعوزه من يَحْجُمُهُ حجم أُمَّه، فلم يزل يحجُمُها حتى نَزَف دَمُها، فماتت.

---

(١) الفَسْو: الرّيح إذا خرج بلا صوت يسمع.
(٢) البردى الحبرة: ثوب مخطّط يلتحف به، وهو من الثياب التي تضع باليمن.
(٣) شَلَّت: أصيبت بالشّلل.
(٤) الزّق: وعاء من جلد، يجزّ شعره ولا ينتف، يستعمل للشّراب وغيره.
(٥) استفحلته: أي جعلته فحلًا ينزو على نسائها، وكرم نجله: كرم أصله.
(٦) الحجّام: محترف الحجامة، وهي امتصاص الدّم بالمحجم.

أَنْدَمُ من الكُسَعِيّ، واسمه مُحارب بن قيس، وقيل: غامد بن الحارث، وكان أرمى الناس، لا يخطىء له سهم، فخرج ومعه قوس وخمس سهام فرمى صيدًا في الليل فأصاب سهمُهُ ونفَذ، فوقع في الحَجَر فقدَح نارًا. ثم رمى كذلك حتى استنفد السِّهام، وهو يظنّ أنّه أخطأ في الجميع فكسر قوسه، وخلع إبهامه، فلما أصبح رأى رميَّته، فندم على فعله.

أمنعُ من الحارثِ بنِ ظالم، وسيأتي خبره في وقائع العرب[١].

أبْخَلُ من مَادِر، وسيأتي خبره في باب الهجاء[٢].

أكْذَبُ من مُسَيْلَمَة الحَنَفِيّ، (وخبره مشهور في دعواه النبوّة)، ومن المُهَلَّبِ، (وكان يكذب لأصحابه في حرب الأزارقة[٣]، يَعِدُهم بالنَّجْدَة والإمداد).

أحمقُ من راعِي ضأنٍ[٤] ثمانينَ، (وذلك أن أعرابيًّا بَشَّر كِسرى ببشارةٍ سُرّ بها، فقال له كسرى: سلْني ما شئتَ! فقال: أسألك ضأنًا ثمانين)؛ ومن هَبَنَّقَة، وهو ذو الوَدعَات، واسمه يزيد بن ثَرْوان أحد بني قيس بن ثعلبة، وبلغ من حُمْقِه أنه ضلّ له بعير، فنادى مَنْ وجد بعيري فهو له، فقيل له: فلمَ تُنْشِدُه؟ قال: فأين حلاوة الوِجْدان، وفيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

عِشْ بجَدٍّ وكُنْ هَبَنَّقَةَ القَيْـ ـسِيَّ نَوْكًا أو شيبةَ بنَ الوليدِ[٥]
رُبَّ ذي إرْبَةٍ مُقِلٌّ من الما ل وذي عُنْجُهِيَّةٍ مَجْدودِ[٦]

العنجهية: الجهل.

أحمقُ من ربيعَةَ البَكّاء، هو ربيعةُ بن عامر بن ربيعةَ بن عامر بنِ صَعْصَعة، ومن حُمْقه أن أُمّه تزوّجَتْ بعد أبيه، فدخل عليها الخِبَاء، وكان قد اَلتحى فوجد

---

(١) هو الحارث بن ظالم بن غيط المرّي، أبو ليلى، أشهر فتّاك العرب في الجاهلية، نشأ يتيمًا، وآلت إليه سيادة غطفان بعد مقتل زهير بن خديجة، قتل في حوران نحو سنة ٦٠٠ م. «انظر فهرس الأعلام ٢/ ١٥٥».

(٢) أبخلُ من مادر: وهو أحد بني هلال بن عامر بن صعصعة، سقى إبله ثمّ سلح في فضلةٍ بقيت في أسفل الحوض، ومدره بها لتعافه إبل غيره فلا ترده. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٣».

(٣) الأزارقة: فرقة من الخوارج.

(٤) الضأن: ذو الصوف من الغنم.

(٥) النوك: الحمق.

(٦) الإربة: الدّهاء والحيلة، والعنجهية: الجهل، والمجدود: المحظوظ.

زوجها يباضِعُها[١]، فتوهَّم أنه يريد قتلَها، فبكى وهَتَك الخباء، فاْجتمع الناس وسألوه عن شأنه، فأخبرهم أنه وجده على بطنها يريد قتلها، فقالوا: «أهون مقتول»، فصار مثلًا.

أتْيَهُ من أحمقِ ثَقِيفٍ، وهو يوسف بن عمرو.

ألَصُّ من شِظَاظٍ، وهو رجل من بني ضَبَّةَ.

أزْنى من قِرْد، وهو قِرْد بن معاوية بن هُذَيْل.

أمْطَلُ[٢] من عُرْقوب.

وقال كعب بن زهير: [من البسيط]

كانَتْ مَواعِيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلًا   وما مَواعِيدُها إلَّا الأباطِيلُ[٣]

أشْأمُ من خَوْتَعَةَ، وهو رجل من بني غُفَيْلَة بن قاسطٍ أخي النمر بن قاسِط.

أشْأَمُ من قُدَار (وهو عاقر الناقة)، ومن أحمر ثمودَ (وهو عاقرها أيضًا)،

أشأم من طُوَيْس، وهو مخنَّث، كان يقول إنه ولد يوم مات النبيّ ﷺ، وفُطِم يوم مات أبُو بكر؛ وبلغ يوم قَتْل عُمَر، وتزوَّج يوم قَتْل عثمان، وولد له يوم قَتْل عليّ.

أمْكَرُ من قيس بن زُهَيْر.

* * *

وأمّا من ضرب بها المثل من النساء:

يقال: أنْجَبُ من مارِيَةَ، ولدت لزُرارة حاجبًا، ولَقِيطًا، وعَلْقمة.

---

(١) يباضعها: أي يباشرها.

(٢) أمطل من عرقوب: عرقوب: قيل: هو رجل من خيبر، كان يهوديًا وكان يعد ولا يفي، فضربت به العرب المثل، وقيل: هو رجل من العماليق أتاه أخٌ له يسأله، فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها، فلمّا أطلعت أتاه للعدة فقال: دعها حتى تصير بلحًا، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير رطبًا، فلمّا أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرًا، فلمّا أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجدّها ولم يعط أخاه منها شيئًا، فصار مثلًا. «انظر ديوان كعب بن زهير ص ١١٠، دار الشوّاف للطباعة والنشر، الرياض».

(٣) الأباطيل: الأوهام والكذب.

أَنْجَبُ من بنت الحارث[١]، ولدَتْ لزِيَاد العبسيّ بَنِيه الكَمَلة، وهم: ربيعة الكامل، وعمارة الوهاب، وقيسٌ الحافظ، وأَنَسُ الفَوَارس.

أنجبُ من أُمِّ البنين[٢]، ولدت لمالك بن جعفر بن كلاب، مُلاعبَ الأسنة عامرًا، فارسًا.

أنجبُ من عاتِكَةَ[٣]، ولدت لعبد مناف هاشمًا، وعبد شمس، والمطَّلبَ.

أسْرَعُ من نِكاح أُمِّ خارجةَ، وهي عُمَيْرة بنتُ سعد بن عبد الله بن قُدار بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كَهْلان بن سبإ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان، ولدت في نَيِّف وعشرين حَيًّا من العرب، كان الرجل يقول لها: خِطْبٌ! فتقول: نِكْحٌ!

قال أبو الفرج الأصبهاني: فمن ولدت، الدِّيلُ، وليث، والحارث بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة، وغاضرةُ بن مالك بن ثعلبة بنُ دودان بن أسد بن خُزَيمة، والعنبرُ، وأسيد، والهُجَيم بنو عمرو بن تميم، وخارجةُ بن يشكر (وبه كانت تكنّى)، وسعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مُزيقيا (وهو أبو المُصْطَلِق).

قال: وزعموا أن بعض أزواجها طلّقها فرحل بها ابنٌ لها عن حيّه إلى حيّها فلقيها راكب، فلما تبيّنته، قالت لابنها: هذا خاطب لي لا شكَّ فيه، أفتراه يعجلني أن أنْزل عن بعيري، فجعل ابنها يسبُّها.

أحمقُ من المَمْهورة إحدى خَدَمَتَيْها، وذلك أن زوجها طلّقها، فطالبته بمَهْرها، فأخذ أحد خَلْخَاليها من رِجْلها وأعطاها إيَّاه، فرضيت به.

أحمقُ من دُغَةَ[٤]، هي ماريةُ بنت مَغْنج بن ربيعة بن عجل، وقيل بنت منْعج، تزوّجت وهي صغيرة في بني العَنْبر بن تميم، فحملت، فلما أدركها المخاض، ظنَّت أنها تريد الخلاء، فتبرّزت فولدت فاستهلَّ الولدُ، فانصرفت وهي تقدّر أنها إنما

(١) الصواب: بنت الخُرشُب، وهي فاطمة بنت الخرشب الأنمارية. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ٣٨٣».

(٢) أمّ البنين: هي بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء. «انظر المستقصى ١/ ٣٨٢».

(٣) عاتكة: هي بنت هلال بن مرّة السلميّة. «انظر المستقصى ١/ ٣٨٤».

(٤) أحمق من دُغَة: نقصانها واو أو ياء في الأصل من قولهم: فلان ذو دغوات ودغيات أي أخلاق رديّة، لقّبت بذلك لحمقها ورداءة أخلاقها. «المستقصى في أمثال العرب ١/ ٧٩».

أحدثت، فقالت لضرَّتها: يا هَنْتاه، هل يفْغُر الجَعْرُ فاه[١]؟ قالت: نعم، ويدعو أباه! فمضت ضرَّتُها للولد فأخذته، فبنو العنبر تسمّى بني الجَعْراء.

أبْصَرُ من زَرْقاءِ اليمامةِ، وهي امرأة من طَسْم، كانت تُبصر الراكبَ على مسِيرة ثلاث ليالٍ، وسيأتي إن شاء الله تعالى خبرُها في وقعة طَسْم وجَديس.

أزنى من هِرٍّ، وهي امرأة يهودية، وهي التي قطع المهاجِرُ يدَها فيمن قطع من النساء حين شَمِتْن بموت رسول الله ﷺ.

أشْبَقُ[٢] من حُبّى المدَنِيّة.

أشأم من البَسُوس، وهي جارةُ جَسَّاس بن مُرَّة، صاحبةُ الناقة التي قتل بسببها كُلَيْب، وثارت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنةً.

ويقـال:

أمنعُ من أُمّ قِرْفةَ، وهي امرأة مالك بن حُذَيْفة بن بدر الفزاريّ، كان يُعَلّق في بيتها سبعون سيفًا، كلُّ سيفٍ لذي مَحْرَم منها، فضُرِب بها المثل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفن الثاني

في الغَزَل، والنَّسِيب، والهوى، والمحبّة، والعِشْق

ولْنبدأ بذكر الهوى، لأنه السبب الباعث على الغَزَل، وذلك أنه إذا حلَّ في الأجسام ارتاحت النفوس، ورقَّت القلوب، وانجذبت الخواطر، وصَفَت الأذهان، وسَهُل على القرائح فأبرزته الألسُن، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

ذكر شيء مما قيل في الهوى، والمحبّة، والعشق، وما قيل في ماهية العشق، وحقيقته وسببه، وما قيل في مدحه، وذمّه، والممدوح منه، والمذموم، وضرر العشق

---

(١) يفغر: يفتح، وفغر فاهُ: فتحه على وسعه، والجعر: ما يبس في الدُّبر من العذرة، والجعراء: الدُّبر، والمُراد بالجعر هنا: القبل.

(٢) الشّبق: شهوة الجماع، وحُبّى: هي امرأة مزواج، تزوّجت على كبرها فتًى شابًا، ولها ابنٌ كهل، وكانت نساء المدينة يسمّونها حوّاء أمّ البشر لأنها علمتهنّ ضروب الجماع. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦».

في الدّنيا، والآفات التي تجري على العاشق: من المرض، والجنون، والضَّنا[١]، والمخاطرات بالنفوس، وإلقائها إلى الهلاك.

ثم نذكر أخبارَ. . . . ومن أخرجه عن دينه حتّى كفر بربّه، ومن قَتل، وقُتِل فيه، ومن قتل نفسه.

ثم نذكر ما ورد في التحذير من فتنة النساء، وذمّ الزِّنى، والنظر إلى المُرْدان[٢]، والتحذير من اللِّواط، وعقوبة اللائط، وغير ذلك من أمر العشق، على ما سنشرحه إن شاء الله تعالى فنقول، وبالله التوفيق.

أمّا ماهية[٣] العشق وحقيقته، فقد تكلّم عليه أوائل الحكماء والفلاسفة وغيرهم من المسلمين، على ما نشرحه إن شاء الله تعالى.

فأما كلام الحكماء والفلاسفة

فقال أفلاطون[٤]: العِشْق، حركة النفس الفارغة بغير فكرة.

وسئل ديوجانس[٥] عن العشق، فقال: سوء اختيارٍ صادف نفسًا فارغة.

وقال أرسطاطاليس[٦]: العشق، هو عمى الحِسِّ عن إدراك عيوب المحبوب.

وقال فيثاغورس[٧]: العشق، طبع يتولّد في القلب ويتحرّك وينمى ثم يتربّى،

---

(١) الضّنا: المرض والهزال.

(٢) المردان: مفردها أمرد، وهو الغلام الذي طرّ شاربه، ولم تبدُ لحيته بعد.

(٣) الماهيّة: من الشيء أو الأمر أو الإنسان: حقيقته وطبيعته، وما يقوم به من صفات.

(٤) أفلاطون: هو ابن أرسطو بن أرسطوقليس من أثينية، معروف بالتوحيد والحكمة، ولد حوالي سنة ٤٢٧ ق.م. في زمان أردشير بن دارا، تتلمذ لسقراط، وقام مقامه بعد اغتياله بالسمّ. «انظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٤٠٥».

(٥) ديوجانس: ولد بمدينة سينوب سنة ٤١٣ ق.م، وكان من قدرية الفلاسفة لما كان في كلامه من الميل إلى القدر، وكان يلقّب بالكلبي تتلمذ في أثينا على يد أنتيثينوس، عاش حياة فقر وضنك، وآثر أن يظل حافيًا طوال حياته. «انظر المِلل والنحل ص ٤٧٢».

(٦) هو أرسطاطاليس: ابن نيقوماخوس، من أهل أسطاخرا، وهو المقدّم المشهور، والمعلّم الأول والحكيم، ولد سنة ٣٨٤ ق.م، تتلمذ على يد أفلاطون، وتعلّم مع فيليس أبي الإسكندر، وسمّي بالمعلّم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية. «انظر الملل والنحل ص ٤٤٤».

(٧) فيثاغورس: ولد في الجزيرة الأيونية، ولما ناهز الأربعين قصد إيطاليا الجنوبية، وكان بها المهاجرون اليونانيون، عرف بالفضل والعلم، ولقوّة شخصيته شاعت حوله الأساطير والقصص، وهو أحد الحكماء الذين اشتغلوا بالإلٰهيات. «انظر الملل والنحل ص ٣٨٥، دار الكتب العلمية».

ويجتمع إليه موادّ من الحرص، وكلما قَوِيَ ازداد صاحبه في الاهتياج واللّجاج[١]، والتمادي في الطمع، والفكر في الأمانيّ، والحرص على الطلب، حتى يؤدّيه ذلك إلى الغمّ المقلق.

وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله: [من الطويل]

وما العِشْقُ إلا غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ   يعرّض قلبٌ نفسَه فيُصابُ

وقال بعض الفلاسفة: لم أرَ حقًّا أشبَه بباطل، ولا باطلًا أشبه بحقّ من العشق: هَزْله جِدّ، وجدّه هَزْل، وأوّله لعب، وآخره عَطَب[٢].

وقد ذهب بعضهم إلى أنه مرضٌ وسْواسيٌّ شبيه بالماليخوليا[٣].

وأما كلام الإسلاميين وما قالوه فيه

فقد حكي عن أبي العالية الشاميّ، قال: سأل المأمون يحيى بن أكثم[٤] عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانحُ للمرء يَهيم بها قلبه وتُؤْثرها نفسه! قال: فقال له ثمامة[٥]: اسكت يا يحيى! إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاقٍ أو مُحْرِمٍ صاد ظبيًا، أو قتلَ نملة؛ فأمّا هذه فمسائلنا نحن! فقال له المأمون: ما العشق؟ يا ثُمامة، فقال: العشق جليسٌ مُمْتِع، وأليف مُؤْنس، وصاحب مملّك، ومالك قاهر، مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة؛ مَلَكَ الأبدانَ وأرواحها، والقلوبَ وخواطرَها، والعيونَ ونواظرَها، والعقولَ وآراءَها، وأُعطِي عنانَ طاعتِها، وقيودَ تصرُّفها، توارى عن الأبصار مَدْخَله، وغِيض[٦] في القلوب مسلكه! فقال له المأمون: أحسنتَ والله، يا ثمامة! وأمر له بألف دينار.

وحكي عن الفضل بن يعقوب، قال: لما اجتمع ثمامة بن أشرس، ويحيى بن أكثم عند المأمون، قال ليحيىٰ: خبِّرني عن العشق ما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين،

(١) اللّجاج: العناد والخصومة والتمادي فيها. (٢) العطب: الهلاك والفساد.

(٣) الماليخوليا: مرض نفسي يتوهّم فيه المصاب أشياء وتصوّرات.

(٤) يحيىٰ بن أكثم التميمي المروزيّ، أبو محمد، قاضٍ رفيع القدر، يتّصل نسبه بأكثم بن صيفي، حكيم العرب، متقدّم في الفقه والقضاء، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٣٨».

(٥) ثمامة: هو ثمامة بن أشرس النّميري، أبو معن، من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدّمين، وكان ذا نوادر وملح، وعدّه المقريزي في رؤساء الفرق الهالكة، وأتباعه يُسمّون «الثمامية» نسبةً إليه، توفي سنة ٨٢٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٠٠».

(٦) غيض: من غاض الشيء: غاب واحتبس.

سوانح تسنَح للعاشق يؤثرها، ويهيم بها تسمَّى عشقًا! فقال له ثمامة: يا يحيىٰ، أنت بمسائل الفقه أبصر منك بهذا، ونحن بهذا أحذق[١] منك! فقال المأمون: فهاتِ ما عندك! فقال: يا أمير المؤمنين، إذا امتزجتْ خواطرُ النفوس بوصل المشاكلة[٢] نتجت[٣] لمح نور ساطع تستضيء به نواظر العقول، ويتصوّر من ذلك اللّمح نور خاص بالنفوس متّصل بجواهرها يسمَّى عشقًا! فقال له المأمون: صدقت، هذا وأبيك الجوابُ!

وحكي عن الأَصْمَعِيّ[٤]، قال: دخلت على هارون الرشيد، فقال: يا أَصْمَعيّ، إني أرقت ليلتي هذه، فقلت: مِمّ؟ أنام الله عين أمير المؤمنين، قال: فكّرت في العشق ممَّ هو، فلم أقف عليه، فصِفْه لي حتّى إخاله جسمًا مجسمًا! قال الأصمعيّ: لا والله ما كان عندي قبل ذلك فيه شيء فأطرقت مليًا، ثم قلت: نعم يا سيّدي، إذا تقاربت الأخلاق المشاكلة وتمازجت الأرواح المشابهة، لمح نورٌ ساطع يستضيء به العقلُ، وتهتزّ لإشراقه طِباع الحياة، ويتصوّر من ذلك النورِ خُلُق خاص بالنفس متّصل بجوهريّتها يسمَّى العشق! فقال: أحسنت والله! يا غلام، أعطِهِ أعطه وأعطه! فأعطيت ثلاثين ألف درهم.

وحُكي عن الأصمعيّ أنّه قال: لقد أكثر الناسُ في العشق، فما سمعت أوجزَ ولا أجمل من قول أعرابيّة (وقد سُئِلت عن العشق)، فقالت: ذلٌّ وجنونٌ. قلت: هذه صفة ثمرة العشق ومآله[٥].

والتحقيق أن العشقَ شدّةُ ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها، فإذا قويَ فكرها فيه تصوّرتْ حصولَها وتمنّتْ ذلك، فيتجدّد من شدّة الفكر مرضٌ.

وقيل لبعضهم: ما العشقُ؟ فقال: ارتياح في الخِلْقة، وفرح يجول في الرُّوح، وسرور ينساب في أجزاء القُوى.

---

(١) أحذق: من الحذق وهو المهارة والمعرفة الواسعة.

(٢) المشاكلة: المشابهة.

(٣) نتجت: ولّدت، واللمح: لمعة البرق أو قدرها من الزّمان.

(٤) الأصمعيّ: هو عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي، أبو سعيد، راوية العرب وأحد أئمّة العلم باللغة والشعر والبلدان، مولده ووفاته بالبصرة سنة ٨٣١ م، كان الرّشيد يسمّيه شيطان الشعر، له مصنّفات عديدة. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ١٦٢».

(٥) المآل: المرجع والمصير.

وقال أبو العيناء[١]: سألت أعرابيًا عن الهوى، فقال: هو أظهر من أن يخفى، وأخفى من أن يُرى، كامنٌ ككمون[٢] النار في الحجر، إن قدحته[٣] أورى[٤]، وإن تركته توارى.

وسئل يحيىٰ بن معاذ عن حقيقة المحبّة، فقال: التي لا تزيد بالبرّ، ولا تنقص بالجفاء.

وسئل بعض الصوفية عن الهوى والمحبّة، فقال: الهوى يحلّ في القلب، والمحبّة يحلّ فيها القلب!

وللعشق مراتب من ابتدائه إلى انتهائه.

ذكر مراتب العشق وضروبه

قالوا: أوّل ما يتجدّد الاستحسان للشخص تحدُث إرادةُ القرب منه، ثم المودَّة، (وهو أن يودّ لو ملكه)، ثم يقوى الودّ فيصير محبّة، ثم يصير هوًى، (فيهوِي بصاحبه في محابِّ المحبوب من غير تمالك)، ثم يصير عشقًا، ثم يصير تَتَيُّمًا (والتتيّم حالة يصير بها المعشوق مالكًا للعاشق لا يوجد في قلبه سواه)، ثم يزيد التتيّم فيصير وَلَهًا (والوَلَه الخروج عن حدّ الترتيب، والتعطّل عن أحوال التميز).

وقال بعضهم: أوّل مراتب العشق المَيْل إلى المحبوب، ثم العلاقة، ثم الحبّ، ثم يستحكم الهوى فيصير مودّة تزيد بالمؤانسة، وتَدْرُس[٥] بالجفاء والأذى، ثم الخُلَّة[٦]، ثم الصَّبابة (وهي رقّة الشوق) تولّدها الألفة، ويبعثها الإشفاق، ويهيجها الذكر، ثم تصير عشقاً، وهو على أضرب، فمبدؤه يصفّي الذهن، ويهذّب العقل؛ كما قال ذو الرياستين[٧] لأصحابه: «أعشقوا، ولا تعشقوا حرامًا! فإن عشق الحرام يطلق اللسان ويرفع التبلّد ويطلق كفّ البخيل ويبعث على النظافة ويدعو إلى الذكاء، فإذا زاد؛ مرض الجسد، فإذا زاد، أخرج العقل وأزال الرأي فاستهلك، ثم يترقّى

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلّاد بن ياسر الهاشميّ، أديب فصيح من ظرفاء العالم، اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكيًا جدًا وحسن الشعر، ضرير، مات سنة ٨٩٦ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٣٣٤».

(٢) كمون النار: اختفاؤها.

(٣) قدحته: استخرجت النار منه بالقدح أي بالاحتكاك.

(٤) أورى: أشعل نارًا، وأوقد.

(٥) تدرُس: تمّحي وتعفو.

(٦) الخلّة: الصّداقة والمحبّة.

(٧) ذو الرياستين: هو الفضل بن سهل.

فيصير وَلَهًا، ويسمَّى ذو الوله مُدَلَّهًا، ومستهامًا، ومستهْتَرًا، وحيرانَ؛ ثم بعدها التتيّم فيدعى متيَّمًا، والتتيّم نهاية الهوى، وآخر العشق؛ ومن التتيّم يكون الداء الدَّويّ(١)، والجنون الشاغل».

وقال بعض الحكماء: أوّل الحب العلاقة (وهو شيء يحدثه النظر أو السمع فيخطُر للبال، ويعرِض للفكر، ويرتاح له القلب، ثم ينمى بالطمع، واللَّجاج، وإدمان الذكر)، ثم يقوى فيصير حُبًّا، ثم يصير هوًى، ثم يصير خُلَّة، ثم عشقًا، ثم وَلَهًا، فيسمَّى صاحبه مُدَلَّهًا، ومستهامًا، وهائمًا، وحيرانَ، ثم يصير متيّمًا، وهو أرفع منازل الحبّ؛ لأن التتيم التعبُّد، والوجد ألم الحبّ، والهَيَمان الذهاب في طلب غرض لا غاية له، والكَلَف والشَّغَف اللَّهَج بطلب الغرض.

وقال الفرّاء(٢): اللَّوْعة، حُرقة القلب من الحبّ.

وقال أبو عُبَيد القاسم بن سلّام(٣): العلاقة الحب اللازم للقلب، والجوى الهوى الباطن، واللَّوْعة حرقة الهوى، واللاعج الهوى المحرق، والشَّغَف أن يبلغ الحبّ شَغَاف القلب (وهو جلد دُونه)، والتَّتيم أن يستعبده الهوى، والتَّبْل أن يُسقمه الهوى، يقال: رجل متبول، والتَّدْليهُ، ذَهاب العقل من الهوى، يقال: رجل مُدَلَّهٌ، والهُيُوم أن يذهب على وجهه، والشَّغَف إحراق القلب مع لذّة يجدها وهو شبيه باللَّوْعة.

وقال أبو عبد الله بن عرفة(٤): الإرادة قبل المحبّة، ثم المحبّة، ثم الهوى، ثم العشق.

وقال ابن دُرَيْد: الصَّبابة رقَّة الهوى، واشتقاق الحبّ من أحبّ البعير، إذا بَرَك من الإعياء.

---

(١) الدّاء: المرض، والدّوي: الشّديد.

(٢) الفرّاء: هو يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الدّيلمي، أبو زكريا، إمام الكوفيّين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، وكان يقال: الفرّاء أمير المؤمنين في النحو، وكان فقيهًا متكلّمًا عالمًا بأيام العرب وأخبارها، مات سنة ٨٢٢ م. «فهرس الأعلام ٨/ ١٤٥».

(٣) هو أبو عبيد القاسم بن سلّام: الهروي الأزدي الخزاعي، من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، من أهل هراة له مؤلّفات عدّة، منها «الغريب المصنّف» في غريب الحديث، والمذكّر والمؤنّث، والمقصور والممدود، توفي بمكة سنة ٨٣٨ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٧٦».

(٤) ابن عرفة: هو محمّد بن محمد الورغمي، أبو عبد الله، إمام تونس وخطيبها وعالمها، تولّى إمامة الجامع الأعظم فيها، له مؤلّفات عديدة في الفقه، توفي سنة ١٤٠٠ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٤٣».

ذكر ما قيل في الفرق بين المحبّة والعشق

قالوا: المحبّة جنس(١)، والعشق نوع(٢)، فإن الرجل يحبّ أباه وأُمّه، ولا يبعثه ذلك على تَلَف نفسه، بخلاف العاشق.

وقد حكي أن بعض العشّاق نظر إلى جارية كان يهواها، فارتعدت فرائصُه(٣) وغُشِيَ عليه، فقيل لبعض الحكماء: ما الذي أصابه؟ فقال: نظر من يحبُّه، فانفرج قلبه، فتحرّكَ الجسم لانفراج القلب! فقيل له: فنحن نحبّ أهالينا ولا يصيبنا ذلك! فقال: تلك محبّة العقل، وهذه محبة الرُّوح!

وقالوا: كل عشق يسمَّى حُبًّا، وليس كل حبّ يسمَّى عشقًا؛ لأن العشق اسم لما فَضَلَ(٤) عن المحبّة، كما أن السَّرَف(٥) اسم لما جاوز الجُود، والبُخْل اسم لما نقص عن الاقتصاد، والجبنَ اسم لما فَضَل عن شدّة الاحتراس، والهَوَج اسم لما فَضَل عن الشجاعة.

قال الشاعر:

ثلاثةُ أحبابٍ: فحبٌّ علاقةٌ وحُبٌّ تِمِلَّاقٌ، وحُبٌّ هو القتلُ!(٦)

***

وأمّا سبب العشق وما قيل فيه، فقالوا: سبب العشق مصادفة النفس ما يلائم طبعَها فتستحسنه وتميل إليه، وأكثر أسباب المصادفة النظر. ولا يكون ذلك باللمح، بل بالتثبّت في النظر ومعاودته بالنظر، فإذا غاب المحبوب عن العين طلبتْه النفسُ، ورامت التقرّبَ منه، وتمنَّتْ الاستمتاعَ به، فيصير فكرها فيه، وتصويرها إياه في الغَيْبة حاضرًا، وشغلُها كلّه به، فيتجدّد من ذلك أمراضٌ لانصراف الفكر إلى ذلك المعنى، وكلما قويت الشهوة البدنيّة، قوِيَ الفكر في ذلك، وقد أمر الله عزّ وجلّ بِغَضِّ البصر، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النُّور: الآية ٣١]، فقرن غضّ البصر بحفظ الفرج؛ لأنه يسببه ويؤول إليه.

---

(١) الجنس: الأصل، أو ما يدلّ على عددٍ من الأنواع كالحيوانيّة المشتملة على الحيوان والإنسان.
(٢) النّوع: الصّنف من كلّ شيء الذي يتّصف بصفات خاصة مميّزه له عن غيره.
(٣) الفرائص: مفردها الفريصة، وهي لحمة بين الكتف والصّدر ترتعد عند الفزع.
(٤) فَضَلَ: زاد. (٥) السّرف: التجاوز في البذل.
(٦) تملّاق: غير صادق من مالق: وهو التودّد باللّسان وليس بالقلب.

وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُتْبِعِ النظرة النظرةَ، فإن لك الأُولى! وليسَتْ لك الآخِرةُ».

وعن أبي هُرَيْرة[١] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العَيْنانِ تَزْنِيانِ، وزِناهُما النظَرُ».

وعن عليّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ، اتّقِ النظْرَة بعد النَّظْرة! فإنها سَهْم مَسْمومٌ، يُورِث الشَّهوةَ في القَلْبِ».

وعن أنسٍ[٢] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَظَرُ الرجُلِ إلى مَحَاسِنِ المرأةِ سَهْمٌ مسمومٌ من سِهَامِ إبليس».

وعن يحيىٰ بن سعيد[٣] قال: كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «النظرُ يَزْرعُ في القلب الشهوةَ، وكفى بها خَطِيئةً!».

وعن سفيان[٤] قال: قال عيسى عليه السلام: «إيَّاكُم والنظَر! فإنَّه يزْرَعُ في القلبِ الشّهوة، وكفَى بها لصاحبها فِتْنةً!».

وقال الحسن البصريّ[٥]: من أطلق طَرْفه[٦]، أطال أَسَفَه.

---

(١) أبو هريرة: هو عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي، قيل: كان اسمه عبد شمس فغيّر، كان حافظًا مثبتًا ذكيًا صاحب صيام وقيام، ولي إمرة المدينة مرّات، وهو من رواة الحديث المشهورين، توفي سنة ٥٧ هـ، وقيل: ٥٩ هـ. «الكاشف للذهبي ٣/ ٣٤١، دار الكتب العلمية».

(٢) أنس: هو أنس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري، الصحابي، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، من رواه الحديث، مات بالبصرة سنة ٩٣ هـ. «الكاشف ١/ ٨٨».

(٣) يحيىٰ بن سعيد: لعلّه يحيىٰ بن سعيد بن فروخ الحافظ الكبير، أبو سعيد التميمي مولاهم البصري القطان، ولد سنة ١٢٠ هـ، ومات سنة ١٩٨ هـ في صفر، وكان رأسًا في العلم والعمل. «الكاشف ٣/ ٢٢٥».

(٤) هو سفيان الثوري بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله، كان سيّد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد ونشأ في الكوفة، وهو أمير المؤمنين في الحديث، توفي بالبصرة سنة ٧٧٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٠٤».

(٥) هو الحسن البصريّ، أبو سعيد، إمام أهل البصرة، وحبر زمانه، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان، ولد بالمدينة وشبّ في كنف عليّ بن أبي طالب، أخباره كثيرة، وكلماته سائرة، توفي سنة ٧٢٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٢٦».

(٦) الطرف: النّظر.

وقال ذو النون[١]: اللَّحظات تورث الحَسَرات: أوّلها أَسَفٌ، وآخرها تَلَفٌ، فمن تابع طَرْفه، تابع حَتْفه[٢].

وقال حكيم: أوّل العِشْق النظر، وأوّل الحريق الشَّرَر.

وقال أبو الفرج بن الجوزيّ[٣]: البصر صاحب خَبَر القلب، ينقل إليه أخبار المُبْصَرات، وينقش فيه صُوَرها، فيجول الفكر فيها فيشغَلُه ذلك عن الفكر فيما ينفَعُه من أمر الآخرة. فاحذَرْ من شرّ النظر! فكم أهلك من عابد، وفَسَخ عزمَ زاهد! وهو سبب الآفات، إلّا أن علاجه في بدايته قريب، فإذا كرّر تمكن الشرّ فصعُب علاجه، فإن النظرة إذا أثَّرت في القلب، فإن أعْجَلَ الحازم بُغْضَها وحسم المادّة من أوّلها سهُل علاجه، وإن كرّر النظر نَقَّب[٤] عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرّغ ونقشها فيه، فكلّما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بها الشجرة، فلا تزال تنمو فيفسُد القلب، ويُعْرِض عن الفكر فيما أُمِرَ به، ويخرج بصاحبه إلى المِحَن، ويوجب ارتكاب المحظورات، ويلقي في التلف.

وقد أكثر الشعراء في وصف ما يحدثه النظر من البلايا، فمن ذلك، قول الفرزدق: [من الطويل]

تَزوّدَ منها نظرةً لم تَدَعْ لَهُ ... فُؤادًا، ولم يَشْعُرْ بما قد تَزَوَّدَا
فلَمْ أرَ مقتُولًا ولم أر قاتِلا ... بغَيْرِ سلاح مِثْلَها حينَ أقْصدَا[٥]

وقال إبراهيم بن العبّاس بن صول الكاتب: [من الطويل]

فمَن كانَ يُؤتى من عدوٍّ وحاسِدٍ ... فإنِّيَ من عينِي أُتِيتُ ومن قَلْبِي![٦]
هما ٱعتَوَرَاني نظرةً ثم فِكْرةً ... فما أبقَيَا لي من رُقادٍ ولا لُبِّ![٧]

---

(١) هو ذو النون المصري: هو ثوبان بن إبراهيم المصري، أبو الفيض، أحد الزهّاد والعبّاد المشهورين نوبيٌّ من أهل مصر، كانت له فصاحة وحكمة وشعر، توفي بالجيزة سنة ٨٥٩ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٠٢».
(٢) الحتف: الموت.
(٣) أبو الفرج بن الجوزي: هو عبد الرحمٰن بن علي القرشي البغدادي، علّامة عصره في التاريخ والحديث، له مؤلّفات عديدة ومتنوّعة، مولده ووفاته ببغداد سنة ١٢٠١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١٦».
(٤) نقب عن الشيء: فحص عنه فحصًا بليغًا.
(٥) أقصد السّهم: أصاب ولم يخطىء.
(٦) يؤتى: يصاب ويُرمى.
(٧) اعتور: تداول، واللّب: العقل.

وقال إسماعيل بن عمار الأعرابيّ[١]: [من المنسرح]

عَينانِ مشؤومتانِ، وَيْحَهُما! والقَلْبُ حَيْرانُ مُبْتَلًى بِهِما
عَرَّفتاه الهوى لظُلْمِهما يا لَيْتني قبله عَدمتُهما!

وقال أبو عبد الله المارستانيّ: [من الطويل]

رَمَانِي بها طَرفِي فلم يُخْطِ مَقْتَلِي وما كُلُّ من يُرْمَى تُصابُ مقاتِلُهْ![٢]
إذا مُتُّ، فابكُوني قَتِيلًا لِطَرْفِهِ قَتيلَ عَدُوٍّ حاضر ما يُزايِلُهْ![٣]

وقال ابن المعتزّ: [من السريع]

مُتَيَّمٌ يَرْعَى نُجُومَ الدُّجَى يَبْكِي عليه رحمةً عاذِلُهْ![٤]
عَيْنِي أشاطَتْ بدمِي في الهَوى فابكُوا قَتِيلًا بعضُه قاتِلُهْ!

وقال المتنبّي: [من الكامل]

وأنا الَّذِي اجتلَب المنِيَّة طَرْفُه فَمَنِ المطالَبُ؟ والقتيلُ القاتلُ!

وقال ابن المعتزّ: [من الوافر]

وما أَدْرِي، إذا ما جَنّ ليلٌ أشوقًا في فُؤادي أم حَرِيقا؟[٥]
ألَا يا مقلَتَيَّ، دهَيْتُمانِي بلحْظِكما فذُوقَا! ثم ذُوقَا!

وقال أبو عبد الله بن الحجّاج[٦]: [من مجزوء الكامل]

يا مَنْ رأى سُقْمي يَزِيـ ـد وعِلَّتي تُعْيِي طَبِيبي
لا تَعْجَبَنَّ فهكذا تَجْنِي العيونُ على القُلُوبِ!

---

(١) إسماعيل بن عمّار الأعرابي: لعلّه إسماعيل بن عمّار بن عيينة بن الطفيل الأسدي، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان ينزل بالكوفة، وكان هجّاءً مرًا، مات نحو سنة ٧٧٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ٣٢٠».

(٢) رماه طرفه: أي نظره، نظر إليها فرمته، وكان طرفه سببًا لما أصابه.

(٣) الطرف: النظر، ما يزايله: ما يفارقه.

(٤) يرعى نجوم الدُّجى: كناية عن سهره الليل، والعاذل: اللائم.

(٥) جنّ الليل: أظلم، فأخفى الأشياء بظلمته.

(٦) أبو عبد الله بن الحجاج: هو الحسن بن أحمد بن الحجّاج، كان من سحرة الشعر وعجائب العصر، فرد زمانه في فنه الذي اشتهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته، شاعر هزل ماجن، مدح الأمراء والوزراء والرؤساء، له ديوان شعر. «اليتيمة ٣/ ٣٥».

وقال أبو منصور بن الفضل: [من الطويل]

لواحِظُنا، تَجْنِي ولا عِلْمَ عِنْدَها	وأنْفُسُنا مأْخوذةٌ بالجَرائِرِ[١]
ولم أرَ أغْبَى من نُفوسٍ عفائِفٍ	تُصدِّقُ أخبار العُيونِ الفَواجِرِ[٢]
ومَنْ كانتِ الأجفانُ حُجّاب قلبِه	أذِنَّ على أحْشائِه بالفَواقِرِ![٣]

وقال أبو محمد بن الخفاجيّ[٤]: [من الطويل]

رمَتْ عَيْنُها عَيْنِي، وراحتْ سليمةً!	فمَنْ حاكمٌ بين الكَحِيلة والعَبْرا؟[٥]
فيا طَرْفُ، قد حَذَّرْتُكَ النظرةَ التي	خَلَسْتَ فما راقَبْتَ نهيًا ولا زَجْرا!
ويا قلبُ، قد أرْداكَ من قبلُ مرّةً!	فوَيْحَكَ! لِمْ طاوعْتَه مرَّةً أُخْرى؟[٦]

وقال عبد المحسن بن غالب الصوري[٧]: [من السريع]

ما نَظْرةٌ إلّا لها سَكْرةٌ	كأنّما طَرْفُك خَمّارُ
هذا هوًى يَصْدُرُ عنه جَوًى	يَتْلُوهُ لَوْعاتٌ وأفْكارُ
وهذه أفعالُها، هذِه!	ما بعد رَأْي العينِ إخبارُ
ولم يكُنْ أوّلَ مَنْ غرَّنِي!	كلُّ غَرير الطَّرْف غَرّارُ![٨]

(١) الجرائر: الآثام والذنوب.

(٢) أغبى: من الغباء، وهو الجهل وقلّة الفطنة.

(٣) أذِنّ: أبحن وسمحن، والأحشاء: مفردها الحشى: وهو ما انضمّت عليه الضلوع، والفواقر: مفردها الفاقرة: وهي الدّاهية.

(٤) أبو محمّد بن الخفاجي: هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، شاعر أخذ الأدب عن أبي العلاء المعرّي، كانت له ولاية بقلعة «عزاز» من أعمال حلب وعصي بها، مات مسمومًا وله ديوان شعر وكتاب سرّ الفصاحة. «فهرس الأعلام ٤/ ١٢٢».

(٥) الكحيلة: العين التي عبّها الكحل، وهي عين المعشوقة، والعبرا: الدامعة، وهي هنا عين العاشق.

(٦) أرداك: قتلك وأهلكك.

(٧) هو عبد المحسن بن غالب الصوري، أبو محمد، ويلقّب بـ «ابن غبون»، شاعر حسن المعاني من أهل صور في بلاد الشام، مولده ووفاته فيها سنة ١٠٢٨ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٥٢».

(٨) غرير الطرف: حَسَنه، والغرّار: الذي يغرّ ويُطمع بالباطل.

وقال أبو شجاع الوزير[١]: [من الكامل]

لأُعَذِّبَنَّ العينَ غيرَ مفكِّرٍ فيها، جرَتْ بالدمعِ أم فاضَتْ دَمَا!
ولأَهْجرَنَّ من الرُّقادِ لذيذَهُ حتَّى يصيرَ على الجُفُونِ مُحرَّما!
سفَكَتْ دمِي، فلأَسْفِكنّ دمُوعَها وهي التي بَدَأَتْ فكانتْ أظلَما!
هيْ أوقعَتْني في حبائلِ فتنةٍ لو لم تَكُنْ نظرَتْ، لكنتُ مُسَلَّما!

وقال آخر عفا الله عنه: [من مجزوء الكامل]

يا عينُ أنت قتَلْتني وجعَلْتِ ذنْبَك من ذُنوبِي!
وأراكِ تَهْوِينَ الدُّمو عَ كأنَّها وَفْق الحبيب
تالله، أحلِفُ صادقًا والصِّدقُ من شِيَم الأريبِ[٢]
لو مُيِّزتْ نُوَبُ الزما ن من البعيد إلى القَريبِ
ما كُنَّ إلا دُونَ مَا جنَتِ العيونُ على القُلُوبِ!

وقال آخر، وأجاد: [من مجزوء الرّمل]

أنا ما بَيْنَ عَدُوَّيْـ ـنِ هما: قَلْبي وطَرْفِي
ينظُر الطَّرْفُ ويهوى الـ ـقَلْبُ، والمقصودُ حَتْفِي

وقال ابن الحريريّ[٣]: [من الخفيف]

فتَصبَّرْ، ولا تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ! رُبَّ برقٍ فيه صَواعِقُ حَيْنِ![٤]
واْغْضُض الطَّرْفَ، تَسْتَرِحْ من غَرَامٍ تكتَسِي فيه ثوبَ ذُلٍّ وشَيْنِ
فَقِيادُ الفَتى موافقةُ النفـ ـس، وبَدْءُ الهوى طُمُوح العَيْنِ[٥]

---

(١) أبو شجاع الوزير: هو محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو شجاع الروذراوري، ظهير الدين، ولي الوزارة للمقتدي العباسي سنة ٤٧٦ هـ، وكان وافر العقل عالمًا بالأدب، له شعرٌ رقيق، توفي سنة ١٠٩٥ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١٠٠».
(٢) تالله: التاء هنا للقسم، والأريب: العاقل الحكيم.
(٣) ابن الحريري: لعلّه أبو بكر بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن الحريري، فقيه شافعي من أهل دمشق، رحل إلى القاهرة ومكّة، وناب في القضاء بدمشق وأفتى ودرّس إلى أن توفي سنة ١٤٤٧ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٦٨».
(٤) تشم: تنظر وتتأمّل، والحَيْن: الهلاك والموت.
(٥) قياد الفتى: انقياده واستعباده وخضوعه، وطموح العين، جموحها.

فصل

قالوا: ومن أسباب العشق، سماع الغِناء وإنشاد الغَزَل، فإن ذلك يصوّر في النفس نقوش صور فتخَمِّر خميرةَ صورة موصوفة، ثم تصادف نظراً مستحسنًا، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف.

فصل

وذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشق إلا لمجانس، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل[١]. واستدلّ بقول النبيّ ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعارَفَ منها ائْتَلَفَ، وما تناكَرَ منها اختلَفَ»، قال: وقد كانت الأرواح موجودة قبل الأجسام، فمال الجنسُ إلى الجنس، فلما افترقت في الأجساد، بقي في كل نفس حبّ ما كان مقارنًا لها، فإذا شاهدت النفس من نفسٍ نوعَ موافقة، مالت إليها ظانَّة أنها هي التي كانت قرينَتَها، فإن كان التشاكل في المعاني كانت صداقةً ومودّة، وإن كان في معنى يتعلّق بالصورة، كان عشقًا. وإنما يوجد المَلَل والإعراض من بعض الناس لأن التجربة أبانت ارتفاع المجانسة والمناسبة.

وأنشدوا على ذلك: [من السريع]

وقائلٍ: كيفَ تهاجَرْتُما؟ فقلتُ قَوْلًا فيه إنْصافُ
لم يَكُ من شَكْلي ففارَقْتُه والناس أَشْكالٌ وأُلّافُ

قال أبو الفرج بن الجوزيّ: فإن قيل إذا كان سبب العشق نوعَ موافقة بين شخصين في الطّباع، فكيف يحب أحدهما صاحبه والآخر لا يحبّه؟ فالجواب: أنّه يتفق في طبع المعشوق ما يوافق طبع العاشق، ولا يتّفق في طبع العاشق ما يلائم طبع المعشوق. فإذا كان سبب العشق اتّفاقاً في الطباع بطل قولُ من قال: إن العِشق لا يكون إلّا للأشياء المستحسنة، إنما يكون العِشق لنوع مناسبة وملاءمة، ثم قد يكون الشيء حسنًا عند شخص غير حسن عند آخر. وحكى على ذلك حكاية رفعها بالسّند[٢] إلى عليّ بن الحسين القرشيّ[٣]، عن رجل من أهل المدينة كان أديبًا ظريفًا

---

(١) التشاكل: التشابه.

(٢) رفعها بالسّند: أي سلسلها بالسّند أي بالقول عن فلان وفلان إلى القائل الأوّل.

(٣) لعلّه علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المروانيّ الأموي القرشيّ، أبو الفرج الأصبهاني، من أئمّة الأدب الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسِّير والآثار واللغة=

طَلَّابًا[١] للأدب والمُلَح، قال: كنت يومًا في مجلس رجل من قريش ومَعَنا قَيْنة[٢] ظريفة حَسَنة الصورة، ومعنا فتًى من أقبح ما رأته العين، والقَيْنة مقبلة عليه بحديثها وغنائها؛ فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا فتًى من أحسن الناس وجهًا، وأسراهم ثوبًا، وأطيبهم ريحًا، فأقبل عليّ صاحب البيت، فقال: إن في أمر هٰذين لعجبًا! قلت: وما ذاك؟ قال: هذه الجارية تحب هذا (يعني القبيحَ الوجهِ) وليس لها في قلبه محبّة، وهذا الحسن الوجهِ يحبها، وليس له في قلبها محبّةٌ؛ فبينا نحن على شرابنا إذ سرّ الفتى الحسن الوجه فتغنّى وقال: [من الكامل الأحذّ]

بِيَدِ الذي شُغِف الفُؤادُ بهم فرَجُ الذي ألقَى من السُّقْم![٣]
فاستيقِنِي أنْ قَد كَلِفتُ بكم ثم ٱفْعَلِي ما شِئْتِ عن عِلْم![٤]

فأقبلت عليه، وقالت: قد علمنا ذاك، فمَهْ[٥]! ثم تركته، وأقبلت على القبيحِ الوجه، فلبثنا ساعة، ثم تغنّى الفتى أيضًا: [من الطويل]

ألَا ليتني أعمى أصمُّ تقودُنِي بُثَيْنَةُ لا يخفَى عليّ كلامُها!

فقالت: اللّهمّ أعطِ عبدك ما سأل! فغاظتني، فقلت لها: يا فاجرة تختارين هذا، وهو أقبح من ذنوب المُصِرِّين[٦]، على هذا الذي هو أحسنُ من توبة التائبين، فقالت لي: ليس الهوى بالاختيار! ثم أنشأت تغني وتقول: [من الوافر]

فلا تَلُمِ المُحِبَّ على هَوَاه فكلُّ متيَّمٍ كلِفٍ عميدِ[٧]
يَظُنّ حبيبَه حَسَنًا جَميلًا وإنْ كان الحَبِيبُ من القُرُودِ!

فقلت: أجل! إنه لكما قلتِ، وليس في هذا حيلة، وذكرت قول عُمَر بن أبي ربيعة: [من الرّمل]

فتَضاحَكْنَ، وقد قُلْن لنا حَسَنٌ في كلّ عينٍ ما تَودّ![٨]

= والمغازي، من كتبه «الأغاني»، توفي ببغداد سنة ٩٦٧ هـ. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٧٨».
(١) طلّابًا: كثير الطّلب. (٢) القينة: الأمة، وغلب اللقب على المغنّية.
(٣) الشّغف: الولع في الحب، وألقى: أي استسلم.
(٤) كلف به: أحبّه وأولع به، وعن علم: عن معرفة ودراية.
(٥) مَهْ: اسم فعل مبني على السكون بمعنى «كُفَّ» وقد تكسر الهاء.
(٦) المصرّين: المعترفين بالذّنب ومعاودة ارتكابه.
(٧) العميد: الذي أضناه العشق. (٨) تودّ: تحبّ وتعشق.

فصــل

قالوا: ويتأكد العشق بإدمان النظر، وكثرة اللقاء، وطول الحديث، فإن انضمّ إلى ذلك معانقة أو تقبيل، فقد تَمَّ استحكامُه.

وقد ذكر حكماء الأوائل أنه إذا وقعتْ القُبَل بين المُتَحابَّيْن ووصلت بِلّة من ريق كل واحدٍ منهما إلى مَعِدة الآخر، اختلط ذلك بجميع البدن ووصل إلى جِرْم[١] الكبد، وهكذا إذا تنفّس كل واحد منهما في وجه صاحبه، فإنه يخرج مع ذلك النفس شيءٌ من نسيم كل واحد منهما فيختلط بأجزاء الهواء، فإذا استنشق من ذلك الهواء دخل في الخياشِيم[٢]، فوصل بعضه إلى الدماغ فسرى فيه كسَرَيان النُّور في جِرْم البِلَّور، ووصل بعضه إلى جِرْم الرئة، ثم إلى القلب فيَدِبّ[٣] في العروق الضوارب[٤] في جميع البدن، فينعقد في بَدَن هذا ما تحلّل من بَدَن هذا فيصير مزاجًا، فيتولّد به العشق ويَنْمى.

هذا ما قيل في سبب العشق، والله أعلم.

* * *

وأمّا ما قيل في مدحه وذمّه والممدوح منه والمذموم، قال ابن الجوزيّ في كتابه المترجم بِـ «ذَمّ الهوى»: اختلف الناس في العشق، هل هو ممدوح أو مذموم، فقال قوم: هو ممدوح، لأنه لا يكون إلا من لَطَافة الطبع، ولا يقع عند جامد الطبع. ومن لم يجد منه شيئًا فذلك من غِلَظ الطبيعة، فهو يجلو العقولَ، ويصفِّي الأذهان، ما لم يُفْرِط. فإن أفرط عاد سُمًّا قاتلًا. وقال آخرون: هو مذموم؛ لأنه يستأسر العاشق ويجعله في مقام المستعبَد. قال: قلت: وفصل الحكم في هذا الفصل أن نقول: أمّا المحبّة والودّ والمَيْل إلى الأشياء المستحسنة والملائمة فلا يُذَم، وأما العشق الذي يزيد على حدّ الميل والمحبّة فيملِك العقلَ ويُصرِّف صاحبه على غير مقتضى الحكمة، فذلك مذموم، ويتحاشى من مثله الحكماء.

هذا ما قيل في مدحه وذمّه مجملًا، والله تعالىٰ أعلم.

* * *

(١) الجِرْم: الجسم.
(٢) الخياشيم: مفردها الخيشوم، وهو أقصى الأنف.
(٣) يدبُّ: يمشي مشيًا بطيئًا.
(٤) الضوارب: المنتشرة.

فأمّا الممدوح منه، وهو الذي قدّمنا ذكره، فقد وقع فيه جماعة من الخلفاء والأكابر فلم يُعَب عليهم ولا نَقَصهم، وقد تكلّموا في مدحه وتفضيله بما سنذكر منه إن شاء الله تعالى طَرَفًا[١].

فقالوا: العشق يولّد الأخلاقَ الحميدة! وقالوا: لو لم يكن في الهوى إلا أنه يشجّع الجبانَ، ويصفّي الأذهان، ويبعث حزم العاجز، لكفاه شرفًا!

وقال أعرابيّ: من لم يُحِبَّ قطّ فهو رديء التركيب جافي الطبع كَزُّ[٢] المعاطف.

وقد روي أن الشعبيّ[٣] كان ينشد: [من الطويل]

إذا أنتَ لم تَعْشَق ولم تَدْرِ ما الهوى   فأنْتَ وعَيْرٌ في الفَلَاة سَواء![٤]

وسمع ابنُ أبي مليكة[٥] غناء وهو يؤذّن، فطَرِب، فقيل له في ذلك، فقال: [من الطويل]

إذا أنت لم تَطْرَبْ ولم تَدْرِ ما الهوى   فكن حَجَرًا من يابِسِ الصَّخر جَلْمَدا[٦]

وسُئل أبو نوفل[٧]: هل يَسْلَم أحدٌ من العشق؟ فقال: نعم الجِلْفُ[٨] الجافي الذي ليس فيه فضل ولا عنده فَهْم. فأمّا من في طبعه أدنى ظَرْف أو معه دَمَاثة أهل الحجاز ورِقَّةُ أهل العراق، فهيهات[٩].

---

(١) الطرف: الطائفة، وطرفًا من الحديث: أي طائفة منه.
(٢) الكزّ: القاسي الذي قلّ خيره، والمعاطف: من العطف.
(٣) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه، كان نديمًا لعبد الملك بن مروان ورسوله إلى ملك الروم، كان محدّثًا وفقيهًا وشاعرًا، توفي سنة ٧٢١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥١».
(٤) العَيْر: حمار الوحش.
(٥) ابن أبي مليكة: هو عبد الله بن عبيد الله التيمي المكّي، قاضٍ، من رجال الحديث، ولاه ابن الزبير الطائف، مات سنة ٧٣٥ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٠٢».
(٦) الجلمد: الصخر الصلب الشّديد.
(٧) أبو نوفل: لعلّه عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشميّ، صحابيّ من القضاة، استقضاه مروان بن الحكم بالمدينة، فكان أبو هريرة يقول: هذا أوّل قاضٍ رأيناه في الإسلام. «فهرس الأعلام ٤/ ١٤٢».
(٨) الجلف: الكزّ الغليظ الجافي.
(٩) هيهاتِ: اسم فعل مبني على الكسر، معناه: «بَعُد».

وحكى أبو الفرج بن الجوزيّ بسند يرفعه إلى اليمان بن عمرو مولى ذي الرياستين، قال: كان ذو الرياستين يبعثني ويبعث أحداثًا من أهله إلى شيخ عالم بخُراسانَ، له أدبٌ وحسنُ معرفة بالأمور، ويقول لنا: تعلّموا منه الحكمة، فإنه حكيم! وكنا نأتيه، فإذا انصرفنا من عنده، سألنا ذو الرياستين واعترض ما حَفِظناه فنخبره به، فقصدناه ذات يوم، فقال: أنتم أُدباءُ، وقد سمعتم الحكمة ولكم جِدَاتٌ[١] ونِعَمٌ، فهل فيكم عاشق؟ فقلنا: لا، فقال: اَعشَقُوا، فإن العشق يُطْلِق اللسان العَيّ، ويفتح جِبِلّةَ[٢] البليد، ويبعث على التنظيف وتحسين اللّباس وتطييب المَطْعَم، ويدعو إلى الحركة والذَّكاء، ويُشَرِّف الهمّة! وإياكم والحرام! فانصرفنا من عنده إلى ذي الرياستين، فسألَنا عما أخذنا في يومنا ذلك فهِبْنَاه أن نخبره، فعزَم علينا فأخبرناه، فقال: صدَق والله! فهل تعلمون من أين أخذ هذا؟ فقلنا: لا، قال ذو الرياستين: إن بَهْرامَ جُور[٣] كان له ابن، وكان قد رشَّحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقصَ الهمّة، ساقطَ المُروءة، خامل النفس، سيّىء الأدب. فغمّه ذلك ووكّل به من يلازمة من المؤدِّبين والحكماء ليعلّموه. فكان يسألهم عنه فيحكون عنه ما يغُمُّه من سوء فهمه وقلّة أدبه، إلى أن سأل بعض مؤدِّبيه يومًا، فقال له المؤدِّب: قد كنّا نخاف سُوءَ أدبه، فحدث من أمره ما صيَّرنا إلى اليأس من فلاحه، قال: وما ذاك الذي حدث؟ قال: إنه رأى ابنة فلان المَرْزُبان[٤] فعشِقَها حتى غلب عليه هواها، فهو لا يَهْذِي إلّا بها، ولا يتشاغل إلا بذكرها. فقال بهرام: الآن رجوتُ فلاحه! ثم دعا بأبِي الجارية، فقال: إني مُسرٌّ إليك سرًّا فلا يعدُوَنّك[٥]. فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عَشِق ابنته، وأنه يريد أن يُنْكِحَها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها، فإذا استحكم طمعه فيها تجنَّتْ عليه وهَجَرَتْه، فإن استعتبها أعلمتْه أنها لا تصلح إلا لملك ومَنْ همّته همّة الملوك، وأنه يمنعُها من مواصلته أنه لا يصلح للمُلْك، ثم ليعلمه خبرهما، فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدِّب الموكل به خوّفه منّي وشجعه على مراسلة المرأة! ففعل ذلك وفعلتْ الصبيّة ما أمرها به أبوها، فلما انتهت إلى التجنّي عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته له، أخذ في الأدب وطلب

(١) الجدات: العطايا.
(٢) الجبلّة: الخلقة، والبليد: القليل الذّكاء والنّشاط.
(٣) هو بهرام جور بن يزدجرد الأثيم من ملوك الطبقة الرابعة «الأكاسرة» كانت مدّة ملكه ثلاثًا وعشرين سنة، وهو أوّل من سنّ للضّيف صدر المجلس. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٢ و١/ ٤٩١».
(٤) المرزبان عند الفرس: الرئيس.
(٥) يعدونّك: يتجاوزك إلى غيرك.

الحِكْمة والعلم والفُروسيّة والرِّماية وضرب الصوالجة[١] حتَّى مَهَر في ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج من الدوابّ والآلات والمطاعم والملابس والندماء[٢] إلى فوق ما عنده، فسُرّ الملك بذلك، وأمر له بما طلب. ثم دعا مؤدّبه، فقال: إنّ الموضع الذي وضع به ابني نفسه من حبّ هذه المرأة لا يُزْرِي[٣] به، فتقدّمْ إليه أن يرفع ذلك إليّ ويسألني أن أزوّجه إياها، ففعل، ورفع الفتى ذلك إلى أبيه، فاستدعى أباها، وزوّجه بها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال له: إذا اجتمعتَ بها فلا تحدث شيئًا حتَّى آتيك! فلمَّا اجتمع أتاه، فقال: يا بُنَيَّ لا يضعَنَّ[٤] منها عندك مراسلَتُها إيَّاك، وليست في حبالك[٥]! فإني أنا أمرتها بذلك، وهي أعظم الناس مِنَّةً عليك، بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلّق بأخلاق الملوك، حتَّى بلغت الحدّ الذي تصلح معه للمُلْك بعدي، فزِدْها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحقّ منك! ففعل الفتى ذلك، وعاش مسرورًا بالجارية، وعاش أبوه مسرورًا به، وأحسن ثواب أبيها، ورفع مرتبته وشرفه بصيانة سرّه وطاعته، وأحسن جائزة المؤدّب، وعقد لابنه على المُلْك من بعده.

قال اليمان: ثم قال لنا ذو الرياستين: سلوا الشيخ الآن: لِمَ حملكم على العشق؟ فسألناه، فحدّثنا بحديث بهرام جور وابنه.

فهذا ممّن ارتفع بالهوى وترقَّى بسببه إلى مرتبة الملك.

وحكى ابن الجوزيّ أيضًا، قال: حدّث القاسم بن محمد النُّمَيْرِيّ، قال: ما رأيت شابًّا ولا كهلًا من ولد العبّاس[٦] أصْوَنَ لنفسه، وأضبطَ لجأشه وأعفَّ لسانًا وفَرْجًا من عبد الله بن المعتزّ! وكان ربما عبَثْنا بالهزل في مجلسه، فجرى معنا فيه فيما لا يقدح[٧] به عليه قادح. وكان أكثَرَ ما يَشْغَل به نفسه سماعُ الغِناء، وكان كثيرًا

---

(١) الصوالجة: من الصولجة، وهي إحدى الألعاب التي يضرب بها الفارس الكرة بعصًا معقوفة الرأس.
(٢) النّدماء: جمع نديم، وهو الرّفيق والصاحب والمجالس على الطعام والشراب.
(٣) لا يزري به: لا يعيبه أو يقلّل من شأنه.
(٤) يضعنّ منها: أي يحطنّ من قيمتها ومكانتها.
(٥) في حبالك: أي في صلة من الصّلات التي تسمح لها أن تراسلك «كالزواج» أو غير ذلك.
(٦) العبّاس: أي العبّاس بن عبد المطّلب الهاشمي، عمّ النبيّ ﷺ، والذي إليه ينتمي الخلفاء العباسيون.
(٧) يقدح: يعيب ويذمّ.

ما يَعِيب العِشْق، ويقول: هو ضرب من الحمق! وكان إذا رأى منّا من هو مطرق أو مفكِّر اتّهمه بالعشق، ويقول: وقعْتَ والله يا فلان! وقلّ عقلك وسَخُفْتَ! إلى أن رأيناه، وقد حدث به سهو شديد، وفكر دائم، وزفير متتابع، وسمعناه ينشد أشعارًا منها: [من مجزوء الرجز]

مـــا لـــي أرَى الـــثُّـــريَّـــا ولا أَرَى الـــرَّقِـــيـــبـــا؟[١]
يـــا مُـــرْسِـــلًا غـــزالًا أمـــا تـــخـــافُ ذيـــبَـــا؟

وسمعناه مرّة أخرى ينشد، وهو يشرب في إناء قد لفّه، فاتّهمناه فيه، وكتب عليه هذا الشعر: [من المديد]

مـا قَـلِـيـلٌ مـنـكَ لـي بـقَـلِـيـلِ يا مُنى عيني وغايةَ سُولِي![٢]
سَل بـحـقِّ الله عـيـنـيـكَ عـنّـي هل أحَسَّتْ في الـهـوى بقَتِيلِ؟
أنتَ أفسَدْتَ حياتِي بـهَـجْـرٍ ومَـمَـاتِـي بـحِـسـابٍ طَـويـلِ!

وأنشد: [من مجزوء الرمل]

أَسَـرَ الـحُـبُّ أمِـيـرًا لـم يَـكُـنْ قَـبْـلُ أسِـيـرا
فـارْحَـمُـوا ذُلّ عَـزيـزٍ صار عَـبْـدًا مـسـتَـجـيـرا!

وأنشد يومًا، وقد رأى دار بعض الناس، فقال: [من المتقارب]

أيـا دارُ كَـمْ فِـيـكِ مـن لَـذَّةٍ وعَـيْـشٍ لـنـا، كـانَ مـا أطْـيَـبَـهْ!
ومـن قَـيْـنـةٍ أفْـسَـدَتْ نـاسِـكًـا وكـانَـتْ لـه فـي الـتُّـقـى مَـرْتَـبَـهْ

وقال أيضًا مرّة: [من الطويل]

لقد قَتَلَتْ عيناكَ نَفْسًا كريمةً فلا تَأْمَنَنْ إن مُتُّ سَطْوَة ثائِرِ![٣]
كـأنَّ فُؤادِي فـي الـسَّـمـاءِ مُـعَـلَّقٌ إذا غِبْتَ عن عيني، بمِخْلَب طائِرِ[٤]

وأنشد يومًا، وفي يده خاتم: [من المجتث]

حَـصَـلْـتُ مـنـك عـلـى خـا تَـمٍ حَـوَتْـه الـبـنـانُ!

---

(١) الثريّا: اسم علم، أو هي مجموعة كواكب في السّماء، تعرف بهذا الاسم، والرّقيب: الحارس.
(٢) الغاية: القصد، وسولي: أصلها سؤلي، خفّفت الهمزة للضرورة الشعرية.
(٣) السّطوة: البطش.
(٤) المخلب: ظفر كلّ سبع من الحيوان والطائر.

فـمـا يُـفـارِقُ كَـفِّـي ... كـأنّـه قَـهْـرَمـانُ[١]

يـا أهـلَ وُدّي بَـعُـدْتُـم ... وأنـتُـم جِـيـرانُ!

قال النميريّ[٢]: فقلتُ له: جعلنا الله فداك! هذه أشياء قد كنت تعيب أمثالها منّا، ونحن الآن ننكرها منك! وكان يرجع عن بعض ذلك تصنّعًا، ثم لا يلبث مستوره أن يظهر حتى تحقّق عندنا عشقه، ودخل في طبقة المرحومين، فسمعته يومًا ينشد: [من الرجز]

مَـكْـتُـومُ، يـا أحـسَـنَ خـلقِ اللهِ ... لا تَـتْـرُكِـيـنِـي هـكـذا بـاللهِ!

ثم تنفّس إثر ذلك فأجبته:

قـد ظَـفِـرَ الـعِـشْـقُ بـعـبـد اللهِ ... وأنـهـتـكَ الـسِّـتْـرُ بـحـمـد اللهِ

فـقـل لـه: سَـمِّ لـنـا سَـيِّـدِي ... هـذا الـذي تَـهْـوَى، بـحـقِّ اللهِ!

فضحك وقال: لا، ولا كَرامة!

فكتبتُ إليه من الغَدِ: [من المتقارب]

بـكَـتْ عَـيْـنُـه وشَـكَـا حُـرقـةً ... من الوَجْد في القَلْب ما تنطفي

فـقـلـتُ لَهُ: سـيِّـدِي، مـا الـذي ... أرى بِـكَ؟ قـال: سِـقَـامٌ خَـفِـي

فقلتُ: أَعِشْـقٌ؟ فقال: اُقْتَصِر ... على ما ترى بِي، أَمَا تَكْتَفِي؟

فكتب إليّ: [من المجتث]

يـا مَـنْ يُـحـدِّث عَـنِّـي ... بـظَـنِّ سـمـعٍ وعَـيْـنِ!

إن كـنـتَ تَـخْـطُـب سِـرِّي ... فـارجِـعْ بـخُـفَّـيْ حُـنَـيْـنِ![٣]

---

(١) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

(٢) النّميري: هو القاسم بن محمد النّميري، نديم ابن المعتزّ الشاعر.

(٣) خطب سرّه: استوضحه واستكشفه، وخفّي حنين: قيل: كان حُنين إسكافًا، فساومه إعرابي بخفّين، فاختلفا، فأراد غيظه، فألقى أحد الخفّين في طريقه ثم استقام على الطريق فألقى له الآخر وكمن له، فلمّا رأى الأعرابيّ الخفّ الأوجل قال: ما أشبه هذا بخفّ حُنين، ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى حتى انتهى إلى الآخر فأناخ راحلته ورجع ليأخذ الثاني فركب حنين راحلته ومضى بها، ورجع الأعرابي إلى أهله خائبًا. «انظر المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٠٦».

فكتبت إليه: [من المجتثّ]

هَـيْـهَـاتَ لـحـظـك عِـنْـدِي — يُـقِـرُّ فـيـه بـعِـشْـقِـك!
دَعْ عـنـك خُـفَّـيْ حُـنَـيْـنِ — واْحْرِصْ على حَلِّ رِبْقك![1]
تـعـالَ نَـحْـتـالُ فـيـمـا — تـهـوى، بـرِفْـقِـي ورِفْـقـك!

وصرتُ إليه فقال: يا أبا طيب، قد عصيتُ إبليسَ أكثر مما عصى ربَّه إلى أن أوقعني في حبائله[2]، فأنشدته: [من المجتثّ]

مـن أيْـنَ لا كـان إبـلـيـ — ـسُ جـاءنِـي بِـكَ يَـسْـعَـى؟
أَبْـداكَ لـي مـن بَـعِـيـدِ — فـقـلـت: طَـوْعًـا وسَـمْـعًـا!

فأخبرني بقصّته، فسعيت له بلطيف الحيلة وأعانني بحزم الرأي حتَّى فاز بالظفر.

قال أبو بكر الصولي[3]: اعتل عبد الله بن المعتزّ فأتاه أبوه عائدًا[4]، وقال: ما عراك، يا بنيّ؟ فأنشأ يقول: [من الخفيف]

أيُّـهـا الـعـاذلُونَ، لا تَـعْـذُلُونِـي — وانظُرُوا حُسْنَ وجهها تَعْذِرُوني!
وانـظـروا هـل تَرَوْنَ أحسنَ منها — إن رَأَيْتُم شَبِيهها فاْعْذلُونِي![5]
بي جُنُونُ الهوى، وما بي جُنُونٌ — وجُنونُ الهوى جُنونُ الجُنونِ!

قال: فتتبّع أبوه الحال حتَّى وقع عليها، فابتاع الجارية التي شُغف بها بسبعة آلاف دينار، ووجّهها إليه.

وحُكي أن الرشيد كان له ثلاث جوارٍ اشتدّ شغفه بهنّ، فقال العبّاس بن الأحنف على لسانه: [من الكامل]

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عِنانِي — وحَلَلْنَ من قلبي بكُلِّ مكانِ!

---

(١) الرّبق: حبلٌ ذو عُرى يربط به. (٢) الحبائل: الأشراك «للصيد».
(٣) أبو بكر الصّولي: هو محمد بن يحيىٰ بن عبد الله، من أكابر علماء العرب، وكان من أحسن الناس لعبًا بالشطرنج، نادم ثلاثة من خلفاء بني العبّاس، له مصنّفات كثيرة، توفّي بالبصرة مستترًا سنة ٩٤٦ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٣٦».
(٤) العائد: الزائر لمن به مرض. (٥) العذل: اللّوم.

مـا لـي تُـطـاوِعُـنـي الـبـريَّـةُ كـلُّـهـا وأُطِيـعُـهـنَّ وهُـنَّ فـي عِـصْـيـانـي؟
مـا ذاك إلَّا أنّ سـلـطـان الـهـوى وبـه عـززن أعـزُّ مـن سـلطـانِـي!

أخذ المعنى والرويَّ سليمان بن الحَكَم المستعين[1]، أحدُ خلفاء بني أُميّة بالأندلس، فقال: [من الكامل]

عَـجبًا يـهابُ الليثُ حدَّ سِنَانِي وأهابُ لَحْظ فَواتِرِ الأجْفانِ![2]
وأُقـارِعُ الأهـوالَ لا مُـتَـهَـيِّـبًـا منها سِوى الإعراض والهِجْرَانِ![3]
وتملَّكتْ نفسِي ثلاثٌ كالدُّمى زُهر الوُجُوهِ نواعمُ الأبدانِ![4]
ككواكِبِ الظلْماء لُحْنَ لناظِرٍ من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ[5]
هذي الهِلالُ، وتلك بنتُ المشترِي حُسْنًا، وهذِي أختُ غُصْنِ البانِ![6]
حاكمتُ فيهنَّ السُّلُوَّ إلى الصِّبا فقضى لسُلْطانٍ على سُلْطانِ[7]
فأبحْنَ من قلبي الحِمَى وثنَيْنَنِي عن عِزِّ مُلْكي كالأسِير العاني[8]
لا تَعْذلوا مَلِكًا تذلَّل في الهوى! ذُلُّ الـهـوى عِـزٌّ ومُـلْـكٌ ثـانِـي!
إن لم أُطِعْ فيهنَّ سُلطانَ الهوى كَـلَفًـا بـهـنّ، فـلَسْـتُ مـن مَرْوانِ!
وإذا الكريمُ أحَبَّ، أمَّن إلفَهُ خَطْبَ القِلَى وحَوادثَ السُّلْوانِ![9]

(١) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر، الأموي، أبو أيوب، من ملوك الدولة الأمويّة في الأندلس، قتل بقرطبة سنة ١٠١٦ م، وبمقتله انقطع ذكر بني أميّة على منابر الأندلس مدّة سبع سنين، وكان أديبًا شاعرًا. «فهرس الأعلام ٣/ ١٢٣».

(٢) السّنان: السيف والرمح، والفواتر: الضعاف. (٣) الإعراض: الصّدود.

(٤) الدّمى: مفردها الدّمية، وهي الصورة الممثلة من العاج وغيره، يضرب بها المثل في الحُسْن، وتشبّه النساء بها، والزّهر: البيض.

(٥) الكثبان: مفردها كثيب، وهو الرمل المستطيل المحدودب تشبه به أرداف النساء.

(٦) الهلال: القمر، والمشتري: نجم في السّماء منير، والبان: ضربٌ من الشجر ورقه كورق الصّفصاف، تشبّه به الحسان في الطول واللّين.

(٧) السّلوّ: الصّبر، والصِّبا: الشباب. (٨) العاني: الذليل، أو الأسير.

(٩) القلى: البغض والهجر.

وقال العبّاس[١]: [من البسيط]

لا عارَ في الحُبِّ إنَّ الحبَّ، مَكْرُمةٌ لكنَّه ربَّما أزْرَى بذي الخَطَرِ![٢]

* * *

وأما القِسْمُ المذموم منه، وهو الذي ثَنَّينا بذكره في صدر هذا الفصل، فقد أكثر الناس القول في ذمّه، وبيَّنوا أسبابه.

فقال ابن الجوزيّ: بيان ذمّه أن الشيء إنما يعرف مذمومًا أو ممدوحًا بتأمل ذاته وفوائده وعواقبه، وذات العشق لَهَج بصورة، وهذا ليس فيه فضيلة فتُمْدَحَ، ولا فائدةَ في العشق للنفس الناطقة، إنما هو أثر غلبة النفس الشَّهْوانية.

وقال بعض الحكماء: ليس العشق من أدواء الحُصَفاء[٣] الحكماء، إنما هو من أمراض الخُلَعاء الذين جعلوا دأبهم ولَهَجهم[٤] متابعةَ النفس وإرخاءَ عِنَان[٥] الشهوة وإمراح[٦] النظر في المستحسنات من الصور، فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تَتُوق، ثم تَلْهَج، فيقال: «عَشِق»، وليس هذا من صفة الحكماء؛ لأن الحكيم من استطال رأيَه على هواه، وتسلّطت حكمتُه على شهوته، فَرُعُونات[٧] طبعه مقيَّدة أبدًا كصبيّ بين يدي معلّمه أو عبد بمرأى سيّده، وما كان العشق قط إلا لأرعن[٨] بَطَّال، وقَلَّ أن يكون لمشغول بصناعة أو بتجارة، فكيف لمشغول بالعلوم والحكم، فإنها تصرفه عن ذلك، ولهذا لا تكاد تجده في الحكماء.

وقال ابن عُقَيْل: العشق مرض يعتَرِي[٩] النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة المتلمحة للصور لدواعٍ من النفس، ويساعدها إدمان المخالطة، فيتأكد الإلْف ويتمكّن الأُنس، فيصير بالإدمان شَغَفًا، وما عَشِق قطّ إلا فارغٌ، فهو من علل البَطَّالين وأمراض

(١) العباس: هو العبّاس بن الأحنف، أبو الفضل، شاعر رقيق تقدّم ذكره. «انظر الأعلام ٣/ ٢٥٩».
(٢) أزرى: ألحق العيب والتقصير، وذو الخطر: أي ذو المكانة والقوّة «كالملك والقائد».
(٣) الحصفاء: مفردها: الحصيف: وهو من استحكم عقله وجاد رأيُه.
(٤) الدّأب: الجهد، واللّهج: العادة والمثابرة على اتّباع أمرٍ من الأمور.
(٥) العنان: الزّمام.
(٦) إمراح النظر: إجالته.
(٧) الرعونة: الطيش والهوج.
(٨) الأرعن: الأهوج، والبطّال: الذي لا عمل له.
(٩) يعتري: يصيب.

الفارغين من النظر في دلائل العبر، وطلب الحقائق؛ المستدلّ بها على عِظَم الخالق. ولهذا قلّما تراه إلا في الرُّعْن البَطِرين(١)، وأرباب الخَلَاعة النَّوْكى(٢)، وما عَشِق حكيم قط؛ لأن قلوب الحكماء أشدّ تمنّعًا عن أن توقفها صورة من صُوَر الكون مع شدّة تطلبها، فهي أبدًا تلحظ وتَخْطَف ولا تقف، وقلَّ أن يحصل عشق من لمحة، وقلَّ أن يُضِيف حكيم إلى لَمْحة نظرةً، فإنه مارّ في طلب المعاني، ومن كان طالبًا لمعرفة الله لا توقفه صورة عن الطلب؛ لأنها تحجبه عن الصور.

وقال ابن الجوزيّ: واعلم أن العشّاق قد جاوزُوا حدّ البهائم في عدم ملكة النفس في الانقياد إلى الشهوات؛ لأنهم لم يرضَوْا أن يصيبوا شهوة الوطء(٣)، وهي أقبح الشهوات عند النفس الناطقة من أيّ موضع كان حتى أرادوها من شخص بعينه فضمُّوا شهوة إلى شهوة، وذَلُّوا للهوى ذلّا على ذلّ، والبهيمة إنما تقصد دفع الأذى عنها حسبُ، وهٰؤلاء استخدموا عقولهم في تدبير نيل شهواتهم.

ثم قال: والعشق بَيِّن الضرر في الدِّين والدنيا. أمّا في الدِّين. فإنه يشغَلُ القلب عن الفكر فيما له خُلِق: من معرفة الله تعالى، والخوف منه، والقرب إليه، ثم ينفذ ما ينال من موافقة غرضه المحرّم الذي يكون فيه خُسْران آخرته، ويعرّضه لعقوبة خالقه، فكلّما قَرُب من هواه، بَعُد من مولاه، ولا يكاد العشق يقع في الحلال المقدور عليه فإن وقع، فيا سَرْعان زواله! قالت الحكماء: كل مملوك مملول. وقال الشاعر: [من البسيط]

وزادني شَغَفًا بالحبِّ أن مَنَعتْ أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

فإن كان المعشوق لا يباح، اشتدَّ القلق به والطلب له، فإن نيل منه غرض، فالعذاب الشديد في مقابلته، على أن بلوغ الغرض يزيد ألمًا فترْبِي(٤) مرارة الفراق على لذّةِ الوصال؛ كما قال الشاعر: [من الخفيف]

كلُّ شَيْءٍ رَبِحْتُهُ في التَّداني والتّلاقِي، خَسِرته في الفِراق

فإن منعه خوفُ الله تعالى عن نيل غرض، فالامتناع عذاب شديد، فهو معذّب في كل حال.

---

(١) البطرين: من البطر، وهو التكبُّر عند حلول النعمة، أو شدّة المرح والرعونة.
(٢) النوكى: الحمقى والجهّال. (٣) الوطء: الجُماع.
(٤) تربي: تزيد.

هذا ضرره في الدّين.

وأمّا ضرره في الدّنيا، فإنه يورث الهَمَّ الدائم، والفكر اللازم، والوِسْواس، والأرَق[١]، وقلّة المَطْعَم، وكثرة السهَر، ويتسلّط على الجوارح[٢] فتنشأ الصفرة في البدن، والرِّعدة في الأطراف، واللَّجْلجة[٣] في اللّسان، والنُّحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غائب عن تدبير مصلحة، والدموع هواطل، والحَسَرات تَتَابع، والزَّفَرات تتوالى، والأنفاس لا تمتدّ، والأحشاء تضطرم، فإذا غشَّى على القلب غشاء ثانيًا أخرج إلى الجنون، وما أقْرَبَه حينئذٍ من التّلف!

قال: هذا، وكم جنى من جناية على العِرْض[٤]، ووَهَّن الجاه بين الخلق، وربما أوقع في عقوبات البدن وإقامة الحدود.

وقال جالينوس[٥]: العشق من فعل النفس، وهي كامنة في الدماغ والقلب والكبد.

وفي الدماغ ثلاثة مساكن:

مسكن للتخيُّل، وهو في مقدّم الرأس؛

ومسكن للفِكْر، وهو في وسطه؛

ومسكن للذُّكْر[٦]، وهو في مؤخَّره.

ولا يسمّى عاشقًا إلا من إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيّله فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبِد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيّل والفكر والذكر، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به.

وقال الجاحظ: ذُكر لي عن بعض حكماء الهند أنّه قال: إذا ظهر العشق عندنا في رجل أو امرأة، غَدَوْنا على أهله بالتعزية.

---

(١) الأرق: الامتناع من النّوم ليلًا.
(٢) الجوارح: مفردها الجارحة، وهي العضو العامل من أعضاء الإنسان كاليد والرّجل.
(٣) اللّجلجة: التردّد في الكلام دون إيضاحه وإبانته.
(٤) العرض: الشّرف، وما يحافظ عليه.
(٥) جالينوس: أحد الحكماء اليونانيين المشهورين بالطبّ، مات بالفَرَما وهي بلدة خراب على شاطىء بحر الرّوم، وبها قبره. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٣٧».
(٦) للذّكر: أي التذكر، أو الذّاكرة في الإنسان.

قال: وبلغني أن عاشقًا مات بالهند عشقًا، فبعث ملِك الهند إلى المعشوق فقتله به.

وقال الربعي[١]: سمعت أعرابية تقول: مسكينٌ العاشق! كل شيءَ عدوّه! هُبُوب الريح يُقْلِقه، ولَمَعان البرق يؤرّقه، ورسوم[٢] الديار تُحْرقه، والعَذْل يؤلمه، والتذكُّر يُسْقِمه، والبعدُ والقُرْب يهيجه، والليل يُضاعف بلاءَه، والرقاد يهرُب منه، ولقد تداويتُ بالقرب والبعد فلم ينجع[٣] فيه دواء، ولا عَزَّ بي عزاء.

وقال شاعر: [من الطويل]

وقد زَعَمُوا أنَّ المحبَّ إذا دنَا ... يَمَلُّ، وأن النَّأْيَ يَشْفي من الوَجْد!
بكلٍّ تداوينا، فلم يُشْفَ ما بِنَا! ... على أنَّ قُرْبَ الدار خَيْرٌ من البعد!

وأنشد المارستانيّ: [من الطويل]

إذا قَرُبتْ دارٌ كَلفتُ، وإن نَأَتْ ... أسِفتُ! فلا بالقُرْب أسلُو ولا البُعْد![٤]
وإن وعَدَتْ زاد الهَوى لانتظارها ... وإن بَخِلتْ بالوعد مُتُّ على الوَعْدِ!
ففي كُلِّ حبٌّ لا محالةَ فَرْحةٌ ... وحُبُّك ما فيه سِوى مُحْكَمِ الجَهْدِ![٥]

وحكى الزبير بن بَكَّار[٦] قال: حدّثني موهوب بن راشد قال: وقفت امرأة من بني عُقَيْل على أختٍ لها، فقالت لها: يا فلانةُ، كيف أصبحتِ من حبِّ فلان؟ قالت: قَلْقَلَ[٧] والله حبُّه الساكنَ، وسكَّن المتحرّك! ثم أنشدتها: [من الطويل]

ولو أنَّ ما بي بالحصَى فَلَقَ الحصَى ... وبالرِّيح لم يسمَعْ لهُنَّ هُبُوبُ![٨]
ولو أنَّني أستَغْفِرُ الله كلَّما ... ذكرتُك لم يُكتَبْ علي ذُنُوبُ!

---

(١) الرّبعي: لعلّه محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة، أبو سليمان بن زبر الربعيّ، مؤرّخ من حفّاظ الحديث، كان محدّث دمشق وابن قاضيها، له تصانيف عدّة، توفي سنة ٩٨٩ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٥».

(٢) رسوم الدّيار: الآثار المتبقّية منها بعد عفائها.

(٣) ينجع: ينفع.

(٤) كلفتُ: من الكلف، وهو العشق الشديد.

(٥) المحكم: المتقن، والجهد: المشقّة والتعب.

(٦) هو الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكّي، من أحفاد الزّبير بن العوّام، أبو عبد الله، عالمٌ بالأنساب وأخبار العرب، راوية، ولد في المدينة، وولي قضاء مكّة، وتوفي فيها سنة ٨٧٠ م، له تصانيف عدّة. «فهرس الأعلام ٣/ ٤٢».

(٧) قلقل: حرّك وزعزع.

(٨) فلق الحصى: شطرها وشقّها.

قالت: لا جَرَمَ[١] والله، لا أقف حتّى أسأله كيف أصبح من حبّكِ! فجاءته فسألته فقال: إنما الهوى هَوَانٌ، وإنما خُولف باسمه، وإنما يعرف ما أقول من كان مثلي قد أبكته المَعَارِف والطلول[٢].

وقال مسلم بن عبد الله بن جندب[٣] الهذليّ: خرجت أنا وريّان السوّاق إلى العقيق[٤]، فلقينا نِسوةً نازلات من العقيق ذوات جمالٍ وفيهنّ جارية حسناء العينين، فأنشد ريّان قول أَبِي: [من الطويل]

أَلَا يـا عِـبـادَ اللهِ، هـذا أخُـوكُـم ... قَـتِـيـلٌ! فـهَـلَّا فـيـكُـمُ الـيـومَ ثـائِرُ؟

خُـذُوا بـدَمِـي إن مـتُّ كـلَّ خَـريـدةٍ ... مريضةِ جَفْنِ العين، والطَّرْف ساحرُ![٥]

وأقبل عليّ، وأشار إليها فقال: يا ابن الكرام دمُ أبيك في أثوابها، فلا تطلب أثرًا بَعْدَ عين! قال: فأقبلت عليّ امرأة جميلة، أجملُ من تيك، فقالت: أنت ابن جندب؟ فقلت: نعم، قالت: إن أسيرنا لا يُفَكُّ، وقتيلنا لا يُودى[٦]، فاحتسب أباك، واغتنم نفسك! ومَضَيْنَ.

ذكر شيء من الشعر المقول في ذمّ العشق والحبّ

قال الأَصْمَعِيّ: سئل أعرابيّ عن الحُبِّ، فقال: وما الحبّ؟ وما عسى أن يكون؟ هل هو إلّا سحر أو جنون؛ ثم قال: [من الطويل]

هَل الـحُـبُّ إلا زَفْـرةٌ بـعـد زَفْـرةٍ ... وحَرٌّ على الأحشاءِ ليس له بَرْدُ؟[٧]

وفَـيْـضُ دموعِ الـعـيـنِ مـنّـيَ كـلّـما ... بدا عَلَمٌ من أرضكُمْ لـم يكُنْ يَبْدُو؟

(١) لا جَرَم: لا بدّ.

(٢) الطلول: مفردها الطّلل، وهو ما بقي شاخصًا من آثار الدّار أو نحوها.

(٣) مسلم بن عبد الله بن جندب الهذلي، من رواة الحديث، روى عن أبيه وجدّه. «انظر الكاشف للذهبي ٣/١٢٣».

(٤) العقيق: واد بناحية المدينة فيه عيون ونخل، والعرب تقول لكل مسيل ماء: شقّه السّيل في الأرض فأنهره ووسّعه: عقيق. «انظر معجم البلدان ٤/١٣٨ وما بعدها».

(٥) الخريدة: اللؤلؤة لم تثقب، والمراد بها الفتاة البكر.

(٦) يودى: أي لا تدفع دِيَته إلى أهله.

(٧) الأحشاء: ما انضمّت عليه الضلوع من الصدر، والبرد: هبوط الحرارة، وهو هنا: الوصل من الحبيب.

وقال: قلت لأعرابيّ: ما الحبّ؟ فقال: [من البسيط]

الحُبُّ مَشْغَلَةٌ عن كلِّ صالحةٍ ... وسَكْرةُ الحبِّ تَنْفِي سَكْرَةَ الوَسَنِ(١)

وقال محمد بن عبد الله بن مبادر: [من مجزوء الرمل]

مَنْ فتًى أصبَحَ في الحُـ ... ـبِّ سَقَاه الحُبُّ سُمَّا؟
كُلّما أخْفَى جوى الحُـ ... ـبِّ، عليه الدمعُ نَمَّا(٢)
ساهرٌ لا يَطْعَم النوْ ... مَ إذا الليل أدْلَهَمَّا(٣)
كُلّما راقَبَ نَجْمًا ... فَهَوى، راقبَ نَجْما
أنتمُو هَمِّي فإن لم ... تَصِلُوني متُّ غَمَّا
يا ثِقَاتِي، خَطَمَ الحُـ ... ـبُّ لكُمْ أنْفِي وزَمَّا!(٤)
يا أخِي، دائي جَوى الحـ ... ـبِّ وداءُ الناسِ حُمَّى
لا تَلُمْ مُفْتَضِحًا في الْـ ... ـحُبِّ، إنّ الحُبَّ أعْمى!

وقال محمد بن أبي أُميّة(٥): [من الطويل]

فوالله، ما أَدْرِي أمِن لوعةِ الهَوى ... صَبَرتُ على التقصير أم ليس لي قَلْبُ؟
أُقَبِّحُ أمرًا، والفؤاد يودّه ... أجُنَّ فُؤادي في الهَوى؟ بل هو الحُبُّ

وقال أبو عُبادة البحتريّ: [من الرّمل]

قال بُطْلًا وأفَال الرأي مَنْ ... لم يَقُلْ إنّ المَنَايَا في الحَدَقْ!(٦)
إن تَكُنْ مُحْتَسِبًا مَنْ قد ثَوى ... بحِمام، فاحتَسبْ من قد عَشِق!(٧)

---

(١) الوسن: النّعاس.
(٢) جوى الحبّ: حرقته وشدّته، ونمّ: أظهر ووشى.
(٣) ادلهمّ: اشتدّ ظلامه.
(٤) خطم الأنف: من الخطام، وهو حبلٌ يجعل في عنق الجمل ويُثنى في خطمه ليقاد به، وزمّ: شدّ، أي أنّ الحبّ أذلّه وأسره.
(٥) هو محمد بن أبي أُميّة، شاعر غزل، وكنيته أبو حشيشة، وصفه مخارق للمأمون وهو بدمشق، فخرج إليه وهو حدث وغنّاه، ومدح المتوكّل وغيره من الخلفاء العباسيّين. «المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٤١٨، ٤٢٧».
(٦) أفال الرأي: ابتعد به عن الصّواب، والمنايا: الموت، والحدق: العيون.
(٧) محتسبًا: من حَسَب الشيء: أي عدَّه وقدره، وثوى: مات، والحمام: الموت.

وقال أبو تمام: [من الكامل]

أمّا الهوى فهو العذابُ، فإن جرَتْ ... فيه النّوَى فالتَّيْمُ كُلّ التَّيْمِ

وقال ابن أبي حُصينة[١]: [من الكامل]

والعِشْق يجتَذِبُ النفوسَ إلى الرَّدَى ... بالطَّبْع، واحَسَدًا لمن لم يَعْشَقِ![٢]

طَرَق الخيالُ فهاج لي بطُروقهِ ... وَلَهًا، فليتَ خَيَالَها لم يَطْرُقِ![٣]

وقال صالح بن عبد القدّوس[٤]: [من السريع]

عاصِ الهَوى إنّ الهوى مَرْكَبٌ ... يَصْعُبُ بعد اللِّين منه الذَّلُولْ!

إن يَجْلُبِ اليَوْمَ الهوى لَذَّةً ... ففي غَدٍ منه البُكا والعَوِيلْ

وقال ابن المعتزّ: [من الخفيف]

فكأنَّ الهوى امرؤٌ عَلَوِيٌّ ... ظَنَّ أنّي وُلِيتُ قَتْل الحُسَيْنِ!

وكأنّي لدَيْهِ نَجْلُ زِيادٍ ... فهو يَخْتارُ أوجَعَ القِتْلَتَيْنِ![٥]

وقال أبو عبد الله بن الحجاج: [من السريع]

وَيْحكَ، يا قَلْبيَ ما أغفَلَكْ! ... تَعْشَق مَنْ يَعْشَقُ أن يَقْتُلكْ؟

وأنتَ يا طَرْفِيَ أوقَعْتَنِي ... وَيْحكَ يا طَرْفِيَ ما لي ولَكْ؟

قد كانَ من حَقّ بكائي على ... تَبَتُّلِي بالحُبّ أن يَشْغَلَكْ[٦]

حتَّى توصلت لقَتْلي، فلا ... كُنْتَ ولا كان الذي أرْسَلَكْ!

---

(١) ابن أبي حصينة: هو الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار، أبو الفتح السُّلمي، شاعر من الأمراء، ولد ونشأ في معرّة النعمان بسوريا، وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، له ديوان شعر مطبوع، توفي في سروج سنة ١٠٦٥ م. «فهرس الأعلام ٢/١٩٧».

(٢) واحسدًا، وا: حرف نداء مخصّص للندبة.

(٣) الولَه: اشتدادُ جوى الحبّ، والطارق: الزّائر ليلًا.

(٤) هو صالح بن عبد القدوس الأزدي الجذامي، أبو الفضل، شاعر حكيم، كان متكلّمًا يعظ الناس بالبصرة، وشعره كلّه أمثال وحِكم وآداب، اتّهم عند المهدي العبّاسي بالزندقة، فقتله نحو سنة ٧٧٧ م. «فهرس الأعلام ٣/١٩٢».

(٥) نجل زياد: هو عبيد الله بن زياد بن أبيه والي معاوية ويزيد على البصرة، وفي أيّامه قتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه وعلى يديه. «انظر فهرس الأعلام ٤/١٩٣».

(٦) التبتُّل: الانقطاع والتفرُّغ للعبادة والعشق.

وقال عبد المحسن بن غالب الصوريّ: [من المتقارب]

وكـانَ ابـتـداء الـذي بـي مُـجُـونـا فـلَمَّـا تـمـكَّـنَ أمسـى جُـنـونَـا[١]

وكـنـتُ أظُـنُّ الـهـوى هَـيِّـنـا فـلاقَـيْـتُ مـنـه عَـذَبًـا مُـهِـيـنـا

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر العنبريّ[٢]: [من السريع]

يا صاحِ، إنِّي مُذْ عرفْتُ الهوى غَـرِقْـتُ فـي بـحـر بِـلَا سـاحِـل!

عَـيْـنِـي لِحَـيْـنِـي نَـظَـرتْ نـظـرةً رُحْـت بـهـا فـي شُـغُـلٍ شـاغِـلِ

عُـلِّقتُـه فـي الـبـيـتِ مـن فـارسٍ لـكـنَّـه فـي الـسِّـحْـر مـن بـابِـلِ[٣]

يَـظْـلِمُـنـي، والـعَـدْلُ مـن شـأنِـهِ! مـا أوْجَـعَ الـظُّـلْـمَ مـن الـعـادل!

وقال آخر: [من مخلع البسيط]

مَـنْ سَـرَّهُ أنْ يَـرَى الـمَـنَـايَـا بِـعَـيْـنِـهِ مَـنْـظَـرًا صُـرَاحَـا[٤]

فـلْيَـحْـسُ كـأسًـا مـن الـتـجَـنِّـي ولْـيَـغْـشَـقِ الأَوْجُـهَ الـمِـلَاحَـا![٥]

يـا أعْـيُـنًـا أرْسِـلَتْ مِـراضـا فـاختَـلَسَـتْ أعْـيُـنًـا صِـحـاحَـا![٦]

وقال آخر: [من البسيط]

ما أقْـتَـلَ الـحُـبَّ! والإنـسـانُ يـجـهَـلُهُ وكـلُّ مـا لـم يَـذُقْـه فـهـو مَـجْـهُـولُ

راح الـرُّماةُ إلـى بـعـض الـمَـهَـا، فـإذا بَعْضُ الرُّماةِ بِبَعْضِ الصَّيْدِ مَقْتُول![٧]

وأمّا الآفات التي تجري على العاشق من المرض والضّنا والجنون والمخاطرات بالنفوس، وإلقائها إلى الهلاك، فهي كثيرة جدًّا، مشاهَدة ومسموعة.

(١) المجون: قلّة الحياء.

(٢) هو محمد بن عمر العنبري، أبو بكر، أديب ظريف، حسن الشعر، من أهل بغداد، كان متصوّفًا وخرج على المتصوّفين وذمّهم بقصائد، أورد ابن الجوزي إحداها في كتابه: تلبيس إبليس، توفي سنة ١٠١٢ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٣١٢».

(٣) بابل: مملكة كانت مشهورة في التاريخ، وبابل عاصمتها. قال ابن حوقل: هي أقدم أبنية العراق، وإليها ينسب إقليم بابل، وكانت ملوك الكنعانيين يقيمون بها. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

(٤) الصراح: الواضح.

(٥) حسا الكأس: تناول ما فيه جرعة جرعة: «شربه».

(٦) المراض: التي فيها فتور وانكسار وضعف، وتكون أشدّ لأسر القلوب.

(٧) المها: البقر الوحشية، تشبه عيون النساء بعينيها.

فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج بن الجوزيّ بسند يرفعه، قال: لما بعثت قُريشٌ عمارةَ بن الوليد مع عمرو بن العاص(١) إلى النجاشيّ يكلّمانه فيمن قدم عليه من المهاجرين، فراسل عمارة جارية لعمرو بن العاص كانت معه فصغَتْ إليه، فاطلع عمرو على ذلك فوَجِدَ(٢) على عمارة، وكان عمارة أخبر عَمْرًا أن زوجة النجاشيّ عَلِقته وأدخلته إليها فوشى عمرو بعمارة عند النجاشيّ وأخبره بالخبر، فقال له النجاشيّ: ٱئتني بعلامة أستدلُّ بها على ما قلتَ! ثم عاد عمارة فأخبر عمرًا بأمره وأمر زوجةِ النجاشيّ، فقال له عمرو: لا أقبل هذا منك إلا أن تُعْطِيَك من دُهْن(٣) الملك الذي لا يَدَّهن به غيره، فكلّمها عمارة في ذلك، فقالت: أخاف من الملك فأبى أن يرضى منها حتّى تعطيه من ذلك الدُّهْن فأعطته منه، فأعطاه عمرًا فجاء به عمرو إلى النجاشيّ فنفخ سحرًا في إحليل(٤) عمارة، فذهب مع الوحش (فيما تقول قريش) فلم يزل متوحِّشًا يرد ماء في جزيرة بأرض الحبش حتى خرج إليه عبد الله بن أبي ربيعة في جماعة من أصحابه فرَصَده على الماء فأخذه فجعل يصيح به: يا بجير أرسلني(٥)! فإني أموت إن أمسكتني! فأمسكه فمات في يده.

وحكى عن محمد بن زياد الأعرابيّ(٦) قال: رأيت بالبادية أعرابيًا في عُنُقه تمائمُ(٧) وهو عُرْيانٌ وعلى سوأته خرقة وفي رجله حَبْل ومن خلفه عجوز آخذة بطَرَف الحبل وهو يَعضُّ ذراعيه، فقلت للعجوز: من هذا؟ فقالت: ابن ابنتي! فقلت لها: أبة مَسٌّ من الجنّ؟ فقالت: لا والله ولكنه نشأ وابنة عمّ له في مكان واحد، فعُلِّقها وعُلِّقته، فحبسها أهلها ومنعوها منه فزال عقله وصار إلى ما ترى! فقلت لها: ما اسمه؟ قالت: عكرمة، فقلت: أيا عِكْرِمة ما أصابك؟ قال: أصابني داء قيس وعروة وجميل، فالجسم مني نحيل، والفؤاد عليل، قال: فتركته ومضيت.

---

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل السّهمي القرشي، أبو عبد الله، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم، كان في الجاهلية من الأشدّاء على الإسلام، وأسلم في ذات الحديبية، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٤ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٧٩».

(٢) وجد عليه: حقد.

(٣) الدّهن: الطيب الذي يتطيّب به.

(٤) الإحليل: الذّكر من الرّجل.

(٥) أرسلني: أطلقني.

(٦) هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله، راوية، ناسب، علّامة باللغة، من أهل الكوفة، ولم يُرَ أحدٌ في الشّعر أعلم منه، وهو ربيب المفضّل الضبّي، مات بسامراء سنة ٨٤٥ م، له تصانيف كثيرة. «فهرس الأعلام ٦/ ١٣١».

(٧) التمائم: مفردها تميمة، وهي عوذة تعلّق في العنق لدفع العين والسِّحر.

وحكي عن عباس بن عبيد، قال: كان بالمدينة جارية ظريفةٌ حاذقةٌ بالغناء فهَوِيتْ فتى من قريش، فكانت لا تُفارقه ولا يفارقها، فملَّها الفتى وفارقها، وتزايدت محبّتها له حتى ولِهَتْ، وتفاقم الأمر بها حتّى هامت على وجهها ومَزَّقت ثيابها، فرآها مولاها في ليلة من الليالي، وهي تدور في السِّكك[١] ومعه أصحاب له، فجعلت تبكي وتقول: [من الكامل]

الـحُـبُّ أوّل مـا يـكُـونُ لَجَـاجَـةً ... تَـأْتـي بـه وتَـسـوقُـه الأقـدارُ[٢]

حتَّى إذا اقْتَحَمَ الفتى لُجَجَ الهوى ... جـاءت أُمـورٌ لا تُـطـاق كِـبَـارُ

قال: فما بقي أحدٌ إلا رحمها، فقال لها مولاها: يا فلانة، اْمضي معنا إلى بيتنا! فأبَتْ وقالت: [من الخفيف]

* شَـغَـلَ الـحَـلْـيُ أهْـلَـه أن يُـعَـارَا[٣] *

قال: وذكر بعض مَن رآها ليلة وقد لقِيتْها جاريةٌ أخرى مجنونةٌ فقالت لها: فلانة، كيف أنت؟ قالت: كما لا أُحبّ، فكيف أنت ومن وَلَهِك وحُبِّك؟ قالت: على ما لم يَزَلْ، يتزايد على مَرِّ الأيّام! قالت لها: فغَنّي بصوتٍ من أصواتك فإني قريبة الشَّبَه بك! فأخذت قصبة تُوقِّع بها وغنَّت: [من البسيط]

يا مَنْ شَكَا ألَمًا للحُبِّ شبَّهه ... بالنارِ في القَلْب من حُزْنٍ وتَذْكارِ!

إنِّـي لأُعْـظِـمُ مـا بـي أن أُشَـبِّـهَـه ... شـيـئًا يُـقـاس إلـى مِـثْـلٍ ومِـقْـدار

لـو أنَّ قَـلْبِـيَ فـي نـارٍ لأَحْـرَقـهـا ... لأنَّ أجـزاءه أذْكَـى مـن الـنَّـار![٤]

ثم مضت.

وحكى عن سليمان بن يحيىٰ بن معاذ[٥] قال: قدم عليّ بنيسابور[٦] إبراهيم بن

---

(١) السِّكك: مفردها سكّة، وهي الطريق المستوي، أو الصفّ من الشجر.

(٢) اللّجاجة: التمادي والملازمة.

(٣) شغل الحكيُ أهلَهُ أن يعارا: أي أهلُ الحكي احتاجوا أن يعلّقوه على أنفسهم، فلذلك لا يعيرون، مثلٌ يضربه المسؤول شيئًا هو أحوج إليه من السائل. «مجمع الأمثال ١/ ٤٧٢».

(٤) أذكى من النار: أشدّ لهبًا واشتعالاً.

(٥) هو سليمان بن يحيىٰ بن معاذ بن جعفر الرّازي، من أهل الريّ، والده يحيىٰ واعظٌ زاهد، أقام ببلخ ومات بنيسابور، له كلمات سائرة. «انظر فهرس الأعلام ٨/ ١٧٢».

(٦) نيسابور: مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، معدن الفضلاء ومنبع العلماء، سمّيت بذلك لأن سابور مرّ بها وفيها قصبٌ كثير، فقال: يصلح أن يكون هاهنا مدينة، فقيل لها نيسابور. «انظر=

سبابة الشاعر البصريّ، فأنزلته عليّ فجاء ليلة من الليالي وهو مكروب قد هاجَ، فجعل يَصِيح بي: يا أبا أيوب! فخشيت أن يكون قد غشيَتْه بليةٌ، فقلت: ما تشاء؟

فقال: [من مخلّع البسيط]

* أعْـيَـانِـي الـشـادِنُ الـرَّبِـيـبُ![١] *

فقلت: بماذا؟

فقال:

* أشْـكُـو إلـيـه فـلا يُـجِـيـبُ! *

فقلت: داره وداوه!

فقال:

مِـنْ أيْـنَ أبْـغِـي شِـفـاء دائِي؟ وإنّـمـا دَائِيَ الـطَّـبِـيـب!

فقلت: إذنْ يفرّج الله عزّ وجلّ!

فقال:

يـا رَبِّ، فَـرِّج إذًا وعَـجِّـل فـإنَّـك الـسَّـامِـعُ الـمُـجِـيـبُ!

ثم انصرف.

وحدّث عن علي بن محمد النوفليّ عن أبي المختار عن محمد بن قيس العبديّ، قال: إني لبمزدلفة[٢] بين النائم واليقظان إذ سمعت بكاء حرقًا وغِناء عاليًا، فاتبعتُ الصوت فإذا أنا بجارية كأنها الشمس حسنًا ومعها عجوز، فلَطئْت[٣] بالأرض لأمتع عيني بحسنها، فسمعتها تقول: [من الطويل]

دعـوتُـكَ يـا مـولاي سِـرًّا وجَـهْـرةً دعاءَ ضعيف القلب عن محمل الحبِّ!
بُلِيتُ بقاسي القلب لا يَعْرِف الهوى وأقتل خلق الله للهائم الصبِّ![٤]

= معجم البلدان ٥/ ٣٣١».

(١) الشادن: ولد الظبية.

(٢) المزدلفة: المشعر الحرام، ومصلّى الإمام يصلي فيه العشاء والمغرب والصبح، وهو مبيت للحاج ومجمعُ الصلاة إذا صدروا من عرفات، قيل: إنّ آدم لما هبط إلى الأرض لم يزدلف إلى حوّاء أو تزدلف إليه حتى تعارفا بعرفة، واجتمعا بالمزدلفة فسمّيت جمعًا ومزدلفة. «انظر معجم البلدان ٥/ ١٢٠، ١٢١».

(٣) لطئت بالأرض: لصقت بها.

(٤) الصبّ: العاشق الذي رقّ واشتاق.

فإن كنتَ لم تقض المودّة بيننا فلا تُخْلِ من حبٍّ له أبدًا قلبي!
رضيتُ بهذا ما حييتُ فإن أمُتْ فحسبي مَعَادًا في المعاد به حسبي![1]

قال: وجعلت تردّد هذه الأبيات وتبكي، فقمتُ إليها وقلت: بنفسي من أنتِ؟ مع هذا الوجه وهذا الجمال يمتنع عليك من تريدين؟ قالت: نعم! والله إنه يفعل تصبّرًا وفي قلبه أكثر مما في قلبي! قلت: فإلى كم البكاء؟ قالت: أبدًا! أو يصير الدمع دمًا وتتلَفَ نفسي غمًّا. فقلت: إن هذه آخر ليلة من ليالي الحجّ، فلو سألت الله تعالى التوبة مما أنتِ فيه، رجوتُ أن يذهب حبّه من قلبك! قالت: يا هذا، عليك بنفسك في طلب رغبتك، فإني قد قدّمت رغبتي إلى من ليس يجهل بغيتي! وحوّلتْ وجهها عني، وأقبلتْ على بكائها وشِعرها.

وحكى أبو الفرج، عبد الرحمٰن بن عليّ بن محمد بن الجوزيّ في كتابه المترجم بـ «ذَمّ الهوى» بسند رفعه إلى هشام بن عروة[2]، قال: أذِنَ معاوية بن أبي سفيان يومًا للناس، فكان فيمن دخل عليه فتى من بني عُذْرة، فلما أخذ الناس مجالسهم، قام الفتى العذريّ بين السماطين[3]، فأنشأ يقول: [من الطويل]

مُعَاوِيَ، يا ذا الفَضْلِ والحِلْمِ والعَقْلِ وذا البِرِّ والإحسانِ والجُودِ والبَذْلِ![4]
أتَيْتُك لمَّا ضاقَ في الأرض مَسْكَني وأنْكَرْتُ ممّا قد أُصِبتُ به عَقْلِي
ففَرِّج ـ كَلَاكَ اللهُ ـ عنِّي فإنّني لَقِيتُ الذي لم يَلْقَهُ أحدٌ قَبْلِي![5]
وخُذْ لي ـ هداكَ اللهُ ـ حقِّي من الذي رماني بسَهْمٍ كان أهونُه قَتْلي!
وكنت أُرَجِّي عدْلَه إن أتيتُه فأكثر تَرْدادي مع الحَبْس والكَبْل![6]
سَبَانِي سُعْدَى وانبرى لخُصُومتي وجارَ ولم يَعْدِلْ وغاصَبَنِي أهْلِي
فَطَلَّقْتُها من جَهْدِ ما قد أصابَني! فهذا أميرَ المؤمنين من العَذْل؟[7]

(١) حسبي: يكفيني، والمعاد: الحشر، أي يوم القيامة.
(٢) هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوّام القرشي الأسديّ، أبو المنذر، تابعي من أئمّة الحديث، من علماء المدينة، ولد وعاش فيها ووفد على المنصور العباسي في بغداد، فكان من خاصّته وتوفي هناك سنة ٧٦٣ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٨٧».
(٣) السّماطين: مثنى سماط، وهو الصفّ أو الجانب.
(٤) البذل: العطاء.
(٥) كلاك الله: حفظك الله ورعاك.
(٦) الكبل: القيد.
(٧) العذل: اللّوم.

فقال معاوية: أَدْنُ بارك الله عليك! ما خَطْبك؟ فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! إنّني رجل من بني عُذْرة، تزوّجت ابنة عمٍّ لي، وكانت لي صِرْمة[١] من الإبل وشُوَيْهات[٢] فأنفقت ذلك عليها، فلما أصابتني نائبة الزمان وحادثات الدّهر، رَغِب عني أبوها. وكانت جارية فيها الحياء والكرم، فكرِهَتْ مخالفة أبيها، فأتيت عاملك مروان بن الحكم مستصرخًا به راجيًا لنصرته، فذكرت له قصّتي، فأحضر أباها وسأله عن قضيّتي، وكان قد بلغه جمالها، فدفع لأبيها عشرة آلاف درهم، وقال له: هذه لك، وزوّجني بها وأنا أضمن خلاصها من هذا الأعرابيّ! فرغب أبوها في البذل فصار الأمير لي خصمًا وعليّ منكرًا! فانتهرني وأمر بي إلى السجن وأرسل إليّ أن أطلّقها، فلم أفعل. فحبسني وضيّق عليّ وعذّبني بأنواع العذاب، فلمّا أصابني مَسُّ الحديد وألَمُ العذاب ولم أجد بُدًّا عن ذلك، طلّقتها. فما استكملت عدّتها حتّى تزوّج بها. فلما دخل بها أرسل إليّ فأطلقني. وقد أتيتك يا أمير المؤمنين مستجيرًا بك، وأنت غياث المكروب، وسند المسلوب، فهل من فرج؟ ثم بكى وقال في بكائه: [من المجتثّ]

فـي الـقَـلْـبِ مِـنّـيَ نـارُ ... والـنـارُ فـيـهـا اسْـتِـعـارُ![٣]
والـجِـسْـم مِـنّـي نَـحِـيـلٌ ... والـلّونُ فـيـه اصْـفِـرارُ
والـعَـيْـنُ تَـبْـكِـي بـشَـجْـوٍ ... فـدَمْـعُـهـا مِـدْرارُ[٤]
والـحُـبُّ داءٌ عَـسِـيـرٌ ... فـيـه الـطَّـبِـيـبُ يَـحـارُ
حُـمِّـلـتُ مـنـه عَـظِـيـمًـا ... فـمـا عـلـيـه اصْـطِـبـار[٥]
فـلَـيْـسَ لَـيْـلِـيَ لَـيْـلًا ... ولا نَـهـارِيَ نَـهـارُ!

فرقّ له معاوية وكتب إلى ابن الحكم كتابًا غليظًا، وكتب في آخره: [من البسيط]

رَكِبْتَ أمرًا عظيمًا لستُ أعْرِفُه ... أستغفِرُ اللهَ من جَوْرِ امْرِئٍ زاني!
قد كُنتَ تُشْبِه صُوفِيًّا له كُتُبٌ ... مِن الفرائضِ أو آياتِ فُرقانِ

(١) الصرمة: الجماعة والقطعة.
(٢) الشويهات: من الغنم، «الشويهة»: الشاة الصغيرة.
(٣) استعرّت النار: توقّدت.
(٤) الشجو: الهمّ والحزن، والمدرار: السائل الذي لا ينقطع.
(٥) حُمّلت: عانيت، وحملت ثقيلًا منه.

حتَّى أتانا الفتى العذْرِيُّ منتَجِبًا ... يَشْكُو إليّ بحقٍّ غَيْرِ بُهْتانِ[١]

أُعْطِي الإلٰه عُهُودًا لا أَخِيسُ بها ... أوْ لا فبُرِّئت من دِينٍ وإيمانِ![٢]

إن أنتَ راجَعْتَنِي فيما كتَبْتُ به ... لأجعَلَنَّكَ لَحْمًا بين عِقْبانِ![٣]

طَلِّقْ سُعادَ، وجَهِّزها معجَّلةً ... مع الكُمَيْتِ، ومعْ نَصْر بن ذبيان!

فما سمعتُ كما بُلِّغتُ من عَجَب ... ولا فِعالُك حقًّا فِعْل إنْسان!

ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الكميت ونصر بن ذبيان، وقال: اذهبًا به إليه!

قال: فلما ورد كتاب معاوية على ابن الحكم وقرأه تنفّس الصُّعَداء[٤]، وقال: وَدِدْتُ أن أمير المؤمنين خلَّى بيني وبينها سنة ثم عرضني على السّيف! وجعل يؤامر[٥] نفسه في طلاقها فلا يقدر، فلما أزعجه الوفد طلّقها وأسلمها إليهما، فلما رآها الوفد على هذه الصورة العظيمة وما اشتملت عليه من الجمال المفرط، قالوا: لا تصلح هذه إلا لأمير المؤمنين! وكتب ابن الحكم كتابًا لأمير المؤمنين معاوية، ودفعه إليهما مع الجارية، فكان مما كتب فيه يقول: [من البسيط]

لا تحنَثَنَّ أميرَ المؤمنينَ فقَدْ ... أُوفي بعَهْدك في رِفْقٍ وإحسان

وما رَكِبْتُ حرامًا حينَ أعْجَبَني ... فكيفَ سُمِّيتُ باسمِ الخائنِ الزانِي؟

أعذرْ فإنك لو أبصرتها لجرَتْ ... منك الأماني على تمثال إنسانِ!

وسوف تَأْتِيكَ شمسٌ ليس يَعْدِلها ... عند البَرِيَّة من إنسٍ ومن جانِ!

حَوْراءُ يقصُر عنها الوصفُ إن وُصِفتْ ... أقولُ ذلك في سِرٍّ وإعلانِ![٦]

فلما ورد الكتاب على معاوية وقرأه، قال: لقد أحسن في الطاعة، ولكن أطنب[٧] في ذكر الجارية! ولئن كانت أعطيت حسن النَّغْمة مع هذا الوصف الحسن فهي أكمل البرية! فأمر بإحضارها، فلما مثلتْ بين يديه، استنطقها فإذا هي أحسن الناس كلامًا وأكملُهم شَكْلًا ودَلَالًا، فقال: يا أعرابيّ، هذه سعدى! ولكن هل لك

(١) البهتان: الكذب والافتراء. (٢) أخيس بالعهد: أنقضه وأخونه.
(٣) العقبان: مفردها عقاب، وهو طائر من الجوارح، تأكل اللّحوم والحشرات.
(٤) تنفّس الصعداء: أي تنفّس نفسًا ممدودًا طويلًا من توجّع وحسرة.
(٥) يؤامر نفسه: يشاورها.
(٦) الحوراء من النساء: البيضاء، لا يقصد بذلك حور عينيها.
(٧) أطنب: أطال وبالغ.

عنها من سَلْوة بأفضل الرغبة؟ قال: نعم، إذا فرّقت بين رأسي وجسدي! فقال: أعوّضك عنها يا أعرابيّ ثلاث جوارٍ أبكار ومع كل واحدة ألف دينار، وأقسم لك من بيت المال ما يكفيك في كلّ سنة ويعينك على صحبتهنّ. فشهق شهقة ظنّ معاوية أنه مات، فقال له: ما بالك يا أعرابيّ؟ قال: أشرُّ بال وأسوأ حال، استجرت بعدلك من جور ابن الحكم، فعند من أستجير من جورك؟ ثم أنشأ يقول: [من البسيط]

لا تَجْعَلَنّيَ والأمثالُ تُضْرَبُ بِي ... كالمُستغيثِ من الرَّمْضاءِ بالنارِ![١]
أَرْدُد سُعادَ على حَيْرانَ مكتئبٍ ... يُمْسِي ويُصْبِحُ في هَمٍّ وتَذْكَارِ!
قـد شَفَّـه قـلَقٌ مـا مـثـلُه قَـلَقٌ ... وأُسْعِر القَلْبُ منه أيّ إسعار![٢]
كَيْفَ السُّلُوُّ، وقد هام الفؤاد بها ... وأصبَحَ القلبُ عنها غَيْرَ صَبَّارِ؟

قال: فغضب معاوية غضبًا شديدًا، ثم قال: يا أعرابيّ، أنت مقرٌّ بأنك طلّقتها! ومَرْوان مقرٌّ بأنه طلّقها، ونحن نخيّرها فإن اختارتك أعدناها إليك بعَقْدٍ جديدٍ، وإن اختارت سواك زوّجناه بها. ثم التفت إليها أمير المؤمنين وقال: ما تقولين، يا سُعْدى؟ أيما أحبُّ إليك، أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه وما تصيرين إليه عنده، أو مروانُ بن الحكم[٣] في عَسْفه[٤] وجَوْره، أو هذا الأعرابيّ في فقره وسُوء حاله؟ فأنشأت تقول: [من البسيط]

هـذا، وإنْ كـانَ فـي فَقْرٍ وإضرارِ ... أَعَزُّ عندِيَ مِن قَوْمِي ومِن جارِي![٥]
وصاحبِ التّاجِ أو مَرْوَانَ عـامِلِهِ ... وكـلِّ ذي دِرْهـمٍ عِـنْـدي وديـنـارِ!

---

(١) الرّمضاء: الأرض أو الحجارة التي حميت من شدّة حرارة الشمس، وفي المثل: كالمستغيث من الرمضاء بالنار، يضرب مثلًا في الخلّتين من الإساءة تجمعان على الرجل. «انظر مجمع الأمثال ٢/ ١٧٨».

(٢) شفّه القلق: أذواه وبراه وأرّقه.

(٣) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو عبد الملك، ولّاه معاوية، وقد تولّى الخلافة بعد معاوية بن يزيد، وإليه يُنسب بنو مروان ودولتهم المروانية، ولد بمكّة، توفي بدمشق سنة ٦٨٥ م.

(٤) العسف: الظلم.

(٥) لقد ورد في كتاب «ذمّ الهوى لابن الجوزي ص ٣٤١، تحقيق مصطفى عبد الواحد» ذكر هذه الأبيات على الشكل التالي:

هـذا وإن أصـبـح فـي أطـمـار ... وكـان فـي نـقـصٍ مـن الـيـسـار
أكـثـر عـنـدي مـن أبـي وجـاري ... وصـاحـب الـدّرهـم والـدّيـنـار
أخـشـى إذا غـدرت حـرّ الـنّـار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ولا لغَدَرات الأيام! وإن لي معه صحبة لا تُنسى ومحبّة لا تَبلى! والله إني لأحق مَنْ صبر معه في الضرّاء كما تنعّمت معه في السرّاء! فعجب كلُّ من كان حاضرًا، فأمر له بها ثم أعادها له بعقد جديد، وأمر لهما بألف دينار، فأخذها وانصرف يقول: [من الرجز]

خَلُّوا عن الطَّرِيق للأعرابي! ألم تَرِقُّوا، وَيْحكُمْ ممَّا بِي؟

[قال: فضحَّك معاوية وأمر بها فأدخلت في قصوره حتى انقضت عدَّتها من ابن الحكم، ثم أمر بدفعها إلى الأعرابي][١].

ولقد ساق ابن الجوزي في كتابه من أخبار العشّاق وما نالهم من الأمراض والجنون والضّنا، وقصّ كثيرًا من أخبارهم، تركنا إيراد ذلك رغبةً في الاختصار، لأنه أمر غير منكور.

* * *

وأمّا من خاطر بنفسه وألقاها إلى الهلاك لأجل محبوبه، فمن ذلك ما روى عن أبي ريحانة أحدِ حجاب عبد الملك بن مروان، أنّه قال: كان عبد الملك يجلِس يومًا في الأسبوع جلوسًا عامًّا للناس، فبينا هو جالس في مُسْتَشْرِفٍ[٢] له وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قِصَّة غير مترجمة، فيها:

«إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنّيني ثلاثة أصوات ثم ينفذ فيّ ما شاء من حكمه، فعل!».

فاستشاط[٣] من ذلك غضبًا وغيظًا، وقال: يا رباح! عليَّ بصاحب هذه القصّة! فخرج الناس جميعًا فأدخل عليه غلام كما عذَّر[٤]، من أحسن الفتيان، فقال له عبد الملك: يا غلام، هذه قصّتك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وما الذي غرّكَ منّي؟ والله لأمثلَنَّ بك ولأردعنّ بك نظراءك من أهل الجسارة[٥]! ثم قال: عليّ بالجارية فجيء بها كأنها فِلقة قمر! وبيدها عودها ووضع لها كرسيّ، فجلستْ، فقال عبد الملك: مُرْها يا غلام! فقال لها: يا جارية، غنّيني بشعر قيس بن ذَرِيح[٦]:

---

(١) ما بين قوسين زيادة من كتاب «ذمّ الهوى ص ٣٤١».
(٢) المستشرف: المكان الذي انتصب وعلا. (٣) استشاط غضبًا: ثار واشتدّ غضبهُ.
(٤) عذّر: نبت شعر عذاره. (٥) الجسارة: الجرأة.
(٦) هو قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة الكناني، شاعرٌ من العشاق المتيّمين، اشتهر بحب «لبنى»=

[من الطويل]

لقد كنتِ حَسْبَ النفسِ، لو دام ودنا ... ولكنما الدنيا متاع غُرورِ![1]
وكنَّا جميعًا قبل أن يَظْهَرَ الهوى ... بأنعَم حالَيْ غبطةٍ وسُرورِ
فما بَرِح الواشُونَ حتَّى بدَتْ لنا ... بُطُونُ الهوى مقلوبةً لظُهورِ

فغنّت، فخرج الغلام من جميع ما كان عليه من الثياب تخريقًا[2]، ثم قال له عبد الملك: مُرْها تغنّك الصوت الثاني! فقال: غنّيني بشعر جميل: [من الطويل]

ألا لَيتَ شِعْرِي! هل أبِيتَنَّ ليلةً ... بوادي القُرى؟ إني إذًا لسَعِيدُ![3]
إذا قلتُ: ما بِي يا بُثينةُ قاتِلي ... من الحُبِّ! قالت: ثابتٌ ويَزِيدُ![4]
وإن قلتُ: رُدِّي بعضَ عَقْلِي أعِشْ بهِ ... مع الناس! قالتْ: ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ!
فلا أنا مردُودٌ بما جئتُ طالِبًا ... ولا حُبُّها فيما يَبِيد يَبِيدُ![5]
يموتُ الهوى منّي إذا ما لَقِيتُها ... ويَحْيَا إذا فارقْتُها فيعُودُ!

فغنّته الجارية، فسقط الغلام مغشيًا عليه ساعة، ثم أفاق، فقال له عبد الملك: مُرْها فلتغنك الصوت الثالث! فقال: يا جارية! غنّيني بشعر قيس بن الملوّح[6]: [من الطويل]

وفي الجيرةِ الغادِينَ من بَطْنِ وَجْرةٍ ... غزالٌ غَضِيضُ المُقْلتيْنِ رَبِيبُ[7]
فلا تحسَبي أنّ الغَرِيبَ الذي نَأى ... ولكنَّ من تَنأَيْنَ عَنه غَرِيبُ!

= بنت الحباب الكعبية، من شعراء العصر الأموي كان رضيعًا للحسين بن عليّ بن أبي طالب، أخباره مع لبنى كثيرة جدًا، وشعره عالي الطبقة في التشبيب ووصف الشوق والحنين. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦».

(١) متاعُ غرور: أي متاع يخدع الإنسان ويغرّه ببعض الأشياء الزّائلة.

(٢) تخريقًا: تمزيقًا.

(٣) وادي القرى: موضع قرب المدينة كان يقيم فيه جميل بن معمر وبثينة. «ديوان جميل ص ٣٩، دار صادر».

(٤) ثابت: مقيم. (٥) يبيد: يفنى ويهلك.

(٦) هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري، مجنون ليلى، شاعر غزل من المتيّمين، من أهل نجد، لم يكن مجنونًا وإنّما لقّب بذلك لهيامه بليلى بنت سعد مات سنة ٦٨٨ م، وله ديوان مطبوع. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٠٨».

(٧) بطن وجرة: قال الأصمعيّ: وجرة بين مكّة والبصرة، ليس فيها منزل، فهي مربٌ للوحش. «معجم البلدان ٥/ ٣٦٢». وغضيض المقلتين: أي في طرفه فتور وانكسار.

فغنّته الجارية فطرح نفسه من المستَشْرَف، فتقطع قبل وصوله إلى الأرض، فقال عبد الملك: ويحه[١]! لقد عَجَّل على نفسه! ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل! وأمر بإخراج الجارية عن قصره، فأُخرجت، ثم سأل عن الغلام فقالوا: غريب، لا يعرف إلّا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق، ويده على رأسه: [من الطويل]

غَدًا يكثُر الباكُونَ منّا ومِنْكُمْ وتَزْدادُ دارِي من دِيارِكُمْ بُعْدَا!

وحُكي أن مثل هذه الحكاية جرت في مجلس سليمان بن عبد الملك.

حُكي عن أبي عثمان الجاحظ أنّه قال: قعد سليمان بن عبد الملك[٢] يومًا للمَظَالم[٣] وعُرِضتْ عليه القِصَص فمرّت به قصّة فيها: إنْ رأى أمير المؤمنين أن يُخرج إليَّ فلانة (إحدى جواريه) حتّى تغنيني ثلاثةَ أصوات، فعل. فاغتاظ سليمان وأمر أن يؤتى برأسه، ثم أتبع الرسول برسول آخر فأمره أن يدخلَ الرجلَ إليه. فلما مثل بين يديه، قال له: ما الذي حملك على ما صنعتَ؟ فقال: الثقة بحلمك، والاتّكال على عفوك! فأمره بالجلوس، فجلس حتى لم يبقَ من بني أمية أحد. ثم أمر بإخراج الجارية فأخرجت ومعها عود، ثم قال: اخترْ! فقال: تغني لي بقول قيس بن الملوّح: [من الطويل]

تَعلَّق رُوحي رُوحها قبْلَ خَلْقِنا ومن بَعْدِ أنْ كنّا نِطَافًا وفي المَهْدِ![٤]
فعَاشَ كما عِشْنا فأصبح نامِيًا وليسَ - وإن متْنا - بمنقصِف العَهْدِ[٥]
يكاد فَضِيض الماء يَخْدِشُ جِلْدَها إذا اغتسلت بالماء من رِقّة الجِلْدِ[٦]
وإنِّي لمُشْتاق إلى رِيح جَيْبِها كما اشتاقَ إدريسٌ إلى جَنَّة الخُلْدِ[٧]

---

(١) ويحه: كلمة ترحُّم وتوجّع، أو هي بمعنى «ويلٌ».
(٢) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيوب، الخليفة الأموي. «انظر فهرس الأعلام ٣/ ١٣٠».
(٣) المظالم: أي الشكاوى، وهو يوم كان يجلس فيه الخليفة فيستمع بنفسه إلى شكاوى الناس، ومن ذلك كان «ديوان المظالم».
(٤) النّطاف: من النّطفة، وهي المنيّ.
(٥) منقصف العهد: أي منقطع، والعهد: الميثاق.
(٦) فضيض الماء: ما تناثر من الماء أو رذاذه.
(٧) الجيب: من القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه، يريد: عنقها، وإدريس: نبيٌّ من أنبياء الله ورد ذكره في القرآن الكريم «سورة مريم، الآية ٥٦».

فغنّت. ثم قال: تأمر لي برطل. فأمر له به فشربه. ثم قال: تغني بقول جميل: [من الطويل]

عَلِقتُ الهوى منها وَلِيدًا، فلم يَزلْ ... إلى اليوم يَنْمِي حبُّها ويَزِيدُ
وأفنيتُ عُمْري في انتظار نَوَالِها ... وأَبْلَيْتُ فيها الدَّهرَ وهو جَديدُ
فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالِبًا ... ولا حُبُّها فيما يَبِيد يَبِيدُ
إذا قلتُ: ما بي يا بُثينةُ قاتِلي ... من الحُبِّ! قالت: ثابت ويَزيدُ
وإن قلتُ: ردّي بعضَ عَقْلي أعِشْ به ... مع الناسِ! قالتْ: ذاكَ منكَ بعيدُ

فغنّت، فقال له سليمان: قل ما تريد؟ قال: تأمر لي برطل، فأمر له به فشربه.

ثم قال: تغنّي بقول قيس بن ذريح: [من المضارع]

* لقد كنت حَسْبَ النفس *

الأبيات.

فغنّت. فقال له سليمان: قل ما تشاء! قال: تأمر لي برطل! فأمر له به، فما استتمّه حتّى وثب فصعد إلى أعلى قبّة ثم زَجَّ[1] نفسه على دماغه فمات. فاسترجع سليمان وقال: أتُراه توهَّم الجاهلُ أني أُخرج إليه جاريتي وأردّها إلى ملكي؟ يا غلام خذ بيدها فانطلق بها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدّقوا بثمنها عنه. فلما انطلقوا بها، نظرتْ إلى حفرة في الدار قد أُعِدَّت للمطر، فجذبت يَدَها من أيديهم وأنشأت تقول: [من السريع]

مَنْ ماتَ عِشْقًا فليمُتْ هكذا! ... لا خَيْر في عشْقٍ بلا مَوْتِ!

وزجّت نفسها في الحفرة على دماغها. فماتت.

وقد حُكِيَ أيضًا مثل هذه، وأنها وقعت للرشيد.

رُوِيَ عن أبي بكر محمد بن عليّ المخزوميّ قال: اشتريتُ للرشيد جارية مدنية. فأُعْجِبَ بها وأمر الفضلَ بن الربيع[2] أن يبعث في حَمْل أهلها ومواليها لينصرِفُوا بجوائزها. وأراد بذلك تشريفها. فوفد إلى مدينة السلام[3] ثمانون رجلًا،

---

(١) زجّ نفسه: رمى بها.
(٢) هو الفضل بن الرّبيع بن يونس، أبو العباس، وزيرٌ أديبٌ حازم، كان من خصوم البرامكة ووراء نكبتهم من هارون الرّشيد، توفي بطوس سنة ٨٢٤ م. «فهرس الأعلام ١٤٨/٥».
(٣) مدينة السّلام: بغداد.

ووفد معهم رجل من أهل العراق استوطن المدينة كان يهوى الجاريةَ. فلما بلغ الرشيدَ خبرُ مَقْدَمِهم أمر الفضلَ أن يخرج إليهم ليكتب اسمَ كل واحد منهم وحاجتَه، ففعل. فلما بلغ إلى العراقيّ قال: ما حاجتك؟ قال له: إن أنت كتبْتَها وضمنت لي عَرْضَها مع ما يُعرَض، أنبأتك بها. فقال: أفعلُ ذلك. فقال: حاجتي أن أجلس مع فلانة حتّى تغنّيني ثلاثة أصوات وأشربَ ثلاثةَ أرطال، وأخبرها بما تُجِنّ[١] ضُلوعي من حبّها! فقال الفضل: أنت مُوَسْوس[٢] مدخُول عليك في عقلك! فقال: يا هذا، قد أُمِرتَ أن تكتب ما يقول كلُّ واحد منّا فاكتب ما أقول واعرضه، فإن أُجبت إليه وإلا فأنت في أوسع العذر، فدخل الفضل مغضَبًا فوقف بين يدي الرشيد، وقرأ عليه ما كتب من حوائجهم. فلما فرغ قال: يا أمير المؤمنين فيهم واحد مجنون! سأل ما أُجِلُّ مجلس أمير المؤمنين عن التفوّه به. فقال: قل، ولا تجزَعنّ![٣] فقال: قال كذا وكذا، فقال: اُخرج إليه، وقل له: «إذا كان بعد ثلاث، فاْحضُرْ ليُنجزَ لك ما سألت»، وكن أنت متولّيَ الاستئذان له. ثم دعا بخادم فقال له: اُمضِ إلى فلانة فقل لها: حَضَر رجل يذكر كذا وكذا، وقد أجبناه إلى ما سأل فكُوني على أُهْبة[٤]، وخرج الفضل إلى الرجل وأخبره بما قال الرشيد، فانصرف وجاء في اليوم الثالث، فعرّف الفضل الرشيد خبره فقال: يُوضَع له بحيث أرى، كرسيٌ من فضّة، وللجارية كرسيٌّ من ذهب! وليُخرَج إليه ثلاثة أرطال! ففعلوا ذلك وجاء الفتى فجلس على الكرسيّ، والجارية بإزائه، فجعل يحدّثها والرشيد يراهما، فقال له الخادم: لم تُدْخَل فتشتُو وتُصَيِّف! فأخذ رطلًا وخرّ ساجدًا، وقال: إن شئت أن تُغَنّي فغنّي: [من الطويل]

خَليلَيَّ عُوجَا! بارَكَ اللهُ فيكما ... وإن لم تَكُنْ هندٌ بأرضِكما قَصْدا![٥]

وقُولَا لها: ليس الضلالُ أجازَنا ... ولكنَّما جُزْنا لنَلْقاكُمَا عَمْدا![٦]

غَدًا يَكْثُر الباكُون منّا ومِنْكُمُ ... وتَزْدادُ داري من دِيارِكُمُ بُعْدَا!

فغنّت، فشرب الرطل، وحادثها ساعة، فاستحثّه الخادم فأخذ الرطلَ بيده، وقال: غنّي جعلني الله فداءكِ: [من الطويل]

تَكلَّمُ مِنّا في الوُجوه عُيونُنا ... فنحنُ سُكوتٌ والهوى يَتَكَلَّمُ!

ونَغْضَب أحيانًا ونَرضى بطَرْفِنا ... وذلِكَ فيما بَيْنَنا ليس يَعْلَمُ!

---

(١) تجنُّ الضلوع: تخفي وتستر.
(٢) موسوس: داخله مسّ من جنون أو غيره.
(٣) الجزع: الخوف.
(٤) أُهْبة: استعداد.
(٥) عوجًا: عاج على المكان: عطف ومال.
(٦) أجازنا: جعلنا نجتاز دياركم ونؤمّ.

فغنّته وشرب الرطل الثاني وحادثها ساعة، واستعجله الخادم فخرّ ساجدًا يبكي وأخذ الرطل بيده واستودعها الله وقام ودموعه تستبق استباق المطر، وقال: إذا شئت أن تغنّي فغنّي: [من السريع]

أحْسَنَ ما كُنّا تفرّقْنَا ... وخَانَنا الدُّهْرُ وما خُنَّا!

فليتَ ذا الدّهْرَ لنا مَرّةً ... عادَ لَنَا الدُّهرُ كما كنّا!

فغنّته الصوتَ، فقلّب الفتى طرفه فبَصُر بدرجة في الصحن، فأمّها[1]، فأتبعه الخدم ليَهْدُوه الطريقَ، ففاتهم وصعد الدرجة فألقى نفسه إلى الأرض على رأسه، فمات. فقال الرشيد: عجّل الفتى! ولو لم يعجّل لوهبتُها له!

* * *

وممن خاطر بنفسه في هواه وعَرَّضها للتلف فنجا ونال خيرًا، ما حكاه ابن الجوزيّ بسند يرفعه إلى أبي الفرج أحمد بن عثمان بن إبراهيم الفقيه المعروف بابن الترسي قال: كنت جالسًا بحضرة أبي، وأنا حَدَث[2]، وعنده جماعة، فحدّثني حديث وصول النعم إلى الناس بالألوان الظريفة. وكان ممن حضر صديق لأبي، فسمعته يحدّث أبي، قال: حضرت عند صديق لي من التُّجّار - كان يتَّجِر بمائة ألف دينار - في دعوة. وكان حسن المرُوءة، فقدّم مائدة وقدّم عليها ديكريكة[3] فلم يأكل منها، فامتنعنا. فقال: كُلُوا! فإنّي أتأذّى بأكل هذا اللّون، فقلنا: نساعِدُك على تركه. قال: بل أساعدكم على الأكل، وأحتمل الأذى! فأكل وأكلنا، فلمّا أراد غسل يده أطال، فعددت عليه أنّه قد غسلها أربعين مرّة. فقلت: يا هذا، وسوستَ! فقال: هذه الأذية التي قرفت منها! فقلت: وما سببها؟ فامتنع من ذكر السبب، فلما ألححتُ عليه، قال: مات أبي وسني عشرون سنة، وخلّف لي نعمة وفيرة ورأس مال ومتاعًا في دكانه. فقال لما حضرته الوفاة: يا بُنَيّ! إنه لا وارثَ لي غيرك، ولا دَيْن عليّ

(١) أمّها: قصدها.
(٢) الحدث: الصغير السنّ.
(٣) «ديكبريكة» في كتاب صفة الأطعمة، دار الكتب المصرية: يقطّع اللحم أوساطًا ويترك في القدور، ويلقى عليه يسير ملح وكفّ حمص مقشور وكفرة يابسة، ورطبة وبصل مقطّع وكرّات ويطرح عليه غمرة ماء ويغلى، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه بعض الأفاويه، ويطبخ حتى يتبيّن طعمه، والظاهر أن صواب اللفظ «ديكبر ديكة» ثم اختصر وحرّف إلى «ديكريكة»، ففي المعاجم الفارسية «ديك برديك»، فمعنى «ديك» القدر، و «بر» فوق وعلى، فيكون المراد قدر فوق قدر، وتقول المعاجم: إن هذا النوع المزدوج يستعمل لأعمال التصعيد والتقطير، ولا يستبعد أن يكون هذا الطعام ممّا يعالج طبخه بهذه الطريقة فسمّي باسم وعائه...

ولا مَظْلِمةَ[١]! فإذا أنا مِتُّ فأحسِنْ جهازي وتصدّق عني بكذا وكذا، وأخرج عني حَجَّة بكذا، وبارك الله لك في الباقي! ولكن ٱحفظ وصيّتي! فقلت: قُلْ! قال: لا تسرف[٢]! في مالك، فتحتاجَ إلى ما في أيدي الناس فلا تجده. واعلم أن القليل مع الإصلاح كثير، والكثير مع الفساد قليل. فالزم السُّوقَ وكن أوّل من يدخلها، وآخِرَ من يخرج منها، وإن استطعت أن تدخلها سَحَرًا[٣] بليل فافعل، فإنك تستفيد بذلك فوائد تكشفها لك الأيام، ومات. فأنفذتُ وصيّته، وعملتُ بما أشار به، وكنت أدخُل السوق سَحَرًا، وأخرج منها عِشاء، فلا أعدَمُ من يجيء يطلب كفنًا فلا يجد من قد فتح غيري فأحتكم عليه، ومَن يبيع شيئًا والسوق لم تقم فأبتاع منه، وأشياء من هذه الفوائد، ومضى عليّ سنة وكسر، فصار لي بذلك جاه عند أهل السوق وعرفوا استقامتي وأكرموني. فبينا أنا جالس يومًا ولم تتكامل السوق، وإذا بامرأة راكبة حمارًا مصريًا وعلى كفله[٤] منديل دبيقيّ[٥] ومعها خادم وهي بزيّ القهارمة[٦]، فبلغت آخر السوق ثم رجعت، فنزلت عندي. فقمت إليها وأكرمتها، وقلت: ما تأمرين؟ وتأملتها فإذا بامرأة لم أرَ قبلها ولا بعدها إلى الآن أحسن منها في كل شيء، فتكلمتْ وقالت: أريد كذا وكذا (ثيابًا طلبَتْها). فسمعت نَغْمة ورأيت شكلًا قتلني فعشِقْتها في الحال أشدّ عشق، وقلت: ٱصبري حتى يخرج الناس، فآخذ ذلك لك فليس عندي إلا القليل مما يصلح لك. وأخرجت الذي عندي وجلستْ تحادثني، وكأن السكاكين في فؤادي من عشقها، وكشفت عن أنامِل رأيتها كالطَّلْع[٧]، ووجه كدارة القمر. فقمتُ لئلّا يزيد عليّ الأمر، وأخذتُ لها من السوق ما أرادتْ، وكان ثمنه مع مالي نحو خمسمائة دينار، فأخذتْهُ وركبتْ ولم تعطني شيئًا. وذهب عني لما تداخلني من حبّها أن أمنعها من المتاع إلّا بالمال، وأن أستدلّ على منزلها ومِن دار مَن هي؟ فحين غابت عنّي، وقع لي أنها محتالة وأن ذلك سبب فقري. فتحيّرتُ في أمري وكتمتُ خبري، لئلا أفتضح بما للناس عليّ،

---

(١) المظلمة: ما يطلبه المظلوم من مالٍ مغتصب.

(٢) لا تسرف: لا تبذّر. (٣) السَّحر: آخر الليل، قبيل الفجر.

(٤) الكفل: العجز من الإنسان والدّابة.

(٥) دبيقي: نسبة إلى دبيق، مدينة كانت بالقرب من دمياط، وكانت مشهورة بنفائس المنسوجات التي تُعرف باسمها، ويقول ياقوت: إنّها كانت بين الفَرَما وتنيس من أعمال مصر. «معجم البلدان ٢/ ٤٣٨».

(٦) القهارمة: القهرمانة: مدبّرة البيت ومتولّية شؤونه.

(٧) الطّلع: من النّخل شيء كالكوز ينفتح عن حبّ منضود فيه مادة إخصاب النخلة.

وأجمعتُ على بيع ما في يدي من المتاع وإضافته إلى ما عندي من الدراهم وأدفع أموال الناس إليهم ولزوم البيت والاقتصار على غلّة العقار الذي ورثته، وأخذتُ أشرع في ذلك مدّة أسبوع، وإذا بها قد أقبلتْ ونزلتْ عندي، فحين رأيتُها أُنسيتُ جميع ما جرى عليّ، وقمت إليها، فقالت: يا فتى، تأخرنا عنك لشُغُل عرض لنا، وما شككنا في أنك لم تشك أنا احتلنا عليك، فقلت: قد رفع الله قدرَكِ عن هذا! فقالت: هاتِ التخت[١] والطيار[٢]، فأحضرته، فأخرجت دنانير عُتُقًا، فوفتني المال بأسره، وأخرجت تذكرة بأشياء أُخَر، فأنفذتُ إلى التجّار أموالهم وطلبتُ منهم الذي أرادت، وحَصَّلتُ أنا في الوسط ربحًا جيّدًا، وأحضر التُّجّار الثياب فقمتُ وثمّنتها معهم لنفسي. ثم بعتها عليها بربح عظيم، وأنا في خلال ذلك أنظر إليها نظر مَن تألّف حبها، وهي تنظر إليّ نظر مَن فَطِنَتْ بذلك ولم تنكره. فهَمَمْت بخطابها ولم أقدر عليه، وجمعت المتاع فكان ثمنه ألف دينار، فأخذتْهُ، وركبت ولم أسألها عن موضعها، فلما غابتْ عنّي، قلتُ: هذه الآن الحيلة المُحكَمَة! أعطتني خمسمائة دينار وأخذت ألف دينار، وليس إلا بيعُ عقاري الآن، والحصولُ على الفقر! وتطاولت غيبتها عنّي نحو شهر، وألحّ التجّار عليّ بالمطالبة، فعرضتُ عقاري على البيع، ولازمنِي بعضُ التجّار فوزنت جميع ما كنت أملكه وَرِقًا[٣] وعَيْنًا[٤]. فبينا أنا كذلك، إذ نزلت عندي. فزال عني جميعُ ما كنت فيه برؤيتها. واستدعت الطيّار والتخت، فوزنت المال ورمت إليّ تذكرة يزيد ما فيها على ألفي دينار بكثير، فتشاغلتُ بإحضار التجّار ودفع أموالهم إليهم وأخْذِ المتاع منهم، وطال الحديث بيننا، فقالت لي: يا فتى، ألك زوجةٌ؟ فقلت: لا، والله ما عرفت امرأة قطّ، وأطمعني ذلك فيها، وقلت: هذا وقت خطابها، والإمساكُ عنها عجزٌ، ولعلّها تعود أو لا تعود. وأردت كلامها فهِبْتُها، وقمتُ كأنّي أحُثُّ التجّار على جمع المتاع. وأخذتُ يد الخادم وأخرجتُ إليه دنانير وسألته أن يأخذها ويقضي لي حاجة، فقال: أفعل، فقصصتُ عليه قصّتي وسألتُه توسّط الأمر بيني وبينها. فضحك وقال: والله إنها لك أعشق منك لها! ووالله ما بها حاجة إلى أكثر هذا الذي تشتريه، وإنما تأتيك محبّةً لك وطريقًا إلى مطاولتك، فخاطِبها ودعني، فجسَّرني على خطابها فخاطبتها وكشفت لها عشقي ومحبتي وبَكَيْت،

---

(١) التّخت: وعاء تصان فيه الثياب والأقمشة.

(٢) الطيّار: معيار الذهب لأنه على شكل الطائر، وهو ميزان لا لسان له.

(٣) الوَرِق: الدّراهم المضروبة، وتكون من فضّة أو غيرها.

(٤) العين: ما ضرب نقدًا من الدنانير، وتكون من ذهب أو غيره.

فضحكتْ. وتقبّلت ذلك أحسن قبول، وقالت: الخادم يأتيك برسالتي، ونهضَتْ ولم تأخذ شيئًا من المتاع، فرددتُه على أصحابه، وحصل لي ممّا اشترته أوّلًا وثانياً ألوفُ دراهم ربحًا، ولم أعرف النوم في تلك الليلة شوقًا إليها، وخوفًا من انقطاع السبب بيننا. فلما كان بعد أيام جاءني الخادم، فأكرمتُه وسألتُه عن خبرها، فقال: هي والله عليلة من شوقها إليك، فقلت: اشرحْ لي أمرها، فقال: هذه مملوكة السيدة أم المقتدر[١] وهي من أخصّ جواريها، واشتهت رؤيةَ الناس والدخول والخروج. فتوصلتْ حتَّى جعلتها قَهْرَمَانة[٢]. وقد والله حدّثت السيدةَ بحديثك وبكت بين يديها وسألتها أن تزوّجها منكَ، فقالت السيدة: لا أفعل أو أرى هذا الرجل، فإن كان يستأهلك وإلا لم أدَعْك ورأيَكِ. وتحتاج أن تحتال في إدخالك الدار بحيلة، فإن تمَّت وصلت بها إلى تزويجك بها، وإن انكشفت ضرب عنقك. وقد أنفذتني إليك في هذه الرسالة، وقالت لك: إن صبرتَ على هذا، وإلا فلا طريق لك والله إليّ، ولا لي إليك بعدها! فحملني ما في نفسي أن قلت: أصبِرُ، فقال: إذا كانت الليلة فاعبر إلى المحرم، وادخل إلى المسجد، وبت فيه. ففعلت ذلك، فلما كان وقت السَّحَر، إذا بطيار[٣] قد قدم، وخدم قد رفعوا صناديق فراغًا، فجعلوها في المسجد وانصرفوا. وخرجت الجارية فصَعدت إلى المسجد، والخادمُ معها. فجلستْ وفرّقتْ باقي الخدم في حوائج، واستدعَتْني فعانقَتْني وقبّلَتْني، ولم أكن نِلْتُ ذلك منها قبله، ثم أجلستني في بعض الصناديق وأقفلته. وطلعت الشمس وجاء الخدم بثياب وحوائج من المواضع التي كانت أنفذتهم إليها، فجعلت ذلك بحضرتهم في باقي الصناديق، وأقفلتها، وحُملت إلى الطيّار وانحدر. فلما حصلت فيه ندمت وقلتُ: قتلت نفسي لشهوة، وأقبلت أُلومها تارةً، وأشجّعها وأُمنّيها أخرى، وأنذر النُّذور على خلاصي، وأُوطِّن[٤] مرّة نفسي على القتل إلى أن بلغنا الدار، وحمل الخَدَم الصناديقَ، وحمل صندوقي الخادم الذي يعرف الحديث، وبادر به أمام الصناديق وهي معي، والخدم يحملون بقيّتها. وكلّما جازت بطائفة من الخدم والبوّابين، قالوا: نريد أن نفَتّش الصندوقَ، فتصيح عليهم وتقول: متى جرى الرسم معي بهذا؟ فيمسكون عنها

---

(١) المقتدر العباسي: هو جعفر بن أحمد بن طلحة، أبو الفضل، المقتدر بالله بن المعتضد بن الموفّق، خليفة عبّاسيّ، وُلد في بغداد وبُويع بالخلافة بعد أخيه المستكفي فاستصغره الناس، فخلعوه، ونصّبوا عبد الله بن المعتزّ ثمّ قتلوا ابن المعتزّ ونصّبوه مكانه، قتل سنة ٩٣٢ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٢١».

(٢) القهرمانة: مدبّرة شؤون البيت والخدم.

(٣) الطيّار: زورق من الزوارق الخفيفة.

(٤) وطّن نفسه على أمر: حملها عليه.

ورُوحي في السِّياق إلى أن انتهينا إلى خادم خاطبته هي بالأُستاذ، فعلمت أنه أجل الخَدَم، فقال: لا بدّ من فتح الصندوق الذي معك، فخاطبته بلين وذلّ، فلم يجبها. وعلمتُ أنها ما ذَلَّت ولها حيلة، فأغمي عليّ. وأنزلوا الصُّندوق ليفتحوه، فبُلْت من شدّة ما نالني من الفَزَع، فجرى البول من خلال الصندوق، فصاحتْ: يا أستاذ، أهلكتَ علينا متاعاً بخمسة آلاف دينار في الصندوق، ثيابٌ مصبَّغات وماء ورد، وقد انقلب على الثياب، والساعةَ تختلط ألوانها، وهي هلاكي مع السيدة! فقال لها: خذي صندوقك إلى لعنة الله أنت وهو، مُرِّي! فصاحت بالخدم: ٱحملوا، فأُدخلتُ الدار ورجعتْ إليّ روحي، فبينا نحن كذلك إذ قالت: واويلاه! الخليفة والله! فجاءني أعظم من الأوّل. وسمعت كلام خدم وهو يقول من بينهم: ويك يا فلانة! إيش في صندوقك؟ أريني هو، فقالت: ثياب لستّي يا مولاي، والساعة أفتحه بين يديها، وتراه، وقالت للخدم: أسْرِعُوا ويلكم! فأسرعوا فأدخلتني إلى الحجرة وفتحت الصندوق وقالت: ٱصعد من هذه الدرجة إلى الغُرْفة فاجلس فيها، وفتحت صندوقًا آخر فقلبت بعض ما فيه إلى الصندوق الذي كنت فيه، وأقفلت الجميعَ، وجاء المقتدرُ وقال: ٱفتحيه، ففتحته، فلم ير شيئًا فيه. فصعِدْت إليّ وجعلت تقبّلني وترشُفُني[1]. ونسيتُ ما جرى، ثم تركتني، وأقفلَتْ باب الحجرة يومها. ثم جاءتني ليلًا فأطعمتني وسقتني وانصرفَتْ. فلما كان من غد جاءتني، فقالت: السيّدة الساعةَ تجيء، فانظر كيف تخاطبها، ثم عادت بعد ساعة مع السيّدة، وقالت: ٱنزل، فنزلت، فإذا بالسيّدة جالسة على كرسيّ وليس معها إلّا وصِيفتانِ[2] وصاحبتِي، فقبَّلْتُ الأرض وقمتُ بين يديها، فقالت: ٱجلس، فقلت: أنا عبد السيّدة وخادمُها، وليس من محلي أن أجلس بحضرتها، فتأمّلَتْني وقالت: ما اخترتِ يا فلانة إلا حسنَ الوجه والأدبِ، ونهضت، فجاءتني صاحبتي بعد ساعة، وقالت: أبشر، فقد أذِنَتْ لي في تزويجك، وما بقي الآن عقبة إلا الخروج. فقلت: يسلم الله! فلمّا كان من غَدٍ حملتني في الصندوق، فخرجتُ كما دخلتُ بعد مخاطرة أُخْرى وفزع ثانٍ، ونزلت في المسجد ورجعت إلى منزلي، فتصدّقت، وحمدت الله تعالى على السلامة. فلما كان بعد أيام جاءني الخادم ومعه كيس وفيه ثلاثة آلاف دينار عينًا، وقال: أمرتني ستّي بإنفاذ هذا إليك من مالها. وقالت: اشتر به ثيابًا ومركوبًا وخدمًا، وأصلح به ظاهِرَك، وٱحضر يوم الموكب إلى باب العامَّة، وقِفْ حتَّى تُطْلَب. فقد وافَق الخليفة أن يزوّجك بحضرته، فأخذتُ المال وأجبتُ عن رُقْعة كانت معه، واشتريت ما قالوه بشيء يسير منه وبقي الأكثر عندي.

---

(١) رشف الماء ونحوه: مصّه بشفتيه. (٢) الوصيفة: الخادمة التي تقوم بأمر سيّدتها.

وركبتُ إلى باب العامّة في يوم الموكب بزيّ حسن، وجاء الناس فدخلوا إلى الخليفة، ووقفتُ إلى أن استُدْعِيتُ ودخلتُ. فإذا أنا بالمقتدر جالسًا والقضاة والقوّاد وغيرهم من الهاشميّين، فهِبْتُ المجلس وعُلّمت كيف أُسَلِّم، ففعلت. وتقدّم المقتدر إلى بعض القضاة الحاضرين فخطب لي وزوّجني، وخرجت من حضرته، فلما انتهيت إلى بعض الدهاليز، عُدِل[١] بي إلى دار عظيمة مفروشة بأنواع الفُرُش الفاخرة وفيها من الآلات والخدم والقماش ما لم أرَ مثله قَطُّ، وانصرف من أدخلني، فجلستُ يومي لا أقوم إلّا إلى الصلاة، وخدمٌ يدخلون وخدم يخرجون، وطعام عظيم يُنقل وهم يقولون: اليلة تُزَفّ فلانة (باسم صاحبتي) إلى زوجها البزّاز[٢]، وأنا لا أصدّق فرحًا، فلما جاء الليل أثّرَ فيّ الجوع وأُقْفِلت الأبوابُ، ويئستُ من الجارية، فقمت أطوف الدار فوقعت على المَطْبَخ. ووجدت الطبّاخين جُلُوسًا فاستطعمتهم فلم يعرِفُوني وقدّروني بعض الوكلاء. فقدّموا إليّ هذا اللون مع رغيفين فأكلتهما وغسلت يدي بأشنانٍ[٣] كان في المطبخ، وقدّرت أنها قد نقيت، وعدت إلى مكاني. فلما جنّ الليل إذا طبول وزمور وأصوات عظيمة، وإذا أنا بالأبواب قد فُتّحت وصاحبتي قد أُهْدِيت إليّ وجاؤوا بها فجلوها عليّ، وأنا أقدّر أن ذلك في النوم، ثم تُركتْ معي في المجلس، وتفرّق ذلك البَوْشُ[٤]، فلما خلونا، تقدّمْتُ إليها فقبلتها وقبّلتني، فلما شَمَّت رائحة لحيتي، رفَسَتْني[٥] فرمت بي عن المِنَصّة وقالت: أنكرتُ والله أن تُفْلِح يا عامِّي، يا سَفِلة، وقامت لتخرج، فقمت وعَلِقت بها وقبّلتُ الأرض ورجلَيْها، وقلت: عرّفيني ذنبي واعملي بعده ما شئت، فقالت: ويحك، أكلت ولم تغسِلْ يدك! فقصصت عليها قصّتي، فلمّا بلغت إلى آخرها قلتُ: عليّ وعليّ - وحلفتُ بطلاقها وطلاق كل امرأة أتزوّجها وصدقة مالي وجميع ما أملكه والحجّ ماشيًا على قدمي وكلّ ما يحلف به المسلمون - لا أكلتُ بعدها ديكيريكة إلا غسلتُ يدي أربعين مرّة. فاستحيتْ وتبسّمت وصاحت: يا جواري! فجاء مقدار عشر جوارٍ ووصائف، فقالت: هاتوا شيئًا نأكل، فقُدّمتْ ألوان ظريفة وطعام من أطعمة الخلفاء، فأكلنا وغسلنا أيدينا. واستدعت شرابًا فشربْنا وغنّى أولئك الوصائفُ أطيبِ غِناء وأحسنَه، ثم قمنا إلى الفراش فخلوتُ بها وبتُّ بأطيبِ ليلة، ولم نفترق أسبوعًا. وكانت يوم الأسبوع وليمةٌ

(١) عُدِل: عُطف وأميل.

(٢) البزّاز: الذي يبيع البزّ، والبزّ نوعٌ من الثياب.

(٣) الأشنان: مفردها شنّ، وهو القِربة الصغيرة، والشّنانة: الماء السائل قطرة قطرة من إناءٍ.

(٤) البَوْش: الجماعة في كثرة واختلاط. (٥) رفس: دفع بقدمه.

عظيمة اجتمع فيه الجواري، فلمّا كان من الغد، قالت لي: إن دار الخلافة لا تحتمل المُقامَ فيها أكثر من هذا مع جارية غيري، لمحبّة سيّدتي لي، وجميع ما تراه فهو هبة من السيّدة لي. وقد أعطتني خمسين ألف دينار من عين وورق وجوهر. ولي ذخائر[١] في خارج القصر كثيرةٌ من كل لون، وجميعها لك، فاخرج إلى منزلك، وخذ معك مالًا واشتر دارًا سَرِيَّةً[٢] واسعةَ الصحن[٣]، فيها بستان، كثيرةَ الحُجَر، وتحوّل إليها، وعرفّني لأنقل إليها هذا كلّه، ثم آتيك، وسلّمت إليّ عشرة آلاف دينار عينًا. فخرجت وابتعتُ الدار وكتبتُ إليها بالخبر، فحملت إليّ تلك النعمة بأسرها، فجميع ما أنا فيه منها، فأقامت عندي كذا وكذا سنة أعيش معها عيش الخلفاء، ولم أدع مع ذلك التجارةَ، فزاد مالي وعَظُمت منزلتي وأثْرَتْ حالي، وولدتْ لي هؤلاء الفتيان (وأومأ إلى أولاده)، ثم ماتت رحمها الله وبقي عليّ من مضرَّة الديكيريكة ما شاهدتَه.

وبالجملة فلا يغترّ أحد بهذه الحكاية وأمثالها، فيجهل[٤] بنفسه فيهلكها، «فما المُغَرِّر[٥] محمودٌ وإن سَلِمَا».

* * *

وأمّا من كفر بسبب العشق فكثير جدًّا لا ينحصرون، ومما ورد في ذلك حكاية عجيبة أوردتها لغرابتها وهي مما حكاه ابن الجوزيّ في كتابه المترجم بـ «ذمّ الهوى»، قال:

سمعت شيخنا أبا الحسن عليّ بن عبيد الله الزّاغوني[٦] يحكي أن رجلًا اجتاز بباب امرأة نصرانيّة، فرآها فهَوِيَها من وقته، وزاد الأمر به حتّى غلب على عقله، فحمل إلى البيمارستان[٧]، وكان له صديق يتردّد إليه ويترسّل بينه وبينها، ثم زاد الأمر

---

(١) الذّخائر: مفردها «ذخيرة» وهي ما اذّخر وحُفِظ لوقت الحاجة.

(٢) السّريّة: أي جيدة حسنة.

(٣) صحن الدّار: ساحتها.

(٤) يجهل بنفسه: يحملها على الجهل ويغرِّر بها.

(٥) المغرِّر: الذي يعرّض نفسه للهلكة.

(٦) هو علي بن عبيد الله الزّاغوني، كما ورد في كتاب «ذمّ الهوى ص ٤٥٩»، وقد جرى التصويب بعد أن كان الاسم محرَّفًا بالأصل إلى «الزعفراني»، وعليّ بن عبيد الله، مؤرّخ فقيه من أعيان الحنابلة، ومن أهل بغداد، كان متفنّنًا في علوم شتّى من الأصول والفروع والحديث والوعظ، توفي سنة ١١٣٢ م. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ٣١٠»...

(٧) البيمارستان: المستشفى «فارسي معرّب».

به، فقالت أُمُّه لصديقه: إني أجِيء إليه فلا يكلّمني، فقال: تعالي معي، فأتت معه، فقال له: إن صاحبتك بعثت إليك رسالة، قال: كيف؟ قلتُ: هذه أمك تؤدّي رسالتها. فجعلت أمة تحدّثه عنها بشيء من الكذب، ثم زاد الأمر عليه ونزل به الموت، فقال لصديقه: قد جاء الأجل وحان الوقت وما لقيت صاحبتي في الدّنيا، وأنا أريد أن ألقاها في الآخرة، فقال له: كيف تصنع؟ قال: أرجع عن دين محمد، وأقول عيسى ومريم والصليب الأعظم، فقال ذلك ومات.

فمضى صديقه إلى تلك المرأة فوجدها عليلة فجعل يحدّثها، وأخبرها بموت صاحبها، فقالت: أنا ما لقيته في الدُّنيا وأنا أُريد أن ألقاه في الآخرة، وأنا أشهد أن لا إلـه إلّا الله وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، وأنا بريئة من دين النصرانية. فقام أبوها فقال للرجل: خذوها الآن فإنها منكم، فقام الرجل ليخرجَ، فقال له: قِفْ ساعة، فوقف، فما لبث أن ماتت.

قال: وبلغني عن رجل ببغداد (يقال له صالح المؤذّن، أذَّن أربعين سنة، وكان يُعْرَف بالصلاح)، أنه صعد يومًا إلى المنارة ليؤذّن، فرأى بنت رجل نصرانيّ كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب فقالت له: من أنت؟ قال: أنا صالح المؤذّن. ففتحت له الباب فدخل وضمّها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات، فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتيني على ما أريد وإلا قتلتك، فقالت: لا، إلّا أن تترك دينك، فقال كلمة الكفر وبرىء من الإسلام. ثم تقدّم إليها فقالت: إنما قلتَ هذا لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك، فكل من لحم الخِنْزير، فأكل منه، قالت: فاشرب الخمر، فشرب. فلما دبَّ[1] الشرابُ فيه دنا منها فدخلت بيتًا وأغلقت بينها وبينه الباب، وقالت له: اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك. فصعد فسقط فمات. فخرجت إليه ولفّته في مِسْح[2]، وجاء أبوها فقصّت عليه القصةَ فأخرجه في الليل ورماه في السكّة[3]. وظهر حديثه، فرُمِي على مَزْبلة.

* * *

وأمّا من قَتَل بسبب العشق فلا يكاد ذلك يحصر كثرةً، وأعظمه وأشدّه واقعة عبد الرحمٰن بن مُلْجم المراديّ، لعنه الله.

---

(١) دبّ الشراب: سرى في جسمه وفي عقله فأوهنهما.
(٢) المسح: الكساء من شعر. (٣) السكّة: الطريق.

قال النبيّ ﷺ لابن عمّه عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «يا عليّ أشقى الأوّلين عاقر ناقة صالح، وأشقى الأوّلين والآخرين قاتلك، وهو هذا»، وأشار إلى ابن ملجم قبّحه الله تعالى ولعنه، وأوجب له خزيه ومقته[١] وعذابه، وذلك نكالًا[٢] لما اجترأ عليه في قتله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وذلك أنّ ابن ملجم قبّحه الله رأى امرأة من تيم الرباب يقال لها قطَام، كانت من أجمل النساء وكانت ترى رأيَ الخوارج، وقد قتل عليّ رضي الله عنه قومها يوم النَّهروان. فلما رآها ابن ملجم عَشقها فخطبها فقالت: لا أتزوّجك إلا على ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وأن تقتل عليّ بن أبي طالب. فحمله العشق على أن خسر الدُّنيا والآخرة، وتزوّجها على ذلك. وكان من خبره في قتل عليّ رضي الله عنه ما نذكره إن شاء الله تعالى في التاريخ.

وفي ذلك يقول الشاعر:

فَلَمْ أَرَ مَهْرًا ساقه ذُو سَماحةٍ ... كمَهْر قَطَامٍ بَيِّنًا غَيْرَ مُعْجَمِ[٣]

ثلاثةُ آلافٍ، وعبدٌ، وقينةٌ ... وضربُ «عليٍّ» بالحُسَام المُصَمِّمِ[٤]

فلا مَهْرَ أغلى من «عليٍّ» وإن عَلَا ... ولا فَتْكَ إلّا دُونَ فَتْكِ ابنِ مُلْجَمِ!

ومنهم من حمله العشق على قتل أبيه، وهو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمٰن بن مروان بن عبد الرحمٰن الناصر، ويعرف هذا «بالطليق». كان يتعشّق جارية كان أبوه قد رَبَّاها معه وذكر أنها له، ثم استأثر بها وخلا معها، فحمله العشق على أن انتضى[٥] سيفًا ورَصَد أباه في بعض خلواته بها فقتله. فسجنه المنصور بن أبي عامر[٦] سنين، ثم أطلقه. فلُقِّب بـ «الطَّلِيق» واعتراه من ذلك شبه الجنون، فكان يُصْرَع في بعض الأوقات.

* * *

(١) المقت: البغض.
(٢) النكال: العقاب.
(٣) البيّن: الواضح، والمُعجم: المبهم.
(٤) المصمّم: الذي يمضي إلى العظم.
(٥) انتضى: شهر.
(٦) هو المنصور بن أبي عامر، محمد بن عبد الله المعافرين القحطاني، أمير الأندلس، وأحد الشجعان الدّهاة، وفي عهده تمّت فتوحات كثيرة، وجال المسلمون إلى أن وصلوا إلى جنوب فرنسا، مات في إحدى غزواته بمدينة سالم سنة ١٠٠٢ م. «انظر فهرس الأعلام ٦/ ٢٢٦».

وأما من قُتل بسبب العشق، فروى عن الشعبيّ قال: دخل عمرو بن معديكِرب[١] على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال له عمر: يا عمرو، أخبرني عن أشجع مَن لَقِيت، فقال: نعم يا أمير المؤمنين.

خرجت مرة أريد الغارة، فبينا أنا أسير إذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز[٢]، وإذا رجل جالس، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خلقًا، وهو محتبٍ[٣] بسيف. فقلت له: خذ حِذْرَكَ فإني قاتلك، فقال: ومَنْ أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معديكرب، فشهِق شهقة فمات.

فهذا أجبن من رأيت يا أمير المؤمنين.

وخرجت يومًا حتّى انتهيت إلى حيّ، فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز وإذا صاحبه في وهدة[٤] يقضي حاجةً، فقلت: خذ حِذْرك فإني قاتلك، قال: مَنْ أنت؟ قلتُ: أنا عمرو بن معديكرب، قال: أبا ثور، ما أنصفتني، أنت على ظهر فرسك، وأنا في بئر، فأعطني عهدًا أنك لا تقتلني حتى أركب فرسي وآخذ حِذري، فأعطيتُه عهدًا أنْ لا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره. فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس. فقلتُ له: ما هذا؟ فقال: ما أنا براكب فرسي ولا بمقاتلك، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم، فتركته ومضيت.

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت!

ثم إني خرجتُ يومًا آخر حتّى انتهيتُ إلى موضع كنت أقطع[٥] فيه، فلم أرَ أحدًا فأجريتُ فرسي يمينًا وشمالاً فظهر لي فارس. فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل من نحو اليمامة، فلما قَرُبَ مني سلّم فرددت عليه وقلت: مَن الفتى؟ قال: أنا الحارث بن سعد، فارس الشهباء[٦]، فقلت له: خذ حِذرك، فإني قاتلك، فقال: الويل لك! مَنْ أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معديكرب، قال: الحقير الذليل؟ والله ما

(١) عمرو بن معديكرب بن ربيعة، فارس اليمن، وصاحب الغارات المعروفة، وفد على المدينة سنة ٩ هـ، فأسلم ومَن معه، شهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه، وشهد القادسيّة، يكنّى أبا ثور، أخبار شجاعته كثيرة، وله شعر جيّد، توفي على مقربة من الريّ سنة ٦٤٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٨٦».

(٢) المركوز: الثابت المستقرّ.

(٣) المحتبي: المتمنطق.

(٤) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٥) أقطعُ فيه: أي أقطع الطرق وأغير على المارّين فأسلبهم.

(٦) الشّهباء: القطعة العظيمة من الجيش، وهنا الشهباء: الصحراء.

يمنعني من قتلك إلا استصغارُك، فتصاغرت نفسي إليّ وعَظُم عندي ما استقبلني. فقلت له: خذ حَذْرك، فوالله لا ينصرفُ إلا أحدنا، قال: أغرب[١]، ثَكلتْك أُمُك![٢] فإني من أهل بيت ما نَكَلْنا[٣] عن فارس قطّ! فقلتُ: هو الذي تسمع، قال: اختر لنفسك، إما أن تُطْرِد لي[٤]، وإما أن أُطْرِد لك، فاغتنمتها منه، فقلت: أطرد لي، فأطردَ وحملتُ عليه، حتى إذا قلتُ إني وضعت الرمح بين كتفيه، إذا هو قد صار حرامًا لفرسه، ثم اتّبعني فقرع بالقناة[٥] رأسي، وقال: يا عمرو، خذها إليك واحدة، فوالله لولا أني أكره قتل مثلك لقتلتُك، فتصاغرتْ إليّ نفسي، وكان الموت والله يا أمير المؤمنين أحبَّ إليّ مما رأيت، فقلتُ: والله لا ينصرف إلا أحدنا، فقال: اْختر لنفسك، فقلت: أطردْ لي، فأطرد لي. فظننت أني قد تمكّنت منه واتبعته حتّى إذا ظننت أني قد وضعت الرمح بين كتفيه، فإذا هو قد صار لببًا[٦] لفرسه، ثم اتبعني فقرع رأسي بالقناة، وقال: يا عمرو، خذها إليك اثنتين، فتصاغرتْ إليّ نفسي فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدنا، فقال: اْختر لنفسك، فقلت: أطرد لي، فأطرد حتّى إذا قلت إني وضعت الرمح بين كتفيه وثب عن فرسه، فإذا هو على الأرض، فأخطأته ومضيتُ، فاستوى على فرسه واتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو، خذها إليك ثالثة، ولولا أني أكره قتل مثلك لقتلتُك، فقلتُ له: اقتلني، فإن الموت أحبّ إليّ مما أرى بنفسي وأن تسمع فِتيانُ العرب بهذا، فقال: يا عمرو! إنما العفو ثلاث، وإني إن استمكنت منك الرابعة قتلتك، وأنشأ يقول: [من الرجز]

وَكّـدتُ أغْـلاظًـا مـن الأَيْـمـانِ … إن عُدْتَ يا عمرو إلى الطِّعَان[٧]
لَتــوجَــرَنَّ لَهَــبَ الـسِّـنـانِ … أوْ لا، فلَسْتُ من بَنِي شَيْبانِ![٨]

فلما قال هكذا، كرهت الموت، وهبتُه هيبة شديدة، وقلت: إنّ لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قلت: أكون لك صاحبًا، ورضيتُ بذلك يا أمير المؤمنين، قال: لست من أصحابي، فكان ذلك والله أشدّ عليّ وأعظم مما صنع. فلم أزل أطلب

---

(١) أغرب: ابتعد وارتحل.
(٢) ثكلتك أمّك: دعاء عليه بالهلاك.
(٣) نكلنا: جبّنا وتراجعنا.
(٤) أطرد له: فرّ منه كيدًا ثم كرّ عليه.
(٥) القناة: الرّمح.
(٦) اللّبب: ما يشدُّ في صدر الدابة ليمنع تأخر الرحل أو السّرج.
(٧) وكّد الأيمان الغليظة: أقسم وصمّم أن لا تراجع.
(٨) وجره بالرمح: طعنه.

إليه حتى قال: ويحك، وهل تدري أين أريد؟ قلت: لا، قال: أريد الموت عيَانًا[١]، فقلت: رضيت بالموت معك، فقال: أمضِ بنا، فسرنا جميع يومنا وليلتنا حتّى جَنَّنا[٢] الليل وذهب شطره. فوردنا على حيّ من أحياء العرب، فقال لي: يا عمرو في هذا الحيّ الموتُ، ثم أومأ إلى قبّة في الحيّ، فقال: وفي تلك القبّة الموت الأحمر، فإما أن تمسك عليّ فرسي فأنزل فآتي بحاجتي، وإما أن أمسك عليك فرسك فتنزل فتأتيني بحاجتي، فقلت: لا، بل انزل أنت، فأنت أعرف بموضع حاجتك، فرمى إليّ بعَنان الفرس ونزل، فرضيت لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون له سائسًا[٣]. ثم مضى حتّى دخل القبّة فاستخرج منها جارية لم ترَ عيناي قطّ مثلها حُسْنًا وجمالًا، فحملها على ناقة، ثم قال: يا عمرو، قلتُ: لبّيك، قال: إما أن تحميني وأقود أنا، وإمّا أن أحميك وتقود أنت، قلت: بل تحميني أنت، وأقود أنا، فرمى إليّ بزمام[٤] الناقة، وسرنا بين يديه وهو خلفنا حتّى أصبحنا، فقال لي: يا عمرو، قلت: لبّيك، ما تشاء؟ قال: التفت فانظر هل ترى أحدًا؟ قال: فالتفت، فقلت: أرى جمالًا، قال: أغذّ[٥] السير، ثم قال لي: يا عمرو، قلت: لبّيك، قال: أنظر، فإن كان القوم قليلًا فالجَلَد والقوّة والموت، وإن كانوا كثيرًا فليسوا بشيء، قال: فالتفتُّ، فقلت: هم أربعة أو خمسة، قال: أغذَّ السَّيْرَ، ففعلت، وسمع وَقْع الخيل، فقال لي: يا عمرو، قلت: لبّيك! قال: كن عن يمين الطّريق، وقِفْ وحوّلْ وُجوه دوابنا إلى الطريق، ففعلتُ، ووقفت عن يمين الراحلة ووقف هو عن يسارها. ودنا القومُ منّا، فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ وهو أبو الجارية وأخواها غلامان شابّان، فسلموا فرددنا السلامَ، ووقفوا عن يسار الطريق. فقال الشيخ: خَلِّ عن الجارية يا ابن أخي، فقال: ما كنتُ لأُخَلِّيها ولا لهذا أَخَذْتُها، فقال لأصغر ابنيه: أُخرج إليه، فخرج وهو يجرّ رمحه وحمل عليه الحارث، وهو يقول: [من الرّجز]

مِنْ دُونِ ما تَرْجُوه خَضْبُ الذابِلِ ... مـن فـارِسٍ مستَـلْئِمٍ مقـاتِـلِ[٦]
يُـنْـمـى إلـى شَـيْـبـانَ خيـر وائـلِ ... ما كان سَيْرِي نَحْوَها بباطِلِ![٧]

---

(١) العيان: أي رأي العين. (٢) جنّنا الليل: أخفانا وسترنا.
(٣) السّائس: الذي يخدم الخيل لأصحابها.
(٤) الزّمام: الخيط أو الحبل الذي تقاد به الناقة وغيرها.
(٥) أغذّ السّير: أسرع فيه.
(٦) الذّابل: الرمح، وخضب الذابل: أي أن يقطر الرّمح دمًا.
(٧) يُنمى: يعود في نسبه.

ثم شدّ عليه فطعنه طعنةً دقَّ منها صُلْبه[١]، فسقط ميتاً. فقال الشيخ لابنه الآخر: أُخرج إليه يا بُنَيَّ، فلا خير في الحياة على الذُلِّ، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول: [من الرجز]

لقَدْ رأيتَ كيفَ كانَتْ طَعْنتي! والطَّعْن للقِرْن الشديد هِمَّتِي[٢]
والموتُ خَيْرٌ من فراق خُلَّتي فقَتْلتي اليوم ولا مَذَلَّتِي!

ثم شدّ عليه فطعنه طعنةً سقط منها ميتًا. فقال له الشيخ: خَلِّ عن الظعينة[٣] يا ابن أخِي، فإني لستُ كمن رأيتَ، قال: ما كنت لأُخَلِّيَهَا ولا لهذا قصدتُ، فقال له الشيخ: اختر يا ابن أخي، فإن شئت طاردتك، وإن شئت نازلتك، فاغتنمها الفتى ونزل، ونزل الشيخ وهو يقول: [من الرجز]

ما أرتَجِي بعد فَناءِ عُمْرِي؟ سأجعلُ السِّنِينَ مثل الشَّهْرِ
شيخٌ يحامي دون بَيْضِ الخِدْر إنَّ استباحَ البيضِ قَصْمُ الظَّهر[٤]
* سوف ترى كيفَ يكونُ صَبْري *

فأقبل الحارث وهو يقول: [من الرجز]

بَعْد ارتحالي وطويلِ سَفْري وقد ظَفِرْتُ وشَفَيْتُ صَدْرِي
والموتُ خيرٌ من لِباسِ الغَدْر والعارِ أُهْديه لحَيِّ بكر

ثم دنا فقال له الشيخ: يا ابن أخي، إن شئت نازلتك، وإن بقيت فيك قوّة ضربتني، وإن شئت فاضربني، فإن بقيت فيّ قوّةٌ ضربتك، فاغتنمها الفتى فقال: وأنا أبدؤك، قال: هات، فرفع الحارث السيفَ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب بطنَه ضربةً فقدّ مِعَاه[٥]، ووقعت ضربة الحارث في رأسه. فسقطا ميتين، فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف، ثم أقبلتُ إلى الناقة فعقدت أعنّة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودها، فقالت الجارية: يا عمرو، إلى أين؟ ولستَ لي بصاحب، ولستَ كمن رأيت، ولو كنت صاحبي لسلكت

(١) الصُّلب: فقار الظهر.
(٢) القرن: الفارس المثيل لغيره في الشجاعة، والمقاوم.
(٣) الظعينة: المرأة التي في الهودج.
(٤) جمع بيضة وكلمة (بيضة) هي التي تستعمل مع كلمة الخدر في كلامهم وبها يصفون الجارية المكنونة في خدرها فيقولون (بَيْضَة خِدْر)، والخدر: البيت الساتر للمرأة.
(٥) معاه: من المعي، وجمعه أمعاء، وقدّ: قطع.

سبيلهم! فقلت: أسكتي، قالت: فإن كنت صادقًا فأعطني سيفًا ورمحًا، فإن غلبتَني فأنا لك، وإن غلبتك قتلتك، فقلتُ لها: ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفتُ أصلك وجُرأة قومكِ وشجاعَتَهم، فرَمَتْ بنفسها عن البعير وهي تقول: [من الرجز]

أَبَعْدَ ما شَيْخِي وبعْدَ إِخْوَتِي أَطْلُبُ عَيْشًا بَعْدَهُم في لَذَّةِ؟

* هَلْ لا تَكُونُ قبلَ ذَا مَنِيَّتِي؟ *

وأهوت إلى الرُمح فكادت تنتزعه من يدي، فلما رأيتُ ذلك خِفْتُ إن هي ظَفرت بي أن تقتلني، فقتلتها.

فهذا أشدّ ما رأيته يا أمير المؤمنين.

فقال عمر بن الخطاب: صدقت يا عمرو.

وروى ابن الجوزيّ بسند يرفعه إلى اللّيث بن سعد[(١)] أنّه قال: أُتي عمر رضي الله عنه بفتًى أمردَ[(٢)] قد وجد قتيلًا مُلقًى في الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر، ولم يعرف قاتله، فشَقَّ ذلك عليه، وقال: اللّهمّ ظَفِّرني بقاتله. حتّى إذا كان رأسُ الحول[(٣)] أو قريب من ذلك، وُجِدَ صبيٌّ مولود مُلْقًى بموضع القتيل فأُتِيَ به عمر، فلما أُتِيَ به وأُخْبِر بمكانه، قال: ظَفِرتُ تالله بدم القتيل إن شاء الله تعالى، فدفع الصبيَّ إلى امرأة، وأمرها أن تقوم بشأنه وأعطاها نفقة. وقال: انظري مَن يأخذه منكِ، فإذا وجدتِ امرأة تقبّله وتضمّه إلى صدرها فأعلميني بمكانها. فلما شبّ الصبيّ جاءت جاريةٌ فقالت للمرأة: إن سيّدتي بعثتني إليك لتبعثي إليها بالصبيّ لتراه وتردّه إليك. قالت: نعم، اذهبي به إليها وأنا معك، فذهبتْ بالصبيّ والمرأة معها إلى سيّدتها. فلما رأته أخذته فقبّلته وضمّته إلى صدرها، وإذا هي بنت شيخ من الأنصار، من أصحاب رسول الله ﷺ، فأخبرتْ عمر خبرها. فاشتمل[(٤)] على سيفه، ثم أقبل على منزلها، فوجد أباها متكئًا على باب داره، فسلّم عليه، وقال له: أبا فلان، قال: لَبَّيْك، قال: ما فعلت ابنتك

---

(١) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن الفهمي، أبو الحارث، إمام أهل مصر في عصره حديثًا وفقهًا، أصله من خراسان، ووفاته في القاهرة سنة ٧٩١ م، كان من الكرماء الأجواد، له تصانيف، قال الشافعي: اللّيث أفقه من مالك، إلّا أن أصحابه لم يقوموا به. «فهرس الأعلام ٥/٢٤٨».

(٢) الأمرد: الذي طرّ شاربه، ولم تنبت بعدُ لحيته.

(٣) رأسُ الحول: أوّل العام.

(٤) اشتمل على السّيف: تمنطق به.

فلانة؟ قال: يا أمير المؤمنين، جزاها الله خيرًا، هي من أعرف الناس بحقّ الله تعالى وحقّ أبيها، مع حُسْن صَلَاتها وصيامها والقيام بدِينها، فقال عمر: قد أحببتُ أن أدخل إليها فأزيدَها رغبةً في الخير وأَحُثَّها على ذلك، فقال: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين، اُمكُثْ مكانك حتَّى أعود إليك، فاستأذن بعمر، فلما دخل عمر، أمر من كان عندها بالخروج عنها، فخرجوا. وبقيت هي وعمر ليس معهما ثالث. فكشف عمر عن السيف، وقال: لتصدقيني وإلا ضربت عنقك، وكان عمر لا يُكذب، فقالت: على رِسْلك[١] يا أمير المؤمنين، فوالله لأصدُقَنَّك. إن عجوزًا كانت تدخل عليّ فاتّخذتها أُمًّا، وكانت تقوم من أمري بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت، فأمضتْ بذلك حينًا. ثم إنها قالت لي يومًا: يا بنية، إنه قد عرض لي سَفَر، ولي بنت في موضع أتخوّف عليها فيه أن تضيع، وقد أحببتُ أن أضمّها إليك حتّى أرجع من سفري، فعمدَتْ إلى ابن لها شاب أمرد، فهيّأته كهيئة الجارية وأتتني به لا أشكّ أنه جارية، فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية، حتى أغفلني يومًا وأنا نائمة فما شعرتُ حتى علاني وخالطني[٢]. فمددت يدي إلى شَفْرة[٣] كانت إلى جنبي فقتلتُه، ثم أمرتُ به فأُلقي حيث رأيتَ، فاشتملتُ منه على هذا الصبيّ، فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه. فهذا والله خبرهما، فقال عمر: صدقتِ، بارك الله فيك، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج، وقال لأبيها: بارك الله لك في ابنتك، فنعم الابنة هي! وقد وعظتها وأمرتها، فقال: وصلك الله يا أمير المؤمنين، وجزاك خيرًا عن رعيَّتك.

وروى أيضًا بسنده إلى أبي عباد قال: أدركتُ الخادمَ الذي كان يقوم على رأس الحجّاج[٤]، فقلت له: أخبرني بأعجب شيء رأيته من الحجّاج! قال: كان ابن أخيه أميرًا على واسط[٥]، وكان بواسط امرأة يقال لها أبَّة، لم يكن بواسطَ في ذلك الوقت أجملُ منها. فأرسل ابن أخيه إليه يراودها عن نفسها مع خادم له. فأبت عليه وقالت:

---

(١) على رسلك: اتّئد ولا تعجل، أي تمهّل. (٢) خالطها: باشرها، وجامعها.

(٣) الشّفرة: السّكين وغيرها من الحديد المشحوذ.

(٤) الحجّاج: هو الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، أبو محمد، قائد داهية، سفّاك، خطيب، ولد ونشأ في الطائف، قدّمه الأمويون، وولّاه عبد الملك بن مروان مكّة والمدينة والطائف والعراق، بنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، أخباره كثيرة، مات بواسط سنة ٧١٤ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٦٨».

(٥) واسط: مدينة بناها الحجّاج، وسمّيت واسطًا لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة. «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٤٧».

إن أردتني فاخطبني إلى إخوتي، وكان لها أربعة إخوة فأبى، وقال: لا، إلا كذا. وعاودها فأبت، فراجعها وأرسل إليها بهدية فأخذتها وعزلتها. وأرسل إليها عشية الجمعة: إني آتيكِ الليلة، فقالت لأمّها: إن الأمير بعث إليّ بكذا وكذا، فأنكرتْ أمُّها ذلك، وقالت أُمّها لإخوتها: إن أختكم قد زعمت كيت وكيت، فأنكروا ذلك وكذّبوها. فقالت: إنه قد وعدني أن يأتيني الليلةَ، ترَوْنه. قال: فقعد إخوتها في بيت حيَال البيت الذي هي فيه، وجويريةٌ لها على باب الدار تنتظره. فجاء ونزل عن دابّته وقال لغلامه: إذا أذّن المؤذّن في الغلس[١]، فأْتني بدابّتي، ودخل والجاريةُ أمامه. فوجد أبَّةَ على سرير مستلقيةً. فاستلقى إلى جانبها ثم وضع يده عليها، وقال: إلى كم ذا المَطْلُ؟[٢] فقالت له: كفَّ يدك يا فاسقُ، ودخل إخوتها عليها بأيديهم السيوف فقَطَّعوه ثم لفّوه في نطع[٣] وجاؤوا به إلى سكّة من سكك واسط فألقوه فيها. وجاء الغلام بالدابّة فجعل يدُقُّ الباب دقًّا رفيقًا فلا يكلّمه أحد. فلما خَشِي الضوء وأن تعرف الدابةُ انصرف. وأصبح الناس فإذا هم به على تلك الصفة، فأتوا به الحجّاجَ فأخذ أهل تلك السكة، فقال: أخبروني ما قصّتُه؟ قالوا: لا نعلم حاله، غير أنا وجدناه ملقًى. ففطِن الحجاجُ فقال: عليّ بمن كان يخدمه، فأُتِيَ بذلك الخصيّ الذي كان الرسولَ بينهما، فقالوا: هذا كان صاحبَ سرّه، فقال له الحجّاج: اُصدقني عن خبره وقصّته، فأبى. فقال: إن صدقتني لم أضرب عنقك، وإن لم تصدقني فعلتُ بك وفعلت. قال: فأخبره الأمر على جهته. فأمر بالمرأة وأُمّها وإخوتها، فجيء بهم، وعُزلت المرأة عنهم. فسألها فأخبرته بمثل ما أخبر به الخصيّ، ثم سأل إخوتها، فأخبروه بمثل ذلك ولم يختلفوا، وقالوا: نحن صنعنا به الذي ترى، فأمر برقيقه[٤] ودوابه للمرأة، فقالت المرأة: هديته عندي، فقال: بارك الله لك فيها، وكثَّرَ في النساء مثلك، هي لك، وما ترك من شيء فهو لك، وقال: مثل هذا لا يُدْفن. فألقُوه للكلاب، ودعا بالخصيّ فقال: أما أنت فقد قلت لك إني لا أضرب عنقك! وأمر بضرب وسطه، فقطع نصفين.

والأخبار في مثل هذا كثيرة، فلا نطوّل بذكرها.

* * *

(١) الغلس: الظلام.

(٢) المطل: التسويف بالوعد وعدم الوفاء به.

(٣) النطع: بساطٌ من الجلد، كثيرًا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

(٤) الرقيق: العبيد والمملوك كلّه أو بعضه.

وأمّا من قتله العشق فكثير جدًا لا يكاد يحصر، روي عن عكرمة[١] قال: إني لَمَعَ ابن عباس[٢] عشيّةَ عرفةَ، إذ أقبل فتيةٌ يحملون فتًى من بني عُذْرة في كساء، وهو ناحل البَدَن، أحلى من رأيت من الفِتْيان، فوضعوه بين يديه ثم قالوا: استشفِ لهذا يا ابن عمّ رسول الله، فقال: وما به؟ فترنّم الفتى بصوت ضعيف خفيّ الأنين، وهو يقول: [من الطويل]

بِنَا من جَوى الأحزان والحُبِّ لَوْعةٌ ... تَكادُ لها نَفسُ الشَّفِيق تَذُوبُ![٣]

ولكنّما أبقى حَشاشةَ مُعْوِلٍ ... على ما به عُودٌ هناك صَلِيبُ![٤]

وما عَجَبٌ موت المحِبِّينَ في الهَوى ... ولكنْ بقاءُ العاشِقِينَ عَجِيبُ!

قال: ثم حمل فمات في أيديهم، فقال ابن عباس: هذا قتيلُ الحُبّ، لا عَقْلٌ ولا قَوَد[٥].

قال عكرمة: فما رأيت ابن عباس سأل الله تعالى تلك الليلةَ - حتى أمسى - إلا العافيةَ مما ابتلي به ذلك الفتى.

وروي عن الأصمعيّ قال: حدّثني أبو عمرو بن العلاء[٦] قال: حدّثني رجل من بني تميم قال: خرجت في طلب ضالَّة[٧] لي، فبينا أنا أدور في أرض بني عُذْرة أنشُد ضالَّتي، إذا بيتٌ معتزل عن البيوت، وإذا في كِسْر البيت شابٌّ مغمًى عليه، وعند رأسه عجوز لها بَقِيَّة من جمال، وهي ساهيةٌ تنظر إلى وجه الفتى. فسلّمتُ فردَّت السلامَ. فسألتها عن ضالَّتي فلم يك عندها منها علم. فقلت: أيّتُها العجوزُ، مَن هذا الفتى؟ قالت: ابني، ثم قالت: هل لك في أجرٍ لا مَؤونةَ فيه؟ فقلت: والله إني

---

(١) عكرمة: لعلّه عكرمة بن خالد المخزومي، محدّث، من الثقات، روى عن أبي هريرة وابن عبّاس وطائفة، مات بمكّة. «انظر الكاشف ٢/ ٢٤٠».

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشميّ، أبو العبّاس، حَبْرُ الأُمّة الصحابي الجليل، ولد بمكة، ولازم رسول الله ﷺ، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وسكن في آخر عمره الطائف وتوفي فينة سنة ٦٨٧ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٥».

(٣) الجوى: شدّة الوجد من حزنٍ وعشق، والشّفيق: من الشفقة.

(٤) الحشاشة: بقيّة الروح، والصليب: الشديد القويّ.

(٥) عَقْلٌ: أي عقال وأسر، والقَوَد: قتل القاتل بالقتيل «القصاص».

(٦) هو زبّان بن عمار التميمي، المازني المصري، أبو عمرو، ويلقّب أبوه بالعلاء، من أئمّة اللغة والأدب، وأحد القرّاء السبعة، نشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة ٧٧١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٤١».

(٧) الضّالة: التائهة من الحيوانات الأليفة «كالناقة مثلاً».

لأُحبُّ الأجر وإن رُزِئت![١] فقالت: إن ابني هذا يهوى ابنةَ عمّ له عَلِقها وهما صغيران، فلما كَبِر حُجبت عنه، فأخذه شبيهٌ بالجنون. ثم خطبها إلى أبيها فامتنع من تزويجه، وخطبها غيره فزوّجها إياه. فنَحِل جسمُ ولدي واصفرّ لونه وذَهَل عقلُه. فلمّا كان منذ خمس، زُفَّت إلى زوجها، فهو كما ترى: لا يأكل ولا يشرب، مغمًى عليه. فلو نزلت إليه فوعظته!

قال: فنزلتُ إليه فلم أدَعْ شيئًا من المَوْعظة إلا وعظته به حتّى أن قلت له فيما قلت: إنهنّ الغواني صاحباتُ يوسف[٢]، ناقضاتُ العهد، وقد قال فيهن كُثَيِّر عَزَّة: [من البسيط]

هَـلْ وَصْـلُ عَـزَّةَ إلا وَصْـلُ غـانـيـةٍ ... في وَصْلِ غانيةٍ من وَصْلِها خَلَفُ؟[٣]

قال: فرفع رأسه، محمرّةً عيناه كالمُغْضَب، وقال: لستُ ككُثَيِّر عَزَّة! إن كثَيِّرًا رجل مائقٌ[٤]، وأنا رجل وامقٌ[٥]، ولكنّني كأخي تميم حيث يقول: [من الطويل]

أَلَا لا يَضِيرُ الحبُّ ما كان ظاهِرًا ... ولكنَّ ما اخْتافَ الفؤاد يَضِيرُ![٦]

أَلَا قاتلَ اللهُ الهوى كيف قادَنِي ... كما قِيدَ مغلولُ اليدَيْنِ أَسِيرُ!

فقلتُ له: فإنه قد جاء عن نبيّنا ﷺ أنّه قال: «من أُصِيبَ منكم بمِصِيبةٍ فليَذْكُرْ مُصابه بي».

فأنشأ يقول: [من الوافر]

أَلَا مـا لـلمـلـيـحـة لا تَـعُـودُ؟ ... أَبُـخْـلٌ بـالـمَـلِيـحـةِ أم صُـدُودُ؟

مَرِضْتُ فعادَني أهلي جميعًا ... فـمـا لَكِ لا نَـرى فـيـمـن يَـعُـودُ!

فقَدْتُكِ بينهُمْ فبكَيْتُ شَوْقًا ... وفَقْدُ الإلْفِ يا أملي شَدِيدُ![٧]

---

(١) رزئت: أصبت برزية أي مصيبة.
(٢) صاحبات يوسف: يريد يوسف الصدّيق ابن النبيّ يعقوب، ورد ذكره في القرآن الكريم، «سورة يوسف، رقمها ١٢».
(٣) الغانية: المرأة الغنيّة بحسنها وجمالها عن الزّينة، والغانية: بائعة الهوى.
(٤) المائق: الأحمق. (٥) الوامق: العاشق.
(٦) اختاف: من الخفاء، أي كان باطنًا خفيًّا، ويضير: يضرُّ به.
(٧) الإلف: الأنيس والحبيب.

وما استَبْطأْتُ غيْرَكِ فاعلَمِيهِ ... وحَوْلِي من ذَوِي رَحِمي عَديدُ![١]
ولو كُنْتِ السقيمةَ، كُنْتُ أسعَى ... إليكِ ولم يُنَهْنِهْنِي الوَعِيدُ![٢]

قال: ثم شَهِق شهقةً وخَفَتَ، فمات. فبكت العجوز وقالت: فاضت والله نفسُه! فدخلني أمر لم يدخلني مثلُه قطّ. فلما رأت العجوزُ ما حلَّ بي، قالت: يا فتى لا تُرَعْ! عاش بأَجَلٍ، ومات بقَدَر، وقدم على ربٍّ كريم، واستراح من تباريحِه[٣] وغُصَصه! ثم قالت: هل لك في استكمال الصنيعة؟ قلت: قولي ما أحببتِ! قالت: تأتي البيوت فتنعاه إليهم ليعاوِنُوني على رَمْسه[٤]، فإني وحيدة. قال: فركبت فرسي وقصدت البُيوتَ، وأقبلت أنعاه إليهم، فبينا أنا أنعاه، إذا خيمةٌ رُفِع جانبٌ منها، وإذا امرأة قد خرجتْ كأنها القمر ليلة البدر، ناشرةً شعرها، تجرُّ خِمارها، وهي تقول: بِفِيك الكَثْكَثُ![٥] بفيك الحَجَرُ! مَنْ تَنْعى؟ قلت: أنعى فلانًا، قالت: أوَ قد مات؟ قلت: إي والله قد مات! قالت: فهل سمعت له قولًا، قلت: اللّهمّ لا، إلّا شعرًا، قالت: وما هو؟ فأنشدتُها قوله: [من الوافر]

* ألا مـا لـلـمـلـيـحـة لا تـعـود *

الأبيات.

فاستعبرتْ باكيةً وأنشأت تقول: [من الوافر]

عَـدَانِـي أنْ أزُورَك يـا مُـنـايَ ... مَعَاشِر كُلُّهم واشٍ حَسُودُ![٦]
أشاعُوا ما علِمْتَ من الدَّواهي ... وعابُونا، وما فِيهِمْ رَشِيدُ!
فأمّا إذ ثَوَيْتَ اليومَ لَحْدًا ... فكلُّ الناسِ دُورُهُمُ لُحُودُ
فلا طابَتْ ليَ الدُّنيا فُوَاقًا ... ولا لَهُمُ ولا أَثَري عديدُ![٧]

ثم شهقتْ شهقةً وخرَّتْ مغشيًّا عليها، وخرج النساء من البيوت واضطربت ساعة وماتت، فوالله ما برحتُ حتَّى دفنتهما جميعًا.

---

(١) ذوو الأرحام: القربى.
(٢) ينهنه: يمنع.
(٣) التباريح: الآلام.
(٤) الرّمس: الدفن.
(٥) بفيك الكثكث: يقال في الدّعاء عليه، والكثكث: التراب وفتات الحجارة، أو التراب عامّة.
(٦) عداني: منعني.
(٧) الفُواق: ما يأخذ المحتضَر عند النزاع، والفواق هنا: بمعنى العيش.

ورَوَى السّاجي[(١)] عن الأصمَعيّ قال: رأيت بالبادية رجلًا قد دقّ عظمه، وضَؤُلَ جسمه، ورقّ جلده، فتعجّبت ودنوت منه أسأله عن حاله، فقالوا: اُذكر له شيئًا من الشعر يكلمْك، فقلتُ: [من الكامل]

سَبَقَ القضاءُ بأنّني لك عاشِقٌ حتَّى المماتِ، فأيْنَ منك مذاهبي؟

فشهق شهقة ظننتُ أن روحه قد فارقته، ثم أنشأ يقول: [من الكامل]

أحْلُو بذكْرِكِ لا أرِيدُ محدّثًا وكفى بذكْرِكِ سامِرًا وسُرُورا!

قال: فقلت له: أخبرني عنك! قال: إن كنت تريد علم ذلك فاحملني وألْقني على باب تلك الخيمة! ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه: [من الوافر]

ألَا ما للمَليحةِ لا تَعُودُ أبُخْلٌ بالمَليحَةِ أم صُدُودُ؟
فلو كُنتِ المريضَةَ كنتُ أسْعَى إليك ولم يُنَهْنِهْني الوَعِيدُ؟

فإذا جارية مثل القمر، قد خرجت فألقت نفسها عليه فاعتنقا، وطال ذلك، فسترتهما بثوبي خشية أن يراهما الناسُ. فلما خفتُ عليهما الفضيحة، فرّقت بينهما، فإذا هما ميّتان، فما بَرِحْت حتّى صليت عليهما ودُفِنَا، فسألت عنهما، فقيل لي: عامرُ بن غالب، وجميلة بنت أميل المُزَنِيَّان.

ورَى ابن الجوزيّ بسند يرفعه إلى محمد بن خلف[(٢)] قال: ذكر بعض الرواة عن العمريّ قال: كان أبو عبد الله الجيشانيّ[(٣)] يعشَق صفراء العملاقميّة، وكانت سوداء، فاشتكى من حبّها، وضَنى حتّى صار إلى حدّ الموت. فقال بعض أهله لمولاها: لو وجهت صفراء إلى أبي عبد الله الجيشاني، فلعلّه أن يعقل إذا رآها! ففعل. فلما دخلتْ عليه قالت له: كيف أصبحتَ يا أبا عبد الله؟ قال: بخير ما لم تبرحي! قالت: ما تشتهي؟ قال: قُرْبَك! قالت: ما تشتكي؟ قال: حُبَّك! قالت:

---

(١) السّاجي: هو المؤتمن بن أحمد بن عليّ، أبو نصر الربعي، المعروف بالسّاجي، عالمٌ بالحديث، ثقة، له نظم، سكن القدس زمانًا، وتوفي ببغداد سنة ١١١٣ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٣١٨».

(٢) هو محمد بن خلف بن المرزبان بن بسّام، أبو بكر، مؤرّخ، مترجم، عالم بالأدب، نسبته إلى المحوّل، وهي قرية غربي بغداد كان يسكنها، له أكثر من خمسين منقولًا من كتب الفرس، وله تصانيف منها: الجلساء والنّدماء والنساء والغزل، ومن غدر وخان، وله شعر، توفي سنة ٩٢١ م. «فهرس الأعلام ٦/ ١١٥».

(٣) في كتاب ذمّ الهوى لابن الجوزي ص ٥٢٠: «أبو عبد الله الحُبْشاني».

فتوصي بشيء؟ قال: نعم، أوصي بكِ إن قبلوا مني! فقالت: إني أريد الانصراف! قال: فتعجلي ثوابَ الصلاة عليّ! فقامت فانصرفت، فلما رآها مولية تنفس الصعداء، ومات من ساعته.

وروى أيضًا بسند يرفعه إلى عَوَانة بن الحكم[١] أن عبد الله بن جعفر[٢] وفد إلى عبد الملك بن مَرْوان فحدّثه، قال: اشتريت جاريةً بعشرة آلاف درهم، فوُصِفَتْ ليزيد بن معاوية فأرسل إليّ يقول: إما أن تهديها إليّ، وإما أن تبيعها بحكمك، فكتبت إليه: لا تخرج والله من ملكي ببيع ولا هبة أبدًا. ومكثتْ عندي لا أزداد لها إلا حُبًا. حتّى أتتني عجوز من عجائزنا، فذكرتْ أن بعض عُزّاب المدينة يهواها، وأنه يجيء في كل يوم متنكرًا فيقف بالباب حتّى يسمع غِناءها. فراعيتُ مجيئه ليلة، فإذا به قد أقبل متقنّع الرأس حتّى قعد مستخفيًا فدعوت قيّمة الجارية، فقلت: أنطلقي الساعة فأصلحي هذه الجاريةَ بأحسن ما أمكن، وعجّلي بها، ففعلتْ. فقمتُ وقبضتُ على يدها وفتحتُ الباب وأتيتُ إلى الرجل فحرّكتُه فانتبه مذعورًا. فقلت: لا بأس عليك، خذ هذه الجارية، هي لك، فإذا هممت ببيعها فارددها إليّ، فَدُهِش الفتى. فدنوتُ إلى أذنه فقلت: ويحك، قد أظفرك الله عزّ وجلّ ببُغْيتك، فانصرِفْ إلى منزلك، فإذا الفتى ميّت، فلم أرَ شيئًا قطّ أعجبَ من ذلك، وهانت عليّ الجاريةُ، فكرهتُ أن أُوجّه بها إلى يزيد فيعلم حالها أو تخبره عن نفسها فيحقِد ذلك عليّ. فمكَثَتْ مدّة مديدة ثم ماتت، ولا أظنّها ماتت إلا كمدًا وأسفًا على الفتى.

وروى ابن الجوزي أيضًا بسنده قال: حُكِيَ عن شَبَابة بن الوليد العُذْريّ أن فتًى من بني عُذْرة يقال له أبو مالك بن النضر، كان عاشقًا لابنة عمّ له عشقًا شديدًا، فكان على ذلك مدّةً، ثم إنه فُقِد بضعَ عشرةَ سنةً، لا يُحَسُّ له خبر. قال شبابة: فأضلَلْتُ إبلًا لي، فخرجت في طلبها. فبينا أنا أسير في الرمال إذا بهاتفٍ[٣] يَهْتف بصوت

(١) هو عوانة بن الحكم بن عوانة بن عياض، من بني كلب، أبو الحكم، مؤرّخ من أهل الكوفة، ضرير، كان عالمًا بالأنساب والشعر، فصيحًا، له كتاب في التاريخ، وسيرة معاوية، توفي سنة ٧٦٤ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٩٣».

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي القرشي، صحابي، ولد بأرض الحبشة لمّا هاجر أبواه إليها، وكان كريمًا يُسمى بحر الجود، وللشعراء فيه مدائح، مات بالمدينة سنة ٧٠٠ م. «فهرس الأعلام ٤/٧٦».

(٣) الهاتف: الصوت الذي يُسمع ولا يرى صاحبه.

ضعيف: [من البسيط]

يا ابنَ الوليدِ، ألا تَحْمونَ جارَكُمُ ... وتَحْفَظُون له حقَّ القَراباتِ؟
عهدي إذا جارُ قوم نابَهْ حَدَثٌ ... وَقَوْهُ من كلِّ مكروه الملِمَّاتِ![١]
هذا أبو مالِك المسْمى ببَلْقَعةٍ ... من الضِّباع وآسادٍ بغاباتِ![٢]
طَليح شوقٍ، بنار الحبِّ محترقٌ ... تَعتادُه زَفَراتٌ إثْرَ لَوعات![٣]
أمّا النهار فيُنْضِيهِ تَذكُّرهُ ... والليلُ مرتقبٌ للصبح هل يَاتي[٤]
يَهْذي بجاريةٍ من عُذْرةَ اختلَسَتْ ... فُؤادَه، فهو مِنْها في بَلِيَّاتِ![٥]

فقلت: دُلَّني عليه، رحمك الله! قال: نعم، اقصد الصوت، فقصدته، فسمعت أنينًا من خباء، فإذا قائل يقول: [من الخفيف]

يا رَسيسَ الهوى، أذَبْتَ فُؤادِي ... وحَشَوْتَ الحَشَا عذابًا أليما![٦]

فدنوت منه فقلت: أبو مالك؟ قال: نعم! قلت: ما بلغ بك إلى ما أرى؟ قال: حُبِّي سعادَ ابنة أبي الهندَام العذريّ. شكوت يومًا ما أجدُ من حبّها إلى ابن عمّ لنا فاحتملني إلى هذا الوادي، منذ بضع عشرة سنة، يأتيني كل يوم بخبرها ويَقُوتُني من عنده. فقلت: إنّي أصير إلى أهلها فأخبرهم ما رأيت، قال: أنتَ وذاك، قال: فانصرفت فأخبرتهم، فرَقّوا له فزوّجوه بحضرتي. فرجعتُ إليه لأفرّج عنه، فلما أخبرته الخبر، نظر إليّ، ثم تأوّه تأوُّهًا شديدًا بلغ من قلبي، ثم قال: [من البسيط]

ألآنَ إذ حَشْرجَتْ نفسِي وخامَرَها ... فِراقُ دُنْيا وناداها مُناديها![٧]

ثم زَفَرَ زَفْرة فمات، فدفنته في موضعه، ثم انصرفت فأخبرتهم الخبر. فأقامت الجارية بعده ثلاثًا لا تَطْعَمُ، ثم ماتت.

---

(١) نابه: أصابه، والحدث: المكروه، والملمّة: النازلة تنزل بالإنسان.
(٢) في كتاب ذمّ الهوى ص ٥٢٦: «هذا أبو مالك المُمْسِي»، والبلقعة: الأرض القفر.
(٣) الطليح: المتعب المهزول.
(٤) في كتاب ذمّ الهوى ص ٥٢٦: «أمّا النهار فيضنيه»، ويُنضي: يُتعب ويهزل.
(٥) يهذي: يردّد القول.
(٦) رسيس الهوى: يريد: الحبّ الثابت، أو الحبّ الأوّل.
(٧) حشرجت النفس: أوشكت أن تموت، وخامرها: راودها.

وحُكِي عن المبرد[١] قال: خرجتُ أنا وجماعة من أصحابي مع المأمون، فلما قَرُبنا من الرَّقَّة[٢]، إذا نحن بدير كبير، فقال لي بعض أصحابي: مِلْ بنا إلى هذا الدير لننظر مَنْ فيه ونحمد الله تعالى على ما رَزَقنا من السلامة، فدخلنا إلى الدير، فرأينا مجانين مُغَلْغَلين[٣]، وهم في نهاية القَذَارة، فإذا فيهم شابٌّ عليه بقية من ثيابٍ ناعمةٍ، فلما بَصُر بنا قال: مَن أنتم يا فِتيانُ؟ حيّاكم الله! فقلنا: نحن من العراق. فقال: بأبي العراقُ وأهلُها! بالله أنشدوني أو أنشدكم! فقال المبرد: قلت: والله إن الشعر من هذا لَظريف، فقلنا: أنشدنا، فأنشأ يقول: [من الكامل الأحذّ]

اللهُ يَـعْـلَـمُ أنَّـنِـي كَـمِـدُ ... لا أسْتَطِيعُ أَبُثُّ ما أجِدُ![٤]
رُوحـان لـي: رُوحٌ تـضـمَّـنـهـا ... بـلدٌ وأُخْـرى حـازهـا بَـلَدُ!
وأرى الـمـقـيـمـةَ لـيس يَـنْـفَـعُـهـا ... صَـبْـر ولا يَـقْـوى لـهـا جَـلَدُ
وأطـنُّ غـائـبـتـي كـشـاهِـدَتـي ... فـكـأنَّـهـا تـجِـدُ الـذي أجِـدُ!

قال المبرد: بالله زدنا، فأنشأ يقول: [من البسيط]

لَمَّا أناخُوا قُبَيْل الصُّبحِ عِيرَهُمُ ... ورَحَّلُوها فثارَتْ بالهوى الإبِلُ[٥]
وقلَّبتْ من خلَال السَّجْف ناظِرَها ... تَرْنُو إليَّ ودمعُ العين مُنهمِلُ[٦]
ووَدَّعتْ بِبَنانٍ عقدُها عَنَمٌ ... ناديتُ: لا حَمَلَتْ رِجْلاك يا جَمَلُ![٧]
وَيْلي من البَيْنِ! ماذا حَلَّ بي وبِهَا ... مِنْ نازل البَيْنِ؟ حانَ البَيْنُ فارتَحَلُوا![٨]
يا راحِلَ العِيسِ، عَرِّجْ كَيْ نُودِّعها! ... يا راحِلَ العِيسِ، في تَرْحالكَ الأجَلُ؟[٩]
إنِّي على العَهْد لم أنقُضْ مودَّتَهم ... يا ليت شِعْرِيَ! بعد العهدِ ما فَعلُوا؟

---

(١) المُبرّد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العبّاس، إمام العربيّة ببغداد في زمنه، وأحد أئمّة الأدب والأخبار، ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٨٩٩ م، من كتبه «الكامل». «فهرس الأعلام ٧/ ١٤٤».

(٢) الرّقة: هي مدينة مشهورة على الفرات، معدودة في بلاد الجزيرة لأنّها من جانب الفرات الشرقيّ، ويقال لها: الرقة البيضاء. «انظر معجم البلدان ٣/ ٥٩».

(٣) مغلغلين: أي مقيّدين بالأغلال. (٤) أبثّ: أظهر.

(٥) أناخوا: من أناخ العير، أي أبركها وحطّ عنها رحالها.

(٦) السَّجف: أحد السترين المقرونين على الرّحل بينهما فُرجة، وترنو: تنظر.

(٧) البنان: الأصابع، والعنم: نبات أملس دائم الخضرة، أزهاره قرمزية يُتّخذ منها خضاب.

(٨) البَيْن: الفراق.

(٩) العيس: النّوق التي يخالط بياضها شقرة، والأجل: الموت.

قال: فقال رجل من البغضاء الذين معي: ماتُوا! قال: قال: إذَنْ فأموتُ! فقال له: إن شئتَ! فتمطّى واستند إلى السارية التي كان مشدودًا فيها فمات، فما برِحْنا حتّى دفنّاه.

وحكي عن أبي يحيىٰ التيمي، قال: كنّا نختلف إلى أبي مِسْعَر بن كِدَام[1]، وكان يختلف معنا فتًى من النُّسَّاك، يقال له أبو الحسن، ومعه فتًى حسنُ الوجه يفتتِنُ به الناس إذا رأوْه، فأكثر الناسُ القولَ فيه وفي صحبته إيّاه، فمنعه أهله أن يصحبه وأن يكلّمه، فذهَلَ عقله حتّى خيف عليه التلفُ. فلقيته فأخبرته بذلك، فتنفّس الصُّعَداء، ثم أنشأ يقول: [من المنسرح]

يا مَنْ بدائعُ حُسْنِ صُورتِهِ ... تَثْني إليه أعِنَّةَ الحَدقِ![2]
لي مِنْكَ ما للناسِ كُلِّهِمِ ... نَظَرٌ وتَسْلِيمٌ على الطُّرُقِ
لكِنَّهمْ سَعِدُوا بأمْنِهِمِ ... وشَقِيتُ حِينَ أراكَ بالفَرَقِ![3]

ثم صرخ صرخة وشخص[4] بصره نحو السماء وسقط إلى الأرض، فحرّكته فإذا هو ميّت.

وروى ابن الجوزيّ قال: أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطيّ، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميديّ قال: حدّثني أبو محمد عليّ بن أحمد الفقيه الحافظ قال: حدّثني أبو عبد الله محمد بن الحسن المَذْحجيّ الأديب[5]، قال: كنت أختلف في النحو إلى أبي عبد الله محمد بن خطاب النحويّ في جماعة، أيام الحَدَاثة[6]. وكان معنا أسلَمُ بن سعيد قاضي قضاة الأندلس. قال محمد بن الحسن: وكان من أجمل من رأته العيون. وكان معنا عند ابن خطاب

---

(١) في كتاب ذمّ الهوى ص ٥٣١: «إلى مسعر بن كدام» وهو الصواب، وهو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي العامري الروّاسي، أبو سلمة، من رواة الحديث وثقاته، كوفي، كان يقال له «المصحف» لعظم الثقة بما يرويه، توفي بمكة سنة ٧٦٩ م. «فهرس الأعلام ٧/٢١٦».
(٢) أعنّة الحدق: يريد النظرات التي ترسلها العيون فتكون كالأعنّة، أو الشّباك التي يقع أسرى لها العاشقون.
(٣) الفرق: الخوف.
(٤) شخص: تطلّع ورفع نظره.
(٥) هو محمد بن الحسن المذحجيّ، أبو عبد الله، المعروف بابن الكتّاني، طبيب أندلسي من أهل قرطبة، له علم بالنجوم والفلسفة، ومشاركة في الأدب والشعر، خدم المنصور بن أبي عامر وابنه المظفّر، له رسائل وكتب توفّي نحو سنة ١٠٣٠ م. «فهرس الأعلام ٦/٨٣».
(٦) الحداثة: سنّ الشباب.

أحمدُ بن كُلَيْب، وكان من أهل الأدب والشعر فاشتدّ كلَفُه بأسلم، وفارق صبره، وصرف فيه القول متستّرًا بذلك، إلى أن فشت[١] أشعارُه فيه وجرت على الألسنة، وأُنشدت في المحافل.

فلَعَهْدي بعُرس في بعض الشوارع و«البكوريّ» الزامر في وسط المحفل يزمر بقول أحمد بن كليب في أسلم: [من مجزوء المتقارب]

أَسَـلَّمَـنِـي فـي هَـوَا ... ه أسْـلَمُ، هـذا الـرَّشَـا![٢]
غَـزَالٌ لـه مُـقْـلَةٌ ... يُـصِـيـبُ بـهـا مَـنْ يَـشَـا!
وشـى بـيـنـنـا حـاسِـدٌ ... سَـيُـسْـأَلُ عَـمَّـا وَشَـى!
ولَوْ شـاءَ أن يَـرْتَـشِـي ... على الوَصْلِ رُوحي، ٱرْتَشى!

ومغنٍّ محسن يسايره، فلما بلغ هذا المبلغ، انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ولزم بيتَه والجلوسَ على بابه. فكان أحمد بن كليب لا شُغْل له إلا المرور على باب دار أسلم نهارَه كلّه. فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارًا، فإذا صلَّى المغرب واختلط الظلام، خرج مستَرْوِحًا[٣]، وجلس على باب داره. فعيل صبر أحمد بن كليب، فتحيّل في بعض الليالي ولبس جُبّة من جباب أهل البادية، واعتَمَّ بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دَجَاجًا وبالأخرى قَفَصًا فيه بيض. وجاء كأنه قدم من بعض الضِّياع، فتقدّم إلى أسلم وقبّل يده، وقد اختلط الظلام، وقال: يا مولاي، مَنْ يَقْبِض هذا؟ فقال له أَسْلَمُ: مَنْ أنت؟ فقال: أجيرُك في الضَّيْعة الفلانية - (وقد كان يعرف أسماء ضِياعِه) - فأمر أسلَمُ غلمانَه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في ضياعهم. ثم جعل أسلم يسأله عن أحوال الضَّيعة، فلما جاوبه أنكر الكلامَ فتأمّله فعرفه، فقال له: يا أخي! وإلى هاهنا تتبَعُني؟ أما كفاكَ انقطاعي عن مجالس الطلب، وعن الخروج جملةً، وعن القُعود على بابي نهارًا حتّى قطعت عليّ جميع ما لي فيه راحةٌ فصرتُ في سِجْنك؟ والله لا فارقتُ بعد هذه الليلة قَعْرَ منزلي، ولا جلستُ بعدها على بابي، لا ليلًا ولا نهارًا، ثم قام. وانصرف أحمد بن كليب حزينًا كئيبًا. قال محمد: واتّصل ذلك بنا فقلنا لأحمد بن كليب: وخسرت دجاجك وبيضك؟ فقال: هات كلَّ ليل قُبلةً في يده، وأخسر أضعاف ذلك! فلما يَئِس من

(١) فشت: اشتهرت وشاعت.
(٢) الرّشا: ولد الظبية إذا قوي وتحرّك ومشى مع أمّه.
(٣) مستروحًا: مستريحًا وطالبًا لنسيم الريح.

رؤيته البتّةَ، نهكته العلّة وأضجعه المرض. قال محمد بن الحسن: فأخبرني شيخنا محمد بن خطاب قال: فعُدْته فوجدته بأسوإ حالٍ، فقلت له: لِمَ لا تَتداوى؟ فقال: دوائي معروف، وأما الأطباء فلا حيلةَ لهم فيّ البتةَ، فقلت له: وما دواؤك؟ قال: نظرةٌ من أسلم! فلو سعيتَ في أن يزورني لأعظم الله جزاءك بذلك، وآجره. قال: فرحمته وتقطّعت نفسي عليه، فنهضت إلى أسلم فاستأذنتُ عليه، فأذن لي وتلقّاني بما يجب، فقلت: لي حاجةٌ، فقال: وما هي؟ قلت: قد علمت ما جمَعَك مع أحمد بن كليب من ذمام[1] الطلب عندي. فقال: نعم، ولكن قد تعلم أنه برّح[2] بي، وشَهَّر اسمي وآذاني. فقلت له: كلّ ذلك يُغتفَر في مثل هذه الحال التي هو فيها، والرجل يموتُ، فتفضّل بعيادته. فقال لي: والله ما أقدِر على ذلك، فلا تكلِّفْني هذا! فقلت: لا بدَّ من ذلك فليس عليك فيه شيء، وإنما هي عيادة مَريض. قال: ولم أزل به حتّى أجاب، فقلت له: فقم الآن، قال: لستُ والله أفعلُ، ولكن غدًا، فقلت له: ولا خُلْفَ[3]، قال: نعم، فانصرفت إلى أحمد بن كليب فأخبرته بوعده فسُرَّ بذلك وارتاحتْ نفسه. فلما كان من الغد بكَّرتُ إلى أسلم، وقلت له: الوعدَ، قال: فوَجِم[4]، وقال: والله لقد تحملني على خُطَّة صَعْبة عليّ، وما أدري كيف أُطيق ذلك؟ فقلت له: لا بدّ أن تفي بوعدك لي، قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجلًا، فلما أتينا منزل أحمد وكان يسكن في درب طويل. فعندما توسَّط الزُّقاق وقف واحمرّ وخجل، وقال: يا سيّدي، الساعة والله أموت! وما أستطيع أن أعرض هذا على نفسي! فقلت: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل، قال: لا سبيل والله إلى ذلك البتَّةَ! ورجع هاربًا فاتَّبعته وأخذتُ بردائه، فتمادى وتمزّق الرداء وبَقِيتْ قطعة منه في يدي لشدّة إمساكي له. ومضى ولم أُدركه، فرجعت ودخلت على أحمد، وكان غُلامه قد دخل عليه لما رآنا من أوّل الزقاق مبشِّرًا، فلما رآني تغيّر وجهُه وقال: أين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقصة فاستحال[5] من وقته واختلط[6] وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر من الاسترجاع[7]. فاستبشعت الحال وجعلت أتوجَّع وقمت، فثاب[8] إليه

(١) الذّمام: الحرمة والحق والعهد.
(٢) برّح: ألحّ عليه بالأذى.
(٣) الخُلْف: عدم الوفاء بالوعد.
(٤) وجم: سكت على غيظٍ، وقطّب.
(٥) استحال: تغيّر.
(٦) اختلط: أصابه الخبل والهذيان.
(٧) الاسترجاع: أن يقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.
(٨) أثاب إليه ذهنه: رجع إليه عقله.

ذهنُه، وقال لي: يا أبا عبد الله، قلت: نعم، قال: اسمع مني، واحفظ عَنِّي، وأنشأ يقول: [من مخلّع البسيط]

أسْلَمُ، يا راحةَ العَليل ... رِفْقًا على الهائم النَّحِيل!
وصْلُك أشهى إلى فُؤادي ... من رحمةِ الخالِقِ الجليل!

قال: فقلت له: اتّق الله، ما هذه العظيمة؟ قال: قد كان، فخرجت عنه فوالله ما توسّطت الزقاقَ حتّى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدّنيا.

وهذه الحكاية مشهورة عند أهل الأندلس، وأسلم هذا من بني خالد، وكانت فيهم وزارة وحجابة. وهذا الباب طويل والحكايات والأخبار والوقائع فيه كثيرة يطول الشرح بذكرها.

* * *

وأمّا من قتل نفسه بسبب العشق، فحكي عن عبد الرحمٰن بن إسحٰق القاضي قال: انحدرْتُ من «سُرَّ مَنْ رأى» مع محمد بن إبراهيم أخي إسحٰق(١)، ودجلة تَزْخَر(٢) من كثرة مائها. فلما سِرْنا ساعةً، قال: ارْفُقُوا بنا، ثم دعا بطعامه فأكلنا، ثم قال: ما ترى في النبيذ؟ قلت له: أعزّ الله الأمير، هذه دِجلة قد جاءت بمدّ عظيم يُرْهَب مثله، وبينك وبين منزلك مَبيتُ ليلة، فلو شئتَ أخّرته، قال: لا بدّ لي من الشراب، واندفعت مغنيةٌ فغنّتْ، واندفعت أخرى فغنته: [من مجزوء الكامل]

يا رَحْمَتَا للعاشِقِينَا ... ما إنْ أرى لَهُمُ معينا!
كم يُشْتَمُون ويُضْرَبو ... ن ويُهْجَرُون، فيصبِرُونا!

فقالت لها المغنية الأولى: فيصنعون ماذا؟ قالت: يصنعون هكذا، ورفَعَتِ الستارة وقذفتْ بنفسها في دِجْلَة. وكان بين يدي محمد غلامٌ ذَكَر أنْ شراه ألف دينار، بيده مَذَبّة(٣)، لم أر أحسن منه. فوضع المِذَبّة من يده وقذف بنفسه في دجلة، وهو يقول:

أنْتِ التي غَرَّقْتِنِي ... بعد القضا، لو تَعْلَمِينا!

---

(١) إسحٰق: هو إسحٰق بن إبراهيم الموصلي، أبو محمد بن النّديم، من أشهر ندماء الخلفاء، تفرّد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى وعلوم الدين، راويًا للشعر، وشاعرًا وحافظًا للأخبار، فارسيُّ الأصل، ولد ببغداد وتوفي فيها سنة ٨٥٠ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٩٢».

(٢) تزخر: تفيض ماء قويًا.

(٣) المذبّة: ما يدفع به الذّباب.

فأراد الملّاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما، فصاح بهم محمد: دَعُوهما يَغْرَقا إلى لعنة الله! قال: فرأيتهما وقد خرجا معتنقين ثم غَرِقا.

وحُكي عن جميل بن معمر العذريّ أنّه قال: دخلتُ على عبد الملك بن مَرْوان فقال لي: يا جميل حدِّثْني بعض أحاديثِ بني عذرة، فإنه بلغني أنهم أصحاب أَدَب وغَزَل، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، انتجعوا[١] عن حَيِّهم مرة فوجدوا النُّجْعة بموضع نازح[٢] فقطنوه. فخرجت أريدهم، فبينا أنا أسير، غلِطتُ الطريقَ وجنَّ[٣] عليّ الليلُ، فلاح لي باب فقصدته. فوردت على راعٍ في أصل جبل قد ألجأ غنَمَه إلى كهف في الجبل، فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، وقال: أحسَبُك قد ضَلَلْتَ الطريق؟ قلت: قد كان ذلك، فأرشِدْني! قال: بل انزل حتّى تُريح ظهرك، وتبيتَ ليلتَك، فإذا أصبحْتَ وقَّفْتك على القصد. فنزلت فرحَّب بي وأكرمني، وعمد إلى شاة فذبحها، وأجّج نارًا، وجعل يَشْوِي ويُلْقِي بين يديّ، ويحدّثني في خلال ذلك. ثم قام إلى كساء فقطع به جانب الخباء ومهّد لي جانبًا، ونزل جانبًا خاليًا، فلما كان في الليل سمعتُه يبكي ويشكو إلى شخص. فأرِقْت ليلتي، فلما أصبحت، طلبت الإذن فأبى، وقال: الضيافةُ ثلاث! فأقمت عنده، وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب لي. فإذا هو من بني عُذْرة، من أشرافهم. فقلت: يا هذا، وما الذي أحلَّك هذا الموضعَ؟ فأخبرني أنه كان يهوى ابنة عمّ له وتهواه، وأنه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجه إيّاها لقِلّة ذات يده، وأنه زوّجها رجلًا من بني كلاب فخرج بها عن الحيّ وأسكنها في موضعه ذلك، وأنه تنكّر ورَضِي أن يكون راعيًا لتأتِيَه ويراها. وجعل يشكو إليّ صَبابتَه بها وعشقه لها، حتى إذا جنَّنا الليل وحان وقت مجيئها، جعل يتقلقل[٤] ويقوم ويقعد كالمتوقّع لها. فلما أبطأت عن الوقت المعتاد وغلبه الشوق، وثب قائمًا وأنشأ يقول: [من البسيط]

ما بالُ مَيَّةَ لا تأتي لِعادتها! ... أهاجَهَا طَرَبٌ أم صَدَّهَا شُغُلُ؟[٥]
لكنّ قَلْبِي لا يُلْهِيهِ غيرُهُمُ ... حَتّى المَمَات، ولا لي غَيْرُهم أمَلُ!
لو تَعْلَمِينَ الَّذِي بي من فِراقِكُم ... لما اعْتَلَلْت ولا طابَتْ لَكِ العِلَلُ![٦]

---

(١) انتجعوا: طلبوا النجعة والكلأ.
(٢) النازح: البعيد.
(٣) جنّ الليل: أظلم وستر الناس بظلامه.
(٤) يتقلقل: يتحرّك ويضطرب.
(٥) هاجها: أثارها، والطّرب: اللّهو والغناء، وصدّها: صرفها.
(٦) العلل: التشاغل.

رُوحي فِدَاؤُك! قد هَيَّجْتِ لي سَقَمًا تَكادُ من حَرِّه الأعضاءُ تَنْفَصِلُ![١]
لـو أن عـادِيَـهُ مـنّـي عـلى جَـبَـلٍ لزال وانْهَدّ من أركانِهِ الجبَلُ![٢]

ثم قال: يا أخا بني عذرة، مَكانَكَ حتّى أعود إليك! فما أتوَهَّم أن أمْرَ ابنة عَمِّي صحيح! ثم مضى. فما لبث أن أقبل وعلى يده شيء محمول، وقد علا شَهِيقُه ونحيبُه، فقال: يا أخا بني عذرة، هذه ابنة عمي، أرادت أن تأتيني فاعترضها الأسد فأكلها! ثم وضعها عن يده، وقال: على رِسْلِكَ حتَّى أعودَ إليك، ومضى فأبطأ حتّى يئستُ من رجوعه، ثم أقبل ورأسُ الأسد على يده، فألقاها وجعل ينكتُ[٣] على أسنان الأسد ويقول: [من الطويل]

ألَا أيُّـها الـلّيـثُ الـمُخِيـلُ بنفسه! هَلَكْتَ! لقد جَرَّتْ يداكَ لنا حُزْنا![٤]
وغـادَرْتَـنِـي فَـرْدًا وقـد كـنـتُ آلـفًـا وصَيَّرْتَ بطنَ الأرض ثَمَّ لنا سِجْنَا!
أقـولُ لـدَهْـرٍ خـانَـنـي بـفِـراقِـهِ معاذَ إلٰهي أنْ أكونَ له خِدْنَا![٥]

ثم قال: يا أخا بني عُذْرة، إنك ستراني بين يديك ميِّتًا! فإذا متُّ فاعمِدْ إليّ وابنة عمِّي، فأدرجنا في كفن واحد، واحفُرْ لنا جَدَثًا واحدًا، وادفِنَّا فيه، واكتب على قبري هذين البيتين: [من البسيط]

كُنَّا على ظَهْرِهَا، والعَيْشُ في مَهَلٍ! والشَّمْلُ يَجْمَعُنا والدارُ والوطَنُ
فَـفَـرَّقَ الـدَّهـرُ والـتـصرِيـفُ أُلْفَتَـنـا فصار يجمَعُنا في بَطْنِهَا الكَفَن[٦]

ورُدَّ الغنم إلى صاحبها وأعلمْه بقصّتنا، ثم عَمَد إلى خِناق فطرحه في عنقه، فناشدته الله تعالى أن لا يفعل، فأبى وجعل يخنُق نفسه حتّى سقطَ ميتًا. فكفَّنتهما ودفنتهما في قبرٍ واحد، وكتبت البيتين على قبرهما، ورددْتُ الغنم إلى صاحبها، وأعلمته بقصتهما فحزِن حُزْنًا شديدًا أشفقتُ منه على نفسه.

(١) حرّه: شدّة حرارته وحرقته.
(٢) عاديّه: الهاء في عادية تعود للسقم، والعاديّ: ما يعودني منه من سقم وحرارة.
(٣) ينكث الأثر: يؤثّر فيها بعود أو نحوه.
(٤) المخيل: المعجب المتكبّر، وجرّت لنا: حملت إلينا.
(٥) الخدن: الصديق.
(٦) التّصريف: من صروف الدّهر، وهي غِيَرُه وأحداثه، وقد ألف ذلك منه لأنّه لم يكن له مواتيًا منذ البداية، والهاء في بطنها يعود إلى الأرض.

ذكر شيء مما ورد في التحذير من فِتنة النساء، وذَمِّ الزِّنى، والنظرِ إلى المُرْدان، والتحذير من اللِّواط، وعقوبةِ اللَّائط

أمّا ما ورد من التحذير من فتنة النساء، فقد رُوِيَ عن أبي أُمامة بن يزيد، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ما تَرَكْتُ في الناسِ بَعْدِي فِتنةً أضَرَّ على الرجال من النِّساءِ».

وعن أبي سعيد الخدريّ[١] رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنَّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله عزّ وجلّ مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها لِيَنْظُرَ كيف تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا واتَّقُوا النساءَ؛ فإن أوّلَ فِتنةِ بني إسرائيل كانتْ في النِّساءِ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ على أُمَّتِي النساءُ والخَمْرة».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: لم يكُنْ كُفْرُ مَنْ مضى إلّا من قِبَلِ النساء، وهو كائن، كُفْر من بَقِي من قِبَل النساء.

وعن حسان بن عطيّة[٢]، قال: ما أُتِيَتْ أمَّةٌ قَطُّ إلا من قِبَلِ نِسائِهم.

وعن سعيد بن المسيّب[٣]، قال: ما يَئِسَ الشيطانُ مِنَ ابنِ آدم قطُّ، إلا أتاه مِنْ قِبَلِ النِّساءِ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال إبليسُ لربّه عزّ وجلّ: يا رَبِّ قد أُهْبِطَ آدمُ، وقد علمت أن سيكُونُ لهم كِتابٌ ورسل، فما كِتابُهم ورُسُلُهم؟ قال الله عزّ وجلّ: رسلهم الملائكة والنَّبِيُّون مِنهم، وكُتُبُهم التوراةُ والإنجيلُ والزَّبُور والفُرْقان، قال: فما كِتابِي؟ قال: كتابُكَ الوَشْمُ[٤]، وقُرْآنُكَ

---

(١) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، صحابيّ، كان من ملازمي النبيّ ﷺ، وروى عنه أحاديث كثيرة، غزا اثنتي عشر غزوة، توفي في المدينة سنة ٦٩٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٨٧».

(٢) هو حسان بن عطية، أبو بكر المحاربي، محدّث ثقة، عابد، نبيل، لكنه قدري المذهب. «الكاشف للذهبي ١/ ١٥٧».

(٣) هو سعيد بن المسيب بن حزن الإمام، أبو محمد المخزومي، أحد الأعلام وسيّد التابعين، محدّث ثقة، حجّة، فقيه، رفيع الذكر، رأس في العلم والعمل، عاش تسعًا وسبعين سنة، مات سنة ٩٤ هـ. «الكاشف ١/ ٢٩٦».

(٤) الوشم: ما يكون من غرز الإبرة في البدن، وذرّ النيلج عليه حتى يزرقّ أثره أو يخضرّ.

الشِّعْر، ورُسُلُك الكَهَنَة، وطعامُك ما لم يُذْكَرِ اسْمُ الله عليه، وشَرَابُك من كل مُسْكِر، وصِدْقُك الكَذِبُ، وبَيْتُك الحَمَّام، ومَصَايِدُكَ النساءُ، ومُؤَذِّنُك المِزْمار، ومَسْجِدُكَ الأسواقُ».

❊ ❊ ❊

ومن فتنة النساء، ما رُوِي عن وهب بن منبّه[١] أن عابدًا كان في بني إسرائيل، وكان من أعْبَد أهل زمانه. وكان في زمانه ثلاثةُ إخوة لهم أختٌ، وكانت بكرًا. فخرج البَعْثُ[٢] عليهم فلم يَدْرُوا عند من يُخَلِّفُون أختهُم، ولا من يَأْمَنُون عليها. فأجمعوا رأيَهُم على أن يُخَلِّفُوها عند العابد. فأتَوْه وسألُوه أن يخلِّفوها عنده، فأبى ذلك. فلم يزالُوا به حتى قال: أنزلوها في بيتٍ جِوارَ صَوْمَعتِي، فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقُوا وتركُوها. فمكَثَتْ في جِوَار العابد زمانًا يُنْزِل إليها الطعامَ من صومعته فيضَعُه عند باب الصومعة[٣]، ثم يُغْلِق بابه ويَصْعَد صومعتَه، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطف له الشيطان، فلم يزل يُرَغِّبه في الخير ويُعظِّم عنده خروجَ الجارية من بيتها نهارًا، ويخوّفه أن يراها أحدٌ فيَعْلَقَها. فلم يزل به حتّى مشَى بطعامها ووضعه عند باب بيتها، ولا يكلِّمُها. فلَبِث بذلك زمانًا، ثم جاءه إبليس فرَغَّبَه في الخَيْر والأجْر، وقال له: لو كنت تمشِي إليها بطعامها حتّى تضَعَه في بيتها، كان أعظَمَ لأجرك، فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها، فلَبِث بذلك زمانًا. ثم جاءه إبليس فرَغَّبه في الخير وحَضَّه عليه، وقال له: لو كنتَ تكلّمها وتحدّثها، فتأنَسَ بحديثك، فإنها قد استوحشتْ وحشةً شديدة، فلم يزل به حتّى حدّثها زمانًا، يطلُعُ إليها من فوق صومعته، ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال له: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدّثك، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتّى أنزله فأجلسه على باب صومعته يحدّثها، وتخرُج الجارية من بيتها حتّى تقعُد على بابها، فلبثا زمانًا يتحدّثان. ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير، فقال: لو خرجت من باب صومعتِك فجلستَ قريبًا من بيتها فحدّثتَها، كان آنَسَ لها. فلم يزل به حتى فعل، فلبثا بذلك زمانًا، ثم جاءه إبليس فقال: لو دَنَوْتَ من باب بيتها، ثم قال: لو دخلت البيت فحدّثتها ولم تتركها

(١) هو وهب بن منبّه الصنعاني، إخباري علّامة، قاصّ، صدوق، صاحب كتب، ولي قضاء صنعاء في آخر خلافة عثمان، مات سنة ١١٤ هـ. «الكاشف ٣/ ٢١٦».
(٢) البعث: أي خروجهم في الجيش الذي بعث، والبعوث: الجيوش.
(٣) الصومعة: مكان للتعبّد يكون بعيدًا عن الناس.

تُبْرِز[١] وجهها لأحدٍ، كان أحسنَ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدّثها نهاره كلّه. فإذا أمسى صَعِد في صومعته، قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يُزَيِّنُها له حتّى ضرب العابدُ بيده على فَخِذها وقَبَّلها. ثم لم يزل يحسنها في عينه ويُسوّل[٢] له حتى وقع عليها فأحبلها، فولدت غلامًا. فجاء إبليس، فقال له: أرأيت إن جاء إخوتُها، وقد ولَدَتْ منك كيف تَصْنَع؟ فاعمِدْ إلى ابنها فاذبحه وادفِنْه، فإنها ستكْتُم ذلك عليك مخافَةَ إخوتها، فقتله. ثم جاءه، فقال: أتُراها تكتُم ما صنعتَ بها؟ خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها، فذبحها وألقاها في الحُفْرة. فمكَثَ ما شاء الله حتى قَفَلَ[٣] إخوتُها من الغزو. فجاؤوه فسألُوه عن أختهم فنعاها لهم وتَرحَّم عليها وبَكاها، وقال: كانت خَيْر امرأة، وهذا قبرها، فأتى إخوتُها القبْرَ فبَكَوْها وترحَّمُوا عليها، وأقاموا على قبرها أيامًا ثم انصرفوا إلى أهاليهم. قال: فلما جنَّهم الليلُ وأخذوا مضاجِعَهم، أتاهم الشيطانُ في النوم فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وبموتها. فكذَّبهُ الشيطانُ، وقال: لم يَصْدُقْكُم أمْرَ أُختكم، إنه أحبلها وولدتْ منه غلامًا فذبحه وذبحها معه فَرَقًا[٤] منكم، وألقاهما في الحُفْرة خلفَ باب البيت، وأتى الأوسط في منامه، فقال له مثلَ ذلك؛ ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل ذلك، فلما استيقظ القوم، استيقظوا متعجّبين لما رآه كلُّ واحدٍ منهم. فأقبل بعضهم على بعض يقول: لقد رأيتُ عَجَبًا! وأخبر بعضهم بعضًا بما رأى، فقال كبيرهم: هذا حُلُمٌ، ليس هذا بشيء، فامضُوا بنا ودَعُوا هذا، فقال أصغرهم: لا أَمْضِي حتى آتِيَ ذلك المكانَ فأنظُرَ فيه، فانطلقوا فبحثوا الموضع، فوجدوا أُخْتَهم وابنَها مذبوحين. فسألُوا عنها العابد، فصدّق قولَ إبليس فيما صنع بهما. فاستَعْدَوْا عليه مَلِكَهم فأُنْزِل من صومعته وقدَّموه لِيَصْلُبوه. فلما أوْثقوه على الخشبة، أتاه الشيطانُ، فقال له: قد علمتَ أني صاحبك الذي فتنتك في المرأة حتى أحبَلْتها وذبحتها وابنَها، فإن أنت أطعتَني اليوم وكفَرْت بالله الذي خلقك، خلَّصْتك مما أنت فيه، فكَفَر العابدُ بالله. فلما كَفر، خلَّى الشيطانُ بينه وبين أصحابه فصَلَبوه. قال وهب: ففيه نزلت هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: الآيتان ١٦، ١٧].

نسأل الله العافية من فتنتهنّ، ونعوذ به من الشيطان الرجيم.

* * *

(١) تُبرز: تظهر، وتحسُرُ عن وجهها.

(٢) سوّلت له نفسه: حبّبَت إليه الشيء وسهّلته له.

(٣) قفل: عاد، وآب.

(٤) فرقًا: خوفًا.

وأمّا ما جاء في ذمّ الزّنى، فكفى به ذمًّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: الآية ٣٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَسْرِقُ السارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، ولا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُو مُؤْمِنٌ» الحديث.

وعن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا أُمَّةَ محمدٍ، ما أَحَدٌ أَغْيَرَ[١] من الله أن يَرَى عَبْدَه أو أمتَهُ تَزْنِي».

وعنه ﷺ أنّه قال: «اشْتدَّ غضَبُ الله تعالى على الزُّناةِ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمانَ سِرْبال[٢] يُسَرْبِلُه اللهُ مَنْ يَشَاء، فإذا زنى العبدُ، نُزِع منه سِرْبالُ الإيمانِ، فإذا تاب رُدّ عَلَيْه».

وعنه ﷺ أنّه قال: «ما مِنْ ذنبٍ بعدَ الشِّرْكِ أعظَمَ عند الله من نُطْفةٍ وَضَعَها رجلٌ في رَحِمٍ لا يَحِلُّ له».

وعن أنس[٣] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكُمْ والزِّنى، فإنَّ في الزِّنى سِتَّ خِصَال، ثلاثٌ في الدنيا، وثلاثٌ في الآخرة. فأمّا اللواتي في الدنيا، فذَهَاب نُور الوَجْهِ، وانقطاعُ الرِّزْق، وسُرْعة الفَنَاء؛ وأمّا اللّواتي في الآخرة، فغَضَبُ الربِّ، وسُوءُ الحِسَاب، والخُلودُ في النار، إلا أن يشاءَ الله تعالى».

وعن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الذنب أعظَمُ؟ قال: «أن تجعَلَ للهِ نِدًّا[٤]، وهو خَلَقَك!» قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تَقْتُل ولَدَك من أجل أن يَطْعَمَ مَعَكَ»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تَزْنِي بحليلةِ جَارِكَ».

والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة.

* * *

(١) أغْيَرُ: من الغيرة، وهي شعورٌ بالثورة ينتاب أحد الزوجين أو الحبيبين إذا ما يراه تودّد لآخر.
(٢) السّربال: لباسٌ، كالقميص أو نحوه.
(٣) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاريّ، أبو تمامة أو أبو حمزة، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، محدّث روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثًا، توفي سنة ٩٣ هـ بالبصرة. «الكاشف ١/٨٨».
(٤) الندّ: المثل والظهير.

وأمّا ما جاء في النهي عن النظر إلى المُرْدان ومجالستهم، روي عن أبي السائب[١] أنّه قال: لأَنَا على القارىء من الغُلام الأمْردِ أخوفُ منّي عليه من سَبْعين عَذْراء. وفي لفظ عنه: لأَنَا أخوف على عابد من غلامٍ أمردَ من سبعين عَذْرَاء.

وعن سعيد بن المسيّب أنه قال: إذا رأيتم الرجلَ يُلِحُّ[٢] النظر إلى غلام أمرد، فاتَّهِموه.

وكان سفيان الثوريّ رضي الله عنه لا يَدَع أمْردَ يجالسه.

وعن يعقوب بن سوال قال: كنّا عند أبي نصر بشر بن الحارث[٣]، فوقفَتْ عليه جاريةٌ ما رأينا أحسَنَ منها، فقالت: يا شيخُ، أين مكانُ باب حَرْب؟ فقال لها: هذا الباب الذي يقال له بابُ حَرْب. ثم جاء بعدها غلام فسأله، فقال له: يا شيخ، أين مكانُ باب حرب؟ فأطرق بشرٌ. فردّ عليه الغلامُ السؤالَ فغمّض عينيه، فقلنا للغلام: أيُّ شيءٍ تريد؟ فقال: باب حرب، فقلنا: بين يديك، فلما غاب، قلنا: يا أبا نَصْر، جاءتْكَ جاريةٌ فأجبتها وكلّمتها، وجاءك غلام فلم تكلّمه؟ فقال: نعم، يروى عن سفيان الثوريّ أنه قال: مع الجارية شيطانٌ، ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسي من شيطانَيْه.

وعن أبي سعيد الخراز[٤]، قال: رأيت إبليس في النوم، وهو يمرّ عَنِّي ناحية، فقلت: تعالَ، فقال: أيّ شيء أعمل بكم؟ أنتم طَرَحتم عن نفوسكم ما أُخادعُ به الناسَ، قلت: ما هو؟ قال: الدنيا، فلما ولَّى، التفت إليّ فقال: غير أن لي فيكم لطيفةً، قلت: ما هي؟ قال: صحبةُ الأحداث.

---

(١) هو أبو السّائب الأنصاري، مولى هشام بن زهرة، محدّث ثقة، روى عن المغيرة وأبي هريرة، وروى عنه العلاء والزّهري. «الكاشف ٣/ ٢٩٩».

(٢) يلحُّ النظر: يديمه ويطيله.

(٣) هو بشر بن الحارث بن عليّ بن عبد الرحمٰن المروزيّ، أبو نصر، المعروف بالحافي، من كبار الصالحين، له في الزّهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل مروٍ، سكن بغداد وتوفّي بها سنة ٨٤١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٥٤».

(٤) لعلّه أحمد بن الحارث بن المبارك، الخرّاز، مؤرّخ من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها سنة ٨٧٢ م، ذكر له ابن النديم كتبًا منها: الممالك والمسالك، وأسماء الخلفاء، والصحابة، ومغازي البحر في دولة بني هاشم. «فهرس الأعلام ١/ ١٠٩».

وعن مظفر القِرْمسينيّ[١] قال: من صَحِب الأحداث على شَرْط السلامة والنصيحة أدّاه ذلك إلى البلاء؛ فكيف من صَحبهم على غير وجه السّلامة؟

وقد ذكر أبو الفرج في كتابه المترجم «بذمّ الهوى» من افتتن بالأحداث، وصرّح بأسمائهم، فلم تُؤثر التعرّض لذلك، لما فيه من التشنيع عليهم والإذاعة لمساويهم.

* * *

وأمّا ما جاء في التحذير من اللّواط وما ورد في سِحَاق النساء، روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَلْعُونٌ ملعونٌ من عَمِلَ بعَمَلِ قومِ لُوطٍ»، وعنه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لَعَنُ اللهُ من عَمِلَ عَمَلَ قومِ لُوط».

وعن جابر بن عبد الله[٢]، أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ على أُمَّتي عملُ قومِ لُوطٍ». وفي لفظ آخر عنه ﷺ: «إن أخْوفَ ما أخافُ على أُمَّتي من بعدِي عملُ قَوْمِ لوط، ألَا فَلْتَتَرَقَّبْ أُمتي العذابَ إذا كان الرجالُ بالرجال والنساءُ بالنساءِ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظُرُ الله إلى رجل أتى رجُلًا أو امرأة في دُبُرِها».

وعن عبد الله بن عمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يَعْلُ فَحْلٌ فَحْلًا حتّى كان قومُ لُوطٍ، فإذا عَلَا الفحلُ الفحلَ، ارتَجَّ أو اهتَزَّ عرش الرحمٰن عزّ وجلّ، فاطّلعت الملائكة تعظيمًا لفعلهما، فقالوا: يا ربِّ، ألا تأمُر الأرضَ أن تَغُورَ[٣] بهما، وتأمُرُ السماءَ أن تَحْصِبَهما[٤]، فيقول الله تعالى: إنّي حليم لا يفوتُنِي شيءٌ».

وعن سماك بن حَرْب، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنّه قال: إن الرجلَ ليأتِي الرجلَ فتَضِجُّ الأرضُ من تحتهما، والسماءُ من فوقهما، والبيت

---

(١) القرميسيني: نسبة إلى قرميسين، وهو تعريب كرمان شاهان، بلدٌ معروف قرب الدّينور، وهي بين همذان وحُلوان على جادة الحاج. «معجم البلدان ٤/ ٣٣٠».

(٢) هو جابر بن عبد الله السّلمي، عقبي، أي ممّن شهد العقبة، روى حوالي ألف وخمسمائة حديث وأربعون حديثًا، مات سنة ٧٨ هـ. «الكاشف ١/ ١٢٢».

(٣) تغور: أي أن تذهب بهما فتنشق وتبتلعهما.

(٤) تحصبهما السّماء: ترجمهما بالشّهب فتحرقهما.

والسقفُ، كلّهم يقولون: أيْ ربِّ، أتَأذَنُ لنا ينطبِقْ بعضُنا على بعض فنجعَلهم نَكَالًا[١] ومُعتبَرًا، فيقول الله عزّ وجلّ: إنّهم وَسِعَهُم حِلْمِي ولن يَفُوتُوني.

وكان سفيان الثوريّ رحمه الله يقول: لو أنَّ رجلًا عَبَث بغلام بين إصبعين من أصابع رجليه يريد الشهوةَ، لكان لِوَاطًا.

وروى عن مكحول[٢] عن واثلة بنِ الأسقع[٣] أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «سِحَاقُ النساء زنًى بينهن».

* * *

وأمّا ما ورد في عقوبة اللائط والمَلُوط به في الدنيا والآخرة:

أما عقوبة الدنيا، فقد جاء بها نصُّ القرآن في قصة قوم لوط، وشَرْح أفعالهم، وما عذّبوا به في آي[٤] كثيرة.

وجاء في الأحاديث النبويّة، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، في عقوبة اللائط والملوط به ما يدلّ على التغليظ والتشديد.

فمن ذلك ما رُوِي عن عكرمة[٥] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيمن عَمِلَ عَمَلَ قومِ لوط: يُقْتَلُ الفاعلُ والمفعولُ به، وفي لفظ آخر عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ: «اُقْتُلُوا الفاعلَ والمفعولَ به»، في عَمَل قوم لوط.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بعمل قومِ لُوط فاقتُلُوه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوه يعملُ عملَ قومِ لُوط، فَارْجُمُوا الأعْلى والأسْفَلَ».

---

(١) النّكال: العقاب.

(٢) مكحول: هو مكحول فقيه الشام، محدّث روى عن عائشة وأبي هريرة، وروى عنه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، توفي سنة ١١٣ هـ. «الكاشف ٣/ ١٥٢».

(٣) هو واثلة بن الأسقع الليثيّ، من أهل الصفة، غزا تبوك، محدّث أخذ عنه مكحول ويونس بن ميسرة، عاش ثمانيًا وتسعين سنة، مات سنة ٨٥ هـ. «الكاشف ٣/ ٢٠٤».

(٤) الآي: جمع آية من آيات القرآن الكريم.

(٥) هو عكرمة بن خالد المخزومي، حدّث عن ابن عباس وأبي هريرة، وعنه قتادة وأيّوب والأوزاعي، مات بعد عطاء بمكّة، من الثقات. «الكاشف ٢/ ٢٤٠».

وعن محمد بن المنكدر[١] أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، أنه وجد رجلًا في بعض الأضاحي ينكح رجلًا كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، فيهم عليّ بن أبي طالب، وقال: إن هذا ذنب لم تعملْ به أمّة إلا أمّة واحدة، ففعل الله بهم ما قد علمتُم. أرى أن نُحَرِّقَه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يُحرَّقَ بالنار، فأمر به أبو بكر رضي الله عنه أن يُحَرَّق بالنار، وقد حرّقهم عبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك.

- وعن يزيد بن قيس[٢] أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رَجَم لُوطِيًا.

- وعن سعيد بن زيد[٣] قال: سئل عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: ما حدّ اللوطيّ؟ قال: ينظر أعلى بيت في القرية فيرمى منكّسًا[٤] ثم يُتْبَع بالحجارة.

وللتابعين ولأئمة العلماء في ذلك أقوال:

فمنهم من رأى أن حدّه كحدّ الزّنى، وفرّق بين المُحصن وغير المُحصن.

ومنهم من رأى أن حدّه القتلُ أحصَنَ، أو لم يُحْصِن.

روى سفيان عن جابر عن الشعبيّ[٥] أنّه قال: اللُّوطيّ يرجَمُ، أحْصَن أو لم يُحْصِن.

وعن ابن أبي نجيح عن عطاء[٦] قال: حدُّ اللوطيّ حدُّ الزاني، وإن أحْصَن[٧] رُجِم، وإلا جلد. وبه قال الهيثم[٨].

---

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدير القرشي التيميّ، المدني الزّاهد من رجال الحديث، قال ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصدق، توفي سنة ٧٤٨ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١١٢».

(٢) هو يزيد بن قيس، أو قُبَيْس، محدّث ثقة. «الكاشف ٣/ ٢٤٨».

(٣) هو سعيد بن زيد الفزاري، حدّث عن أبيه، وحدّث عنه مسعر وحجاج بن أرطأة، ثقة. «الكاشف ١/ ٢٨٦».

(٤) المنكّس: الذي جعل رأسه إلى أسفل.

(٥) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، اتّصل بعبد الملك بن مروان، وكان رسوله إلى ملك الرّوم، من رجال الحديث الثقات، مات فجأة بالكوفة سنة ٧٢١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥١».

(٦) لعلّه عطاء بن أبي رباح، أبو محمد القرشيّ، أحد الأعلام عاش ثمانين سنة، مات سنة ١١٤ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٣١».

(٧) المحصن: المتزوّج.

(٨) لعله الهيثم بن رافع، حدّث عن عطاء وأبي يحيىٰ المكّي، صدوق. «وانظر الكاشف ٣/ ٢٠٣».

وعن قتادة[١] عن الحسن[٢] أنّه قال في الرجل يخالط الرجل: إن كان أحْصن، جُلد ورُجم؛ وإن كان لم يُحْصِن، جُلد ونُفِي.

وعن مالك بن أنس[٣] عن الزهريّ[٤] قال: يُرْجَم، أحْصن أو لم يُحْصِن.

وعن الطيالسيّ[٥] قال: حدّثنا إسحٰق الكَوْسج[٦]، قال: قلت لأحمد بن حنبل: أيرجم اللوطي، أحْصَن أو لم يُحْصِن؟ قال: يرجم، أحْصن أو لم يُحْصِن.

وقد روي عن أحمد بن حنبل[٧] أنّ حدّ اللوطيّ كحدّ الزاني، يختلف بالثُّيوبة[٨] والبَكَارة[٩]، وهو قول محمد عن الشافعيّ[١٠].

وقال الحكم[١١]: يُضْرَب اللوطيّ دون الحدّ. قال ابن الجوزيّ: وإلى هذا مال أبو حنيفة[١٢].

---

(١) لعلّه قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي، الأعمى، الحافظ المفسّر، مات كهلًا سنة ١١٨، وقيل ١١٧ هـ. «الكاشف ٢/ ٣٤١».

(٢) لعلّه الحسن البصري، الإمام أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت، رفيع الذّكر، كان رأسًا في العمل والعلم، مات في رجب سنة عشر ومائة هـ. «الكاشف ١/ ١٦٠».

(٣) هو مالك بن أنس الأصبحي، أبو عبد الله الإمام، روى عن نافع والزّهري، ولد سنة ٩٣ هـ، وتوفي في ربيع الأوّل سنة ١٧٩ هـ، محدّث ثقة. «الكاشف ٣/ ٩٩».

(٤) الزُّهري: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزُّهري، من قريش، أبو بكر، أوّل من دوّن الحديث، وأحد كبار الحفّاظ الفقهاء، تابعي من أهل المدينة، مات بشَغْب، آخر حدّ الحجاز وأوّل حدّ فلسطين سنة ٧٤٢ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٩٧».

(٥) الطيالسيّ: هو هشام بن عبد الملك الباهلي، أبو الوليد، من كبار حفّاظ الحديث من أهل البصرة، روى عنه البخاري ١٠٧ أحاديث، توفي سنة ٨٤١ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٨٧».

(٦) هو إسحٰق بن منصور بن بهرام، أبو يعقوب المروزيّ، المعروف بالكوسج، فقيه حنبلي من رجال الحديث، من أهل مرو، استوطن نيسابور ومات فيها سنة ٨٦٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٩٧».

(٧) هو أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيبانيّ الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمّة الأربعة، أصله من مرو، من كتبه «المسند»، توفي سنة ٨٥٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٣».

(٨) الثيوبة: من الثيّب، وهي المتزوّجة التي ليست بكرًا.

(٩) البكارة: التي لم تتزوّج ولم يُدخل عليها.

(١٠) الشافعي: هو محمد بن إدريس الإمام، صاحب المذهب الشافعيّ وأحد الأئمّة الأربعة، ولد في غزة بفلسطين، توفي بالقاهرة سنة ١٩٩ هـ. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٦».

(١١) لعلّه الحكم بن أبان العدني، محدّث ثقة، صاحب سنّة، كان سيّد أهل اليمن، عاش ثمانين سنة مات سنة ١٥٤ هـ، حدّث عن طاوس وعكرمة. «الكاشف ١/ ١٨١».

(١٢) أبو حنيفة: هو النّعمان بن ثابت، صاحب المذهب الحنفي، وأحد الأئمّة الأربعة، قيل: أصله=

وأما مذهب ابن حزم الظاهريّ[١] فإنّه لا يضرب في اللّواط فوقَ عشرة أسواط.

وقال النخعيّ[٢]: لو كان أحد ينبغي أن يُرجم مرّتين، لكان ينبغي أن يُرجم اللوطيّ مرّتين.

وحكى أبو الفرج بن الجوزيّ، قال: أخبرتنا شهدة بنت أحمد، قالت: أخبرنا جعفر بن أحمد السرّاج، قال: أخبرنا عبد العزيز بن عليّ، قال: أخبرنا عليّ بن جعفر الصوفيّ، قال: سمعت الموازيني يقول: قال لي رجل من الحاج: مررت بدار قوم لوط، وأخذتُ حجرًا مما رُجِمُوا به، فطرحته في مخلاة، ودخلت مصر. فنزلت في بعض الدور في الطبقة الوسطى، وكان في سُفْل الدار حَدَثٌ[٣]، فأخرجت الحجر من خُرْجي، ووضعته في رَوْزَنة[٤] في البيت. فدعا الحدث الذي كان في البيت صبيًا إلى عنده واجتمع معه، فسقط الحجر على الحَدَث من الروزنة، فقتله.

وقال أيضًا: أخبرتنا شهدة، قالت: أخبرنا جعفر بن أحمد، قال: أخبرنا أبو الحسين محمد بن عثمان بن مكيّ، قال: أخبرني جدّي أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد، قال: أخبرنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشا المقري، قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يقول: سمعت يونس بن عبد الأعلى[٥] يقول: خرجتُ حاجًا إلى مكّة، فلما كانت ليلةُ عرفاتَ، رأى الإمامُ الذي حَجَّ بنا تلك الليلةَ منامًا. فلما صِرْنا إلى مكّةَ بعد انقضاء الحجّ، سمعنا مناديًا ينادي فوق الحجر: أنصتوا يا معشر الحجيج، فأنصَتَ الخلقُ، فقال: يا معشر الحجيج، إن

= من أهل الفرس، ولد ونشأ بالكوفة حبسه المنصور إلى أن مات سنة ٧٦٧ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٣٦».

(١) هو عليّ بن أحمد بن حزم الظاهري، أبو محمد، الإمام، عالم الأندلس في عصره، صاحب مذهب وأتباعه يقال لهم: الحزميّة، ولد بقرطبة، توفي في بادية «كيْلة» من بلاد الأندلس سنة ١٠٦٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٥٤».

(٢) لعلّه حفص بن غيّاث بن طلق بن معاوية النخعيّ الأزدي الكوفيّ، أبو عمر، قاضٍ من أهل الكوفة، كان من الفقهاء حفّاظ الحديث الثقات، وهو صاحب أبي حنيفة، توفي سنة ٨١٠ م.

(٣) الحدث: الغلام الصغير السنّ.

(٤) الروزنة: الكوّة غير النافذة.

(٥) هو يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة، أبو موسى الصدفي، من كبار الفقهاء، انتهت إليه رئاسة العلم بمصر، كان عالمًا بالأخبار والحديث، وافر العقل، صحب الشافعي، توفي سنة ٨٧٧ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٢٦١».

إمامكم رأى أن الله عزّ وجلّ قد غفر لكلّ من وافى البيتَ العامَ إلّا رجلًا واحدًا فإنه فَسَق بغلام.

* * *

وأمّا عقوبته في الآخرة، فقد رُوِي عن أبي سلمة(١) عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، قالا: خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته: «مَنْ نَكَحَ امرأةً في دُبُرِها أو غُلامًا أو رَجُلًا، حُشِرَ يوم القيامةِ أنْتَنَ من الجيفة، يتأذّى به الناسُ حتى يُدْخِلَه الله نارَ جهنّم، ويُحبطُ الله عملَه، ولا يقبَلُ منه صَرْفًا(٢) ولا عَدْلًا(٣)، ويُجعلُ في تابوتٍ من نار، ويُسَمَّر عليه بمساميرَ من حديد من نار، فتشتبك تلك المسامير في وجهه وفي جَسَده»، قال أبو هريرة: وهذا لمن لم يَتُبْ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «سبعةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامة ولا يُزَكِّيهم ولا يجمَعُهم مع العالمين، يَدْخُلونَ النارَ أوّلَ الداخلين إلّا أن يَتوبُوا؛ فمن تاب، تاب الله تعالى عليه: الناكح يَدَه، والفاعلُ والمفعولُ به، ومُدْمِنُ خمرٍ، والضاربُ أبوَيْهِ حتى يستغيثَا، والمُؤذِي جيرانَهُ حتى يلعنوه، والناكِحُ حليلةَ جاره».

وعن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله(٤)، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللُّوطِيّان لو اغْتَسَلا بماء البحر، لم يَجْزهما إلا أن يَتُوبَا».

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مات من أُمَّتي يعمَلُ عملَ قومِ لُوط، نقلَهُ الله إليهم حتّى يُحْشَر مَعَهم».

قلتُ: وقد بلغني من كثير من الناس أن رجلين مَشَيا على جانب البِرْكة المعروفة ببِرْكة قوم لُوط، وهي في غَوْر(٥) الكرك(٦) على جانبها ضِياعٌ، منها الصافية واللاخية

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الرحمٰن، أحد الأئمّة، حدّث عن أبيه عبد الرحمٰن بن عوف، وعن عائشة وأبي هريرة، توفي سنة ٩٤ هـ، وقيل: ١٠٤ هـ. «الكاشف ٣/ ٣٠٢».

(٢) الصرف: التوبة، وقيل: النافلة. «النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٤».

(٣) العدل: الفدية، وقيل: الفريضة. «النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٤».

(٤) لعلّه عبدالله بن عباس، رضي الله عنه، «تقدّم ذكره».

(٥) الغور: الأرض المنخفضة.

(٦) الكرك: كلمة أعجميّة، وهي اسم لقلعة حصينة جدًّا في طرق الشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سنّ جبلٍ عالٍ تحيط بها أودية. «معجم البلدان ٤/ ٤٥٣».

وسويمة وغيرها، وتعرف هذه البركة أيضًا بالمنتنة، ويقال: إنها إحدى المدائن التي خُسِف بها (من مدائن قوم لوط). فجعلا يتباسطان، فكان من جملة ما قالاه أو قاله أحدهما للآخر فلم ينكره: هذه بركة أصحابِنا، فطلعت من البركة مَوجة اختطفَتْهما معًا، وألقتهما في البركة، فكان آخرَ العهد بهما.

وهذه الحكاية يتداولها أهل تلك البلاد، لا ينكرها سامع منهم على قائل، ولا يبعُد أن يُعاقَب مَن تجاهر بمعاصي الله وانتسب لمن كفر بالله وعصاه وكذّب رسولَه أن يعاقبه الله بما عاقبهم به ويلحقه بهم، وفي بعض هذا عبرة لمن اعتبر.

ولنرجع إلى سياق ما جاء في ذلك من الأحاديث والأخبار.

روى أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزيّ بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَبَّل غُلامًا بشهوة، عَذَّبه الله في النار ألفَ سنةٍ؛ ومن جامعه لم يَجِدْ رائحةَ الجنّةِ، وريحُها يُوجدُ من مَسيرة خمسمائة عام، إلا أن يَتُوبَ».

وعن خالد عن إسماعيل بن كثير[١] عن مجاهد[٢]، قال: لو أن الذي يعمل ذلك العملَ (يعني عمل قوم لوط) اغتسل بكل قَطْرة في السماء وكلّ قطرة في الأرض، لم يزل نجسًا.

وعن عبّاد بن الوليد العنبريّ قال: سمعت إبراهيم بن شَمّاس يقول: سمعت الفُضَيل بن عياض[٣] يقول: لو أنَّ لُوطِيًّا اغتسل بكل قَطْرة من السماء، لقَى الله تعالى غير طاهر.

وعن طلحة بن زيد عن بُرد بن سنان عن أبي المنيب عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: يُحْشَر اللوطيون يوم القيامة في صورة القِرَدة والخنازيرِ.

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ، صاحب «البداية والنهاية»، ولد سنة إحدى وسبعمائة هجرية، وقريته «مجدل» من أعمال «بصرى» مسقط رأسه، وتوفي سنة ٧٧٤ هـ، ودفن بمقرّ الصوفيّة، خارج باب النصر بدمشق. «الدّرر الكامنة ١/ ٣٧٧ ـ ٣٩٩».

(٢) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجّاج المكي، تابعي، مفسّر، من أهل مكّة، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسّرين، أخذ التفسير عن ابن عبّاس، مات سنة ٧٢٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٧٨».

(٣) هو الفُضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي، شيخ الحرم المكّي، من أكابر العبّاد الصالحين، كان ثقة في الحديث، ولد في سمرقند، وأصله من الكوفة، سكن مكّة وتوفي بها سنة ٨٠٣ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٥٣».

وعن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير[١] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم قال: مَن خرج من الدنيا على حالٍ، خرج من قَبْره على تلك الحال، حتى إن اللوطيّ يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

هذا ما أمكن إيراده في هذا الفصل على سبيل الاختصار والإيجاز، وإلا فالأخبار في العشق وتوابعه وما يتولّد عنه كثيرة جدًّا، ووقفنا منها على كثير، ولا يحتمل أن يُورد في الكتب الشاملة لفنون مختلفة أكثَرُ مما أوردناه. فلنذكر الآن نبذة ممّا قيل في الغزل والنسيب.

ذكر نبذة مما قيل في الغَزَل والنسيب

هذا الباب ـ أكرمك الله وعافاك، ووقاك من فتنته وكفاك ـ بابٌ متّسع، قد أكثر الشعراء القول فيه، وتنوّعوا في أساليبه ومعانيه، لو استقصيناه لطال به هذا التصنيف، وانبسط هذا التأليف؛ وكان بمفرده كُتُبًا مبسوطة وأسفارًا كبيرة، فلخصنا منه دررًا نفيسة وأعلاقًا[٢] خطيرة، واقتصرنا منه على ما رَقَّ معناه وراق[٣]، وحَسُن لفظه وشاق، وارتاحت إليه النفوس، وتحلّت به الطروس[٤]، ولمَحَته النواظر، وانجذبت إليه الخواطر[٥]، وقد تنوّع الشعراء في الغَزَل، فتغزّلوا في المحبوب باسمه، وكَنَوْا عنه واستعاروا له، ووصفُوا أعضاءه وشبّهوها بأشياء، فشبّهوا العيون بالنَّرْجِس، وأفعالَها بالخمر والسّهام، وشبَّهوا الحواجب بالقِسِيِّ[٦]، والجبين بالصَّباح، والشُّعور بالليالي، والسَّوالف بالغَوالي[٧] والصوالج[٨] والعقارب؛ وشبّهوا الوجه بالشمس والقمر؛ وشبّهوا الخدود بالورد والتُّفّاح؛ وشبَّهوا الثُّغور بالأُقْحُوان، واللّمى[٩]

---

(١) هو سعيد بن جبير الوالبي، أحد الأعلام، قتل شهيدًا في شعبان سنة ٩٥ هـ، قتله الحجّاج بسبب خروجه مع ابن الأشعث. «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٢) العِلق: النفيس من كلّ شيء.

(٣) راقَ: خَلُص وحَسُن.

(٤) الطروس: الصحائف.

(٥) الخواطر: مفردها الخاطرة، وهي القلب أو النفس «على المجاز».

(٦) القسيّ: مفردها قوس، آلة على شكل الهلال ترمى بها السّهام.

(٧) الغوالي: أخلاط الطيب.

(٨) الصوالج: مفردها الصولجان، عصا معقوفة يضرب بها الفرس كرة في رياضة خاصة.

(٩) اللّمى: سمرة مستحبّة في الشّفاه.

بالخَمْر، والريق بالشَّهد، والشِّفَاهَ بالعقيق، والأسنان باللُّؤلؤ؛ وشبّهوا النُّهود بالرُّمّان، والقَوَام بالغُصون، والأرداف بالكُثبان، وغير ذلك. وقد تقدّم إيراد ذلك كلّه مستوفًى في موضعه، وهو في الباب الذي قبل هذا الباب.

وتغزّلوا أيضًا في أصناف الفواكه المأكُولة والمشمومة؛ وتغزّلوا في الرياض والأزهار.

وسنورد إن شاء الله ذلك في موضعه، وهو في القسم الثاني والثالث والرابع من الفنّ الرابع من كتابنا هذا، في السفر العاشر من هذه النسخة.

فلنورد الآن هٰهنا من باب الغزل والنسيب خلافَ ما قدّمنا ذكره مما ذكرناه وما نذكره إن شاء الله تعالى.

والذي نورده في هذا الباب نبذة مما قيل في المذكَّر، والمؤنّث، والمُطْلق(١)، والمشتَرَك، وطَيْف(٢) الخيال، والردّ على العَذُول، ورُجُوع العذول، والوِصال، والفراق، والبَيْن، والتوديع، والصدّ، والهِجْران، وما قيل في الزيارة وتخفيفها، وموانعها، والمدامع، والرّضا من المحبوب باليسير، والنُّحول؛ وما قيل في المحبوب إذا اعتلّ، وما قيل على لسان الورقاء(٣)، والمراجعات(٤)، والمردوف(٥)، والجناس(٦)، والمُوشَّحات(٧).

* * *

(١) المُطْلق: الذي لا يشترك مع شيء آخر.
(٢) طيف الخيال: ما يصوّره الخيال في أحلام اليقظة والنّوم.
(٣) الورقاء: الحمامة. (٤) المراجعات: المحاورات.
(٥) المردوف: لعلّه يريد الرِّدف في الشعر، وهو حرف ليّن قبل الروي، أو هو المتبّع من كل شيء.
(٦) الجناس: من فنون البديع اللفظيّة «وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في حروفها وليس في معناها».
(٧) الموشّحات: نمط من الشعر نشأ في الأندلس، وذاع فيها، حافظ على العروض العربي إجمالاً، وخرج إلى أعاريض جديدة أحيانًا، ولكنه في كلتا الحالتين نهج في التأليف نهجًا جديدًا قائمًا على المبالغة في الرقّة والموسيقى والتزويق والسهولة، وفي الشكل استخدم القِفل والدّور واللازمة، واختلف بذلك عن شكل القصيدة العربية التقليدي، وقد استعيرت الكلمة من «الوشاح».

فممّا قيل في المذكر:

قال العماد الأصفَهَانيّ الكاتب: [من المتقارب]

وأحْـوَرَ يَـسْـبِـي بِـطَـرْفٍ يـكِـلّ … وتَـخْـجَـلُ منه الظُّبـا والـظِّـبـاءُ[1]

بـخـدَّيْـه مـن حُـسْـنِـه والـشـبـابْ … تَــجَــمَّــع ضِــدَّان: نــارٌ ومــاءُ

وفـي مُـقْـلـتـيـه وقـد صَـحَّـتـا … كـمـا صَـحَـتَـا سَـقَـمٌ وانـتـشـاءُ[2]

عَـفَـفْـت وعِـفْـتُ الـحَـيَـا في هـوا … ه حـتّى استوى صَدُّه والـلِّـقَـاءُ![3]

وكــلُّ حــيــاءٍ يَــذُود الــعَــفَــا … فَ عـن وُدِّه، فـعـلـيـه الـعَـفَـاءُ![4]

وقال آخر: [من الكامل]

وكـأنَّ بـهـجـةَ وجـهِـهِ فـي شَـعـره … قـمـرٌ بَـدَا فـي لَـيْـلـةٍ لَـيْـلاءِ[5]

وكـأنّ عَـقْـربَ صُـدْغِـهِ فـي خَـدّه … وقـفَـتْ مـخـافَـةَ نـارِهِ والـمـاءِ

قـمـرٌ رجـوتُ مـن الـزمـانِ وِصـالَهُ … يومًا، فأخلَفَ بالصُّدُود رَجَائي!

وقال عبد الجليل بن وهبون[6]: [من مخلّع البسيط]

وافَـتْ بـه غَـفْـلةُ الـرَّقِـيـبِ … والـنـجـمُ قـد مـالَ لـلـغُـرُوب[7]

نَـشْـوان قـد هَـزَّت الـحُـمـيَّـا … مـنـه قَـضِـيـبًـا عـلـى كَـثِـيـبِ[8]

يَـعْـثُـرُ فـي ذيـله فـيَـحْـكِـي … عَـثْـرةَ عـيـنـيـه فـي الـقُـلُـوبِ!

واللهِ لــو نــالَـتِ الـثُّـرَيَّـا … مـا نـال مـن بَـهْـجَـةٍ وطِـيـبِ

دَنَـا إلـيـهـا الـهـلال حـتّـى … قَـبَّـل فـي كَـفِّـهـا الـخَـضـيـبِ!

وقال ابن حجّاج: [من الكامل]

ومُـدَلَّلٍ! أمـا الـقـضـيـبُ فـقَـدُّه … شَـكْـلًا وأمَّـا رِدفُـه فـكَـثِـيـبُ!

(١) يكلّ: يفتر ويضعف، الظُّبا: مفردها ظبة، وهي حدّ السيف والسّنان وما شابههما، والظِّباء: الغزلان، وفي الكلام جناس تامّ بين «الظُّبا والظِّباء».

(٢) صحَّتا: سلمتا كل من كل عيب، وصَحَتا: من الصّحوة: الانتباه، وفي الكلام جناس تامّ.

(٣) عاف الهوى: تذمّر منه وكرهه. (٤) العفاء: الإمّحاء والزوال.

(٥) الليلاء: الشديدة الظلام.

(٦) هو عبد الجليل بن وهبون، أبو محمد الأندلسيّ، ولد في مرسية وكان يتردّد على المعتمد بن عبّاد اللخمي صاحب قرطبة وإشبيلية، وقد رثا ابن عمّار لما قتله المعتمد.

(٧) وافت به: أتت. (٨) الحميّا: الخمر وتأثيرها.

يَمْشِي وقد فَعَلَ الصِّبا بقَوامِهِ ... فِعْلَ الصَّبا بالغُصْنِ، وهو رَطيبُ[١]
مُتَلَوِّن يُبدي ويُخْفِي شَخْصَه ... كالبَدْرِ يطلُع تارةً ويغيبُ
أرْمِي مَقاتِلَه فتُخْطِئُ أسْهُمِي ... غَرضِي، ويَرْمِي مُهْجَتي فيُصيبُ!
نفسي فِداؤُكَ! إنَّ نَفْسِي لم تَزَلْ ... يَحْلُو فِداؤُكَ عندها ويَطِيبُ!
ما لِي وما لَكَ لا أراكَ تَزُورُني ... إلّا ودُونَكَ كاشِحٌ ورقِيبُ![٢]

وقال أبو نُوَاس: [من الوافر]

شَبِيهٌ بالقَضِيبِ وبالكَثِيبِ! ... غريبُ الحسنِ ذُو دَلٍّ غَرِيبِ![٣]
بعيدٌ، إن نظَرْتَ إليه يومًا ... رجعْتَ وأنت ذُو أجلٍ قَرِيبِ!
تَرى للصَّمْتِ والحَركات فيه ... سُوَامًا لا يُذَادُ عن القُلوبِ[٤]
ويمتحنُ القلوبَ بمقلتَيْه ... فينكشفُ البريء من المُريب![٥]

وقال أبو الوأواء الدمشقي[٦]: [من مجزوء الكامل]

بَدْرٌ تَقَنَّع بالظَّلا ... م على قَضِيبٍ في كَثِيبِ!
تَدْعُو محاسِنُه القلو ... بَ إلى مُشافَهة الذُّنوبِ
فعلَتْ به ريحُ الصَّبا ... ما ليس تَفْعل بالقَضيبِ
عُقِلَتْ ركائبُ حُسْنِه ... بعقُولنا عند المَغِيبِ[٧]
وتلطَّمتْ وجَناتُنا ... بيد الدُّموع من النَّحِيبِ!

---

(١) الصِّبا: الشّباب، والصَّبا: ريحٌ باردة، وفي الكلام جناس تامّ.
(٢) الكاشح: العدو المبغض، والرّقيب: الحارس والمراقب.
(٣) الدلّ: الدلال والغنج.
(٤) السّوام: اللحوم، وسام الطائر على الشيء: حام، وسامت الرّيح: مرّت واستمرّت.
(٥) المريب: الذي في أمره شك واتّهام.
(٦) الوأواء الدمشقي: هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسّاني، الملقّب بالوأواء، كان مناديًا في دار البطيخ بدمشق، ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه. «اليتيمة ١/ ٢٧٢».
(٧) عقلت: ربطت بالعقال.

وقال الأمير تاج الملوك بن أيّوب[١]: [من الكامل]

سَلَبَ الفؤادَ فلا عَدِمْتُ السالبا! ... وَرَنا، فكان اللحظُ سَهْمًا صَائِبا![٢]
قمرٌ مَشَارِقُه الجيوبُ، فلا تَرى ... أبدًا له إلا القُلوبَ مَغَارِبَا![٣]
مَلَكَ الفؤادَ بمقلتين وحاجبٍ ... أمسى لحُسْن الصبر عَنّي حاجِبَا
وحكى القضيبَ شمائلًا عَبَثَتْ به ... أيدي النَّسيم شمائِلًا وجَنَائِبا!

وقال أيضًا: [من مجزوء الرّجز]

يا أيُّها البدرُ الّذي ... مَطْلَعُهُ طَوْقُ القَبَا![٤]
يا جَنَّةَ القلب الّذي ... أضْرَمَ فيه لَهَبَا!
فَدَّيتُ هذا الوجهَ، ما ... أَحْسَنَه وأعجبا!
لم تَرَ عيني قَبْله ... صُبْحًا تردَّى غَيْهبا![٥]

وقال أبو نُوَاس: [من المجتثّ]

يا بِدْعَةً في مِثَالٍ ... يجُوزُ حدَّ الصِّفات!
فالوجهُ بدرُ تَمامٍ ... بعَيْنِ ظَبْيِ فَلاةٍ!
والقَدّ قدُّ غُلامٍ ... والغَنْج غَنْج فَتَاة!
مذكَّر حين يبدُو ... مؤنَّثُ الخَلَواتِ!
زَهَا عَلَيَّ بصُدْغٍ ... مُزَرْفَنِ الحَلَقَاتِ[٦]!
مِنْ فوق خَدٍّ أسِيلٍ ... يُضيءُ في الظُّلُماتِ![٧]

---

(١) تاج الملوك بن أيوب: هو أبو سعيد يوري بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملقّب مجد الدين، أخو السلطان صلاح الدين، وكان أصغر أولاد أبيه، له ديوان شعر فيه الغثُّ والسمين. . . «وفيات الأعيان ١/ ٢٩٠».
(٢) رنا: أدام النظر في سكون طرف.
(٣) الجيوب: جيب القميص: ما يدخل منه الرأس عند لبسه.
(٤) القبا: ثوب يلبس فوق الثياب، والطّوق: ما يحيط بالعنق من الثوب أو القميص.
(٥) تردّى: لبس، والغيهب: شدّة الظلام من الليل.
(٦) زها: افتخر، والمزرفن: شبيه بحلقة الباب، الزُّفين والزِّنين فارسي معرّب، وقد زرفن صُدغه: كلمة مولّدة «اللسان مادة زرفن».
(٧) الأسيل: الناعم الرقيق.

وقال كُشاجم[١]: [من السريع]

مُـعْـتَـدلٌ مـن كُـلِّ أعـطـافِـه! مُسْتَحْسَنُ الإقبال والمُلْتَفَتْ!
لـو قـيـسـتِ الـدُّنْـيـا ولَذَّاتُـهـا بـسـاعـةٍ مـن وصـلـه، مـا وفَـتْ!
سُـلِّطـت الألـحـاظُ مـنـه عـلـى قلبي؛ فلو أوْدَتْ به ما اشْتَفَتْ![٢]
واسـتـعـذَبَـتْ رُوحِـي هـواه فـمـا تسلُو ولا تَصْحُو، ولو أُتْلِفَتْ!

وقال فضل الرَّقَاشيّ[٣]: [من البسيط]

وشـاطـرٍ فـاتـكِ الـشَّـمـائِلِ قَـدْ خالَطَ منه المُجونُ تَخْنِيثَا[٤]
تـراه طَـوْرًا مـذَكَّـرًا؛ فـإذَا عـاقَـرَ راحًـا، رأيـتَ تَـأْنِـيـثَـا[٥]
أَلْثَغُ إن قلت يـا فديتك: قُـلْ مُوسى، يقُلْ من رُطوبة: مُوثَا[٦]
ما زال حتَّى الصباحِ معتنقِي مُطارِحي في الدُّجى الأحادِيثَا

وقال كُشاجم: [من الوافر]

بـليتُ بـوَجْـدَيْـنِ وَجْـدِي بظَبْـيٍ يَـصُـدّ، ومـا بـه إلا لَجَـاجُ[٧]
وعـذَّبَـنِـي قـضـيـبٌ فـي كَـثِـيـبٍ تَـسَـاوى فـيـه لِـيـنٌ وانْـدِمَـاجُ
أغـارُ إذا دَنَـتْ مِـنْ فـيـه كـاسٌ عـلى دُرٍّ يُـقَـبِّـلُه زُجَـاجُ

(١) كشاجم: هو محمود بن الحسين، أبو الفتح، أديب شاعر، كان يعمل في بلاط سيف الدّولة الحمداني، وله ديوان شعر، اهتمّ بنسخه ابن الرّفاء، وهو من أهل الرّملة بفلسطين، توفي سنة ٩٧٠ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٦٧».
(٢) أودت به: ذهبت به إلى الهلاك.
(٣) فضل الرقاشي: هو الفضل بن عبد الصمد البصري، أبو العبّاس، شاعر مجيد من أهل البصرة، مدح الخلفاء وانقطع إلى البرامكة ورثاهم بعد نكبتهم، وكان متهتّكًا خليعًا، توفي نحو سنة ٨١٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٥٠».
(٤) الشّاطر: المتّصف بالدّهاء والحنكة، والشّمائل: الطّباع، والمجون: المزاح وقلّة الحياء، والتخنيث: من الخنث: وهو من فيه لين النّساء وتثنّيهن.
(٥) عاقر الراح: شرب الخمرة.
(٦) الألثغ: من كان في لسانه لثغة، وهو أن يحوّل نطق الحرف إلى حرفٍ آخر، كالشّين يلفظها سينًا.
(٧) كذا في الأصول، إلّا أن صدر البيت مخالف للوزن الشعري، والذي هو في ديوان كشاجم: «بليت ولجّ بي وجد بظبيٍ» وهو الصواب، واللّجاج: التمادي في الخصومة.

وقال أيضًا: [من المديد]

يـا لَقَـومـي! مَـنْ لِـمُـكْـتَـئِـبِ ... دَمْـعُـه فـي الـخَـدِّ مُـنْـسَـفِـحُ؟[١]
لامَـــهُ الــعُـــذَّال فـــي رَشَـــإٍ ... عُـــذْرُه مـــن مِـــثْــلِهِ يَـضِـــحُ[٢]
وٱدَّعَـوْا نُـصْـحِـي! وأخْـوَنُ مـا ... كـان عُـذَّالـي إذا نَـصَـحُـوا!
خـوَّفُـونـي مـن فَـضِـيـحَـتِـهِ ... لَيْـتَــه وافـــى وأفْــتَـضِـــحُ!
كَيْفَ يَسْلُو القَلْبُ عن غُصُنٍ ... عَـــلُه مـــن مـــائِه الــمَـــرح؟
ذَهَبِيُّ الحُسْن تـحـسَـبُ مـن ... وجـنَـتَـيْـهِ الـنـارَ تَـقْـتَـدَحُ!
وكـأنَّ الـشـمـسَ نِـيـطَ لـهـا ... قـمـرٌ، يُـمـنـاه والـقَـدَحُ[٣]
صَـدّ أنْ مـازَحْـتـه غَـضَـبًـا! ... مـا عـلى الأحـبـاب إن مَزَحُـوا؟
وهـو لا يـدري لـنَـخْـوَتِـهِ ... أنّـنـا فـي الـنَّـوْم نَـصْـطَـلِحُ!
ثُـمَّ لا أنـسـى مـقـالَتَـهُ ... أطُـفَـيْـلِيٌّ ومُـقْـتَـرِح؟[٤]

وقال تاج الملوك ابن أيّوب: [من مخلّع البسيط]

فَـدَيْـتُ وجـهَ الـحـبـيـبِ بَـدْرا! ... والبَـدْرُ يُفْـدِي، ولـيـس يَـفْـدِي!
سَـبـى فُـؤادِي بـلَـيْـلِ شَـعـرٍ ... وصُـبْـحِ وجـهٍ وغُـصْـنِ قَـدِّ
فـي فَـمِـهِ عَـنْـبَـرٌ مُـدَافٌ ... فـي قَـهْـوَةٍ خُـولِطَـتْ بـشَـهْـدِ[٥]
كـأنّـمـا خَـدُّه شـقـيـقٌ ... نُـقِّـط مِـنْ خـالِهِ بـنَـدٍّ[٦]
ظَـبْـيٌ مـن الـتُّـرك ذُو دَلَالٍ ... يَـسْـتَـحْـسِنُ الجورَ والـتَّـعَـدّي
كـأنَّـهُ غُـصْـنُ خَـيْـزُرَانٍ ... إذا ٱنْـثَـنَـى أو قَـضِـيـبُ رَنْـد[٧]
يَـحُـلُّ في الـحُـبِّ عَـقْـد صَـبْـرِي ... إن شَـدَّ فـي الخَـصْـر عَقْـد بَنْـدا![٨]

---

(١) يا لَقومي: الياء حرف نداء للاستغاثة، وتكون اللّام بعد الاستغاثة مفتوحة كما هو الحال هنا، وكقولنا: يا لَلْحاكم العادل. والمنسفح: المصبوب.
(٢) العذّال: اللّائمين، والرشأ: الغزال، ويضِح: ينجلي ويظهر.
(٣) نيط لها: علق بها.
(٤) الطّفيلي: المتطفّل الذي يدخل دون دعوة، والمقترح: المبتدع دون أن يعلم الأمر من غيره، أي أنّه يتدخل فيما لا يخصّه دون علم.
(٥) المداف: المخلوط، والقهوة: الخمرة.
(٦) الشقيق: وردّ الشقيق، والند: عودٌ يتبخّر به، والخال: شامة سوداء في الوجه أو في البدن.
(٧) الرّند: شجرٌ طيّب الرائحة، والخيزران: شجرٌ قضبانه ليّنه تنثني دون أن تنكسر.
(٨) البند: القيد.

وقال أبو نُواس: [من المتقارب]

أيا مَنْ بحُبِّي عَليّ اجترى؟ ومَنْ بلساني عليّ افترى؟
ومَنْ بِيَدي غَلَّني للهوى فأصْبَحْتُ للحُبِّ مستأسِرا؟
أمَا والذي جَعل المُسْتَهام صَدِيقَ السُّهادِ عَدُوّ الكَرى![1]
لقد ذهبَتْ مُهْجَتِي باطلًا لَئِن متُّ منك على ما أرى!

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

ومُهَفْهفٍ طاوِي الحَشَا خَنِثِ المَعَاطِفِ والنظَرْ![2]
مَلأَ القلوب بصُورةٍ تُليَت مَحَاسِنُها سُوَرْ!
فإذا رَنَا وإذا شَدَا وإذا سقى وإذا سَفَرْ[3]
فَضَحَ الغَزالَة والحَمَـ ـامة والمُدامَةَ والقَمَرْ!

وقال آخر: [من الطويل]

إذا أكْثَرَ الواشُونَ فينا مَقَالَهُمْ وليس لهمْ عِنْدِي وعِنْدَكَ من ثار
وشَنُّوا على أسماعِنا كُلَّ غارةٍ وقَلَّتْ حُماتِي عِنْدَ ذاكَ وأنْصارِي
لَقِيناهُمُ من مُقْلَتَيْكَ وأدمُعِي وأنفاسِنا بالسَّيف والسَّيْل والنار

وقال آخر، من شعراء اليتيمة: [من مجزوء الكامل]

وأغَنَّ أغيَدَ حُبُّه مستأنسٍ لِي، وَهْو نافِرْ![4]
إنْ قُلْتُ: زُرْني! قال: نَمْ فالطَّيْفُ ليس يَزُور ساهِرْ!
كيفَ السبيلُ إلى الرُّقا دِ كما رَسَمْتَ، وأنت هاجِرْ؟
ويقولُ لي فيما يقو لُ: نَعَمْ! وما للقَوْلِ آخِرْ!
حتَّى أشاوِرَ! قلت: لـ ـكِنِّي هَوِيتُ ولم أُشَاوِرْ!

---

(١) المستهام: العاشق، والسُّهاد: السهر، والكرى: النعاس والنوم.

(٢) المهفهف: ضامر الخصر، وطاوي الحشا: ضامر البطن، والخنث: الذي يتمايل بلين ورقّة النّساء، والمعاطف: من العِطف: وهو جانب الإنسان من عنقه إلى عجزه.

(٣) رنا: نظر، وسفر: كشف عن وجهه.

(٤) الأغنّ: الذي في صوته غُنّة، وهي صوت يخرج من اللّهاة والخيشوم، والأغيد: الوسنان المائل العنق، أو المتثني في نعومة.

وقال تاج الملوك: [من السريع]

يـا قـمـرًا أقـبـلَ يَـسْـعـى عـلى   دعْـصٍ مـن الأرداف مَـهْـزُوز![1]
وَصْـلُك، وا ويـلي! عـلى طِيبِـه   أصـبَـح ذا مَـنْـعٍ وتَـعْـزِيـزِ[2]
مـا كـانَ إلّا بَـيْـضـةَ الـدِّيـك لـي   أو مَـطْـرةً فـي شـهـر تَـمُّـوزِ[3]

وقال أبو نُوَاس: [من السريع]

عَـذَّبَـنِـي قـلـبِـي بـمَـنْ قَـلْـبُـه   لـلصَّـبِّ مِـثْـلُ الـحَـجَـر الـقـاسِـي
أحْـوَرَ فَـتَّـانٍ قَـطُـوفِ الـخُـطَـا   أغْـيَـدَ مـثـل الـغُـصْـنِ مَـيَّـاسِ[4]
أبِـيـتُ لَيْـلـي ونَـهَـارِي مَـعًـا   مُـعَـلَّـقًـا مـنـه بـوسْـوَاسِ
إنّـي وإنْ لـم يَـكُ لـي نـائـلٌ   مِـنْـه لأرْجُـوه عـلى يَـاس

وقال سيف الدّين المشدّ: [من المتقارب]

إلى قَدِّك اللَّدْنِ يُعْزى الهَيَفْ!   فما هبَّتِ الرِّيحُ إلا انْعطفْ![5]
قَـوَامٌ أرادَ قَـضِـيـبُ الـنَّـقـا   يُحاكيه، لمَّا انْثنى، فانقصَفْ![6]
فـيـا رَامِـيًـا قـد رَمَـانِـي هَـواهُ   بنار الأَسى في بِحار الأَسَفْ!
سِـهَـامُ جُـفـونِـك قَـلْـبـي غَـدَا   لها غَرَضًا، وضُلُوعي هَدَفْ![7]
وأَوْرَدْتَـنِـي فـي الـهَـوى مَـوْرِدًا   تـجـرّعْـتُ فـيـه مَـرِيـرَ الـتَّـلَفْ[8]
وأعـرضْـتَ عـنّـي، ولا ذَنْـبَ لِي!   فكَمْ ذا الدّلال! وكَمْ ذَا الصَّلَفْ[9]
ومُـخْـطَـفُ خَـصْـرٍ عـلى رِدْفـه   فـكـلُّ فُـؤادٍ بـه مـخـتَـطَـفْ![10]

---

(١) الدّعص: الكثيب من الرّمل.
(٢) وا ويلي: الواو: حوف نداء مختصّ بباب الندبة، والويل: الهلاك.
(٣) بيضة الديك: تطلق على الأمر الذي لا يتمّ حصوله، أو لا يمكن تحقيقه.
(٤) الأحور: الأبيض، وقطوف الخطا: الذي في مسيره بطء، والميّاس: المتمايل والمختال.
(٥) اللّون: الطري، ويعزي: ينسب، والهيف: الضمور.
(٦) النّقا: القطعة من الرّمل محدودبة. (٧) الغرض: الهدف.
(٨) المورد: مكان ورود الماء، تجرّعت: شربت، والمرير: القاسي، والتّلف: الهلاك.
(٩) الصّلف: التكبُّر والغرور. (١٠) المخطف الخصر: الضامر.

وقال أبو القاسم العطّار: [من البسيط]

وبِـي غَـزالٌ، إذا صـادَفْـت غِـرَّتَـهُ ... جنَيْتُ من وجْنَتَيْهِ رَوضةً أُنُفَا![1]
كـالبَدْر مكتَمِلًا، كـالظَّبْي ملتَفتًا ... كالروض مُبْتَسِمًا، كالغُصن مُنعطفًا![2]

وقال تاج الملوك: [من الرّجز]

يـا قـمرًا فـي غُـصُـنٍ مـن بـانَـةٍ ... يَميلُ عُجْبًا في كَثِيبٍ من نقا![3]
أصبَح قَلْبُ المُستهام مَغْرِبا ... له، وأطْواقُ القُبَاءِ مَشْرقا![4]
أغْيَدُ، لا يَقْصد إلّا تلفِي! ... ولم يَزَلْ قلبي به مُعَلَّقا
ذكَّرني حسنُ ابتسامِ ثَغْرة الـ ... ـواضِحِ لَمْعَ البَرْقِ إذ تَألَّقَا
وطالَمَا ذكَّرني رُضابُه الـ ... ـباردُ صِرْفَ الراح إذ تَعَتَّقَا[5]
أغنّ، ما فَوقَ سَهْمَ لَحْظِه ... إلا أصاب القَلْبَ لَمَّا فوّقا[6]
حاجبُه قوسٌ ولَحَظُ عينِه ... سهمٌ، فما يُخْطِي إذا ما رَشَقا

وقال أبو نُوَاس: [من الخفيف]

جالَ ماءُ الشَّباب في خَدَّيْكا ... وَتَلالَا البَهاءُ في عارضَيْكا[7]
ورمى طَرْفُك المُكَحَّلُ بالسِّحْـ ... ـر فُؤادي فصار رَهْنًا لَدَيْكا
أنا مستَهْتَرٌ بحُبِّكَ صَبٌّ ... لستُ أشكُو هَوَاك إلّا إلَيْكا
يا بديعَ الجَمَالِ والحسن والدَّلّ ... حياتي ومِيتَتِي في يَدَيْكا
بأبِي أنتَ! لو بُلِيتَ بوَجْدي ... لم يَهُنْ ما لَقِيتُ منك عَلَيْكا![8]
أصبحَتْ بالهوى سِهامُ المنايَا ... قاصداتٍ إليَّ من عينَيْكا!

---

(١) الغرّة: الغفلة، والرّوضة الأنف: التي لم يُرعَ نبتها.
(٢) المنعطف: المتمايل.
(٣) البانة: شجرة ليّنة، وعُجبًا: حسنًا، والكثيب: الرّمل المستطيل المحدودب، تشبّه به الأرداف، والنّقا: القطعة من الرمل المحدودبة.
(٤) أطواق القباء: الطّوق: ما يحيط بالعنق، والقباء: ثوب يلبس فوق القميص.
(٥) الرّضاب: الرّيق، وصرف الرّاح: الخمرة الصافية الخالصة.
(٦) الأغن: الذي في صوته غنّة، وفوّق السّهم: جعل له فوقًا، والفوف: هو موقع الوتر من رأس السّهم.
(٧) العارض: صفحة الخدّ. (٨) الوجد: شدّة الحبّ.

وقال أيضًا: [من المجتثّ]

يــا مَــنْ جَـدَاهُ قــلـيـلُ ... ومَــنْ بَـلَاه طَـويـلُ![1]
ومَــنْ دعــانِــي إلــيــه ... طَـرْفٌ أحَـمُّ كـحـيـلُ،[2]
وواضِـحُ الـثَّـغْـرِ يَـحْـكِـي ... مـزاجَـهُ الـزَّنْـجَـبِـيـلُ،[3]
ووَجْــنَــةٌ جــائــلٌ مــا ... ؤُهــا وخــدٌّ أسِــيــلُ،[4]
وغُــصْــنُ بــانٍ تَــثَــنَّــى ... قــدًّا، ورِدْفٌ ثَــقــيــلُ
ويـجـمـع الـحـسـنَ فـيـه ... وجْـهٌ وَسِـيـمٌ جَـمِـيـلُ!
فــكُــلُّ نــاحِــيَــةٍ مــن ... قَــلْـبِـي إلـيـه تَـمِـيـلُ!

وقال الوأواء الدمشقيّ: [من مجزوء الرّجز]

رمــاهُ رِيــمٌ فــأصــا ... بَ القَلْبَ منه، إذ رمى[5]
واحْــتَــجَّ فــي قَــتْــلَــتِــه ... بـــأنَّـــه مـــا عَــلـمــا
يــا مــعــشــرَ الــنــاسِ! أمــا ... يُـنْـصِـفُـنـي مَـنْ ظَـلَـمـا؟
عَــلَّــم سُــقْــمُ طَــرْفِــه ... جِـسْـمِـيَ مـنـه سَـقَـمَـا
فسُقْمُ جِسْمِي في الهوى ... مــن طَــرْفِــهِ تــعــلّــمــا
لو قِيلَ لي: ما تشتَهِي؟ ... مــخَــيَّــرًا مــحَــكَّــمــا
لــقــلــتُ أنْ ألــثُــمَــه ... نَـحْـرًا ووَجْـهًـا وفَـمَـا!

وقال الوزير أبو مروان عبد الملك بن جَهْوَر: [من مجزوء الكامل]

أحْوَى النواظِرِ، ألْعَسُ الشَّـ ... ـفتَيْن، عذْبُ الرِّيق، ألْمَى![6]
لــو زارَنــي طَــيْــفٌ لــه ... عِـنْـد الـهُـجُـوع ولـو ألَمَّـا[7]
لأفــادَ رُوحًــا أو لــفــ ... ـرَّجَ من هُمُوم النفس هَمَّا!

---

(١) جداه: عطاؤه. (٢) الأحمّ: الذي اسودّ.
(٣) الواضح: الأبيض، والزنجبيل: نبات من الفصيلة الزنجبارية، له عروق في الأرض حرّيقة الطعم، والزّنجبيل: الخمر.
(٤) جائل: طائف، والأسيل: الأملس الناعم. (٥) الرّيم: الظبي الخالص البياض.
(٦) الأحوى: من كان به حوّة، وهي لونُ صدأ الحديد، واللّعس: سواد مستحسن في باطنه الشفّة، والألمى: الذي شفته سمرة مستحسنة.
(٧) الهجوع: الرّقاد، وألمّ به: أتى ولم يُقم.

وقال آخر: [من الطويل]

وأهيفَ، مهزوزِ القَوَام إذا انثنَى وهِبْتُ لعُذْرِي فيه ذَنْبَ اللَّوائم(١)
بثغرٍ كما يبدُو لك الصُّبْحُ باسِمِ وشعرٍ كما يبدُو لبك الليلُ فاحِمِ
مَليحِ الرّضا والسُّخْط، تلقاه عاتِبًا بألْفاظِ مظلومٍ وألحاظِ ظالِمِ
وممّا شَجَاني أنَّني يومَ بَيْنِهِمْ شكوتُ الذي ألقى إلى غير راحِمِ
وحَمَّلتُ أثقالَ الجوَى غيرَ حامِلٍ وأودعتُ أسرارَ الهوى غَيْرَ كاتِمِ
وأبرحُ ما لاقَيْتُه أنَّ مُتْلِفِي بما حَلَّ بي في حُبِّه، غيرُ عالِمِ(٢)
ولو كنتُ مذ بانُوا سهِرْتُ لساهِرٍ لهانَ، ولكِنِّي سَهِرْتُ لنائِمِ(٣)

وقال أبو نُواس: [من المنسرح]

يا رِيمُ هاتِ الدَّواةَ والقَلَما أكْتُبُ شَوْقِي إلى الَّذِي ظَلَمَا!
غَضْبانُ قد غرَّنِي رضاه ولَوْ يُسْأَلُ ممَّا غضِبْتَ، ما عَلِما
فلَيْسَ ينفَكُّ منه عاشِقُهُ في جَمْعِ عُذْرٍ لغَيْرِ ما اجترَمَا(٤)
أظَلُّ يَقظانَ في تَذَكُّره حتَّى إذا نِمْتُ، كان لي حُلُما
لو نَظَرَتْ عينُه إلى حَجَرٍ ولَّد فيه فُتورُها سَقَما!

وقال سيف الدين المشدّ: [من مخلّع البسيط]

وبِي رَشِيقُ القَوامِ لَدْنٌ لِقَدِّه يُنْسَب الرُّدَيْني!(٥)
ما نَظَرَتْه العيُونُ إلّا فَدَتْه من نَظْرةٍ وعَيْنِ!
قابَلَ بالكأس وجْنَتَيْهِ فحُفَّ نَجْمٌ بنَيِّرَيْنِ(٦)
وزَيَّنَتْ كَفُّه الحُمَيَّا! ما أحْسَنَ التِّبرَ في اللُّجَيْنِ!(٧)

---

(١) الأهيف: الضامر الخصر.
(٢) البرح: العذاب والألم، والمتلف: المهلك. (٣) بانوا: فارقوا وهجروا.
(٤) اجترم: ارتكب الجرم والذّنب.
(٥) اللّدن: الطري، والرّديني: الرّمح، ينسب إلى ردينة، امرأة كانت تقوّم الرّماح.
(٦) حفّ: أحيط.
(٧) الحميّا: الخمرة، والتّبر: قراضة الذّهب، واللّجين: الفضّة.

وقال كُشاجِم: [من الكامل]

بـاللهِ يـا مُـتَـفَـرِّدًا فـي حُـسْـنِـهِ ... ومُقَلِّبًا هارُوتَ بَيْنَ مَحَاجِرِه![1]

ومُـحَـكِّـمًـا أردافَـهُ فـي خَـصْـرِهِ ... ومُصَـافِـحًـا خَـلْـخـالَهُ بـضَـفـائِره!

لا تغضبَنَّ على فتًى يَرْضى بما ... أوْلَيْتَه، ولـو انـتـعَـلْتَ بـنـاظِـرِهِ[2]

ويُـكـاتِـمُ الأسـرارَ حَـتَّـى إنّـه ... لـيَـصُـونُـهـا عـن أن تـمرَّ بـخـاطِـرِه

وقال أبو تمام الطائيّ: [من مجزوء الوافر]

لَهَـــا، وأعــارنــي وَلَهَـــا! ... وأبــصَــرَ ذِلَّتِـي فــزَهَــا![3]

لـــه وَجْـــهٌ يـــعِـــزُّ بـــهِ ... ولِي حُـــرَقٌ أَذِلُّ بـــهـــا!

دقـيـقُ مـحـاسِـنٍ، وُصِـلَتْ ... مَـحَـاسـنُ وجْـنَـتَـيْـه بـهـا

أُلاحِـــظُ حـــسـنَ وَجْـنَـتِـه ... فـتَـجْـرَحُـنـي وأجْـرحُـهـا

وقال أيضًا: [من البسيط]

نَشَرْتُ فيك رَسِيسًا كُنْتُ أَطْوِيهِ! ... وأَظْهَرَتْ لَوْعَتِي ما كنتُ أُخْفِيهِ![4]

إن كان وجهُك لي تَتْرى محاسِنُه ... فإنَّ فِعْلَك لي تَتْرى مَسَاوِيه[5]!

مُـرْتَـجَّـةٌ فـي تَـهـاديـه أسـافِـلُهُ ... مـهْـتَـزَّةٌ فـي تـثَـنِّـيـهِ أعـالِـيـه![6]

تـاهـتْ عـلى صُـوَرِ الأشـيـاءِ صُـورتُـه ... حتَّى إذا كَمُلَتْ، تاهتْ على التِّيهِ![7]

وقال المخزوميّ[8]: [من السريع]

أيُّ مُـحِـبٍّ فـيـك لـم أحْـكِـهِ؟ ... وأيُّ لَيْـلٍ فـيـك لـم أبْـكِـهِ؟

إنْ كـان لا يُـرْضـيـك إلّا دَمِـي ... فـقَـدْ أذِنَّـا لـك فـي سَـفْـكِـهِ!

---

(١) هاروت: رفيق ماروت، ملكان هبطا بباطل، فعلّما الناس السّحر، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم، «انظر سورة البقرة الآية ١٠٢».

(٢) انتعل: لبس النّعل.

(٣) لها: من اللّهو، والوله: شدّة الوجد، وزها: سُرَّ وانتشى.

(٤) الرّسيس: الثابت من الحبّ. (٥) تترى: متتابعة.

(٦) تهاديه: مشيةُ ببطء، يريد أنّ أردافه تهتزّ وترتجّ عند مسيره.

(٧) تاهت: تباهت وافتخرت، والتّيه: التكبُّر.

(٨) هو عليّ بن محمّد بن سلمة بن حريق، أبو الحسن، البلنسي المخزومي، شاعرٌ كان عالمًا بالأدب، له ديوان شعر في جزأين، وشرح مقصورة ابن دريد، توفي سنة ١٢٢٥ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٣٣١».

وقال أبو نُوَاس: [من المجتثّ]

يـــا قــابِــرِي بِــمَــلالِهْ ودامِــرِي بِــمِــطَــالِهْ![1]
ويـــا مُــبَــدِّلَ لَيْــلِي قِــصــاره بــطِــوَالِهْ!
أعــوذُ مِــنْــك بــوَجْــهِ بَــدْرُ الــدُّجى فـي مِـثَـالِهْ
لــكــنَّــه مِــنْــه أحْــلَى لــحُــسْــنِ مـوضـعِ خـالِهْ[2]
هَــلَّا رَحِــمْــتَ صَـرِيـعًـا تــحــتَ الــرَّدَى وطِــلَالِهْ؟[3]
مَـنْ لا يُـرى مـنـه فـوق الْـ ـفــراش غَــيْــرُ خَــيَــالِهْ
مـثـلَ الـخِـلَال نَـحِـيـلًا يَــخْــفَــى عــلى عُــذَّالِهْ[4]
فـمَـنْ بَـغَـى لـكَ سُـوءًا فـكــان فــي مِــثْــلِ حــالِهْ

وقال محمد بن عبد الله السلاميّ[5]، شاعر اليتيمة: [من المتقارب]

ومُخْتَصَرِ الخَصْر، من بُعْدِهِ هَـرَبْتُ فـأُلْقِيتُ فـي صَـدِّه!
وقـابَـلَنِـي وَجْـهُـه مُـقْـبِـلًا بـحَـدِّ الـحُـسَـامِ وإفْـرِنْـده[6]
فـمـا زِلْتُ أعْـصِـرُ مـن خَـمْـرِهِ وأقْـطُـف مـن مُـجْـتَـنـى وَرْدِهِ
وأَظْـمـا فـأرْشِـفُ مـن رِيـقِـهِ! فـيـا حَـرَّ صَـدْرِيَ مـن بَـرْده!

وقال أبو هلال العسكريّ: [من السريع]

أقــولُ لَمَّــا لاحَ مِــنْ خِــدْرِهِ واللَّيْلُ يُرْخِي الفَضْلَ من سِتْرِهِ[7]
أَبــدْرُهُ أحــسَــنُ مــن وَجْــهِــهِ أم وَجْـهُـه أحـسَـنُ مـن بَـدره؟
قـد مـالَتِ الـرِّقَّـةُ فـي شَـطْـرِهِ ومـالَتِ الـغِـلْظَـةُ فـي شَـطْـره[8]

---

(١) الملال: التقلّب والتغيّر، والسأم، والمطال: عدم الوفاء بالوعد.
(٢) الخال: بثرة سوداء في الوجه أو الجسد.
(٣) الرّدى: الموت، وطِلاله: ما شخص من آثاره.
(٤) الخِلال: العود الذي يُتخلّل به.
(٥) هو محمد بن عبد الله السّلامي، أبو الحسن، من أشعر أهل العراق، قولًا بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق، ولد في كرخ بغداد سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة، ونسبته في بني مخزوم بن لؤي بن غالب، قال الشعر وهو ابن عشر سنين. «اليتيمة ٢/ ٤٦٧».
(٦) الإفرند: ما يلمع في صفحة السيف من أثر تموّج الضوء.
(٧) الخدر: الستار الذي يستره، يرخي الفضل: يزداد ظلامه شيئًا فشيئًا.
(٨) الرّقة والغلظة: يريد نحافة خصره، وغلظة أرادفه.

فـأُزْرُهُ غَـصَّـتْ بـأَرْدَافِـهِ ... ووُشْحُه جالَتْ على خَصْرِهِ[1]
أصبَحْتُ لا أدْرِي - وإنْ لم يَكُنْ ... في الأَرض شَيْءٌ أنا لم أدْرِهِ -
أشَعْرُه أحسَنُ من قَدِّه؟ ... أم قَدُّه أحسنُ من شَعْرِهِ؟
ودُرُّه يُؤخَذُ من لفْظِه ... أم لفْظُه يُؤخَذُ من دُرِّهِ؟
وثَغْرُه ينظَمُ من عِقْدِهِ ... أمْ عِقْدُه ينظَمُ من ثَغْرِهِ؟
فمَنْ عَذِيرُ الصَّبِّ من صَدِّهِ؟ ... ومَن مُجِيرُ القَلْبِ من هَجْرِهِ؟[2]
يا لَيْتَهُ يَعْرِفُ حُبِّي له! ... عَسَاه يَجْزِينِي على قَدْره!

وقال تاج الملوك بن أيوب: [من المديد]

يا هِلالًا لاحَ في غُصُنٍ ... تُشْرِقُ الدُّنْيَا بطَلْعَتِهِ!
وغزالًا طالَمَا خضع ... الأَسَدُ الضاري لهيبَتِهِ!
ما رَنَا إلَّا وجَرَّد لِي ... صارِمًا مِنْ لَحْظ مُقْلَتِهِ[3]
صِلْ عَلِيلًا، أنْتَ أعْلَمُ من ... كلِّ مَخْلوقٍ بعِلَّتِهِ[4]
قد أطالَتْ مُقْلتاكَ بِلا ... سَبَبٍ تَعْذِيبَ مُهْجَتِهِ
كُلَّما لَجَّت عَوَاذِلُهُ ... أجَّجَتْ نِيرانَ لَوْعَتِهِ
فاتَّئِدْ من طُولِ عَذْلِكَ لي ... يا عَذُولِي في محَبَّتِهِ![5]
من بَنِي الأتْراكِ مُعْتَدِل ... قد تَمَادَى في قَطِيعَتِهِ
ليس يَشْفِي القَلْبَ من ظَمَإٍ ... غَيْرُ رَشْفِي راحَ رِيقَتِهِ![6]
لا، ولا يُطْفِي لَظى كَبِدِي ... غَيْرُ تَقْبِيلِي لوجْنَتِهِ!
لَيتَ أن الدَّهرَ مكَّنَنِي ... بِيَدِي من حَلِّ تِكَّتِهِ![7]

---

(١) الأزر: الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن، والوشاح: ما يتّشح به في النصف الأعلى من لباس.
(٢) الصبّ: العاشق.
(٣) رنا: أدام النظر، والصارم: السيف القاطع.
(٤) صِلْ: فعل أمر من وصل، والوصل: اللّقاء.
(٥) اتّئد: فعل أمر من اتئد: أي تمهّل وترفّق.
(٦) الرّشف: التقبيل واحتساء خمرة الريق من العاشق.
(٧) التكّة: ما يربط به السّروال.

وقال آخر: [من الكامل]

ومُهَفْهَفٍ! عنِّي يَميلُ ولم يَمِلْ يومًا إليّ، فقُلْتُ من ألَم الجَوى[١]
لِمَ لا تَميلُ إليّ، يا غُصْنَ النَّقَا؟ فأجابَ: كَيْفَ، وأنتَ من جِهَةِ الهوَى؟

وقال ابن منير الطرابلسيّ[٢]: [من البسيط]

مَنْ رَكَّبَ البَدْرَ في صَدْرِ الرُّدَيْنِيِّ ومَوَّهَ السِّحْرَ في حَدِّ اليَمَانِيِّ؟[٣]
وأنْزلَ النَّيِّرَ الأعْلَى إلى فَلَكٍ مَدَارُه في القَبَاءِ الخُسْرُوانِيِّ؟[٤]
طَرْفٌ رَنَا أمْ قِرَابٌ سُلَّ صارِمُهُ؟ وأغْيَدٌ ماسَ أم أعْطافُ خَطِّيِّ؟[٥]
وبرقُ غادِيَةٍ أم بَرْقُ مُبْتَسِمٍ يفْتَرُّ من خِلَلِ الصُّدْغِ الدَّجُوجِيِّ؟[٦]
وَيْلاهُ، من فارسِيِّ النَّحْرِ مُفْتَرِسٍ بفاترٍ أسَدِيِّ الفَتْكِ رِيميِّ![٧]
يُكِنُّ ناظِرُه ما في كِنَانَتِهِ! فليس يَنْفَكُّ من إقْصادِ مَرْمِيِّ![٨]
أذلَّنِي بَعْدَ عِزٍّ؛ والهوى أبدًا يَسْتَعبِدُ اللَّيْثَ للظَّبْيِ الكِنَاسِيِّ[٩]
ماَمانَ مانِيُّ، لولا ليلُ عارضِهِ ما شَدَّ خيلَ المناي بالأمانِيِّ[١٠]
تكَنَّفَ الحسنُ منه وَجْهَ مُشْتَمِلٍ نِفَارَ أحْوَرَ في تأنيثِ حُورِيِّ[١١]

---

(١) المهفهف: الضامر البطن والخصر، والجوى: شدّة العشق.
(٢) ابن منير الطرابلسي: هو أحمد بن منير، أبو الحسين، مهذّب الدّين، شاعر مشهور من أهل طرابلس الشّام، كان هجّاءً مرًّا، همّ صاحب دمشق أن يقطع لسانه، لكنّه اكتفى بنفيه، فرحل إلى حلب ومات فيها سنة ١١٥٣ م، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ١/ ١٦٠»، وانظر: «وفيات الأعيان ١/ ١٥٦».
(٣) الردينيّ: الرّمح، واليمانيّ: السّيف.
(٤) النيِّر: الكوكب المضيء، والقباء: الثوب، والخسرواني: المنسوب إلى خسروان، وربّما يريد: فارس.
(٥) الطّرف: يريد العين أو النّظر، ورنا: أدام النظر، والقراب: غمدُ السيف، وماس: تمايل وازدهى، والخطيّ: الرّمح.
(٦) الغاوية: السحابة، ويفترّ: يبرق ويتكشف، والدّجوجي: من الدُّجى، أي الليل.
(٧) النّحر: أعلى الصدر وموضع القلادة منه، والفاتر: الضعيف، ويقصد: العيون، والرّيم: الظبيّ الخالص البياض.
(٨) يكن: يستر ويخفي، والكِنانة: جعبة السّهام، والإقصاد: الإصابة القاتلة.
(٩) اللّيث: الأسد، والكناس: وكر الظبي.
(١٠) ماني: يريد ماني صاحب المذهب المنسوب إليه، والقائل بالنّور والظلام.
(١١) تكنّف الحسن: أحاط به، والأحور: الذي في عينه شدّة بياض وشدّة سوادٍ معًا، والحوريّ: من النّساء: البيضاء.

أمَـا وذائبِ مِـسْـك مـن ذوائِبِـه ... علـى أعالِي القَضِيبِ الخَيْزُرانِـيِّ؟
لو قيل للبَدْرِ: مَنْ في الأرض تحسُدُه؟ ... إذا تَجلَّى، لقال ابنُ الفُلانِـيِّ!
أربى علـيّ بشَتَّى مـن مَحَاسِنـه ... تألَّفتْ بين مسمُوعٍ ومَرْئـيِّ[١]
إباءُ فارِسَ مَعْ لِينِ الشَّآم مع الظَّـ ... ـرفِ العِراقيّ في النُّطْقِ الحِجازِيِّ
وما المُدامةُ بالألبابِ ألعَبُ من ... فَصاحةِ البَدْوِ في ألفاظِ تُرْكيِّ!
أشبهتُه ببعادِي، ثم كان له ... مَزِيةُ الخَلْق والأخْلاق والزِّيِّ
من أينَ لي لَهبٌ يَجْرِي على ذَهَبٍ ... في صَحْنِ أبيضَ صافِي الماءِ فِضِّيِّ؟
وروضةٌ لم تَحُكْها كفُّ ساريةٍ ... ولا شَكَا خدُّها من لَثْم وَسمِيِّ؟[٢]
يحُفُّها سَوْسنٌ غَضٌّ يُغازلُهُ ... بنَرْجِس بنِطَافِ السِّحر مَوْليِّ[٣]
مَنْ مُنقِذِي أو مُجيري من هَوى رشإٍ ... أفْتى وأفتَكُ من عمرو بن مَعْدِيِّ؟[٤]
لا يَغْشَق الدَّهرَ إلا ذِكْرَ مَعْرَكَةٍ ... أو خوضَ مَهْلكة أو ضَرْبَ هنديِّ
ولا يُحدِّثُ إلا عن رِبابته ... من المِهَارِ العوَالِي والمَهَارِيِّ[٥]
والصَّافِناتُ ولُبْسُ الضافيَاتِ وشُرْ ... بُ الصافِياتِ وإطْرابُ الأغانيِّ[٦]
أشهى إليه من الدَّوْح الظَّليلِ على الرُّ ... وح العَليل وتَغْريدِ القَمَارِيِّ[٧]
شَدّ الجِياد لأيَّام الجِلَاد وإر ... شاد الصِّعاد إلى طَعْن الأناسِيِّ؟[٨]
وحَثّ بازٍ على نَأْيٍ وحَمْل قطا ... مِيٍّ تَكَدَّر منه عَيْشُ كُدْرِيِّ؟[٩]

---

(١) أربى: زاد، وشتّى: متفرّقة.
(٢) تُحكها: تنبت نبتها، والسّارية: السّحابة الممطرة، والوسميّ: مطر الرّبيع الأوّل.
(٣) النّطاف: مفردها النطفة، وهي القطرة أو الماء الصافي، والمُوليّ: المتتابع من المطر، أو المطر الربيعي الذي يأتي بعد المطر الأول.
(٤) الرّشأ: الغزال، وعمرو بن معدي: هو عمرو بن معديكرب، فارسي عربيّ مشهور، أدرك الإسلام وأسلم وغزا، تقدّمت ترجمته.
(٥) ربابته: أي تربيته وعنايته، العوالي: الرّماح، والمهاريّ: الإبل المهريّة وهي إبلٌ أصيلة تسبق الخيل، منسوبة لقبيلة مهرة بن حيدان.
(٦) الصافنات: مفردها الصّافن، وهو من الخيل الذي يجمع بين يديه، والضافيات: الثياب الواسعة.
(٧) القماري: مفردها القمري، وهو ضرب من الخمام مطوّق، صوته حسن.
(٨) الصّعاد: الرّماح، والأناسيّ: الناس.
(٩) القطامي: الصقر، والكدريّ: القطا الذي في لونه كدرة، وهو ضربٌ من الطير يشبه الحمام، ويقيم في الصحراء.

في غِلْمةٍ كغُصُونِ البانِ يحمِلُها كُثْبانُ بُردٍ على غادات بَرديٍّ؟[١]
يمشُون في الوَشْي أسرابًا، فتحسَبُهم روضَ الرَّبيع على بَيْضِ الأداحِيِّ[٢]
والساحِرُ الساخرُ الغَرَّارُ بينهم كالشمسِ تكْسِف أنوارَ الدّراريِّ[٣]
مُهَفْهَفُ القدِّ، سَهْلُ الخدِّ، أغْرَبُ في الـ ـجمالِ من لُثْغةٍ في لفظ نَجْدِيِّ[٤]
يُلْهيهِ عن كُتُبٍ تُروى ونُصرتِه لشافِعيٍّ فقيهٍ أو حَنيفيِّ
عُوجُ القِسِيِّ وقُبُ الأعوجِيَّةِ والشُّهـ ـبُ الهماليجُ تُرْبى في الأَوَارِيِّ[٥]
والشِّعْر في الشَّعَر الداجي على الغَنِج السَّـ ـاجِي يُلَيِّنُ منه قَلْبَ حُوشِيِّ[٦]
فلو بَصُرتَ به يَصْغي وأُنْشِدُه قلتَ النُّواسيّ يَشْجُو قلبَ عُذْرِيِّ[٧]
أو صائدُ الإنس قد ألقى حبائلَه ليلًا فأوقَع فيها صَيْدَ وَحْشِيِّ[٨]
أغْراه بي بعدَ ما جَدّ النِّفارُ به شَدْوُ القَريض وألحانُ السُّرَيْجِيِّ[٩]
فصار أطْوَعَ لي منه لمُقْلَتِهِ وصرتُ أُعْرَف فيه بالعَزيزيِّ

* * *

(١) الغادات: مفردها غادة، وهي الفتاة الحسناء الشابّة، والبرديّ: نباتٌ ماعي صنع منه المصريون القدماء ورق البُردى.

(٢) الوشي: الأثواب الموشاة المطرّزة، والأسراب: الجماعات، والأداحي: مفردها الأدحية: أي النعامة.

(٣) الدّراري: مفردها الدرّي: الكوكب المتلألىء المضيء.

(٤) اللّثغة: رطنة في اللسان، تلفظ الحرف مكان حرفٍ آخر، كالسين تلفظ شينًا، والنّجدي: نسبة إلى نجد.

(٥) القبّ: الضامرة، والأعوجيّة: يريد البطون التي تلي ضلوع الصدر، والهماليج: الحسنة السّير، والأواري: حرّ الشمس وشدّة اللّهب.

(٦) الداجي: الأسود، والسّاجي: الهادىء الساكن، والحوشيّ: الرجل الذي يكاد يخالط الناس «الوحشيّ».

(٧) النّواسيّ: يريد «أبا نواس» الحسن بن هانىء، شاعر الخمرة والغزل في العصر العباسي، ويشجو: يستميل.

(٨) الحبائل: الشّباك.

(٩) القريض: الشعر، والسُّريجي: نسبة إلى ابن سُريج عبيد الله، أبو يحيىٰ، من أشهر المغنّين في صدر الإسلام، من أهل مكّة، وأوّل من ضرب على العود بالغناء العربي، توفي سنة ٧١٦ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١٩٤».

ومما قيل في المؤنث، قال ابن الرومي: [من الوافر]

مُخَفَّفَةٌ مُثَقَّلَةٌ، تَرَاهَا كأنْ لم يَغْدُ نِضْفَيها غِذاءُ![1]
إذا الإغبابُ جَدَّد حُسْنَ شَيْءٍ من الأشياء، جدّدها اللِّقاءُ[2]
لها رِيقٌ تَشِفُّ له الثَّنَايَا ويَرْوِي عنه ـ لا منه ـ الظِّماءُ
وأنفاسٌ كأنفاس الخُزَامى قُبَيْلَ الصُّبْح، بَلَّتْها السَّماءُ![3]
تنفَّسَ نَشْرُها سحرًا، فجاءتْ به سَحَرِيَّةَ المَسْرى رُخاءُ![4]

وقال أبو نُوَاس: [من المديد]

ما هَوًى إلّا له سَبَبُ يبتدِي منه ويَنْشَعِبُ
فتنَتْ قَلْبي مُحَجَّبَةٌ وَجْهُها بالحُسن منتَقِبُ[5]
خُلِّيَتْ والحُسْنَ تأخُذُه تَنْتقي منه وتَنْتَخِبُ
فاكتسَتْ منه طرائفَهُ واستزادَتْ بعضَ ما تَهَبُ
صار جِدًّا ما مَزَحْتُ به رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ!

وقال أيضًا: [من السريع]

يا قَمَرًا، أبصرْتُ في مأْتَمٍ يندُبُ شَجْوًا بينَ أتْرابِ![6]
يَبْكِي فيُذْرِي الدُّرَّ من نَرْجِسٍ ويَلْطِمُ الوردَ بعُنَّابِ
أبْرَزَهُ المأْتَمُ لي كارِهًا برَغْمِ دايَاتٍ وحُجَّابِ![7]
لا تَبْكِ مَيْتًا حَلَّ في رَمْسه وأبكِ قَتِيلًا لكَ بالباب![8]

---

(١) لم يغدُ: لم يتجاوز. (٢) الإغباب: الزيارة بين الفينة والفينة.
(٣) الخزامى: جنس نبات من الفصيلة الشفويّة، أنواعه عطره واحدته خزاماة.
(٤) النشر: الطّيب، رخاء: أي الرّيح الهادئة «النسيم».
(٥) المنتقب: التي تلبس النّقاب، وهو القناع.
(٦) الشجوّ: الحزن، والأتراب: مفردها «ترب» وهو المماثل في السنّ.
(٧) الدّايات: مفردها داية، وهي الحاضنة والقابلة.
(٨) الرّمس: القبر.

وقال سيف الدين المشدّ: [من مجزوء الكامل]

وبِـمُـهْـجَـتِـي! مَـنْ لـو بَـدَتْ   لـلشمسِ من تَـحْـتِ الـنِّـقابْ
سـتَـرتْ مَـحـاسِـنَ وَجْـهِـهـا   خَـجَـلًا، ولاذَتْ بـالـسَّـحابْ!(١)

وقال القاضي أبو علي التَّنُوخيّ، شاعر اليتيمة(٢): [من الطويل]

أقولُ لَهَا والحَيُّ قد فَطِنُوا بنا   وما لِيَ عن أيدِي المَنُون بَرَاحُ(٣)
لَمَا ساءني أنْ وشَّحتْني سُيُوفُهم   وإنِّي لكُمْ دُونَ الوِشاح وِشَاحُ(٤)

وقال عمارة اليمانيّ(٥): [من السريع]

طَرَقْتُها، واللَّيْلُ وَحْفُ الجَناحْ   وما تَـلبَّـسـتْ بثَـوْب الـجُـنَـاحْ(٦)
فـي لـيـلةٍ بـات نِـجَـادِي بـهـا   ذوائبًا يَـخْـفِـقْـنَ فـوقَ الـوِشَـاحْ(٧)
والـحـسـنُ قـد أَلَّفَ أشـتـاتَـهُ   غُـصْـنٌ تـثـنَّى فـوقَ رِدْف رَدَاحْ(٨)
نـامَ رقـيـبُ الـصُّـبْـحِ عـن لَيْـلَتِي   وبـاتَ لِي كـلُّ مَـصُـونٍ مُـبَـاحْ!
أجْـمَـعُ مـن خَـدٍّ ومـن مَـبْـسِـمٍ   بِـحُـمْـرَةِ الـوَرْدِ بَـيـاضَ الأَقَـاحْ(٩)
حـصَـلْتُ مـن رِيـقٍ ومـن مَـنْـطِقٍ   عـلى اقْـتِـراحٍ ونَـمِـيـرِ قَـرَاحْ(١٠)

---

(١) لاذت: احتمت، والسّحاب: الغيوم التي تحجب الشّمس إذا ظهرت في السّماء.
(٢) القاضي التنوخي: هو علي بن محمد بن داود بن فهم التنوخي، أبو القاسم، من أعيان أهل العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشّيم، تقلّد قضاء البصرة والأهواز، ورد سيف الدولة فأكرمه وأحسن مثواه. «انظر اليتيمة ٢/ ٣٩٣».
(٣) البراح: المتّسع من الأرض.
(٤) وشّحته السّيوف: أحاطت به أو نالت منه، والوشاح: نسيجٌ عريض يرصّع بالجواهر، وتشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها.
(٥) هو عمارة بن أبي الحسن عليّ بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني، أبو محمد، نجم الدّين، شاعر معروف، قيل: إن وطنه اليمن من مدينة يقال لها ورطان. «وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٢».
(٦) طرقتها: أتيتها ليلًا، والوحف: المظلم، والجُناح: الإثم.
(٧) النّجاد: حمائل السّيف.
(٨) ألّف أشتاته: نَظَم ما كان متفرّقًا منه، والرّداح: الضخمة، وردفٌ رداح: أي ضخم.
(٩) الأقاح: مفرده أقحوانة: وهي نبت زهره أصفر وأبيض ورقه، كأسنان المنشار.
(١٠) الاقتراح: الرأي، والنّمير: العذب الطيّب من الريق والماء.

تـرنَّـحـتْ مِـنْ نَـشَـوات الـصِّـبـا فـبِـتُّ مَـسْـرُورًا بـنَـشْـوانَ صاحْ(١)
وفـاحَ مِـنْ نَـشْـرِ الـصَّـبَـا عَـنْـبَـرٌ أحْرقه الفَجْر بجَمْر الصَّبَاحْ!(٢)

وقال أبو نُوَاس: [من المجتثّ]

وذاتِ خَــــدٍّ مُــــوَرَّدْ قُـــوهِـيَّـةِ الـمـتـجَـرِّدْ(٣)
تـأمَّـلُ الـعَـيْـنُ مـنـهـا مـحـاسِـنًـا لـيـس تَـنْـفَـدْ
فـالـحُـسْـن فـي كـلّ جُـزْء مـنـهـا مُـعـادٌ مُـرَدَّدْ
فـبـعـضُـه فـي انـتـهـاءٍ وبـعـضُـه يَـتَـوَلَّـدْ
وكُـلَّـمـا عُـدْتُ فـيـه يـكـونُ لـي الـعـودُ أحـمَـدْ!

وقال عليّ بن عبد الرحمٰن بن المنجم(٤): [من السريع]

شبَّهْتُها بالبَدْرِ فاستَضْحَكتْ وقـابـلَتْ قـولِيَ بـالـنُّـكْـرِ
وسفَّهتْ قولي وقالتْ: متى سَمُجْتُ حتَّى صِرتُ كالبَدْرِ(٥)
الـبَـدْرُ لا يـرنُـو بـعَـيْـنٍ كـمـا أرنُـو، ولا يَـبْـسِـمُ عـن ثَـغْـرِ(٦)
ولا يُـمـيـط الـمِـرْطَ عـن نـاهـدٍ ولا يَـشُـدُّ الـعِـقْـد فـي نَـحْـرِ(٧)
مَـنْ قـاسَ بـالـبدر صِفاتِي، فـلا زالَ أسـيـرًا فـي يَـدَيْ هَـجْـري!

وقال العماد الأصفهانيّ: [من مخلّع البسيط]

لُثْـنَ الأهِـلَّةَ بـالـمَـعَـاجِـرْ وكَحَلْنَ بالسُّقْم المَحَاجِرْ(٨)
ونـظَـرْن عـن حَـدَقٍ حَـجَـرْ نَ بِـهَـا عـلى آرام حـاجِـرْ(٩)

---

(١) ترنّحت: تمايلت نشوة.
(٢) نشر الصَّبا: ريح طيبة باردة، والعنبر: عودٌ يتبخّر به طيّب الرائحة.
(٣) القوهيّة: ضربٌ من الثّياب بيض، أي أنها بيضاء البشرة.
(٤) لعلّه علي بن عبد الرحمٰن بن أحمد بن يونس، أبو الحسن، فلكي من العلماء، كان عارفًا بالأدب وله شعرٌ كثير، اختصّ بصحبة الحاكم الفاطمي، وتوفي بالقاهرة سنة ١٠٠٩ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٩٨».
(٥) سُمجت: قبحتْ، أو صارت ثقيلة غير محبّبة.
(٦) يرنو: يُديم النظر في سكون. (٧) أماط: كشف ونحّى، والمرط: الملاءة.
(٨) لاث: أحاط وستر، والمعاجر: جمع معجر، وهو ثوبٌ تشدّه المرأة على رأسها، والمحاجر: ما يحفظ العيون في مكانها.
(٩) الآرام: جمع «رئم» وهو الغزال الأبيض الخالص البياض، وحاجر: موضع قبل معدن النّقرة، =

شَـهَـرتْ لِحـاظُ ظِـبَـائِهِـ ـنّ القُلُوب ظُبًّا بواتر[١]
آرامُ خِـدْرٍ بـالـلِّحـا ظ تَصِيدُ آسادًا خَوادِرْ[٢]
غِـيـدٌ لِسَفْكِ دَمِ الـمُحِـ ـبِّ تَضَافَرتْ منها الضَّفائِرْ[٣]
بيضُ التَّرائبِ حُمرُها خُضْرُ اللَّمى سُود الغدائِرْ[٤]

وقال كُشاجم: [من مجزوء المتقارب]

جعلتُ إليكِ الهوى شَفِيعًا فلم، تُشْفِعِي!
ونـاديتُ مستعْطِفًا رضاكِ فلم تَسْمَعِي
أتـارِكـتي مُدْنَفًا أخا جَسَدٍ مُوجَعِ![٥]
ومُغْريتي والدُّمو عُ قد أحرقَتْ مَدْمَعِي
أحينَ سَبَيْتِ الفُؤا دَ بالنظر المُطْمِعِ[٦]
جفَوْتِ وأقصيتِني؟ فهَلَّا، وقَلْبي مَعِي؟

وقال ابن المعلم[٧]: [من الرّمل]

صَعْدةُ القَدِّ وسيفُ الكَحَلِ حَكَما حُكْمَ الهوى في أجلِي[٨]
يا لقَوْمِي! حمَلتْ ثِقْلَ دَمِي غـادةٌ يُثْقِلُها حَمْلُ الحُلِي!
قَدُّها مُعْتَدِلٌ يَظْلِمني! حَزَني من قَدِّها المعتَدل!
خَصْرُها يَنْشَطُ، لكن رِدْفُها أبدًا يقْهَرُه بالكَسَل

= وقال: دون فيد حاجر، والحاجر: في لغة العرب ما يمسك الماء من شفة الوادي. «معجم البلدان ٢/ ٢٠٤».

(١) شهرت: أخرجت وسلّطت، والألحاظ: العيون، والظّباء: الغزلان، والظُّبا: حدّ السيف والسهم، والبواتر: القواطع.

(٢) الخدر: ما يسترُ النساء من مكان، والخادر: الأسد في عرينه.

(٣) الغيد: الحسان، وتضافرت: تعاونت، والضّفائر: خصل الشعر المضفورة.

(٤) الترائب: من الصدر موضع القلادة، واللّمى: سمرة أو سواد في باطن الشفة، واخضرّ الليل: اسودّ.

(٥) المدنف: المريض في الرّمق الأخير. (٦) سبى الفؤاد: أسرهُ.

(٧) ابن المعلم: هو محمد بن علي بن فارس بن علي بن عبد الله بن الحسين بن القاسم، أبو الغنائم، الواسطي الملقب نجم الدين، كان شاعرًا رقيق الشعر، لطيف حاشية الطبع، يكاد شعره يذوب رقّة. «وفيات الأعيان ٥/ ٥».

(٨) الصعدة: قصبة الرّمح.

نـظـرةٌ مـن مُـقْـلَـتَـيْ جـاريَـةٍ وثـنَـتْ عِـطْـفَ الـقَـضِـيـب الـثَّـمِـلِ
لـسْـتُ أَدرِي: قـمـرٌ فـي كِـلَّـة ما أَرى، أم دُمْـيَـةٌ فـي هَـيْـكـل؟[١]
سـألـتْ جِـسْـمِـيَ عـن سـاكـنِـهِ! ومـن الـجَـهْـل سُـؤالُ الـطَّـلَـل![٢]

وقال سيف الدين المشدّ: [من السريع]

وغـادةٍ، أعـشَـقُ مـن أجْـلِـهـا بدرَ الدُّجَى والظَّبْيَ والخَيْزُرانْ
لأَنَّ ذا يُـشْـبِـهُـهـا بـهـجـةً وذاكَ ألـحـاظًـا، وهـذا بَـنَـانْ

وقال أبو نُواس: [من السريع]

يـا مُـنْـسِـيَ الـمَـأْتَـم أشـجـانَـهُ لـمـا أتـاهُـمْ فـي الـمُـعَـزِّيـنَـا![٣]
حَـلَّتْ عِـجَـارَ الـوَشْـي عن صُورةٍ ألـبـسـهـا الله الـتَّـحـاسـيـنَـا![٤]
اسـتَـفْـتَـنْـتَـهـنّ بـتِـمْـثـالـهـا فـهُـنَّ لـلـتَّـكـلـيـفِ يَـبْـكِـيـنَـا
حَـقَّ لـذاكَ الـوجـه أن يَـزْدَهِـي عـن حُـزْنـه مَـنْ كـان مَـحْـزُونـا

وقال أيضًا: [من المتقارب]

أيـا لَـيْـتَ شِـعْـرِي أمِـنْ صَـخْـرةٍ فُـؤادُكِ هـذا الـذي لا يَـلِـيـنْ!
تـقـولُ إذا مـا اشـتـكـيـتُ الـهـوى كما يَشْتكي البائسُ المُسْتَكِينْ
أفـي الـنَّـوْمِ أبْـصَـرْتَ ذا كـلَّـه؟ فـخَـيْـرًا رأيـتَ، وخَـيْـرًا يـكُـونْ!

وقال المشوق الشامي[٥]: [من مجزوء الكامل]

أتُـــرَى بـــثـــارٍ أو بـــدَيْـــنِ عَلِقتْ محاسِنُها بعَيْنِي؟[٦]
فـي خَـصْـرِهـا وقَـوَامِـهـا ولِحَـاظِـهـا مـا فـي الـرُّدَيْـنـي
وبـوَجْـهِـهـا مـاءُ الـشَّـبـا بِ خـلـيـطُ نـار الـوجـنَـتَـيْـن

(١) الكلّة: الغلالة الرقيقة، والدّمية: الجميلة من النساء، والهيكل: الصورة والشخص والتمثال.
(٢) الطّلل: ما تبقّى من آثار الدّار بعد عفائها.
(٣) المأتم: مكان الحزن، أو اجتماع الناس في الأحزان، والأشجان: الأحزان.
(٤) العجار: ثوبٌ تلفّه المرأة على استدارة رأسها، والوشي: المنقوش من الأثواب.
(٥) المشوّق الشامي: أو الخليع الشّامي، كنيته أبو عبد الله، وكان شاعرًا مفلّقًا قد أدرك زمان البحتري، وبقي إلى أيام سيف الدولة الحمداني، فانخرط في سلك شعرائه، وقد أنشد بعضًا من شعره الخوارزمي. «اليتيمة ١/ ٣٣٣».
(٦) الثار: من الثأر، وهو أن يقتصّ أهل القتيل من قاتله.

وقال السريُّ الرفَّاء[١] شاعر اليتيمة: [من مجزوء الكامل]

قـامـتْ وخُـوطُ الـبـانـة الـ ـمَـيَّـاسُ فـي أثْـوابـهـا[٢]
ويَـهُـزُّهـا سُـكْـرانِ: سُـكْـ ـر شَـرابـهـا وشَـبَـابِـهـا!
تَـسْـعَـى بـصَـهْـبَـاوَيْـنِ مـن ألْـحـاظِـهـا وشَـرابِـهـا[٣]
وكـأنّ كـأس مُـدامِـهـا لَمَّـا ارْتَـدَتْ بـحُـبـابِـهـا[٤]
تـوريـدُ وَجْـنـتِـهـا إذا مـا لاح تـحـتَ نِـقـابِـهـا

وقال ابن الروميّ: [من الرمل]

مِـنْ بـنـاتِ الـرُّوم، لا يَـكْـذِبُـنـا لـونُـهـا الـمُـشْـرِقُ عـن مَـنْـصِـبـهـا
قـامـةُ الـغُـصْـنِ ـ إذا مـا اعـتـدَلَـتْ قـامـةُ الـغُـصْـنُ ـ إلـى مَـنْـكِـبِـهـا[٥]
شَـهِـدَ الـشـاهـدُ مـن أحـسـنـهـا فـحـكـى الـغـائـبَ مـن أطْـيـبِـهـا
تَـشْـفَـعُ الـحـسـنَ بـإحـسـانٍ لـهـا يَـجْـلُـب الأفـراحَ مـن مَـجْـلَـبِـهـا
تَـشْـرَع الألـحـاظُ فـي وَجْـنَـتِـهـا فَـتُـلاقِـي الـرِّيَّ فـي مَـشْـرَبِـهـا
وجْـنَـةٌ لـلـغـنْـج فـيـهـا عَـقْـربٌ وبَـلاءُ الـصَّـبِّ مـن عَـقْـرَبِـهـا[٦]
وإذا قـامَـتْ إلـى مَـلْـعَـبِـهـا كَـمَـهـاةِ الـرَّمْـلِ فـي مَـلْـعَـبِـهـا
سـألـت أردافُـهـا أعـطـافَـهَـا هَـلْ رأتْ أوْطَـأَ مـن مَـرْكَـبِـهـا؟[٧]

---

(١) السرّيّ الرفّاء: هو السّري بن أحمد الكندي المعروف بالرّفاء، كان يرفو ويطرز بالموصل طيلة باكورة شبابه، وتكسّب بالشعر، ثم انتقل من تطريز الثياب إلى تطريز الكلمة والكتاب، فشعر بجودة شعره وشعر غيره، وجعل يورق وينسخ ديوان شعر «كشاجم» اتّصل بسيف الدولة ومدحه، فاشتهر وذاع صيته، وحسن موقعه وموقع شعره عند الأمراء. «اليتيمة ٢/ ١٣٧ وما بعدها».

(٢) الخوط: الغصن الناعم، أو كلّ قضيب لان، والبان: مفردها بانة: شجرة ليّنة بيضاء الزهراء طويلة الورق، والميّاس: المتثني من دلال.

(٣) الصهباوان: مثنّى صهباء، وهي الخمرة.

(٤) المدام: الخمرة، والحُباب: الفقاقيع التي تظهر على سطح الماء أو الخمرة.

(٥) المنكب: مجتمع رأس الكتف إلى العضد.

(٦) الوجنة: صفحة الخدّ، والعقرب: خصلة الشعر بين الأذن والصدغ، والصبّ: العاشق.

(٧) الأرداف: مفردها ردف وهو ما ظهر من المؤخّرة، والأعطاف: مفردها عطف، وهو جانب الإنسان من عاتقه إلى ردفه، وأوطأ: أسهل وألين.

وقال أبو الحسين بن فارس(١): [من السريع]

مَـرَّتْ بِـنـا هَـيْـفـاءُ مَـقْـدُودةٌ ... تُـرْكِـيَّـةٌ تُـنْـمـى لِـتُـرْكِـيِّ
تـرنُـو بِـطَـرْفٍ فـاتـرٍ فـاتِـنٍ ... أضـعَـفَ مِـن حُـجَّـةِ نَـحْـوِيِّ

* * *

ومما قيل في المُطْلَق والمشترك، قال الطغرائيّ(٢): [من البسيط]

فيمَ التَّعَجُّبُ من قَلْبِي وصَبْوتِهِ ... كأنَّكُم لم تَرَوْا من قَبْلِهِ عَجَبَا!
ذوُقوا الهَوى ثمَّ لُومُوا ما بَدَا لَكُمُ ... أَوْ لا، فخَلُّوا مَلَامِي واربَحُوا التَّعَبَا!

وقال أيضًا: [من الطويل]

وكنْتُ أُرانِي مُفْلِتًا شَرَكَ الهوَى ... وقد صادَنِي سحرُ العُيونِ النَّوافِثِ(٣)
وأسْمَعَنِي داعِي الغَرامِ نِداءَه ... فقمتُ إليه مُسْرِعًا غير لابِثِ
وأعطَيْتُ إخْوانَ البَطالةِ صَفْقَتِي ... وبعتُ قدِيمًا من غَرامِي بحادِثِ
فما صَفْقَتِي في البيعِ صَفقةُ خاسِرٍ ... ولا بَيْعَتِي للحُبِّ بيعةُ ناكِثِ
فلا تَعْذِلُوني في غرامِيَ بعدَمَا ... تولَّى الصِّبا، فالعَذْلُ أوّلُ باعث!
ولا تبحَثُوا عن سِرِّ قلبيَ إنَّه ... صَفًا، ليس يَمْضِي فيه مِعْوَل باحِثِ(٤)
أرى صَبَواتِ الحبِّ قد جَدّ جدُّها ... وقد كان بدءُ الحبّ مَزْحةَ عابِث!

وقال الأرّجانيّ(٥): [من الرجز]

قِفَا مَعِي في هذه المَعَاهِدِ! ... لا بُدَّ للصَّبِّ من المُساعِدِ!(٦)

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، كان بهمذان من أعيان العلم وأفراد الدّهر، يجمع إتقان العلماء وظرف الكتّاب والشعراء، له كتب بديعة ورسائل مفيدة وأشعار مليحة وتلامذة كثيرة، منهم بديع الزّمان الهمذاني. «انظر اليتيمة ٣/ ٤٦٣ وما بعدها».

(٢) الطغرائي: هو فخر الكتّاب أبو إسمٰعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، الملقّب مؤيّد الدّين الأصبهاني، المنشىء المعروف، كان عزيز الفضل، لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والشعر. «وفيات الأعيان ٢/ ١٨٥».

(٣) شَرَك الهوى: حبائلة، والنّوافث من السّحر: ما يسحر الإنسان ويسلبه لبّه.

(٤) الصّفا: الصخر الصلد الأملس.

(٥) الأرّجاني: هو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر ناصح الدين، الأرّجاني، شاعرٌ، في شعره رقّة وحكمة، ولي قضاء تستُر، له ديوان شعر مطبوع، وهو عربي المحتد. «فهرس الأعلام ١/ ٢١٥».

(٦) المعاهد: الدّيار، والصبّ: العاشق.

لا تَبْخَلَا يا صاحبَيَّ واسمَحا ... بوقْفةٍ على المُعَنَّى الواجد(١)
في مَنْزِلٍ عَهِدْتُ في عِرَاصِه ... لو ردّ معهودًا بكاءُ عاهِد(٢)
كواعبًا من الدُّمى لواعِبًا ... مُشْبِهَة الثُّغور بالقلائِدِ(٣)
يمشِين من فرط النَّعيم والصِّبا ... كالقُضُب المَوائل المَوَائِد
فيهنَّ ظَبْيٌ عَلقَ القلبُ به ... من الظِّباء النُّفُرِ الشوارد
إذا تَبَدَّى مرضٌ بطَرْفِهِ ... لم يخلُ من أفئدة عوائِدِ
رميتُه، فصادني، فمن رأى ... صَيْدًا يمرّ بفؤاد الصائِدِ؟
قطعتُ من قلبي رجائي في الهوى! ... والقَطْعُ طِبُّ كلِّ عُضو فاسدِ!(٤)

وقال أبو القاسم عبد الله الدينوريّ(٥)، شاعر اليتيمة: [من الخفيف]

يا لِعَصْرِ الخَلاعةِ المودود ... ولظِلِّ الشَّبيبةِ الممدُود!
وارتشافِي الرُّضابَ من بَرَد الثَّغـ ... ـر ولَثْمي عليه ورْدَ الخُدُودِ!
وبُكُورِي إلى مجالسِ عِلْمٍ ... ورَواحي إلى كواعبَ غيد!
في قميصٍ من السُّرور مُذَالٍ ... ورداء من الشَّباب جَديد!(٦)

وقال تاج الملوك بن أيّوب: [من المنسرح]

ألّا رحِمْتُمْ متيّمًا دنفًا ... ما زالَ من جَوْرِكم بكُمْ عائذْ!(٧)
صَبًّا قضى الله أن يَهيم بكُمْ ... ولا مردّ لحكمِهِ النافِذْ!
يلوذُ حُبًّا دُونَ الأنام بكم ... وحَسْبُه أنّهُ بكُم لائذْ!

---

(١) المعنّى: الأسير.
(٢) العراص: الساحات، مفردها: عرصة، والعاهد: المحافظ على العهد.
(٣) الكواعب: مفردها «كاعب» وهي الفتاة الناهد.
(٤) الطبّ: العلاج.
(٥) هو عبدالله بن عبد الرحمٰن الدينوري، أبو القاسم، أديبٌ من رؤساء الكتاب ووجوه العمّال بخراسان، ينتسب إلى العباس بن عبد المطلب، قال الثعالبي: ومصنّفاته في محاسن الأدب تربى على الثلاثين وله شعر كثير. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٦».
(٦) المذال: من الثوب الذي له ذيل، يريد: قميصًا فضفاضًا من السُّرور.
(٧) الدّنف: الذي اشتدّ مرضه، والعائذ: المستجير.

وقال فخر الدين الوركانيّ، شاعر الخريدة: [من الطويل]

أأحبابَنَا أمّا حياتِيَ بَعْدكُم   فموتٌ، وأما مَشْرَبي فمنَغَّصُ
وأسعَدُ شيءٍ فيَّ قلبي لأنّه   لدَيْكم، وجِسْمي بالبِعاد مخصَّصُ!

وقال العماد الأصفهانيّ: [من الطويل]

بذلتُ لهم - أبْغِي رِضاهُم - مودَّتِي   وقلبي وصَبْرِي والرُّقادَ، فما رَضُوا
وهِبْنِيَ عن كلّ تعوّضتُ بَعْدَهم   فقُلْ لي: بماذا عنهُمُ أتعَوّض؟
وما كان ظنّي أنَّ عَيْشِيَ يَنْقَضِي   ونجمَ الصِّبا ينقضُّ والعَهْد يُنْقَضُ

وقال الطغرائيّ: [من المنسرح]

إنّ الألُى أرضاك قولُهُمُ   بالأمس، تحتَ رضاهُمُ سُخْطُ!
لَمَّا صَفا ذاك الجمالُ لَهُمْ   تاهُوا على العُشَّاق واشتَطُّوا[1]
هَمُّوا ببَيْنٍ فاستطارَ له   قلبي، فكيفَ يكُون إنّ شَطُّوا؟[2]

وقال الطغرائيّ أيضًا: [من الكامل]

في القَلْب من حَرِّ الفراقِ شُوَاظُ   والدمعُ قد شَرقتْ به الألحاظ[3]
ولقد حفِظْت عُهودَكُمْ، وغَدرتُمُ   شتَّانَ غَدْرٌ في الهوى وحفَاظُ!
لله أيُّ مواقِفٍ رقَّتْ لنا   فيها الوسائلُ، والقلوبُ غلاظُ!

وقال أيضًا: [من البسيط]

وسائلٍ عن جَوى قلبي، فقلتُ له: ما أنتَ عِنْدِي على سِرٍّ بمتَّهَم!
طابَ الجوَى في الهوَى حتّى أَنِسْتُ به   فهو المَرارةُ يَحْلُو طَعْمُها بفمي!

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربّه[4]: [من الطويل]

أتقتُلُني ظُلْمًا وتجحَدُنِي قَتْلِي   وقد قام من عينيكَ لي شاهِدًا عَدْل![5]

---

(١) اشتطّ: ظلم.
(٢) البَيْن: الفراق، واستطار القلب: خفق من الخوف، وشطّوا: بعدوا.
(٣) الشّواظ: الشّرر المتطاير من النار، أو اللّهب لا دخان له.
(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد ربّه، أحد محاسن الأندلس علمًا وفضلًا وأدبًا ونبلًا، شعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة، من مصنّفاته العقد الفريد، وقد أورد فيه جلّ أشعاره، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ هـ، وأصيب بالفالج قبل وفاته سنة ٣٢٨ هـ. «انظر فهرس الأعلام ١/٢٠٧».
(٥) تجحد: تنكر.

أُطُلَّابَ ذَحْلي، ليس لي غَيْرُ شادِنٍ ... بعينيه سِحْرٌ فاطلُبُوا عِنْده ذَحْلي!(١)
أغَارَ على قلبي، فلما أتيتُهُ ... أُطالِبُه فيه، أغارَ على عَقْلِي!(٢)
بنفسِي التي ضَنَّتْ بِرَدِّ سلامها! ... ولو سألَتْ قتلي، وهبْتُ لها قَتْلِي!(٣)
إذا جئتها صَدَّتْ حَياءً بوجهِها ... فتَهْجُرُني هَجْرًا ألذَّ من الوَصْلِ
وإن حَكَمَتْ جارتْ عَلَيَّ بحُكْمِها ... ولكنَّ ذاكَ الجورَ أشهى من العَدْلِ
كتمتُ الهوى جَهْدِي، فجوّده الأسَى ... بماء البُكا، هذا يَخُطُّ وذا يُمْلِي!
وأحبَبْتُ فيها العَذْلَ حُبًّا لذِكْرها ... فلا شَيْءَ أحلى في فُؤادي من العَذْلِ!
أقولُ لقلبِي كُلَّما ضامه الأسى ... إذا ما أبيتَ العِزَّ، فاصبِرْ على الذُّلِّ!(٤)
برأيكَ لا رأيي تعرَّضْتَ للهوى ... وأمرِكَ لا أمرِي وفعلِك لا فِعْلِي
وجدْتَ الهوى نصلًا من الموت مُغْمدًا ... فجرّدتَهُ ثم اتّكأتَ على النّصل!(٥)
فإن كنتَ مَقْتُولًا على غَيْرِ رِيبةٍ ... فأنتَ الذي عَرَّضتَ نفسَكَ للقَتْلِ!

وهذه الأبيات معارضة لصريع الغواني(٦) في قوله: [من الطويل]

أدِيرَا عَلَيَّ الكأس، لا تَشْرَبَا قَبْلِي ... ولا تَطْلُبَا من عند قاتلتِي ذَحْلِي!
فما حَزَنِي أنّي أموتُ صَبابَةً ... ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِي!
فَدَيْتُ التي صَدَّتْ وقالت لِتِرْبِها ... دَعُوهُ، الثُّريّا منه أقربُ من وَصْلِي!(٧)

وقال ابن عبد ربّه: [من الطويل]

صَحا القلبُ، إلا خَطرةً تبعثُ الأسى ... لها زَفرةٌ موصولةٌ بحَنِينِ(٨)
بلى، رُبَّما حلتْ عُرَى عَزَماتِهِ ... سوالِفُ آرام وأعيُنُ عِينِ(٩)

---

(١) الذّحل: الثأر والحقد.
(٢) أغار: هجم ليسلب.
(٣) ضنت: بخلت.
(٤) ضامه: ظلمه، والأسى: الحزن.
(٥) النصل: حديدة الرمح والسّهم والسّكين.
(٦) صريع الغواني: هو مسلم بن الوليد الأنصاري، أبو الوليد، شاعر من أهل الكوفة نزل بغداد ومدح الرّشيد والبرامكة، واتّصل بالفضل بن سهل، فورًا، يريد جرجان فاستمرّ إلى أن مات فيها سنة ٨٢٣ م، وهو أوّل من أكثر من البديع في شعره. «فهرس الأعلام ٧/ ٢٢٣».
(٧) الترب: الرفيق من عمرٍ واحد، والثريّا: مجموعة نجوم في السّماء.
(٨) أصحا القلب: زال عنه الغمّ، والخطرة: ما يرد على البال.
(٩) العزمات: الفرائض، الآرام: الغزلان البيضاء، والعِين: بقر الوحش.

لـواحـظ حَبَّـات الـقـلـوب إذا رنَـتْ بـسِـحْـرِ عُـيُـونٍ وانـكـسـارِ جُـفُـونِ
ورَيْـط مـن الـمَـوْشِـيِّ أيْـنَـعَ تـحـتَـهُ ثِـمـارُ صُـدورٍ، لا ثِـمـارُ غُـصُـونِ[١]
بُـرُودٌ كـأنـوارِ الـربـيـع لـبِـسْـنَـهـا ثـيـابَ تـصـابٍ لا ثـيـابَ مُـجُـون
فَـرَيْـنَ أدِيـمَ الـلـيـلِ عـن نُـورِ أوجُـهٍ تُـجَـنُّ بـهـا الألـبـابُ كـلَّ جُـنـونِ[٢]
وجـوهٌ جرى فـيـهـا الـنـعـيـمُ فـكُـلِّلَتْ بـوَرْد خـدودٍ يُـجْـتَـنَـى بـعُـيـونِ
سـأَلْبَـسُ لـلأيَّـام دِرْعًـا مـن الـعَـزَا وإنْ لـم يـكُـن عـنـد الـلِّقَـا بـحَـصـيـنِ
وكـيـفَ، ولـي قَـلْـبٌ إذا هَـبَّـت الـصَّـبـا أهـابَ بـشَـوْقٍ فـي الـضُّـلـوعِ دَفِـيـنِ؟[٣]

وقال آخر: [من الكامل]

هَـزُّوا الـقُـدودَ وجَـرَّدوا الأجْـفَـانـا! فـاطـلُـبْ لـنـفـسِـك، إنْ قـدَرْتَ أمـانَـا
وألْـقِ الـسِّـلاحَ إذا انـثَـنَـوْا وإذا رنَـوْا وكُـنِ الـجَـبَـانَ وإن مَـلَـكْـتَ جَـنَـانَـا[٤]
واحْـذَرْ ضِـرَامًـا بـالـعـيُـون، وسَـلْ بـه مِـثْـلِـي، وجـانـب بـالـقُـدُود طـعَـانـا
فـلـقـد رأيْـتُ الأُسْـدَ وهـي كـواسـرٌ تَـخْـشَـى بـمـعـتَـرَك الـهـوى الـغُـزْلانـا
لا تـعـبَـثَـنَّ بـذابِـلٍ وبـبـاتِـرٍ! وخَـفِ الـمُـهَـفْـهَـفَ واحـذر الـوَسْـنـانَـا![٥]
لَـوْلا تـشـابُـهُ مـقـلـةٍ أو قـامـةٍ مـا خـفْـتُ يـومًـا صَـعْـدَةً وسَـنَـانـا[٦]
وأنـا الَّـذي حَـضَـرَ الـوقـائِـعَ فـي الـهـوى وأقـامَ فـي أَسْـرِ الـغَـرام زَمَـانَـا
ولَـكَـمْ رأيـتُ بـه الـشَّـدائِـدَ مُـرَّةً! ولَـكَـمْ رأيـتُ بـه الـمَـمـاتَ عـيَـانَـا!
وثـبَـتُّ بـيـنَ مَـعَـاطِـفٍ ولـواحِـظٍ فـي مَـوْقِـفٍ يَـذَرُ الـشُّـجـاعَ جَـبَـانَـا!
مُـسْـتَـسْـلِـمًـا لـلـعِـشـق: لا مُـسْـتَـصْـرِخًـا صَـبْـرًا، ولا مـسـتَـنْـجِـدًا سُـلْـوانـا
أرجُـو الـشـهـادةَ إن قُـتِـلْـتُ بـه، ومـا ولَّـيـتُ فـيـه ولا ثـنَـيـتُ عِـنَـانـا
يـا وَيْـحَ قـلـبٍ مـا خَـلَا مـن شُـغْـلِـهِ بـصَـبـابـةٍ ومَـحـبَّـةٍ مـذ كـانَـا!
لـو فَـتَّـشُـوهُ لـمـا لَـقُـوا لِـسِـوى الـهـوى فـيـه ولا غَـيْـرِ الـغـرام مَـكـانَـا

(١) الرّيطة: الملاءة، والموشي: المزيّن. (٢) فرى: قطع وكشف، وأديم الليل: سواده.
(٣) الصَّبا: ريح باردة منعشة، وأهاب: دعا.
(٤) انثنوا: تمايلوا دلالًا، ورنوا: نظروا، والجنان: العقل.
(٥) تعبثنّ: تلعبن، والذّابل: الرّمح، والباتر: السيف، والمهفهف: الضامر الخصر، والوسنان: يريد الطّرف الناعس الفاتر.
(٦) الصّعدة: قصبة الرّمح، والسّنان: نصل الرّمح.

وقال التلعفريّ[١]: [من الكامل]

هـذا الـعَـذُول عـلـيـكـمُ، مـا لـي ولَهْ؟ أنا قد رَضِيتُ بذا الغَرام وذا الوَلَهْ![٢]
شـرْطُ الـمـحـبّـةِ أنَّ كـلَّ مـتـيَّـم صَـبٌّ يُـطِـيـع هَـواه، يَـعْـصِـي عُـذَّلَهْ
وأخـذْتُـمُـوني حـيـنَ سار بـحـبِّـكُـم مَـثَـلِي، ومِـثْـلِي سِـرّه لـن يَـبْـذُلَهْ!
مـا عـربَـتْ واللهِ عـن وَجْـدِي بـكُـمْ وصـبـابَـتِـي إلَّا دُمُـوعِـي الـمُـهْـمَـلَهْ
جُزْتُـمْ مَدَاكُمْ في قطيعتِكُمْ، فلا عـطـفٌ لـعـائـدكُـمْ يُـرامُ، ولا صِـلَهْ
أألُومُـكُـمْ فـي هَـجْـرِكـم وصُـدُودِكُـمْ مـا هـذه فـي الـحُـبِّ مـنـكـم أوّلَهْ!
قَسَمًا بكُمْ، قد جِزْتُ مما أشْتَكِي! حَسْبِي الدُّجَى، فعَدِمْتُه ما أطْوَلَهْ!
لَيْلي كيومِ الحَشْر معنًى إن يكُنْ لا لـيـلَ ذاكَ لـه، فـذا لا صُـبْـحَ لَهْ
يا سائلي مِنْ بَعْدِهِمْ عَنْ حالَتِي! تركُ الجوابِ جوابُ هذي المسألَهْ!
حـالِي إذا حَـدَّثـتُ لا لُمَـعًـا ولا جُمَلًا لإيضاحي لها من تَكْمِلَهْ[٣]
عِـنْـدِي جَـوًى يَـذَرُ الـفـصـيـحَ مُـبَـلَّدًا فاترُكْ مفصَّله! ودُونَك مجمَلَهْ![٤]
القلبُ ليس من الصِّحاحِ فيُرْتجى إصلاحُه، والعينُ سُحْب مُثْقَلَهْ[٥]
يـا نـازِحِـيـنَ، وفـي أكِـلَّةِ عِـيـسِـهِـمْ رَشَأٌ عليه حَشَا المُحِبِّ مقَلْقَلهْ![٦]
قمرٌ له في الطَّرْف بل في القَلْب بل في النَّثْرة الحَصْداء أشرفُ مَنْزِلَهْ[٧]
الـصُّـدْغ مـنـه عَـقْـرَبٌ، ولِحـاظُـه أسَدٌ، وخلفَ الظَّهْر منه سُنْبُلَهْ[٨]

---

(١) التلّعفري: هو محمد بن يوسف، شهاب الدين، أبو عبد الله، شاعر نسبته إلى «تل أعفر» بين سنجار والموصل، وُلد في الموصل، وسافر إلى دمشق فكان من شعراء صاحبها الملك الأشرف الأيّوبي، كان يستجدي بشعره ويقامر، توفي سنة ١٢٧٧ م. «فهرس الأعلام ٧/ ١٥١».

(٢) العذول: اللّائم، والوَلَه: الحب الشديد.

(٣) في البيت إشارة إلى الكتب الشهيرة: اللُّمع، الجُمل، الإيضاح، التكملة، وكلّها في علم العربية.

(٤) يشير إلى «الفصيح» لثعلب، والمفصّل: للزمخشري، والمجمل: لابن فارس وكلّها كتب في اللغة.

(٥) يشير إلى: الصّحاح للجوهري، وكتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، وهما من كتب اللّغة ومعاجمها.

(٦) النازح: المنتقل من بلدٍ إلى آخر، والأكلّة: مفردها كلّة وهي ستار رقيق يحيط بالرّحل على ظهر الناقة، والعيس: النوق، والرشأ: الغزال ، والحشا: ما انضمّت عليه الضلوع، والمقلقلة: المضطربة.

(٧) يشير إلى بعض منازل القمر، وهي «الطرفة» و«القلب» و«النثرة».

(٨) يشير إلى بعض البروج التي في السّماء، وهي: العقرب، والأسد، والسنبلة.

مـا أجـورَ الألـحـاظ مـنـه إذا رَنَـا! وإذا أنـثـنـى، فـقَـوامُـه مـا أعْـدَلَهْ!
لـو لـم يُـصِبْ صُدْغَيْهِ عـارضُ خدّه ما أصبحَتْ في عـارِضَيْهِ مُسَلْسَلَهْ
لله مـنـه مُـهَـفْـهَـفٌ أجْـنـيـتُـهُ عَسَلَ الهوى فجنَيْتُ منه حَنْظَلَهْ(١)
لو كنتُ فيه قَبِلْتُ نُصْحَ عَوَاذِلِي ما أدبَرتْ أيامُ حَظِّي المُقْبِلَهْ!

وقال الطغرائيّ: [من الطويل]

رُوَيْـدكُـمُ! لا تَـسْـبِـقُـوا بِـقَـطِـيـعَـتِـي صُروفَ الليالي، إنَّ في الدّهْر كافِيَا
ويا قلبُ، وعاوِدْ ما أَلِفْتَ من الجوَى! مَعَاذَ الهوى أن تُصْبِح اليومَ سالِيَا!
ويا كَبِدي، ذُوبِي! ويا مقلتي، اسْهَري! ويا نَفْسِ لا تُبْقِي من الوَجْدِ باقِيَا!
فلا تَطْمَعُوا في بُرْءِ ما بِي، فإنّه هو الداءُ قد أعْيَا الطبيب المُدَاوِيَا!

* * *

ومما قيل في طَيْف الخيال، قال قيس بن الخطيم(٢): [من الكامل]

إنّي شَرِبْتُ، وكنتُ غير شَرُوب! وتُـقَـرِّبُ الأحـلامُ غَـيْـرَ قَـريـب
ما تَمْنَعِي يَقْظَى، فقد تُؤْتِينَهُ في النَّوْم غَيْرَ مُكدَّر مَحْسُوبِ
كـان الـمُـنَـى تِـلْقـاءَهـا، فـلقِـيـتُـهـا ولهَوْتُ من لَهْو أمرىءٍ مَكْذُوبِ!

وقال عمرو بن قَمِيئَةَ(٣): [من المتقارب]

نَـأَتْـكَ أُمـامـةُ، إلّا سُـؤَالَا وإلّا خَـيَـالًا يُـوافِـي خَـيَـالَا(٤)
خَـيَـالًا يُـخَـيِّـلُ لـي نَـيْـلَهَـا ولـو قَـدَرتْ لـم يُـخَـيِّـلْ نَـوَالَا!

قال أبو هلال العسكري: ومن هاتين القطعتين أخذ المحدّثون أكثرَ معانيهم في الخَيال.

---

(١) المهفهف: الضامر القدّ والقوام، والحنظل: نبات تمرُهُ مرّ.
(٢) هو قيس بن الخطيم، شاعر جاهلي أنصاري جيّد الشعر حسنه، وهو شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهليّة، أدرك الإسلام ومات قبل أن يسلم، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٠٥».
(٣) هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد الوائلي النزاري، شاعر جاهلي مقدّم، صحب امرىء القيس في طريقه إلى ملك الرّوم فمات في الطريق، وكان واسع الخيال في شعره، توفي نحو سنة ٥٤٠ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٨٣».
(٤) نأتك: من النأي وهو البعد، ويوافي: يأتي، ويتلو.

وقال البَعِيث[١]: [من الطويل]

أزارَتْكَ ليلى، والرِّكابُ خَواضِعٌ؟ وقد بَهَرَ اللَّيْلُ النُّجومَ الطَّوالِعُ!
وأعطَتْكَ غاياتِ المُنى غير أنّها كَواذِبُ إنْ حَصَّلتَها وخَوادِعُ

وقال أبو تمام: [من الخفيف]

اِسْتَزارَتْه فِكْرَتِي في المَنامِ فأتاها في خِفْيَةٍ واكْتِتامِ
يا لها لَيْلةً تزاوَرَتِ الأرْ واحُ فيها سِرًّا عَنِ الأجْسامِ!
مجلِسٌ لم يكن لنا فيه عَيْبٌ غَيْرَ أنّا في دَعْوة الأحْلامِ!

وقال الحمدونيّ[٢]: [من الخفيف]

لم أنَلْه، فنِلْتُه بالأمانِي في مَنامِي سِرًّا من الهِجْرانِ!
واصل الحُلْمُ بينَنا بَعْدَ هَجْرٍ فاجتمَعْنا ونحنُ مُفْتَرِقانِ
وكأنَّ الأرواحَ خافَتْ رَقِيبًا فطَوَتْ سِرَّها عن الأبْدان
مَنْظَرٌ كان نُزهةَ العَيْنِ إلّا أنّه مَنْظَرٌ بغيرِ عِيَان[٣]

وقال ابن الروميّ: [من الرّمل]

طَرقَتْنا، فأنالَتْ نائلًا شُكْرُه - لو كان في النُّبْه - الجُحُودُ[٤]
ثم قالتْ، وأحَسَّتْ عَجَبِي من سُرَاها حيثُ لا تَسْرِي الأُسُودُ[٥]
لا تعَجَّبْ من سُرَانا، فالسُّرى عادةُ الأقمار والناس هُجُودُ[٦]

أخذ العسكريّ المعنى، فقال: [من الخفيف]

رقَبَتْ غَفْلَةَ الرَّقِيبِ، فزارَتْ تحتَ لَيْلٍ مُطَرَّزٍ بنَهارِ

---

(١) البَعِيث: هو خداش بن بشر بن خالد المجاشعي، أبو زيد، خطيبٌ شاعرٌ من أهل البصرة، توفي بالبصرة سنة ٧٥١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٠٢».
(٢) الحمدوني: هو محمد بن أحمد الحمدوني، شاعرٌ ورد ذكره في اليتيمة، وقد مدح الوزير أبو نصر سابور بن أردشير، بعد أن أعيد إلى الوزارة بعد خلعه. «انظر اليتيمة ٣/ ١٤٥».
(٣) العِيان: المشاهدة، ومنظر بغير عيان، أي بلا مشاهدة بالعين لأنه كان خياليًا.
(٤) طرقتنا: زارتنا ليلًا، والنّائل: العطاء، والنُّبه: اليقظة، والجحود: النكران.
(٥) سُراها: أي مَسراها ليلًا حيث يكون الخوف.
(٦) الهجود: الرّقاد.

فتعجَّبْتُ من سُراها، فقالتْ غَيْرُ مستَغْرَبٍ سُرى الأقمار!
ثم مالَتْ بكأسِها فسَقَتْنِي جُلَّناريَّةً على جُلِّ نارِي![1]

وقال آخر: [من الطويل]

فيا لَيْتَ طَيْفًا، خيَّلَتْه لِيَ المُنى وإنْ زادَنِي شوقًا إليك، يَعُودُ!
أُكلِّف نفسي عنك صَبْرًا وسَلْوَةً وتَكْليفُ ما لا يُستطاعُ شديدُ!

وقال العسكريّ: [من الكامل]

طَرَق الخَيالُ، فزَارَ منه خَيالًا فسرى يُغازِلُ في الرُّقاد غَزَالا
يا كَشْفَةً للكَرْب، إلّا أنَّهُ وَلَّى على دُبُر الظَّلامِ فزَالا
قَعَد المتيَّمُ، وهو أكثَرُ صَبوةً وأَشَدُّ بِلبالًا وأكسَفُ بالًا![2]

وقال العماد الأصفهانيّ: [من الكامل]

ظَبْيٌ طَرِبتُ لِطَيْفِه المتأوِّبِ طَرَب العليلِ لرُؤية المُتَطَبِّبِ[3]
لم أَدْرِ زَوْرَتَهُ، أكانت خَطْفَةً من بارقٍ أم لمعةً من كَوْكَبِ
زار الكَرى متهيِّبًا رُقباءَه أهْلًا به من زائرٍ متهيِّبِ![4]
لَمَّا رأى وَجْدِي، تأوَّهَ رحمةً للهِ مِنْ مُتَأَوِّهٍ متأوِّبِ![5]
وأتى ليقرُبَ من وِسادِ مُتَيَّمٍ لَمَّا أحَسَّ بنارِهِ، لم يَقْرُبِ

وقال محمد بن بختيار[6]: [من مخلّع البسيط]

لو أنَّ طَيْفَ الخيَالِ يَسْرِي بَلَّ سُراهُ غليلَ صَدْرِي[7]

---

(١) الجلناريّة: نسبة إلى الجلّنار، وهو زهر الرّمان، يريد خمرة لونها لون زهر الرّمان، والجلّ: الكثير.

(٢) الصّبوة: جهل الفتوّة ولهوها، والبلبال: شدّة الهمّ والوسواس.

(٣) الطّيف: الخيال، المتأوّب: الرّاجع أوّل الليل.

(٤) الكرى: النعاس، والمتهيّب: الخائف أو الذي فيه حياء.

(٥) المتأوّه: المتوجّع الذي يقول «آه» ألمًا وشكوى، والمتأوّب: الذي عاوده الألم أو الشوق.

(٦) هو محمد بن بختيار بن عبد الله البغدادي، شاعر من أهل بغداد، كان ينعت بالأبله لقوّة ذكائه، في شعره رقّة وحسن صناعة، وكان هجّاءً خبيث اللّسان، له ديوان شعر مخطوط، توفي سنة ١١٨٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٥٠».

(٧) بلّ: أنعش من ظمأ، والغليل: ظمأ العشق هنا.

ولـو أرادَ الـحـبـيـبُ أنْ لا يَضِيمَني، ما استطابَ هَجْرِي
يـلومُـنِـي فـي هَـوَاه مَـنْ لا يـعـلَمُ أنَّ الـمَـلَامَ يُـغْـرِي
كَـمْ لـيـلةٍ زار فـي دُجـاهَـا فـكـان تَـحْـتَ الـظَّـلام بَـدْرِي
يُـتْـحِـفُـنـي بـاحْـمِـرار خَـدٍّ مُـوَرَّدٍ وابـيـضـاض ثَـغْـر
يَـجْـمَـعُ لـي بَـيْـنَ سُـكْـرِ لَحْظٍ وسُـكْـرِ رِيـقٍ وسُـكْـرِ خَـمْـر
ودُرِّ لَفْـظٍ ودُرِّ ثَـغْـرِ ودُرِّ كـأسٍ ودُرِّ نَـحْـرِ

وقال آخر: [من الخفيف]

قلتُ للمُعْرِض الّذِي صَدَّ عَنِّي إنَّ طَيْفَ الخيالِ لي عنكَ يُغْنِي
قال: لا تَحْمَدِ الخيَالَ فما زا رَكَ إلّا عنِ اخْتِيارِي وإذْنِي
كِدْتَ تَقْضِي أسًى، فقلتُ لِطَيْفِي أَحْيِ لي روحَهُ بِزُور التَّمَنِّي![1]
ليس شُحًّا بأن تموتَ؛ ولكِنْ خِفْتُ أنْ تَسْتَرِيحَ بالموتِ مِنِّي!

وقال آخر: [من الطويل]

فإنْ يَحْجُبُوهَا بالنهار، فَمَا لَهُمْ بأن يَحْجُبُوا بالليل عَنِّي خَيَالَها!

وقال المجنون[2]: [من الطويل]

وإنِّي لأَسْتَغْشِي، وما بي نَعْسَةٌ لعَلَّ لِقاهَا في المَنَامِ يَكُونُ![3]
تُخَبِّرُنِي الأحلامُ أنِّي أراكُمُ ألَا لَيْتَ أحلامَ المَنامِ يَقِينُ!

وقال المؤمل[4]: [من الطويل]

أتانِي الكَرَى لَيْلًا بشَخْصٍ أُحِبُّه أضاءَتْ له الآفاقُ، والليلُ مُظْلِمُ
فكلَّمَنِي في النَّوْمِ غَيْرَ مُغَاضِبٍ وعَهْدِي به يَقْظانَ لا يَتَكَلَّمُ

(١) الزّور: الكذب.
(٢) المجنون: هو قيس بن الملوّح العامري، شاعر غزل، من أهل نجد، لم يكن مجنونًا ولكنّه لقب بذلك لحبّه «ليلى بنت سعد»، توفي سنة ٦٨٨ م. «فهرس الأعلام ٥/٢٠٨».
(٣) استغشى: تلحّف بالغطاء طلبًا للنوم.
(٤) هو المؤمّل بن أُميل بن أسيد المحاربي، شاعر من أهل الكوفة، اشتهر في العصر العباسي، انقطع إلى المهدي، وقد عمي في أواخر عمره، ومات نحو سنة ٨٠٥ م.

وذكر العباس بن الأحنف[(١)] العلةَ في طُروق الخيال، فقال: [من الوافر]

خَيَالُكَ حِينَ أرْقُدُ نُصْبَ عَيْنِي ... إلى وقتِ آنْتِبَاهِي لا يَزُول
وليس يَزُورُني صِلةً، ولكِنْ ... حديثُ النَّفْس عنكَ به الوُصولُ

وتبعه الطائيّ فقال: [من البسيط]

زار الخيالُ لها، لا بل أزَاركَهُ ... فِكْرٌ، إذا نامَ فِكْر الخِلْو لم يَنَم
ظَبْيٌ تقنَّصتُهُ لَمَّا نَصَبْتُ له ... في آخر الليلِ أشْراكًا من الحُلُمِ[(٢)]

* * *

ومما قيل في الردّ على العذول، قال أبو نُوَاس: [من السريع]

ما حَطَّك الواشُون من رُتْبةٍ ... عِنْدِي، ولا ضَرَّك مُغتابُ
كأنَّما أثنَوْا ـ ولم يَشْعُروا ـ ... عليكَ عِنْدي بالذي عابُوا

وقال تاج الملوك: [من الكامل]

مَهْ يا عَذُولُ عن المُحِبِّ، فإنَّما ... عَذْلُ المُحِبِّ يَزِيدُ في بِلْبَالِهِ![(٣)]
لا تَعْذُلَنَّ على الصَّبابةِ مُغْرَمًا ... حتَّى تَبِيتَ من الزَّمانِ بحالِهِ!

وقال أيضًا من قصيدة: [من الخفيف]

ولقد قُلْتُ للَّذِي لامَنِي فيـ ... ـك، وما زَالَ حالُه مِثْلَ حالِي
يا عَذُولِي في حُبِّه، كُفَّ عَذْلِي ... أنا ما للعَذُولِ فيه وما لي!
كُلَّما زِدْتَ في مَلَامِي وعَذْلِي ... زِدْتُ في لَوْعَتِي وفي بَلْبالِي!

وقال الأرّجاني: [من الكامل]

وَجْدِي بلَوْمكَ، يا عَذُولُ يَزِيدُ! ... فاسْتَبْقِ سَهْمَكَ، فالرميُ بَعِيدُ![(٤)]

---

(١) هو العبّاس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، أبو الفضل، شاعر غزل رقيق، نشأ في بغداد ومات فيها سنة ٨٠٨ م، كان كلّ شعره في الغزل. «فهرس الأعلام ٣/٢٥٨».

(٢) تقنّصته: اصطدته، والأشراك: الحبال.

(٣) مَهْ: اسم فعل مبني على السّكون بمعنى «كفّ»، والعذول: اللّائم، والبلبال: الوسواس وشدّة الهمّ.

(٤) الرّميّ: الذي يريد العذول أن يرميه بسهمه ليصميه أو يصيب منه مكانًا، يقول: احتفظ بسهمك فلن تصيب الغرض لأن ما تقصد إيذاءهُ بعيدٌ عن مرمى سهمك وعذلك.

بَلَغ الهوى من سِرِّ قَلْبِيَ مَوْقِعًا لا العَذْلُ يَبْلُغه ولا التفنِيدُ![١]
وتُنِمُّ بالشَّجْوِ المُكَتَّم عَبْرَتِي ومن الدُّموعِ على الغَرامِ شُهُودُ![٢]

وقال سيف الدين المشدّ: [من المجتثّ]

يا عاذِلي، خَلِّ عَنِّي! أسمعْتَ غير سَمِيع!
لا تَرْجُ مِنِّي سُلُوًّا! فما فُؤادِي مُطِيعِي!
وكَيْفَ أكْتُمُ ما بِي مِن لَوْعَةٍ ووَلُوع
والذَّارِياتُ جُفُونِي والمُرْسَلاتُ دُمُوعِي![٣]

وقال ابن الخيمي[٤]: [من الطويل]

وتَأْمُرني العُذَّال بالصَّبر عَنْكُمُ ومَنْ ذا الذي يَرْضى عن الحُلْوِ بالصَّبْرِ؟
ومِنْ أعْجَبِ الأشياءِ أنَّ عَوَاذِلِي يُطيلون لَوْمِي في الهوى، والهوى عُذْرِي!

***

ومما قيل في رجوع العذول، قال ابن وكيع[٥]: [من السريع]

أقْبَلَ والعُذَّالُ يَلْحُونَنِي فكلُّهم قال: مَنِ البَدْرُ؟[٦]
فقلت: ذَا مَن طالَ في حُبِّه منكم ليَ التعنيفُ والزَّجْرُ![٧]
قالوا: جَهِلْنا، فاغتفِرْ جَهْلَنا فليس عنْ ذا لامْرِئٍ صَبْرُ!
عُذْرُكَ في الحُبِّ له واضِحٌ وما لَنا في لَوْمِنَا عُذْرُ!

---

(١) التفنيد: الكذب، والإتيان بالقول الباطل.
(٢) تنمُّ: تشي وتظهر، والشجوّ: حزن الحب، والمكتّم: المستور الخفيّ.
(٣) «الذّاريات» و «المرسلات» سورتان في القرآن الكريم.
(٤) هو محمد بن علي، أبو طالب، مهذّب الدّين الحلّي، المعروف بابن الخيمي، عالم بالأدب، ولد بالحلّة المريدية، ورحل إلى بغداد وسوريا، وتوفي بالقاهرة سنة ١٢٤٥ م، له مصنّفات عدّة منها: أمثال القرآن، والمؤانسة في المقايسة. «فهرس الأعلام ٦/ ٢٨٢».
(٥) هو الحسن بن علي الضبّي التنيسي، أبو محمد، المعروف «بابن وكيع» شاعر مجيد، أصله من بغداد، ومولده ووفاته في «تنيس» بمصر له ديوان شعر مطبوع، وكانت في لسانه عجمة، توفي سنة ١٠٠٣ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٠١».
(٦) لحاه: لامه.
(٧) التعنيف: اللوم بقسوة، والزّجر: المنع والرّدع.

وقال أيضًا: [من مخلّع البسيط]

أبْصَرَه عاذِلِي عَلَيْه ... ولم يكنْ قَبْلَ ذَا رآهُ
فقال لي: لو عَشقْتَ هذا ... ما لامَكَ الناسُ في هَواهُ!
قل لي: إلى من عَدَلْتَ عنه ... فليس أهْلَ الهوى سِوَاهُ؟
وظَلَّ من حيث ليس يَدْرِي ... يأمر بالحُبِّ مَنْ نَهاهُ!

* * *

ومما قيل في الوِصال، قال ابن الروميّ: [من الكامل]

ولقد يؤلِّفنا اللِّقاءُ بليلةٍ ... جُعلَتْ لنا حتَّى الصباحِ نِظامَا(١)
نَجْزِي العيونَ جزاءَهُنَّ عن البُكَا ... وعن السُّهاد ولا نُصِيب أَثَامَا(٢)
فنُبِيحهُنَّ مَرادهَنَّ، يَرُدْنَهُ ... فيما ادَّعَيْنَ، مَلَاحةً ووَسَاما
ونُكافىءُ الآذانَ، وهي حَقِيقةٌ ... إذ لا تَزالُ تُكابِدُ اللُّوَّاما
فنُثِيبهُنَّ من الحديث مَثُوبةً ... تَشْفِي الغليلَ وتَكْشِفُ الأسقامَا(٣)
ونُكافِىءُ الأفواهَ عن كِتْمانها ... إذْ لا يَزالُ لها الصُّمَاتُ لِجاما(٤)
فنبِيحهُنَّ مَلاثمًا ومَراشفًا ... ما ضَرَّها أنْ لا تَكُونَ مُدَاما!
نَجْزِي الثلاثةَ أنصباءَ ثلاثةً ... مقسومةً آناؤُها أقْساما(٥)

* * *

ومما قيل في الفراق والبَيْن، قال بعض الكُتَّاب: في الفراق مصافحةُ التسليم، ورجاءُ الأَوْبةِ، والسلامةُ من المَلَال، وعمارةُ القلب بالشوق، والدلالةُ على فضل المواصلة واللّقاء.

---

(١) يؤلّفنا: يجمعنا، والألفة: الصداقة والمودّة في المعشر، والنّظام: العقد.
(٢) السُّهاد: الأرق.
(٣) أثاب: جزى، والمثابة: الأجر والجزاء الحسن، والغليل: الظّمأ.
(٤) الصّمات: من الصّمت أي السكوت، واللّجام: ما يجعل في فم الفرس وغيره من الحديد ومعه السّير وغيره، وهنا: ما يمنع به المرء عن الكلام.
(٥) الأنصباء: الشهود، يريد العيون والأذان والأفواه، والآناء: الأوقات، يريد أنه يعطي لكلّ واحد من الثلاثة المذكورة حقّه من الجزاء.

قال شاعر: [من الطويل]

جَزى الله يومَ البَيْنِ خيرًا، فإنَّهُ أرانَا على عِلَّاتِهِ أُمَّ ثابت![١]

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

فإذا كان في الفِرَاقِ اعْتِناقٌ جعَلَ اللهُ كلَّ يومٍ فِرَاقا!

وقال أبو حفص الشطرنجيّ[٢]: [من الخفيف]

مَنْ يَكُنْ يَكْرَهُ الفِراقَ، فإنّي أشْتَهِيهِ لموضِعِ التَّسْليم!
إنَّ فيه اعْتِناقَةً لفِراقٍ وانتظارَ اعتناقةٍ لقُدومِ

وقال سيف الدولة بن حَمْدان: [من الخفيف]

راقبَتْنِي العُيُونُ فيكَ، فأشْفَقْـ ـتُ؛ ولم أخْلُ قَطُّ من إشفاقِ
ورأيتُ العَدُوّ يَحْسُدني فيـ ـكَ مُجِدًّا بأنفس الأعلاق[٣]
فتمَنَّيتُ أنْ تكونَ بَعِيدًا والذي بَيْنَنا من الوُدِّ باقِ!
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ من خوفِ هَجْرٍ وفِراقٍ يَكُونُ خَوْفَ فِراقِ!

وأرى هذا كلَّه على سبيل التعلّل ليس إلّا، وإنما الفراقُ لا شكَّ في إيلامه للقلوب.

قال بعض الشعراء: [من الوافر]

فلِمْ لا تُسْبَلُ العَبَراتُ منّي ولَسْتُ على اليقينِ من التَّلاقِي؟
فلا وأبِيكَ، ما أبصَرْتُ شيئًا أمَرَّ على النُّفُوسِ من الفِراقِ!

وقال آخر: [من الكامل]

يا رَبِّ، باعِدْ بَيْنَ جَفْنِي والكَرَى ما دامَ مَنْ أهواهُ في هجْراني![٤]
إنّي لأخْشَى أنْ أنامَ فألْتَقِي بخيَالِهِ، خَوْفَ الفرَاق الثاني!

---

(١) البين: الفراق، وعلى علّاته: أي على كلّ حال، أو قُبل وأخذ على أحواله.
(٢) هو عمر بن عبد العزيز الشطرنجي، أبو حفص، شاعر عليّة بنت المهدي، كان منقطعًا إليها، وكان غزلًا أديبًا ظريفًا، شغف بالشّطرنج فنسب إليه، توفي نحو سنة ٨٢٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٥٠».
(٣) المجدّ: المجتهد، والأعلاق: النفيس من كل شيء.
(٤) الكرى: النُّعاس.

وقال آخر: [من البسيط]

فـارقْـتُـه وبـوُدّي لـو تُـفـارِقُـنِـي رُوحُ الـحـيـاة، وأنّـي لا أُفـارقُـهُ!

وقال أبو تمام: [من مجزوء الكامل]

الـمـوتُ عِـنـدِي والـفِـرا قُ: كِـلاهُـمـا مـا لا يُـطـاقُ!
يَـتَـاوَنَـان عـلى الـنـفُـو سِ: فذا الحِمامُ وذا السِّياقُ![1]
لـو لـم يـكُـنْ هـذا كـذا مـا قـيـل: مَـوْتٌ أو فِـرَاقُ!

وقال غريبُ بن سعيد[2] شاعر «اليتيمة»: [من المنسرح]

ألَانَ يـومُ الـفِـراق قَـسْـوَتَـهُ حـتَّـى جَـرى دَمْـعُـه ومـا شَـعَـرا
فـخِـلْـتُ مـا سـالَ مِـن مَـدامِـعِـهِ دُرًّا عـلى وجْـنَـتَـيْـهِ مُـنْـتَـثِـرَا
لم يَبْكِ شَوْقًا، لكِنْ بكى جَزَعًا لِهَـوْلِ يـومِ الـفِـراقِ إذْ حَـضَـرَا
فـي مَـشْـهَـدٍ لـو أطاقَ شـاهِـدُه فـيـه ٱسْـتِـتـارًا لـوجـهـه، سَـتَـرَا
أبَـى أسـاهُ وفـيـضُ أدْمُـعِـهِ إلّا اشْتِهارًا في الحُبِّ، فاشْتَهَرا

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربّه: [من الرمل]

هَـيَّـجَ الـبَـيْـنُ دواعِـي سَـقَـمِـي وكَـسَـا جِـسْـمِـيَ ثـوبَ الألَـمِ!
أيُّـهـا الـبَـيْـنُ، أقِـلْـنـي مَـرَّةً فـإذا عُـدْت، فـقـد حَـلَّ دَمِـي[3]
يا خَلِيَّ الرُّوعِ، نَمْ في غِبْطَةٍ! إنَّ مَـنْ فـارَقْـتَـه لـم يَـنَـمِ[4]
ولـقـدْ هـاجَ لِقَـلْـبِـي سَـقَـمًـا ذِكْـرُ مَنْ لـو شاء، داوى سَقَمِي

وقال آخر: [من المتقارب]

بَـكَـتْ وبـكَـيْـتُ لـوَشْـكِ الـفِـراقْ فـقِـفْ، تَرَ مِنْ مَدْمَعَيْنا العَجَبْ!
فـذا فِـضَّـةٌ فـي عَـقـيـقٍ جـرَى وهـذا عـقـيـقٌ جرى فـي ذَهَـبْ!

---

(١) الحمام: الموت، والسّياق: أي الذي يسوق الإنسان إلى حتفه.
(٢) هو غريب بن سعيد شاعر ذكره صاحب اليتيمة وأورد له بضع مقطوعات غزلية رقيقة. «انظر اليتيمة ٢/٥٩ ـ ٦٠».
(٣) أقال عثرته: صفح عنه، والبَيْنُ: الفراق.
(٤) الخليّ: الخالي من هموم العشق، والرُّوع: الذّهن والقلب والبال.

وقال آخر: [من المنسرح]

قـلتُ لـه والـرَّقِـيـبُ يُـزْعِـجُـهُ مُـسْـتَـعْـجِـلًا لـلفِـراق: أيْـنَ أنـا؟
فـمَـدّ كَـفًّـا إلـى تـرائـبِـه وقـال: كُـنْ آمـنًـا، فـأنْـتَ هُـنـا![١]

وقال آخر: [من الكامل الأحذّ]

قـد قـلـتُ إذ سـارَ الـسَّـفِـيـنُ بـه والـشَّـوْقُ يَـنْـهَـبُ مُـهْـجَـتِـي نَـهْـبَـا
لـو كـانَ لـي مُـلْـكٌ أصُـولُ بـه لأخَـذْتُ كُـلَّ سَـفـيـنَـةٍ غَـصْـبَـا[٢]

وقال كُشاجم: [من مجزوء الكامل]

مُـزِجَـتْ دُمـوعُ الـعـيـن مِـنـ ـي يـومَ بـانُـوا بـالـدِّمَـا[٣]
فـكـأنّـمـا مَـزَجَـتْ بـخـدٍّ ي مُـقْـلَـتِـي خَـمْـرًا بـمـا!

وقال آخر: [من المنسرح]

لـم أنْـسَ يـومَ الـفِـراقِ مَـوْقِـفَـهـا وطَـرْفُـهـا فـي دُمُـوعِـهَـا غَـرِق
وقـولَـهَـا، والـرِّكـابُ سـائـرةٌ تَـتْـرُكُـنـا هـكـذا، وتَـنْـطَـلِـقُ؟

ومنه ما قيل في مفارقة الأصحاب: [من الكامل]

لَـمَّـا رأيتُ مُصاحِبي ومُعَاشِرِي لَـجـديـد وُدِّي بـالـقـطـيـعـة مَـزَّقـا
فـارقْـتُـه وسـلَـلْـتُ مـن يَـده يَـدي وقـرأتُ لـي ولـه: «وإنْ يَتَفَرَّقا»[٤]

وقال آخر: [من الكامل]

قالوا: قَطعْتَ صدِيقَكَ البَرَّ الَّذِي منه استَفَدْتَ مَكارمَ الأخْلاقِ[٥]
فأجبتُهمْ: بعضُ المَفاصل رُبَّما فسَدَتْ، فتُقْطع في صَلَاح الباقي!

---

(١) الترائب: موضع القلادة من الصدر، يريد: أنت أمانةٌ في عنقي، أتعهّدها وأتفقّدها.
(٢) صال: سطا، وقوله: «لأخذت كلّ سفينة غصبًا» يشير إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: الآية ٧٩].
(٣) بانوا: فارقوا وابتعدوا.
(٤) وإن يتفرّقا: يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٣٠].
(٥) البرّ: الصالح والكريم، وقطع الصديق: تركه وهجر مودته.

وقال آخر: [من الكامل]

ولــقــد شَـكَـرْتُ مُـفـارِقِـي إذْ ســاءَ فــي أخْــلاقِــهِ
لــو كــان أحْـسَـنَ عِـشْـرَتِـي لــهَــلَكْــتُ يــومَ فــراقــه

ومثله قول الآخر: [من الخفيف]

علَّمَتْنِي بهَجْرِها الصَّبْرَ عَنْها فهي مَشْكُورةٌ على التَّقْبِيحِ!
وأرادَتْ بــذا قَـبِـيـحَ فَـعَـالٍ صنَعَتْه، فكان عينَ المَلِيحِ!

ومما قيل في التوديع، قال البحتريّ: [من المتقارب]

أقــولُ لــه عِــنْــدَ تَــوْدِيـعِـهِ وكُـلٌّ بِـعَـبْـرتِـهِ مُـبْـلِسُ[1]
لَئِن قـعَـدَتْ عـنـكَ أجـسـامُـنَـا لـقـد سـافَـرَتْ مـعَـك الأَنْـفُسُ!

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من المنسرح]

يـا راحـلًا، كـلُّ مَـنْ يـودِّعُـهُ مُــوَدِّعٌ دِيــنَــه ودُنْــيــاه
إنْ كـان فـيـمـا نـراهُ مِـنْ كَـرَمٍ فــيــكَ مَــزِيـدٌ، فــزادَكَ اللهُ!

وقال البحتريّ: [من المتقارب]

ألــم تَــرَنِــي يــومَ فــارقْــتُــهُ أوَدِّعُــه، والــهــوى يَـسْـتَـزِيـدْ
أُوَلِّي إذا أنــا ودَّعْــتُــهُ فـيـغْـلِبُـنـي الـشـوقُ حـتَّـى أَعُـودْ

وقال أبو تمّام: [من مجزوء الكامل]

نَــأْيٌ وَشِــيــكٌ وانْــطِــلاقُ وغَـلِـيـلُ شَـوْقٍ واحْـتِـرَاقُ[2]
بــأبِــي فَــتًــى وَدَّعْــتُــه تـاهَـتْ بصُحْبتـه الـرِّفـاقُ!
بـدرٌ يُـضِـيءُ لـعـاشِـقـيـ ـه فما يُطِيفُ به المِحَاقُ![3]

---

(١) المبلس: المتحيّر.
(٢) النأي: الفراق والبعد، والوشيك: القريب.
(٣) يُطيف: يحيط، وطاف به: أتاه، والمحاق: ما يرى في القمر من نقصٍ بعد اكتمال، والمحاق: ليالٍ ثلاث من آخر الشهر القمري.

وقال ابن زيدون[١]: [من الرّمل]

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ ودَّعَكْ ... حافظٌ من سِرِّه ما اسْتَوْدَعَكْ!
يَقْرَعُ السِّنَّ على أنْ لم يَكُنْ ... زاد في تِلْكَ الخُطَا، إذ شَيَّعَكْ![٢]
يا أخا البَدْرِ سَنَاءً وسَنًا ... حَفِظَ اللهُ زمانًا أطْلَعَكْ!
إنْ يَطُلْ بَعْدَكَ ليلي، فلَكَمْ ... بِتُّ أشْكُو قِصَرَ الليل مَعَكْ!

وقال أبو عبد الرحمٰن[٣] شاعر «اليتيمة»: [من مخلّع البسيط]

إذا دَهَاكَ الوداعُ فاصبر ... ولا يَهُولَنَّك البعادُ!
وانتظر العود عن قريب ... فإنَّ قلبَ الوَداع عادُوا[٤]

وقال آخر: [من المنسرح]

وَدَّعتُه حيثُ لا تُودِّعُهُ ... رُوحي، ولكِنَّها تسير معَهْ
ثم تَوَلَّى وفي القُلوب له ... ضيقُ مجالٍ وفي الدموع سَعَهْ

وقال الإمام الصولي[٥]: [من المنسرح]

لو كُنْتَ يوم الوَدَاعِ حاضِرَنَا ... وهُنَّ يَشْكُونَ عِلَّةَ الوجدِ
لم تَرَ إلا الدُّمُوعَ جاريةً ... تَسْقُطُ من مُقْلةٍ على خَدِّ
كأنَّ تِلْكَ الدُّموعَ قَطْرُ نَدًى ... يَقْطُر من نَرْجِسٍ على وَرْدِ!

---

(١) ابن زيدون: هو أحمد بن عبد الله المخزومي الأندلسي، أبو الوليد، شاعرٌ كاتب وزير، من أهل قرطبة، وعاشق ولّادة بنت المستكفي، له ديوان شعر مطبوع، توفي بأشبيلية سنة ١٠٧١ م. «فهرس الأعلام ١/ ١٥٨».
(٢) يقرع السنّ: يصكُّها ندمًا، وشيَّعه: تبعه وودّعه.
(٣) هو أبو عبد الرحمٰن بن عبد العزيز النيلي، من الأعيان الأفراد في الفقه، أديب شاعر آخذٌ بأطراف الفضائل، يعدّ من حسنات نيسابور ومفاخرها. «اليتيمة ٤/ ٤٩٤».
(٤) العود: الرّجوع، وقَلْب: عكس الحروف.
(٥) الصّولي: هو إبراهيم بن العباس بن محمّد بن صول، أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، قرّبه الخلفاء، قال المسعودي: لا يعلم فيمن تقدّم وتأخّر من الكتّاب أشعر منه، له ديوان شعر، توفي سنة ٨٥٧ م. «فهرس الأعلام ١/ ٤٥».

وقال أبو منصور أحمد بن محمد اللّخمي[١]: [من البسيط]

وَقَفْتُ يومَ النَّوى منهم على بَعَدٍ ... ولـم أُودِّعْـهـمْ وَجْـدًا وإشْـفـاقَـا
إنِّي خَشِيتُ على الأظعان من نَفَسِي ... ومن دُموعِيَ: إحراقًا وإغْراقا[٢]

وقال ابن نُباتة[٣]: [من الطويل]

ولَمَّا استقَلَّتْ للرَّواحِ حُمُولهُمْ ... ولـم يَبْـقَ إلا شامِتٌ وغَيُـورُ[٤]
وقَفْنا: فمِن باكٍ يُكَفْكفُ دَمْعَه ... ومُـلْتَـزِمٍ قـلبًـا يَـكـادُ يَـطِـيـرُ![٥]

وقال آخر: [من الطويل]

ولَمَّـا وَقَـفْـنـا لِـلوَدَاعِ، وقَـلْبُـهـا ... وقَلْبِي يَبُثَّان الصَّبابَةَ والوَجْدا
بَكتْ لُؤلؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مَدَامِعِي ... عَقيقًا فصارَ الكُلُّ في نَحْرها عِقْدا

وقال آخر: [من البسيط]

وَدَّعتُها ولَهِيبُ الشَّوقِ في كَبِدِي ... والبَيْنُ يُبْعِدُ بَيْنَ الرُّوح والجَسَد
وَدَاعَ صَبَّيْنِ لـم يمْكنْ وَدَاعُهـما ... إلا بـلَحْـظـةِ عَـيْـنٍ أو بَـنـانِ يَـدِ
وحاذَرتْ أعيُنَ الواشينَ فانصرفَتْ ... تَعَضُّ من خَوْفِها العُنَّابَ بالبَرَدِ[٦]
وكـان أوّلُ عَـهْـدِ الـعَـيْـنِ يوم نَـأَتْ ... بالدَّمْعِ آخِرَ عَهْدِ القَلْبِ بالجَلَدِ

وقال الهيثم الكلاعيّ[٧]، من شعراء «اليتيمة»: [من الطويل]

ولـم أنْسَـهـا يـومَ الـوَدَاعِ، ومَـسْـحَـهـا ... بـوادِرَ دَمْـعِ الـعَـيْـنِ، والـعَـيْـنُ تَـذْرِفُ

---

(١) هو أبو منصور أحمد بن محمد بن زياد اللخمي، الملقّب بالقاضي الحبيب، من قضاة قرطبة، كان من أكمل الناس وآدبهم، نشأ أثيرًا عند الخلفاء، توفي سنة ٩٢٤ م. «فهرس الأعلام ١/ ٢٠٦».
(٢) الأظعان: المرتحلين، والظّعن: المرأة الظاعنة في الهودج.
(٣) ابن نباتة: هو عبد العزيز بن محمد بن نباتة السّعدي، أبو نصر، من فحول شعراء العصر وآحادهم وصدور مجيديهم، وأفرادهم الذين أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رقّ المعاني، شعره كقطع الرّوض غبّ القطر. «انظر ترجمته في اليتيمة ٢/٤٤٧ وما بعدها»...
(٤) استقلّت للرّواح: تهيّأت وارتحلت، والحمول: النّوق وما عليها.
(٥) طار القلب: خفق واضطرب وكاد يخرج من بين الجوانح فرقًا وحزنًا.
(٦) العنّاب: شجرٌ ثمرُهُ معروف يكنّى به عن «الشّفاه»، والبرد: الأسنان.
(٧) الهيثم الكلاعي: هو إدريس بن الهيثم بن براق الكلاعي، ذكره صاحب اليتيمة وأورد له بضع مقطوعات غزلية رقيقة. «انظر اليتيمة ٢/ ٦٠».

أفـانِـيـنُ تَـجْـرِي مـن دُمـوعٍ ومـن دَمٍ　　على الـخدِّ منها تَسْتَهِلُّ وتَرْعُفُ[١]
وتـكـرارَنَـا نَـجْـوَى الـهـوى ذاتَ بَـيْـنِـنـا　　وكـلٌّ إلـى كـلٍّ يـلـيـنُ ويَـعْـطِـفُ
جـعَـلْـنـا هُـنـاكَ الـهَـجْـرَ مِـنَّـا بـجـانِـبٍ　　ولـلـبَـيْـنِ داعٍ بـالـتَّـرحُّـلِ يَـهْـتِـفُ
ولولا النوى، لـم نَشْكُ ضَعْفًا عن الأَسى!　　ومَنْ يَحْمِلُ الأشْجَانَ بالبَيْنِ يَضْعُفُ!
فـقـلـتُ: كِـلَانَـا مُـثْـقَـلٌ مـن صَـبَـابَـةٍ　　ولكنَّني عن حَمْلِهَا مِنْكِ أضْعَفُ[٢]

وقال الظاهر البصريّ[٣]: [من البسيط]

نَفْسِي الفِداءُ لمن جاءَتْ تُودِّعُني　　يومَ الفِراقِ بقَلْبٍ خائِفٍ وجِلِ!
قد كنتُ فارقتُ رُوحِي يوم فُرْقَتِها　　لكن حَيِيتُ بطيبِ الضَّمِّ والقُبَلِ!

وقال يزيد بن معاوية: [من البسيط]

جاءَتْ بـوَجْهٍ كأنَّ البدْرَ بَرْقَعَهُ　　حُسْنًا على مِثْلِ غُصْنِ البانةِ الثَّمِلِ
إحْدَى يَدَيْهَا تُعاطِينِي مُعَتَّقَة　　كخدّها عَصْفَرَتْه خُمرةُ الخَجَلِ[٤]
ثُمَّ استبدّتْ وقالت وَهْيَ عالِمةٌ　　بما تقول وشمسُ الكأس لم تَفِلِ[٥]
لا ترحَلَنَّ، فما أبقيْتَ لي جَلَدًا　　مـمّا أُطِيق به تَوْدِيعَ مُرْتَحِلِ!
ولا مِن الصَّبْرِ ما ألقى الفِراقَ بهِ　　ولا من الدَّمْعِ ما أبْكِي على طَلَلِ!

ومن الناس من كره الوداع، وفي ذلك يقول البحتريّ: [من مجزوء الكامل]

اللهُ جـارُكَ فـي انْـطِـلاقِـكْ　　تِـلقـاءَ شـامِـكَ أو عِـراقِـكْ!
لا تـعْـذُلَنِّـي فـي مَـسِـيــ　　ـري يومَ سرت ولـم أُلاقِكْ!
إنِّـي خَـشِـيـتُ مَـواقِـفًـا　　للبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ ماقِكْ![٦]
وعَـلِـمْـتُ أنَّ بُـكـاءَنَـا　　حسبُ اشتياقي واشتِيَاقِكْ!

---

(١) الأفانين: مفردها «أفنون» وهو الغصن الملتفّ، ومن الكلام: الأسلوب والطريقة، والأفانين هنا: أنواعٌ من الدمع والدّم.
(٢) في اليتيمة ٢/٦٠: «فقلت: كلانا مشتكٍ».
(٣) الظاهر البصري: هو أبو الحسين الظاهر البصري، من شعراء البصرة، ذكره صاحب اليتيمة، وأورد له بضع مقطوعات غزلية رقيقة. «انظر اليتيمة ٢/٤٣٢».
(٤) المعتّقة: الخمرة، وعصفرته: صبغته بالعصفر، وهو نبات يستخرجُ منه صبغٌ أحمر.
(٥) استبدّت: انفردت بالرأي، ولم تفل: لم تغب، من «أفل».
(٦) تسفح: تسيل وتسكب، والغَرْب: الدّمع، والماق: مجرى الدمع من العين.

وذكَـرْتُ مـا يَـجِـدُ الـمـو دِّعُ عـنـد ضَـمِّكَ واعْـتِـنـاقِـكْ
فـتَـركْـتُ ذاكَ تـعـمُّـدًا وخـرجـتُ أهْـرُبُ مـن فـراقِـكْ

وقال آخر: [من الكامل]

الله يـعْـلَـمُ مـا تَـرَكْـت وَداعَـهُ ولـقـد جَـزِعْـت لـبُـعْـدِه وفِـراقِـهِ
إلا مـخـافـةَ أنْ يُـذيـبَ فُـؤادَهُ ما في فُؤادِي منه عِنْد عِنَاقِه!

وقال آخر: [من الخفيف]

إنّ تَـرْكِـي فَـضِـيـلَةَ الـتَّـشْـيِـيـعِ لاجْـتِـنَـابِـي مَـشَـقَّـةَ الـتَّـودِيـعِ
مـا يَـفِـي أُنْـسُ ذا بـوَحْـشـة هـذا فـرأيـتُ الـصَّـوابَ تَـرْكَ الـجـمـيـعِ!

وقال آخر: [من الخفيف]

مـا تـركْـتُ الـوَداعَ يـوم افـتـرقْـنـا عـن مَـلَالٍ ولا لـوجـهٍ قَـبِـيـحِ
أنتَ رُوحِي على الحقيقة ما زلْـ ـتُ، وما اخْتَرْتُ أن أُودِّعَ رُوحي!

* * *

ومما قيل في الصدّ والهِجْران، قال أبو عُبادة البحتريّ: [من الكامل الأحذّ]

هَجَرَ الحبيبُ، فمتُّ من شَغَفِ لَـمَّـا حُـرِمْـتُ عَـزِيـمـةَ الـصَّـبْـرِ!
فـإذا قَـضَـيْـتُ، فـنـادِ: يـا حَـزَنِـي هـذا قَـتِـيـلُ الـصَّـدّ والـهَـجْـرِ![1]
والـبـدرُ فـي حـلٍّ وفـي سَـعَـةٍ مـن سَـفْـكـه دمَ عَـبْـدِهِ الـحُـرِّ!

وقال ابن مَيَّادة[2]: [من المنسرح]

كـانُـوا بَـعِـيـدًا، فـكـنـتُ آمُـلُـهُـمْ حـتَّـى إذا مـا تَـقَـارَبُـوا، هَـجَـرُوا
فـالـبُـعْـدُ مـنـهـم عـلـى رجـائـهِـمْ أنْـفَـعُ مـن قـربـهـم إذا هَـجَـرُوا!

وقال أبو الحسن أحمد بن عمر النَّهروانيّ: [من مجزوء الوافر]

عـلى قَـلْـبِـي الأَحِـبَّـةُ بـالـتَّـمـ ـادِي فـي الـهـوى غَـلَـبُـوا[3]

---

(١) الصدّ: الإعراض.
(٢) ابن ميّادة: هو الرّمّاح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني المضري، أبو شرحبيل، ويقال: أبو حرملة، شاعرٌ رقيق، هجّاء، من مخضرمي الدولة الأمويّة العباسية، اشتهر بنسبته إلى أمّه ميّادة، وأخباره كثيرة، توفي سنة ٧٦٦ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣١».
(٣) التّمادي: الهجران، أو بالمداومة على الهجران.

وبـالـهـجْـرانِ مـن عـيـنـ ـيَّ طِـيـبَ الـنـومِ قـد سَـلَبُـوا
ومـا طَـلَبُـوا سِـوى قـتـلي فـهـانَ عَـلَـيَّ مـا طَـلَبُـوا!

ولما سمع الشيخ العالم صدر الدين محمد بن الوكيل[١] هذه الأبيات، عارضها، وأنشدني لنفسه في صَفَر الأغرّ الميمون سنة ثلاث عشرة وسبعمائة: [من مجزوء الوافر]

لَئِنْ غَـلَبُـوا عـلى عَـقْـلِي لـقـد سَـلَبُـوا لـمَـنْ غَـلَبُـوا!
وإنْ أبْـكَـى تَـبَـسُّـمَـهُـمْ فـخُـلَّبَ بَـرْقِـهـم خَـلَبُـوا![٢]
وإن تَـرْجُ الـعـيـونُ، فَـقَـدْ إلـيـهـا الـسُّـهْـدَ قـد جَـلَبُـوا!
وإنْ عَـطَـفُـوا بـرِقَّـتِـهـم فـدَرَّ مَـدامـعـي حَـلَبُـوا

* * *

ومما قيل في الزيارة، قال الوزير أبو عبد الله بن الحدّاد[٣]: [من المتقارب]

إذا جـاءنـي زائِرًا حُـسْـنُـه أقـامَ عـلـيـه رَقِـيـبًـا عَـتِـيـدَا[٤]
إذا مـا بَـدَا، سَـرْبَـلَـتْـهُ الـعُـيـون وخَـرَّتْ وُجُـوهٌ إلـيـه سُـجُـودَا
هـو الـبَـدْرُ والـغُـصْـن: خَـدًّا وقَـدًّا كـمـا أنـهُ الـظَّـبْـيُ: لَـحْـظًـا وَجِـيـدَا
أتـى زائـرًا وفُـؤادِي خَـلِـيّ فـمـرَّ بـه مُـسْـتـهـامًـا عَـمِـيـدَا[٥]
وغـادَرَنـي بـعْـدَهُ فـي غَـرَامِ تـضَـرَّم بـيـن ضُـلُوعـي وَقُـودَا!

وقال نصير الخُبْزَأرُزِّي، شاعر «اليتيمة» عفا الله عنه: [من الطويل]

خَلِيلَيَّ! هَلْ أبْصَرْتُمَا أوْ سَمِعْتُما بأكْرَم من مَولًى تَمَشَّى إلي عَبْد!
أتى زائِرًا من غَيْرِ وَعْدٍ وقال لي: أصُونُك عن تعليق قَلْبِك بالوَعْدِ!

---

(١) ابن الوكيل: هو محمد بن عمر بن مكي، أبو عبد الله، صدر الدين «ابن المرحّل» شاعرٌ من العلماء بالفقه، ولد بدمياط ونشأ في دمشق وتوفي بالقاهرة سنة ١٣١٧ م، كانت له ذاكرة عجيبة، حفظ المقامات الحريرية في خمسين يومًا، وديوان المتنبّي في أسبوع. «فهرس الأعلام ٦/ ٣١٤».

(٢) الخلّب: السّحاب يومض برقه حتى يرجى مطره، ثم يخلف وينقشع، وخلبوا: خدعوا.

(٣) ابن الحدّاد: هو محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، أبو عبد الله، شاعرٌ أندلسي، له ديوان شعر كبير مرتّب على حروف المعجم، اختصّ بالمعتصم بن معن بن صمادح، فأكثر من مدحه، توفي بالمرية سنة ١٠٨٧ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٣١٥».

(٤) العتيد: المهيّأ والحاضر. (٥) العميد: الشديد الحزن.

وقال الوأواء الدمشقيّ(١): [من مخلّع البسيط]

زارَ بــلـيـلٍ عــلـى صـبَــاحٍ   عـلى قَـضِـيـبٍ عـلى كَـثيـبِ!
حـتَّـى أتـت ألْسُـنُ الـلـيـالِي   مُـعْـتَـذِراتٍ مـن الـذُّنُـوبِ
فـيــا لَهَــا زَوْرةً أخَــذْنــا   بـهـا أمـانًـا مـن الـخُـطُـوبِ!

وقال أبو عبد الله الحدّاد: [من الكامل]

يـا زائـرًا، مَـلأَ الـنَّـواظِـرَ نُـورا   والـنَّـفْـسَ لَهْـوًا والـفُـؤادَ سُـرورا!
لو أسْتَطِيعُ، فرشْتُ كلَّ مَسَالِكي   حَـدَقًـا وبِـيـضَ سَـوَالِفٍ ونُـحُـورَا

وقال آخر: [من المنسرح]

أهْـلًا وسَـهْـلًا بـطـارِقٍ طَـرَقَـا   أحْـبَـبْـتُ فـيـه الـسُّـهاد والأرَقَـا!(٢)
زارَ عـلى غَـفْـلةِ الـرَّقِـيـبِ ويُـمْـنـ   ـاهُ تُـداري وِشـاحَـه الـقَـلِـقَـا(٣)
فـبِـتُّ مـنـه مُـعـانِـقًـا صَـنَـمـا   يَـنْـفَـحُ مِـسْـكًـا وعَـنْـبَـرًا عَـبِـقَـا(٤)
لـو شِـئْـتُ، أنـشـأْتُ مـن ذَوَائِـبِـه   لَـيْـلًا، ومـن نُـور وَجْـهِـه فَـلَـقَـا!(٥)

وقال أبو عبد الله الحامديّ(٦)، من شعراء «اليتيمة»: [من البسيط]

مُشتاقةٌ طَرَقَتْ في الليل مُشْتاقَا!   أهلًا بمَنْ لم يَخُنْ في العَهْدِ مِيثَاقَا!
أهْلًا بمن ساقَ لي طَيْفَ الأحِبَّةِ في   لَيْلِ الدُّجُنَّةِ، بل أهْلًا بما ساقَا!(٧)
يا زائرًا زارَ من قُرْبٍ على بَعَدٍ   آنسْتَ مستوحِشًا! لا ذُقْتَ ما ذَاقَا!

---

(١) الوأواء الدمشقي: هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسّاني الدمشقي، الملقّب بالوأواء من حسنات الشام، وصاغة الكلام، كان مناديًا في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه. «انظر اليتيمة ١/ ٣٣٤ وما بعدها».

(٢) الطّارق: الزّائر ليلًا. (٣) القلق: المتحرّك.

(٤) الصنم: التمثال الذي يعبد، وينفح: يعبق ويفوح، والعبق: المنتشر الرائحة.

(٥) الذوائب: مفردها ذؤابة، وهي خصلة الشعر في مقدّم الوجه.

(٦) أبو عبد الله الحامدي: شاعر نسبته إلى حامدة من أعمال واسط، ذكره صاحب اليتيمة وأورد له بعضًا من مقطوعاته الغزلية الرقيقة. «انظر اليتيمة ٢/ ٤٣٧».

(٧) في اليتيمة ٢/ ٤٣٨:

أهلًا بمن ساق لي طيف الأحبّة من   أرض الأحبّة ....

اللهُ يَعْلَمُ لو أني اْستَطَعْتُ، لقد فرَشْتُ مَمْشاكَ آماقًا وأحْداقًا![١]
يا لَيْلُ، عَرِّجْ على إلفَيْنِ قد جَعَلَا عَقْد السواعِدِ للأعناق أطْواقًا![٢]

وقال مؤيّد الدين الطغرائيّ: [من الطويل]

وزائـرةٍ وافَـتْ، فـأجـلـلْتُ خَـدُّهـا وقـبَّـلْتُ إكـرامًـا لـمَـوْرِدِهَـا الأرْضَـا!
فـيـا زَورةً جـاءتْ عـلى غَـيْـرِ مَـوْعِـدٍ فـقَـرَّتْ عُـيونٌ واشتَـفَـتْ أنْـفُسٌ مَرْضى!
فـلَمْ أرَ إلّا مـا أَلَذُّ وأشْـتَـهِـي ولـم أرَ إلّا مـا أوَدّ ومـا أرضَـى!
عـلى أنَّـهـا وَلَّتْ ولـم أقْـضِ سُـنَّـةً - من الوَطَر الممطُول دَهْرًا - ولا فرضَا![٣]
ومـا سـوّغَـتْـنـا لـيـلةَ الـوصـلِ قَـرْضَـهـا إلى أنْ بدَا الإصْباحُ يَسْتَرْجع القَرْضا[٤]

وقال ابن سُكَّرة[٥]، من شعراء «اليتيمة»: [من البسيط]

أهـلًا وسَـهْـلًا بـمَـنْ زارَتْ بـلا عِـدَةٍ تحْتَ الظلام ولم تَحْذَرْ من الحَرَسِ![٦]
تستَّرتْ بالدُّجى عَمْدًا، فما استَتَرَتْ وبـاتَ إشراقُـها لَـيْلًا عـلى قَـبَسِ![٧]
ولـو طَوَاهَـا الـدُّجى عَـنَّـا، لأظْـهـرَهـا برقُ اللِّثاث وعِطْرُ النَّحْر والنَّفَسِ![٨]

* * *

ومما قيل في تخفيف الزيارة وموانعها، قال شاعر الحماسة[٩]: [من الكامل]

ولَمَّـا رأيـتُ الـكـاشِـحِـينَ تَـتَـبَّـعُـوا هَوانَا وأبْدَوْا دُوننا نَظَرا شَزْرا[١٠]
جعَلْت - وما بي من جَفاءٍ ولا قِلَى - أزورُكُم يومًا وأهْجُرُكُمْ شَهْرا![١١]

---

(١) الآماق: مجاري الدمع.
(٢) الإلف: الحبيب والعشير، والطّوق: ما يحيط بالعنق، يريد: الضمّ.
(٣) السّنَّة: الشريعة والطريقة، والوطر: الحاجة والمأرب، والممطول: الذي لم يتحقّق وفاؤه، والفرض: الفريضة الواجبة.
(٤) سوّغتنا: سهّلت لنا، والقرض: ما يقدّم من عمل يستوجب الجزاء.
(٥) ابن سكرة: هو محمد بن عبد الله بن محمد، الهاشمي، أبو الحسن، شاعر متّسع الباع في أنواع الإبداع، فائق في قول الملح والظّرف، أحد الفحول الأفراد، وكان يقال في بغداد: إنّ زمانًا جاد بابن سكرة وابن الحجّاج لسخيٌّ جدًا. «انظر يتيمة الدّهر ٣/٣ وما بعدها».
(٦) بلا عدة: بلا ميعاد.
(٧) القبس: الشعلة من النار.
(٨) اللّثاث: مفردها لثّة، يريد برق الأسنان في اللّثة.
(٩) الحماسة: ديوان لشعراء عدّة اختار قصائده الشاعر المشهور حبيب بن أوس الطائي «أبو تمام» وشرحه التبريزي، ولعلّه يريد بشاعر الحماسة: أبا تمام نفسه.
(١٠) الكاشح: المبغض، ونظرة الشّزر: نظرة الغضب.
(١١) القلى: البغض.

وقال مسلم بن الوليد: [من مجزوء الكامل]

أقْلِلْ زيارَتَك الصَّديـ ـق، يَرَاكَ كالثَّوْبِ استَجَدَّهْ!
إنَّ الصَّدِيقَ يُمِلُّه أنْ لا يَزَالَ يَراكَ عِنْدَهْ
إلَّا الكِرامَ ذَوِي النُّهَى إنَّ الكَرِيمَ يُدِيمُ عَهْدَهْ!

وقال آخر: [من المتقارب]

إذا ما كَثُرْتَ على صاحبٍ وقد كان يُدْنِيك من نَفْسِهِ
فلا بُدّ من مَللٍ واقِعٍ يُغَيِّر ما كان مِنْ أُنْسِه!

وقال آخر: [من البسيط]

لَئِنْ تأخَّرْتُ عن مَفْرُوضِ خِدْمَتِكمْ تَجَشُّمًا، فضَمِيري غير مُتَّهَمِ![1]
سعى وِدَادِي إليكُمْ بالوفاءِ لكم والسَّعْيُ بالقَلْب فوقَ السَّعْيِ بالقَدَمِ!

وقال ابن المعلم: [من الكامل]

لم أَجْوَ بَحْرَ نَداكَ - مع قُرْبي - قِلَى إلا مَخافَةَ مَوْجِهِ المُتراكِب[2]
وعَلِمْتُ أنِّي إن أتَيْتُكَ زائرًا ثَقَّلتُ، والتثقيلُ ليس بواجب[3]

وقال المعوّج: [من البسيط]

ثلاثةٌ مَنَعتها من زيارَتِنا وقد دجى الليلُ خَوْفَ الكاشِحِ الحَنِق[4]
نُورُ الجَبِين، ووَسْواسُ الحُليّ، وما يَمسُّ أردانَها من عَنْبَرٍ عَبِقِ[5]
هَبِ الجَبِينَ بفَضْلِ الثوبِ تَسْتُره والحَلْيَ تَنْزِعه، ما الشأنُ في العَرَق؟

وقال أبو فراس الحمدانيّ: [من الهزج]

لقد نافَسَني الدّهْرُ بتأخيري عن الحَضْرَهْ
فمَا أَلْقَى من العِـ ـلَّةِ ما أَلقى من الحَسْرَهْ!

* * *

(١) تجشّم: تكلّف المشقّة والعناء.
(٢) الندى: الكرم، والمراكب من الموج: المتتابع بعضه بعد بعض لكثرته.
(٣) ثقّلت: أي كنت ثقيلًا مكروهًا ومُملًّا. (٤) الكاشح: المبغض.
(٥) الأردان: مفردها الرّدن، وهو الكمّ.

ومنها التأخر عن عيادة المرضى، قال ابن زُرَيق الكوفيّ[١] الكاتب: [من مجزوء الخفيف]

يـا مَـريـضًـا لِسُـقْـمِـهِ ... مَـرِضَ الـعِـلْـمُ والـوَفـا!
لـم يَـكُـنْ تَـرْكِـيَ الـعـيا ... دةَ هَـجْـرًا ولا جَـفَـا
لـم أُطِـقْ أنْ أراكَ يـا ... أكـرمَ الـنـاس مُـدْنـفـا![٢]
طـالَ خَـوْفِـي عـليـك، والـ ... ـحـمـدُللهِ إذ كَـفـى!

وقال آخر: [من الخفيف]

مـنَـعَـتْـنِـي عـليـكَ رِقَّـةُ قَـلْـبِـي ... من دُخُـولِـي عـليـكَ فـي الـعُـوّادِ
لـو بـأُذْنِـي سـمـعـتُ مـنـكَ أنِـيـنًـا ... لـتَـفَـرّى عـلـى الأنِـيـنِ فُـؤادِي[٣]

وقال آخر: [من المتقارب]

فـواللهِ! لَيْـسَ انْـقِـطـاعـي جَـفًـا ... وفـي كَـبِـدي مـنـك نـارٌ تـشـبّ!
ولـكـنّـنـي قـطُّ لا أشْـتَـهِـي ... أرى مَـنْ أُحـبُّ كـمـا لا أُحـبّ!

* * *

ومما قيل في المدامع، قال العسكري: أبلغُ ما قيل في امتلاء العين من الدمع قولُ بعض الأعراب: [من الطويل]

فَـظَـلْـتُ كـأنّـي مـن وراءِ زُجـاجـةٍ ... إلى الدّار من فَرْط الصَّبابة أنظُرُ[٤]

وقال البحتريّ: [من الوافر]

ويـحـسُـنُ دَلُّهـا والـمـوتُ فـيـه ... وقد يُسْتَحْسَنُ السيفُ الصَّقِيل!
وَقَـفْـنـا والـعُـيـونُ مُـثَـقَّـلاتٌ ... يُـعـالِـجُ دَمْـعَـهـا طَـرْفٌ كَـلِـيـلُ!
نَـهَـتْـهُ رِقْـبَـةُ الـواشـيـنَ حـتّـى ... تـعَلّق: لا يَغيضُ ولا يَسيلُ![٥]

---

(١) هو ابن زريق الكوفيّ الكاتب، أبو محمد، شاعرٌ ذكره صاحب اليتيمة وأورد له بعضًا من مقطوعات شعره الرقيقة «انظر اليتيمة ٢/ ٤٤٢».
(٢) المدنف: الذي اشتدّ مرضه. (٣) تفرّى: تشقّق وتفطّر ألمًا.
(٤) فرط الصّبابة: شدّة الحبّ.
(٥) غاض الماء: غار في جوف الأرض، وسال الماء: جرى.

وقال السريّ[١]: [من الطويل]

بنفسِيَ مَنْ رَدَّ التحيَّةَ ضاحِكًا ... فجدّدَ بعد اليَأسِ في الوَصْل مَطْمَعِي!
إذا ما بَدَا، أبدى الغَرامُ سرائِرِي ... وأظهَرَ للعُذَّال ما بين أضْلُعِي[٢]
وحالَتْ دُموعُ العينِ بَيْنِي وبَيْنَهُ ... كأنَّ دُموعَ العينِ تَعْشَقُه مَعِي

وقال الصوليّ[٣]: [من الكامل]

قد كانَ في طُولِ البُكالِيَ راحةٌ ... وعِنَانُ سِرِّي في يَدِ الكِتْمان[٤]
حتَّى إذا الإعْلانُ نَبَّه واشِيًا ... رَقَأَتْ دُموعي خَشْيةَ الإعْلان![٥]

وقال بشّار: [من البسيط]

ماءُ الصَّبابةِ، نارُ الشَّوْقِ تَحْدِرُه ... فهل سَمِعْتُم بماءٍ فاضَ من نارِ؟

وقال أبو هلال العسكريّ: [من البسيط]

أشْكُو الهوى بدُموعٍ قادها قَلَقُ ... حتَّى عَلِقْنَ بجَفْنٍ ردَّها الفَرَقُ[٦]
ففي الفُؤادِ سَبِيلٌ للأسى جَدَدٌ ... وفي الجُفُونِ مَقِيل للكَرى قَلِقُ[٧]
لَهِيبُ قلبي أفاضَ الدَّمْعَ من بَصَرِي ... والعُودُ يَقْطُر ماءً وهو يَحْتَرِقُ!

وقال الصوليّ: أنشد أبو الحسن بن رجاء المبرّد يومًا بيتَ ذي الرّمّة[٨]: [من الطويل]

«لَعَلَّ انْحدارَ الدمع يُعْقِب راحةً ... من الوَجْدِ أو يَشْفِي شَجِيَّ البَلابِل!»[٩]

وقال: من قال في مثله، فقد ملح.

(١) هو السّريّ الرّفاء «تقدمت ترجمته». (٢) السّرائر: النوايا.
(٣) الصّولي: هو إبراهيم بن العباس، أبو إسحٰق الكاتب «تقدمت ترجمته».
(٤) العنان: الزّمام. (٥) رقأ الدمع: سكّن وقطع جريانه.
(٦) الفرق: الخوف.
(٧) الجدد: الأرض المستوية، والمقيل: مكان القيلولة والرّاحة.
(٨) ذو الرّمة: هو غيلان بن عقبة بن نهيس العدويّ، أبو الحارث، «صاحب ميّ» شاعرٌ من فحول الطبقة الثانية، كان شديد القصر دميمًا، يضرب لونه إلى السواد له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٧٣٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١٢٤».
(٩) البلبال: الهمّ والوسواس.

وقال الحسن بن وهب[١]: [من السريع]

إِبْكِ! فما أَكْثَرَ نَفْعَ البُكا! والحُبُّ إشفاقٌ وتَعْليلُ!
اِفْزَعْ إليه في ٱزْدِحام الجوى ففيه مَسْلاةٌ وتَسْهِيلُ[٢]
وهو إذا أنت تأمَّلْتَهُ حُزْنٌ على الخدَّيْنِ مَحْلُول!

وقال العباس بن أحمد بن الأحنف: [من الكامل]

إنِّي لأَجْحَدُ حُبَّكم وأُسِرُّهُ والدَّمْعُ مُعْتَرِفٌ به لم يَجْحَدِ
والدَّمْعُ يشهدُ أَنَّني لكِ عاشِقٌ والناسُ قد علمُوا وإن لم يَشْهَدِ!

وقال آخر: [من الطويل]

فلا تُنْكِرَنْ لَوْنَ الدّموعِ فإنّما يُبَيِّضُها تصعيدُها من دَمِ القَلْب!

وقال العسكريّ: [من مجزوء الخفيف]

آفَةُ السِّرِّ من دُمُو عِ دَوامٍ دوامِعِ!
كيفَ يخفى مع الدُّمُو عِ الهوامِي الهوامِعِ؟[٣]
ما رأينا أخا هَوًى سِرُّه غَيْرُ ذائِعِ!
إنّ نِيرانَ حُبِّه باديَاتُ الطلائِعِ!

وقال خالد الكاتب[٤]: [من الطويل]

بكَيْتُ دمًا حتّى بَقِيتُ بلا دَمٍ بُكَاءَ فَتًى فردٍ على شَجَنٍ فَرْدِ![٥]
أَأَبْكِي الذي فارقْتُ بالدَّمْعِ وحدَه؟ لقد جَلَّ قدرُ الدمعِ فيه إذًا عِنْدِي!

(١) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي، أبو علي، كاتب من الشعراء، كان معاصرًا لأبي تمّام، استكتبه الخلفاء ومدحه أبو تمام ورثاه البحتري لمّا مات نحو سنة ٨٦٥ م. «فهرس الأعلام ٢/٢٢٦».

(٢) افزعْ إليه: لُذْ به واستعِنْ.

(٣) الهوامي: الهاطلة، والهوامع: البواكي.

(٤) خالد الكاتب: هو خالد بن يزيد البغدادي، أبو الهيثم المعروف بالكاتب شاعر غزل، من الكتّاب، توفي في بغداد سنة ٨٧٦ م. «فهرس الأعلام ٢/٣٠١».

(٥) الشجن: الحزن والهمّ.

وقال آخر: [من الوافر]

غـدَتْ بـأحِبَّـتِي كُـومُ الـمَـطَـايَـا ... فـبـانَ الـنـومُ وامـتـنَـعَ الـقَـرارُ(١)

وكـان الـدَّمْـعُ لـي ذُخْـرًا مُـعَـدًّا ... فـأنـفـقْـتُ الـذَّخِـيـرةَ يـومَ سـاروا!

وقال آخر: [من الخفيف]

طـالَ عَـهْـدِي بـهـا فـلمَّـا رأتْـنِـي ... نَـظَـمَـتْ لُؤلـؤًا عـلى تُـفَّـاحِ!

وقال آخر: [من البسيط]

إذ لا جَـوابَ لـمُـفْـحَـم مُـتَـحَـيِّـرِ ... إلّا الـدمـوعُ تُـصـانُ بـالأَطْـرافِ(٢)

وقال آخر: [من الطويل]

تـقـول غَـداةَ الـبَـيْـنِ عِـنْـد وَدَاعـهـا ... إلى الكَبِد الحَرّى: فَسِرْ، ولك الصَّبْر!

وقـد سبـقَـتْـهـا عَـبْـرةٌ: فـدمُـوعُـهـا ... على خدّها بِيضٌ، وفي نحرها حُمْرُ!

معناه: أن الدّموع إذا انحدرت إلى نحرها أحمرَّت من الطِّيب.

قالوا: وأحسن ما قيل في صفة الدُّموع إذا امتزجت بالدماء، قول أبي الشِّيص(٣): [من الطويل]

لَهَوْنَ عن الإخوانِ إذْ سَفَرَ الضُّحَى ... وفـي كَـبِـدِي مـن حَـرِّهـنّ حَـرِيـقُ

مزجْتُ دَمًا بالدَّمْع حتّى كأنّما ... يُـذابُ بِـعَـيْـنِـي لـؤلـؤٌ وعَـقِـيـقُ

وقول أبي تمّام: [من الكامل]

نَـثَـرتْ فَـرِيـدَ مَـدامِـعٍ لـم تُـنْـظَـمِ ... والدمعُ يَحْمِلُ بعضَ ثِقْل المُغْرَمِ!(٤)

وصَلَتْ نَجِيعًا بالدُّموع، فخدّها ... في مثل حاشِيَةِ الرِّداءِ المعلم!(٥)

---

(١) الكوم: مفردها الكوماء، من النوق: ما عظم سنامها.

(٢) المفحم: العيي عن الكلام، والأطراف: الأيدي.

(٣) أبو الشّيص: هو محمد بن عبد الله بن رزين، ابن عمّ دِعبل بن علي بن رزين الشّاعر، كان في عصر الرّشيد، وقد ذكره صاحب الشعر والشعراء، وأورد بعض قصائدة الجيّدة. «انظر الشعر والشعراء ص ٥٧١ وما بعدها».

(٤) المغرم: الذي أثقله الدّين، أو العشق. (٥) المعلم: المطرّز.

ومن أجود ما قيل في بياض الدمع على حمرة الخدّ قول الصوليّ: [من المنسرح]

كأنَّ تلكَ الدُّموعَ قَطْرُ نَدًى ... يَقْطُر من نَرْجِس على وَرْد!

وهي أبيات تقدّمت في التوديع.

ونحوه قول ابن الروميّ: [من الرّجز]

لَمَّا دَنَا البينُ وزاح الدَّلُّ ... ودعتُها ودمعُها منهَلُّ

وخدُّها من قَطْره مخضَلُّ ... كأنه وَرْدٌ عليه طَلُّ![1]

وقال آخر: [من المتقارب]

كأنَّ الدُّموعَ على خدّها ... بَقِيَّةُ طَلٍّ على جُلَّنارِ[2]

* * *

ومما قيل في الرّضا من المحبوب باليسير، فمن ذلك قول حُمَيْد بن ثَور[3]: [من الطويل]

أُقَلِّب طَرْفِي في السماء لعَلَّه ... يُوافقُ طَرْفِي طَرْفَها حين تَنْظُرُ!

ومثله قول ابن المَعْلُوط[4]: [من الوافر]

أليس اللَّيْلُ يجمع أمَّ عمرٍو ... وإيَّانَا؟ فذاكَ لنا تَداني!

بلى، وأرى السماء كما تَرَاها ... ويَعْلُوها النهارُ كما عَلَانِي!

وقال جميل[5]: [من الطويل]

وإنّي لأَرْضى مِنْكِ، يا بثْن، بالَّذِي ... لو ٱسْتَيْقَنَ الواشِي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ![6]

(١) المخضلُّ: النديّ الطريّ.

(٢) الجلّنار: زهر الرّمان، شبّه به لون خدودها.

(٣) هو حميد بن ثور الهلالي، من بني عامر بن صعصعة، شاعرٌ إسلاميٌّ مجيد، ذكره صاحب الشعر والشعراء، وأورد بعضًا من أبياته وشعره. «الشعر والشعراء ص ٢٤٧».

(٤) ابن المعلوط: لعلّه المعلوط بن بدل السّعدي، شاعرٌ ورد ذكره في ديوان الحماسة. «شرح التبريزي ٢/١٤٧».

(٥) هو جميل بن معمر، الشاعر العذري المشهور، صاحب بثينة «تقدّمت ترجمته».

(٦) في الديوان ص ١١٥، دار صادر:

وإنّي لأرضى من بثينة بالذي ... لوَ أبصره الواشي لقرَّت بلابله

=

بِلَا، وبأنْ لا أستطِيع، وبالمُنى وبالأملِ المكذوب قد خابَ آملُهْ!
وبالنَّظْرة العَجْلى، وبالحول ينقضي أواخِــرهُ لا نــلتَــقــي وأوائِلُهْ!

وقريب منه قول الآخر: [من الطويل]

يَـودُّ بـأنْ يُـمْـسِي سَقِـيمًـا لَعَـلَّهـا إذا سَمِعَتْ منه بشَكْوى تُراسِلُهْ!
ويهتَزُّ للمعروف في طَلَبِ العُلا لتُحْمَدَ يومًا عند سَلْمى شمائِلُهْ!

أخذ العسكريّ المعنى، فقال: [من الطويل]

وقلتُ: عساها إن مَرِضْتُ تَعُودُنِي فأحبَبْتُ لو أنِّي غَدَوْتُ مَرِيضًا!
وزِدتُ ٱتِّساعًا في المَكارِمِ والعُلا ليُصْبِحَ جاهي عندهُنَّ عَرِيضا!

وقال أبو الفضل بن عبد العزيز(١): [من الرجز]

يـا مَـنْ هَـجَـرَتْ فـلا تُـبـالي! هـل تَـرْجِـع دولـةُ الـوِصـالِ؟
هـل أطْـمَـعُ يـا عـذابَ قـلبـي أن يَـنْـعَـمَ فـي هـواكِ بـالـي؟
الـطَّـرْف كـمـا عَـهِـدْتِ بـاكِ والـجـسـمُ كـمـا تَـرَيْـنَ بـالـي!
مـا ضَـرَّكِ أن تُـعَـلِّلِيـنـي في الوَصْل بموعد المُحَال!
أهْـواكِ وأنـت حَـظُّ غـيـري يا قاتِلتي، فما ٱحْتِيالي؟

* * *

ومما قيل في النحول، فمن ذلك قول المتنبّي: [من البسيط]

أبْلى الهَوى أسَفًا يومَ النَّوى بَدَنِي وفَرَّقَ الهَجْرُ بين الجَفْن والوَسَنِ!
رُوحٌ تَـردَّدُ فـي مـثـل الـخِـلَال إذا أطارَت الريحُ عنه الثوبَ لم يَبِنِ(٢)
كفى بجِسْمي نُحُولًا أنّني رجلٌ لولا مُخاطَبتِي إيَّاكَ ـ لم تَرَنِي!

وقال آخر: [من الوافر]

أُسَرّ إذا بَلِيتُ، وذاب جِسْمِي لـعـلَّ الـريـحَ تَـحْـمِـلُني إلـيـهِ!

= وقرّت: هدأت وسكنت، والبلابل: الهموم.

(١) لعلّه عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضٍ فرضيّ من أهل البصرة، له شعر، وله كتبٌ منها: أدب القاضي، والفرائض، توفي سنة ٩٠٥ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٨٧».

(٢) الخلال: عودٌ دقيق يتخلّل به.

وقال ابن المعتزّ: [من مجزوء الرّجز]

مـاذا تَـرى فـي مُـذْنَـفٍ يَـشْـكُـوك طُـولَ سُـقْـمِـهِ؟[١]
أضـنَـيْـتَـه فـمـا يَـطِـيـق ضَـعْـفُـه حـمـلَ اسْـمِـهِ
ولا يَـــراكَ عـــائـــدًا إلّا بِـــعَـــيْـــنِ وَهْـــمِـــهِ![٢]

وقال كُشاجِم: [من الطويل]

وما زالَ يَبْرِي أعظُمَ الجسم حُبُّها ويَنْقُصها حتَّى لطُفْنَ عن النَّقْص[٣]
فقد ذُبْتُ حتَّى صِرْتُ لو أنا زُرْتُها أمِنْتُ عليها أنْ يَرى أهلُها شَخْصِي

ومن أبلغ ما قيل في ذلك، قول ديك الجنّ[٤]: [من الخفيف]

أنْحلَ الوَجْدُ جِسْمَهُ والحَنِينُ وَبَراه الهوى فما يَسْتَبِينُ!
لم يَعِشْ أنّه جَلِيدٌ؛ ولكن دَقَّ جِدًّا، فما تَراه المَنُونُ!

وقال نصير بن أحمد[٥]: [من السريع]

أنْحَلَنِي الحُبُّ فلو زُجَّ بِي في مُقْلةِ النائِمِ، لم يَنْتَبِهْ!
وكان لي فيما مَضى خاتَمٌ واليوم لو شِئْتُ، تَمَنْطَقْتُ بِهِ![٦]

وقال الحسن بن وهب: [من المنسرح]

أبْلَيْتَ جِسْمِي من بَعْدِ جِدَّتِهِ فما تكادُ العيونُ تُبْصِرُهُ
كأنَّه رَسْمُ مَنْزِلٍ خَلَقٍ تَعْرِفُه العينُ، ثُمَّ تُنْكِرُهُ![٧]

* * *

(١) المدنف: المريض الذي اشتدّ مرضه. (٢) العائد: الزّائر.
(٣) يبري: ينحل.
(٤) ديك الجنّ: هو عبد السلام بن رغبان، أبو محمد، من بني تميم الكلبي، شاعرٌ مشهور، أصله من أهل سلميّة، ومولده بمدينة حمص، من شعراء الدولة العباسيّة. «وفيات الأعيان ٣/ ١٨٤».
(٥) لعله: أحمد بن إبراهيم بن نصر، أبو القاسم، شاعرٌ أندلسي، سكن قرطبة، وتوفي بمالقة سنة ١٢٠٥ م. «فهرس الأعلام ١/ ٨٦».
(٦) يريد أنه من النّحول الذي حلّ به أمكنه أن يضع الخاتم في خصره مكان وضعه في إصبعه.
(٧) الخَلَق: الدّارس.

ومما قيل في المحبوب إذا اعتلّ، قال العباس بن الأحنف: [من الرمل]

زعـمُـوا لـي أنَّـهـا صـارَتْ تُـحَـمّ! ابـتـلـى اللهُ بـهـذا مَـنْ زَعَـمْ![١]
اِشْتَكَتْ أكـمـلَ مـا كـانَـتْ، كـمَـا يُـكْـسَـفُ الـبَـدْرُ إذا مـا قِـيـل تَـمّ!

وقال أحمد بن إسحٰق الطالَقانيّ: [من الطويل]

لقد حَلَّتْ الحُمَّى بساحةِ خَدِّهِ فأبدلَتِ التُّفَّاح بالسَّوْسَنِ الغَضِّ![٢]

قال أبو هلال العسكريّ: والأصل في ذلك قول عبد بني الحسحاس[٣]، ونقل في كتابه ديوان المعاني بسند رفعه قال: كتب عبد الله بن عامر إلى عثمانَ بنِ عَفَّان رضي الله عنه: إني اشتريت لك عبدًا حبشيًا شاعرًا. فكتب إليه عثمان: لا حاجة لي فيه، فإن قُصارى الشاعر منهم أن يهجو أعراضهم ويشبّب بكريمتهم. فاشتراه بنو الحَسْحاس، فَرُئِي يومًا وهو ينشد: [من المنسرح]

مـاذا يُـريـدُ الـسَّـقـامُ مـن قَـمَـرٍ كـلُّ جـمـالٍ لـوجـهِـهِ تَـبَـعُ؟
ما يَبْتَغِي - خابَ - من مَحَاسِنِهِ؟ أمـا لَهُ فـي الـقِـبَـاح مُـتَّـسَـعُ؟
غـيَّـر مِـنْ لَوْنِـهِ وصَـفَّـرَ مـا وَرَّدَ مـنـه الـجَـمَـالُ والـبِـدَعُ
لـو كـان يَبْغِي الفِداءَ، قـيـل لـه هـا أنـا دُونَ الـحـبـيـب يـا وَجَعُ!

ثم يقول لنفسه: أحسَنْتَ والله! يريد أحسَنْتَ. وكان العبد كما حَدَسَ[٤] عثمانُ، فما زال يهجو مواليَه ويشبّب بنسائهم، حتّى قتلوه. فضحِكتْ منه امرأة وقد ذهبوا به ليقتُلُوه، فقال: [من الطويل]

فإنْ تَضْحَكِي مِنّي، فيا رُبَّ ليلةٍ جعَلْتكِ فيها كالقَباء المفرَّجِ![٥]

وقال لهم: [من الكامل]

فلقد تحدَّر من جَبِينِ فتاتِكُمْ عَرَقٌ على ظَهْر الفراش وطيبُ!

---

(١) تحمّ: تصاب بالحُمّى.
(٢) السّوسن: نبات من الرّياحين طيّب الرائحة، كثير الأنواع، والغضّ: الطريّ.
(٣) عبدُ بني الحسحاس، واسمُه سحيم، شاعرٌ رقيق الشّعر، كان عبدًا نوبيًا أعجمي الأصل، اشتراه بنو الحسحاس «وهم بطنٌ من بني أسد» ثمّ قتلوه لأنه شبّب نسائهم، وذلك حوالي سنة ٦٦٠ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٧٩».
(٤) حدس: ظنّ وخمّن.
(٥) القباء: ثوبٌ يلبس فوق القميص، والمفرّج: الذي يُرى ما تحته.

وهو الذي مدح نفسه بقوله: [من البسيط]

إن كنتُ عبدًا، فنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا ... أو أسودَ اللَّوْنِ، إني أبيضُ الخُلُقِ!

ولم أورد هذه الواقعة هنا لأنه موضعها من كل وجه، وإنما الشيء بالشيء يذكر.

وقال شاعر: [من السريع]

لو لم تَكُنْ حُمَّاه مشغُوفةً ... تَعْشَقُه طَوْرًا وتَهْواهُ[1]

ما عانَقَتْ إذ أقبلتْ جِسْمَه ... وقَبَّلتْ إذْ فارَقَتْ فاهُ!

وقال آخر: [من المجتثّ]

لو كانَ كُلُّ مَرِيضٍ ... يزدادُ مِثْلَكَ حُسْنَا

لكان كُلُّ صَحيح ... يَودُّ لو كان مُضْنَى![2]

وقال محمد بن العباس الخوارزميّ[3]، من شعراء «اليتيمة»: [من الوافر]

ولِي من أُمِّ مِلْدَمَ كُلَّ يوم ... ضَجِيعٌ لا يلَذُّ له مَنَامُ![4]

مقَبِّلةٌ وليس لها ثَنَايَا ... معانِقةٌ ولَيْس لها الْتِزامُ!

كأنَّ لها ضَرائرَ من غِذَائِي ... فيُغْضِبُها شَرَابِي والطَّعامُ[5]

إذا ما صافَحَتْ صَفَحَاتِ جِسْمِي ... غَدَا أَلِفًا وأَمْسَى وهو لامُ

* * *

ومما يناسب هذا الفصل ما قيل في شرب الدواء، فمن ذلك قول أبي تمام: [من المنسرح]

أعْقبكَ اللهُ صِحَّةَ البَدَنِ ... ما هَتَفَ الهاتِفاتُ في الغُصُنِ

كَيْفَ وجَدْتَ الدَّواءَ؟ أوْجَدَكَ اللهُ شـ ... ـفاءً به مَدى الزَّمَنِ![6]

---

(١) طورًا: مرّةً.

(٢) المضني: الذي اشتدّ مرضه حتى نحل جسمه.

(٣) هو: أبو بكر محمد بن العبّاس الخوارزمي، باقعة الدّهر وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف، وديوان رسائله مخلّد وكذلك ديوان شعره. «انظر اليتيمة ٤/ ٢٢٣ وما بعدها».

(٤) أمّ ملدم: الحمّى.

(٥) الضّرائر: مفردها ضرّة، وهي الزوجة الثانية للرجل.

(٦) أوجدك الله شفاء: أي لقّاك الشفاء به.

وقال ابن حجّاج: [من مجزوء الخفيف]

يــا مَــنْ بــه تَــتَـبَـاهَــى مَــجَــالِسُ الــخُــلَفَــاءِ!
ومَـــنْ تُــقــصِّــرُ عَــنْــهُ مَــدَائِحُ الــشُّــعَــراءِ
يـا سيِّدي كَـيْـفَ أصْبَحْـ ـتَ بَـعْـدَ شُـرْبِ الـدَّواءِ؟
خـرجْـتَ مـنـه تُـضـاهِـي فـي الـحُسْنِ بَدْرَ السَّماءِ!
فــي ثــوبِ صِحَّـةِ جِسْـمٍ مُـطَـرَّزٍ بـالـشِّـفـاءِ

* * *

ومما قيل على لسان الورقاء(١) ـ وكلُّ مطوّقةٍ عند العرب حمامةٌ: كالدُّبْسِيّ(٢)، والقُمْرِيّ(٣)، والوَرَشانِ(٤) وما أشبه ذلك. وجمعها حَمَامٌ. يقال للذكر والأنثى منه حمامة.

والحمامة تَبْكِي، وتُغَنِّي، وتَنُوح، وتُغَرِّد، وتَسْجَع، وتُقَرْقِر، وتَتَرَنَّم.

وإنما لها صوت سجيع لا يُفْهم: فجعله الحزينُ بكاءً، والطَّرِبُ غِناءً.

قال حميد بن ثور: [من الطويل]

مطوّقةٌ خَطْباءُ تَسْجَع كُلَّما دنَا الصَّيفُ وانْزاحَ الربيعُ فأنْجَمَا(٥)
تغنَّتْ على غُصْنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ لنائحةٍ في نَوْحِهَا مُتَلَوَّمَا(٦)
فلو أرَ مِثْلِي شاقَهُ صوتُ مِثْلِها ولا عَرَبِيًّا شاقَهُ صوتُ أَعْجَمَا!(٧)

وقال مجنون بني عامر: [من الطويل]

أَلَا يا حماماتِ اللِّوى عُدْنَ عُدْوَةً فإنِّي إلى أصواتِكُنَّ حَزِينُ!(٨)

---

(١) الورقاء: الحمامة التي يميل لونها إلى الخضرة.
(٢) الدُّبسي: ضربٌ من الحمام جاء على لفظ المنسوب وليس بمنسوب، وهو منسوب إلى طبردُبْس، ويقال: إلى دبس الرُّطب، وقيل: هو طائر صغير، قيل هو ذكر الحمام. «اللسان مادة دبس».
(٣) القمريّ: نوعٌ من الحمام حسن الصوت، أنثاه قُمْريّة.
(٤) الورشان: طائر يشبه الحمام يميل لونه إلى السّواد والغبرة، فيه بياضٌ فوق ذنبه.
(٥) المطوّقة: الحمامة ذات الطوق. (٦) ناحت: سجعت، والمتلوّم: من اللّوم.
(٧) شاقه: أهاجه الشّوق، والأعجم: غير العربي، أو الذي في لسانه لكنة.
(٨) اللّوى: ما التوى وانعطف وانثنى من الرّمل أو مسترقّه، وقد تكون: مكان معيّن.

فعُدْنَ؛ فلَمَّا عُدْنَ، كِدْنَ يُمِتْنَنِي وكِـدتُ بـأسـرارٍ لـهُـنَّ أُبِـيـنُ!
فلم تَرَ عَيْنِي مثلَهُنَّ حمائمًا بكَيْنَ، ولم تَدْمَعْ لهنّ عُيُونُ!

وقال أبو الأسود الدؤلي[١]: [من البسيط]

وساجِعٍ في فُروعِ الأَيْكِ هَيَّجَنِي! لَمْ أدْرِ لِمَ ناحَ مِمَّا بِي ولِمْ سَجَعَا؟[٢]
أباكـيًـا إلْفَـه مـن بـعـدِ فُـرْقَـتِـهِ أمْ جازِعًا للنَّوى من قَبْلِ أنْ يَقَعَا؟
يَدْعُو حمامَتَهُ، والطَّيْرُ هاجِعَةٌ فما هَجَعْتُ له لَيْلِي وما هَجَعَا![٣]
شَكَا النَّوى فبَكَى خَوْفَ الأسَى فرمى بَيْنَ الجَوانِح من أوجاعِهِ وَجَعَا![٤]
كـأنَّـه راهـبٌ فـي رَأْسِ صَـوْمـعَـةٍ يتلُو الزَّبُورَ، ونجمُ الصُّبْح قد طَلَعَا![٥]

وقال جَحْدَر العُكْليّ[٦]: [من الوافر]

وقِدْمًا هاجَني فازْددْتُ شَوْقًا بُـكـاءُ حـمـامَـتَـيْـنِ تَـجَـاوَبَـان
تـجـاوَبَـتَـا بـلَـحْـنٍ أعْـجَـمِـيٍّ على عُودَيْنِ من غَرْبٍ وبانِ[٧]
فـكـان الـبـانُ أن بـانَـتْ سُـلَـيْـمَـى وفي الغَرْب ٱغْتِرابٌ غيرُ دانِي!

وقال عوف بن مُحلّم[٨]: [من الطويل]

ألَا يا حَمامَ الأيْكِ إلْفُكَ حاضِرٌ وغُصْنُكَ مَيَّادٌ! فَفِيمَ تَنُوحُ؟[٩]

---

(١) أبو الأسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الكناني، واضع علم النَّحو، من الفقهاء الأعيان الأمراء الشعراء الفرسان، سكن البصرة وولي إمارتها في أيام علي بن أبي طالب الذي رسم له شيئًا من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود، له شعر جيّد، ومات بالبصرة سنة ٦٨٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٣٦».
(٢) الأيك: الشجر الكثير الملتفّ، وهيّج: أثار الشوق.
(٣) هجع: رقد ونام.
(٤) النوى: البعد، والجوانح: الصّدر.
(٥) الزّبور: مزامير داود.
(٦) جُحْدُر العكلي: شاعر من أهل اليمامة، كان في أيام الحجّاج بن يوسف، يقطع الطريق وينهب الأموال ما بين حجر واليمامة، سجنه عامل الحجّاج في سجن باليمامة اسمه «دوّار»، فقال قصيدة منها هذه الأبيات، توفي نحو سنة ٧١٨ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١١٣».
(٧) الغرب: شجرٌ تسوّى منه الأقداح البيض، الواحدة غربة، وهي شجرة ضخمة شاكة خضراء وهي التي يتّخذ منها الكُحَيْل، وهو القطران، حجازيّة. «اللسان مادة غرب».
(٨) هو عوف بن مُحلّم الخزاعي، أبو المنهال، أحد العلماء الأدباء الرؤساء والشعراء الفصحاء، كان صاحب أخبار ونوادر، وله معرفة بأيّام الناس، اختصه طاهر بن الحسين لمنادمته فبقي معه ثلاثين سنة لا يفارقه، مات في طريقه إلى حوران نحو سنة ٨٣٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٩٦».
(٩) الإلف: الأهل والعشير والأحبّة، والميّاد: الذي يميل.

وقال ابن عبد ربّه من أبيات: [من الطويل]

وكَيْفَ، وَلِي قَلْبٌ إذا هَبَّت الصَّبَا ... أهابَ بشَوْقٍ في الضُّلُوعِ دَفِينِ؟
ويهتاجُ منه كُلّ ما كان ساكِنًا ... دعاءُ حمامٍ لم تَبِتْ بوُكُون(١)
وإنَّ ارتياحي من بُكاءِ حمامَةٍ ... كذي شَجَنٍ داوَيْتهُ بشُجُونِ
كأنَّ حَمام الأيْك لَمَّا تجاوَبَتْ ... حَزِينٌ بَكى من رَحْمَةٍ لحَزِين!

وقال ابن قلاقس(٢): [من الطويل]

غناءُ حَمَامٍ في مَعَاطِفِ بانِ ... إلى مَذْهَبِ الحُبِّ القَديم ثَنَانِي
تغنَّى فأعطافُ الغُصونِ رَواقِصٌ ... وأحْداقُ أزهارِ الرِّياضِ رَوَانِي(٣)
فذَكَّرني شَرْخَ الزمانِ فمَدْمَعِي ... سَفُوحٌ وقلْبي دائِمُ الخفَقانِ(٤)

وقال أعرابيّ: [من الطويل]

وقَبْلِي أبْكى كُلَّ مَنْ كان ذا هَوًى ... هُتُوفُ البَواكي والدِّيارُ البَلاقِعُ(٥)
وهُنّ على الأغْصان من كُلِّ جانبٍ ... نوائحُ، ما تَخْضَلُّ منها المَدَامِعُ!

وقال فتح الدين بن عبد الظاهر(٦): [من الخفيف]

نَسَب الناسُ للحَمَامَةِ حُزْنًا ... وأَرَاها في الحُزْنِ ليسَتْ هُنالكْ!
خَضبَتْ كَفَّها وطَوَّقت الجيـ ... ـدَ وغَنَّتْ، وما الحَزينُ كذلكْ!(٧)

---

(١) الوكون: مفردها وَكْن وهو عشّ الطائر.
(٢) ابن قلاقس: هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن عليّ بن عبد القويّ بن قلاقس اللخمي الأزهري الإسكندري، الملقّب «القاضي الأغرّ»، شاعرٌ مجيد، وكان فاضلًا ونبيلًا. «وفيات الأعيان ٥/ ٣٨٥».
(٣) أعطاف الغصون: جنباتها، وعطف الغصن: تمايل، والرواني: من رنا أي أدام النظر في سكون.
(٤) شرخ الزّمان: يريد شرخ الشّباب أي سنيّه التي كان فيها شابًا يفيض حيويّة ونشاطًا.
(٥) هتوف البواكي: نواحهنّ، والبلاقع: الأرض الخالية.
(٦) ابن عبد الظاهر: هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السّعدي، محيي الدين، قاضٍ أديب مؤرّخ، من أهل مصر مولدًا ووفاة، كان كاتب الإنشاء في الدّيار المصرية، وله شعرٌ حسن، توفي سنة ١٢٩٣ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٩٨».
(٧) خضبت كفّها: صبغتها بالخضاب، والجيد: العنق.

وقال ابن الرومي: [من الكامل]

أَشَـجَـتْـكَ داعِـيَـةٌ مـع الإشْـرَاقِ ... هتفَتْ بساقٍ من ذُؤابةِ ساق؟[١]

أيْـكِـيَّـةُ تـدعُـو، ولـم أر بـاكـيًـا ... رَيْـبَ الـزَّمـانِ قَـرِيـنَـهـا لـفِـراق

تَبْدُو أواميتُ الشَّجَى في صَوْتِهَا ... وتُـرى عـلـيـهـا أنّـه الإطْـراق[٢]

لو تَسْتَطِيعُ، تسلَّبتْ من طَوْقها ... لـو كـان مُنْتَحَلًا من الأطْواق[٣]

* * *

ومما قيل في المراجعات، فمن ذلك قول وضَّاح اليمن[٤]: [من السريع]

قـالَتْ: ألَا لا تَـلِـجَـنْ دارَنَـا ... إنَّ أبـانَـا رجُـلٌ غـائِرُ![٥]

أمـا رأيـتَ الـبـابَ مـن دُونِـنـا؟ ... قـلتُ: فـإنِّـي واثِـبٌ طـافِـرُ![٦]

قـالـت: فإن الـقَـصْـر من دُونِـنـا ... قـلتُ: فـإنِّـي فـوقَـهُ ظـاهِـرُ!

قـالـت: فـإنَّ الـلَّـيْـثَ عـالٍ بـه ... قلت: فسَيْفي مُرْهَف باتِرُ![٧]

قـالـت: فـهـذا الـبَـحْـرُ ما بَيْنَنا ... قـلت: فـإنِّـي سـابِـحٌ مـاهِـرُ!

قـالـت: ألـيـس اللهُ مـن فَـوْقـنـا؟ ... قـلت: بـلى! وهـو لـنـا غـافِـرُ

قـالـت: فـإمَّـا كُـنْـتَ أعـيَـيْـتَـنـا ... فـأْتِ إذا مـا هَـجَـعَ الـسَّـامِـرُ![٨]

واسْقُطْ علينا كسُقُوط النَّدى ... لـيـلـةَ لا نـاهٍ ولا زاجِـرُ!

---

(١) أشجتك: أثارت شجوك وحزنك وعشقك، والذؤابة: شعر مقدّم الرأس، ويريد هنا بذؤابة ساقٍ: أي أعلى أوراق غصنٍ حطّت عليه.

(٢) الأواميت: يطلق الأمت في اللغة على الضعف والوهن، ويجمع على إمات وأُموت ولم نَرَ جمعه على أواميت.

(٣) تسلّبت: تفلّتت.

(٤) وضَّاح اليمن: هو عبد الرحمٰن بن إسمٰعيل بن عبد كلال، من حمير، شاعرٌ رقيق الغزل عجيب النّسب، كان جميل الطّلعة، يتقنّع في المواسم، له أخبار مع عشيقة اسمها «روضة» من أهل اليمن، تغزّل بأُمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان فقتله نحو سنة ٧٠٨ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٩٩».

(٥) الغائر: الذي فيه غيرة أي نخوة، تلجن: من ولج: أي دخل.

(٦) الطافر: الذي يعدو ويسرع.

(٧) المرهف: المشحوذ، والباتر: القاطع.

(٨) هجع: رقد، والسّامر: السّاهر والجالي ليلًا مع من ينادمه ويسامره.

وقال المؤمل بن أميل: [من المنسرح]

وطـارقـاتٍ طَـرَقْـنـنـي رُسُـلَا ... واللَّيْلُ كالطَّيلسانِ مُعْتكِرُ[١]
فـقُـلْنَ: جِئْنـا إليـكَ عن ثِـقـةٍ ... مـن عـنـد خَـوْدٍ كـأنَّـهـا قَـمَـرُ![٢]
هَـلْ لـكَ فـي غـادةٍ مُـنَـعَّـمَـة ... يَحارُ فيها من حُسْنِها النَّظَرُ؟
في الجِيدِ منها طُولٌ إذا التفَتَتْ ... وفي خُطاها إذا خطَتْ قصَرُ
فـقُـمْـتُ أسْعى إلى مُحَجَّبة ... تُضيءُ منها البُيوتُ والحُجَرُ
فـقـلـتُ لـمَّـا بـدا تَـخَـفُّـرُهـا ... جُودِي، ولا يمنعَنَّك الخَفَرُ[٣]
قـالـت: تـوقَّـرْ، ودَعْ مـقـالَك ذا ... أنتَ امْرُؤٌ بالقَبِيحِ مُشْتَهِرُ!
واللهِ لا نِـلْـتَ مـا تُـحَـاوِلُ أو ... يَنْبُتَ في بطن راحتي شَعَرُ!
لا أنْـتَ لـي قَـيِّـمٌ فـتَـجْـبُـرَنِـي ... ولا أمِـيـرٌ عـلـيَّ مُـؤْتَـمِـرُ
قـلـتُ: ولـكِـنْ ضَـيفٌ أتَـاكِ بـه ... تحتَ الظلامِ القضاءُ والقَدَرُ
فـاحـتَـسِـبـي الأجْـرَ في إنـالَتِـه ... ويا سِرِي قد تطاوَلَ العسرُ!
قالتْ: فقد جئتَ تَبْتَغِي عَمَلًا ... تكادُ منه السماءُ تَنْفَطِرُ[٤]
فـقـلـتُ: لَـمَّـا رأيـتـهـا حَـرِجَـتْ ... وغَشِيَتْهَا الهمومُ والفِكَرُ[٥]
لا عـاقَـبَ اللهُ فـي الـصِّـبـا أبـدًا ... أُنثَى ولكنْ يُعاقَبُ الذَّكَرُ!
قـالـت: لـقـد جـئـتَـنـا بـمُـبْـتَـدَعٍ ... وقـد أتَـتْـنَـا بِـغَـيْـرِه الـنُّـذُرُ
قـد بَـيَّـنَ اللهُ فـي الـكـتـابِ فـلا ... وازِرةٌ غَـيْـرَ وِزْرِهـا تَـزِرُ[٦]
قـلـتُ: دَعِـي سورةً لَهِجْتِ بهـا ... لا تَـحْـرِمَـنَّـا لَذَّاتِـنَـا الـسُّـورُ
وَجْـهُـك وجهٌ تَـمَّـتْ مـحاسنُـه ... لا وأبـي لا تَـمَـسُّـه سَـقَـرُ[٧]

---

(١) الطارق: الزّائر ليلًا، والطيلسان: ضربٌ من الأوشحة يلبس على الكتف.

(٢) الخود: الشابة الناعمة الرقيقة الحسنة الخَلْق. (٣) الخفر: الحياء.

(٤) تنفطر: تتشقّق. (٥) حرجت: أصابها الحرج: وهو الضّيق.

(٦) الوازرة: مرتكبة الوزر، وهو الإثم الذي يستوجب العقاب، وفي البيت إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤].

(٧) سَقر: جهنّم.

وقال آخر: [من الكامل]

خَطَرتْ فقلْتُ لها مَقَالَةَ مُغْرَمٍ ... ماذا عَلَيْكِ من السَّلام فسَلِّمِي[١]

قالتْ: بمَنْ تَعْنِي فحبُكَ بَيِّنٌ ... في سُقْم جِسْمِكَ؟ قلت: بالمُتَكَلِّمِ

فتبسَّمَتْ، فبَكَيْتُ، قالت: لا تُرَعْ ... فلعَلَّ مِثْلَ هَواكَ بالمُتَبَسِّمِ

قلتُ: اتَّفَقْنَا في الهَوى، فزيارةً ... أو مَوْعِدًا قَبْلَ الزيارةِ قَدِّمي

فتضاحَكَتْ عَجَبًا، وقالتْ: يا فتى ... لو لم أدَعْكَ تنام، بِي لم تَحْلُمِ

وقال آخر: [من المتقارب]

ولَمَّا نَزَلْنا على زَمْزَمٍ ... ونحنُ نُريد طَوافَ الإفاضَهْ[٢]

بَكَيْتُ، فقالت: عَلامَ البُكَا؟ ... فقلتُ: على الوُدّ أخْشَى انْتِفاضَهْ![٣]

فقالت: ثَكِلْتُكَ من عاشِقٍ ... تُشَمِّر ذيلَكَ قبل المَخَاضَهْ[٤]

فقلتُ: صَدَقْتِ، ولكِنَّني ... أُعَلِّم نَفْسِي طَرِيقَ الرِّياضَهْ

* * *

ومما قيل في المردوف[٥]، قال بعض الشعراء:

عيناكَ على سفك دمي أسرفتا ... والجسم نحيلْ

أطلِقْ برضاكَ في الهوى أسرَ فتًى ... حيرانَ ذليلْ

في ريقكَ خمرتان قد حُرِّمتا ... من غير دليلْ

والعاسق ظمآنُ فيا حرًّا! متى ... تسقيه قليلْ؟

---

(١) خطرت: لاحت ومرّت تتبختر في مشيتها.

(٢) زمزم: البئر المباركة المشهورة، سمّيت «زمزم» لكثرة مائها. «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».
والطّواف: من شعائر الحجّ، وهو الدوران حول البيت الحرام، والإفاضة: الانتهاء والتفرّق، وطواف الإفاضة: هو طواف يوم النّحر، ينصرف الحاج من منى إلى مكة فيطوف ويعود.

(٣) انتقاضه: انقطاعه، وتحلُّل عُراه.

(٤) ثكلتك: من الثكل: وهو الفقد، وشمّر الذّيل: رفع ثوبه، والمخاضة: الماء؛ ويريد: أنه شمّر ذيل ثوبه قبل ورود الماء الذي يريد اجتيازه.

(٥) المردوف: نوعٌ من الشعر قريبٌ من الموشّح، كما نلاحظ، والرّدف في القافية: إنما هو قبل حرف الرّوي لا بعده، والرّدف: حرف لين قبل حرف الروي، كألف «الأشياء» في قول الشاعر:
حفِظْت شيئًا وغابت عنك أشياء.

وقال آخر:

فـي خـدّكَ وردتـان قـد رُكّـبتـا من فوق قضيبْ
في قلبيَ جمرتان قد أُضْرِمتا نـارٌ ولـهـيـبْ
حلّفتكَ بالإلٰه يا خيرَ فتى رفقًا بكئيبْ
حيرانَ يهيم بين حتّى ومتى والأمر عجيبْ

وقال آخر:

يا بدرُ! عصَيتُ في الهوى عذّالي طَوْعًا لهواكْ
وانقدتُ لأمرك الكبير العالي ما قلَّ وفاكْ!
إن كان رِضاكَ سقمَ جسمي البالي صبرًا لرضاكْ
عذِّبْ جسدي بسائر الأحوالِ إلّا بجفاكْ

وقال آخر:

يا مرتحِلًا إلى الحِمَى مَصرفَهُ بالله عليكْ خذ معك كتابْ، فيه خبري
لي ثَمّ رَشًا عساك تستعطفُه إن هان عليكْ في ردّ جوابْ، للمنتظرِ
إنْ عرَّضَ بي، فقل: نعم أعرفُه يشتاق إليكْ قد رقّ وذابْ، بين البشرِ
ما يتركه هواكَ أو تتلفَه والأمر إليكْ ما الهجر صوابْ، من مقتدرِ

* * *

ومما قيل في الجناس[١]، قال أبو الفضل الميكالي[٢]: [من الطويل]

مواعيده بالوصل أحلام نائم أشبّهها بالقفر أو بسَرابِهِ
فمن لي بوجه لو تحيّر في الدّجى أخو سفرٍ في جُنح ليل سَرَى بِهِ[٣]

---

(١) الجناس: من فنون البديع وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعرٍ وكلام، ومجانستها أن تشبهها في تأليف حروفها، وقد تأتلف معها في المعنى، وقد تختلف وهو الأرجح. . . وقيل: الجناس تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى.

(٢) الميكالي: هو الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، من الكتّاب الشعراء، من أهل خراسان، أورد له صاحب اليتيمة جملة من محاسن نثره ونظمه، له ديوان شعر، توفي سنة ٩٩١ م. «انظر يتيمة الدهر ٤/٤٠٧ وما بعدها» و «فهرس الأعلام ٤/١٩١».

(٣) تحيّر: لم يهتدِ إلى الطريق القدويم، والدّجى: الظلام، وسرى به: أبان له الطريق.

وقال أيضًا: [من الخفيف]

صِلْ مُحِبًا، أعياه وصفُ هواه فضناه ينوب عن تَرْجُمَانِهْ[١]

كلّما راقه سواك، تصدّت مقلتاه بدمعه تَرْجُمانِهْ[٢]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

ما ضرّ مَن قد أباح قتلي في حبّه لو أباح رِيقَهْ

أبَى فؤادي السلوَّ عنه لكنه ما أبَى حريقَهْ

وقال آخر: [من البسيط]

أقول والليل مرخيٌّ غياهبه والدَّيْر يَسمعني جِسّ النواقيسِ[٣]

يا نفسُ كم بين مسرورٍ بلذّته وبين مُبْلًى بتشتيت النوى قيسي[٤]

وقال آخر: [من البسيط]

يا من تنكّدت الدنيا لغيبته أساخطٌ أنت عني اليومَ أم راضي؟

أمْرضتَ بالهجر قلبَ المستهام فما عليك، بالوصل لو داويتَ أمراضي؟

وقال آخر: [من الطويل]

لقد راعَني بدر الدجى بصدودِهِ ووكّل أجفاني برعي كواكبِهْ[٥]

فيا عَبْرتِي سُحّي دَمًا لفراقه ويا كبدي صبرًا على ما كواكِ بهْ![٦]

---

(١) صِلْ: فعل أمر من وَصَل، والوصل: اللّقاء، والترجمان: الذي ينقل الكلام من لغةٍ إلى أخرى.

(٢) ترجمانه: هنا من الرّجم: وهو الرّمي بالحصى، وفي الكلام جناس بين كلمتي «ترجمانه» في البيت الأوّل والثاني.

(٣) الغياهب: الظلمات، وأرخى الليل غيهبه: أسدل ظلمته، والنّواقيس: مفردها ناقوس، وهو مضراب النّصارى الذي يضربونه إيذانًا بحلول وقت الصلاة.

(٤) التشتيت: التفريق، والنوى: البُعْد، وقيسي: من القياس والموازنة، وفي الكلام جناسٌ بين كلمتي آخر البيتين، أو التفعيلتين الأخيرتين في ضرب كلّ بيت.

(٥) راعني: أخافني وأقلقني، ورعيُ الكواكب: مراقبتها همًّا وسهرًا.

(٦) سحّي: انزفي وامطري، وفي الكلام جناس بين التفعيلتين الأخيرتين في الضرب الأخير من البيت الأول والثاني.

وقال آخر: [من السريع]

قلت له: ماذا السواد الذي فيك تبدّى؟ قال: ذا غاليهْ[١]
فقلت: قَبِّلني إذًا قُبلة فقال: خذها قُبلةً غاليهْ[٢]
فقلت: ما تغلو على عاشقٍ في حبّكم، ذي كبدٍ غاليهْ[٣]

وقال آخر: [من مجزوء الرّجز]

شافَهَ كفّي رَشَأُ بقُبلةٍ ما شَفَتِ[٤]
فقلت إذ قبّلها يا ليت كفّي شفتي!

وقال آخر: [من المنسرح]

لم يكفكم أخذُ قلبه سَلَبًا حتى أخذتم عن طرفه وَسَنَهْ[٥]
كم ليلةٍ بات للغرام وكم يومٍ وشهرٍ ما نامه وسَنَهْ

وقال آخر[٦]:

يا من لحظاته أسودٌ وثَبَتْ قد صحّ هواك في فؤادي وثَبَتْ
جرّدتُ لها سيوفَ صبري فنبت يا من غرس الهوى بقلبي فنبتْ

وقال آخر:

يا من بحشاشتي - إذا غاب - سكنْ هيّجتَ من الغرام ما كان سكنْ[٧]
يا من شَرَع الصدودَ في الحبّ وسَنّ من بعدك مهجورُك ما ذاق وَسَنْ[٨]

وقال آخر:

أهوى قمرًا سفكُ دمي حلٌّ لهُ في أيّ شريعةٍ ومَن حلَّلَهُ
ما بلّلَ شَعرَه وما حلّلَهُ إلا سمحَ البخيلُ وانحلّ لهُ[٩]

---

(١) تبدّى: ظهر، والغالية: نوعٌ من الطيب. (٢) الغالية هنا: الثمينة.
(٣) الغالية هنا: المحترقة من العشق، وفي الكلمات الأخيرة من الأبيات الثلاثة «جناس».
(٤) شافه: قرّب شفته من شفته، يريد أنه قبّل كفّه.
(٥) سلبًا: نهبًا، والوَسَن: النعاس والنّوم.
(٦) هذه المقطوعة وما يليها من مقطوعات ثلاثة... من الشعر الذي لا ينتمي إلى عروض الخليل وبحوره المعروفة، وهي أقرب إلى الموشحات.
(٧) الحشاشة: الروح، وسكن: هدأ. (٨) شرع: سنّ، والشريعة: السنّة والأحكام.
(٩) السّمح: الكرم والجود.

وقال آخر:

مَنْ بَلَّلَ صُدْغَ قاتلي مَنْ سَلْسَلْ؟ مَن أودع ثغرَه رحيقًا سَلْسَلْ؟[١]
مَن علّلني في حبّه؟ مَنْ سَلْسَلْ؟ يا عاذل إن جهلتَ ما بي سَلْ سَلْ

وقال آخر: [من مجزوء الرجز]

يا بانةً لحبّها في القلب أصلٌ قد نبتْ
سيوف صبري عن سيو ف مقلتيك قد نَبَتْ[٢]
تلك لحاظُ أعينٍ أم أُسْدُ غيلٍ وثبتْ؟[٣]
لواحظٌ لو برزتْ في يوم حربٍ، لَسَبَتْ[٤]
وعقربُ الصُّدغ التي لكلّ قلبٍ لَسَبَتْ[٥]
أسْنَاؤكم تاقت لها الـ نفوس يومًا وصَبَتْ[٦]
لا سيّما إن حَمَلتْ نشرَك ريح وصبتْ[٧]
فخيلهم دون بلو غ السُّول فينا قد كَبَتْ[٨]
أفدي حبيبًا زارني فكم عدوٌ قد كَبَتْ[٩]
رعى حقوقي في الهوى عليه لمّا وَجَبتْ
وسكّن الأحشاء بالـ وصال لمّا وجَبَتْ[١٠]

وقال أيضًا: [من مجزوء الرّجز]

من لفتى، جار عل يه طرفه فيما قضَى؟
صبٌّ إذا الدهر قضى عليه بالبَيْن، قضَى
يبكي على دهرٍ تولّ ى بالتداني أو مضى
تمطر عيناه إذا الـ برق الشآمِي أوْمَضا

(١) الصُّدغ: ما بين العين والأذن من جانب الوجه، والسلسل: العَذْب.
(٢) نبا السيف: لم يصب المضروب. (٣) الغيل: الشجر الكثير الملتفّ.
(٤) سبت: أسرت. (٥) لسبت: لسعت.
(٦) أسناؤكم: يريد «وجوهكم»، والسّنا: الضوء، وتاقت: اشتاقت، وصبَت: حنّت واشتاقت.
(٧) النّشر: الرائحة الطيّبة، ووصبت: دامت وثبتت، أو ألحقت الوصب: أي مرض العشق وألمْهُ.
(٨) كبا الحصان: عثر وزلّ.
(٩) كبت: قهر وغلب، وكبت الله الأعداء: ردّهم في غيظٍ وحنق.
(١٠) وجبت: خفقت، والأحشاء: ما انطوى عليه الصّدر.

وقال آخر: [من المتقارب]

رمى حَرَّ قلبي بهجرانه ... رشًا ما درى قدرَ ما قد رمى
وقد كان قدّم إحسانهُ ... ولكنّه قدَّ ما قدّما
فتسليم أمري به للقضا ... ذَخَرتُ به أجرَ ما أجرما

* * *

ومما قيل في الموشّحات، فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين:

يد الإصباح، قدحتْ زناد الأنوار ... في مجامر الزّهرِ[١]
دهر جذلان، واعتدال رَيْعان ... فما الإظْعان؟ عن طَلًا وغزلانْ[٢]
راق الزمان، وشدَتْ على البان ... ذاتُ الجناح، وانثنت قدودُ الأشجارْ

* في الغلائل الخُضرِ[٣] *

لنا أجساد، للسرور تنجذبُ ... كما تنقاد، لربيعها العرب
حتى الجماد، لا يفوته الطربُ ... طافت بالرّاح، سحبٌ فسكر النّوّارْ[٤]

* من سُلافة القَطْرِ[٥] *

إنّ انخلاعي، مع رشًا وصهباء ... لدى بِقاعٍ، حكت وشي صنعاء[٦]
وللشّعاعِ، لهبٌ على الماء ... وللرِّياحِ، في متون تلك الأنهارْ

* شَبَكٌ من التِّبرِ[٧] *

ورِيم ألمى، بات بِيَده صدري ... كبدر تَمًّا، وسط غُرَّة الشهر[٨]
شدوتُ لمَّا، راعني سنا الفجر ... قل للصباحِ: إن تدنُ بطرد الأقمارْ

---

(١) قدحت الزّناد: أورته، وأشعلت النّار، والمجامر: ما يوضع فيه الجمر مع البخور، يريد: أن رائحة الزّهر فاحت عند الصباح كرائحة البخّور التي تفوح من المجامر.
(٢) الإظعان: الرّحيل، والطّلا: ولد الغزال.
(٣) الغلائل: مفردها غلالة، وهو ثوب رقيق يلبس تحت الدّثار.
(٤) الرّاح: الخمرة، والنوار: الزّهر.
(٥) السّلافة: أفضل الخمر وأخلصها، والقطر: المطر «استعار السّلافة للقطر».
(٦) انخلع عن المكان: رحل عنه، ويريد بالانخلاع هنا: تفرّده وابتعاده، والرّشا: الغزال، والصهباء: الخمر، والوشي: التطريز.
(٧) التبر: قراضة الذهب.
(٨) الرّيم: الغزال الخالص البياض، والألمى: الذي فيه سمرة، وغُرَّة الشهر: أي عندما يكون البدر قمرًا مكتملًا.

* فـمـع الـدُّجـى نـسـرِي *

وغـصـن مـائلْ، الـهـلال أعـلاه له من نابلْ، في النفوس قتلاه[١]
سيف الحمائل، غمده عذاراه طوع الجماح، إن يكن كثيرَ النِّفارْ[٢]

* فـهـي عـادة الـعُـفْـر[٣] *

وقال ابن بقي[٤]:

ما بي شَمول، إلا شجون مزاجها في الكأس، دمع هتون[٥]
لله ما بذْرْ، من الدموعِ صبٌّ قد استعبرْ، من الوَلُوعِ
أودى به جؤذَرْ، يوم البقيعِ فهو قتيلْ؛ لا بل طعينْ[٦]

* بين الرجا والياسْ، له منونْ[٧] *

[خرجْتُ للحَيْنِ، كفّي بكفّي وحيل ما بيني، وبين إلفي[٨]
لا شك بالبينِ، يكون حتفي حان الرحيلُ، ولي ديونُ

* إن ردّها العباسْ، فهو الأمين *][٩]

أما ترى البدرا؟ بدرَ السعودِ قد اكتسى خُضرًا، من البرود[١٠]
إذا انثنى نَضْرًا، من القدودِ أضحى يقولُ: مت يا حزينُ

* قد اكتسى بالياسْ، الياسَمينُ *

---

(١) النابل: الذي يرمي النبل بأقواسه.
(٢) الغمد: غلاف السيف، والحمائل: ما يعلّق بها، والعذار: صفحة الخدّ، والجماح: النفور.
(٣) والعفر: من الغزلان ما يعلو بياضه حمرة.
(٤) ابن بقي: هو يحيىٰ بن عبد الرحمٰن الأندلسي القرطبي، كان آيةً في النثر والنظم، بارعًا في نظم الموشّحات مجيدًا فيها كلّ الإجادة، توفي سنة أربعين وخمسمائة. «معجم الأدباء ٥/٦٢٦، دار الكتب العلميّة».
(٥) الهتون: الكثير القطر، والشمول: الخمرة.
(٦) أودى به: أهلكه وذهب بعقله، والجؤذر: ولد البقرة الوحشيّة كناية عن المرأة، ويوم البقيع: يوم معيّن أو هو يوم الذّهاب، من بَقَع أي ذهب.
(٧) المنون: الموت.
(٨) الحين: الوقت، وحيل: بُوعد ومُنع، والإلف: الحبيب والعشير.
(٩) ما بين قوسين زيادة من نفح الطّيب للمقرّي.
(١٠) البرود: مفردها «برد» وهو كساءٌ مخطّط يلتحف به.

قـلت وقـد شـرّد، الـنـومَ عـنّـي وآيَـس الـعـوّد، الـسـقـم مـنّـي[(١)]
صدّ فلما صدّ، قـرعتُ سنّي جسمي نحيلُ، لا يستبينُ[(٢)]

* يـطـلـبـه الـجُـلاّسْ، حيث الأنـيـنُ *

تـجاوز الـحـدّا، قلبي اشتياقا وكلّف السهدا، مَن لا أطاقا[(٣)]
قـلتُ وقـد مـدّا، لـيـلي رُواقـا لـيـلي طـويـلُ، ولا مُـعـيـنُ[(٤)]

* يـا قـلـبَ بـعـض الـنـاسْ، أمـا تـلـيـنُ؟ *

وقال سراج الدين عمر الكتّاني الحلبيّ، يمدح الملك المنصور صاحب حماه:

جسمي ذوَى، بالكمِد، والسهرِ، والوصبِ من جاني
ذي شنبِ، كـالبَردِ، كـالدّررِ، كـالحبَبِ، جـمـانـي[(٥)]
لـي غـصـن بـانٍ نَـضِـرُ يـسـبـيـك مـنـه الـهَـيَـفُ[(٦)]
يـرتـع فـيـه الـنـظـرُ فـزهـره يُـقـتـطـفُ
والـخـدّ مـنـه قـفِـرُ والـجـسـم مـنـه تـرفُ[(٧)]
قـد جـاءنـا يـعـتـذرُ عِـذاره الـمـنـعـطِـفُ
ثـم الـتـوى، كـالـزردِ، مُـعـبـقَـرِي، مُـعَـقْـرَبـي، رَيـحـانـي
فـي مُـذْهَـبِ، مـورَّدِ، مـدنَّـرِ، مـكـتَّـبِ، سَـوسـانـي[(٨)]
ظـبـيٌ لـه مـرتَـشَـفُ كـالـسـلـسـبـيـل الـبـاردِ

---

(١) آيس: قطع الأمل، والعوّد: الذين يزورون المرضى.
(٢) قرع سنّه: صكّها، كناية عن النّدم. (٣) السّهد: الأرق.
(٤) الرواق: بيت من شعر ينصب في باحة الدّار.
(٥) الوصب: مرض العشق، والجماني: نسبة إلى الجمان، وهو اللؤلؤ.
(٦) الهيف: ضمور الخصر والبطن.
(٧) القفِر: الذي لا شعر فيه، يريد الخدّ الناعم.
(٨) المعبقر: الكامل من كل شيء، أو الذي ألحق به الجنون، فبعقر: موضع زعم العرب أنه موطن الجنّ، والمدنّر: ما كان كالدّينار، والمكتّب: المنمّق والمزيّن، والسوساني: نسبة إلى السّوسن وهو نبات ينتهي بزهره أو عدّة زهور جذّابة تخرج كل منها من غلف حرشفيّة يختلف نوعها باختلاف النوع، فمنه الأبيض والأزرق والأصفر والأحمر.

غـصـنُ نـقًـا يـنـعـطـفُ مـن لِيـن قـدّ مـائـدِ[١]
بـدرٌ عَـلاه سَـدَفُ مـن لـيـل شَـعـرٍ واردِ[٢]
مُـقَـرْطَـقٌ مـشـنَّـفُ يَـخْـتـال فـي الـقـلائـدِ[٣]

بيـن الـلِّوَى، وثَـهْـمَـدِ، كـجُـؤْذَرٍ، فـي رَبْـرَبِ، غِـزْلانـي
ذي ضَرَبِ، ذي غَيدِ، ذي حَوَرٍ، ذي هُدُبِ، وَسْنَانِي[٤]

أمَـا وَحْـلِـي جـيـده! ورنَّـةِ الـخـلاخِـلِ!
والـضـمّ مـن بـروده قَـدًّ قـضـيـبٍ مـائـلِ
والـوردِ مـن خـدوده إذْ نَـمَّ فـي الـغـلائـلِ[٥]
لا كـنـتُ مـن صـدودِهِ مـتّـصـلًا بـعـاذلِ!

نارَ الجَوَى، لا تَخْمُدي، واسْتَعِرِي، وكذِّبِي، سُلْوَاني
وأَسْبِلي، واطَّرِدِي، وانْهَمِرِي كالسُّحُبِ، أجفانِي[٦]

مـولايَ جـفـنـي سـاهـرُ مـؤرَّق كـمـا تـرى
فـلا خـيـالٌ زائـرُ يَـطْـرُقـنـي ولا كَـرَى[٧]
إنِّـي عـلـيـلٌ صـابـرُ فـمـا جَـزَا مـن صـبـرَا؟
إنْ سَـحَّ دمـعـي الـهـامـرُ فـلا تَـلُـمْـه إنْ جَـرَى

جَالَ الهوى، في جَلَدِي، ومُضْمَرِي، أضرَّ بِي، كتمانِي
مـؤنِّـبـي، اتَّـئِدِ، لا تَـفْـتَـرِ، وجَـنِّـبِ، عـن عَـانِـي[٨]

---

(١) النّقا: القطعة المحدودبة من الرّمل، والمائل: المتثنّي الميّاس.
(٢) السّدف: السفر.
(٣) المقرطق: الذي يلبس القرطق، وهو قباءٌ أبيض، تعريب «كُرْتَهْ» وقد تضمّ طاؤه، «اللسان مادة قرطق»، والمشنّف: الذي اتّخذ قرطًا في أذنيه.
(٤) اللّوى وثهمد: موضعان، وقد ورد ذكرهما في معلّقتي امرىء القيس وطرفة بن العبد، والرّبرب: القطيع من الظّباء، ومن البقر الوحشي والإنسي لا واحد له، جمعه ربارب، والضرب: الشّهد، والغيد: النعومة في التمايل، والوسنان: الفاترة.
(٥) نمّ: انتشرت رائحته، والغلائل: مفردها غلالة، وهي ثوب رقيق.
(٦) أسبل الدمع: أجراه، واطّردي: تتابعي.
(٧) الطارق: الزائر ليلًا، والكرى: النعاس.
(٨) اتّئد: تمهّل، والعاني: الأسير.

إنْ صالَ بالهجر وصَدْ رحتُ بصبري مرتدِي
عنه وإنْ طال الأمدْ إلى ذُرَى محمدِ
وكيف يخشى مَنْ قَصَدْ مَلْكًا كريمَ المحتِدِ(١)
الملِكَ المنصورَ قد سَمَا سَماءَ السُّودَدِ(٢)
ثم اسْتَوَى، بأجْرَدِ، مضمَّرِ، ومِقْضَبِ، يَمَانِي
ذي شُطَبِ، مهنَّدِ، وسَمْهَرِي، مضطَرِبِ، مُرَّانِي(٣)
مَلْكًا علت هِمَّاتُه من فوقِ هَامِ المشترِي(٤)
وبَخَّلَتْ راحاتُه سُحَّ السحابِ الممطرِ(٥)
وعُوِّذَتْ راياتُه بمحكماتِ السُّورِ(٦)
بدرٌ بدتْ هالاتُه من الصباحِ المُسْفِرِ
تحت لِوَى، منعقِدِ، بالظَّفَر، في موكبِ، فِرْسَانِي
كالأَشْهُبِ، في الأَسْعُد، كالأقمر، في أعْذَبِ، سَيْحَانِي(٧)
يا مَلِكًا دون الورى تخطبُه الممالكُ(٨)
ومالكًا إذا سرَى تَحْجُبه الملائكُ
بعضُ عَطَاك هل تُرَى جادت به البرامِكُ(٩)
فاسْتَجْلِهَا من عُمَرَا ثغرُ مُنَاها ضاحكُ

---

(١) المحتد: الأصل. (٢) السؤدد: السيادة والمجد والشرف.

(٣) المقضب: السيف، واليماني: المنسوب إلى اليمن، وذو شطب: ذو خطوط في متن السيف، والمهنّد: السيف المنسوب إلى الهند، والسّمهري: الرمح المنسوب إلى سمهر، والمضطرب: الخفّاق، والمرّان: الرّمَاح الصلبة اللدنة الليّنة تؤخذ من شجر المرّان.

(٤) الهام: الجبين والرّأس، والمشتري: كوكب في السماء منير.

(٥) الرّاحات: الأكفّ، كناية عن العطاء، وسَحّ السّحاب: مطره.

(٦) عوّذت: خفضت، والعُوذة: الرقية والتميمة، والسّور: يريد سور القرآن الكريم.

(٧) الشّهاب: الشعلة الساطعة من النار، والكواكب التي ترجم الشياطين في السّماء عند اختراق السّمع، والسّيح: من ساح يسيح أي جرى.

(٨) الورى: الخلق، وتخطُبُه: تطلب ودّه ورضاه.

(٩) البرامك: نسبة إلى آل برمك الذين كانوا وزراء في عهد الرّشيد العبّاسي ونكبهم، وقد اشتهروا بالكرم.

لا يُجْتَوَى: كالشُّهْدِ، كالسُّكَّرِ، كالضَّرَبِ، مَعَانِي
كالسُّحُبِ، كالعسجَدِ، كالجوهرِ، من حَلَبِ، كَتَّانِي[(١)]

انتهى ما أوردناه من الغزل والنسيب في هذا الموضع، وقد آن أن نأخذ في ذكر الأنساب، وبالله التوفيق.

الباب الرابع
من القسم الأوّل من الفن الثاني في الأنساب

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: الآية ١٣]، ومعرفة أنساب الأُمم مما افتخرت به العرب على العجم، لأنها احترزت[(٢)] على معرفة نسبها، وتمكّست بمتين حسبها، وعرفت جماهير قومها وشعوبها، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها، واتّحدت برهطها[(٣)] وفصائلها وعشائرها، ومالت إلى أفخاذها[(٤)] وبطونها[(٥)] وعمائرها[(٦)]، ونفت الدعيّ[(٧)] فيها، ونطقت بملء فيها.

وسأورد منها إن شاء الله تعالى ما يكتفي به، ويتمسّك بأسبابه.

وقد وقفت على المقدّمة التي وضعها الشريف «أبو البركات الجوّانيّ»[(٨)] فرفعت له علمًا، ونصبت له إلى المعالي سلّمًا؛ لأنه أتقن أصولها، وحرّر فصولها، وأورد فيها من الأنساب ما ينتفع به اللّبيب، ويستغني بوجوده الكاتب الأريب[(٩)]، فوجدته بدأ فيها بذكر سيّدنا رسول الله ﷺ، ثم بآبائه، وشرح جملة من نسبه الطاهر وأبنائه.

---

(١) يجتوى: يكره، والضّرب: الشّهد والعسل، والعسجد: الذهب من حَلَبِ: أي من حَلَبْ، والمعنى لا يكره هذا الشّهد والكلام الجميل المنمّق من الشاعر الكتّاني الحلبي.
(٢) احترزت: احترست.
(٣) الرّهط: القبيل.
(٤) الأفخاذ: من القبيلة فصائلها أو أحياؤها، مفردها «فخذ».
(٥) البطن: من القبيلة: فرعٌ منها.
(٦) العمارة: القبيلة.
(٧) الدعيّ: الذي لم تثبت نسبته.
(٨) أبو البركات الجوّاني: هو محمد بن أسعد بن علي بن معمر العبيدي العلوي، أبو علي، شرف الدين، عالم بالأنساب، أصله من الموصل ومولده ووفاته بمصر سنة ١١٩٢ م، ولي نقابة الأشراف، وصنّف طبقات الطالبيين، وتاج الأنساب، وله شعر أورد بعضه العماد الأصفهاني في الخريدة. «فهرس الأعلام ٦/ ٣١».
(٩) الأريب: العاقل.

فرأيت أن أسرد النسب من أصله، وأبدأ بآدم عليه السلام، ثم بنسله؛ وأجعل العمدة على سرد عمود النسب المتّصل بسيّد البشر. وأذكر من ذلك ما اشتهر عند أهل الأنساب وانتشر، إلى أن انتهى إلى اسمه الشريف فأجعله خاتمة النسب، وأتمسّك من شريعته ومحبّته بأوثق سبب[١]. وأرجو ببركته بلوغ مآربي، ونجح مطالبي، وستر عيوبي، ومغفرة ذنوبي، وتزكية عملي، وسدّ خللي، والتجاوز عن سيّئاتي، والمسامحة بفلتاتي[٢] ولفتاتي، والخِيَرة في حركاتي وسكناتي.

هذا واللهِ رجائي من كرم ربّي، وإن قلّ عملي وكَثُر ذنبي؛ وعلى الشريف العمدة[٣] فيما أوردته، والعهدة فيما نقلته، فمن تأليفه نقلت، وعلى مقالته اعتمدت.

قال السيد الشريف نقيب النقباء أبو البركات بن أسعد بن علي بن معمر الحسيني الجوّاني، النسّابة رحمه الله: إن جميع ما بنت عليه العرب في نسبها أركانَها، وأسّست عليه بنيانها، عشر طبقات.

الطبقة الأولى الجذم

وهو الأصل إما إلى عدنان وإما إلى قحطان، والجذم القطع، يقال: جِذْم وجَذْم؛ وذلك لما كثر الاختلاف في عدد الآباء وأسمائهم فيما فوق ذلك، وشقّ على العرب تشعّب المناهج فيه وتصعب المسالك؛ قُطع الخوض[٤] فيما فوق قحطان ومعدّ وعدنان، واقتُصر على ذكر ما دونهما، لاجتماعهم على صحّته. ومنه قول سيّدنا رسول الله ﷺ لما انتسب إلى معدّ بن عدنان: «كذب النسّابون[٥] فيما فوق ذلك» لتطاول العهد[٦]، فمن كان من ولد قحطان، قيل يمنيّ. وما كان من ولد معدّ بن عدنان، قيل: خِنْدفي، أو قَيسيّ، أو نِزَاريّ، وإن كان الجميع داخلًا في نِزَار، أعني معدّ بن عدنان؛ وإنما كان بعد نِزَار جَمَاجِم[٧] استُغني بالنسبة إليها عن نزار بن معدّ بن عدنان؛ ولأن جمهور العلماء طبّقوا النسب على ما قدّمناه أربع طبقات: خندفيّ، وقيسيّ، ونزاريّ، ويمنيّ. فقولهم: خندفي أي كل من يرجع إلى الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، وهو جمّاع خندف، فتوسّعت العرب في ذلك إلى أن قالوا:

---

(١) السّبب: الحبل، والقرابة والمودّة. (٢) الفلتة: الهفوة غير المقصودة.

(٣) وعلى الشريف: يريد الشّريف «أبو البركات الجوّاني»، والعُمدة: الاعتماد.

(٤) الخوض: الحديث أو الدخول في متاهاته، والتقحُّم.

(٥) النسّابون: الذين يدّعون معرفة الأنساب. (٦) تطاول العهد: بعد الزّمن.

(٧) الجماجم: كناية عن الناس.

إلياس هو خِنْدف؛ لأن ولده وهم مُدرِكَة، وطَابِخَةُ، وقَمعَةُ، أمّهم خندف، وهي ليلى بنت حُلْوان بن عِمْران، بن إلْحَافِ بن قُضاعة، خندفت في طلب ولدها أي أسرعت، فقال لها إلياس: مالك تخندفين؟ أي تهرولين فسمّيت خندف، فرجع إلى خندف أبطن عدّة: كمُزَيْنَة، والرِّبَاب، وضَبَّة، وصُوفَة، والشُّعَيْرا، وتَمِيم، وهُذَيْل، وأَسَد، والقَارَة، وكِنَانَة، وقُرَيْش، فقيل لولد إلياس «خندف»، ثم قيل لإلياس نفسه خندف إذ كان أبًا لمن أمّه خندف لا غير ولا ولد له إلّا من خندف، ولذلك نظائر وأشباه في العرب، كما قيل لمالك بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مضر: «عائدة» لأن أُمّ ولده عائدة بنت الحُمْس بن قُحَافة الخَثْعَمِيَّة.

وكما قيل لعَوْف بن وَائِل بن قَيْس بن عَوْف بن عبد مَنَاة بن أُدّ بن طَابِخَةَ بن إلياسَ بن مضر: «عُكْل»؛ لأن أمةً يقال لها عُكْل حضنت ولده.

وكما قيل لعمرو بن أُدّ بن طابخة بن إلياس: «مزينة» لأن أمّ ولده مُزَيْنة بنت كَلْب بن وَبَرَة القُضاعية.

وكما قيل لعمرو بن قيس بن عَيْلان بن مضر بن نزار: «جَدِيلَةُ قَيْس»؛ لأن أُمّ ولده جَدِيلة بنت مُرّ، أخت تميم بن مرّ، بن أُدّ، بن طابخة.

وكما قيل للحارث بن عَدِيّ بن الحارث بن مُرَّةَ بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عُرَيْب بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَإ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان: «عاملة»؛ لأن أمّ ولده عاملة بنت مالك بن وديعة القضاعيّة.

وكما قيل لأَشْرَس بن السكون بن أَشْرَس بن كِنْدَة: «تُجِيبُ»؛ لأن أم ولده تُجِيبُ بنت ثَوْبَان المَذْحِجِيَّة، وغير ذلك مما يطول الكلام باستقصائه والله أعلم.

وأمّا قولهم قيسيّ، فالمراد به من ولد قَيْس بن عَيْلان بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عَدْنَان، ويكون عيلان ها هنا أخا إلياس بن مضر(١)، وكان اسم إلياس عيلان.

وقال الوزير ابن المغربيّ(٢): هو الناسّ بتشديد السين فيكون مضر أعقب إلياس والناس. ومن العلماء من قال: إن عيلان كان حاضنًا، حَضَن قيسًا وليس بأب فيقول

(١) لعلّه: أو كان اسم إلياس عيلان، ليستقيم الكلام.

(٢) الوزير ابن المغربي: هو الحسين بن علي، أبو القاسم، وزيرٌ من الدّهاة العلماء الأدباء، يقال: إنّه من أبناء الأكاسرة، ولد بمصر، مات بميافارقين وحمل إلى الكوفة بوصيّة منه فدفن فيها سنة ١٠٢٧ م، له مؤلّفات عديدة، منها: السياسة، ومختصر إصلاح المنطق، وديوان شعر ونثر. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٤٥، وفيات الأعيان ٢/ ١٧٢».

قيس عيلان بن مضر، مضاف إليه بغير ذكر البنوّة، كما قيل في فخذ من قضاعة سَعْد هُذَيْم، وهُذَيْمٌ حاضن، وغير ذلك في العرب كثير والأوّل أصحّ. وهذا قيس بن عيلان بن مضر هو الذي قيل لقيس به قيس، والله أعلم.

وذهب قوم إلى أن ولد معدّ بن عدنان كلهم يقال لهم: قيس وهو خطأ، وإنما هم يجوّزون ذلك على وجه بعيد ليميّزوا بالعزوة إلى ذلك بين يمن وغيرها، فيقولون: قيس ويمن، فيظنّ السامع أنهما أخوان، وأين قيس من قحطان جدّ يمن؛ لأن قحطان أبا اليمن هو أخو الجدّ العشرين لقيس: وهو فالَغ بن عابَر، وقحطان بن عابَر، وسيرد ذلك في سرد النسب بعون الله ومشيئته.

وبيانه هٰهنا أن قيس بن عيلان، بن مضر، بن نزار، بن معدّ، بن عدنان، بن أدّ[(١)]، بن أُدَد، بن إسماعيل الذبيح، بن إبراهيم الخليل، بن تَارَح، وهو آزَر بن ناحُور، بن سَاروغ، بن أَرْغُو، بن فالَغ، بن عابَر. ففالغ أخو قحطان، وقحطان هو الجد الذي ترجع إليه يمن كلها؛ وهو أحد جِذْمَي النسب كما تقدم.

فقد بان أن قول من يقول قيس، ويمن قبيلة ليس بشيء، وإنما قال ذلك لولد معدّ بن عدنان إشارة لإعلام السائل إذا سأل المعديّ من أيّ نسبٍ هو، فكأنّه يقول له من البطن التي منها قيس، وهذا بعيد وشاذّ.

ومما يؤكد بعده أنّا إذا جوّزنا ذلك لمن ينتسب إلى جمجمة فوق قيس كربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان، وإياد بن نزار وغير ذلك وإن كان بعيدًا، فكيف يجوز أن يطلق ذلك على قريش؛ فنقول: هم قيس، وإنما قريش بنو فهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرَكة بن إلياس بن مضر بن نزار، وإلياس هو عمّ قيس فيكون قريش دون قيس بهذه العدّة، فلا يجوز أن يقال: إن قريشًا من قيس، وقيس إنما هو ابن عمّ الأب السادس من قريش، وهو مدركة؛ ولو كان عمًّا له، لكان ربما يجوز على وجه التعارف عند العرب بأن العم أب كما أخبر الله تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام، فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٣]،

---

(١) هكذا بالأصل، وفي كتاب الجوّاني، المنقول منه هذا الفصل، والموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصريّة، ناقصة الآخر، «ابن أدّ بن إليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار بن إسمٰعيل الذبيح الخ. . .».

والذي ذهب إلى أن العمّ أب قال: أنا أطلق على ولد معدّ بن عدنان قيسًا؛ لأن قيسًا منهم، فأقول: قريش من قيس. وهذا بعيد من وجهٍ أن قيسًا ليس بعمّ لقريش، وإنما هو ابن عمّ، ولا ترجع العُزْوة[١] في الانتساب إلى ذيل الأعقاب[٢]، إنما يعزى لأعلى النسب؛ لا لأسفل العقب، ولو صحّ ذلك، لعُزِي الإنسان لابن ابن عمّه، وهذا لا يصحّ.

فقد وضح أن العزوة إلى قيس لا تصح إلا لمن يرجع إليه بالولادة منه؛ لأن ربيعة وإيَادًا ابني نزار أعلى منه، فلا يصح أن يُعْزوا إليه، وقريش وكنانة أسفل منه، فلا يصحّ أن يعزوا إليه.

وبالجملة، فإنّه ابن عم لهما، أعني قريشًا وكنانة، وأخ لهما أعني ربيعة وإيادًا، ولا يجوز أن يعزى الأب إلى ابنه؛ إذ كانت النسبة في ذلك لا ترجع إلى الابن إنما ترجع إلى الأب. ولو اعتمد ذلك في الأنساب لاختلطت العزوة إلى كل أب بالأب الآخر فلم يتميّز، ولم يقف عند حدّ دون الآخر، وهذا يؤول إلى الجهالة بالأبطن والأفخاذ والعشائر.

وأمّا شهرة العزوة إلى قيس، فلما فيها من الجماجم والرؤوس والقبائل والأرحاء[٣]، وهي عند النسابين أكبر من تميم ومن بكر ابني مُرّ بن أدّ بن طابخة؛ إذ كان في قيس بنو عَبْس، وذُبْيان، وغَطَفان، وأَعْصُر، وهَوازِن، وعُدْوان، وفَهْم، وهم جَدِيلة قيس، وسُلَيم، وثَقِيف، وعامِر، وجُشَم، ونَصْر، وبَكْر، وسَعْد، وسَلُول، ورَبِيعَة، وكِلاب، وقُشَير، وحَبِيب، وعُقَيْل، وحَرِيش، وخَفَاجَة، وطَهْفَة، وغير ذلك من الأفخاذ والعشائر التي تشرح في مواضعها بمشيئة الله وعونه.

وأما نزار بن معدّ بن عدنان، ففيها من الأبطن والأفخاذ والعشائر، كبني رَبِيعَة الفَرَس، وضُبَيْعَة أَضْجَم، وأَكْلُب، وأَسْلم، ويقدم، وأجلان، وهميم، وعبد القَيْس، ودُهْن، والنَّمِر، وتَغْلِب، ووَائِل، وبَكْر، وصعب، وعلي، وحبيب، وعَنَزَة، وعَنْز، ورُفَيْدة، وإراشة، ويَشْكر، وعُكَابَة، وعِجْل، ولُجَيْم، وحَنِيفَة، وزِمَّان، والدول[٤]،

---

(١) العُزوة: الإسناد، أو الانتماء، من عزا يعزو عزوًا: أي انتسب وانتمى.
(٢) ذيل الأعقاب: العقب: الولد، أو ولد الوالد الباقون بعده، والذّيل في العقب: الأخير.
(٣) الأرحاء: مفردها «رحى» والأرحاء هنا: جماعة العيال، ورحى القوم: سيّدهم، والأرحاء: القبائل التي تستقلّ بنفسها ولا تغادر مكانها. «انظر اللّسان، مادة رحا».
(٤) الدّول: بضمّ الدال وإسكان الواو، وهو غير الدّؤل التي ينسب إليها أبو الأسود الدّؤلي.

وشَيْبَان، وذُهْل، ومَازِن، وسَدُوس، وبِليّ، وعَوْف، وبَدْر، ومَعْن، ودُعْمِيّ، وزُهْرَة، وحُذَافة.

فأمّا أَنْمَار بن نِزَار، فانقلب في يمن كما انقلبت قضاعة في غير ذلك من الأفخاذ والعشائر مما بين في موضعه إن شاء الله تعالى، والحمد لله.

وأما يمن، فهم أولاد قحطان، بن عابر، بن شالخ، بن أَرْفَخْشَذ، بن سَام، بن نوح عليه السلام.

وفيها عدّة جماجم وقبائل وأبطن وأفخاذ وعشائر: كسَبإ، وطَيِىء، والأَشْعر، وحِمْيَر، وقُضَاعة، وغَسَّان، وأَوْس، والخَزْرَج، والأَزْد، ولَخْم، وجُذَام، وعَامِلَة، وخَوْلان، وغَافِق، ومَذْحِج، وحَرْب، وسَعْد العَشِيرة، ومَعَافِر، وهمْدان، وكِنْدَة، وكَلْب، ومَهْرَة، وصِنْهَاج[1]، وبَارِق، وبَجِيلَة، وثَعْلَبة، ودَرْما، وزُرَيْق، وعُنَيْز، وعَتَّاب، وبُحْتُر، وجرْم، ومُرَاد، وعَبْس، وجُعْفِيّ، وسَلْمَان، وتُجِيب، وصدا، والنَّخع، والصَّدِف، وحَضْرَمَوْت وغير ذلك.

وكل ما ذكرناه فهو أبطن وأفخاذ وعشائر مختلطة، وما قصدنا فيها الترتيب، على طبقات النسب والتعقيب، وإنما جئنا من كل عُزْوة ببعض مشاهيرها التي تنسب إليها: ليتبيّن بعضها من بعض ويعلم غرضنا في تحرير ما قدمناه، والله أعلم.

* * *

وأما عِزْوة العرب إلى يمن، وهم ولد قحطان، فلكونهم نزلوا اليمن؛ وكان منهم ملوك الحِيرة[2]، وأصحاب سدّ مأرب[3] فتيامنوا، فنسبوا إلى اليمن.

---

(١) الذي في القاموس: وصنهاجة قومٌ بالمغرب من ولد صنهاجة الحميري، وفي تاج العروس: قال ابن دريد: بضمّ الصّاد ولا يجوز غيره، قال شيخنا: والمعروف عندنا الفتح خاصة في القبيلة بحيث لا يكادون يعرفون غيره.

(٢) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يُقال له النّجف، زعموا أن بحر فارس كان يتّصل به، وبالحيرة: الخورنق يقرب منها، والسّدير: في وسط البرّية التي بينها وبين الشام. «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٢٨ وما بعدها».

(٣) سدّ مأرب: قال المسعوديّ: وكان هذا السدُّ من بناء سبإ بن يشجب بن يعرب، وكان سافله سبعين واديًا، ومات قبل أن يستتمّه، فأتمّته ملوك حمير بعده، وقال أيضًا: بناه لقمان بن عاد، ومأرب: بلاد الأزد باليمن، وقال السّهيلي: اسم قصر كان لهم. «معجم البلدان ٥/ ٣٤».

وقيل: إنما قيل لهم: يمن بأَيْمَن بن هَمَيْسَع بن حِمْيَر، وهو جدّ الملوك التبابعة، والأوّل أولى.

وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نسبه إلى اليمن، لأجل أن الملوك كانت في اليمن: مثل آل النُّعْمان بن المُنْذِر بن لَخْم، وآل سَلِيح من قُضَاعة، وآل مُحَرِّق، وآل العَرَنْجِجَ، وهو حمير الأكبر بن سبأ كالتبابعة والأذواء[١] وغيرهم.

والعرب يطلبون العزّ ولو كان في شامخات الشواهق وبطون الأمالق[٢] البوالق[٣] فينتسبون إلى الأعز لحماية الحمية وإباءة الدنية وسكون النفوس إلى نفيس الكثرة والعصبية بطريق دقيق في النظر لا على الظن المشتهر؛ كما جرى لقضاعة بن معدّ بن عدنان لما خلف على أمّه الجرهمية بعدُ مالك بن مرة بن عمرو بن زيد بن مالك بن حمير أباه معدّ بن عدنان؛ فجاءت بقضاعة على فراش مالك بن مرّة فنسبه العرب إلى زوج أمّه [مالك بن مرة، عادة للعرب فيمن يولد على فراش زوج أمّه][٤]. وقيل: إن اسم الجرهميّة: قضاعة، فلما جاءت بولدها سمّته باسمها. وقيل: بل كان اسمه عميرًا، فلما تقضّع عن قومه أي بعد سمّي قضاعة. والعادة عند العرب أن تنسب الرجل إلى زوج أمّه؛ ألا ترى أنها قالت في عبد مناة بن كنانة: بنو عليّ وهو علي بن مسعود الأزديّ وكان حضن بني أخيه لأمّه وهم بكر وعامر ومرّة أولاد عبد مناة بن كنانة، فغلب اسمه عليهم لما تزوّج أمّهم هند ابنة بكر بن وائل وخلف عليها بعد أخيه، فضمّ إليه بني أخيه المذكورين مع أمّهم هذه، وهم صغار فربوا في حجره[٥]، فنسبهم العرب إلى عليّ. وسيأتي من هذا الباب أمثال له في مواضعها، إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) التبابعة: مفردها «تبّع» وهو لقب ملوك اليمن القدامى، والأذواء: ملوك اليمن من ذي يزن، كسيف بن ذي يزن وغيره.
(٢) الأمالق: الصخور. (٣) البوالق: القفار.
(٤) ما بين قوسين زيادات وجدت في نسخة «الجوّاني» المخطوطة، ولم توجد في الأصل «الفوتوغرافي».
(٥) حجره: كنفه ورعايته.

والطبقة الثانية الجماهير، والتجمهر: الاجتماع والكثرة، ومنه قولهم: جماهير العرب أي جماعتهم، ومنه ترجمة مجموع لغة العرب «الجمهرة» الكتاب الذي ألفه أبو بكر بن دريد[(١)] وجمهرة «الأنساب» أي مجموعها، والله أعلم.

* * *

والطبقة الثالثة الشعوب، واحدها شِعْب؛ ويقال: شَعْب، ويقال في القبيلة بالفتح وفي الجبل بالكسر، وهو الذي يجمع القبائل وتتشعّب منه، ويشبه بالرأس من الجسد؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣] الآية.

* * *

والطبقة الرابعة القبيلة، وهي التي دون الشعب تجمع العمائر؛ وإنما سمّيت قبيلة لتقابل بعضها ببعض واستوائها في العدد؛ وهي بمنزلة الصدر من الجسد.

* * *

والطبقة الخامسة العمائر، واحدها عِمَارة، وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون، وهي بمنزلة اليدين.

* * *

والطبقة السادسة البطون، واحدها بطن، وهي التي تجمع الأفخاذ.

* * *

والطبقة السابعة الأفخاذ، واحدها فَخِذ وفِخْذ، مثل كبد وكبد، وهي أصغر من البطن، والفخذ تجمع العشائر.

* * *

والطبقة الثامنة العشائر، واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون[(٢)] إلى أربعة آباء، وسمّيت بذلك لمعاشرة الرجل إيّاهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢١٤]، فدعا النبيّ ﷺ علياء قريش إلى أن اقتصر على بني عبد مناف،

---

(١) ابن دريد: هو محمد بن الحسن بن دُريد الأزدي، أبو بكر، من أئمّة اللغة والأدب، وكانوا يقولون: ابن دُريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء، من كتبه الاشتقاق، والمقصور والممدود، توفي ببغداد سنة ٩٣٣ م. «فهرس الأعلام ٦/ ٨٠».

(٢) يتعاقلون: يرتبطون بحبل النسب، والعقال: الحبل.

وهم يجتمعون معه في الجدّ الرابع، فمن هاهنا جرت السنّة بالمعاقلة إلى أربعة آباء؛ وهم بمنزلة الساقين من الجسد اللتين يعتمد عليهما دون الأفخاذ.

* * *

والطبقة التاسعة الفصائل، واحدها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصّته، قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾ [المعَارج: الآيات ١١ - ١٣]، وهي بمنزلة القدم.

* * *

والطبقة العاشرة الرهط، وهم رهط الرجل وأسرته، بمنزلة أصابع القدم. والرهط دون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النّمل: الآية ٤٨]، قال السيد أبو طالب[١] في قصيدته المشهورة التي يمدح فيها سيّدنا رسول الله ﷺ:

وأحضرتُ عند البيتِ رهطي وأسرتي ... وأمسكتُ من أثوابه بالوصائل[٢]

ورهطه بنو عبد المطلب وكانوا دون العشرة، وأسرته من بني عبد مناف الذين عاضدوه[٣] في نصرة سيدنا رسول الله ﷺ.

تمثيل التفصيل ـ عدنان جذم، قبائل معدّ جمهور، نزار بن معد شعب، مضر قبيلة، خندف عمارة، وهم ولد إلياس بن مضر، كنانة بطن، قريش فخذ، قصي عشيرة، عبد مناف فصيلة، بنو هاشم رهط.

وحيث انتهى القول في ذكر الطبقات، فلنأخذ الآن في بسط النسب وسرده، فنقول وبالله التوفيق.

---

(١) أبو طالب: هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، عمّ النبيّ ﷺ، ووالد الإمام عليّ رضي الله عنه، كان من أبطال بني هاشم، وقد نشأ النبيّ الكريم في بيته، وكان له كافلًا ونصيرًا ومربّيًا، مولده ووفاته بمكة سنة ٦٢٠ م. «فهرس الأعلام ٤/١٦٦».

(٢) الوصائل: ما يوصل به الشيء، أو هي من ثوب: نسيجه وما يغزل منه، والوصيل: برود اليمن، وفي الحديث: إنّ أوّل من كسا الكعبة كسوة كاملة تُبّع، كساها الأنطاع، ثم كساها الوصائل: أي حِبَر اليمن، وهي المقصودة هنا. «انظر اللّسان، مادة وصل».

(٣) عاضدوه: ناصروه وعاونوه وشدّوا عضدَه.

أصل النسب

أبو البشر آدم عليه السلام

وآدم هو الجدّ الخمسون لسيّدنا رسول الله ﷺ وعمود النسبِ الطاهر المحمديّ من آدم عليه السلام في ابنه شيث بن آدم عليهما السلام، وهو هبة الله، وأمّة جواء أمَة الله.

ولمّا قتل قابيل[١] بن آدم أخاه هابيل[٢]، ولد شيث؛ وقال آدم عليه السلام: هذا هبة من الله وخلف صالح، وهو الذي بنى الكعبة ـ شرّفها الله تعالى ـ بالطين والحجارة على موضع الخيمة التي كان الله تعالى وضعها لآدم من الجنّة.

وقال وهب[٣]: إن الله تعالى أنزل على شيث خمسين صحيفة، ورزق عدّة من البنين والبنات.

والعقب منه في ابنه أنوش بن شيث وأمّه لبود ابنة آدم عليه السلام، وهو الذي غرس النخلة وزرع الحبّة، ونطق بالحكمة؛ وتدعى أمّه محوايلة البيضاء.

والعقب منه في ابنه قينان بن أنوش، وله ولد اسمه أروى (أعني لأنوش)، أعقب وانقرض عقبه.

والعقب من قينان في ابنه مهلائيل بن قينان، ولم يرزق غيره.

والعقب منه في ولده يارد بن مهلائيل، وكان ليارد أخوة.

والعقب من يارد في ابنه أخنوخ بن يارد، وهو إدريس النبيّ عليه السلام، وأمّه تدعى برّة. قيل: سمّي إدريس لدرسه الصحف الثلاثين التي أنزلها الله تعالى عليه، وهو أوّل من خطّ بالقلم، وكان له إخوة انقرضوا[٤].

---

(١) قابيل: ابن سيّدنا آدم، قدّم قربانًا إلى الله فلم يقبل منه.

(٢) هابيل: ابن سيّدنا آدم، قدّم قربانًا إلى الله، فنزلت نارٌ من السماء فأكلته، وذلك كان دليل قبوله، ولذلك قتل قابيل أخاه هابيل، حسدًا وغيرة. «انظر القرآن الكريم، سورة المائدة، الآيات: ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠».

(٣) وهب: هو وهب بن مُنبِّه الأنباري الصّنعاني الذّماري، أبو عبد الله، مؤرّخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالمٌ بأساطير الأوّلين، أصله من الفرس، ولد ومات بصنعاء سنة ٧٣٢ م، ولّاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء. «فهرس الأعلام ٨/ ١٢٥، وفيات الأعيان ٦/ ٣٥».

(٤) انقرضوا: بادوا، ولم يبق منهم أو من عقبهم أحد.

والعقب منه في ابنه متوشلخ بن أخنوخ، وأمه بروخا.

وعقبه في ابنه لمك بن متوشلخ، واسمه لامخ.

والعقب منه في ابنه نوح النبيّ عليه السلام، وأمّه قينوش ابنة بركائل بن محوايل، وهو عليه السلام آدم الثاني؛ لأنه لا عقب لآدم عليه السلام إلّا من نوح وولده. وإخوة نوح عليه السلام جماعة: منهم صالح بن لمك، وسقطان، ومنان، وترسيس، وصدفا؛ وكان لهم أولاد انقرضوا كلهم والعقب من نوح لا غير، ورزق لمك والد نوح عليه السلام نوحًا، وله من العمر مائة واثنان وثمانون سنة، وتوفي وقد مضى من عمر نوح خمسمائة سنة.

واختلف في عمر نوح، فقيل: عاش ألف سنة إلا خمسين عامًا، ستمائة قبل الطوفان وثلاثمائة وخمسين سنة بعده. وقيل: بل لبث قبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عامًا، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في قصته في التاريخ. وعمود النسب من نوح في ابنه سام بن نوح عليه السلام، وسام هو الجدّ الأربعون لسيّدنا رسول الله ﷺ، وأمّه عمردة، وإخوة سام: حام، ويافث، وبوناطل، وسالوم، وهو الذي غرق في الطوفان.

وأمّا سام بن نوح، فإن الله تعالى جعل في ذرّيته الكتاب والنبوّة والملك والجمال والبياض، ونزلوا ما بين ساقيد إلى البحر، وما بين البحر إلى الشام، وهو وسط الأرض، والحرم وما حوله، والحرم إلى حضرموت، وإلى عمان، وإلى عالج والدهناء.

والعقب من يافث بن نوح طرسوس، وهمذان، والجبال، والجزر، وفرنجة، والصقالبة الذين على تخوم[1] القسطنطينية، وإشكار، والترك، وقبرس، ويأجوج، ومأجوج، وكومر، والمصيصة، وأدنة، وروادنيم، وماسج، وخراسان، وباوال، ويونان، وبرجام، وكرد بن مرد بن يافث.

قال: وهذه رواية العلماء بالنسب، وسنذكر خبر كرد بعد هذا في موضعه.

ومن ولد يونان بن يافث الروم واليونانيون؛ كان منهم الفلاسفة وأهل الحكمة كالإسكندر وغيره.

---

(١) التخوم: مفردها التُّخم، وهو الحدّ الفاصل بين أرضين وبلدين.

وولد بوناطل بن نوح: وهو الذي عقد الألوية للناس حين تفرّقوا: الأرغار، والبعاس، والدكايك، والدمشق؛ وهم أمم لا يحصون خلف صين الصين.

والعقب من حام بن نوح، الهند والسند والنوب، والزنج، والحبشة، والقبط، والبربر، ومصرايم أو اسمه مصر بن حام.

وذكر صاحب الشجرة: أن مصرايم أعقب من ابنه لوديم، وأن لوديم أعقب قبط مصر بالصعيد، والبيهيم، والتفوحيم، والبرنسيم، والكشلوجيم، والقابدقابين، ومودشايا، وكوشابا، وهبورشابا.

قال: وهؤلاء بأجمعهم ولد قوط بن حام، وأندلش، وكوشان؛ فولد قوط بن حام مصر، فولد مصر بن قوط قبط، وهم قبط مصر؛ وبهم سمِّيت مصر مصرَ. قال: هذا قول شيوخنا. وذكر أهل التاريخ: أن مصر سُمّيت بمصر بن بيصر بن حام؛ كل ذلك قد قيل وهو الأكثر عن العلماء.

وقال أبو المنذر[١] النسّابة في روايته: إن السّند[٢] والهند وما بينهما من البلاد قتلهم يوشع بن نون إلا بقيّة منهم يسيرة لحقوا بأطراف بلاد السودان، وهم الذين ما بين مصر إلى بلاد السودان، ومنهم البربر والبجة.

وذكر صاحب الشجرة: أن كوش أبو الحبش، وأنه كوش بن حام، وأنه أعقب من نمرود أبي ملوك بابل، ومن أحويلا وهو الواحات، ومن سُفنَا وهو أبو زغاوة، ومن سبإ، ومن سفخا: وهو أبو الدمدم، ومن رعما وهو أبو البقاقو من السودان، والعقب من رعما هذا من سبإ أبي الهند ومن دادان أبي السند.

وذكر أبو المنذر النسّابة أن كنعان بن حام أعقب من حماة، وحمص، وأروادودي، وطرابلس، وصيدون، وهي صيداء، وحاث، ونفوسة، وهوارة، ومُزاتة، وأمورا، وكركاسي، ومزانة من البربر.

قال الجوّانيّ: وهذا كلّه بيِّن الخلاف بين النسابين؛ ومن النسابين من يلحق لَوَاتة وهم ولد بَرّ بالبربر هذا ابن كنعان بن حام، ومن اللواتيين من يقول فيهم: إنهم قيس،

---

(١) أبو المنذر: هو هشام بن محمد بن بشر الكلبي، أبو المنذر، مؤرّخ عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيّامها، من أهل الكوفة له نيّف ومئة وخمسون كتابًا، توفي بالكوفة سنة ٨١٩ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٨٧ ـ ٨٨».

(٢) السّند: بلاد من بلاد الهند وكرمان وسجستان، قالوا: السّند والهند كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح. «معجم البلدان ٣/ ٦٧».

ويعبرون أنهم من ولد جابر بن بَغِيض، بن رَيْث، بن غَطَفان؛ وأنّ جابرًا جدّهم عمّ فزارة. ومن لواتة ومزاتة من يزعم أنهم قوم ناقلة صاروا إلى بلد البربر، وأن البربر إنما هو هوّارة، وصَنْهاجة، وأن أباهم تزوّج امرأة منهم يقال لها: تصوين، فنُسبوا إلى أمّهم، وهوّارة تزعم أنهم قوم ناقلة من يمن جهلوا أنسابهم.

وولد لَوَاتة بن بَرّ: وهو لَواتة أربعة أفخاذ، وهم: زُنّارة، ومَصّانا، ونَيْطا، وتَطُوفَا؛ ولكلّ فخذ من هذه الأفخاذ عدّة عشائر، حصل الإضراب عن ذكرها رغبة في الاختصار، فلنرجع إلى عمود النسب، فنقول:

إن عمود النسب الشريف من سام بن نوح في ابنه أَرْفَخْشَذ بن سام؛ وأمّه من بنات الملوك.

وكان لسام من الأولاد غير أرْفَخْشَذ: إرم ولاوَذ وأَشْوَذ وغُلَيْم وماش (والموصل ولد وأبو الأرمن وخُوزِستان أولاد سام)[1]، وفيهم خلاف عند النسّابين.

والعقب من إرم بن سام من عَوص وجاثَر وماشٍ وأهلُوا وإيران أولاد إرم.

فالعقب من أهلوا بن إرم بن سام: قادسان.

والعقب من أكراد[2] جدّ القبيلة المعروفة بالأكراد، في قول أكثر النسّابين. ومن عشيرة القبيلة من يذكر أنهم من بني عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن العبسيّ، كما نذكره في بني هوازن.

وفي الأكراد عدّة بطون: كالحَلاليّة والمروانيّة وغيرهما.

وقد ذكر بعض النسابين أن كُرد بن مُرد بن يافث بن نوح، وفي ذلك خلاف.

والعقب من عَوص بن إرم بن سام: عاد، وبه سمّيت عاد إرم.

والعقب من ماشٍ بن إرم بن سام من نَبِيط: وهو نَبَط سواد العراق.

---

(١) هكذا في الأصل بحروفه، وجاء في «العبر» لابن خلدون: أن بني أشوذ هم أهل الموصل، وبني غليم أهل خوزستان، ولعلّه الصواب.

(٢) لعلّه: والعقب من إيران في كرد، الخ... انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، المعروف بتاريخ ابن خلدون.

والعقب من جاثَر بن إرم: ثمود وجَدِيس، فالعقب من ثمود بن جاثَر: فالَج وهَيلع وبَنوق وأرام؛ ومن ولده صالح النبيّ عليه السلام ابن أسف بن كَماشِج بن أرام بن ثمود.

والعقب من لاوَذ بن سام: عِمْليق وهو أبو العمالقة والفراعنة والجبابرة بمصر والشام، وطَسم بن لاوَذ وأُمَيْم بن لاوذ. وفرعون موسى: هو الوليد بن مصعب بن أَسْمير بن الهُون بن عمليق بن لاوذ بن سام.

وولد الفرس أشُور[١] بن سام: تَيرش وهم الفرس؛ وبهم سمّيت فارس؛ ومنهم الأكاسرة.

وولد غُلَيْم بن سام: خُوزان وهم الخُوز الذين مساكنهم بلاد الأهواز مما يلي بحر الصين.

فلنرجع إلى سرد عمود النسب، فنقول: إن عمود النسب منه في شالَخ[٢] بن أرفخشذ وكان له من الأولاد غير شالَخ مالك وقَينان ابنا أرفخشذ. قال: وزعموا أن قينان أوّل من نظر في علم النجوم بعد الطوفان، واستنبط ذلك من تَنُّورِ صُفْر كان فيه علمُها قبل الطوفان، ودُفن في الأرض فاستخرجه وعَلِمَ ما فيه.

والعقب من شالَخ في ابنه عابَر بن شالخ، وعابر: هو هود النبيّ عليه السلام، وأمّه مَرجانة وهو جماع النسب. وله من الأولاد: فالغَ، وفيه عمود النسب، وهو أبو قريش وقحطان ويَقْطُن. فولد يقطن بن عابر: جُرْهُم بن يقطن، كانوا ولاة البيت الحرام فمكثوا ما شاء الله، ثم استحلّوا المحارم، وكثرت فيهم المآثم، فأخرجهم الله تعالى من جوار بيته، ورماهم بالفناء[٣] فلم يبق منهم أحد. وفيهم يقول القائل: [من الطويل]

* وبادوا كما بادت بقيّةُ جُرْهُمِ[٤] *

---

(١) هكذا بالأصل، وفي «العبر» أنهم من ولد إيران بن أشوذ بن سام بن نوح، وفي تاريخ «ابن الأثير» أنّهم بنو فارس بن تيرش بن ماسور بن سام.

(٢) وردت هكذا في كلّ المصادر التي يُعتمد عليها في النسب، ووردت في الكتاب المقدس في سفر التكوين «شالح» بالحاء المهملة.

(٣) الفناء: الزّوال.

(٤) بادوا: هلكوا وانقرضوا، وجُرْهُم: من القبائل البائدة التي انقرضت، وهي من العرب العاربة.

وقحطان بن عابر هو أبو اليمن كلّها، وجذْم نسبها.

وولد قحطان هم العرب المتعرّبة؛ إذ العرب ثلاث فرق: عاربة ومتعرّبة ومستعربة.

فأمّا العاربة فهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح، وهم: عاد، ثم ثمود، ثم أُمَيْم، ثم عَبِيل، ثم طَسْم، ثم جَدِيس، ثم عِمْلِيق، ثم جُرْهُم، ثم وَبَارِ. فعاد وعبيل ابنا عوص بن إرم بن سام بن نوح، وطسم وعمليق وأميم: بنو لاوذ بن سام؛ وثمود وجديس ابنا جاثر بن إرم بن سام؛ ووبار وجرهم ابنا فالغ بن عابر؛ فهذه العرب العاربة.

وأمّا المتعرّبة فهم بنو قحطان بن عابر الذين نطقوا بلسان العرب العاربة، وسكنوا ديارهم.

وأمّا المستعربة فهم بنو إسماعيل بن إبراهيم، وهم بنو عدنان بن أُدّ.

قال الشريف الجوّاني: وهذا مختصر من نسب اليمن، قال: إن العقب من قحطان بن عابَر من يَعْرُب بن قحطان، وهو الذي زعمت يمن أن العرب إنّما سميت عربًا به، وأنّه أوّل مَن تكلّم بالعربية ونزل أرض اليمن، فهو أبو اليمن كلّها.

وذكر بعض النسّابين أن حضرموت بن قحطان، وإليه يُنسب كلّ حضرميٍّ، وقيل: حضرموت من ولد حمير، وإنه حضرموت بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قُطْن بن عَرِيب بن زُهَيْر بن أَيْمَن بن الهَمَيْسع بن حِمْيَر، قال: وعلى ذلك اعتماد شيوخنا في النَّسَب.

وقال آخرون: هو حضرموت بن يقطان بن عابر.

فولد يَعْرُب بن قحطان: يَشْجُب؛ فولد يشجب بن يعرب: سبأ واسمه عبد شمس؛ وإنما سُمّي بسبإ لأنه أوّل من سَبَى من العرب، فولد سبأ بن يشجب: حِمْير وكَهْلان.

وقالت طائفة من النسّابين: ومِراء بن سبإ، فولد مرَاء بن سبإ: شعبان قبيلة وصَرِيحان قبيلة، ولهم عدد ومدد.

وولَد حمير بن سبأ بن يشجب: مالكًا وعامرًا وعوفًا وسعدًا ووائلة وعمرًا وهميسعًا.

فأمّا عمرو بن حمير فهم آل ذي رُعَيْن ملوك اليمن: وهم بنو الحارث بن عمرو بن حمير.

ومن النسّابين من ينسب ذا رُعَيْن إلى أنه ولد زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قُطْن بن عَرِيب بن زهير بن أيمَن بن الهَمَيْسع بن حِمْير، وهم عشيرة ذي أصبح[1] وعشيرة سيف بن ذي يزن[2].

قال: وشيخنا في النسب ينسبون التبابعة الملوك إلى أيمن بن هميسع بن حمير، ولا خلاف عندهم فيه وأنهم يرجعون إلى أيمن.

وأمّا عامر بن حمير، فمنه قبائل يَحْصُب كلّها، وهو يحصب بن دُهمان بن عامر بن حمير، قال: ومن شيوخ النسب من قال: يحصب بن ذي يزن بن ذي أصبح بن زيد بن الغَوْث بن سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرْعة، وهم حمير الأصغر.

وأما هَمَيْسَع بن حمير، فمن ولده: صَنْهَاجَة، القبيلة المشهورة المعقبة بالمغرب، وفي ذلك خلاف؛ وهي من بني زُهَيْر بن أيْمَن بن هَمَيْسَع بن حِمْيَر، وصَنْهَاجة اسم الجدّ للقبيلة كلها، وهو صَنْهَاجَة بن المثنّى بن المِسْور بن يَحْصب بن ذي يَزَن بن ذي أَصْبَح بن زيد بن الغَوْث بن سعد بن عَوْف بن عَدِيّ بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، وهم حِمْير الأصغر بن سَبَإ الأصغر بن كَعْب بن كَهْف الظلم، بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قُطْن بن عَرِيب بن زُهَيْر بن أَيْمَن بن هَمَيْسع المذكور.

قال: وإلى ذي أَصْبَح هذا يرجع الإمام مالك بن أنس الأَصْبَحيّ، وقيل: ذو يزن بن أسلم بن زيد، وذو أصبح بن مالك بن زيد.

قال: ومن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس هذا الذي في عمود النسب ثلاث بطون غير سهل بن عمرو، وهم: شَعْبان بن عمرو، وحَيْران بن

---

(١) ذو أصبح: لعلّه: أصبحُ بن عمرو بن الحارث، من بني زرعة، وهو حمير الأصغر جدّ يماني، من قحطان، ينسب إليه «الأصابح» وهم قبائل في لحج. «فهرس الأعلام ١/٢٣٣».

(٢) هو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح الحميري، من ملوك العرب اليمانيّين ودهاتهم، ولد ونشأ بصنعاء، وقد وفدت عليه أمراء العرب، ومكث في الملك نحو خمسٍ وعشرين سنة قتله الأحباش نحو سنة ٥٧٤ م. «فهرس الأعلام ٣/١٤٩».

عمرو، وحضرموت بن عمرو؛ وحضرموت هذا هي القبيلة التي يُنْسَب إليها كلّ حضرميّ وقد تقدّم ذكره.

وأما سعد بن حمير، فمنه السّلَف البطن المشهورة، وأسْلم بطن: وهما ابنا ربيعة بن سعد بن حمير.

وأما وائلة بن حمير، فمنهم السّكاسِك، وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير، وهي غير سكاسك كندة.

وأمّا مالك بن حِمْيَر فمن ولده قُضاعة، وهم: قُضاعة بن مالك بن مُرَّة بن عمرو بن زيد بن مالك بن حمير البطن المشهورة على ما نذكره، وقيل: إنها من ولد مَعَدّ بن عَدْنان، وفي ذلك يقول القائل: [من الطويل]

أبوكم مَعَدٌّ كان يُكنَى ببكره قُضاعةَ ما كنّى به من تجمجما[1]

ومن قضاعة ثلاث بطون، وهم: عِمْران بن الحاف بن قضاعة، وعمرو بن الحاف، وأَسْلَم بن الحاف بن قضاعة.

فأمّا البطن الأولى من قضاعة، وهم ولد عِمران، فأعقب حُلْوان بن عِمران بن الْحافِ بن قضاعة من خمس قبائل، وهم: تَغْلِب الغَلْباء، ويقال: تَغلَبيّ قُضَاعيّ أو يمنيّ، يراد به هذا الأب، وتَغلَبيّ مَعَدّيّ أو نِزاريّ، فيراد به تَغْلِب بن وَائل بن قاسِط الذي في أَسَد بن رَبيعة بن نِزار، وعَشْم بن حلوان، وزَبّان بن حلوان، وعمرو بن حلوان، وهو سَلِيح وتَزِيد بن حُلوان (بالتاء باثنتين من فوق وفتحها).

والعقب من تَغْلِب بن حُلْوان بن عِمْران بن الحاف بن قُضاعة: وَبَرة بن تَغْلِب.

والعقب من وَبَرة بن تَغْلِب من خمس أفخاذ: كَلْب بن وَبَرة، وإليه يُنسب كلّ كَلْبيّ، وفيهم عدّة أفخاذ وعشائر: كبني عَوف وبني ضَمْضَم وبني عُلَيْم وبني زهير وبني كِنانة، والجميع عشائر يرجعون إلى عُذْرة بن زيد الله بن رُفَيْدة بن ثور بن كلب، وعُرَيْنة بن ثور بن كلب بن وبرة، وإليه يرجع كل عُرَنيّ، وأَسَد بن وَبَرة، والبُرَك بن وَبَرة، والنَّمِر بن وَبَرة، والتغلب بن وبرة، وفهد، وضبع، ودبّ، وسِيد، وسرحان، وذئب أولاد وَبَرة بن تَغلِب الغَلْباء.

(١) تجمجم في الكلام: لم يبيّن كلامه، وتجمجم الشيء في صدره: أخفاه ولم يبده.

فمن أسد بن وَبَرة: بنو القَيْن بن جَسْر بن شَيْع الله بن أسد، وتَنُوخ، وهو مالك بن زهير بن عمرو بن فَهْم بن تَيْم الله بن أسَد؛ وإلى تَنُوخ هذا يُنْسَب كلّ تَنُوخيّ، وإليه يرجع أبو العلاء المَعَرّي[١] الشاعر.

وأعقب نَمِر بن وَبَرة بن تَغْلِب في ثلاث أفخاذ: خُشَيْن، وإليه يرجع كلّ خُشَنيّ وهو نُمَيْر، منهم أبو ثَعْلَبة الخُشَنيّ الصحابيّ[٢] رضي الله عنه، ومَشْجَعة بن تَيْم بن النَّمِر بن وَبَرة، وإليه يرجع كلّ مَشْجَعيّ، وغَاضِرة بن النَّمِر وعاتية بن النمر إلّا أنهما دخيلان في سُلَيْم، قالوا: عاتية وغاضرة ابنا سليم بن منصور.

وأما زَبّان بن حُلْوان فأعقب من جَرْم بن زَبَّانَ، وإليه يرجع كلّ جَرْميّ. وفي جَرْم عدّة بطون: منها مَلَكان بن جَرْم (بفتح الميم واللام)، بطن.

وأما عمرو بن الحاف بن قضاعة، فأعقب من ثلاث أفخاذ: بَلِيّ بن عمرو، وبَهْرَاء بن عمرو، وحَيْدان، وقيل: حُدّان بن عمرو؛ وإلى بَليٍّ هذا يُنسب كلّ بَلَوِيّ ككعب بن عُجْرة البَلَوِيّ، وبنو العَجلان، وبنو أنَيف، وبنو عصية[٣]، وهم كلّهم حلفاء الأنصار: بني عمرو بن عوف من الأوس، وهي قبائل من بَليٍّ في الأنصار، منهم: المُجَذَّر بن ذِياد وطلحة بن البرّاق، وأبو بُرْدة بن نيار الصحابيّ بَلَوِيّ حليف الأنصار واسمه هانىء.

وأمّا بَهْرَاء بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة، فإليه يُنسب كلّ بَهْرَانيّ، كالمِقْداد بن الأسْوَد الكنديّ، ولم يكن كنديًا ولكن كان بَهْرَانيًا قُضاعيًا؛ لأنه المِقْداد بن عمرو بن ثَعْلبة بن مالك بن رَبِيعة بن ثُمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن لؤيّ بن ثعلبة بن مالك بن الشَّرِيد بن أبي أهون بن قيس بن دُرَيْم بن القين بن أهْود بن بهراء. وإنما قيل: المِقْداد بن الأسْود لأن الأَسْود بن عبد يَغُوث بن وَهْب بن عَبْدَ مَنَاف بن زهرة تبنّاه لحلف كان بينهم فنُسب إليه، وكان أبوه عمرو حليفًا في كندة، وفي بَهْراء بطون.

(١) أبو العلاء المعرّي: هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنّوخي المعرّي، شاعر فيلسوف، وُلد ومات في معرّة النعمان سنة ١٠٣٨ م، أصيب بالجدري صغيرًا فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. «فهرس الأعلام ١/ ١٥٧».

(٢) أبو ثعلبة الخشني، الصحابي، والخشني نسبة إلى قبيلة من قضاعة تدعى «خشين»، محدّث مات سنة ٧٥ هـ. «الكاشف ٣/ ٢٨١».

(٣) هكذا في الأصل، وفي كتاب أبو البركات الجوّاني «غُصينة».

وأما حَيْدان، ويقال: حُدّان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فمن بطونه خمس: عَريب بن حيدان، وعُرَيْد بن حيدان، وتزيد بن حيدان؛ وإليه تُنسب الثياب التَّزِيديَّةُ، ومَهْرة بن حَيْدان، وإلى مَهْرة هذا يُنسب كلّ مَهْرِيّ، وفي مَهْرة أفخاذ، وحَيَاد بن حَيْدان.

وأمّا أسْلُم بن الحاف بن قضاعة، فأعقب من فخذين: حَوْتكة وسُود؛ فأمّا سُود بن أسلم بن الحاف، فأعقب من زيد وليث ابني سود، وأعقب زيد بن سود من أربع بطون: جُهَيْنة، وإليه يرجع كلّ جُهَنِيّ، ونَهْد: رهط أبي عثمان النَّهديّ، وإليه يرجع كلّ نَهْديّ، وسَعْد هُذَيْم، وعُذْرة، وإليه يرجع كلّ عُذْريّ أولاد زيد بن سود بن أسلُم بن الحاف بن قضاعة.

وقال ابن الكلبيّ(١): عُذْرة بن زيد اللّات بن رُفَيْدة بن كَلْب بن وَبَرة.

فأمّا جُهَيْنة بن زيد، فرهط عُقْبة بن عامر الجُهَنيّ(٢) الصحابيّ، وفي جُهَيْنة الحُرْقَة وهم بنو أَحْمَس بن عامر بن مُودَعَة بن جُهَيْنَة.

وفي نَهْد بن سُود المقدّم ذكره: بنو حُرْقَة بن خُزَيْمَة بن نَهْد.

وفي عُذْرَة بن زيد بن سُود بن أسلُم: بنو ضِنَّة (بالنون) بن عَبْد بن كبير بن عُذْرَة بن زَيْد بن سُود بن أَسْلُم بن الْحَافِ بن قُضَاعَة.

ومن ولد لَيْث بن سُود بن أَسْلم: بنو عِلَّة (بكسر العين مشدّدة اللام) بن غَنْم بن سَعْد بن زَيْد بن لَيْث بن سُود، وفي سَعْد هُذَيْم بن زيد بن سُود: بنو عِلَّة بن غَنْم بن ضِنَّة بن سَعْد هُذَيْم بن زَيْد بن سُور بن أَسْلُم.

قال: فهذا نهاية الاختصار في نسب حِمْير، وهذا ولد كَهْلان أخيه.

قال: وولدَ كَهْلَانُ بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان بن عابَر عليه السلام: زيدًا، فولد زَيْد بن كَهْلَان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن قَحْطَان: مَالِكًا وعَرِيبًا وهما فخذان.

---

(١) ابن الكلبي: هو محمد بن السّائب الكلبي، أبو النّضر، نسّابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيّام العرب، من أهل الكوفة توفي سنة ٧٦٣ م، وهو والد هشام «أبو المنذر». «فهرس الأعلام ٦/ ١٣٣».

(٢) هو عقبة بن عامر الجهني، صحابي كبير، أمير شريف، فصيحٌ مقرىء، فرضي، شاعر، ولي غزو البحر، مات بمصر سنة ٥٨ هـ، وذكر الواقدي أن دفنه كان بجبل المقطّم بالقاهرة. «الكاشف ٢/ ٢٣٧».

فالعقب من عَريب بن زَيْد بن كَهْلان من يَشْجُب.

والعقب من يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كَهْلان من زيد بن يَشْجُب.

والعقب من زيد هذا: أُدَد بن زيد بن يَشْجب.

والعقب من أُدَد في طَيِّىء بن أُدَد، واسمه جُلْهُمة؛ وهو البطن العليا، وإليه ينسب كل طائيّ، والأَشْعر بن أُدَد، وإليه يرجع كل أَشْعَريّ، واسم الأشْعَر نَبْت، وإنما قيل له الأَشْعَر لأنه وُلد أَشْعَر الجسد، ومَالِك بن أُدَد وهو مَذْحِج، وإليه يرجع كلّ مَذْحِجيّ، وقيل: إن مَذْحِج أمّ مالِك بن أدد فنُسب إليها ولدها. وقيل: بل هي أكمة(١) حمراء وُلد عليها مالِك، فعُرف بها ولدُه، وقيل: بل اجتمعوا على الأكمة باليمن، والأكمة تسمى مَذْحِج، فقالوا: تعالوا نجعل مذحِجًا أمًّا.

وذكر ابن عبد البرّ(٢) في روايته: أن سيّدنا رسول الله ﷺ قال: «أكثر القبائل في الجنّة مَذْحِج»، ومَذْحِج إحدى الجماجم التسع من جماجم العرب، سُمُّوا جماجم لأن ميلادها استوى بميلاد قبائل بإزائها من أفناء العرب، ثم تفرّعت منها قبائل اجترأت بأسمائها والانتساب إليها، فبعدت عنها واكتفت بانتسابها إليها. ومُرَّة بن أُدَد: أربع أبطن لأُدد.

والعقب من طيىء بن أُدَد بن زَيد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كَهْلان من فخذين: فُطْرَة والغَوْث ابني طيىء.

والعقب من فُطْرة بن طَيِّىء بن أُدَد من سَعْد بن فُطْرة، ومنه في خَارِجَة بن سَعْد ومنه في جُنْدَب، ومنه في رُومَان بن جُنْدَب.

والعقب من رُومَان بن جُنْدَب بن خَارِجَةَ بن سَعْد بن فُطْرَة من بطنين: ذُهْل وثَعْلَبة، وهما الثَّعْلَبَتان وجماعة صغار.

والعقب من الغَوْث بن طَيِّىء من عَمْرو بن الغَوْث.

---

(١) الأكمة: التلّ.

(٢) ابن عبد البرّ: هو يوسف بن عبد الله بن محمد النميري القرطبي المالكيّ، أبو عمر، من كبار حفّاظ الحديث، مؤرّخ أديب بحّاثة، يقال له حافظ المغرب، وُلد بقرطبة وتوفي بشاطبة سنة ١٠٧١ م، له مؤلّفات عديدة منها: الدّرر في اختصار المغازي والسِّيَر، والاستيعاب. «فهرس الأعلام ٨/ ٢٤٠».

والعقب من عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّىء من ثُعَلَ: بطن، ونَبْهَانَ: بطن، وهِنَاء بن عَمْرو: بطن، وثَعْلَبَة بن عَمْرو: بطن، ومَزْرُوعَةَ بن عَمْرو بطن، وحَسَّانَ بن عَمْرٍو: بطن، وزَيْد بن عَمْرو: بطن، وخُشَيْن بن عَمْرو: بطن، وإلى نَبْهَان هذا ينسَبْ كل نبهانيّ.

والعقب من نَبْهانَ بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّىء من ابنيه: سَعْدٍ ونَائِلٍ، ومن بني سَعْد بن نبهان: بنو اليُسْر بن ثَعْلَبَة بن نَصْر بن سَعْد بن نَبْهان: فَخِذٌ، وإلى هِنَاء بن عمرو هذا يُنسب كلّ هنائيّ.

والعقب من ثُعَلَ بن عَمْرو بن الغَوْث(١)، فأمّا سَلَامَانُ فالعقب منه من عُنَيْز وثَعْلَبَة وسَل(٢) أولاد سلامان لصلبه؛ وعُنَيْز هذا جدّ القبيلة المشهورة؛ وثَعْلَبَةُ هذا جدّ ثَعْلَبَةَ طائفةٍ من العربان المجاورين للدّارُوم من الشام وهم بطنان: دِرْما وزُرَيْق، فالعقب من عُنَيْز بن سَلَامَانَ بن ثُعَلَ بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّىء من فخذين: فُرَيْر بن عُنَيْز، له عدد، وعُتُود بن عُنَيْز.

والعقب من عُتُود، مِن مَعْن وبُحْتُر ابنيه، وإليهما يرجع كلّ مَعْنيّ وبُحْتُريّ، والشاعر البُحْتُري(٣) منهم.

والعقب من مَعْن بن عُتُود من ثلاث: ثُوَب، ووُدّ، ومَالِك: بني مَعْن بن عُتُود.

والعقب من ثُوَب بن مَعْن: غَنْم له عدد، وأبو حَارِثَة فأعقب من غَنْم بن ثُوَب بن مَعْن بن سِلْسِلَةَ الفخذَ التي يرجع إليها كلّ بني سِلْسِلَة المَعْنِيّون.

وأما بُحْتُر بن عُتُود بن عُنَيْز بن سَلَامَان، فالعقب منه في تَدُول بن بُحْتُر.

والعقب من تَدُول من ستة أفخاذ: وهم جُذَيّ، وسَنَام، وأيْمَن، وخَيْثَم، وأَعْور، وسَالِم أولاد تدول.

(١) أسقط الناسخ الخبر وهو «من سلامان وجرول، فأمّا الخ. . .» كما يؤخذ ممّا يأتي في التفصيل.

(٢) كذا بالأصل، ولعلّها محرّفة عن «نائل»، «انظر نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي في الكلام عن بني نائل ص ٣٨٢، دار الكتب العلمية».

(٣) البحتري: هو الوليد بن عُبيد بن يحيىٰ الطائي، أبو عبادة، شاعر كبير، ولد بمنبج وتوفي فيها سنة ٨٩٨ م، له ديوان شعر مطبوع، ويقال لشعره «سلاسل الذهب». «فهرس الأعلام ٨/ ١٢١».

وأما ثَعْلَبَةُ بن سَلَامَانَ بن ثُعَلَ بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّيء، فأعقب من عَوْف بن ثَعْلَبَة، وأعقب عَوْفٌ من فخذين: دِرَمَا وزُرَيْق؛ ودِرْما هو عَمْرو بن عَوْف ودِرْما أمّه، فأعقب دِرْما بن عَوْف بن ثَعْلَبة بن سَلَامَان من خمس أفخاذ: سَلَامَة والأحمر وعَمْرو وقَصِير والأَوْس: أولاد دِرْما. وأعقب زُرَيْق بن عَوْف بن ثَعْلَبة من فخذين: لُبْنَى والأشعث ولدي زُرَيْق.

وأما جَرْوَلُ بن ثُعَلَ بن عَمْرو بن العَوْثِ بن طَيِّيء، فأعقب من ابنيه: مُعَاوِيَة ورَبِيعَة؛ فأعقب مُعَاوِيَةُ بن جَرْوَل من سِنْبِس[1]: القبيلة المشهورة، وعَدِيّ ولَوْذَان: أولاد مُعَاوِيَة.

والعقب من سِنْبِس بن مُعَاوِيَة بن جرول من ثلاث أفخاذ: عَمْرو، ولَبِيد، وعَدِيّ؛ فأمّا لَبِيد بن سِنْبِس، فأعقب من حِرْمِز، فأعقب حِرْمِز من يَخْصب وجَرْم؛ وعُقْدَةُ أولاد لَبِيد فخذان. وإلى لبيد هذا تُنسب العرب السَّنابِسَةُ الذين بالبحيرة[2] من أعمال مصر، وهم من فخذ يقال لها: قُتَّةُ بن خَلَّاد.

وأما عَدِيّ بن سِنْبِس بن مَعَاوية، فأعقب من أَبَانِ بن عَدِيّ، وهو فخذ.

والعقب من رَبِيعة بن جَرْوَل بن أبي أَخْزم: هَزومة، وأعقب هَزومة من أَخْزَم، وأعقب أَخْزَم من عَبِشَمْس مكسور الباء متّصلًا.

وأما مَذْحِج، وهو مالك بن أُدَدَ بن زَيْد فأعقب من أفخاذ أربعة: سَعْد العَشِيرة، ومُرَاد: هو يُحَابِرُ، وعَنْس، ولُمَيْس، وجَلْد أولاد مالك وهو مَذْحِج، وإلى مُرَاد هذا يُنسب كلّ مُرَاديّ، وسُمّي مُرَادًا لتمرّده، وإلى عَنْس يُنْسب كلّ عنسيّ، منهم عَمَّار بن ياسِر الصحابيّ[3]، والأسود العنسيّ[4] الكذّاب.

---

(١) ضبط في الأصل بضمّ السين والباء، وكذا في صبح الأعشى ١/ ٣٧٤، وضبطه السّويدي في سبائك الذهب، فقال بفتح السين، وذكر في القاموس أنه بالكسر، وكذلك هو في الصحاح واللّسان وكتاب المعارف لابن قتيبة.

(٢) البحيرة: من أعمال الوجه البحري. «الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٥/ ٤٣».

(٣) هو عمّار بن ياسر الصّحابي أحد السابقين البدريين، وهو أوّل من بنى مسجدًا يصلّى فيه، محدّث صدوق، قتل بصفّين عن ثلاث وتسعين سنة، وذلك سنة ٣٧ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٦١».

(٤) الأسود العنسي: هو عيهلة بن كعب بن عوف المذحجي، ذو الخمار، متنبيء مشعوذ، من أهل اليمن، أسلم لمّا أسلمت اليمن، وارتدّ في أيام النبيّ، فكان أوّل مرتد في الإسلام وادّعى النبوة، قُتل قبل وفاة النبيّ ﷺ بشهر، وذلك سنة ٦٣٢ م. «فهرس الأعلام ٥/ ١١١».

والعقب من سَعْد العشيرة بن مالك من ثلاث عشرة فخذًا، وهم: زَيْد اللات، وعابِد اللات، وعَبْد اللات، وجا[١]، وجُعْفِيٌّ، وجَرْد، وحَكَم، وأَوْس اللات، ونَمِرة، وأَنَس اللات، وسَعْد اللات، وعَمْرو، وصَعْب: أولاد سعد العشيرة لصلبه، فإلى جعفيٍّ هذا يُنسب الجعفيّون، وإلى نمرة يُنسب النمريُّون، وفي نمرة فخذان: جَدَاً، على وزن ندا، وسِلْهِم ابنا نمرة.

وأما جُعْفِيّ فالعقب منه في فخذين: مَرَّان، وحَرِيم ابني جعفيّ بن سعد العشيرة، يرجع[٢] بنو سِلْهِم بن حكم فخذ (بكسر السين والهاء).

وأما صَعْب بن سعد العشيرة، فالعقب منه في زُبَيْد، واسمه مُنَبِّه، وإليه يرجع كل زبيديّ، وفيهم عدّة أفخاذ منهم بنو حرب وغيرهم. وقيل للفخذ زُبَيْد وهم بنو منبّه الأكبر؛ لأن مُنَبِّهًا الأصغر بن صَعْب بن سعد العشيرة بن مالك بن أُدَد قال: من يَزبُدُني رِفْدَه[٣]؟ فأجابه إلى ذلك أعمامه كلُّهم بنو مُنَبِّه الأكبر، فقيل لهم جميعًا زُبَيْد، ومن بني زُبَيْد مَازِن بن منبّه.

والعقب من مُرَاد بن مَذْحج من فخذين: نَاجِية وزاهر ابني مُرَاد بن مَذْحج.

والعقب من ناجية: جَمَلُ بن كِنانة بن نَاجِية بن مُراد: رهط هند بن عمرو الجَمَلَيّ الذي قتله ابن يَثْرِبِي في يوم الجمل، وجمل هذه رهط سِيفَوَيْهِ القاص. قال: وينزلون بنهر الملك؛ وعُطَيْف بن ناجية بن مراد رهط فَرْوَة بن مُسَيْك العطيفيّ الصحابيّ[٤]، وسَلْمَان بن يشكُر بن ناجية بن مراد رهط عُبَيْدة السَّلْمانيّ[٥]؛ وهو جاهلي إسلاميّ من كبار التابعين.

---

(١) كذا بالأصل، وصوابه «خارجة».

(٢) كذا بالأصل، والكلام مبتور كما هو ملاحظ.

(٣) يزبُد في رفده: الرّفد: العطاء والنّصيب، والقدح الضخم، ولعلّه يريد من يعطيني نصيبه من الزّبد في قدح كبير.

(٤) هو فروة بن مُسيك المرادي، صحابي، أسلم سنة تسع، وسكن الكوفة واستعمله عمر على صدقات مذحج، محدّث روى عنه الشعبي وجماعة. «الكاشف ٢/ ٣٢٧».

(٥) هو عبيدة السّلماني بن عمرو، وقيل: عبيدة بن قيس الكوفي، أحد الأئمة أسلم في حياة النبيّ ﷺ، قال ابن عُيينة: كان يوازي شريحًا في العلم والقضاء، مات سنة ٧٢ هـ، وقيل: سنة ٧٣ هـ، روى عن عليّ وابن مسعود، وعنه جماعة. «الكاشف ٢/ ٢١١ ـ ٢١٢».

ومن نَاجِية: قَرَن بن رَدْمانَ بن نَاجِية بن مُراد: رهط أُوَيْس القَرَنيّ[1] نفعنا الله والمسلمين ببركته.

وفي مراد، تَجُوب: وهو رجل من حِمْيَر، كان أصابَ دمًا في قومه فلجأ إلى مُراد فقال: جئت إليكم أجوبُ البلاد لأحالفكم، فقيل له: أنت تَجُوب، فسُمِّيَ به، وهو في مُراد رهط عبد الرحمٰن بن مُلْجَم المُراديّ التَّجُوبيّ لعنه الله، قاتل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأمّا جَلْد بن مَذْحِج، فأعقب منه عِلَّة بن جَلْد؛ والعقب من علّة من ثلاث أفخاذ: عَمْرو وعَامِر وحَرْب، فمن بني حرب بن عِلَّة: رَهَاء، وهو رهاء بن منبّه بن حرب بن علّة، منهم مالك بن مُرَارة الرَّهاويّ الصحابيّ، ويَزِيد بن شَجَرة الرّهاويّ[2]، وصُدَاء: وهو يزيد بن حرب بن علّة، منهم زِيَاد بن الحارِث الصُّدَائيّ[3] الصحابيّ.

وأمّا عمرو بن علّة بن جَلْد بن مَذْحِج، فالعقب منه ثلاث أفخاذ: النَّخَع القبيلة المشهورة، وكَعْب، وعَامِر.

فأمّا النَّخع بن عَمْرو، فأعقب منه فخذان: مَالِك وعَوْف ابنا النَّخع.

وأمّا كَعْب بن عَمْرو، فأعقب منه فخذان: الحَارث، وهم بَلْحَارِث بن كَعْب، ورُعَيْل بن كَعْب.

وأمّا عامِر بن عَمْرو بن عِلَّة، فالعقب منه في فخذ واحدة، وهي: مُسْلِيَة بن عَامِر.

وأمّا مرّة بن أُدَد بن زَيْد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَإ، فأعقب من فخذين: مرهم والحارث ابني مرّة بن أُدد؛ فالعقب من الحارث من فخذين: عَدِيّ ومَالِك ولديه. فالعقب من مَالِك بن الحَارِث بن مُرّة خَوْلَان بن عمرو بن مالك وإليه يُنسب كلّ خَوْلَانيّ، ومَعَافِر بن يَعْفُر بن مالك بن الحارث بن

(١) أُويس القرني: هو أُويس بن عامر القرني، أحد العبّاد النسّاك المقدّمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، يسكن القفار والرّمال، وأدرك حياة النبيّ ولم يره، سكن الكوفة، وشهد وقعة صفّين مع عليّ، ويرجّح أنه قتل فيها سنة ٦٥٧ م. «فهرس الأعلام ٢/ ٣٢».

(٢) يزيد بن شجرة الرّهاوي، أمير حازم، من أصحاب معاوية، قتل في إحدى غزواته، نسبته إلى الرُّها، أو رهاوة، من قبائل العرب، وكلاهما بفتح الرَّاء. «فهرس الأعلام ٨/ ١٨٤».

(٣) هو زياد بن الحارث الصُّدائي، صحابي، محدّث، عنه زياد بن نعيم فقط. «الكاشف ١/ ٢٥٧».

مُرَّة بن أُدد بن زيد بن يَشْجُب؛ وإليه ترجع المعافر في أنسابها، ولهم خطّة[1] بمصر، ومنهم فخذ بني قَرَافَة وهي أمّهم، وهم الذين عُرفتْ بهم القَرافة[2] بمصر، ومسجدهم المسجد المعروف بمسجد الرحمة بالقَرافة، وهم بنو عِضّ بن سيف بن وائل بن الحريّ بن المعَافر بن يعفر.

وأما عَدِيّ بن الحارث بن مُرَّة فأعقب من أربع أبطن لصلبه: وهم عُفَيْر ولَخْم: قبيلة، واسمه مالك بن عديّ، وجُذَام بن عديّ: قبيلة؛ واسمه عامر، والحارث بن عديّ وهو عَامِلَة: قبيلة، وإنما سُمِّي لخمًا وجُذامًا: لأن أحدَهما لَخَم وجهَ أخيه فسمِّي لخمًا، واللخمة: اللطمة، وجَذَم الآخرُ إصبعَ أخيه فقطعها فَسُمِّي جُذامًا، وهما القبيلتان المشهورتان؛ والحارث بن عديّ وهو عاملة وإليه يرجع كلّ عامليّ، وعاملة وهي بنت مالك بن وَدِيعَة بن قُضَاعة، وهي أمّ ولد الحارث المذكور.

فأمّا عُفَيْر بن عديّ بن الحارث، فأعقب من ثَوْر بن عُفَيْر، وثَوْر هو كِنْدة الملوك فأعقب كِندة من فخذين: مُعَاوِيَة وأَشْرَس ابني ثور. والعقب من معاوية هذا من ابنيه مُرَتِّع وزيد، فمن ولد مُرَتِّع: بنو امرىء القيس وبنو الرائش وبنو معاوية الأكرمين وبنو وهب، وبنو بدًّا (مشدّد)، خمسة: بنو الحَارِث بن مُعَاوِية بن ثَوْر بن مُرَتِّع، وإلى مُعاوية بن الحَارِث يرجع امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عَمْرو بن حجر آكل المُرَار بن معاوية المذكور الكنديّ الشاعر. والنسب إلى امرىء القيس بن الحارث بن معاوية المقدّم ذكره: مَرقسيّ، مسموع عن العرب، وكلّ امرىء القيس غيره في العرب، فالنسب مَرْئيّ بوزن مَرْعيّ.

والعقب من أَشْرس بن ثَوْر وهو: كِندة بن عُفَيْر بن عديّ: السَّكُون بن أشرس، والسَّكاسك: وهو حُمَيْس السَّكْسَك بن أشرس، وإليهما يُنسب السَّكُونيون والسَّكْسَكِيُّون؛ ومن السكونيّين معاوية بن حُدَيْج السكونيّ[3] الصحابيّ، وحاشد بن أشرس، ومالك بن أشرس.

---

(١) الخِطّة: المكان الذي يختطه الإنسان لنفسه، أو الأرض التي ينزلها الإنسان ولم ينزلها أحد قبله، والخُطّة: الأمر والخصلة.
(٢) القرافة: خطّه بالفسطاط من مصر، وقرافة: بطن من المعافر نزلوها فسمّيت بهم، وهي اليوم مقبرة أهل مصر، وبها أبنية جليلة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين. «معجم البلدان ٤/ ٣١٧».
(٣) هو معاوية بن حَديج بن جفنة الكندي التجيبي الأمير، صحابي، محدّث عن عمر وأبي ذرّ، توفي سنة ٥٢ هـ. «الكاشف ٣/ ١٣٨».

والعقب من السكون بن أشرس من فخذين: شَبِيب وعُقْبة ابني السَّكون. أعقب شبيب بن السكون من أشرس وشُكَامة، فأعقب أشرس بن شبيب بن السَّكون بن أشرس من عديّ وسعد، وهم: تُجيبُ البطن المشهورة، ولهم خطة بمصر، وعرفوا بتُجيب، وهي أمّهم بنت ثَوْبان بن سُلَيْم بن رَهاء بن منبّه بن حرب بن علّة بن جَلْد بن مَذْحِج.

والعقب من مالك بن أشرس بن شبيل المذكور: الصَّدِف، واسمه عمرو بن مالك، وإليه يُنسب كلُّ صدَفيّ بالفتح، كما قالوا: شقَريّ ونمَريّ وسلَميّ، في شقرة تميم ونمر بن قاسط وسَلَمة من الأنصار. ومن النّسابين من قال: الصدف هو سِماك بن عمرو بن دُعْميّ بن حضرموت.

وأما لخم بن عديّ، فأعقب من فخذين وهما لصلبه: نُمارة وجَدِيلة، ويقال: جُدَيْلة؛ وذكر الوزير أبو القاسم بن المغربيّ أنه قيل فيها: جُدَبْلة بالباء بواحدة.

والعقب من نُمارة بن لخم بن عديّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدَد بن مالك بن نُمارة فخذ، وحبِيب بن نمارة، وهو عَمَمٌ [وعديّ بن نُمارة][1]، سُمّي بذلك لأنّه أوّل من اْعتمّ[2]، وهو الذي عمّم ملوك العراق؛ ولهم إخوة صغار: كالوجفا بن نُمارة وقَبِيصة وعمرو وعوف ومجن أولاد نُمارة أعقبوا؛ ومن يُنسب إليهم يُعْزَى لجدّهم لخم وأمّهم نُمارة.

ومن بني مالك بن نمارة الفخذ الأولى: بنو راشدة بن مالك بطن مشهورة.

ومن بني عديّ بن نُمارة؛ وهم عَمَم بن لخم: بنو نَصْر بن ربيعة من ربيعة بن نصر.

ومن ولد نصر بن ربيعة: النعمان بن المنذر بن ماء السماء، وهي أمّه، بضدّ ما في غسّان، لأن غسّانَ عامرًا ماءَ السماء أبٌ فهو ثَمَّ «أبٌ» وهاهنا «أُمٌّ»، وماء السماء هاهنا هو امرؤ القيس بن النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عديّ بن نصر بن ربيعة، قال: وفي ذلك خلاف.

---

(١) الزيادة التي بين قوسين عن السّبائك، وتؤخذ أيضًا من كلامه الآتي قريبًا.

(٢) اعتمّ: لبس العمامة.

ومن بني حبيب بن نُمارة: بنو الدار بن هانىء بن حبيب بن نُمارة، ينتسبُ كلُّ داريّ إلى هذه البطن، وهم رهط تميم الداريّ[١] الصحابيّ المعروف بالمختطِف، وقد انقرض تميم الداريّ ولا عقبَ له.

وأما جرِيلة[٢] بن لَخم ويقال: جُزَيْلة، فأعقب من أَرَاش وحجر وحُلَيْل ويشكُر وعمرو، أولاد جزيلة بن لخم. فمن بني أراش بن جزيلة أَرْش بن أراش لا غير؛ ويقال: أُرَيْش مصغّرًا.

والعقب من أَرْش بن أَراش من فخذين: غَنْم وحَدَس - بالحاء المهملة والدال المهملة المحرّكتين - والحمراء القبيلة، لها خطة بمصر، والأشعث فخذ، وهذه الحمراء في غيرها من الحمراء من قُضاعة، وفَهْم، وعَدوان، والأَزْد، وهُذَيْل بن مدركة، وبني الأزرق وهم من الروم؛ ومنهم سُمِّيت الحمراوات.

فأعقب غَنْم بن أُرَيْش بن أَرَاش بن جَزِيلة بن لخم من صعب وفَهْم وزِرّ وعمرو: أولاد غنم.

ومن شيوخ النسب من قال: إن النعمان بن المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس بن المنذر بن النعمان بن امرىء القيس بن عُيَيْنَة بن أبي الحرام بن العَمَرَّط بن غَنَمْ بن عَوْدة بن عُبيد بن زِرّ المذكور.

والعقب من حَدَس بن أُرَيْش بن أراش بن جَزِيلة بن لخم من ربيعة ورَمِيمة.

والعقب من ربيعة بن حَدَس أربع عشائر: مَنارة، وسعد، وكعب، والهُذَيْم: بنو ربيعة.

والعقب من هُذَيْم هذا من حُدَاد وعامر والحارث: بني الهُذَيْم.

والعقب من رميمة بن حَدَس بن أُرَيْش بن أراش بن جَزِيلة من عمرو وجدّه.

---

(١) هو تميم بن أوس الدّاري، الصحابي، أبو رقية، أسلم سنة تسع، نسبته إلى الدّار بن هانىء، من لخم، كان راهب أهل عصره، وعابد أهل فلسطين، توفي سنة ٤٠ هـ - ٦٦٠ م، وقيل: إنّه منسوب إلى جدّه الدار بن هانىء بن حبيب، وقيل: نسبته إلى دارين، وهو موضع في بلاد البحرين تجلب إليه العطور من بلاد الهند، والأوّل أصح. «الكاشف ١/ ١١٣».

(٢) كذا في الأصل، وفي «السّبائك» أيضًا بالزّاي، وأوردها القاموس في مادة «ج ز ل» وهو مخالف لما سلف له قريبًا من قوله «جديلة» أو «جُدَيْلة» كما ذُكر، وجُدبلة كما قال الوزير ابن المغربي.

والعقب من عمرو بن رميمة هذا: الحارث وصعب وعَلَامة وعديّ والمنذر وثعلبة.

فأمّا الحارث بن عمرو فأعقب من أُبَيّ بن الحارث، فأعقب أُبَيّ من كليب وعديّ.

والعقب من كُلَيْب بن أُبَيّ بن الحارث من أربع أفخاذ: فيض والحارث وغَنْم وعُمَيْت: أولاد كليب.

والعقب من فيض بن كليب من أربع أفخاذ: أبي الشتاء، ورَقَاش، وقحران، وصابي: أولاد فيض بن كُلَيْب.

والعقب من الحارث بن كليب بن أبيّ من سعد وجدّه، وولد كعب بن غَنْم ثلاث أفخاذ: بني قرقر بن كعب، وبني بَرّ بن كعب، وبني مُرقِّش بن كعب. ومن بني برّ بن كعب: بنو واسع بن كعب، وهم بنو رومي وزُهَيْر وزير وحسان وبرّ: أولاد واسِع، كلٌّ منهم فخذ.

والعقب من عُمَيْت بن كليب بن أبيّ من دَعْجان وجدّه، ومن أفخاذه: مُغالة بن دعجان: الفخذ المعروفة في آخرين.

وأما حجر بن جزيلة بن لخم، فأعقب من ثلاث أفخاذ: أَزْدة وزُغَر وأَذَبّ. فأعقب أزدة من فخذين: منيع وعوف ابني أزدة بن حجر، وأعقب زغر بن حجر من مالك بن دَعِن، وهو الذي استخرج يوسف الصدّيق عليه السلام من الجبّ[1] وله عقب، فهذا مختصر في نسب لخم.

وأما جذام واسمه عامر، فالعقب منه في بطنين: حَرام وحِشْم ابني جُذام.

والعقب من حَرام بن جذام من فخذين: إياس ومالك ابني حرام بن جذام.

والعقب من إياس بن حرام من رَبِيل بن إياس، ومن سعد بن إياس، فأعقب سعد هذا من أَفْصَى، فأعقب أفصى بن سعد بن إياس من فخذين: زيد ومالك ابني أفصى، وأعقب مالك هذا من سعد بطن المنسوب إليها بنو سعد جذام، وإن كان في جذام عدّة سعود، لكن هذه ذات القُعدُد[2] والبيت والصّيت.

---

(١) الجبّ: البئر.

(٢) القُعدد: القريب الآباء من الجدّ الأعلى، والبعيد الآباء كذلك، والقعدد: الجبان والقاعد عن الحرب والمكارم، «اللّسان، مادة قعدد».

ومن ولد زيد بن أفصى بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام: سعد بن مالك بن زيد المذكور: بطن؛ ووائل بن مالك ولَهْبَة؛ وإلى وائل بن مالك بن زيد: يرجع زيد[١] بن زنباع في نسبه.

والعقب من مالك بن حرام بن جذام، من وائل وسعد. أعقب وائل بن مالك من حُبَيْش وجمع ومازن. من ولد حُبَيْش: شُعيب النبيّ عليه السلام، وهو شُعَيْب بن ثُوَيْب بن حُبَيْش المذكور ابن وائل بن مالك بن حَرَام بن جذام. وأعقب سعد بن مالك بن حرام بن جذام من غَطَفان: البطن الأكبر في جذام. وأعقب غطفان بن سعد من يامة بن عَنْبَس بن غطفان وغنم بن غطفان. وأعقب يامة بن عنبس بن غطفان من عليّ بن يامة. وأعقب عليّ من كعب بن عليّ. وأعقب كعب بن عليّ من ثلاثة أفخاذ لصلبه: عُبَيْد ومطرود وعوف؛ من ولد عبيد بن كعب هذا: الضُّبَيْب بن قُرط بن حفيد بن سح[٢] بن عبيد: فخذ، وأعقب مطرود الضبيب هذا من ثعلبة بن أُميّة بن الضبيب: فخذ، وعمرو بن مالك بن الضبيب: فخذ، وأعقب مطرود بن كعب بن عليّ من خالد وعمرو ومبذول ونُفَاثة.

فأعقب غنم بن غطفان بن سعد، من نَضْرة بن غنم في آخرين، فأعقب نضرة بن غنم بن صَبِرَة (الفخذ المشهورة) ابن نصر.

والعقب من جِشْم بن جذام من بُدَيْل بن جِشم، فالعقب من بديل: بكر وَشَنُوءَة ابني بُدَيْل. والعقب من بكر هذا من سود بن بكر. والعقب من سعد: أسود وعمرو ابنا سود. والعقب من أسعد بن سود بن بكر بن بديل بن جِشم بن جذام من فخذين: السَّلْم والهُون ابني أسعد. وفي سود أيضًا: السَّلم بن مالك بن سود (بإسكان اللام) فخذ.

والعقب من عمرو بن سود من لَهَبَة وحُبَيْش وعِدًا: أولاد عمرو.

فهذا مختصر من نسب جذام.

(١) لعلّه يريد «روح بن زنباع» الجذامي، أبو زرعة، أمير فلسطين وسيّد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها، قيل: له صحبة، وكان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز، وله معه أخبار، توفي سنة ٧٠٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٤».

(٢) كذا بالأصل، ولم نعثر على صحتها في كتب الأنساب، ولعلّها «بُليح» أو «بَلِيح» نسبة إلى شجر «البلح».

وأما عائذة: وهم ولد الحارث بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن يشجب وهو أخو جذام ولخم، فالعقب من الحارث بن عديّ المذكور من فخذين: الزهد ومعاوية ابني الحارث: وهما ابنا عاملة كما تقدّم؛ وزهد: فعل، من موهم: شيء زهيد أي قليل.

والعقب من الزهد بن الحارث بن عديّ من ثلاث أفخاذ: عَوْكَلان وزَحْفان وسَلْمان: بني الزهد. ومن بني عَوْكَلان المذكور السّلم بن ظِبْيان بن أبي عزم بن عوكلان المذكور.

والعقب من معاوية بن الحارث بن عديّ أخو الزهد خمس أفخاذ لصلبه: ثعل، وعِجْل، وسلمة، وقُرَّة، وثعلبة. قال: وهذا النهاية في اختصار نسب مرّة بن أُدد.

وأمّا الأشعر بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، فأعقب من جُماهير بن الأشعر وله عدد، وعبد الثريّا بن الأشعر وعبد شمس والأدغم ونُعَيْم: أولاد الأشعر. وأعقب جُماهير وهو جُماهِر بن الأشعر من ناجية بن جماهير له عدد. وأعقب ناجية من وائل بن ناجية وهو البيت.

وهذا مختصر نسب الأشعريّين، ومنهم من الصحابة: أبو موسى[1] وأبو عامر وأبو بَرْزَة؛ وهم فخذ متّسع وفيه عدّة أفخاذ وعشائر يطول الكتاب بشرحها.

قال: وهذا نسب بني مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

فالعقب من مالك بن زيد من بطنين، وهما: نبت والخِيَار ابنا مالك. والعقب من نبت من الغوث ابنه، والعقب من الغوث بن نبت من عمرو والأزد؛ وإلى هذا الأزد يُنسب كلّ أزديّ.

فمن ولد عمرو بن الغوث: بَجِيلة، وهم ولد أنمار بن أراش بن عمرو بن لَحيان بن عمر وأمّ الغوث وبجيلة بن أنمار، وهي بنت صعب بن سعد العشيرة بن مذحج، وقد قيل: بل هي أم ولد أنمار.

---

(١) أبو موسى، هو أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، من قحطان صحابي، قدم مكّة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة، ثمّ استعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن، وولّاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ، وهو أحد الحكمين في صفّين، توفي بالكوفة سنة ٦٦٥ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١١٤».

والعقب من أَنْمار بن أراش بن عمرو بن لِحْيان بن عمرو بن مالك بن زيد: خمس قبائل: الغوث وعَبْقر وصُهَيْبة ووَدَاعَة وأَفْتَل: وهو خَثْعَم: بنو أنمار بن أراش. قال: وذكر علماؤنا في النسب أن بَجِيلة هو عَبْقَر والغوث وصُهَيْبة، وسُمُّوا بذلك لأجل أمّهم بَجِيلة، وأن خَثْعم هو أفتلُ وأمّه هند بنت الغافِق الأزديّ، وسُمِّي خثعم باسم جملٍ كان لآل أنمار أو لآل أفتل بن أنمار، وكانوا يسمّونه خثعم، ويقال: بل قيل خثعم لأنهم تَخَثْعَموا[1] بالدم؛ والأوّل أقرب إلى الصحيح.

والعقب من الغوث بن أنمار من ثلاث أفخاذ: وهم زيد وأَحْمَس وقيس كندة: بنو الغوث، وفي أحمس هذا: أسلم بن أحمس: فخذ، وفي أسلم بن أحمس بن الغوث: دُهْن. معاوية بن أسلم بن أحمس؛ فخذ: رهط عَمّار بن أبي معاوية الدُّهنيّ[2] الصحابيّ.

والعقب من عبقر: بجيلة بن أنمار بن أراش بن عمرو من ثلاث أفخاذ: قَسْر وعَلَقَة وقَطَن: أولاد عبقر. وفي قسر: عُرَيْنة بن زيد بن قسر، يقال له: قَسْريٌّ في النسب، ويقال: عُرَنيّ، وإلى عَلَقَة يرجع كلّ عَلَقِيّ.

والعقب من صهيبة بجيلة بن أنمار بن أراش بن عمرو: أُتَيْد بن خِطام بن صهيبة بن أنمار: فخذ.

والعقب من زُرعة بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمرو من ثلاث أفخاذ: حُرْزُق وسِمْط وحبيب: أولاد زرعة.

والعقب من خثعم وهو أفتل بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان من ثلاث أفخاذ: شهران وربيعة وناهِش: أولاد عَقْرَس بن خَلَف بن أفتل وهو خثعم. وفي ربيعة بن أفرس: بنو أكلُب بن ربيعة.

فهذا مختصر كافٍ في بجيلة وخثعم.

وأما الأزد بن الغوث (واسمه دِراء: مثل رِداء وقيل: دِرء مثل درع)، فالعقب من ولده أربع أبطن: وهم مازن وغَسّان، (وغسّان ماء بسدّ مَأْرِبٍ باليمن، وقيل: بالمُشَلَّل نزلوا به فنُسبوا إليه)، وإلى غسّان هذا يُنسب كلّ غسّانيّ، ونصر وعبد الله

---

(١) تخثعموا: تلطّخوا بالدّم.

(٢) هو عمّار بن معاوية الدُّهني، بضمّ الدال، نسبة إلى دهن بن معاوية بطن من بجيلة، كما في اللّباب لابن الأثير، وهو محدّث شيعي موثق، مات سنة ١٣٣ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٦١».

والهِنوُ بنو الأزد بن الغوث. وإلى غسّان هذا يرجع الأنصار، وقد يكون مِن غسّان من ليس أنصاريًّا كثيرًا، ويكون من مازن من ليس غسّانيًّا.

والذي نزل على غسان من الأزد بعضُ بني امرىء القيس البِطريق بن ثعلبة البُهْلول بن مازن وماويّة وربيعة وامرؤ القيس: بنو عمرو بن الأزد، وكُرْز وعامر ابنا ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد.

والعقب من عبد الله بن الأزد بن الغوث من ثلاث أفخاذ: الحارث وقرن وعُدْثان: أولاد عبد الله بن الأزد.

والعقب من عدثان[1] هذا من عَكّ وسود ومالك وغالب وكعب، ومن بني سود بن عدثان: طاحِيةُ بن سود: فخذ.

والعقب من علكّ بن عدثان فخذان: الشاهد وصُحارٌ ابنا عَكّ.

والعقب من الشاهد بن عكّ: غافق، وإليه يُنسب كلّ غافقيّ، قال: ولهم خطّة بمصر، وساعدة ابنا الشاهد. وقيل: بل هو غافق بن الحارث بن عكّ بن الحارث بن عدثان.

والعقب من صُحار بن عكّ بن عدثان: بَولان وعَبْس وغسّان: أولاد صُحارِ هذا.

وأما نضر بن الأزد، فأعقب من مالك بن نصر من أربع قبائل: عبد الله وراسب ومَيْدَعان وأكفر من حِمارٍ: أولاد مالك بن نصر بن الأزد. وإلى راسب ينسب كلّ راسبيّ، وفي بني مالك راسبيّون أُخَر يأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.

والعقب من عبد الله بن مالك في كعب بن عبد الله، ومنه في الحارث بن كعب.

والعقب من الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك من ثلاث أفخاذ: كعب ومالك ونُبَيْشَة وهو فاسخة. فمن ولد فاسخة بن الحارث بن كعب: بنو غراء بن شُرَيْق بن فاسخة؛ ومن ولد مالك بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر: بنو مَجاعَة وبنو الأرنب: ابني مالك.

---

(١) ورد في كلّ كتب النّسب التي بين أيدينا باسم «عدنان» بالنون، وقال عنها صاحب القاموس ما يأتي: وعك بن «عدثان» بالثاء المثلّثة ابن عبد الله بن الأزد، وليس ابن عدنان أخا معدّ.

والعقب من كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر: زَهْران وأَحْجُن وعبد الله: أولاد كعب بن الحارث، وإلى زهران ينسب كلّ زَهرانيّ. ومن أفخاذه: دَهْمان بن نصر بن زهران، وغاضرة بن زهران، ودَوْس بن عدثان من زهران، منهم: أبو هريرة الدوسيّ الصحابيّ[(١)]، واسمه عمرو بن عامر، وفي اسمه خلاف.

والعقب من أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن ثلاث: أسلم ولِهْب وقرن، أولاد أحجن فمن أفخاذ أسلم هذا: بنو ثُمالة وهو عوف بن أسلم بن أحجن: رهط محمد بن يزيد المبرّد[(٢)] النحويّ، وفيه يقول عبد الصمد بن المعذَّل[(٣)]: [من الوافر]

سألنا عن ثُمالة كلَّ حيٍّ فقال القائلون: ومن ثُمالَهْ؟
فقلت: محمد بن يزيد منهم فقالوا: زدتنا بهم جهالَهْ

وأما مَيْدَعان بن مالك بن نصر فمنه أربع أفخاذ: راسب وإليه يُنسب الراسبيّون أيضًا، ومُنْهِب وحبيب ومعاوية: بنو مالك بن ميدعان.

فهذا مختصر نسب بني نصر الأزديّين.

وأما الْهِنو بن الأزد، فأعقب من سبع أفخاذ: الهُون وبُدَيْد ودَهْنة وبَرْقًا وعَوْجا وأفْكه وحُجْر: أولاد الهنو. فأعقب الهُونُ من فخذين: النَّدَب ونَكَل.

وأما مازن بن غسّان بن الأزد فأعقب من فخذين لصلبه: وهما عمرو وثعلبة العنقاء، سُمّي بالعنقاء: لطول عنقه.

---

(١) أبو هريرة الدّوسيّ: هو عبد الرّحمٰن بن صخر، وقيل: كان عبد شمس فغيّر، وغير ذلك كان حافظًا متثبتًا ذكيًا مفتيًا صاحب صيام وقيام، ولي أمر المدينة مرّات، توفي سنة ٥٧ هـ. وقال جماعة سنة ٥٩ هـ. «الكاشف ٣/ ٣٤١».

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، الأزدي البصري، النحوي المعروف، نزل بغداد، وكان إمامًا في النّحو واللغة، وله تصانيف نافعة، كالكامل والروضة والمقتضب وغيرها. «وفيات الأعيان ٤/ ٣١٣».

(٣) ابن المعذَّل: هو عبد الصّمد بن المعذّل بن غيلان بن الحكم العبدي، من بني عبد القيس، أبو القاسم، من شعراء الدولة العباسيّة، ولد ونشأ في البصرة، كان هجّاءً شديد العارضة، سكّيرًا خمّيرًا، توفي نحو سنة ٨٥٤ م. «فهرس الأعلام ٤/ ١١».

فالعقب من عمرو بن مازن بن الأزد في عدّة أولاد، كلّهم في الأزد، من جماجمهم: عَديّ والعاص. فأمّا العاص فمن ولده: بنو بُقَيْلة بن سُنَيْن بن زيد بن سع بن عديّ بن نمير بن صوفة بن العاص بن عمرو بن مازن، وسُمّي بُقَيْلة: لأنه لبس ثوبين أخضرين.

وأمّا عديّ بن عمرو بن مازن بن الأزد، فأعقب من عدّة أولاد، من جماجمهم: هند بن هند بن عمرو بن عديّ، وَصَبِرَة بن عمرو بن صبرة بن حارثة بن عديّ، ومسعود بن مازن بن ذئب بن عديّ، وإليه يرجع سَطِيح الكاهن[1]، وكلّ مسعوديّ في الأزد، وجميع بني عديّ بن عمرو يعزون إلى الأزد.

وأعقب ثعلبةُ العنقاء بن مازن بن غسّان من امرىء القيس البطريق بن ثعلبة؛ فأعقب امرؤ القيس البطريق: حارثة الغِطْريف، فأعقب الغطريف من عامر ماء السماء؛ فأعقب عامر ماء السماء من عمران وعمرو وهو مُزَيْقِياء سُمّي بذلك لأنه كان يمزّق في كلّ يوم [حلّتين] لئلا يلبسهما غيره.

والعقب من عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء بن حارث الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة العنقاء بن مازن بن غسّان وهو السِّرَاج بن الأزد بن الغوث في ستّ أفخاذ: ثعلبة: بطن الأنصار، وحارثة: بطن خزاعة، وجَفْنَة: بطن، وعمران من أزد عُمَان، ومحرِّق: بطن، سُمّي بذلك لأنه أوّل من حَرَّقَ بالنار، وكعب: أولاد عمرو مزيقياء وإليهما يرجعُ نسب الأنصار. فأمّا الأوس بن ثعلبة بن عمرو فأعقب من مالك بن الأوس، وأعقب مالك من خمس قبائل: النَّبِيت، وعوف، وجشم، وامرىء القيس، ومرّة: أولاد مالك بن الأوس.

قال: وسُمّي النَّبِيت نَبِيتًا لكثرة ولده، فأعقب النبيت من فخذين: الحارث وكعب وهو ظَفَر بن الخزرج بن النبيت الأوسيّ، فأعقب الحارث بن الخزرج بن النبيت من ابنيه: جشم وحابية، فأعقب جشم من رَعْوان وانقرض. ومن عبد الأشهل: ابني جشم. وأعقب حابية بن الحارث من مجذعَة وجويرَة وجشم بني حارثة. ومن

---

(١) سطيح الكاهن: هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عديّ بن الذئب، من بني مازن، من الأزد، كاهن جاهليّ، غسّاني، من المعمّرين، يُعرف بسطيح، كان العرب يحتكمون إليه ويرضون بقضائه، يقال: ما كان فيه عظم إلّا رأسه، ويقال: كان يُطوى كما تطوى الحصيرة، ويتكلّم بكلّ أعجوبة، وهو من أهل الجابية من مشارف الشّام، مات فيها بعد مولد النبيّ ﷺ بقليل، وذلك سنة ٥٧٢ هـ. «فهرس الأعلام ٣/ ١٤».

بني جشم بن حارثة: بنو خَدِيج بن رافع بن عديّ بن جشم، وظُهْر بن رافع بن عديّ.

وأما ظَفَر وهو كعب بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس - وبنو ظفر البطن المشهورة في الأوس - فأعقب من أربع أفخاذ: وهم بنو مُرّة وهَيْثَم وعبد رَدَاح وسواد: بني ظفر بن الخزرج، ومن بني سواد: بنو الحَطِيم بن عديّ بن عمرو بن سواد: فخذ، فهٰؤلاء بنو النبيت.

أما عوف بن مالك بن الأوس، فأعقب من عمرو، وأعقب عمرو من لَوْذان، فجدّهم بنو السَّمِيعة وثعلبة وحَبِيب وعوف: أولاد عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

والعقب من عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس من بنيه: مالك وجِلْس وكُلْفَة، فأعقب مالك بن عوف من بنيه: عُزَير ومعاوية وزيد. وأعقب زيد بن مالك هذا من ضُبَيْعَة: الفخذ المشهورة، وأُميَّة الفخذ المشهورة في الإسلام، وعُبَيْد أولاد زيد، وبنو ضُبَيْعة بن زيد بن مالك، يقال لولده: بنو كِسْر الذهَبِ، منهم: بنو حارثة بن عامر بن مُجَمِّع بن عِطاف بن ضبيعة بن زيد: بطن معروفة. ومن أفخاذ كلفة بن عمرو بن عوف: جُلَاح بن حَرِيش بن جَحْجَبَى من كُلْفة: بطن.

وأمّا جشم بن مالك بن الأوس بن حارثة، فأعقب من خَطْمَة: بطن، واسم خطمة عبد الله، وإنما سُمّي خطمة: لأنه خَطَم[1] رجلًا بسيفه على خَطْمه فسُمّي به، وأعقب خطمة بن جشم من ثلاث أفخاذ: الحارث وعامر ولوذان: بني خطمة.

وأمّا امرؤ القيس بن مالك بن الأوس، فأعقب من فخذين: بني السَّلْم وبني واقف، وإليه يرجع كلّ واقفيّ في الأوس.

وأمّا مرّة بن مالك بن الأوس بن حارثة، فأعقب من ثلاث أفخاذ: عامر وسعيد ومازن.

وهذا نهاية الاختصار في ولد الأوس.

وأمّا الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزيقياء، فأعقب من خمس أفخاذ: الحارث وعمرو وعوف وجشم وكعب: بني الخزرج.

---

(١) خطم: ضرب أنفه، والخطام: حبلٌ يجعل في عنق الجمل ويثنى في خطمه ليُقاد به.

والعقب من الحارث هذا من سبع أفخاذ: عوف وحُرَديش وجشم وصخر وجديم والخزرج وزيد: أولاد الحارث، ومن عوف بن الحارث بن الخزرج: خُدْرة وخُدَار ابنا عوف؛ والخدرة يرجع أبو سعيد الخدريّ(١)، وهو فخذ بني خدرة.

وأما عمرو بن الخزرج فمن ولده: بنو النجّار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج: البطن المشهورة؛ واسم النجار: تَيْم الله يدعى العِتْر، وإليه يرجع حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عديّ بن عمرو بن مالك بن النجّار الشاعر: أعني بالشاعر حسّان(٢)، وقد انقرض عقب حسّان.

وأما عوف بن الخزرج فمن أفخاذه: بنو غنم قَوْقِل: فخذ، وهو أُطُمٌ كان لبني غنم، وسالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وغنم: رهط عُبَادة بن الصامت(٣) الصحابيّ. ومن بني عوف بن الخزرج: سالم الحُبْلَى بن غنم بن عوف، سُمِّي بذلك لعظم بطنه.

وأما جشم بن الخزرج، فأعقب من فخذين: وهما تَزيدُ وغَضْب ابناه لصلبه؛ فمن أفخاذ تزيد بن جشم هذا: بنو سَلِمة وربيعة ابنا سعد بن عليّ بن راشد بن ساردة بن تزيد. وسَلمة رهط معاذ بن جبل(٤) الصحابيّ (بكسر اللام).

وأما غصب بن جشم بن الخزرج، فمن أفخاذه: بنو زُرَيْق وبَيَاضَة: ابني عامر بن زريق بن عبد بن حارثة بن مالك بن غصب بن جشم بن الخزرج.

---

(١) أبو سعيد الخدريّ: هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاريّ الخزرجي، صحابيّ، كان من ملازمي النبيّ ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة، غزا اثنتي عشرة غزوة، وله ١١٧٠ حديثًا، توفي بالمدينة سنة ٦٩٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٨٧».

(٢) هو حسّان بن ثابت بن المنذر الخزرجيّ الأنصاري، أبو الوليد، الصحابي، شاعر النبيّ ﷺ، وأحد المخَضْرَمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، سكن المدينة، واشتهرت مدائحه في الغسّانيين وملوك الحيرة، عَمِيَ قبل وفاته سنة ٦٧٤ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٧٥».

(٣) هو عبادة بن الصامت، أبو الوليد الخزرجي، من بني عمرو بن عوف، بدريٌّ نقيب، وهو أحد من جمع القرآن الكريم، وكان طويلًا جسيمًا جميلًا، مات بالرّملة سنة ٣٤ هـ، وله من العمر اثنان وسبعون عامًا. «الكاشف ٢/ ٥٧».

(٤) هو معاذ بن جبل الخزرجي، من نجباء الصّحابة، قال أنس: جمع معاذ القرآن في حياة رسول الله ﷺ، وقال ابن مسعود: كنّا نشبّهه بإبراهيم عليه السلام، كان أمةً قانتًا لله حنيفًا، توفي بالطاعون سنة ١٨ هـ بالأردن عن ثمان وثلاثين سنة. «الكاشف ٣/ ١٣٥».

وأمّا كعب بن الخزرج فمن أفخاذه: سعيد وقيس ابنا سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أبي جَذِيمة بن طَرِيف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج؛ وقد انقرض قيس بن سعد بن عبادة.

ومن كعب بن الخزرج المذكور غير طريف هذا: ثلاث أفخاذ أُخر إخوة طريف بن الخزرج هذا، وهم: ثعلبة وعامر وعمرو؛ كان لعامر هذا ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأوّل: بنو قَسِّيَّة بن عامر وقد انقرضوا عن آخرهم.

فهذا مختصر كاف في أنساب الأوس والخزرج.

وأما حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من أربع أفخاذ: عمرو بن ربيعة بن حارثة وهو أبو خُزاعة؛ وإنما قيل لهم خزاعة: لأنهم انخزعوا من بني عمرو مزيقياء بن عامر، (والانخزاع: التقاعس والتخلّف)، فأقاموا بمَرِّ الظَّهران[١] بجنبات الحرم ووُلُّوا حجابة[٢] البيت دهرًا وهم حلفاء بني هاشم؛ وقد اختلف النسَّابون في خزاعة بعد إجماعهم على أنهم ولد عمرو بن لُحَيٍّ، وأنّ خزاعة هو كعب بن عمرو بن لحيّ بن قَمَعَة بن خِنْدِف، وهو ابن إلياس بن مضر، وعمرو بن لحيّ: هو الذي قال رسول الله ﷺ فيه لأكثم بن أبي الجون الخزاعيّ: «يا أكثم رأيتُ عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف يجرّ قُصْبه في النار، ما رأيت رجلًا أشبهَ منه برجل منك»، فقال أكثم أيضرّني شبهه يا رسول الله؟ فقال: «لا، لأنك مسلم وهو كافر»، والقُصْب: الحشوة من الأمعاء وهو المصران؛ وكان عمرو بن لحيّ أوّلَ من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيَّب السائبةَ[٣] وبحَر البحيرةَ[٤] ووصل الوصيلةَ[٥] وحمى

(١) مرّ الظهران: قال النّضر: الظهراني يجاء به من مرّ الظّهران، وبمرّ الظهران عيون كثيرة ونخيل لأسلم وهذيل وغافرة، وقد جاء ذكرها في الحديث. «معجم البلدان ٤/ ٦٣».

(٢) الحجابة: وكانت في بني قصي، وهي حجابة الكعبة أي سِدانتها وتولّى حفظها، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها. «اللّسان، مادة حجب».

(٣) السّائبة: الماشية المسيّبة التي كانت تسيّب في الجاهلية لنذر ونحوه.

(٤) البحيرة: النّاقة إذا نتجت خمسة أبطن عُمِد إلى الخامس فإذا لم يكن ذكرًا، شقّ أذنها ثم لم يُجَزُّ لها وبر، ولا يذاق لها لبن، وسمّيت للآلهة.

(٥) الوصيلة: الشاة إذا ولدت سبعًا عُمد إلى السابع فإن كان ذكرًا ذُبح لآلهتهم، وإن كان أنثى تُركت، وإن كان في بطنها اثنان: ذكر وأنثى فولدتهما، قالوا: وصلت أخاها فيتركان جميعًا لا يذبحان، فسمّوها وصيلة.

الحامي[١]. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: نزل القرآن بلغة الكعبيْن: كعب بن لؤيّ[٢] وكعب بن عمرو بن لحيّ[٣]، وذلك أن دارهم كانت واحدة، وأفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء وعديّ بن حارثة وعمرو بن حارثة.

فأما عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء، قال شيخنا شيخ الشرف: عمرو هو خزاعة نفسه أعقب من خمس أفخاذ: كعب وسعد وعديّ ومُلَيْح وهو لحيّ: بطن كثيّر بن عبد الرحمٰن[٤] الشاعر، وعوف بن عمرو خزاعة.

فأمّا كعب بن عمرو خزاعة بن ربيعة، فأعقب من ستّ أفخاذ، وهم: مُنْقِذ وسَلُول وحُبْشِيَّة ومطرود ومازن وسعد: أولاد كعب بن عمرو خزاعة.

فأمّا سلول بن كعب، وإليه ينسب كلّ سلوليّ، فأعقب من ثلاث أفخاذ: حبشيّة وعديّ وحِرْمِز، فأعقب حبشيّة بن سلول من قُمَيْر وضَاطِر وكليب وحُلَيْل وغاضرة: بنيه لصلبه، وأعقب عديّ بن سلول من حَبِير وهَيْنه وحُرَيْز: بني عديّ.

وأما حبشيّة بن كعب بن عمرو خزاعة، فأعقب من ابنيه لصلبه: غاضرة وحرام.

وأما سعد بن عمرو وهو خزاعة، فأعقب من ثلاث قبائل: بني المُصْطَلِق، وبني عامر وبني الكاهن.

وأما أفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فإنّه أعقب من أسلم: بطن في آخرين: وهم مَلَكان وزيد وعمرو وعديّ وجُهَادة وحَطَّاب وسَوادة وجُرَيْش وامرؤ القيس

---

(١) الحامي: الفحل يكون عند الرّجل، فإذا لقّح عشر سنين قيل: قد حمى ظهره، وسُمي بـ «حامٍ». «انظر تفسير القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية ١٠٣».

(٢) كعب بن لؤي: هو كعب بن لؤي بن غالب، من قريش، من عدنان، أبو هُصيص، جدّ جاهلي خطيب، من سلسلة النّسب النبوي الشريف، كان عظيم القدر عند الجاهليين حتى إنّهم أرّخوا بموته إلى عام الفيل، وهو أوّل من سنّ الاجتماع يوم الجمعة، وكان اسمه «يوم العروبة»، فكانت قريش تجتمع إليه فيه، فيخطبهم ويعظهم. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٨».

(٣) هو كعب بن عمرو بن لحي، من الأزد، جدّ جاهلي قحطاني، قيل: هو الملقّب بـ «خزاعة» لانخزاع قبيلته عن بني الأزد حين تفرّقهم بعد سيل العرم باليمن، وقد أقام المنخزعون بمكّة، وسار الآخرون إلى الشام وعُمان، والانخزاع: الانقطاع والتخلّف عن الصحب. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٢٨».

(٤) هو كثيّر بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر، شاعر معروف متيّم، صاحبته «عزّة» من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز، أخباره مع عزّة بنت جميل الضمرية كثيرة، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٧٢٣ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٢١٩».

وصهيبة وجشم، فمن بني أسلم بن أفصى: سلامان: فخذ، وهَوزن: فخذ: ابنا أسلم بن أفصى، ومن مَلَكان ـ بالفتح ـ بن أفصى: غَبْشان بن ملكان: فخذ، منهم: ذو الشِّمالين المقتول ببدر.

وأما عديّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من سعد بارق، نزل بماء بالسراة[١] أيام سدّ مأرب يسمَّى بارق[٢]، وقيل: هو جبل، وقيل: بل تبعوا البرق فسُمّوا بذلك، وعمرو وعوف: بني عديّ.

وأما عمران بن عمرو مزيقياء، فأعقب من الأَسْد والحُجْر ابنيه لصلبه؛ فأعقب الأسد من ثلاث أفخاذ: العَتِيك وشُهَيل والحارث: بني الأسد. فمن ولد العتيك: أسد بن الحارث بن العتيك: فخذ، ووائل بن الحارث، وإليه ينسب المُهلّب بن أبي صُفْرة.

وأما الحجر بن عِمْران بن عمرو مزيقياء، فأعقب من أربع أفخاذ: زيد مناة ومرحوم وعمرو وسُود: أولاده لصلبه، فأعقب عمرو بن الحجر من ابنه رَباب.

وأمّا كعب بن عمرو مزيقياء، فأعقب من خمس أفخاذ: السموأل وحنظلة وثعلبة ومالك وقاتل الجوع: أولاد كعب بن عمرو.

وأما عمرو بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من ثلاث أفخاذ: حارثة والرَّبْعَة وملادس: بني عمرو.

وأما جفنة[٣] بن عمرو مزيقياء، فهم ملوك الشام. والعقب من جفنة من ثلاث أفخاذ: كعب ورِفاعة والحارث: بني جفنة في آخرين.

---

(١) السّراة: جمع جاء على غير قياس، قال الأصمعي: السّراة: الطود، جبل مشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء، وإنما سمّي بذلك لعلوّه وسراة كلّ شيء ظهره. «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٠٤ وما بعدها».

(٢) بارق: موضعٌ تنسب إليه الصحاف البارقية، وبارق: موضعٌ قريب من الكوفة ومنه قول أسود بن يعفر:

أرض الخورنق والسّدير وبارقٍ والقصر ذي الشّرفات من سنداد

«اللسان، مادة برق».

(٣) هو جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، حارثة الغطريف، من أزد كهلان، أمير غسّاني، من قدماء الجاهليين، وإليه ينسب أمراء الغساسنة، فيقال لهم «آل جفنة»، كانت عاصمتهم الجابية، من قرى الجولان، ثم امتدّ ملكهم إلى تدمر وضفّة الفرات شمالاً، وكان جفنة من الشجعان الأشدّاء. «فهرس الأعلام ٢/ ١٣١».

فالعقب من كعب بن جفنة بن مزيقياء، من أُمام والحارث: ابنيه لصلبه؛ ومن ولد أُمام: جَبَلَة بن الأيهم بن عمرو بن جبلة بن الحارث الأعرج بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن حجر بن هند بن أمام هذا ابن كعب بن جفنة بن عمرو مزيقياء، وقيل: بل هو جبلة بن الأيهم(١) بن جبلة بن الحارث الأكبر بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، وفيه اختلاف؛ وجبلة هو الذي تنصّر(٢) في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ومن رفاعة بن جفنة: السموأل بن أوفَى بن عادياء(٣) بن رفاعة بن جفنة: بطن؛ وأعقب الحارث بن جفنة من المنذر بن النعمان بن الحارث: بطن، ومن الحسحاس ومنارة: ابني عوف بن الحارث: بطن. وجماعة من قبيلة الأرمن نصارى يزعمون أن جدّهم هَيِّرٌ يرجع إلى جفنة غسّان.

وأما الخِيار بن مالك بن زيد بن كَهْلان، فالعقب من ولده في هَمْدان: وهو أَوْسَلَةُ بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار المذكور. وقيل: هو الجبار بالجيم والباء الموحدة.

والعقب من همدان: ابن مالك بن جشم بن خَيْران بن نَوْف بن همدان هذا، ومن جشم: ابن بَكِيل وهو الحبك: فخذ، وحاشد ابنا جشم لصلبه. فأعقب الحبك من دَوْمان وسَوْران وخَيْران. فمن ولد دومان بن الحبك وهو بَكِيل: أرحب ومرهِبه: ابنا عامر بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان، إليه يُنسب كلّ أرحبيّ. ومن حاشد بن جشم بن خيران: سَبِيع: فخذ، ابن سبع بن صعب بن خيران بن معاوية بن

---

(١) هو جبلة بن الأيهم بن جبلة الغسّاني، من آل جفنة، آخر ملوك الغساسنة في بادية الشّام، قاتل المسلمين في دومة الجندل، وحضر وقعة اليرموك في جيش الروم، فانهزم الرّوم وجبلة معهم، ثمّ أسلم وهاجر إلى المدينة، ثم إنّه ارتدّ بالشام بعد أن أمر عمر رجلًا أن يقتصّ منه، فلطمه الرجل على عينه، فقال: أو عينه مثل عيني؟ والله لا أقيم ببلدٍ عليَّ به سلطان، ورحل إلى القسطنطينية وأقام عند هرقل ملك الروم، إلى أن توفي سنة ٦٤١ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١١١ - ١١٢».

(٢) تنصّر: اعتنق النّصرانية.

(٣) هو السموأل بن عادياء الأزدي، شاعر جاهليّ حكيم، من سكان «خيبر» في شمال المدينة، كان يتنقّل بينها وبين حصن له سمّاه «الأبلق»، أشهر شعره لاميته التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلّ رداء يرتديه جميل

وهي من أجود الشعر، له ديوان شعري صغير، وحادثته مع امرىء القيس الشّاعر معروفة، توفي نحو سنة ٥٦٠ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٤٠».

كبير بن خيران: وهو مالك بن زيد بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيران: رهط أبي إسحٰق السَّبِيعي[١]، وفي ذلك خلاف بين النسّابين في الأسماء.

وذكر بعض النسّابين أنّ الهانَ بن مالك: أخا همدان بن مالك، إليه يرجع ويُنسب كلّ ألهانيّ: وهم قليل، ويَامُ بن أُحيّ بن نافع بن خيران وهو مالك بن زيد: رهط زُبَيْد اليامي شيخ التَّوَّزيّ[٢].

وذكر بعض النسّابين: أنّ الأَوْزاع، وهم من مَزِيدة بن زيد عددهم في همدان وهم من حمير، وإليه يرجع كلّ أوزاعيّ. ومن ولد سَدَد بن زُرْعة وهو حمير الأصغر: الأوزاع بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن زيد بن سَدَد، والأوزاع بن زيد بن سدد، والأوزاع بن سدد، والأوزاع بن شُقْران بن المعلَّل بن سَدَد.

قال: وهذه النهاية في اختصار أنساب اليمن، وقد احتوت على الغاية في حسن إيصال البطون وتبيينها في الترتيب؛ فلنرجع إلى عمود النسب المحمديّ، فنقول:

إن عمود النسب من عابر بن شالخ في ابنه: فالغ بن عابر، وأمّه ميشاخا؛ وكان له من الولد غير عمود النسب الجبابرة، مثل تميم وقينان وسيرى[٣] ومُدَبِّر وغيرهم انقرضوا كلّهم لم يعقب منهم إلا أرغو بن فالغ، وهو الجدّ الذي يرجع إليه كلّ قرشيّ وكلّ قيسي، وهو أحد شعبي النسب.

والعقب من ولده في أرغو بن فالغ[٤]، وكان منه جبابرة انقرضوا. وعقبه في ابنه ساروغ بن أرغو. وكان له غير عمود النسب من العقب عشائر وأولاد جبابرة.

---

(١) أبو إسحٰق السّبيعي: هو عمرو بن عبد الله الهمداني الكوفي، أبو إسحٰق، من أعلام التابعين الثّقات، كان شيخ الكوفة في عصره، أدرك عليًا ورآه يخطب، وقال: رأيته أبيض الرأس واللّحية، غزا الروم ستّ غزوات، وعمي في كبره، توفي سنة ٧٤٥ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٨١».

(٢) اليامي: لعلّه علي بن أحمد اليامي، سلطان يماني، من الباطنية الإسماعيلية، كانت قبائل همدان على طاعته، كان داهية شجاعًا أديبًا، قصده الشعراء، ومنهم الرّشيد بن الزّبير، ولمّا عاد الرشيد إلى مصر سُئِل عن اليمن، فقال: «وجدت فيها ما ليس في غيرها، وجدت مدينة وهي زُبيد، ونزهة هي صنعاء». ولعلّه يقصد هنا بقوله: رهط زبيد اليامي، أي رهط مدينة زبيد اليامي. «انظر فهرس الأعلام ٤/ ٢٧٠».

(٣) في التوراة: وردت الكلمة «ستري».

(٤) في التوراة: وردت الكلمة «رعُو بن فالج».

منهم يَعْصُم، ويَغْظُم، ونعمان، وبعلاك، وبَهْران، وكاشَم، وطولان، وغيرهم هلكوا دارجين[١].

والعقب منه في ابنه نَاحور بن ساروغ، فالعقب من ناحور في ابنه تارَح: وهو آزَر بن ناحور.

ومن تارح غير عمود النسب: هاران بن تارح وناحور بن تارح، فولد هَارَانُ: لوطًا النبيّ ﷺ.

وعمود النسب من آزر في ابنه.

إبراهيم خليل الله عليه الصّلاة والسلام

وهو الجدّ الحادي والثلاثون لسيّدنا رسول الله ﷺ! وأمّه أدبَا بنت نمر بن أرغو بن فالغ بن عابر، وله من الولد غير إسماعيل عمود النسب: إسحٰق عليه السلام ويِشْباق: وهو طالب، وسَوّاح: وهو خاضع، وزِمْرَان: وهو نَجْدان، ومَدَان، ويُقْشان: وهو مصعب؛ فهٰؤلاء ولد إبراهيم عليه السلام لصلبه، والعقب منهم غير عمود النسب وهو إسماعيل لإسحٰق لا غير. فولد إسحٰق ﷺ: يعقوب إسرائيل الله ﷺ والعِيصُ وهو عيصُو[٢]، وُلدا في بطن واحد، فخرج عيصو أوّلًا وخرج يعقوب بعده، ويده عالقة بعقبه فسُمّي يعقوب. وأمّهما رِفْقَا[٣] بنت ناحور بن تارح بنت عمّ أبيهما إسحٰق. فولد العيص بن إسحٰق: رَعْوَال[٤] ويَعُوس[٥] وأَلِيفَاز ويَعْلام وقُورَح ورُوم. فولد أليفاز بن العيص: عَمالق[٦] وغيره. وولد رعوال بن العيص: ناجب وغيره، وولد رُوم بن العيص بن إسحٰق: بني الأصفر؛ لأن روم كان رجلًا أصفر في بياض، فلذلك سُمّيت الروم: بني الأصفر.

قال: وعمّر عيصو مائة وسبعًا وأربعين سنةً، وكذلك يعقوب، ودفنا معًا عند قبر أبيهما إبراهيم الخليل عليه السلام في مزرعة حَبْرُون[٧]. وقيل: هي مزرعة عَفْرُون كان إبراهيم اشتراها لقبره، وفيها دُفنت سارَةُ.

---

(١) دارجين: أي متقرضين، ويقال: درج القوم، أي انقرضوا.

(٢) ورد الاسم في التوراة: «عيسو».

(٣) ورد الاسم في التوراة: «رفقة».

(٤) ورد الاسم في التوراة: «رعويل».

(٥) ورد الاسم في التوراة: «يعوش».

(٦) ورد الاسم في التوراة: «عماليق».

(٧) حبرون: اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام بالبيت المقدّس، وقد غلب على اسمها الخليل، ويقال لها أيضًا «حبرى»، وروي عن كعب الحبر أنّ أوّل من مات ودفن في حبرى سارة زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام. «معجم البلدان ١/ ٣١٢».

ومن ولد العيص: أيوب النبيّ عليه السلام، قيل: هو أيوب بن أَموص بن تارَح بن رفو بن عيصان بن إسحٰق، وأمّه من ولد لوط بن هاران عليه السلام.

وولد يعقوب عليه السلام: اثني عشر سِبْطًا[(١)]، منهم يوسف النبيّ عليه السلام: عزيز مصر وصاحبها، وإخوته: كاد[(٢)] وبَنْيَامِين ويهوذا ونَفْتَالى وزَبُولُون وشِمْعون ورَأوبِين، وكشاحا، ولَاوِي، ودَان، وياشِير[(٣)]. جاء من ولد يهوذا: سليمان النبيّ عليه السلام، وجاء من سليمان: مريم ابنة عِمران أمّ المسيح عليهما السلام. وجاء من لاوي بن يعقوب: موسى كليم الله وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن قاهث، وجاء من ولد هارون: يحيىٰ بن زكريّا وإلياسُ واليَسَعُ والعزَيرُ. وقد روى: أن إلياس بن مضر نبيّ، وأنّه المعنيّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٧٨] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الصافات: الآية ١٣٠] في قراءة نافع[(٤)] وابن عامر[(٥)]، وأن آلَ ياسين آلُ محمد ﷺ.

والعقب من يوسف الصدّيق عليه السلام: أَفْرائِيم ومَنَشّا[(٦)] ابنيه لصلبه؛ فمن ولد أفرائيم: يُوشَع بن نُون وصيّ موسى عليه السلام: وهو الذي رُدّت عليه الشمس في حربه: وهو يوشع بن نون بن عازر بن شوتالج بن داباد بن ناحب بن العاد بن ناحَب بن يارد بن شوتالج بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب. وفي ولد منشا بن يوسف: موسى بن منشا بن يوسف. وولد لمنشا ابنة اسمها رَحْمة: وهي امرأة أيّوب عليه السلام.

قال: وزعم أهل التوراة أن الله تعالى نبّأه وأنه صاحب الخضر[(٧)]. وذكر المؤرّخون أنه لما مات يعقوب، فشا في الأسباط الكهانة فبعث الله تعالى موسى بن

---

(١) السِّبط من اليهود: كالقبيلة من العرب، وهم الذين يرجعون إلى أبٍ واحد سمّي سبطًا ليفرق بين ولد إسمٰعيل وولد إسحٰق، وجمعه أسباط، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: الآية ١٦٠] كأنّه قال: جعلناهم أسباطًا. «اللسان، مادة سبط».

(٢) ورد الاسم في التوراة: «جادّ». (٣) ورد الاسم في التوراة: «أشير».

(٤) هو نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، محدّث ثقة، مقرىء، بقي إلى زمن السّفاح. «الكاشف ٣/ ١٧٤».

(٥) ابن عامر: هو عبد الرحمٰن بن عامر، محدّث، ثقة، روى عن عبد الله بن عمرو، وعنه ابن أبي نجيح. «الكاشف ٢/ ١٥١».

(٦) ورد الاسم في التوراة: «مَنَسّى».

(٧) الخضر: هو العبد الصالح الذي ورد ذكره في القرآن مع نبيّ الله موسى عليه السلام، وفي سورة الكهف رقمها ١٨.

منشا يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وهو قبل موسى بن عمران بثمانمائة سنة، والله تعالى أعلم.

ونرجع إلى عمود النسب؛ وهو من إبراهيم في ولده إسماعيل: الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وأمّه أم ولد، تدعى هاجَر، من قبط مصر، من قرية يقال لها: أمّ العرب نحو الفرما[١].

واختلف العلماء فيما بين عدنان إلى إسماعيل في ذكر الآباء: فمن العلماء من ينسب اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، ويقولون: إنهم من ولد يَمَن بن نَبْت بن إسماعيل، وافترق باقي ولد إسماعيل في أقطار الأرض، فدخلوا في قبائل العرب ودرج[٢] بعضهم، فلم ينسب النسّابون لهم نسبًا إلّا من كان من ولد قَيْدار ابنه عمود النسب.

قال: واتّفق أهل العلم بالنسب كما وجدوه في التوراة، وكما حملوه عن علماء أهل الكتاب، وكما روي عن عبد الله بن عباس: أن النسب فيما بين آدم وإسماعيل صحيح على ما أوردناه لا خلف فيه بينهم ولا خلاف إلّا في الأسماء لتنقل الألسنة، وإنما الخلاف فيما بين إسماعيل وعدنان، وذلك أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض، فمن أجل ذلك حدث الاختلاف فيما حفظوه، فقال قوم برواية، وقال آخرون برواية. قال: وهذه الرواية التي أوردها في هذا التأليف هي أحسن الروايات، وهي عمدة أكثر النسّابين الأجلّاء، وعليها كان يعتمد شيخ الشرف محمد بن أبي جعفر الحسينيّ العُبَيدلِيّ النسابة، وهي رواية عبد الله بن عباس، واختيار أبي بكر محمد بن عبدة العبقسيّ النسّابة الطرسوسي وغيره.

وكان لإسماعيل عليه السلام من الولد غير قَيْدار عمود النسب أحد عَشر ولدًا، وهم: مَسًّا ويَطُور ومِسماع ودُوماء، وقيل: هو الذي بنى دُومَة الجَنْدل[٣]، ومبشام وإديال ونَعَابوا وتِيما، وحُداد ونافيس وقَيْدَما.

(١) الفَرَما: مدينة على السّاحل من ناحية مصر، أو هي مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قطيّة وشرقي تنيس على ساحل البحر، والفَرَما: أخو الإسكندر يقال: إنه هو الذي بناها وسمّيت باسمه. «معجم البلدان ٤/ ٢٥٦».

(٢) درج: هلك وانقرض.

(٣) دومة الجندل: مدينة في غائط من الأرض، وسمّيت دومة الجندل لأن حصنها مبنيٌّ بالجندل، وقال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصنٌ وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّىء، كانت به بنو كنانة من كلب. «معجم البلدان ٢/ ٤٨٧».

وعمود النسب من إسماعيل عليه السلام في ابنه قيدار بن إسماعيل، وأمّه هالَةُ بنت الحارث بن مُضَاض الجرهميّ، ويقال: اسمها سلمى، وقيل: الحنفا، وقيل: هي أم أولاد إسماعيل كلّهم.

والعقب منه في ابنه حَمَل بن قيدار؛ وأمّه الغاضريّة بنت مالك الجرهميّ.

والعقب منه في نبت بن حمل وأمّه هامَة بنت زيد بن كَهْلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وتدعى حُرَيْرة.

والعقب من نبت في ابنه سلامان بن نبت.

والعقب من سلامان في ابنه الهميسع بن سلامان، أمّه حارثة بنت مراد بن زرعة ذي رُعَيْن الحميريّ.

والعقب منه في ابنه اليسع بن الهميسع.

والعقب من اليسع في ابنه أُدَد بن اليسع، وأمّه حيّة من قحطان.

والعقب منه في ابنة أدّ بن أُدد، وأمّه النعجا بنت عمرو بن تُبَّع سعد ذي فَائش الحميريّ.

والعقب منه في ابنه عدنان بن أُدّ، وأمّه المتمَطِّرة بنت عدي الجرهميّة: وهو الجدّ الحادي والعشرون لسيّدنا رسول الله ﷺ.

وقد قال أكثر النسّابين: إن العقب من عدنان غير معدّ عمود النسب من علّ: وهو الحارث والذئب والنعمان والضحّاك لا عقب له، وهو المُذْهَبُ الذي يقال في المثل: «أحسنُ من المُذْهَبِ»، وعديٌّ دَرَجَ، والغنيّ وأبيّ وعَدَن ـ وهو صاحب عدن ـ وعمرو ونبت وأُدّ وعدًا انقلبت في اليمن.

فأمّا علّ بن عدنان، فكلّ من كان منهم بالمشرق فهم يُنسبون إلى الأزد، والذي في الأزد أيضًا علّ بن عدنان بالثاء المثلّثة ابن عبد الله بن الأزد.

وقال شيخ الشرف النسّابة: علّ بن عدنان بالنون، وقال الأفطسيّ النسّابة: علّ بن الحارث بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، وكلّ من كان منهم بالشام ومصر واليمن والمغرب، فهم مقيمون على نسبهم في عدنان.

وأما الذئب بن عدنان فيزعمون أن الأوس والخزرج من ولده، قال عبّاس بن مرداس[١]: [من الطويل]

وعكّ بن عدنان الذين تلعّبوا بغسّان حتى طرّدوا كلّ مُطرَدِ[٢]

نرجع. وعمود النسب من عدنان في ابنه معدّ بن عدنان، وأمّه مَهْدَدُ بنت اللَّهَمّ الجرهميّة.

قال[٣] النسّابون في أولاده لصلبه، فقالوا: إن ولده أحد عشر رجلًا: وقالوا: ثمانية، وزاد آخرون، وقال قوم: لم يكن له غير نِزار.

قال: فالذي أورد له أحد عشر ولدًا قال: والعقب من معدّ بن عدنان: عُبَيْد الرَّمَّاح أعقب، وجُنَيْد وجُنَادة وحَيد وقبضة، وقيل: بل اسمه قَنَصٌ انقرض، وقُناصة وحَيدان أعقب، وشَطّ وعوف وسَنام وقُضاعة، قال العلماء: وكلّهم انتقلوا في اليمن وغيرها إلّا نزارًا. وقد قيل: إن حيدان هذا هو أبو مَهْرة: القبيلة. وقال النسّابون: والقَحْم أعقب، وسنام أعقب، وحبيب والضحّاك أعقب، وأَوْد أعقب: أولاد معدّ.

فأمّا عبيد الرَّمَّاح فانتسب في بني مالك بن كنانة، ومنهم كان إبراهيم بن عربيّ صاحب اليمامة[٤].

وأمّا سنام بن معدّ، فإنّه انتسب في سعد العشيرة بن مالك[٥] في اليمن.

---

(١) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السّلمي، من مضر، أبو الهيثم، شاعر فارس من سادات قومه، أمّه الخنساء الشاعرة، تماضر بنت الشّريد، أدرك الجاهلية والإسلام، أسلم قبيل فتح مكّة، وكان من المؤلّفة قلوبهم، كان بدويًا قحًا، مات نحو سنة ٦٣٩ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٦٧».

(٢) طرّدوا: مبالغة من طرده، والمطرد من الطّرد: وهو الإبعاد وبشدّة وعنف، أو لعلّه: حوربوا كلّ المحاربة.

(٣) لعلّه يريد: قال: واختلف النسّابون الخ... ليستقيم السّياق.

(٤) اليمامة: في الإقليم الثاني والثالث، كان فَتْحُها وقتل مسيلمة الكذّاب في أيّام أبي بكر الصديق سنة ١٢ هـ، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حَجْر، وتسمّى اليمامة جوًّا، فسمية باليمامة نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم، قال أهل السِّير: كانت منازل طسم وجديس اليمامة. «انظر معجم البلدان ٥/ ٤٤٢».

(٥) هو سعد العشيرة بن مالك بن أُدد، من كهلان، من القحطانية، جدّ جاهلي بنوه عدّة بطون، سمّي سعد العشيرة، لأنّه كان يركب ومعه أبناؤه وأبناء أبنائه، وهم نحو مئة رجل، فإذا سُئِل عنهم يقول: هؤلاء عشيرتي. «فهرس الأعلام ٣/ ٨٦».

وأمّا حَيْدَةَ بن معدّ فانتسب في الأشعريِّين.

وأمّا القحم بن معدّ، فانتسب في مالك بن كنانة.

وأمّا أود بن كعب، فانتسب في مذحج.

وأمّا قَنَصٌ فانقرض عقبه، وقيل: كان منهم النعمان بن المنذر[١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: ذو القرنين[٢] عبد الله بن الضحاك بن معدّ بن عدنان.

نرجع. وعمود النسب من معدّ بن عدنان في ابنه نزار بن معدّ وأمّه مُعَانَةُ بنت جَوشُم[٣] الجرهميّة، ومنه غير مُضر الذي هو عمود النسب ثلاث بطون: ربيعة الفَرَس وإياد وأنمار: بنو نزار. والصَّرِيحان من ولد إسماعيل عليه السلام: مُضَر الحمراء وربيعة الفرس. وقولهم: ربيعة الفرس، ومضر الحمراء، فزعموا أنه لما مات نزار تقسم بنوه ميراثه واستهمّوا عليه؛ وكان له فرس مشهور فضله في العرب، فأصابه ربيعة فقيل: ربيعة الفرس ؛ وكان له ناقة حمراء مشهورة الفضل بين العرب، فأصابها مضر فقيل: مضر الحمراء؛ وكان له جَفنةٌ[٤] عظيمة يطعم فيها الطعام فأصابها إياد؛ وكان له قدح كبير يسقى فيه اللبن إذا أطعم فأصابه أنمار، هذا أحد ما قيل في ذلك، وسنذكر ما قيل في قسمة ميراث نزار وما اتّفق لأولاده مع الأفعَى الجرهميّ في أمثال العرب في حرف الهمزة، وفي قولهم: «إن العصا من العُصَيّة»[٥]، وهو في الباب

---

(١) هو النعمان بن عمرو بن المنذر الغسّاني، من ملوك آل غسّان في الجاهلية، كانت له حوران وعبر الأردن وتلك الأنحاء، بنى قصر السّويداء بحوران، وقصر حارب، مات نحو سنة ٣١٢ م. «فهرس الأعلام ٨/ ٣٨».

(٢) ذو القرنين: هو الملك التاسع من ولد جمشيد، اسمه أفريدون، وفي أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضًا وقسمها بين بنيه. «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٣) كذا في الأصل، وفي الطبري: «جَرْشُم». (٤) الجفنة: القصعة، إناءٌ يطعم به.

(٥) هو مثل ذكر أنّ أوّل من قاله الأفعى الجرهمي، وذلك أن نزارًا لمّا حضرته الوفاة، جمع بنيه مُضَر وإيادًا وربيعة وأنمارًا، فقال: يا بنيّ هذه القبّة الحمراء لمضر، وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة، وهذه الخادم وكانت شمطاء لإياد، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فائتوا الأفعى الجرهميّ ومنزله بنجران، فتشاجروا في ميراثه وقصدوه فقضى لهم وصدروا من عنده على قضائه، فقال الأفعى: إن العصا من العُصَيّة، وإن خُشينًا من أخشن، ومساعدة الخاصل تعدّ من الباطل، والمراد: أنّهم يشبهون أباهم في جودة الرأي. «انظر المثل وقصّته في مجمع الأمثال ١/ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦، المثل رقم ٣٢».

الأوّل من القسم الثاني من هذا الفن في أوّل السفر الثالث من كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

نرجع. فأمّا أنمار بن نزار، فإنها انقلبت في اليمن، قال: كذا روينا عن شيوخنا في النسب ومن قال: إنها انقلبت في اليمن يقول فيه: إنّ خثعم وبَجِيلة ابنا أنمار بن نزار، وإنما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن النبيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وأمّا إياد بن نزار وهي القبيلة التي يرجع إليها كلّ إياديّ، فمنها فخذان: بنو دُعْمِيّ بن إياد، وبنو زَهْر بن إياد؛ ومن زهر بنو حُذَاقة بن زهر: عشيرة في إياد، إليها ينسب الحذاقيّون.

وأما ربيعة الفرس بن نزار بن معدّ، فأعقب من ثلاثة أبطن: أَسَد، وهو البطن الأعظم من ربيعة، وضُبَيْعة بن ربيعة، وأكلب. وضبيعة يقال له: ضبيعة الأضْجم: لأنه كان مائلَ الفم. ومن أكلب أفخاذ: منها لصلبه: هُرَيْر وعوف ومَعْن ومُبَشّر وجليلة.

والعقب من ضبيعة بن ربيعة بن نزار من ثلاث قبائل: جُلّى وعوف وبدر: بنو أحْمَس بن ضبيعة؛ ومن بني جلّى: بنو مُجَمِّع الشعوب: ربيعة بن سَلَمة بن سعد بن بلال بن بُهْثة بن حرب بن وهب بن جلّى: بطن.

وأمّا أسد بن ربيعة فمنه ثلاث بطون: أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد، وعَنَزة بن اللهازم بن أسد، واسمه عمرو، وعميرة بن أسد، وإلى عَنَزة يُنسب كلّ عنزيّ (محرك النون).

والعقب من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذان، وهما: أسْلَم ويَقْدُم: ابنا يَذْكُر بن عنزة بن أسد، فمن أسلم فخذان: بنو صُباح ـ وهو قمر الليل والنهار ـ وبنو حُلّان: ابني العتيك بن أسلم. ومن يقدم بن يذكر فخذان: تَيْم ونصر: ابنا يقدُم. ومن بني تيم: بنو هَمِيم بن عبد العُزّى بن ربيعة بن تيم بن يقدم.

والعقب من عَمِيرة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذان، هما: مبشّر وعديّ: ابنا عميرة بن أسد بن ربيعة.

وأما أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد، فمنه بطنان: هِنب وعبد القيس: ابنا أفصى بن دعميّ بن جديلة، وإلى عبد القيس هذا ينسب كلّ عبقسيّ.

والعقب من عبد القيس بن أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن أفصى بن عبد القيس، واللَّبود بن عبد القيس. والعقب من أفصى بن عبد القيس من لُكَيْز بن أفصى وشَنّ بن أفصى. فمن لكيز بن أفصى ثلاث عشائر: وَديعةُ وصُباح ونُكْرة. فمن ولد نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس: دُهن بن عذرة بن منبّه بن نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس؛ وليس دهن هذا فخذ عمارة الدهنيّ، إنما فخذه دهن التي في بجيلة.

والعقب من وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعميّ من عمرو بن وديعة، ودهن بن وديعة وغنم بن وديعة.

والعقب من عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى ـ ويقال لولده: العُمُور ـ أنمار وعِجل ومُحارب والدِّيل: أولاد عمرو بن وديعة.

والعقب من هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة من قاسط بن هنب وعمرو بن هنب، فمن ولد عمرو بن هنب هذا: عتِيب بن عمرو، ومن عَتِيب في دهن: فخذ، وخفاجة: ابني عتيب.

والعقب من قاسط بن هنب من النمر بن قاسط[1]؛ وإليه ينسب كل نمريّ، وعمرو هو عُفَيْلة بن قاسط: قبيلة، ومعاوية بن قاسط في عاملة، ووائل بن قاسط: البطن الأعظم من قاسط.

فالعقب من النمر بن قاسط من تيم الله، ويقال: تيم اللّات، وأوس مناة: ابني النمر؛ ومن النمر بن قاسط: بنو الضَّحْيان وهو عامر بن سعد بن الخزرج بن سعد بن تيم الله بن النمر. وإليه كانت الرياسة واللّواء[2] والحكومة[3] والمِرْباع[4]. وقيل له الضحيان لأنه كان يحكم بين العرب في الضُّحَى.

وأما وائل بن قاسط بن هنب، فأعقب من أربع أبطن: تغلِب بن وائل: البطن المشهورة، إليها يرجع كلّ تغلبيّ معدّيّ. (وفي قضاعة أيضًا تغلب بن حُلوان بن

(١) هو النّمر بن قاسط بن هنب بن أمصى بن دُعمى، من أسد ربيعة، جدّ جاهلي، كان له بالمدينة عقبٌ كثير، ارتدّ جماعة منهم فأبادهم خالد بن الوليد، ودخل بعضهم الأندلس في أيام الفتح، فكانت سكناهم بحصن وضاح من عمل «ريّة». «فهرس الأعلام ٨/٤٨».

(٢) اللّواء: الشّعار يحمل في الحرب «الرّاية».

(٣) الحكومة: من يُحتكم إليه، أي يكون له الفصل عند المخاصمة.

(٤) المرباع: رُبع الغنيمة الذي كان الرئيس يأخذه في الجاهلية.

عمران بن الحاف بن قضاعة جدّ بني كلب)، وبكر بن وائل، وعَنْز بن وائل (ساكنة النون) كما يُنسب في نزار إلى عنزة بن أسد كلّ عَنزيّ (محرّك النون)، وعمرو بن وائل. فمن عنز بن وائل بن قاسط فخذان: وهما رَفيدة بن عنز وأَرَاشة بن عنز، وفيهما عدّة أفخاذ وعشائر.

والعقب من بكر بن وائل بن قاسط بن هنب من الحارث وعليّ ويشكر وجشم وبَدَن: بني بكر؛ وإلى عليّ هذا يُنسب كلّ علويّ في نزار، وإلى يشكر هذا يُنسب كلّ يشكريّ.

والعقب من يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب من ثلاث قبائل لصلبه: وهم حرب وكنانة وكعب، فأعقب حرب بن يشكر من جشم وذُهْل: ولدَيْ كنانة بن حرب؛ ومن بني جشم بن حرب: بنو عُصَيْم بن سعد بن عمرو بن جشم، وبنو الحمْير: حُبيِّب بن كعب بن جشم، وإلى جشم هذا يُنسب كلّ جشميّ في نزار.

وأعقب كنانة بن يشكر من ذِبيان (بالكسر بضد ذبيان عبس الذي هو بالضمّ)، وأعقب ذبيان من فخذ وائلة وعامر: ابني ذبيان بن كنانة بن يشكر، فمن بني عامر بن ذبيان: بنو جشم بن عامر: فخذ يقال لهم: الجشميّون أيضًا.

وأما بنو عليّ الوائلي فالعقب من عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة من صعب بن عليّ وحده؛ وإليه يرجع كلّ صعبيّ في نزار. والعقب من صعب من ثلاث بطون: عُكَابة ولُحَيْم[1] ومالك: أولاد صعب بن عليّ بن بكر بن وائل، فأعقب مالك بن صعب في بني زِمّان بن مالك: فخذ، وإليه ينسب كلّ زِمّانيّ.

وأما لُحَيْم بن صعب، فأعقب من حَنِيفة بن لحيم: البطن المشهورة، ومن عجل بن لُحَيْم.

قال الزبير بن بكّار: وحَنِيفة امرأة نُسب إليها ولدها، وهي: حنيفة بنت كاهل بن أسد بن خَزِيمة، فأعقب حنيفة من ثلاث قبائل: الدُّؤل بن حنيفة: القبيلة المشهورة في بني حنيفة، ويقال في النسبة إليه: دؤليّ (كذا بضد النسبة إلى دؤل كنانة)، وعامر بن حنيفة وعديّ بن حنيفة، وفيهم عدّة عشائر وقبائل، والعزوة إلى حنيفة تغني عنها؛ منها بنو يَربوع بن الدؤل بن حنيفة إليه يُنسب كلّ يربوعيّ، وهم قبيلة خَوْلة بنت

(١) كذا بالأصل، وفي كتاب المعارف لابن قتيبة «لُجيم» بالجيم المعجمة.

جعفر بن قيس بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع المذكور أمّ أبي القاسم محمد بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه المعروف بابن الحنفيّة[(١)]؛ وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه لعليّ: «سيولد لك ولد وقد نحلته اسمي وكنيتي».

قال: ولعبيد بن ثعلبة بن يربوع غير سلمة خمس أفخاذ لصلبه: مَسلَمة وشَيْبان وزيد ووهب وأرقم، ولهم عدد في بني مَسْلَمة المذكور: عمرو بن معديكرب[(٢)] بن الحارث بن مسلمة، إليه يُنسب كنز الدولة حامي أسوان[(٣)].

وأما عجل بن لحيم فأعقب من أربع أبطن: وهي سعد وكعب وهم قليل، وربيعة وضبيعة أولاد عجل، وإليه ينسب كلّ عجليّ. وفيهم عدّة أفخاذ وعشائر، وإلى ضبيعة يُنسب كلّ ضبعيّ.

وأما عكابة بن صعب بن عليّ فأعقب من بطنين: ثعلبة وفيه العدد، وقيس: ابني عكابة.

والعقب من ثعلبة بن عكابة بن صعب بن عليّ من خمسة: قيس من اللّهَازم: بطن، ومالك وتيم الله من اللّهازم: قبيلة أولاد ثعلبة بن عكابة، وشَيْبان وذُهْل وهما الذُهْلان: ابنا ثعلبة، وإلى شيبان هذا يرجع كلّ شيبانيّ، وإلى ذهل يرجع كلّ ذُهليّ.

فأمّا قيس بن ثعلبة فأعقب من ضُبَيْعة وسعد: ابنيه لصلبه، والعقب من ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة من ربيعة وهو جُحْدَر، وإليه يرجع كلّ جَحدريّ، وسعد وتيم وعُبَاد ومالك: بطن.

---

(١) ابن الحنفيّة: هو محمد بن علي بن أبي طالب الهاشميّ القرشي، أحدُ الأبطال الأشدّاء في صدر الإسلام، وهو أخو الحسن والحسين من غير أمّهما فاطمة الزّهراء، كان واسع العلم، ورعًا، أسود اللون، وأخبار قوّته وشجاعته كثيرة، وكان المختار الثقفي يدعو الناس إلى إمامته، ويزعم أنه المهدي، وكانت الكيسانيّة «من الفرق الإسلاميّة تزعم أنّه لم يمت، وأنه مقيم برضوى مولده ووفاته بالمدينة سنة ٧٠٠ م». «فهرس الأعلام ٦/ ٢٧٠».

(٢) لعلّه عمرو بن معديكرب بن ربيعة، فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على النبيّ ﷺ سنة ٩ هـ وأسلم، ثم ارتدّ بعد وفاة النبيّ ﷺ، وعاد بعد ذلك إلى الإسلام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه، قيل: إنه قتل في «القادسيّة»، أو مات عطشًا سنة ٦٤٢ م. «فهرس الأعلام ٥/٨٦».

(٣) أُسوان: آخر الدّيار المصرية في البرّ الشرقي والغربي، وهي بلاد التّمر ومنها يجلب إلى سائر البلاد المصرية. «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٥٥».

وأعقب تيم الله بن ثعلبة بن عكابة بن سبع أفخاذ، وهم: الحارث وذُهْل وعديّ ومالك وعامر وزِمّان وحاطِبة، ومن بني مالك بن تيم الله: بنو عائش بن مالك: فخذ.

فأمّا شيبان بن ثعلبة بن عكابة فأعقب من ثلاث بطون لصلبه: ذهل، وإليه يرجع الذهليّون، وتيم وثعلبة، وثعلبة ذا: هو الفخذ الذي يُنسب إليه ويرجع أبو الصقر محمد بن إسماعيل وزير المعتمد[١]، وفيه يقول ابن الروميّ الشاعر:

قالوا: أبو الصقر من شيبان، قلت لهم ... كلّا لَعمري ولكن منه شيبانُ
وكم أبٍ قد علا بابنٍ له شرفًا ... كما علا برسول الله عدنانُ

وأعقب ذهل بن شيبان من أولاده لصلبه: وهم مُرّة، وإليه يرجع المرّيون الشيبانيّون وأبو ربيعة ومُحلِّم وصُبْح[٢] والحارث وعمرو: وهو جِذْرة وعوف وعبد غنم، ومن ولد أبي ربيعة بن ذهل: المُزْدلِفُ، وهو عمرو بن أبي ربيعة: فخذ كبيرة.

وفي مرة بن ذهل بن شيبان عدّة أفخاذ، وهم: سعد ودُبّ وسيّار وكثيّر وجندب وبُجَيْر وجسّاس ونضلة وهمّام: قبيلة الأحلاف أولاد مرّة، قال: وهمام بن مرّة[٣] بن ذهل هو بيتُ ذهلٍ وقعدُد[٤] فخرهم. وأعقب لصلبه الأحلاف من مازن وعوف وثعلبة خمسين بيتًا، وعمرو وعائشة والأسعد وحبيب، هؤلاء هم الأحلاف ومرّة وعبد الله والحارث.

وأما ذهل بن ثعلبة وهو أحد الذهليّين فمنه بطنان لصلبه: شيبان وعامر، فأعقب شيبان بن ذهل بن ثعلبة من سبع أفخاذ لصلبه: وهم سَدُوس ومازن وعمرو الأعمى وعَلْباء ومالك وعامر وزيد مناة. وإلى سدوس هذا يُنسب كلّ

---

(١) هو المعتمد على الله، أبو العباس، ويقال: أبو جعفر أحمد بن جعفر المتوكّل، بُويع له بالخلافة يوم قتل المهدي سنة ٢٥٦ هـ، وتوفي في شهر رجب سنة ٢٧٩ هـ. «صبح الأعشى ٣/ ٢٧٢».

(٢) كذا بالأصل، وفي كتاب المعارف لابن قتيبة «صُبيح».

(٣) هو همّام بن مرّة بن ذهل، من شيبان، جدٌّ جاهلي، من سادات بني شيبان، وهو أخو «جسّاس» قاتل كليب، له شعرٌ وأخبار، قتله ناشرة بن أغوات ختلًا يوم «الواردات» من أيّام حرب البسوس، قال المهلهِل في رائيّته:

وهمّام بن مرّة قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور

«فهرس الأعلام ٨/ ٩٤».

(٤) القعدد: الأصل الثابت.

سدوسيّ. ومن ولد مازن هذا: أحمد بن حنبل[١] بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حَيّان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن، وإليه أيضًا يُنسب أبو عثمان المازنيّ النحويّ[٢] وكلّ مازنيّ، وفي مذحج في بني سُلَيْم: زُبَيْد مازن المعروفة.

نعود إلى باقي نسب وائل.

وأما تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب، واسم تغلب دِثار وكان أكثرهم نصارى، فالعقب منه في ثلاث أفخاذ لصلبه: عِمران (وهم قليل)، وأوس وغنم؛ وفيه العدد والبيت؛ ومن قبائل غنم الخنَّاقون: بكر ورَزَاح ومالك وعدي: بنو معاوية بن عمرو بن غنم بن تغلب، والأراقم[٣] الستة: جشم ومالك وعمرو والحارث ومعاوية وثعلبة: أولاد بكر بن حُبَيْب بن غنم بن عمرو بن تغلب، ومن جشم هذا: بنو عُطَيْف مُجْزِئة بن حارثة بن مالك بن جشم بن بكر بن حبيب: رهط سيف الدولة[٤] بن حمدان، فهذا نهاية الاختصار في نسب بني نزار.

وعمود النسب منه في ابنه مضر بن نزار، وأمّة سَوْدة بنت عكّ العدنانية، ومنه غير عمود النسب وهو إلياس ابنه قيس بن عَيْلان بن مُضر، واسم عيلان: الناس، وهو أخو إلياس. ويقال: قيس عيلان بن مضر، وعيلانُ حاضنٌ كان لقيس فنُسِبَ إليه كما نُسب غير واحد من العرب إلى الحضان، كسعد هذيم حضنه هُذَيْم فنُسب إليه؛ والصحيح: أن عيلان بن مضر، واسمه الناس، وقيسًا ولده، وقد قيل في الناس: النّاسّ ـ بتشديد السين ـ.

---

(١) هو الإمام أحمد بن حنبل، صاحب المذهب الحنبلي، تقدّم ذكره.

(٢) أبو عثمان المازني: هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقية، أبو عثمان المازني، من مازن شيبان، أحد الأئمّة في النحو، من أهل البصرة ووفاته فيها سنة ٨٦٣ م، له عدّة تصانيف في اللغة والعروض. «فهرس الأعلام ٢/ ٦٩».

(٣) الأراقم: مفردها أرقم، وهو ذكر الحيّات، أو أخبثها، وإنّما سمّيت الأراقم بهذا الاسم تشبيهًا لعيونهم بعيون الأراقم من الحيّات، يقال: إنّ ناظرًا نظر إليهم تحت الدّثار وهم صغار، فقال: كأن أعينهم أعين الأراقم، فلجّ عليهم اللقب. «اللسان، مادة رقم».

(٤) سيف الدولة الحمداني: هو علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الرّبعي، أبو الحسن، أمير حلب، وصاحب المتنبّي الشاعر وممدوحه، أخباره ووقائعه مع الرّوم كثيرة، جمع كثيرًا من أهل الأدب في بلاط، وله شعر حسن، توفي بحلب سنة ٩٦٧ هـ، ودفن في «ميافارقين». «فهرس الأعلام ٤/ ٣٠٣».

ذكر نسب قيس وبطونها

والعقب من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ثلاثة نفر: خَصَفَة وسعد وعمرو. وقال قائلون: وَبْر بن قيس وإنّه ولد طوائفَ من البربر، وفي ذلك خلاف عند النسّابين.

فالعقب من خصفة هذا من بطنين: عِكْرِمة ومُحارِب ابني خصفة بن قيس. وقيل: إن خصفة بن عكرمة غلب اسمها عليه فنُسب إليها كما قيل في خندف. أعقب عكرمة بن حفصة من منصور بن عكرمة: البيتَ الأوّل من بني قيس، فيه العدد، وسعد بن عكرمة وأبي مالك وعامر: بني عكرمة. أعقب منصور بن عكرمة من هوازن بن المنصور: القبيلة المشهورة، ومن سُلَيْم بن منصور: القبيلة المشهورة، وسلامان بن منصور: قبيلة، ومازن بن منصور: قبيلة.

فأما هوازن فأعقب من بكر بن هوازن لا غير، وأعقب بكر بن هوازن من ثلاث أفخاذ: معاوية بن بكر، وفيه العدد، وقَسِيّ وهو ثقيف، واسمه منبِّه بن بكر، وإليه يرجع كلّ ثَقفيّ، وسعد بن بكر، وإليه يرجع كلّ سعديّ من عشيرة حليمة بنت أبي ذؤيب السعديّة: ظئر[1] سيّدنا رسول الله ﷺ، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شِجْنَة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن قُصيّة بن نصر بن سعد المذكور؛ واسم زوجها وهو والد سيّدنا رسول الله ﷺ من الرّضاعة: الحارث بن عبد العزّى بن رفاعة بن مَلّان بن ناصرة بن قصيّة بن نصر بن سعد، وكنيته أبو كبشة، وبه كانت العرب تقول لرسول الله ﷺ: ابن أبي كبشة. وقيل في أبي كبشة أقوال، منها أن جدّه لأمّه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرة كان يكنى أبا كبشة، فنسبوه إلى ذلك ليتمه وموت أبيه. وكان أيضًا عمرو بن زيد أبو أسد النجاريّ أبو سلمى بن عبد المطّلب جدّ النبيّ ﷺ يكنى: أبا كبشة، وقيل: بل لحظوا لقولهم: أبا كبشة يعنون أبا كبشة جرير بن غالب بن الحارث، وهو أبو قَيْلة أمّ وهب بن عبد مناف والد آمنة أمّ رسول الله ﷺ. وقال ابن قتيبة: إنه كان يعبد الشّعرى[2] دون العرب، فلما جاءهم رسول الله ﷺ بعبادة الله دون عبادة الأصنام، شبّهوه في شذوذه عنهم بشذوذ بعض أجداده من قبل أمّه بعبادة الشعرى وانفصاله منهم.

---

(١) الظئر: المرضعة لغير ولدها، وهي هنا: مرضعة رسول الله ﷺ.

(٢) الشّعرى: كوكب نيّر يظهر في شدّة الحرّ، وهما شعريّان: الشّعرى الغيور، والشعرى الغميصاء.

وأمّا معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، فأعقب من صعصعة بن معاوية: القبيلة العظمى، وجشم بن معاوية، وإليه ينسب كلّ جشميّ في هوازن. وله ثلاث أفخاذ: عُصَيْمة وزِمّان وبنو جشم ونصر بن معاوية جدّ النصريّين القيسيّين، ومنه فخذان: بنو دهمان وبنو عوف: ابني نصر، وجحش بن معاوية: فخذ، وسيّار بن معاوية: فخذ، وكلاب بن معاوية، ومِنجاب بن معاوية، وعمرو بن معاوية، وأُدحِيّة بن معاوية، ودُحَيّة بن معاوية، ودَحْوَة بن معاوية، والسَّبّاق: وهو يعيش بن معاوية، وعوف بن معاوية، وجِحَاش بن معاوية: هٰؤلاء كلّهم أفخاذ قليلو العدد، يقال لهم: الهوازنيّون.

وأمّا صعصعة بن معاوية فأعقب لصلبه عامر: القبيلة المشهورة، ومرّة: وهم سَلول؛ وكلّ سلوليّ ينسب إلى مرّة هذا، وأمّ ولده سلول الشيبانيّة: وهي سلول ابنة شيبان بن ذهل بن ثعلبة، وولده عشرة أفخاذ: وهم عمرو وضبيعة ونهار وسُحَيْم: وهو أعيا، وغاضرة وعُدَيّة وجابر ومعاوية وجني ودهي. وباقي ولد صعصعة لصلبه قبائل صغار: عبد الله وعائد وعمرو وقيس وكبير وسيّار ومساور وزبيبة وربيعة وغالب ووائل ومازن وعوف ومنجور والحارث: خمس عشرة قبيلة، وفي هذه القبائل: بنو عادية وبنو عُدَيّة بالضم، فأما بنو عادية فهي أمّ عبد الله عادية والحارث. وأما بنو عدية فهي أم قيس عدية وعوف عدية. وإلى عمرو بن صعصعة بن معاوية تُعْزَى الطائفة المعروفة بالأكراد. ومن النسّابين من ذكرهم إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة المذكور. ومنهم من نسبهم إلى أكراد بن فارسان بن أهلوا بن إرم بن سام بن نوح، وعليه اعتمدوا. ومنهم من قال: كرد بن مرد بن يافث بن نوح.

وأما غامر بن صعصعة فأعقب من أربع بطون: وهم نمير وسُواءة وهلال وربيعة.

فأما نمير بن عامر، وإليه يُنسب كلّ نميريّ، ففيهم عدّة أفخاذ: بنو المقشّب: وهو ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير، وبنو خُوَيْلفة بن عبد الله بن الحارث بن نمير، وبنو أسقع: وهو مالك بن عامر بن نمير.

وأما سواءة بن عامر بن صعصعة فمنه عدّة أفخاذ، منها بنو حُبَيْب بن سواءة وبنو جسّاس بن سواءة وبنو حرثان بن سواءة.

وأما هلال بن عامر بن صعصعة فالبطن المشهور، وقد نزلوا المغرب من تلمسان إلى طرابلس، فأعقب هلال من إحدى عشرة قبيلة وهم أولاده لصلبه.

أوّلهم البيت المقدّم عبد الله ونَهيك وربيعة وعائذة وعبد مناف ورُوَيْبة وصخر وشعبة وشعَيبة وناشرة وحضرة.

وفي هلال عدّة أفخاذ وعشائر: كزُغبة ورِياح وفادع والأثيج وحُوثة، وقُرّة وغيرهم.

فأعقب عبد الله: وهو البطن الأولى من بني هلال من ثلاث أفخاذ: رُوَيْبة بن عبد الله وحوثة وحارثة ابني عبد الله، فأعقب رويبة بن عبد الله من أربع عشائر: زغبة ورياح وهزوم ومعاوية: بني رومية بن عبد الله، فمن بني الهزم بن رويبة بن عبد الله: ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَيْر بن الهزم بن رويبة بن عبد الله أمّ المؤمنين زوج النبيّ ﷺ، ومن بني رياح: بنو نجيّة بن عليّ بن فادع: فخذ أعقب، إليه يرجع جنادة بن كامل مقدّم بني هلال.

وأما نَهيك بن هلال فأعقب من خمس قبائل لصلبه: وهم معشر وأبو ربيعة وأبو معاوية وسهل وأبو جشم.

وأما عبد مناف بن هلال فأعقب من أربع قبائل: الحارث وعمرو وربيعة ويَعْمر: بني عبد مناف لصلبه. فمن بني ربيعة بن عبد مناف بن هلال: قرّة بن عمرو بن ربيعة: فخذ مشهورة كبيرة، إليه يرجع كلّ قرّيّ. ومن بني عمرو بن عبد مناف بن هلال: زينب بنت خُزَيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف أمّ المساكين زوج النبيّ ﷺ أمّ المؤمنين، فهذا مختصر قبائل هلال.

وأمّا ربيعة بن عامر بن صعصعة، فأعقب من خمس قبائل، وهم: الحارث وكليب وعامر وكلاب وكعب: بنوه لصلبه.

أما الحارث بن ربيعة فأعقب من فخذين لصلبه: عوف وعُوَيْف.

وأما كليب بن ربيعة فأعقب من خمس أفخاذ لصلبه: أبان وجَهْم وجشم وخلف ومسروق.

وأما عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فأعقب من أربع أفخاذ لصلبه: عمرو وعوف والبَكّاء ومعاوية.

وأما كلاب بن ربيعة بن عامر، فأعقب من عشر أبطن، قال الشاعر:

وإن كـلابًـا هـذه عـشـر أبـطـنٍ وأنت بريء من قبائلها العشرُ

يعني شُمَر بن ذي الجَوْشن[1] الضِّبَابيّ، والعشر أبطن لصلب كلاب، وهم: جعفر وأبو بكر واسمه عبيد، ومعاوية: وهو الضِّبَاب بن كلاب وعامر وربيعة والأضبط وعمرو وعبد الله ورؤاس قيل: بالفتح وواو بدل الهمز»، وكعب.

فأمّا جعفر بن كلاب فأعقب من أربعة أفخاذ لصلبه: مالك والأحوص وخالد وعُتْبة؛ وفيهم عدّة عشائر.

وأما أبو بكر عبيد بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ لصلبه: عَبْد وكعب وعبد الله، فأما عبد بن أبي بكر فمن العشائر التي لصلبه: بنو قُرْط وبنو قُرَيْط.

وأما كعب بن أبي بكر فمن العشائر التي لصلبه: بنو جَحْش بن كعب.

وأما عبد الله بن أبي بكر فمن عشائره لصلبه: بنو المجنون، وهو ربيعة بن عبد الله.

وأما معاوية بن كلاب وهو الضِّباب فمنه ثلاث عشرة قبيلة، وهم: ضَبّ ومُضِبّ وضِباب؛ ولأجلهم عرف هذا البطن أعني بني معاوية بالضّباب، وحُسَيْل وحِسْل وعمرو وأنس والأعور وزفر وأنيس ومالك وربيعة وزهير: أولاد عمرو بن معاوية. ومن ولد الأعور هذا شمر بن شُرَحْبيل بن الأعور قاتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه.

وأمّا عامر بن كلاب فمنه أربع قبائل لصلبه، وهم: بنو الأصمّ، وهم قليل، وبنو كعب وهو البيت من عامر بن كلاب وطَريف بن عامر وعَقيل بن عامر، فأعقب كعب بن عامر من الوَحِيد، وهو عامر بن كعب، من أفخاذه: خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، منه أمّ البنين بنت حِزَام بن خالد المذكور زوج عليّ بن أبي طالب، وهي أمّ ابنه العباس السقّاء، عرف بذلك لأنه سقى الحسينَ الماءَ بكربلا.

وأما ربيعة بن كلاب فمنه ثلاثة أفخاذ لصلبه، وهم: بُجَيْر وعُبَيْدُ ونفيل أبو نمير.

---

(١) شمر بن ذي الجوشن: واسمه شرحبيل بن قرط الضبابي الكلابي، أبو السّابغة، من كبار قتلة الإمام الحسين عليه السّلام، قتله رجال المختار الثقفي، سنة ٦٨٦ م. «فهرس الأعلام ٣/ ١٧٥».

وأما الأضبط بن كلاب ففخذه: بنو وَبْر بن الأضبط، ومن بني وَبْر سبع عشائر، وهم: وَهْب الأكبر ووهب الأصغر وواهب وإهاب ووَهْبان وخالد وأبو ربيعة: أولاد وبر بن الأضبط.

وأما عمرو بن كلاب فمنه فخذان: نفيل وأبو عوف: ابنا عمرو بن كلاب.

وأما عبد الله بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ: عامر وعمرو والصَّمُوت: أولاده لصلبه. ومن عشائر الصموت بن عبد الله: ضُبَيْعة الأغرّ بن عبد الله بن الصموت.

وأما رؤاس بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ: بِجَاد وبُجَيْد وعُبَيْد: أولاده لصلبه، ومن بُجَيْد: عُفَيِّف بن بُجَيد: فخذ، وإلى رؤاس هذا ينسب كلّ رؤاسيّ.

وأما كعب بن كلاب فأعقب من أربعة لصلبه: عامر ووهب وربيعة وأوس.

فهذا مختصر بني كلاب وأبطنها ـ نعود إلى باقي ولد ربيعة بن عامر.

وأما كعب بن ربيعة بن عامر فأعقب من ستة أبطن لصلبه، وهم: جَعْدَةُ بن كعب: البطن المشهورة، إليها يرجع كلّ جَعْديّ، وفيها عدّة قبائل وعشائر، وحبيب بن كعب: البطن المشهورة، وإليها يرجع كل حبيبيّ، وفيها أفخاذ، وعبد الله بن كعب منه العَجلان بن عبد الله: بطن، وربيعة بن عبد الله، ونُهَم بن عبد الله؛ وفيهم أفخاذ، وقُشَيْر بن كعب، وإليه يرجع كلّ قُشَيريّ، وفيها عدّة أفخاذ وعشائر، والحَرِيش بن كعب، وإليه يرجع كلّ حَرَشِيّ: كعبد الله بن الشِّخِّير بن عوف بن كعب بن وَقْدان بن الحريش الحرشيّ الصحابيّ وغيره، وعُقَيْل بن كعب: البطن المشهورة، إليها يرجع كلّ عُقَيْليّ (بالضم). والعقب من عقيل بن كعب: بن ربيعة بن عامر من خفاجة بن عمرو بن عقيل: البطن المشهورة، وعبد الله وربيعة ومعاوية وعامر وعُبادة، كلّ هؤلاء أبطن. والعقب من خفاجة من أحد عشر فخذًا لصلبه، وهم: بنو معاوية ذي القَرْحِ: فخذ، وبنو كعب ذي النُّوَيْرة، وبنو الأقرع: فخذ، وبنو كعب الأصغر، وبنو عامر، وبنو مالك، وبنو الهيثم، وبنو الوازع، إليه ينسب كلّ وازعيّ، وبنو عمرو، وبنو حَزْن، وبنو خالد. والفخذ العظمى من بني عقيل بعد بني خفاجة: بنو يُزِيد ـ بضم الياء ـ بن عبد الله بن يزيد بن قيس بن حوثة بن طَهْفَة بن حزن بن عبادة: عشيرة الأمير أبي المنيع شرف الدولة محمد بن مرداس، ودرج شرف الدولة، وهو ملك العرب.

فهذا مختصر من نسب بني عقيل، وهؤلاء هوازن وهم بكر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما سُلَيْم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان: وهو البطن المشهورة، فأعقب من بهثة بن سليم، وأعقب بهثة من خمسة أفخاذ لصلبه: معاوية وعوف وامرىء القيس والحارث وثعلبة. ومن بني امرىء القيس بن بهثة: بنو عُصَيّة بن خُفَاف بن امرىء القيس: بطن.

وأمّا محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، فأعقب فخذين لصلبه: طَرِيف وجَسْر، ويقال لبني جسر: بنو عليّ لأنّ العقب من جسر بن محارب في عليّ بن جسر لا غير.

انقضى ذكر بني خصفة بن قيس بن عيلان.

وأمّا سعد بن عيلان فأعقب من بطنين لصلبه: وهما غَطَفان، ومنبه: وهو أعْصُر، والعقب من رَيْث بن غَطْفان من أربع أبطن لصلبه: بَغِيض ومازن وأشجع وإليه يرجع كلّ أشجعيّ، وأهْون: بنو ريث.

والعقب من بغيض بن ريث من عَبْس وذُبيان، وهما القبيلتان المشهورتان.

وذكر بعض النّسابين أنمار بن بغيض منهم أبو كبشة الأنماريّ[1]، وقيل: إن أبا كبشة الأنماريّ إنما هو من مذحج.

والعقب من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان من فخذين: قَطِيعة ووَرَقة ابني عبس.

والعقب من قَطِيعة بن عبس من الحارث، ومُعْتَمِر: قبيلة قليلة، وعوف: قبيلة، وغالب: قبيلة الحُطَيْئة، ومُرَيْطة: قبيلة من ولد خالد بن سنان[2] - نبيّ أهل الرَّسّ - بن جابر بن غيث بن مريطة.

---

(١) أبو كبشة الأنماري: اسمه سعد، وقيل عمرو، صحابيّ، محدّث، أخذ عنه أبو البختري الطائي، وسالم بن أبي الجعد. «الكاشف ٣/ ٣٢٧».

(٢) هو خالد بن سنان العبسي، حكيم من أنبياء العرب في الجاهلية، كان في أرض بني عبس، يدعو النّاس إلى دين عيسى، وهو الذي دخل نارًا فانطفأت، وفرّقها بعصاه وهو يقول: بدًا بدًا، وفدت ابنته على الرسول الكريم، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وقال: «ابنة نبيٍّ ضيّعه أهله»، وفي حديثٍ قال لها: «مرحبًا بابنة أخي». «فهرس الأعلام ٢/ ٢٩٦».

والعقب من الحارث بن قطيعة بن عبس من جِرْوَة وعامر ومازن: قبيلة وذَكْوان وشدّاد: بني الحارث بن قطيعة. ومن مازن بن الحارث أفخاذ: منهم جَذِيمة بن رَوَاحَة بن ربيعة بن مازن: فخذ، إليه يرجع الجذميّون بالجيم: منهم عشيرة بني زهير بن جذيمة في آخرين.

وأما ذبيان بن بغيض، فأعقب من فَزَارة: البطن المشهورة، وسعد، فأعقب فزارة بن ذبيان من مرّة وظالم وروميّ، دَرَجَ وشَمْخ وعديّ ومازن: أولاد فزارة، وفيهم قبائل وعشائر وأفخاذ.

وأما سعد بن ذبيان فمن بطونه المرّيون: بنو مرّة بن عوف بن سعد، وفيهم أفخاذ، وبنو عقال بن سعد: فخذ، وبنو بَجَالَة بن ثعلبة بن سعد وبنو عَجَب بن ثعلبة وبنو رِزَام بن ثعلبة.

وأما عبد الله بن غطفان بن سعد، فالعقب منه في بهثة بن عبد الله وقُطْبَة وعديّ وعُذْرة وكلب وباعث وشَبَابة وغنم وعوف ومنبّه، عشرة أفخاذ.

وأما أَعْصُر: وهو منبّه بن سعد بن قيس فأعقب من باهلة: وهم ولد مالك بن أعصر، وهي باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة أخت بَجيلة بن مذحج، ولد سعد بن مالك بن يَعْصُر ومَعْن بن مالك بن يعصر فغلب اسمُها عليهم ونُسبوا إليها؛ وكلّ باهليّ ينسب إلى باهلة وهم ولد مالك بن أعصر بن معن بن مالك، وغنيّ بن أعصر بن سعد بن قيس أعقب من غنم وجعدة، إليها ينسب كلّ غَنَويّ والطُّفَاوة، اسمه الحارث بن أعصر إليه ينسب الطُّفَاوِيّون، وعامر بن أعصر.

وأما عمرو بن قيس بن عيلان، فمنه بطنان لصلبه، وهما: عَدْوَان واسمه الحارث، وفَهْم: ابنا عمرو بن قيس، وإنما قيل له عَدْوان لأنه عدا على أخيه فَهْم فقتله، وفهم وعدوان يقال لهما: جَدِيلة قيس، وهي أمّهم جديلة بنت مرّ بن أُدّ: أخت تميم بن مرّ[1]. ومن قبائل عدوان: بنو يشكر وبنو دَوس: ابني عدوان: القبيلتان المشهورتان.

---

(١) هو تميم بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، جدّ جاهلي بنوه بطون كثيرة جدًا، قال ابن حزم: وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب، كانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة، وامتدّت إلى العذيب من أرض الكوفة، كانت تلبيتهم في الجاهلية إذا حجّوا: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لبّيك عن تميم قد تراها، قد أخلقت أثوابها وأثواب من وراها، وأخلصت لربّها دعاها. «فهرس الأعلام ٢/ ٨٧ ـ ٨٨».

هذا آخر مختصر نسب قيس بن عيلان بن مضر.

فلنرجع إلى عمود النسب، وعمود النسب من مضر في ابنه:

إلياس بن مضر بن نزَار

وأمّه الرّباب بنت إياد المَعدّيّة، ومنه غير عمود النسب (وهو مُدْرِكة) بطن واحد وهو طابخة بن إلياس؛ قال: لأن قمعة بن إلياس فيه خلاف كثير، وأكثر مشايخ النسب يذكرون أنه دَرَجَ، ولا عقبَ له؛ وذكر آخرون: أنه أبو خزاعة، وخزاعة ليست بأبٍ ولا أُمٍّ وإنما هم انخزعوا من مضر إلى اليمن ببطنِ مَرٍّ، وذلك حين أقبل بنو عمرو بن عامر يريدون الحجاز[1]، ألا ترى قول عون بن أيّوب الأنصاريّ[2]: [من الطويل]

ولما هبطنا بطنَ مَرٍّ تخزَّعتْ خُزاعةُ منّا في حُلولٍ كَراكِرِ[3]
حمتْ كلَّ وادٍ من تِهامةَ واحتمتْ بصُمّ القنا والمرهَفاتِ البواترِ[4]

وقد أوردنا نسب خزاعة في بني عمرو بن عامر ماء السماء الغسّانيّ في نسب اليمن، ومن قبائل طابخة بن إلياس خمسٌ: بنو مُرّ بن أدّ بن طابخة، وبنو ضبّة بن أدّ بن طابخة، وبنو عمرو، وبنو خميس، وبنو عبد مناة: أولاد أُدّ بن طابخة.

فأمّا بنو مُرّ بن أُدّ بن طابخة، فمنه بنو تميم بن مرّ، وبنو ثعلبة بن مرّ: ظاعنة من الشُّعَيْراء، وبنو صوفة، وهم: ولد الغوث: وهو الرَّبيط بن مرّ وبكر بن مرّ من الشعيراء، ومحارب بن مرّ، فهم عدّة أفخاذ وقبائل. وقبائل تميم وهم ثلاث: زيد مناة والحارث وعمرو: أولاد تميم لصلبه. فمن قبائل زيد مناة بن تميم: نَهْشَل بن دارِم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وبنو سَدُوس بن دارم: قبيلة. وبنو عبد الله بن دارم: منهم عُطارد: قبيلة حاجب بن

(١) الحجاز: جبل ممتدّ حالٌ بين الغور غور تهامة ونجد، فكأنه منع كلّ واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حاجز بينهما، وسمّي الحجاز حجازًا لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية. «انظر معجم البلدان ٢/٢١٨ وما بعدها».

(٢) كذا بالأصل، وفي اللّسان أن القائل: حسّان بن ثابت الشاعر، كذلك انظر ديوان حسان بن ثابت ص ١١٩ ـ ١٢٠، دار صادر.

(٣) بطن مرّ: موضع، وتخزّعت: تخلّفت، والحلول: النزال، والكراكر: الجماعات.

(٤) الصمّ: الصلاب، والقنا: الرّماح، والمرهفات: السّيوف المشحوذة، والبواتر: القاطعة الماضية، وتهامة: موضع، وتهامة تساير البحر، منها مكّة. «انظر معجم البلدان ٢/ ٦٣».

زُرارة بن عُدُس[١] (وكلٌ من عداه بفتح الدال) ابن زيد بن عبد الله بن دارم مجوس، وبنو أَبَان بن دارم: قبيلة، وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة: قبيلة. وبنو كليب بن يربوع: قبيلة. وبنو رياح بن يربوع: قبيلة. وبنو غُدَانة بن يربوع: قبيلة. وبنو جارية بن سَلِيط بن يربوع. وبنو البَرَاجم[٢]: وهم ظُلَيْم وعمرو وقيس وغالب وكلفة: أولاد حنظلة بن مالك؛ فهؤلاء بنو حنظلة بن مالك، سموا بَرَاجم لتجمُّعهم كالأصابع، ثم قبيلة الجوع، وهم ولد ربيعة بن مالك بن زيد مناة؛ والكُرْدُوسَان[٣] من بني زيد مناة: معاوية وقيس ابنا مالك بن زيد مناة بن تميم. ومن زيد مناة: بنو سعد بن زيد مناة، منه عدّة قبائل، منهم قبائل الأبناء: وهم عبشمس وعُوَافة وعوف وجشم ومالك وعمرو: بنو سعد بن زيد مناة. ومن بني سعد بن زيد مناة: بنو الحرام، وهو من الخُدَعَة بن كعب بن سعد، وبنو حِمَّان بن عبد العُزَّى بن كعب بن سعد، وبنو الأعرج: وهو الحارث بن كعب بن سعد، وبنو قُرَيْع بن عوف بن كعب بن سعد، وبنو بَهْدَلَة بن عوف بن كعب، وبنو بِرْنِيق بن عوف بن كعب، وبنو عطارد بن عوف بن كعب قليلون.

ومن قبائل كعب بن سعد المذكور: بنو مِنْقَر بن عبيد بن مُقاعِس: وهو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهم المِنْقَرِيُّون، ومن بني زيد مناة: بنو امرىء القيس بن زيد مناة، له عدد ومدد. منه ثلاثة أفخاذ: بنو عُصَيَّة وبنو مالك وبنو الحارث: أولاد امرىء القيس المذكور. ومن بني زيد مناة: بنو عامر الصحيح بن زيد مناة؛ فهؤلاء بنو زيد مناة بن تميم.

وأمّا الحارث بن تميم فمنه شَقِرة بن الحارث[٤]: قبيلة، اسمه معاوية، وسُمِّي شقرة ببيت قاله: [من الطويل]

وقد أحمل الرمح الأصمَّ كُعوبُه به من دماء القوم كالشِقِراتِ[٥]

---

(١) هو حاجب بن زرارة بن عُدس الدّارمي التميمي، من سادات العرب في الجاهلية، كان رئيس تميم في عدّة مواطن، وهو الذي رهن قوسه عند كسرى على مالٍ عظيم ووفى به، وحضر يوم شعب جبلة «من أيام العرب المعروفة» قبل ١٩ أو ١٧ سنة من مولد النبيّ ﷺ، وأدرك الإسلام وأسلم، وبعثه النبيّ ﷺ على صدقات بني تميم، فلم يلبث أن مات نحو سنة ٦٢٥ م. «فهرس الأعلام ٢/ ١٥٣».

(٢) البراجم: مفردها بُرجمة، وهي مفصل الأصبع.

(٣) الكردوسان: مثنّى كردوس: وهي فقرة من فقر أعلى الظّهر، أو كلّ عظم ضخم.

(٤) شقرة بن الحارث، واسمه معاوية، من تميم، جدّ جاهليٌّ من الشّعراء ينسب إليه جماعة منهم مطرف بن معقل الشقري التميمي، من رجال الحديث. «فهرس الأعلام ٣/ ١٧٠».

(٥) الأصمّ: الصلب، والكعب من الرّمح: العقدة بين الأنبوبتين.

والشقرات: شقائق النعمان، والنعمان: الدم، والله أعلم.

وأما عمرو بن تميم فمنه سبعة أفخاذ، وهم بنو مالك وبنو العنبر وبنو الهُجَيْم وبنو أُسَيْد وبنو الحَبَطَة: وهو الحارث، وبنو القُلَيْب: وهو أَلْيَهَةُ وزن عَلْيَهَة وكعب: بنو عمرو بن تميم؛ وولى كعب هذا البيت قبل قريش.

فأمّا مالك بن عمرو بن تميم فمنه فخذان: مازن، منهم أَوْفَى بن مَطَر المازنيّ[1] جليّ[2] العرب، والحِرْماز: وهو الحارث بن مالك، فمن بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: أنمار بن مازن: فخذ قليلون، ورَأْلان بن مازن: قبيلة، وحُرْقُوص بن مازن: ورزام بن مازن: قليل، وخزاعيّ بن مازن قليل.

وأما بَلْعَنبر بن عمرو بن تميم فأعقب من ثلاثة: كعب وجندب ومالك: أولاد العنبر؛ وكلّ بلعنبريّ ينسب إلى بلعنبر هذا: وهي قبيلة مشهورة.

وأما بَلْهُجَيْم بن عمرو بن تميم وهو الهُجَيْم فأعقب من خمسة: عامر وسعد وعمرو وربيعة وأنمار. ويقال لبلعنبر وبلهجيم: الخَبَطَات[3]. وكذلك أخوهما الحارث الخَبِطُ؛ وهو الذي عُرِفوا بذلك من أجله، يقال: إنّه أكل خَبَطًا فسُمّي به[4].

وأما أُسَيْد بن عمرو بن تميم، فأعقب من ستة لصلبه: عَقيل ونمير وجروة: قبيلة، وعمرو والحارث، فمن بني جروة بن أسيد بن هند بن أبي هالة: نَبَّاشُ بن

---

(١) أوفى بن مطر: هو مقرّن بن مطر بن ناشرة، من بني مازن بن عمرو بن تميم، أحد العدّائين المشهورين في الجاهلية، كان يعدو خلف الظّبي فيأخذه، وهو من الشعراء، وعدّه ابن حبيب من المشهورين بالوفاء، وروى خبرًا عنه في ذلك، ولقّب «أوفى» نسبة إلى الوفاء. «فهرس الأعلام ٢/ ٢٨٣».

(٢) الجليّ: الواضح المشهور.

(٣) كذا بالأصل بإعجام حرف «الحاء»، والصّواب بالمهملة كما في كتب الأنساب واللغة. انظر القاموس واللّسان مادة «حبط»، كذلك انظر البيان والتبيين للجاحظ ٤/ ٣٥، حيث ذكر قول زياد الأعجم:

رأيت الحمر من شرّ المطايا ... كما الحبطات شرّ بني تميم

وقال: وهل فضح الحبطات مع شرف حسكة بن عتاب وعباد بن الحصين وولده إلّاقول الشاعر، «الذي تقدّم».

(٤) إنه أكل خبطًا فسمّي به، كذا في الأصل، وفي القاموس: أن الذين سمّوا بهذا الاسم هم سرية لرسول الله ﷺ جاعوا في الطريق حتى أكلوا الخبط، وهو الورق المضروب بالمخابط، يجفّف ويطحن، فسمّوا بسريّة الخبط، وعليه يكون اسم الحارث الحبط بالهاء المهملة. . .

زرارة بن وقدان بن حبيب بن سلامة بن غويّ بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم: ربيب رسول الله ﷺ، وأمّه خديجة بنت خويلد.

وأما الحارث الخبط بن عمرو بن تميم فمنه قبيلة سعد بن الحارث، وهي قبيلة الخبطات، ومشَادة بن الحارث الخبط ونضلة بن الحارث الخبط: فهؤلاء بنو تميم في مُرّ بن أُدّ بن طابخة.

وأما بنو ضبّة بن أُدّ فثلاث قبائل: سعد وسُعَيد وباسل. ولسعد وسعيد المثل السائر «أسعد أم سُعَيد». أما سعيد بن ضبّة فقليل عددهم. وأما سعد بن ضبة فأعقب من اثنين: ثعلبة وبكر: ابني سعد، فأما ثعلبة بن سعد، فمن قبائلها: بنو مسعود بن دُلْجَة بن نُعَيْم بن قُرَامة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد: قبيلة يُنسب إليها كلّ مسعوديّ، وبنو مبذول بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد: قبيلة. ومن بني بكر بن سعد بن ضبة: صبح وبجالة: ابنا ذهل بن مالك بن بكر بن سعد: فخذان، وعائذة[1] بن مالك بن بكر بن سعد: فخذ، ونصر بن عبد الله بن بكر بن سعد: فخذ.

وأما باسل بن ضبة، فإنه خرج مغاضبًا لأبيه فوقع بأرض الدَّيْلم[2] فتزوّج امرأة من الديلم، فولدت له الديلم بن باسل: جدّ القبيلة المشهورة، ومن رجالها في الجاهلية: زيد الفوارس بن حُصَين[3]، وفي الإسلام ابن شُبْرُمة القاضي[4]. وأعقب من الدّيلم فخذان: الأبيض بن معاوية بن الديلم، وبُجَيْر بن معاوية بن الدّيلم. فأعقب الأبيض بن معاوية من الضحاك ولار وشهريار وإيران وناشر: أولاد الأبيض بن معاوية بن ديلم من بهرام بن الضحاك. وفيروز وزربوران وبريانوس: أربعة أفخاذ. وأعقب بَرْيانوس بن الضحاك من قابوس بن بريانوس. وأعقب قابوس من شاه مرد. وأعقب لار بن الأبيض من كامِياد بن لار، وأعقب كامِياد من ابنه جور.

وأعقب بجير بن معاوية بن ديلم من باسل بن تيداذما، فأعقب تيداذما من داده.

---

(١) وردت الكلمة في بعض كتب الأنساب بالدّال المهملة، وفي بعضها بالذّال المعجمة.

(٢) الدّيلم: جماعة من العجم كانوا في الأصل صنفًا من الأكراد.

(٣) هو زيد الفوارس بن حصين بن ضرار الضبّي، فارس شاعرٌ جاهلي، أورد البغدادي قليلًا من أخباره في كتابه «خزانة الأدب ١/٥١٦ ـ ٥١٧، ثم ٤/٢١٨»، وأورد له أشعارًا، واختار أبو تمام في حماسته بعضًا من شعره. «انظر الحماسة للمرزوقي ص ٥٥٧ و١٦٧٨».

(٤) ابن شُبرُمة: الشبرُمة: من العضاه: شجرة شاكة، والشّبرم: القصير من الرّجال.

فهذه النهاية في اختصار نسب الديلم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأمّا عمرو بن أدّ بن طابخة فهو مُزَيْنَة، ومزينة أُمّه، وهي بنت كلب بن وَبرة بن ثعلب بن حُلْوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وكلّ مزنيّ ينسب إلى مزينة هذا. ومن مزينة: عثمان وأوس: ولدا عمرو؛ فمن عثمان بن عمرو بن أُدّ بن طابخة بطنان: عدا ولاطِم: ابنا عثمان. ومن مزينة: النعمان بن مقرِّن وزهير بن أبي سُلْمَى[1]؛ وليس في العرب سُلْمَى بالضمّ سواه، ورؤبة بن العجّاج[2]، قال رسول الله ﷺ: «أسلَم وغِفَار ومزينة وجهينة (أو قال: مَن كان من جهينة) خيرٌ من بني تميم وبني عامر بن صعصعة ومن الحليفين أسد وغَطَفان».

وأما عبد مناة بن أُدّ بن طابخة فمنه ثورُ أطحل بن عبد مناة: بطن ـ رهط سفيان الثوريّ رحمه الله، (وأطحل جبل)، وبنو الرباب: ولد تيم بن عبد مناة وعديّ بن عبد مناة وعوف بن عبد مناة: سُمُّوا الرِّبَاب: لأنهم غمسوا أيديَهُمْ في رُبٍّ إذ تحالفوا على بني تميم.

قال: ومن النسّابين من يجعل الرباب بني تيم وعديّ وثور وعُكْل: وهم بنو عبد مناة وضبّة بن أُدّ.

فأمّا عديّ بن عبد مناة، فإليه ينسب كلّ عدويّ ليس من عديّ قريش؛ ومنهم: أبو قَتادة العدويّ: تابعي، وإلى عوف بن عبد مناة ينسب كلّ عوفيّ، ومنهم: عطيّة العوفيّ[3]. قال: وشيخ الشرف النسابة يقول: إن عُكْلًا هو عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مناة، وعُكْلُ: أَمَةٌ لامرأةٍ من حمير يقال لها: بنتُ ذي اللِّحيَة، تزوّجها عوف بن وائل، فولدت له جشمًا وسعدًا وعليًا، ثم هلكت، فحضنتْ عُكْلُ ولدَها فغلبت عليهم ونُسبوا إليها.

---

(١) هو زهير بن أبي سُلمى، المزني، من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وُلد في بلاد «مُزَينة» بنواحي الحجاز، وأقام في الحاجر من ديار نجد، واستمرّ بنوه فيه بعد الإسلام، له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٦٠٩ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٥٢».

(٢) هو رؤبة بن العجّاج التميمي السّعدي، أبو الجحّاف، أبوه أبو محمد، راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كانت أكثر إقامته في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، مات بالبادية سنة ٧٦٢ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٣٤».

(٣) هو عطيّة بن سعد بن جناد العوفي، أبو الحسن، من رجال الحديث، كان يعدّ من شيعة أهل الكوفة، مات بالكوفة سنة ٧٢٩ م. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٣٧».

وأما تيم بن عبد مناة بن أُدّ بن طابخة ففخذه: عمرو بن الحارث بن التيم بن عبد مناة، وفيه العدد.

انقضت خندف فلنرجع إلى عمود النسب من الياس في ابنه:

مُدْرِكة بن إلياس بن مضر

واسمه عمرو، وأمّه خندف: وهي ليلى بنت حلوان القضاعيّة، وإنما سُمّي مدركة؛ لأن أباه إلياس خرج منتجعًا[١]، ومعه أهله وماله، فدخلتْ بين إبله أرنب، فنفرت الإبل، فخرج أولاد إلياس، فأدركها عمرو، فسمّاه أبوه إلياسُ: مدركة؛ وخرجتْ ليلَى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أمّه تهرول فقال لها إلياس: ما لكِ تخندفين؟ والخندفةُ: الهَرْوَلة، فسمّيت خندف، وخرج عامر بن إلياس أخو مدركة في طلب الأرنب فاصطادها وطبخها، فقال له أبوه إلياس: أنتَ طابخة، ورأى عَمْرًا أخاهما قد انقمع[٢] في الظلة فهو يخرج رأسه منه، فقال له أبوه إلياس: أنت قَمَعَة.

ومن مدركة غير عمود النسب: بنو هذيل بن مدركة، ومن هذيل: بطنان لصلبه: بنو لِحيان وسعد؛ ومن قبائل سعد بن هذيل: بنو خُنَاعة بن سعد، وبنو صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، منهم: عبد الله بن مسعود[٣] بن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن قار بن مخزوم بن صاهلة الصحابيّ: أحد القرّاء رضي الله عنه، ومن شعراء هذيل: أبو ذؤيب الهذليّ[٤] وأبو كبير[٥] وأبو المثلّم[٦] وغيرهم.

---

(١) المنتجع: الذي يقصد النجعة، أي الأرض التي فيها ماء وكلأ.

(٢) انقمع: تغيّب ودخل وراء ستر، والظلّة: ما أظلّك من سحاب أو شجر أو ستر.

(٣) هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمٰن، من السّابقين الأوّلين، مات بالمدينة لما وفد سنة ٣٢ هـ، روي أنه خلّف تسعين ألف دينار، سوى الرقيق والمواشي. «الكاشف ٢/ ١١٦».

(٤) أبو ذؤيب الهذلي: هو خويلد بن خالد، جاهلي إسلامي، كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي، وخرج مع عبد الله بن الزّبير في مغزى نحو المغرب، فمات، فدلّاه عبد الله في حفرته، له شعرٌ كثير. «ابن قتيبة، الشعر والشعراء ص ٤٣٥».

(٥) أبو كبير الهذلي: هو عامر بن الحُليس، شاعرٌ جاهلي له أربعُ قصائد، أوّلها كلّها شيء واحد، وله كذلك شعر آخر. «انظر الشعر والشعراء، ص ٤٤٦».

(٦) أبو المثلّم، فهو الهذليّ ثم الخناعيّ، من بني خناعة بن سعد بن هذيل، شاعر، ذكره المرزباني في معجمه، وأورد له أبياتًا. «انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٨٢، دار الكتب العلميّة».

وعمود النسب من مدركة في ابنه خزيمة بن مدركة، وأمّه سلمى بنت أسلم القضاعيّة، ومنه غير كنانة عمود النسب قبيلتان: وهما الهون وأسد. فأمّا الهون بن خزيمة، فأعقب من عَضَل والدِّيش ابني بليغ بن الهون، وهما القارَة: سُمّوا قارة لأن يَعْمَر بن عوف بن الشدّاخ أحد بني ليث لما أراد أن يفرّقهم في بطون كنانة، قال رجل منهم: [من الوافر]

دعونا قارة[1] لا تنفرونا فنجفل مثل إجفال الظليم[2]

فسمّوا قارة، وهم رماة العرب وفيهم قيل:

* «قد أنصفَ القارَةَ من رَامَاها»[3] *

وسبب هذا المثل أن رجلين التقيا، أحدهما من القارة، فقال القاريّ للآخر: إن شئتَ صارعتُك، وإن شئتَ سابقتُك، وإن شئتَ راميتُك، فقال خصمُه: قد اخترتُ المراماةَ، فقال القاريّ: [من الرجز]

قد أنصف القارة من راماها إنّا إذا ما فئةٌ نلقاها
* نردّ أولاها على أُخراها *

ثم انتزع له سهمًا فسلّ فؤاده؛ وقيل غير ذلك.

ومن أسَد بن خزيمة أربع عشائر: بنو كاهل وصعب وعمرو ودودان: بني أسَد. فمن دودان: بنو عمرو بن دودان: قبيلة، وهم وجوه بني أسد، منهم: زينب بنت جحش بن رئاب بن يَعْمَر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، زوجة النبيّ ﷺ، وهي بنت عمّته أُميمة بنت عبد المطلب. وبنو سعد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان: قبيلة. من شعرائهم: بشر بن أبي خازم الوالبيّ الجاهليّ[4]. وبنو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن دودان: قبيلة، منهم: فخذ بني

---

(١) قارَة: أي في سكون وقرار من الأرض، والقارة: الأكمة.

(٢) الظليم: ذكر النّعام.

(٣) قد أنصف القارة من راماها

هم عضل والديش ابنا الهُون بن خزيمة، سُمّوا قارة لأن الشدّاخ أراد تفريقهم في قبائل كنانة، فقال رجل منهم:

دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل إجفال الظليم

وكانوا رماة الحدق في الجاهلية، أراد: دعونا مجتمعين كالقارة التي هي الأكمة. «المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ١٨٩».

(٤) هو بشر بن «أبي خازم»، عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل، شاعر جاهليٌّ فحل، من=

نصر بن قعين، ومنهم بنو فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان: قبيلة. وبنو أعيا بن طريف: قبيلة، وبنو قيس بن طريف: قبيلة، وبنو كعب بن عمرو بن قعين: قبيلة، وبنو سُواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان: فخذ، وبنو ناشرة بن نصر بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان.

وعمود النسب من خزيمة بن مدركة في ابنه كنانة بن خزيمة، وأمّه عوانة بنت سعد القيسيّة، وبنو كنانة أوّلُ عربٍ تلقى رسول الله ﷺ في نسبه.

ومن بني كنانة غير عمود النسب وهو النضر: خمس قبائل لصلبه: بنو عبد مناة وعمرو وعامر وملكان ومالك، منهم: بنو حداد بن مالك بن كنانة: فخذ.

فأمّا عبد مناة بن كنانة، فمنهم: بنو بكر وبنو عامر وبنو مرّة: بني عبد مناة، ومن بني بكر بن عبد مناة: بنو الدُّئِل بن بكر بن عبد مناة: رهط أبي الأسود الدؤليّ: وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن حلس بن نفاثة بن عديّ بن الدئِل بن بكر المذكور: وهو تلميذ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في النحو، وقال في النسبة إلى هذا الفخذ: دؤلي مهموز مفتوح.

ومن بني بكر: بنو الحارث بن بكر: فخذ، وبنو ليث بن بكر: فخذ، منهم: بنو حدج بن ليث بن بكر فخذ، وبنو ضَمْرَة بن بكر: فخذ، منهم: بنو غِفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر: رهط أبي ذرّ الغِفاريّ، وهو جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صُعَيْر بن حرام بن غفار، وقد انقرض أبو ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه.

وأمّا عامر بن عبد مناة بن كنانة، فمنه: قَيْن بن عامر: قبيلة أهل الغُمَيْصاء، قتلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وأما مرّة بن عبد مناة بن كنانة، فمنه: بنو مُدْلج بن مرّة: قبيلة سراقة بن مالك بن جعشم وهم المدلجيّون، قالوا: وهم قافة العرب وأعلمهم بالزجر(١) والقيافة(٢).

= الشجعان، من أهل نجد، من بني أسد بن خزيمة، قتل في إحدى غزواته نحو سنة ٥٨٩، له ديوان شعر مطبوع. «فهرس الأعلام ٢/ ٥٤».

(١) الزّجر: من زجر الطائر، أطاره فتفاءل به إن كان طيرانه عن اليمين، وتشاءم به إن كان طيرانه عن اليسار.

(٢) القيافة: حرفة القائف، وهو من يحسن معرفة الأثر وتتبّعه.

وأما عمرو بن كنانة، فهم العَمْريّون. وأمّا عامر بن كنانة، فهم العامريّون، وأما ملكان بن كنانة فهم الملكانيّون، وأما مالك بن كنانة فمنه في الحارث، ومن الحارث في ثعلبة، ومن ثعلبة في فخذين: بنو عامر وبنو غنم. أما غنم فمنه: فِراس بن غنم: وهم الفراسيّون. ومن بني غنم: أمّ رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أُذَيْنة بن سبِيع بن دهمان بن الحارث بن غنم: هي أم عائشة بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنها زوج النبيّ ﷺ.

ومن عامر عشيرتان: بنو مُخْدَج بن عامر بن ثعلبة المُخْدَجِيّون، وبنو فُقَيْم بن عديّ بن عامر النسأة، فهؤلاء أفخاذ كنانة، والله أعلم.

وعمود النسب من كنانة بن خزيمة في ابنه النَّضْر بن كنانة، واسمه قيس، وأمّه برّة بنت مرّ الأدّية، والنضر: الذهب؛ وكان له: يخلد بن النضر، منه: بدر بن الحارث بن يخلد الذي سُمّيت به بدرٌ بَدْرًا. قال: وليس له ولد باق.

والعقب من النضر بن كنانة في ابنه عمود النسب، وهو:

مالك بن النضر

وأمّه عِكْرِشَة بنت عَدْوان القيسيّة، ولا عقب لمالك إلّا من عمود النسب وهو ابنه:

فِهر بن مالك

وهو قريش، وأمّه جَندلة بنت عامر الجرهميّة، وكلّ من لم يلده فهرٌ فليس بقرشيّ. وقد قيل في تسميته بقريش أقوال: منها أنه اسم دابّة في البحر، وأنه اسم للقبيلة، وأحسن ما قيل فيه: إن التقريش: التفتيش، فكان يقرش عن خَلَّة[١] كلّ ذي خَلّة فيسدّها بفضله، فمن كان محتاجًا أغناه، ومن كان عاريًا كساه، ومن كان طريدًا آواه، ومن كان خائفًا حماه، ومن كان ضالًا هداه. قال الحارث بن حِلِّزة اليشكريّ[٢] عفا الله تعالى عنه: [من الخفيف]

أيّها الناطق المقرّش عنّا عند عمرٍو، وهل لذاك بقاء؟

(١) الخلّة: الحاجة والفقر.

(٢) هو الحارث بن حلزة اليشكري، من بني يشكر من بكر بن وائل، شاعر جاهلي، صاحب المعلّقة التي قيل: إنه ارتجلها في شيء كان بين بكر وتغلب، وأنشدها بين يدي عمرو بن هند، وكان أبرص. «انظر الشعر والشعراء ص ١١١».

وقيل: التقرّش: التجمّع، وسُمّيت قريش لتجمّعها، فإنها لما تجمّعت بمكةَ وجمَعتْ خصائل الخير سُمّيت قريشًا، وتُسَمّى أيضًا الحُمْسُ من الحماسة؛ وذلك أنها تحمّست في دينها فقالت: لا نطوف بالبيت عراةً، ولا تسلأ[١] نساؤنا سَمْنًا، ولا تغزل وبرًا، ولا نخرج إلى عرفات، ولا نزايل[٢] حرمنا، ولا نعظِّم غيره، ولا نطوف بين الصَّفا والمَرْوة[٣]، وكانوا يقفون بالمزدلفة[٤] ومن سواهم من العرب يقال لهم: الحلّةُ، كانوا يطوفون بالبيت عراةً، ويقولون: نكرم البيت أن نطوف فيه بثيابنا التي اجترحْنا[٥] فيها الآثامَ.

قال: ومن بني فهر غير غالب عمود النسب: بنو الحارث بن فهر وبنو محارب بن فهر، فمن بني الحارث بن فهر: قيس بن الخُلُج[٦] بن الحارث، ويقال: الخلج بلاد قيس، سمّوا بذلك: لأنهم نزلوا الخلج بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة وأتمّ السلام. منهم ابن هَرْمة[٧] الشاعر، وهم: هرمةُ بن الهذيل بن ربيع بن عامر بن صبح بن عديّ بن قيس.

ومن بني الحارث بن فهر: أبو عبيدة[٨] أمين هذه الأُمّة، وهو عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال بن أُهَيب بن الحارث بن فهر، لا عقب له.

---

(١) سلأ السّمن أو الدهن: أذابه بالتسخين، أي أنّ نسائهنّ لهنّ من يقوم بخدمتهنّ.

(٢) نزايل: نبتعد ونفارق.

(٣) الصّفا والمروة: موضع الطواف في الحجّ، وهما جبلان بين بطحاء مكّة والمسجد، أمّا الصفا فمكان مرتفع من جبل أبي قبيس بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا كان بحذاء الحجر الأسود والمشعر الحرام بين الصفا والمروة. «معجم البلدان ٣/ ٤١١».

(٤) المزدلفة: مبيت للحاجّ ومجمع الصلاة إذا صدروا من عرفات، والمزدلفة: المشعر الحرام ومصلّى الإمام، قيل: مزدلفة منقولة من الازدلاف وهو الاجتماع. «معجم البلدان ٥/ ١٢٠ وما بعدها».

(٥) اجترح الإثم: اقترفه وارتكبه.

(٦) وردت في القاموس بضمّتين، وفي كتاب المعارف لابن قتيبة بتسكين اللّام.

(٧) ابن هرمة: هو إبراهيم بن عليّ بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي، أبو إسحٰق، شاعر غزل من سكان المدينة، ومن مخضرمي الدولة الأموية والعباسية، انقطع إلى الطالبيين وله شعرٌ فيهم، كان مولعًا بالشراب وجلده صاحب شرطة المدينة، توفي سنة ١٧٦ هـ. «فهرس الأعلام ١/ ٥٠».

(٨) أبو عبيدة: هو عامر بن عبد الله بن الجرّاح بن هلال الفهري القرشي، الأمير القائد، فاتح الدّيار الشّامية، والصحابي، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، كان لقبه «أمين الأمّة»، من السابقين إلى الإسلام، ولد بمكّة، وتوفي بطاعون عمواس ودُفن في غور بيسان وانقرض عقبه، وكانت وفاته سنة ١٨ هـ. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٥٢».

ومن بني محارب بن فهر: ضِرَار بن الخطّاب[١] بن مرداس بن كثير بن حبيب بن شيبان بن محارب بن فهر، وهو القائل: [من الطويل]

ونحن بنو الحرب العَوان نشبّها   وبالحرب سُمَينًا فنحن محاربُ[٢]

وعمود النسب من فهر بن مالك في ابنه غالب بن فهر وأمّه ليلى بنت الحارث الهذليّة، منه فخذ واحد غير عمود النسب، وهم الأَدْرَمِيون: ولد تيم بن غالب. والأدرم: الناقص الذقن، وهم قليل وقد ولدوا في العرب ولادات. وعمود النسب من غالب بن فهر في ابنه لؤيّ بن غالب[٣]، وأمّه عاتكة بنت مَخلد الكنانيّة النضريّة، وقيل: بل هي سلمى بنت عمرو الخزاعية، وهو تصغير اللأي وهو ثور الوحش مهموز، وقال أبو حنيفة: اللأي البعرة، وقيل: لؤيّ تصغير لأيٍ وهو البطء: نقيض العجلة.

وأنشد أبو أسامة: [من الوافر]

فدونكُمُ بني لأيٍ أخاكم   ودونكِ مالكًا يا أمَّ عمرِو

وقال ابن دريد[٤]: هو مشتقّ من لِوَاء الجيش وهو مهموز، وإن كان من لِوَى[٥] الرمل فهو مقصور، قال امرؤ القيس: [من الطويل]

* بسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخولِ فحَوْملِ[٦] *

واللّوى: اُعوجاجٌ في ظهر الفرس. قال: ومن قبائل بني لؤي غير كعب عمود النسب: بنو عامر وبنو أُسامة وبنو خزيمة، وهم: عائذة قريش وسعد، وإليه ينسب بنو نُباتة ـ بفتح النون وضمها ـ وهي أمّ سعد بن لؤيّ، بها يعرفون، وإليها ينسبون، وقيل: نُسبوا إلى حاضنةٍ لهم اسمها نباتة من بني القَيْن بن جَسْر بن شَيْع الله؛ ويقال:

(١) هو ضرار بن الخطّاب بن مرداس القرشي الفهريّ، فارس شاعر صحابيّ من القادة، من سكّان الشّراة فوق الطائف، أسلم يوم فتح مكّة، استشهد في وقعة أجنادين سنة ٦٣٤ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢١٥».

(٢) العوان: التي قوتل فيها مرّة بعد أخرى.

(٣) هو لؤي بن غالب بن فهر، من قريش، من عدنان، جدّ جاهلي من سلسلة النّسب النبوي الشريف، كنيته أبو كعب، كان التقدّم في قريش لبنيه وبني بيته. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٤٥».

(٤) ابن دريد: من أئمّة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وهو صاحب المقصورة الدريدية، ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٣٢١ هـ. «فهرس الأعلام ٦/ ٨٠».

(٥) اللّوى: ما التوى وانعطف من الرّمل.

(٦) الدّخول وحومل: موضعان.

سبع الله بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة. والحارث بن لؤيّ، وعوف وجشم: أولاد لؤيّ.

فأما عامر بن لؤيّ، فمنهم ابن أمّ مكتوم الأعمى(١) الذي نزل فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عَبَسَ: الآية ١]، وهو مؤذّن رسول الله ﷺ بالمدينة، واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصمّ بن رواحة بن حجر بن عبد بن مُعَيْص بن عامر بن لؤيّ؛ ومنهم عمرو بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسْل بن عامر، الذي قتله عليّ بن أبي طالب يوم الخندق(٢).

وأما بنو أسامة بن لؤيّ، فيزعم من نسب بني ناجية إلى قريش أنهم يلقون بني لؤيّ عند أسامة بن لؤيّ، وقد كان عليّ بن أبي طالب سباهم حين أقاموا على النصرانيّة ثم باعهم فيمن يريد، فاشتراهم مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيبانيّ(٣) بمائة ألف درهم، فقدّم منها ثلاثين ألفًا وأعتقهم(٤)، فأنفذ عليّ عتقهم، وهرب مصقلة ببقيّة المال إلى معاوية. وقد قيل عن عليّ أنّه قال: ما أعقب عمّي سامة بن لؤيّ.

وأما خزيمة بن لؤيّ، فإليه يُنسب القوم الذين يزعمون أنهم عائدة قريش، قال: وشيخ الشرف بن أبي جعفر النسّابة يدفعهم عن النسب، وهم قوم تكثر بهم معاوية فأدخلهم في قريش، وعائدة هي ابنة الخِمْس بن قُحافة بن خثعم، بها يُعْرَفون، وهم: بنو الحارث بن مالك بن عُبَيْد بن خزيمة بن لؤيّ، وعائدة أمّ الحارث هذا؛ ويقال: الحارث بن مالك بن عوف بن حرب بن خزيمة بن لؤيّ، وهم بمالك خمسُ أفخاذ من عوف: بنو جذيمة، وبنو عامر، وبنو سلامة، وبنو معاوية: أولاد عوف، وعائدة مع بني مَحْلَب بن ذهل بن شيبان، باديتهم مع باديتهم، وحاضرتهم مع حاضرتهم يد واحدة.

---

(١) ابن أُمّ مكتوم: هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم، صحابي شجاع كان ضرير البصر، أسلم بمكّة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ، في المدينة مع بلال، حضر حرب القادسية وقاتل فيها وهو أعمى، ورجع بعدها إلى المدينة فتوفي فيها سنة ٦٤٣ م. «فهرس الأعلام ٥/ ٨٣».

(٢) الخندق: معركة انتصر فيها المسلمون، سمّيت بالخندق لأن المسلمين حفروا خندقًا حول المدينة.

(٣) هو مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ، من بكر بن وائل، قائد من الولاة، وكان من رجال عليّ بن أبي طالب، ثم كان مع معاوية في صفّين، قتل في طبرستان بعد أن توغّل فيها، وهلك أكثر من معه وذلك سنة ٦٧٠ م. «فهرس الأعلام ٧/ ٢٤٩».

(٤) أعتقهم: حرّرهم.

فلنرجع إلى عمود النسب، وهو من لؤيّ بن غالب في ابنه:

كعب بن لؤيّ بن غالب

وأمّه مارِيَة بنت كعب القضاعيّة، ومنه غير مُرّة عمود النسب وهما بطنان: بنو عديّ وبنو هُصَيْصٍ؛ فأمّا بن عديّ، فمنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ابن نُفَيْل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عديّ بن كعب. وسعيد بن زيد بن نُفَيل[١] المذكور أحد العشرة[٢]. ومن بني عديّ: عبد الله بن مُطِيع بن الأسود بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عُويج - بفتح العين وضمّها - بن عديّ بن كعب[٣]، وهو وأبوه من الصحابة، وهو الذي أمره أهل المدينة حين أخرجوا بني أُميّة منها في وقعة الحرّة[٤].

وأما بنو هُصَيْص بن كعب فمنه فخذان: بنو جُمَح وبنو سهم: ابني عمرو بن هصيص.

فأما بنو سهم: فمنهم عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص.

وأما بنو جمح، فمنهم عثمان بن مظعون بن حُبَيْب بن وهب بن حُذافة بن جمح: هاجر الهجرتين وشهد بدرًا. ومنهم صفوان بن أُميّة[٥] بن خلف بن وهب بن حذافة المذكور، كنَّاه رسول الله ﷺ: «أبا وهب»، ومنهم أبو محذورة: أوس بن مَعين بن لوذان بن سعد بن جمح، مؤذن المسجد الحرام لرسول الله ﷺ.

ويرجع عمود النسب وهو كعب بن لؤيّ في ابنه:

---

(١) هو سعيد بن زيد بن نفيل العدويّ القرشيّ، أبو الأعور، من خيار الصّحابة، هاجر إلى المدينة، شهد المشاهد كلّها إلّا بدرًا لأنه كان في مهمّة أرسله بها النبيّ ﷺ، وكان من ذوي الرأي والبسالة، مولده بمكّة ووفاته بالمدينة سنة ٦٧١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٩٤».

(٢) أي هو أحد العشرة المبشّرين بالجنّة.

(٣) هو عديّ بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، من قريش من عدنان، جدّ جاهلي، من نسله أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب. «فهرس الأعلام ٤/ ٢٢١».

(٤) الحرّة: أرض ذات حجارة، والحرار في بلاد العرب كثيرة أكثرها حوالي المدينة إلى الشام. «انظر معجم البلدان ٢/ ٢٤٥».

(٥) هو صفوان بن أُميّة بن خلف بن وهب الجمحي القرشيّ المكيّ، أبو وهب، صحابي فصيح جواد، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح، وهو من المؤلّفة قلوبهم، شهد اليرموك ومات بمكّة سنة ٦٦١ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٠٥».

مرّة بن كعب

وأمّه وحشيّة بنت شيبان الفهريّة، ومنه غير كلاب الذي هو عمود النسب: بطنان وهما: بنو تَيْم، منهم أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، ويكنّى بعتيق، ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة: صاحب رسول الله ﷺ وأنيسه في الغار بنصّ القرآن بقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠]، فشهد له القرآن بصحبة رسول الله ﷺ وناهيك بذلك شرفًا، وصهره، وخليفته ﷺ ورضي عن أبي بكر وأرضاه.

ومن بني تيم: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم أحد العشرة،وبنو يَقَظَة بن مرّة، منهم: أمّ سلمة الصادقة: زوج النبيّ ﷺ، وهي بنت أبي أُميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرّة، وخالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم الملقّب بسيف الله. قال: وقد انقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد شرقًا ولا غربًا، وإن انتمى إليهم أحد فهو مبطل في انتمائه، وكلّ من ادّعى عليه، فقد كذب. قال الشريف: وكان شيخنا الفقيه مجلّى بن جميع بن نجاء الشافعيّ قاضي مصر يدعى إليه، وهو على كتبه بخطّه وشافهنا به ولا صحّة لذلك.

وعمود النسب من مرّة بن كعب في ابنه:

كلاب بن مرة بن كعب

وأمّه هند بنت بَهْز بن حكيم، وقيل: عُروة. ومنه غير قصيّ عمود النسب: بطن واحد، وهم: زهرة بن كلاب؛ منهم: السيّدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف، ابن زهرة: أمّ رسول الله ﷺ، وعبد الرحمٰن بن عوف[١] بن الحارث بن زهرة: أحد العشرة، وسعد بن أبي وَقّاص[٢].

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن عبد بن عوف بن زهرة بن كلاب، أبو محمد، أحد العشرة، صلّى الرسول عليه السلام خلفه في غزوة تبوك، وتصدّق بأربعين ألف دينار، ورد أن عثمان مرض فكتب بالخلافة بعده له، فدعا الله أن يتوفّاه قبل عثمان، فتوفّاه بعد ستة أشهر سنة ٣٢ هـ، وله خمس وسبعون سنة. «الكاشف ٢/ ١٥٩».

(٢) هو سعد بن أبي وقاص، مالك بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فارس الإسلام وأحد العشرة، أسلم سابع سبعة، صحابي، ومناقبه جمّة، توفي سنة ٥٥ هـ، له مائتا حديث وخمسة عشر حديثًا في كتب الحديث المعتمدة. «الكاشف ١/ ٢٨٠».

ويرجع عمود النسب منه في ابنه قصيّ بن كلاب بن مرّة[١].

وأمّه فاطمة بنت سَيْل الأزديّة، واسمه زيد، ويُدْعى مجمِّعًا: لجمعه أمر قريش بالرحلتين وأوّل من جمع يوم الجمعة. وقيل: إنما سُمّي قصيٌّ «مجمِّعًا» لأنه لما أخرج خزاعة من مكّة ورأى أنه من صريح ولد إسماعيل عليه السلام، وأنه أحقّ من خزاعة بالبيت الحرام، وبَنَى دار الندوة[٢]، وجعل بابها إلى البيت الحرام، وتجمّعت قريش بمكّة، فسمّى بذلك «مجمِّعًا»، لأنه جمعهم ولم يجعل معهم غيرهم، وكان يجمعهم في دار الندوة.

وأما الرحلتان، فأوّل من سنّهما هاشم: فكان يرحل في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشيّ فيكرمه، ويرحف في الصيف إلى الشام إلى غزّة، وبها مات؛ وربما وصل إلى أَنْقِرة ويدخل على قيصر فيكرمه. وقد قال ابن الزِّبَعْرَى[٣]: [من الكامل]

عمرو العلا هشَمَ الثريدَ لقومه ... ورجالُ مَكَّةَ مسنتون عِجافُ[٤]

سُنّت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصيافِ[٥]

وأمّا أوّل من جمع يوم الجمعة فهو كعب بن لؤيّ، وكان يُسمَّى: يومَ العَروبَة، فكان يجمعهم ويعظهم ويحثّهم على اتّباع نبيّ من صلبه.

وإنما سُمّي قصيًّا: لأن أمّه فاطمة بنت سعد بن سيل لما تقصّت[٦] به مع زوجها ربيعة بن جذام القضاعيّ، فأحملها إلى بلاده من أرض عُذْره من بلاد الشام سُمِّيَ بذلك. قال: ومنه غير عمود النسب وهو عبد مناف بطنان: بنو أسد بن عبد العُزَّى بن قصيّ، وبنو عبد الدار بن قصيّ.

---

(١) هو قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، سيّد قريش في عصره ورئيسهم، والأب الخامس في سلسلة النسب النبوي. «فهرس الأعلام ٥/ ١٩٨».

(٢) دار الندوة: هي دارٌ كان يجتمع فيها الجاهليون للتشاور في أمورهم سلمًا أو حربًا.

(٣) ابن الزّبعري: هو قطيّة بن زيد بن سعد بن امرىء القيس الثعلبي، من بني القين بن جسر، شاعر، قال ابن حبيب: كان سيّد قضاعة في الجاهلية وأوّل الإسلام، وأورد أبياتًا من شعره في كتاب من نسب إلى أمّه من الشعراء. «فهرس الأعلام ٥/ ٢٠٠».

(٤) هشم الثريد: أي كسر الخبز وأعدّه للثريد، والثريد: طعامٌ من خبزٍ مفتّت مبلول بالمرق، والمستنون: الذين أصابتهم سنة مجدبة، والعجاف: المجدبون.

(٥) في البيت «إقواء» وهو اختلاف حركة الرّويّ في البيت عن سابقه، وقد ورد ذلك في أشعار العرب، وخاصة «النابغة الذبياني».

(٦) تقصّت به: علمت بحملها له.

فأمّا بنو أسد، فمنهم: خديجة بنت خويلد بن أسد: زوج النبيّ ﷺ؛ ومنهم: الزُّبير بن العوّام بن خويلد بن أسد أحد العشرة وحواريّ رسول الله ﷺ.

وأما بنو عبد الدار بن قصيّ، فمنهم الحَجَبَة، فيهم: بنو شَيْبة بن عثمان بن أبي طَلْحة عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار، وفي بني عبد الدار: هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، قال: وهي مسألة في النسب يُمْتَحَنُ بها من يدَّعِي علم النسب، يقال له: من يعلم في بني قصيٍّ جدّ رسول الله ﷺ هاشم بن عبد مناف غير هاشم بن عبد مناف بن قصيّ؟

نرجع إلى عمود النسب من قصيّ بن كلاب في ابنه:

عبد مناف بن قصيّ

وأمّه حُبَّى بنت حُلَيْل الخزاعيّة، واسمه المغيرة والقمر. ومنه غير هاشم عمود النسب ثلاث بطون: بنو المطّلب، وهو العِيص، وبنو عبد شمس وبنو نوفل: أولاد عبد مناف. فمن بني عبد شمس: أُميّة الأصغر، يقال لولده: العَبَلات؛ لأن أمّ أُميّة هذا عَبْلَة بنت عبيد من البراجم بن تميم، وبنو أُميّة الأكبر بن عبد شمس، منهم: ذو النورين: عثمان بن عفّان بن العاص بن أُميّة بن عبد شمس أحد العشرة وزوج ابنتي النبيّ ﷺ ورضي عنه. ومن بني عبد شمس: أبو العاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس زوج زينب بنت رسول الله ﷺ؛ وكان النبيّ ﷺ يُثني عليه في صهارته خيرًا. ومن بني عبد المطّلب بن عبد مناف: رهطُ بن عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب البدريّ، انقرض، وشافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطّلب جدّ الشافعيّ رضي الله عنه: وهو محمد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع. ومن بني نوفل: جُبَيْر بن مُطْعِم بن عديّ بن نوفل، وكان ممّن قام في أمر الصحيفة، وكان رسول الله ﷺ يشكر له ذلك، وهم يدٌ مع بني أُميّة.

وعمود النسب من عبد مناف في ابنه هاشم بن عبد مناف، وأمّه عاتكة بنت مُرّة السلميّة، واسمه عمرو العُلَا، وسُمّي هاشمًا لكرمه وهشمه الثريد في الجدبِ مبتدئًا بذلك، انقرض جميع ولده من الذكور إلا عمود النسب عبد المطّلب، وكان له أسد بن هاشم، منه: فاطمة بنت أسد أمّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وهي أوّل هاشميّة تزوّجت هاشميًّا فولدت له، وانقرض أسد إلّا منها، وكان رسول الله ﷺ يقول: هي أُمِّي بعد أُمِّي، والعقب من هاشم في ابنه:

عبد المطلب بن هاشم

وأمّه سَلْمى بنت زيد النجّارية: وهو شَيْبة الحمد، أعقب من غير عبد الله عمود النسب من بني أبي طالب عبد مناف بن عبد المطّلب والعبّاس بن عبد المطّلب والحارث بن عبد المطّلب وأبا لهب بن عبد المطّلب وهو عبد العزّى.

فأمّا بنو أبي طالب فهو ثلاث بطون: بنو عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب: وهم العلويّون، وبنو جعفر الطيّار: وهم الجعفريّون، وبنو عَقِيل بن أبي طالب: وهم العَقيليّون.

فالعلويّون خمس أفخاذ: بنو الحسن بن عليّ، وبنو الحسين بن عليّ، وبنو محمّد بن الحنفيّة: وهم المحمَّديون، وبنو العباس السقّاء بن عليّ: سمّي بذلك لأنه كان قد سقى أخاه الحسينَ الماءَ بالقربة في الطَّفّ[1]، وبنو عمر الأطراف بن عليّ، وفي كلّ فخذ منهم عدّة عشائر.

وأما الجعفريّون فثلاث أفخاذ: بنو عليّ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهم الزينبيّون، لأن أمّ عليّ هذا زينبُ بنت فاطمة ابنة رسول الله ﷺ بنت عليّ رضي الله عنه، وبنو إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وبنو إسحٰق العِرْضِيّ بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. والعرضُ: موضع بالمدينة، وفي كلّ فخذ عدّة عشائر.

وأما العَقيليّون، ففخذان: بنو محمّد ومسلم: ابني عبد الله الأحول بن محمد بن عقيل بن أبي طالب: فهؤلاء بطون بني طالب.

وأما العباسيّون، فبطنان: بنو عبد الله الحَبْر[2] ومَعْبَد: ابني العبّاس بن عبد المطّلب.

فأمّا عبد الله، فمنه ثماني أفخاذ: بنو عبد الله وانقرض، وبنو عيسى، وبنو عبد الصمد، وبنو داود، وبنو إسماعيل، وبنو صالح: صاحب الشام، وبنو سلمان: صاحب البصر، وبنو محمد الكامل: جدّ الخلفاء أولاد عليّ السجّاد[3] بن عبد الله بن العبّاس.

---

(١) الطفّ: في اللغة ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، وهي أرضٌ من ضاحية الكوفة في طريق البريّة فيها كان مقتل الإمام الحسين بن عليّ عليهما السلام، وهي أرض بادية قريبة من الرّيف فيها عدّة عيون جارية. «معجم البلدان ٤/ ٣٦».

(٢) الحبر: العالم، ويريد بالحبر، عبد الله بن عباس.

(٣) السجّاد: الكثير السجود.

وأما مَعْبد، فمنه فخذان: بنو داود ومحمد: ابني إبراهيم بن عبد الله بن معبد بن العبّاس: فهؤلاء بنو العباس بن عبد المطّلب.

وأما الحارث بن عبد المطّلب، فمنه ثلاث أفخاذ: وهم الحارثيّون: بنو ربيعة، وبنو نوفل، وبنو أبي سفيان: أولاد الحارث بن عبد المطّلب: فهؤلاء بنو الحارث.

وأما أبو لهب عبد العزّى، فمنه فخذان: بنو عُتْبة وبنو مُعَتِّب: ولدَيْ أبي لهب. وعمود النسب الشريف في عبد الله بن عبد المطّلب، وأمّه آمنة بنت عمرو المخزوميّة، ولا عقب لعبد الله بن عبد المطّلب إلّا من سيّدنا رسول الله ﷺ وهو محمد النبيّ العربيّ، ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاسم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (واسمه قيس) ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان بن أدّ بن أُدَد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل ﷺ ابن تارح، وهو آزر بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر: وهو هود النبيّ عليه السلام، وهو جماع قيس ويمن ونزار وخندف بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ابن لَمَك بن مُتُوشَلَخ(١) بن أخنوخ: وهو إدريس النبيّ عليه السلام ابن يَارَدَ بن مَهْلَائِيلَ(٢) بن قَيْنان بن أَنُوشَ بن هبة الله شيث بن أبي البشر آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر أنبياء الله تعالى أجمعين: [من الكامل]

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضّحى نورًا ومن فلَق الصباح عَمودا(٣)

وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما خلق الله تعالى آدم، أهبطني في صلبه إلى الأرض، وحملني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النّار في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سِفاحٍ(٤) قطّ»، وإلى هذا أشار العبّاس بن عبد المطّلب(٥) رضي الله تعالى

(١) في التوراة: مَتوشالخ. (٢) في التوراة: مَهْلَلْئيل.
(٣) الفلق: الصّبح ينشق من ظلمة الليل، وعمود الصبح: ضوؤه.
(٤) السّفاح: أن يقيم الرجل مع المرأة من غير زواجٍ صحيح.
(٥) هو العبّاس بن عبد المطلب، أبو الفضل، عمّ رسول الله ﷺ، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، =

عنه بقوله حيث يقول: [من المنسرح]

مِنْ قبلِها طِبتَ في الجِنانِ، وفي مستودَعٍ، حيث يُخصفُ الورقُ(١)
ثم هبطتَ البلادَ، لا بشرٌ أنتَ، ولا مُضْغَةٌ، ولا عَلَقٌ(٢)
بل نطفةٌ، تركبُ السفينَ وقد ألجم نسرًا وأهلَه، الغَرَقُ(٣)
تُنْقَلُ من صالَبٍ إلى رَحِمٍ إذا مضَى عالَمٌ، بدا طَبَقُ(٤)

اللّهمّ صلّ على أسعد الخلق سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم أفضلَ صلواتِك وسلامك عددَ خَلْقك، وأجْرِ لطفَك في أمورنا في الدنيا والآخرة، حسبُنا الله ونِعْم الوكيل!

كمل الجزء الثاني
من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب
يتلوه إن شاء الله تعالى في أوّل الجزء الثالث:
«القسم الثاني من الفن الثاني في الأمثال»
وحسبنا الله ونِعْم الوكيل
وصلّى الله وسلّم على أشرف الخلق أجمعين

= وأقام بمكّة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين، وشهد وقعة حنين، وفتح مكّة، وعمي في آخر عمره، توفي سنة ٦٥٣ م. «فهرس الأعلام ٣/ ٢٦٢».

(١) يخصف الورق: يخاط ويخرز ويلصق بعضه ببعض.

(٢) المضغة: القطعة التي تمضغ من اللحم، والعلق: حشرة سوداء شبه الدودة تمتصّ الدم.

(٣) النّطفة: المنيّ من الرجل، ونسرًا: يريد قوم نوح الذين كانوا يعبدون الأصنام وورد ذكر آلهتهم في القرآن الكريم، سورة نوح، الآية ٢٣.

(٤) الصالب: يريد طلب الإنسان، أي ظهره حيث تجتمع الأصلاب، والطبق: الحال والمنزلة وفقار الظهر. يريد: إذا مضى أناس ظهر أناسٌ غيرهم في دورة حياة متتابعة.

فهرس المصادر
المُستَخدَمَة في التحقيق

١ ـ **القرآن الكريم**، «والقرآن الكريم المفسّر».

٢ ـ **التوراة**، «سفر التكوين».

٣ ـ **إعجام الأعلام**، محمود مصطفى، دار الكتب العلميّة.

٤ ـ **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب العلميّة.

٥ ـ **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، لابن دقماق، ط. بولاق.

٦ ـ **إيضاح المكنون في الذيل على كشف المظنون**، لإسمٰعيل باشا الباباني البغدادي.

٧ ـ **التنبيه والإشراف**، لابن قتيبة الدّينوريّ، مصر.

٨ ـ **خزانة الأدب**، للبغدادي، دار صادر ـ بيروت.

٩ ـ **ديوان الحماسة**، لأبي تمام «شرح التبريزي»، دار القلم ـ بيروت.

١٠ ـ **ديوان جميل بن معمر**، دار صادر.

١١ ـ **ديوان عبيد بن الأسرحي**، دار صادر.

١٢ ـ **ديوان كعب بن زهير**، دار الشوّاف، الرياض.

١٣ ـ **ديوان المتنبّي**، دار الكتب العلميّة.

١٤ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، دار صادر، بيروت.

١٥ ـ **ديوان كشاجم**، «محمود بن الحسين»، دار صادر، بيروت.

١٦ ـ **ديوان أشعار الهذليين**، دار الكتب المصرية.

١٧ ـ **الدّرر الكامنة**، لابن حجر العسقلاني.

١٨ ـ **ذمّ الهوى**، لابن الجوزي.

١٩ ـ **سبائك الذهب**، للبغدادي الشويري، بغداد.

٢٠ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية.

٢١ ـ **شفاء الغليل**، للخفاجي.

٢٢ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

٢٣ ـ **صفة الأطعمة**، دار الكتب المصرية.
٢٤ ـ **العِبَر وديوان المبتدأ والخبر**، المعروف بـ «تاريخ ابن خلدون».
٢٥ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، دار الكتب العلمية.
٢٦ ـ **العمدة**، لابن شِيقا القيرواني، دار الكتب العلميّة.
٢٧ ـ **فقه اللغة**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.
٢٨ ـ **قاموس الصّحاح**، للجوهري.
٢٩ ـ **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي.
٣٠ ـ **الكاشف**، للذّهبي، دار الكتب العلميّة.
٣١ ـ **لسان العرب**، لابن منظور.
٣٢ ـ **مجمع الأمثال**، للميداني، دار الكتب العلميّة.
٣٣ ـ **المستقصى في أمثال العرب**، للزمخشري، دار الكتب العلمية.
٣٤ ـ **المعارف**، لابن قتيبة الدينوريّ، ط. مصر.
٣٥ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحمويّ، دار صادر.
٣٦ ـ **معجم الأدباء**، لياقوت الحمويّ، دار الكتب العلمية.
٣٧ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، «محمد فؤاد عبد الباقي»، دار الفكر، بيروت.
٣٨ ـ **المؤتلف والمختلف**، للآمدي، دار الكتب العلمية.
٣٩ ـ **المغرب في حلى المغرب**، لابن سعيد المغربي، دار المعارف، مصر.
٤٠ ـ **الملل والنّحل**، للشهرستاني، دار الكتب العلمية.
٤١ ـ **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، للقشنقدي، دار الكتب العلمية.
٤٢ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلّكان.
٤٣ ـ **يتيمة الدهر**، للثعالبي، دار الكتب العلميّة.

فهرس المحتويات

الفن الثاني
في الإنسان وما يتعلق به

القسم الأوّل
في اشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه، ووصفه، وتشبيهه، والغَزَل، والنَّسيب، والهوى، والمحبّة، والعشق، والأسباب

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثالث

تحقيق

الدكتور حسن نور الدين

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القسم الثاني

من الفن الثاني في الأمثال المشهورة عن رسول الله ﷺ، وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد[1] العرب، وأخبار الكهنة، والزّجر، والفأل، والطّيرة، والفراسة، والذكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجي، والألغاز

وفيه خمسة أبواب.

الباب الأوّل
من هذا القسم في الأمثال

ضرب الله عزَّ وجلّ الأمثال في كتابه العزيز في آيٍ كثيرة، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [الحَج: الآية ٧٣] وتكرر ذكر الأمثال.

وقال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جَنْبَى الصراط أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة، وعلى رأس الصراطِ داعٍ يقول ادخلوا الصراط ولا تعرّجوا» فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله تعالى، والأبواب: محارم الله، والداعي: القرآن.

قال المبرّد[2]: المثل مأخوذٌ من المثالِ وهو قولٌ سائر، شبّه به حالَ الثاني بالأوّل والأصلُ فيه التشبيه. قال: وقولُهم مَثَلٌ بين يديه، إذا انتصبَ؛ معناه أشبه الصورة المنتصبة. وفلانٌ أمثلُ من فلان، أي أشبه.

---

(١) الأوابد: معناها هنا: الدواهي مفردها الآبدة. «لسان العرب ٣/ ٦٨ و٦٩».

(٢) المبرّد: أبو العباس محمد بن يزيد النحوي، (٢١٠ ـ ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ ـ ٨٩٩ م) إمام العربية ببغداد في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. «الأعلام للزركلي ٧/ ١٤٤».

والمِثالُ: القِصاصُ، لتشبيه حالِ المقتصِّ منه بحال الأوّل.

وقال ابن السِّكِّيت[١]: المثلُ لفظٌ يخالف لفظَ المضروب له ويوافقُ معناه.

وقال إبراهيم النظَّام[٢]: يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودةُ الكناية فهو نهايةُ البلاغة.

وقال ابن المقفَّع: إذا جُعل الكلامُ مثلًا كان أوضحَ للمنطق، وآنقَ للسمع، وأوسعَ لشعوب الحديث.

وأوّل ما نبدأ به من ذلك:

ما تُمُثِّل به من أقوال سيّدنا رسول الله ﷺ

فمن ذلك قوله ﷺ وهو مما لم يسبق إليه:

«إيَّاكم وخضراءَ الدِّمَن» فقيل له: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: «المرأةُ الحَسْنَاءُ في مَنْبِتِ السُّوء!».

«كلُّ الصيدِ في جَوْف الفَرَا» قاله لأبي سفيان يتألّفه على الإسلام.

«مات فلان حَتْفَ أنفه».

«لا ينتطح فيه عَنْزَان».

«إن المُنْبَتَّ لا أرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى» المنبتُّ: المنقطع عن أصحابه في السفر؛ والظهر: الدابّة، قاله في الغلوّ في العبادة.

«الآنَ حَمِيَ الْوَطِيس»: ضربه في الحرب.

«يَا خَيْلَ اللهِ ارْكَبِي».

«اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي».

---

(١) ابن السكيت: يعقوب بن إسحٰق، (١٨٦ ـ ٢٤٤ هـ = ٨٠٢ ـ ٨٥٨ م) أبو يوسف، إمام في اللغة والأدب، أصله من خوزستان، تعلم ببغداد واتصل بالمتوكل العباسي فعهد إليه بتعليم أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله لسبب مجهول. قيل سأله عن ابنيه المعتز والمؤيد أهما أحب إليه أم الحسن والحسين فقال ابن السكيت: والله إن قنبرًا خادم علي خير منك ومن ابنيك، فأمر الأتراك فداسوا بطنه أو سلوا لسانه، وحمل إلى داره فمات ببغداد، له كتب كثيرة «الفهرست لابن النديم ص ١١٦ والأعلام للزركلي ٨/ ١٩٥».

(٢) إبراهيم النظام: إبراهيم بن يسار بن هانىء النظام المعتزلي توفي سنة ٢٣١ هـ، «الملل والنحل ١/ ٥٧».

وقوله ﷺ: «الناسُ كأسنان المُشْطِ وإنما يتفاضلون بالعافية».

«الناس كمعادن الذهب والفضة، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقِهوا».

«النَّاسُ كَإبلٍ، مِائَةٌ لا تَجِدُ فيها راحِلَةً».

«المؤمن هيّنٌ ليّن، كالجمل الأَنِفِ إن اقتيد انقاد، وإن أُنِيخ على صخرة استناخ».

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدّ بعضه بعضًا».

«أصحابي كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم».

«مثل أصحابي كالملح لا يصلح الطعام إلا به».

«أُمَّتي كالمطر، لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أم آخرُهُ».

«مثلُ أبي بكر كالقَطْر أين وقع نفع».

«عُمَّالُكم كأعمالكم وكما تكونوا يُولّى عليكم».

وقال لما كتب المهادنة بينه وبين سهيل بن عمرو: «والعقد بيننا كشَرْج العَيْبَة»(١) يعني إذا انحلّ بعضه انحلّ جميعه.

«المرأة كالضِّلَعِ العوجاء إن قوّمتها كسرتها، وإن داريتها استمتعت بها».

«المتشبِّعُ بما لم يُعْطَهُ كلابس ثَوْبَيْ زُور».

«الدَّالُّ على الخير كفاعله».

«لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِمَاصًا وتروح بطانًا».

«وعدُ المؤمن كالأخذ باليد».

«مَثَلُ المؤمن كالنحلة، لا تأكلُ إلا طيّبًا ولا تُطعِم إلا طيّبًا».

«مَثَل المؤمن كالسُّنْبُلَةِ تميلُ أحيانًا، وتعتدِلُ أحيانًا».

«مَثَل الجليس الصالح كالعطّار، إن لم تصبْ من عطرهِ أصبتَ من ريحه، ومثل الجليس السوء كالكِير(٢) إن لم يحرق ثوبك آذاك بدُخَانه».

---

(١) الشرج: من شرج الشيء: أي أدخل بعض عُراه في بعض والعيبة: الوعاء في جلد.
(٢) الكير: كير الحداد، وهو عبارة عن زق أو جلد غليظ ذو حافات، ينفخ فيه الحداد. «لسان=

«علمٌ لا ينفع كنز لا ينفق منه».

وقال: «المؤمن مِرْآةُ أخيه».

«قد جَدَعَ الْحَلالُ أنْفَ الغَيْرَة».

«الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى».

«نيَّة المرء خيرٌ من عمله».

«إن من الشِّعْر لحكمةً وإن من البيان لَسحْرًا».

«من كثّر سوادَ قومٍ فهو منهم».

«الأعمال بخواتمها».

«ساقي القوم آخرهم شربًا».

«المرء على دِين خليله فلينظر امرؤ مَنْ يَخَالّ».

«المستشير معان والمستشار مؤتمن».

ومن كلام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه

إن الله قرنَ وعده بوعيده.

ليست مع العَزاء مصيبة.

الموت أهون مما بعده وأشدّ مما قبله.

ثلاث مَن كنّ فيه كنّ عليه: البغي، والنَّكْثُ، والمَكْر.

ذلَّ قومٌ أسندوا أمرهم إلى امرأة.

احرصْ على الموت توهبْ لك الحياة؛ قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الرِّدّة.

كثيرُ القولِ يُنسي بعضُه بعضًا، وإنما لك ما وعى عنك.

لا تكتم المستشارَ خبرًا فتُؤتَى من قِبَل نفسك.

خير الخَصْلتين لك أبغضهما إليك.

صنائعُ المعروفِ تقي مَصارِعَ السوءِ.

= العرب ٥/ ١٥٧».

ومن كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

مَنْ كتم سِرَّه كان الخِيارُ في يده.

أشقى الوُلَاة من شَقِيتْ به رَعِيَّتُه.

اتقوا مَنْ تَبْغَضُه قلوبُكم.

أعقلُ الناس أعذَرُهُم للناسِ.

اجعلوا الرأسَ رأسين.

أخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفكم.

لو أن الشكرَ والصبْرَ بِعَيران لما باليت أيهما رَكِبتُ.

مَنْ لم يعرِف الشرّ كان أجدَرَ أن يقع فيه.

ما الخمرُ صِرْفًا بأذهبَ للعقول من الطمع.

إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القويّ.

اقتصاد في سُنَّة خيرٌ ما اجْتهادٍ في بِدْعة.

لا يكن حبُّك كَلَفًا، ولا بُغْضُك تَلَفًا.

ومن كلام عثمان بن عفان رضي الله عنه

ما يزَعُ[(١)] الله بالسلطان أكثرُ مما يَزَعُ بالقرآن.

الهدية من العامل إذا عُزِل، مثلها منه إذا عُمِل.

أنتم إلى إمام فعَّال، أحوجُ منكم إلى إمام قوّال؛ قاله يوم صعد المنبر فأرْتَج عليه.

وقال يوم قُتل: لأن أُقْتَل قبل الدماء، أحبُّ إليّ من أن أُقْتَل بعد الدماء.

ومن كلام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه

مَن رضي عن نفسه كثرَ الساخطُ عليه؛ ومن ضيَّعهُ الأقربُ أُتِيحَ له الأبعدُ؛ ومن بالغَ في الخصومةِ أَثِمَ، ومن قصَّرَ فيها ظَلَم.

---

(١) يزع: يقال: وزع يزع وزعًا: كفّ ومنع.

رأيُ الشيخِ خيرٌ من مشهدِ الغلام.

الناس من خوف الذلّ في الذلّ.

إن من السكوت ما هو أبلغُ من الجواب.

ومن كلام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

لكلِّ داخلٍ دهشةٌ فابدؤوه بالتحية؛ ولكل طاعمٍ حشمةٌ فابدؤوه باليمين.

ومن أمثال العرب ما نقلته من كتاب «الأمثال» للميدانيّ. والميداني: هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميدانيّ النيسابوريّ ـ والميدانيّ: بفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة نسبة إلى ميدانِ زياد، وهي محلةٌ بنيسابور؛ توفي سنة تسعٍ وثلاثينَ وخمسمائة ووضعتهُ على حروف المعجم.

فمن ذلك ما جاء منها على حرف الهمزة:

حرف الهمزة

تقول العرب: «إنَّ المُوَصَّيْنَ بَنُو سَهْوَان» قال الميدانيّ: يُضرَب لمن يسهو عن طلب شيء أُمِرَ به، وبنو سهوان: بنو آدم عليه السلام حين عهد إليه فسَها ونسي.

وقولهم: «إنَّ الرَّثِيئَةَ تَفْثَأُ الغضبَ» قال: الرثيئة: اللبنُ الحامضُ يخلط بالحلو؛ والفَثْءُ: التسكين؛ وزعموا أن رجلًا نزل بقوم وكان ساخطًا عليهم، وكان جائعًا فسقوه الرثيئة فسكن غضبُه، فقال هذا المثلَ: يُضرب في الهدية تورثُ الوفاقَ.

وقولهم: «إن الحديدَ بالحديد يُفْلَح» أي يستعانُ في الأمر الشديد بما يشاكله ويقاويه.

وقولهم: «إن السلامةَ منها تَرْكُ ما فيها» في اللُّقَطَة وذمّ الدنيا.

[من مخلع البسيط]

والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ ... أن السلامةَ منها تركُ ما فيها

وقولهم: «إن العَصَا من العُصَيَّةِ» يقال: إن أوّلَ من قال ذلك الأفعَى الجرهميّ[1]، ذلك أن نزارًا لما حضرته الوفاة جمع بنيه: مضر، وإيادًا، وربيعة،

(١) الأفعى الجرهمي: حكيم جاهلي قديم كان معاصرًا لنزار (أبي ربيعة ومضر) وكان منزله بنجران،=

وأنمارًا، فقال: يا بنيّ! هذه القبة الحمراء ـ وكانت من أدم[١] ـ لمضر؛ وهذه الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة؛ وهذه الخادم ـ وكانت شمطاء ـ لإياد؛ وهذه البدرة والمجلس لأنمار، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون، فأتوا الأفعَى الجرهميّ ومنزلُه بنجران[٢]؛ فتشاجروا في ميراثه، فتوجهوا إليه، فبينما هم في سيرهم إذ رأى مضرُ أثر كلإٍ قد رعى، فقال: إن البعيرَ الذي رعى هذا أعور؛ وقال ربيعةُ: إنه لأزور[٣]، وقال إياد: إنه لأبتر[٤]، وقال أنمار: إنه لشرودٌ، فساروا قليلًا، فإذا هم برجل يوضع حملةُ فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم، وقال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم، وقال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم، وقال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، هذه والله صفة بعيري، فدلوني عليه، فقالوا: والله ما رأيناه، فقال: هذا واللهِ الكذبُ كيف أصدّقكم وأنتم تصفونَه بصفته؟ فساروا حتى قدموا نجرانُ؛ فلما نزلوا، نادى صاحب البعير، هؤلاء أصحاب جملي وصفوا لي صفته ثم قالوا: لم نره؛ فاختصموا إلى الأفعى، فقال لهم: كيف وصفتموه وأنتم لم تروْه؟ فقال مضر: رأيته قد رعى جانبًا وترك جانبًا، فعلمت أنه أعور؛ وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة والثانية فاسدة، فعلمت أنه أزور لأنه أفسدها بشدّة وطئه؛ وقال إياد: عَرَفت أنه أبتر باجتماعِ بعره ولو كان ذيّالًا[٥] لمصع به؛ وقال أنمار: عَرفت أنه شرود، لأنه يرى في المَكان الملتفّ نبتُه ثم يجوزه إلى مكان أرقّ منه؛ فقال الأفعى: ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه، ثم سألهم: من أنتم؟ فأخبروه بخبرهم، وبما جاؤوا له، فأكرمهم، وقال: أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى؟ ثم أنزلهم وذبح لهم شاة، وأتاهم بخمر؛ وجلس لهم الأفعى بحيث لا يُرى؛ فقال ربيعة: لم أرَكَ اليوم أطيب لحمًا لولا أن شاتَه غذيت بلبن كلبة؛ وقال مضر: لم أر كاليوم أطيب خمرًا لولا أن حَبَلته نبتت على قبر؛ فقال إياد: لم أرَ كاليوم رجلًا

= تقصده العرب في قضاياها فيحكم بينها ولا يُرد حكمه. «الأعلام للزركلي ٢/ ٥، والكامل في التاريخ ١/ ٣١ و٣٢».

(١) الأدم: الجلد المدبوغ، وقيل: الجلد الأحمر. «لسان العرب ١٢/ ٩».

(٢) نجران: في مخاليف اليمن من ناحية مكة. «معجم البلدان ٥/ ٢٦٨».

(٣) أزور: من «زور»: مال، وعنق أزور: مائل. «لسان العرب ٤/ ٣٣٤».

(٤) أبتر: البتر: استئصال الشيء قطعًا والانبتار: الانقطاع ـ والأبتر: المقطوع الذنب من أي موضع كان من جميع الدواب. «لسان العرب ٤/ ٣٧».

(٥) ذيالاً: الذيال من الخيل: المتبختر في مشيه كأنه يسحب ذيل ذنبه. «لسان العرب ١١/ ٢٦٠».
مصع: المصْع: التحريك ـ وقيل هو عدْوٌ شديد يحرك فيه الذنب ـ ومرَّ يمصع: أي يسرع. «لسان العرب ٨/ ٣٣٧».

أسرَى لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له؛ فقال أنمار: لم أر كاليوم كلامًا أنفع في حاجتنا من كلامنا، وكلامهم بإذنه، فدعا قهرمانة، فقال: ما هذه الخمر، وما أمرها؟ قال: هي من حُبْلة غرستها على قبر أبيك؛ وقال للراعي: ما هذه الشاة؟ فقال: هي عناق[١] أرضعتها بلبن كلبة وكانت أمّها ماتت؛ ثم أتى أمّه، فقال: اصدقيني، مَنْ أبي؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال وكان لا يولد له، فخفتُ أن يموت وليس له ولد، فأمكنت من نفسي ابن عمّ له كان نازلًا عليه فولدتك، فرجع إليهم وقال: ما أشبه القبةَ الحمراءَ من مال نزار فهو لمضر، فذهب بالإبل الحمر والدنانير، فسمّيت: مضر الحمراء، وأما صاحبُ الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود، فصار لربيعة الخيلُ الدُّهْمُ وما شاكلها، فقيل: ربيعة الفرس. وأما الخادم الشمطاء فلصاحبها الخيلُ البُلْق[٢] والماشية، فسميت: إياد الشمطاء، وقضى لأنمارَ بالدراهم والأرض فصدروا من عنده على ذلك، فقال الأفعى: إن العصا من العصيّة، وإنّ خُشَينًا من أخشن؛ فأرسلهما مثلًا.

وقولهم: «إن العَوانَ[٣] لا تُعَلَّم الْخِمرة»: يضرب للرجل المجرّب.

وقولهم: «إني لآكلُ الرأسَ وأنا أعلمُ بما فيه»: يضرب للأمر تأتيه وأنت تعلم ما فيه مما تكره.

وقولهم: «أنفٌ في السماء، وأستٌ في الماء»: يضرب للمتكبر الصغير الشأن.

وقولهم: «إن الذليل الذي ليست له عَضُد» أي أنصار وأعوان: يضرب لمن يخذُلُه ناصرُه.

وقولهم: «إنْ يَدْمَ أَظَلُّكَ فقد نَقِبَ خُفيّ» الأظل: ما تحت مَنْسِم البعير: والخفّ: قائمته: يضربه المشكو إليه للشاكي أي أنا منه في مثل ما تشكوه.

وقولهم: «إن تسلم الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر» الجِلَّةُ: جمع جليل يعني العظام من الإبل، والنهب: جمع ناب وهي الناقة المسنّة؛ معناه إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به.

---

(١) عَناق: الأنثى من المعز ـ والجمع أعنق وعنق وعنوق. «لسان العرب ١٠/ ٢٧٤».
(٢) الخيل البلق: الفعل بلِق يبلَق بلَقًا ـ والبلق: سواد وبياض. «لسان العرب ١٠/ ٢٥».
(٣) العوان: من البقر وغيرها، النصف في سنها ـ وقيل العوان: من البقر والخيل التي نتجت بعد بطنها البكر. «لسان العرب ١٣/ ٢٩٩».

وقولهم: «إنْ يَبْغِ عليك قومُك لا يبغ عليك القمر» يقال: إن بني ثعلبة بن سعد في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلَةَ أربع عشرة، فقالت طائفة: تطلعُ الشمس والقمر يُرى، وقالت طائفة: بل يغيب قبل طلوعها، فتراضوا برجل جعلوه بينهم، فقال رجلٌ منهم: إن قومي يبغون عليّ، فقال العدل: إن يبغِ عليك قومك لا يبغِ عليك القمرُ؛ فذهبت مثلًا: يضرب للأمر المشهور.

وقولهم: «إنْ كنتَ رِيحًا فقد لَاقَيْتَ إعْصَارًا» الإعصار: ريح شديدةٌ تهبّ فيما بين السماء والأرض: يضرب للمدل بنفسه إذا صُلِيَ بمن هو أدهى منه وأشد.

وقولهم: «إنَّكَ خيرٌ من تَفَارِيقِ العَصَا» قالوا: قالته غُنَيَّة الأعرابية لابنها، وكان عارمًا مع ضعفه، فواثب يومًا فتى فقطع أذنه فأخذت ديَّتها، فزادت حُسنَ حلٍّ ثم واثب آخر فقطع شفته فأخذت الديَّةَ فذكرته في أرجوزتها فقالت: [من المجتث]

أَحْـلِفُ بـالْمَـرْوَةِ حـقًّـا والـصَّـفَـا إنـك أجدى مـن تَـفَاريـق الـعَـصَـا

فقيل لأعرابي: ما تفاريقُ العصا؟ فقال: العصا تقطع ساجورًا[1] والسواجير للكلاب والأسرى من الناس ثم تقطع عصا الساجور فتصير أوتادًا ويقطع الوتد فيصير كلُّ قطعةٍ شِظَاظًا وإن جعل لرأس الشظاظا كالفَلْكة صار للبُخْتي[2] مِهَارًا وهو العود الذي يدخل في أنفه، وإذا فرق المهار جاءت منه تَوَادٍ وهي الخشبةُ التي تشدّ على خِلْف الناقة.

وقولهم: «إنَّهُ لَيَعلَمُ من أينَ تُؤكَلُ الكَتِفُ»: يضرب للرجل الداهي؛ قال بعضهم: لِمَ تُؤكلُ الكتف من أسفلها؟ قال: لأنها تنقشر عن عظمها وتبقى المرقة مكانها ثابتة.

وقولهم: «إنَّكَ لا تَجْنِي من الشَّوْكِ العِنَب» أي لا تجد عند ذي الْمَنبِت السوء جميلًا؛ والمثل من قول أكثم[3] قال: إذا ظلمت فاحذرِ الانتصار، فإن الظلمَ لا يكسبك إلا مثلُ فعلك.

---

(١) ساجورًا: الساجور هو الخشبة التي توضع في عنق الكلب. «لسان العرب ٤/٣٤٧».

(٢) البختي: أعجمي معزب، وهي الإبل الخراسانية، والبختية: الأنثى من الجمال البُخت، وهي جمال طوال الأعناق. «لسان العرب ٢/٩».

(٣) أكثم بن صيفي التميمي: حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين، أدرك الإسلام، وقصد المدينة المنورة في مئة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق سنة ٥٩ ـ ٦٣٠ م، ولم ير النبي. «الأعلام للزركلي ٢/٦».

وقولهم: «أَخُو الظَّلْمَاء أعْشَى بالليل»: يضرب لمن يخطىء حجتَه ولا يبصر المخرجَ مما وقع فيه.

وقولهم: «إنَّكَ لَتُكْثِرُ الحَزَّ وتُخْطِىء الْمَفْصِل»: يضرب لمن يجتهد في السعي ثم لا يظفر بالمراد.

وقولهم: «أوّل الشجرة النّواة»: يُضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير.

وقولهم: «إذا صاحت الدّجاجة صِياح الدِّيك فلْتُذْبَح» قاله الفرزدق في امرأة قالت الشعر.

وقولهم: «إذا رآني رأى السِّكين في الماء»: يضرب لمن يخافك جدًا.

وقولهم: «إنك ريّان فلا تعجلْ بشربك»: يضرب لمن أشرف على إدراك بغيته فيؤمر بالرفق.

وقولهم: «أبْطَشُ مِنْ دَوْسَر» هي إحدى كتائب النعمان أشدُّها بطشًا ونكاية؛ قال بعض الشعراء: [من الرمل]

ضَـرَبَـتْ دَوْسَـرُ فـيـهـم ضَـرْبـةً   أثـبـتـتْ أوتـادَ مـلْكٍ فـاسـتَـقَـرْ

وقولهم: «أَبَرَمًا قَرُونًا» البَرَمُ: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر لبخله، والقَرُون: الذي يقرن بين الشيئين؛ وأصله أن رجلًا كان لا يدخل في الميسر ولا يرى اللحمَ فجاء إلى امرأته وبين يديها لحمٌ تأكله فأقبل يأكل معها بضعتين يقرنُ بينهما فقالت له: أَبَرَمًا قَرُونًا: يضرب لمن يجمع بين خَصْلَتين مكروهتين.

وقولهم: «الثَّيِّبُ عُجَالة الراكب»: يضرب في الحث على الرضا بيسير الحاجة عند إعواز جليلها:

وقولهم: [من الرّجز]

اِلْبَـسْ لِكُـلِّ حَـالـةٍ لَبُـوسَـهَـا   إمّـا نَـعِـيـمَـهَـا وإمَّـا بُـوسَـهَـا

أوّل من قال ذلك بَيْهس: وهو رجل من بني غراب بن فَزارة، كان سابع سبعة إخوة، فأغار عليهم أناس من بني أشجع، وهم في إبلهم فقتلوا منهم ستة وتركوا بيهسًا لحمقه فقال: دعوني أتوصلُ معكم إلى أهلي فأقبل معهم، فلما كان من الغد نحروا جزورًا في يوم شديد الحرّ، فقال بعضهم: أظلّوا لحمكم لا تفسدُه الضِّح[١]،

(١) الضِّح: الشمس، وقيل هو ضوؤها ـ وفي الحديث الشريف: «لا يقعدنَّ أحدكم بين الضح=

فقال بيهس: لكن بالأَثْلَاث[١] لحم لا يُظلَّل، فأرسلها مثلًا؛ ثم فارقهم وأتى أمه فأخبرها الخبر فقالت: ما جاء بك من بين إخوتك وأنت أخبثُهم، فقال: ما خَيَّرك القومُ فتختاري، فأرسلها مثلًا؛ ثم أعطته ثيابَ إخوته ومتاعَهم، فقال: يا حبذا التراثُ لولا الذِّلة، فأرسلها مثلًا؛ وأخذ يومًا يَبْرمُ سكينًا، فقيل له: ما تصنع بها؟ فقال: أقتل بها قتلةَ إخوتي، فقيل له: إنك لأحمقُ، فقال: ما يؤمنك من أحمقٍ في يده سكينُ، فأرسلها مثلًا؛ ثم إنه مرّ بنسوة من قومه يصلحن امرأة يردن أن يهدينَها لبعض قتلة إخوته فكشف ثوبَه عن استه وغطى به رأسه، فقيل له: ما تصنع؟ فقال: [من الرّجز]

الْبَسْ لكلّ حالةٍ لبوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بُوسَها

وقولهم: «الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن» قال الأصمَعيّ[٢]: معناه تركت الشيء في وقته؛ وقال غيره: تركت الشيء وهو ممكن، وقال أبو عبيدة[٣]: أوّل من قاله عمرو بن عُدَس، وكان قد تزوّج دَخْتَنُوس بعدما كبر، فكان ذات يوم نائمًا في حجرها فجَخَفَ[٤] وسال لعابه فتأفقته فانتبهَ وهي تتأففُ منه، فقال: أتحبين أن أطلّقك؟ قالت: نعم، فطلقها، وتزوّجَها فتى ضريرٌ حسنُ الوجه، ففجأتهم ذات يوم غارةٌ والفتى نائم فجاءت دَخْتَنوس فأنبهته وقالت له: الخيلُ، فجعل يقول: الخيلُ الخيلُ، من الخوف حتى مات فَرَقًا وسُبِيتْ دختنوسُ فبلغ عمرو الخبرَ فركب ولحقهم وقاتل حتى استنقذَ جميعَ ما أخذوا واستنقذها فوضعها قدّامهُ على السرج وردّها إلى أهلها، ثم أصابتهم سنةٌ فبعثت إليه تقول: نحتاج اللبنَ فبعث إليها بلقحة[٥] وقال: الصيف ضيّعت اللبن.

= والظل فإنه مقعد الشيطان». «لسان العرب ٢/ ٥٢٤».

(١) الأثلاث: صنف من الطرفاء كبير يظلل بفيئه مائة نفس ـ والطرفاء نوع من الشجر. «اللسان ٩/ ٢٢٠، ومعجم البلدان ١/ ٩١».

(٢) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي، عالم بالشعر والمعاني وعلم الأنساب والنحو، كان يكنى أبا سعيد، توفي بالبصرة سنة ٢١٧ هـ، وقيل ٢١٣ هـ، من كتبه خلق الإنسان، كتاب الأجناس، الصفات، السلاح، كتاب معاني الشعر، كتاب الألفاظ، كتاب النبات والشجر الخ. «الفهرست لابن النديم ص ٨٢».

(٣) أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي، كان يرى رأي الخوارج، ولما مات لم يحضر جنازته أحد لأنه لم يسلم منه شريف ولا غيره، له كتاب المثالب، كان غليظ اللثغة وله علم الإسلام والجاهلية وهو أعجمي الأصل ولد سنة ١١٤ هـ وتوفي ٢١٠ هـ، وله من الكتب مجاز القرآن، كتاب معاني القرآن وكتاب الديباج وغير ذلك. «الفهرست لابن النديم ص ٧٩».

(٤) جخف: تكبر ـ وجخيفه: غطيطه في النوم ـ وجخف النائم: نفخ. «لسان العرب ٩/ ٢٢».

(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

وقولهم: «اضْطَرَّهُ السَّيْلُ إلى مَعْطَشِه» وهو أن رجلًا عطش وكان قد أتى واديًا له غور وماءٌ شديدُ الجرية، فبقي في أصل شجرة لا يقدر أن ينزل فيأخذ به الماء، ولم يجد ماء فمات عطشًا: يضرب لمن ألقاه الخير الذي كان فيه إلى شرّ.

وقولهم: [من الرّجز]

إنّ الحَماةَ أُولِعَتْ بالكَنَّهْ وأُولِعَتْ كَنَّتُها بالظِّنَّهْ

الحماة: أمُّ الزوج؛ والكَنّة: امرأة الابن والأخ؛ والظِّنّة: التهمة؛ وبين الحماة والكنة عداوةٌ مُستحكِمَةٌ: يُضرب بها المثل في الشر يقع بين قوم هم أهلٌ لذلك.

وقولهم: «إن لله جنودًا منها العَسَل» قاله معاوية: لما بلغه أن الأشتر[1] سُقي عسلًا فيه سمٌّ فمات: يضرب عند الشماتة بمصاب العدوّ.

وقولهم: «إن الهوى لَيمِيلُ بأَسْتِ الراكِب» أي من هوى شيئًا مال نحوه قبيحًا أو جميلًا، كما قيل: [من الطويل]

وما زُرْتكم عَمْدًا ولكنَّ ذا الهوى إلى حيثُ يَهْوى القلبُ تهوِي به الرِّجْلُ

وقولهم: «إن الجَوَادَ قَدْ يَعْثُر»: يُضرب لمن يكون الغالبَ عليه فعلُ الجميل ثم تكون منه الزلَّة.

وقولهم: «إن الشفيقَ بسوء ظنّ مُولَع»: يُضرب للمعنيّ بشأن صاحبه لأنه لا يكاد يظن به غير وقوع الحوادث كظنون الوالداتِ بالأولاد.

وقولهم: «إن خَصْلتين خيرُهما الكذب لَخَصْلَتَا سُوءٍ»: يضرب للرجل يعتذر من شيءٍ فعله بالكذب.

وقولهم: «أحاديثُ طَسْمٍ[2] وأحلَامُها»: يضرب لمن يخبرك بما لا أصل له.

وقولهم: «أحَشَفًا[3] وسُوءَ كِيلَةٍ»: يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين.

---

(١) الأشتر: مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر، أمير من كبار الشجعان، كان رئيس قومه، أدرك الجاهلية، سكن الكوفة، وشهد اليرموك وذهبت عينه فيها، شهد يوم الجمل وأيام صفين قائدًا في جيش علي، ولاه الإمام علي «مصر» فقصدها، إلا أنه توفي على الطريق بسم دس له، له شعر جيد، توفي سنة ٣٧ هـ - ٦٥٧ م - «الأعلام للزركلي ٢٥٩/٥».

(٢) طسم: قبيلة من عاد كانوا فانقرضوا، وقيل: طسم وجديس: وهما قومٌ من أهل الزمان الأوّل. «اللسان مادة طسم».

(٣) الحشف: اليابس الفاسد من التمر، وقيل الضعيف الذي لا نوى له. «لسان العرب ٤٧/٩».

وقولهم: «الحق أبْلَج، والباطلُ لَجْلَج»: معناه أن الحق واضح بيّنٌ والباطل يتلجلج فيه أي يتردّد فلا يجدُ صاحِبُه مخرجًا.

وقولهم: «الحزمُ سُوءُ الظَّنّ بالناس»: هذا المثل قاله أكثم بن صيفيّ.

وقولهم: «اختلط الخاثِرُ بالزُّبّادِ». الخاثر: ما خثر من اللبن، والزُّبّاد: الزّبد: يضرب للقوم يقعون في التخليط من أمرهم.

وقولهم: «أخطأتِ اسْتُه الحُفْرة»: يضرب لمن رامَ شيئًا فلم ينله.

وقولهم: «ادعُ إلى طِعَانِكَ، مَن تدعوه إلى جِفَانِك» أي استعمل في حوائجك من تخصّه بمعروفك.

وقولهم: «أَرَوَغانًا يا ثُعالُ، وقد عَلِقتَ بالحبالِ» ثعالة: الثعلب: يضرب لمن يراوغ وقد وجب عليه الحقُّ.

وقولهم: «إرْمِ فَقَدْ أَفَقْتَهُ مَرِيشًا» يقال: أفقتُ السهمَ إذا وضعت فَوقَه في الوتر: يضرب لمن تمكّن من طَلِبَته.

وقولهم: «أَضَرِطًا وأنت الأعلى؟» قاله سُلَيك بن سُلَكة السعديّ(١)، وذلك أنه بينا هو نائم إذ جثم عليه رجل من الليل وقال: استأسِر فقال له سليك: الليلُ طويل وأنت مقمرٌ، فأرسلها مثلًا: ثم ضمه سليك بيديه ضمَّة أضرطته، فقال له: أَضَرِطًا وأنت الأعلى فأرسلها مثلًا: يضرب لمن يشكو في غير موضع الشكوى.

وقولهم: «أضْلَلْتَ من عَشْرٍ ثَمَانِيًا»: يضرب لمن يفسدُ أكثرَ ما يليه من الأمر.

وقولهم: «أَعْطِ أخاك تمرة، فإن أبَى فجمرة»: يضرب لمن يختارُ الهوان على الكرامة.

وقولهم: «أَكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَها» معناه لا تحدّثْ نفسك بأنك لا تظفر، فإن ذلك يثبّطك. قال لبيد: [من الرّمل]

أَكْذِبِ النفسَ إذا حدَّثتها ... إنّ صدقَ النفسِ يُزْرِي بالأَمَلْ

وقولهم: «أَكِبْرًا وإمْعَارًا؟» أي أتجمع بين الكِبر والفقر.

---

(١) سليك بن سلكة السعدي: والسلكة أمه، فاتك عداء، شاعر أسود، من شياطين الجاهلية، يلقب بالرئبال، كان أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وهو من كبار الصعاليك، له وقائع وأخبار كثيرة، توفي سنة ١٧ ق.هـ = ٦٠٥ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ١١٥».

وقولهم: «أَمَكْرًا وأنت في الحَدِيد؟» هذا المثل قاله عبد الملك بن مروان لعمرو بن سعيد لما قبض عليه وكبّله، فقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن لا تفضَحني بأن تخرجني للناس فتقتلني بحضرتهم فافعلْ، وإنما أراد عمرو بهذه المقالة أن يخالفه عبد الملك فيخرجُه فيمنعه منه أصحابُه، فقال: أبا أمية! أمكرًا وأنت في الحديد: يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور.

وقولهم: «أَهْوَنُ هَالِكٍ عَجُوزٌ في هام سَنَةٍ»: يضرب للشيء يُستخفُّ به وبهلاكه.

قال الشاعر: [من الطويل]

وأهونُ مفقودٍ إذا الموتُ نابه ... على المرء من أصحابه مَن تَقَنَّعا

وقولهم: «أوسعتُهم سبًّا وأودَوْا بالإبل» أصله أن رجلًا من العرب أُغيرَ على إبله فأُخِذَتْ، فلما تواروا صعد أَكَمَةً وجعل يسُبُّهم ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل.

ويقال: إن أوّل من قاله كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى، وذلك أن الحارث بن ورقاء الصيداويّ أغار على بني عبد الله بن غطفان واستاق إبل زهير وراعيَه، فقال زهير في ذلك قصيدته التي أوّلها: [من البسيط]

بان الخليطُ ولم يأووا لمن تركوا ... وزوّدوك اشتياقًا أيَّةَ سلكوا

وبعث بها إلى الحارث فلم يردّ الإبل، فهجاه، فقال كعب ابنه: أوسعتهم سبًّا وأودوا بالإبل، فذهبت مثلًا: يضرب لمن لم يكن عندَه إلا الكلامُ.

وقولهم: «أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مشْتَمِل»: هو سعد بن زيد[(١)] مناة أخو مالك الذي يقال فيه: إنّك آبلُ من مالك، وذلك أن مالكًا تزوّج بامرأة وبنى بها فأورد الإبل أخوه سعدٌ ولم يحسن القيامَ عليها والرفق بها، فقال مالك: [من الرجز]

أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مشتمِل ... ما هكذا تورَد يا سَعْدُ الإبل

فضرب مثلًا لمن قصّرَ في طلب الأمر.

---

(١) سعد بن زيد: بن تميم، من عدنان، جد جاهلي، كانت منازل بنيه في يبرين ورمالها، ثم تفرقت بطون منهم بين قطر وعمان وأطراف البحرين إلى ما يلي البصرة، ونزل بعضهم في العراق. «الأعلام للزركلي ٣/ ٨٥».

وقولهم: «إن الشَّقيّ وَافِدُ البَراجم[١]» قاله عمرو[٢] بن هند الملك. وذلك أن سُوَيْد بن ربيعة التميميّ[٣] قتل أخاه سعد بن هند وهرب فنذر عمرو ليقتلنَّ بأخيه مائة من بني تميم، فسار إليهم بجمعه فلقيهم الخبر فتفرّقوا في نواحي بلادهم فلم يجد إلا عجوزًا كبيرة وهي حمراءُ بنت ضَمْرة، فلما نظر إليها قال: إني لأحسبُكِ أعجميةً، قالت: لا والذي أسأله أن يخفِض جَناحك، ويهدَّ عِمادك، ويضعَ وسادَك، ويسلبَكَ بلادك، ما أنا بأعجميةٍ، قال: فمن أنتِ؟ قالت: أنا بنت ضمرة بن جابر، ساد مَعدًّا كابرًا عن كابرٍ، وأنا أختُ ضمرةَ بن ضمرة، قال: فمن زوجُكِ؟ قالت: هَوْذَة بن جَرْوَل، قال: وأين هو الآن؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت: لو كنتُ أعلمُ مكانه حال بيني وبينك، فقال عمرو: أما والله لولا أني أخاف أن تلدي مثل أبيك وأخيك وزوجك لاستبقيتك، فقالت: والله ما أدركتَ ثارًا، ولا مَحوتَ عارًا، مع كلام كثير كلّمته به فأمر بإحراقها، فلما نظرت إلى النار، قالت: ألا فَتًى مَكَانَ عَجوز! فذهبت مثلًا، ثم مكثت ساعة فلم يفِدها أحد، فقالت: هيهات صارتِ الفتيانُ حُمَمًا، فذهبت مثلًا ثم أُلقِيت في النار ولبث عمرو عامَّةَ يومه لا يقدر على أحد، حتَّى إذا كان آخر النهار أقبل راكبٌ يسمى عَمّارًا تُوضعُ به راحلته حتى أناخ إليه، فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا رجلٌ من البراجم، قال: فما جاء بك إلينا؟ قال: سطع الدُّخان وكنت طَوِيت منذ أيام وظننته طعامًا، فقال عمرو: إن الشقيّ وافدُ البراجم، فذهبت مثلًا وأمر به فَأُلقي في النار، قيل: إنه أحرق مائة من بني تميم: تسعة وتسعين من بني دارم، وواحدًا من البراجم.

وقال بعضهم: ما بلغنا أنه أصاب من بني تميم غير وافدِ البراجم وإنما أحرق النساءَ والصبيان؛ قال جرير: [من الطويل]

وأخزاكُمُ عمروٌ كما قد خُزِيتُمُ ... وأدركَ عَمَّارًا شقِيّ البَرَاجِمِ

---

(١) البراجم: مفاصل الأصابع، والبراجم هنا: أحياء من بني تميم تحالفوا على أن يكونوا كبراجم الأصابع في الاجتماع. «لسان العرب ١٢/ ٤٦».

(٢) عَمرو بن هند: ملك الحيرة في الجاهلية، عرف بنسبه إلى أمه هند عمة امرىء القيس الشاعر، تمييزًا له عن أخيه عمرو الأصغر، كان شديد البأس كثير الفتك، وفي أيامه ولد النبي محمد ﷺ واستمر ملكه خمسة عشر عامًا، قتله عمرو بن كلثوم الشاعر صاحب المعلقة أنفة وغضبًا لأمه وذلك سنة ٤٥ ق.هـ ـ ٥٧٨ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ٨٦».

(٣) سويد بن ربيعة التميمي: فاتك جاهلي، قتل أخًا للملك عمرو بن هند، فأحرق الملك فئة من بني تميم انتقامًا. «الزركلي ٣/ ١٤٥».

ولذلك عُيِّرت بنو تميم بحب الطعام؛ قال الشاعر: [من الوافر]

إذا ما مات مَيْتٌ من تميمٍ وسرّكَ أن يعيشَ، فجئ بزادِ
بخُبْزٍ أو بلحم أو بتمرٍ أو الشّيءِ المُلفّف في البِجادِ[١]
تراه يُنَقِّب الآفاقَ حولًا ليأكلَ رأسَ لقمانَ بن عادِ

وهذا المثل يضرب لمن يوقع نفسه في هَلَكَة طمعًا.

حرف الباء

تقول العرب: «بلغَ السيلُ الزُّبَى» هي جمع زُبية وهي حفرةٌ تُحفر للأسد إذا أرادوا صيدَه لا يعلوها الماء فإذا بلغَها السيلُ كان مجحفًا: يضرب لمن جاوز الحدّ.

وقولهم: «بَيْنَ العَصَا ولِحَائِها» اللحاء: القشر: يضرب للمتخالّلين المتفقين؛ ويروى: لا مدخلَ بين العصا ولحائها.

وقولهم: «بينهم داءُ الضرائر» هي جمع ضَرَّة يضرب للعداوة إذا رسخت بين قوم.

وقولهم: «بينهم عِطْرُ مَنْشِم» قال الأصمعِيّ: مَنْشِم كانت عطارة بمكةَ وكانت خُزاعة وجُرْهُم إذا أرادوا القتّال تطيّبوا من طِيبها فإذا فعلوا ذلك كثرت بينهم القتلى فكان يقال: أشأمُ من عطر منشم: يضرب في الشرّ العظيم، وفيه يقول زهير: [من الطويل]

تَدَارَكْتُما عَبْسًا وذُبيَان بعد ما تَفَانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ

وقولهم: «به داءُ ظَبْي»: أي أنه لا داءَ به كما أن الظبي لا داءَ به، وقيل: ربما يكون بالظبي داءٌ لا يعرف مكانهُ معناه أنّ به داءَ لا يُعرف.

وقولهم: «بلغتِ الدِّمَاءُ الثُّنَنَ» الثُّنَةُ، الشعَرَاتُ التي في مؤخّر رُسغ الدابّة: يضرب عند بلوغ الشرّ النهاية.

وقولهم: «بَرِحَ الخَفَاءُ» أي زال من قولهم ما برح، والمعنى زال الشرُّ فوضحَ الأمرُ، ويقال: الخفاءُ المتطأطىء من الأرض، والبَراح المرتفع أي صار الخفاء بَراحًا.

---

(١) البجاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب والجمع بُجد. «لسان العرب ٣/ ٧٧».

وقولهم: «بَنَانُ كفٍّ لَيْسَ فيها ساعِدُ»: يضرب لمن له هِمةٌ ولا مقدرةَ له على ما في نفسه.

وقولهم: «بات فلانٌ يَشْوِي القَرَاح»: يعني الماء الخالص لا يخالطه شيء: يُضرب لمن ساءت حالُه، وفقد مالَه بحيثُ يشوي الماء شهوةً للطبيخ.

وقولهم: «بَخٍ بَخٍ ساقٌ بخَلْخَالٍ» هي كلمة يقولها المتعجب من حسن الشيء وكماله. وأوّل من قالَ ذلك الوِرْثَةُ بنتُ ثعلبة، وذلك أنّ ذُهل بن شيبان[١] كان زوجَ الوِرثة وكانت لا تتركُ له امرأة إلا ضربتها فتزوّج رَقَاشَ بنت عمرو بن عثمان من بني ثعلبة، فخرجت رقاشُ يومًا وعليها خَلْخَالان، فقالت الوِرْثَةُ ذلك، فذهبت مثلًا.

حرف التاء

قولهم: «تَرَكَ الظَّبْيُ ظِلَّه» أي كناسه الذي يستظلّ به: يضرب لمن نفر من شيء فتركه تركًا لا يعودُ له.

وقولهم: «تركتُه على مثلِ ليلة الصَّدَرِ» وهي ليلةَ ينفرُ الناسُ من مِنًى فلا يبقى منهم أحد.

وقولهم: «تركتُه أنقى من الرَّاحَة»: أي على حال لا خيرَ فيه كما لا شعرَ على الراحة: يضرب في اصطلام الدهر.

وقولهم: «تَجُوعُ الحُرّةُ ولا تأكلُ بثَدْيَيْهَا»: أي لا تكون ظِئرًا[٢] وإن آذاها الجوع.

أوّل من قاله الحارث بن سليل الأسديّ وكان حليفًا لعلقمةَ بن حصفة الطائيّ فزاره فنظر إلى ابنته الزَّبّاء وكانت من أجملِ أهل دهرها، فقال: أتيتُكِ خاطبًا وقد يُنْكَح الخاطبُ، ويُدْرَك الطالبُ، ويُمْنَح الراغبُ، فقال له علقمة: أنت كُفءٌ كريمٌ يُقْبَلُ منك الصفوُ، ويؤخَذُ منك العفوُ، فأقِمْ نَنظرْ في أمرك، ثم انكفأ إلى أمها، فقال: إن الحارثَ سيّدُ قومه حسبًا ومنصِبًا وبيتًا، وقد خطب إلينا الزبّاء فلا ينصرفَنّ

---

(١) ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكاية، جد جاهلي، بنوه بطن من بكر بن وائل. «الأعلام للزركلي ٣/٨».

(٢) الظئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل، الذكر والأنثى في ذلك سواء. «لسان العرب ٤/ ٥١٤».

إلا بحاجته، فقالت المرأة لابنتها: أيُّ الرجالِ أحبُّ إليك الكَهْل الجَحْجَاح[1]، الواصل المناح، أم الفتى الوضاح؟ قالت: بل الفتى الوضّاح، فقالت: إن الفتى يُغِيرك، وإن الشيخ يُمِيرك[2]، وليس الكهلُ الفاضلُ، الكثيرُ النائلُ، كالحديثِ السنّ، الكثيرِ المَنّ، قالت يا أماه: إن الفتاةَ تحبُّ الفتى، كحُبّ الرّعاء أنيق الكلا، قالت: أي بُنية! إن الفتى شديدُ الحجاب، كثير العتاب، قالت: إن الشيخ يُبْلي شبَابي، ويدنّس ثيابي، ويُشْمِت بي أترابي. فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها، فتزوّجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادمٍ وألف درهم، فابتنى بها، ثم رحل بها إلى قومه فبينا هو ذات يوم جالسٌ بفناء قومه وهي إلى جانبه، إذ أقبل شباب من بني أسد يعتلجون[3] فتنفّست الصُّعَدَاءَ، ثم أرخت عينيها بالبكاء، فقال: ما يبكيك؟ قالت: ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفروخ، فقال لها: ثَكِلَتْكِ أُمّك! تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها، ثم قال لها: وأبيك، لرب غارةٍ شهدتُها، وسبِيَّة أردفتُها، وخمرة شربتُها، فالحقي بأهلك فلا حاجةَ لي فيك، وهذا المثلُ يضرب في صيانة الرجل نفسَه عن خسيس المكاسب.

وقولهم: «تَجَشّأ لُقْمانُ من غير شِبعٍ»: يضرب لمن يدّعي ما ليس يملك.

وقولهم: «تُخْبِر عن مجهوله مَرْآتُه»: أي منظرُه يخبرُ عن مَخبره.

وقولهم: «تشكو إلى غير مُصَمِّتٍ»: أي إلى من لم يهتم بشأنك. قال الشاعر: [من الرجز]

إنك لا تشكو إلى مُصَمِّتِ فاصْبِر على الحِمْلِ الثقيل أَو مُتِ

وقولهم: «تجاوز الرَّوضَ إلى القاع القَرِق»: يضرب لمن يعدل بحاجته من الكريم إلى اللئيم، والقَرِق: المستوي.

وقولهم: «تسمع بالمُعَيْدِيّ خيرٌ من أن تَراه» ويروى: لا أن تراه: يضرب لمن خبره خيرٌ من مرآه، أوّل من قاله: المنذر بن ماء السماء[4].

---

(١) الجحجاح: السيد السمح الكريم، ولا توصف به المرأة، وجحجحت المرأة: أي جاءت بجحجاح. «لسان العرب ٢/ ٤٢٠».

(٢) يميرك: من مار يميرُ ميرًا، يقال: يمير عياله: أي يأتيهم بالميرة أي الطعام والمؤونة.

(٣) يعتلجون: يقال: المتلج القوم: اقتتلوا وامطرعوا.

(٤) المنذر بن ماء السماء: ثالث المناذرة ملوك الحيرة، وما يليها من جهات العراق في الجاهلية، ومن أرفعهم شأنًا وأشدهم بأسًا، وماء السماء أمه، غَلَبَ «بليزار» أحد أبطال الروم في عهده، =

وقولهم: «تُقَطِّعُ أعناقَ الرجالِ المطامعُ»: يضرب في ذمّ الطمع.

وقولهم: «تَقَلّدها طَوْقَ الحمامة» كناية عن الخَصْلةِ القبيحةِ التي لا تُزايله ولا تفارقه.

حرف الثاء

قولهم: «ثارَ حابِلُهُم على نابلهم» الحابل: صاحب الحبالة، والنابل: صاحب النبل أي اختلط أمرهم: يُضرَب في فساد ذات البَيْن وتأريث الشرّ في القوم.

وقولهم: «ثَوْرُ كِلَابٍ في الرّهان أَقْعَدُ»: هو كِلابُ بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة القيسي[1] كان يحمق، وذلك أنه ارتبط عجلَ ثورٍ ليسابق عليه، والأقعدُ من القَعِيد وهو المتخلف المتباطىء: يُضرَب لمن يروم ما لا يكون.

حرف الجيم

قولهم: «جَرْيُ المُذَكِّيَاتِ غِلَاب» المُذَكِّيَة من الخيل التي أتى عليها بعد قُروحها سَنَةٌ أو سنتان والغلَاب المغالبة: يضرب لمن يُوصف بالتبريز على أقرانه في حلبة الفضل؛ وأوّل من قاله نذكره إن شاء الله تعالى في حرب داحس والغبراء.

وقولهم: «جَزاء سِنِمّار» وهو الذي بنى الخَوَرْنق وتقدّم خبره في مباني العرب.

وقولهم: «جَرَحه حيث لا يَضَعُ الراقي أنْفَه» قالته جندلةُ بِنتُ الحارث، وكانت تحت حنظلةَ بن مالك وهي عذراء، وكان حنظلةُ شيخًا كبيرًا فخرجت في ليلة مطيرة فبصرَ بها رجلٌ فوثب عليها وافتضّها، فصاحت وقالت: لُسِعْتُ. قيل أين؟ قالت: حيث لا يضعُ الراقي أنفه: يضرب لمن يقع في أمر لا حيلةَ له في الخروج منه.

= وكان له خيزتان من شعره، ويلقب بذي القرنين بهما، انتهى إليه ملك الميرة بعد أبيه سنة ٥١٤ هـ، وهو باني قصر الزوراء في الحيرة، وقيل هو صاحب يومي البؤس والنعيم، قتل سنة ٦٠ ق.هـ - ٥٦٤ م بعد معركة مع الحارث ابن أبي شمر الغساني في موضع يقال له «أباغ» وراء الأنبار. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٩٢».

(١) كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة القيسي، من قيس عيلان، من عدنان، جَدُّ جاهلي كانت منازل بنيه قرب المدينة، ملكوا حب ونواحيها وكثيرًا من مدن الشام، وكان لهم في الجزيرة الفراتية شأن، أول من ملك منهم صالح بن مرداس، وكلاب أخو كعب وهما المعنيان بقول جرير:

فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

«الأعلام للزركلي ٥/ ٢٢٩».

وقولهم: «جَعْجَعَةٌ ولا أَرَى طِحْنًا»: يضرب لمن يعد ولا يفي.

وقولهم: «جَرَى منه مَجْرَى اللَّدُود» وهو ما يُصبّ في أحد شِقَّي الفم من الدواء، يضرب لمن يُبْغَض ويُكْره.

وقولهم: «جَمَاعةٌ على أَقْذَاء». معناه اجتماعٌ بالأبدان، وافتراق بالقلوب، وهو بمعنى قوله ﷺ: «هُدْنَةٌ على دَخَن»: يضرب لمن يُضمِر أذى ويُظْهِر صفاء.

وقولهم: «جَارٌ كجارِ أبي دُؤَاد» يعنون كعب بن مامة[1] فإنه كان إذا جاوره رجل فإن مات وداه، وإن هلك له بعيرٌ أو شاة أخلفَ عليه، فضربت به العرب المثل في حسن الجوار، قال طرفة: [من البسيط]

إنِّي كفاني من أمر هممتُ به   جَارٌ كجارِ الحُذَاقِيّ الذي اتَّصَفَا

والحذاقيّ هو أبو دؤاد.

وقولهم: «جَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الْغَيْرَة»، قاله رسول الله ﷺ ليلة زُفت فاطمةُ إلى عليّ رضي الله عنهما.

وقولهم: «جوِّع كلبَك يتبعْكَ». أوّل من قال ذلك ملِكٌ من ملوك حِمْير كان جائرًا على أهل مملكته يسلبُهم ما في أيديهم وإن امرأته سمعت صوت السّؤال فقالت: إني لأرحمُ هؤلاء وإني لأخافُ أن يكونوا عليك سباعًا، بعدما كانوا لك أتباعًا، فقال: جوّعْ كلبك يتبعْكَ، ثم إنه غزا بهم ولم يقسِّمْ عليهم شيئًا فقالوا لأخٍ له: قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروجَ الملك عنكم إلى غيركم فساعدنا على قتل أخيك واجلسْ مكانه، فوافقهم على ذلك، ثم وثبوا على الملك فقتلوه، فمرّ به عامر بن جَذِيمة وهو مقتول، فقال: ربما أكل الكلب مؤدّبه إذا لم ينل شبعه، فأرسلها مثلًا، والمثل يضرب في اللئام وما ينبغي أن يعاملوا به.

وقولهم: «جاءتْهم عَوانًا غيرَ بِكْر» أيْ مستحكمةً غير ضعيفة يريدون حَرْبًا أو داهيةً عظيمةً.

---

(١) كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، أبو دؤاد، كريم، جاهلي، يضرب به المثل في حسن الجوار، فيقال: أجود من كعب بن مامة وجار كجار أبي دؤاد، وهو صاحب القصة المشهورة في الإيثار:

«إسقِ أخاك النمري»

«الأعلام للزركلي ٥/٢٢٩».

وقولهم: «جاء بصحيفةِ المتلمّس» إذا جاء بالداهية؛ وكان من خبر صحيفة المتلمس[١] أن المتلمس وطرفة قَدِما على عمرو بن المنذر بن امرىء[٢] القيس فجعلهما في صحابة قابوس بن المنذر أخيه وأمرهما بلزومه، وكان قابوس شابًا يعجبه اللهو، فطال بقاؤهما عنده، فهجا طرفة عمرًا بأبيات فبلغته فاستدعاهما فحباهما بحباء وكتب معهما إلى أبي كَرِب عامله على هَجَر أن يقتلهما، وقال: قد كتبت لكما بحباء ومعروف، فلما صدرا من عنده، قال المتلمس لطرفة: هل لك في كتابينا، فإن كان فيهما خير مضينا له، وإن كان شرًا اتقيناه، فأبى طرفة وقرأ المتلمس كتابه فإذا فيه السوءة فألقاه في الماء وقال لطرفة: ألقِ كتابك فأبى ومضى بكتابه، قال: ومضى المتلمس حتى لحق بملوك بني جَفْنَةَ بالشام وسار طرفة بكتابه، فلما انتهى إلى العامل قتله.

وقولهم: «جَنْدلَتَانِ[٣] اصْطَكَّتَا»: يضرب لِقِرْنَيْن يتصاولان.

وقولهم: «جَزَيْتُه حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْل»: للمكافأة.

وقولهم: «جاؤوا على بَكْرَةِ أبيهم» أي جاؤوا جميعًا لم يتخلَّفْ منهم أحد. وقيل: بل البَكرة تأنيث البَكر. يصفهم بالقلة أي بحيث تحملهم بكرة أبيهم. وقيل بل البكرة التي يُستقي عليها، معناه جاؤوا بعضهم يتلو بعضًا كدوِران البَكرة على نسقٍ واحد؛ وقيل: المراد بالبكرة الطريقة كأنهم جاؤوا على طريقةِ أبيهم، وقال ابن الأعرابيّ[٤]: البكرة: جماعة من الناس أي بأجمعهم.

وقولهم: «جَاوَزَ الحِزَامُ الطُّبْيَيْنِ»: يضرب في تجاوز الحدّ.

---

(١) المتلمس: جرير بن عبد المسيح من بني ضبيعة، كان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو الذي كان كتب له إلى عامل البحرين مع طرفة بقتله، وكان يدفع كتابه إلى غلام بالحيرة ليقرأه، فقال له أنت المتلمس؟ قال: نعم، قال: فالنجاء، فقد أمر بقتلك، فنبذ المتلمس الصحيفة في نهر الحيرة. والشاعر المتلمس هو خال طرفة بن العبد، من أهل البحرين، مات ببصرى من أعمال حوران في سورية نحو ٥٠ ق.هـ - ٥٦٩ م. «الشعر والشعراء ص ١٠٤ والأعلام للزركلي ٢/١١٩».

(٢) عمرو بن المنذر بن امرىء القيس هو ملك الحيرة في الجاهلية عمرو بن هند وقد تقدم ذكره.

(٣) الجندلة: الصخرة الضخمة.

(٤) ابن الأعرابي: أبو عبد الله، محمد بن زياد الأعرابي، عالم بالشعر، لم ير أحد في الشعر أغزر منه، وكان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان، يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب، من أهل الكوفة، ولد سنة ١٥٠ هـ - ٧٦٧ م وتوفي بسامراء سنة ٢٣١ هـ - ٨٤٥ م. من كتبه: تاريخ القبائل، النوادر، تفسير الأمثال. «الفهرست ابن النديم ص ١٠٢ والأعلام للزركلي ٦/١٣١».

حرف الحاء

قولهم: «حرِّكْ لَهَا حُوارَهَا تَحِنّ» الحوار: ولد الناقة، والجمعُ القليل أحْورة والكثير حُورَان وحِيران، معناه ذكِّرْهُ بعضَ أشْجَانِه يهجْ له، قاله عمرو بن العاص لمعاوية حين أراد أن يستنصرَ أهل الشام، أي أرِهِم دَمَ عثمان على قميصه.

وقولهم: «حلبتُها بالساعِد الأَشدّ» أي أخذتها بالقوّة إذ لم يتأتّ بالرفق.

وقولهم: «حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّة» أي مِثْلًا بمثْل: يضرب في التسوية بين الشيئين؛ ومثله: حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْل، وقد تقدّم.

وقولهم: «حَلَبَ الدهرَ أَشْطُرَه» معناه أنه اختبرَ الدَّهرَ شَطْرَي خيرِهِ وشرِّهِ فعرف ما فيه.

وقولهم: «حَسْبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِيٌّ»؛ قال امرؤ القيس: [من الوافر]

إذا ما لم تكن إبلٌ فَمِعْزى ... كأنّ قُرونَ جِلَّتِها العِصِيُّ
فتملا بيتنا أَقِطًا وسَمْنًا ... وحَسْبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِيُّ[1]

قال أبو عبيدة: يحتمل معنيين أحدهما أعطِ كلَّ ما كان لك وراءَ شِبَعك وريِّك، والآخر القناعةُ باليسير.

وقولهم: «حَسْبُك من القِلَادةِ ما أحاط بالعُنُق» أي اكتفِ بالقليل عن الكثير.

وقولهم: «حَسْبُكَ من شَرٍّ سَمَاعُه» أي اكتفِ بسماعه ولا تعاينه، قال: ويجوز أن يريد يكفيك سماعُ الشرّ وإن لم تقدِمْ عليه ولم تُنسبْ إليه، والمثل قالته فاطمة بنت الخُرْشُب من بني أنمار بن بغيض أمّ الربيع بن «زياد، وذلك أن ابنها الربيعَ كان أخذ من قيس بن زهير[2] بن جذيمة دِرْعًا، فتعرّض قيسٌ لأمّ الربيع وهي على راحلتها فأراد أن يذهب بها ليرتهنَها بالدرع، فقالت له: أين عزُب عنك عقلك يا

---

(١) أقطًا: الأَقِطُ والإِقْطُ والأَقْطُ والأُقْطُ: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل، والقطعة منه «أقِطة»، وقال ابن الأعرابي هو ألبان الإبل خاصة. «لسان العرب ٧/٢٥٧».

(٢) قيس بن زهير: بن جذيمة بن رواحة العبسي، أمير عبس، وداهيتها وأحد السادة القادة في عرب العراق، كان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه، ويكنى أبا هند، وهو معدود في الأمراء والدهاة والشجعان والخطباء والشعراء، ورث الإمارة عن أبيه، وشعره جيد فحل، زهد في أواخر عمره ورحل إلى عُمان، وعف عن المآكل حتى أكل الحنظل، وما زال في عُمان إلى أن مات. «الأعلام للزركلي ٥/٢٠٦».

قيس؟ أترى بني زياد مصالحيك! وقد ذهبتَ بأمّهم يمينًا وشمالًا وقال الناسُ ما قالوا وشاؤوا، وإن حسبَك من شرٍّ سماعه، فذهبت كلمتها مثلًا تقول: كفى بالمقالة عارًا وإن كان باطلًا.

وقولهم: «حَلَّقَتْ به عَنْقَاءُ مُغْرِب»: يضرب لما يَئِس منه؛ قال الشاعر: [من الطويل]

إذا ما ابنُ عبد الله خلّى مكانه فقد حَلَّقَتْ بالجود عنقاءُ مُغرِبُ

قال الميدانيّ: والعنقاءُ طائرٌ عظيم معروفُ الاسْمِ مجهولُ الجسم يُقال: كان بأرض الرَّسِّ جبلٌ يقال له: دَمْخٌ مصعّدٌ في السماء، وكان يأتيه طائرٌ عظيم لها عنقٌ طويلة؛ وهي من أحسنِ الطير؛ فيها من كل لون، وكانت تقع منتصبةً وتنقضُّ على الطير فتأكلها، فجاعت يومًا وأعوزَها الطير فانقضّت على صبيّ فذهبت به فسميت عنقاءُ مغرب: لأنها تغربُ بكل ما تأخذُه، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت، فشكوا ذلك إلى نبيّهم: خالد بن صفوان[1]، فقال: اللّهم خذها واقطعْ نسلها وسلِّطْ عليها آفةً! فأصابتها صاعقةٌ فاحترقت فضربتها العرب مثلًا.

قال عنترةُ بن الأخرس الطائيّ في مرثية خالد[2] بن زيد: [من الطويل]

لقد حَلّقتْ بالجود عنقاءُ كاسرٌ كَفَتْخاءِ دمخٍ حلّقت بالحَزَوَّرِ[3]

فما إنْ لها بيضٌ فيُعرفُ بيضُها ولا شِبهُ طير منجدٍ أو مُغوِّرِ

وقولهم: «حتَّام تَكْرَع ولا تُنْقَع» كرع إذا تناول الماء بفيه من موضعه: يضرب للحريص في جمع الشيء.

---

(١) خالد بن صفوان: خالد بن صفوان القناص، شاعر مغمور اشتهرت له قصيدة باسم «العروس» حتى قال أهل الأدب: كفى غنى بمن حفظ قصيدة خالد بن صفوان. «الأعلام للزركلي ٢/ ٢٩٦».

(٢) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، أبو أيوب الأنصاري، من بني النجار، صحابي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق وسائر المشاهد، وكان شجاعًا تقيًا، عاش إلى أيام بني أمية وكان يسكن بالمدينة، توفي سنة ٥٢ هـ - ٦٧٢ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٢٩٥».

(٣) الفتخاء: العقاب. «لسان العرب ٣/ ٤٠». ودمخ: جبل بين أجبال ضخام في ناحية ضريَّة، يقال: أثقل من دمخ الدّماخ. «اللسان مادة دمخ»، والحزوَّر: الغلام القوي. «لسان العرب ٤/ ١٨٦».

وقولهم: «حَسْبُكَ من إنْضَاجِه أن تقتلَه»: يضرب لطالب الثأر فيقول: لأقتلنّ فلانًا وقومَه أجمعين فيقال: لا تعدّ، حسبك أن تدركَ ثأركَ وطلبتَكَ: ويضرب لمتجاوز الحدّ.

حرف الخاء

قولهم: «خَيْرَ حالِبَيْكِ تَنْطَحِين»: يضرب لمن يكافىءُ المحسنَ بالإساءةِ، ومثله: خيْرَ إناءيك تكفئين.

وقولهم: «خامِري أمَّ عَامِر» معناه استتري؛ وأمّ عامر: الضبع، يشبه بها الأحمق، ومثله: خامِري حَضاجِر، أتاك ما تحاذِر: وهو اسم للذكر والأنثى من الضباع.

وقولهم: «خلا لكِ الجوُّ فبيضِي واصْفِري» قاله طرفة بن العبد، وكان في سفر مع عمّه فنصب فخًّا للقنابر ونثر حَبًّا فلم يصدْ شيئًا، فلما تحملوا رأى القنابرَ يلقطنَّ الحبَّ الذي نثره لهنّ، فقال في ذلك: [من الرّجز]

يا لكِ من قنبرةٍ بمعمرِ! خلا لك الجوّ فبيضي واصفِري
ونقّري ما شئتِ أن تنقّري قد رحل الصيّاد عنك فابشِري
ورفَع الفخَّ فماذا تحذري؟ لا بدّ من صيدك يومًا فاصبِري!

يضرب في الحاجة يتمكّن منها صاحبها.

وقولهم: «خَلْعُ الدّرْعِ بِيدِ الزَّوْجِ» المثل لرَقَاش بنت عمرو بن تغلب بن وائل، وكان زوجُها كعبَ بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة، فقال لها: اخلعي؛ فقالت: خَلْعُ الدِّرعِ بيدِ الزَّوج، فقال: اخلعيه لأنظرَ إليك، فقالت: التجرُّدُ لغير النكاح مُثلةٌ، فذهبت كلمتاها مثلين يُضربان في وضع الشيء في غير موضعه.

وقولهم: [من الرّجز]

خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤُهُ ومَنْ هُرِيق بالفَلاة ماؤُهُ

يُضرَب لمن كره صحبتك وزهِد فيك.

وقولهم: «خَمْرُ أبي الرَّوْقاء لَيْسَتْ تُسكِرُ»: يُضرَب للغنيّ الذي لا فضلَ له على أحد.

حرف الدال

قولهم: «دَمِّثْ لجَنْبك قبل النَّوم مُضْطَجَعًا» أي استعدَّ للنوائبِ قبل حلولها؛ والتدميث: التليين.

وقولهم: «دَعِ امرءًا وما اخْتَار»: يُضرَب لمن لا يَقبل النصح.

قال الشاعر: [من المتقارب]

إذا المرءُ لم يدرِ ما أَمكنَهْ ... ولم يأتِ من أمرِهِ أزينَهْ!
وأَعجبَهُ العُجبُ فاقتادَهُ ... وتاهَ به التِّيهُ فاستحسنَهْ
فدعْهُ فقد ساءَ تدبيرُهُ ... سيضحَكُ يومًا ويبكي سنَهْ!

حرف الذال

قولهم: «ذَكَّرَنِي فُوكِ حِمَارَيْ أَهلِي» أصله أن رجلًا خرج يطلب حمارين ضلّا له، فرأى امرأةً فأعجبته فنسي الحمارين، فلما أسفرت عن وجهها رآها فَوْهاء[1] فقال: ذكّرني فُوكِ حمارَيْ أهلي، وقال: [من البسيط]

ليت النِّقابَ على النساء مُحرَّمٌ ... كي لا تَغُرَّ قبيحةٌ إنسانا

وقولهم: «ذهبوا أيدِي سَبَا» ويقال: تفرقوا، أي تفرّقوا تفريقًا لا اجتماعَ معه.

وقصة سبأ لمّا تفرقوا بسبب سَيْل العرَم مشهورة؛ وسنذكرها إن شاء الله تعالى في التاريخ.

وقولهم: «ذهبوا شَغَرَ بَغَرَ، وشَذَرَ مَذَرَ، وخِذَعَ مِذَعَ» أي في كل وجه.

وقولهم: «ذَلَّ بعد شِمَاسِه[2] الْيَعْفُورُ»: يضرب لمن انقاد بعد جماحه؛ واليعفور: فرس.

وقولهم: «ذَهَبْتَ طُولًا، وعَدِمْتَ معقولًا»: يضرب للطويل بلا طائل.

---

(١) الفوهاء: رجل أفوه: عظيم الفم طويل الأسنان، وبئر فوهاء: واسعة، والفوه: خروج الثنايا العليا وطولها، وهو أيضًا سعة الفم وعظمه، وخروج الأسنان من الشفتين وطولها. «لسان العرب ١٣/ ٥٢٧ و٥٢٨».

(٢) الشماس: الشمِسُ والشموس من الدواب، الذي إذا نُخِس لم يستقر، وشمست الدابة: شردت وجمحت. «لسان العرب ٦/ ١١٣».

حرف الراء

قولهم: «رمتْني بدَائِها وانْسَلَّت» أصل هذا المثل: أن سعد بن زيد مناة تزوّج رُهْمَ ابنة الخزْرج، وكانت من أجمل النساء، وكان ضرائرها إذا سابَبْنَها يقلْن لها: يا عفلاء[1]، فقالت لها أمّها: إذا سابَبْنَكِ فابدئيهنّ بذلك، ففعلت رُهْم ذلك مع ضرّتها، فقالت: رمتني بدائها وانسلّت، فذهبت مثلًا: يضرب لمن يُعَيِّر الآخر بما هو يُعَيَّر به.

وقولهم: «رماه بثالثة الأَثَافِي» وهي قطعة من الجبل يوضع إلى جنبها حَجَران ويُنصب عليها القدر: يضرب لمن رُمِي بداهية عظيمة.

وقولهم: «رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِدة» الصَّلَف: قلّةُ الخيرة، والراعدة: السحابةُ ذاتُ الرعد: يضرب للبخيل مع السّعة.

وقولهم: «رَجَع بِخُفَّيْ حُنَيْن» أصلُه أن حُنَيْنا كان إسكافًا بالحِيرة[2] وساومه أعرابيّ بخفّيْن فاختلفا حتى أغضبه، فلما ارتحل الأعرابيُّ أخذ حنين الخفين فألقى أحدهما على طريق الأعرابيّ، ثم ألقى الآخر بموضع آخر على طريقه، فلما مرّ الأعرابيّ بالخف الأوّل قال: ما أشبه هذا بخف حنين ولو كانا خفين لأخذتُهما، ثم مرّ بالآخر فندم على ترك الأوّل فأناخ راحلته وانصرف إلى الأوّل وقد كَمَنَ له حنين، فأخذ الراحلة وذهب بها وأقبل الأعرابيّ إلى أهله ليس معه غير خفَّي حنين، فذهبت مثلًا: يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة.

وقولهم: «رُبَّ ساعٍ لقاعد، وآكِلٍ غير حامِد» أوّل من قاله النابغةُ الذُّبياني، وكان سببُ ذلك أن وفدًا وفدَ إلى النعمان وفيهم رجلٌ من بني عَبْس يقال له: شَقِيق، فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفود بعث بحبائه إلى أهله، فقال النابغة في ذلك: [من الطويل]

أتـى أَهـلَه مـنـه حِـبـاءٌ ونـعـمـةٌ ورُبَّ امرِىءٍ يسعى لآخرَ قاعِدِ

---

(١) العفلاء: العفلة: بظارة المرأة. والعفل لا يصيب الأبكار ولا يصيب المرأة إلا بعد أن تلد. «لسان العرب ١١/ ٤٥٧».

(٢) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، وبالقرب من الحيرة «الخورنق»، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية. «معجم البلدان ٢/ ٣٢٨».

وقولهم: «رُبَّ مَلومٍ لَا ذَنْبَ لَه» قاله أكثم بن صيفيّ، معناه قد ظهر للناس منه أمرٌ أنكروه عليه وهم لا يعرفون عذرَه؛ وقيل: إن رجلًا قال للأحنف[١] بن قيس: أنا أبغض التمرَ والزّبد، فقال: ربَّ ملومٍ لا ذنبَ له.

وقولهم: «رُبَّ كَلِمةٍ تقول لصاحبِها دَعْنِي»: يضرب في النهي عن الإكثار مخافةَ الإهجار؛ ذكروا أن ملكًا من ملوك حِمْير خرج إلى الصيد ومعه نديم له فوقفا على صخرةٍ ملساءَ، فقال النديم: لو أن إنسانًا ذُبح على هذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه، فأمر بذبحه، وقال: ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعني.

ومثله قولهم: «رُبَّ رَأسٍ حَصِيدُ لِسَانٍ»: يضرب للأمر بالسكوت.

وقولهم: «رُدَّ الحِجَرَ من حيث جاءك»: أي لا تقبل الضَّيْمَ ورامِ مَن رماك.

حرف الزاي

قولهم: «زُيِّنَ فيْ عَيْنِ والِدٍ وَلدُه»: يضرب في عجب الرجل برهطه.

وقولهم: «زَاحِم بعَوْد أَوْدعْ» أي لا تستعنْ إلا بأهل السنّ والتجرِبة.

وقولهم: «زَوْجٌ مِنْ عُود، خير من قُعُود»، قالته بعضُ نساء العرب، قالوا: كان ذو الإصبَع العَدْوانِيّ غيورًا، وله بنات أربع، وكان لا يزوّجهنّ غَيرة عليهنّ، فاستمع عليهنّ يومًا وقد خلَوْن يتحدّثن، فقالت إحداهنّ: لتقل كلُّ واحدة منا ما في نفسها، ولنصدقنّ جميعًا، فاشتهت كلُّ واحدة من الثلاثة زوجًا وصفتْ من جماله وكماله وسِعَةِ حاله، ثم أبت الصغرى أن تتكلّم، فقالوا: لا بدّ أن تقولي، وألحّوا عليها، فقالت: زَوجٌ من عُود، خيرٌ من قُعُود، فزوّجهنّ.

وقولهم: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» قاله مَعاذ بن صَرم الخزاعيّ[٢]، وكانت أمّه من عَكٍّ[٣]، وكان يكثر من زيارة أخواله، فأقام فيهم زمانًا، ثم خرج يتصيّد مع بني

---

(١) الأحنف بن قيس: (٣ ق.هـ - ٧٢ هـ = ٦١٩ - ٦٩١ م). الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي التميمي، أبو بحر، سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يسره، ووفد على عمر حين آلت الخلافة إليه، فمكث عامًا وأذن له فعاد إلى البصرة، شهد صفين مع الإمام علي، كان صديقًا لمصعب بن الزبير أمير العراق آنذاك، فوفد عليه بالكوفة وتوفي فيها وهو عنده. «الأعلام للزركلي ١/٢٧٦».

(٢) معاذ بن صرم الخزاعي: فارس خزاعة في الجاهلية، كان شاعرًا. «الأعلام للزركلي ٧/٢٥٨».

(٣) عك: قبيلة باليمن، سميت بعك حين نزولها، واشتقاقها في اللغة جائز أن يكون من العك وهو=

أخواله، فحمل على عير، فلحقه ابن خال له يقال له: الغضبان فتخاصما، فقال له الغضبان: والله! لو كان فيك خيرٌ لما تركت قومك، فقال: زُرْ غِبًّا، تزددْ حبًّا، فأرسلها مثلًا، وفي ذلك يقول الشاعر: [من الكامل]

إذا شئتَ أن تُقلَى فَزُرْ متوالِيًا ... وإن شئتَ أن تَزداد حُبًّا فزرْ غِبًّا[١]

وقال آخر: [من الطويل]

عليك بإغبابِ الزيارةِ إنها ... إذا كَثُرتْ كانت إلى الهجر مَسْلَكا
ألم تَر أنَّ القَطْرَ يُسْأم دائمًا ... ويُسْأل بالأيدي إذا هو أمسكا

حرف السين

قولهم: «سَبَقَ السيفُ العذَل» قاله ضبّةُ بن أدّ لمّا لامه الناس على قتل قاتل ابنه في الحرم، ويقال: إنه لِخُزَيْم بن نوفل الهمدانيّ.

وقولهم: «سَقَطَ العَشَاء به على سِرْحان» أصله أن رجلًا خرج يلتمس العَشَاء، فوقع على ذئب فأكله، وقال ابن الأعرابيّ: أصله أن رجلًا من بني غَنيّ يقال له: سِرْحانُ بنُ هزلة كان بطلًا فاتكًا فقال رجل! والله لأرعينَّ إبلي هذا الوادي، فورد بإبله، فوجد سرحانَ فقتله، وأخذ إبله وقال: [من الكامل]

أَبْلِغْ نصيحةَ: أنَّ رَاعِيَ أهْلِها ... سقط العَشَاء به على سِرْحانِ
سَقَط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ ... طَلْقِ اليدين مُعَاوِدٍ لِطِعانِ

يضرب في طلب الحاجة يؤدّي صاحبها إلى التلف.

ومثله قولهم: «سقط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ» وهو الأسد.

وقولهم: «سَكتَ أَلْفًا، ونَطَق خَلْفًا» الخَلْفُ: الرديء من القول وغيره.

وقولهم: «سَاءَ سَمْعًا فأساء جَابة» أوّل من قاله سُهَيل[٢] ابن عمرو أخو بني عامر، وكان قد خرج بابنه أَنَس، فوقف بحَزْورة[٣] مكة، فأقبل الأخنس بن شَريق

= شدة الحر، والعك: الصلب الشديد المجتمع، «لسان العرب ١٠/ ٤١٩ ومعجم البلدان ٤/ ١٤٢».

(١) زار غبًا: أي يومًا بعد يوم.

(٢) سهيل بن عمرو: سهيل بن عمرو بن عبد شمس، القرشي العامري، من لؤي، خطيب قريش وأحد سادتها في الجاهلية، أسره المسلمون يوم بدر، وافتدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكة، فأسلم وسكنها ثم سكن المدينة، وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية، مات بالطاعون في الشام سنة ١٨ هـ - ٦٣٩ م. «الأعلام للزركي ٣/ ١٤٤».

(٣) الحزورة: كانت الحزورة سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه، وفي الحديث=

الثَّقفيّ فقال له: من هذا؟ فقال: ابني! فقال: حياك الله يا فتى أين أَمُّك؟ فقال: لا واللهِ ما أُمِّي في البيت، ولكنها انطلقت إلى أمّ حنظلةَ تطحن دقيقًا، فقال أبوه: ساء سمعًا فأساء جابةً، فأرسلها مثلًا.

وقولهم: «سحابُ نَوْءٍ ماؤُه حَمِيم»: يضرب لمن له لسان لطيف وليس وراءه خير.

وقولهم: «سوءُ الاستمساكِ خيرٌ من حُسْن الصِّرْعة»: معناه حصول البعض مع الاحتياط خيرٌ من الكلّ مع التهوّر.

حرف الشين

قولهم: «شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض»: يضرب لمن يتكلّم فيصيب مرة ويخطىء أخرى.

وقولهم: «شَرِقَ بالرِّيق»: أي ضرّه أقرب الأشياء إلى نفعه.

وقولهم: «شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزَم» قاله أبو أخزم الطائيّ: وكان له ابن يقال له: أخزم، فمات وترك بنين، فوثبوا على جدّهم يومًا فأدموه، وكان أبوهم عاقًّا له فقال: [من الرجز]

إنّ بَنِيّ ضرَّجُوني بالدَّمِ شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم

والشنشنة: الطبيعة والعادة: يضرب في قرب الشبه.

وقولهم: «شَمِّرْ ذَيْلًا، وادَّرِعْ لَيْلًا»: يضرب على الحثّ في الجدّ والطلب.

وقولهم: «شَنُوءة بين يتامى رُضَّع» الشنوءة: ما يستقذر من القول والفعل: يضرب لقوم اجتمعوا على فجور وفاحشةٍ ليس فيهم مرشدٌ ولا ناهٍ.

وقولهم: «شَيخٌ بحَوْرانَ له ألقاب» وبعده: [من المجتث]

* الذئب والعقعق والغراب *

حَوْران بأرض الشام: يضرب لمن يُظهر للناس العفاف، ومن حقّه أن يُحترَز منه.

= الشريف: وقف النبي ﷺ بالحزورة فقال: يا بطحاء مكة ما أطيبك من بلدة وأحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك. «معجم البلدان ٢/ ٢٥٥».

وقولهم: «شَغَلَ الْحَلْيُ أهلَه أن يُعارا»: يضرب للمسؤول شيئًا هو إليه أحوج من السائل.

وقولهم: «شَبَّ عَمْرٌو عن الطَّوْق» قاله جَذيمة الأبرش، وعمرو هذا هو ابن أخته وهو عمرو بن عديّ بن نَصْر.

حرف الصاد

قولهم: «صَبرًا على مَجامِر الكِرام» قال ذلك يَسَارُ الكواعب، وكان عبدًا أسودَ يَرْعَى لأهله إبلًا هجمة، وكان معه عبد يراعيه، فمرّ أهله يومًا سائرين بحذاء الإبل التي يرعاها، فعَمَد إلى لَقُوح[١] فحلبها في علبة، حتَّى ملأها ثم مشى بها، وكان أفْحج[٢] الرِّجْلين، حتى أتى بها ابنة مولاه يسقيها، وهي راكبة على جملها، فنظرت إلى رِجْليه فتبسمت، ثم شربت اللبن وجرَتْه خيرًا، فانطلق فرِحًا حتَّى أتى صاحبه، فقصّ عليه القصة، فقال: اسخرْ بنفسك ولا تسخر ببنات الأحرار؛ فقال: والله لقد دَحِكت إليّ دِحْكةً لا أُخَيِّبُها، يريد: ضحِكت، وكان أعجميّ اللسان، ثم باتا فقام فحلب في علبة فملأها، ثم أتى ابنة مولاه، فنبّهها من نومها فاستيقظت وشربت، ثم اضطجعت وجلس يسار حِيالَها، فقالت: ما حاجتك؟ فقال: ما أعلَمَكِ بحاجتي! فقالت: لا واللهِ! فما هي؟ قال: ذاك الرجل الذي دحكتِ إليّ. فقالت: حيّاك الله، وقامت إلى سَفَطٍ[٣] لها فأخرجت منه بَخورًا ودُهنًا طيبًا، وعمدت إلى موسى كانت تحفُّ به الشعر، وأخذت مِجْمرةً فيها نار، فوضعت عليها البخور ووضعتها تحته، وطأطأت كأنها تصلح البخور، فعمدت إلى مذاكيره[٤] فمسحتها بالموسى، فلما أحس بحرارة الحديد. قال: صبْرًا على مجامر الكِرام، ثم أومأت إلى أنها تدهنه وقالت: إن هذا دهن طيب، إلا أن فيه حرارةً

(١) اللقوح: الحلوبة ـ واللقوح: اللبون، وإنما تكون لقوحًا أول نتاجها شهرين ثم ثلاثة أشهر. «الأعلام للزركلي ٢/ ٥٧٩».

(٢) الأفحج: الفحج تباعد بين أوساط الساقين في الإنسان والدابة، وقيل تباعد ما بين الفخذين، والنعت أفحج والأنثى فحجاء. «لسان العرب ٢/ ٣٤٠».

(٣) السَّفط: الذي يعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء ـ والجمع أسفاط. «لسان العرب ٧/ ٣١٥».

(٤) المذاكير: منسوبة إلى الذكر، ويأتي الجمع أيضًا على ذكور، كأنهم فرقوا بين الذكَر الذي هو الفحل وبين الذكر الذي هو العضو. وفي الحديث: أن عبدًا أبصر جارية لسيده فغار السيدُ فجبَّ مذاكيره، وهي جمع الذكر على غير قياس. «لسان العرب ٤/ ٣١١».

فتصبّر عليه، فإن ريحك ريح الإبل وأنا أعافُك، ثم أشمَّته الدهن على الموسى، ورفعته فوضعته بين عينيه فاسْتَلَتَتْ بها أنفَه. وقالت: قمْ إلى إبلك يابن الخبيثة، فأتى صاحبه، فلما رآه. قال: أمقبل أنت أم مدبر؟ قال: أخزاك الله، أوَ قد عميَ بصرُك؟ [من الكامل]

إذْ لا تــرى أنــفًــا ولا أذنــيْــنِ أمـا تـرى وبَّـاصـةَ[١] الـعـيـنـيْـنِ

هذا أحد الأقوال في هذا المثل: يضرب لمن يؤمر بالصبر على ما يكره.

ويقال: إن أعرابيًا قدم الحضر بإبل، فباعها بمال كثير وأقام لحوائجَ له، ففطن قومٌ من جيرته لما معه من المال، فعرضوا عليه تزويج جارية وصفوها بالجمال والحسب طمعًا في ماله، فرغب فيها فزوّجوه إياها، ثم اتخذوا طعامًا وجمعوا الحيّ، وجلس الأعرابيُّ في صدر المجلس، فأكلوا الطعام وأداروا الكؤوس وشرب الأعرابيّ، ثم أتوه بكسوة فاخرة، فلبسها وقدّموا له مِجْمرة فيهَا بخورٌ لا عهد له به، وكان لا يلبسُ السراويلَ، فلما جلس على المجمرة، سقطت مذاكيرهُ في النار، فظن أن ذلك سُنّةٌ لا بدَّ منها، واستحيا أن يكشف ثوبه. فقال: صبرًا على مجامر الكرام، فذهبت مثلًا واحترقت مذاكيره، وتفرّق القوم، وارتحل إلى البادية وترك المرأة والمال، فلما وصل إلى قومه وقصّ عليهم القصة. قالوا: استٌ لم تُعَوَّد المِجْمَر، فذهبت مثلًا: يضرب لمن لا قديم له.

وقولهم: «صار الزُّجُ[٢] قُدَّامَ السِّنَانِ»: يضرب في سبق المأخِّرِ المتقدِّمَ من غير استحقاق لذلك.

وقولهم: «صَرَّحَ المَحْضُ عن الزُّبْد»: يضرب للأمر إذا انكشف وتبيّن.

وقولهم: «صَفْقَةٌ لم يَشْهَدْها حاطِب» هو حاطبُ بن أبي بلتعة كان حازمًا، فباع بعض أهله بيعةَ غُبِنٍ فيها حين لم يشهدها حاطب، فسارت مثلًا لكلّ أمر ينبرم دون صاحبه.

---

(١) الوبَّاصة: الوبيص: البريق ـ وبص الشيء يبص. برق ولمع ـ والوباص: البراق ـ وأوبصت ناري: أضاءت. «لسان العرب ٧/ ١٠٤».

(٢) الزج: الحديدة التي تُركب في أسفل الرمح، والزج: تركز به الرمح في الأرض، والسِّنان يطعن به. والجمع أزجاج وأزِجة، والزُجج: الحراب المنَصَّلة. «لسان العرب ٢/ ٢٨٥ و٢٨٦».

حرف الضاد

قولهم: «ضَرَبَهُ ضَرْبَ غرائب الإبل» وذلك أين الغريبة تزدحم على الحياض عند الورود، وصاحب الحوض يطردها ويضربها بسبب إبله: يضرب في دفع الظالم عن ظلمه بأشدّ ما يمكن.

وقولهم: «ضَلَّ الدُّرَيْصُ نَفَقَه» الدُّرَيص: ولد الفأرة واليربوع والهرّة وأشباه ذلك، ونفقه: حجره: يضرب لمن يُعْنى بأمره ويُعدّ حُجَّةً لخَصْمه، فَيَنْسَى عند الحاجة.

وقولهم: «ضَلَّ حِلْمُ امرأةٍ فأين عيناها؟» أي هَبْ أنّ عقلها ذهب فأين ذهب بصرها؟: يضرب في استبعاد عقل الحليم.

وقولهم: «ضَائفُ اللَّيْث قتيلُ الْمَحْل»: يضرب لمن اضطرّ لشيءٍ فغرّر بنفسه في طلبه.

حرف الطاء

قولهم: «طويتُه على بِلَالِه وعلى بُلُلَتِهِ» قال الشاعر: [من الرّجز]

وصاحبٍ مُرَامِقٍ داجيتُهُ   على بِلَال نفسِه طويتُه

ويقال: طويت السقاء على بُلُلَته إذا طويته وهو نَدٌ لأنه إن طُوِي يابسًا تكسّر، وإن طُوِيَ ندِيًّا عَفِن: يضرب للرجل يحمل على ما فيه من العيب؛ قال الشاعر: [من الكامل]

ولقد طويتُكُمُ على بُلُلاتِكم   وعلِمتُ ما فيكم من الأذرابِ[1]

فإذا القرابةُ لا تُقَرِّبُ قاطعًا   وإذا المودّة أقربُ الأنسابِ

والأذراب: جمع ذَرَبٍ وهو الفساد.

وقولهم: «طويتُه على غَرِّهِ»: غَرُّ الثوبِ: أَثَرُ كسرِهِ الأوّل: يضرب لمن يُوكَل إلى رأيه وما انطوى عليه.

(١) الأذراب: مفردها «الذَّرب: أي السليط اللّسان».

حرف الظاء

قولهم: «ظالِعٌ[١] يُعودُ كَسِيرًا»: يضرب للضعيف يَنصُرُ من هو أضعف منه.

وقولهم: «ظِئْرٌ رَؤوم، خيرٌ من أمٍّ سؤوم»: الظئر: الحاضنة، والرؤوم: العطوف، والسؤوم: الملول: يُضرب في عدم الشفقة وقلة الاهتمام.

وقولهم: «ظاهِرُ العِتاب خيرٌ من باطن الحِقْد» معناه ظاهر.

وقولهم: «ظِلَالُ صيفٍ ما لها قِطار»: يضرب لمن له ثروةٌ ولا يُجدي على أحد.

حرف العين

قولهم: «عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرَى» أوّل من قاله خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان باليمامة[٢] أن يسير إلى العراق، ونالته مشقة بسبب العطش، فأسري حتى أدركَ الماءَ فقال: عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرى: يضرب لمن يحمل المشقة رجاء الراحة.

وقولهم: «عن جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقين»: يضرب في معرفة الشيء حقيقةً.

وقولهم: «عَيْرٌ عَارَهُ وَتِدُه» أي أهلكه؛ وأصله أن رجلًا أشفق على حماره فربطه إلى وتد، فهجم عليه السبع فلم يمكنه الفرار فأهلكه.

وقولهم: «عند النِّطاح يُغْلَبُ الكَبْشُ الأَجَمُّ» وهو الذي لا قرن له: يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّ له.

وقولهم: «على أهلها تَجْنِي بَرَاقِشُ» قالوا: كانت براقشُ كلبةً لقوم من العرب، فأُغير عليهم فهربوا وهي معهم، فنبحت فاتبع القوم آثارهم بنُباحها، فأدركوهم

---

(١) الضالع: الضَّلع: الميل، والضالع: المائل، والضلع: الإعوجاج، رمح ضلع: معوج لم يقوم. «لسان العرب ٨/ ٢٢٧ و٢٢٨».

(٢) اليمامة: كان اسمها قديمًا «جوًّا» فسميت اليمامة باليمامة بنت سهم بن طسم، كانت منازل طسم وجديس وهي معدودة من نجد، بينها وبين البحرين عشرة أيام، كان فتحها وقتل مسيلمة الكذاب في أيام أبي بكر الصديق سنة ١٢ هـ ـ قاعدتها حجر. «معجم البلدان ٥/ ٤٤٢».

فقتلوهم، ففيها يقول حمزة بن بَيْض[١]: [من الخفيف]

بـل جـنـاهـا أَخٌ عـليّ كـريـمٌ وعـلى أهـلها بَـرَاقِـشُ تَـجْـنِـي

وقيل في هذا المثل غير ذلك.

وقولهم: «عسى الغُوَيْر أَبْؤُسًا» الغُوَيْر: تصغير غارٍ، والأبؤس: جمع بؤس وهو الشدّة، قالته الزَّبَّاء[٢] عند رجوع قَصِير من العراق، ومعه الرجال، وكان الغوير على طريقه، ومعناه لعل الشرَّ يأتيكم من قبل الغار: يضرب للرجل يقال له: لعل الشرّ جاء من قبلك.

وقولهم: «عُشْبٌ ولا بَعِير»: يضرب للرجل له مالٌ كثير ولا ينفقه على نفسه ولا على غيره.

وقولهم: «عَادَ غَيثٌ على مَا أَفْسَد»: يضرب للرجل فيه فساد، وصلاحُهُ أكثر.

وقولهم: «عاد السهمُ إلى النَّزَعة»: أي رجع الحق إلى أهله.

وقولهم: «عصا الجبانِ أطولُ» لأنه يفعل ذلك من فشله، يرى أن طولها أشدُّ ترهيبًا لعدوّه من قِصَرها.

وقولهم: «على الخبير سَقَطْتَ» المثل لمالك بن جُبَير العامريّ، وتمثّل به الفرزدق حين لقي الحسينَ بن عليّ رضي الله عنهما، عند مقدمه من العراق وخروج الحسين إليه وقد قال له: ما وراءك؟ فقال: على الخبير سقطْتَ؛ قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بني أميّة، والنصر من السماء.

وقولهم: «عادة السُّوءِ شَرٌّ من المَغْرَم معناه أين المَغْرَم إذا أدّيتَه فارقك، وعادة السوء لا تفارق صاحبها.

---

(١) حمزة بن بيض: حمزة بن بيض بن نمر بن عبد الله الحنفي، من بني بكر بن وائل، شاعر مجيد، سائر القول، كثير المجون، من أهل الكوفة، كان منقطعًا إلى المهلب بن أبي صفرة وولده، حصلت له أموال كثيرة، وأخباره مع عبد الملك بن مروان كلها طرف، توفي سنة ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م. «فوات الوفيات ١/٣٩٦، والأعلام للزركلي ٢/٢٧٧».

(٢) الزَّباء: بنت عمرو بن الضرب بن السميدع، الملكة المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة يسميها الإفرنج Zenobie، كانت غزيرة المعارف بديعة الجمال، مولعة بالصيد والقنص، تحسن أكثر اللغات الشائعة في عصرها، كتبت تاريخًا للشرق، وليت تدمر وكانت تابعة للرومان، وما لبثت أن طردت الرومان وحاربتهم، توفيت سنة ٣٥٨ ق.هـ ـ ٢٨٥ م. «الأعلام للزركلي ٣/٤١».

وقولهم: «عَجْعَجَ لمّا عَضّهُ الظِّعَان» أي صاح، والظعان: يُسْعٌ يُشدّ به الهَوْدَجُ: يُضرَب لمن يَضِجّ إذا لَزِمَهُ الحقّ.

وقولهم: «عندَ الرِّهان تُعرَف السّوابق»: يُضرَب لمن يدّعي ما ليس فيه.

وقولهم: «عادَ الأمرُ إلى نِصابه»: يُضرَب في الأمر يتولّاه أربابُه.

وقولهم: «عَيْنُكَ عَبْرَى والفُؤادُ في دَد» الدَّدُ والدَّدَنُ والدَّدَا: اللعبُ واللهوُ: يُضرَب لمن يُظهر حُزْنًا لحزنك وفي قلبه خلاف ذلك.

وقولهم: «عَرْفَطَةٌ تُسْقَى مِنَ الغَوَادق» ويروى: الغوابق؛ العُرفُطة: شجرةٌ خَشِنَةُ المسّ، والغَوَادقُ: السحابُ الكثير الماء: يُضرَب للشِّرِّير يُكَرَّمُ ويُبَجَّلُ.

حرف الغين

قولهم: «غُدَّةٌ كغُدّة البَعير ومَوْتٌ في بَيْت سَلُولِيَّة» قاله عامر بن الطُّفَيل[1]؛ وذلك أنه لما قَدم على النبيّ ﷺ! وقدم معه أَرْبَد بن قَيْس أخو لَبيد بن رَبيعة العامريّ الشاعر لأمّه، فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطُّفَيل قد أقبل، قال: «دعهُ، فإن يُرد اللهُ به خيرًا يهدِه» فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد، مالي إن أسلمتُ؟ قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم» قال: تجعلْ لي الأمر بعدك، قال: «ليس ذاك إليّ، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء» قال: فتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر، قال: «لا» قال: فماذا تجعلُ لي؟ قال: «أجعل لك أعنَّة الخيل تغزو عليها»، قال: أو ليس ذلك إليّ اليوم؟ وكان قد أوصى إلى أَرْبَد بن قَيْس: «إذا رأيتني أُكلِّمه فدُر من خلفه فاضربه بالسيف» فاخترط أَرْبَد سيفه شبرًا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سَلِّه، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أَرْبَد وما يصنع بسيفه، فقال: «اللهمَّ اكفِنيهما بما شئت» فأرسل الله تعالى على أَرْبَد صاعقةً في يوم صائفٍ صاح فأحرقته، وولّى عامر بن الطُّفَيل هاربًا وقال: يا محمد، دعوتَ ربَّك فقَتَل أَرْبَد، واللهِ لأملأنَّها عليك خيلًا جُرْدًا وفتيانًا مُرْدًا، فقال رسول الله ﷺ: «يمنعُكَ اللهُ من ذلك» فسار عامر حتى نَزَل ببيت امرأة سَلُولِيَّة، فخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة، فقال: غدّة كغُدَّة

---

(١) عامر بن الطفيل: (٧٠ ق.هـ - ١١ هـ = ٥٥٤ - ٦٣٢ م) العامري من بني عامر بن صعصعة، فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم وسادتهم في الجاهلية، كنيته أبو علي، ولد ونشأ بنجد، أدرك الإسلام شيخًا، وفد على الرسول وهو في المدينة بعد فتح مكة يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام، فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة، فرده، فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢٥٢».

البعير ومَوْتٌ في بَيْت سَلُولِيّة، ثم مات على ظهر فرسه؛ وسَلُول أقلّ العرب وأذلّهم، فسار كلامه مثلًا: يُضرَب في خَصْلتين إحداهما شرٌّ من الأخرى.

وقولهم: «غَرَّني بُردَاكِ من خَدَافِلِي» ويروى: من غدافلي؛ أصل المثل أن رجلًا استعار بُردَي امرأة فلبسهما، ورَمَى بخُلْقَانٍ كانت عليه، فاسترجعت المرأة بُردَيها فقاله: يُضرَب لمن ضَيّع ماله طمعًا في مال غيره.

حرف الفاء

قولهم: «في وَجْه المالِ تَعرِفُ أَمْرَتَه» أي نماءَه وخيرَه؛ ويقال: أَمِرَتْ أموالُ بنِي فلان إذا نَمَتْ وكثُرت: يضرَب لمن يُستدلّ بحسن ظاهره على حسن باطنه.

وقولهم: «في بَيْته يُؤتَى الحَكَم» زعمت العرب أنّ الأرنبَ التقطت تمرةً فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضبّ، فقالت الأرنب: يا أبا الحِسْل، قال: سميعًا دعوتِ، قالت: أتيناكَ لنختصم إليك، قال: عادلًا حكَّمتما، قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يُؤتى الحَكَم، قالت: إني وجدتُ تمرةً، قال: حُلوةٌ فكُليها، قالت: فاختلسها الثعلب، قال: لنفسه بغَى الخير، قالت: لطمتُه، قال: بحقِّك أخذتِ، قالت: لطمَنِي، قال: حرٌّ انتصر، قالت: فاقضِ بيننا، قال: حَدِّث حديثين امرأةً، فإن أبَتْ فأربعةً؛ فذهبتْ أقوالُه كلُّها أمثالًا.

وقولهم: «فتًى ولا كمالِك» قاله مُتَمِّم بن نُوَيرة(١) في أخيه مالِك لمّا قُتل.

وقولهم: «في دُون هذا ما تُنكِرُ المرأةُ صاحبَها» أوّل من قاله جارية من مُزَيْنة، قال الحَكَم بن صَخْر الثَّقَفيّ: خرجتُ منفردًا فرأيتُ بإمَّرَة (وإمّرة موضع)، جاريتين أُختين لم أَرَ كجمالهما، فكسوتُهما وأحسنتُ إليهما، قال: ثم حججتُ من قابلٍ ومعِي أهلِي، وقد اعتللتُ ونصَل خضابي، فلمّا صرتُ بإمّرة، إذا إحداهما قد جاءت، فسألت سؤال مُنْكِرة، قال فقلت: فلانة؟ قالت: فِدًى لك أبي وأمّي، أَنّى تعرِفُنِي وأُنكرك؟ قال فقلتُ: أنا الحَكَم بن صَخْر، قالت: رأيتُك عامَ أوّل شابًا سُوقَةً، وأراك العام شيخًا ملِكًا، وفي دُون هذا ما تُنكِرُ المرأةُ صاحبَها، فذهبت مثلًا، قال قلت: ما

(١) متمم بن نويرة: متمم بن نويرة بن حمزة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو نهشل، شاعر فحل، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، وكان قصيرًا أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه مالك. سكن المدينة في أيام عمر. توفي سنة ٣٠ هـ - ٦٥٠ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ٢٧٤».

فعلتْ أختك؟ قال: فتنفَّست الصُّعَداءَ، وقالت: تزوجَها ابن عمّ لها وذهب بها، فذاك حيث تقول: [من الطويل]

إذا ما قَفَلنا نحوَ نَجْد وأهلِها فحسبي من الدنيا قُفولٌ إلى نجدِ

قال: قلت: أَمَا إني لو أدركتُها لتزوّجتُها، قالت: وما يمنعك من شريكتها في حسنها وجمالها وشقيقتها؟ قال قلت: يمنعني من ذلك قول كُثَيِّر(١) حيث يقول: [من الطويل]

إذا وصلتنا خُلة كي تزيلَنا أَبَينا وقلنا الحاجبيّةُ أوّلُ

فقالت: كُثيِّرٌ بيني وبينك، أليس الذي يقول: [من البسيط]

هل وَصْلُ عَزّةَ إلا وصلُ غانيةٍ؟ في وصلِ غانيةٍ من وصلها خَلَفُ

قال: فتركت جوابها عيًّا.

وقولهم: «فاتكةٌ واثقةٌ بِرِيّ» زعموا أن امرأة كَثُر لبنُها وطفقت تُهريقه، فقال لها زوجها: لِمَ تهرِيقينه؟ فقالت: فاتكة واثقة بريّ: يضرب للمفسد الذي وراء ظهره مَيسرة.

حرف القاف

قولهم: «قطعتْ جَهِيزَةُ قولَ كلّ خَطيب» أصله أن قومًا اجتمعوا يخطبون في صلح بين حيّين، قَتل أحدُهما من الآخر قتيلًا ليرضَوا بالدية، فبينما هم في ذلك، إذ جاءت أَمَةٌ يقال لها: جَهيزة، فقالت: إن القاتلَ قد ظَفرَ به بعضُ أولياء المقتول فقتله، فقالوا: قطعت جهيزة قول كلّ خطيب: يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بجهله.

وقولهم: «قَبْلَ البكاء كان وجهك عابسًا»: يضرب للبخيل يعتَلُّ بالإعدام(٢). ومثله: «قَبْل النِّفَاسِ كنتِ مُصْفَرَّة».

---

(١) كُثَيِّر عَزَّة: كثير بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر، شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، كان شاعر أهل المجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحدًا، أخباره مع عزة بنت جميل الضمرية كثيرة، وكان عفيفًا في حبه، توفي بالمدينة في السنة ١٠٥ هـ ـ ٧٢٣ م. «الشعر والشعراء ص ٣٤٠، والأعلام للزركلي ٥/٢١٩».

(٢) الإعدام: الفقر، يقال: هو رجل معدم: أي فقير لا يملك شيئًا.

وقولهم: «قَلَبَ الأمرَ ظَهرًا لبطن»: يضرب في حسن التدبير.

وقولهم: «قد شَمّرتْ عن ساقها فشَمِّري»: يضرب في الحثّ على الجدّ في الأمر.

وقولهم: «قد يَضرِط العَيْر والمِكواةُ في النار» قاله عُرفُطة بن عَرفَجة سيّد بني هِزّان، وكان بينه وبين الحُصَين بن نَبيت العُكْليّ حروب ووقائع، فقتلت عُكْل[1] رجلًا من بني هِزّان، وأسر عُرفُطة بن عُكْل رجلين، فقال لهما: أيّكم أفضل لأقتله بصاحبنا؟ فجعل كلّ واحد منهما يخبر أنّ صاحبه أكرم منه، فأمر بقتلهما جميعًا، فقُدّم أحدهما للقتل، فجعل الآخر يَضرِط، فقال عُرفُطة: قد يضرط العير والمكواة في النار، فأرسلها مثلًا: يضرب للرجل يخوّف بالأمر فيجزع قبل وقوعه. وهذا أحد الأقوال فيه؛ وقيل غير ذلك.

وقولهم: «قد بَيّن الصبحُ لذي عَينين»: يضرب في ظهور الأمر كلّ الظهور.

وقولهم: «قد أَنصَف القارَةَ من راماها» القارةُ: قبيلةٌ قد تقدّم ذكرها في الأنساب.

وقولهم: «قبل الرِّماء تُملأُ الكائنَ» أي تؤخذ أهبّة الأمر قبل وقوعه. ومثله: «قبلَ الرَّمي يُراش السهم»: يضرب في تهيئة الآلة قبل الحاجة إليها.

وقولهم: «قَلَب له ظَهر المِجَنّ»[2]: يضرب لمن كان لصاحبه على مودّة، ثم حال عن عهده.

وقولهم: «قد ألقَى عصاه» إذا استقرّ من سفر أو غيره؛ يقال: إنه لما بويع لأبي العباس السفّاح، قام خطيبًا فسقط القضيب من يده، فقام رجل من القوم وأنشد: [من البسيط]

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عينًا بالإيابِ المسافرُ

وقولهم: «قد ونَى طَرَفاه»: يضرب لمن ذلّ وضعُف عن أن يتمّ له أمر؛ قال النجاشي: [من الطويل]

وإنّ فلانًا والإمارة كالذي ... وَنَى طَرَفاه بعْد ما كان أجدعا

---

(١) عكل: بلد، وعكل قبيلة عربية، في أفرادها غباوة وقلة فهم، ولذلك يقال لكل من فيه غفلة ويستحمق: عكلي. «لسان العرب ١١/ ٤٦٧».

(٢) المجن: الترس، ومجن يمجن إذا صلب وغلظ. «لسان العرب ١٣/ ٤٠٠».

وقولهم: «قُدَّتْ سيورُهم[١] من أَدِيمك»: يضرب للشيئين يستويان في الشبه قال الشاعر: [من الوافر]

* وقُـدّت مـن أديـمِـهِـم سـيـورى *

وقولهم: «قد بَلَغ الشِّظاظ الورِكَين» الشظاظ: عُوَيد يُجعل في عروة الجوالق[٢]: يضرب فيما جاوز الحدّ، وهو كقولهم: جاوز الحزامُ الطِّبْيَين.

حرف الكاف

قولهم: «كان كُراعًا، فصار ذراعًا»: يضرب للذليل الضعيف صار عزيزًا قويًّا.

وقولهم: «كلامٌ كالعسَل، وفعلٌ كالأسَل»: يضرب في اختلاف القول والفعل.

وقولهم: «كنتَ تبكِي من الأثر العافِي فقد لاقيتَ أُخدودًا»: يضرب لمن يشكو القليل من الشرّ ثم يقع في الكثير.

وقولهم: «كلّ ذات بعلٍ ستَئيم» هذا من أمثال أكثم بن صيفيّ؛ قال الشاعر: [من الطويل]

أفـاطـم إنـي هـالـك فـتـثَـبّـتـي ولا تـجزعي، كلُّ النسـاء تـئيمُ

أي ستفارق زوجها.

وقولهم: «كلُّ أزَبَّ[٣] نَفور» قاله زُهَير بن جذِيمة[٤] لأخيه أُسيد، ونذكر الخبر في وقائع العرب.

وقولهم: «كلّ فتاة بأبيها مُعجَبة»: يضرب في عجب الرجل بعشيرته ورهطه.

وقولهم: «كلّ الصيْد في جوف الفرا» الفرا: الحمار الوحشيّ؛ أصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيّدين، فاصطاد أحدهم أرنبًا، والآخر ظبيًا، والثالث حمارًا،

---

(١) السّيور: السَّيْرُ: ما يُقد من الجلد طولًا، والجمع السيور، والسير: ما قد من الأديم طولًا، والسير: الشِّراكِ والجمع أسيار وسيور. «لسان العرب ٤/ ٣٩٠».

(٢) الجوالق: الجُوالِق والجوالَق: وعاء من الأوعية معرب. «لسان العرب ١٠/ ٣٦».

(٣) الإزب: اللئيم، والإزب الدقيق المفاصل، والإزب من الرجال: القصير الغليظ. والأزَبُّ في اللغة: الكثير الشعر. «لسان العرب ١/ ٢١٣».

(٤) زهير بن جذيمة: بن رواحة العبسي، أمير عبس، وأحد سادات العرب المعدودين في الجاهلية، كانت هوزان تهابه، حتى تكاد تعبده، وتحمل إليه الأتاوة في كل عام، تأتيه بها من عكاظ، قتله خالد بن جعفر العامري في السنة ٥٠ ق.هـ ـ ٥٧٤ م.

فتطاولا عليه بصيدهما، فقال: كلُّ الصيدِ في جوف الفرا: يضرب لمن يفضّلُ على أقرانه، وقد تمثّل به رسول الله ﷺ.

وقولهم: «كَدَمْتَ غير مَكْدَم»: يضرب لمن يطلب شيئًا في غير مطلبه.

وقولهم: «كالثور يُضرب لمّا عافت البقر»: يضرب في عقوبة البريء بذنب المجرم، ويأتي ذكر ذلك في أوابد العرب.

وقولهم: «كالكبش يحمل شَفْرةً وزنادًا»: يضرب لمن يتعرّض للهلاك.

وقولهم: «كالمستغيث من الرمضاء بالنار»: يضرب في الخَلّتين يجتمعان على الرجل.

وقولهم: «كالقابس[١] العَجلان»: يضرب لمن عجّل في طلب حاجته.

وقولهم: «كلاهما وتمرًا»: أوّل من قاله عمرو بن حُمران الجعديّ، وذلك أنه مرّ برجل وبين يديه زُبد وسَنام وتمر، فقال: أنلني ممّا بين يديك، فقال: أيّما أحبّ إليك أزُبدٌ أم سَنام؟ فقال: كلاهما وتمرًا، فسارت مثلًا.

وقولهم: «كالباحث عن المُدْيَة» يقال: إن رجلًا وجد صيدًا، ولم يكن معه ما يذبحه به، فبحث الصيد بأظلافه في الأرض، فسقط على شفرة فذبحه بها: يضرب في طلب الشيء يؤدّي صاحبه إلى تلف النفس.

وقولهم: «كذي العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتع»: يُضرب في أخذ البريء بذنب الجاني، ويأتي ذكره في أوابد العرب.

وقولهم: «كالمحتاض على عَرْض السراب»: يُضرب لمن يطمع في محال.

وقولهم: «كلّ لياليه لنا حَنادس[٢]»: يُضرب لمن لا يصل إليك منه إلا ما تكره.

---

(١) القابس: القبس: النار، أو الشعلة من النار، والقابس: طالب النار، والجمع أقباس. «لسان العرب ٦/١٦٧».

(٢) الحنادس: الحندس: الظلمة، الليل الشديد الظلمة، والحنادس: ثلاث ليال من الشهر لظلمتهن. «لسان العرب ٦/٥٨».

حرف اللام

وقولهم: «لو ذاتُ سِوار لطمَتني» معناه لو ظلمني من كان كفؤًا لي لهان عليّ، ولكن ظلمني من هو دوني، وهو كقول بعضهم: [من الوافر]

فلو أني بُليتُ بهاشميّ خؤولته بنو عبد المَدانِ
لهان عليّ ما ألقى ولكن تعالَيْ فانظري بمن ابتلاني

وقولهم: «لو غير ذاتِ سِوارٍ لطمَتني» روى الأصمعيّ: أن حاتمًا الطائيّ مرَّ ببلادِ عَنزة في بعض الأشهر الحُرُم فناداه أسيرٌ لهم: يا أبا سَفانة: أكلني الإسار[١] والقمل، فقال: ويحك، أسأتَ إذ نوَّهت باسمي في غير بلاد قومي، فساوم القومَ به ثم قال: أطلقوه واجعلوا يديَّ في القِدّ مكانه، ففعلوا ذلك؛ ثم جاءته امرأة ببعير ليفصده فنحره فلطمته فقال: لو غير ذات سوارٍ لطمتني، يعني أني لا أقتصُّ من النساء، ثم عُرِف، ففدى نفسه فداءً عظيمًا.

وقولهم: «لو تُرِكَ القَطا ليلًا لَنام» قالته امرأة عمرو بن مامة، وقد نزل عليه قوم من مُرادٍ، فطرقوه ليلًا، فأثاروا القطا، فرأته امرأته فنبّهتْه فقال: إنما هذا القطا، فقالت: لو تُرِكَ القطا ليلًا لنام؛ فسار مثلًا: يُضرب لمن حُملَ على مكروه من غير إرادته؛ وقيل: إن التي قالته له حَذامِ بنت الريّان[٢].

وقولهم: «لبِسَ له جِلْدَ النّمر»: يضرب في إظهار العداوة وكشفها.

وقولهم: «لقد ذَلّ من بالت عليه الثعالب» أصله أن رجلًا من العرب كان يعبد صنمًا، فجاء ثعلب فبال عليه، فقال في ذلك: [من الطويل]

أَرَبٌّ يبول الثُّعلُبانُ برأسهِ؟ لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ

وقولهم: «ليس هذا بعُشّكِ فادرُجي»: يُضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره.

وقولهم: «لم أجدْ لشَفْرتي مَحَزًّا»: يُضرب عذرًا في تعذّر الحاجة.

---

(١) الإسار: القيد ومنه سمي الأسير. «لسان العرب ٤/ ١٩».

(٢) حذام بنت الريان: جاهلية يمانية، يضرب بها المثل في صدق الخبر، وفيها قال زوجها لجيم بن صعب هذا البيت المشهور:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

«الأعلام للزركلي ٢/ ١٧١».

وقولهم: «لو سئلت العاريةُ أين تذهبين لقالت أُكسبُ أهلي ذمًّا» هذا من كلام أكثم بن صيفيّ: يُضرب في سوء الجزاء للمنعم.

وقولهم: «ليس من العَذْل، سرعة العذْل» أي لا ينبغي أن تعجّلَ بالعذل قبل أن تعرفَ العذرَ.

وقولهم: «ليس القُدامَى[1] كالخَوافي»: يُضربَ عند التفضيل.

وقولهم: «لو كُوِيتُ على داءٍ لم أَكرهْ» أي لو عوتبتُ على ذنب ما امتعضتُ.

وقولهم: «ليس على الشَّرْق طَخَاءٌ يَحجُب» أي ليس على الشمس سحاب: يُضرب في الأمر المشهور الذي لا يخفى على أحد.

وقولهم: «لأكوينّه كيّةَ المتلوِّم» أي كَيًّا بليغًا؛ والمتلوِّم: الذي يتتبّع الداء حتى يعلم مكانه: يُضرب في التهديد الشديد.

وقولهم: «لأمرٍ ما جدَع قَصِيرٌ أنفه» قالته الزَّبّاء لما رأت قَصيرًا مجدوعًا؛ وخبره يأتي في باب المكايد.

حرف الميم

قولهم: «ما تَنفع الشَّفْعةُ في الوادي الرُّغُب» الشَّفْعة: المطرة الهيّنة، والرُّغُب: الواسع: يضرب للذي يعطيك قليلًا لا يقع منك مَوقعًا.

وقولهم: «ما وراءكِ يا عِصام؟» يقال: أوّل من قال ذلك الحارث بن عمرو[2] ملك عنده، وذلك أنه بلغه جمالُ ابنة عَوف بن مُحَلِّم فأرسل إليها امرأة ذاتَ عقل ولسان، يقال لها: عِصام، وقال: اذهبي لتعلميني بحالها، فلما انتهت إليها ونظرتها خرجت وهي تقول: «تَرَكَ الخِداع، مَن كشَف القِناع» فذهبت مثلًا، ثم عادت إليه، فقال لها: ما وراءكِ يا عصام؟ فقالت: «صرَّحَ المَحْضُ عن الزُّبد» فأرسلتها مثلًا؛ وساق الميدانيّ على هذا المثل كلامًا طويلًا قالته عِصام في وصف أعضاء المخطوبة.

(١) القدامى: ريش مقدّم الجناح، والخوافي: ريش مؤخّر الجناح.
(٢) الحارث بن عمرو: بن عدي بن نصر اللخمي، من ملوك الدولة اللخمية في الحيرة، ولي بعد موت أخيه امرىء القيس، وطالت مدته. «الأعلام للزركلي ٢/١٥٦».

وقولهم: «ما يومُ حَليمةَ بسرٍّ» هي حليمةُ بنتُ الحارثِ بن أبي شَمِر[١]، كان أبوها وجّه جيشًا إلى المنذر بن ماء السماء فأخرجتْ لهم طيبًا في مِرْكَنٍ[٢] فطيّبتهم؛ فلما انتهت إلى لَبيد بن عمرو وذهبت لتخلقه[٣]، قبّلها، فلطمته وأتت أباها، فقال لها: ويلكِ اسكتي عنه، فهو أرجاهم عندي ذكاءَ فؤادٍ، وإني مرسلهُ، فإن قُتل فقد كفي الله شرّه؛ فسار إلى المنذر بالجيش، فقتلوا المنذر وكان يومًا مشهورًا، فقيل فيه: ما يوم حليمةَ بسرٍّ.

وقولهم: «ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة» أي ما أشبهَ بعض القوم ببعض.

وقولهم: «مرْعًى ولا كالسَّعدان» قالوا: السَّعدان أخثر العُشبِ لبنًا، ومنابته السهول: يُضرب مثلًا للشيء يفضَّل على أقرانه وأشكاله؛ وأوّل من قال المثل: خنساء بنت عمرو بن الشريد، وقيل: بل قالته امرأة من طيىء تزوّجها امرؤ القيس بن حُجْر الكَنديّ فقال لها: أين أنا من زوجك الأوّل؟ فقالت: مرعًى ولا كالسّعدان، أي إنك إن كنت رضًا فلست كَفُلانٍ.

وقولهم: «ماءٌ ولا كصَدَّاء» صَدَّاءُ: ركيّة[٤] عذبة؛ قال ضِرار السعديّ: [من الطويل]

وإني وتَهيامي بزينبَ كالذي تطلَّبَ من أحواضِ صَدَّاءَ مَشرَبا

معناه أنه لا يصل إليها إلا بالمزاحمة لفرطِ حسنها، كالذي يرِدُ الماءَ فإنه يزاحم عليه لفرط عذوبته.

وقولهم: «محا السيفُ ما قال ابنُ دارةَ أجمعا» هو سالم بن دارة الغطفانيّ[٥]، ودارةُ: أمُّه، وكان قد هجا بعض بني فزارة فاغتالهُ زُمَيْل فقتله، ففيه

---

(١) الحارث بن أبي شمر: الغساني، من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطة دمشق، وأدرك الإسلام، مات في عام فتح مكة سنة ٨ هـ - ٦٣٠ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ١٥٥».

(٢) المركن: الإجّانة أو الوعاء الكبير الذي تغسل فيه الثياب، والمِركن: الإجانة. «اللسان ١٣/ ١٨٦».

(٣) تخلقه: تطليه بالخلوق، والخلوق: طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب. «اللسان ١٠/ ٩١».

(٤) الركية: البئر والجمع ركي وركايا. «لسان العرب ١٤/ ٣٣٤».

(٥) سالم بن دارة الغطفاني: بن مسافع بن عقبة الجشمي، المعروف بابن دارة نسبة إلى أمه، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، له ديوان شعر، وكان هجاءً، وبسبب ذلك ضربه زميل بن أم دينار الفزاري قرب المدينة، ومات من جرحه في المدينة في خلافة عثمان نحو ٣٠ هـ - ٦٥٠ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٧٣».

يقول الكميت: [من الطويل]

فلا تُكثروا فيه الضِّجاجَ فإنه ... محا السيفُ ما قال ابنُ دارة أجمعا

وقولهم: «مَلكتَ فأسجِحْ» الإسجاح: حسن العفو، أيْ ملكتَ الأمر فأحسنِ العفو؛ وقد تمثّل به رسول الله ﷺ في بعض غزواته؛ ونذكر الخبر في ذلك في المغازي.

وقولهم: «من ينكح الحسناءَ يُعطِ مَهرَها» أي من طلب حاجة بذل ماله فيها.

وقولهم: «من سرّه بنوه ساءته نفسه» قاله ضِرار بن عمرو الضبيّ[1]: وكان ولده ثلاثة عشر رجلًا، كلّهم قد غزا ورأس، فرآهم يومًا وأولادَهم، فعلم أنهم لم يبلغوا هذه الأسنانَ إلا مع كبرِ سنّه، فقال: من سرّهُ بنوه ساءته نفسه، فأرسلها مثلًا.

وقولهم: «من أشبه أباه فما ظلم» معناه ظاهر.

وقولهم: «من يُرِ يومًا يُرَ به» قاله كَلْحَب بن شُؤبوب الأسديّ، وكان يُغير على طيىء وحده، فدعا حارثةُ بن لأم رجلًا من قومه يقال له: عترم، فقال له: أما تستطيع أن تكفيَني مؤونة هذا الخبيث؟ فقال: بلى، فأرسل عشرةَ عيون عليه، فعلموا مكانه فانطلق إليه عترم فوجده نائمًا في ظلّ أراكةٍ فنزل ومعه آخر فأخذ كلّ واحد منهما بإحدى يديه فانتبه فنزع يده اليمنى من مُمْسكها وقبض على حَلْق الآخر فقتله وبادر الباقون فأخذوه وشدّوه وثاقًا وأتوا به حارثةَ، فقال له: يا كلحب، إن كنتَ أسيرًا فطالما أَسرتَ، فقال: من يُرِ يومًا يُرَ به، فأرسلها مثلًا، وقال حَوذة وهو ابن المقتول لحارثة: أعطنيه أقتلْه بأبي، فقال: دونكه! وجعلوا يتكلّمون وهو يعالج كتافَه حتى انحلّ، ثم وثب على رجليه فاتبعوه بالخيل فأعجزهم.

وقولهم: «مَنْ سلَكَ الجَدَدَ أمن العثار» الجَدَدُ: الأرض المستوية: يُضرب في طلب العافية.

وقولهم: «مَن يشرتي سيفي وهذا أثره؟» قاله الحارث بن ظالم[2]، وذلك أنه

---

(١) ضرار بن عمرو الظبي، سيد بني ظبة في الجاهلية، هو أول من لقب عامرًا بن مالك بملاعب الأسنة، مات قبيل الإسلام، وهو والد «الحصين بن ضرار» قتيل وقعة الجمل. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢١٥».

(٢) الحارث بن ظالم: أبو ليلى، أشهر فُتاك العرب في الجاهلية، نشأ يتيمًا، آلت إليه سيادة عطفان بعد مقتل زهير بن جذيمة، وفد على النعمان بن المنذر ملك الحيرة فالتقى بقاتل أبيه جعفر بن=

لما قتل خالد بن جعفر بن كلاب بزهير بن جذيمة العبسيّ على ما نذكره إن شاء الله في وقائع العرب وهرب، فوجّه النعمانُ فوارسَ في طلبه فأدركوه سحرًا فعطف عليهم وقتلَ منهم جماعة وكرّوا عليه فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرّقها وهو يقول: من يشتري سيفي وهذا أثره، فارتدعوا عنه وانصرفوا إلى النعمان.

وقولهم: «مِنْ مالِ جَعْدٍ وجعدٌ غير محمودِ» قاله جعد بن الحُصين أبو صخر بن جعد الشاعر، وكان قد كبِر فتفرّق عنه بنوه وأهله، وبقيت له جاريةٌ سوداءُ تخدمه، فعلقت بفتى من الحيّ يقال له: عَرابة، فجعلت تنقل إليه ما في بيت جعد، ففطن جعد لذلك، فقال في ذلك: [من البسيط]

أبلغْ لديك بني عمرٍو مُغلغلةً عمرًا وعَوفًا وما قولي بمردودِ[1]
بأنّ بيتيَ أمسى فوق داهيةٍ سوداءَ قد وعدتْني شرّ موعودِ
تُعطِي عَرابةَ بالكفّين مُجتَنحًا من الخَلوق وتُعطيني على العودِ
أمسى عَرابةُ ذا مالٍ يُسرّ به من مالِ جعدٍ، وجعدٌ غير محمودِ

يُضرب للرجل يصاب من ماله ويذمّ.

وقولهم: «من مأمنه يؤتَى الحذِر» قاله أكثم بن صيفيّ.

وقولهم: «من يمشِ يرضَ بما ركب»: يضرب للذي يضطرّ إلى ما كان يرغب عنه.

وقولهم: «من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُكلَم» قاله عُقيل بن علقمة المُرّي، وقد رماه عَملّس ابنه بسهم فحلّ فخذيه، فقال أبياتًا منها: [من الرجز]

إنّ بنِيّ زمّلوني بالدمِ شِنشِنةٌ أعرفُها من أَخزمِ
* من يَلْقَ أبطالَ الرجال يُكلَمِ *

وقولهم: «من لا يذُدْ عن حوضه يُهدَّم» أي من لم يدفع عن نفسه يُظلم، قاله زُهَير بن أبي سُلمى.

وقولهم: «مكْرَهٌ أخوك لا بَطَلٌ» قاله أبو حَنَش خال بَيْهس: يُضرب لمن يُحمل على ما ليس من شأنه.

= خالد، وما لبث أن قتله، فجد أخصامه في طلبه، وظل متنقلًا من قبيلة إلى أخرى حتى قتل في حوران نحو ٢٢ ق.هـ - ٦٠٠ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ١٥٥».

(١) المغلغلة: الرّسالة.

وقولهم: «من نام لا يَشعُر بشجو الأرِق»: يُضْرب لمن غفل عما يعانيه صاحبه من المشقّة.

حرف النون

قولهم: «نفْسُ عِصامٍ سوّدتْ عِصامًا» هو عصام بن شَهْبَر حاجب النعمان بن المنذر: يُضرب في نباهة الرّجل من غير قديم؛ وقيل في هذا: [من الرجز]

نفْسُ عصامٍ سوّدت عصاما وعلّمتْه الكرَّ والإقداما
* وصيّرتْه ملِكًا هُماما *

وقولهم: «نظرةٌ مِن ذي عَلَق» أي من ذي هوًى: يُضرب لمن ينظر بودّ.

وقولهم: «نَزَت به البِطنة»: يُضرب لمن لا يحتمل النِّعمة.

قال الشاعر: [من البسيط]

فلا تكونَنّ كالنازي ببِطنته بين القرينيْن حتى ظلّ مقرونا

وقولهم: «نجوتُ وأرهنتُهم مالكًا» قال عبد الله بن هَمّام السَّلوليّ(١): [من المتقارب]

فلمّا خَشِيتُ أظافيرَهم نجوتُ وأرهنتُهم مالكا

يُضرب لمن ينجو من هَلَكة نَشَبَ فيها شركاؤه وأصحابه.

وقولهم: «نامِ عصام ساعةَ الرحيل»: يُضرب لمن طلب الأمر بعدما ولّى.

حرف الهاء

قولهم: «هُدْنةٌ على دَخَن».

وقولهم: «هذا أوانُ شدّكم فشُدّوا».

ومثله قولهم: «هذا أوانُ الشدّ فاشتدّي زِيَم» قال الأصمعيّ: زيم: اسم فرس: يُضرب للرجل يؤمر بالجِدّ.

---

(١) عبد الله بن همام السلولي: من بني مرة بن صعصعة، شاعر إسلامي، أدرك معاوية وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك أو بعده، له أخبار، كان يُقال له العطار لحسن شعره. «الأعلام للزركلي ٤/١٤٣».

وقولهم: «هو على حَبْلِ ذراعك» أي الأمر فيه إليك: يُضرب في قرب المتناوَل؛ وحبْل الذراع: عِرقٌ في اليد.

وقولهم: «هان على الأَملِس ما لاقَى الدَّبِر»: يُضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه.

وقولهم: «هو بين حاذِف وقاذِف» الحاذفُ بالعصا، والقاذف بالحصى: يُضرب لمن هو بين الشرّين.

وقولهم: «هو على طرَف الثُّمام» الثمامُ: نبت ضعيف سهل المتَناولُ تسدّ به خصاصُ[1] البيوت، وربما حُشيتْ به المَخادُّ؛ قالوا: إنه ينبت على قدر قامة الإنسان: يُضرب في تسهيل الحاجة وقرب النجاح.

وقولهم: «هي الخَمر تُكنَى الطِّلاء»: يضرب للأمر ظاهرُهُ حَسَنٌ وباطنُهُ على خلاف ذلك.

حرف الواو

قولهم: «وافق شَنٌّ طَبَقَة» قال الشرقيّ بن القطاميّ[2]: كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له: شَنٌّ، فآلى أنه يطوف البلادَ حتى يجدَ امرأةً مثلَهُ فيتزوّجُها، فبينا هو في بعض مسيرِهِ إذ وافقَه رجلٌ في الطريق فسارا جميعًا، فقال له شَنٌّ: أتحملُني أم أحملُكَ؟ فقال: أنا راكبٌ وأنت راكب، فكيف تحملني أو أحملك؟! ثم سارا فانتهيا إلى زرع قد استحصد، فقال شَنٌّ: أترى هذا الزرعَ أُكِلَ أم لا؟ فقال: لم أر أجهل منك، نبتًا مستحصدًا فتقول: أُكِلَ أم لا! فسكت؛ ثم سارا حتى دخلا القرية فلقيا جنازة، فقال شنٌّ: أترى صاحب هذا النعش حيًا أم ميّتًا؟ فقال له الرجل: ترى جنازةً تسأل عنها أميّتٌ صاحِبُها أم حيٌّ! فسكت عنه شَنّ وأراد مفارقتَه فأبى أن يتركَه وسار به إلى منزله، وكان للرجل بنتٌ يقال لها: طبقة، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه، فقال: ما رأيت أجهل منه، وحدّثها بحديثه، فقالت: يا أبتِ ما هذا

---

(١) الخصاص: التفاريج الضيقة، والخُص: البيت من القصب، وخصاصة الباب أي مزجته. «لسان العرب ٧/ ٢٦».

(٢) الشرقي بن القطامي: الوليد بن حصين بن حبيب بن جمال الكلبي، المعروف بالشرقي بن القطامي، أبو المثنى، عالم بالأدب والنسب، من أهل الكوفة، استقدمه منها أبو جعفر المنصور إلى بغداد ليعلم ولده «المهدي» الأدب، وكان صاحب سمر، وروى نحو عشرة أحاديث ضعيفة. توفي نحو السنة ١٥٥ هـ ـ ٧٧٢ م. «الأعلام للزركلي ٨/ ١٢٠».

بجاهل! قوله: أتحملني أو أحملك؟ أراد أتحدّثني أم أحدّثك، وأما قوله: أترى هذا الزرع أُكل أم لا؟ فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأما الجنازة فأراد هل ترك عقبًا يحيا بهم ذكرُهُ أم لا؟ فخرج الرجل فقعد مع شَنٍّ فحادثَه، وقال له: أتحبُّ أن أفسر لك ما سألتني؟ قال نعم، ففسره، فقال شَنٌّ: ما هذا من كلامك، فأخبِرْني مَنْ صاحبُه؟ فقال: ابنة لي، فخطبها إليه فزوّجهُ إياها وحملها إلى أهله، فلما رأوها قالوا: وافقَ شَنٌّ طبقة، فذهبتْ مثلًا: يُضرب للمتوافقين؛ وقال الأصمعيّ: هم قومٌ كان لهم وعاءٌ من أَدَمٍ فتشنَّن[1] فجعلوا له طَبَقًا فوافقه فقيل: وافق شَنٌّ طَبَقة، ورواه أبو عبيدةَ في كتابه، وقال ابن الكلبيّ: طبقة: قبيلةٌ من إياد كانت لا تُطاقُ فأوقعت بها شنّ بن أفصى بن دُعْمِيّ فانتصفَتْ منها وأصابت فيها فضُربتا مثلًا وأنشد: [من الرّمل]

لَقِيَتْ شَنٌّ إيادًا بالقنا طبَقًا، وافق شَنٌّ طَبَقَه

وقولهم: «وجدتُ الناس اخبُرْ تَقْلُه» أصله اخبُر الناس تَقْلُهم: يُضرب في ذمّ الناس وسوءِ معاشرتهم.

وقولهم: «وَلُودُ الوعد عاقرُ الإنجاز»: يُضرب لمن يكثُر وعدُه ويقِلُّ نقدُه.

وقولهم: «وَدِّعَ مالًا مُودِعُه» لأنه إذا استودعه غيره فقد ودّعه وغرّرَ به ولعله لا يرجعُ إليه.

وقولهم: «ومَوْرِد الجهل وَبِيءُ المَنهل»: يُضرب في النَّهْيِ عن استعمال الجهل.

ما جاء في ما أوّله (لا)

قولهم: «لا مَخْبأَ لعِطْرٍ بعد عَروس» ويقال: «لا عِطْرَ بعد عَروس» أوّل من قاله امرأةٌ من عُذْرة، يقال لها: أسماءُ بنتُ عبد الله، وكان لها زوجٌ من بني عمّها يقال له: عَروسٌ، فمات عنها، فتزوّجها رجلٌ من قومها يقال له نَوْفَل، وكان أعسر أبخر[2] بخيلًا ذميمًا، فلما دخل بها قال: ضُمّي إليك عِطرَكِ، فقالت: لا عِطرَ بعد عَروس، فذهبت مثلًا، ويقال: إن رجلًا تزوّج امرأة، فلما أُهدِيَتْ إليه وجدها

---

(١) تشنَّن: التشنن: التشنج واليُبس في جلد الإنسان عند الهرم. والشَّن: الخلق من كل آنية صنعت من جلد. وتشنن السِّقاء: أخلق، والشن: القربة الخلق. «لسان العرب ١٣/٢٤١».

(٢) الأبخر: الذي تخرج من فمه رائحة كريهة.

تَفِلَةَ[١] فقال لها: أين الطِّيبُ؟ فقالت: خَبَّأتُه، فقال لها: لا مَخْبَأَ لعِطرٍ بعد عَروس: يُضرب مثلًا لمن لا يُدَّخر عنه نفيسٌ.

وقولهم: «لا يُلدَغ المؤمن من جُحرٍ مرّتين»: يُضرب لمن أُصيبَ ونُكب مرّة بعد أخرى، يقال هذا من أمثال النبيّ ﷺ قاله لأبي عَزّةَ الشاعرَ وكان رسولُ الله ﷺ قد أسره يومَ بدرٍ فمنَّ عليه وأطلقه ثم أتاه يوم أُحُدٍ فأسره، فقال: مُنَّ عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر مرّتين» أي لو كنتَ مؤمنًا لم تعدْ لقتالنا.

وقولهم: «لا أطلبُ أثرًا بَعدَ عين» أوّلُ من قالَه مالك بن عمرو العامري، وكان من حديثه أن بعضَ ملوكِ غسّانَ كان يطلب في بني عامرَ ذَحْلًا فأخذ منهم مالكًا وسِمَاك ابني عمرو العامريّ فاحتبسهما زمانًا ثم دعا بهما، فقال لهما: إني قاتل أحدكما، فأيكما أقتل؟ فجعل كلُّ واحد منهما يقول: اقتلني مكان أخي، فقتل سِماكًا وخلّى سبيلَ مالك، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول: [من المتقارب]

فأُقسِمُ لو قَتلوا مالكًا ... لكنتُ لهم حيّةً راصدهْ
برأسِ سبيلٍ على مَرقبٍ ... ويومًا على طُرُقٍ واردهْ
فأُمَّ سِماكٍ فلا تجزعي ... فللموت ما تلد الوالدهْ

وانصرف مالك إلى قومه فأقام فيهم زمانًا ثم إنّ ركبًا مرّوا وواحد منهم يتغنّى بقول سِماكٍ: [من السريع]

* فأُقسمُ لو قَتلوا مالكا *

فسمعتْه أمّ سِماك، فقالت: يا مالك، قبحَ الله الحياةَ بعد سِماك، ٱخرجْ في الطلب فخرج فلقي قاتل أخيه يسير في ناسٍ من قومه فقال: من أحسَّ لي الجملَ الأحمرَ، فقالوا له وقد عرفوه: يا مالك ٱكفف ولك مائة من الإبل، فقال: لا أطلب أثرًا بعد عين، فذهبت مثلًا.

وقولهم: «لا يُرسِل الساقَ إلا مُمسِكًا ساقًا» أصله في الحِرباء: يُضرب لمن لا يدع حاجةً إلا سأل أخرى.

(١) التفلة: تفل الشيء تفلًا: تغيرت رائحته، والتَّفَل: ترك الطيب، ورجل تَفِل أي غير متطيب. «لسان العرب ١١/٧٧».

وقولهم: «لا ماءَكِ أبقيْتِ، ولا حِرَكِ أنقيْت» ويُروى: ولا دَرَنَكِ؛ أصله أنّ رجلًا كان في سفر ومعه امرأته، وكانت عاركًا[1] فطهُرتْ وكان معها ماءٌ يسير فاغتسلت به فنفدَ ولم يكفها لغسلها فعطشا فقال هذا القول فسار مثلًا، وقيل: إنّ الذي قاله القضبّ بن أروَى الكلاعيّ قاله لامرأته عَمْرة بنت سُبيع؛ قال الرزدق: [من الطويل]

وكنتُ كذاتِ الحيضِ لم تُبقِ ماءَها ولا هي من ماء العَذابة طاهرُ

وقولهم: «لا ناقتي في هذا ولا جَملي» المثل للحارث بن عَبَّاد[2] حين قَتل جَسّاسُ بن مُرّة كُليبًا وهاجت الحربُ بين الفريقين واعتزلهما الحارث؛ قال الراعي: [من البسيط]

وما هجرتُكِ حتى قلتِ مُعلِنةً لا ناقةٌ ليَ في هذا ولا جَملُ

يُضرب عند التبرّؤ من الظلم والإساءة.

وقولهم: «لا يَنتطِح فيها عَنْزان» قاله رسول الله ﷺ.

وقولهم: «لا يُنبتُ البَقْلة، إلا الحَقْلة» الحَقْلَةُ: القَرَاحُ، أي لا يلد الوالد. إلا مثلَه: ويُضربُ مثلًا للكلمة الخسيسة تخرج من الرجل الخسيس.

وقولهم: «لا تَدخُلْ بين العصا ولِحائها»: يضرب في المتخالّيْن المتصافيَيْن.

وقولهم: «لا يحزُنْكَ دمٌ هَرَاقه أهلُه» قال هذا المثل جَذيمةُ: يُضرب لمن يُوقِع نفسَه فيما لا مَخلَصَ له منه.

حرف الياء

قولهم: «يَداك أوْكَتا[3] وفُوك نَفَخ» أصله أن رجلًا كان في جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبُر على زِقّ قد نَفَخ فيه فلم يُحسن إحكامَه، فلمّا توسّط البحر

---

(١) العارك: من العراك وهو الحيض، وعركت المرأة: حاضت. «لسان العرب ١٠/٤٦٧».

(٢) الحارث بن عباد: ابن قيس بن ثعلبة البكري، أبو منذر، حكيم جاهلي، كان شجاعًا، من السادات شاعرًا، انتهت إليه إمرة بني ضبيعة وهو شاب، وفي أيامه كانت حرب البسوس فاعتزل القتال مع قبائل من بكر، ثم إن المهلهل قتل ولدًا له اسمه بجير، فثار الحارث ونادى بالحرب وخاض غمارها حتى انتصر على تغلب. عمر الحارث طويلًا وتوفي نحو السنة ٥٠ ق هـ - نحو ٥٧٠ م. «الأعلام للزركلي ٢/١٥٦».

(٣) يداك أوكتا: أي يداك شدّتا الوكاء وهو الرّباط.

خرجت منه الريح فغرِق فاستغاث برجل، فقال له: يداك أوْكتا وفوك نفخ، فذهبت مثلًا: يُضرب لمن يجني على نفسه الحَيْن.

وقولهم: «يَشُجُّ ويأسو»: يُضرب لمن يُصيب في التدبير مرّة ويخطىء أخرى؛ قال الشاعر: [من البسيط]

إنـي لأُكـثِرُ مـمّا سُـمتني عَـجَبا يَـدٌ تـشُجُّ وأخرى منك تـأسوني

وقولهم: «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء» أصله أن الرجل يؤتَى باللبن فيُظهِر أنه يريد الرَّغوةَ خاصَّةً فيشربُها، وهو في ذلك ينال من اللبن: يُضرب لمن يُريك أنه يُعينك وإنما يجرُّ النفعَ إلى نفسه؛ قال الكميت: [من الوافر]

فـإنـي قـد رأيـتُ لـكـم صـدودًا وتَـحـسـاءً بـعـلَّةِ مُـرتـغـيـنـا

وقولهم: «يمشِي رُوَيْدًا ويكون أوّلًا»: يُضرب للرجل يُدرك حاجتَه في تُؤَدةٍ ودَعَةٍ، ويُنشَد فيه: [من الرّجز]

تـسـألـني أمُّ الـولـيـد جـمـلًا يـمـشـي رُوَيْـدا ويـكـون أوّلَا

وقولهم: «يُصبح ظمآنَ وفي البحر فَمُه»: يُضرب لمن يعاشر بخيلًا مُثريًا.

وقولهم: «يَمْلأُ الدَّلو إلى عَقْد الكَرَب» مأخوذ من قول عُتْبة بن أبي لَهَب: [من الوافر]

مَـن يُـساجِلْني يُساجِلْ ماجدًا يـمـلأُ الـدَّلـو إلـى عَـقْـد الـكَـرب

وهو الحبل الذي يُشدّ في وسط العَرَاقيّ: يُضرب لمن يبالغ فيما يلي من الأمر.

وقولهم: «يُكْوَى البعيرُ مِن يَسيرِ الداء»: يُضرب في حَسْمِ الأمرِ الضائرِ قبل أن يعظُم ويتفاقم.

وقولهم: «يعود على المرء ما يَأتمر» ويُروَى: يَغْدو؛ معناه يعود على الرجل ما تأمرُه به نفسُه فيأتمرُ، أي يمتثله ظنًّا منه أنه رشد، وربما كان هلاكُه فيه، ومنه قول امرىء القيس: [من المتقارب]

أحـارِ بـنَ عـمـرو كـأنّـي خَـمِـرْ ويـعـدو عـلى الـمرء ما يـأتـمرْ[1]

---

(١) أحار: مرخّم يا حارث، والخمر: الذي خالط رأسه الخمار، وعدا عليه: جار.

ومما يُتمثَّلُ به من أشعار الجاهلية

امرؤ القيس بن حُجْر: قد تقدّم من شعره في الاستشهاد على أمثال العربِ ما يُستغنى عن إعادته في هذا المكان.

ومن شعره: [من السريع]

والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّجلِ   رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

* إن الشّقاءَ على الأشقَيْنَ مصبوبُ *

وقال أيضًا: [من الوافر]

وقاهم جدُّهم ببني أبيهم   وبالأشقَيْنَ ما كان العتابُ

وقال: [من الطويل]

فإنّك لم يُفخَرْ عليكَ كفاخرٍ   ضعيفٍ ولم يغلِبْك مثلُ مُغلَّبِ

زُهير بن أبي سُلمَى يقول: [من الطويل]

ومن يغتربْ يحسِبْ عدوًّا صديقَهُ   ومن لا يُكرِّمْ نفسَهُ لا يُكرَّمِ
ومهما يكن عند امرىءٍ من خَليقةٍ   ولو خالَها تخفَى على الناسِ تُعلَمِ
ومن لا يصانعْ في أمور كثيرةٍ   يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأُ بمَنسِمِ(١)
ومن يجعلِ المعروفَ من دون عِرضه   يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتمِ
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله   على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَمِ
ومن لا يذُدْ عن حوضه بسلاحه   يُهدَّمْ ومن لا يَظلمِ الناسَ يُظلَمِ
ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنه   مُطيعُ العوالي رُكِّبَتْ كلَّ لَهذَمِ(٢)

وقال أيضًا: [من الطويل]

وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلّا وشيجُهُ   وتُغرَس إلّا في مَنابتها النخلُ

---

(١) المنسم: طرف خف البعير والنعامة والفيل، وفيل منسما البعير: ظفراه اللذان في يديه. «اللسان ٥٧٤/١٢».

(٢) لهذم: سيف لهذم: حاد ـ ولهذم الشيء: قطعه ـ واللهذم: كل شيء من سنان أو سيف قاطع. «لسان العرب ٥٥٦/١٢».

وقال أيضًا: [من الكامل]

والسترُ دون الفاحشاتِ وما يلقاكَ دون الخير من سِترِ

وقال أيضًا: [من الوافر]

فإنّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جلاءُ

يقول: إنما الحقوق تصحّ بواحدة من هذه الثلاث: يمينٌ أو محاكمةٌ أو حُجَّةٌ واضحةٌ؛ وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يتعجّب من معرفته بمَقاطعِ الحقوق.

النابغة الذُّبياني: اسمه زياد بن عمرو، ويُكنَى أبا أُمامة؛ غلب عليه «النابغةُ» لأنه عبرَ بُرهةً لا يقول الشعرَ ثم نبغ فقاله؛ وكذلك الجعْديّ[1]؛ وقيل: إنما لُقِّب بالنابغة لقوله: [من الوافر]

* فقد نَبَغَتْ لهم منّا شؤونُ *

وقيل في نسبه: زياد بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن يَربوع بن غيْظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان.

فممّا يُتمثّل به من شعره قوله: [من الطويل]

فإنك كالليل الذي هو مُدركِي فإن مطيّةَ الجهلِ الشبابُ

وقال: [من الطويل]

ولستَ بمُستبقٍ أخًا لا تَلُمُّه على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ؟

وقال أيضًا: [من الكامل]

إستبقِ ودَّك للصديق ولا تكنْ قَتَبًا يُعَضُّ بغاربٍ مِلحاحَا[2]

طرفة بن العبد يقول: [من الطويل]

حَنانَيْك بعضُ الشرّ أهون من بعضِ ما أشبهَ الليلةَ بالبارحَه

---

(١) الجعدي: هو النابغة الجعدي عبد الله بن قيس بن كعب بن ربيعة، جاهليٌّ أدرك الإسلام وأتى النبيّ ومدحه فقال له النبي عليه الصلاة والسّلام: لا يفضض الله فاك، فبقي عمره لم تنقضّ له سن، وهو من المعمّرين. «الشعر والشعراء: ١٧٧».

(٢) القِتْبُ: إكاف البعير، وأقتب البعير إقتابًا: إذا شد عليه القتب. «اللسان ١/ ٦٦٠». والغارب: الكاهل من الخف، وهو ما بين السنام والعنق. «اللسان ١/ ٦٤٤».

وقال أيضًا: [من الطويل]

سَتُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلًا ... ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وأَعْلَمُ عِلمًا ليس بالشكّ أنَّهُ ... إذا ذلّ مولَى المرء فهو ذليلُ

أَوس بن حَجَرٍ[١] يقول: [من الطويل]

فإنّكما يا ابنَيّ حُبابٍ وُجدتُما ... كمن دبَّ يستخفِي وفي الكفِّ جُلْجُلُ[٢]

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما ينهض البازِي بغير جَناحهِ ... ولا يَحمِل الماشِينَ إلّا الحواملُ
إذا أنت لم تعرِضْ عن الجهل والخنا ... أَصبتَ حليمًا أو أصابك جاهلُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

ولستُ بخابىءٍ أبدًا طعامًا ... حذارَ غدٍ، لكلِّ غدٍ طعامُ

بشر بن أبي خازم[٣] يقول: [من الطويل]

* وأيدي النّدى في الصالحين قروضُ *

* كَفى بالموت نأيًا واغترابا *

المتلمس وهو جرير بن عبد المسيح يقول: [من الوافر]

قليلُ المال تُصلحُهُ فيبقَى ... ولا يبقَى الكثيرُ مع الفسادِ

(١) أوس بن حجر: (٩٨ ـ نحو ٢ ق.هـ = ٥٣٠ ـ نحو ٦٢٠ م) ابن مالك التميمي، أبو شُريح، شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائها، كان كثير الأسفار وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة، عمر طويلًا ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وكان غزلًا مغرمًا بالنساء، وكانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب.

(٢) الجلجل: جرس صغير يعلّق على الدّواب. «الشعر والشعراء ص ١١٩، والأعلام للزركلي ٢/ ٣١».

(٣) بشر بن أبي خازم: عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل، شاعر جاهلي فحل، من الشجعان، من أهل نجد، له قصائد في الفخر والحماسة جيدة، توفي قتيلًا في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية، توفي نحو ٢٢ ق.هـ ـ نحو ٥٩٨ م. «الشعر والشعراء ص ١٦٨، والأعلام للزركلي ٢/ ٥٤».

وقال أيضًا: [من الطويل]

لذي الحلمِ قبل اليومِ ما تُقْرَعُ العصا ... وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليَعلَما

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي ... جَعلتُ لهم فوق العَرانِينِ مِيْسَما

وما كنتُ إلّا مثلَ قاطعِ كفِّهِ ... بكفٍّ له أخرى فأصبحَ أجذما

وقال أيضًا: [من البسيط]

ولا يُقيم على ذلٍّ يراقبهُ ... إلا الأذلّان عَيرُ السوءِ والوتدُ

هذا على الخسف مربوطٌ برُمّته ... وذا يُشَجُّ فلا يَرثِي له أَحدُ

الأفوه الأودي[1] يقول: [من الوافر]

إنّما نعمةُ دنْيا مُتعةٌ ... وحياةُ المرءِ ثوبٌ مستعارُ

وصروفُ الدهرِ في أطباقه ... حَلْقةٌ فيها ارتفاعٌ وانْحدارُ

بينما الناس على عَليائها ... إذْ هوَوا في هوّةٍ منها فغاروا

وقال أيضًا: [من البسيط]

والبيت لا يُبتنَى إلّا له عَمَدٌ ... ولا عِمادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ

فإن تجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ ... وساكنٌ، بلغوا الأمر الذي كادوا

تَهْدا الأمورُ بأهل الرأي ما صلَحتْ ... وإن تولّت فبالأشرار تنقادُ

لا يَصلحُ الناسُ فَوْضَى لا سَراةَ لهم ... ولا سَراةَ إذا جُهّالهم سادوا

تميم بن أبي مقبل[2] يقول: [من الطويل]

خليليّ لا تستعجلا وانظرا غدًا ... عسى أن يكون الرفقُ في الأمر أَرشَدا

---

(١) الأفوه الأودي: صلاءة بن عمرو، من بني أُود، من مذحج، شاعر يماني جاهلي، يكنى أبا ربيعة، قالوا: لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان، كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم، وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره، توفي نحو ٥٠ ق.هـ ـ نحو ٥٧٠ م. «الشعر والشعراء ص ١٣٤، والأعلام للزركلي ٣/ ٢٠٦».

(٢) تميم بن أبي مقبل: من بني العجلان، من عامر بن صعصعة، أبو كعب، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، فكان يبكي أهل الجاهلية، عاش نيفًا ومئة سنة، وعد في المخضرمين، وكان يهاجي النجاشي الشاعر، له ديوان شعر ورد فيه ذكر وقعة صفين سنة ٣٧ هـ ـ توفي بعد ٣٧ هـ ـ ٦٥٧ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٨٧».

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما أنعمَ العيشَ! لو أنّ الفتى حَجَرٌ تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومُ

حُمَيد بن ثَوْر[1] يقول: [من الطويل]

أرى بَصَري قد رابني بعد صحّة وحسبك داءً أن تَصحّ وتسلما
ولن يلبثَ العصران يومًا وليلةً ـ إذا طَلَبا ـ أن يُدرِكا ما تيمّما

عدي بن زيد[2] يقول: [من الطويل]

كفى واعظًا للمرء أيامُ دهره تروح له بالواعظاتِ وتغتدي
عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينه فكلّ قرينٍ بالمقارِنِ يقتدي
وظلمُ ذوي القُربىَ أشدُّ مَضاضةً على المرء من وقع الحسام المهنّدِ
إذا ما رأيت الشرّ يبعث أهلَه وقام جُناة الشرّ للشرّ فاقعدِ

قال أيضًا: [من البسيط]

يا راقدَ الليل مسرورًا بأوّله إنّ الحوادثَ قد يطرُقن أسحارا

وقال: [من السّريع]

قد يُدرك المبطيءُ من حظّه والخيرُ قد يسبقُ جَهدَ الحريص

وقال: [من الرّمل]

لو بغير الماء حَلْقي شرِقٌ كنت كالغَصّانِ بالماء اعتصاري

وقال: [من الوافر]

فهل من خالدٍ إمّا هلكنا وهل بالموت يا لَلنّاس عارُ؟

---

(١) حميد بن ثور بن حزن الهلالي العامري، أبو المثنى، شاعر مخضرم، عاش زمنًا في الجاهلية، وشهد حنينًا مع المشركين، وأسلم ووفد على النبي ﷺ ومات في خلافة عثمان سنة ٣٠ هـ ـ ٦٥٠ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٢٨٣».

(٢) عدي بن زيد: التميمي، شاعر من دهاة الجاهليين، من أهل الحيرة، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية والرمي بالنشاب، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، اتخذه في خاصته وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب، تزوج هندًا بنت النعمان بن المنذر، ووشى به أعداء له إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة نحو سنة ٣٥ ق.هـ ـ نحو ٥٩٠ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٢٠، والشعر والشعراء ص ١٣٥».

الأسود بن يعفر(١) يقول: [من الكامل]

ماذا أؤمل بَعدَ آلِ محرّقٍ ... تركوا منازلَهم وبَعدَ إيادِ
أرضٌ تخيَّرها لطيبِ مَقيلها ... كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أمّ دؤاد
أهلُ الخورنَق والسَّديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ من سِندادِ(٢)
جرت الرِّياح على محلّ ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غَنُوا فيها بأنعَم عيشةٍ ... في ظلّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ
فإذا النعيمُ وكلُّ ما يُلهى به ... يومًا يصيرُ إلى بِلًى ونَفادِ

علقمة بن عَبَدَة(٣) يقول: [من الطويل]

فإن تسألوني بالنّساء فإنني ... عليمٌ بأدواء النّساءِ طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُه ... فليس له في وُدّهنَّ نصيبُ
يُرِدْنَ ثَراءَ المال حيث علِمنه ... وشرخُ الشباب عندهنّ عجيبُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

وكلُّ حِصنٍ وإنْ طالت إقامتُه ... على دعائمهِ لا بدّ مهدومُ
ومن تَعرّضَ للغِربان يزجرُها ... على سلامته لا بدَّ مشؤومُ

عمرو بن كُلثوم(٤) يقول: [من الوافر]

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمروٍ ... بصاحبك الذي لا تَصحبينا
وإنّ غدًا وإنّ اليومَ رهنٌ ... وبَعدَ غد بما لا تَعلَمينا

---

(١) الأسود بن يعفر: من بني حارثة النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل، ويكنى أبا الجراح، شاعر جاهلي من سادات تميم، من أهل العراق، كان فصيحًا جوادًا، نادم النعمان بن المنذر، ولما أسن كف بصره، ويقال له أعشى بني نهشل. توفي نحو ٢٢ ق.هـ ـ نحو ٦٠٠ م. «الشعر والشعراء ص ١٥٧، والأعلام للزركلي ١/ ٣٣٠».

(٢) سنداد: اسم نهر بين الحيرة والأبلّة، وكان عليه قصر تحجّ إليه العرب، سُمّي باسم صاحبه سنداد. «معجم البلدان ٣/ ٢٦٦».

(٣) علقمة بن عبدة: الفحل، من بني تميم، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرىء القيس وله معه مساجلات، توفي نحو ٢٠ ق.هـ ـ ٦٠٣ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٤٧، والشعر والشعراء ص ١٣٠».

(٤) عمرو بن كلثوم: أبو الأسود، من بني تغلب، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في شمالي جزيرة العرب وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه تغلب=

الحارث بن حِلِّزة[١] يقول: [من السّريع]

لا تكسع الشَّولَ بأغبارها إنك لا تدري مَنِ الناتجُ؟[٢]
واصببْ لأضيافكَ ألبانَها فإن شرّ اللبن الوالجُ

حاتم الطائي[٣] يقول: [من الطويل]

أماويَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشرَجتْ يومًا وضاق بها الصدر
وقد عَلِمِ الأقوامُ لو أن حاتمًا أراد ثَراءَ المال، كان له وَفْرُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وأنت إذا أعطيتَ بطنك سؤلَه وفرَجَك، نالا منْتَهى الذمّ أجمعا

المرقِّش الأصغر[٤] يقول: [من الطويل]

ومَن يَلقَ خيرًا يَحمَدِ الناسُ أمرَهُ ومن يَغوَ لا يعدمْ على الغيّ لائما

النَّمر بن تولَب[٥] يقول: [من الطويل]

يودّ الفتى طولَ السلامة جاهدًا فكيف تُرى طولُ السلامةِ يفعلُ

= وهو فتى وعمر طويلًا وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند، أشهر شعره معلقته التي مطلعها «ألا هبّي» توفي نحو ٤٠ هـ ـ ٥٨٤ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ٨٤».

(١) الحارث بن حلزة: اليشكري الدائلي، شاعر جاهلي من أهل بادية العراق ومن أصحاب المعلقات، كان أبرص فخورًا، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالميرة ومطلعها: آذنتنا بينها أسماء جمع بها كثيرًا من أخبار العرب ووقائعهم توفي نحو ٥٠ ق.هـ ـ نحو ٥٧٠ م. «الشعر والشعراء ص ١١٦، والأعلام للزركلي ٢/ ١٥٤».

(٢) تكسع الشول: تترك في خلف الناقة بقية من لبن، يريد بذلك تغزيرها وهو أشد لها، أغبارها: جمع غبر وهي بقية اللبن في الضرع، والكسع: أن تترك لبنًا في الناقة فلا تحتلبها. «لسان العرب ٨/ ٣١٠».

(٣) حاتم الطائي: ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عدي، فارس، شاعر، جواد، جاهلي، يضرب المثل بجوده، كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج حاوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيّىء) كان شعره كثير، وضاع معظمه. توفي سنة ٤٦ ق.هـ ـ ٥٧٨ م. «الزركلي ٢/ ١٥١».

(٤) المرقش الأصغر: يقال إنه أخو الأكبر، ويقال إنه ابن أخيه، واختلفوا في اسمه، فقال بعضهم هو عمرو بن حرملة، وقال آخرون هو ربيعة بن سفيان، وهو من بني سعد وأحد عشاق العرب المشهورين، أمه كانت بنت عمرو بن هند، وهو عم طرفة بن العبد كان أجمل الناس وجهًا ومن أحسنهم شعرًا وهو شاعر جاهلي من أهل نجد. توفي نحو ٥٠ ق.هـ ـ نحو ٥٧٠ م. «الشعر والشعراء ١٢٧، والزركلي ٣/ ١٦».

(٥) النمر بن تولب: شاعر مخضرم، عاش عمرًا طويلًا في الجاهلية، وكان فيها شاعر «الرباب» ولم=

وقال أيضًا: [من الكامل]

ومتى تُصبْك خَصاصةٌ فارجُ الغنَى وإلى الذي يَهَب الرغائبَ فارغبِ
لا تغضبنَّ على امرئٍ في ماله وعلى كرائمِ صُلب مالكَ فاغضبِ

وقال: [من المتقارب]

فلا وأبي، الناسُ لا يعلمو ن، للخير خيرُ وللشرّ شرُّ
فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نُساء ويومًا نُسرُّ

مهلهل بن ربيعة[1]، واسمه عديّ يقول: [من المنسرح]

أَعِززْ على تغلبٍ بما لقِيتْ أختُ بني الأكرمين من جُشَمِ
أنكحها فقدُها الأراقمَ في جَنْبٍ وكان الخِباء من أدَمِ
لو بأبانين جاء يخطبها ضُرِّج مما أنفُ خاطبٍ بدمِ
ليسوا بأكفائنا الكرامِ ولا يغْنُون من ذلّة ولا عَدَمِ

طُفَيل الغنوي[2] يقول: [من البسيط]

إنّ النّساء كأشجارٍ نَبتن معًا منهن مُرٌّ، وبعضُ المرِّ مأكولُ
إنّ النّساء متى يُنهيْنَ عن خُلُقٍ فإنه واجب لا بدّ مفعولُ

عُروة بن الورد[3] يقول: [من الطويل]

وما شاب رأسي من سنينَ تتابعتْ عليّ ولكن شيّبتني الوقائعُ

= يمدح أحدًا ولا هجا، وكان من ذوي النعمة والوجاهة جوادًا وهّابًا لما له، أدرك الإسلام وهو كبير السن، ووفد على النبي ﷺ فكتب عنه كتابًا لقومه، توفي ١٤ هـ ـ نحو ٦٣٥ م. «الشعر والشعراء ص ١٩٥، والزركلي ٨/ ٤٨».

(١) مهلهل بن ربيعة: عدي بن ربيعة بن معاوية بن الحارث بن معاوية، من كندة، جد جاهلي من نسله شرحبيل بن السمط. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٢٠».

(٢) طفيل الغنوي: طفيل بن عوف بن كعب، من بني غني، من قيس عيلان، شاعر جاهلي فحل، من الشجعان، وهو أوصف العرب للخيل، وربما سمي طفيل الخيل لكثرة وصفه لها، ويسمى أيضًا المحبّر لتحسينه شعره، عاصر النابغة الجعدي، وزهير بن أبي سلمى، ومات بعد مقتل هرم بن سنان سنة ١٣ ق.هـ ـ ٦١٠ م. «الشعر والشعراء ص ٣٠٠، والأعلام للزركلي ٣/ ٢٢٨».

(٣) عروة بن الورد: بن زيد العبسي، من غطفان، من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجدادها، كان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا بغزواتهم، توفي نحو ٣٠ ق.هـ ـ نحو ٥٩٤ م. «الشعر والشعراء ص ٤٥٣، والزركلي ٤/ ٢٢٧».

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن يكُ مثلي ذا عِيالٍ ومُقترًا ... من المال يَطرَحْ نفسَه كلَّ مَطرَحِ
لِيَبلغَ عُذرًا أو يَنالَ رغيبةً ... ومُبْلِغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِحِ

الأعشى[1]: وهو ميمون بن قيس من بني قيس بن ثعلبة يقول: [من البسيط]

كناطحٍ صخرةً يومًا ليفلَقها ... فلم يَضِرْها وأوهَى قرنَهُ الوعلُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

تعالَوا فإنّ الحكم عند ذوي النهى ... من النَّاس كالبَلقاء بادٍ حُجولُها

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن يغتربْ عن قومه لم يزلْ يرى ... مصَارعَ مظلومٍ مَجَرًّا ومَسْحَبَا
وتُدفَن منه الصالحاتُ وإن يُسيءْ ... يكنْ ما أثارَ النارَ في رأس كَبكبَا[2]

وقال أيضًا: [من الكامل]

عوَّدتَ كِندةَ عادةً فاصبرْ لها ... اِغفرْ لجاهلها وروِّ سجالَها

لَقِيط بن معْبَد[3] يقول: [من البسيط]

قوموا قيامًا على أمشاطِ أرجلكم ... ثم افزعوا، قد ينالُ الأمرَ مَنْ فَزِعا
هيهات، ما زالتِ الأموالُ مذْ أبدٍ ... لأهلها ـ إنْ أُصيبوا مرّة ـ تَبَعا

---

(١) الأعشى: ميمون بن قيس بن جندل، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان غزير الشعر يسلك فيه كل مسلك، وكان يغني بشعره فسمي صناجة العرب، عاش عمرًا طويلًا وأدرك الإسلام ولم يسلم ولقب بالأعشى لضعف بصره توفي سنة ٧ هـ ـ ٦٢٩ م. والأعشى ولد وتوفي في قرية منفوحة باليمامة قرب مدينة الرياض. «الشعر والشعراء ص ١٥٩، والأعلام للزركلي ٧/ ٣٤١».

(٢) كبكب: جبل بمكة.

(٣) لقيط بن معبد: والأصح لقيط بن يعمر أو ابن معمر بن خارجة الأيادي، شاعر جاهلي فحل من أهل الحيرة، كان يحسن الفارسية، واتصل بكسرى «سابور» ذي الأكتاف فكان من كتابه والمطلعين على أسرار دولته ومن مقدمي تراجمته وهو صاحب القصيدة التي مطلعها:

يا دار عمرة من محتلها الجرعا ... هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

وهي من غرر الشعر، بعث بها إلى قومه ينذرهم بأن كسرى وجه جيشًا لغزوهم، وسقطت القصيدة في يد أوصلتها إلى كسرى، فسخط عليه وقطع لسانه ثم قتله نحو سنة ٢٥٠ ق.هـ ـ نحو ٣٨٠ م. «الشعر والشعراء ص ١١٧، والأعلام للزركلي ٥/ ٢٤٤».

تأبط شرًا[١]: وهو ثابت بن جابر يقول: [من البسيط]

لَتقرَعنَّ عَليَّ السنَّ من ندمٍ إذا تذكَّرتَ يومًا بعضَ أخلاقي

المثقّب العبدي[٢] يقول: [من الوافر]

فإمّا أن تكون أخي بحقٍّ فأعرفُ منك غثّي من سميني
وإلّا فاطّرحني واتّخذني عدوًّا أتّقيك وتتّقيني
فإنّي لو تعاندني شِمالي عنادَك ما وصلتُ بها يميني

المُمزَّق العَبْدِيّ[٣] يقول: [من الطويل]

فإن كنتُ مأكولًا فكن أنت آكلي وإلّا فأدركْني ولمّا أمزَّقِ

أُفنون التغلِبي[٤] يقول: [من الطويل]

لعمركَ ما يدري الفتى كيف يتّقي إذا هو لم يجعلْ له اللهُ واقيا

الأَضْبط بن قُرَيع السعدي[٥] يقول: [من المنسرح]

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَهْ
لا تحقرنَّ الفقير عَلّك أنْ تركعَ يومًا والدهرُ قد رَفعهْ
واقْبَلْ من الدهرِ ما أتاك به من قرَّ عينًا بعَيْشهِ نَفعهْ

---

(١) تأبط شرًا: أبو زهير ثابت بن عمل، كان شاعرًا بائسًا، يغزو على رجليه، وهو من مضر، شاعر عداء من فتاك العرب في الجاهلية، كان من أهل تهامة، شعره فحل، قتل في السنة ٨٠ ق.هـ - ٥٤٠ م. «الشعر والشعراء ص ١٩٧، والأعلام للزركلي صفحة ٢/ ٩٧».

(٢) المثقب العبدي: محصن بن ثعلبة، شاعر جاهلي كان في زمن عمرو بن هند. «الشعر والشعراء ص ٢٥٥».

(٣) الممزق العبدي: شاش بن نهار، شاعر جاهلي قديم، من أهل البحرين، لقب بالممزق لقوله:
فإن كنتَ مأكولًا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزقَ
«الشعر والشعراء ص ٢٥٧، والأعلام للزركلي ٣/ ١٥٢».

(٤) أفنون التغلبي: واسمه صُريم بن معشر، سَمّي أفنون. ببيت قاله، وقال له كاهنٌ في الجاهلية: إنّك تموت بثنيّة يقال لها إلاهة، نهشته، أفعى في ذلك المكان، ومات من ساعته. «انظر الشعر والشعراء: ٢٦٨».

(٥) الأضبط بن قريع السعدي: من بني عوف بن كعب، شاعر جاهلي قديم، أساء قومه إليه فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين فقال بكل واد بنو سعد، يعني قومه. «الشعر والشعراء ص ٢٤٧، والأعلام للزركلي ١/ ٣٣٤».

سُوَيد بن أبي كاهل(١) يقول: [من الرّمل]

رُبَّ مَن أنضجتُ غيظًا قلبَهُ ... قد تمنّى لي موتًا لم يُطَعْ
ويراني كالشَّجَى في حَلقه ... عَسِرًا مَخرجُه ما يُنتزَعْ
ويُحَيّيني إذا لاقيتُهُ ... وإذا يَخلو له لَحمِي رَتَعْ

انتهى ما يتمثل به من أشعار الجاهلية.

ومما يتمثل به من أشعار المُخَضْرَمين

المخضرمون: هم الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام.

منهم لَبِيد بن ربيعة(٢)، وفاته سنة إحدى وأربعين، وعمره مائة سنة وسبع وخمسون سنة يقول: [من الرّمل]

وإذا رُمتَ رحيلًا فارتحلْ ... واعصَ ما يأمُرُ تَوصيمُ الكسَلْ(٣)
واكذبِ النفسَ إذا حدّثتَها ... إنّ صدقَ النفسِ يُزري بالأملْ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما المالُ والأهلون إلّا وَدِيعةٌ ... ولا بدّ يومًا أن تُردَّ الودائعُ
وما المرءُ إلا كالشّهابِ وضوئِهِ ... يحورُ رَمادًا بعدُ إذْ هو ساطعُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

كانت قَناتي لا تلين لغامزٍ ... فألانها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربّي في السّلامة جاهدًا ... ليُصحّني فإذا السّلامةُ داءُ

---

(١) سويد بن أبي كاهل: سويد بن غُطيف من بني يشكر، أبو سعد، الذبياني الكناني اليشكري، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، كان يسكن بادية العراق، وسجن بالكوفة، لمهاجاته أحد بني شكر أشهر شعره عينية كانت تسمى في الجاهلية باليتيمة. توفي نحو ٦٠ هـ - ٦٨٠ م. «الشعر والشعراء ص ٢٧٤، والأعلام للزركلي ٣/ ١٤٦».

(٢) لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، ويكنّى: أبا عقيل، من الشعراء المخضرمين أدرك الإسلام وحسن إسلامه، مات في أوّل خلافه معاوية. «الشعر والشعراء: ١٦٧».

(٣) التوصيم: التكسير والتفتير.

وقال أيضًا: [من الكامل]

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبَقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجربِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

إلى الحوْل ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذر

كَعْب بن زهير[1] يقول: [من السّريع]

ومن دعا الناسَ إلى ذمّه ذمّوه بالحقّ وبالباطلِ
مقالةُ السوءِ إلى أهلها أسرعُ من منحدرٍ سائلِ

النابغة الجعديّ: وهو قيس بن عبد الله، وقيل حسّان بن قيس بن عبد الله ويكنى النابغة: أبا ليلى، وهو أسنُّ من الذبيانيّ، وطال عمرُه حتى أدركَ أيّام بني أميّة، وهو الذي قال له النبيّ ﷺ: «لا يفضُضِ الله فاك» فما سقطت له سنّ، وفي رواية: فكان أحسن الناس ثغرًا إذا سقطت له سنٌّ تنبت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة، وقيل أكثر.

ومما يُتمثل به من شعره قوله: [من الطويل]

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم يكن له بوادرُ تحمي صفوَهُ أنْ يُكدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكنْ له حليمٌ إذا ما أَوْردَ الأمرَ أصْدرا

وقال أيضًا: [من الطويل]

كُليبُ لعمري كان أكثرَ ناصرًا وأيسرَ جرمًا منك ضُرِّج بالدمِ

أميّة بن أبي الصَّلت الثقفيّ[2] يقول: [من البسيط]

تلك المكارمُ لا قَعبانُ من لبنٍ شيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالَا

---

(١) كعب بن زهير: بن أبي سلمى المازني، أبو المضرَّب، شاعر عالي الطبقة من أهل نجد، كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وأقام يشبب بنساء المسلمين، فهدر النبي دمه، فجاءه كعب مستأمنًا وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

فعفا عنه النبي وخلع عليه بردته. توفي سنة ٢٦ هـ - ٦٤٥ م. «الشعر والشعراء ص ٨٤، والأعلام للزركلي ٥/٢٢٦».

(٢) أمية بن أبي الصلت الثقفي، شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف، قدم دمشق قبل الإسلام، وكان مطلعًا على الكتب القديمة، يلبس المسوح تعبّدًا، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر=

حسان بن ثابت[١] يقول: [من الطويل]

وإن امرءًا يُمسي ويُصبح سالمًا ... من الناسِ - إلّا ما جنى - لَسعيدُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

رُبَّ حِلمٍ أضاعه عَدَمُ الما ... لِ وجهلٍ غطَّى عليه النعيمُ

ما أبالي أنبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ ... أم لحاني بظهرِ غَيبٍ لئيمُ؟

الحُطَيئة: واسمه جرول بن أوس بن مخزوم. وقيل: جرول بن أوس بن مالك بن غطفان بن سعد ويُكنَى: أبا مُلَيكة، والحطيئة لقبٌ غَلب عليه؛ قيل لقب به لقصره وقربه من الأرض؛ وقيل: حبِق[٢] في مجلس قومه فقال: إنما هي حَطْأة فسمِّيَ الحطيئةُ.

فمما يتمثّل به من شعره قوله: [من البسيط]

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعدَمْ جوازِيَه ... لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها ... واقعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي

وقال أيضًا: [من الطويل]

أقِلُّوا عليهمْ لا أبًا لأبيكُمُ ... من اللومِ أو سُدّوا المكانَ الذي سَدّوا

أولئك قومٌ إن بَنوا أحسنوا البِنَا ... وإنْ وعدوا أوفوا وإنْ عقدوا شدّوا

متمم بن نويرة يقول: [من الطويل]

وكنّا كندمانَيْ جَذِيمةَ حِقبةً ... من الدهرِ حتى قيل لن يتصدّعَا

فلما تفرّقنا كأني ومالكًا ... لطول اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معَا

= ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية، قال عن النبي عندما سئل عنه: أشهد أنه على الحق، إلا أنه لم يسلم وذلك بعد أن علم بمقتل ابني خالٍ له وأقام في الطائف إلى أن مات سنة ٥ هـ - ٦٢٦ م. «الشعر والشعراء ص ٣٠٥، والأعلام للزركلي ٢/ ٢٣».

(١) حسان بن ثابت الخزرجي الأنصاري. أبو الوليد الصحابي شاعر رسول الله ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة، واشتهرت مدائحه في الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام وعمي قبيل وفاته، لم يشهد مع النبي ﷺ مشهدًا لعلة أصابته، توفي سنة ٥٤ هـ - ٦٧٤ م في المدينة. «الشعر والشعراء ص ١٩٢، والأعلام للزركلي ٢/ ١٧٥».

(٢) حبق: خرط، والجمع حباق. «اللسان مادة حبق».

أبو ذؤيب الهذليّ(١) يقول: [من الكامل]

وتجلّدي للشامتين أريهمُ أني لريبِ الدهرِ لا أتضعضعُ
وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ
والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتهَا وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنعُ

الخنساء(٢): وهي تُماضِرُ بنت عمرو بن الشريد تقول: [من المتقارب]

ومَنْ ظنّ مَمّنْ يُلاقي الحروبَ بأن لا يصابَ فقد ظنَّ عَجْزا

وقالت أيضًا: [من المتقارب]

نُهينُ النفوسَ، وبذلُ النّفو سِ عند الكريهةِ أبقَى لها

عمرو بن معديكرِب(٣) يقول: [من الوافر]

إذا لم تستطع أمرًا فدعْهُ وجاوزْه إلى ما تستطيعُ

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفّل]

ليس الجَمالُ بمئزَرٍ فاعلمْ وإن رُدّيتَ بُردَا
إن الجمال مآثرٌ ومكارمٌ أو رثْنَ مجدَا

---

(١) أبو ذؤيب الهذلي: خويلد بن خالد، من مضر، شاعر فحل مخضرم، سكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان، شهد فتح إفريقية، أشهر شعره عينية رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد، توفي نحو ٢٧ هـ ـ ٦٤٨ م. «الشعر والشعراء ص ٤٤٠، والأعلام للزركلي ٢/ ٣٢٥».

(٢) الخنساء: تماضر بنت عمرو بن الحارث، من بني سليم، من مضر، أشهر شواعر العرب، وأشعرهن على الإطلاق، من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العصر الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت، ووفدت على رسول الله مع قومها بني سليم، فكان رسول الله ﷺ يستنشدها ويعجبه شعرها. توفيت سنة ٢٤ هـ ـ ٦٤٥ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٨٦».

(٣) عمرو بن معديكرب: فارس اليمن وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة ٩ هجرية، في عشرة من بني زبيد فأسلم وأسلموا وعادوا. ولما توفي الرسول ﷺ ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، شهد اليرموك وذهبت فيها إحدى عينيه، وشهد القادسية، يكنى أبا ثور، له شعر جيد، توفي على مقربة من الري وقيل قتل عطشًا يوم القادسية. «الأعلام للزركلي ٥/ ٨٦».

معن بن أوس[١] يقول: [من الطويل]

وفي الناس ـ إنْ رثّتْ حبالُك ـ واصلٌ   وفي الأرض عن دار القِلَى متحوَّلُ
إذا انصرفتْ نفسي عن الشيء لم تَكدْ   إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقبلُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

أُعلِّمه الرماية كلَّ يومٍ   فلما اشتدَّ ساعدُهُ رماني

زياد بن زيد يقول: [من الطويل]

ولا أتمنى الشرَّ ـ والشرُّ تاركي ـ   ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركبِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

هل الدهرُ والأيامُ إلّا كما ترى؟   رزيَّةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ

أَيْمَن بن خُزَيم بن فاتك الأسدي[٢] يقول: [من الرّمل]

إن للفتنة مَيْطًا بيننا   فرويدَ المَيْط منها تَعتدلْ[٣]
فإذا كان عَطاءٌ فأْتِهِمْ   وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

انتهى ما يُتمثل به من أشعار المخضرمين.

ومما يتمثل به من أشعار المتقدّمين في صدر الإسلام

القُطَاميّ[٤]: واسمه عُمير بن شُييم يقول: [من الوافر]

ومَعصيةُ الشقيقِ عليك ممّا   يَزيدك مرّةً منه استماعَا

---

(١) معن بن أوس: المزني، شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام، له مدائح في جماعة من الصحابة، رحل إلى الشام والبصرة، وكف بصره في أواخر أيامه، كان معاوية يفضله ويقول: أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس، وهو صاحب لامية العجم التي أولها:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل   على أيّنا تعدو المَنِيّة أول

مات في المدينة سنة ٦٤هـ ـ ٦٨٣ م. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٣».

(٢) أيمن بن خزيم بن فاتك الأسدي: شاعر، كان من ذوي المكانة عند عبد العزيز بن مروان بمصر، ثم تحول عنه إلى أخيه بشر في العراق، وكان يشارك في الغزو، توفي نحو ٨٠ هـ ـ ٧٠٠ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٣٥».

(٣) الميط والمياط: الدّفع والزجر. «اللسان ٧/ ٤٠٩».

(٤) القطامي: عمير بن شييم: من بني جشم بن بكر، أبو سعيد، التغلبي الملقب بالقطامي، شاعر=

وخيرُ الأمرِ ما استقبلتَ منه ... وليس بأن تتبّعه اتّباعَا
أراهم يغمزون من اسْتَرَكُّوا ... ويجتنبون مَن صَدق المِصاعَا(١)
كذاك وما رأيتُ الناسَ إلا ... إلى ما جرّ جانيهم سِراعَا

وقال أيضًا: [من البسيط]

قد يُدرِك المتأنّي بعضَ حاجتهِ ... وقد يكون مع المستعجل الزللُ
وربما فات بعضَ القومِ أمرُهُمُ ... مع التأنّي وكان الرأيُ لو عجِلوا
والناسُ من يلقَ خيرًا قائلون له ... ما يشتهِي ولأمّ المخطىءِ الهَبَلُ

الطِّرِمّاح بن حكيم بن الحكم يقول: [من الطويل]

لقد زادني حبًّا لنفسي أنّني ... بغيضٌ إلى كلّ امرىءٍ غيرِ طائلِ
وأني شقيٌّ باللئام ولن ترى ... شقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائلِ

الْكميتَ بن زيد الأسديّ(٢) يقول: [من الطويل]

إذا لم يكن إلّا الأسنةَ مركبٌ ... فلا رأى للمضطَرّ إلّا ركوبُها

وقال أيضًا: [من الطويل]

فيا موقدًا نارًا لغيرك ضوؤها ... ويا حاطبًا في حبلِ غيرِك تحطِبُ

المساور بن هند(٣) يقول: [من الكامل]

شَقيتْ بنو أسدٍ بشعر مُساورٍ ... إن الشقيّ بكل حبلٍ يُخنقُ

= غزل فحل، كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم، جعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، نقل أنه أول من لُقب بصريع الغوانيْ، توفي نحو ١٣٠ هـ ـ ٧٤٧ م. «الشعر والشعراء ص ٤٨٦، الأعلام للزركلي ٥/ ٨٨».

(١) استركّوا: استضْعَفوا، ويغمزون: يشدّون ويحملون على الضعفاء يقال: غمز القناة: إذا عضّها وعصرها وجسّها، والمصاع: المجالدة والمضاربة، يريد أنّهم يحملون على الضعفاء ويجتنبون الأشداء الأقوياء.

(٢) الكميت بن زيد الأسدي: أبو المستهل، كان معلمًا للصبيان في مسجد بالكوفة، وهو من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي وكان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، وهو شاعر الهاشميين، أشهر شعره الهاشميات وقد ترجمت إلى الألمانية. ولد سنة ٦٠ هـ ـ ٦٨٠ م. وتوفي سنة ١٢٦ هـ ـ ٧٤٤ م. «الشعر والشعراء ص ٣٩٠، والأعلام للزركلي ٥/ ٢٣٣».

(٣) المساور بن هند: كنيته أبو الصمعاء، وهو المساور بن هند بن قيس بن زهير، كان يهجو بني أسد، عمر طويلًا. ولد في حرب داحس والغبراء وعاش إلى أيام الحجاج وكان أعور. توفي سنة ٧٥ هـ ـ ٦٩٥ م. «الشعر والشعراء ص ٢٢٢، والأعلام للزركلي ٧/ ٢١٤».

عديّ بن الرِّقاع[(١)] يقول: [من الكامل]

وإذا نظرتُ إلى أميري زادني ... ضنًّا به نظري إلى الأمراءِ
بل ما رأيتُ جبالَ أرضٍ تستوي ... فيما غشيتُ ولا نجومَ سماءِ
كالبرق منه وابلٌ متتابع ... جودٌ وآخرُ ما يبِضُّ بماءِ
والمرء يورِثُ مجدَه أبناءَه ... ويموت آخَرُ وهو في الأحياءِ

الفرزدق، واسمه همام بن غالب يقول: [من الطويل]

فوا عجبًا حتى كُليبٌ تسبُّني ... كأنّ أباها نهشلٌ أو مُجاشعُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

تُرجّي ربيعُ أن يجيءَ صِغارُها ... بخيرٍ وقد أعيا عليك كِبارُها

وقال أيضًا: [من الطويل]

فإن تَنجُ منها، تَنجُ من ذي عظيمةٍ ... وإلّا فإني لا إخالك ناجيا

وقال أيضًا: [من البسيط]

يَمضي أخوك فلا تَلقَى له خَلَفًا ... والمالُ بعد ذهابِ المال مُكتَسَبُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

ليس الشفيعُ الذي يأتيك مؤتزرًا ... مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عُريانا

وقال أيضًا: [من الخفيف]

قُلْ لنضْرٍ، والمرءُ في دولةِ السلـ ... ـطانِ أعمى ما دام يُدعَى أميرا
فإذا زالت الولايةُ عنهُ ... واستوى بالرجال، عاد بصيرا

وقال أيضًا: [من البسيط]

ولا تلين لسلطانٍ يُكايدُنا ... حتى يلينَ لِضرسِ الماضغِ الحجرُ

---

(١) عدي بن الرقاع: عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، من عاملة (جبل عامل) شاعر كبير وأحسن من وصف ظبية يكنى أبا داود، كان معاصرًا لجرير مهاجيًا له، لقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام، مات في دمشق سنة ٩٥ هـ ـ ٧١٤ م. «الشعر والشعراء ص ٤١٥، والأعلام للزركلي ٤/ ٢٢١».

وقال أيضًا: [من الطويل]

هل ابنُك إلّا ابنٌ مِن الناسِ فاصبَرنْ فلن يَرجِعَ الموتى حنينُ المآتمِ

جرير: هو ابن الخَطَفِي تُوفِّي سنة عشر ومائة يقول: [من الكامل]

إن الكريمةَ يَنصُرُ الكرمَ ابنُها وابنُ اللئيمة للّئام نُصورُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

زعم الفرزدقُ أن سيقتلُ مَربعا أبشرْ بطولِ سلامةٍ يا مَربعُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صَولةَ البُزْل القَناعيس(١)

وقال أيضًا: [من الطويل]

رأيتك مثلَ البرق يُحسَبُ ضوؤهُ قريبًا وأدنى ضوئِهِ منك نازحُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

أمّا الرجالُ فَجِعْلَانٌ ونِسْوتُهم مثلُ القَنافِذ لا حُسنٌ ولا طِيبُ

الأخطل: واسمه مالك بن غياث بن غوث، وقال أبو الفرج الأصبهاني: اسمه غياث بن غوث بن الصلْت بن طارقة بن سيحان بن عمرو، ورُفِعَ نسبُه إلى جُشَم بن بكر ويُكنَى: أبا مالك، قال: وقال المدائني: هو غياث بن غوث بن سلمة بن طارقة.

فمما يُتمثّل به من شعره قوله: [من الكامل]

والناس همُّهُمُ الحياةُ ولا أرى طولَ الحياة يزيد غيرَ خَبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تَجِدْ ذُخرًا يكون كصالحِ الأعمالِ

قال أيضًا: [من البسيط]

إنّ الضغينةَ تلقاها وإن قدُمت كالعَرِّ يكمُنُ حينًا ثم ينتشرُ(٢)
وأَقسمَ المجدُ حَقًّا لا يُحالفُهم حتى يحالَف بطنَ الراحةِ الشَّعَرُ

---

(١) القناعيس: القنعاس: الجمل الضخم العظيم، ورجل قنعاس: شديد منيع ورجل قناعس: عظيم الخلق. «اللسان ٦/ ١٨٤».

(٢) العرّ: الشرّ.

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا دعَوتَك يا أُخيَّ فإنَّهُ ... أحنى إليكَ مَودّةً ووصالَا

وإذا دعَونكَ عَمَّهُنَّ فإنه ... نسبٌ يزيدُكَ عندهنَّ خَبالَا

وقال أيضًا: [من الطويل]

ضَفادعُ في ظَلماءِ ليلٍ تجاوبتْ ... فدلَّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

وقال أيضًا: [من الرَّجز]

يا مرسلَ الريحَ جَنوبًا وصَبًا ... إنْ غضِبتْ قَيسٌ فزدها غضَبَا

الصَّلَتانُ العَبْدِيّ(١) يقول: [من الطويل]

وإنْ يكُ بحرُ الحنظَليّينَ واحدًا ... فما يستوي حيتانُه والضفادعُ

وما يستوي صدرُ القناة وزُجُّها ... وما يستوي في الراحتيْن الأصابعُ

كُثَيِّر عَزَّة: وهو كثيّر بن عبد الرحمٰن بن الأسود الخزاعيّ، توفّي سنة خمس ومائة يقول: [من الطويل]

وإنّي وَتهيامِي بعزّةَ بعد ما ... تخلّيتُ ممّا بيننا وتخلَّتِ

لكالمرتجِي ظلَّ الغمامةِ كلّما ... تبوَّأَ منها للمقيلِ اضمحلَّتِ

فقلتُ لها يا عزَّ كلُّ مصيبةٍ ... إذا وُطِّنتْ يومًا لها النفسُ ذلَّتِ

هنيئًا مريئًا غيرَ داءٍ مخامرٍ ... لعزَّةَ من أعراضِنا ما استحلَّتِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

قضَى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غريمَهُ ... وعزَّةُ ممطولٌ مُعنًّى غَريمُها

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن لا يُغمِّضْ عينَه عن صديقِهِ ... وعن بعضِ ما فيه يمتْ وهو عاتبُ

ومن يتتبَّعْ جاهدًا كلَّ عثرَةٍ ... يجدْها ولا يسلَمْ له الدهرَ صاحبُ

---

(١) الصلتان العبدي: هو قُثم بن خبيثة، من عبد القيس، اجتُمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجرير. «انظر الشعر والشعراء: ص ٣٣١».

جميل[١] يقول: [من الكامل]

فإن يكُ حربٌ بين قومي وبينها فإنّي لها في كلّ نائبةٍ سَلْمُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

ولربَّ عارضةٍ علينا وصْلَها بالجِدِّ تخلطه بقول الهازلِ
فأجبتُها في القول بعدَ تستُّرِ حُبِّي بثينةَ عن وصالِكِ شاغلِي
لو كان في قلب كقَدْر قُلامةٍ وصلًا وصلتُك أو أتتكِ رسائلي

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة[٢] يقول: [من الرَّمل]

ليت هندًا أنجزَتْنَا ما تعدْ وشفت أكبادَنا ممَّا نجدْ
واستبدّتْ مرّةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبِدْ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

لا تلُمني وأنتَ زيَّنتها لي أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسانِ

وممّا يتمثّل به من أشعار المُحدَثين

منهم إبراهيم بن هَرْمة[٣] يقول: [من الكامل]

عجِبَتْ أُثَيْلةُ أَنْ رأتني مُخلِقًا ثَكِلَتْكِ أمُّكِ، أيُّ ذاكَ يُروعُ؟
قد يُدرِكُ الشرفَ الفتى ورداؤه خَلَقٌ وجَيبُ قميصِهِ مرفوعُ

---

(١) جميل بن معمر: أبو عمرو، شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه فتناقل الناس أخبارهما، شعره يذوب رقة، أقلُّ ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر، قصد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلًا ومات فيه سنة ٨٢ هـ ـ ٧٠١ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ١٣٨».

(٢) عمر بن أبي ربيعة: /٢٣ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٤ ـ ٧١٢ م) أبو الخطاب، أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق، ولد في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب، فسمي باسمه، أكثر شعره في الغزل، وكان يتعرض لنساء الحاج ويشبب بهن، فعلم عمر بن عبد العزيز بذلك فنفاه إلى دهلك، ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه فمات فيها غرقًا. «الأعلام للزركلي ٥/ ٥٢».

(٣) إبراهيم بن هرمة: الكناني القرشي، أبو إسحٰق، شاعر غزل من سكان المدينة، من مخضرمي الدولتين. الأموية والعباسية، رحل إلى دمشق ومدح الوليد بن يزيد فأجازه، ثم وفد على المنصور العباسي في وفد أهل المدينة، فتجهم له، ثم أكرمه، وانقطع إلى الطالبيين وله شعر فيهم، توفي سنة ١٨٣ هـ ـ ٨٠٠ م. «الأعلام للزركلي ١/ ٥٠».

وقال أيضًا: [من المتقارب]

كتاركةٍ بيضَها بالعراءِ ... وملبسةٍ بيضَ أخرى جناحا

بشَّار بن برد[١] يقول: [من الطويل]

إذا كنت في كلّ الأمورِ معاتبًا ... صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبُهْ
فعشْ واحدًا أو صِلْ أخاك فإنه ... مُقارف ذنب مرةً ومجانِبُهْ
إذا أنت لم تشربْ مِرارًا على القذى ... ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُهْ

وقال أيضًا: [من الكامل]

ولا تجعلِ الشّورى عليك غَضاضةً ... فإن الخوافي عُدَّةٌ للقوادِمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلُّ أُختَها ... وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائم

وقال أيضًا: [من المتقارب]

كبكرٍ تَشَهَّى لذيذَ النِّكاحِ ... وتَفرُقُ من صَولةِ الناكحِ[٢]

وقال أيضًا: [من الخفيف]

أنتَ من قَلبِها محلُّ شرابٍ ... يُشتَهى شربُهُ ويُخشَى صُداعُهْ

وقال أيضًا: [من الرَّجز]

الحرُّ يُلحَى والعصا للعبدِ ... وليس للمُلحِفِ مثلُ الردِّ
وصاحبٍ كالدُّمَّلِ الممِدِّ ... حملتُه في رُقعةٍ من جِلْدي

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا جفوتَ قطعتُ عنك مَنافعي ... والدَّرُّ يقطعُهُ جفاءُ الحالبِ

وقال أيضًا: [من المتقارب]

ولولا الذي خَبَّروا لم أكنْ ... لِأمدحَ رَيحانةً قبلَ شَمْ

---

(١) بشار بن برد العقيلي: (٩٥ ـ ٦٦٧ هـ = ٧١٤ ـ ٧٨٤ م) أبو معاذ، أشعر المولدين على الإطلاق، أصله من طخارستان، كان ضريرًا، نشأ في البصرة وقدم بغداد، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية، كان شاعرًا راجزًا شجاعًا خطيبًا، اتهم بالزندقة فمات ضربًا بالسياط، ودفن بالبصرة، نسبته العقيلي إلى امرأة قيل إنها اعتقته من الرق. «الأعلام للزركلي ٢/ ٥٢».
(٢) تفرق: تخاف.

وقال أيضًا: [من الكامل]

تأتِي المقيمَ - وما سَعَى - حاجاته عددَ الحصَى، ويَخيبُ سعيُ الناصبِ[(١)]

وقال أيضًا: [من الخفيف]

أنا والله أشتهِي سحرَ عينيْـ لكِ وأخشَى مَصارعَ العشَّاقِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

نرجو غدًا، وغدًا كحاملةٍ في الحيِّ لا يدرون ما تلدُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

تسقطُ الطيرُ حيث ينتثرُ الحَـ ـبُ وتُغشَى منازلُ الكرماءِ
ليس يُعطيك للرجاءِ ولا الخو فِ ولكنْ يَلذُّ طعمَ العطاءِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

والصعبُ يُمكِنُ بعد ما جُمحا ولن تَبلغَ العليا بغيرِ الدراهمِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولا بدّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ يواسيك أو يُسْليك أو يتوجَّعُ

أبو العتاهية[(٢)] يقول: [من الوافر]

* أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ *

[من الطويل]

* وكلُّ غَنيٍّ في العيونِ جَليلُ *

---

(١) النّاصب: المجدّ المجتهد.

(٢) أبو العتاهية: (١٣٠ - ٢١١ هـ = ٧٤٨ - ٨٢٦ م) اسماعيل بن القاسم العنزي، أبو إسحٰق الشهير بأبي العتاهية، شاعر مكثر سريع الخاطر، كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتًا في اليوم وهو يعد من مقدمي المولدين، كان يجيد القول في الزهد والمديح، ولد في عين النمر قرب الكوفة، نشأ في الكوفة وسكن بغداد وكان في بدء أمره يبيع الجرار فقيل له الجرار، ثم اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم، وهجر الشعر مدة، فبلغ ذلك المهدي العباسي، فسجنه ثم أحضره إليه وهدده بالقتل أو يقول الشعر، فعاد إلى نظمه، فأطلقه، توفي في بغداد. «الأعلام للزركلي ١/ ٣٢١».

[من المجتث]

* روائحُ الجَنَّةِ في الشبابِ *

[من الوافر]

* وأيُّ الناسِ ليس له عُيوبُ *

وقال أيضًا: [من الرّجز]

إنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَهْ مَفْسَدَةٌ للدِّين، أيّ مَفْسدَهْ![1]

وقال أيضًا: [من مجزوء الرَّمل]

أنتَ ما استغنيتَ عن صا حِبِكَ الدهرَ أخوهُ

فإذا احتجتَ إليه ساعةً مَجَّكَ فوهُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما يَحرُزُ المرءُ من أطرافِهِ طَرَفا إلّا تخوَّنَهُ النقصانُ من طَرَفِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

يُصادُ فؤادي حين أَرمي ورَمْيتي تعودُ إلى نَحرِي ويسلمُ مَن أَرمِي

وقال أيضًا: [من من مجزوء الكامل المرفّل]

ولربَّ شهوةِ ساعةٍ قد أورثتْ حزنًا طويلا

سَلْمُ بن عمرو الخاسر: وهو مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهو بصريّ لُقِّبَ الخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفًا فباعه واشترى بثمنه طُنبورًا، وقيل: بل خلَّف أبوه مالًا فأنفقَه في الأدب والشعر، فقال له بعضُ أهله: إنك لخاسرُ الصفقة، فلُقّب بذلك.

فمما يتمثّل به من شعره قوله: [من مخلَّع البسيط]

مَن راقبَ الناسَ مات غمًّا وفاز بالـلذة الجسورُ

لولا مُنى العاشقينَ ماتوا غمًّا، وبعضُ المنى غرورُ

---

(١) الجدة: الغنى والترف.

وقال أيضًا: [من البسيط]

ولو ملكتَ عِنانَ الريحِ تصرُفُهُ … في كلِّ ناحيةٍ ما فاتك الطلبُ

وقال أيضًا: [من المنسرح]

لا تسألِ المرءَ عن خلائقِهِ … في وجهه شاهدٌ من الخبَرِ

صالح بن عبد القُدّوس[1] يقول: [من السَّريع]

ما يَبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ … ما يبلُغُ الجاهلُ من نفسهِ
والجاهلُ الآملُ ما في غدٍ … كحفظه في اليوم أو أمسهِ
والشيخُ لا يَترُك أخلاقَه … حتى يُوارَى في ثرى رمسه
والحُمقُ داءٌ ما له حيلةٌ … تُرجَى كبُعد النجم من لمسهِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وإنَّ عناءً أن تُفهِّمَ جاهلًا … فيَحْسَبُ جهلًا أنه منك أفهمُ
متى يبلغِ البنيانُ يومًا تمامَهُ … إذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدمُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

إذا وَترتَ امرءًا فاحذرْ عداوتَهُ … من يزرعِ الشوكَ لا يحصدْ به عِنبًا

وقال أيضًا: [من الكامل]

شرُّ المواهب ما تجودُ به … من غيرِ مَحْمدَةٍ ولا أَجرِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

لا تجدْ بالعطاء في غير حقٍّ … ليس في منعِ غير ذي الحقّ بخلُ
إنّما الجودُ أن تجودَ على من … هو للجودِ منك والبذلِ أهلُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

يَشقَى رجالٌ ويَشقَى آخرون بهمْ … ويُسعِدُ اللهُ أقوامًا بأقوامِ

---

(١) صالح بن عبد القدوس: أبو الفضل، شاعر حكيم، كان متكلمًا، يعظ الناس في البصرة، شعره كله أمثال وحكم وآداب، اتهم عند المهدي العباسي بالزندقة، فقتله ببغداد في سنة ١٦٠ هـ - ٧٧٧ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٩٢».

وليس رزقُ الفتى من لُطفِ حيلته ... لـكـنْ جـدودٌ بـأرزاقٍ وأقـسـامِ
كالصَّيد يُحْرَمُه الرامي المُجيدُ وقد ... يُرْمَى فيُرزَقُه من ليس بالرامي

وقال أيضًا: [من الخفيف]

إنْ يكنْ ما بِهِ أصبتَ جليلًا ... فذهابُ العزاءِ منه أجلُّ
كلّ آتٍ لا شكَّ آتٍ وذو الجهـ ... ـل مُعَنًّى والغمُّ والحزنُ فضلُ

اِبن مَيَّادةِ(١): هو الرمّاح بن أبي أبرد كنيته شُرَحْبِيل يقول: [من الخفيف]

واعجبا من خالدٍ كيف لا ... يُخطىءُ فينا مرّةً بالصوابِ

وقال أيضًا: [من السريع]

وأرانا كالزرعِ يحصدُهُ الدهـ ... ـرُ فمن بينِ قائم وحصيدِ
وكأنّا للموت رَكْبٌ مُخِبُّو ... ن سراعٌ لمنهلٍ مورودِ

أبو نُواس الحسن بن هانِىء(٢) يقول: [من البسيط]

* دعْ عنك لَومي فإنَّ اللومَ إغراءُ *
* ألا ربَّ إحسان عليك ثقيلُ *

وقال: [من الرجز]

* وللرجاء حرمةٌ لا تُجهلُ *
* وأيُّ جِدٍّ بلَغ المازحُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

---

(١) ابن ميادة: الرماح بن يزيد، وميادة أمه، وهو من بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، أبو شرحبيل ويقال: أبو حرملة، شاعر رقيق، هجاء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان مُقامه بنجد، يفد على الخلفاء والأمراء ويعود، وأخباره كثيرة، توفي سنة ١٤٩ هـ ـ ٧٦٦ م. «الشعر والشعراء ص ٥٢٣، والأعلام للزركلي ٣/ ٣١».

(٢) أبو نُواس: الحسن بن هانىء، كان متفننًا في العلم، قد ضرب في كل نوع منه بنصيب، كان له نظر في علم النجوم وعلم الطبائع، وهو شاعر العراق في عصره، ولد في الأهواز سنة ١٤٦ هـ ـ ٧٦٣ م ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل بالخلفاء من بني العباس، نظم في جميع أنواع الشعر وأجود شعره حمزياته توفي سنة ١٩٨ هـ ـ ٨١٤ م. «الشعر والشعراء ص ٥٤٣، والأعلام للزركلي ٢/ ٢٢٥».

وقال أيضًا: [من المديد]

لا أَذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلَوتُ المرّ من ثمرِهْ

وقال أيضًا: [من السّريع]

وليس لله بمستنكَرٍ أن يجمعَ العالَمَ في واحدِ!

وقال أيضًا: [من المديد]

صار جدًّا ما مزحتُ به ربَّ جدٍّ ساقه اللعِبُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أنّ الجواد مُقَتَّرٌ عليه ولا معروفَ عند بخيلِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وأوبةُ مشتاقٍ بغير دراهمٍ إلى أهله من أعظمِ الحَدَثان

أبو عُيَيْنَة المهلّبي(١) يقول: [من الطويل]

* وكيف جُحود القلبِ والعينُ تشهدُ *

* ولا خيرَ فيمن لا يدومُ له عهدُ *

* وشتّانَ ما بين الولايةِ والعزْلِ *

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرمّل]

وإذا تطاولتِ الرؤو سُ فغطِّ رأسَك ثمّ طاطِهْ

عبد الله بن أبي عتبة المُهلبي(٢) يقول: [من البسيط]

كلُّ المصائبِ قد تمرّ على الفتى فتهونُ غيرَ شمّاتةِ الأعداءِ

---

(١) أبو عيينة المهلبي: محمد بن أبي عيينة، لم نعثر على ترجمة كاملة له، وكان قد عاش في العصر العباسي. ولعله: محمد بن حبيب المهلبي أمير البصرة في زمن المأمون العباسي، توفي فيها سنة ٢١٦ هـ - ٨٣١ م. وكان من أكابر الأمراء. «الأعلام للزركلي ٦/ ١٨١».

(٢) عبد الله بن أبي عتبة المهلبي: ابن يزيد بن حاتم المهلبي الأزدي. أمير، استعمله ابن عمه الفضل بن روح أمير إفريقية على مدينة تونس، فخرج إليه أهلها فقتلوه قبل أن يصل إليها سنة ١٧٨ هـ - ٧٩٤ م. «الزركلي ٤/ ١٤٦، الفهرست لابن النديم ص ٢٣٣».

وقال أيضًا: [من مُخلع البسيط]

مـا كـنـتَ إلا كـلحـمِ مَـيْـتِ دعـا إلـى أكـلـه اضـطـرارُ

العبَّاس بن الأحنف[1] يقول: [من الكامل]

لـو كنتِ عاتبةً لسكَّن رَوْعتي أمَلي رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقَبِ
لكـن مـلِلْتِ فـمـا لصدِّكِ حيلةٌ صدُّ الملول خلافُ صدِّ العاتبِ

وقال أيضًا: [من المنسرح]

صـرتُ كـأنّـي ذبـالـةٌ نـصـبـتْ تُـضـيءُ لِلناسِ وهـي تـحـترق[2]

وقال أيضًا: [من البسيط]

أرى الطريقَ قريبًا حين أسلكُهُ إلى الحبيبِ، بَعيدًا حين أنصرِفُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أنّ التباعدَ بيننا وقـد جـمـعـتْـنـا والأحـبَّـةَ دارُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

أقـمـنـا مـكـرَهـيـن بـهـا فـلمّـا أَلِفـنـاهـا خـرجـنـا مُـكـرَهـيـنـا

وقال أيضًا: [من الطويل]

* ولا خـيـرَ فـي ودٍّ يـكـون بـشـافـعِ *
* مَـنْ عـالـجَ الـشـوقَ لـم يـسـتـبـعـدِ الـدارا *

مُسلم بن الوليد: هو مولى الأنصار، ثم مولى آل أبي أُمامة: أسعد بن زُرارَة الخَزْرَجِي ولُقِّب صريع الغواني، وممّا يُتَمثّلُ به من شعره قوله: : [من البسيط]

دلّتْ على عيبِها الدّنيا وصدَّقها ما استرجعَ الدهرُ ممّا كان أعطانِي

وكان يقول أخذتُ معنى هذا البيتِ من التوراة.

---

(١) العباس بن الأحنف: الحنفي اليماني، أبو الفضل، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس، أصله من اليمامة في نجد، وكان أهله بالبصرة وبها مات أبوه، ونشأ هو ببغداد وتوفي بها وقتل بالبصرة وذلك سنة ١٩٢ هـ ـ ٨٠٨ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢٥٩، والشعر والشعراء ص ٥٦٥».

(٢) الذّبالة: الفتيلة التي تكون في السّراج.

وقال أيضًا: [من الطويل]

يَعُدُّ الفتى مرَّ الليالي سليمةً … وهنَّ به عما قليلٍ عواثرُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

أما الهجاءُ فدَقَّ عِرضُك دونَه … والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهب فأنتَ طليقُ عِرضِك إنه … عِرضٌ عزَزتَ به وأنت ذليلُ

منصور النَّمِريُّ: هو منصور بن الزِّبْرِقان بن سَلَمَة. وقيل منصور بن سَلَمَة بن الزِّبْرِقان بن شريك، مُطْعِمُ الكبشِ الرَّخَم[1]؛ سُمّي بذلك لأنه أطعم ناسًا نزلوا به ونَحرَ لهم. ثم رفع رأسه فإذا هو برخم يحمن حول أضيافه، فأمر أن يُذْبَح لهنّ كبشٌ ويُرمى لهنّ فَفُعِل ذلك ونزلنْ عليه فمزّقنه؛ وهو ابنُ مالك بن سعد بن عامر الضحْيان، سُمّي بذلك لأنه كان سيدَ قومِهِ وحاكِمهم وكان يجلس لهم إذا أضحى النهارُ؛ وهو ابن سعد بن الخَزْرَج بن تَيْمَ الله بن النَّمِر بن قاسط بن هِنْب بن أفصى بن دُعْميّ بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نِزَار.

فمما يُتَمثّل به من شعره قوله: [من الطويل]

لعلّ لها عذرًا وأنت تلومُ … وربَّ امرئٍ قد لام وهو مُليمُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما كنتُ أوفي شبابي كنهَ عِزَّته … حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

أقلِلْ عتابَ من استَرَبْتَ بوُدِّهِ … ليست تُنالُ مودّةٌ بعتابِ

العَتَّابيّ: هو كُلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود بن عمرو بن كُلثوم الشاعر ابن مالك بن عَتّاب بن سعد بن زُهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنْم بن تَغْلب.

فمما يُتَمثل به من شعره قوله: [من الطويل]

وإنّ عظيماتِ الأمورِ مَشُوبةٌ … بمستودعاتٍ في بطونِ الأساودِ[2]

---

(١) الرّخم: طائرٌ من الجوارح يشبه النّسر، كثير الرّيش، أبيض اللون مبقع بسواد.
(٢) المشوبة: الممزوجة.

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولله في عَرْض السمٰواتِ جَنّةٌ ولكنها محفوفةٌ بالمَكارِهِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

قلت للفرقدين، والليلُ مُلقٍ سُودَ أكنافِهِ على الآفاقِ[١]

اِبقيا ما بقيتما سوف يُرمَى بين شخصيكما بسهمِ الفراقِ

أشْجَع السُّلمي[٢]: هو أشجع بن عمرو أبو الوليد، وقيل: أبو عمرو من أهل الرَّقَّة[٣].

فمما يتمثل به من شعره قوله: [من الطويل]

نَسيبُك من أمسى يناجيك طرفُهُ وليس لمن تحتَ الترابِ نسيبُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

سبق القضاءُ بكلِّ ما هو كائنٌ فليَجهدِ المتقلّبُ المحتالُ

وقال أيضًا: [من السريع]

داءٌ قديمٌ في بني آدمِ فتنةُ إنسانٍ بإنسانِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وعلى عدوِّكَ يا ابن عمّ محمدٍ رَصَدان، ضوءُ الصبحِ والإظلامُ

فإذا تنبَّه رعتَه وإذا غفا سلّت عليه سيوفَك الأحلامُ

الجُرْهُميّ[٤]: [من الطويل]

وأعددتُه ذخرًا لكلِّ مُلِمةٍ وسهمُ الرزايا بالذخائر مولعُ

---

(١) الفرقدان: نجمان في الشماء مضيئان.

(٢) أشجع السلمي: أشجع بن عمرو السلمي، أبو الوليد، من بني سليم من قيس عيلان، شاعر فحل، كان معاصرًا لبشار، ولد باليمامة ونشأ بالبصرة وانتقل إلى الرقة واستقر ببغداد، مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيىٰ فقربه من الرشيد، فأعجب الرشيد به، فأثرى وحسنت حاله توفي نحو ١٩٥ هـ ـ ٨١١ م. «الأعلام للزركلي ١/ ٣٣١».

(٣) الرقة: مدينة مشهورة على نهر الفرات، مضى اسمها: أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء، وجمعها رقاق وقيل: الرقاق: هي الأرض اللينة التراب. «معجم البلدان ٣/ ٥٨».

(٤) الجرهمي: عمرو بن الحارث، من ملوك قحطان في الحجاز في العصر الجاهلي القديم، تولى مكة بعد خروج أبيه منها، مات بمكة «الزركلي ٥/ ٧٥»، ولعله عبيد الجرهمي المتوفّى سنة ٦٧ هـ ـ ٦٨٦ م، والذي أدرك النبي. «الزركلي ٤/ ١٨٩».

وقال أيضًا: [من الوافر]

إذا ما ماتَ بعضُكَ فابكِ بعضًا فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

أرى الحلمَ في بعضِ المواطِنِ ذِلَّةً وفي بعضها عزًّا يُسَوِّدُ فاعلَهْ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ودون الندى في كلِّ قلبٍ ثَنيَّةٌ لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنحَدرٌ سهلُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

العيشُ لا عيشَ إلّا ما قَنعتَ به قد يكثُرُ المالُ والإنسان مُفتَقِرُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وهل حازمٌ إلّا كآخر عاجزٍ إذا حلَّ بالإنسانِ ما يُتوقَّعُ

محمود الوَرَّاق[1]: هو محمود بن الحسن البغدادي مولى بني زُهرة، ويُكنى أبا الحسن.

فمما يُتمثّل به من شعره قوله: [من الكامل]

وإذا غلا شيءٌ عليّ تركتُهُ فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذا غلا

وقال أيضًا: [من الكامل]

ما كدتُ أفحصُ عن أخي ثقةٍ إلّا ذَممتُ عواقبَ الفحِصِ

وقال أيضًا: [من السريع]

الدّهر لا يَبْقى على حالةٍ لا بدّ أن يُقبِلَ أو يُدبرا
فإن تَلقَّاك بمكروهِهِ فاصبرْ فإن الدهرَ لن يَصبرا

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا كان وجهُ العُذرِ ليس بواضحٍ فإنّ اطراحَ العذرِ خيرٌ من العذرِ

---

(١) محمود الوراق: محمود بن حسن الوراق، شاعر، أكثر شعره في المواعظ والحكم. توفي نحو ٢٢٥ هـ ـ ٨٤٠ م، وذلك في خلافة المعتصم العباسي. «الأعلام للزركلي ١٦٧/٧، وفوات الوفيات ٧٩/٤».

محمد بن حازم الباهليّ[١]: [من الطويل]

ألا إنّما الدّنيا على المرءِ فتنةٌ ... على كلِّ حالٍ أقبلتْ أم تولّتِ

وقال أيضًا: [من السّريع]

وقائلٍ كيف تفرّقتما ... فقلتُ قولًا فيه إنصافُ
لم يكُ لي شكلًا ففارقتُه ... والناسُ أشكالٌ وألّافُ

السَّمَوألُ بن عَادياء[٢] [من الطويل]

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤمِ عِرضُه ... فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا كنت مَلْحيًا مُسِيئًا ومُحسِنًا ... فغِشْيانُ ما تهوى من الأمرِ أكيسُ

محمد بن أبي زُرْعَة الدِّمَشْقي: [من الكامل]

لا يُؤْنِسَنَّك أن تراني ضاحكًا ... كم ضَحْكَةٍ فيها عُبوسٌ كامِنُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

قد يَمْهنُ الهِنْديُّ وهو حُسامُ ... ويُحتُّ الجوادُ وهو جوادُ

أبو الشِّيص[٣]: واسمه محمد بن رزين بن تَمِيم بن نَهْشَل، وأبو الشِّيص لَقَبٌ غَلَب عليه، وكُنْيَتُه أبو جعفر وهو عمّ دِعْبِل بن عليّ.

فمما يُتمثل به من شعره قوله: [من الطويل]

إذا لم تَكُنْ طُرْقُ الهوى لي ذليلةً ... تنكبتُها وانحزتُ من جانبِ السَّهل

---

(١) محمد بن حازم الباهلي: أبو جعفر، شاعر مطبوع كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي، ولد ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها، أكثر شعره في القناعة ومدح التصون وذم الحرص والطمع، توفي نحو ٢١٥ هـ - ٨٣٠ م. «الأعلام للزركلي ٦/ ٧٥».

(٢) السموأل بن عادياء: الأزدي، شاعر جاهلي حكيم، من سكان خيبر (في شمالي المدينة، كان ينتقل بينها وبين حصن له سماه الأبلق، أشهر شعره لاميته التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

وهي من أجود شعره، له ديوان صغير، وهو الذي تنسب إليه قصة الوفاء مع الشاعر امرىء القيس، توفي نحو ٦٥ ق.هـ - ٥٦٠ م. «الزركلي ٣/ ١٤٠».

(٣) أبو الشيص: محمد بن رزين بن تميم بن نهشل، وأبو الشيص لقب غُلب عليه، وكنيته أبو جعفر وهو عم دعبل الخزاعي. كان في زمن الرشيد العباسي، ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ هـ رثاه. «الشعر والشعراء ص ٥٧٧».

عليّ بن جَبَلَةَ بن عبد الرحمٰن الأبناوي(١)، وهو المُلَقّب العَكَوَّك قال: [من الكامل]

وأرى الليالي ما طوتْ من شِرّتي ... ردّتْه في عِظَتي وفي إفهامي
وعلمتُ أنّ المرء من سَنَن الرّدى ... حيثُ الرمِيَّةُ من سِهامِ الرامي

وقال أيضًا: [من الطويل]

وخافت على التطواف قومي وإنّما ... تُصاب غرارُ الوحشِ وهي رتُوعُ

اللجْلاجُ الحارثي(٢): [من الطويل]

وما كنتُ زوّارًا ولكنّ ذا الهوى ... إلى حيثُ يَهوَى القلبُ تَهْوِي به الرِّجْلُ

وقال أيضًا: [من المتقارب]

إذا ما أهانَ امرؤٌ نَفْسَه ... فلا أكرَمَ اللهُ من يُكرِمُهْ

عبد الصمد بن المعذَّل(٣): [من الرّمل]

ليس لي عُذْرٌ وعندي بُلْغةٌ ... إنما العذرُ لمن لا يستطيع

وقال أيضًا: [من المتقارب]

وأعلمُ أنَّ بناتِ الرجاءِ ... تُحِلُّ العزيزَ مَحَلَّ الذليلِ
وأنْ ليس مُستغنيًا بالكثيرِ ... من ليسَ مُستغنيًا بالقليلِ

وقال أيضًا: [من من مجزوء المتقارب]

أرى الناسَ أُحدوثةً ... فكونوا حيثًا حَسَنْ
كأنْ لم يكنْ ما أتى ... وما قد مضى لم يكنْ

(١) علي بن جبلة بن عبد الرحمٰن الملقب بالعكوك: (١٦٠ ـ ٢١٣ هـ = ٧٧٧ ـ ٨٢٨ م) أبو الحسن المعروف بالعكوك، شاعر عراقي مجيد، كان أعمى أسود اللون، من أحسن الناس إنشادًا، ولد قرب بغداد واستنفد أكثر شعره في مدح أبي دلف العجلي، قتله المأمون. «الأعلام للزركلي ٤/٢٦٨».

(٢) اللجلاج الحارثي: لعلّه علي بن علقمة بن عبد وهب بن عبد الله بن الحارث الجسري، شاعر فارس «ويعرف باللجلاج المحاربي» «انظر معجم الشعراء للمرزباني: ص ١٧٤».

(٣) عبد الصمد بن المعذل: من بني عبد القيس، أبو القاسم، من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ في البصرة، كان هجاءً، (توفي سنة ٢٤٠ هـ ـ ٨٥٤ م).

إذا وطـــنٌ رابـــنـــي   فــكــلُّ بــلادٍ وطـــن
إذا عـــزَّ يـــومًـــا أخـــو   ك فـي بـعـضِ أمـرٍ فَـهُـنْ

الحَمْدوني[1]: [من البسيط]

إنَّ الـمُـقَـدَّمَ فـي حِـذْقٍ بـصـنـعـتـه   أنّـى تـوجَّـه فـيـهـا فـهـو مـحـرومُ

العتبي[2]: [من البسيط]

قالت عهِدتُك مجنونًا، فقلتُ لها: إن الـشـبـابَ جـنـونٌ بـرؤه الـكِـبَـرُ

وقال أيضًا: [من المتقارب]

وحـسـبُـك مـن حـادثٍ بـامـرئٍ   يـرى حـاسـديـه لـه راحـمـيـنـا

أبو سعيد المخزومي[3]: واسمه عيسى بن خالد بن الوليد، والصحيح أنه أبو سعد لا سعيد.

فمما يُتمثل به من شعره قوله: [من المنسرح]

وكـم رأيـنـا لـلـدهـر مـن أسَـدٍ   بـالـت عـلـى رأسِـه ثـعـالـبُـهُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

إذا ضـنَّ الـجَـوادُ بـمـا لـديـه   فما فضلُ الجوادِ على البخيلِ؟

وقال أيضًا: [من مجزوء الخفيف]

لـيـس لـبـسُ الـطـيـالـسِ   مـن لـبـاسِ الـفـوارسِ
لا ولا حَـوْمـةُ الـوغـى   كـصـدور الـمـجـالـسِ
وظُـهـورُ الـجـيـادِ غـ   ـيـر ظـهـور الـطّـنـافـسِ
لـيـس مـن مـارس الـخـطـو   ب كـمـن لـم يـمـارسِ

(١) الحمدوني: هو محمد بن أحمد الحمدوني أورد له صاحب اليتيمة قصيدة في مدح الوزير أبي نصر سابور بن أردشير ولم يورد ترجمة له، «انظر اليتيمة ٣/ ١٤٥».
(٢) العتبي: هو محمد بن عبيد الله بن عمرو، أبو عبد الرحمٰن الأموي، أديب كثير الأخيار، حسن الشعر، من أهل البصرة، توفي سنة ٢٢٨ هـ. «الأعلام ٦/ ٢٥٨».
(٣) هو عيسى بن خالد بن الوليد، المخزومي، أبو سعد، شاعر من أهل بغداد، كثير الشعر جيّده كان يهاجي دعبل الخزاعي مات نحو سنة ٢٣٠ هـ. «الأعلام ٥/ ١٠٢».

دِعْبِل بن عليّ الخزاعيّ(١): هو أبو جعفر واسمه محمد ودعبل لقبٌ غَلَب عليه، والدِّعْبِلُ: البعيرُ المسنُّ، وقيل: الناقةُ التي معها أولادها.

فمما يُتمثّل به من شعره قوله: [من الكامل]

لا تعجبي يا سَلْمُ من رجلٍ ضَحِك المشيبُ برأسِهِ فبكى

وقال أيضًا: [من الطويل]

هي النفس ما حسَّنْته فَمُحسَّنٌ إليها وما قبَّحتَهُ فمُقبّحُ

وقال أيضًا: [من السّريع]

جئنا به يشفعُ في حاجةٍ فاحتاج في الإذنِ إلى شافعِ

وقال أيضًا: [من البسيط]

تلك المساعي إذا ما أخّرتْ رجلًا أحبّ للناس عيبًا كالذي عابهْ
كذاك من كان هَدْمُ عادَتَه فإنّه لبِناء المجدِ عَيَّابُهْ

إسحٰق بن إبراهيم المَوصِليّ(٢): [من الوافر]

وكلُّ مسافرٍ يزدادُ شوقًا إذا دنتِ الديارُ من الديارِ

المؤمل بن أميل: [من البسيط]

إذا مَرِضنا أتيناكُمْ نَعودكُمُ وتذنبون فتأتيكم ونعتذرُ
لا تحسَبوني غنيًا عن مودّتِكم إني إليكم وإن أيسرْتُ مفتقرُ

---

(١) دعبل بن علي الخزاعي: (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ ـ ٨٦٠ م) أبو علي، شاعر، أصله من الكوفة، أقام ببغداد، له أخبار وشعره جيد، كان صديق البحتري، صنف كتابًا في طبقات الشعراء، مدح العلويين وهي العباسيين خاصة الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق، توفي ببلدة تدعى الطيب بين واسط وخوزستان. «الأعلام للزركلي ٢/٣٣٩».

(٢) إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: (١٥٥ ـ ٢٣٥ هـ = ٧٧٢ ـ ٨٥٠ م) أبو محمد، من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلوم الكلام، راويًا للشعر حافظًا للأخبار، شاعرًا، فارسي الأصل، مولده ووفاته ببغداد، نادم الرشيد والمأمون والواثق العباسيين، ألّف كتبًا كثيرة، وعمي قبل موته بسنتين «الأعلام للزركلي ١/٢٩٢».

إبراهيمُ بن العباس بن محمد بن صُول[١] مولى يزيد بن المُهَلَّب يُكنى أبا إسحٰق، وأصله من خُراسان[٢].

فمما يُتمثّل به من شعره قوله: [من الطويل]

وربَّ أخٍ ناديتُه لمُلمَّةٍ   فألفيتُه منها أجلَّ وأعظما

وقال أيضًا: [من المتقارب]

وكنت أذُمّ إليك الزمانَ   فأصبحتُ فيك أذمُّ الزمانا

وكنت أُعِدّك للنائباتِ   فها أنا أطلبُ منك الأمانا

وقال أيضًا: [من الطويل]

دنتْ بأناس عن تناءٍ زيارةٌ   وشَطَّ بليلي عن دُنوٍّ مَزَارُها

وإنّ مقيماتٍ بمُنقَطِع اللّوى   لأقربُ من ليلى وهاتيك دارُها

أبو عليّ البصير[٣]: وهو الفضل بن جعفر الكوفيّ يقول: [من الطويل]

فلا تعتذرْ بالشُّغلِ عنّا فإنّما   تناطُ بك الآمال ما اتصل الشُّغلُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

لعمرِ أبيَك ما نُسب المعلّى   إلى كرمٍ وفي الدُّنيا كريمُ

ولكنّ البلادَ إذا اقشعرّت   وصوّح نبتُها رُعي الهشيمُ

---

(١) إبراهيم بن العباس بن صول (١٧٦ ـ ٢٤٣ هـ = ٧٩٢ ـ ٨٥٧ م) أبو إسحٰق، كاتب العراق في عصره، أصله من خراسان، نشأ في بغداد، فتأدب وقربه الخلفاء فكان كاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل، تنقل في الأعمال والدواوين إلى أن مات متقلدًا ديوان الضياع والنفقات بسامراء، له ديوان رسائل وديوان شعر. «الأعلام للزركلي ١/ ٤٥».

(٢) خراسان: بلاد واسعة أوّل حدودها ممّا يلي العراق أزاذوار قصبة حوين وبيهق، وآخر حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وتشتمل على أمّهات البلاد ومنها نيسابور وهراة ومرو «معجم البلدان ٢/ ٣٥٠».

(٣) أبو علي البصير: الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس، أبو علي النخعي، شاعر ضرير، من الكتاب البلغاء المترسلين الظرفاء، ويعرف بأبي علي البصير، فارسي الأصل، نشأ بالكوفة، ثم سكن بغداد أول خلافة المعتصم ومدحه ومدح المتوكل، توفي بسُرَّ مَن رأى سنة ٢٥٥ هـ ـ ٨٦٩ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ١٤٧»،

سعيد بن حميد[1] يقول: [من الكامل]

* إنّ جَهدَ المقلّ غيرُ قليلِ *

* وعلى المريبِ شواهدٌ لا تدفعُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

وإنك كالدنيا تُذَمُّ صروفُهَا ونوسعها سبًّا ونحن عبيدُها

عليّ بن الجهم[2] يقول: [من الكامل]

ولكلّ حالٍ مَعْقَبٌ ولربّما أجلَى لك المكروهُ عمّا تحمَدُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وعاقبةُ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ وأفضلُ أخلاقِ الرجالِ التفضُّلُ

ولا عارَ إن زالت عن المرءِ نعمةٌ ولكنّ عارًا أن يزولَ التجمُّلُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

اِرضَ للسائلِ الخُضوعَ وللقا رِفِ ذنبًا مَذلّةَ الأعذارِ

اِبن أبي فنن: هو أحمد بن صالح بن أبي معشر مولى المنصور يقول: [من المتقارب]

أرى الدّهرَ يُخلِفُني كلّما لبستُ من الدّهرِ ثوبًا جديدًا

وقال أيضًا: [من الخفيف]

سُرَّ من عاشَ مالُهُ فإذا حا سَبَهُ اللهُ سَرّهُ الإعدامُ

وقال أيضًا: [من المديد]

ربَّ أمرٍ سرَّ أخرُهُ بعد ما ساءَتْ أوائلُهُ

---

(١) سعيد بن حميد: أبو عثمان. كاتب مترسل، من الشعراء، أصله من النهروان الأوسط، من أبناء الدهاقين، مولده ببغداد، كان يتنقل بينها وبين سامراء، قلده المستعين العباسي ديوان رسائله، شعره رقيق، كان ينحو فيه منحى ابن أبي ربيعة، توفي سنة ٢٥٠ هـ ـ ٨٦٤ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٩٣».

(٢) علي بن الجهم: أبو الحسن، شاعر رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد، كان معاصرًا لأبي تمام، وخص بالمتوكل العباسي، ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، فأقام مدة، ثم انتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو، فجرح ومات من جراحه سنة ٢٤٩ هـ ـ ٨٦٣ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٦٩».

يزيد بن محمد المهلبيّ(١) يقول: [من الرجز]

* لا عـارَ إن ضـامَـك دهـرٌ أو مَـلِـكْ *

وقال: [من الوافر]

وإنّ الـنـاسَ جـمـعـهُـمُ كـثـيـرٌ ولـكـنْ مـن تُـسَـرُّ بـه قـلـيـلُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلُّها كفى المرءُ نُبلًا إن تُعدَّ معايبُهْ

عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير(٢) يقول: [من الطويل]

فإن تلحظي حالي وحالَك مرَّةً بنظرةِ عينٍ عن هوى النفسِ تُحجَبُ

تَرىْ كلَّ يومٍ مرَّ من بؤس عيشتي عليك بيومٍ من نعيمِكِ يُحسبُ

أحمد بن أبي طاهر(٣) يقول: [من الطويل]

ودينُ الفتى بين التّماسكِ والنُّهى ودنيا الفتى بين الهوى والتغرّرِ

وقال أيضًا: [من المنسرح]

حسنُ الفتى أن يكون ذا حسب من نفسه، ليس حسنَه حسبُهْ

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي يقول: [من الرجز]

* مـا الـحـبُّ إلا لـلـحـبـيـبِ الأوّل *

* لـسـانُ الـمـرءِ مـن جـذم الـفـؤاد *

* وذي النقصِ في الدنيا بذي الفضلِ مولَعُ *

---

(١) يزيد بن محمد المهلبي: من بني المهلب بن أبي صفرة، أبو خالد، شاعر، من الندماء الرواة، من أهل البصرة، اشتهر ومات ببغداد، كان فيه اعتزاز وترفع. اتصل بالمتوكل العباسي ونادمه ومدحه. «الأعلام للزركلي ٨/ ١٨٧».

(٢) عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير: (١٨٢ ـ ٢٣٩ هـ = ٧٩٨ ـ ٨٥٣ م) شاعر مقدم، فصيح، من أهل اليمامة، كان يسكن بادية البصرة، ويزور الخلفاء من بني العباس فيجزلون صلته، عمي قبل موته وهو من أحفاد «جرير» الشاعر، كان النحويون في البصرة يأخذون اللغة عنه. «الأعلام للزركلي ٥/ ٣٧».

(٣) أحمد بن أبي طاهر: (٢٠٤ ـ ٢٨٠ هـ = ٨١٩ ـ ٨٩٣ م) أبو الفضل، مؤرخ من الكتاب البلغاء الرواة، أصله من مرو الروذ، ومولده ووفاته ببغداد، كان مؤدب أطفال، له نحو خمسين كتابًا، منها تاريخ بغداد، له شعر قليل. «الأعلام للزركلي ١/ ١٤١».

وقال: [من البسيط]

ما آبَّ مَنْ آبَّ لم يظفرْ بحاجته ... ولم يُغِبْ طالبٌ للنُّجحِ لم يُخَبِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن لم يُسلِّم للنوائبِ أصبحتْ ... خلائقُهُ طرًّا عليه نوائبَا

وقال أيضًا: [من الطويل]

لأمرٍ عليهم أن يتمَّ صدورُهُ ... وليس عليهم أن تتمَّ عواقِبُهْ

وقال أيضًا: [من الكامل]

لا تنكري عَطَلَ الكريم من الغِنى ... فالسيلُ حَربٌ للمكانِ العالي

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا تأمّلتَ البلادَ رأيتَها ... تُثرِي كما تُثري الرِّجالُ وتُعدمُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعةً ... من جاهه فكأنّها من ماله

وقال أيضًا: [من الطويل]

خلقنا رجالًا للتجلد والأسى ... وتلك الغواني للبكا والمآتم

وقال أيضًا: [من الطويل]

ينال الفتى من عيشِهِ وهو جاهلٌ ... ويُكدِي الفتى في دهرِهِ وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجى ... هلكن إذًا من جهلهِنّ البهائمُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

أآلفةَ النجيبِ كم افتراقٍ ... أظلَّ فكان داعيةَ اجتماعِ

وليست فرحةُ الأوباتِ إلّا ... لموقوفٍ على تَرَحِ الوداعِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ ... يومًا، أتاحَ لها لسانَ حَسودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ... ما كان يُعرف طِيبُ عَرفِ العودِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

خشعوا لصولتك التي هي عندهم كالموتِ يأتي ليس فيه عارُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

ذاك الذي قَرِحتْ بطونُ جفونِهِ مَرَهًا وتربة أرضه من إثمِدِ

وقال أيضًا: [من الوافر]

وتَركي سرعةَ الصَّدَرِ اعتباطًا يدلّ على موافقةِ الورودِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولم أرَ كالمعروف تُدعى حقوقُهُ مغارمَ في الأقوام وهي مَغانمُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وإنّ امرءًا ضنّت يداه على أمرئٍ بنيلِ يدٍ من غيرِهِ لبخيلُ

أبو عُبَادة البُحتريّ، وهو الوليد بن عُبَيد بن يحيىٰ بن عُبَيد بن شَمْلان بن جابر بن مُسلمة ببن مُسهِر بن الحارث بن خَيْثَم بن أبي حارثة بن جدي بن نزوَل بن بُحتُر الطائيّ.

فمما يتمثلُ به من شعره قوله: [من الطويل]

* وأبرحُ ممّا حَلّ ما يُتَوَقَّعُ *

وقال أيضًا: [من الرجز]

* وليس تقترنُ النعماءُ والحسدُ *

وقال أيضًا: [من الرجز]

* إن المعنَّى طالبٌ لا يظفرُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

* أرى الكفرَ للنعماءِ ضربًا من الكفرِ *

وقال أيضًا [من الطويل]

* يزينُ اللآلي في النظام ازدواجها *

وقال: [من الطويل]

وكان رجائي أن أؤوب مملَّكًا ... فصار رجائي أن أؤوب مسلَّما

وقال أيضًا: [من الوافر]

متى أَحرجتَ ذا كرمٍ تخطَّى ... إليكَ ببعضِ أخلاقِ اللئيمِ!

وقال أيضًا: [من الكامل]

والشيءُ تُمنَعُه يكونُ بفَوْتِه ... أجدى من الشيء الذي تُعطاهُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

تناسَ ذنوبَ قومِكَ إنّ حفظَ الـ ... ـذنوبِ إذا قدمنَ من الذنوبِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

وإذا ما خَفيتُ كنتُ حَرِيًّا ... أن أُرى غير مُصبحٍ حيثُ أُمسِي

وقال أيضًا: [من الطويل]

متى أرتِ الدنيا نباهةَ خاملٍ ... فلا تنتظرْ إلا خُمولَ نبيهِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وأرى النجابةَ لا يكونُ تمامُها ... لنجيبِ قومٍ ليس بابنِ نجيبِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

وإذا ما الشريفُ لم يتواضعْ ... للأخلّاءِ فهو عينُ الوضيعِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولم أَرَ أمثالَ الرجال تفاوتت ... إلى المجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

ليس الذي يُعطيك تالدَ مالِهِ ... مثلَ الذي يُعطيك مالَ الناسِ

وتَفاضُلُ الأخلاقِ إن حصَّلتَها ... في الناس حيثُ تفاضلُ الأجناسِ

وقال أيضًا: [من المنسرح]

لا ييأسِ المرءُ أن ينجّيَهُ ... ما يحسَبُ الناسُ أنّه عطبُهْ

يسرّك الشيءُ قد يسوءُوكم ... نوّه يومًا بخاملٍ لقبُهْ

وقال أيضًا: [من البسيط]

إذا محاسِنِيَ اللاتي أدلُّ بها ... كانت ذنوبي فقلْ لي كيف أعتذرُ

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفّل]

وعطاءُ غيرِكَ إن بذلـ ... ـتَ عنايةً فيه عطاؤكْ

ديك الجن[١]، واسمه عبد السلام بن رَغْبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم بن مجد من أهل حمص يقول: [من الوافر]

وشافي النصحَ يُعدَل بالأشافي ... وليس القِدر إلا بالأثافي[٢]

وقال أيضًا: [من الوافر]

إذا شجرُ المودّةِ لم تجدهُ ... بغيثِ البِرِّ أسرعْ في الجفافِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

يرقدُ النَّاسُ آمنين وريبُ الـ ... ـدَّهرِ يرعاهُمُ بمقلةِ لصِّ

ابن الروميّ يقول: [من الطويل]

وكم داخلٍ بين الحميمين مصلحٍ ... كما انغلَّ بين العينِ والجفنِ مِروَدُ[٣]

وقال أيضًا: [من الرّمل]

هو بازٍ صائدٌ أرسلتُهُ ... فارجعوه سالمًا إن لم يَصِدْ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما الحمدُ إلّا توأم الشكرِ في الفتى ... وبعضُ السجايا ينتسبن إلى بعضِ

إذا الأرضُ ردّت ريْعَ ما أنت زارعٌ ... من البذر فهي الأرض ناهيك من أرضِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا أتاك من الأمور مقدَّرٌ ... ففررتَ منه فنحوهُ تتوجَّهُ

---

(١) ديك الجن الحمصي: (١٦١ ـ ٢٣٥ هـ = ٧٧٨ ـ ٨٥٠ م) عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن، شاعر مجيد، من شعراء العصر العباسي، سمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين، أصله من سلمية (قرب حماه) ومولده ووفاته بحمص، لم يفارق بلاد الشام ولم ينتجع بشعره. «الأعلام للزركلي ٤٠/٥».

(٢) الآثافي: حجارة الموقد.

(٣) المرود: الميل الذي يكتحل به.

وقال أيضًا: [من الرّمل]

كيف تَرضَى الفقر عِرسًا لامرئٍ وهو لا يَرضَى لك الدُّنيا أمَهْ!

وقال أيضًا: [من الوافر]

عدوُّك من صديقِك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ
فإنَّ الداءَ أكثرُ ما تراهُ يكون من الطعامِ أو الشَّرابِ

عبد الله بن المعتزّ(١) يقول: [من المتقارب]

* فإن العيونَ وجوهُ القلوبِ *

وقال أيضًا: [من الكامل]

* أمُّ الكرامِ قليلةُ الأولادِ *

وقال أيضًا: [من الرمل]

* أبطأُ فيضِ الدلاءِ أملؤها *

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل]

إِصبر على كيدِ الحسو دِ فإنّ صبرَك قاتلُهْ
فالنارُ تأكلُ بعضَها إذ لم تجدْ ما تأكُلُهْ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولا همَّ إلّا سوف يُفْتحَ قُفلُه ولا حالَ إلّا للفتى بعدها حالُ

وقال أيضًا: [من الرّجز]

لا تأمنوا من بعدِ خيرٍ شرًّا كم غُصُنٍ أخضرَ عاد جمرًا

وقال أيضًا: [من الطويل]

وإني على إشفاقِ عيني من البكا لتجمح مني نظرة ثم أُطرقُ
كما حُلِّئتْ عن ماءِ وردٍ طريدةٌ تمدّ إليه جيدَها وهي تَفرقُ(٢)

---

(١) عبد الله بن المعتز: (٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ = ٨٦١ ـ ٩٠٨ م) أبو العباس ابن المتوكل العباسي، شاعر كبير، تولى الخلافة يومًا وليلة، ولد في بغداد وأولع بالأدب، صنف كتبًا كثيرة منها الزهر والرياض والبديع، والآداب والجامع في الغناء، قتله مؤنس خادم المقتدر العباسي. «وفيات الأعيان ٣/٧٦، والأعلام للزركلي ٤/١١٨».

(٢) حُلِّئت: طردت أو حبست عن الورود إلى الماء، وتفرّق: تخاف.

وقال أيضًا وإشارته إلى الديك: [من المنسرح]

صفَّقَ إمّا ارتياحةً لسنا الـ فجر وإما على الدّجى أسفا

عبيد بن عبد الله بن طاهر(١): [من الطويل]

ألم تر أن المرءَ تدوَى يمينُه فيقطعُهَا عمدًا ليسلمَ سائرُهْ؟
فكيف تراه بعد يمناه صانعًا لمن ليس منه حين تدوَى سرائرُهْ؟

وقال أيضًا: [من الطويل]

ألا قبَّحَ اللهُ الضرورةَ إنّها تكلّفُ أعلى الخُلْقِ أدنى الخلائقِ!

وقال أيضًا: [من الطويل]

وكم قائلٍ قد قال ما لَكَ راجلًا؟ فقلتُ له من أجلِ أنّكَ فارسُ!

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومَن سرَّه أن لا يرى ما يسوءُهُ فلا يتَّخذْ شيئًا يَخافُ له فقدَا

ابن طباطبا العلويّ(٢): هو أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني يقول: [من الرمل]

إنّ في نيلِ المُنَى وشكَ الرّدى وقياسُ القصدِ عند السرفِ
كسراجٍ دهنُهُ قوتٌ له فإذا غرّقته فيه طُفِي

وقال أيضًا: [من الهزج]

لقد قال أبو بكرٍ صوابًا بعد ما أنصتْ
خرجنا لم نصدْ شيئًا وما كان لنا أفلتْ

وقال أيضًا: [من الكامل]

يا عيشَنا المفقودَ خذْ من عمرِنا عامًا ورُدَّ من الصِّبا أياما!

---

(١) عبيد بن عبد الله بن طاهر: (٢٢٣ - ٣٠٠ هـ = ٨٣٨ - ٩١٣ م) - الخزاعي، أبو أحمد، أمير من الأدباء الشعراء، ولي شرطة بغداد، ومولده ووفاته بها، وكان مهيبًا، له براعة في الهندسة والموسيقى، وكان رفيع المنزلة عند المعتضد العباسي. «الأعلام للزركلي ٤/١٩٥».

(٢) ابن طباطبا العلوي: أبو الحسن، محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني، الحسني العلوي، شاعر مغلق وعالم بالأدب، مولده ووفاته بأصبهان، له كتب منها عيار الشعر، والعروض، أكثر شعره في الغزل والآداب، توفي سنة ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م. «الأعلام للزركلي ٥/٣٠٨».

منصور الفقيه المقرىء[١] يقول: [من مجزوء الرجز]

يـا مـن يـخـافُ أن يـكـو ن مـا أخـافَ سـرمـدًا
أمـا سـمـعـتَ قـولَهـمْ إنَّ مـع الـيـوم غـدًا!

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفَّل]

الـمـلح يُـصـلحُ كـلَّ مـا يُـخشى عـليه مـن الـفـسـادِ
فـإذا الـفـسـادُ جـرى عـلـيـه فـحـكـمُـهُ حُـكْـمُ الـرَّمـادِ

وقال أيضًا: [من الرّمل]

كـلُّ مـذكـورٍ مـن الـنـاس إذا مـا فـقـدوه صـارَ فـي حـكـمِ الـرَّمـادِ

وقال أيضًا: [من مجزوء الرّمل]

كـلّ مـذكـورٍ مـن الـنَّـاسِ إذا مـا فـقـدوهُ
صـارَ فـي حـكـمِ حـديـثٍ حـفـظـوه ونـسـوهُ

وقال أيضًا: [من مجزوء الرّمل]

كـلّ مـن أصـبـح فـي دهـرك مـمّـن قـد تـراهْ
هـو مـن خـلـفِـك مِـقـرا ضٌ وفـي الـوجـه مِـراهْ

ابن بسّام[٢]: هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسّام كنيته أبا الحسن يقول: [من الوافر]

* وكـم أُمـنـيّـةٍ جـلـبـتْ مـنـيّـةْ *

وقال: [من المتقارب]

ولـولا الـضـرورةُ مـا جـئـتـكُـم وعند الضرورة يؤتَى الكنيفُ[٣]

(١) منصور الفقيه المقرىء: لعله منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي، أبو الحسن، فقيه شافعي من الشعراء، سكن مصر، وكان خبيث اللسان في الهجو مات سنة ٣٠٦ هـ. «الأعلام ٧/ ٢٩٧».

(٢) ابن بسام: (٢٣٠ ـ ٣٠٢ هـ = ٨٤٤ ـ ٩١٤ م) علي بن محمد بن نصر بن منصور، أبو الحسن، يقال له البسامي، شاعر هجاء من الكتاب، عالم بالأدب والأخبار، من أهل بغداد، نشأ في بيت كتابة، وتقلد البريد، وأكثر شعره في هجاء والده وهجاء جماعة من الوزراء. له كتب منها مناقضات الشعراء وأخبار الأحوص. «الأعلام للزركلي ٤/ ٣٢٤».

(٣) الكنيف: بيت الخلاء، حيث يقضي الإنسان حاجته.

وقال أيضًا: [من مخلَع البسيط]

قـلْ لأبـي الـقـاسـمِ الـمـرجّـى ... قـابـلَك الـدهـرُ بـالـعـجـائـبْ
مـلك لـك ابـنٌ وكـان زيـنًـا ... وعـاش ذو الـشـيـن والـمـعـائـبْ
حـيـاةُ هـذا كـمـوت هـذا ... فـلست تـخـلو مـن الـمـصـائـبْ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ربَّ يـومٍ بـكـيـتُ مـنـه فـلمّـا ... جـزتُ فـي غـيـره بـكـيـتُ عـلـيـه

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل]

قـد يـحـمـلُ الـشـيـخُ الـكـبـيـ ... ـرُ جـنـازةَ الـطـفـلِ الـصـغـيـرِ

جَحْظَة[1]: هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيىٰ بن خالد بن برمك النديم يقول: [من البسيط]

* ولـلـمـسـاكـيـنِ أيـضًـا بـالـنـدى وَلَـعٌ *

وقال أيضًا: [من المجتث]

* وآفـةُ الـتـبـرِ ضُـعـفُ مـنـتـقـدهْ *

وقال أيضًا: [من المتقارب]

* مـتـى يـلـتـقـي الـمـيْـتُ والـغـاسـلُ؟ *

وقال أيضًا: [من الخفيف]

لا تـعـدَنّ لـلـزمـان صـديـقًـا ... وأعـدَّ الـزمـان لـلأصـدقـاءِ

وقال أيضًا: [من الوافر]

ومـا كـذب الـذي قـد قـال قـبـلي ... إذا مـا مـرَّ يـومٌ مـرَّ بـعـضـي

وقال أيضًا: [من المتقارب]

إذا الـشـهـرُ حـلَّ ولا رزقَ لـي ... فـعَـدِّي لأيـامِـهِ بـاطـلُ

---

(١) جحظة: البرمكي، أحمد بن جعفر: (٢٢٤ ـ ٣٢٤ هـ = ٨٣٩ ـ ٩٣٦ م) أبو الحسن، نديم أديب مغن، من بقايا البرامكة، من أهل بغداد، كان في عينيه نتوء فلقبه ابن المعتز بجحظة، كان حاضر النادرة، عارفًا بالموسيقى، مليح الشعر، ولد في بغداد وتوفي في جُبل قرية من أعمال بغداد. «الأعلام للزركلي ١/١٠٧».

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفّل]

وإذا جــفـــانـــي جـاهـــلٌ لم أستخرْ ما عشتُ قطعَهْ
وجـعــلتُـهُ مـثـل الـقـبــو رِ أزورُهُ فـي كـلِّ جـمـعـهْ

الصنوبري[١] يقول: [من الكامل]

مِحَنُ الفتى يُخبرنَ عن فضلِ الفتى كـالـنـارِ مـخـبـرةٌ بـفـضـلِ الـعـنـبـرِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ربَّ حـالٍ كـأنّـهـا مُـذْهَـبُ الـديـ ـبـاجِ صـارت مـن رقـةٍ كـالـلاذِ[٢]
وزمـانٍ مـثـلِ ابـنـةِ الـكَـرْمِ حُـسـنًـا عاد عـنـد الـعَـيوف مثلَ الداذي[٣]
أَوَ مـا مـن فَـسـاد رأيِ الـلّـيـالـي أن شـعـري هـذا وحـالـيَ هـذي!

أبو الفتح كُشاجم[٤]: هو محمود بن الحسين بن السّنديّ بن شاهك، وشاهك أمّه يقول: [من الوافر]

يُـعـاد حـديـثُـه فـيُـزيـدُ حُـسـنًـا وقـد يُـسـتـقـبَـحُ الـشـيءُ الـمُـعـادُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

شخَصَ الأنامُ إلى جمالكَ فاستعِذْ من شرِّ أعـيـنـهـم بـعـيـبٍ واحـدِ!

---

(١) الصنوبري: أحمد بن محمد بن الحسن الحلبي الأنطاكي، أبو بكر، المعروف بالصنوبري، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار، وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة، تنقل بين حلب ودمشق، توفي في السنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م. «الأعلام للزركلي ١/ ٢٠٧».

(٢) اللّاذ: ثياب حرير تنسج في الصين واحدتها «لاذة» والملاوذ: المآزر. «اللسان ٣/٥٠٨».

(٣) الداذي: نبت، وقيل: هو شيء له عنقود مستطيل وحب على شكل حبة الشعير. «اللسان ٣/ ٤٩١».

(٤) أبو الفتح كشاجم: محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك، وشاهك أمه، أبو الفتح الرملي المعروف بكشاجم، شاعر متفنن، أديب من كتاب الإنشاء، من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، تنقل بين القدس ودمشق وحلب وبغداد، وزار مصر أكثر من مرة واستقر بحلب، فكان من شعراء أبي الهيجاء والد سيف الدولة، ثم ابنه سيف الدولة، توفي سنة ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م. «الأعلام للزركلي ٧/ ١٦٧ و١٦٨».

ومما يتمثّل به من أشعار المولَّدين

منهم أبو فراس الحمدانيّ: [من الهزج]

غِنَى النفسِ لمن يعقـ ... ـلُ خيرٌ من غِنَى المالِ

وفضلُ الناسِ في الأنفـ ... ـسِ ليس الفضلُ في الحالِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا ... لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

تهون علينا في المعالي نفوسُنا ... ومَن خطَبَ الحسناءَ لم يغلهِ المهَرُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وندعو كريمًا مَن يجود بماله ... ومَن يبذل النفسَ النفيسةَ أكرمُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

وجميلُ العدوّ غير جميلٍ ... وقبيحُ الصديقِ غيرُ قبيحِ!

أبو الطيب المتنبّي يقول: [من الطويل]

* مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ *

وقال أيضًا: [من البسيط]

* إن المعارفَ في أهل النُّهى ذِممُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

* وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ *

وقال أيضًا: [من المتقارب]

* وتأبَى الطباعُ على الناقلِ *

وقال أيضًا: [من الرجز]

* ومنفعةُ الغوثِ قبلَ العطبْ *

وقال أيضًا: [من الرجز]

* ومن فَرَحِ النفسِ ما يقتُلُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

* إذا عظمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ *

وقال أيضًا: [من المنسرح]

* أنا الغريقُ فما خوفي من البللِ *

وقال أيضًا: [من الوافر]

* فإن الرفقَ بالجاني عتابُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

* بغيضٌ إليّ الجاهلُ المتعاقلُ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

وكلّ امرئٍ يولي الجمِيلَ محبّبٌ   وكلُّ مكانٍ يُنبت العزَّ طيِّبٌ

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمُ ملكتَه   وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا
ووضعُ الندى في موضعِ السيفِ بالعُلى   مضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضع الندى

وقال أيضًا: [من المنسرح]

والأمرُ لله، ربَّ مجتهدٍ   ما خاب إلّا لأنه جاهدْ

وقال أيضًا: [من الوافر]

وليس يصحُّ في الأفهام شيءٌ   إذا احتاج النهارُ إلى دليلِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن نكدِ الدنيا على الحرِّ أن يرى   عدوًّا له ما من صداقتِهِ بُدُّ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا   تعبتْ في مرادِها الأجسامُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وإن يكن الفعلُ الذي ساءَ واحدًا   فأفعالُهُ اللّاتي سَررْنَ أُلوفُ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وإذا أتتك مذمّتي من ناقص فهي الشهادةُ لي بأني فاضلُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما الحُسنُ في وجهِ الفتى شرفًا له إذا لم يكنْ في فعلِه والخلائقِ!

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما يوجعُ الحرمانُ من كفِّ حارمٍ كما يوجعُ الحرمانُ من كفِّ رازِقِ!

وقال أيضًا: [من البسيط]

إنَّا لفي زمنٍ تركُ القبيحِ به من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ
ذكرُ الفتى عمرهُ الثاني وحاجتُهُ ما فاته وفضولُ العيشِ أشغالُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وقيَّدتُ نفسي في ذراكَ محبَّةً ومَنْ وجَد الإحسانَ قيدًا تقيّدا

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يُدرِكُهُ تَجري الرياحُ بما لا تشتهي السفُنُ!

السريّ بن أحمد بن السريّ الموصلي(١) يقول: [من الوافر]

إذا العبءُ الثقيلُ توزَّعتْه أكفُّ القومِ هانَ على الرّقابِ

وقال أيضًا: [من الوافر]

فإنكَ كلّما استُودعتَ سرًّا أنمُّ من النسيمِ على الرياضِ

وقال أيضًا: [من المتقارب]

إلى كم أحبِّرُ فيك المديحَ ويَلقي سواي لديك الحُبورا!

---

(١) السري بن أحمد بن السري الموصلي: أبو الحسن، شاعر من أهل الموصل، كان في صباه يطرز ويرفو في دكان، فعرف بالرفَّاء، ولما جاد شعره ومهر في الأدب قصد سيف الدولة فمدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد، مدح جماعة من الوزراء والأعيان، كان عذب الألفاظ توفي ببغداد سنة ٣٦٦ هـ ـ ٩٧٦ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٨١».

أبو بكر محمّد بن هاشم الخالديّ(١) يقول: [من السّريع]

إنْ خانكَ الدهرُ فكن عائذًا ... بالبيد والظُّلْماءِ والعِيسِ

ولا تَكن عبدَ المنى فالمُنى ... رؤوسُ أموالِ المفاليسِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

وأخٍ رَخُصتُ عليه حتّى ملّني ... والشيءُ مملولٌ إذا ما يَرخُصُ

ما في زمانِكَ ما يَعِزُّ وجودُهُ ... إن رمتَه إلّا صديقٌ مخلصُ

أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدِيّ(٢) أخوه يقول: [من مجزوء الكامل المرفّل]

يا هذِه إن رحتُ في ... خَلَق فما في ذاك عارُ

هذي المُدام هي الحيا ... ةُ قميصُها خرَقٌ وقَارُ

وقال أيضًا: [من المتقارب]

صغيرٌ صرفتُ إليه الهوى ... وما خاتِمٌ في سوى خِنْصَرِ

الخَبَّاز البلديّ: هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان، نسبة إلى «بلد» وهي من بلاد الجزيرة التي منها المَوصِل يقول: [من الوافر]

إذا استثقلتَ أو أبغضتَ خَلْقًا ... وسَرّكَ بعدُهُ حتى التّنادِ

فشرِّدْهُ بقرضِ دُريهماتٍ ... فإن القَرضَ داعيةُ الفسادِ

---

(١) أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي: شاعر أديب من أهل البصرة، اشتهر هو وأخوه سعيد بالخالديين، وكانا من خواص سيف الدولة، وولاهما خزانة كتبه، لهما تآليف في الأدب، وكانا يشتركان في نظم القصيدة فتنسب إليهما معًا، توفي سنة ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م. «الأعلام للزركلي ١٢٩».

(٢) سعيد بن هاشم الخالدي: أبو عثمان. شاعر أديب، اشتهر هو وأخوه محمد بالخالديين، وكانا آية في الحفظ والبديهة، يتهمهما شعراء عصرهما بسرقة شعرهم، وقال ابن النديم، كانا إذا استحسنا شيئًا عصباه صاحبه، حيًّا أو ميتًا، وهما من أهل الخالدية من قرى الموصل، توفي سعيد سنة ٣٧١ هـ - ٩٨١ م. «الأعلام للزركلي ٣/١٠٣، والفهرست لابن النديم صفحة ٢٤٠».

أبو إسحٰق الصابي(١) يقول: [من الخفيف]

نِعَمُ اللهِ كالوحوشِ وما تأ ... لفُ إلَّا الأخيارَ النُّساكا
نفّرتها آثامُ قوم وصارتْ ... لأُولي البرِّ والتُّقى أشراكا

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ومن الظّلم أن يكونَ الرضى سـ ... رًّا ويبدو الإنكارُ وسْطَ النادي

وقال أيضًا: [من البسيط]

الضبُّ والنونُ قد يُرجى التقاؤهما ... وليس يُرجى التقاءُ اللُّبِّ والذهب(٢)

عبد العزيز عمر بن نُباته(٣) يقول: [من المتقارب]

فلا تَحقِرنّ عدوًّا رماكَ ... وإن كان في ساعِديه قِصَرْ
فإن السيوفَ تَحزّ الرقابَ ... وتَعجزُ عمَّا تنالُ الإبر

وقال أيضًا: [من الكامل]

مثَلٌ خلعتُ على الزمانِ رداءَهُ ... عَوَزُ الدراهمِ آفةُ الأجوادِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

يهوى الثناءَ مُبرِّزٌ ومُقصِّرٌ ... حُبُّ الثناءِ طبيعةُ الإنسانِ

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفّل]

ونَبَتْ بنا أرضُ العِرا ... قِ فما مَجَنَّاها بمُجنِهْ
غيرُ الرحيلِ، كفى البلا ... دَ برِحلةِ العجفاءِ هُجنِهْ

---

(١) أبو إسحٰق الصابي: إبراهيم بن هلال الصابي، نابغة كتاب جيله، أوحد العراق في البلاغة، تقلد دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليدًا سلطانيًا في أيام المطيع لله العباسي، كان صلبًا في مذهب الصابئة، عرض عليه عز الدولة البويهي الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين في صوم رمضان، أحبه الصاحب بن عباد وكان يتعصب له، ولد سنة ٣١٣ هـ - ٩٢٥ م، وتوفي سنة ٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م. «يتيمة الدهر ٢/ ٢٤١، والأعلام للزركلي ١/ ٧٨».

(٢) الضبّ: حيوان معروف، والنّون: الحوت.

(٣) عبد العزيز بن عمر بن نباتة: ابن نباتة السعدي، أبو نصر، من شعراء سيف الدولة، طاف البلاد ومدح الملوك معظم شعره جيد، توفي ببغداد في السنة ٤٠٥ هـ - ١٠١٥ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٤».

ابن لنكك البصري(١): هو أبو الحسين محمد بن محمد يقول: [من الطويل]

ومـاذا أُرجّـي مـن حـيـاةٍ تـكـدَّرتْ؟ ولـو قد صفت كانت كأضغاثِ أحلامِ

وقال أيضًا: [من مجزوء الخفيف]

عـدْنـا فـي زمـانـنـا عـن حـديـث الـمـكـارِمِ
مـن كـفـى الـنـاسَ شـرَّه فـهـو فـي جـودِ حـاتـمِ

وقال أيضًا: [من البسيط]

جار الزمانُ علينا في تَصرّفهِ وأيُّ دهرٍ على الأحرارِ لم يَجُرِ
عندي من الدهرِ ما لو أنّ أيسره يُلقَى على الفَلَك الدوّارِ لم يَدُرِ

أبو الحسن عبد الله بن محمد بن محمد السلاميّ(٢) يقول: [من الوافر]

تـبـسّـطـنـا عـلى الأيّـام لـمّـا رأينا العفوَ من ثمرِ الذنوبِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

والـمـرءُ مـا شـغـلـتْـهُ فـرصـة لـذةٍ نـاسـي الـحـوادث آمـن الـحِـدثـانِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وكـان رقـادي بـيـن كـأسٍ وروضـةٍ فصار سُهادي بين طِرْفٍ وصارمِ(٣)

---

(١) ابن لنكك البصري: أبو الحسن محمد بن محمد، فرد البصرة وصدر أدبائها وبدر ظرفائها في زمانه، أكثر شعره ملح وظرف، وجلها في شكوى الزمان وأهله، وهجاء شعراء أهل عصره، وفي مقدمتهم المتنبي، توفي نحو ٣٦٠ هـ ـ نحو ٩٧٠ م. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٠، ويتيمة الدهر ٢/ ٣٤٧».

(٢) عبد الله بن محمد بن محمد السلامي، أبو الحسن: والأصح أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي هكذا ورد الاسم في يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٥ من أشعر أهل العراق قولًا بالإطلاق، ولد في كرخ بغداد سنة ٣٣٦ هـ، أمه شاعرة، قال الشعر وهو ابن عشر سنين، ورد الموصل وهو فتى فالتقى جماعة من الشعراء، اختص فيما بعد بخدمة عضد الدولة وكان عضد الدولة يقول: إذا رأيت السلامي في مجلس ظننت أن عطاردًا نزل من الفلك إلي ووقف بين يدي، ولما توفي عضد الدولة تراجع طبع السلامي ورقت حاله، حتى انتقل إلى جدار ربه سنة ٣٩٤ هـ. «يتيمة الدهر ٢/ ٣٩٥ ـ ٤٠١».

(٣) الطرف: من الخيل، الكريم العتيق، وقيل هو الطويل القوائم والعنق المطرف الأذنين. «لسان العرب ٩/ ٢١٤».

وقال أيضًا: [من الوافر]

ركوبُ الهول أركبَكَ المَذاكي ولُبْس الدِرع ألبسك الغلائلْ

أبو الفرج البَبَّغا(١) يقول: [من المنسرح]

ما الذلُّ إلا تَحمُّل المِنَنِ فكن عزيزًا إن شئتَ أو فَهُنِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومن طلبَ الأعداءَ بالمال والظُبى وبالسعدِ لم يبعُد عليه مرامُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

ولم أرَ مُذ عرفتُ محلَّ نفسي بلوغَ مُنًى تساوي حملَ مَنِّ

وقال أيضًا: [من الوافر]

أكلُّ وميضِ بارقةٍ كذوبُ أما في الدهرِ شيءٌ لا يريبُ؟

ابن سُكَّرة الهاشميّ(٢): هو محمد بن عبد الله يقول: [من البسيط]

* وعلةُ الحالِ تُنسي علَّةَ الجسدِ *

وقال أيضًا: [من الوافر]

* وقد ينبتُ الشوكُ بين الأقاحي *

وقال أيضًا: [من الكامل]

الموتُ أنصفَ حين عدّلَ قِسْمَةً بينَ الخليفةِ والفقيرِ البائِسِ

ابن الحجّاج(٣): هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج يقول: [من الرجز]

* وربَّ كلامٍ تُستثارُ به الحربُ *

---

(١) أبو الفرج الببغا: عبد الواحد بن نصر المخزومي، من أهل نصيبين، أحد أفراد الدهر في النظم والنثر، لقب بالببغاء للثقة فيه، كان في ريعان شبابه متصلًا بسيف الدولة، ثم دخل الموصل وبغداد، وكان شاعرًا مشهورًا وكاتبًا مترسلًا، نادم الملوك والرؤساء، توفي سنة ٣٩٨ هـ - ١٠٠٨ م. «يتيمة الدهر ١/ ٢٣٦، والأعلام للزركلي ٤/ ١٧٧».

(٢) ابن سكرة الهاشمي: محمد بن عبد الله بن محمد أبو الحسن، من ولد علي بن المهدي العباسي، من أهل بغداد. شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع، أحد الفحول الأفراد، حار في ميدان المجون والسخف ما أراد، يربى ديوانه على خمسين ألف بيت، توفي سنة ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م. «يتيمة الدهر ٣/ ٣، والزركلي ٦/ ٢٢٥».

(٣) ابن الحجاج: أبو عبد الله، الحسين بن أحمد بن الحجاج، البغدادي النيلي، شاعر فحل، من=

وقال أيضًا: [من الرجز]

* خَـودٌ تُـزفّ إلـى ضـريـرٍ مُـقـعـدِ *

وقال أيضًا: [من السّريع]

والـلّوزةُ الـمـرّة يـا سـادتـي   يـفسدُ في الطَّعم بـهـا السُّكّرُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما زلتُ أسمعُ كم من واقفٍ خجِلٍ   حتى ابتليتُ فكنتُ الواقفَ الخَجِلَا

وقال أيضًا: [من الوافر]

وبي مرضان مختلفان حال الـ   ـعليلة منهما يمنى بحالي
إذا عالجتُ هذا جفّ كِبْدي   وإن عالجتُ ذاك رَبَى طِحالي

أبو الحسن المُوسويّ[1] النقيب: هو محمد بن الحسين بن موسى يقول: [من البسيط]

أمسيتُ أرحمُ من قد كنتُ أغبطُهُ   لقد تقاربَ بين العزّ والهُونِ
ومنظرٍ كان بالسرَّاء يضحكني   يا قربَ ما عاد بالضَّراء يُبكيني

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفّل]

والحـرُّ مـن حـذر الـهـوا   نَ يـزاولُ الأمـرَ الـجـسـيـمـا
وهـو الـعـظـيـمُ وغـيـرُ بـدْ   عٍ مـنـه إن ركـب الـعـظـيـمـا

وقال أيضًا: [من الكامل]

ما السُؤددُ المطلوب إلّا دون ما   يُومِي إليه السؤددُ المولودُ
فإذا هما اتّفقا تكسّرتِ القنا   إن غالَبا وتضعضعَ الجُلمودُ

= كتاب العصر البديهي، غلب عليه الهزل، قيل فيه: شاعر العصر وسفيه الأدب وأمير الفحش، وكان فرد زمانه في طريقته التي لم يسبقه إليها أحد، ولي حسبة بغداد مدة، وهو من قرية النيل على الفرات بين بغداد والكوفة، وفيها توفي سنة ٣٩١ هـ - ١٠٠١ م ودفن ببغداد. «يتيمة الدهر ٣/ ٣٠، والزركلي ٢/ ٢٣١».

(١) محمد بن الحسين بن موسى: أبو الحسن الموسوي النقيب الشريف الرضي العلوي أشعر الطالبيين، مولده ووفاته ببغداد، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده، وخلع عليه بالسواد وجدد له التقليد سنة ٤٠٣ هـ، ولد سنة ٣٥٩ هـ - ٩٦٩ م، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م. «ديوان الشريف ١/ ٥، والزركلي ٦/ ٩٩».

وقال أيضًا: [من مجزوء الرّمل]

اشترِ العزّ بما بيع فما العزُّ بغالي
بالقِصارِ البيضِ إن شئـ ـتَ أو السُّمرِ الطِّوالِ
ليس بالمغبون عقلًا مشترٍ عزًّا بمالِ
إنما يُدّخر المالُ لحاجاتِ الرجالِ
والفتى من جعل الأمـ ـوالَ أثمان المعالي

أبو طالب المأمونيّ(١) يقول: [من الكامل]

لي في ضمير الدّهر سرٌّ كامِنٌ لا بدّ أن تستلّه الأقدارُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما شرفُ الإنسان إلا بنفسه أكان ذووه سادةً أم مواليا

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا الغيث وفّى الروضَ واجبَ حقّهِ وزادَ فإن الغيثَ للروضِ ظالمُ

ابن العميد: هو أبو الفضل محمد بن أبي عبد الله الحسين بن محمد، عُرف بابن العميد، كان أبوه أبو عبد الله وزير مرداويح توفي ابن العميد بالرَّيّ في محرّم سنة ستين وثلاثمائة يقول: [من المنسرح]

لن يصرفَ الدهرُ من سجيّته أرْبَ أريبٍ وحولَ ذي حيلِ
أيُّ مَعينٍ صفا على كدر الدّهـ ـر وأيُّ النعيمِ لم يزلِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

من يُشفَ من داءٍ بآخَر مثلهِ أثرتْ جوانحه من الأدواءِ
داوَى جوىً بجوى وليس بحازمٍ من يَستكفُّ النارَ بالحَلْفاءِ(٢)

(١) أبو طالب المأموني: عبد السلام بن الحسين، يتصل نسبه بالخليفة العباسي المأمون، شاعر من العلماء بالأدب، ولد وتعلم ببغداد وسافر إلى الري، فامتدح الصاحب بن عباد، وأقام عنده مدة في أرفع منزلة، كان يمني نفسه بالخلافة، توفي بداء الاستسقاء سنة ٣٨٣ هـ - ٩٩٣ م. ولما يبلغ الأربعين من عمره. «يتيمة الدهر ٤/ ١٦١، والزركلي ٤/ ٥».

(٢) الحلْفاء: من نبات الأغلاث، واحدتها حَلِفة وحَلَفة وحلفاء. والحلفاء: نبات أطرافه محددة كأنها أطراف سعف النخل والخوص، ينبت في مغايض المياه، والحلفاء: نبت في الماء. «لسان=

الصاحب بن عَبّاد: هو أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد. توفي في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وعمره خمس وستون سنة وسميّ بالصاحب لصحبة ابن العميد يقول: [من المتقارب]

بقدرِ الهمومِ تكون الهمم ... كم صارمٍ جُرِّبَ في خنزيرِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

لقد صدقوا والرّاقصاتُ إلى مِنى ... بأن مودّاتِ العدا ليس تنفعُ
ولو أنّني داريتُ دهريَ حيّةً ... إذا استمكنت يومًا من اللسعِ تَلسعُ

الحسن بن عليّ بن عبد العزيز القاضي يقول: [من البسيط]

القلبُ يُدرِكُ ما لا يُدرِكُ البصرُ ... يُتملكُ الأحرارُ بالإيناسِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

وما أعجبتني قطّ دعوى عريصةٌ ... ولو قام في تصديقها ألفُ شاهدِ!

وقال أيضًا: [من الطويل]

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنّما ... رأوا رجلًا عن موقفِ الذل أحجما
إذا قيل هذا مَوردُ قلت قد أرى ... ولكنْ نفس الحُرّ تحتمل الظما

وقال أيضًا: [من الطويل]

وقالوا اضطربْ في الأرضِ فالرزقُ واسعٌ ... فقلتُ ولكنْ مطلبُ الرّزقِ ضيّقُ
إذا لم يكنْ في الأرضِ حرٌّ يُعينني ... ولم يكُ لي كسبٌ فمن أين أُرزقُ؟

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزميّ(١) يقول: [من الطويل]

* ومن عجب الأيامِ تَرْكُ التعجّبِ *

وقال أيضًا: [من الوافر]

* لكلّ صناعةٍ يومًا مديلُ *

= العرب ٩/ ٥٦».

(١) محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر: ٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ = ٩٣٥ ـ ٩٩٣ م. من أئمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب، ولد ونشأ في خوارزم ورحل في صباه إلى بعض البلدان، ثم استوطن نيسابور وتوفي بها. «الأعلام للزركلي ٦/ ١٨٣».

وقال أيضًا: [من الخفيف]

وإذا مــدّهُ الــشــقــيّ تــنــاهــت ... جــاءَهُ مــن شــقــائِهِ مــتــقــاضــي[1]

وقال أيضًا: [من الطويل]

عــلــيــك بــإظــهــارِ الــتــجــلّــدِ لــلــعــدا ... ولا تظهرنْ منها الدنوّ فتُحقرا

بديع الزمان أبو الفضل الهمَذانيّ، أحمد بن الحسين بن يحيىٰ بن سعيد تُوفّي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة مسمومًا وأوفى على الأربعين سنة يقول: [من مجزوء الخفيف]

يــا حــريــصًــا عــلــى الــغــنــى ... قــاعــدًا بــالــمــراصــدِ!
لــســت فــي ســعــيــك الــذي ... خــضــتَ فــيــه بــقــاصــدِ
إن دنــيــاك هــذه ... لــســت فــيــهــا بــخــالــدِ
بــعــضُ هــذا فــإنــمــا ... أنــتَ ســاعٍ لــقــاعــدِ

إسماعيل الناشىء يقول: [من البسيط]

* ولــلــشــبــابِ نــراعــي حــرمــةَ الــكــتــمِ *

وقال أيضًا: [من الطويل]

وكــنــتُ أرى أنّ الــتــجــاربَ عــدّةٌ ... فخانت ثقاتَ الناسِ حتى التجاربُ

وقال أيضًا: [من الوافر]

فــركــضًــا فــي مــيــاديــن الــتــصــابــي ... أحــقُّ الــخــيــلِ بــالــركــضِ الــمُــعــارُ

وقال أيضًا: [من المتقارب]

ولَا تــجــزعــنَّ عــلــى أيــكــةٍ ... أبــت أن تُــظــلّــكَ أغــصــانُــهــا

أبو الفتح عليّ بن محمد البستيّ[2] يقول: [من الطويل]

إذا مــرَّ بــي يــومٌ ولــم أتــخــذْ يــدًا ... ولم أستفدْ علمًا فما ذاك من عمري!

---

(١) المتقاضي: أي الذي يطلبه إلى القضاء لقاء جُر، أو دين.

(٢) علي بن محمد البستي، أبو الفتح: شاعر عصره وكاتبه، ولد في بست (قرب سجستان، وإليها نُسب، كان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، مات غريبًا في بلدة «أوزجند» ببخارى سنة ٤٠٠ هـ ـ ١٠١٠ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٣٢٦».

وقال أيضًا: [من الخفيف]

أنا كالوَرْدِ فيه راحةُ قومٍ ... ثُمَّ فيهِ لآخرينَ زكامُ!

وقال أيضًا: [من السّريع]

لا ترجُ شيئًا خالصًا نفعُهُ ... فالغيثُ لا يخلو من العيثِ[١]

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولم أرَ مثلَ الشّكرِ جَنّة غارسٍ ... ولا مثلَ حسنِ الصبرِ جُنَّة لابسِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ولن يشربَ السمَّ الزُّعافَ أخو الحجى ... مُدِلّاً بدرياقٍ لديه مجرَّبِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ما استقامتْ قناةُ رأييَ إلّا ... بعدَ أن عوَّجَ المشيبُ قناتي

وقال أيضًا: [من الطويل]

وطول جِمامِ الماءِ في مُستقرّهِ ... يعيِّرُهُ لونًا وريحًا ومَطعما[٢]

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا حيوانٌ كان طعمَةَ ضدّهِ ... توقّاه كالفأر الذي يتّقي الهرَّا

ولا شك أن المرءَ طعمةُ دهرِهِ ... فما باله يا ويحه يأمنُ الدهرا!

وقال أيضًا: [من المنسرح]

لا تحقرِ المرءَ إن رأيتَ به ... دمامةً أو رثاثة الحُلَلِ

فالنحلُ لا شك في ضؤولته ... يَشتارُ منه الفتى خَيِّرَ العسل[٣]

---

(١) العيث: مصدر عاث يعيث عيثًا، أفسد وأخذ بغير رفق، وهو الإسراع في الفساد، «لسان العرب ٢/ ١٧٠».

(٢) الجمام: الرّاحة والاستقرار.

(٣) إشتار: جنى واستخرج.

الباب الثاني
من القسم الثاني من الفن الثاني
في أوابد العرب

ومعنى الأوابد هٰهنا: الدواهي؛ وهي مما حمى الله تعالى هذه الملّة الإسلاميّة منها، وحذر المؤمنين عنها. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المَائدة: الآية ٩٠]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبَة: الآية ٣٧]، وكانت للعرب أوابدُ جعلوها بينهم أحكامًا ونسكًا وضلالة وعادة ومداواة ودليلًا وتفاؤلًا وطِيَرةً. فمنها:

البَحِيـرَةُ

قالوا: كان أهل الوبر يُعطون لآلهتهم من اللحم، وأهلُ المدر يُعطون لها من الحرث، فكانت الناقة إذا أنتجت خمسة أبطنٍ عمدوا إلى الخامس ما لم يكن ذكرًا فشقّوا أذنها، فتلك: البحيرة؛ فربما اجتمع منها هَجمةٌ من البحر فلا يُجزُّ لها وبر ولا يذكر عليها إن ركبت اسم الله، ولا إن حُمِلَ عليها شيء، فكانت ألبانُها للرجال دون النساء.

الوصيـلة

كانت الشاةُ إذا وضعت سبعة أبطنٍ عمدوا إلى السابع، فإن كان ذكرًا ذُبح، وإن كانت أنثى تُركت في الشاء، فإن كان ذكرًا وأنثى قيل: وَصَلتْ أخاها، فحُرّما جميعًا، وكانت منافعها، ولبن الأنثى منها للرجال دون النساء.

السـائبة

كان الرجل يسيّب الشيء من ماله، إما بهيمةً أو إنسانًا، فتكون حرامًا أبدًا، منافعها للرجال دون النساء.

الحـامي

كان الفحل إذا أدركتْ أولادُه فصار ولدهُ جَدًّا قالوا: حمى ظهرَه، اتركوه فلا يُحمل عليه، ولا يركب، ولا يمنعُ ماءً، ولا مرعى، فإذا ماتت هذه التي جعلوها

لآلهتهم، اشترك في أكلها الرجال والنساء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٩] قالوا: وكان أهل المدر والحرثِ إذا حرثوا حرثًا، أو غرسوا غرسًا، خطّوا في وسطه خطًّا، فقسموه بين اثنين فقالوا: ما دون هذا الخط: لآلهتهم؛ وما وراءه: لله؛ فإن سقط ممّا جعلوه لآلهتهم شيء فيما جعلوه لله ردّوه، وإن سقط مما جعلوه لله فيما جعلوه لآلهتهم أقرّوه، وإذا أرسلوا الماء في الذي لآلهتهم، فانفتح في الذي سموه لله سدّوه، وإن انفتح من ذاك في هذا قالوا: اتركوه فإنه فقير إليه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٣٦].

الأزلام

قالوا: كانوا إذا كانت مداراةٌ أو نكاحٌ أو أمرٌ يريدونه، ولا يدرون ما الأمر فيه ولم يصحّ لهم أخذوا قداحًا لهم فيها: أفعل ولا أفعل لا يفعل، نعم لا خير، شرٌّ بطيءٌ سريعٌ، فأما المداراة فإن قداحًا لهم فيها بيضًا ليس فيها شيء فكانوا يحيلونها فمن خرج سهمه فالحقّ له، وللحضر والسفر سهمان؛ فيأتون السادن من سدنة الأوثان فيقول السادن: اللّهم أيهما كان خيرًا فأخرجه لفلان، فيرضى بما يخرجُ له، فإذا شكّوا في نسب الرجل أجالوا له القداح وفيها: صريحٌ، وملصَقٌ؛ فإن خرج الصريحُ ألحقوه بهم، وإن خرج الملصق نفوه، وإن كان صريحًا فهذه قِداح الاستقسام.

الميسر

قالوا في الميسر: إن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجُزورَ بينهم، فيفصّلونها على عشرةِ أجزاء؛ ثم يؤتَى بالحُرْضَة وهو رجل يتألّهُ عندهم لم يأكل لحمًا قط بثمن، ويؤتى بالقِداح وهو أحد عشرَ قِدْحًا، سبعةٌ منها لها حظٌّ إن فازت، وعلى أهلها غرمٌ إن خابت، بقدر مَالَها من الحظّ إن فازت، وأربعة يُنقل بها القداحُ، لا حظَّ لها إن فازت، ولا غرمَ عليها إن خابت.

فأما التي لها الحظّ: فأوّلها الفَذُّ في صدره حزٌّ واحد؛ فإن خرج أخذَ نصيبًا، وإن خاب غرم صاحبُه ثمن نصيبٍ، ثم التوأم، له نصيبان إن فاز، وعليه ثمن نصيبين

إن خاب، ثم الضَّرِيب، وله ثلاثةُ أنصباء، ثم الحِلْسُ وله أربعة، ثم النافِس، وله خمسة، ثم المُسْبِل، وله ستة، ثم المُعَلَّى وله سبعة. قالوا: والمسبِل يسمّى: المُصْفَحُ، والضريب يقال له: الرقيب.

وقد جمع الصاحب بن عباد[١] هذه الأسماء ونظمها في أبيات فقال: [من السّريع]

إنّ القِداحَ أمرُها عجيبُ ... الفذُّ، والتوأمُ، والرقيبُ

والحلْسُ، ثم النَّافِسُ المصيبُ ... والمُصْفَحُ المشتهر النجيبُ

ثم المعلّى حظّه الترغيبُ ... هاكَ فقد جاء بها الترتيبُ

وأما الأربعةُ التي يُنقل بها القداحُ فهي: السَّفيحُ، والمَنيحُ، والمُضْعَفُ، والوغدُ.

قال ابن قتيبة[٢]: والمنيح له موضعان: أحدهما لا حظَّ له، والثاني له حظٌّ، فكأنه الذي يُمنح حظُّه، وعلى ذلك دلّ قول عمرو بن قبيصة: [من الطويل]

بأيديهمُ مقرومةٌ ومغَالقٌ ... يعودُ بأرزاقِ العيالِ مَنيحُها[٣]

قالوا: فيؤتى بالقِداح كلها وقد عرف كلّ ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا سبعة، لا يكونون أكثر من ذلك، فإن نقصوا رجلًا أو رجلين، فأحبَّ الباقون أن يأخذوا ما فضل من القداح، فيأخذ الرجل القِدح والقِدحين فيأخذ فوزهما إن فازا، ويغرم عنهما إن خابا ويدعى ذلك: التَّميمُ. قال النابغة: [من البسيط]

إنـي أتمّم أيساري وأمنحُهم ... من الأيادي وأكسوا الجفنة الأدَما

فيعمدوا إلى القداح؛ فتُشدّ مجموعة في قطعة جِلدٍ ثم يُعمد إلى الحُرْضة فيلفّ على يده اليمنى ثوبًا لئلا يجد مَسّ قِدحٍ له في صاحبه هوى، فيحابيه في إخراجه، ثم

---

(١) الصاحب بن عبّاد: هو إسماعيل بن عبّاد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزيرٌ غلب عليه الأدب، وكان من نوادر الدّهر علمًا وفضلًا وتدبيرًا، توفي بالرّي سنة ٣٨٥ هـ. «الأعلام للزركلي ١/٣١٦».

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينوري، أحد أئمة اللغة والنحو والأدب له مصنّفات كثيرة منها الشعر والشعراء. «انظر الأعلام ٤/١٣٧».

(٣) المقرومة: القداح التي يقتسم بها. «انظر اللسان مادة قرم». مغالق: أقداح الميسر، والمغالق: الأزلام، وكل سهم في الميسر مِغلق. «اللسان مادة غلق».

يؤتى بثوب أبيض يُدعى. المِجْوَلُ، فيبسط بين يدي الحُرْضة، ثم يقوم على رأسه رجلٌ يُدعى: القريبُ، ويدفعُ رِبابةَ القِداح إلى الحُرضَة وهو محوّل الوجهِ عنها، والرِّبابة: ما يجمع فيها القداح، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب، فينكز القِداحَ بشماله، فإذا نهد منها قدحٌ تناوله فدفعه إلى الرقيب. فإن كان مما لا حظَّ له رُدَّ إلى الرِّبابة، فإن خرج بعده المُسْبِلُ، أخذ الثلاثة الباقية، وغرَّم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خاب، فربما نحروا عدة جزورٍ ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئًا، وإنما الغرمُ على الذين خابوا ولا يحلُّ للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئًا، فإن فاز قِدحُ الرجلِ فأرادوا أن يعيدوا قِدحَه ثانية على خِطار فعلوا ذلك به.

ومنها: نكاحُ المقت: كان الرجل إذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوّجها بعضُ إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون نكاحَ النساءِ كما يرثون المال، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النِّساء: الآية ١٩].

ومنها: رميُ البعرة: كانت المرأة في الجاهليّة إذا توفي عنها زوجها، دخلَتْ حَفْشًا، والحَفْشُ[١]: الخُصّ، ولبست شرَّ ثيابها ولم تمسَّ طيبًا ولا شيئًا، حتى تمرَّ لها سنةٌ ثم تؤتى بدابةٍ: حمارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ فتفتضُّ به أي تمسح به، فقلّما تفتضّ بشيء إلا مات، ثم تخرج على رأس الحول، فتعطى بعرةً فترمي بها، ثم تراجع ما شاءت من طِيب أو غيرِه ومعنى رميها بالبعرة: أنها ترى أن هذا الفعل هيّنٌ عليها مثل البعرة المرميّة، فنسخ الإسلام ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٤].

ومنها: ذبح العتائر: قالوا: كان الرجل منهم يأخذ الشاة، وتسمّى العَتِيرُ والمعتورةُ فيذبحها ويصبُّ دمها على رأس الصنم، وذلك يفعلونه في رجب، والعَتْرُ قيل: هو مثل الذبح، وقيل: هو الصنم الذي يُعتَر له، قال الطرمّاح[٢]:

* فخرّ صريعًا مثلَ عاترة النسكِ *

(١) الحفش: البيت الصغير من بيوت البدو، ويكون من شجر أو قصب.

(٢) الطرماح بن حكيم بن الحكم، من طيّىء، شاعر إسلامي، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة فكان معلمًا فيها، واعتقد مذهب الشراة من الأزارقة الخوارج، توفي نحو ١٢٥ هـ - ٧٤٣ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢٢٥».

أراد بالعاترة: الشاة المعتورة.

عقدُ السَّلَعِ والعُشَرِ: وقد تقدم ذكره عند ذكر أسماء نيران العرب.

ذبح الظبي: كان الرجل ينذر أنه إذا بلغتْ إبلُه أو غنمهُ مبلغًا فأذبحُ عنها كذا، فإذا بلغت ضنّ بها، وعمد إلى الظِّباء فيصطادها ويذبحها وفاء بالنذر؛ قال الشاعر: [من الخفيف]

عَنَتًا باطلًا وزُورًا كما يُعْـ ـتَرُ عن حَجْرة الرَّبِيض الظباءُ[1]

ومنها: حبس البلايا: كانوا إذا مات الرجل يشدّون ناقته إلى قبره، ويعكسون رأسَها إلى ذنَبها، ويغطّون رأسها بَوليَّةٍ وهي البردعة، فإن أملتت لم تُردَّ عن ماء ولا مرعًى، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك، ليركبها صاحبها في المَعاد، ليُحشر عليها، فلا يحتاج أن يمشي؛ قال أبو زبيد: [من الخفيف]

كالبلايا رؤوسها في الولايا ما نحاتِ السَّمومِ حُرَّ الخدودِ

ومنها: خروج الهامة: زعموا أن الإنسان إذا قُتل، ولم يطالبْ بثأره، خرج من رأسه طائرٌ يسمّى: الهامة، وصاح على قبره: اسقوني! اسقوني! إلى أن يطلب بثأره؛ قال ذو الإصبع[2]: [من البسيط]

يا عمرو إن لا تدعْ شتمي ومَنقصَتي أضربْكَ حتى تقولَ الهامةُ: اسقوني

ومنها: إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبلهُ مائةً، عمد إلى البعير الذي أمأَتْ به، فأغلق ظهره لئلا يُركب، ويعلم أن صاحِبَه حمى ظهره، وإغلاق ظهره أن ينزعَ سناسِن فقرته ويَعقرَ سنامَه.

ومنها: التعمية والتفقئة: وكان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا فقأ عين الفحل يقول: إن ذلك يدفع عنها العين والغارة؛ قال الشاعر: [من السّريع]

وهبتَها وأنت ذو امتنانِ تفقأ فيها أعينَ البُعرانِ

فإن زادت عن ألف فقأ العين الأخرى، فهو التعميَةُ.

---

(١) الربيض: الغنم في مرابضها، والربيض بالغنم برعاتها المجتمعة في مربضها، والربضة: الجماعة من الغنم والناس، والربض: مرابض البقر، وربض الغنم: مأواها.

(٢) ذو الإصبع: هو حُرثان بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، كان جاهليًا، وسمّي ذو الإصبع لأنّ حيّة نهشته في إصبعه فقطعها. «انظر الشعر والشعراء: ص ٤٧٣».

ومنها: بكاء المقتول: كان النساءُ لا يبكين المقتولَ إلا أن يُدركَ بثأره، وإذا أُدرك بثأره بكينه؛ قال شاعر: [من الكامل]

من كان مسرورًا بمقتل مالكٍ فليأتِ نسوتَنا بوجهِ نهارِ
يجد النساءَ حواسرًا يندبنه يلطمن حُرَّ الوجهِ بالأسحارِ

ومنها: رَمْيُ السنِّ في الشمس: يقولون: إن الغلام إذا ثغر، فرمى سِنَّه في عين الشمس بسبّابته وإبهامه وقال: أبدليني أحسنَ منها، أَمِنَ على أسنانه العوجَ، والفَلَجَ، والثَّعَلَ؛ قال طرفة: [من الرَّمل]

بدّلته الشمسُ من مَنبِتِه بَرَدًا أبيضَ مصقولَ الأَشَرْ[1]

ومنها: خضاب النحر: كانوا إذا أرسلوا الخيل على الصّيد فسبق واحدٌ منها، خضبوا صدرَه بدم الصّيد علامة له؛ قال الشاعر: [من الطويل]

كأن دماءَ العادياتِ بنحرِهِ عصارةُ حنّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ[2]

ومنها: التصفيق: كانوا إذا ضلّ الرجلُ منهم في الفلاة، قلَبَ ثيابه، وحبس ناقته، وصاح في أذنها كأنه يومىء إلى إنسانٍ، وصفّق بيديه: الوحا الوحا، النجا النجا، هيكل، الساعة الساعة، إليّ إليّ، عجّل؛ ثم يحرّك الناقة فيهتدي؛ قال الشاعر: [من الطويل]

وأذَّن بالتصفيقِ مَنْ ساءَ ظنُّهُ فلم يدرِ من أيّ اليدين جوابَها

يعني: يسوء ظنّه بنفسه إذا ضل.

ومنها: جزُّ النواصي. كانوا إذا أسروا رجلًا، ومنّوا عليه فأطلقوه، جزّوا ناصيته[3] ووضعوها في الكنانة؛ قال الحطيئة: [من البسيط]

فدنا سَلولَ فسلُّوا من كنانتهم مجدًا تليدًا ونبْلًا غيرَ أنكاسِ

يعني بالنُّبْلِ: الرجالَ؛ وقالت الخنساء: [من المتقارب]

جززنا نواصيَ فرسانِهم وكانوا يظنونَ أنْ لا تُجزَّا

---

(١) الأشر: حدّة ورقّة في طرف الأسنان.
(٢) مرجَّل: المرجل هو الشعر المنسرح، ويقال للمشط مِرجل ومِسرح، والترجل والترجيل: تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه. «لسان العرب ١١/ ٢٧٠».
(٣) الناصية: شعر مقدّم الرأس.

ومنها: كيُّ السليم عن الجَرِب: زعموا أن الإبل إذا أصابها العُرُّ فأخذوا الصحيحَ وكووه زال العُرُّ عن السقيم؛ قال النابغة: [من الطويل]

وكلَّفتَني ذنبَ امرئٍ وتركتَهُ كذي العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتع

ويقال: إنهم كانوا يفعلون ذلك، ويقولون: تؤمن معه العدوى.

ومنها: ضرب الثور: وزعموا أن الجنّ تركب الثيرانَ فتصدّ البقر عن الشرب؛ قال الأعشى: [من الطويل]

وإني وما كلفتُماني وربّكم لَيَعلَمُ من أمسى أعقَّ وأحوبَا(١)

لكالثور والجنيّ يركبُ ظهرَهُ وما ذنبُهُ إن عافتِ الماءِ مشربا

وما ذنبُهُ إن عافتِ الماءَ باقرٌ وما إن تعافُ الماءَ إلا ليُضرَبا

وقال آخر: [من الوافر]

كذاك الثور يُضرب بالهَراوَي إذا ما عافتِ البقرُ الظِّماءُ

ومنها: كعب الأرنب: كانوا يعلّقونه على أنفسهم ويقولون: إن من فعل ذلك لم تصبْه عينٌ ولا سِحرٌ، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب، لأنها ليست من مطايا الجنّ لأنها تحيض؛ قال الشاعر: [من الطويل]

ولا ينفعُ التعشيرُ إن حُمّ واقعٌ ولا زعزعٌ يُغني ولا كعبُ أرنبِ

وقيل لزيد بن كُثْوَةَ: أحقٌّ ما يقولون: إن من علّق على نفسه كعبَ أرنب لم يقربْه جنّانُ الحيّ وعُمّار الدار؟ فقال: إي والله! ولا شيطانُ الحمَاطة، الحماطة: شجرة التين؛ وجان العُشرة، وغول القَفْرة، وكلّ الخوافي، إي والله يطفى نيرانَ السَّعالى.

ومنها: حيض السَّمُرة(٢): يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة، فعلّق عليه سنّ ثعلب، أو سنّ هرة، أو حيض سَمُرة، أَمُنْ، فإن الجنيّة إذا أرادته لم تقدر عليه، فإذا قال لها صواحباتها في ذلك، قالت:

---

(١) أحوب: الحوب والحوبة: الأبوان والأخت والبنت، والحوبة: الهم والحاجة والمسكنة والفقر والغم والبلاء. «لسان العرب ١/٣٣٨».

(٢) السَّمرة: شجرة الطلح.

[من مجزوء الرجز]

كانت عليه نُفَرَهْ ثعالبٌ وهِرَرَهْ
* والحيضُ حيضُ السَّمُرَهْ *

ومنها: الطارف والمطروف: يزعمون أن الرجل إذا طرف عينَ صاحبه، فهاجت فمسح الطارفُ عينَ المطروفِ سبعَ مراتٍ وقال في كلّ مرةٍ: بإحدى جاءت من المدينة، باثنتي جاءتا من المدينة، بثلاث جئنَ من المدينة، إلى سبع، سكنَ هيجانُهَا.

ومنها: وطء المقاليت[1]: يزعمون أن المرأة المقلات إذا وطئت قتيلًا شريفًا بقي أولادها، وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم: [من الطويل]

تظلُّ مقاليتُ النساءِ يطأنَهُ يقلن ألا يُلقَى على المرء مِئزرُ

ومنها: تعليق الحِليّ على السليم: كانوا يعلّقون الحليَّ على الملسوعِ ويقولون إنه إذا علِّق عليه أفاق، فيلقون عليه الأسورة والرِّعاث، ويتركونها عليه سبعةَ أيام ويمنع من النوم؛ قال النابغة: [من الطويل]

يُسهَّدُ في وقت العشاءِ سليمُها لحلْي النساءِ في يديْهِ قَعاقع[2]

ومنها: ذهاب الخَدَر: يزعمون أن الرجُلَ إذا خدرت رجلُهُ فذكر أحبَّ الناس إليه ذهب عنه؛ قال كثيّر: [من الطويل]

إذا خدِرَتْ رِجلي دعوتك أَشتفي بذكراك من مَذْلٍ بها فيهونُ

وقالت امرأة من كلاب: [من الطويل]

إذا خدرتْ رجلي ذكرتُ ابن مُصعب فإن قلتُ: عبد الله، أجلَى فتورُها

وقيل ذلك لابن عمر وقد خدرت رجلُه فقال: يا محمّداه.

ومنها: الحَلأُ: زعموا أنه إذا ظهرت بشفة الغلام بثور، يأخذ مُنخُلًا على رأسه ويمرّ بين بيوت الحيّ، وينادي: الحَلأُ الحلأ، فيلقى في منخله من هٰهنا ثمرة، ومن

(١) المقاليت: المقلات: التي لا يعيش لها ولد، وقيل: هي التي تلد واحدًا، ثم لا تلد بعد ذلك. «لسان العرب ٢/ ٧٢».

(٢) قعاقع: التقعقع: التحرك - والقعقعة: حكاية حركة الشيء يُسمع له صوت، ورجل قعاقع: كثير الصوت، والقعقعة أيضًا تتابع صوت الرعد في شدة، وجمعه القعاقع. «لسان العرب ٨/ ٢٨٦ و٢٨٧».

هٰهنا كسرة، ومن ثمّ بضعة لحم، فإذا امتلأ، نثره بين الكلاب، فيذهب عنه البَثْر، وذلك البثر يسمَّى: الحَلأ.

ومنها: التعشير: يزعمون أن الرجل إذا أراد دخول قرية، فخاف وباءَها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشَّر كما ينهق الحمار، ثم دخلها لم يصبه وباؤها؛ قال عروة بن الورد: [من الطويل]

لعمري لئن عشّرتُ من خشيةِ الرّدى نـهـاقَ الـحـمـيـرِ إنـنـي لـجـزوعُ!

ومنها: عقد الرَّتَم: كان الرجل منهم إذا أراد سفرًا، عمد إلى رَتَم فعقده، والرتم: نبت، فإن رجع ورآه معقودًا؛ زعم أن امرأته لم تخنه، وإن رآه محلولًا زعم أنها قد خانته؛ قال الشاعر: [من الرّجز]

هل ينفعنْك اليوم إن همّت بهم كـثـرة مـا تـوصـي وتـعـقـادُ الـرَّتَـمْ؟

وقال آخر: [من البسيط]

خانته لـمـا رأت شيبًا بـمَفرِقِهِ وغَـرُّه حَـلـفُـهـا والـعَـقْـدُ لـلـرَّتَـمِ

ومنها: دائرة المهقوع: وهو الفرس الذي به الدائرة التي تسمَّى: الهَقْعَةُ[(١)]، يزعمون أنه إذا عرق تحت صاحبه، اغتلمتْ حليلتُه وطلبتْ الرجال؛ قال الشاعر: [من الطويل]

إذا عَرِق المهقوعُ بالمرء أنعظتْ حـلـيـلـتُـه وازدادَ حَـرًّا عِـجـانُـهـا[(٢)]

ومنها: شقّ الرداء والبرقع: زعموا أن المرأة إذا أحبّتْ رجلًا أو أحبّها ثم لم تشقّ عليه رداءه، ويشقّ عليها برقعَها، فسد حبّهما، فإذا فعل ذلك دام حبّهما؛ قال الشاعر: [من الطويل]

إذا شُـق بُـرْدٌ شُـقَّ بـالـبُـردِ بُـرقُـعٌ دَوالَـيْـك حـتـى كـلُّـنـا غـيـر لابِـسِ
فكـم قـد شـقـقـنـا من رداءٍ مـحـبَّـرٍ ومـن بـرقـعٍ عن طفلةٍ غيرِ عانِسِ

---

(١) الهقعة: دائرة في وسط صدر الفرس.
(٢) أنعظت: الإنعاظ: الشبق، وانعظت المرأة: شبقت واشتهت أن تجامع. «اللسان ٧/ ٤٦٤».
عجانها: استها، العجان: الإست. «لسان العرب ١٣/ ٢٧٨».

ومنها: نوء السماك: كانوا يكرهونه ويقولون فيه داء الإبل؛ قال الشاعر: [من الكامل]

ليتَ السماكَ ونوءَهُ لم يُخلقا ومشى الأُفَيرقُ في البلادِ وسَلَما(١)

ومنها: النسيءُ: وقد تقدّم خبره في الفن الأوّل من الكتاب.

ومنها: وأد البنات: وقد نهاهم الله عزَّ وجلّ عنه في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ﴾ [الإسراء: الآية ٣١]. وكانوا يقتلوهنّ خشيةَ الإملاق أو من الإملاق؛ وقد قيل: إنهم كانوا يقتلوهنّ خوفَ العارِ أو أن يُسبيْنَ، فمن قتلهم خشيةَ الإملاق ما رُوِيَ عن صعصعة بن ناجية المجاشعيّ جد الفرزدق: أنه لما أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني كنت أعملُ عملًا في الجاهليّة، أفينفعني ذلك اليوم؟ قال: وما عملُك؟ قال: أضللتُ ناقتين عشراوين، فركبت جملًا ومضيت في بغائهما فرُفع لي بيت حريد، فقصدته فإذا رجل جالس بفنائه، فسألته عن الناقتين، فقال: ما نارُهُما؟ قلت: مِيْسَم بني دارم، قال: هما عندي، وقد أحيا الله تعالى بهما قومًا من أهلك من مضر، وإذا عجوزٌ قد خرجت من كِسر البيت، فقال لها: ما وَضَعَتْ؟ فإن كان سَقْبًا شاركنا في أموالنا، وإن كانت حائلًا وَأْدْنَاهَا، (معنى قوله سقبًا أي ذكرًا، وحائلًا أي أنثى) فقالت العجوز: وضَعتْ أنثى، فقلت: أتبيعُها؟ قال: وهل تبيعُ العربُ أولادها؟ قال قلت: احتكم، قال بالناقتين والجمل، قلت: لك ذلك، على أن تبلغني الحيّ وإياها ففعل، فآمنت بك يا رسول الله، وقد صارت لي سُنَّةٌ على أن أشتري كلَّ موءودة بناقتين عشراوين وجمل، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتها، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينفعك ذلك، لأنك لم تبتغِ به وجه الله تعالى، وإن تعملْ في إسلامك عملًا صالحًا تُثبْ عليه»؛ ففي ذلك يقول الفرزدق مفتخرًا: [من المتقارب]

وجدّي الذي منع الوائدين وأحيى الوئيدَ فسلم توءَدِ!

وممن قتلهم خشية العار: قيس بن عاصم المنقريّ(٢) وكان من وجوه قومه ومن ذوي الأموال فيهم وكان يئد بناته وسبب ذلك: أن النعمان بن المنذر لما منعته بنو

---

(١) السماك: السماكان: نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح. «لسان العرب ١٠/٤٤٣». والأفيرق: أحد الكواكب.

(٢) هو قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي، أحدُ أمراء العرب، كان شاعرًا اشتهر وساد في الجاهلية، أدرك الإسلام وأسلم ووفد على الرسول في وفد بني تميم، فقال الرسول: هذا سيّد أهل الوبر. «انظر الأعلام ٥/٢٠٦».

تميم الإتاوة التي كان تؤدّيها له جهّز إليهم أخاه الريَّان بن المنذر، ومعه بكر بن وائل فغزاهم، فاستاق النعم وسبى الذراري[1]، فوفدت إليه بنو تميم فلما رآها أحب البقاء عليها، فقال النعمان: [من البسيط]

ما كان ضرّ تميمًا لو تعمّدها   من فضلنا ما عليه قيسُ غيلانُ

فأناب القومَ وسألوه النساءُ، فقال النعمان: كلّ امرأة اختارت أباها رُدّت إليه وإن اختارت صاحبها تُركتْ عليه، فكلّهن اخترن أباهن إلا ابنة لقيس بن عاصم اختارت صاحبها عمرو بن المُشَمرَج، فنذرَ قيس لا يولد له ابنة إلا قتلها، فاعتلّ بهذا من وأد وزعم أنه حميّة.

الباب الثالث
من القسم الثاني من الفن الثاني
في أخبار الكهنة ويتصل به الزجر والفأل والطِّيرةُ والفِراسة والذكاء

وكانت كهنة العرب لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار، فيلقونها لمن يتبعهم، ويسألهم عن خفيّات الأمور حتى جاء الإسلام، فمُنعت الشياطين من استراق السمع، كما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجنّ: الآية ٩] فعند ذلك انقطعت الكهانة فلم يسمع في الإسلام بكاهن، وهذا من معجزات سيدنا رسول الله ﷺ لزوال الإشكال في الوحي. فمن أخبار الكهنة، خبر سطيح الكاهن حين ورد عليه ابن أخته عبد المسيح وهو يعالج الموت، فأخبره خبرَ ما جاءَ لأجلهِ، وذلك أنه لما كانت الليلة التي وُلِدَ فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى، وسقط منه أربع عشرة شُرفةً، وخمِدتْ نارُ فارس، ولم تكن خمدتْ قبل ذلك بألف عام، وغارت بحيرة ساوة[2]، ورأى الموبذان[3] إبلًا صعابًا تقودُ خيلًا عرابًا قد قطعت دجلة

(١) الذراري: جمع ذرية، وذرية الرجل: ولده، وذر الله الخلق في الأرض: نشرهم، وهي منسوبة إلى الذَّر الذي هو النمل. وفي التنزيل: «ذرية بعضهم من بعض». «لسان العرب ٤/ ٣٠٤».
(٢) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمذان. «معجم البلدان ٣/ ١٧٩».
(٣) الموبذان: الكاهن عند الفرس. «انظر صبح الأعشى ٢/ ٤٥٠».

وانتشرت في بلاد فارس، فلما أصبح كسرى تصبّر تشجُّعًا ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ومَرْزَبته، فلبس تاجه، وقعد على سريره، وجمعهم وأخبرهم الخبر فبيناهم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمودِ النار فازداد غمًّا وسأل المُوبذَان وكان أعلمهم فقال: حادِثٌ يكون من قِبَل العرب، فكتب كسرى إلى النُّعمان بن المُنْذِر: أنْ وجِّهْ إليَّ رجلًا عالـمًا بما أريد أن أسأله عنه فوجّه إليه عبد المسيح بن حيّان بن بقيلة الغَسّانيّ[1] فقال له كسرى: أعندك علمٌ بما أريد أن أسألَك عنه؟ قال: ليخبرني المَلِكُ فإن كان عندي منه علم، وإلّا أخبرتُه بمن يُعلمه، فأخبره بما رآه فقال: عِلْمُ ذلك عند خالٍ لي يسكن مشارف الشام يقال له: سَطِيح، فأرسله كسرى إليه فورد على سطيح وقد أشفى على الموت فسلّم عليه وحيّاه فلم يُحِر سطيحٌ جوابًا فأنشد يقول: [من الرّجز]

أصُـمّ أمْ يـسـمَـعُ غِـطـريـفُ الـيـمـنْ ... أم فـاز فـازلـمَّ بـه شـأوُ الـعَـنَـنْ؟[2]
يا فاصلَ الخُطّةِ أعيت مَن ومَنْ ... وكاشفَ الكُربة عن وجه الغَضَنْ[3]
أتـاكَ شـيـخُ الـحـيّ مـن آل سَـنَـنْ ... وأمُّـهُ مـن آلِ ذئـبِ بـن حَـجَـنْ
أزرقُ مُـمْـهَـى الـنـاب صَـرّار الأذنْ ... أبـيـضُ فَـضْـفَـاضِ الـرِّداء والـبـدنْ
رسولُ قَيْل العُجم يسري بالوسنْ ... لا يـرهـبُ الـرعـدَ ولا ريـبَ الـزمـنْ
يجوب في الأرض على ذاتِ شجنْ ... ترفعني وُجْنًا وتهوي بي وُجُنْ[4]
حتى أتى عاري الجَآجِي والقَطَنْ ... تَـلُـفّـه فـي الـريـح بَـوغـاءُ الـدِّمـنْ[5]

---

(١) عبد المسيح بن حيان بن بقيلة الغساني: معمر من الدهاة، من أهل الحيرة في العراق، له شعر وأخبار يقال إنه باني قصر الحيرة، عاش زمنًا طويلًا في الجاهلية، وأدرك الإسلام وظل على النصرانية، واجتمع به خالد بن الوليد في الحيرة، وهو ابن أخت سطيح الكاهن، توفي نحو ١٢ هـ - ٦٣٣ م. «الزركلي ٤/ ١٥٣».

(٢) ازلَمَّ: ذهب مسرعًا، وازلأم القوم ازلئمامًا: ارتحلوا، والمزلئم: الذاهب الماضي. «اللسان ١٢/ ٢٧٢». العنن: اعتراض الموت وسبقه، ورجل مِعن: يعرض في شيء ويدخل في ما لا يعنيه. «اللسان ١٣/ ٢٩٠». والعنن: الموت: أي عرض له الموت فقبضه.

(٣) الغضن: الكسر في الجلد والثوب والدرع وغيرها، وجمعه غضون، والغضون: التشنج، والغضن: تثني العود وتلويه، ويقال للمجدور: أصبح جلده غضنة واحدة. «اللسان ١٣/ ٣١٤».

(٤) وُجَن: الأرض الغليظة الصلبة، أو أرض صلبة ذات حجارة، وقيل: هو العارض من الأرض ينقاد ويرتفع قليلًا. «لسان العرب ١٣/ ٤٤٣».

(٥) الجآجي: الجؤجؤ: عظام الصدر، والجمع جآجيء، وجؤجؤ السفينة والصدر: صدرهما. «اللسان ١/ ٤٢». القطن: القطون: الإقامة، والقطين: أهل الدار، والقطن: أسفل الظهر. =

* كأنما حُثِحثَ من حِضْنيْ ثَكَنْ[(١)] *

ففتح سطيح عينيه ثم قال: عبد المسيح، على جَمَلٍ مُشيح، أتى إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك مَلِكُ بني سَاسَان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المُوبَذَان؛ رأى إبلًا صِعَابًا، تقودُ خيلًا عِرابًا، قد قطعتْ دِجلة وانتشرت في بلاد فارس، يا عبدَ المسيح إذا كثرت التلاوة، وبُعِثَ صاحبُ الهِرَاوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة سَاوة، وخَمدت نار فارس؛ فليس الشامُ لسطيح شامًا، ولا بابلُ للفرس مُقامًا، يملك فيهم ملوك ومِلِكات، بعدد الشُّرُفات، وكلّ ما هو آتٍ آت؛ ثم قضى سطيح لوقته، فثار عبدُ المسيح إلى رحله وهو يقول: [من البسيط]

شمِّرْ فإنَّك ماضي العزم شمِّيرُ ... لا يفزعنّكَ تفريقٌ وتغييرُ
إن كان ملكُ بني ساسان أفرطهم ... فإن ذا الدهرِ أطوارٌ دهاريرُ[(٢)]
فربّما ربّما أضحوا بمنزلة ... تهاب صولَهم الأسدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصّرح بَهرام وإخوته ... والهُرمُزان وسَابورٌ وشابورُ[(٣)]
والناسُ أولادُ عِلّاتٍ فمن علموا ... أَن قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
وهم بنو الأمّ أَمَّا إن رأوا نشبًا ... فذاك بالغيب محفوظ ومنصورُ
والخيرُ والشرُّ مقرونان في قَرنٍ ... فالخيرُ مُتَّبعٌ والشرُّ محذورُ

فلما قصّ الخبرَ على كسرى[(٤)] قال: إلى أن يملك منّا أربعة عشر تكون أمورٌ؛ فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى زمن عثمان رضي الله عنه.

= «اللسان ١٣/ ٣٤٣ و٣٤٤». بوغاء: التراب إذا ثار، والبيغ: توقد الدم حتى يظهر في العروق. «لسان العرب ٨/ ٤٢٢».

(١) ثكن: الثكنة: الجماعة من الناس والبهائم، والثكن ويبدو أنه هو المقصود: جبل معروف وقيل حجازي وثكن الجند: مراكزهم. «لسان العرب ١٣/ ٨٠».

(٢) الدهارير: جمع الدّهور أراد أن الدهر ذو حالين من بؤس ونعم. «اللسان مادة دهر».

(٣) بهرام: أحد ملوك الطبقة الرابعة «الأكاسرة» من ملوك الساسانيين. الهرمزان: أحد ملوك الطبقة الرابعة «الأكاسرة» من ملوك الساسانيين. سابور: أحد ملوك الطبقة الرابعة «الأكاسرة» من ملوك الساسانيين. شابور: أحد ملوك الطبقة الرابعة «الأكاسرة» من ملوك الساسانيين.

(٤) هو كسرى أنو شروان الملك العادل، وقد ولد النبيّ عليه الصلاة والسلام في آخر أيَّامه. «صبح الأعشى ٣/ ٤١٣».

ومن أخبارهم: أن سُعدى بنت كُرَيز بن ربيعة كانت قد تطرّقت وتكهّنت وهي خالة عثمان بن عفّان رضي الله عنهُ، روى عنه أنه قال: لما زَوّجَ النبيُّ ﷺ ابنته رُقيّة من عُتبة بن أَبي لهب وكانت ذات جمال رائع، دخلتني الحسرةُ أو كالحسرة أن لا أكون سبقت إليها ثم لم ألبثْ أن انصرفتُ إلى منزلي فألفيت خالتي فلما رأتني قالت: [من الرّجز]

أَبشرْ وحيِّيتَ ثلاثًا تترى ... ثمّ ثلاثًا وثلاثًا أُخرى
ثم بأُخرى كي تتمَّ عشرًا ... أتاكَ خيرٌ ووُقيتَ شرّا
نكحتَ واللهِ حَصانًا زَهرًا ... وأنتَ بِكرٌ ولقيتَ بِكرا
وافيتَها بنتَ نفيس قدرًا ... بنتَ نبيّ قد أشادَ ذكرا

قال عثمان: فعجِبتُ من قولها، وقلتُ: ماذا تقولين فقالت: [من الرّجز]

عثمان يا ابن أختَ يا عثمانُ ... لك الجمالُ ولك البيانُ
هذا نبيٌّ معه البرهانُ ... أرسله بحقّه الدّيّانُ
وجاءه التنزيلُ والفُرقانُ ... فاتبعْه لا تجتالك الأوثانُ

فقلت: يا خالة! إنك لتذكرين ما قد وقع ذكره في بلدتنا فأثبتيه لي، فقالت: إن محمد بن عبد الله رسولٌ من عند الله، جاء بتنزيل الله، يدعو إلى الله، مِصباحُهُ مصباحُ، وقولُه صلاحُ، ودينه فلاحُ، وأمرُه نجاحُ، وقَرْنه نطّاحُ، ذُلَّتْ له البطاحُ، ما ينفع الصياحُ، لو وقع الذباحُ، وسُلّت الصِّفاحُ، ومدَّت الرماحُ، قال: ثم قامت فانصرفتُ ووقع كلامها في قلبي، وجعلت أفكّر فيه، وذكر بعد ذلك إسلامه وتزويجه رقية؛ فكان يقال: إنهما أحسن زوجين اتفاقًا وجمالًا.

ومنها أن هندًا بنت عُتبة بن ربيعة كانت عند الفاكه بن المُغِيرة، وكان من فتيان قريش، وكان له بيتُ الضيافة، خارجًا من البيوت، تغشاه الناس من غير إذن؛ فخلا البيتُ ذاتَ يوم واضطجعَ هو وهندٌ فيه، ثم نهض لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيتَ فولَجه، فلما رآها ولَّى هاربًا وأبصره الفاكه فأقبل إليها فضربها برجله وقال لها: من هذا الذي خرج من عندك؟ قالت: ما رأيتُ أحدًا، ولا انتبهتُ حتى أنبهتني! فقال لها: ارجعي إلى أبيك، وتكلّم الناس فيها، فقال لها أبوها: يا بنيّة! إن الناسَ قد أكثروا فيك، فأنبئيني نبأك، فإن يكن الرجل عليك صادقًا دسَستُ عليه من يقتله، فتنقطع عنك المقالةُ، وإن يكُ كاذبًا حاكمتُه إلى بعض الكُهّان، فقالت: لا والله! ما هو عليّ بصادق؛ فقال له: يا فاكه! إنك قد رميتَ ابنتي بأمرٍ عظيم،

فحاكمني إلى بعض كُهّان اليمن؛ فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج عُتبة في جماعة من بني عبد مناف، ومعهم هند ونِسوةٌ، فلما شارفوا البلاد، وقالوا: غدًا نَردُ على الرجل، تنكّرتْ حالُ هند، فقال لها عتبةُ: إني أرى ما بك من تنكّر الحال، وما ذاكِ إلّا لمكروهٍ عندك، فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرُنا؟ فقالت: لا والله! ولكنّي أعرف أنكم تأتون بَشَرًا يخطىءُ ويصيبُ ولا آمنه أن يسمني مِيسمًا يكون عليّ سُبةً فقال: إني سوف أختبِرُه لك، فصفَّر لفرسه حتى أدلَى ثمّ أدخل في إحليله حبَّةَ حِنْطة وأوكأ عليها بسير، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدّوا قال له عتبة: قد جئناك في أمر وقد خبأنا لك خبيئًا أختبرُك به، فانظر ما هو؟ فقال ثمرهْ، في كَمَرَهْ. قال إنّي أريد أبين من هذا، قال: حَبّة بُرّ، في إحليل مُهر، قال: انظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهنّ فيضرب بيده على كتفها ويقول لها، انهضي، حتى دنا من هند فقال لها: انهضي غير رسحاء[1] ولا زانية، ولتلدنّ ملكًا اسمه معاوية؛ فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبتْ يدَها من يده وقالت: إليك عنّي فوالله لأحرصنّ أن يكون من غيرك؛ فتزوّجها أبو سفيان.

ومنها، أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المنافرة، فقال هاشم: إنِّي أنافرك على خمسين ناقةً سود الحَدَق، ننحرها بمكة أو الجلاء عن مكّة عشر سنين، فرضي أميّة وجعلا بينهما الخُزاعيّ الكاهنَ وخرجا إليه ومعهما جماعةٌ من قومهما فقالوا: نخبأُ له خبيئًا فإن أصابه تحاكمنا إليه، وإن لم يصبه تحاكمنا إلى غيره، فوجدا أبا هَمْهَمَة وكان معهم أطباق جُمجمة، فأمسكها معه ثم أتوا الكاهن فأناخوا ببابه وكان منزله بعُسْفان[2]: فقالوا: إنا قد خبأنا لك خبيئًا فأنبئنا عنه. قال: أحلفُ بالضَّوء والظلمة، وما بتهامة[3] من تهمة، وما بنجدٍ[4] من أكمة، لقد خبأتم لي أطباق

---

(١) رسحاء: الرسح: خفة الإليتين ولصوقهما، رجل أرسح: قليل لحم العجز والفخذين. والرسحاء كذلك القبيحة من النساء والجمع رُسْحٌ. «لسان العرب ٢/ ٤٤٩».

(٢) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، وقيل: عسفان بين المسجدين وهي من مكة، وقيل عسفان قرية جامدة بها منبر ونخيل ومزارع قريبة من مكة. «معجم البلدان ٤/ ١٢١ و١٢٢».

(٣) تهامة: تهامة تساير البحر ومنها مكة، طرف تهامة من قبل الحجاز، وأول تهامة من قبل نجد سميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها. «معجم البلدان ٢/ ٦٣».

(٤) نجد: النجد قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف، والجماعة النجاد، ونجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام. «معجم البلدان ٥/ ٢٦١=

جمجمة، مع الفلندح[١] أبي همهمة؛ فقالوا: صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف[٢] وبين أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف[٣] أيّهما أشرف بيتًا ونَفْسًا، قال: والقمر الباهر، والكوكبِ الزاهر، والغمامِ الماطر، وما بالجوّ من طائر، وما اهتدى بعلَم مُسافر، من منجِد وغائر، لقد سبَق هاشم أميّةَ إلى المآثر، أوّلًا منه وآخر؛ فأخذَ هاشمُ الإبل ونحرها وأطعمَها من حضر وخرج أميّة إلى الشام فأقام بها عشر سنين؛ فيقال: إنها أوّل عداوة وقعتْ بين بني هاشم وبين بني أميّة.

ومنهم: أن بني كلاب وبني رُبَاب من بني نُضَر خاصموا عبدَ المُطّلِب في مال قريبٍ من الطائف فقال عبدُ المطّلب: المال مالي فسلوني أعطِكُم، قالوا: لا، قال: فاختاروا حاكمًا قالوا: ربيعة بن حُذار الأسديّ فتراضوا به وعقَلوا مائة ناقة في الوادي وقالوا: الإبلُ والمالُ لمن حُكِم له، وخرجوا وخرج مع عبدِ المطّلب حَرْبُ بن أميّة فلما نزلوا بربيعة بعث إليهم بجزائر فنحرها عبدُ المطّلب، وأمر فصنع جزرًا وأطعم من أتاه، ونحرَ الكِلابيّون والنضريّون ووشقوا[٤] فقيل لربيعة فقال: إنّ عبد المطلب امرؤ من ولَدِ خزيمة فمتى يُملق يصله بنو عمّه وأرسل إليهم أن ٱخبؤوا لي خبيئًا فقال عبد المطّلب: قد خَبَأْتُ كلبًا اسمه سوَّار في عنقه قِلادة، في خرزة مزادة، وضممتها بعين جَرادة، فقال الآخرون: قد رضِينا ما خَبَأْتَ وأرسلوا إلى ربيعة فقال: خبأ ثَمَّ خبيئًا حيًا قالوا: زد، قال: ذو بُرثن أغبر، وبَطْن أحمر، وظَهْر أنمر؛ قالوا: قربت، قال: سما فَسَطع، ثمّ هبط فلطع[٥]، فترك الأرض بَلْقَع، قالوا: قَرُبت فَطَبِّق قال:

= و٢٦٢».

(١) الفلندح: اسم لم تقع على معناه.

(٢) هاشم بن عبد مناف: من قريش جد النبي أحد من انتهت إليهم السيادة في الجاهلية، اسمه عمرو وغلب عليه لقبه هاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة في إحدى المجاعات، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم ولد بمكة نحو ١٢٧ ق.هـ ـ ٦٠٠ م وساد صغيرًا، وفد على الشام في تجارة له فمرض في طريقه إليها، فتحول إلى غزة في فلسطين فمات فيها شابًا وإليه نسبة الهاشميين، كانت وفاته نحو ١٠٢ ق.هـ ـ نحو ٥٢٤ م. «الأعلام للزركلي ٨/٦٦».

(٣) أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: من قريش، جد الأمويين بالشام والأندلس، جاهلي، كان من سكان المدينة، وكانت له قيادة الحرب في قريش بعد أبيه، عاش إلى ما بعد مولد النبي محمد ﷺ. «الزركلي ٢/٢٣».

(٤) وشقوا: يريد أكلوا وقطّعوا اللحم ففرّقوه وجفّفوا قسمًا منه. «لسان العرب ١٠/٣٨١».

(٥) لطع: اللطع هو اللحس، ولطعه يلطعه أي لعقه لعقًا، واللطع أيضًا: رقّة الشفة وقلة لحمها. «لسان العرب ٨/٣١٩».

عين جَرادة، في خرزة مزادة، في عنق سوَّار ذي القلادة، قالوا: زه زه[1] أصبتَ فاحكم لأشَدّنا طِعانًا، وأوسعنا مَكانًا، قال عبدُ المطلب: احكم لأولانا بالخيرات، وأبعدنا عن السوآت وأكرمنا أمهات، فقال ربيعةُ: والغَسَق والشَّفَق، والخلق المتّفق، ما لبني كلاب وبني رُبَاب من حقّ، فانصرفْ يا عبد المطّلب على الصواب، ولك فصلُ الخطاب؛ فوهب عبدُ المطّلبِ المالَ لحرب بن أميّة.

وأخبار الكهنة كثيرةٌ نذكر منها إن شاء الله تعالى في السيرة النبويّة جملةً تقف عليها في المبشرات برسول الله ﷺ وذلك في السِّفْر الرابع عشر من كتاب الأصل.

الزَّجْــر

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في زجر الطير: إنّ العلماءَ بهذا الفنّ قالوا: إذا خرجتَ من منزلك تطلبُ حاجةً، أو تخطبُ امرأةً، فنَعَب غرابٌ عن يمينك وعن يسارك أو سَنح أو برح فامضِ فإنّك مُدرِك حاجتك إن شاء الله تعالى فإن نعب أمامَك أو فوقك فارجعْ ففيها تأخير.

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب فوق رأسِك فامضِ فإنك مُدرِكٌ حاجتك إن شاء الله تعالى.

فإن خرجتَ تطلب دابّةً فنعب عن يمينك أو يسارك على حائط مرتفع، فامضِ لحاجتك، فإن نَعَب أمامك فارجع.

وإن خرجتَ تطلب مالًا ضلّ عنك أو سُرق، فنَعَب غرابٌ على شجرة يابسة فلا تطلبْهُ فقد استهلك وقد يأتيك بعضُه، فإن نعب على جِدار جديد أو شجرة خضراءَ فإنك تصيبُ مالكَ إن شاء الله تعالى.

فإن خرجتَ تريد الضَّالَّ فنعَب من ورائك، فارجع فليس لك في ذلك خيرة، وإن نعب عن يسارك فإني خائف على نفسك إلا أن يشاء الله.

فإن خرجت تريد الصيد فنعب من فوقك فارجع فإن نعب أمامك فامضِ فإنّك تدرك خيرًا.

وإن خرجت تطلب سلطانًا في طلب مال أو حاجة فنعب عن يمينك ثمّ طار ثمّ نعب أدركتَ منه طلبتك إن شاء الله تعالى.

(١) زه: كلمة تقال عند استحسان الشيء، وقد تقال عند التهكُّم.

وإن خرجتَ تريد شراء شيء فنعب عن يمينك فإنه صالحٌ، وإن نعب عن يسارك فلا خيرَ فيه.

وإن خرجتَ من منزلك فرأيت غرابًا يمسح مِنقارَه على الأرض فإنك تصيب أو تأتيك هديّةٌ من مكانٍ بعيد.

وإن خرجتَ تطلب حاجةً فنعب عن يمينك ثم قطع الطريق إلى يسارك فنعب فإنك تدرك حاجتك عجلًا إن شاء الله تعالى! فإن نعب فوقَ رأسك فارجع فإني أخاف عليك بعضَ أعدائك.

وإن خرجتَ تريد سلطانًا فنعب غرابٌ وهو مستقبِلٌ الشرقَ فامكث يومَك ذلك فإني أخاف عليك.

فإن خرجتَ فرأيت غرابًا ينفض ريشَه؛ فإنه يأتيك خيرٌ عاجلٌ.

وإن خرجتَ تريد أرضًا بعيدةً فرأيتَ غرابًا ينتفض فامضِ لحاجتك؛ فإنك تدركُ أمَلَكَ إن شاء الله تعالى.

وإن خرجتَ تريد السلطانَ فوقع غرابٌ على شيء فنعب ثلاث مرّات فامضِ لحاجتك؛ فهو خيرٌ عاجل وتيسيرٌ للحوائج إن شاء الله تعالى.

وإن خرجتَ فرأيتَ غرابًا ناشرًا جناحيه يريد الطيران فامضِ، فإن نعب فارجعْ يومَك.

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعَب من فوقِك فامضِ، وإن نعب فأجابه الآخر فهو جيّد صالح.

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب من فوقك أو شَحَج فامضِ؛ فإنك تلقي في يومك ذلك ما تريد إن شاء الله تعالى.

وإن خرج جماعةٌ وفيهم رجل شريفٌ فشَحَج غرابٌ على رأس الشريف، ثم أتوا ملكًا فإنهم يصيبون خيرًا إن شاء الله تعالى.

وإن خرج يطلب حاجةً إلى سلطان فواجَهه غراب فليمكثْ يومَه ذلك ولا يمضِ في ذلك الحاجة، وإن نعب عن يمينه فقطع الطريق ثمّ وقع فهو يُدرك حاجَته.

وإن خرج يريد السلطان أو بعث إليه وهو لا يدري فرأى غرابًا يطير قليلًا؛ ثم يقع فيلقط من الأرض شيئًا فليمضِ فإنّه يصيب سلطانًا ويلي قومًا، وإن رأى غرابًا

يبحث في الأرض فإنّ بعضَ أهله يموت سريعًا، وإن رآه ينقرُ في الأرض فذلك مُلْكٌ.

وإن خرج فرأى غرابًا يطير ثمّ وقع ثلاثَ مرات وهو ساكتٌ لا ينعبُ، فذلك غمٌّ يصيبه إلا أن يدفع الله عزّ وجلّ عنه.

وإن خرج فرآه ينتفض ثم ينعب ثمّ يطير فذلك سلطانٌ ينالهُ ويتزوج؛ والعلم عند الله.

وإن خرج فرأى غرابًا يطير ثمّ يقع فذاك خيرٌ وسرورٌ يأتيه.

وإن خرج فرأى غرابًا يطير نحو عينِ الشمس فذاك همٌّ يصيبُه شديد.

وإن خرج فلقي بقرًا فليرجع فإن لقي من البغال شيئًا لم يركبْ فليرجعْ والمركوبة صالحة لا بأسَ بها.

وإن خرج يعود مريضًا فنهق حمار عن يمينه أو عن يساره فالمريضُ صالح، وإن نهق خلفَهُ فقد اشتدّ بالمريض مرضُه وأنا خائفٌ عليه.

وإن خرج يريد حاجةً فاستقبله غلامٌ يبكي وهو متلطّخ بعَذِرَة[1] وهو ذاهبٌ والغلامُ راجعٌ فليمضِ فإنّ حاجتَه تُقْضَى، وإن استقبله غلام يعدو ويتلهّف فإن حاجتَه تعسر وتطول.

وإن خرج في حاجته فرأى وَرَشانًا[2] يطير، يرتفع ويَهبِط فليمضِ فإن ذلك أنجحُ لحاجته، وإن رآه يطير مستعليًا فليرجع، وإن رأى حمامة مسرولة تطير من فوق رأسه وتدور فإنّ حاجته مقضيّة بعد بطء ومَطْل، وإن رأى حمامة هابِطةً واقعةً تقع وتطير فإنّ ذلك خيرٌ صالحٌ وسرورٌ إن شاء الله تعالى.

وإن خرج من منزله فاستقبلته جنازةٌ وجماعةٌ فليرجعْ يومَه ذلك ولا يعود لحاجته فإنّها غير مقضية، فإن كانت الجنازةُ قد جاوزته مُدْبِرةً فليذهبْ لحاجته؛ فإن ذلك صالح. وإن رأى نسوةً إلى المقابر وهنّ مقبلاتٌ نحوه فليقعد حتى يمضين عنه فإنّه أنجحُ لحاجته وإن رآهن مُدبراتٍ فليمضِ في حاجته فإنها مقضيّة.

---

(١) عذرة: العذرة: الغائط الذي هو السلح. «لسان العرب ٤/ ٥٥٤».

(٢) وَرَشَان: طائر شبه الحمامة، والجمع وِرشان. «لسان العرب ٦/ ٣٧٢».

وإن خرج من داره فرأى في أرضها نملًا كثيرًا وفي حائطها فليمضِ لحاجته فذلك خيرٌ وسرورٌ يناله. فإن رأى ذُبابًا كثيرًا مجتمعًا على حائط وهو يسمع لهنّ دبيبًا فذاك مرض يصيبه في بدنه أو يصيب بعضَ أهله. ومن رأى ذَرًّا كثيرًا وقِردانًا فذلك فرح ورزق عاجل يناله إن شاء الله تعالى. ومن رأى دَجَاجتين تقتتلان بنقر بعضهما فذاك يدل على أنّه يقع بينه وبين امرأته كلامٌ وغضب.

وإن خرج من منزله فرأى وَرَشانين يقتتلان في جوّ السماء رافعين وهابطين فيأتيه ما يُسرّ به. وإن رأى كلبة والكلاب تطوف حولها ويتبع بعضها بعضًا فإن كان عليه دَيْنٌ قضاه الله عنه وإن كانت له حاجة مهمة قضيت في وجهه ذلك وإن أراد شيئًا يسّره الله له وإن أراد سفرًا تهيّأ له ورَجَعَ سالمًا.

وإن خرج فرأى على رجلٍ قِربةً ثمّ انشقت فليرجعْ إلى منزله ويتعوّذ بالله من شرّ ذلك اليوم فإنّه مكروه جدًّا.

وإن خرج فرأى رجلًا وهو يريد أن يملأ قِربةً فليمضِ في حاجته فإنه فَرَحٌ وسرورٌ وخيرٌ يناله عاجلًا إن شاء الله تعالى.

وإن خرج فرأى حمارًا أو بغلًا عليه راوية[١] مملوءة فشأنه غيرُ صالحٍ وهو مكروه، وإن كان صاحبُ الراويةِ يريد أن يملأها فليمضِ فحاجتُه مقضيةٌ إن شاء الله تعالى.

وإن خرج من منزله فرأى جملًا عليه حطبٌ أو بعضُ منافع الناس فهو من علامات النجاح في الخصومةِ والظفرِ العاجلِ إن شاء الله تعالى، فإن رآه غيرَ محمولٍ عليه وعليه صاحبه فإنّ ذلك خيرٌ يأتيه ويُنعي إليه بعضُ أهلِهِ من مكان بعيد. قال: وأرجو أن يدفعَ الله، فإن رآه مُنَاخًا يرغو فإن ذلك خيرٌ يأتيه ويُخبر عن شيءٍ ممّا يحبُّ من تزويجٍ أو غنيمةٍ وهو صالحٌ.

وإن خرج فرأى بعيرًا قد شَردَ ورأى من يطلبه فإن ذلك نجاة من عدوّه وفرح قريبٌ إن شاء الله تعالى.

وإن خرج فرأى بعيرًا قد شرد فاجتمع عليه الناس فإن ذلك يدلّ على ظَفَره بعدوّه وانتقامه منه فليحمدِ الله على ما رأى ويشكره.

---

(١) راوية: وعاء يكون فيه الماء، ورجل روّاء إذا كان الاستقاء بالراوية له صناعة، فالراوية: هي المزادة فيها الماء. «لسان العرب ١٤/٣٤٦».

ومن خرج من منزله فرأى قِردًا يتقلّب والناس حوله فليمضِ لحاجته فإنّها مقضية.

وإن خرج فرأى القِرد يلعب والناس مجتمعون عليه وقد صار لعبه إلى أن يتقلّب ظهرًا لبطن في الأرض فليرجع من وجهه ذلك فليس بموفّق وهو مكروه.

وإنْ خرج من منزله فرأى غلمانًا يلعبون بالأُكرة ويتسابقون فليمضِ في وجهه ذلك فإنّه يصيب رفعةً وشرفًا وتمكنًا من السلطان ويصيبُ مالًا عظيمًا.

وإن خرج فرآهم يلعبون بالصوالجة(١) فهو رفعة ويدلّ على مال رديء حرام يصيبه من سلطان ويركب أمرًا عظيمًا من عمله فليتق الله.

وإن رأى جواريَ يلعبن بالطرق كأنهنّ يزففنْ عروسًا فهو خيرٌ وسرورٌ ودخولٌ في أمرٍ شريف وإنّه يربحُ ربحًا عظيمًا وهو خير الزجر.

وإن خرج فرأى عصفورين يلتقطان الحبَّ فهو صالحٌ، وإن رآهما يتسافدان(٢) فهو خير يناله في يومه، وإن رآهما مدبرين فليمضِ لحاجته فإنها مقضية إن شاء الله تعالى.

وإن خرج فتعلق بثوبه شيء فليرجعْ؛ فإني أكره له أن يذهب في حاجته تلك.

وإن خرج فرأى حِدَأةً(٣) تسفِد حِدَأةً وهي تصيح فهو نجاحٌ فليمضِ لحاجته.

وإن خرج فعثر فلا يذهبن في تلك الحاجة وليؤخِّرْها.

ومن الزجر ما مخرجه مخرج الكِهانة.

فمن ذلك ما حُكِيَ أنّ أُميّة بن أبي الصَّلْت الثَقَفيّ(٤) بينا هو يشرب مع إخوان له في قصر غَيْلان بالطائف(٥) إذ سقط غرابٌ على شُرْفة القصر فنَعب نعبة فقال أُميّة:

---

(١) الصوالجة: أصل الكلمة فارسي، وهي لعبة اشتهرت كثيرًا في العصر العباسي، وجعل لها الخلفاء ميادين فسيحة، وفي هذه اللعبة تضرب الكرة من على ظهور الخيل فيتقاذفها الخيالة والفرسان. «الطبري ٨/ ٣٤، والنجوم الزاهرة ٣/ ٣٨، والحضارة الإسلامية لمتيز ٢/ ٢٦٢».

(٢) يتسافدان: السفاد: نزو الذكر على الأنثى. «اللسان ٣/ ٢١٨».

(٣) حِدأة: طائر يطير يصيد الجرذان، والجمع حِدَأ. «اللسان ١/ ٥٤».

(٤) هو أميّة بن أبي الصلت الثقفي، شاعر جاهليٌ حكيم من أهل الطائف، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات سنة ٥ هـ. «الأعلام ٢/ ٢٣».

(٥) الطائف: مدينة سميت الطائف لأن إبراهيم عليه السلام أسكن ذريّته مكة وسأل الله أن يرزق=

بفيك الكَثْكَث أي التراب فقال له أصحابه: ما يقول؟ قال يقول: إنّك إذا شربتَ الكأس التي بيدك متَّ، ثم نعب نعبة أخرى، فقال أميّة كمقالته الأولى فقال أصحابه: ما يقول؟ قال: يزعم أنّه يقع على هذه المزبلة في أسفل القصر فيستثير عظمًا فيبتلعه فيشجى به فيموت، فوقع الغرابُ على المزبلة فأثار العظم وابتلعه فشجى فمات، فأنكر أميّة ووضع الكأس من يده وتغيّر لونُه فقال أصحابه: ما أكثر ما سمعنا مثل هذا وكان باطلًا وألحّوا عليه حتى شرب الكأس فمال فأغميَ عليه ثم أفاق فقال: لا بريءٌ فأعتذر، ولا قويٌّ فأنتصر، ثم خرجت نفسه.

وزعموا أن رجلًا من كعب خرج في جماعة ومعه سِقَاء من لبن فسار صدر يومه فعطش فأناخ ليشربَ فإذا غرابٌ ينعب فأثار راحلتَه، ثم سار فلما أظهر أناخ ليشرب، فنعب الغراب وتمرّغ في التراب فضرب الرجل السِّقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخمٌ فقتله، ثم سار فإذا غراب واقع على سِدرة[١] فصاح به فوقع على سلمة[٢] فصاح به فوقع على صخرة فانتهى إليها فأثار كَنْزًا، فلما رجع إلى أبيه قال له: إيه ما صنعت؟ قال: سِرتُ صدرَ يومي، ثم أنختُ لأشربَ فنعب الغراب، قال أثْرها وإلا فلست يا بني! قال: أثرتُها، ثم أنخت لأشربَ فنعب الغرابُ وتمرّغَ في التراب قال: اضرب السِّقاء وإلا لست يا بني! قال: فعلتُ، فإذا أسود ضخم قال: ثم مه! قال: ثم رأيتُ غرابًا على سِدْرة قال: أطِرْه وإلا فلست يا بني! قال: فعلتُ فوقع على سَلَمة قال: أطْره وإلا فلستَ بابني! قال: فعلتُ فوقع على صخرة قال: أحذِ يا بنيّ! فأحذاه.

ومن الزجر: ما يُروى أن كسرى أبَرْويز بعث إلى النبيّ ﷺ حين بُعِث زاجرًا ومصوّرًا وقال للزاجر: انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصوّر: إئتني بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصوّر صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته، وقال للزاجر: ما رأيت؟ فقال: لم أرَ ما أزجره حتى الآن وأرى أمرَه يعلو عليك لأنك وضعتَ صورتَه على وسادتك.

= أهلها من الثمرات، فأمر الله قطعة من الأرض أن تستقرّ بمكان الطائف، فسمّيت بالطائف لطوافها حول البيت وهي ذات مزارع. ونخل وأعناب ومياه جارية. «انظر معجم البلدان ٤/ ٩».

(١) سدرة: السِّدر: نوع من الشجر، بعضها بري لا ينتفع بثمره، ونوع ينبت على الماء وثمره النبق. «لسان العرب ٤/ ٣٥٤».

(٢) سلمة: شجر يدبغ به الأديم ـ والسلمة شجرة ذات شوك يدبغ بورقها وقشرها. «لسان العرب ١٢/ ٢٩٦».

وقيل: إن كُثَيِّرًا تعشّق امرأةً من خُزاعة يقال لها: أمّ الحُويرث، فشبّب بها فكرهتْ أن يفضحها كما فضح عَزّة فقالت له: إنّك رجل فقيرٌ لا مال لك فابتغِ مالًا، ثم تعال فاخطبني كما يخطبُ الكرامُ قال: فاحلفي لي ووثّقي أنّك لا تتزوّجين حتى أقدم عليك فحلفَتْ ووثّقتْ له فمدح عبد الرحمٰن بن الأزديّ[1] وخرج إليه؛ فلقيَ ظباءً سوانح، ولقيَ غُرابًا يفحص التراب بوجهه فتطيّر من ذلك حتى قدم على حيّ من لَهْب فقال: أيّكم يَزجُر؟ قالوا: كلّنا! فمن تريد؟ قال: أعْلَمُكُمْ بذلك! قالوا: ذلك الشيخ المنحني الصُلْب، فأتاه فقصّ عليه القصّة فكرِه ذلك له وقال: قد ماتت أو تزوّجت رجلًا من بني عمّها فقال كثيّر: [من الطويل]

تيمَّمتُ لِهْبًا أبتغي العلمَ عندهم ... وقد رُدّ علمُ العائفين إلى لَهْبِ!
فيممتُ شيخًا منهُمُ ذا بجالة ... بصيرًا بزجْرِ الطير مُنحنيَ الصُلْبِ!
فقلتُ له: ماذا ترى في سوانح ... وصوتِ غرابٍ يفحصُ الأرض بالتربِ؟
فقال: جرى الطيرُ السنيحُ بينها ... ونادى غرابٌ بالفراق وبالسلبِ
فإن لا تكنْ ماتت فقد حالَ دونَها ... سؤالُ خليلٍ باطنٍ من بني كعبِ

قال: ثم مدح الرجل الأزديّ فأصاب منه خيرًا، ثم قدِم عليها فوجدها قد تزوّجتْ رجلًا من بني عمّها فأخذه الهلاس[2] فكُشِح جنباه بالنار؛ فلمّا اندمل من علّته ووضع يده على ظهره فإذا هو برقمتين[3] فقال: ما هذا؟ قالوا: أخذَكَ الهُلاس وزعم الأطباءُ أنّه لا علاجَ لك إلا بالكَشْحِ بالنار فكُشِحتَ بها فأنشأ يقول: [من الطويل]

عفى الله عن أمّ الحويْرث ذَنبها ... علام تعنّيني وتكمي دوائيا؟
ولو آذنوني قبل أن يرقموا بها ... لقلتُ لهم: أمّ الحويرث دائيا

وحُكي أن صاحب الروم بعث إلى النبيّ ﷺ رسولًا وقال له: انظر أين تراه جالسًا، ومَن إلى جانبه، وانظر ما بين كَتِفيه حتى الخاتمَ والشامةَ؛ فقدم ورسول الله ﷺ

---

(١) عبد الرحمٰن بن الأزدي: عبد الرحمٰن بن يزيد بن المهلب الأزدي، من أمراء هذا البيت وشجعانه، كان مواليًا لبني أمية، فلما ظهر العباسيون قتل بالموصل بعد أن كتب له الأمان سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م. «الزركلي ٣/ ٣٤٢».

(٢) الهلاس: شبه السلال من الهزال، والهلاس: السُل، والإهلاس أيضًا: ضحك فيه فتور، والهُلْس: الضعفاء إن لم يكونوا فقهًا. «اللسان ٦/ ٢٥٠».

(٣) الرقمتان: مثني «الرقمة» وهي أثر الكيّ في الجسم، ورقم الجمل: كواه.

على نَشزٍ(١) واضعًا قدميه في الماء، وعن يمينه عليٌّ عليه السلام؛ فلما رآه ﷺ قال: «تحوّل فانظر ما أُمرتَ به» فنظر ثم رجع إلى صاحبه فأخبره الخبر فقال: ليعلونّ أمرُه وليملكنّ ما تحت قدمي وقال: بالنَّشْز العُلوّ وبالماء الحياة.

ومن الزجر: ما رُوِيَ عن أبي ذُؤَيب الهُذَلِيّ قال: إنّه بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل فأوجس أهل الحيّ خِيفةً عليه فبتُّ بليلةٍ ثابتةِ النجومِ طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها ولا يَطْلُع نورها حتى إذا قَرُب السَّحَر غفوتُ فهتفً لي هاتف يقول: [من الكامل]

خَـطْـبٌ أجـلّ أنـاخ بـالإسـلامِ بيـن النـخيـل ومَـعْـقَـد الآطامِ(٢)

قُبِـض النـبيّ مـحـمّدٌ فعيـوننـا تـذري الـدموعَ عـليه بـالتَّسجامِ

قال أبو ذؤيب: فوثبتُ من نومي فزعًا فنظرتُ إلى السماء فلم أر إلّا سعد الذابح فتفاءلْتُ به ذبحًا يقع في العرب، وعلمت أنّ النبيّ ﷺ قد مات أو هو ميّتٌ من علّته، فركبتُ ناقتِي وسرتُ حتى أصبحتُ فطلبتُ شيئًا أزجره، فعنّ لي شَيْهَم(٣) قد أرَمَ على صِلٍّ وهو يتلوّى عليه والشيهم يقضمُه حتى أكله فزجرتُ ذلك شيئًا مهمًّا فقلت: تَلوّي الصِّلّ: انفتالُ الناسِ عن الحقّ على القائم بعد رسول الله ﷺ، ثم أوّلتُ أكلَ الشيهمِ إياه: غَلَبَةُ القائم على الأمر فحثثتُ ناقتي حتى إذا كنت بالعلية زجرتُ الطيرَ فأخبرني بوفاته. ونعبَ غرابٌ سانحًا بمثل ذلك فتعوّذتُ من شرّ ما عنّ لي في طريقي، ثم قدمتُ المدينةَ ولأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلّوا جميعًا بالإحرام فقلتُ: مه! قالوا قُبِض رسولُ الله ﷺ فجئتُ المسجدَ فأصبته خاليًا فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأصبتُ بابه مُرْتجًا وقد خلا به أهلُه فقلت: أين الناسُ؟ فقيل: في سَقِيفة بني سَاعِدة(٤) صاروا إلى الأنصار فجئتُ السقيفةَ فوجدتُ أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما،

---

(١) نشز: المتن المرتفع من الأرض، والجمع أنشاز ونُشوز، وأشرف على نشز من الأرض: هو ما ارتفع وظهر. «لسان العرب ٥/٤١٧».

(٢) الآطام: الأطم، حصن مبني بالحجارة، وقيل هو كل بيت مربع مسطح، وقيل الأطم مثل الأُجم، والجمع القليل آطام وآجام. «لسان العرب ١٢/١٩».

(٣) شيهم: ما عظم شوكه من ذكور القنافذ. «لسان العرب ١٢/٣٢٨».

(٤) سقيفة بني ساعدة: بالمدينة المنورة، وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها، والسقيفة كل بناء سُقف به صفةٌ أو شبه صفة مما يكون بارزًا، وأما بنو ساعدة الذين أضيفت إليهم السقيفة فهم حي من الأنصار، وهم بنو ساعدة بن كعب من الخزرج، وفي هذه السقيفة بويع أبو بكر الصديق. «معجم البلدان ٣/٢٢٨ و٢٢٩».

وأبا عُبَيْدة، وسَالمًا، وجماعةً من قريش ورأيت الأنصارَ فيهم سَعْد بن عُبَادة ومعهم شُعراؤهم وأمامهم حسّان بن ثابت، وكَعْب في مَلإٍ منهم فأويتُ إلى الأنصار فتكلموا فأكثروا وتكلّم أبو بكر فلله من رجل لا يُطيل الكلام ويعلم مواضِعَ الفصل، واللهِ لتكلّم بكلام لم يسمعه سامعٌ إلّا انقاد له ومال إليه، وتكلم بعده عمرُ رضي الله عنه بكلام دون كلامه، ومدّ يده فبايعه، ورجِع أبو بكر رضي الله عنه ورجِعتُ معه، فشَهدتُ الصلاة على رسول الله ﷺ، وشهدتُ دفنَه قال: ولقد بايع الناسُ من أبي بكر رجلًا حلّ قُداماها ولم يركب ذُنابابها وانصرف أبو ذؤيب إلى باديته وثَبتَ على إسلامه.

ومنه: ما رُوِيَ عن مُصْعَب بن عبد الله الزُّبيريّ[1] أنه حَدّث عن رجل قال: شَرَدتْ لنا إبلٌ فأتيتُ حُليسا الأسديّ فسألتُه عنها فقال لبنت له: خُطّي، فخطّت ونظرتْ ثمّ انقبضت وقامت مُنصَرِفَةً فنظر حليس في خطّها فضحك وقال: أتدري لم قامت؟ قلت: لا، قال: رأت أنك تجد إبلك وأنّك تتزوّجها فاستحيت فقامت، فخرجتُ فأصبتُ إبلي ثمّ تزوجتُها بعد.

الفألُ والطِّيَرَة

حُكيَ أنه لما وُلِد لسعيد بن العاص عَنْبَسة قال سعيدٌ لابنه يحيىٰ: أَيَّ شيء تنحّله؟ قال: دجاجة بفراريجها، وإنما أراد احتقاره بذلك لأن أمَّه كانت أَمَةً فقال سعيد: إن صدَقَ الطيرُ ليكوننّ أكثرُكم ولدًا فكان كذلك.

لما طلب عامر بن إسماعيل[2] مَرْوان بن محمّد[3] اعترضه بالفيّوم[4] قومٌ من

---

(١) هو مصعب بن عبد الله بن الزبير، أبو عبد الله، علامة بالأنساب، غزير المعرفة بالتاريخ، كان ثقةً في الحديث، وشاعرًا، ولد بالمدينة وتوفي في بغداد سنة ٢٣٦ هـ. «الأعلام ٧/٢٤٨».

(٢) عامر بن إسماعيل: أحد القادة العباسيين، كان على مقدمة الجيش الذي لاحق مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في مصر سنة ١٣٢ هـ، ثم كان على رأس الجيوش التي غزت المغرب بأمر من الخليفة السفاح سنة ١٣٥ هـ. «ولاة مصر ص ١٢٣».

(٣) مروان بن محمد (٧٢ ـ ١٣٢ هـ = ٦٩٢ ـ ٧٥٠ م) أبو عبد الملك، يعرف بالجعدي وبالحمار، آخر ملوك بني أمية في الشام، ولد بالجزيرة وأبوه متوليها، افتتح فتوحات وخاض حروبًا كثيرة، كان حازمًا مدبرًا شجاعًا، يقال له الحمار أو حمار الجزيرة لجرأته في الحروب، واشتهر بالجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم. دامت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر قتل سنة ١٣٢ هـ. «الزركلي ٧/٢٠٨».

(٤) الفيوم: قال ياقوت: الفيوم بمصر، ولاية غربية قريبة من الفسطاط، بناها يوسف الصديق، والنيل أعلى منها، ولما تم بناءها نظر يوسف الصديق وقال لوزرائه: هذا عمل ألف يوم، =

العرب فسأل رجلًا: ما اسمُكَ؟ فقال منصورٌ بن سعد: وأنا من سعد العشيرة، فتبسم تفاؤلًا به وتيمّنًا واستصحبَه فظفر بمروانَ تلك الليلةَ.

ومن الطِّيرَة: ما حُكيَ عن بعضهم قال: حضرتُ الموقِفَ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصاح به رجلٌ من خلفه: يا خليفةَ رسولِ الله ﷺ، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين! فقال رجلٌ من خلفه: دعاه باسم ميت! مات والله أمير المؤمنين، ولا يَقف هذا الموقفَ أبدًا! فالتفتَ إليه فإذا هو اللَّهَبِيُّ؛ فقُتِل عمرُ قبل الحول.

وحُكِيَ أنّ عمرَ رضي الله عنه خرج إلى حَرّةِ[1] واقِم فلقِيَ رجلًا من جُهينة فقال له: ما اسمُك؟ قال: شهاب، قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابن جَمْرة! قال: وممن أنتَ؟ قال: من الحُرَقة[2]! قال: ثم ممن؟ قال: من بني ضِرام! قال: وأين منزلُكَ؟ قال: بحَرَّةِ ليلى[3]! قال: وأين تريد؟ قال: لظى وهو موضعٌ! فقال عمر: أدرِكْ أهلَك، فما أراك تُدركهم إلا وقد احترقوا، قال: فأدركَهُم، وقد أحاطت بهم النار.

وقال المدائنيّ[4]: وقع الطاعونُ بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان فخرج هاربًا منه فنزل قريةً من الصعيد يقال لها: شكر، فقدِم عليه حين نزلها رسولٌ لعبد الملك فقال له عبدُ العزيز: ما اسمُكَ؟ قال طالب بن مُدْرِك! فقال: أوّه! ما أراني راجعًا إلى الفِسطَاط أبدًا؛ ومات في تلك القرية.

وقيل: بينا مروان بن محمد في إيوان له يُنَفِّذ الأمورَ، فانصدعتْ زُجاجةُ الأموال، فوقعت الشمسُ منها على مَنْكب مروان وكان هناك عَيّاف[5] فقال: صَدْعُ الزُّجاجِ أمرٌ منكرٌ على أمير المؤمنين، ثم قام فاتّبعه ثَوبان مولى مروان. فقال له: ويحك! ما قلت؟ قال. قلتُ: صَدْعُ الزجاج صَدْعُ السلطان، ستذهب الشمسُ بمُلك

= فسميت الفيوم. «معجم البلدان ٤/ ٢٨٦ و٢٨٧».

(١) حرة واقم: إحدى حرتي المدينة، وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم، والحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. «معجم البلدان ٢/ ٢٤٥ و٢٤٩».

(٢) الحرقة: ناحية بعُمان. «معجم البلدان ٢/ ٢٤٣».

(٣) حرة ليلى: هي بني مرّة بن عوف بن عطفان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة. «معجم البلدان ٢/ ٢٤٧».

(٤) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله، أبو الحسن، راوية مؤرّخ من أهل البصرة، سكن المدائن وانتقل إلى بغداد وتوفي فيها سنة ٢٢٥ هـ. «الأعلام ٤/ ٣٢٣».

(٥) عياف: العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، ويقال: عاف يعيف عيفًا: إذا زجر وحدس وظنّ، والعياف أو العائف الذي يعيف الطير فيزجرها. «لسان العرب ٩/ ٢٦١».

مروان، بقوم من الترك أو خُراسان، ذلك عندي واضحُ البرهان! قال: فما ورد لذلك شهران حتّى ورد خبرُ أبي مُسلم.

وقال إبراهيم بن المَهْديّ: أرسل إليَّ محمد الأمينُ(١) في ليلة مُقْمرةٍ من ليالي الصيف فقال: يا عَمّي! إن الحرب بيني وبين طاهر قد سكنت فصِر إليّ فإني إليك مشتاق فجئتُه وقد بُسِط له على سطح، وعنده سليمان بن جعفر، وعليه كِساءٌ رُوذَبارِيّ، وقَلَنسوة طويلة، وجواريه بين يديه. وضُعْفُ جاريته عنده. فقال لها: غنّيني فقد سُررتُ بعمومتي فاندفعت تغنّيه: [من الطويل]

هُمُ قتلوه كي يكونوا مكانَه — كما فعلتْ يومًا بكسرى مَرَازِبُهْ(٢)!

بني هاشم كيف التَّواصُل بيننا — وعند أخيه سيفُه ونجائبهْ؟

هكذا غنّته، وإنّما هو: [من الطويل]

* وعند عليٍّ سيفه ونجائبه *

فغضب وتطيّر، وقال: ما قِصّتُكِ؟ ويحك! غنيني ما يسرُّني، فغنّتْ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

هذا مقام مطّردِ — هُدِمتْ منازله ودورُهْ!

فازداد تطيّرًا، ثم قال: ويحك! انتهي وغنّي غير هذا فغنّت: [من الطويل]

كُلَيْبُ لعمري كان أكثرَ ناصرًا — وأيسر جُرمًا منك ضُرّج بالدّمِ

فقال لها: قومي إلى لعنةِ الله، فوثبت؛ وكان بين يديه قَدَحُ بِلَّور وكان لحبّه إيّاه يسمّيه محمّدًا باسمِهِ، فأصابه طَرفُ ذيلها فسقط على بعض الصواني فانكسر، فأقبل عليَّ وقال: أرى واللهِ يا عمّ أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلّا! بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرُّك، قال: ودِجلةٌ واللهِ هادئةٌ ما فيها صوت مجداف، ولا أحد يتحرّك؛ فسمعتُ هاتفًا يهتف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسُف: الآية ٤١]. قال: فقال لي: سمعتَ يا عمّ؟ فقلتُ: وما هو؟ وقد والله سمعتُه، فإذا الصوت قد عاد فقال:

(١) محمد الأمين: (١٧٠ ـ ١٩٨ هـ = ٧٨٧ ـ ٨١٣ م) خليفة عباسي، ابن هارون الرشيد، ولد في رصافة بغداد، كان شجاعًا أديبًا رقيق الشعر مكثرًا في إنفاق الأموال، سيىء التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة الندماء. قتل بعد صراع على الخلافة مع أخيه المأمون بمدينة السلام (بغداد). «الزركلي ٧/ ١٢٧».

(٢) مرازب: جمع مرزبان، حالي الحدود، حاكم الثغور. «المعجم الذهبي ص ٥٤١».

انصرف بيَّتك اللهُ بخيرٍ فمحال أن لا تكون الآن قد سمعتَ ما سمعتُ، فانصرفت وكان آخر العهد به.

وشبيه بهذا ما حُكيَ عن عَلُّويَة[١] المغنّي قال: كنتُ مع المأمون لما خرج إلى الشام، فدخلنا دِمَشق فطفنا فيها، وجعل يطوف على قصور بني أميّة، ويتتبّع آثارهم، فدخلنا صحنًا من صحونهم، مفروشًا بالرخام الأخضر، وفيه بِركَة ماء فيها سمكٌ، وأمامها بستانٌ، فاستحسن ذلك وعزم على الصَّبُوح ودعا بالطعام والشراب، وأقبل عليَّ فقال: غنّني ونشّطني، فكأنّ الله تعالى أنساني الغناء كله إلا هذا الصوت من شعر عبيد الله بن قيس الرُّقيّات[٢]: [من المنسرح]

لـو كـان حـولـي بـنـو أمـيّـة لـم ... تـنـطِـق رجـالٌ أراهُـمُ نـطـقـوا

مـن كـلّ قَـرْمٍ مَـحِـضٍ ضـرائـبُـهُ ... عـن منكِبيه الـقـمـيـصُ ينخرقُ

قال: فنظر إليّ مُغْضَبًا، وقال: عليك وعلى بني أميّة لعنة الله، ويلك! أقلتُ لك سُرَّني أو سؤني؟ ألم يكن لك وقت تذكر فيه بني أميّة إلا هذا الوقتَ تُعرّض بي؟ فتجلّدتُ عليه وعلمتُ أنّي قد أخطأتُ، فقلت: أتلومني على أن أذكر بني أميّة؟ هذا مولاكم زرياب[٣] عندهم يركب في مائتي غلام مملوك له، ويملك ثلاثمائة ألف دينار وهبوها له سوى الخيل والضِّياع والرّقيق: وأنا عندكم أموت جوعًا، فقال: أولم يكن لك شيء تذكّرني به نفسَك غير هذا؟ فقلت: هكذا حضَرَني حين ذكرتُهم، فقال:

---

(١) علُّوية: هو علي بن عبد الله بن سيف، أبو الحسن، موسيقي بغدادي، تخرّج على إبراهيم الموصلي وبرع في الغناء والتلحين والضرب بالعود، عاش إلى أيام المتوكل، توفي سنة ٢٣٦ هـ. «الأعلام ٤/٣٠٣».

(٢) عبيد الله بن قيس الرقيات: شاعر قريش في العصر الأموي، كان مقيماً في المدينة، وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، ثم انصرف إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير (مصعب وعبد الله) فأقام سنة، وقصد الشام فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فسأل عبد الملك في أمره، فأمنه، فأقام إلى أن توفي نحو ٨٥ هـ ـ ٧٠٤ م، أكثر شعره الغزل والنسيب، وله مدح وفخر، ولقب بابن قيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة اسم كل واحدة منهن رقية. «الزركلي ٤/١٩٦».

(٣) زرياب في أبو الحسن، علي بن نافع، مولى المهدي العباسي، نابغة الموسيقى في زمانه، كان شاعرًا مطبوعًا، عالمًا ببعض الفنون، عارفًا بأحوال الملوك، كان حسن الصوت، أخذ الغناء ببغداد على إسحٰق الموصلي وغيره وغنى في صباه بين يدي هارون الرشيد، أقام فترة بقرطبة وبها اخترع مضراب العود من قوادم النسر، وكانوا يصفونه من الخشب، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٠ هـ ـ ٨٤٥ م. «الزركلي ٥/٢٨».

أعرض وتنبّه على إرادتي وغنِّ فأنساني الله كلَّ شيء أحسنه إلا هذا الصوت: [من المنسرح]

الحيْنُ ساق إلى دِمَشق وما ... كانت دمشقُ لأهلنا بلدا

قادتك نفسك فاستقدت لها ... وأرتك أمرَ غَوايةٍ رَشَدا

فرماني بالقدح فأخطأني وانكسر القدح، وقال: قم إلى لعنة الله وحَرّ سَقَر! فركب، وكانت تلكَ الحالُ آخر عهدي به حتى مرض ومات بعد ذلك بقليل.

ومثل ذلك ما حُكي في قِتْلة المتوكل، وذلك أنه جلس يوم الأربعاء لأيام خلون من شوّال سنة تسع وأربعين ومائتين وقال للفتح بن خاقان(١): أحبّ أن نصطبح؛ فأَحضَر المغنّين وفيهم أحمد بن أبي العلاء فقال له: غنّ فغنّى: [من الكامل]

يا عاذلَيّ من الملام دعاني ... إنّ البليّة فوقَ ما تصفانِ

زعمتْ بُثينة أنّ فرقتَنا غدًا ... لا مرحبًا بغدٍ فقد أبكاني

فتطيّر المتوكّل منه، وقال: أحمد! كيف وقع لك أن تغنّي بهذا الشعر، قال: فشُغِل قلبُ ابن أبي العلاء لما أنكرَ عليه، ثم ذهب ليغنّيَ غيره، فغنّاه ثانية، فقال المتوكّل: نسأل الله خير هذا اليوم، وصرف المغنّين وقام لصلاةِ الظهر، فلمّا فرغ قال له الفتح: يا سيّدي أتمِمْ يومك، فدعا بالشراب وقال: أين ابن أبي العلاء؟ فأُحضر فقال له: غنِّ، فأغمي عليه فأعاد البيتين فاغتمّ المتوكّل غاية الغمّ وقُتِل في الليلة الآتية من ذلك اليوم.

قال القاضي أبو علي الجُوينيّ: حضرتَ بين يدي سيف الدولة أبي الحسن صَدَقةَ بن منصور بن دُبَيْس، وابنه أبو المكارم محمد إذ ذاك مريض مرضه الذي مات فيه وقد أتى بديوان أبي نصر بن نُباتة فتصفّحه فوقع بيده وقال: يُعزّي سيف الدولة أبا الحسن ويرثي ابنه أبا المكارم محمد، فأخذتُ المجلّد وأطبقتُه فعاد فتصفّحه فخرج

---

(١) الفتح بن خاقان: (أبو محمد، أديب شاعر فصيح، فارسي الأصل، من أبناء الملوك، اتخذه المتوكل العباسي أخًا له، واستوزره وجعل له إمارة الشام، وكان يقدمه على جميع أهله وولده، ألف عدة كتب منها اختلاف الملوك، والروضة والزهر، قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ١٣٣».

ذلك، ومن القصيدة التي عناها قوله: [من الطويل]

فإنّ بميّا فارقين حُفَيْرةً ... تركنا عليها ناظر الجود داميا[١]

تضمّنها أيدي فتًى ثكلتْ به ... غداةَ ثوى أمالنا والأمانيا

ولمّا عدمنا الصبرَ بعد محمدٍ ... أتينا أباه نستفيدُ التعازيا

وحُكيَ: أنّ أبا الشَمَقْمَق[٢] شخص مع خالد بن يزيد بن مَزيد[٣] وقد تقلّد المَوْصِل[٤]، فلما أراد الدخول إليها اندقّ لواؤه في أوّل درب منها، فتطيّر من ذلك وعظُم عليه، فقال أبو الشمقمق: [من الكامل]

ما كان مندقُّ اللواء لريبةٍ ... تُخشَى ولا أمرٍ يكون مبذَّلا

لكنّ هذا الرمح ضَعَف متنه ... صِغَرُ الولايةِ فاستقلَّ المَوْصلا

فسرِّيَ عن خالد، وكتب صاحبُ البريد بذلك إلى المأمون، فزاده ديارَ ربيعة وكتب إليه: هذا التضعيفُ المُوصِل متنَ رمحك، فأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرةَ آلافِ درهم.

وقيل: لمّا توجّه المسترشدُ للقاء السلطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقي، وقع على الشمسية التي تُرفع على رأسه طائرٌ من الجوارح وألحّ، كلما نُفّر عاد، فتفاءل الناس له بذلك وسُرّ هو به، فقال إنسان يُعرَف بمَلِكْدار: هذا جارح ومتقبض الكفّ وليس فيه بُشرى بل ضدّها، وأقبل السلطانُ في جيشه فكانت الكسرةُ وقُبِض على المسترشد وقُتِل من بعد.

---

(١) ميّا فارقين: مدينة في بلاد الروم. «معجم البلدان ٥/ ٢٣٦».

(٢) أبو الشمقمق: مروان بن محمد، شاعر هجاء من أهل البصرة، خراساني الأصل، من موالي بني أمية، له أخبار مع شعراء عصره، زار بغداد في أول خلافة الرشيد العباسي، وكان بشار يعطيه في كل سنة مئتي درهم يسميها أبو الشمقمق جزية، توفي نحو ٢٠٠ هـ ـ نحو ٨١٥ م. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٠٩».

(٣) خالد بن يزيد بن مزيد: الشيباني، أبو يزيد، أحد الأمراء الولاة الأجواد في العصر العباسي، وهو ممدوح أبي تمام، ولاه المأمون مصر سنة ٢٠٦، انتدبه الخليفة الواثق للقتال في أرمينية، فتجهز في جيش عظيم وزحف يريدها فاعتل في طريقه ومات قبل بلوغها سنة ٢٣٠ هـ ـ ٨٤٥ م. «الزركلي ٢/ ٣٠١».

(٤) الموصل: المدينة المشهورة العظيمة في العراق، وإحدى قواعد الإسلام باب العراق ومفتاح خراسان، «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٢٣».

خرج بعضُ ملوكِ الفُرسِ إلى الصيد، فكان أوّلُ من استقبله أعورُ فأمر بضربه وحبسِه، ثم خرج وتصيّد صيدًا كبيرًا، فلمّا عاد استدعى الأعورَ وأمر له بصِلَة، فقال الأعور: لا حاجةَ لي في صلتك، ولكن ائذن لي في الكلام، فقال: تكلّم! قال: لقيتني فضربتني وحبستني، ولقِيتك فصِدتَ وسَلِمتَ فأيُّنا أشأمٌ؟ فضحك وخلاه.

الفراسة والذكاء

يقولون: عِظَمُ الجبين يدلّ على البَلَه، وعَرْضُه يدلُّ على قلة العقل، وصِغَره على لُطف الحركة، والحاجبان إذا اتصلا على استقامة دلّا على تخنيث واسترخاء، وإذا تزججا[1] نحو الصُدغين دلّا على طنزٍ[2] واستهزاء، والعينُ إذا كانت صغيرةَ الموقِ دلّت على سوءِ دخلَة، وخُبثِ شمائل، وإذا وقع الحاجبُ على العين دلّ على الحسد، والعين المتوسطةُ في حجمها دليلُ فطنةٍ وحسنِ خُلق ومروءة، والناتئةُ على اختلاط عقل، والطائرةُ على حِدّة، والتي يطول تحديقُهَا على قحة وحُمْق، والتي تكسر طَرْفَها على خفّة وطيش، والشَّعر على الأذن يدلُّ على جودةِ السمع، والأُذن الكبيرة المنتصبة تدلّ على حمق وهَذَيان.

وحُكِيَ: أن أبا موسى الأشعريّ[3] وجّه السائب بن الأقرع[4] في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى مهرجًا بعد أن فتحها ودخل دار الهُرمُزان بعد أن جمع السبيَ والغنائم، ورأى في بعض مجالس الدار تصاوير فيها مثال ظبيٍ وهو مشيرٌ بإحدى يديه إلى الأرض، فقال السائب: لأمرٍ مّا صُوّر هذا الظبيُ هكذا، إن له لشأنًا، فأمر بحفر الموضع الذي الإشارة إليه فأفضى إلى موضع فيه

---

(١) تزججا: الزج: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح، والزج: تركز به الرمح في الأرض، والجمع أزجاج، وأزِجَة وزجاج وزججة. «اللسان ٢/٢٨٦».

(٢) طنز: يطنز طنزًا، كلمة باستهزاء، فهو طناز. «لسان العرب ٥/٣٦٩».

(٣) أبو موسى الأشعري: (٢١ ق.هـ - ٤٤ هـ = ٦٠٢ - ٦٦٥ م) عبد الله بن قيس من بني الأشعر، من قحطان، صحابي، من الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين في معركة صفين، ولد في زبيد باليمن، وقدم مكة عند ظهور الإسلام فأسلم، ارتد إلى الكوفة بعد التحكيم فتوفي فيها. «الأعلام للزركلي ٤/١١٤».

(٤) السائب بن الأقرع: الظاهر أنه: السائب بن يزيد بن سعيد الكندي، صحابي، مولده قبيل السنة الأولى من الهجرة، وكان مع أبيه يوم حج النبي ﷺ حجة الوداع، استعمله عمر بن الخطاب على سوق المدينة، وهو آخر من توفي بها من الصحابة. له ٢٢ حديثًا. توفي سنة ٩١ هـ - ٧١٠ م. «الزركلي ٣/٦٨».

حوض من رخام، فيه سَفَط[١] جوهر فأخذه السائبُ وخرج به إلى عمر رضي الله عنه.

وقيل: كان المعتضد يومًا جالسًا في بيت يُبنى له وهو يشاهد الصُّنَّاع فرأى في جملتهم عبدًا أسودَ منكر الخَلْق، شديدُ المرحِ، يصعد على السلاليم مرقاتين[٢] مرقاتين ويحمل ضِعْف ما يحمل غيره، فأنكر أمرَه، وأحضره وسأله عن سبب ذلك، فلجلج فقال لوزيره: قد خَمّنتُ في هذا تخمينًا ما أحسبه باطلًا، إمّا أن يكون معه دنانيرُ قد ظفر بها من غير وجهها، أو لِصّ يتستّر بالعمل، ثم قال: عليّ بالأسود فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليضربنّ عنقه، فقال الأسود: ولي الأمان يا أميرَ المؤمنين، قال: نعم! إلّا ما كان من حدّ، فظن أنه قد أمّنه، فقال: كنتُ أعمل في أتّون الآجُرّ، منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرّ بي رجلٌ في وسطه كيس فتبعتُه وهو لا يعرف مكاني فحلَّ الهِمْيان[٣] وأخرج منه دينارًا فتأمّلتُه فإذا كله دنانير فكتّفتهُ وسددتُ فاه وأخذتُ الهميان وحملتُه على كتفي وطرحته في التنّور وطيَّنتُ عليه، فلما كان بعد أيام أخرجتُ عِظامه وطرحتها في دجلةَ والدنانيرُ معي تقوِّي قلبي قال: فأرسل المعتضدُ من أحضر الدنانيرَ، وإذا على الكيس: لفلان بن فلان، فنادى في المدينة، فحضرت امرأتهُ وقالت: هذا زوجي وقد ترك طفلًا صغيرًا خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألفُ دينار، فغاب إلى الآن، فسلّم الدنانيرَ إليها وأمرها أن تعتدّ، وضرب عنقَ الأسود وأمر أن يوضع في الأتّون.

وقيل: جلس المنصور في إحدى قباب المدينة فرأى رجلًا ملهوفًا مهمومًا يحول في الطُّرُقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنّه خرج في تجارة فأفاد مالًا ورجع إلى منزله به، فدفعه إلى امرأته، فذكرتِ المرأةُ أنّ المال سُرِق ولم ير نَقْبًا ولا تسلّقًا، فقال له المنصور: منذ كم تزوّجتها؟ قال: منذ سنة، قال: فبكرًا أو ثيِّبًا؟ قال ثيِّبًا، قال: فلها ولدٌ من سواك؟ قال: لا، قال: شابّة أم مُسِنَّة؟ قال: شابّة، فدعا المنصورُ بقارورة طيب، وقال: تطيّبَ بهذا، فهو يذهبُ همَّك، فأخذها وانقلب إلى أهله، ثم قال المنصورُ لأربعة من ثِقاته: اقعدوا على أبواب المدينة، فمن مرّ بكم

---

(١) سفط: السفط: الذي يُعبأ فيه الطيب. «لسان العرب ٧/ ٣١٥».

(٢) مرقاة: المرقاة واحدة من مراقي الدرج، فهي الدرجة. وترقى في العلم: أي رقي فيه درجة درجة. «لسان العرب ١٤/ ٣٣٢».

(٣) الهميان: هميان الدرهم، الذي تجعل فيه النفقة، والهميان: شِداذُ السراويل. «لسان العرب ١٥/ ٣٦٤».

وعليه شيءٌ من هذا الطِّيب فأتوني به، وأشمهم من ذلك الطِّيب، ومضى الرجلُ بالطِّيب، فدفعه إلى امرأته وقال: وهبه لي أمير المؤمنين، فلمّا شمّته بعثتْ به إلى رجل كانت تحبُّه وقد كانت دفعتْ إليه المالَ فتطيّب به، ومرّ مجتازًا ببعضِ الأبواب، فأُخذ وأُتيَ به إلى المنصور، فقال له: من أين استفدتَ هذا الطيبَ؟ فلجلجَ لسانهُ، فسلّمه إلى صاحب شرطته وقال: أن احضر الدنانير وإلّا فاضربه ألفَ سوط، فما هو إلّا أن جُرّد وهُدِّد، فأحضرَ الدنانيرَ على حالتها فأُعلم المنصورُ بذلك، فدعا صاحبَ الدنانير وقال: أرأيتك إن رددتُ عليك متاعَك بعينه أتحكّمني في امرأتك؟ قال: نعم! قال: خذ دنانيرك وقد طلّقتُ امرأتك وخبّره الخبر.

ودخل شَرِيك بن عبد الله القاضي(١) على المهديّ فأراد أن يبخّره فقال للخادم: ائتِ القاضي بعُود، فذهب فجاء بالعود الذي يُلْهَى به، فوضعه في حجر شريك، فقال شريك: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: عود أخذه صاحبُ العَسَس(٢) البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضي، فقال شريك: جزاك اللهُ خيرًا يا أمير المؤمنين، ثم ضرب به الأرضَ فكسره ثم أفاضوا في حديث آخر حتى نُسي الأمر ثم قال المهديّ لشريك: ما تقول فيمن أمر وكيلًا له أن يأتي بشيء فجاء بغيره فتَلِف ذلك الشيءُ؟ فقال: يَضْمَن يا أمير المؤمنين، فقال للخادم: اضمنْ ما تلِف.

الباب الرابع
من القسم الثاني من الفن الثاني
في الكنايات والتعريض

والكنايات لها مواضع؛ فأحسنها العُدولُ عن الكلام القبيح إلى ما يدُلّ على معناه في لفظ أبهى منه. ومن ذلك أن يُعظَّم الرجلُ فلا يدعى باسمه ويُكنى بكُنيته، أو يكنى باسم ابنه صيانة لاسمه، وقد ورد في ذلك كثير من آي القرآن فمنها قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: الآية ٤٤] أي كنّياه. وقد كَنَّى رسول الله ﷺ عليّ بن

---

(١) شريك بن عبد الله: النخعي الكوفي، أبو عبد الله، عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ ـ ثم عزله وأعاده المهدي فعزله موسى الهادي، وكان عادلًا في قضائه، ولد في بخارى سنة ٩٥ هـ ـ ٧١٣ م. وتوفي بالكوفة سنة ١٧٧ هـ ـ ٧٩٤ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٦٣».

(٢) العسس: الذين يطوفون بالليل يحرسون الناس ويكشفون عن أهل الرّيبة.

أبي طالب رضي الله عنه: بأبي تراب؛ وقال البحتريّ: [من الخفيف]

يتشاغفن بالصغير المسمَّى موضِعاتٍ وبالكبير المكَنَّى

وهذا يدل على أن المراد بالكنية التبجيل؛ وقول ابن الروميّ: [من الطويل]

بكت شجوَها الدنيا فلما تبيَّنتْ مكانك منها استبشرت وتثنَّتِ
وكان ضئيلًا شخصُها فتطاولتْ وكانت تسمَّى ذِلةً فتكنَّتِ

وقال أبو صخر الهذليّ: [من الطويل]

أبى القلبُ إلّا حُبَّهُ عامريّةً لها كنيةٌ: عمرٌو، وليس لها عمرُو

ومن عادة العرب وشأنهم؛ استعمال الكنايات في الأشياء التي يستحيى من ذكرها، قصدًا للتعفّف باللسان، كما يُتعفّفُ بسائر الجوارح، قال الله عزّ وجلّ تأديبًا لعباده: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] فقرنَ عِفّة البصرِ بعفّة الفرْج؛ وفي القرآن كناياتٌ عُدِلَ بها عن التصريح تنزيهًا عن اللفظ المستهجَن، كقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٣] وقال أبو عبيد: هو كناية، شبّه النساءَ بالحَرْثِ، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فُصّلَت: الآية ٢١]، قيل: هو كنايةٌ عن الفروج، وفي موضع آخر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المَائدة: الآية ٧٥]، قال المفسرون: هذا تنبيه بأكل الطعام على عاقبة ما يصير إليه؛ وهو الحَدَث، لأن من أكل الطعام فلا بدّ أن يحدِث. ثم قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَـٰتِ﴾ [المَائدة: الآية ٧٥] وهذا من ألطف الكناية، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ﴾ [النساء: الآية ٤٣] فالغائط: المطمئن من الأرض، وكانوا يأتونه لحاجتهم ويستترون به عن الأماكن المرتفعة. ومن لم يرَ الوضوء من لمس النساء جعل الملامسةَ هٰهنا كناية عن الفعل.

ومن الكنايات في كلام رسول الله ﷺ ـ وهو وإن كان قد ورد في الأمثال أشبه بالكناية ـ منها قوله ﷺ: «إياكم وخضراءَ الدِّمن» يريد بها المرأة الحسناء في المنبِت السوء، وتفسير ذلك: أن الريحَ تجمعُ الدِّمنَ، وهو البعر في البقعة من الأرض فإذا أصابه المطر نبت نبتًا غضًا يهتزّ وتحته الدِّمَنُ الخبيث، يقول: فلا تَنكحوا هذه المرأة

الحسناء لجمالها، ومنبِتُها خبيثٌ كالدِّمن؛ فإن أعراق السوء تنزعُ أولادَها؛ وقال زُفَر بن الحارث[1]: [من الطويل]

وقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى　　وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا!.

وقوله ﷺ: «حَميَ الوطيسُ» قاله لما جال المسلمون يوم حُنين، والوطيس: حفيرة تحتفر في الأرض شبيهةٌ بالتنّور؛ وقال الحسن: لبث أيوب عليه السلام على المزبلة سبعَ سنين، وما على الأرض يومئذٍ خَلْقٌ أكرمُ على الله منه، فما سأل الله العافيةَ إلا تعريضًا في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣] والعرب تكني عن الفضلة المستقذرة بألفاظ كلّها كنايات، منها: الرَّجيعُ والنَّجْوُ وَالبرازُ والغَائطُ والعَذِرَةُ والحُشّ، فبعض هذه الألفاظ يراد بها نفسُ الحَدثِ، وبعضها يراد بها المواضع التي يأتي إليها المحدِثُ، وكذلك استعملوا في إتيان النساء: المجامعة، والمواقعة، والمباضعة، والمباشرة، والملامسة، والمماسّة، والخلوة، والإفضاء، والغشيان، والتغشّي، وكل هذه الألفاظ مذكورة في القرآن.

وحُكيَ: أن رجلًا من بني العنبر كان أسيرًا في بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم رسولًا إلى قومه، فقالوا: لا ترسلْ إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم، وجيءَ بعبد أسود، فقال له: أتعقلُ؟ قال: نعم إني لعاقلُ! قال: ما أراك عاقلًا! ثم أشار بيده إلى الليل، فقال: ما هذا؟ قال: الليل! قال: أراك عاقلًا. ثم ملأ كفّيه من الرمل فقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثيرٌ، قال: أيّما أكثر؟ النجوم أم النيران؟ قال: كلٌّ كثير، فقال: أبلغ قومي التحيَّة، وقل لهم ليُكرموا فلانًا، يعني أسيرًا كان في أيديهم من بكر، فإن قومه لي مكرمون وقلْ لهم: إن العَرْفَجَ[2] قد أَدْبَى، وشكَّت النساء، وأْمُرْهُم أن يُعْروا ناقتيَ الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب[3]

---

(١) زفر بن الحارث الكلابي، أبو الهذيل، أمير من التابعين من أهل الجزيرة، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميرًا على أهل قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس الفهري، كانت وفاته في خلافة عبد الملك بن مروان نحو ٧٥ هـ ـ ٦٩٥ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٤٥».

(٢) العرفج: ضرب من النبات سريع الانقياد، واحدته عرفجة، وقيل: هو من شجر الصيف وهو لين أغبر له ثمرة خشناء كالحسك له زهرة صفراء وليس له حب ولا شوك. «لسان العرب ٢/ ٣٢٣».

(٣) الأصهب: أن يعلو الشعر حُمرة، وأصوله سود، وقيل الأصهب من الشعر: الذي يخالط بياضه حمرة، والأصهب من الإبل: الذي ليس بشديد البياض، والذي يخالط بياضه حمرة. «لسان العرب ١/ ٥٣٢».

بآية ما أكلتُ معهم حيسًا[١]، واسألوا عن خبري أخي الحارثَ؛ فلما أدّى العبدُ الرسالة إليهم قالوا: قد جُنَّ الأعورُ، والله ما نعرف له ناقةً حمراءَ، ولا جملًا أصهبَ، ثم سرّحوا العبدَ ودعوا الحارث فقصّوا عليه القصّة، فقال: قد أنذركم؛ أمّا قوله: قد أدبَى العرفج؛ يريد: أن الرجال قد استلأمُوا ولبسوا السلاح، وقوله: وشكَّت النساء، أي اتخذن الشِّكَاء للسفر، وقوله: الناقة الحمراء؛ أي ارتحلوا عن الدهناء[٢] واركبوا الصَّمَّانَ[٣] وهو الجمل الأصهب، وقوله: بآية ما أكلت معكم حيسًا أي أخلاطًا من الناس وقد غزوكم؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقِطَ[٤]، فامتثلوا ما قال، وعرفوا لحنَ كلامه. وحكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى مجالد بن سعيد عبد الملك بن عمر قال: قدم علينا عمر بن هبيرة[٥] الكوفة، فأرسل إلى عشرةٍ أنا أحدهم من وجوه أهل الكوفة، فسمرنا عنده. ثم قال: ليحدثْني كلّ رجل منكم أحدوثة. وابدأ أنت يا أبا عمرو، فقلت: أصلح الله الأمير، أحديثُ الحقِّ أم حديثُ الباطلِ؟ قال: بل حديثُ الحقّ، قلت: إن امرأَ القيسِ آلى ألية أن لا يتزوّج امرأةً حتى يسألَها عن ثمانية وأربعة واثنين، فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا، قلن أربعة عشر، فبينا هو يسير في جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة، كأنها البدرُ لتمّه، فأعجبته فسألها: يا جارية! ما ثمانية وأربعة واثنان؟ فقالت: أما ثمانية فأطْباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة، فخطبها إلى أبيها، فزوّجه إياها وشرطتْ عليه أن تسأله ليلةَ بنائها عن ثلاثِ خِصالٍ، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوقَ إليها مائةً من الإبل، وعشرةَ أعبدٍ، وعشرَ وصائِفَ، وثلاثةَ أفراسٍ؛ ففعل ذلك، ثم إنه بعث عبدًا له إلى المرأة، وأهى لها نِحْيًا[٦] من سمن، ونِحْيًا من عسل، وحلّةً من قصب، فنزل العبد على بعض الماء، فنشر الحلّة فلبسها فتعلّقت

---

(١) حيسًا: هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن، وحيَّسه: خلطه. «لسان العرب ٦/ ٦١».

(٢) الدهناء: الفلاة، وهي موضع كله رمل، وقيل الدهناء: موضع من بلاد بني تميم مسيرة ثلاثة أيام لا ماء فيه. «لسان العرب ١٣/ ١٦٣».

(٣) الصمان: أرض غليظة دون الجبل، كما أنها أرض فيها غلظ وارتفاع وفيها قيعان واسعة. «معجم البلدان ٣/ ٤٢٣».

(٤) الأقط: شيء يُتخذ من اللبن المخيض ثم يُطبخ ثم يُترك حتى يمصل، والقطعة منه أقطة، وقيل: هو من ألبان الإبل خاصة. «لسان العرب ٧/ ٢٥٧».

(٥) هو عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري، أبو المثنى، أميرٌ من الدهاة الشجعان، غزا الرّوم، وولاه عمر بن عبد العزيز الجزيرة مات نحو سنة ١١٠ هـ. «الأعلام ٥/ ٥٦٨».

(٦) النحِي: جرة فخار يجعل فيها اللبن ليمخض. والنحي: الزق، وقيل هو ما كان للسمن خاصة. «لسان العرب ١٥/ ٣١١».

بسَمُرةٍ[١] فانشقّت، وفتح النِّحيَيْن فأطعم أهلَ الماء منهما فنقصا، ثم قدم على حيّ المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديّتها فقالت له: أعلِمْ مولاك أنّ أبي ذهب يقرِّب بعيدًا، ويبعِّد قريبًا، وأنّ أمّي ذهبت تشقّ النفس نفسيْن، وأنّ أخي ذهب يراعي الشمس، وأنّ سماءكم انشقّت، وأنّ وِعاءيْكم نضَبا، فقدم الغلام على مولاه فأخبره، فقال: أما قولها: أنّ أبي ذهب يقرّب بعيدًا ويبعّد قريبًا: فإن أباها ذهب يحالفُ قومًا على قومه، وأما قولها: ذهبت أمّي تشق النفس نفسين: فإن أمها ذهبت تَقْبَلُ امرأة نفساء؛ وأما قولها: ذهب أخي يراعي الشمس: فإن أخاها في سَرْحٍ له يرعاه، فهو ينتظر وجوبَ الشمس ليروحَ به، وقولها: أن سماءكم انشقّت: فإن البُرْدَ الذي بعثتَ به انشقّ، وأما قولها: أن وعاءيكم نضبا: فإن النِّحييْن نقصا؛ فاصدقني؛ فقال: يا مولاي! إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي، فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرتُ الحلّةَ فلبستها وتجمّلتُ بها، فتعلّقتْ بسَمُرةٍ فانشقّت، وفتحتُ النِّحييْن فأطعمتُ منهما أهل الماء. فقال: أَوْلَى لك؛ ثم ساق مائةً من الإبل، وخرج ومعه الغلامُ ليسقِيَ الإبلَ، فعجز؛ فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتى أتى المرأة بالإبل فأخبرهم أنه زوجها، فقيل لها: قد جاء زوجك! فقالت: والله ما أدري أَزوجي هو أم لا؟ ولكن انحروا له جزورًا وأطعموه من كرشها وذنَبها، ففعلوا؛ فأكل ما أطعموه، قالت: اسقوه لبنًا حازرًا (وهو الحامض) فسقوه؛ فشرب، فقالت: افرشوا له عند الفَرْثِ والدم، ففرشوا له؛ فنام. فلما أصبحت أرسلت إليه: أريد أن أسألَك عن ثلاث، قال: سلي عما بدا لك، فقالت: لم تختلج شفتاك؟ قال: من تقبيلي إياك! قالت: لم تختلج فخذاك؟ قال: لتورُّكي إياك! قالت: فلم يختلج كَشْحاك[٢]؟ قال: لالتزامي إياكِ! قالت: عليكم العبد! فشدّوا أيديكم به؛ ففعلوا؛ قال: ومرّ قومٌ فاستخرجوا امرأَ القيس من البئر، فرجع إلى حيّه واستاق مائةً من الإبل وأقبل إلى امرأته. فقيل لها: قد جاء زوجك! فقالت: والله ما أدري أَزوجي هو أم لا؟ ولكن انحروا له جزورًا وأطعموه من كرشها وذنبها، ففعلوا؛ فلما أتوه بذلك، قال: وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء[٣]؟ فأبى أن يأكل، فقالت: اسقوه لبنًا حازرًا، فأُتيَ به، فأبى أن يشربه

(١) السَّمُرة: شجرة الطلح.

(٢) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، والكشح أيضًا: الكي بالنار. «اللسان ٢/ ٥٧٢ و٥٧٣».

(٣) الملحاء: من البصير: الفقر التي عليها السنام، ويقال: هي ما بين السنام إلى العجز، والملحاء: وسط الظهر بين الكاهل والعجز وهي من البصير ما تحت السنام. «لسان العرب=

وقال: أين الصَّريف[١] والرَّثيئة؟[٢] فقالت: افرشوا له عند الفَرْثِ والدم، ففرشوا له؛ فأبى أن ينام وقال: افرشوا لي فوق التلعة[٣] الحمراء واضربوا عليها خباء، ثم أرسلت إليه: هلمّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها: سليني عما شئت، فقالت: لم تختلج شفتاك؟ قال: لشرب المشعشعات؛ قالت: فلم يختلج كشحاك؟ قال: للبس الحبرات؛ قالت: فلم يختلج فخذاك؟ قال: لركض المطهّمات؛ قالت: هذا زوجي لعمري! فعليكم به، واقتلوا العبد فقتلوه، ودخل امرؤ القيس بالجارية؛ قال ابن هُبَيرة: حسبكم! فلا خيرَ في الحديث في سائر الليلة بعد حديثِك يا أبا عمرو ولن يأتِينَا أحدٌ بأعجبَ منه، فقمنا فانصرفنا وأمر لي بجائزة.

وقيل: بعث بَشَامة بن الأعور العنبريّ إلى أهله بثلاثين شاةً ونِحْيٍ صغير فيه سمن، فسرق الرسول شاة، وأخذ من رأس النحي شيئًا، فقال لهم الرسول: ألكم حاجةٌ أُخبِرُه بها؟ فقالت امرأته: أَخبِرْه أنّ الشهر محاق، وأن جدينا الذي كان يطالعنا وجدناه مرثومًا[٤]، فارتجع منه الشاة والسمن.

وقيل: أسرتْ طيِّئُ غلامًا، فقدم أبوه ليفديَهُ، فاشتطّوا عليه. فقال أبوه: لا والذي جعل الفرقدين يُمسيانِ ويصبحانِ على جبلَيْ طيِّئ! ما عندي غير ما بذلتُه، ثم انصرف وقال: لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خيرٌ فهمه. كأنه قال: اِلْزم الفرقديْن على جبلَيْ طيِّئ، ففهم الابن تعريضه وطرد إبلًا لهم من ليلته ونجا.

ومن التخليص المتوسَّط إليه بالكناية؛ ما رُوِيَ عن عديّ بن حاتم بن عبد الله الطائيّ[٥]، أنه قال يومًا في حق الوليد بن

= ٢/ ٦٠٤ و٦٠٥».

(١) الصريف: اللبن ساعة يحلب، أو الذي لم يمزج به شيء.

(٢) الرّثيئة: اللبن جعله ثخينًا غليظًا.

(٣) التلعة: تلع النهار؛ ارتفع، والأتلع: الطويل العنق، والتلعة: مسيل الماء، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض، أم هي أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل. «اللسان ٨/ ٣٦».

(٤) مرثومًا: مكسورًا وقد تقطر منه الدم، والرثم: تخديش وشق من طرف الأنف حتى يخرج الدم فيقطر. «اللسان ١٢/ ٢٢٦».

(٥) عدي بن حاتم بن عبد الله الطائي، أبو وهب وأبو طريف، أمير صحابي، من الأجواد العقلاء، كان رئيس طيِّئ في الجاهلية والإسلام، كان إسلامه سنة ٩ هـ، وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع الإمام علي، وفقئت عينه يوم صفين ومات بالكوفة=

عقبة[١] بن أبي مُعَيط: ألا تعجبون لهذا؟ أَشعرَ بَرْكًا يُوَلَّى مثل هذا المصر، والله ما يحسن أن يقضيَ في تمرتين. فبلغ ذلك الوليدَ فقال على المنبر: أنشُد الله رَجُلًا سمّاني أشعرَ بَرْكًا إلا قام، فقام عديّ بن حاتم فقال: أيها الأمير، إن الذي يقوم فيقول: أنا سمّيتك أشعرَ بَرْكًا لجريءٌ، فقال له: اجلس يا أبا طرِيفٍ! فقد برّأك الله منها، فجلس وهو يقول: ما برأني الله منها.

وقيل: كان شُريْح[٢] عند زياد بن أبيه وهو مريضٌ، فلما خرج من عنده أرسل إليه مسروقُ رسولًا وقال: كيف تركت الأمير؟ فقال: تركته يأمر وينهي، قال مسروق: إنه صاحبُ مرضٍ، فارجعْ إليه واسألْه ما يأمر وينهي، قال: يأمر بالوصيّة وينهي عن النَّوح.

خطب رجل إلى قوم فجاؤوا إلى الشعبيّ يسألونه عنه، وكان به عارفًا، فقال: هو واللهِ ما علمتُ نافذَ الطعنةِ، ركين الجلسة، فزوّجوه؛ فإذا هو خيَّاطٌ فأتوه فقالوا: غررتنا فقال: ما فعلتُ وإنه لكما وصفت.

وخطب باقلانيّ إلى قومٍ وذكر أن الشعبيّ[٣] يعرفه فسألوه فقال: إنه لعظيم الرماد، كثير الغاشية.

قيل: أخذ العسس رجلين فقال لهما: من أنتما؟ فقال أحدهما: [من الطويل]

أنا ابن الذي لا يُنزل الدهر قِدْرَهُ   وإن نـزلـتْ يـومًـا فـسـوف تـعـودُ
ترى الناسَ أفواجًا إلى ضوء ناره   فـمـنـهـم قـيـامٌ حـولـهـا وقـعـودُ!

= سنة ٦٨ هـ ـ ٦٨٧ م، عاش أكثر من مئة سنة. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٢٠».

(١) الوليد بن عقبة: أبو وهب الأموي القرشي، والٍ من فتيان قريش وشعرائهم وأجدادهم، فيه ظرف ومجون ولهو، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة، توفي سنة ٦١ هـ ـ ٦٨٠ م. «الزركلي ٨/ ١٢٢».

(٢) شريح: شريح بن الحارث الكندي، أبو أمية، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام، أصله من اليمن، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية، واستعفر في أيام الحجاج فأعفاه سنة ٧٧ هـ. له باع في الأدب والشعر، عمر طويلًا ومات بالكوفة سنة ٧٨ هـ ـ ٦٩٧ م. «الزركلي ٣/ ١٦١».

(٣) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، اتصل بعبد الملك بن مروان وكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم، وكان فقيهًا وشاعرًا مات سنة ١٠٣ هـ. «الأعلام ٣/ ٢٥١».

وقال الآخر: [من المنسرح]

أنا ابن من تخضعُ الرّقابُ له ... ما بين مخزومِها وهاشمها
تأتيه بالذلّ وهيَ صاغرةٌ ... يأخذ من مالها ومن دمها!

فظنوهما من أولاد الأكابر، فلما أصبح سأل عنهما؛ فإذا الأول ابن طبّاخ والثاني ابن حجّام.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للأحنف: أيُّ الطعام أحبُّ إليك؟ قال: الزُّبُد والكمأةُ[1]. فقال: ما هما بأحبّ الطعام إليه، ولكنه يحبّ الخصب للمسلمين.

وقال لقمان لابنه: كُلْ أطيبَ الطعام، ونَمْ على أوطأ الفرش؛ كنّى عن إكثار الصيام، وإطالة القيام.

ومن جيّد التورية وغريبها مع توخّي الصدق في موطن الخوف: قولُ أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وقد أقبل رسول الله ﷺ وهو رَديفُه عامَ الهجرة، فقيل له: من هذا يا أبا بكر؟ فقال: رجل يهديني السبيل.

ورُفِعَ إلى عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة وصيةٌ لرجل بمال أمرَ أن تُتَّخذَ به حصون. فقال: اشتروا به خيلًا للسبيل، أما سمعتم قول النخعي: [من الكامل]

ولقد علمت على تجنبيَ الرّدى ... أن الحصونَ الخيلُ لا مدَرُ القُرَى

قيل كان البَرَاءُ بن قَبِيصة صاحبَ شرابٍ؛ فدخل على الوليد بن عبد الملك، وبوجهه أثر، فقال: ما هذا؟ قال فرسٌ لي أشقر، ركبته فكبا بي، فقال: لو ركبتَ الأشهب لَمَا كبا بك؛ يريد الماء.

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير: ما ثابت من الأسماء! ليس باسم رجل ولا امرأة، قال: يا أمير المؤمنين لا ذنبَ لي لو كان اسمي إليَّ، لسمّيتُ نفسي زينبَ، يُعرِّضُ به؛ فإنه كان يعشق زينبَ بنت عبد الرحمٰن بن هشام فخطبها؛ فقالت: لا أوسّخُ نفسي بأتّيِ الذبّان.

---

(١) الكمأة: نبات من نوع الفطر يعرف «بشحم الأرض» يعيش تحت الأرض، لونه إلى الغبرة مستدير كالقلقاس لأساقاله، يؤكل مشويًا أو مطبوخًا.

قال نُميْريّ لفقعسيٍّ: إني أريد إتيانك فأجد على بابك خرءًا، فقال له الفقعسيُّ: اطرح عليه ترابًا وادخل؛ أراد النميريّ قول الشاعر: [من الوافر]

ينام الفقعسيُّ وما يُصلِّي ويخرا فوق قارعةِ الطريقِ

وأراد الفقعسيّ قول الآخر: [من الوافر]

ولو وَطِئتَ نساءُ بني نميرٍ على تُربٍ لخبّثْنَ الترابَا

قال عبد الله بن الزبير[١] لامرأة عبد الله بن حازم السلميّ: أَخرجي المالَ الذي وضعته تحت استِكِ، فقالت: ما ظننت أن أحدًا يلي شيئًا من أمور المسلمين يتكلّم بهذا، فقال بعض من حضر: أما ترون الخلْع الخفيَّ الذي أشارت إليه؟ فلما أخذ الحجّاج[٢] أمّ عبد الرحمٰن بن الأشعث[٣] تجنَّب ما عيبَ على ابن الزبير، فكنَّى عن المعنى فقال لها: عمدتِ إلى مال الله فوضعتِه تحتَ ذيلك.

ماتت للهذليّ أمُّ ولدٍ، فأمر المنصورُ الربيعَ[٤] بأن يعزّيَه ويقولَ له: إن أمير المؤمنين يوجّه إليك بجاريةٍ نفيسةٍ لها أدبٌ وظَرفٌ تُسليك عنها، وأمر لك بفرسٍ وكُسوةٍ وصِلةٍ؛ فلم يزل الهذليّ يتوقّعها، ونسِيَها المنصور، ثم حجّ ومعه الهذليّ فقال له وهو بالمدينة: أحبّ أن أطوفَ الليلة في المدينة، وأطلبَ من يطوف بي فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين؛ فطاف به حتى وصل إلى بيت عاتكةَ فقال: يا أمير المؤمنين!

---

(١) عبد الله بن الزبير: أبو حبيب، أول مولود من المسلمين بعد الهجرة، بويع له بمكة سنة ٦٤ هـ ـ بني ابن الزبير الكعبة وأدخل فيها الحجر، وزين داخلها وخارجها، قتل سنة ٧٣ هـ ـ ٦٩٢ م. «وفيات الأعيان ٣/ ٧١».

(٢) الحجاج الثقفي (٤٠ ـ ٩٥ هـ = ٦٦٠ ـ ٧١٤ م) أبو محمد، قائد داهية سفاك خطيب، ولد ونشأ في الطائف بالحجاز ولاه عبد الملك بن مروان مكة والمدينة والطائف، قتل عبد الله بن الزبير في الحجاز، بنى مدينة واسط بين البصرة والكوفة وكان سفاحًا باتفاق جميع المؤرخين، مات بواسط. «الزركلي ٢/ ١٦٨».

(٣) عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي: أمير وقائد شجاع، ثار على ظلم الحجاج، وحاربه وتم له ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس والكوفة، انهزم بعد معارك طاحنة والتجأ إلى رتبيل ملك الترك، فغدر به وسلمه إلى الحجاج الذي قتله سنة ٨٥ هـ ـ ٧٠٤ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٣٢٣».

(٤) الربيع: أبو العباس، الفضل بن الربيع واسمه كيسان، ولد سنة ١٣٨ هـ ـ ٧٥٥ م، كان وزيرًا أديبًا حازمًا، كانت نكبة البرامكة على يديه، ولي بعدهم الوزارة للرشيد ثم أقره الأمين في وزارته، ولما ظفر عفا عنه، توفي بطوس سنة ٢٠٨ هـ ـ ٨٢٤ م. «وفيات الأعيان ٤/ ٣٧، والزركلي ٥/ ١٤٨».

وهذا بيت عاتكة الذي يقولُ فيه الأحوص(١):

* يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزَّلُ *

فأنكر المنصور ذكرَ بيتِ عاتكةَ من غير أن يسأله عنه؛ فلما رجع أمرّ القصيدة على خاطره فإذا فيها: [من الكامل]

وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضهم ... مذقُ الحديثِ يقولُ ما لا يفعلُ(٢)

فتذكّر الموعدَ وأنجزه واعتذر إليه.

اجتمع الشعراء ببابِ أميرٍ من أمراء العرب، فمرّ رجلٌ ببازٍ فقال رجل من بني تميم لآخر من بني نمير: هذا البازي! فقال النميريّ: إنه يصيد القَطا؛ عرّض الأوّل بقول جرير: [من الوافر]

أنا البازي المطلُّ على نُميرٍ ... أتيحَ من السماء لها انصبابا

وأراد الآخر قول الطرمّاح(٣): [من الطويل]

تميمٌ بطرق اللؤم أهدَى من القَطا ... ولو سلكتْ طُرْقَ المكارمِ ضلَّتِ

قال عمر بن هُبَيْرة الفزاريّ لأيوب بن ظَبيان النميريّ وهو يسايره: غُضّ من بغلتِك! فقال: إنها مكتوبة، أراد ابن هبيرة قول جرير: [من الوافر]

فغُضَّ الطرف إنك من نميرٍ ... فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

وأراد النميريّ(٤) قول ابن دارة: [من البسيط]

لا تأمننَّ فَزاريًّا خلوتَ به ... على قلوصِك واكتُبْها بأسيارِ

---

(١) الأحوص: محمد بن عبد الله بن ثابت من الأنصار، كان يُرمى بالزنى، فشكي إلى عمر بن عبد العزيز فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر. «الشعر والشعراء ص ٣٥١».

(٢) مذق، المذق هو المزج والخلط، ورجل مذاق: كذوب، غير مخلص، وفلان يمذق الود: إذا لم يخلصه. «لسان العرب ١٠/٣٣٩ و٣٤٠».

(٣) هو الطرمّاح بن حكيم من طيىء، ويكنّى أبا نفر، شاعر معروف. «انظر الشعر والشعراء ص ٣٨٨».

(٤) النميري: حصين بن معاوية من بني نمير، قيل له الراعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره، ويقال هو عبيد بن حصين، ويكنى أبا جندل وكان أعور، وهجاه جرير لأنه اتهمه بالميل إلى الفرزدق، وهو من أهل بادية البصرة، ومن أصحاب الملحمات، توفي سنة ٩٠ هـ - ٧٠٩ م. «الشعر والشعراء ص ٢٧٠، والأعلام للزركلي ٤/١٨٩».

وقيل: كان العزيز بن المعزّ العُبيديّ[١] أحد الخلفاء بمصر يلعب بالحَمام فتسابق هو وخادم له فسبق طائرُ الخادم طائرَ الخليفة؛ فبعث إلى وزيره ابن كلس اليهوديّ[٢] يستعلمه عن ذلك فاستحيى أن يقول: إن طائر الخليفة سُبِقَ، فكتب إليه: [من السّريع]

يا ابن الذي طاعتُهُ عِصمةٌ   وحُبُّه مفتَرَضٌ واجبُ
طائرك السابقُ لكنّه   جاء وفي خدمته حاجِبُ

جاءت امرأة إلى عمر رضي الله عنه فقالت: أشكو إليك زوجي، خيرُ أهلِ الأرضِ إلا رجلٌ سبقه لعملٍ، أو عمل مثلَ عمله، يقومُ الليل حتى يُصبح، ويصوم النهار حتى يُمسِي؛ ثم أخذها الحياء فقالت: أقِلْني يا أمير المؤمنين! فقال: جزاك الله خيرًا! فقد أحسنتِ الثناء، فلما ولَّتْ قال كعبُ بن شَوْر[٣]: يا أمير المؤمنين لقد أبلَغَتْ إليك في الشكوى، فإنها كنَّتْ بذلك عن عدم المباضعة.

الباب الخامس
من القسم الثاني من الفن الثاني
في الألغاز والأحاجيّ

قالوا: واشتقاق اللُّغز من ألْغزَ اليَربوْعُ[٤] ولَغَزَ: إذا حفر لنفسه مستقيمًا، ثم أخذ يَمْنةً ويسرة ليواريَ بذلك ويعمّي على طالبه. وللُّغز أسماءٌ فمنها: المُعاياة،

(١) العزيز بالله العبيدي: فزار بن معد (٣٤٤ ـ ٣٨٦ هـ = ٩٥٥ ـ ٩٩٦ م) العبيدي الفاطمي، أبو منصور، صاحب مصر والمغرب، ولد بالمهدية وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٥ هـ، وكان كريم الأخلاق حليمًا، أديبًا فاضلًا، يكره سفك الدماء، وفي زمنه بنيت عدة قصور في القاهرة، وخطب له بمكة وطالت مدته إلى أن توفي في مدينة يلبيس عندما خرج لغزو الروم. «الزركلي ١٦/٨».

(٢) ابن كلس: يعقوب بن يوسف بن كلس: (٣١٨ ـ ٣٨٠ هـ = ٩٣٠ ـ ٩٩٠ م) أبو الفرج، وزير من الكتاب الحساب، ولد ببغداد وسافر به أبوه إلى الشام ثم أنفذه إلى مصر، فاتصل بكافور الأخشيدي الذي ولاه ديوانه بالشام ومصر، وكان يهوديًا، فأسلم في أيامه، ثم انتقل إلى المغرب فخدم المعز العبيدي وتولى أموره، ثم تولى وزارة العزيز الفاطمي وتوفي في عهده فألحده بيده. «الزركلي ٨/ ٢٠٢ و٢٠٣».

(٣) كعب بن شور: والأصح كعب بن سور، الأزدي، تابعي من الأعيان المقدمين في صدر الإسلام بعثه عمر قاضيًا لأهل البصرة، وعاملًا له عليها، وأقره عثمان، فأقام إلى أن كانت وقعة الجمل فاعتزل، ووقف بين الصفين فأتاه سهم قتله وذلك سنة ٣٦ هـ ـ ٦٥٦ م. «الزركلي ٥/ ٢٢٧».

(٤) اليربوع: حيوان قاضم يشبه الفأر، قصير اليدين، طويل الرّجلين طويل الذنب.

والعويصُ، والرمز، والمحاجاة، وأبيات المعاني، والمَلاحن، والمرموس، والتأويلُ، والكناية، والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمَّى، والمُمَثَّل، ومعنى الجميع واحد، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته، فإنك إذا اعتبرْتَه من حيث إن واضعَهُ كأنه يعايبك، أي يُظهر إعياءك وهو التعبُ، سمّيتَه: معاياة، وإذا اعتبرته من حيثُ صعوبة فهمه واعتياصِ استخراجه، سمّيته: عَويصًا، وإذا اعتبرْتَه من حيثُ إنه قد عمل على وجوه وأبواب، سمّيتَهُ: لُغْزًا، وفعلُكَ له: إلغازًا، وإذا اعتبرته من حيث إن واضعَه لم يفصحْ عنه قلت: رَمَزَ، وقريبٌ منه الإشارة، وإذا اعتبرته من حيث إن غيرَك حاجاك أي استخرجَ مقدار عقلك، سمّيته: محاجاة، وإذا اعتبرته من حيث إنه استخرج كثرةَ معانيه، سمّيته: أبيات المعاني، وإذا اعتبرته من حيث إنّ قائله قد يوهِمُكَ شيئًا ويريدُ غيرَهُ، سميته: لحنًا وسميتَ فعلك: المَلاحن، وإذا اعتبرته من حيث إنه سُتر عنك ورُمّس فهو: المرموس، والرمس: القبر، وإذا اعتبرته من أن معناه يؤوَّل إليك، سميته: مؤوَّلًا، وسميت فعلك: تأويلًا، وإذا اعتبرته من حيث إن صاحِبَه لم يصرّحْ بغرضه، سميتَه: تعريضًا وكناية، وإذا اعتبرته من حيث إنه ذو وجوه، سميته: الموجَّهُ، وسميت فعلك: التوجيه، وإذا اعتبرته من حيث إنه مغطًّى عليك، سمّيته: مُعَمًّى.

قال الحكيم أمير الدولة المعروف بابن التلميذ[١] في الميزان: [من الرّجز]

ما واحدٌ مختلِف الأسماءِ؟ يعدلُ في الأرضِ وفي السماءِ

يحكم بالقسط بلا رياءِ أعمى يُري الرشادَ كلَّ رائي

أخرس لا من علّة وداءِ يُغني عن التّصريح بالإيماءِ

يجيب إن ناداه ذو امتراءِ بالرفع والخفض عن النداء[٢]

* يُفصِح إن عُلِّقَ في الهواءِ *

قوله: مختلِفُ الأسماء يعني ميزانَ الشمس، والاصطرلاب، وسائر آلات الرصد، وهو معنى قوله: يحكم في السماء. وميزانُ الكلام: النحو، وميزان الشعر: العروض، وميزان المعاني: المنطق، وهذه الميزان والذراع والمكيال.

---

(١) ابن التلميذ: (أمير الدولة)، هبة الله بن صاعد، (٤٦٥ ـ ٥٦٠ هـ = ١٠٧٣ ـ ١١٦٥ م) إبراهيم، أبو الحسن، أمين الدولة، موفق الملك، المعروف بابن التلميذ، حكيم عالم بالطب والأدب، له شعر كله ملح ولطائف وابتكارات، ولد وتوفي ببغداد، عمر طويلًا وخدم الخلفاء من بني العباس وانتهت إليه رياسة الأطباء في العراق، وكان عارفًا بالفارسية واليونانية والسريانية، وكان رئيس النصارى وقسيسهم، له كتب كثيرة. «الزركلي ٨/ ٧٢».

(٢) الامتراء: الشكّ.

وقال آخر فيه:

ما تقولون؟: فيما نزل من السماء، وعُلِّق في الهواء، له عينٌ عمياء، وكفٌّ شلاء، ليس له إن عدلَ ثوابٌ، ولا عليه إن جار عقاب، خُلقَ من ثلاثة أجناس، تضعضعه الأنفاس، جسمُه عارٍ من غير لباس، أخرسُ اللسان، في أذنه خرصان[1]، مكرر الذكر في القرآن، ينطوي إذا نام كالصِّلّ، وفعلهُ المستقبلُ معتلّ، وله في الآخرة أكبرُ محلّ.

وقال أبو نصر الكاتب[2] في الخاتم: [من الوافر]

ومنكوحٍ إذا ملكته كفٌّ ... وليس يكون في هذا مِراءُ
له عينٌ تخلَّلها ضياءٌ ... فإن كُحلتْ فللمِيلِ العمَاءُ
يظلّ طليعةً للوصل هونًا ... وللخاشي بزورته احتماءُ
وقد أوضحتُه وأبنتُ عنه ... ففسِّرْه فقد برح الخفاءُ

أراد بقوله: تخلّلها ضياءٌ أي أنها مفتوحة وكحلها بالإصبع؛ وقد يبعث المحبوب بخاتمه علامةً للزيارة أو رهنًا عليها وهو أمانٌ للجاني.

وقال ابن الروميّ في فتيلة السراج: [من السّريع]

ما حَيَّةٌ في رأسها دُرَّة ... تسبح في بحرٍ قليل المَدَى؟
إن غُيِّبتْ كان العمى حاضرًا ... وإن بدت لاح طريقُ الهدى!

وقال السريّ الرفّاء[3] في شبكة الصيّاد: [من الكامل]

وكثيرةُ الأحداقِ إلّا أنّها ... عمياءُ ما لم تنغمس في ماءِ
وإذا هي انغمست أفادت ربَّها ... ما لا يُنال بأعينِ البصراءِ

---

(١) الخرص: القرط بحبة واحدة، وقيل هي الحلقة من الذهب والفضة والجمع خرصة. «لسان العرب ٧/ ٢٢».

(٢) أبو نصر الكاتب: هو سهل بن المرزبان، أصله من أصبهان، يقول صاحب التيمية عنه: لا كتاب جديد يشتمل على بدائع الطرف إلا ومن عقده انتثره، ومن يده انتشر، له مؤلفّات عديدة. «انظر اليتيمة ٤/ ٤٥٢».

(٣) السّريّ الرّفاء الكندي، أبو الحسن، شاعر أديب من أهل الموصل، كان في صباه يرفو ويطرز في دكان بها فعرف بالرفاء، ولما مهر شعره وجاد قصد سيف الدولة يحلب فمدحه وأقام عنده مدة، ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد، فمدح جماعة من الوزراء والأعيان. اضطر للعمل بالوراقة بعد أن ضاقت به الحال، توفي ببغداد سنة ٣٦٦ هـ ـ ٩٧٦ م. «الزركلي ٣/ ٨١».

وقال آخر في النوم: [من مجزوء الرّجز]

وحـــامـــلٍ يـــحـــمـــلـــنـــي　　وما لـه شـخـصٌ يُـرَى!
إذا حـــصـــلـــتُ فـــوقـــه　　وهـو لـذيـذُ الـمـمـتـطَى!
ســـريـــتُ لا أدري أَفـــي　　أرضٍ سـريـتُ أم سـمـا!

وقال أبو العلاء المعريّ في ركابيَ السرج: [من الطويل]

خليلانِ نيطا في جوانبِ مجلسٍ　　جـــداراه قـــدّام لـــه ووراءُ!
متى يضعِ الرِّجْلَيْنِ ماشٍ عليهما　　يَزُلْ عنه في وَشْكٍ حَفًا وحَفاءُ!

قوله: خليلان لتشابهما، والمجلس: السرج، وجداراه: قربوسه[١] ورادفته[٢]، والحفا مقصور: وجعُ الرِّجل، وممدود: من مشى الرجل حافيًا بغير نعل.

وقال ابن القاسم عبد الصمد بن نائل في القُفْل: [من الرّجز]

مـجـامـعٌ يَـعـقِـدُ عَـقْـد الـكـلـبـهْ　　إن رامـه غـيـرك جـرّ نـكـبَـهْ
ويـنـام كـالأمـردِ لا كـالـقـحـبـهْ　　حتى إذا شكَّ الـقُـمُـدُّ جنبَهْ[٣]
وعـالـجَ الـجـذبـةَ بـعـد الـجـذبـهْ　　وانـحـلَّ بـالـحـقـنـةِ لا بـالـشـربـهْ
ألـقـى جـنـيـنًـا نـتـجـتْـه الـعـزبـهْ　　ثـــم إذا عـــادَ إلـــيـــه أشـــبـــهْ
بعضَ حروفِ الـمُـعْـجَـم الـمُـنـكـبّـهْ　　يُـبـغـضُ وهـو صـادقُ الـمـحـبّـهْ
يـعـتـقـد الـسّـلـم ويـنـوي حَـربـهْ　　وهـو عـلـى ذاك طـويـلُ الـصـحـبـهْ

شَبّهه بالمجامع: لدخول الفَراش في بطنه، وقوله: يعقد عقد الكلبة: في عُسر المفارقة، وإن فتحه غيرك جرّ نكبة عليك لسرقة ما فيه، ينام كالأمرد: لانكبابه، والقُمُدُّ: الذكر وهو المفتاح، والجنين: الفَراش، وإذا عاد إليه أشبه حرف الكاف.

وقال في اسم سعيد: [من المنسرح]

يـبـسـمُ عـن أوّل اسـمـه حِـبّـي　　ثـم بـثـانـي حـروفـه يـسـبـي

---

(١) قربوس: حنو السرج، وللسرج قربوسان، فالقربوس المقدم فيه العضدان والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخرة. «لسان العرب ٦/ ١٧٢».
(٢) رادفة: الردف هو الكفل والعجز، والروادف: الأعجاز، ومنها أردفته خلفي. «لسان العرب ٩/ ١١٥».
(٣) القُمُدّ: الطويل العنق ضخمها، والمفتاح، والذّكر.

ثم بحرفين لو بدا بهما أسدى يدا، صورةُ اسمها تُنبي
أربعةٌ نصفُها كجملتها في العدّ لم تنتقصِ ولم تُربي
هذا وفيه اسمُ يومِ اتّفقت مفاخِرُ العُجْم فيه والعُرْبِ
فأعمل الفكر في تأمّلهِ واركب به كلّ مَرْكَبٍ صعبِ

شبّه السين بالثغر، وثانيه العين وهي تسبي القلوب، والحرفان يد وهي أربعة في العدد وستّة في الصورة، وإذا أخذتَ السين والعين فهي أربعة وهي جملة العدد، وفيه عيد وهو يوم التفاخر بالزينة واللبوس.

وقال ابن أبي البَغْل الكاتب(١) في القلم: [من الوافر]

أصمُّ عن المنادي لا يجيبُ به تخبو وتشتعلُ الخطوبُ
ضئيلُ الجسم «أعْلَمُ» ليس تخفَى عليه غيوبُ ما تُخفي القلوبُ
تراه راجلًا لا روحَ فيه ويُحييه ويُنطقه الرّكوبُ
يبين لسانُه ما كنّ سودًا معارفه ويُخرسه المشيبُ
يقَسّمُ في الورى بؤسي ونُعمي ويحكمُ والقضاءُ له مجيبُ
عجبت لسطوةٍ فيه وضعْفٍ وكلُّ أمورِهِ عجبٌ عجيبُ

أراد بقوله: أعلم: مشقوق الشَّفَة.

وقال أبو العلاء المعرّي في المِلْح: [من الطويل]

وبيضاءُ من سرّ المِلاح ملكتُها فلما قضتْ إرْبي حبوتُ بها صحبي
فباتوا بها مستمتعين ولم تزلْ تحثّهُم بعد الطعام على الشُّربِ

قوله: سرّ أي خالصة، والمِلَاح جمع مِلْح، والإرب: الحاجة.

وقال آخر في عودي الغناء والبخور: [من الوافر]

وما شيئان اسمهما سَواءٌ وأصلهما معًا عند انتسابِ
إذا حضراك بتَّ قريرَ عينٍ بلا طعمٍ يلذُّ ولا شَرابِ
وما أن يوجدان النفعَ إلّا بضربٍ أو بضربٍ من عذابِ

(١) ابن أبي البغل: محمد بن يحيىٰ بن أبي البغل، ويكنى أبا الحسين، ولي الوزارة أيام المقتدر العباسي، وكان بليغًا مترسلًا فصيحًا، شاعرًا مطبوعًا مجددًا، له ديوان رسائل. «الفهرست لابن النديم ص ١٩٧».

معنى اسمهما سواء: ظاهرٌ، وأصلهما خشب، والضَّرب الأول: ضَرب العود، والثاني: من العذاب وهو الإحراق.

وقال آخر في الحرب: [من مخلع البسيط]

ما ذات شَوْكٍ لها جناحٌ ... يختطفُ الناسَ عن قريبِ
وهي عقيمٌ ترى بنيها ... من بين مُرْدٍ وبين شِيبِ
يأكل بعضُ البنينِ بعضًا ... طلوعَ شمسٍ إلى غروبِ
تصحيفُها الداءُ غير شكٍّ ... قد يُحسم الداءُ بالطبيبِ
والداءُ معكوسُهُ مكانٌ ... يصلحُ للطائرِ النجيبِ
يعرفُها من يكونُ طَبًّا ... بالشّعرِ والنحوِ والغريبِ(١)

هذا لغز معمى في الحرب، وشوكها: السلاح، وجناحاها: جانباها، وعقيم: لأنها لا تلد، وبنوها: رجالها، وأكلُهم: قتلهم، وتصحيفها: الجرب، وعكسه: برج.

وقال آخر في الثدي: [من الوافر]

وما أخوانِ مشتبهانِ جِدًّا ... كما اشتبه الغُرابة والغرابُ
يَضمّهما على مرِّ الليالي ... وما اجتمعا ولا افترقا إهابُ
لذاك وذا دموعٌ هاملاتٌ ... ولكن كلَّ دمعهِما شَرابُ
يصونهما عن الأبصارِ دِين ... ويُضرَب دون نَيْلهما حِجَابُ

هما: ثديا المرأة، ويضمّهما إهاب: وهو الجلد.

وقال آخر في الفخ: [من الطويل]

وما ميتٌ كفّتَهُ ودفنتَهُ ... فقام إلى حيّ صحيحٍ فأوثقَهْ

وقال آخر وهو لغز: [من الكامل]

حلفَ الحبيبُ عليّ لا سمّيتُهُ ... فكنيتُه ولطفتُ خوفَ تغاضبِهْ
ظبيٌ! إذا ما زارني حلّ اسمَهُ ... قلبي وذلك من عجيب عجائبِهْ
ويكون إن رخّمتَه وخَرَمتَه ... وقلَبته ما تشتهي من صاحبِهْ

---

(١) الطبّ: العالم الخبير الحاذق.

ويكون إن صحّفتَ مبدأه الذي أصبحتَ تهواه لعينِ مراقبِهْ
وتراه بعد الجزمِ إن ميّزت في التـ ـصحيف مقلوبًا أشدّ معائِبِهْ
وحروفُها فالنصفُ منها جذرُها وحسابُ ذلك غير متعبِ حاسِبِهْ
فاطلُبه سادسَ سادسَ ثانيةَ ثا نيةَ وثالثةَ كذاك لطالبِهْ
وتمامُهُ من بعد مثل حروفهِ في البيت صحّ اسمُ الحبيبِ لقالِبِهْ

هو لغز في فرحةٍ، والترخيم: حذف الآخر، والخرم: حذف الأوّل؛ فإذا رخم وخرم وقلب بقي: حِر، وإذا قلبت الفاء قافًا بقي: قَرْحة لعين المراقب، وإذا صحفته مقلوبًا، وجزمت آخره صار: هجر، والنصف من حروفه اثنان، وهما جذر جميع حروفه، وقوله: فاطلبه سادس سادس: يعني البيت السادس.

وقال آخر في سَلْمى: [من المنسرح]

سل ماهرًا بالقريضِ والأدب ما اسمُ فتاةٍ قعيدة النّسبِ
قد صرّحَ الشّعرُ باسمها فمتى فكَّرتَ فيها ظفرتَ بالعجبِ

الاسم: سلمى، وهو ظاهر في أول البيت.

وقال آخر في الكُرة: [من الطويل]

ومضروبةٍ تحيا إذا ما ضربتَها وإن تُركتْ من شدّةِ الضربِ ماتتِ

وقال أبو عبد الله بن المغلّس في السِّراج: [من المتقارب]

وداعٍ إلى نفسه في الظلامِ وما سمعتْ أذنُهُ صوتَهُ
إذا هو بيّض وجه الطريـ ـقِ سوّد في وجهه بيتَهُ

وقال آخر في الصَّدَى: [من السّريع]

وساكنٍ يسكنُ في الفلاةِ ليس من الوحش ولا النباتِ
ولا من الجنّ ولا الحيّاتِ ولا الخيامِ الشّعر والأبياتِ
ولا بذي جسمٍ ولا حياةِ كلا! ولا يُدركُ بالصفاتِ
بلى! له صوتٌ من الأصوات يُسمع في الأحيان والأوقاتِ

وقال ابن المغلّس في النخلة: [من المتقارب]

وقائمةٍ أبدًا لا تنامُ وما قعدت قطّ مذ قامتِ
تعيش إذا غسلوا رِجلها وإن حلقوا رأسَها ماتت

وقال آخر:

ما يقول سيدنا الشيخ: في شيء نزل من السماء، وركض في الهواء، وخيّم في البيداء، نطقَ على نفسه فأفصح، وتكلّم فبيّنَ وأوضح، أفقر وأغنى، وأمات وأحيا، له شوارق من غير غضب، ورقصات على غير طرب، يسبق الفرسَ السريع، ويسبقهُ الطفل الرضيعُ، مختلفُ الألوان، يوجد في كلّ زمان، ما أكثرَ لغاتِه! وأعمّ في البشرِ ذكرَ صفاته! وهو خفيفٌ ثقيلٌ، كثير قليل، كبير صغير، طويل قصير، غالٍ رخيص، قويٌّ ضعيفٌ، سريعٌ بطيء، باردٌ حارّ، نافع ضارّ، أبيض أسود أزرق، قريب بعيد، قديم جديد، متحرّك ساكن، ظاهرٌ باطن، يتجسّر ويتكسّر، ويتعوّج ويتدوّر، سلطانُه في الشمال وبه يذلّ، وضعفه في الجنوب وبه يُعزّ، نحيل يخفى جثّة الفيل في طيّه وعطفه، ويتخلّل جفنَ العينِ الرمدة برفقهِ ولطفه، يمشي على الحدق فلا يؤلمها، ويطأُ القلوبَ فلا يَكْلِمها، على أنّه يقطع الطريقَ، ويخيف الفريق، كم أهلك من قوم وما أُراق ولا سفك! يحمل ألفَ قنطار، ويعجز عن حمل دينار، وهو ليليٌّ نهاريٌّ، عربيٌّ عجميٌّ، بريٌّ بحريٌّ، سهليٌّ جبليٌّ، روميٌّ نوبيٌّ، هنديٌّ حبشيٌّ، صينيٌّ جاهليٌّ إسلاميٌّ، كان مع آدم في الجنّة، وصحب نوحًا في السفينة، وتوسّط النار مع إبراهيم، كم له مع موسى من خبر! ولموسى فيه من آية وأثر! حمل المسيح على غير ظهر، وما سار في برّ ولا بحر، أخرجه النبيّ ﷺ من جسده، وفرّقه على صحابته، إذا نطقتَ به كان بعض أحد خلفاء بني العباس السبعة وهو ١٤٣١.

وقال آخر:

ما شيءٌ وجهه قمر، وقلبهُ حجر إنْ علّقتَهُ ضاع، وإن أدخلتهُ السّوقَ أبى أن يباع، وإن فككته دعا لك، وإن ركبت نِصْفَه هالك، وربّما كثّر أموالك، وإن حذفتَ آخره، وشدّدت ثانيَه، أورثك الألم عند الفَجْر، والضجر عند العصر: هو الدُّملج الفضة.

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص

فمن ذلك: امرأتان التقتا برجلين قالتا لهما: مرحبًا بابنينا وزوجينا وابني زوجينا، وذلك أن كلّ واحدٍ منهما تزوّج بأم الآخر فهما ابناهما وزوجاهما وابنا زوجيهما.

رجلان كلّ واحد منهما عمّ الآخر وابن أخيه، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بأم الآخر، فرُزِق كل واحد منهما ولدًا فكل من الوالدين عمّ الآخر وابن أخيه.

رجلان كل واحد منهما خال الآخر وابن أُخته، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنةِ الآخر، فرزق كلّ واحد منهما ولدًا فكلّ من ولديهما خال الآخر وابن أخته.

رجل وامرأتان هو خال أحديهما، وهي خالته وعمّ الأخرى، وهي عمّته، وذلك: أنّ جدّته أمّ أبيه تزوّجت بأخيه لأمّه وأخته لأبيه تزوّجت بأب أمّه، فولدنا بنتين فبنت أخته خالته وهو خالها، وبنت جدّته عمّته وهو عمّها، وهذا أصل الأبيات المنظومة في ذلك: [من المتقارب]

ولـي خـالـة وأنـا خـالُهـا ولـي عـمّـةٌ وأنـا عـمُّـهـا

رجلان كلّ واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمّته، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّجَ بأختِ الآخر، فرُزِقَ كلٌّ منهما ولدًا، فكل من ولديهما ابن خال الآخر وابن عمّته.

رجلان كلٌّ واحدٍ منهما عمُّ والدِ الآخر، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّجَ بأم أب الآخر، فكلٌّ من أولادهما عمُّ أب الآخر.

رجلان كلٌّ واحد منهما عمّ أمّ الآخر، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة ابن الآخر، فكلٌّ من أولادها عمّ أمّ الآخر.

رجلان كلٌّ واحد منهما خالُ أمّ الآخر، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوَّجَ بابنة بنت الآخر، فكلّ من أولادهما خال أمّ الآخر.

رجلان أحدهما عمُّ الآخر والآخر خالُه، وذلك: أن رجلين تزوّج أحدُهما امرأةً وتزوّج الآخر ابنة ابنها، فولد لكل منهما ولدٌ فابن الأب عمُّ ابن الابن، وابن الابن من أمّ امرأة الأب؛ هو أخوها وخالُ ابنها.

رجلان أحدهما عَمُّ الآخر وخاله، والآخر ابنُ أخيه وابن أخته، وذلك: أن رجلًا له أخٌ لأب وأختٌ لأمّ فزوّج أخاه لأبيه بأخته لأمّه فأولدها ولدًا فهما كذلك.

القسمُ الثالث

من الفنّ الثاني في المدح، والهجو، والمجون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمُعاقرة، والنّدْمَان، والقِيان، ووصف آلات الطّرب

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأوّل

من هذا القسم في المدح

وفيه ثلاثة عشر فصلًا

حقيقةُ المدح وما قيل فيه، ما قيل في الجود والكرم وأخبار الكرام، ما قيل في الإعطاء قبلَ السؤال، ما قيل في الشجاعة والصبر والإقدام، ما قيل في وفور العقل، ما قيل في الصِّدق، ما قيل في الوفاء والمحافظة، ما قيل في التواضع، ما قيل في القناعة والنّزاهة، ما قيل في الشكر والثناء، ما قيل في الوعد والإنجاز، ما قيل في الشفاعة، ما قيل في الاعتذار والاستعطاف.

فأمّا حقيقةُ المدح، فقد عبّر عنها الحمدونيّ في «غاية الاختصار والإيجاز» بقوله: حقيقة المدح: وصفُ الموصوف بأخلاقٍ يُحمد صاحبُها عليها، ويكون نَعْتًا حميدًا. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: الآيات ١ - ٥]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ [التوبة: الآية ١١٢]. ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم» وقد أوّلوا الخبر المرويّ عن رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المَدّاحين فأحثوا في وجوههم التراب» قال العُتْبيّ هو المدح الباطل والكذب.

وأمّا مدحُ الرجل بما هو فيه فلا بأسَ به، وممّا يعضِدُ هذا أنّ العبّاسَ بن عبد المطّلب وكعب بن زهير، وحسّان بن ثابت، وغيرهم؛ مدحوا رسول الله ﷺ فلم يَرِد أنه حثا في وجه أحد منهم ترابًا.

وقيل في حثو التراب مَعْنَيان: أحدهما التغليظ في الردّ عليه، والثاني يقال له: بفيك التراب.

وللشعراء عادة في تجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقُّه حتى إنّ ذلك أفضى بكثير منهم إلى الكفر والخروج عن الحدّ أعاذنا الله من ذلك؛ وقال أنو شروان: من أثنى عليك بما لم تولِهِ فغيرُ بعيدٍ أن يذمَّك بما لم تحبَّه. وقال وهب بن منبّه: من مدحك بما ليس فيك، فلا تَأمَن أن يذمّك بما ليس فيك.

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول زهير بن أبي سُلْمى في هَرِم بنِ سِنَان(١): [من الكامل]

دَعَ ذا! وعَدِّ القولَ في هَرِمٍ ... خيرِ الكهولِ وسيّدِ الحَضْرِ
لو كنتَ في شيء سوى بشرٍ ... كنتَ المنوّر ليلةَ القَدْرِ
ولأنتَ أوصلُ من سمعتُ به ... لنوائلِ الأرحامِ والصِّهْرِ
ولنعمَ حشوِ الدّرعِ أنت إذا ... دُعِيتْ نَزَالُ ولُجَّ في الذُّعْرِ(٢)

فقال عمر رضي الله عنه: ذلك رسول الله ﷺ.

ولما حضر أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه الوفاةُ؛ قالت عائشة رضي الله عنها وهو يُغْمَضُ: [من الطويل]

وأبيض يُستسقَى الغَمامُ بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

فنظر إليها وقال: ذاك رسول الله ﷺ.

---

(١) هرم بن سنان المري، من أجواد العرب في الجاهلية، وهو ممدوح زهير بن أبي سلمى، اشتهر هو وابن عمه الحارث بن عوف بدخولهما في الإصلاح بين عيسى وذبيان، مات هرم قبل الإسلام في أرض لبني أسد يُقال لها «رزاء» وهو متوجه إلى النعمان نحو ١٥ ق.هـ ـ ٦٠٨ م. «الزركلي ٨/ ٨٢».

(٢) دعيت نزال: أي تداعى القوم بالنزول عن الخيل والتضارب بالسّيوف حين اشتداد الحرب وتزاحم الأقران، ولجّ في الذعر: تتابع الناس في الفزع.

وقال آخر: [من الطويل]

ولو كنتِ أرضًا كنتِ مَيْثاءَ سهلةً ... ولو كنتِ ليلًا كنتِ صاحبةَ البدرِ[١]
ولو كنتِ ماءً كنتِ ماء غَمامة ... ولو كنتِ يومًا كنتِ تَعريسة الفجرِ

وقال محمّد بن هانىء[٢]: [من الطويل]

أغَيرُ الذي قد خُطّ في اللوح أبتغي ... مديحًا له إني إذًا لعنودُ
وما يستوي وحيٌ من اللهِ مُنزَلٌ ... وقافيةٌ في الغابرين شرودُ

وقال عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه لمُتَمّم بن نُوَيرة صف إلي أخاك فإني أراك تمدحه، فقال: كان أخي يحبسُ المزاد بين الصُوحَيْن[٣] في الليلة القَرَّة معتقلًا للرمح الخَطِل، عليه الشَّمْلَة القلوب، يقود الفرس الحَرون فيصبح ضاحكًا مستبشرًا: الخَطِل: الطويل المضطرب، والقلوب: التي لا تنضمّ على الرَّحل لقصرها.

وسأل عبد الله بن عباس[٤] صَعْصَعةَ بن صُوحان العَبْديّ[٥] عن إخوته فقال: أما زيد فكما قال أخو عبس: [من الطويل]

فتًى لا يبالي أن يكونَ بوجهِهِ ... إذا نال خلّانَ الكرامِ شحوبُ

---

(١) ميثاء: ماث الشيء ميثًا: مرسه، وماث الملح في الماء: أذابه ـ والميثاء: الأرض اللينة من غير رمل، وقيل الميثاء: هي الأرض السهلة، والجمع مِيَثٌ. «لسان العرب ٢/ ١٩٢».
(٢) محمد بن هانىء الأندلسي: (٣٢٦ ـ ٣٦٢ هـ = ٩٣٨ ـ ٩٧٣ م)، أبو القاسم أو أبو الحسن، ولد بقرية سكون من قرى إشبيلية، ونشأ وتأدب فيها، وهو أشعر المغاربة على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، رحل إلى إفريقية والجزائر، ثم اتصل بالمعز العبيدي وأضحى شاعر الدولة الفاطمية، قتل غيلة في برقة سنة ٣٦٢ هـ ـ ٩٧٣ م. «وفيات الأعيان ٤/ ٤٢١، والأعلام للزركلي ٧/ ١٣٠».
(٣) الصوحان: جانبا الوادي والصوح: وجه الجبل وألقوه بين الصوحين: أي بين الجبلين.
(٤) عبد الله بن عباس: (١٠٣ ـ ١٤٧ هـ = ٧٢١ ـ ٧٦٤ م) أحد دهاة الأرض، كان من الشجعان الأبطال، هزم مروان بن محمد وأسرف في قتل بني أمية، ولما ولي المنصور خرج عليه عبد الله وبايعه أهل الشام بالخلافة إلا أن المنصور انتصر عليه ففر إلى البصرة، إلا أن المنصور قبض عليه وسجنه في بيت أساسه ملح، وأرسل عليه الماء فوقع عليه ومات. «فوات الوفيات ٢/ ١٩٢».
(٥) صعصعة بن صوحان العبدي: من سادات عبد القيس، من أهل الكوفة، مولده في دارين قرب القطيف، كان خطيبًا بليغًا عاقلًا، له شعر، شهد صفين مع الإمام علي عليه السلام، توفي بالكوفة سنة ٥٦ هـ ـ ٦٧٦ م. «الزركلي ٣/ ٢٠٥».

ثم قال: كان والله يا ابن عباس، عظيمُ المروءةِ، شريفُ الأبوّةِ، جليلُ القدرِ، بعيد الشرّ، كميش العُروة، زينُ النَّدْوة، سليمُ جوانحِ الصدر، قليلُ وساوسِ الفكرِ، ذاكرًا لله تعالى في طَرَفي النَّهار وزلفًا من الليل، الجوع والشِّبَع عنده سِيّان، لا منافسَ في الدنيا، ولا غافلَ عن الآخرة، يطيلُ السكوت، ويديمُ الفكر، ويكثرُ الاعتبار، ويقولُ الحق، ويلهجُ الصدق، ليس في قلبه غير ربه، ولا يهمهُ غيرُ نفسه، فقال ابن عبّاس: ما ظنّك برجل سبقه عضوٌ منه إلى الجنّة؟ رحم الله زيدًا! فأين كان عبد الله منه؟ فقال: كان عبد الله سيّدًا شجاعًا، شيخًا مُطاعًا، خيرُه وِسَاعٌ، وشرُّهُ دِفَاع. ليّنُ النحيزة[(١)]، أحوذيّ[(٢)] الغريزة، لا يُنهنهه مُنهنه عمّا أراد، ولا يركب إلّا ما اعتاد، سِمَام العدى، فيّاض النّدى، صعب المَقادة، جزل الرِّفادة. أخو إخوان، وفتى فتيان، ثم أنشد شعر حسّان بن ثابت: [من الطويل]

إذا قال لم يتركْ مقالًا لقائلٍ ... بمُلتقطاتٍ لا يرى بينها فصلا[(٣)]
قضى فشفى ما في النّفوس فلم يدعْ ... لذي إربة في القوم جدًّا ولا هزلا

ودخل ضِرَار بن ضَمْرة الكِنانيّ على معاوية بن أبي سُفيان فقال له: صفْ لي عليًّا فقال له: أو تعفيني؟ فقال: لا أعفيك؟ قال: أما إذ لا بدَّ، فإنّه كان بعيدَ المدى، شديدَ القُوى، يقول فصلًا، ويحكم عدلًا، يتفجّرُ العلمُ من جوانبه، وتنطقُ الحكمةُ نواحيه، يستوحشُ من الدنيا وزَهْرتها، ويأنسُ بالليل وظُلمته، كان والله غزيرَ العَبْرة، طويلَ الفِكرة، يقلّب كفّيه، ويخاطبُ نفسَه، يعجِبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقرّبه إلينا وقُربه منا لا نكلّمه هيبةً له، فإن تبسّم فعنْ مثلِ لؤلؤٍ منظوم، يُعظّم أهلَ الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيفُ من عدله.

وذكر عمرو بن مَعْدِيكرِب بني سُلَيْم فقال: بارك الله على حيّ بني سُليم ما أصدقَ في الهيجاءِ لقاءَها! وأثبت في النوازل بلاءَها! وأجزل في النائبات عطاءَها! والله لقد قابلتهم فما أجبتهم، وهاجيْتهم فما أفحمتهم، وسألتهم فما أجبنتهم.

---

(١) النحيزة: الطبيعة، هو كريم النحيزة وليّنها.
(٢) الأحوذ: الذي يسوق الأمور سوقًا حسنًا لعلمه به، والسّريع في كل ما يقوم به.
(٣) الملتقطات: المتخيّرات، وقوله لا يرى بينها فصلًا: أراد أنه لا يلجأ أثناء كلامه إلى حشو الألفاظ كقوله للمصغي إليه: أفهمت، أو غير ذلك. «انظر ديوان حسان ص ٢١٢».

وقال بعضُ العرب: فلان حتفُ الأقرانِ غداةَ النزالِ، وربيع الضِّيفَان عَشيّة النزول.

وقال آخر: فلان لَيْثٌ إذا غدا، وبدر إذا بدا، ونجم إذا هدى. وسُمّ إذا أردى.

ودخل النابغة على النُّعمان بن المُنذِر بن امرىء القيس بنُ عمرو بن عديّ اللّخميّ فحيّاه بتحيّة الملوك ثم قال: أيفاخِرُك ذو فائش وأنتَ سائس العَرب، وعُرْوةُ الحسب والأدب، لأمْسُك أيمنُ من يومه! ولعبْدُك أكرمُ من قومه، ولقفاكَ أحسنُ من وجهه، وليسارُكَ أجودُ من يمينه، ولظنُّكَ أصدقُ من يقينه ولوعدُك أثلجُ من رفده، ولخالُكَ أشرفُ من جدّه، ولنفسُكَ أمنعُ من جُنده، وليومُكَ أزهرُ من دهره، ولفترُك أبسط من شبره، ثم قال: [من البسيط]

أخلاقُ مجدك جَلّتْ ما لها خطرُ ... في البأس والجود بين الحِلم والخَفَرِ
مُتوّجٌ بالمعالي فوق مَفْرِقة ... وفي الوغى ضيغمٍ في صورة القمرِ
إذا دجا الخطبُ جلاهُ بصارمِه ... كما يُجلّى زمانُ المحلّ بالمطرِ

فتهلّل وجهُ النعمان سرورًا، ثم أمر أن يُحشى فوه درًّا وكُسِيَ أثوابَ الرضى وكانت جِبابًا أطواقها الذهب بقصب الزّمُرد. ثم قال النّعمانُ: هكذا فليمدح الملوك. وذو فائش: هو سَلامة بن يزيد بن سَلامة بن ولد يَحْصُب بن مالك وكان النابغة مُتّصلًا به قبلَ اتصاله بالنّعمان، وله فيه مدائحُ كثيرةٌ فاقتص الله تعالى من النّعمان بن المنذر بعد ذلك لما حُكيَ أنه دخل حسانُ بن ثابت على الجفنيّ فقال: أنعم صباحًا أيها الملك! السماء غِطَاؤك، والأرض وِطَاؤك، ووالدي ووالدتي فِداؤك، أنّى ينافسك ابن المنذر؟ فوالله لَقذالك[1] أحسن من وجهه، ولأمّك خيرٌ من أبيه، ولظلُّك خيرٌ من شخصه، ولصَمْتُكَ أبلغُ من كلامه، ولشِمالُك خيرٌ من يمينه، ثم قال: [من المتقارب]

قذالُكَ أحسنُ من وجهِهِ ... وأمُّكَ خيرٌ من المنذرِ
ويُسرى يديك إذا أعسرتْ ... كيُمنى يديه فلا تمتري

أخذ المعنى الحسنُ بن هانىء فقال: [من الخفيف]

بأبي أنت من غزالٍ غريرِ ... بذّ حسنَ الوجوه حسنُ قفاكا

---

(١) القذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا والجمع أقذِلة. «لسان العرب ١١/٥٥٣».

ونظر بعض الشعراء إلى هذا المعنى فقال يمدح زُبيدة[١] ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور أُم الأمين: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أزبــيــدةَ ابــنــة جــعــفــرٍ طــوبَــى لــزائــرك الــمُــثــابِ

تــعــطــيــن مــن رجــلــيــك مــا تــعــطــي الأكــفُّ مــن الــرِّغــابِ

فلما أنشد ذلك تبادر العبيدُ ليوقعوا به فقالت زبيدةُ: كفّوا عنه فلم يردْ إلّا خيرًا، ومن أراد خيرًا فأخطأ خيرٌ ممّن أراد شرًّا فأصاب، إنّه سمع الناسَ يقولون: قفاك أحسن من وجه غيرك، وشمالك أندى من يمين سواك، فقدّر أن هذا مثلُ ذاك، أعطوه ما أمل، وعرّفوه ما جهل؛ ومثله: مدح شاعرٌ أميرًا فقال: [من الرّجز]

أنــت الــهــمــامُ ابــن الــهــمــا مِ الــواســعُ ابــنُ الــواســعــهْ

فقال له: من أين عرفتها؟ قال: قد جرّبتها فقال: أسوأُ من شعركَ، ما أتيْتَ به من عُذرِكَ!

قال دخل خالدُ بن عبد الله العنبريّ على عمر بن عبد العزيز لمّا وَليَ الخلافةَ فقال: يا أمير المؤمنين من تكن الخلافة قد زانَتْه فأنت قد زيّنتها، ومن يكن شرّفْته فقد شرّفتَها، وأنت كما قال الشاعر: [من الخفيف]

وإذا الــدّرُ زانَ حــســنَ وجــوهٍ كــان لــلدّر حسنُ وجهك زَيْنا

فقال عمر بن عبد العزيز: أُعْطِيَ صاحبكم مَقُولًا، ولم يُعْط معقولًا. ولمّا دخل عبد الله المأمون بغدادَ تلقّاه وجوه أهلها فقال له رجل منهم: يا أميرَ المؤمنين! بارك الله لنا في مَقْدمك، وزادك في نعمتك، وشكركَ على رِعْيَتك، تقدَّمتَ مَنْ قبلك، وأتعبت مَنْ بعدك، وأيأسْتَ أن نُعاينَ مثلَك، أمّا فيمن مضى فلا نعرفُه، وأمّا فيمن بقي فلا نرجوه، فنحن جميعًا ندعو لك، ونُثني عليك. خَصِبَ لنا جنابُك، وعَذُب شرابُك، وحَسُنتْ نُصرتُك، وكَرُمتْ مقدرتُك. جبرتَ الفقيرَ، وفككتَ الأسير، فأنت

(١) زبيدة: بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية، أم جعفر زوجة هارون الرشيد، وبنت عمه، من فضليات النساء وشهيراتهن، وهي أم الأمين العباسي، اسمها «أمة العزيز» وإليها تنسب عين زبيدة في مكة، تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ ـ توفيت سنة ٢١٦ هـ ـ ٨٣١ م. «الزركلي ٣/ ٤٢».

يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر: [من المنسرح]

ما زلت في البذل للنوالِ وإطـ لاقِ لعانٍ بجرمه عَلِقِ[1]
حتّى تمنّى البِراءُ أنّهُمُ عندك أمسوا في القِدّ والحَلَقِ

وقال رجل للحسن بن سَهْل[2]: لقد صرتُ لا أستكثُر كثيرَك، وإن قليلَكَ أكثرُ من كثير غيرك. وقال الرشيد لبعضِ الشعراء: هل أحدثتَ فينا شيئًا؟ قال: يا أميرَ المؤمنين! المديحُ كلّه دون قدرِكَ، والشّعرُ فيك فوق قدري. ولكني أستحسن قول العَتَّابي[3]: [من البسيط]

ماذا عسى مادحٌ يُثني عليك وقد ناداك في الوحي تَقدِيسٌ وتطهيرُ
فتّ المَمادحُ إلا أن ألسنَنا مستنطقاتٌ بما تخفى الضمائيرُ!

وقال رجل في خالد بن صفوان: قريعُ المنطق، جزل الألفاظ، عربيُّ اللسان، قليل الحركات، حَسَنُ الإشاراتِ، حلوُ الشمائل، كثيرُ الطلاوة، صموتًا قؤولًا، يَهنأُ الجرب، ويداوي الدبِر، ويفك المحز[4]، ويطبق المِفْصَل، لم يكن بالزّمر في مروءته، ولا بالهذِر في منطقه، متبوعًا غير تابع، كأنّه عَلَمٌ في رأسه نار.

وقيل لبعض الخلفاء: إن شَبِيبَ بن شَيبة[5] يستعمل الكلام ليستعدّ به؛ فلو أمرتَ به أن يصعد المنبر فُجاءَة لافتضح، قال: فأمر من أخذ بيده فصعد المنبرَ فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ ﷺ ثم قال: إن لأميرِ المؤمنين أشباهًا أربعة؛ فمنها: الأسد الخادر[6]، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما

(١) العاني: الأسير.
(٢) الحسن بن سهل: (١٦٦ ـ ٢٣٦ = ٧٨٢ ـ ٨٥١ م) أبو محمد، وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره، اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة والكرم، وهو والد بوران زوجة المأمون، وكان المأمون يجله وللشعراء فيه أماديح، أصيب بمرض السويداء سنة ٢٠٣ هـ فتغير عقله حتى شد في الحديد، ثم شفى منه قبل زواج المأمون بابنته سنة ٢١٠ هـ، وتوفي في سرخس من بلاد خراسان سنة ٢٣٦ هـ ـ ٨٥١ م. «الزركلي ٢/ ١٩٢».
(٣) العتّابي: هو كلثوم بن عمر من بني تغلب من ولد عمر ومن كلثوم التغلبي كان شاعرًا محسنًا وكاتبًا في الرّسائل مجيدًا، ولم يجتمع هذان لغيره. «انظر الشعر والشعراء ص ٥٨٦».
(٤) المحز: النكاح، ومحز المرأة محزًا: نكحها. «لسان العرب ٥/ ٤٠٨».
(٥) هو حبيب بن شيبة المنقري، أبو معمر، أديب الملوك وجليس الفقراء من أهل البصرة كان شريفًا من الدّهاة مات نحو سنة ١٧٠ هـ. «الأعلام ٣/ ١٥٦».
(٦) الخادر: الخدر: ستر يمد للجارية في ناحية البيت، والجمع حذور وأحذار، وأسد خادر: مقيم في عرينة. «لسان العرب ٤/ ٢٣١ و٢٣٢».

الأسد الخادر، فأشبَه منه صولته ومضاءَه. وأما البحر الزاخر، فأشبه منه جُوده وعطاءَه. وأمّا القمر الباهر، فأشبه منه نوره وضياءَه. وأما الربيع الناضر، فأشبه منه حسنه وبهاءَه، ثم نزل.

وقيل دخل رجل على المنصور فقال له تكلّم بحاجتك؛ فقال: يبقيك الله تعالى يا أميرَ المؤمنين! قال: تكلّم بحاجتك؛ فإنّك لا تقدرُ على مثل هذا المُقام في كلّ حين. قال: والله يا أمير المؤمنين! ما أستقصرُ أجلَك، ولا أخافُ بخلَك، ولا أغتنمُ مالك، وإن عطاءَك لشرفٌ، وإنّ سؤالك لزينٌ، وما بامرىءٍ بَذلَ إليك وجهَه نقصٌ ولا شَيْن، فأحسن جائزته وأكرمه.

وقال محمد بن مالك القُرطبيّ من رسالة: ما رأيتُ وجهًا أسجح، ولا حِلمًا أرجح، ولا سجيّة أسجح، ولا بِشرًا أبدى، ولا كفًّا أندَى، ولا غُرّةَ أجمل، ولا فضيلةً أكمل، ولا خُلُقًا أصفى، ولا وعدًا أوفى، ولا ثوبًا أطهر، ولا سَمْتًا[1] أوفر، ولا أصلًا أطيب، ولا رأيًا أصوب، ولا لفظًا أعذب، ولا عِرْضًا أنقَى، ولا بناء أبقَى، ممّا خصّ الله به ثالث القمرين، وسِراج الخافقين، وعِماد الثَّقلين المُعْتَصِم بالله.

وقال بعض الكتّاب: إنّ من النعمة على المُثني عليك أن لا يخافَ الإفراطَ، ولا يأمنَ التقصيرَ، ولا يحذرَ أن يلحقَه نقيصةُ الكذبِ، ولا ينتهي به المدحُ إلى غاية، إلا وجدَ في فضلك عونًا على تجاوزها. ومن سعادةِ جَدِّك أنّ الداعِيَ لك لا يعدم كثرةَ المشايعين له، والمؤمِّنين معه.

وقال آخر: إني فيما أتعاطَى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر الذي لا يُخفى على كلّ ناظر، وأيقنتُ أني حيثُ انتهى بي القولُ إلى العجز مقصرٌ عن الغاية فانصرفتُ عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك.

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من رقعة طويلة في المظفّر في أوّلها: حجب الله عن الحاجب المظفّر أعينَ النائبات، وقبض دونَه أيدي الحادثات؛ فإنه مذ كان أنوَر من الشمس ضياءً، وأكملَ من البدر بهاءً، وأندى من الغيث كفًّا، وأحمى من الليث أنفًا، وأسخى من البحر بنانًا، وأمضى من النصل لساناً، وأنجبه المنصورُ

(١) السمت: الهيئة والوقار.

فجرى على سَنَنِه[١]، وأدّبه فأخذ بسُننه، وكانت الرياسةُ عليه موقوفةً، والسياسةُ إليه مصروفةً، قصرت الأوهامُ عن كُنهِ فضله، وعجزت الأقلام عن وصف مثله، غير أن الفضائلَ لا بدَّ من نشرها، والمكارمَ لا عذر في ترك شكرها.

فهذه نبذة كافية مما ورد في المنثور فلنذكر ما ورد من المنظوم في ذلك.

قال أبو هلال العسكريّ[٢]: سمعتُ أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد يقول: أَمْدَحُ بيتٍ قالته العربُ قول النابغة الذبيانيّ يمدح النّعمان بن المنذر: [من الطويل]

ألـم تـرَ أن الله أعـطـاكَ سُـورةً؟ ترى كلَّ ملْكٍ دونها يتذبذبُ
بأنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وهو مأخوذ من قول بعض شعراءِ كندةَ مدح عمرو بن هند: [من الطويل]

تكاد تميدُ الأرضُ بالنّاس إن رأوا لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هو الشمس وافت يوم سعدٍ فأفضلتْ على كلّ ضوء والملوكُ كواكبُ

وقال نُصَيب[٣]: [من الطويل]

هو البدر والنّاس الكواكبُ حوله وهل يشبه البدرَ المضيءَ كواكبُ

وقالوا: أبدع بيت قيل في المديح قول النابغة: [من الطويل]

فإنّك كالليلِ الذي هو مدركِي وإن خِلْتُ أن المنتأَى عنك واسعُ

وقوله: «أخلاقُ مجدك» ـ الأبيات وقد تقدمت ـ وقد تداول الناس قول النابغة:

* فإنك كالليل الذي هو مُدركي *

---

(١) السّنن: الطريقة.

(٢) أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري نسبة إلى «عسكر مُكرَم» من كور الأهواز، أبو هلال، عالم بالأدب، له شعر، من كتبه التلخيص في اللغة، وكتاب الصناعتين، والمحاسن في تفسير القرآن، توفي بعد سنة ٣٩٥ هـ ـ بعد ١٠٠٥ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ١٩٦».

(٣) نصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح، كان عبدًا أسود، من سكان البادية، توفي سنة ١٠٨ هـ ـ ٧٢٦ م، وهناك نصيب غيره هو نصيب الأصغر وكان هذا الآخر شاعرًا مجيدًا كنيته أبو الجحفاء، وله في المهدي والهادي العباسيين وغيرهما مدائح، توفي سنة ١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م. «الزركلي ٨/ ٣٢».

فقال الفرزدق: [من الطويل]

فلو حملتْني الريحُ ثم طلبتني لكنتُ كشيءٍ أدركتهُ مقادرُهْ

وقول النابغة أبلغ، لأن الليل أعمّ منَ الريح، والريحُ يُمتنع منها بأشياء، والليل لا يمتنع منه بشيء. وأخذ سلم الخاسر[1] قول الفرزدق فقال: [من البسيط]

فأنت كالدهرِ مبثوثًا حبائلُهُ والدهرُ لا ملجأٌ منه ولا هربُ

ولو ملكتُ عِنانَ الريح أصرفه في كلّ ناحيةٍ ما فاتك الطلبُ

وقالوا: أجودُ شيء قيل في الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدّمين والمحدَّثين قول أبي العتاهية يمدح الرشيد بن المهديّ وولده: [من الطويل]

بنو المصطفى! هارون حول سريره فخير قيامٍ حوله وقعودِ

تُقلِّب ألحاظَ المهابةِ بينهم عيونُ ظباءٍ في قلوبِ أسودِ

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول أبي الطَّمَحان القَيني[2]: [من الطويل]

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم دجَى الليلِ حتى نظّم الجَزْعَ ثاقبُهْ[3]

نجومُ سماءٍ كلّما انقضّ كوكبٌ بدا كوكبٌ يأوي إليه كواكبُهْ

وما زال منهم حيث كان مسوّدٌ تسير المنايا حيث سارت كتائبُهْ

وهذه الأبيات من قصيدة مدح بها بُجَيرُ بنُ أَوس بنُ حارثةٍ، ابنَ لأُمِ الطائي، وكان أسيرًا في يده، فلما مدحه بها أطلقه بعد أن جزَّ ناصيتَه؛ وأوّل القصِيدة: [من الطويل]

إذا قيل: أيُّ الناسِ خيرٌ قبيلةً؟ وأصبرُ يومًا لا توارى كواكبُهْ

فإنّ بني لأُمِ بن عمرو أرومةٌ علتْ فوق صعبٍ لا تُنال مراتبُهْ![4]

---

(١) سلم الخاسر: سليم بن عمرو بن حماد، شاعر خليع، من أهل البصرة، من الموالي، سكن بغداد، له مدائح في المهدي والرشيد العباسيين، وأخبار مع بشار بن برد وأبي العتاهية، وشعره رقيق رصين، قيل سمي الخاسر لأنه باع مصحفًا واشترى به طنبورًا، توفي سنة ١٨٦ هـ - ٨٠٢ م. «الزركلي ٣/ ١١١».

(٢) أبو الطّمّحان القيني: هو حنظلة بن الشرقي، كان فاسقًا خليعًا، قيل له: ما أذى ذنوبك، قال: ليلة الدّير، نزلتُ بديرانية فأكلت عندها طفشيلًا بلحم خنزير وشربتُ من خمرها وزنيت بها وسرقت كساءها ومضيت. «الشعر والشعراء ص ٢٤٦».

(٣) نظّم الجزع: سلكه في عقد، والجزع: ضرب من الخرز، وقيل: هو الخرز اليماني. «اللسان مادة جزع».

(٤) الأرومة: الأصل والمحتد.

أضاءت لهم أحسابهم الأبيات.

ومثله قول ابن أبي السِّمْط: [من الطويل]

فتًى لا يبالي المدلجون بنوره إلى بابه أن لا تضيءَ الكواكبُ
له حاجبٌ من كلّ أمرٍ يَشينَهُ وليس له عن طالبِ العُرفِ حاجبُ

ومثله قول الحُطيئة[١]: [من البسيط]

نمشي على ضوءِ أحسابٍ أضأنَ لنا كما أضاءت نجومُ الليل للساري

ومثله قول الآخر: [من الطويل]

وجوهٌ، لو أنّ المدلجين اعتشوا بها صدعن الدجى حتى يُرى الليلُ ينجلي

وقال عيسى بن أوس[٢] يمدح الجُنَيد بن عبد الرحمٰن[٣]: [من الطويل]

إلى مستنيرِ الوجهِ طال بسؤددِ تقاصَرَ عنه الشاهقُ المتطاوِلُ
مدحتُك بالحقِّ الذي أنت أهلُهُ ومن مِدَحِ الأقوامِ حَقٌّ وباطلُ
يعيشُ الندى ما دمت حيًا فإن تمت فليس لحيٍّ بعد موتك طائلُ
وما لامرىءٍ عندي مَخِيلةُ نعمةٍ سواك وقد جادت عليّ مَخائلُ[٤]

وقالوا: أمدحُ بيت قالته العرب قول الأعشى: [من الطويل]

فتًى، لو يُنادي الشمسَ ألقت قناعَها أو القمرَ الساري لألقَى المقَالدَا

وهذا من الغلو وهو مذموم عند بعضهم.

---

(١) الحطيئة: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه، توفي نحو ٤٥ هـ ـ نحو ٦٦٥م. «الزركلي ٢/١١٨».

(٢) عيسى بن أوس أبو الجويرية العبدي: ابن عصبة، من بني عبد الله بن مالك، من نزار، شاعر محسن، أقام مدة في خراسان، واستقر في العراق، وتوفي نحو ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م. «الأعلام للزركلي ٥/١٠١».

(٣) الجنيد بن عبد الرحمٰن: المري الدمشقي، أمير خراسان وأحد الشجعان الأجواد الممدوحين، ولاه هشام بن عبد الملك سنة ١١١ هـ فثبت في الولاية إلى أن مات في خراسان سنة ١١٥ هـ ـ ٧٣٣ م. «الزركلي ٢/ ١٤٠».

(٤) المخائل: السّحب، شبّه عطاءه بالسّحاب. مخائل: المخيلة: السحابة ـ وتخيلت السماء أي تغيمت. «اللسان ١١/ ٢٢٦ و٢٢٧».

ومثله في الغلوّ قول طُرَيْح بن إسماعيل(١): [من المنسرح]

لو قلتَ للسيل: دعْ طريقَكَ والـ ـموجُ عليه كالهَضْبِ يعتلجُ
لارتدَّ أو ساخَ أو لكانَ له في جانب الأرض عنك منعرَجُ

ومن الغلوّ قول أبي تمّام في المعتصم بالله: [من الطويل]

بيُمنِ أبي إسحٰقَ طالت يدُ العلى وقامت قناةُ الدينِ واشتدّ كاهلُهْ
هو البحرُ من أيّ النواحِي أتيتَه فلُجَّتُه المعروفُ والجودُ ساحلُهْ
تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتى لو أنه أراد انقباضًا لم تُطعْه أناملُهْ
ولو لم يكن في كفّه غيرُ نفسه لجاد بها فليتّقِ اللهَ سائلُهْ

وقال العسكريّ(٢): [من الطويل]

وكيف يَبيت الجارُ منك على صدًى؟ وكفُّك بحرٌ لُجّةُ الجودِ ساحلُهْ

وقال أبو هلال العسكريّ يرفعه إلى الأصمعيّ قال: سمعت أعرابيًا يقول: إنكم معاشرُ أهلِ الحضر، لتخطئون المعنى، إنّ أحدَكم ليصفُ الرجلَ بالشجاعة فيقول: كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول: كأنها الشمس، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟ ثم قال: والله لأُنشِدنَّك شعرًا يكون لك إمامًا. ثم أنشدني: [من البسيط]

إذا سألتَ الورى عن كلّ مَكرُمةٍ لم تُلفِ نِسبتها إلا إلى الهَوْلِ
فتى جوادًا أعار النِّيلَ نائلَه فالنِّيلُ يشكر منه كثرةَ النَّيْلِ
والموت يَرهَبُ أن يلقَى منيَّته في شدّةٍ عند لفّ الخيْلِ بالخيلِ
لو عارض الشمس ألفَى الشمسَ مظلمةً أو زاحم الصُّمَّ ألجاها إلى المَيْلِ
أو بارز الليلَ غطّته قوادمُه دون الخوافي كمثلِ الليل في الليلِ
أمضى من النجم إن نابته نائبةٌ وعند أعدائِه أجرى من السيلِ

---

(١) طريح بن إسماعيل الثقفي: أبو الصلت، شاعر الوليد بن يزيد الأموي، وخليله، انقطع إليه قبل أن يلي الخلافة، واستمر اتصاله به وأكثر شعره في مدحه، عاش إلى أيام الهادي العباسي، توفي سنة ١٦٥ هـ ـ ٧٨١ م. «الزركلي ٣/٢٢٦».

(٢) العسكري: هو أبو هلال العسكري. «تقدّم ذكره».

ومثله قول الآخر: [من الرّمل]

عـلَّم الـغيـثَ الـندى حتـى إذا ... مـا حـكـاه عـلّم الـبأسَ الأسَـدْ
فـله الـغيـثُ مُـقِـرٌّ بـالـنـدى ... ولـه الـليـثُ مـقِـرٌّ بـالـجـلَدْ

وقال أميّة بن أبي الصلت في عبد الله بن جُدْعان[١]: [من الوافر]

أأذكـرُ حـاجـتـي أم قـد كـفـانـي ... حـيـاؤك؟ إن شـمـيـتَـكَ الـحـيـاءُ
كـريـمٌ لا يـغـيّـرهُ صـبـاحٌ ... عن الـخُـلُق الـكريـم ولا مـسَـاءُ
فـأرضُـكَ أرضُ مـكـرمـةٍ بـنـتـهـا ... بـنـو تَـيْـمٍ وأنـتَ لـهـا سـمـاءُ

ونحوه قوله: [من الوافر]

لـكـلّ قـبـيـلـةٍ شـرفٌ وعـزٌّ ... وأنـت الـرأسُ تـقـدمُ كـلَّ هـادِ

وقال ابن الروميّ: [من البسيط]

قومٌ يحلّون من مجدٍ ومن شرفٍ ... ومن غَناءٍ محلَّ البَيْضِ واليلَبِ
حلّوا محلَّهما من كلّ جُمجمة ... نفعًا ودفعًا وإطلالًا على الرتبِ
قومٌ هم الرأسُ إذ حسّادُهم ذنَبٌ ... ومن يمثّلُ بين الرأسِ والذنبِ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من البسيط]

فابشرْ فإنّك رأسٌ والعلى جَسَدٌ ... والمجدُ وجهٌ وأنت السمعُ والبصرُ
لـولاك لـم تـكُ لـلأيـامِ مَـنـقَـبَـةٌ ... تسمو إليها ولا للدهر مفتخَرُ

وقال عليّ بن جَبَلَة[٢]: [من البسيط]

لـولا أبـو دُلَفٍ لـم تَـحْـيَ عـارفَـةٌ ... ولـم يَـنُـؤْ نَـوْءُ مـأمـولٍ بـآمـالِ
يا بنَ الأكارمِ من عدنانَ، قد علموا ... وتـالدَ المجد بين العمّ والخالِ
وناقلَ الناس من عُدْمٍ إلى جدَةٍ ... وصارفَ الدهر من حالٍ إلى حالِ

---

(١) عبد الله بن جدعان: التميمي القرشي، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة، وكانت له جفنة يأكلُ منها الطعامَ الراكبُ والقائم، فوقع فيها صبي فغرق، له أخبار كثيرة. «الزركلي ٤/ ٧٦».

(٢) هو علي بن جبلة بن مسلم الأبناوي المعروف بالعكوك، أبو الحسن، شاعرٌ عراقي مجيد كان أعمى أسود أبرص، توفي سنة ٢١٣ هـ. «الأعلام ٤/ ٢٦٨».

أنت الذي تُنزِل الأيّامَ منزلَها وتُمسِكُ الأرضَ عن خسفٍ وزلزالِ
وما مددتَ مدَى طرفٍ إلى أحدٍ إلا قضَيتَ بآمالٍ وآجال
تَزْوَرُّ سخطًا فتمسي البِيضُ راضيةً وتَستهِلُّ فتبكي أوجهُ المال

وقالوا: أمدح بيت قالته العرب قول زهير: [من الطويل]

تراه إذا ما جئتَهُ متهلِّلًا كأنك تعطيه الذي أنت سائلُهْ

وعاب بعضهم هذا البيت وقال: جعل الممدوح يفرح بغرض يناله، وليس هذا صفة كبير الهمة، والجيّد قول أبي نوفلٍ عمرو بن محمد الثقفيّ(١): [من الكامل]

ولئن فرحتَ بما يُنيلُك إنّه لبما ينيلك من نداه أفرحُ
ما زال يعطي ناطقًا أو ساكتًا حتى ظننتَ أبا عَقِيلٍ يمزحُ

ومثله قول أبي تمّام: [من الطويل]

أَسائِلَ نَصرٍ لا تَسلْهُ فإنّه أحنُّ إلى الإرفاد منك إلى الرِّفد

وقالوا: أمدحُ بيت قالته العرب قول الحُطَيئة: [من الطويل]

متى تأتِهِ تعشو إلى ضوءِ نارِه تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقد

وقال القاسم بن حنبل: [من الوافر]

من البِيضِ الوجوهِ بني سنانٍ لو أنّك تستضيءُ بهم أضاؤوا
لهم شمسُ النهارِ إذا استقلّتْ ونورٌ لا يغيّبُهُ العماءُ
هم حلُّوا من الشرفِ المعلَّى ومن حسبِ العشيرةِ حيثُ شاؤوا
فلو أنّ السماءَ دنتْ لمجدٍ ومكرمةٍ دنتْ لهمُ السماءُ

وقالوا أيضًا: أمدح بيتٍ قيل قول الأوّل أيضًا: [من البسيط]

قومٌ، سِنانٌ أبوهم حين تنسِبُهُم طابوا وطابَ من الأولادِ ما ولدوا

---

(١) عمرو بن محمد الثقفي: أبو نوفل. عمرو بن محمد بن سليمان مولى ثقيف، يقال له عمرو بن بانة نسبة إلى أمه «بانة» نديم من الشعراء العلماء بالغناء، كان خصيصاً بالمتوكل العباسي، منزله ببغداد ووفاته بسامراء، له كتاب في «الأغاني»، توفي سنة ٢٧٨ هـ ـ ٨٩١ م. «الزركلي ٥/ ٨٥».

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمسِ من كرمٍ قومٌ بعزِّهمُ أو مجدِهمْ قَعدُوا
مُحسّدون على ما كان من نِعمٍ لا ينزعُ اللهُ عنهم ما له حُسِدوا

وقالوا: أمدحُ بيتٍ قاله محدّث، قول مروان بن أبي حفصة(١) في معن بن زائدة(٢): [من الطويل]

بنو مطرٍ يومَ اللّقاءِ كأنّهم أسودٌ لها في غيلِ خفّان أشبُلُ(٣)
هم المانعون الجارَ حتى كأنما لجارِهمُ بين السِّماكَيْنِ منزِلُ(٤)
بَهاليلُ في الإسلامِ سادوا ولم يكن كأوّلهم في الجاهليّة أوّلُ
هم القومُ، إن قالوا أصابوا، وإن دُعوا أجابوا، وإن أَعْطوا أطابوا وأجزلوا

وقال العسكريّ: وأنشدَ بعضُ أهل الأدبِ قولَ ابن أبي طاهر(٥) وقال: لو استعمل الإنصافُ لكان هذا أحسنَ مدح قاله متقدِّم ومتأخِّر وهو: [من البسيط]

إذا أبو أحمدٍ جادت لنا يدُه لم يُحْمَدِ الأجودان: البحرُ والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرَّتِه تضاءل النيّران: الشمسُ والقمر
وإن مضى رأيُه أو جدَّ عزمتَه تأخَّر الماضيان: السيفُ والقدَرُ
من لم يكن حَذِرًا من حدِّ صولته لم يدر ما المزعجان: الخوفُ والحذَرُ
حُلْوٌ، إذا أنت لم تَبعثْ مرارتَهُ فإن أمرَّ فحلوٌ عنده الصَّبِرُ
سهلُ الخلائقِ إلا أنه خَشِنٌ لَيِّنُ المهزَّة إلا أنه حجرُ

---

(١) مروان بن أبي حفصة: (١٠٥ ـ ١٨٢ هـ = ٧٢٣ ـ ٧٩٨ م) شاعر عالي الطبقة، نشأ في العصر الأموي باليمامة حيث منازل أهله، وأدرك زمنًا من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدي الرشيد ومعن بن زائدة وجمع ثروات هائلة، توفي ببغداد. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٠٨».
(٢) معن بن زائدة: الشيباني، أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك العصرين الأموي والعباسي، ولاه المنصور العباسي اليمن، ثم سجستان، فأقام فيها مدة وابتنى دارًا، فدخل عليه أناس في زي الفعلة فقتلوه غيلة سنة ١٥١ هـ ـ ٧٦٨ م، للشعراء فيه أماديح ومراث من عيون الشعر. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٣».
(٣) خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا، وهو مأسدة. «معجم البلدان ٢/ ٣٧٩».
(٤) السّماكان: نجمان مثيران في السّماء، أحدهما في الشّمال، يعرف «بالرّامح» والثاني في الجنوب يعرف «بالأعزل».
(٥) ابن أبي طاهر: هو أحمد بن طيفور، مؤرّخ من الكتاب البلغاء الرواة، وله شعر قليل، ومؤلّفات عدّة مات سنة ٢٨٠ هـ. «الأعلام ١/ ١٤١».

لا حَيَّةٌ ذَكَرٌ في مثل صولته إن صال يومًا ولا الصَّمصامةُ الذكَرُ[١]
إذا الرجالُ طغَتْ آراؤهم وعَموا بالأمر رُدَّ إليه الرأيُ والنظرُ
الجودُ منه عِيانٌ لا ارتيابَ به إذ جود كلّ جوادٍ عنده خبرُ

وقال: ومن المديح القليل النظير، قول عليّ بن محمد الأفوه[٢]: [من البسيط]

أوفَوا من المجدِ والعلياءِ في قُلَلٍ شُمٍّ، قواعدُهنّ البأسُ والجودُ
سُبْطُ اللقاءِ إذا شميت مخائلهم بُسْلُ اللقاء إذا صيد الصناديدُ
مُحسّدون، ومَن يعلقْ بحبلهِم من البريَّةِ يصْبحْ وهو محسودُ

وقالوا: أمدح بيت قاله محدّث قول عليّ بن جَبَلة في أبي دُلف: [من المديد]

إنّما الدّنيا أبو دُلفٍ بين باديه ومحتضرِهْ
فإذا ولَّى أبو دُلفٍ وولَّتِ الدُّنيا على أثرِهْ

وهي من القصائد المشهورة، وأولها: [من المديد]

ذادَ وِردَ الغيّ عن صَدرِه وارعوى، واللّهوُ من وطَرِه[٣]

جاء منها في مدحه: [من المديد]

يا دواءَ الأرضِ إن فسدَتْ ومُجيرَ اليسرِ من عُسُرِهْ
كلُّ من في الأرضَ من عَربٍ بين باديه إلى حَضرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً يكتسيها يومَ مفتخَرِهْ
إنما الدنيا أبو دلف ....

قال العسكريّ: ومن المديح البارع قول بشار: [من المتقارب]

ألا أيّها الطالبُ المبتغِي نجومَ السماءِ بسعيٍ أَمَمْ[٤]

---

(١) الصمصامة: سيف صمصام وصمصامة: صارم لا ينثني، والمصَمِّم من السيوف: الذي يمر في العظام، وصمم السيفُ: إذا مضى في العظم وقطعه، فالصمصامة: السيف القاطع. «لسان العرب ١٢/٣٤٧».

(٢) علي بن محمد الأفوه: لم نعثر عليه، ولعله الأفوه الأودي، وهو صلاة بن عمرو من مذحج ويكنى أبا ربيعة، من شعراء الجاهلية. «الشعر والشعراء ص ١٣٤».

(٣) ذاد: منع ودفع، والورد: أي الورود والقصد، وارعوى: انصرف وامتنع.

(٤) أَمَمْ: الأمم: الشي اليسير، يقال: ما سألت إلا أممًا، وقيل الأمم: بين القريب والبعيد. «اللسان ١٢/٢٨».

سمعتَ بمكرمة ابن العلاءِ ... فأنشأت تطلُبها لستَ ثَمْ
إذا عَرَض الهمُّ في صدره ... لَهَا بالعطاءِ، وضرب البُهَمْ(١)
فقل للخليفة إن جئته ... نصيحًا ولا خيرَ في المتَّهمْ
إذا أيقظتكَ جسامُ الأمورِ ... فنبِّهْ لها عُمَرًا ثمّ نَمْ
فتًى، لا يبيتُ على دِمنةٍ ... ولا يشربُ الماء إلا بدَمْ
يحبّ العطاءَ وسفكَ الدماءِ ... فيغدو على نِعَمٍ أو نِقَمْ

قال ومن المديح القليل النظير: قول أمامة بنت الجلّاح الكلبية: [من الطويل]

إذا شئتَ أن تلقى فتًى لو وزنتَهْ ... بكلّ معدّيّ وكلّ يماني
وفَى بِهِمُ جودًا وحلمًا وسؤددًا ... وبأسًا، فهذا الأسودُ بنُ قنانِ
فتًى، كالفتاة البكر، يُسفرُ وجهُهُ ... كأن تلالي وجهِه القمرانِ
أغرُّ أبرُّ ابني نِزار ويعرُبٍ ... وأوثقُهم عَقْدًا بقولِ لسانِ
وأوفاهُمُ عهدًا وأطولُهم يدًا ... وأعلاهُمُ فِعْلًا بكلّ مَكانِ
وأضربُهم بالسيفِ من دون جارِهِ ... وأطعنُهم من دونِهِ بسنانِ
كأنَّ العطايا والمنايا بكفهِ ... سحابانِ مقرونانِ مؤتلفانِ

ومن المديح البارع قول أبي تمّام: [من الطويل]

رأيت لعيّاشٍ خلائقَ لم تكنْ ... لتكمُلَ إلّا في اللُّبابِ المهذّبِ
له كرمٌ لو كان في الماء لم يَغِضْ ... وفي البرقِ ما شام امرؤ برقَ خُلّبِ
أخو عزماتٍ بذلُهُ بذلُ محسنٍ ... إلينا ولكن عذرَه عذرُ مذنبِ
يهولُك أن تلقاه في صدر مَحفِلٍ ... وفي نحرِ أعداءٍ وفي قلبِ موكبِ
وما ضيقُ أقطارِ البلاد أضافني ... إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي
وهذي ثياب المدح فاجرزْ ذيولَها ... عليك وهذا مركبُ الحمدِ فاركبِ

---

(١) البُهَمْ: البهيمة: كل ذات أربع قوائم، والبهمة: الصغير من أولاد الغنم والمعز والبقرة الذكر والأنثى في ذلك سواء. «لسان العرب ١٢/ ٥٦».

وقد أحسن التّنوخيّ[١] في قوله: [من الرّجز]

وفتيةٍ من حِمْيَرٍ حُمرِ الظُّبَى بيضِ العطايا حين يَسودُ الأَملْ
شموسِ مجدٍ في سمٰواتِ عُلًى وأُسْدِ مَوتٍ بين غاباتِ أَسَلْ

وقالت الخنساء في أخيها صخر: [من المتقارب]

طويلُ النجاد رفيعُ العما دِ ساد عشيرتَه أمردا
إذا القوم مدّوا بأيديهِمُ إلى المجدِ مدَّ إليه يدا
فنالَ الذي فوقَ أيديهِمُ من المجدِ ثم مضى مُصْعِدا
فكلّفه القومُ ما عالهم وإن كان أصغرَهم مَوْلدَا
ترى الحمدَ يهوِي إلى بيته يرى أفضلَ الكسبِ أن يُحمَدا

قال آخر: [من البسيط]

ومُصْعُدٍ هضباتِ المجدِ يطلعُها كأنّه لسكونِ الجأش منحدرُ
ما زالَ يسبقُ حتى قال حاسِدُه له طريقٌ إلى العَلياء مُخْتَصرُ

وقال إبراهيم بن العبّاس: [من الكامل]

تَلِجُ السنونُ بيوتَهم وترى لها عن بيت جارهم ازورارَ مناكبِ
وتراهم بسيوفهم وشفارهم مستشرفين لراغبٍ أو راهبِ
حامين أو قارِين حيث لقيتهم نهبَ العفاةِ ونزهةً للراغبِ[٢]

وقال أيضًا: [من الطويل]

إذا السَّنَةُ الشَّهباءُ مدّتْ سماءَها مددتَ سماءً دونها فتحلّتِ[٣]
وعادت بك الريحُ العقيمُ لدى القِرى لِقاحًا فدرّتْ عن نداكَ وطَلّتِ

وقال ابن الروميّ: [من المتقارب]

كأنّ مواهبَه في المُحُو لِ آراؤه عند ضِيق الحيلْ

---

(١) التّنوخي: هو علي بن محمد، أبو القاسم، قاضٍ أديب شاعر، ولد بأنطاكية ورحل إلى بغداد، وولي قضاء البصرة والأهواز، وكان من جلساء الوزير المهلبي، وزار سيف الدولة ومدحه، له ديوان شعر مات سنة ٣٤٢ هـ. «الأعلام ٤/ ٣٢٤».
(٢) قارين: من القرى، وهو الإطعام والضيافة، والعفاة: طالبي الضيافة والقرى والمعروف.
(٣) الشهباء: المجدبة.

فلو كان غيثًا لعمَّ البلادَ ولو كان سيفًا لكان الأَجلْ
ولو كان يُعطى على قدره لأغنى النفوس وأفنى الأملْ

وقال أبو الحسن بن أبي البغل البغداديّ يمدح أبا القاسم بن وهب وقد تقدّم ذكر بعضها لابن أبي طاهر: [من البسيط]

إذا أبو قاسم جادت لنا يدُه لم يُحمد الأجودانِ: البحر والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غرّته تضاءَل النَّيّران: الشّمس والقمرُ
وإن بدا رأيُه أو جدَّ عَزْمتَه تأخّرَ الماضيان: السيف والقَدرُ
ينال بالظنِّ ما كان اليقينُ به والشاهدان عليه العينُ والأثرُ
كأنّه وزِمامُ الدهرِ في يدِهِ يدري عواقبَ ما يأتي وما يَذَرُ

وقال ذو الرمّة[1]: [من الكامل]

يطيبُ تُرابُ الأرضِ إن نزلوا بها ويختالُ أن تعلو عليها المنابِرُ
وما زلتَ تسمو للمعالي وتجتني جَنى المجدِ مذ شُدّتْ عليك المآزِرُ
إلى أن بلغتَ الأربعين فأُلقِيَت إليك جماهيرُ الأمورِ الأكابرُ
فأحكمتَها لا أنتَ في الحكم عاجزٌ ولا أنت فيها عن هُدى الحقّ جائرُ

وقال الشّريف الرَّضِيّ: [من المنسرح]

يا مخرسَ الدّهرِ عن مقالته كلُّ زمانٍ عليك متّهمُ
شخصُك في وجه كلّ داجيةٍ ضُحًى وفي كلّ مَجْهَلٍ عَلَمُ

وقال أبو الحسن السلاميّ: [من الطويل]

إذا زرتَه لم تلقَ من دون بابه حجابًا ولم تدخلْ عليه بشافِعِ
كماءِ الفرات الجمّ أعرض وِرْدَه لكلِّ أناسٍ فهو سهلُ الشرائعِ[2]
تراه إذا ما جئتَه متهلّلا تهلُّل أبكار الغيوثِ الهوامعِ

(١) ذو الرمة: (٧٧ ـ ١١٧ هـ = ٦٩٦ ـ ٧٣٥ م) غيلان بن عقبة ويكنى أبا الحارث، كان أحد عشاق العرب المشهورين وكان أحسن الناس تشبيهًا، ومن فحول الطبقة الثانية في عصره، كان شديد القصر دميمًا، يضرب لونه إلى السواد، سكن البادية وكان يحضر إلى البصرة واليمامة كثيرًا، توفي بأصبهان وقيل بالبادية. «الشعر والشعراء ص ٣٥٦، والأعلام للزركلي ٥/ ١٢٤».

(٢) الشرائع: مفردها «الشريعة» وهي مورد الماء.

وقال محمد بن الحسين الآمديّ: [من الطويل]

من القوم لما استغربَ المجدَ غيرَهُمْ   من الناس أمسَوا منه فوقَ الغرائبِ
إذا سالموا كانوا صدورَ مراتبٍ   وإن حاربوا كانوا قلوبَ مواكبِ
جوادٌ متى ما رامت الريحُ شأوه   كَبَتْ دون مَرْمى خطوه المتقاربِ[1]
وبحرُ ندًى لو زاره البحر حدّثت   عجائبُه عن فعلهِ بالعجائبِ

وقال الأصمعي: كنتُ بالبادية فرأيتُ امرأةً على قبر تبكِي وتقول: [من المتقارب]

فمنْ للسؤالِ ومن للنوالِ   ومن للمقالِ ومن للخُطبْ؟
ومن للحُماة ومن للكُماةِ   إذا ما الكماةُ جثوْا للرُّكَبْ؟
إذا قيل: مات أبو مالكٍ   فتى المكرماتِ قريعُ العربْ
فقد ماتَ عزّ بني آدمٍ   وقد ظهر النَّكد بعد الطربْ

قال: فملتُ إليها، وسألتُها عنه، فقالت: فديتُ! هذا أبو مالك الحجّام، ختن[2] أبي منصور الحائك، فما ظننتُ إلا أنّه من سادات العرب.

وقال العِماد الأصفهانيّ[3]: [من المتقارب]

حييّون يخفون إحسانَهم   ويعتذرون كأنْ قد أساؤوا
إذا ظَلَمَ الدهرُ أعدَوْا عليه   وإن أظلم الخطبُ يومًا أضاؤوا
بمثلكُمُ قد أقرَّ الرجالُ   فمثلكُمُ لم تلدْهُ النِّساءُ
وللناسِ من حسن أيّامكم   بدولتِكم كلُّ يومٍ هناءُ

---

(١) الشأو: السّباق.
(٢) الختن: كلّ من كان من جهة المرأة كأبيها أو أخيها، أو زوج البنت، أو زوج الأخت.
(٣) العماد الأصفهاني: (٥١٩ ـ ٥٩٧ هـ = ١١٢٥ ـ ١٢٠١ م) أبو عبد الله، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، من أكابر الكتاب ولد في أصبهان، وقدم بغداد حدثًا، فتأدب وتفقه، استوطن دمشق بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية، وتوفي به، له كتب كثيرة منها خريدة القصر، البرق الشامي، سبع مجلدات في أخبار صلاح الدين وفتوحه. «الأعلام للزركلي ٧/٢٦».

وقال أيضًا: [من الكامل]

فَلأَطْوِيَنَّ على أغرَّ مُحَجَّلٍ ... عرضَ الفلاةِ إلى أغرٍّ محجّبِ(١)
ليثُ الوغى غَوثُ الورى غَيْثُ النّدى ... بدرُ النّديّ، نعم! وصدرُ الموكبِ
وإذا استوى في دَسْته مالت له ... أعناقُ كل متوّج ومُعَصّبِ
وتُميت رأفتُه حُقودَ عداته ... وتَحِلُّ هيبتُهُ عقودَ المُحتبي(٢)
إنّ الممالكَ ما تزالُ برأيه ... في صائبٍ وبجوده في صيّبِ(٣)
يحبوك معتذرًا إليك فيا لَه ... من محسن تعروه خجلةُ مُذنبِ
يُزْهى بأصلٍ في العَلاءِ مُخَيَّمٍ ... شرفًا وفرعٍ بالكرام مطنّبِ

وقال أحمد بن محمد النّاميّ(٤): [من الطويل]

له سُورةٌ في البشر تُقرأُ في العلا ... وتثبُتُ في صُحُفِ العطاءِ وتُكتَبُ
إذا ما عليٌّ أمطرتكَ سماؤه ... رأيتَ العلا أنواؤها تتحلّبُ
وأزهر يَبيضُّ الندى منه في الرضا ... وتحمرُّ أطرافُ القنا حين يغضبُ
أميرَ الندى ما للندى عنك مَذهبٌ ... ولا عنك يومًا للرغائب مَرْغَبُ

وقال أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكيّ(٥): [من المديد]

سيّدٌ شادت علاه له ... في العلا آباؤه النجبُ
وله بيتٌ يُمَدّ له ... فوق مجرى الأنجمِ الطُّنُبُ

---

(١) أغرّ محجل: المحجل من الخيل: أن تكون قوائمه الأربع بيضًا ـ والحِجل: البياض نفسه. «لسان العرب ١١/ ١٤٥».

(٢) المحتبي: الحامي، وحبا ما حوله: حماه، واحتبى احتباء: اصطفى واختار. «اللسان ١/ ٣٣٨».

(٣) الصيِّب: المطر المتصبّب الذي لا يؤذي.

(٤) أحمد بن محمد النامي: (٣٠٩ ـ ٣٩٩ هـ = ٩٢١ ـ ١٠٠٩ م) أحمد بن محمد الدارمي المصيصي، أبو العباس المعروف بالنامي، شاعر رقيق الشعر من أهل المصيصة (قريته من طرسوس على ساحل المتوسط)، اتصل بسيف الدولة فكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرفعة، وكان واسع الاطلاع في اللغة والأدب، مات في حلب سنة ٣٩٩ هـ ـ ١٠٠٩ م. «الأعلام للزركلي ١/ ٢١٠، ويتيمة الدهر ١/ ٢٢٥».

(٥) أحمد الأنطاكي: أبو حامد، أحمد بن محمد الأنطاكي، شاعر فكه، تصرف بالشعر جدًا وهزلًا ومجونًا، وهو من المداح المجيدين، أقام بمصر طويلًا يمدح ملوكها ووزراءها وتوفي فيها سنة ٣٩٩ هـ ـ ١٠٠٩ م. يقال له أبو الرقعمق. «يتيمة الدهر ١/ ٣١٠، والأعلام للزركلي ١/ ٢١٠».

حسبه بالمصطفى شرفًا ... وعليٌّ حين ينتسبُ
رتبةٌ في العز شامخةٌ ... قصرتْ عن مثلها الرتبُ

وقال ابن نباتة السعديّ: [من الطويل]

يَرَى الشمسَ أُمًّا والكواكبَ إخوةً ... وينظرُ مِنْ بدر السماءِ إلى تِرْبِ
غنيتُ عن الآمال حين رأيتُه ... وأصبحَ من بين الورى كلّهم حسبي
فلم أطلب المعروفَ من غير كفّه ... وهل تُطلبُ الأمطارُ إلّا من السحبِ؟

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكيّ: [من البسيط]

لو نيلَ بالمجد في العلياءِ منزلةٌ ... لنالَ بالمجد أعنانَ السمٰواتِ
يرمي الخطوبَ برأيٍ يُستضاء به ... إذا دجا الرأيُ من أهل البصيراتِ
فليس يلقاه إلّا عندَ عارفةٍ ... أو واقفًا في صدور السمهريّاتِ[1]

وقال أبو طالب المأمونيّ[2]: [من الخفيف]

قد وجدنا خُطا الكلامِ فِساحَا ... فجعلنا النسيبَ فيكَ امتداحا
وأفضنا ما في الصدور ففاض الـ ... ـمدحُ قبلَ النسيبِ فيك انفساحا
وعمدنا إلى علاك فصغنا ... لصدور القريض منها وشاحا
وصدعنا في أوجه الشِّعرِ من بيـ ... ـضِ مَساعيكَ بالندى أوضاحا
كم كسيرٍ جبرتَه وفقيرٍ ... مستميحٍ رددتَه مُستماحا
وأمانٍ خُرسٍ بسطتَ لها في الـ ... ـقولِ حتى أعدتهنّ فِصاحا
وبلادٍ جوامحٍ رُضْتَها بالعـ ... ـزم حتى أنسيتهنّ الجِماحا[3]
شَهَرَتْ منك آلُ سامانَ عضبًا ... يُنجحُ السعيَ غربهُ إنجاحا[4]
لا يذوقُ الإغفاءَ إلا رجاءً ... أن يرى طيفَ مستميحٍ رواحا

---

(١) السمهريات: مفردها سمهر، وهو الرمح الصليب العود، واسمهر الشوك: يبس وصلب والسمهرية: القناة الصلبة، منسوبة إلى سمهر وهو رجل كان يقدم الرماح. «اللسان ٤/ ٣٨١».

(٢) أبو طالب المأموني: هو عبد السّلام بن الحسين، شاعر من العلماء بالأدب، يتصل نسبه بالمأمون العباسي، مات قبل أن يبلغ الأربعين سنة ٣٨٣ هـ. «الأعلام ٤/ ٥».

(٣) الجماح: الجموح من الرجال: الذي يركب هواه فلا يمكن رده، وجمع إليه أي أسرع. «اللسان ٢/ ٤٢٦ و٤٢٧».

(٤) العضب: القطع، وعضبه عضبًا: قطعه قطعًا. وعضبه بلسانه: تناوله وشمه، والعضب: السّيف. «اللسان ١/ ٦٠٩». غرب: أغرب الحوض والإفاء: أي ملأهما ـ والغرب الفضة، وقيل الغرب: شجر تسوى منه الأقداح البيض. «اللسان ١/ ٦٤٣ و٦٤٤».

وقال أحمد بن محمد الناميّ: [من الطويل]

أميرَ العلا إنّ العوالِي كواسبٌ عَلاءَك في الدنيا وفي جَنّةِ الخُلد
يَمرُّ عليك الحولُ، سيفُك في الطُّلَى وطرفُك ما بين الشكيمةِ واللِّبْدِ(١)
ويَمضي عليك الدهرُ، فعلُك للعُلا وقولُك للتقوَى، وكفُّك للرِّفدِ

وقال أيضًا: [من الطويل]

فتًى، قسّم الأيّامَ بين سيوفه وبين طريفاتِ المكارمِ والتلدِ
فسوّد يومًا بالعَجاج وبالردى وبَيّضَ يومًا بالفضائل والحمدِ(٢)

وقال الصاحب بن عبّاد: [من الخفيف]

أيّها الآملون حُطّوا سريعًا برفيعِ العماد واري الزّنادِ
فهو إنْ جادَ ذُمَّ حاتمُ طيىءٍ وهو إن قال فُلَّ قُسُّ إيادِ
وإذا ما ربا فأين زيادٌ من علاه وأين آل زيادِ

وقال أبو طالب المأمونيّ من قصيدة: [من المتقارب]

فتًى مُلئتْ بردتاه عُلًا ونُبلًا وفضلًا ومجدًا وخِيرا
إذا ضمّه الدَّستُ ألفيتَه سحابًا مَطيرًا وبدرًا مُنيرا
وإن أبرزَتْه وغى خلْتَه حُسامًا بَتورًا وليثًا هَصورا
وطورًا مُعيدًا وطورًا مُبيدًا وطورًا مجيرًا وطورًا أميرا
ترى في ذراه لسانَ المنى طويلًا وباعَ الليالي قصيرا
تُضمُّ الأسرَّةُ منه ذُكاءَ وتحمل منه المذاكي ثبيرا(٣)

---

(١) الطُّلى: يريد بالطُّلى هنا: الطّلاء، وهي من طلى يطلي طلاء الشيء: أي دهنه، فهو يقول: إنه لم يشهر سيفًا فما زال محافظًا على طلائه. الشكيمة: الشكيمة من اللجام: الحديدة المعترضة في الفم والجمع شكائم وشُكُم. «اللسان ١٢/ ٣٢٤». اللبد: اللبيدة هي المخلاة ـ وألبدت الفرس إذا شددت عليه اللبد. «اللسان ٣/ ٣٨٨».

(٢) العجاج: التراب المتصاعد من الحرب.

(٣) الأسرّة: مفردها السّرير، وذكاء: الشمس، والمذاكي: ما يركب من المطايا، وثبير: اسم جبل بمكة.

وقال أبو الطيّب المتنبي: [من البسيط]

يمشي الكرامُ على آثارِ غيرهِمُ وأنت تَخلقُ ما تأتي وتبتدعُ
من كان فوقَ محلّ الشمسِ موضعُه فليس يرفعُهُ شيءٌ ولا يضع

وقال أبو المعالي محمد بن مسعود الأصفهانيّ شاعر الخريدة: [من البسيط]

قد حلّ في مَدرَج العلياءِ مرتبةً مطامحُ الشهبِ عن غاياتها تقِفُ
أَغْرَى بوصف معاليه الورى شغَفًا لكنه والمعالي فوق ما وصفوا
إن ناصبتْه العدا فالدهرُ معتذرٌ أو أنكروا فضله فالمجدُ معترف

وقال السلاميّ شاعرُ اليتيمة: [من البسيط]

يزور نائلُك العافي وصارمُكَ الـ ـعاصي فتحويهما أيدٍ وأعناقُ
في كلّ يومٍ لبيتِ المجد منك غنًى وثروةٌ ولبيتِ المالِ إملاقُ
كم خضتَ من لجةٍ للنفع زاخرةٍ ماءُ المنون بها ـ حاشاك ـ دفّاقُ

وقال المتنبي: [من البسيط]

أنت الجوادُ بلا منٍّ ولا كدرٍ ولا مطالٍ ولا وعدٍ ولا مَلِلِ

وقال أبو الفرج الببّغاء(١): [من المنسرح]

لا غيثُ نعماه في الورى خلّب الـ ـبرقِ ولا وِردُ جودهِ وشَلُ(٢)
جاد إلى أن لم يُبقِ نائلُه مالًا ولم يَبْقَ للورى أملُ

وقال محمد بن الحسن الحاتميّ(٣) شاعر اليتيمة: [من الطويل]

ومَن عوّدتْهُ المكرماتُ شمائلا فليس له عنها ـ ولو شاء ـ ناقلُ

---

(١) أبو الفرج الببغاء: عبد الواحد بن نصر المخزومي من أهل نصيبين، نجم الآفاق وشاقة الشام والعراق، وأحد أفراد الدهر في النظم والنثر، اتصل بسيف الدولة ودخل الموصل وبغداد ونادم الملوك والرؤساء، له ديوان شعر توفي سنة ٣٩٨ هـ ـ ١٠٠٨ م.

(٢) الوشل: الماء القليل يسيل من صخرةٍ أو جبل، وخلّب البرق: الذي لا ماء فيه. «يتيمة الدهر ١/ ٢٣٦، والأعلام للزركلي ٤/ ١٧٧».

(٣) محمد بن الحسن الحاتمي: أبو علي، أديب نقاد، من أهل بغداد، نسبته إلى جد له اسمه حاتم، له الرسالة الحاتمية، وسر الصناعة في الشعر ومختصر العربية، توفي سنة ٣٨٨ هـ ـ ٩٩٨ م. «الأعلام للزركلي ٦/ ٨٢».

وإن راسلَ الأعداءَ فالجرُدُ رُسْلُه إليهم وأطرافُ العوالي الرسائلُ
عظُمتَ، فهذا الدهرُ دونك همةً وجُدتَ فهذا القَطرُ عندك باخلُ

وقال مؤيّد الدين الطغرائيّ(١): [من المنسرح]

لو دبَّ رأيُك في كعوبِ قنًا ما مسّها طَنَبٌ ولا خللُ(٢)
أو كان ضوءُك للغزالةِ لم يَحجبْ ضياءَ جبينها الطَّفَلُ(٣)
أو كان لطفُك في الحياة لما طافت بها الأسقام والعللُ
أنت الذي لولا علاه عَفَتْ طُرْقُ الهدى واستبهم السُّبُلُ
في كلّ شَعبٍ من رويّته شُعَبٌ ومن آرائه شُعَلُ
يرتدّ عنه جفنُ حاسدِهِ فكأنه بالنارِ يكتحلُ
وجهٌ كيوم الصحوِ مبتسمٌ ويدٌ كلَيْل الدَّجنِ تَنهملُ
مَسَحَتْ على الأنواء راحتُه فانساق منها العارِضُ الهطِلُ
إن ضنّ غيثٌ أو خبا قمرٌ فجبينه ويمينه البدَلُ

وقال ابن الروميّ: [من الكامل]

آراؤكم ووجوهُكم وسيوفُكم في الحادثاتِ ـ إذا دجونَ ـ نجومُ(٤)
فيها مَعالمُ للهدى ومَصابحٌ تجلُو الدجَى والأخرياتُ رُجومُ(٥)

وقال أبو الطيّب المتنبيّ: [من المنسرح]

قومٌ بلوغُ الغلامِ عندهُمُ طعنُ نحورِ الكماةِ لا الحُلُمُ
كأنما يولَد الندَى معهم لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ
إذا تولَّوا عداوةً كشفوا وإن تولَّوا صنيعةً كتموا

---

(١) مؤيد الدين الطغرائي: (٤٥٥ ـ ٥١٣ هـ = ١٠٦٣ ـ ١١٢٠ م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، مؤيد الدين، الأصبهاني الطغرائي، شاعر، من الوزراء الكتاب، كان ينعت بالأستاذ، ولد بأصبهان، واتصل بالسلطان مسعود فولاه وزارته، قتله السلطان محمود أخو السلطان مسعود بعد أن اقتتل الأخوان وانتصر محمود، نسبة الطغرائي إلى كتابة الطغراء، له ديوان شعر، وأشهر شعره لامية العجم. «الأعلام للزركلي ٢/٢٤٦».
(٢) الطّنب: اعوجاج في الرمح. «لسان العرب ١/ ٥٦٢».
(٣) الطَّفَلُ: الليل، والطفل أيضًا: الشمس عند غروبها. «لسان العرب ١١/٤٠٣».
(٤) دجون: أظلمن، من الدّجى.
(٥) الرّجوم: الشهب التي تحرق الشياطين.

تظنُّ من كثرة اعتذارهِم أنهمُ أنعموا وما علموا
إن برقوا فالحتوفُ حاضرةٌ أو نطقوا فالصوابُ والحِكَمُ
أو شهدوا الحربَ لاقحًا أخذوا من مُهَج الدارعين ما احتكموا
أو ركبوا الخيلَ غيرَ مُسرجةٍ فإنَّ أفخاذَهُمْ لها حُزُمُ
تُشرقُ أعراضُهم وأوجهُهم كأنها في نفوسهم شِيَمُ
أعيذُكم من صروفِ دهركُمُ فإنه في الكرام متَّهَمُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

ودانت له الدنيا فأصبح جالسًا وأيّامُه فيما يريد قيامُ
وكلُّ أناسٍ يبتغون إمامَهم وأنت لأهلِ المكرماتِ إمامُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

هم المحسنون الكَرَّ في حَومةِ الوغى وأحسنُ منه كرُّهُم في المكارمِ
ولولا احتقارُ الأُسدِ شبّهتُها بهم ولكنها معدودةٌ في البهائمِ

وقال المشوّق الشاميّ شاعر اليتيمة: [من الطويل]

يروح إلى كسبِ الثناءِ ويغتدي إذا كان هَمُّ الناسِ كسبُ الدراهمِ
وإن جلس الأقوامُ عن واجبِ الندى وحقِّ العطايا كان أوّلَ قائِمِ
يزيدُ ابتهاجاً كلّما زارَ قاصدٌ كأنّ به شوقًا إلى كلّ قادِمِ

وقال السلاميّ شاعرها: [من الطويل]

تُشبّهه المُدّاحُ في البأسِ والندى بمن لو رآه كان أصغرَ خادِمِ
ففي جيشه خمسون ألفًا كعنترٍ وأَمضَى وفي خُزّانه ألفُ حاتمِ

وقال أبو طالب المأمونيّ من قصيدة: [من الطويل]

يُعمِّم بالهنديّ حين يسلُّه أسودَ الوغى بالضرب فوق العمائمِ
فلا مُلكَ إلا ما أقمتَ عروشَه ولا غيثَ إلا ما أَفَضْتَ لشائمِ(١)

---

(١) الشائم: من شام يشيم شيمًا البرق أو السَّحاب: نظر إليه ليرى أين يمطر.

ولا تـاجَ إلا مـا تـولّيـتَ عَـقْـدَه على جبهةِ المَلْكِ المكنّى بقاسم
فرأيك نـجمٌ في دُجى الليل ثاقبٌ وعزمُك عَضبٌ في طُلى كلّ ناجمِ(١)

وقال المشوِّق الشاميّ: [من السريع]

مـا زال يـبـنـي كـعـبـةً لـلعـلى ويـجـعـلُ الـجـودَ لـهـا ركـنـا
حتى أتـى الـنـاسَ فـطـافـوا بـهـا وقـبَّـلوا راحتـه الـيُـمـنَـى

وقال المأمونيّ من قصيدة: [من الطويل]

هُمَامٌ يُبَكِّي المشرفيّةَ ساخطًا ويُضحك أبكارَ الأمانيّ راضيا
ولـو أنَّ بـحـرًا يستطيع ترقِّيا إلـيـه لأمَّ الـبـحـرُ جدواه راجِيا

ذكر ما قيل في الافتخار

قالوا: أفخر بيت قالته العرب قول جرير: [من الوافر]

إذا غضِبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلَّهُمُ غضابا

قال: دخل رجل من بني سعد على عبد الملكِ بن مروان فقال له: ممن الرجلُ؟ قال: من الذين قال لهم الشاعر:

* إذا غـضـبـتْ عـلـيـك بـنـو تـمـيـم *

البيت.

قال: فمِن أيِّهم أنت؟ قال: من الذين يقول فيهم القائل: [من الطويل]

يزيدُ بنُو سعدٍ على عَدَد الحصى وأثقلُ من وزن الجبال حُلومُها

قال: فمن أيِّهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر: [من الطويل]

بناتُ بني عوفٍ طَهارَى تقيَّةٌ وأوجهُهُمْ عند المشاهِدِ غُرَّانُ(٢)

قال: فمن أيِّهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر: [من الوافر]

فلا وأبيكَ ما ظَلَمتْ قُرَيعٌ بأن يبنوا المكارمَ حيث شاؤوا(٣)

---

(١) العضب: السّيف القاطع، والنّاجم: من نجم الشيء: إذا طلع.
(٢) غُرّان: غر: بياض في الوجه، ورجل أغر: كريم الأفعال واضحها. «لسان العرب ٥/ ١٤ و١٥». بنو عوف: من قبائل العرب.
(٣) قريع: إحدى القبائل العربية.

قال: فمن أيّهم أنت؟ قال: من الذين يقول لهم الشاعر: [من البسيط]

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرهُمُ ... ومن يسوّي بأنفِ الناقةِ الذنَبا

قال: اجلس، لا جلَست، والله لقد خفتُ أن تفخرَ عليّ!

وقالوا: أفخرُ بيت قالته العرب قولُ الفرزدق: [من الطويل]

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وَقَّفوا!

وقال عمرو بن كلثوم وهو أبلغ ما قاله جاهليّ في الافتخار: [من الوافر]

ونحن العاصمون إذا أُطِعنا ... ونحن العارمون إذا عُصِينا![1]

ونحن التاركون لما سَخِطْنَا ... ونحن الآخذون لما رَضِينا!

وقال إبراهيم بن العبَّاس: [من البسيط]

إمّا تريْني أمامَ القوم متَّبَعًا ... فقد أُرى من وراء الخيل أَتَّبعُ

يومًا أبيحُ فلا أرعى على نَشَبٍ ... وأستبيحُ فلا أُبقِي ولا أدَعُ

لا تسألي القومَ عن حيٍّ صبَحْتُهُمُ ... ماذا صنعتُ؟ وماذا أهلُه صنعوا؟

وقالوا: من أحسن ما مَدح به الرجلُ نفسَه قولُ أعشَى بن ربيعة[2]: [من الطويل]

وما أنا في نفسي ولا في عشيرتي ... بمهتضَمٍ حقِّي ولا قارعٍ سِنِّي

ولا مُسلِمٍ مولاي عند جنايةٍ ... ولا خائفٍ مولاي من شرِّ ما أجني

وأنَّ فؤادي بين جنبيّ عالمٌ ... بما أبصرتْ عيني وما سمِعتْ أذني

وفضّلني في الشِّعر واللُّبِّ أنني ... أقولُ على علم وأعلمُ ما أعني

فأصبحتُ إذ فضّلتُ مروانَ وابنَه ... على الناسِ قد فضَّلتُ خيرَ أبٍ وابنِ

(١) في معلقته:

ونحن العازمون إذا عُصينا

«انظر شرح القصائد المشهورات لابن النّحاس ٢/ ١١٤».

(٢) أعشى ربيعة: عبد الله بن خارجة بن حبيب، أو خبيب، من بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، شاعر، اشتهر في أيام بني مروان بالشام، له مدح في بشر بن مروان وعبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك، توفي نحو ١٠٠ هـ - نحو ٧١٨ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٨٤».

وقال أبو هِفّان(١): [من الطويل]

لعمري لئن بَيَّعْتُ في دارِ غُربةٍ ... بناتيَ إذ ضاقت عليّ المآكلُ(٢)

فما أنا إلا السيفُ يأكلُ جفنَه ... له حليةٌ من نفسه وهو عاطِلُ

قال أبو هلال العسكريّ: ولا أعرف في الافتخار أحسن مما أنشده أبو تمام وهو: [من الطويل]

فقل لزهَيرٍ إن شتمْتَ سَراتَنا ... فلسنا بشتّامين للمُتشتِّمِ

ولكنّنا نأبَى الظّلامَ ونقتضي ... بكلِّ رقيق الشفرتين مصمِّمِ

وتجهلُ أيدينا ويحلمُ رأيُنا ... ونَشتُمُ بالأفعالِ لا بالتكلُّمِ

ومن الافتخار قول السموأل بن عاديا من كلمته التي أوّلها: [من الطويل]

إذ المرء لم يَدنَسْ من اللؤم عِرضُه ... فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

وإن هو لم يَحمِل على النفسِ ضَيْمَها ... فليسَ إلى حُسن الثناءِ سبيلُ

وقائلةٍ ما بالُ أُسرةِ عادِيَا ... تُنادِي وفيها قِلَّةٌ وخُمولُ

تُعيِّرنا أنّا قليلٌ عَدِيدُنا ... فقلتُ لها إنّ الكرامَ قليلُ

وما قلَّ من كانَت بقاياه مثلَنا ... شَبابٌ تَسامَى للعلَا وكُهولُ

وما ضرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا ... عزيز وجار الأكثرينَ ذليلُ

وأنّا أناس لا نَرى القتلَ سُبّةً ... إذا ما رأته عامرٌ وسَلُولُ(٣)

يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُهُ آجالُهُمْ فتطولُ

وما مات منّا سيدٌ حتفَ أنْفه ... ولا طلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ

تَسيلُ على حدِّ الظُّباة نفوسُنا ... وليست على غير الظُّباة تسيلُ

صفوْنَا فلم نكدُر وأخلصَ سِرَّنا ... إناثٌ أطابتْ حَملَنا وفحولُ

علونا إلى خير الظهورِ وحطَّنا ... لوقتٍ إلى خير البطون نُزولُ

فنحن كماءِ المُزنِ ما في نِصابنا ... كَهامٌ ولا فينا يُعدّ بخيلُ(٤)

---

(١) أبو هفان: هو عبد الله بن أحمد المهزمي العبدي، راوية عالم بالشعر والأدب، من الشعراء، من أهل البصرة، له مؤلّفات عدة مات سنة ٢٥٧ هـ. «الأعلام ٤/ ٦٥».

(٢) العاطل: الذي لا زينة له، يقال: جيدٌ عاطل، أي غير مزيّن بحليّ.

(٣) عامر: اسم لإحدى القبائل العربية. سلول: اسم لإحدى القبائل العربية. «اللسان ٤/٦٠٨».

(٤) كهام: يقال إن سيفك كهام: أي كليل لا يقطع ـ ولسان كهام: عيي. «اللسان ١٢/٥٢٩».

ونُنكر إن شئنا على الناس قولَهم ... ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ
إذا سيّدٌ منا خلا قامَ سيّدٌ ... قؤولٌ لما قالَ الكرامُ فعولُ
وما أُخمدتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ ... ولا ذمَّنا في النازلين نزيلُ
وأيامُنا مشهورةٌ في عَدوِّنا ... لها غُررٌ معلومة وحُجولُ(١)
وأسيافُنا في كلّ شرق ومغربٍ ... بها من قِراع الدارعين فلُولُ(٢)
معوّدةً أن لا تُسَلَّ نِصالُها ... فتُغمدَ حتى يُستباحَ قبِيلُ
سلي إن جهلتِ الناس عنا وعنهمُ ... وليس سَواء عالمٌ وجَهولُ
فإن بني الديّانِ قطبٌ لقومهمْ ... تدورُ رحاهم حولهم وتجولُ

وقال أبو هلال العسكريّ من قصيدة: [من الطويل]

وما ضاع مثلي حيثُ حلّت ركابُه ... بلى حيث ضاع المجدُ مثليَ ضائعُ
ومِثليَ مخضوعٌ له غير أنه ... إذا كان مجهول الفضائلِ خاضعُ
ومثليَ متبوعٌ على كل حالةٍ ... فإنْ ينقلبْ وجهُ الزمانِ فتابعُ

وقال عبد الله بن المعتز: [من الطويل]

سألتكما بالله هل تُعلمانني؟ ... ولا تكتما شيئًا فعندكما خُبْري
أأرفعُ نيرانَ القِرى لعُفاتِها ... وأصبرُ يومَ الروْعِ في ثُغرةِ الثَّغرِ؟
وأُسأل نَيْلًا لا يُجادُ بمثله ... فيفتحُه بِشري ويختمه عُذري؟

ومن الافتخار قول بعض الشعراء، ويروى لحسّان بن ثابت من قصيدة أوّلها: [من الكامل]

أَنسيمُ ريحِكِ أم خِيارُ العنبرِ ... يا هذهِ، أم ريحُ مسكٍ أزفرِ؟
قولي لِطَيْفِكِ أن يصدَّ عن الحشى ... سطواتِ نيرانِ الأسى، ثمّ اهجري
وانهَيْ رُماتَكِ أن يُصِبنَ مَقاتلي ... فينالَ قومَكِ سطوةٌ من مَعشري
إنّا من النَّفرِ الذين جِيادُهم ... طلعتْ على كِسْرى بريح صَرْصرِ

---

(١) حجول: حجلت المرأة بنانها، إذا ولنت خضابها، والتحجيل: بياض في قوائم الفرس أو في ثلاث منها أو في رجليه. «لسان العرب ١١/١٤٦».

(٢) القراع: الضراب: والمقارعة المضاربة بالسيوف وقراع الكتائب: قتال الجيوش ومحاربتها «اللسان ٨/ ٦٤ م و٢٦٥». فلول: الفل: الثلم في السيف، وجمعها فلول، والفل: هو الكسر والضرب. «اللسان ١١/ ٥٣٠».

وسَلَبْن تَاجي مُلك قيصرَ بالقنا ... واجتَرْن باب الدّرب لابن الأصفَرِ(١)
كم قد وَلَدنا من كريم ماجدٍ ... دامي الأظافرِ أو ربيعٍ مُمْطِرِ
خُلِقتْ أناملُهُ لقائم مُرْهَفٍ ... ولبذْلِ مَكْرُمةٍ وذِرْوةِ مِنْبَرِ
يَلْقى الرماحَ بوجهِهِ وبصدره ... ويُقيمُ هامتَهُ مقام المِغْفَرِ(٢)
ويقول للطِّرف اصطبر لِشَبا القَنا ... فهدمتَ ركنَ المجدِ إن لم تَصبِرِ
وإذا تأمَّل شخصَ ضيفٍ مُقبِلٍ ... مُتسرْبِلٍ سِربالَ ثوبٍ أغبَرِ
أوما إلى الكَوْماء هذا طارقٌ ... نحرتْنِيَ الأعداءُ إذْ لم تُنْحَرِ(٣)

ذكر ما قيل في الجود والكرم وأخبار الكرام

حقيقةُ الجود بذل المال، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢]. وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحَشر: الآية ٩]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله استخلص هذا الدِّينَ لنفسه ولا يصلحُ لدينكم إلا السخاءُ وحسنُ الخُلُق ألا فزيِّنوا دينكم بهما» وقال ﷺ: «تجاوزُوا عن ذنب السّخِيّ فإن الله عزّ وجلّ آخذٌ بيده كلّمَا عَثَر وفاتحٌ له كلَّما افتقَر» وقال ﷺ: «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجود الله عليكم». «ألا إن السخاء شجرةٌ في الجنة أغصانها متدليةٌ في الأرض فمن تعلقَ بغصن منها أدخلَه الجنة». «ألا إن السخاءَ من الإيمانِ والإيمانُ في الجنة». وقال عليّ بن عبد الله بن عبّاس: سادةُ الناس في الدنيا الأسخياء. وقال بعضُ الحكماء: الجوَادُ من جاد بماله وصان نفسَه عن مالِ غيره. وقيل لعمرو بن عبيد(٤): ما الكرمُ؟ فقال: أن تكون بمالِكَ متبرّعًا، وعن مال غيرك متورّعًا. ويقال: مراتبُ السخاء ثلاثة: سخاء وجودٌ وإيثارٌ، فالسخاءُ إعطاء الأقل وإمساكُ الأكثر، والجودُ إعطاءُ الأكثر

---

(١) بنو الأصفر: هم الرّوم عند العرب.
(٢) المغفر: مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقيها الرجل على رأسه فتبلغ الدرع. «اللسان ٥/ ٢٦».
(٣) الكوماء: ناقة عظيمة السنام طويلته، والكَومَ: عظم في السنام. والطّارق: الزائر ليلًا طالبًا الضيافة. «اللسان ١٢/ ٥٢٩».
(٤) عمرو بن عبيد: أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره، وأحد الزهاد المشهورين، اشتهر بعلمه وزهده وأخباره مع المنصور العباسي، له رسائل وخطب وكتب، ولد سنة ٨٠ هـ - ٦٩٩ م، وتوفي «بمران» قرب مكة سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م ورثاه الخليفة المنصور. «الأعلام للزركلي ٥/ ٨١».

وإمساك الأقل، والإيثارُ إعطاء الكل من غير إمساك بشيء، وهو أشرف درجات الكرم، وبه استحقُّوا ثناء الله عزّ وجلّ عليهم في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩]. ومن كلام يُنْسَب إلى جعفر بن محمّد[١]: لا يتمّ المعروفُ إلا بثلاثة: تعجيلُه، وتصغيرُه، وسَتْره. الجُودُ زكاةُ السّعادة، والإيثارُ على النفس موجبٌ لاسم الكرم، وقال: لا يَسْتَحِي مَن بَذْل القليل فإن الحِرْمان أقلّ منه. قال بعضُ الشّعراء: [من البسيط]

أعطِ القليلَ ولا يمنعْكَ قِلّتهُ فكلّ ما سدّ فقرًا فهو محمودُ

وقال عليُّ بن الحسين: الكريمُ يبتهج بفضله، واللئيمُ يفتخر بماله.

وقال الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما: أيّها الناسُ من جَاد سَاد، ومن بخُل رذُل، وأن أجودَ الناس من أعطى من لا يرجوه. وقيل ليزيد بن معاوية: ما الجودُ؟ قال: أن تُعطي المالَ من لا تعرِف، فإنّه لا يصير إليه حتى يتخطّى من تعرِف.

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه[٢]: لو لم يكن في الكرم، إلا أنه صفةٌ من صفات الله تعالى، تَسَمَّى بها فهو الكريمُ عزّ وجلّ. وقال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموه». وقيل لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفتَ في بذل المال، قال: إن الله عزّ وجلّ قد عوّدني بعادة أن يتفضل عليّ، وعوّدتُهُ أن أتفضل على عباده، وأخاف أن أقطعَ العادةَ فيقطعَ عني. وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلّبيّ[٣]: إنك مِتْلافٌ، قال: منعُ الجود، سوءُ ظنّ بالمعبود. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: الآية ٣٩]. وقال أكثم بن صيفيّ حكيم

(١) جعفر بن محمّد، هو الإمام جعفر الصادق عليه السّلام.

(٢) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة، وكان شاعرًا مذكورًا فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها، له شعر كثير، منها المحمصات وهي قصائد في الزهد نقض فيها كل ما قاله في صباه من الغزل، وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر، له كتب كثيرة، وله أرجوزة تاريخية ذكر فيها الخلفاء وجعل معاوية رابعهم ولم يذكر عليًا عليه السلام فيهم، سمى كتابه المشهور «العقد» وأضاف إليه النساخ المتأخرون كلمة «الفريد» ـ ولد سنة ٢٤٦ هـ ـ ٨٦٠ م. وتوفي سنة ٣٢٨ هـ ـ ٩٤٠ م. «الزركلي ١/ ٢٠٧».

(٣) محمد بن عباد المهابي: أمير البصرة في زمن المأمون العباسي، توفي فيها سنة ٢١٦ هـ ـ ٨٣١ م، وهو من أبناء المهلب بن أبي صفرة، كان من أكابر الأمراء، جوادًا ممدحًا. «الأعلام للزركلي ٦/ ١٨١».

العرب: ذلِّلوا أخلاقَكم للمطالب، وقوِّدوها إلى المحامد، وعَلِّموها المكارم، ولا تقيموها على خلق تَذُمُّونَه من غيركم، وصِلُوا من رغِبَ إليكم، وتحلّوا بالجود يُكْسِبْكُمُ المحبةَ، ولا تقتعدوا البخلَ، تتعجلوا الفقرَ؛ أخذه شاعر فقال: [من المتقارب]

أَمِـنْ خـوف فـقـرٍ تـعـجّـلْتَـه | وأخّـرتَ إنـفـاقَ مـا تـجـمـعُ؟
فـصـرتَ الـفـقـيـرَ وأنـت الـغـنـيُّ | ومـا كـنـتَ تـعـدو الـذي تـصـنـعُ

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإشفاق على نفسه ويخوّفه الفقر، فأجابه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨] وإني أكره أن أترك أمرًا قد وقع لأمر لعلّه لا يقع.

وكان سعيد بن العاصي[(١)] يقول على المنبر: من رزقه الله رزقًا حسنًا، فلينفقْ منه سرًّا وجهرًا، حتى يكونَ أسعدَ الناس به، فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين، إما لمُصْلِح، فلا يقلُّ عليه شيء، وإما لمفسد، لا يبقَى له شيء. أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال: [من الكامل]

أَسْعدْ بمالِكَ في الحياة فإنّما | يبقى خلافُكَ مصلِحٌ أو مفسِدُ
فإذا جمعت لمفسدٍ لم يُغنِهِ | وأخـو الـصّـلاح قـلـيـله يـتـزيّـدُ

وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: لك في مالك شريكان، الحَدَثان[(٢)]، والوارث، فإن استطعتَ أن لا تكونَ أبخسَ الشركاء حظًّا فافعل. وقال بَزَرْجُمَهِرُ الفارسيّ[(٣)]: إذا أقبلتْ عليك الدنيا، فانفقْ منها، فإنها لا تفنى، وإذا أدبرتْ عليك، فانفقْ منها، فإنها لا تبقى؛ أخذ الشاعر هذا المعنى فقال: [من البسيط]

لا تـبـخـلَنَّ بـدُنْـيَـا وهـي مـقـبِـلةٌ | فليس ينقُصها التبذيرُ والسَّرَفُ
وإنْ تـولّت فأحرى أن تـجـودَ بـهـا | فالحمدُ منها إذا ما أدبَرَتْ خَلَفُ

---

(١) سعيد بن العاص: الأموي القرشي، صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين، ربي في حجر عمر بن الخطاب، وولاه عثمان الكوفة وهو شاب، وولاه معاوية المدينة فظل فيها إلى أن مات سنة ٥٩ هـ - ٦٧٩ م، وقيل توفي سنة ٥٣ هـ - ولد سنة ٣ هـ - ٦٢٤ م. «الزركلي ٣/٩٦».

(٢) الحدثان: مصائب الدهر، والليل والنّهار. «اللسان ٢/١٣٣».

(٣) يُزُرْجَمهر: فارسيّ، كان أبوه خامل الذّكر، ولكنّ ابنه وهب الحكمة منذ صغره فصار وزير كسرى أبرويز ملك فارس، وقيل: كان وزيرًا لكسرى أنو شروان. «انظر إعجام الأعلام ص ٧٣».

وكان كسرى يقول: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهلُ حسنِ ظنٍّ بالله، ولو أن أهلَ البخل، لم يدخلْ عليهم من ضَرّ بُخلهم، ومذمّةَ الناسِ لهم، وإطباقَ القلوب على بغضهم، إلا سوءُ ظنِّهم بربهم في الخلف، لكان عظيمًا؛ أخذه محمود الورّاق فقال: [من البسيط]

مَن ظنّ بالله خيرًا جادَ مبتدِئًا ... والبخلُ من سوءِ ظنِّ المرء باللهِ

وقيل لأبي عُقَيل البليغ العراقيّ: كيف رأيت مروان بن الحَكَم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيتُ رغبَته في الإنعام، فوق رغبتِه في الشكر، وحاجتَه إلى قضاء الحاجة، أشدُّ من حاجة صاحِبها.

وقال زياد: كفى بالبخيل عارًا، أن اسمه لم يقعْ في حمدٍ قطّ.

وقال أسماء بن خارجة[(١)]: ما أُحِبُّ أن أردَّ أحدًا عن حاجة طَلبَها، لأنه لا يخلو أن يكون كريمًا، فأصونُ له عِرْضَه، أو لئيمًا، فأصونُ عِرْضي منه.

وقال إبراهيم بن المهديّ[(٢)]: قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها كان لا يجفُّ بيده قلمٌ، ولا يستريحُ قلبُه، ولا تسكنُ حركتُه في طلب حوائجِ الرجال، وإدخالِ المرافقِ على الضعفاء: أخبِرْني عن الحالة التي خفّفَتْ عنكَ النَّصَبَ، وهوّنت عليك التعبَ، في القيام بحوائج الناس، ما هي؟ قال: قد والله سمعتُ تغريد الطَّير بالأسحار، في فروع الأشجار، وسمعتُ خَفْقَ أوتار العيدان وترجيعَ أصوات القيانِ، فما طرِبتُ من صوتٍ قطُّ، طَرَبي من ثناءِ حسن، بلسانٍ حسن، على رجلٍ قد أحسن، ومن شُكْرِ حرٍّ لمنعِم حرّ، ومن شفاعةِ محتسبٍ، لطالب شاكر؛ قال إبراهيم: فقلت، لله أبوك! لقد حشيت كرمًا. وكان طلحة بن عبد الله بن عوف الزهريّ من أجود قريش في زمانه، فقالت له امرأته: ما رأيت قومًا ألأَمَ من إخوتك، فقال لها: لمه؟ وأنّى قلت ذاك؟ فقالت: أراهم إذا أيسرتَ أتوك، وإذا أعسرت تركوك، قال: هذا والله كرمُهُمْ، يأتوننا في حال القوّة عليهم، ويتركوننا في حال العجزِ عنهم.

---

(١) أسماء بن خارجة: الفزاري، تابعي من رجال الطبقة الأولى، من أهل الكوفة، كان سيد قومه، جوادًا مقدمًا عند الخلفاء، توفي سنة ٦٦ هـ ـ ٦٨٦ م. «الأعلام للزركلي ١/ ٣٠٥».

(٢) هو إبراهيم بن محمد المهدي العبّاسي بن عبد الله المنصور، أبو إسحٰق، أخو هارون الرّشيد ولد ونشأ في بغداد، وولّاه الرشيد إمرة الشام، بويع بالخلافة أثناء خلاف الأمين والمأمون، ثمّ استتر لمّا انتصر المأمون، مات في سرّ من رأى سنة ٢٢٤ هـ. «الأعلام ١/ ٥٩».

وحُكِي أنَّ رجلًا شيخًا أتى سعيد بن سالم، وكلّمه في حاجة وما شاه، فوضع الشيخ زجَّ[١] عصاه التي يتوكأ عليها، على رِجلِ سعيدٍ حتَّى أدماها، فما تأوّه لذلك، وما نهاه، فلما فارقه، قيل له: كيف صبِرتَ على هذا منه؟ فقال: خفتُ أن يعلَم جِنايتَه، فينقطعَ عن ذكر حاجته.

ذكر مَن انتهى إليهم الجود في الجاهلية
وذكر شيء من أخبارهم

والذي انتهى إليهم الجودُ في الجاهلية حاتم بن عبد الله بن سعد الطائيّ، وهَرِم بن سِنان المُرِّيّ، وكعب بن مَامَة الإيادي، وضرب المثل بحاتم وكعب، والمشهور حاتم. وكعب هذا: هو الذي جاد بنفسه، وآثرَ رفيقه بالماء في المفازة[٢]، ولم يشهر له خبرٌ غير هذا. وأما حاتم فأخباره مشهورة.

منها: أنه كان إذا اشتد البَرْد، أمر غلامه يسارًا، فأوقد نارًا في بقاع من الأرض، لينظرَ إليها مَنْ ضلّ عن الطريق، وفي ذلك يقول: [من الرّجز]

أَوقِدْ فإنّ الليلَ ليلُ قَرُّ والريحُ يا واقِدَ ريحٌ صِرُّ
عسى يرى نارَك مَنْ يمرُّ إن جلبتْ ضيفًا فأنتَ حرُّ

قالوا: ولم يكُ حاتمُ يمسك غيرَ سلاحه وفرسه، ثم جاد بفرسه في سنةِ أَزْمة.

قالت النوارُ امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرَّت لها الأرض، واغبرَّ أُفُق السماء، وصنَّتِ المراضِعُ عن أولادها، لا تَبِضُّ[٣] بقطرة، وأيقنّا بالهلاك، فوالله، إنِّي لفي ليلة صِنَّبْرَة[٤]، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تَضاعى صِبْيَتُنا جُوعًا، عبد الله، وعديّ، وسَفانة، فقام حاتم إلى الصبيّين، وقمت إلى الصبيّة، فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأَة من الليل، وأقبل يعلِّلني، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلما تهوّرتِ النجوم، إذا بشيء قد رفع كِسْرَ البيت، فقلت: مَنْ هذا؟ فوَلّى، ثم عاد آخر الليل، فقال مَنْ هذا؟ فقالت:

---

(١) الزج: الحديدة التي في طرف العصا حين تلامس الأرض.
(٢) المفازة: واحدة المفاوز، وسميت بذلك لأنها مهلكة من فوَّز أي هلك. ويقال للرجل إذا مات: قد فوّز أي صار في مفازة ما بين الدنيا والآخرة من البرزخ المحدود. «اللسان ٥/ ٣٩٢».
(٣) تبضّ بقطرة: أي لا تقطر قطرة من ماء.
(٤) صِنَّبْرة: ليلة باردة، الريح الباردة في غيم. «اللسان ٤/ ٤٧٠».

جارتُك فلانة، أتيتُك من عند صِبْيَة يتعاوون عواءَ الذئاب، فما وجدتُ معوَّلًا إلا عليك أبا عديّ، فقال: أعجليهم، فقد أشبعكِ الله وإياهم، فأقبلت المرأة تحمل اثنين، ويمشي بجانبها أربعُ كأنها نَعامةٌ حولها رِئالُها، فقام إلى فرسه، فوجأ لبَّته بمُدية، فخر، ثُمّ كَشَط عن جلده، ودفع المدية إلى المرأة، وقال: شأنك، فاجتمعنا على اللحم نَشْوِي، ونأكل، ثم جعل يأتيهم بيتًا بيتًا، فيقول: هبّوا عليكم بالنار، والتفع بثوبه ناحية ينظر إلينا، لا والله إن ذاق منه مضغة وإنه لأحوج إليه منّا، فأصبحنا وما في الأرض إلا عظم أو حافر.

وقيل: كان مبدأُ الأمرِ لحاتم في الجود، أنه لما تَرَعْرَع، جعل يخرج طعامَه فإن وجد من يأكله معه أكله، وإن لم يجد طرحه، فلما رأى أبوه، أنه يُهلك طعامَه، قال له: أَلْحِق بالإبل، فخرج إليها، فوهب له جاريةً، وفرسًا وفِلْوَها.

وقيل: بل هلك أبو حاتم وهو صغير، وهذه القِصّة كانت مع جدّه سعد بن الحَشْرج، فلما أتى حاتمُ الإبل، طفِقَ يبتغي الناس، فلا يجدهم، ويأتي الطريق، فلا يجد عليه أحدًا، فبينا هو كذلك، إذ بَصُر برَكْب على الطريق، فأتاهم، فقالوا: يا فتى، هل من قِرًى؟ فقال: تسألونني عن القِرَى؟ وقد تَرَوْن الإبل! وكان الذي بَصُر بهم، عَبِيد بن الأبرص[١]، وبِشر بن أبي خازم[٢]، والنابغة الذُّبيانيّ، وكانوا يريدن النعمان، فنحر لهم ثلاثة من الإبل، فقال عَبِيد: إنما أردنا اللبن، وكانت تكفينا بَكْرة، إن كنت لا بدّ متكلّفًا لنا شيئًا، فقال حاتم: قد عرفتُ، ولكن رأيت وجوهًا مختلفة، وألوانًا متفرّقة، فظننت أن البلدان غير واحد، فأردت أن يذكر كلّ واحد منكم ما رأى، إذا أتى قومه فقالوا فيه أشعارًا امتدحوه بها، وذكروا فضله، فقال حاتم: أردت أن أُحْسِن إليكم، فصار لكم الفضلُ عليّ، وإني أعاهد الله أن أَضرِب عراقيبَ إبلي عن آخرها، أو تقوموا إليها فتقتسموها ففعلوا! فأصاب كل واحد تسعًا وثلاثين بعيرًا، ومضوا على سفرهم إلى النعمان، وأن أبا حاتم أو جدَّه، سمع بما فعل، فقال: أين الإبل؟ فقال: يا أبت طوقتُك بها طوقَ الحمامةِ مجدًا وكَرَمًا، لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثنى به علينا عِوضًا من إبلك، فلما سمع أبوه ذلك، قال: أبإبلي فعلتَ

---

(١) هو عبيد بن الأبرص الأسدي شاعرٌ جاهلي قديم، من المعمّرين، وقد شهد مقتل حجر والد امرىء القيس، قتله النعمان بن المنذر في يوم بؤسه. «انظر الشعر والشعراء ص ١٦١».

(٢) بشر بن أبي خازم: أبو نوفل، شاعر جاهلي فحل، من أهل نجد، له قصائد في الفخر والحماسة، توفي قتيلًا في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية سنة ٢٢ ق.هـ ـ ٥٩٨ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٥٤».

ذلك؟ قال: نعم، قال: والله لا أُساكنك أبدًا، فخرج أبوه بأهله، وترك حاتمًا، ومعه جاريته وفرسه وفِلْوه. قال: فبينما حاتم يومًا نائم، إذ انتبه، وحوله نحو مائتي بعير تجول وتحْطِمُ بعضُها بعضًا، فساقها إلى قومه، فقالوا: يا حاتم، أبقِ على نفسك، فقد رزقتَ مالًا، ولا تعودَنّ إلى ما كنتَ فيه من الإسراف، قال: فإنها نهبٌ بينكم، فانتُهِبت؛ ثم أقبل ركبٌ من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان، فلقوا حاتمًا، فقالوا له: إنا تركنا قومنا يُثْنُون عليك خيرًا، وقد أرسلوا إليك برسالة، قال: وما هي؟ فأنشده الأسديّون شعرًا، لِعبيد، وأنشده الليثيّون شعرًا للنّابغة، ثم قالوا: إنا لنستَحِي أن نسألَك شيئًا وإنّ لنا لحاجة، قال: وما هي؟ قالوا: صاحبٌ لنا راجلٌ، فقال حاتم: خذوا فرسي هذه، فاحملوا عليها صاحبكم، فأخذوها، ورَبَطتِ الجاريةُ فِلْوها بثوبها، فأفلت فاتبعته الجارية لتردّه، فقال حاتم: ما لحقكم من شيء فهو لكم، فذهبوا بالفرس والفلو والجارية.

وأما هرِم بن سِنان فمن أخباره: أنه آلى على نفسه أنه لا يسلّم عليه زُهَير إلا أعطاه فقلّ مالُ هَرِم، وكان زهير يمرّ بالنادي وفيه هرِمٌ فيقول: أنعموا صباحًا ما خلا هرمًا، وخيرُ القوم تركتُ؛ قالوا: وكان عبد الله بن جُدعان، حين كَبِر، أخذتْ بنو تميم على يده، ومنعوه أن يعطي شيئًا من ماله، فكان الرجل إذا أتاه يطلب منه، قال له: ادنُ منّي، فإذا دنا منه لَطَمه، ثم قال: اذهب فاطلب لطمتك أو ترضى، فترضيه بنو تميم من ماله؛ وفيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

والـذي إن أشـار نـحـوك لَطْـمًـا تـبـع الـلّطـمَ نـائـلٌ وعَـطـاءُ

ومن أخبار الكرام: ما حُكي أنّ خالد بن عبد الله القَسْريّ[1] أميرَ العراق، كان يكثر الجلوسَ ثم يدعو بالبِدَر ويقول: إنما هذه الأموالُ ودائعُ العرب لا بدّ من تفرقتها، فقال ذلك مرّة، وقد وفد عليه أخوه أسد بن عبد الله[2] من خُراسان، فقام، فقال: أيها الأمير إن الودائعَ تُجمعُ لا تُفرقُ، فقال: ويحك! إنها ودائعُ المكارم؛ وأيدينا وكلاؤها، فإذا أتانا المُملِق فأغنيناه، والظمآن فأرويناه، فقد أدّينا فيها الأمانة،

(١) خالد بن عبد الله القسري: (٦٦ ـ ٥١٢٦ هـ = ٦٨٦ ـ ٧٤٣ م) أبو الهيثم، من بجيلة، أمير العراقين وأحد خطباء العرب، يماني الأصل من أهل دمشق، قتله يوسف بن عمر الثقفي في أيام الوليد بن يزيد بن معاوية. كان خالد يُرمى بالزندقة. «الأعلام للزركلي ٢/٢٩٧».

(٢) أسد بن عبد الله القسري: أمير من الأجواد الشجعان، ولد ونشأ في دمشق، وولاه أخوه خالد خراسان سنة ١٠٨ هـ، وكان دهاقنة الفرس راضين عنه وعن حكمه وأسلم على يديه «سامان» جد السامانيين، توفي في بلخ سنة ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م. «الأعلام للزركلي ١/٢٩٨».

ومرّ يزيد بن المهلب[(١)] بأعرابيةٍ في هروبه من سجن عمر بن عبد العزيز، وهو يريد البصرة، فقدّمت له عَنْزًا فقبلها، ثم قال لابنه معاوية: ما معك من النفقة؟ قال ثمانمائة دينار، قال: ادفعها إليها! فقال له ابنه: إنك تريد الرجالَ، ولا تكون الرجالُ إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهي بعدُ لا تعرفك، فقال: إن كانت ترضى باليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي، ادفعها إليها، فدفعها إليها. قال الأحنف: كثرت عليّ الدّيَات بالبصرة، لما قُتِل مسعود، فلم أجدها في حاضرة تميم، فخرجت نحو يَبْرِين[(٢)]، فسألت: مَن المقصودُ هناك؟ فأرسلت إلى قُبة، فإذا شيخٌ جالسٌ بِفِنائها، مؤتزر بشمْلة، مُحتَبٍ بحبل، فسلمتُ عليه، وانتسبتُ له، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قلت: تُوُفّي، قال: فما فعل عمر بن الخطاب الذي كان يحفظ العرب ويحوطها؟ قلت: مات، قال: فأيّ خبر في حاضرتكم بعدهما؟ قال: فذكرت الديات التي لزمتنا للأزد وربيعة، قال: أقمْ، فإذا راعٍ قد أزاح عليه بألف بعير، فقال: خذها، ثم أراح عليه آخرُ بمثلها، فقال: خذها، قلت: لا أحتاج إليها، فانصرفت بالألف، والله ما أدري من هو إلى الساعة.

ورُوي عن مَعْن بن زائدة، قال: لما هربت من المنصور، خرجت من باب حرب، بعد أن أقمت في الشمس أيامًا، وحففتُ لِحْيتي وعارضي، ولبست جُبَّة صوفٍ غليظة، وركبت جملًا، وخرجت عليه لأمضي إلى البادية، قال: فتبعني أسودُ متقلد سيفًا، حتى إذا غبت عن الحرس، قَبَض على خِطام[(٣)] الجمل فأناخه، وقبض عليّ، فقلت: ما شأنُك؟ فقال: أنت بغيةُ أمير المؤمنين فقلت له: ومن أنا حتّى يطلبني أميرُ المؤمنين؟ فقال مَعْن بن زائدة[(٤)] فقلت: يا هذا! اتقِ الله وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا عنك، فأنا والله أعرفُ بك، فقلت له: فإن كانت القصةُ كما

---

(١) يزيد بن المهلب: (٥٣ ـ ١٠٢ هـ = ٦٧٣ ـ ٧٢٠ م) أبو خالد، ابن أبي صفرة الأزدي، أمير من القادة، ولي خراسان بعد وفاة أبيه المهلب مدة ست سنين ثم عزله عبد الملك بن مروان، قتل في مكان يسمى العقر بين واسط وبغداد في معركة بينه وبين مسلمة بن عبد الملك. «الزركلي ٨/ ١٩٠».

(٢) يبرين: من أصقاع البحرين، قريبة من هجر والإحساء. «معجم البلدان ٥/٤٢٧».

(٣) خطام الجمل: زمامه.

(٤) هو معن بن زائدة الشيباني، أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب، ومن الفصحاء الشجعان، أدرك العصرين الأموي والعبّاسي، قتل غيلة في سجستان حين كان واليًا عليها وذلك سنة ١٥١ هـ. «الأعلام ٧/ ٢٧٣».

تقول، فهذا جوهر حملتُه معي، بأضعاف ما بذله المنصور، لمن جاءه بي فخذه ولا تَسْفك دَمِي، فقال: هاته، فأخرجتُه إليه، فنظر إليه ساعة، وقال: صدقتَ في قيمته، لست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت: قل، فقال: إن الناسَ قد وصفوك بالجود فأخبرني هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه! قلت: لا، قال: فنصفه! قلت: لا، قال: فثلثه! قلت، لا حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت: إني أظن قد فعلت هذا، فقال: ما ذاك بعظيم، أنا والله راجلٌ، ورزقي على أبي جعفر، عشرون درهمًا، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار، وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك، ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلمْ أن في الدنيا من هو أجود منك، ولا تعجبْكَ نفسُك، ولتُحَقِّرْ بعد هذا كلّ شيء تفعله ولا تتوقفْ عن مكْرُمةٍ، ثم رمى بالعقد إليّ، وخلّى خِطام الجمل وانصرف، فقلت: يا هذا! قد والله فضحتَني، ولسَفْكُ دمي أهونُ عليّ مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك، فإني عنه في غنًى، فضَحِك، ثم قال: أردت أن تكذّبني في مقامي هذا، فوالله لا آخذه، ولا آخذ لمعروف ثمنًا أبدًا، ومضى، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنتُ، وبذلت لمن جاءني به ما شاء، فما عرفت له خبرًا، وكأنّ الأرض ابتلعته، وكان سببُ غضب المنصور على مَعْن بن زائدة: أنه خرج مع عمرو بن يزيد بن عمرو بن هُبَيْرَة وأَبْلَى في حربه بلاء حسنًا.

ويقال: إن شاعرًا أتى وهب بن وهب(١)، وكان جوادًا، فمدحه فَهَشّ وبَش له وثنى له الوِسَادة وأضافه ورَفَدَهْ وحمله، فلما أراد الرّجل الرحلة، لم يخدمْه أحدٌ من غِلْمان وهب، فأنكر الرجلُ ذلك مع جميل فعله، فعاتبَ بعضهم، فقال له الغلام: إنّا إنّما نُعين النازل على الإقامة ولا نُعين الراحلَ على الفراق.

وكان الحارث بن هشام المخزومي(٢) في وقعة اليرموك، وبها أصيب فأثبتته الجراح، فاستسقى ماءً، فأُتِيَ به، فلما تناوله، نظر إلى عِكْرِمة بن أبي جهل صريعًا

(١) وهب بن وهب: أبو البختري، من قريش، قاض، من العلماء بالأخبار والأنساب، متهم بوضع الحديث، ولد ونشأ في المدينة وانتقل إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء لعسكر المهدي ثم قضاء المدينة، ثم عزل فعاد إلى بغداد وتوفي فيها سنة ٢٠٠ هـ - ٨١٥ م - كان جوادًا كثير العطايا للشعراء. «الزركلي ٨/١٢٦».

(٢) الحارث بن هشام المخزومي: أبو عبد الرحمٰن، صحابي، كان شريفًا في الجاهلية والإسلام، شهد بدرًا مع المشركين فانهزم، ثم أسلم يوم فتح مكة، وخرج في أيام عمر بأصله وماله من مكة إلى الشام، مات في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ - ٦٣٩ م. «الأعلام للزركلي ٢/١٥٨».

في مثل حاله، فردّ الإناءَ على الساقي، وقال: امضِ إلى عِكْرِمة بن أبي جهل، فمضى إليه، فأبى أن يشرب قبلَه، فرجع إلى الحارث، فوجده ميتًا، فرجع إلى عِكْرمة، فوجده قد مات، فلم يشرب واحدٌ منهما.

وقد وصف الناسُ أهلَ الجودِ والكرمِ بمدائحَ، سنذكر ما استجودناه منها.

فمن ذلك ما حُكي عن أبي العباس أحمدَ بن يحيىٰ المعروف بثعلب، قال: كان ببغداد فتى يُجَنّ ستة أشهر، فاستقبلته ببعض السكك ذات يوم، فقال: ثعلب؟ قلت: نعم، قال: فأنشِدْني فأنشدته: [من الكامل]

وإذا مررتَ بقبرهِ فاعقِرْ بهِ كُومَ الهِجان وكلَّ طِرْفٍ سَابِحِ[1]
وانضحْ جوانبَ قبرهِ بدمائها فكذا يكون أخا دمٍ وذَبائِحِ[2]

فضَحِك، ثم سكت ساعة، وقال: ألا قال؟: [من الخفيف]

اذهبا بي إن لم يكن لكما عَقْـ ـرٌ على تُربِ قبرهِ فاعقِرَانِي
وانضحا من دمي عليه فقد كا ن دمي من نَداه لو تعلمانِ

ثم رآني يومًا بعد ذلك فتأمّلني، وقال: ثعلب! قلت: نعم، قال: أنشدني فأنشدته: [من مجزوء الوافر]

أعارَ الجَوْدَ نائِلَه إذا ما ماؤُه نَفَدَا
وإنْ لَيْثٌ شَكَا جُبنا أعار فؤادَه الأسدا

فضحك، وقال: ألا قال؟ [من الرمل]

علَّم الجَوْدَ الندى حتّى إذا ما حكاه علَّم البأسَ الأسدْ
فلهُ الجَوْدُ مقِرٌّ بالندى وله الليثُ مِقرٌّ بالْجَلَدْ

وقال مسلم بن الوليد[3] وهو مما يجوز إيراده في الشجاعة والكرم: [من البسيط]

يجودُ بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها والجود بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

(١) الهجان: الهجان من الإبل: الناقة الأدماء، وهي الخالصة اللون، وإبل هجان: أي بيض وهي أكرم الإبل. «اللسان ١٣/ ٤٣٣». طرف سابح: الطرف، من الخيل: الكريم العتيق، وقيل هو الطويل القوائم والعنق، وإبل هجان: أي بيض. «لسان العرب ٩/ ٢١٤».

(٢) نضح الماء: أساله.

(٣) مسلم بن الوليد الأنصاري، أبو الوليد المعروف بصريع الغواني، شاعر غزل، هو أول من أكثر=

وأول مَن أتى بهذا المعنى علقمةُ بن عَبْدة[١] حيث قال: [من الطويل]

تجودُ بنفسٍ لا يُجَاد بمثلها ... فأنتَ بها يوم اللِّقاء خَصِيبُ

وهذا مثل قول يزيد بن أبي يزيد الشيباني[٢]: من جاد بنفسه عند اللقاء، وبماله عند العطاء، فقد جاد بنفسيه كلتيهما. قالوا: وأجود ما قيل في ذلك قول أبي العتاهية يمدح العباس بن محمد[٣]: [من الكامل]

لو قيل للعباس يا ابنَ محمد ... قل «لا» وأنت مخلّدٌ ما قالَها
إنّ السماحةَ لَم تَزَلْ معقولةً ... حتّى حللتَ براحتيك عِقَالَها
وإذا الملوك تسايرتْ في بلدة ... كانوا كواكِبها وكنتَ هِلَالَها

فلم يثُبه العباس، فقال: [من الوافر]

هززتُك هِزَّة السيف المحلَّى ... فلمّا أن ضربتُ بك انثنيتُ
فهبها مِدْحةً ذهبت ضياعًا ... كَذَبتُ عليك فيها وافتريتُ

فلما سمع العباس الأبيات غضب، وقال: والله لأجهدنّ في حتفه، قال: فمرّ أبو العتاهية بإسحٰق بن العباس، وقال له إسحٰق: أنشدني شيئًا من شعرك فأنشده: [من المتقارب]

ألا أيها الطالبُ المستَغِيثُ ... بمن لا يُفِيدُ ولا يَرْفِدُ
ألا تسألِ الله من فضله ... فإن عطاياه لا تَنْفَدُ
إذا جئت أفضلَهم السؤا ... ل ردّ وأحشاؤه تَرْعَدُ

= من البديع وتبعه الشعراء فيه، من أهل الكوفة، قدم جرجان مع المأمون ويقال إنه ولي قطائع جرجان، توفي بها في السنة ٢٠٨ هـ ـ ٨٢٣ م. «الأغاني ١٨/ ٣١٥، والزركلي ٧/ ٢٢٣، والشعر والشعراء ص ٥٦٩».

(١) علقمة بن عبدة: هو علقمة الفحل، من بني تميم، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرىء القيس، وله معه مساجلات له ديوان شعر مطبوع. «الأعلام ٤/ ٢٤٧».

(٢) يزيد بن أبي يزيد الشيباني: أمير من القادة الشجعان، كان واليًا وقائدًا عباسيًا معروفًا، وأخبار شجاعته وكرمه كثيرة، توفي ببردعة من بلاد أذربيجان في السنة ١٨٥ هـ ـ ٨٠١ م. ورثاه شعراء كثيرون. «وفيات الأعيان ٦٥/ ٣٢٧، والزركلي ٨/ ١٨٨».

(٣) العباس بن محمد: (١٢١ ـ ١٨٦ هـ = ٧٣٩ ـ ٨٠٢ م) أبو الفضل الهاشمي، أمير، وهو أخو المنصور والسفاح، ولاه المنصور دمشق وبلاد الشام كلها، وولي إمارة الجزيرة في أيام الرشيد، وحج بالناس عدة مرات، وإليه تنسب العباسية، وهي محلة بالجانب الغربي من بغداد ولما توفي في بغداد دفن فيها. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢٦٤».

كأنّك من خشيةٍ للسؤا ل في عينه الحيّةُ الأسودُ
ففِرّ إلى الله من لؤمهم فإنِي أرى الناسَ قد أصْلَدُوا
وإني أرى الناس قد أبرقُوا بلؤم الفِعَال وقد أرْعَدُوا

ثم مضى، فقيل لإسحٰق: إن هذا الشعر له في أبيك، فقال إسحٰق: أولى له، لم عرّض نفسه وأحوج أبا العتاهية إلى مثل هذا مع ملكه وقدرته؟.

وقد أورد أبو الفرج الأصفهانيّ خبر هذه الأبيات، فقال: امتدح ربيعة الرَّقّي(١) العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بقصيدة لم يُسْبق إليها حسنًا، وهي طويلة يقول فيها: [من الكامل]

لو قيل للعباس: يا ابن محمّدٍ قل «لا» وأنت مخلّدٌ ما قالهَا
ما إن أعدّ من المكارم خَصْلة إلا وجدتُك عمَّها أو خَالهَا
وإذا الملوكُ تسايرت في بلدة كانوا كواكِبَها وكنتَ هِلَالهَا
إن المكارمَ لم تَزلْ معقولةً حتّى حللتَ براحتيك عقالَها

قال: فبعث إليه بدينارين، وكان يقدّر فيه ألفين، فلما نظر إلى الدينارين، كاد أن يُجَن غضبًا، وقال للرسول: خذِ الدينارين فهما لك على أن تردّ إليّ الرُّقعة، من حيث لا يدري العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة، وأمر من كتب في ظهرها: [من الوافر]

مدحتُك مِدْحةَ السيف المُحلَّى لتجْرِيَ في الكرام كما جريتُ
فهبها مِدْحة ذهبت ضياعًا كذبتُ عليك فيها وافتريتُ
فأنت المرءُ ليس له وَفَاءٌ كأني إذْ مدحتُك قد زَنَيتُ

ثم دفعها إلى الرسول وقال: ضعها في الموضع الذي أخذتَها منه، ففعل، فلما كان من الغد، أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبيات، غضب، وقام من وقته، فركب إلى الرشيد، وكان أثيراً عنده يبجّله ويقدّمه، وكان قد همّ أن يخطب إليه ابنته، فرأى الرشيد الكراهةَ في وجهه، فقال ما شأنُك؟ قال: هجاني ربيعةُ الرقّي، فأحضره

---

(١) ربيعة الرقي: أبو ثابت أو أبو شبانة الرقي، شاعر غزل مقدم، كان ضريرًا، يلقب بالغاوي، عاصر المهدي العباسي ومدحه بعدة قصائد، وكان الرشيد يأنس به، وله معه ملح كثيرة. ولد ونشأ في الرقة (على الفرات، من بلاد الجزيرة) وإليها نسبته، توفي سنة ١٩٨ هـ ـ ٨١٣ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٦».

الرشيد، وقال له: يا ماصّ كذا وكذا من أمّه أتهجو عمّي، وآثرَ خلقِ الله عندي؟ لقد هممتُ أن أضرِبَ عنقَك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، والله لقد امتدحتُه بقصيدةٍ ما قال أحدٌ مثلَها من الشعراء في أحد من الخلفاء، ولقد بالغتُ في الثناء، وأكثرتُ الوصف، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ بإحضارها فعل، فلما سمع الرشيدُ ذلك، سكن غضبه، وأحبَّ أن ينظرَ في القصيدة، فأمر العباس بإحضارها فتلكأ عليه، فقال له الرشيد: سألتك بحق أمير المؤمنين، إلّا أمرتَ بإحضارها؟ فأُحضِرت، فإذا فيها القصيدة بعينها، فاستحسنها واستجادها وأعجب بها، وقال: والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها، ولقد صدق ربيعةُ فبرّ، ثم قال للعباس: كما أثبتَه عليها؟ فسكت العباس، وتغيّر لونُه، وغُصَّ بريقه، فقال ربيعة: أثابني عنها يا أمير المؤمنين دينارين، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة عليه، فقال: بحياتي يا رَقّي كم أثابك؟ فقال: وحياتِك يا أمير المؤمنين ما أثابَني إلا بدينارين، فغضب الرشيد غضبًا شديدًا، ونظر في وجه العباس، وقال: سوءة لك! أيّةُ حال قعدَتْ بك عن إثابته؟ أقلّة مال؟ فوالله لقد نولتك جهدي، أم انقطاع المال عنك؟ فوالله ما انقطعتْ بك، أم أصلُك؟ فهو الأصل الذي لا يدانيه شيء، أم نفسك؟ لا ذنبَ لي، بل نفسُك والله فعلت بك ذلك، حتى فضحتَ أجدادَك وفضحتَني، وفضحت نفسَك، فنكَسَ العباس رأسَه، ولم ينطِق، فقال الرشيد: يا غلام، أعطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم، وخِلْعَةً، واحمله على بغلة، ثم قال له: بحياتي لا تذكره في شيء من شعرك تعريضًا ولا تصريحًا، وفتر الرشيد عما كان قد همّ به من أن يتزوج إليه وأظهر له بعد ذلك جفاء واطراحًا.

وقال محمد بن هانيء: [من البسيط]

الواهبُ الألفَ إلّا أنها بِدَرٌ ... والطاعنُ الألفَ إلا أنها نَسَقُ[1]

تأتي عطاياه شتّى غير واحدةٍ ... كما تدافعَ موجُ البحر يصطَفِقُ

وقال الرضيّ المُوسويّ: [من السّريع]

ريّانُ والأيامُ ظمآنةٌ ... من النّدَى نَشْوانُ بالبِشْرِ

لا يُمسكُ العذلُ يديه ولا ... تأخذُ منه نشْوةُ الخمر

(١) البدرة: صرّة النقود، والنسق: المجموع المنسّق.

وقال أيضًا: [من المتقارب]

ذخـائِرُه الـعُـرْفُ فـي أهـلِهِ   وخُـزّانُ أمـوالـهِ الـسـائِلونـا

وقال أميّة بن أبي الصلت الثقفِيّ يمدح عبد الله بن جُدْعان: [من الوافر]

أأذكـرُ حـاجـتـي أم قـد كـفـانـي   حَـيـاؤك إن شـيـمَـتـك الـحـيـاءُ؟
وعـلـمُـكَ بـالأمـورِ وأنـت قَـرْمٌ   لـك الـحسبُ الـمهذَّبُ والـسناءُ
كـريـمٌ لا يـغـيِّـره صَـبَـاحٌ   عـن الـخُـلُق الـسنيّ ولا مَـسَـاءُ
إذا أثـنـى عـلـيك الـمـرءُ يـومًـا   كـفـاه مـن تَـعـرُّضـه الـثـنـاءُ

وقال الشمّاخ بن ضِرَار(١): [من الطويل]

نَزورُ امرأً يُعْطِي على الحمد مالَه   ومن يُعْطِ أثمانَ المحامدِ يُحْمَدِ
وأنتَ امرؤٌ، مَن تُعطِه اليوم نائلًا   بكفّك، لا يمنعْك من نائِل الغدِ
ترى الجودَ لا يُدني من المرء حتفَه   كما البخلُ والإمساكُ ليس بمُخلِدِ
مُـفـيـدٌ ومِـتـلافٌ، إذا مـا سـألـتـه   تـهـلّل، واهـتـزّ اهـتـزاز الـمـهـنَّـدِ
متى تـأتـهِ تـعـشـو إلى ضـوءِ نـارِه   تجدْ خيرَ نارٍ عندَها خيرُ مُوقِدِ

قال: ولما سمع عمر رضي الله عنه هذا البيت، قال: كَذَبَ، تلك نار موسى عليه السلام.

وقال السريّ الرّفاء: [من المنسرح]

كـالـغـيـثِ والـلـيـثِ والـهـلالِ إذا   أَقْـمَـرَ بـأسًـا وبـهـجـةً ونـدَى
نـاسٍ مـن الـجـود مـا يـجـودُ بـه   وذاكـرٌ مـنـه كـلـمـا وعـدا

وقال أبو الفرج الوأواء(٢): [من المنسرح]

مَـن قـاسَ جـدواك بـالـغـمـام فـمـا   أنـصـفَ فـي الـحـكـمِ بـيـن اثـنـيْـنِ
أنـت إذا جـدت ضـاحـكًـا أبـدًا   وهـو إذا جـاد بـاكِـيَ الـعـيْـنِ

---

(١) الشماخ بن ضرار: الغطفاني، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة، كان أرجز الناس على البديهة، شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان سنة ٢٢ هـ - ٦٤٣ م. «الزركلي ٣/ ١٧٥».

(٢) أبو الفرج الوأواء: محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، من حسنات الشام وصناعة الكلام، كان مناديًا في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه، توفي نحو ٣٨٥ هـ - نحو ٩٩٥ م. «يتيمة الدهر ١/ ٢٧١، والإعلام للزركلي ٥/ ٣١٢».

وقال ابن نباتة السعديّ من قصيدة: [من البسيط]

لـم يُبـقِ جـودُك لـي شيـئًا أؤمّله تـركتني أصحبُ الدنيا بلا أملِ

ذكر ما قيل في الإعطاء قبل السؤال

قال سَعيد بن العاصي: قبح الله المعروف، إذا لم يكن ابتداءً من غير مسألة، فما المعروف عوضٌ من مسألة الرجل، إذا بذل وجهَه، فقلبُه خائفٌ، وفرائصُه ترعُد، وجبينه يرشح، لا يدري أيرجع بنُجحِ الطلبِ أم بسوءِ المنقلب، قد بات ليلته يتململُ على فراشه، يعاقب بين شِقّيْه، مرّة هكذا، ومرّة هكذا، مَنْ لحاجته؟ فخطرتُ بباله أنا أو غيري، فمثَّل أرجاهم في نفسه، وأقربَهم من حاجته، ثم عزم عليَّ، وترك غيري، قد انتُفِع لونُه، وذهبَ دمُ وجهه، فلو خرجتُ له مما أملك لم أكافِئْه، وهو عليَّ آمَنُ منّي عليه، اللَّهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظٌّ فلا تجعلْ لي حظًّا في الآخرة.

وقال أكثم بن صيفيّ: كلُّ سؤالٍ وإن قلّ، أكثر من كلّ نوال وإن جلّ.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: من كانت له إليّ منكم حاجة، فليرفعها في كتاب، لأصونَ وجوهكم عن المسألة.

وقال عبد العزيز بن مروان: ما تأمّلني رجل قط، إلا سألته عن حاجته، ثم كنت من ورائها.

وقال حبيب: [من الطويل]

عطاؤك لا يفنَى ويستغرقُ المنَى وتبقى وجوهُ الراغبين بمائها

وقال أيضًا: [من البسيط]

ما ماءُ كفِّكَ إنْ جادت وإنْ بخلَتْ من ماء وجهي إذا أفنيتُه عوضُ

وقالوا: مَنْ بذَل إليك وجهَه، فقد وفَّاك حقَّ نعمته.

وقال معاوية لصَعْصَعَةَ بن صُوحان: ما الجودُ؟ فقال: التّبرعُ بالمال، والعطاء قبل السؤال.

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربّه: [من الطويل]

كريمٌ على العِلّاتِ جَزْلٌ عطاؤه يُنيـلُ وإن لـم يُعتمـدْ لـنوالِ

وما الجود مَنْ يُعطي إذا ما سَألته ولكـنَّ مَنْ يُعطِي بغير سؤالِ

وقال حبيب الطائيّ: [من البسيط]

لئن جَحدْتُك ما أوليتَ من كَرَمٍ ... إني لفي اللؤمِ أَمضَى منك في الكرمِ
أنسَى ابتسامُك - والألوانُ كاسفةٌ - ... تبسُّمَ الصبح، في داجٍ من الظُّلَمِ
رددتَ رونقَ وجهي في صفيحته ... ردَّ الصِّقالِ صفاءَ الصارم الخَذِمَ
وما أبالي - وخيرُ القول أصدقُه - ... حقنتَ لي ماءَ وجهي أم حقنتَ دمِي

ذكر ما قيل في الشجاعة والصبر والإقدام

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشجاعةُ غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده، إن الله يحبّ الشجاع ولو على قتلِ حيّة».

وقالوا: حدّ الشجاعة سعةُ الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة.

وسئل بعضهم عن الشجاعة فقال: جِبِلّةُ نفس أبيّة، قيل له: فما النجدة؟ قال: ثقةُ النفس عن استرسالها إلى الموت، حتى تحمد بفعلها دون خوف.

وقيل لبعضهم: ما الشجاعةُ؟ فقال: صبرُ ساعةٍ. وقال بعض أهل التجارب: الرجالُ ثلاثةٌ: فارس، وشجاع، وبطل، فالفارس: الذي يشدّ إذا شدّوا، والشجاع: الداعي إلى البراز والمجيب داعيَهُ، والبطلُ: الحامي لظهور القوم إذا ولّوا.

قال يعقوبُ بن السكّيت في كتاب الألفاظ: العرب تجعل الشجاعة في أربع طبقات، تقول: رجلٌ شجاعٌ، فإذا كان فوق ذلك، قالوا: بطلٌ، فإذا كان فوق ذلك، قالوا: بُهْمةٌ، فإذا كان فوق ذلك، قالوا: أَلْيَس.

وقال بعض الحكماء: جسمُ الحرب: الشجاعة، وقلبها: التدبير، ولسانها: المكيدة، وجَناحُها: الطاعة، وقائدها: الرفق، وسائقُها: النصر.

قالوا: لما ظفر المهلّب بن أبي صُفرة بالخوارج، وَجَّهَ كعبَ بنَ مَعْدَانَ[1] إلى الحجّاج، فسأله عن بني المهلّب، فقال: المغيرةُ فارسهم وسيّدهم، وكفى بيزيد فارسًا شجاعًا، وجوادُهم وشيخُهم: قَبِيصةٌ، ولا يستحي الشجاعُ أن يفرّ من مُدرِك، وعبدُ

(١) كعب بن معدان: أبو مالك، فارس، شاعر وخطيب، من شعراء خراسان، كان معدودًا في أصحاب المهلب بن أبي صفرة في حروب الأزارقة، توفي نحو ٨٠ هـ - نحو ٧٠٠ م. «الزركلي ٥/ ٢٢٩».

الملك: سمٌّ نافعٌ، وحبيبٌ: موتٌ زعافٌ، ومحمدٌ: ليثُ غابٍ، وكفاك بالمفضّل نَجدةً، قال: فكيف خلّفتَ جماعةَ الناس؟ قال: خلّفتهم بخير، قد أدركوا ما أملوا، وأمنوا ما خافوا، قال: فكيف كان بنو المهلّب فيهم؟ قال: كانوا حُماة السَّرح[١] نهارًا، فإذا أليلوا ففرسان البيات، قال: فأيّهم كان أنجدَ؟ قال: كانوا كالحلْقة المفْرغة، لا يُدرَى أين طَرَفُها، قال: فكيف كنتم أنتم وعدوّكم؟ قال: كنّا إذا أخذنا، عفونا، وإذا اجتهدوا، اجتهدنا فيهم، فقال الحجّاج: ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٩].

وقالوا: أشجعُ بيت قالته العرب قول العباس بن مِرداس السلميّ[٢]: [من الوافر]

أَشُدُّ على الكتيبةِ لا أُبالي … أَحَتفي كان فيها أم سواها؟

وقد مدح الشعراءُ الشجاعةَ وأهلَها، وأوسعوا في ذلك، فمن ذلك قول المتنبيّ: [من الطويل]

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشقةٌ لهُ … إذا زارها فدَّتْه بالخيلِ والرَّجْلِ

وقال أيضًا: [من البسيط]

وكم رجالٍ بلا أرضٍ لكثرتهمْ … تركتَ جمعَهُمُ أرضًا بلا رجُلِ
ما زال طِرْفُك يجري في دمائهِمُ … حتى مشى بك مشيَ الشاربِ الثملِ

وقال العماد الأصفهاني[٣]: [من الكامل]

قومٌ إذا لبِسوا الحديدَ إلى الوغى … لبِس الحِدَادَ عدوُّهم في المهربِ
المُصدِرون الدُّهْمَ عن وِرْدِ الوغى … شُقْرًا تُجَلَّلُ بالعَجاج الأشهبِ

---

(١) السّرح: المال السائم، أي الأنعام في المرعى.

(٢) العباس بن مرداس: أبو الهيثم، من مضر، شاعر فارس ومن سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وكان ممن ذم الخمر وحرّمها في الجاهلية، ومات في خلافة عمر نحو ١٨ ق.هـ ـ نحو ٦٣٩ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢٦٧».

(٣) العماد الأصفهاني: أو الأصبهاني هو محمد بن محمد عماد الدين الكاتب، مؤرخ عالم بالأدب من أكابر الكتاب، له مؤلفات كثيرة وديوان شعر توفي سنة ٥٩٧ هـ. «الأعلام ٧/ ٢٦».

وقال أبو الفرج الببغاء[١]: [من الكامل]

واليومُ من غَسَقِ العَجاجةِ ليلةٌ والكرُّ يخرَق سَجْفَها الممدودا[٢]
وعلى الصِّفاحِ من الكِفاحِ وصِدقِه رَدْعٌ أحالَ بياضَها توريدا
والطعنُ يَغتصبُ الجيادَ شياتَها والضربُ يقدح في التليل وقودا[٣]
وعلى النفوسِ من الحِمام طلائعٌ والخوف يَنشُد صبرَها المفقودا
وأجلُّ ما عند الفوارس حثُّها في طاعة الهربِ الجيادَ القُودا
حتى إذا ما فارقَ الرأيُ الهوى وغدا اليقينُ على الظنون شهيدا
لم يُغنِ غيرُ أبي شجاعٍ والعلا عنه تناجِي النصرَ والتأبيدا

وقال أيضًا ورُوِيَ للبحتريّ: [من البسيط]

مِن كلّ متَّسِع الأخلاقِ مبتسِمٌ للخطبِ إن ضاقت الأخلاقُ والحِيلُ
يسعى به البرقُ، إلا أنه فَرَسٌ في صورة الموتِ إلا أنه رجلُ
يلقَى الرماحَ بصدرٍ منه ليس له ظَهرٌ وهادِي جوادٍ ما له كَفَلُ

وقال البحتريّ: [من الخفيف]

معشرٌ أمسكتْ حلومُهُمُ الأر ضَ وكادت لولاهُمُ أن تميدا
فإذا الجدبُ جاء كانوا غيوثًا وإذا النقعُ ثار ثاروا أسودا
وكأنّ الإلـٰه قال لهُمُ في الـ ـحرب كونوا حجارةً أو حديدا

وقال مُسْلِم: [من الكامل]

لو أنّ قومًا يخلُقون منيّةً من بأسهم كانوا بني جبريلا
قَومٌ إذا حمِي الوطيسُ لديهِمُ جعلوا الجماجمَ للسيوفِ مَقِيلَا

---

(١) أبو الفرج الببغاء: هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، من أهل نصيبين، أحد أفراد الدّهر في النظم والنثر. «انظر اليتيمة ١/٢٩٣».

(٢) العجاجة: العجاج: الغبار، واحدته عجاجة، وفعله التعجيج، وأعجَّت الريح: اشتد هبوبها. «اللسان ٢/٣١٩». سجفها: السِّجف: الستر، والسدافة: الحجاب، والتسجيف: إرخاء الستر. «اللسان ٩/١٤٤».

(٣) التليل: تلل: صرع. والتليل: العنق، «اللسان ١١/٧٩».

وقال آخر: [من الكامل]

عِقبانُ رَوْعٍ والسروجُ وكُورها ... وليوثُ حربٍ والقنا آجامُ(١)
وبدورُ تمٍّ والشوائكُ في الوغَى ... هالاتُها والسابريُّ غَمامُ(٢)
جادوا بممنوع التلادِ وجوّدوا ... ضربًا تُخَدُّ به الطُّلا والهامُ(٣)
وتجاورت أسيافُهم وجيادُهم ... فالأرض تُمطَرُ والسماء تُغامُ

وقال آخر: [من الكامل]

قومٌ، شرابُ سيوفِهِمْ ورماحِهِمْ ... في كلّ معتَرِك دمُ الأشرافِ
رجَعتْ إليهم خيلُهم بمعاشرٍ ... كلٌّ لكلّ جسيم أمرٍ كافِ
يتحنّنون إلى لقاء عدوّهم ... كتحنّن الأُلّاف للأُلّافِ
ويباشرون ظُبَا السيوف بأنفسٍ ... أَمضَى وأقطع من ظُبَا الأسيافِ

وقال ابن حَبّوس(٤): [من الخفيف]

إن تُردْ خُبْرَ حالهِم عن قريبِ ... فَأتِهم يومَ نائلٍ أو نِزالِ
تَلْقَ بيضَ الوجوه سودَ مَثار الـ ... نقع، خُضْرَ الأكنافِ حُمْرَ النصالِ

ومما قيل في الصبر والإقدام

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ

(١) وكور: أعشاش ـ وكر الطائر: عشه، والجمع القليل أوكر وأوكار. «اللسان ٥/ ٢٩٢». آجام: جمع أجمة وهي الشجر الكثيف الملتف، وهناك جموع أخرى لأجمة مثل: أُجُمٌ وأُجْمٌ وأَجَمٌ وإجام. «اللسان ١٢/ ٨».

(٢) الشوائك: الشوكة: السلاح، وقيل حدة السلاح ورجل شاكي السلاح وشائك السلاح. «اللسان ١٠/ ٤٥٤». السابري: من الثياب: الرّقاق ـ وهو من أجود الثياب والأصل فيه الدروع السابرية منسوبة إلى سابور. «اللسان ٤/ ٣٤١ و٣٤٢».

(٣) التلاد: كل مال قديم من حيوان وغيره يورث عن الآباء، ومال متلد: مال قديم. «اللسان ٣/ ١٠٠». تخد: من الفعل خدد: تخد: تشق، ومنها الأخدود: الحفرة تحفرها في الأرض مستطيلة. «اللسان ٣/ ١٦٠ و١٦١».

(٤) ابن حبوس: (٥٠٠ ـ ٥٧٠ هـ = ١١٠٦ ـ ١١٧٤ م) محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس، أبو عبد الله، شاعر من أهل فاس، ولد ونشأ فيها، وقال الشعر في صباه، ورحل إلى تلمسان ومراكش ودخل الأندلس، امتدح الأمراء واشتهر، نعت بشاعر الخلافة المهدية. «الأعلام للزركلي ٦/ ١٠١».

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦]. وقال رسول الله ﷺ: «لا تتمّنوا لقاءَ العدوّ وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله وإن جلبوا وضجّوا فعليكم بالصمت».

ومن كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ربَّ حياةٍ، سببها التعرّض للموت، وربَّ منيّة، سبّبها طلبُ الحياة.

وقالوا: أجمع كلمة قيلت في الصبر قول بعضهم: الصبر مطيّة النصر.

وقال آخر: الصبر مَطِيَّةٌ لا تكبو، وإن عَنُفَ عليه الزمان.

وقال آخر: الصبر شَرية[1]، تثمر أريَة.

وقيل للمهلّب بن أبي صفرة: إنك لتُلقي نفسك في المهالك، فقال: إن لم آت الموتَ مسترسلًا، أتاني مستعجلًا، إني لست آتي الموت من حُبّه، وإنما آتيه من بغضه، وتمثّل بقول الحُصَين بن الحمام[2]: [من الطويل]

تأخّرتُ أستبقي الحياةَ فلم أجدْ ... لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدّما

وهي قصيدة مشهورة منها: [من الطويل]

فلسنا على الأعقاب تَدمَى كلومُنا ... ولكن على أقدامنا تقطُرُ الدّما
نفلّقُ هامًا من كرامٍ أعزّةٍ ... علينا، وهم كانوا أعقَّ وأظلما
ولما رأينا الصبرَ قد حِيلَ دونه ... وإن كان يومًا ذا كواكبَ مُظلِما
صبِرنا، وكان الصبرُ منا سجيةً ... بأسيافنا يقطعنَ كفًّا ومِعصما
ولما رأيت الودَّ ليس بنافعي ... عمدتُ إلى الأمر الذي كان أحزما
فلستُ بمبتاعِ الحياة بسُبّةٍ ... ولا مُرتقٍ من خَشيةِ الموتِ سُلَّما

وقالت العرب: الشجاعة وقاية، والجُبن مَقْتلة. وكذلك: إن مَنْ يُقتلُ مدبرًا، أكثر ممن يقتلُ مقبلًا.

---

(١) أرية: الأري: العسل، وأري السحاب: درته، وأري الندى: ما وقع منه على الشجر والعشب فالتزق وكثر. «اللسان ١٤/ ٢٨». شرية: شجر الحنظل والجمع شرْيٌ. «اللسان ١٤/ ٤٣٠».

(٢) الحصين بن حمام بن ربيعة المري الذبياني، أبو يزيد، شاعر فارس جاهلي، كان سيد بني سهم بن مرة ويلقب مانع الضيم، في شعره حكمة، وهو ممن نبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية توفي نحو ١٠ ق.هـ ـ نحو ٦١٤ م. «الزركلي ٢٤/ ٢٦٢».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: احرِصْ على الموت، توهَبْ لك الحياة.

وقالت الحكماء: استقبالُ الموت، خير من استدباره.

وقال العلويّ: [من الطويل]

محرّمةٌ أكفالُ خيلي على القنا ... وداميةٌ لبّاتُها ونحورُها[1]

حرامٌ على أرماحِنا طعنُ مدبِرٍ ... وتندقُّ منها في الصدور صدورُها

وقال أبو تمّام: [من البسيط]

قَلُّوا ولكنّهمْ طابوا فأنجدَهُمْ ... جيشٌ من الصّبرِ لا يُحصَى له عَددُ

إذا رأَوا للمنايا عارضًا لبِسوا ... من اليقين دروعًا ما لها زَردُ

نأوا عن المُصْرَخ الأدنَى فليس لهم ... إلّا السيوفَ على أعدائهم مددُ[2]

وما زالت العرب يتمادحون بالموت قَعْصًا[3]، ويتسابّون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلانٌ حتفَ أنفه، وأوّل من قال ذلك رسول الله ﷺ.

ومدح أعرابيّ قومًا فقال: [من المنسرح]

يقتحمون الحربَ كأنّما ... يَلقونها بنفوس أعدائهم

وقال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مُصْعَب[4]: إن يقتلْ فقد قُتِل أخوه وأبوه وعمه، إنّا والله لا نموتُ حتفًا ولكن قَعْصًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظِلال السيوف، وقال السموأل بن عادياء: [من الطويل]

وما مات منّا سيّدٌ في فراشه ... ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيلُ

تسيل على حدّ الظُّبات نفوسُنا ... وليست على غير الظّبات تسيلُ

---

(١) أكفالها: أعجازها، والمفرد «كفل»: العجز. «اللسان ١١/ ٥٨٨».

(٢) المصرح: الصرحة: الموضع، والصرحة من الأرض: ما استوى وظهر، يوم مصرّح: ليس فيه سحاب. «اللسان ٢/ ٥١٠ و٥١١».

(٣) قعصًا: القعص: القتل المعجل، مات قعصًا: إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه. وأقعصه بالرمح: طعنه طعنًا، أجهز عليه. «لسان العرب ٧/ ٧٨».

(٤) مصعب بن الزبير: أبو عبد الله (٢٦ ـ ٧١ هـ = ٦٤١ ـ ٦٩٠ م) أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، كان مساعد أخيه عبد الله في الحجاز والعراق، حارب مصعب عبد الملك بن مروان إلى أن طعنه أحد قادة عبد الملك ثم قتله وحمل رأسه إلى الخليفة. «فوات الوفيات ٤/ ١٤٣، والزركلي ٧/ ٢٤٨».

وقال أيضًا آخر: [من الطويل]

وإنا لتستحلي المنايا نفوسنا ونتركُ أخرى مُرَّةً ما نذوقُها

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفّين[١]، وقد قيل له: أتقاتل أهلَ الشام بالغداة، وتظهر بالعشيّ في إزار ورداءٍ؟ فقال: أبالموت تخوّفونني؟ فوالله ما أبالي، أسقطت على الموت، أم سقط الموت عليّ؛ وقال لابنه الحسن: لا تدعوَنَّ أحدًا إلى المبارزة، وإنْ دعيت إليها فأجبْ، فإنّ الداعيَ إليها باغٍ، وللباغي مصرعٌ، وقال رضي الله عنه:

* بقيّةُ السيفِ أنمى عددا *

يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيتٍ كثر عددهُم ونَمى.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: عقمت النساء أن تأتي بمثل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لعهدي به يومَ صِفّين، وعلى رأسه عِمامة بيضاء، وهو يقف على شِرذمةٍ شرذمة من الناس، يحضُّهم على القتال، حتى انتهى إليَّ، وأنا في كنَفٍ من الناس، وفي أغيلمة من بني عبد المطّلب، فقال: يا معشر المسلمين، تجلببوا السكينةَ، وكمّلوا اللأمةَ، وأقلقوا السيوف في الأغماد، وكافحوا بالظُّبا، وصِلوا السيوف بالخُطَا، فإنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله ﷺ، عاودوا الكرّ، واستحيوا من الفرّ، فإنه عار في الأعقاب، ونار في الحساب، وطيبوا عن الحياة أنفسًا، وسيروا إلى الموت سيرًا سُجُحًا[٢]، ودونكم هذا الرواق الأعظم، فاصبروا، فإن الشيطان راكب صَعْدتَه، قدِّموا للوثبةِ رِجلًا، وأخِّروا للنكوصِ أخرى، فصمدًا صمدًا، حتى يبلغَ الحقُّ أجلَه، والله معكم، ولن يتركم أعمالكم؛ ثم صدَرَ عنا، وهو يقرأ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: الآية ١٤].

وكان معاوية بن أبي سفيان يتمثل يوم صِفّين بهذه الأبيات: [من الوافر]

أبتْ لي شيمتي وأبى بلائي وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ

---

(١) صفين: المعركة المعروفة في التاريخ، سميت باسم المكان الذي جرت فيه، وصفين موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي. «معجم البلدان ٣/ ٤١٤».

(٢) سُجحًا: سهلًا ـ خُلُق سجيح: لين سهل، مشى فلان مشية سجحا: أي سهلة. «اللسان ٢/ ٤٧٥».

وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ[١]
وقولي كلّما جشأتْ لنفسي مكانِك تُحمدِي أو تَستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ وأحمِيَ بعدُ عن عِرضٍ صحيحِ

وقال قَطَرِيُّ بن الفُجَاءة[٢] أميرُ الخوارج: [من الوافر]

وقولي كلّما جشأتْ لنفسِي من الأبطال ويحكِ لا تَراعِي
فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يومٍ على الأجل الذي لك لم تطاعِي
فصبرًا في مجال الموت صبرًا فما نَيْلُ الخلود بمستطاعِ
سبيلُ الموت غايةُ كلّ حيٍّ وداعيه لأهلِ الأرضِ داعِي

وقال عبد الله بن رواحة الأنصاري[٣]: [من السّريع]

يا نفسُ إن لم تُقْتلي تموتِي إن تسلمي اليومَ فلا تفوتِي
أو تُبتَلِي فطالما عُوفيتِ هذي حياضُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنّيتِ فقد لَقيتِ إن تفعلي فعلَهما هُدِيتِ

* وإن تولَّيت فقد شَقِيتِ *

يريد بقوله: [من المتقارب]

* فإن تفعلي فعلهما هُديتِ *

فعلَ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكانا قُتلا في ذلك اليوم بموته. وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، يخرج كلّ يومٍ بصِفّين حتى

---

(١) المشيح: الجاد الحذر، وشايح الرجل: جد في الأمر، والمشيح: المقبل إليك والمانع لما وراء ظهره من الفعل «شيح». «اللسان ٢/ ٥٠٠».

(٢) قطري بن الفجاءة: جفونة بن مازن بن يزيد التميمي، (أبو نعامة)، من رؤساء الأزارقة، من أهل قطر قرب البحرين، كان خطيبًا فارسًا شاعرًا، كنيته في الحرب أبا نعامة وهي فرسه، وفي السلم أبا محمد، حيَّر بشجاعته الأمويين، قتل في السنة ٧٨ هـ - ٦٩٧ م. «وفيات الأعيان ٤/ ٩٤، والأعلام ٥/ ٢٠٠».

(٣) هو عبد الله بن رواحة الأنصاري، أبو محمد، من الخزرج، صحابيّ، شهد بدرًا وأحدًا والحديبية والخندق، واستخلفه النبي على المدينة في إحدى غزواته، استشهد في وقعة مؤتة سنة ٨ هـ. «الأعلام ٤/ ٨٦».

يقف بين الصفين ويُنشد: [من الرّجز]

مـن أيّ يـومـيَّ مـن الـموتِ أفـرْ يــومُ لا يُــقــدَرُ أم يــومُ قُــدِرْ
فــيــومُ لا يُــقــدَرُ لا أرهــبُــهُ ثمَّ من المقدورِ لا ينجو الحذِرْ

ومثله قول جرير من قصيدة أولها: [من الكامل]

* هـاجَ الـفـراقُ لـقـلـبـك الـمـهـتـاج *

منها: [من الكامل]

قـل لـلجـبـانِ إذا تـأخّـر سَـرجُـهُ ما أنـتَ مـن شَـرك الـمنـيـة نـاجي

وقالت امرأةٌ من عبد القيس: [من الطويل]

أبوا أن يَفرُّوا والقنا في نحورهم ولم يبتغوا من خشية الموتِ سُلَّما
ولـو أنـهـم فـرُّوا لـكـانـوا أعـزّةً ولكن رأوا صبرًا على الموت أكرما

وقال حبيب بن أوس الطائيّ: [من الطويل]

فأَثبَتَ في مستنقعِ الموتِ رِجلَهُ وقالَ لها من تحت أخْمَصك الحشرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلًا فردَّه عليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوعْرُ
غـدًا غـدوةً والـحـمـدُ نـسجُ ردائهِ فلم يـنـصـرفْ إلا وأكـفـانُـه الأجْرُ
تردَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما أتى لها الليلُ إلا وَهْيَ من سندس خُضرُ

وقال: [من الكامل]

قومٌ إذا لبسوا الـحديدَ حسبتهم لـم يـحسَـبـوا أن الـمنـيَّـة تُـخـلَقُ
أُنظرْ بحيثُ ترى السيوف لوامعًا أبــدًا وفــوق رؤوســهــم تــتــألّقُ

وقال الببغاء: [من المنسرح]

يسعى إلى الـموتِ والقنا قِصَدٌ وخـيـلُـه بـالـرؤوس تـنـتـعـلُ
كــأنَّــه واثــقٌ بــأنَّ لــه عُـمـرًا مُـقـيـمًـا ومـا لـه أجـلُ

وقال كعب بن مالك: [من الكامل]

نَصِلُ السيوف إذا قصُرن بخطوِنا قَـدَمًـا ونـلحـقُـهـا إذا لـم تُـلحـقِ

ومثله لبعض بني قيس بن ثعلبة: [من البسيط]

لو كان في الألف منّا واحدٌ فدعوا ... مَنْ فارسٌ؟ خالهم إيّاه يعنونا
إذا الكماة تنحّوا أن يُصيبَهُمُ ... حدُّ الظُّبات وصلناها بأيدينا

ومثله قول الآخر: [من الطويل]

إذا قصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنقاربُ

ومثله قول وَدَّاك بن ثُمَيْل المازنيّ[1]: [من الطويل]

مَقاديمُ وصّالون في الرَّوْع خَطوَهم ... بكلِّ رقيقِ الشَّفرتين يمانِي
إذا استُنجدوا لم يسألوا مَن دعاهُمُ ... لأيةِ حربٍ أم بأيّ مكانِ

وقال أبو تمّام في سعَة الخطو: [من البسيط]

خَطْوٌ، ترى الصارمَ الهنديّ منتصرًا ... به، من المارن الخَطّيّ منتصفا[2]

وقال آخر: [من الوافر]

كأنّ سيوفَه صِيغت عقودًا ... تجول على الترائب والنحورِ
وسُمرَ رماحِهِ جُعلتْ همومًا ... فما يخطُرنَ إلا في ضمير

وأجود ما قاله مُحدّثٌ في الصبر قول ابن الروميّ: [من الطويل]

أرى الصبرَ محمودًا وعنه مذاهبٌ ... فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهبُ؟
هناك يحقُّ الصبرُ، والصبرُ واجبٌ ... وما كان منه كالضرورة أوجبُ
فشدَّ امرؤ بالصبر كفًّا فإنه ... له عِصمةٌ، أسبابُها لا تقَضّبُ
هو المهربُ المنجي لمن أحدقتْ به ... مكارهُ دهرٍ ليس منهنّ مَهرَبُ
لبوسُ جمالٍ جُنَّةٌ من شماتةٍ ... شِفاءُ أسىً يُثنَى به ويُثوَّبُ
فيا عجبًا للشيء هذي خلالُهُ ... وتاركُ ما فيه من الحظ أعجبُ
وقد يتظنّى الناس أنّ أساهُمُ ... وصبرَهُمُ فيهم طِباعٌ مُركّبُ

---

(١) وداك بن ثميل المازني: شاعر من الفرسان، ممن اختار لهم أبو تمام في الحماسة، وليس له في كتب المعاجم شيئًا يذكر، ويبدو أنه جاهلي. «الأعلام للزركلي ٨/ ١١١».

(٢) الصارم: الصرم: القطع البائن، والانصرام: الانقطاع، والصارم: السيف القاطع. «اللسان ١٢/ ٣٣٥». المارن الخطي: الرمح الصّلب اللّين اللّدن.

فإنهما ليسا كشيءٍ مُصرَّفٍ ... يصرَفه ذو نكبة حين يُنكَبُ
فإن شاء أن يأسى أطاع له الأسى ... وإن شاء صبرًا جاءَه الصبرُ يُجلبُ
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما ... لكلّ لبيبٍ مستطاعٌ مسبّبُ
يصرّفه المختارُ منا فتارةً ... يُراد فيأتِي، أو يُذاد فيذهبُ
إذا احتجّ محتجٌ على النفس لم تكدْ ... على قدَرٍ يُمنَى لها تتعتَّبُ(١)
وساعَدَها الصبرُ الجميلُ فأقبلتْ ... إليها له طوعًا جنائبُ تُجنَبُ
وإن هو منّاها الأباطيلَ لم تزل ... تقاتل بالعتبِ القضاءَ وتُغلبُ
فيُضحِي جزوعًا إن أصابت مصيبةٌ ... ويمسي هلوعًا إن تعذَّر مطلَبُ
فلا يعذرنَّ التاركُ الصبرَ نفسَهُ ... بأن قيل: إن الصبرَ لا يُتكسّبُ

ذكر ما قيل في وفور العقل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [قَ: الآية ٣٧]، قال المفسرون: عبَّر عن العقل بالقلب، لأنه محلّه وسكنه، وقال تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: الآية ٧]، وقال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر: الآية ٥].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوّل ما خلق الله العقلَ، قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقتُ خلقًا أكرم عليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب».

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى قسم العقل على ثلاثة أقسام، فمن كنَّ فيه كمل عقلُه، ومن لم يكن فيه جزء منها، فلا عقلَ له»، قيل: يا رسولَ الله، ما أجزاءُ العقل؟ قال: حسنُ المعرفةِ بالله، وحسنُ الطاعةِ لله، وحسنُ الصبرِ على أمر الله». وعنه ﷺ أنه قال: «ما اكتسب رجل مثل فضلِ عقلٍ يَهدي صاحبَه إلى هدًى، ويردّه عن ردًى، وما تمّ إيمان عبدٍ ولا استقام دينُه، حتى يكمُلَ عقله».

---

(١) يمنى: يُمنى لها: يقدر لها، منّى الله لك ما يسرك: أي قدر لك. وسمي الموت «المنية» لأنه قدر علينا. «اللسان ١٥/ ٢٩٢».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الداريّ: ما السؤدد فيكم؟ قال: العقل، قال: صدقتَ، سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتُك، فقال كما قلتَ، ثمّ قال: سألت جبريل ما السؤدد؟ فقال: العقل.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، بأي شيء يَتفاضل الناسُ في الدنيا؟ قال: بالعقل، قلت: وفي الآخرة؟ قال: بالعقل، قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم! فقال: «يا عائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل، فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزَون».

وعن سعيد بن المسيَّب[1]: أن عمر وأبَيَّ بن كعب[2] وأبا هُريرة دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، مَنْ أعلمُ الناس؟ قال: العاقل، قالوا: فمَنْ أعبدُ الناس؟ قال: العاقل، قالوا: فمَنْ أفضلُ الناس؟ قال: العاقل، قالوا: أليس العاقلُ من طَهُرت مروءتُه، وظَهَرت فصاحته، وجادتْ كفّه، وعظُمت منزلته؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٥] إن العاقل هو التقيُّ وإن كان في الدنيا خسيسًا دنِيًا.

وورد في الأثر: «أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام العقلَ والدينَ والحياءَ، فاختار العقلَ، فقيل للدين والحياء: ارتفعا، قالا: لا، قال: أفعصيتما أمرَ ربِّكما؟ قالا: ما عصينا أمرَ ربِّنا، ولكنّا أُمِرنا أن نتبعَ العقلَ حيث كان».

وقال لقمانَ لابنه: إن غايةَ الشرفِ والسؤددِ في الدنيا والآخرة، حُسنُ العقلِ، لأن العبدَ إذا حسُن عقلُهُ، غطّى ذلك عيوبَه، وأصلح مساوِيَهُ، ورضيَ عنه خالقُه، وكفى بالمرء عقلًا أن يسلمَ الناس من شرّه.

وقيل: مكتوبٌ في حكمة آل داود عليه السلام: على العاقلِ أن يكون عالمًا بأهل زمانه. مالكًا للسانه، مقبلًا على شأنه.

---

(١) سعيد بن المسيب: (١٣ ـ ٩٤ هـ = ٦٣٤ ـ ٧١٣ م) المخزومي القرشي، أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة في المدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والزرع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، توفي بالمدينة.

(٢) أُبي بن كعب: من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر، صحابي أنصاري، كان قبل الإسلام حبرًا من أحبار اليهود، مطلعًا على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ على قلة العارفين بالكتابة في عصره، ولما أسلم كان من كتاب الوحي، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ مات بالمدينة سنة ٢١ هـ ـ ٦٤٢ م. «الزركلي ١/ ٨٢، وفهرست ابن النديم ص: ٤٠».

وقال بعضُ الحكماء: كلُّ شيءٍ يعِزُّ إذا قلّ، والعقلُ كلّما كان أكثر كان أعزَّ وأغلى، ولو بيع، لما اشتراه إلا العاقلُ لمعرفته بفضله، وأوّلُ شرفِ العقل أنه لا يُشتَرى بالمال.

قال أبو عطاء السّنديّ(١): [من الوافر]

فـإنّ الـعـقـلَ لـيـس لـه إذا مـا ... تـذكّـرتَ الـفـضـائـلَ مـن كـفـاءِ

وقالوا: العلمُ قائدٌ، والعقلُ سائقٌ، والنفسُ بينهما حرون(٢)، فإذا كان قائدٌ بلا سائقٍ هلكتْ، وإن كان سائق بلا قائد أخذَتْ يمينًا وشمالًا، فإذا اجتمعا أجابت طوعًا أو كُرْهًا.

ذكر ما قيل في حدّ العقل وماهيّته وما وصف به

وقد اختلف الحكماء، في حد العقل، فقيل: حدّه الوقوف عند مقاديرِ الأشياءِ قولًا وفعلًا، وقيل: النظرُ في العواقب، وقال المتكلمون: هو اسم لعلوم إذا حصلت للإنسان صحَّ تكليفُه. وقيل: العاقلُ من له رقيبٌ على شهواته، وقيل: هو من عقلَ نفسَه عن المحارم، وقال عمرو بن العاص: أن يَعرِفَ خيرَ الخيريْن، وشرَّ الشريْن.

قال أبو هلال: ومن العجب أن العربَ تمثّلت في جميع الخصال، بأقوام جعلوهم أعلامًا فيها، فضربوا بها المثل إذا أرادوا المبالغة، فقالوا: أحلمُ من الأحنف، ومن قيس بن عاصم، وأجودُ من حاتم، ومن كعبِ بن مامة، وأشجعُ من بِسطام، وأَبْين من سَحبان، وأرمَى من ابن تِقْنٍ، وأعلمُ من دَغْفَل، ولم يقولوا: أعقلُ من فلان، فلعلّهم لم يستكملوا عقلَ أحدٍ، على حسب ما قال الأعرابيُّ، وقد قيل له: حِدَّ لنا العقلَ، فقال: كيف أحِدُّه ولم أره كاملًا في أحدٍ قطُّ.

وقيل لحكيم: ما جماع العقل؟ فقال: ما رأيته مجتمعًا في أحدٍ فأصفُه، وما لا يوجد كاملًا فلا حدّ له.

وقالوا: لكلّ شيءٍ غايةٌ وحدٌّ، والعقلُ لا غايةَ له ولا حدَّ، ولكن الناسَ يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة والطِّيب.

---

(١) أبو عطاء السندي: اسمه مرزوق، مولى أسد بن خزيمة، وكان جيد الشعر وكانت فيه عجمة. «الشعر والشعراء ص ٥٢١».

(٢) حرون: من الفعل حرن: فرس حرون: لا ينقاد، إذا اشتد به الجري وقف، والحرون اسم فرس كان لباهلة، إليه تنسب الخيل الحرونية. «اللسان ١٣/ ١١٠».

واختلفوا في ماهيّة العقل، كما اختلفوا في حدّهِ، فقال بعضهم: هو نورٌ وضعه الله تعالى طبعًا وغريزةً في القلب، كالنور في العين وهو البصرُ، فالعقل نورٌ في القلب، والبصرُ نورٌ في العين، وهو ينقصُ ويزيدُ، ويذهبُ ويعودُ، وكما يُدرَكُ بالبصر شواهدُ الأمور، كذلك يُدرَكُ بالعقل كثيرٌ من المحجوب والمستور، وعَمَى القلبِ كعَمَى البصرِ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس الأعمى من عمِيَ بصرُه، ولكن من عَمِيَتْ بصيرتُهُ».

وقال عبد الله بن عمر بن معاوية بن عمر بن عُتبةَ المعروف بالعتبيّ: العقل عقلان، عقلٌ تفرّدَ الله تعالى بصنعه، وهو الأصلُ، وعقلٌ يستفيده المرء بأدبه وهو الفرعُ، فإذا اجتمعا، قوّي كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، تقويةَ النارِ في الظُّلمة للبصر.

نظم بعض الشعراء هذا اللفظ فقال، ويُروَى لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: [من الهزج]

رأيتُ العقلَ عقلينِ ... فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفعُ مسموعٌ ... إذا لم يكُ مطبوعُ
كما لا تنفعُ الشمسُ ... وضوءُ العينِ ممنوعُ

وأكثرُ الناس على أنَّ العقلَ في القلب، ودليله قوله عزَّ وجلّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: الآية ٤٦].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العقل في القلب يفرق به بين الحقّ والباطل».

وقال بعضهم: هو في الدماغ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه.

وأما ما وُصف به فقيل: العقلُ وزيرٌ رشيد، وظهيرٌ سعيد، من عصاه أرداه، ومن أطاعه أنجاه.

وقال سَعِيد بن جُبَير: لم ترَ عينايَ أجلَّ من فضلِ عقلٍ يتردَّى به الرجلُ، إن انكسر جَبرَه، وإن تصدّع أنعشَه، وإن ذلّ أعزّه، وإن اعوجَّ أقامَه، وإن عثر أقاله، وإن افتقر أغناه، وإن عرى كساه، وإن غوى أرشده، وإن خاف أمّنه، وإن حزن أفرحه،

وإن تكلّم صدقه، وإن أقام بين أظهرِ قوم اغتبطوا به، وإن غاب عنهم أسفوا عليه، وإن بسط يَده قالوا: جوادٌ، وإن قبضها قالوا: مقتصدٌ، وإن أشار قالوا: عالمٌ، وإن صام قالوا: مجتهدٌ، وإن أفطر قالوا: معذورٌ.

قال بعضُ الشعراء: [من الطويل]

يُعَدُّ رفيعُ القوم من كان عاقلًا ... وإن لم يكن في قومه بحسيبِ
وإن حلّ أرضًا عاش فيها بعقلِهِ ... وما عاقلٌ في بلدةٍ بغريبِ

وقال بعض الحكماء: إذا غلبَ العقلُ الهوى، صرفَ المساوىء إلى المحاسن، فجعل البلادةَ حِلمًا، والحدَّة ذكاءً، والمكرَ فِطنةً، والهذرَ بلاغةً، والعِيَّ صمتًا، والعقوبةَ أدبًا، والجُبنَ حَذْرًا، والإسرافَ جُودًا.

وقيل: لو صُوِّر العقلُ، لأضاء معه الليلُ، ولو صُوِّر الجهلُ، لأظلم معه النهارُ. قال المتنبّي: [من الكامل]

لولا العقولُ لكان أدنَى ضيغمٍ ... أدنَى إلى شرَفٍ من الإنسانِ

وقد نُدبَ إلى صحبة العقلاء.

قال الزُّهريّ: إذا أنكرتَ عقلَك، فاقدحْه بعاقلٍ. قال ابن زُرارةَ: جالِس العقلاءَ أعداءً كانوا أم أصدقاءَ، فإنّ العقلَ يقعُ على العقل.

قال بعض الشعراء: [من المتقارب]

عدوُّك ذو العقل أَبقَى عليكَ ... وأبقى من الوامق الأحمقِ

وقال آخر: [من السَّريع]

لله دَرُّ العقلِ من راشدٍ ... وصاحبٍ في اليسرِ والعسرِ
وحاكمٍ يقضِي على غائبٍ ... قضيَّةَ الشاهد للأمْرِ
وإنَّ شيئًا بعضُ أحوالِهِ ... أن يفصلَ الخيرَ من الشرِّ
له قُوًى، قد خصّه ربُّه ... بخالِص التقديس والطُّهْرِ

وقال آخر: [من الطويل]

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنّه ... ـ وإن كان ذا قدر على الناس ـ هيِّنُ
وإن كان ذا عقلٍ أُجِلَّ لعقله ... وأفضلُ عقلٍ عقلُ من يَتَبيَّنُ

وقال آخر: [من البسيط]

العقلُ حُلةُ فخرٍ مَنْ تَسربلَها ... كانت له نَسَبًا يغني عن النَّسَبِ
وأفضلُ العقل ما في الناس كلّهِم ... بالعقل ينجو الفتى من حومةِ العطب

وقال ابن دُرَيد[1]: [من الطويل]

وأفضلُ قِسمِ اللهِ للمرء عقلُه ... فليس من الخيرات شيءٌ يقاربُهْ
فَزينُ الفتى في الناس صحّةُ عقله ... وإن كان محظورًا عليه مَكاسبُهْ
ويُزري به في الناس قِلّةُ عقله ... وإن كرُمتْ أعراقُه ومَناسِبُهْ
إذا أكمل الرحمنُ للمرءِ عقلَه ... فقد كمُلتْ أخلاقُه ومآربُهْ

وقال آخر: [من المنسرح]

ما وهب الله لامرىءٍ هِبةً ... أشرفَ من عقله ومن أدبِهْ
هما جمالُ الفتى، فإن عدمَا ... فإنَّ فقدَ الحياةِ أنفعُ به

وقال آخر: [من الطويل]

ولم أرَ مثلَ الفقرِ أوضعَ للفتى ... ولم أرَ مثلَ المالِ أرفعَ للنَّذْلِ
ولم أرَ من عُدْمٍ أضرَّ على الفتى ... إذا عاش بين الناس من عَدَمِ العقلِ

ذكر ما قيل في الصدق

قال الله عزّ وجلّ مبشّرًا للصادقين: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: الآية ١١٩].

وقال رسولُ الله ﷺ: «تحرُّوا الصدقَ، فإن الصدقَ يَهدِي إلى البِرّ، والبِرُّ يَهدي إلى الجنة، وإن المرء ليتحرّى الصدقَ، حتى يُكتَبَ صِدِّيقًا».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، ما عَمَلُ أهلِ الجنّة؟ قال: الصدق، إذا صدق العبد بَرَّ، وإذا برَّ أَمِنَ، وإذا أَمِنَ دخل الجنّة. قال: يا رسول الله ما عملُ أهلِ النار؟ قال: الكذبُ، إذا كذب العبدُ فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار.

---

(١) ابن دريد: هو محمد بن الحسن الأزدي، أبو بكر، من أئمة اللغة والأدب، قالوا: ابن دريد أشعر العلماء، وأعلم الشعراء، توفي سنة ٢٣١ هـ. «الأعلام ٦/ ٨٠».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسولَ الله ﷺ، بمَ يُعرفُ المؤمنُ؟ قال: بوقارِه، ولِينِ كلامه، وصدقِ حديثه. ومن كلام عليّ رضي الله عنه: الإيمان أن تؤثِرَ الصدقَ حيث يضرُّك، على الكذبِ حيث ينفعُك.

وقال بعض الحكماء: الصدقُ أزينُ حليةً، والمعروف أربحُ تجارةً، والشكرُ أدومُ نعمةً. وقال بعضهم: رأيت أرسطاطاليس في المنام، فقلت: أيُّ الكلامِ أحسنُ؟ فقال: ما صدق قائله، قلتُ: ثمّ ماذا؟ قال: ما استحسنه سامعه، قلت: ثمّ ماذا؟ قال: كلُّ كلامٍ جاوز هذا فهو ونهيقُ الحمارِ بمنزلةٍ.

وقال الأحنف لابنه: يا بنيَّ، يكفيك من شرف الصدق، أن الصادقَ يُقبَل قولُه في عدوّه، ومن دناءةِ الكذبِ، أن الكاذبَ لا يُقبل قولُه في صديقه ولا عدوِّهِ، لكلِّ شيءٍ حليةٌ. وحليةُ المنطق الصدقُ يدل على اعتدال وزن العقل.

قال عامر بن الظَّرِب العَدْوانيّ(١) في وصيّته: إني وجدتُ صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدقوا، من لزم الصدق وعوّده لسانه، فلا يكاد يتكلّم بشيء يظنّه، إلا جاء على ظنّه.

وقالوا: ما السيف الصارم. في كفّ الشجاع، بأعزّ من الصدق.

وقيل: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعجوز تبيع اللبنَ، فقال لها: يا عجوز، لا تغشّي المسلمين، ولا تشوبي لبنَك بالماء، قالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم مرّ بها بعد ذلك، فقال يا عجوز، ألم أعهد إليك أن لا تشوبي لبنَك بالماء؟ فقالت: والله ما فعلتُ يا أمير المؤمنين، فتكلّمتْ بنتٌ لها من داخل الخباء، فقالت: يا أمّاه، أغِشًّا وحِنْثًا جمعتِ على نفسك؟ فسمعها عمر فأعجبته، فقال لولده: أيّكم يتزوّجها؟ فلعلّ الله أن يُخرج منها نَسَمةً طيّبةً، فقال ابنه عاصم: أنا أتزوّجها يا أمير المؤمنين، فزوّجها منه، فأولدها أمَّ عاصم، تزوّجها عبد العزيز بن مروان فأولدها عمرَ بن عبد العزيز.

---

(١) عامر بن الظرب العدواني: حكيم خطيب رئيس من الجاهليين، كان إمام مضر وحكمها وفارسها، وممن حرم الخمر في الجاهلية، وهو أحد المعمرين في الجاهلية وأول من قرعت له العصا، وكان يقال له ذو الحلم وفيه قول الشاعر:

إن العصا قرعت لذي الحلم

«الزركلي ٣/ ٢٥٢».

ورُوِيَ أنّ بِلالًا لم يكذب منذ أسلم، فبلغ ذلك بعض من يحسده، فقال: اليوم أكذبه فسايره، فقال له: يا بلال ما سنُّ فرسكِ؟ قال: عَظْمَ، قال: فما جريه؟ قال: يُحضِر ما استطاع، قال: فأين تنزلُ؟ قال: حيث أضع قدمي، قال: ابنُ من أنت؟ قال: ابن أبي وأمي، قال: فكم أتَى عليك؟ قال: ليالٍ وأيامٌ، الله أعلم بعددها، قال: هيهات، أعيتْ فيك حيلتي، ما أتعبُ بعد اليوم أبدًا.

ذكر ما قيل في الوفاء والمحافظة والأمانة

قال الله عزّ وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النّساء: الآية ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٨].

ورُوِيَ: أنّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: عليك بصدقِ الحديث، ووفاءِ العهد، وحفظِ الأمانة، فإنها وصيّة الأنبياء.

كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس، خَتَنُ[١] رسول الله ﷺ على ابنته زينب، تاجرًا تضاربه قريشٌ بأموالهم، فخرج إلى الشام سنة الهجرة، فلما قدم، عرَض له المسلمون، وأسروه، وأخذوا ما معه، وقدموا به المدينة ليلًا، فلما وصلوا الفجرَ، قامت زينبُ على باب المسجد، فقالت: يا رسول الله، قد أجرتُ أبا العاص وما معه، فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرتِ ودفع إليه ما أخذوه منه، وعرضَ عليه الإسلام، فأبَى، وخرج إلى مكّة، ودعا قريشًا، فأطعمهم، ثم دفع إليهم أموالَهم، ثم قال: هل وفَيتُ؟ قالوا: نعم، قد أدّيتَ الأمانةَ وَوَفَيْتَ، قال: اشهدوا جميعًا، إني أشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وما منعني أن أسلم إلا أن يقولوا: أخذ أموالَنا، ثمّ هاجر، فأقرّه رسول الله ﷺ على النكاح. وتُوفّي في سنة اثنتي عشرة.

وقيل لمّا قوي أمرُ بني العباس وظهر، قال مروان بن محمد[٢] لعبد الحميد بن يحيىٰ[٣] كاتبه: إنّا نجِد في الكتب، أن هذا الأمرَ زائل عنا لا محالةَ،

(١) الختن: زوج البنت.
(٢) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي المعروف بالجَعْدي، آخر ملوك بني أميّة قتل سنة ٩١ هـ. «الأعلام ٧/٢٠٨».
(٣) هو عبد الحميد بن يحيىٰ المعروف بعبد الحميد الكاتب، من أئمة الكتّاب، عالم بالأدب=

وسيظهر الله هؤلاء القوم، يعني ولد العباس، فصِرْ إليهم، فإني لأرجو أن تتمكن منهم، فتنفعني في مخلفي، وفي كثير من أموري، فقال: وكيف لي بعلم الناس جميعًا أن هذا عن رأيك، وكلّهم يقول: إني غدرت بك، وصرت إلى عدوّك؟ وأنشد: [من الطويل]

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظهِرُ غدرَةً ... فمن لي بعُذرٍ يوسِع الناسَ ظاهِرُهْ

ثم قال: [من الوافر]

ولؤمٌ ظاهرٌ لا شكَّ فيه ... للائمةِ وعذري بالمعيبِ

فلما سمع مروان ذلك، علم أنه لا يفعل، ثم قال له عبد الحميد: إن الذي أمرتَني به، لأنفعُ الأمرين لك، وأقبحهما بي، ولك عليَّ الصبر معك، إلى أن يفتح الله عليك، أو أقتلَ معك.

والعرب تضرِب المثل في الوفاء بالسموأل بن عادياء الأزديّ، وقيل: إنه من ولد الكاهن بن هارون بن عمران، وكان من خبره، أن امرأ القيس بن حُجْر، أودعه أدراعًا مائة، فأتاه الحارث بن ظالم، ويقال الحارث بن أبي شمر الغسّانيّ، ليأخذها منه، فتحصّن منه السموأل، فأخذ ابنًا له غلامًا وناداه: إما أن أسلمتَ إليَّ الأدرع، وإما أن قتلت ابنك، فأبى أن يسلمَها، فقتل ابنه بالسيف، ففي ذلك يقول: [من الوافر]

وفَيتُ بأدْرُعِ الكِنْدِيِّ، إني ... إذا ما القومُ قد غَدُروا وفَيتُ
وأوصَى عاديًا يومًا بأن لا ... تُهَدِّمْ يا سموألُ ما بَنَيتُ

وفيه يقول الأعشى: [من البسيط]

كنْ كالسّموألِ إذْ طاف الهُمامُ به ... في جَحْفَلٍ كَسَواد الليل جَرّارِ
الأبلقُ الفردُ من تَيْمَاء منزِلُه ... حِصن حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدّارِ(١)
قد سامه خُطَّتَيْ خسفٍ فقال له ... قل ما بدَا لك إني سامعٌ حَارِ
فقال: ثكلٌ وغدرٌ أنت بينهما ... فاخْتَرْ وما فيهما حظٌّ لمختارِ
فحار غيرَ طويلٍ ثم قال له ... أُقتلْ أسيرَكَ إنّي مانع جاري

= ويضرب به المثل في البلاغة والترسُّل قتل بمصر سنة ١٣٢ هـ. «الأعلام ٣/ ٢٨٩».

(١) الأبلق: البلق: سواد وبياض، والأبلق: ارتفاع التحجيل إلى الفخذين. «اللسان ١٠/ ٢٥».

ومن وفاء العرب، ما فعله هانىء بن مسعود الشَّيْبانيّ[١]، حتى جرّ ذلك يوم ذي قار، وكان من خبره: أن النعمان بن المنذر لما خاف كسرى، وعلم أنه لا منجى منه ولا ملجأ، رأى أن يضع يده في يده، فأودع ماله وأهله عند هانىء، ثمّ أتى كسرى فقتله، وأرسل إلى هانىء يطالبه بوديعة النعمان، وقال له: إن النعمان كان عاملي، فابعث إليّ بوديعته، وإلا بعثت إليك بجنود تقتل المقاتلةَ وتَسْبى الذُّرِّية، فبعث إليه هانىء: أن الذي بلغك باطل، وإن يكن الأمر كما قيل، فأنا أحدُ رجلين، إما رجل استُودَع أمانةً، فهو حقيقٌ أن يردَّها على من استودعه إياها، ولن يسلّم الحرّ أمانته، أو رجلٌ مكذوبٌ عليه، وليس ينبغي للملك أن يأخذه بقول عدوّ، فبعث كسرى إليه الجنود، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب، وبعث معه الكَتِيبة الشَّهْبَاء والأساورة[٢]، فلما التقوا، قام هانىء بن مسعود، وحرّض قومه على القتال، وجرى بينهم حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها، وسنذكرها إن شاء الله في وقائع العرب، فانتصر هانىء وانهزمت الفُرْسُ، وكانت وقعة مشهورة، قيل: وكان مِرْداس[٣] في سجن عبيد الله بن زياد بن أبيه، فقال له السجّان: أنا أُحِبّ أن أوليَك حسنة، قال: فإن أذنتُ لك في الانصراف إلى دارك أفتُدلج عليّ؟ قال: نعم، فكان يفعل ذلك به، فلما كان ذات يوم، قتل بعضُ الخوارجِ صاحبَ شرطة ابن زياد، فأمر أن يقتل من في السجن من الخوارج، وكان مرداس إذ ذاك خارجًا، فقال له أهله: اتّقِ الله في نفسك، فإنك مقتول إن رجعت، فقال: ما كنت لألقى الله غادرًا، وهذا جبّار، ولا آمن أن يقتلَ السجّانَ، فرجع وقال للسجّان: قد بلغني ما عزم صاحبك عليه من قتل أصحابنا، فبادرت لئلا يلحقَك منه مكروه، فقال له السجّان: خذ أيّ طريقٍ شئت، فانجُ بنفسك.

خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المُهَلَّب إلى بعض جبابين الشام، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكي، فجاء سليمان ينظر إليها، فقال لها يزيد، وقد عجب

---

(١) هاني بن مسعود الشيباني: أحد الشجعان الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي، كان سيد بني شيبان، وقيل أدرك هانىء الإسلام ومات بالكوفة، ولكن هذا الخبر ضعيف، والأغلب أنه المترجَم جاهلي لم يدرك الإسلام. «الأعلام للزركلي ٨/٦٨».

(٢) الشهباء: الفرقة العظيمة من الجيش الكثيرة السّلاح والأساورة: قومٌ من العجم نزلوا البصرة.

(٣) مرداس: ابن جدير الحنظلي التميمي، أبو بلال، من عظماء الخوارج الشراة، وأحد الخطباء، شهد صفين مع الإمام علي، وأنكر التحكيم، سجنه عبيد الله بن زياد في الكوفة، ونجا من السجن، قتل في معركة مع جماعة ابن زياد سنة ٦١ هـ ـ ٦٨٠ م. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٠٢».

سليمان من حسنها: يا أَمَةَ الله، هل لك في أمير المؤمنين؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت إلى القبر، وقالت: [من الطويل]

فإن تسألاني عن هوايَ فإنّهُ بِحَوماءِ هذا القبرِ يا فتيانِ(١)
وإني لأَستحْيِيه والتُّربُ بيننا كما كنتُ أستحييه وهو يَرَانِي

ومن أحسن الوفاء، ما حُكيَ عن نائلة بنت الفُرافصة زوج عثمان بن عفّان رضي الله عنه: أن معاوية خطبها فردّته، وقالت: ما يعجب الرجال منّي؟ قالوا: ثناياكِ فكَسرتْ ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغَّب قريشًا في نكاح نساء كلب. وامرأة هُذْبة لما قُتِل زوجها، قَطَعت أنفَها وشفَتَيْهَا، وكانت جميلةَ الوجه، لئلا يُرغَبَ فيها.

وحيث ذكرنا الوفاء والمحافظة، فلنذكر بيعةَ خليفةٍ ويَمينٍ، ذكرها بعض أهل الأدب في تصنيفه، وهي: تبايع عبد الله الإمام أمير المؤمنين، بيعةَ طوعٍ وإيثار ورِضا واختيار واعتقاد وإضمار وإعلان وإسرار وإخلاصٍ من طويتك وصدقٍ من نيتك، وانشراحٍ من صدرك، وصحةٍ من عزيمتك، طائعًا غير مُكْرَه، ومنقادًا غيرَ مُجْبَر، مُقرًّا بفضلها، مُذْعِنًا بحقها، ومعترِفًا ببركتها، ومُعتَدًّا بحسن عائدتها، وعالِمًا بما فيها، وفي توكيدها من صلاح الكافّة، واجتماع كلمة الخاصّة والعامّة، ولَمِّ الشَّعثِ، وأمنِ العواقبِ، وسكون الدّهْمَاءِ(٢)، وعِزّ الأولياء، وقَمْع الأعداء، على أن فلانًا عبد الله وخليفته المفترضَ عليك طاعتُه، الواجب على الأمة إمامتُه وولايته، اللازم لهم القيام بحقه، والوفاء بعهده، لا تَشُكّ فيه، ولا تَرتاب به، ولا تُداهِن من أمره، ولا تميل، ولكنك وليّ أوليائه، وعدوّ أعدائه، من خاصّ وعامّ، وقريبٍ وبعيدٍ، وحاضرٍ وغائبٍ، متمسكٌ في بيعته بوفاء العهد، وذمّة العقد، سريرتُك مثل علانِيَتِك، وضميرك فيه وَفْق ظاهرك، على أن إعطاءك هذه البيعة من نفسك، وتوكيدك إياها في عنقك، لفلان أمير المؤمنين، على سلامة من قلبك، واستقامة من عزمك، واستمرار من هواك ورأيك، على أن لا تتأوّل عليه فيها، ولا تسعى في نقض شيءٍ منها، ولا تقعد عن نصرة له في الرخاء والشدّة، ولا تدعِ النُّصْحَ له في

(١) حوماء هذا القبر: موضع هذا القبر، وحومة القتال: معظمه وأشد موضع فيه. «اللسان ١٢/ ١٦٢».

(٢) الدّهماء: أكثر ليالي الشهر ظلمة وهي ليلة ٢٩ـ وإدهام الشيء: اسوداده، والدهماء: العدد الكبير من الناس، والدهماء: الأمر العظيم. «اللسان ١٢/ ٢١٢».

كل حال راهنة وحادثة، حتى تلقى الله مُوفِيًا بها، مؤدِّيًا للأمانةِ فيها، إذ كان الذين يبايِعون وُلَاة الأمر وخلفاء الله في الأرض ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: الآية ١٠] عليك بهذه البيعةِ التي طوّقتها عنقَك، وبسطت لها يدَكَ، وأعطيتَ ما شُرط عليك فيها، من وفاء، ونُصْح، ومُوَالاة، ومشايعة، وطاعة، وموافقة، واجتهاد، ومبالغة؛ عهد الله إن عهده كان مسؤولًا، وما أخذ الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام، وعلى من أخذ من عباده من وَكَدات مواثيقه، ومُحْكَمَات عهوده، وعلى أن تتمسك بها، فلا تُبدل، وتستقيم، فلا تميل، وإن نكثتَ هذه البيعة، وبدّلتَ شرطًا من شروطها، أو عفّيتَ رسمًا من رسومها، أو غيرّتْ حكمًا من أحكامها، معلنًا أو مسرًّا، محتالًا أو متأولًا، أو زُغْتَ عن السبيل التي يسلكها من لا يحتقر الأمانة، ولا يستحِلّ الغدرَ والخيانةَ، ولا يستجيزُ حلَّ العقودِ والعهودِ، فكلّ ما تملكه من عينٍ أو وَرِق، أو آنيةٍ أو عَقَارٍ أو سائمةٍ أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقدة، والأموال المدّخرة، صدقةٌ على المساكين، يحرّم عليك أن ترجعَ شيئًا من ذلك إلى مالكَ، بحيلة من الحيل، على وجه من الوجوه، أو سبب من الأسباب، أو مخرج من مخارج الإيمان، فكلّ ما تفيده عمرك من مال يقلّ خطره أو يجلّ فتلك سبيله إلى أن تتوفاك منيتك، أو يأتيك أجلك، وكل مملوك لك اليوم من ذكر وأنثى أو تملكه إلى آخر أيامك أحرار سائبون لوجه الله تعالى، ونساؤك يوم يلزمك الحِنْث وما تتزوّج بعدهن مدة بقائك طوالق ثلاثًا، طلاق الحَرَج والسنّة لا مثنويّة فيها ولا رجعة، وعليكَ المشيُ إلى بيت الله الحرام، ثلاثين حجّةً حافيًا راجلًا، لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها، ولا يقبل الله صرفًا ولا عدلًا، وخَذَلَك يوم تحتاج إليه، وبرَّأكَ من حوله وقوّته، وألجأكَ إلى حولك وقوّتك والله عزّ وجلّ بذلك شهيد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النّساء: الآية ٧٩] والله على ما تقول وكيل.

ذكر ما قيل في التواضع

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤]. وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: الآية ٨٨]. وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحَج: الآية ٣٤] قال: هم المتواضعون. وكان رسولُ الله ﷺ يأكل على الأرض متواضعًا.

وقال أنسُ بن مالك: كان رسول الله ﷺ يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوةَ المملوك ويركب الحمار، ولقد رأيته يوم حُنَين على حِمار، خِطَامه[١] ليف. وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزًّا فاعفُوا يُعزّكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رِفْعة فتواضعوا يرفعْكُم الله، وإن الصدقةَ لا تزيدُ المالَ إلا نماءً فتصدّقوا يزدْكمُ الله». وقال عروة بن الزبير[٢]: التواضعُ أحدُ مصايدِ الشرف، وفي لفظٍ «سلّم الشرف». وقال جعفر بن محمد: رأسُ الخيرِ التواضع، فقيل له: وما التواضعُ؟ فقال: أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّم على من لَقِيت، وأن تترك المِرَاء وإن كنت مُحِقًّا.

وعن علي رضي الله تعالى عنه ولم يذكر المِرَاء فيه وزاد فيه: وتكره الرياء والسمعة. وقيل: ثمرةُ القناعةِ الراحةُ، وثمرةُ التواضعِ المحبةُ، وقيل: التواضعُ نعمةٌ لا يفطن لها الحاسد، وقيل: التواضع كالوَهْدة يجتمع فيها قَطرها وقطر غيرها.

وقال عبد الله بن المعتز: متواضِع العلماء أكثرُهم علمًا، كما أن المكان المنخفض أكثرُ الأماكن ماءً.

وكان يحيىٰ بن خالد يقول: لست أرى أحدًا تواضع في إمارةٍ إلا وهو في نفسه أكبر مما نال من سلطانه.

ومن التواضع المأثور ما رُوِيَ: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ ويَدُه على المُعَلَّى بن الجارود فلقيته امرأة من قريش، فقالت له: يا عمر، فوقف لها، فقالت له: كنا نعرِفك مرّة عُمَيْرًا ثم صرتَ بعدَ عُمَيْرٍ عُمَرَ ثم صرت بعد عمرَ أَمِيرَ المؤمنين فاتقِ الله يابنَ الخطّاب، فانظرْ في أمور الناس، فإنّه من خاف الوعيد، قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت، خشيَ الفوت، فقال لها المعلّى، إيهًا، إليك يا أَمَةَ الله لقد أبكيتِ أمير المؤمنين، فقال له عمر أتدري مَنْ هذه؟ ويحك! هذه خَوْلة بنت حكيم التي سمع الله قولها من سمائه، فعمرُ أحرى أن يسمعَ قولها ويقتديَ به. وقال

---

(١) الخطام: الزّمام، ومن كل دابة مقدم أنفها وفمها، والمخاطم: الأنوف. «اللسان ١٢/١٨٦».

(٢) عروة بن الزبير: (٢٢ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٣ ـ ٧١٢ م) أبو عبد الله القرشي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان عالمًا بالدين صالحًا كريمًا، وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه، وبئر عروة بالمدينة منسوبة إليه، توفي بالمدينة. «الزركلي ٤/٢٢٦».

عديّ بن أَرْطاة[1] لإياس بن معاوية[2]: إنك لسريعُ المشيةِ، قال: ذلك أبعد من الكِبْر وأسرع إلى الحاجة. وقال عمر رضي الله عنه وقد قيل له مثل هذا: أنجحُ للحاجةِ وأبعد من الكِبْر. أما سمعت قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ﴾ [لقمَان: الآية ١٩].

وقد مدح الشعراء أهل التواضع، فمن ذلك قول أبي تمّام حبيب: [من الكامل]

مُتَبَذِّلٌ في القوم وهو مُبَجَّلٌ ... متواضع في الحَيِّ وهو مُعَظَّمُ

وقال آخر: [من الكامل]

متواضعٌ والنُّبْلُ يَحْرُس قدرَه ... وأخو النباهة بالنباهة يَنْبُلُ

وقال البحتريّ: [من الوافر]

دَنَوْتَ تواضعًا وعلَوْتَ مجدًا ... فشأناك انْحدارٌ وارتِفاعُ
كذاك الشمسُ تبعدُ أن تُسامَى ... ويدنو الضوءُ منها والشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيميّ: [من الطويل]

تواضَع لمّا زاده الله رِفْعةً ... وكلُّ رفيع قدرهُ متواضِعُ

وقال آخر: [من الوافر]

دَنوتَ تواضعًا وعلوت قدرًا ... ففيك تواضعٌ وعُلُوُّ شانِ

ذكر ما قيل في القناعة والنزاهة

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ﴾ [النحل: الآية ٩٧] أن المراد بالحياة الطيبة: القناعة.

---

(١) عدي بن أرطاة: أبو واثلة، الفزاري، أمير من أهل دمشق، كان من العقلاء الشجعان، ولّاه عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة ٩٩ هـ. فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب بواسط في فتنة أبيه يزيد بالعراق سنة ١٠٢ هـ - ٧٢٠ م. «الزركلي ٤/٢١٩».

(٢) إياس بن معاوية: المزني، أبو واثلة، قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، قال فيه الجاحظ: إياس من مفاخر مضر ومن حقد في القضاة، كان عجيب الفراسة وجيهًا عند الخلفاء، ولد سنة ٤٦ هـ - ٦٦٦ م، وتوفي بواسط سنة ١٢٢ هـ - ٧٤٠ م. «الأعلام للزركلي ٢/٣٣».

وقال رسول الله ﷺ: «القناعة مال لا يَنْفَدُ». وقال عليه السلام: «ما عَالَ مَنِ اقْتَصَد». ومن كلام علي رضي الله عنه: كفى بالقناعة مُلْكًا، وبحسن الخُلُق نعيمًا.

وقال جعفر بن محمد: ثمرة القناعة الراحة.

وقال علي بن موسى: القناعة تجمع إلى صيانة النفس، وعز القدرة طَرْح مؤونة الاستكثار والتعبّدِ لأهل الدنيا، ولا مَلَكَ طريقَ القناعة إلّا رجلان، إما متقلِّلٌ يريد أجرَ الآخرة، أو كريمٌ يتنزّه عن آثامِ الدنيا.

وقال الراضي: القانعُ يعيش آمنًا مطمئنًا مستريحًا مريحًا، والشَّرِهُ لا يعيش إلا تعِبًا نَصِبًا في خوفٍ وأذًى.

وقال بعض الحكماء: عزُّ النزاهةِ أحبُّ إليَّ من فرح الفائدة، والصبرُ على العسرةِ أحبُّ إليَّ من احتمال المِنَّة. وقال أبو ذؤيب الهُذَلِيّ: [من الكامل]

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليل تَقْنَعُ

وقال سالم بن وابصة(١): [من الطويل]

غِنَى النفسِ ما يكفيكِ في سَدِّ فاقةٍ ... فإن زاد شيئًا عادَ ذاك الغنَى فَقْرا

وقال أبو هلال العسكري: [من الوافر]

أَلَا إنَّ القناعة خيرُ مالِ ... لذي كَرَمٍ يروحُ بغيرِ مالِ
وإن يصبرْ فإن الصبر أولى ... بمَنْ عثرت به نُوَبُ الليالي
تَجمّلْ إن بُليتَ بسوء حالٍ ... فإنَّ من التجملِ حسنَ حالِ

ذكر ما قيل في الشكر والثناء

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] فالشكر مما يوجب الزيادة.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يُزَهِّدك في المعروفِ من لا يشكرك عليه، فقد يشكرُكَ عليه من لا يستمتِعُ بشيء منه، وقد يُدركُ من شكرِ الشاكر، أكثر مما أضاع الكافر، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٣٤؛ المائدة: الآية ٩٣].

---

(١) سالم بن وابصة: الأسدي، أمير، شاعر، من أهل الحديث، من التابعين، دمشقي سكن الكوفة، وولي إمره «الرقة» لمحمد بن مروان، واستمر بها نحو ثلاثين عامًا، ومات في آخر خلافة هشام بن عبد الملك نحو ١٢٥ هـ - ٧٤٣ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ٧٣».

ومما تعزيه الفرس إلى إسفنديار: الشكرُ أفضلُ من النعمةِ لأنه يبقى وتلك تفنى. وقال موسى بن جعفر: المعروفُ لا يفكّه إلا المكافأة أو الشكر، وقال: قلّة الشكر تُزهّد في اصطناع المعروف.

وقيل: إذا قصرت يدُكَ عن المكافأة، فليطلْ لسانك بالشكر. وقيل: للشكر ثلاث منازل: ضميرُ القلبِ، ونشرُ اللسانِ، ومكافأة اليدِ. قال الشاعر: [من الطويل]

أفادتكما النَّعْماءُ منِّي ثلاثةً ... يدي ولساني والضمِيرَ المُحَجَّبَا

وقال يحيىٰ بن زياد الحارثيّ بن كعب: [من الطويل]

حلفتُ بربِّ العِيسِ تَهْوِي بِرَكْبِها ... إلى حَرَمٍ ما عنه للناسِ معدِلُ
لما يبلغ الإنعام في النفعِ غايةً ... على المرءِ إلا مبلغ الشكرِ أفضلُ
ولا بلغتْ أيدي المُنيلينَ بَسْطةً ... من الطُّول إلا بسطةُ الشكرِ أطولُ
ولا ثقُلَتْ في الوزن أعباءُ مِنَّةٍ ... على المرء إلا مِنَّةُ الشكرِ أثقلُ
فمن شَكَر المعروفَ يومًا فقد أتى ... أخا العرفِ من حُسن المكافاة من علُ

وقال رجل من غطفان: [من البسيط]

الشّكر أفضلُ ما حاولتَ ملتَمِسًا ... به الزيادَة عندَ اللهِ والناسِ

وقال أبو بَجِيلة: [من الطويل]

شكرتُك إنّ الشكرَ حَبْلٌ من التُّقى ... وما كلّ من أوليتَه نِعمةً يقْضِي
ونَبّهتَ لِي ذِكْرى وما كان خامِلًا ... ولكنّ بعضَ الذِّكْر أنبهُ منْ بعضِ

وقال آخر: [من الطويل]

سأشكرُ عَمرًا ما تراختْ مَنِيَّتِي ... أَيادِيَ لم تُمْنَن وإن هِي جَلَّتِ
فتى غير محجوبِ الغِنى عن صديقه ... ولا مُظهِر الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خلَّتِي من حيث يَخفَى مكانُها ... فكانتْ قَذَى عينيهِ حتَّى تَجَلَّتِ

وقال أبو تمام: [من السريع]

كَمْ نِعمةٍ منك تَسَرْبَلتُها ... كأنها طُرَّةُ بُردٍ قَشِيب[1]
من اللواتي إن ونَى شاكر ... قامت لمُسْديها مقامَ الخطيب

---

(١) طرة: طرة الثوب: موضع هدبه ـ وهي حاشيته التي لا هدب لها ـ وطرة كل شيء: حرفه والجمع طُرَرْ وطِرار. «اللسان ٤/ ٥٠٠». برد قشيب: ثوب مخطط جميل.

وقال أبو عُيَيْنة بن محمد بن أبي عُتْبَة المُهَلَّبيّ: [من البسيط]

يا ذَا اليَمِينَين قد أوليتَني مِنَنًا تَتْرَى هي الغايةُ القُصْوى من المِنَنِ
ولستُ أسطيعُ من شكرٍ أجيءُ به إلا استطاعة ذِي جِسْم وذي بدنِ
لو كنتُ أعرِف فوقَ الشكرِ منزلةً أوفى من الشكرِ عند اللهِ في الثَّمَنِ
أخلصتُها لك من قلبي مُهَذَّبةً حَذْوًا على مثل ما أوليتَ من حَسَنِ

قالوا: وأجودُ ما قيل في عِظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشِّعر قول طُرَيح بن إسماعيل(١): [من الطويل]

سعيتُ ابتغاء الشكر فيما صنعتَ لي فقصّرتُ مغلوبًا وإنِّي لشاكرُ
لأنك تُولِيني الجميلَ بَدَاهةً وأنت لما استكثرتُ من ذاك حاقِرُ
فأَرْجِعُ مَغْبوطًا وترجِعُ بالَّتِي لها أوّلٌ في المكَرماتِ وآخرُ

وقال دعبِل: [من الطويل]

هجَرتُك لا عن جَفْوةٍ ومَلَالَةٍ ولا لِقِلّى أبطأتُ عنك أبا بَكرِ
ولكنَّني لما رأيتُك راغِبًا فأفرطتَ في بِرِّي عَجزتُ عن الشكرِ
فَمِلآنَ لَا آتيك إلا تعذُّرًا أزوركَ في الشهرينِ يومًا وفي الشهرِ

وقال البحتريّ: [من البسيط]

هاتِيك أخلاقُ إسماعيل في تَعبٍ من العُلَا والعُلَا منهنَّ في تَعبِ
أبثُ شكري فأُمسي منك في نَصَبٍ أَقْصِرْ فما ليَ في جَدواك منْ أَربِ
لا أقبلُ الدهرَ نَيْلًا لا يقوم له شكري ولو كان يُسديه إليَّ أَبِي
لما سألتُك وأفناني نَدَاك على أضعافِ شكري فلم أظْفَر ولم أَخِبِ

وقال أيضًا: [من الكامل]

إنِّي هجرتُك إذ هجرتُك وَحْشةً لا العَودُ يذهبُها ولا الإبداءُ
أخجلتَنِي بِنَدى يَدَيْك فسوّدتْ ما بيننا تلك اليدُ البيضاءُ
وقطعتَنِي بالجود حتَّى إنَّني مُتَخَوِّفٌ أن لا يكون لِقاءُ

---

(١) هو طريح بن إسماعيل بن عبيد بن أسيد الثقفي، أبو الصلت، شاعر الوليد بن يزيد الأموي وخليله، عاش إلى أيام الهادي العبّاسي، مات سنة ١٦٥ هـ. «الأعلام ٣/ ٢٢٦».

صِلَةٌ غَدَتْ للناس وَهيَ قطيعةٌ   عَجَبًا وبِرٌّ راح وهو جَفاءُ
ليواصِلَنَّك رَكْبُ شِعرٍ سائرٍ   يرْويهِ فيكَ لحسنهِ الأعداءُ
حتى يتِمَّ لك الثناءُ مُخَلَّدًا   أبدًا كما تمّتْ لك النَّعماءُ
فتظلّ تحسدُك الملوكُ الصّيدُ بي   وتظلّ تحسدُني بك الشعراءُ

وقال الحسن بن هانىء: [من الكامل]

قد قلتُ للعباس معتذِرًا   من عُظمِ شكريهِ ومعترِفا
أنت امرؤ جلَّلْتَنِي نِعَمًا   أوهتْ قُوَى شكري فقد ضَعُفَا
لا تُسْدِيَنَّ إليَّ عارِفَةً   حتَّى أقومَ بشكرها سَلَفَا

وقال الحسين بن الضحّاك للواثق من أبيات: [من الطويل]

إذا كنتُ من جَدْواك في كلِّ نعمةٍ   فلا كنتُ إنْ لم أَفْنِ عُمْرِي بشكركا

وقال البحتريّ: [من الطويل]

إذا أنا لم أشكر لنُعماك جاهِدًا   فلا نلتُ نُعْمَى بعدها تُوجب الشُّكرا

وقال عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر: [من الكامل]

إني لشاكرُ أَمْسِهُ ووليُّهُ   في يومه ومُؤَمِّلٌ عنه غدَا

وقال آخر: [من البسيط]

وكيف أنساك؟ لا نُعْماك واحدة   عندي ولا بالذي أوليتَ من قِدَمِ

وقال عبدُ الأَعْلى بن حمّاد: دخلتُ على المتوكّل، فقال لي: قد هممنا أن نصِلَك، فتدافعت الأمور، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر للهِمّة، لم يشكر للنعمة، وأنشدته قول الباهِليّ: [من البسيط]

لأشكرنَّك معروفًا هممتَ به   إن اهتمامَك بالمعروف معروفُ
ولا ألومُك إن لم يُمضِه قَدَرٌ   فالشيءُ بالقَدَر المحتومِ مصروفُ

وقال ابن الروميّ: [من الكامل]

كم من يدٍ بيضاءَ قد أسديتَها   تَثْنِي إليك عِنَان كلِّ وِدَادِ
شَكَر الإلهُ صنائعًا أوليتَها   سَلَكَتْ مع الأرواحِ في الأجسادِ

وقال آخر: [من الطويل]

وأحسنُ ما قال امرؤ فيك مِدْحةً تلاقَتْ عليها مِنَّةٌ وقَبُولُ
وشكرٌ كأن الشمسَ تعنَى بنشره ففي كلِّ أرضٍ مُخْبرٌ ورسولُ

ومن كلام الحسن بن وهب: من شكر لك على درجةٍ رفعتَه إليها، أو ثروةٍ أفدتَه إيّاها، فإن شكري لك على مهْجة أحييتَها، وحُشَاشةٍ أبقيتَها، ورَمَقٍ أمسكتَه، وقمتَ بين التَّلَف وبينه، ولكل نعمةٍ من نعم الدنيا حدٌّ يُنتهَى إليه، ومدًى توقَف عليه، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرْف، خلا هذه النعمةِ التي فاتَتِ الوصفَ، وطالتِ الشكرَ، وتجاوزتْ كلَّ قَدْر، وأتت من وراء كلِّ غاية، وردت عنَّا كَيْدَ العدوّ، وأرغمتْ أنفَ الحسود، نلجأ منها إلى ظِلٍّ ظليل، وكَنَفٍ كريم، فكيف يشكر الشاكر، وأين يبلغُ جهد المجهود.

وقال الشريف الرضيّ: [من الكامل]

ألبستني نِعَمًا على نِعَم ورفعتَ لي عَلَمًا على عَلِمَ
وعلوتَ بي حتى مشيتُ على بُسُطٍ من الأعناق والقِمَمِ
فلأشكرَنَّ يديك ما شكرت خُضْرُ الرِّياضِ مَصَانِعَ الدِّيَمِ
فالحمدُ يُبْقي ذِكَرَ كلِّ فتًى ويُبِينُ قَدْرَ مواقِعِ الكَرَمِ
والشكر مَهْرٌ للصنيعةِ إنْ طُلِبَتْ مُهُورُ عقائِلِ النِّعم

وقال أبو الحسن الكاتب المغربيّ: [من الطويل]

سأشكر نُعمَاك التي انبسطَتْ بها يَدِي ولساني فهو بالمَجْدِ يَنْطِقُ
وأُثنِي بما أوليتَنِي من صنيعَةٍ ومن مِنَّةٍ تَغْدُو عليَّ وتَطْرُقُ
وكلُّ امرىءٍ يرجو نداك مُوفَّقٌ وكلُّ امرىءٍ يُثْنِي عليك مُصَدَّقُ

وقال ابن رشيق القيروانيّ(١): [من الخفيف]

خُذْ ثَناءَ عليك غِبَّ الأيادي كَثَناءِ الرُّبَى على الأمطارِ
سَقَط الشكرُ وهو موجبُ نُعْما ك سُقُوطَ الأنواءِ بالأثمارِ

(١) ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي، ولد عام ٣٩٠ هـ في المسيلة بالمغرب ـ ٩٩٩ م، وتوفي سنة ٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٤ م وروى البعض أن وفاته كانت سنة ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١ م، وابن رشيق أديب نقاد باحث، له عدة كتب منها العمدة، الشذوذ في اللغة، تاريخ القيروان. «الزركلي ٢/ ١٩١».

ومن المُنْعِمِين من رأى أن الشكر بإظهار النعمة، أبلغ منه بالنطق باللسان، وعاقب على ذلك بالحِرْمان.

فمن ذلك ما رواه أبو هلال العسكريّ يسنده إلى العُتْبيّ قال: أراد جعفر بن يحيىٰ حاجةً كان طريقُه إليها على باب الأَصْمَعِيّ، فدفع إلى خادم له كيسًا فيه أُلُف دينار وقال: إني سأنزِل في رَجْعَتي إلى الأَصْمَعِيّ، ثم سيحدّثني ويُضحِكُني، فإذا ضحِكت، فضعِ الكِيسَ بين يَدَيْه، فلما رجع، ودخل إليه، رأى حبًّا[١] مكسورَ الرَّأس، وجَرَّةً مكسورةَ العُنُقِ، وقَصْعة مشعبة، وجَفْنة أعشارًا، ورآه على مُصلًّى بالٍ، وعليه بَرْنَكان[٢] أجْردُ، فغمز غلامَه أن لا يضعَ الكيسَ بين يديه، فلم يدع الأَصْمَعِيّ شيئًا ممّا يُضْحك الثَّكلان والغضبان إلا أورده عليه فلم يتبسم، ثمّ خرج، فقال لرجل يسايره: من استرعى الذئب ظَلَم، ومن زَرَع السبخة[٣] حصد الفقر، إني والله لما علمت أن هذا يكتم المعروف بالفعل، ما حفِلتُ بنشره له باللسان، وأين يقعُ مديحُ اللسان من آثار العيان؟ إن اللسان قد يكذِب، والحالُ لا تكذِب، ولله در نُصَيب حيث يقول: [من الطويل]

فعـاجُوا فَأثْنَوْا بـالـذي أنت أهلُه ... ولو سَكتوا أثنتْ عليك الحقائِبُ

ثم قال: أُعلمتُ أن ناووس أبرويز، أمدح لأبرويز من زُهَيْر لآل سِنَان؟ وقالت الحكماء: لسانُ الحالِ، أصدقُ من لسان الشكوى.

وقد أجاد ابن الروميّ في هذا المعنى فقال: [من البسيط]

حالي تَبُوح بما أَوْليتَ من حسَنٍ ... فـكـلُّ مـا تـدعـيـه غـيـرُ مـردودِ

كلّي هجاءٌ، وقتلي لا يحِلُّ لكم ... فما يداويكُمُ منّي سوى الجُودِ

وقالوا: شهاداتُ الأحوال، أعدلُ من شهادات الرجال.

---

(١) الحُبُّ: الخابية، والجرّة: الضخمة.
(٢) برنكان: ضرب من الثياب، وهو على وزن الزعفران: ضرب من الأكسية، وقيل: البرنكان: كساء من صوف له علمان. «لسان العرب ١٠/ ٤٠٠».
(٣) السبخة: أرض ذات ملح، أرض مالحة، أو مكان يُنبت الملح وتسُوخ في الأقدام. «اللسان ٣/ ٢٤».

ذكر ما قيل في الوَعْد والإنجاز

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وعدُ المؤمن كأخذٍ باليد». وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: الوعدُ مرضٌ في الجود، والإنجازُ دواؤه. ومن كلامه: المسؤولُ حُرٌّ حتَّى يَعِدَ، ومستَرَقٌ بالوعد حتى يُنْجِزَ.

وقال الزُّهْرِيُّ: حقيقٌ على من أزهر بالوعد، أن يُثمِرَ بالفعل.

وقال مسلم بن الوليد عن أبيه قال: سألتُ الفضل بنَ سَهْلٍ حاجة، فقال: أسُرُّك اليومَ بالوعد، وأحبوك غدًا بالإنجاز، فإني سمعتُ يحيىٰ بنَ خالد يقول: المواعيدُ شَبَكَةٌ من شِباك الكرام، يَصِيدون بها محامِد الأحرار، ولو كان المُعْطى لا يعد، لارتفعتْ مفاخرُ إنجاز الوعد، ونقص فضلُ صدقِ المقال.

وقال الأَبْرَش الكلبيُّ(١) لهشام بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، لا تصنع إليّ معروفًا حتى تَعِدَني، فإنه لم يأتني منك سَيْب على غير وعد، إلا هان عليَّ قَدْرُه، وقلّ منّي شكره، فقال له هشام: لئن قلتَ ذلك، لقد قال سيّدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلانِيّ: أنجعُ المعروف في القلوب، وأبردُه على الأكباد، معروفٌ منتظَرٌ مِن وعد لا يُكَدّرُ بالمطل.

وكان يحيىٰ بن خالد(٢) لا يقضي حاجةً إلا بوعد.

وقالت أعرابيّة لرجل: ما لك تعطِي ولا تَعِد، فقال: ما لكِ والوعد؟ قالت: ينفسِح به البصرُ، ويُنشرُ فيه الأملُ، وتطيبُ بذكره النفسُ، ويَرخَى به العيشُ، وتربحُ به المدحَ بالوفاء.

---

(١) الأبرش الكلبي: عطية بن الأسود الكلبي، شاعر شامي، كان في العصر الأموي، نظم أبياتًا يهجو بها مروان بن محمد، ويحرض اليمانيين على الثورة. فقتله مروان نحو ١٣٠ هـ ـ ٧٤٨ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٣٧».

(٢) يحيىٰ بن خالد: (١٢٠ ـ ١٩٠ هـ = ٧٣٨ ـ ٨٠٥ م) البرمكي، أبو الفضل، الوزير الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم، وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه، ولما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيىٰ وقلده أمره، واستمر على ذلك إلى أن نكب الرشيد بالبرامكة فقبض عليه وسجنه في الرقة إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ ـ ٨٠٥ م، وأخباره كثيرة جدًا. «الزركلي ٨/ ١٤٤».

قيل: كلّم منصور بن زياد[١] يحيىٰ بن خالد في حاجة لرجل فقال: عِدْه عنّي قضاءَها، قال: وما يدعوك أعزّك الله إلى العِدّة مع وجود القُدْرة؟ فقال يحيىٰ: هذا قول من لا يعرف موضِع الصنائع من القلوب، إن الحاجةَ إن لم تتقدمها بوعد ينتظر به نُجْحها؛ لم تتجاذبِ الأنفسُ بسرورها، ولم تتلذذ بتأميلها، وإن الوعد تطعُّمٌ، والإنجاز طعامٌ، وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحته، وتمطّق[٢] له وتطعّمه، ثم طَعِمه، فدع الحاجة تحتّم بالوعد، ليكونَ لها عند المصطنع إليه حسنُ موقعٍ، ولطفُ مَحلٍّ.

وقال عيسى بن ماهان[٣]: إني أُحِبُّ أن أَهِبَ بلا وعدٍ، وأُحِبُّ أن أَعِدَ، لأَخرجَ من جملة المخلفين، وأدخلَ في عدد الوافين، ويُؤْثَر عنّي كرم المُنْجزين، فإن من سبق فعلُه وعدَه، وُصِف بكرم فرد، وسقط عنه جميع ما ذكرت.

قال: ذَكر العباس المأمون فقال: إنه أَلْقَحَ معروفه عندي بالوعد، ونتجه بالنُّجح، وأرضعه بالزيادة، وشيَّبه بالتعهد، وهرَّمه باستتمامه من جِهاته، وهنأه بترك الامتنان به.

وشكا رجلٌ جعفرَ بن يحيىٰ لأبيه: أنه وعده وعدًا ومَطَله به، فوقّع: يا بَنِيَّ، أنتم معاقل الأحرار ومَظانّ المطالب ومعادِنُ الشكوى، فكونوا سَواءً في الأقوال والأفعال، فإن الحُرَّ، يدّخِر وعدَ الحر ويعتقده وينفقه قبل مَلْكته، فإن أخفق أملُه، كان سببًا لذمّه واتّهامه وسوءِ ظنّه، حتّى يوارِيَ قُبْحُ ذلك حُسنَ يقينه، فأنجزِ الوعدَ، وإلا فأَقْصِرِ القولَ، فإنه أعذرُ والسلام.

قال: كُلِّم المأمونُ في الحسين بن الضحّاك الخليع أن يردّ عليه رزقَه، فقال: أليس هو القائل في الأمين: [من الطويل]

فلا فَرِح المأمونُ بالمُلْك بعدَه ولا زالَ في الدُّنيا طَرِيدًا مشردا

---

(١) منصور بن زياد: أحد القادة العباسيين، كان حيًا على عهد الرشيد العباسي، وعندما ولي الرشيد هرثمة بن أعين ولاية مصر، اتجه هرثمة هذا هو ومنصور بن زياد إلى إفريقية سنة ١٧٨ هـ. «ولاه مصر للكندي ص ١٦١».

(٢) تمطق: التمطّق: التذوّق.

(٣) عيسى بن ماهان: أحد القادة في مطلع العصر العباسي، وثب عليه الجند وقتلوه بعد خروج زياد بن صالح على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٥ هـ. «الكامل في التاريخ ٥/ ٤٥٥».

فما زالوا يتلطفون معه في القول، إلى أن أَذِن له أن يُنْشِده، فأنشده: [من الطويل]

أَبِنْ لي فإني قد ظَمِئْتُ إلى الوعدِ … متى تُنْجِزِ الوعدَ المؤكَّدَ بالعهدِ؟
أُعِيذُك من صَدِّ الملوك وقد ترى … تقطُّعَ أنفاسي عليك من الوَجْدِ
فما لي شَفِيعٌ عند حسنك غيره … ولا سببٌ إلا التمسكَ بالوُدِّ
أيبْخَلُ فَرْدُ الحُسنِ فردُ صفاتِهِ … عليّ وقد أفردتُه بِهَوًى وحدي
رأى اللهُ عبدَ اللهِ خيرَ عباده … فملّكه واللهُ أعلمُ بالعبد

فقال له المأمون: هذه بتلك، وقد عفونا عنك فقال: يا أمير المؤمنين، فأتبعْ عفوَك إحسانَك، فأمر بردِّ أرزاقه عليه، وكانت في كلّ شهر خَمْسَمِائةِ دينارٍ، فقال المأمون: لولا أني نويتُ عفوًا عنه، وجعلت ذلك وعدًا له من قبل، ما فعلته، وإنما ذكرُ الوعد في تشبيبه يذكرنيه.

وقال بعض ملوك العجم: البخلُ بعد الوعد، يضعفُ قبحه على البحل قبلَه، فما قولك في أمرٍ، البخل أحسن منه؟

وقال بعض الشعراء: [من الطويل]

ولي منك مَوْعودٌ طلبتُ نجاحَهُ … وأنت امرؤٌ لا تُخلف الدهرَ مَوْعِدَا
وعوّدتَني أن لا تزالَ تُظلُّني … يدٌ منك قد قدَّمتَ من قبلها يَدَا
فلو أن مجدًا أو ندًى أو فضيلةً … تُخَلِّد شيئًا كنتَ أنت المخلَّدَا

وقال بشّار: [من الكامل]

وعدُ الكريمِ يَحُثُّ نائِلَه … كالغَيْثِ يَسْبِقُ رعدُهُ مَطَرَهْ

وقال ابن الروميّ: [من الخفيف]

يتخَطّى العِدات عمدًا إلى البَذْ … لِ كسَحِّ الحَيَا بلا إيماضِ(١)

ذكر ما قيل في الشفاعة

قال الله عزّ وجل: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: الآية ٨٥].

(١) الإيماض: ومض البرق وغيره: يمض ومضًا ووميضًا ومضانًا وتوْماضًا: أي لمع لمعًا خفيًا ولم يعترض في نواحي الغيم، وومض البرق إيماضًا: المعنى السابق نفسه، وسحّ الحيا: نزول المطر. «لسان العرب ٧/ ٢٥٢».

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسألُ العبدَ عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهًا، فهل نصرتَ به مظلومًا، أو قمعتَ به ظالمًا، أو أعنتَ به مكروبًا»؟ وقال ﷺ: «أفضلُ الصدقةِ أن تعين بجاهك من لا جاهَ له» وقال: «الخلقُ عيالُ اللهِ، فأحبُّهم إليه، أنفعُهم لعياله». وقال: «الشفيعُ جَناحُ الطلب».

وقيل: قصد ابن السمّاكِ الواعظ رجلًا في حاجةٍ لرجلٍ سأله الشفاعةَ فيها، فقال ابن السمّاك: إني أتيتك في حَاجةٍ، وأن الطالبَ والمطلوبَ إليه عزيزان إن قُضيتْ الحاجةُ، وذليلان إن لم تُقْضَ، فاخترْ لنفسك عزَّ البذل، على ذلّ المنع، واختر لي عزَّ النُّجح، على ذلّ الردّ، فقضى حاجته.

قال أبو تمام: [من الكامل]

وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعةً   من جاهه فكأنها من مالهِ

وقال رجل لبعض الملوك: إن الناس يتوسّلون إليك بغيرك، يسألون معروفَك، ويشكرون غيرَك، وأنا أتوسّلُ إليك بك، ليكون شكري لك لا لغيرك.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

إذا أنتَ لم تَعطفْك إلا شفاعةٌ   فلا خيرَ في ودٍّ يكون بشافِعِ

ذكر ما قيل في الاعتذار والاستعطاف

رأيتُ جماعةً من أهل الأدب قد ألحقوا الاعتذار والاستعطاف بالمدح، كالحمدونيّ في تذكرته، وغيره، فلذلك أضفته إليه، وجعلته من فصوله. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ [النّور: الآية ٢٢].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه المسلمُ، فلم يقبلْ، لم يَرِدْ على الحوض».

وقال عليّ رضي الله عنه: أَوْلَى الناس بالعفو، أقدرُهم على العقوبة. وقال: العفوُ زكاةُ الظَّفرِ. وقال: إذا قدرتَ على عدوِّك، فاجعلْ عفوَكَ عنه شكرَ المقدرةِ عليه.

وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: لا تعاجلِ الذنبَ بالعقوبة، واجعلْ بينهما للاعتذار طريقًا. وقال: أوسعُ ما يكونُ الكرمُ بالمغفرةِ، إذا ضاقت بالذنبِ المعذرة.

وقال جعفر بن محمد الصادق: شفيعُ المذنبِ إقرارُه، وتوبةُ المجرمِ الاعتذارُ.

وقالوا ما أذنبَ من اعتذر، ولا أسى من استغفر.

وأوصى بعض الحكماء ولدَهُ فقال: يا بنيّ لا يعتذرُ إليك أحدٌ من الناس، كائنًا من كـان، في أي جـرمٍ كان، صادقًا كان أو كاذبًا، إلا قبلتَ عذرَه، فكفاك بالاعتذار بِرًّا من صديقك، وذلاً من عدوِّك.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

فإن كنتَ ترجو في العقوبةِ راحةً فلا تزهدَنْ عندَ التجاوزِ في الأجْرِ

وقال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ: الاعتذارُ ذِلّةٌ، ولا بدَّ منه، لأن الإصرارَ على الذنب، فيما بينك وبين خالقك هلكةٌ، وفيما بينك وبين صديقِك فُرقةٌ، وعند سائر الناس مثلبةٌ وهُجنة، فعليك به، إذا واقعت الذنبَ، وقارفت الجرمَ، ولا تستنكف من خضوعك وتذلّلِكَ فيه، فربما استثيرَ العزُّ من تحت الذلة، واجتُنِيَ الشرفُ من شجرة النذالة، وربّ محبوبٍ في مكروه، والمجدُ شهدٌ يُجتَنَى من حنظل.

قال: ومما خُصّ به الاعتذارُ أنّ الحقَّ لا يثبتُ لباطلِه، والحقيقةَ لا تقومُ مع تخييله وتمويهه، وأنّ ردَّه لا يسعُ مع الكذبِ اللائح في صفحاته. . وقالوا: لا عذرَ في ردِّ الاعتذار، والمعتذرُ من الذنبِ، كمن لا ذنبَ له، وهذه خَصلةٌ لا يشركُهُ فيها غيرُهُ.

قال بعضهم: كنت بحضرة عُبيد الله بن سليمان[1]، فوردت عليه رقعةٌ من جعفر بن توّابة، نسختُها: قد فتحتَ للمظلوم بابَك، ورفعتَ عنه حجابَك، فأنا أحاكمُ الأيّام إلى عدلك، وأشكو صُروفَها إلى فَضلك، وأستجيرُ من لؤم غلَبتِها بكرم قدرتِك، وحسن ملكتِك، فإنها تؤخّرني إذا قدَّمَتْ، وتَحرِمني إذا قسّمتْ، فإن أعطت أعطت يسيرًا، وإن ارتجعتْ ارتجعتْ كثيرًا، ولم أشكُها إلى أحد قبلك، ولا أعددتُ الانتصافَ منها إلا إلى فضلك، ولي مع ذمام المسألة لك، وحقِّ الظُّلام إليك، ذمامُ تأميلك، وقَدمُ صدقٍ في طاعتك، والذي يملأ من النَّصَفَة يدي، ويُفرغَ الحقَّ عليّ،

(١) عبد الله بن سليمان: (٢٢٦ ـ ٢٨٨ هـ = ٨٤٠ ـ ٩٠١ م) أبو القاسم، ابن وهب الحارثي، وزير، من أكابر الكتاب، استوزره المعتمد العباسي، وأمره بعده المعتضد، واستمرت وزارته عشر سنين إلى وفاته، «الزركلي ٤/ ١٩٤».

حتى تكونَ لي محسِنًا، وأكونَ بك إلى الأيام مقرّبًا، أن تخلطني بخواصِّ خدمك الذين نقلتهم من حدّ الفراغِ إلى الشغل، ومن الخمول إلى النباهةِ والذِّكر، فإن رأيتَ أنْ تُعْدِيَني فقد استعديتُ إليك، وتنصُرَني فقد عذْتُ بك، وتُوسعَ لي كنفَكَ فقد أويتُ إليه، وتسِمَني بإحسانك فقد عوّلت عليه، وتستعملْ يدي ولساني فيما يصلحان له من خدمتك، فقد درستُ كتبَ أسلافك، وهم القدوةُ في البيانِ، واستضأتُ بآرائهم، واُقتفوتُ آثارَهم اقتفاءً جعلني بين وحشيّ الكلامِ وأنيسه، ووقفني منه على جادةٍ متوسطةٍ، يرجعُ إليها العالي، ويلحق بها المقصّر التالي، فعل إن شاء الله. قال: فعل إن شاء الله! قال: فجعل عبيدَ الله يردِّدُها ويستحسنها؛ ثم قال: هذا أحقُّ بديوان الرسائل.

ومن الاستعطاف: ما حكيَ أن محمد بن الحنفيّة(١)، جرى بينه وبين أخيه الحسين، كلامٌ افترقا بسببه متغاضبين؛ فلما وصل محمد إلى منزله، كتب إلى الحسين رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن لك شرفًا لا أبلغُهُ، وفضلًا لا أدركُه، أبونا عليٌّ، لا أفضلُكَ فيه ولا تفضلني، وأمّي امرأة من بني حنيفة، وأمّك فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ، ولو كان ملءُ الأرضِ نساءً مثلَ أمي ما وفين بأمّك، فإذا قرأتَ رقعتي هذه فالبسْ رداءَك ونعليك وتعالَ لتترضّاني، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام. فلبس الحسين رداءَه ونعليه وجاء إلى محمد وترضّاه.

وقيل: وقَّع جعفر بن يحيىٰ في رقعة معتذرٍ: قد تقدمتْ طاعتُكَ ونصيحتُكَ، فإن ثبتَ منك هفوةٌ فلن تغلبَ سيئةٌ حسنتين.

وقال شاعر: [من الخفيف]

إِرضَ للسائلِ الخضوعَ وللقا رفِ ذنبًا مَذلّةَ الاعتذارِ

قال أبو هلال العسكريّ: لم يُروَ عن أحد قبل النابغة الذبيانيّ في الاعتذار شعرٌ؛ فمن أجودِ ما رُويَ له فيه، قوله حين سعى به المنخّل

(١) محمد بن الحنفية: (٢١ ـ ٨١ هـ = ٦٤٢ ـ ٧٠٠ م) ابن الإمام علي بن أبي طالب، أبو القاسم، أخو الحسن والحسين لأبيهما، كان واسع العلم ورعًا، وأحد الأبطال الشجعان في صدر الإسلام، أخذ واصل بن عطاء علم الكلام عنه، ولد وتوفي بالمدينة. «طبقات المعتزلة ص ١٥، والأعلام للزركلي ٦/ ٢٧٠».

اليشكري[١] إلى النعمان، وزعم أنه غشيَ المتجرّدةَ حظيّة النعمان، وذلك حين وصفها النابغة في شعره فقال: [من الكامل]

وإذا لمستَ، لمستَ أخثمَ جاثمًا — متحيِّزًا بمكانه ملءَ اليدِ[٢]
وإذا طعنتَ، طعنتَ في مستهدِفٍ — رابي المجسّةِ بالعبير مقرمَدِ[٣]
وإذا نزعتَ، نزعتَ من مستحصِف — نزعَ الحَزَوَّر بالرِّشاء المحصَدِ[٤]

فقال المنخّل للنعمان: هذا وصفُ من ذاقها، فوقَر ذلك في نفس النعمان، ثم وفد عليه رهطٌ من بني سعد بن زيد مناة من بني قُرَيع، فأبلغوه أن النابغة ما يزال يذكرها ويصف منها، فأجمع النعمانُ على الإيقاع بالنابغة، فعرَّفه بذلك عِصام حاجب النعمان، وهو الذي قيل فيه: [من الوافر]

* نفسُ عِصامٍ سوّدتْ عِصاما *

فانطلق النابغةُ إلى آل غسّان وكانوا قتلوا المنذرَ والدَ النعمان، فزاده لحاقُ النابغة بهم حشمة؛ ثم اتصلت بالنعمان كثرة مدائح النابغة لهم، فحسدهم عليه وأمّنه وراسله في المصير إليه، فأتاه وجعل يعتذر ممّا قذف به ومن مدحه آل غسّان فقال: [من الطويل]

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبَةً — وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلّغتَ عني جناية — لَمُبلغُك الواشي أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستبقٍ أخا لا تَلُمُّهُ — على شعثٍ! أيّ الرجال المهذبُ؟
فإن أكُ مظلومًا، فعبدٌ ظلمتَه — وإن تك ذا عُتبى، فمثلُكَ يعتبُ

يقول: مثلك يعفو ويُحسِنُ وإن كان عاتبًا، وفي كرمك ما يفعلُ ذلك، ولك العتبى والرجوع إلى ما تحبّ. ومنه قوله أيضًا للنعمان: [من الطويل]

أتاني أبيتَ اللّعنَ! أنك لمتني — وتلك التي تستكُّ منها المسامعُ

---

(١) المنخل اليشكري: شاعر جاهلي، كان ينادم النعمان بن المنذر، وهو الذي سعى بالنابغة الذبياني إلى النعمان في أمر «المتجردة». توفي نحو سنة ٢٠ ق.هـ ـ نحو ٦٠٣ م. «الشعر والشعراء ص ٢٦٠، والأعلام للزركلي ٧/ ٢٩١».

(٢) أخثم: خثم الشيء: عَرَّضَه، وأنف أخثم: عريض الأرنبة.

(٣) مقرمد: كل ما طلي به، ثوبٌ مقرمد بالزعفران: أي مطلي به، والمقرمد: المضيق. «لسان العرب ٣/ ٣٥٢».

(٤) الحزوَّر: الغلام إذا اشتد وقوي وخدم. «اللسان ٤/ ١٨٦». والرشاء: الحبل، والمحصد: المفتول.

مقالةُ أن قد قلتَ سوف أناله وذلك من تِلقاءِ مثلِكَ رائعُ
فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقِش في أنيابها السمُّ ناقعُ[١]
وكَلَّفتني ذنبَ امرىءٍ وتركته كذي العُرّ يُكوى غيرُه وهو راتعُ[٢]

إلى أن قال: [من الطويل]

فإن كنتُ، لا ذو الضِّغْن عني مكذَّبٌ ولا حَلِفي على البراءةِ نافعُ
ولا أنا مأمونٌ بشيءٍ أقوله وأنت بأمرٍ لا محالةَ واقعُ
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقال أيضًا: [من البسيط]

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قَرارَ على زأرٍ من الأسدِ
مهلًا، فداءٌ لك الأقوامُ كلُّهم وما أُثمِّرُ من مالٍ ومن ولدِ
لا تقذفنّي بركنٍ لا كِفَاءَ به وإن تأثّفك الأعداءُ بالرِّفَدِ[٣]
ما قلتُ من سيىء ممّا أُتيتَ به إذًا فلا رفعتْ سوطي إليّ يدي

قال: فخلع عليه النعمان خِلعَ الرضى، وكنّ حبراتٍ خُضرًا مطَّوقةً بالجوهر قال العسكريّ: ولم يسلك أحد طريقته فأحسن فيها كإحسان البحتريّ، فمن اعتذاراته قوله في قصيدته التي أوّلها: [من المتقارب]

* لوت بالسلام بنانا خضيبا *

قال منها: [من المتقارب]

فدَيناك من أيّ خطبٍ عَرَى ونائبةٍ أوشكتْ أن تنوبا
وإن كان رأيُك قد حَالَ فيَّ وأوليتني بعدَ سُرٍّ قُطوبا
يريبُنيَ الشيءُ تأتي به وأكبرُ قدرَك أن أستريبا

(١) الضئيلة: الحية الدقيقة. «اللسان ١١/ ٣٨٩». ناقع: بالغ وقاتل، وقد نقعه أي قتله. «اللسان ٨/ ٣٦٠».

(٢) العر: الجرب، واستعر الجرب الإبل: فشا فيهم. «اللسان ٤/ ٥٥٥». راتع: الرتع: الرعي في الخصب، وأرتعت الأرض: كثر كلؤها. «اللسان ٨/ ١١٣».

(٣) تأثفك: تأثفوا بالمكان: أي أقاموا فلم يبرحوا، وتأثفوا على الأمر: تعاونوا ـ والآثف: التابع ـ ومعنى البيت: «أي لا ترمني بركن لا مثل له، وإن تأثفك الأعداء واحتوشوك متوازرين أي متعاونين». «لسان العرب ٩/ ٣ و٤».

وأكره أنْ يتمادى عليَّ سبيلُ اغـ ... ـترارِ فألقى شَعوبا
أكذّبُ نفسي بأن قد سخطتَ ... وما كنتُ أعهد ظنّي كذوبا
ولو لم تكن ساخطًا لم أكن ... أذمُّ الزمانَ وأشكو الخطوبا
أيُصبح ودِّيَ في ساحتيـ ... ـك طَرْقًا ومرعايَ مَحْلًا جديبا[١]
وما كان سخطُك إلا الفراقُ ... أفاضَ الدموعَ وأشجى القلوبا
ولو كنتُ أعرفُ ذنبًا لما كا ... ن خالجني الشكُّ في أن أتوبا
سأصبرُ حتى ألاقي رضا ... ك إما بعيدًا وإما قريبا
أراقبُ رأيَك حتى يصحَّ ... وأنظرُ عَطفَك حتى يثوبا

وقوله: [من الطويل]

عَذيرِي من الأيام رنّقنَ مشربي ... ولقَّينني نحسًا من الطيرِ أشأما[٢]
وأكسبنني سخط امرىءٍ بتُّ مَوْهِنًا ... أرى سخطه ليلًا مع الصبح مظلما
تبلّج عن بعض الرضى، وانطوى على ... بقيةِ عتبٍ شارفَتْ أن تَصَرَّما
إذا قلتُ يومًا: قد تجاوز حدُّها ... تلبَّثَ في أعقابها وتلوّما
وأصْيدُ إنْ نازعتُه الطرفَ ردّهُ ... قليلًا، وإن راجعتُه القول جمجما
ثناه العِدا عني، فأصبح مُعرِضًا ... ووهَّمه الواشون حتى توهّما
وقد كان سهلًا واضحًا فتوعّرت ... رباه، وطَلْقًا ضاحكًا فتجهّما
أمتّخذٌ عندي الإساءة محسنٌ ... ومنتقمٌ مني امرؤ كان مُنعما
ومكتسِبٌ فيَّ الملامةَ ماجدٌ ... يرى الحمدَ غُنمًا والملامةَ مَغْرما
يخوِّفُني من سوءِ رأيك معشرٌ ... ولا خوفَ إلا أن تجورَ وتظلما
أعيذُك أن أخشاك من غير حادثٍ ... تَبَيَّنَ، أو جُرمٍ إليك تقدما
ألستُ الموالي فيك نظمَ قصائدٍ ... هي الأنجمُ اقتادت مع الليل أنجما؟
أعِذْ نظرًا فيما تسخطْتَ، هل ترى ... مقالًا دنيئًا أو فَعالًا مذمّما؟

---

(١) الطَّرْقُ: الماء المجتمع الذي خيض فيه وبيل وبُعْر فكدر، والجمع أطراق، وطرقت الإبل الماء إذا بالت فيه وبعرت، والطرق أيضًا: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. «اللسان ١٠/ ٢١٦».

(٢) رنَّقَنَ: الرنق، تراب في الماء من القذى ونحوه، وترنق: كَدِر. «اللسان ١٠/ ١٢٦ و١٢٧».

وكـان رجـائـي أن أؤوب مـمـلَّكـا ... فـصـار رجـائـي أن أؤوب مـسـلّمـا
حياءٌ فلم يذهبْ بيَ الغيُّ مذهبًا ... بعيدًا، ولم أركب من الأمر مُعظَما
ولم أعرفِ الذنبَ الذي سؤتني له ... فـأقـتـلَ نـفـسـي حـسـرةً وتـنـدّمـا
ولـو كـان مـا خُـبِّـرتُـه أو ظـنـنـتـهُ ... لـمـا كـان غـروًا أن ألـومَ وتـكـرمـا
أذكِّرك الـعـهـدَ الـذي لـيـس سؤددًا ... تناسيه، والـودَّ الـصـحـيـحَ المسلّما
وما حـمـلَ الـركـبـانُ شـرقًـا ومغربًا ... وأنـجـد فـي أعـلـى الـبـلاد وأتـهـمـا
أُقـرُّ بـمـا لـم أجـنِـهِ مـتـنـصّـلًا ... إلـيـك، عـلـى أنـي إخـالُـكَ ألـومـا
ليَ الذنبُ معروفًا. فإن كنتُ جاهلًا ... بـه، فـلـك الـعـتـبـى عـليّ وأنـعـمـا
ومـثـلُـكَ، إن أبـدى الـفَـعـال أعـاده ... وإنْ صُـنِـعَ الـمـعـروفُ زاد وتـمّـمـا

وقال سعيد بن حُميد[1]: [من المنسرح]

لـم آتِ ذنـبًـا، فـإن زعـمـت بـأن ... أتـيـتُ ذنـبًـا، فـغـيـر مـعـتـمـدِ
قد تطرِفُ الكفُّ عينَ صاحبِها ... فـلا يـرى قـطـعَـهـا مـن الـرشـدِ

وقال آخر: [من الطويل]

وكنتُ إذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسي ... ووجهُكَ من ماءِ البشاشة يقطُر
فمن ليَ بالعين التي كنتَ مرّةً ... إليَّ بها في سالف الدهر تنظرُ؟

وقال آخر: [من الخفيف]

اغـتـفـرْ زلّتـي لـتُـحـرز فـضـل الـ ... ـعـفـوِ عـنـي ولا يـفـوتُـكَ أَجـرِي
لا تـكِـلْـنـي إلـى الـتـوسّـلِ بـالـعـذ ... رِ لـعـلّـي أن لا أقـومَ بـعـذري

وقال بعض فضلاء الأندلس: [من الكامل]

إني جنيتُ ولم يزلْ أهلُ النهى ... يَـهـبـونُ لـلـجـانـيـن مـا يـجـنـونَـهُ
ولقد جمعتُ من الذنوبِ فنونَها ... فاجمعْ من الصفحِ الجميلِ فنونَهُ
مَن كان يرجو عفوَ مَن هو فوقه ... فليعفُ عن ذنبِ الذي هو دونَهُ

---

(١) هو سعيد بن حميد، أبو عثمان، كاتبٌ مترسّل، من الشعراء، أصله من النهروان، من أبناء الدهاقين، أكثر أخباره مع فضل الشاعرة وله مناقضات معها مات نحو سنة ٢٥٠ هـ. «الأعلام ٣/ ٩٣».

الباب الثاني

من القسم الثالث من الفن الثاني

في الهجاء، وفيه أربعة عشر فصلًا

ما قيل في الهجاء ومن يستحقّه.

ما قيل في الحسد.

ما قيل في السعاية والبغي.

ما قيل في الغيبة والنميمة.

ما قيل في البخل واللؤم وأخبار البخلاء واحتجاجهم.

ما قيل في التطفيلِ ويتّصلُ به أخبار الأَكَلَة والمؤاكلة.

ما قيل في الجبن والفرار.

ما قيل في الحمق والجهل.

ما قيل في الكذب.

ما قيل في الغدر والخيانة.

ما قيل في الكبر والعجب.

ما قيل في الحرص والطمع.

ما قيل في الوعد والمطل.

ما قيل في العيّ والحَصَر.

ذكر ما قيل في الهجاء ومن يستحقه

قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧]. فهذه رخصة لمن ظلم في الانتصار.

وقال حسّان بن ثابت الأنصاريّ يردّ على أبي سفيان بن الحارث: [من الوافر]

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغَلةً فقد برح الخفاءُ[1]

(١) المغلغلة: الرسالة، ورسالة مغلغلة: محمولة من بلد إلى بلد. «لسان العرب ١١/ ٥٠٥».

هجوتَ محمَّدًا، فأجبتُ عنه ... وعندَ اللهِ في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ... فشرّكما لخيركما الفداءُ
لنا في كلِّ يومٍ من معدٍّ ... سبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه ... وبحري لا تكدّرُهُ الدِّلاءُ
فإنّ أبي ووالدتي وعِرضي ... لعرضِ محمَّدٍ منكم وِقاءُ

ويستحقّ الهجاءَ من اتصف بسوءِ الخصال، واتسم بأخلاق الأرذال والأنذال، وجعل اللؤم جلبابَه وشعارَه، والبخل وِطاءه ودثاره، وسأذكر جِماع ما اتصفوا به من سوء الفعال، وأسّسوا بنيانهم عليه من قبح الخلال.

قال بعض الحكماء: أربعةٌ من علامات اللؤم: إفشاءُ السرّ، واعتقادُ الغدر، وغِيبة الأحرار، وإساءةُ الجوار.

وسأل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه، فتلكأ عليه وأبى أن يخبرَه فأقسم عليه فقال: حسودٌ، كنودٌ، حقودٌ، فقال عبد الملك: ما في إبليس شرٌّ من هذه الخلال؛ فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال: لقد انتحل الشرَّ بحذافيره، ومرق من جميع خلال الخير، وتأنّقَ في ذمّ نفسه، وتجرَّدَ في الدلالة على لؤم طبعه، وأفرط في إقامة الحجّةِ على كفره، وخرج من الخلال الموجبة رضي ربّه.

قال أبو تمام: [من البسيط]

تأنّستْ بذميمِ الفعلِ طلعتُه ... تأنُّسَ المقلة الرمداء بالظلَمِ

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أربعةٌ، من كنّ فيه فهو منافقٌ، مَن إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلفَ، وإذا عاهد غدرَ، وإذا أؤتمن خان».

وقالوا: اللئيمُ كذوبُ الوعدِ، خؤونُ العهدِ، قليلُ الرفدِ. وقالوا: اللئيم إذا استغنى بطر، وإذا افتقر قنط، وإذا قال أفحش، وإذا سئِلَ بخل، وإن سأل ألحَّ، وإن أُسدِيَ إليه صنيعٌ أخفاه، وإن استُكتمَ سرًّا أفشاه، فصديقه منه على حذر، وعدوّه منه على غَرَر[1].

وإنَّ للشعراء والبلغاء في الذمّ والهجاء نظمًا ونثرًا سنورد منه طُرَفًا، ونشرحُ ما يجعل ضوء النهار على المقول فيه سَدَفًا[2].

(١) الغرر: الغفلة، والتعرّض للهلكة. «اللسان ٥/ ١٦».
(٢) السدف: الظلام الدامس.

فمن ذلك ما قاله أحمد بن يوسف الكاتب في بني سعيد بن مسلم بن قتيبة: محاسنُهم مساوىءُ السِّفَل، ومساوئهم فضائحُ الأمم، وألسنتهم معقودةٌ بالعِيّ، وأيديهم معقولةٌ بالبخل، وأعراضهم أغراض الذمّ، فهم كما قيل: [من البسيط]

لا يَكْثُرون وإن طالتْ حياتهمُ ولا تَبِيد مخازيهم وإن بادوا

وذمّ أعرابيٌّ قومًا فقال:

هم أقلُّ الناسِ ذنوبًا إلى أعدائهم، وأكثرهم تجرؤًا على أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويُفطِرون على الفحشاء.

وذمّ أعرابيٌّ قومًا فقال: قوم سُلِخت أقفاؤُهم بالهجاء، ودُبغت جلودُهم باللؤم، فلباسهم في الدنيا الملامةُ، وفي الآخرة الندامةُ.

وكان عيسى بن فرخان شاه يتيه على أبي العَيْناء[1] حال وزارته، فلما صُرفَ عن الوزارة لقي أبا العيناء في بعض السكك فسلّم عليه سلامًا خفيفًا، فقال أبو العيناء لقائده: من هذا؟ قال: أبو موسى، فدنا منه حتّى أخذ بعنَان بغلته وقال: لقد كنت أقنعُ بإيمائك دون بَنَانك، وبلحظِكَ دون لفظِك، الحمدُ لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمةُ، لقد أصابت فيك النِّقمةُ؛ ولئن كانت الدنيا أبدت صفحاتِها بالإقبال عليك، لقد أظهرت محاسنَها بالإدبارِ عنك، ولله المِنَّةُ إذ أغنانا عن الكذبِ عليك، ونزّهنا عن قولِ الزورِ فيك، وقد واللهِ أسأتَ حمل النعمة، وما شكرتَ حقَّ المنعم؛ ثم أطلق يده من عِنانه، ورجع إلى مكانه فقيل له: يا أبا عبد الله! لقد بالغتَ في السَّبِّ؛ فما كان الذنبُ؟ قال: سألته في حاجة أقلّ من قيمته، فردّني عنها بأقبح من خلقته.

قال بعض الأعراب: نزلتُ بذاك الوادي فإذا ثيابُ أحرارٍ على أجسام عبيد، إقبالُ حظّهم، إدبارُ حظّ الكرام؛ أَلَمَّ بهذا المعنى شاعر فقال: [من الوافر]

أرى حُلَلًا تُصانُ على رجالٍ وأعراضًا تُذَالُ ولا تُصَانُ
يقولون الزمانُ به فسادٌ وهم فسدوا وما فَسَد الزمانُ

---

(١) أبو العيناء: هو محمّد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي، أديب فصيح من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جوابًا، اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكيًا جدًا وحسن الشعر، مات سنة ٢٨٣ هـ. «الأعلام ٦/ ٣٣٤».

وسئل بعضُ البلغاء عن رجل فقال: هو صغير القَدْر، قصير الشِّبْر، ضيِّق الصدر، لئيم النَّجر، عظيم الكِبْر، كثير الفخر.

وذمّ أعرابيّ رجلًا فقال: هو عبدُ البدَنِ، حُرُّ الثيابِ، عظيم الرّواق، صغيرُ الأخلاقِ، الدهرُ يرفعُه، ونفسُه تَضَعُهُ.

وقال آخر: فلانٌ غَثٌّ في دينه، قَذِرٌ في دنياه، رَثٌّ في مُرُوءته، سَمِج في هيئته، منقطعٌ إلى نفسه، راضٍ عن عقله، بخيلٌ بما أنعم الله عليه، كتومٌ لما آتاه الله من فضله، حَلّافٌ لَجُوج، إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، لا يُنْصِف الأصاغر، ولا يعرِف حقَّ الأكابر.

وترجم الفتحُ بن عبد الله القَيْسي[١] صاحبُ قلائد العِقْيان في كتابه عن أبي بكر بن ماجة المعروف بابن الصائغ فقال: هو رَمَدُ جَفْنِ الدِّين، وكَمَدُ نفوسِ المهتدين، اشتهر سخفًا وجنونًا، وهجر مَفْرُوضًا ومَسْنُونًا، فما يشرعُ، ولا يأخذُ في غيرِ الأضاليلِ ولا يشرعُ، ناهيك به من رجل ما تَطَهّر من جنابه، ولا أظهر مَخِيلَةَ إنابه[٢]، ولا استنجى[٣] من حَدَث، ولا أشْجَى فؤادَه مُوارًى في جَدَث، ولا أقرّ ببارئه ومُصوِّره، ولا فرَّ عن تباريه في ميدان تهوّره، الإساءةُ إليه أجدَى من الإحسان، والبهيمةُ أهدَى عنده من الإنسان، نظرَ في تلك التعاليم، وفكَّر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفَضَ كتابَ اللهِ الحكيمِ العليم، ونبذه وراء ظهرِه، ثانِيَ عِطْفِه[٤]، وأراد إبطالَ ما لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، واقتصرَ على الهيئة، وأنكر أن يكونَ له عند الله تباركَ وتعالى فيئة، وحكم للكواكب بالتدبير، واجترم على الله اللطيفِ الخبير، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد، واستهزأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصص: الآية ٨٥] فهو يعتقد أن الزمان دَوْر، وأن الإنسان نبات له نَوْر، حِمَامُه تَمَامُه، واختلافه فطامه، قد مُحِي الإيمانُ من قلبه فما له فيه رسمٍ، ونَسِيَ الرحمٰنَ لسانُه فما يمرُّ له عليه اسم، وانتمت نفسه للضلال

(١) الفتح بن عبد الله القيسي: هو الفتح بن خاقان، أبو نصر، كاتب مؤرّخ من أهل إشبيلية كان كثير الأسفار والرّحلات، قتل بمراكش سنة ٥٢٨ هـ. «الأعلام ٥/ ١٣٤».

(٢) أظهر مخيلة إنابه: أي أنه لم يظهر شيئًا يدلّ على توبته وإنابته إلى الهدى.

(٣) استنجى من حدث: أي اغتسل وتطهّر.

(٤) عِطْفِه: العطف هو المنكب، وعطفا الرجل: جانباه عن يمين وشمال، وعطفا كل شيء: جانباه. «لسان العرب ٩/ ٢٥٠».

وانتسبت، ونفت يومًا تُجْزَى فيه كُلُّ نَفْسٍ بما كسبتْ، فقصَّرَ عمرَه على طَرَبٍ ولهوٍ، واستشعر كل كِبَرٍ وزهوٍ، وهو يَعْكِفُ على سماع التلاحين، ويقف عليها كلَّ حين، يعلن بذلك الاعتقاد، ولا يؤمنُ بشيء قادنا إلى الله في أسلس مَقَاد، مع منشإٍ وخيم، ولؤمِ أصلٍ وخيم[1] وصورةٍ شوّهها اللهُ وقبَّحها، وطلعةٍ لو رآها كلب لنبحها، وقذارةٌ يؤذي البلادَ نفَسُها، ووضارةٍ يحكي الحدادُ دَنَسَها وَفَنَدٍ لا يَعمُر إلا كنفه، ولددٍ[2] لا يُقَوِّم إلا الصِّفَادُ[3] جَنَفه[4].

وكتب أحمد بن يوسف: أما بعد فإني لا أعرف للمعروفِ طريقًا أوعرَ من طريقه إليك، لأنه يحصل منك بين حسبٍ دنيءٍ، ولسانٍ بَذِيءٍ، وجهل قد ملك عليك طِباعَك، فالمعروفُ لديك ضائعٌ، والشكرُ عندك مهجورٌ، وإنما غايتك في المعروف أن تُحَوِّره، وفي وَليّه أن تُكفِّره.

ومما قيل في الهجاء من النظم

فمن ذلك قول جرير وهو أهجى بيت قالته العرب: [من الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْبًا بلغتَ ولا كِلَابَا
ولو وُضِعَتْ فِقَاحُ بَنِي نُمَيْرٍ على خَبَثِ الحَدِيدِ إذًا لَذَابَا[5]

وقال عبد الملك بن مروان يومًا لجلسائه: هل تعلمون أهلَ بيتٍ قيل فيهم شعرٌ وَدُّوا أنهم افتدَوْا منه بأموالهم، وشعرٌ لم يسرّهم به حُمْر النَّعم فقال أسماء بن خارجة: نحن يا أمير المؤمنين! قال: وما قيل فيكم: قال: قول الحارث بن ظالم: [من الوافر]

وما قومي بثعلبة بن سعدٍ ولا بفزارةِ الشُّعْرِ الرِّقابا[6]

---

(١) الخيم: السّجية.
(٢) اللدد: الخصومة الشديدة. «لسان العرب ٣/ ٣٩٠ و٣٩١».
(٣) الصِّفاد: حبل يُوثق به أو غل، والصفد: الوثاق والجمع أصفاد ـ وصفدت الرجل: أوثقته بالأغلال. «لسان العرب ٣/٢٥٦».
(٤) جنفه: الجنف هو الميل والجور، وجنف عليه: مال عليه في الحكم والخصومة والقول. «لسان العرب ٩/ ٣٢ و٣٣».
(٥) فقاح: حلقة الدبر، وقيل الدبر الواسع، والجمع فقاح. وفقح الشيء يفقحه فقحًا: سَفَّه كما يسف الدواء. «لسان العرب ٢/ ٥٤٦».
(٦) هو الحارث بن ظالم المرّي، أبو ليلى، أشهر فتاك العرب في الجاهلية قتل في حوران نحو سنة =

فوالله يا أميرَ المؤمنين! إني لألْبَسُ العِمَامة الصفيقة[١] فيخيّل إليّ أن شعر قفاي قد بدا منها، وقول قيس بن الخطيم[٢]: [من الوافر]

هَمَمْنا بالإقامة يومَ سِرْنا ... مَسِير حُذَيْفةِ الخيرِ بن بدرِ

فما يسرّنا أنّ لنا بها أو بِهِ حُمْرَ النَّعم، فقال هانىء بن قبيصة النُّمَيْرِيّ[٣]: أولئك نحن يا أمير المؤمنين! قال: ما قيل فيكم؟ قال قول جرير: [من الوافر]

* فَغُضَّ الطَّرْف إنك من نُمَيْرِ *

والله لودِدْنا أننا افتديناه بأملاكنا، وقول زياد الأعجم: [من الوافر]

لعمرُك ما رِماحُ بنِي نُمَيْرِ ... بطائشةِ الصُّدور ولا قِصَارُ

فوالله ما يسرّنا به حُمْر النَّعم.

قال العسكريّ وذكر أن جريرًا لما قال: [من الكامل]

والتَّغلَبيُّ إذا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى ... حَكَّ اسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأَمْثَالَا

قال: قلت فيهم بيتًا أو طُعِنَ أحدُهم في استه لم يَحُكّها! وقالوا: مرت امرأة ببني نُمَير فتغامزوا إليها فقالت: يا بني نمير! لم تعملوا بقول الله ولا بقول الشاعر، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] ويقول الشاعر: [من الوافر]

* فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرِ *

فخجلوا؛ وكان النُّمَيريّ إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: من نُمَير، فصار يقول: من بني عامر بن صَعْصَعَةَ.

قال العسكريّ: ولو قيل إنَّ أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو: [من الوافر]

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِي كُلَيْبِ ... نُجومُ الليلِ ما وَضَحَتْ لِسَارِي

= ٢٢ ق.هـ. «الأعلام ٢/ ١٥٥».

(١) الصفيقة: الجيّدة النسج الكثيفة.

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عديّ الأوسي، أبو يزيد شاعر الأوس في الجاهلية وأحد صناديدها، مات نحو سنة ٢ ق.هـ. «الأعلام ٥/ ٢٠٥».

(٣) هانىء بن قبيصة النميري، هو همّام بن قبيصة بن مسعود النّميري، سيّد قومه في زمن يزيد بن معاوية، وأحد شجعان العصر الأموي قتل بمرج زهط سنة ٦٥ هـ. «الأعلام ٨/ ٩٤».

ولــو يُــرْمَــى بِــلُؤْمِــهُــمُ نــهــارٌ لــدنَّــسَ لـؤمُـهُـم وَضَـحَ الـنَّـهـارِ
ومـا يَـغْـدُو عَـزِيـزُ بـنـي كُـلَـيْـبٍ لــيــطــلــبَ حــاجــةً إلا بِــحَــار

ومثله قول الآخر: [من الطويل]

ولَوْ أَنَّ عَبْدَ القَيْسِ ترمي بلؤمها على الليلِ لم تَبْدُ النجومُ لِمَنْ يَسْرِي

وقالوا: أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى: [من الطويل]

تَبِيتون في المَشتا مِلاءً بطونكم وجاراتُكم غَرثَى يَبِتْنَ خَمائِصَا[١]

وهذا البيت من أبيات ولها سببٌ تذكرُه الآن في هذا الموضع وإن كان خارجًا عن مكانه وذلك: أن عامر بن الطُّفَيل بن مالك وعلقمة بن عُلاثَةَ تنازعا الزعامة فقال عامر: أنا أفضلُ منك! وهي لعَمّي ولم يمت، وعمُّهُ عامرُ بن مالك بن جعفر بن كلاب وكان قد أُهتر[٢] وسقط، وقال علقمة: أنا أفضلُ منك! أنا عفيفٌ، وأنت عاهرٌ، وأنا وفِيٌّ وأنت غادرٌ، وأنا وَلُودٌ وأنت عاقرٌ، وأنا أدنَى إلى ربيعةَ، فتداعيا إلى هَرِم بن قُطْنة[٣]؛ ليحكمَ بينهما فرحلا إليه ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل، مائة يُطعمها مَنْ تبعَهُ، ومائة يُعطِيها للحاكم، ومائة تُعقر إذا حكم؛ فأبى هرم بن قُطْنة أن يحكم بينهما مخافةَ الشَّرِّ وأبيا أن يرتحلا؛ فخلا هَرِم بعلقمةَ وقال له: أترجو أن ينفّرَكَ رجلٌ من العرب على عامرٍ فارس مُضَر؛ أندى الناس كفًّا، وأشجعهم لِقَاءً، لَسِنانُ رمح عامرٍ أذكرُ في العرب من الأحوص، وعمُّه ملاعبُ الأسنةِ، وأمُّه كبشةُ بنْت عُروة الرِّحال، وجَدَّتهُ أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضَّحْياء، وأمكُ من النَّخع، وكانت أمُّه مُهَيْرة، وأمّ عُلاثة أخيذة من النَّخع، ثم خلا بعامر فقال له: أعَلى علقمة تفخرُ؟ أنت تناوئه؛ أعَلَى ابن عوف بن الأحْوَص؛ أعفُّ بني عامر وأيمنُهم نقيبةَ، وأحلمُهُم وأسودُهُم وأنت أعورُ عاقرُ مشؤومُ! أما كان لك رأي يزغك عن هذا! أكُنتَ تظنّ أن أحدًا من

---

(١) غرثى: الغرث: أيسر الجوع، وقيل شدته، وقيل هو الجوع عامة. وفي حديث علي عليه السلام: «أبيت مبطانًا وحولي غرثى». والتغريث: التجويع. «لسان العرب ٢/ ١٧٢».

(٢) أهتر: الهتر: ذهاب العقل من كبر أو مرض أو حزن، والمهْتر: الذي فقد عقله، وأُهتِر الرجل: فقد عقله من الكبر وصار خرِفًا. «لسان العرب ٥/ ٢٤٩ و٢٥٠».

(٣) هرم بن قطنة الفزاري، أبو سنان، من قضاة العرب في الجاهلية، أسلم في عهد النبي ﷺ وكان حيًا في خلافة عمر، كان من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء، توفي بعد سنة ١٣ هـ ـ بعد ٦٣٤ م. «الأعلام للزركلي ٨/ ٨٣».

العرب يُنفِّرُكَ عليه؟ فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قال: أنتما كركبتَي الجمل فتراجعا راضِيَيْن.

قال العسكريّ: والصحيح أنه توارى عنهما ولم يقل شيئًا فيهما ولو قال: أنتما كركبتي الجمل لقالَ كلُّ واحدٍ منهما: أنا اليُمنَى، فكان الشرّ حاضرًا؛ قال وسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ذلك بحين: لمن كنتَ حاكمًا لو حكمت؟ فقال: أعفِني يا أمير المؤمنين! فلو قلتها لعادت جدعة[١]. فقال عمر: صدقتَ! مثلُك فلْيَحْكُم.

قال فارتحلوا عن هَرِم لما أعياهم نحوَ عُكاظ[٢] فلقيهم الأعشى منحدرًا من اليمن، وكان لمّا أرادها قال لعلقمة: اعقد لي حَبْلًا فقال: أعقدُ لك من بني عامر! قال: لا يغني عنّي قال: فمن قيس! قال: لا. قال: فما أنا بزائدك، فأتى عامرُ بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض فقيل له: كيف تجيرُه من أهل السماء؟ قال: إن مات ودَيْتُه، فقال الأعشى لعامر: أَظهِرْ أنكما حَكَّمتُمانِي ففعل؛ فقام الأعشى فرفع عَقِيرتَه (أي صوته) في الناس فقال: [من السّريع]

حَكَّمتُموه فَقَضَى بينكم ... أبلجُ مثل القَمَرِ الزاهِرِ
لا يأخذ الرِّشوةَ في حُكمِهِ ... ولا يبالي خُسُرَ الخاسِرِ
علقمُ لا لستَ إلى عامرِ الـ ... ـناقض الأوتار والواتِرِ
واللابِس الخيل بخيلٍ إذا ... ثار عَجَاجُ الكَبَّةِ الثائرِ[٣]
إن تَسُدِ الحوصَ فلم تعدُهم ... وعَامِرٌ سادَ بَني عَامِرِ
ساد وأَلْفَى رهْطَه سادةً ... وكابِرًا سادُوك عن كابِرِ

قال وشدَّ القومُ في أعراض الإبل المائة فعقروها وقالوا: نُفِّر عامرٌ، وذهبت بها الغوغاء، وجهد علقمةُ أن يردَّها فلم يقدر على ذلك، فجعل يتهدّد الأعشى

---

(١) جدعة: المجادعة: المخاصمة ـ وجادعه مجادعة: خاصمه ـ والجذع: القطع، وحمار مجدوع: مقطوع الأذن. «لسان العرب ٨/ ٤٠ و٤١».

(٢) عكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاخرون فيها فيعكظ بعضهم بعضًا بالفخار أي يذعك، ويقال عكظ الرجل دابته إذا حبسها، وتقع عكاظ في واد قريب من الطائف. «معجم البلدان ٤/ ١٤٢».

(٣) عجاج الكَبة: الكبة بالفتح: الحملة في الحرب والدفعة في القتال والجري. والكُبة بالضم: جماعة الخيل. «لسان العرب ١/ ٦٩٦».

فقال: [من الطويل]

أتاني وعيدُ الحوصِ من آل عامر ... يا عبدَ عمرو لو نهيتَ الأحاوِصَا
فما ذنبُنا إن جاش بحرُ ابنِ عَمِّكم ... وبحرُكَ ساجٍ لا يواري الدَّعامِصَا(١)
كِلا أَبَويكم كان فَرْعا دَعامةٍ ... ولكنَّهم زادوا وأصبحتَ ناقِصَا
تبيتون في المشتا مِلاءً بطونكم ... وجاراتُكم غَرْثَى يَبتْنَ خَمائِصا
يراقبْنَ من جوعٍ خِلَالَ مخافةٍ ... نجومَ العِشَاء العاتِمات الغَوامِصَا
رمى بكَ في أُخراهمُ تركُك النَّدَى ... وفضّلَ أقوامًا عليك مراهِصَا(٢)
فعضّ حديدَ الأرضِ إن كنت ساخطًا ... بفيك وأحجارَ الكلاب الرّواهِصَا(٣)

قال فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه في العار، والعرب تعيّر بالبكاء؛ قال مهلهل: [من البسيط]

يُبكَى علينا ولا نبكي على أحدٍ ... ونحنُ أغلظُ أكبادًا من الإبلِ

وقال جرير: [من الطويل]

بكى دَوْبلٌ لا يُرقِئُ اللهُ دَمْعَه ... أَلَا إنما يبكي من الذُّل دَوْبَلُ

قال عبد الملك بن مروان لأمية: مالَكَ وللشاعرِ إذ يقول: [من الطويل]

إذا هتفَ العصفورُ طارَ فؤادهُ ... وليثٌ حديدُ النابِ عندِ الثرائدِ

فقال: أصابه حدٌّ من حدود الله فأقمته عليه قال: فهلّا درأته عنه بالشُّبُهات؟ قال: كان أهونُ عليّ من أن أُعطِّل حدًّا من حدود الله فقال: يا بني أمية! أحسابُكم أحسابُكم، أنسابُكم أنسابُكم، لا تعرضوا للفصحاء فإن للشعر مواسمَ لا يزيدها الليل والنهار إلا جِدّة، واللهِ ما يسرُّني أني هجيتُ ببيت الأعشى حيث يقول: تبيتون في المشتا الخ ولي الدنيا بحذافيرها ولو أن رجلًا خرج من عَرَض الدنيا كان قد أخذ

(١) الدعامص: الدعموص: دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء والجمع الدعاميص والدعامص. والدعموص أيضًا: أول خلق الفرس وهو علقة في بطن أمه إلى أربعين يومًا. «لسان العرب ٧/ ٣٦».

(٢) المراهص: مفردها المرهَصة وهي الدرجة والمرتبة. «لسان العرب ٧/ ٤٤».

(٣) الرواهص: الصخور المتراصة الثابتة، واحدتها راهصة، والرهص: شدة العصر. «لسان العرب ٧/ ٤٤».

عوضًا لقول ابن حُرْثان: [من الطويل]

على مكثرِيهم حقُّ من يعتريهمُ وعند المُقِلّين السماحةُ والبذْلُ

وهذا البيت لزهير.

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الحطيئة في الزِّبْرِقان بن بدر[١]: [من البسيط]

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتِها واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعِمُ الكاسي

ولهذا الشعر حكاية نذكرها في أخبار الحطيئةِ في البخلاء. وقيل: اتفق جماعة من الشعراء على أن أهجى بيتٍ قالته العرب، قول الفرزدق في جرير: [من الكامل]

أنتم قرارةُ كلِّ معدنِ سَوْءةٍ ولكلِّ سائلةٍ تسيلُ قَرَارُ[٢]

أخذه أبو تمام فقال: [من الوافر]

وكانت زفرةٌ ثم اطمأنتْ كذاك لكلِّ سائلةٍ قَرَارُ

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل لجرير: [من البسيط]

ما زال فينا رباطُ الخيلِ مُعْلمة وفي كليبٍ رِباطُ اللُّؤمِ والعَارِ

قوم إذا استنبحَ الأضيافُ كَلْبَهمُ قالوا لأمهم: بُولي على النَّارِ

قالت بنو تميم: ما هجينا بشيء، هو أشدّ علينا من هذا البيت، وهو يتضمن وجوهًا شتّى من الذَّم: جعلهم بخلاء بالقِرَى، وجعل أمّهم خادمهم، يأمرونها بكشف فَرْجها، وجعلهم يبخلون بالماء أن يطفئوا به النار، وجعل نارهم من قلّتها تطفى ببولةٍ، وأغرى بينهم وبين المجوس، لتعظيم المجوس للنار، وإهانتهم لها إلى غير ذلك.

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الطرمّاح: [من الطويل]

تميمٌ بِطُرْقِ اللؤمِ أهدى من القَطَا ولو سلكتْ طُرْقَ المكارمِ ضَلَّتِ[٣]

---

(١) الزبرقان بن بدر: التميمي السعدي، صحابي من رؤساء قومه، قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان لحسنه، والزبرقان من أسماء القمر، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر، وكف بصره في آخر عمره، وتوفي في أيام معاوية نحو ٤٥ هـ ـ نحو ٦٦٥ م ـ وكان فصيحًا شاعرًا ـ «الأعلام للزركلي ٣/ ٤١».

(٢) القرار: المستقرّ.

(٣) القطا: طائر معروف، سمي بذلك لثقل مشيه، واحدته قطاة، والجمع قطوات وقطيات، ومشيها=

وقيل أهجى بيت قالته العرب قول الأعرابيّ: [من البسيط]

اللؤمُ أكرمُ من وَبْرٍ ووالدهِ   واللؤمُ أكرمُ من وَبْرٍ وما وَلَدا
قوم إذا ما جَنَى جانِيهمُ أَمِنُوا   من لؤمِ أحسابِهم أن يُقتَلوا قَوَدَا(١)

وقال مسلم بن الوليد يهجو دِعْبِل الخُزاعيّ: [من الكامل]

أمّا الهِجَاءُ فدقَّ عِرْضُك دُونَه   والمَدْحُ عنك كما علمتَ جَلِيلُ
فاذهبْ فأنتَ طليقُ عِرْضِك إنَّه   عرضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

وكان سبب ذلك أنه كان بخراسان عندَ الفضلِ بن سهل(٢)، فبلغ دعبل ما هو فيه من الحَظْوَة عنده، فصار إلى مَرْو(٣)، وكتب إلى الفضل بن سهل: [من الكامل]

لا تعبَأنْ بابنِ الوليد فإنّهُ   يرميك بعدِ ثلاثةٍ بمَلالِ
إنّ المَلُول إذا تقادم عهدُه   كانت مودّتُه كَفَيءِ ظلالِ

فدفع الفضلُ الرّقعة إلى مسلم، فلما قرأها قال: هل عرفت لقب دعبل وهو غلام أمرد يُفْسَق به؟ فقال: لا، قال: كان يُلَقَّب بمَيّاس، وكتب إليه: [من الكامل]

ميّاسُ قل لي: أين أنتَ من الورى؟   لا أنت معلومٌ ولا مجهولُ

أما الهجاء الخ، ومنه أخذ إبراهيم بن العباس فقال: [من المتقارب]

فكنْ كيفَ شئتَ وقُلْ ما تَشَاءُ   وأبْرِقْ يميناً وأرعِدْ شِمَالَا
نجا بك لؤمُك مَنْجا الذُّبابِ   حمتْهُ مقاذِيرُه أن يُنالَا

= الأقطيطاء، وفي المثل: لو ترك القطا لنام؛ يضرب لمن يَهيج إذا تُهُيِّج. «لسان العرب ١٥/ ١٨٩».

(١) قَوَدَا: القود هو قتل النفس بالنفس، وأقدْت القاتل بالقتيل: أي قتلته به. والقود: القِصاص، وقتل القاتل بدل القتيل. «لسان العرب ٣/ ٣٧٢».

(٢) الفضل بن سهل السرخسي (١٥٤ ـ ٢٠٢ هـ = ٧٧١ ـ ٨١٨ م) أبو العباس، وزير المأمون وصاحب تدبيره، اتصل به في صباه وأسلم على يده، سنة ١٩٠ هـ، وكان مجوسيًّا، وصحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معًا، فكان يلقب بذي الرياستين، ولد وتوفي في سرخس (بخراسان) قتله جماعة أثناء وجوده في الحمام، وكان حازمًا عاقلًا فصيحًا. «الزركلي ٥/ ١٤٩».

(٣) مرو: المرو: الحجارة البيض تُقتدح بها النار ـ تسمى مرو الشاهجان لعظمتها، والشاهجان: تعني نفس السلطان، وهي أشهر مدن خراسان وقصبتها. «معجم البلدان ٥/ ١١٢ و١١٣».

وأنشد الجاحظ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

ووَثِـقْـتُ أَنَّـك لَا تُـسَـبُّ   حَـمـاكَ لُؤْمُـك أَنْ تُـنَـالَا

وقال الآخر: [من الوافر]

بِـذِلَّةِ والـديْـك كُـسِـيـتَ عِـزًّا   وبـاللؤمِ اجترأتَ على الجَوابِ

وقال آخر: [من المتقارب]

دناءةُ عِـرْضِـك حِـصْنٌ مَـنِـيعُ   يـقـيكَ إذا ساء مِـنـك الـصنيعُ
فـقـل لـعـدوِّكَ مـا تـشـتـهـي   فأنتَ المَنِيعُ الرفيعُ الوَضِيعُ

وقال أبو نُوَاس: [من السّريع]

مـا كـان لـو لـم أهـجُهُ غـالـبٌ   قامَ لـه هـجـوي مـقـامَ الـشـرفْ
يـقـول: قـد أسـرفَ فـي هـجـونـا   وإنــمـا ســادَ بــذاك الــسَّـرفْ
غـالـبُ، لا تـسعَ لـتبنـي الـعـلا   بـلغـتَ مـجـدًا بـهـجائي، فـقِـفْ
قـد كـنـتَ مـجـهـولًا ولـكـنّـنـي   نوّهتُ بـالـمجـهـولِ حتى عُرِفْ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

أهنتُ هجائي يابن عُروةَ، فانتحي   عليّ ملامُ الناسِ في البعدِ والقربِ
وقالوا: أتهجو مثلَهُ في سقوطه؟   فقلتُ لهم: جرَّبتُ سيفيَ في كلبِ

وقال ابن لنكك: [من البسيط]

وعـصـبـةٍ لـمّـا تـوسَّـطـتـهـمْ   صـارت عـليّ الأرضُ كـالـخـاتَـمِ
كـأنّـهـم مـن سـوءِ أفـهـامِـهِـم   لـم يـخـرجـوا بـعـدُ إلـى الـعـالَـمِ
يَـضـحـكُ إبـلـيسُ سـرورًا بـهـم   لأنــهــم عــارٌ عــلـى آدَمِ

وقالوا أهجى بيت قالهُ محدّث قول الآخر: [من الكامل]

قَبُحَتْ مَناظِرُهم، فحين خبرتُهم   حسُنتْ مناظرُهم لقبح المَخْبرِ

وقال العسكريّ: ولست أعرف في الهجاء أبلغَ من قول الأوّل: [من مجزوء الكامل]

إن يــفــجُــروا أو يــغــدروا   أو يــبــخــلوا لــم يــحـفِـلوا
وغــدوا عــلـيـك مُـرجَّـلـ   ـيـن كـأنّـهـم لـم يـفـعـلوا!

ومن البليغ قولُ حسّان: [من البسيط]

أبناء حار، فلن تلقى لهم شبهًا ... إلا التيوسَ على أكتافها الشَّعَرُ

إن نافروا نُفِروا، أو كاثروا كُثِروا ... أو قامروا الربحَ عن أحسابهم قُمِروا

كأنّ ريحهُمُ في الناس إن خرجوا ... ريحُ الكلابِ إذا ما مسَّها المطرُ

وقال أيضًا: [من الطويل]

أبوك أبو سوءٍ وخالُك مثلُه ... ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالِكا

وإن أحقَّ الناسِ أن لا تلومَه ... على اللؤم من ألفى أباه كذلكا

وقال الآخر: [من المتقارب]

سلِ الله ذا المنِّ من فضله ... ولا تسألَنَّ أبا واثلهْ[1]

فما سألَ اللهَ عبدٌ له ... فخاب ولو كان من باهلهْ[2]

وقال آخر: [من المتقارب]

ولو قيل للكلبِ: يا باهليُّ ... لأعولَ من قُبْحِ هذا النسبْ!

وقال زياد: ما هُجيتُ ببيتٍ قطّ أشدَّ عليَّ من قول الشاعر: [من البسيط]

فَكِّرْ، ففي ذاك إن فكّرتَ معتبرٌ ... هل نلتَ مكرُمةً إلّا بتأميرِ

عاشت سُميَّةُ ما عاشت وما علمتْ ... أن ابنَها من قريشٍ في الجماهير

وقال إبراهيم بن العباس[3]: [من المتقارب]

ولمّا رأيتُكَ لا فاسقًا ... تُهابُ ولا أنت بالزاهدِ

وليس عدوُّك بالمتَّقِّي ... وليس صديقُك بالحامدِ

أتيتُ بك السوقَ سوقَ الهوان ... فناديت: هل فيك من زائدِ؟

على رجلٍ غادرٍ بالصديقِ ... كفورٍ لنعمائه جاحدِ

---

(١) واثلة: من الأسماء، مأخوذ من الوثيل، والوثيل: الحبل من الليف، والوثيل: الضعيف، والوثيل: الليف نفسه. «لسان العرب ١١/ ٧٢٢».

(٢) باهلة: اسم قبيلة من قيس عيلان. «لسان العرب ١١/ ٧٢».

(٣) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، أبو إسحٰق، كاتبٌ شاعر قال المسعودي: لا يعلم فيمن تقدّم وتأخّر من الكتاب أشعر منه مات سنة ٢٤٣ هـ. «الأعلام ١/ ٤٥».

فما جاءني رجُلٌ واحد ... يزيدُ على دِرهم واحدِ
سوى رجُلٍ حان منه الشقاءُ ... وحلّت به دعوةُ الوالدِ
فبعتُك منه بلا شاهدٍ ... مخافةَ ردِّك بالشاهدِ
وأبتُ إلى منزلي سالمًا ... وحلّ البلاءُ على الناقد

وقال العسكريّ: [من المنسرح]

إن كان شكلُك غيرَ متَّفِقٍ ... فكذا خلالُكَ غير مؤتلفَهْ
صُوّرْتَ من نُطَفٍ قد اختلفتْ ... فأتت خلالُك وهي مختلفَهْ
من عصبةٍ شتَّى إذا اجتمعوا ... شبَّهتُ دارُكم بهم عرفَهْ
فورثْتَ من ذا قُبْحَ مَنظَرِه ... وورثتَ ذاك خناه أو صلفَهْ

وقال الحسن بن مطران شاعر اليتيمة: [من السريع]

كم غصتُ في مدحِكَ فكرًا على ... درٍّ نفيسٍ غيرِ مثقوبِ
ولم يغصْ رأيُك يومًا على ... برّي، ولا رأيٌ لمكذوبِ
إن كان موعودك في الجود لي ... أَكذبُ من موعودِ عُرقوبِ
فإنّ أخبارك في مدحتي ... أكذبُ من ذئبِ ابن يعقوبِ

وقال أحمد بن محمد بن حامد شاعر الخريدة: [من الطويل]

بُليتُ بقومٍ ما لهم في العلا يدٌ ... ولا قدمٌ تسعى لبذل الصنائعِ
إذا نظَرتْ عيني إليهم تنجّستْ ... برؤيتهم طهّرتُها بالمدامعِ

وقال المتنبيّ: [من المجتث]

إنْ أوحشتك المعالي ... فإنّها دار غُربَهْ
أو آنستك المخازي ... فإنها بك أشبَهْ

وقال أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الحجّاج(١): [من مجزوء الكامل المرفّل]

ولقد عهدتُكَ تشتهي ... قربي، وتستدعي حضوري

---

(١) ابن الحجّاج: هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجّاج، أحد سحرة الشّعر وعجائب العصر، فرد زمانه في فنه الذي شهر به. «انظر اليتيمة ٣/ ٣٥».

وأرى الجفا بعد الوفا مثل الفُسا بعد البخورِ
يا خرْيةَ العدسِ الصحـ ـيح النِّيىءِ والخبزِ الفطيرِ
في جوفِ منحلِّ الطبيـ ـعة والقُوَى شيخٍ كبيرِ
يخرَى فيخرجُ سُرمُه شِبريْن من وجعِ الزحيرِ
يا فَسوةً بعد العَشا بالبَيْضِ واللبن الكثيرِ
وفطائرٍ عُجنتْ بلا الْـ ـمِلحِ الجريشِ ولا الخميرِ
يا نَتنَ رائحةِ الطبيـ ـخِ إذا تغيّرَ في القدورِ
يا عُشَّ بيضِ القمْلِ فـ ـرَّخَ في السوالف والشعورِ
يا بَولَ صبيان الفِطا مِ ويا خراهم في الحجورِ
يا بعضَ تدخينِ الحشا في الصوم من تُخَمِ السَّحورِ
يا حَرَّ قُولَنجِ البطو نِ، وبردَ أعصابِ الظهورِ(١)
يا ذِلّة المظلوم أصـ ـبحَ وهو معدومُ النصيرِ
يا سوءَ عاقبةِ التفـ ـقُّدِ عند تسييب الأمورِ
يا كلَّ شيءٍ مُتعِبٍ متعقِّدٍ صعبٍ عسيرِ
يا حَيْرةَ الشيخ الأصـ ـمِّ، وحسرةَ الحَدَثِ الضريرِ
يا قعدةً في دِجلةَ والريحُ تلعبُ بالجسورِ
يا قرحةَ السلّ التي هدّتْ شراسيفَ الصدورِ(٢)
يا أربِعاء لا تدو رُ به مخَافاتُ الشهورِ
يا هدَّة الحيطانِ تُنـ ـقَضُ بالمعاوِلِ والمُرورِ
يا قَرحةً في ناظرٍ غلطوا عليها بالذّرورِ
فتسلّختْ مع ما يليـ ـها في الجفون من البُثورِ
يا خيبةَ الأملِ الذي أمسَى يُعلَّلُ بالغرورِ
يا غُلمةَ المتخدّرا تِ وراء أبواب القُصورِ

---

(١) القولنج: مرض يصيب المعدة بالإسهال والمغص.

(٢) شراسيف: الشرسوف: غضروف معلق بكل ضِلع مثل غضروف الكتف، وقال الأصمعي: الشراسيف هي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن وقال ابن الأعرابي: الشرسوف: رأس الضلع. «لسان العرب ٩/ ١٧٥».

يـا وحـشـةَ الـمـوتـى إذا ... صـاروا إلـى ظُـلَم الـقـبـورِ
يـا ضجـرةَ الـمحـموم بـالـ ... ـغـدَواتِ مـن مـاء الـشـعـيـرِ
يـا شـؤمَ إقـبـالِ الـشـتـا ... ءِ أضـرَّ بـالـشـيـخ الـفـقـيـرِ
يـا دولـةَ الـحُـسْـن الـتـي ... خُـسِـفَـتْ بـأيّـام الـسّـرورِ
يـا ضجّـةَ الـضَّجِرِ الـمـصـ ... ـدَّع بـالـتـنـازُع والـشّـرورِ
يـا عـثـرَةَ الـقـلـم الـمـرشّـ ... ـش بـيـن أثـنـاءِ الـسـطـور
يـا لـيـلـةَ الـعُـريـانِ غِـ ... ـبّ عـشـيّـةِ الـيـومِ الـمَـطـيـرِ
يـا نـومـةً فـي شـمـسِ آ ... بَ عـلـى الـتـرابِ بـلا حَـصـيـرِ
يـا فـجـأةَ الـمـكـروهُ فـي الـ ... ـيـوم الـعـبـوس الـقَـمـطـريـرِ
يـا نـهـمـةَ الـكَـلْبِ الـرضيـ ... ـعِ ونَـكـهـةَ الـلـيـثِ الـهـصـور
يـا عـيـشَ عـانِ مـوثَـقٍ ... فـي الـقَـيْـد مـغـلـولٍ أسـيـرِ
يـا جِـدّةَ الـرَّمَـد الـذي ... لا يـسـتـفـيـقُ مـن الـقُـطـورِ
يـا غـمّـة الـكـنّـاس مـن ... شَـمّ الـذرائـرِ والـعـبـيـرِ[١]
يـا حَـيْـرة الـعـطـشـانِ وقـ ... ـتَ الظُّهر في وسَط الهبيرِ[٢]
مـن لـي بـأن تـلـقـاك خـيـ ... ـلُ بـنـي كـلاب بـلا خـفـيـرِ
وأرى بعيني لحمَك المطبـ ... ـوخَ فـي حَـرّ الـهـجـيـرِ
فـي الأرض مـا بـيـن الـسـبـا ... عِ وفـي الـسـمـا بـيـن الـنُّـسـورِ

وقال المتنبيّ: [من الكامل]

يـمـشـي بـأربـعـةٍ عـلـى أعـقـابـه ... تـحـت الـعـلـوجِ ومـن وراء يُـلـجـمُ
وجـفـونُـه مـا تـسـتـقـرّ كـأنـهـا ... مـطـروفـةٌ أو فُـتَّ فـيـهـا حِـصـرِمُ
وتـراه أصـغـرَ مـا تـراهُ نـاطـقـًا ... ويكون أكذبَ ما يكونُ ويُقسمُ
وإذا أشـار مـكـلّـمًـا فـكـأنـه ... قِـردٌ يُـقـهـقِـهُ أو عـجـوزٌ تـلـطِـمُ
يَـقـلَـى مُـفـارقـةَ الأكـفّ قَـذالُه ... حـتـى يـكـادَ عـلـى يـدٍ يـتـعـمَّـمُ

(١) الذرائر: الذريرة: ما أنتجت من قصب الطيب، والذريرة: فتات من قصب الطيب الذي يُجاء به من بلد الهند يشبه قصب النشاب. «لسان العرب ٤/٣٠٣».

(٢) الهبير: الضرب بالسيوف، أي في وسط المعركة، وهبرة بالسّيف: ضربه.

ومما يذمُّ به الرجل أن يكون ثقيلًا، فأبلغ ما قيل في ذلك قول بعضهم: [من الخفيف]

وثقيلٌ أشدُّ من غَصِصِ المو ... تِ ومن زَفْرةِ العذابِ الأليمِ
لو عَصَتْ ربَّها الجحيمُ لما كا ... ن سِواءُ عقوبةً للجحيمِ

وأبلغ ما قيل في هذا المعنى قول بشار: [من الخفيف]

ولقد قلتُ حينَ وَتَّدَ في الأر ... ضِ ثقيلٌ أرْبَى على ثَهْلانِ[1]
كيف لم تَحْمِلِ الأمانةَ أرضٌ ... حَمَلت فوقَها أبا سُفْيانِ

ومما هجي به أهلُ الوقت على الإطلاق. فمن ذلك قول أبي هلال العسكريّ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

كم حاجةٍ أنزلتُها ... بكريم قومٍ أو لئيمِ
فإذا الكريمُ من اللئيـ ... ـم أو اللئيمُ من الكريمِ
سبحانَ ربٌّ قادرٍ ... قَدَّ البريَّةَ من أدِيمِ
فشريفُهم ووضيعُهم ... سيَّان في سَفَهٍ ولُومِ
قد قلّ خيرُ غنيِّهم ... فغَنيُّهم مثلُ العَديمِ[2]
وإذا اختبرتَ حميدَهم ... ألفَيْتَهُ مِثلَ الذَّمِيمِ

ومما قيل في هجاء بعض العشيرة ومدح بعضهم، فمن ذلك قول أبي عُيينة ليهجوَ خالدَ بنَ يزيد المُهلّبيّ ويمدحُ أباه: [من الطويل]

أبوك لنا غَيْثٌ نعيشُ بفضلِه ... وأنت جَرادٌ ليس يُبْقى ولا يَذَرْ
له أثرٌ في المَكْرُمات يَسرُّنَا ... وأنت تُعفِّي دائبًا ذلك الأثَرْ
لقد قُنِّعتْ قحطانُ خِزْيًا بخالدٍ ... فهل لك فيه يُخْزِك اللهُ يا مُضَرْ؟

وله في قَبِيصة بن رُوح، يُفَضِّل عليه ابنَ عَمِّه داودَ بنَ يزيد بن حاتم: [من الكامل]

أَقَبِيصُ لستَ وإن جهدتَ ببالغٍ ... سَعْيَ ابنِ عَمِّكَ ذِي النَّدى دَاودِ

---

(١) ثهلان: موضع بالبادية، جبل لبني نمير بن عامر بن صعصعة في نجد، به ماءٌ ونخيل. «لسان العرب ١١/ ٩٥، ومعجم البلدان ٢/ ٨٨».
(٢) العديم: الفقير المقتر.

شَتّان بينكَ يا قبيصُ وبينَهُ   إن المُذَمَّمَ ليسَ كالمحمودِ
داودُ محمودٌ وأنت مُذَمَّمٌ   عجَبًا لذاك وأنتما من عُود
ولرُبَّ عُودٍ قد يُشَقُّ لمسجِدٍ   نصفًا وسائرهُ لحشٍّ يَهُودِي(١)

وقال حسَّان في أبي سُفْيان بن الحارث: [من الطويل]

أبوكَ أبٌ حُرٌّ وأمُّك حُرَّةٌ   وقد يَلِدُ الحُرَّان غيرَ نجيبِ
فلا تعجبنّ الناسُ منك ومنهما   فما خَبَثُ من فِضَّةٍ بعجيبِ(٢)

ذكر ما قيل في الحسد

ومما يذمُّ به الرجلُ، أن يكون حسودًا، وقد أمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام، أن يتعوّذ من شرِّ الحاسد إذا حَسَد.

قال ابن السمَّاك:

أنزل الله تعالى سورة جعلها عُوذةً لخَلْقه من صنوف الشرّ، فلما انتهى إلى الحسَد، جعله خاتمًا إذ لم يكن بعده في الشرّ نهاية، والحسد أوّل ذنب عُصِيَ الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عُصِيَ به في الأرض، أما في السماء، فحسدُ إبليسَ لآدمَ، وأما في الأرض، فَحَسدُ قابيلَ لهابيلَ، وذهب بعضُ أهل التفسير في قوله عزّ وجلّ إخبارًا عن أهل النّار ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٩] أن المراد بالجنّ إبليس، وبالإنس قابيل، وذلك أن إبليسَ أوّلُ من سَنّ الكفرَ، وقابيلَ أوّلُ من سَنّ القتلَ، وأصل ذلك كلّه الحسدُ.

وقال عبد الله بن مسعود(٣): لا تُعادُوا نِعَمَ الله، فقيل له: ومن يُعَادي نِعَمَ الله؟ قال: الذين يَحْسدُون الناسَ على ما آتاهم الله مِن فَضْلِهِ، يقول الله تعالى في بعض الكتب: الحَسُودُ عدوُّ نِعْمتي، مسخِط لقضائي، غيرُ راض بقسمتي.

---

(١) الحشّ: الكنيف.
(٢) الخبث: الصّدأ، وما يسقط من المعدن عند ضربه.
(٣) عبد اللّه بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمٰن صحابي، من أكابرهم فضلًا وعقلًا، وقربًا من رسول الله ﷺ، وهو من أهل مكة ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن في مكة، وكان خادم رسول الله الأمين، ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، ولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها سنة ٣٢ هـ ـ ٦٥٣ م عن ستين عامًا. له ٨٤٨ حديثًا. «الأعلام للزركلي ٤/ ١٣٧».

وقالت الحكماءُ: إذا أراد اللهُ، أن يُسَلِّطَ على عبدٍ عدوًّا لا يرحمُهُ، سلّط عليه حاسدًا.

وكان يقال في الدعاء على الرجل: طلبُكَ من لا يقصِّر دون الظَّفر، وحسدُكَ من لا ينام دون الشَّقاء.

وقالوا: ما ظنُّك بعداوةِ الحاسدِ، وهو يرى زوالَ نعمتِكَ نعمةً عليه؟

قال أبو الطيب المتنبيّ: [من الوافر]

سوى وجعِ الحُسَّاد داوِ فإنه إذا حَلَّ في قلبٍ فليس يَحُولُ
ولا تطمعَنْ مِن حاسِدٍ في مَوَدَّةٍ وإن كنتَ تُبدِيها له وتُنِيلُ

وقال البَبَّغاءُ: [من الكامل]

ومن البلية أن تُداويَ حِقْدَ مَنْ نِعَمُ الإلهِ عليك من أحقادِهِ

وقال عليّ رضي الله عنه:

لا راحةَ لحَسُودٍ، ولا أخ لِمَلُولٍ، ولا مُحِبَّ لسيِّءِ الخُلُق.

وقال الحسن:

ما رأيت ظالمًا أشبهَ بمظلوم من حاسد؛ نَفسٌ دائمٌ، وحزنٌ لازمٌ، وغَيْرةٌ لا تنفدُ، ثم قال: لله دَرُّ الحسد ما أعدلَه! يقتل الحاسدَ قبل أن يَصِلَ إلى المحسود.

وقال الجاحظ: من العدل المَحْضِ، والإنصافِ الصحيحِ، أن تَحُطَّ عن الحاسد نِصفَ عِقابه، لأن أَلَم جسمه، قد كفاك مَؤُونَة شطر غيظك عليه.

وقيل: الحسدُ أن تتمنّى زوال نعمةِ غيرك، والغبطةُ أن تتمنى مثلَ حالِ صاحِبك. وفي الحديث: «المُؤمِنُ يَغْبِطُ، والمنافق يَحْسدُ».

وقال أرسطاطاليس[1]: الحسدُ حسدان: محمودٌ، ومذمومٌ، فالمحمودُ أن ترى عالمًا فتشتهي أن تكون مثله، وزاهدًا فتشتهي مثل فعله، والمذمومُ أن ترى

(١) أرسطاطاليس: ومعناه محب الحكمة، ويقال الفاضل الكامل، وهو أرسطاليس بن نيقوماخس، من ولد اسقلبيادس الذي اخترع الطب لليونانيين، كان من مدينة يونانية تدعى «أسطاغاريا» وهو من تلاميذ أفلاطون، توفي وله ست وستون سنة في آخر أيام الإسكندر، له كتب كثيرة. «الفهرست لابن النديم ص ٣٤٥ و٣٤٦».

عالمًا وفاضلًا فتشتهي أن يموتا. وقيل: الحسودُ غضبانٌ على القَدَر، والقدرُ لا يعْتبه.

قال منصور الفقيه: [من المتقارب]

ألا قُلْ لمن كان لي حاسدًا ... أتدري على من أسأتَ الأدبْ؟
أسأتَ على الله في فضله ... إذا أنتَ لم تَرْضَ ما قَدْ وَهَبْ

وقال المتنبيّ: [من الطويل]

وأظلمُ أهلِ الأرضِ من بات حاسدًا ... لمن بات في نَعْمَائِهِ يتقلَّبُ

ومن أخبار الحَسَدة: ما حُكي، أنه اجتمع ثلاثةُ نفرٍ منهم، فقال أحدهم لصاحبه: ما بلغَ من حسدِك؟ قال: ما اشتهيتُ أن أفعل بأحد خيرًا قطُّ، فقال الثاني: أنت رجلٌ صالحٌ، أنا ما اشتهيت أن يفعل أحدٌ بأحدٍ خيرًا قطُّ، فقال الثالث: ما في الأرض أفضلُ منكما، أنا ما اشتهيت أن يفعل بي أحدٌ خيرًا قطُّ.

ومما قيل من الشعر في تفضيل المحسود ومدحه. وهجاء الحاسد وذمّه، قال بعض الشعراء: [من البسيط]

إن يحسُدوني فإني غيرُ لائمِهم ... قبلي من الناس أهلُ الفضلِ قد حَسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ ... ومات أكثَرُنا غمًّا بما يَجِدُ

وقال آخر: [من الكامل]

إن الغُرابَ وكان يمشي مِشْيةً ... فيما مضى من سالفِ الأجيالِ
حسَدَ القَطاةَ ورامَ يَمْشِي مشيَها ... فأصابه ضَرْبٌ من العقّالِ(١)

وقال آخر: [من الكامل]

حَسَدوا الفَتَى إذْ لم ينالُوا سَعْيَه ... فالقومُ أعداءٌ له وخُصُومُ
كضرائرِ الحَسْنَاءِ قُلْن لوجهِهَا ... حَسَدًا وبَغْيًا إنّه لَدَمِيمُ

وقال البُحتريّ: [من المنسرح]

لا تحسُدوه فَضْلَ رُتْبَته التي ... أَعْيتْ عليكم وافعلوا كفِعَالِهِ

---

(١) العقّال: داء في رجل الدابة إذا مشى خلع ساعة ثم انبسط وأكثر ما يعتري في الشتاء. «اللسان ١١/٤٦٣».

وقال السَّرِيّ الرفّاء: [من الكامل]

نالتْ يَداه أقاصِيَ المَجدِ الَّذي بَسَط الحسود إليه باعًا ضَيِّقَا
أَعَدوَّهُ هل للسِّماك جَريرةٌ في أَنْ دَنوتَ من الحَضِيضِ وحَلَّقَا؟
أم هل لِمَنْ مَلأَ اليَدَيْنِ من العُلَا ذَنْبٌ إذا ما كنتَ منها مُمْلِقَا؟

وقال أبو تمّام الطائيّ: [من الكامل]

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلةٍ يومًا أتاح لها لِسَانَ حَسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال البُحتريّ: [من الطويل]

ولن يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعُ نِعْمةٍ إذا أَنْت لم تُدْلَلْ عليها بحاسدِ

وقال محمد بن مُناذِر(١): [من المنسرح]

يا أيُّها العاتي وما بِيَ مِنْ عَتْبٍ ألا تَرْعَوِي وتَزْدَجِرُ!
هل لك عندي وِتْرٌ فتطلبُهُ أم أنت مِمّا أتيتَ مُعْتَذِرُ؟
إن يك قِسْمُ الإلٰهِ فَضَّلني وأنت صَلْدٌ ما فيك مُعْتَصَرُ
فالحمدُ والشكرُ والثناءُ له وللحسودِ التُّرابُ والحَجَرُ
ماذا الذي يَجْتَنِي جليسُكَ أو يبدُو له منك حين يَخْتَبِرُ
إقَرَأْ لنا سورةً تُذَكِّرُنَا فإن خيرَ المواعظِ السُّوَرُ
أَوْ صِفْ لنا الحُكْمَ في فرائضنا ما تستَحِقُّ الأُنْثَى أو الذَّكَرُ
أَوِ ارْوِ فِقْهًا تُرْوِي القلوبَ بِهِ جاء به عن نَبِيِّنَا الأَثَرُ
أو من أحادِيثِ جاهِليَّتِنَا فإنها حكمةٌ ومفتَخَرُ
أَوِ ارْوِ عن فارِسٍ لنا مَثَلًا فإن أمثالَها لنا عِبَرُ

---

(١) محمد بن مناذر: اليربوعي بالولاء، أبو جعفر، شاعر كثير الأخبار والنوادر، كان من العلماء بالأدب واللغة، تفقه وروى الحديث، وتزندق، فغلب عليه اللهو والمجون، أصله من عدن أو من البصرة، ومنشؤه وشهرته في الثانية، اتصل بالبرامكة ومدحهم، ورآه الرشيد بعد نكبتهم، فأمر به أن يُلطم ويسحب، وأخرج من البصرة لهجائه أهلها، وذهب إلى مكة فتنسك ثم تهتك ومات فيها سنة ١٩٨ هـ ـ ٨١٣ م. «الزركلي ٧/ ١١١، والشعر والشعراء ص ٥٩٩».

أو غَنِّ صوتًا تُشْجِي النُفوسَ به وذَنْـبُ مـا قـد أتيـتَ مُـغْـتَـفَـرُ
فـإن تـكـنْ جَـهِـلتَ ذاك وذا فـفـيـك لـلـنـاظـريـن مُـعْـتَـبَـرُ

ذكر ما قيل في السِّعاية والبَغْي والغِيبة والنَّميمةِ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْۖ﴾ [يُونس: الآية ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الحجّ: الآية ٦٠]. وقال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القَلَم: الآيات ١١ - ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: «من كان يُؤْمنُ باللهِ واليوم الآخر فلا يرْفَعن إلينا عَورَة أخيه المؤْمِن». وقال ﷺ: «لا يرَاحُ القَتَّاتُ رَائِحَة الجَنَّةِ». وفي لفظٍ «لا يدخُل الجنَّةَ قَتَّاتٌ»؛ والقَتَّاتُ: النَّمَّام.

قال بعض الشعراء: [من الوافر]

فـلا تـسـعَـى عـلى أحـدٍ بِـبَـغْـي فـإنّ الـبَـغْـيَ مَـصْـرَعُـهُ وَخِـيـمُ

وقال العتَّابِيّ: [من الوافر]

بَـغَـيـتَ فـلم تَـقَـعْ إلّا صَـرِيـعًـا كـذاك الـبـغـيُ مصرعُ كـلّ بَـاغِـي

وسأل رجلٌ عبد الملك بن مروان الخَلْوةَ، فقال لأصحابه: إذا شِئْتُم، فقاموا، فلما تهيّأ الرجلُ للكلام، قال له: إياك أن تمدحَني فإني أعلمْ بنفسي منك، أو تَكْذِبني، فإنه لا رأي لِكَذُوب، أو تسعى إليّ بأحد، وإن شئتَ أقلتُك، قال: أقلني.

قال: ولما وَلِي عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دِمَشْقَ، ولم يكن في بني أُمَيَّة ألبَّ منه في حداثةِ سنِّه، قال أهلُ دمشق: هذا غلام شابٌّ، ولا علمَ له بالأمور، وسيسمعُ منا، فقام إليه رجلٌ، فقال: أصلحَ الله الأميرَ، عندي نصيحةٌ، فقال له: يا ليتَ شعري، ما هذه النصيحةُ التي ابتدأتني بها من غير يدٍ سبقتْ منّي إليك؟ فقال: جارٌ لي عاصٍ، متخلِّفٌ عن ثَغره، فقال له: ما اتقيتَ الله، ولا أكرمتَ أميرَك، ولا حفظتَ جِوارَك، إن شئتَ، نظرْنا فيما تقول، فإن كنتَ صادقًا؛ لم ينفعْكَ ذلك عندنا، وإن كنتَ كاذبًا، عاقبناك، وإن شئتَ، أقلناك، قال: أقلني، قال: اذهب حيث شئتَ، لا صَحِبك الله، ثم قال: يا أهلَ دِمَشْق، ما أعظَمتم ما جاء به الفاسقُ، إن السِّعايةَ أحْسَبُ منه سجيّةً، ولولا أنه لا ينبغي للوالي أن يعاقِبَ، قبل أن يُعاتِبَ، كان لي فيه رأيٌ، فلا يأتني أحدٌ منكم بِسِعاية على أحد، فإن الصادقَ فيها فاسقٌ،

والكاذبَ بَهَّاتٌ[١]. وسعى رجل برجل إلى عُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقال: إن شئتَ نظرنا في أمرك، فإن كنتَ كاذبًا، فأنت من هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: الآية ٦] وإن كنتَ صادقًا، فأنت من هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القَلَم: الآية ١١] وإن شئت عفونا عنك، قال: العفوُ يا أمير المؤمنين، قال: على أن لا تعودَ.

وكتب محمد بن خالد إلى ابن الزيّات[٢]: إن قومًا صاروا إليّ مُتَنَصِّحِين، فذكروا أن رُسُومًا للسلطان قد عَفَتْ ودَرَستْ، وأنه توقَّف عن كشفها إلى أن يعرف مَوقِع رأيه فيها، فوقَّع على رُقْعته: قرأت هذه الرُّقعةَ المذمومة، وسُوقُ السُّعاةِ مُكْسِدٌ عندنا، وألسنتُهم تَكِلُّ في أيامنا، فاحمل الناسَ على قانونك، وخذهم بما في ديوانك، فلم تردْ للناحية لكشفِ الرسوم العافية، ولا لِتُحْيِيَ الأعلام الداثرة، وجنّبني وتجنّب قول جرير: [من الوافر]

وكُـنْـتَ إذا حَـلَلْت بـدارِ قـومٍ رَحَـلْتَ بِـخِـزْيـةٍ وتـركـتَ عَـارَا

قالوا: وكان الفضلُ بن يحيى يكره السّعاةَ، فإذا أتاه ساعٍ، قال له: إن صَدَقْتنا، أبغضناك، وإن كَذَبْتَنا، عاقبناك، وإن استقلتنا، أَقَلْناك.

وحكى صاحب العقد قال: قال العُتْبِيُّ، حدّثني أبي عن سعيد القصريّ، قال: نظر إليّ عمرو بن عُتْبة ورجل يشتُم بين يَدَيّ رجلًا، فقال لي: وَيْلَك، وما قال لي ويلك قبلها: نَزِّه سمعَكَ عن استماع الخَنَا، كما تُنَزِّه لسانَك عن الكلام به، فإن السامعَ شريكُ القائل، وإنه عمدَ إلى شرِّ ما في وِعَائه، فأفرغه في وِعَائك، ولو رُدَّتْ كلمةُ جاهل في فيه، لَسَعَدَ رادُّها، كما شَقي قائلُها، وقد جعله الله تعالى شريك القائل، فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المَائدة: الآية ٤٢].

ومما قيل في الغيبة والنَّمِيمة، رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا قلتَ في الرجل ما فيه فقد اغتبتَه وإذا قلتَ ما ليس فيه فقد بهتّه».

اغتاب رجلٌ رجلًا عند قُتَيبةَ بن مسلم، فقال له: أَمسِكْ عنه أيُّها الرجلُ، والله لقد تلمظت بمُضْغةٍ طالما لفظتْها الكرام.

---

(١) البهَّات: الذي يحدث حديث الزور والباطل.

(٢) ابن الزّيّات: هو محمد بن عبد الملك بن حمزة، أبو جعفر، وزير المعتصم والواثق العباسيين، من بلغاء الشعراء والكتّاب مات ببغداد سنة ٢٣٣ هـ. «الأعلام ٦/ ٢٤٨».

وذُكِرَ في مجلسه رجلٌ، فنال منه بعض جلسائه، فقال له: يا هذا أوحشتَنا من نفسك، وأيأستَنا من مودّتك، ودللْتنا على عَوْرتك.

واغتابَ رجلٌ عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدللتُ على كثرة عيوبك، بما تَذْكُر من عيبِ الناس، لأنّ الطالبَ للعيوبِ، إنما يطلبُها بقدر ما فيه منها، أما سمعتَ قول الشاعر: [من البسيط]

لَا تَهْتِكَنْ من مَساوِي النَّاسِ ما سَتَرُوا ... فيهتِكُ اللهُ سِتْرًا من مساوِيكَا
واذْكرْ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِرُوا ... ولا تَعِبْ أحدًا منهم بِمَا فيكَا

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما:

اذكرْ أخاكَ إذا غاب عنك بما تُحِبُّ أن يذكرَك به، ودَعْ منه ما تَحِبُّ أن يَدَعَ منك.

وقال بعضُ الملوك لولده وهو وليّ عهده: يا بُنَيّ ليكنْ أبغضُ رعيتِك إليك، أشدَّهم كشفًا لمعايبِ الناس عندك، فإنَّ في الناس معايِبَ وأنت أحقُّ بِسَتْرِها، وإنما تحكمُ فيما ظهر لك، والله يحكُم فيما غابَ عنك، واكرهِ للناسِ ما تكرهُه لنفسك، واستُرِ العَورةَ، يَسْتُرِ اللهُ عليك، ما تَحِبُّ سَتْرَه، ولا تعجّلْ إلى تصديق ساعٍ، فإن الساعِيَ غاشٌ، وإن قال قَوْلَ نُصْحٍ.

وَوَشَى واشٍ برجل إلى الإسكندر فقال له: أَتُحِبّ أن نقبلَ منك ما قلتَ فيه، على أن نقبلَ منه ما يقول فيك؟ قال: لا، قال: فَكُفَّ عن الشر، نكفُّ عنك.

وقال ذو الرّياستين[1]: قَبُول النميمةِ، شرٌّ من النميمةِ، لأنَّ النميمةَ دَلالةٌ، والقبولَ إجازةٌ، وليس من دَلَّ على شيء، كمن قَبِلَه وأجازه.

قال أبو الأسود الدُّؤَلِيّ[2]: [من الكامل]

لا تقبَلنَّ نميمةً بُلِّغتَها ... وتحفظَنَّ من الذي أنباكها
إن الذي أهدى إليك نميمةً ... سَيَنُمُّ عنك بمثلها قد حاكها

---

(١) ذو الرياستين: هو الفضل بن سهل السّرخسي، أبو العبّاس، وزير المأمون وصاحب تدبيره، وقد جعله على الوزارة وقيادة الجيش فلقّب بذي الرياستين الحرب والسياسة مات سنة ٢٠٢ هـ. «الأعلام ٥/ ١٤٩».

(٢) أبو الأسود الدؤلي: (١ ق.هـ - ٦٩ هـ = ٦٠٥ - ٦٨٨ م) ظالم بن عمرو الدؤلي=

وقال رجل لعمرو بن عُبَيد[1]: إن الأساوِرِيّ لم يزل يذكرك، ويقول: الضالّ، فقال عمرو: يا هذا! والله ما راعيتَ حقّ مجالستِه، حتّى نقلتَ إلينا حديثَه، ولا راعيتَ حقِّي، حين أبلغتَني عن أخي ما أكرهَهُ، اعلمْ أن الموت يعمّنا، والبعثَ يَحْشُرنا، والقيامةَ تجمعُنا، والله يحكمُ بيننا.

وقال معاوية للأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف: بلّغني عنك الثقة، فقال الأحنف: إن الثقة لا يُبَلِّغ.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

لعمرُكَ ما سَبَّ الأميرَ عدوُّهُ ولكنّما سَبَّ الأميرَ المُبَلِّغُ

وقال ابن المعتزّ: الساعي كاذب لمن سعى إليه، خائنٌ لمن سعى عليه.

وقالوا: النّمام، شرٌّ من الساحر، فإن النمامَ، يُفسد في الساعةِ الواحدة، ما لا يفسدُ الساحر في المدة الطويلة.

وقالوا: النميمةُ، من الخلال الذميمة، تدُلُّ على نفسٍ سقيمةٍ، وطبيعةٍ لئيمةٍ، مشغوفةٍ بهتك الأستار، وإفشاء الأسرار.

وقال بعضُ الحكماء: الأشرار يتتبعون مساوئَ الناسِ، ويتركون محاسنَهم، كما يتتبع الذباب المواضع الألَمَة من الجسد، ويترك الصحيحة.

وقالوا: لم يَمْشِ ماشٍ، شرٌّ من واشٍ. والساعي بالنميمة، كشاهدِ الزُّور، يهلِكُ نفسه، ومن سعى به، ومن سعى إليه.

وقالوا: حَسْبُك من شَرٍّ سَمَاعه. وقد لهج الشعراء بذمّ النمام، وجعلوه من أهاجيهم.

= الكنافي، واضع علم النحو، كان معدودًا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان، من التابعين، رسم له الإمام علي أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود. وأخذ عنه جماعة، سكن البصرة في خلافة عمره، وولي إمارتها في أيام علي، وأبو الأسود أول من نقط المصحف، له شعر جيد. مات بالبصرة. «الأعلام للزركلي ٣/٢٣٦ و٢٣٧، والشعر والشعراء ص ٤٩١».

(١) هو عمرو بن عُبيد بن باب التيمي بالولاء، أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره، وأحد الزّهاد المشهورين توفي سنة ١٤٤ هـ. «الأعلام ٥/ ٨١». =

قال بعض الشعراء: [من البسيط]

من نَمَّ في الناس لم تُؤمَنْ عقاربُهُ ... على الصديق ولم تُؤمَنْ أَفَاعِيه
كالسَّيل بالليلِ لا يدري به أَحدٌ ... من أينَ جاء ولا من أين يأتيه

وقال السَّرِيُّ الرَّفَّاء: [من الطويل]

أَنَمّ بما استودعتهُ من زُجاجةٍ ... تَرَى الشيءَ فيها ظاهرًا وهو باطِنُ

وقال محمد بن شَرَف(١): [من البسيط]

وناصبٍ نحوَ أفواه الورى أُذُنًا ... كالقَعْب يلْقُط فيها كلّ ما سَقَطَا(٢)
يَظلُّ يلتقط الأخبارَ مجتهِدًا ... حتى إذا ما وعاها زَقَّ ما لقطَا

وقال ابن وكيع(٣): [من الوافر]

يَنِمُّ بسرٍّ مسترعيه لُؤمًا ... كما نَمَّ الظلامُ بسرِّ نَارِ
أنَمُّ من النُّصول على مَشِيبٍ ... ومن صافي الزُّجاج على عُقارِ(٤)

وقال الحسن البصرِيّ: لا غِيبة في ثلاثة: فاسقٍ مجاهرٍ، وإمامٍ جائرٍ، وصاحبِ بِدعة.

وكتب الكِسائيّ(٥) إلى الرقاشِيّ(٦): [من الهزج]

تركتَ المسجدَ الجامـ ... ـعَ والتَّركُ له رِيبهْ

---

(١) محمد بن شرف: القرشي الزبيري، شمس الدين الكلائي، من فقهاء الشافعية. له القواعد الكبرى والجامع الصغير في النحو، نسبته إلى موضع بالبصرة كان يسمى الكَلّاء. توفي سنة ٧٧٧ هـ - ١٣٧٥ م. «الأعلام للزركلي ٦/ ١٥٧».
(٢) القعب: القدح الضخم.
(٣) ابن وكيع: الحسن بن علي الضبي التنيسي، أبو محمد، المعروف بابن وكيع، شاعر مجيد، أصله من بغداد، ومولده ووفاته في تنيس «بمصر». له ديوان شعر، وكتاب المصنف في سرقات المتنبي. توفي سنة ٣٩٣ هـ - ١٠٠٣ م. «الأعلام للزركلي ٢/ ٢٠١».
(٤) النصول: ذهاب الخضاب.
(٥) الكسائي، علي بن حمزة الأسدي الكوفي، أبو الحسن الكسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءة، من أهل الكوفة، ولد في إحدى قراها، وتعلم بها وقرأ النحو بعد الكبر وتنقل في البادية وسكن بغداد وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين، له تصانيف منها: معاني القرآن والمصادر والحروف والنوادر. توفي سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٥ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ٢٨٣».
(٦) الرقاشي: الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، أبو عيسى، واعظ، من أهل البصرة، كان من=

وأخـبـارُك تـأتـيـنـا على الأعـلام مـنـصـوبـهْ
فـإن زدتَ مـن الـغَـيـبـ ـةِ زدنـاك مـن الـغِـيـبـهْ

ذكر ما قيل في البخل واللؤم

والبخل منع الحقوق وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٠].

وقال رسول الله ﷺ: «خَلّتانِ لا تجتمعان في مؤمن: البخلُ وسوءُ الخُلُقِ».

وقال بعض السلف: منعُ الجودِ، سوءُ ظنٍّ بالمعبود، وتلا: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سَبأ: الآية ٣٩].

وروى أبو بكر الخطيب في كتاب البخلاء، بإسناده عن أبي هُرَيْرة عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «لما خلق الله تعالى جَنَّة عَدْن، قال لها: تزيَّني فتزينت، ثم قال لها: أَظْهِرِي أنهارَك، فأظهرتْ عَيْنَ السلسبيل، وعينَ الكافور، وعينَ التسنيم، ونهرَ الخمر، ونهرَ العسلِ، ونهرَ اللبن، ثم قال لها: أظهري حُورَك، وحُلَلك، وسررك وحجالك[1]، ثم قال لها: تكلَّمِي، فقالت: طُوبَى لمن دخلني، فقال الله عزَّ وجل: أنتِ حرامٌ على كل بخيل».

وقال سُقْراط: الأغنياءُ البخلاءُ، بمنزلة البِغَال والحَمِير، تحملُ الذهبَ والفضةَ، وتعتلف التِّبنَ والشعيرَ.

وقالوا: البخلُ من سوءِ الظنِّ، وخمولِ الهِمّةِ، وضعفِ الرويَّة، وسوءِ الاختيارِ، والزُّهْدِ في الخيرات.

= أخطب الناس، متكلمًا قاصًا مجيدًا، وهو رئيس طائفة من المعتزلة، تنسب إليه، وكان قدريًا ضعيف الحديث، سجّاعًا في قصصه. توفي نحو سنة ١٤٠ هـ ـ نحو ٧٥٧ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ١٥١».

(١) حجال: الحَجل والحِجل: الخلخال، وحجلا القيد: حلقتاه. «اللسان ١١/ ١٤٤».

وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: البخلُ جامعٌ للمساوىءِ والعيوبِ، وقاطعٌ للمودّاتِ من القلوب.

وقالوا: حدُّ البخلِ، منعُ المسترفِدِ مع القدرة على رِفْده.

وكان أبو حنيفة[١] لا يقبلُ شهادةَ البخيل، ويقول محتجًّا لذلك: إن البخيل يحمله بخلُه، على أن يأخذ فوق حقِّه، مخافةَ أن يُغْبن، ومن كان هكذا لا يكون مأمونًا.

وقال بشر بن الحارث الحافي[٢]: لا غِيبةَ لبخيلٍ، ولَشُرَطيٌّ سخِيٌّ أحبُّ إليّ من عابدٍ بخيل.

وقالوا: البخيل لا يستحقّ اسمَ الحُرِّية، فإن مالَه يملكُهُ.

ويقال: لا مالَ للبخيل، وإنما هو لماله.

وقال الحسن البصريّ: لم أرَ أشقى بماله من البخيل؛ لأنّه في الدنيا يَهْتَمُّ بجمعه، وفي الآخرة يحاسَبُ على منعه، غيرَ آمن في الدنيا من همّهِ، ولا ناجٍ في الآخرة من إثْمِه، عيشُه في الدنيا عيشُ الفقراء، وحسابهُ في الآخرة حِسابُ الأغنياء. ودخل رحمه الله على عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه، فرآه يُصَعِّد بَصَرَه ويُصَوِّبه إلى صُندوق في بيته، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف دينار في هذا الصندوق لم أُؤَدِّ منها زكاةً ولم أَصِلْ بها رَحِمًا؟ فقال له: ثكلتْك أمّكَ! ولم كنتَ تجمعها؟ قال لرَوْعةِ الزمان، وجَفْوَة السلطانِ، وتكاثرِ العشيرةِ، ثمّ مات، فشهده الحسن، فلما فَرَغ من دفنه، ضرب بيده على القَبْر، ثم قال: انظروا إلى هذا، أتاه شيطانه فخوَّفه رَوْعَةَ زمانهِ، وجفوةَ سلطانهِ، بما استودعه اللهُ إيّاه، وعمّره فيه، انظروا

(١) أبو حنيفة: (٨٠ ـ ١٥٠ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) النعمان بن ثابت، الكوفي، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد ونشأ بالكوفة، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، وأراده عمر بن هبيرة (أمير العراقين) على القضاء فامتنع ورعًا، وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد، فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات. كان قوي الحجة حسن المنطق، جهوري الصوت، توفي ببغداد. وأخباره كثيرة. له مسند في الحديث، والمخارج في الفقه. «الأعلام للزركلي ٨/ ٣٦».

(٢) بشر بن الحارث الحافي: (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٤١ م) أبو نصر، المعروف بالحاني، من كبار الصالحين، له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل مرو، سكن بغداد وتوفي بها. «الأعلام للزركلي ٢/ ٥٤».

إليه كيف خرج مذمومًا مَدْحُورًا! ثم التفت إلى وارثه، فقال: أيها الوارثُ لا تُخْدَعَنَّ كما خُدِع صُوَيْحِبُكَ بالأمس، أتاك هذا المالُ حلالًا، فلا يكونن عليك وَبَالًا، أتاك عفوًا صفوًا، ممن كان له جَمُوعًا مَنُوعًا، من باطل جمعه، ومن حقٍّ منعه، قطع فيه لُجَجَ البحارِ، ومفاوزَ القِفَار، ولم تَكْدَحْ لك فيه عَيْنٌ ولم يَعْرَقْ لك فيه جبين، إن يوم القيامةِ يومٌ ذو حَسَرات، وإن من أعظم الحسرات غدًا، أن ترى مالك في ميزان غيرك، فيا لها حسرة لا تُقال، وتَوْبة لا تُنال.

ومن أخبار البخلاء: قيل: بخلاءُ العرب أربعة، الحطيئةُ، وحُمَيد الأَرْقُط، وأبو الأسود الدُّؤَلِيّ، وخالدُ بنُ صفوان، ونُقِلت عنهم أُمُور دلّت على بخلهم.

أما الحطيئة: فقد حُكيَ عنه: أنه مَرّ به ابنُ الحمامة، وهو جالس بفِنَاء بيته، فقال له: السلام عليكم، فقال: قلت ما لا يُنْكَرُ، فقال: إني خرجتُ من أهلي بغير زاد، قال: ما ضمنتُ لأهلك قِرَاك، قال: أفتأذن لي أن آتي بظلّ بيتك فأتفيّأ به؟ قال: دونك الجبلُ يَفِيء عليك، قال أنا ابن الحمامة، قال: انصرفْ وكن ابن أي طائر شئتَ. قال: واعترضه رجلٌ وهو يَرْعى غنمًا، فقال له: يا راعِيَ الغَنَم، وكان بيد الحطيئة عَصًا فرفعها، وقال: عَجْراءُ من سَلَم[1]، فقال الرجل: إنما أنا ضيفٌ، فقال: للأضياف أعددتُها. وكان الحطيئةُ أحذ الْحَمْقَى، أوصى عند موته، أن يُحْمَلَ على حِمَار، وقال: لعلّي إن حُملتُ عليه، لا أموتُ، فإني ما رأيت كريمًا مات عليه قطّ. وقال: لكُلِّ جَديد لذّةٌ، إلا جديد الموتِ، فإني رأيتُه غيرَ لذيذ. وقيل له: أوصِ، فقال: أُوصِي أن مالي للذكور دونَ الإناث، قالوا: فإن الله ليس يقول كذلك، قال: لكني أقوله. وقالوا له: قل لا إله إلا الله، فقال: أشهَدُ أن الشمّاخ[2] أشعرُ غطفان.

ومن أخباره: أن الزِّبرِقان بن بدر، لَقِيَه في سفر، فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا حَسَبٌ موضوعٌ، أنا أبو مُلَيْكَة، فقال له الزِّبرِقان: إني أريد وَجْهًا، فَصِرْ إلى منزلي،

---

(١) عجراء: رجل أعجر: عظيم البطن ـ والعجر: القوة مع عظم الجسد ـ والأعجر: كل شيء ترى فيه عقدًا، والعجرة كل عقدة في الخشب. «اللسان ٤/٥٤٢». سلم: شجر من العضاه، وورقها يدبغ به الأديم، لهذه الشجرة زهرة صفراء فيها حبة خضراء. «اللسان ١٢/٢٩٦».

(٢) الشماخ بن ضرار المازني الذبياني الغطفاني، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة، كان أرجز الناس على البديهة، شهد القادسية وتوفي في غزوة موقان سنة ٢٢ هـ ـ ٦٤٣ م. اسمه الحقيقي معقل بن ضرار والشماخ لقبه. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٧٥».

وكن هناك، حتّى أرجِعَ، فصار الحُطَيئةُ إلى امرأة الزِّبْرِقِ
بنو عمّه، وهم بنو لأي، فقالوا للحطيئة: إن تحولتَ إ
إلى كلّ طُنُب من أطناب بيتك حُلَّةً تَحْويه، وقالوا لا
قدّم هذا الشيخَ ليتزوجَ بنته، فقَدَحَ[1] ذلك في نفس
تخلّف الحطيئة، فتغافلت عنه امرأة الزِّبرِقان، فاحتمله العر
فمدحَهُم، وهجا الزِّبْرِقان، فقال: [من البسيط]

أزمعتُ يأسًا مُبِينًا من نوالِكُمُ ... ولا يُرَى طارِدًا لـلحُرِّ كـاليـأسِ
دعِ المكارِمَ لا ترحلْ لِبُغْيتِها ... واقعُد فإنك أنتَ الطاعِمُ الكَاسِي
مَن يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَم جَوازِيَه ... لا يذهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والناسِ

فاستعدى الزبرقانُ عليه عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فحكَّم عمرُ، حسانَ بنَ ثابت، فقال حسان: ما هجاه ولكن سَلَح عليه، فحبس عمرُ الحطيئةَ، فقال يستعطفه: [من البسيط]

مـاذا تـقـول لأفـراخٍ بِـذِي مَـرَخٍ ... حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شَجَرُ؟[3]
ألقيتَ كاسِبَهُم في قَعْرِ مُظْلِمَة ... فاغْفِر عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ
مـا آثـروك بـهـا إذْ قـدَّمـوك لـهـا ... لكنْ لأنفسهم كانت بك الأَثَرُ

فأخرجه عمرُ، وجلس على كرسيّ، وأخذ بيده شَفْرة، وأوهم أنه يريد قَطْعَ لسانِه، فضجّ، وقال: إني والله يا أميرَ المؤمنين! قد هجوتُ أبي وأُمّي وامرأتِي ونفسي، فتبسّم عمرُ، ثم قال: ما الذي قلتَ؟ قال: قلتُ لأبي وأُمّي: [من الكامل]

ولقد رأيتُكِ في النساء فسؤْتِنِي ... وأَبَا بَنِيك فساءني في المجلسِ

وقلتُ لأَبِي خاصة: [من الوافر]

فبِئسَ الشيخُ أنتَ لَدَى تميمٍ ... وبئس الشيخُ أنت لَدَى المَعَالي

(١) قدح في نفسها: أي دخل وأورى بالشك.
(٢) النجعة: طلب الكلأ ومساقط الغيث. «اللسان ٨/ ٣٤٧ و٣٤٨».
(٣) مرخ: المرخ: شجر كثير الوري سريعه، من شجر النار. «لسان العرب ٣/ ٥٣». وهو موضع يكثر فيه هذا الشجر.

لتُ لأمّي خاصة: [من الوافر]

تَـنَـحَّـيْ واجـلـسـي مـنِّـي بـعـيـدًا ... أراحَ اللهُ مـنـكِ الـعـالـمـيـنـا؟
أغِـرْبـالًا إذا اسـتـودعـتِ سِـرًّا ... وكَـانُـونًـا عـلى الـمـتَـحـدِّثـيـنـا؟

وقلت لامرأتي: [من الوافر]

أطـوّفُ مـا أطـوّفُ ثـم آتـي ... إلـى بـيـتٍ قَـعِـيـدتُـه لَكَـاعِ[1]

وقلت لنفسي: [من الطويل]

أبـتْ شـفـتـايَ الـيـومَ إلا تَـكَـلُّمًا ... بسوءٍ فما أدري لـمن أنا قائلُهْ
أرى لِيَ وَجْـهًـا شـوَّه الله خَـلْقَـهُ ... فَقُبِّحَ مِنْ وجهٍ وقُبِّحَ حَامِلُهْ

فخلّى عمر سبيله، وأخذ عليه أن لا يهجوَ أحدًا، وجعل له ثلاثة آلاف اشترى بها منه أعراض المسلمين، فقال يذكرُ نَهْيَهُ إيّاه عن الهجاء ويتأسفُ: [من الكامل]

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ فلم تدَعْ ... شَتْمًا يَضُرُّ ولا مَدِيحًا يَنْفَعُ
ومنعتني عِرْضَ البخيلِ فلم يَخَفْ ... شَتْمي وأصبحَ آمِنًا لا يَجْزَعُ

وأما حميد الأرقط: فكان هَجّاءً للضيف، فحّاشًا عليه، فَنَزل به ضيفٌ ذات ليلة، فقال لامرأته: نزل بك البلاءُ، قومي فأعِدِّي لنا شيئًا، ففعلتْ، فجعل الضيف يأكل ويقولُ: ما فعل الحجاج بالناس؟ فلما فَرِغ، قال حُمَيد: [من الطويل]

يجرُّ على الأطناب من جذْلِ بيتنا ... هِجَفٌّ لمخزون التَّحِيَّةِ باذِلُ[2]
يقول وقد أَلْقَى المراسِيَ لِلْقِرَى ... أبِنْ لِيَ ما الحجّاجُ بالناس فاعِلُ؟
فقلت: لَعَمْرِي ما لـهذا أتينَنا ... فكُلْ ودعِ الأخبارَ ما أنت آكِلُ
تُـدَبِّـرُ كـفـاه ويـحْـدرُ حَـلْقَـهُ ... إلى الصدر ما حازتْ عليه الأنامِلُ
أتانـا ولـم يَـعْـدِلْه سَحبانُ وائلٍ ... بـيانًا وَعِلْمًا بـالـذي هـو قـائـلُ
فما زال عنه اللَّقْمُ حتَّى كأنه ... من العِيِّ لمَّا أنْ تكلّم باقِلُ[3]

---

(١) لكاع: اللكع: المهر والجحش، واللكيعة: الأمة اللئيمة، ولكع الرجل يلكع: لؤم وحمق ـ ولكاع: الأَمَة، ولكع: العبد. «اللسان ٨/ ٣٢٢ و٣٢٣».

(٢) الهِجف: الطويل الضخم، والهجف من النعام ومن الناس: الجاني الثقيل. «اللسان ٩/ ٣٤٤ و٣٤٥».

(٣) باقل: اسم رجل يضرب به المثل في العِي، حتى ليقال على سبيل التشبيه: إنه لأعيا من باقل. =

ونزل به أضياف، فأطعمهم تمرًا وهجاهم، وادّعى عليهم أنهم يأكلونه بنواه، فقال: [من البسيط]

باتوا وجُلَّتُنَا الصَّهْبَاءُ حَوْلَهُمُ   كأن أظفارَهم فيها السكاكِينُ[١]
فأصبحوا والنَّوى مُلقى مُعَرَّسِهِم   وليس كلَّ النَّوى ألقى المساكِينُ

وأما خالد بن صفوان: فكان إذا أخذ جائزَتَه، قال للدرهم: طالما سرتَ في البلاد، أما والله لأُطيلَنَّ حبسَك، ولأَدِيمنَّ لُبثَك. وقيل له: مالك لا تنفق، فإن مالكَ عَريضٌ؟ فقال: الدهرُ أعرضُ منه، قيل: كأنك تؤمل أن تعيشَ الدهرَ كلَّه، قال: ولا أخافُ أن أموتَ في أوله.

وأما أبو الأسود الدؤليّ: فعمل دكانًا عاليًا يجلس عليه، فكان ربما أكل عليه فلا يناله المجتاز، فمرّ به أعرابيّ على جملٍ، فعرض عليه أن يأكل معه، وظنّ أنه لا يناله، فأناخ الأعرابيّ بعيره، حتّى وازى الدكان، وأكل معه، فما جلس بعد ذلك على الدكان، وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا، كنا أسوأَ حالًا منهم. وقال لبنيه: لا تُطعِموا المساكين في أموالكم، فإنهم لا يَقْنَعُون منكم، حتَّى يرَوْكم في مثل حالهم. ووقف عليه أعرابيّ وهو يتغدّى، فسلّم عليه، فردّ عليه، ثم أقبل على الأكل، ولم يَعْرِض عليه، فقال الأعرابيّ: أما إني قد مررتُ بأهلك، قال: كان ذلك طريقك، قال: وهم صالحون، قال: كذلك فارقتُهم، قال: وامرأتُك حُبْلى، قال: كذلك كان عهدي بها، قال: ولَدَتْ، قال: ما كان بدٌّ لها أن تَلِدَ، قال: ولدتْ غلامين، قال: كذلك كانت أمُّها، قال: مات أحدهما، قال: ما كانت تَقْوَى على رضاع اثنين، قال: ثمَّ مات الآخر، قال: ما كان لِيَبْقى بعد أخيه، قال: وماتت الأُمُّ، قال: جَزَعًا على ولَدَيْها، قال: ما أطيبَ طعامَك! قال: ذلك جزائي على أهله، قال: أفٍّ لك ما ألأَمَكَ! قال: من شاء سَبَّ صاحبَه.

ونظير هذه الحكاية: ما حُكِيَ أن أعرابيًّا مرّ بآخرَ، قال: مِن أين أقبلت يابن عمّ؟ قال: من الثَّنِيَّة[٢]، قال: فهل أتيتَنا منها بخبر؟ قال: سل عما بَدَا لك، قال: كيف علمُك بيحيئ؟ قال: أحسنُ العلم، قال: هل لك علم بكلبي نفّاع؟ قال: حارس

= «اللسان ١١/ ٦٢».

(١) جلتنا: قفة كبيرة للتمر ـ أو وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر. «اللسان ١١/ ١١٨».

(٢) الثنية: الثنية في الأصل كل عقبة في الجبل مسلوكة. وهناك عدة ثنيات ولكن لا نعلم ما التي يقصدها الكاتب. ولكن لعلها «مكان قرب مكة». «معجم البلدان ٢/ ٨٥».

الحَيّ، قال: فبأمّ عثمان؟ قال بَخ بَخ، ومَنْ مِثلُ أمّ عثمان! لا تدخلُ من البابِ إلا منحرفة بالثيابِ المُعَصْفَرَات[١]، قال: فبعثمان؟ قال: وأبيك فإنه جَرْو الأسد ويلعب مع الصبيان، وبيده الكِسْرَةُ، قال: فبجملنا السقّاء؟ قال: إن سنامه ليَخْرجُ من الغبيط[٢]، قال فبالدار؟ قال: وأبيك، إنها لخصيبةُ الجناب، عامرةُ الفِناء، ثم قام عنه، وقعَد ناحيةً يأكل فلا يدعوه، فمرّ كلب، فصاح به، وقال: يابن عم، أين هذا الكلبُ من نفّاع؟ قال: يا أسَفَا على نَفّاع! مات، قال: وما أماته؟ قال: أكل من لحم الجمل السقّاء، فاغْتُصَّ بعظم منه فمات، قال: إنا لله، أو قد مات الجمل! فما أماته؟ قال: عثر بقبرِ أم عثمان، فانكسرتْ رِجْلُه. قال: ويْلُمّك! أماتت أم عثمان؟ قال: إي والله، أماتها الأسفُ على عثمان، قال: ويلك! أمات عثمانُ؟ قال: إي وعهد الله! سقطتِ الدارُ عليه، فرمى الأعرابيّ بطعامك ونثره وأقبل ينتف لحيته ويقول: إلى أينَ أذهب؟ فيقول الآخرُ إلى النار، وأقبل يلتقط الطعام ويأكله ويهزأ به ويضحك، ويقول: لا أرغم الله إلا أنفَ اللئام.

وكان أُحَيْحَةُ بن الجُلَاح[٣] من البُخَلاء، وكان إذا هبتِ الصَّبَا، طلع أُطُمَة، ينظر إلى ناحية هبوبها ثم يقول: هُبي هبوبَك، فقد أعددت لك ثلاثمائةٍ وستين صاعًا من عَجْوة، أدفع إلى الوليد منها، خمسَ تمرات، فيردّ عليّ منها ثلاثًا، أي لصلابتها بعد جهد ما يَلُوكُ منها.

والعرب تضرب المثل في اللؤم بِمَادِر، تقول: هو ألأَمُ من مَادِرٍ، ويزعُمون أنه بنى حوضًا وسقى إبِله، فلما أصدَرها سَلَحَ في الحوض، لئلا يَسْقِيَ غيرُه فيه.

وكان عُمَرُ بن يزيد الأسدي[٤] مبخلًا جدًّا، فأصابه القُولَنْجُ فحقنه الطبيب بدُهن كثير، فانحل ما في بطنه، فلما أبرزه، قال للغلام: ما تصنع به؟ قال أَصُبُّه، قال: لا ولكن مَيِّز الدُّهن منه واستصبحْ به.

---

(١) المعصفرات: العصفر هو الذي يصبغ به، منه ريفي ومنه بري، وكلاهما نبت بأرض العرب، وقد عصفرت الثوب فتعصفر. «اللسان ٤/ ٥٨١».

(٢) الغبيط: الهودج للمرأة على البعير، يعمل من الخشب وغيره. «اللسان ٧/ ٣٦١».

(٣) أحيحة بن الجلاح: الأوسي، أبو عمرو، شاعر جاهلي من دهاة العرب وشجعانهم، كان سيد يثرب (المدينة) وكان له حصن فيها سماه «المستظل» ومزارع وبساتين ومال وفير، وكان سيد الأوس في الجاهلية، توفي نحو ١٣٠ ق.هـ - نحو ٤٩٧ م. «الأعلام للزركلي ١/ ٢٧٧».

(٤) عمر بن يزيد الأسدي: من تميم، أحد الشجعان الرؤساء المقدمين في أيام بني مروان، ذكره يزيد بن عبد الملك يومًا فقال: «هذا رجل العراق». قتله مالك بن المنذر صاحب شرطة البصرة بأمر خالد القسري لما ولي العراق. توفي سنة ١٠٩ هـ - ٧٢٧ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ٦٩».

وقال سلم بن أبي المعافي: كان أبي متنحيًا عن المدينة، وكان إلى جنبه مزرعةٌ فيها قِثَّاء، وكنت صبيًا فجاءني صِبْيانٌ أقرانٌ لي، فكلّمتُ أبي ليهبَ لي درهمًا أشتري لهم به قثَّاء، فقال لي: أتعرفُ حالَ الدرهم؟ كان في حجر في جبل، فضُرب بالمعاوِل، حتى استُخرج، ثم طُحِن، ثم أُدخِل القِدْرَ وصُبّ عليه الماء، وجُمع بالزِّئبق، ثم صُفِّي من رَقّ، ثم أُدخلَ النارَ فسُبك، ثمّ أُخرجَ فضُربَ، وكُتِب في أحد شِقّيه: لا إلـه إلاالله، وفي الآخر: محمد رسول الله، ثم حُمل إلى أمير المؤمنين، فأمر بإدخاله بيت ماله، ووَكّلَ به عُوجَ القلانِس صُهْب السِّبال[١]، ثم وهبه لجارية حسناء جميلة، وأنت واللهِ أقبحُ من قِردٍ، أوْ رَزَقه رجلًا شُجاعًا وأنت والله أجبن من صُرد[٢]، فهل ينبغي لك أن تَمسّ الدرهم إلا بثوب؟ ومثله قول سهل بن هارون[٣]، وقد قال له رجل: هبني ما لَا مَرْزِئَة عليك فيه، قال: وما ذاك؟ قال: دِرهمًا واحدًا، قال: يابن أخي لقد هوّنتَ الدرهم، وهو طابعُ اللهِ في أرضه، والدرهمُ ويحك عُشْرُ العشرةِ، والعشرةُ عشرُ المائةِ، والمائةُ عشرُ الألفِ، والألفُ عشرُ دِيّةِ المُسلم، ألا ترى يابن أخِي كيف انتهى الدرهم الذي هوّنتَه؟ وهل بيوتُ الأموال إلا درهمٌ على درهم؟.

وقال سليمان بن مُزاحم، وقد وقع بيده درهمٌ، فجعل يقلّبه، ويقول: في شِقٍّ، لا إلـهَ إلا الله محمد رسول الله، وفي شِقٍّ، قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، ما ينبغي لهذا إلا أن يكون تَعْويذًا أو رُقْيَة، ويَرْمي به في الصندوق.

كان بعضهم إذا صار الدرهمُ في يده يخاطبه ويقول: بأبي وأمّي أنت، كم من أرضٍ قطعتَ، وكيسٍ خرقتَ، وكم من خاملٍ رفعتَ، ومن رفيعٍ أخملتَ، لك عندي أن لَا تَعْرَى ولا تَضْحى، ثم يلقيه في كيسه، فيقول: اسكنْ علَى اسم الله، في مكان لا تزولُ عنه، ولا تزعجُ منه.

ومن البخلاء «مُزَبِّد» وله حكايةٌ نذكرها، قيل: كان بالمدينة جاريةٌ جميلةٌ مُغَنِّيةٌ، يقالُ لها: «بَصْبَصُ» وكانت الأشرافُ تجتمعُ عند مولاها، فاجتمع يومًا عنده

---

(١) صهب السبال: الثياب المسبلة، إنها أغلظ ما يكون من الثياب تتخذ من مُشاقة الكتان. «اللسان ١١/ ٣٢١».

(٢) صرد: الصرد هو طائر فوق العصفور. «لسان العرب ٣/ ٢٤٩».

(٣) هو سهل بن هارون بن راهبون، كاتبٌ بليغ من واضعي القصص اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرّشيد، وارتفعت مكانته عنده، كان شعوبيًا مات سنة ٢١٥ هـ. «الأعلام ٣/ ١٤٣».

محمّد بن عيسى الجعفَريّ وعبد الله بن مُصعب الزُبيريّ في جماعةٍ من الأشراف، فتذاكروا أمر مزبد وبخله، فقالت الجارية: أنا آخذُ لكم منه درهمًا، فقال لها مولاها: أنت حرّةٌ إن فعلتِ إن لم أشتر لك مخنقةً بمائة دينار وثوبَ وشي بمائة دينار، وأجعلُ لك مجلسًا بالعقيق(١) أنحرُ فيه بَدَنة(٢)، فقالت: جِئ به، وارفعِ الغَيْرَة، حتَّى أفعلَ، فقال: أنت حرّةٌ إن منعتُك منه، ولأعاونَنَّه عليكِ إن حصّلت منه الدرهمَ، فقال عبد الله بن مُصعب: أنا آتيكم به، قال عبد الله: فصلّيْتُ الغَداة في المسجد، فإذا أنا بهِ قد أقبل، فقلتُ: يا أبا إسحٰق، إنَّا نُحِب أن نرى بصبص؟ قال: بلى والله، وامرأتُه طالقٌ إن لم تكن له سنة يشتهي أن يلقاها، فقلت له: إذا صليتَ العصر، فأْتني هٰهنا، فقال: امرأتُه طالقٌ إن برحَ من هٰهنا إلى العصر، قال فانصرفتُ في حوائجي، فلما كان العصر جئتُ فوجدتُه، فأخذتُ بيده، وأتيتُهم به، فأكل القومُ وشربوا حتَّى صُلّيتِ العَتَمَةُ، ثم تساكروا وتناوموا، فأقبلتْ بَصْبَصُ على مُزَبِّد، فقالت له: يا أبا إسحٰق كأنّي والله في نفسك تشتهي أن أُغَنّيَك الساعةَ: [من مجزوء الوافر]

* لقد حَثُّوا الجِمالَ ليهرُبُوا مِنَّا فلم يئِلُوا(٣) *

فقال لها: امرأتُه طالقٌ إن لم تكوني تعلمين ما في اللوح المحفوظ، فغنتْه إيَّاه، ثم قالت له: كأنّي بك تشتهي أن أقوم من مجلسي فأجلسُ إلى جنبك فَتُدْخل يَدَكَ في جِلْبَابي، فقال: امرأتُه طالقٌ إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام، وما تَكْسِب الأَنْفُسُ غدًا قالت: فقمْ، فقام وجلس إلى جانبها وغنَّتْ له، ثم قالت: أعلمُ أنك تشتهي أن أغنّيكَ: [من الهزج]

أنـا أبـصـرتُ بـالـلّيـل غُـلامًـا حَـسَـنَ الـدَّلّ
كَـغُـصـن الـبان قـد أصبـ ـحَ مَـسْـقِـيًّـا مـن الـطَّـلّ

فقال لها: امرأتهُ طالقٌ إن لم تكوني نبيّةً مُرسلةً، فغنّته وقبّلَها، ثم قالت: يا أبا إسحٰق، هل رأيتَ قطّ أنذلُ من هؤلاء؟ يدعونني ويدعونك، ويُخرجونني إليك ولا

---

(١) العقيق: العرب تقول لكلّ مسيل ماءٍ شقّه السَّيل في الأرض فأنهر، ووسّعه عقيق، وفي بلاد العرب أربعة أعقّة منها: عقيق عارقي اليمامة، وعقيق بناحية المدينة، وعقيق في بلاد مزينة، والعقيق الذي في بلاد بني عقيل. «انظر معجم البلدان ٤/ ١٣٩».

(٢) البدنة: الناقة أو البقرة المقدّمة ذبيحة في مكّة.

(٣) يئلوا: وأل: لجأ ـ ووأل يئل، فهو وائل، إذا التجأ إلى موضع ونجا. «اللسان ١١/ ٧١٥».

يشترون نُقْلًا[١] ولا رَيْحانًا، كأنّي بك وفي جيبِك درهمٌ وأنت تقول: الساعةَ أخرجُهُ، وأعطيها إيّاه، وتشتري به ما تريد، فقام من جنبها وقال: أخطأت استُك الحُفْرَة، وانقطع عنك الوحي، ووثب وجلسَ ناحية، فانتبه القوم وعَطْعَطُوا[٢] عليها وعلموا أنّ حيلتَها لم تَتِمّ، وخرج من عندهم ولم يَعُد إليهم.

وقال بعضهم: بتُّ عند رجلٍ من أَهل الكوفة من الموسرين، وله صِبْيان نِيام، فرأيته في الليل يقوم فيقلّبهم من جنب إلى جنب، فلما أصبحنا سألته عن ذلك، فقال: هؤلاء الصبيان يأكلون وينامون على اليسار، فيمريهم الطعام، ويصبحون جياعًا، فأنا أقلّبهم من اليسار إلى اليمين لئلا يَنْهضِمَ ما أكلوه سريعًا.

وكان زياد بن عبد الله الحارثيّ واليًا على المدينة، وكان فيه بُخْلٌ وجفاءٌ، فأهدى إليه كاتبٌ له سِلَالًا فيها أطعمةٌ، وقد تَتَوَّق فيها فوافته وقد تغدَّى، فقال: ما هذه؟ قالوا: غداء بعثه فلانُ الكاتب، فغضب، وقال: يبعثُ أحدهم الشيءَ في غير وقته، يا خَيْثَم بن مالك! يريد صاحبَ شُرْطته، ادعُ لي أهل الصُّفَّة يأكلون هذا، فبعث خيثمُ الحرسَ يدعونهم، فقال الرسولُ الذي جاء بالسِّلَال: أصلحَ الله الأمير، لو أمرتَ بهذه السلال تُفتَح ويُنْظَر ما فيها، قال: اكشفوها فإذا طعامٌ حسنٌ من دَجَاجٍ وفراخ وجِدَاءٍ وسمك وأَخْبِصَة وحَلْوَاء فقال: ارفعوا هذه السِّلَال، وجَاء أهلُ الصُّفَّة، فأُخبِر بهم، فأمر بإحضارهم وقال: يا خَيْثم! اضْرِبهم عشرة أسواط، فإنه بلغني أنهم يفسون في مسجد رسول الله ﷺ.

ومن الخلفاء من يُنْسب إلى البخل، فمنهم عبد الملك بن مروان كان يلقب بِرَشْحِ الحَجَر ولبنِ الطير لبخله.

ومنهم هشام ابنه وكان ينظر في بيع الهدايا التي تُهْدَى إليه. حُكِيَ عنه أن أعرابيًّا أكل عنده فرفع اللُّقمةَ إلى فيه، فقال له هشام: في لقمتك شَعْرةٌ يا أعرابيّ، فقال: وإنك تلاحظني ملاحظةَ من يَرَى الشَّعْرَة، والله لا أكلتُ عندك أبدًا، ثم قام وانصرف.

ومنهم أبو جعفر المنصور كان يلقب بأبي الدوانيق[٣]، لُقِّب بذلك لأنه لما بنى مدينةَ بغداد كان يباشرها بنفسه ويحاسب الصُّناع، فيقول لهذا: أنت نِمْتَ القائلة،

---

(١) النّقل: ما يؤكل مع الشّراب كالفستق وغيره.

(٢) عطعطوا: العطعطة: حكاية صوت، تتابع الأصوات واختلافها في الحرب، وهي أيضًا حكاية أصوات المجان إذا قالوا: عيط، عيط وذلك إذا غلب قوم قومًا. «اللسان ٧/ ٣٥٢».

(٣) الدوانيق: مفردها الدّانق، وهو ضرب من النقد يعادل سدس الدّرهم.

ولهذا: لم تُبَكِّر، ولهذا: انصرفتَ قبل أن تُكَمِّل اليوم، فَيُسقطُ لهذا دانقًا، ولهذا دانِقين، فلا يكادُ يعطي لأحدٍ أُجرةً كاملةً، وكان يقول: يزعُمون أنّي بخيل، وما أنا ببخيلٍ، ولكن رأيتُ الناس عبيدَ المال، فمنعتُهم عنه، ليكونوا عبيدًا لي. ويُحْكى عنه أنه قال لطباخه: لكم ثلاثةٌ وعليكم اثنتان، لكم الرؤوسُ والأكارعُ والجلودُ، وعليكم الحبوبُ والتوابلُ. ومن حكاياته الدالة على بخله: أن صاحبه الربيع بن يونس قال له يومًا: يا أميرَ المؤمنين، إن الشعراء ببابك وهم كثير، وقد طالت أيامُهُمْ ونفدت نفقاتُهم، فقال: اخرجْ إليهم وسلّمْ عليهم، وقلْ لهم مَنْ مدحنا منكم فلا يصِفُ الأسدَ، فإنما هو كلبٌ من الكلاب، ولا الحيَّةَ، فإنما هي دويبة منتنة تأكلُ التراب، ولا الجَبَلَ فإنه حجر أصَمُّ، ولا البحرَ، فإنه عَطِن بضٌّ لَجِبٌ، فمن ليس في شعره شيءٌ من هذا فلْيدْخُلْ، ومن كان في شعره شيءٌ منه فَلْينصَرِفْ، فأبلغهم فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هَرْمَة فقال: أنا له يا ربيع فأدخلني عليه: فأدخله، فلما مثل بين يديه، قال له: يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك غيره فأنشده قصيدته التي منها: [من الطويل]

له لحَظَاتٌ في حِفَافَيْ سريره إذا كرَّها فيها عِقابٌ ونائلُ
فَأُمُّ الذي أمَّنتَ آمِنةَ الردى وأُمُّ الذي خوَّفتَ بالثُّكلِ ثاكِلُ

فرفع له السِّتر وأقبل عليه وأصغى إليه، فلما فرغ من إنشاده أمر له بعشرة آلاف درهم وقال له: يا إبراهيم، لا تتلفْها طمعًا في نَيْل مثلها منّا، فما كلّ وقت تصل إلينا، فقال إبراهيم: ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم القيامة وعليها الجِهْبَذ[1].

ودخل المؤمّل بن أمِيل على المهديّ وكان بالرَّيّ[2]، وهو إذ ذاك وليّ عهد أبيه المنصور، فامتدحه بأبيات يقول فيها: [من الوافر]

هو المهديُّ إلّا أنَّ فيه مَشابَه صورةِ القمرِ المنيرِ
تشابَهُ ذا وذا فهما إذا ما أنارا يُشْكَلانِ على البصيرِ

---

(١) الجهبذ: كاتب رسم استخراج المال وقبضه.
(٢) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن. كانت عجيبة الحسن مبنية بالآجر المنمق، إلا أن أكثرها حزب وكانت جدرانها ومنابرها باقية حتى السنة ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠ م، فتحها المسلمون في السنة ٢٠ هـ ـ ٦٤٠ م وكانت تدعى في الجاهلية «أزارى» وقد قامت «طهران» الحالية بقربها، فهي في الضاحية الجنوبية من طهران اليوم. «معجم البلدان ٣/١١٦ ـ ١٢٠، وسير الملوك ـ الحواشي ص ٢٤١».

فهذا في الضياء سِراجُ عدلٍ　　وهذا في الظلام سِراجُ نُورِ
ولكنْ فضَّلَ الرحمنُ هذا　　على ذا بالمنابر والسَّرِيرِ
وبعضُ الشهرِ يَخْفَى ذا، وهذا　　منيرٌ عند نقصانِ الشهورِ

وجاء منها:

فإن سبقَ الكبيرُ فأهلُ سَبْقٍ　　له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغَ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ　　فقد خُلِق الصغيرُ من الكبيرِ

فأعطاه عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحبُ البريدِ إلى المنصور وهو ببغداد، فكتب إلى المهديّ يلومه ويقول له: إنما كان ينبغي أن تعطِيَ الشاعر إذا أقام ببابك سنة، أربعةَ آلافِ درهم، وأمره أن يوجهه إليه، فطُلِبَ فلم يوجد، وتوجه إلى بغداد، فكتب إلى المنصور بذلك، فأمر بإرصاده فمُسِك، وقيل له أنت بغيةُ أميرِ المؤمنين وطِلْبته، قال المؤمل: فكاد قلبي ينخلِع خوفًا وفَرَقًا، ثم أخذ بيدي وانطلق بي إلى الربيع، فأدخلني على المنصور، وقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا المؤمّلُ ابن أمِيل قد ظفر به، فسلمت عليه، فرد عليَّ السلام، فسكن جأشِي واطمأن قلبي وزال رَوْعِي، ثم قال لي: أتيت غلامًا غِرًّا فخدعته فانخدعَ، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما أتيت ملِكًا جوادًا كريمًا، فمحدثُه فحملته أريَحِيَّته على أن وصلني وبرّني، فأعجبه ذلك، ثم قال: أنشدْني ما قلتَ فيه، فأنشدتُه، فقال: واللهِ لقد أحسنت، لكن ما يساوي عشرين ألفًا، يا ربيعُ، خُذِ المالَ منه، وأَعْطِه منه أربعةَ آلافِ درهم، فلما وليَ المهديُّ الخلافة، قدم عليه المؤمّلُ، فأخبره بما كان بينه وبين أبيه، فضحِك وردّ عليه ما أُخِذَ منه.

وحَكَى ابنُ حمدون(١) في كتابه المترْجَم بالتذكرة: أن المنصورَ حجَّ في بعض السنين فحدا به سالمُ الحادي يومًا بقول الشاعر: [من الرّجز]

أبلجُ بين حاجبيه نُورُهُ　　إذا تغدَّى رفِعت ستورُهُ
يَزِينُه حَيَاؤه وخيرُهُ　　ومِسْكُه يَشُوبُه كافورُهُ

(١) ابن حمدون: هو محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدّين البغدادي عالم بالأدب والأخبار، صنف التذكرة في الأدب والأخبار مات سنة ٥٦٢ هـ. «الأعلام ٦/ ٨٥».

فطرِبَ المنصورُ حتى ضرب برجله المَحْمِل، ثم قال: يا ربيع، أعطه نصفَ درهم، فقال سالم: لا غيرَ، يا أميرَ المؤمنين، والله لقد حدوتُ بهشام بن عبد الملك فأمر لي بثلاثين ألف درهم، فقال المنصور: ما كان له أن يعطِيَك من بيتِ المال ما ذكرت، يا ربيع! وَكِّلْ به من يستخرجُ منه هذا المالَ، قال الربيع: فما زلت أسْفِر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به في خروجه ورجوعه بغير مؤنةٍ، وكان سالمٌ هذا يورِد الإبل لثمانٍ ولِتِسع ولعشر، فيحدو لها فَيُلْهِيها حدوه عن ورود الماء. ومن طريف ما حكِيَ عنه: أن عبيد الله بنِ زياد الحارثيّ، كتب إليه رقعةً بليغةً يستمِيحه فيها، فوقَّع عليها: إن الغِنىَ والبلاغةَ إذا اجتمعا لرجلٍ أبطراه، وإن أميرَ المؤمنين مشفِقٌ عليك، فاكتِفِ بالبلاغةِ.

وقد ذمَّ الشعراء البخل وهجوا من اتصفَ به، فمن ذلك، وهو أبلغ ما قاله مُحْدَث، قول ابن الرومي: [من البسيط]

الحابسُ الروثَ في أعفاج بَغْلَتِه ... خوفًا على الحَبِّ من لَقْطِ العصافِيرِ[1]

وقال العسكريّ: أبلغُ ما قيل في البخل، قول ابن الروميّ: [من المتقارب]

يُقَتِّرُ عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتِيرِه ... تنفَّسَ من مَنْخِرٍ واحِدِ
رضيتُ لتشتِيت أموالِهِ ... يَدَيْ وارثٍ ليس بالحامِدِ

وقال أبو تمّام: [من البسيط]

صدِّق أَلِيَّته إنْ قالَ مجتهدًا ... لا وَالرَّغِيفِ فذاك البرُّ من قَسَمِهْ
وإن هممتَ به فافتُكْ بخُبْزَتِه ... فإن موقِعَها من لحمه ودمه
قد كان يُعجِبُني لو كان غَيْرتُه ... على جَرَادِقِهِ كانت على حرَمِهْ[2]

وقال دِعبِل: [من مجزوء الكامل المرفّل]

استَبْقِ وُدَّ أبي المقا ... تِل حين تأكُلُ من طَعَامِهْ
سيَّان كَسْرُ رغيفِهِ ... أو كسرُ عَظْمٍ من عِظامِهْ
وتراه من خوف النزيـ ... ـلِ به يُرَوَّع في منامهْ

---

(١) الأعفاج: المعيّ ص ٣٠٩.

(٢) جرادقه: أرغفته ـ والجردق: الرغيف ـ والكلمة فارسية معربة. «اللسان ١٠/ ٣٥».

وقال أبو هلال العسكريّ: [من مجزوء الكامل]

خُبْزُ الأَمِيرِ عَشِيقُهُ يَغْدُو عليه يُلاعِبُهْ
وإذَا بَدَا لجليسِهِ أفضى إليه يُعاتِبُهْ
وتحوطه حرّاسُهُ وتَذُبُّ عنه كَتائِبُهْ
فالزَّوْرُ يُصْفَعُ عنده والضيفُ يُنْتَفُ شارِبُهْ

وقال آخر: [من الوافر]

فتىً لرغيفهِ قُرطٌ وشَنْفٌ وإكليلان من دُرٍّ وشَذْرِ(١)
إذا كُسِر الرغيفُ بكى عليه بُكَا الخنساء إذْ فُجِعتْ بِصَخْرِ
ودون رغيفه قَلْعُ الثنايا وحَرْبٌ مثل وَقْعَةِ يومِ بَدْرِ

وقال آخر: [من الخفيف]

إنّ هذا الفتى يصونُ رغيفًا ما إليه لآكلٍ من سَبيلِ
هو في سُفْرتين من أَدَم الطا ئف في سَلّتينَ في زَنْبِيلِ(٢)
خُتِمتْ كلُّ سَلّةٍ برَصَاصٍ وسُيُورٍ قُدِدْنَ من جلْدِ فِيلِ(٣)
في جِرَابٍ في جوف تابوتِ موسى والمفاتيحُ عند ميكائيلِ

وقال العسكريّ: [من مجزوء الخفيف]

قَلَّ خيرُ ابنِ قاسم فغِناه كَعُدْمِهِ
كادَ من خشْيةِ القِرَى يختبي في جِرامه
جاز في اللؤم حدّه كأبيه وعمه
كاد يُعديك لؤمُهُ لو تسمّيتَ باسمه

(١) شذر: الشذر: قطع من الذهب يُلقط من المعدن من غير إذابة الحجارة، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر. والشذر أيضًا: صغار اللؤلؤ شبهها بالشذر لبيانها. «اللسان ٤/ ٣٩٩».
(٢) زنبيل: الزنبيل أو الزبيل: القفة. «اللسان ١١/ ٣٠١».
(٣) سيور: السَّيْر: ما يُقد من الجلد، والجمع السُّيور، وثوب مسَيَّر وشيه: إذا كان مخططًا. والسيراء: ضرب من البرود وقيل هو ثوب مسير: فيه خطوط تعمل من القز كالسيور. «اللسان ٤/ ٣٩٠».

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل]

لــك بُــرْمَــةٌ نــزَّهــتَــهــا ... مــن أن تُــدَنَّــسَ بــالــدَّسَــمْ
بــيــضــاءُ يُــشْــرق نُــورهــا ... كــالــبَـدْر فـي غَـسَـقِ الـظُّـلَـمْ
لــو كــان عِــرْضُــك مــثــلَهــا ... كــنــتَ الــمُــمَــدَّحَ فـي الأُمَـمْ
أو كــان فــعــلُك مــثــلَ قــو ... لــك كــنــتَ تــاريــخَ الــكَــرَمْ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ضفتُ عمرًا فجاءني برغيفٍ ... زادني أكْلُهُ على الجوعِ جُوعَا
ثم وَلَّى يقولُ وهو كئيبٌ ... لَهْفَ نَفْسِي على رَغيفٍ أُضِيعَا
كان خدَّاعةَ الضيوفِ ولكن ... ربما أصبحَ الخَدُوعُ خَدِيعَا
كنتُ أنزلتُه مَحلًّا رفيعًا ... فغدا ذلك الرفيعُ وَضِيعَا
عَجَبًا منه إذْ أُبِيح حِمَاه ... كيف لم يمتنعْ وكان مَنِيعَا

وقال آخر: [من الهزج]

أرى ضــيــفَــك فــي الــدار ... وكَــرْبُ الــمــوتِ يَــغْــشَــاهُ
عــلى خُــبْــزِكَ مَــكْــتُــوبٌ ... فَــسَــيَــكْــفِــيــكَــهُــمُ الــلَّهُ

وقال بشَّار: [من البسيط]

وضيفُ عمرٍو وعمروٌ يَسْهَران معًا ... عمرٌو لبِطْنَتِهِ والضيفُ للجوعِ

وقال آخر: [من الوافر]

نوالُك دونَهُ خَرط القَتَادِ ... وخبزُك كالثُّرَيَّا في البعَادِ
ولو أبصرتَ ضيفًا في منام ... لحرّمتَ المنامَ إلى التَّنَادِي
أرى عُمُرَ الرغيفِ يطولُ جِدًّا ... لديك كأنَّه من قومِ عَادِ
وما أهجوك أنك كُفْءُ شِعْرِي ... ولكنِّي هجوتُك للكَسَاد

وقال العسكريّ: [من المجتث]

قــد كــان لــلــمــال رَبًّــا ... فــصــارَ بــالــبــخــل عَــبْــدَهْ
وصَــحَّــفَ الــصَّــيــفَ ضَــيــفًــا ... فـــراح يَـــلْـــطُـــم خَـــدَّهْ

وقال أبو نُوَاسٍ في إسماعيل بن نُوبخت[١]. بعد أن نصب إسماعيل في صحن داره طارمة[٢]، واصطبح فيها أربعين يومًا ومعه جماعةٌ، منهم أبو نُوَاس، فبلغت نفقته أربعين ألف درهم، ثم قال بعد ذلك: [من مجزوء الرّمل]

خبزُ إسماعيل كالوشـ ـى إذا ما شُقَّ يُرْفا[٣]
عجبًا من أثرِ الصنـ ـعةُ فيه كيف تخْفى؟
إنَّ رَفَّاءَكَ هذا ألطفُ الأمةِ كَفَّا
فإذا أَلْصَقَ بالنصـ ـفِ من الجَرْدَقِ نصْفَا
الطفَ الصنعةَ حتَّى ما ترى مَطْعَنَ إشْفَى[٤]
مثل ما جاء من التَّنُّـ ـور ما غادر حَرْفَا
وله في الماء أيضًا عملٌ أبدع ظَرْفَا
مَزجه العَذْبُ بماء الـ ـبِئْركي يزدادَ ضِعْفَا
فهو لا يَسْقِيك منه مثل ما يشرب صِرْفَا

وقال فيه: [من الطويل]

على خبزِ إسماعيلَ واقيةُ الْبُخلِ فقد حلَّ في دارِ الأمانِ من الأكْلِ
وما خبزُهُ إلا كعنقاءِ مُغْرِب يُصَوَّرُ في بُسْط الملوك وفي المُثْلِ
يحدَّثُ عنها الناسُ من غير رؤيةٍ سوى صورةٍ ما إن تُمِرُّ ولا تُحْلِي
وما خبزُهُ إلا كَآوَى يُرى ابْنُهُ ولم يُرَ آوَى في الحُزُون وفي السَّهْلِ
وما خبزُهُ إلا كليبُ بنُ وائلٍ ليالي يَحْمي عِزّهُ مَنْبِتَ البَقْلِ
وإذْ هو لا يَسْتَبُّ خَصْمَان عندَه ولا الصوتُ مرفُوعٌ بِجِدٍّ ولا هَزْلِ
فإنْ خبزُ إسماعيلَ حلَّ به الذي أصاب كليبًا لم يكنْ ذاك عن ذُلِّ
ولكن قضاءٌ ليس يُسْطاعُ ردُّهُ بحيلةِ ذي مَكرٍ ولا دَهْي ذي عقلِ

---

(١) إسماعيل بن نوبخت: أبو سهل، إسماعيل بن علي بن نوبخت، من كبار الشيعة، كان فاضلًا عالمًا متكلمًا.
(٢) الطارمة: بيت من خشب كالقبة، وهو أعجمي معرب. «اللسان ١٢/ ٣٦١».
(٣) الوشي: التطريز، ويرفأ: يعاد إصلاحه وضمُّ بعضه إلى بعض.
(٤) الإشفى: مخرز الإسكاف والجمع الأشافي. «اللسان ٩/ ٦».

وقال ابن الروميّ: [من المتقارب]

بـخـيـلٌ يُـصَـوِّمُ أضـيـافَـه ... ويـبـخَـلُ عـنـهـم بـأجـرِ الـصـيـام
يَـدُسُّ الـغـلامَ فـيـولِيـهـمُ ... هـوانـا فَـيُـشْـتَـمُ مـولـى الـغـلامِ
فَـهـم مُـفْـطِـرون وهـم صـائـمـون ... ومـا يُـطْـعَـمـون وهـم فـي أثـامِ
فـيـحـتـالُ بـخـلًا لأنْ يُـفْـطِـرون ... عـلَى رَفَـثِ الـقـول دون الـطَّـعـامِ

وقال أحمد بن كُشَاجم: [من الطويل]

صديقٌ لنا من أبرَعِ الناسِ في البخلِ ... وأفضلِهم فيه وليس بذي فَضْلِ
دعاني كما يدعو الصديقُ صديقَه ... فجئتُ كما يأتي إلى مثله مِثْلِي
فلما جلسنا للطعامِ رأيتُه ... يرى أنه من بعض أعضائه أَكْلِي
ويغتاظُ أحيانًا ويَشْتُم عيدَهُ ... وأَعْلَمُ أنَّ الغيظَ والشتمَ من أجلي
فأقبلتُ أستَلُّ الغداءَ مخافَةً ... وألحاظُ عينيه رقيبٌ على فِعْلي
أمدّ يدي سِرًّا لأَسْرِقَ لُقْمةً ... فيلحظني شَزْرًا فأعْبَثُ بالبَقْلِ
إلى أن جنتْ كَفِّي لحتفي جِنَايةً ... وذلك أن الجوعَ أعْدَمني عَقْلِي
فجرّتْ يدي لِلْحَيْنِ رِجْلَ دَجَاجَةٍ ... فَجُرَّتْ كما جَرَّتْ يدي رجلَها رِجْلِي
وقدّمَ من بعد الطعامِ حَلَاوةً ... فلم أستطِع فيها أُمِرُّ ولَا أُحْلِي
وقمتُ لو أنّي كنتُ بَيَّتُّ نِيَّةً ... ربِحْتُ ثوابَ الصومِ مَع عدم الأكلِ

وقال آخر: [من الوافر]

تراهم خشيَةَ الأضيافِ خُرْسًا ... يُقيمون الصلاةَ بلا أذانِ

احتجاج البخلاء وتحسينهم للبخل على قبحه

قالت الحكماء: لتكنْ عنايتُك بحفظِ ما اكتسبتَه، كعنايتك باكتسابه.

وقال أبو الأسود الدؤليّ لبنيه: لا تُجاودوا الله، فإنه أكرمُ وأجودُ، ولو شاء أن يُغْنِيَ الناس كلَّهم لفعل، ولكنه علِم أن قومًا لا يُصلِحهمُ ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقومًا لا يصلِحهم ولا يصلح لهم إلا الغنى.

وقال رجل من تَغْلِب: أتيتُ رجلًا من كِندة أسأله، فقال: يا أخا بني تغلب، إنّي لن أصلَك حتَّى أحرِم من هو أقربُ إليَّ منك، وإنه لم يبقَ من مالي وعِرْضي وأهلي إلا ما منعتُه من الناس.

وقيل: إن لقمانَ الحكيمَ، قال لابنه: يا بُنَيَّ، أُوصِيك باثنتين لن تزالَ بخيرٍ ما تمسكتَ بهما: دِرْهَمِكَ لمعاشك، ودينِكَ لمعَادِك.

وقال أبو الأسود: إمساكُك ما تبذُل، خيرٌ من طلبك ما يبذُل غيرُك، وأنشد: [من الطويل]

يلومونني في البخلِ جَهْلًا وضلَّةً ... ولَلْبُخلُ خيرٌ من سؤالِ بخيلِ

ونظيره قول المتَلَمِّسِ: [من الوافر]

وحَبْسُ المالِ أَيْسَرُ من بُغَاهُ ... وضَرْب في البلادِ بغير زادِ
وإصْلَاحُ القليلِ يَزِيدُ فيه ... ولا يَبْقَى الكثيرُ مع الفسادِ

وقال الجاحظ: قلت للحزامِيّ: يا بخيلُ! قال: لا أعدمني الله هذا الاسم، لأنه لا يقال لي: بخيلٌ إلا وأنا ذو مال فَسَلِّم لي المال، وسَمِّنِي بأيّ اسم شئت، قلت: ولا يقال لك: سخيّ، إلا وأنت ذو مال، فقد جمعَ الله لهذا الاسم المالَ والحمدَ، وجمع لذاك المال والذَّمّ، فقال: بينهما فرقٌ عجيبٌ، وبَوْن بعيد، إن في قولهم: بخيل، سببًا لمكث المال في ملكي، وفي قولهم: سخيّ، سببًا لخروجه عن ملكي، واسم البخل فيه حزم وذَمّ واسم السخاء فيه تضييع وحمد، وما أقلّ غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه وعَرِيَ ظهرهُ وضاع عيالُه وشمت به عدوُّه.

وقال محمد بن الجَهْم: من شأنِ مَنِ استغنى عنك، أن لا يقيمَ عليك، ومن احتاج إليك أن لا يزولَ من عندك، ومن حُبِّك لصديقك وضَنِّك بمودّته أن لا تبذلَ له ما يغنيه عنك، وأن تتلطفَ له فيما يُحْوجه إليك.

وقد قيل في مثل هذا: «أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْك، وسَمِّنْه يَأْكُلْك»، فمن أَغْنَى صديقه فقد أعانه على الغَدْر، وقطعَ أسبابَ الشكرِ، والمُعينُ على الغدر شريكٌ للغادر، كما أن المزَيِّن للفُجُورِ شريكٌ للفاجر.

وقال أبو حنيفة: لا خيرَ فيمَنْ لا يصونُ ماله ليصونَ به عِرْضَه، ويَصِلَ به رحِمه ويستغنِيَ به عن لئام الناس. قال عبد الله بن المعتَزّ: [من الطويل]

أَعَاذِلَ ليس البخلُ منّي سَجِيَّةً ... ولكن وجدتُ الفقرَ شَرَّ سبيلِ
لَموتُ الفتى خيرٌ من البخلِ للفتى ... ولَلْبخلُ خيرٌ من سؤالِ بخيلِ

وكان داود بن عليّ[١] يقول: لأن يتركَ الرجلُ مالَه لأعدائه، خيرٌ من الحاجةِ في حياته لأوليائه؛ قال الشاعر: [من مجزوء الكامل]

مَالٌ يُخَلِّفُهُ الفتَى ... لِلشامتين من العِدَا
خَيرٌ له من قصده ... إخوانَهُ مسترْفِدا

وقال سُفْيَان الثَّوْرِيّ[٢]: لأن أُخلِّفَ عشرةَ آلافِ درهم أحاسبُ عليها، أحبُّ إليّ من أن أحتَاج إلى الناس؛ وقال: كان المال فيما مضى يكره، وأما اليوم فهو يزينُ المؤمن؛ وجاءه رجل فقال له: يا أبا عبد الله، تُمسكُ هذه الدنانير! فقال: اسكت، فلولاها لتَمَنْدَلَتنا[٣] هؤلاء الملوك، ولكن من كان في يده منها شيء فليصلحْهُ، فإنه زمانٌ من احتاج فيه كان أوّلُ ما يبذُل دينَهُ.

وقال المنصور لمحمد بن مروان التميميّ: إنك لسيدٌ لولا جمودٌ فيك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إني لأجمُد في الحق، ولا أذوبُ في الباطل.

وكان محمد بن الجهم يقول: من وَهَب من عمله، فهو أحمقٌ، ومن وهب بعد العزل، فهو مجنونٌ، ومن وهب من جوائز ملوكه أو ميراثه، فهو مخذولٌ، ومن وهب من كَسْبِه وما استفاده بِحيلة، فهو المطبوعُ على قلبه، المأخوذُ ببصره وسمعه.

وسأل رجلٌ زيادَ بن أبيه، فأعطاه درهمًا، فقال: صاحبُ العِراقَيْنِ أسأله فيعطيني درهمًا؟ فقال له زياد: مَنْ بيده خزائنُ السمٰواتِ والأرضِ ربما رزق أخصَّ عباده عنده وأكرمَهم لديه التمرةَ واللقمةَ، وما يكبرُ عندي أن أَصلَ رجلًا بمائة ألف درهم، ولا يصغر أن أعطي سائلًا رغيفًا، إن كان ربّ العالمين فعل ذلك. قال

---

(١) هو داود بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب، أبو سليمان أميرٌ من بني هاشم، وهو عمّ السفّاح العبّاسي، كان خطيبًا فصيحًا، وهو أوّل من ولي المدينة من العباسيين مات سنة ١٣٣. «الأعلام ٢/ ٣٣٣».

(٢) سفيان الثوري: (٩٧ ـ ١٦١ هـ = ٧١٦ ـ ٧٧٨ م) من مصر، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة، راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى، وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ، فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيًا. «الزركلي ٣/ ١٠٤».

(٣) تمندلتنا: يقال تمندل تمندلًا بالمنديل: مسح به وجهه أو غيره، أو شدّه برأسه كالعمامة. «اللسان ١١/ ٦٣٣».

الشاعر: [من السّريع]

يا رُبَّ جُودٍ جرَّ فَقْرَ امرئٍ فقام للناسِ مَقَام الذليلِ
فاشددْ عُرَى مالِكَ واسْتَبْقِهِ فالبخلُ خيرٌ من سؤالِ البخيلِ

وقال الشريف بن الهَبَّارِيَّة(١): [من مجزوء الخفيف]

لأصونَنَّ درْهمِي فهو لا شكَّ صائني
لم يُعِنّي ابنُ والدي وصحيحي أعَانَنِي

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل المرفّل]

لله دَرُّ دراهِمي فَهْي التي أعلتْ مكانِي
لولا الغِنَى عن صاحبي لأَحَلَّنِي دارَ الهوانِ

وقال آخر: [من الرّمل]

كنْ بما أُوتِيتَه مُغتَبِطًا تَسْتدِمْ عيشَ القَنُوع المُكتفِي
إن في نَيْل المُنى وَشْكَ الرَّدَى واجتنابُ القصدِ عينُ السَّرَفِ
كَسِراجٍ دُهْنُه قوتٌ له فإذا غَرَّقْتَه فيه طُفِي

ومن ذلك رسالة كتبها سهلُ بن هارون، وقد عيب عليه أمورٌ من البخل، فاعتذر عنها واحتجّ فقال: أصلحَ اللهُ أمركم، وجمع شملَكم، وعلَّمكم الخيرَ، وجعَلكم من أهلِهِ، قال الأحنفُ بن قَيْس: يا بني تميم، لا تُسرِعوا إلى الفتنة، فإن أسرعَ الناسِ إلى القتال، أقلُّهم حَياءً من الفِرار، وكانوا يقولون: إذا أردتَ أن ترى العيوبَ جَمَّةً، فتأمّلْ عيَّابًا فإنه يعيبُ الناس بفضلِ ما فيه من العَيْب، ومن أعيبِ العيبِ أن تعيبَ ما ليس بعيبٍ، وقبيحٍ أن تَنْهى مرشدًا أو تُغْري مُشْفِقًا، وما أريدُ بما قلت إلا هدايَتكم وتقويمَكم وصلاحَ فسادِكم، وإبقاءَ النعمةِ عليكم، ولئن أخطأنا سبيلَ إرشادِكم، فما أخطأنا سبيلَ حسنِ النيةِ فيما بيننا وبينكم، ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهِرْنا به في الآفاق دونكم، ثم نقول في

(١) ابن الهبارية: (٤١٤ ـ ٥٠٩ هـ = ١٠٢٣ ـ ١١١٥ م) محمد بن محمد بن صالح العباسي، نظام الدين، أبو يعلى، المعروف بابن الهبارية، شاعر هجاء، ولد في بغداد وأقام مدة بأصبهان، وفيها ملكشاه ووزيره نظام الملك، وله مع الوزير أخبار، توفي في كرمان، من كتبه: الصادح والباغم، فلك المعاني، ديوان شعر. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٣».

ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: الآية ٨٨] فما كان أحقُّكم في كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حقَّ قصدنا بذلك إليكم، على ما رعيناه من واجبِ حقّكم، فلا العذرُ المبسوط بلغتُم، ولا بواجبِ الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب بِرًّا وفخرًا، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلًا، عبتُموني بقولي لخادمي: أجيدي العجين فيكون أطيب لطعمِهِ، وأزيد في ريعه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أملكوا العجينَ فإنه أحدُ الريعين، وعبتموني حين ختمت على سَلٍّ عظيمٍ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبدٍ نهِمٍ، وصبيٍّ جشِع، وأمة لكعاء، وزوجة مضيعة، وليس بين أهل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوِيَ ـ في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب ـ التابعُ والمتبوعُ، والسيدُ والمسودُ، كما لا تستوي مواضعُهم في المجالس، ومواقع أسمائهم في العنوانات، ومن شاء أطعمَ كلبَه الدَّجاجَة السمينَة، وَعلَف حِمارَه السِّمْسِمَ المُقشّر، وعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مُدّ سَوِيق(١)، وختم على كيس فارغ، وقال طِينةٌ خيرٌ من ظَنَّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم على من ختم على شيء، وعبتموني أيضًا، إن قلتُ للغلام: إذا زدت في المَرَق، فزدْ في الإنضاج، ليجتمع مع التأدّم باللحم طِيبُ المَرَق، وقال النبيّ ﷺ: «إذا طَبَخَ أحدكم لحمًا، فليزد من الماء، فمن لم يصِب لحمًا أصاب مَرَقًا»، وعبتموني بخَصْف النعل، وبتصدير القميص، وحين زعمت أن المخصوفَة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنُسُك، وأن الترقيعَ من الحزم، والتفريقَ من التضييع، والاجتماعَ مع الحفظ، وقد كان النبيّ ﷺ يَخْصِفُ نعلَه، ويُرَقِّع ثوبه، ويَلْطَع أصابعه، ويقول: «لو أُهدِيَ إليّ كُرَاع(٢) لقبلت، ولو دُعِيتُ إلى ذراعٍ لأجبتُ» وقال ﷺ: «من لم يَسْتَحِي من الخِلال(٣)، خفتْ مَؤونته، وقلَّ كِبْرُه». وقالت الحكماء: لا جديدَ لمن لم يَلْبَس الخَلَق، وبعث زياد رجلًا يرتادُ له مُحَدِّثًا، واشترط عليه أن يكون عاقلًا، فأتاه به موافقًا، فقال له: أكنتَ به ذا معرفة؟ قال: لا، ولكنِّي

(١) السويق: الناعم من طحين القمح والشعير.
(٢) كراع: كراع كل شيء: طرفه ـ والكراع: السلاح، وقيل هو اسم يجمع الخيل والسلاح، وأكارع الشاة: قوائمها. «لسان العرب ٨/٣٠٦ و٣٠٧».
(٣) الخلال: عودٌ يُزال به الطعام الذي بين الأسنان.

رأيته في يوم قائظ، يلبَس خَلَقًا، ويلبس الناسُ جديدًا، فتفرّست فيه العقلَ والأدبَ، وقد علمت أن الخَلَق في موضعه، مثل الجديد في موضعه، وقد جعل الله لكل شيء قَدْرًا، وسمي له موضعًا، كما جعل لكلّ زمانٍ حالًا، ولكل مقامٍ مقالًا، وقد أحيا الله بالسّم، وأمات بالغِذَاء، وأغصَّ بالماء، وقتل بالدواء، وقد زعموا أن الإصلاحَ أحدُ الكاسبين، كما زعموا أن قلّة العيال أحدُ اليسارين، وقد جبر الأحنف بن قيس يدَ عنزٍ وأمر مالك بن أنس بفرك البَعر، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أكل بيضةً فقد أكل دجاجةً، وليس سالم بن عبد الله جلد أُضحية، وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أُهديَ لك دجاجةً، قال: إن كان لا بدّ، فاجعلها بَيُوضًا، وعبتموني حين قلت: من لم يعرف مواضعَ السَّرَف في الموجود الرخيصِ لم يعرف مواضعَ الاقتصادِ في الممتنع الغالي، وقد أتيتُ بماءٍ للوضوء على مبلغ الكفاية، وأشفّ من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلًا عن الماء، فعلمت أن لو كنتُ مكّنتُ الاقتصادَ في أوائله لخرجَ أوّلُه على كفاية آخره، ولكنا نصيبُ الأوّلِ كنصيبِ الآخر، فعبتموني بذلك وشنعتموه عليَّ، وقد قال الحسن وذَكَرَ السّرفَ: أما إنّه ليكون في الماء والكلأ، فلم يرضَ بذكر الماء حتى أردفه بالكلإ، وعبتمُوني أني قلت: لا يغتَرّنَ أحدٌ بطول عمره، وتقويس ظهره، ورقّةِ عظمه، ووهن قوّته، وأن يرى دخلَه أكثرَ من رزقه فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده، وتحويله إلى ملكِ غيره، أو تحكيمِ السرف فيه، وتسليطِ الشهوات عليه، فلعلّه أن يكون معمّرًا وهو لا يدري وممدودًا له في السن وهو لا يشعُر، ولعلّه أن يُرْزَقَ الولَدَ على اليأسِ، وتُحدِثَ عليه آفاتُ الكِبَر ما لا يخطر على باله، ولا يدركه عقله، فيستردّه ممن لا يردّه، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما كان له أن يطلب، فعبتمُوني بذلك، وقال عمرو بن العاص: اعْمَل لدنياك عَمَلَ من يعيشُ أبدًا، واعْمَل لآخرتك عَمَلَ من يموتُ غدًا، وعبتمُوني بأن قلت: إن التلف والتبذير إلى مالِ المواريث، وأموال الملوك، وإن الحفظَ إلى المال المكتسب، والغنى المجتلب، وإلى ما يعرض فيه بذهابِ الدين، واهتضامِ العرضِ، ونصبِ البدن، واهتمام القلب أسرع، ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخلَ فقد أضاع المالَ، ومن لم يعرف للغنى قدرُه فقد أذن بالفقر، وطاب نفسًا بالذلّ، وعبتمُوني بأن زعمت أن كسبَ الحلالِ، مُضمّنٌ بالإنفاق في الحلال، وأن الخبيثَ ينْزِعُ إلى الخبيث، وأن الطيِّبَ يَدعو إلى

الطيّب، وأن الإنفاق في الهوى، حجابٌ دون الحقوق، وأن الإنفاق في الحقوق حجابٌ دون الهوى، فعِبْتُم عليّ هذا القول، وقد قال معاويةُ بن أبي سفيان: لم أر تبذيرًا قطّ، إلا وإلى جنبه حقٌّ مُضَيَّع، وقال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله، فانظروا في أيّ شيء ينفقه، فإن الخبيث إنما يُنْفَق في السرف، وقلت لكم بالشفقة عليكم، وحسن النظر منّي إليكم، أنتم في دارِ الآفات، والجوائح غير مأمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم آفةٌ، لم يرجعْ إلى ثقةٍ، فاحذروا النِّقمَ، باختلافِ الأمكنة، فإن البليّة لا تجري في الجميع، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد، والأمة، والشاة، والبعير: فرّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين، وقال ابن سيرين(١) لبعض البحريين كيف تصنعون في أموالكم؟ قالوا: نفرِّقها في السفن، فإن عَطِب بعضُ، سلم بعضُ، ولولا أن السلامةَ أكثر، ما حملْنا أموالَنا في البحر، فقال ابن سيرين: تَحْسَبُها خَرْقَاء وهي صَنَاعٌ، وعبتمُوني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغنى سُكْرًا، والمال نَزْوةً، فمن لم يحفظ الغنى من سكره، فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال لخوف الفقر فقد أهمله، فعبتمُوني بذلك، وقد قال زيدٌ بن جَبَلَة: ليس أحدٌ أقصرُ عقلًا، من غَنيٍّ أَمنَ الفقرَ، وسكرُ الغِنى أشدُّ من سكر الخمر، وقد قال الشاعر في يحيىٰ بن خالد(٢): [من الطويل]

وَهُوبٌ تِلَادَ المالِ فيما ينوبُهُ مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أَحْزَمَا

وعبتمُوني حين زعمتم، أنّي أقدِّم المالَ على العلم، لأن المالَ به يُفاد العلمُ، وبه تقومُ النفسُ، قبلْ أن يُعرفَ فضلُ العلم، فهو أصل، والأصلُ أحقُّ بالتفضيلِ من الفرع، فقلتم. كيف هذا؟ وقد قيل لبعض الحكماء: الأغنياءُ أفضلُ أم العلماءُ؟ فقال: العلماءُ، قيل له: فما بالُ العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء، أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحقّ المال، وجهلِ الأغنياء بحقِّ العلم، فقلت: حالهما هي القاضيةُ بينهما، وكيف يستوي شيءٌ، حاجة العلماء إليه، وشيء يغني فيه

(١) ابن سيرين: (٣٣ - ١١٠ هـ = ٦٥٣ - ٧٢٩ م) محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي، من أشراف الكتاب، مولده ووفاته بالبصرة، نشأ بزازًا، في أذنه صمم، وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، واستكتبه أنس بن مالك بفارس، ينسب له كتاب تعبير الرؤيا. «الأعلام للزركلي ٦/ ١٥٤».

(٢) هو يحيىٰ بن خالد البرمكي، أبو الفضل، الوزير السّريّ الجواد، مؤدّب الرشيد، أخباره كثيرة، مات سنة ١٩٠ هـ. «الأعلام ٨/ ١٤٤».

بعضهم عن بعض، وكان النبيّ ﷺ يأمر الأغنياء باتِّخاذ الغَنَم، والفقراء باتِّخاذ الدَّجاج، وقال أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه: إني لأبغضُ أهلَ البيتِ ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد، وكان أبو الأسود الدُّؤَلِيّ يقول لولده: إذا بَسَط الله لك في الرزق فابْسُطْ، وإذا قبض فاقبِضْ، وعبتُموني حين قلت: إن فضل الغِنَى عن القوت، إنّما هو كفضل الآلة تكون في البيت، إن احتيج إليها اسْتُعْمِلت، وإن استغنِيَ عنها كانت عُدّةً، وقد قال الْحُصَيْنُ بن المنذر: ودِدْتُ أن لي مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا لا أنتفعُ منه بشيء، قيل له: فما كنتَ تصنع به؟ قال: لكثرة مَنْ كان يخدُمني عليه، لأن المالَ مخدومٌ، وقال بعضُ الحكماء: عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ في قلبك، وذُلٌّ في قلب عدوّك، لكان الحظُّ فيه جسيمًا، والنفعُ عظيمًا، ولسنا ندعُ سيرةَ الأنبياءِ، وتأدّبَ الخلفاءِ، وتعليمَ الحكماءِ، لأصحابِ الهوى، فلستم عليّ تردّون، ولا رأيي تُفَنِّدُون، فقدّموا النظرَ قبل العَزْم، وأَدْركوا ما عليكم من قبل أن تُدرِكوا مالكم، والسلام.

ومن نوادرِ البخلاء، قال رجلٌ لبعض البخلاء: لِمَ لا تدعوني إلى طعامك؟ قال: لأنك جَيِّدُ المَضْغِ سريعُ البَلْع، إذا أكلتَ لُقْمَةً هَيَّأْتَ أخرى، قال: يا أخي أتريد إذا أكلتُ عندك أن أُصَلِّيَ ركعتين بين كلِّ لقمتين؟.

وقال آخرُ لبخيل: لِمَ لا تدعوني إلى طعامك؟ قال: لأنك تُعلِّق، وتُشدِّقُ، وتُحدقُ، أي تحمل واحدةً في يدك، وأخرى في شِدْقك، وتنظر إلى الأخرى بعينك.

وقال بعضُ البخلاءِ: أنا لا آكلُ إلا نصفَ الليلِ، قيل له: ولِمَ؟ قال يَبْرُدُ الماءُ، ويَنْقَمِعُ الذُّبابُ، وآمَنُ فجأةَ الداخلِ، وصَرْخَة السائل.

وطبخَ بعضُ البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: ما أطيبَ هذا الطعامَ! لولا كثرةُ الزِّحامِ، فقالت: وأيُّ زحامٍ وما ثَمَّ إلا أنا وأنتَ؟ قال: كنت أحِبُّ أن أكونَ أنا والقِدْر.

وقال بعضُ البخلاء لغلامه: هاتِ الطعامَ، وأَغْلِقِ البابَ، فقال: يا مولاي، ليس هذا بحَزْم، وإنّما أُغلِقُ البابَ، وأُقَدِّم الطعامَ، فقال له: أنت حُرٌّ لوجهِ الله.

وعزم بعضُ إخوانِ أَشْعَبَ عليه ليأكلَ عنده، فقال: إنّي أخافُ من ثقيلٍ يأكلُ معنا فينغِّص لذّتنا، فقال: ليس عندي إلا ما تُحِبّ فمضى معه فبينما هما يأكلان، إذا بالباب قد طُرِق، فقال أشعب: ما أرانا إلا صِرْنا لما نكره، فقال صاحبُ المنزل: إنه

صديق لي، وفيه عشْرُ خصال، إن كرهتَ منها واحدة لم آذن له، فقال أشعب: هاتِ، قال: أوّلها، أنه لا يأكلُ ولا يشربُ، فقال: التسعُ لك ودَعْه يدخل، فقد أَمِنَّا منه ما نخافُه.

ذكر ما قيل في التطفيل(١)
ويتصل به أخبارُ الأَكَلة والمُؤَاكَلة

والتطفيلُ من اللؤم، وهو التعرّضُ إلى الطعام، من غير أن يدعى إليه، وسنذكر تلوَ هذا الفصلِ آدابَ الأكل، والمُؤَاكلة، والاقتصادَ في المطاعم، والعفَّةَ عنها، وما يجري هذا المَجْرَى، وإن كان خارجًا عنه، وإنما الشيءُ يُذْكرُ بالشيء، والعربُ تقول للطفيلِيّ: الوارِش، والراشِن، قيل: هو مشتق من الطَّفَل، وهو الظلمةُ لأن الفقيرَ من العرب كان يحضرُ الطعامَ الذي لم يُدْعَ إليه مستترًا بالظلمة، لئلا يُعرَفَ. وقيل: سُمِّي بذلك، لإظلامِ أمره على الناس، لا يدري مَنْ دعاه. وقيل: بل من الطَّفَل لهجومه على الناس كهجومِ الليل على النهار، فيكون من الظلمة، ولذلك قيل: «أطفلُ من ليلٍ على نهار»، وأوّلُ من سمي بهذا الاسم: طُفَيل العَرائس، وإليه ينسب الطُّفَيلِيّون، وكان يقول لأصحابه: إذا دخل أحدُكم عُرسًا، فلا يلتفتْ تلفّت المريب، ويتخيَّرْ المجالسَ، وإن كان العُرس كثيرَ الزحام، فليمضِ ولا ينظرْ في عيون الناس، ليظنَّ أهلُ المرأةِ أنه من أهل الرجل، ويظنَّ أهلُ الرجلِ أنه من أهل المرأة، وإن كان البوّابُ غليظًا فاحشًا، فليبدأْ به، ويأمرُه وينهاه من غير أن يُعَنِّف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال.

وأشهرُ من نُسب إليه هذا الاسم، وكثرت عنه الحكايات، بُنَان الطُّفَيلِيُّ، وهو عبد الله بن عثمان، ويُكنى أبا الحسن، ولقبه بُنَان، وأصله مَرْوَزِيّ وأقام ببغداد، وكان نقشُ خاتَمه، «مَا لَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ». حُكِيَ أن رجلًا سأله أن يدعو له، فقال: اللّهم ارزقه صحةَ الجسم وكثرةَ الأكلِ، ودوامَ الشهوةِ، ونقاءَ المَعِدَةِ، وأَمْتعه بضِرْس طَحُون، ومَعِدةٍ هَضُوم، مع السعةِ والدَّعَةِ، والأمنِ والعافيةِ؛ وقال يُوصي بعضَ أصحابه: إذا قعدتَ على مائدةٍ وكان موضعُك ضيِّقًا فقلْ للذي يليك: لعلي ضيقتُ عليك فإنه يتأخرُ إلى خلف، ويقول: موضعي واسعٌ، فيتسعُ عليك موضع رجل؛

(١) التطفيل: أن يكون الإنسان طفيليًا، وهو أن يأتي المجالس والولائم من غير أن يدعى إليها.

وقال له طفيليٌّ: أوصني، فقال: لا تصادِفَنَّ من الطعام شيئًا، فترفعَ يدَكَ عنه وتقول: لعلِّي أصادفُ ما هو أطيب منه، فإن هذا عجز وَوَهَنٌ، قال: زدني، قال: إذا وجدت خبزًا فيه قِلَّة، فكُلِ الحروف، فإن كان كثيرًا فكُلِ الأوساط، قال: زدني، قال: لا تكثِرْ شربَ الماءِ وأنت تأكلُ، فإنه يصدُّكَ عن الأكل، ويمنعُكَ من أن تستوفي، قال: زدني، قال: إذا وجدتَ الطعامَ، فكلْ منه أكلَ من لم يرَهُ قِطُّ، وتزوّدْ منه زاد من لا يراه أبدًا، قال: زدني، قال: إذا وجدتَ الطعامَ، فاجعلْهُ زادَكَ إلى الله تعالى، وقال: إذا دعاكَ صديقٌ لك، فاقعد يَمْنَةَ البيتِ فإنّك ترى ما تُحِبُّ، وتسودُهم في كلّ شيءٍ، وتسبقُهم إلى كلّ خير، وأنت أوّل من يغسل يده والمِنْديلُ جافٌ والماءُ واسعٌ، والخِوانُ بين يديك يوضعُ، والنبيذُ أوّلُ القِنّينَةِ ورأسُهَا تشربه، والنقلُ منتخبٌ، يوضع بين يديك، وتكون أوّلَ من يتبخّر، فإذا أردت أن تقومَ لحاجة لم تحتجْ أن تتخطّاهم، وأنت في كل سرور إلى أن تنصرف. قال البديع الهمذانيّ(١) في طفيليّين يشبّههم ببُنَان: [من المتقارب]

خلفتُمْ بُنَانًا فكم من أديبٍ   من الغَيْظِ عَضَّ عليكم بَنَانا
إذا ما النهار بدا ضوؤُه   غدوتُم خِماصًا ورُحْتُم بِطانا

ومنهم: عثمان بن درّاج، قيل له: كيف تصنعُ إذا لم يدخلْكَ أهلُ العُرس؟ قال: أنوحُ على الباب، فيتطيّرون فيدخلونني. وحكى أبو الفرج الأصفهاني: أن عثمان هذا، كان يلزم سعيدَ بن عبد الكريم الخطابيّ أحد ولد زيد بن الخطاب، فقال له: ويحك! إني أبخلُ بأدبك وعلمك، وأضنُّ بك عما أنت فيه من التطفيل ولي وظيفةٌ راتبة في كلّ يوم، فالزمْني وكن مدعوًّا، أصلحُ لك مما تفعلُ، فقال: يرحمُكَ الله فأين لذّةُ الجديدِ، وطيبُ النقلِ كل يومٍ إلى مكان؟ وأين هُوَيْناك ووظيفتُكَ من احتفال العرس؟ وأين ألوانُك من ألوانِ الوليمة؟ قال: فأما إذا ثبت ذاك: فإذا ضاقت عليك المذاهبُ فأتني قال: أمّا هذا فنعم؛ قال: وقال له رجلٌ: ما هذه الصُّفرةُ التي في لونك؟ قال: من الفترة التي بين القَصْعَتين، ومن خوفي في كل يوم من نفادِ الطعامِ قبل أن أشبع؛ وقيل له مرة: هل تعرفُ بستانَ فلان؟ فقال: إي والله، وإنه للجنّةُ الحاضرةُ في الدنيا، قيل له: فلم لا تدخل إليه فتأكل من ثماره، وتقيل تحت

---

(١) البديع الهمذاني: هو بديع الزمان أحمد بن الحسين، أبو الفضل، أحد أئمّة الكتاب له المقامات المعروفة باسمه توفي سنة ٣٩٨ هـ. «الأعلام ١/ ١١٥».

أشجارة، وتسبح في أنهاره؟ قال: لأن فيه كلبًا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيبِ الرجالِ، وعثمان هذا الذي يقول: [من مجزوء الرَّمل]

لَذَّة التطفيلِ دُومي وأَقيمي لَا تَريمي
أنت تشْفين غَليلي وتُسَلِّين هُمُومي

ولهم أخبار وحكايات، منها: ما نقل عن نصر بن عليّ الجهميّ أنه قال: كان لي جار طفيليّ، إذا دعيت إلى مدعاةٍ ركب معي وجلس حيث أجلس، فيأكلُ وينصرفُ، وكان نظيفًا عطِرًا، حسن اللباسِ والمركب، وكنت لا أعرفُ من أمره إلا الظاهر، فاتفق لجعفر بن القاسم الهاشميّ حقٌّ دعا له أشرافَ البصرةِ ووجوهَها، وهو يومئذٍ أميرُ البصرة، فقلتُ في نفسي: إن تَبِعني هذا الرجلُ إلى دار الأمير لأُخزينَّه، فلما كان يومُ الحضورِ، جاءني الرسولُ، فركبت، وإذا به قد تبعني حتى دخل بدخولي، وارتفعَ حيث أُجلست، فلما حضرنا الطعام، قلت: حدّثنا دُرُسْتُ بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخلَ إلى دارِ قوم بغير إِذْنِهم، دخل سارقًا، وخرج مُغِيرًا، ومن دُعِيَ ولم يُجبْ فقد عصى اللهَ ورسولَه»، فظننت أني قد أشرفت على الرجل وقصَّرت من لسانه، فأقبل عليّ وقال: أعيذُك بالله من هذا الكلام في دار الأمير، فإن الأشراف لا يحتملون التعريضَ باللؤم، وقد حَظَر الدينُ التعريضَ، وعزَّر عليه عمر رضي الله عنه، ووليمةُ الأميرِ دعاءٌ لأَهل مصره فإنه سَليلُ أهلِ السقاية، والرفادةِ، والمطعمين الأفضلين الذين هَشَمُوا الثَّريد، وأبرزوا الجِفَان لمن غدا إليها، ثم لا تُوزِع وأنت في بيت من العلم معروف من أن تحدّث عن درست بنِ زياد وهو ضعيفٌ عن أبان بن طارق وهو متروكُ الحديثِ بحكم رفعه الله إلى النبيّ ﷺ، والمسلمون على خلافه، لأن حكَم السارقِ القطعُ، والمغيرُ يُعَزَّرُ على ما يراه الإمام، وهذان حكمان لا ينفذان على داخلِ دارًا في مجمع فيتناول لُقَمًا من فضل الله الذي آتى أهلها ثم لا يُحدِثُ حدثًا حتى يخرجَ عنها، وقد قال النبيّ ﷺ: «طعامُ الواحدِ يَكفِي الاثنين، وطعامُ الاثنين يَكْفِي الأربعَة»، حدّثنا بذلك أبو عاصم النبيل عن ابن جريح عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ ﷺ، فأين أنت عن هذا الحديث الصحيح الإسنادِ والمتن؟ قال نصر: فأصابتني خَجْلَةٌ شديدةٌ، فلما نظر الرجلُ إلى ما بي أكل ونهض قبلي، فلما خرجت وجدتُه واقفًا على دابته بالباب، فلما رآني تبعني، ولم يكلِّمْني ولم أُكلِّمْه، إلا أنني سمعته يتمثلُ: [من المتقارب]

ومَن ظنَّ مِمَّن يُلاقِي الحروبَ بأَنْ لا يُصاب فقد ظَنَّ عَجْزا

وقيل: مرّ طفيليٌّ بسكةِ النَّخَعِ بالبصرة على قوم، وعندهم وليمةٌ، فاقتحمَ عليهم، وأخذ مجلسه مع مَنْ دُعِي، فأنكره صاحبُ المنزلِ، فقال له: لو تأنَّيتَ أو وقفت حتَّى يُؤْذَنَ لك، أو يُبعثَ إليك، فقال: إنما اتُّخذتِ البيوتُ ليُدخَلَ إليها، ووُضِعتِ الموائدُ ليؤكَلَ ما عليها، وما وجّهت بهديّة فأتوقع الدعوة، والحِشْمَةُ قطيعةٌ، واطِّراحُها صلَةٌ، وقد جاء في الأثر: «صِلْ مَنْ قطعك، وأَعْطِ مَنْ حرمك»، ثم أنشد: [من الخفيف]

كلَّ يوم أدُورُ في عَرْصَة الدَّا ... ر أشُمُّ القُتَار شمَّ الذُّبابِ(١)

فإذا ما رأيتُ آثارَ عُرْسٍ ... أو دُخَانا أو دَعْوةَ الأصحابِ

لم أُعرِّج دونَ التقَحُّم لا أر ... هَبُ شتمًا ولَكْزة البوَّابِ

مُستهِينًا بمن دخَلت عليهِ ... غيرَ مُستأذِن ولا هيَّابِ

فتراني أَلُفُّ بالرغم منهُ ... كلَّ ما قدَّموه لَفَّ العُقَابِ

ووصف طفيليّ نفسه فقال: [من الخفيف]

نحنُ قومٌ إذا دُعِينا أَجَبْنَا ... ومتى نُنْسَ يَدْعُنَا التطفِيلُ

قولنا: علَّنا دُعِينَا فَغِبنَا ... أَوْ أتانا فلم يَجِدْنَا الرسولُ

وقال آخر: [من الخفيف]

نحنُ قومٌ نُحِبُّ هَدْيَ رسولِ الـلَّـ ... ـهِ هَدْيًا به الصوابَ أَصَبْنَا

فادْعُنا كلَّما بَسطْتَ فإنَّا ... لَو دُعِينا إلى كُرَاعٍ أَجَبْنَا

وقال آخر: [من مجزوء الرّمل]

نحنُ قومٌ إن جفا النَّا ... سِ وَصَلْنَا من جفانا

لا نُبالي صاحبَ الدَّا ... رِ نَسِينا أم دَعانا

وقال آخر وقد أقبل إلى طعام، من غير أن يُدْعى إليه فقال له صاحب الصنيع: مَنْ دعاك؟ فأنشد: [من السّريع]

دعوتُ نفسي حين لم تَدْعُني ... فالحمدُ لي لا لكَ في الدَّعوةِ

وكان ذَا أحسن من مَوْعِدِ ... إخلافُه يدعو إلى جفوةِ

---

(١) القتار: ريح الشواء إذا ضهب على الجمر، والقتار: ريح البخور. «لسان العرب ٥/ ٧١».

وقد مدح أبو رَوْح ظفر بن عبد الله الْهَرَوِيّ طُفَيليًا ولم يسبق إليه، فقال: [من السّريع]

إنَّ الطفيليَّ له حُرمَةٌ   زادت على حُرمةِ نَدْمَاني
لأنه جاء ولم أَدْعُهُ   مبتدِئًا منه بإحسانِ

ودخل طفيليّ إلى قوم فقالوا له: ما دعوناك! فما الذي جاء بك؟ فقال: إذا لم تدعوني ولم آتِ، وقعت وحشةٌ، فضحكوا منه وقرّبوه.

وقيل: مرَّ طفيليّ على قوم يتَغَدّون، فقال: سلام عليكم معشرَ اللئام، فقالوا: لا واللهِ!، بل كرام، فثنى ركبتَه ونزل، وقال: اللهمّ اجعلهم من الصادقين، واجعلني من الكاذبين.

قال هشام أخو ذي الرمّة لرجل أراد سفرًا: إن لكل رُفقةٍ كلبًا يشركُهُم في فضلة الزاد، فإن استطعتَ أن لا تكون كلبَ الرِّفاق فافعل.

ونظر طفيليّ إلى قوم من الزنادقة يُسار بهم إلى القتل، فظنهم يُدْعون إلى صنيع، فتلطّف حتَّى دخل في لفيفهم وصار كواحدٍ منهم، فلما بلغوا صاحب الشُّرطة، أمر بضرب أعناقهم، فقدّموا واحدًا بعد واحدٍ حتَّى انتهوا إلى الطفيليّ فلما قُدِّم للقتل التفت إلى صاحب الشُّرطة، فقال له: إنِّي واللهِ ما أنا منهم، ولا أعلم بما يدينون، وإنما أنا طفيليّ ظننتُهم يُذْهَبُ بهم إلى صنيع، فتلطّفتُ حتَّى دخلت في جملتهم، فقال ليس هذا مما ينجيك، اضربوا عنقه، فقال: أصلحك الله، إن كنتَ عزمتَ على قتلي، فأمرِ السيافَ أن يضرب بطني بالسيف، فإنه هو الذي أوقعني في هذه الورطة، فضَحِك، وكشف عنه، فأُخبِر أنه طفيليّ معروف، فخلّى سبيله.

وحُكِي أن المأمون أمر أن يُحمل إليه عشرةٌ من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة، فَجُمِعوا، فأبصرهم طفيليّ، فقال: ما اجتمعوا إلا لصنيع، فدخل في وسطهم ومضى بهم الموكَّلُون، حتَّى انتهوا إلى زورق قد أُعِدَّ لهم، قال الطفيليّ: هي نُزْهةٌ، فدخل معهم الزَّوْرقُ، فلم يكن بأسرع من أن قُيِّدُوا، وقُيِّدَ معهم الطفيليّ، ثم سِير بهم إلى بغداد، فأُدْخِلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلًا رجلًا، ويأمر بضرب أعناقهم، حتَّى وصل إلى الطفيليّ، وقد استوفى العِدَّة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: واللهِ ما ندري، غيرَ أَنَّا وجدناه مع القوم، فجئنا به، فقال له المأمون: ما قصَّتُك؟ ويلك! فقال يا أمير المؤمنين: امرأتي طالقٌ إن كنت

أعرف من أقاويلهم شيئًا ولا مما يدينون به وإنما أنا رجل طفيليّ، رأيتُهم مجتَمِعين، فظننتُ صنيعًا يُدْعَون إليه، فضحك المأمون وقال: يُؤَدَّبُ، وكان إبراهيم بن المهديّ قائمًا على رأس المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي أدبه، وأحدثُك بحديث عجيب عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم، قال: يا أمير المؤمنين، خرجتُ من عندِك يومًا، فطُفتُ في سِكَك بغدادَ متطرِّفًا، حتّى انتهيت إلى موضع كذا، فشممت منه قُتَارِ أبازير(١) قُدور قد فاح، فتاقت نفسي إليها، وإلى طِيب ريحها، فوقفت إلى خياط، فقلت له: لِمَنْ هذه الدار؟ فقال: لرجل من التجّار، قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان، فرميت بطرفي إلى الدار، فإذا شُبَّاك فيها مطلٌّ، وإذا كَفٌّ قد خرج من الشُّبَّاك ومِعْصَم، فشغلني حسنُ الكفِّ والمعصمِ عن رائحة القُدُور، فَبُهِتُّ ساعة، ثم أدركني ذهني، فقلت للخياط: أهو مِمَّن يشربُ النبيذَ؟ قال: نعم، وأحسب أن عنده اليومَ دعوةٌ، وهو لا ينادم إلا تُجّارًا مثلَه مستورين، فإني لكذلك، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدَّرْب، فقال لي الخياط: هؤلاء منادماه، فقلت: ما اسماهما وما كُناهما؟ فقال: فلان وفلان، فحرّكتُ دابتي وداخلتهما، وقلت: جُعِلْتُ فِدَاكما، قد استَبْطَأكما أبو فلان، وسايرتهما حتَّى بلغنا الباب فأجلّاني وقدّماني، فدخلت ودخلا، فلما رآني صاحب المنزل معهما، لم يشكّ أني منهما، فَرَحَّبَ بي وأجلسني في أفضل المواضع، فجِيءَ يا أمير المؤمنين بمائدة عليها خبزٌ نظيفٌ. وأُتينا بتلك الألوان، فكان طعمُها أَطْيَبَ من رِيحها، فقلت في نفسي: هذه الألوانُ قد أكلتُها، بَقيت الكَفُّ، كيف إلى صاحبتها؟ ثم رُفع الطعام، وجِيءَ بالوَضُوء، ثم صرْنا إلى مجلسِ المنادمة، فإذا أشكل منزل، وجعل صاحبُ المنزلِ يلطفُ بي، ويميل عليّ بالحديث، حتَّى إذا شربنا أقداحًا، خرجت علينا جارية، كأنها بدرٌ، تتثنى يا أميرَ المؤمنين كالخيزران، فأقبلتْ، وسلّمتْ غير خَجلةٍ وثُنيت لها وِسَادة، فجلست عليها، وأُتيَ بالعود فَوُضِع في حِجْرِها، فجسته فاستَبَنْتُ حِذْقها في جَسِّها، ثم اندفعت تُغَنِّي: [من الطويل]

تـوهَّـمَـهـا طَـرْفِـي فـأصـبـحَ خَـدُّهـا وفيه مكان الوَهْـمِ من نظري أُثْرُ
تُـصَـافـحُـهـا كَـفِّـي فَـتُـؤْلِـمُ كَـفَّـهَـا فمِنْ مَسِّ كَفِّي في أناملها عَقْرُ

---

(١) أبا زير: البزر: التابل، وأبازير جمع الجمع، وبزر القدر: رمى فيها البزر، والقتار: الرائحة. «لسان العرب ٤/ ٥٦ و٥٧».

فهيّجتْ يا أمير المؤمنين بلابلي، وطرِبتُ لحسن شعرها، ثم اندفعت تغنّي: [من الطويل]

أشرتُ إليها هل عرفتِ مودّتي؟ فردّتْ بطرفِ العينِ إني على العهدِ
فحَدْتُ عن الإظهارِ عَمْدًا لسرِّها وحادتِ عن الإظهار أيضًا على عَمْدِ

فصحت يا أمير المؤمنين، وجاءني من الطرب ما لم أملكْ نفسي معه، ثم اندفعتْ فغنَّت الصوت الثالث: [من الطويل]

أليس عجيبًا أَن بيتًا يَضُمُّنِي وإيّاك لا نخلُو ولا نتكَلَّمُ!
سوى أعينٍ تشكو الهوى بجفونِها وتقطيعِ أكبادٍ على النار تُضْرَمُ
إشارةُ أفواهٍ وغَمْزُ حواجبٍ وتكسيرُ أجفانٍ وكَفٌّ تُسَلِّمُ

فحسدتُها واللهِ يا أميرَ المؤمنين على حِذْقِها ومعرفتها بالغِناء، وإصابتها لمعنى الشعر، فقلت: بقي عليك يا جارية، فضربتْ بالعود على الأرض، وقالت: متى كنتم تُحْضرون مجالِسَكم البُغَضَاءَ؟ فندمتُ على ما كان منّي، ورأيت القوم قد تغيّروا لي، فقلت: أما عندكم عود غيرُ هذا؟ قالوا: بلى، فأُتيت بعود، فأَصلحْتُ من شأنه ثم غنّيت: [من الكامل]

ما للمنازلِ لَا يُجِبْنَ حَزِينا أَصمِمْنَ أم قَدُم البِلَى فَبلِينا؟
راحوا العَشِيَّةَ رَوْحةً مذكورةً إنْ مُتْنَ أو حَيِينَ حَيِينَا

فما اسْتَتْمَمْتُه يا أميرَ المؤمنين، حتَّى قامت الجاريةُ، فأكبّت على رجليّ تقبّلهما، وقالت: مَعْذِرة يا سيدي، فوالله ما سمعت أحدًا يُغَنِّي هذا الصوت غِنَاءَك، وقام مولاها وأهلُ المجلس، ففعلوا كفعلها، وطرب القوم واستحثّوا الشربَ فشربوا، ثم اندفعتُ أُغَنِّي: [من الطويل]

أَفِي الحقِّ أن تَمْشِي ولا تَذْكُرنّني وقد هَمَعت عيناي من ذكرها الدِّما
إن الله أشكو بُخلَها وسماحتي لها عسلٌ مني وتبذلُ عَلْقَما
فَرُدِّي مُصَابَ القلبِ أنتِ قتلتِهِ ولا تَتْرُكيه ذَاهلَ العقلِ مُغْرَما

فطَرِب القومُ حتَّى خرجوا من عقولهم، فأمسكْت عنهم ساعة حتَّى تراجعوا، ثم غنيْتُ الثالث: [من البسيط]

هذا مُحِبُّكِ مطويًا على كَمَدِهْ عبرى مدامُعه تَجْرِي على جسده
له يَدٌ تَسأَلُ الرحمٰنَ راحتَه مما به ويَدٌ أخرى على كَبَدِه

فجعلت الجارية تصيحُ: هذا الغِناءُ واللهِ يا سيدي، لا ما كنَّا فيه منذ اليوم، وسَكِرَ القومُ، وكان صاحبُ المنزلِ حسنَ الشربِ، صحيحَ العقلِ، فأمر غلمانه أن يُخرِجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم، وخلوتُ معه، فلما شرِبْنا أقداحًا، قال: يا سيدي، ذهب ما مضى من أيامي ضَيَاعًا، إذ كنتُ لا أعرفُك، فمن أنت؟ ولم يزل يلِحُّ عليَّ، حتّى أخبرتُه الخَبَر، فقام وقبَّلَ رأسي، وقال: وأنا أعجبُ أن يكون هذا الأدب إلا لملك! وإني لجالس مع الخلافة ولا أشعر، ثمّ سألني عن قصتي، فأخبرته حتَّى بلغتُ إلى صاحبة الكف والمعصم، فقال للجارية: قومي فقولي لفلانة تنزل، فلم تزل تنزل جواريه واحدةً واحدةً، فأنظر إلى كَفِّها ومِعصَمِها، وأقول: ليس هي هذه! حتَّى قال: واللهِ ما بقي غير أختي وأُمّي، واللهِ لأنزلهما إليك، فعجبتُ من كرمه وسعة صدره، فقلت: جُعِلتُ فداك، ابدأ بالأخت قبل الأمّ فعسى أن تكون هي، فبرزتْ، فلما رأيتُ كَفَّهَا ومعْصَمَها، قلت: هي هذه فأمر! غلمانه، فساروا إلى عشرة مشايخ من جِلَّة جيرانه، فأقبلوا بهم، وأمر بِبَدْرَتين[1] فيهما عشرون ألف درهم، ثمّ قال للمشايخ: هذه أختي فلانة، أشهدكم أني قد زوّجتُها من سيدي إبراهيم بن المهديّ، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم، فرضِيت وقَبِلت النكاح، فدفع إليها بَدْرة، وفرّق الأخرى على المشايخ وصرفهم، ثم قال: يا سيدي، أمهِّد بعض البيوت فتنامُ فيه مع أهلك، فأحشمني ما رأيتُ من كرمه، فقلت: أحضرْ عَمَارية واحملْها إلى منزلي، ففعل، فوالله يا أمير المؤمنين، لقد أتبعها من الجَهَاز ما ضاقت عنه بيوتنا، فأولدتها هذا القائمَ على رأس أمير المؤمنين، يشير إلى ولده، فعجب المأمون من كرم الرجل وألحقه في خاصة أهله، وأطلق الطفيليّ وأجازه.

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليمانيّ[2] وهو الذي حاز قصباتِ السبق في فن الأَدب على أترابه، وفاز من البلاغة بقِدْحها المُعَلَّى في عُنفُوان شبابه، رسالة وضعها في هذا الفنّ، وصار له بها على أهله غاية المنّ، مع نزاهة نفسه الأبِيّة، وارتفاعه عن المطاعم الدنية، وإنما وضعها تجربة لخاطره، وضمها إلى فوائد دفاتره، وهي:

---

(١) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف. «لسان العرب ٤/ ٤٩».

(٢) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليمني المخزومي المكي، تاج الدين، له نظم واشتغال بالأدب والتاريخ، ولد بمكة ورحل إلى الشام ومصر واستقرّ باليمن فولي الوزراة، له بعض المصنّفات، مات سنة ٧٤٣ هـ. «الأعلام ٣/ ٢٧٢».

هذا عهدُ عهدِه زارِد بن لاقم، لبالغ بن هاجم، استفتحه بأن قال: الحمدُ لله مسهل أوقاتِ اللذّات وميسّرها، وناظم أسبابِ الخيرات ومُكَثِّرها، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق، جابرة لمن ورد إليها بأنواع الإرفاد وأجناس الإرفاق، أحمدُه على أن أحلَّنا في منازل السادات، أرفَعَ الدرجاتِ، وأحلَّ لنا من الأطعمةِ الفائقة الطَّيِّباتِ، وأشهدُ أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريكَ له، شهادةً تهدينا إلى المقام الرفيع، وتخصُّنا بالمحلِ الجسيم المنيع، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه ربُّ المكارم الجسام، ومعدن الجسارةِ والإقدام، الجامع بين فضيلتي الطعان والإطعام، صلى الله عليه وعلى آله أهلِ السماحة والكرم والإكرام، صلاةً تُحِلُّ قائلَها في غُرُفَاتِ الجِنان في دار السلام، وبعد، فإن صناعةَ التطفيلِ صناعةٌ مهوبةٌ، وحِرْفةٌ هي عند الظرفاء محبوبةٌ، لا يَلْبَسُ شِعارَها إلا كلُّ مقدامٍ، ولا يرفعُ خافقَ علمِها إلا من عُدَّ في حِرْفته من الأعلام، ولا يتلو أساطيرَ شهامَتِها إلا من ارتضع أفاويق الصَّفَاقة[١]، ولا يهتدي لمنار عَلَائها إلا من نزع عن مَنْكِبيه رِدَاء الرَّقاعة والحماقة، وكنتُ والفَوْد غُدَافِيّ[٢] الإهاب، والغصن رَيّان من ماء الشباب، والقَدُّ يَمِيس في حُلَّة النشاط، والقدَم تَذْرَعُ الأرض ذَرْعَ الاختباط، لا يُقامُ سوقُ وليمةٍ إلا وأنا الساعي إليها، ولا تُرفعُ أعلامُ نارِ مَأْدَبةٍ إلا وكنتُ الواقفَ لديها، أتخذ الدروبَ شِباكًا للاصطياد، وحبائلَ أبلغُ بها لذيذ الازدراد، قد جعلت المعطسَ حليفَ الهواء، والقلبَ نزيلَ الأهواء، فحيث عَبَقت روائح الأبازير من أعالي تلك القصور، وتمندلت تلك الشوارعُ بزعفران البُرَم[٣] والقُدُور، ألقيت عصا المسِير على الباب، وخَلبتُ بحسن أدبي قلْبَ البواب، وأوسعتُ في وصولي ألف حيلة، وجعلتها على ما عندي من حسن فنونها مَخِيلة، فلا دعوة، إلا وكنت عليهم دعوة، ولا وليمةَ خِتَان، إلا وقد طلعت على أرجائها مثل الجان، ولا سِمَاط تأنيب، إلا وكنتُ إليه الساعي المنيب، ولا مَجْمعَ ضيافة، إلا وكنت عليه أشد

(١) أفاويق الصفاقة: صفّاق أفاق: أي يضرب في آفاق الأرض مكتسبًا ـ والمعنى المقصود: الصفاق هو الذي يصفق على الأمر العظيم، والأفاق: الذي ينصرف ويضرب إلى الآفاق. «لسان العرب ١٠/ ٦ و٢٠٤».

(٢) الفود: معظم شعر الرَأس لما يلي الأذن، وفودا الرأس: جانباه. «لسان العرب ٣/ ٣٤٠». غدافيّ: شعر غداف: أسود وافر ـ وجناح غداف: أسود طويل، وقيل: كل أسود حالك: غداف ـ واغدودف الليل: أقبل وأرخى سدوله. «لسان العرب ٩/ ٢٦٢».

(٣) البرم: ثمر الطلح واحدته برمة. «لسان العرب ١٢/ ٤٣».

آفة، ولا ملاكَ عُرْس مشهود، إلا وانتظمت في سلك الشهود، يحسنُ فيَّ قولُ القائل: [من المجتث]

لـو طُـبـخَـت قِـدْرٌ بـمَـطْـمُـورة مَـوقدُها الشام وأعلى الثغورِ[1]
وأنـت فـي الـصـيـن لـوافـيـتُـهـا يا عالمَ الغيبِ بما في القُدُورِ

واليوم قد مال القَويمُ إلى الاعوجاج، وعزّ بازي الشيبِ غُراب الشَّعر الدّاج، وقيّد الزمَنُ أقدامًا، ومنعت الشيخوخة إقدامًا، وصرتُ لحمًا على وَضَم[2]، بعد أن كنت نارًا على عَلَم، وقد أفادتني التَّجْرِبةُ من هذه الصناعة فنونًا، وتلت عليَّ من محاسنها متونًا، وقد أبقيت لكل مجمَع بابًا، وفَذْلَكْت لكل مَشهد حسابًا، وقد اقتضى حسن الرأي أن أفوّض إليك أمرها، وأُودِع تأمور[3] قلبِك وحِسِّك سِرَّها، علمي بأنك الكَيِّسُ الفَطِنُ، بل الألمعِيُّ الذَّربُ المَرِنُ، لو عقدت أكلةُ الولائم بِغابِ ولجه، وأحسن بتأنّيه الجميل مَدْخَلَه ومَخْرَجَه، وقد شاهدتُ من أعمالك الصالحة، ما يقال عند ذهابي: ما أشبه الليلة بالبارحة، وقد عَهِدتُ إليك، واستخرتُ الله في التعويل عليك، فمثلك من يُخْطَب للمناصبِ، ويتسنّم ذِرْوَة المراتبِ، ودونك ما أنطِقُ به من الوصايا، واحفظ ما يسْرُدُه لسانُ القلِم من جميل المزايا، إياكَ وموائدَ اللئام، وانزلْ بساحاتِ الكرامِ، واتخذِ الشروعِ في الشوارع حِرفة، وأظهِرْ على مشيك صَلَافة وعِفَّة، ومَيِّزْ بعينك حُسْنَ المساطِبِ ونَقْشَ الستُور، وجمالَ الخدمِ وقُعودَ الصدورِ، واقْصِدِ الأبوابَ العالية، والأكلةَ المنقوشة الجالية، فإن دُلِلت على مَأْدبة نصَبها بعضُ الأعيانِ، وجمع إليها أصحابَه الإخوان، فالْبَسْ من ثيابك الجميلةِ قشيبَها، وضوِّع بالمندل الرطبِ طِيبَها، وأتقنْ خُبْرَ صاحبِ الدار وأخبارِه، وقِفْ في صدرِ الشارع من الحارة، فإذا رأيت الجمَع وقد تهادَوْا بالهوادي والأقدام، وتهادَوْا فيما بينهم لذيذَ الكلام، تَقَدَّمْ إليهم بقلبِ قَلَبَ الأمور، وعلم بحسن تطلُّعه وتضلُّعه داءَ الجمهور، وقلْ لهم: ربُّ الدارِ قد استبطأكم، فما الذي أبطأكم؟ حتَّى إذا قاربوا صُعُودَ العتبة، ولم تبقَ هنا لك مَعْتَبَة، تقدَّمْ رافعًا لهم الستور، ومعرّفًا بمقدار أولئك

(١) المطمورة: حفرة تحت الأرض يوسّع أسفلها وتخبأ فيها الحبوب.
(٢) وضم: كل شيء يوضع عليه اللحم، والجمع أوضام، وتركهم لحمًا على وضم: أوقع بهم فذللهم وأوجعهم، والوضم: ما وضع عليه الطعام فأكل. «اللسان ١٢/ ٦٤٠».
(٣) تأمور: وعاء القلب، وقيل التأمور: النفس وحياتها، وقيل العقل ـ والتامور أيضًا: دم القلب وحبَّته وحياته، وقيل هو القلب نفسه. «لسان العرب ٤/ ٣٣».

الصدور، فالأضيافُ، يعتقدون أنك غلامُ المضيافِ، وربُّ الحِلَّة، يعتقدُ أنك رفيقُ السادةِ الجِلة، وإن وَلِجْتَ مجتمعِ ختان، وقد نُصِبت فيه موائدُ الألوان، وزُرْفِنَتِ الأبواب، واكفَهرَّت وجوهُ الحُجَّاب، فاجعلْ تحت ضِبْنِكَ[1] المجمع، واخدعْ قلوبَهم فمثلك من يَخْدَع، وقل: رفيقُ الأستاذِ ومعينُه، ورِجْله التي يسعى بها بل يمينُه، فحينئذٍ تُرْفَع الستُور، وتُقَدَّمُ لك أطايبُ القُدور، وإن رماك القَدَرُ على بابِ غفل عنه صاحبُه، وسها في غَلْقه حاجبُه، وقد مدُّوا في أوانيه سِمَاطًا، وجعلوا لأوائل من يقدمه فِرَاطًا، وقد تقاربت الزبادي، وامتدت الأيادي، ورأيت السِّمَاط رَوْضَةً تخالفت ألوانُها، وامتدّت أفنانُها، والموائدُ فيما بينها أفلاكٌ تدورُ بصحونها، بل بروجٌ ثابتة تُشْعِرُ بسكونها، فَلِجْ على غَفْلة من الرقيبِ، وابسُط بنَانَ الأكل وكُفَّ لسانَ المجيبِ، فإن قيل لك: أما غُلق دونك بابُ؟ فقل: ما على الكرماء من حِجَاب، وإيّاك والإطالةَ على الموائد، فإنها مصايدُ الشوارد، وإياك والقَذَارةَ عليها، فإنها إمارةُ الحِرْمان لديها، وإن وقعتَ على وليمة كثيرةِ الطعام، قليلةِ الازدحام، كَبِّر اللقمة ولا تطلْ عَلْكَها، ومُرِ الفكَّ في سرعة أن يَفُكَّهَا، فإنك ما تدري ما تُحدث الليالي والأيام، خِيفةَ أن يعثُرَ عليك بعض الأقوام، فتكتسي حُلَّة الخَجَل، وتظهرُ على وجهك صُفرةَ الوَجَل، واجعلْ من آدابك، تطلعك إلى أثوابك، ولا ترفعْ لمستجلٍ وجهًا وجيهًا، وقلْ لمن يحادثُك: إيه ولا تقل: إيهًا، وجاوب بنعم، فإنها مُعَينة على اللُّقم، واجعلْ لكلّ مقام ما يناسبه من الحيلة، ومِلْ على أهل الولائم والمآدب ميلَةً وأيّ مِيلَة، واسأل عمن ورثَ من آبائه مالًا، وقد جمعه بوَعْثاء[2] السفر وعَنَائه حرامًا وحلالًا، أهل يَعْقد مقامًا؟ أم يبلُغ من دنياه بالقصف مرامًا؟ فإن قيل: فلان الفلانيّ رَبّ هذه المثابة، وصاحب الدعوة المجابة، فكن ثالثةَ الأَثَافي لِبَابِه، وانتظم في سلك عشرائه وأَتْرَابِه، وتفقَّدِ الأسواقَ خصوصًا اللّحامِين، ومواطِنَ الطبخ ومساطِبَ المطربين، ومَجمَع القراء وتعاهدَ محالّ الوعّاظ، وكلَّ بقعة هي مَظَنَّة فرح يعود عليك نفعه وكن أوَّلَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ، وملْ إلى الزوايا، فهي أجمل ما لهذه الحِرْفة من المزايا، ونَقِّلْ رِكابك في كلّ يوم، فتارةً في سوقِ اللحم وتارةً في سوق الثُوْم، وغيِّر الحِليَة، .وقَصِّرِ اللحيْة، وابْرُزْ كلَّ يومِ في لباس، فهو

---

(١) الضبن: الإبط وما يليه، وقيل ما بين الخاصرة ورأس الورك. «اللسان ١٣/ ٢٥٢».
(٢) وعثاء: وعثاء السفر: مشقته وشدته. «اللسان ٢/ ٢٠٢».

أكثر للالتباس، وَجَدِّدِ البَهْتَ[١] حتى تتخِذَه عصاك، وتجعلَه ذَرِيعةً لمن عصاك، وأتقن الفنون المحتاج إليها من غناء ونجامة، وطبٍّ وشهامةٍ، وتاريخٍ وأدب، وكرمِ أصلٍ وحسب، وحالتي التوقيت والتنزيل، فاجعلهما دأبك، فإذا عرفوك، وحضر الجمعُ وكشفوك، فَطَرِّزْ كلَّ مَحْفِلٍ بمحاسن أقوالك، وكلِّلْ جِيدَ كلِّ مَأْدُبة بجواهرِ أفعالك، واعلم أنها صنعةٌ دَثَرَتْ معالمُها، وقلَّ عالمُها، ولو لم أرَ على وجهك مخائِلَ بِشْرِها، وعلى أعطاف أردافك روائِحَ نَشْرِها[٢]، لما ألقيتُ إليك كتابَ عهدها، ولا حَملتُ لبَابك رايةَ مَجْدِها، فتَلَقَّ رايةَ هذا العهد بساعِدٍ مُسَاعِد، وعَضُد في الوُلُوج على الأسْمِطَة مُعاضِد، فوّضتُ إليك أمرَ مَنْ تحلَّى بجواهرها المنظومة، ولَبِسَ حُلَلَها القشيبةَ المرقومة، وبسطتُ لسانَ قلمِك في رَقْمِ عهودِها، وأذنتُ لك أن تُجْرِيَهم على سَنَنِ معهودِها، وإياك أن تَعْهَدَ إلا لمن ملك خِصَالها، وجاس خلالها، واستجلى هِلالها، وأتقن أحوالها، ولايةً عامَّة، وكَلِمَةً مُبْرَمَةً تامَّة، حَرَسَ الله بك مَعْقَلَ الأدبِ واللطافةِ، ومَحَا بك معالِمَ الثقالةِ والكثافة.

ذكر آداب الأكل والمُؤاكلة

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٢] ورُوِيَ أنّ داودَ عليه السلام أمر منادِيَه فنادى: أيها الناسُ، اجتمعوا لأعلِّمكم التقوى، فاجتمعوا فقام في مِحْرابه، فبكى ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأيها الناس، لا تُدخلوها هٰهنا إلا طَيِّبًا، ولا تُخرجوا منه إلا طَيِّبًا، وأشار إلى فيه. قيل: أوّلُ آدابِ الأكل، معرفةُ الحلالِ من الحرام، والخبيثُ من الطيّب.

وأما الآدابُ في هيئة المُؤاكلة وأفعالها، فقد رُوِيَ أنّ رسولَ الله ﷺ ما عاب طعامًا قطُّ، إن اشتهاه أكلَه وإلا تركه، ورُوِيَ أنّ النبيّ ﷺ قال: «لا تَشُمُّوا الطعامَ كما تَشُمُّه البهائمُ، من اشتهى شيئًا فليأكلْ، ومن كَرِه فَلْيَدَعْ». وقال أَنَس: قَدِمَ النبيّ ﷺ المدينة، وأنا ابن عشر، ودخل دارَنا، فَحَلَبْنَا له شاةً، فشرِب، وأبو بكر عن يسَاره، وأعرابيٌّ عن يَمينه، فقال عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه: أعطِ أبا بكر، فقال ﷺ:

---

(١) البهت: باهته: استقبله بأمر يقذفه به، وهو منه بريء، والبهتة: الحيرة والبهتان أي الباطل. «اللسان ٢/ ١٢».

(٢) النشر: ما انتشر من روائح الطيب وفاح.

«الأيمنَ فالأيمن» وفي هذا المعنى يقول الشاعر: [من الوافر]

صَدَدْتِ الكأسَ عَنَّا أمَّ عَمْرٍو   وكان الكأسُ مَجْرَاها اليَمِينا

ورُوِيَ عن أَنَس: أنه رأى النبيَّ ﷺ شرب جُرْعة، ثم قَطَع، ثمّ سَمَّى، ثم شَرِب جُرْعة، ثم قَطَع، ثم سَمَّى، ثم قَطَع الثالثة، ثمّ جَرَع مَصًّا، حتَّى فَرَغ ثمّ حَمِد الله. وقد ندب إلى غسل اليد قبل الأكل فإنه ينفي الفقرَ، ويُنَقِّي اللَّمَمَ[1] ومن السُّنّة: البَدَاءةُ باسم الله، وحَمْدِه عند الانتهاء.

رُوِيَ عن عمر بن أبي سَلَمَةَ[2] أنه قال: مررت بالنبيّ ﷺ وهو يأكل، فقال: «اجلس يَا بُنَيّ وسَمِّ الله، وكُلْ بيمينك مما يليك».

وقال بعض السلف: إذا جَمَعَ الطعامُ أربعًا، فقد كَمُلَ كلُّ شيء، إذا كان حلالًا، وذُكِرَ اسمُ الله عليه، وكَثُرَتْ عليه الأيدي، وحُمِدَ الله حين يُفْرَغُ منه.

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من قال عند مَطْعَمِه ومَشْربه بسم الله خَيْرِ الأسماء رَبِّ الأرضِ والسماءِ لم يضره ما أَكَلَ وما شَرِب» وفي حديث عائشة رضي الله عنها، عنه ﷺ قال: «إذا أكل أحدُكم فَلْيَذْكُرِ اسْمَ الله فإن نَسِيَ في أوّله، فَلْيَقلْ بِسْم الله في أوّله وآخره». وقال ﷺ: «إذا أكل أحدُكم فليأكلْ بيمينه، فإنّ الشيطانَ يأكلُ بشماله ويشربُ بشماله».

ورُوِيَ: أنّ المسيحَ عليه السلام كان إذا دعا أصحابَه قام عليهم، ثمّ قال: هكذا فاصنعوا بالفقراء.

ووصف شاعرٌ قومًا فقال: [من الوافر]

جُلُوسٌ في مجالسهم رِزَانٌ   وإن ضَيْفٌ أَلَمَّ بهم وُقُوفُ

قال سَهْلُ بن حُصَين[3]: شهدت الحَسَنَ في وليمة، فَطَعِم ثم قام، فقال: مدَّ الله لكم في العافية، وأوسعَ عليكم في الرزق، واستعملكم بالشكر.

---

(١) اللمم: ما دون الكبائر من الذنوب ـ فاللمم من صغار الذنوب، أو مقاربة الذنب. واللمم أيضًا: الجمع الكثير الشديد. «لسان العرب ١٢/٥٤٩».

(٢) عمر بن أبي سلمة «٢ ـ ٨٣ هـ = ٦٢٣ ـ ٧٠٢ م» والٍ من الصحابة، ولد بالحبشة ورباه النبي ﷺ وولي البحرين زمن علي عليه السلام، وشهد معه وقعة الجمل وتوفي بالمدينة، له اثنا عشر حديثًا. «الأعلام للزركلي ٥/٥١».

(٣) سهل بن حصين: ليس له ذكر في كتب التراجم ولعله أحد الرواة والأدباء في فترة صدر الإسلام ومطالع العصر الأموي.

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «تخلّلوا(١) فإنَّه نظافة والنظافة من الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجَنَّة».

وفي حديث عمر رضي الله عنه: عليكم بالْخَشَبَتَيْن: يعني السِّوَاكَ والخِلَالَ.

وكان بعضهم يقول لولده إذا رأى حرصه في الطعام: يا بُنَيَّ، عوِّدْ نفسك الأثرة، ومجاهدةَ الشهوة، ولا تَنْهَسْ نَهْسَ(٢) السِّباع، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذين، فإن الله جعلك إنسانًا، فلا تَجْعَلْ نفسَك بهيمةً.

وحُكِيَ عن بعضِ الكتاب قال: تغديتُ مع المأمون فالتفتَ إليّ وقال: خِلال قبيحة عند الجلوس على الطعام: كثرةُ مسح اليد، والانكباب على الطعام، وكثرةُ أكل البقل، ومعنى ذمّه هذه الخِلال الثلاث: أنه إذا أكثر مسح اليد فإنما ذلك من غَمْسها في الطعام، والانكباب يدُلّ على شدّة الحرص وزيادة الشره والنَّهَم. قال الشاعر: [من الطويل]

لقد سَتَرتْ منك الخِوانَ عِمَامَةٌ دَجُوجِيَّةٌ ظَلْمَاؤها ليس تقلعُ(٣)

وأما البقلُ، فإن الحاجة إلى البُلغة منه، وفي الإكثار منه تشبّهٌ بالبهائم، لأنه مرعاها.

وقيل: الأكلُ ثلاثة: مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب.

وقيل لبعض الحكماء: أيّ الأوقاتِ أحمدُ للأكل؟ فقال: أما مَنْ قَدَر فإذا اشتهى، وأما من لم يَقْدِر فإذا وجد.

---

(١) تخللوا: الخِلل: بقية الطعام بين الأسنان، واحدته: خِلة، والتخلل هو استعمال الخلال لإخراج ما بين الأسنان من الطعام، ويقال: وجدت في فمي خلة فتخللت. «لسان العرب ١١/ ٢١٩ و٢٢٠».

(٢) النّهس: أخذ اللحم بمقدّم الأسنان ونتفه.

(٣) العمامة: من لباس الرأس معروفة ـ والجمع عمائم وعِمام، والعرب تقول للرجل إذا سُوِّد: قد عُمِّمْ ـ وشاة معممة: بيضاء الرأس ـ واعتمَّ البيت: اكتهل. «لسان العرب ١٢/ ٤٢٤ و٤٢٥». ودجوجية: نسبة إلى دجوج: اسم بلد في بلاد قيس، وهو رمل مسيرة يومين إلى دون تيماء بيوم. «لسان العرب ٢/ ٢٦٥، ومعجم البلدان ٢/ ٤٤٢».

ذكر الاقتصاد في المطاعم والعفّة عنها

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: الآية ٣١]. وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال: «من زاره أخوه المسلمُ فقرّبَ إليه ما تيسرَ غفرَ له وجعِل في طعامه البركةُ، ومن قُرِّب إليه ما تيسر فاستحقرَ ذلك كان في مَقْت من الله حتَّى يخرج». وقالت عائشة رضي الله عنها: أَوْلَمَ النبيّ ﷺ على بعض نسائه مُدَّيْنِ من شعير.

وقيل: كان عيسى ابن مريم صلوات الله عليه يقول: اعملوا ولا تعملوا لبطونكم، وإياكم وفضولَ الدنيا، فإن فضولَها رِجزٌ، هذه طير السماء تغدو وتروح، ليس معها من أرزاقها شيء، لا تحرُث ولا تحصد، والله يرزقُها، فإن قلتم: بطونُنا أعظم من بطونها، فهذه الوَحْشُ تغدو وتروح، وليس معها من أرزاقها شيء والله يرزقُها.

ورُوِيَ أَنَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لما دخل شهرُ رمضانَ كان يفطرُ ليلةً عند الحسن، وليلةً عند الحسين، وليلةً عند عبد الله بن جعفر، لا يزيد على لقمتين أو ثلاث، فقيل له، فقال: إنما هي أيّامٌ قلائلُ يأتي أمر الله وأنا خَمِيصٌ فقتل من ليلته.

وفي الحديث عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من قلّ طُعْمُه صحّ بدنه وصفا قلبُهُ، ومن كَثُرَ طعمُه سَقِمَ جسمه وقسا قلبُه». وعنه ﷺ قال: «ما زيَّنَ الله رجلًا بزينة أفضلَ من عَفَاف بطنه». قال حاتم: [من الطويل]

أَبِيتُ خَمِيص البطنِ مُضْطَمِر الحشا ... من الجوع أخشى الذَّم أن أتضلّعا(١)

فإنّك إنْ أعطيتَ بطنكَ سُؤْلَه ... وفَرْجَك نالا منتهى الذّم أجمعا

وقال بعضهم: رأيت مجنونًا ببغداد، وهو على باب دارٍ فيها صنيع والناسُ يدخلون، وكنتُ ممن دُعي، فقلت: ألا تدخلُ فتأكل؟ فإن الطعامَ كثيرٌ، قال: وإن

(١) خميص البطن: الخُمصان: الجائع الضامر البطن والأُنثى خمصانة وجمعها خِماص ـ ورجل خميص الحشا: أي ضامر البطن. «لسان العرب ٧/ ٢٩ ـ ٣٠». مضطمر الحشا = الضمر: العسر، والعُسر: الهزال ولحاق البطن ـ وتضمر وجهه: انضمت جلدته من الهزال. «لسان العرب ٤/ ٤٩١». أتضلع: تضلع الرجل: امتلأ ما بين أضلاعه شبعًا وريًا ـ وأضلعن: أثقلن. «لسان العرب ٨/ ٢٢٨».

كثر فإني ممنوعٌ منه، فقلت: كيف والبابُ مفتوحٌ، ولا مانعَ من الدخول؟ فقال: أآكلُ طعامًا لم أُدْعَ إليه؟ لقد اضطرّني إلى ذلك غير الجوع، فقلت: ما هو؟ قال: دناءَةُ النفسِ وسوءُ الغريزة، قال شاعر: [من الطويل]

وإنّـي لَعَـفٌ عـن مَـطَـاعِـمَ جَـمَّـةٍ   إذَا زيَّنَ الفَحشاءَ للنفس جُوعُها

وقال آخر: [من الوافر]

وأعـرِضُ عـن مَـطَـاعِـمَ قـد أراهـا   فـأتـرُكُـهـا وفـي الـبـطـنِ انـطـواءُ

فـلا وأبـيـك مـا فـي الـعـيـش خـيـرٌ   وفـي الـدنـيـا إذا ذهـبَ الـحـيـاءُ!

قال الجنيد[١]: مرّ بي الحارثُ بن أسد المحاسبيّ[٢]، فرأيت فيه أَثَرَ الجوع، فقلت: يا عمّ، تدخلُ الدارَ وتتناولُ شيئًا؟ قال: نعم، فدخل، وقدّمت إليه طعامًا حُمِلَ إليّ من عُرْس، فأخذ لقمةً فلاكها ونَهَضَ فألقاها في الدِّهليز ومضى، فالتقيت به بعد أيام، فقلت له في ذلك، فقال: كنت جائعًا، وأردت أن أسرّك بأكلي، ولكن بيني وبين الله تعالى علامة، أن لا يُسَوِّغني طعامًا فيه شُبْهة، فمن أين كان ذلك الطعام؟ فأخبرتُه، ثم قلت له: تدخلُ اليوم؟ قال: نعم، فقدّمت إليه كِسَرًا كانت لنا فأكل وقال: إذا قدّمت لفقير شيئًا، فقدِّمْ مثل هذا.

رُوِيَ أن عمرو بن العاص قال لأصحابه يوم الحكمين: أكثِرُوا لهم الطعام، فوالله ما بَطِنَ قومٌ إلا فقدوا بعضَ عقولهم، وما مضت عَزْمَةُ رجلٍ بات بطينًا، فلما وجد معاوية ما قال صحيحًا، قال: البِطْنَة تُذْهِب الفِطْنة.

ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطعام والشرابِ، فإن القلوبَ تموت كالزَّرع إذا كثُرَ عليه الماءُ».

---

(١) الجنيد: البغدادي، أبو القاسم، صوفي، من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد، أصل أبيه من نهاوند كان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد ـ توفي سنة ٢٩٧ هـ ـ ٩١٠ م. «الزركلي ٢/١٤١».

(٢) الحارث بن أسد المحاسبي: أبو عبد الله، من أكابر الصوفية، كان عالمًا بالأصول والمعاملات، واعظًا مُبكيًا، له تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ـ ٨٥٧ م ـ وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره، من كتبه آداب النفوس، شرح المعرفة، البعث والنشور. الخ. «الأعلام للزركلي ٢/١٥٣».

ودخل عمر رضي الله عنه على ابنه عاصم وهو يأكل لحمًا فقال: ما هذا؟ قال: قَرِمنا[١] إليه، قال: ويحك! قَرِمتَ إلى شيء فأكلتَه، كفى بالمرء شَرَهًا أن يأكلَ كلَّ ما يشتهي.

قال ابن دريد[٢]: العرب تُعيِّرُ بكثرة الأكل، وأنشد: [من الرّجز]

لستُ بأكّالٍ كأكلِ العبدِ ولا بِنَوَّامٍ كَنَوْمِ الفَهْدِ

وقال عمر رضي الله عنه: ما اجتمع عند النبيّ ﷺ إدامان إلا أكل أحدَهُما وتصدّق بالآخر.

وقال أبو سليمان الداراني: خيرُ ما أكون إذا لَصِقَ بطني بظهري، أجُوعُ الجَوْعَة فأخرجُ تَزْحَمُنِي المرأةُ فما ألتفتُ إليها، وأشْبعُ الشَّبْعَةَ فأخرجُ فأرى عينيّ تطمحان.

ذكر أخبار الأكَلَة

قد نُسِب ذلك إلى جماعة من الأكابر وذوي الهِمم، فمن ذلك ما حكاه الحمدُونيّ في تذكرته: أن معاوية بن أبي سفيان أُتي بِعِجْل مَشْوِيٍّ، فأكل معه دستًا من الخبز السميد، وأربع فَراني[٣]، وجَدْيًا حارًا، وجديًا بارِدًا، سوى الألوان، ووُضِع بين يديه مِائةُ رطلٍ من الباقِلّاء الرطب، فأتَى عليه، وقيل: إنه كان يأكل كل يوم أربع أَكَلات آخرهنّ أشدّهنّ، ثم يقول: يا غلام، ارفعْ، فوالله ما شبِعت، ولكني مَللتُ.

ومنهم عُبَيد الله بن زياد، كان يأكلُ في اليوم خمسَ أكلات آخرها جنبةٌ[٤] بقل، ويُوضع بين يديه بعد ما يفرغ من الطعام عَناق[٥] أو جَدْي فيأتي عليه وحدَه.

ومنهم الحجّاج بن يوسف، قال سالم بن قُتَيبة: كنت في دار الحجاج مع ولده، وأنا غلام، فقالوا جاء الأمير، فدخل الحجاج وأمر بتَنُّور، فَنُصِب، وأمر رجلًا يَخْبِزُ

---

(١) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم.

(٢) ابن دريد: (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ = ٨٣٨ ـ ٩٣٣ م)، محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أئمة اللغة والأدب، ولد في البصرة وتوفي ببغداد، من كتبه الاشتقاق في الأنساب والجمهرة في اللغة. «لسان العرب ٦/ ٨٠».

(٣) الفراني: خبز يُشوى ويُروى سمنًا ولبنًا وسكرًا، واحدتها فرنية، والفارنة: خبَّازة هذا الفرني المذكور. «لسان العرب ١٣/ ٣٢٢».

(٤) جنبة: الجنب في الدابة: شبه الضلع. «لسان العرب ١/ ٢٨٠».

(٥) عَنَاق: الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة. «لسان العرب ١٠/ ٢٧٥».

خبزَ الماءِ ودعا بسمك، فأكل حتَّى أتى على ثمانين جامًا[١] من السمك بثمانين رغيفًا من خبز الماء.

ومنهم سليمان بن عبد الملك[٢]، رُوِيَ أنه شُويَ له أربعةٌ وثمانون خَروفًا، فمدّ يده إلى كلّ واحد منها فأكل شحم أَليته ونصفَ بطنه، مع أربعةٍ وثمانينَ رغيفًا، ثم أَذِن للناس، وقُدّم الطعامُ، فأكل معهم أَكْلَ مَنْ لم يَذُق شيئًا.

وقال الشَّمَرْدَل[٣] وكيل عمرو بن العاص: قَدِم سليمان بن عبد الملك الطائف[٤]، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز، فجاء حتى ألقى صدره إلى غصن، ثم قال: يا شَمَرْدَل، ما عندك شيءٌ تُطعِمُني؟ قلت عندي جَذَعٌ[٥] تغدو عليه حافِل[٦] وتروح أخرى، قال: عجِّل به، فأتيته به كأنه عُكَّة[٧] سمن، فجعل يأكل، وهو لا يدعو عمر، حتى بقي منه فخذ، قال: يا أبا حفص، هَلُمّ، قال: إني صائم، فأتى عليه، ثم قال: يا شمردلُ ويلكَ! ما عندك شيء ؟ قلت: دجاجاتٌ ستٌّ، كأنهنّ رِئْلان النعام، فأتيته بهنّ فأتى عليهن، ثم قال: ويلك يا شمردل! ما عندك؟ قلت: سَوِيق كأنه قُراضة[٨] الذهب، فأتيته

---

(١) جامًا: الجام هو إناء من فضة، جمعه جامات. «لسان العرب ١٢/ ١١٢»..

(٢) سليمان بن عبد الملك: (٥٤ ـ ٩٩ هـ = ٦٧٤ ـ ٧١٧ م) أبو أيوب، الخليفة الأموي، ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ، وكان بالرملة، في عهده فتحت جرجان وطبرستان وكانتا في أيدي الترك، توفي في دابق بين حلب ومعرة النعمان. كانت عاصمته دمشق ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أيامًا. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٣٠».

(٣) الشمردل: الشمردل بن عبد الله بن رؤبة بن سلمة الليثي، من شعراء الدولة الأموية، جيد المراثي، كان معاصرًا لجرير والفرزدق، وسكن خراسان، توفي نحو ١٠٧ هـ ـ نحو ٧٢٥ م. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٧٦».

(٤) الطائف: بلدة على طرف واد، قريبة من مكة، طيبة الهواء غنية بالفاكهة والمياه، وهي على ظهر جبل غزوان، والطائف اليوم من مدن المملكة العربية السعودية جنوب شرقي مكة، وأهم مصيف في البلاد، استضافت قبل سنوات مؤتمر السلام اللبناني الذي انبثق عنه اتفاق الطائف. «معجم البلدان ٤/ ٨، والمنجد في الأعلام ٤٣٣».

(٥) جذع: الجذع من الغنم لسنة ومن الخيل لسنتين، وبشكل عام الجذع هو صغير السن. «لسان العرب ٨/ ٤٣ و٤٤».

(٦) حافل: المحفلة الناقة أو البقرة أو الشاة لا يحلبها صاحبها أيامًا حتى تجمع لبنها في ضرعها. «لسان العرب ١١/ ١٥٧».

(٧) عُكة: العك: الصلب الشديد، والعكة: أصغر من القربة للسمن وهو زقيق صغير وجمعها عكك. «لسان العرب ١٠/ ٤٦٨ و٤٦٩».

(٨) قراضة: قطع الذهب. «لسان العرب ٧/ ٢١٨».

بعسٌ[١] يغيب فيه الرأس، فشربه، فلما فرغ تجشأ كأنه صارخ في جُبّ، ثم قال: يا غلام! أفرغْتَ من غدائنا؟ قال: نعم، قال: ما هو؟ قال: نَيِّف وثمانون قِدرًا، قال: فأت بقدر قدر، وبقناع عليه رُقَاق، فأكل من كل قِدْر ثلاث لقم، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، فوضع الخِوان، وقعد يأكل مع الناس.

ومن المشهورين بالأكل، هلال بن الأسْعر المازنيّ[٢]، قال المعتمر بن سليمان: سألته عن أكله فقال: جعتُ مرة ومعي بعيرٌ لي فنحرتُه وأكلتُه إلا ما حملتُ منه على ظهري، فلما كان الليل راودْتُ أمةً لي فلم أصلْ إليها، فقالت كيف تصل إليَّ وبيني وبينك جملٌ؟ فقلت له: كم بلّغتك هذه الأكلة؟ فقال: أربعة أيام. وحكى أبو سعيد منصور بن الحسن الأبيّ[٣] في كتابه المترجم بنثر الدّر: أن هلالًا هذا أكل بعيرًا، وأكلت امرأته فصيلًا وجامعها، فلم يتمكن منها، فقالت له: كيف تصل إليَّ وبيني وبينك بعيران؟ وله حكايات ذكرها الحمدونيّ في التذكرة، والأبيّ في نثر الدر تركناها اختصارًا.

ومنهم محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس[٤]، ذكر الجاحظ: أنه أكل يومًا جنبي بكر شِوَاء بعد طعامٍ كثير.

ومن المشهورين بالنهم، أحمد بن أبي خالد الأحول وزير المأمون، وكان المأمون إذا وجَّهَه في حاجة، أمره أن يتغدّى ويمضي فَرُفع إلى المأمون في المظالم: إن رأى أمير المؤمنين أن يجري على ابن أبي خالد نُزُلًا[٥]، فإنّ فيه

---

(١) عُس: العس: القدح الضخم، والجمع عِساس وعسسة، والعسس: الآنية الكبار. «لسان العرب ٦/ ١٤٠».

(٢) هلال بن الأسعر المازني: شاعر، اشتهر في العصر الأموي، كان فارسًا شجاعًا، عظيم الخلق، شديد البأس والبطش، أكولًا، عمر طويلًا، أقام في اليمن مدة ومات في العراق نحو ١٣٠ هـ - نحو ٧٤٧ م. «الأعلام للزركلي ٨/ ٩٠».

(٣) منصور بن الحسين الأبي: أبو سعد الأبي، وزير من العلماء بالأدب والتاريخ، إمامي، من أهل الري، نسبته إلى «آيَهْ» من قرى ساوه، ولي أعمالًا جليلة وصحب الصاحب بن عباد واستوزره مجد الدولة البويهي، له مصنفات منها: نثر الدرر، نزهة الأديب، تاريخ الريّ، توفي سنة ٤٢١ هـ - ١٠٣٠ م. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٩٨».

(٤) محمد بن علي بن عبد الله بن عباس: (٦٢ - ١٢٥ هـ = ٦٨١ - ٧٤٣ م) الهاشمي القرشي، أول من قام بالدعوة العباسية، وهو والد السفاح والمنصور، ولد في قرية الحميمة وبدأ دعوته سنة ١٠٠ هـ - مات بالشراة. «الأعلام للزركلي ٦/ ٢٧١».

(٥) نزلًا: رزقًا، وأنزال القوم: أرزاقهم. «لسان العرب ١١/ ٦٥٨».

كلبية، إلا أن الكلب يحرس المنزل بكِسْرة، وابن أبي خالد يقتل المظلوم، ويُعين الظالم بأَكْلة، فأجرى عليه المأمون في كلّ يوم ألفَ درهم لمائدته، وكان مع ذلك يشرَه إلى طعام الناس. ولما انصرف دينار بن عبد الله من الجبل، قال المأمون لأحد بن أبي خالد: امضِ إلى هذا الرجل وحاسبْهُ وتقدّمْ إليه يَحْمِلُ ما يحصل لنا عليه، وأنفَذَ معه خادمًا يُنْهي إليه ما يكون منه، وقال: إن أكل أحمدُ عند دينار عاد إلينا بما نكره، ولما اتصلَ خبرُ أحمد بدينار، قال للطباخ: إن أحمدَ أشرهُ من نُفِخ فيه الروح، فإذا رأيته فقلْ له: ما الذي تأمرُ أن يَتّخذ لك؟ ففعل الطباخ، فقال أحمد: فراريح كسكرية[1] بماء الرمان تُقدّمُ مع خبز الماء بالسميد، ثم هاتِ بعدها ما شئت، فابتدأ الطباخ بما أمر، وأخذ أحمد يُكَلِّم دينارًا، فقال له: يقول لك أمير المؤمنين، إن لنا قبلك مالًا قد حبسته علينا، فقال: الذي لكم ثمانيةُ آلاف ألف، قال فاحملها، قال: نعم، وجاء الطباخ فاستأذن في نصب المائدة، فقال أحمد: عَجِّلْ بها فإني أَجوَعُ من كلب، فَقُدِّمت وعليها ما اقترح، وقدّم الدجاجَ وعشرين فروجًا كسكرية فأكل أكلَ جائع نهِم، ما ترك شيئًا مما قدّم، فلما فرغ وقدّر الطباخُ أنه قد شبع، لوّح بطيفورية[2] فيها خمس سمكات شبابيط[3] كأنها سبائك الفضة، فأنكر أحمد عليه إلّا قدّمها؟ وقال: هاتها، وأعاد أحمدُ الخطابَ، فقال دينار: أليس قد عرَّفتك أن الباقي لكم عندي سبعةُ آلاف ألف؟ قال أحسبك اعترفتَ بأكثر منها، فقال: ما اعترفت إلا بها، فقال: هاتِ خطك بما اعترفت به، فكتب بستة آلاف ألف فقال أحمد: سبحان الله! أليس قد اعترفت بأكثر من هذا؟ قال: ما لكم قِبلي إلا هذا المقدار، فأخذ خطه بها وتقدّم الخادمُ، فأخبر المأمون بما جرى، فلما ورد أحمد ناوَله الخط، فقال: قد عرفنا ما كان من الألف ألف بتناول الغداء، فما بال الألف ألف الأخرى، فكان المأمون بعد ذلك يقول: ما أعلم غداء قام على أحد بألفي ألف إلا غداء دينار، واقتصر على الخط ولم يتعقّبه كَرَمًا ونُبْلًا.

---

(١) كسكرية: كسكر: كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية، قصبتها واسط بين الكوفة والبصرة. «لسان العرب ٤/ ٤٦١».

(٢) طيفوريه: طيفور: اسم لطير صغير، واسم موضع أيضًا.

(٣) شبابيط: الشَّبُوط والشُّبوط: ضرب من السمك دقيق الذنب عريض الوسط صغير الرأس، لين المسّ كأنه البربط. «لسان العرب ٧/ ٣٢٧».

ومنهم أبو العالية، حُكِي أن امرأة حملت فحلفت إن ولدت غلامًا لأُشبِعَنّ أبا العالية خَبِيصًا، فولدت غلامًا، فأطعمته، فأكل سبع جِفان، فقيل له: إنها حلفت أن تشبعك خَبِيصًا، فقال: والله لو علمت لما شبِعت إلى الليل.

ومنهم أبو الحسن بن أبي بكر بن العلّاف[1] الشاعر دخل يومًا على الوزير المُهَلّبي ببغداد، فأنفذ الوزيرُ من أخذ حِماره الذي كان يركبه من غلامه، وأُدخل المطبخ وذُبح وطُبخ لحمُهُ بماءٍ وملح، وقُدّم بين يديه، فأكله كلّه وهو يظن أنه لحم بقر، فلما خرج طلب الحمار، قيل له: قد أكلتَه، وعوّضه الوزير عنه ووصله، فهذا كافٍ في أخبار الأَكَلة.

ذكر ما قيل في الجُبْن والفِرار

ومن أقبح ما هُجِي به الرجل أن يكون جَبَانًا فرّارًا، وقد نهانا الله عزّ وجلّ عن الفرار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ١٥، ١٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٥]. وقالت عائشة رضي الله عنها: إن لله خَلْقًا، قلوبهُم كقلوبِ الطير، كلما خَفَقَتِ الريحُ خفقت معها، فَأُفٍّ للجبناء، أُفٍّ للجبناء.

وقال خالد بن الوليد عند موته: لقيت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي موضعٌ إلا فيه طَعْنَةٌ برُمْح أو ضَرْبَةٌ بسيف أو رَمْيَةٌ بسَهْم، وهأنذا أموت على فراشي حتفَ أنفي، كما يموت العَيْر، فلا نامت أعينُ الجبناء.

وقيل كتب زياد إلى ابن عباس: أنْ صفْ لي الشجاعةَ والجُبْنَ والجودَ والبخلَ فكتب إليه: كتبتَ تسألني عن طبائع ركّبت في الإنسان تركيب الجوارحِ، اعلم أن

(١) ابن العلّاف: هو الحسن بن علي بن أحمد النهرواني، أبو بكر، بن العلّاف، شاعر عاش في بغداد، ونادم بعض الخلفاء، وكفّ بصره، وهو صاحب القصيدة في رثاء الهرّ:

يـا هـرُّ فـارقـتـنـا ولـم تـعـد

قيل: إنّه أراد رثاء عبد الله بن المعتزّ لمّا قتل فخشي من الخليفة المقتدر فجعلها في الهرّ. . «الأعلام ٢/٢٠١».

الشجاع يقاتل عمن لا يعرفه، والجبانَ يَفِرُّ عن عِرْسه، وأن الجواد يُعطي من لا يلزمه، وأن البخيل يُمْسِك عن نفسه؛ وقال شاعر: [من الطويل]

يَفرُّ جبانُ القومِ عن عِرس نفْسِهِ ... ويَحْمِي شُجاعُ القومِ من لا يناسِبُهْ

وقالوا: الجبن غريزةٌ كالشجاعةِ يضعها الله فيمن شاء من خلقه.

قال المتنبي: [من الوافر]

يرى الجبناءُ أن الجبنَ حزمٌ ... وتلك خديعةُ الطبْعِ اللئيمِ

وقالوا: حدّ الجبن الضنُّ بالحياةِ، والحرصُ على النجاة.

وقالت الحكماء في الفراسة: من كانت قَزَعَتُه في رأسه، فذاك الذي يَفِرُّ من أُمِّه وأبيه، وصاحبته وأَخيه، وفصيلته التي تُؤْوِيه.

ويقال: أسرع الناس إلى الفتنة أقلّهم حياءً من الفِرار. وقال هانيء الشيبانيّ[1] لقومه يومَ ذِي قار يحرِّضهم على القتال: يا بني بكر! هالك مَعذُور، خيرٌ من نَاجٍ فَرُور، المنِيَّة، ولا الدَّنيَّة، استقبالُ الموت خيرٌ من استدباره، الثغرُ في ثغورِ النحور، خير منه في الأعجاز والظهور، يا بَني بكر! قاتلوا، فما من المنايا بُدٌّ، الجبان مُبَغَّض حتَّى لأُمّهِ، والشجاع مُحَبَّبٌ حتَّى لعدوّه.

ويقال: الجُبْنُ خيرُ أخلاقِ النساء، وشرُّ أخلاقِ الرجال.

وقال يعْلَى بن مُنَبِّه[2] لقومه حين فروا من عليّ يوم صِفِّين: إلى أين؟ قالوا: ذهب الناس، قال: أُفٍّ لكم! فِرارًا واعتذارًا! قال: ولما قوتل أبو الطيِّب المتنبي ورأى الغلبة عليه فرّ، فقال له غلامه: أترضى أن يُحدَّث بهذا الفِرار عنك؟ وأنت القائل: [من البسيط]

الخيلُ والليلُ والبَيْدَاءُ تعرفُني ... والطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

فكرّ راجعًا، وقاتل حتى قُتِلَ، واستقبح أن يُعَيَّرَ بالفِرار.

---

(١) هانيء الشيباني: ابن قبيصة بن مسعود، أحد الشجعان الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي، كان سيد بني شيبان، قيل: أدرك هانيء الإسلام ومات بالكوفة. «الزركلي ٨/ ٦٨». سبق ذكره ص: ٢٤١.

(٢) يُعلى بن منيَّة: اسمه عبيد ويقال زيد، التميمي الحنظلي، أول من أرخ الكتب، وهو صحابي من الولاة، من سكان مكة كان حليفًا لقريش وأسلم بعد الفتح، وشهد الطائف وحنينًا وتبوك مع النبي ﷺ. «الزركلي ٨/ ٢٠٤». توفي سنة ٣٧ - ٦٥٧ م.

وقال المنصور لبعض الخوارج عليه وقد ظفر به: أخبرني عن أصحابي، أيهم كان أشدّ إقدامًا في المبارزة، قال: لا أعرفُ وجوههم مقبلين وإنما أعرف أقفيتَهم مُدْبِرين، فقل لهم: يُدْبِروا لأعرِّفك أيّهم كان أشدُّ فِرارًا.

وقال ابن الرُّوميّ في سليمان بن عبد الله بن طاهر: [من المنسرح]

قِـرْنُ سـليـمـانَ قـد أَضَـرَّ بـه ... شـوقٌ إلـى وجـهـه سَـيُـدْنِـفُـهُ(١)
لا يـعـرف الـقِـرنُ وجْـهَـه ويـرى ... قـفـاه مـن فَـرْسـخٍ فـيـعـرِفُـهُ

وقال حسّان بن ثابت يُعَيِّر الحارث بن هشام(٢) بفراره يوم بدر: [من الكامل]

إنْ كـنـتِ كـاذبـة الـذي حـدثـتـنـي ... فنجوتِ مَنْجَى الحارث بنِ هِشَام
تـركَ الأحـبَّـةَ لـم يُـقـاتِـل دونـهـم ... ونـجـا بـرأس طِـمِـرَّةٍ ولِـجَـام(٣)
مـلأت بـه الـفَـرْجَـيْـن فـارمدّت بـه ... وثَـوَى أحـبّـتـه بِـشَـرِّ مُـقَـامِ

وقال أبو الفرج الأصفهانيّ: وكان أبو حيَّة النميري(٤) وهو الهَيْثَم بن الربيع بن زُرارة جبانًا بخيلًا كذّابًا، قال ابن قُتَيبة: وكان له سيف يسمّيه: لُعَاب المنية، ليس بينه وبين الخشبة فرق، قال: وكان أجبن الناس؛ قال: فحدّثني جار له، قال: دخل ليلةً إلى بيته كلب فظنه لصًّا، فأشرفتُ عليه، وقد انتصى سيفه، وهو واقف في وسط الدار يقول: أيها المُغترُّ بنا، المجترىء علينا، بئس واللهِ ما اخترتَ لنفسك، خيرٌ قليل، وسيفٌ صقيل، لعابُ المنيةِ الذي سمعت به، مشهورةٌ ضربتُهُ، لا تُخاف نَبْوتُهُ، اخرجْ بالعفوِ عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، إني واللهِ إن أدعُ قيسًا إليك لا تقم لها، وما قَيس؟ تملأُ واللهِ الفضاء خيلًا ورَجْلًا، سبحان الله! ما أكثرها وأطْيَبَها! فبينا هو كذلك، إذا الكلب قد خرج، فقال: الحمدُ لله الذي مسخك كلبًا، وكفانا حَرْبًا.

---

(١) الدّنف: المرض، والقرن: النظير.
(٢) الحارث بن هشام: بن المغيرة المخزومي القرشي، أبو عبد الرحمٰن، صحابي، كان شريفًا في الجاهلية والإسلام، شهد بدرًا مع المشركين، ثم أسلم يوم فتح مكة، مات بالشام في طاعون عمداس سنة ١٨ هـ ـ ٦٣٩ م. «الزركلي ٢/١٥٨».
(٣) الطِّمرّ: الفرس الجواد المستعدّ للعدو.
(٤) أبو حية النميري: الهيثم بن الربيع، من بني نمير بن عامر، شاعر مجيد، فصيح راجز، من أهل البصرة ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مدح خلفاء عصره فيهما، وقيل في وصفه: كان أهوج جبانًا بخيلًا كذابًا. مات في آخر خلافة المنصور سنة ١٨٣ هـ ـ نحو ٨٠٠ م. «الأعلام للزركلي ٨/١٠٣، والشعر والشعراء ص ٥٢٥».

ومن أبلغِ ما قيل في الجبن من الشعر القديم، قول الشاعر: [من الطويل]

ولـو أنـهـا عُـصْـفُـورة لـحسبـتـهـا   مسـوّمةً تـدعـو عُـبـيـدًا وأَزْنَـمـا(١)

ومثله قول عروة بن الورد: [من الطويل]

وأشجعُ قد أدركتُهم فوجدتُهم   يخافون خَطْفَ الطير من كلّ جانبِ

وقال آخر: [من الكامل]

ما زلتَ تَحْسَبُ كلّ شيءٍ بعدهم   خـيـلًا تَـكـرُ عـلـيـهِـمُ ورِجـالَا

وقول أبي تمام: [من البسيط]

مُـوَكَّـلٌ بـيـفـاعِ الأرض يـشـرفُـهُ   من خِفة الخوفِ لا من خِفّة الطَّرَبِ(٢)

وقال ابن الروميّ: [من السّريع]

وفـارسٍ أجـبـنُ مـن صِـفْـرِدٍ   يـحـول أو يـغـور مـن صَـفْـرَهْ(٣)

لـو صـاح فـي الـلـيـل بـه صَـائِحٌ   لــكــانــتِ الأرضُ لَه طَــفْــرَهْ

يـرحـمـه الـرحـمٰـنُ مـن جُـبـنـه   فـيـرزقُ الـجـنـد بـه الـنـصـرَهْ

ومن أخبار الفرَّارين الذين حسّنوا الفِرار على قبْحه

قال صاحب كليلة ودمنة: إن الحازمَ يكرهُ القتالَ ما وجد بُدًّا منه، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال.

وقالوا: من تَوقَّى سَلم، ومن تهوَّر نَدِم.

وقال عبد الله بن المقفَّع: الشجاعةُ مَتْلَفة، وذلك أن المقتول مُقْبلًا أكثر من المقتول مُدْبرًا، فمن أراد السلامةَ فَلْيُؤْثِر الجُبن على الشجاعة.

ولِيمَ بعضُ الجبناء على جبنه، فقال: أوّلُ الحربِ شَكْوى، وأوسطُها نَجْوَى، وآخرها بَلْوى.

(١) عُبيد وأرنم: قبيلتان.

(٢) البيفاع: هو المشرف من الأرض والجبل، وقيل هو التل المشرف، أو هو ما ارتفع من الأرض. والميفع: المكان المشرف. «لسان العرب ٨/ ٤١٤».

(٣) الصِفِرّد: طائر يقال له أبو المليح، وهو طائر جبان ـ أعظم من العصفور، وفي المثل: أجبن من صفرد. «اللسان ٣/ ٢٥٦».

وقال آخر: الحرب مقتَلة للعباد، مذهبة للطارف والتِّلاد.

وقيل لجبان: لِمَ لا تقاتل؟ فقال: عند النطاح يُغْلَبُ الكبشُ الأجمّ[1].

وقالوا: الحياة أفضل من الموت، والفِرار في وقته ظَفَر.

وقالوا: الشجاع ملقًّى، والجبان موقًّى. قال البديع الهمذانيّ:

ما ذاق هَمًّا كالشجاع ولا خلا بِمَسَرَّةٍ كالعاجز المُتَوانِي

وقالوا: الفرارُ في وقته، خيرٌ من الثبات في غير وقته.

وقالوا: السّلم أزكى للمال، وأبقى لأنفُس الرّجال.

وقالوا: الحِمام في الإقدام، والسلامةُ في الإحجام.

وقال المتوكّل لأبي العيناء: إني لأَفرَقُ من لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين، الكريمُ ذو فَرَق وإحجام، واللئيم ذو وَقاحةٍ وإقدام.

وقيل لأعرابيّ: ألا تعرفُ القتالَ؟ فإن الله قد أمرك به، فقال: واللهِ إني لأبغضُ الموت على فراشي في عافية، فكيف أمضى إليه رَكْضًا؛ قال شاعر: [من البسيط]

تمشِي المنايا إلى قوم فأبغضها فكيف أعدو إليها عاريَ الكَفَنِ؟

وقيل ليزيد: إن النبيّ ﷺ قال: «إذا رأيتَ شخصًا بالليل، فكن للإقدام عليه أولى منه عليك» فقال: أخاف أن يكون قد سمع الحديث قبلي، فأقع معه فيما أكره، وإنما الهرَبُ خير.

وسَمِع سليمانُ بن عبد الملك قارئًا يقرأ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ١٦]، فقال: ذلك القليلَ نريد.

ولما فَرّ أُميَّةُ بن عبد الله بن خالد بن أسد يوم مَرْدَاء هَجَر[2] بالبحرين[3] من أبي

(١) الأجم: الذي لا قرن له، وهو مثل يضرب لمن غلبه صاحبه بما أعد له. «فلان يتأجم على فلان: إذا اشتد غضبه عليه وتلهف. وتأجم النهار: إذا اشتد حره». «اللسان ١٢/ ٧».

(٢) مرداء هجر: مرداء هي رمال منبطحة لا نبت فيها، ومنه قيل للغلام أمرد وهو موضع بهجر. فمرداء هجر: رملة دونها لا تنبت شيئًا. «معجم البلدان ٥/ ١٠٣ و١٠٤». وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين، وقيل ناحية البحرين كلها هجر. «معجم البلدان ٥/ ٣٩٣».

(٣) البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، فيها عيون ومياه وبلاد=

فُدَيْك الخارجيّ إلى البصرة، ودخل عليه أهلُها، فلم يدروا كيف يكلِّمونه ولا ما يَلقونَه به من القول، أيهنئونه بالسَّلامة أم يعزّونه بالفِرار، حتى دخل عبد الله بنُ الأهتم، فاستَشْرَف الناسُ له، ثم قالوا: ما عسى أن يقول لمنهزم؟ فسلّم ثم قال: مرحبًا بالصابرِ المخذولِ، الحمدُ لله الذي نظر لنا عليك، ولم ينظرْ لك علينا، فقد تعرضت للشهادة جهدك، ولكن الله علم حاجة أهل الإسلام إليك فأبقاك لهم بخِذْلان من معك لك، فقال أميّة: ما وجدتُ أحدًا أخبرني عن نفسي غيرَك. وقال الحارث بن هشام وأحْسَن في اعتذاره عن الفرار: [من البسيط]

الله يَعْلَمُ ما تركْتُ قتالَهم ... حتى عَلَوْا مُهري بأشقرَ مُزبدِ
وعلمتُ أنّي إن أقاتلْ واحدًا ... أقتَلْ ولا يضرر عدوّي مَشْهَدِي
فصَدفْتُ عنهم والأحِبَّةُ فيهمُ ... طمعًا لهم بعِقَاب يوم مُرْصَدِ

وقال زُفَرُ بن الحارث وقد فرّ يوم مَرْجِ رَاهِطٍ[1] عن رفِيقَيه: [من الطويل]

أَيذْهبُ يومٌ واحدٌ إن أَسَأْتُه ... بصالحِ أيامي وحسنِ بَلائيا؟
فلم تُرَ منّي زَلّةٌ قَبلَ هذهِ ... فِرَاري وتَرْكي صاحبيَّ ورائِيا

وهي أبيات نَذْكُرها إن شاء الله في التاريخ، ونظير ذلك قول عمرو بن معد يكرب من أبيات يخاطب بها أخته رَيْحَانة، وقد فرّ من بني عَبْس: [من الطويل]

أجاعلةٌ أمُّ النُوَيْر خزايةً ... عليَّ فِرَاري إذ لقِيتُ بني عَبْسِ
وليس يُعاب المرءُ من جبنِ يومِه ... إذا عُرفتْ منه الحِمَايةُ بالأمْسِ

وعكسَ هذا البيت عبدُ الله بنُ مطيع بن الأسود العدويّ[2]، وكان قد فرّ يوم

= واسعة، عاصمتها وأعظم مدنها عاصمتها اليمامة، كان يطلق عليها اسم «أوال»، ويبلغ طولها زهاء ثلاثين ميلًا وعرضها اثني عشر ميلًا، اشتهرت البحرين بمصايد اللؤلؤ، دخلت في الإسلام في السنة السادسة أو الثامنة للهجرة. «معجم البلدان ١/ ٣٤٨، وخريدة القصر ـ قسم العراق ٤/ ٦٨٤».

(١) مرج راهط: بنواحي دمشق، من أشهر المروج في الشعر، فإذا قالوه مفردًا فإياه يعنون. «معجم البلدان ٥/ ١٠١».

(٢) عبد الله بن مطيع العدوي: من رجال قريش، جَلدًا وشجاعة، ولد في حياة النبي ﷺ، وكان على قريش يوم الحرة، فلما انهزم أصحابه توارى في المدينة، ثم سكن مكة، واستعمله ابن الزبير على الكوفة، فأخرجه المختار الثقفي منها، فعاد إلى مكة، فلم يزل فيها إلى أن قتل مع ابن الزبير في حصار الحجاج له سنة ٧٣ هـ ـ ٦٩٢ م. «الزركلي ٤/ ١٣٩».

الحَرَّة[١] من جيش مُسلِم بنِ عُقبةَ، فلما حاصر الحجاج عبدَ الله بنَ الزبير بمكةَ جعل يقاتل أهل الشّام ويرْتَجِز: [من الرجز]

أَنـا الـذي فَـرَرتُ يـوم الـحَـرَّهْ ... والـشـيـخُ لا يَـفِـرّ إلا مَـرَّهْ
فـالـيـومَ أَجـزِي كَـرَّةً بِـفَـرَّهْ ... لا بـأسَ بـالـكَـرَّة بـعـد الـفَـرَّهْ

ولم يَزلْ يُقاتِل حتى قُتِل؛ قال الفرّار السّلميّ: [من الكامل]

وفـوارسٍ لَبَّـسْـتُـهـا بـفـوارسٍ ... حتى إذا الْتَبَستْ أَمَلْتُ بها يدي
وتَركْتُهم تقصّ الرِّماحِ ظهورهم ... من بين مَقتولٍ وآخرَ مُسْنَدِ
هل ينفعنِّي أن تقولَ نساؤهم ... وقُتلتُ دون رجالها: لا تَبْعُدِ؟

وقال آخر: [من البسيط]

قامت تُشَجِّعني هِندٌ فقلت لها: ... إنّ الشجاعة مَقْرُون بها العطبُ
لا والذي منع الأبصارَ رؤيتَه ... ما يشْتَهي الموتَ عندي منْ له أَرَبُ
للحرب قومٌ أضلَّ اللهُ سعيَهُمُ ... إذا دَعتْهُم إلى نِيرانِهَا وَثَبُوا

وقيل لجبان في بعض الوقائع: تَقَدَّم، فقال: [من الطويل]

وقالوا: تقدّمْ قلتُ: لستُ بفاعلٍ ... أخاف على فَخّارتي أن تحطَّما
فلو كان لي رأْسان أتلفتُ واحدًا ... ولكنه رأسٌ إذا زال أَعْقَما[٢]
وَأُوتِـمُ أولادًا وأرمـلُ نـسـوةً ... فكيف على هذا تَرَوْن التقدّما؟

ذكر ما قيل في الحمق والجهل

قالوا: الحُمْق قِلَّةُ الإصَابة، وَوَضْعُ الكلام في غير موضعه، وقيل: هو فقْدان ما يُحمد من العاقِل؛ وقيل لعمرَ بنِ هُبَيْرة: ما حدُّ الحمقِ؟ قال: لا حدّ له كالعقل.

---

(١) الحرة: وهي حرة واقم، إحدى حرّتي المدينة وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم، وفي هذه الحرة كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ، وأمير الجيش من قبل يزيد مسلم بن عقبة المري. «معجم البلدان ٢/ ٢٤٩».

(٢) أعقم: العقم: القطع ـ الدنيا عقيم: أي لا ترد على صاحبها خيرًا. وقال رسول الله ﷺ: العقل عقلان، فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم، وأما عقل صاحب الآخرة فمثمر، فالعقيم هٰهنا الذي لا ينفع ولا يرد خيرًا. «لسان العرب ١٢/ ٤١٣».

ورُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الأحمق أبغضُ الخلقِ إلى الله، لأنّه حرمه أعزّ الأشياء عليه وهو العقلُ».

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى، أتَدْرِي لِمَ رزقتُ الأحمقَ؟ قال: لا يا ربّ، قال: ليعلمَ العاقلُ أنّ طَلَبَ الرزقِ ليس بالاجتهاد.

وقال الشعبيّ: إذا أراد الله أن يُزيلَ عن عبدٍ نعمةً، كان أوّل ما يُعدمه عقله.

وقالوا: الحمق داءٌ دواؤه الموتُ. وقد بيّن الله تعالى لحبيبه مَن لم يعقل بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: الآية ٧٠]، قيل: عاقلًا، وبقوله: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: الآية ١٠].

وعَنْ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: أثنى قومٌ على رجل عند النبيّ ﷺ حتى بَالَغُوا، فقال رسول الله ﷺ: «كيف عقلُ الرجل؟» فقالوا: نُخبرُك عن اجتهاده في العِبادَة وأصنافِ الخير وتسألنا عن عقله! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحُمقُه أعظمَ من فُجورِ الفاجرِ، وتَرتفِع العبادُ غدًا في الدرجات على قدر عقولهم».

ومِن كلام لقمانَ لابنه: أنْ تكون أخرسَ عاقلًا خيرٌ من أن تَكونَ نطوقًا جاهلًا، ولكل شيءٍ دليلٌ، ودليلُ العقلِ النقلُ، ودليلُ النقلِ الصمتُ، وكَفَى بك جهلًا أن تَنهى الناس عن شيء وتركبه.

وقال عيسى عليه السلام: عَالجتُ الأكمهَ والأبرصَ فأبرأتُهما، وعالجت الأَحمقَ فأَعْياني؛ قال شاعر: [من البسيط]

لِكـلّ داءٍ دواءٌ يُـسْـتـطـبُّ بـه إلا الـحماقةَ أعيت من يُداويها

وقال آخر: [من الخفيف]

وعـلاجُ الأَبْـدانِ أيـسـرُ خـطـبٍ حيـنَ تـعتلُّ من عـلاجِ الـعقـولِ

وقال آخر: [من السّريع]

الـحـمـقُ داءٌ مـا لـه حـيـلةٌ تُـرْجى كـبعـد الـنجم مِنْ مسِّهِ

وقيل: إذا قيل لكَ إن فقيرًا استغنى، وغنيًّا افْتَقر، وحيًّا مات، أو ميتًا عاش، فصدّق، وإذا بَلَغَك أن أحمقَ استفادَ عقلًا فلا تصدّقْ.

وقالوا: الأحمقُ تتمنّى أمُّه أنَّها به مُثْكلة، ولتمنى زوجُه أنَّها منه أرملة، ويتمنى جارُه منه العزلةَ، ورفيقه منه الوحشةَ، وأخوه منه الفُرْقةَ.

وقال سهل بنُ هارونَ: وجدْتُ مودَّة الجاهلِ، وعداوةَ العاقلِ، أسوةً في الخَطَر، ووجدْت الأُنسَ بالجاهل، والوحشَةَ من العاقل، سِيِّيْن في العيْبِ، ووجدتُ غِشَّ العاقل أقلَّ ضررًا من نصيحةِ الجاهلِ، ووجدتُ ظنَّ العاقل أوقعَ بالصواب من يَقينِ الجاهل، ووجدتُ العاقلَ أحفظَ لما لم يُستَكتَم من الجاهل لما اسْتُكتِمَ.

وقال لقمان لابنه: لا تُعاشرِ الأحمقَ وإنْ كان ذا جَمال، وانظرْ إلى السيف ما أَحسنَ مَنظَرَه وأقْبحَ أَثْرَه!

وقال عليٌّ رضي الله عنه: قَطيعةُ الجاهل تَعدِلُ صِلَة العاقلِ؛ وقال: صديقُ الجاهلِ في تعب.

وقال آخر: لأَنَا لِلْعاقلِ المُدْبِرِ، أَرْجَى منِّي الأَحْمقِ المُقْبِلِ، وقال شاعر: [من المتقارب]

عَـدُوُّكَ ذُو الـعـقـلِ خـيـرٌ مـن الـ ... ـصَّـدِيـقِ لـكَ الـوَامـقِ الأَحْـمَـقِ

والبيت المشهور السائر: [من الكامل]

وَلأَن يُـعَـادِيَ عَـاقِـلًا خَـيْـرٌ لـه ... مِنْ أنْ يكُونَ له صدِيقٌ أحمقُ

وقيل: الحمق يَسلبُ السلامة، ويورث الندامةَ؛ وقد ذمّوا مَنْ له أدبٌ بلا عَقْل.

ووصف أعرابيٌّ رجلًا فقال: هو ذو أدبٍ وافر، وعقل نافرٍ؛ قال شاعر: [من الطويل]

فَـهَـبْـكَ أخـا الآدابِ، أَيّ فَـضـيـلةٍ ... تكونُ لذي علمٍ وليس له عقلُ؟

ومن صفات الأحمقِ وعلاماتِه، قيل: ما أَعْدمكَ من الأحمقِ فلا يعدمُك منه كثرةُ الالتفاتِ وسرعةُ الجوابِ، ومن علاماته الثقةُ بكلِّ أحد.

ويُقال: إنَّ الجاهلَ مُولَعٌ بحلاوةِ العاجل، غير مبالٍ بالعواقِب، ولا مُعْتَبر بالمواعِظ، ليس يُعجبُه إلا ما ضَرَّه، إن أصابَ فَعلَى غيرِ قَصدٍ، وإنْ أخطَأ فهو الذي لا يحسن به غيرُه، لا يَستوحِشُ من الإساءة، ولا يفرحُ بالإحسانِ.

وقالوا: ستُّ خِصال تُعرفُ في الجاهل، الغضبُ منْ غيرِ شيءٍ، والكلامُ في غير نفع، والفِطْنة في غير موضع، ولا يَعرفُ صديقَه مِن عدوّه، وإفشاءُ السرِّ، والثِّقةُ بكلِّ أحد.

وقالوا: غَضَبُ الجاهلِ في قوله، وغضبُ العاقلِ في فعلِه، والعاقلُ إذا تَكلَّم بكلمةٍ أَتبعها مثلًا، والأحمق إذا تكلم بكلمة أتبعها حُلْفًا، الأحمقُ إذا حَدَّث ذَهَل، وإذا تكلم عجل، وإذا حُمَل على القبيحِ فَعَل.

وقال أبو يوسف[١]: إثباتُ الحجةِ على الجاهلِ سهلٌ، ولكن إقراره بها صعبٌ.

وقال وهب بنُ منبه[٢]: كان يقالُ للأحمَق إذا تكلَّم: فضَحَه حمقُهُ، وإذا سكَت فضحه عِيُّه، وإذا عمِل أفسَدَ، وإذا تَرَكَ أضَاع، لا علمُه يُعِينُه، ولا علْمُ غيرِه يَنْفعُه، تَوَدّ أمُّه أنها ثكلته، وتتمنى امرأتُه أنَّها عَدِمتْه، ويتمنى جارُه منه الوحدةَ، وتأخذُ جليسَه منه الوحشة.

ويُستدلُّ على الأحمق بأشياء، قالوا: من طالتْ قامتُه، وصَغُرت هامتُه، وانسدلت لحيته، كان حَقيقًا على من يراه أنْ يُقرِئَه عن عقلِه السلامَ.

ويُقال في التوراة: اللحيةُ مَخرَجُها من الدِّماغ، فمن أفرطَ عليه طولُها قلَّ دِمَاغُه، ومن قلّ دِماغُه قلَّ عقلُه، ومن قلَّ عقلُه فهو أحمقُ.

وقالت أعرابيّة لقاضٍ قضى عليها: صَغُر رَأسُك، فَبعُدَ فهمُك، وانسدلت لحيتُك، فتكَوْسج[٣] عقلُك، وما رأيت مَيْتًا يقضي بين حَيَّيْنِ غيرك.

---

(١) أبو يوسف: (١١٣ ـ ١٨٢ هـ = ٧٣١ ـ ٧٩٨ م) يعقوب بن إبراهيم الكوفي البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه، كان فقيهًا علامة، ولد بالكوفة وتفقه بالحديث والرواية، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، ومات في خلافته ببغداد وهو على القضاء وهو أول من دعي قاضي القضاة، من كتبه الخراج، ومسند أبي حنيفة وأدب القاضي. «الأعلام للزركلي ٨/ ١٩٣».

(٢) وهب بن منبه: (٣٤ ـ ١١٤ هـ = ٦٥٤ ـ ٧٣٢ م) ـ أبو عبد الله، مؤرخ، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات، يعد من التابعين بأصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأنه من حمير، ولد ومات بصنعاء، وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. «الزركلي ٨/ ١٢٥».

(٣) تكوسج: الكوسج: الأثط، أو الذي لا شعر على عارضيه، وقال الأصمعي: هو الناقص الأسنان. «لسان العرب ٢/ ٣٥٢».

وقال مَسْلَمة بنُ عبدِ الملكِ[١] لجلسائه: يُعرفُ حمقُ الرجلِ في أربع، طولُ لحيتِهِ، وبشاعةُ كنيتِه، وإفراطُ شَهوتِه، ونقشُ خاتِمه، فدخلَ عليه رجلٌ طويلُ اللحية، فقال: أمَّا هذا فقد أتاكم بواحدةٍ، فانظروا أينَ هوَ من الثَّلاثِ؟ فقِيل له: ما كُنيتُك؟ فقال: أبو الياقوت، فقيل له: ما نُقش خاتَمِك؟ فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النّمل: الآية ٢٠] قيل: فأيُّ الطعام أحبُّ إليكَ؟ قال: الْجَلَنْجَبِين، فقال مَسْلَمة: فيه ما بعدَ كنيتِه، معَ طول لحيتِه، مع نَقش خاتِمه، شكٌّ لِمُعْتبِر.

قال الشّعبيّ: خطَب الحجاجُ يومَ جمعةٍ فأطال، فقام إليه أعرابيٌّ، فقال له: إن الوقت لا ينتظرك وإنَّ الربَّ لا يَعْذرُكَ، فأمر به فحُبسَ، فأتاه أهلهُ يشفعون فيه وقالوا: إنه مجنونٌ، فقال الحجاجُ: إن أَقرَّ بالجنونِ خَليتُ سبيلَه، فأتوه وسألوه ذلك، فقال: لا واللهِ، لا أقولُ إن الله ابتلاني وقد عافاني، فبَلغ كلامُه الحجاجَ، فعظُم في نفسه وأطلَقَه.

وقال الأصمَعِيُّ: قلت لغلامٍ من أبناء العربِ: أيسرُّك أن يكون لك مائةُ ألفٍ وأنت أحمقُ؟ قال: لا واللهِ، قلتُ: ولِمَ؟ قال: أخافُ أن يجْنِيَ عليّ حُمقى جِنَايةً، فَتذهب منّي، ويبقى حُمقي.

والعربُ تَضرِبُ المثَلَ في الحمُقِ بعِجْل بن لُجَيْم، ويزعمون أنّه قيل له: إنَّ لكل فرسٍ جوادٍ اسمًا، وإنَّ فَرسَك هذا سابقٌ فسمِّه، فَفَقأ عينَه وَقال: سميتُه الأعورَ، وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

رَمتْنِي بَنُو عجلٍ بِداءِ أبيهِمُ ... وهل أحدٌ في الناس أحمقُ من عجلِ؟
ألَيس أبوهم عَارَ عينَ جوادِه؟ ... فسارتْ به الأمثالُ في الناس بالجهلِ![٢]

ويضربون المَثَل في الحمق بِهَبَنَّقَةَ القَيْسيّ، وهو يَزيدُ بنُ ثَرْوَان[٣]، ويكنى أبا

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أمير قائد من أبطال عصره، يلقب بالجرادة الصفراء، له فتوحات مشهورة، بنى مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦ هـ وولاه أخوه يزيد إمرة العراقين ثم أرمينية، وغزا الترك والسند سنة ١٠٩ هـ، ومات بالشام سنة ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م. «الزركلي ٧/ ٢٢٤».

(٢) عارَهُ: صيّره أعور، والعور: ذهاب حِس إحدى العينين، وعار عينه يعورها: إذا عورها. «لسان العرب ٤/ ٦١٣».

(٣) يزيد بن ثروان: القيسي، أبو ثروان المعروف بهبنقة، مضرب المثل في الغفلة، يُقال: أحمق من هبنقة، وهو جاهلي، كان يجعل في عنقه قلادة من ودع وخزف وعظم، وسئل عنها فقال: لأعرف بها نفسي. «الأعلام للزركلي ٨/ ١٨٠».

نافع، حُكي أنه شَرد له بعيرٌ، فقال: من جاء به فله بَعيران، فَقيلَ له: أتجعلُ في بعير بَعيريْن؟ فقال: إنكم لا تَعرفون فرحة الوجدان.

وقد رضِي قومٌ بالجهل فقالوا: ضعفُ العقلِ أمانٌ من الغمِّ؛ وقالوا: ما سُرَّ عاقل قَطّ؛ قال أبو الطيّب المتنبي: [من الكامل]

ذو العقلِ يَشقَى في النعيم بعقلِه   وأخو الجَهالَةِ في الشقاوةِ ينعَمُ

وقال حكيمٌ: ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ لِلعقلاءِ؛ وقال المغيرةُ بنُ شعبةَ[1]: ما العيشُ إلّا في إلقاء الحِشمةِ. وقالَ بكر بن المعتَمر: إذا كان العقلُ سبعةَ أجزاءٍ احتاجَ إلى جزء من جَهلٍ ليقدمَ على الأُمورِ، إنَّ العاقل أَبدا مُتوانٍ مُترقبٌ متوقّف متخوّف؛ قال النابغةُ الجعديّ: [من الطويل]

ولا خَيرَ في حِلْمٍ إذا لَمْ تكن لَهُ   بوادرُ تَحمي صفوَه أن يُكدَّرا

وقال آخر: [من البسيط]

مَن راقبَ الناسَ لم يَظفرْ بحاجَتِه   وفاز بالطيّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه آخر فقال: [من مخلع البسيط]

مَن راقبَ الناسَ ماتَ غَمًّا   وفاز باللذَّةِ الجَسورُ

وقالوا: الجاهلُ يَنالُ أَغراضَه، ويَظفَر بآرابه، ويطيعُ قلبَه، ويَجري في عِنان هواه، وهو بريءٌ من اللومِ، سليمٌ من العيبِ، مغفورُ الزَّلّات.

وقالوا: الجاهلُ رَخِيُّ الذرعِ، خالي البالِ، عازبُ الهمّ، حسنُ الظنِّ، لا يَخطُرُ خوفُ الموتِ بفكرِه، ولا يَجري أَلمُ الإشفاقِ على ذكره.

وقالوا: الجهلُ مَطِيَّةُ المِرَاحِ والمسرةِ، ومسرحُ المِزَاحِ والفُكاهةِ، وحليفُ الهوى والتصابي، وصاحبُه في ذِمَام من عهدة اللوم والعَتْب، وأمانٍ من قوارِص الذمّ والسبّ؛ قال بعضُ الشعراء: [مَن الخفيف]

ورأيتُ الهمومَ في صحّة العقـ   ـلِ فَداويتُها بإمراضِ عَقْلي

(١) المغيرة بن شعبة: (٢٠ ق.هـ - ٥٠ هـ = ٦٠٣ - ٦٧٠ م) أبو عبد الله، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، صحابي، يُقال له مغيرة الرأي، ولد في الطائف بالحجاز، فلما ظهر الإسلام تردد في قبوله إلى أن كانت سنة ٥ هـ، فأسلم، وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية ونهاوند وهمدان وغيرها، ولاه معاوية بن أبي سفيان الكوفة أواخر حياته وظل فيها إلى أن مات. «الأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٧».

وقالوا: لو لم يكنْ من فَضيلةِ الجهلِ، غيرُ الإقدام، وورودِ الحِمام، إذ هما من الشجاعةِ والبسالة، وسبب تحصيل المهابة والجلالةِ، لكفاه؛ قال أبو هلالِ العسكريّ: سألني بعضُ الأدباءِ أيّ الشعراء أشَدُّ حمقًا، قلت الذي يقول: [من الطويل]

أتيـهُ عـلى إنْـسِ الـبـلاد وجِنِّـهـا ... ولَو لم أجدْ خلقًا لَتِهْتُ على نفسي
أتيـه فلا أدري من التِّـيهِ مَنْ أنا ... سوى ما يقول الناسُ فيَّ وفي جنسي
فإنْ صدّقوا أنّي من الإنس مثلُهم ... فما فيّ عيبٌ غيرَ أنّي من الإنْسِ

ذكر ما قيل في الكذب

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ [الجاثية: الآية ٧]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٠٥﴾ [النحل: الآية ١٠٥]. وقال في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكَذِبَ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجُور، والفجور يهدي إلى النَّار». وقال ﷺ: «الكَذِبُ مُجانِبُ الإيمَانِ». وقال ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ، وإنْ صلّى وصامَ وزعَم أنه مسلمٌ، منْ إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا أؤتُمِنَ خان». وقال ﷺ: «لا يجوز الكذبُ في جدّ ولا هَزْل» وقال: «لا يكونُ المؤمنُ كذّابًا».

وقالت الحكماء: ليس لكاذبٍ مُروءةٌ.

وقالوا: مَن عُرِفَ بالكذِبِ لم يَحسنْ صِدقُه.

وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: خُلْفُ الوعد ثُلُثُ النفاق.

وقال بعض الحكماء: الصدقُ مُنجيك وإنْ خِفتَه، والكذبُ مُرديك وإن أَمنتَه. قال عمرُو بنُ العلاءِ القارىء: سادَ عُتبةُ بن ربيعة[1] وكان مملِقًا، وساد أبو جهل وكان حَدَثًا، وساد أبو سفيان وكان بَخَّالًا، وساد عامر بن الطّفَيل وكان عاهرًا، وساد كليب بن وائل وكان ظلومًا، وساد عُيَينة وكان مُحَمَّقًا، ولم يَسُد قطُّ كذاب، فصلح السؤْدُدُ مع الفقر والحداثة والبخل والعهر والظلم والحمق، ولم يصلح مع الكَذِب، لأن الكذِبَ يعمّ الأخلاقَ كلَّها بالفساد.

---

(١) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، قتل في معركة بدر سنة ٢ هـ. «الأعلام ٤/ ٢٠٠».

وقال يحيىٰ بنُ خالد: رأيت شِرِّيبَ خمر نَزَع(١)، ولصًّا أقلَع، وصاحبَ فواحشَ رجع، ولم أَرَ كذَّابًا رجع.

ويقال: الكذبُ مِفتاح كُلّ كبيرة، والخمر جِمَاعُ كلّ شَرٍّ.

وقيل: لا تَأمننَّ مَنْ يكذِبُ لك أَنْ يَكذبَ عليك.

وقيل: الكَذِبُ والنفاقُ والحسدُ أثافِيّ الذّلّ.

وقال ابنُ عباس: حقيقٌ على الله أن لا يرفعَ لِلكاذبِ درجةً، ولا يُثَبِّتَ له حجةً. وقال سليمانُ بن سَعدٍ: لو صحِبني رجلٌ وقال: لا تشترِطْ عليَّ إلا شرطًا واحدًا لقلت: لا تكذِبني.

وقال أبو حيان التَّوحيديّ(٢): الكذب شِعارٌ خَلَق، ومَوْردٌ رَنْق(٣)، وأدبٌ سيِّءٌ، وعادةٌ فاحشةٌ، وقلّ مَن استرسلَ فيه إلا أَلِفَه، وقلّ من ألفه إلا أتلفَه.

وقال غيرُه: الكَذِبُ أوضعُ الرذائلِ خطةً، وأجمعُها للمذمّة والمحطّة، وأكبرُها ذُلّا في الدنيا، وأكثرُها خزيًا في الآخرة، وهو من أَعظم علاماتِ النفاقِ، وأقوى الدلائلِ على دناءة الأخلاق والأعراقِ، لا يُؤتَمن حاملُه على حال، ولا يُصدَّق إذا قال.

وقيل: لكل شيءٍ آفةٌ، والكذب آفةُ النطقِ.

وقال بعضُ الكرماء: لو لم أَدَعِ الكَذِبَ تَأثُمًا، لتركته تكرُّمًا.

وقال أرسطاطاليس: فُضّلَ الناطقُ على الأخرسِ بالنطق، وزَين النطقَ الصدقُ، فإذا كانَ الناطقُ كاذبًا، فالأخرس خيرٌ منه.

وقال بعض الحكماء لولده: يا بُنَيَّ إياك والكذبَ، فإنه يُزْرِي بقائلِه، وإنْ كان شريفًا في أصله، ويُذِلُّه وإن كان عزيزًا في أهله.

---

(١) نزع: كفّ.

(٢) أبو حيان التوحيدي: علي بن محمد بن العباس، شب في بغداد ثم انتقل إلى شيراز، فالري، صحب ابن العميد والصاحب بن عباد، فلم يحمد ولاءهما، ووشي به إلى الوزير المهلبي فطلبه، فاستتر منه ومات في استتاره وهو كان ولد في شيراز أو نيسابور، فيلسوف متصوف نعته ياقوت بشيخ الصوفية وفيسلوف الأدباء، له كتب كثيرة منها: المقابسات والبصائر والذخائر والإشارات الإلٰهية والإمتاع والمؤانسة، ولد نحو سنة ٣١٠ هـ ـ ٩٢٢ م. وتوفي نحو ٤١٤ هـ. «معجم الأدباء ١٥/ ٥ ـ ١٩».

(٣) رنق: الرنق: تراب في الماء من القذى ونحوه، ماء رنق: كدِرٌ. «لسان العرب ١٠/ ١٢٧».

وقال الأَحنفُ بن قيس(١): اثنانِ لا يجتمعان: الكذبُ والمروءَةُ.

وقال بزُرجُمهِر: الكاذبُ والميتُ سواء، لأن فضيلة النطقِ الصدقُ، فإذا لم يُوثق بكلامهِ بطُلَت حياته.

وقال معاويةُ يومًا للأحْنف: أتكذِبُ؟ فقال: واللهِ ما كَذِبتُ مُذ علمتُ أن الكذبَ شَيْنٌ.

وقيل: لا يجوزُ للرجل أن يكذِب لصلاح نفسه، فما عجز الصدقُ عن إصلاحه كان الكذبُ أولى بفساده. قال بعض الشعراء: [من البسيط]

ما أحسنَ الصدقَ والمغبوطُ قائلُه وأقبحَ الكِذْبَ عند اللهِ والناسِ

وقالوا: احذرْ مصاحبةَ الكذّاب، فإن اضطُرِرتَ إليها فلا تصدّقه ولا تعلمْهُ أنك كذبتَه، فينتقل عن مودّته، ولا ينتقل عن كذِبه.

وقال هُرمس: اجتنب مصاحبةَ الكذاب، فإنك لستَ منه على شيء يُتَحصَّل، وإنما أنت معه على مثل السَّرَاب يلمَعُ ولا ينفَع.

وقيل: الكذّاب شرٌّ من النَّمّام، فإن الكذّاب يختلقُ عليك، والنَّمامَ ينقلُ عنك. قال شاعر: [من البسيط]

إنّ النَّمُومَ أُغَطِّي دونه خَبَرِي وليس لي حيلةٌ في مفْتَرِي الكَذِبِ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

لي حيلةٌ فيمن يَنُمْ وليس في الكذّاب حِيلَهْ
من كان يخلُق ما يقو لُ فحيلتي فيه قليلَهْ

ووصف أعرابيّ كذابًا فقال: كَذبهُ مثل عُطاسه، لا يُمكِنه ردّه.

وقال بعض الأعراب: عجِبتُ من الكذّاب المُشِيدِ بكَذِبه، وإنما هو يدلُّ الناسَ على عيبه، ويتعرّضُ للعِقَاب من ربّه، فالآثامُ له عادة، والأخبار عنه متضادّة، إن قال حقًّا لم يُصَدَّقْ، وإن أراد خيرًا لم يُوفَّقْ، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدّالُّ على

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصين المرّي، أبو بحر، سيّد تميم، وأحد العظماء الدّهاة الفصحاء الشجعان، يضرب به المثل في الحلم، شهد صفّين مع عليّ عليه السلام مات سنة ٧٢ هـ. «الأعلام ١/ ٢٧٦».

فضيحتها بمقاله، فما صحّ من صدقه نُسِب إلى غيره، وما صحّ من كذب غيره نُسِب إليه.

ويقال: الكذبُ جِمَاعُ النفاقِ، وعِمَادُ مساوىءِ الأخلاقِ، عارٌ لازمٌ، وذلّ دائمٌ، يخيفُ صاحبه نفسَه وهو آمن، ويكشف سِتْر الحَسَب عن لُؤمه الكامن، وقال بعض الشعراء: [من البسيط]

لا يكذبُ المرءُ إلا من مَهَانتِهِ ... أو عادةِ السوء أو من قِلَّة الوَرَعِ

وقال الأصمَعِيّ: قيل لرجلٍ معروف بالكذب، هل صدقتَ؟ قال: أخاف أن أقول: «لا» فأصدق. وآفةُ الكذبِ النسيانُ. قال شاعر: [من الطويل]

ومن آفةِ الكذّابِ نسيانُ كِذْبِهِ ... وتلقاه ذَا دَهْيٍ إذا كان كاذبا

وقال عليّ بن اللّحام شاعر اليتيمة: [من مجزوء الرّمل]

تكذِب الكِذْبةَ يومًا ... ثم تنساها قريبا
كن ذَكُورًا يا أبا يحـ ... ـيىٰ إذا كنت كَذُوبا

وقال أبو تمّام: [من البسيط]

يا أكثرَ الناس وعدًا حَشْوُه خلفٌ ... وأكثر الناسِ قولًا حَشْوُه كَذبُ

وقال أحمدُ بنُ محمّد بن عبد ربّه: [من البسيط]

صحيةٌ أُفْنِيتْ «لَيْتٌ» بها و«عَسَى» ... عُنوانُها راحةُ الراجي إذا يَئِسَا
وَعْدٌ له هاجِسٌ في القلب قد بَرِمتْ ... أحشاءُ صدرِي به من طول ما هَجَسا
يراعةٌ غَرَّنِي منها وَمِيضُ سنًا ... حتى مددت إليها الكفَّ مُقْتَبِسا
فصادفَتْ حَجَرًا لو كنتَ تضرِبُه ... من لُؤمه بِعصًا موسى لمَا انْجَبَسَا

وقال آخر: [من الكامل]

وتقولُ لي قولًا أظنُّك صادقًا ... فأجِيءُ من طمعٍ إليك وأذهبُ
فإذا اجتمعتُ أنا وأنتَ بمجلسٍ ... قالوا مُسَيْلِمةٌ وهذا أشْعَبُ[1]

---

(١) أشعب: أشعب بن جبير، المعروف بالطامع، ويُقال له ابن أم حميدة، ويكنىٰ أبا العلاء وأبا القاسم، ظريف من أهل المدينة، كان مولى لعبد الله بن الزبير، تأدب وروى الحديث وكان يجيد الغناء، يضرب المثل بطمعه، عاش عمرًا طويلًا، أدرك زمن عثمان وسكن المدينة في=

ذكر ما قيل في الغدر والخيانة

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: الآية ٢٥].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أمَّنَ رجلًا ثم قتله وجبت له النار وإن كان المقتولُ كافرًا» وعنه ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين رُفِع لكل غادِرٍ لِواءٌ وقيل: هذه غَدْرة فلان».

وقالوا: مَن نقضَ عهده، ومنع رِفْده، فلا خيرَ عنده.

وقالوا: الغالبُ بالغدر مغلوبٌ، والناكثُ للعهد ممقوتٌ مخذولٌ.

وقالوا: من علامات النّفاق، نقضُ العهدِ والميثاق.

وقالوا: لا عذرَ في الغدر، والعذرُ يصلح في كل المواطن، ولا عذرَ لغادرٍ ولا خائن.

وفي بعض الكتب المنزّلة: إن مما تُعجَّل عقوبتُهُ من الذنوبِ ولا يؤخرُ: الإحسان يُكْفَر، والذّمة تُخْفَر. قال شاعر: [من الكامل]

أَخْلِقْ بمن رَضِيَ الخيانةَ شِيمةً ... أن لا يُرَى إلا صريعَ حوادثِ

ما زالتِ الأرزاءُ تُلحِقُ بؤسَها ... أبدًا بغادرِ ذمَّةٍ أو ناكثِ

وقالوا: الغَدْر ضامن العَثْرة، قاطع ليد النُّصرة.

ويقال: مَن تعدّى على جاره، دَلَّ على لُؤْمِ نِجارِه.

وذكر أن عيسى صلوات الله عليه مرَّ برجل وهو يُطارِد حيَّةً وهي تقول له: والله لئن لم تذهبْ عنّي، لأنفخَنَّ عليك نفخةً أُقَطِّعك بها قِطَعًا، فمضى عيسى عليه السلام في شأنه، ثم عاد فرأى الحية في جُونَة الرجلِ محبوسة، فقال لها: ويحك! أين ما كنت تقولين؟ قالت: يا روح الله، إنه حلف لي وغَدَر، وإنّ سُمَّ غدره أَقْتَلُ له من سُمِّي.

= أيامه، وقدم بغداد في أيام المنصور العباسي، وتوفي بالمدينة سنة ١٥٤ هـ ـ ٧٧١ م. «الزركلي ٣٣٢/١».

ذكر أخبار أهل الغَدْر وغَدرَاتهم المشهورة

أعرف الناس في الغدر آل الأشعث بن قيس بن معديكرب، وقد عدّت لهم غَدَرَات، فمنها: غدر قيس بن معديكرب بمراد، وكان بينهم عهد أن لا يغزوهم إلى انقضاء شهر رجب، فوافاهم قبل الأَمَد بِكِنْدَة، وجعل يحمل عليهم ويقول: [من الرّجز]

أقسمت لا أَنْزلُ حتَّى يُهْزَمُوا أنا ابن معد يكربٍ فاستسلِمُوا

* فارسُ هَيْجا ورئيسٌ مِضْدَمُ *

فَقُتِل قيس بن معديكرب وارتد الأشعث عن الإسلام. وغدر الأشعث ببني الحارث بن كعب، وكان قد غزاهم فأَسَرُوه، ففدى نفسه بمائتي بعير، فأعطاهم مائة وبقي عليه مائة، فلم يُؤَدّها، وجاء الإسلام فهدَم ما كان في الجاهليّة.

وغدر محمد بن الأشعث بن قيس بمسلم بن عَقِيل بن أبي طالب، وغدر أيضًا بأهل طَبَرَسْتَان[١] وكان عُبَيد الله بن زياد ولّاه إياها، فصالح أهلها على أن لا يدخلها ورحل عنهم، ثم عاد إليهم غادرًا، فأخذوا عليه الشِّعاب، وقتلوا ابنه أبا بكر.

وغدر عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بالحجاج لما ولّاه خُرَاسَان، وخرج عليه وادعى الخلافة، وكان بينهم من الوقائع ما نذكره في التاريخ في أخبار الحجاج إن شاء الله تعالى، وكانت الدائرةُ على عبد الرحمٰن، وكلّهم ورِثُوا الغدر عن معديكرب، فإنه غدرُ مَهْرَة، وكان بينه وبينهم عهدٌ إلى أجل، فغزاهم ناقضًا لعهدهم، فقتلوه وبَقَرُوا بطنه وملؤوه بالحصا.

وغدرت ابنة الضَّيْزَن بن معاوية بأبيها صاحب الحصن ودلّت سابور على طريق فتحه، ففتحه وقتل أباها وتزوّجها، ثم قتلها. وقد ذكرنا ذلك في الجزء الأوّل من هذا الكتاب في المباني. ومن ذلك ما فعله النعمان بِسِنمَّار[٢]، وقد ذكرناه أيضًا في خبر بناء الخَوَرْنَق.

---

(١) طبرستان: معناها بالفارسية «ناحية الطير» طَبَر: الطير، واستان: الموضع أو الناحية، وهي بلدان واسعة كثيرة وهي المعروفة بمازندران، وهي بين الري وقومُس وبلاد الديلم والجبل. «معجم البلدان ٤/ ١٣».

(٢) سنمار: بناء رومي الأصل قال أصحاب الأخبار إنه بنى للنعمان بن امرىء القيس قصر الخورنق قرب الكوفة، ولما أعلم سنمار النعمان أن هناك آجرة في القصر إذا سحبت منه تهاوى، رماه من أعلى القصر لئلا يغدر به في يوم من الأيام، وضربت العرب به المثل «جزاه جزاء سنمار». =

وممن اشتُهر بالغدر عمرو بن جُرموز: غدر بالزّبير بن العوّام[١]، وقتله بوادي السباع، ونذكر ذلك إن شاء الله تعالى في حرب الجمل.

ومن الغدر الشنيع ما فعله عَضَل والقَارَة، رُوِيَ أنه قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد رهط من عَضَل والقارة، فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلامًا وخيرًا فابعثْ معنا نفرًا من أصحابك يفقّهوننا في الدِّين، ويُقرئوننا القرآن، ويعلّموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم رسول الله ﷺ سبعةَ نفرٍ من أصحابه، وهم مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَوِيّ، وخالد بن البُكَيْر حليف بني عدِيّ بن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبي الأَقْلَح أخو بني عمرو بن عوف، وخُبَيب بن عدِيّ أخو بني جَحْجَبِي بن كُلْفة بن عمرو بن عَوْف، وزيد بن الدَّثِنَة أخو بني بَيَاضَة بن عامر، وعبد الله بن طارق، ومُعَتِّب بن عُبَيد أخو عبد الله لأمّه، وأَمَّر عليهم مَرْثَد بن أبي مرثد، وقيل أمَّر عليهم عاصمًا، فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع: ـ ماء لهذيل ـ غدروا بهم واستصرخوا عليهم هديلًا، فلم يرعِ القوم وهم في رحالهم إلّا الرجال في أيديهم السيوف، فأخذوا أسيافَهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا والله ما نُريد قتْلَكم، ولكنا نريد أن نُصيبَ بكم شيئًا من أهل مكةَ، فأما مرثدُ وخالدُ وعاصمُ ومُعتِّب فقالوا: والله ما نقبلُ من مشركٍ عهدًا ولا عَقْدًا، فقاتَلوا حتى قُتلوا، وأما زيد وخُبَيْب وعبد الله فلانوا ورغبوا في الحياة، وأعطوا بأيديهم، فأسروهم وخرجوا بهم إلى مكة ليَبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بمَرّ الظَّهْران، انتزع عبد الله بن طارق يده من القِرَان[٢]، ثم أخَذ سيفه واستأخَر عن القوم، فرَمَوْهُ بالحجارة حتى قتَلوه، وقَدِمُوا بخبيب وزيد إلى مكة فباعوهُما فابتاع خبيبًا حُجْر بنُ أبي إهاب التميميّ حليف بني نوفل لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليَقْتله بالحارث، وأما زيد بن الدَّثِنَة فابتاعه صَفْوانُ بنَ أميّة ليقتله بأمية بن خَلَف، ورُوِيَ أن خُبيبًا لما حصل عند بنات الحارث استعارَ من إحداهن موسى يستحدّ بها فما راع المرأةَ إلا صبيّ لها يَدرُج، وخُبيب قد أجلس الصبيُّ على فَخِذه، والموسى في يده، فصاحت المرأة، فقال خُبيب: أتَحسَبِين أني أقتله؟ إن الغدْر ليس من شأننا، فقالت المرأة: ما رأيت بعدُ أسيرًا قطّ

= «الأعلام للزركلي ٣/ ١٤٢».

(١) الزبير بن عوام: (٢٨ ق.هـ ـ ٣٦ هـ = ٥٩٤ ـ ٦٥٦م) القرشي أبو عبد الله، الصحابي الشجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو ابن عمة النبي ﷺ أسلم وله ١٢ سنة، وشهد بدرًا وأحدًا وغيرهما، كان موسرًا جدًّا، قتل يوم الجمل، له ٣٨ حديثًا. «الأعلام للزركلي ٣/ ٤٣».

(٢) القران: النبل المستوية من عمل رجل واحد، ويقال للقوم إذا تناضلوا، اذكروا القران، أي والوا بين سهمين سهمين. «لسان العرب ١٣/ ٣٣٩».

خيرًا من خُبيب، لقد رأيتُه وما بمكّة من ثمرة، وإن في يده قطْفًا من عنب يأكله، إن كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا، ولما خُرج بخُبيب من الحرم ليقتلوه، قال: ذَروني أصلّي ركعَتين، ثم قال: لولا أن يقال: جزع لزِدْت، وما أبالي على أي شِقّيَّ كان مصرعي، وهذه القصَّةُ نذكرها إن شاء الله تعالى بما هو أبسطُ من هذا في السّيرة النبويّة في سيرة مَرْثَد إلى الرجيع.

قيل: أغار خَيْثَمَة بن مالك الجُعْفِيّ على حيّ من بني القَيْن فاستاقَ منهم إبلًا فلحِقوه ليَستَنقذوها منه، فلم يطمَعوا فيه، ثم ذكَر يدًا كانت لبعضهم عنده، فَخلّى عما كان في يده، وولّى منصَرفًا، فنادوه وقالوا: إن المفازة أمامَك، ولا مَاءَ معك، وقد فعلت جميلًا، فأنزلْ ولك الذِّمام والحِبَاء[1] فنزَل فلما اطمأنّ وسكنَ، واستمكَنوا منه غدَروا به فقتلوه، ففي ذلك تقول عَمْرة ابنتُه: [من الطويل]

غدَرتم بمنْ لو كان ساعةَ غدركم ... بكفّيه مفتوقُ الغرارين قاضبُ[2]
لذادَكمُ عنه بضربٍ كأنّه ... سهام المنايا كلّهن صوائِبُ

وتَلاحى بنو مَقْرون بن عمرو بن محارب، وبنو جَهْم بن مُرّة بن محارب، على ماءٍ لهم فغلبتهم بنو مقرون فظَهرت عليهم، وكان في بني جَهْم شيخٌ له تجرِبة وسِنّ، فلما رأى ظهورهم، قال: يا بني مقرون، نحن بنو أب واحد، فلِم نتَفاني؟ هلمّوا إلى الصلح، ولكم عهْدُ الله تعالى وميثاقُه وذمّة آبائنا، أن لا نهيجكم أبدًا ولا نزاحكمم في هذا الماء، فأجابتهم بنو مقرون إلى ذلك، فلما اطمأنوا ووضعوا السلاح عدَا عليهم بنو جهم فنالوا منهم منالًا عظيمًا، وقتلوا جماعة من أشرافهم، ففي ذلك يقول أبو ظَفَر الحارثيّ: [من البسيط]

هلّا غدَرتم بمقرونٍ وأسرتِه ... والبِيضُ مُصْلَتةٌ والحرب تَستعرُ
لما اطمأنوا وقد شاموا في سيوفهمُ ... ثُرْتم إليهم وعُرُّ الغدر مشتهرُ[3]

---

(١) الحِباء: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به، والحِباء: العطاء. وحباه كذا: إذا أعطاه. «لسان العرب ١٤/ ١٦٢».

(٢) الغرار: حد الرمح والسيف والسهم، والغراران: شفرتا السيف وكل شيء له حد، فمدُّه غراره والجمع أغرة. «لسان العرب ٥/ ١٦». قاضب: القضب: القطع، والقاضب: القاطع. «لسان العرب ١/ ٦٧٨».

(٣) شام: انشام الرجل: إذا صار منظورًا إليه، وشام الشيء: أدخله، وشام السيف، إذا سله وأغمده. «لسان العرب ١٢/ ٣٣٠».

غـدرتـمـوهُـم بـأَيـمـان مـؤكـدةٍ والوِرْدُ من بعده للغادر الصَّدَرُ(١)

هذا ما قيل في الغدر.

وأما الخيانة، فقد نهى الله تعالى عنها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٧].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا إيمانَ لِمن لا أمانةَ له ولا دينَ لمن لا عهدَ له».

وقيل: مَن ضيّع الأمانةَ، ورَضِيَ بالخيانة، فقد بَرِىء من الدِّيانة.

وقال حكيم: لو علم مُضيّعُ الأمانَة ما في النّكث والخيانَة، لقصَّر عنهما عِنَانَه.

وقالوا: من خان مانَ(٢)، ومن مان هان، وتبرّأ من الإحسان.

قيل دخل شَهْر بنُ حَوْشَب(٣) وهو من جِلّة القرّاء وأصحاب الحديث على معاوية، وبين يديه خرائطُ فيها مال، قد جمعت لتوضع في بيت المال، فقعَد على خريطة منها، وأخذها، ومعاوية ينظرُ إليه، فلما رُفعت الخرائط، فُقِدَ من عددها خريطة، فأعلم الخازنُ بذلك معاويةَ، فقال: هي محسوبة لك فلا تسألْ عن آخذها، ففيه يقول بعض الشعراء: [من الطويل]

لـقـد بـاع شَـهْـرٌ دِيـنـه بـخَـرِيـطـةٍ فَمن يأمَن القرّاءَ بعدك يا شهرُ؟

وقال المنصور لعامل بلغه عنه خيانتُه: يا عدوَّ الله، وعدوَّ أمير المؤمنين، وعدوّ المسلمين، أكلتَ مالَ الله، وخُنتَ خليفةَ الله، فقال: يا أمير المؤمنين، نحن عيالُ الله، وأنت خليفةُ الله، والمالُ مالُ الله، فمن أين نأكل إذًا، فضحك وأطلقه، وأمر أن لا يُوَلّى عملًا بعدها.

---

(١) الوِرد: هنا: هو ورود القوم، والموردة الطريق من الماء. «لسان العرب ٣/ ٤٥٦».

(٢) مان: المين: الكذب، ومان الرجل أهله: كفاهم وأنفق عليهم وعيالهم. «لسان العرب ١٣/ ٤٢٥».

(٣) شهر بن حوشب: (٢٠ ـ ١٠٠ هـ = ٦٤١ ـ ٧١٨ م) شهر بن حوشب الأشعري، فقيه قارىء، من رجال الحديث، شامي الأصل، سكن العراق وكان يتزيا بزي الجند، ولي بيت المال مدة، وهو متروك الحديث. «الأعلام للزركلي ٣/ ١٧٨».

وسرق رجل في مجلس أَنُو شَرْوان جامًا[١] من ذهب وهو يراه، فتفقّده الشرابيّ، فقال: والله لا يخرج أحد حتى يُفتَّش، فقال له أنو شَرْوان: لا تتعرّضْ لأحدٍ، فقد أخذه من لا يردّه، ورآه من لا يَنُمّ عليه.

وحُكي أنّ بعض التُّجار أودع عند قاضٍ بمَعَرّة النعمان[٢] وديعةً، وغاب مدّةً فلما رجع، طالب بها، فأنكرها القاضي، فتشفع إليه برؤساء بلده في ردّها، فما زالوا به حتى أقرّ بها، وادّعى أنها سُرقت من حرْزه، فاستحلفه المُودع فحلف، فقال ابن الدُّوَيدة في ذلك: [من الكامل]

لا يَصدقُ القاضي الخَؤونُ إذا ادّعى ... عدمَ الوديعة من حصين المودعِ
إن قال قد ضاعت فيصدقُ أنّها ... ضاعت ولكنْ منك يعني لو تَعِي!
أو قال قد وقعت فَيَصْدُقُ أنّها ... وقعت ولكنْ منه أحسنَ مَوْقع

وقال ابن الحجاج: [من الوافر]

وأدعوهُمْ إلى القاضي عساهُمْ ... إذا وقَع اليمينُ يُحَلِّفُوني
وأَضيعُ ما يكون الحقّ عندي ... إذا عَزَم الغريمُ على اليمين

ذكر ما قيل في الكِبْر والعُجْب

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: الآية ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٢]. وقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٠]. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: الآية ٣٥]. وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦].

وناهيك بهذا زجرًا.

---

(١) الجام: الكأس والإناء.

(٢) معرّة النعمان: المعرّة: الشدّة، والنعمان: هو النّعمان بن بشير، صحابيٌّ اجتاز بها فمات له ولد فدفنه وأقام عليه فسمّيت به، وفي جانب سورها من قبل البلد قبر يوشع بن نون عليه السلام، وهي مدينة من أعمال حمص بين حلب وحماه قديمة ومشهورة. «انظر معجم البلدان ٥/١٥٦».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخُل الجنةَ، من في قلبه حَبّةٌ من خَرْدَلٍ من كِبْر». وقال ﷺ: «من تَعظَّم في نفسه، واختال في مِشْيتِه لقى اللهَ عزّ وجلّ وهو عليه غضبان». وقال ﷺ: «من جَرَّ ثَوبَه خُيَلاء لم ينْظُرِ اللهُ إليه».

ورُوِيَ: أن عبد الله بنَ سَلّام، مرّ بالسوق يحمل حُزْمة حطب، فقيل له: أليس قد أغناك اللهُ عن هذا؟ قال: بلى! ولكني أردت أنْ أقمعَ به الكبْر، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من كِبر».

وقال عمر بنُ الخطاب رضي اللهُ عنه: ما وجد أحدٌ في نفسه كبْرًا إلا من مَهانة يجِدُها في نفسه.

وقالوا: مَنْ قَلّ لُبُّه، كثر عُجْبُه.

وقالوا: عُجب المرء بنفسه، أحدُ حسّاد عقلهِ.

وقال أردَشِير بن بابَك: ما الكِبْر إلا فضل حُمْقٍ لم يدر صاحبُه أن يَضَعُه فصرفه إلى الكِبْر.

ومن كلام لابن المعتزّ: لما عرَف أهلُ التقصيرِ حالَهم، عند أهل الكمال استعانوا بالكِبر ليُعظِّم صغيرًا، ويُرفعَ حقيرًا، وليس بفاعل.

وقال أكثَمُ بنُ صَيْفِيّ: من أصاب حظًّا من دنياه، فأصاره ذلك إلى كِبْرٍ وتَرَفّعٍ، فقد علم أنه نال فوق ما يستحقّ، ومن أقام على حالهِ فقد علم أنه نال ما يستحقّ، ومن تواضع وغادر الكِبْر، فقد علم أنه نال دون ما يستحقّ.

وقال عليّ رضي الله عنه: عجِبتُ للمتكبرِ الذي كان بالأمس نطفةً، وهو غدًا جِيفةٌ.

وقيل: مرّ بعضُ أولاد المُهَلَّب بمالك بن دينار[١] وهو يَخْطِر، فقال له: يا بُنَيّ، لو خَفَّضت بعض هذه الخُيَلاء! ألم يكن أحسنَ بك من هذه الشّهرة التي قد شَهَرْتَ بها نفسَكَ؟ فقال له الفتى: أو ما تعرِفُ من أنا؟ قال: بلى! والله أعرِفُك معرفةً جيّدةً، أوّلك نطفةٌ مَذِره، وآخرك جيفة قَذِره، وأنت بين ذلك حامل عَذِره[٢] فأرخى الفتى أذنيه وكفّ مما كان يفعله، وطأطأ رأسه، ومضى مسترسِلًا.

(١) مالك بن دينار: البصري، أبو يحيىٰ، من رواة الحديث، كان ورعًا يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفي بالبصرة سنة ١٣١ هـ ـ ٧٤٨ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ٢٦٠».

(٢) عذره: التعذير في الأمر: التقصير، وعذّر في الأمر: قصر بعد جهد. «لسان العرب ٤/ ٥٤٦».

وقال الواقِديّ[١]: دخل الفضْل بنُ يحيىٰ ذاتَ يوم على أبيه وهو يَتَبَختر في مِشْيته، فقال له يحيىٰ: يا أبا عبد الله، إن البخلَ والجهلَ مع التواضع، أزينُ بالرجل من الكِبْرِ مع السخاء والعلم؛ فيا لها من حسنة غطَّتْ على عيْبَيْن عظيمين، ويا لها مِن سيّئة غطَّت على حسنَتَيْن كبيرتين، ثم أومأ إليه بالجلوس وقال: احفظْه يا عبد الله، فإنه أدبٌ كبيرٌ أخذناه عن العلماء.

ومن الكِبْر المستهجَن ما رُوِيَ: أن وائل بنَ حُجْر[٢] أتى النبي ﷺ، فأقطعه أرضًا، وقال لمعاوية: اعرضْ هذه الأرضَ عليه واكْتبها له، فخرج مع وائل في هاجرة شاوية[٣]، ومشى خلف ناقته، وقال له: أَردفنِي على عَجُز راحلتك، فقال: لست من أرداف الملوك، قال: فأعطني نعْلَيْك، فقال: ما بخلٌ يمنعني يابن أبي سُفيان، ولكن أكرهُ أن يبلُغ أقْيال[٤] اليمن أنك لبست نَعْلي، ولكن امش في ظل ناقتي، فحسبُك بها شرفًا. وقيل: إن وائلًا أدركَ زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدّثه.

والعرب تجعل جَذِيمة الأبرش الغاية في الكِبْر، ورُوِيَ: أنه كان لا ينادمُ أحدًا ترفُّعًا وكبرًا، ويقول: إنما ينادمني الفَرْقَدان. ومنه قول متمّم: [من الطويل]

* وكـنّـا كـنَـدْمَـانَـيْ جَـذِيـمـة حِـقْـبَـةً *

قيل: إنما أراد الفَرْقدين، لا كما ذكره الرواة أنهما مالك وعَقِيل.

وقيل: كان أبو ثَوابة أقبحَ الناس كِبْرًا، رُوِيَ: أنّه قال لغلامه اسقني ماءً، فقال: نعم، قال: إنما يقول: «نعم» من يقدر على أن يقول: «لا» وأمر بضربه، ودعا

---

(١) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد السّهمي، أبو عبد الله من أقدم المؤرّخين في الإسلام، ومن أشهرهم ومن حُفّاظ الحديث له مؤلّفات عديدة مات سنة ٢٠٧ هـ. «الأعلام للزركلي ٦/ ٣١١».

(٢) وائل بن حُجْر: الحضرمي القحطاني، أبو هنيدة، من أقيال حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم، وفد على النبي ﷺ فرحب به واستعمله على أقيال من حضرموت، وأقطعه أرضًا، شارك في الفتوح ونزل الكوفة، وزار معاوية لما ولي الخلافة فأجلسه معه على السرير. استقر في الكوفة وروى عن النبي أحاديث. توفي سنة ٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م. «الأعلام للزركلي ٨/ ١٠٦».

(٣) هاجرة شاوية: شمس حارة.

(٤) أقيال: ملوك باليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قيل، يكون ملكًا على قومه، وسمي الملك «قيلًا» لأنه إذا قال قولًا نفذ قوله. «لسان العرب ١١/ ٥٧٦».

أكّارًا[١] فكلّمه، فلما فرَغَ دعا بماء، وتمضمض استقذارًا لمخاطبته. قال عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود[٢]: [من الطويل]

ولا تعجبا أن تُؤتَيا فتُكَلَّما ... فما حُشيَ الأقوامُ شرًّا من الكبرِ

قال الجاحظ: المذكورون بالكبر من قريش، بنو مَخْزوم، وبنو أميَّةَ، ومن العرب، بنو جَعْفَر بن كلاب، وبنو زُرارة بن عُدَس، وأما الأكاسرة فكانوا لا يَعدّون الناسَ إلا عبيدًا، وأنفسَهم إلا أربابًا، والكِبرُ في الأجناس الذليلةِ أرسخُ، ولكن القلّةَ والذّلةَ مانعتان من ظهور كبرهم، ومن قدَر من الوضعاء أدنى قُدرة، ظهر من كبره ما لا خَفاءَ به، ولم أر ذا كبر قطّ علا مَنْ دونه، إلا وهو يَذلّ لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه.

قال: أما بنو مخزوم، وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، واختصاصهم بالتّيه، فأنهم أبطَرَهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قُوَى عقولهم فضلٌ عن قُوَى دواعي الحَمِيَّة فيهم، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وإنصافهم مَنْ دونهم. وقال أبو الوليد الأعرابيّ: [من الطويل]

ولستُ بتيَّاهٍ إذا كنتُ مُثرِيا ... ولكنه خُلْقِي إذا كنت مُعْدِما
وأن الذي يُعطَى من المال ثَرْوةً ... إذا كان نذلَ الوالدين تعظّما

ومن المتكبرين، عُمَارةُ بن حمزة[٣]، حُكِي عنه: أنه دخل على المهديّ، فلما استقر به الجلوس، قام رجل كان المهديّ قد أعدّه له ليتَهكّم به، فقال: مظلومٌ يا أمير المؤمنين، قال: مَنْ ظلمك؟ قال: عُمَارة غصبني ضَيْعتي، وذكر ضَيْعة من أحسن ضياع عُمَارة وأكثرها خَرَاجًا، فقال المهديّ لعُمَارة: قم فاجلس مع خَصْمِك، فقال: يا أمير المؤمنين، ما هو لي بخَصْم، إن كانت الضّيعةُ له، فلستُ أنازعه فيها، وإن

---

(١) الأكّار: الحرّاث ـ ويقال أكرت الأرض: أي حفرتها. والأُكر: الحفر في الأرض. «لسان العرب ٤/ ٢٦».

(٢) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: الهذلي، أبو عبد الله، مفتي المدينة، وأحد الفقهاء السبعة فيها، من أعلام التابعين، له شعر جيد، وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز، كان ثقة عالمًا فقيهًا، ذهب بصره ومات بالمدينة سنة ٩٨ هـ ـ ٧١٦ م. «الأعلام للزركلي ٤/ ١٩٥».

(٣) عمارة بن حمزة بن ميمون، كاتب، من الولاة الأجواد الشعراء الصدور، كان المنصور والمهدي العباسيان يرفعان قدره، وكان من الدهاة، وجمع له بين ولاية البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين، له في الكرم أخبار عجيبة، وفيه تيه شديد، له ديوان رسائل ورسالة الخميس، توفي سنة ١٩٩ هـ ـ ٨١٤ م. «الأعلام للزركلي ٥/ ٣٦».

كانت لي فقد وهبتُها له، ولا أقومُ من مجلسٍ شرّفني به أميرُ المؤمنين، فلما انصرف المجلسُ، سأل عُمارة عن صفة الرجل، وما كان لباسُه، وأين كان موضع جلوسه، وكان من تِيهه أنه إذا أخطأ يمرّ على خطئه تكبرًا عن الرجوع ويقول: نقضٌ وإبرامٌ في ساعة واحدة، الخطأ أهون منه.

ومنهم من أهلكه الكبر وأذلّه. كان خالد بن عبد الله بن يَزيدَ بن أسد القَسْرِيّ أميرًا على العراق، وبلغ من هشام بن عبد الملك محلًا رفيعًا، فأفسد أمره العُجبُ والكِبْرُ، وأدناه إلى الهَلَكَة، وعُذّب حتى مات، وذلك أنه كان إذا ذُكِر هشام عنده، قال: ابن الحمقاء! فسمِعها رجل من أهل الشام، فقال لهشام: إنّ هذا البَطِرَ الأَشِر الكافرَ لنعمتك ونعمةِ أبيك وإخوتك، يذكرك بأسوأ الذّكر، قال: لعله يقول: الأحولُ، قال: لا، ولكنه يقول: ما لا تلتقي به الشّفتانِ، قال: لعله يقول: ابن الحمقاء، فأمسك الشاميّ، فقال هشام قد بلغني كلّ ذلك عنه؛ وكان خالد يقول: والله ما إمارةُ العراق مما تشرّفني، فبلغ ذلك هشامًا، فكتب إليه: بلغني أنك يابن النصرانية تقول: إن إمارة العراق لا تُشرِّفُكَ وأنت دَعِيٌّ بجيلة القليلة الذليلة، والله إني لأظنُّ أن أول من يأتيك صيفيّ بن قيس فيشدّ يدَك إلى عُنقِك، قال خالد بن صفوان بن الأهتم: لم تزل أفعال خالد حتى عزله هشام وعذّبه، وقتل ابنه يزيدَ بن خالد، فرأيت في رجله شَرِيطًا قد شدّه به الصّبيان يجرّونه، فدخلت إلى هشام يومًا، فحدّثته فأطلت، فتنفّس، وقال: يا خالد! كان أحبّ إليَّ قُربًا وألذَّ عندي حديثًا منك، يعني خالدَ القَسْريّ، قال: فانتهزتُها ورجوت أن أشفعُ فتكون لي عند خالد يدًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما يمنعك من استئنافِ الصّنيعة، فقد أدّبته بما فَرطَ منه، فقال: هيهاتَ! إن خالدًا أوجَفَ فأعجَفَ[1]، وأدلّ فأملّ، وأفرط في الإساءة، فأفرطنا في المكافأة، فَحلِمَ الأديم[2]، ونغِل[3] الجُرح، وبلَغَ السَّيْلُ الزُّبى، والحزام الطُّبْيَيْنِ، ولم يبق فيه مستصلَح، ولا للصّنيعة عنده موضع، عُدْ إلى حديثك.

---

(١) أعجف: عجف نفسه عن الطعام: حبسها عنه وهو له مشتهٍ ليؤثر به غيره ـ ونصل أعجف: أي رقيق، وأعجفه: هزله، وأرض عجفاء: مهزولة. «لسان العرب ٩/ ٢٣٤».

(٢) الأديم: أديم كل شيء: ظاهر جلده، وأدمة الأرض: وجهها ـ وأديم الليل: ظلمته، وأديم النهار: بياضه. «لسان العرب ١٢/ ٩ و١٠».

(٣) نغل: نغل الجرح: فسد، وفيه شيء من نغل: أي فساد ـ والنغل في الأساس: ولد الزنية، والأنثى نغلة ـ والنغل: الإفساد بين القوم والنميمة. «لسان العرب ١١/ ٦٧٠».

ومنهم: مَن أفرط به الكبر إلى الكفر، حُكِي: أن سعيد بن زُرارة مرّت به امرأة فقالت له: يا عبدَ الله، كيف الطريقُ إلى مكان كذا؟ فقال لها: أَمِثلي يكون مِنْ عَبِيد الله.

ومنهم: عُبَيْد الله بن زياد بن ظَبْيان(١)، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه: كثّر اللهُ فينا مثلَك، فقال: لقد كلّفتم الله شططًا.

ومن أشعار المتكبّرين التيّاهين قول بعضهم: [من الكامل]

* أتـيـه عـلـى جِنّ الـبـلاد وإنْـسِـهـا *

الأبيات، وقد تقدّمت في الحَمْقَى.

وقال آخر: [من الخفيف]

أَلقِني في لَظىً فإنْ أحرقَتْني فتيقّنْ أنْ لستُ بالياقوتِ
صنَعَ النسجَ كلُّ مَنْ حاكَ لكنْ ليس داودُ فيه كالعنكبوتِ

قال ابن حُبَارة الحرّانيّ المنجنيقيّ يردّ عليه: [من الخفيف]

أيّها المدّعي الفخَارَ دعِ الفَخْـ ـرَ لِذي الكِبْرياءِ والجبرُوتِ
نسجُ داودَ لم يُفِد ليلةَ الغا رِ وكان الفخارُ للعنكبوتِ
وبقاءُ السَّمَنْدِ في لَهَبِ النا رِ مُزِيلٌ فضيلةَ الياقوتِ
وكذاك النّعامُ يلتقمُ الجمـ ـرَ وما الْجَمرُ للنّعام بقُوتِ

ومما هُجيَ به أهلُ التكبّر، قول جُعيفران يهجو سعيد بنَ مُسلم بن قُتَيبة: [من السّريع]

أمَّ سعيدٍ لِم ولدتيهِ ملوَّثًا بالكِبْر والتّيهِ؟
ليتكِ إذ جئتِ به هكذا حين خَرَيتيه أكلتيهِ

---

(١) عبيد الله بن زياد بن ظبيان: أبو مطر، فاتك من الشجعان، كان مقربًا من عبد الملك بن مروان، وهو الذي قتل مصعبًا بن الزبير وحمل رأسه إلى عبد الملك، ثم خرج على الحجاج مع ابن الجارود، فلما قتل ابن الجارود انصرف إلى عُمان ولجأ ابن الجلندي الأزدي، فخافه هذا، فدس له السم في بطيخة فمات سنة ٧٥ هـ ـ ٦٩٤ م. «الأعلام للزركلي ٤/١٩٣».

ذكر ما قيل في الحرص والطمع

قال الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: الآية ١٣١].

وقال رسول الله ﷺ: «أربعٌ من الشقاء الخ... عُدّ منها الحرص والأمل» وقال: ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم فأفسداها أشدّ من حرص المرء على المال». وقال: «يشيب ابنُ آدم وتشبّ منه اثنتان: «الحرص على المال، والحرص على العمر» وقال: «إيّاكم والطمعَ فإنه الفقر الحاضر».

ومن كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الطمعُ مُورِد غير مُصْدِر، وضامن غير وفيّ، وكلما عَظُم قدر الشيء المتنافَس فيه، عظمت الرّزيةُ لفقده، والأمانيّ تُعمِي البصائرَ. أزرى بنفسه من استشعر الطمع، واستولت عليه الأمانيّ.

وقال بعضهم: الحرصُ ينقص من قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه.

وقال قُتَيبة: إن الحريص استعجل الذّلة، قبل إدراك البغية.

وقيل: لا راحةَ لَحرِيصٍ، ولا غِنَى لِذِي طَمَع.

وقيل: إن كَعْبًا لَقِيَ عبد الله بن سلام، فقال: يابن سلام، مَنْ أربابُ العلمِ؟ قال: الذين يعملون به، قال: ما أذهب العلم من قلوب العلماء بعد إذْ عَلِموه ووعوه؟ قال: الطمَعُ، وشَرَهُ النفس، وطلبُ الحوائجِ إلى الناس. قال الأَصْمَعِيّ: سمعتُ أعرابيًا يقول: عجبتُ للحريص المستكْبِر، المستقِلّ لكثير ما في يده، المستكْثِر لقليل ما في يد غيره، حتّى طلب الفضل، بذهاب الأصل، فركِبَ مفاوز البراري، ولُجَجَ البِحار، معرِّضًا نفسَه للممات، ومالَه للآفاتِ، ناظرًا إلى من سَلِم، غيرَ معتبر بمن عدِم.

قال يزيد بن الحَكَم الثَّقَفِيّ(١): [من الطويل]

رأيتُ السَّخِيَّ النفسِ، يأتيه رِزْقُه ... هنيئًا، ولا يُعطَى على الحِرْصِ جامِعُ
وكلُّ حريصٍ لن يُجاوزَ رزقه ... وكم من مُوفّى رزقُه وهو وَادِعُ

---

(١) يزيد بن الحكم الثقفي: شاعر عالي الطبقة، من أعيان العصر الأموي، من أهل الطائف، سكن البصرة وولاه الحجاج كورة فارس، ثم عزله قبل أن يذهب إليها، فانصرف إلى سليمان بن عبد الملك فأجرى له ما يعدل عمالة فارس، توفي نحو سنة ١٠٥ هـ ـ نحو ٧٢٣ م. «الأعلام للزركلي ٨/ ١٨١».

وقالوا: مصارعُ الألبابِ تحت ظلالِ الطمع. ويقال: [من مجزوء الرّجز]

الحرُّ عيدٌ ما طَمِع والعبدُ حرٌّ ما قَنِع

وقالوا: أخرِجِ الطمعَ من قلبك، تَحلّ القيدَ من رجلك. وقال عمرو بن مالك الحارثيّ(١): [من البسيط]

الحِرْصُ للنفسِ فقرٌ والقُنُوعُ غِنًى والنَّفسُ إن قَنِعتْ بالقوت يُجزيها
والنفسُ لو أن ما في الأرض حِيزَلها ما كان إن هِي لم تَقْنَعْ بكافيها

وقال ابن هَرْمة(٢): [من الطويل]

وفي اليأس عن بعض المطامِع رَاحةٌ ويا رُبَّ خُسْرٍ أدركتْه المطامِعُ

وقال هَدْبة بن خَشْرم(٣): [من الطويل]

وبعضُ رَجَاءِ المرءِ ما ليس نَائِلًا عَنَاءٌ وبعضُ اليأسِ أعفى وأرْوَحُ

وقال مُكْنِف بن معاوية التيميّ: [من المتقارب]

ترى المرءَ يأمُلُ ما لا يرى ومن دون ذلك ريبُ الأَجَلْ
وكم آيسٍ قد أتاه الرَّجَاءُ وذِي طَمَعٍ قد لواه الأَمَلْ

وقال آخر: [من السّريع]

طَمِعتَ فيما وعدتْك المنى وليس فيما وَعَدتْ مَطْمَعُ
وثِقْتَ بالباطل من قولها وليس حقًّا كلُّ ما تسمعُ
وإنما مَوْعِدُها بارِقٌ في كل حين خُلَّبٌ يَلْمَعُ

---

(١) عمرو بن مالك الحارثي: يبدو أنه عمرو بن مالك بن ضبيعة، من قيس بن ثعلبة، شاعر جاهلي قديم. ومن شعره: ومن يفتقر في قومه يحمد الغنى وإن كان فيهم ماجد العم مخولًا. «الزركلي ٥/ ٨٥».

(٢) ابن هرمة: هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر الكناني القرشي، أبو إسحٰق شاعر غزل من سكان المدينة، وهو آخر الشعراء الذين يحتجّ بشعرهم، من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية. «انظر الأعلام ١/ ٥٠».

(٣) هو هدبة بن خشرم العذري، شاعر فصيح مرتجل، من أهل بادية الحجاز كنيته أبو عمير، وكان راوية الحطيئة مات نحو سنة ٥٠ هـ. «الأعلام ٨/ ٧٨».

ويضرب المثل في الطمع «بأشعب». قيل له: ما بلغ من طمعك؟ فقال للقائل له: لم تقلْ هذا إلا وفي نفسك خيرٌ تصنعه بي؛ وقيل: إنه لم يمت شريفٌ قطّ من أهل المدينة إلا استعدَى أشعبُ على وصِيِّه أو وارثه وقال له: احلف أنه لم يُوصِ لي بشيء قبل موته؛ ووقف على رجل يعمل طبقًا من الخَيزُران، فقال له: وسِّعْه قليلًا، قال الخيزرانيّ: كأنك تريد أن تشتريَه؟ قال: لا، ولكن ربما يشتريه بعض الأشراف فيَهْدِي إليّ فيه شيئًا؛ وسأله سالم بن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنه عن طمعه، قال: قلت لصبيان مرةً: اذهبوا، هذا سالم قد فَتحَ بيت صدَقَة عمر حتى يُطعِمكم تمرًا، فلما أحضروا ظننت أنه كما قلت لهم، فعدوْتُ في إثرهم؛ وقيل له: ماذا بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري فأثْرُدُ[1] عليه؛ وقيل له أيضًا: ما بلغ من طمعك؟ قال: ما رأيت عَرُوسًا بالمدينة تُزَفّ إلا كنست بيتي ورششته طمعًا أن تُزَفَّ إليَّ؛ وقيل له: هل رأيتَ أطمع منك؟ قال: نعم، كلب أُم حَوْمَل، تبعني فرسخين، وأنا أمضغ كُنْدُرًا[2]، ولقد حسدته على ذلك.

ذكر ما قيل في الوَعْدِ والمَطْل

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العِدَة دَيْن».

وقال بعض القُرشيِّين: من خاف الكذبَ، أقلَّ من المواعيد.

وقيل: أمران لا يسلمان من الكذب: كثرةُ المواعيدِ، وشدّةُ الاعتذارِ.

وقالوا: خُلْفُ الوعدِ، خُلُقُ الوَغْدِ.

وقال المهلّب لبنيه: يَا بنيّ، إذا غدا عليكم الرجل أو راح مُسَلِّمًا، فكفى بذلك تقاضيًا.

قال الشاعر: [من الطويل]

أروحَ لتسليمٍ عليك وأَغْتدِي فحسبُك بالتسليم مني تقاضيا
كفى بِطِلاب المرءِ ما لا ينالُه عَنَاءً وباليأسِ المصرّحِ ناهيا

وقيل: الوعدُ إذا لم يشفَعْه إنجاز يُحقِّقُه، كان كلفظٍ لا معنى له، وجسمٍ لا رُوح فيه. وقالوا: الخلفُ ألأمُ من البخل، لأنه من لم يفعل المعروف، لزمهُ ذمُّ

(١) ثرَدَ الخبز: فتّه.
(٢) الكُنْدُرا: ضرب من العلك وهو اللبان الذكر.

اللؤم، وذمُّ الخلف، وذمّ العجز. قال بعض الشعراء: [من الطويل]

وعدتَ فأكذبتَ المواعيدَ جاهدًا وأقلعتَ إقلاعَ الجَهَام بلا وَبْلِ(١)
وأجرَرْتَ لي حَبْلًا طويلًا تَبِعتُه ولم أدرِ أن اليأس في طَرَف الحبل

وقال أبو تمّام: [من الطويل]

وما نفعُ من قد مات بالأمس صادِيًا إذا ما سماءُ اليوم طال انهِمَارُهَا
وما العُرْفُ بالتّسويف إلّا كَخَلّةٍ تسلّيتَ عنها حين شَطَّ مَزَارُهَا

والعرب تضرب المثل بمواعيد عُرقوب، وكان رجلًا من العماليق وله في ذلك حكايات، فمنها: أنه أتاه أخٌ له، يسأله شيئًا، فقال له عرقوب: إذا أطلعَتْ هذه النخلة فلك طَلْعُها، فلما أطلعت، أتاه الرجل للعدَة، فقال: دعْها حتى تصير بلَحًا، فلما أبلحت، أتاه، فقال: دعْها حتى تصيرَ زَهْوًا، فلما أزهت، قال: دعْها حتى تصير رُطَبًا، فلما أرطبت، قال: دعْها حتى تصيرَ تمرًا، فلما أتمرت، عمد إليها عرقوب، فجذَّها ولم يعطِ أخاه منها شيئًا.

وفيه يقول الأشجعيّ: [من الطويل]

وعدْتَ وكان الخُلفُ منك سجيّةً مواعيدَ عُرْقوب أخاه بيثربِ

وقال كعب بن زُهَير بن أبي سُلْمى: [من البسيط]

كانت مواعيدُ عُرْقوب لها مثلًا وما مواعيدُها إلّا الأباطيلُ(٢)

وقال السِّكّيت للمهديّ: يا أميرَ المؤمنين، لو كان الوعد يُستنزل بالإهمالِ والسكون، لشكرتكَ القلوبُ بالضمير، ولنظرَتْ إلى فضلك العيون بالأوهام، فقال المهديّ: هذا جزاءُ التفريطِ فيما يكسب الأجر، ويدخر الشكر، وأمر بقضاء حاجته.

وقال أعرابيّ: العُذْرُ الجميلُ، أحسنُ من المَطْلِ الطويلِ، فإن أردت الإنعامَ فأنجِحْ، وإن تعذّرتِ الحاجةُ فأفصِح.

وقال بعض كُرَماء العرب: لأنْ أموتَ عَطَشًا، أحبُّ إليّ من أن أُخلِف مَوْعدًا.

---

(١) أقلع: كفّ، والجهام: الغيم الأسود، والوبل: الماء والمطر المتساقط.
(٢) عرقوب: رجل يضرب به المثل بالمماطلة.

وقالوا: من وَعَد فأخلف، لزِمتْهُ ثلاثُ مذمّات: ذمُّ اللُّؤم، وذمُّ الخُلْفِ، وذمُّ الكذبِ؛ وقال بعض الشعراء: [من الطويل]

ولا خيرَ في وَعْدٍ إذا كان كاذبًا ... ولا خيرَ في قولٍ إذا لم يكن فِعْلُ

فإن تُجْمَع الآفاتُ فالبخلُ شرُّها ... وشَرٌّ من البخل المواعيدُ والمَطْلُ

قال بعض الأعراب: فلان له مواعيدُ عواقِبُها المَطْلُ، وثِمَارُها الخُلْفُ، ومحصولُها اليأسُ.

وقال آخر: فلانٌ له وعدُ مُطْمِع، ومَطْلٌ مُؤيِس، وأنت منه أبدًا بين يأس وطمع، فلا بَذْلٌ مُرِيح، ولا مَنْعٌ صَرِيح.

وقال الثعالبيّ: أوّلُ من أخلف المواعيدَ ولم يَفِ بشيء منها: إسماعيلُ بن صُبيَّح كاتبُ الرشيد، وما كان الرؤساء يعرفون قبله المواعيد الكاذبة.

ذكر ما قيل في العِيّ والحَصَر

قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ١٨]، وقال تعالى إخبارًا عن فرعون عند افتخاره على موسى بالبيان: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٥٢]. قال أهل التفسير: إن موسى عليه السلام لما سمع هذا القول قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طـه: الآيات ٢٥ - ٢٨] الآية، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: الآية ٣٦].

وقيل: حدّ العِيّ معنًى قصير، يَحْويه لفظٌ طويل. وقال أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ: هو أن تتكلَّمَ فوق ما تقتضيه حاجتُك. وقالوا: الفقيرُ الناطقُ، أغنى من الغنيّ الساكتِ.

وقال كسرى: الصَّمْتُ خيرٌ من عِيِّ الكلام.

وقالوا: فُضِّلَ الإنسانُ على ما عداه من الحيوان بالبيان، فإذا نطق ولم يُفْصِح عاد بَهِيمًا.

وقالوا: العِيُّ داءٌ دواؤُه الخَرَسُ. ومن علامات العِيّ الاستعانة، وهيَ أن ترى المخاطَب إذا كلَّ لسانهُ عند مَقاطِع كلامه، يقول للمخاطب: اسمعْ منّي، أو سمعت لي، وافهمْ عني، وأشباه ذلك.

ومنهم من يقول: قولي كذا، أعني به كذا، ولا يريد التفسير، ولكنه يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأوّل ليفهم عنه.

ومن عيوب اللسان، التَّمْتَمَةُ، والفَأْفَأَةُ، والعُقْلة، والحُبْسَةُ، واللَّفَفُ، والرُّتَّةُ، والغَمْغَمة، والطَّمْطَمة، واللُّكْنَةُ، والغُنَّة، واللُّثْغَة، فالتمتمة، قال الأَصْمَعِيّ: إذا تَعْتَع في التاء فهو تَمْتَام، وإذا ردّد في الفاء فهو فَأْفَاء، قال الراجز: [من الرجز]

لـيـس بـفَـأْفَـاءٍ ولا تـمـتـامِ ولا كثيرِ الهُجْرِ في الكلامِ

والعُقْلة: التواءُ اللسانِ عند الكلام؛ والحُبْسَةُ: تعذّرُ النطقِ، ولم تبلغْ حدّ الفأفاء ولا التمتام، ويقال: إنها تعرض أوّل الكلام، فإذا مرّ فيه انقطعت. واللَّفَفُ: إدخالُ بعض الكلام في بعض؛ قال الراجز: [من الرجز]

كـأَنَّ فـيـه لـفَـفًـا إذا نَـطَـقْ من طول تَحْبِيسٍ وهَمٌ وأَرَقْ[1]

والرُّتَّةُ: اتصالُ بعضِ الكلام ببعض دون إفادة؛ والغمغمة: أن تسمعَ الصوتَ ولا يتبيّنُ لك تقطيعُ الحروف، ولا تفهم معناه؛ والطمطمة: أن يكون الكلامُ شبيهًا بكلامِ العجم، وهي حِمْيريّة، وقالوا: هي إبدال الطاء بالتاء لأنهما من مخرج واحد، فيقول: السُّلتان والشَّيتَان، وأشباه ذلك، قيل: وكانت في لسان زياد بن سَلْمَى، وكان خطيبًا شاعرًا كاتبًا؛ واللُّكْنَةُ: إدخال بعض حروف العرب في حروف العجم، وتشترك فيها اللغة التركية والنبطيّة، وهي إبدالُ الهاء حاءً، وانقلابُ العينِ همزة، وكانت في لسان عُبَيد الله بن زياد، وصُهَيب الروميّ[2] صاحب رسول الله ﷺ. وقيل: إن مولًى لزياد، قال له: أيها الأمير، أَحْدوا لنا هَمارَ وَهْشٍ: يريد: أهدوا لنا حمارَ وحشٍ، فلم يفهم زياد عنه، وقال: ويلك! ماذا تقول؟ قال: أحدوا لنا أَيْرًا: يريد عَيْرًا، فقال زياد: أرجعْنا إلى الأول فهو خيرٌ؛ والغُنَّة: أن يشربَ الصوتَ

(١) اللَّفف: التخليط والإكثار.

(٢) صهيب الرومي: (٣٢ ق.هـ ـ ٣٨ هـ = ٥٩٢ ـ ٦٥٩ م) صهيب بن سنان بن مالك، صحابي من أرمى العرب سهمًا، وله بأس، وهو أحد السابقين إلى الإسلام، كان أبوه من أشراف الجاهليين، وكانت منازل قومه في أرض الموصل، على شط الفرات، وبها ولد صهيب، وسبته الروم في إغارة لها، فنشأ بينهم، ثم اشتراه منهم أحد بني كلب وقدم به مكة، فابتاعه عبد الله بن جدعان ثم أعتقه، فأقام بمكة يحترف التجارة، إلى أن ظهر الإسلام فأسلم، شهدًا بدرًا وأُحدًا والمشاهد كلها. له ٣٠٧ أحاديث. توفي في المدينة وكان يعرف بصهيب الرومي. «الأعلام للزركلي ٣/ ٢١٠».

الخَيْشُومُ[١]؛ والخُنَّةُ: ضرب منها؛ والترخيم: حذف بعض الكلمة لتعذّر النطق بها؛ واللُّثْغَة: إبدال ستة حروف بغيرها، وهي الهمزة والراء والسين والقاف والكاف واللام، فالتي تعرض للهمزة، فهي إبدالها عينًا، فإذا أراد أن يقول: أنت، قال: عَنْتَ وهي مستعملة في لسان التَّكْرُور، وأما التي تعرض في الراء، فهي ستة أحرف، فمنهم من يجعلها غينًا معجمة فيقول (غُمَغ): يريد عُمَر، وهي غالبة على لسان أهل دمشق، وإذا اجتمعت الراء والغين في كلمة كقولهم: رغيف، قال: (غريف)، وفَغَرْت بمكانِ فرغت: فيبدلون كلّ حرف بالآخر، قيل: وكانت في لسان محمد بن شَبِيب الخارجيّ، وواصل بن عَطَاء المعتزليّ[٢]، وكان لاقتداره على الكلام، وغزارة مادته، يتجنبُ النطقَ بها، وفيه يقول الشاعر من أبيات: [من البسيط]

ويجعلُ البُرَّ قَمْحًا في تصرُّفه ... وجانبَ الرّاء حتى احتال للشَّعَرِ
ولم يُطِقْ مَطَرًا والقولُ يعجلُه ... فعاد بالغَيْث إشفاقًا من المَطَرِ

ومنهم من يجعلها عينًا مهملة، فيقول في أزرق: أزعق، وهي في لسان عوامّ أهل دِمَشق، ومنهم من يجعلها ياءً، فيقول في عُمَر: عُمَى، ومنهم من يبدلها بالظاء أخت الطاء، ومنهم من يبدلها همزة، فإذا أراد أن يقول: رأيت، قال: أَأَيْتُ، وأما التي تعرض للسين، فإنهم يبدلونها ثاء، فيقولون: بثم الله، ويُثْرة الله: إذا أرادوا بسم الله، ويُسرة الله، أو أشباه ذلك، وهي مستحسنة في الجواري والغلمان. قال الشاعر: [من الوافر]

وأهيف كالهلالِ شكوتُ وَجْدي ... إليه لِحُسْنِه وأطلتُ بَثّي[٣]
وقلتُ له فدتْك النفسُ صِلْنِي ... تجِزْ فيَّ الثوابَ فقال بَثّي

وأما التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاءً، فإذا أراد أن يقولَ: قال، وقلت، نطق: بِطالَ، وطُلْتُ، وهي نبطيّة، وكانت في لسان أبي مُسْلم صاحب

---

(١) الخيشوم: الأنف، والخياشيم: غراضيف في أقصى الأنف بينه وبين الدماغ، وقيل هي عروق في باطن الأنف، والخشم: كسر الخيشوم ـ وخياشيم الجبال: أنوفها. «لسان العرب ١٢/ ١٧٨».

(٢) هو واصل بن عطاء الغزّال، رأس المعتزلة، ومن أئمّة البلغاء والمتكلّمين له تصانيف عدّة مات سنة ١٣١ هـ. «الأعلام ٨/١٠٨».

(٣) الأهيف: الضّامر.

الدعوة، وعُبَيد الله بن زياد؛ ومنهم من يجعلَها كافًا فيقول: كَال وكُلْت؛ وأمّا التي تعرض للكاف، فمنهم من يجعلها همزة، فيقول: أَأَف، ومنهم من يبدلها تاء، فيقول: تَانَ، إذا أراد: كان، وأما التي تعرض في اللام، فمنهم من يبدلها ياءً، فيقول: اعتَيَيْتُ، بمعنى: اعتللت، ويقول في جمَل: جمى، وإذا أقسم بالله، يقول: ويَّاه، ومنهم من يبدل الخاء المعجمة حاءً مهملة، فيقول في خوخ: حُوح، وتُستحسن في الغِلْمان والجواري، ومنهم من يبدل الجيم ضادًا، فإذا اجتمع لأحد في كلمة جيم وضاد، مثل ضجر، ونضج، قال: جضر، ونجض. والحمد لله وحدَه!

كمل الجزء الثالث

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

يتلوه إن شاء الله تعالى في أوّل الجزء الرابع منه:

«الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثاني

في المجون والنوادر والفكاهات والملح»

والحمد لله وحده

وصلّى الله على سيّدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

وحسبنا الله ونعم الوكيل

المصادر والمراجع

١ ـ آدم متنر، **الحضارة الإسلامية**، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢ ـ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر ـ بيروت.

٣ ـ ابن خلّكان، **وفيات الأعيان**، دار الثقافة ـ بيروت.

٤ ـ ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، دار صادر ـ بيروت.

٥ ـ ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، دار إحياء العلوم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦ ـ ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر ـ بيروت.

٧ ـ ابن النّديم، **الفهرست**، دار المعرفة ـ بيروت.

٨ ـ ابن هانىء الأندلسي، **ديوانه**، دار صادر ـ بيروت.

٩ ـ أبو جعفر النّحاس، **شرح القصائد المشهورات**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٠ ـ أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، دار الثقافة ـ بيروت.

١١ ـ أبو منصور الثعالبي، **اليتيمة**، دار الفكر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٢ ـ حسان بن ثابت، **ديوانه**، دار صادر ـ بيروت.

١٣ ـ خير الدّين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين ـ بيروت.

١٤ ـ الشريف الرّضي، **ديوانه**، دار بيروت للطباعة ـ بيروت.

١٥ ـ الشهرستاني، **الملل والنحل**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٦ ـ القلقشندي، **صبح الأعشى**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٧ ـ محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٨ ـ محمد بن يوسف الكندي، **ولاة مصر**، دار صادر ـ بيروت.

١٩ ـ محمود مصطفى، **إعجام الأعلام**، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٠ ـ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر ـ بيروت.

٢١ ـ ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

فهرس المحتويات

القسم الثاني
من الفن الثاني في الأمثال المشهورة عن رسول الله ﷺ، وعن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب، وأخبار الكهنة، والزّجر، والفأل، والطّيرة، والفراسة، والذكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجي، والألغاز

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٤-٥

تحقيق

الدكتور يحيى الشامي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ١٣/١٢/١١/٨٠٤٨١٠ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
9782745138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللَّهمَّ صلِّ أفضل صلاة على أفضل خلقك سيِّدنا محمد وآله وسلّم

الباب الثالث
من القسم الثالث من الفن الثاني
في المجون والنوادر والفُكاهات والمُلَح

وهذا الباب مما تنجذِبُ النفوسُ إليه، وتشتملُ الخواطرُ عليه؛ فإنّ فيه راحةً للنفوس إذا تعِبت وكلّتْ، ونشاطًا للخواطرِ إذا سئمت وملّت؛ لأنّ النفوسَ لا تستطيع ملازمةَ الأعمال، بل ترتاحُ إلى تنقُّلِ الأحوال، فإذا عاهدتها بالنوادر[1] في بعض الأحيان، ولاطفتَها بالفكاهاتِ[2] في أحد الأزمان، عادت إلى العملِ الجدِّ بنَشْطةٍ جديدة، وراحةٍ في طلب العلومِ مديدة.

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَوِّحُوا القلوبَ ساعةً بعد ساعةٍ، فإنّ القلوبَ إذا كلّت عَمِيَت»[3].

وقال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «أجِمُّوا هذه القلوبَ والتمسوا لها طُرُقَ الحِكمة، فإنها تَمَلُّ كما تملُّ الأبدان[4]، والنفسُ مُؤْثِرةٌ[5] للهوى، آخذةٌ

---

(١) عاهدتها بالنوادر: أتيتها بها. ونوادر الكلام: غرائبه، وما شذّ منه، وكان مستجادًا نادرًا.

(٢) الفكاهات، جمع فكاهة وفكيهة، وهي ضرب من المزاح والحديث الذي يتلذّذ به.

(٣) وفي رواية ثانية جاء قوله ﷺ مختصرًا، وهو التالي: «روّحوا القلوب ساعةً بساعة». انظر: وهج الفصاحة في أدب النبيّ ﷺ، لعلاء الدين الأعلمي، منشورات الأعلمي، بيروت ١٩٨٨ م. وروّحوا القلوب: أدخلوا عليها الراحة، وكلّت: تعبت وأعيت.

(٤) وفي شرح «نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ٢٤٦/٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ٢، القاهرة ١٩٦٧، في هذا الشرح تجد قول الإمام عليّ بالصورة التالية: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة». وأجمّوا: أريحوا.

(٥) مؤثرة: مفضّلة ومختارة.

بالهُوَيني[١]، جانحةٌ[٢] إلى اللّهو، أمّارةٌ بالسّوء، مستوطنةٌ[٣] بالعجز، طالبةٌ للرّاحة، نافرةٌ عن العمل؛ فإن أكرهْتَها أنْضَيْتَها[٤]، وإنْ أهملْتَها أرْدَيْتَها»[٥].

وكان رسولُ الله ﷺ يضحكُ حتى تبدوَ نواجذه[٦]، وكان محمدُ بن سيرين[٧] يضحك حتى يسيلَ لُعَابُه.

وقال هشامُ بنُ عبد الملك[٨]: قدِ أكلتُ الحلوَ والحامضَ حتى ما أَجِدُ لواحدٍ منهما طعمًا، وشممتُ الطِّيبَ حتى ما أجدُ له رائحةً، وأتيتُ النّساء حتى ما أُبالي امرأةً أتيتُ أم حائطًا؛ فما وجدتُ شيئًا ألذَّ إليَّ من جليسٍ تسقطُ بيني وبينَه مُؤنةُ التحفُّظ[٩].

وقال أحمدُ بنُ عبدِ ربّه[١٠]: المُلَح[١١] نُزهةُ النَّفس، وربيعُ القلب، ومَرْتَعُ[١٢] السّمع، ومَجْلَبُ الراحة، ومَعْدِنُ السرور. وقال أيضًا: إنّ في بعض الكتبِ المترجمةِ أنّ يوحنّا[١٣] وشمعون[١٤] كانا من

(١) الهوينى، والهوينا، بالألف الطويلة اللّينة الساكنة: الرّفق والتّؤدة، وهي تصغير الهونى، مؤنث الأهون.

(٢) جانحة: مائلة.

(٣) مستوطنة: متّخذة وطنًا.

(٤) أنضيتها: هزلتها وأبليتها.

(٥) أرديتها: أهلكتها.

(٦) نواجذه: أضراسه. والمفرد منها ناجذ. ومعنى «ضحكت نواجذه»: بالغ في الضحك.

(٧) محمد بن سيرين، وكنيته أبو بكر، فقيه وعالم من علماء البصرة، اشتهر بتفسير الأحلام، وله كتاب يحمل هذا الاسم. توفي سنة ١٠٠ هـ/ ٧٢٩ م. انظر: الفهرست، لابن النديم، ص ٤٢٩، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

(٨) هشام بن عبد الملك، هو الخليفة الأموي العاشر، استلم مقاليد الخلافة بعد أخيه يزيد الثاني سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م، ومات سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. انظر: تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة الدينوري ٢/ ١٠٤، تحقيق طه الزيني، دار المعرفة، بيروت.

(٩) مؤنة التحفّظ: المؤنة، في الأساس، ما يتّخذ أو يذّخر من القوت. والتحفّظ من الشيء وعنه: الاحتراز والتصوّن. وسقوط المؤنة بين الاثنين أو الصديقين، كناية عن رفع الكلفة فيما بينهما.

(١٠) أحمد بن عبد ربه، المتوفّى ١٢٩ هـ/ ٩٤٠ م، شاعر وأديب أندلسي، اشتهر بكتابه القيّم الموسوم بـ«العقد الفريد». انظر: مقدمة «العقد الفريد» بقلم الأستاذ خليل شرف الدين، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

(١١) الملح، جمع ملحة، وهي الكلمة المليحة أو ما لذّ من الكلام.

(١٢) المرتع، مكان الرتع حيث السّعة والرغد والخصب.

(١٣) يوحنّا: هو أحد رسل المسيح الاثني عشر، وصاحب الإنجيل المعروف باسمه إضافة إلى رؤياه ورسائله الثلاث. مات نحو ١٠٠ م.

(١٤) شمعون، في الأصل، هو سمعان نفسه، ابن يعقوب، وجدّ أحد أسباط إسرائيل الاثني عشر. =

الحَوَارِيِّين[١]، فكان يوحنّا لا يجلسُ مجلسًا إلا ضحك وأضحك مَن حولَه، وكان شمعونُ لا يجلسُ مجلسًا إلا بكى وأبكى مَن حوله. فقال شمعون ليوحنا: ما أكثر ضحكَكَ! كأنك قد فرغتَ من عملِكَ! فقال له يوحنّا: ما أكثرَ بكاكَ! كأنك قد يئسْتَ من ربِّك، فأوحى الله إلى عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام: أنّ أحبَّ السّيرتين إليّ سيرةُ يوحنّا.

والعربُ إذا مدحوا الرجلَ قالوا: هو ضحوكُ السّنّ، بسّام العشيّاتِ، هَشٌّ[٢] إلى الضّيف. وإذا ذمّته قالت: هو عَبُوسُ الوجهِ، جَهْم المُحَيَّا[٣]، كريه المنظر، حامضُ الوجه «كأنما وجهُه بالخلّ منضوح»[٤]، وكأنما أُسْعِطَ[٥] خيشومه[٦] بالخَرْدل[٧].

وقيل لسفيان[٨]: المِزاحُ هُجْنة[٩]؛ فقال: بل سُنَّة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إني لأمزحُ ولا أقولُ إلا الحقَّ»، صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه أجمعين.

ذِكْرُ مُزاحات رسول الله ﷺ

وقد مَزح رسول الله ﷺ؛ فمن ذلك: أنه قال ﷺ لرجلٍ استحمله[١٠]: «نحن حاملوك على ولدِ الناقة»، يريد: البعير. وقال ﷺ لامرأةٍ من الأنصار: «الحَقِي زوجَكِ ففي عينهِ بياضٌ»، فسعتِ المرأةُ نحوَ زوجها مرعوبةً؛ فقال لها: ما دهاكِ؟ فقالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إنّ في عينِك بياضًا»؛ فقال: إنّ في عيني بياضًا لا

= ويعرف بشمعون الصفا. لكنّ سياق الحديث أعلاه يدلّ على أنه سمعان الشيخ، وهو الذي حمل المسيح بين يديه يوم تقدمته إلى الهيكل.

(١) الحواريون، وهم رسل السيد المسيح، كذلك لنقاء سريرتهم، ولخلوص نيّتهم.
(٢) هشّ له وإليه: تبسّم وارتاح إليه، وخفّ لمعروفه وإضافته.
(٣) جهم المحيّا: عابس الوجه. (٤) منضوح: مرشوش ومبلول.
(٥) أسعط: أُدخل في أنفه.
(٦) الخيشوم: أقصى الأنف، وتطلق على الأنف نفسه.
(٧) الخردل: نبات بريّ، حبّه صغير مقرّح، له فوائد طبّية، ويستخرج منه زيت الخردل.
(٨) سفيان، المقصود: سفيان الثوري، المحدّث المشهور، صاحب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م.
(٩) الهجنة، المصدر من هجن، وهي العيب أو القبح في الكلام وغيره.
(١٠) استحمله: سأله أن يحمل.

لسوء[١]. وأتته عجوزٌ أنصاريّة فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ لي بالمغفرة، فقال لها: «أمَا علمتِ أنّ الجنّةَ لا يدخلُها العُجز!» فصرخت؛ فتبسّم ﷺ وقال لها: «أمَا قرأتِ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: الآيات ٣٥ - ٣٧]».

ونظر عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه إلى إعرابيٍّ قد صلّى صلاةً خفيفة، فلمّا قضاها قال: اللّهمّ زوّجْني بالحورِ العِينِ؛ فقال عمر: يا هذا! أسأتَ النَّقْدَ، وأعظمتَ الخِطْبة.

ذكر مَن اشتهر بالمزاح من الصحابة رضوان الله عليهم

كان أشهرَهم بالمَزاحِ رضي الله عنهم نُعَيْمانُ، وهو أحدُ أصحابِ رسول الله ﷺ البدريّين[٢]، وله رضي الله عنه مزاحات مشهورة، منها ما روي: أنه خرج مع أبي بكرٍ الصِّدِّيق إلى بُصْرَى[٣]، وكان في الحملة سُوَيْبِط، وهو بدريٌّ أيضًا، وكان سويبط على الزّاد؛ فجاءه نعيمانُ فقال له: أطعمني؛ قال: لا، حتى يأتيَ أبو بكر. فقال نعيمان: والله لأغيظنَّك. وجاء إلى أُناسٍ جلبوا ظَهْرًا[٤]، فقال: ابتاعوا منّي غلامًا عربيًّا فارهًا[٥] إلّا أنه دعّاء[٦]، له لِسان، لعلّه يقول: أنا حرّ؛ فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه، لا تُفسدوا عليّ غُلامي. قالوا: بل نبتاعه منك بعشرِ قلائص[٧]، فأقبل بها يسوقُها، وأقبلَ بالقوم حتى عقلها[٨]، ثم قال: دونَكم! هذا هو. فقالوا: قد اشتريناك. فقال سويبِط: هو كاذب، أنا رجل حرٌّ؛ فقالوا: قد أُخْبِرْنا خبرَك، ووضعوا في عنقه حبلًا وذهبوا به. فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأُخبِر بذلك، فذهب هو وأصحابه، فردّوا القلائصَ على أربابِها وأخذوه، وأُخبر النبيُّ ﷺ بالقصّة فضحِك منها حَوْلًا.

---

(١) قوله لا لسوءٍ: إشارة منه ﷺ إلى قوله تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام في الآية الثانية والعشرين من سورة طه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾.

(٢) البدريّون، هم الذين شهدوا بدرًا، تلك الواقعة المشهورة بين المسلمين والمشركين.

(٣) بصرى، المراد بها بصرى أسكي شام، الواقعة قريبًا من الطريق المؤدّية من يثرب إلى الشام، كانت قصبة كورة حوران، ذكرها كثير في أسفارهم. انظر: معجم البلدان، لياقوت ١/٤٤١، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.

(٤) ظهرًا: مالًا كثيرًا.

(٥) فارهًا: نشطًا وخفيفًا.

(٦) الدعّاء: الكثير الدعاء.

(٧) قلائص، جمع قلوس، وهي من إناث الإبل أول ما يركب، والطويلة القوائم.

(٨) عقلها: ثنى وظيفها مع ذراعها فشدّهما معًا بحبل هو العِقال.

ومن مُزاحاته: أنه أهدى إلى رسول الله ﷺ جرّةَ عسل اشتراها من أعرابيّ، وأتى بالأعرابيّ إلى بابِ النبيّ ﷺ، فقال: خذ الثّمن مِن هاهنا، فلما قسمها النبيّ ﷺ نادى الأعرابيّ: ألَا أُعْطَى ثمنَ عسلي؟! فقال النبيّ ﷺ: «إحدى هَنَاتِ[١] نُعَيمان». وسأله: لِمَ فعلتَ هذا؟ فقال: أردتُ بِرَّكَ يا رسولَ الله، ولم يكن معي شيء. فتبسّم النبيّ ﷺ وأعطى الأعرابيّ حَقّه.

ومن مزاحاته أيضًا: أنه مرّ يومًا بمَخْرَمة بنِ نَوْفَلٍ الزُّهري، وهو ضرير، فقال له: قُدْني حتى أَبُول، فأخذ بيده حتى إذا كان في مؤخّر المسجد، قال له: اجلس؛ فجلس مخرمةُ ليبُولَ؛ فصاح الناس: يا أبا المِسْوَر، أنت في المسجد. فقال: من قادني؟ فقيل له: نعيمان. قال: لله عليّ أن أضربَه بعصاي إن وجدته، فبلغ ذلك نُعيمان، فجاء يومًا فقال لمخرمةَ: يا أبا المِسْور، هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: هو ذا يصلّي، وأخذ بيده وجاء به إلى عثمانَ بنِ عفْان رضي الله عنه وهو يصلّي، فقال: هذا نعيمان؛ فعلاه مَخْرَمَةُ بعصاه؛ فصاح به الناس: ضربتَ أميرَ المؤمنين، فقال: من قادني؟ قالوا: نعيمانُ؛ فقال: لا جَرَم[٢] لا عرَضْتُ له بسوء أبدًا.

ومنهم ابنُ أبي عَتِيق، وهو عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمٰن بنِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنهم. وكان ذا وَرَع[٣] وعَفاف وشرف، وكان كثير المجُون[٤]، وله نوادرُ مستظرفةٌ، منها: أنه لقي عبدَ اللهِ بنَ عمرَ بن الخطّابِ رضي الله عنه قال: ما تقول في إنسان هجاني بشعرٍ، وهو: [من الكامل]

أذهبتَ مَالَكَ غيرَ مُتَّرِكٍ ... في كُلِّ مؤنسةٍ وفي الخَمْرِ
ذهبَ الإلٰهُ بما تَعيشُ بهِ ... وبَقِيتَ وَحْدَكَ غيرَ ذِي وَفْرِ[٥]

فقال عبدُ الله بنُ عمرَ: أرى أن تأخذَ بالفضلِ وتصفَح. فقال له عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرحمٰنِ: والله أرى غيرَ ذلك. فقال: وما هو؟ قال: أرى أن أُنِيكَه. فقال ابنُ عمر: سبحانَ الله! ما تترك الهزل!؟ وافترقا. ثم لقِيه بعدَ ذلك فقال له: أتدري ما فعلتُ بذلك الإنسان؟ فقال: أيّ إنسان؟ قال: الذي أعلمتُك أنه هجاني.

---

(١) هنات، جمع هنَة، وهي خصلة الشرّ، والشيء الصغير.
(٢) لا جرم: حقًّا، وفيها معنى القسم؛ ومن معانيها: لا بدّ ولا محالة.
(٣) الورع: اجتناب الشبهات والمعاصي، وهو التقوى أيضًا.
(٤) المجون: المزح وقلّة الحياء.
(٥) الوفر: الغنى.

قال: ما فعلتَ به؟ قال: كلُّ مملوكٍ لي حرّ إن لم أكن نِكْته، فأعْظَمَ ذلك عبدَ الله بن عمرٍ واضطرب له. فقال له: امرأتي والله التي قالت الشعر وهجتني به. وكانت امرأتُه أمّ إسحٰق بنتُ طلحةَ بنِ عبيد الله.

وقد مدح الشعراء اللعِبَ في موضعه، كما مُدِحَ الجِدُّ في موضعه؛ فقال أبو تمام: [من الرجز]

الجِدّ شيمتُه[١] وفيه فُكاهةٌ ... طورًا ولا جِدّ لمن لم يلعبِ

وقال الأُبَيْرِد[٢] رحمة الله عليه: [من الطويل]

إذا جدَّ عند الجِدّ[٣] أرضاك جِدُّه ... وذو باطلٍ إنْ شئتَ ألهاكَ باطِلُهْ

ومن مجونِ عبدِ الله بن محمدِ بن عبدِ الرحمٰن ما حُكيَ أنّ جاريته، قالت له: إنّ فلانًا القارىءَ كان يُظهر النسك[٤]، قد قطع عليّ الطريقَ وآذاني ويقول لي: أنا أُحبّكِ. فقال لها: قولي له: وأنا أُحبُّكَ أيضًا، وواعديهِ[٥] المنزِل؛ ففعلت وأدخلَتْه المنزلَ؛ وكان عبدُ اللهِ قد واعد جماعةً من أصحابه ليضحكوا من الرجل، ودخلت الجاريةُ إلى البيت الذي فيه الرجلُ، فدعاها فاعتلّت عليه[٦]؛ فوثَب إليها فاحتملها وضرب بها الأرضَ؛ فدخل عليه ابنُ أبي عَتيقٍ وأصحابُه وقد تورّكها[٧]؛ فخجل وقام وقال: يا فُسّاقُ، ما تجمّعتم هٰهنا إلا لِريبة. فقال له ابنُ أبي عتِيق: اُسترْ علينا، سترَ الله عليك. ثم لم يرتدع عن العَبَث بها، فشكَتْ ذلك إلى سيِّدها؛ فقال لها: هَيِّئي من الطّعام طِحْنَ ليلةٍ إلى الغداةِ ففعلت، ثم قال لها: عِديه الليلةَ، فإذا جاء فقولي له: إنّ وظيفتي الليلةَ طَحْنُ هذا كلِّه، ثم اخرجي إلى البيت واتركيه، ففعلت. فلما دخل طَحنت الجاريةُ قليلًا، ثم قالت له: أدِرِ الرَّحَى[٨] حتى أفتقدَ سيِّدي، فإذا نام وأمِنّا أن يأتِيَنا أحد، صرتُ إلى ما تحبُّ، ففعل؛ ومضت الجاريةُ إلى مولاها، وأمر ابن أبي عَتِيق عدّة من مَوْلَياته[٩] أن

---

(١) شيمته: خلقه وعادته وطبعه.

(٢) هو الأبيرد بن المعذّر الريحاني، من بني يربوع، من تميم. شاعر أموي بدوي فصيح، مات سنة ٦٨ هـ/٦٨٦ م. انظر: الأعلام للزركلي ١/٧٨.

(٣) الجد، بخلاف الهزل، وهو الاجتهاد.

(٤) النسك: العبادة، وكلّ حقّ لله تعالى.

(٥) واعديه: عاهديه على أن يوافيك في موضع أو في وقت معيّن.

(٦) اعتلّت عليه: امتنعت منه لعلّة ما.

(٧) تورّكها: اعتمد على وركيه أو حملها على وركيه.

(٨) الرحى: الطاحون.

(٩) مولياته: إمائه ونسائه المملوكات له.

يتراوحْن[١] على سَهَرِ ليلتِهِنّ ويتفقّدْنَ أمرَ الطَّحنِ ويَحْثُثْن عليه، ففعَلْنَ وجعلْنَ يُنادين الفتى كلما كفّ عن الطَّحْن: يا فلانةُ إنّ مولاكِ مستيقِظٌ، والساعةَ يعلم أنّكِ قد كففتِ عن الطَّحن، فيقومُ إليك بالعصا كعادته مع من كانت نوبتها[٢] قبلك إذا هي نامت وكفّت عن الطحن. فلم يزل كلّما سمع ذلك الكلام منهنّ اجتهد في العمل والجارية تتفقّده وتقول له: استيقظ مولاي والساعة ينام فأصير إلى ما تحبّ وهو يطحن، حتى أصبح وفرغ القمح. فأتته الجارية بعد فراغه فقالت له: قد أصبح فانجُ بنفسك. فقال: أوَ قد فعلتِها يا عدوّةَ الله! وخرج تعِبًا نَصِبًا، وأعقبه ذلك مرضًا شديدًا أشرف منه على الموت، وعاهد الله ألّا يعود إلى كلام الجارية، فلم تر منه بعد ذلك شيئًا تكرهه. قال: وتعشّى عبدُ الله ليلةً ومعه رجلٌ من الأنصار، فوقع حجرٌ في الدّارِ، ووقع آخرُ، وثالثٌ؛ فقال للجارية: اخرجي فانظري، أَذّنوا المغربَ أم لا؛ فخرجت وجاءت بعدَ ساعة، وقالت: قد أذّنوا وصلّوا. فقال الرجل الذي كان عنده: أليس قد صلّينا قبل أن تدخل الجارية؟ قال: بلى، ولكن لو لم أُرسلها تسألُ عن ذلك لَرُجِمْنا[٣] إلى الغَداة، أفهمت؟! قال: نعم، قد فهمت. قال: وسمع عبدُ الله بنُ أبي عَتيقٍ قولَ عمرَ بنِ أبي ربيعة: [من الخفيف]

مَنْ رسولي إلى الثُّرَيّا[٤] فإنّي ضِقْتُ ذرعًا بهجرها والكتابِ

فركب بغلته من المدينة، وسار يريدُ مكّةَ، فلما بلغ ذا الحُلَيْفةِ[٥] قيل له: أحْرِمْ[٦]؛ قال: ذو الحاجةِ لا يُحْرِمُ، وجاء حتى دخل على الثريّا. فقال لها: ابنُ عمّكِ يقول:

* ضِقْتُ ذرعًا بهجرها والكتاب *

ثم ركب بغلته وعاد.

---

(١) يتراوحن: يتناوبن القيام بالسهر هذه مرّة، وهذه مرّة.
(٢) نوبتها: دورها، وقيامها بالأمر. (٣) رُجمنا: رمينا بالحجارة.
(٤) الثريّا، واحدة ممّن شبّب بهنّ عمر بن أبي ربيعة، وهي الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وكانت من أجمل نساء عصرها، ومن ذوات الترف والدلال. وضقت ذرعًا بالأمر: لم أقدر عليه.
(٥) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، ومنها ميقات أهل المدينة، وهو من مياه جشم، بينهم وبين خفاجة من عُقيل. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٩٥.
(٦) أحرم: انزع ثيابك العادية، واستبدلها بثياب الإحرام، وهي عبارة عن ثوبين اثنين أبيضين، أحدهما المئزر، والآخر الشملة. يفعل هذا عند الميقات باتجاه الدخول إلى البلد الحرام، أي مكة ومسجدها.

ذِكْرُ شيء من مجون الأعراب

سُئِل أعرابيٌّ عن جاريةٍ له يقال لها زهرة، فقيل له: أيسُرُّك أنّكَ الخليفةُ وأنّ زهرةَ ماتت؟ فقال: لا والله! تذهب الأمَةُ[1] وتضيعُ الأُمّة. وجد أعرابيّ مِرآة وكان قبيح الصورة، فنظر فيها فرأى وجه فاستقبحه، فرمى بها وقال: لشرٍّ مّا طرحَك أهلُك. وقيل لأعرابيّ: لِمَ يقال: باعك الله في الأعراب؟ فقال: لأنّا نُجيع كَبِده، ونُعْرِي جلدَه، ونُطِيل كدَّه[2]. وتزوّج أعرابيّ على كِبَرِ سنّه، فقيل له في ذلك؛ فقال: أبادِره باليُتْم، قبلَ أن يُبادِرَني بالعُقوق[3]. ومرّ أعرابيٌّ وفي يده رغيفٌ برجلٍ في يده سيفٌ، فقال: بِعْني هذا السّيفَ بهذا الرغيفِ؛ فقال: أمجنون أنت؟ فقال الأعرابيّ: ما أنكرتَ منّي؟ انظر أيّهما أحسن أثرًا في البطن.

وحُكي أن المهديّ[4] خرج للصّيد فغلبه فرسُه حتى انتهى به إلى خِباءٍ لأعرابيٍّ، فقال: يا أعرابيُّ، هل من قِرًى[5]؟ قال: نعم، وأخرج له فضْلةً من خُبْز مَلّةٍ فأكلها، وفُضْلَةً من لبنٍ فسقاه، ثم أتى بنبيذٍ في زُكْرةٍ[6] فسقاه قَعْبًا[7]. فلمّا شرِب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا والله. قال: أنا من خَدَمِ الخاصّة؛ قال: بارك لك الله في موضعك. ثمّ سقاه آخر؛ فلمّا شرِبه قال: أتدري من أنا؟ قال: نعم، زعمت أنك من خدم الخاصّة؛ قال: بل أنا من قوّاد أمير المؤمنين؛ فقال له الأعرابيّ: رَحُبَتْ بلادُك؛ وطابَ مزادُك ومَرَادُك[8]. ثم سقاه قدحًا ثالثًا؛ فلما فرغ منه قال: يا أعرابيّ، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أخيرًا أنك من قوّاد أمير المؤمنين؛ قال: لا ولكنّي أميرُ المؤمنين، فأخذ الأعرابيّ الزكرة فأوكأها[9]، وقال: والله لئن شربت الرابع لتقولنّ، إنّك لرسول الله؛ فضحك المهديّ. ثم أحاطت بهم الخيلُ، فنزل أبناءُ الملوك والأشراف؛ فطار قلبُ الأعرابيّ؛ فقال له المهديّ: لا

---

(١) الأمة: الجارية، والعبدة، والمرأة المملوكة. (٢) كدّه: أتعبه.
(٣) العقوق: العصيان وترك الشفقة على الآخر، والاستخفاف به، وعدم الإحسان إليه.
(٤) المهدي: لقب الخليفة العباسي الثالث محمد بن المنصور. مات سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م. انظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي، ص ٢٨٦، دار صعب، بيروت.
(٥) قرى: القرى: ما يقدم للضّيف.
(٦) الزكرة: وعاء من جلد للّبن أو الخمر أو غيره.
(٧) القعب: القدح الضخم الغليظ.
(٨) مرادك: المراد، مكان رياد الإبل وغيرها، أي اختلافها في المرعى مقبلة أو مدبرة. والمراد أيضًا، مكان رود الماء.
(٩) أوكاها: شدّها بالوكاء، وهو رباط القربة أو الزّكرة ونحوها.

بأسَ عليك! وأمر له بصِلة. فقال: أشهدُ أنّك صادقٌ، ولو ادّعيتَ الرابعةَ لخرجت منها.

ودخل أعرابيّ على يزيدِ بنِ المهلّب[١] وهو على فَرْشِه والناس سِمَاطان[٢]، فقال: كيف أصبح الأمير؟ قال يزيد: كما تُحِبّ، فقال الأعرابيّ: لو كنتَ كما أُحِبّ كنتَ أنت مكاني وأنا مكانك؛ فضحِك يزيد.

ذكر شيء من نوادر القضاة

قيل: أتى عَدِيّ بنُ أرطاةَ شُرَيْحًا القاضي[٣] ومعه امرأةٌ له من أهل الكوفةِ يخاصمُها إليه؛ فلما جلس عَدِيّ بينَ يدَيْ شُرَيحٍ، قال عَدِيّ: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إني امرؤ من أهل الشام؛ قال: بعيدُ الدار. قال: وإنّي قدمت العراق، قال: خير مَقْدِم. قال: وتزوّجتُ هذه المرأة؛ قال: بالرِّفاء[٤] والبنين. قال: وإنها ولدت غلامًا؛ قال: لِيَهْنِك الفارس. قال: وقد أردت أن أنقلَها إلى داري؛ قال: المرءُ أحقُّ بأهلِه. قال: كنت شَرَطت لها دارها؛ قال: الشرطُ أمْلَك. قال: اقضِ بيننا؛ قال: قد فعلت. قال: فعلى مَن قضيت؟ قال: على ابنِ أُمّك.

ودخل على الشعبيّ[٥] في مجلس قضائهِ رجلٌ وامرأته، وكانت المرأةُ مِن أجملِ النساءِ، فاختصما إليه، فأدْلت المرأةُ بحجّتها، وقَوِيت بيِّنتُها. فقال للزوج: هل عندك مِن دافع؟ فأنشأ يقول: [من مجزوء الرمل]

فُـتِـنَ الـشَّـعْـبِـيُّ لَمّـا ... رفـع الـطَّـرْفَ[٦] إلـيـهـا
فَـتَـنَـتْـهُ بِـدلالٍ ... وبِـخَـطَّـيْ حـاجِـبَـيْـهـا

---

(١) يزيد بن المهلّب: عامل خراسان بعد وفاة أبيه. عزل وسجن ثم فرّ من سجنه، قتله مسلمة بن عبد الملك.

(٢) السماطان: مثنى السماط، وهو الشيء المصطفّ، وهو الصفّ من الناس.

(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي، ولي قضاء الكوفة لعمر. بقي قاضيًا حتى زمن السفاح. كان فقيهًا وشاعرًا وصاحب مزاح. مات سنة ٧٨ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨٥.

(٤) الرفاء: المصدر من رافاه مرافاة ورفاء، إذا وافقه. وقوله: بالرفاء والبنين، يتضمن دعوة مباركة للعرس.

(٥) الشعبي، من التابعين البلغاء والحكماء، ضمّن الثعالبي كلامه في عداد أصحاب الإعجاز والإيجاز. انظر: الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ص ٣٧، دار صعب، بيروت.

(٦) الطرف: العين.

قال لِلْجِلْوازِ[١] قَرِّبْـــ ـــها وقَدِّمْ شاهِدَيْها

فقضى جَوْرًا[٢] على الخَصْـ ـمِ ولم يقضِ عليها

قال الشعبيُّ: فدخلت على عبد الملكِ بن مروان؛ فلما نظر إليّ تبسّم، وقال:

فُتِنَ الشعبيّ لمّا رفع الطَّرْف إليها

ثم قال: ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعتُه ضربًا يا أميرَ المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة وما افترى به عليّ، قال: أحسنت! وأحضرَ رجلٌ امرأته إلى بعضِ قضاةِ البَصْرة، وكانت حسنةَ المُنْتَقَبِ[٣]، قبيحة المَسْفَر[٤]؛ فمال القاضي لها على زوجها وقال: يعمِد أحدكم إلى المرأة الكريهة فيتزوّجُها ثم يسيءُ إليها. ففطن الرجلُ لميلهِ إليها فقال: أصلح الله القاضي، قد شككتُ في أنها امرأتي، فمُرْها تَسْفِر عن وجهها؛ فوقَع ذلك بوِفاق من القاضي، فقال لها: اسفري رحمكِ الله؛ فسفَرت عن وجه قبيح. فقال القاضي لمّا نظر إلى قبح وجهها: قُومي عليكِ لعنةُ الله! كلامُ مظلوم، ووجهُ ظالم.

قيل: بينا رَقَبةُ بنُ مَصْقَلة القاضي في حَلْقته، إذ مرّ به رجل غليظُ العنق؛ فقال له بعضُ جلسائه: يا أبا عبدِ الله، هذا أعبدُ الناس. فقال رقبة: إني لأرى لهذا عنقًا ما دقّقتها العبادة. قال: فمضى الرجل وعاد قاصدًا إليهم. فقال رجل لرقبة: يا أبا عبد الله، أخبره بما قلت حتى لا تكون غِيبة[٥]؛ قال: نعم، أخبره أنت حتى تكون نميمة[٦]. ودخل رَقَبةُ إلى المسجد الأعظم فألقى نفسه إلى حلقة قوم، ثم قال: قتيل فالوذج[٧] رحمكم الله! قالوا: عند من؟ قال: عند من حكم في الفُرقة وقضى في الجماعة، يعني: بلال بن أبي بُرْدَة.

---

(١) الجلواز: رجل الشرطة. (٢) جورًا: ظلمًا.
(٣) المنتقب: المصدر الميمي أو اسم المكان من انتقبت المرأة، إذا لبست نقابها على وجهها.
(٤) المسفر: المصدر الميمي أو اسم المكان من سفرت المرأة، إذا كشفت عن وجهها.
(٥) الغيبة: ذكر المرأة الآخرين بما يسوء.
(٦) النميمة: فعل النّمام، وهو الذي يظهر الحديث بالوشاية، ويرفعه على وجه الإفساد والإشاعة بين الناس.
(٧) الفالوذج: ضرب من الحلواء، واللفظة في الأصل فارسية.

واختصم رجلان إلى إياس بنِ معاويةَ وهو قاضي البَصْرة لعمرَ بنِ عبد العزيز في مِطْرَف[١] خَزّ وأنبجانِيّ[٢]، وادّعى كل واحد منهما أن المِطْرف له وأن الأنبجانيّ لصاحبه، فدعا إياس بمشط وماء، فبلّ رأس كل واحد منهما، ثم قال لأحدهما: سَرِّح رأسك فسرّحه، فخرج في المشط عَفر المِطْرف، وفي مشط الآخر عَفْرُ الأنبجانيّ؛ فقال: يا خبيث! الأنبجانيّ لك، فأَقَرّ[٣]، فدفع المطرف لصاحبه. وقال رجل لإياس: هل ترى عليّ من بأس إن أكلت تمرًا؟ قال: لا، قال: فهل ترى عليّ من بأس إن أكلت معه كَيْسومًا[٤]؟ قال: لا، قال: فإن شربت عليهما ماء؟ قال: جائز. قال: فلم تحرّم السّكر، وإنما هو ما ذكرت لك؟ قال له إياس: لو صببت عليك ماءً هل كان يضرُّك؟ قال: لا، قال: فلو نثرت عليك ترابًا هل كان يضرّك؟ قال: لا، قال: فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لَبِنةً عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرّك؟ قال: كنتَ تقتلُني، قال: فهذا مثلُ ذاك.

دعا الرشيد[٥] أبا يوسف[٦] القاضي فسأله عن مسألةٍ فأفتاه؛ فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمرَ بتعجيلِها قبلَ الصبح! فقال: عَجِّلوها له. فقيل: إنّ الخازنَ في بيته والأبواب مغلقة. فقال أبو يوسف: وقد كنت في بيتي والدروب مغلقة، فلمّا دُعِيت فُتِحت. فقال له الرشيد: بلغني أنك لا ترى لُبْس السواد. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ولِم وليس في بدني شيء أعزّ منه؟ قال: وما هو؟ قال: السوادُ الذي في عينيّ.

وسأل الرشيدُ الأوزاعيّ[٧] عن لُبْس السّواد، فقال: لا أُحرّمُه، ولكني أكرهُه. قال: ولِم؟ قال: لأنه لا تُجْلَى[٨] فيه عَرُوس، ولا

(١) مطرف الخزّ: الدواء المعلم من الحرير.

(٢) الأنبجاني: ضرب من اللباس ينسب إلى أنبجان.

(٣) أقرّ: اعترف، وشهد على نفسه. (٤) الكيسوم: الحشيش الكثير.

(٥) الرشيد، لقب الخليفة العباسي الخامس، واسمه هارون. تولّى بعد أخيه الهادي. مات سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٩.

(٦) هو يعقوب بن إبراهيم القاضي المشهور، تولّى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. أول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب «الخراج» و«الردّ على سير الأوزاعي»، توفي سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. انظر: الفهرست ص ٢٨٦.

(٧) الأوزاعي، هو عبد الرحمٰن الأوزاعي الفقيه المشهور، ولد في بعلبك، وصار صاحب مذهب فقهي معروف. قبره جنوبي بيروت، له كتاب «السنن» و«المسائل». مات سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م. انظر: الفهرست ص ٣١٨.

(٨) تجلى: تعرض على زوجها مجلوّة ومزيّنة ليلة عرسها.

يلبّي[١] فيه مُحْرِم[٢]، ولا يُكَفَّن فيه ميّت. فالتفت الرشيد إلى أبي يوسف وقال: ما تقول أنت في السواد؟ قال: يا أمير المؤمنين، النورُ في السواد. فاستحسن الرشيد ذلك؛ ثم قال: وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال: لم يكت كتابُ الله إلّا به؛ فاهتزّ الرشيد لذلك.

تقدّم رجل إلى أبي حازمِ عبد الحميدِ بنِ عبد العزيز السَّكُونيّ قاضي المعتمدِ[٣]، وقدّم أباه يطالبه بدَين له عليه، فأقرَّ الأب بالدّين، وأراد الابن حبس والده. فقال القاضي: هل لأبيك مال؟ قال: لا أعلمه، قال: فَمُذْ كم داينته بهذا المال؟ قال: منذ كذا وكذا. قال: قد فرضتُ عليك نفقة أبيك من وقت المداينة؛ فحبس الابن وخلّى الأب.

كان عبد الملك بن عمرَ قاضي الكوفة، فهجاه هُذَيْل الأشجعيّ بأبياتٍ منها: [من الطويل]

إذا ذاتُ دَلٍّ كلّمته بحاجةٍ فهَمَّ بأن يقضي تنحنحَ أو سَعَلْ[٤]

فكان عبد الملك يقول: قاتله الله! واللهِ لربما جاءتني النحنحةُ وأنا في المتوضأ[٥] فأذكرُ ما قال فأرُدّها.

وقيل: شَهِد سلميُّ الموسوسُ عند جعفر بن سليمان على رجل، فقال: هو - أصلحك الله - ناصِبيّ[٦]، رافِضِيّ[٧]، قَدَرِيّ[٨]، مجبِرِيّ[٩]، يشتم الحجّاج بنَ الزبير الذي يهدم الكعبةَ على عليّ بنِ أبي سفيان. فقال له جعفر: ما أدري على أيّ شيء

(١) يلبّي: يقول: لبّيك اللّهمّ لبّيك، وذلك حين التوجّه لزيارة الكعبة المشرّفة.

(٢) المحرم: من يلبس ثوبي الإحرام بقصد زيارة الكعبة المشرّفة.

(٣) المعتمد، هو أحمد بن المتوكّل، الخليفة العباسي الخامس عشر، لقب بالمعتمد، وكان أخا الموفق. توفي مسمومًا سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٨.

(٤) الدّلّ، التغنّج والتلوّي، وإظهار الجرأة في تلطّف.

(٥) المتوضأ: مكان الوضوء.

(٦) الناصبيّ: من يظهر النصب والعداوة لعليّ بن أبي طالب وشيعته.

(٧) الرافضيّ: من يظهر الرفض والعداوة لأبي بكر وعمر وعثمان وأشياعهم.

(٨) القدري، الذي يقول بأن الإنسان قادر على عمل الخير أو الشرّ، وهو المنسوب إلى القدريّة.

(٩) الجبري، الذي يقول بأن الإنسان مجبر على الخير أو الشرّ، وهو المنسوب إلى الجبرية.

أحسدك: على علمك بالمقالات، أم على معرفتك بالأنساب! فقال: أصلح الله الأمير، ما خرجتُ من الكُتّاب[١]، حتى حذفت هذا كلّه ورائي.

واستُفْتِي بعضُ القضاة، وقد نُسِبت إلى القاضي أبي بكر بن قُرَيْعَة، فقيل له: ما يقول سيّدنا القاضي أيّده الله في رجل باع حِجْرًا[٢] من رجل، فحين رفع ذنبها ليقلّبه خرجت منها رِيحٌ مصوّتة اتصلت بحصاةٍ ففقأت عينَ المشتري؟ أفتِنا في الدِّية[٣] والردّ يرحمك الله. فأجاب: لم تجرِ العادة بمثل هذه البدائع، بين مشترٍ وبائع؛ فلذلك لم يثبت في كتب الفقهاء، ولم يستعمل في فتوى العلماء؛ لكن هذا وما شاكله[٤] يجري مجرى الفضول، المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه ـ وبالله العصمة من الزَّلَل والخطل: أنّ دِيَةَ ماجنته الحِجْرُ ملغى في الهَدْرِ، عملًا بقول النبيّ المختار، صلّى الله عليه وعلى آله الأطهار، «جُرْح العَجْماء جُبَار»[٥]؛ لا سيّما والمشتري عند كشفه لعورتها، استثار كامِن سَوْرتها[٦]، وعلى البائع لها ارتجاعها، وردّ ما قبض من ثمنها؛ لأنه دلّس[٧] حِجْرًا مَضِيقُها مَنْجنيقُها[٨]. وإذا كانت السِّهام طائشة، فهي من العيوب الفاحشة، وكيف يمتنع ردّها وأغراضها نواظر الحَدَق[٩]، وقلّما يَسْتظهِر المقلّبون الخيل بالدَّرَق[١٠].

ذِكْر شيء من نوادر النُّحاة

قدّم رجل من النحاة خصمًا إلى القاضي، وقال: لي عليه مائتان وخمسون درهمًا، فقال لخصمه: ما تقول؟ فقال: أصلح الله القاضي، الطلاق لازم له، إن كان له إلا ثلاثمائة، وإنما ترك منها خمسين ليعلم القاضي أنه نَحْوِيّ.

---

(١) الكتاب، موضع التعليم. (٢) الحجر: الأنثى من الخيل.
(٣) الدّية: ما يعطى من المال بدل نفس القتيل، والأصل: ودي، المصدر من ودى وديًا وديّة، قلبت الواو تاء مربوطة، ثم وضعت في آخر الكلمة.
(٤) شاكله: ناظره وشابهه.
(٥) العجماء: مؤنث الأعجم، وهي البهيمة. ومعنى الحديث أن جرح البهيمة هدر لأنها لا تقاصّ بما فعلت.
(٦) سورتها: شدّتها وغيظها.
(٧) دلّس البائعُ: كتم عيب ما يبيعه من المشتري، ودلّس: خدع وكذب.
(٨) المنجنيق، آلة ترمى بها الحجارة الضخمة على الأعداء.
(٩) الحدق، جمع حدقة، وهي سواد العين الأعظم.
(١٠) الدرق، جمع درقة وهي الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب.

ومرّ أبو علقمة بأعْدالٍ[١] قد كُتِب عليها: رُبٌّ[٢] سُلِّم لأبو فلان؛ فقال لأصحابه: لا إلـه إلّا الله! يلحنون[٣] ويربحون.

وجاء رجل إلى الحسن البصري، فقال: ما تقول في رجل مات فترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه. فقال: ما لأباه وأخاه؛ فقال الحسن: ما لأبيه وأخيه. فقال الرجل: إني أراك كلّما طاوعتك تخالفني! وقيل سِكر هارون بن محمدِ بنِ عبد الملك ليلةً بين يدي الموفَّق[٤]، فقام لينصرفَ فغلبه السكر فنام في المضْرِب، فلمّا انصرف الناس جاء راشدٌ الحاجب فأنبْهه وقال: يا هارونُ انصرف. فقال: هارون لا ينصرف، فأعاد راشد القول على هارون، فقال هارون: سَلْ مولاك فهو يعلم أن هارون لا ينصرف. فسمع الموفّق فقال: هارون لا ينصرف؛ فتركه راشد. فلمّا أصبح الموفّق وقف على أن هارون بات في مِضْرَبه[٥]؛ فأنكر على راشد، وقال: يا راشدُ، يبيت في مِضْرَبي رجل لا أعلم به! فقال: أنت أمرتني بهذا، قلت: هارون لا ينصرف. فضحك وقال: ما أردت إلا الإعرابَ وظننتَ أنت غيره.

وقيل: قدِم العُرْيان بنُ الهيثم على عبد الملك، فقيل له: تحفَّظْ من مَسْلَمة فإنه يقول: لأَن يُلْقِمني رجل بحجر أحبُّ إليّ من أن يُسمِعني رجل لَحنًا. فأتاه العريان ذاتَ يوم فسلّم عليه، فقال له مَسْلَمة: كم عطاءك؟ قال: ألفين. فنظر إلى رجل عنده وقال له: لَحن العراقيّ؛ فلم يفهم الرجل عن مسلمةَ، فأعاد مسلمةُ القولَ على العريان، وقال: كم عطاؤك؟ فقال: ألفان. فقال: ما الذي دعاك إلى اللّحِن أوّلًا والإعراب ثانيًا؟ قال: لَحِنَ الأميرُ فكرِهت أن أُعْرِب[٦]، وأعرب فأعربت، فاستحسن قوله وزاد في عطائه.

ووقف نحويٌّ على بَقّال يبيع الباذنجانَ، فقال له: كيف تبيع؟ قال: عشرين بدانق[٧]، فقال: وما عليك أن تقول: عشرون بدانق؟ فقدّر البقّال أنه يستزيده، فقال:

---

(١) أعدال، جمع عدل، وهو الغِرارة والجوالق لأنه يحمل على جنب البعير ويعدل بآخر. والعدل أيضًا: الكيل.

(٢) الرُّبّ: ما يطبخ من التمر وسواه، أو هو ما يختّر من عصير الثمار.

(٣) يلحنون: يخطئون في الإعراب ويخالفون وجه الصواب، والمصدر اللحن.

(٤) الموفّق: هو الموفّق بالله، طلحة بن المتوكّل الخليفة العباسي، والموفّق والد الخليفة المعتضد. كان وليًا للعهد في خلافة أخيه المعتمد. قضى على ثورة الزّنج بمعاونة لؤلؤ. توفي سنة ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٩.

(٥) المضرب: الخيمة العظيمة.

(٦) أعرب، بخلاف ألحن، وأعرب: أبان وأفصح ولم يخطىء في الإعراب.

(٧) الدانق: قطعة نقدية كانت تساوي سدس الدرهم.

ثلاثين بدانق. فقال: وما عليك أن تقول: ثلاثون؟ فما زال على ذلك إلى أن بلغ سبعين، فقال: وما عليك أن تقول: سبعون؟ فقال: أراك تدور على الثمانون، وذلك لا يكون أبدًا.

ذكر شيء من نوادر المتنبئين

قيل: ادّعى رجل النبوّةَ في أيام المهديّ، فأُدْخِل عليه؛ فقال له: إلى من بُعثت؟ فقال: ما تركتموني أذهب إلى من بُعثت إليهم، فإنّي بُعثت بالغداة وحبستموني بالعشيّ، فضحك المهديّ منه وأمر له بجائزة وخلّى سبيله.

وتنبّأ رجل وادّعى أنه موسى بنُ عُمرانَ، فبلغ خبرُه الخليفةَ، فأحضره وقال له: من أنت؟ قال: أنا موسى بنُ عمرانَ الكليم[1]. قال: وهذه عصاك التي صارت ثعبانًا! قال: نعم، قال: فألقِها من يدك ومُرْها أن تصير ثعبانًا كما فعل موسى. قال: قل أنت ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: الآية ٢٤]، كما قال فرعون[2] حتى أُصَيِّر عصاي ثعبانًا كما فعل موسى. فضحِك الخليفة منه واستظرفه، وأُحْضِرتِ المائدةُ، فقيل له: أكلتَ شيئًا؟ قال: ما أحسَنَ العقلَ! لو كان لي شيء آكله، ما الذي كنتُ أعمل عندكم؟ فأعجب الخليفة وأحسن إليه.

وادّعت امرأة النبوّة على عهد المأمون[3]؛ فأُحضِرت إليه فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا فاطمةُ النبيّة. فقال لها المأمون: أتؤمنين بما جاء به محمّدٌ ﷺ؟ قالت: نعم، كلُّ ما جاء به فهو حقّ. فقال المأمون: فقد قال محمد ﷺ: «لا نبيّ بعدي». قالت: صدق عليه الصلاة والسلام، فهل قال: لا نبيّةَ بعدي؟ فقال المأمون لمن حضره: أمّا أنا فقد انقطعت، فمن كانت عنده حُجَّة فليأتِ بها، وضَحِك حتى غطّى على وجهه.

---

(١) الكليم: صفة لموسى، نبيّ الله، أطلقت عليه لأن الله تعالى خاطبه وكلّمه.

(٢) فرعون، أحد فراعنة مصر. أرسل إليه موسى مبشّرًا ونذيرًا فلم يؤمن بما أتى به موسى، لكنّ سحرته الذين جمعهم لكيد موسى، آمنوا بالله وتخلّوا عن عبارة فرعون وأشياعه. انظر: مروج الذهب، للمسعودي ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦. شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢.

(٣) المأمون: هو عبد الله بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي السابع، قتل أخاه الأمين وخلفه، مات سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣٠٢.

وادّعى رجل النبوّةَ؛ فقيل له: ما علاماتُ نبوّتك؟ قال: أنبئكم بما في نفوسكم. قالوا: فما في أنفسنا؟ قال: في أنفسكم أنني كذبت ولست بنبيّ.

وتنبأ رجل في أيام المأمون، فأُتِي به إليه؛ فقال له: أنت نبيّ؟ قال: نعم، قال: فما معجزتُك؟ قال: ما شئت. قال: أَخْرِجْ لنا من الأرض بِطّيخة. قال: أمهلني ثلاثةَ أيّام. قال المأمون: بل الساعةَ أريدُها. قال: يا أميرَ المؤمنين، أنصفْني، أنت تعلم أنّ الله يُنبِتها في ثلاثة أشهر، فلا تقبلها مني في ثلاثة أيام! فضحك منه، وعلم أنه محتال، فاستتابه[١] ووصَله.

وادّعى آخرُ النبوّةَ في زمانه فطالبه بمُعْجِزة، فقال: أطرَح لكم حصاةً في الماء فأُذيبها حتى تصيرَ مع الماء شيئًا واحدًا. قالوا: قد رَضِينا، فأَخْرَجَ حصاةً كانت معه فطرحها في الماء فذابت. فقالوا: هذه حيلة، ولكن أَذِبْ حصاةً غيرَها نأتيك بها نحن. فقال لهم: لا تتعصّبوا، لستم أضلّ من فرعون، ولا أنا أعظم من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لا أرضى بما تفعله بعصاك حتى أُعطِيك عصا من عندي تجعلها ثعبانًا، فضحك المأمون منه وأجازه.

وادّعى رجل النبوّة في أيام المعتصم، فأُحضر بين يديه؛ فقال له: أنت نبيّ؟ قال: نعم، قال: إلى من بُعثت؟ قال: إليك. قال: أشهد إنك لسَفيهٌ[٢] أحمق[٣]. قال: إنما يذهب إلى كل قوم مثلُهم. فضحِك منه وأمر له بشيء.

وادّعى آخر النبوّة في أيام المأمون؛ فقال له: ما مُعْجِزتك؟ قال: سَلْ ما شئت؛ وكان بين يديه قُفْل، فقال: خذ هذا القفلَ فافتحْه، فقال: أصلحك الله، لم أقل إني حدّاد. فضحك منه واستتابه وأجازه.

وادّعى آخر النبوّة، فطُلِب ودُعِي له بالسيف والنِّطْع[٤]؛ فقال: ما تصنعون؟ قالوا: نقتلك. قال: ولِم تقتلونني؟ قالوا: لأنك ادّعيت النبوّة. قال: فلستُ أدّعيها. قيل له: فأيّ شيء أنت؟ قال: أنا صِدِّيق[٥]. فدُعِي له بالسِّياط[٦]؛ فقال: لم

---

(١) استتابه: طلب إليه أن يعلن توبته. (٢) السفيه: الجاهل والرديء الخلق.

(٣) الأحمق: الفاسد الرأي.

(٤) النّطع: بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

(٥) الصدّيق: الكثير الصدق، أو الكامل فيه.

(٦) السياط: جمع السوط، وهو ما يضرب من جلد مضفور أو نحوه. سمّي بذلك لأنه يخلط اللحم بالدم.

تضربونني؟ قالوا: لادّعائك أنك صدِّيق؛ قال: لا أدّعي ذلك. قالوا: فمن أنت؟ قال: من التابعين لهم بإحسان. فدُعِي له بالدِّرة[١]. قال: ولِم ذلك؟ قالوا: لادّعائك ما ليس فيك؛ فقال: ويحكم! أدخل إليكم وأنا نبيّ تريدون أن تحطّوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوامّ! لا أقلّ من أن تصبروا عليّ إلى غد حتى أصِيرَ لكم ما شئتم.

وادّعى آخر النبوّة، وسمّى نفسه نوحًا، فنهاه صديق له عن ذلك فلم ينته؛ فأخذه السلطان وصلبه؛ فمرّ به صديقه الذي كان ينهاه، فقال: يا نوح! ما حصل لك من السفينة غير الدَّقَل[٢].

ذكر شيء من نوادر المغفّلين والحَمْقى

قال بعضهم: رأيت ابنَ خلفِ الهمدانيّ في صحراءَ وهو يطلبُ شيئًا، فقلت له: ما تبغي هٰهنا؟ قال: دفنت شيئًا ولست أهتدي إليه. قلت: فهلّا علّمت عليه بشيء! قال: جعلت علامتي قطعةً منَ الغيم كانت فوقه، وما أراها الساعة. ونظر مرة في الحُبِّ (وهو الزير[٣]) فرأى وجهه، فعدا إلى أمّه فقال: يا أُمِّي في الحُبِّ لِصّ. فجاءت أمه وتطلّعت فيه، فقالت: إي والله ومعه قَحْبة. ورُئي في وسط داره وهو يعدو عَدْوًا شديدًا، ويقرأ بصوت عال، فسُئِل عن ذلك فقال: أردت أن أسمع صوتي من بعيد. ودخل إلى رجل يعزّيه، فقال: عظّم الله مصيبتكم، وأعان أخاك على ما يرِد عليه من يأجوجَ ومأجوج[٤]، فضحِك الناس، فقال: تضحكون مما قلت! وإنما أردت هاروت وماروت[٥].

وقيل: كتب المنصور[٦] إلى زِياد بن عبد الله الحارثيّ، ليقسِّم بين القواعد[٧] والعميان والأيتام مالًا، فدخل عليه أبو زياد التميميّ، وكان مغفّلًا فقال: أصلحك الله!

---

(١) الدِّرّة: السوط يضرب به.
(٢) الدقل: خشبة تشدّ في وسط السفينة، وعليها ينشر الشراع.
(٣) الزّير أو الحُبّ: الجرّة الكبيرة.
(٤) يأجوج ومأجوج: اسمان لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان من حولهما في شمال شرقي آسيا. ورد ذكرهما في القرآن الكريم.
(٥) هاروت وماروت: اسمان لملكين كانا ببابل يعلّمان الناس السحر. وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم.
(٦) المنصور: لقب الخليفة العباسي الثاني، واسمه عبد الله، وكنيته أبو جعفر. بنى بغداد فدعاها مدينة السلام. مات وهو في الحجّ سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٢٩٥.
(٧) القواعد: النساء اللائي يقعدن في البيوت فيما أزواجهنّ خارج البيوت.

اكتبْني في القواعد، فقال له: عافاك الله، القواعد هنّ النساء اللّاتي قعدن عن أزواجهنّ. فقال: فاكتبني في العميان، قال: اكتبوه منهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦]، قال أبو زياد: واكتب ابني في الأيتام؛ قال: نعم! من كنتَ أباه فهو يتيم.

وسُئِل بعضهم عن مولده، فقال: وُلِدت رأسَ الهلال للنصف من رمضانَ بعد الهيد بثلاثة أيام، فاحسبُوا الآن كيف شئتم.

ذكر شيء من نوادر النبِيذيّين

قال رجلٌ لبعض أصحاب النبيذ: وجّهتُ إليك رسولًا عشِيّة أمسِ فلم يجدْك؛ فقال: ذاك وقتٌ لا أجد فيه نفسي.

وقيل لبعضهم: كم الصلاة؟ فذكر الغداة والظهر، قالوا: فالعصر؟ قال: تعرِف وتنكر، قالوا: فالعِشاء؟ قال: يبلغها الجواد، قالوا: فالعَتَمة؟ قال: ما كانت لنا في حساب قطّ.

شَرِب الأُقَيْشِر[١] في حانوت خمّار[٢] حتى نفد ما معه، ثم شَرِب بثيابه وبقي عُرْيانًا، فجلس في تِبن يستدفىء به، فمرّ رجل ينشُد ضالّة[٣]؛ فقال الأُقيشر: اللّهمّ ارْدُد عليه، واحفظ علينا. فقال له الخمار: سَخِنَتْ عينُك[٤]، أيَّ شيء يحفظ عليك ربّك! قال: هذا التبن، لئلا يأخذه صاحبه فأهلِك من البرد.

وباع بعضهم ضَيعةً له؛ فقال له المشتري: بالعشيّ أشهد عليك، فقال: لو كنتُ ممن يفرغ بالعشيّ ما بعت ضيعتي.

ذكر شيء من نوادر النساء والجواري

قال رجل: قلت لجارية أريد شراءها: لا يُريبِك شيبي؛ فإن عندي قوّة. فقالت: أيسرُّك أنّ عندك عجوزًا مُغْتَلِمة![٥]

(١) الأُقيشر: لقب للمغيرة بن عبد الله بن الأسود بن وهب، وهو من شعراء الكوفة ومجّانهم.
(٢) حانوت الخمار: المحل الذي تباع فيه الخمرة.
(٣) الضالة: الشيء المفقود الضائع، يبحث عنه بقصد العثور عليه.
(٤) سخنت عينك: أي ذهبت عينك، وسال ماؤها.
(٥) مغتلمة: شديد الشهوة، أو هي المنقادة لها.

أُدْخِل على المنصور جاريتان فأعجبتاه، فقالت التي دخلت أوّلًا: يا أميرَ المؤمنين، إن الله فضّلني على هذه بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[١] [التوبَة: الآية ١٠٠]، وقالت الأخرى: لا، بل الله فضّلني عليها بقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: الآية ٤].

وعُرِض على المعتصم[٢] جاريتان بِكر وثيِّب[٣]؛ فمال إلى البِكر، فقالت الثيِّب: ما بيننا إلّا يوم واحد. فقالت البكر: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٧].

قيل لامرأة ظريفة: أبِكرٌ أنتِ؟ قالت: أعوذ بالله من الكساد.

وقال المتوكّل لجارية استعرضها: أنت بِكْرٌ أم إيش[٤]؟ قالت: أنا إيش يا أمير المؤمنين.

واستعرض رجل جاريةً فاستقبح قدميها، فقالت: لا تُبالِ؛ فإني أجعلهما وراء ظهرك.

وقال الرشيد لبغيضٍ جاريته: إنكِ لدقيقةُ الساقَيْن. قالت: أحوج ما تكون إليهما لا تراهما.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ[٥] عن إسحٰق[٦]: أن الرشيدَ أحضره مجلسَه ذاتَ ليلة، وقد مضى شَطْر الليل؛ قال: فأخرج جاريةً كأنها مَهاة[٧]، فأجلسها في

---

(١) أما تمام هذه الآية المباركة فهو التالي: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

(٢) المعتصم بالله، لقب الخليفة العباسي الثامن محمد بن هارون الرشيد. خلف أخاه المأمون، بنى سامرّاء، وهزم البيزنطيين واحتلّ عمورية. توفي سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٥.

(٣) بكر وثيّب: البكر من النساء، من لم تفتضّ بكارتها فهي عذراء. أمّا الثيب، فهي بخلاف البكر.

(٤) إيش، لفظة تبدو عامية، وهي تعني: ماذا.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني أو الأصبهاني، هو عليّ بن الحسن العالم والمؤرخ والأديب، صاحب كتاب «الأغاني» و«الأخبار والنوادر» و«أخبار الطفيليين» وكتاب «مقاتل الطالبيين». مات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م. انظر: الفهرست، ص ١٦٦.

(٦) إسحٰق، المقصود به إسحٰق الموصلي، المتوفى سنة ٨٥٠ م، وهو أحد أشهر المغنّين في العصر العباسي. انقطع إلى الخليفة الرشيد فكان نديمه ومغنّيه. انظر: مروج الذهب ٤/ ١٤.

(٧) المهاة: البقرة الوحشية.

حِجْره[١]، ثم قال: غنِّيني؛ فغنّته: [من السريع]

جِـئْنَ مـن الـروم وقَـالـيـقـلا[٢] يَرْفُلْنَ[٣] في المِرْط[٤] ولِينِ المُلَا[٥]
مُـقَـرْطَـقَـات[٦] بـصـنـوف الـحُـلَى يـا حـبّـذا الـبِـيـضُ وتِـلْـكَ الـحُـلَى

فاستحسنه وشرب عليه.

طُلِبَتْ جارية محمودِ الورّاق لِلمعتصم بسبعةِ آلاف دينارٍ، فامتنع من بيعها، واشتُرِيتْ له بعد ذلك من ميراثه بسبعمائة دينار. فذكر المعتصمُ ذلك لها، فقالت: إن كان أمير المؤمنين ينتظر بشهواته المواريث فسبعون دينارًا في ثمني كثيرٌ، فكيف بسبعمائة!

واستعرض رجل جاريةً فقال لها: في يَدَيْك عمل؟ قالت: لا، ولكن في رجليّ.

وحُكي أنّ بعض المُجّان كان يعشق جارية أمْجَنَ منه، فضاق يومًا، فكتب إليها: قد طال عهدي بك يا سيِّدتي، وأقلقني الشوق إليك، فإن رأيتِ أن تستدركي رَمَقي[٧] بمُضْغة عِلْك وتجعليه بين دينارين وتُنْفذيه إليّ لأستشفي به فعلتِ إن شاء الله. ففعلتْ ذلك وكتبتْ إليه: رَدُّ الظَّرْفِ من الظَّرْف[٨]، وقد سارعتُ إلى إنفاذ ما طلبتَ؛ فأنْعِمْ بردّ الطبقِ والمكبّة، واستعملِ الخبر: «استدِرُّوا[٩] الهدايا بردّ الظّروف».

وطلب آخر من عشيقته خاتمًا كان معها؛ فقالت: يا سيِّدي، هذا ذهب وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود حتّى تعود.

---

(١) حجره: حضنه.
(٢) قاليقلا: اسم بلدة بعينها، كانت مدينة كبيرة بأرمينية العظمى.
(٣) يرفلن: يجررن أذيالهنّ ويتبخترن.
(٤) المرط: الثوب من صوف ونحوه يؤتزر به، وهو الكساء غير المخيط.
(٥) الملا: الثوب أو الأثواب الواسعة المشقوقة.
(٦) مقرطقات: مزيّنات ولابسات. والمقرطقات أيضًا، من عليهنّ القراطق، وهي ضرب من القباءات البيض.
(٧) الرمق: بقية الحياة.
(٨) الظرف الأولى، الوعاء. والثانية الدعابة وخفّة الدم.
(٩) استدرّوا: استجلبوا.

وكتب رجل إلى عشيقته: مُرِي خيالَكِ إن يُلمّ[١] بي، فكتبت إليه: ابعث إليّ بدينارين حتى آتيك بنفسي.

قدّم بعضهم عجوزًا دلّالة[٢] إلى القاضي، وقال: أصلح الله القاضي، زوّجتنِي هذه امرأةً، فلما دخلت بها وجدتها عرجاء، فقالت: أصلح الله القاضي! زوّجته امرأة يجامعُها، ولم أعلم أنّه يريد أن يحجّ عليها أو يسابق بها في الحَلْبَة أو يلعب عليها بالكُرة والصولجان![٣]

كتب رجل إلى عشيقته رقعة، قال في أوّلها: عصمنا الله وإياكِ بالتقوى. فكتبت إليه في الجواب: يا غليظ الطبع، إن استجاب الله دعاءك لم نلتق أبدًا.

قال عقيل بنُ بلال: سمعتني أعرابيّة أُنشد: [من الطويل]

وكـم لـيـلةٍ قـد بِـتّـهـا غـيـرَ آثـمٍ — بمهضومة الكشحينِ[٤] ريّانةِ القُلْبِ

فقالت: هَلَّا أثِمت! أخزاك الله!

كان أبو نواس يومًا عند بعض إخوانه؛ فخرجت عليه جارية بيضاءُ عليها ثياب خضر. فلما رآها مسح عينيه وقال: خيرًا رأيت إن شاء الله تعالى. فقالت: وما رأيت؟ قال: ألكِ معرفة بعلم التعبير؟ قالت: ولا أعرف غيره. قال: رأيت كأني راكب دابّة شهباء[٥]، وعليها جُلٌّ[٦] أخضرُ وهي تمرح تحتي. فقالت: إن صدقت رؤياك فستدخِل فجلة. وقد روي أن هذه الحكاية اتفقت له مع عنان جاريةِ الناطفيّ.

وكان بعضهم جالسًا مع امرأته في مَنْظَرة[٧]؛ فمرّ غلام حسن الوجه؛ فقالت: أُعيذ هذا بالله؛ ما أحسنه وأحسن وجهه وقدّه! فقال الزوج: نعم، لولا أنه خَصِيّ، فقالت: لعنه الله ولعن من خصاه!

---

(١) يلمّ بي: يزورني.

(٢) دلّالة: الدلّالة من النساء، المتوسّطة بين البائع والمشتري.

(٣) الصولجان: العصا المعقوفة الرأس، وبها يتم قذف الكرة إلى مسافة بعيدة.

(٤) مهضومة الكشحين: الدقيقة الخصر، الضامرة البطن. والكشح، ما بين السّرّة ووسط الظهر والخاصرة.

(٥) شهباء، فيها شهبة، وهي البياض مع الخضرة، وهي المرتفعة والعظيمة.

(٦) الجلّ: ما يوضع على ظهر الدابة، وهو الجلال أيضًا، وجمعه جلال.

(٧) المنظرة: ما ارتفع من البناء ونظر منه.

قال أبو العيناء[١]: خطبتُ امرأةً فاستقبحتني، فكتبت إليها: [من الطويل]

فإن تَنْفِري مِن قبحِ وجهِي فإنّني أريب أديبٌ لا غبِيٌّ ولا فَدْمُ[٢]

فأجابتني: ليس لديوانِ الرسائلِ أريدُك.

وخطب ثُمامةُ العوفيُّ امرأةً فسألت عن حِرفته؛ فكتب إليها يقول: [من الطويل]

وسائلةٍ عن حِرفتي قلتُ حِرفتي
مقارعةُ[٣] الأبطالِ في كلِّ مأزِقِ[٤]
وضربي طُلَى[٥] الأبطالِ بالسيف مُعْلَمًا[٦]
إذا زحف الصَّفّانِ تحتَ الخوافِقِ[٧]

فلما قرأتِ الشعرَ، قالت للرّسول: قلْ له: فديتُك! أنتَ أسدٌ، فاطلبْ لك لَبُوءةً؛ فإني ظبيةٌ أحتاج إلى غزال.

خرجت حُبيُّ المدنيّة في جوفِ الليل، فلقيها إنسانٌ فقال لها: تخرجين في هذا الوقت! قالت: ما أُبالي، إن لقيني شيطانٌ فأنا في طاعتِه، وإن لقيني رجلٌ فأنا في طلبه. وجاءت إلى شيخ يبيعُ اللّبنَ، ففتحت ظرفًا فذاقته ودفعته إليه وقالت: لا تعجَل بشدّه؛ ثم فتحت آخر فذاقته ودفعته إليه، فلما أشغلت يديه جميعًا، كشفت ثوبه من خلفه، وجعلت تَصْفِقُ[٨] بظاهر قدمَيْها آسْتَهُ وخصيَيْهِ[٩]، وتقول: يا ثاراتِ ذاتِ النِّحْيَينِ[١٠]، والشيخُ يستغيثُ، فلم يخلُصْ منها إلا بعد جُهْد.

غاب رجل عن امرأته فبلغها أنه اشترى جارية، فاشترت غلامين. فبلغه ذلك فجاء مبادرًا، وقال لها: ما هذا؟ فقالت: أمَا علمتَ أنّ الرحَى إلى بغلَيْنِ أحوجُ من البغلِ إلى رحيَيْنِ! ولكنْ بعِ الجاريةَ حتى نبيعَ الغلامين؛ ففعل ذلك ففعلت.

---

(١) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم، الشاعر الظريف الذي اشتهر بسرعة جوابه وهجائه. اتّصل بالمتوكّل وله معه نوادر وأخبار مشهورة. مات سنة ٨٩٦ م. انظر: الفهرست، ص ١٨٠.
(٢) الأريب، العاقل البصير، والفدم: العييّ عن الكلام والقليل الفهم.
(٣) مقارعة الأبطال: مناجزتهم وقتالهم.
(٤) المأزق: موضع الحرب.
(٥) الطلى، جمع طلاة وطلية، وهي العنق.
(٦) المعلم، الذي عليه علامة.
(٧) الخوافق: الرايات.
(٨) تصفق: تضرب.
(٩) الخصيان: مثنى خصي، وهي البيضة.
(١٠) النحيان: مثنى نحي، وهو الزّقّ، والجرّة يوضع فيها السّمن أو العسل وسواهما.

ومثل ذلك ما حُكِي عن الأحنف[١]: أنه اعتمّ[٢] ونظر في المرآة؛ فقالت له امرأته: كأنك قد هممت بخِطبة امرأة! قال: قد كان ذلك. قالت: فإذا فعلت فاعلم أن المرأة إلى رجلين أحوجُ من الرجل إلى امرأتين. فنقضَ عمَّته وترك ما كان قد همّ به.

ذِكْر شيء من نوادر العميان

قال إبراهيمُ بنُ سَيّابةَ لبشّارٍ[٣] الأعمى: ما سلب الله من مؤمنٍ كريمتَيْه[٤] إلا عوّضه عنهما: إمّا الحِفظ والذكاء، وإمّا حسن الصوت. فما الذي عوّضك الله عن عينيك؟ قال: فقدُ النَّظرِ لبغيضٍ ثقيلٍ مثلِك!

ونظيرُ هذه الحكايةِ ما حُكِي عن بعضهم، قال: خرجت ليلةً من قريةٍ لبعض شأني، فإذا أنا بأعمى على عاتقه[٥] جرّةٌ وبيده سِراجٌ، فلم يزل حتى انتهى إلى النهر، وملأ جرّته وعاد. قال: فقلت له: يا هذا، أنت أعمى، واللّيل والنهار عنده سواء، فما تصنع بالسراج؟ قال: يا كثيرَ الفضولِ، حملته لأعمى القلبِ مثلِك، يستضيء به لئلا يعثرَ في الظّلمةِ، فيقع عليَّ ويكسِر جرّتي.

قالوا: بلغ أبا العيناء أنّ المتوكّل[٦] يقول: لولا عمى أبي العيناء لاستكثرت منه؛ فقال: قولوا لأمير المؤمنين: إن كان يريدني لرؤية الأهِلّة[٧] ونظمِ[٨] اللآلىء واليواقيتِ وقراءةِ نقوشِ الخواتيم، فأنا لا أصلُح لذلك؛ وإن كان يريدني للمحاضرةِ والمنادمة والمذاكرة والمسامرة، فناهيك[٩] بي. فانتهى ذلك إلى المتوكّل فضحِك منه، وأمر بإحضاره، فحضر ونادمه.

---

(١) الأحنف: هو الأحنف بن قيس، سيّد بني تميم في البصرة. من دهاة العرب وقادتهم في صدر الإسلام. توفي سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م. انظر: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ١/ ٧٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) اعتمّ: لبس العمامة.

(٣) بشار، هو بشار بن برد الأعمى، شاعر عباسي مشهور، عُرف بالهجاء وسلاطة اللّسان، وكان مكثرًا من التشبيب بالنساء. أقيم عليه الحدّ من قبل الخليفة المهديّ، فمات تحت السياط سنة ٧٨٤ م. انظر: الفهرست ص ٢٢٧.

(٤) كريمتيه: عينيه، والواحدة كريمة. (٥) عاتقه: العاتق، ما بين المنكب والعنق.

(٦) المتوكّل: المتوكل على الله هو لقب الخليفة العباسي العاشر جعفر بن المعتصم، حارب المعتزلة، وتعصّب لأهل السنّة. مات سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٣.

(٧) الأهلّة، جمع هلال، وهو الشهر القمري في أوّل ولادته.

(٨) نظم: جمع وسلك. (٩) ناهيك بي، تفيد التعجّب من نفسه.

تزوّج بعض العميانِ بسوداءَ؛ فقالت له: لو نظرتَ إلى حسني وجمالي وبياضي لازدَدْتَ فيّ حبًا. فقال لها: لو كنتِ كما تقولين ما تركَكِ لِي البُصَراء[١].

ذِكْر شيء من نوادر السؤَّال

سأل أبو عونٍ رجلًا فمنعه، فألحّ عليه فأعطاه؛ فقال: اللّهمّ آجرْنا وإيّاهم، نسألهم إلحافًا[٢] ويعطوننا كرهًا، فلا يبارك الله لنا فيها ولا يُؤْجِرهم عليها.

وقف أعرابيّ سائلٌ على بابٍ وسأل؛ فأجابه رجل وقال: ليس هٰهنا أحد. فقال: إنك أحَدٌ لو جعل الله فيك بركة.

ووقف سائل على باب، وكانت صاحبةُ الدار تبُولُ في البالوعة[٣]؛ فسمِع السائل صوتَ بولتِها فظنّه نشيش[٤] المِقلَى، فقال: أطعمونا من هذا الذي تَقْلونه؛ فضرطت المرأة وقالت: حَطبُنا رَطْبٌ ليس يُشعَل.

ووقف سائل على باب وقال: تصدّقُوا عليّ فإني جائع، قالوا: إلى الآن لم نخبِز. قال: فكفُّ سويقٍ[٥]. قالوا: ليس عندنا سَوِيق. قال: فشربةٌ مِن ماء فإني عطشان. قالوا: ما أتانا السّقاء. قال: فيسيرُ دُهنٍ أجعله في رأسي. قالوا: من أين لنا دهن. فقال: يا أولادَ الزّنى، فما قعودكم هنا! قوموا واشحتوا[٦] معي!

ذكر شيء من نوادر من اشتهر بالمجون

كان مُزَبِّد ممّن اشتهر بالمجون والنوادر، وله نوادر؛ فمنها ما قيل: إنه أخذه بعض الوُلاة وقد اتُّهِم بالشُّرْب، فاستنكهه[٧]، فلم يجد منه رائحة؛ فقال: قيّئوه. فقال مزبّد: ومن يضمن عشائي أصلحك الله؟ فضحك منه وأطلقه. وهبّت ريحٌ شديد فصح الناس: القيامة، القيامة! فقال مزبّد: هذه قيامةٌ على الرّيقِ بلا دابّة، ولا دجّال[٨]، ولا

---

(١) البصراء، جمع بصير، وهو خلاف الأعمى.
(٢) إلحافًا، المصدر من ألحف، وألحف السائل، إذا ألحّ في سؤاله.
(٣) البالوعة: ثقب أو قناة في الدار يجري فيها الماء الوسخ والأقذار.
(٤) نشيش: صوت الماء وغيره إذا غلى.
(٥) السويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير وغيره.
(٦) اشحتوا: اطلبوا الإحسان من الآخرين، والأصل: اشحذوا، بالذال.
(٧) استنكهه: شمّ ريح فمه.
(٨) الدجال: رجل يخرج في آخر الزمان قبل خروج المسيح والقائم المهدي، يدلّس على الناس، وهو أعور.

القائم[١]، ولا عيسى ابن مريم، ولا يأجوجَ ومأجوج[٢]. وقيل له: لم لا تكون كفلانٍ؟ (يعنون رجلًا موسِرًا[٣]) فقال: بأبي أنتم! كيف أشبَّه بمن يَضْرِط فيُشمَّت[٤] وأعطُس فأُلطم! وقيل له: ما بالُ حِمارك يتبلّد إذا توجّه نحو المنزل وحمير الناس إلى منازلها أسرع؟ قال: لأنه يعرف سوءَ المنقلب. ونظرت امرأتُه وهي حُبلى إلى قبحِ وجهه، فقالت: الويلُ لي إن كان الذي في بطني يُشبهك، فقال لها: الويل لك إن لم يكن يشبهني. وسمِع رجلًا يقول عن ابنِ عبّاس[٥]: مَن نوى حِجّةً وعاقه عائق، كُتِبت له. فقال مزبّد: ما خرج العامَ كِراء أرخص من هذا.

وممن اشتهر بالمجون أشعب.

ذِكْر شيء من نوادر أشعب وأخباره

هو أشعبُ بنُ جُبَيْر، واسمه شُعَيْب، وكنيتُه أبو العلاء، وأمه أمُّ الجلندح، وقيل: أم جميل حميدة، وهي مولاةُ أسماءَ بنتِ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنها، وكان أبوه قد خرج مع المختار بنِ أبي عُبَيْدٍ[٦]؛ فأسره مُصْعَب بنُ الزبير[٧]؛ فقال له: ويلك! تخرج عليّ وأنت مولاي! وقتله صبرًا[٨]. وقد قيل في ولائه: إن أباه مولى عثمانَ بنِ عفّانٍ رضي الله عنه، وإن أمّه كانت مولاةَ أبي سفيانَ بنِ حربٍ[٩]، وإن ميمونةَ أمّ المؤمنين أخذتها لمّا تزوّجها رسول الله ﷺ، وكانت تدخل على أزواج

---

(١) القائم: هو المهدي المنتظر من آل بيت النبيّ ﷺ يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا.

(٢) يأجوج ومأجوج: سبق التعريف بهما. (٣) الموسر: ذو الغنى والمال.

(٤) يشمّت: يُدعى له عقب العطاس، والتشميت، الدعاء للعاطس.

(٥) ابن عباس: هو عبد الله بن العباس، ابن عم النبيّ ﷺ والملقّب بحبر الأمّة لعلمه وفقهه. روى الكثير من حديث الرسول، وكانت وفاته سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٥.

(٦) المختار بن أبي عبيد، هو المختار الثقفي الذي ثار في الكوفة طلبًا بثأر الحسين بن علي، قضى عليه مصعب بن الزبير، وكانت وفاته سنة ٦٧ هـ/ ٦٨٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٤.

(٧) مصعب بن الزبير: هو أخو عبد الله بن الزبير، ونائبه في العراق. حارب الخوارج وقضى على ثورة المختار الثقفي. قتله عبد الملك بن مروان في معركة دير الجاثليق سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م. انظر: مروج الذهب ٣/ ١١٥.

(٨) صبرًا: يقال: قُتل صبرًا، أي حُبس على القتل حتى يُقتل.

(٩) أبو سفيان بن حرب، هو صخر بن حرب بن أُميّة، من أشدّ المناوئين للإسلام. قاد المشركين في معركة أُحد والخندق، أسلم ظاهرًا يوم فتح مكّة. وهو والد معاوية مؤسّس الدولة الأمويّة. مات سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٧.

النبيّ ﷺ، فيستظرِفْنَها؛ ثم صارت تنقل أحاديث بعضهِنّ إلى بعضٍ، وتُغْري بينهن. فدعا عليها رسول الله ﷺ فماتت. وقد حُكِي عن أشعَب: أنه جلس يومًا في مجلس فيه جماعةٌ، فتفاخروا وذكر كل واحد منهم مناقبه وشرفه أو شجاعته أو شِعره وغير ذلك مما يتمدّح به الناس ويتفاخرون؛ فوثب أشعبُ وقال: أنا ابن أمّ الجلندح، أنا ابنُ المحرّشة[١] بينَ أزواجِ النبيّ ﷺ. فقيل له: ويلك! أوَ بهذا يفتخر الناس! قال: وأيّ افتخار أعظمُ مِن هذا! لو لم تكن أمّي عندهن ثقةً لمَا قَبِلن روايتها في بعضهنّ بعضًا. وقد حُكي: أنها زنت، فحُلِقت، وطِيف بها على جمل، فكانت تنادي على نفسها: من رآني فلا يَزْنِيَنَّ. فقالت لها امرأة: نهانا الله عزّ وجلّ عنه فعَصَيْناه، ونُطيعُكِ وأنت مجلودةٌ محلوقة، راكبةٌ على جمل! ونشأ أشعبُ بالمدينة في دُور آلِ أبي طالبٍ، وكفِلته وتولّت تربيته عائشةُ بنتُ عثمان. وعُمِّر أشعب عمرًا طويلًا. وحُكي عنه أنه قال: كنت مع عثمانَ رضي الله عنه يومَ الدار لمّا حُصر؛ فلما جرّد مماليكُه السيوفَ ليقاتلوا كنت فيهم؛ فقال عثمان: من أغمد[٢] سيفَه فهو حرٌّ، فلما وقعت في أذني كنت واللهِ أوّلَ مَنْ أغمد سيفه فعُتِقْتُ[٣]. وكانت وفاته بعد سنةِ أربع وخمسين ومائة. وهذا القول يدلّ على أنه كان مولى[٤] عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وقد روى أبو الفرج الأصفهانيّ بإسناد رفعه إلى إبراهيمَ بنِ المهديّ[٥] عن عبيدِ بنِ أشعبَ عن أبيه: أنّه كان مولده في سنة تسع من الهجرة، وأن أباه كان من مماليك عثمان بن عفان. وعمّر أشعبُ حتى هلَك في أيام المهديّ، قال: وكانت في أشعب خِلالٌ[٦]، منها: أنه كان أطيبَ أهلِ زمانهِ عِشْرةً، وأكثرهم نادِرةً، وكان أقوم أهل دهره لحجج المعتزلة[٧]، وكان امرأً منهم. وقال مصعب بن عبد الله: كان

---

(١) المحرّشة: التي تغري بعض الناس ببعض.
(٢) أغمد سيفه: أدخله في غمده، أي بيته وقرابه.
(٣) عتقت: حُرّرت من الأسر. (٤) مولى: عبد.
(٥) إبراهيم بن المهدي، هو عمّ المأمون، وأخو هارون الرشيد، بويع بالخلافة في غياب المأمون لما كان بخراسان. ولما عاد المأمون نحّاه وعفا عنه، توفي سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٩ م. انظر: الفهرست ص ٢٠٦.
(٦) خلال: صفات، جمع خلّة.
(٧) المعتزلة: فرقة كلامية إسلامية، اعتمد أصحابها على العقل والمنطق والقياس في مناقشة القضايا الدينية والكلامية. أشهر رجالاتها: واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبو الهذيل، والنظّام، وهم بخلاف الأشاعرة. انظر: مروج الذهب ٣/٢٣٦، وانظر أيضًا: الملل والنحل، للشهرستاني ١/٤٣ ـ ٤٦، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠.

أشعب من القرّاء حسنَ الصوتِ بالقراءة، وكان قد نسك وغزا؛ وقد روى الحديث عن عبد الله بن جعفر[(١)]. وقال الأصمعيّ[(٢)]: قال أشعب: نشأت أنا وأبي الزِّناد في حِجْر عائشةَ بنتِ عثمان؛ فلم يزل يعلو وأُسْفِلُ حتى بلغنا هذه المنزلة. وقال إسحٰق بن إبراهيم: كان أشعبُ مع ملاحته ونوادره يغنّي أصواتًا فيُجيدُها، وفيه يقول عبد الله بن مُصْعَب الزّبيريّ عفا الله عنه: [من السريع]

إذا تـمـزّزْتُ[(٣)] صُـراحِـيَّـةً[(٤)] ... كمثلِ ريح المِسك أو أطيبُ
ثـم تَـغَـنَّـى لـي بـأهـزاجـه[(٥)] ... زيدٌ أخو الأنصارِ أو أشعبُ
حـسِـبـتُ أنـي مَـلِـكٌ جـالـسٌ ... حَفّت به الأملاك والموكبُ
ومـا أبـالـي وإلـٰهِ الـعـلا ... أشَـرَّقَ الـعـالـمُ أم غـرَّبُـوا

ولأشعبَ نوادرُ مستظرفةٌ وحكاياتٌ مستحسنة، وقد آنَ أن نذكرها؛ فمنها ما حُكي أنه كان يقول: كلبي كلبُ سوءٍ، يبصبصُ[(٦)] للأضيافِ، وينبحُ على أصحاب الهدايا. وقيل له: قد لَقِيتَ رجالًا من أصحاب النبيّ ﷺ فلو حَفِظت أحاديثَ تتحدّثُ بها! فقال: أنا أعلمُ الناسِ بالحديث. قيل: فحدِّثنا، قال: حدّثني عِكْرِمةُ[(٧)] عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهم قال: خَلّتان لا تجتمعان في مؤمن إلا دخل الجنّةَ، ثم سكت. فقيل له: هاتِ، ما الخلّتان؟ قال: نَسِي عكرمةُ إحداهما ونسيتُ أنا الأخرى. وكان أشعبُ يحدّث عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما فيقول: حدّثني عبدُ الله، وكان يُبْغِضُني في الله. وكان أشعب يلازم طعامَ سالمِ بنِ عبد الله بن عمر رضي الله عنهم،

---

(١) عبد الله بن جعفر، صحابي ولد في الحبشة، ولقّب ببحر الجود لكرمه، وهو ابن أخي عليّ بن أبي طالب، مات سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م. كان من الأجواد، وإن أردت الاطّلاع على شيء من أخبار جوده، فانظر: العقد الفريد، لابن عبد ربّه ١/ ٩٢.

(٢) الأصمعيّ: هو أبو سعيد عبد الملك، اللغوي البصري المشهور، كان تلقّى العلم على يدي أبي عمرو بن العلاء، عهد إليه الرشيد بتعليم الأمين. له كتاب «خلق الإنسان» و«الخيل» و«الإبل» و«الأضداد»، وأشهر كتبه «الأصمعيّات» في رواية أشعار العرب. انظر: الفهرست ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) تمزّزت: تحصّصت.

(٤) الصراحية، صفة للخمرة، وهي الخالصة من الخمر.

(٥) أهزاجه، جمع هزج، أي غنائه وترنيمه وتطريبه. والهزج، بحر من بحور الشعر الستة عشر.

(٦) يبصبص: يحرّك ذنبه.

(٧) هو عكرمة بن أبي جهل، الصحابي القرشي المخزومي، قاتل مسيلمة الكذاب بحروب الرّدّة. وقتل في اليرموك سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٢٤٨.

فاشتهى سالم أن يأكل مع بناته فخرج إلى البستان؛ فجاء أشعب إلى منزل سالم على عادته؛ فأُخبر بالقِصّة، فاكترى جملًا بدرهم وجاء إلى البستان، فلما حاذى الحائطَ وثب فصار عليه؛ فغطّى سالمٌ بناتِه بثوبه وقال: بناتي بناتي! فقال أشعب: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ٧٩].

قال أشعب: جاءتني جارية بدينار، وقالت: هذا وديعةٌ عندَك؛ فجعلتُه بين ثِنْي الفِراش، فجاءت بعدَ أيام وقالت: بأبي أنتَ! الدينار؛ فقلت: ارفعي فراشي وخذي ولده فإنه قد ولد، وكنت قد تركت إلى جنبه دِرهمًا، فأخذتِ الدرهمَ وتركت الدينار. وعادت بعدَ أيام فوجدت معه درهمًا آخر فأخذته، وفي الثالثة كذلك، وجاءت في الرابعة، فلما رأيتُها بكيتُ؛ فقالت: ما يُبكيك؟ قلت: مات دينارُكِ في النّفاس[١]، فقالت: وكيف يكون للدينار نِفاس؟ قلت: يا فاسقة! تُصَدِّقين بالوِلادة ولا تصدّقين بالنفاس!

ومن أخباره المستظرفة ما حكاه المدائنيّ[٢]، قال: قال أشعب: تعلّقتُ بأستارِ الكعبةِ، فقلت: اللّهمّ أذهِبْ عنّي الحِرْصَ والطلبَ إلى الناس؛ فمررْت بالقرشيِّين وغيرهم فلم يُعطني أحدٌ شيئًا، فجئت إلى أمّي، فقالت: ما لك قد جئتَ خائبًا؟ فأخبرتُها بذلك؛ فقالت: واللهِ لا تدخل حتى ترجعَ فتستقيل[٣] ربَّك. فرجعت فجعلت أقول: يا ربِّ أقِلْني، ثم رجعت، فما مررت بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطوني، ووُهِب لي غلام؛ فجئت إلى أمّي بجمالٍ موقَرة[٤] من كل شيء. فقالت: ما هذا الغلام؟ فخِفت أن أخبرها فتموت فرحًا إن قلت: وهبوه لي، فقالت: أيّ شيء هذا؟ فقلت: غين. قالت: أيّ شيء غين؟ قلت: لام، قالت: أيّ شيء لام؟ قلت: ألف، قالت: وأي شيء ألف؟ قلت: ميم. قالت: وأيّ ميم؟ قلت: غلام؛ فغُشِي عليها. ولو لم أقطّع الحروف لماتت الفاسقة فرحًا. قال: وجلس أشعب يومًا إلى جانب مروانَ بنِ أبانَ بنِ عثمان؛ فانفلتت من مروان ريح لها صوتٌ؛ فانصرف أشعبَ يوهمُ الناسَ أنه هو الذي خرجت منه الرّيح، فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب

(١) النفاس: ولادة المرأة، وهو الحالة التي تعقب ولادتها، وهو الدم الذي يعقبها أيضًا.

(٢) هو عليّ بن محمد المدائنيّ، المؤرّخ المشهور. عاش ببغداد، وله مؤلّفات عديدة منها «المغازي» و«السيرة النبويّة»، وبه تأثر الطبري والبلاذري. مات سنة ٨٣٩ م. انظر: الفهرست ص ١٤٧.

(٣) تستقيل الله: تسأله أن ينهضك من سقطتك. (٤) موقَرة: كثيرة الحمل.

فقال له: الدِّية، قال: دِيةُ ماذا؟ قال: ديةُ الضرطة التي تحمَّلْتُها عنك، وإلّا شهّرتُك[١]؛ فلم يدعْه حتى أخذ منه شيئًا صالحه عليه.

وقال محمد بن أبي قبيلة: غذَّى أشعب جديًا بلبنِ أمّه وغيرها حتى بلغ غاية، ثم قال لزوجته أمّ ابنه وردان: إني أحبّ أن ترضعيه بلبنكِ ففعلَتْ. ثم جاء به إلى إسماعيلَ بنِ جعفرِ بنِ محمد[٢]، فقال: تالله إنه لابني، رضع بلبنِ زوجتي، قد حبوتك[٣] به، ولم أرَ أحدًا يستأهله سواك. فنظر إسماعيل إليه وأمر به فذُبح وسُمِط[٤]، فأقبل عليه أشعب وقال: المكافأة؛ فقال: ما عندي والله اليومَ شيء، ونحن مَن تعرف، وذلك غير فائت لك. فلمّا يئس أشعب منه قام من عنده فدخل على أبيه جعفر، ثم اندفع فشَهق حتى التقت أضلاعُه، ثم قال: أَخِلْني، قال: ما معنا أحد يسمع، ولا عليك عين. قال: وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه وأنا أنظر إليه، فارتاع جعفر وصاح: ويلك! وفِيم؟ وتريد ماذا؟ قال: أمّا ما أريد فوالله ما لي في إسماعيل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبدًا بعدك. فجزاه خيرًا وأدخله منزله وأخرج إليه مائتي دينار، فقال: خذ هذه، ولك عندنا ما تحِبّ. قال: وخرج إلى إسماعيل وهو لا يبصر ما يطأ عليه، فإذا به مسترسِل في مجلسه، فلما رأى وجه أبيه أنكره وقام إليه؛ فقال: يا إسماعيل، فعلتَها بأشعب! قتلت ولده؟ قال: فاستضحك، وقال: جاءني، وأخبره الخبر، فأخبره أبوه بما كان منه وما صار إليه؛ قال: فكان جعفر يقول لأشعب: رُعْتني راعك الله! فيقول: روعةُ ابنِكَ بنا في الجدي أكثرُ من روعتِكَ بالمائتي الدينار.

قال المدائنيّ: دخل أشعبُ على الحسينِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، وعنده أعرابيّ قبيحُ المنظر، مختلفُ الخِلقة؛ فسبّح أشعب حين رآه وقال للحسين: بأبي أنت وأمّي، أتأذن لي أن أسلحَ[٥] عليه؟ فقال: إن شئت. ومع الأعرابيّ قوسٌ وكِنانة[٦]،

---

(١) شهّرتك: فضحتك وجعلتك شهرة بين الناس.

(٢) هو إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، إمام الإسماعيلية، وإليه ينتسب الإسماعيليون القائلون بإمامته بعد أبيه الصادق. توفي بالمدينة سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م. انظر: المِلل والنحل ١/ ١٩١ - ١٩٢.

(٣) حبوتك به: أعطيتك إياه هبةً.

(٤) سمط: نُقّي من الشعر بالماء الحارّ ثم شُوي.

(٥) أسلح: أتغوّط. والسلح في الأصل، خاص بالطير والبهائم.

(٦) الكنانة: الجعبة توضع فيها سهام القوس.

ففوّق[(١)] نحوه سهمًا، وقال: والله لئن فعلت لتكوننّ آخرَ سلحةٍ سلحتها. فقال أشعب للحسين: جُعِلتُ فِداك، أخذني القَوْلَنْجُ[(٢)]، وعنه قال: توضّأ أشعب فغسلَ رجله اليسرى وترك اليمنى. فقيل له: لِمَ تركت غسلَ اليمنى؟ فقال: لأن النبيّ ﷺ قال: «أُمّتي غُرٌ[(٣)] محجَّلون[(٤)] من آثار الوضوء»، وأنا أحبّ أن أكون أغرَّ محجّلًا مطلقَ اليمين، وقال: سمع أشعب حُبّي المدنيّة تقولُ: اللّهمّ لا تُمتني حتى تغفر لي ذنوبي؛ فقال لها: يا فاسقة! أنت لم تسألي الله تعالى المغفرة، وإنما سألته عمر الأبد! (يريد: أن الله لا يغفر لها أبدًا).

وقال الزبير بنُ بكّارٍ[(٥)]: كان أشعبُ يومًا في المسجد يدعو، وقد قبّض وجهه فصيّره كالصُّبْرَةِ[(٦)] المجموعة. فرآه عامر بنُ عبدِ الله بنِ الزبيرِ فحصَبه[(٧)] وناداه: يا أشعب، إنما أنت تناجي ربك فناجه بوجهٍ طليق، قال: فأرخى لَحْييه حتى وقعا على زَوْرِه[(٨)]، قال: فأعرض عنه، وقالا: ولا كلّ ذا.

وقال مصعب: بلغ أشعبَ أنّ الغاضري قد أخذَ في مثلِ مذهبه ونوادره، وأنّ جماعةً استطابوه؛ فرَقَبهم حتى علم أنه في مجلس من مجالس قريشٍ يحادثُهم ويُضحِكهم، فصار إليهم، ثم قال: قد بلغني أنك قد نحَوْتَ نحوي، وشغلت عني من كان يألفني؛ فإن كنتَ مثلي فافعلْ كما أفعل. ثم غضّن وجهه وعرّضه وشنّجه[(٩)]، حتى صار عرضُه أكثرَ من طوله، وصار في هيئة لم يعرفه أحد بها، ثم أرسل وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر في سيفه؛ ثم نزع ثيابه وتحادب[(١٠)]، فصار في ظهره حدبةٌ كسنامِ البعير، وصار طولُه مقدارَ شبرٍ، ثم نزع سراويلَه، وجعل يمد جِلدَ خصيَيْه حتى حكَّ بهما الأرضَ، ثم خلّاهما من يده،

---

(١) فوّق السهم: جعل له فوقًا، وهو مشقّ رأس السهم حيث يقع الوتر.

(٢) القولنج: داء يصيب المرء في أمعائه فيسدّها، فلا يستطيع إخراج الرّيح. والقولنج أيضًا: جمود الجسم وبرودته حتى يحسب أنّه ميّت.

(٣) غرّ، جمع أغر: وهو البياض في الجبين.

(٤) محجّلون: جمع محجّل، وهو الشية أو البياض في قائمة الفرس، ثم شبّه بها الإنسان.

(٥) الزبير بن بكار: نسّابة وراوية، ولي قضاء مكّة، وله من الكتب: «أنساب قريش» و«الموفقيّات»، مات سنة ٨٦٩ م. انظر: الفهرست ص ١٦٠.

(٦) الصبرة: الكومة من الطعام وغيره.

(٧) حصبه: رماه بالحصى.

(٨) زوره: وسط صدره.

(٩) شنّجه: قبّضه.

(١٠) تحادب: تظاهر بأنه أحدب، وهو الذي في ظهره حدبة.

وجعل يميسُ[١]، وهما يخطّان الأرض، ثم قام فتطاول وتمدّد وتمطّى، حتى صار كأطول ما يكون من الرجال. فضحِك القوم حتى أُغمي عليهم، وقُطع بالغاضريّ فما تكلّم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدًا، إنما أنا عبدك وتخريجك، ثم انصرف أشعب وتركه.

وقال الزبير بنُ بكّار: حدّثني عمّي، قال: لقِي أشعبَ صديقٌ لأبيه، فقال له: ويلَكَ يا أشعبُ! كان أبوك ألْحَى[٢] وأنتَ أقطّ[٣]، فإلى من خرجت تشبه؟ قال: إلى أمّي.

وقال الهيثم بن عَدِيّ: لَقِيت أشعبَ، فقلت له: كيف ترى أهل زمانك هذا؟ قال: يسألونني عن أحاديث الملوك؛ ويعطونني عطاء العبيد.

وقال مصعبُ بنُ عثمان: لقي أشعبَ سالمُ بنُ عبد الله بن عمر، فقال له: يا أشعب، هل لك في هَرِيس[٤] أُعِدّ لنا؟ قال: نعم، بأبي أنت وأُمّي، فمضى أشعب إلى منزله؛ فقالت له امرأته: قد وجّه عبدُ الله بن عمرو بن عثمان يدعوك، قال: ويحك! إن لسالمِ بنِ عبدِ الله هريسةً قد دعاني إليها، وعبد الله بن عمرو في يدي متى شئت، وسالم إنما دعوْتُه للناس فلتةٌ، وليس لي بدٌّ من المضيّ إليه. قالت: إذًا يغضب عبدُ الله، قال: آكل عنده ثم أصيرُ إلى عبدِ الله، فجاء إلى منزل سالمٍ فجعل يأكلُ أكلَ متعاللٍ[٥]. فقال له: كلْ يا أشعبُ، وابعثْ ما فضلَ عنك إلى منزلكِ. قال: ذلك أردت، بأبي أنتَ وأمّي. قال: فقال: يا غلامُ، احملْ هذا إلى منزلهِ، فحمله ومشى أشعبُ معه. فقالت امرأتُه: ثَكلتْكَ[٦] أُمُّك، قد حلف عبدُ اللهِ لا يكلّمُك شهرًا؛ قال: دعيني وإيّاه، هاتي شيئًا من زعفران[٧]؛ فأعطته، فأخذه ودخل الحمّامَ، فمسحه على وجههِ وبدنهِ، وجلس في الحمام حتى صفّره، وخرج متوكّأً على عصا يرعدُ حتى أتى دارَ عبدِ اللهِ بنِ عمرو بن عثمان؛ فلما رآه حاجبُه قال: ويحك! بلغتْ بك العِلّةُ ما أرى. ودخل فأعلم صاحبه، فأذن له، فلما دخل عليه، إذا سالمُ بنُ عبدِ الله عندَه، فجعل يزيدُ في الرّعدةِ، ويقاربُ الخطوَ، وجلس وما كاد

---

(١) يميس: يتخايل ويتمايل بزهو. (٢) الألحى: الطويل اللحية.

(٣) الأقطّ: القصير اللّحية.

(٤) هريس وهريسة: ضرب من الطعام وعماده الدقيق المهروس باللحم.

(٥) متعالل: مظهر للعلّة وليس بعليل.

(٦) ثكلتك: خسرتك وأصيبت بالثكل، وهو فقدان الولد.

(٧) الزعفران: نبات كريم، زهره أحمر وأصفر، وبه يطيّب الطعام، ويستخدم كمواد للكتابة.

أن يستقِلّ. فقال عبد الله: ظلمناك يا أشعبُ في غضبِنا عليك. فقال له سالم: ويلك! ما لك؟ ألم تكن عندي آنفًا وأكلتَ هريسة! قال: لقد شُبّه لك، لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله. قل: لعلّ الشيطانَ يتشبّه بك. قال أشعب: عليّ وعليّ إن كنت رأيتك منذ شهر. فقال له عبد الله: آعزبْ[1] ويلك عن خالي! أَتُبهِته[2] لا أُمّ لك! قال: ما قلتُ إلّا حقًّا. قال: بحياتي اصدُقْني وأنت آمنٌ من غضبي. قال: وحياتِك لقد صدق؛ وحدّثه بالقصّة؛ فضحِك حتى استلقى على قفاه.

وقال المدائنيُّ والهيثمُ بنُ عديّ: بعث الوليدُ بنُ يزيدِ بنِ عبد الملك بن مروان إلى أشعبَ بعدما طلّق امرأته سعدة، فقال له: يا أشعبُ، لك عندي عشرةُ آلافِ درهم على أن تُبَلّغ رسالتي سعدة. فقال له: أحضرِ المالَ حتى أنظر إليه، فأحضر الوليد بَدْرة[3]، فوضعها أشعبُ على عنقِه، وقال: هاتِ رسالتَك. قال: قل لها يقول لك: [من الوافر]

أسعدةُ هل إليكِ لنا سبيلٌ ... وهل حتى القِيامة من تَلاقِ
بلى! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى ... بموتٍ من حليلِك[4] أو طلاقِ
فأُصبِحَ شامتًا وتَقرَّ عَيني ... ويجمعَ شملُنا بعدَ افتراقِ

قال: فأتى أشعب البابَ فأُخْبِرَت بمكانه، فأمرت ففُرِش لها فرشٌ وجلست وأذِنت له؛ فدخل فأنشدها، فلما أنشد البيتَ الأوّل:

أسعدةُ هل إليك لنا سبيلٌ ... وهل حتى القيامةِ من تلاقِ

قالت: لا والله، لا يكون ذلك أبدًا. فلما أنشد البيت الثاني:

بلى! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى ... بموتٍ من حليلِكِ أو طلاقِ

قالت: كلّا إنْ شاء الله، بل يفعلُ الله ذلك به. فلما أنشد البيت الثالث:

فأُصْبِحَ شامتًا وتقرَّ عيني ... ويُجْمَعَ شملُنا بعدَ افتراق

قالت: بل تكونُ الشماتةُ به، ثم قالت لخدَمِها: خذوا الفاسِق. فقال: يا سيِّدتي، إنها عشرةُ آلاف درهم. قالت: والله لأقتلنّك أو تبلِّغه كما بلّغتني. قال: وما

---

(١) أعزب: ابعدْ. (٢) أتبهته: أترميه بالباطل والبهتان.
(٣) البدرة من المال: الكيس الذي يوضع فيه المال، وغالبًا ما يوضع فيه مبلغ عشرة آلاف درهم.
(٤) الحليل: الزوج.

تَهَبين لي؟ قالت: بساطي الذي تحتي. قال: قومي عنه؛ فقامت، فطواه، ثم قال: هاتي رسالَتك، جُعلت فداكِ! قالت: قل له: [من الطويل]

أتبكي على لُبْنَى وأنتَ تركتَها فقد ذهبتْ لُبنى فما أنتَ صانعُ؟

فأقبل أشعبُ، حتى دخل على الوليدِ، فأنشده البيتَ، فقال: أُوَّهْ قتلتني واللهِ! فما تراني صانعًا بك يا ابنَ الزانية! اِختَرْ إمّا أن أُدْلِيك مُنَكَّسًا[١] في بئرٍ، أو أرمِيَك من فوق القصرِ منكّسًا، أو أضربَ رأسك بعمودي هذا ضربة. قال له: ما كنتَ فاعلًا بي شيئًا من ذلك. قال: ولمِ؟ قال: لأنك لم تكن لتعذِّب عينيْنِ قد نظرتا إلى سُعْدةَ! قال: صدقتَ يا ابنَ الزانية!

ورَوى أبو الفرج الأصفهانيّ بإسنادِه إلى إبراهيمَ بنِ المهديِّ عن ابنِ أشعبَ عن أبيه، قال: دُعِي ذاتَ يوم بالمغنّيين إلى الوليدِ بنِ يَزيدَ، وكنتُ نازلًا معهم، فقلت للرسول: خذْني فيهم؛ قال: لم أُؤْمرْ بك، إنما أمرتُ بإحضارِ المغنيّين، وأنت بَطّالٌ لا تدخل في جملتِهم. فقلت له: أنا واللهِ أحسنُ غناءً منهم؛ ثم اندفعْتُ فغنّيت. فقال: لقد سمعتُ حسنًا، ولكن أخاف. قلت: لا خوفَ عليك؛ ولك مع ذلك شرط. قال: وما هو؟ قلت: كلّ ما أصبت فلك شطرُه؛ فأشهد عليّ الجماعة، ومضينا حتى دخلنا على الوليد، وهو لَقِسُ النّفس[٢]؛ فغنّاه المغنّون في كلّ فنّ فلم يتحرّك ولم يَنْشَط. فقام الأبجرُ إلى الخلاءِ، وكان خبيثًا داهيًا، فسأل الخادمَ عن خبره؛ فقال: بينه وبين امرأتِه شرٌّ، لأنه عشِق أختَها فغضِبت عليه، وهو إلى أختها أميلُ، وقد عزم على طلاقِها، وحلف ألّا يذكرها أبدًا بمراسلة أو مخاطبة، فخرج على هذه الحال من عندها. فعاد الأبجرُ إلينا، وجلس ثم اندفع يغنّي: [من الطويل]

فبِيني[٣] فإني لا أُبالي وأيْقِني أَصَعّدَ[٤] باقي حُبّكم أم تَصَوَّبا[٥]
ألم تعلمي أنّي عَزُوفٌ[٦] عن الهوى إذا صاحبي من غير شيء تَغَضَّبا[٧]

فطَرِب الوليدُ وارتاحَ، وقال للأبجر: أصبتَ واللهِ يا عُبَيد ما في نفسي، وأمر له بعشرة آلاف درهم وشرِب حتى سَكِر، ولم يحظَ أحدٌ بشيء سوى الأبجر. فلما

---

(١) أدليك منكّسًا: أنزلك البئر ورأسك إلى أسفل.
(٢) لقس النفس: غير مهيّأة لشيء، مضطربة تكاد تقيء.
(٣) بيني: ابعدي.
(٤) صعّد: ارتفع.
(٥) تصوّب: مال إلى السقوط.
(٦) عزوف: منصرف.
(٧) تغضّب: أسرع إلى الغضب.

أيقنتُ بانقضاءِ المجلس وثبتُ، فقلت: إنّ رأى أميرُ المؤمنين أنْ يأمرَ مَن يضربُني مائةَ سوطٍ الساعةَ بحضرتِك! فضحك، ثم قال: قبّحك الله! وما السببُ في ذلك؟ فأخبرته بقصّتي مع الرسول، وقلت له: إنه بدأني بالمكروه في أوّل يومه فاتّصل عليّ إلى آخره، فأريد أن أُضربَ مائةَ سوطٍ ويضربَ بعدي مثلَها. فقال: لقد لطُفت، بل أعطوه مائة دينار، وأعطوا الرسول خمسين دينارًا من مالنا عوضَ الخمسين التي أراد أخذها من أشعب، فقبضتُها وانصرفت.

قال ابن زَبَنَّج: كان أبانُ بنُ عثمانَ مِن أهزلِ الناس وأعبثهم، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعبُ، إذ أقبل أعرابيٌّ معه جمِلٌ، والأعرابيُّ أشقرُ أزرقُ أزعرُ(١) يتلظَّى كأنه أفعى، والشرُّ بيِّنٌ في وجهه، ما يدنو منه أحدٌ إلا شتمه ونهره؛ فقال أبانُ: هذا واللهِ من البادية، ادعوه لي، فدعَوْه له وقيل: إن الأميرَ أبانَ بن عثمان يدعوك؛ فأتاه فسلّم عليه، فسأله أبانُ بن عثمانَ عن نسبه، فانتسب له. فقال له أبان: حيّاك الله يا خال، اجلسْ، فجلس. فقال له: إني أطلب جملًا مثلَ جملِكَ هذا منذُ زمانٍ فلم أجدْه كما أشتهِي بهذه الصّفة، وهذه الهامةِ(٢) والصورةِ والوركِ(٣) والأخفافِ(٤)، والحمدُ للهِ الذي جعل ظَفَرِي(٥) به عندَ مَنْ أُحبُّه، أتبيعُنيه؟ فقال: نعم أيها الأمير، قال: فإني قد بذلت لك به مائةَ دينار؛ فطمِع الأعرابيُّ وسُرّ بذلك وانتفخ، وبان الطّمعُ في وجهه، فأقبل أبانُ على أشعبَ ثم قال له: ويلك يا أشعب! إنّ خالي هذا مِن أهلِك وأقاربِك (يعني: في الطمع) فأوسِعْ له مما عندَك؛ قال: نعم، بأبي أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خال، إنما زدتُك في الثمنِ على بصيرةٍ أنّ الجمل يساوي ستّين دينارًا، ولكني بذلت لك مائة دينارٍ لقلّةِ النّقدِ عندنا، وإني أُعطيك عُرُوضًا تساوي مائةَ دينار؛ فزاد طمع الأعرابيّ وقال: قد قبلت ذلك أيُّها الأمير، وأسرّ أبانُ إلى أشعب، فأخرج شيئًا مغطًّى، فقال له: أخرج ما جئت به؛ فأخرج جُرْد عمامة تساوي أربعة دراهم، فقال له: قَوِّمْها يا أشعب. فقال: عمامةُ الأمير يشهد فيها الأعيادَ والجُمَع ويلقَى فيها الخلفاء! خمسون دينارًا. قال: ضعها بين يديه، وقال لابنِ زَبَنّج: أثبتْ قيمتَها، فكتب ذلك، ووُضعت العمامةُ بين يدَيْ الأعرابيّ؛ فكاد يدخلُ بعضُه في بعض غيظًا، ولم يقدِرْ على الكلام. قال:

(١) أزعر: قليل شعر الرأس.
(٢) الهامة: رأس كل شيء، وتطلق على الجثة.
(٣) الورك: ما فوق الفخذ، كالكتف فوق العضد.
(٤) الأخفاف، جمع خفّ، وهو الحافر للبعير. (٥) ظفري: منيتي وحصولي على الشيء.

هاتِ قَلَنسُوَتي[١]، فأخرج قلنسوةً طويلة خَلَقًا[٢] قد علاها الوسخُ والدُّهْنُ وتخرّقت تساوي نصفَ درهم، قال: قَوِّم؛ فقال: قلنسوةُ الأميرِ تعلو هامتَه، ويصلِّي فيها الصلواتِ الخمسَ، ويجلسُ فيها للحكم! ثلاثون دينارًا. قال: أثبِتْ، فأثبتَ ذلك، ووُضعت القلنسوةُ بين يديْ الأعرابيّ فاربَدّ[٣] وجهُه وجحظت عيناه وهَمّ بالوثوبِ، ثم تماسك وهو مُقَلْقَل[٤]. ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك؛ فأخرج خُفَّيْنِ خَلَقَين قد نُقبا وتقشّرا وتفتّتا، فقال: قَوِّمْ؛ فقال: خُفَّا الأميرِ يطأُ بهما الروضةَ، ويعلو بهما منبرَ النبيّ ﷺ! أربعون دينارًا، فقال: ضَعْهما بين يديه. ثم قال للأعرابيّ: أُضممْ إليك متاعَك، وقال لبعضِ الأعوانِ: امضِ مع الأعرابيّ واقبضْ ما بقي لنا عليه مِن ثمن المتاع، وهو عشرون دينارًا؛ فوثب الأعرابيُّ فأخذ القماش فضرب به وجوهَ القوم لا يألو[٥] في شدّةِ الرّمي، ثم قال له: أتدري في أيّ شيء أموت؟ قال: لا؛ قال: لم أُدرك أباك عثمان فأشترك والله في دمه إذ وَلَد مثلكَ! ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأسِ بعيره؛ وضحِك أبانُ حتى سقط، وضحك مَن كان معه، فكان الأعرابيُّ بعد ذلك إذا لقِيَ أشعبَ يقول له: هلمّ إليّ يا بنَ الخبيثة، حتى أكافئَك على تقويمك المتاعَ يومَ قوّمت؛ فيهربُ منه أشعب.

وقال المدائنيّ: حدّثني شيخ من أهل المدينة، قال: كانت امرأةٌ شديدةُ العَيْنِ[٦]، لا تنظر إلى شيء فتستحسنه إلا عانَتْه[٧]؛ فدخلت على أشعبَ وهو في الموتِ، وهو يقول لابنته: يا بنيّةُ، إذا أنا متُّ فلا تندبيني، والناس يسمعونك، وتقولين: وا أبتاه، أندبُك[٨] للصوم والصلاةِ، للفقهِ والقرآنِ، فيكذّب الناس ويلعنونني. ثم التفت فرأى المرأة، فغَطّى وجهه بكمِّه وقال لها: يا فلانةُ، باللهِ إن كنتِ استحسنتِ شيئًا مما أنا فيه، فصلّى على النبيّ ﷺ ولا تُهلكيني؛ فغضِبت المرأة وقالت: سخِنت عينُك! وفي أيّ شيء أنت مما يستحسن؟ أنت في آخرِ رمق! قال: قد علمت، ولكن قلتُ لئلا تكوني قد استحسنت خفّةَ الموتِ عليّ وسهولةَ النّزع[٩]، فيشتدّ ما أنا فيه؛ فخرجت من عنده وهي تسبُّه، وضحك مَن كان حوله مِن كلامه، ومات.

---

(١) قلنسوتي: القلنسوة، نوع من ملابس الرأس.
(٢) خلقًا: بالية.
(٣) اربدّ: صار أربد اللّون، وتعبّس وتغيّر.
(٤) مقلقل: متحرّك.
(٥) يألو: يقصر ويبطىء.
(٦) شديدة العين: تصيب بالعين.
(٧) عانته: أصابته بالعين.
(٨) أندبك: أدعوك.
(٩) النّزع: الاحتضار عند الموت.

ذكر شيء من نوادر أبي دُلَامة

هو أبو دُلَامةَ زَنْدُ بن الجَوْن، وزند بالنون، وهو كوفيّ، أسودُ، مولى لبني أسدٍ؛ كان أبوه عبدًا لرجلٍ منهم يقال له قصاقِصُ، فأعتقه. وأدرك آخرَ زمنِ بني أُميّة ولم يكن له نباهةٌ في أيّامِهم، ونبغ في أيّام بني العبّاس، فانقطع إلى أبي العبّاسِ السفّاح[١] وأبي جعفر المنصورِ والمهديّ، وكانوا يقدّمونه ويفضّلونه ويستطيبون مجالسته ونوادره.

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كان أبو دُلامةَ رديءَ المذهبِ، مرتكبًا للمحارم، مُضيِّعًا للفروضِ، متجاهرًا بذلك؛ وكان يُعْلَم هذا منه ويُعْرَف به، فيُتَجافَى[٢] عنه لِلُطفِ محلّه، وله أخبار وأشعار ليس هذا موضع ذكرِها، وإنما نثبت في هذا الموضع ما له من نادرة أو حكاية مستظرفة؛ فمن ذلك أنه دخل على أبي جعفر المنصور، وكان المنصور قد أمر أصحابه بلُبْس السوادِ والقلانسِ الطّوال، تُدعمُ بعِيدانٍ من داخلِها، وأن يعلّقوا السيوفَ في المناطق[٣]، ويكتبوا على ظهورهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٧]، فلما دخل عليه أبو دُلامةَ في هذا الزّيّ قال له المنصور: ما حالك؟ قال: شرُّ حالٍ يا أميرَ المؤمنين، وجهي في نصفي، وسيفي في استي[٤]، وقد صَبَغتُ بالسّوادِ ثيابي ونبذْت[٥] كتابَ اللهِ وراءَ ظهري؛ ثم أنشد: [من الطويل]

وكنا نُرجّى مِنحةً من إمامنا   فجاءت بطُولٍ زاده في القَلَانِس[٦]
تراها على هامِ[٧] الرّجالِ كأنّها   دِنانٌ[٨] يهودٍ جُلّلتْ بالبَرَانِس[٩]

---

(١) السفاح: هو أبو العباس عبد الله، الملقب بالسفاح، أول الخلفاء العباسيّين، قاد الثورة على الأمويين بعد وفاة أخيه إبراهيم، وبويع بالخلافة له في مسجد الكوفة، اتخذ الأنبار عاصمةً له، مات سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٢.
(٢) يتجافى عنه: يُبعد عنه ومنه لجفائه.
(٣) المناطق: جمع منطقة، والمنطقة: ما ينتطق به.
(٤) استي: مؤخّرتي.   (٥) نبذت: طرحت.
(٦) القلانس: جمع قلنسوة، وهي ضرب من لباس الرأس.
(٧) الهام، جمع هامة، وهي أعلى كل شيء، وهنا تعني الرأس.
(٨) الدنان: جمع دنّ، وهو وعاء الخمرة ونحوها.
(٩) والبرانس: جمع برنس، وهو الثوب يكون غطاء الرأس جزءًا منه ومتّصلًا به.

فضحك منه المنصورُ وأعفاه وحذّره من ذلك، وقال: إيّاك أن يسمعَ هذا منك أحدًا.

وحُكي عنه: أنه كان واقفًا بين يدي السفاحِ أو المنصورِ، فقال له: سَلْني حاجتَكَ؛ فقال أبو دلامةَ: كلب صيدٍ؛ قال: أعطوه إيّاه، قال: ودابّة أتصيّدُ عليها. قال: أعطوه، قال: وغلام يقودُ الكلبَ ويتصيّدُ به، قال: أعطوه غلامًا، قال: وجارية تُصلح لنا الصيدَ وتُطعمُنا منه؛ قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أميرَ المؤمنين عيالٌ فلا بدّ لهم من دارٍ يسكنونها؛ قال: أعطوه دارًا تجمعهم، قال: فإن لم يكن ضيعةٌ فمِنْ أين يعيشون؟ قال: قد أطعتِكَ مائةَ جَرِيبٍ[١] عامرة ومائة جريبٍ غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: ما لا نباتَ فيه. قال: قد أقطعتك يا أميرَ المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرةً مِن فيافي[٢] بني أسد، فضحك وقال: اجعلوا المائتين كلَّها عامرة. قال: فأْذَنْ لي أن أقبّل يدك؛ قال: أمّا هذه فدعْها، فإني لا أفعل. قال: والله ما منعت عيالي شيئًا أقلَّ عليهم ضررًا منها.

ورُوِيَ: أنه دخل على المنصور فأنشده قصيدته التي يقول فيها: [من البسيط]

إنّ الخليط[٣] أجدّوا البينَ[٤] فانتجعوا[٥] وزوّدوك خبالًا[٦] بئسَ ما صنعوا
والله يعلمُ أنْ كادت، لبينهُمُ يومَ الفِراقِ، حصاةُ القلبِ تنصدعُ
عجبتُ مِن صبْيتي يومًا وأمِّهمُ أمّ الدُّلامةِ لمّا هاجها الجزعُ
لا باركَ اللهُ فيها مِن مُنبِّهةٍ هَبّتْ تلومُ عيالي بعد ما هَجَعُوا[٧]
ونحن مُشتبهو الألوانِ، أوجُهنا سودٌ قباحٌ، وفي أسمائِنا شُنَعُ[٨]
إذا تَشَكّتْ إليّ الجوعَ، قلتُ لها ما هاجَ جوعَك إلا الرِّيُّ والشِّبَعُ
أذابكَ الجوعُ مذ صارت عيالَتُنا على الخليفةِ منه الريّ والشبعُ
لا والذي يا أميرَ المؤمنين قضى لكَ الخلافةَ في أسبابها الرِّفَعُ
ما زلتُ أُخلِصُها كسبي فتأكلُه دُوني ودونَ عيالي ثم تضطجعُ

(١) الجريب: مقدار معيّن من مساحة الأرض.
(٢) الفيافي: جمع فيفاة، وهي المفازة لا ماء فيها.
(٣) الخليط: جماعة القوم الذين رحلوا.
(٤) البين: الفراق والبعد.
(٥) انتجعوا: طلبوا النجعة والماء.
(٦) الخبال: ذهاب العقل.
(٧) هجعوا: رقدوا وناموا.
(٨) شنع: جمع شنعة، وهي القبح.

شوهاءُ[١] مشْنأةٌ[٢] في بطنِها ثَجَلٌ[٣] ... وفي المَفَاصِلِ من أوصافِها فَدَعُ[٤]
ذَكَّرتُها بكتابِ الله حُرْمَتَنا ... ولم تكن بكتابِ اللهِ ترتجعُ
فٱخْرَنْطَمتْ[٥] ثم قالت وهي مُغْضَبةٌ ... أأنت تتلو كتابَ اللهِ يا لُكَعُ![٦]
اخرُجْ تَبَغَّ لنا مالًا ومَزرعةً ... كما لجيرانِنا مالٌ ومُزْدَرعُ[٧]
واخْدَعْ خليفتَنا عنّا بمسألةٍ ... إنّ الخليفةَ للسُّؤَّالِ ينخدعُ

قال: فضحك أبو جعفرٍ وقال: أرضوها عنه بمائتَيْ جريبِ عامرة ـ ويروى: ستمائة جريب عامرة وغامرة ـ فقال: أنا أقطعك يا أميرَ المؤمنين أربعةَ آلاف جريب غامرة فيما بينَ الحِيرةِ[٨] والنَّجَف[٩]، وإن شئتَ زدتُك، فضحك وقال: اجعلوها كلَّها عامرةً. قال: ولمّا توفّي السفّاحُ دخل أبو دُلامةَ على المنصورِ والناسُ عنده يعزّونه، فقال: [من الكامل]

أمسيتَ بالأنبارِ[١٠] يا ابنَ محمدٍ ... لم تستطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
ويلي عليكَ وويلُ أهلي كلِّهم ... ويلًا وعَوْلًا في الحياة طويلا
فَلْتَبْكِيَنّ لكَ السماءُ بعَبْرةٍ ... ولتبكينّ لك الرجالُ عويلا
مات النّدى إذا متَّ يا ابنَ محمدٍ ... فجعلْتَه لك في التراب عديلًا
إني سألتُ الناسَ بعدَك كلَّهم ... فوجدتُ أسمَحَ مَن سألتُ بخيلا
أَلِشقوتي أُخِّرتُ بعدك للّتي ... تدعُ العزيزَ منَ الرجالِ ذليلا؟
فَلأَحْلِفَنّ يمينَ حقٍّ بَرَّةٍ ... تاللهِ ما أُعطِيتُ بعدكَ سُولا[١١]

قال: فأبكى الناسَ قولُه: فغضِب المنصورُ غضبًا شديدًا، وقال: إن سمعتُك تُنشدُ هذه القصيدةَ لأقطعنَّ لسانَك، قال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ أبا العباسِ أميرَ المؤمنين كان لي مُكرمًا، وهو الذي جاء بي من البدو، كما جاء الله بإخوةِ يوسف

---

(١) الشوهاء: المرأة القبيحة الوجه.
(٢) مشنأة: قبيحة.
(٣) الثجل: عظم البطن واسترخاؤه.
(٤) الفدع: اعوجاج رسغ اليد أو الرّجل.
(٥) اخرنطمت: رفعت الأنف استكبارًا أو غضبًا.
(٦) اللكع: اللئيم، والأحمق والعبد.
(٧) المزدرع: موضع الزّرع.
(٨) الحيرة: أطلال قاعدة الملوك اللخميين بين النجف والكوفة بالعراق.
(٩) النجف: مدينة عراقية مشهورة، فيها ضريح الإمام علي بن أبي طالب.
(١٠) الأنبار: عاصمة العباسيّين الأولى زمن أبي العباس السفاح، وهي في العراق.
(١١) السول: السّؤل، بالهمز.

إليه؛ فقل كما قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآية ٩٢]، فسُرِّيَ[١] عن المنصور وقال: قد أقلناك يا أبا دُلامة، فسلْ حاجتك. قال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبًا وهو مريض ولم أقبِضْها. فقال المنصور: ومن يعلمُ ذلك؟ قال: هؤلاء (وأشار إلى جماعةٍ ممّن حضر) فوثبت سلمان بنُ مُجالدٍ وأبو الجهم، فقالا: صَدَق أبو دُلامةَ، نحن نعلم ذلك. فقال المنصور لأبي أيّوبِ الخازن [وهو مَغِيظ]: يا سليمانُ ادفعْها إليه وسَيِّره إلى هذه الطاغية (يعني عبد الله بن عليّ[٢]، وكان قد خرج بالشام وأظهر الخِلاف) فوثب أبو دلامة وقال: يا أمير المؤمنين، أُعيذُك بالله أن أخرُجَ معهم، ووالله إني مشؤوم. قال المنصور: امضِ فإنّ يُمْنِي يغلبُ شُؤْمَك. فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما أُحبُّ أن يجرَّب ذلك منّي على مثل هذا العسكر، فإنّي لا أدري أيّهما يغلب: يُمنُكَ أو شُؤمي؛ إلّا أني بنفسي أوثقُ وأعرَفُ وأطولُ تجربةً. فقال: دَعْني وهذا، فما لك من الخروج بدّ. قال: فإني أَصْدُقك الآن، شهِدتُ والله تسعةَ عشرَ عسكرًا كلّها هُزِمت، وكنت سببَها، فإن شئتَ الآن على بصيرةٍ أن يكون عسكرك تمامَ العشرين فافعل، فضحك المنصور وأمره أن يتخلّفَ مع عيسى بن موسى[٣] بالكوفة.

وعن جعفر بن حسينٍ اللِّهْبيّ قال: حدّثني أبو دُلامةَ قال: أُتِي بي المنصور أو المهديّ وأنا سكرانُ، فحلف ليُخْرِجَنّي في بَعْث حرب؛ فأخرجني مع رَوْح بن حاتم المهلّبيّ لقتال الشُّراة[٤]؛ فلما التقى الجمعان قلت لِرَوْح: أما والله لو أنّ تحتي فرسَك ومعي سلاحك لأثّرتُ في عدوّك اليومَ أثرًا ترتضيه! فضحك وقال: واللهِ العظيمِ لأدفعنَّ إليك ذلك ولآخذنَّك بالوفاءِ بشَرْطك؛ فنزل عن فرسه ونزع سلاحَه ودفع ذلك إليّ، ودعا بغيره فاستبدل به، فلمّا حصل ذلك في يدي قلت: أيّها الأميرُ، هذا مقامُ

---

(١) سرّي عنه: أُدخل السرور على قلبه.

(٢) عبد الله بن علي: أمير عباسي، عمّ الخليفتين السفاح والمنصور، فتك بالأمويّين في معركة الزّاب، طالب بالخلافة أيام المنصور، فهزمه أبو مسلم الخراساني، مات في السجن سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ١٣٤.

(٣) عيسى بن موسى: أمير عباسي، هو ابن أخي السفّاح، تولى الكوفة، وكانت وفاته سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٦ م.

(٤) الشراة: فئة من الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، سمّوا بالشراة لأنهم، في زعمهم، شروا أنفسهم في طاعة الله بالجنّة. انظر: المِلل والنّحل ١/ ١٣٤ ـ ١٣٩.

العائذ بك، وقد قلت أبياتًا فاسمعْها. قال: هاتِ، فأنشدته: [من الكامل]

إنّي استجرتُكَ أنْ أُقَدّمَ في الوغَى[١] لِتَطَاعُنٍ وتَنازُلٍ وضِرَابِ[٢]
فهَبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً وتركتُها ومضيتُ في الهُرّابِ
ماذا تقول لِمَا يجيء ولا يُرَى مِنْ بادراتِ الموتِ بالنُّشَّابِ[٣]

فقال: دَعْ هذا عنك، وبَرَز رجل منَ الخوارج يدعو إلى المبارزة فقال: اخرجْ إليه يا أبا دُلامة. فقال: أَنشُدُك اللهَ أيها الأميرُ في دمي. فقال: والله لَتَخْرُجَنّ! فقلت: أيّها الأمير، فإنّه أوّلُ يوم من الآخرةِ وآخرُ يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما تَنبعِثُ مني جارحةٌ[٤] من الجوعِ، فمُرْ لي بشيءٍ آكله ثم أخرُج؛ فأمر لي برغيفين ودَجاجة؛ فأخذت ذلك وبرزت عن الصفّ. فلمّا رآني الشاري أقبل نحوي وعليه فروٌ قد أصابه المطر فابتلّ، وأصابته الشمسُ فاقفعلّ[٥] وعيناه تَقِدان، فأسرع إليّ؛ فقلت: على رِسْلك[٦] يا هذا! فوقف؛ فقلت: أتقتلُ من لا يقاتلُك؟ قال: لا، قلت: أتستحلُّ أن تقتلَ رجلًا على دينك؟ قال: لا، قلت: أفتستحلّ ذلك قبلَ أن تدعوَ مَن تقاتلُه إلى دينك؟ قال: لا، فاذهب عني إلى لعنة الله، فقلت: لا أفعلُ أو تسمعَ منّي. قال: قل. فقلت: هل كانت بيننا عداوة أو تِرَةٌ[٧] أو تعرفني بحالٍ تُحْفِظك عليّ أو تعلم بيني وبين أهلِك وِتْرًا[٨]؟ قال: لا والله؛ قلت ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأي، فإني لأهواك وأنتحلُ[٩] مذهبَك وأدينُ دينك وأريدُ السّوءَ لمن أرادك. فقال: يا هذا، جزاك اللهُ خيرًا فانصرِفْ. قلت: إنّ معي زادًا أريد أن آكله وأُريد مؤاكلتك لتتوكّد المودّةُ بينَنا، ويرى أهلُ العسكرَيْنِ هوانَهم علينا؛ قال: فافعل. فتقدّمت إليه حتى اختلفت[١٠] أعناقُ دوابّنا وجمعنا أرجلَنا على مَعَارِفها[١١] وجعلنا نأكلُ والناسُ قد غُلِبوا ضحكًا. فلما استوفَيْنا ودّعني، ثم قلت له: إنّ هذا الجاهلَ، إن أقمتَ على طلب المبارزة نَدَبني إليك فتتعَب وتُتعبني، فإن رأيت ألّا تبرز اليومَ فافعلْ. قال: قد فعلتُ، فانصرف وانصرفْت. فقلت لروح: أمّا أنا فقد كفيتُك قِرْني[١٢]، فقل لغيري

---

(١) الوغى: القتال والحرب.
(٢) الضراب: الطعن.
(٣) النشاب: السهام.
(٤) الجارحة: العضو من الإنسان ولا سيما اليد.
(٥) اقفعل: تقبّض.
(٦) على رسلك: كيف تريد وتشاء.
(٧) الترة: الثأر والانتقام.
(٨) الوتر: الثأر، وهي الترة.
(٩) أنتحل: اتّخذه نحلةً ومذهبًا.
(١٠) اختلفت الأعناق: لم تتساو، وتباينت.
(١١) معارفها: وجوهها.
(١٢) القرن: النظير والمثيل.

يكفيك قِرْنَه كما كفيتُك. وخرج آخر يدعو إلى البِراز؛ فقال لي: اخرجْ إليه، فقلت: [من البسيط]

إنـي أعـوذُ بـرَوْحٍ أن يُـقَـدِّمَـنـي ... إلى القتالِ فتُخزَى بي بنو أسَدِ
إنَّ البِـرازَ[1] إلى الأقرانِ أعلَمه ... مما يُفرّقُ بينَ الرُّوحِ والجسدِ
قد حالَفَتْكَ المنايا[2] إذ رُصِدْتَ لها ... وأصبحت لجميعِ الخلقِ كالرَّصَدِ
إنّ المهلَّبَ حُبَّ الموتِ أورَثكم ... فما وَرِثْتُ اختيارَ الموتِ عن أحدِ
لو أنّ لي مهجةً أخرى لجُدْتُ بها ... لكنها خُلِقَتْ فردًا فلم أَجُدِ

قال: فضحك رَوحٌ وأعفاني.

قال: وشرب أبو دُلامةَ في بعضِ الحاناتِ[3] وسكر، فمشى وهو يميلُ، فلقيه العَسَسُ[4] فأخذه؛ فقيل له: من أنت؟ وما دينُك؟ فقال: [من الرجز]

دِينِي على دين بني العبّاسِ ... ما خُتِمَ الطِّينُ على القِرْطاسِ[5]
إذا اصطحبتُ أربعًا بالكاسِ ... فقد أدارَ شَرْبُها براسي

* فهل بما قلت لكم من بَاسِ *

فأخذوه وخرقوا ثيابَه وساجَه[6]، وأُتي به إلى أبي جعفر، فأمَر بحبسه مع الدَّجاج في بيتٍ، فلمّا أفاق جعل ينادي غلامه مرّةً وجاريتَه أخرى فلا يجيبُه أحد، وهو مع ذلك يسمعُ صوتَ الدّجاج وزُقاءَ[7] الديك. فلمّا أكثر قال له السجّان: ما شأنُك؟ قال: ويلك! من أنت؟ وأين أنا؟ قال: أنت في الحبس، وأنا فلان السجّان. قال: ومَنْ حَبَسني؟ قال: أميرُ المؤمنين. قال: ومن خرَق طيلَساني؟ قال: الحرس، فطلب أن يأتيَه بدواةٍ وقرطاسٍ، ففعل فأتاه؛ فكتب إلى أبي جعفر المنصور يقول: [من الوافر]

أميرَ المؤمنين فَدَتْكَ نفسي ... عَلامَ حبستَني وخَرَقْتَ ساجي

---

(١) البراز: الظهور للقتال. (٢) المنايا: جمع منية، وهي الموت والرَّدَى.
(٣) الحانات: جمع حانة، وهي حانوت الخمّار.
(٤) العسس: جمع عاسّ، وهو الذي يطوف بالليل لفضح أصحاب الرذيلة.
(٥) القرطاس: الورق. (٦) ساجه: طيلسانه، ثوبه الطويل.
(٧) الزقاء: الصياح.

أمِنْ صهباءَ[١] صافيةِ المِزاجِ كأنَّ شعاعَها لَهبُ السِّراجِ
وقد طُبِخَتْ بنارِ اللهِ حتى لقد صارتْ من النُّطَفِ النِّضَاجِ[٢]
تَهَشُّ[٣] لها القلوبُ وتشتهيها إذا بَرَزتْ تَرَقْرقُ في الزُّجَاجِ
أُقادُ إلى السجونِ بغيرِ جُرْمٍ كأني بعضُ عمّالِ الخراجِ!
فلَوْ معهم حُبِستُ لكان سهلًا ولكني حُبِستُ مع الدجاجِ
وقد كانت تُخَبِّرني ذنوبي بأني من عِقابك غيرُ ناجِ
على أنّي وإن لاقيتُ شرًّا لِخيرِكَ بعد ذاك الشرِّ راجي

فاستدعاه المنصورُ وقال: أين حُبِستَ يا أبا دُلامة؟ قال: مع الدَّجاج، قال: فما كنتَ تصنعُ؟ وقال: أُقوقيءُ[٤] معهم إلى الصّباح، فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة. فلما خرج قال الربيع: إنه شَرِب الخمرَ يا أميرَ المؤمنين، أما سمعتَ قوله: وقد طُبخت بنارِ الله؟ (يعني الشمس) قال: لا والله، ما عَنَيْتُ إلا نارَ الله المُوقَدَةَ التي تَطَّلِعُ على فؤاد الربيع. فضحك المنصور وقال: خُذْها يا ربيعُ ولا تعاود التعرّضَ له.

ورُوي عن المدائني قال: دخل أبو دُلامةَ على المهديِّ وعنده إسماعيلُ بنُ عليٍّ وعيسى بنُ موسى والعبّاسُ بنُ محمدِ بن إبراهيم الإمامِ وجماعةٌ من بني هاشم؛ فقال له المهديُّ: أنا أُعْطِي الله عهدًا إنْ لن تَهْجُ واحدًا ممن في البيت، لأقطعنَّ لسانَك أو لأضربنَّ عُنُقَك. فنظر إليه القوم، وكلما نظر إلى أحد منهم غمزة بأنّ عليّ رضاك. قال أبو دلامة: فعلمتُ أني قد وقعت وأنها عَزْمةٌ من عَزَماته لا بدّ منها، فلم أرَ أحدًا أحقَّ بالهجاء منّي ولا أدعى إلى السلامة من هجاءِ نفسي، فقلت: [من الوافر]

أَلَا أبلِغْ لديكَ أبا دُلامة فلستَ من الكرامِ ولا كرامَه
إذ لبسَ العِمامةَ كان قِرْدًا وخِنْزيرًا إذا نزعَ العمامَه
جمعْتَ دَمامةً وجمعْتَ لؤمًا كذاك اللؤمُ تتبعُه الدَّمامَه[٥]
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دنيا فلا تَفْرَحْ فقد دَنتِ[٦] القِيامَه

(١) الصهباء: صفة للخمرة، لونها أصهب.
(٢) النّطف: جمع نطفة، وهي الماء. والنضاج: المستوية.
(٣) تهش: تفرح.
(٤) أقوقيء: أصيح كالدجاج.
(٥) الدمامة: القبح.
(٦) دنت: اقتربت.

فضحِك القومُ ولم يبقَ منهم أحدٌ إلا أجازه.

قال: وخرج المهديُّ وعليُّ بن سليمانَ إلى الصيد، فسنح لهما قطيعٌ من ظباءٍ، فأُرسلت الكلابُ وأُجرِيت الخيلُ، ورمى المهديُّ سهمًا فأصاب ظبيًا، ورمى عليُّ بنُ سليمان فأصاب بعضَ الكلاب فقتله؛ فقال أبو دلامة: [من مجزوء الرمل]

قد رمى المهديُّ ظبيًا ... شكَّ بالسهمِ فؤادَهْ
وعليُّ بن سليما ... ن رمى كلبًا فصَاده
فهنيئًا لهما كـ ... ـلُّ امرىء يأكلُ زاده

فضحِك المهديُّ حتى كاد يسقطُ عن سرجِهِ، وقال: صدق واللهِ أبو دُلامةَ، وأمر له بجائزة سنيّةٍ[١]؛ فلُقِّبَ عليُّ بن سليمان بعد ذلك صائدَ الكلبِ، فغلب عليه.

قال: وتوفّيت حمادةُ بنتُ عيسى، وحضر المنصورُ جنازتَها؛ فلما وقف على حُفرتها قال لأبي دُلامة: ما أعددْتَ لهذه الحُفرة؟ قال: ابنةَ عمِّك يا أميرَ المؤمنين حمادةَ ابنةَ عيسى يجاءُ بها الساعةَ فتُدفنُ فيها؛ فضحك المنصورُ حتى غُلِب وستر وجهه.

قال الهيثمُ بنُ عديٍّ رحمةُ الله عليه: حجَّت الخيزُران[٢]، فلما خرجت، صاح أبو دلامةَ: جعلني الله فداك، اللهَ اللهَ في أمري! فقالت: من هذا؟ قالوا: أبو دلامة، فقالت: سلوه ما أمرُه؛ قالوا له: ما أمرُك؟ قال: أدنوني من مَحْمِلها؛ قالت: أدنوه؛ فأُدني، فقال لها: أيتها السيّدة، إني شيخ كبير وأجرُك فيّ عظيم، قالت: فمه[٣]! قال: تَهَبِيني جاريةً من جواريك تُؤنسني، وترفُق بي وتُريحُني من عجوز عندي، قد أكلت رِفدي[٤]، وأطالت كدّي، فقد عاف جلدي جلدَها، وتشوّقتُ فقدَها؛ فضحكت الخيزرانُ وقالت: سوف آمرُ لك بما سألت، فلمّا رجعت تلقّاها وأذكرها وخرج معها إلى بغدادَ، فأقام حتى غَرِض[٥]. ثم دخل على أُمِّ عَبِيدةَ حاضنةِ موسى وهارونَ[٦]

---

(١) سنية: ثمينة.
(٢) الخيزران: جارية المهدي، ولدت له الرشيد والهادي. تآمرت على الهادي فقتل، توفيت سنة ٧٣ هـ/ ٧٩٨ م.
(٣) فمه: فماذا.
(٤) رفدي: عطائي وصِلَتي.
(٥) غرض: ملّ وضجر.
(٦) موسى: هو الخليفة موسى الهادي، وهارون، هو الخليفة هارون الرشيد.

فدفَع إليها رقعةً قد كتبَ بها إلى الخيزران، فيها: [من مجزوء الرمل]

أبـلغـي سيِّـدتـي بـالله يـا أُمَّ عَـبِـيـدَهْ
أنّـهـا أرشَـدهـا الله وإن كـانـت رشـيـدَهْ
وعـدتْـنـي قـبـلَ أن تـخـرجَ لـلحـجِّ ولـيـدَه
فـتـأنَّـيـتُ وأرسـلـتُ بـعـشـريـنَ قـصـيـدَه
كـلّمـا أخـلـقْـنَ أخـلـفـتُ لـهـا أخـرى جـديـدَه
لـيـسَ فـي بـيـتـي لـتـمـهـيـد فِـراشـي مِـن قـعـيـده
غـيـرُ عـجـفـاء[1] عـجـوزٍ سـاقُـهـا مـثـلُ الـقـديـده[2]
وَجْـهُـهـا أقـبـحُ مِـن حـوتٍ طَـرِيٍّ فـي عـصـيـده[3]
مـا حـيـاةٌ مَـعَ أُنـثـى مـثـلَ عِـرْسِـي بـسـعـيـدَهْ

فلما قُرئت عليها، ضحكت ودعت بجارية مِن جواريها فائقةِ الجمال، فقالت لها: خُذِي كلَّ ما لك في قصري، ففعلت؛ ثم دعتْ بعضَ الخدم وقالت له: سلِّمها إلى أبي دُلامة. فانطلقَ الخادمُ بها فلم يصادفْه في منزله؛ فقال لامرأتِه: إذا رجعَ أبو دلامةَ فادفعيها إليه، وقولي له: تقولُ لك السيدةُ: أحسِنْ صُحبةَ هذه الجاريةِ، فقد أمَرْتُ لك بها. فقالت له: نعم، فلما خَرَج الخادمُ دخل ابنُها دُلامةُ فوجد أمّه تبكي؛ فسألها عن خبرها فأخبرتْهُ وقالت: إن أردتَ أن تبرَّني يومًا من الأيام فاليوم، قال: قولي ما شئتِ فإني أفعلُه. قالت: تدخلُ عليها فتُعْلِمُها أنك مالكَها وتَطَؤها[4] فتحرّمُها عليه وإلا ذهبتْ بعقلِهِ فجفاني وجفاك، ففعل ودخل إلى الجارية فوطِئها ووافقها ذلك منه، وخرج. فدخل أبو دُلامةَ فقال لامرأتِهِ: أين الجاريةُ؟ قالت: في ذلك البيتِ، فدخل إليها شيخٌ محطَّمٌ ذاهبٌ، فمدّ يده إليها وذهبَ ليقبِّلها؛ فقالت: ما لك ويحك! تَنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دققْتُ منها أنفَك. فقال لها: أبهذا أوصتكِ السيِّدة؟ قالت: إنها بعثت بي إلى فتى من هيئته وحاله كيتَ وكيتَ، وقد كان عندي آنفًا ونال مني حاجته. فعلم أنه قد دُهِي من أمِّ دُلامة وابنها، فخرج أبو دلامة إلى دُلامة فلطمه ولبّبه[5] وحلف ألّا يفارقَه إلّا إلى المهديّ. فمضى به مُلَبّبًا حتى وقف ببابِ المهديّ، فعُرِّفَ خبرُه؛ وأنه جاء بابنه على تلك الحال، فأمر بإدخاله فلما دخل قال: ما لك؟ قال:

(١) العجفاء: الهزيلة.
(٢) القديدة: الثوب الخلق، واللحم المقدّد.
(٣) العصيدة: دقيق يلتّ بالسمن ويطبخ.
(٤) تطؤها: تركبها وتجامعها.
(٥) لبّبه: جمع ثيابه عند صدره ثم جرّه.

فعل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يفعلْه ولدٌ بأبيه، ولا يرضيني إلا أن تقتلَه. قال: ويحك! وما فعل بك؟ فأخبره الخبر؛ فضحكَ حتى استلقى ثم جلس. فقال له أبو دُلامة: أعجبَكَ فعلُه فتضحك منه؟! فقال: عليَّ بالسيف والنِّطع[١]. فقال له دُلامة: قد سمعتَ قوله يا أمير المؤمنين، فاسمعْ حجّتي. قال: هاتِ! قال: هذا الشيخ أصْفَقُ[٢] الناسِ وجهًا، هو يفعل بأمّي منذ أربعين سنة ما غضِبتُ، وفعلتُ أنا بجاريته مرّةً واحدة غضِبَ وصنعَ بي ما ترى. فضحكَ المهديُّ أشدَّ مِن ضحكهِ الأوّل، ثم قال: دَعْها له يا أبا دُلامة، وأنا أُعطيك خيرًا منها؛ قال: على أن تخبّأها لي بينَ السماءِ والأرضِ وإلّا فعَل بها واللهِ كما فعل بهذه؛ فتقدّم إلى دُلامةَ ألّا يعاودَ مثلَ فعلهِ، وحلف أنه إن عاود قتلَه، ثم وهبَ له جارية.

قال عبدُ الله بن صالح رحمه الله: جاء ابنُ أبي دُلامةَ يومًا إلى أبيه وهو في محفل من جيرانِه وعشيرتِه فجلس بينَ يديه، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم: إنّ شيخي كما ترَوْنَ قد كبِر سنُّه ورَقّ جلدُه ودقّ عظمُه، وبنا إلى حياته حاجةٌ شديدة، فلا أزالُ أُشيرُ عليه بالشيء يُمسكُ رمقَه ويُبقي قوّته فيخالفني فيه، وإني أسألكم أن تسألوه قضاءَ حاجةٍ لي أذكرَها بحضرتكم فيها صلاحُ جسمِه وبقاءُ حياتِه، فأسعفوني بمسألته معي. فقالوا: نفعلُ حبًّا وكرامة؛ ثم أقبلوا على أبي دُلامةَ بألسنتِهم فتناولوه بالعتابِ حتى رضي ابنهُ وهو ساكت، قال: قولوا للخبيثِ فليقلْ ما يريد، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببليّة. فقالوا له: قلْ؛ فقال: إنّ أبي إنما قتله كثرةُ الجماع، فتعاونوني حتى أخصيَه[٣]، فلن يقطعَه عن ذلك غيرُ الخصاءِ فيكونُ أصحَّ لجسمه وأطوَلَ لعمره. فعجِبوا بما أتى به وضحكوا. ثم قالوا لأبي دُلامة: قد سمعتَ فأجِبْ. قال: قد سمعتم أنتم فعرّفتكم أنه لم يأتِ بخير. قالوا: فما عندكَ في هذا؟ قال: قد جعلتُ أمّه حَكَمًا فيما بيني وبينه، فقوموا بنا إليها. فقاموا بأجمعهم ودخلوا إليها، وقصّ أبو دلامةَ القصّةَ عليها وقال: قد حَكّمتُك. فأقبلت على الجماعة فقالت: إن ابني هذا أبقاهُ اللهُ قد نصحَ أباه ولم يألُ جهدًا، وما أنا إلى بقاء أبيهِ أحوج مني إلى بقائه، وهذا أمر لم يقع به تجربة منّا ولا جرى بمثله عادةٌ لنا؛ وما أشكّ في معرفته بذلك، فليبدأْ بنفسه فَلْيَخْصِها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أثّر عليه أثرًا محمودًا استعملَهُ أبُوهُ. فضحكَ أبوهُ والقوم وانصرفوا يعجبون من خبثهم جميعًا.

---

(١) النطع: البساط من جلد يوضع تحت المحكوم عليه بالقتل ليقع الرأس عليه.

(٢) أصفق: أبشع، وأحقّه بالصفق والضرب. (٣) أخصيه: أنزع خصييه، أي بيضتيه.

ومنهم أبو صدقة.

ذكر شيء من نوادر أبي صدقة

هو أبو صدقةَ مسكينُ بنُ صدقة من أهلِ المدينةِ مولى لقريش. قال أبو الفرج: وكان مليح الغناء طيّب الصّوتِ كثير الروايةِ صالح الصنعة، من أكثر الناس نادرةً وأخفِّهم روحًا وأشدِّهم طمعًا وألحِّهم مسألةً، وهو من المغنّين الذين أقدمهم الرشيدُ من الحجازِ في أيامه. قيل: إنه عوتب على كثرة إلحاحِه في المسألة، فقال: وما يمنعُني من ذلك، واسمي مِسكينٌ، وكنيتي أبو صدقة وابنتي فاقةُ وابني صدقة، فمَنْ أحقُّ بهذا مني؟ وكان الرشيدُ يعبثُ به كثيراً؛ فقال ذاتَ يومٍ لمسرورٍ: قلْ لابنِ جامع وإبراهيمَ الموصليّ وزبيرَ بن دحمان وزلزلَ[1] وبرصوما وابنِ أبي مريم المدينيّ: إذا رأيتموني قد طابت نفسي، فليسألْ كلُّ واحدٍ منكم حاجةً، مقدارُها مقدارُ صلتِه، وذكر لكل واحد منهم مبلغَ ذلك، وأمرهم أن يكتموا أمرَهم عن أبي صدقة؛ فقال لهم مسرورٌ ما أمر به الرشيد. ثم أذن الرشيدُ لأبي صدقة قبلَ إذنه لهم. فلما جلس قال له: يا أبا صدقة، لقد أضجرْتَني بكثرة مسألتِك وأنا في هذا اليوم ضَجِرٌ وأحببتُ أن أتفرّج وأفرحَ، ولستُ آمنُ أن تنغّص عليّ مجلسي بمسألتك، فإما أن تُعفيني أن تسألني اليومَ حاجةً وإلّا فانصرف. فقال له: لستُ من يومي هذا إلى شهر أسألُك حاجة. فقال له الرشيد: أمّا إذا شَرَطتَ لي هذا على نفسك فقد اشتريتُ منك حوائجك بخمسمائة دينارٍ وها هي ذه فخذْها طيبةً معجلةً، فإن سألتني شيئًا بعدها من هذا اليوم فلا لومَ عليّ إن لم أصِلْكَ سنةً بشيء. فقال: نعم وسنتين. فقال له الرشيد: زدني في الوثيقة. فقال: قد جعلتُ أمرَ أمّ صدقة في يدك فطلّقها متى شئتَ، إن شئتَ واحدة وإن شئت ألفًا إن سألتُك في يومي هذا حاجة، وأشهدتُ الله ومَن حضر على ذلك. فدفع إليه المال، ثم أذن للجلساء والمغنّين فدخلوا وشرب القوم، فلما طابت نفسُ الرشيد، قال له ابنُ جامع: يا أمير المؤمنين، قد نِلْتُ منك ما لم تبلغه أُمنيّتي، وكثُر إحسانُك إليّ حتى كَبَتَّ[2] أعدائي وقتلتَهم، وليس لي بمكةَ دارٌ تشبهُ حالي، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يأمرَ لي بمالٍ أبني به دارًا وأفرشُها بباقيه لأفقأ عيونَ أعدائي وأُزهِق[3] نفوسَهم فعل. فقال له: وكم قدّرْتَ لذلك؟ قال: أربعة آلاف دينار، فأمر له بها. وقام إبراهيم الموصليّ فقال: يا أمير المؤمنين، قد ظهرتْ نعمتُك

---

(١) زلزل: أحد أشهر المغنّيين والموسيقيّين في العصر العباسي.

(٢) كبتّ: صرعت وأهلكت. (٣) أزهق: أذهب.

عليّ وعلى الكبار من ولدي؛ وفي أصاغرِهم من أحتاج إلى خِتانه، وفيهم صغارٌ أحتاجُ أن أتّخذ لهم خدمًا؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يحسنَ معونتي على ذلك فعل. فأمر له بمثل ما أمر به لابنِ جامع، وجعل كلُّ واحدٍ منهم يقول في الثناء ما يحضره ويسأل حاجتَه على قدرِ جائزته، وأبو صدقةَ ينظر إلى الأموال تُفرَّق يمينًا وشمالًا، فوثب قائمًا ورمى بالدنانير من كُمِّه وقال للرشيد: أقِلْني أقال الله عَثْرتَك. فقال الرشيد: لا أفعل. فجعل يستحلفُه ويضطربُ ويلحّ والرشيدُ يضحكُ ويقول: ما لي إلى ذلك سبيلٌ، الشرط أمْلَكُ. فلمّا عِيل صبرُه أخذ الدنانيرَ ورمى بها بينَ يدي الرشيد وقال: هاكها قد رددتُها عليك وزدتُك أمّ صدقة فطلِّقْها واحدةً إنْ شئتَ وإن شئت ألفًا. وإنْ لم تلحِقني بجوائزِ القوم فألحقْني بجائزةِ هذا البارِدِ عمرو الغزّال - وكانت جائزتُه ثلاثةِ آلافِ دينار - فضحك حتى استلقى ثم رد عليه الخمسمائة الدينار وأمر له بألفٍ أخرى معها، وكان ذلك أكثر ما أخذه منذ خدمه إلى أن مات، رحمةُ الله عليهم.

وروى أبو الفرج عن أبي إسحـٰق قال: مُطِرْنا ونحن مع الرشيدِ بالرّقة[١] مع الفجر فاتّصل إلى غدِ ذلك اليوم، وعرفنا خبرَ الرشيد أنه مقيمٌ عندَ أُمّ ولدهِ المسمّاةِ سحرَ، فتشاغلنا عنه في منازلنا. فلما كان من غدٍ جاءنا رسولُ الرشيد فحضرْنا جميعًا، وأقبل يسألُ كلَّ واحدٍ منّا عن يومهِ الماضي وما صنعَ فيه؛ فيخبره إلى أن انتهى إلى جعفرِ بن يحيىٰ، فسأله عن خبره فقال له: كان عندي أبو زكّارٍ الأعمى وأبو صدقة، وكان أبو زكّارٍ كلّما غنّى صوتًا، لم يفرغْ منه حتى يأخذه أبو صدقة؛ فإذا انتهى الدورُ إليه أعاده وحكَى أبا زكّار فيه وحركاتِه وشمائله، ويفطنُ أبو زكّار لذلك فيُجَنّ ويموت غيظًا ويشتم أبا صدقة كلّ الشتم حتى يضجرَ، وهو لا يجيبُه ولا يدعُ العبثَ به وأنا أضحكُ من ذلك، إلى أن توسّطنا الشرب وسئمنا من عبثِهِ به؛ فقلت له: دَعْ هذا عنك وغنِّ غنائك، فغنَّى رَمَلًا ذكر أنه من صنعته، فطربت له والله يا أمير المؤمنين طربًا ما أذكر أني طربتُ مثله منذ حينٍ، وهو: [من الخفيف]

فتَنتني بفاحم[٢] اللونِ جَعْدِ[٣] وبـثـغـرٍ[٤] كـأنـه نـظـمُ دُرِّ
وبـوجـهٍ كـأنـه طـلـعـة الـبـدْ رِ وعينٍ في طرفها نَفْث[٥] سِحْرِ

(١) الرّقة: مدينة سورية على الفرات جعلها هارون الرشيد عاصمته الصيفيّة وبنى فيها قصر السلام، فعرفت بمدينة الرشيد.
(٢) فاحم اللّون: صفة للشعر الأسود.
(٣) جعد: صفة ثانية له، وهو بخلاف المرسل.
(٤) الثغر: الفم.
(٥) نفث: إلقاء وإلهام.

فقلت له: أحسنتَ واللهِ يا أبا صدقة! فلم أسكتْ من هذه الكلمةِ حتى قال: يا سيّدي إني قد بنيتُ دارًا أنفقتُ عليها جميعَ مالي، وما أعددتُ لها فرشًا فافرشها لي. فتغافلتُ عنه، وعاودَ الغناء فتعمّدتُ أن قلتُ: أحسنتَ، فسألني فتغافلت؛ فقال: با سيّدي، هذا التغافلُ متى حدثَ لك؟ سألك بالله وبحقّ أبيك عليك إلا أجبتني عن كلامي ولو بشتم. فأقبلتُ عليه وقلتُ له: أنت والله بغيض، اسكتْ يا بغيضُ، واكفُفْ عن هذه المسألةِ الملحّة. فوثب من بين يديّ، فقلت: إنّه قد خرج لحاجة، فإذا هو قد نزعَ ثيابه وتجرّد منها خوفًا من أن تبتلّ ووقف تحت السماءِ لا يواريه شيءٌ والمطرُ يأخذُه ورفع رأسَه، وقال: يا ربِّ أنت تعلم أني مُلْهٍ ولستُ نائحًا، وعبدُك الذي قد رفعتَه وأحوجتني إلى خدمتهِ يقول لي: أحسنتَ لا يقول لي: أسأت، وأنا مذ جلستُ أقول له: بنيتَ ولا أقول له: هدمْت، فيحلِفُ بك جرأة عليك أني بغيض، فاحكمْ بيني وبينه فأنت خيرُ الحاكمين. فغلبني الضحكُ وأمرتُ به فتنحّى، وجهدتُ به أن يغنّي فامتنع، حتى حلَفتُ له بحياتك أني أفرشُ له داره يا أمير المؤمنين، وخدعتهُ فلم أُسمِّ له بما أفرشها. فقال له الرشيد: طيِّبٌ واللهِ! الآن تمّ لنا به اللهو، أدعُه فإنه إذا رآك سوف يتنجّزُك[1] الفرشَ لأنك حلفتَ له بحياتي فهو يقتضيك ذاك بحضرتي ليكونَ أوفقَ له؛ فقل له: أنا أفرشُها لك بالبواري[2] وحاكِمْه إليّ. ثم دعا به فحضر؛ فلما استقرّ في المجلس قال لجعفر: الفرشُ الذي حلفتَ بحياة أمير المؤمنين أنك تفرشُ به داري، تقدَّمْ به. فقال له جعفر: اخترْ، إنْ شئتَ فرشتُها لك بالبواريّ وإن شئتَ فبالبَرديّ[3] من الحصر؛ فصاح واضطرب. فقال له الرشيد: وكيف كانت القصة؟ فأخبره، فقال له: أخطأتَ يا أبا صدقة إذ لم تسمِّ النوعَ ولا حدّدتَ القيمة؛ فإذا فرشها لك بالبَرديّ أو بما دون ذلك فقد برَّ في يمينه، وإنما خدعَك ولم تفطن أنت ولا توثّقتَ وضيّعتَ حقّك. فسكت ثم قال: نوفّرُ أيضًا البرديّ والبواريّ عليه أعزّه الله. وغنّى المغنّون حتى انتهى الدّورُ إليه، فأخذ يغنّي غناءَ الملّاحين والبنّائين والسقّائين وما يجري مجراه من الغناء. فقال له الرشيد: أيّ شيء هذا الغناء؟ قال: مَن فُرِش دارُه بالبواريّ والبرديّ فهذا الغناء كثير منه، وكثير أيضًا لمن هذه صلتُه. فضحكَ الرشيدُ وطرب وصفّق وأمر له بألف دينار من ماله، وقال له: افرشْ دارَك بهذه. فقال: وحياتِك يا أمير المؤمنين لا آخذُها أو تحكمَ لي على جعفر بما وعدَني وإلا متُّ

(١) يتنجّزك: يطلب إنجازه وقضاء حاجته. (٢) البواري: الحصير من القصب وغيره.

(٣) البردي: نبات كالقصب، كانوا يكتبون عليه قديمًا.

والله أسفًا لفوات ما حصل في طمعي ووُعِدتُ به؛ فحكم له على جعفر بخمسمائة دينار أخرى، فأمر له جعفر بها.

ذكر شيء من نوادر الأُقَيْشر

هو أبو مُعْرِضْ المغيرةُ بنُ عبدِ الله بن معرضٍ بنِ عمرو بنِ معرضٍ بن أسدِ بنِ خزيمةَ بن مدركةَ بنِ الياسَ بنِ مضرَ. والأقيشر لقبٌ غُلِبَ عليه لأنه كان أحمرَ الوجهِ أقيشر. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وعُمِّر الأقيشِرُ عمرًا طويلًا، ولعله وُلِدَ في الجاهلية ونشأ في الإسلام، وكان أبعدَ بني أسدَ نسبًا. قال: وكان كوفيًّا خَليعًا ماجِنًا مُدمنًا للخمر. وهو الذي يقول لنفسه: [من المتقارب]

فـإنّ أبـا مـعـرضٍ إذ حـسـا ... من الرّاح[1] كأسًا على المنبرِ
خطيبٌ لبيبٌ[2] أبو معرِض ... فإنْ لِيم في الخمر لم يصبرِ
أحـلّ الـحـرامَ أبـو مـعـرضٍ ... فـصـار خليعًا على المُكبرِ
يحبّ اللئامَ ويَلْحى[3] الكرام ... وإن أقصروا عنه لم يُقصِرِ

قال: وشرب الأقيشرُ في بيت خمّارٍ بالحِيرة، فجاءه الشُّرطُ ليأخذوه، فتحرّز منهم وأغلق الباب وقال: لست أشربُ فما سبيلكم عليّ؟ قالوا: قد رأينا العُس[4] في كفّك وأنت تشرب. فقال: إنما شربت من لبنِ لَقْحة[5] لصاحب هذه الدار؛ فما برحوا حتى أخذوا منه درهمين، فقال: [من الرمل]

إنـمـا لـقـحـتُـنـا بـاطـيَـةٌ[6] ... فإذا ما مُزِجتْ كانتْ عَجَبْ
لـبـنٌ أصـفـرُ صـافٍ لـونُـهُ ... ينزه الباسور[7] من عَجْبِ[8] الذَّنبْ
إنـمـا نـشـربُ مـن أمـوالـنـا ... فَسَلو الشرطيّ ما هذا الغضبْ؟

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن أبي عمرو الشيبانيّ وغيرهِ قال: كان الأقيشرُ لا يسألُ أحدًا أكثرَ من خمسةِ دراهم، يجعل درهمين للشراب ودرهمًا للطعام ودرهمين في كِراء بغلٍ إلى الحيرة. وكان له جار يُكنّى أبا المضاء، له بغلٌ

(١) الراح: الخمرة.
(٢) اللبيب: العاقل.
(٣) يلحى: يلعن ويقبّح.
(٤) العسّ: قدح الخمر الكبير.
(٥) اللقحة: الناقة الفتيّة الغزيرة اللّبن.
(٦) الباطية: وعاء الخمر من الزجاج.
(٧) الباسور: ضرب من الحبوب والدمامل تصيب الإنسان في أسفل إسته.
(٨) العجب: الأصل.

يكريه، فكان يعطيه درهمين، ويأخذُ بغلَه فيركبُه إلى الحيرةِ حتى يأتيَ به بيتَ الخمَّار فينزلُ عنه ويربطُه، ثم يجلسُ للشرب حتى يمسي ثم يركبه. وله في ذلك أشعارٌ كثيرة.

قال: وتزوّج الأقيشرُ ابنةَ عمٍّ له يقالُ لها الرَّباب، على أربعةِ آلاف درهمٍ ـ ويقال: على عشرة آلاف درهم ـ فأتى قومَه فسألهم فلم يعطوه شيئًا، فأتى ابن رأسِ البغل وهو دَهْقان[١] الصين، وكان مجوسيًّا[٢]، فسأله فأعطاه الصَّدَاق[٣] كاملًا؛ فقال: [من المتقارب]

كفاني المجوسيُّ همَّ الرَّباب ... فِدًى للمجوسيّ خالٌ وعمّ
شهدت بأنك رَطْبُ اللّسان ... وأنك بحرٌ جوادٌ خِضَمّ[٤]
وأنك سيّدُ أهلِ الجحيم ... وإذا ما تردّيتَ فيمن ظلَمْ
تجاور هامان[٥] في قعرها ... وفرعون والمكتني بالحَكَمْ[٦]

فقال له المجوسيّ: ويحك! سألت قومَك فما أعطوك شيئًا، وجئتني فأعطيتُك فجزيتني هذا القول ولم أُفلت من شرّك! قال: أوَ ما ترضى أن جعلتُكَ مع الملوك وقرينَ أبي جهل[٧]؟ قال: ثم جاء إلى عكرمةَ بن ربعيٍّ التميميّ، فسأله فلم يعطه شيئًا؛ فقال فيه: [من المتقارب]

سألتُ ربيعة مَنْ شَرُّها ... أبًا ثم أُمًّا فقالوا لِمَهْ
فقلت لأعلمَ مَنْ شَرُّكم ... وأجعلَ للسبّ فيه سِمه[٨]
فقالوا لعِكرمةَ المخزيات ... وماذا يرى الناس في عِكْرِمَهْ
فإن يكُ عبدًا زكا[٩] ماله ... فما غير ذا فيه من مكرمَهْ

---

(١) الدهقان: لفظة فارسية، تعني رئيس الإقليم.
(٢) المجوسيّ: الذي يدين بالمجوسيّة، وهي عبارة النار.
(٣) الصداق: مهد المرأة. (٤) الخضمّ: البحر الكبير.
(٥) هامان: وزير فرعون في عهد موسى عليه السلام، ورد ذكره في القرآن الكريم.
(٦) المكتني بالحكم، المراد به مروان بن الحكم، طريد رسول الله ﷺ.
(٧) أبو جهل، عمّ النبيّ ﷺ، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وكان معاديًا للرسول.
(٨) السِّمَة: العلامة. (٩) زكا: نما.

قال الأصمعيّ: قال عبد الملك بن مروان للأقيشر: أنشدني أبياتك في الخمر؛ فأنشده قوله: [من الطويل]

تُريك القَذى[١] من دونِها وهي دونه
لوجهِ أخيها في الإناءِ قطوبُ[٢]
كميتٌ[٣] إذا شُجَّت[٤] وفي الكأس وَرْدةٌ
لها في عظام الشاربين دبيبُ[٥]

فقال له: أحسنتَ واللهِ يا أبا مُعْرِض! لقد أجدتَ في وصفها، وأظنُّك قد شربتَها. فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين، إنه ليُريبُني معرفتُك بها. قال: وكان الأُقيشر يأتي إخوانًا له فيسألُهم فيعطونه، فأتى رجلًا منهم فأمرَ له بخمسمائة درهم فأخذها ومضى إلى الحانةِ فدفعها إلى صاحبها، وقال له: أقم لي ما أحتاجُ إليه، ففعل. فانضمَّ إليه رفقاءُ له فلم يزلْ معهم حتى نفدتْ الدراهم؛ فأتاهم بعد إنفاقِها فاحتملوه يومًا ويومًا. فلما أتاهم في اليوم الثالث نظروا إليه من بعيد، فقالوا لصاحب الحانة: اصعدْ بنا إلى الغرفة، وأَعْلِمْ الأقيشر أنَّا لم نأْتِ اليوم، ففعل. فلمّا جاء الأقيشرُ أعلمه بما قالوا، فعلم أنه لا فرج له عند صاحب الحانة إلا برهْنٍ، فطرحَ إليه بعض ثيابه وقال له: أقم لي ما أحتاج إليه، ففعل. فلما أخذ منه الشراب أخذ يقول: [من الخفيف]

يا خليليَّ اسقيانِيَ كأسًا ... ثمّ كأسًا حتى أَخِرَّ نُعاسا[٦]
إن في الغرفة التي فوق رأسي ... لأناسًا يُخادِعون أُناسا
يشربون المعتّقَ الراحَ صِرفا[٧] ... ثم لا يرفعون للزَّورِ[٨] راسا

قال: فلما سمع أصحابُه هذا الشعر، فدَّوْه بآبائهم وأُمّهاتهم، ثم قالوا له: إمّا أن تصعدَ إلينا وإما أن ننزلَ إليك، فصعِد إليهم.

(١) والقذى: الغبار أو القشة.
(٢) القطوب: الزاوية ما بين عينيها.
(٣) الكميت: صفة للخمرة لونها أسود وأحمر.
(٤) شجت: مزجت.
(٥) الدبيب: السريان.
(٦) في هذا البيت، أي الأول، خلل عروضي في الشطر الأول منه، والأفصح أن يقال: فاْسقياني.
(٧) صرفًا: خالصة.
(٨) الزور: جماعة الزائرين.

قال: وكان يختلفُ إلى رجل من بني تميم وكان يجري عليه في كل شهر عشرةَ دراهمَ، فجاءه مرةً فوجده قد أُصيب بابنهِ، فردّته امرأتُه عنه، ثم عاد بعد ذلك بيومين فردّته عنه أيضًا؛ فكتب إليه بيتي شعرٍ ودفع الرقعةَ إليها وقال: أوصليها إليه؛ فقرأها، فإذا فيها: [من الوافر]

ألا أبـلغْ لـديـك أبـا هـشـامٍ فـإنّ الـريـح أبـردُهـا الـشَّـمـالُ
عِداتُك في الهلال عِداتُ صدقٍ فهل سمنَتْ كما سمن الهلالُ

فلما قرأ الرقعةَ أمر بردّه، وقال: لقد سمنت وما بقي إلا الهزالُ إن تأخّرت، فأمر له بها وزادها خمسة دراهم.

وكان الأقيشر مع شرفهِ وشِعره يرضيه اليسيرُ ويسخطُه، وأخباره كثيرة ونوادره مشهورة، وفيما أوردناه منها كفاية، ومات الأقيشر قتيلًا. وقيل: إنه مدح عبدَ الله بنَ إسحٰق بنِ طلحةَ بنِ عبيدِ اللهِ فلم يعطهِ شيئًا فهجاه؛ فزعموا أنّ غلمانًا لعبدِ اللهِ بنِ إسحٰق قتلوه؛ فاجتمع بنو أسدٍ وادّعوا عليه قتلَ الأُقيشر، فافتدى منهم بدِيته. وقال ابنُ الكلبيّ[(١)]: كان الأقيشر مولَعًا بهجاء عبدِ اللهِ بنِ إسحٰقَ ومدحِ أخيه زكريّا. فقال لغلمانه: ألا تريحونني منه! فانطلقوا فجمعوا بعرًا وقصبًا بظهر الكوفة وجعلوه في وسط إِرَةٍ[(٢)]، وأقبل الأقيشرُ سكرانًا من الحِيرة على بغل أبي المضاء المكاري، فأنزلوه عنِ البغل وشدّوه رباطًا ثم وضعوه في تلك الإرَةِ وألهبوا النار في القصب والبعرِ فمات، ولم يُعْلَم مَنْ قتلَه، والله أعلم.

ذكر شيء من نوادر ابن سَيَّابة

هو إبراهيمُ بن سَيَّابة مولى بني هاشم، كان يقال: إن جدَّه حجّامٌ أعتقه بعضُ الهاشميين. قدّمه إبراهيمُ الموصليّ وابنُه إسحٰقُ لأنه مدحهما فرفعا من قدره وغنَّيا بشعره ونوَّها بذكره. وكان خليعًا[(٣)] ماجنًا حسن النادرة، وله نوادر نذكر منها نُبَذًا فيما رواه أبو الفرج الأصفهانيّ. منها ما رواه عن إسحٰق الموصليّ قال: أتى إبراهيم بن سيّابة وهو سكران ابنًا لسوّارِ بنِ عبد الله القاضي أمردَ، فعانقه وقبّله؛ وكانت معه

(١) ابن الكلبي، هو أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبيّ، المؤرخ والنسّابة، وصاحب كتاب «الأصنام» و«المنافرات» و«بيوتات قريش» و«ملوك اليمن» و«الكهّان» و«الجنّ» و«المعمّرين» وغير ذلك من عشرات الكتب والمصنّفات، توفي سنة ٢٠٦ هـ. انظر: الفهرست ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) الإرة: موضع النار، والتنور.

(٣) الخليع: الماجن المستهتر.

دايةٌ[١] يقال لها رَحَاص، فقيل لها: إنه لم يقبِّله تقبيلَ التسليم، وإنما قبَّله شهوةً؛ فلحِقتْه الدايةُ فشتمته وأسمعته كلّ ما يكره، وهجره الغلامُ بعد ذلك؛ فقال: [من المجتثّ]

لئن لشمتُك سِرًّا ... فأبصرتني رَحاصُ
وقال في ذاك قومٌ ... على انتقاصي حِراصُ
هَجَرتَني وأتتني ... شتميةٌ وانتقاصُ
فهاك فاقتصَّ مني ... إنّ الجروحَ قِصاصُ[٢]

وقد قيل: إنّ رَحاصَ هذه كانت مغنِّية كان الغلامُ يهواها، وإنه سكر ونام، فقبّله ابنُ سيّابة. فلما انتبه قال للمغنِّية: ليت شعري! ما كان خبرُك مع ابنِ سيّابة؟ فقالت له: سَلْ عن خبركِ أنت معه، وحدّثتْه بالقصّة؛ فهجره الغلام، فقال هذا الشعر.

وقال إسحٰق بنُ إبراهيم: كان ابن سَيَّابة عندنا يومًا مع جماعة نتحدّث ونتناشدُ وهو يُنشدُ شيئًا من شعره، فتحرّكَ فضرط فضربَ بيده على اسْتِه غيرَ مكترثٍ وقال: إما أنْ تسكتي حتّى أتكلّم، وإما أن تتكلّمي حتى أسكت.

وقال جعفرُ الكاتب: قال لي إبراهيم بنُ سيّابة الشاعرُ: إذا كان عند جيرانك جنازةٌ وليس في بيتك دقيقٌ فلا تحضرِ الجنازةَ، فإن المصيبةَ عندك أكبرُ منها عند القوم، وبيتك أولى بالمأتم من بيتهم. وقال سليمان بنُ يحيىٰ بن معاذ: قدِم عليّ إبراهيمُ بنُ سيّابة بنيسابور[٣] فأنزلته عليّ، فجاء ليلةً من الليالي فجعل يصيح: يا أبا أيّوب، فخشيت أن يكون قد غشيه شيء، فقلت: ما تشاء؟ فقال: [من مخلّع البسيط]

* أعياني الشادن[٤] الربيب[٥] *

---

(١) الداية: القابلة.

(٢) في هذا البيت، وتحديدًا في قوله (الجروح قصاص) تضمين مأخوذ من قوله تعالى في الآية ٤٥ من سورة المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ...﴾.

(٣) نيسابور، أو نيشابور، بالشين، مدينة إلى الغرب من مشهد في خراسان. عاصمة خراسان قديمًا، ومركز من مراكز الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى. أسّس فيها نظام الملك مدرسة مشهورة باسم «نظامية»، خرّبها المغول سنة ١٢٢١ م، تعاقبت عليها زلازل كثيرة.

(٤) الشادن: الظبي أول ما يقوى ويستغني عن أُمّه.

(٥) الربيب، من الناس أو الحيوان: الولد يربّيه زوج الأم.

قلت: بماذا؟ فقال:

* أكـتـبُ أشـكـو فـلا يُـجـيـبُ *

فقلت: دَارِه وداوِه، فقال:

مـن أيـن أبـغـي شـفـاء قـلـبي　　وإنـمـا دائـيَ الـطـبـيـبُ

فقلت: لا دواء إذًا إلّا أن يفرّجَ الله عزّ وجلّ عنك. فقال:

يـا ربِّ فـرّجْ إذًا وعَـجِّـلْ　　فـإنـك الـسـامـعُ الـمـجـيـبُ

ثم انصرف. وقد تقدّمت هذه الحكاية، والسلام.

ذكر شيء من نوادر مطيع بن إياس الكنانيّ وأخباره

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو شاعر من مخضرمي[١] الدولتين الأمويّة والعباسيّة. كان ظريفًا خليعًا ماجنًا حلوَ العشرةِ مليحَ النادرة، قال: وكان متّهمًا في دينه بالزندقة، وكان مولدُه ومنشؤه بالكوفة، وكان منقطعًا إلى الوليد بن عبد الملك، ثم اتّصل بخدمة الوليد بن يزيد. وكان سببُ ذلك ما حكى عن حكَم الوادي المغنّي، قال: غنّيتُ الوليدَ بنَ يزيدَ وهو غلامٌ حديثُ السنِّ بشعر مطيعِ بنِ أياس[٢]، وهو: [من منهوك المنسرح]

إكـلـيـلُـهـا ألـوانُ　　ووجـهـهـا فـتّـانُ
وخـالُـهـا[٣] فـريـدٌ　　لـيـس لـه جـيـرانُ
إذا مـشـت تـثـنّـتْ[٤]　　كـأنـهـا ثـعـبـانُ
قـد جُـدِلـتْ فـجـاءتْ　　كـأنـهـا عِـنـانُ[٥]

فطرِب حتى زحف عن مجلسه إليّ، واستعادني الصوتَ حتى صَحِلَ[٦] صوتي؛ ثم قال: ويحك! من يقول هذا؟ فقلتُ: عبدٌ لك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك.

---

(١) المخضرم: من يعيش في عصرين متعاقبين.
(٢) مطيع بن أياس: شاعر بغدادي محدث، مدح الوليد بن يزيد والمنصور العباسيّ، امتاز شعره بالرّقة والظرف والمجون، مات سنة ٧٨٣ م.
(٣) الخال: الشامة، أي البثرة السوداء في البدن، وفي الوجه أو الخدّ خاصةً، وهي ما يستحسن ويجمّل في الوجه.
(٤) تثنّت: تمايلت.　　(٥) العنان: اللجام.
(٦) صحل: بُحّ.

قال: ومن هو؟ قلت: مطيعُ بنُ إياس. قال: وأين هو؟ قلت: بالكوفة؛ فأمر أن يُحْمَلَ إليه مع البريد، فحُمِلَ إليه؛ فسأله عن الشعر فقال: من يقول هذا؟ فقال: عبدُك أنا يا أمير المؤمنين، فقال له: أدنُ مني، فدنا منه فضمّه الوليد إليه وقَبَّل فاه وبين عينيه، وقبَّل مطيعٌ رجليه والأرضَ بين يديه؛ ثم أدناه حتى جلس في أقرب المجالس إليه، واصطبح[1] معه أسبوعًا متواليَ الأيام على هذا الصوت. وكان في خلال الدولةِ الأمويّة ينقطعُ إلى أوليائها وعلمائها، ثم انقطع في الدولة العبّاسيّة إلى جعفر بن أبي جعفر المنصور، فكان معه حتى مات جعفر. ومات مطيع في خلافة الهادي بعد ثلاثة أشهر مضت منها، وله نوادر وأخبارٌ مستظرفةٌ هذا موضعُ ذكرِها، فلنقتصر هٰهنا من أخباره عليها دون غيرها.

قيل: سقطَ لمطيع حائطٌ؛ فقال له بعضُ أصحابه: أحمدِ الله على السلامة. قال: اَحمدِ الله أنت إذ لم تَرُعْك هدّتُه، ولم يصبْك غبارُه، ولم تغرمْ أجرةَ بنائه.

ومن أخباره ما رواه أبو الفرج الأصفهانيّ بإسناده إلى عبد الملك المروانيّ عن مطيع بن إياس، قال: قال لي حماد عَجْرد[2] يومًا: هل لك أن أريك «خُشَّة» صديقتي وهي المعروفة بظبية الوادي! قلت: نعم. قال: إنك إن قعدت عندها وخَبُثت عينُك في النظر أفسدتَها عليَّ. فقلت: لا والله لا أتكلّم بكلمة تسوءك ولأسرّنّك، فمضى بي وقال: والله لئن خالفتَ ما قلت لأخرجنّك، قال: قلت: إن خالفتُ إلى ما تكره فاصنع بي ما أحببتَ. قال: اَمضِ بنا فمضينا، فأدخلني على أحسن خلق الله وأظرفهم وأحسنهم وجهًا. فلما رأيتها أخذني الزَّمَعُ[3]، وفطن لي فقال: اسكتْ يا بن الزانية، فسكتُّ قليلًا، فلحظتني ولحظتها لحظة أخرى فغضب ووضع قلنسوتَه عن رأسه، وكانت صلعتُه حمراء كأنها اَسْتُ قردٍ؛ فلما وضعها وجدت للكلام موضعًا، فقلت: [من الهزج]

وإنَّ السَّوْءَةَ[4] السَّوءا ءَ[5] يا حمّاد عن خُشَّهْ

(١) اصطبح: شرب الصبوح، وهي خمرة الصباح.
(٢) حماد عجرد: شاعر ماجن، اشتهر بفسقه وتهتكه، من شعراء العصر العبّاسي الأوّل.
(٣) الزمع: القلق، والرّعدة تعتري الإنسان إذا همّ بالأمر.
(٤) السوءة: الفاحشة والخلّة القبيحة والعورة.
(٥) السوءاء: بخلاف الحسناء، الشديدة القبح والسوء.

عــن الأُتــرجــة(١) الــغــضّــ ـةِ(٢) والــتــفّــاحــةِ الــهــشّــة(٣)

فالتفتَ إليّ وقال: فعلتَها يا بنَ الزانية! فقالت له: أحسن، فوالله ما بلغ صفتَك بعد، فما تريدُ منه! فقال لها: يا زانيةُ! فسبّته وتثاوروا، فشقّت قميصه وبصقت في وجهه وقالت له: ما يُصادقُك ويدعُ مثلَ هذا إلا زانية، وخرجنا وقد لقي كلٌ بلاء، وقال لي: ألم أقل لك يا بن الزانية إنك ستفسد عليّ مجلسي! فأمسكت عن جوابه، وجعل يهجوني ويسبّني ويشكوني إلى أصحابنا؛ فقالوا لي: اُهجُه ودعْنا وإياه؛ فقلت: [من الهزج]

ألا يــا ظــبــيــةَ الــوادي وذات الــجــســد الــرادي
وزيــنَ الــمــصــرِ والــدارِ وزيــنَ الــحــيّ والــنــادي
وذات الــمِــبــســم الــعــذبِ وذات الــمِــبــســم الــبــادي
أمــا بــالله تــســتــحــيــ ـيــن مــن خــلّة حــمّــادِ
فــحــمّــادٌ فــتــى لــيــس بــذي عــزٍّ فــتــنــقــادي
ولا مــالٍ ولا طِــرْفٍ(٤) ولا حــظٍّ لــمــرتــادِ
فــتــوبــي واتّــقــي الله وبُــتّــي(٥) حــبــلَ عَــجْــرَادِ
فــقــد مُــيّــزتِ بــالــحــســنِ عــن الــخَــلْق بــإفــراد
وهــذا الــبَــيْــنُ(٦) قــد حُــمّ(٧) فــجــودي لِيَ بــالــزادِ

قال: فأخذ أصحابُنا رِقاعًا فكتبوا الأبيات فيها وألقوها في الطريق، وخرجتُ أنا فلم أدخل عليهم ذلك اليوم، فلما رآها وقرأها قال لهم: يا أولادَ الزنى فعلها ابنُ الزانيةِ وساعدتموه؟ قال: وأخذها حكمُ الواديّ فغنّى بها، فلم يبق بالكوفة سَقّاءٌ ولا طحّانٌ ولا مكارٍ إلا غنّى فيها، ثم غبتُ مدّةً وقدمتُ فأتاني فما سلّم عليّ حتى قال لي:

أمــا بــالله تــســتــحــيــ ـيــن مــن خــلّة حــمّــادِ

---

(١) الأترجة: واحدة الأترج، وهو الكبّاد، يشبه الليمون.
(٢) الغضّة: الطريّة. (٣) الهشة: السريعة الانكسار والتفتّت.
(٤) الطرف: المال المحدث، والجواد الشريف.
(٥) بتّي: فكّي. (٦) البين: الفراق.
(٧) حمّ: أزف ودنا.

قتلتني قتلك الله! والله ما كلمتْني حتى الساعةَ. قال: قلت: اللّهمّ أَدِمْ هجرَها له وسوءَ رأيها وأسفَه عليها وأغوِه بها؛ فشتمني ساعة. قال مطيع: ثم قلت له: قم ٱمضِ بنا حتى أريَك أختي - وكانت لمطيع صديقةٌ يسمّيها أختي وتسمّيه أخي، وكانت مغنّيةً - فلما خرجت إليه، دعوتُ قيّمةً لها فأسررت إليها في أن تصلح لنا طعامًا وشرابًا، وعرّفتُها أن الذي معي حمّاد فضحكت. ثم أخذتْ صاحبتي في الغناء وقد علمتْ بموضعه وعرفت، فكان أوّل ما غنّت:

أمـا بـالله تـسـتـحـيـ ـيـن مـن خـلّة حـمّـاد

فقال لها: يا زانية! وأقبل عليّ وقال: وأنتَ يا زاني يا بنَ الزانية! أسررْتَ إلى قيّمتها[1]؟ فقلت: لا والله كذبت، وشاتمْتُه صاحبتي ساعةً ثم قامت فدخلت، وجعل يتغيّظُ[2] عليّ. فقلت: أنت ترى أني أمرتُها أن تغنّيَ بما غنّت؟ فقال: أرى ذلك وأظنّه ظنًّا لا واللهِ ولكنّي أتيقّنُه. فحلفتُ له بالطلاقِ على بطلانِ ظنّه وانصرفنا.

وحكى قال يحيىٰ بن زياد المحاربيّ لمطيع، وكان صديقًا له: انطلقْ بنا إلى فلانة صديقتي، فإنّ بيني وبينها مغاضبَةً لتُصلحَ بيننا وبئسَ المصلحُ واللهِ أنتَ. قال: فدخلا عليها، فأقبلا يتعاتبان ومطيعٌ ساكتٌ، حتى إذا أكثرَ قال يحيىٰ: ما يسكُتك؟ أسكتَ اللهُ نأمتك[3]! قال مطيع: [من الخفيف]

أنـتِ مـعـتـلّةٌ عـلـيـه ومـا زا ل مُـهِـيـنًـا لـنـفـسِـه فـي رضـاكِ

فأعجب يحيىٰ وهشّ له. فقال مطيع: [من الخفيف]

فـدعـيـه وواصـلـي ابـنَ إيـاسٍ جُـعِـلـت نـفـسُـه الـغـداةَ فِـداكِ

فقام يحيىٰ إليه بوسادة في البيت فما زال يجلدُ بها رأسَه، ويقول: ألهذا جئتُ بك يا ابن الزانية! ومطيع يُغَوّث[4] حتى ملّ يحيىٰ، والجاريةُ تضحك منهما، ثم تركه.

ورُوِيَ عن محمد بن الفضل السكونيّ قال: رفعَ صاحبُ الخبر إلى المنصور أن مطيعَ بن إياس زنديقٌ وأنه يلازمُ ابنه جعفر وجماعةً من أهل بيتِهِ، ويوشك أن يُفسدَ أديانَهم أو يُنسَبوا إلى مذهبه. فقال له المهديّ: أنا به عارف، أما الزندقةُ فليس من

---

(١) قيّمتها: المسؤولة عنها وولّية أمرها.
(٢) يتغيّظ: يغضب.
(٣) نأمتك: صوتك ونفسك.
(٤) يغوّث: يقول: واغوثاه!

أهلها، ولكنه خبيث الدين فاسقٌ مستحلٌ للمحارم؛ قال: فأحْضِرْه وأْنهه عن صحبة جعفر وسائر أهله، فأحضره المهديّ وقال له: يا خبيثُ يا فاسق! لقد أفسدتَ أخي ومَن تصحبُه من أهلي، واللهِ لقد بلغني أنهم يتقارعون عليك، ولا يتمُّ لهم سرورٌ إلا بك، وقد غررتَهم وشهّرتَهم في الناس، ولولا أني شهدت لك عند أمير المؤمنين بالبراءةِ مما نُسبتَ إليه من الزندقة، لقد كان أمرَ بضربِ عنقِك! يا ربيعُ اْضربْه مائةَ سوطٍ واْحبسْه. قال: ولِمَ يا سيدي؟ قال: لأنك سِكّير خمّير قد أفسدتَ أهلي كلَّهم بصحبتك. فقال له: إن أذِنتَ لي وسمعت واحتججت. فقال له: قل؛ فقال: أنا امرؤ شاعر، وسوقي إنما تنفُق مع الملوك وقد كسدت عندكم، وأنا في أيامكم مُطَّرَح[1]، وقد رضيتُ منها مع سَعتها للناس جميعًا بالأكل على مائدة أخيك، لا يتبع ذلك غيره، وأصفيتُه على ذلك شكري وشعري؛ فإن كان ذلك غاليًا عندك تبتُ منه. فأطرق المهديّ ثم رفع رأسه فقال: قد رفع إليّ صاحبُ الخبر أنك تتماجن[2] على السؤّال، وتضحك منهم. قال: لا والله ما ذاك من فعلي ولا شأني ولا جرى منّي قط إلّا مرّة واحدَة؛ فإن سائلًا أعمى اعترضني وقد عبرتُ الجسرَ على بغلتي، فظنّني من الجندِ فرفعَ عصاه في وجهي، ثم صاح: اللّهمّ سخّر الخليفةَ لأن يعطيَ للجند أرزاقهم فيشتروا من التجار الأمتعةَ وتربح التجار عليهم فتدرّ أموالهم فتجبُ فيها الزكاة[3] عليهم فيتصدّقوا عليّ منها. فنفرتْ بغلتي من صياحِهِ ورفعِهِ عصاه في وجهي حتى كدتُ أسقط في الماء. فقلت: يا هذا، ما رأيت أكثر فضولًا منك، سَلِ الله أن يرزقَك ولا تجعلْ بينك وبينه هذه الحوالاتِ والوسائطَ التي لا يحتاجُ إليها، فإن هذه المسائلَ فضولٌ. فضحك الناس منه ورفع عليّ في الخبر قولي له هذا. فضحكَ المهديّ وقال: خلّوه ولا يُضرَب ولا يُحْبَس. فقال له: أدخلُ عليك لمَوْجدةٍ[4] وأخرجُ عن رضا وتَبْرأ ساحتي وأنصرف بلا جائزة! قال: لا يجوز هذا، أعطوه مائتي دينار، ولا يعلم أمير المؤمنين فتُجدَّد عنده ذنوبُه؛ وقال له: اْخرجْ عن بغدادَ ودَعْ صحبةَ جعفر حتى ينساك أميرُ المؤمنين، ثم عدْ إليّ. فقال له: فأين أقصد؟ قال: أكتُب إلى سليمان بن عليّ فيولّيك عملًا ويُحسِن إليك. قال: قد رضِيت. فوفد إلى سليمانَ بكتابِ المهديّ فولّاه الصدقَة[5] بالبصرة، وكان عليها داودُ بنُ أبي هندٍ فعزلَه به.

وأخباره في هذا الباب كثيرة أغضيْنا عن كثيرٍ منها.

---

(١) مطّرح: منبوذ. (٢) تتماجن: تظهر المجون وفساد الرأي.
(٣) الزكاة: فريضة واجبة تدفع من مال الإنسان المسلم في كل عام.
(٤) موجدة: غضب. (٥) الصدقة: الزكاة.

ذكر شيء من نوادر أبي الشِّبل

هو عاصمُ بن وهبِ بن البَرَاجِم، مولدُه بالكوفة، نشأ وتأدّب بالبصرة، وفد إلى سامَرّاء[١] أيام المتوكّل ومدحه. وكان طيّبًا كثيرَ الغزلِ والنوادر والمجون، فنفق عند المتوكل وخدمه واختصّ به وامتدحه بقوله: [من مجزوء الرمل]

أقبلي فالخير مُقْبِلْ ... واتركي قول المَعَلِّلْ[٢]
وثقي بالنُّجح[٣] إنْ ... أبصرتِ وجهَ المتوكِّلْ
ملِكٌ يُنصفُ يا ظا ... لمتي فينا ويعدِلْ
فهو الغايةُ والمأ ... مولُ يرجوه المؤمِّلْ

فأمر له بثلاثين ألف درهم، وله أخبارٌ مستظرفةٌ تتضمنُ شعرًا ونوادر تدلّ على ظرفهِ سنذكرُ منها طرفًا؛ فمن ذلك ما حكي عنه: أنه مدحَ مالك بن طوق[٤]، وقدّر أن يعطيه ألفَ درهم، فبعث إليه بصرّةٍ مختومةٍ فيها مائة دينار، فظنّ أنها دراهمُ فردّها إليه وكتب معها: [من الطويل]

فليت الذي جادت به كفُّ مالكٍ ... ومالكَ مدسوسان في ٱستِ أُمِّ مالكِ
وكان إلى يوم القيامة في ٱستها ... فأيسرُ مفقودٍ وأيسر هالكِ

وكان مالكٌ يومئذ أميرًا على الأهواز[٥]، فلما قرأ الرقعة أمر بإحضاره فأُحْضِر وقال: ما هذا؟ ظلمتَنا واعتديتَ علينا. فقال: قدّرتُ عندك ألفَ درهم فوصلتني بمائة درهم. فقال: افتحْها؛ ففتحها فإذا فيها مائة دينار؛ فقال: أقِلْني أيها الأمير. فقال: قد أقلتك ولك كلُّ ما تحبُّ أبدًا ما بقيت وقصدتني.

قال: وكان له جار طبيبٌ أحمق، فمات فرثاه فقال: [من الخفيف]

قد بكاه بولُ المريض بدمعٍ ... واكفٍ فوق مقلتيه ذروفِ[٦]

---

(١) سامراء: مدينة عراقية بناها الخليفة المعتصم ونقل إليها العاصمة من بغداد.
(٢) المعلّل: من يبيّن علة الشيء ويثبته بالدليل. (٣) النجح: النجاح والظفر.
(٤) مالك بن طوق: هو مالك بن طوق التغلبيّ، أحد الولاة العباسيّين، بنى مدينة الرّحبة على الفرات في عهد المأمون، مات سنة ٨٧٣ م.
(٥) الأهواز: مدينة في جنوب غربي إيران على نهر كارون، وهي عاصمة خوزستان.
(٦) الواكف: السائل بغزارة، ومثله الذروف.

ثم شقّت جيوبَهنّ[١] القواريـ ـرُ[٢] عليه ونُحْنَ نَوْحَ اللّهيف[٣]
يا كسادَ الخيار شنبَر والأقـ ـراص طرًّا ويا كساد السَّفُوفِ[٤]
كنت تمشي مع القويّ فإن جا ء ضعيفٌ لم تكترث بالضعيفِ
لهفُ نفسي على صنوف رقاعا تِ[٥] تولّت منه وعقلٌ سخيف

وقال أبو الشبل: كان خالد بنُ يزيد بنِ هُبَيْرة يشربُ النبيذَ، وكان يغشانا، وكانت له جاريةٌ صفراءُ مغنية يقال لها لَهَب، كانت تغشانا معه، وكنت أعبث بها كثيرًا؛ فقام مولاها يومًا إلى الخابية يستقي نبيذًا، فإذا قميصه قد انشقّ، فقلت فيه: [من البسيط]

قالت له لَهَبٌ يومًا وجاد لها بالشِّعر في باب فعلانٍ ومفعولِ
أمّا القميصُ فقد أزرى الزمانُ به[٦] فليت شعرِيَ ما حالُ السراويل[٧]

قال أبو الشبل: وكانت أمّ خالد هذه ضرّاطةً تضرطُ على صوتِ العيدانِ وغيرها في الإيقاع؛ فقلت فيه: [من المنسرح]

في الحيّ مَنْ لا عدِمت خِلّتهُ فتى إذا ما قطعتُه وَصَلا
له عجوزٌ بالحِبْقِ[٨] أبصر من أبصرتُه ضاربًا ومرتجلا
نادمتُه[٩] مرّة وكنتُ فتى ما زلت أهوى وأشتهي الغزلا
حتى إذا ما أمالها سَكَرٌ يبعث في قلبها لها مثلا
اتّكأتْ يَسرة وقد خرفت أشراجها[١٠] كي تقوّم الرَّمَلا
فلم تزل إستها تطارحني إِسمعْ إلى من يسومني العِللا

وقال محمد بن المرزبان[١١]: كنت أرى أبا الشبل كثيرًا عند أبي، وكان إذا

(١) جيوبهنّ: أعلى ثيابهنّ.
(٢) القوارير: جمع قارورة، وهي الباطيّة من زجاج وغيره.
(٣) اللهيف: الملهوف الحزين.
(٤) السفوف: ضرب من الحلواء.
(٥) الرقاعات: الأوراق المكتوبة.
(٦) أزرى الزمان به: جارَ عليه.
(٧) السراويل: جمع سروال، وهو البنطال.
(٨) الحبق: الضّراط.
(٩) نادمته: كنت نديمًا له وصديقًا في الشراب.
(١٠) الأشراج، جمع شرج، وهو في الإست.
(١١) هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان، الحافظ وصاحب الأخبار والأشعار والملح، له من الكتب «الحلوى في علوم القرآن» و«أخبار أبي قيس الرقيات» و«المتيّمون والمعصومون»=

حضر أضحكَ الثكلى[١] بنوادره. فقال له أبي يومًا: حدّثنا ببعض نوادرك وطرائفك. قال: نعم، من طرائف أموري أن ابني زنى بجارية سِنديّةٍ[٢] لبعض جيراني، فحبلت وولدت؛ وكانت قيمةُ الجاريةِ عشرين دينارًا. فقال: يا أبتِ، الصبيُّ والله ابني، فساومتُ فيه فقيل لي: خمسون دينارًا. فقلت له: ويلك! كنت تخبرني وهي حبلى فأشتريها بعشرين دينارًا ونربح الفضل بين الثمنين! وأمسكت عن المساومة بالصبي حتى اشتريته من القوم بما أرادوا. ثم أحبلُها ثانيًا فولدت ابنًا آخرَ، فجاء يسألُني أن أبتاعَه؛ فقلت: عليكَ لعنةُ اللهِ، أيُّ شيءٍ حملَك على أن تُحْبِلَ هذه، هلّا عزلتَ عنها! فقال: إني لا أستحلُّ العزل. ثم أقبل على جماعة عندي فجعل يقول: شيخ كبير يأمرُني بالعزل ويستحلُّه، فقلت له: يا ابنَ الزانية! تستحلّ الزنى وتتحرّجُ من العزل! فضحكنا منه.

ذكر شيء من نوادر حمزة بن بَيْض الحنفي

كان شاعرًا من شعراء الدولة الأمويّة، وهو كوفيّ خليعٌ ماجن. وكان منقطعًا إلى المهلّب بن أبي صُفْرة وولَدِهِ، ثم إلى أبَان بنِ الوليدِ وبلال بن أبي بُرْدة[٣]، واكتسبَ بالشعر من هؤلاء مالًا عظيمًا، يقال: إنه أخذ بالشعر من مال وشاءٍ[٤] ورقيق[٥] وحُمْلان وغير ذلك ألفَ ألفِ درهم، وله نوادر، منها ما حكاه أبو الفرج الأصفهانيّ عنه:

أنه كان يسامرُ عبد الملك بنَ بشرِ بن مروان[٦]، وكان عبدُ الملك يَعبَثُ به عبثًا شديدًا؛ فوجّه إليه ليلةً برسول وقال: خذه على أيّ حالة وجدتَه، وأحلَفَه وغلّظ

= و«الشراب» و«الجلساء والندماء» و«الهدايا» و«الروض» و«الشتاء والصّيف» و«السودان والبيضان». انظر: الفهرست، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(١) الثكلى: من فقدت ولدها.

(٢) سندية: منسوبة إلى السّند، في باكستان اليوم، وفي الجنوب الشرقي من إيران.

(٣) بلال بن أبي بردة: أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم، كان أمير البصر وقاضيها، عاصر عددًا من الخلفاء الأُمويّين، ولما وفد على عمر بن عبد العزيز أنّبه على جوره فلزم سارية من المسجد وجعل يصلّي ويديم الصلاة مستغفرًا ربّه. انظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد ١/ ٢٦٨، مكتبة المعارف، بيروت.

(٤) الشاء، والواحدة منها الشاة، وهي الواحدة من الضأن والمعز والبقر وحمر الوحش والنعام والظباء.

(٥) الرقيق: المملوك، والدقيق أيضًا: جمع رقاقة، وهو الخبز المنبسط.

(٦) هو عبد الله بن بشر بن مروان بن الحكم، أحد ولاة بني أُميّة المشهورين.

عليه الأيمان على ذلك؛ فمضى الرسولُ فهجَم عليه فوجده يريدُ أن يدخلَ الخلاء[١]؛ فقال له: أجِب الأمير. فقال: ويحك! إني أكلت طعامًا كثيرًا وشربت نبيذًا حُلوًا وأخذني بطني. فقال: والله ما تفارقني أوْ أمضيَ بك إليه ولو سلحتَ في ثيابك. فجهد في الخلاص فلم يَقْدِرْ عليه، ومضى به، فوجده قاعدًا في طارمة[٢] له وجاريةٌ جميلةٌ جالسة بين يديه، وكان يتحظّاها[٣]، تسجر النّدَّ[٤]، فجلس حمزةُ يحادثه وهو يعالجُ ما هو فيه. قال حمزة: فعَرضتْ لي ريح، فقلت: أُسَرِّحها وأستريحُ لعل ريحَها لا يظهرُ مع هذا النّدّ، فأطلقتها، فغلبت واللهِ ريحَ البخور وغَمَرته. فقال: ما هذا يا حمزة؟ فقلت: عليّ عهدُ اللهِ وميثاقُه وعليّ المَشْيُ والهَدْيُ[٥] إن كنتُ فعلتُها! وما هذا إلّا عملُ هذه الجاريةُ الفاجرة، فغضِب، وخَجلت الجاريةُ فما قَدَرتْ على الكلام. ثم جاءتني أُخرى فسرّحتها، فسَطَع واللهِ ريحُها. فقال: ما هذا؟ ويلك! أنت والله الآفة. فقلت: امرأتي طالق ثلاثًا إن كنتُ فعلتها. فقال: وهذه اليمينُ لازمةٌ إن كنتُ فعلتها، وما هو إلا عمل هذه الجارية؛ وقال لها: ما قصّتكِ؟ ويلكِ! قُومي إلى الخلاء إن كنت تجدين شيئًا. فزاد خَجَلُها، وطمِعتُ فيها فسرّحتُ الثالثةَ فسطعَ من ريحها ما لم يكن في الحساب. فغضِب عبد الملك حتى كاد يخرجُ من جِلْدِهِ؛ ثم قال: يا حمزة، خذ بيد الزانية فقد وهبتُها لك وامضِ، فقد نغّصت عليّ ليلتي. فأخذتُ بيدها وخرجتُ. فلقِيني خادمٌ له فقال: ما تريدُ أن تصنعَ؟ فقلت له: أمضي بهذه الجارية. فقال: لا تفعلْ، فوالله لئن فعلتَ لَيُبْغِضنّك بغضًا لا تنتفعُ به بعده أبدًا، وهذه مائتا دينارٍ خذْها ودعْ هذه الجاريةَ فإنّه يتحظّاها، وسيندَمُ على هبتِهِ إيّاها لك. فأبيتُ إلا بخمسمائة دينار. فقال: ليس غير ما ذكرت لك، فأخذتها وتركت الجارية، فلما كان بعد ثلاثٍ دعاني عبدُ الملك، فلما قُربتُ من دارِهِ لقيني الخادمُ وقال لي: هل لك في مائةٍ أخرى وتقول مالا يضرُّك ولعلّه ينفعُك؟ قلت: وما ذاك؟ قال: إذا دخلتَ فادّعِ الفَسَواتِ الثلاثَ وانسُبْها إلى نفسِك وانضَحْ[٦] عن الجاريةِ ما قَرَفتَها[٧] به. فأخذتُها ودخلتُ على عبد الملك، فلما وقفتُ بين يديه قلت له: الأمانَ حتى أُخبرَك بخبرٍ يسرُّك

(١) الخلاء: الفضاء من الأرض الخالي من السكان، وهنا كناية عن المِرحاض.

(٢) الطارمة: قبّة تصنع من الخشب. (٣) يتحظّاها: يتخذها محظّية، أي جارية.

(٤) النّدّ: ضرب من النبات يتبخّر بعوده، وتسجر: توقد وتحرق.

(٥) الهدي: ما يذبح صبيحة العيد الأضحى من شاءٍ أو أنعامٍ. والهدي، ما يذبح أيضًا كفدية أو برًّا بقسم ووفاء لنذر.

(٦) انضح: انزع واسلخ. (٧) قرفتها به: اتّهمتها به.

ويُضحكُك. قال: لك الأمان. فقلت: أرأيتَ ليلة كذا وكذا وما جرى؟ قال: نعم. قلت: فعليّ وعليّ إن كان فسا تلك الفَسَوات غيري. فضحِك حتى سقَطَ على قفاه، وقال: ويلك! فلِمَ لَمْ تخبرني؟ قال: فقلت: أردت بذلك خصالًا، منها أني قمتُ فقضيتُ حاجتي وقد كان رسولُكَ منعني من ذلك، ومنها أني أخذتُ جاريتَك، ومنها أني كافأتك على أذاك لي بمثله. قال: وأين الجارية؟ قلت: ما بَرِحَتْ من دارك ولا خرجَتْ حتى سلّمتها إلى فلان الخادم وأخذتُ مائتي دينار. فسُرَّ بذلك وأمر لي بمائتي دينار أخرى، وقال: هذه لجميلِ فعلِك فيَّ وتَرْكِك أخذ الجارية. قال حمزة: ودخلتُ إليه يومًا وكان له غلامٌ لم يَرَ الناسُ أنتنَ إبطًا منه، فقال لي: يا حمزةُ، سابِقْ غلامي هذا حتى يفوح صُنَانكما[١]، فأيّكما كان صُنانه أنتنَ فله مائة دينار. فطمِعتُ في المائة ويئستُ منها لما أعلمه من نَتْن إبط الغلام؛ فقلت: أفعل. وتعادينا ساعةً فسبقَني، فسلَحتُ في يدي ثم طليت إبطي بالسُّلاح؛ وقد كان عبد الملك جعل بيننا حكمًا، فلمّا دنا الغلامُ منه وشمّه وثب وقال: هذا والله لا يُشاكلُه شيء، فصِحْتُ به: لا تعجَلْ عليّ بالحكم، مكانك! ثم دنوتُ منه فألقمتُ أنفَه إبطي حتى علمت أنه قد خالط دماغَه وأنا ممسك رأسه تحت يدي؛ فصاح: الموتُ والله! هذا بالكُنُفِ[٢] أشبهُ منه بالإبط. فضحِك عبدُ الملك ثم قال: أفحكمت له؟ قال: نعم، فأخذت الدنانير. قال: ودخلت يومًا على سليمانَ بن عبد الملك[٣]، فلما مَثَلت بين يديه قلت: [من الوافر]

رأيتُك في المنام شتَنت[٤] خَزًّا[٥] … عليّ بَنَفْسَجًا وقضيتَ دَيْني

فصدِّقْ يا فدتك النفسُ رؤيا … رأتها في المنام لديك عيني

قال سليمان: يا غلامُ، أدخِلْه خِزانةَ الكُسْوة واشتُنْ عليه كلّ ثوب خزٍّ بنسفجيٍّ، فخرجتُ كأني مِشْجب[٦]. ثم قال: كم دَينُك؟ قلت: عشرة آلاف؛ فأمر لي بها وما أعلم والله أنّي رأيت من ذلك شيئًا.

---

(١) الصنان: الريح الكريهة.

(٢) الكنف: جمع كنيف، وهو بيت الخلاء والمرحاض.

(٣) سليمان بن عبد الملك: هو الخليفة الأموي السابع، أسس مدينة الرملة بفلسطين، حاصر القسطنطينية، ولم يقوَ على فتحها. توفي في دابق سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ٦٩.

(٤) شتنت: نسجت ووضعت.

(٥) الخز: ضرب من الحرير.

(٦) المشجب: العمود الذي تعلّق عليه الثياب.

ذكر شيء من نوادر أبي العيناء عفا الله عنه

هو محمدُ بنُ القاسمِ بن خلّادِ بنِ ياسرِ بن سليمانَ، من بني حنيفةَ أهلِ اليمامة. وأُسِر ياسرٌ في سِبإٍ في خلافةِ المنصور، فلما صار في يد المنصور أعتقه؛ فهم موالي بني هاشم. وكان أبو العيناء ضريرَ البصر، يقال: إنّ جدّه الأكبر لقي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأساء مخاطبته فدعا عليه وعلى ولده بالعمى؛ فكلّ من عَمِي منهم فهو صحيح النسب، وهو ممن اشتهر بالمجون، وله نوادر وحكايات مستظرفة، ومراسلات عجيبة، سأورد منها طَرَفًا، وأُسَطِّر طُرَفًا، فمن ذلك: أنّ بعض الرؤساء قال له: يا أبا العيناء، لو مُتَّ لرقصَ الناسُ طَرَبًا وسرورًا. فقال بديهةً[1]: [من الوافر]

أردتَ مَذَمّتي[2] فأجدتَ مَدْحِي ... بـحـمـد الله ذلـك لا بـحَـمْـدِكْ
فـلا تـكُ واثـقًـا أبـدًا بـعَـمْـدٍ ... فقد يأتي القضاءُ بغير عَمْدِكْ[3]

ثم قال: أجل! الناس قد ذهبوا، فلو رآني الموتى لطربوا لدخولِ مثلي عليهم، وحلولِ عقلي لديهم، ووصول فضلي إليهم؛ فما زال الموتى يغبِطونكم ويرحمونني بكم.

وقال: واتّصلت أشغالُ أبي الصَّقْر الوزير، فتأخّر توقيعُه عن أبي العيناء برسومه، فكتب إليه: رقعتي، أطال الله بقاء الوزير، رقعة مَنْ عَلِمَ شُغْلَك فاطَّرَحَ عَذْلَك؛ وحقّقَ أمرك فَبَسَط عُذْرَك. أمّا والليلِ إذا عسعسَ[4]، فالبنان لبنات الدِّنان[5]، ومُلامسات الحِسان؛ وأمّا والصبح إذا تنفّس، فالبنان للعِنان، ومؤامرات السلطان؛ فمَنْ أبو العيناء القرنان[6]! فوقّع أبو الصَّقْر تحتَ سطوره: لكل طعام مكان، ولكل مُعْوِزٍ إمكانٌ؛ وقد وقّعنا لك بالرسوم، وجعلنا لك حظًّا من المقسوم؛ وكَفَينا أنفسَنا عُذْرَك الذي هو تعزير[7]، ولسانك الذي هو تحذير. والسلام.

---

(١) بديهة: ارتجالًا. (٢) مذمّتي: إظهار عيبي ونقصي.
(٣) عمدك: قصدك.
(٤) عسعس: أقبل بظلامه، وفي القرآن الكريم نجد الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير: الآية ١٧].
(٥) الدنان: جمع دنّ، وهو خابية الخمرة وجرّتها.
(٦) القرنان: الذي لا نخوة عنده ولا غيرة.
(٧) التعزير: اللوم والتأديب والعقوبة. ويأتي بمعنى: التعظيم، فهو من التضادّ.

ثم لقيه أبو العيناء في صدر موكبِهِ فقال: طاعةُ شِيَمك لسلطان كَرَمك، ألزمتك الصبر على ذنوبي إليك، وتَجَنِّي خُلُقي عليك. فقال أبو الصقر: كبير حَسناتك، يستغرق يسير سيّئاتك، فدعا له وانصرف شاكرًا. قال: وبسط أبو العيناء لسانَه على أهله في بعض الدواوين. فقال له فتى من أبناء الكتّاب كانت فيه جرأة: كلّ الناس لك يا أبا العيناء زوجة، وأنت زوجة أبي عليّ البصير. فقال له أبو العيناء: قد ملكنا عِصْمتك بيقين فَحْواك، ثم ننظر في شكوك دَعواك، وقد طلّقت الناس كلهم سواك؛ ذلك أدنى ألّا نعول[1]، وفيك ما يروي الفحول، ويتجاوز السول. قال: ففضحه بهذا الكلام، فلم يُجبه. قال: وكان في بني الجراح فتى خليع ماجن فأراد العبث بأبي العيناء، فنهاه نصحاؤه فأبى؛ فقالوا: شأنك. فقال له: يا أبا العيناء، متي أسلمتَ؟ فقال: حين آمن أهلُك وأبوك الذين لم يؤدّبوك. فقال له الفتى: إذًا قد علمتُ أنك ما أسلمت. فقال أبو العيناء: شهادتُك لأهلك دعوى، وشهادتي عليهم بلوى، وستري أيَّ السلطانين أقوى، وأيّ الشيطانين أغوى؛ وسيعلم أهلُك، ما جنى عليهم جهلُك. قال: فأتاه أبوه فتبرّأ من ذِمّته، ودفعه إليه برُمّته. فقال له أبو العيناء: قد وهبتُ جورَه لعَذْلِك، وتصدّقتُ بحُمقه على عقلك.

ومن أخبار أبي العيناء أيضًا: أنّ محمدَ بنَ عبيدِ اللهِ بنِ خاقانَ[2] حمله على برذون[3] زعم أنه غير فاره[4]، فكتب إلى أبيه: أَعَلِم الوزير أعزّه الله تعالى أنّ أبا عليّ محمّدًا أراد أن يبرّني فعقّني، وأن يُرْكِبني فأرجلني! أمر لي بدابّة تقف للنبرة، وتعثِرُ بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجفًا[5]، وكالعاشق المجهود دَنَفًا[6]؛ يساعد أعلاه لأسفله، حُباقه[7] مقرون بسُعَاله؛ فلو أمسكَ لترجّيت، أو أفرَد لتعزّيت؛ ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيبٌ مُرْشِد، أو شاعر مُنْشِد؛ تضحك من فعله النسوانُ، ويتناغى من فعله الصبيانُ؛ فمن صائح يصيحُ: داوِه بالطباشير، ومن قائل يقول: نقِّ له من الشعير. قد حفظ الأشعارَ، وروى

---

(١) نعول: نفتقر.

(٢) هو وزير المقتدر، الخليفة العباسي، أساء التدبير فعُزل، وهو أحد الوزراء الخاقانيين الثلاثة: عبد الله وزير المتوكّل والمعتمد، وهو، أي محمد، وابنه عبد الله، وكان وزيرًا للمقتدر. مات محمد سنة ٩٢٤ م. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢/ ١٤٧.

(٣) البرذون: البغلة.

(٤) الفاره: الخفيف النشيط والحسن الشكل.

(٥) عجفًا: ضعفًا وهزالًا.

(٦) دنفًا: اشتداد مرض وإشراف على الموت من شدّة العشق.

(٧) حباقه: ضراطه.

الأخبار، ولحق العلماء في الأمصار؛ فلو أُعِين بنطق، لروى بحقٍّ وصدق، عن جابر الجُعْفيّ، وعامر الشَّعْبيّ(١)، وإنما أُتِيتُ من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه أطابَ وأكثر، وإذا اختارَ لغيره أخبثَ وأنزر؛ فإن رأى الوزير أن يُبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما يُضحَكُ مني، يمحو بحسنه وفراهته(٢)، ما سطّره العيبُ بقُبحه ودَمامته، ولست أردّ كرامَهْ، سرجَه ولجامَهْ؛ لأن الوزير أكرمُ من أن يسلب ما يُهديه، أو ينقض ما يمضيه. فوجّه إليه عبيد الله برذونًا من براذينه بسَرْجه ولجامه. ثم اجتمع محمد بنُ عبيدِ اللهِ عند أبيه. فقال عبيدُ اللهِ لأبي العيناء: شكوتَ دابّةَ محمدٍ، وقد أخبرني إنه ليشتريه منك الآن بمائةِ دينار، وما هذا ثمنُه فلا يُشْتَكى. فقال: أعزّ الله الوزيرَ لو لم أكذبْ مستزيدًا، لم أنصرفْ مستفيدًا. وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز(٣): ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ(٤) ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: الآية ٥١]، فضحك عبيدُ الله وقال: حُجّتُك الداحضة(٥)، بملاحتك وظَرْفِك أبلغُ من حجّة غيرِك البالغة. ودخل أبو العيناء على أبي الصَّقْر وكان قد تأخّر عنه، فقال: ما أخّرك عنّا؟ قال: سُرِق حماري. قال: وكيف سُرِق؟ قال: لم أكن مع اللصّ فأُخبرك. قال: فلِمَ لَمْ تأتِ على غيره؟ قال: أبعدني عن الشراء قلّةُ يساري(٦)، وكرهت ذِلّة المُكاري(٧)، ومِنّة العواري(٨). قال: وصار يومًا إلى باب صاعدِ بنِ مَخْلد(٩)، فقيل له: هو مشغول يصلّي؛ فقال: لكلّ جديد لذّةٌ. وكان صاعدٌ نَصْرانيًا قبل الوزارة، وقال له صاعد يومًا: ما الذي أخّرك عنّا؟ قال: بنتي. قال: وكيف؟ قال: قالت لي: يا أبتِ، قد كنتَ تغدو من عندِنا فتأتي

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل الشعبي، أحد الرواة والتابعين، محدّث حافظ ثقة. عاش في الكوفة. اتّصل بعبد الملك بن مروان فقرّبه وجعله نديمه ورسوله إلى ملك الروم. مات سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م.

(٢) فراهته: حسنه وخفّته وشطارته.

(٣) هي راعيل زوجة عزيز مصر وحاكمها، واسمها راعيل، ولقبها زليخا.

(٤) حصحص: ظهر وانجلى.

(٥) الحجة الداحضة: الحجّة الباطلة.

(٦) يساري: ثروتي وغناي.

(٧) المكاري: مكري الدوابّ الذي يؤجّرها أو يسوقها، ويغلب على الحمّار والبغّال.

(٨) العواري: جمع عارية، وهي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك.

(٩) صاعد بن مخلد: وزير المعتمد بعد عبيد الله بن يحيى بن خاقان، والحسن بن مخلد، وسليمان بن وهب. ثمّ استوزره الموفق ووجهه إلى حرب يعقوب الصفار، فلما صار إلى بلاد فارس اشتدّ سلطانه وتجبّر، فأشخصه الموفق إلى واسط، وقبض عليه وعلى أخيه عبدون النصراني ومات في السجن سنة ٢٧٧ هـ. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣٢٠.

بالخِلْعة السَّرِيّة[١]، والجائزة السنيَّة، ثم أنت الآن تغدو مُسْدِفًا[٢]، وترجع مُعْتِمًا[٣]، فإلى من؟ قلت: إلى أبي العلاء ذي الدرايتين. قالت: أيُعطيك؟ قلت: لا. قالت: أفيشفِّعك؟ قلت: لا. قالت: أيرفعُ مجلسَك؟ قلت: لا. قالت: يا أبتِ لِم تَعْبُدُ ما لا يسمع ولا يُبصرُ ولا يُغني عنك شيئًا!

وقال له رجل من بني هاشم: بلغني أنك بغّاء[٤]، قال: ولم أنكرت ذلك مع قول رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم»، قال: إنك دعيّ[٥] فينا. قال: بِغائي صحّحَ نسبي فيكم. وسأل أبو العيناء الجاحظَ كتابًا إلى محمد بن عبد الملك[٦] في شفاعةٍ لصاحبٍ له؛ فكتب الكتاب وناوله الرجل، فعاد به إلى أبي العيناء، وقال: قد أسعف. قال: فهل قرأته؟ قال: لا، لأنه مختوم. قال: ويحك! فُضّه[٧] لا يكون صحيفةَ المتلمّس[٨]، ففضّه فإذا فيه: مُوَصِّل كتابي سألني فيه أبوالعيناء، وقد عرفتَ سفهَه[٩] وبذاءَ[١٠] لسانِه، وما أراه لمعروفك أهلًا، فإن أحسنتَ إليه فلا تحسبه عليّ يدًا، وإن لم تحسن إليه لم أعُدّه عليك ذنبًا، والسلام. فركب أبو العيناء إلى الجاحظ وقال له: قد قرأتُ الكتاب يا أبا عثمان، فخجِل الجاحظ وقال: يا أبا العيناء، هذه علامتي فيمن أعتني به. قال: فإذا بلغك أن صاحبي قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه. وقال أبو العيناء: مررتُ يومًا بدرب بسامَرّاء؛ فقال لي غلامي: يا مولاي، في الدرب حَمَلٌ سمينٌ والدربُ خالٍ، فأمرته أن يأخذه وغطّيته بطيلَساني[١١] وصرتُ به إلى منزلي؛ فلما كان من الغد جاءتني رُقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها: جُعلت فداك، ضاع لنا بالأمس حَمَل، فأخبرني صبيان دَرْبنا أنك أنت سَرَقتَه، فأْمُرْ بردّه متفضِّلًا. قال أبو العيناء: فكتبت إليه: أي سبحان الله! ما أعجبَ هذا الأمر! مشايخ دَرْبنا يزعمون أنك بَغّاء وأُكذِّبهم

---

(١) الخلعة السريّة: الخلعة، ما تخلعه من الثياب ونحوها. والسرية: الثمينة.

(٢) مسدفًا: مظلمًا، في السدفة. (٣) معتمًا: في العتمة.

(٤) بغّاء: فاجر. (٥) دعيّ: من لا نسب له صريحًا.

(٦) هو محمد بن عبد الملك بن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيَّيْن. عمل ضدّ المتوكل فانتقم منه، وأماته في السجن سنة ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٨ هـ.

(٧) فضّه: افتحه.

(٨) المتلمّس: شاعر جاهلي من البحرين، والمتلمّس لقب له. واسمه جرير بن عبد المسيح، خال طرفة بن العبد، له ديوان شعر، رواه الأصمعي.

(٩) السفه: الخفّة والطيش. (١٠) البذاء: الفحش.

(١١) الطيلسان: الثوب أو الوشاح يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، وهو غير مفصّل أو مخيط.

ولا أُصدّقهم، وتُصدِّقُ أنت صبيانَ دربكم أني سرقت الحمل! قال: فسكت وما عاودني. ولأبي العيناء أخبار كثيرة وحكايات مشهورة قد أوردنا فيها ما يدخل في هذا الباب وتركنا ما سواه.

ذكر ما ورد في كَراهة المَزْح

رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مَنْ مَزَح استُخِفَّ به»، وقال حكيم: خير المزاح لا يُنال، وشرُّه لا يُقال؛ سكراتُ الموتِ به مُحدِقة، وعيونُ الآجال إليه محدِّقة. وقال آخر: تجنّب شؤمَ الهزل ونكدَ المزاح؛ فإنّهما بابان إذا فُتحا لم يُغْلَقا إلا بعد عسر، وفحلان إذا لَقَحا[١] لم ينتجا غير ضُرّ. وقالوا: المُزاح يضع قدر الشريف، ويُذهب هيبةَ الجليل. وقالوا: لا تقل ما يسوءك عاجله، ويضرّك آجله. وقالوا: إيّاك وما يُسْتقبَح من الكلام، فإنه يُنَفّر عنك الكرام، ويُجَسِّر[٢] عليك اللّئام. وقال عمر بن عبد العزيز[٣]: اتّقوا المزاح، فإنها حَمْقة[٤] تورث ضغينة[٥]. وقال حكيم لابنه: يا بنيّ، إيّاك والمزاح؛ فإنه يذهب ببهاء الوجه ويحِطّ من المروءة[٦]. قال شاعر: [من الكامل]

إِكْرَهْ لنفسِك ما لِغيْرِكَ تكرَهُ ... وافعلْ لنفسِك فعلَ مَنْ يتنزَّهُ

وارفَع بصمْتِكَ عَنْكَ سُبّاتِ الوَرى[٧] ... خوفَ الجواب فإنّه بِكَ أشْبَهُ

ودَعِ الفكاهةَ بالمزاحِ فإنها ... تُودي[٨] وتُسقِطُ مَنْ بها يتفكّهُ[٩]

وقيل: [من الطويل]

أَلَا رُبَّ قولٍ قد جرى مِنْ مُمازحٍ ... فساقَ إليه الموتَ في طَرَف الحبْل

فإنّ مزاحَ المَرْءِ في غير حينِه ... دليلٌ على فَرْطِ الحَماقَةِ والجَهْل

---

(١) لقحا: أصل الذكر منهما الأنثى. (٢) يجسّر: يجرّىء.

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان، الخليفة الأموي الثامن. اهتمّ بالإصلاح، وعرف عنه العدل. مات سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ١١٩.

(٤) الحمقة: المرّة من حمق وحمقت إذا قلّ أو فسد رأيها.

(٥) الضغينة: الحقد.

(٦) المروءة: آداب نفسيّة تحمل المرء على اتّباع محاسن الأخلاق والعادات.

(٧) الورى: الخلق والناس. (٨) تودي: تسقط.

(٩) يتفكّه: يتخذها فاكهة وفكاهة وتسلية.

وقيل: [من الطويل]

فـإيـاكَ إيّـاكَ الـمَـزَاحَ فـإنّـه
يُجَرِّي[١] عليك الطفلَ والرجُلَ والنَّذْلَا[٢]
ويُـذْهِـبُ مـاءَ الـوَجْـهِ بـعـد بـهـائِه
ويـورثُ بـعـد الـعِـزّ صـاحـبَـه ذُلّا

وقال بعضُ البلغاء: المزاح خَرَف، والاقتصاد فيه ظَرْف، والإفراط فيه ندامة. وقالوا: من كَثُر مزحُه لم يسلمْ من استخفافٍ به أو حقدٍ عليه. ويقال: أكثرُ أسباب القطيعةِ المزاح، وإن كان لا غنى للنفس عنه للجَمام[٣]، فليكن بمقدار الملح في الطعام. قال أبو الفتح البستيّ[٤] رحمه الله: [من الطويل]

أفِدْ طبعَك المكدودَ[٥] بالهمّ راحةً تُراحُ وعَلّله[٦] بشيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكن إذا أعطيته المزحَ فليكن بمقدار ما يُعطَى الطعامُ مِنَ المِلْحِ

وقيل: [من الكامل]

اِمزَحْ بمِقدار الطَلاقةِ[٧] واجتنِبْ مزحًا تُضاف به إلى سوْء الأَدَبْ
لا تُغضبنَّ أخًا إذا مازحتَه إن المزاحَ على مقدّمةِ الغضَبْ

وقيل: [من الكامل]

مازحْ صديقك ما أحبَّ مزاحًا وتَوَقَّ منه في المَزَاحِ جِماحًا[٨]
فلربما مَزَح الصديقُ بمَزْحةٍ كانت لبِدْء عداوةٍ مِفْتاحا

وقال سعيد بن العاص[٩] لولده: يا بنيّ، اقتصد في مزحك؛ فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويُجرِّىء السفهاء. ويقال: المزاح أوّله فَرَح، وآخره

---

(١) يجرّي: أصلها يجرّىء. (٢) النذل: الحقير.
(٣) الجمام: الراحة.
(٤) أبو الفتح البستي: هو أبو الفتح علي البستي، من مدينة بُسْت الفارسية، أديب وشاعر. أشهر شعره نونيته المعروفة بعنوان «الحكم». مات سنة ١٠١٠ م.
(٥) المكدود: المتعب. (٦) علّله: اسقه سقيًا بعد سقي.
(٧) الطلاقة: الهشاشة والبشاشة والابتسام. (٨) الجماح: تجاوز الحدّ في الغضب.
(٩) سعيد بن العاص: صحابي من الأمراء والولاة الفاتحين، ولّاه عثمان الكوفة ثم المدينة. ولي طبرستان. مات سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٩ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٥٩.

تَرَح[١]. قال أبو العتاهية[٢]: [من الكامل]

وترى الفتى يَلْقَى أخاه وخِدْنَه[٣] في بعض مَنطقِهِ بما لا يُغْفَرُ
ويقول كنتُ مُلاعبًا وممازحًا هيهاتَ! نارُك في الحشا تتسعَّرُ
ألقيتَها وطَفِقت[٤] تضحك لاهيًا وفؤاده مما به يتفطّرُ[٥]
أوَ ما علمتَ ومِثلُ جَهْلِكَ غالبٌ أنّ المُزَاحَ هو السِّبابُ الأكبرُ

فهذه نبذة مما قيل في الفكاهات والمجون، يفرح لها قلب المحزون، وتزول عنه الشجون[٦]، فلنذكر ما قيل مما يناسب هذا الباب من أشعار المزّاحين.

ذِكْر شيء من الشعر المناسب لهذا الباب والداخِل فيه

وسنورد في هذا الفصل من أشعار هذا الفن، ما رَفَلت[٧] معانيه في حُلَل[٨] أنفاسها على صفحات أطراسها[٩]، وأُهِلت مغانيه[١٠] بما أودعه لسانُ القلم صدرَ قرطاسها من بديع إيناسها. يُضحك سامعَه وإن كان ثَكِلًا[١١]، ويستوفيه وإن كان عَجِلًا. هذا مع ما فيه من فُحْشِ القول الذي إذا تأمّلته في موضعه كان أزين من عقود اللآلي، وإن لمحتَه في غيره كان أقفرَ من ظُلَم الليالي. نسأل الله المسامحةَ لكاتبه وقائله، ومستمعه وناقله؛ فمن ذلك ما كتب به ابن حجّاج[١٢] لمن شرب دواء: [من الخفيف]

يا أبا أحمد بنفسِيَ أفْدِيـ ـكَ وأهْلي مِنْ سائرِ الأسْواءِ

(١) الترح: بخلاف الفرح، وهو الحزن والشقاء.
(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم، الشاعر العباسي المشهور. نشأ بالكوفة، وكني بأبي العتاهية لميله إلى التعتّه والمجون، ثم زهد في الدنيا فكان معظم شعره في الزهد. اتّصل بالخليفة المهدي ثم الهادي ثم الرشيد، فنال عنده حظوة كبيرة. مات سنة ٨٢٥ م. انظر: الكامل في اللغة ١/٢٦٩، وانظر: الفهرست، ص ٢٢٨.
(٣) الخدن: الصديق.
(٤) طفقت: أخذت.
(٥) يتفطّر: يتشقّق.
(٦) الشجون: الأحزان.
(٧) رفلت: جرّت ذيلها وتبخترت.
(٨) الحلل: الثياب الفاخرة.
(٩) الأطراس: جمع طرس، وهو الصحيفة.
(١٠) أهلت مغانيه: صارت آهلة. والمغاني: المباني.
(١١) الثكل: من فقد ولده.
(١٢) هو أبو الأقرع، أحد صعاليك وفتّاك العرب في العهد الأموي، خرج على عبد الملك بن مروان، وصحب عبد الله بن الزبير. ثم عفا عنه عبد الملك. توفي سنة ٧٠٨ م.

كيف كان انحطاطُ جَعْسِك[1] في طا ... عـةِ شـرب الـدواء يـوم الـدواءِ
كيف أمسي سِبالُ مَبْعَرك النّذْ ... ل غـريقًا فـي الـمرّة الـصفراء[2]

وقال الحسن بن هانىء[3]: [من السريع]

لَلَطْمَةٌ يلطِمُني أمرَدٌ[4] ... تأخذ مِنّي العين والفكّا
أطيبُ من تُفّاحةٍ من يَدَيْ ... ذي لِحيةٍ مُحْشوةٍ مِسكا

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسن الحجاج[5]: [من المنسرح]

قُومي تنحّيْ فلستِ من شاني ... قُومِي اْذهبي لا يراكِ شيطاني
لا كان دهرٌ عليك حصّنني ... ولا زمانٌ إليكِ ألجاني
قعدتِ تفسين فوق طِنْفستي[6] ... ما بين راحي[7] وبين ريحاني
فما عَدِمنا من الكنيف[8] وقد ... حَضَرتِ إلا بناتِ وَرْدَانِ[9]

وقال أبو بكر الخوارزمي[10]: [من المتقارب]

فسا الشيخ سهوًا وفي كفِّه ... شرابٌ فلُمْناه لومًا قبيحا
فقال ليَ الدَّخلُ والخرجُ لي ... فأدخلتُ راحًا وأخرجتُ ريحا

وقال ابن سكّرة الهاشميّ[11]: [من السريع]

وبات في السطح معي صاحبٌ ... من أكرم الناس ذوي الفضل
أفسو فيفسو فهو لي مُسْعِدٌ ... وإنما أُمْلِي ويَسْتَمْلي

---

(١) الجعس: الخرء.
(٢) المرّة الصفراء: إحدى الطبائع الأربعة وأخلاطها.
(٣) الحسن بن هانىء: هو أبو نواس، الشاعر العباسي المشهور، عرف بمجونه وخلاعته وشربه الخمرة حتى أبعد الحدود، جعله الأمين شاعره، واتصل بالبرامكة. تاب في آخر حياته، مات سنة ٨١٤ م. انظر: الفهرست ص ٢٢٨.
(٤) الأمرد من الفتيان: من لم ينبت الشعر في وجهه بعد.
(٥) هو شاعر بغدادي، اشتهر بالخلاعة والهزل وسخف القول والشعر. مات سنة ١٠٠١ م.
(٦) الطنفسة: البساط. (٧) الراح: الخمرة.
(٨) الكنيف: المرحاض. (٩) بنات وردان: الصراصير.
(١٠) هو الشاعر والعالم والنسّابة واللغوي: اتصل بالصاحب بن عباد واستقرّ بنيسابور، له «الرسائل» وديوان شعر. مات سنة ٩٩٣ م.
(١١) ابن سكرة: من الشعراء المحدثين في العصر العباسي، اشتهر بمجونه وعبثه.

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفنّ الثاني
في الخمر وتحريمها وآفاتها وجناياتها وأسمائها، وأخبار مَن تنزّه عنها في الجاهلية ومن حُدّ(١) فيها من الأشراف، ومَن اشتهر بها، ولبس ثوبَ الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل في وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل في مبادرة اللذّات، وما وُصفتْ به المجالسُ وما يجري هذا المجرى

ذكر ما قيل في الخمر وتحريمها

أجمع الناسُ على أنّ الخمرَ المحرَّمةَ في كتابِ الله عزّ وجلّ هي المتَّخَذةُ من عصيرِ العِنب بعد أن يَغلي ويقذِف بالزَّبَد من غير أن يمسّها نارٌ. وإذا انقلبت بنفسها وتخلّلت طهُرت من غير أن يُتسبّب في ذلك بشيءٍ يُلقَى فيها. وطهارتها إذا غلبت عليها الحموضةُ وفارقتها النشوة. والخمرُ المتَّخذةُ أيضًا من التمر، لقول النبيّ ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة(٢) رضي الله عنه: «الخمر من هاتين الشجرتين: النخلةِ والعنبةِ». وفي حديثٍ آخر: «من هاتين الشجرتين: الكَرْمةِ والنخلةِ». وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ يقول: «أمّا بعد، أيها الناسُ، إنه نزل تحريمُ الخمر وهي من خمسةٍ، من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير». والخمرُ ما خامرَ العقلَ. ولا خلاف بين أحدٍ من الأئمّة في أن الخمرَ حرامٌ، لما ورد في ذلك من الكتاب والسنّة. أما ما ورد في كتاب الله عزّ وجلّ فأربع آيات، منها ما يقتضي الإباحة، ومنها ما يقتضي الكراهة والتحريم، فأوّل ما نزل فيها بمكّة قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: الآية ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها يومئذٍ وهي حلالٌ لهم، ثم أنزل الله عزّ وجلّ بالمدينة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

---

(١) حدّ فيها: أقيم عليه الحدّ، وهو الجلد بالسّياط.

(٢) أبو هريرة، هو عبد الرحمٰن بن صخر الأزدي، من رواة الحديث المشهورين. توفي في المدينة سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٨ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٦٣.

﴿وَٱلْمَيْسِرِ[١] قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩]؛ نزلت هذه الآية في عمرَ بنِ الخطّاب ومعاذِ بن جبلٍ[٢] ونفرٍ من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أفتِنا في الخمر والميسر فإنهما مَذْهَبَةٌ للعقل مَسْلبةٌ للمال؛ فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ ربكم تقدّم في تحريم الخمر»، فتركها قوم للإثم الكبير وقالوا: لا حاجة لنا في شربها ولا في شيء فيه إثمٌ كبير، وشربَها قومٌ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩]، وكانوا يستمتعون بمنافعها ويتجنّبون مآثمها؛ إلى أن صنع عبد الرحمٰن بن عوف[٣] طعامًا فدعا ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاةُ المغرب، فقدّموا بعضَهم ليصلّي بهم؛ فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، إلى آخر السورة بحذف «لَا»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النّساء: الآية ٤٣]، فحرّم السكر في أوقات الصلاة. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ تقاربَ في النهي عن شرب الخمر وما أراه إلّا سيحرّمها، فلما نزلت هذه الآية تركها قومٌ، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وقال قوم: نشربها ونجلس في بيوتنا؛ فكانوا يتركونها وقتَ الصلاةِ ويشربونها في غيرِ حين الصلاة؛ إلى أن شربها رجلٌ من المسلمين، فجعل ينوح على قَتْلَى بَدرٍ[٤] ويقول: [من الوافر]

تُحيّا بالسلامة أمُّ بكرٍ ... وهل لي بَعْدَ رَهْطِك[٥] من سلامِ
ذَريني[٦] أصطبحْ بِكرًا فإنّي ... رأيت الموت كَفّتَ[٧] عن هِشام
وَوَدّ بنو المُغيرة لو فدَوْهُ ... بألفٍ من رِجالٍ أو سَوامِ[٨]

---

(١) الميسر: القمار.
(٢) معاذ بن جبل: من الصحابة المشهورين، اشترك في غزو الشام، ومات بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٩.
(٣) عبد الرحمٰن بن عوف: صحابي من بني زُهرة، وهو أحد الستّة الذين كانوا من أهل الشورى. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٨.
(٤) بدر، أول معركة كبيرة وقعت بين المسلمين والمشركين، وهي إلى الجنوب الغربي من المدينة، فانتصر المسلمون على المشركين وذلك في السنة الثانية من الهجرة. انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٦٠٦، تحقيق: السقّا الإبياري، شلبي، دار الكنوز الأدبية.
(٥) الرهط: الجماعة.
(٦) ذريني: اتركيني.
(٧) كفّت: ضمّ.
(٨) السوام: الماشية والإبل التي ترعى.

وفي أبيات أُخَر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجاء فَزِعًا يجرّ رداءه حتى انتهى إليه، ورفع شنًّا[١] كان في يده ليضربه؛ فلما عاينه الرجل قال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، والله لا أطعَمها أبدًا؛ ثم نزلت آية التحريم وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المَائدة: الآية ٩١]، وروي أن هذه الآية نزلت في شأنِ حمزةَ بن عبد المطّلب[٢]، وكان نزولها وتحريمُ الخمرِ في شهرِ ربيعِ الأوّل سنةَ أربعِ من الهجرة.

وكان مِن خبرِ حمزةَ بنِ عبد المطّلب ما رواه مسلمُ بنُ الحجّاج[٣] بن مسلم في صحيحه عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، قال: أصبتُ شارفًا[٤] مع رسول الله ﷺ في مَغْنَم يومَ بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفًا أُخرى من الخُمْس. قال عليّ: فلمّا أردت أن أبتني[٥] بفاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ واعدتُ رجلًا صَوَّاغًا من بني قَيْنُقاع[٦] يرتحل معي فنأتي بإذْخِرٍ[٧] أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعينُ به على وليمة عُرْسي. فبينا أنا أجمع لشارفيّ متاعًا من الأقتاب[٨] والغرائرِ والحبال، وشارفاي مُناختان إلى جنب حُجرة رجلٍ من الأنصار ورجعت حين جمعتُ ما جمعتُ، فإذا شارفاي قد اجتُبَّت أسنمتهما[٩] وبُقِرت[١٠] خواصرهما وأُخِذ من أكبادهما، فلم أملِكْ نفسي حين رأيت ذلك المنظر منهما أن قلت: مَنْ فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزةُ بنُ عبدِ المطّلب وهو في هذا البيت في شَرْبٍ من الأنصار،

(١) الشّنّ: القربة الصغيرة الخَلَق.

(٢) حمزة بن عبد المطلب، عم النبيّ ﷺ، استشهد في معركة أُحد إلى الشمال من المدينة، في السنة الثالثة الهجرية، قتله وحشي، بإغراء من هند زوج أبي سفيان، فأكلت من كبده. انظر: شذرات الذهب ١/ ١٠.

(٣) أحد أئمّة الحديث من أهل نيسابور، اشتهر بكتابه «الصحيح» وهو معوّل عند أهل السّنّة، وله كتاب «الأسماء والكنى» وكتاب «الطبقات». مات سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م. انظر: الفهرست ص ٣٢٢.

(٤) الشارف من الإبل: المسنّة الهَرِمة.

(٥) ابتني: يضمني معها بناء واحد فتصير زوجته.

(٦) بنو قينقاع: إحدى قبائل العرب، وكانوا من اليهود، سكنوا المدينة المنوّرة.

(٧) الإذخر: نبات طيّب الرائحة.

(٨) الأقتاب: جمع قتب، وهو الرّحل من خشب، يوضع فوق ظهر الجمل، ويقال له الرّحل.

(٩) اجتبّت أسنمتها: نزعت. والأسنمة، جمع سنام، وهو في أعلى ظهر الجمل.

(١٠) بقرت: طعنت.

غنّته قَيْنة[1] وأصحابُه، فقالت في غنائها:

* ألاَ يـا حـمـزَ لـلـشُّـرُفِ الـنِّـواءِ *

لم يذكر مسلم في صحيحه من الشعر غير ما ذكرناه. والأبيات التي غنّت بها: [من الوافر]

ألا يـا حـمْـزُ لـلشّـرُفِ[2] الـنِّـواءِ ... وهُـنّ مـعَـقّـلاتٌ[3] بـالـفِـنـاءِ
ضَعِ السكّين في اللّبّات[4] منها ... فـضـرِّجْـهُـنَّ حـمـزةُ بـالـدمـاءِ
وعـجِّـلْ مِـنْ شَـرائـحـهـا كـبـابًـا ... ملهوجةً[5] على وهجِ الصِّلاءِ[6]
وأصلِحْ مـن أطـايـبـهـا طـبـيـخًـا ... لـشَـرْبِـك مـن قَـديـدٍ أو شِـواءِ
فـأنـت أبـا عـمـارةِ الـمُـرَجَّـى ... لـكـشـف الـضـرّ عـنـهـا والـبـلاءِ

فقام حمزةُ بالسيف فاجتَبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما. فقال عليّ: فانطلقت حتى أدخل على رسول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة[7]، قال: فعرَف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقِيت، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك؟» قلت: يا رسول الله، ما رأيتُ كاليوم قطّ، عدا حمزةُ على ناقتي، فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هو ذا في بيتٍ معه شَرْبٌ[8]. فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه ثم انطلق يمشي واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء الباب الذي فيه حمزةُ؛ فاستأذن فأذنوا له، فإذا هم شَرْبٌ؛ فطفِق رسول الله ﷺ يلومُ حمزةَ فيما فعل، وإذا حمزةُ محمرّةٌ عيناه؛ فنظر حمزةُ إلى رسول الله ﷺ ثم صعّدَ النظرَ إلى ركبتيه ثم صعّد النظر إلى سرّته ثم صعّد النظر فنظر إلى وجهه، فقال حمزةُ: وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي! فعرف رسول الله ﷺ أنه ثَمِلٌ[9]، فنكص[10] رسول الله ﷺ على عقبيه القَهْقرى وخرج وخرجنا معه. وفي حديثٍ آخر: أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ: «إنّ عمّك قد

---

(١) القينة: المغنّية.
(٢) الشُّرف: جمع شارف، وهي الناقة المسنّة.
(٣) معقّلات: مربوطات بالحبال.
(٤) اللبات، جمع لبّة، وهي موضع القلادة من الصدر، وهي النّحر أيضًا.
(٥) ملهوجة: غير ناضجة.
(٦) الصّلاء: النار العظيمة.
(٧) زيد بن حارثة، صحابي أعتقه النبيّ ﷺ وجعله أميرًا في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ١٨.
(٨) الشرب: جماعة الشاربين.
(٩) ثمل: سكران، يترنّح في مشيه ويهذي في كلامه.
(١٠) نكص على عقبيه: رجع عمّا كان عليه.

ثَمِلَ وهما لك عليّ»، فغرمهما رسول الله ﷺ لعليّ، فلما أصبحَ حمزةُ غدا على رسول الله ﷺ، فقال: «مَهْ[١] يا عمّ، فقد سألتُ فعفا عنك»، قالوا: واتّخذ عتبان بن مالك صنيعًا ودعا رجالًا من المسلمين، منهم سعد بن أبي وقّاص[٢]، وكان قد شوَى لهم رأسَ بعيرٍ فأكلوا منه وشربوا الخمرَ حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعارَ، وأنشد سعدُ قصيدةً فيها هجاء الأنصار وفخرٌ لقومه؛ فقام رجلٌ من الأنصارِ فأخذ لَحْيَ[٣] البعيرِ[٤] فضرب به رأس سعدٍ فشجّه شجّةً مُوضِحةً. فانطلق سعدٌ إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصار، فقال عمر رضي الله عنه: اللّهمّ بَيِّنْ لنا رأيك في الخمر بيانًا شافيًا؛ فأنزل الله عزّ وجلّ تحريم الخمر في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية إلى ﴿مُّنتَهُونَ﴾ [الآية ٩١]. فقال عمر: انتهينا يا ربّ. وقيل: إنها حُرِّمتْ بعد غزوة الأحزاب[٥] بأيام في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، والله أعلم. قال أنسٌ[٦] رضي الله عنه: حُرِّمتْ ولم يكن للعرب يومئذ عيشٌ أعجبُ منها، وما حُرِّم عليهم شيء أشدُّ من الخمر، قال: فأخرجنا الحِباب[٧] إلى الطريق فصببنا ما فيها، فمنّا من كسر حُبَّه، ومنّا من غسله بالماء والطّين، ولقد غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حِينًا، كلّما مُطِرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحُها.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا فَضِيخ البسر[٨] والتمر، فإذا منادٍ ينادي، فقال القوم: أُخرج فانظر، فإذا منادٍ ينادي: ألَا إنّ الخمر قد حُرِّمَتْ، قال: فجَرَت في سكك المدينة. فقال لي أبو طلحة: أُخرج فاهْرِقها فهرقتُها[٩]. فقالوا أو قال

(١) مه: مهلًا.
(٢) سعد بن أبي وقاص: من قريش وبني زهرة خاصةً، صحابي، قاد جيوش المسلمين في فارس والعراق وانتصر على رستم في واقعة القادسية، بنى الكوفة ومات سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٦١.
(٣) اللحى: منبت اللحية. (٤) البعير: الجمل.
(٥) غزوة الأحزاب، ويقال لها أيضًا غزوة الخندق، وفيها انتصر المسلمون على المشركين، وقتل عليّ بن أبي طالب عمرو بن ودّ العامري، وفيها أيضًا أشير على النبيّ ﷺ بحفر الخندق حول المسلمين. انظر: السيرة النبويّة ٤/ ٢١٤ وما بعدها.
(٦) أنس، هو أنس بن مالك، الصحابي وخادم الرسول ﷺ، مات سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م.
(٧) الحباب، جمع حبّ، وهو وعاء الخمرة وغيرها.
(٨) فضيخ البسر: شراب يتّخذ من البسر، وهو التمر.
(٩) هرقتها: صببتها.

بعضهم: قُتِل فلان! قُتِل فلان! وهي في بطونهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [المَائدة: الآية ٩٣].

* * *

وأمّا ما ورد في تحريمها في كتاب الله وبيّنته السُّنَّةُ(١)، فالأحاديث متضافرةٌ(٢) في تحريمها؛ فمن ذلك ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من مات وهو مدمنُ خمرٍ(٣) لقي الله وهو كعابدِ وثن»(٤). وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّةَ مدمنُ خمرٍ». وأمّا من زعم أنها تُباحُ للتّداوي بها فيردّ عليه ذلك ما صحّ عن رسول الله ﷺ أن طارق بنَ سويدٍ الجُعْفيّ سأل النبيّ ﷺ عن الخمر فنهاه أو كَرِه أن يصنعَها، وقال: إنما أصنعُها للدواء؛ فقال: «إنها ليست بدواء ولكنه داء»، وعنه ﷺ وقد سأله رجلٌ قدِم من جَيشان (وجَيشان من اليمن)، فسأل النبيَّ ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذُّرةِ يقال له المِزْر؛ فقال النبيّ ﷺ: «أَوَ مُسْكِرٌ هو؟» قال: نعم، قال رسول الله ﷺ: «كل مسكرٍ حرامٌ إنَّ على الله عهدًا لمن يشربُ المسكر أن يسقيَهُ من طينةِ الخبال»، فقالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عَرَقُ أهل النار». وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «كلّ مسكرٍ خمرٌ وكلّ مسكرٍ حرامٌ ومَنْ شربَ الخمرَ في الدنيا فمات وهو يُدمنُها لم يتبْ لم يشرَبْهَا في الآخرة»، وفي لفظ: «حُرِمَها في الآخرة فلم يُسْقَها»، وفي لفظٍ: «إلا أن يتوب». وعن عبد الله بنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: حُرِّمتِ الخمرُ قليلُها وكثيرُها وما أُسْكِرَ من كلّ شرابٍ. وعنه رضي الله عنه: مَن سرّه أن يُحرِّمَ ما حرّمَ اللهُ ورسولُهُ فليحرمِ النبيذ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزّاني حين يَزْني وهو مؤمن، ولا يشرب الشاربُ حين يشرب وهو مؤمنٌ، ولا يسرق السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمن»، أخرجه البخاريُّ(٥) في صحيحه والله سبحانه وتعالىٰ أعلم، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل.

---

(١) السّنّة، هي سنة النبيّ ﷺ، وما أتى به من قولٍ أو عمل، وتعتبر المصدر الثاني بعد القرآن في مصادر التشريع الإسلامي.

(٢) متضافرة: كثيرة.

(٣) مدمن خمر: لا ينقطع عنها البتّة.

(٤) الوثن: الصنم، الإله المعبود.

(٥) البخاري: هو أبو عبد الله المحدّث المشهور، ينسب إلى بخارى التي ولد بها. اشتهر بكتابه «الجامع الصحيح»، وله «التاريخ» و «الضعفاء» في تراجم الرجال، مات سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م. انظر: الفهرست ص ٣٢١.

ذِكْر ما قيل في إباحة المطبوخ

والمطبوخُ يسمّى الطِّلاءَ وهو الذي طُبِخَ حتى ذهب ثُلُثاه وبقي ثلثه، سُمِّيَ بذلك لأنه شبيهٌ بطِلاءِ الإبلِ في ثِخَنِه(١) وسواده. وقد اختلف العلماء في المطبوخ، فقال بعضهم: كلّ عصيرٍ طُبِخَ حتى ذهب نصفُه فهو حلالٌ إلا أنه يُكْرَه، وإن طُبِخَ حتى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه فهو حلالٌ مباحٌ شربُهُ وبيعُهُ إلا أن السكر منه حرام. وحجّتهم في ذلك ما روي: أن عمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنه كتب إلى بعض عمّاله(٢): أن اُرزق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. وعن عبد الله بن يزيدٍ الخطميّ قال: كتب إلينا عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه: أمّا بعد، فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيبُ الشيطان في عود الكَرْم(٣)، فإن له اثنين ولكم واحد. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ نوحًا عليه السلام لمّا نازعه الشيطانُ في عود الكرم، فقال: هذا لي، وقال: هذا لي؛ فاصطلحا على أنّ لنوحٍ ثلثَها وللشيطانِ ثلثيها. وسئل سعيدُ بن المسيب(٤): ما الشراب الذي أحلّه عمر رضي الله عنه؟ فقال: الذي يطبخُ حتى يذهبَ ثلثاه ويبقى ثلثُه. وحكي أن أبا موسى الأشعريّ(٥) وأبا الدرداء(٦) كانا يشربان من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه. وعلى الجملة فمجموع هذه الأخبار في مُثَلَّث لم يسكر البتّة. ودليل ذلك ما حُكِي عن عبد الله بن عبد الملك بن الطفيل الخزرجيّ قال: كتب إلينا عمرُ بن عبد العزيز: ألّا تشربوا من الطِّلاء حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه، وكلّ مسكرٍ حرامٌ. هذا الذي عليه أكثر العلماء. وقال قوم: إذا طُبِخَ العصيرُ أدنَى الطبخِ صار حلالًا، وهو قول إسماعيلَ بنِ عُلَيّة وبشر المِرِّيسيّ وجماعةٍ من أهل العراق. وذهب بعضهم إلى أن الطِّلاء الذي رُخِّص فيه إنما هو الرُّبُّ والدِّبْسُ، والله عزّ وجلّ أعلم.

---

(١) ثخنه: غلظه. (٢) عماله: ولاته.

(٣) الكرم: واحدته الكرمة، وهي شجرة العنب يتّخذ منه الخمر.

(٤) سعيد بن المسيّب: أحد فقهاء المدينة السبعة، توفي سنة ٩٤ هـ/ ٧١٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٥) أبو موسى الأشعري: أحد الذين حكموا في صفّين بين عليّ ومعاوية، وكان من قبل الإمام علي بن أبي طالب. توفي سنة ٤٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٥٣.

(٦) أبو الدرداء: عويمر بن مالك الصحابي الخزرجي الأنصاريّ، من رواة الحديث، وكان قاضي دمشق. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٩.

ذِكْر آفات الخمر وجِناياتها

وآفاتُ الخمر وجناياتها كثيرةٌ، لأنها أُمُّ الكبائر. وأوّلُ آفاتِها أنها تُذْهِبُ العقلَ، وأفضلُ ما في الإنسان عقلُه، وتحسّنُ القبيحَ وتقبّحُ الحسَنَ. قال أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانىءٍ عفا الله عنه ورحمه وغفرَ له ما أسلف: [من مجزوء الرمل]

إِسقني حتى تراني ... حَسَنًا عندي القبيحُ

وقال أيضًا: [من مجزوء الرمل]

إِسقني صِرْفًا[١] حُمَيّا[٢] ... تترك الشيخَ صبيّا
وتريه الغيّ[٣] رُشْدًا ... وتُريه الرُّشد غَيّا

وقال أبو الطيّب[٤]: [من المتقارب]

رأيتُ المُدامةَ[٥] غلّابةً ... تُهيِّج للمرء أشواقَهُ
تسيء من المرءِ تأديبَه ... ولكن تُحَسِّن أخلاقَهُ
وأنْفَسُ[٦] ما للفتى لُبُّهُ[٧] ... وذو اللُّبِّ يكره إنفاقَهُ
وقد مِتُّ أمسِ بها مِيتةً ... وما يشتهي الموتَ مَنْ ذاقَهُ

قالوا: وإنما قيل لمُشارب الرجل نديمٌ، من الندامة؛ لأن الرجل معاقرُ الكأس إذا سكرَ تكلّم بما يندَمُ عليه وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه «نادَمه» لأنه فعل مثل فعله فهو نديم له؛ كما يقال: جالسه فهو جليس له. والمعاقر: المدمِن، كأنه لزم عُقْرَ الشيء أي فِناءه. وقد شُهِر أصحابُ الشراب بسوء العهد وقلّة الحِفاظ، وقالوا: صاحبُ الشرابِ صديقُك ما استغنيتَ عنه حتى تفتقر، وما عُوفيت حتى تُنْكَب، وما غَلَت دِنانُك حتى تُنْزَف، وما رأَوْك بعيونهم حتى يفقدوك. قال بعض الشعراء عفا الله تعالى عنه: [من الطويل]

أرى كلّ قومٍ يحفَظون حريمَهم[٨] ... وليس لأصحابِ النّبيذ حريمُ

---

(١) صرفًا: خالصًا. (٢) الحميّا: صفة للخمرة.
(٣) الغيّ: بخلاف الرشد، وهو الضلالة.
(٤) أبو الطيب: كنية أحمد بن الحسين المتنبّي، الشاعر العباسي المشهور، كانت وفاته سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م. انظر: شذرات الذهب ٣/ ١٣.
(٥) المدامة: الخمرة. (٦) أنفس: أثمن.
(٧) لبّه: عقله. (٨) الحريم: العيال.

إذا جئتَهم حيَّوْك ألفًا ورحَّبوا وإن غبتَ عنهم ساعةً فذميمُ

إخاؤهُمُ ما دارت الكأسُ بينهم وكلُّهُمُ رَثُّ الوصال سؤومُ[(١)]

فهذا بياني لم أقل بجهالةٍ ولكنني بالفاسقين عليمُ

قيل: سقى قومٌ أعرابيّةً مسكرًا، فقالت: أيشرب نساؤكم هذا الشراب؟ قالوا: نعم. قالت: فما يدري أحدُكم مَنْ أبوه. وقال قُصَيّ بن كلاب[(٢)] لبَنِيه: اِجتنبوا الخمر فإنه يُصلحُ الأبدان ويفسدُ الأذهان. وقيل لعديّ بن حاتم[(٣)]: ما لك لا تشرب النبيذ؟ قال: معاذَ الله! أُصبحُ حليمَ قومٍ وأُمسي سفيهَهُم. وقيل لأعرابيّ: ما لك لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشربُ عقلي. وقيل لعثمانَ بن عفّان: ما منعك من شرب الخمر في الجاهليّة ولا حرج عليك؟ قال: إني رأيتها تُذْهِب العقل جملةً وما رأيت شيئًا يَذهَب جملةً ويعود جملة. وقال عبد العزيز بن مروان[(٤)] لنُصَيْب بن رَباح: هل لك فيما يُثمر المحادثة؟ يريد المنادمة، فقال: أصلح الله الأمير! الشَّعْرُ مفلفلٌ واللون مُرْمَدٌّ[(٥)]، ولم أقعدْ إليك بكرم عنصر ولا بحسن منظَر، وإنما هو عقلي ولساني؛ فإن رأيت ألّا تفرّقَ بينهما فافعل. ودخل نُصَيْبٌ هذا على عبد الملك بن مروان فأنشده فاستحسن عبدُ الملك شِعْرَه فوصلَه؛ ثم دعا بالطعام فطَعِم معه. فقال له عبد الملك: هل لك أن تُنادِم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين، تأمّلْني. قال: قد أراك. قال: يا أمير المؤمنين، جلدي أسود وخَلْقي مشوّه ووجهي قبيح ولست في منصب، وإنما بلغ بي مجالستَكَ، ومؤاكلتَكَ عقلي، وأنا أكره أن أُدْخِل عليه ما يَنْقُصه، فأعجبه كلامه وأعفاه.

وقال الحسن: لو كان العقل عَرَضًا لتغالى الناسُ في ثمنه؛ فالعجب لمن يشتري بماله شيئًا ليشربَه فيُذهب عقله!

---

(١) السؤوم: الشديد السّأم.

(٢) قصي بن كلاب، أحد أجداد الرسول ﷺ، سيّد قريش في زمانه، جمع قومه في مكة وجعل داره للنّدوة، وكانت له سدانة الكعبة.

(٣) عدي بن حاتم: ابن حاتم الطائي، صحابي شهد الجمل وصفّين والنهروان مع عليّ بن أبي طالب. مات بالكوفة سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م.

(٤) عبد العزيز بن مروان: أمير أموي، تولّى مصر في عهد والده مروان الأول وأخيه عبد الملك مدة عشرين سنة، وهو والد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، مات سنة ٨٥ هـ/ ٧٠٤ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٩٥.

(٥) مرمدّ: هائج.

وقال الوليد بن عبد الملكِ[١] للحجّاج بن يوسف[٢] في وَفْدة وفدها عليه وقد أكلا: هل لك في الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين، ليس بحرام ما أحللتَ، ولكن أمنع أهل عملي، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح[٣]، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هُود: الآية ٨٨].

وقالوا: للنبيذِ حدّان، حدٌّ لا همَّ معه، وحدٌّ لا عقلَ معه؛ فعليك بالأوّل واتّقِ الثاني.

ومن آفاتِ[٤] الخمر افتضاحُ شاربها بريحها عند من يَحْتشمُ منه ويتّقيه ويخافه فلا يستطيعُ مع وجود ريحها إنكارَ شربها. والوُلاةُ تَحُدّ بالاستِنْكَاه[٥]؛ لأن خِمَارها[٦] يثبتُ في الفمِ اليومَ واليومين بعدَ تركِها، فمن شربها ساعةً وهو يحتشمُ من الناس أن يظهر ذلك عليه احتاج إلىٰ الانقطاع في بيته بعد زوال السكر وأَوْبة العقل[٧] حتى تزول الرائحة. وقد تحايلَ الذين يشربون الخمر على قطع ريحها من الفم وعالجوا ذلك بأدوية صنعوها يستعملونها بعد شربها، فأجودُ ما صنعوه من هذه الأدوية أنْ يُؤخذَ من المرِّ والبَسْبَاسَةِ والسُّعدِ والجَنَاحِ والقَرَنْفُلِ[٨] أجزاءٌ متساويةٌ وجزءانِ من الصّمغِ، ويُدَقّ ذلك ويُجْبَل بماء الورد ويستعمل منه، فإنه يقطع رائحةَ الخمر من الفم، كما زعموا. وقد نظم بعض الشعراء هذه المفرداتِ في أربعة أبياتٍ، فقال:
[من مخلّع البسيط]

مُـرٌّ وبـسـبـاسـةٌ وسُـعـدٌ إلـى جَـنَـاحِ ومـاءِ وَردِ
يـنـظِـمُـهـا[٩] الـصـمـغُ إنْ تـلاه قَـرنـفُـلُ الـهـنـد نـظْـمَ عِـقـدِ

---

(١) الوليد بن عبد الملك: الخليفة الأموي السادس، في عهده فتحت سمرقند وبخارى وفرغانة وخوارزم والهند وطنجة والأندلس. شيّد الجامع الأموي في دمشق والمسجد والأقصى في القدس. مات سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م. انظر: تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة ٢/ ٤٤ وما بعدها.

(٢) هو الحجاج بن يوسف الثقفي القائد والخطيب، ولد في الطائف، ولّاه عبد الملك بن مروان إمرة الجيش فقضى على ثورة عبد الله بن الزبير، وقمع ثورة ابن الأشعث. أسّس مدينة واسط، وكانت سيرته وحياته مصبوغة بالدم حتى لقّب بالسفّاك والسفّاح. مات سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ٢٥ وما بعدها.

(٣) العبد الصالح: كناية عن النبيّ شعيب.

(٤) آفات: عِلَل.

(٥) الاستنكاه: شمّ ريح الفم.

(٦) خمارها: أثر رائحتها.

(٧) أوبة العقل: رجعته.

(٨) المرّ والبسباسة والسعد والجناح والقرنفل من النباتات الطيّبة الرائحة.

(٩) ينظمها: يسلكها ويربطها.

أجـزاؤهـا كـلُّهـا سَـواءٌ والـصـمـغ جزآن، لا تـعـدّي
فـيـه لـذي مِـرّةٍ شـفـاءٌ وصـونُ[1] عِـرْضٍ وحـفـظُ ودِّ

ذكر أسماء الخمر من حين تُعْصَر إلى أن تُشْرَب

الخمر إذا عُصِر فاسْمُ ما يسيل منه قبلَ أن تطأه الرجلُ: السُّلَافُ؛ وأصله من السَّلَف وهو المتقدّمُ من كلّ شيء، وهو في مثل ذلك الخُرطومُ أيضًا. ويقال للذي يُعصر بالأقدام: العصيرُ، والموضع الذي يُعْصَر فيه: المَعصرة. والنَّطْلُ: ما عُصِرَ فيه السلافُ؛ ويقال للعاصر: الناطِلِ، ثم يُترَكُ العصيرُ حتى يغليَ فإذا غلا فهو خمر، وقيل: سمّيت خمرًا لأنها تخامر العقولَ فتخالطُها. وقالوا: لأنها تُخْمَرُ في الإناء، أي تُغطَّى وهي مؤنثة. ويقال لها: القهوة، لأنها تُقْهِي عن الطعام والشراب، يقال: أقهَى عن الطعام وأقهم عنه إذا لم يشتهه. ومن أسمائها: الشَّمولُ، سمّيت بذلك لأن لها عَصْفَةً كعصفةِ الشَّمال، وقيل: لأنها تشمَلُ القومَ بريحِها. ومنها: السُّلَاف والسُّلافة والخرطوم وقد تقدّم معناها. ومنها: القَرْقَفُ لأنّ شاربَها يُقَرْقِف إذا شربها، أي يَرْعد، يقال: قَرْقَف وقَفْقَفَ. وقال أبو عمرو: القرقف اسم للخمر غير صفة وأنكر قولَهم سمّيت بها لأنها تُرْعِد. ومنها: الراحُ لأنها تُكسب صاحبَها الأريحيّة أي خفّة العطاء. ومنها: العُقارُ لأنها عاقرت الدّنَّ، وقيل: لأنها تعقِر شاربَها من قول العرب: كلأُ بني فلانٍ عقارٌ، أي يعقِرُ الماشية. ومن أسمائها: المُدامةُ والمدامُ لأنها داومتِ الظَّرف الذي انتُبذت فيه. والرحيقُ ومعناه الخالص من الغش. وقيل: الصافي، وقيل: العتيق، والكُمَيْتُ سمّيت بذلك للونها إذ كانت تضربُ إلى السواد. والجِرْيالُ وهو صِبغٌ أحمرُ سمّيت بذلك للونها أيضًا. والسبيئةُ والسِّباءُ وهي المشتراة وأصلها مَسْبوءَة، يقال: سبأتُ الخمرَ إذا اشتريتُها. والمشعشَعَةُ وهي الممزوجة. والصهباءُ وهي التي عُصِرَتْ من العنب الأبيض. والشَّمولُ شبّهت بالدابّة التي تَجمحُ براكبها. والخَندريسُ وهي القديمة. والحانيّة: منسوبة إلى الحانة. والماذيّة: الليّنة يقال: عسلٌ ماذيٌّ إذا كان ليّنًا. والعانيّة: منسوبة إلى عانة. والسُّخَامية: الليّنة من قولهم: قطن سُخَامٌ أي ليّن وثوبٌ سُخَامٌ. قال الراجز: [من الرجز]

كأنه بالصَّحْصَحان[2] الأنجلِ[3] قطـنٌ سُـخَـاميّ بـأيـدِي غُـزَّلِ[4]

(١) الصون: الحفظ.
(٢) الصحصحان: ما استوى من الأرض.
(٣) الأنجل: الواسع العين.
(٤) الغزّل: جماعة الغزّالين.

والمَزّةُ والمُزّاءُ لطعمها. والإسفَنْطُ، قال الأصمعيّ: هو بالروميّة. والغربُ ومعناه الحدُّ، وغَرْبُ كلّ شيء حدّه. ولعلها سُمّيت بذلك لحدّتها. والحُمَيّا، وحُمَيّا كلّ شيء سَوْرتُه وحدّتُه. والمُصْطَارُ: الخلّة، ويقال: المُضْطارُ بالضاد أيضًا. والخَمْطةُ: المتغيّرة الطعم. والمعتّقة: التي قد طال مكثُها. والإثْمُ: اسم لها لعله وقع عليها لما في شربها من الإثم. والحمق كذلك. قال الشاعر: [من الوافر]

شربتُ الإثم حتى ضلّ[١] عقلي كذاك الإثم يفعل بالعقولِ

والمُعْرَق: الممزوج قليلًا، يقال: عَرَقٌ من ماء أي ليس بكثير. ومن أسمائها: القِنْدِيدُ والفَيْهَجُ وأمّ زَنْبق والمقَطّبُ والطَّوْسُ والسَّلْسَال والسَّلسَل والزَّرْجُون والكَلْفاء والجَرْباء والعانسةُ والطّابَةُ والنّاجُودُ والكأسُ والطِّلاء، قال عَبِيدُ بن الأبرص[٢]: [من المتقارب]

هي الخَمْرُ صرفًا[٣] تكنَّى الطلا ء كالذئب يُسمّى أبا جعدةِ[٤]

والباذِق والبُخْتُجُ: فارسيّان. والجَهْورِيّ. والمَقَدِيّ منسوبةٌ إلى قريةٍ من قُرَى الشام. والمزاء من قولك: هذا أَمْزَى من هذا أي أفضل. والنبيذ. والبِتْعُ: نبيذ العسل والسُّكُرُكَةُ من الذرة. والجِعَة من الشعير. والفَضِيخ من البسر. والمِزْر من الحبوب.

ذكر أخبار مَن تنزّه عنها في الجاهليّة وتركها ترفّعًا عنها

كان ممّن تركها في الجاهلية عثمانُ بن عفّان رضي الله عنه وعبدُ المطّلب بن هاشم[٥] وعبد الله بن جدعان التيميّ، وكان سيّدًا جوادًا من سادات قريش، وسبب تركه لها أنه شرب مع أُميّة بن أبي الصّلت الثقفيّ فأصبحت عينُ أُميّةَ مخضرّةً فخافَ عليها الذهاب، فسأله عبد الله: ما بال عينِك؟ فقال: أنت صاحبُها أصبتها البارحة،

(١) ضلّ: تاه وشرد.

(٢) عبيد بن الأبرص: شاعر جاهلي حكيم، وداهية. أحد أصحاب المعلّقات، قتله النعمان بن المنذر في يوم بؤسه. مات نحو سنة ٦٠٠ م. انظر: الأعلام ٤/ ٣٤٠.

(٣) صرفًا: خالصة. (٤) أبو جعدة: كنية الذئب.

(٥) عبد المطلب بن هاشم: جد النبيّ ﷺ، ومن كفله في صغره ورعاه بعد موت أبيه عبد الله، كان زعيم قريش في الجاهلية، وكانت له الرّفادة والسقاية، مات نحو سنة ٥٧٩ م. انظر: السيرة النبوية ١/ ١٤٧.

قال: وبلغ منّي الشراب ما أبلغ معه من جليسي هذا المبلغ، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر عليّ حرام، لا أذوقها أبدًا، وقال فيها: [من الوافر]

شَرِبتُ الخمر حتى قال صَحْبي ألستَ عن السُّقاة بمُستفيقِ؟
وحتى ما أُوسَّد[١] في مبيتٍ أنام به سوى التُّرب السحيقِ

وممّن حرّمها في الجاهليّة: قيسُ بن عاصم المنقريّ[٢]، والسبب في ذلك أنه سكر فغمَز عكنة[٣] ابنته أوأخته فهربت منه، فلمّا صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه، وقال في ذلك: [من الوافر]

وجدتُ الخمرَ جامحةً[٤] وفيها خصالٌ تفضح الرجلَ الكريما
فلا واللهِ أشربُها حياتي ولا أدعو لها أبدًا نديما[٥]
ولا أُعطي لها ثمنًا حياتي ولا أُشفي بها أبدًا سقيما[٦]
فإنّ الخمرَ تفضحُ شاربيها وتجشمهم[٧] بها أمرًا عظيما
إذا دارت حُميّاها[٨] تعلّت طوالعُ تَسْفَه الرجلَ الحليما

ومنهم: عامر بن الظَّرِب العَدْوانيّ[٩]، قال: [من البسيط]

سآلّةٌ[١٠] للفتى ما ليس في يده ذَهَّابةٌ[١١] بعقول القوم والمالِ
أقسمتُ بالله أسقيها وأشربها حتى يفرّق تربُ القبرِ أوصالي[١٢]

ومنهم: صفوانُ بن أميّةَ بنِ مُحرِّثٍ الكتاميّ، وعُفَيفُ بنُ معديكرب الكنديّ والأسلوم بن نامي من همدان ومِقْيَس بن عديّ السهميّ، وكان سكر فجعل يخطُّ ببوله: أنَعَامةً أو بعيرًا، فلما أفاق وأخبر بذلك حرّمها.

---

(١) أوسّد: يوضع لي وسادة.
(٢) من شعراء الجاهلية، أسلم في وفد تميم، وكانت وفاته نحو ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م.
(٣) العكنة: ما انطوى وتثنّى من لحم البطن. (٤) جامحة: هائجة.
(٥) النديم: الرفيق في الشراب. (٦) السقيم: المريض.
(٧) وتجشمهم: تكلّفهم على مشقّة. (٨) حميّاها: سورتها.
(٩) من شعراء الجاهلية وفرسانها وخطبائها المشهورين، وفد مع قومه على كسرى وكان من المبرزين، وقيل: إن الذي وفد عمرو بن مسعود العدواني، انظر خبر وفادته في: العقد الفريد ١/ ١٠٥.
(١٠) السآلة: الكثيرة السؤال. (١١) الذهّابة: الكثيرة الذهاب.
(١٢) أوصالي: أعضائي.

ومنهم: العبّاس بنُ مرداس السلَميّ[١] قيل له: لم تركتَ الشرابَ وهو يزيد في جرأتك وسماحتك؟ فقال: أكره أن أُصبحَ سيّدَ قومي وأُمسيَ سفيهَهم.

ومنهم: سعيدُ بن ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ وورقةُ بنُ نوفل[٢] والوليد بن المغيرة. وقال زيد بن ظبيان: [من البسيط]

بئس الشراب شراب حين تشربه ... يوهي[٣] العظام وطورًا يوهي العصبِ
إني أخاف مليكي أن يعذّبني ... وفي العشيرة أن يُزرى[٤] على حسبي

وقال رجل لسعيد بن سلم: ألا تشرب النبيذ؟ فقال: تركت كثيره لله تعالى وقليلَه للناس.

ذكر مَن حُدَّ فيها من الأشراف ومَن شربها منهم ومَن اشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومَن افتخر بشربها

فأمّا من حُدَّ فيها من الأشراف، فالوليدُ بن عُقْبة بنِ أبي مُعَيط وهو أخو عثمانَ بنِ عفّان لأمّهِ، شهد عليه أهلُ الكوفة أنه صلّى بهم الصّبحَ ثلاثَ ركعاتٍ وهو سكرانٌ ثم التفتَ إليهم فقال: وإن شئتم زدتكم، فجلده عبدُ الله بن جعفرٍ بين يديْ عثمان رضي الله عنه، وسنذكر الواقعة إن شاء الله تعالى بجملتها في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الخامس في التاريخ في خلافة عثمان رضي الله عنه.

ومنهم: عبيدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطاب شرب بمصر فحدّه بها عمرو بن العاص سرًّا، فلمّا قدم على أبيه جلده حدًّا آخر علانية.

ومنهم: عبدُ الرحمٰنِ بنُ عمرَ بنِ الخطّاب المعروف بأبي شَحْمة، حدّه أبوه في الشراب فمات تحت حدِّه.

ومنهم: عاصمُ بنُ عمر بن الخطّاب، حدّه بعضُ ولاةِ المدينة.

ومنهم: قُدامةُ بنُ مظعونٍ، حدّه عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه بشهادة عَلْقمة الخصيّ وغيره.

---

(١) العباس بن مرداس: شاعر من بني سليم، أسلم وقومه. مات نحو سنة ٦٣٩ م.
(٢) ورقة بن نوفل بن أسد: من حكماء الجاهلية، ابن عمّ خديجة أولى أزواج النبيّ ﷺ، قيل: كان حنيفيًّا، وقيل: كان نصرانيًّا. مات نحو سنة ٦١١ م.
(٣) يوهي: يضعف. (٤) يزرى: يُعاب.

ومنهم: عبدُ الله بنُ عروةَ بنِ الزبير، حدّه هشام بنُ إسماعيل المخزوميّ.

ومنهم: عبدُ العزيز بن مروان، حدّه عمرو بن سعيد الأَشْدَق.

ومنهم: أبو مِحْجَن الثقفي[١] واسمه عمرو بن حبيب، وكان مغرمًا بالشراب، حدّه عمر مرارًا في الخمر، وحدّه سعيد بن أبي وقّاص مرارًا وشهد القادسيّة[٢] وأبلى بلاء حسنًا، ثم حلَف بعد القادسيّة ألا يذوقَ الخمرَ أبدًا ومات تائبًا عنها، وأنشد رجل عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة قوله: [من الطويل]

إذا مِتُّ فأَدفنّي إلى جنب كَرمةٍ[٣] ... تُروِّي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفننّي في الفلاة فإنّني ... أخاف إذا ما مِتّ أن لّا أذوقها

فقال عبد الله: حدّثني من رأى قبره بأرمينية[٤] بين شجرات كرمٍ يخرجُ إليه الفتيانُ ويشربون عنده ويتناشدون شعره، فإذا جاءت كأسُه صبّوها على قبره.

ومنهم: إبراهيم بن هَرْمة[٥] وكان مغرمًا بالشراب، حدّه جماعة من عمّال المدينة فلما طال ذلك عليه رحل إلى أبي جعفر المنصور، وقيل: إنما رحل إلى المهديّ وامتدحه بقصيدته التي يقول فيها: [من الطويل]

له لحظاتٌ في حِفافَيْ[٦] سريره ... إذا كرَّها فيها عِقابٌ ونائلُ

له تربةٌ بيضاءُ من آل هاشم ... إذا اسودَّ من لؤم التراب القبائلُ

فاستحسن شعرَه وقال له: سَلْ حاجتَك، فقال: تأمرُ لي بكتاب إلى عامل المدينة ألّا يحدّني على شراب، فقال له: ويلك! لو سألتني عزلَ عاملِ المدينة وتوليتكَ

---

(١) أبو محجن الثقفيّ: شاعر مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، وحارب في المغازي، كان فارسًا شجاعًا لكنه كان ميّالًا بل مسرفًا في شرب الخمرة، له أشعار في الخمريّات والمفاخر، مات نحو ٦٥٠ م.

(٢) القادسيّة: موضع في العراق غربي النَّجف، فيه حدثت معركة القادسيّة التي انتصر فيها العرب بقيادة سعد بن أبي وقاص على الفرس بقيادة رستم، وذلك في سنة ١٥ هـ/ ٦٣٥ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٨.

(٣) الكرمة: شجرة العنب التي يتّخذ من ثمرها الخمر.

(٤) أرمينية: مقاطعة جبلية في غرب آسيا بين الأناضول وأنجاد إيران جنوبي القوقاز.

(٥) إبراهيم بن هرمة: شاعر مخضرم الدولتين الأموية والعباسية، نشأ في المدينة ومدح المنصور وابنه المهديّ. مات سنة ٧٩٢ م.

(٦) حفافي سريره: جانبَيْه.

مكانَه لفعلتُ؛ قال: يا أمير المؤمنين، ولو عزلته وولّيتني مكانه أما كنت تعزلني أيضًا وتولّي غيري! قال: بلى، قال: فكنت أرجِع إلى سيرتي الأُولى فأُحَدّ، فقال المهديّ لوزرائه: ما تقولون في حاجة ابنِ هرمةَ وما عندكم فيها من التلطّف؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، إنه سأل ما لا سبيلَ إليه، إسقاطُ حدٍّ من حدود الله عزّ وجلّ، فقال المهديّ: له حيلةٌ إذا أعيتكم الحيلُ فيه، اكتبوا إلى عامل المدينة: مَنْ أتاك بابن هرمة سكرانًا فاضربْه مائةَ سوطٍ واجلد ابنَ هرمةَ ثمانين، فكان إذا شرب ومشى في أزقّة المدينةِ يقول: مَنْ يشتري مائةً بثمانين؟

* * *

وأمّا مَن شربها منهم واشتهر بها، جماعةٌ من الأكابر والأعيان والخلفاء.

منهم: يزيدُ بنُ معاويةَ[١] شُهر بشربها، وكان يقال له: يزيد الخمور، روى هشام بنُ الكلبيّ عن أبيه قال: وجَّهَ معاويةُ جيشًا إلى أرض الروم فأصابهم الجُدَرِيّ، وعند يزيد امرأتُه أُمُّ كلثوم بنتُ عبدِ الله بن عامر فسكر وأنشأ يقول: [من البسيط]

إذا ارتَفَقْتُ[٢] على الأنماطِ[٣] في غُرفٍ ... بـدَيْـر مُـرَّان[٤] عـنـدي أمُّ كـلـثـوم
فـمـا أبـالـي الـذي لاقـت جـيـوشُـهُـمُ ... بـالـغَـذْقَـذُونَـةِ[٥] من حُمَّى ومن مُومِ[٦]

فبلغ الخبر معاوية، فقال: أنت هٰهنا! إلْحق بهم، وسيَّره إلى قتال الروم.

ومنهم: عبدُ الملك بن مروان، وكان يُسمَّى: حمامةَ المسجد، لاجتهاده في العبادة، هذا قبل أن يليَ الخلافةَ، فلما أفضت الخلافةُ إليه شرب، فقال له سعيدُ بن المسيّب: بلغني يا أمير المؤمنين، أنك شربتَ الطلاءَ، قال: إي والله والدماء.

---

(١) يزيد بن معاوية: الخليفة الأموي الثاني، أمّه ميسون، اشتهر بالخلاعة والمجون، وميله إلى النساء والخمرة. توفي قرب حمص سنة ٦٠ هـ/ ٦٨١ م. انظر خبر وفاته مفصّلًا في: تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة ١/ ١٧٣.
(٢) ارتفقت: اتّكأت.
(٣) الأنماط: جمع نمط، وهو ضرب من البُسُط.
(٤) دير مرّان: بالقرب من دمشق.
(٥) الغذقذونه: اسم موضع بعينه ببلاد الشام. (٦) الموم: الجدري.

ومنهم: يزيدُ بنُ عبد الملك[١] بن مروان وهو صاحب حَبَابة[٢] وسَلّامة[٣]، وأخباره مشهورة.

ومنهم: ابنه الوليدُ بنُ يزيد بن عبد الملك[٤] ذهب به الشراب كلَّ مذهب حتى خُلع وقُتل؛ وله في ذلك حكايات وأشعار. منها: أنه سمع بشُرّاعة بنِ الزَّنْدَبوذ الكوفيّ، وكان من أهلِ البطالة المشهورين باللعبِ واللهو وإدمان الشراب، فاستدعاه بالكوفة إلى دمشق فحمل إليه فلما دخل عليه قال له: يا شرّاعة، ما أرسلت إليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنّة نبيّه، قال: لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حمارًا، قال: وإنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة، قال: أنا دهقانها[٥] الخبير، ولقمانُها[٦] الحكيم، وطبيبُها الماهر؛ قال: فأخبِرْني عن الشراب، قال: سَلْ عمّا بدا لك، قال: ما تقول في الماء؟ قال: لا بدّ منه، والحمار شريكي فيه. قال: فاللّبن؟ قال: ما رأيتُه إلا استحييتُ من طولِ ما أرضعتْني أمّي به، قال: فالسَّوِيق؟ قال: شرابُ الحزينِ والمستعجلِ والمريض. قال: فشرابُ التمر؟ قال: سريعُ الامتلاء، سريعُ الانفشاش. قال: فنبيذُ الزبيب؟ قال: حاموا به على الشراب، قال: فالخمر؟ قال: تلك والله صديقة روحي، قال: وأنتَ واللهِ صديقُ روحي، قال: فأيُّ المجالسِ أحسن؟ قال: ما شرب فيه على وجه السماء؛ ومن شعر الوليد: [من الطويل]

خذوا ملككم لا ثبّت الله ملككم ... ثباتًا يساوي ما حييت عقالا
دعوا لِيَ سلمَى والنبيذَ وقينةً ... وكأسًا، ألا حسبي بذلك مالا
أبا الملك أرجو أن أخلّد فيكُمُ ... ألا ربَّ مُلك قد أزيل فزالا

---

(١) يزيد بن عبد الملك: الخليفة الأموي التاسع، خلف عمر بن عبد العزيز. انصرف إلى اللّهو، ومات بإربد، ودُفن بدمشق سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/١٠٣.

(٢) حبّابة: جارية مغنية، كانت ليزيد بن عبد الملك، يقال إنها شرقت بحبّة عنب أو رمّان فماتت ومات يزيد بعدها بأيّام حزنًا عليها.

(٣) سلامة: شاعرة مغنّية، من جواري يزيد بن عبد الملك.

(٤) الوليد بن يزيد بن عبد الملك: الخليفة الأموي الحادي عشر، خلف عمّه هشامًا. عاش في البادية منصرفًا إلى الشعر والخمر والغناء، خلع وقتل سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م. انظر تاريخ الخلفاء ٢/ ١١٠.

(٥) دهقانها: سيّدها وقائدها.

(٦) لقمانها: يريد قمان، النبي الذي اشتهر بحكمته، وقد خصّه القرآن الكريم بسورة من سوره المائة والأربع عشر سورة.

ومنهم: المأمونُ بنُ الرشيد وشُهِر بالشراب وله فيه أخبار، منها: أنه شرب هو ويحيىٰ بن أكثم القاضي[١] وعبد الله بن طاهر[٢]، فتعامل المأمون وابنُ طاهرٍ على سكر يحيىٰ، فأشار إلى الساقي فأسكره، وكان بين أيديهم رِزَمٌ من الورد والرياحين، فأمر المأمونُ فشُقّ ليحيىٰ لحدٌ[٣] من الورد والرياحين وصيَّروه فيه، وعمل بيتي شعر ودعا قينة فجلست عند رأس يحيىٰ وغنّت بالشعر: [من البسيط]

دعوته وهو حيٌّ لا حياةَ به مكفَّنًا في ثيابٍ من رياحينِ
فقلت قم قال رجلي لا تطاوعني فقلت خذ قال كفّي لا تواتيني

فانتبه يحيىٰ لرنّة العود وصوت الجارية فقال: [من البسيط]

يا سيّدي وأميرَ الناس كلِّهم قد جارَ[٤] في حكمه من كان يسقيني
إني غفلتُ عن الساقي فصيَّرني كما تراني سليبَ العقلِ والدِّينِ
فانظر لنفسك قاضٍ إنني رجل ألراحُ[٥] يقتلني والرَّوح يُحييني

ومنهم: العباسُ بنُ عليّ بن عبد الله بن العباس وهو عمّ المنصور، كان يأخذ الكأس بيده ويقول: أما العقل فتُتلفين، وأما المروءة فتَمحقين، وأما الدِّين فتُفسدين، ويسكتُ ساعةً ثم يقول: وأما النَّفْس فتُسَخِّين، وأما القلب فتُشَجِّعين، وأما الهمّ فتطردين، أفتراك مني تُفلتين! ثم يشربُها.

ومنهم: بلالُ بن أبي بُردة فُضح بالشراب وفيه يقول يحيىٰ بن نوفل الحميريّ: [من المتقارب]

وأمـا بـلالٌ فـذاك الـذي يميل الشرابُ به حيثُ مالا
يبيت يمصُّ عتيقَ الشراب كمصّ الوليد يخاف الفِصالا
ويصبح مضطربًا ناعسًا تخال من السُّكْر فيه احولالا
ويمشي ضعيفًا كمشي النزيفِ[٦] تخالُ به حين يمشي شِكالا[٧]

---

(١) يحيىٰ بن أكثم: فقيه وقاض، ولد في مرو بخراسان، صار قاضي القضاة ببغداد في أيام المأمون. عزله المتوكّل ومات سنة ٢٤٢ هـ/ ٨٥٧ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٤.

(٢) عبد الله بن طاهر: من أشهر ولاة المأمون، وطّد الأمن في مصر، خلف أخاه طلحة في حكم خراسان سنة ٨٢٨ م، توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. انظر: الفهرست ص ١٧٠.

(٣) اللّحد: جانب القبر.

(٤) جار: خالف الصواب.

(٥) الراح: الخمرة.

(٦) النزيف: من سال دمه.

(٧) الشكال في القدمين: شدّهما وعدم قدرتهما على المشي.

ومنهم: عبدُ الرحمـٰن بنُ عبدِ الله الثقفيّ قاضي الكوفة وفُضِح بمنادمة سعدِ بن هَبّارِ وفيه يقول حارثة بن بدر: [من البسيط]

نـهـارُه فـي قـضـايـا غـيـرِ عـادلـةٍ ... ولـيـلُهُ فـي هَـوَى سـعـد بـن هَـبّـارِ

ومنهم: آدمُ بنُ عبدِ العزيز بنِ عمرَ بنِ عبد العزيز، وهو الذي يقول: [من مجزوء الرمل]

هـاك فـاشـرب يـا خـلـيـلـي ... فـي مَـدَى الـلـيـل الـطـويـلِ
قـهـوةً[1] فـي ظـلّ كـرمٍ ... سُـبِـيـتْ مـن نـهـر نـيـلِ
فـي لـسـانِ الـمـرء مـنـهـا ... مـثـلُ لَذْعِ الـزنـجـبـيـلِ[2]
إنـمـا أذهـبَ مـالـي ... طـولُ إدمـانِ الـشَّـمـولِ[3]
وحـنـيـنُ الـعُـودِ تـثـنـيـ ... ـه يـدا ظـبـي كـحـيـلِ
فـالـطـويـلُ الـعُـنـقِ الأ ... هيفُ[4] كـالـسـيـفِ الصقيل
يـا خـلـيـلـيَّ اسـقـيـانـي ... واهـتـفـا بـالـشـمـس زُولي[5]
قـل لـمـن لامـك فـيـهـا ... مـن نـصـيـح أو عـذول
يَـبْـق بـيـن الـبـاب والـدا ... ر عـلـى نَـعْـب الـطـلـولِ[6]

وقيل لأبيه عبد العزيز بن عمر: إنّ بنيك يشربون الخمر، فقال: صفوهم لي، فقالوا: أما فلانٌ إذا شربَ خرق ثيابَه وثيابَ نديمه، فقال: سوف يدَعُ هذا شربَها، قالوا: وأما فلان فإذا شربها تقيّأ في ثيابه، قال: وهذا سوف يدعُها، قالوا: وأما آدمُ فإذا شربها فأسكنُ ما يكون لا ينالُ أحدًا بسوء، قال: هذا لا يدعُها أبدًا.

ومنهم: حارثةُ بنُ زيدٍ العَدْوانيّ ـ رجل من تميم ـ دخل يومًا على زيادِ ابن أبيه[7] وبوجهه أثر، فقال له زياد: ما هذا الأثرُ بوجهك؟ فقال: أصلحَ الله الأمير

---

(١) القهوة: الخمرة.
(٢) الزنجبيل: ضرب من النبات في عروقه فوائد طبيّة، ونكهة طيّبة.
(٣) الشمول: الخمرة.
(٤) الأهيف: الناحل الطويل والدقيق الخصر.
(٥) زولي: اذهبي وغيبي.
(٦) الطلول: الديار الدارسة، والنعب عليها: النحيب، والإصاتة بصوت البوم.
(٧) زياد بن أبيه: أمير وقائد، نسبه غير صريح فلقّب بابن أبيه، ألحقه معاوية بنسبه وولّاه الكوفة، ثم البصرة. كان خطيبًا وحسن الإدارة. مات سنة ٥٣ هـ/ ٦٧٣ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٥٩.

ركبت فرسي الأشقرَ فجمح بي حتى صدمني الحائطُ، فقال: أما إنك لو ركبتَ فرسكَ الأشهبَ لم يصبْك مكروه. ولحارثةَ فيها أشعارٌ كثيرة وأخبارٌ مع الأحنف بن قيسٍ، وكان الأحنفُ ينهاه عنها وهو لا ينتهي ويجيبُه بشعر في مدحها، وقيل: إن حارثةَ هذا أدركَ النبيّ ﷺ بالسنّ في حال صباه وحداثته.

ومنهم: والبةُ بنُ الحُبَاب الأسديّ[١]، وهو الذي ربّى أبا نُوَاس وأدّبه وعلّمه الفتوّة وقول الشعر. حكى أن المنصورَ قال له يومًا: ادخلْ إلى محمد ـ يعني المهديّ ـ وحدِّثْه، فدخل عليه، فأوّل ما أنشده قوله: [من السريع]

قولا لعمرو لا تكنْ ناسيًا وسقِّني لا تحبسنْ كاسيا
وازْدُدْ على الهيثمِ مثلَ الذي هجتَ به ويحك وَسْواسِيا
وقل لساقينا على خلوةٍ أَدنِ[٢] كذا رأسَك من راسيا

فبلغ ذلك المنصور، فقال: لا تعيدوه إليه أردنا أن نصلحه فأراد هو أن يفسده.

ومنهم: أبو الهنديّ وهو عبد المؤمن بن عبد القدّوس بن شبث بن رِبعيّ اليربوعيّ، حجّ به نصرُ بن سيّار[٣] فلما وردَ الحرمَ، قال له نصر: إنك بفِناء بيت الله الحرامِ ومحلِّ حرمِه فدعِ الشرابَ، فلما زال عنه وضعه بين يديه وجعل يشربُ ويبكي، ويقول: [من الطويل]

رضيعُ مدامٍ[٤] فارق الراحُ رُوعَه[٥] فظلّ عليها مستهلّ المدامِع
أديرا عليّ الكأسَ إني فقدتها كما فَقَد المفطومُ دَرَّ المراضعِ

ومرّ به نصر بنُ سيّارٍ وهو يميلُ سكرًا، فقال له: أفسدت شرفك، فقال: لو لم أُفسدْ شرفي لم تكن أنت اليوم والي خراسان.

ومنهم: سعيدُ بن وهب وكان شاعرًا بصريًا.

---

(١) والبة بن الحباب: شاعر غزل ماجن، كوفي النشأة، مات سنة ٧٨٦ م.
(٢) أدن: قرّب.
(٣) نصر بن سيّار: أمير وشاعر عربي، حكم خراسان من قبل الأمويّين، قضى عليه أبو مسلم الخراساني، توفي سنة ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م.
(٤) المدام والراح: صفتان للخمرة. (٥) روعه: قلبه.

ومنهم: الحسين بن الضحّاك[(١)] النديم صاحبَ الحسنَ بنَ هانىءٍ وكان خليعًا ماجنًا مليح الشعر، وهو الذي يقول: [من الطويل]

ألا إنما الدُّنيا وصالُ حبيبِ وأخذُك من مشمولةٍ[(٢)] بنصيبِ
وعيشُك بين المُسمعاتِ ممتَّعا بفنّيْن من عزف وشدوِ مصيبِ
وأنسٌ وإنسان تلذُّ بقربه وبذلةُ معشوقٍ ونومُ رقيبِ
وعدِّيَ ساعاتِ النهارِ ورِقْبتي إلى الشمس لما آذنت[(٣)] بمغيبِ

ومنهم: يحيىٰ بن زياد وهو الذي يقول: [من الطويل]

أعاذِلُ ليتَ البحرَ خمرٌ وليتني مدى الدهر حوتٌ ساكن لُجَّةَ[(٤)] البحرِ
فأُضحي وأُمسي لا أُفارق لجّة أُروِّي بها عظمي وأُشفي بها صدري
طوال الليالي، ليس عنّي بناضبٍ ولا ناقصٍ حتى أصيرَ إلى الحشرِ[(٥)]

ومنهم: أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانىءٍ ممّن اشتهر بالشرابِ واللّهوِ والطربِ ومنادمة القيان، وله في الخمر تشبيهات حسنةٌ وحكايات ظريفةٌ، نذكر هٰهنا من أخباره طرفًا:

حكي أنَّ مسلمَ بنَ الوليدَ[(٦)] عاتبه وقال: يا أبا نواس، قد خلعت عذارَك وأطلت الإكبابَ على المجون حتى غلب على لبّك وما كذلك يفعل الأدباء! فأطرق ثم قال: [من المتقارب]

فأوّلُ شربك طرحُ الرداء وآخرُ شربك طرحُ الإزارِ[(٧)]
وما هنّأتك الملاهي بمثل إماتة مجدٍ وإحياءِ عارِ
وما جادَ دَهْرٌ بلذّاته على من يَضَنّ[(٨)] بخلع العذارِ[(٩)]

---

(١) الحسين بن الضحاك: شاعر عباسي لقّب بالخليع، نادم الخلفاء وصاحب أبا نواس، عُرِف بالمجون، له خمريات وغزليات مشهورة، مات سنة ٨٤٦ م.
(٢) المشمولة: صفة للخمرة. (٣) آذنت: شارفت.
(٤) لجّة البحر: معظم مائه. (٥) الحشر: الموقف في القيامة.
(٦) مسلم بن الوليد: شاعر عباسي، خليع، لقّب بصريع الغواني، اتصل بالخلفاء والولاة، تولى البريد بجرجان، مات سنة ٨٢٣ م.
(٧) الإزار: ما يؤتزر به من الثياب. (٨) يضنّ: يبخل.
(٩) خلع العذار: التخلّي عن الحياء، والعذار: جانب الوجه.

فانصرف مسلم وقد أيسَ من فلاحه وهو يقول: جوابٌ حاضر، من كهلٍ فاجر، ومما يُحفظ من أخباره، ويُروى من أشعاره في ذلك: أنه بلَغ إخوانه عنه أنه ترك الشراب واللذّاتِ وأخذ في الزهد والصلاة في أوقاتها، فاجتمعوا إليه وأقبلوا يهنِّئونه، فوضع بين يديه باطِيَةً وجعل لا يدخل إليه أحد يهنّئه إلا شرب بين يديه رطلًا وأنشد: [من البسيط]

قالوا نزعتَ ولمّا يعلموا وطري[١] ... في كلّ أغيد[٢] ساجي[٣] الطرف[٤] ميّاسِ[٥]

كيف النزوع وقلبي قد تقسّمه ... لحظُ العيون وقرع السنّ بالكاسِ

لا خير في العيش إلا في المجون مع الـ ... ـأكفاء[٦] والراح والريحان والآسِ[٧]

ومسمع يتغنّى والكؤوس لها ... حثٌّ علينا بأخماسٍ وأسداسِ

يا مُوريَ الزند[٨] قد أكبت[٩] قوادحُه[١٠] ... اِقبِس[١١] إذا شئت من قلبي بمقباسِ[١٢]

ما أقبح الناسَ في عيني وأسمجَهم ... إذا نظرتُ فلم أُبصِرْك في الناس

وحدّث الفضل بنُ سلمةَ عن الثوريّ، قال: خرج الحسن بن هانىء ومعه مُطَيطٌ صاحبُه، حتى أتيار دار خمَّار. فقال الحسنُ لمطيط: ادخل بنا نمزح بهذا الخمّار. فدخلا فسلّما فردّ عليهما؛ فقال له الحسن: أعندك خمرٌ عتيقةٌ يا خمّار؟ فقال: عندي

(١) الوطر: الغاية.
(٢) الأغيد: من فيه غيد، أي لِين وطراوة.
(٣) الساجي: الهادىء.
(٤) الطرف: العين.
(٥) الميّاس: المترنّح.
(٦) الأكفاء: النظراء.
(٧) الآس والريحان: من الزهور.
(٨) موري الزند: من يشعل النار.
(٩) أكبت: أخلفت.
(١٠) القوادح: جمع قادحة، وهي التي بها تضرم النار وتشتعل.
(١١) اقبس: اطلب النار.
(١٢) المقباس: الآلة التي تقبس بها النار.

منها أجناس، فأيها تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [من الخفيف]

حُجبَتْ خيفةً وصِينتْ فجاءت   كجلاءِ العروس بعد الصّيانِ(١)
وكأنّ الأكفَّ تُصْبَغُ من ضو   ءِ سناها بالوَرْسِ(٢) والزعفرانِ

فملأ له الخمّار قَدَحًا من خمر صفراء، كأنها ذهبٌ محلولٌ؛ فشربه الحسن وقال: أحسنُ من هذا أُريد. فقال له الخمار: أيّ جنسٍ تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [من الخفيف]

دفعتها أيدي الهواجر(٣) حتّى   صيَّرتْ جسمَها كجسم الهواءِ
فهي كالنُّور في الإناء وكالنّا   ر إذا ما تَصيرُ في الأحشاءِ

فملا له الخمارُ قدحًا من خمر كأنّها العقيقُ، فشربه وقال: أرفع من هذا أُريد. فقال: أيّ جنس؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [من الكامل]

وإذا حَسَا(٤) منها الوضيعُ ثلاثةً   سَمُحَ الوضيعُ(٥) كفعلِ ذي القَدرِ
في لون ماء الغيث إلا أنها   بين الضلوعِ كواقد الجمر

فملأ له قَدَحًا من خمرٍ بيضاء، كأنها ماءُ المُزْنِ. فشرب الحسن وقال للخمار: أتعرفُني؟ قال: إي والله يا سيّدي، أنا أعرَفُ الناسِ بك. قال: من أنا؟ قال: أنت الذي يسكرُ من غير وزن. فضحك الحسنُ وقال لمطيطٍ: ادفعْ إليه ما بقي عندك من النفقه، فأعطاه مائة درهم وانصرف.

وقال الحسينُ بن الضحّاك: كنتُ مع أبي نُواس بمكةَ عام عجٍّ، فسمع صبيًّا يقرأ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠]، فقال أبو نُوَاس؛ في مثل هذا يجيء للخمر صفةٌ حسنة؛ ففكّر ساعةً ثم أنشدني: [من الطويل]

وسيّارةٍ(٦) ضلّت عن القصد بعد ما   ترادفهم أفقٌ من الليل مظلمُ
فأصغوا إلى صوتٍ ونحن عصابةٌ   وفينا فتًى من سكره يترنّمُ

---

(١) الصّيان: الحفظ.
(٢) الورس: ضرب من النبت أو الزهر الأصفر يشبه الزعفران.
(٣) الهواجر: جمع هاجرة، وهي شدة الحرّ في منتصف النهار.
(٤) حسا: شرب.   (٥) الوضيع: الحقير.
(٦) السيّارة: جماعة المسافرين.

فلاحتْ لهم منّا على النأي قهوة[١] كأن سناها[٢] ضوءُ نارٍ تضرَّمُ[٣]
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم وإن مُزجتْ حثُّوا[٤] الركاب ويمّموا[٥]

قال: فحُدّث بهذا الحديث محمدُ بنُ الحسين فقال: لا ولا كرامة، ما سرقه من القرآن؛ ولكن من قول الشاعر: [من الطويل]

وليلٍ بهيمٍ[٦] كلّما قلت غوّرتْ[٧] كواكبُهُ عادت لنا تتذيَّلُ
به الركبُ إمّا أومضَ البرقُ يمّموا وإن لم يَلُحْ فالقوم بالسير جُهَّلُ

وقال أبو نُوَاس فيها: [من الطويل]

ألا دارِها بالماء حتى تُلينَها فما تُكرَمُ الصهباءُ[٨] حتى تُهينَها
أُغالي بها حتى إذا ما مَلِلْتُها أهنتُ لإكرام النديم مصونَها

وقال أيضًا: [من الكامل]

نَبّهتُهُ والليلُ ملتبسٌ به وأزحتُ عنه خُثَاثَهُ[٩] فانزاحا
قال ابغِني المصباحَ، قلتُ له اتَّئِدْ[١٠] حسبي وحسبُك ضوؤُها مِصباحا
فسكبت منها في الزجاجة شَربةً كانت له حتى الصباحِ صباحا
من قهوةٍ جاءتْك قبلَ مِزاجها عطلًا[١١] فألبسها المِزاجُ وشاحا
شكَّ البِزالُ[١٢] فؤادَها فكأنّها أبدت إليك بريحها تُفاحا

وقال أيضًا: [من السريع]

رُدّا عليَّ الكأسَ، إنكما لا تدريان الكأسَ ما تُجدي[١٣]
خوّفتماني اللهَ جَهدَكما وكخيفتِيه رجاؤه عندي
لا تعذُلَا في الراح إنّكما في غفلةٍ عن كنه ما تُسدي[١٤]

---

(١) القهوة: الخمرة.
(٢) سناها: ضوؤها.
(٣) تضرّم: تتوقّد وتشتعل.
(٤) حثّوا: أهابوا بها لتسرع الخطو.
(٥) يمّموا: قصدوا.
(٦) البهيم: الشديد السواد.
(٧) غوّرت: غابت.
(٨) الصهباء: الخمرة.
(٩) خثاثه: رقاده.
(١٠) اتّئد: تمهّل.
(١١) العطل: الخالية من الزينة.
(١٢) البزال: المفتاح يبزل به الزقّ، أي يشقّ.
(١٣) تجدي: تعود بالنفع.
(١٤) تسدي: تعطي.

لو نلتما ما نلتُ ما مُزِجتْ ... إلا بدمعكما من الوجدِ
ما مثل نُعماها إذا اشتملت ... إلا اشتمالُ فمٍ على خدٍّ
إن كنتما لا تشربان معي ... خوف الإلٰه شربتُها وحدي

وأخبار الحسن بن هانىء فيها كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية.

ومنهم: الثَّرْوانيّ، كان شاعرًا مطبوعًا بليغًا، من أهل الخلاعة المشهورين.

وكان آخرُ أمرِه أنْ أُصيبَ في حانة خمّار بين زِقَّيْ[1] خمرٍ وهو ميتٌ، وهو القائل فيها: [من البسيط]

كَرَّ الشرابُ على نَشْوانَ[2] مُضْطَجِعٍ[3] ... قد هبَّ يشربُها والدِّيكُ لم يَصِحِ
والليلُ في عسكرِ حُمرٍ بَوارِقُهُ ... من النجوم، وضوءُ الصُّبحِ لم يضحِ[4]
والعيشُ لا عيشَ إلا أن تُباكِرُها ... نشوانَ تقتُلُ همَّ النفسِ بالفرحِ
حتى يظَلَّ الذي قد باتَ يشربُها ... ولا مراحَ[5] به يختالُ كالمَرِحِ

ومنهم: مُطِيع بن إياس[6]، وكان شاعرًا أديبًا ظريفًا مشتهرًا بالخلاعة واللّعب. وكان أصحابُه على ذلك، وهم يحيىٰ بن زيادٍ، ووالبةُ بن الحُبابِ، وحمّادُ عجرد.

ومنهم: أبو عبدِ الرحمٰن العَطَوِيّ، كان شاعرًا فصيحًا، لا يكاد يتقدّمُه أحدٌ لجزالة ألفاظه وحلاوةِ معانيه. وكان مولعًا بالخمر مشتهرًا بها مُدمنًا عليها، أكثرُ أشعاره فيها؛ فمن شعره: [من البسيط]

أخطبْ لكأسِك نَدْمانًا[7] تُسَرُّ به ... أوْ لا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكُتُبِ
أُخطبهُ حرًّا كريمًا ذا مُحافظةٍ ... تَرى مودّتَهُ مِنْ أقربِ النَّسَبِ

---

(١) زقي: مثنى زق، وهو وعاء الخمرة.
(٢) النشوان: الملتذّ.
(٣) المضطجع: المتحدّد للنوم.
(٤) يضح: يطلع ويتّضح.
(٥) المراح: السرور والاختيال.
(٦) مطيع بن إياس: شاعر بغدادي ماجن، مدح الوليد بن يزيد والمنصور، في شعره حداثة ورقّة وظرف. مات سنة ٧٨٣ م.
(٧) الندمان: النديم وزميل الشراب.

وقال أيضًا: [من الوافر]

وكم قالوا تَمَنَّ، فقلتُ كأسًا ... يطوف بها قضيبٌ[١] في كثيبِ
ونَدْمانًا يُساقطني حديثًا ... كصدقِ الوعد أو غضِّ الرقيبِ

ومنهم: أبو هفّان، وكان شاعرًا محسنًا، وخليعًا ماجنًا. حُكي أنه شربَ مع أحمدَ بن أبي طاهرٍ[٢] حتى فنيَ ما عندهما، وكانا بجوارِ العلاءِ بنِ أيّوب. فقال ابن أبي طاهر لأبي هفّان: تماوتْ حتى نحتالَ على أبي العلاء في أن ينيلَنا شيئًا. فمضى إليه ابنُ أبي طاهر فقال: أصلحك الله! نزلنا جوارَك فوجب حقّنا عليك، وقد مات أبو هفّان وليس له كَفَن. فقال لوكيله: امضِ معه وشاهدْ أمره وادفعْ إليه كَفَنًا، فأتاه فوجده مُلقًى عليه ثوبٌ فنقر أنفه فضرط. فقال: ما هذا؟ فقال: أصلحك الله عَجَّلْتَ له صعقةَ القبر فإنّه مات وعليه دين؛ فضحك وأمر له بدنانير.

ومنهم: الأقيشر، وكان مغرمًا بالشراب مُدمنًا عليه، وهو القائل: [من الطويل]

ومُقْعَدِ قومٍ قد مَشَى مِنْ شرابنا ... وأعمى سقيناه ثلاثًا فأبصرا
كميتٌ كأن العنبرَ الوردَ ريحُه ... ومسحوقَ هنديٍّ من المِسْك أذفرا[٣]

ومنهم: النعمانُ بنُ عليّ بن نَضْلة، وكان عاملًا لعمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه على مَيْسان[٤]، وكان مدمنَ الشراب؛ وهو القائل: [من الطويل]

ألا أبلِغْ الحسْناءَ أنّ خليلَها ... بمَيْسان يُسْقَى في زُجاجٍ وحَنتمِ[٥]
فإنْ كنتَ نَدماني فبالأكبر اَسقِني ... ولا تسقِني بالأصغر المتثلِّمِ[٦]
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوءه ... تَنَادُمُنا بالجَوْسَقِ[٧] المتهدِّمِ

فبلغ الشعر عمرَ رضي الله عنه.

---

(١) القضيب: كناية عن الساقي الذي يشبه القضيب بقدّه، ومثله الكثيب، إشارة إلى مؤخرته التي تشبه الكثيب من الرمل وغيره.
(٢) هو أحمد بن طيفور بن أبي طاهر، المؤرخ البغدادي، وصاحب «تاريخ بغداد» مات سنة ٨٩٣ م.
(٣) الأذفر: الشديد الرائحة الذكيّة.
(٤) ميسان: مقاطعة في جنوب العراق على حدود بلاد فارس.
(٥) الحنتم: الجرّة. (٦) المتثلم: المتصدع.
(٧) الجوسق: القصر.

فكتب إليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: الآيات ١ - ٣]، أمّا بعد، فقد بلغني قولك:

لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوءه تنادُمُنا بالجَوْسَقِ المتهدِّمِ

وأيمُ الله لقد ساءني! وعَزَله. فلمّا قدِم عليه سأله، فقال: والله ما كان من هذا شيء، وما كان إلا فَضْل شِعرٍ وجدتُه وما شربتُها قطُّ. فقال عمر: أظنّ ذلك، ولكن لا تعمل لي عملًا أبدًا. فنزل البصرة، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات رحمه الله.

ومنهم: عمارةُ بنُ الوليدِ بنِ المغيرة، خطب امرأةً من قومه، فقالت: لا أتزوّجُك حتى تدعَ الخمر والزّنى. فقال: أمّا الزّنى فإني أدعه، وأما الخمر فوجدي بها شديد. ثم اشتدّ وجده بالمرأة فعاود طلبها؛ فقالت: حتى يحلف بطلاقي يوم يزني أو يشرب خمرًا، فحلف لها وتزوّجها. ومكث حينًا لا يشرب، إلى أن مرّ بخمّار وعنده قومٌ يشربون وقَيْنةٌ تغنِّيهم وهو على ناقةٍ؛ فطرب إليهم وارتاح ورمى بثيابه إلى الخمّار، وقال: اسقِهم بها؛ ونحر لهم ناقته، ومكث أيامًا يطعمُهم ويسقيهم حتى أنفد[1] ما معه. ثم رجع إلى امرأته، فلامته، فأنشأ يقول: [من الطويل]

أقلِّي عليَّ اللّومَ يا أُمَّ سالم وكُفِّي فإن العيش ليس بدائِمِ
أسرَّكِ لمّا صرَّعَ[2] القومَ نشوةٌ خروجي منهم سالمًا غير غارِمِ[3]
سليمًا كأنّي لم أكُنْ كنتُ منهُمُ وليسَ الخِداعُ مِنْ تَصَافِي التنادُمِ

ثم قال: الحَقي بأهلكِ، وعاد إلى ما كان عليه.

* * *

وأمّا من افتخر بشربها وسِبائها[4]، فقد كانت العرب تفتخر بسبائها، وتضيفه إلى عظيم غنائها، وتقرنه بمذكور بلائها. وشاهد ذلك قول امرىء القيس[5]: [من

---

(١) أنفد: أهلك وصرف.
(٢) صرّع: أهلك.
(٣) غارم: مديون.
(٤) سبائها: شرائها.
(٥) امرؤ القيس: شاعر جاهلي قديم، صاحب المعلّقة الأولى المشهورة، وضعه ابن سلام في رأس الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين. ابن ملك، حاول أن يثأر لمقتل أبيه فأخفق ومات في طريق العودة من القسطنطينية.

الطويل]

كـأنّـيَ لـم أركـبْ جـوادًا لـلذَّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعِبًا[١] ذاتَ خَلخالِ
ولـم أسبا الزِّقَّ الروِيَّ ولـم أقل لـخيـلِيَ كُرِّي كَرَّةً بعـدَ إجفـالِ

فقَرن جودَه في سِباء الزقّ ببسالته في كرّ الخيل. ولمّا أنشد أبو الطيّب المتنبي سيف الدولة بن حمدان[٢] قصيدته التي يقول فيها: [من الطويل]

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جفن الردَى[٣] وهو نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى[٤] هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ[٥] وثغرُكَ باسمُ

فقال له سيف الدولة: اِنتقدنا عليك يا أبا الطيِّب هذين البيتين كما انتُقِد على امرىء القيس بيتاه، وذكرهما، قال: وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما لا يلتئم شطرا هذين البيتين: كان ينبغي لامرىء القيس أن يقول:

كأنّيَ لم أركب جوادًا ولـم أقل لـخيلِيَ كرّي[٦] كرّة بعد إجفالِ
ولـم أسبـأ الـزقّ الـرويّ لـلذّةٍ ولـم أتبطّن كاعبًا ذات خلخال

وأن تقول أنت:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ووجـهـك وضّاحٌ وثـغـرك بـاسمُ
ثـمرّ بـك الأبطـال كَلْمَى هزيـمةً كأنك في جفن الردَى وهو نائمُ

فقال: أيّد الله مولانا! إن كان صحّ أنّ الذي استدرك على امرىء القيس أعلمَ منه بالشعر فقد أخطأ امرؤُ القيس وأخطأتُ أنا، والثوبُ لا يعرفُه البزّاز[٧] معرفةَ الحائك؛ لأن البزّاز يعرفُ جملتَه والحائكُ يعرف جملته وتفاريقَه، لأنه هو الذي أخرجه من الغزليّة إلى الثوبيّة. وإنما قرن امرؤ القيس لذّةَ النساءِ بلذّة الركوب للصيد، وقرن السماحةَ في سباءِ الخمر للأضياف بالشجاعة في مُنازلةِ الأعداء؛ وأنا لما ذكرتُ الموتَ في أوّل البيت أتبعتُه بذكر الردَى وهو الموت ليجانسَهُ. ولما كان الجريحُ

---

(١) الكاعب: الفتاة التي كعب نهداها، أي ظهرا.
(٢) سيف الدولة: لقب لأمير حلب رئيس الدولة الحمدانية، واسمه علي بن حمدان، انقطع إليه أبو الطيب المتنبّي فمدحه بغرر الأشعار.
(٣) الردى: الموت.
(٤) كلمى: جرحى.
(٥) وضاح: مشرق، منير.
(٦) كرّي: اقدمي بسرعة.
(٧) البزاز: بائع الثياب.

المنهزمُ لا يخلو من أن يكون عبوسًا وعينُه باكيةٌ، قلت:

* ووجهك وضّاح وثغرك باسم *

لأجمع بين الأضداد في المعنى وإن لم يتّسِع اللفظُ لجميعِها، فأُعجب سيفُ الدولة بقوله ووصله.

وقال لَقِيط بن زُرارة: [من الوافر]

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أنّي أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَان[١]

وقال حسّان بن ثابت الأنصاريّ[٢] عفا الله عنه ورحمه: [من الوافر]

إذا ما الأشرِباتُ[٣] ذُكرنَ يومًا فهنّ لِطَيِّب الراح[٤] الفِداءُ

ونشربها فتتركنا ملوكًا وأُسْدًا ما ينهنهها[٥] اللّقاءُ

حُكِيَ أن حسّان بن ثابتٍ عنّف جماعةً من الفتيان على شرب الخمر وسوء تنادمهم عليها وأنهم يُضرَبُون عليها ضربَ الإبل ولا يرجعون عنها؛ فقالوا: إنا إذا هممنا بالإقلاع عنها ذكرنا قولك:

ونشربُها فتَترِكُنا ملوكًا وأسْدًا ما يُنَهْنهها اللقاءُ

فعاودناها.

وقال الأخطل[٦] يخاطب عبد الملك بن مروان: [من الطويل]

إذا ما نديمي علّني[٧] ثم علّني ثلاثَ زجاجات لهنّ هديرُ

خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأنّني عليك أمير المؤمنين أميرُ

(١) أبو قابوس، ملك من ملوك المناذرة اللخميّين. ولقيط بن زرارة: فارس مشهور قُتل يوم جبلة. انظر خبره في: الكامل في اللغة ١/ ٧٢.

(٢) حسان بن ثابت: شاعر مخضرم من أهل المدينة، مدح الغساسنة في الجاهلية، أسلم ولقّب بشاعر الرسول ﷺ، هجا قريشًا، وله ديوان مطبوع. توفي سنة ٦٧٤ م.

(٣) الأشربات: جمع شراب. (٤) الراح: الخمرة.

(٥) ينهنهنا: يمنعنا.

(٦) الأخطل: غياث التغلبي، شاعر نصراني أموي، له نقائض مع جرير، مدح الأمويين وهجا أعداءهم. توفي سنة ٧١٠ م.

(٧) علّني: سقاني ثانية.

وقال آخر: [من الطويل]

إذا صدَمَتْني الكأسُ أبدَت محاسِني ... ولم يخشَ نَدْماني أذايَ ولا بُخْلِي
ولستُ بفَحّاشٍ[١] عليه وإنْ أسا ... وما شكلُ مَنْ آذى نداماه مِن شَكْلِي

وقال آخر: [من الطويل]

شَرِبنا من الدّاذِي[٢] حتى كأنّنا ... ملوكٌ لهم بَرُّ العِراقَيْن[٣] والبَحْرُ
فلمّا انجلَتْ شمسُ النهار رأيتُنا ... تَوَلّى الغِنى عنّا وعاوَدَنا الفقرُ

ومثله للمُنَخّل اليَشْكريّ[٤]: [من مجزوء الكامل]

فإذا سكِرْتُ فإنّني ... ربُّ الخوْرَنق والسَّدِير[٥]
وإذا صحوتُ فإنّني ... ربُّ الشُّوَيْهَةِ[٦] والبعيرِ[٧]

وقال عنترةُ[٨]: [من الكامل]

وإذا سكرتُ فإنّني مستهلك ... مالي، وعِرضي وافرٌ لم يُكْلَم[٩]
وإذا صحوتُ فما أُقصِّر عن نَدًى[١٠] ... وكما علمتِ شمائلي[١١] وتَكَرُّمي

أخذه البحتريّ[١٢] وزاد عليه في قوله: [من الطويل]

وما زلتَ خِلّا[١٣] للندامى إذا انتشوا ... وراحوا بُدورًا يستحثّون[١٤] أنجما
تكرّمتَ من قبْلِ الكُؤوسِ عليهمُ ... فما اسطعن أن يُحدثن فيك تكرُّما

---

(١) الفحّاش: الشديد الفحش والبذاءة. (٢) الداذي: شراب معروف بشدّة إسكاره.
(٣) العراقان: دجلة والفرات.
(٤) المنخّل اليشكري: ابن مسعود بن عامر بن ربيعة، شاعر جاهلي قديم نادم النعمان بن المنذر.
(٥) الخورنق والسدير: قصران فارسيّان مشهوران في العراق.
(٦) الشويهة: الشاة الصغيرة. (٧) البعير: الجمل.
(٨) عنترة: هو عنترة بن شداد العبسي، من مشاهير شعراء الجاهلية وفرسانها، ومن أصحاب المعلّقات. اشتهر ببطولته وكريم أخلاقه. أحبّ ابنة عبلة وله فيها شعر غزلي جيّد، توفي نحو ٦١٥ م.
(٩) يكلم: يجرح. (١٠) الندى: الجود والكرم.
(١١) الشمائل: الأخلاق الفاضلة.
(١٢) البحتري: أبو عبادة البحتري، شاعر عباسي عربي طائي، ولد في منبج ومدح المتوكّل ووزيره الفتح بن خاقان، اشتهر بوصف الطبيعة. شعره حسن الديباجة، له ديوان شعر مشهور. وله «ديوان الحماسة» على غرار «ديوان الحماسة» أبي تمام، مات سنة ٨٩٧ م.
(١٣) الخلّ: الصديق. (١٤) يستحثّون: يستعجلون.

والزيادةُ أنَّ عنترةَ ذكر أنه يستهلك مالَه إذا سكر، والبحتري ذكر أن ممدوحه يتكرّمُ قبل الكؤوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكؤوس أن تزيده تكرُّمًا.

وكان الأعشى[١] ميمون بن قيس مشهورًا بتَعاطي الخمر مشغوفًا بها كثير الذّكْر لها في شعره، ومن اشتهاره بها قال المفضَّل بين قدماء الشعراء: أشعرهُم امرؤ القيس إذا ركب، والنابغةُ إذا رهب، وزُهَيْر إذا رغِب، والأعشى إذا طَرِب. وقصد الأعشى رسول الله ﷺ ليُسلم وامتدحَه بقصيدته التي أوّلها:

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرْمَدَا[٢] وبِتَّ كما باتَ السليمُ[٣] مسهّدا[٤]

فاعترضه في طريقه من أراد منعَه، فقالوا له: إنه يحرّم عليك الزّنى والخمر. فقال: أمّا الزنى فقد كَبِرتُ فلا حاجةَ لي فيه، وأما الخمر فلا أستطيعُ تركَها. وعاد لينظر في أمره، وقيل: إنّه قال: أعود فأشربها سنةً وأرجع، فمات قبلَ الحول.

قالوا: ونظر الحسن بن وهب[٥] إلى رجل يَعبِس في كأسه، فقال: ما أنصفتَها، تضحك في وجهك وتعبِس في وجهها. ومن ذلك قول الشريف الرضيّ[٦]: [من البسيط]

كالخمر يعبِس حَاسِيها على مِقةٍ[٧] والكأسُ تجلو عليه ثغرَ مبتسمِ

---

(١) الأعشى، ميمون بن قيس: يقال له الأعشى الكبير أو أعشى قيس، لقّب بصنّاجة العرب. له ديوان شعري، وهو صاحب معلّقة مشهورة، توفي سنة ٦٢٩ م.

(٢) أرمد: أصيب بالرمد، والأرمد: ما كان بلون الرماد، وليلة أرمد مشهورة.

(٣) السليم: اللديغ، سمي بذلك على سبيل الفأل.

(٤) المسهّد: السهران.

(٥) الحسن بن وهب: شاعر وكاتب ومتطرف، عاصر أبا تمام، ولما مات رثاه. انظر: مروج الذهب ٤/ ٧٥.

(٦) الشريف الرضي: محمد بن الحسين، من كبار الشعراء العباسيين، عاش في بغداد، وكانت له نقابة الأشراف الطالبيين، في شعره عذوبة وجزالة وبداوة واعتداد بالنفس. أشهر شعره «الحجازيات» و«الإخوانيات»، وهو الذي جمع كتاب «نهج البلاغة» للإمام عليّ بن أبي طالب، كما أن له «المجازات النبويّة»، توفي سنة ١٠١٦ م.

(٧) المقة: البغض.

وهو مأخوذ من قول عبد الله بن المعتزّ[١] حيث يقول: [من الكامل]

ما أنصف النَّدمانُ كأسَ مُدَامةٍ ضَحِكتْ إليه فشمّها بتعبُّس

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر

قد أوسع الشعراءُ في هذا المعنى وأطنبوا فيه وتنوّعوا، فمنهم من مدحها ومنهم من وصفَها وشبّهها، ومنهم من ذكرَ أفعالَها وتغزّل فيها. وسنورد في هذا الموضع نبذةً مما طالعناه في ذلك؛ إذ لو أوردنا مجموعَ ما وقفنا عليه لطال، ولاتّسعتْ فيه دائرةُ المقال.

* * *

فأمّا ما قيل فيها على سبيل المدح لها، فمن ذلك قولُ ابنِ الروميّ[٢]، حيث يقول: [من الكامل]

تـالله مـا أدري بـأيّـة عِـلّةٍ يدعون هذا الراحَ[٣] باسم الراحِ؟
ألريحها ولرَوْحها تحت الحشا أمْ لارتياح نديمِها المرتاحِ؟
إنْ حُرِّمت فبحقِّها مِنْ خمرةٍ ما كان مِثلُ حريمِها بمُباحِ
أوْ حُلِّلتْ فبِحَقِّها مِن نَشوةٍ تُشْفي سِقامَ[٤] قلوبُنا بصِحاحِ

وقال أيضًا: [من البسيط]

خمرٌ إذا ما نديمي ظلّ يَكْرَعها[٥] أخشى عليه من اللألاء[٦] يحترقُ
لو رامَ[٧] يحلِفُ أنَّ الشمس ما غَرَبت في فيه كذَّبه في وجهه الشَّفَقُ[٨]

---

(١) عبد الله بن المعتزّ: هو أبو العباس عبد الله، أمير عباسي، شاعر وأديب، ولي الخلافة يومًا وبعض يوم بعد أن خلع المقتدر، ولقّب بالمرتضى بالله. له ديوان شعري مشهور، وهو صاحب كتاب «طبقات الشعراء» وكتاب «البديع» مات خنقًا سنة ٩٠٨ م. انظر: مروج الذهب ٤/٢٩٣.

(٢) ابن الرومي: هو علي ابن العباس الشاعر البغدادي المشهور، ولد في بغداد من أب رومي وأم فارسيّة. شعره غريب الأسلوب والفنّ. غلب عليه التشاؤم والطيرة، اشتهر بجمال شعره الوصفي للطبيعة، كما غلب عليه الهجاء. له ديوان شعر مشهور. توفي سنة ٨٩٦ م.

(٣) الراح: الخمرة. (٤) السقام: المرض.

(٥) يكرعها: يشربها. (٦) اللألاء: النور والضوء.

(٧) رام: عزم ونوى.

(٨) الشفق: بقية ضوء الشمس وحمرتها في أوّل الليل.

ومثله قول الطليق المرواني(١): [من الرمل]

فـإذا مـا غَـرَبـتْ فـي فَـمِـهِ ... أطلعتْ في الخدّ منه شَفَقَا

وقال الناجم: [من البسيط]

وقَهوةٍ(٢) كشُعاعِ الشَّمْسِ صافيةٍ ... مِثْلِ السَّرابِ(٣) تُرَى من رِقَّةٍ شَبَحَا

إذا تعاطَيْتَها لم تدرِ مِنْ فرحٍ ... راحًا بلا قدَحٍ أُعطِيتَ أم قَدَحا؟

وقال الناشىء(٤): [من السريع]

يا رُبَّما كأسٍ تناولتُها ... تَسْحَبُ ذَيْلًا من تَلاليها(٥)

كأنَّها النارُ ولكنَّها ... مُنعَّم واللهِ صاليها(٦)

* * *

ومما قيل في وصفها وتشبيهها؛ فمن ذلك ما قاله يزيد بن معاوية: [من الكامل]

ومُدامةٍ(٧) حمراءَ في قارورةٍ ... زَرقاءَ تحملُها يدٌ بيضاءُ

فالخمر شمسٌ والحَبابُ(٨) كواكبٌ ... والكفُّ قُطْبٌ والإناءُ سماءُ

وقال السرويّ: [من الخفيف]

غُنِيَتْ بالمُدامةِ الشُّعراءُ ... وَصفوها وذاك عِندي عناءُ

كيف تحصيلُ عِلْمها وهي موتٌ ... وحياةٌ وعِلَّةٌ وشفاءُ

فهي في باطنِ الجوانحِ نارٌ ... وهي في ظاهر المحاجِرِ(٩) ماءُ

حُلوةٌ مرّةٌ فما أحَدٌ يَد ... رِي أداءٌ خُصوصُها أم دواءُ

---

(١) الطليق المرواني: مروان بن عبد الرحمٰن بن مروان بن عبد الرحمٰن الناصر، أديب وشاعر، كان في بني أُمية كابن المعتزّ في بني العباس لجهة جودة الشعر وحسن التشبيه، توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ.

(٢) القهوة: الخمرة.

(٣) السراب: الآل، وما يرى كالماء عند اشتداد الهاجرة.

(٤) الناشىء: شاعر عباسي مجيد، اسمه علي، عاش في بغداد، ومدح أهل البيت. توفي سنة ٩٧٥ م.

(٥) تلاليها: إشراقها.

(٦) صاليها: خادمها، ومن يمسّها.

(٧) المدامة: الخمرة.

(٨) الحباب: الفقاقيع على سطح الخمر أو الماء.

(٩) المحاجر: جمع محجر، وهو محجر العين، وموضع استقرارها.

وقال البحتريّ: [من الكامل]

إشربْ على زَهْر الرياضِ يشوبُه زهرُ الخدودِ وزهرةُ الصهباءِ[١]
من قهوةٍ[٢] تُنْسِي الهمومَ وتبعث الـ ـشوقَ الذي قد ضلَّ في الأحشاءِ
يُخفي الزجاجةَ لونُها فكأنها في الكفّ قائمةٌ بغير إناءِ
ولها نسيمٌ كالرّياض تنفّستْ في أوجه الأرواحِ والأنداءِ
وفواقعٌ مثل الدموع تردّدت في صحن خدّ الكاعبِ[٣] الحسناءِ
يسقيكها رشأٌ[٤] يكاد يردّها سكرى بفترةِ مقلةٍ[٥] حوراءِ[٦]
يسعى بها وبمثلها من طَرْفِهِ عَوْدًا وإبداءً على الندماءِ

وقال الوأواء الدمشقيّ[٧]: [من الكامل]

فٱمزُج بمائك نار كأسك واسقني فلقد مزجتُ مدامعي بدماءِ
واشرَبْ على زَهْر الرّياض مُدامةً تَنْفِي الهمومَ بعاجِلِ السرّاءِ[٨]
لَطُفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها تجري كجري الروحِ في الأعضاءِ
وكأنّ مِخْنَقَةً[٩] عليها جوهرٌ ما بين نارٍ أُذكِيَتْ وهواءِ
وكأنها وكأنّ حاملَ كأسها إذ قامَ بجلوها على النُّدماءِ
شمس الضُّحى رقَصتْ فنقّط وجهَها بدرُ الدجى بكواكب الجوزاءِ[١٠]

وقال أبو نُوَاس: [من المنسرح]

أقول لما تحاكيها شبهًا أيّهما للتشابه الذهبُ
هما سواءٌ وفرقُ بينهِما أنهما جامدٌ ومُنسكبُ

---

(١) الصهباء: الخمرة.
(٢) القهوة: الخمرة.
(٣) الكاعب: الفتاة التي ظهر نهداها.
(٤) الرشأ: ولد الغزال.
(٥) المقلة: العين.
(٦) الحوراء: الشديدة سواد العين.
(٧) الوأواء الدمشقي: محمد بن أحمد الغسّاني الدمشقيّ، كنيته أبو الفرج، وهو من الشعراء المطبوعين، حلو الألفاظ، ومعانيه رقيقة، مات سنة ٣٨٥ هـ.
(٨) السرّاء: بخلاف الضرّاء، وهي النعيم.
(٩) المخنقة: القلادة.
(١٠) الجوزاء: مجموعة من النجوم تعرف باسم كوكبة الجبّار.

وله أيضًا: [من الطويل]

إذا عَبَّ[١] فيها شارِبُ القوم خِلْتَه يُقبِّلُ في داجٍ مِنَ اللّيل كوكبا
تُرى حيثُما كانت مِنَ البيت مَشرِقًا وما لم تكن فيه مِنَ البيت مَغْرِبا
يدور بها ساقٍ أغنّ[٢] ترى له على مُسْتدار الأذن صُدْغًا مُعَقْرَبَا
سقاهُمْ ومنّاني بعينَيْه مُنيةً فكانت إلى نفسي ألذَّ وأطيبا

ومثل البيت الأوّل قول ابن المعتزّ: [من البسيط]

كأنّه قائمٌ والكأسُ في يَدِه هِلالُ أوّلِ شهرٍ غابَ في شَفَقِ

وقال ابن الروميّ: [من الكامل]

ومهفهفٍ[٣] تمّت محاسنُه حتى تجاوز منتهى النّفسِ
أبصرتُه والكأسُ بين فمٍ منه وبين أناملٍ خمسِ
فكأنه والكأسُ في فمهِ قمرٌ يقبّل عارض[٤] الشمس

وقال الحسين بن الضحّاك[٥]: [من المنسرح]

كأنما نُصْبَ كأسِه قمرٌ يكرَع[٦] في بعض أنجم الفلكِ

وقال آخر: [من المديد]

واكتست من فضّةٍ دُرَرًا خلتُها من تحتها ذهبا
كُكميت اللون قلّدها فارسٌ من لؤلؤ حَبَبا[٧]

وقال آخر: [من الكامل]

تغشى بياض شاربها فتخالها بيمين مختضبِ[٨]
دارت وعين الشمس غائبة فحسبتُ عينَ الشمس لم تغب

---

(١) عب: شرب من غير مصّ. (٢) الأغنّ: من في صوته غنّة وحسن.
(٣) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر.
(٤) العارض: صفحة الخدّ، وهنا صفحة الشمس.
(٥) الحسين بن الضحّاك: من كبار الشعراء في العهد العباسي، من أهل البصرة، لقّب بالخليع. نادم الخلفاء، وكان صاحبًا لأبي نواس، غلب عليه المجون والغزل والخمريّات. توفي سنة ٨٦٤ م.
(٦) يكرع: يصبّ عبًّا. (٧) الحبب: الفقاقيع.
(٨) في الشطر الأول من هذا البيت نقص واضح.

وقال آخر: [من المنسرح]

حمراء وردية مشعشعة كأنها في إنائها لهبُ
صهباء صِرْفًا لو مسّها حجرٌ من جامد الصخر مسّه طربُ

وقال آخر: [من الخفيف]

قلت والراح في أكفّ النّدامَى كنجومٍ تلوحُ في أبراجِ
أمُدامًا خرطتُمُ[1] لمُدامِ أم زجاجًا سبكتُمُ[2] لزجاجِ

وقال الحسن بن وهب: [من مجزوء الرجز]

وقهوةٍ صافيةٍ كالمِسْك لمّا نَفَحا
شربتُ من دِنانها[3] من كلّ دنٍّ قَدَحا
فعدتُ لا تحملني أعوادُ سرجي مرَحا[4]
من شدة السكر الذي على فؤادي طفحا[5]

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

خليليّ قد طاب الشرابُ المبرَّدُ
وقد عدتُ بعد النسُك[6] والعَوْدُ أحمدُ[7]
فهاتِ عُقارًا من قميصِ زجاجةٍ
كياقوتةٍ في دُرَّةٍ تتوقّدُ
يصوغ عليها الماءُ شُبّاكَ فضةٍ
له حَلَقٌ بيضٌ تُحَلّ وتُعقَدُ

وقال التنوخيّ[8]: [من المتقارب]

وراحٍ مِنَ الشمس مخلوقةٍ بدتْ لكَ في قَدَحٍ مِنْ نهارِ

(١) خرطتم: جمعتم، وسوّيتم وثقّفتم.
(٢) سبكتم: أذبتم وصببتم.
(٣) الدنان: أوعية الخمر.
(٤) مرحًا: فرحًا ونشاطًا.
(٥) طفح: فاض.
(٦) النسك: الانقطاع إلى العبادة.
(٧) العود أحمد: مثل مشهور، وأوّل من قاله خداش بن حابس التميمي. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٢/ ٣٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنّة المحمدية، ١٩٥٥.
(٨) التنوخي: أبو علي المحسن، قاض وشاعر وأديب بصري، تعلم على أبي الفرج الأصبهاني والصولي. من كتبه «نشوار المحاضرة» و«الفرج بعد الشدّة». مات سنة ٩٩٤ م.

هــــواءٌ ولــكـــنـــه ســاكـــنٌ ومــاءٌ ولــكــنــه غــيــرُ جــاري
إذا مــا تــأمّــلْتَــه وهــي فــيــه تــأمّــلتَ مــاءً مــحــيــطًــا بــنــارِ
فــهــذا الــنــهــايــةُ فــي الابــيــضــاضِ وهــذا الــنــهــايــةُ فــي الاحــمــرارِ
ومــا كــان فــي الــحــكــم أن يُــوجَــدَا لــفــرطِ تَــنــافــيــهــمــا والــنّــفــارِ[1]
ولــكــن تــجــاوَرَ ســطــحــاهــمــا الــ ــبــســيــطــان فــأتــلــفــا بــالــجِــوارِ
كــأنّ الــمــديــرَ لــهــا بــالــيــمــيــن إذا مــال بــالــسَّــقْــي أو بــالــيــســارِ
تــدرَّعَ[2] ثــوبًــا مــن الــيــاســمِــيــن لــه فــردُ كُــمٍّ مــن الــجُــلَّــنــارِ[3]

وقال ابن وكيع التِّنِّيسيّ[4]: [من الخفيف]

حَــمَــلَتْ كــفُّــه إلــى شــفــتــيــه كــأسَــه والــظــلامُ مُــرْخَــى الإزارِ
فــالــتــقَــى لــؤلــؤَا حَــبــابٍ وثــغــرٍ وعــقــيــقــانِ[5] مِــن فَــمٍ وعُــقــارِ[6]

وقال آخر: [من المنسرح]

قُمْ فاسقني قد تبلّج الغَسَقُ[7] من قهوةٍ[8] في الزجاج تأتَلِقُ
كــأنّــنــا والــكــؤوس نــأخــذهــا نــشــرب نــارًا ولــيــس نــحــتــرق

وقال أبو نواس: [من الخفيف]

غنِّنا بالطلول[9] كيف بَلينا واسقِنا نُعْطِكَ الجزاء الثّمينا
مِنْ سُلافٍ[10] كأنها كلّ شيءٍ يــتــمــنّــى مــخــيّــرٌ أن يَــكــونــا
أكــلَ الــدهــرُ مــا تــجــسَّــم مــنــهــا وتبقّى لَنا بُها المكنونا[11]
فإذا ما اجتليتَها فهباءٌ[12] تمْنع الكفَّ ما تُبيح العيونا
ثم شُجّتْ[13] فاستضحكت عن لآلٍ لو تجمّعنَ في يدٍ لاقتُنينا

---

(١) النفار: البعد أو التباعد وعدم الائتلاف. (٢) تدرّع: لبس.
(٣) الجلنار: زهر الرمّان، واللفظة في الأصل فارسية، ثم عرّبت.
(٤) ابن وكيع، الحسن التنيسي، شاعر مصري له ديوان شعر، وكتاب «المصنف»، بيّن فيه سرقات المتنبّي. مات سنة ١٠٠٣ م.
(٥) العقيقان: مثنى العقيق، وهو حجر كريم. (٦) العقار: الخمرة.
(٧) الغسق: الظلام. (٨) القهوة: الخمرة.
(٩) الطلول: الديار الدارسة. (١٠) السلاف: الخمرة المعتقة.
(١١) المكنون: المستور. (١٢) الهباء: الغبار.
(١٣) شجّت: صُدعت.

فـي كـؤوسٍ كـأنـهـنّ نـجـومٌ جـاريـاتٌ، بُـروجـهـا أيـديـنـا
طـالـعـاتٌ مـع الـسـقـاة عـلـيـنـا فـإذا مـا غَـرَبـنَ يـغـرُبـنَ فـيـنـا
لو ترى الشَّرْبَ[١] حَوْلها مِنْ بعيدٍ قلتَ قومٌ من قَرَّةٍ[٢] يصطلونا[٣]

وقال ابن المعتزّ: [من المتقارب]

وخـمـارةٍ مـن بـنـاتِ الـمـجـوسِ تـرى الدَّنَّ[٤] في بيتها شائلا[٥]
وزنّـا لـهـا ذَهَـبًـا جـامـدًا فـكـالـت لـنـا ذَهَـبًـا سـائـلا

* * *

وأمّا ما قيل في أفعالها، فمن ذلك قول أبي تمّام الطائيّ[٦]: [من الطويل]

وكـأسٍ كـمـعـسـول الأمـانـي شـربـتُـهـا ولـكـنـهـا أجـلَتْ وقـد شَـرِبـتْ عـقـلـي
إذا عُـوتـبـت بـالـمـاء كـان اعـتـذارُهـا لـهـيـبًـا كـوَقْـع الـنـار فـي الـحـطَـب الـجَـزْلِ[٧]
إذا الـيـدُ نـالَـتْـهـا بـوَتْـرٍ[٨] تـوفَّـرت عـلى ضِغْنـهـا[٩] ثـم اسـتـقـادت[١٠] مـن الـرِّجـل

ومثله قول ديك الجنّ[١١] واسمه عبد السلام: [من الطويل]

فقام تكاد الكأسُ تَخْضِب كفَّه وتحسَبه مِنْ وجنتيه استعارَها
مُشَعْشعة[١٢] مِنْ كفّ ظبيٍ كأنّما تـنـاولـهـا مـن خـدّه فـأدارَهـا
فظِلنا بأيدينا نُتعتِع[١٣] رُوحَها وتأْخذُ من أقدامِنا الراحُ ثارَها

---

(١) الشرب: جماعة الشاربين.
(٢) القرّة: شدّة البرد.
(٣) يصطلون: يستدفئون.
(٤) الدّن: وعاء الخمرة وزقّها.
(٥) الشائل: السائل، واللبن من الناقة، وهو الناقة التي تشيل ذنبها، أي تدفعه.
(٦) أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي، شاعر عباسي نشأ في دمشق، وتوفي في الموصل سنة ٨٤٥ م. مدح الخلفاء والمتوكّل خاصّة، في شعره نزعة تجديديّة وإغراب في الطعن والأسلوب والبديع. له ديوان شعر، وهو صاحب كتاب «الحماسة».
(٧) الجزل: اليابس.
(٨) الوتر: الثأر.
(٩) الضغن: الحقد.
(١٠) استقادت: أخذت ثأرها.
(١١) ديك الجنّ: عبد السلام الحمصي، من أهل حمص، شاعر مجيد. عُرِف بمجونه، مات سنة ٨٤٩ م.
(١٢) مشعشعة: مضيئة.
(١٣) نتعتع: نحرّك.

وقريبٌ من المعنى الأوّل قول أبي بكر الخالديّ[(١)]: [من البسيط]

كانت لها أرجُل الأعلاج[(٢)] واترةً بالدوس فانتصفَت من أرؤس العربِ

أخذ هذا المعنى أبو غالب الإصباعيّ الكاتب، فقال: [من الكامل]

عقرَتْهُمُ[(٣)] معقورةٌ لو سالَمَتْ شُرَّابها ما سُمِّيتْ بعُقارِ

لَانَتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكّنتْ منهم فصَاحَت فيهمُ بالثارِ

ذَكَرَتْ حقائدَها القديمةَ إذ غدت صَرْعَى تُداسُ بأرجل العُصَّارِ

وقال آخر: [من الخفيف]

أسروها وجهَ النهار من الدّنّ[(٤)] فأمسَوْا وهم لها أُسَراءُ

وقال عبد الصمد بن بابك عفا الله عنه: [من الطويل]

عُقارٌ عليها مِنْ دَمِ الصّبّ[(٥)] نفْضَةٌ ومِنْ عَبَرات المُسْتَهَام فَواقِعُ

مُعوّدةٌ غصبَ العقول كأنّما لها عِنْد ألْبَابِ[(٦)] الرجال وَدَائِعُ

* * *

وأمّا ما وُصفت به غير ما قدّمناه، فمن ذلك قول أبي الفضل يحيىٰ بن سلامة الحصكفيّ (والحصكفيّ نسبة إلى حصن كيفا): [من المديد]

وخليعٍ بتُّ أعْتِبُه ويَرى عَتَبِي[(٧)] مِنَ العبَثِ

قلتُ إنَّ الخمرَ مَخْبَثةٌ قال حَاشَاها من الخَبثِ

قلتُ منها القَيْء، قال أَجَلْ طَهُرتْ عن مَخْرَج الحَدَثِ[(٨)]

قلتُ فالأرْفاث[(٩)] تتبعُها قال طِيبُ العيش في الرفث

وسَأسْلُوها فقُلتُ متى قال عند الكونِ في الجدثِ[(١٠)]

---

(١) أبو بكر محمد بن هاشم من الموصل في قرية اسمها الخالدية، شاعر وأديب وحافظ. انظر: الفهرست ص ٢٤٠.

(٢) الأعلاج: جمع علج، وهو الكافر من الأعاجم.

(٣) عقرتهم: أسكرتهم.

(٤) الدنّ: زقّ الخمرة.

(٥) الصبّ: العاشق المتبول.

(٦) الألباب: العقول.

(٧) العتب: الرّضا.

(٨) الحدث: الخرء والبول والرّيح.

(٩) الأرفات: جمع رفث، وهو الفسوق.

(١٠) الجدث: القبر.

وقال آخر: [من الكامل]

ثقُلتْ زُجاجاتٌ أتتنا فُرَّغا حتى إذا مُلئت بصِرْفِ الرَّاحِ[١]
خفَّتْ فكادَتْ أن تطيرَ بما حَوَتْ وكذا الجُسوم تَخِفُّ بالأرواحِ

وقريب من المعنى قول الآخر: [من الوافر]

وزنَّا الكأس فارغةً ومَلأى فكان الوزنُ بينهما سواء

وقال أبو نواس: [من مجزوء الرمل]

قهوةٌ[٢] أُغْمِيَ عنها ناظرًا رَيْبِ المنونِ
عُتِّقتْ في الدنّ حتّى هي في رِقّة ديني
ثم شُجَّت[٣] فأدارت فوقها مثلَ العيونِ
حَدَقًا ترنو[٤] إلينا لم تُحَجَّرْ بجفونِ
ذهبًا يُثمر دُرًّا كلَّ إبَّانٍ وَحِينِ
مِنْ يدَيْ ساقٍ عليه حلّةٌ من ياسمِينِ
غايةٍ في الظرْفِ والشكـ ـل وفردٍ في المجونِ

وقال: [من المديد]

ذُدْ بماء الكَرْمِ والعنبِ خطراتِ الهمِّ والنُّوَبِ[٥]
قهوةٌ لو أنها نطقَتْ ذكرَتْ سامًا[٦] أبا العربِ
وهي تكسو كفَّ شاربِها دستبانات[٧] من الذهبِ

وقال تاج الملوك بن أيّوب[٨]: [من الطويل]

وكم ليلةٍ فيها وَصَلْنا غبُوقَنا[٩] وكم مِنْ صباحٍ كان فيه صَبوحُ[١٠]

---

(١) عرف الراح: خالص الخمرة.
(٢) القهوة: الخمرة.
(٣) وشجّت: طعنت بالمبزال.
(٤) وترنو: تنظر.
(٥) النوب: غير الدهر وصروفه.
(٦) هو سام بن نوح، النبيّ.
(٧) الدستبانات: جمع دستبانة، وهي الإسوارة.
(٨) تاج الملوك: هو بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان، مجد الدين أبو سعيد، أخو صلاح الدين الأيوبي، له ديوان شعر رقيق. مات بطعنة قرب حلب أثناء حصار صلاح الدين لها، وذلك سنة ٥٧٩ هـ.
(٩) الغبوق: خمرة المساء.
(١٠) والصبوح: خمرة الصباح.

تُدارُ علينا من أكُفِّ سُقاتنا ... عُقارٌ مِن الهمِّ الطويلِ تُريحُ
تلوحُ لنا كالشمسِ في كفِّ أغيدٍ ... يلوحُ لِعَيني البَدرُ حين يلوحُ
مُدامٌ تُحاكي خدَّه ورُضابَه[1] ... ونكهتَه في الطِّيبِ حين تفوحُ
ولكن لها أفعالُ عينيه في الحَشَا ... فكلُّ حشًا فيها عليه جَريحُ

وقال أيضًا: [من الرجز]

والكأس أعطاها عقيقًا أحْمرا ... قانِ، فأُعطيها لُجَيْنًا[2] يَقَقَا[3]
من قهوةٍ ما العيشُ إلا أن أُرَى ... مُصْطَبِحًا[4] في شُربها مُغْتَبِقا[5]
أشربها شُرْبًا هنيئًا من يدَيْ ... غُصنٍ رشيقٍ وغزالٍ أرشقَا

* * *

ومما قيل فيها إذا مُزجت بالماء، فمن ذلك قول أبي نواس: [من الطويل]

وصفراءُ قبل المَزْجِ بيضاءُ بعده ... كأن شُعَاع الشمس يلقاكَ دونَها
ترَى العينَ تستعفيك من لمعانِها ... وتحسُر[6] حتى ما تُقِلّ[7] جفونَها

ومنه أخذ ديك الجنّ فقال: [من الطويل]

وحمراءُ قبل المزج صفراءُ بعده ... بدَتْ بين ثوبَيْ نرجِسٍ وشَقائقِ[8]
حكَتْ وَجْنَةَ المعشوق صِرْفًا فسلّطوا ... عليها مزاجًا فاكتستْ لونَ عاشقِ

وقال أبو هلال العسكريّ[9]: [من الكامل]

راحٌ إذا ما الـلّيلُ مدَّ رواقَه ... لاحَتْ تُطرِّزُ حُلّةَ الظلماءِ
حتى إذا مُزجتْ أراكَ حَبابُها[10] ... زَهَراتِ أرْضٍ أو نجومَ سماءِ

---

(١) رضابه: ريقه.
(٢) اللجين: الفضّة.
(٣) اليقق: الأبيض.
(٤) مصطحبًا: شاربًا إياها في الصباح.
(٥) مغتبقًا: شاربًا إياها في الغبوق، وهو المساء والعتمة.
(٦) تحسر: تغمض وترجع.
(٧) تقلّ: تحمل.
(٨) النرجس والشقائق: من الورود والرياحين.
(٩) هو أبو هلال الحسن، الأديب والشاعر، له كتاب «الصناعتين» و«جمهرة الأمثال» و«الفروق» في اللغة، إضافة إلى ديوان شعر مطبوع. مات سنة ١٠٠٥ م.
(١٠) حبابها: الفقاقيع على سطح الخمرة.

وقال أيضًا: [من الوافر]

وكأسٍ تمتطي[١] أطرافَ كفٍّ   كأنَّ بنانها[٢] من أُرجوانِ[٣]
أنازِعُها على العلّات شَرْبًا   لهنَّ مَضاحِكٌ من أُقحُوانِ
يلوحُ على مفارِقِها حَبابٌ   كأنصافِ الفرائدِ[٤] والجُمانِ[٥]
وطالعني الغلامُ بها سُحَيْرًا   فزاد على الكواكب كوكبان
ووافَقها بخدٍّ أُرجُوانٍ   وخالفها بفرعٍ[٦] أدجوانِ[٧]

قوله:

* كأنصافِ الفرائد والجمان *

مأخوذ من قول ابن الروميّ: [من المنسرح]

لها صَريحٌ[٨] كأنه ذهبٌ   ورغوةٌ كاللآلىء الفُلُق

وقال أبو نواس: [من الكامل]

فإذا علاها الماءُ ألبسها   حببًا شبيهَ جَلاجلِ[٩] الحِجْلِ[١٠]
حتى إذا سكَنتْ جوانحُها   كتبتْ بمثلِ أكارع[١١] النمل

وهو مأخوذ من قول الأوّل، ويقال: إنه ليزيد بن معاوية: [من الطويل]

وكأسٍ سباها التَّجْرُ[١٢] مِنْ أرضِ بابلٍ[١٣]
كرقة ماء الحُزْنِ في الأعيُنِ النُّجلِ[١٤]
إذا شجَّها الساقي حسِبتَ حَبابَها
عيونُ الدَّبا[١٥] من تحت أجنحةِ النملِ

---

(١) تمتطي: تركب.
(٢) البنان: طرف الإصبع.
(٣) الأرجوان: مادة صبغية حمراء، وهو أيضًا شجر له زهر شديد الحمرة، وكذلك هو الثوب المصبوغ بالأرجوان.
(٤) الفرائد: جمع فريدة، وهي الجوهرة النفيسة.
(٥) الجمان: اللؤلؤ.
(٦) الفرع: الشعر.
(٧) الأدجوان: الشديد الدجنة والسواد.
(٨) الصريح: الخالص ممّا يشوبه.
(٩) الجلاجل: جمع جلجل، وهو الجرس.
(١٠) الحجل: ما تزيّن به المرأة رجلها.
(١١) الأكارع: الأرجل.
(١٢) التجر: جماعة التجّار.
(١٣) بابل: في العراق أضحت خرابًا.
(١٤) النجل: الواسعة.
(١٥) الدبا: صغار الجراد.

وقال أبو نواس أيضًا: [من البسيط]

قامت تُريني وأمرُ الليلِ مُجتمعٌ صُبْحًا تولَّد بين الماء واللّهبِ
كأنّ صُغْرَى وكُبْرَى مِنْ فقاقِعِها حَصْباءُ[1] دُرٌ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

للماء فيها كتابةٌ عجبٌ كمثْل نقشٍ في فَصّ[2] ياقوتِ[3]

وقال العسكريّ: [من الرمل]

ذاب في الكأس عقيقٌ[4] فجرى وطَفَا الدُّرُ عليه فسبَحْ
نصبَ الساقي على أقداحها شَبَكَ الفِضّةِ تصطادُ الفرحْ

وقال ابن الساعاتيّ[5]: [من البسيط]

وليلةٍ باتَ بدرُ التّمّ ساقِيَنا يُديرُ في فَلَكٍ من شُربِها شُهُبَا
بِكرٌ إذا فُرعتْ بالماء كان بِنا جِدًّا وإن كان في كاساتها لَعِبَا
حمراءُ من خجلٍ حتى إذا مُزجتْ لم تدرِ ما خَجَلًا تحمرُ أم غَضَبَا
تَزيد بالباردِ السَّلْسَال[6] جَذْوتُها[7] وما سَمِعْتُ بماءٍ مُحدِثٍ لَهَبَا
تكسو النديمَ إذا ما ذَاقَها وضَحًا[8] حتى كأنّ شعاعَ الشمس قد شَرِبا

وقال آخر: [من البسيط]

فنَبَّهتْني وساقي القوم يمزجُها فصار في البيت للمِصْباحِ مِصْباحُ
قلنا على علمنا والشكُّ يغلبُنا أراحُنا نارُنا أم نارُنا الرَّاحُ

وقال ابن وكيع التِّنّيسيّ[9]: [من الطويل]

وصفراءُ من ماءِ الكُرومِ كأنَّها فِراقُ عدوٍّ أو لقاءُ صديقِ

---

(١) الحصباء: صغار الحجارة.
(٢) الفض: الحجر.
(٣) الياقوت: من الأحجار الكريمة.
(٤) العقيق: من الحجارة الكريمة.
(٥) ابن الساعاتي: أحمد، ولد في بعلبك، وعاش في بغداد، فقيه وشاعر. مات سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م.
(٦) السلسال: العذب.
(٧) جذوتها: نارها.
(٨) الوضح: البياض.
(٩) الشعر لابن وكيع، وقد سبق التعريف به.

كأنّ الحُبابَ المستديرَ بطوقِها كـواكِـبُ دُرّ فـي سَـمـاءِ عَـقـيـقِ
صبَبْتُ عليها الماءَ حتى تعوّضت قميصَ بهارٍ(١) من قميص شقيقِ(٢)

وقال آخر: [من البسيط]

حمراء ما اعتصموا بالماء حين طفت(٣) إلا وقـد حَسِـبـوهـا أنـهـا لـهـبُ

وقال الخالديّان(٤): [من المنسرح]

فـهـاتِـهـا كـالـعـروسِ مـحـمـرّة الـ ـخدَّيْن في مِعْجَرٍ(٥) من الحبَبِ
كـادت تـكـون الـهـواءَ فـي أرج الـ ـعنبر لـو لـم تـكـن مـن الـعـنـبِ
من كفّ راضٍ عن الصدودِ وقد غضِبتُ في حبّه على الغضبِ
فلو ترى المأسَ حين يمزجُها رأيت شيئًا من أعجب العجبِ
نـار حـواهـا الـمِزاج يُلْهبها الـمـ ـاءُ ودُرٌّ يـــدور فـــي لـــهـــبِ

ذكر ما قيل في مُبادرة اللذّات ومجالس الشَّراب وطيّها

قال أحمد بن أبي فَنَن: [من الرمل]

جـدِّد الـلَّذّات فـالـيـومُ جـديـدُ وامضِ فيما تشتهي كيف تُريدُ
والـهُ مـا أمـكَـنَ يـومٌ صـالـحٌ إنَّ يومَ الشرِّ - لا كان - عتيدُ(٦)

وقال ديك الجنّ: [من الطويل]

تـمـتّـع مـن الـدّنـيـا فـإنـك فـانـي وإنّك في أيدي الحوادث عاني(٧)
ولا تُنْظِرنّ الـيـومَ لـهـوًا إلـى غـدٍ ومـن لـغـدٍ مـن حـادثٍ بـأمـانِ

---

(١) البهار: نبت طيّب الرائحة.
(٢) الشقيق واحد شقائق النعمان، النبت والزهر المعروف.
(٣) طفت: ظهرت في أعلى الإناء أو الكأس.
(٤) الخالديان: أخوان شاعران وهما: سعيد بن هاشم المتوفى سنة ٩٨١ م، ومحمد المتوفى سنة ٩٩٠ م. كانت بينهما وبين السريّ الرّفاء مهاجاة. اشتركا في نظم الشعر، وتأليف الكتب ومنها «الأشباه والنظائر» أو ما يعرف بحماسة الخالديّين، وهما من الخالدية من قرى الموصل. انظر: الفهرست ص ٢٤٠.
(٥) المعجر: ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.
(٦) العتيد: الحاضر والآتي.
(٧) العاني: الأسير والعبد.

فإني رأيتُ الدهرَ يُسرع بالفتى ... وينقله حالين مختلفان
فأمّا الذي يمضي فأحلامُ نائمٍ ... وأمّا الذي يبقى له فأماني

وقال ابن المعتزّ من أبيات: [من الطويل]

وبادِرْ[١] بأيّام السُّرور فإنها ... سِراعٌ وأيامُ الهموم بِطاءُ
وخلِّ عِتابَ الحادثاتِ لِوَجْهِهَا ... فإن عِتابَ الحادثاتِ عَنَاءُ
تعالَوْا فسقّوا أنفُسًا قبل موتِها ... ليأتِيَ ما يأتي وهنَّ رِواءُ[٢]

وقال أحمد الماردانيّ: [من الرمل]

عاقرِ الرَّاحَ ودَعْ نَعْتَ الطلَلْ[٣] ... واغصِ من لامَكَ فيها وعَذَلْ[٤]
غادِهَا واسْعَ لها واغرَ بها ... وإذا قيل: تَصَابَى[٥]، قُلْ أجَلْ
إنما دنياك - فاعلم - ساعةٌ ... أنت فيها وسِوى ذاك أملْ

وقال ابن بسّام[٦]: [من مجزوء الكامل]

واصلْ خليلَك إنما الـ ... ـدُّنيا مواصَلةُ الخليلِ
وأنعَمْ ولا تتعجّلْ الـ ... ـمكروهَ مِنْ قَبْلِ النُّزولِ
بادِرْ بما تهوى فما ... تدري متى وَقتُ الرحيلِ
وارفُضْ مقالةَ لائمٍ ... إنَّ المَلامَ من الفُضولِ[٧]

ومما وصفتْ به مجالس الشرب؛ فمن ذلك قول أبي نواس: [من الكامل]

في مجلسٍ ضحك السرورُ به ... عن ناجذيه[٨] وحُلَّت الخُمُرُ

وقال ديك الجنّ: [من السريع]

كأنما البيتُ بريحانةٍ ... ثوبٌ من السندس[٩] مشقوقُ

---

(١) بادر: أسرع.
(٢) رواء: مرتوية ريًّا غير عطشى.
(٣) الطَّلَل: ما بقي من المنازل بعد درسها.
(٤) عذل: لام.
(٥) تصابى: جهل وعمل ما لا يليق بالكبير.
(٦) هو عليّ بن بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة» وفيها تاريخ الأدب العربي في الأندلس، مات سنة ١١٤٧ م.
(٧) الفضول: الدخول في ما لا يعني صاحب الكلام.
(٨) الناجذان: الضّرسان، والمفرد ناجذ.
(٩) السندس: ضرب من رقيق الدّيباج.

وقال السريّ[١]: [من الطويل]

أَلَسْتَ ترى رَكْبَ الغَمامِ يُساقُ
وأدمُعُهُ بين الرياض تُراقُ
وقد رَقَّ جِلْبابُ[٢] النسيم على الثَّرى[٣]
ولكِنْ جلابيبُ الغيوم صفاقُ[٤]
وعندي مِنَ الرَّيحانِ نوعٌ تجسّه
وكأسٌ كرَقْراق الخَلُوقِ[٥] دِهاقُ[٦]
وذو أدبٍ جلَّتْ صنائعُ كفِّه
ولكِنْ معاني الشعر منه دِقاقُ
له أبدًا من نَثْره ونِظَامه
بدائعُ حَلْيٍ ما لهنَّ حِقاقُ
وأغيدُ مهتزٌّ، على صحن خدّه
غلائلُ[٧] من صِبْغ الحياءِ رِقاقُ
أحاطَتْ عيونُ العاشقين بخصره
فهنّ له دون النِّطاق نطاقُ[٨]
وقد نظم المنثور فهو قلائد
علينا، وعقدٌ مُذْهَبٌ وخِناقُ[٩]
وغرفتنا بين السحائب تلتقِي
لهنّ علينا كِلّةٌ[١٠] ورِواقُ
تقسَّم زُوَّارٌ من الهند سَقْفَها
خِفافٌ على قلب الكريم رِشاقُ

(١) هو السريّ الرّفاء: الشاعر الموصلي، مدح سيف الدولة الحمداني ثم مدح في بغداد الوزراء والأعيان. تميّز بعذوبة ألفاظه والبراعة في الوصف والتشبيه. له ديوان شعر مطبوع، مات سنة ٩٧٦ م.
(٢) الجلباب: الثوب.
(٣) الثرى: أديم الأرض.
(٤) صفاق: غلاظ.
(٥) الخلوق: الطّيب.
(٦) دهاق: ملأى.
(٧) الغلائل: جمع غلالة، وهي البطانة.
(٨) النطاق: ما يشدّ به وسط الجسم.
(٩) الخناق: القلادة.
(١٠) الكلّة: الستر الرقيق.

أعـاجـمُ تـلـتـذُّ الـخـصـامَ كـأنـهـا
كـواعـبُ[١] زَنْـج راعـهـنّ طَـلاقُ
أنِـسْـنَ بـنـا أَنَـس الإمـاءِ[٢] تـحـبَّـبـتْ
وشـيـمـتُـهـا غَـدْرٌ بـنـا وإبـاقُ[٣]
مُـواصِـلةٌ والـوردُ فـي شـجـراتـه
مـفـارقـةٌ إن حـانَ مـنـه فِـراقُ
فـزُرْ فِـتْـيـةً، بَـرْدُ الـشـرابِ لَدَيـهـمُ
حـمـيـمٌ[٤] إذا فـارقْـتَـهـم وغَـسَـاقُ[٥]

قوله: [من الوافر]

أحاطت عيون العاشقين بخصره ... فـهـن لـه دون الـنـطـاق نـطـاقُ

مأخوذ من قول المتنبّي: [من الوافر]

وخـصـرٍ تـثـبُـتُ الأحْـداقُ فـيـه ... كـأنّ عـلـيـه مـن حَـدَقٍ نِـطـاقَـا

وقال أبو هلال العسكريّ: [من السريع]

ولـيـلٍ ابـتـعـتُ بـه لـذَّةً ... وبـعـتُ فـيـه الـعـقـلَ والـدّيـنـا
أصاب فيه الوصلُ قلبَ الجوى[٦] ... وبـات فـيـه الـهـمُّ مِـسـكـيـنـا
وقـد خـلَطْـنـا بـنـسـيـم الـصَّـبـا ... نـسـيـمَ راحٍ وريـاحـيـنـا
وأكْـؤس الـراحِ نـجـومٌ إذا ... لاحَـتْ بـأيـديـنـا هـوتْ فـيـنـا
تَـضْـحَـك فـي الـكـأس أباريـقُـنـا ... وحَـسـبـمـا تـضـحَـك تُـبـكـيـنـا

* * *

ومما قيل في طيّ مجالس الشراب؛ فمن ذلك قول بعض الشعراء: [من الكامل]

حُكم العُقارِ إذا قصدتَ لشربها ... فـي لـذّةٍ مـن مُـسـمِـع وقـيـانِ[٧]
ألّا تـعـود لـذِكْـر مـا أبـصـرتَ مـن ... أُحـدوثـةٍ مـن شـاربٍ سـكـرانِ

---

(١) كواعب: نسوة كعبت نهودهنّ وظهرت.
(٢) الإماء: الجواري.
(٣) الإباق: هروب العبد من سيّده.
(٤) الحميم: الشديد اللّظى.
(٥) الغساق: الشديد البرد.
(٦) الجوى: المتبول من الحبّ.
(٧) القيان: المغنّيات.

وقال آخر: [من الوافر]

إذا ذُكِر النبيذُ فليس حقًّا إعادةُ ما يكون على النبيذِ
إعادة ما يكون من السّكَارى يكدّر[١] صفوةَ العيش اللذيذِ

وقال آخر: [من البسيط]

تَنازعوا لذّة الصهباء[٢] بينهُمُ وأوجَبوا لرضيع الكأسِ ما يجِب
لا يحفظون على السَّكران زَلّتَهُ[٣] ولا يُريبُك مِنْ أخلاقِهم رِيَبُ[٤]

ذكر ما قيل في وصف آلات الشراب وأوانيها

من ذلك ما قيل في وصف مَعصرة الخمر:

قال أبو الفرج البَبَّغاء[٥]: [من مجزوء الوافر]

ومعصرةٍ أنختُ[٦] بها وقَرنُ الشمس لم يَغِبِ
فخِلْتُ قرارها بالرا ح[٧] بعضَ معادنِ الذهبِ
وقد ذَرَفَتْ لِفَقْد الكَرْ م فيها أعينُ العنبِ
وجَاشَ[٨] عُبابُ واديها بمنهلٍ ومُنْسَكِبِ[٩]
وياقوتُ العصير بها يلاعبُ لؤلؤَ الحبَبِ
فيا عجبًا لعاصرها وما يفنَى به عجبي
وكيف يعيش وهو يخو ض في بحرٍ من اللّهبِ

وقال ابن المعتزّ يصف الدِّنان: [من الخفيف]

ودِنانٍ كمثلِ صفٍّ رجالٍ قد أقيموا ليرقصوا دَسْتَبَنْدَا[١٠]

---

(١) يكدّر: يجعله كدرًا غير صافٍ. (٢) الصهباء: الخمرة.
(٣) الذلّة؛ الخطأ والهفوة. (٤) الريب: الشكوك.
(٥) أبو الفرج الببغاء، واسمه عبد الواحد، شاعر عباسي مدح سيف الدولة في حلب. له ديوان شعري مطبوع، مات سنة ١٠٠٧ م.
(٦) أنخت بها: أقمت. (٧) الراح: الخمرة.
(٨) جاش: هاج واضطرب.
(٩) المنهلّ والمنسكب: صفتان للمطر النازل من السماء.
(١٠) دستبند: ضرب من الرقص، واللفظة فارسية تتألّف من دست، وهي اليد، وبند، وهو العبد.

وقال القَطاميّ[١] يصف جِرَار الخمر: [من البسيط]

واسْتَوْدَعَتْها رَواقيدُ[٢] مقيَّرةٌ[٣] دُكْنُ[٤] الظواهرِ قد بُرْنِس[٥] بالطِّينِ
مكافِحاتٌ لحرِّ الشمس قائمةً كأنهنّ نَبيطٌ[٦] في تبابِينِ[٧]

وقال العلويّ الأصفهانيّ: [من الطويل]

مخدَّرةٌ[٨] مكنونةٌ قد تَقَشَّفتْ كراهيةٍ بين الحسانِ الأوانسِ
وأترابُها يلبَسن بيضَ غلائلٍ هي العُرْيُ مغرورٌ بها كلُّ لابسِ
مشعَّثةٌ[٩] مَرْهاء[١٠] ما خِلْتُ أنّني أرى مثلَها عذراءَ في زيّ عانسِ[١١]

* * *

ومما قيل في الراووق؛ قال بعض الشعراء: [من الرجز]

كأنّما الرّاووق[١٢] وانتصابُه خُرطومُ فيلٍ سقطتْ أنيابُهُ
والبيت منه عَطِرٌ ترابُهُ كأنّ مِسْكًا فُتِّقَتْ[١٣] عِيابُهُ[١٤]

وقال آخر: [من الرجز]

سماءُ لاذٍ[١٥]، قَطْرُها رحيقُ رحبُ الذّرى ينحطّ فيه الضِّيقُ
ماءُ عقيقٍ لو جرى العقيقُ حتى إذا ألهبها التّصفيقُ

* صِحْنا إلى جيراننا: الحريقُ *

---

(١) القطامي: عمير بن شييم التغلبيّ، شاعر اشتهر بغزله وتشبيبه الرقيق. له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٧٤٧ م.
(٢) الرواقيد: دنان الخمر.
(٣) المقيّرة: المطليّة بالقار، أي الزفت والقطران.
(٤) دكن: سود.
(٥) برنسن: لبسن البرانس، وهي الثياب ذوات القبّعات للرّأس.
(٦) النبيط: أخلاط الناس وعامّتهم. (٧) التباين: السراويل التي تستر العورة.
(٨) المخدرة: المستورة، ومثلها المكنونة. (٩) مشعثة: غبراء.
(١٠) المرهاء: التي ابيضّت حماليقها من ترك الكحل.
(١١) العانس من النساء: التي مضى عليها زمن طويل ولمّا تتزوّج بعد.
(١٢) الراووق: المصفاة للشراب، وهو الكأس أيضًا.
(١٣) فتّقت: مزّقت.
(١٤) عيابه: جمع عيبة، وهي الوعاء من جلد وغيره.
(١٥) اللاذ: ضرب من الثياب الحريرية الحمر.

ومما وُصفت به زقاق الخمر؛ فمن ذلك قول الأخطل[١]: [من الطويل]

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ[٢] كأنَّها رجالٌ من السودان لم يَتَسَربلوا[٣]

وقال أبو الهنديّ[٤] وأجاد في شعره: [من الرمل]

أتلفَ المالَ وما جمّعتُه طلبُ اللّذّاتِ من ماء العنبْ
واستِباءُ الزقّ من حانوتها شائلُ الرجلينِ مَغْضوب[٥] الذنبْ
كلّما كُبّ لشَرْبٍ خلتَه حبشيًّا قُطِعتْ منه الرُّكَبْ

وقال ابن المعتزّ: [من مجزوء الرمل]

وتراها وهي صَرْعَى[٦] فُرَّغًا بين الندامَى[٧]
مثلَ أبطالِ حروبٍ قُتِلوا فيها كِرامَا

وقال العلويّ الأصفهانيّ: [من البسيط]

عجبتُ مِنْ حبشيٍّ لا حَراكَ به
لا يُدركُ الثأر إلا وهو مذبوحُ
طَوْرًا يُرَى وهو بين الشَّرب[٨] مضطجعٌ[٩]
رَخو الصِّفاقِ[١٠] وطَوْرًا وهو مشبوحُ[١١]

ومما وُصفت به الأباريقُ؛ فمن ذلك قول شُبرمة بن الطفيل: [من الطويل]

كأنّ أباريقَ الشّمول[١٢] عشيّةً إوَزٌّ بأعلى الطفِّ[١٣] عُوجُ الحناجِرِ

---

(١) الأخطل: غياث التغلبي، والأخطل لقب له، شاعر نصراني من كبار شعراء الأمويّين. اشتهر بمدحهم وهجاء أعدائهم. له نقائض هجائية مع جرير. توفي سنة ٧١٠ م.
(٢) الشاصيات: القرب.
(٣) يتسربلوا: يلبسوا سراويلهم.
(٤) أبو الهندي: غالب بن عبد القدّوس، الرياحي اليربوعي، أحد مخضرمي العهدين الأموي والعباسي. شاعر مطبوع رقيق العبارة. انظر: الأعلام ٥/٣٠٣.
(٥) معضوب: مقطوع.
(٦) صرعى: منكبّة على وجهها.
(٧) الندامى: جماعة الشاربين.
(٨) الشرب: جماعة الشاربين.
(٩) مضطجع: ممدّد.
(١٠) الصفاق: جلد البطن.
(١١) مشبوح: ملقى ومعلّق كالمصلوب.
(١٢) الشمول: الخمرة.
(١٣) الطفّ: ما أشرف من الأرض.

وقال آخر: [من الكامل]

يا رُبَّ مجلِسِ فتيةٍ نادمتُهم ... من عبدِ شمسٍ[١] في ذُرى العلياءِ
وكأنما إبريقُهم مِنْ حُسنِهِ ... ظبيٌ على شَرَفٍ أمامَ ظباءِ

وقال ابن المعتزّ: [من الكامل]

وكأنّ إبريقَ المدام لديهمُ ... ظبيٌ على شَرَفٍ أنافَ[٢] مدَلَّهَا[٣]
لمّا استحثّته السُّقاة جثى لها ... فبكى على قدح النديمِ وقهقها[٤]

وقال إسحٰق الموصليّ: [من الطويل]

كأن أباريقَ المدام لديهمُ ... ظباءٌ بأعلى الرَّقْمتين[٥] قِيامُ
وقد شربوا حتى كأنّ رقابَهم ... من اللِّين لم يُخْلَقْ لهنّ عِظامُ

وكلّهم نظروا إلى قول عَلْقمة بن عَبَدَة[٦]: [من البسيط]

كأنّ إبريقهم ظبيٌ على شَرَفٍ ... مُفَدَّمٌ[٧] بسَبا[٨] الكَتّان ملثومُ[٩]

وقال محمد بن هانىء من أبيات: [من الخفيف]

والأباريقُ كالظباءِ العواطي[١٠]
أوجستْ[١١] نبأةَ[١٢] الخيولِ العتاقِ[١٣]
مُصغياتٌ إلى الغناءِ مُطلّا
تٌ عليه كثيرةُ الإطراقِ[١٤]

---

(١) عبد شمس، أحد أجداد الأمويين، وهو أخو هاشم جدّ النبي ﷺ.
(٢) أناف: أشرف. (٣) مدلّهَا: متميّزًا.
(٤) قهقه: ضحك بصوت عالٍ.
(٥) الرقمتان: اسم موضع، وهما أيضًا جانبا الوادي.
(٦) علقمة بن عبدة: ويلقب بالضحل، شاعر جاهلي، مدح المناذرة في الحيرة، كما مدح الحارث الغسّاني، له ديوان شعر مطبوع. توفي نحو ٥٩٨ م.
(٧) مفدّم: مغطّى. (٨) السّبا: السّتر.
(٩) ملثوم: مثله، مغطّى.
(١٠) العواطي: جمع عاطية، وهي التي تحدّ عنقها لتتناول ما على الشجر من ثمار وخلافه.
(١١) أوجست: أحسّت. (١٢) النبأة: الصوت الخفيّ.
(١٣) العتاق: الأصيلة. (١٤) الإطراق: السكوت والنظر إلى الأرض.

وهـي شُـمُّ الأنـوفِ[١] يـشـمـخـن كـبـرًا
ثـم يَـرْعُـفـن بـالـدّمِ الـمُـهـراق[٢]

وقال أبو نواس عفا الله عنه: [من الكامل]

والكوب يضحك كالغزال مسبِّحًا عند الركوع بلثغَةِ[٣] الفَأْفاءِ[٤]
وكـأنّ أقـداح الـرحـيـق إذا جَـرَتْ وَسْط الظلامِ كواكبُ الجوزاءِ[٥]

وقال بشّار بن بُرْد: [من البسيط]

كـأنّ إبـريـقَـنـا والـقَـطْـرُ من فمه طـيـرٌ تـنـاول يـاقـوتًـا[٦] بـمِـنْـقَـارِ

ومما وُصفت به الكاساتُ والأقداحُ؛ فمن ذلك قول ابن المعتزّ: [من السريع]

غـدا بـهـا صـفـراءَ كَـرْخـيّـة[٧] تـخـالُـهـا فـي كـأسِـهـا تـتّـقِـدْ
وتـحـسـبُ الـمـاءَ زجـاجًـا لـهـا وتـحـسـبُ الأقـداحَ مـاءً جَـمَـدْ

وقال ابن المعتزّ أيضًا عفا الله عنه: [من الوافر]

وكـأسٍ تُـحْـجَـبُ الأبـصـارُ عـنـهـا فـلـيـس لـنـاظـرٍ فـيـهـا طـريـقُ
كـأن غـمـامـةً بـيـضـاءَ بـيـنـي وبـيـن الـكـأسِ تـخـرِقُـهـا الـبـرُوقُ

وقال أبو الفرج الببّغاء: [من المنسرح]

مـن كـلّ جـسـم كـأنـه عَـرَضٌ يـكـاد لُطفًـا بـالـلّـحظ يُـنْـتَـهَـبُ
كـأنـمـا صـاغـه الـنِّـفـاقُ فـمـا يـخـلصُ مـنـه صـدقٌ ولا كـذبُ

---

(١) شمّ الأنوف: كناية عن العلوّ والسموّ. (٢) المهراق: المراق.
(٣) اللثغة: عدم نطق الحرف كما يجب، وخلطه بحرف آخر، كنطق الراء ياءً، مثلًا، أو غينًا.
(٤) الفأفاء: من يتلجلج في كلامه.
(٥) الجوزاء: كوكبة في السماء الشمالية تعرف بكوكبة الجبار.
(٦) الياقوت: حجر كريم.
(٧) الكرخية: المنسوبة إلى الكرخ، غربي بغداد.

وقال الرفّاء: [من المتقارب]

كـأنّ الـكـؤوسَ بـفـضـلاتـهـا مـتـوّجـةً بـأكـالـيـل نـورِ
جـيـوبٌ مـن الـوَشْـي مَـزْرورةٌ[1] يـلوح عـليـهـا بـيـاضُ الـنُّـحُـورِ[2]

وقال آخر: [من الكامل]

وكأنّما الأقداحُ مُتْرَعَةٌ[3] الحَشَا بين الشُّروب كواكبُ الجوزاءِ
وكـأنـهـا يـاقـوتـةٌ فَـضـلاتُـهـا مـخـروطـةٌ مـن دُرّة بـيـضـاءِ

وقال المعوَّج: [من الطويل]

يعاطيك كأسًا غيرَ مَلأى كأنها إذا مُزِجتْ أحداقُ دِرعٍ مُزرَّدِ[4]
كـأنّ أعـالـيـهـا بـيـاضُ سَـوالـفٍ يـلوح عـلى تـوريـدِ خـدّ مـورَّدِ

وقال أبو نواس: [من الكامل]

وكـأنـمـا الـروضُ الـسـمـاءُ ونـهـرُه فيه المجرّةُ[5] والكؤوسُ الأنجمُ

وقال الثعالبيّ[6]: [من السريع]

يـا واصـف الـكـأس بـتـشـبـيـهـهـا دونـك وصـفًـا عـالِيَ الـقَـدْرِ
كـأنّ عـيـنَ الـشـمـس قـد أُفْـرِغَـتْ فـي قـالَـبٍ صِـيـغ مـن الـبَـدْرِ

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أقـول لـلـكـأس إذا تـبـدّتْ بـكـفِّ أحْـوَى[7] أغـنَّ[8] أحـورْ
أخْـربـتِ بـيـتـي وبـيـتَ غـيـري وأصـلُ ذا كـعـبُـكِ الـمـدوَّرْ

(١) مزرورة: مشدودة.
(٢) النحور: الأعناق في أسفلها.
(٣) مترعة: ملأى.
(٤) مزرّد: فيها زرد.
(٥) المجرّة: سحابة من ملايين النجوم تبدو بيضاء كاللّطخة.
(٦) هو أبو منصور الثعالبي، أديب ومؤرّخ وشاعر عباسي من أهل نيسابور، له «يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر» و«فقه اللغة» و«الأمثال» و«لطائف المعارف». توفي سنة ١٠٣٨ م.
(٧) الأحوى: الذي في لثته حوّة، وهي السواد والخضرة.
(٨) الأغنّ: الذي في صوته غنّة.

الباب الخامس

من القسم الثالث من الفنّ الثاني في النُّدمان والسُّقاة

قال سهل بنُ هارون[١]: ينبغي للنديم أن يكون كأنما خُلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لا يَمَلُّ المعاشرة، ولا يَسْأم المسامرة[٢]؛ إذا انتشى يحفظ، وإذا صحا يَقَظُ، ويكون كاتِمًا لسرِّه، ناشرًا لبِرِّه؛ قالوا:

فاخَرَ كاتبٌ نديمًا، فقال الكاتب: أنا معونة، وأنت مؤونة؛ وأنا للجدّ، وأنت للهزل؛ وأنا للشدّة، وأنت للرخاء؛ وأنا للحرب، وأنت للسِّلم. فقال النديم: أنا للنّعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحُظوة، وأنت للمهنة؛ تقوم وأنا قاعد، وتحتشمُ وأنا مؤانِس؛ تدأبُ[٣] لراحتي، وتشقى لما فيه سعادتي؛ فأنا شريك وأنت مُعِين، كما أنك تابع وأنا قرين. فلم يحرِ الكاتبُ جوابًا، والله أعلم.

وسُئل إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ رحمه الله عن الندماء، فقال:

واحدٌ غَمٌّ، واثنان هَمٌّ، وثلاثةٌ قِوَامٌ[٤]، وأربعةٌ تَمَامٌ، وخمسةٌ مجلِسٌ، وستَّةٌ زحامٌ، وسبعةٌ جَيْشٌ، وثمانيةٌ عَسْكرٌ، وتسعةٌ اضربْ طبلَك، وعشرة ٱلقَ بهم مَن شئتَ.

وقال الجمّاز: النبيذ حرام على اثني عشر نفسًا، مَن غنَّى الخطأ، واتّكأ على اليمينِ، وأكثرَ من أكل البقل[٥]، وكسر الزجاجَ، وسرق الريحانَ، وبلَّ ما بين يديه، وطلب العَشاء، وقطع البَم[٦]، وحبس أوّلَ قدحٍ، وأكثر الحديثَ، وامتخط في منديل الشراب، وبات في موضع لا يُحْتَمَلُ المبيتُ فيه.

قال أبو هلال العسكريّ: [من الخفيف]

ما أُعافُ[٧] النبيذَ خيفةَ إثم — إنما عفتُه لفقدِ النديمِ
ليس في اللّهو والمدامةِ حظٌّ — لكريم دون النديم الكريمِ

(١) سهل بن هارون: كاتب بليغ من واضعي القصص على ألسنة الحيوان، عاش في البصرة وخدم الخليفة الرشيد، اتّصف بنزعته الشعوبية الفارسية. له «ثعلة وعفراء» و«النمر والثعلب» و«الإخوان» و«المسائل» و«تدبير الملك والسياسة». توفي سنة ٨٣٠ م.

(٢) المسامرة: أحاديث الليل في السهر.

(٣) تدأب: تعمل بلا توقّف.

(٤) القوام: النظام والعدل.

(٥) البقل: من النباتات والمأكولات العشبية.

(٦) البم: وتر من أوتار العود.

(٧) أعاف: أكره وأملّ.

فتخيَّرْ قبلَ النبيذ نديمًا ذا خلالٍ[١] معطَّراتِ النسيمِ
وجَمالٍ إذا نظرتَ بديعٍ وضميرٍ إذا اختبرتَ سليمِ

وقال آخر: [من الوافر]

أرى للكأس حقًّا لا أراه لغير الكأسِ إلا للنديمِ
هو القطبُ الذي دارتْ عليه رحى[٢] اللّذّاتِ في الزمنِ القديمِ

وقال آخر: [من مجزوء الوافر]

ونَدْمانٍ أخي ثقةٍ كأنَّ حديثَه حَبَرَهْ[٣]
يسرُّك حسنُ ظاهرِهِ وتَحْمَدُ منه مُخْتَبَرَهْ
ويستر عيبَ صاحِبِهِ ويستُر أنه سَتَرَهْ

وقال آخر: [من الخفيف]

ونديم حلوِ الحديثِ يُجاريـ ـك بما تشتهيه في مَيدانِكْ
ألمعيٍّ[٤] كأنّ قلبَك في أضـ ـلاعه أو كلامَهُ في لسانِكْ

وقال يحيىٰ بن زياد: [من الطويل]

ولستُ له في فضلة الكأسِ قائلًا لأصرفه عنها: تحسَّ[٥] وقد أبَى
ولكن أحيِّيه وأُكرمُ وجهَهُ وأشربُ ما أبقَى وأسقيه ما اشتهَى
ولستُ إذا ما نام عندي بموقظٍ ولا مُسمِعٍ يقظانَ شيئًا من الأذَى

وقال آخر: [من الخفيف]

ليس من شأنه إذا دارتِ الكأ س فأزرى[٦] إدمانُها بالحلومِ
قولُ ما يُسخط النديمَ وإن أسـ ـخطَه عند ذاك قولُ النديمِ

وقال عبد الرحمٰن العَطَويّ رحمه الله: [من البسيط]

أُخْطُبْ لكأسكَ نَدمانًا تُسَرُّ به أوْ لا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكُتُبِ
أخطُبْه حرًّا كريمًا ذا محافظةٍ ترى مودّتَه من أقربِ النَّسَبِ

---

(١) الخلال: الصفات.
(٢) الرحى: الطاحون.
(٣) الحبرة: ضرب من برود اليمن.
(٤) الألمعي: ذو المواهب والمناقب.
(٥) تحسّ: اشربه شيئًا بعد شيء.
(٦) أزرى: عاب وشان.

وقال أبو نُوَاس: [من الوافر]

وَنَـدْمـانٍ[١] يَـرَى عـيـبًـا عـلـيـه ... بأن يمشي وليس به انتشاءُ[٢]
إذا نـبّـهْـتـه مـن نـوم سـكـرٍ ... كـفـاه مـرّةً مـنـك الـنـداءُ
فليس بقائلٍ لك: إيهِ[٣] دعني ... ولا مـسـتـخـبرًا لـك مـا تـشـاءُ
ولـكـن سَـقِّـنـي ويـقـول أيـضًـا ... عليك الصِّرْفَ إن أعياك ماءُ
إذا مـا أدْركَـتـه الـظـهـرُ صـلّى ... ولا عـصـرٌ عـلـيـه ولا عِـشـاءُ
يـصـلّي هـذه فـي وقـت هـذي ... وكـلّ صـلاتِـهِ أبـدًا قـضـاءُ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

نـبَّـهـت نُـدْمـانـي فـهـبّـوا ... بـعـد الـمـنـام لـمـا اسـتـحـبّـوا
هـــذا أجـــاب وذا أنـــا ... ب وذا يـسـيـر وذاك يـحـبـو
أنـشـدتـهـم بـيـتًـا يـعـ ... ـلَم ذا الصبابةِ كيف يصبو[٤]
«مـا الـعـيـشُ إلّا أنْ تُـحِـ ... ـبَّ وأن يـحـبَّـكَ مَـن تُـحـبُّ»
فـتـطـرّبـوا والأريَـحِـ ... ـيَّـةُ[٥] شـأنُـهـا طـرَبٌ وشـربُ

وقال أبو عُبادة البحتريُّ عفا الله تعالى عنه: [من الخفيف]

ونـديـم نـبّـهـتُـه ودُجـى الـلـيـ ... ـل وضوءُ الـصـبـاح يـعـتـلِـجـانِ[٦]
قـم نـبادِرْ بـهـا الـصـيـامَ فـقـد أقـ ... ـمرَ ذاك الـهـلالُ مـن شـعـبـانِ[٧]

وقال أيضًا: [من السريع]

بـات نـديـمًـا لِيَ حـتـى الـصـبـاح ... أغـيـدُ مـجـدولُ مـكـانِ الـوشـاحْ[٨]
كـأنّـمـا يـبـسِـمُ عـن لـؤلـؤ ... مُـنَـضّـدٍ[٩] أو بَـرَدٍ أو أقَـاحْ[١٠]

(١) الندمان: النديم.
(٢) الانتشاء: النشاط واللذّة.
(٣) إيه: بمعنى كفّ.
(٤) يصبو: يميل إلى الصبابة، وهي الجهل والعشق.
(٥) الأريحيّة: الارتياح إلى النّدى والنشاط إلى المعروف.
(٦) يعتلجان: يصطرعان.
(٧) شعبان: الشهر العربي الذي يسبق رمضان شهر الصيام.
(٨) الوشاح: الثوب الرقيق يلفّ به الخصر.
(٩) منضّد: مرتّب.
(١٠) الأقاح: جمع أقحوان، من النّور والزهر.

يُساقِطُ الوردَ علينا وقد تبلّجَ[١] الصبحُ، نسيمُ الرياح

إنْ لانَ عِطْفاه[٢] قسا قلبُه أو ثَبَّت الخلخالَ جالَ الوشاحْ

أمزُجُ كأسي بِجَنَى ريقِه وإنما أمزُجُ راحًا براحْ[٣]

ومنهم من كره النديم وآثر الانفراد. قال إبراهيم الموصليّ عفا الله تعالى عنه ورحمه:

دخلت يومًا على الفضل بن يحيىٰ فصادفتُه يشربُ وعنده كلبٌ، فقلت له: تنادمُ كلبًا! قال: نعم، يمنعُني أذاه، ويكُفُّ عني أذى سواه، ويشكر قليلي، ويحفظ مَبيتي ومَقيلي[٤]. وأنشد: [من الطويل]

وأشرب وحدي من كراهتِيَ[٥] الأذى
مخافةَ شرّ أو سِبابِ لئيمِ

انتهى، وأستغفر الله العظيم.

* * *

ومما قيل في السُّقاة؛ فمن ذلك قول الصنوبريّ[٦] عفا الله عنه: [من مجزوء الكامل]

ومُوَرّد الخدّيْنِ يخـ ـطِرُ حينَ يخطرُ في مورَّدْ

يسقيكَ من جفنِ اللُّجيـ ـين[٧] إذا سَقاكَ دموعَ عَسْجَدْ[٨]

حتى تظنَّ النجمَ ينـ ـزلُ أو تظنَّ الأرض تصعَدْ

فإذا سقاك بعينه وبفيه ثم سقاك باليدْ

حيّاك بالياقوت ثم الدُّرِّ من تحت الزَّبَرجَدْ[٩]

---

(١) تبلّج: ظهر وصار أبيض.
(٢) العطفان: الجانبان.
(٣) الراح: الخمرة.
(٤) مقيلي: مكان قيلولتي ومبيتي ونومي.
(٥) الكراهية: البغض.
(٦) الصنوبري: واسمه أحمد، شاعر عباسي، عاش في بلاط سيف الدولة بحلب، له شعر في وصف الطبيعة، جمل جدًا، اسم ديوانه «الروضيّات». توفي سنة ٩٤٦ م.
(٧) اللجين: الفضّة، كناية عن الدمع.
(٨) العسجد: الذهب والجوهر.
(٩) الزبرجد: من الأحجار الكريمة.

وقال ديك الجنّ[١]: [من الوافر]

ومُزْرٍ[٢] بالقضيبِ إذا تثنّى[٣] ومزهاةٍ[٤] على القمرِ التّمامِ
سقاني ثمَّ قبّلني وأَوْمَا بطرفٍ سُقْمُه يشفي سَقامِي
فبِتُّ له على النّدمان أُسقَى مُدامًا في مُدامٍ في مدامِ[٥]

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

تدور علينا الراحُ من كفِّ شادنٍ[٦] له لحظُ عينٍ يشتكي السقمَ مُدنَفُ[٧]
كأنّ سلافَ الخمرِ[٨] من ماء خدّه وعنقودَها من شعره الجعدِ يُقطَفُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ هو سحرٌ وما سواه الكلامُ
فكأنّ السُّقاةَ بين الندامَى ألِفاتٌ[٩] بين السطور قِيامُ

وقال أحمد بنُ أبي فَنَن: [من مجزوء الوافر]

بكفِّ مُقَرْطقٍ[١٠] خَنِثٍ[١١] تطيبُ بطيبِه الرِّيَبُ
تراها وهي في كفّيه من خَدّيه تَلتهبُ

وقال الصنوبريّ: [من المتقارب]

وساقٍ إذا همّ نَدْمانُنا بأن يُزْجِيَ[١٢] الكأسَ لم يُزْجِهِ
كلعبةِ عاجٍ على فرشه وليثِ عَرينٍ[١٣] على سَرْجِهِ[١٤]

---

(١) هو عبد السلام، ديك الجنّ الحمصي، من الشعراء المجيدين. عرف بمجونه. مات سنة ٨٤٩ م.
(٢) المزري: العائب، وهنا بمعنى الصائب الظريف.
(٣) تثنى: تلوّى، والقضيب: كناية عن القدّ. (٤) مزهاة: مصدر يحيى من زها إذا علا وتكبّر.
(٥) المدام: الخمرة. (٦) الشادن: ولد الظبي.
(٧) المدنف: المعتل من الحبّ. (٨) سلاف الخمر: ما كان معتّقًا منها.
(٩) الألفات: جمع ألف، وهي الحرف الأبجدي المعروف.
(١٠) المقرطق: من لبس الثياب من القرطق، كناية عن الغلام الساقي.
(١١) الخنث: من فيه خنوثة، أي أنوثة. (١٢) يزجي: يبعث ويعطي.
(١٣) العرين: بيت الأسد.
(١٤) سرج الفرس: ما يوضع فوق ظهرها تحت الفارس.

لطيفِ الممنطق[١] مهتزِّه ثقيلِ المؤزَّرِ[٢] مرتجِّهِ
سقاني بعينيه أضعافَ ما سقاني بكفَّيه من غُنْجِهِ[٣]

وقال آخر: [من البسيط]

يا ساقيَ القومِ إنْ دارَتْ إليَّ فلا تمزُجْ فإني بدمعي مازجٌ كاسي
ويا فتى الحيّ إنْ غنَّيتَ من طَرَبٍ فغنِّ: واحَرَبَا[٤] مِن قلبه القاسي

وقال ابن المعتزّ: [من الطويل]

وعاقدِ زُنّارٍ على غُصُن الآسِ[٥] دقيقِ المعاني مُخْطَفِ الخصرِ[٦] ميّاسِ[٧]
سقاني عُقَارًا صَبَّ فيها مِزاجَها فأضحك عن ثَغْرِ الحَبابِ فَم الكاسِ

وقال أيضًا: [من مجزوء الخفيف]

قام كالغصن في النقا[٨] يمزُج الشّمْسَ بالقمرْ
وسقاني المدامَ والليـ ـلُ بالصّبحِ مؤتزرْ
والثُّريّا[٩] كنَوْرِ[١٠] غصـ ـنِ على الغرب قد نُثِرْ

وقال البحتريّ: [من الهزج]

وفي القهوة[١١] أشكالٌ من الساقي وألوانُ
حَبابٌ مثلُ ما يَضْحَـ ـكُ عنه وهو جذلانُ[١٢]
ويُسْكِر مثل ما يُسْكِـ ـرُ طَرْفٌ[١٣] منه وَسْنانُ[١٤]
وطعمُ الرّيق إن جاد به والصبُّ هَيمانُ
لنا من كفّه راحٌ ومن ريّاه[١٥] ريحانُ

---

(١) الممنطق: موضع النطاق.
(٢) المؤزّر: موضع الإزار من الجسم.
(٣) الغنج: الدلال.
(٤) واحربا: للتعجّب والاستغاثة.
(٥) الآس: ضرب من النبت الطيّب الرائحة.
(٦) مخطف الخصر: دقيقه.
(٧) الميّاس: المتمايل بزهو وعجب.
(٨) النّقا: كثيب الرّمل.
(٩) الثريّا: ستة أنجم صغار مجتمعة في كوكبة الجبار أو أمامها تحديدًا.
(١٠) النَّور: الزهر.
(١١) القهوة: الخمرة.
(١٢) جذلان: فرح مسرور.
(١٣) الطرف: العين.
(١٤) الوسنان: النعسان.
(١٥) ريّاه: ريحه الطيّبة.

وقال أبو القاسم الهُبيريّ الكاتب رحمة الله تعالى عليه: [من الوافر]

سقانا الراحَ ساقٍ، كلُّ راحٍ ... سوى ألحاظ عينيه سرابُ
يدير الكأسَ مبتسمًا علينا ... فما ندري أثغرٌ أم حَبابُ؟
وقد سَفر[1] الدجى عن ثوب فجرٍ ... مُنيرٍ مثل ما سَفَر النِّقابُ
فخلتُ الصُّبح في أثر الثُّريّا ... بشيرًا جاء في يده كتابُ

وقال أبو الشِّيص[2]: [من المتقارب]

يطوف علينا به أحورٌ[3] ... يداه من الكأس مَخْضُوبتانِ[4]
غزالٌ تَميل بأعطافِهِ ... قَناةٌ تعطَّفُ كالخَيْزُرانِ

وقال أبو بكر محمد بن عمّار[5]: [من الكامل]

وهَويتُه يَسْقِي المُدامَ كأنّه ... قمرٌ يَطُوفُ بكوكَبٍ في حِنْدِسِ[6]
متأرِّجُ الحَركاتِ تندَى[7] ريحُهُ ... كالغصن هزّته الصَّبا[8] بتنفّسِ
يسعى بكأسٍ في أنامل سَوْسَنٍ ... ويُدير أُخرى في مَحَاجز نَرْجِسِ[9]

وقال المعوّج يصف ساقيه: [من المنسرح]

لا عيشَ إلّا من كفّ ساقيةٍ ... ذاتِ دلالٍ في طرفها مَرَضُ
كأنما الكأسُ حين تمزجُها ... نجومُ ليلٍ تعلو وتنخفضُ

وقال آخر يصف امرأة ساقيةً: [من الوافر]

وساقيةٍ كأنّ بمَفرِقيها ... أكاليلًا على طبقاتِ وَرْدِ
لها طِيبُ المُنى وصَفاءُ لونٍ ... وحُمرةُ وَجْنَةٍ ومَذاقُ شَهْدِ[10]

---

(١) سفر: أظهر وبان.
(٢) أبو الشيص: محمد، الشاعر العباسي المطبوع، من الكوفة. مدح أمير الرقّة عقبة الخزاعي. عَمي في آخر حياته، اشتهر بمراثيه في عينيه. له شعر خمري ومدحي. مات سنة ٨١١ م.
(٣) الأحور: الشديد سواد العينين. (٤) مخضوبتان: مصبوغتان.
(٥) هو أبو بكر، ابن عمار الشاعر الأندلسي المشهور، عاصر ابن زيدون، واستوزره المعتمد بن عباد ثم قتله سنة ١٣٦٧ م.
(٦) الحندس: الظلام. (٧) تندى: تفيض بالندى.
(٨) الصّبا: ريح ناعمة.
(٩) السوسن والنرجس: من النوريّات الذكية الرائحة والحسنة الشكل والمنظر.
(١٠) الشهد: العسل.

وقال ديك الجنّ يصف ساقيًا وساقيةً: [من الكامل]

أفديكما مِن حامِلَيْ قَدَحَيْنِ — قمرين في غصنين في دِعْصَينِ[١]
رُودٌ[٢] منعّمةٌ ومهضوم الحشا[٣] — لـلناظرين مُنًى وقُرّة عَيْنِ
قامت مؤنّثةً وقام مؤنّثا — فتَناهبا الألحاظَ بالنَّظرَيْنِ
صُبّا عليّ الراحَ إنّ هلالَنا — قد صبّ نعمَتَه على الثّقلَيْنِ[٤]
وإليّ كأسَكما على ما خُيّلَتْ — بالتِّبر[٥] معجونًا بماء لُجيْنِ[٦]

الباب السادس

من القسم الثالث من الفنّ الثاني

في الغناء والسماعِ، وما ورد في ذلك من الحَظْرِ[٧] والإباحةِ، وما استدلّ به مَنْ رأى ذلك؛ ومن سمع الغناءَ من الصّحابةِ رضوانِ الله عليهم أجمعين، ومن التابعين ومن الأئمّة والعبّاد والزهّاد، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقُوّاد والأكابر، وأخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة، ومن أخذ عنهم، ومن اشتهر بالغناء وأخبار القيان.

ذكر ما ورد في الغناء من الحَظْر والإباحة

قد تكلم الناسُ في الغناء في التحريم والإباحة واختلفت أقوالُهم وتباعدت مذاهبُهم وتباينت استدلالاتُهم؛ فمنهم من رأى كراهته وأنكر استماعَه، واستدلّ على تحريمه؛ ومنهم مَن رأى خلافَ ذلك مطلقًا وأباحه وصمّم على إباحته؛ ومنهم من فرّق بين أن يكونَ الغناءُ مجرّدًا أو أضيف إليه آلةٌ كالعود والطّنبورِ وغيرهما من الآلات ذوات الأوتارِ والدّفوف والمعازف والقصبِ، فأباحه على انفراده وكرهه إذا انضاف إلى غيره وحرّم سماع الآلات مطلقًا. ولكلّ طائفةٍ من أربابِ هذه المقالات أدلّةٌ استدلّت بها. وقد رأينا أن نُثبتَ في هذا الموضع نبذةً من أقوالهم على سبيل الاختصارِ وحذف النظائر المطوّلةِ، فنقول وبالله التوفيق.

* * *

(١) الدعصين: مثنى دعص وهو التلّ من الرمل المتماسك الأجزاء.
(٢) الرّود: الشابة الحسناء.
(٣) مهضوم الحشا: دقيقة الخصر.
(٤) الثقلان: الإنس والجنّ.
(٥) التبر: الذهب مخلوطًا بالتراب.
(٦) اللجين: الفضّة.
(٧) الحظر: المنع، وهو بخلاف الإباحة.

أمّا ما قيل في تحريم الغناء وما استدلّ به مَن رأى ذلك، فإنهم استدلّوا على التحريم بالكتاب والسنّةِ وأقوال الصحابةِ والتابعينَ والأئمةِ من علماء المسلمين. أما دليلُهم من الكتاب العزيزِ فقولُ الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: الآيات ١ - ٣]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القَصص: الآية ٥٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان: الآية ٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: الآية ٦٤]، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ [النّجم: الآيات ٥٩ - ٦١]. قال ابن عباس: ﴿سَٰمِدُونَ﴾ هو الغناء بلغة حِمْيَر، وقال مجاهد: هو الغناء بقول أهل اليمن، سمَد فلانٌ إذا غنّى. ورُوي عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: إنه الغناء، ومن طريق آخر: إنه الغناء وأشباهُه. ورُوي عن عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه: هو ـ والذي لا إله إلّا هو ـ الغناء. وعن مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: صوته الغناء والمزامير. وعنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢]، قال: الغناء.

وأمّا دليلُهم من السُّنّة، فما روي عن عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت: إن الله عزّ وجلّ حرّم القينةَ وبيعَها وثمنَها وتعليمها والاستماعَ إليها، ثم قرأتْ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية. وروى أبو أُمامةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحدٌ صوته بغناء إلّا بعث الله عزّ وجلّ إليه شيطانَيْن على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يُمسكَ». وروى أبو الزبير عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كان إبليسُ أوّل مَن ناح وأوّل من تغنّى». وعن عبد الرحمٰن بن عوفٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين: صوتٍ عند نعمةٍ، وصوتٍ عندَ مصيبة».

---

(١) هو عبد الله بن مسعود، الصحابي والمحدث من السابقين إلى الإسلام. لزم النبيّ ﷺ مدة حياته، وكان متقنًا لتلاوة القرآن الكريم. توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م.

وأمّا أقوالُ الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فقد روي عن عثمانَ بنِ عفّان رضي الله عنه أنّه قال: ما تغنّيت قطّ، فتبرّأ من الغناء وتبجّح[١] بتركه. ورُوي عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه أنّه قال: الغناءُ يُنبتُ النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماءُ البقلَ. ورُوي أنّ ابن عمر رضي الله عنهما مرّ على قوم محرمين ومعهم قوم ورجلٌ يغنّي، فقال: ألا لا أسمع والله لكم، ألا لا أسمع والله لكم. ورُوي عن عبد الله بن دينار قال: مرّ ابن عمرَ رضي الله عنهما بجارية صغيرةٍ تغنّي، فقال: لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه. وعن إسحٰق بن عيسى قال: سألت مالكَ بن أنسٍ[٢] رضي الله عنه عما ترخّص فيه بعض أهل المدينة من الغناء، فقال: ما يفعله عندنا إلا الفُسّاق. وقال الشعبيّ: لُعِنَ المغنّي والمُغنّى له. وقال الحكم بنُ عتيبةَ: حبُّ السماع يُنبتُ النفاقَ في القلب. ورُوي أن رجلًا سأل القاسمَ بنَ محمد فقال: ما تقول في الغناء، أحرامٌ هو؟ فأعاد عليه؛ فقال له في الثالثة: إذا كان يومُ القيامة فأُتي بالحقّ والباطل أين يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. قال القاسم: فأَفتِ نفسك. وقال الفُضَيْلُ بنُ عياض: الغناء رُقْية[٣] الزنى. وقال بعضهم: الغناء رائد من روّاد الفجور. وقال الضحّاك: الغناء مَفْسَدةٌ للقلب، مَسْخَطةٌ للرّبّ. وقال يزيد بن الوليدِ مع اشتهاره بما اشتهر به: يا بني أُميّةَ، إيّاكم والغناءَ؛ فإنه يُنقصُ الحياءَ ويزيدُ في الشهوة ويهدمُ المروءةَ، وإنه ليَنوبُ عن الخمرِ ويفعل ما يفعله السكرُ؛ فإن كنتم لا شكّ فاعلين فجنّبوه النساءَ؛ فإن الغناءَ رُقْية الزّنى. وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إليّ من كلّ لذّة، وأشهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغُلّة[٤] الصادي[٥]، ولكن الحقّ أحقّ أن يُقال.

وأمّا أقوالُ الأئمةِ رحمهم الله تعالى فقد قال الإمامُ الشافعيّ[٦] رضي الله عنه في كتاب أدب القضاة: الغناء لهوٌ مكروه يشبه الباطلَ. وقال: من استكثر منه فهو سفيه

---

(١) تبجّح: تفاخر.

(٢) مالك بن أنس، أحد الأئمة المشهورين، مؤسس المالكية أحد المذاهب الفقهية السنيّة. ولد وتوفي في المدينة سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م. له «الموطّأ» وفيه جماع آرائه الفقهيّة، كما أن له «الردّ على الدهريّة» و«المدوّنة الكبرى». انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٨٩.

(٣) الرقية: ما يستعان به من الكلام للشفاء من المرض.

(٤) الغلّة: العطش. (٥) الصادي: العطشان.

(٦) الشافعي: محمد بن إدريس، مؤسس المذهب السنيّ الفقهي المعروف باسمه. ولد في غزة ونشأ في مكّة ولازم الإمام مالكًا في المدينة ودرس عليه. له من الكتب «الأمّ» و«المسند في الحديث» و«السّنن» و«الرسالة» في الأصول. مات سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠ م. انظر: الفهرست ص ٢٩٤.

تُرَدّ شهادته. قال القاضي حسين بن محمّد: وأمّا سماعُه من المرأة التي ليست بمَحْرم، فإن أصحاب الشافعيّ قالوا: لا يجوز بحال سواء كانت بارزة أو من وراءِ حجابٍ وسواء كانت حرّة أو مملوكة. وقال الشافعيّ: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه[١] تُرَدّ شهادتُه. ثم غلّظ القولَ فيه وقال: هو دياثةٌ[٢]، وقال: وإنما جعل صاحبها سفيهًا لأنه دعَا الناس إلى الباطل، ومن دعا إلى باطل كان سفيهًا فاسقًا. وقال مالك بن أنس: إذا اشترى جارية فوجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب، قال: وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيمَ بنَ سعد وحدَه. وكره أبو حنيفة[٣] ذلك وجعل سماع الغناء من الذنوب، قال: وذلك مذهب سائر أهل الكوفة وسفيان الثوريّ[٤]، وحمّاد بن سَلَمة، وإبراهيم النّخعيّ، والشعبيّ وغيرهم لا خلاف بينهم في ذلك. قال: ولا يُعْرَف أيضًا بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منه. وقال بعض الزهّاد: والغناء يورث العناد في قوم، ويورث التكذيب في قوم، ويورث القساوة في قوم.

وقال بعضهم عن حاله عند السماع: [من الوافر]

أتـذكـرُ وقـتـنـا وقـد اجـتـمـعـنـا ... علـى طِيبِ الـغـنـاءِ إلى الـصـبـاحِ
ودارت بـيـنـنـا كـأسُ الأغـانـي ... فـأسـكـرتِ الـنـفـوسَ بـغـيـر راحِ
فـلـم تَـرَ فـيـهـمُ إلا نـشـاوَى ... سـرورًا والـسـرور هـنـاك صـاحـي
إذا لـبَّـى أخـو الـلـذّاتِ فـيـه ... منادي اللهوِ حيّ على السماحِ
ولـم يملك سوى المُهجاتِ شيئًا ... أرَقْـنـاهـا لألـحـاظٍ[٥] مِـلاحِ

هذا ملخّص ما ذكروه في تحريم الغناء، وقد استدلّ مَن أباحه بما يناقض ما تقدّم على ما نذكر ذلك إن شاء الله في إباحة الغناء.

---

(١) السفيه: القاصر. (٢) الدياثة: الصّغار والذلّة.

(٣) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت، صاحب المذهب الفقهي السنّي المشهور. ولد في الكوفة ودرّس فيها. استدعاه المنصور لتولّي القضاء في بغداد، فرفض فحبسه إلى أن مات سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م. له من الكتب «الفقه الأكبر» و«المسند»، أخذ بالقياس والرأي. انظر: الفهرست ص ٢٨٤.

(٤) سفيان الثوري: أبو عبد الله، أحد الأئمّة المجتهدين، له «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م. انظر: الفهرست ص ٣١٤.

(٥) الألحاظ: العيون.

ذكر ما ورد في إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة

وقد تكلّم الناسُ في إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات، وهي الدفُّ واليراعُ والقصبُ والأوتارُ على اختلافها من العودِ والطُّنبور وغيره، وأباحوا ذلك واستدلّوا عليه وضعّفوا الأحاديث الواردة في تحريمه، وتكلّموا على رجالها وجرّحوهم وبسطوا في ذلك المصنّفات ووسّعوا القول وشرحوا الأدلّة. وطالعت من ذلك عدّة تصانيفَ في هذا الفنّ مجرَّدةً له ومضافةً إلى غيره من العلوم. وكان ممّن تكلّم في ذلك وجرّد له تصنيفًا الشيخُ الإمام الحافظُ أبو الفضل محمدُ بنُ طاهرِ بن عليّ المقدسيّ رحمه الله تعالى، فقال في ذلك ما ذكر مختصره ومعناه:

اعلم أن الله تعالى بعث محمّدًا ﷺ بالحنيفيّة السمحةِ إلى الكافّة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧]، فبلّغ رسول الله ﷺ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأُمّة، وسنّ وشرّع، وأمر ونهى، كما أُمر ﷺ؛ فليس لأحدٍ بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم والاتّباع لسنّتهم أن يحرّم ما أحلّ الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ إلا بدليل ناطق من آية محكمة، أو سنّة ماضية صحيحة، أو إجماع من الأُمّة على مقالته.

وأمّا الاستدلالُ بالموضوعات والغرائبِ والأفرادِ من رواية المكذَّبين والمجرّحين الذين لا تقوم بروايتهم حجّةٌ، وبأقاويل مَنْ فسّر القرآن على حسب مراده ورأيه، فلا يُرْجَع إلى قولهم ولا يُسلك طريقُهم؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره، وإنما يُلْزم بقول من أُيّد بالوحي والتنزيل، وعُصِم[1] من التغيير والتبديل. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤]، فعلمنا أنه ﷺ لم يأمر ولم ينهَ عن أمرٍ إلا بوحي من الله تعالىٰ. وكذلك كان ﷺ إذا سُئِل عن أمرٍ لم ينزل فيه وحيٌ توقّف حتى يأتيه الوحي، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله.

---

(١) عُصم: حُفظ.

ذكر ما استدلّوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبويّة

قد استدلّوا على إباحة الغناء بأحاديثَ صحيحةٍ عن رسول الله ﷺ، منها ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: دخل عَلَيَّ أبو بكر رضي الله عنه وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنّيان بما تقاولتْ به الأنصارُ يوم بُعاثٍ[١] وليستا بمغنّيتين؛ فقال أبو بكر: أمِزْمارُ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ! وذلك يوم عيد. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا». ومن طريقٍ آخر عنها رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنّيان بغناء بُعَاثٍ؛ فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبيّ ﷺ! فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غفَل غمزتُهما فخرجتا، وكان يومُ عيدٍ يلعب فيه السودانُ بالدَّرَق[٢] والحِرَاب، فإمّا سألتُ رسول الله ﷺ، وإمّا قال: «تَشتهين تَنْظُرِينَ»، فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدّي على خدّه وهو يقول: «دونكم يا بني أَرْفِدَةَ»[٣]، حتى إذا مَلِلت قال: «حسبُكِ؟» قلت: نعم، قال: «فاذهبي». ومن طريق آخر عنها رضي الله عنها: أنّ أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيّام مِنًى تُدَفِّفان وتضربان والنبيّ ﷺ متغشٍّ بثوبه؛ فانتهرهما أبو بكر؛ فكشف النبيّ ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيامُ عيد». وتلك الأيام أيامُ مِنًى[٤]. وقالت عائشة: رأيت النبيّ ﷺ يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر، فقال النبيّ ﷺ: «دعهم أَمْنًا بني أَرْفِدَة» (يعني من الأمن). قال أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم[٥] رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث: أين يقع إنكار مَنْ أنكر مِنْ إنكار سَيِّدَيْ هذه الأمّة بعد نبيّها ﷺ: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما! وقد أنكر عليه الصّلاة والسلام عليهما إنكارهما، فرجعا عن رأيهما إلى قوله ﷺ. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانت

---

(١) يوم بُعاث: من أيام العرب وحروبهم. كان بين الأوس والخزرج التي جرت سنة ٦١٧ م. وبعاث، قرب المدينة.

(٢) الدّرق: التروس من جلد، والمفرد درقة. (٣) بنو أرفدة: قوم من الزنوج الأحباش.

(٤) أيام مِنًى، هي الأيام التي تلي عرفة في موسم الحجّ.

(٥) ابن حزم: هو علي بن أحمد، الشاعر والفيلسوف والمؤرّخ والمتكلّم الأندلسي. ولد في قرطبة وانصرف إلى التأليف. وله من الكتب «طوق الحمامة» في الأدب، و«الفصل في المِلل والنِّحل» في التاريخ والديانات، و«جمهرة الأنساب» و«الإحكام في أصول الأحكام» في الفقه. مات سنة ١٠٦٤ م.

جاريةٌ من الأنصار في حِجْري فزَفَفْتُها؛ فدخل رسول الله ﷺ ولم يسمع غناء، فقال: «يا عائشةُ، ألَا تبعثين معها مَنْ يُغَنّي فإن هذا الحيَّ من الأنصار يحبّون الغناء». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نكح بعضُ الأنصار بعضَ أهل عائشة فأهدتها إلى قُبَاء؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «أهديتِ عروسَكِ؟» قالت: نعم، قال: «فأرسلتِ معها بغِناء، فإن الأنصار يُحبّونه»؟ قالت: لا، قال: «فأدركيها يا زينب» (امرأة كانت تغنّي بالمدينة)، رواه أبو الزبير محمد بن الزبير بن مسلم المكيّ عن جابر. وعنه أيضًا قال: أنكحَتْ عائشةُ رضي الله عنها ذاتَ قرابة لها رجلًا من الأنصار؛ فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أهديتُم الفتاةَ»؟ قالوا: نعم، قال: «أرسلتم معها»؟ - قال أبو طلحة راوي الحديث: ذهب عنّي - فقالت: لا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأنصار قوم فيهم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول: [من الهزج]

أتيناكم أتيناكم ... فحيّانا وحيّاكم»

ورُوي عن فَضالةَ بنِ عُبَيْدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَشَدُّ أَذَنًا إلى الرجل الحسَن الصوت بالقرآن يَجْهَر به من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته». قال أبو عبد الله الحاكم في كتابه المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط البخاريّ ومسلم، ولم يخرّجاه؛ وقد خرّجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه[١] القزوينيّ في سُنَنه. قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ رحمه الله تعالىٰ: ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أنّ رسول الله ﷺ أثبت أن الله تعالى يستمع إلى حَسَنِ الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القَيْنَة إلى قَيْنته، فأثبت دليل السماع؛ إذ لا يجوز أن يقيس على استماع محرّم. قال: ولهذا الحديث أصل في الصحيحين أخرجاه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيّ يتغنّى بالقرآن»، هذا ما ورد في السّماع.

* * *

وأمّا ما ورد في الضرب بالآلة؛ فمن ذلك ما ورد في الدُّفّ. رُوي عن محمد بن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: «فصل ما بين الحلال والحرام الدُّفّ والصوت في النكاح»، قال الحافظ أبو الفضل رحمه الله تعالى: هذا حديث صحيحٌ ألزم أبو الحسن

(١) ابن ماجة: محمد، المحدث والإمام، من قزوين، له كتاب «السنن» وهو أحد الكتب الستّة في الحديث. مات سنة ٢٧٣ هـ/ ٨٨٧ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٢٦٤.

الدارقطنيّ مسلمًا إخراجَه في الصحيح، وقال: وقد روى عنه (يعني محمد بن حاطب) أبو مالك الأشجعيّ وسِمَاك بن حرب وابن عون ويوسف بن سعد وغيرهم. قال: وأخرج هذا الحديث أبو عبد الرحمٰن النسائيّ(١) وأبو عبد الله بن ماجه في سُنَنهما. ورَوى الحافظ أبو الفضل بسند رفعه إلى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع صوت دفّ فقال: «ما هذا؟» فقيل: فلان تزوّج. فقال: «هذا نكاح ليس بالسِّفاح»، وقد ضعّف أبو الفضل إسناد هذا الحديث، وقال: إنما أخرجته على ضعف إسناده لأنه شاهد الحديث الصحيح المتقدّم. وروى أبو الفضل أيضًا بسنده إلى خالد بن ذَكْوان عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: جاء رسول الله ﷺ فدخل عليَّ صبيحةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فجلس على فراشي كمجلسك منّي، فجعلتْ جُوَيْرياتٌ(٢) يَضْرِبْنَ بدُفّ لهنّ ويندُبن مَن قُتِل من آبائي يوم بدر إلى أن قالت إحداهنّ: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد؛ فقال: «دَعِي هذا وقولي الذي كنتِ تقولين قبله»، وهذا حديث صحيح أخرجه البخاريّ قال: وقد رواه حمّاد بن سلمة عن خالد بن ذكوان أتمّ من هذا، قال: كنّا بالمدينة يوم عاشوراء وكان الجواري يضربن بالدُّفّ ويغنّين، فدخلنا على الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذٍ، فذكرنا لها ذلك، فقالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ صبيحةَ عُرْسي وعندي جاريتان تُغنّيان وتندُبان آبائي الذين قُتلوا يوم بدر، وتقولان فيما تقولان: وفينا نبيٌّ يعلم ما في غد، فقال: «أمّا هذا فلا تقولوه لا يعلم ما في غدٍ إلا اللهُ عزّ وجلّ». وعن عائشةَ رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سافر سفرًا، فنَذَرت جاريةٌ من قريشٍ لئن ردّه الله تعالى أن تضرب في بيت عائشة بدُفّ، فلما رجع رسول الله ﷺ جاءت الجارية فقالت عائشةُ لرسول الله ﷺ: فلانة ابنةُ فلانٍ نذرتْ لئن ردّك الله تعالى أن تضرب في بيتي بدُفّ؛ قال: «فَلْتَضْرِبْ». قال أبو الفضل: وهذا إسناد مُتّصل ورجاله ثِقاتٌ، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا نَذْرَ في معصية الله»، فلو كان ضربُ الدفّ معصيةً لأمر بالتكفير عن نذرها أو مَنَعَها من فعله. وروي عن الشعبيّ قال: مرّ عياض الأشعريّ في يومِ عيد، فقال: ما لي لا أراهم يُقَلِّسون فإنّه من السنّة! والتقليس: الضرب بالدفّ، قاله هُشَيْم.

* * *

---

(١) النسائي: أحمد بن علي والحافظ، ولد بنسا في خراسان. وتوفي بمكّة سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م. أشهر كتبه كتاب «السنن الكبرى» وله «المجتبى» و«السنن الصغرى» و«الضعفاء والمتروكون» في رجال الحديث. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) جويريات: جوارٍ صغار.

وأمّا ما ورد في اليَرَاع، فقد احتجّ بعضُهم بحديث عبد الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما وهو ما خرّجه أبو داود سليمانُ بنِ الأشعثِ السِّجِسْتانيّ[1] في سُنَنه قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله الغُدَانيّ، حدّثنا مسلم، حدّثنا سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى عن نافع، قال: سمع ابن عمر رضي الله عنهما مزمارًا، فوضع إصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافع، هل تسمع شيئًا؟ قلت: لا، قال: فرفع إصبعيه من أذنيه وقال: كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا فصنع مثلَ هذا. قال أبو عبد الله اللؤلئيّ: سمعت أبا داود يقول: هذا الحديث منكر. وقال الحافظ محمد بن طاهر: هذا حديث خرّجه أبو داود في سُننه هكذا، وقد أنكره. وقد ورد من غير هذا الطريق أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع راعيًا وذكره. وفساد هذا الحديث من وجهين، أحدهما: فساد طريق الإسناد؛ فإن سليمان هذا هو الأشدق الدمشقيّ تكلّم فيه أهل النقل وتفرّد بهذا الحديث عن نافعٌ ولم يَرْوِه عنه غيرُه. وقال البخاريّ: سليمانُ بن موسى عنده مناكيرُ. والثاني قول عبد الله بنِ عمرَ لنافعٍ رضي الله عنهم: أتسمع؟ ولو كان ذلك منهيًا عنه لم يأمره بالاستماع. وقوله: كنت مع رسول الله ﷺ فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا. ولو كان حرامًا لنهاه عنه وصرّح بتحريمه؛ لأنه الشارع المأمور بالبيان. قالت عائشة رضي الله عنها: عَلَّقتُ على سَهْوةٍ[2] لي سِترًا فيه تصاويرُ، فلما رآه رسول الله ﷺ تَلَوّن وجهُه وهَتَكه[3]. وسمع النبيُّ ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلف بآبائه فنهاه عن ذلك. ورأى يزيدَ بنَ طَخْفة مضطجعًا على بطنه فنهاه، وقال: «هذه ضِجْعة يُبْغِضُها الله عزّ وجلّ»، وسمع ﷺ رجلًا يلعن ناقته، فوقف فقال: «لا يَتْبَعُنا ملعون»؛ فنزل عنها وأرسلها. قال الحافظ المقدسيّ: وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال، فثبت فسادُ هذا الحديث إسنادًا ومتنًا.

* * *

وأمّا ما ورد في القصب والأوتار، ويقال له التغبير، ويقال له القطقطةُ أيضًا، ولا فرقَ بينه وبين الأوتار؛ إذ لم يوجد في إباحته وتحريمه أثرٌ لا صحيحٌ ولا

---

(١) أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، من أئمّة الحديث. استقرّ في البصرة، وهو صاحب كتاب «السنن» من الكتب الستّة في الحديث. مات سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٩ م. انظر: شذرات الذهب ٢/١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) السهوة: العمود والمشجب والكوّة. (٣) هتكه: مزّقه.

سقيم؛ وإنما استباح المتقدّمون استماعَه لأنه مما لم يرد الشرع بتحريمه، وكان أصله الإباحة.

وأمّا الأوتار، فالقولُ فيها القولُ في القصب، لم يرد الشرعُ بتحليلها ولا تحريمها. قال: وكل ما أوردوه في التحريم فغير ثابتٍ عن رسول الله ﷺ، ولا خلافَ بين أهل المدينة في إباحة سماعِه. ومن الدليل على إباحته أن إبراهيمَ بنَ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰنِ بن عوفٍ مع جلالته وفقهه وثقته كان يُفتي بحِلّه، وقد ضرب بالعود ـ وسنذكر خبره في ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى ـ ولم تسقط عدالتُه بفعله عند أهل العلم، فكيف تسقط عدالةُ المستمع! وكان يبالغ في هذا الأمر أتمّ مبالغة. وقد أجمعت الأئمّة على عدالته واتفق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراج حديثه في الصحيح؛ وقد عُلِمَ من مذهبه إباحةُ سماع الأوتار. والأئمّة الذين رووا عنه أهلُ الحلّ والعقد في الآفاق إنما سمعوا منه وروَوْا عنه بعد استماعهم غناءه وعِلْمِهم أنه يُبيحه، ومنهم الإمام أحمدُ بنُ حنبلٍ، سمع منه ببغداد بعد حلفه أنه لا يحدّث حديثًا إلا بعد أن يُغنّي على عود، وذلك أنه لا شكّ سمع غناءه ثم سمع حديثه. قال: وهذا أمر لم يرد عن رسول الله ﷺ في تحليله ولا تحريمه نصّ يُرجع إليه، فكان حكمه كحكم الإباحة. وإنما تركه مَن تركه من المتقدّمين تورّعًا كما تركوا لُبْسَ اللّين وأكلَ الطّيب وشربَ البارد والاجتماع بالنسوان الحسان؛ ومعلوم أن هذا كلّه حلالٌ. وقد ترك رسول الله ﷺ أكلَ الضبّ[١] وسُئل عنه أحرامٌ هو؟ قال: «لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»، وأُكِلَ على مائدته ﷺ. وقد رُوي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنّه قال: إذا رأيتَ أهلَ المدينة اجتمعوا على شيء، فاعلم أنه سنّة. وقد رُوي عن محمد بن سِيرين[٢] رحمه الله أنّ رجلًا قدِم المدينة بجَوَارٍ، فنزل على ابن عمر وفيهنّ جارية تضرِب؛ فجاء رجل فساومه فلم يهوَ منهنّ شيئًا. فقال: انطلقْ إلى رجل هو أمثل لك بيعًا من هذا؛ فأتى إلى عبدَ الله بنَ جعفرٍ فعرضهنّ عليه؛ فأمر جارية قال: خذي، فأخذت العود حتى ظنّ ابن عمر أنه قد نظر إلى ذلك؛ فقال ابن عمر: حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان، قال: فبايعه. ثم جاء الرجل إلى ابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمٰن، إني

---

(١) الضبّ: حيوان صحراوي يشبه الحرذون، لكنه أكبر منه بكثير، يضرب المثل بذنبه فيقال: أعقد من ذنب الضبّ. وبيته له عدة منافذ. والعرب في جاهليّتها كانت تأكله.

(٢) محمد بن سيرين: العالم بالتأويل وتفسير الرؤيا، له كتاب مشهور في هذا العلم. مات في البصرة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م. انظر: شذرات الذهب ١٣٨/ ١٣٩.

غُبنت[١] بسبعمائة درهم، فأتى ابن عمرَ إلى ابنِ جعفر فقال: إنه قد غُبن بسبعمائة درهم، فإمّا أن تُعطيها إيّاه وإمّا أن تردّ عليه بيعه؛ فقال: بل نعطيها إيّاه. وهذه الحكاية ذكرها أبو محمد بن حَزْم واستدلّ بها على إباحته، فقال: فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود، وإن كان ابن عمر كره ما ليس من الجِدّ فلم يَنْهَ عنه، وقد سفر[٢] في بيع مغنّية كما ترى، ولو كان حرامًا ما استجاز ذلك أصلًا.

* * *

وأمّا ما ورد في المزامير والملاهي، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ: وأمّا القول في المزامير والملاهي، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز استماعها؛ فمن ذلك ما رواه بسند رفعه إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممتُ بشيء مما كان أهلُ الجاهليّة يفعلونه غيرَ مرّتين كلّ ذلك يحول الله عزّ وجلّ بيني وبين ما أُريده من ذلك، ثم ما هممتُ بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته، فإني قلت لغلام من قريش ليلةً وكان يرعى معي في أعلى مكّة لو أنك أبصرتَ غنمي حتى أدخلَ مكّةَ فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُر الشبابُ، قال: أفعل، فخرجت أريد ذلك حتى جئت أوّلَ دارٍ من ديار مكّةَ سمعت عَزْفًا بالدفوف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلانٌ تزوّج فلانةً بنتَ فلانٍ فجلستُ أنظرُ إليهم، فضرب الله عزّ وجلّ على أُذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ماذا فعلت؟قلت: ما صنعت شيئًا ثم خبّرته الخبر، فقال: ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: أفعلْ، فخرجت حتى دخلت مكّة فسمعت حين دخلت مكة مثل ما سمعت تلك الليلة فسألت عنه، فقالوا: فلان نكح فلانةً، فجلست أنظر فضرب الله على أذني فما أيقظني إلّا مسّ الشمس، فخرجت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله تعالى برسالته». قال الحافظ أبو الفضل: وكان هذا قبلَ النبوّةِ والرسالة ونزولِ الأحكام والفرقِ بينَ الحلال والحرام؛ فإن الشرعَ لمّا ورد أمره الله تعالىٰ بالإبلاغ والإنذار فأقرّه على ما كان عليه في الجاهلية، ولم يحرّمه كما حرّم غيره. قال: والدليل على أنه باقٍ على الإباحة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً

(١) غبنت: وقع عليّ الغبن، أي الخسارة.
(٢) سفر: عمل سفيرًا ووسيطًا بين البائع والمشتري.

أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ١١]. ثم بيّن الدليل على ذلك بما رواه بسنده إلى جابر قال: كان رسول الله ﷺ يخطب قائمًا، ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمًا، يخطب خطبتين. فكانت الجواري إذا أنكحوهنّ يمرّون فيضربون بالدفّ والمزامير فيتسلّلُ الناسُ ويدَعُونَ رسول الله ﷺ قائمًا، فعاتبهم الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجُمُعَة: الآية ١١]، وقال: هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في كتابه عن عبد الله بن حُمَيْد عن خالد بن مَخْلد عن سليمان بن بلال. والله عزّ وجلّ عطف اللهوَ على التجارة وحُكْم المعطوف حُكْم ما عطف عليه، والإجماع على تحليل التجارة، فثبت أن هذا الحكم مما أقرّه الشرع على ما كان عليه في الجاهليّة لأنه غير محتمَل أن يكون رسول الله ﷺ حرّمه، ثم يُمَرّ به على باب المسجد يوم الجمعة ثم يعاتب الله عزّ وجلّ مَن تركَ رسوله ﷺ قائمًا ثم خرج ينظر إليه ويستمع، ولم ينزل في تحريمه آية ولا سنّ رسول الله ﷺ سنّة، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله.

قال: ويزيد ذلك بيانًا ووضوحًا حديثُ عائشةَ رضي الله عنها في المرأة التي زفّتها وقد تقدّم ذكر الحديث. وروي أيضًا بسند رفعه عن زوج دُرَّةَ بنتِ أبي لَهَبٍ قال: دخل عليٌّ رسول الله ﷺ حين تزوّجتُ درّةَ فقال: «هل من لهو».

ذكر ما ورد في توهين ما استدلّوا به على تحريم الغناء والسّماع

قد ذكر الحافظ أبو الفضل المقدسيّ رحمه الله تعالى الأحاديث التي استدلّوا بها على تحريمه، وفسّروا بها الآيات والأحاديث التي استدلّوا بها على تحريمه مما قدّمنا ذكر ذلك في حججهم ومما لم نذكره مما يُستدلّ به على تحريمه وكراهته وضعف رجالها. وتكلّم الإمام أبو حامد الغزاليّ(١) رحمه الله أيضًا في ذلك ووهّن احتجاجهم إذا ثبت الحديث على ما نذكر ذلك.

(١) أبو حامد الغزالي: واسمه محمد، فيلسوف ومتكلّم ومتصوّف. لقّب بحجّة الإسلام. درّس في نظامية بغداد. له من الكتب «تهافت الفلاسفة» يردّ فيه على الفلاسفة. وله «إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال» و«الاقتصاد في الاعتقاد» و«الأسماء الحسنى». مات سنة ٥٠٥ هـ.

قال الحافظ أبو الفضل:

أمّا ما احتجّوا به من الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [لقمان: الآية ٦] الآية. وما أوردوه في ذلك من الأسانيد إلى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، فنظرت في جميعها فلم أرَ فيها طريقًا يثبت إلّا واحدًا منها رواه يوسف بن موسى القطّان عن جرير بن عبد الحميد عن عَطَاء بن السّائب عن سَعيد بن جُبَير عن ابن عباسٍ رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، قال: الغناء وأشباهُه، وسائرها لا يخلو من رواية ضعيف لا تقوم بروايته حجّة.

قال: ورأيت في بعضها رواية عطيّة العَوْفيّ عن ابن عباس من حديث غير ثابت أصلًا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، قال: باطل الحديث وهو الغناء ونحوه؛ وهو أن رجلًا من قريش اشترى جارية مغنّيةً فنزلت فيه، قال: وهذا وإن لم يصحّ عندي الاحتجاج بسندهم فيَلْزمهم قَبُولُه لأنهم احتجّوا به فيكون في حقّ هذا الرجل بعينِه.

وقد ورد في الآية تفسير ثالثٌ يلزمُهم قبوله على أصلهم، وذكر حديثًا رفعه إلى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع النبيّ ﷺ يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: «اللعب والباطل وتَشِحّ نفسه أن يتصدّق بدرهم»، قال: وهذا أيضًا غير ثابت عندي، وإنما أوردت هذين التفسيرين مناقضةً[1] لما أوردوه فيما تمسّكوا به.

قال: ولن أركن إلى هذا أبدًا ولا أقنع به ولا أحتجّ عليه ولا أُلزمهم إيّاه، بل أقول: صحّ عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما إجماع أهل السنّة على أن السنّة تقضي على الكتاب، وأن الكتاب لا يقضي على السنّة، وقد جاءت السنّة الصحيحة: أن النبيّ ﷺ استمع للغناء وأمر باستماعه، وقد أوردنا في ذلك من الأحاديث ما تقدّم إيرادُه. قال: وجوابٌ ثانٍ يقال لهٰؤلاء القوم المحتجّين بهذه التفاسير: هل عَلِم هؤلاءِ الصحابةِ الذين أوردتم أقاويلَهم من هذه الآية ما علمه رسول الله ﷺ أو لم يعلمه؟ فإن قالوا: لم يعلمه وعلِمه هؤلاء، كان جهلًا عظيمًا بل كفراً؛ وإن قالوا: عَلِمه، قلنا: نُقِلَ إلينا عنه في تفسير هذه الآية مثلُ ما نُقِلَ عن هؤلاء من الصحابة، وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال. ومن المحال أن يكون تفسيرُ قولهِ عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ

(١) مناقضة: مخالفة.

ﵟٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِﵞ [لقمان: الآية ٦] هو الغناء، ويقول رسول الله ﷺ: «أما كان معكنّ لَهْوٌ فإن الأنصار يعجبهم اللّهْو».

وقال أحمد بن حنبلٍ رحمه الله: ثلاثة ليس لها أصل: المَغازي، والملاحم، والتفسير.

وقال أبو حاتم محمد بن حسان في كتاب الضعفاء: الله عزّ وجلّ يؤتي رسوله ﷺ تفسير كلامه وتأويل ما أنزل عليه حيث قال: ﵟوَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡﵞ [النحل: الآية ٤٤].

ومن المخلّ المحال[١] أن يأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يبيِّن لخلقه مراده حيث جعله موضع الإبانة عن كلامه ومفسّرًا لهم حتى يفهموا مراد الله عزّ وجلّ، فلا يفعل ذلك رسول الله ﷺ؛ بل أبان مراد الله عزّ وجلّ من الآي وفسّر لأُمّته، ما تهمّ الحاجة إليه، وبيَّن سنّته ﷺ؛ فمن تَتَبَّع السنن وحفظها وأحكمها فقد عرف تفسير كتاب الله عزّ وجلّ وأغناه الله تعالى عن الكلبيّ وذويه، وما لم يُبيّن رسول الله ﷺ لأُمّته في معاني الآي التي أنزلت عليه مع أمر الله عزّ وجلّ له بذلك، وجاز ذلك كان لمن بعده من أُمّته أجوز، وترك التفسير لما تركه رسول الله ﷺ أحرى.

قال: ومن أعظم الدلائل على أن الله تعالى لم يرد بقوله: ﵟلِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡﵞ القرآن كلّه أن النبيّ ﷺ نزل عليه من الكتاب متشابه من الآي، فالآيات التي ليس فيها أحكام لم يبيّن كيفيتها لأُمّته؛ فلما فعل ذلك رسول الله ﷺ دلّ ذلك على أن المراد من قوله تعالى: ﵟلِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡﵞ كان بعض القرآن لا الكلّ.

وقال الإمام أبو حامد الغزاليّ رحمه الله في هذه الآية: وأمّا شراء لهوِ الحديثِ بالدّين استبدالًا به ليضلّ به عن سبيل الله فهو حرام مذمومٌ، وليس النزاع فيه. وليس كلُّ غناءٍ بدلًا عن الدِّين مشترى به ومُضِلًا عن سبيل الله وهو المراد في الآية، ولو قرأ القرآن: ليضلّ بِهِ عن سبيل الله لكان حرامًا.

حُكي عن بعض المنافقين: أنه كان يؤمّ الناسَ ولا يقرأ إلا سورة «عَبَسَ» لما فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ، فهمّ عمرُ بقتله، ورأى فعله حرامًا لما فيه من الإضلال، فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم.

---

(١) المخلّ المحال: الباطل.

وقال الثعلبيّ في أحد أقواله عن تفسير هذه الآية عن الكلبيّ ومُقاتِل: نزلت في النُّضَيْر بنِ الحارثِ بن عَلْقمةَ بن كَلَدَة بنِ عبدِ الدّار بن قُصَيّ؛ كان يتّجرُ فيخرج إلى فارسَ فيشتري أخبارَ الأعاجم فيرويها ويُحدِّثُ بها قريشًا، ويقول: إن محمدًا يحدّثكم بحديث عادٍ وثمودَ وأنا أحدّثكم بحديث رستمَ واسفنديارَ وأخبارِ الأكاسرةِ، فيستملحون حديثَه ويتركون استماعَ القرآن.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: الآيات ٥٩ - ٦١]، قال ابن عبّاس: هو الغناء بلغة حِمْيَر - يعني السمود - قال الغزاليّ رحمه الله: فنقول: ينبغي أن يَحْرُم الضحك وعدم البكاء أيضًا؛ لأن الآية تشتمل عليه، فإن قيل: إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضًا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٤]، وأراد به شعراء الكفّارِ، ولم يدلّ ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٣]، قال الثعلبيّ: قال الحسن، عن المعاصِي. وقال ابن عباس: الحَلِفُ الكاذب. وقال مُقاتِل: الشّتم والأذى. وقال غيرهم: ما لا يحلُّ من القول والفعل. قال: وقيل اللغوُ الذي لا فائدة فيه.

واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القَصَص: الآية ٥٥]، قال الثعلبيّ: أي القبيح من القول، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢]، قال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا، وبقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٤]، قال ابن عباس ومُجاهد وقتادةُ: بدعائك إلى معصية الله تعالى، وكلّ داعٍ إلى معصيةِ الله تعالى فهو من جنودِ إبليس.

وأمّا ما احتجّوا به من الحديث، فإنهم احتجّوا بحديث رُوِيَ عن أبي أُمامةَ الباهليّ رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «لا يحلّ بيعُ المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا تحلّ التجارةُ فيهنّ وأثمانُهنّ حرامٌ، والاستماعُ إليهنّ حرام». قال الحافظ أبو الفضل المقدسيُّ رحمه الله: هذا حديث رواه عُبَيْدُ الله بن زَحْرٍ عن عليّ بنِ يزيدَ عن القاسم عن أبي أُمامةَ، قال: والصّحابة كلُّهم عدول. وأما عُبَيْد الله بن زَهْر وعليّ والقاسم فهم في الرواية سواءٌ لا يُحتجُّ بحديث واحد منهم إذا انفرد بالرواية عن ثقةٍ، فكيف

إذا روى عن مثلِه. أما عُبَيْدُ الله بنُ زَحْر فيقال: إنه من أهل مصر. قال أبو مُسْهِر الغسّاني: عُبَيْد الله بن زَحْر صاحبُ كلِّ معضلة ليس على حديثه اعتماد. وقال عثمان بنُ سعيدٍ الدارميّ: قلت ليَحيىٰ بنِ مَعِين: عبيد الله بن زحر كيف حديثُه؟ قال: كل حديثُه ضعيفٌ، قلت: عن عليّ بن يزيد وغيره؟ قال: نعم. وقال عباس الدُّوريّ عن يحيىٰ: عبيد الله بن زحر ليس بشيء. وقال أبو حاتم في كتاب الضعفاء والمتروكين: عبيد الله بن زحر مُنكَر الحديث جدًّا، روى الموضوعاتِ عن الثِّقاتِ وإذا روى عن عليّ بن يزيد أتى بالظلمات، وإذا اجتمع في إسنادِ عُبَيْدُ الله بن زَحْر وعليُّ بن يزيد والقاسمُ بنُ عبدِ الرحمٰن لا يكون متنُ ذلك الحديث إلا ممّا عملت أيديهم فلا يحلّ الاحتجاج بهذه الصحيفة.

قال المقدسيّ: وهذا الحديث قد اجتمعوا في إسناده، قال: وأما عليّ بن يزيدَ فهو من أهل دمشق يُكنى بأبي عبد الملكِ روى عن القاسم، قال النّسائيُّ في كتاب الضعفاء: عليّ بن يزيد متروكُ الحديث. وقال أبو عبد الرحمٰن بن حيّان: عليّ بن يزيد مطروحٌ منكرُ الحديثِ جدًّا. وأما القاسم بن عبد الرحمٰن ويُكنى بأبي عبدِ الرحمٰن فقال يحيىٰ بن مَعين: القاسم بنُ عبد الرحمٰن لا يَسْوَى شيئًا. وقال أحمد بن حنبل[1]، وذكر القاسم مولى يزيد بن معاوية فقال: منكر الحديث. وقال أبو حاتم بن حَسّان: القاسم يروي عنه أهل الشأم، كان يروي عن الصحابة المعضلاتِ ويأتي عن الثقاتِ بالأسانيد المقلوبات، حتى كان يَسْبِق إلى القلب أنه المعتمِدُ لها.

قال المقدسيّ: فهذا شرح أحوالِ رواةِ الحديثِ الذي احتجّوا به في التحريم، هل تجوز روايتُه كما ذكره الأئمّةُ حتى يستدلّ به في التحليل والتحريم.

واحتجّوا بما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أمرني ربّي عزّ وجلّ بنفي الطنبور والمزمار»، وهو حديث رواه إبراهيمُ بنُ اليَسَع بن الأشعث المكيّ وإسماعيل بنُ هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها. وإبراهيم هذا ـ قال البخاريّ ـ: منكر الحديث. وقال النسائيّ: المكيّ ضعيف.

---

(١) أحمد بن حنبل: أحد أئمّة المسلمين السنيين الأربعة الكبار، من أهل بغداد. اتّصف بشدّة تمسّكه بالنزعة السلفية ومخالفته للرأي. قاوم المعتزلة في مشكلة خلق القرآن فأصيب بالمحنة على عهد المأمون، ثم على عهد المعتصم. سجن في بغداد وعذّب. عفا عنه المتوكّل. أشهر آثاره «المسند» في الحديث. مات سنة٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٩٦ ـ ٩٧.

واحتجّوا بما رُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الدُّفّ ولعب الصَّنْج وصوت الزمّارة، وهو حديث رواه عبد الله بن ميمونٍ عن مَطَرِ بنِ سالم عن عليٍّ قال: وعبد الله هو القدّاح ذاهب الحديث؛ ومطر هذا شبه المجهول.

واحتجّوا بما رُوي عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: نهاني رسول الله ﷺ عن المغنّيات والنوّاحات وعن شرائهنّ وبيعهنّ والتجارة فيهنّ، وقال: «كسبُهنّ حرام»، قال: وهذا حديث رواه عليّ بن يزيد الصُّدَائيّ عن الحارث بن نَبْهانَ عن أبي إسحٰقَ السَّبِيعِيّ عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال: والحارث بن نَبْهان ليس بشيء ولا يُكتبُ حديثُه، قاله يحيىٰ بن مَعِين. وقال البخاريّ: الحارث منكر الحديث. وقال أحمد بن حنبل: الحارث رجل صالح ولم يكن يَعْرِفُ الحديثَ ولا يحفظ، منكر الحديث. وقال النسائيّ: الحارث بن نَبْهان متروك الحديث، لم يروِه عن أبي إسحٰق عمرو بن عبد الله السَّبيعي وغيره ولا رواه عنه غير عليّ بن يزيد الصُّدائيّ. وعلى هذا قال أحمد بن عديّ: أحاديثه لا تشبه أحاديثَ الثّقات. والحارث الذي روى عن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه هو الحارث بن عبد الله أبو زهير الخارفي الأعور، أجمعَ أهل النقل على كذبه، والحمل في هذا الحديث على الحارث بن نبهان، وإن كان في الإسناد من الضعفاء غيره.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «صوتان معلونان في الدنيا والآخرة: صَوتُ مِزمارٍ عند نعمة وصَوتُ نُدبة عند مصيبة»، وهذا حديث رواه محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومحمد بن زياد هذا هو الطحّان اليَشْكُرِيّ. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عنه فقال: أعورٌ كذّابٌ خبيثٌ يضعُ الحديث. وقال يحيىٰ بن معين: أجمع الناس على طرح هؤلاء النفرِ لا يعتدّ بهم، منهم محمد بن زياد. وكان أبو يوسف الصَّيْدلانيّ يقول: قَدِم محمد بن زياد الرَّقَّة بعد موت ميمون بن مهران.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ: أنه ذكر خسفًا[١] ومسخًا[٢] وقذفًا[٣] يكون في هذه الأمّة، قالوا: يا رسول الله إنهم يقولون: لا إلٰه إلّا الله، قال: «نعم إذا

---

(١) الخسف: جعل عالي الأرض سافلها وسافلها عاليها.
(٢) المسخ: قلب بعض الناس حيوانات كالخنزير أو الضبّ وغيرهما.
(٣) القذف: قد يكون بالنيازك والشهب وغيرهما.

أَظْهَرُوا النَّرْدَ والمعازِفَ وشربَ الخمور ولبسَ الحرير»، قال: وهذا حديث رواه عثمان بن مَطَر عن عبد الغفور عن عبد العزيز بن سَعِيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ، قال: وعثمان هو الشيبانيّ من أهل البصرة وكان ضريرًا. قال يحيىٰ بن مَعِين: ليس بشيء. وقال البخاريّ: متروك الحديث.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «بعثني ربّي عزّ وجلّ بمحق المزامير والمعازف والأوثانِ(١) التي كانت تُعْبَدُ في الجاهلية والخمر وأقسم ربّي عزّ وجلّ بعزّته ألا يشربها عبدٌ في الدنيا» الحديث. قال: وهذا حديث رواه محمد بن الفُرات عن أبي إسحٰق السَّبِيعيّ عن الحارث الأعور عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومحمد بن الفُرات هذا من أهل الكوفة. قال أبو بكر بن أبي شَيْبة: هذا شيخ كذّاب. وقال يحيىٰ بن معين: ليس بشيء. وقال النسائيّ: متروك. وقد تقدّم ذكر السبيعيّ والحارث الأعور، ومضى الكلام عليه.

واحتجّوا بما رُوي عن أبي هريرةَ رضي الله عنه مسندًا: «إن الغِناءَ يُنْبِتُ النفاقَ في القلب»، وهو حديث عبد الرحمٰن بن عبد الله العُمَريّ ابن أخي عُبَيْدُ الله بن عمر عن أبيه عن سَعِيد بن أبي سَعِيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ، وعبد الرحمٰن هذا، قال أحمد بن حنبل: ليس يَسْوَى حديثه شيئًا، سمعت منه ثم تركناه وكان وَلِيَ قضاءَ المدينة، أحاديثه مناكيرُ وكان كذّابًا. قال النسائيّ: وهو متروك الحديث.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «مَنْ استَمع إلى قِيَانٍ صُبَّ في أذنيه الآنُك»(٢)، وهو حديث رواه أبو نُعَيْم الحلبيّ عن عبد الله بن المنذر عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك. وأبو نعيم اسمه عُبَيْد بن هشام من أهل حلب ضعيف، ولم يبلغ عن ابن المبارك، مرسل.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لعن الله النائحةَ والمُسْتَمِعَةَ والمغنّي والمغنّى له»، وهو حديث رواه عمرو بن يزيد المدائنيّ عن الحسن البصريّ عن أبي هريرة، وعمرو هذا قال أبو أحمد بن عديّ(٣): منكر الحديث، والحسن لم يسمع من أبي هريرة شيئًا. وقال ابن عديّ: هذا الحديث غير محفوظ.

---

(١) الأوثان: الأصنام. (٢) الآنك: الرصاص.

(٣) ويعرف بابن عدي الجرجاني الحافظ، صاحب كتاب «الكامل في معرفة ضعفاء المحدّثين وعِلل الحديث». مات سنة ٣٦٥ هـ.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «النظرُ إلى المغنّية حرام وغِناؤُها حرام وثمنُها حرام»، وهو حديث يزيدَ بنِ عبد الملك بن المغيرة بن نوفل النوفليّ المدنيّ عن يزيد بن خُصَيفةَ عن السائب بن يَزيدَ عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ. ويزيد الأوّل قال النسائيّ: متروك الحديث. وقال أحمد بن حنبل: عنده مناكير. وقال يحيىٰ بن معين: يزيد بن عبد الملك ليس بذاك.

واحتجّوا بما رُوي عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عملت أمّتي خمسَ عشرةَ خصلةً حلّ فيها البلاء»، وذكرها وقال في جملتها: «واتّخذت القيانَ والمعازفَ»، وهو حديث رواه فرجُ بنُ فَضالةَ الشيبانيّ من أهل حِمْص عن يحيىٰ بن سعيد الأنصاريّ عن محمد بن عليّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. قال عبد الرحمٰن بن مهديّ: أحاديث الفرج عن يحيىٰ بن سعيد منكرة. وقال يحيىٰ بن معين: فرج ضعيف. وقال أبو حاتم بن حَسّان: فرج بن فَضالة كان يَقْلِبُ الأحاديث الصحيحة ويلصق المتونَ الواهيةَ بالأسانيد الصحيحة، لا يحلُّ الاحتجاجُ به.

واحتجُّوا بحديث جابرٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد عبد الرحمٰن فذكر حديثًا، قال فيه: «نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوتٍ عند مصيبة وصوتٍ عند نعمة لعب ولهو ومزامير الشيطان»، وهذا حديث رواه محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن عطاء عن جابر، وأنكر عليه هذا الحديث وضُعِّف لأجله. قال أبو حاتم بن حَسّان: كان رديء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ يروي الشيء على وجه الوهم ويستحق الترك. وتركه أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين.

واحتجوا بأنه ﷺ سمع صوتًا فقال: «انظروا مَن هذا»، فنظرتُ فإذا معاويةُ وعمرو يتغنّيان، الحديث؛ وفيه: «اللّهمّ اركُسْهما[1] في الفتنة رَكْسًا»، وهو حديث رواه يزيد بن أبي زياد عن سليمان عن عمرو بن الأحوص عن أبي بَرْزةَ الأسلميّ. ويزيدُ هذا من أهل الكوفة، وكان الكَذَبة يلقّنونه على وَفْق اعتقادهم فيتلقّاها ويُحَدِّثُ بها ضَعَفَةَ أهل النقل، وقد رُوي هذا الحديث من طريق آخر ليس فيه معاوية هذا، وأنه ابن التابوت.

قال المقدسيّ: ولم يصحّ عن النبيّ ﷺ أنه ذكر أحدًا من أصحابه إلّا بخير.

---

(١) اركسهما: أوقعهما ولا تنجهما.

واحتجّوا بما رُوي عن أبي سَعِيد الخُدْريّ(١) رضي الله عنه رفع الحديث، أن النبيّ ﷺ قال: «يكون في آخر هذه الأُمّة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ في مُتَخِذي القِيانِ وشاربي الخمور ولابسي الحرير»، وهو حديث رواه زياد بن أبي زياد الجَصّاص عن أبي نَضْرةَ عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه، وزياد هذا متروك الحديث.

واحتجّوا بحديث رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وله قَيْنَةٌ فلا تصلّوا عليه»، وهو حديث رُوي بإسناد مجهول عن خارجةَ بنِ مصعبٍ عن داودَ بن أبي هندٍ عن الشعبيّ عن عليّ، وخارجةُ متروك الحديث من أهل سَرْخَس(٢).

واحتجّوا بما روى عبد الرحمٰن بن الجَنَديّ قال: قال عبدُ الله بن بُسْر صاحب النبيّ ﷺ: يا ابنَ الجنديّ، فقلت: لبّيك يا أبا صفوان، قال: والله ليُسمخَنَّ قوم وإنهم لفي شرب الخمور وضرب المعازِف حتى يكونوا قردة أو خنازير. والحديث موقوف وابن الجنديّ مجهول. والنبيّ ﷺ سأل ربّه ألّا يعذّب أمّته بما عذّب به الأُمَم قبلها فأعطاه ذلك.

واحتجّوا بما رُوي عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه وقد تقدّم بعضُه، وفيه زيادة أخرى أن النبيّ ﷺ قال: «لا يَحلّ بيعُ المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا الجلوسُ إليهنّ»، ثم قال: «والذي نفسي بيده ما رَفع رجلٌ عقيرته(٣) بغِناءٍ إلا ارتدف(٤) على ذلك شيطانٌ على عاتقه(٥) هذا وشيطانٌ على عاتقه هذا حتى يسكتَ»، وهذا حديث قد تقدّم أوّله من حديث عُبَيْد الله بن زَحْر، وهذه الزيادة من رواية مَسْلَمة بن عليّ الدمشقيّ عن يحيىٰ بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمٰن عن أبي أُمامة. ومسلمة هذا، قال ابن معين: ليس بشيء. وقال البخاريّ: منكر الحديث. وقد تقدّم القول في القاسم بن عبد الرحمٰن.

واحتجّوا بحديث رُوي عن عبد الله بن مسعود من رواية سَلّامِ بنِ مِسكين قال: حدّثني شيخٌ سمعَ أبا وائلٍ يقول: سمعت ابن مسعودٍ يقول: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) أبو سعيد الخدري: من جلّة المحدّثين والصحابة الذين شهدوا الكثير ممّا فعله الرسول ﷺ، وأقرّه أو نهى عنه.

(٢) سرخس: مدينة إيرانية قديمة بين مرو ومشهد.

(٣) عقيرته: العقيرة في الأصل ذنب الدويبة والهامّة، وهنا: بمعنى الصوت

(٤) ارتدف: كان رديفه، أي الشخص الآخر وراءه أو إلى جانبه.

(٥) عاتقه: ما بين عنقه ومنكبه.

يقول: «الغِناءُ يُنْبِتُ النفاقَ في القلب»، هكذا رواه سَلّامٌ عن شيخ مجهول لا يُعرفُ. ورواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن محمد بن عبد الرحمٰن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود وقوله، ولم يذكر النبيّ ﷺ. ورواه الثقاتُ عن شعبةَ بن الحجّاج عن مغيرةَ عن إبراهيمَ، قوله، ولم يذكر أحدًا تقدّمه فيه وهذا أصحّ الأقاويل فيه من قول إبراهيم. قال الغزالي رحمه الله تعالىٰ: قول ابن مسعود: يُنْبِتُ النفاقَ أراد به في حقّ المغنّي فإنه في حقّه ينبت النفاق إذ غرضُه كلُّه أن يعرضَ نفسه على غيره ويروّجَ صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودّد إلى الناس ليرغبوا في غنائه، وذلك أيضًا لا يوجب تحريمًا، فإن لبس الثّياب الجميلة وركوب الخيل المُهَمْلَجَة[١] وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث[٢] والأنعام[٣] والزرع يُنبِت الرياءَ والنفاقَ في القلب ولا يُطْلَقُ القولَ بتحريم ذلك كلّه؛ فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط، بل المباحات التي هي مواقع نظرِ الخلقِ أكثرُ تأثيرًا. ولذلك نزل ابنُ عمر رضي الله عنهما عن فرس هَملجَ تحته وقطع ذَنَبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء[٤] لحسنِ مشْيَته، فهذا النفاق من المباحات.

واحتجّوا بحديث رُوي عن صفوان بن أُميّة قال: كنّا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه عمرو بن قُرَّةَ فقال: يا نبيّ الله إنّ الله عزّ وجلّ كتب عليّ الشِّقوةَ ولا أَرانِي أُرْزَقُ إلّا من دُفّي بكفّي أفتأذن لي في الغناء من غير فاحشة؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا إذنَ ولا كرامةَ ولا نُعْمَةَ»، وذكر حديثًا طويلًا، وهو حديث رواه عبد الرزّاق بن همّام الصَّنْعاني عن يحيىٰ بن العَلاء عن بشرِ بن نُمَيْرٍ عن مكحولٍ قال: حدّثني يزيد بن عبد الملك عن صفوان بن أُميّة. ويحيىٰ بن العلاء هذا مدنيّ الأصل رازيّ[٥]. قال يحيىٰ بن معين: يكنى أبا عمرو ليس بثقة. وقال عمرو بن علي الصيرفيّ: يحيىٰ بن العلاء متروك الحديث، والله أعلم.

واحتجّوا بما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمّارة، وهو حديثٌ نقله سليمانُ بنُ أبي سليمانَ الداوديّ البصريّ عن محمد بن بشر عن أبي هريرةَ، وسليمان هذا متروك الحديث غير ثقة.

---

(١) المهملجة: الحسنة السير.
(٢) الحرث: الأرض المحروثة، والزرع، ومتاع الدنيا من مال وبنين وغير ذلك.
(٣) الأنعام: جمع نَعَم، وهي الإبل خاصةً، والإبل والبقر والغنم عامّةً.
(٤) الخيلاء: التيه والزهو، والتبختر والكبر.
(٥) رازيّ: نسبة إلى الرّيّ، المدينة القديمة في شمال إيران.

واحتجّوا بقول عثمان رضي الله عنه: ما تغنّيتُ ولا تمنّيتُ ولا مَسستُ ذكري بيميني منذ بايعتُ النبيَّ ﷺ. وهذا حديث رواه صقر بنُ عبد الرحمٰن عن أبيه عن مالكِ بن مِغْوَلٍ عن عبد الله بن إدريس عن المختار بن فُلْفُلٍ عن أنس بن مالك في حديث القُفّ والصّيد.

قال المقدسيّ: هذا حديث لم أرَ فيه تحاملًا، ورأيته ذكر من هذا أشياء لم يأتِ بها غيره تُوجبُ تركَ حديثه والله أعلم. وقال الغزاليّ رحمه الله تعالى وذكر هذا الحديث: قلنا فليكن التمنّي ومَسّ الذكر باليمين حرامًا إن كان هذا دليلَ تحريم الغناء، فمن أين ثبت أن عثمان كان لا يترك إلّا الحرام.

قال الحافظ أبو الفضل المقدسيّ رحمه الله تعالى: فهذه الأحاديث وأمثالها احتجّ بها من أنكر السماع جهلًا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته، فترى الواحدَ منهم إذا رأى حديثًا مكتوبًا في كتاب جعله لنفسه مذهبًا واحتجّ به على مخالفه، وهذا غلط عظيم بل جهلٌ جسيم. هذا ملخّصُ ما أورده رحمه الله تعالى، وفيه من الزيادات ما هو منسوب إلى الثعلبيّ والغزاليّ على ما بيّناه في مواضعه.

وقد تكلّم الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزاليّ الطوسيّ رحمه الله تعالى على السماع في كتابه المترجم بـ «إحياء علوم الدّين»، وبيَّنَ دليل الإباحة وذكر بعد ذلك آداب السّماع وآثاره في القلب والجوارح؛ فقال:

اِعلم أنَّ السماعَ هو أوّلُ الأمر، ويُثمر السماعُ حالةً في القلب تسمَّى الوجدَ ويُثمر الوجدُ تحريكَ الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإمّا موزونة فتسمّى التصفيق والرقص. ثم بدأ بحكم السماع وبيّن الدليلَ على إباحته ثم ذكر ما تمسّك به القائلون بتحريمه، وأجاب عن ذلك بما نذكره أو مختصره إن شاء الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى: نقل أبو طالب المكيّ إباحةَ السماع عن جماعة، وقال: سمِع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبَيْر، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم. وقد فعل ذلك كثير من السلف صحابيّ وتابعيّ[1]. قال: ولم يزل الحجازيّون عندنا بمكّة يسمعون السماعَ في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات

(١) الصحابيّ، من صحب رسول الله ﷺ في حياته وشاهده، والتابعي: من لم يصحبه، ولم يشاهده، لكنه أخذ هذا مباشرة وسمعه من الصحابة.

التي أمر الله عزّ وجلّ عباده فيها بذكره كأيام التشريق[١]، ولم يزل أهل المدينة ومكّة مواظبين على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوارٍ يُسمِعْنَ الناسَ التلحينَ قد أعدّهنّ للصوفيّة؛ قال: وكان لعطاء جاريتان تُلَحّنانِ وكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تُنكر السماعَ وقد كان الجُنيد[٢] وسَرِيّ السَّقَطِي[٣] وذو النون[٤] يسمعون! فقال: كيف أُنكِرُ السماعَ وأجازه وسمعه مَنْ هو خير منّي. وقد كان عبد الله بن جعفر الطيّار يسمع، وإنما أُنكِر اللهوَ واللَّعِبَ في السّماع.

وروي عن يحيىٰ بن معاذ أنّه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فلا نراها ولا أراها تزداد إلا قِلّة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

قال الغزاليّ: ورأيت في بعض الكتب هذا بعينه محكيًا عن المحاسبيّ وفيه ما يدلّ على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه[٥] وجدّه في الدّين وتشميره[٦].

وحكي عن مِمْشاد الدِّينَوري أنّه قال: رأيت النبيَّ ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئًا؟ فقال: «ما أنكر منه شيئًا ولكنْ قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن». قال الغزاليّ: وعن ابن جُرَيْج أنه كان يرخّصُ في السّماعِ فقيل له: تُقدّمه يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيّئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيّئات لأنه شبيه باللغو، قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٥]؛ ثم بيّن الغزاليّ رحمه الله الدليل على إباحة

(١) أيام التشريق: وعددها اثنان أو ثلاثة، وتكون بمنًى عقب النفرة من عرفات إلى المزدلفة فمنًى، وهي تبدأ صبيحة عيد الأضحى في العاشر من ذي الحجّة.

(٢) الجنيد: أبو القاسم، صوفي بغداديّ، تتلمذ على خاله السري السقطي، وهو صاحب طريقة صوفية تُعرف باسمه. مات سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م. انظر: الفهرست ص ٢٦٤.

(٣) هو سريّ بن المغلس السقطي، من رجال المتصوّفة البغداديّين. كان أستاذ الجنيد وخاله معًا. مات سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٢٧.

(٤) ذو النون: هو أبو الغيض ثوبان المعروف بذي النون المصري، من كبار رجال المتصوّفة، وهو نوبيّ الأصل. أدخل حال الوجد والحبّ المطلق في التصوّف، وهو أوّل من تكلّم في ترتيب الأحوال ودرجات مقامات أهل الولاية. اتّهم بالزندقة وسجن في بغداد ثم أطلق سراحه. توفي في مصر بالجيزة سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٠٧.

(٥) تصاونه: تحفّظه.

(٦) التشمير إلى الشيء: القيام إليه والسعي بجدّ ونشاط.

السماع فقال: اعلم أن قول القائل: السماع حرام، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يُعرفُ بمجرّد العقل بل بالسمع، ومعرفة الشرعيّات محصورة في النصّ أو القياس(١) على المنصوص. قال: وأعني بالنصّ ما أظهره رسول الله ﷺ بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله، فإن لم يكن فيه نصٌّ ولم يستقم فيه قياسٌ على منصوص بطَل القولُ بتحريمه ويبقى فعلًا لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدلّ على تحريم السماع نصّ ولا قياس. قال: وقد دلّ القياس والنصّ جميعًا على إباحة السماع.

أمّا القياس، فهو أن الغناء اجتمع فيه معانٍ ينبغي أن يُبحثَ عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإن فيه سماعَ صوتٍ طيّبٍ موزون مفهوم المعنى محرِّكٍ للقلب؛ فالوصف الأعمّ أنه صوتٌ طيّب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره. والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وأصوات سائر الحيوانات.

أما سماع الصَّوتِ الطيّبِ من حيثُ إنه طيّبٌ فلا ينبغي أن يُحرَّمَ بل هو حلال بالنصّ والقياس.

أمّا القياس فإنه يَرجِع إلى تلذّذ حاسّةِ السمع بإدراك ما هو مخصوصٌ به، وللإنسان عقل وخمسُ حواسّ ولكلّ حاسَّةٍ إدراك. وفي مُدْركَات تلك الحاسّة ما يُستلذّ؛ فلذّة البصر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجهِ الحسنِ وسائر الألوانِ الجميلة وهي في مقابلة ما يُكره من الألوان الكدِرَة القبيحة. وللشمّ الروائح الطيّبةُ وهي في مقابلة الأنتانِ المستكرهة. وللذّوق الطعومُ اللذيذةُ كالدُّسُومةِ والحلاوةِ والحموضةِ وهي في مقابلة المرارةِ والمَزازةِ المستبشعة. وللمسّ لذّةُ اللّينِ والنعومةِ والملاسة وهي في مقابلة الخشونةِ والضَّراسة، وللعقل لذّةُ العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة؛ فكذلك الأصواتُ المدركةُ بالسمعِ تنقسم إلى مستلذّةٍ كصوت العنادلِ(٢) والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحُمُر وغيرها، فما أظهر قياسَ هذه الحاسّة ولذّتها على سائر الحواس ولذّاتها.

---

(١) القياس: لغةً: حمل الشيء على نظيره، وفي الفقه: هو حمل فرع على أصل لعلّة مشتركة بينهما، كالحكم بتحريم شراب مسكر حملًا على الخمر، وذلك لاشتراكهما في علّة التحريم، وهي الإسكار. وإجمالًا فإن القياس، مصدر من مصادر التشريع أخذ به أبو حنيفة أصلًا، ثم تبعه آخرون.

(٢) العنادل: جمع عندليب، وهو ضرب من الطيور الحسنة الصوت.

وأمّا النصّ فيدلّ على إباحة سماع الصوت الحسن امتنانُ اللهِ على عباده به؛ إذ قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطِر: الآية ١]، فقيل: هو حسن الصوت. وفي الحديث: «ما بعث الله نبيًا إلا حسنَ الصوت»، وقال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ أَذَنًا للرجلِ الحسنِ الصوتِ بالقرآنِ من صاحب القَيْنةِ إلى قَيْنتهِ»، وفي الحديث في معرض المدح لداودَ عليه السلام: «أنه كان حسنَ الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزّبُور حتى كان يجتمع الإنس والجنّ والوحش والطير لسماع صوته، وكان يُحملُ من مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب من ذلك في الأوقات». وقال رسول الله ﷺ في مدح أبي موسى الأشعريّ: «لقد أُعطي مزمارًا من مزاميرِ آلِ داود»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: الآية ١٩]، يدلّ بمفهومه على مدح الصوت الحسَن. ولو جاز أن يقال: إنما أُبيحَ ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يُحَرِّمَ سماعَ صوت العندليب لأنه ليس بقرآن. وإذا جاز سماع صوتِ غُفْلٍ لا معنى له، فلم لا يجوز سماعُ صوتٍ يُفهم منه الحكمةُ والمعاني الصحيحة! وإن من الشعر لحكمة. قال: فهذا نظر في الصوت من حيث إنه طيّبٌ حسن.

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيّب الموزون، فإنّ الوزن وراءَ الحسنِ، فكم من صوتٍ حسنٍ خارجٌ عن الوزن، وكم من صوت موزون غيرُ مستطاب. والأصوات الموزونةُ باعتبارِ مخارجِها ثلاثة، فإنها إمّا أن تكونَ من جماد؛ كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيبِ والطبل وغيره. وإمّا أن تخرج من حنجرةِ حيوانٍ، وذلك الحيوانُ إما إنسانٌ وإما غيرُه، فصوتُ العَنادلِ والقَماريّ[١] وذوات السّجع[٢] من الطيور مع طيبها موزونةٌ متناسبةُ المَطَالِع والمقاطع فلذلك يُستلذّ سَمَاعُها. والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وُضعت المزاميرُ على صورةِ الحناجر وهي تشبيه الصَّنْعةِ بالخِلْقة. وما من شيء تَوصّل أهلُ الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلّا وله مثالٌ في الخلقةِ التي استأثر الله تعالىٰ باختراعها، منه تعلّم الصُّنّاعُ وبه قصدوا الاقتداء؛ فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يَحْرُمَ لكونها طيّبةً أو موزونةً فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان؛ فينبغي أن يُقاس على صوت العندليب الأصواتُ الخارجةُ من سائر الأجسام باختيار الآدميّ كالذي يخرج من حلْقهِ أو من القضيبِ والطبلِ والدُّفّ وغيره. ولا يستثنى من هذا إلا الملاهي والأوتار والمزامير؛ إذ ورد الشرع

(١) القماري: جمع قمريّة، وهي ضرب من الحمام البرّي ذي الصوت الحسن.
(٢) السجع: الغناء والترديد في الصوت.

بالمنع منها لا للذّتها؛ إذ لو كان للذّة لقيس عليها كل ما يلتذّ به الإنسان ولكن حُرِّمت الخمورُ واقتضت ضراوة[١] الناس بها المبالغة في الفِطام[٢] عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدِّنان[٣]، فحرِّم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط. وكان تحريمه من قبيل الإتباع كما حُرِّمت الخلوة[٤] لأنها مقدّمة الجماع. وحُرِّم النظر إلى الفخذ لاتّصاله بالسّوأتين[٥]. وحُرِّم قليل الخمر وإنْ كان لا يُسكِرُ لأنه يدعو إلى المسكر، وما من حرام إلّا وله حَرَم يُطِيفُ به. وحكم الحُرْمَة ينسحب على حريمه ليكون حِمًى للحرام ووِقايةً له وحِظَارًا[٦] مانعًا حوله؛ كما قال ﷺ: «إن لِكُلِّ ملِكٍ حِمًى وإنّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ»، فهي محرّمة تبعًا لتحريم الخمر.

الدرجة الثالثة: الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيُقطَعُ بإباحةِ ذلك لأنه ما زاد إلّا كونه مفهومًا. والكلام المفهوم غير حرام. والصوت الطيّب الموزونُ غيرُ حرام، فإذا لم يَحْرُم الآحادُ فمن أين يَحرُم المجموعُ؛ نعم يُنظر فيما يُفهم منه، فإن كان فيه أمر محظور حَرُم نثره ونظمُه وحَرُم التصويت به سواء كان بألحان أو لم يكن.

والحقّ فيه ما قاله الشافعيّ رحمه الله؛ إذ قال: الشعرُ كلامٌ فحسَنه حسنٌ وقبيحُه قبيح. ومهما جاز إنشادُ الشعرِ بغير صوتٍ وألحانٍ جازَ مع الألحان، فإن إفراد المباحات إذا اجتمعت كان مباحًا، ومهما انضمّ مباحٌ إلى مباح لم يحرم إلّا إذا تضمّن المجموعُ محظورًا لا تتضمّنه الآحاد، ولا محظورًا هاهنا. وكيف يُنكر إنشادُ الشعر وقد أُنشد بينَ يديّ رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «إنّ من الشِّعرِ لحِكْمَةً»، وساق رحمه الله في هذا الموضع الأحاديث الصحيحة التي تضمّنت إنشادَ الشعر والحُدَاء به وهي أشهر من أن يُحتَاج إلى سردها. ثم قال بعد سياق الأحاديث: ولم يزل الحُدَاء وراء الجمال من عادة العرب في زمان سيّدنا رسول الله ﷺ وزمان الصحابة، وما هو إلّا أشعار تُؤدّى بأصواتٍ طيّبة وألحانٍ موزونةٍ. ولم يُنقلْ عن أحد من الصحابةِ إنكارُه، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارةً لتحريك الجِمالِ وتارةً

---

(١) الضراوة: الاعتياد والاجتراء على الشيء. (٢) الفطام: الانقطاع.
(٣) الدنان: أوعية الخمرة وزقاقها، والمفرد: الدّنّ.
(٤) الخلوة: الانفراد.
(٥) السّوأتان: القبل والدّبر، أي فرج المرء ومؤخرته أو إسته.
(٦) الحظار: ما يحظر بينك وبين الآخر وما يحول بينكما كالحائط وسواه.

للاستلذاذِ، فلا يجوز أن يُحَرَّمَ من حيث إنه كلام مفهوم مؤدًى بأصواتٍ طيِّبة وألحانٍ موزونة.

الدرجة الرابعة: النظر فيه من حيث إنه محرِّكٌ للقلب ومُهيِّجٌ لما هو الغالب عليه، قال أبو حامد: فأقول: للهِ سبحانه وتعالىٰ سرٌّ في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثّرُ فيها تأثيرًا عجيبًا؛ فمن الأصوات ما يُفرِحُ ومنها ما يُحْزِنُ ومنها ما يُنَوّم ومنها ما يُضْحِكُ ويُطْرِبَ ومنها ما يَسْتَخْرِجُ من الأعضاء حركاتٍ على وزنها باليد والرجل والرأس. ولا ينبغي أن يُظنّ أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جارٍ في الأوتار حتى قيل: من لم يُحركه الربيعُ وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المِزَاج ليس له علاج. وكيف يكون ذلك بفهم المعنى، وتأثيرُه مشاهدٌ في الصبيّ في مهده فإنه يُسكته الصوتُ الطيِّبُ عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يُبْكِيه إلى الإصغاء إليه. والجملُ مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاءِ تأثيرًا يَستخِفُّ معه الأحمالَ الثقيلةَ ويستقصِرُ لقوّة نشاطه في سماعه المسافاتِ الطويلةَ، وينبعث فيه من النشاط ما يُسكره ويُولِهه[1]؛ فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت مُنادِي الحداء تَمدّ أعناقَها وتُصْغِي إلى الحادي ناصبةً آذانها وتُسرعُ في سيرها حتى تتزعزعَ عليها أحمالُها ومحاملُها، وربما تُتْلِفُ أنفسَها في شدّة السير وثقل الحمل وهي لا تَشْعُر به لنشاطها.

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدِّينَوَري المعروف بالرَّقِّي، قال:

كنت في البادية فوافيتُ قبيلةً من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءً فرأيت في الخباء عبدًا أسودَ مقيّدًا بقيد، ورأيت جمالًا قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه يَنزعُ رُوحَه. فقال لي الغلام: أنت ضيفٌ ولك حقٌّ فتشفَّعْ في حقّي إلى مولاي فإنه مُكْرِمٌ لضيفه فلا يردّ شفاعتك فعساه يحلّ القيدَ عنّي. فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت: لا آكل ما لم أُشَفَّعْ في هذا العبد، فقال: إن هذا العبدَ قد أفقرني وأهلك جميع مالي؛ فقلت: ماذا فعل؟ فقال: إن له صوتًا طيِّبًا، وإني كنت أعِيش من ظهور هذه الجمالِ فحمّلها أحمالًا ثِقالًا وكان يَحْدُو بها حتى قطعتْ مسيرةَ ثلاثَ ليالٍ في ليلةٍ من طِيبِ نغمته، فلما حُطّت أحمالًا مَوّتَتْ كُلُّها إلا هذا الجمل الواحد، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبتُه لك، قال: فأحببت أن أسمعَ صوته، فلما أصبحنا أمره أن

---

(١) يولهه: يوقعه في الوله، وهو التحيّر وشدّة الوجد والحزن وذهاب العقل.

يَحْدُوَ[١] على جمل يَستقي الماءَ من بئرٍ هناك، فلما رفع صوتَه هام[٢] ذلك الجملُ وقطع حباله ووقعتُ أنا على وجهي، فما أظنّ أنّي قط سمعتُ صوتًا أطيبَ منه.

قال: فإذًا تأثيرُ السّماع في القلب محسوسٌ، ومن لم يحرّكه السماعُ فهو ناقص مائلٌ عن الاعتدالِ بعيدٌ عن الروحانيّة، زائد في غِلَظِ الطبعِ وكثافته على الجمال والطيور، بل على سائر البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة. ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلوب لم يجز أن يُحْكَمَ فيه مطلقًا بإباحة ولا تحريم، بل يختلفُ ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب.

قال أبو سليمان: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه، ولكن يُحرّك ما هو فيه.

ذكر أقسام السماع وبواعثه

وأقسامُ السّماعِ تختلفُ باختلاف الأحوال، فإن منه ما هو مستحبّ وما هو مباحٌ وما هو مكروه وما هو حرام. أمّا المستحبُّ فهو لمن غلب عليه حبُّ الله تعالى ولم يُحرّك السماع منه إلا الصّفاتِ المحمودةَ. وأمّا المباح، فهو لمن لا حظّ له من السماع إلا التلذّذُ بالصوتِ الحسن، وأمّا المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكن يتخذُه عادةً له في أكثر الأوقات على سبيل اللّهو. وأما الحرام فهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليه شهوةُ الدنيا، فلا يُحرّك السماعُ منهم إلا ما هو الغالبُ على قلوبهم من الصفات المذمومة. وقد تكلّم على هذه الأقسام الإمام أبو حامد الغزاليّ فقال رحمه الله ما مختصره ومعناه:

الكلمات المسجّعةُ[٣] الموزونةُ تُعتادُ في مواضعَ لأغراض مخصوصةٍ تَرتبطُ بها آثارٌ في القلب، وهي سبعة مواضع:

الأوّل: غِناء الحَجيج[٤] فإنهم يدورون أوّلًا في البلاد بالطبل والغناء، وذلك مباح لما فيه من التشويق إلى الحجّ وأداء الفريضة وشهود المشاعر.

(١) يحدو: يرفع صوته بالحداء، أي الغناء الموقّع.
(٢) هام: شرد وتاه وضلّ.
(٣) المسجّعة: فيها سجع وفواصل متشابهة تصلح للغناء.
(٤) الحجيج: جماعة الحجّاج الذين يؤدّون فريضة الحجّ في مكّة وما حولها.

الثاني: ما يعتاده الغُزاةُ(١) لتحريض الناسِ على الغزو وهو مباحٌ أيضًا لما فيه من استثارةِ النفسِ وتحريكها على الغزو وإثارة الغضب على الكفّار وتحسين الشجاعة وتقبيح الفرار.

الثالث: ما يرتجزه(٢) الشّجعانُ عند اللقاءِ في الحرب وهو مباحٌ ومندوب لما فيه من تشجيع النفس وتحريك النشاط للقتال والتمدّح بالشجاعةِ والنّجدةِ، وقد فعله غيرُ واحد من الصحابة رضوانُ الله عليهم، منهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ وخالدُ بنُ الوليد وغيرُهما.

الرابع: أصوات النِّياحة ونغماتُها وتأثيرُها في تهييج البكاء وملازمة الحزن والكآبة، وهذا قسمان: محمود ومذموم.

فأمّا المذموم فالحزن على ما فات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٣]. والحزن على الأموات من هذا القبيل، فإنه يُغْضِبُ الله جلّ جلاله وتأسُّفٌ على ما لا تدارك فيه.

وأمّا المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه، والبكاء والتباكي(٣) والحزن والتحازن(٤) على ذلك محمود؛ لأنه يبعث على التشمير(٥) للتدارك. ولذلك كانت نياحةُ داودَ عليه السلام محمودةً، فقد كان يَحْزَنُ ويُحْزِنُ ويَبكِي ويُبْكِي حتى كانت الجنائز تُرفَع من مجالس نياحته، وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك محمود لأن المُفضي(٦) إلى المحمود محمود. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيِّب الصوتِ أن يُنْشِدَ على المنبر بألحانه الأشعارَ المحزِنةَ المرقِّقَة للقلب، ولا أن يَبكِي ويتباكى لِيَتوصَّل به إلى بكاء غيره وإثارة حزنه.

الخامس: السماع في أوقات السرور تأكيدًا للسرور وتهييجًا له إن كان ذلك السرورُ مُباحًا كالغِناء في أيام العيد وفي العُرْس وفي وقت قدوم الغائب ووقت الوليمة

---

(١) الغزاة: جمع غازٍ، وهو افتتاح البلدان بقصد نشر راية الإسلام.
(٢) يرتجزه: يقولونه رجزًا، أي على بحر الرجز.
(٣) التباكي: التظاهر بالبكاء، أو محاولة البكاء.
(٤) التحازن: التظاهر بالحزن أو محاولة إظهار الحزن.
(٥) التشمير: النهوض والقيام.
(٦) المفضي: المؤدّي.

والعقيقة[١] وعند الولادة والخِتان[٢] وعند حفظ القرآن، وكل ذلك معتاد لأجل إظهار السرور. قال: ووجه جوازه أنّ من الألحان ما يُثير الفرحَ والسرورَ والطربَ وكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه، ويدلّ على هذا إنشادهم بالدفّ والألحان عند مَقْدَم النبيّ ﷺ يقولون: [من مجزوء الرمل]

طَـلَعَ الـبَـدْرُ عـلـيـنـا ... مِـنْ ثَـنِـيَّـاتِ[٣] الـوَدَاعِ
وَجَـبَ الـشـكـرُ عـلـيـنـا ... مـا دعـا للهِ داعِـي

فإظهارُ هذا السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمودٌ. فقد نُقل عن جماعة من الصحابة أنهم حَجَلوا[٤] في سرور أصابهم كما سيأتي في أحكام الرقص وهو جائز في قدوم كل غائب وكل ما يجوز الفرح به شرعًا. ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام.

السادس: سماع العُشّاق تحريكًا للشوق وتهييجًا للعشق وتسليةً للنفس؛ فإن كان في حال مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيده اللذّة، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق. والشوق وإن كان مؤلمًا ففيه نوعُ لذّة إذا انضاف إليه رجاء الوصال؛ فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوّة لذّة الرجاء بحسب قوّة الشوق والحبّ للشيء المرجوّ، ففي هذا السماع تهييج للعشق وتحريك للشوق وتحصيل للذّة الرجاء المقدّر في الوصال مع الإطناب[٥] في وصف حسن المحبوب. قال:

وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يُباحُ وِصالُه كمن يَعشق زوجتَه أو سُرِّيتَه[٦] فَيُصْغِي إلى غِنائها لتتضاعفَ لذّتُه في لقائها، فيحظى بالمشاهدة البصرُ وبالسماع الأُذُنُ ويَفهمُ لطائفَ معاني الوصال والفرق القلبُ، فتترادف أسباب اللذّة؛ فهذا نوع تَمتُّع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها، وما متاع الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وهذا منه. وكذلك إن غُضِبت منه جاريةٌ أو حِيلَ بينه وبينها بسبب من الأسباب، فله أن يُحرِّكَ بالسماع شوقَه وأن يَستثيرَ به لذّةَ رجاء الوصال، فإن باعها أو طلّقها حرم

---

(١) العقيقة: وهي ما يذبح من الشاء بعد ولادة الولد وحلق شعره، فيتصدّق بوزن شعره، وتهدى الشاة للفقراء، أو يعطون ثلثها، ويهدى الثلث الثاني، والثالث لمن يقدم العقيقة. ويكون هذا في الغالب في اليوم السابع من الولادة.
(٢) الختان: قطع قلفة قضيب الذكر من الصبيان. (٣) الثنيات: الطرق في الجبل، جمع ثنيّة.
(٤) حجلوا: رفعوا رجلًا وقفزوا من الفرح. (٥) الإطناب: الإسهاب وكثرة التفصيل والشرح.
(٦) السّرية: المرأة المملوكة يتخذها الرجل محظيّة عنده.

عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريكُ الشوقِ حيثُ لا يجوز تحقيقُه بالوصل واللقاء. وأما من يتمثّل في نفسه صورةَ صبيّ أو امرأة لا يجوز له النظر إليها، وكان يُنزّل ما يسمع على ما يتمثّل في نفسه فهو حرام؛ لأنه محرّكٌ للفكر في الأفعال المحظورة ومهيّج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه، لا لأمر يرجع إلى نفس السماع. وقد سئل بعض الحكماء عن العشق فقال: دخانٌ يصعدُ إلى دماغِ الإنسان يزيلُه الجماعُ ويهيِّجه السماع.

السابع: سماعُ مَن أحبَّ الله سبحانه وتعالىٰ وعشقَه واشتاق إلى لقائه، فلا ينظر إلى شيء إلّا رآه فيه، ولا يقرعُ سمعَه قارعٌ إلا سمعه منه أو فيه؛ فالسماع في حقّه مهيِّج لشوقه، ومؤكّد لعشقه وحبّه، ومُورِ زنادَ[1] قلبه، ومُستخرجٌ منه أحوالًا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها مَنْ ذاقها ويُنْكِرُها مَنْ كَلَّ حِسُّه عن ذَوَاقها؛ وتُسمَّى تلك الأحوال بلسان الصوفيّة وَجْدًا ـ مأخوذ من الوجود ـ وللصوفية على هذا كلامٌ يطول شرحه ليس هذا موضعَ إيراده، والله أعلم.

ذكر العوارض التي يحرمُ معها السماع

قال أبو حامدٍ رحمه الله تعالى: والسماعُ يحرمُ بخمسةِ عوارضَ: عارض في المُسْمِع وعارض في آلة السماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المُستمِع أو في مواطنه؛ لأن أركان السماع هي المُسْمِعُ والمستَمِعُ وآلة السماع.

العارض الأوّل: أن يكون المُسْمِعُ امرأةً لا يَحلّ النظرُ إليها وتُخْشى الفتنةُ من سماعِها، وفي معناها الصبيّ الذي تُخْشى فتنتُه، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأةُ بحيثُ تَفْتِنُ بصوتِها في المحاورة في غير ألحانٍ فلا يجوزُ محاورتُها ومحادثتُها ولا سماعُ صوتها في القرآن أيضًا، وكذلك الصبيّ الذي تُخَافُ فتنتُه. فإن قلتَ: فهل تقول: إن ذلك حرام بكل حالٍ حسمًا للباب، أو لا يحرم إلا حيث تُخافُ الفتنةُ. فأقول: هذه مسألة محتملة من حيثُ الفقه يتجاذبها أصلان:

---

(١) الزناد: ما تورى به النيران، وكان عبارة عن حجر من صوّان يحكّ بمثله، ومورٍ: مشعل، من أورى النار، إذا أوقدها وأشعلها.

أحدهما: أن الخلوةَ بالأجنبيّة والنظرَ إلى وجهها حرامٌ سواء خيفت منها الفتنةُ أو لم تُخَفْ لأنها مَظِنّةُ[١] الفتنة على الجملة، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصورة.

والثاني: أن النظرَ إلى الصبيانِ مباحٌ إلا عندَ خوف الفتنةِ فلا يُلحقُ الصبيانُ بالنساء في عموم الحَسْم، بل يَنْبغي أن يُفَصَّلَ فيه الحالُ. وصوتُ المرأة دائرٌ بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوةُ تدعو إلى النظر في أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت. وليس تحريك النظر لشهوة المماسّةِ[٢] كتحريكِ السماع بل هو أشدّ. وصوتُ المرأة في غير الغناء ليس بعورةٍ[٣] ولكنْ للغناء مزيدُ أثرٍ في تحريك الشهوة، فقياسُ هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنّهم لم يُؤمروا بالاحتجابِ كما لم تُؤمر النساءُ بسَتْر الأصوات، فينبغي أن يُتَّبَع مَثارُ الفتن ويُقصَرَ التحريمُ عليه، هذا هو الأقيسُ عندي. قال: ويتأيّد بحديث الجاريتين المغنّيتين في بيت عائشةَ رضي الله عنها إذ يُعلم أن النبيّ ﷺ كان يَسمعُ صوتَهما ولم يحترز عنه، ولكن لم تكن الفتنةُ مخوفةً عليه فلذلك لم يَحْتَرِز. فإذًا يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابًا وشيخًا، ولا يبعد أن يختلف الأمرُ في مثل هذا بالأحوال. فإنّا نقول: للشيخ أن يُقَبِّلَ زوجتَه وهو صائمٌ وليس للشابّ ذلك. والقبلةُ تدعو إلى الوِقَاع في الصوم وهو محظور[٤]. والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيَختلِفُ ذلك أيضًا بالأشخاص.

العارض الثاني في الآلة: بأن تكون من شعائر أهل الشّربِ أو المخنّثين[٥] وهي المزاميرُ والأوتارُ وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدُّفّ، وإن كان فيه الجلاجلُ[٦] وكالطبل والشاهين[٧] والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

---

(١) المظنّة: موضع الشيء ومألفه الذي يُظنّ كونه فيه، وهي المرجع التي ينشد فيها الباحث طلبته.

(٢) المماسّة: اللّمس.

(٣) العورة: كل ما يستره المرء استنكافًا أو حياءً.

(٤) محظور: ممنوع.

(٥) المخنّثون: الذين يظهرون صفات الأنوثة من الرجال.

(٦) الجلاجل: جمع جلّ، وهو الجرس الصغير.

(٧) الشاهين: من السباع، وهو ليس بلفظ عربيّ.

العارض الثالث في نظم الصوت: وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخَنا[١] والفحش والهجاء أو هو كذبٌ على الله عزّ وجلّ أو على رسوله أو على الصحابة كما رتّبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستَمِعُ شريكُ القائل، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصفُ المرأة بين يدي الرجل. وأمّا هجاء الكفّار وأهل البدع فذلك جائز.

فقد كان حسان بنُ ثابتٍ يُنافِحُ[٢] عن رسول الله ﷺ ويُهَاجِي الكفارَ، وأمره رسول الله ﷺ بذلك.

فأمّا النسيبُ وهو التشبيبُ بوصفِ الخدودِ والأصداغِ[٣] وحسن القدِّ والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر. والصحيحُ أنه لا يحرم نَظمُه وإنشادُه بلَحْنٍ وغير لَحْن، وعلى المستمع ألّا يُنَزِّلَه على امرأة معيّنةٍ إلّا على من تحلّ له من زوجة أو جارية، فإن نزّله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإجالة الفكر فيه. ومَنْ هذا وَصْفُه فينبغي أن يَجتنِبَ السماعَ رأسًا، فإن مَنْ غلب عليه عشقٌ نزَّل كلَّ ما يسمعه عليه سواء كان اللفظُ مناسبًا أو لم يكن، إذ ما مِن لفظٍ إلا ويُمكنُ تنزيلُه على معانٍ بطريق الاستعارةِ، فالذي غلب عليه عِشقُ مخلوقٍ ينبغي أن يَحترز من السماع بأيّ لفظٍ كان، والذي غلب عليه حبُّ اللهِ تعالى فلا تَضرّه الألفاظ ولا تمنعُه عن فهم المعاني اللطيفة المتعلّقة بمجاري همّته الشريفة.

العارض الرابع في المستَمِع: وهو أن تكون الشهوةُ غالبةً عليه وكان في غِرّةِ[٤] الشباب، وكانت هذه الصفةُ أغلبَ مِن غيرها عليه، فالسماعُ حرامٌ عليه سواء غلب على قلبه حبّ شخصٍ معيّنٍ أو لم يغلب؛ فإنه كيفما كان فلا يسمعُ وصفَ الصُّدْغ والخدّ والوصال والفراق إلا ويُحرّكُ ذلك شهوَتَه ويُنزِّله على صورة معيّنة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ[٥] بواعثُ الشرّ. وذلك هو النُّصرةُ لحزب الشيطان والتخذيلُ للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى. والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهواتُ، وبين حزب الله وهو نورُ العقل إلّا في قلب قد فتحه أحد الجُنْدين واستولى عليه بالكليّة. وغالبُ القلوب قد فتحها جندُ الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسبابَ القتال لإزعاجه فكيف يجوز تكثيرُ

(١) الخنا: الفحش في الكلام. (٢) ينافح: يدافع.
(٣) الأصداغ: جمع صدغ، وهو جانب الرأس، والشعر الذي يستره.
(٤) غرّة الشباب: عنفوانه وشدّته. (٥) تحتدّ: تشتدّ.

أسلحتهِ وتشحيذُ[١] سيوفِهِ وأسنّته[٢]، والسماع مُشَحِّذ لأسلحة جند الشيطان في حقّ مثل هذا الشخص، فليخرجْ مثل هذا عن جميع السماع فإنه يَسْتَضِريه[٣]، والله أعلم.

العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوامّ الخلق ولم يغلب عليه حبُّ الله فيكون السماع له محبوبًا ولا غلبت عليه الشهوة، فيكون في حقّه محظورًا، ولكنه أبيح في حقّه كسائر أنواع اللذّات المباحة إلّا أنه اتّخذه دَيْدَنَة[٤] وهِجِّيراه[٥] وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السّفيه الذي تُردّ شهادتُه فإنّ المواظبة على اللهو جناية، وكما أن الصغيرة بالإصرارِ والمداومةِ تَصيرُ كبيرةً؛ فبعض المباحاتِ بالمداومة يصير صغيرةً وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشةِ والنظر إلى لعبهم على الدوام، فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعًا؛ إذ فعله رسول الله ﷺ. ومن هذا القبيل اللَّعِبُ بالشِّطْرَنْج[٦] فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهةً شديدة، ومهما كان الغرضُ اللعبَ والتلذّذ باللهو، فلذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجةٌ له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه. هذا ملخص ما أورده في أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، ثم ذكر بعد ذلك آثار السماع وآدابه.

ذكر آثار السّماع وآدابه

قال أبو حامد رحمه الله: إعلمْ أن أوّل درجةِ السماعِ فهمُ المسموع وتنزيلُه على معنى يقع للمستمِع ثم يُثْمِرُ الفهمُ الوجدَ. ويُثمر الوجدُ الحركةَ بالجوارح، فليُنظر إلى هذه المقامات الثلاثة:

المقام الأوّل: في الفهم، وهو مختلفٌ باختلاف أحوال المُسْتَمِع، وللمستمِع أربعة أحوالٍ:

إحداها: أن يكون سماعه بمجرّد الطبعِ أي لا حظّ له في السماع إلا استلذاذُ الألحان والنغمات، فهذا مباحٌ وهو أخسُّ رُتَبِ السماع؛ إذ الإبلُ شريكةٌ له فيه، وكذا سائرُ البهائم. ولكل حيوان نوعُ تلذّذٍ بالأصوات الطيّبة.

---

(١) تشحيذ: سنّ.
(٢) الأسنّة: جمع سنان، وهو رأس الرمح.
(٣) يستضريه: يخدعه من حيث لا يعلم.
(٤) ديدنه: عادته.
(٥) هجّيراه: دأبه وشأنه.
(٦) الشطرنج: لعبة تمثل جيشين متحاربين يتألّف كل منهما من ستّ عشرة قطعة تمثل الملك والوزير والخيّالة والقلاع والفيلة والجنود، وتلعب على رقعة مرسوم عليها أربعة وستون مربّعًا.

الحالة الثانية: أن يسمع بفهم ولكن يُنَزِّله على صورة إما معيّنةٍ أو غير معيّنة، وهو سماعُ الشبابِ وأربابِ الشهوة ويكون تَنزيلُهم المسموعَ على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم. وهذه الحالة أخسّ[١] من أن يُتَكلّم فيها إلا ببيان خِسّتها والنهي عنها.

الحالة الثالثة: أن يُنَزِّلَ ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملة الله تعالى وتقلّب أحواله في التمكّن منه مرّة وبُعْدِه منه أخرى، وهذا سماع المُريدين لا سيّما المبتدئين؛ فإن للمريد لا محالة مرادًا هو مَقْصدُه، ومَقْصدُه معرفةُ الله تعالى ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرّ وكشف الغطاء، وله في مَقْصدِه طريقٌ هو سالكه، ومعاملاتٌ هو مثابرٌ عليها، وحالاتٌ تستقبله في معاملاته. فإذا سمع ذكرَ عتاب أو خطاب أو قبول أو ردّ أو وصلٍ أو هجر أو قُرْب أو بُعْد أو تلهُّفٍ على فائت أو تعطّشٍ إلى مُنتظَر أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض[٢] للعهد أو خوفَ فراق أو فرحٍ بوصال أو ذِكْرُ ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول[٣] العبرَات أو تَرادُفِ الحَسرات أو طولِ الفراق أو عِدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار؛ فلا بدّ أن يوافق بعضُها حالَ المريد في طلبه، فيجري ذلك مَجْرَى القَدَّاح الذي يُوري[٤] زنادَ قلبه، فتشتعلُ به نيرانُه، ويقوَى به انبعاثُ الشوق وهيجانه، وتَهْجُمُ عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجالٌ رَحْبٌ في تنزيل الألفاظ على أحواله. وليس على المستمع مراعاةُ مراد الشاعر من كلامه؛ بل لِكلّ كلام وجوهٌ ولكلّ ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظٌّ. وضرَبَ الإمام الغزالي لذلك أمثلة يطول شرحُها.

الحالة الرابعة: سماعُ مَنْ جاوز الأحوالَ والمقاماتِ فعَزَب[٥] عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود الذي يُضاهي[٦] حالهُ حال النِّسوة اللاتي قَطّعْنَ أيديهنّ في مشاهدة جمال يُوسُفَ حتى بُهِتْن[٧] وسقط إحساسُهنّ[٨]. وعن مثل هذه الحالة تُعَبِّر الصوفية بأنه فنِي

(١) أخسّ: أدنى وأحقر.
(٢) نقض العهد: الإخلال به.
(٣) همول: مسيل.
(٤) يوري: يشعل.
(٥) عزب: نأى وبَعُد.
(٦) يضاهي: يشابه ويناظر ويماثل.
(٧) بهتن: دهشن.
(٨) إشارة إلى قوله تعالى في سورة يوسف، الآية ٣١: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا=

عن نفسه، ومهما فَنِيَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى؛ فكأنَّه فَنِيَ عن كلّ شيء إلّا عن الواحدِ المشهود، وفَنِيَ أيضًا عن الشهود فإنّ القلب إن التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مُشاهِدٌ فقد غَفَلَ عن المشهود، فالمستهترُ[١] بالمرئيّ لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به لذّته؛ فالسكران لا خُبْر له في سكره، والملتذّ لا خبْر له في التذاذه، إنما خُبْره من الملتذّ به فقط، ولكن هذا في الغالب يكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تُطقه القوة البشريّة، فربّما يضطرب تحت أعبائه اضطرابًا تهلك فيه نفسُه كما رُوِيَ عن أبي الحسن النورِي أنه سمع هذا البيت:

ما زِلتُ أنْزِل من ودَادَكِ منزلًا تتحيَّرُ الألبابُ دونَ نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ووقع في أَجَمَة[٢] قَصَبٍ قد قُطِعت وبقيت أصولُها مثل السيوف فصار يعدو فيها، ويعيد البيت إلى الغداة والدم يجري من رجليه حتى ورِمت قدماه وساقاه ومات بعد أيام رحمه الله.

قال أبو حامد: وهذه درجة الصدّيقين في الفهم والوجد وهي أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال وهي ممتزجة بصفاتِ البشريةِ نوعُ قُصُور، وإنما الكمالُ أن يفنى بالكليّةِ عن نفسه وأحواله. أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفاتٌ إليها كما لم يكن للنِّسْوَةِ التفاتٌ إلى اليد والسِّكِّين، فيسمع بالله، ولله، وفي الله، ومن الله؛ وهذه رتبة مَنْ خاض لُجَّةَ[٣] الحقائقِ وعَبَر ساحل الأحوال والأعمالِ واتّحد بصفاء التوحيد وتحقّق بمحضِ[٤] الإخلاص فلم يبق فيه منه شيء أصلًا، بل خَمَدَت[٥] بالكليّة بَشَرِيَّته وفَنِي التفاتُه إلى صفات البشريّة رأسًا. قال: ولستُ أعني بفنائه فناءَ جسده بل فناء قلبه، ولستُ أعني بالقلب اللحم والدَّم بل سِرٌّ لطيفٌ له إلى القلب الظاهر نسبةٌ خفِيَّة وراءها سرُّ الرُّوح الذي هو من أمر الله عَرَفها مَنْ عَرَفها وجَهِلها من جَهِلها ولذلك السرّ وجودٌ. وصورة ذلك الوجود ما يحضُرُ فيه فإذا حضر فيه غيرُه فكأنه لا وجود إلّا للحاضر، ومثالُه المرآةُ المجلُوَّةُ؛ إذ ليس لها لَوْنٌ في نفسها بل لونُها لَوْنُ

= بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾.

(١) المستهتر بالشيء: المولع به.
(٢) الشجر الكثير الملتفّ.
(٣) اللجّة: معظم الماء وغيره.
(٤) بمحض الإخلاص: بمطلق الإخلاص والصدق فيه.
(٥) خمدت: سكنت.

الحاضر فيها. وكذلك الزجاجةُ فإنها تحكي لَوْنَ قرارِها ولونها لَوْن الحاضر فيها وليس لها في نفسها صورةٌ، بل صورتها قَبُول الصُّوَر ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان. قال: وهذه مَغَاصَةٌ[1] من مغاصات علوم المكاشَفَة منها نشأ خَيَالُ من ادّعى الحلول والاتّحاد[2]؛ هذا مُلَخّص ما أورده في مقام الفهم والله سبحانه وتعالى أعلم.

المقام الثاني: بعد الفهم والتنزيل والوجدُ.

قال الإمام الغزاليّ رحمه الله تعالى:

وللناس كلامٌ طويلٌ في حقيقة الوجدِ أعني الصوفيّةَ والحكماءَ الناظرين في وجه مناسبة السَّماع للأرواح، فلننقلْ من أقوالهم ألفاظًا ثم لنكشفْ عن الحقيقةِ فيه.

أمّا الصوفيّةُ، فقد قال ذو النون المصريّ[3] رحمه الله في السماع: إنه واردُ حقٍّ جاء يُزعج القلوبَ إلى الحقّ، فمن أصغى إليه بحقٍّ تَحَقَّق، ومن أصغى إليه بنفسٍ تَزَنْدَق[4]؛ فكأنّه عبّر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحقّ وهو الذي يجدُه عند ورود وارد السماعِ، إذ سَمَّى السماعَ واردَ حقّ. وقال أبو الحسين الدرّاج مُخْبِرًا عمّا وَجَده في السماع:

والوجدُ عبارةٌ عما يُوجَدُ عند السماع، وقال: جال بِي السماع في ميادين البهاء، فأوجدني وجود الحقّ عند العطاء، فسقاني بكأس الصفاء، فأدركت به منازل الرِّضاء، وأخرجني إلى رياض النزهة والفضاء.

وقال الشِّبْليُّ[5]: السماع ظاهره فِتْنة وباطنه عِبْرة[6]، فمن عَرَف الإشارة حلّ له استماع العِبْرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرّض للبليّة. وأقوال الصوفيّة في هذا النوع كثيرة.

---

(١) المغاصة: موضع الغوص.

(٢) الحلول: الاعتقاد بأن الله تعالى موجود في كل شيء حتى يصبح الشيء والله واحدًا. والاتّحاد: الاعتقاد بأنه والله حيّز واحد.

(٣) ذو النون المصري: سبق التعريف به.

(٤) تزندق: أظهر الزندقة، وهي القول بأزليّة العالم، والشكّ في الله والإلحاد والضلالة.

(٥) هو أبو بكر الشبلي، من كبار المتصوّفة، كان واليًا في دنباوند، ثم زهد وتنسّك واشتهر بالصّلاح، أصله من خراسان. توفي في بغداد سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٦ م. انظر: شذرات الذهب ٣٣٨/٢.

(٦) العبرة: الاعتبار والتفكّر.

وأمّا الحكماء، فقال بعضهم:

في القلب فَضِيلةٌ شريفةٌ لم تقدِر قوّةُ النطق على إخراجها باللفظ فأخرجَتْها النفسُ بالألحان، فلما ظَهَرت سُرَّت وطَرِبت إليها، فاستَمِعوا من النفس وناجُوها ودَعُوا مُناجاة الظواهر. وقال بعضهم:

نتائجُ السماع استنهاضُ العاجز من الرأي واستجلابُ العازب من الفكر وحِدّة الكالّ من الأفهام والآراء حتى يثوبَ[1] ما عَزَب ويَنْهَض ما عَجَز ويَصْفَو ما كَدَر ويَمْرَح في كل رأيٍ ونيّة فيصيب ولا يخطىء ويأتي ولا يبطىء. ثم ذكر المعنى الذي الوجد عبارة عنه، فقال: هو عبارةٌ عن حالةٍ يُثمرها السماع وهو وارد حقّ جديد عقِيب السماع يجده المستمعُ من نفسه. وتلك الحالة لا تخلو من قسمين: فإنها إما أن ترجعَ إلى مكاشفاتٍ ومشاهداتٍ هي من قبيل العلوم والتنبيهات؛ وإما أن ترجعَ إلى تغيّرات وأحوالٍ ليست من العلوم والتنبيهات، بل هي كالشوقِ والخوفِ والحزنِ والقلقِ والسرورِ والأسفِ والندم والبسطِ والقبضِ. وهذه الأحوالُ يهيّجُها السماعُ ويُقوّيها، فإن ضعفت بحيث لم تؤثِّرْ في تحريك الظاهر أو تَسكِينِه أو تغيير حالهِ حتى يتحرّك على خلاف عادتِه أو يطرُق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسَمّ وجدًا، وإن ظهر على الظاهر سُمِّيَ وجدًا إما ضعيفًا وإما قويًا بحسب ظهوره وتغييرهِ الظاهرِ وتحريكه بحسب قوّةِ ورودِه وحفظ الظاهرِ عن التغييرِ بحسب قوّةِ الواجدِ وقدرته على حفظ جوارحِه، فقد يقوَى الوجدُ في الباطن ولا يتغيّر الظاهرُ لقوّةِ صاحبه، وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحلّ عُقَد التماسك. وإلى المعنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابيّ حيث قال في الوجد: إنه مشاهدَة الرقيب وحضورُ الفهم وملاحظةُ الغيبِ ولا يبعدُ أن يكون السماعُ منشأً لكشفِ ما لم يكن مكشوفًا قبله؛ فإنّ الكشفَ يحصلُ بأسباب منها: التنبيهُ، والسماعُ منبّه، ومنها تغيّر الأحوالِ ومشاهدتها وإدراكها، فإنّ إدراكها نوع علمٍ يفيدُ إيضاحَ أمورٍ لم تكن معلومة قبل الورود.

ومنها صفاء القلب، والسماع مؤثّر في تصفية القلوب، والصفاء سبب المكاشفة.

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوّة السماع فيقوَى على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوّته كما يقوى البعيرُ على حمل ما كان لا يقوى عليه قبلَه، وهذا

(١) يثوب: يعود عن غيّه، وعزب: بَعُد.

الاستكشاف من ملاحظة أسرارِ الملكوت[١]؛ وكما أنّ حمل الجمل يكون بواسِطة، فبِواسِطة هذه الأسباب يكون سبب الكشف؛ بل القلب إذا صفا تمثّل له الحقّ في صورةِ مشاهدةٍ أو في لفظٍ منظومٍ يَقرَعُ سمَعه يعبّر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليَقَظة وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزء من النبوّة؛ وعلمُ تحقيقِ ذلك خارج عن علم المعاملة. وذلك كما روى عن محمد بن مسروقٍ البغداديّ أنّه قال: خرجت يومًا في أيام جهلي وأنا نشوانُ وكنت أُغنّي هذا البيتَ: [من البسيط]

بِطيزَنابَاذَ[٢] كَرْمٌ ما مررتُ به إلا تعجّبتُ ممن يشرب الماءَ

فسمعت قائلًا يقول: [من البسيط]

وفي جهنّم ماءٌ ما تجرّعهُ خَلْقٌ فأبقى له في الجوف أمعاءَ

فقال: وكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم.

قال أبو حامد: فانظرْ كيف أثّر الغناءُ في تصفية قلبه حتى تمثّل له حقيقة الحقّ في صفة جهنّم وفي لفظٍ منظومٍ موزون وقرع ذلك سمعَه الظاهر، وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب. ويشاهد أيضًا بالبصر صورة الخَضِرْ[٣] عليه السلام فإنه يخيّلُ لأرباب القلوب بصورٍ مختلفةٍ، وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطّلاعُ على ضمائر القلوب؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اتّقُوا فِراسةَ[٤] المؤمنِ فإنه يَنظرُ بنور الله تعالى»، قال: فحاصل الوجد يَرْجِع إلى مكاشفاتٍ وإلى حالاتٍ ينقسم كل واحدٍ منهما إلى ما لا يمكن التعبير عنه عند الإقامة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلًا. وضرب لذلك أمثلة، منها أن الفقيه قد تعرضُ عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويُدرِك بذوقه أنّ بينهما فَرْقًا في الحكم، فإذا كُلِّف ذكرَ وجه الفرق لم يساعدْه اللسان على التعبير عنه، وإن كان من أفصح الناس، فيُدرِك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبيرُ عنه. وإدراكُه الفرقَ عِلْمٌ يصادفُه في قلبه بالذوق. ولا شكّ أنّ لوقوعه في قلبه

---

(١) الملكوت: عالم الغيب من نفوس وأرواح وعجائب، وهو العزّ والسلطان. وملكوت الله: سلطانه وعظمته، وهو ملك الله خاصةً.

(٢) طيزناباذ: اسم موضع بعينه في العراق.

(٣) الخضر: نبي معمّر محجوب عن الأبصار، قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، وهو صاحب موسى عليه السلام، وقد التقى معه بمجمع البحرين. وقيل: إنه ليس نبيًّا، بل هو عبدٌ صالح من عباد الله تعالى.

(٤) الفراسة: المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها.

سببًا، وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبارُ عنه لقصورٍ[١] في لسانه، بل لدقّة المعنى أن تناله العبارة.

وأمّا الحال فكم من إنسانٍ يُدرِك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضًا أو بسطًا ولا يعلم سببه، وقد يتفكّر في شيء فيؤثّر في نفسه أثرًا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يَحُسّ به. وقد تكون الحالة التي يُحِسّها سرورًا يثبت في نفسه بتفكّره في سبب موجب للسرور، أو حُزنًا فينسى المتفكّرَ فيه ويحسُّ بالأثر عقِيبه[٢]. وقد تكون تلك الحال حالة غريبة لا يُعْرِب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مُفْصِحةً عن المقصود؛ بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختصّ به بعض الناس دون بعضٍ، وهي حالة يُدركها صاحب الذوق بحيث لا يشكّ فيها (أعني التفرقة بين الموزون والمنزحف) ولا يمكنه التعبير عنها بما يَتّضِح به مقصودُه لمن لا ذوقَ له. وفي النفس أحوال غريبةٌ هذا وصفُها، بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصُل في السماع عن غناء مفهومٍ. فأمّا الأوتار وسائرُ النغماتِ التي ليست مفهومة فإنها تؤثّر في النفس تأثيرًا عجيبًا، ولا يمكن التعبيرُ عن عجائب تلك الأوتارِ، وقد يُعبّر عنها بالشوق، ولكِنْ شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه، فهذا عجيب. والذي اضطربت نفسُه بسماع الأوتار والشاهينِ وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشتاق، ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرًا ليس يدري ما هو، حتى يقع ذلك للعوامّ ومن لا يغلب على قلبه لا حبّ آدميّ ولا حبّ الله تعالى، وهذا له سِرّ، وهو أنّ كل شوقٍ فله ركنان، أحدهما: صفة المشتاق وهو نوع مناسبةٍ مع المشتاق إليه. والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه، فإن وُجِدت الصفةُ التي بها الشوقُ ووُجِد العلمُ بالمشتاق ووُجِدت الصفة المشوّقة وحرَّكت قلبك الصِّفة واشتعلت نارُها، أورَثَ ذلك دهشةً وحيرةً لا محالة. ولو نشأ آدميّ وحده حيث لم يَرَ صورةَ النساءِ ولا عرف صورة الوِقاعِ[٣] ثم راهق الحُلُمَ[٤] وغلبت عليه الشهوةُ لكان يُحِسّ من نفسه بنار الشهوة ولا يدرِي أنه يشتاق إلى الوِقاع، لأنه ليس يدري صورة الوِقاع ولا يعرف صورة النساء؛ فكذلك في نفس الآدميّ مناسبةٌ مع العالَم الأعلى واللّذاتِ التي وُعِد

(١) قصور: عجز.
(٢) عقيبه: على أثره.
(٣) الوقاع والمواقعة: الملابسة، ويكنى بها عن الجماع بالمرأة.
(٤) راهق الحلم: قاربه.

بها في سِدرة المنتهى[١] والفراديسِ[٢] العُلا، إلا أنه لم يتخيّل من هذه الأُمور إلّا الصفات والأسماء كالذي يسمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهِد صورةَ امرأةٍ قطّ ولا صورةَ رجلٍ ولا صورةَ نفسِهِ في المرآة ليعرف بالمقايسة؛ فالسماع يحرّكُ منه الشوقَ؛ والجهلُ المفرطُ والاشتغالُ بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربَّه وأنساه مستقرَّه الذي إليه حنينُه واشتياقُه بالطبع، فيتقاضاه قلبه أمرًا ليس يدري ما هو فيدهش ويضطرب ويتحيّر ويكون كالمختنق الذي لا يعرِف طريقَ الخلاص. فهذا وأمثالُه من الأحوال التي لا يُدرَك تمامُ حقائقِها، ولا يمكن المتَّصفُ بها أن يعبّر عنها، فقد ظهر انقسام الوجدِ إلى ما يمكن إظهارُه وإلى ما لا يمكنُ إظهارُه.
قال:

واعلمْ أيضًا أنّ الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلّف يسمّى التواجد، وهذا التواجد المتكلّفُ، فمنه مذموم وهو الذي يقصد به الرّياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها؛ ومنه ما هو محمود وهو التوصُّل إلى الاستدعاء للأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة؛ فإن للكسب مدخلًا في جلب الأحوال الشريفة، ولذلك أمر رسول الله ﷺ مَن لم يحضرْه البكاءُ في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازنَ، فإنّ هذه الأحوال قد تُتَكلّف[٣] مباديها ثم تتحقّق أواخرها. وكيف لا يكون التكلّف سببًا في أن يصير المتكلّف بالآخرة طبعًا، وكل من يتعلّم القرآن أوّلًا يحفظه تكلّفًا ويقرؤه تكلُّفًا مع تمام التأمّل وإحضار الذهن ثم يصير ذلك دَيْدَنًا[٤] للسان مُطّرِدًا[٥] حتى يجري به لسانُه في الصلاة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمامَ السورةِ وتثوبُ نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها، ويعلم أنه قرأها في حال غفلته. وذكر أبو حامدٍ أمثلةً نحو ذلك ثم قال: وكذلك الأحوالُ الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأسُ منها عندَ فقدها، بل ينبغي أن يُتكلّف اجتلابِها بالسماع وغيره؛ فلقد شُوهِد في العادات مَن اشتهى أن يعشَق شخصًا ولم يكن يعشَقُه فلم يزل يردّدُ ذكرَه على نفسِهِ ويديمُ النظرَ إليه ويقرّر على نفسه الأوصافَ المحبوبة إليه والأخلاقَ المحمودة فيه حتى عَشِقَه ورسخ ذلك في قلبه رسوخًا خرج عن حدّ اختياره، واشتهى بعد ذلك الخلاصَ منه فلم يتخلّص، فكذلك حبُّ الله تعالى والشوقُ إلى لقائه والخوفُ من سخطهِ[٦] وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا فقدها

(١) سدرة المنتهى: شجرة في الجنّة، ورد ذكرها في القرآن الكريم.
(٢) الفراديس: جمع فردوس، وهي الجنّة.
(٣) تتكلّف: يُجهد في سبيل الوصول إليها.
(٤) الديدن: العادة والشأن.
(٥) مطّردًا: متتابعًا ومتسلسلًا.
(٦) سخطه: غضبه وانتقامه.

الإنسان فينبغي أن يتكلّف اجتلابَها بمجالسة الموصوفين بها، ومشاهدةِ أحوالهم، وتحسينِ صفاتهم في النفس، وبالجلوسِ معهم في السماع، وبالدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحالة بأن يُيسّر له أسبابها؛ ومن أسبابها السماعُ ومجالسةُ الصالحين والخائفين والمحبّين والمشتاقين والخاشعين؛ فمن جَالَس شخصًا سَرَت إليه صفاتُه من حيثُ لا يدري. ويدلّ على إمكان تحصيل الحبّ وغيره من الأحوالِ بالأسباب قولُ رسول الله ﷺ في دعائه: «اللّهمّ ارزقْني حبَّك وحبَّ مَن أحبّك وحبَّ مَن يُقرِّبُني إلى حبّك». فقد فزع[1] إلى الدعاء في طلب الحبّ. قال: فهذا بيان انقسام الوجدِ إلى مكاشفاتٍ وإلى أحوالٍ، وانقسامه إلى ما يمكن الإيضاحُ عنه وإلى ما لا يمكنُ، وانقسامه إلى المتكلّفِ وإلى المطبوع.

المقام الثالث: في آداب السماع ظاهرًا وباطنًا، وما يُحمدُ من آثار الوجد ويُذمّ.

قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى: فأمّا الآداب فهي خمس جملٍ:

الأوّل: مراعاةُ الزمانِ والمكانِ والإخوانِ. قال الجُنَيْدُ: السماعُ يحتاجُ إلى ثلاثة أشياءٍ وإلا فلا تسمع: الزمان والمكان والإخوان. قال الغزاليّ: ومعناه أن الاشتغال به في وقت حضور طعامٍ أو خصامٍ أو صلاةٍ أو صارفٍ[2] من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدةَ فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعي فراغ القلب، والمكان قد يكون شارعًا مطروقًا أو موضعًا كريهَ الصورةِ أو فيه سببٌ يشغلُ القلبَ فيُتجنَّبُ ذلك. وأمّا الإخوان فسببه أنه إذا حضر غيرُ الجنس من منكِر السماعِ متزهّدِ الظاهر مفلسٍ من لطائف القلوب كان مستثقلًا في المجلس واشتغل القلب به، وكذا إذا حضر متكبّر من أهلِ الدّنيا فيحتاج إلى مراقبتِهِ ومراعاتِهِ، أو متكلّف متواجِد من أهل التصوّف يرائي بالوجد والرقصِ وتمزيقِ الثوب، فكل ذلك مشوّشاتٌ، فتركُ السماع عند فقد هذه الشروط أَوْلَى.

الثاني: وهو نظر للحاضرين، أن الشيخ إذا كان حوله مُريدون يضرُّهم السماعُ فلا ينبغي أن يسمعَ في حضورهم؛ فإن سمِع فليشغلْهم بشغلٍ آخر. والمريد الذي لا يستفيد بالسماع أحدُ ثلاثةٍ: أقلُّهم درجةً هو الذي لم يدركْ من الطريق إلا الأعمالَ الظاهرةَ ولم يكن له ذوقُ السماع؛ فاشتغالُه بالسماع اشتغالٌ بما لا يعنِيهِ؛ فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل الذوق فيتنعّم بذوق السماع؛ فليشتغل بذكرٍ أو

(١) فزع: لجأ.
(٢) صارف: حادث.

خدمةٍ وإلا فهو مضيّعٌ لزمانه. الثاني: هو الذي له ذوقٌ ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصّفات البشريّة ولم ينكسِر بعدُ انكسارًا تُؤمَنُ غوائله(١)، فربما يُهيّج السماع منه داعيةَ اللّهو والشهوة، فينقطع طريقه ويصدّه(٢) عن الاستكمال. الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوتُه وأُمِنت غائلتُه وانفتحت بصيرته(٣) واستولى على قلبه حبُّ الله تعالى، ولكنه لم يُحْكِم ظاهرَ العلم ولم يعرِف أسماء اللهِ وصفاتِهِ وما يجوز عليه وما يستحيل، وإذا فُتِح له باب السماع نزل المسموع في حقّ الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفرٌ أعظم عليه من نفع السماع. قال سهل: كلُّ وجدٍ لا يشهد له الكتابُ والسنّةُ فهو باطل، فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعدُ ملوّث بحبّ الدنيا وشهوةِ المحمدةِ والثناءِ، ولا من يسمع لأجل التلذّذ والاستطابة بالطبع، فيصير ذلك عادة له ويشغله عن عبادتِهِ ومراعاةِ قلبِهِ وتنقطع عليه طريقة الأدب؛ فالسماع مَزِلّة(٤) قَدَمٍ يجب حفظُ الضّعفاء عنه.

الأدب الثالث: أن يكون مُصغيًا إلى ما يقوله القائلُ، حاضرَ القلب، قليلَ الالتفات إلى الجوانب، متحرّزًا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلًا بنفسه ومراعاة قلبِهِ ومراقبةِ ما يفتح الله له من رحمته في سِرِّه، متحفّظًا عن حركةٍ تُشوّش على أصحابه قلوبَهم؛ بل يكون ساكنَ الظاهر، هادىء الأطراف متحرّزًا عن التنحنح والتثاؤب، يجلس مُطْرِقًا رأسَه كجلوسِهِ في فكرٍ مستغرقٍ لقلبه، متماسكًا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجهِ التصنّع والتكلّف والمراءاة(٥)، ساكتًا عنِ النطق في أثناء القول بكل ما عنه بدّ، فإن غلبه الوجد وحرّكه بغير اختيار فهو فيه معذور وغير مَلُوم؛ ومهما رجع إليه اختياره فليعُد إلى هدوّه وسكونه. ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقال: انقطع وجدُه على القرب، ولا أن يتواجد خوفًا من أن يقال: هو قاسِي القلب عديم الصفاء والرقّة. قال: وقوّة الوجد تُحرّك، وقوّة العقل والتماسُك تَضبط الظواهرَ. وقد يغلب أحدُهما الآخرَ إما لشدّة قوّته، وإما لضعفِ ما يقابلُه، ويكون النقصان والكمالُ بحسب ذلك، فلا تظنّن أن الذي يضطربُ بنفسه على الأرض أتمُّ وجدًا من الساكن باضطرابه، بل رُبَّ ساكنٍ أتمّ

(١) غوائله: عواقبه، والحقد الباطن فيه.   (٢) يصدّه: يمنعه.
(٣) البصيرة: قوة الإدراك والفطنة، والعلم والخبرة، والحجّة.
(٤) المزلّة: الخطأ والمَيْل عن الصواب، والزّلَل.
(٥) المراءاة: إظهار خلاف الشيء، والتملّق والرّياء.

وجدًا من المضطرب؛ فقد كان الجنيد[١] يتحرّكُ في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرّكُ فقيل له في ذلك، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ [النمل: الآية ٨٨]، إشارةً إلى أن القلب مضطرب جائل في المَلَكُوتِ، والجوارح متأدّبة في الظاهر ساكنة.

الأدب الرابع: ألّا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدِر على ضبط نفسِهِ؛ ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المُراءاة؛ لأن التباكي استجلابٌ للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط، وكل سرور مُباح فيجوز تحريكُه، ولو كان ذلك حرامًا لما نظرت عائشةُ رضي الله عنها إلى الحَبَشة مع رسول الله ﷺ وهم يزفِنون[٢]. وقد رُوِيَ عن جماعةٍ من الصحابة أنهم حجلوا لمّا ورد عليهم سرورًا أوجب ذلك، وذلك في قصة ابنة حمزةَ بنِ عبد المطّلب لما اختصم فيها عليّ بن أبي طالب وأخوه جعفرٌ وزيدُ بنُ حارثةَ رضي الله عنهم، فتشاحّوا[٣] في تربيتها؛ فقال رسول الله ﷺ لعليّ: «أنتَ مِنّي وأنا منك»، فحجل عليّ. وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلْقِي وخُلُقي» فحجل. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فخجل، الحديث. قال: والحجل: الرقص، ويكون لفرحٍ أو شوقٍ، فحكمه حُكْم مهيِّجِه إن كان فرحه محمودًا؛ والرقصُ يزيده ويؤكّده فهو محمود، فإن كان مباحًا فهو مباح، وإن كان مذمومًا فهو مذموم. نعم لا يليق ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة؛ لأنه في الأكثر يكون عن لهوٍ ولعبٍ، وما له صورة اللعب في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدَى به لئلا يَصْغُر في أعين الخلق فيُتْرَك الاقتداءُ به. وأمّا تخريق الثياب فلا رُخْصَة فيه إلا عندَ خروجِ الأمر عن الاختيار. ولا يبعُدُ أن يغلب الوجدُ بحيث يمزّق ثوبه وهو لا يدرِي لغلبة سكر الوجدِ عليه أو يدرِي ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسِه، وتكون صورته صورة المُكْرِه؛ إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفّسٌ فيضطرّ إليه اضطرارَ المريض إلى الأنين؛ ولو كلّف الصبرَ عنه لم يقدر عليه مع أنه فعْل اختياريّ؛ فليس كلّ فعلٍ حصولُه بالإرادة يقدرُ الإنسانُ على تركه؛ فالتنفّس فعلٌ يحصُل بالإرادة، ولو كلّف الإنسان نفسه أن يمسك النفسَ ساعة اضطر من باطنِه إلى أن يختار التنفّس، فكذلك الزعقةُ[٤] وتخريقُ الثياب قد يكون كذلك، فهذا لا يوصف بالتحريم.

---

(١) الجنيد: سبق التعريف به. (٢) يزفنون: يرقصون.

(٣) تشاحّوا: تنافسوا، ووقعوا في الشحناء والبغضاء.

(٤) الزعقة: الصيحة العظيمة.

الأدب الخامس: موافقةُ القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجدٍ صادق من غير رياءٍ وتكلّفٍ، أو قام باختيارٍ من غير إظهار وجدٍ وقام له الجماعة فلا بدّ من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة. وكذلك إن جرت عادة طائفةٍ بتنحيةِ العِمامة على موافقةِ صاحب الوجد إذا سقطت عمامتُه أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتخريق. فالموافقة في هذه الأُمور من حُسْن الصحبة والعِشرة، إذ المخالفةُ موحشة. ولكلّ قوم رسمٌ؛ ولا بدّ من مخالقةِ[1] الناسِ بأخلاقهم كما ورد في الخبرِ لا سيما إذا كانت أخلاقًا فيها حسنُ المعاشرةِ والمجاملة وتطييبُ القلب بالمساعدة. وقول القائل: إنّ ذلك بدعة[2] لم تكن في الصحابة، فليس كلّ ما يحكم بإباحتهِ منقولًا عن الصحابة، ولم ينقل النهيُ عن شيءٍ من هذا. والقيامُ عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابةُ لا يقومون لرسول الله ﷺ في بعض الأحوال كما رواه أنس رضي الله عنه، وإن كان لم يثبت فيه نَهْيٌ عامٌّ، فلا نرى به بأسًا في البلاد التي جرت العادةُ فيها بإكرام الداخل بالقيام؛ فإنّ القصد منه الاحترامُ والإكرامُ وتطييبُ القلب به؛ كذلك سائرُ أنواع المساعدة إذا قُصِدَ بها طيبةُ القلب واصطلح عليها جماعةٌ فلا بأس بمساعدتهم عليها؛ بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نَهْيٌ لا يَقْبل التأويل[3]. ومن الأدب ألّا يقوم للرقص مع القوم إن كان يُستثقل رقصُه ويشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذي يلوح للجمع منه أثر التكلّف، ومن يقوم عن صدقٍ لا تستثقِله الطباع، فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محَكٌّ للصدق والتكلُّف. سئل بعضهم عن الوجد الصحيح، فقال: صحّته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالًا غير أضدادٍ. هذا ملخّص ما أورده الغزاليّ رحمه الله تعالى في معنى السماع وقسمه إلى هذه الأقسام التي ذكرناها.

وأما أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم[4] فقد ذكر مسألةَ السماع وبيَّن إباحتَه، فبدأ بذكر الأحاديث التي احتجّوا بها وضَعَّف رُوَاتِها نحو ما تقدّم وذكر الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: الآية ٦]،

(١) المخالقة: المصانعة، والتخلّق بأخلاق الآخرين.

(٢) البدعة: ما يؤتى به مخالفًا للإيمان، أو للكتاب والسنّة.

(٣) التأويل: التفسير، وقلب المسألة على شتّى وجوهها بغية تفسيرها بالاعتماد على العقل والمنطق.

(٤) ابن حزم الأندلسي: سبق التعريف به، وهو الفقيه المعروف، وصاحب المذهب الظاهري.

وأنّه قيل: إنه الغناء، فليس عن رسول الله ﷺ ولا ثَبَتَ عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم؛ فإنما هو قول بعضِ المفسّرين ممن لا يقوم بقوله حُجّة؛ وما كان هكذا فلا يجوز القول به. ثم لو صحّ لما كان فيه متعلّق؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: الآية ٦]، وكلّ شيءٍ اقتُنِيَ ليُضَلّ به عن سبيل الله فهو إثمٌ وحرام ولو أنه شِراء مصحف أو تعليم قرآن. فإذًا لم يصحّ في هذا شيء فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقَرَة: الآية ٢٩]، وقال رسول الله ﷺ: «أعظم الناس جُرْمًا في الإسلام مَنْ سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»، فصحّ أن كل شيءٍ حرّمه الله عزّ وجلّ علينا فقد فصّله لنا، وكل ما لم يُفصّل تحريمه لنا فهو حلال. واستدلّ رحمه الله على إباحته بالأحاديث التي ذكرناها، حديث عائشة عن خبر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما في غناءِ الجاريتين، واستدلّ أيضًا بحديث نافعٍ أن ابنَ عمرَ سَمِع مزمارًا فوضع إصبعيه في أُذنيه ونأى عن الطريق، وقال: يا نافع، هل تسمع شيئًا؟ قلت: لا، فرفع إصبعيه عن أذنيه وقال: كنتُ مع رسول الله ﷺ وسَمِع مثل هذا وصنع مثل هذا. قال: فلو كان حرامًا ما أباح عليه الصلاة والسلام لابن عمر سماعَه ولا أباح ابنُ عمر لنافعٍ سماعَه؛ ولكنّه عليه الصلاة والسلام كَرِه لنفسه كلّ شيء ليس من التقرّب إلى الله عزّ وجلّ، كما كَرِه الأكل مُتّكئًا، والتنشّف بعد الغسل في ثوبٍ يعدّ لذلك، والستر الموشّى على سَهْوة عائشة وعلى باب فاطمةَ رضي الله عنهما؛ وكما كَرِه ﷺ أشدّ الكراهة أن يبيت عنده دينار أو درهم. وإنما بُعِث عليه الصلاة والسلام مُنْكِرًا للمنكَر، آمرًا بالمعروف. فلو كان ذلك حرامًا لما اقتصر النبيّ ﷺ أن يسدّ أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه، ولم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئًا من ذلك بل أقرّه وتنزّه عنه، فصحّ أنه مباح وأن التركَ له أفضلُ كسائر فضول الدنيا المباحةِ.

قال: فإن قال قائل: قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يُونس: الآية ٣٢]، ففي أيّ ذلك يقع الغناء؟ قيل له: حيث يقع التروّحُ في البساتين وصباغ ألوان الثياب، ولِكُلِّ امرىءٍ ما نَوى، فإذا نوى المرء ترويحَ نفسِهِ وإجمامَهَا[1] لتقوى على طاعة الله فما أتى ضلالًا. قال: ولا يحلّ تحريمُ شيءٍ ولا إباحتُه إلا بنصٍّ من الله عزّ وجلّ أو من رسوله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عزّ وجلّ، ولا يجوز

(١) إجمامها: إراحتها.

عنه تعالى إلا بالنصّ الذي لا شكّ فيه. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عليّ مُتَعَمِّدًا فليتبوّأ[١] مقعدَهُ من النار». وقد تكلّم على إباحةِ السماعِ جماعةٌ من العلماء. وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية، فلنذكر من سَمِع الغناء من الصحابة رضي الله عنهم.

ذكر مَن سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

قد رُوِي أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم سمعوا الغناء.

منهم النعمانُ بن بَشيرِ الأنصاريّ[٢] الخزرجيّ رضي الله عنه، روى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتابه المترجم بـ «الأغاني» بسَنَدٍ رفعه إلى أبي السائب المخزوميّ وغيره، قال: دخل النعمان بن بَشِير المدينةَ في أيام يَزِيد بن معاوية وابنِ الزُّبَيْر، فقال: والله لقد أخفقت أذنايَ من الغناء فأسمعوني، فقيل له: لو وَجّهت إلى عَزَّة المَيْلاء[٣]، فإنها مَن قد عرفت؛ فقال: إي وربِّ هذه البَنِيّة[٤]! إنها لممن يَزِيد النفسَ طِيبًا والعقلَ شَحْذًا[٥]، إبعثوا إليها عن رسالتي، فإن أَبَتْ صرتُ إليها. فقال له بعض القوم: إنّ النُّقْلة تشتدّ عليها لثقل بدنها، وما بالمدينة دابّةٌ تحملها. فقال النعمان: وأين النجائب[٦] عليها الهوادج[٧]؟ فوجّه إليها بنجيبةٍ فذكرت عِلّةً؛ فلما عاد الرسولُ إلى النعمان قال لجليسِهِ: أنت كنت أخبرَ بها، قوموا بنا. فقام هو مع خواصّ أصحابه حتى طرقوها[٨]، فأذِنت وأكرمت واعتذرت، فقبل النعمان عذرها وقال لها: غنّي، فغنّت: [من المتقارب]

أَجَـدَّ بِـعَـمْـرَةَ غُـنْـيـانُـهـا[٩] فـتـهـجُـرَ أم شـأنـهـا شـانُـهـا؟
وعَمْرةُ من سَرَوَاتِ النسا[١٠] تَنْفَحُ[١١] بالمسكِ أردانُها[١٢]

---

(١) فليتبوّأ: فليقم ولينزل.
(٢) النعمان بن بشير الأنصاري: من ألمع الصحابة، كان شاعرًا، وعمل واليًا على الكوفة لمعاوية، وعلى حمص ليزيد. بايع ابن الزبير فاغتيل سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م.
(٣) عزّة الميلاء: مغنّية اشتهرت بضرب العود، عاشت في الحجاز وعاصرت عمر بن أبي ربيعة. توفيت نحو ٧٣٣ م.
(٤) البنيّة: إشارة إلى الكعبة المبنيّة.
(٥) شحذًا: إنارة وفطانة.
(٦) النجائب: جمع نجيبة، وهي الناقة من الإبل العتاق.
(٧) الهوادج: جمع هودج، وهو الرّحل، وما يوضع فوق البعير لحمل النساء.
(٨) طرقوها: أتوها ليلًا.
(٩) الغنيان: الاستغناء.
(١٠) سروات النساء: أعلاهنّ شأنًا.
(١١) تنفح: تضمّخ.
(١٢) الأردان: أطراف الأكمام.

قال: وهذا الشعر هو لقَيْس بنِ الخطيم[(١)] في أمّ النعمان بن بشير، وهي عَمْرةُ بنتُ رَوَاحةَ أختُ عبدِ الله بنِ رواحة[(٢)]؛ قال: فأُشِير إلى عَزَّة أنها أمّه فأسكت؛ فقال: غنّني فوالله ما ذكر إلا كرمًا وطيبًا ولا تغنّي سائر اليوم غيرَه؛ فلم تزل تغنّيه هذا اللحن حتى انصرف.

ومنهم حسّان بن ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه، روى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى محرزِ بنِ جعفرٍ قال: خَتَن[(٣)] زَيْد بن ثابت[(٤)] بنيهِ وأولم واجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامّةُ أهل المدينة، وحضر حسانُ بنُ ثابت وقد كُفّ بصرُه يومئذ وثَقُل سمعه فوُضع بين يديه خُوَانٌ[(٥)] ليس عليه غيره إلا عبدُ الرحمٰن ابنُه، وكان يسأله كلما وُضِعت صحفةٌ أطعامُ يدٍ أو يدَيْنِ؟ فلم يزل يأكل حتى جِيء بشِواءٍ، فقال: أطعام يد أم يدينِ؟ فقال: بل طعام يدين، فأمسك يده؛ حتى إذا فُرِغ من الطعام ثُنِيت وِسادةٌ وأقبلت عَزّةُ المَيْلاء وهي إذًا شابّة، فوُضع في حجرها مِزْهَر[(٦)] فضرب به وتغنّت، فكان أوّل ما ابتدأت به شِعر حسّان: [من الطويل]

فـلا زال قَـصْـرٌ بـيـن بُـصْـرَى[(٧)] وجِـلَّقٍ[(٨)]
عـلـيـه مـن الـوَسْـمِـيّ[(٩)] جَـوْدٌ[(١٠)] ووابـلُ[(١١)]

فطَرِب حسان وجعلت عيناه تنضحانِ[(١٢)] على خدّيه وهو مُصغٍ لها.

وروى أيضًا بسنده إلى خارجةَ بن زيدٍ[(١٣)] أنه قال: دُعِينا إلى مأدُبة في آل نُبَيْط، فحضرنا وحضر حسان بن ثابت، فجلسنا جميعًا على مائدة واحدة وهو يومئذ

---

(١) قيس بن الخطيم: شاعر جاهلي من الأوس عاش في المدينة، وانتصر لقبيلته الأوس ضدّ الخزرج. له ديوان شعر. ومات نحو ٦٢٠ م.
(٢) عبد الله بن رواحة: صحابي أنصاري خزرجي، شاعر دافع عن المسلمين، استشهد في غزوة مؤتة، وكان حامل لواء. وذلك سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. انظر: السيرة النبويّة ٢/٤٥٨.
(٣) ختن الولد: نزع غرلته.
(٤) زيد بن ثابت: أنصاري خزرجي من أكابر الصحابة وأعلمهم بالفرائض. تعلم السريانيّة والعبريّة بأمر من الرسول ﷺ، كانت وفاته سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م. انظر: شذرات الذهب ١/٥٤.
(٥) الخوان: ما يؤكل عليه.
(٦) المزهر: آلة موسيقية تشبه العود.
(٧) بصرى: ببلاد الشام قريبة من حوران.
(٨) جلّق: هي الشام نفسها.
(٩) الوسميّ: مطر يأتي في الربيع.
(١٠) الجود: المطر الرخيّ الغزير.
(١١) الوابل: المطر الشديد.
(١٢) تنضحان: تسيلان.
(١٣) خارجة بن زيد: من كبار التابعين، وأحد الفقهاء السبعة. توفي سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/١١٨.

قد ذهب بصرُه ومعه ابنه عبد الرحمٰن، وكان إذا أُتِيَ بطعام سأل ابنَه عبد الرحمٰن أطعام يد أم طعام يدين؟ (يعني بطعام اليد الثريد، وطعام اليدين الشواء، لأنه ينهش نهشًا)، فإذا قال: طعام يد أكل، وإذا قال: طعام يدينِ أمسك يده؛ فلما فرغوا من الطعام أتَوْا بجاريتين مغنّيتين إحداهما «رائقة» والأخرى «عَزّة» فجلستا وأخذتا مِزْهَريهما وضربتا ضربًا عجيبًا وغنّتا بقول حسان بن ثابت: [من المنسرح]

أُنظر خليلي بباب جِلَّقَ هل تُؤنِس دون البَلْقاءِ[1] من أحَدِ

قال: فأسمعُ حسانَ يقول: قد أراني هناك سمعيًا بصِيرًا، وعيناه تدمعان، فإذا سكتتا سكن عنه البكاء وإذا غَنّتا يبكي. قال: وكنت أرى عبد الرحمٰن ابنه إذا سكتتا يشير إليهما أن غنّيا، فيبكي أبوه، فيُقال: ما حاجتُه إلى بكاء أبيه!

وروى أيضًا بسندهِ إلى عبّاد بن عبد الله بن الزُّبَيْر عن شيخ من قريش قال: إني وفِتْية من قريش عندَ قَيْنةٍ ومعنا عبد الرحمٰن بنُ حسّان بن ثابت إذ استأذن حسان، فكرِهنا دخولَه وشقّ علينا؛ فقال لنا عبد الرحمٰن ابنه: أيسرُّكم ألّا يجلس؟ قلنا: نعم، قال: فمُرُوا هذه إذا نظرت إليه أن تُغنّي: [من الكامل]

أولادُ جَفْنةَ[2] حَوْلَ قبرِ أبيهِمُ قبرِ ابنِ مارِيَةَ[3] الكريم المُفْضِلِ
يُغْشَوْن[4] حتى ما تَهِرُّ[5] كلابُهم لا يسألون عن السواد المقبِلِ

قال: فغنّته، فواللهِ لقد بكى حتى ظنّنا أنه سيلفظُ نفسه، ثم قال: أفيكم الفاسِقُ؟ لعَمْري لقد كَرِهتم مجلسي اليوم، وقام فانصرف. وهذا الشعر لحسّان بن ثابت وهو مما امتدح به جَبَلَة بن الأيهم[6]، وهو من قصيدة طويلة منها قوله في مدح آلِ جفنة[7]:

بِيضُ الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

ورَوى أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى الحارث بن عبد الله بن العباس: أنه بينما هو يسير مع عُمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) البلقاء: من أعمال الأردن، قريبة من السّلط.
(٢) جفنة: أحد أجداد الملوك الغساسنة. (٣) ابن مارية: يريد به النعمان الملك.
(٤) يغشون: تطرق أبوابهم ويُقصدون. (٥) تهرّ: تشتدّ في النباح.
(٦) جبلة بن الأيهم: آخر ملوك الغساسنة في بادية الشام، شارك الروم في معركتي دومة الجندل واليرموك وانهزم معهم. توفي بالقسطنطينية سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م.
(٧) آل جفنة: هم ملوك الغساسنة.

بطريق مكّة في خلافته ومعه مَنْ معه مِنَ المهاجرين والأنصار، ترنّم عمرُ ببيتٍ فقال له رجل من أهل العراق ـ ليس معه عراقيّ غيره ـ: غيرك فليقلْها يا أمير المؤمنين! قال: فاستحيا عمر وضرب راحلتَه[1] حتى انقطعتْ مِنَ الرَّكْب. قال المقدسي: ويزيد ذلك وضوحًا ـ وساق حديثًا بسند رفعه إلى يحيىٰ بن عبد الرحمٰن ـ قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجّ الأكبر، حتى إذا كان عمرُ بالرَّوْحاء[2] كلّم الناسُ رَبَاحَ بن المعترِف، وكان حسن الصوت بغناءِ الأعراب، فقالوا: أَسْمِعْنا وقَصِّر عنّا الطريق؛ فقال: إنّي أَفْرَقُ[3] من عمرَ، قال: فكلّم القومُ عمرَ. إنّا كلّمنا رباحًا أن يُسمِعَنا ويُقصِّر عنا طريقَ المسير فأبى إلّا أن تأذن له، فقال له: يا رباح، أَسْمِعهم وقصِّر عنهم المسير، فإذا أَسْحرت[4] فارفعْ واَحْدُهم[5] بشعر ضِرار بن الخطّاب؛ فرفع عَقِيرتَه يتغنّى وهم محرمون.

وروى أيضًا بسنده إلى يزيدَ بن أسلم عن أبيه: أن عمر رضي الله عنه مرّ برجل يتغنّى، فقال: إن الغناءَ زادُ المسافِر.

وروى سُفْيان الثَّوْرِيّ وشُعْبة كلاهما عن أبي إسحٰق السَّبِيعيّ عن عامر بن سعد البَجَليّ: أن أبا مسعود البدرِيّ، وقَرَظَةَ بن كعبٍ، وثابتَ بن يزيد، وهم في عُرْسٍ وعندهم غناء، فقلت: هذا وأنتُم أصحابُ محمدٍ ﷺ! فقالوا: إنه رُخِّص لنا في الغناء في العرس والبكاء على الميّت في غير نوح؛ إلّا أن شعبة قال: ثابت بن وديعة مكان ثابت بن يزيد، ولم يذكر أبا مسعود.

وقال الإمام أبو حامد الغزاليّ رحمه الله تعالى عن أبي طالب المكيّ: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شُعْبة، ومعاوية وغيرهم، وقال: قد فعل ذلك كثير من السَّلَف صحابيّ وتابعيّ بإحسان.

وروى الحافظ أبو الفضل المقدسيّ بسند رفعه إلى عمر بن أبي زائدة قال: حدّثتني امرأةُ عمرَ بنِ الأصمّ قالت: مررنا ونحن جَوَارٍ بمجلس سَعِيد بن جُبَيْر ومعنا

(١) الراحلة: الدابّة، والناقة خاصةً.
(٢) الرّوحاء: اسم موضع بعينه قريب من المدينة.
(٣) أفرق: أخاف.
(٤) أسحرت: دخلت في السَّحَر، وهو قبل الفجر.
(٥) اَحدهم: غنّ لهم حداء.

جارية تغنّي ومعها دُفّ، وهي تقول: [من الطويل]

لئن فَتَنَتْني فهي بالأمس أَفْتنتْ سَعِيدًا فأمسَى قد قَلَى[١] كلّ مسلم
وألقَى مفاتيحَ القِراءةِ واشترى وِصال الغواني بالكتاب المُنَمْنَمِ[٢]

فقال سعيد: تكذِبين تكذِبين.

ذكر مَن سمع الغناء من الأئمّة والعُبّاد والزهّاد

قالوا: وقد سمِع الغناءَ من الأئمة الإمامُ الشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ رحمهما الله تعالى، وغيرهما من أصحابهما. روى الحافظُ أبو الفضل محمد بن طاهر بن عليّ المقدسيّ رحمه الله تعالى بسندٍ رفعه إلى المَرِيسيّ، قال: مررنا مع الشافعيّ وإبراهيمَ بنِ إسماعيلَ على دار قومٍ وجاريةٌ تغنّيهم: [من الطويل]

خَليليَّ ما بالُ المطايا[٣] كأنها نراها على الأعقاب بالقوم تَنْكِصُ[٤]

فقال الشافعيّ: مِيلُوا بنا نسمع، فلما فَرَغت قال الشافعيّ لإبراهيمَ: أيُطربُك هذا؟ قال: لا، قال: فما لك حِسّ!.

وروى أيضًا بسندٍ رفعه إلى صالح بنِ أحمدَ بنِ حنبل قال: كنتُ أحبُّ السماعَ وكان أبي يكره ذلك، فواعدتُ ليلةً ابنَ الخبّازة، فمكث عندي إلى أن عَلِمتُ أنّ أبي قد نام، فأخذ يُغنّي، فسمعتُ خشفةً[٥] فوقَ السطح، فصَعِدتُ، فرأيتُ أبي فوق السطح يسمع ما يُغنّى وذيله تحت إبطِهِ وهو يتبختَر كأنه يرقص. قال: وقد روِيتْ هذه الحكاية أيضًا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ـ وساق سندًا إليه ـ قال: كنت أدعو ابنَ الخبّازة وكان أبي ينهانا عن الغناء، وكنت إذا كان عندي كتمتُه من أبي لئلّا يسمع، فكان ذات ليلةٍ عندي وهو يقول: فعرَضَتْ لأبي عندنا حاجةٌ ـ وكانوا في زقاق ـ فجاء وسَمِعه يقول، فوقع في سَمْعه شيءٌ من قولِه، فخرجتُ لأنظرَ فإذا بأبي يترجّح[٦] ذاهبًا وجائيًا، فرددتُ الباب ودخلت؛ فلما كان من الغد قال أبي: يا بنيّ، إذا كان مثل هذا فنعم الكلام ـ أو معناه ـ. قال أبو الفضل: وابن الخبّازة هذا هو أبو بكر محمد بنُ عبدِ الله بن يحيىٰ بن زكريّا الشاعر، وكان عاصَرَ أحمدَ ورثاه حين مات.

---

(١) قلى: أبغض. (٢) والمنمنم: المنقّط والمزخرف.
(٣) المطايا: الرواحل، وما يركب من الدوابّ عامّةً والجمال خاصةً.
(٤) تنكص: ترجع. (٥) الخشفة: الصوت والحركة.
(٦) يترجّح: يتمايل.

وروى أبو الفضل أيضًا بسند رفعه إلى أبي مُصْعَب[١] الزُهْريّ أنّه قال: حضرتُ مجلس مالك بن أنَس فسأله أبو مصعب عن السّماع، فقال مالك: ما أدري، أهلُ العلم ببلدنا لا يُنكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره إلا غبيٌّ جاهل أو ناسك عِراقيٌّ غليظ الطبع. وقال أيضًا: أخبرنا أبو محمد التميميّ ببغداد قال: سألتُ الشريف أبا عليّ محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشميّ عن السماع، فقال: ما أدري ما أقول فيه، غير أني حضرت دارَ شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التميميّ سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عَمِلها لأصحابه؛ حضرها أبو بكر الأَبْهَرِيّ شيخُ المالكيّة، وأبو القاسم الدّاركي شيخُ الشافعيّة، وأبو الحسن طاهرُ بن الحسن شيخُ أصحابِ الحديث، وأبو الحسن بنُ سمعونَ شيخُ الوعّاظ والزهّاد، وأبو عبد الله محمد بن مجاهد شيخُ المتكلّمين، وصاحبه أبو بكر الباقلّانيّ[٢] في دار شيخنا أبي الحسن التميميّ شيخ الحنابلة؛ فقال أبو عليّ: لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق مَنْ يُفْتِي في حادثة يشبه واحدًا منهم، ومعهم أبو عبد الله غلام تامٌّ، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حَسَن، وربما قال شيئًا. فقيل له: قل لنا شيئًا؛ فقال لهم وهم يسمعون: [من البسيط]

خَطَّتْ أناملُها في بطن قرطاس[٣] ... رسالةً بعَبِير لا بأنقاسِ[٤]
أن زُرْ فَدَيتك لي من غير مُحتشمٍ ... فإنّ حبّك لي قد شاع في الناسِ
فكان قولي لمن أدّى رسالتها ... قف لي لأمشي على العينين والراسِ

قال أبو عليّ: فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني أن أُفْتِيَ في هذه المسألة بِحَظْر ولا إباحة.

وممن أحبّ السماعَ والغناءَ وسمعه من الزهّاد والعبّادِ والعلماءِ أبو السائب المخزوميّ. روى أبو الفرج الأصبهانيّ بسنده إلى صفيّةَ بنتِ الزُّبيرِ بن هشام قالت: كان أبو السائب المخزوميّ رجلًا صالحًا زاهدًا مُتقلِّلًا يصوم الدهر، وكان أرقُّ خلقِ الله قلبًا وأشدُّهم غَزَلًا، فوجّه غلامَه يومًا يأتيه بما يُفْطِرُ عليه، فأبطأ الغلامُ إلى

(١) هو أحمد بن أبي بكر الزهريّ، من المدينة. روى الموطّأ عن مالك.
(٢) أبو بكر الباقلاني: واسمه محمد، قاضٍ ومتكلّم أشعري، من كبار علماء الكلام. ولد في البصرة وسكن بغداد. توجّه من قبل عضد الدولة سفيرًا إلى بلاد الروم فناظر ملكهم في القسطنطينية، كما ناظر علماءهم. من كتبه «إعجاز القرآن» و«الإنصاف» و«تمهيد الدلائل» و«مناقب الأئمّة» و«المِلل والنحل» و«دقائق الكلام». مات سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٣ م.
(٣) القرطاس: الورق. (٤) الأنقاس: المداد.

العَتَمة؛ فلما جاء قال له: يا عدوّ نفسِهِ، ما أخّرك إلى هذا الوقت؟ قال: اجتزتُ ببابِ فلان فسمعت منه غناءً فوقفتُ حتى أخذته. فقال: هاته يا بُنيّ، فوالله لئن كنتَ أحسنتَ لأحْبُوَنَّك[1]، وإن كنتَ أسأت لأضربنّك، فاندفع يُغنّي بشعر كُثيّر[2]: [من الطويل]

ولَمّـا عَـلَوْا شَـغْـبَـا[3] تَـبَـيَّـنـتُ أنّـه
تَـقَـطَّـعُ مـن أهـل الـحـجـاز عـلائـقـي
فـلا زِلْنَ حَسْرَى[4] ظُـلَّعًـا[5] لـم حَـمَـلْنـهـا
إلـــى بـــلد نـــاءٍ قـــليـــلِ الأصـــادقِ

فلم يزل يغنّيه ويستعيدُه إلى نصفِ الليل، فقالت له زوجتُه: يا هذا، قد انتصف الليلُ وما أفطرتَ. فقال لها: أنتِ الطلاقُ إن أفطرْنا على غيره، فلم يزل يغنّيه ويستعيدُه حتى أسحرَ. فقالت له: هذا السَّحَرُ وما أفطرنا. قال لها: أنت الطلاق إن كان سَحُورنا غيرَه؛ ثم قال لابنه: يا بُنيّ، خذ جُبّتي هذه وأعطني خَلَقَك ليكون الحِباءُ فضلَ ما بينهما. فقال له: يا أبتِ، أنت شيخ وأنا شابّ وأنا أقوى على البرد منك، فقال له: يا بُنيّ، ما ترك هذا الصوتُ للبرد عليّ سبيلًا ما حييتُ.

ويؤيّد هذه الحكايةُ ما حكاه أبو طالب المكيُّ في كتابه، قال: كان بعض السامعين يقتابُ بالسماعِ لِيقوَى به على زيادةِ طَيّه، كان يَطْوِي اليومَ واليومين والثلاثة، فإذا تاقت نفسُه إلى القوتِ عدل بها إلى السماع، فأثار تواجدَه، فاستغنى بذلك عن الطعام.

وروى أبو الفرج بسندِهِ إلى عبد الله بن أبي مُلَيكةَ عن أبيه عن جدّه، قال: كان بالمدينة رجل ناسكٌ من أهل العلم والعفّة، وكان يَغْشَى عبدَ الله بن جعفر، فسمع

---

(١) أحبونّك: أعطيك.
(٢) كُثَيِّر: هو كُثَيِّر عَزَّة، عرف بها لأنه أحبّها حتى العبادة فهو من الشعراء العذريّين في الغزل. عاش في عصر بني أُمية، وأقام في المدينة. شعره رقيق للغاية، وفاته كانت سنة ٧٢٣ م، له ديوان شعر مشهور.
(٣) شغب: اسم موضع بعينه.
(٤) حسرى: حاسرات متلهفات حزينات.
(٥) ظلّعًا: فيهن عرج من الإعياء.

جاريةً مُغَنِّية لبعض النخاسِين[١] تُغنّي: [من البسيط]

بانت[٢] سعادُ وأمسى حَبْلُها انقطعا   واحتلّت الغَوْرَ[٣] فالجَدَّيْنِ فالفَرَعَا
وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرت   من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

فهام الناسكُ وترك ما كان عليه، حتى مشى إليه عطاء وطاوُس ولاماه؛ فكان جوابُه لهما أن تمثّل: [من البسيط]

يلومني فيك أقوامٌ أُجَالسهم[٤]   فما أُبالي أطارَ اللّومُ أم وَقَعَا

فبلغ عبد الله بن جعفر خبرُه، فبعث إلى النخاس، فاعترض الجاريةَ وسمع غِناءها بهذا الصوت وقال: ممن أخذتيه؟ قالت: مِن عَزَّةَ المَيْلاء؛ فابتاعها بأربعين ألف درهم. ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبرها فأعلمه إيّاه؛ فقال: أتحبّ أن تسمعَ هذا الصوتَ ممن أخذتْه عنه تلك الجاريةُ؟ قال: نعم، فدعا عَزَّة المَيْلاءَ فقال: غنّيهِ إياه، فغنّته، فصَعِق[٥] الرجلُ وخرّ مَغْشِيًا عليهِ. فقال ابن جعفر: أَثِمْنَا فيهِ، الماءَ الماءَ! فنُضِح[٦] على وجهِهِ. فلما أفاق قال له: أكلّ هذا بلغ بك عشقُها؟ قال: وما خَفِيَ عليك أكثر. قال: أفتحبّ أن تسمعه منها؟ قال: قد رأيتَ ما نالني حين سمعتُه من غيرها وأنا لا أحبّها، فكيف يكون حالي إن سمعتُه منها وأنا لا أقدِر على مِلْكها! فأخرجها إليه وقال: خذها فهي لك؛ ووالله ما نظرتُ إليها إلا عن عُرُضٍ. فقبّل الرجل يديهِ ورجليهِ وقال: أنَمْتَ عَيْني، وأحييتَ نفسي، وتركتني أعيش بين قومي، ورددتَ إليّ عقلي، ودعا له دعاء كثيرًا. فقال عبد الله: ما أرضى أن أُعطِيكَها هكذا، يا غلام، احمِلْ معه مثلَ ثمنِها، ففعل.

قال الغزاليّ رحمه الله في «إحياء علوم الدين»: كان ابن مجاهد لا يُجيب دعوةً إلا أن يكون فيها سماع. قال: وكان أبو الخير العسقلانيّ[٧] الأسود من الأولياء يسمع ويَوْلَهُ عند السماع، وصنّف فيه كتابًا وردّ فيه على مُنكريهِ. وحُكي عن بعض الشيوخ أنّه قال: رأيت أبا العباس الخضرَ عليه السلام، فقلت: ما تقول

---

(١) النخّاسون: تجّار الجواري يقومون بعرضها للبيع.
(٢) بانت: فارقت وبَعُدت.
(٣) الغور والحدّين والفرع: أسماء مواضع بعينها.
(٤) أجالسهم: أعاشرهم.
(٥) صعق: أصيب بما يشبه الصاعقة من الذهول والدهشة والخوف.
(٦) نُضح: رُشّ عليه الماء.
(٧) العسقلاني: نسبة إلى عسقلان بفلسطين.

في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابُنا؟ قال: هو الصَّفَا الزَّلَّال[١] الذي لا تثبُت عليهِ إلا أقدامُ العلماء.

وروى الأصفهانيّ بسند رفعه إلى ابن كُنَاسةَ قال: اصطحب شيخٌ مع شابٍّ في سفِينة في الفُرَات ومعهم مغنّية، فلما صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ: معنا جاريةٌ وهي تغنّي، فأحببنا أن نَسمع غناءها فهِبْناكَ، فإن أذِنْتَ فَعلْنا. فقال: أنا أصعَدُ على أطلال السفينة، فاصنعوا أنتم ما شئتم؛ فصَعِد وأخذت المغنّيةُ عودَها وغنّت: [من السريع]

حتى إذا الصبح بدا ضوؤُهُ وغابت الجوزاء[٢] والمِرْزَمُ[٣]
أقبلتُ والوطءُ خَفِيٌّ كما ينسابُ من مَكْمَنه الأَرْقَمُ[٤]

فطرِب الشيخُ وصاح، ثم رمى بنفسِهِ وبثيابِهِ في الفُرَات وجعل يغوصُ ويطفو ويقول: أنا الأرقمُ أنا الأرقم! فألقَوْا أنفسَهم خلفَه، فبعد لأْيٍ[٥] مّا استخرجوه، وقالوا: يا شيخُ، ما حملك على ما فعلت؟ فقال: إليكم عنّي، فإني أعرِف من معاني الشعر ما لا تعرِفون. فقالوا له: ما أصابك؟ قال: دبّ من قدمي شيءٌ إلى رأسي كدبيبِ النَّمْل ونزل من رأسي مثلُه، فلما اجتمعا على قلبي عَمِلتُ ما عَمِلتُ.

وقال أحمد بن أبي دُواد[٦]: كنتُ أَعِيبُ الغناءَ وأطعُنُ على أهله؛ فخرج المعتصمُ يومًا إلى الشَّمَّاسيّة[٧] في حَرّاقة[٨]، ووجّه في طلبي فصِرتُ إليه، فلما قَرُبتُ منه سمعتُ غناء حيَّرني وشَغَلني عن كلّ شيء، فسقط سَوْطي عن يدي، فالتفتُّ إلى غلامي أطلب منه سوطًا؛ فقال لي: قد والله سقط منّي سوطي، فقلت له: أيّ شيء كان سببَ سقوطه؟ قال: صوت سمعته فحيّرني، فما علمتُ كيف سقط، فإذا قِصّتُه قِصّتي. قال: وكنتُ أُنكر أمرَ الطّربِ على الغناء وما يستفزُّ الناسَ منه فيغلب على

---

(١) الصفا الزلال: الحجارة الملسى العريضة والناعمة.
(٢) الجوزاء: كويكبة معروفة في السماء الشمالية يطلق عليها اسم كوكبة الجبّار.
(٣) المرزم: واحد المرزمين وهما مع الشعريين العبور والغميصاء، من نجوم المطر.
(٤) الأرقم: الثعبان. (٥) اللأي: الجهد والتعب.
(٦) أحمد بن أبي دؤاد: قاضٍ معتزليّ، ولد في البصرة، قرّبه إليه المأمون، وجعله المعتصم قاضي القضاة. توفي سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م.
(٧) الشماسيّة: الموضع الذي كان يقيم فيه المعتصم.
(٨) الحرّاقة: ضرب من المراكب النهريّة.

عقولهم، وأناظرُ المعتصمَ عليه، فلما دخلتُ عليه يومئذ أعلمتُه بالخبر، فضحك وقال: هذا عمّي كان يغنّيني: [من الخفيف]

إنّ هـذا الـطـويـل مـن آل حَـفْـصٍ أَنْشَرَ[١] المجدَ بعد ما كان ماتا

فإن تُبتَ مما كنتَ تناظر عليه من ذمّ الغناء سألته أن يُعيده، ففعلتُ وفعل، فبلغ بي الطربُ أكثر مما يبلغُه من غيري، ورجعتُ عن رأيي منذ ذلك اليوم. وعمُّه الذي أشار إليه هو إبراهيم بن المهديّ[٢].

ذكر مَنْ غنّى من الخلفاء وأبنائهم
ونُسِبت له أصواتٌ من الغناء نُقِلَتْ عنه

كان مَنْ غنَّى من الخلفاء ـ على ما أورده أبو الفرج الأصفهانيّ في كتابه المترجم بـ «الأغاني» ـ ونسِبت له أصواتٌ جماعةٌ، منهم عمر بن عبد العزيز قد نُسِبَتْ له أصواتٌ، ومنهم من أنكر ذلك. ولعلّ ما نُقل عنه كان منه قبل الخلافة. وكان رحمه الله من أحسن الناس صوتاً، فكان مما نسب إليه من الغناء: [من مجزوء الرمل]

عَـلِقَ الـقـلـبُ سُـعَـادا عـادت الـقـلـبَ فـعـادا
كُـلـمـا عُـوتـب فـيـهـا أو نُـهِـيَ عـنـهـا تـمـادى[٣]
وهـو مـشـغـوفٌ[٤] بسُـعْـدَى وعَـصَـى فـيـهـا وزادا

ومما نُسب إليه من الغناء ما قيل إنه غنّاه من شعر جرير[٥]: [من الوافر]

قِـفـا يـا صـاحِـبيّ نَـزُرْ سُـعَـادَا لِوَشْـك فِـراقـهـا ودَعَـا الـبِـعـادا
لـعَـمْـرُكَ إنَّ نَـفْـعَ سـعـادَ عـنّـي لـمـصـروفٌ ونـفـعـي عـن سـعـادا
إلى الفاروق[٦] ينْتسِب ابنُ ليلى ومَـرْوانُ الـذي رفـع الـعِـمـادا

(١) أنشر: بعث من جديد، وأحيا.
(٢) إبراهيم بن المهديّ: عمّ المأمون وأخو هارون الرشيد، بويع له بالخلافة في غياب المأمون بخراسان. ولما عاد المأمون إلى بغداد عفا عنه. ولقد اشتهر إبراهيم بالغناء، وكانت وفاته سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م.
(٣) تمادى: أسرف واستمرّ في حبّه. (٤) مشغوف: مفتون.
(٥) جرير: شاعر أموي مشهور، كنيته أبو حرزة. اشتهر بالهجاء ولا سيما هجاء الأخطل والفرزدق، ضمن شعره الهجاء والمدح والفخر والغزل والرثاء. مات سنة ٧٣٣ م.
(٦) الفاروق: صفة للخليفة عمر بن الخطاب، ومعناها الذي يفرق بين الحق والباطل.

ومن ذلك ما قيل إنّه غنّاه من شعر الأشهب بن رُمَيْلة: [من الوافر]

ألا يا دِينَ قلبُك من سلَيمى كما قد دِينَ قلبُك من سعادَا

هما سَبَتا الفؤاد[١] وهاضتاه[٢] ولم يُدرِك بذلك ما أرادَا

قِفا نَعرِف منازلَ مِنْ سُليمى دَوَارِسَ[٣] بين حَوْمَلَ أو عُرَادَا[٤]

ذكرتُ لها الشباب وآل ليلى فلم يزد الشبابُ بها مَزَادَا

فإن تَشِب الذوائبُ[٥] أمَّ عمرٍو فقد لاقيتُ أيامًا شِدادَا

وممّن غنّى من خلفاء الدولة العباسيّة، ممن دُوِّنت له صنعة، الواثقُ بالله[٦] أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله بن الرشيد. حكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى إسحٰقَ بنِ إبراهيمَ الموصليّ قال: دخلتُ يومًا دارَ الواثقِ بالله بغير إذنٍ إلى موضع أمَر أن أدخلَه إذا كان جالسًا، فسمعت صوتَ عُودٍ من بيت وترنُّمًا لم أسمع أحسنَ منه. فأطْلع خادمٌ رأسَه ثم ردّه وصاح بي، فدخلت وإذا أنا بالواثق بالله. فقال: أيَّ شيءٍ سمعتَ؟ فقلت: الطلاق كامل لازمٌ له وكلّ مملوك له حرّ، لقد سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطُّ حُسْنًا! فضحك وقال: وما هو؟ إنما هذه فَضْلة أدب وعلم مدحه الأوائلُ واشتهاه أصحابُ رسول الله ﷺ والتابعون بعدهم وكَثُر في حَرَم الله عزّ وجلّ ومُهَاجَر[٧] رسول الله ﷺ، أتحبُّ أن تسمعه؟ قلت: إي والله الذي شرّفني بخطابك وجميل رأيك. فقال: يا غلامُ، هات العودَ وأعط إسحٰقَ رطلًا؛ فدفع الرطلَ إليّ وضرب وغنّى في شعر لأبي العتاهية[٨] بلحن صنعه فيه: [من البسيط]

أضحت قبورُهُمُ من بعد عِزّتهم

تَسْفِي[٩] عليها الصّبا[١٠] والحَرْجَفُ[١١] الشَّمِلُ

(١) سبتا الفؤاد: أسرتاه.
(٢) هاضتاه: كسرتاه وأضعفتاه.
(٣) دوارس: بالية.
(٤) حومل وعراد: اسما موضعين بعينهما.
(٥) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي الخصلة من الشعر.
(٦) الواثق بالله، هارون بن المعتصم، خليفة عباسي شغل بالاختلافات الكلامية وناصر المعتزلة وامتحن الناس في خلق القرآن. مات سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٢.
(٧) مهاجره: مكان هجرته، والمقصود المدينة المنوّرة.
(٨) أبو العتاهية: سبق التعريف به.
(٩) تسفي: تذري.
(١٠) الصبا: اسم لريح الشرق.
(١١) الحرجف: الريح الباردة.

لا يَـدفـعـون هـوامّـا[١] عـن وُجُـوهِـهِـمُ
كـأنـهـم خَـشَـبٌ بـالـقـاعِ مُـنْـجـدِلُ[٢]

فشربتُ الرطل ثم قمتُ. فدعوتُ له، فاحتبسني وقال: أتشتهي أن تسمعَه بالله؟ قلتُ: إي والله، فغنّانِيهِ ثانية وثالثةً، وصاح ببعض خدمِه وقال: اِحمِلْ إلى إسحٰقَ الساعةَ ثلاثمائة ألف درهم. قال: يا إسحٰقُ، قد سَمِعتَ ثلاثة أصوات وشربتَ ثلاثة أرطال وأخذتَ ثلاثمائة ألف درهم، فانصرفْ إلى أهلك مسرورًا ليُسرُّوا معك، فانصرفتُ بالمال. وقال أبو الفرج بسنده إلى عَرِيب[٣] المأمونيّة قالت: صنع الواثق بالله مائة صوت ما فيها صوت ساقط. ولقد صنع فيّ هذا الشعرَ: [من البسيط]

هل تَعلَمين وراءَ الحبِّ منزلةً تُدنِي إليكِ فإن الحبّ أقصاني[٤]
هذا كتابُ فتًى طالت بليّتُه[٥] يقول يا مُشتَكَى بثّي[٦] وأحزاني

قال: وكان الواثق بالله إذا أراد أن يَعرِضَ صِنْعَته على إسحٰق نسبها إلى غيره فقال: وقع إلينا صوتٌ قديمٌ من بعض العجائز فاسمعه، وأمر مَن يغنّيه إياه. وكان إسحٰق يأخذُ نفسه بقول الحقّ في ذلك أشدّ أخذ، فإن كان جيّدًا رَضِيَهُ واستحسنه وإن كان فاسدًا أو مُطَّرَحًا أو متوسّطًا ذكر ما فيه. فإن كان للواثق فيه هوًى سأله تقويمَه وإصلاحَ فاسدِهِ وإلّا اطَّرحه. وقال إسحٰق بن إبراهيم: كان الواثق أعلم الناس بالغناءِ، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذق[٧] مَنْ غنَّى بضرب العود، ثم ذكر أغانيَه. وذكر أبو الفرج الأصفهانيّ منها أصواتًا؛ منها: [من الطويل]

ولـم أرَ لَيْـلَى غـيـرَ مَـوْقِـفِ لَيْـلةٍ بخَيْفِ مِنًى[٨] تَرْمِي جِمارَ المُحَصَّبِ[٩]
ويُبْدِي الحَصَى منها إذا خَذَفَتْ به مِن البُرْدِ أطرافَ البنانِ المُخَضَّبِ

---

(١) الهوام: ما لا يتماسك من الرمل فهو ينهار أبدًا.
(٢) منجدل: منصرع.
(٣) عريب: ويقال لها عريب المأمونية، شاعرة مغنية قرّبها المأمون فنسبت إليه. عشقها إبراهيم بن المدبّر، وراسلها وراسلته.
(٤) أقصاني: أبعدني.
(٥) بليّته: معاناته ومصابه.
(٦) البثّ: أشد الحزن والوجع.
(٧) أحذق: أمهر.
(٨) خيف مِنًى: اسم موضع بمِنًى، وفيها مسجد مشهور يعرف بمسجد الخَيْف.
(٩) جمار المحصّب: الحجارة الصغيرة التي يحصب بها الشيطان بمِنًى.

ألا إنــمــا غــادَرْتِ يــا أمّ مــالِكٍ صدًى أيْنَما تَذْهَبْ به الريحُ يَذْهَبِ

وأصبحتُ مِن لَيْلَى الغَدَاةَ كناظرٍ مع الصبحِ في أعجازِ[١] نَجْم مُغَرِّبِ

وذكر أصواتًا كثيرة غير هذا تركنا ذكرها اختصارًا.

قال: ولما خرج المعتصِمُ إلى عَمُّوريَّةَ[٢] استخلف الواثقَ، فوجّه الواثقُ إلى الجلساء والمغنّين أن يُبَكّروا إليه يومًا حدّه لهم، ووجّه إلى إسحٰق، فحضر الجميع. فقال لهم الواثق: إني عزمتُ على الصَّبوح[٣]، ولستُ أجلس على سريرٍ حتى أختلط بكم ونكون كالشيء الواحد، فاجلسوا معي حَلْقة، وليكن إلى جانبِ كلّ جليسٍ مُغنّ، فجلسوا كذلك. فقال الواثق: أنا أبدأ، فأخذ العود فغنّى وشربوا وغنّى مَن بعده، حتى انتهى إلى إسحٰق وأُعطِي العودَ فلم يأخذه؛ فقال: دعوه. ثم غنّوا دورًا آخر؛ فلما بلَغ الغناءُ إلى إسحٰق لم يُغنّ وفعل ذلك ثلاث مرّات. فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأُدْخِلوا؛ فما قال لأحد منهم: اجلسْ. ثم قال: عليّ بإسحٰق؛ فلما رآه قال: يا خُوزِيّ[٤] يا كلبُ، أتَبَذّلُ لك وأُغنّي فتترفّع عليّ! أتُراني لو قتلتك كان المعتصِم يُقِيدُني[٥] بك! ابطَحوه، فبُطِح وضُرِب ثلاثين مِقْرعة[٦] ضربًا خفيفًا وحلف لا يُغنّي سائر يومه سِواه، فاعتذر وتكلّمت الجماعةُ فيه؛ فأخذ العود، وما زال يغنّي حتى انقضى مجلسه. وللواثق بالله في الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها الشرح.

ومنهم المنتصرُ بالله[٧] أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله أبو الفضل جعفر. قال يَزِيد المهلّبيّ: كان المنتصر حَسَن العلم بالغناء، وكان إذا قال الشعر صَنَع فيه وأمر المغنّين بإظهاره، فلما وَلِيَ الخلافةَ قطع ذلك وأمر بستر ما تقدّم منه؛ فلذلك لم تظهر أغانِيه.

---

(١) أعجاز: أواخر.
(٢) عمورية: مدينة بيزنطية في آسيا الصغرى، فتحها الأفشين قائد المعتصم في معركة مشهورة وذلك سنة ٨٣٨ م.
(٣) الصبوح: خمرة الصباح.
(٤) الخوزي: المنسوب إلى خوزستان جنوب شرقي العراق ببلاد فارس.
(٥) يقيدني: يثأر مني. (٦) المقرعة: الآلة التي يقرع بها ويضرب.
(٧) المنتصر بالله: محمد بن المتوكّل، الخليفة العباسي الحادي عشر. تآمر مع الأتراك فاغتال والده. قتله الأتراك بالسمّ سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٤.

ومنهم المعتزُّ بالله[١] أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكّل. ذِكر أيضًا أنه كان يغنّي أصواتًا، فممّا غنّى به في شعر عديّ بن الرِّقَاع[٢]: [من المتقارب]

لَعَمْرِي لقد أَصْحَرتْ[٣] خَيْلُنا ... بـأَكْـنـافِ[٤] دِجْـلَةَ لـلمُـصْـعَـبِ

فـمَـن يـك مـنّـا يَـبِـتْ آمـنًـا ... ومَـنْ يـك مـن غـيـرنـا يَـهْـرُبِ

وهذه الأبيات من قصيدة لعديّ بن الرِّقاع قالها في الوقعة التي كانت بينَ عبدِ الملك بن مروان ومُصْعَبِ بن الزُّبير[٥] وقُتِل فيها مصعب بن الزبير، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار عبد الله بن الزبير.

ومنهم المعتمد على الله[٦] أبو العباس أحمد بن المتوكّل على الله، هو ممن له يدٌ في الغناء وصنعةٌ حسنة. ومما نُقِل عنه من أغانيهِ أنه غنّى في شعر الفرزدق: [من البسيط]

ليس الشفيعُ الذي يأتيكَ مؤتزِرًا[٧] ... مِثلَ الشفيع الذي يأتيك عُرْيَانَا

وقال عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٨]: إن المعتضِد[٩] جمع النغم العشر في صوت صنعه في شعر دُرَيد بن الصِّمَّة[١٠] وهو:

---

(١) المعتزّ بالله: محمد بن المتوكّل، هو الخليفة الثالث عشر من خلفاء بني العباس. تولّى بعد عزل المستعين. عزله القادة الأتراك وقتلوه سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م.

(٢) عدي بن الرقاع، العاملي، شاعر أموي دمشقي هاجى عددًا من شعراء زمانه. مدح الوليد بن عبد الملك، وكانت وفاته نحو سنة ٧١٤ م.

(٣) أصحرت: برزت إلى الصحراء. (٤) أكناف: أنحاء وجوانب.

(٥) مصعب بن الزبير أخو عبد الله بن الزبير ونائبه في العراق. قاوم الخوارج وقضى على المختار الثقفي سنة ٦٨٧ م. قتله عبد الملك بن مروان في معركة دير الجاثليق سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م.

(٦) المعتمد على الله: أحمد بن المتوكل، الخليفة العباسي الخامس عشر. انتصر على الزنج وحارب البيزنطيّين. أعاد العاصمة إلى بغداد من سامرّاء، توفي مسمومًا سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٨.

(٧) المؤتزر: لابس الإزار، ويخلافه العريان.

(٨) عبد الله بن طاهر، من أشهر الولاة في عهد المأمون العباسي. وطّد الأمن في مصر. خلف أخاه طلحة في حكم خراسان. توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. انظر: الفهرست ص ١٧٠.

(٩) المعتضد بالله، أحمد بن الموفق، الخليفة العباسي السادس عشر. عقد صلحًا مع خمارويه الطولوني، واقترن بابنته. هزم جيش أبو سعيد الجنابي. كانت وفاته سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣٢٠.

(١٠) دريد بن الصمّة: شاعر جاهلي وفارس من هوازن، قاتل المسلمين فقتل بوقعة حنين سنة ٦٣٠ م.

[من مجزوء الرجز]

يا ليتنِي فيها جَذَعْ[١] أَخُبّ[٢] فيها وأَضَعْ

قال: واستعلمني هل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا، فعرّفته صحّته ودللته على ذلك حتى تيقّنه فسرّ به. قال عبيد الله: وهو لعَمْري من جيّد الصنعة ونادرها. قال: وقد صنع ألحانًا في عدّة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمُحْدَثِين وعارضهم بصنعتِهِ فأحسن وشاكل[٣] وضاهى فلم يعجز ولا قصّر، ولا أتى بشيءٍ يُعتذر منه. قال: فمن ذلك أنه صنع في قول الشاعر: [من البسيط]

أما القَطاةُ[٤] فإني سوفَ أنعتُها نعتًا يوافق نعتي بعضَ ما فيها

فجاء في نهاية الجَوْدة وهو أحسن ما صُنِع في هذا الشعر على كثرة الصنعة فيه واشتراك القدماء والمُحْدَثين في صنعته مثل مَعْبد ونَشِيط ومالك وابن مُحْرِز وسِنَان وعُمَر الوادي وابن جامع وإبراهيم وابنه إسحٰق وعلّوية[٥].

قال: وصنع في: [من الطويل]

تَشَكّى الكُمَيتُ[٦] الجَرْيَ لمّا جَهَدتُهُ وبَيّن لو يَسْطِيع[٧] أن يَتَكَلَّمَا

فما قَصّر في صنعته ولا عَجَز عن بلوغ الغاية فيها مع أصوات له صنعها تُنَاهِز مائة صوت ما فيها ساقط ملا مرذول. فهؤلاء الذين لهم صنعةٌ في الغناء من الخلفاء.

* * *

وأما أبناء الخلفاءِ الذين لهم صنعة بدٌّ في هذا الفنّ.

فمنهم إبراهيم بن المهديّ وأخته عُلَيّة بنت المهديّ رحمهما الله تعالى، وإبراهيم يُكنّى أبا إسحٰق أمُه شِكْلَةُ أَمَةٌ[٨] مولّدة[٩] كان أبوها من أصحاب المازيار يقال له:

---

(١) الجذع: الشاب الحدث. (٢) أخبّ: أعدو خببًا.
(٣) شاكل: ماثل وناظر.
(٤) القطاة: ضرب من الحمام البرّي، وجمعه القطا.
(٥) معبد، ونشيط، ومالك، وابن محرز، وسنان، وعمر الوادي، وابن جامع، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحٰق وعلّويه، جميعًا هم من المغنّين العباسيّين المشهورين.
(٦) الكميت: صفة للفرس. (٧) يسطيع، أصلها: يستطيع.
(٨) الأمة: الجارية.
(٩) المولّدة: المولودة بين العرب، الناشئة مع أولادهم، والمتأدّبة بآدابهم.

شاه أفرند قتل مع المازيَار وسُبِيَت شكلة فحُمِلت إلى المنصور فوهبها لمُحيّاة أمّ ولدِهِ فربّتها وبعثت بها إلى الطائف فنشأت هناك، فلما كَبِرَت رُدّت إليها. فرآها المهديّ فأعجبته فطلبها من مُحيّاةَ فأعطته إيّاها فولدت له إبراهيم.

قال أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى إسحٰق بن إبراهيم، قال:

كان إبراهيم بن المهديّ أشدَّ خلقِ الله إعظامًا للغناء وأحرصَهم عليه وأشدّهم منافسةً فيه. قال: وكان صنعتُه ليّنةً فكان إذا صنع شيئًا نسبه إلى غيره لئلا يقع عليه طعنٌ أو تقريعٌ فقلَّتْ صنعتُه في أيدي الناسِ مع كثرتها. وكان إذا قيل له فيها شيء يقول: إنما أصنع تطرّبًا لا تكسّبًا وأُغنّي لنفسي لا للناس فأعملُ ما أشتهي. قال: وكان حُسْن صوته يستر عَوَارَ[1] ذلك. وكان الناس يقولون: لم يُرَ في جاهليّةٍ ولا إسلام أخٌ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهديّ وأخته عُلَيّة. وكان إبراهيم يجادِل إسحٰقَ ويأخذ عليه في مواطن كثيرة إلّا أنه كان لا يقوم له ويُظْهِر إسحٰقُ خطأه. ووقع بينهما في ذلك بين يدي الرشيد وفي مجلسه كلامٌ كثير أفضى إلى أُمور نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبار إسحٰق بن إبراهيم.

وكان إبراهيم بن المهديّ في أوّل أمرِه يتستّر في الغناء بعض التستّر إلّا أنه يذكره في مجلس الرشيد أخيه، فلما كان من أمره في الوثوب على الخلافة ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة العباسيّة عند ذكرنا لخلافة المأمون بن الرشيد، ثم لمّا أمّنه المأمون بعد هربه منه تَهتّك[2] بالغناء ومشى مع المغنّين ليلًا إذا خرجوا من عند المأمون، وإنما أراد المأمون بذلك ليظهِر للناس أنه قد خلع رِبقةَ[3] الخلافة من عنقه وأنه تهتَّك فلا يصلح للخلافة. وكان من أعلم الناس بالنغم والوَتَرِ والإيقاعاتِ وأطبعِهم في الغناء وأحسنهم صوتًا. وكان مع علمه وطبعه ومعرفته يقصِّر عن الغناء القديم وعن أن يَنْحُوَه في صنعته. فكان يحذِف نغم الأغاني الكثيرةَ العمل حذفًا شديدًا ويحقِّقها على قدر ما يصلح له ويفِي بأدائه فإذا عِيب ذلك عليه، قال: أنا ملِك وابن ملِكٍ وإنما أغنّي على ما أشتهِي وكما ألتَذّ، فهو أوّل من أفسد الغناء القديم.

ورُوِي عن حمدون بن إسماعيل قال: قال إبراهيم بن المهديّ: لولا أنّي أرفع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ منها ما يعلم الناسُ معه أنهم لم يروْا قبلي مثلي.

---

(١) العوار: العيب. (٢) تهتّك: فعل المنكر والفجور.

(٣) ربقة: نير، وحبل.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن جعفر بن سليمان الهاشميّ قال: حدّثنا إبراهيم بن المهديّ قال:

دخلت يومًا على الرشيد وبي فَضْلَةُ خُمارٍ[١] وبين يديه ابنُ جامعٍ وإبراهيمُ الموصِليّ فقال: بحياتي يا إبراهيم غنّ، فأخذتُ العودَ ولم ألتفتْ إليهما لما في رأسي من الفَضْلة فغنَّيْتُ: [من الكامل]

أَسْرَى[٢] بخالِدةَ الخيالُ ولا أرَى ... شيئًا ألذَّ من الخيال الطارِقِ[٣]
إنَّ البليَّةَ مَنْ تَملّ حديثَه ... فأَنْقَعْ فؤادَكَ من حديث الوامق[٤]
أَهْواكِ فوق هَوَى النفوس ولم يزل ... مذ بِنتِ قلبي كالجَناحِ الخافِقِ
شوقًا إليك ولم تجازِ مودّتي ... ليس المكذّب كالحبيب الصادِقِ

فسمعتُ إبراهيم يقول لابن جامع: لو طلَب هذا بهذا الغناء ما نطلب لما أكلنا خبزًا أبدًا، فقال ابن جامع: صدقتَ، فلما فرغتُ من غنائي وضعتُ العود ثم قلت: خذا في حقّكما ودعا باطلَنا.

ورُوِيَ عن إبراهيم قال:

كان الرشيد يحبّ أن يَسمَعَني فخلا بي مَرّات إلى أن سَمِعَني، ثم حضرتُه مرَّةً وعنده سليمانُ بنُ أبي جعفر فقال لي: عمُّك وسيّدُ ولد المنصور بعد أبيك وقد أحبَّ أن يَسمعك، فلم يتركني حتى غنّيتُ بين يديه: [من البسيط]

سَقْيًا لربعكِ مِن رَبْعٍ بذي سَلَمٍ[٥] ... وللزمانِ بهِ إذ ذاكَ من زمَنِ
إذ أنتِ فينا لمن يَنهَاكِ عاصِيةٌ ... وإذ أجُرُّ إليكم سادِرًا[٦] رَسَنِي

فأمر لي بألف ألف درهم، ثم قال لي ليلةً ولم يَبْق في المجلس عنده إلا جعفر بن يحيىٰ: أنا أحبّ أن تُشرّف جعفرًا بأن تُغَنّيَه صوتًا فغنّيتُه لحنًا صنعتُه في شعر الدّارِميّ[٧]: [من البسيط]

كأنّ صورتها في الوصفِ إذ وُصِفت ... دينارُ عَيْنٍ من المضروبةِ[٨] العُتُقِ

---

(١) الخمار: السكر، وذهاب العقل.
(٢) أسرى بها: ذهب بها ليلًا.
(٣) الطارق: الزائر ليلًا.
(٤) الوامق: المحبّ.
(٥) ذي سلم: اسم موضع بعينه.
(٦) سادرًا: متحيّرًا.
(٧) الدارمي: ولقبه مسكين، شاعر عراقي مدح بني أُميّة، مات سنة ٧٠٨ م، أما اسمه الحقيقي فهو ربيعة بن عامر من بني دارم.
(٨) المضروبة: المسكوكة.

فأمر لي الرشيد بألف ألف درهم.

وحُكِيَ عن إسحٰق بن إبراهيم قال: لما صنعت صوتي الذي هو: [من مجزوء الخفيف]

قُلْ لِمَنْ صدَّ[١] عاتِبَا ... ونأى عنك جانِبَا
قد بلغتَ الذي أرد ... تَ وإن كنتَ لاعِبَا
واعترفنا بما ادّعيـ ... ـتَ وإن كنتَ كاذبا
فافعل الآن ما أرد ... تَ فقد جئتُ تائبَا

اتّصل خبرُه بإبراهيم بن المهديّ، فكتب إليّ يسألني عنه، فكتبتُ إليه الشعر وإيقاعَه وبسيطَه ومَجْراه وإصبعَه وتجزِئتَه وأقسامَه ومخارجَ نغمه ومواضعَ مَقَاطعه ومقاديرَ أدواره وأوزانه فغنّاه ثم لَقِيني فغنّانِيهِ، ففَضَلَني فيه بحسن صوته.

وقال ابنُ أبي طيبةَ: كنت أسمعُ إبراهيم بن المهديّ يتنحنحُ فأطرب.

وعن محمد بن خير عن عبد الله بن العبّاس الرَّبيعيّ قال:

كنّا عند إبراهيم بن المهديّ ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ محسِن من المغنّين يومئذ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشِّطْرَنج فترنّم إبراهيم بصوت فريدةَ في شعر أبي العتاهية: [من الخفيف]

قال لي أحمدٌ ولم يَدْرِ ما بي ... أتحِبُّ الغَداةَ عُتْبةَ حقّا
فتنفّستُ ثم قلتُ نَعَمْ حُـ ... ـبًّا جرى في العروق عِرْقًا فعِرقًا

وهو متّكىء، فلما فرغ ترنّم به مخارق[٢] فأحسن فيه وأطربَنَا وزاد على إبراهيم، فغنّاه إبراهيم وزاد في صوته على غِناءِ مخارِق. فلما فرغ ردّه مخارِقٌ وغنّاه بصوته كلّهِ وتحفّظ فيه وكِدنا نطير سرورًا. فاستوى إبراهيم جالسًا وكان مُتْكئًا وغنّاه بصوته كلّه ووفّاه نغمه وشذوره ونظرتُ إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمَع يتحرّك إلى أن فرغ منه ومخارِقٌ شاخِص نحوه يُرْعَد وقد انتُقِع لونه وأصابعُه تختلِج فخُيِّل إليّ أن الإيوان يسِير بنا، فلما فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده، وقال: جعلني الله فِداك

(١) صدّ: تمنّع.
(٢) مخارق: من مشاهير المغنّين في العهد العبّاسي، نادم الرشيد والمأمون. توفي سنة ٨٤٥ م.

أين أنا منك! ثم لم يَنْتفع مخارق بنفسه بَقِيّة يومه في شيءٍ من غنائه، والله لكأنّما كان يتحدّث.

ورُوِي عن منصور بن المهديّ قال:

كنت عند أخي إبراهيم في يومٍ كانت عليه فيه نَوْبة لمحمد الأمين[١]، فتشاغل بالشرب في بيته ولم يمضِ، وأرسلَ إليه الأمين عدّةَ رسل فتأخّر. قال منصور: فلمّا كان من غَدٍ قال لي: ينبغي أن نعمل على الرواحِ إلى أمير المؤمنين فنترضّاه، فما أشُكّ في غضبه علينا. فمضينا فسألنا عن خبره فأُعْلِمنا أنه مشرف على حَيْر الوحشِ وهو مخمور، وكان من عادته ألّا يشرب إذا لحِقه الخُمَار. فدخلنا، وكان طريقنا على حُجْرة تُصنع فيها الملاهي، فقال لي: اذهب فاختر منها عودًا ترضاه وأصْلِحْه غايةَ الإصلاح حتى لا يُحتاجَ إلى إصلاحه وتغييره عند الضرب به؛ ففعلتُ وجعلته في كُمِّي. ودخلنا على الأمين وظَهْرُه إلينا. فلما بَصُرْنا به من بُعْدٍ قال: أخْرِجْ عودَك فأخرجته، فاندفع يُغَنّي: [من المتقارب]

وكـــأسٍ شَـــرِبْـــتُ عـــلى لَذّةٍ ... وأُخْـرَى تـداويـتُ مـنـهـا بـهـا
لِكَـي يـعـلَم الـنـاسُ أنـي امرؤٌ ... أتـيـتُ الـفُـتُـوّةَ مـن بـابـهـا
وشـاهِـدُنـا الـوردُ والـيـاسَـمِـيـ ... ـنُ والـمُـسْـمِـعـاتُ بِقُـصّابـهـا[٢]
وَبَـرْبَـطُـنـا[٣] دائـمٌ مُـعْـمَـلٌ ... فـأيُّ الـثـلاثـةِ أزرَى بـهـا[٤]

فاستوى الأمين جالسًا وطرِب طَرَبًا شديدًا، وقال: أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لي طربًا. ودعا برطل فشرِبه على الرّيق وابتدأ شربه. قال منصور: وغَنّى إبراهيم يومئذ على أشَدّ طبقة يُتناهَى إليها في العود، وما سَمِعت مثل غنائه يومئذ قط. ولقد رأيتُ منه شيئًا عجيبًا لو حُدِّثْتُ به ما صَدَّقْتُ: كان إذا ابتدأ يغنّي صَغَتِ الوحوشُ إليه ومدّت أعناقَها، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رؤوسها على الدُّكّان الذي كنّا عليه، فإذا سَكَت نَفَرتْ وبَعُدتْ عنّا حتى تنتهي إلى أبعدِ غاية يمكنها التباعدُ عنّا فيها، وجعل الأمين يَعْجَب من ذلك. وانصرفنا من الجوائز بما لم يُنْصَرف بمثله قطّ.

---

(١) الأمين: هو الخليفة العباسي، ابن هارون الرّشيد، أمّه زبيدة، قُتل في نزاع حول الخلافة مع أخيه المأمون سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. انظر خبر مقتله في: مروج الذهب ٣/ ٤٢٠ وما بعدها.
(٢) القصّاب: الأوتار. (٣) البربط: العود.
(٤) أزرى بها: عابها وشانَها.

وعن الحسن بن إبراهيم بن رَبَاح قال:

كنتُ أسأل مُخَارِقًا: أيّ الناس أحسنُ غناءً؟ فكان يجيبُني جوابًا مجملًا، حتى حقّقتُ عليه يومًا فقال: كان إبراهيم الموصِلِيّ أحسن غِناءً من ابن جامعٍ بعشر طبقاتٍ، وإبراهيم بن المهديّ أحسن غناءً مني بعشر طبقات. ثم قال لي: أحسنُ الناسِ غناءً أحسنُهم صوتًا. وإبراهيمُ بنُ المهديّ أحسن الإنسِ والجِنّ والوحشِ والطيرِ صوتًا، وحسبُك هذا!

وعن إسحٰق بن إبراهيمَ، قال:

غَنّى إبراهيم بن المهديّ ليلةً محمدًا الأمينَ صوتًا لم أرضَه في شعر لأبي نُوَاس، وهو: [من المديد]

يا كثيرَ النّوح في الدِّمَنِ[1] لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنّةُ العشّاقِ واحدةٌ فإذا أحببتَ فأستَنِنِ[2]
ظَنّ بي مَن قد كَلِفتُ[3] به فهو يجفوني[4] على الظِّنَنِ
رَشَأٌ[5] لولا ملاحتُه خَلَتِ الدُّنيا من الفِتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألفِ دينار. فقال له إبراهيم: يا أمير المؤمنين، أجزتَني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم! فقال: وهل هي إلا خراج بعض الكُوَر[6]. هكذا رواه إسحٰق، وقد حُكيت هذه الحكايةُ عن محمد بنِ الحارث، وفيها أن إبراهيم لما أراد الانصراف قال: أوْقِرُوا[7] زورق عمّي دنانير فأوقَروه، فانصرف بمال جليل. قال: وكان محمد بن موسى المنجّم[8] يقول: حكمت أن إبراهيم بن المهديّ أحسنُ الناسِ كلّهم غناء ببرهان، وذلك أنّي كنتُ أراه في مجالس الخلفاء مثل المأمون والمُعْتَصِم يغنّي المغنُّون ويُغنّي، فإذا ابتدأ بالصوت لم يبق من الغلمان أحد إلّا ترك ما في يديه وقَرُب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مُصْغيًا إليه لاهيًا عمّا كان فيه ما دام يغنّي، حتى إذا أمسك وتَغَنّى غيرُه رجعوا إلى التّشاغُلِ بما كانوا فيه

---

(١) الدمن: الأطلال والديار الدارسة، وآثارها ومزابلها.
(٢) أستنن: اتّخذ الحب سنّة. (٣) كلفت به: ولعت به.
(٤) يجفوني: يهجرني. (٥) الرشأ: ولد الظبي.
(٦) الكور: جمع كورة، وهي الناحية والإقليم. (٧) أوقروا: أثقلوا.
(٨) محمد بن موسى المنجم: من المنجمين العباسيين المشهورين، وأسرتهم في الأصل فارسية، من بني نوبخت.

ولم ينبعثوا إلى شيء. فلا برهانَ أقوى من هذا في مثل هذا من شهادة الفِطَن به واتّفاق الطبائع مع اختلافها وتشعُّب طرقها على الميل والانقياد نحوه.

ولإبراهيم بن المهديّ أصوات معروفة، منها ما غنّاه بشعر مَرْوان بن أبي حَفْصة[١]: [من الكامل]

هل تَطْمِسُون[٢] من السماءِ نجومَها ... بَأكُفِّكم أو تستُرون هِلالَها

أو تدفَعون مقالةً من ربّكم ... جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالَها

طَرَقْتْك[٣] زائرةٌ فحَيِّ خيالَها ... زهراءُ[٤] تخلِط بالدَّلال جمالَها

وأمّا عليّة بنتُ المهديّ، فقد قيل: ما اجتمع في جاهليّةٍ ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهديّ وأخته عليّة. ورُوي عن أبي أحمد بن الرشيد، قال: كنت يومًا بحضرة المأمون وهو يشرَب، ثم قام وقال لي: قم؛ فدخل دار الحُرَم ودخلت معه، فسمِعت غناءً أذهل عقلي ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر؛ وفَطِن المأمون لما بي فضحك وقال: هذه عمّتك عليّة تُطَارِح عمّك إبراهيم.

قال أبو الفرج: وأمّ عليّة أمّ ولدٍ[٥] مغنّية يقال لها مكنونة، كانت من جوارِي المَرْوانيّة المغنّية. والمروانيّة هذه ليست من آل مروان بن الحكم، وإنما هي زوجة الحسنِ بنِ عبد الله بن عُبَيْد الله بن العبّاس. وكانت مكنونة من أحسن جوارِي المدينة وجهًا، وكانت رسحاء[٦]، وكانت حسنة البطن والصدر. فاشتُرِيت للمهديّ في حياة أبيه بمائة ألف درهم؛ فغلبتْ عليه حتى كانت الخَيْزُرَانُ[٧] تقول: ما مَلَكَ أَمَةً[٨] أغلظَ عليّ منها. ولما اشتُرِيَتْ للمهديّ ستَر أمْرَها عن أبيه المنصور حتى مات، وولدتْ للمهديّ عليّة هذه.

---

(١) مروان بن أبي حفصة: شاعر عالي الطبقة، نشأ في العصر الأموي باليمامة، وأدرك زمن العباسيّين، فقدم بغداد ومدح المهديّ والرشيد من الخلفاء، ومعن بن زائدة من الأعيان والأجواد. توفي سنة ٧٩٨ م.

(٢) تطمسون: تمحون.
(٣) طرقتك: زارتك ليلًا.

(٤) الزهراء: البيضاء في حمرة.

(٥) أم ولد: أي هي أَمَة في الأصل، فلما ولدت، صارت بمثابة الحرّة من النساء.

(٦) رسحاء: أي عجيزتها ضامرة وقليلة اللحم.

(٧) الخيزران: جارية المهدي، ولدت له هارون الرشيد والهادي. تآمرت على الهادي فقُتل. ماتت سنة ١٧٣ هـ/ ٧٩٨ م.

(٨) الأمة: الجارية.

وكانت عليّة بنت المهديّ من أجمل الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيّدَ وتصوغ فيه الألحانَ الحسنة. وكان في جبينها فضلُ سَعَةٍ، فاتّخذت العصائب المكلّلةَ بالجوهرِ لتستُرَ بها جبينَها؛ فهي أوّل من أحدث ذلك.

قال: وكانت عليّةُ حسنةَ الدِّين، وكانت لا تغنّي ولا تشرب النبيذَ إلّا إذا كانت مُعتزلةَ الصلاة؛ فإذا طَهُرت أقبلت على الصلاةِ وقراءةِ القرآنِ وقراءة الكتب. ولم تَلْهُ بشيءٍ غير قول الشعر في الأحيان، إلّا أن يدعوها الخليفة إلى شيء فلا تَقْدِر على خلافه. وكانت رحمها الله تقول: ما حرّم الله شيئًا إلّا وقد جعل فيما حلّل منه عِوَضًا، فبأيِّ شيءٍ يحتجّ عاصِيه والمُنتهِك لحُرُماته! وكانت تقول: لا غَفَرَ الله لي فاحشةً ارتكبتها قطُّ، وما أقول في شعري إلّا عبثًا.

وعن سَعِيد بن هُرَيْم قال: كانت عليّة بنت المهدِيّ تحبّ أن تراسلَ بالأشعار من تختصُّه، فاختصّت خادمًا يقال له طَلٌّ من خدم الرّشيد، تُراسله بالشعر. فلم تره أيّامًا؛ فمشت على مِيزاب وحدّثته ثم قالت في ذلك: [من السريع]

قـد كـان مـا كُـلِّفْـتُـه زمـنًـا يا طلُّ من وَجْدٍ بكم يكفي
حـتـى أتـيـتُـك زائـرًا عـجِـلًا أمْشِي على حَتْفٍ[1] إلى حَتْفي

فحلف عليها الرشيد ألّا تُكَلِّم طَلًّا ولا تُسَمِّيه باسمه، فضَمِنت له ذلك. واستمع عليها يومًا رهي تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٥]، فأرادت أن تقول: (فَطَلٌّ) فقالت: فالذي نهى عنه أمير المؤمنين، فدخل الرشيد فقبّل رأسها وقال: قد وهبتُ لكِ طَلًّا ولا أمنعِك بعدها من شيءٍ تُرِيدِينَه. ولها في طلّ هذا عدّة أشعار صنعت فيها ألحانًا، وكانت في بعضها تصحّف اسمه وتَكْنِي عنه بغيره. وكانت أيضًا تقول الشعر في خادم لها يقال له: رَشَأ وتَكْنِي عنه بزينبَ. فمن شعرها فيه: [من مجزوء الكامل]

وجَـدَ[2] الـفـؤادُ بـزيـنـبـا وَجْـدًا شـديـدًا مُـتْـعِـبَـا
أصـبـحـتُ مِـن كَـلَفٍ بـهـا أُدْعَـى شَـقِـيًـا مُـنْـصَـبَـا[3]
ولـقـد كَـنَـيْـتُ[4] عـن اسـمِـهـا عَـمَـدًا لـكـي لا تَـغْـضَـبَـا
وجـعـلـتُ زيـنـبَ سُـتْـرةً وكَـتَـمـتُ أمـرًا مُـعْـجِـبـا

---

(١) الحتف: الموت والهلاك.
(٢) وجد: تألم وحزن من شدّة العشق.
(٣) المنصب: ذو الحيلة.
(٤) كنيت: لم أظهر.

قــالــت وقــد عَــزّ الــوِصــا لُ ولــم أجِــدْ لــي مَــذْهَــبَــا
واللهِ لا نِـــلْــتَ الـــمـــودّةَ أو تـــنـــالَ الـــكـــوكـــبـــا

فصحّفت اسمه في قولها: «زينبا»؛ وهذا من الجناس الخطّي. قال: وكانت لأُمّ جعفر جارية يقال لها طُغْيان، فوشتْ بعليّة إلى رَشأ وحكت عنها ما لم تقل. فقالت عليّة: [من الطويل]

لِطُغْيانَ خُفٌّ[1] مُذْ ثلاثين حِجّةً جـديـدٌ فـلا يَـبْـلَى ولا يَـتَـخَـرَّقُ
وكيف بِلَى خُفٍّ هو الدهرَ كلَّه على قدميها في السماءِ معلَّق
فما خَرَقتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرَبًا[2] وأمّـا سَـراوِيـلاتُـهـا فـتُـمَـزَّق

ورُوِي عن أبي هَفَّان قال:

أُهديت للرشيد جاريةٌ في غاية الجمال؛ فخلا معها يومًا وأخرجَ كلَّ قَيْنة في داره واصطبح[3]. وكان مَنْ حضر من جواريه الغناءَ والخدمةَ في الشراب زُهَاء ألفي جارية في أحسن زِيٍّ من كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر. واتّصل الخبر بأُمّ جعفر فعظم عليها ذلك؛ فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها. فأرسلت إليها عليّة: لا يهولَنّكِ[4] هذا، والله لأَردّنّه إليكِ. قد عزمتُ أن أضَع شِعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرَحه على جَوارِيّ، فلا تُبْقِي عندكِ جاريةً إلّا بعثتِ بها إليّ وألبسِيهِنّ أنواعَ الثّيابِ ليأخذن الصوت مع جوارِيّ؛ ففعلت أمّ جعفر ما أمرتها به. فلما جاء وقت صلاةِ العصرِ لم يشعر الرشيد إلا وعليّة وأمّ جعفر قد خَرَجتا إليه من حُجْرتيهما معهما زُهَاء ألفي جارية من جوارِيهما وسائر جواري القصر عليهنّ غرائب اللِّباس وكلهنّ في لحن واحد هَزَجٍ صنعته عليّة، وهو: [من مجزوء الرجز]

مُــنْــفَــصِــلٌ عــنّــي ومــا قــلبــيَ عــنــه مُــنْــفَــصِــلْ
يــا هــاجِــرِي الــيــومَ لــمــن نَــوَيْــتَ بــعــدِي أن تَــصِــلْ

فطَرِب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أمّ جعفر وعليّة وهو على غاية السرور، وقال: لم أرَ كاليوم قطّ. يا مسرور، لا تُبْقِينّ في بيت المال دِرْهمًا إلا نَثَرته. فكان ما نُثِر يومئذ ستة آلاف ألف درهم، وما سُمِع بمثل ذلك اليوم.

---

(١) الخفّ: الحذاء.
(٢) الجورب: ما يلبس سترًا للقدم.
(٣) اصطبح: تناول خمرة الصباح.
(٤) لا يهولنّك: لا يزعجنّك، ولا يفزعنّك.

ورُوِي عن عَريب أنّها قالت: أحسنُ يوم رأيتُه في الدنيا وأطيبه يوم اجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهديّ عند أخته عليّة وعندهما أخوهما يعقوب بن المهديّ، وكان أحذق الناس بالزَّمْر. فبدأت عليّة فغنّت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمُر عليها: [من الطويل]

تَـحبَّبْ فـإنّ الـحبّ داعـيـةُ الـحبّ ... وكم من بعِيدِ الدارِ مُستوجِبُ القربِ
تَـبَـصَّـرْ فـإنْ حُـدِّثـتَ أنّ أخـا هـوًى ... نجا سالمًا فارْجُ النجاةَ من الحبّ
إذا لـم يكـن في الحبّ سُخطٌ ولا رِضًا ... فـأيـن حـلاواتُ الـرسـائـلِ والـكُـتْـب

وغنّى إبراهيم في صنعته وزمَر عليه يعقوب: [من البسيط]

لـم يُـنْـسِـنِـيـكِ سـرورٌ لا ولا حَـزَنُ ... وكيف لا، كيف يُنْسَى وَجْهُكِ الحَسَنُ
ولا خلَا منك قلبي لا ولا جَسَدِي ... كُـلِّي بـكُـلِّكِ مـشـغـولٌ ومُـرْتَـهَـنُ[١]
يا فَرْدَةَ الحُسْنِ ما لي منكِ مُذ كَلِفَتْ ... نـفـسِـي بـحُـبّـكِ إلّا الـهـمُّ والـحَـزَنُ
نُـورٌ تَـوَلَّد مـن شـمـسٍ ومـن قَـمَـرٍ ... حتى تـكـامـل فـيـكِ الـروحُ والـبَـدَنُ

قالت عَريب: فما سَمِعتُ مثل ما سَمِعتُ قط وأعلم أني لا أسمع مثله أبدًا.

ورُوِي عن خِشْف الواضحيّة قالت: تَمارَيْتُ[٢] أنا وعَريب في غِناء عُلَيّة بحَضْرة المتوكّل أو غيره من الخلفاء. فقلت أنا: هي ثلاثة وسبعون صوتًا، وقالت عَريب: هي اثنان وسبعون صوتًا. فقال المتوكّل: غنِّيا غناءها؛ فلم أزَلْ أُغَنِّي غناءها حتى مضى اثنان وسبعون صوتًا، ولم أدرِ الثالثَ والسبعين. قالت: فقُطِع بي واستعلتْ عَريب وانكسرتُ. قالت خَشْف: فلما كان الليل رأيت عُلَيّة فيما يرى النائم، فقالت: يا خَشْف خالفتكِ عَريب في غنائي. قلت: نعم يا سيِّدتي. قالت: الصواب معكِ، أفتدرين ما الصوت الذي أُنسِيتِيهِ؟ قلت: لا والله، ولَوَدِدتُ أنّي فَدَيتُ ما جرى بجميع ما أملك. قالت: هو: [من الرمل]

بُنِـي الـحُـبُّ عـلى الـجَـوْرِ[٣] فـلو ... أنـصـف الـمعشوقُ فيهِ لَسمُجْ[٤]
ليس يُسْتحسَن في وصف الهوى ... عـاشـقٌ يَـعْـرِف تـألـيـفَ الـحُـجَـجْ
وقـلـيـلُ الـحـبِّ صِـرْفًا[٥] خـالـصًـا ... لَـكَ خـيـرٌ مـن كـثـيـرٍ قـد مُـزِجْ

---

(١) مرتهن: مقيّد.
(٢) تماريت: تجادلت.
(٣) الجور: الظلم، بخلاف العدل.
(٤) سمج: قبح.
(٥) صرفًا: خالصًا.

وكأنها قد اندلعت تغنّي به، فما سَمِعتُ أحسنَ مما غنّته، وقد زادتني فيه أشياء في نومي لم أكن أعرفها، فانتبهتُ وأنا لا أعقِل فَرَحًا به. فباكرتُ الخليفة وذكرت له القِصّة. فقالت عَرِيب: هذا شيء صَنعتِه أنتِ لِما جَرَى أمس، وأمّا الصوت فصحيح. فحلفتُ للخليفة بما رَضِيَ به أنّ القِصّة كما حكيتُ. فقال: رؤياكِ واللهِ أعجب، رحِم الله عُلَيّة! فما تركت ظَرْفَها حيّة ولا ميّتة. وأجازني جائزة سَنِيّة.

ورَوى أبو الفرج أيضًا بسنده إلى محمد بن جعفر بن يحيىٰ بن خالد، قال:

شَهِدتُ أبي جعفر وأنا صغير وهو يحدّث جَدّي يحيىٰ بن خالد في بعض ما كان يُخْبره به من خَلْوته مع هارون الرّشيد، قال: يا أبتِ، أخذ بيدي أمير المؤمنين، وأقبل في حُجَرٍ يخترقها حتى انتهى إلى حُجْرةٍ مُغْلَقة، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخلٍ بيده، ثم صِرْنا إلى رُوَاق[1] ففتحه، وفي صدره مجلس مُغْلَق فقعد على باب المجلس، ونَقَر الباب بيده نَقَرات فسمعنا حِسًّا، ثم أعاد النَّقْرَ ثانيةً فسمِعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثةً فغنّت جارية ما ظننتُ واللهِ أنّ الله جلّ وعزّ خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب. فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتًا: غَنّي صوتي؛ فغنّت صوته، وهو: [من الكامل]

غَنّى الجَوَارِي[4] حاسِرًا[5] ومُنَقَّبا[6] ... ومُخَنَّثٍ[2] شهِد الزِّفافَ[3] وقبلَه

نَـقْـرًا أقـرّ بـه الـعـيـونَ وأطـربـا ... لَبِس الـدّلالَ وقـام يـنـقُـر دُفّـه[7]

فـشَـكَـوْنَ شِـدّة ما بِـهـنّ فـأكـذبـا ... إنّ الـنـسـاءَ رأيـنـه فـعَـشِـقْـنَـه

قال: فطَرِبتُ واللهِ طَرَبًا هَمَمْتُ معه أن أنطَح برأسي الحائط. ثم قال: غنّي:

* طـال تـكـذيـبـي وتـصـدِيـقـي *

فغنّت: [من المديد]

طـال تـكـذيـبـي وتـصـدِيـقـي ... لـم أجِـدْ عـهـدًا لـمـخـلـوقِ

(١) الرواق: بيت كالخيمة يحمل على عمود طويل.
(٢) المخنّث: الذي تغلب عليه صفات الأنوثة. (٣) الزفاف: الزواج.
(٤) الجواري: الإماء والمغنّيات. (٥) الحاسر: من حسرت عن وجهها وأظهرته.
(٦) المنقب والمنقبة: من سترت وجهها بالنّقاب.
(٧) الدّف: آلة طرب.

إنّ نـاسًـا فـي الـهـوى غَـدَرُوا حَـسَّـنُـوا نـقـضَ الـمـواثـيـقِ[١]
لا تَـرَانِـي بـعـدهـم أبـدًا أشـتـكِـي عِـشـقًـا لـمـعـشـوقِ

قال: فرَقَص الرشيدُ ورقصتُ معه؛ ثم قال: أمضِ بنا، فإني أخشى أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمَضَيْنا. فلمّا صرْنا إلى الدِّهْليز[٢] قال وهو قابضٌ على يدي: هل عرفتَ هذه المرأة؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين. قال: فإنّي أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أُخبرك بها، هذه عليّةُ بنتُ المهديّ. وواللهِ لئن لفظتَ به بين يديْ أحد وبلَغني لأقتلنّك. قال: فسمعت جَدّي يقول لأبي: فقد والله لفظتَ به؛ وواللهِ ليقتلنّك، فاصنَعْ ما أنت صانع.

وأخبار عُلَيّة وأغانيها كثيرة، وقد ذكرنا منها ما يُكْتَفَى به.

قال أبو الفرج: وكان مولدُ عليّةَ سنةَ ستينَ ومائةً، وتوفّيت سنةَ عشرةَ ومائتين، وقيل: سنة تسع ومائتين، ولها خمسون سنة. وكانت عند موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما. وكان سبب وفاتها أنّ المأمون ضمّها إليه وجعل يقبّل رأسها ووجهها مُغَطًّى، فشَرِقت من ذلك وسَعَلَتْ ثم حُمّت بعقب هذا أيّامًا يسيرةً وماتت، رحمها الله.

ومنهم أبو عيسى بن الرشيد، هو أبو عيسى أحمد، وقيل: بل اسمُه صالحُ بن هارون الرشيد، وأمّه أمّ ولد بربريّة. كان من أحسنِ الناس وجهًا ومجالسة وعِشْرةً وأمْجَنِهم وأحَدِّهم نادرةً وأشدِّهم عبثًا. وكان أبو عيسى جميلَ الوجه جِدًّا؛ فكان إذا عزَم على الركوب جلس الناسُ له حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخفاء. وكانت عَريب المأمونية تقول: ما سَمِعتُ غِناءً أحسنَ من غِناء أبي عيسى بن الرشيد، ولا رأيتُ وجهًا أحسنَ من وجهه.

ورُوِي أنّ الرشيدَ قال يومًا لأبي عيسى وهو صبيٌّ: ليت جمالَك لعبد الله! (يعني المأمون) فقال له: يا أمير المؤمنين، على أنّ حظّه منك لي. فعجِب الرشيد من جوابه على صِباه وضمّه إليه وقبّله.

قال أبو الفرج: وكان أبو عيسى جَيِّد الصَّنْعة، وله أغَانٍ منسوبةٌ إليه ومعروفةٌ به. منها: [من مجزوء الخفيف]

رَقَـدت عـنـكَ سَـلْوَتِـي[٣] والـهـوَى لـيـس يَـرْقُـدُ[٤]

---

(١) نقض الميثاق: عدم الوفاء به.
(٢) الدهليز: المدخل من الباب أو الدار.
(٣) سلوتي: كل ما يتسلّى به.
(٤) يرقد: ينام.

وأطَار السُّهاد[١] نَوْ مِي فنومي مُشَرَّدُ
أنتَ بالحُسْنِ منك يا حَسَنَ الوجهِ يُشْهَدُ
وفُؤادِي بحُسْنِ وجـ ـهِك يَشْقَى ويَكْمَدُ[٢]

وله غير هذا من الأصواتِ. قال: وكان كثير البَسْطِ والمُجُونِ والعَبَثِ. وكان المأمون أشدّ الناس حبًّا له، وكان يُعِدّه للأمر بعده ويذكر ذلك كثيرًا. حتى لقد حُكِيَ عنه أنّه قال يومًا: إنه ليسهُل عليّ أمرُ الموتِ وفَقْدُ المُلْكِ، ولا يسهل شيء منهما على أحد؛ وذلك لمحبّتِي أن يَلِي أبو عيسى الأمرَ بعدِي لشِدّة حبِّي إياه. وكانت وفاة أبي عيسى في سنة سبع ومائتين.

رُوِي عن عبد الله بن طاهر قال: حدّثني من شَهِد المأمون ليلةً وهم يتراءون[٣] هِلالَ شهر رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مُستلقٍ على قفاه، فرأوه وجعلوا يدعون. فقال أبو عيسى قولًا أُنْكِرَ عليه؛ كأنه يسخَط لورود الشهر، فما صام بعده. ونُقِل عنه أنه قال: [من الطويل]

دَهَانِيَ[٤] شهرُ الصوم لا كان مِنْ شَهْرِ
ولا صمتُ شهرًا بعدَه آخر الدهرِ
فلو كان يُعْدِيني[٥] الإمامُ بقُدْرةٍ
على الشهر لاستَعْدَيْتُ جُهْدِي على الشهرِ

فناله بعقب هذا القول صَرْعٌ[٦]، فكان يُصْرَع في اليوم مرّات حتى مات. ولمّا مات وَجِدَ المأمون عليه وَجْدًا شديدًا.

رُوِي عن محمد بن عُبّاد المُهَلَّبيّ قال:

لمّا مات أبو عيسى بن الرّشيد دخلتُ على المأمون فخلعتُ عمامتي ونبذتها[٧] ورائي ـ والخلفاءُ لا تُعزَّى في العمائم ـ فقال لي: يا محمدُ، حالَ القَدَرُ، دون الوَطَر[٨]. فقلت: يا أمير المؤمنين، كلُّ مُصيبة أخطأتْك شَوًى[٩]؛ فجعل الله الحزنَ

(١) السهاد: عدم النوم. (٢) يكمد: يحزن ويغتمّ.
(٣) يتراءون: يحاولون رؤية هلال شهر رمضان.
(٤) دهاني: أدركني. (٥) يعديني: يجعلني عدوًا وخصمًا عليه وله.
(٦) الصّرع: علة في الجهاز العصبي تصحبها غيبوبة وتشنّج في العضلات.
(٧) نبذتها: طرحتها أرضًا. (٨) الوطر: الغاية.
(٩) شوى: هيّنة.

لك لا عليك! قال: فركب المأمون إلى دار أبي عيسى فحضر جِهازه وصلّى عليه ونزل في قبره. وامتنع من الطعام أيامًا حتى خِيف أن يَضُرّ ذلك به. قال: وما رأيت مصابًا حزينًا قطُّ أجمل أثرًا في مُصيبته ولا أحرق وجدًا منه، صامتٌ ودموعُه تهمِي[١] على خَدّيه من غير كلح[٢] ولا استنثار[٣].

ورُوي عن أحمد بن أبي دُوَاد[٤] قال: دخلتُ على المأمون وقد تُوُفِّي أخوه أبو عيسى وهو يبكي ويمسَح عينيه بمِنْدِيل، فقعدتُ إلى جنب عمرو بن مَسْعَدة[٥] وتمثّلت قولَ الشاعر: [من السريع]

نـقـصٌ مـن الـدُّنـيـا وأسـبـابـهـا   نقصُ المنايا من بني هاشـمِ[٦]

فلم يزل على تلك الحال يبكي ثم يمسَح عينيه، وتمثّل: [من الطويل]

سأبكيك ما فاضتْ دُموعي فإنْ تَغِضْ   فحَسْبُكَ مِنّي ما تُجنّ[٧] الجَوَانِحُ[٨]
كأنْ لـم يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولـم تَقُمْ   عـلى أحَـدٍ إلّا عـلـيـكَ الـنـوائـحُ[٩]

ثم التفت إليّ وقال: هِيه يا أحمد! فتمثّلتُ بقول عَبْدَة بن الطبيب: [من الطويل]

عليكَ سلامُ الله قَيْسَ بنَ عاصمٍ   ورحـمـتُـه مـا شـاء أن يـتـرحَّـمَـا
تَـحِـيّـةَ مـن أولـيـتَـه مـنـك نـعـمـةً   إذا زار عن شَحْطٍ[١٠] بلادَكَ سَلَّما
فما كان قَيْسٌ[١١] هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ   ولـكـنّـه بُـنْـيـانُ قـومٍ تَـهَـدَّمَـا

---

(١) تهمي: تسيل. (٢) الكلح: التكشّر والعبوس.
(٣) الاستنثار: إدخال الماء في الأنف ثم دفعه بقوّة، وهو الاستنشاق.
(٤) أحمد بن أبي دؤاد: سبق التعريف به، وهو القاضي المشهور.
(٥) عمرو بن مسعدة: وزير المأمون، من أبلغ كتّاب الإيجاز. في كتب الأدب الكثير من رسائله وتوقيعاته. مات سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م.
(٦) بنو هاشم: رهط النبيّ ﷺ وبني العباس. (٧) تجنّ: تستر.
(٨) الجوانح: الأضلاع القصيرة مما يلي الصدر.
(٩) عبدة بن الطبيب: شاعر جاهلي من بني عبد شمس، له شعر في الصعلكة، وديوانه مطبوع.
(١٠) شحط: بعد.
(١١) هو قيس بن عاصم، من شعراء الجاهلية. أسلم مع وفد تميم سنة ٦٣١ م. مات سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م.

فبكى ساعة، ثم التفت إلى عمرو بن مَسْعَدة فقال: هِيه يا عمرو! فقال: نعم يا أمير المؤمنين: [من الكامل]

بكُّوا[١] حُذَيْفةَ لم تُبَكُّوا مثلَه ... حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ

قال: فإذا عَرِيب وجوارٍ معها يسمعْنَ ما يدور بيننا؛ فقالت: اجعلوا لنا معكم في القول نصيبًا. فقال المأمون: قولي، فرُبَّ صوابٍ منك كثير. فقالت: [من الطويل]

كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ ... فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

كأنّ بني العبّاسِ يومَ وفاتِه ... نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البدرُ[٢]

فبكى وبكينا. ثم قال لها المأمون: نُوحي، فناحت وردّ عليها الجواري. فبكى المأمون حتى قلت: قد فاضت[٣] نفسه وبكينا معه أحَرَّ بكاء، ثم أمسكتْ. فقال المأمون: اصنعي فيه لحنًا على مذهب النَّوْح وغنّي به؛ ففعلت وغنّته إياه على العود. فوالّذي لا يُحْلَف بأعظمَ منه لقد بكينا عليه غِناءً أكثرَ مما بكينا عليه نَوْحًا.

ومنهم عبد الله بن موسى الهادي[٤]. قال أبو الفرج: كان له في الغناء صَنْعة حسنة، وله أصوات مذكورة، منها قوله: [من المتقارب]

تقاضاكَ[٥] دهرُكَ ما أسلفا ... وكَدَّر عيشَك بعد الصَّفا

فلا تَجْزَعنّ فإن الزمان ... رهينٌ بتشتيتِ[٦] ما ألَّفا

ولما رآك قليلَ الهموم ... كثيرَ الهوى ناعمًا مُتْرَفا

ألحّ عليك برَوْعاته[٧] ... وأقبل يرميك مُستهدِفا

---

(١) بكّوا: ابكوا.

(٢) البيتان من الطويل، وهما للشاعر المشهور أبي تمام في رثاء ابن حميد الطوسيّ. لكنّ ثمة تغييرًا طرأ عليهما في البيت الثاني؛ إذ جعلت عريب (بني العباس) مكان (بني نبهان).

(٣) فاضت نفسه: مات.

(٤) موسى الهادي: هو موسى بن المهدي، وهو الخليفة العباسي الرابع. حاول إكراه أخيه الرشيد على التنازل عن ولاية العهد، فقتل في دار الحريم بالموصل بتحريض من أمّه الخيزران سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٧.

(٥) تقاضاك: طلبك. (٦) تشتيت: تفريق.

(٧) الروعات: الأهوال التي تروع.

قال: وكان عبدُ الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء. وكان له غلام أسودُ يقال له «قَلَم»، فعلّمه الضربَ فحذِق فيه؛ فاشترته منه أمّ جعفر بثلاثمائة ألف درهم.

ورُوِي عن سليمانَ بنِ داودَ كاتب أمّ جعفر قال:

كنت جالسًا مع عبد الله بن موسى الهادي، فمرّ به خادم لصالح بن الرشيد؛ فقال له: ما اسمُكَ؟ قال: اسمي لا تَسَلْ. فأعجبه حسنهُ وحسنُ منطقِه، فقال لي: قم بنا حتى نشرب اليوم ونذكر هذا البدر، فقمت معه. فأنشدني في ذلك اليوم: [من مجزوء الرجز]

وشادِنٍ[1] مرّ بنا ... يجرَح باللَّحظ[2] المُقَلْ[3]
مظلومُ خَصْرٍ ظالمٌ ... منه إذا يمشي الكَفَل[4]
إعتدلت قامُته ... والطرف منه ما عَدَل
بدرٌ تراه أبدًا ... طالعَ سَعْدٍ ما أَفَلْ[5]
سألتُه عن اسمه ... فقال: اسمي لا تَسَلْ
وطلعتْ في وَجْنَتَيْـ ... ـه وردتان من خَجَل
فقلت ما أخطا الذي ... سمّاك بل قال المَثَل
لا تسألنْ عن شادنٍ ... فاقَ جمالًا وكَمَل

وقال فيه: [من مجزوء الرجز]

عزّ الذي تهوَى وذَلّ ... صبّ الفؤاد مُختبَلْ[6]
جدّ به الهجرُ وذا الـ ... ـهجرُ إذا جَدّ قتل
من شادن مُمَنْطَق ... فاق جمالًا وكَمَل
تناصف الحسنُ به ... فلا تَسَلْ عن لا تَسَلْ

وعن أحمد بن المكيّ قال: دعاني عبدُ الله بنُ موسى يومًا فقال لي: أتقوِّمُ غلامًا ضاربًا مغنّيًا قيمةَ عَدْلٍ لا حَيْفَ[7] فيها على البائع ولا على المشتري؟ فقلت:

(١) الشادن: ولد الظبي، كناية عن المعشوق الغلام.
(٢) اللحظ: باطن العين.
(٣) المُقَل: العيون.
(٤) الكفل: العجُز.
(٥) أفل: غرب وغاب.
(٦) المختبل: الذي ذهب عقله.
(٧) الحَيْف: الظلم.

نعم، فأخرج إليّ ابنه القاسم، وكنت قد عرفت خبره وهو أحسن من القمر ليلة البدر، فأخذ عودًا يضرب به؛ فأكببت على يديه أُقَبِّلهما فقال لي عبد الله: أتقبِّل يد غلام مملوك! فقلت: بأبي وأمّي مِنْ مملوكٍ! وقبّلت رجله أيضًا. فقال: أمّا إذ عرفتَه فأحِبُّ أن تُضاربه، ففعلت. فلما رأى الغلام زيادتي في الضرب عليه اغتمّ وأقبل على أبيه، فقال له كالمعتذر إليه: يا أبتِ، أنا متلذِّذ وهذا متكسِّب. فضحكت وقلت: هو كذلك يا سيِّدي. وعجبت من حدّة جوابه معتذرًا على صغر سنّه.

قال عبد الله بن حبيب:

كان عبد الله بن موسى الهادي مُعَرْبِدًا(١)، وكان قد أعضل(٢) المأمون مما يُعربد عليه إذا شرب معه؛ فأمر به أن يُحْبَس في منزله فلا يخرج منه، وأقعد على بابه حَرَسًا؛ ثم تذمّم من ذلك فأظهر له الرّضا وصرفَ الحرسَ عن بابه. ثم نادمه فعربد عليه أيضًا وكلّمه بكلام أحفظه. وكان عبد الله مُغْرَمًا بالصيد؛ فأمر المأمون خادمًا من خواصّ خدمه يقال له حسن فسَمّه في دُرّاجٍ(٣)، فلما أكله أحسّ بالسمّ، فركب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تروني، ومات بعد أيّام. وأكل معه خادمان، فمات أحدهما لوقته، وضَنِي(٤) الآخر ثم مات بعد مدّة.

ومنهم عبد الله بن محمد الأمين. قال أبو الفرج الأصفهانيّ:

كان عبد الله بن محمد الأمين ظريفًا غَزِلًا يقول شعرًا ليِّنًا ويصنعه صَنْعةً صالحة. وكان بينه وبين أبي نَهْشَل بن حُمَيْد مودّة؛ فاعترض عبد الله جاريةً مغنِّية لبعض نساء بني هاشم وأعطي بها مالًا عظيمًا. وعَرَفتْ مولاتها منه رغبةً فيها فزادت عليه في السَّوْم فتركها؛ فاشتراها أخ لأبي نهشل، فتبعتْها نفسُ عبد الله، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النزولَ عنها؛ فسأله ذلك فوعده ودافعه. فكتب عبد الله إلى أبي نهشل:

يا ابنَ حُمَيْدٍ يا أبا نَهْشَلٍ ... مفتاح باب الحَدَثِ المُقْفَلِ
يا أكرمَ الناسِ ودادًا وأر ... عاهم لحقٍّ ضائعٍ مُهْمَلِ
أحسنتَ في ودِّي وأجملتَ بل ... جُزْتَ فعالَ المحسنِ المُجْمِلِ

(١) المعربد: المستهتر بالخمرة يفوه بأشياء لا يصح التفوّه بها.
(٢) أعضل: أعيا.
(٣) الدرّاج: ضرب من الطير يشبه السّمان.
(٤) ضني: مرض.

بيتُك في ذي يَمَنٍ شامخٌ تَقْصُر عنه قُنَّتا[(١)] يَذْبُلِ[(٢)]
خَلَفتَ فينا حاتمًا[(٣)] ذا النَّدى وجُدْتَ جودَ العارض[(٤)] المُسْبِلِ
أيّ أخ أنت لذي وَحْدةٍ تركته بالعزّ في جَحْفَلِ[(٥)]
نجومُ حظّي منك مسعودةٌ فيما أُرَجّي ليس بالأُفَّلِ[(٦)]
فصَدِّقِ الظنّ بما قلتَه وسَهِّلِ الأمرَ به يَسْهُلِ
لا تَحْرِمَنّي ولَدَيك المُنى بالله صيد الرَّشأ[(٧)] الأكْحَلِ
رُميتُ منه بسهام الهوَى وما دَرَى ما الرَّمْيُ في مَقْتَلي
أدنيتَني بالوعد في صيدِه إدناءَ عَطْشانٍ من المَنْهلِ[(٨)]
ثم تناسيتَ وأسلمتَني إلى مِطالٍ مُوحِشِ المنزِلِ
تركتَني في لُجّة عائمًا لا أعرِف المُدْبِرَ من مُقْبِلِ
صَرِّحْ بأمرٍ واضحٍ بَيِّنٍ لا خيرَ في ذي لَبَسٍ[(٩)] مُشْكِلِ[(١٠)]

قال: فلم يزل أبو نهشل بأخيه حتى نزل له عنها. ولعبد الله هذا صنعةٌ منها قوله: [من الوافر]

ألَا يا ديرَ حنظلةَ المُفَدَّى لقد أورثتَني سُقْمًا وكَدًّا
أزِفّ[(١١)] من الفُرات إليكَ زِفًّا وأجعل حوله الوردَ المُنَدّى

ومنهم أبو عيسى بن المتوكّل. قال عبد الله بن المعتزّ:

جُمِع لأبي عيسى بن المتوكل صنعةٌ مقدارُها أكثرُ من ثلاثمئة صوتٍ، منها الجيِّدُ الصنعةِ ومنها المتوسّطُ. وقال النُّميريّ: سمعت أبا عيسى بن المتوكّل يقول: إذا أتممت صنعة ثلاثمائة وستين صوتًا عدد أيام السنة تركت الصنعة، فلما أتمّها ترك

(١) قنّتا: قمّتا، والمفرد قنّة.
(٢) يذبل: اسم جبل بنجد.
(٣) حاتمًا: هو حاتم الطائي الذي يضرب المثل بجوده، وكان من أجواد الجاهلية وفرسانها.
(٤) العارض: السيل الممطر.
(٥) الجحفل: العسكر والجيش.
(٦) الأفّل: الغائبة الغاربة.
(٧) الرّشأ: الظبي.
(٨) المنهل: مورد الماء.
(٩) اللبس: عدم الوضوح.
(١٠) مشكل: معسر.
(١١) أزِفّ: أمشي بسرعة.

الصنعة. فمنها قوله في شعر عليّ بن الجَهْم(١): [من الطويل]

هي النفسُ ما حَمَّلتَها تتحمّلُ ولِلدّهرِ أيّامٌ تجور(٢) وتَعْدِلُ

وعاقبةُ الصبر الجميل جميلةٌ وأفضلُ أخلاقِ الرجال التجمُّلُ(٣)

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهو لَعَمْري من جيِّد الغناء وفاخِر الصنعة، ولو لم يصنع غيره لكفى.

ومنهم عبد الله بن المعتزّ، هو أبو العباس عبد الله بن المعتزّ بالله العباسيّ. قد وصفه أبو الفرج الأصفهانيّ فقال: وأمره مع قُرب عهده بعصرنا مشهورٌ في فضائله وأدبه شهرةً يشترك في أكثرها الخاصّ والعامّ، وشعره وإن كان فيه رقّة الملوكية وغَزَل الظرفاء وهلهلة المُحْدَثين، فإنّ فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين، ولا تقصُر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله، ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهلية. وأطنب في وصفه وتقريظه(٤)، وهو فوق ما قال؛ ثم قال:

وكان عبدُ الله حسنَ العلم بصناعةِ الموسيقى والكلام على النَّغَم وعِلَلها؛ وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهرٍ وبينَ بني حمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة أدبه. وذكر منها شيئًا ليس هذا موضع إيرادِه، ثم قال: ومن صنعة عبد الله بن المعتزّ في شعره: [من البسيط]

هل تَرْجعنّ ليالٍ قد مَضَيْنَ لنا والدارُ جامعةٌ أزمانَ أزمانا

قال أبو الفَرج: ومن صنعته الظريفة الشكل مع جودتها: [من الخفيف]

وا بَلَائِي مِنْ مَحْضَرٍ ومَغِيبِ وحبيبٍ منّي بعيدٍ قَريبِ

لم تَرِدْ ماءَ وجهه العينُ إلّا شَرِقتْ قبل ريِّها(٥) برقيبِ

(١) علي بن الجهم شاعر بغدادي عاصر أبا تمام، غضب عليه المتوكّل لهجائه فنفاه إلى خراسان فحبسه طاهر بن عبد الله، ثم انتقل إلى حلب فقتله جماعة من بني كلب. له ديوان شعر مطبوع. توفي سنة ٨٦٣ م.

(٢) تجور: تظلم ولا تستقيم أو تعدل.

(٣) التجمّل: المصانعة.

(٤) تقريظه: مدحه.

(٥) ريّها: شبعها من الماء.

قال: ومن صنعته التي تَظَارف فيها ومَلُح[١]: [من الرجز]

زاحم كُمِّي كُمَّه فالْتَوَيَا وافقَ قلبي قلبَه فاستَوَيَا
وطالما ذاقا الهوى فاكتَوَيَا يا قرّة[٢] العين ويا هَمِّي وَيَا

وحُكِي عن جعفر بن قُدَامة قال: كان لعبد الله بن المعتزّ غلام يحبّه، فغضب الغلام عليه، فجَهد أن يترضّاه، فلم يكن له فيه حيلة. ودخلت عليه فأنشدني فيه: [من مجزوء الخفيف]

بأبي أنتَ قد تَمَا دَيْتَ في الهجر والغَضَبْ
واصطبارِي على صدو دِكَ[٣] يومًا من العَجَبْ
ليس لي إن فَقَدتُ وجـ ـهَكَ في العيشِ مِن أرَبْ[٤]
رحِم الله مَنْ أعا نَ على الصُّلْح واحتسبْ

قال: فمضيت إلى الغلام، فلم أزل أداريهِ وأرفُق به حتى ترضّيته له وجئته به؛ فمرّ لنا يومئذٍ أطيبُ يومٍ وأحسنُه.

ذكر مَن غنّى من الأشراف والعلماء رحمهم الله

كان ممّن غنّى من الأشراف والعلماء على ما نُقل إلينا من أخبارهم:

عبد العزيز بن المطلب[٥]. روى الحافظ أبو الفضل محمدُ بنُ طاهرِ بن علي المقدسيّ رحمه الله بسَند رفعه إلى محمد بن مَسْلَمة قال: حدّثني أبي قال: أتيتُ عبدَ العزيز بنَ المطّلبِ أسألهُ عن بيعة الجنّ للنبيّ ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدؤُها، فوجدتُه مستلقيًا وهو يغنّي: [من الطويل]

فما روضةٌ بالحَزْنِ[٦] طيّبةُ الثّرَى
يَمُجّ النّدَى جَثْجَاثُها[٧] وعَرَارُهَا[٨]

---

(١) تظارف وملح: أظهر فيها الظرف والملاحة. (٢) قرّة العين: ما يرضي ويسرّ.
(٣) الصدود: الامتناع. (٤) الأرب: الغاية.
(٥) هو عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب، ولي قضاء المدينة للمنصور ثم ولّاه المهدي قضاء مكّة.
(٦) الحزن: الأرض الصلبة. (٧) الجثجاث: نبت زهره أصفر طيّب الرائحة.
(٨) العرار: النرجس البرّي.

بـأطـيـبَ مـن أردانِ عَـزَّةَ مَـوْهِـنًـا
وقـد أوقِـدَتْ بـالـمَـنْـدلِ(١) الـرَّطْـبِ نـارُهـا
مـن الـخـفِـراتِ(٢) الـبِـيـضِ لـم تـلقَ شِـقْـوةً
وبـالـحَـسَـب الـمـكـنـون صـافٍ نِـجـارُهـا(٣)
فـإن بـرزتْ كـانـت لـعـيـنـيـك قُـرّةً
وإن غِـبـتَ عـنـهـا لـم يَـغُـمَّـك عـارُهـا

فقلت له: تغنّي أصلحك الله وأنت في جَلالتك وشَرفك! أمَا والله لأحدُوَنّ بها رُكبانَ نجد. قال: فوالله ما أكثرتُ وعاد يتغنّى: [من الطويل]

فـمـا ظـبـيـةٌ أدماءَ(٤) خـفّـاقـةُ الـحـشـى ... تجوب بظِلْفيها بطونَ الخمائلِ(٥)
بـأحـسَـنَ مـنـهـا إذ تـقـول تـدلُّلًا ... وأدمُعُها يُذرين(٦) حَشْوَ المكاحِلِ(٧)
تَـمَـتَّـعْ بـذا الـيـوم الـقـصـيـرِ فـإنّـه ... رهـيـنٌ بـأيّـام الـشـهـور الأطـاولِ

قال: فندمت على قولي له، فقلت: أصلحك الله، أتحدّثني في هذا بشيء! فقال: نعم، حدّثني أبي فقال: دخلتُ على سالم بن عبد الله بن عمرَ ـ رضي الله عنهم ـ وأشعبُ(٨) يغنّيه: [من الطويل]

مُـعَـقْـربـةٌ كـالـبدر سُنَّةُ(٩) وَجْـهِـهـا ... مُـطَـهَّـرةُ الأثـوابِ والـعِـرْضُ وافـرُ
لـهـا نَـسَـبٌ زَاكٍ وعِـرْضٌ مُـهَـذَّبٌ ... وعـن كـلِّ مكروهٍ من الأمر زاجرُ
مِنَ الخَفِرات البِيضِ لـم تلقَ رِيبةً ... ولـم يَستمِلْها عن تُقَى اللهِ شاعرُ

فقال له سالم رضي الله عنه: زِدْني. فقال: [من الطويل]

أَلـمّـتْ بـنـا والـلـيـلُ داجٍ(١٠) كـأنّـه ... جَناحُ غُرابٍ عنه قد نَفَض القَطْرا(١١)
فقلتُ أعطّارٌ ثَوَى(١٢) في رِحالنا(١٣) ... وما احتملتْ ليلى سوى رِيحها عِطْرا

---

(١) المندل: العود الطيّب الرائحة.
(٢) الخفرات: الحيّيات.
(٣) نجارها: حسبها وأصلها.
(٤) الأدماء: السوداء السمراء.
(٥) الخمائل: الجنائن الغنّاء.
(٦) يذرين: يذرفن ويلقين.
(٧) المقصود به الكحل الذي يودع المكاحل.
(٨) أشعب: ظريف من ظرفاء مكة والمدينة، كان حسن الصوت شديد الطمع. أخباره كثيرة في كتب الأدب. عمّر طويلا، وتوفي سنة ٧٧١ م.
(٩) السنّة: الصورة.
(١٠) داج: ساج مظلم.
(١١) نفض القطر: أزاحه عنه.
(١٢) ثوى: أقام.
=

فقال سالم: أمَا والله لولا أن تَدَاوله الرُّواةُ لأجزلتُ جائزتَك، فلك من هذا الأمر مكانٌ.

ومنهم إبراهيمُ بنُ سعد. هو أبو إسحٰق إبراهيمُ بنُ سعدِ بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف الزُّهْريّ. كان من العلماء الثِّقات المحدّثين. سمع أباه وابنَ شِهاب الزهريّ وهشام بن عُروة وصالح بن كَيْسان ومحمد بن إسحٰق بن يسار. روى عنه يزيدُ بنُ عبدِ الله بن الهاد وشعبةُ بن الحجاجِ واللَّيثُ بن سعد، وابناه يعقوب وسعد ابنا إبراهيم وعبد الرحمٰن بن مهديّ ويزيد بن هارون ويونس المؤدّب وأبو داود الطيالسيّ وسليمان بن داود الهاشميّ وعبد العزيز الآدميّ وعليّ بن الجعد ومحمد بن جعفر الوَرَكانيّ وأحمد بن حنبل وغيرهم. كان يُبِيح السماع ويضرب بالعود ويُغنّي عليه. وله في ذلك قصّة رواها أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسيّ بسند رفعه إلى سعيد بن كثير بن عُفَيْر قال:

قَدِم إبراهيم بن سعد الزهريّ العراقَ سنةَ أربع وثمانين ومائة، فأكرمه الرشيدُ وأظهر برّه. وسُئِل عن الغناء فأفتى بتحليله؛ فأتاه بعض أهل الحديثِ ليسمعَ منه أحاديثَ الزهريِّ، فسمعه يتغنّى، فقال: لقد كنتُ حريصًا على أن أسمع منك، فأمّا الآن فلا سمعتُ منك حديثًا أبدًا. قال: إذًا لا أفقِد إلّا شخصَك. عليّ وعليّ ألّا أُحدِّث ببغداد ما أقمتُ حديثًا واحدًا حتى أغنّي قبله. وشاعت هذه الحكاية ببغداد، فبلغت الرشيدَ، فدعا به فسأله عن حديث المخزوميّة التي قطعها النبيّ ﷺ في سرقةِ الحليّ؛ فدعا بعود. فقال الرشيد: أعودُ المِجْمَر[1]؟ قال: لا ولكن عود الطَّرَب، فتبسّم. ففهِمها إبراهيم بن سعد، فقال: لعلك بلغك يا أمير المؤمنين حديثُ السفيهِ الذي آذاني بالأمس وألجأني إلى أن حلفتُ. قال: نعم، فدعا له الرشيد بعود فأخذه وغنّى: [من البسيط]

يا أُمّ طلحةَ إنّ البينَ[2] قد أَفِدَا[3] مُلّ الثَّوَاءُ[4] لأن كان الرحيلُ غدا

فقال له الرّشيد: من كان من فقهائكم يُنكرُ السماع؟ قال: مَنْ رَبَط الله على قلبه. قال: فهل بلغك عن مالك في هذا شيء؟ فقال: لا والله، إلا أن أبي أخبرني

=(١٣) رحالنا: بضاعتنا وما يوضع على ظهر البعير للركوب، والمفرد رحل.
(١) المجمر: الموقد، ومكان الجمر. (٢) البَيْن: الفراق.
(٣) أفد: اقترب. (٤) الثواء: المقام.

أنّهم اجتمعوا في مَدْعاة كانت في بني يربوع وهم يومئذ جِلّة[١]، ومالكٌ أقلُّهم في فِقه وقَدْر، ومعهم دفوف ومَعازفُ وعِيدانٌ يغنُّون ويلعبون. ومع مالك دُفّ مربَّع وهو يغنيهم: [من مجزوء الوافر]

سُلَيْمَى أزمعتْ[٢] بَيْنَا وأيـنَ لـقـاؤهـا أيـنـا
وقـد قـالـت لأتـرابٍ[٣] لـهـا زُهْـرٍ[٤] تَـلاَقَـيْـنَـا
تَـعَـالَيْـنَ فـقـد طـاب لـنـا الـعـيـشُ تَـعَـالَيْـنَـا

فضحك الرشيد ووصله بمال عظيم. ومات إبراهيم في هذه السنة وهو ابنُ خمسٍ وسبعينَ سنة. قال: وكان إبراهيم بن سعد يبالِغ فيه إلى هذا الحدّ. وقد أجمعت الأئمّةُ على ثقته وعدالته والروايةِ عنه. واتّفق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراج حديثه في الصحيح. ولم تسقط عدالتُه بفعلِه عند أهلِ العلم، بل قُلِّد قضاءَ بغدادَ على جلالتِها، وقُلِّد أبوه القضاءَ بالمدينة على شرفها.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى إسحٰق بن إبراهيمَ الموصلي قال:

شَهِدتُ إبراهيمَ بن سعدٍ يحلفُ للرشيدِ وقد سأله عمّن بالمدينة يُنكر الغناء، فقال: مَنْ قَنَّعه الله خِزْيَه: مالكُ بنُ أنسٍ، ثم حلف أنه سمع مالكًا يغنّي: [من مجزوء الوافر]

سليمى أزمعت بينا فأين لقاؤها أينا

في عُرْس لرجل من أهل المدينة يُكْنَى أبا حَنْظَلة.

وروى أيضًا بسنده إلى الحسين بن دَحْمان الأشقر، قال:

كنت بالمدينة، فخلا لي الطريقُ في نصف النهار، فجعلت أتغنّى: [من مجزوء الكامل]

مـا بـالُ أهـلكِ يـا رَبَـابُ خُـزْرًا[٥] كـأنـهـمُ غِـضـابُ

---

(١) جلّة القوم: كبار القوم وسادتهم.
(٢) أزمعت: عزمت.
(٣) الأتراب: الرفاق.
(٤) زهر: بيض.
(٥) خزرًا: ضيّقي العيون، غضابًا.

قال: فإذا خَوخةٌ[١] قد فُتحت وإذا وجهٌ قد بدا تتبعُه لِحيةٌ حمراءُ، فقال: يا فاسقُ! أسأتَ التأديةَ، ومنعتَ القائلة[٢]، وأذعتَ الفاحشة[٣]؛ ثم اندفع يغنّيه؛ فظننتُ أنّ طُوَيْسًا[٤] قد نُشر يغنّيه، فقلتُ: أصلحك الله! من أين لك هذا الغناء؟ قال: نشأتُ وأنا غلامٌ أتبعُ المغنّين وآخذ عنهم؛ فقالت لي أُمّي: يا بنيّ، إن المغنّي إذا كان قبيحَ الوجه لم يُلْتَفت إلى غنائه، فدعِ الغناءَ واطلبِ الفقهَ فإنه لا يَضُرّ معه قبح الوجه. فتركتُ المغنّين واتبعتُ الفقهاءَ، فبلغ الله بي ما ترى. فقلت: فأعِدْ جُعِلتُ فداءك. فقال: لا ولا كرامة! أتريد أن تقول أخذتُه عن مالك بن أنس! وإذا هو مالك ولم أعلم.

ومنهم **محمد بن إسماعيلَ بن عليّ** بن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما. كان عالمًا بالفقه والغناء جميعًا. وكان يحيىٰ بن أكثَم وصفه للمأمون بالفقه، ووصفه أحمدُ بن يوسف بالغناء. فقال المأمون: ما أعجبَ ما اجتمع فيه العلم بالعلم والغناءِ!.

ذِكْر مَنْ غنّى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممّن نُسبت له صَنعةٌ في الغناء

منهم أبو دُلَف العِجْليّ[٥]، هو أبو دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بني عِجْل بن لُجَيْم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل. كان محلّه من الشجاعةِ وبُعدِ الهمّة وعلوّ المحلّ عندَ الخلفاءِ وعظم الغناء في المشاهد وحُسْن الأدب وجَوْدة الشعر محلًا كبيرًا ليس لكثير من أمثاله.

قال أبو الفرج الأصبهانيّ: وله صنعة حَسَنة. فمن جيّد صنعته قوله ـ والشعر له أيضًا ـ: [من الوافر]

بنفسي يا جِنَانُ وأنتِ منّي ... مكانَ الرُّوح من جَسَد الجبَانِ
ولو أنّي أقول مكانَ نفسي ... خَشِيتُ عليك بادرةَ الزمانِ[٦]
لإقدامي إذا ما الخيل حامت ... وهاب كُماتُها[٧] حَرَّ الطِّعان

(١) الخوخة: فتحة كبيرة في الباب الكبير الرئيسي.
(٢) القائلة: النوم عند الظهر. (٣) الفاحشة: الإثم الكبير.
(٤) طويس: اسم مغنٍّ مشهور، وسيأتي الحديث عنه.
(٥) هو القاسم بن عيسى، الأمير والأديب والشاعر من رجال الدولة العباسيّة. له كتاب «سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». مات سنة ٢٢٦ هـ/ ٨٤٠ م.
(٦) بادرة الزمان: صرفه والحدث منه. (٧) كماتها: فرسانها، جمع كميّ.

قال: وكان أحمد بن أبي دُواد يُنكر أمر الغِناء إنكارًا شديدًا؛ فأعلمه المعتصم أن أبا دُلَف صديقَه يغنّي. فقال: ما أُراه مع عقله يفعل ذلك! فستر المعتصم أحمد بن أبي دواد في موضع وأحضَر أبا دُلَف وأمره أن يغنّي ففعل ذلك وأطال، ثم أخرج أحمد بن أبي دواد عليه؛ فخرج والكراهة ظاهرة في وجهه؛ فلما رآه أحمد قال: سَوْءةً لهذا مِن فعل! أبعد هذه السنّ وهذا المحلّ تصنع بنفسك ما أرى فخجِل أبو دلف وتشوّر[١] وقال: إنهم لَيُكرِهونني على ذلك. فقال: هبهم أكرهوك على الغِناء أهم أكرهوك على الإحسان فيه والإصابة!.

قال: وكان أبو دلف يُنادم الواثق[٢]. فوُصِف للمعتصم فأحبّ أن يسمعَه، وسأل الواثق عنه، فقال له: يا أمير المؤمنين، أنا على نيّة الفَصْد[٣] غدًا وهو عندي. وفُصِد الواثق فأتاه أبو دُلَف وأتته رسل الخليفة بالهدايا؛ فأعلمهم الواثق حصولَ أبي دُلَف عنده. فلم يلبث أن أقبل الخدم يقولون: قد جاء الخليفة. فقام الواثق وكلّ مَن كان عنده حتى تَلَقَّوْه؛ وجاء حتى جلس، وأمر بندماء الواثق فرُدّوا إلى مجالسهم. وأقبل الواثق على أبي دُلَف فقال: يا قاسم، غَنّ أمير المؤمنين. فقال: صوتًا بعينه أو ما اخترتُ؟ قال: بل من صَنْعتك في شعر جرير. فغنّى: [من الكامل]

بانَ الخَليطُ برامَتَينِ[٤] فوَدّعوا أوَ كلّما اعتزموا لِبَيْنٍ تَجزَعُ[٥]
كيف العزاءُ ولم أجِدْ مُذْ غِبتُم قلبًا يَقِرّ ولا شرابًا يَنْقَع[٦]

فقال المعتصم: أحسن أحسن ـ ثلاثًا ـ وشرب رطلًا. ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة أرطال. ثم دعا بحمار فركبه، وأمر أبا دُلَف أن ينصرف معه؛ فخرج معه فثُبّت في ندمائه، وأمر له بعشرين ألف دينار.

قال: وكان أبو دُلَف جوادًا ممدَّحًا. وفيه يقول عليُّ بن جَبَلة من قصيدة يقول فيها: [من المديد]

ذادَ[٧] وِرْدَ الغَيِّ[٨] عن صَدَرِهْ وارعوَى[٩] واللّهوُ من وَطَرِهْ[١٠]

---

(١) تشوّر: استحيا.
(٢) الواثق: خليفة عباسي سبق التعريف به.
(٣) الفصد: إخراج الدم من الوريد بقصد العلاج.
(٤) الرامتان: اسم موضع بعينه.
(٥) تجزع: تفرق.
(٦) ينقع: يسكّن.
(٧) ذاد: دفع.
(٨) الغيّ: الضلال.
(٩) ارعوى: رشد.
(١٠) وطره: غايته.

نَـدَمِـي أنّ الـشـبـابَ مـضـى لـم أُبَـلِّغْـه مـدى أشَـرِهْ[1]
حَـسَـرتْ عـنّـي بـشـاشـتُـه وذوَى الـمـحـمـودُ مـن ثَـمَـرِهْ
ودَمٍ أهـدرتُ مـن رَشَـأ[2] لـم يُـرِدْ عَـقْـلًا عـلى هَـدَرِهْ

جاء منها:

دَعْ جَدَا[3] قَحْطانَ[4] أو مُضَرٍ[5] فـي يَـمَـانِـيـهِ وفـي مُـضَـرِهْ
وامـتـدِحْ مـن وائـلٍ رجـلًا عَـصَـرُ الآفـاقِ مِـن عَـصَـرِهْ

ومنهـا:

الـمـنـايـا فـي مَـقـانـبـه[6] والـعـطـايـا فـي ذَرَا[7] حُـجَـرِهْ
مَـلِـكٌ تـنـدَى أنـامـلُه كـانْـبـلاج الـنَّـوْءِ[8] عـن مَـطَـرِهْ
مُـسـتـهِـلٌّ عـن مـواهـبـه كـابـتـسـام الـرَّوْض عـن زَهَـرِهْ

ومنهـا:

إنـمـا الـدنـيـا أبـو دُلَفٍ بـيـن بـاديـه ومُـحْـتَـضَـرِهْ
فـإذا ولّى أبـو دُلَفٍ وَلَّتِ الـدنـيـا عـلى أثَـرِهْ
كـلُّ مَـنْ فـي الأرض مـن عَـرَب بـيـن بـادِيـهِ[9] إلـى حَـضَـرِهْ[10]
مـسـتـعـيـرٌ مـنـه مـكـرمـةً يـكـتـسِـيـهـا يـوم مُـفْـتَـخَـرِهْ

وهذان البيتان اللذان أحفظا المأمون على عليّ بن جبلة حتى سلّ لسانَه من قفاه.

(١) الأشر: المرح والنّشاط.
(٢) الرشأ: الظبي، كناية عن الحبيب. والعقل: الدّية.
(٣) الجدا: العطاء والنوال. (٤) قحطان: أبو عرب الجنوب.
(٥) مضر: عرب الشمال.
(٦) المقانب: جماعات الخيل والفرسان دون المائة تجتمع للغارة، والمفرد مقنب.
(٧) الذرا: الأعالي.
(٨) النوء: المطر الذي تحكمه النجوم والمنازل للنجوم، وثمة في زعم العرب ثمانية وعشرون نوءًا، يحل واحد منها يستمر اثني عشر أو ثلاثة عشر يومًا.
(٩) البادي: قاصد البادية والذي يعيش فيها.
(١٠) الحضر: بخلاف البدو، وهم سكان الحاضرة والأرياف والمدن.

وقوله فيه: [من البسيط]

أنتَ الذي تُنزِل الأيّامَ منزِلَها ... وتنقُل الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مَددتَ مدَى طَرْفٍ إلى أحدٍ ... إلّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ
تَزورُ[1] سُخْطًا[2] فتُضحِي البِيضُ ضاحكةً ... وتَستهلّ فتبكي أعينُ المالِ

وكان سبب مدح عليّ بن جبلة أبا دُلَف بقوله: [من المديد]

* إنما الدنيا أبو دلفٍ *

ما رواه أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن عليّ بن جبلة، قال: زرتُ أبا دُلف بالجبل، فكان يُظهر من بِرّي وإكرامي والتحَفّي[3] بي أمرًا عظيمًا مُفرِطًا حتى تأخرت عنه حياء. فبعث إليّ مَعْقِلًا وقال: يقول لك الأمير: قد انقطعتَ عنّي، وأظنّك قد استقللتَ بِرّي[4]، فلا يُغضبنك ذلك فإني سأزيد فيه حتى ترضى. فقلت: والله ما قطعني إلا الإفراطُ في البرّ، وكتبت إليه: [من الطويل]

هجرتُكَ لم أهجُرْكَ من كفرِ نعمةٍ ... وهل يُرْتَجى نيلُ الزيادة بالكفرِ
ولكنّني لمّا أتيتُك زائرًا ... فأفرطتَ في بِرّي عجزتُ عن الشكر
فَمِ الآن[5] لا آتيكَ إلّا مسلِّمًا ... أزورك في الشهرين يومًا وفي الشهر
فإن زدتَني بِرًّا تزايَدتُ جفوةً[6] ... ولم تلقَني طولَ الحياةِ إلى الحشر[7]

فلما قرأها مَعْقِل استحسنها وقال: أحسنت والله! أمَا إن الأميرُ يُعجبه هذا من المعاني. فلما أوصلها إلى أبي دُلَف قال: قاتله الله! ما أشعره وأرقَّ معانيه! وأجابني لوقته ـ وكان حسن البديهة حاضر الجواب ـ: [من الطويل]

ألَا رُبَّ طيفٍ طارقٍ[8] قد بسطتُه ... وآنستُه قبل الضِّيافةِ بالبِشْرِ
أتاني يُرَجِّيني فما حال دونه ... ودون القِرَى[9] والعُرْف من نائلي ستري
وجدتُ له فضلًا عليّ بقصده ... إليّ وبِرًّا زاد فيه على بِرّي
فزوّدته مالًا يدوم بقاؤه ... وزوّدني مدحًا يدوم على الدهر

---

(١) تزوّر: تميل.
(٢) سخطًا: غضبًا.
(٣) التحفّي: التأهيل.
(٤) برّي: إحساني.
(٥) فم الآن: أصلها: فمن الآن.
(٦) الجفوة: البغضاء والبعد والنفور.
(٧) الحشر: يوم القيامة.
(٨) الطارق: الزائر ليلًا.
(٩) القرى: الضيافة.

قال: وبعث بالأبيات وصيفًا وبعث إليّ معه بألف دينار. فقلت حينئذ:

* إنـــمـــا الـــدنـــيـــا أبـــو دلـــف *

الأبيات.

وروى أبو الفرج عن أحمد بن عبيد الله بن عمّار، قال: كنّا عند أبي العبّاس المبرّد(١) يومًا وعنده فتى من ولد أبي البَخْتِرِيّ وهب بن وهب، أمرد(٢) حسن الوجه، وفتًى من ولد أبي دُلَف العِجْليّ شبيه به في الجمال. فقال المبرّدُ لابنِ أبي البَخْتَرِيّ: أعرف لجَدّك قصّة ظريفة من الكرم حَسَنة لم يُسْبَق إليها. قال: وما هي؟ قال: دُعِيَ رجلٌ من أهل الأدب إلى بعض المواضعِ فسقَوْه نبيذًا غيرَ الذي يشربون منه؛ فقال فيهم: [من المتقارب]

نَبِيذانِ في مجلسٍ واحدٍ ... لإيثار مُثْرٍ(٣) على مُقْتِرِ(٤)

فلو كان فعلُك ذا في الطعام ... لزمتَ قياسَك في المسكرِ

ولو كنتَ تفعلُ فعلَ الكرام ... صنعتَ صنيعَ أبي البَخْتَرِي

تتبّع إخوانَه في البلاد ... فأغنَى المُقِلَّ عن المُكْثِرِ

فبلغت الأبيات أبا البختريّ فبعث إليه ثلاثمائة دينار. قال ابن عمّار: فقلت: وقد وفعل جَدّ هذا الفتى في هذا المعنى ما هو أحسن من هذا. قال: وما فعل؟ قلت: بلغه أنّ رجلًا افتقر من ثروة، فقالت له امرأتُه: افترِضْ في الجند، فقال: [من البسيط]

إليكِ عنّي فقد كَلّفتِني شَطَطًا(٥) ... حملَ السلاح وقولَ الدّارعِين(٦) قِفِ

تمشي المنايا إلى قومٍ فأكرهها ... فكيف أمشي إليها عارِيَ الكتفِ

حَسِبتِ أنّ نفادَ المال غيّرني ... أو أنّ رُوحِيَ في جنبَيْ أبي دُلَفِ

(١) المبرّد: أبو العباس المبرّد، أحد أبرز علماء النحو. تلميذ السجستاني والمازني، بصري الاتجاه، خاصم ثعلب ممثل مذهب الكوفة. علّم في بغداد. أشهر مؤلفاته «الكامل» في النحو. مات سنة ٨٩٨ م.

(٢) أمرد: لا شعر في ذقنه.

(٣) المثري: الجواد الغنيّ.

(٤) المقتر: البخيل.

(٥) شططًا: غاليًا.

(٦) الدارعون: من لبسوا الدروع في الحرب.

فأحضره أبو دلف وقال: كم أمّلتِ امرأتك أن يكون رزقك؟ قال: مائة دينار، قال: كم أمّلتَ أن تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: فذلك لك على ما أمّلت وأمّلتِ امرأتك في مالنا دون مال السلطان، وأمر بإعطائه إيّاه. قال: فرأيت وجه ابن أبي دُلَف يتهلّل[١] وانكسر ابن أبي البختريّ. وهذه الأبيات رُويت لابن أبي فِنَنٍ.

ومنهم أخوه مَعْقِلُ بنُ عيسى. كان فارسًا شاعرًا جوادًا مغنّيًا فَهِمًا بالنَّغَم والوَتَر، ذكره الجاحظ مع ذكر أخيه أبي دُلَف، وهو القائل لمخارق ـ وقد كان زار أبا دلف بالجبل ثم رجع إلى العراق، وله في ذلك غناء ـ: [من الطويل]

لعمري لَئِن قرَّتْ بقربك أعيُنٌ ... لقد سَخِنت[٢] بالبُعد عنك عيون
فسِرْ أو أقِمْ، وقفٌ عليك مودّتي ... مكانُك من قلبي عليك مصونُ[٣]
فما أوحشَ الدّنيا إذا كنتَ نازحًا[٤] ... وما أحسنَ الدنيا بحيث تكونُ

ومنهم عبد الله بن طاهر بن الحسين وابنه عبيد الله. فأمّا عبد الله فكان محلُّه من علوّ المنزلة وعظم القدر والتمكّن عند الخلفاء ما هو مشهور مذكور في أخبارهم. وتقلّد الولايات الكبيرة مثل مصر والجزيرة وما يلي ذلك، ثم نُقل إلى خُراسان، وله عطايا وهِبات وصِلات لا يُنكرها أحد. ومحلّه من الشجاعة والإقدام معروف. وكان يَعْتني بالغناء ويصنعه، إلّا أنه كان يترفّع عن ذكره والاعتراف به ونسبته إليه.

قال أبو الفرج: والأصوات التي غَنّى فيها عبد الله بن طاهر كثيرة. وكان ابنه عُبَيد الله إذا ذكر شيئًا منها مِنْ صَنْعته قال: الغناء للدار الكبيرة، وإذا ذَكر شيئًا من صنعة نفسه قال: الغناء للدار الصغيرة؛ فمن الأصوات التي صنع فيها عبد الله بن طاهر قولُه: [من البسيط]

هَلّا سَقَيتم بني حزم أسيركُم ... نفسي فداؤك مِن ذي غُلّةٍ[٥] صادي[٦]
الطاعنُ الطَّعنةَ النجلاءَ[٧] يتبعُها ... مُضَرَّجٌ بعْدَ ما جادَتْ بإزبادِ[٨]

---

(١) يتهلّل: يبتسم ويضحك ويبشّ.
(٢) سخنت: ذابت.
(٣) مصون: محفوظ.
(٤) نازحًا: بعيدًا.
(٥) الغلّة: العطش.
(٦) الصادي: العطشان.
(٧) الطعنة النجلاء: الكبيرة الواسعة.
(٨) الإزباد: الإرغاء وإظهار الزبد.

قال: فقد جاء به عبد الله صحيح العمل مزدوج النغم بين لِين وشدّة على رسم الحذّاق(١) القدماء. قال عبيد الله ـ وذكر صوتًا من أصواته ـ: لمّا صنع أبي هذا الصوت لم يحبّ أن يُسْمَع عنه شيء من الغناء ولا ينسب إليه؛ لأنه كان يترفّع عن ذلك، وما جسّ بيده وترًا قطُّ ولا تعاطاه، ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدُّرْبة وحُسْن الثقافة ما لا يعرفه كثير. قال: وبلغ من علم ذلك إلى أن صنعَ في أبيات أصواتًا كثيرة، فألقاها على جواريه، فأخذتَها عنه وغنَّيْن بها وسمعها الناسُ منهنّ، وممن أخذ عنهنّ، فلما أن صنعَ هذا الصوت:

هلّا سقيتمُ بني سهمٍ أسيركُم نفسي فداؤك من ذي غُلَّةٍ صادي

نسبه إلى مالك بن أبي السمح. وكانت لآل الفضل بن الربيع(٢) جاريةٌ يقال لها راحة، وكانت ترغَب إلى عبد الله لمّا ندَبه المأمونُ إلى مصر، وكانت تغنّيه؛ وأخذت هذا الصوت عن جواريه، وأخذه المغنون عنها، ورُوِي لمالك بن أبي السمح مدّة. ثم قَدِم عبد الله العراق، فحضر مجلسَ المأمون وغُنِّي الصوت بحضرته ونُسِب إلى مالك؛ فضحك عبد الله ضحكًا كثيرًا؛ فسُئِل عن القصة فصدَق فيها واعترف بصنعة الصوت. وكشَف المأمون عن القصة، فلم يزل كلٌّ من سُئِل عنه يُخبر عمّن أخذه، فينتهي بالقصّة إلى راحة ويقف فلا يعدوها، فأُحضِرت راحة وسُئِلت فأخبرت بقصّته؛ فعلم أنه من صنعته حينئذ بعد أن جاز على إسحٰق وطبقته أنه لمالك. ويقال: إنه لم يعجَب من شيء عَجَبه من حِذْق عبد الله بمذاهب الأوائل الأوائل وحكاياتهم.

وأمّا عُبَيد الله، ويُكنّى أبا أحمد. قال أبو الفرج الأصبهاني: له محلٌّ من الأدب والتصرُّف في فنونه ورواية الشعر وقولِه والعلم باللّغة وأيّام الناس وعلوم الأوائل من الفلاسفة في الموسيقى والهندسة وغير ذلك ممّا يجلّ عن الوصف ويكثر ذكره. وله صنعةٌ في الغناء حسنة مُتقنة عجيبة تدلّ على ما ذكرناه هٰهنا من توصُّله إلى ما عجز عنه الأوائل من جمع النَّغَم كلّها في صوت واحد تتبّعه هو وأتى به على ما فصّله فيها وطلبه منها.

---

(١) الحذّاق: المهرة، جمع حاذق.

(٢) الفضل بن الربيع: حاجب المنصور العباسي، استوزره الرشيد بعد أن نكب البرامكة. ثم جاء الأمين فأقرّه في الوزارة، ولما جاء المأمون من خراسان إلى بغداد قاومه الفضل فأبعده عنه. توفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.

وكان المعتضدُ بالله ربما أراد أن يصنعَ في بعض الأشعار غناءً ويحضُره أكابر المغنّين فيعدِل عنهم إليه فيصنع فيه أحسن صَنْعة، ويترفّع عن إظهار نفسه بذلك فيومىء إلى أنه من صنعة جاريته ساجي. وسنذكر ساجى إن شاء الله تعالى في أخبار القِيان، وكانت تخريجَ عبيد الله وتأديبه.

قال: ولمّا اختلّت حال عُبيد الله كان المعتضد بالله يتفقّده بالصِّلات. ومن أصوات عبيد الله التي جمع فيها النَّغَم العشر قوله في شعر إبراهيم بن عليّ بن هَرْمة[١]: [من الطويل]

وإنّك إذ أطمعتَني منك بالرّضا ... وأيأستَني[٢] من بَعْدِ ذلك بالغَضَبْ
كمُمْكِنةٍ من دَرِّها كفَّ حالب ... ودافقةٍ من بعد ذلك ما حَلَبْ

وأخبار عُبيد الله كثيرة سنذكر منها في هذا الباب في أخبار ساجي طَرَفًا، ونورد منها إن شاء الله تعالى في فنّ التاريخ ما يناسب، وأستغفرُ الله العظيم.

ذِكْر أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة ومَن أخذ عنهم ومَنِ اشتهر بالغناء

والغناءُ قديمٌ في الفرس والروم، ولم يكن للعربِ قبلَ ذلك إلا الحُدَاءُ والنشيدُ، وكانوا يُسمّونه «الركبانيّة». وأوّلُ من نقل الغناءَ العجميّ إلى العربيّ من أهل مكّةَ «سَعِيدُ بن مِسْجَح»، ومن أهلِ المدينة «سائب خاثِر». وأوّل من صنع الهَزَج «طُوَيْس». ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ثم نذكر مَنْ أخذ عنهم إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر أخبار سعيدِ بن مِسْجَح

هو أبو عثمان سَعِيدُ بنُ مِسْجَحٍ، مولى بني جُمَح، وقيل: مَوْلى بني مخزوم، وقيل: مولى بني نَوْفَل بن الحارث بن عبد المطّلب. مكيٌّ أسودُ ـ وقيل: أصفرُ ـ حسنُ اللّون. وقيل: كان مولّدًا[٣]، يُكْنَى أبا عيسى. وقيل: كان هو وابن سُرَيْج

(١) إبراهيم به هرمة: شاعر مخضرم الدولتين الأموية والعباسية. نشأ في المدينة. مدح المنصور وابنه المهدي. توفي سنة ٧٩٢ م.
(٢) أيأستني: جعلتني أيأس وأقنط.
(٣) المولّد: الأعجمي غير العربي الذي ولد ونشأ في بيئة عربية وبين العرب فتأثر بهم وبأخلاقهم وآدابهم وعاداتهم.

لرجل واحد. مغنٍّ متقدّم من فحول المغنّين وأكابرهم، وهو أوّل مَنْ وضع الغناءَ منهم، وأوّلُ مَنْ غنّى الغناء العربيّ بمكّة؛ وذلك أنه مرّ بالفُرْس وهم يبنون المسجد الحرام في أيام عبد الله بن الزُّبَيْر، فسمع غناءهم بالفارسيّة فقَلبه في شعر عربيّ، ثم رحَل إلى الشام فأخذ ألحان الرُّوم والبربطية والأسطوخوسية، وانقلب إلى فارسَ فأخذ غناءً كثيرًا وتعلّم الضرب، ثم قَدِم إلى الحجاز وقد أخذ محاسنَ تلك النغَم وألقى منها ما استقبحه من النَّبَرات والنّغَم؛ وكان أوّل مَنْ فعل ذلك، وتَبِعه الناس بعدُ؛ وعلّم ابنُ سُرَيْج، وعلّم ابنُ سريج الغَرِيضَ. قالوا: وكان في صِباه فَطِنًا ذكيًا، وكان مولاه مُعْجَبًا به، فكان يقول: لَيكونَنّ لهذا الغلام شأن، وما يمنعني من عِتْقه إلّا حُسْنُ فِراستي فيه، ولئن عشتُ لأتعرّفنّ ذلك، وإن مُتُّ قبله فهو حُرّ، فسمعه مولاه يومًا يتغنّى بشعر ابن الرِّقَاع[١] يقول: [من الكامل]

أَلْمِمْ على طَلَلٍ عَفَا[٢] مُتقادِمِ ... بين الذُّؤَيْبِ وبين غَيْب النَّاعم[٣]
لولا الحياءُ وأنّ رأسي قد عَسَا[٤] ... فيه المَشِيبُ لزرتُ أُمَّ القاسِمِ[٥]

فدعاه مولاه فقال: أَعِدْ يا بنيّ؛ فأعاده فإذا هو أحسن مما ابتدأ به، وقال: إنّ هذا لَبعضُ ما كنتُ أقول. ثم قال له: أنّى لك هذا؟ قال: سمعتُ هذه الأعاجم تتغنّى بالفارسيّة فقلبتُها في هذا الشعر. قال: فأنت حرٌّ لوجه الله. فلزم مولاه وكَثُر أدبه واتّسع في غنائه وشُهِر بمكّة وأُعْجِبُوا به، فدفع إليه مولاه عُبَيْدَ بن سُرَيْج وقال: يا بنيّ علّمه واجتهِدْ فيه. وكان ابن سُرَيْج أحسنَ الناس صوتًا، فتعلّم منه ثم بَرّز عليه[٦]. وقد قيل: إنه إنما سمع الغناء من الفُرْس لمّا أمر معاويةُ ببناء دُوره بمكّة التي يقال لها «الرُّقْط»، وكان قد حمل إليها بَنّائين من الفُرْس الذين كانوا بالعراق فكانوا يبنونها، وكان سَعِيد بن مِسْجَح يأتيهم فيسمع غناءهم على بنائهم؛ فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربيّ، ثم صاغ على نحو ذلك. وكان من قديم غنائه الذي صنعه على تلك الألحان شعر الأَحْوَص[٧]، وهو: [من الكامل]

أَسلَامَ إنكِ قد ملكتِ فاسْجِحِي[٨] ... قد يملك الحرُّ الكريم فيُسْجِحُ

---

(١) ابن الرقاع العاملي، عدي: سبق التعريف به.
(٢) عفا: درس.
(٣) ذؤيب وغيب الناعم، اسما موضعين.
(٤) عسا: غلظ وصلب واشتدّ.
(٥) أم القاسم: كنيته حبيبته.
(٦) برّز عليه: غلبه وتقدّمه.
(٧) الأحوص: شاعر سبق التعريف به.
(٨) اسجحي: ليني وتساهلي.

مُنِّـي عـلـى عـانٍ أطـلـتِ عَـنـاءَه   في الغُلّ عندك والعُناةُ[١] تُسَرَّحُ[٢]
إنّـي لأنـصـحـكـم وأعـلـم أنّـه   سِيّانِ عندكِ من يَغُشُّ ويَنْصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلامةَ حبَّها   قالت أجِدٌّ منك ذا أمْ تَمْزَحُ

وهذا من أقدم الغناء العربيّ المنقول عن الفارسيّ. قال: وعاش سَعِيد بن مسجح حتى لقيه مَعْبَد وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبد الملك.

ومن أخبار سعيد ما رواه أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه، قال: كتب عاملٌ لعبدِ الملكِ بنِ مروان بمكّةَ إليه أنّ رجلًا أسودَ يقال له سعيدُ بنُ مسجح قد أفسد فتيانَ قريشٍ وأنفقوا عليه أموالَهم، فكتب إليه: أنِ اقبضْ ماله وسيِّرْه إليّ. فتوجّه ابن مسجح إلى الشأم؛ فصحبه رجل له جوارٍ مغنِّيات في الطريق، فقال له: أين تريد؟ فأخبره الخبر، وقال: أريد الشام؛ فصحبه حتى بلغا دمشق، فدخلا مسجدها فسألا: مَنْ أخصُّ الناسِ بأمير المؤمنين؟ فقالوا: هؤلاء النفرُ من قريش وبنو عمّه. فوقف ابن مسجح عليهم فسلّم، ثم قال: يا فتيانُ، هل فيكم مَنْ يُضيف رجلًا غريبًا من أهل الحجاز؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعدٌ أن يذهبوا إلى قَيْنَةٍ يقال لها «برق الأُفُق»، فتثاقلوا به إلّا فتًى منهم تَذَمَّمَ[٣] فقال له: أنا أَضِيفُك، وقال لأصحابه: انطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفي. فقالوا: لا، بل تجيء معنا أنت وضيفك. فذهبوا جميعًا إلى بيت القَيْنة، فلما أُتُوا بالغَداء قال لهم سَعِيد: إني رجل أسود، ولعل فيكم من يَقْذَرُني، فأنا أجلسُ وآكلُ ناحيةً وقام؛ فاستحيوا منه وبعثوا له بما أكل. فلما صاروا إلى الشَّراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا. ثم أخرجوا جاريتين، فجلستا على سرير قد وُضِع لهما فغنّتا إلى العشاء ثم دخلتا؛ وخرجت جارية حسنةُ الوجه والهيئة وهما معها فجلستا أسفل السرير عن يمينه وشماله وجلست هي على السرير. قال ابن مسجح: فتمثّلت هذا البيت: [من الطويل]

فـقـلـتُ أشـمـسٌ أم مـصـابـيـحُ بِـيـعـةٍ[٤]
بـدَتْ لـك خَـلْفَ الـسَّـجْـفِ[٥] أم أنـتَ حـالـمُ

(١) العناة: جمع عانٍ، وهو الأسير.
(٢) تسرّح: يطلق سراحها.
(٣) تذمّم: خشي الذّم.
(٤) البيعة: الكنيسة وبيت العبادة.
(٥) السجف: السّتر.

فغَضِبتْ الجارية وقالت: أيضرب مثلُ هذا الأسود بي الأمثال! فنظروا إليّ نظرًا منكرًا، ولم يزالوا يُسَكِّنونها، ثم غنّت صوتًا. قال ابن مسجح: فقلت: أحسنتِ والله! فغضِب مولاها وقال: أمثلُ هذا الأسود يُقْدِم على جاريتي! فقال لي الرجل الذي أنزلني عنده: قُمْ فانصرف إلى منزلي، فقد ثَقُلْتَ على القوم. فذهبت أقوم، فتذمّم القوم وقالوا: بل أقِمْ وأحسِنْ أدبك، فأقمتُ، فغنّت، فقلتُ: أخطأتِ والله وأسأتِ! ثم اندفعتُ فغنّيتُ الصوتَ؛ فوثبت الجاريةُ فقالت لمولاها: هذا أبو عثمان سعيدُ بنُ مسجح، فقلت: إي والله، أنا هو، والله لا أُقيم عندكم ووثبت؛ فوثب القرشيون. فقال هذا: تكون عندي، وقال هذا: تكون عندي، وقال هذا: بل عندي. فقلت: والله لا أُقيم إلا عند سيِّدكم! (يعني الرجل الذي أنزله منهم) وسألوه عما أقدمه، فأخبرهم، فقال له صاحبه: إني أسمرُ الليلةَ عند أمير المؤمنين، فهل تُحْسِنُ أن تحدو؟ فقال: لا والله، ولكني أصنع حُداءً. فقال له: إنّ منزلي بحذاء منزل أمير المؤمنين، فإذا وافقتُ منه طِيبَ نفس أرسلتُ إليك. ومضى إلى عبد الملك، فلما رآه طيّبَ النفس أرسل إلى ابن مسجح؛ فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حدا: [من الرجز]

إنك يا مُعاذُ يا ابنَ الفُضَّلِ ... إن زُلْزِل الأقدامُ لم تُزَلْزَلِ
عن دين موسى والكتابِ المُنْزَلِ ... تُقيم[1] أصداغَ القرون المُيَّلِ
* للحق حتى ينتحوا[2] للأعدَلِ *

فقال عبد الملك للقرشيّ: مَنْ هذا؟ فقال: رجل حجازيٌّ قَدِم عليّ. قال: أحضِرْه، فأحضره. ثم قال له: هل تغنِّي غناءَ الرُّكبان؟ فغنّى. فقال له: هل تغنِّي الغناء المتقَنَ؟ قال: نعم. قال: هِيهِ[3]، فغنّى؛ فاهتزّ عبد الملك طربًا، ثم قال: أُقسم بالله إنّ لك في القوم اسمًا كبيرًا، مَنْ أنت؟ ويلك! قال: أنا المظلوم المقبوضُ مالُه المسيَّر عن وطنِهِ «سَعِيدُ بن مِسْجَح»، قبض مالي عاملُ الحجاز ونفاني. فتبسّم عبد الملك ثم قال: قد وَضَح عُذْرُ فِتيان قريش في أن يُنْفِقُوا عليك أموالَهم؛ وأمّنه ووصَله وكتب إلى عامله بالحجاز أن ارْدُدْ إليه مالَه، ولا تتعرّضْ إليه بسوء، والله أعلم.

---

(١) تقيم أصداغ القوم: تضربها حتى تصير مستقيمة.
(٢) ينتحوا: ينتسبوا.
(٣) هيه: اسم فعل، بمعنى هاتِ، وزدني.

ذكر أخبار سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب خاثِر بن يَسَار، مولى لبني ليث. وأصله من فَيْء[١] كسرى، واشتراه عبد الله بنُ جعفر فأعتقه[٢]. وقيل: بل كان على ولائه لبني ليث، ولكنه انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولَزِمه وعُرِف به، وهو أوّل مَنْ عمل العودَ بالمدينة وغنّى به. قال: وكان عبد الله بن عامر بن كُرَيز سبَى إماءً صَنّاجات[٣] فأتى بهنّ المدينة، فكنّ يلعبن في يوم الجمعة ويسمع الناس منهنّ، فأخذ عنهنّ. وقدِم رجل فارسيّ يُعْرَف بنَشِيط، فغنّى، فعَجِب عبد الله بن جعفر منه. فقال له سائب خاثِر: أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسيّ بالعربيّة. ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل في: [من الكامل]

لِمَنِ الديارُ رسومُها[٤] قَفْرُ ... لعبتْ بها الأرواحُ[٥] والقَطْرُ[٦]
وَخَلَا لها من بعد ساكنها ... حِجَجٌ[٧] مَضَيْنَ ثمانٍ أو عَشْرُ
والزعفرانُ[٨] على ترائبها[٩] ... شَرِقٌ به اللَّبّاتُ[١٠] والنحرُ

قال ابن الكلبيّ: وهو أوّل صوت غُنّي به في الإسلام من الغناء العربيّ المتقن الصّنعة. قال: ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطًا بعد ذلك؛ فأخذ عنه سائب خاثر الغناءَ العربيّ، وأخذ عنه ابن سُرَيْج وجميلةُ ومَعْبَدُ وعَزّةُ المَيْلاء وغيرهم. وقيل: إنه لم يكن يضرب بالعود وإنما كان يقرع بالقضيبِ ويغنّي مرتجلًا. قال ابن الكلبيّ: وكان سائب تاجرًا موسِرًا يبيع الطعامَ بالمدينة، وكان تحته أربع نسوة. وكان انقطاعه إلى عبد الله بن جعفر، وهو مع ذلك يُخالط سَرواتِ[١١] الناس وأشرافَهم لظَرْفه وحلاوته وحُسْن صوته. وكان قد آلى على نفسه ألّا يغنّي أحدًا سوى عبد الله بن جعفر إلّا أن يكون خليفةً أو وليَّ عهد أو

(١) الفيء: الغنيمة في الحرب، حرب الجهاد. وكسرى: ملك الفرس.
(٢) أعتقه: أطلق سراحه.
(٣) الصناجات: اللاعبات بالصنج، الآلة الموسيقية من النحاس، وهي عبارة عن صفيحتين يضربان ببعضهما البعض.
(٤) رسومها: آثارها.
(٥) الأرواح: الرياح.
(٦) القطر: الأمطار.
(٧) الحجج: السنون.
(٨) الزعفران: نبت أصفر طيّب الرائحة.
(٩) الترائب: جمع تريبة، وهي أعلى الصدر.
(١٠) اللبات: مواضع القلادة من النحور، والمفرد لبّة.
(١١) سروات الناس: أعيانهم.

ابن خليفة؛ فكان على ذلك إلى أن قُتل، على ما نذكره. وأخذ عنه مَعْبَد غناءً كثيرًا. قال: وسمع معاوية غناء سائب خاثر مرارًا، فالمرّة الأولى لمّا وَفد عبد الله بن جعفر إلى معاويةَ وهو معه، فسأل عنه معاوية، فأخبره عبد الله خبره واستأذنه في دخوله عليه، فأذِن له. فلما دخل قام على الباب ثم رفَع صوته فغنّى:

* لمن الديارُ رسومُها قَفْرُ *

الأبيات.

فالتفت معاوية إلى عبد الله وقال: أشهد لقد حسّنه. وقضى معاوية حوائجه وأحسن إليه ووصله. وقيل: أشرف معاويةُ ليلةً على منزل يَزيدَ، فسمع صوتًا أعجبه، واستخفّه السماعُ فاستمع حتى ملّ؛ ثم دعا بكرسيّ فجلس عليه واشتهى الاستزادةَ، فاستمع بقيّة ليلته. فلمّا أصبح غدا عليه يزيدُ؛ فقال: يا بنيّ، مَنْ كان جليسَك البارحةَ؟ قال: أيّ جليس يا أمير المؤمنين؟ واستعجم عليه. فقال: عَرِّفني به فإنه لم يخفَ عليّ شيء من أمرك، قال: هو سائب خاثر. قال معاوية: فأكْثِرْ له يا بنيّ من برِّك وصِلتك، فما رأيتُ بمجالسته بأسًا.

قال ابن الكلبيّ: وقَدِم معاويةُ المدينةَ في بعض ما كان يَقْدَمُ، فأمر حاجبَه بالإذن للنّاس؛ فخرج ثم رجع فقال: ما بالبابِ أحد. فقال معاوية: وأين الناس؟ قال: عند عبدِ الله بن جعفر. فركب معاوية بغلتَه ثم توجّه إليهم. فلما جلس قال بعضُ القرشيّين لسائب خاثر: مِطْرَفِي[١] هذا لك إن اندفعتَ تغنّي (وكان المطرف من خزّ)؛ فقام بين السِّمَاطين[٢] وغنّى، فقال: [من الطويل]

لنا الجَفَناتُ[٣] الغُرُّ[٤] يلمعن بالضُّحى[٥]
وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا[٦]

فسمع منه معاوية وطَرِب وأصغى إليه حتى سكت وهو مُستحسِن ذلك، ثم انصرف، وأخذ سائب خاثر المِطْرَف.

---

(١) المطرف: الرداء من حرير، وهو معلم، ذو أعلام.
(٢) السماطان: الصفّان.
(٣) الجفنات: الصُّحاف.
(٤) الغرّ: البيض.
(٥) الضحى: ما بين الصبح والظهر.
(٦) هذا البيت لحسان بن ثابت الأنصاري.

وكان مقتلُ سائب خاثر بالمدينة يوم الحَرَّة[١]، قال: وكان يخشى على نفسه من أهلِ الشأم، فخرج إليهم وجعل يقول: أنا مغنٍّ، ومن حالي ومن قصّتي كَيْتَ وكَيْتَ، وقد خدمتُ أمير المؤمنين يزيد وأباه قبله. فقالوا له: غنِّ لنا، ففعل. فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم ضربه بالسيف فقتله. وبلغ يزيد خَبرُه ومرّ به اسمه في أسماء من قُتِل فلم يعرفه، وقال: من سائب خاثر؟ فعُرِّف به، فقال: ويله ما له وما لنا! ألم نُحْسِن إليه ونَصِله ونخلطه بأنفسنا! فما الذي حمله على عداوتنا! لا جَرَم أنّ بَغْيَه علينا صَرَعه. وقيل: إنه لمّا بلغه قتله، قال: إنا لله! أوَ بلغ القتلُ إلى سائب خاثر وطبقته! ما أرى أنه بقي بالمدينة أحد، وقال: قبّحكم الله يا أهلَ الشام! تجدهم وجدوه في حائط أو حديقة مستترًا فقتلوه. وقد قيل: إنه تقدّم يوم الحَرّة وقاتل حتى قُتِلَ، والله أعلم.

ذكر أخبار طُوَيس

هو عيسى بن عبدِ الله، وكنيتُه أبو عبد المنعم، وغيّرها المخنَّثون فقالوا: أبو عبد النعيم. وطُوَيْس لقبٌ غلب عليه، وقيل: اسمه طاوُس، مولى بني مخزوم. وكان أيضًا يلقَّب بالذائب؛ لأنه غنّى: [من مجزوء الرمل]

قد براني[٢] الحبُّ حتى … كِدتُ من وجدي أذوبُ

وهذا أوّل غناء غنّاه وهَزَجٍ هَزَجه. وقد ضُرب المثل به في الشؤم فقالوا: «أشأم من طُوَيْس»، لأنه وُلد يومَ ماتَ رسول الله ﷺ، وفُطِم يوم مات أبو بكر رضي الله عنه، وخُتِن يوم مات عمرُ رضي الله عنه، وتزوّج يوم قُتِل عثمانُ، ووُلِد له يوم مات عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه. وكان مخنّثًا أحولَ طويلًا؛ وقيل: إنه وُلد ذاهبَ العين اليمنى. قالوا: وكانت أمّه تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم[٣]. وطُوَيْس أوّل من صَنع الهَزَج والرمَل في الإسلام، وكان الناس يضربون به المثل فيقولون: «أهْزَج من طُوَيْس». وكان لا يضرب بالعود وإنما ينقُر بالدُّفّ، وكان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها.

---

(١) يوم الحرّة: معركة انتصر فيها مسلم بن عقبة قائد جيش يزيد بن معاوية على أهل المدينة، ثم أباح المدينة للنهب والتدمير، كان ذلك سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م.

(٢) براني: أضعفني وأهزلني.

(٣) النمائم: جمع نميمة، وهي السعي بين الناس بالكذب والافتراء والبهتان.

حكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى المدائنيّ قال: قدِم ابنُ سُريج المدينةَ، فجلس يومًا في جماعة وهم يقولون له: أنتَ واللهِ أحسنُ الناس غناءً، إذ مرّ بهم طُوَيْس فسمعهم وما يقولون، فاستلّ دُفّه من حِضْنه ونَقره وغنّى؛ فلما سمعه ابن سُرَيْج قال: هذا والله أحسنُ غناءً لا أنا. وقال المدائني: قال مسلمة بن محارب: حدّثني رجل من أصحابنا قال: خرجنا في سفر ومعنا رجلٌ من أصحابنا فانتهينا إلى وادٍ، فدعونا بالغداء، فمدّ الرجل يدَه إلى الطعام فلم يَقْدِر عليه، وكان قبل ذلك يأكل معنا؛ فخرجنا نسأل عن حاله فنلقى رجلًا طويلًا أحولَ مضطربَ الخَلْق في زِيّ الأعراب؛ فقال لنا: ما لكم؟ فأنكرنا سؤاله لنا؛ فأخبرناه خبر الرجل فقال: ما اسمُ صاحبكم؟ فقلنا: أُسَيْد؛ فقال: هذا واد قد أُخِذت سِباعُه فارتحلوا، فلو قد جاوزتم الوادي استمرّ صاحبكم وأسِد وأكَل. قلنا في أنفسنا: هو من الجنّ، ودخلتنا فَزْعة. ففهم ذلك وقال: لِيُفْرِخْ رَوْعُكم[1] فأنا طُوَيْس. فقال له رجل منّا: مرحبًا بك أبا عبد النعيم، ما هذا الزّيّ؟! فقال: دعاني بعض أوِدّائي[2] من الأعراب فخرجتُ إليهم وأحببتُ أن أتخطّى الأحياء فلا يُنْكروني. فسأله رجل منّا أن يغنّينا، فاندفع ونقَر بدُفٍّ كان معه مربَّع، فلقد خُيّل لي أنّ الوادي ينطق معه حسنًا، وتَعَجَّبنا من علمه وما أخبرنا به من أمر صاحبنا.

قال المدائنيّ: وكان طُوَيْس وَلِعًا بالشعر الذي قالته الأَوْس والخَزْرَج[3] في حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء؛ فقلّ مجلسٌ اجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى فيه طُوَيْس إلّا وقَع فيه شيء. فنُهِيَ عن ذلك، فقال: والله لا تركتُ الغناءَ بشعر الأنصار حتى يُوَسِّدوني التراب[4]؛ وذلك لكثرة تولُّع القوم به، وكان يُبْدِي السرائر[5] ويُخْرِج الضغائن[6]؛ وغناؤه يُستحسنُ ولا يُصْبَر عن حديثه.

وحكى الأصبهانيّ عفا الله عنه قال: كان بالمدينة مخنّثٌ يقال له النُّغاشِي، فقيل لمروانَ بن الحَكَم: إنه لا يقرأ من كتاب الله تعالى شيئًا. فبعث إليه فاستقرأه أُمَّ

(١) أفرخ روعه: اطمأنّ وأمن. (٢) أودّائي: خلصائي.
(٣) الأوس والخزرج: قبيلتان جنوبيتان عاشتا معًا في يثرب، في الجاهلية، أو المدينة في الإسلام. وقعت بينهما عدة حروب وأيام، أشهرها يوم بعاث.
(٤) يوسدوني التراب: يدفنونني، ويجعلون التراب وسادةً لي.
(٥) السرائر: جمع سريرة، وهي مستودع السرّ، والأسرار التي تكتم.
(٦) الضغائن: جمع ضغينة، وهي الحقد والكراهية.

الكتاب[١]؛ فقال: والله ما معي بناتُها، أوَ ما أقرأ البناتِ فكيف أقرأ أُمُّهنّ! فقال: أتهزأ لا أُمّ لك! فأمر به فقُتِل ببُطْحان[٢]، وقال: من جاءني بمخنَّث فله عشرةُ دنانير. فأُتِي طُوَيْس وهو في بني الحارث بن الخزرج فأُخْبِر بمقالة مروان؛ فقال: أمَا فَضّلني الأميرُ عليهم بفضلٍ حتى جعل فيّ وفيهم شيئًا واحدًا! ثم خرج حتى نزل السويداء (على ليلتين من المدينة في طريق الشام) فنزلها، فلم يزلْ بها بقيّةَ عمره. وعُمِّر حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك. ثم ساق الأصفهانيّ هذه القصةَ في موضع آخر بسند آخر، قال: خرج يحيىٰ بن الحَكَم وهو أمير على المدينة، فبَصُر بشخص في السَّبَخةِ[٣] مما يلي مسجد الأحزاب؛ فلما نظر إلى يحيىٰ جلس، فاستراب به، فوجّه إليه أعوانه[٤]، فأُتِي به كأنه امرأة في ثياب مُصَبَّغة مصقولة وهو ممتشط مُختضِب. فقال له أعوانه: هذا ابنُ نُغاشٍ المخنّث. فقال: ما أحسبك تقرأ من كتاب الله تعالى شيئًا! اِقرأ أُمّ القرآن؛ فقال: لو عَرفتُ أُمّهنّ عرفتُ البناتِ. فأمَر به فضُرِبَتْ عنقُه. وساق نحو ما تقدّم، إلّا أنه قال: جعل في كل مخنّث ثلاثمائة درهم.

وحكى أيضًا بسند رفعه إلى صالح بن كَيْسان وغيره: أنّ أبَان بن عثمان لمّا أمّره عبد الملك على الحجاز أقبل، حتى إذا دنا من المدينة تلقّاه أهلها وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طُوَيْس. فلما رآه سلّم عليه، ثم قال له: أيّها الأمير، إني كنتُ قد أعطيتُ الله تعالى عهدًا إن رأيتُك أميرًا لأخضِبَنّ[٥] يدي إلى المِرْفَقين ثم أزْدُو[٦] بالدّف بين يديك. ثم أبدَى عن دفّه وتغنّى بشعر ذي جَدَنٍ الحِمْيريّ: [من مجزوء الكامل]

مـا بـالُ أهـلك يـا رَبَـابُ خُـزْرًا[٧] كـأنّـهـم غِـضـابُ

فطرِب أبَانُ حتى كاد يطير، ثم جعل يقول: حَسْبُك يا طاوُس! ـ ولم يقل له طويس لنبله في عينه ـ ثم قال له: اجلسْ، فجلس. فقال له أبَان: قد زعموا أنك كافر. فقال له: جُعِلتُ فِداءك! والله إني لأشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأن محمّدًا رسول الله ﷺ، وأصلّي الخمسَ وأصوم رمضانَ وأحجُّ البيتَ. قال: أفأنت أكبرُ أم عمرو بنُ عثمان؟ ـ وكان عمرو أخا أبان لأبيه وأمّه ـ فقال طويس: جُعلت فداءك! أنا

(١) أم الكتاب: سورة الفاتحة.
(٢) بطحان: اسم موضع بعينه، قريب من المدينة المنوّرة.
(٣) السبخة: الأرض ذات النزّ والملح.
(٤) أعوانه: أنصاره وجلاوزته.
(٥) لأخضبنّ يدي: لأصبغنّها بالخضاب، أي الحنّاء.
(٦) أزدو: أضرب.
(٧) خزرًا: غضابًا.

والله مع جلائل نساء قومي أُمسِكُ بذيولهنّ يوم زُفّت أمُّك المباركةُ إلى أبيكَ الطيّب. فاستحيا أبان ورمى بطَرْفِه إلى الأرض.

ذكر أخبار عبد الله بن سريج

هو أبو يحيىٰ عبد الله بن سُرَيْج، مولى بني نَوْفَل بن عبد مَنَاف. وقال ابن الكلبيّ: إنه مولى لبني الحارث بن عبد المطّلب. وقيل: إنه مولى لبني ليث، ومنزله بمكّة. وقال الحسن بن عُتْبة اللّهبِيّ: إنه مولى لبني عائذِ بن عبدِ الله بن عمرو بن مخزوم. وحكى أبو الفرج الأصبهانيّ أنه كان آدَمَ(١) أحمرَ ظاهرَ الدّم سُنَاطًا(٢)، في عينيه قَبَلٌ(٣)، وبلغ خمسًا وثمانين سنة، وكان منقطعًا إلى عبدِ الله بن جعفر.

ونُقل أيضًا عن ابن الكلبيّ أنه كان مخنثًا أحولَ أعْمش(٤)، يُلقَّبُ وجهَ الباب. وكان لا يغنّي إلا متنقِّبًا(٥)، مُسْبِلَ القِنَاع على وجهه. قال: وكان أحسن الناس غناءً، وكان يغنّي مُرْتجلًا ويُوقِع بقضيب، وقيل: كان يضرب بالعود. وغنّى في زمن عثمانَ بنِ عفّان، ومات في خلافة هشام بنِ عبد الملك. وقيل: كان اسمه عُبَيْد بن سُريج من أهل مكّة. وقال ابن جُرَيْج: كان عُبَيْد بن سُرَيْج مولى آل خالد بن أَسِيد، وقيل: كان أبوه تركيًا. وقيل: كان عُودُه على صنعة عيدان الفُرْس، وهو أوّل مَنْ ضرب به على الغناء العربيّ بمكّة؛ وذلك أنّه رآه مع العجم الذين قدِم بهم ابنُ الزُّبير لبناء الكعبة، فأعجَبَ أهل مكّة غناؤهم. فقال ابنُ سُريج: أنا أضرب به على غنائي، فضرب به فكان أحذقَ الناس. وأخذ الغناء عن سَعِيد بن مِسْجَح، وقد تقدّم ذكرُ ذلك. وأوّلُ ما اشتهرَ بالغناء في خِتانِ ابنِ مولاه عبدِ الله بن عبد الرحمٰن بن أبي حُسَيْن. قال ابن سُرَيْج لأمّ الغلام: خَفّضي عليك بعضَ المغرَم والكُلْفة، فوالله لأُلْهِيَنّ نساءكِ حتى لا يدرين ما جئتِ به. وكان مَعْبَد إذا أعجبه غناءُ نفسِه قال: أنا اليوم سُرَيْجيّ.

ومن أخباره أيضًا أن عطاء بن أبي رباح لَقِيه بذي طُوًى(٦) وعليه ثياب مُصَبَّغةٌ وفي يده جَرادةٌ مشدودةُ الرِّجلِ بخيطٍ يُطِيرها ويَجذِبُها كلما تخلّفت؛ فقال له عطاء: يا فتّانُ، ألَا تكُفّ عما أنت فيه! كفى الله الناسَ مؤونتك. فقال له ابن سُرَيْج: وما على

---

(١) آدم: أسود. (٢) سناطًا: كوسجًا، لا لحية له.
(٣) القبل في العين: الحول.
(٤) أعمش: في عينيه عمش، وهو ضعف بصرهما مع سيلان دمعهما في أكثر الأوقات.
(٥) منتقبًا: لابسًا نقابًا على وجه. (٦) ذي طوى: اسم موضع بعينه.

الناس من تلويني ثيابي ولَعِبي بجرادتي! فقال: تُغَنِّيهم أغانيَك الخبيثة. فقال له ابن سُرَيْج: بحقّ من تَبِعته من أصحاب رسول الله ﷺ، وبحقّ رسول الله ﷺ إلّا سمعتَ منّي بيتًا من الشعر، فإن سمعتَ منكرًا أمرتَني بالإمساك عما أنا عليه، وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البَنِيّةِ[1] إن أمرتَني بعد استماعك منّي بالإمساك عمّا أنا عليه لأفعلنّ. فأطمع ذلك عطاءً في ابنِ سُرَيْجٍ وقال له: قل، فاندفع يغنّي بشعر جرير: [من الكامل]

إنّ الذينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ[2] غادروا وشَلًا[3] بعينكَ لا يزال مَعِينَا[4]

غَيَّضْنَ[5] مِنْ عَبَراتِهِنّ[6] وقلن لي ماذا لَقِيتَ من الهوى ولَقِينا

قال: فلمّا سمعه عطاءٌ اضطرب اضطرابًا شديدًا وداخلته أرْيَحِيّةٌ[7]، فحلف ألّا يكلِّم أحدًا بقيّةَ يومِه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كلُّ مَن يأتيه يسألُ عن حلالٍ أو حرامٍ أو خبرٍ لا يُجيبُه إلا بأن يضربَ إحدى يديه على الأخرى ويُنشِد هذا الشعرَ حتى صلّى المغربَ، ولم يُعاوِد ابنَ سريج بعدَها ولا تعرّض له.

وحُكِيَ عنه أيضًا أنّ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ حجّ في عامٍ من الأعوام ومعه ابنُ سُرَيْج، فلما رَمَوْا الجمراتِ تقدّما الحاجَّ إلى كَثِيبٍ على خمسة أميالٍ من مكّةَ مشرفٍ على طريق المدينة وطريق الشام والعراق، وهو كثِيب شامخ مُفْرَد عن الكُثْبان، فصارا إليه فأكلا وشربا. فلما انتشَيا أخذ ابن سريج الدفَّ فنقَره وجعل يتغنّى وهم ينظرون إلى الحاجّ، فلما أمسيا رفع ابن سُريج صوتَه وتغنّى بشعر لعمرَ بنِ أبي ربيعة، فسمعه الرُّكبانُ، فجعلوا يَصيحون به: يا صاحب الصوت، أمَا تتّقي الله! قد حبسْتَ الناسَ عن مناسِكهم، فيسكتُ قليلًا حتى إذا مَضَوْا رفع صوتَه فيقف آخرون؛ إلى أن وقف عليه في الليل رجلٌ حسنُ الهيئة على فرس عتيقٍ حتى وقف بأصل الكَثِيب، ثم نادى: يا صاحبَ الصوت، أيسهُل عليك أن تردّدَ شيئًا مما سمعُه منك؟ قال: نعم ونِعمة عينٍ، فأيّها تريد؟ فاقترح صوتًا فغنّاه. ثم قال له ابن سريج: ازْدَدْ إن شئتَ، فاقترح صوتًا آخر فغنّاه، فقال له: والثالث ولا أستزيدك، فغنّاه الثالث. وقال له ابن سريج:

---

(١) البنيّة: المراد بها الكعبة.
(٢) لبّك: عقلك.
(٣) الوشل: ماء العين.
(٤) معينًا: غزيرًا.
(٥) غيّضن: قلّلن.
(٦) عبراتهنّ: دموعهنّ.
(٧) الأريحيّة: الارتياح إلى الندى، والنشاط إلى المعروف.

أبَقِيتْ لك حاجة؟ قال: نعم، تنزِل لأُخاطبك؛ فنزل إليه فإذا هو يزيد بنُ عبد الملكِ[١]، فأعطاه حُلّته وخاتمه وقال: خذهما ولا تُخْدَع فيهما فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار؛ فعاد ابن سريج بهما فأعطاهما لعمرَ بنِ أبي ربيعة وقال: هما بك أشبهُ منهما بي، فأخذهما وعوّضه عنهما ثلاثمائة دينار، وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناسُ وجعلوا يتعجّبون ويسألون عمرَ عنهما، فيُخبرهم أن يزيدَ بنَ عبد الملك كساه ذلك. وقيل: إن عمر بن عبد العزيز مرّ به فسمِع ابنَ سريج وهو يغنّي، فقال: لله درُّ هذا الصوتِ لو كان بالقرآن!.

قال إبراهيم بن المهديّ: كان ابن سريج رجلًا عاقلًا أديبًا، وكان يعاشر الناسَ بما يشتهون فلا يغنّيهم بما مُدِح به أعداؤهم ولا بما فيه عارٌ عليهم أو غَضاضة[٢] منهم.

ومن أخباره ما حكاه أبو الفرج الأصبهاني بإسناده، قال: كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامل مكّة أن أَشْخِصْ إليّ ابنَ سريج، فأشخصَه إليه. فلما قدِم مكث أيامًا لا يدعوه ولا يلتفت إليه، ثم ذكره فاستحضره، فدخل عليه وسلّم فأذِن له بالجلوس واستدناه حتى كان قريبًا منه؛ فقال: وَيْحك يا عُبَيْد! لقد بلغني عنك ما حملني على الوِفادة بك من كثرة أدبك وجودة اختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجلسك. قال: جُعِلت فِداءك يا أمير المؤمنين! «تسمع بالمُعَيْدِي لا أن تراه»[٣]، قال الوليد: إني لأرجو ألا تكونَ أنتَ ذاك، ثم قال: هاتِ ما عندك؛ فاندفع يغنّي بشعر الأحوص[٤]: [من الطويل]

وإنّي إذا حَلّت ببَيْشٍ[٥] مقيمة وحَلّ بوَجٍّ[٦] جالسًا أو تَتَهما[٧]

---

(١) يزيد بن عبد الملك: الخليفة الأموي التاسع. خلف عمر بن عبد العزيز. قضى على ثورة يزيد بن المهلّب عامله في خراسان. مال إلى اللّهو، ومات سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٧٧.

(٢) الغضاضة: العيب.

(٣) مثل مشهور، مفاده أو معناه أن الخبر قد يكون خيرًا من مرآه. وأوّل من قال هذا المثل المنذر بن ماء السماء، وكان يسمع بمشقّة بن ضمرة المعيدي ويعجبه ما يبلغه عنه. فلما رآه وكان كريه المنظر، قال المثل السالف الذكر. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ١/ ١٢٩.

(٤) الأحوص، لقبه، واسمه عبد الله، شاعر من أهل المدينة في زمن بني أُميّة. اشتهر بالهجاء والغزل وكان ماجنًا فاسقًا فناله الجلد والتشهير. مات سنة ١٠٤ هـ/ ٧٢٣ م.

(٥) بيش: اسم موضع بعينه بين اليمن وعسير.

(٦) وجّ: اسم واد بعينه. (٧) تتهمّ: قصد أو أقام في تُهامة.

يمانِيّةٌ شَطّت وأصبح نفعُها رجاءً وظنًّا بالمَغِيب مرجَّما[١]
أُحِبّ دنوَّ الدّار منها وقد أبى بها صَدْعُ[٢] شَعْبِ الدار إلّا تَثَلُّمَا[٣]
بكاها وما يَدرِي سوى الظنّ ما بكى أحيًّا يُبَكّي أم ترابًا وأَعْظُما
فدَعْها وأخلِفْ للخليفة مِدْحةً تُزِلْ عنك بُؤْسَي أو تفيدُك مَغْنما
فإن بكفَّيْه مفاتيح رحمةٍ وغيثَ حيًا[٤] يحيا به الناسُ مُرْهِمَا[٥]
إمامٌ أتاه الملكُ عفوًا ولم يُثب على ملكه مالًا حرامًا ولا دَما
تخيَّره ربُّ العباد لخَلْقه وليًّا وكان الله بالناس أعلما
ينال الغِنى والعزَّ مَنْ نال ودَّه ويَرْهب موتًا عاجلًا من تَشَأما

فقال الوليد: أحسنتَ والله وأحسن الأحوصُ. ثم قال: يا عُبَيْد هِيهِ! فغنّاه بشعر عَدِي بن الرِّقاع العامِليّ[٦] يمدح الوليد: [من البسيط]

طار الكَرَى[٧] وألَمّ[٨] الهَمُّ فاكتَنَعا[٩] وحِيل بيني وبين النوم فامتنعا
كان الشبابُ قِناعًا أستكِنُّ به[١٠] وأستظِلُّ زمانًا ثُمّت[١١] انقشعا[١٢]
واستبدل الرأسُ شيبًا بعد داجيةٍ[١٣] فَيْنانةٍ[١٤] ما ترى في صُدْغِها[١٥] نَزعا[١٦]
فإن تكن مَيْعةٌ[١٧] من باطل ذهبت وأعقب الله بعد الصَّبْوة[١٨] الوَرَعا[١٩]
فقد أبِيتُ أُراعِي الخَوْدَ[٢٠] رابيةً على الوسائد مسرورًا بها ولِعا
برّاقةَ الثغر يشفِي القلبَ لذّتُها إذا مُقَبِّلها في ريقها كَرَعا[٢١]

---

(١) مرجّمًا: مظنونًا.
(٢) الصدع: الانفطار والتكسّر.
(٣) التثلم: التكسر.
(٤) الحيا: المطر.
(٥) المرهم: المطر الذي هو من الرهام، أي الأمطار الضعيفة المتواصلة.
(٦) عدي بن الرقاع: شاعر أموي سبق التعريف به.
(٧) الكرى: النوم.
(٨) ألَمّ: حضر.
(٩) اكتنع: دنا وحضر.
(١٠) أستكنّ به: أستتر به.
(١١) ثُمّت: لغة في ثمّ!.
(١٢) انقشع: زال.
(١٣) الداجية: صفة لخصلات الشعر السوداء الكثيفة.
(١٤) الفينانة: الكثيرة الأفنان، صفة ثانية لها.
(١٥) الصدغ: جانب الرأس.
(١٦) النزع: انحسار الشعر في مقدم الرأس ومن الجانبين.
(١٧) الميعة: أول الشباب أو الصّبا.
(١٨) الصبوة: الجهل والمَيْل إلى الهوى.
(١٩) الورع: التقوى.
(٢٠) الخود: المرأة الناعمة الشابّة.
(٢١) كرع: شرب.

كالأُقْحُوانِ بضاحِي الروض صبّحه غيثٌ أَرَشَّ[١] بتَنْضاحٍ[٢] وما نقعا[٣]
صلّى الذي الصلواتُ الطيّبات له والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعا
على الذي سبق الأقوام ضاحيةً بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمنُ أمّته على يديه وكانوا قبله شِيَعا
عُذْنا بذي العرش أن نحيا ونَفْقِدَه وأن نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له مُلْك أعان عليه الله فارتفعا
لا يمنع الله ما أعطى الذين هُمُ له عباد ولا يُعْطَوْن ما منعا

فقال الوليد: صدقتَ يا عُبَيْد، أنى لك هذا؟ قال: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧]. قال الوليد: لو غيرَ هذا قلتَ لأحسنتُ أدبك. قال ابن سريج: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤]، قال الوليد: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: الآية ١]. قال ابن سريج: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: الآية ٤٠]. قال الوليد: لعلمك والله أكثر وأعجبُ إليّ من غنائك! غنّني؛ فغنّاه بشعر عدِيّ بن الرّقاع يمدح الوليد، فقال: [من الكامل]

عرَف الدّيارَ توهّمًا فاعتادَها من بعد ما شَمِل البِلى[٤] أبلادَها
إلا رواسيَ[٥] كلهنّ قد اصطلى[٦] جمرًا وأشعل أهلُها إيقادَها
كانت رواحلَ للقدور فعُرِّيت منهنّ واستلب الزمانُ رمادَها
وتنكّرتْ كلَّ التنكُّر بعدنا والأرض تعرف بعلها[٧] وجمادِها[٨]
ولَرُبَّ واضحةِ العوارض[٩] حُرّة كالرِّيم[١٠] قد ضربت به أوتادها
تصطاد بهجتُها المعلَّل[١١] بالصبا عَرَضًا فتُقصِده[١٢] ولن يَصطادها
كالظّبية البكر الفريدة تَرْتعي من أرضها قُفّاتِها[١٣] وعِهادَها[١٤]

---

(١) أرشّ: أمطر مطرًا يشبه الرشاش أو الرذاذ.
(٢) التنضاح: المصدر على وزن (تفعال) من نضح، وهو النضح، والرّشح.
(٣) نقع: سكَن.
(٤) البلى: الفساد والخراب والتلف.
(٥) الرواسي: صفة للجبال.
(٦) اصطلى: تدفأ، وطلب صلاء النار.
(٧) البعل من الأرض، ما لم يصبها المطر إلّا في مواسم معيّنة.
(٨) الجامدة: ما لم يصبها المطر.
(٩) واضحة العوارض: الجميلة والحسنة اللون.
(١٠) الريم: الغزال.
(١١) المعلل: المشغول.
(١٢) تقصده: تقتله وتصيبه بسهامها.
(١٣) القفات: ضرب من النبت.
(١٤) العهاد: المطر الذي ينبت الزرع بعد يباس.

خضبت لها عقد البِراق[١] جبينها ... من عَرْكها عَلَجانها وعَرَادها[٢]
كالزَّيْن في وجه العروس تبذّلَت ... بعد الحياء فلاعبتْ أرْآدها
تُزجي[٣] أغنَّ[٤] كأن إبرةَ رَوْقه[٥] ... قلمٌ أصاب من الدّواة مِدادها
رَكِبتْ به من عالج[٦] متحيِّرًا ... قفرًا تُريِّثُ[٧] وحشُه أولادَها
فترى مَحانِيَه[٨] التي تَسِقُ[٩] الثرى ... والهَبْرُ[١٠] يُونِقُ[١١] نبتُها روّادها
بانت سعاد وأخلفت ميعادَها ... وتباعَدَتْ عنا لِتمنع زادَها
إني إذا ما لم تَصِلْني خُلّتي[١٢] ... وتباعَدَت عنّي اغتفرتُ بِعادها
إمّا تَرَيْ شَيْبي تَقشّع لِمّتي[١٣] ... حتى علا وضَحٌ[١٤] يلوح سوادَها
فلقد ثنيتُ يدَ الفتاة وِسادةً ... لي جاعلًا يُسرى يَدَيّ وِسادَها
وأُصاحِبُ الجيشَ العَرَمْرم[١٥] فارسًا ... في الخيل أُشْهِدُ كَرّها وطِرادها
وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينهما ... حتى أقوِّمَ ميلَها وسِنادَها[١٦]
نَظَرَ المثقِّفِ[١٧] في كُعوب قَناتِه[١٨] ... حتى يُقِيمَ ثِقافُه مُنآدَها[١٩]
فسترتُ عيبَ معيشتي بتكرّمٍ ... وأتيتُ في سَعَةِ النعيم سِدادَها[٢٠]
وعلِمتُ حتى ما أُسائل واحدًا ... عن عليم واحدةٍ لكي أزدادَها
صلّى الإلهُ على امرىءٍ ودّعتُه ... وأتمّ نعمَتَه عليه وَزادَها
وإذا الربيعُ تتابعت أنواؤه[٢١] ... فسقى خُناصِرةَ الأحَصِّ[٢٢] فجادَها[٢٣]

---

(١) البراق: جمع برقة، وهي الأرض الغليظة. (٢) العلجان والعراد: ضربان من النبت.
(٣) تزجي: ترسل. (٤) الأغنّ: ولد الظبية فيه غنّة في الصوت.
(٥) الروق: القرن. وإبرة الروق: ما نبت واستطال حديثًا من القرن.
(٦) عالج: اسم موضع بعينه. (٧) تريّث: تبطّيء.
(٨) محانيه: ثناياه. (٩) تسق: تجمع.
(١٠) الهبر: ما اطمأنّ من الأرض. (١١) يونق: يزيّن.
(١٢) الخلّة: الرفيقة والصديقة. (١٣) اللمة: الشعر في أوّل الرأس.
(١٤) الوضح: البياض. (١٥) العرمرم: الكثير العدد.
(١٦) السناد: عيب شعري يصيب القافية. (١٧) المثقف: من يقوم الرماح.
(١٨) كعوب القناة: المفاصل فيها. والقناة: قناة الرمح.
(١٩) المنآد: المعوجّ. (٢٠) السداد: ما يسد الخلّة، أي الفقر والحاجة.
(٢١) الأنواء: الأمطار التي تتحكّم بها الأنواء، وهي تستند إلى مراعاة سير عدد من الكواكب والنجوم.
(٢٢) الأحص: اسم موضع بعينه، ومثله خناصرة. (٢٣) جادها: أصابها بالمطر وأغاثها.

نـزل الـولـيـد بـهـا فـكـان لأهـلـهـا ... غـيـثًـا أغـاث أنـيـسَـهـا وبـلادَهـا
أوَلَا تـــرى أن الـــبـــريّـــة كـــلّهـــا ... ألـقَـتْ خزائـمـهـا[1] إلـيـه فـقـادهـا
ولـــقـــد أراد الله إذ ولّاكـــهـــا ... مِـن أمّـةٍ إصـلاحَـهـا ورَشـادَهـا
أعْـمرتَ أرضَ الـمـسـلـمـين فـأقـبـلـت ... وكـفَـفْـتَ عـنـهـا مـن يـرومُ فـسـادَهـا
وأصبـتَ فـي أرض الـعـدوّ مـصـيـبـةً ... عَـمّـت أقـاصـيَ غَـوْرِها ونِـجـادَها[2]
ظَـفَـرًا ونـصـرًا مـا تـنـاول مـثـلَه ... أحـدٌ مـن الـخـلـفـاء كـان أرادهـا
فـإذا نـشـرتَ لـه الـثـنـاءَ وجـدتَـه ... جَـمَـعَ الـمـكـارِمَ طِـرْفَـها وتِـلادَها[3]
غَـلب الـمساميح[4] الـولـيـدُ سَـمَـاحـةً ... وكـفـى قـريـشَ الـمُـعْـضِـلاتِ[5] وسـادَها
تـأتِـيـه أسـلابُ الأعِـزّة عَـنْـوةً[6] ... قَـسْـرًا ويـجـمـع لـلـحـروب عَـتـادَهـا
وإذا رأى نـارَ الـعـدوّ تـضـرّمـت ... سـامَـى جـمـاعـةَ أهـلِـهـا فـاقـتـادَهـا
بِعَرَمْرَمٍ[7] تبدو الرّوابي ذي وَغًى[8] ... كالحرّة[9] احتمل الضُّحَى أطوادَها[10]
أطـفـأتَ نـارًا لـلـحـروب وأوقِـدت ... نـارٌ قَـدَحْـتَ بـراحـتـيـك زِنـادَهـا
فبدَت بصيرتُها لمن يَبغي الهُدى ... وأصـابَ حَـرُّ شـديـدِهـا حُـسّـادَهـا
وإذا غـدا يـومًـا بـنَـفْـحـةِ نـائِـل ... عَـرَضـت لـه الـغـدَ مـثـلُـهـا فـأعـادَهـا
وإذا عَـدتْ[11] خـيـلٌ تُـبـادِرُ غـايـةً ... فـالـسـابـق الـجـالِـي[12] يـقـود جِـيـادَهـا

فأشار الوليدُ إلى بعض الخدم فغطّوْه بالخِلَع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير وبِدَر الدراهم[13]، ثم قال الوليد: يا مولى بني نَوْفَل بن الحارث لقد أُوتيتَ أمرًا جليلًا، فقال ابن سريج: وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا وشرفًا عاليًا

---

(١) الخزائم: جمع خزامة، وهي الحديدة أو ما يوضع في أنف البعير أو الدابّة، ليشدّ به.
(٢) النجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض. والغور بخلافه، والنجاد، أيضًا، حمالة السيف.
(٣) التلاد: المال القديم. والطرف: المال المحدث.
(٤) المساميح: جمع مسمح ومسماح، وهو الشديد السماحة والجود.
(٥) المعضلات: الأمور الصعبة.
(٦) عنوة: قسرًا.
(٧) العرمرم: صفة للجيش الكثير العدد.
(٨) وعى: جليّة.
(٩) الحرّة: الأرض البركانية السوداء.
(١٠) أطوادها: جبالها.
(١١) عَدَت: ركضت.
(١٢) الجالي أو المجلّي: هو الذي يأتي في طليعة الفرسان المتسابقين.
(١٣) بدر الدراهم: أكياسها.

وعزًّا بسط يدك فيه فلم يَقْبِضه عنك ولا يفعل إن شاء الله، فأدام الله لك ما وَلّاك وحفظك فيما استرعاك، فإنك أهل لما أعطاك، ولا ينزِعه منك إذ رآك له مَوْضِعًا. قال: يا نوفليّ، وخَطِيبٌ أيضًا! قال ابن سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلّمت، وبعزّك بيّنت، وكان قد أمر بإحضار الأحوص بن محمد الأنصاريّ وعدِيّ بن الرّقَاع العامِليّ، فلما قَدِما عليه أمر بإنزالهما حيث ابن سريج فأنزِلا منزلًا بجوار منزله. فقالا: والله لَقربُ أمير المؤمنين كان أحبَّ إلينا من قربك يا مولى بني نوفل، وإن في قربك لما يَلذّنا ويشغَلُنا عن كثير مما نريد. فقال لهما ابن سريج: أو قِلّة شكر! فقال له عديّ: كأنك يا ابنَ اللَّخناء[1] تَمُنّ علينا، عليّ وعليّ إن جمعنا وإياك سقف بيت أو صحنُ دار عند أمير المؤمنين، فقال الأحوص: أوَ لا تحتمل لأبي يحيىٰ الزّلّة والهفوة، وكفّارةُ يمينٍ خيرٌ من لَجاج في غير منفعة. فتحوّل عديّ وبقي الأحوصُ. وبلغ الوليدَ ما جرى بينهم، فدعا ابن سريج فأدخله بيتًا وأرخى دونه سِترًا ثم أمره إذا فرغ الأحوصُ وعديٌّ من كلمتيهما أن يغنّي، فلما دخلا وأنشداه مدائحَ لهما فيه، رفع ابنُ سريج صوتَه من حيث لا يَرَوْنه وضرب بعود. فقال عَدِيّ: يا أمير المؤمنين، أتأذَن لي أن أتكلّم؟ قال: قل يا عامِليّ، قال: مثلُ هذا عند أمير المؤمنين ويبعث إلى ابن سريج يتخطّى رقابَ قريشٍ والعرب من تهامة إلى الشام ترفعه أرضٌ وتَخْفِضه أخرى ليسمع غناءَه! قال: ويحك يا عديّ! أوَ لا تعرف هذا الصوتَ؟ قال: لا والله ما سمعتُه قط ولا سمعتُ مثلَه، ولولا أنّه في مجلس أمير المؤمنين لقُلْت طائفةٌ من الجنّ يتغنَّوْن، فقال: اُخرج عليهم، فخرج فإذا ابن سريج. فقال عديّ: حَقٌّ لهذا أن يُحمل! حقٌّ لهذا أن يحمل! ثلاثًا، ثم أمر لهما بمثل ما أمر به لابن سريج وارتحل القومُ.

وروى أبو الفرج أيضًا عن سهل بن بركة وكان يحمل عودَ ابن سريج، قال:

كان على مكّة نافعُ بنُ عَلْقمة الكِنانيّ فشدّد في الغناء والمغنّين والنبيذِ ونادَى في المخنّثين، فخرج فِتيةٌ من قريش إلى بطن مُحَسِّر[2] وبعثوا برسول لهم، فجاءهم بروايةٍ من شراب الطائف، فلما شربوا وطرِبوا قالوا: لو كان معنا ابنُ سريج تمّ سرورُنا، فقلت: هو عليّ لكم، فقال لي بعضُهم: دونَك هذه البغلة فاركبها وامض إليه، فأتيتُه فأخبرتُه بمكان القوم وطلبهم إيّاه، فقال لي: ويحك! وكيف لي بذلك مع

(١) اللخناء: المنتنة والخسيسة.
(٢) بطن محسّر: اسم موضع بعينه.

شدّة السلطان في الغناء وندائه فيه. فقلت له: أتردّهم؟ قال: لا والله! فكيف لي بالعود؛ فقلت: أنا أخبؤه لك فشأنَك. فركِب وسترتُ العودَ فأردفني، فلما كنّا ببعض الطريق إذا بنافع بن عَلْقمة قد أقبل؛ فقال لي: يا بن بركة، هذا الأمير. فقلت له: لا بأس عليك! أرسِل عِنانَ البغلةِ وامضِ ولا تَخَفْ، ففعل. فلما حاذيناه عرفني ولم يعرف ابنَ سريج، فقال لي: يا ابن بركة، من هذا أمامك؟ قلت: من ينبغي أن يكون! هذا ابنُ سريج، فتبسّم ثم تمثّل: [من الطويل]

فإن تَنْجُ منها يا أبانُ مُسَلَّمًا ... فقد أفْلَت الحجّاجُ خيلَ شبيبِ[1]

ثم مضى ومضينا. فلمّا كنّا قريبًا من القوم نزل إلى شجرة يستريح، فقلتُ له: غنِّني مرتجِلًا؛ فرفع صوته فخيّل إليّ أنّ الشجرة تنطِق معه، فغنّى وقال: [من الكامل]

كيف الثَّواءُ[2] ببطن مكّة بعد ما ... هَمّ الذين تُحِبّ بالإنجاد[3]

أم كيف قلبُك إذ ثَوَيتَ مخمَّرًا ... سَقِمًا خِلافَهمُ وكربُك[4] بادِي

هل أنْت إن ظَعَنَ[5] الأحبّةُ غادِي ... أم قبل ذلك مُدْلِجٌ[6] بسوادِ

قال: فقلت: أحسنتَ والذي فلق[7] الحبّة وبرأ النَّسمة[8]. ولو أن كنانة كلّها سمعتك لاستحسنتك، فكيف بنافع بن علقمة! المغرورُ من غرّه نافع. ثم قلت: زِدْني وإن كان القوم متعلّقة قلوبهم بك؛ فغنّى وتناول عودًا من الشجرة فوقّع به على الشجرة؛ فكان صوتُ الشجرة أحسنَ من خفق بطون الضّأن على العيدان إذا أخذتها عيدان الدِّفْلى[9]، وغنّى: [من الكامل]

لا تجمعِي هَجْرًا عليّ وغُربةً ... فالهجرُ في تَلَفِ المحبّ[10] سريعُ

مَنْ ذا فديتُكِ يستطيع لحبّه ... دَفْعًا إذا اشتملت عليه ضلوعُ

---

(١) شبيب الوارد في هذا البيت هو شبيب بن يزيد الخارجي الشيباني من كبار الثائرين على الأمويين. قاوم الحجاج طويلًا، مات غرقًا في نهر دجيل سنة ٧٧ هـ/ ٦٩٦ م.

(٢) الثواء: الإقامة. (٣) الإنجاد: التوجه إلى نجد.

(٤) الكرب: الغمّ. (٥) ظعن: ارتحل.

(٦) مدلج: داخل في الظلام ومسافر فيه. (٧) فلق: شقّ.

(٨) برأ النسمة: خلقها، وهو الله تعالى. والنسمة: كل كائن حيّ فيه روح.

(٩) الدّفلى: نبت مرّ زهره كالورد الأحمر، وحمله كالخرّوب، يتّخذ للزينة.

(١٠) تلف المحب: هلاكه وفساده.

فقلت: بنفسي أنت والله، من لا يُكَلّ ولا يُمَلّ! والله ما جَهِل مَنْ فَهِمَك، اِركب بنا فَدَتْك نفسي. قال: أمْهِلني كما أمهلتُك أقضِ بعض شأني. فقلت: وهل عما تريد مَدْفعٌ! فقام فصلّى ركعتين ثم ضرب بيده إلى الشجرة، وقال: أشهد أن لا إلـه إلّا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله. ثمّ مضينا والقوم مستشرِفون، فلما دنونا منهم إذا الغَرِيضُ يغنّيهم: [من الكامل]

مِـن خَـيْـل حَـيٍّ لا تَـزال مُـغِـيـرةً   سَمِعتْ على شَرَف صَهِيلَ حِصانِ

فبكى ابن سريج حتى ظننت أن نفسه قد خرجت. فقلت: ما يُبكيك يا أبا يحيىٰ؟ جُعِلتُ فِداك لا يسوءك الله ولا يُريك سوءًا! قال: أبكاني هذا المخنَّثُ بحسن غنائه وشجا صوته، والله ما ينبغي لأحد أن يغنّي وهذا الصبيّ حيٌّ؛ ثم نزل واستراح وركِب. فلما سرنا هُنيهةً اندفع الغَرِيضُ يغنّي لهم بلحنه: [من الخفيف]

يـا خَـلِـيـلـيَّ قـد مـلِلتُ ثَـوائـي[(١)]   بالمُصَلّى[(٢)] وقد سئمتُ البَقِيعا[(٣)]
بـلِّغـانـي ديـارَ هـنـدٍ وسُـعـدَى   وارجِعاني فقد هَوِيتُ الرجوعا

قال: ولصوته دويٌّ في تلك الجبال. فقال ابن سريج: يا بن بركة، أسمِعتَ مثل هذا الغناء قط؟! قال: ونظروا إلينا فأقبلوا نَشَاوى يسحَبون أعطافَهم وجعلوا يقبّلون وجه ابن سريج. فنزل فأقام عندهم ثلاثًا، والغَرِيض لا ينطِق بحرف، وأخذوا في شرابهم وقالوا: يا حبيب النفس وشقيقها، أَعْطِها بعضَ شأنها. فضرب بيده إلى جيبه فأخرج منه مِضرابًا ثم أخذه بيده ووضع العود في حجره ـ فما رأيتُ يدًا أحسنَ من يده ولا خشبةً تخيّلتْ لي أنها جوهرةٌ إلّا هي ـ ثم ضرب فلقد ضجّ القومُ جميعًا؛ ثم غنّى فكلٌّ قال: لبّيْك لبّيْك! فكان ممّا غنّى به واللّحن له هزجٌ: [من مجزوء الرجز]

لـبَّـيْـكِ يـا سـيّـدتـي   لـبَّـيْـكِ ألـفًـا عـدَدا
لـبّـيـكِ مـن ظـالـمـةٍ   أحـبـبـتُـهـا مـجـتـهِـدا
قُـومـي إلـى مـلـعـبـنـا   نَحْكِ الجواري الخُرَّدَا[(٤)]
وضْـعَ يَـدٍ فـوق يَـدٍ   نـرفـعـهـا يـدًا يـدا

(١) ثوائي: إقامتي.
(٢) المصلّى: مكان الصلاة، ويقصد به مسجد الرسول ﷺ.
(٣) البقيع: اسم موضع بعينه قريب جدًا من مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنوّرة.
(٤) الخرّد: الشابات الحسان، جمع خريدة.

فكلٌّ قال: نفعل ذاك؛ فلقد رأيتنا نستبق أيّنا تقع يده على يده. ثم غنّى: [من مجزوء الكامل]

مـا هـاج شـوقَـك بـالـصَّـرائـمْ رَبْــعٌ أحــال لآل عــاصِـمْ
ربــعٌ تــقــادَم عــهــده هـاج الـمـحـبَّ عـلى الـتـقـادم
فــيــه الــنـواعـمُ والـشـبـا بُ الـنّـاعـمـون مـع الـنـواعـم
مِـن كـل واضـحـة الـجـبـيــن عَـمـيـمـةٍ ريّـا الـمعَـاصِـم(١)

ثم غنّى بقوله: [من الطويل]

شجاني(٢) مغاني(٣) الحيّ وانشقّتِ العصا
وصــاح غــرابُ الــبــيــن أنــتَ مــريــضُ
فــفــاضــت دمــوعــي عــنــد ذاك صــبــابــةً
وفـيـهـنّ خَـوْدٌ(٤) كـالـمـهـاة(٥) غَـضِـيـضُ(٦)
ووَلّيْــت مــحــزونَ الــفــؤادِ مُــرَوَّعَــا
كــئــيــبًــا ودمــعــي فــي الــرداء يَــفِــيــض

قال: فلقد رأيتُ جماعةً من الطير وقَعْن بقربنا وما نُحِسّ من قبل ذلك منها شيئًا. فقالت الجماعة: يا تَمام السرور وكمالَ المجالس، لقد سَعِد من أخذ بحظّه منك وخاب من حُرِمك، يا حياةَ القلوب ونسيمَ النفوس جعلنا الله فداءَك، غنّنا. فغنّى: [من مجزوء الكامل]

يــا هــنــدُ إنــكِ لــو عــلمــتِ بـعَـاذِلَيْـن(٧) تـتـابـعـا

قال: فبَدَرْتُ من بينهم فقبَّلت عينيه، فتهافت القومُ عليه يقبّلونه، ولقد رأيتُني وأنا أرفعهم عنه شفقةً عليه.

(١) ريّا المعاصم: كناية عن امتلائها وبضاضة لحمها ونعومة بشرتها.
(٢) شجاني: أحزنني.
(٣) المغاني: الديار الحسنة العامرة.
(٤) الخود: العذراء الفتاة الناعمة.
(٥) المهاة: بقرة الوحش.
(٦) غضيض: أي تغضّ طرفها، فطرفها ناعس، وهذا مستملح منها.
(٧) العاذلان: اللائمان.

وكانت وفاةُ ابن سريج بالعلّة التي أصابته من الجُذام[١] بمكّة في خلافة سليمان بن عبد الملك[٢] أو في خلافة الوليد، ودُفن في موضع يقال له «دَسْم»[٣]، رحمة الله عليه وعفا عنه وغفر له، والحمد لله ربّ العالمين.

حُكِي أنه لما احتُضِر[٤] نظر إلى ابنته تبكي فبكى، وقال: إنه مِن أكبر همّي أنتِ وأخشى أن تضيعي بعدي. فقالت: لا تخَفْ فما غنّيتَ شيئًا إلا وأنا أغنّيه. فقال: هاتي، فاندفعت فغنّت وهو مصغٍ إليها. فقال: قد أصبتِ ما في نفسي وهوّنتِ عليَّ أمرَكِ. ثم دعا سَعِيدَ بن مسعود الهُذَليّ، فزوّجه إيّاها؛ فأخذ أكثَرَ غناء أبيها وانتحله.

ذكر أخبار معبد

هو معبَدُ بنُ وهبٍ، وقيل: ابن قَطَنيّ، مولى ابن قَطَن؛ وقيل: إن قَطَنًا مولى العاص بن واقِصة المخزوميّ، وقيل: مولى معاوية بن أبي سفيان، غنّى معبد في أيام بني أُميّة في أوائِلها، ومات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق.

قال أبو الفرج الأصفهانيّ:

إنّه لمّا مات خرجت سَلامة جاريةُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخذت بعمود السرير والناسُ ينظرون إليها وهي تَنْدُبه وتقول شعرَ الأحوص: [من مجزوء الرمل]

قد لعَمْري بتُّ ليلي — كأخِي الداءِ الوَجِيعِ
ونجيُّ الهمّ مِنّي — بات أدنى من نَجِيعِي[٥]
كلّما أبصرتُ ربعًا — خاليًا فاضت دموعِي
قد خلا من سيّدٍ كا — ن لنا غيرَ مُضِيعِ
لا تَلُمْنا إن خشعنا — أو هَمَمْنا بخشوعِ

(١) الجذام: مرض يأكل الأعضاء فتتساقط.
(٢) سليمان بن عبد الملك: الخليفة الأموي السابع. أسّس مدينة الرملة. حاصر القسطنطينية فلم يستطع فتحها. توفي في دابق قرب حلب سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٧٥.
(٣) دسم: اسم موضع.
(٤) احتضر: صار في النزاع الأخير من حياته وأشرف على الموت.
(٥) النجيع: الدم.

وكان معبد قد علّمها هذا الصوتَ فنَدبته به. قال إسحٰقُ بن إبراهيم الموصليّ: كان معبدُ من أحسن الناس غِناءً، وأجودِهم صنعة، وأحسنِهم خَلْقًا، وهو إمام أهل المدينة في الغناء، وأخذ عن سائب خاثِرٍ ونَشِيط الفارسيّ مولى عبد الله بن جعفر، وعن جَميلة مولاة بَهْز (بطن من بني سليم). وفي معبدٍ يقول الشاعر: [من الطويل]

أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعده ... وما قَصَباتُ السَّبْق[١] إلا لمعبدِ

وحكى أبو الفرج أيضًا:

أن الوليد بنَ يزيدَ اشتاق إلى معبد، فوجّه إليه البريدَ إلى المدينة فأحضره، فلمّا بلَغ الوليدَ قدومُه أمر ببركة مُلِئَتْ ماء وَرد وخُلِط بمسك وزعفران، ثم جلس الوليد على حافّة البركة وفُرِش لمعبدٍ مُقابِلَه وضُرِب بينهما سِترٌ ليس معهما ثالث. وجيء بمعبد فقيل له: سلِّم على أمير المؤمنين واجلس في هذا الموضع؛ فسلَّم فردّ عليه من خَلْف السِّجف[٢]، ثم قال له: أتدري لِمَ وجّهتُ إليك؟ قال: الله أعلم وأمير المؤمنين. قال: ذكرتُك فأحببتُ أن أسمع منك. فقال له معبد: أأُغَنِّي ما حضر أو ما يقترحه أميرُ المؤمنين؟ قال: بل غَنِّ: [من البسيط]

ما زال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهُم[٣] ... حتى تفانَوْا[٤] وريبُ الدهر عدَّاء[٥]

فغنّاه، فرفع الجواري السِّجَف، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج منها، فاستقبله الجواري بثياب غيرِ الثياب التي كانت عليه، ثم شرب وسقى معبدًا ثم قال له: غنِّني يا معبد: [من الكامل]

يا رَبْعُ ما لَكَ لا تُجِيبُ متيَّمًا[٦] ... قد عاجَ[٧] نحوَك زائرًا ومسلِّما
جادَتك[٨] كلُّ سحابةٍ[٩] هطّالةٍ ... حتى تُرى عن زَهْرةٍ[١٠] متبسِّما
لو كنتَ تدري من دعاك أجبتَه ... وبكيتَ مِن حُرَقٍ عليه إذًا دما

---

(١) قصبة السبق: ما يدلّ على السابق المجلّي في الحلبة.
(٢) السجف: الستر.
(٣) ريب الدهر: صرفه.
(٤) تفانوا: أفنى بعضهم بعضًا.
(٥) عدّاء: سريع العدو، والعداوة أيضًا.
(٦) المتيّم: العاشق المتبول.
(٧) عاج: مال.
(٨) جادتك: أصابتك ومنحتك.
(٩) السحابة الهطّالة: الغيمة الممطرة.
(١٠) الزهرة: الحسن والنضارة.

قال: فغنّاه، وأقبل الجواري فرفعن السِّتر، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص فيها ثم خرج، فلبِس ثيابًا غير تلك الثياب، ثم شَرِب وسقى معبدًا وقال له: غنِّني يا معبد: [من مجزوء الرمل]

عَجِبتْ لمّا رأتني ... أندُب[١] الربع المُحِيلا
واقفًا في الدار أبكي ... لا أرى إلّا الطلولا[٢]
كيف تبكي لأُناسٍ ... لا يَمَلُّون الذَّميلا[٣]
كلّما قالت اطمأنتْ ... دارُهم جَدّوا الرَّحيلا[٤]

قال: فلمّا غنّاه ألقى نفسه في البركة ثم خرج فردّوا عليه ثيابَه، ثم شرب وسقى معبدًا وقال له: يا معبد، من أراد أن يزداد حُظوةً عند الملوك فليكتم أسرارَهم. فقال: ذلك ممّا لا يَحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائي به. فقال الوليد: يا غلام احمل إلى معبد عشرةَ آلاف دينار تَحصَّل له في بلده وألفَيْ دينار لنفقة طريقه؛ فحُمِلت إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وقته إلى المدينة. وقد قيل: إنه أعطاه في ذلك المجلس خمسة عشر ألف دينار.

وقال أبو الفرج بسند رفعه:

إن معبدًا كان قد علّم جاريةً من جواري الحجاز الغناءَ تُدعى «طيبة»، وعُنِي بتخريجها؛ فاشتراها رجل من أهل العراق وأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز[٥] فأُعْجب بها وذهبت به كلَّ مذهبٍ وغَلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهةً من الزمان؛ فأخذ جواريه أكثرَ غنائِها عنها. فكان لمحبّته إيّاها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقرُّه، ويُظهر التعصّبَ له والميلَ إليه والتقديمَ لغنائه على سائر الأغاني من أهل عصره، إلى أن عُرِف ذلك منه وبلغ معبدًا خبرُه. فخرج من مكة حتى أتى البصرةَ؛ فلما وردها صادفَ الرجلَ قد خرج عنها في ذلك الوقت واليوم إلى الأهواز، فجاء معبدٌ في طلب سفينة تحمله إلى الأهواز، فلم يجد غيرَ سفينة الرجل، فركِب فيها وكلاهما لا يعرف الآخَر؛ وانحدرت السفينةُ. فلما صاروا بفمِ نهر الأُبُلّة[٦]، أمر الرجلُ جواريَه بالغناء فغَنَّيْن، إلى أن غنّت

---

(١) أندب: أبكي أسفًا.
(٢) الطلول: ما بقي من المنازل الدارسة.
(٣) الذميل: ضرب من السير.
(٤) جدّوا الرحيل: شدّوا إليه الركائب.
(٥) الأهواز: كورة، أو مدينة، من بلاد خوزستان بين العراق وفارس.
(٦) الأبلّة: مدينة قديمة كانت تقع على دجلة قريبًا من البصرة.

إحداهنّ صوتًا من غناء معبد فلم تُجِدْ أداءَه؛ فصاح بها معبد: يا جاريةُ، إن غناءَك هذا ليس بمستقيم. فقال مولاها وقد غَضِب: وأنت ما يُدريك الغناء ما هو! ألَا تُمْسِكُ وتلزَمُ شأنَك! فأمسك. ثم غنّت أصواتًا من غناء غيره وهو ساكتٌ لا يتكلّم حتى غنّت من غنائه فأخلّت ببعضه؛ فقال لها معبد: يا جارية، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالًا كثيرًا. فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنتَ والغناء! ألا تَكُفّ عن هذا الفضول! فأمسك معبدٌ. وغنّى الجواري مليًا؛ ثم غنّت إحداهنّ صوتًا من غنائه فلم تَصْنَع فيه شيئًا. فقال لها معبد: يا هذه، أمَا تَقُومين على أداء صوتٍ واحد! فغضب الرجلُ وقال له: ما أراك تَدَعُ هذا الفضولَ بوجهٍ ولا حيلةٍ! فأُقْسِم بالله إن عاودتَ لأُخرِجنّك من السفينة. فأمسك معبدٌ، حتى سكتت الجواري سَكْتةً، فاندفع يغنّي الصوت الأوّل حتى فرغ منه. فصاح الجواري: أحسنتَ والله يا رجل، فأَعِده. قال: لا والله ولا كرامةَ. ثم اندفع يغنّي الثاني؛ فقلن لسيّدهنّ: ويحك! هذا والله أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يُعيده علينا ولو مرّة واحدة لعلّنا نأخذه منه، فإنه إن فاتنا لم نَجِدْ مثلَه أبدًا. قال: قد سمعتنّ سوءَ ردّه عليكنّ وأنا خائف مثلَه منه، وقد استقبلناه بالإساءة، فاصْبِرْن حتى نُداريَه. قال: ثم غنّى الثالثَ فزلزل عليهم الأرضَ. فوثب الرجل فقبّل رأسَه وقال: يا سيّدي أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك. فقال له: وَهَبْكَ لم تعرِف موضعي، قد كان ينبغي لك أن تتثبّت ولا تُسرعَ إلى سوء العِشرة وجفاءِ القول. فلم يزل يرفُق به حتى نزل إليه، وكان معبدٌ قد أُجلس في مؤخّر السفينة. فقال له الرجل: ممن أخذتَ هذا الغناء؟ قال: من بعض أهل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك؟ قال: أخذته من جارية كانت لي، كانت قد أخذت الغناءَ عن أبي عَبّاد معبد وكانت تَحُلّ مني مكانَ الروح من الجسد، ثم استأثر الله بها وبقي هؤلاء الجواري وهنّ من تعليمِها، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعًا، وأفضّل صنعَته على كل صنعة. فقال له معبد: وإنك لأنت هو! أفتعرِفني؟ قال: لا. قال: فصَكّ[1] معبد بيده صلعَته، ثم قال: فأنا والله معبدٌ وإليك قَدِمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرةَ ساعةَ نزلتُ السفينةَ لأقصدك بالأهواز، ووالله لا قصّرتُ في جواريك هؤلاء ولأجعلنّ لك في كل واحدة خَلَفًا من الماضية. فأكبّ الرجلُ والجواري على يده ورجليه يقبّلونها، ويقولون: كتَمْتَنا نفسَك حتى جَفَوْناك[2] في

(١) صكّ: ضرب.
(٢) جفوناك: أغلظنا لك في معاشرتَك، وكرهناك.

المخاطبة وأسأنا عشرتَك وأنت سيِّدُنا ومن نتمنّى أن نلقاه. ثم غيّر الرجلُ أثواب معبد وخلع عليه عدّة خِلَع وأعطاه في ذلك الوقت ثلاثمائة دينار وطِيبًا وهدايا مثلها، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رَضِي حِذْقَ جواريه، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز.

ذكر أخبار الغريض
وما يتّصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة

هو عبدُ الملك، وكنيتُه أبو زيدٍ، وقيل: أبو مروان. والغَرِيضُ لقبٌ لقّب به؛ لأنه كان طَرِيّ الوجه نَضِرًا غَضّ الشباب حسن المنظر، فلُقّب بذلك. والغريض: الطّريّ من كل شيء. وقال ابن الكلبي: شُبّه بالإغريض وهو الجُمّار[١] ثم ثُقِّلَ ذلك على الألسنة فحذفت الألف، فقيل: الغَرِيض، وهو من مُوَلَّدِي البَرْبَر[٢]. وولاؤه للثريّا (صاحبةِ عمر بن أبي ربيعة) وأخواتِها الرُّضَيّا وقُرَيبةَ وأمّ عثمانَ بناتِ عليّ بنِ عبد الله بن الحارثِ بنِ أميّة الأصغر. قالوا: وكان يضرب بالعود وينقر بالدّفّ ويُوقِع بالقضيب، وكان قبل الغناء خيّاطًا، وأخذ الغناءَ في أوّل أمره عن عُبيد بن سُرَيْج؛ لأنه كان قد خدمه، فلما رأى ابن سريج طبعَه وظَرْفَه وحلاوةَ منطقه، خشِي أن يأخذه غناءَه فيغلبَه عليه ويفوقَه بحسن وجهه، وحسَده، فاعتلّ عليه وشكاه إلى مَوْلياتِه، وكنّ دفعنَه إليه ليعلِّمه الغناءَ، وجعل يتجنّى عليه ثم طرده. فعَرَّف مَوْلَياتِه غرضَ ابن سريج فيه وأنه حَسَده؛ فقلن له: هل لك أن تسمع نَوْحَنا على قتلانا فتأخذه وتغنّي عليه؟ قال: نعم، فأسمعنه المراثيَ فاحتذاها[٣] وخرَّج غناءه عليها. وكان ينوح مع ذلك فيدخل المآتِمَ وتُضْرَب دونه الحُجُب ثم ينوح فيفتِن كلَّ من سمعه. فلما كثر غناؤه عدَل الناسُ[٤] إليه لما كان فيه من الشَّجا[٥]؛ فكان ابن سريج لا يغنّي صوتًا إلا عارضَه فيه فيغنّي فيه لحنًا آخر، فلما رأى ابنُ سريج موقَع الغَرِيض اشتدّ عليه وحسده، فغنّى الأرمالَ والأهزاجَ، فاشتهاها الناسُ. فقال له الغَرِيض: يا أبا يحيىٰ قصّرتَ الغناء وحذفتَه. قال: نعم يا مخنّثُ حين جعلتَ تنوح على أبيك وأمّك. قال: ولم يُفَضَّل ابنُ سريج عليه إلا بالسّبْق، وأما غير ذلك فلا.

---

(١) الجمّار والإغريض: كل شيء طريّ، ويكون أبيض. والجمّار، خاصة، هو قلب النخلة.
(٢) البربر: الأعاجم الذين نشأوا في بيئة عربية وتأثروا بالعرب وأخلاقهم وآدابهم.
(٣) احتذاها: اتّخذها حذوة، أي قلّدها. (٤) عدلوا إليه: مالوا.
(٥) الشجا: الحزن والنغم.

وقال بعضُهم: كان الغَرِيضُ أشجى غناءً، وابنُ سريج أحكَم صنعةً. وحكى أبو الفرج الأصفهاني بسند رفعه إلى أيوب بن عَبَايَةَ عن مولى لآل الغَرِيض، قال: حدّثني بعضُ مولياتي وقد ذَكَرْن الغَرِيضَ فترحَّمْن عليه، وقلن: جاءنا يومًا فحدّثَنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفناه بعد ذلك حقيقةً. قالت: وكان ابنُ سُرَيْج بجوارنا فدفعناه إليه ولُقِّن الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا، ففتَن أهلَ مكّةَ بحسن وجهه مع حسن صوته. فلما رأى ذلك ابنُ سريج نحّاه عنه. فكان بعضُ مولياته تعلِّمه النِّياحة فبرَّز فيها، فجاءني يومًا فقال: نَهَتْني الجنّ أن أنوحَ وأسمعتني صوتًا عجيبًا، فقد ابتنيتُ عليه لحنًا فأسمعِيه مني، فاندفع فغنّى بصوتٍ عجيبٍ في شعرٍ لمَرَّار الأسديّ[1]: [من الطويل]

حلفتُ لها بالله ما بين ذي الغَضَا[2] وهَضْبِ القَنَان من عَوَانٍ ومن بِكْرِ[3]
أحبُّ إليـنـا مـنـكِ دَلّا ومـا نـرى بـه عـنـد ليـلى مـن ثَـوابٍ ولا أجـرِ

قالت: فكذّبناه وقلنا: شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا الجنس. فكان في كل يوم يأتينا، فيقول: سمعت البارحة صوتًا من الجنّ بترجيع وتقطيع، فقد بنيتُ عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن نُنكر عليه، فإنا لكذلك ليلةً وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكّة في جمع لنا سَمَرْنا[4] فيه ليلتَنا والغَرِيضُ يغنّينا بشعر عمرَ بن أبي ربيعةَ، حيث يقول: [من المتقارب]

أمِـن آل زيـنـبَ جـدّ[5] الـبـكـورُ نَـعَـمْ فـلأيّ هـواهـا تَـصِـيـرُ

إذ سمعنا في بعض الليل عَزِيفًا عجيبًا وأصواتًا ذعَرتْنا وأفزعتْنا. فقال لنا الغَرِيضُ: إن في هذه الأصوات صوتًا إذا نِمْتُ سمعتُه وأُصْبِح أبني عليه غِنائي؛ فأصغينا إليه فإذا نغمتُه نغمةُ الغَرِيض بعينها، فصدّقناه تلك الليلة.

وكانت وفاةُ الغَرِيض باليمن في خلافة سليمانَ بنِ عبد الملك أو عمرَ بن عبد العزيز؛ وكان قد هرب من نافع بن عَلْقمة لمّا ولي مكّةَ من مكّة إلى اليمنِ واستوطنها ومات بها.

---

(١) هو المرار بن سعيد الفقعسي الأسدي، من شعراء الدولة الأموية. كان مفرط القصر، ضئيل الجسم له هجاء وشعر كثير.

(٢) ذو الغضا وهضب القنان: موضعان بعينهما.

(٣) العوان من النساء وغيرهنّ: ما كان متوسّطًا في العمر. والبكر: الشابة الفتيّة.

(٤) سمرنا: سهرنا نتحادث. (٥) جدّ: نشط.

وللغريض أخبارٌ مستظرفة وحكاياتٌ مستحسنةٌ قد رأينا أن نُثبِت في هذا الموضع ما سنقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهانيّ في كتابه المترجم بالأغاني في أخبار الحارثِ بنِ خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المَخْزوميّ، بعد أن ساق قطعة من أخباره مع عائشة بنتِ طلحةَ بن عُبيد الله، وأنه كان يهواها ويشبِّب بها في شعره، ثم قال في أثناء ذلك: لمّا قدِمتْ عائشةُ بنت طلحة مكّة أرسل إليها الحارثُ وهو أمير مكّة يومئذ، وكان وَلِيَها من قِبَل عبد الملك بن مروان، فأرسل إليها: إني أريد السلام عليك؛ فإذا خفّ ذلك عليهِ أذِنتِ، وكان الرسولُ الغريضَ. فأرسلت إليه: إنّا حُرُمٌ[١]، فإذا أحللْنا أذِنّاك. فلما أحلّت خرجت سرًّا على بغلتها، ولحقها الغَريضُ بعُسْفان[٢] أو قريب منه ومعه كتاب الحارثِ إليها، وفيه: [من السريع]

ما ضَرّكم لو قلتُمُ سَدَدًا[٣] ... إنّ المطايا[٤] عاجلٌ غَدُها
ولها علينا نعمةٌ سلَفت ... لسنا على الأيام نجحَدُها
لو أتْمَمَتْ أسبابَ نِعمتها ... تَمّتْ بذلك عندنا يَدُها

فلما قرأت الكتابَ قالت: ما يَدَع الحارثُ باطلَه! ثم قالت للغريض: هل أحدثتَ شيئًا؟ قال: نعم فاسمعي، ثم اندفع يغنّي في هذا الشعر. فقالت عائشةُ: والله ما قلنا إلا سَدَدًا ولا أردنا إلا أن نشتريَ لسانَه؛ واستحسنت الشعرَ، وأمرت للغَريض بخمسة آلاف درهم وأثوابٍ، وقالت: زِدْني، فغنّى في قول الحارث أيضًا حيث يقول: [من الكامل]

زعَموا بأنّ البَيْن بعد غَدِ ... فالقلبُ ممّا أحدثوا يَجِفُ[٥]
والعينُ مُنذ أُجِدَّ بينُهُم ... مثلَ الجُمَان[٦] دموعُها تَكِف[٧]
نشكو وتشكو ما أَشَتّ بنا[٨] ... كلٌّ بوَشْك البين مُعْتَرِف
ومَقالُها ودُموعُها سُجُمٌ[٩] ... أَقْلِلْ حنينَك حين تَنْصرف

---

(١) حرم: أي بدون أزواج أو رجال.
(٢) عسفان: اسم موضع بعينه.
(٣) السدد: الصواب.
(٤) المطايا: الدواب التي تركب.
(٥) يجف: يضطرب.
(٦) الجمان: اللؤلؤ.
(٧) تكفّ: تسيل بالدمع.
(٨) أشتّ بنا: فرّق وباعد.
(٩) سجم: منسكبة.

فقالت عائشة: يا غريضُ، بحقّي عليك أهو أمرك أن تغنّيني في هذا الشعر؟ قال: لا وحَياتِك يا سيّدتي؛ فأمرت له بخمسة آلاف درهم، ثم قالت: غنِّني في غير شعره؛ فغنَّاها بشعر عمر بن أبي ربيعة ـ وكان عمرُ قد سأله ذلك ـ فقال: [من الخفيف]

أَجْمعتْ خُلّتي[1] مع الهجر بَيْنَا ... جَـلَّل اللهُ ذلـك الـوجـهَ زَيْـنـا
أجـمـعـتْ بَـيْـنَـهـا ولـم نَـكُ مـنـهـا ... لـذّةَ الـعيـشِ والـشـبـابِ قَـضَـيْـنـا
فـتـولّت حُـمـولُـهـا واسـتـقـلّت ... لـم تُـنِـلْ طـائـلًا ولـم تَـقْـضِ دينـا
ولـقـد قـلـتُ يـوم مـكّـة لـمّـا ... أرسـلـتْ تـقـرأُ الـسـلام عـلـيـنـا
أنـعـم اللهُ بـالـرسـولِ الـذي أر ... سل والـمُـرْسِـلِ الرسـالـة عَـيْـنـا

قال: فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريضُ، فأنعم الله بك عينًا وأنعِمْ بابنِ أبي ربيعةَ عينًا، لقد تلطّفت حتى أدّيتَ إلينا رسالتَه، وإنّ وفاءك له لممّا يزيدنا رغبةً فيك وثقةً بك. وكان عمر سأل الغَرِيضَ أن يغنّيها بشعره هذا لأنه كان قد ترك ذكرها لمّا غَضِبت بنو تَيْم من ذلك، فلم يُحِبَّ التصريحَ بها وكرِه إغفالَ ذكرها. فقال له عمرُ بن أبي ربيعة: إنْ إبلغتَها هذه الأبيات في غناءٍ فلك خمسة آلاف درهم، فوفَّى له، وأمرتْ له عائشةُ بخمسة آلاف درهم. ثم انصرف الغَرِيض من عندها، فلقِي عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية امرأةَ عبد الملك بن مروان، وقد كانت حجَّت في تلك السنة؛ فقال لها جواريها: هذا الغريضُ. فقالت لهنّ: عليّ به؛ فجِئْن به إليها. قال الغريض: فلما دخلتُ سلّمتُ فردّت عليّ وسألتني عن الخبر، فقصصته عليها، فقالت: غنِّني بما غنّيتَها به، ففعلتُ؛ فلم أرها تَهَشُّ لذلك؛ فغنّيتها معرِّضًا ومذكِّرًا بنفسي في شعر مُرّةَ بن مَحْكان السَّعْدِيّ يخاطب امرأته وقد نزل به أضياف: [من البسيط]

أقـول والـضـيـفُ مـخـشـيٌّ ذِمـامَـتُـه[2] ... على الكريـم وحـقُّ الـضـيـف قد وَجَـبَا
يـا ربّـة الـبـيـت قُـومـي غـيـرَ صـاغـرةٍ ... ضُمّي إليكِ رِحال القوم[3] والقِرَبا[4]
فـي لـيـلـةٍ مـن جُـمـادى ذاتِ أنـديـةٍ ... لا يُبصِر الكلبُ في ظَلْمائها الطُّنُبا[5]
لا يـنـبَـح الـكـلـبُ فـيـهـا غـيـرَ واحـدة ... حتى يَلُفَّ على خَيْشُومه[6] الذَّنَبا

(١) خلّتي: صاحبتي. (٢) الذمامة: الذمّة والعهد.
(٣) رحال القوم: الأمتعة التي معهم، والتي تحمل فوق الجمال.
(٤) القرب: جمع قربة، وهي وعاء الماء. (٥) الطنب: الحبال.
(٦) خيشومه: أنفه.

فقالت وهي مبتسمة: نعم وقد وجب حقُّك يا غَرِيضُ، فغنِّني؛ فغنّيتُها: [من الكامل]

يـا دهـرُ قـد أكـثـرتَ فَـجْـعَـتـنـا[١] بسَرَاتنا[٢] ووقَرْتَ[٣] في العَظْم
وسـلـبـتـنـا مـا لـسـتَ مُـخْـلِفَـه يا دهر ما أنصفتَ في الحُكْم
لـو كـان لـي قـرنٌ[٤] أنـاضـلـه[٥] ما طاش[٦] عند حَفِيظةٍ[٧] سَهْمي
لو كان يُعْطِي النَّصْفَ[٨] قلتُ له أحرزتَ قِسمك فالْهُ عن قِسْمي

فقالت: نُعطيك النَّصْفَ فلا يضيعُ سهمُك عندنا ونُجزل لك[٩] قِسْمَك، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عَدَنِيّة وغير ذلك من الألطاف. قال الغَرِيض: فأتيتُ الحارثَ بنَ خالدٍ فأخبرتُه الخبرَ وقصَصْتُ عليه القصّة؛ فأمر لي بمثل ما أمرتا لي جميعًا؛ وأتيتُ ابن أبي ربيعةَ فأعلمتُه بما جرى، فأمر لي بمثل ذلك. فما انصرف أحدٌ من ذلك الموسِم بمثل ما انصرفتُ به: نظرة من عائشةَ، ونظرة من عاتكةَ - وهما أجملُ نساءِ عالَمِهما - وبما أمرتا لي به، والمنزلةُ عند الحارث - وهو أمير مكّة - وابنِ أبي ربيعة وما أجازاني به جميعًا من المال.

ولْنَصِلْ هذا الفصلَ بشيءٍ من أخبار عائشةَ بنتِ طلحة؛ لأن الشيء بالشيء يُذكر.

هي عائشةُ بنتُ طلحةَ بنِ عُبيدِ الله بن عثمانَ بنِ عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم. وأمّها أُمُّ كلثوم بنتُ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه. وكانت عائشةُ لا تسترُ وجهَها من أحد، فعاتبها مُصْعب في ذلك، فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسَمَني بميسَم جمال أحببتُ أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنتُ لأستره، ووالله ما فِيّ وَصْمةٌ[١٠] يقدِر أن يذكرني بها أحد.

قال أبو الفرج الأصبهانيّ: وكانت شَرِسةَ الخُلُق، وكذلك نساءُ بني تيم، هنّ أشرسُ خلق الله خُلُقًا وأحظاهنّ[١١] عند أزواجهنّ. قال: وآلت[١٢] عائشةُ من

(١) فجعتنا: مصيبتنا.
(٢) سراتنا: أشرافنا وأعلانا.
(٣) وقرت: حللت.
(٤) القرن: المثيل.
(٥) أناضله: أصارعه.
(٦) طاش السهم: خاب ولم يصب الهدف.
(٧) الحفيظة: الغضب.
(٨) النصف: العدل.
(٩) نجزل لك: نوفيك العطاء.
(١٠) الوصمة: العيب والسوء.
(١١) أحظاهنّ: أكثرهنّ حظوة ومكانة.
(١٢) آلت: طلقت نفسها منه بالإيلاء.

زوجها مصعب بن الزبير، فقالت: أنتَ عليّ كظهر أُمّي، وقعدتْ في غرفةٍ وهيّأت ما يُصْلِحها، فجهد مصعبٌ أن تكلّمه فأبت، فبعث إليها ابنَ قيس الرُّقَيّات[١] فسألها كلامَه، فقالت: كيف بيميني؟ فقال: هٰهنا الشَّعْبيّ فقيه أهل العراق فاستفتِيه. فدخل الشّعبيّ عليها فأخبرتْه، فقال: ليس هذا بشيء؛ فأمرت له بأربعة آلاف درهم.

وحكى أبو الفرج أنّ مصعب بن الزبير لمّا عزمَ على زواج عائشةَ بنتِ طلحة، جاء هو وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق وسَعِيدُ بن العاص[٢] إلى عزّة المَيْلاء - وكانت عزّة هذه يألفها الأشرافُ وغيرُهم من أهل المرُوءات، وكانت من أظرف الناس وأعلمِهم بأمور النساء - فقالوا لها: إنّا خطبنا فانظري لنا. فقالت لمصعب: يا ابن أبي عبد الله، ومَن خطبتَ؟ قال: عائشة بنت طلحة. قالت: فأنت يا ابن أبي أُحَيْحَة؟ قال: عائشة بنت عثمان بن عفّان. قالت: فأنت يا ابن الصّدِّيق؟ قال: أمّ الهيثم بنت زكريا بن طلحة. فقالت: يا جارية، هاتي مَنْقَليّ (تعني خفّيها)، فلبستهما وخرجت ومعها خادمٌ لها، فبدأت بعائشة بنت طلحة، فقالت: فديتُك، كنّا في مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمالَ النساء وخَلْقَهن فذكروكِ فلم أَدْرِ كيف أصِفُك، فديتك، فألقِي ثيابك؛ ففعلت فأقبلت وأدبرت فارتجّ كلُّ شيء منها. فقالت لها عزّة: خُذِي ثوبك. فقالت عائشة: قد قضيتِ حاجتكِ وبقيت حاجتي. فقالت عزّة: وما هي؟ فديتُك! قالت: تغنّيني صوتًا. فاندفعت تغنّي لحنها في شعرٍ لجميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرِيّ[٣]: [من الطويل]

خَلِيليّ عُوجَا[٤] بالمحلّة من جُمْلٍ[٥] ... وأترابِها[٦] بين الأُصَيْفِرِ فالحَبْلِ[٧]
نَقِفْ بمَغَانٍ[٨] قد عفا رسمَها البِلَى ... تَعَاقَبُها الأيامُ بالرّيح والوَبْلِ[٩]

---

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات، من شعراء العصر الأموي الأجواد، كانت وفاته سنة ٨٥ هـ/ ٧٠١ م.
(٢) سعيد بن العاص: صحابي من الأمراء والولاة الفاتحين. ولّاه عثمان بن عفان الكوفة ثم المدينة. كانت وفاته سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٩ م.
(٣) هو الشاعر الأموي المشهور، من بني عذرة، جميل بثينة، تغنّى بحبيبته بثينة فعُرف بها، شعره الغزلي عذري رقيق، مات نحو ٨٥ هـ/ ٧٠١ م.
(٤) عوجا: ميلا وانزلا. (٥) جمل: صفة لبثينة.
(٦) أترابها: صديقاتها ومثيلاتها.
(٧) المحلة والأصيفر والحبل، أسماء مواضع بعينها.
(٨) المغاني: الديار العامرة الناضرة. (٩) الوبل: المطر.

فلو دَرَج النملُ الصغار بجلدها لأَنْدَب أعلى جلدها[١] مَدْرَجُ النَّمل
وأحسن خلق الله جِيدًا ومُقْلةً تُشَبَّه في النِّسوان بالشادِن الطِّفل[٢]

فقبّلت عائشةُ ما بين عينيها ودعت لها بعشرة أثواب وطرائف من أنواع الفضّة، فدفعته إلى مولاتها. وأتت النّسوة على مثل ذلك تقول ذلك لهنّ. ثم أتت القومَ في السقيفة، فقالوا: ما صنعتِ؟ فقالت: يا ابن أبي عبد الله، أمّا عائشةُ فلا والله ما رأيتُ مثلها مُقْبِلةً ولا مُدْبرة، محطوطة[٣] المتنين، عظيمةَ العجيزة[٤]، ممتلئةَ الترائب[٥]، نقيّةَ الثغر وصفحةِ الوجه، فرعاءَ الشعر[٦]، ممتلئةَ الصدر، خمِيصة البطن[٧] ذات عُكَنٍ[٨]، ضخمةَ السُّرّة[٩]، مُسَرْولةَ الساق، يرتجّ ما بين أعلاها إلى قدميها؛ وفيها عيبان، أمّا أحدُهما فيواريه الخِمارُ[١٠]، وأما الآخرُ فيواريه الخُفّ: عِظَمُ الأُذنِ والقدم. وكانت عائشة بنت طلحة كذلك. ثم قالت عزّة: وأما أنت يا ابن أبي أُحَيْحَة، فإني والله ما رأيتُ مثل خَلْق عائشة بنت عثمان لامرأةٍ قطّ! ليس فيها عيب والله لكأنما أفرِغتْ إفراغًا ولكن في الوجه رَدّةٌ، وإن استشَرتَني أشرتُ عليك. قال: هاتِ. قالت: عليك بوجه تستأنس به. وأما أنت يا ابن الصدِّيق، فوالله ما رأيتُ مثل أمّ الهيثم، كأنها خُوط بانة[١١] تنثني، أو كأنها جانٌّ يتثنّى على رمل، لو شئتَ أن تعقِد طَرفيها لفعلتَ، ولكنها شَخْتَةُ الصدر[١٢] وأنت عريض الصدر، فإذا كان كذلك كان قبيحًا، لا والله حتى يملأ كلٌّ شيء مثلَه، قال: فوصلها الرجال والنساء وتزوّجوهنّ.

وحكى أبو الفرج أيضًا: أنّ مصعبَ بن الزبير إنما تزوّجها بعد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وقال: وكانت عائشةُ بنت طلحة تُشَبّه بخالتها عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فزوّجتها عائشةُ من ابن أخيها عبدِ الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وهو أوّل من تزوّجها. ولم تَلِدْ عائشة بنتُ طلحة مِن أحد من أزواجِها

(١) أندب أعلى جلدها: جعل فيه ندوبًا، أي جروحًا.
(٢) الجيد: العنق، والمقلة: العين، والشادن: ولد الظبي الصغير.
(٣) محطوطة المتنين: محدودتهما.
(٤) العجيزة: المؤخرة.
(٥) الترائب: أعلى الصدر.
(٦) فرعاء الشعر: طويلته، وهو أسود اللّون.
(٧) خميصة البطن: ضامرتها.
(٨) العكن: ما انطوى من لحم البطن وكان سمينًا.
(٩) السرّة: وسط البطن.
(١٠) الخمار: النقاب تختمر به المرأة.
(١١) خوط بانة: جذع أو فرع بانة، وهي من الأشجار الطيبة الطويلة.
(١٢) شختة الصدر: دقيقته.

غيرَه، ولدت له عِمرانَ وبه كانت تُكْنَى، وعبدَ الرحمٰن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، ولكلٍّ من هؤلاء عَقِبٌ[١]. وأنا من عَقِب طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر من ولده ليث بن طلحة، وليس هذا موضع سرد نسبيّ فأسرده.

قال أبو الفرج: وصارمت[٢] عائشةُ بنت طلحة زوجَها عبد الله بن عبد الرحمٰن وخرجت من داره مُغْضَبةً تريد عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فرآها أبو هريرةَ[٣] فسبّح الله تعالى وقال: كأنها من الحُورِ العين، فمكثت عند عائشة قريبًا من أربعة أشهر. وكان عبد الله قد آلى منها؛ فأرسلت عائشة إليه: إني أخاف عليك الإيلاءَ، فضَمّها إليه وكان مُوليًا منها. فقيل له: طلِّقها؛ فقال: [من الطويل]

يقولون طَلِّقْها لأُصْبِحَ ثاوِيًا[٤] مُقِيمًا عليّ الهمُّ، أحلامُ نائم

وإنّ فِراقي أهلَ بيت أُحِبّهم لهم زُلْفةٌ[٥] عندي لإحدى العظائم[٦]

وتُوفِّي عبد الله بعد ذلك وهي عنده، فما فتحتْ فاهَا عليه؛ وكانت عائشةُ أُمّ المؤمنين رضي الله عنها تَعُدّ هذا عليها في ذنوبها التي تعدّدها. ثم تزوّجها بعده مصعب بن الزُّبير، فمَهَرها[٧] خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك.

وكانت عائشة تمتنع على مصعب في غالب الأوقات، فحُكي أنه دخل عليها يومًا وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ في حجرها. فقالت: نومتي كانت أحبّ إليّ من هذا اللؤلؤ. ولم تزل حالُها معه على مثل ذلك حتى شكا ذلك إلى كاتبه ابن أبي فَرْوَة، فقال له: أنا أكْفيك هذا إن أذِنتَ لي. قال: نعم! افعلْ ما شئتَ، فأتاها ليلًا ومعه أسودانِ فاستأذن عليها، فقالت: أفي مثل هذه الساعة؟ قال: نعم؛ فأذِنت له فدخل. فقال للأسودين: احفِرا هٰهنا بئرًا. فقالت له جاريتُها: وما تصنع بالبئر؟ قال: شُؤمُ مولاتك، أمرني هذا الظالمُ أن أدفنها حيّة، وهو أسْفَكُ خلقِ الله لدَم حرام. قالت عائشة: فأنْظِرْني أذهبْ إليه؛ قال: هيهات لا سبيلَ إلى ذلك، وقال للأسودين: احفِرا. فلما رأت الجِدَّ منه بكت وقالت: يا ابن أبي فروة، إنك لقاتلي ما منه بدّ؟ قال: نعم، وإني لأعلم أن الله عزّ

---

(١) عقب: ذريّة ونسل. (٢) صارمت: باعدت وفارقت وجفت.
(٣) أبو هريرة: من رجال الحديث، سبق التعريف به.
(٤) ثاويًا: مقيمًا. (٥) الزلفة: القربة.
(٦) العظائم: جمع عظيمة، وهي المصيبة والأمر العظيم.
(٧) مهرها: أعطاها أو جعل لها مهرًا، أي صداقًا.

وجلّ سيُخْزيه بعدكِ، ولكنّه قد غَضِب وهو كافرُ الغضب. قالت: وفي أي شيء غضبُه؟ قال: مِن امتناعكِ عليه وقد ظنّ أنك تُبْغِضينه وتَتطلّعين إلى غيره، فقد جُنّ. فقالت: أنشُدُك الله إلّا عاودتَه. قال: أخاف أن يقتلني؛ فبكت وبكى جواريها. فقال لها: قد رقَقْتُ لك وحلَف لها إنه يغرّر بنفسه، وقال لها: فما أقول؟ قالت: تضمَن له عنّي أني لا أعود أبدًا. قال: فما لي عندك؟ قالت: قيامٌ بحقّك ما عِشت؟ قال: فأعطيني المواثيق فأعطته. فقال للأسودين: مكانَكما. وأتى مصعبًا فأخبره، فقال: استوثِق منها بالأيمان؛ فاستوثق منها ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب.

قال: وكان مصعب من أشدّ الناس إعجابًا بها، ولم يكن لها شبيه في زمانها حُسْنًا وديانةً وجمالًا وشارةً وعِفّة. وإنها دعت يومًا نِسوةً من قريش، فلما جِئْنها أجلستهنّ في مجلس قد نُضد[١] فيه الريحان والفواكه والطِّيب والمجامرُ[٢]، وخلعت على كلّ امرأة منهن خلعة من الوَشْي والخَزّ[٣] ونحو ذلك، ودعت عَزّة المَيْلاء ففعلت بها مثل ذلك وأضعفته؛ ثم قالت لعزّة: هاتِ يا عزّةُ فغنِّينا، فغنّتهنّ في شعر امرىء القيس، فقالت: [من المتقارب]

وثغرٍ[٤] أغرَّ[٥] شَنِيب[٦] اللِّثاتِ لـذيـذ الـمُـقَـبَّـل والـمُـبْـتَـسَـمْ
ومـا ذقـتُـه غـيـرَ ظـنٍّ بـه وبالظنِّ يَقْضِي عليك الحَكَمْ

وكان مصعب قريبًا منهنّ ومعه إخوانٌ له، فقام فانتقل حتى دنا منهنّ والستور مُسْبَلةٌ، فصاح بها: يا هذه، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ، فبارك الله فيكِ يا عزّة. ثم أرسل إلى عائشة: أمّا أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندكِ، وأمّا عزّةُ فتأذنين لها أن تغنّينا هذا الصوتَ ثم تعود إليك، ففعلت وخرجت عزّة إليهم فغنّتهم هذا الصوتَ مرارًا، وكاد مصعب أن يذهب عَقلُه فرحًا. ثم قال لها: يا عزّة، إنك لتُحسِنين القول والوصفَ، وأمرها بالعَوْد إلى مجلسها.

قال: ولم تزل عند مصعب حتى قُتِل عنها، فخطبها بِشر بن مروان[٧]، وقدِم عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيْمي من الشام فنزل الكوفةَ، فبلَغه أن بشْرًا خطبها،

(١) نُضد: رُتِّب ونُسِّق.
(٢) المجامر: جمع مجمرة، وهي وعاء الجمر حيث يوقد الطيب كالنّدّ وغيره.
(٣) الخزّ: الحرير والديباج.
(٤) الثغر: الفم.
(٥) الأغرّ: الأبيض الناصع.
(٦) شنيب اللثات: أسنانه فيها بياض، وشنب.
(٧) بشر بن مروان بن الحكم: أمير أموي، حكم الكوفة والبصرة. أحب الشعر واللّهو، ومدحه جرير والأخطل والفرزدق من الشعراء. كانت وفاته سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٤ م.

فأرسل إليها جارية لها وقال: قُولي لابنة عمّي: ابنُ عمك يُقرئك السلام، ويقول لكِ: أنا خير لك من هذا المَبْسور المَطْحول[١]، وأنا ابن عمّك أحقّ بك، وإن تزوجتُ بك ملأتُ بيتك خيرًا. فتزوّجته فبنى عليها بالحِيرة[٢]، فمَهَّدت له سبعة أفرِشة عَرْضُها أربع أذرع؛ فأصبح ليلةَ بنى بها عن تسعة. فلقيته مولاة لها فقالت: أبا حفص، فديتُك! قد كَملتَ في كلّ شيء حتى في هذا. وقيل: إنه لما تزوّجها حمل إليها ألف ألف درهم، خمسمائة ألف مهر، وخمسمائة ألف هديّة، وقال لمولاتها: لكِ عليّ ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة، وأمر بالمال فحُمِل فأُلْقِي في الدار وغُطّيَ بالثّياب؛ وخرجت عائشة فقالت لمولاتها: ما هذا؟ أفرشٌ أم ثيابٌ؟ قالت: أُنظري إليه؛ فنظرت فإذا هو مال، فتبسّمت. فقالت الجارية: أجَزاءُ من حملَ هذا المال أن يَبيت عَزَبًا[٣]! قالت: لا والله، ولكن لا يجوز دخولُه إلا بعد أن أتزيّن له وأستعدّ. قالت: وماذا؟ فوالله لَوَجْهُك أحسنُ من كلّ زينة وما تَمُدّين يديك إلى طِيب أو ثوب أو مال أو فراش إلّا وهو عندك، وقد عزَمتُ عليك أن تأذني له. فقالت: افعلي. فذهبت إليه فقالت له: بِتْ بنا الليلةَ. فجاءهم عند العِشاء الآخرة فأُدْنِي إليه طعام فأكل الطعام كلَّه حتى أعرى الخوانَ[٤] وغسل يده وسأل عن المُتَوَضّأ[٥] فأُخبر به، فقام فتوضّأ وقام يصلّي حتى ضاق صدري ونمتُ، ثم قال: أعليكم آذَن؟ قلت: نعم فادْخُل، فأدخلتُهُ وأسبلتُ السّتر عليهما. فلما أصبحنا وقفتُ على رأسه فقال: أتقولين شيئًا؟ قلتُ: نعم والله ما رأيت مثلك! فضحك وضرب بيده على منكِب عائشة وقال لها: كيف رأيتِ ابنَ عمّك؟ فضحكت وغطّت وجهها وقالت: [من الرمل]

قـد رأينـاك فـلـم تَـحْـلُ لـنـا وبـلـونـاك[٦] فـلـم نَـرْضَ الـخـبَـرْ

ومكثت عائشةُ عند عمرَ بنِ عبيد الله ثمانيَ سنين حتى مات سنة اثنتين وثمانين. ولما مات ندبته قائمةً، ولم تندُب أحدًا قبله من أزواجها إلّا جالسة. فقيل لها في ذلك، فقالت: إنه كان أكرَمهم عليّ وأمسَّهم بي رَحِمًا، فأردتُ ألّا أتزوّج بعده. وكانت المرأة إذا ندبت زوجَها قائمةً لا تَتزوّج بعده أبدًا. ولم تتزوّج عائشةُ بنتُ طلحة بعد زوجِها عمر بنِ عبيد الله.

---

(١) المبسور: المقطب العابس. والمطحول: الذي فيه طحلة، وهي الغُبرة والسواد، أو هو الذي ضخم طحاله.
(٢) بنى عليها بالحيرة: تزوّجها ودخل عليها بالحيرة، موقع في العراق قرب النجف.
(٣) العزب: بدون زوج.
(٤) الخوان: ما يوضع فوق المائدة.
(٥) المتوضّأ: مكان الوضوء والغسل.
(٦) بلوناك: جرّبناك.

ومن أخبار عائشة بنتِ طلحة أيضًا ما رواه أبو الفرج الأصبهانيّ بسنده إلى يزيد بن عِياض، قال:

استأذنت عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية عبدَ الملك في الحجّ، فأذِن لها وقال: ارفعي حوائجك واستَظْهِري، فإن عائشة بنت طلحة تَحُجّ، ففعلت وتجهّزت بهيئة جَهَدت فيها. فلما كانت بين مكّة والمدينة إذا موكِبٌ قد جاء فضَغَطها وفرّق جماعتها؛ فقالت: أرى هذه عائشةَ بنت طلحة، فسألت عنها، فقالوا: هذه جاريتها. ثم جاء موكِب آخر أعظم من ذلك، فقالوا: عائشة عائشة، فضَغَطَهم فسألت عنها، فقالوا: هذه ماشِطتُها[١]. ثم جاءت مواكبُ على هذا لحاشيتها، ثم أقبلت في ثلاثمائة راحلة عليها القِباب والهوادج؛ فقالت عاتكةُ: ما عند الله خير وأبقى. قال: ووفَدَت عائشةُ بنت طلحة على هشام بن عبد الملك، فقال لها: ما أوفدك؟ قالت: حبَسَتِ السماء مطرَها ومنع السلطان الحقَّ. قال: فأنا أصِل رحمك وأعرف حقَّك. ثم بعث إلى مشايخ بني أُميّة فقال: إن عائشة عندي فأسمُروا عندي الليلة فحضروا، فما تذاكروا شيئًا من أخبار العرب وأشعارها وآثارها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجمٌ ولا غار[٢] إلا أسمَتْه. فقال لها هشام: أمّا الأوّل فلا أنكره، وأمّا النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتُه عن خالتي عائشة رضي الله عنها؛ فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة.

قال: ولما تأيّمت[٣] عائشة كانت تُقيم بمكّة سنةً وبالمدينة سنةً، وتخرج إلى مالٍ لها بالطائف عظيم وقصرٍ لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشِيّات، فتتناضل[٤] بين يديها الرُّماةُ، فمرّ بها النُّمَيْري الشاعر[٥]، فسألت عنه فانتسب لها؛ فقالت: ائْتُوني به، فجِيء به. فقالت له: أَنْشِدني مما قلتَ في زينب، فامتنع وقال: بنتُ عمّي وقد صارت عظامًا بالية. قالت: أقسمتُ عليك لمّا فعلت؛ فأنشدها قوله: [من الطويل]

نَـزَلْنَ بـفَـخٍّ[٦] ثـم رُحْـنَ عـشِـيَّـةً ... يُـلَـبِّـيـن لـلرحـمـٰن مُـعْـتَـمِـراتِ[٧]

(١) ماشطتها: التي تعنى بتمشيطها وتسريح شعرها.
(٢) غار: غاب. (٣) تأيمت: صارت أيِّمًا، بدون زوج.
(٤) تتناضل: يرمي بعضهم بعضًا بالنّبال.
(٥) النميري: هو أبو جندل النميريّ، من شعراء العصر الأموي. غلب عليه لقب الراعي لوصفه الإبل. هجاه جرير. مات سنة ٧٣٨ م.
(٦) فخّ: اسم موضع بمكّة. (٧) معتمرات: حاجّات العمرة.

يُخَمِّرنَ[١] أطرافَ الأكفّ من التّقى ويَخرجن جُنْحَ اللّيل مُعْتَجِراتِ[٢]
ولما رأت ركب النُّمَيْرِيّ[٣] راعها وكنّ مِنَ أنْ يَلْقَيْنه حَذِرات
تضوّع مِسْكًا[٤] بطنُ نَعْمانَ[٥] أنْ مَشَتْ به زينبٌ في نِسوةٍ خَفِراتِ[٦]

وزينبُ هذه هي زينبُ بنتُ يوسفَ الثَّقفيّ أختُ الحجّاج، وكان النُّميريُّ يهواها ويُشبّب بها، وله معها أخبارٌ يطول شرحُها ليس هذا موضع إيرادها ـ قال: فقالت له عائشة لما أنشدها هذا الشعر: والله ما قلتَ إلّا جميلًا، ولا وصفتَ إلا كرمًا وطِيبًا ودينًا وتُقى، أعطُوه ألف درهم. فلما كانت الجمعةُ الأخرى تعرّض لها، فقالت: عليّ به؛ فجاء فقالت له: أنشدني من شعرك في زينب؛ قال: فأُنْشِدُكِ من قول الحارث فيك. فوثب مواليها إليه، فقالت: دعوه فإنه أراد أن يَستقِيد[٧] لابنة عمّه، هاتِ؛ فأنشدها: [من الكامل]

ظَعَنَ[٨] الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ وغدا بلبّك[٩] مَطْلَع الشرقِ
وتَنُوء[١٠] تُثْقِلُها عَجِيزتُها[١١] نهضَ الضعيف ينوء بالوَسْق[١٢]
ما صبّحت زوجًا بطلعتها إلا غدا بكواكب الطَّلْقِ[١٣]
بيضاءُ من تَيْم كَلِفتُ بها هذا الجنونُ وليس بالعِشق

فقالت: والله ما ذكر إلّا جميلًا، ذكر أني إذا صبّحتُ زوجًا بوجهي غدا بكواكب الطَّلْق، وأني غدوتُ مع أمير تزوّجني إلى الشرق، أعطوه ألف درهم واكسوه حُلّتين ولا تَعُد لإتياننا يا نميريّ؛ والله أعلم، ولنرجع إلى أخبار المغنّين.

ذكر أخبار محمد بن عائشة

يُكنَّى أبا جعفر ولم يكن له أبٌ يعرف فنُسب إلى أُمّه؛ وكان يزعم أن اسم أبيه جعفر. وعائشة أمّه مولاةٌ لكَثِير بن الصَّلْت الكِنديّ حليفِ قريش، وقيل: هي مولاة

(١) يخمّرن: يغطّين بالخمار.
(٢) معتجرات: لابسات على رؤوسهنّ العجر، وهي الأثواب ملفوفة كالعمائم.
(٣) النميري: الشاعر الراعي النميري.
(٤) تضوّع مسكًا: فاح بالمسك.
(٥) بطن نعمان: اسم علم بعينه. خفرات: حيّيات.
(٦) خفرات: حيّيات.
(٧) يستقيد: يثأر.
(٨) ظعن: ارتحل.
(٩) لبّك: عقلك.
(١٠) تنوء: تعجز.
(١١) عجيزتها: مؤخرتها.
(١٢) الوسق: الحمل.
(١٣) كواكب الطلق: كواكب السعد.

لآل المطلب بن أبي وَداعة السَّهْمي. وقال ابن عائشة ـ وقد سأله الوليد بن يزيد فقال: يا محمد أَلِبغْيَةٍ[١] أنت؟ ـ: كانت أمي يا أمير المؤمنين ماشطةً وكنت غلامًا، وكانت إذا دخلت إلى موضع قالت: ارفعوا هذا لابن عائشة، فغلَبت على نسبي. قالوا: وكان ابن عائشة يفتِنُ كلَّ مَن سمعه، وكان فتيان من المدينة قد فسدوا في زمانه بمحادثته ومجالسته. وأخذ عن مَعْبد ومالك بن أبي السَّمْح، ولم يموتا حتى ساواهما على تقديمه لهما واعترافه بفضلهما. وكان تيّاهًا[٢] سيّىء الخُلُق، إن قال له إنسان: تغنَّ قال: أَلِمثلي يقال هذا! فإن غنّى وقال له إنسان: أحسنت، سكت؛ فكان قليلًا ما يُنتفع به.

وكان ابن عائشةَ مُنْقَطِعًا إلى الحسنِ بن الحسن، وكان الحسن مُكرِمًا له، فسأله الحسن أن يخرج معه إلى البُغَيْبِغَة[٣]، فامتنع ابنُ عائشة؛ فأقسم عليه وأظهر الجِدّ. فلما عاين ما ظهر عليه قال: أخرُج طائعًا لا كارِهًا؛ فأمر له ببغلة فركِبها ومَضَيا إلى البُغَيْبِغة، فنزلا الشِّعبَ[٤] ثم أكلوا. وقال له: غنِّني، فاندفع فغنّاه صوتًا فاستحسنه. فقال ابن عائشة: والله لا غنّيتُك في يومي هذا شيئًا، فأقسم الحسنُ ألّا يفارقَ البغيبغةَ ثلاثةَ أيام. فاغتمّ ابن عائشة ليمينه ونَدِم، فلما كان في اليوم الثاني قال له: غَنِّ فقد برّت يمينُك؛ فنظر إلى ناقةٍ تَقْدُم جماعةَ إبلٍ فاندفع يغنّي: [من المتقارب]

تَـمُـرّ كـجَـنْـدلـةِ[٥] الـمِـنـجـنِـيـــ ـــقِ[٦] يُرْمى بها السُّورُ[٧] يوم القتال

وهي أبيات لأُميّةَ بن أبي عائذٍ الهذليّ يصف حمارًا وحشيًّا؛ والبيت «يمر» بالياء.

وقيل: سال العقيق[٨] مرّةً فدخل عَرْصَةَ[٩] سعيد بن العاص الماء حتى ملأها، فخرج الناس إليها، وخرج ابن عائشة فجلس على قرن البئر. فبينا هم كذلك إذ طلع الحسن على بغلة ومعه غلامانِ أسودانِ، فقال لهما: امضِيا رويدًا حتى تَقِفا بأصل القَرْن الذي عليه ابنُ عائشة، ففعلا ذلك. ثم ناداه الحسن: كيف أصبحْتَ يا بن عائشة؟ قال: بخير. قال: انظر مَنْ تحتك، فنظر فإذا العَبْدانِ. قال: أتعرفهما؟ قال:

---

(١) أَلِبغية: أي أَلِحاجة أتيت؟
(٢) تياهًا: مفتخرًا متكبّرًا ومتبخترًا.
(٣) البغيبغة: اسم موضع بعينه.
(٤) الشعب: المنفرج بين جبلين.
(٥) الجندلة: الرمي بالجندل والحجارة.
(٦) المنجنيق: آلة تضرب بها الحجارة الكبيرة، وهي الصرّادة.
(٧) السور: الحائط.
(٨) العقيق: واد فيها ماء قريب من المدينة.
(٩) العرصة: باحة الدار.

نعم، قال: فهما حُرّانِ لئن لم تُغَنِّني مائة صوت لآمرنّهما بطَرْحك في البئر، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديهما. فاندفع ابن عائشة وغنّى بشعر الهُذَليّ(١): [من مجزوء الوافر]

ألَا للهِ دَرّك مِـــــنْ فـتَـى قـومٍ إذا رَهِـبُـوا
وقـالـوا مَـنْ فـتًـى لـلحـرْ بِ يَـرْقـبُـنـا ويَـرْتَـقِـب
فـكـنـتَ فـتـاهـمُ فـيـهـا إذا تُـدْعَـى لـهـا تَـثِـبُ
ذكـرتُ أخـي فـعـاودنـي صُـداعُ الـرأس والـوَصَـبُ(٢)
كـمـا يَـعـتـادُ ذاتَ الـبـوّ(٣) بـعـد سـلوّهـا الـطَّـربُ
عـلى عـبـد بـن زُهْـرةَ بـتُّ طـول الـلـيـل أنـتـحـبُ

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه إلى حمّاد الراوية(٤):

أن الوليد بن يزيد استقدمه من العراق إلى الشام على دَوابّ البريد، وكان ممّا حكاه عنه قال: قَدِمتُ عليه فأذِن لي، فدخلتُ فإذا هو على سريرٍ مُمهّد وعليه ثوبانِ أصفرانِ وعنده معبدٌ ومالك بن أبي السَّمْح وأبو كامل مولاه، فاستنشدني: [من الكامل]

* أمِـنَ الـمـنـونِ ورَيْـبِـهـا تـتـوجّـعُ *

فأنشدتُه حتى أتيتُ على آخرها، ثم قال: يا مالك، غنّني: [من مجزوء الوافر]

ألَا هـل هَـاجَـك الأظـعَـانُ(٥) إذ جـاوَزْنَ مُـطَّـلَحـا

فغنّاه، ثم قال: غنّني: [من البسيط]

جَـلَا(٦) أُمـيّـةُ عـنّـي كـلَّ مَـظْـلِـمـةٍ سهلَ الحجاب وأَوْفَى بالذي وَعَدَا

---

(١) الهذلي: هو أبو ذؤيب الهذلي، الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم. اشترك في فتح إفريقية. مات سنة ٦٤٨ م.
(٢) الوصب: التعب والفتور في البدن.
(٣) البوّ: جلد ولد الناقة يحشى تبنًا ويقرّب من الناقة التي فصل عنها ابنها.
(٤) حماد الراوية: ولد في الكوفة، وتوفي ببغداد سنة ٧٧٢ م. حفظ الشعر الجاهلي والإسلامي وأيام العرب ورواها. له الفضل في جمع المعلّقات الجاهلية.
(٥) الأظعان: جماعة الراحلين. (٦) جلا: أزال.

فغنّاه. ثم قال: غنِّني: [من الوافر]

أتَـنْـسَـى إذ تُـودِّعُـنـا سُـلَيْـمَـى بِفرعِ بَشَامةٍ، سُقِي البَشامُ![1]

فغنّاه؛ ثم أتاه الحاجبُ فقال: يا أمير المؤمنين، الرجلُ الذي طلبت بالباب، فأذِن له فدخل شابٌّ لم أرَ أحسنَ وجهًا منه. فقال له: غنِّني: [من الرمل]

وهـي إذ ذاك عـلـيـهـا مِـئْزرٌ[2] ولـهـا بـيـتُ جَـوارٍ مِـن لُعَـب

فغنّاه، فنبذ إليه الثوبين، ثم قال: غنِّني: [من مجزوء الكامل]

طـاف[3] الـخـيـالُ فـمـرحـبًا ألـفًـا بـرؤيـة زيـنـبـا

فغضِب معبدٌ وقال: يا أمير المؤمنين، إنّا مُقْبِلون عليك بأقْدارنا وأسناننا وإنك تركتنا بمَزْجَر الكلب[4] وأقبلتَ على هذا الصبيّ. فقال: يا أبا عبّاد، ما جهِلتُ قدرَك ولا سنَّك، ولكن هذا الغلام طَرحني في مثل الطَّنَاجير من حَرارة غِنائه. قال حمّاد: فسألت عن الغلام فقيل لي: هو ابن عائشة.

وحُكِي عن شيخ من تَنُوخ[5] قال: كنتُ صاحبَ سِتْر الوليد بن يزيد، فرأيت ابن عائشة عنده وقد غنّاه: [من الكامل]

إنّـي رأيـتُ صـبـيـحـةَ الـنَّـفْـر[6] حُـورًا[7] نَـفَـيْـن عـزيـمـةَ الـصـبـرِ

مـثـلَ الـكـواكـب فـي مـطـالِعـهـا بـعـد الـعِـشـاء أطَـفْـن بـالـبـدرِ

وخـرجـتُ أبـغِـي الأجـرَ مُـحْـتَـسِـبًا فـرجَـعـتُ مـوفـورًا مـن الـوِزْرِ

فطرب الوليد حتى كفر وألْحد، وقال: يا غلام، اَسْقِنا بالسماء السابعة، ثم قال: أحسنتَ والله يا أميري، أعِد بحقّ عبد الشمس فأعاد، ثم قال أحسنت يا أميري والله، أعِد بحقّ أميّة فأعاد، ثم قال: أعِد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسَه،

---

(١) البشام: شجر طيّب الريح والطعم يستاك بورقه، لا ثمر له، إذا قطع غصنه أو ورقه سال منه لبن أبيض، والواحدة منه البشامة.

(٢) المئزر: الثوب يؤتزر به. (٣) طاف: زار.

(٤) بمزجر الكلب: أي بمكان قريب جدًا.

(٥) تنوخ: قبيلة عربية من الحيرة، انتقلت إلى بلاد حلب، منها أمراء لبنان التنوخيّون الذين عرفوا بأمراء العرب أو البحتريون.

(٦) النفر: يوم انتقال الحجيج من عرفات إلى مزدلفة فمنًى.

(٧) الحور: صفة للجواري والنسوة اللواتي في عيونهنّ حور، وهو اشتداد سواد العين وبياضها.

فقال: أعِدْ بحياتي فأعاده؛ فقام فأكبّ عليه، فلم يَبْق عضوٌ من أعضائه إلّا قبّله؛ ثم نَزع ثيابه فألقاها عليه وبقي مجرّدًا إلى أن أتَوْه بمثلها، ووهب له ألف دينار وحمَله على بغلة وقال: اركبها بأبي أنتَ وانصرِفْ، فقد تركتني على مثل المِقْلَى من حرارة غنائك، فركِبها على بساطه وانصرف.

وحُكِي أيضًا أن ابن عائشة انصرف من عند الوليد وقد غنّاه: [من الوافر]

أبعدَكَ مَعْقِلًا[1] أرجو وحِصنًا قَدَ اعيتني المعاقلُ والحصونُ

فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارَةِ[2] القصّار[3] كسوةً، فبينا ابن عائشة يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادي القُرى، وكان يَشتهي الغناءَ ويشرب النبيذَ، فقال لغلامه: مَن هذا الراكب؟ قال: ابنُ عائشة المغنّي، فدنا منه فقال: جُعلت فِداءك! أنتَ ابن عائشة أمّ المؤمنين؟ قال: لا أنا مولًى لقريش وعائشةُ أُمّي، وحسبُك هذا. قال: وما هذا الذي أراه بين يديك من المال والكُسْوة؟ قال: غنّيتُ أمير المؤمنين صوتًا فأطربه فكفَر وترك الصلاةَ وأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة. قال: جُعلتُ فداءك! فهل تَمنّ عليّ أن تُسْمِعَني ما أسمعتَهُ إيّاه؟ فقال: ويلك! أمثلي يُكلّم بهذا في الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: الحقني بالباب. وحرّك ابنُ عائشة بغلتَه لينقطعَ عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفَرَسَيْ رِهانٍ[4]. ودخل ابنُ عائشةَ فمكث طويلًا طمَعًا أن يضجَرَ فينصرفَ، فلم يفعل حتى أعياه. فقال لغلامه: أدخِله، فلما دخل، قال له: ويلك! مِن أين صبّك اللهُ عليّ! قال: أنا رجل من أهل وادي القُرى أشتهي هذا الغناءَ. فقال له: هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرفُ بها إلى أهلك. فقال له: جُعِلتُ فداءك! والله إن لي بُنيّةً ما في أُذنها ـ علم الله ـ حَلْقةٌ من الوَرِق فضلًا عن الذهب، وإن لي زوجةً ما عليها ـ شهد الله ـ قميصٌ، ولو أعطيتَني جميعَ ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الحالة والفقر اللّذين عَرَّفْتُكهما وأضعفتَ لي هذا لكان الصوتُ أعجَب إليّ. فتعجّب ابن عائشة وغنّاه الصوت، فجعل يحرّك رأسه ويطرَب له طربًا شديدًا حتى ظنّ أن عنقه

(١) المعقل: المكان الحصين يتحصّن فيه.
(٢) الكارة: ما يجمع ويشدّ ويحمل على الظهر من طعام أو ثياب.
(٣) القصّار: من يقصر الثياب قصارة، أي يدقّها وينظّفها.
(٤) فرسا الرهان: الفرسان اللذان يراهن على أيّ منهما يسبق الآخر.

ستَنْقصف؛ ثم خرج من عنده ولم يَرْزَأه[١] شيئًا. وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ابنَ عائشة عنه، فجعل يغيب عن الحديث؛ فلم يزل به حتى صدَقَه الحديثَ، فطلب الرجلَ، فطُلِب حتى أُحْضِر إليه ووصله صِلةً سنيّةً وجعله من ندمائه، ووكّله بالسَّقْي؛ فلم يزل معه حتى قُتل رحمه الله.

وعن عليّ بن الجهم[٢] الشاعر، قال: حدّثني رجل أنّ ابن عائشة كان واقفًا بالموسِم مُهَجِّرًا[٣]، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال: ما يُقيمُك هاهنا؟ قال: إني أعرف رجلًا لو تكلّم لحبس الناسَ هٰهنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجىء. فقال له الرجل: ومن ذاك؟ قال: أنا، ثم اندفع يغنّي: [من الوافر]

جَرَتْ سُنُحًا[٤] فقلت لها أجِيزِي ... نَوًى مشمولةً فمتى اللِّقاءُ
بنفسي مَن تَذَكُّره سَقَامٌ ... أُعَانِيهِ ومَطْلَبُهُ عَناءُ[٥]

قال: فحبس الناسَ واضطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها، فكادت الفتنة أن تقع. فأُتِيَ به هِشام بن عبد الملك، فقال له: يا عدوّ الله! أردتَ أن تَفْتِنَ الناسَ! قال: فأمسك عنه وكان تيّاهًا؛ فقال له هشام: ارْفُقْ بتيهِك. فقال: يَحِقّ لمن كانت هذه مقدرتَه على القلوب أن يكون تيّاهًا! فضحِك هِشامٌ وخلّى سبيله.

واختُلِف في وفاة ابن عائشة وسببها، فقيل: كانت وفاتُه في أيام هشام بن عبد الملك، وقيل: في أيام الوليد بن يزيد وهو أشبه، لأنه قد تقدّمَ أنه نادم الوليدَ وغنّاه. والذي يقول: إنّه تُوفّي في أيام هشام يزعُم أنه نادمَ الوليدَ في أيام ولايته العهدَ. وكانت وفاتُه بذي خُشُبٍ، وهو على أميال من المدينة. قيل: كان سببُ وفاته أن الغمرَ بن يزيد خرج إلى الشام؛ فلمّا نزل قصرَ ذي خشبٍ جلس على سطحه، فغنّى ابنُ عائشة صوتًا طرِب له الغمر، فقال: أعِدْه فأبَى، وكان لا يردّد صوتًا لسوء خُلُقه. فأمر به فطُرِح من أعلى السطح فمات. وقيل: بل قام من اللّيل يبول وهو سكرانُ فسقط من السطح فمات. وقيل: بل كان قد رجع من عند الوليد بن يزيد، فلما قَرُب من المدينة نزل بذي خُشُب، وكان والي المدينة إبراهيمَ بن هشام المخزوميّ وكان في قصره هناك، فدعاه فأقام عنده ذلك اليوم. فلما أخذوا في الشّرب

(١) يرزأه شيئًا: يصيب منه خيرًا.
(٢) علي بن الجهم: الشاعر العباسي المعروف، سبق التعريف به.
(٣) مهجّرًا: واقفًا في الهاجرة، وهي اشتداد الحرارة في وسط النهار.
(٤) سنحًا: عرضًا. (٥) العناء: السقم والتعب.

أخرج المخزوميّ جوارِيَه، فنظر إلى ابن عائشة وهو يعمِز جاريةً منهنّ؛ فقال لخادمه: إذا خرج ابن عائشة يريد حاجتَه فارْمِ به من القصر، وكانوا يشربون في سطح القصر. فلما قام رماه الخادم، فمات. وقيل: بل أقبل من الشام فنزل بقصر ذي خُشُب فشرب فيه ثم صَعِد إلى أعلى القصر فنظر إلى نسوة يمشِين في ناحية الوادي، فقال لأصحابه: هل لكم فيهنّ؟ فقالوا: وكيف لنا بهنّ! فلبس مُلاءةً مدلوكةً ثم قام على شُرْفة من شُرُفات القصر وتغنّى بشعر ابن أُذَيْنة: [من الهزج]

وقد قالت لأترابٍ[١] لها زُهْرٍ[٢] تلاقَيْنا
تعالَيْن فقد طاب لنا العَيْشُ تعالَيْنا

فأقبلن عليه، فطرِب واستدار فسقط فمات، عفا الله تعالى عنه ورحمه. وقيل: بل مات بالمدينة، وأوّل هذه الأبيات: [من الهزج]

سُلَيْمَى أزمعت[٣] بَيْنا[٤] وأين لقاؤُها أينا
وقد قالت لأترابٍ لها زُهْرٍ تلاقينا
تعالَيْن فقد طاب لنا العيش تعالينا
فأقبلن إليها مُسْـ ـرِعات يتهادينا
إلى مثل مَهاة[٥] الرمـ ـل تكسو المجلس الزَّيْنَا
إلى خَوْدٍ[٦] مُنعَّمة حَفَفْنَ[٧] بها وفَدَّينا
تمنَّين مُناهنّ فكنّا ما تمنّينا

ذكر أخبار ابن مُحْرِز

هو مسلم، وقيل: عبد الله بن مُحْرز، ويُكْنى أبا الخطاب. مولى عبد الدار بن قُصَيّ. وكان أبوه من سَدَنة[٨] الكعبة، وأصلُه من الفرس. وكان يسكن المدينةَ مرّةً ومكة مرّةً. فكان إذا أتى المدينةَ أقام بها ثلاثة أشهر يتعلّم الضربَ من عَزَّة الميلاء، ثم يرجع إلى مكة فيُقيم بها ثلاثةَ أشهر. ثم شَخَص إلى فارس فتعلّم ألحانَ الفرس وأخذ غناءَهم، ثم صار إلى الشام فتعلّم ألحان الروم وأخذ غناءهم. وأسْقَط من ذلك

(١) الأتراب: الرفيقات.
(٢) زهر: بيض حسان.
(٣) أزمعت: عزمت.
(٤) البَيْن: الرحيل والفراق.
(٥) المهاة: البقرة الوحشية.
(٦) الخود: الفتاة الشابة الحسناء.
(٧) حففن: أحطن.
(٨) سدنة: حَفَظة.

ما لا يُسْتحسن من غناء الفريقين ونغمهم وأخذ محاسنَها، فمزَج بعضَها ببعض وألّف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يُسْمع مثلُه. وكان يقال له صَنَّاج[١] العرب.

وقيل: إنّه أوّل من أخذ الغناء عن ابن مِسْجَح، وهو أوّل من غنّى بالرَّمَل وما غُنّي قبله. وكان ابنُ محرز قليلَ المُلَابَسةِ للناس، فأخمل ذلك ذكرَه. وأخذ أكثرَ غِنائه جاريةٌ كانت لصديق له من أهل مكّة كانت تألفه فأخذه الناسُ عنها، ومات بعلّة الجُذام، وكان ذلك سببَ امتناعه من معاشرة الخلفاء ومخالطةِ الناس.

وحُكِي أنه رحل إلى العراق، فلما بلغ القادسيّةَ لَقِيه حُنَيْنٌ فقال له: كم منّتك نفسُك من العراق؟ قال: ألف دينار؛ قال: هذه خمسمائة دينار فخذها وانصرِف واحْلِف ألّا تعود، ففعل. فلما شاع ما فعل حنينٌ لامه أصحابُه. فقال: والله لو دخل العراق ما كان لي خبزٌ آكله ولاطُّرِحْتُ ثم سقطتُ إلى آخر الدهر. ولم أقفْ من أخبار ابن محرز على أكثر من هذا فأُورِده، والسلام.

ذكر أخبار مالك بن أبي السَّمْح

هو أبو الوليد مالك بن أبي السَّمْح، واسم أبي السمح جابر بن ثعلبةَ الطائيّ، وأمّه قرشيّةٌ من بني مَخْزوم؛ وقيل: بل أمّ أبيه [منهم]؛ وقيل فيه: مالك بن أبي السمح بن سليمان. وكان أبوه منقطعًا إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ويتيمًا في حِجْره أوصى به أبوه إليه. وكان مالكٌ أحولَ طويلًا، وأخذ الغناءَ عن جَمِيلةَ ومعبدٍ وعمرَ، وأدرك الدولة العباسيّة، وكان منقطِعًا إلى بني سليمان بن عليّ، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور.

وروى الأصفهانيّ بسنده إلى الوَرْدانيّ، قال:

كان مالك بن أبي السمح المغنّي من طيّيء، فأصابتهم حُطمة[٢] في بلادهم بالجبلين، فقدِمت به أمّه وبإخوة له وأخواتٍ أيتامٍ لا شيء لهم. وكان يسأل الناسَ على باب حمزةَ بن الزبير، وكان معبدٌ منقطعاً إلى حمزة يكون عنده في كل يوم، فسمِع مالكٌ غناءَه فأعجبه واشتهاه. وكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناءَ معبد إلى

(١) صنّاج العرب: الذي يضرب بالصّنج، الآلة الموسيقية من نحاس.
(٢) الحطمة: السنة الشديدة من القحط والجوع.

الليل، ولا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحد شيئاً ولا يَرِيم[١] موضعَه، فينصرف إلى أمّه ولم يكسب شيئًا فتضربه، وهو مع ذلك يترنَّم بألحان معبد فيؤدّيها نغمًا بغير لفظ. وجعل حمزةُ كلما غدا أو راح رآه ملازِمًا لبابه؛ فقال لغلامه يومًا: أدْخِل هذا الغلامَ إليّ فأدخله الغلام إليه؛ فقال له حمزة: من أنت؟ قال: غلام مِن طيىء أصابتنا حُطْمَة بالجبلين فهبطنا إليكم ومعي أُمٌّ لي وإخوةٌ، وإني لزمتُ بابَك فسمِعت من دارك صوتًا أعجبني ولزِمت بابك من أجله. قال: فهل تعرف منه شيئًا؟ قال: أعرف لحنه كلَّه ولا أعرف الشعر. فقال: إن كنت صادقًا إنك لفَهِمٌ. ودعا بمعبد فأمره أن يغنّي صوتًا فغنّاه، ثم قال لمالك: هل تستطيع أن تقوله؟ قال: نعم، قال: هاته؛ فاندفع فغنّاه فأدّى نغمه بغير شعر، يُؤدّي مَدّاتِه وليّاتِه وعَطَفاتِه ونَبَراته ومتعلّقاته لا يَخْرِم[٢] منه حرفًا. فقال لمعبد: خذ هذا الغلام إليك وخرِّجه فَلَيكونَنّ له شأنٌ. قال معبد: ولِمَ أفعل ذلك؟ قال: لِتَكون محاسنُه منسوبة إليك وإلّا عداك إلى غيرك فكانت محاسنُه منسوبةً إليه. فقال معبد: صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتني به. قال حمزة لمالك: كيف وجدتَ مُلازمَتَك لبابنا؟ قال: أرأيتَ إن قلتُ فيك غير الذي أنتَ له مستحقٌ من الباطل أكنتَ ترضى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يسرّك أنّ تُحْمَد بما لم تفعل؛ قال: نعم. قال: فوالله ما شبِعت على بابك شَبْعةً قط، ولا انقلبتُ إلى أهلي منه بخير، فأمر له ولأُمّه ولإخوتِه بمنزل وأجرى عليهم رِزْقًا وكُسوةً وأمر لهم بخادم يخدُمهم وعبدٍ يسقيهم الماء، وأجلس مالكًا معه في مجالسه، وأمر معبدًا أن يطارِحه فلم يَنْشَب أن مهَر. فخرج مالك يومًا فسمع امرأة تنوح على زيادةَ الذي قتله هُدْبَةُ بن خَشْرم ـ والشعرُ لأخي زيادة ـ : [من الطويل]

أبعد الذي بالنَّعْف[٣] نعفِ كُوَيْكِب[٤] ... رهينةَ رمسٍ[٥] ذي تُرابٍ وجَندلِ[٦]
أُذَكَّر بالبُقيا على من أصابني ... وذلك أنّي جاهِدٌ غيرُ مُؤْتَلي
فلا يَدْعُني قومي لزيدِ بن مالكٍ ... لئن لم أُعجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلّا أَنلْ ثأري من اليوم أو غدٍ ... بنِي عمّنا[٧] فالدّهرُ ذو مُتطوَّلِ
أَنَخْتُمْ[٨] علينا كَلْكَلَ[٩] الحرب مرّةً ... فنحن مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ

(١) لا يريم: لا يبرح أو يغادر.
(٢) يخرم: ينقص.
(٣) النعف: منحدر الجبل باتجاه الوادي، السفح.
(٤) كويكب: اسم موضع بعينه.
(٥) الرمس: القبر.
(٦) الجندل: الحجارة.
(٧) بني عمنا: نصبت على الاختصاص.
(٨) أنختم: حططتم.
(٩) الكلكل: الصدر.

فغنّى في هذا الشعر لحنَيْن، أحدُهما نَحَا فيه نحو المرأة في نَوْحها ورقَّقه وأصلحه، والآخرُ نحا فيه نحو معبد في غنائه. ثم دخل على حمزة فقال له: أيّها الأمير، إني قد صنعتُ غناءً في شعر سمعتُ أهلَ المدينة يُنْشِدونه وقد أعجبني، فإن أذِن الأميرُ غنّيتُه. قال: هاتِ؛ فغنّى اللحنَ الذي نحا فيه نحو معبدٍ؛ فطرب حمزة وقال: أحسنتَ يا غلام، هذا الغِناءُ غناءُ معبدٍ بطريقته. قال: لا تَعْجَل أيها الأمير واسمع مِنّي شيئًا ليس من غناء معبد ولا طريقتهِ؛ فغنّاه اللحنَ الذي تشبّه فيه بنوح المرأة. فطرِب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلّةً كانت عليه قيمتُها مائتا دينار. ودخل معبدٌ فرأى حُلّة حمزة على مالكٍ فأنكرها. وعَلِم حمزةُ بذلك فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكًا فغنّاه الصوتين، فغضِب معبد لمّا سمِع الصوت الأوّل وقال: قد كرهت أن آخُذ هذا الغلام فيتعلّم غنائي فيدّعِيه لنفسه. فقال حمزة: لا تَعْجَلْ واسمه غِناءً صنعه ليس من شأنك ولا غنائك، وأمرَه أن يغنّي الصوتَ الآخر فغنّاه، فأطرق معبدٌ. فقال له حمزة: والله لو انفرد بهذا لضَاهَاك[1] ثم تزايد على الأيام، وكلّما كَبِر وزاد شِخْتَ أنت وانتقصتَ، فلأن يكون منسوبًا إليك أجملُ. فقال له معبدٌ وهو مُنْكَسِر: صدق الأمير. فأمر حمزةُ لمعبدٍ بخلعة من ثيابه وجائزة حتى سكَن وطابت نفسُه. فقام مالكٌ على رجليه وقبَّل رأس معبد وقال له: يا أبا عبّاد، أساءك ما سمعتَ مني؟ والله لا أُغنّي لنفسي شيئًا أبدًا ما دمتَ حيًا! وإن غلبتني نفسي فغنّيتُ في شعر استحسنتُه لا نسبتُه إلّا إليك، فطِبْ نفسًا وارْضَ عنّي. فقال له معبد: أتفعل هذا وتفي به؟ قال: إي والله وأزيد. فكان مالك إذا غنّى صوتًا وسُئِل عنه، قال: هذا لمعبد، ما غنّيتُ لنفسي شيئًا قط، وإنما آخذ غناءَ معبد فأنقُلُه إلى الأشعار وأحسّنه وأزيد فيه وأنقُص منه. وحضر مالكُ بن أبي السَّمْح عند يزيد بن عبد الملك مع معبد وابن عائشة فغنَّوْه، فأمر لكلّ واحد منهم بألف دينار.

وحُكي عن ابن الكلبيّ قال: قال الوليد بن يزيد لمعبد:

قد آذَتْنِي وَلْولَتُك هذه، وقال لابن عائشة: قد آذاني استهلالُك هذا، فاطلُبا لي رجلًا يكون مذهبُه متوسّطًا بين مَذْهَبَيْكما. فقالا له: مالك بن أبي السمح؛ فكتب في إشخاصه إليه وسائرِ من بالحجاز من المغنِّين. فلما قَدِم مالك على الوليد بن يزيد فيمن معه نَزل على الغَمْر بن يزيد، فأدخله على الوليد فغنّاه فلم يُعْجِبه. فلما انصرف قال له الغمر: إنّ أمير المؤمنين لم يُعْجِبه شيءٌ من غنائك، فقال له:

---

(١) ضاهاك: ماثلك وشاكلك.

جعلني الله فدَاك! اُطلُبْ لي الإذن عليه مرّة أخرى، فإن أعجبه شيءٌ ممّا أغنّيه وإلا انصرفتُ إلى بلادي. فلما جلس الوليد في مجلس اللّهو ذكره الغمرُ له؛ فأذن له فشرب مالكٌ ثلاث صُرَاحيّات[١] صِرْفًا[٢]، ودخل على الوليد وهو يَخْطِر[٣] في مشيته، فلما بلغ بابَ المجلس وقف ولم يُسَلِّم وأخذ بحَلْقة الباب، ثم رفع صوتَه فغنّى: [من المنسرح]

لا عيشَ إلا بمالك بن أبي السَّمْـ ـح فـلا تَـلْحَـنـي[٤] ولا تَـلُمِ
أبيضُ كالبدر أو كما يلمع الـ ـبارق في حالكِ من الظُّلَمِ
فليس يَعْصِيك إن رَشدتَ ولا يَهْتِك[٥] حقّ الإسلامِ والحُرَمِ
يُصِيبُ مِن لذّة الكرام ولا يجهل آيَ الترخيصِ في اللَّمَمِ[٦]
يا رُبّ ليلٍ لنا كحاشيةِ الـ ـبُرْدِ ويوم كذاك لم يَدُمِ
نَعِمتُ فيه ومالكَ بن أبي السّمـ ـحِ الكريمَ الأخلاقِ والشِّيَمِ[٧]

فطرِب الوليد ورفع يديه حتى بان إبطاه وقام فاعتنقه، ثم أخذ في صوته ذلك فلم يزالوا فيه أيامًا، وأجزل له العطيّةَ حين أراد الانصرافَ. قال: ولما أتى مالكٌ على قوله: «أبيض كالبدر»، قال الوليد:

أحولُ كالقِرْد أو كما يَرْقُب السّـ ـارق في حالكِ مِن الظُّلَمِ

قالوا: وكان مالكُ بن أبي السمح مع الوليد بن يزيد يوم قُتِل هو وابنُ عائشةَ. قال ابن عائشة: وكان مالكٌ من أحمق الخَلْق، فلما قُتِل الوليد قال: اهْرُبْ بنا؛ قلت: وما يُريدون منّا؟ قال: وما يؤمِّنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسَه بينهما ليحسِّنوا أمرهم بذلك!.

ذكر أخبار يونس الكاتب

هو يونسُ بن سليمانَ بنِ كُرْدِ بن شَهْرِيارَ مِن ولد هُرْمُز[٨]، مولًى لعمرو بن الزبير، ومنشؤه ومنزلُه بالمدينة، وكان أبوه فقيهًا فأسْلَمه في الديوان وكان من كُتّابه.

---

(١) الصراحيات: باطيّات الخمر وأوعيتها. والمفرد صراحية.
(٢) صرفًا: خالصةً.
(٣) يخطر: يحيس ويتبختر.
(٤) تلحني: تلمني وتلعنّي.
(٥) يهتك: يخرق.
(٦) اللمم: الذنوب الصغار.
(٧) الشيم: الأخلاق والطباع الحسنة.
(٨) هرمز: اسم خمسة من ملوك الفرس سانيين، أشهرهم هرمز الرابع والد كسرى.

وأخذ الغناءَ عن معبد وابن سريج وابن مُحْرِز والغَرِيض، وكان أكثرُ روايته عن معبد. ولم يكن في أصحاب معبد أحذقُ منه ولا أقومُ بما أُخِذ عنه منه، وله غناءٌ حسن، وصَنعة كثيرة، وشعر جيِّدٌ، وهو أوّل من دوّن الغناءَ، وله كتاب في الأغاني نسبها إلى من غنّى فيها. وخرج إلى الشام في تِجارة، فبلغ الوليد بن يزيد مكانُه فأحضره والوليدُ إذ ذاك وليُّ العهد، قال: فلمّا وصلتُ إليه سلّمتُ عليه، فأمرني بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجواري. قال يونس: فمكثنا يومَنا وليلتَنا في أمرٍ عجيب، وغنّيتُه فأُعْجِب بغِنائي إلى أن غنّيتُه: [من الخفيف]

إنْ يَعِشْ مُصْعَبٌ فنحن بخير ... قد أتانا مِن عيشنا ما نُرَجِّي[1]

ثم تنبّهتُ فقطعتُ الصوتَ وأخذتُ أعتذر من غنائي بشعرٍ في مصعب، فضحك ثم قال: إن مُصْعَبًا قد مضى وانقطع أثرُه ولا عداوة بيني وبينه، وإنما أُريد الغناء، فأمضِ الصوتَ؛ فعُدْتُ فيه فغنّيته ولم يَزل يَستعيده حتى أصبح فشرب مُصْطَحِبًا وهو يَستعيدني هذا الصوت ولا يَتجاوزه. فلما مضت ثلاثةُ أيّام قلت: جعلني الله فداك إني رجل تاجر خرجتُ مع تُجّارٍ وأخاف أن يرتحِلوا فيضيع مالي، فقال: أنت تغدو غدًا، وشَرِب باقي ليلته وأمر لي بثلاثة آلاف دينار، فحُمِلَتْ إليّ وغدوتُ إلى أصحابي، فلما استُخْلِف بعث إليّ فأتيتُه فلم أزَلْ معه حتى قُتِلَ.

ذكر أخبار حُنَيْن

هو حنينُ بنُ بَلْوَعَ الحِيرِي، واختُلف في نسبه، فقيل: هو من العِبادِيّين من تَمِيم، وقيل: إنه مِن بني الحارث بن كعب، وقيل: إنه من قوم بَقُوا من طَسْم وجَدِيس[2]، فنزلوا في بني الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم. ويُكْنى أبا كعب. وكانَ شاعراً مُغَنّيًا من فحول المُغَنِّين، وكان يَسكن الحِيرةَ ويُكْرِي[3] الجمال إلى الشام، وكان نَصْرانيًا. وعن المدائنيّ قال: كان حُنينٌ غلامًا يَحْمِل الفاكهةَ بالحِيرة، وكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيانِ ومياسيرِ أهل الكوفة وأصحاب القِيان والمُتَطرّبين ورأَوْا رشاقته وحسنَ قَدّه وحلاوتَه وخِفّةَ روحه استحلوه وأقام عندهم، فكان يَسمع الغناءَ ويُصْغِي له، حتى شدا منه أصواتًا فاستمعه الناسُ، وكان مطبوعًا حسنَ الصوت. واشتهر غناؤه وشُهِر بالغناء ومَهَر فيه وبلَغ فيه مبلغًا كبيرًا. ثم رحل إلى

---

(١) نرجّي: نطلب ونتمنّى.

(٢) طسم وجديس: من قبائل العرب البائدة، في جنوب الجزيرة العربية.

(٣) يكري: يؤجّر.

عمر بن داود الوَادِيّ وإلى حَكَم الوَادِيّ وأخذ منهما وغنّى لنفسه واستولى على الغناء في عصره، وهو الذي بذل لابن مُحْرِزٍ خمسمائة دينار حتى رجع عن العراق، كما قدّمناه في أخبار ابن محرز. وبلغ من الناس بالغناء مبلغًا عظيمًا، حتى قيل له فيما حُكي: إنك تغنّي منذ خمسين سنة فما تركتَ لكريم مالًا ولا دارًا ولا عَقارًا إلا أتيتَ عليه. فقال: بأبي أنتم! إنما هي أنفاسِي أقْسِمها بين الناس، أفتلومونني أن أُغْلِي بها الثمن.

وحكى المدائنيّ(١)، قال: حجّ هشامُ بن عبد الملك وعديلُه الأبرشُ الكلبيّ؛ فوقَف له حنينٌ بظهر الكوفة ومعه عودٌ وزامِر له، فلما مرّ به هشام عرَض له فقال: من هذا؟ قيل: حنين؛ فأمر به هشام فحُمِل في مَحْمِلٍ على جمل وعديلُه زامِرُه وسيّره أمامه، فغنّاه: [من مجزوء الوافر]

أمِن سَلْمى بِظهرِ الكو فةِ الآياتُ(٢) والطَّلَلُ
تلوح كما تلوح على جفون الصَّيْقَلِ(٣) الخِلَلُ

فأمر له هشام بمائتي دينار وللزّامر بمائة دينار.

وحُكي أن خالد بن عبد الله القَسْري(٤) حرّم الغناءَ بالعراق في أيّامه ثم أذِن للناس يومًا في الدخول عليه عامّةً؛ فدخل عليه حنين في جملة الناس ومعه عودٌ تحت ثيابه فقال: أصلح الله الأمير! كانت لي صِناعةٌ أعود بها على عيالي فحرّمها الأميرُ فأضَرّ ذلك بي وبهم. فقال: وما كانت صِناعتُك؟ فكشف عن عوده وقال: هذا. فقال له خالد: غَنِّ؛ فعرك أوتارَه(٥) وغنّى: [من الخفيف]

أيّها الشّامتُ المُعَيِّر بالدهـ ـر أأنتَ المُبَرَّأُ الموفورُ
أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيّـ ـام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ
من رأيتَ المنونَ خَلّدن أم مَنْ ذا عليه مِنْ أن يُضامَ خَفيرُ(٦)

---

(١) المدائنيّ: علي بن محمد، المؤرخ المشهور، عاش في بغداد. له مؤلفات في المغازي والسيرة النبويّة. عنه أخذ الطبري والبلاذري. مات سنة ٨٣٩ م.
(٢) الآيات: العلامات. (٣) الصيقل: السيف.
(٤) خالد بن عبد الله القسري، أمير العراق في عهد هشام بن عبد الملك. عزل من الإمارة، ثم سجن فمات في السجن سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م.
(٥) عرك أوتاره: شدّها و«دوزنها».
(٦) هذا الشعر لعدي بن زيد العبادي، الشاعر الجاهلي، قالها للنعمان بن المنذر بن ماء السماء، =

قال: فبكى خالد، وقال: قد أذِنتُ لك وحدك خاصّةً، ولا تجالِس سفيهًا ولا مُعَرْبِدًا. فكان إذا دُعِيَ قال: أفيكم سفيه أو معربِدٌ؟ فإذا قالوا: لا، دخل.

وقال بشر بن الحسين بن سليمان بن سَمُرَة بن جُنْدب: عاش حنين بن بَلْوَع مائة سنة وسبع سنين.

ذكر أخبار سِياط

هو عبدُ الله بنُ وهبٍ ويُكْنى أبا وهب، وسِياطٌ لقب غلَب عليه، وهو مَكيٌّ مولى خزاعة. كان مقدّمًا في الغناء رِوايةً وصَنعةً، مقدّمًا في الطرب، وهو أستاذ ابنِ جامعٍ وإبراهيمَ الموصليّ وعنه أخذا، وأخذ هو عن يونسَ الكاتب. وكان سياط زوجَ أمّ ابن جامع. قيل: وإنما لُقّب سِياطٌ بهذا اللقبِ لأنه كان كثيرًا ما يغنّي: [من الوافر]

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ فيها قُبيلَ الصبح آثارُ السّياطِ[1]

حُكي أن إبراهيم الموصليّ غنّى صوتًا لسِياط، فقال ابنه إسحٰق: لِمَنْ هذا الغناء يا أبت؟ قال: لِمن لو عاش ما وجد أبوك خبزًا يأكل، سِياط.

وحُكي أن سِياطًا مرّ بأبي رَيْحانةَ في يوم بارد وهو جالسٌ في الشمس وعليه سَمَلٌ[2] ثوبٍ رقيق رثّ؛ فوثب إليه أبو ريحانة المدنيّ وقال: بأبي أنت يا أبا وهب! غَنِّني صوتك في شعر ابن جُندب: [من الطويل]

فؤادي رهينٌ في هواك ومُهجتي[3] تَذوبُ وأجفاني عليك هُمولُ[4]

فغنّاه إياه، فشقّ قَميصَه، ورجع إلى موضعه من الشمس وقد ازداد بردًا وجَهْدًا. فقال له رجل: ما أغنى عنك هذا مِن شقّ قميصك؟ فقال: يا بن أخي، إن الشعر الحسن من المغنّي المحسِنِ ذي الصوت المطرِبِ أدفأُ للمقرور[5] من حمّام مُحْمًى. فقال له رجل: أنت عندي من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦]، فقال: بل أنا مِمّن قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ

= ملك الحيرة، متحدّثًا بلسان شجرة كان نزل في ظلّها مع الملك الحيري. والخفير: الحارس. ويضام: يُذلّ ويظلم.

(١) السياط: جمع سوط، وهو القضيب من جلد وغيره يُجلد به.

(٢) السمل من الثياب: الخلق البالي.

(٣) مهجتي: روحي ونفسي.

(٤) همول: سائلة منسكبة.

(٥) المقرور: البردان.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُمَر: الآية ١٨]. وقد حكيت هذه الحكاية أيضًا من طريق آخر: أنّه لمّاه غنّاه هذا الصوت شقّ قميصَه حتى خرج منه وبَقِيَ عاريًا وغُشِيَ عليه واجتمع الناسُ حوله، وسِياطٌ واقف يتعجّب مما فعل، ثم أفاق فقام إليه. فقال له سياطٌ: مالك يا مشؤوم! أيَّ شيء تريد؟ قال: غنّني بالله عليك يا سيّدي: : [من الكامل]

وَدِّع أُمَامةَ[1] حان منك رحيلُ ... إنّ الوداع لمن تُحِبّ قليل
مِثل القضيب تمايَلَتْ أعطافُه[2] ... فالرّيح تَجذِب مَتْنَه[3] فيَميل
إن كان شأنُكم الدّلال فإنّه ... حسنٌ دلالكِ يا أُمَيم[4] جميلُ

فغنّاه، فلَطم وجهه حتى خرج الدَّمُ من أنفه ووقع صريعًا. ومضى سياطٌ وحمل الناسُ أبا ريحانةَ إلى الشمس، فلما أفاق قيل له في ذلك، فقام نحو ما تقدّم. قال: ووجّه إليه سياطٌ بقميص وسراويلَ وجبّةٍ وعِمامة.

وكانت وفاةُ سياط في أيام موسى الهادي، ودخل عليه ابن جامع وقد نَزَل به الموت فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم لا تَزِدْ في غنائي شيئًا ولا تَنْقُص منه، فإنما هو ثمانيةَ عشرَ صوتًا دَعْه رأسًا برأس. وقيل: بل كانت وفاتُه فجأةً، وذلك أنه دعاه بعضِ إخوانه فأتاهم وأقام عندهم وبات؛ فأصبحوا فوجدوه مَيْتًا في منزلهم؛ فجاؤوا إلى أُمّه وقالوا: يا هذه إنا دعَوْنا ابنَكِ لِنُكرمه ونُسَرَّ بِه ونأنَس بقربه فمات فجأة، وها نحن بين يديكِ، فاحكمي ما شِئْتِ، وناشَدْناكِ الله أن لا تُعَرِّضينا للسلطان أو تدّعِي علينا ما لم نفعله. قالت: ما كنتُ لأفعل، وقد صدَقْتم، وهكذا مات أبوه فجأةً، وتوجّهتْ معهم فحملَته إلى منزله ودفنته.

ذكر أخبار الأَبْجَرِ

هو عبيد الله بنُ القاسمِ بنِ مُنَبِّهٍ، ويُكنى أبا طالب. وقيل: اسمه محمدُ بن القاسم، والأَبْجرُ لقبٌ غلَب عليه، وهو مولى لكنانةَ ثم لبني ليث بن بكر. وكان يلقّب بالحَسْحَاس، وكان مَدنيًا منشؤه مكّة أو مكيًا منشؤه المدينة. قال عَوْرَك اللِّهبيّ:

(١) أمامة: اسم المرأة.
(٢) أعطافه: جمع عطف، وهو الجانب والخصر.
(٣) المتن: الظهر.
(٤) أميم: تصغير وترخيم أمامة.

لم يكن بمكّةَ أحدٌ أظرفَ ولا أسْرى ولا أحسنَ هيئةً من الأبجر؛ كانت حُلّتُه بمائة دينار وفرسُه بمائة دينار ومركبُه بمائة دينار؛ وكان يقف بين المأْزِمينِ(١) ويرفع عَقِيرته، فيقف الناسُ له فيركب بعضُهم بعضًا. وروى الأصفهانيّ بسنده إلى إسحٰق بن إبراهيم الموصليّ قال:

جلس الأبجر في ليلة اليوم السابع من أيام الحجّ على قريب من التَّنْعيم(٢) فإذا عسكر جرّار قد أقبل في آخر الليل وفيه دوابُّ تُجْنَبُ ومنها فرس أدهمُ(٣) عليه سرجٌ حليته ذهَب، فاندفع يغنّي: [من الطويل]

عَرفتُ ديارَ الحيّ خاليةً قَفْرا كأنّ بها لمّا توهمتُها سطرا

فلمّا سمعه من في القِباب والمحامل أمسكوا وصاح صائحٌ: ويحك أعِدِ الصوتَ! فقال: لا والله إلا بالفرس الأدهم بسَرْجه ولجامه وأربعمائة دينار؛ وإذا الوليد بن يزيد صاحبُ العسكر. فنُودِي: أين منزلُك؟ ومن أنتَ؟ فقال: أنا الأبجرُ، ومنزلي على زُقاق باب الخرّازين(٤). فغدا عليه رسولُ الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتختِ ثياب وَشْيٍ وغير ذلك، ثم أُتِيَ به الوليدُ، فأقام وراح مع أصحابه عشيَّة التَّرْوِية(٥) وهو أحسنُهم هيئة، وخرج معه أو بعده إلى الشام.

وحُكي عن عمرو بن حفص بن أُمّ كلابٍ، قال:

كان الأبجرُ مولانا وكان مكيًا، وكان إذا قَدِم من مكّة نزل علينا، فقال لنا يومًا: أسمِعونا غِناء ابن عائشتكم هذا؛ فأرسلنا إليه فجمعنا بينهما في بيت ابن هبّار، فغنّى ابن عائشة؛ فقال الأبجرُ: كلُّ مملوكٍ له حرّ إن غنّيت معك إلّا بنصف صوتي، ثم

---

(١) تثنية المأزم، من الأزم، وهو العضّ. والمأزمان، اسم موضع بمكّة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرنة، وبه المسجد الذي يجمع فيه بين الصلاتين الظهر والعصر، وباختصار منهما حدود الحرم المكي الشريف، قبل عرفات. وقيل: هما جبلا مكة وليسا من المزدلفة. انظر: معجم البلدان ٤/ ٩٧.

(٢) التنعيم: موضع بمكّة في الحلّ بين مكة وسَرِف، وسمّي بهذا الاسم لأن جبلًا يقال له نعيم، من جهة اليمن، وجبلًا آخر يقال له ناعم، من الشمال، والوادي النعمان، ومن التنعيم يحرم المكّيّون بالعمرة.

(٣) أدهم: أسود يضرب إلى الحمرة.

(٤) الخرّازون: جمع خرّاز، وهو الذي يتعاطى بيع الخرز.

(٥) التروية: وتكون في اليومين اللذين يسبقان يوم عرفة في التاسع من شهر ذي الحجّة، وسميت بهذا الاسم لأن الحجيج يملأ الروايا بالماء ليحملها معه إلى عرفات. وتكون التروية أيضًا في ليلة الذهاب إلى عرفة.

أدخل إصبعه في شِدْقِه وغنّى فسمِع صوتَه من في السوق، فحشر الناس علينا، فلم يفترِقا حتى تشاتَما.

ذكر أخبار أبي زيد الدَّلَال

هو أبو زيد ناقِدٌ مَدَنِيٌّ، مولى عائشةَ بنتِ سعيدِ بن العاص، وكان مُخَنَّثًا.

قال إسحٰق:

لم يكن في المخنّثين أحسن وجهًا ولا أنظف ثوبًا ولا أظرف من الدَّلَال. قالوا: ولم يكن بعد طُوَيْس أظرف منه ولا أكثر مُلَحًا. وكان كثيرَ النوادر نَزْرَ[١] الحديث، فإذا تكلم أضحك الثّكالى[٢]، وكان ضاحكَ السنّ، ولم يكن يغنّي إلّا غناءً مُضَعَّفًا (يعني كثير العمل).

وقال أيّوب بن عَبَاية:

شَهِدتُ أهلَ المدينة إذا ذكروا الدَّلَال وأحاديثَه طوَّلوا رقابَهم وفخروا به، فعلمتُ أن ذلك لفضيلةٍ كانت عنده. قالوا: وكان مُبْتلًى بالنِّساء والكونِ معهنّ، فكان يُطلَب فلا يُقْدَر عليه. وكان صحيحَ الغِناء حسنَ الجِرْم. قالوا: وإنما لُقِّب بالدّلال لشكله وحسن ظَرْفِه ودلّه وحلاوةِ مَنْطِقه وحسن وجهه. وكان مشغوفًا بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال. وكان يُشاغِل كلَّ من يجالسه عن الغناء بأحاديث النساء كراهةً منه للغناء. وكان إذا غنّى أجاد، كما حكاه ابن المَاجِشُون عن أبيه، قال: غنّاني الدّلالُ يومًا بشعر مجنون بني عامر[٣]، فلقد خِفْتُ الفتنةَ على نفسي. واستحضره سليمانُ بن عبد الملك من المدينة سرًّا وغنّاه وأقام عنده شهرًا ثم صرفه إلى الحجاز مكرمًا.

قال الأصمعيّ:

حجّ هشامُ بن عبد الملك؛ فلما قدِم المدينة نزل رجلٌ من أشراف أهل الشام وقوّادِهم بجَنْب دارِ الدَّلال، فكان الشاميُّ يَسمع غناءَ الدلال ويُصغي إليه ويصعَد فوق

---

(١) نزر: قليل.

(٢) الثكالى، جمع ثكلى، وهي الأم التي فقدت ولدها.

(٣) مجنون بني عامر: شاعر غزل من أهل نجد، اسمه قيس بن الملوّح العامري، عشق ليلى العامريّة فرفض أهلها أن يزوّجوها به فهام على وجهه يتغنّى بحبّه العذري، واشتهر بلقب مجنون ليلى، مات سنة ٦٨٨ م.

السطح لِيقرب من الصوت، ثم بعث إلى الدّلال: إمّا أن تزورنا وإمّا أن نزورَك. فبعث إليه الدّلالُ: بل تزورنا. فبعث الشاميّ ما يَصْلُح ومضى إليه بغلامين من غِلمانه كأنهما دُرّتان مكنونتان. فغنّاه الدّلالُ، فاستحسن الشاميُّ غناءَه، فقال: زِدْني؛ قال: أوَ ما يكفيك ما سمعتَ! قال: لا والله ما يَكفيني. قال: فإنّ لي حاجة، قال: وما هِي؟ قال: تَبِيعني أحدَ هذين الغلامين أو كليهما، فقال: اخْتَرْ أيَّهما شئت، فاختار أحدهما، فقال له الشاميّ: هو لك؛ فقبِله منه الدّلالُ، ثم غنّاه وغنّى: [من الطويل]

دَعَتْني دَواعٍ مِن أُرَيّا[1] فهيّجتْ ... هوًى كان قِدْمًا مِن فؤاد طَروبِ
لعلّ زمانًا قد مضى أن يعودَ لي ... فتغفِرَ أرْوَى عند ذاك ذنوبي
سَبَتْنِي أُرَيّا يوم نَعْفِ مُحَسِّرٍ[2] ... بوجهٍ جميلٍ للقلوب سَلُوبِ

فقال له الشاميّ: أحسنتَ، ثم قال له: أيّها الرجل الجميلُ، إن لي إليك حاجةً، قال الدّلال: وما هي؟ قال: أُريد وصيفةً[3] وِلِدتْ في حِجْرٍ صالحٍ ونشأت في خير، جميلةَ الوجه مجدولةً وضيئةً جَعْدةً في بياض مُشْرَبةً حُمْرةً حسنةَ الهامةِ سَبْطة[4] أسيلةَ الخدّ[5] عذبةَ اللّسان لها شكْلٌ ودلٌّ تملأ العين والنفس. فقال له الدّلال: قد أصبتُها لك، فما لي عندك إن دللتُك عليها؟ قال: غلامي هذا. قال: إذا رأيتَها وقبِلتها فالغلام لي؟ قال: نعم. قال: فأتى امرأة كَنّى عن اسمها، فقال لها: جُعِلْتُ فِداءكِ! نزل بقربي رجلٌ مِن قوّاد هشام، له ظَرْف وسخاءٌ، وجاءني زائرًا فأكرمتُه، ورأيت معه غلامين كأنهما الشمسُ الطالعة المنيرة والكواكب الزاهرة ما وقعتْ عيني على مثلِهما ولا يطول لساني بوصفهما، فوهب لي أحدَهما والآخرُ عنده، وإن لم يَصِرْ إليّ فنفسِي ذاهبةٌ. قالت: وتُريد ماذا؟ قال: طلب مني وصيفةً على صِفةٍ لا أعلمها إلا في ابنتِك، فهل لك أن تُرِيهِ إيّاها؟ قالت: وكيف لك بأن يَدْفع الغلام إليك إذ رآها؟ قال: إني قد شرطتُ عليه ذلك عند النظر لا عند البيع. قالت: شأنَك، لا يعلم هذا أحد. فمضى الدّلال وأتى بالشاميّ، فلما صار إلى المرأة وُضِع له كرسيٌّ وجلس. فقالت له المرأة: أمِن العرب أنت؟ قال: نعم. قالت: مِن أيّهم؟ قال: مِن خُزَاعة[6]. قالت: مرحبًا

---

(١) أريا: تصغير أروى، اسم للمرأة.
(٢) نعف محسّر: موضع بين مكّة وعرفة.
(٣) الوصيفة: الخادمة.
(٤) سبطة: طويلة.
(٥) أسيلة الخلد: ناعمته.
(٦) خزاعة: قبيلة عربية من الأزد ارتحلت إلى الشمال إثر تصدّع سدّ مأرب. كانت لهم سدانة الكعبة بمكّة إلى أن انتزعها منهم قصيّ، أحد أجداد النبيّ ﷺ.

بك وأهلًا! أيَّ شيء طلبتَ؟ فوصف لها الصِّفةَ. قالت: قد أصبتَها؛ وأسرّت إليّ جارية لها فدخلتْ فمكثت هنيهة ثم خرجت فنظرت فقالت: اُخرجي، فخرجت وصيفةٌ ما رأى الراؤون مثلَها. فقالت لها: أقْبِلي فأقبلتْ، ثم قالت: أدْبِري فأدبرت تملأ العينَ والنفسَ، فما بَقِيَ منها شيء إلا وضَع يدَه عليه. فقالت له: أتحبّ أن نؤزّرَها لك؟ قال: نعم. قالت: أتّزِرِي؛ فضمّها الإزارُ وظهرت محاسنها الخفيّة؛ فضرب بيده إلى عَجِيزتها وصدرِها. ثم قالت: أتحب أن نجرّدها لك؟ قال: نعم. قالت: أي حبيبتي، وضِّحِي؛ فألقت الإزارَ فإذا أحسنُ خَلْق الله كأنها سبيكةٌ. فقالت: يا أخا العرب، كيف رأيتَ؟ قال: منيةُ المتمنّي. قال: بِكم تقولين؟ قالت: ليس يوم النظر يوم البيع، ولكن تعود غدًا حتى نُبايعك فلا تَنْصِرف إلّا عن رضًا، فانصرف من عندها. فقال له الدَّلالُ: أرضِيتَ؟ قال: نعم، ما كنتُ أحسب أن مثل هذه في الدنيا، وإن الصفة لتَقْصُر دونها، ثم دفع إليه الغلامَ الثاني. فلما كان من الغَدِ قال له الشاميّ: اْمضِ بنا. فمضَيَا حتى قرعا البابَ، فأُذِن لهما فدخلا فسلّما، فرحّبتِ المرأة بهما ثم قالت للشاميّ: أعْطِنا ما تَبْذُل؛ فقال: ما لها عندي ثمنٌ إلّا وهي أكثرُ منه، فقولي أنت يا أَمَةَ الله. قالت: بل قل أنتَ، فإنا لم نُوطِئك أعقابَنا ونحن نُريد خِلافَك وأنت لها رِضًا. قال: ثلاثة آلاف دينار. قالت: والله لقبلةٌ منها خيرٌ من ثلاثة آلاف دينار. قال: أربعة آلاف دينار. قالت: غفَر الله لك أعْطِنا أيّها الرجل. قال: والله ما معي غيرها ـ ولو كان لزدتُكِ ـ إلا رقيقٌ ودوابّ. قالت: ما أراك إلا صادقًا، أتَدْري مَنْ هذه؟ قال: تُخْبِرينِي. قالت: هذه ابنتي فلانة بنت فلان وأنا فلانة بنت فلان، قم راشِدًا. فقال للدّلال: خدَعْتني. قال: أوَ ما تَرْضَى أن تَرى ما رأيتَ من مثلها وتَهَبُ مائة غلام مثل غلامك؟ قال: أمّا هذا فنعم. وخرجا من عندها.

والدّلال أحدُ من خُصِيَ من المخنّثين بالمدينة لمّا أمر سليمانُ بن عبد الملك عاملَه على المدينة أبا بكرِ بنَ عمرو بن حَزْم بِخَصْيِهم.

ذكر أخبار عطَرَّد

هو أبو هارون عطرّد، مولى الأنصار ثم مولى بني عمرو بن عوف، وقيل: إنه مولى مُزَيْنَة. مدنيٌ كان ينزل قُباء[1]، وكان جميلَ الوجه حسنَ الغناء طَيِّبَ الصوت

(١) قباء: اسم قرية قريبة من المدينة المنوّرة على يسار القاصد إلى مكّة، بها أثر بنيان كثير، ومسجد قديم، وآبار ومياه عذبة، إضافة إلى مسجد ضرار الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

جيِّد الصنعة حسنَ الزيّ والمروءة فقيهًا قارئًا للقرآن. وقيل: إنه كان مُعَدَّل الشهادة بالمدينة. وأدركَ دولةَ بني أُميّة وبقي إلى أوّل أيام الرشيد، وكان يُغَنّي مرتَجِلًا.

وحكى أبو الفرج الأصفهانيّ بسند رفعه، قال:

لمّا استُخْلِفَ الوليدُ بن يزيدَ كتب إلى عاملة بالمدينة فأمره بإشخاصِ عَطَرّدٍ المغنّي إليه، ففعل. قال عَطرّدُ: فدخلتُ على الوليد وهو جالسٌ في قصره على شَفير[1] بركة مُرَصَّصَةٍ مملوءةٍ خمرًا ليست بالكبيرة ولكنّها يدور الرجلُ فيها سِباحةً. قال: فوالله ما تركني أسلِّم حتى قال: أعَطَرّد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ما زلتُ إليك مشتاقًا يا أبا هارون، غنّني: [من الكامل]

حَيِّ الحُمُولَ بجانب العَزْلِ[2] ... إذ لا يشاكل[3] شكلُها شكلي
الله أنجعُ[4] ما طلبت به ... والبِرُّ خيرُ حقيبةِ الرَّحْلِ[5]
إني بحبْلِك واصلٌ حبلي ... وبريش نَبْلِكِ رائشٌ[6] نَبْلي[7]
وشمائلي[8] ما قد عَلِمتِ وما ... نبحتْ كِلابُكِ طارقًا[9] مِثلي

قال: فغنّيتُه إيّاه، فوالله ما أتْمَمْتُه حتى شقّ حُلّةَ وَشْي كانت عليه لا أدري كم قيمتُها، فتجرّد منها كما ولَدته أُمّه، وألقى نفسه في البركة فنَهل منها حتى تبيّنتُ أنها قد نقصت نقصانًا بيّنًا، وأُخرِج منها وهو كالميت سكرًا، فأُضْجِع وغُطّي؛ فأخذت الحُلّةَ وقمتُ وانصرفتُ إلى منزلي متعجِّبًا من فعله. فلما كان في غد، جاءني رسولُه في مثل الوقت فأحضَرني. فلما دخلتُ عليه قال: يا عَطَرَّد! قلت: لبَّيْك يا أمير المؤمنين! قال: غنِّني: [من الطويل]

أيذهب عُمري هكذا لم أَنَلْ به
مجالسَ تَشْفِي قَرْحَ[10] قَلبي من الوَجْدِ[11]

---

(١) شفير: حافّة.
(٢) العزل: اسم موضع بعينه.
(٣) يشاكل: يماثل.
(٤) أنجع: أكثر انتجاعًا، وطلبًا للنجعة، أي الماء والخير.
(٥) الرّحل: ما يحمل على ظهر الدابّة.
(٦) رائش: اسم الفاعل من راش السّهم، إذا ركب عليه الريش لينطلق بسرعة أكبر.
(٧) النبل: السهام.
(٨) الشمائل: الأخلاق والطباع الحسنة.
(٩) الطارق: الزائر ليلًا.
(١٠) القرح: الجرح.
(١١) الوجد: شدّة العشق والحزن. ويجدي: ينفع.

وقـــالـــوا تَـــدَاوَ إنّ فـــي الـــطـــبّ راحـــةً
فـــعـــلّلتُ نـــفـــســـي بـــالـــدواء فـــلـــم يُـــجْـــدِ

فغنّيتُه إيّاه، فشقّ حُلّةَ وَشْيٍ كانت تَلْمَع عليه بالذّهب احتقرتُ والله الأولى عندها، ثم ألقى نفسه في البركة فنَهِل[١] منها حتى تبيّنتُ نُقْصانها وأُخْرِج كالميت سكرًا، فأُلْقِيَ وغُطّي ونام؛ وأخذتُ الحُلّة وانصرفت. فلما كان اليوم الثالث، جاءني رسولُه فدخلت إليه وهو في بَهْوٍ[٢] قد أُلْقِيتْ ستورُه، فكلّمني من وراء الستور وقال: يا عطَرّد! قلت: لبّيْك يا أمير المؤمنين! قال: كأني بك الآن قد أتيتَ إلى المدينة فقمتَ في مجالسها وقعدتَ وقلتَ: دعاني أميرُ المؤمنين فدخلتُ عليه فاقترح عليّ فغنّيتُه فأطربتُه فشقّ ثيابَه وأخذتُ سَلَبه[٣] وفعل وفعل! ووالله يا ابن الزّانية إن تحرّكت شَفَتاك بشيءٍ مما جرى لأضرِبنّ عُنُقَك يا غلام أعْطِهِ ألف دينار؛ خذها وانصرِف إلى المدينة. فقلتُ: إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَن لي في تقبيل يده ويزوّدني نظرة منه وأغنّيه صوتًا! فقال: لا حاجةَ بي ولا بك إلى ذلك، فانصرِفْ. قال عطَرّد: فخرجتُ من عنده وما علم الله أنّي ذكرتُ شيئًا مما جرى حتى مضت من دولة بني هاشم مدّةٌ. ودخل عطرّد على المهديّ وغنّاه. قيل: ودخل على الرشيد وغنّاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصّواب.

ذِكْر أخبار عمر الواديّ

هو عمرُ بن داودَ بن زَاذَان، وجَدُّه زاذان مولى عمرو بن عثمان بن عفّان. وأخذ الغناءَ عن حَكَم، وقيل: بل أخذ حكَمٌ عنه. وهو من أهل وادي القُرى، قَدِمَ الحَرَمَ وأخذ من غناء أهلِهِ فحذِق وصَنَع فأجاد، وكان طيِّبَ الصوت شَجِيًّا مُطْرِبًا، وهو أوّل من غنّى من أهل وادي القُرى، واتّصل بالوليد بن يَزِيد في أيّام إمارتِهِ فتقدّم عنده جدًّا، وكان يسمّيهِ «جامع لذّاتي ومُحْيي طربي». وقُتِل الوليدُ وهو يغنّيه، وكان آخرَ الناس به عهدًا. قال: وكان يجتمع مع معبد ومالك بن أبي السَّمْحِ وغيرهما من المُغنّين عند الوليد بن يزيد، فلا يمنعه حضورُهم من تقديمه والإصغاءِ إليه والاختصاص به. وفي عمر هذا يقول الوليدُ بن يزيد: [من المديد]

إنـــمـــا فـــكّـــرتُ فـــي عُـــمَـــرٍ حـــيـــن قـــال الـــقـــولَ واخـــتـــلـــجـــا

(١) نهل: شرب. (٢) البهو: القاعة الفسيحة.
(٣) سلبه: ما يلبس من ثياب وغيرها، ويندرج في ذلك الدروع والسلاح.

إنــه لــلمُــسْـتَـنِـيــر بــه قمرٌ قد طمّس(١) السُّرُجَا(٢)

ويـغـنّـي الـشـعـرَ يَـنْـظِـمـه سيّـدُ الـقـوم الـذي فـلجـا(٣)

أكـمـل الـوادِيُّ صَـنْـعـتَـه في كتاب الشعر فاندمجا

أراد الوليد بن يزيد بقوله: «سيّد القوم» نفسَه.

ذكر أخبار حَكَم الواديّ

هو أبو يحيىٰ الحكمُ بنُ ميمونَ، وقيل: الحكم بن يحيىٰ بن ميمون. مولى الوليد بنِ عبدِ الملك، كان أبوه حلّاقًا يَحْلِق رأسَ الوليد، فاشتراه فأعتقه. وكان حكمٌ طويلًا أحولَ، يُكْري الجمال يَنْقُل عليها الزيت من الشام إلى المدينة. وقيل: كان أصلُه من الفُرس. وكان واحدَ عصره في الحِذْق، وكان يغنّي بالدُّفّ ويغنّي مرتجلًا. وعُمِّر عمرًا طويلًا، غنّى الوليدَ بن عبد الملك، وغنّى الرشيدَ، ومات في الشَّطر من خلافته. وأخذ الغناءَ عن عمر الواديّ، وقد قيل: إن عمر أخذ عنه. قال حمّاد بن إسحٰق: قال لي أبي: أربعةٌ بَلَغت في أربعة أجناس من الغناء مبلغًا قَصّر عنه غيرُهم: «معبدٌ» في الثقيل، و «ابنُ سريجٍ» في الرَّمَل، و «حكمٌ» في الهَزَج، و «إبراهيمُ» في الماخوريّ. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وزار حكمٌ الواديّ الرشيدَ، فبَرّه ووصله بثلاثمائة ألف درهم، وخيّره فيمن يكتُب له بها عليه؛ فقال: اكتبْ لي بها على إبراهيمَ بنِ المهديّ ـ وكان إبراهيمُ إذ ذاكعاملًا له بالشام ـ فقدِم عليه حكمٌ بكتابِ الرشيد؛ فأعطاه ما كتَب له به، ووصلَه بمثل ذلك، إلّا أنه نَقَصه ألفَ درهمٍ من الثلاثمائة ألف، وقال له: لا أَصِلُك بمثل ما وصلَك أمير المؤمنين. قال إبراهيمُ بن المهديّ: وأقام عندي ثلاثين يومًا أخذت عنه فيها ثلاثمائة صوت، كلُّ صوت أحبُّ إليَّ من الثلاثمائة ألف التي وهبتُها له. وقيل: إنه لم يَشْتَهِر بالغناء حتى صار إلى بني العبّاس، فانقطع إلى محمدِ بنِ أبي العباس، وذلك في خلافة المنصور، فأُعْجِب به واختاره على المغنّين وأعجبته أهزاجُه. وكان يقال: إنه أهزجُ الناس. ويقال: إنه غنّى الأهزاجَ في آخر عمره؛ فلامه ابنُه على ذلك وقال: أَبَعْدَ الكِبَر تغنّي غناءَ المخنّثين! فقال له: اسكت فإنّك جاهل، غنّيتُ الثقيل ستين سنة فلم أَنَلْ إلا القوت، وغنّيتُ الأهزاجَ منذ سنتين فكَسَبتُك ما لم تر مثله قطّ، والله أعلم.

(١) طمس: أطفأ.
(٢) السرج: جمع سراج، وهو المصباح والقنديل.
(٣) فلج: ظفر.

ذكر أخبار ابن جامع

هو أبو القاسم إسماعيل بنُ جامع بنِ عبدِ اللهِ بنِ المطلبِ بن أبي وَدَاعَةَ بنِ صُبَيْرةَ بنِ سهمِ بنِ هُصَيْصِ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيّ. قالوا: وكان ابنُ جامع من أحفظِ خلق الله لكتاب الله تعالى، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلّي الصبح ثم يَصُفُّ قدمَيْه حتى تَطْلُع الشمس، فلا يصلّي الناسُ الجمعةَ حتى يختم القرآنَ ثم ينصرف إلى منزله. وكان حسنَ السَّمْت[1]، كثيرَ الصلاة. وكان يعتمُّ بعمامةٍ سوداءَ على قَلَنْسُوة ويلبَس لباسَ الفقهاء ويركب حمارًا مَرِّيسيًا[2] في زيِّ أهل الحجاز. ورُوي عنه أنّه قال: لولا أن القِمارَ وحبَّ الكلاب قد شَغَلاني لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبزَ. قال ابن جامع: أخذتُ من الرشيد ببيتين غنّيتُه إياهما عشرةَ آلاف دينار. قالوا: وكان إبراهيمُ بن المهديّ يفضّل ابنَ جامعٍ فلا يقدّم عليه أحدًا. قال: وكان ابن جامع مُنقطِعًا إلى موسى الهادي في أيّام أبيه، فضربه المهديّ وطردَه. فلما مات المهديّ بعث الفضلُ بن الربيع[3] إلى مكة فأحضَر ابنَ جامع في قُبّةٍ ولم يُعْلِم به أحدًا. فذكره موسى الهادي ذاتَ ليلةٍ فقال لجلسائه: أمَا فيكم أحدٌ يُرسل إلى ابن جامع وقد عرفتم مَوْقِعَه مني؟ فقال الفضل بن الربيع: هو والله عندي يا أمير المؤمنين وأحضره إليه. فوَصَل الفضلَ في تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولّاه حِجابَته[4].

وحُكي أنه دخل على الهادي فغنّاه فلم يُعْجِبه؛ فقال له الفضلُ: تركتَ الخفيفَ وغَنّيْتَ الثقيل. قال: فأَدْخِلني عليه أخرى فأدخله؛ فغنّاه الخفيفَ، فأعطاه ثلاثين ألف دينار. قال أحمد بن يحيىٰ المكيّ: كان ابن جامع أحسنَ ما يكون غناءً إذا حزِن. وأحبّ الرشيدُ أن يَسمع ذلك، فقال للفضل بن الربيع: ابْعَثْ بخريطة فيها نَعْيُ ابنِ جامع ـ وكان بَرًّا بأمّه ـ ففعل. فقال الرشيد: يا ابن جامع، في هذه الخريطة نَعْيُ أمّك؛ فاندفع ابن جامع يغنّي بتلك الحُرْقة والحزنِ الذي في قلبه: [من البسيط]

كم بالدروب وأرضِ السِّنْد[5] من قَدَم ... ومِنْ جَماجِم صَرْعى[6] ما بها قُبِروا
بقُنْدُهار[7] ومن تُكْتَبْ منيّتُه ... بقُنْدهارَ يُرَجّمْ دونه الخبرُ[8]

(١) السمت: الهيئة. (٢) مرّيسيًا: منسوبًا إلى مرّيس ببلاد النّوبة.
(٣) الفضل بن الربيع: وزير الرشيد بعد نكبة البرامكة، ولما رجع المأمون من خراسان أبعده منها. مات سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.
(٤) حجابته: خدمته في الحجابة، وهي تشبه الوزارة.
(٥) السند: بلاد تقع بين بلاد فارس والهند. (٦) صرعى: ملقاة على الأرض.
(٧) قندهار: مدينة أفغانية مشهورة. (٨) يرجم دونه الخير، بمعنى يصبح نسيًا منسيًا.

قال: فوالله ما ملكنا أنفسَنا، ورأيت الغِلمانَ يضرِبون برؤوسهم الحيطانَ والأساطين[١]، وأمر له الرشيدُ بعشرة آلاف دينار.

وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن عليّ بن عيسى بن مَاهَان، قال: سمعتُ يزيدَ يحدِّثُ عن أُمّ جعفرٍ أنه بلغها أنّ الرشيد جالسٌ وحده وليس معه أحد من الندماء ولا المسامرين، فأرسلت إليه: يا أميرَ المؤمنين، إنّي لم أَرَكَ منذ ثلاث وهذا اليومُ الرابع. فأرسل إليها: عندي ابنُ جامع. فأرسلتْ إليه: أنتَ تعلم أني لا أتهنّأ بشرب ولا سماعٍ ولا غيرهما إلّا أن تَشْركَني فيه، ما كان عليك أن أشْركَك في هذا الذي أنتَ فيه! فأرسل إليها: إني صائرٌ إليكِ الساعة. ثم قام وأخذ بيد ابن جامع وقال للخادم: امضِ إليها وأعلِمْها أنّي قد جئت. وأقبل الرشيد؛ فلما نظر إلى الخدم والوصائف قد استقبلوه علِم أنّها قد قامت تستقبله؛ فوجّه إليها: إن معي ابن جامع، فعدَلت إلى بعض المقاصير[٢]. وجاء الرشيدُ وصيّر ابنَ جامع في بعض المواضع التي يُسمعُ منه فيها، ثم أمر ابنَ جامعٍ فاندفع يغنّي: [من المنسرح]

مـا رَعَـدَتْ رَعْـدَةً ولا بَـرَقَـتْ ... لـكـنـهـا أُنـشِـئـت لـنـا خَـلِقَـهْ[٣]
الـمَـاءُ يَـجْـري ولا نِـظَـامَ لـه ... لـو يـجـد الـمـاءُ مَـخْـرقًـا خَـرَقَـهْ
بِـتـنـا وبـاتَـتْ عـلـى نَـمـارقِـهـا[٤] ... حتى بدا الصُّبح عينُها أَرِقَهْ[٥]
أنْ قـيـل إن الـرحـيـل بـعـد غـدٍ ... والـدَّارُ بـعـد الـجـمـيـع مُـفْـتَـرِقَـه

فقالت أمّ جعفر للرشيد: ما أحسنَ ما اشتهيتَ والله يا أمير المؤمنين! ثم قالت لمسلم خادمها: إدْفع إلى ابن جامعٍ بكل بيت مائة ألفِ درهم. فقال الرّشيد: غَلَبتِينا يا ابنةَ أبي الفضلِ وسبقتِينا إلى برّ ضَيفِنا وجليسِنا. فلما خرج حمَل الرشيدُ إليها مكان كل درهم دينارًا.

ذكر أخبار عمرو بن أبي الكَنّات

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو أبو عثمانَ، وقيل: أبو معاذٍ عمرو بنُ أبي الكَنّات، مولى بني جُمَح. وهو مكيٌّ مُغَنّ حسنُ الصوت، من طبقة ابن جامع

(١) الأساطين: جمع أسطوانة، وهي العمود.
(٢) المقاصير: جمع مقصورة، وهي الردهة والحجرة.
(٣) خلقه: فجأة، أخذت في المطر.
(٤) النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة وما يتكأ عليه.
(٥) أرقة: لا تنام.

وأصحابه. وفيه يقول الشاعر: [من الخفيف]

أحسنُ الناسِ فاعلموه غِناءً ... رجلٌ من بني أبي الكَنّاتِ

قال محمدُ بنُ عبدِ الله بن فَرْوَة: قلت لإسماعيلَ بنِ جامعٍ يومًا: هل غلَبك أحدٌ من المغنّين قطّ؟ قال: نعم، كنتُ ليلةً ببغدادَ إذ جاءني رسولُ أميرِ المؤمنين هارونَ الرشيدِ فأمرني بالرّكوب، فركِبتُ حتى صرتُ إلى الدار، فإذا أنا بالفضل بن الربيع ومعه زَلْزَلٌ العوّادُ وبَرْصوما[1]؛ فسلّمت وجلست يسيرًا. فطلع خادمٌ فقال للفضل: هل جاء؟ قال: لا، قال: فابعث إليه. ولم يزل المغنّون يدخلون واحدًا واحدًا حتى كنّا ستّةً أو سبعةً. ثم طلَع الخادم فقال: هل جاء؟ فقال: لا؛ فقال: قم فابعثْ في طلبه؛ فقام فغاب غيرَ طويلٍ فإذا هو قد جاء بعمرو بن أبي الكتاب. فسلّم وجلس إلى جَنْبي، فقال لي: مَنْ هؤلاء؟ قلتُ: مُغَنّون، هذا «زلزَل» وهذا «برصوما». فقال: لأُغنّيَنّك غناءً يخرِق هذا السقفَ وتجيبُه الحيطانُ. ثم طلع الخَصِيُّ فدعا بكراسيّ، وخرج الجَواري. فلما جلسن قال الخادم: شُدّوا فشدّوا عيدانَهم؛ ثم قال: يغنّي ابنُ جامع، فغنّيت سبعة أو ثمانيةَ أصوات، قال: اسكتْ، وليغنِّ إبراهيم الموصليُّ؛ فغنّى مثلَ ذلك أو دونَه ثم سكتَ، وغنّى القوم كلُّهم واحدًا بعد واحد حتى فَرَغوا. ثم قال لابن أبي الكنّات: غنّ؛ فقال لزلزل: شُدّ طبقتك فشَدّ؛ ثم قال له: شُدّ فشَدّ، ثم أخذ العودَ من يَده فجسّه حتى وقف على الموضع الذي يريده، ثم قال: على هذا. وابتدأ الصوت الذي أوّلُه «ألالا»؛ فوالله لقد خُيّل إليّ أن الحيطان تجاوبُه؛ ثم رجّع النغمةَ فيه؛ فطلع الخصيّ فقال: اسكت لا تُتِمّ الصوتَ فسكت. ثم قال: يجلس عمرو بن أبي الكنّات وينصرف سائرُ المغنّين؛ فقمنا بأسوأ حال وأكسفِ بال، ولا والله ما زال كلُّ واحد منّا يسأل صاحبَه عن كلّ ما يرويه من الغناء الذي أوّلُه «ألالا» طمَعًا في أن يعرفه وأن يوافقَ غناءَه فما عرَفه منا أحدٌ. وبات عمرو عند الرشيد ليلتَه وانصرف من عنده بجوائز وصِلاتٍ وطُرَفٍ[2] سنيّة.

وقال موسى بنُ أبي المهاجر: خرج ابنُ جامعٍ وابنُ أبي الكنّات حين دفَع الإمامُ من عَرَفَة، حتى إذا كانوا بين المأزِمَيْن عمروٌ على طرَف الجبل ثم اندفع يغنّي، فركب الناسُ بعضُهم بعضًا حتى صاحوا به واستغاثوا: يا هذا، اللهَ اللهَ!

---

(١) زلزل وبرصوما: مغنيان مشهوران سبق ذكرهما.

(٢) طرف، جمع طرفة، وهي الشيء الثمين النادر والعجيب. والسنيّة: الثمينة.

أُسكُتْ عنا يَجُزِ الناسُ؛ فضبط ابن جامع بيده على فِيه حتى مضى الناسُ إلى مُزْدَلِفة[1].

قال عليّ بن الجهم: حدّثني من أثِق به، قال: واقفتُ ابنَ أبي الكنّات على جسر بغدادَ أيامَ الرشيدِ فحدّثتُه بحديث اتّصل بي عن ابنِ عائشةَ أنه وقف في الموسم في أيام هشام، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال: ما تصنع؟ فقال: إني لأعرف رجلًا لو تكلّم لحَبسَ الناسَ فلم يَذْهَب منهم أحدٌ ولم يَجِىءْ. فقلت له: من هذا الرجل؟ قال: أنا، ثم اندفع فغنّى فحبَس الناسَ، فاضطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها. فقال ابن أبي الكنّات وكان مُعْجَبًا بنفسه: أنا أفعل كما فعل وقدرتي على القلوب أكثرُ من قدرته. ثم اندفع فغنّى الصوت الذي غنّى فيه ابن عائشة، وهو: [من الوافر]

جَرَتْ سُنُحًا[2] فقلت لها أَجِيزِي ... نـوًى مـشـمـولـةً فـمـتـى الـلّـقـاءُ
بـنـفـسـي مَـن تـذكُّـره سَـقَـامٌ ... أُعـالـجـه ومـطـلـبُـه عـنـاءُ

قال: فغنّاه، وكنا إذ ذاك على جسر بغداد، وكان على دجلةَ ثلاثةُ جسور، فانقطعت الطُّرُق وامتلأت الجسورُ بالناس فازدحموا عليها واضطربت حتى خيف عليها أن تنقطع لِثِقَل من عليها من الناس، فأُخِذَ فأُتِيَ به الرشيد؛ فقال له: يا عدوّ الله، أردتَ أن تَفْتِن الناس! قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكنّه بلغني أنّ ابن عائشةَ فعل مثل هذا في أيّام هشام، فأحببتُ أن يكون في أيّامك مثلُه. فأعجبه ذلك، وأمر له بمال وأمره أن يغنّي فغنّى؛ فسمِع شيئًا لم يَسْمَع مثله، فاحتبسه عنده شهرًا يَستزيده، وكلّ يوم يُستأذَن له في الانصراف فلا يأذَن له حتى تمّم شهرًا، وانصرف بأموال جسيمة.

وقال عثمانُ بنُ موسى: كنّا على شَراب يومًا ومعنا عمرو بن أبي الكنّات إذ قال لنا قبلَ طلوع الشمس: مَنْ تحبّون أن يَجيئكم؟ قلنا: منصور الحَجَبيّ. فقال: أمهلوا حتى يكون الوقتُ الذي يَنْحَدِر فيه إلى سوق البقر. فمكثنا ساعةً ثم اندفع

---

(١) مزدلفة: اسم موضع قريب من مكة يأتيه الحاج مساءً بعد أن يمكث في عرفات صبيحة وظهيرة التاسع من شهر ذي الحجّة. وفي مزدلفة يبيت الحجيج ويجمعون الجمار. ثم إنهم في صبيحة العاشر من ذي الحجّة ينتقلون إلى منى.

(٢) سنحًا: أي من جهة الشمال إلى جهة اليمين، وهذا ممّا يتفاءل به، وقيل: هو العكس، أي إذا مرّت من اليمين إلى الشمال.

يغنّي: [من الخفيف]

أحسنُ الناسِ فاعلموه غِناءً رجلٌ من بني أبي الكنّاتِ
عَفَتِ[١] الدّارُ فالهِضابُ اللّواتي بين ثوْرٍ[٢] فملتقى عَرَفَاتِ[٣]

فلم نلبث أن رأينا منصورًا من بُعْد قد أقبل يركُضُ دابّتَه نحونا، فلما جلس إلينا قلت له: من أين علِمتَ بنا؟ قال: سمعتُ صوت عمرو وأنا في سوق البقر، فخرجت أركض دابّتي حتى صِرتُ إليكم. قال: وبيننا وبين ذلك الموضع ثلاثةُ أميال.

وقال يحيىٰ بن يَعْلَى بن سعيد: بينا أنا ليلةً في منزلي في الرَّمْضَة بأسفل مكّةَ، إذ سمعتُ صوتَ عمرو بن أبي الكنّات كأنّه معي، فأمرتُ الغلامَ فأسرجَ لي دابّتي وخرجت أُريدُه، فلم أزل أتبع الصوتَ حتى وجدتُه جالسًا على الكثيب العارضِ ببطن عرفةَ يغنّي: [من الطويل]

خُذِي العَفْوَ مِنّي تَسْتديمي مَودّتي ولا تَنْطِقي في سَوْرَتي[٤] حين أغضَبُ
ولا تَنْقُرِيني نَقْرةَ الدُّفّ مرّةً فإنّكِ لا تَدْرين كيف المُغَيَّبُ
فإني رأيتُ الحبَّ في الصدرِ والأذى إذا اجتمعا لم يَلْبثِ الحبُّ يذهبُ

ذكر أخبار أبي المُهَنّأ مُخارِق

هو أبو المُهَنّأ مخارِقُ بنُ يحيىٰ بنِ ناووس الجزّار مولى الرشيد، وقيل: بل ناووس لقبُ أبيه يحيىٰ؛ وإنما لُقّب بناووس لأنه بايع رجلًا أنه يمضي إلى ناووس الكوفة فيطبخ فيه قِدْرًا بالليل حتى تَنْضَجَ، فطرح رهنَه بذلك؛ فدسّ الرجل الذي راهَنه رجلًا فألقى نفسَه في الناووس بين الموتى. فلما فرغ ناووس من الطبخ مدّ الرجلُ يدَه من بين الموتى وقال له: أطْعِمني؛ فغرف بالمِغرفة من المَرَق[٥] وصبّها في يد الرجل فأحرقها وضربها بالمغرفة وقال له: اصْبِر حتى نُطْعِمَ الأحياء أوّلًا ثم نتفرّغ للموتى؛ فلُقِّب ناووسًا لذلك.

---

(١) عفت: درست، وخلت.
(٢) ثور: اسم جبل مشهور قريب من مكّة، وفيه الغار الذي كان النبيّ ﷺ يتأمّل فيه.
(٣) عرفات، معروفة، قريبة من مكّة لجهة الشرق.
(٤) سورتي: مثنّى سورة، وهي حدّة الغضب.
(٥) المرق: الماء الذي أغلي فيه اللحم فصار دسمًا، سمّي كذلك لأنه شيء يمرق من اللحم.

قال: وكان مخارقٌ لعاتكةَ بنتِ شهدةَ، وهي من المغنّيات المُحْسنات المتقدّمات في الضرب. نشأ مخارِقٌ بالمدينة؛ وقيل: كان منشؤه بالكوفة. وكان أبوه جزّارًا مملوكًا، وكان مخارقٌ وهو صبيّ ينادي على ما يبيعه أبوه من اللّحم. فلما بان طِيبُ صوته علّمته مولاتُه طَرَفًا من الغناء، ثم أرادت بيعَه، فاشتراه إبراهيم الموصليّ منها وأهداه للفضل بن يحيىٰ، فأخذه الرشيدُ منه ثم أعتقه. وقيل: اشتراه إبراهيم من مولاتِه بثلاثينَ ألفِ درهم وزادها ثلاثة آلاف درهم. قال: ولما اشتراه قال له الفضل بن يحيىٰ: ما خبرُ غلام بَلغني أنك اشتريتَه؟ فقال: هو ما بَلَغك. قال: فأَرِنيهِ، فأحضره، فغنّى بين يديهِ؛ فقال له: ما أرى فيه الذي رأيتَ. قال: تريد أن يكون في الغناء مثلي في ساعةٍ واحدةٍ! فقال: بكم تَبِيعُه؟ قال: اشتريتُه بثلاثين ألف درهم، وهو حرّ لوجه الله تعالى إن بعتُه إلا بثلاثة ألف دينار. فغضِب الفضل، وقال: إنما أردتَ ألّا تبيعَه أو تجعلَه سببًا لأن تأخذ منّي ثلاثة وثلاثين ألف دينار. فقال إبراهيم: أنا أصنع بك خَصْلة واحدةً، أبيعُك نصفَه بنصف هذا المال وأكون شريكَك في نصفه وأُعلّمه، فإن أعجبك إذا علمتُه أتممتَ لي باقي المال وإلا بعتُه بعدُ، وكان الرِّبحُ بيني وبينك. فقال الفضلُ: إنما أردتَ أن تأخذ منّي المالَ الذي قدّمتَ ذكرَه، فلما لم تَقْدِرْ على ذلك أردتَ أن تأخذ نصفَه، وغَضِب. فقال إبراهيم له: فأنا أَهَبُه لك على أنه يساوي ثلاثة وثلاثين ألف دينار؛ قال: قد قبلتُه؛ قال: وقد وهبتُه لك. وغدا إبراهيم على الرشيد؛ فقال له: يا إبراهيم، ما غلامٌ بلغني أنك وهبتَه للفضل؟ قال: غلام يا أمير المؤمنين لم تَمْلِك العربُ ولا العجمُ مثلَه، ولا يكون مثلُه أبدًا. قال: فوجّه إلى الفضل يأمره بإحضاره. فوجّه به إليه، فغنّى بين يديه؛ فقال له: كم يُساوِي؟ قال إبراهيم: يساوي خراجَ[١] مصر وضِياعَها. قال: ويحك! أتدري ما تقول! مبلغُ هذا المال كذا وكذا! قال: وما مِقدارُ هذا المال في غلام لم يَمْلِك أحدٌ مثلَه قطُّ! قال: فالتفت الرشيدُ إلى مسرور الكبير وقال: قد عرفتَ يميني أني لا أسأل أحدًا من البرامكة[٢] شيئًا. فقال مسرور:

(١) الخراج: الإتاوة، وما يخرج من غلّة الأرض والمال، وهو المال المضروب على الأرض، والجزية.

(٢) البرامكة: أسرة فارسية من بلخ، تولّى أبناؤها الوزارة في عهد العباسيّين، ولما عظم شأنهم، وكانوا قرّبوا الشعراء واشتهروا بالكرم، نقم عليهم هارون الرشيد ونكبهم. وأشهرهم خالد بن برمك، الذي خدم السفاح، ويحيى بن خالد الذي وزر للرشيد. ونكبة البرامكة حصلت سنة ٨٠٣ م.

فأنا أمضي إلى الفضل فأسْتَوْهِبه منه، فإذا كان عندي فهو عندك. فقال له: شأنَك. فمضى مسرور إلى الفضل واستوهَبه منه، فوهَبه له. وقيل: بل إبراهيمُ هو الذي أهداه للرشيد؛ فأمره الرشيدُ بتعليمه فعلَّمه حتى بلَغ ما بلَغه. قال: وكان مخارقٌ يقف بين يدَي الرشيدِ مع الغِلمانِ لا يجلس ويغنّي وهو واقف. فغنّى ابنُ جامع ذاتَ يوم بين يديّ الرشيد: [من البسيط]

كأنّ نِيرانَنا في جَنْبِ قَلْعَتِهِمْ مُصَبَّغات على أرْسانِ قَصّار[1]
هَوَتْ هِرَقْلةُ[2] لمّا أن رأتْ عجبًا جوائِمًا تَرْتَمي بالنِّفط والنّار

فطرِب الرشيد واستعاره مرارًا؛ وهو شعر مُدِح به الرشيدُ في فتح هِرَقْلة. فأقبل الرشيد على ابن جامع دون غيره، فغمز مخارِقٌ إبراهيمَ بعينه وتقدّمه إلى الخلاء، فلما جاء قال له: ما لي أراك مُنْكَسِرًا؟ فقال له: أمَا تَرى إقبالَ أمير المؤمنين على ابن جامع بسبب هذا الصوت! فقال مخارقٌ: قد والله أخذتُه. فقال: ويحك! إنه الرشيد، وابنُ جامعٍ من تَعْلَم، ولا يُمكن معارضته إلّا بما يزيد على غنائه وإلّا فهو الموت! فقال: دَعني وخَلَاك ذَمٌّ، وعَرِّفْه أنّي أُغَنّي به، فإن أحسنتُ فإليك يُنْسَب، وإن أسأتُ فإليّ يعود. فقال إبراهيم للرشيد: يا أمير المؤمنين، أراك مُتَعَجّبًا من هذا الصوت بغير ما يستحقّه وأكثر مما يستوجبه! فقال: لقد أحسن فيه ابن جامع ما شاء. قال: أوَ لابنِ جامع هو؟ قال: نعم، كذا ذكَر. قال: فإنّ عبدَك مخارقًا يغنّيه. فنظر إلى مخارق؛ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هاتِه؛ فغنّاه وتحفّظ فيه فأتى بالعجائب، وطَرِب الرشيدُ حتى كاد يطير؛ ثم أقبل على ابن جامع فقال: ويلك! ما هذا؟ فابتدأ يحلِف بالطلاق وكلِّ مُحْرِجة أنه لم يسمع ذلك الصوتَ قطّ من غيره، وأنه صنعَه وأنها حيلةٌ جَرَتْ عليه. فأقبل على إبراهيم وقال: أَصْدُقني بحياتي؛ فصدَقَه عن قصّة مخارق. فقال لمخارق: اجلس إذًا مع أصحابك، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقوم. وأعتقَه ووصلَه بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضَيْعةً ومنزلًا.

---

(١) القصّار: منظف الثياب وصانعها ومحوّر لونها.

(٢) هرقلة: مدينة ببلاد الروم سمّيت بهرقلة بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح. وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوةً بعد حصار وحرب شديد ورمي بالنار والنفط حتى غلب أهلها. وكان في سبي هرقلة ابنة بطريقها، فبنى لها الرشيد حصنًا في الرقّة على الفرات، وهو قرب صفّين من الجانب الغربي.

وقد روى أبو الفرج الأصفهانيّ عن هارون بن مخارق، قال: كان أبي إذا غنّى هذا الصوت: [من البسيط]

يا رَبْع سلمى لقد هيَّجْتَ لي طَرَبًا زدتَ الفؤادَ على عِلّاته وصَبَا[١]
رَبْعٌ تبدّل ممن كان يسكنه عُفْرَ الظباء[٢] وظُلمانًا[٣] به عُصَبا[٤]

يبكي ويقول: أنا مولى هذا الصوت. فقلت له: كيف يا أبتِ؟ فقال: غنّيتُه مولاي الرشيد، فبكى وشرب عليه رطلًا ثم قال: أحسنتَ يا مخارق! فسَلْني حاجتَك؛ فقلت: تُعْتِقُني يا أمير المؤمنين أعتقَك الله من النار؛ فقال: أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، فأعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وشرِب رِطلًا، ثم قال: أحسنتَ يا مخارق! فسلني حاجتَك؛ فقلتُ: ضَيْعَةٌ تُقِيمني غَلَّتُها؛ فقال: قد أمرتُ لك بها، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وقال: سَلْ حاجتَك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر لي بمنزلٍ وفرسٍ وخادمٍ؛ فقال: ذلك لك، أعِدِ الصوت فأعدتُه؛ فبكى وقال: سَلْ حاجتَك؛ فقبّلتُ الأرضَ بين يديه وقلت: حاجتي أن يُطيل الله بقاءَك ويُديم عزَّك ويجعلني من كل سوءٍ فداءك؛ فأنا مولى هذا الصوت بعد مولاي.

ويُروى أيضًا عن الحسين بنِ الضحّاك[٥] عن مُخارق أنّ الرشيد قال يومًا للمغنّين وهو مصطبح[٦]: مَن منكم يغنّي

* يا رَبْعَ سَلْمَى لقد هيَّجْت لي طربًا *

فقمتُ وقلت: أنا يا أمير المؤمنين، فقال: هاتِه؛ فغنّيتُه فطرِب وشرب ثم قال: عليّ بهَرْثَمَةَ؛ فقلت في نفسي: ماذا يريد منه! فجاء هرثمةُ فقال له: مخارق الشّاريّ الذي قتلناه بنواحي المَوْصِل ما كانت كنيتُه؟ فقال: أبو المُهَنّأ؛ فقال: انصرِفْ فانصرف؛ ثم أقبل الرشيد عليّ فقال: قد كنّيتُك أبا المهنّأ لإحسانك؛ وأمر لي بمائة ألف درهم؛ فانصرفتُ بها وبالكُنْية.

قال أبو عبد الله بن حمدون: كنّا عند الواثق وأمّه عليلةٌ، فلما صلّى المغربَ دخل إليها وأمر ألا نبرحَ، فجلسنا في صَحْن الدار، وكانت ليلةً مقمِرةً وأبطأ الواثقُ

---

(١) الوَصَب: التعب والألم الدائم. (٢) عفر الظباء: الغزلان المغبرّة اللون.
(٣) الظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام. (٤) عصب: جماعات، جمع عصبة.
(٥) الحسين بن الضحّاك، من كبار شعراء العهد العباسي، بصريّ المولد والنشأة. مال إلى المجون والخلاعة. نادم الخلفاء، وكان زميل أبي نواس، خمرياته وغزلياته مشهورة. مات سنة ٨٦٤ م.
(٦) مصطبح: يشرب الصبوح، وهي خمرة الصباح.

علينا؛ فاندفع مخارق يغنّي، فاجتمع علينا الغِلْمان، وخرج الواثقُ فصاح: يا غلام، فلم يُجِبْه أحد، ومشى في المجلس إلى أن توسَّط الدارَ؛ فلما رأيتُه وبادرتُ إليه؛ فقال لي: ويلك! هل حدَث في داري شيء؟ فقلتُ: لا يا سيِّدي. قال: فما بالي أصِيح فلا أُجاب؟ فقلت: مخارق يغنّي والغِلْمان قد اجتمعوا إليه فليس فيهم فَضْلٌ لسماع غير ما يسمعونه. فقال: عذرٌ والله لهم يا ابنَ حمدون وأيّ عذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه إلى السَّحَر. وقد رُوِي نحو هذه الحكاية في أمر الغِلْمان مع مخارق عند المعتصم. وقال محمد بن عبد الملك الزيّات: قال لي الواثق: ما غنّاني مخارق قط إلّا قَدّرت أنه من قلبي خُلِق. وكان يقول: أتُريدون أن تنظروا فضلَ مخارق على جميع أصحابه؟ أُنظروا إلى هؤلاء الغِلْمان الذين يقفون في السِّماط(١)، فكانوا يتفقّدونهم وهم وقوفٌ فكلّهم يسمع الغناء من المغنّين جميعًا وهو واقفٌ مكانه ضابطٌ لنفسه، فإذا تغنّى مخارق خرجوا عن صُوَرِهم فتحرّكت أرجلُهم ومناكبهُم وبانت أسبابُ الطرب فيهم، وازدحموا على الحبل الذي يقفون من ورائه.

وحُكي أنّه خرج مرّة إلى باب الكُناسة بمدينة السلام(٢)، والناسُ يرحلون إلى مكّة؛ فنظر إلى كثرتهم وازدحامهم، فقال لأصحابه الذين معه: قد جاء في الخبر أنّ ابن سريج كان يغنّي في أيّام الحجّ والناسُ يمشون فيستوقفهم بغِنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهيهم جميعًا لتعلموا أنّه لم يكن لِيَفْضُلَني إلّا بصنعته دون صوته؛ ثم اندفع يؤذّن، فاستوقف أولئك الخلقَ واستلهاهم، حتى جعلت المحاملُ يَغْشَى بعضُها بعضًا.

قالوا: وجاء أبو العتاهية إلى باب مخارق وطَرَقه فخرج إليه؛ فقال له: يا حُسّان هذا الإقليم، يا حكيمَ أرض بابل، أُصْبُبْ في أذني شيئًا يفرَح به قلبي وتتنعّم به نفسي ـ وكان في جماعة منهم محمد بن سعيد اليَزيديّ ـ فقال: انْزِلوا، فنزلوا، فغنّاهم. فقال محمد بن سعيد: فكدتُ أسعى على وجهي طربًا. قال: وجعل أبو العتاهية يبكي، ثم قال: يا دواءَ المجانين، لقد رقَقْتَ حتى كِدتُ أن أحْسُوَك، فلو كان الغناء طعامًا لكان غناؤك أُدمًا(٣)، ولو كان شرابًا لكان ماءَ الحياة.

---

(١) السماط: الصفّ.

(٢) مدينة السلام، هي بغداد التي بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور.

(٣) الأدم من الطعام: ما يؤكل بالخبز، أو مع الخبز.

وقال أبو الفرج عن عمرَ بن شِبّةَ قال: حدّثني بعض آل نُوبَخْت[١] قال: كان أبي وعبد الله بن أبي سهل وجماعةٌ من آل نوبخت وغيرُهم وقوفًا بكُناسة الدّوابّ في الجانب الغربيّ ببغداد يتحدّثون، وإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسودَ وعليه قميصٌ رقيقٌ ورداءٌ مُسَهَّم[٢]؛ فقال: فِيمَ كنتم؟ فأخبروه. فقال: دعونا من وَسْوَاسِكم هذا، أيُّ شيء لي عليكم إن رميتُ بنفسي بين قبرين من هذه القبور وغَطّيتُ وجهي وغنّيت صوتًا فلم يَبْقَ أحد بهذه الكُناسة ولا في الطريق من مُشْتَرٍ ولا بائع ولا صادرٍ ولا وارد إلا ترك عملَه وقَرُب منّي واتّبع صوتي؟ فقال عبد الله: إني لأُحِبُّ أن أرى هذا، فقل ما شئتَ. فقال مخارق: فرسَك الأشقرَ الذي طلبتُه منك فمنعتنيه. قال: هو لك إن فعلتَ ما قلتَ. قال: فرمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم اندفع يغنّي بشعر أبي العتاهية: [من الكامل]

نـادَتْ بـوَشْـك رحيـلِكَ الأيّـامُ ... أفلستَ تسمَعُ أم بك اسْتِصْمامُ[٣]
ومضى أمامك مَنْ رأيتَ وأنتَ للـ ... ـباقـيـن حـتـى يـلـحـقـوك أمـامُ
ما لي أراكَ كأنّ عَيْنَك لا تَرى ... عِـبَـرًا تـمـرّ كـأنـهـنّ سِـهـام
تمضي الخطوبُ وأنتَ منتبهٌ لها ... فـإذا مـضـت فـكـأنّـهـا أحـلامُ

قال: فرأيتُ الناس يأتون إلى المَقْبُرة أرْسالًا بين راكبٍ وراجل وصاحب شغل ومارّ في الطريق حتى لم يَبْق أحد. ثم قال لنا من تحت ردائه: هل بقي أحدٌ؟ قلنا: لا، وقد وجَب الرّهن. فقام فركِب حماره، وعاد الناسُ إلى صنائعهم؛ وقال لعبد الله: أحضِر الفرسَ، قال: على أن تُقيم عندي؛ قال: نعم! فسلّم الفرس إليه وبرّه وأحسن رِفْدَه[٤].

ورُوِيَ عن يحيىٰ المكيّ قال: خرج مخارِقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المُتَنَزَّهات، فنظر إلى قوس مُذْهَبةٍ مع بعض من خرج معه، فسأله إيّاها، وكان المسؤولُ ضَنّ[٥] بهاء، وسنحت[٦] ظِباءٌ بالقرب منه؛ فقال لصاحب القوس: أرأيتَ

---

(١) نوبخت: أسرة بغدادية شيعية فارسية الأصل، أنجبت عددًا من العلماء والمتكلّمين والنقلة والفلكيين، أشهرهم الحسن بن موسى بن نوبخت.
(٢) مسهّم: مخطّط، فيه وشي كالسّهام.
(٣) الاستصمام: إظهار الصّمم، وعدم القدرة على السماع.
(٤) أحسن رفده: رفده رفدًا عظيمًا، والرفد: الرزق.
(٥) ضَنّ: بخل.
(٦) سنحت: مرّت سنحًا، أي من الشمال إلى اليمين، وقيل من اليمين إلى الشمال، وهذا مما=

إن تغنّيتُ صوتًا فعطَفتْ عليّ به خدودُ هذه الظّباء أتدفع إليّ القوسَ؟ قال: نعم! فاندفع يغنّي: [من المجتث]

مـاذا تـقـول الـظـبـاءُ أفُـــرْقَـــةٌ أم لِقـــاءُ
أم عـهـدُهـا بـسُـلَـيْـمَـى وفـي الـبـيـان شِـفـاء
مـرّت بـنـا سـانِـحـاتٍ وقــد دنــا الإمــســاءُ
فـمــا أحــارَتْ جـوابًـا وطـال فـيـهـا الـعَـنـاءُ[1]

قال: فعَطفتِ الظباءُ راجعةً إليه حتى وقفت بالقرب منه تنظر إليه مُصْغِيةً إلى صوته. فعجِب من حضَر من رجوعها ووقوفها؛ وناوَله الرجلُ القوسَ، فأخذها وقطع الغناء، فعاودت الظباء نِفارَها ومضت راجعةً على سَنَنها.

ورُوِي عن إسحٰق بن إبراهيم قال: دخلت على أبي وهو جالسٌ بين بابين له ومخارقٌ بين يديه، وهو يغنّيه: [من الكامل]

يا ربعَ بِشْرةَ إن أضرّ بك البِلَى فـلقـد رأيتُـك آهِـلًا[2] مـعـمـورا

قال: فرأيتُ أبي ودموعُه تجري على خدّيه من أربعةِ أماكن وهو يَنْشِج[3] أحرَّ نشِيج، فلما رآني قال: يا إسحٰقُ، هذا والله صاحبُ اللّواء غدًا إن مات أبوك.

ورُوي عن مخارق قال: رأيتُ وأنا حَدَثٌ كأنّ شيخًا جالسًا على سرير في روضة حسنة، فدعاني فقال لي: غنِّني يا مخارق؛ فقلت: أصوتًا تقترحه أو ما حضَر؟ فقال: ما حضَر. فغنّيتُه: [من الطويل]

دَعِي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالًا[4] مع الذي به منكِ أو داوِي جَوَاهُ[5] الـمُكَتَّما
ولـيـس بـتـزويـق الـلـسـان وصَـوْغـه ولـكـنّـه قـد خـالـط الـلّحـمَ والـدّمـا

فقال لي: أحسنتَ يا مخارق! ثم أخذ وتَرًا من أوتار العود فلفّه على المِضْراب[6] ودفعه إليّ، فجعل المِضرابُ يطول ويغلُظ والوتر ينتشر ويَعْرُض حتى صار المِضرابُ كالرمح والوتر كالعَذَبة عليه وصار في يدي علمًا، ثم انتبهت فحدّثت

= يتفاءل به.
(١) العناء: التعب.
(٢) آهلًا: عامرًا بالأهل والسكّان.
(٣) ينشج: يغصّ بالبكاء من غير انتحاب.
(٤) الخبال: الجنون.
(٥) الجوى: شدّة الحزن والألم من أثر الحبّ والعشق.
(٦) المضراب: اسم الآلة التي يضرب بها الوتر.

برؤياي إبراهيم الموصليّ؛ فقال لي: الشيخ بلا شك إبليسُ، وقد عَقَد لواء صنعتك فأنتَ ما حييتَ رئيسُ أهلِها.

وقال أحمدُ بنُ حمدون: غَضِب المعتصمُ على مخارق أن يُجْعَل في المؤذّنين ويَلْزمهم ففُعل ذلك؛ وأَمْهل حتى عَلِم أن المعتصم يشرب، فأُذِّنت العصر، فدخل إلى السِّتر حيث يقف المؤذِّنُ للسلام، ثم رفع صوته جهدَه وقال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته، الصلاةَ يرحمُك الله. فبكى حتى جرت دموعُه وبكى كلُّ من حضر، ثم قال: أدخِلوه عليّ وأقبل علينا؛ ثم قال: سمعتم هكذا قط! هذا الشيطانُ لا يتركُ أحدًا يغضب عليه! فدخل إليه فقبّل الأرض بين يديه؛ فدعاه المعتصم إليه فأعطاه يدَه فقبّلها وأمرَه بإحضار عوده فأَحْضره، وأعاده إلى مَرْتبته. وأخباره كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية. وكانت وفاتُه في أوّل خلافة المتوكّل؛ وقيل: بل في آخر خلافة الواثق. وغنّى خمسةً من الخلفاء: الرشيدَ والأمينَ والمأمونَ والمعتصمَ والواثقَ، رحمهم الله تعالى.

ذكر أخبار يحيىٰ بن مَرْزوق المَكّيّ

هو أبو عثمان يحيىٰ بنُ مرزوقٍ المكّيّ، مولى بني أُميّة، وكان يكتُم ذلك لخدمته للخلفاء من بني العبّاس؛ وكان إذا سُئِل عن ولائه انتمى إلى قريشٍ، ولم يذكر البطنَ الذي ولاؤُه له، ويَستعفي من يسأله عن ذلك.

قال الأصفهانيّ:

وعُمِّر يحيىٰ المكيُّ مائةً وعشرينَ سنةً، وأصاب بالغناء ما لم يُصِبْه أحدٌ من نظرائه ومات وهو صحيحُ العقل والسمع والبصر. وكان قَدِم مع الحجازيّين الذين قَدِموا على المهديّ في أوّل خلافته فبَقِي بالعراق. وكان ابن جامع وإبراهيمُ الموصليّ وفُلَيْحٌ يفزَعون(١) إليه في الغناء القديم فيأخذونه عنه، ويُعَايِي(٢) بعضُهم بعضًا بما يأخذونه منه. فإذا خرجتْ لهم الجوائزُ أَحْذَوْه(٣) منها ووفّروا نصيبَه. وله صنعة عجيبةٌ نادرة متقدِّمة. قال: وله كتاب في الأغاني ونِسَبها وأجناسِها كبيرٌ جليلٌ مشهور؛ إلّا أنّه كالمطروح عند الرواة لكثرة تخليطه في رواياته؛ والعمل على كتاب ابنه أحمد،

---

(١) يفزعون: يلجأون، يأتون.

(٢) يعايي: يُعجز بعضهم بعضًا، ويسأل بعضهم بعضًا على سبيل التعجيز والمعاياة.

(٣) أحذوه: أعطوه.

فإنه صحّح كثيرًا مما أفسده وأزال ما عرفه من تخاليط أبيه، وحقّق ما نسبه من الأغاني إلى صانعه. قال: وهو يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت.

قال أحمدُ بنُ سعيد:

كانت صنعةُ يحيىٰ ثلاثةَ آلاف صوت، منها زُهاء ألف صوت لم يُقارِبْه فيها أحدٌ. وسُئِلَ ابنُه أحمدُ عن صنعةِ أبيهِ فقال: الذي صحّ عندي منها ألفُ صوت وثلاثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتًا، غلَب فيها على الناس جميعًا مَن تَقدّم منهم ومن تأخّر، فلم يَقُم له أحد فيها.

قال أحمد بن يحيىٰ: قال لي إسحٰق: يا أبا جعفر لأبيك مائة وسبعون صوتًا من أخذها عنه بمائة وسبعين ألف درهم فهو الرّابح، والله أعلم.

ذكر أخبار أحمد بن يحيىٰ المكيّ المُلقّب بطَنِين

هو أبو جعفر أحمدُ بنِ يحيىٰ المكّيّ، وكان يُلَقّب طنينًا، وهو أحد المحسنين المُبَرّزين الرّواةِ للغناء المُحْكِمي الصنعة. كان إسحٰقُ يقدّمه ويُؤْثِره ويَشْدُو بذكره ويَجْهَر بتفضيله.

قال أبو الفرج: وكتابُه المجرّد في الأغاني ونِسَبها أصلٌ من الأصول المعوّل عليها. قال: وكان مع جودة غنائه وحسنِ صَنعته أحدَ الضُّرّاب الموصوفين المتقدّمين.

قال عليّ بن يحيىٰ: قلت لإسحٰق بنِ إبراهيمَ الموصليّ ـ وقد جرى ذكر أحمدَ بنِ يحيىٰ المكّيّ ـ: يا أبا محمد لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ مملوكًا كم كان يُساوي؟ قال: أخبرك عن ذلك، اِنصرفتُ ليلةً من دار الواثق فاجتزتُ بدار الحسن بن وهب[1] فدخلتُ إليه فإذا أحمدُ عنده، فلما قاموا لصلاة العشاءِ الآخرةِ قال لي الحسن بن وهب: كم يُساوي أحمد لو كان مملوكًا؟ قلت: يساوي عشرين ألف دينار. قال: ثم رجع فغنّى صوتًا؛ فقال لي الحسن: كم يساوي أحمد لو كان مملوكًا؟ قلتُ: يساوي ثلاثين ألف دينار. ثم تغنّى صوتًا آخر؛ فقلت للحسن: يا أبا عليّ أضْعِفها، ثم أردتُ الانصرافَ فقلت لأحمد:

(١) الحسن بن وهب، أخو سليمان، كتب لمحمد بن عبد الملك الزيّات، وقد ولي ديوان الرسائل. كان شاعرًا بليغًا مترسّلًا فصيحًا، وأحد ظرفاء الكتاب. له كتاب «ديوان الرسائل». انظر: الفهرست، ص ١٧٧.

غنّني: [من البسيط]

لـولا الـحـيـاءُ وأنّ الـسَّـتْـرَ مـن خُـلُـقـي إذًا قـعـدتُ إلـيـك الـدهـرَ لـم أقُـم
ألـيـس عـنـدك سـكـرٌ لـلـتـي جَـعـلـتْ ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحُمَم[1]

فغنّاه فأحسن فيه كلّ الإحسان، فلما قمتُ للانصراف قلتُ: يا أبا عليّ، أضْعِف الجميع. فقال له أحمد: ما هذا الذي أسمعكما تقولانِه ولستُ أدري ما معناه؟ فقال: نحن نَبيعك ونَشتريك منذ الليلة وأنتَ لا تدري. وقال محمد بن عبد الله بن مالك: سألني إسحٰقُ بن إبراهيم الموصليّ يومًا: مَنْ بَقِي من المغنّين؟ قلت: وَجْهُ القَرْعة محمد بن عيسى. فقال: صالح كَيِّسٌ[2]؛ ومَنْ أيضًا؟ قلت: أحمد بن يحيىٰ المكيّ. قال: بَخٍ بَخٍ[3]. ذاك المحسنُ المُجمِل الضارب المغنّي، القائمُ بمجلسه لا يُحْوِج أهلَ المَجلس إلى غيره، وكانت وفاتُه في أوّل خلافة المستعين[4].

ذكر أخبار هاشم بن سليمان مولى بني أُميّة

يُكْنَى أبا العباس. وكان موسى الهادي يسمِّيه أبا الغريض. قال أبو الفرج: وهو حسنُ الصَّنعة غزيرُها؛ وفيه يقول الشاعر: [من السريع]

يـا وَحْـشـتـي بـعـدك يـا هـاشـمُ غِبتَ فشَجْوِي[5] بكَ لِي لازِمُ[6]
الـلَّـهْـوُ والـلّـذّةُ يـا هـاشـم مـا لـم تـكـن حـاضـرَهُ مـأتَـمُ

وقال الأصبهانيّ بسند رفعه إلى هاشم:

أصبح موسى أمير المؤمنين يومًا وعنده جماعةٌ فقال: يا هاشمُ غنِّني:

* أبَـهـارُ قـد هـيّـجـتِ لـي أوجـاعـا *

فإن أصبتَ مرادي فيه فلك حاجةٌ مقضيّة. قال: فغنّيتُه، وهو: [من الكامل]

أبَـهـارُ قـد هـيّـجـتِ لـي أوجـاعـا وتـركـتِـنـي عـبـدًا لـكـم مِـطْـواعـا[7]

---

(١) قادمات: جمع قادمة، وهي الشعر في مقدم الرأس. والحمم: الرماد، وكل ما احترق من النار.
(٢) كيّس: ظريف وفطن. (٣) بخ: اسم فعل يفيد التعجّب والتعظيم.
(٤) المستعين بالله: هو أحمد بن محمد المعتصم، الخَليفة الثاني عشر. بايعه الأتراك بعد وفاة المنتصر ثم قتلوه وولّوا المعتزّ، كان مقتله سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٥.
(٥) شجوي: حزني. (٦) لازم: دائم.
(٧) مطواع: شديد الطواعية.

بحديثك الحسن الذي لو كُلِّمتْ   وحشُ الفلاة به لجِئْنَ سِراعا
وإذا مررتُ على البَهارِ مُنَضَّدًا   في السوق هيّج لي إليك نِزاعا[١]
والله لو علِم البهارُ بأنها   أضحتْ سميّته لصار ذراعا

فقال: أصبتَ وأحسنتَ، سَلْ حاجتَك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر بأن يُملأ هذا الكانون دراهم ـ وكان بين يدَيْه كانون عظيم ـ فأمر به فمُلىء فوسِع ثلاثين ألف درهم. فلمّا حصّلتُها قال لي: يا ناقص الهمّة، والله لو سألتَ أنْ أملأه لك دنانير لفعلتُ. فقلت: أقِلْني[٢] يا أمير المؤمنين. قال: لا سبيلَ إلى ذلك ولم يُسْعِدك الجَدُّ[٣] به. وقد رُوِيتْ هذه الحكايةُ في موضع آخر، وذُكِر أنّ الذي غنّاه غيرُ هذا الشّعر، وأن الكانون وَسِع ستّ بِدَرٍ، فدفعها إليه.

ذكر أخبار يزيد حَوْراء

هو رجل من أهل المدينة من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مَنَاة بن كِنانة؛ ويُكْنى أبا خالد. مُغنٍّ محسنٌ كثيرُ الصنعة، من طبقة ابن جامع وإبراهيم الموصليّ. وكان ممن قدِم على المهديّ في خلافته فغنّاه. وكان حسنَ الصوت حلوَ الشمائل. فحسده إبراهيمُ الموصليّ على شمائله وإشاراته في الغناء، فاشترى عدّة جوارٍ وشارَكه فيهنّ، وقال له: علّمهنّ، فما رزق الله تعالى من ربح فيهنّ فهو بيننا، وأمرهنّ أن يَجْعلن وَكْدَهنّ[٤] أخذَ إشاراته، ففعلن ذلك. فكان إبراهيم يأخذها عنهنّ وهو وابنُه ويأمرهنّ بتعليم كل من يعرِفنه ذلك حتى شهَرها في الناس، فأبْطَل عليه ما كان منفرِدًا به من ذلك.

قال عبد الله بن العباس الرَّبيعيّ:

كان يزيد حَوْراء نظيفًا ظريفًا حسنَ الوجه شَكِلًا، لم يقدَم علينا من الحجاز أنظفُ منه ولا أشكلُ، وما كنتَ تَشاءُ أن ترى خَصْلةً جميلة لا تَراها في أحدٍ منهم إلا رأيتَها فيه. وكان يتعصّبُ لإبراهيم الموصليّ على ابن جامع، فكان إبراهيمُ يرفع منه ويُشيع ذكره بالجميل وينبّه على مواضع تقدُّمه وإحسانه، ويبعث بابنه إسحٰق إليه يأخذ عنه.

(١) البهار: جنس زهر من المركبات الأنبوبية الزهر. يقال له العرار. ومنضّدًا: مرتّبًا ومنسّقًا.
(٢) أقلني: أعفني. (٣) الجدّ: الحظّ.
(٤) الوكد: القصد والعزم والغاية.

وحكى أبو الفرج بسنَدٍ رفعه إلى يزيد حوراء، قال:

كلّمني أبو العتاهية في أن أُكلِّم المهديّ في عُتْبَةَ؛ فقلت: إن الكلام لا يُمْكنني، ولكن قل شعرًا أُغنّيه به؛ فقال: [من البسيط]

نفسي بشيءٍ من الدنيا معلّقةٌ ... اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكْفيها

إني لأيأسُ منها ثم يُطْعِمُني ... فيها احتقارُك للدُّنيا وما فيها

قال: فعمِلتُ فيه لحنًا وغنّيتُه. فقال: ما هذا؟ فأخبرتُه خبر أبي العتاهيةِ؛ فقال: ننظرُ فيما سأل؛ فأخبرتُ بذلك أبا العتاهية. ثم مضى شهر فجاءني فقال: هل حدَث خبرٌ؟ قلت: لا، قال: فاذْكُرْني للمهديّ. فقلتُ: إن أحببتَ ذلك فقل شعرًا تحرِّكه به وتذكّره وعدَه حتى أغنّيَه به؛ فقال: [من الخفيف]

ليتَ شعري ما عندكم ليتَ شعري ... فلقد أُخِّر الجوابُ لأَمْرِ

ما جوابٌ أولى بكل جميلٍ ... مِن جوابٍ يُرَدّ مِن بعدِ شهرِ

قال يزيد: فغنّيت المهديّ، فقال: عليّ بعتبة فأحضِرت؛ فقال: إنّ أبا العتاهية كلّمنِي فيكِ، فما تقولين ولك عندي وله ما تُحِبّان مما لا تبلُغه أمانيكما؟ فقالت: قد علِم أميرُ المؤمنين ما أوجب الله عليّ من حقّ مولاتي، وأريد أن أذكر هذا لها. قال: فافعلي. قال: فأعلمتُ أبا العتاهية. ومضت أيام فسألني معاودةَ المهديّ؛ فقلتُ: قد عرفتَ الطريق، فقل ما شئتَ حتى أغنّيه به؛ فقال: [من الكامل]

أشْرَبْتُ قلبي مِن رجائك ما له ... عَنَقٌ(١) يَخُبّ(٢) إليك بي ورَسِيمُ(٣)

وأَمَلْتُ نحو سماء جَوْدك(٤) ناظري ... أرْعَى مخايِلَ(٥) بَرْقها وأَشِيمُ(٦)

ولقد تنسّمتُ(٧) الرّياحَ لحاجتي ... فإذا لها مِن راحتيك نَسِيم

ولربما استيأستُ ثم أقول لا ... إن الذي وعدَ النّجاحَ كريم

---

(١) العنق: ضرب من السير فسيح وسريع.
(٢) يخبّ: يسرع، أو يمشي الخبب، وهو ضرب من السير.
(٣) الرسيم: المشي السريع. (٤) الجَوْد: المطر.
(٥) المخايل: جمع مخيلة، وهي السحابة التي تخالها ماطرة لرعدها وبرقها. والمخيلة: العلامة والمظنّة.
(٦) أشيم: من شام البرق، إذا نظر إليه يتّجه وأين يمطر.
(٧) تنسّمت: تروّحت.

قال يزيد: فغنّيتُه الشعر، فقال: عليّ بعتبة فجاءت؛ فقالت: ما صنعت؟ فقالت: ذكرتُ ذلك لمولاتي فكرِهَتْه وأبَتْ أن تفعل، فليفعل أميرُ المؤمنين ما يريد. قال: ما كنتُ لأفعل شيئًا تكرهه، فأعلمتُ أبا العتاهية بذلك، فقال: [من الكامل]

قـطّـعـتُ مـنـك حـبـائـلَ الآمـالِ وأرَحْتُ مِن حِلّ[١] ومِن تَرْحالِ[٢]
مـا كـان أشـأم إذ رجـاؤك قـاتـلي وبَناتُ وَعْدِك يَعْتَلِجْنَ[٣] ببالي
ولئن طَمِعتُ لربّ بَرْقةٍ[٤] خُلّبٍ[٥] مـالـت بـذي طـمـع ولَمْعةِ آلِ[٦]

وقد حكى أبو الفرج أيضًا هذه الحكاية واختصرها، ولم يذكر الأبيات التي منها:

* أشـرَبْـت قـلـبـي مـن رجـائـك مـا لـه *

إلّا أنّه غيّر قولَه: «أشربت قلبي» بقوله: «أعلمتُ نفسي من رجائك»، وقال: فصنع فيه يزيد لحنًا وغنّاه المهديّ. فدعا بأبي العتاهية وقال له: أما عُتْبةُ فلا سبيلَ إليها؛ لأن مولاتها قد مَنعتْ منها، ولكن هذه خمسون ألف درهم فاشْتَرِ ببعضها خيرًا من عُتْبة فحُمِلت إليه، فأخذها وانصرف.

وحُكِي عن حماد بن إسحٰق قال:

قال يزيد حوراء: كنتُ أجلِس بالمدينة على أبواب قريش، وكانت تمرّ بي جاريةٌ تختلف[٧] إلى الزرقاء تتعلّم منها الغناء. فقلت لها يومًا: اِفْهمي قولي ورُدّي جوابي وكوني عند ظنّي؛ فقالت: هاتِ ما عندك. فقلتُ: بالله ما اسمكِ؟ فقالت: مُمنَّعة. فأطرقتُ طِيَرةً[٨] من اسمِها مع طمعي فيها، ثم قلتُ: بل باذِلةٌ ومبذولةٌ إن شاء الله فاسمعي منّي. فقالت وهي تتبسّم: إن كان عندك شيء فقُلْ. فقلت: [من الطويل]

لِيَـهْـنِـكِ مـنّـي أنّـنـي لـسـتُ مُـفْـشِـيًـا[٩]
هـواكِ إلـى غـيـري ولـو مُـتّ مِـن كـربـي[١٠]

(١) الحل: الإقامة.
(٢) الترحال: الرحيل.
(٣) يعتلجن: يجتمعن.
(٤) البرقة: واحدة البرق.
(٥) خلّب: خادعة.
(٦) الآل: السراب، وهو الماء الخادع.
(٧) تختلف: تتردّد.
(٨) الطّيرة: التشاؤم.
(٩) مفشيًا: ذائعًا.
(١٠) كربي: حزني وغمّي.

ولا مـانـحًـا[١] خَـلْقًـا سِـواكِ مـحـبَّـةً
ولا قـائـلًا مـا عـشـتُ مِـنْ حُـبّـكـم حسبي[٢]

فنظرت إليّ طويلًا ثم قالت: أَنْشُدُكَ الله، أعن فَرْط مَحبَّة أم اهتياجِ غُلْمةٍ[٣] تكلّمتُ؟ فقلتُ: لا والله إلا عن فرط محبّة. فقالت: [من الطويل]

فـوالله ربّ الـنـاس لا خُـنْـتُـك الـهـوى ولا زلتَ مخصوصَ المحبّة من قلبي
فـثِـقْ بـي فـإنّـي قـد وَثِـقْـتُ ولا تـكـن على غير ما أظهرتَ لي يا أخا الحبّ

قال: فوالله لكأنّما أضرمتْ في قلبي نارًا، فكانت تلقاني في الطريق الذي كانت تسلُكه فتحدّثني فأتفرّج بها؛ ثم اشتراها بعضُ أولاد الخلفاء، وكانت تكاتبُني وتلاطفني دهرًا طويلًا.

ذكر أخبار فُلَيْح بن أبي العَوْراء

هو رجل من أهل مكّة مولى لبني مخزوم، وهو أحد مُغَنّي الدولة العبّاسيّة؛ له محلٌّ كبير من صناعته، وهو أحد الثلاثة الذين اختاروا المائة الصوت للرّشيد التي بنى أبو الفرج الأصفهاني كتابَه المترجَم بالأغاني عليها. قال إسحٰق بن إبراهيم الموصليّ: ما سمعتُ أحسنَ من غناء فليح وابن جامع. وكان المهديّ لا يُغَنّيه مُغَنّ إلّا من وراء الستارة إلا فليح، فإن الستارة كانت تُرفع بينه وبين المهديّ، وهو أوّل مُغَنٍّ نظر وجهَ المهديّ.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن يوسفَ بن إبراهيمَ عن إبراهيمَ بنِ المهديّ قال: كتب إليّ جعفرُ بنُ يحيىٰ[٤] وأنا عامل الرشيد على جُنْد دمشق[٥]: قد قدم علينا فُلَيْح بن أبي العوراء، فأفسد علينا بأهزاجه وخفيفه كلَّ غناءٍ سمعناه قبله. وأنا محتال لك في تخليصه إليك لتسمع منه كما أسمعنا. فلم ألبث أن ورد عليّ فليح بكتاب الرّشيد يأمر له بثلاثة آلاف دينار؛ فورد عليّ منه رجلٌ أذكرني لقاؤه الناسَ وأخبرني أنه

(١) مانحًا: واهبًا. (٢) حسبي: يكفيني.
(٣) الغلمة: شدة الشهوة إلى النساء.
(٤) جعفر بن يحيىٰ: هو جعفر بن يحيىٰ البرمكي، وزير الخليفة هارون الرشيد. انقلب عليه لأسباب واضحة وقتله في نكبة مشهورة تُعرف بنكبة البرامكة، وذلك سنة ٨٠٣ م.
(٥) جند دمشق: إقليمها.

قد ناهز[١] المائة، فأقام عندي ثلاث سنين، وأخذ جواري عنه كلَّ ما كان معه من الغناء، وانتشر بعضُ غنائه بدمشق.

وروى أيضًا بسنده إلى أحمد بن يحيىٰ المكّيّ عن فُلَيْح بن أبي العوراء قال: كان بالمدينة فتًى يعشَق ابنةَ عمٍّ له، فوعدتْه أنها تزوره؛ وشكا إليّ أنها تأتيه ولا شيء عنده؛ فأعطيتُه دينارًا للنفقة. فلما زارتهُ قالت له: من يُلْهينا؟ قال: صديقٌ لي، ووصفني لها؛ ودعاني فأتيتُه؛ وكان أوّل ما غنّيتُه: [من الوافر]

مِن الخَفِراتِ[٢] لم تَفْضَحْ أخاها ... ولـم تَـرْفَـعْ لـوالـدهـا شَـنـارا[٣]

فقامت إلى ثوبها فلبِسَتْه لتنصرف، فتعلّق بها وجَهِد كلَّ الجهد في أن تُقيم فلم تفعل وانصرفتْ. فأقبل يلومني في أن غنّيتُها ذلك الصوتَ. فقلت: والله ما هو شيءٌ اعتمدتُ به مساءَتك ولكنّه شيء اتّفق. قال: فلم نَبْرَحْ حتى عاد رسولُها ومعه صُرّة فيها ألف دينار، فدفعها إلى الفتى، وقال: تقول لك ابنةُ عمّك: هذا مَهْري، فادفعه إلى أبي واخطُبْني، ففعل وتزوّجها.

ذكر أخبار إبراهيم الموصليّ عفا الله عنه

هو إبراهيمُ بنُ ماهانَ بنِ ميمون، وأصلُه من فارس، ومولِدُه في سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، ووفاتُه ببغداد في سنة ثمان وثمانين ومائة. قالوا: ومات ماهان وترك إبراهيمَ صغيرًا، فكَفَله آلُ خزيمةِ بن خازم، فكان ولاؤه لبني تميم. وكان السببُ في نسبه إلى المَوْصِل أنه لما كَبِر واشتدّ وأدرك صَحِب الفتيانَ واشتهى الغناءَ وطلَبه، فاشتدّ أخوالُه بنو عبد الله بن دارم عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصِل فأقام بها سنة؛ فلما رجَع إلى الكوفة قال له إخوانُه من الفتيان: مَرْحبًا بالفتى الموصليّ، فغلب عليه ثم ارتحل إلى الرّيّ[٤] في طلب الغناء، فطال مقامُه هناك، وأخذ الغناء الفارسي والعربيّ.

---

(١) ناهز: قارب، وشارف.
(٢) الخفرات: الحييّات.
(٣) الشنار: العار وأقبح العيب.
(٤) الرّيّ: مدينة في شمال إيران بضاحية طهران. وأطلال مدينة تاريخية قديمة فتحها العرب في صدر الإسلام. ازدهرت في عهد العباسيّين والبويهيين والسلاجقة، وكانت من عواصم الإسلام التجارية والفنيّة والثقافية. خرّبها المغول سنة ١٢٢٠ م. ولد فيها هارون الرشيد وإليها يُنسب علماء كثيرون منهم الرّازي الطبيب.

قال إسحٰق: حدّثني أبي قال:

أوّل شيء أُعْطِيته بالغناء أني كنت بالريّ أنادِمُ أهلَها بالسويّة لا أرزؤهم[1] شيئًا ولا أُنْفِق إلا من بقية مال كان معي. فمرّ بنا خادم أبو جعفر المنصور إلى بعض عُمّاله برسالة، فسمعني عند رجل من أهل الرّيّ فشُغِف بي وخلَع عليّ دُوَّاج[2] سَمُّورٍ له قيمة، ومضى بالرّسالة فرجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكُسوةٍ كثيرةٍ، فجاءني إلى منزلي الذي كنت أسكنه، فأقام عندي ثلاثة أيام ووهب لي نصف الكسوة التي معه وألفَي درهم. وكان ذلك أوّل مالٍ كسبته من الغناء. فقلت: والله لا أنفق هذه الدراهم إلّا على الصناعة التي أفادتْنيها. ووُصِف لي رجلٌ بالأُبُلَّة[3] اسمه: «جُوانُوَيه» وكان حاذقًا، فخرجت إليه، وصحِبت فتيانها وأخذت عنهم وغنّيتهم فشُغِفوا بي.

قال إبراهيم: ولما أتيت «جُوانُوَيه» لم أُصادِفه في منزله فأقمت حتى جاء. فلما رآني احتشمني وكان مجوسيًا؛ فأخبرته بصناعتي والحال التي قصدتُه فيها؛ فرحّب بي وأفرد لي جَناحًا في داره ووَكّل بي جاريةً، فقدّمتْ لي ما أحتاج إليه. فلما كان العِشاء عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغنّي؛ فنزلت إليه فجلسنا وأخذوا في شأنهم وضربوا وغنّوا؛ فلم أجِدْ في غناء أحدٍ منهم فائدة، وبلغت النَّوْبة إليّ فضربتُ وغنّيت؛ فقاموا جميعًا إليّ فقبّلوا رأسي وقالوا: سَخِرتَ بنا، نحن إلى تعليمك إيّانا أحوج منك إلينا، فأقمت على تلك الحال أيّامًا حتى بلغ محمد بن سليمان بن عليّ خبري، فوجّه إليّ فأحضرني وأمرني بملازمته. فقلتُ: أيّها الأمير، لستُ أتكسّب بهذه الصناعةِ وإنما ألتذّ بالغناء فلذلك تعلّمتُه، وأريد العَوْد إلى الكوفة؛ فلم أنتَفِعْ بذلك عنده وأخذني بملازمته وسألني: من أين أنا؟ فانتسبتُ إلى المَوْصِل، فلزِمتني وعُرِفتُ بها. ولم أزل عنده مُكَرَّمًا، حتى قَدِم عليه خادمُ المهديّ، فلما رآني عنده قال له: يا أمير المؤمنين أحوجُ إلى هذا منك، فَدافَعه عنّي. فلما قَدِم الخادمُ على المهديّ سأله عمّا رأى في طريقه ومَقْصِده، فأخبره بما رأى، حتى انتهى إلى ذكري فوصَفَني له. فأمره المهديّ

(١) أرزؤهم: أعطيهم.

(٢) الدوّاج: ضرب من الفرو. والسمّور: حيوان برّي من فصيلة السمّوريّات ورتبة اللّواحم، يشبه ابن عرس وهو أكبر منه. لونه أحمر يميل إلى السواد. من جلده تتّخذ فراء ثمينة.

(٣) الأبلّة: مدينة قديمة في جنوب العراق على نهر دجلة.

بالرّجوع وإشخاصي[١] إليه، فجاء وأشخصني إلى المهديّ، وحَظِيتُ[٢] عنده وقدَّمَني.

قال: وما سَمِع المهديُّ قبلي أحدًا من المُغَنّين سوى فُلَيْح بن أبي العَوْراء وسِياط؛ فإن الفضل بن الربيع وصفهما له.

قال: وكان المهديّ لا يَشربُ، فأرادني على ملازمته وتركِ الشُّرب، فأبيتُ عليه. وكنتُ أغيب عنه الأيام، فإذا جئتُه جئتُه مُنْتَشِيًا[٣]؛ فغاظَهُ[٤] ذلك منّي وضرَبني وحبَسني؛ فحَذِقت القراءةَ والكتابة في الحبس. ثم دعاني يومًا فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذّل معهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما تعلّمتُ هذه الصناعةَ للذّتي وعشرةِ إخواني ولو أمكنني تركُها وجميعَ ما أنا فيه لله تعالى. فغضِب غضبًا شديدًا وقال: لا تَدْخل على موسى وهارون، فوالله لَئِن دخلتَ عليهما لأفعلنّ وأصنعنّ. فقلت: نعم. ثم بلغه أنّي دخلتُ عليهما وشَرِبتُ معهما وكانا مشتهِرين بالنّبيذ، فضربني ثلاثمائة سوط وستّين سوطًا. فقلتُ له وأنا أُضْرَب: إن جُرْمِي ليس من الأجرام التي يحِلّ بها سفك دمي، ووالله لو كان سرُّ ابنيك تحت قدميّ ما رفعتُهما عنه ولو قُطِعتا، ولو فعلتُ ذلك كنت في حالة أبانِ العبدِ الساعي. فلما قلتُ ذلك ضربني بالسيف في جفنه[٥] فشجّني[٦]، فسقطت مَغْشِيًّا عليّ. وقال لعبد الله بن مالك: خُذْه إليك واجعله في مثل القبر. فدعا عبدُ الله بكبش فذَبَحه وسَلخه وألبَسني جلدَه ليسكن الضّربُ عني، ودَفعني إلى خادم له يقال له أبو عثمان سعيد التركيّ، فجعلني في قبر ووكّل بي جارية، فتأذيت بنَزّ[٧] كان في القبر وبِبَقّ[٨]. فقلت للجارية: أصْلِحي لي مِجْمرةً[٩] وكُنْدُرًا[١٠] ليذهب عني هذا البَقّ ففعلتْ، فلما دخّنَت أظلم القبرُ وكادت نفسي تذهب، ثم خفّ ذلك وزال البَقّ، وإذا حيّتان مُقْبِلتان نحوي من شَقّ في القبر تَدُوران حولي، فهمَمْتُ أن آخُذَ واحدةً بيدي اليمنى والأخرى بيدي اليسرى، فإمّا عليّ وإمّا لِي، ثم كُفِيتُهما، فدَخَلتا في الثُّقْب الذي خرجتا منه. فمكثتُ

---

(١) إشخاصي: إحضاري.
(٢) حظيت: نلت الحظوة والتكريم.
(٣) منتشيًا: سكران.
(٤) غاظه: أغضبه.
(٥) جفن السيف: غمده.
(٦) شجّني: جرحني.
(٧) النزّ: ما يتحلّب من الأرض من ماء وغيره.
(٨) البق: حشرة من رتبة نصفيّة الأجنحة، أجزاء فمها ثاقبة ماصّة على شكل خرطوم، ومنه ضروب مختلفة.
(٩) المجمرة: موقد الجمر والنار.
(١٠) الكندر: اللّبان، وهو نبات من الفصيلة البخورية يفرز صمغًا.

في ذلك القبر ما شاء الله، ثم أُخرِجتُ منه. وأحْلَفني المهديّ بالطّلاق والعِتاق وكلّ يمينٍ لا فسحةَ لي فيها ألّا أدخلَ على ابنيه موسى وهارون أبدًا ولا أغنّيهما، وخلّى سبيلي. قال إبراهيم: وقلتُ وأنا في الحبس: [من المتقارب]

ألَا طال ليلي أُراعِي[1] النجوم أُعالج في السَّاقِ كَبْلًا[2] ثقيلا
بدارِ الهوانِ[3] وشرّ الديارِ أسامُ[4] بها الخَسْفَ[5] صَبْرًا جميلا
كثيرُ الأخِلّاء[6] عند الرخاء فلما حُبِستُ أراهم قليلا
لطول بلائيَ ملّ الصديق فلا يأمَنَنّ خليلٌ خليلا

قال: فلمّا ولي موسى الهادي الخلافةَ استتر إبراهيمُ منه ولم يَظْهر له بسبب الأَيمان التي حلَف بها للمهديّ. فلم يزل يطلبه حتى أُتِي به فلما عايَنه قال: يا سيّدي، فارقتُ أمَّ ولدي أعزّ الخلق عليّ؛ ثم غنّاه: [من الخفيف]

يا ابنَ خيرِ الملوك لا تتْركنّي غَرَضًا للعدوّ يَرْمِي حِيَالي
فلقد في هواك فارقتُ أهلي ثم عرّضتُ مهجتي[7] للزوال
ولقد عِفْتُ[8] في هواك حياتي وتغرّبتُ بين أهلي ومالي

قال إسحٰق بن إبراهيم: فموّله الهادي وخوّله؛ وبحَسْبِك أنه أخذ منه مائة ألف وخمسين ألف دينار في يومٍ واحد، ولو عاش لنا لبنَيْنا حيطانَ دُورنا بالذهب والفضّة.

قال حمّاد بن إسحٰق: قال لي أبي:

والله ما رأيتُ أكملَ مروءةً من جدّك، وكان له طعام يُعَدّ أبدًا في كل وقت، فقلت لأبي: كيف كان يُمكنه ذلك؟ قال: كان له في كل يوم ثلاثُ شِيَاهٍ[9]، واحدةٌ مقطّعة في القدور، وأخرى مسلوخةٌ معلّقة، وأخرى قائمة في المطبخ؛ فإذا أتاه قوم طَعِموا ممّا في القدور، فإذا فرغت القدور قُطِّعَت الشّاةُ المعلّقةُ ووُضِعَتْ في القدور

---

(١) أراعي: أرقب.
(٢) الكبل: القيد في الرّجل.
(٣) الهوان: الذلّ والأسر.
(٤) أسام: أذوق وأعذّب.
(٥) الخسف: الظلم.
(٦) الأخلّاء: جمع خليل، وهو الصاحب والصديق.
(٧) مهجتي: روحي.
(٨) عفت: مللت.
(٩) الشياه: جمع شاة، وهي الواحدة من الضّأن أو المعز والبقر.

وذُبِحَتْ القائمة وأُتي بأُخرى فأُقيمت في المطبخ. وكانت وظيفتُه لطعامه وطِيبه وما يتّخذ له في كل شهر ثلاثين ألف درهم سوى ما كان يُجْرِي وسوى كُسوته. ولقد كان مرّةً عندنا من الجواري الودائع لإخوانه ثمانون جارية، ما فيهنّ واحدة إلّا ويُجْرِي عليها من الطعام والكُسوةِ والطِّيبِ مثل ما يُجْرِي لأخصِّ جواريه، فإذا رُدّت الواحدةُ إلى مولادها وصلَها وكساها. ومات وما في ملكه إلّا ثلاثة آلاف دينار وعليه من الدّين سبعمائة دينار قُضِيَتْ منها.

ورُوي عن إسحٰق بن إبراهيم، قال:

اشترى الرشيد من أبي جاريةً بستةٍ وثلاثينَ ألفِ دينار، فأقامت عنده ليلة ثم أرسل إلى الفضل بن الرّبيع، وقال له: إنا اشترينا هذه الجاريةَ من إبراهيمَ ونحن نحسَبُ أنها على صفةٍ وليست كما ظنّنا وما قَرِبْتُها، وقد ثَقُلَ عليّ الثمنُ وبينك وبينه ما بينكما؛ فاذهب إليه فَسَلْه أن يَحُطَّنا من ثمنها ستة آلاف دينار. قال: فأتاه الفضل، فخرج إليه وتلقّاه؛ فقال له: دعني من هذه الكرامة التي لا مَؤُونة فيها، قد جئتُك في أمر، ثم أخبره الخبر. فقال له إبراهيم: إنما أراد أن يبلُوَ قدْركَ عندي. قال: هو ذاكَ؟ قال: فمالي في المساكين صدقةٌ إن لم أُضْعِفْه لك، قد حططتُك اثني عشرَ ألف دينار. فرجع الفضل إليه بالخبر؛ فقال: ويحك! إحملْ إليه المالَ بجملته، فما رأيت سُوقةً[1] أنبل منه نفسًا. قال إسحٰق: وكنتُ قد أتيت أبي فقلت: ما كان لحطيطة هذا المال معنًى ولا هو قليل يُتغافل عنه، قال لي: يا أحمقُ، أنا أعرف الناسِ به، والله لو أخذتُ المالَ منه كَمَلًا ما أخذته إلّا وهو كاره ولحَقَدَ ذلك، وكنت أكون عنده صغيرَ القدر، وقد مَننتُ عليه وعلى الفضل وانبسطتْ نفسُه وعَظُمَ قدري عنده، وإنما اشتريتُ الجاريةَ بأربعين ألف درهم وقد أخذت بها أربعة وعشرين ألف دينار. فلما حُمِلَ إليه المالُ بكماله دعاني وقال: كيف رأيتَ يا إسحٰقُ، مَنِ البصيرُ أنا أم أنتَ؟ فقلتُ: أنتَ، جعلني الله فداك. قال: وإبراهيمُ أوّل من علّم الجواري المثمّناتِ الغناءَ فإنه بلغ بالقيانِ كلّ مبلغ ورفع من أقدارهنّ.

ومن أخباره مع الرشيد ما رُوي عن إسحٰق، قال: حدّثني أبي قال:

إنّ الرشيد غضب عليّ فقيّدني وحبسني بالرَّقّةِ[2] وجلس للشرب يومًا في مجلس قد زيّنه وحسّنه. فقال لعيسى بن جعفر: هل لمجلسنا عيبٌ؟ قال: نعم، غيبةُ إبراهيم

(١) السّوقة: أوساط الناس، تطلق على الفرد والجماعة.

(٢) الرقّة: مدينة على شاطىء الفرات في شمالي سورية، اتّخذها الرشيد مصيفًا ومقامًا له.

الموصليّ عنه. فأمره بإحضاري، فأحضِرتُ في قيودي، ففُكّت عنّي بين يديه، وأمرهم فناوَلوني عودًا؛ ثم قال: غنِّ يا إبراهيم؛ فغنّيته: [من الطويل]

تَضَوَّعَ مِسكًا بطنُ نَعمانَ(١) أن مَشتْ ... بـه زيـنـبٌ فـي نُـسـوةٍ عَـطِـرَاتِ

فاستعاده وشرب وطَرِب، وقال: هَنَأْتَنِي وسأهنِئُك بالصلة، وقد وهبت لك الهنيء والمريء(٢)، فانصرفتُ؛ فلما أصبحتُ عُوِّضتُ منهما مائتي ألف درهم.

قال إبراهيم: دخلت على موسى الهادي، فقال لي: يا إبراهيم، غنّ من الغناء ما ألذُّ وأطرَبُ عليه ولك حكمُكَ. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لم يقابلني زُحَلُ(٣) ببرده رجوتُ ذلك؛ فغنّيته: [من الطويل]

وإنـي لَتـعْـرُونـي لـذِكـراكِ هِـزَّةٌ ... كما انتفضَ العُصفورُ بلَّلهُ القَطْرُ(٤)

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته(٥) فحطّه ذراعًا؛ ثم قال: أحسنتَ والله! زدني، فغنّيتُ:

فما حُبُّها زِدْني جَوًى(٦) كلَّ ليلةٍ ... ويا سَلوَة الأيام مَوعِدُكِ الحشرُ(٧)

فضرب بيده إلى دُرّاعته فحطّها ذراعًا آخر، وقال: زدني ويلك! أحسنتَ والله ووجب حكمك؛ فغنّيتُ:

هجرتُكِ حتى قيل ما يعرفُ الهوى ... وزُرتُكِ حتى قيل ليس له صبرُ

فرفع صوته وقال: أحسنت والله! لله أبوك! هات ما تريد. فقلت: يا سيِّدي عَيْن مروان بالمدينة. فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، وقال: يا ابن اللّخناء! أردت أن تَشْهَرني بهذا المجلس فيقول الناس: أطربه فحَكَم عليه فتجعلني سَمْرًا وحديثًا! يا إبراهيم الحرّاني، خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت مال الخاصة، فإن

---

(١) بطن نعمان: اسم وادٍ بعينه.
(٢) الهنيء والمريء: اسما موضعين بعينهما في الرقّة.
(٣) زحل: أحد الكواكب السيّارة، وهو من كواكب الرّفعة والشّؤم.
(٤) الشعر لأبي صخر الهذلي، الشاعر المعروف، واسمه عبد الله بن سلمة السهمي الهذلي، عاش في الجاهلية وصدر الإسلام وبقي حتى العهد الأموي، فتعصب لبني أمية ومدحهم. انظر: ديوان الحماسة، لأبي تمام ٦٦/٢ ـ ٦٧.
(٥) الدرّاعة: الجبّة من صوف أو شعر. (٦) الجوى: الألم من شدّة الحب.
(٧) الحشر: القيامة يوم تحشر الأجساد وتبعث للحساب.

أخذ كلَّ ما فيه فخَلِّه وإيّاه. فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار. وهذا الشعر لأبي صخر الهذليّ، وأوّلُه: [من الطويل]

عَجِبتُ لسعي الدّهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَن الدّهْرُ
فيا حبّها زِدْني جَوًى كلّ ليلةٍ ويا سَلْوَةَ الأيام مَوْعِدُكِ الحشرُ
ويا هجرَ ليلى قد بلغتَ بيَ المَدَى وزدتَ على ما ليس يبلغه الهجرُ
وإني لتعرُوني لذِكْراكِ هِزّةٌ كما انتفض العصفورُ بلّله القَطْرُ
هجرتُكِ حتى قيل لا يعرفُ الهوى وزرتُكِ حتى قيلَ ليس له صبرُ
أمَا والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمرُه الأمرُ
لقد تركَتْني أحسُدُ الوحشَ أن أرَى أليفَيْنِ منها لا يروعُهما الذُّعْرُ

ذكر نبذة من أخبار إبراهيم الموصلي مع البرامكة رحمهم الله تعالى

كان لإبراهيم الموصليّ مع البرامكةِ أخبارٌ مستحسنة، سنُوردُ منها طرفًا. منها ما حُكي عن مُخارِق قال:

أذِن لنا أميرُ المؤمنين الرشيدُ أن نُقيمَ في منازلنا ثلاثة أيام وأعلمنا أنه يشتغل فيها مع الحُرَم[١]. فمضى الجلساء أجمعون إلى منازلهم وقد أصبحت السماء مُتَغيّمة تطِشُّ طَشِيشًا[٢] خفيفًا. فقلت: والله لأذهبنّ إلى أستاذي إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود، وأمرتُ مَنْ عندي أن يسوّوا لنا مجلسًا إلى وقت رجوعي. فجئتُ إلى إبراهيم، فدخلت إليه، فإذا هو جالس في رِواق له والستارةُ منصوبةٌ والجواري خلفها؛ فدخلت أترنّم ببعض الأصواتِ وقلتُ له: ما بالُ السّتارةِ لست أسمعُ مِن ورائها صوتًا؟ فقال: اقعد ويحك! إني أصبحت فجاءني خبرُ ضَيْعةٍ تُجاوِرني قد والله طلبتها زمانًا وتمنّيتُها ولم أملكها، وقد أُعطي بها مائةَ ألف درهم. فقلت له: ما يمنعك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر. قال: صدقت، ولكن لستُ أطِيبُ نفسًا بأن أُخْرِجَ هذا المال. فقلت: فمن يُعطيك الساعةَ مائة ألف درهم؟ قال: والله ما أطمع في ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! ثم قال: اجلس، خذ هذا الصوت. ثم نَقَر

(١) الحرم: النساء.
(٢) الطشيش: المطر الضعيف.

بقضيب على الدّواة وألقى عليّ هذا الصوتَ: [من البسيط]

نام الخليّون[١] مِن هَمٍّ ومِنْ سَقَمِ[٢] وبِتُّ مِن كَثْرةِ الأحزانِ لم أنَم
يا طالبَ الجودِ والمعروفِ مُجتهدًا اِعْمِدْ ليحيىٰ حليفِ الجُودِ والكَرمِ

قال: فأخذت الصوت وأحكمتُه. ثم قال لي: انصرفْ إلى الوزير يحيىٰ بنِ خالدِ[٣] فإنك تجدُ الناسَ على بابه قبل أن يُفتح البابُ، ثم تجد الباب قد فُتح ولم يجلس بعدُ، فاستأذِنْ عليه قبل أن يصل إليه أحدٌ، فإنه يُنكر مجيئكَ ويقول: مِن أين أقبلتَ في هذا الوقت؟ فحدِّثه بقصدك إيّاي وما ألقيتُ إليك من خبر الضّيعة وأعلمه أني قد صنعت هذا الصوت وأعجبني ولم أرَ أحدًا يستحقّه إلا جاريته فلانة، وأني ألقيتُه عليك حتى أحكمته لتطرحه عليها؛ فسيدعوها ويأمر بالستارة فتُنصبُ ويوضع لها كرسيّ ويقول لك: اِطْرَحْه عليها بحضرتي؛ فافعل وأْتِني بما يكون بعد ذلك من الخبر. قال مخارق: فجئت إلى باب يحيىٰ بن خالد فوجدته كما وصف. وسألني فأعلمته بما أمرني به؛ ففعل كل شيء قاله لي إبراهيمُ وأحْضر الجارية فألقيتُه عليها. ثم قال لي: تُقيم عندنا يا أبا المهنَّأ أو تنصرف؟ فقلت: بل أنصرف، أطال الله بقاءك، فقد علمتَ ما أُذِنَ لنا فيه. فقال: يا غلامُ، اِحْمِل مع أبي المهنَّأ عشرة آلاف درهم واحمل إلى أبي إسحٰق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضّيعة. فحملت عشرة الآلاف معي، وأتيتُ منزلي وقلت: أُسَرُّ يومي هذا وأَسُرُّ مَنْ عندي. ومضى الرسول بالمال إلى إبراهيم؛ فدخلتُ منزلي ونثرتُ على مَنْ عندي دراهم من تلك البَدْرة[٤] وتوسَّدتُها[٥] وأكلتُ وشربت وطرِبت وسُرِرتُ يومي كلّه. فلما أصبحت قلت: والله لآتِينّ أستاذي ولأعرفنّ خبره؛ فأتَيْته فوجدته كهيئته بالأمس ملي مثل ما كان عليه، فترنّمت وطَرِبت فلم يتلَقَّ ذلك بما يجب؛ فقلت: مَا الخبر؟ ألم يأتك المال بالأمس؟! فقال: بلى، فما كان خبرك أمس؟ فأخبرتُه بما كان وقلت: ما تنتظر؟ فقال: ارفع السَّجف[٦]، فرفعتُه فإذا عشر بِدَر؛ فقلت: فأيّ شيء بقي عليك في أمر الضيعة؟ فقال: ويحك! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلي حتى شَحَحتُ عليها وصارت

---

(١) الخليّون: جمع خليّ، وهو الخالي من الحب أو العشق والهموم.
(٢) السقم: الوجع والمرض.
(٣) يحيىٰ بن خالد، هو الوزير المعروف ابن خالد البرمكيّ، كان مؤدّبًا لهارون الرشيد. ثم صار وزيرًا له. توفي سنة ٨٠٥ م.
(٤) البدرة: الصّرّة.
(٥) توسّدتها: اتّخذتها وسادة.
(٦) السّجف: السّتارة.

مثل ما حويتُ قديمًا. فقلت: سبحان الله! فتصنع ماذا؟ قال: قُمْ حتى ألقِيَ عليك صوتًا صنعتُه يفوق ذاك. فقمت فجلست بين يديه؛ فألقى عليّ: [من الطويل]

ويَفْرَحُ بالمولد من آل بَرْمَكٍ
بُغَاةُ[1] النَّدَى[2]، والسيفُ والرّمحُ والنصلُ[3]
وتنبسِطُ الآمالُ فيه لفَضْلِهِ
ولا سيّما إنْ كان والدَه الفَضْلُ

قال مخارق: فلمّا ألقى عليّ الصوتَ سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطّ وصَغُر في عيني الأوّل، فأحكمته. ثم قال: امضِ الساعة إلى الفضل بن يحيىٰ، فإنك تجده لم يأذن لأحد بَعْدُ وهو يريد الخلوةَ مع جواريه اليوم؛ فاستأذِن عليه وحدِّثه بحديثنا وما كان من أبيه إلينا، وأعلمه أني صنعتُ هذا الصوت وكان عندي أرفعَ منزلةً من الصوت الأوّل الذي صنعته بالأمس، وإني ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه ووجّهتُ بك قاصدًا لِتُلْقِيَه على فلانة جارِيَته. فصرتُ إلى باب الفضل فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنتُ فوصلت إليه؛ وسألني عن الخبر، فأعلمتُه بخبري وما وصل إليّ وإليه من المال؛ فقال: أخزى الله إبراهيم! ما أبخله على نفسه! ثم دعا خادمًا فقال له: اِضرب السِّتارة، فضربها؛ فقال لي: ألقِهِ. فلما ألقيته وغنّته الجاريةُ لم أُتِمَّه حتى أقبل يجرّ مِطْرَفه[4]، ثم قعد على وِسادة دونَ الستارة وقال: أحسنَ واللهِ أستاذُك وأحسنتَ أنتَ يا مخارق. ولم أبرح حتى أحكَمْته الجاريةُ؛ فسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا وقال: أقِمْ عندي اليومَ. فقلت: يا سيِّدي إنما بقي لنا يومٌ واحد، ولولا أنّني أحِبّ سرورَكَ لم أخرج من منزلي. فقال: يا غلام، اِحمل مع أبي المهنّأ عشرين ألف درهم وإلى أبي إسحٰق مائتي ألف درهم. فانصرفتُ إلى منزلي بالمال، وفتحتُ بَدرةً ونثرت منها على الجواري وشربت وسُرِرتُ أنا ومَنْ عندي يومنا. فلما أصبحت بكّرت إلى إبراهيم أتعرّف خبره وأعرّفه خبري، فوجدته على الحال التي كان عليها أوّلًا وآخرًا؛ فدخلت أترنّم وأصفِّق. فقال لي: أُدْنُ؛ فقلت: ما بقي عليك؟ فقال: اجلس وارفع سَجْفَ هذا الباب؛ فرفعته فإذا عشرون بدرةً مع تلك العشر. فقلت: ما تنتظر الآن؟ فقال: ويحك! ما هو إلّا أن حَصلتْ حتى جرت مَجْرَى ما تقدّم. فقلت: والله ما أظنّ أحدًا

(١) البغاة: القصّاد والطّلاب. (٢) الندى: الجود والمعروف.
(٣) النصل: حديدة الرمح أو السهم أو السكّين. وقد يسمّى السيف نصلًا.
(٤) المطرف: رداء طويل من خزّ مُعلم.

نال من هذه الدولة ما نلتَ! فلِمَ تبخل على نفسك بشيء تمنيتَه دهرًا وقد ملّكك الله أضعافه! ثم قال: اجلس فخذ هذا الصوت. فألقى عليّ صوتًا أنساني صوتي الأوّلين، وهو: [من الطويل]

أفي كلّ يوم أنتَ صَبٌّ[١] وليلةٍ إلى أُمّ بكرٍ لا تُفيق فتُقْصِرُ
أُحِبُّ على الهِجْرانِ أكنافَ[٢] بيتها فيا لكَ مِن بيتٍ يُحَبُّ ويُهْجَرُ
إلى جعفرٍ سارتْ بنا كلُّ جَسْرَةٍ[٣] طواها سُراها[٤] نحوَه والتهجُّرُ[٥]
إلى واسع للمجتدين[٦] فنَاؤهُ[٧] تروحُ عطاياه عليهم وتَبْكُرُ

ـ وهو شعر مروانَ بن أبي حفصة[٨] يمدح جعفر بن يحيىٰ ـ قال مخارق: ثم قال لي إبراهيم: هل سمعتَ مثلَ هذا قطّ؟ فقلتُ: ما سمعتُ قطّ مثله! فلم يزل يردّده عليّ حتى أخذته، ثم قال لي: اِمض إلى جعفر فافعل به كما فعلتَ بأبيه وأخيه. قال: فمضيت ففعلت مثل ذلك وأخبرته بما كان وعرضت عليه الصوت؛ فسُرَّ به ودعا خادمًا فأمره أن يضرِبَ السّتارَةَ، وأحضر الجاريةَ وقعد على كرسيّ؛ ثم قال: هاتِ يا مخارقُ؛ فألقيتُ الصوتَ عليها حتى أخذَته؛ فقال: أحسنتَ يا مخارق وأحسن أُستاذُك، فهل لك في المُقام عندنا اليوم؟ فقلت: يا سيّدي، هذا آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت منّي حتى ألقيته على الجارية. فقال: يا غلام، اِحْمِل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصليّ ثلاثمائة ألف درهم. فصرتُ إلى منزلي بالمال وأقمتُ ومَن عندي مسرورِين نشرب طولَ يومنا ونطرَب. ثم بكّرتُ إلى إبراهيم فتلقّاني قائمًا، ثم قال لي: أحسنتَ يا مخارق! فقلتُ: ما الخبر؟ قال: اِجْلِس فجلستُ؛ فقال لمن

(١) الصبّ: العاشق، من عنده صبابة ووجد وجهل.
(٢) الأكناف: جمع كنف، وهو الجانب.
(٣) الجسرة: الناقة القويّة.
(٤) سراها: مشيها في الليل.
(٥) التهجّر: المشي في الهاجرة، عند اشتداد الحرارة.
(٦) المجتدون: طالبو الجود والمعروف.
(٧) فناؤه: ساحته القائمة أمام بيته.
(٨) مروان بن أبي حفصة: شاعر مخضرم عاش في آخر عهد بني أُميّة وفي أوائل عهد بني العباس. امتاز بلغته الرقيقة السهلة الصافية. مدح من الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد، ومن الأعيان والأجواد مدح معن بن زائدة. ولما مات هذا الأخير رثاه أحسن رثاء. توفي مروان سنة ٧٩٨ م.

خلف الستارة: خذوا فيما أنتم عليه ثم رفع السَّجفَ فإذا المالُ. فقلت: ما خبر الضَّيْعَة؟ فأدخل يده تحت مِسْوَرة[١] وهو متّكىء عليها فقال: هذا صَكُّ الضَّيْعَةِ اشتراها يحيىٰ بنُ خالدٍ وكتب إليّ: «قد علمتُ أنك لا تسخو نفسُك بشراء هذه الضَّيْعَة من مال يحصُل لك ولو حويتَ الدنيا كلَّها، وقد ابتعتها من مالي». ووجّه إليّ بصكها، وهذا المال كما تَرى، ثم بكى وقال: يا مخارقُ، إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثلَ هؤلاء، وإذا خنكرت فخَنْكر لمثل هؤلاء، ستمائة ألف، وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك، حَصّلنا ذلك أجمع وأنا جالس في مجلسي لم أبرح منه، متى يُدْرَك مثلُ هؤلاء!.

ورُوِيَ عنه قال: أتيتُ الفضلَ بن يحيىٰ يومًا فقلت له: يا أبا العبّاس، جُعِلتُ فداك! هَبْ لي دراهم فإن الخليفة قد حبس بِرّه. فقال: ويحك يا أبا إسحٰق ما عندي ما أرضاه لك. ثم قال: هاه! إلا أنّ هٰهنا خَصْلةً، أتانا رسولُ صاحب اليمن فقضينا حوائجَه، ووجّه إلينا بخمسين ألف دينار يَشتري لنا بها محبَّتنا. فما فعلتْ ضياءُ جاريتُك؟ قلت: عندي جعلتُ فِداك. قال: فهو ذا، أقول لهم يَشْتَرونها منك فلا تَنْقُصْها من خمسين ألف دينار؛ فقبّلتُ رأسه ثم انصرفتُ. فبكّر عليّ رسول صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولي، فقال: جاريتُك فلانة عندك؟ قلتُ: عندي. قال: اَعْرِضْها عليّ فعرضتُها عليه؛ فقال: بكم؟ فقلت: بخمسين ألف دينار ولا أنْقُصُ منها دينارًا واحدًا. وقد أعطاني الفضلُ بن يحيىٰ أمس هذه العطيّةَ، فقال: هل لك في ثلاثين ألف دينار مُسَلّمة؟ وكان مشترى الجارية أربعمائة دينار، فلما وقع في أُذُني ذكرُ ثلاثين ألف دينار أُرْتَج[٢] عليّ ولَحِقني زَمَعٌ[٣]، وأشار عليّ صديقي الذي معه بالبيع، وخِفْت والله أن يَحْدُث بالجارية حَدَثٌ أو بي أو بالفضل بن يحيىٰ، فسلّمتُها وأخذتُ المال. ثم بكّرتُ على الفضل، فإذا هو جالسٌ وحده. فلما نظر إليّ ضَحِكَ وقال لي: يا ضيّقَ العَطَنِ[٤] والحَوصلة[٥]، حَرَمْتَ نفسَك عشرين ألف دينار. فقلت له: جُعِلْتُ فِداك، دَعْ ذا عنك، فوالله لقد دخلني شيء أَعجِز عن وصفه وخِفْتُ أن تحدُث

---

(١) المسورة: الوسادة والتكية.
(٢) أُرتجّ عليّ: استغلق عليّ الكلامُ.
(٣) الزمع: المضاء في الأمر والعزم عليه، وهنا بمعنى التردّد والاختلاج والارتعاد.
(٤) العطن: مبرك الإبل ومربض الغنم حول الماء. وضيّق العطن: كناية عن تبرّمه وضيق خلقه.
(٥) الحوصلة للطائر: بمنزلة المعدة من الإنسان، وهنا كناية عن معدته، فهو ضيّق برم.

بي حادثةٌ أو بالجارية أو بالمشتري أو بك أعاذك الله من كل سوء، فبادرتُ بقَبول الثلاثين ألف دينار. فقال: لا ضَيْر[١]، يا غلامُ جِئ بجاريته، فجِيء بها، فقال: خُذْ بيدها وانصرِف بارك الله لك فيها، ما أردنا إلّا منفعتك ولم نُرِد الجَارِيةَ. فلما نهضتُ قال لي: مكانَك، إن رسول صاحب أرْمِينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونَفَّذْنا كُتُبَه، وقد ذكر أنه قد جاء بثلاثين ألف دينار يشتري لنا بها ما نُحِبّ، فاعْرِض عليه جاريتَك هذه ولا تَنْقُصْها من ثلاثين ألف دينار؛ فانصرفتُ بالجارية. وبكّر عليّ رسولُ صاحب أَرْمِينية ومعه صديقٌ لي آخَرُ، فقاولني[٢] بالجارية؛ فقلت: لن أنقصها من ثلاثين ألف دينار. فقال لي: معي عشرون ألف مُسَلّمَة خذها بارك الله لك فيها. فَدَخلني والله مثلُ الذي دخلني في المرّة الأولى وخِفْتُ مثلَ خوفي الأوّل، فسلّمتُها وأخذت المال. وبكّرتُ على الفضل، فإذا هو وحدَه. فلما رآني ضحك وضرب برجله، ثم قال: ويحك، حَرَمْتَ نفسَك عشرةَ آلاف دينار. فقلتُ: أصلحك الله، خِفْت والله مثلَ ما خِفْتُ في المرّة الأولى. فقال: لا ضَيْرَ، أَخْرِجْ يا غلام جاريتَه فجِيء بها؛ فقال: خُذْها، ما أردناها وما أردنا إلّا منفعتَك. فلما ولّت الجاريةُ صِحْتُ بها: اِرْجِعي فرجَعتْ؛ فقلت: أُشهِدكَ جُعِلتُ فداكَ هي حرّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى، وإني قد تزوّجتُها على عشرة آلاف درهم، كسبَتْ لي في يومين خمسين ألف دينار فما جزاؤها إلّا هذا. فقال: وُفّقت إن شاء الله تعالى.

وأخبارُه مع البرامكة كثيرةٌ وصِلاتُهم له وافرةٌ، وقد ذكرنا منها ما فيه غُنْيةٌ عن زيادة. فَلْنذكر وفاةَ إبراهيم. كانت وفاتُه ببغدادَ في سنةِ ثمانٍ وثمانينَ ومائةٍ، ومات في يوم وفاتِهِ العباسُ بنُ الأحنف[٣] الشاعر، وهُشَيْمةُ الخمّارة؛ فَرُفِع ذلك إلى الرّشيد فأمر المأمونَ أن يصلّي عليهم، فخرج وصلّى عليهم.

قال إسحٰق: لمّا مَرِض إبراهيمُ مرضَ موْتِه ركب الرشيدُ حمارًا ودخل على إبراهيم يعودُه وهو جالس في الأَبْزَن[٤]، فقال له: كيف أنتَ يا إبراهيم؟ فقال: أنا

---

(١) لا ضيرَ: لا بأس، والضّير: الضرر.
(٢) قاولني: باحثني وجادلني.
(٣) العباس بن الأحنف: وكنيته أبو الفضل، شاعر من شعراء الدولة العباسيّة. اشتهر بالغزل، وله أخبار مع الخليفة الرشيد. له ديوان مطبوع. مات سنة ٨٠٨ م.
(٤) الأبزن: لفظة فارسية، مؤلفة من آب، وهو الماء، ومن زنّ، وهي المرأة. والأبزن: الحوض يغتسل فيه.

والله يا سيّدي؛ كما قال الشاعر: [من الوافر]

سَقِيمٌ[١] مَلَّ مِنه أقْرَبوه وأسْلَمه المُدَاوِي[٢] والحَمِيمُ[٣]

فقال الرّشيد: إنّا للهِ! فخرج، فما بَعُدَ حتى سَمِعَ الواعية[٤] عليه.

تمّ الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس
وأوّله ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي

(١) السقيم: المريض.
(٢) المداوي: المعالج والطبيب.
(٣) الحميم: القريب والصديق.
(٤) الواعية: الصراخ على الميّت إثر وفاته.

لائحــة
المصادر والمراجع

١ ـ **الأعلام**، للزركلي.

٢ ـ **تاريخ الخلفاء**، لابن قتيبة، تحقيق طه الزين، دار المعرفة، بيروت.

٣ ـ **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، دار صعب، بيروت.

٤ ـ **ديوان الحماسة**، لأبي تمام، شرح التبريزي، ط. ١، دار القلم، بيروت.

٥ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق الستّار الإبياري شلبي، دار الكنوز الأدبية.

٦ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار إحيار التراث العربي، بيروت.

٧ ـ **شرح نهج البلاغة للإمام عليّ**، شرح ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٧.

٨ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، شرح خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

٩ ـ **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة، بيروت.

١٠ ـ **الكامل في اللغة والأدب**، للمبرّد، مكتبة المعارف، بيروت.

١١ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، للمسعودي، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

١٢ ـ **معجم البلدان**، لياقوت، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.

١٣ ـ **المِلل والنِّحَل**، للشهرستاني، تحقيق محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٠.

١٤ ـ **وهج الفصاحة في أدب النبيّ ﷺ**، لعلاء الأعلمي، منشورات الأعلمي، بيروت ١٩٨٨.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الخامس

تحقيق

الدكتور يحيى الشامي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذِكْر أخْبار إسحٰق بن إبراهيم

هو أبو محمد إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ، وقد تقدّم نسبُه في أخبار أبيه. وكان الرشيد[1] يُولَع به فيكنيهِ أبا صَفْوان. قال أبو الفرج الأصفهاني[2] في ترجمة إسحٰق: وموضعُه من العلم، ومكانُه من الأدب، ومحلُّه من الرواية، وتقدُّمه في الشعر، ومنزلتُه في سائر المحاسن أشهَرُ من أن يُدَلَّ عليها بوصف. قال: فأما الغناء فكان أصغرَ علومهِ وأدنى ما يوسم[3] به وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يحسنُه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراءُ وأكفاء[4] ولم يكن له في هذا نظير. لَحِق بمن مضى فيه وسبق من قد بقي، وسهّل طريق الغناءِ وأنارها، فهو إمامُ أهل صناعته جميعًا وقُدوتُهم ورأسُهم ومعلّمُهم؛ يعرف ذلك منه الخاصُّ والعامّ، ويشهد له به الموافقُ والمفارق. على أنه كان أكرهَ الناسِ للغناء وأشدَّهم بغضًا له لئلا يُدعَى إليه ويُسمّى به. وكان المأمون[5] يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء

---

(١) الرشيد، لقب الخليفة العباسي الخامس هارون، ابن المهدي، أمه الخيزران. من أشهر الخلفاء العباسيين. حارب البيزنطيين وبلغ أبواب القسطنطينية وهو لا يزال حاكمًا قبل تسلّمه مقاليد الخلافة. أقام علاقات بينه وبين شارلمان ملك الفرنج. ازدهرت في عهده العلوم والآداب. نكب البرامكة. مات في طوس سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٩. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

(٢) هو علي بن الحسين، من أئمة الأدب واللغة والتاريخ. عاش ببغداد والتحق بالوزير المهلبي. انصرف إلى جمع التاريخ وتدوينه، والأدب في كتابه المشهور الموسوم بـ «الأغاني». له من المصنفات كتاب «مقاتل الطالبيين» و«أدب السماع» و«أخبار الطفيليين». مات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م. انظر: الفهرست، لابن النديم، ص ١٦٦ ـ ١٦٧. دار المعرفة. بيروت.

(٣) يوسم به: يوصف به.

(٤) الأكفاء والنظراء، جمع كفء ونظير، وهو الشبيه والمماثل.

(٥) المأمون، لقب الخليفة العباسي السابع عبد الله بن هارون الرشيد. من كبار الخلفاء العباسيين. أمّه جارية فارسية. قتل أخاه الأمين وخلفه. عني بالعلوم والآداب وأنشأ «بيت الحكمة» في بغداد فازدهرت في عهده الترجمة. كان نصيرًا للمعتزلة وقال بخلق القرآن. مات سنة ٢١٨ هـ/ =

لولّيتُه القضاءَ بحضرتي، فإنه أولى به وأعفُّ وأصدقُ وأكثرُ دِيْنًا وأمانةً من هؤلاء القضاة. وقد روى الحديثَ ولَقِيَ أهلَه مثلَ مالكِ بنِ أنسٍ[١] وسفيانَ بنِ عُيَينة[٢] وهشيم بن بشير وإبراهيمَ بنِ سعدٍ وأبي معاويةَ الضريرِ ورَوْح بن عُبَادةَ وغيرِهم من شيوخ العراقِ والحجاز. وكان مع كراهته للغناء أضنَّ خلقِ الله به وأشدَّهم بخلًا على كل أحدٍ حتى على جواريه وغلمانِه ومن يأخذ عنه منتسبًا إليه ومتعصّبًا له فضلًا عن غيرهم. قال: وهو صحّح أجناسَ الغناء وطرائقَه ومَيَّزها تمييزًا لم يقدِر عليه أحد قبله.

وقال محمدُ بنُ عِمرانَ الجُرْجاني: كان واللهِ إسحٰقُ غُرَّةَ[٣] في زمانه، وواحدًا في عصره علمًا وفهمًا وأدبًا ووقارًا وجَوْدةَ رأيٍ وصحّةَ مودّة. وكان والله يُخرسُ الناطقَ إذا نطق، ويُحيّر السامعَ إذا تحدّث، لا يَمَلّ جليسُه مجلسَه، ولا تمجّ[٤] الآذانُ حديثَه، ولا تنبو[٥] النفسُ عن مُطاولته. إن حدّثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك. وما كانت خَصْلةٌ من الأدبِ، ولا جنسٌ من العلمِ يتكلمُ فيه إسحٰقُ فيُقدِم أحد على مساجلته[٦] أو مناوأته[٧] فيه.

حكى أبو الفرج عن إسحٰقَ قال: دعاني المأمون وعنده إبراهيمُ بنُ المهديّ[٨] وفي مجلسه عشرون جاريةً قد أَجْلس عشرًا عن يمينهِ وعشرًا عن شمالِه. فلما دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرتُه. فقال المأمون: أسمعتَ خطأً؟ قلت: نعم يا

= ٨٣٣ م. انظر: مروج الذهب، للمسعودي ٤/ ٤ ـ ٤٥. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة، بيروت ١٩٨٢ م.

(١) مالك بن أنس، أحد الأعلام المشهورين. صاحب المذهب الفقهي المنسوب إليه، وهو المذهب المالكي. عاش في المدينة. له من المصنّفات «الموطّأ» وهو أساس مذهبه، و«الردّ على القدريّة» و«المدوّنة الكبرى». مات سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩١.

(٢) هو أبو عبد الله، المحدث والإمام، صاحب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» في الحديث؛ وله كتاب «الفرائض»، لآرائه نكهة خاصة تثير الجدل. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م. شذرات الذهب ١/ ٢٥٠.

(٣) الغرّة، في الأصل، بياض في جبهة الفرس. والغرّة من كل شيء، أوّله ومعظمه، وطلعته، ووجهه. والغرّة من القوم: الشريف فيهم.

(٤) تمجّ: تعاف، وتستكره. (٥) تنبو: تبتعد.

(٦) مساجلته: مباراته. (٧) مناوأته: مخالفته.

(٨) إبراهيم بن المهدي، عم المهدي، وأخو هارون الرشيد. بويع له بالخلافة في غياب المأمون لما كان بخراسان. ولما رجع المأمون عفا عنه. اشتهر بالغناء واللهو، مات سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٥٣.

أمير المؤمنين. فقال لإبراهيمَ بنِ المهديّ: هل تسمع خطأ؟ قال: لا. قال: فأعاد عليّ السؤال، فقلت: بلى واللهِ يا أمير المؤمنين، وإنه لفي الجانب الأيسر. فأعاد إبراهيمُ سَمْعه إلى الناحية اليسرى ثم قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ. فقلت: يا أمير المؤمنين، مُر الجواريَ اللاتي على اليمين يُمْسِكْنَ، فأمرهنّ فأمْسَكْن، ثم قلت لإبراهيم: هل تسمع خطأ؟ فتسمَّع ثم قال: ما هٰهنا خطأ. فقلت: يا أمير المؤمنين، يُمسِكْن وتَضْرب الثانية، فأمسكن وضربت الثانية، فعرف إبراهيم الخطأ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، هٰهنا خطأ. فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم بنِ المهديّ: لا تُمارِ(١) إسحٰق بعدها، فإن رجلًا عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حَلْقًا لجدير ألّا تماريَه؛ قال: صدقت.

وقال ابن حمدونَ: سمعتُ الواثقَ(٢) يقول: ما غنّاني إسحٰقُ قطُّ إلا ظننتُ أنه قد زِيد في مُلْكي، ولا سمعتُه قطُ يغنّي غناء ابن سُرَيج إلا ظننتُ أنّ ابن سُرَيج قد نُشِر، وإني ليحضُرني غيرُه إذا لم يكن حاضرًا، فيتقدّمه عندي بطيب الصوت، حتى إذا اجتمعا عندي رأيت إسحٰق يعلو ورأيت مَن ظننتُ أنه يتقدّمُه ينقص. وإنَّ إسحٰقَ لنعمةٌ من نعم الملوك التي لم يُحْظَ أحدٌ بمثلها. ولو أن العمرَ والشبابَ والنشاطَ مما يُشْتَرَى لاشتريتُهنّ له بشطر مُلكي.

وحُكي عن أحمدُ بنِ المكّي عن أبيه قال: كان المغنُّون يجتمعون مع إسحٰقَ وكلُّهم أحسنُ صوتًا منه ولم يكن فيه عيبٌ إلا صوتُه فيطمعون فيه، ولا يزال بلُطفه وحِذقه ومعرفته حتى يغلبَهم جميعًا ويفضُلَهم ويتقدّم عليهم. قال: وهو أوّل مَن أحدث المجتَسّ ليوافقَ صوتَه ويشاكلَه فجاء معه عجبًا من العجب، وكان في حلقه نُبُوّ(٣) عن الوتَر.

وحُكي قال: سأل إسحٰقُ الموصليُّ المأمونَ أن يكون دخولُه مع أهل العلمِ والأدبِ والرُّواة لا مع المُغنّين، فإذا أراد الغناءَ غنّاه، فأجابه إلى ذلك. ثم سأله بعد مدّة طويلة أن يأذَن له في الدخول مع الفقهاءِ فأذن له؛ قال: فكان يدخل ويدُه في يد

(١) لا تمارِ: لا تجادل أو تنازع.

(٢) الواثق بالله، هارون بن المعتصم، الخليفة العباسي الذي شُغل بالخلافات الكلامية وناصر المعتزلة حاذيًا حذو المأمون. امتحن الناس في خلق القرآن. مات سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي ص ٣١٢، دار صعب. بيروت.

(٣) النبوّ: الابتعاد والمجافاة.

قاضي القضاةِ يحيىٰ بنِ أكثم[١]. ثم سأل إسحٰقُ المأمونَ في لُبس السوادِ يومَ الجمعةِ والصلاة معه في المقصورة[٢]؛ قال: فضحك المأمون وقال: ولا كلّ هذا يا إسحٰق! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائةِ ألفِ دينارٍ وأمَر له بها.

وكان لإسحٰقَ مع إبراهيمَ بنِ المهديِّ مخاطباتٌ ومنازعاتٌ ومحاوراتٌ بسبب الغناءِ، وكان الرشيدُ ينصرُ إسحٰقَ على إبراهيمَ أخيه. من ذلك ما حكاه إسحٰق قال: كنت عندَ الرشيد يومًا، وعنده ندماؤه وخاصّته وفيهم إبراهيمُ بنُ المهديّ؛ فقال لي الرشيد: غنِّ: [من الوافر]

شرِبتُ مُدامةً[٣] وسُقِيتُ أُخرى ورَاحَ المُنتشُون[٤] وما انتشَيْتُ[٥]

فغنيته. فأقبل عليَّ إبراهيمُ بنُ المهديِّ فقال لي: ما أصبتَ يا إسحٰقُ ولا أحسنت. فقلت له: ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنُه، وإن شئت فغنّه فإن لم أجدك أنك تُخطىء فيه منذُ ابتدائك إلى انتهائك فدَمِي حلال. ثم أقبلت على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صَناعتي وصَناعة أبي، وهي التي قرّبتْنا منك واستخدمتْنا لك فأوطأتْنا بساطَك، فإذا نازَعَنا أحدٌ بغير علم لم نجِد بُدًّا من الإفصاح والذبّ[٦]؛ فقال: لا غَرْوَ[٧] ولا لومَ عليك. وقام الرشيدُ ليبولَ؛ فأقبل إبراهيمُ بنُ المهديّ عليّ وقال: ويحَك يا إسحٰقُ! أتجترىءُ عليّ وتقولُ لي ما قلتَ يا ابنَ الفاعلة! لا يَكْنِي[٨]. فداخلني ما لم أملكْ نفسي معه، فقلت له: أنت تشتِمُني ولا أقدِرُ على إجابتِك وأنت ابنُ الخليفةِ وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلتُ لك: يا ابنَ الزانية كما قلتَ لي يا ابن الزانية. أوَ تراني كنتُ لا أحسنُ أن أقول: يا ابنَ الزانية! ولكن قولي في ذمّك ينصرفُ كلُّه إلى خالك الأعْلَم[٩]، ولولاك لذكرتُ صناعتَه ومذهبَه ـ قال إسحٰق: وكان بَيْطارًا[١٠] ـ قال: ثم سكتّ، وعلمتُ أن إبراهيمَ

---

(١) يحيىٰ بن أكثم، فقيه وقاضٍ مشهور. ولد في مرو بخراسان. صار قاضيًا من قضاة بغداد على أيام المأمون. عزله المتوكل، ومات سنة ٢٤٢ هـ/ ٨٥٧ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٠١ - ١٠٢.

(٢) المقصورة: الدار الواسعة المحصّنة، أو هي حجرة خاصة من حجر الدار.

(٣) المدامة: الخمرة.

(٤) المنتشون: السكارى.

(٥) انتشيت: سكرت.

(٦) الذبّ: الدفع والمنع.

(٧) لا غرو: لا عجب.

(٨) لا يكني: لا يذكره ليدلّ به على غيره.

(٩) الأعلم: من في شفته العليا أو في جانبها شقّ كالعلم. وفي الأصل، الأعلم، صفة خاصة بالبعير.

(١٠) البيطار: الذي يعالج الدابّة ويسمّر نعالها بالمسامير.

سوف يشكوني إلى الرشيد، وسوف يسأل مَنْ حضر عما جرى فيخبرونه، فتلافيتُ ذلك بأن قلت: إنك تظن أن الخلافة تصيرُ إليك، فلا تزال تتهدّدني بذلك وتُعاديني كما تُعادِي سائرَ أولياء أخيك حسدًا له ولولده على الأمر! وأنت تَضْعُف عنه وعنهم، وتستخِفّ[1] بأوليائهم تَشفِّيًا[2]، وأرجو ألا يُخرجها الله من الرشيدِ وولدِهِ، وأن يقتلَك دونَها. فإن صارت إليك ـ والعياذُ باللهِ تعالى من ذلك ـ فحرامٌ عليّ حينئذٍ العيشُ! والموتُ أطيبُ من الحياة معك، فاصنعْ حينئذٍ ما بدا لك! قال: فلما خرج الرشيدُ وثب إبراهيمُ فجلس بينَ يديه وقال: يا أميرَ المؤمنين، شتمني إسحٰقُ وذكر أمّي واستخفّ بي. فغضِب وقال لي: ويلك! ما تقول؟ قلت: لا أعلمُ، فسَلْ مَن حضر. فأقبل على مسرورٍ وحسينٍ فسألهما عن القصة فجعلا يُخبرانِه ووجهُه يَرْبَدُّ إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافةِ فسُرِّي[3] عنه ورجع لونُه، وقال لإبراهيمَ: لا ذنبَ له، شتمته فعرّفك أنه لا يقدِرُ على جوابك، ارجِعْ إلى موضعِك وأمسكْ عن هذا. فلما انفضّ المجلسُ وانصرف الناسُ أمر الرشيدُ بألّا أبرح. وخرج كل مَن حضر حتى لم يبق غيري، فساء ظنّي وهمّتْني[4] نفسي. فأقبل عليّ وقال: يا إسحٰقُ، أتراني لم أفهم قولك ومرادك! قد والله زنّيْته ثلاث مرات! أتراني لا أعرف وقائعَك وأقدامَك وأين ذهبت! ويلك لا تَعُدْ! حدّثْني عنك لو ضربك إبراهيمُ أكنتُ أقتصُّ لك منه فأضربه وهو أخي يا جاهل! أتُرَاه لو أمر غلمانَه فقتلوك أكنتُ أقتله بك! فقلت: والله يا أميرَ المؤمنين، قد قتلني هذا الكلامُ، وإن بلغه ليقتلنّي، وما أشك أنه قد بلغه الآن. فصاح بمسرور وقال له: عليّ بإبراهيمَ فأُحضِر، وقال لي: قمْ فانصرفْ. فقلتُ لجماعةٍ من الخَدَم ـ وكلُّهم كان لي محبًّا وإليّ مائلًا ولي مطيعًا ـ: أَخْبِروني بما يجري؛ فأخبَروني من غدٍ أنه لمّا دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له: أتستخفّ بخادمي وصنيعتي وابن خادمي وصنيعتي وصنيعة أبي في مجلسي! وتُقدِم عليّ وتستخِفّ بمجلسي وحضرتي! هاه هاه هاه! وتُقْدِم على هذا وأمثاله! وأنت مالَك وللغناء! وما يدريك ما هو! ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهّم أنك تبلغ منه مبلغَ إسحٰقَ الذي غُذِّي به وعلّمه وهو من صناعته! ثم تظن أنك تُخطِّئه فيما لا تدريه، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه فلا تثبُت لذلك وتعتصم

(١) تستخفّ: تستجهل، وتزيل عن الحق والصواب.
(٢) تشفّيا: نكايةً.
(٣) سرّي عنه: زال عنه ما كان يجده من الغضب أو الهمّ.
(٤) همّتني نفسي: أقلقني وأحزنني.

بشتمه! هذا مما يدلّ على السقوط وضعفِ العقل وسوءِ الأدبِ من دخولِك فيما لا يشبهُك، وغلبةِ لذّتِك على مروءتك[١] وشرفك، ثم إظهارِك إياه ولم تُحكمه، وادّعائك ما لا تعلمه حتى ينسبَك إلى إفراطِ الجهل. ألا تعلم، ويحك، أن هذا سوءُ أدبٍ وقلّةُ معرفةٍ وقلة مُبَالاة بالخطإِ والتكذيبِ والردّ القبيح! ثم قال: واللهِ العظيمِ وحقِّ رسولهِ وإلا فأنا بريءٌ من المهديّ[٢] إن أصابه أحدٌ بسوءٍ أو سقط عليه حجرٌ من السماء أو سقط مِن دابّته أو سقط عليه سقفُه أو مات فجأةً لأقتلنك به. واللهِ! واللهِ! وللهِ! فلا تعرِض له وأنت أعلم! قم الآن فاخرجْ؛ فخرج وقد كاد يموت. فلما كان بعد ذلك دخلت على الرشيد وإبراهيمُ عنده فأعرضت عن إبراهيم فجعل ينظر إليّ مرة وإليه مرةً ويضحكُ؛ ثم قال: إني لأعلم محبّتك لإسحٰقَ وميلَك إليه وإلى الأخذ عنه، وإن هذا لا يجيئك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى، والرضا لا يكون بمكروه، ولكن أحسِنْ إليه وأكرمْه واعرفْ حقَّه وبِرَّه وصِلْه، فإذا فعلتَ ذلك ثم خالف ما تهواه عاقبته بيد مستطيلة منبسطة ولسانٍ منطلق. ثم قال لي: قم إلى مولاك وابنِ مولاك فقبّل رأسَه؛ فقمت إليه وقام إليّ وأصلح الرشيدُ بيننا.

قال أبو الفرج: وكان إسحٰقُ جيّد الشعر، كان يقول الشعرَ وينسبُه للعرب. فمن ذلك قوله: [من الكامل]

لَفَظ الخدورُ[٣] إليك حُورًا[٤] عِينًا[٥] … أنسَيْن ما جمَع الكِناسُ[٦] قَطِينَا[٧]

فإذا بسَمْنَ فعَنْ كمثل غَمامة … أو أُقْحُوان الرَمل بات مَعِينا

وأصحُّ ما رأتِ العيونُ محاجرًا[٨] … ولهنّ أمرض ما رأيتَ عيونا

---

(١) المروءة: النخوة، وكمال الرجوليّة.

(٢) المهدي: لقب الخليفة العباسي الثالث محمد بن المنصور. اشتهر بحروبه ضدّ البيزنطيين. أنشأ الطرق العامة، وحسّن جهاز البريد. توفي سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٣) الخدور: جمع خدر، وهو كل ما يتوارى به، والسّتر يمدّ للجارية في ناحية البيت.

(٤) الحور: جمع حوراء، صفة للجارية أو لغير الجارية التي في عينيها حور، وهو شدّة بياض العين وسوادها.

(٥) العين: جمع عيناء، وهي الواسعة العين. (٦) الكناس: بيت الظبي، يجعله من الشجر.

(٧) القطين: جمع القاطن، وهم أهل الدار والخدم والأتباع، للواحد والجمع.

(٨) المحاجر: جمع محجر. ومحجر العين، ما دار بها.

فـكـأنـمـا تـلـك الـوجـوهُ أهـلَّةٌ ... أَقمرْنَ بين العشْرِ والعِشْرينا[١]
وكـأنـهـنّ إذا نـهـضْـن لِحَـاجـةٍ ... يـنـهضْنَ بالعَقَدَاتِ مَنْ يَبْرِينا[٢]

وأشعاره في هذا النوع كثيرة.

رُوِيَ عن الأصمعيّ[٣] قال: دخلت أنا وإسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ يومًا على الرشيد فرأيناه لَقِسَ[٤] النفس؛ فأنشده إسحٰق: [من الطويل]

وآمرةٍ بالبُخل قلتُ لها اقْصِري[٥] ... فـذلـك شـيءٌ مـا إلـيـه سـبـيـلُ
أرى الناس خُلّان[٦] الكرامِ ولا أرى ... بـخيـلًا لـه حتى الـممـاتِ خليل
وإني رأيتُ البخل يُزرِي[٧] بأهله ... فـأكـرمـتُ نفسي أن يقال بخيل
ومن خيرِ حالاتِ التي لو علمته ... إذا نـال خيـرًا أن يـكـون يُنِيـل[٨]
فِعالِي فعالُ المُكثِرين تجمُّلًا[٩] ... ومـالـي كـمـا قـد تـعـلمـين قـلـيـل
وكيف أخافُ الفقر أو أُحرَمُ الغِنَى ... ورأيُ أمـيـر الـمـؤمـنـيـن جـمـيـل!

قال: فقال الرشيد: لا تخفْ إن شاء الله؛ ثم قال: للهِ درُّ أبياتٍ تأتينا بها ما أشدَّ أصولَها، وأحسنَ فصولَها، وأقلّ فُضُولَها! وأمر له بخمسين ألف درهم. فقال له

(١) الأهلّة: جمع الهلال، وهو الشهر في أوله. وأقمرن: صرن أقمارًا، ولا يسمى القمر قمرًا إلا إذا مضى عليه عشر ليالٍ حتى العشرين.
(٢) نهضن: قمن. والعقدات: ما عقدت من البناء. ويبرين: اسم رمل مشهور بظبائه، وهو رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة، وقيل بأعلى بلاد بني سعيد. وقيل: من أصقاع البحرين قريبًا من هجر والأحساء.
(٣) الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك، اللغوي البصري المشهور. تلميذ أبي عمرو بن العلاء. عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين. له كتب كثيرة أهمها: «خلق الإنسان» و«الخيل» و«الإبل» و«الأضداد». وأشهر كتبه الأدبية «الأصمعيات» جمع فيها عددًا من أشعار العرب مات سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. انظر حياته مفصّلة في المقدمة من كتاب «فقه اللغة» للثعالبي، ص ١٩. المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٠.
(٤) اللَّقِس مشتق من لقِست نفسه من الشيء غثت وخبثتْ. وورد في الحديث الشريف «لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لَقِست نفسي». وإنما كره ﷺ ذلك هربًا من لفظ الخبث والخبيث أن يوصف بهما المؤمن.
(٥) اقصري: كفّي.
(٦) خلّان: أصدقاء.
(٧) يزري: يعيب ويحقر.
(٨) ينيل: يعطي ويجود.
(٩) تجمّلًا: تكلّفًا.

إسحٰق: وصفُك والله يا أمير المؤمنين لشِعري أحسنُ منه، فعلَام آخذ الجائزة! فضحك الرشيدُ وقال: اجعلوها مائةَ ألفِ درهم. قال الأصمعيّ: فعلمت يومئذ أن إسحٰقَ أحذقُ بصيد الدراهم منّي.

قال أبو عبد الله بن حمدون: سأل المتوكل[١] عن إسحٰقَ، فعُرِّف أنه كُفّ[٢] وأنه بمنزله ببغدادَ، فكتب في إحضاره. فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدّامَ السريرِ وأعطاه مخدّةً وقال: بلغني أن المعتصمَ[٣] دفع إليك في أوّل يوم جلستَ بينَ يديه مخدّةً، وقال: إنه لا يستجلبُ ما عند حرّ مثلُ إكرامه. ثم سأله: هل أكل؟ فقال: نعم؛ فأمر أن يُسقَى. فلما شرب أقداحًا قال: هاتوا لأبي محمد عُودًا؛ فجِيءَ به فاندفع يغنّي بشعره: [من البسيط]

ما عِلّة الشيخ عيناه بأربعةٍ تَغْرَوْرِقانِ[٤] بدمعٍ ثم ينسَكبُ

قال ابن حَمْدون: فما بقي غلامٌ من الغِلمان الوقوفِ على الحَيْر[٥] إلا وجدتُه يرقُص طربًا وهو لا يعلم بما يفعل؛ فأمر له بمائة ألفَ دينار. ثم انحدر المتوكل إلى الرّقّة[٦] وكان يستطيبُها لكثرة تغريدِ الطير فيها؛ فغنّاه إسحٰق: [من الطويل]

أأَنْ هَتَفتْ وَرْقاءُ في رَوْنقِ الضُّحى على فَنَنٍ غضُّ النباتِ مِنَ الرَّنْدِ
بكيتَ كما يبكي الوليدُ ولم تزل جليدًا وأبديت الذي لم تكن تُبْدِي[٧]

(١) المتوكل على الله: لقب الخليفة العباسي العاشر جعفر بن المعتصم. أحبّ السنّة وحارب المعتزلة، ولم يقل بخلق القرآن، بخلاف المأمون. اغتاله القواد الأتراك، سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م. فكان اغتياله بداية انحطاط الخلافة العباسية. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٣.

(٢) كفّ: صار كفيفًا وضريرًا.

(٣) المعتصم بالله، لقب الخليفة العباسي الثامن محمد بن هارون الرشيد. خلف أخاه المأمون، واستعان بالجنود الأتراك. قضى قائده الإفشين على ثورة بابك الخرّمي. هزم البيزنطيين واحتلّ عمورية. بنى سامرّاء وجعلها عاصمة ملكه وخلافته. مال إلى المعتزلة وقال بخلق القرآن. مات سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٥.

(٤) تغرورقان: تدمعان كأنهما غرقتا في دمعهما.

(٥) الحير: اسم القصر الذي بناه المتوكل بسامرّاء.

(٦) الرّقة: مدينة في شمال سورية على الفرات. أسسها السلوقيون. جعلها الرشيد عاصمة صيفيّة وبنى فيها قصر السلام فعرفت بمدينة الرشيد. دمّرتها غزوات المغول في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

(٧) الشعر لابن الدمينة. والورقاء: الحمامة. والرونق: الضياء. والرند: ضرب من الطّيب. والفنن: الغصن. والجليد: القوي.

فضحك المتوكلُ ثم قال: يا إسحٰق، هذه أُخْتُ فَعلتِك بالواثق لمّا غنّيته بالصالحيّة[١]: [من الوافر]

طَربتُ إلى أُصَيْبِيَةٍ[٢] صِغارِ وذكَّرني الهوى قربُ المزارِ

فكم أعطاك لمّا أذِن لك في الانصراف؟ قال: مائة ألف دينار؛ فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف. وكان آخر عهده بإسحٰق. تُوفي بعد ذلك بشهرين. وكانت وفاتُه في شهر رمضانَ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ ومائتين. وكان يسأل الله تعالى ألا يبتليه بالقُولَنج[٣] لِما رأى من صعوبته على أبيه، فرأى في منامه كأنّ قائلًا يقول له: قد أُجيبت دعوتُك ولست تموتُ بالقُولَنجِ ولكنّك تموت بضدّه، فأصابه ذَرَبٌ[٤] في شهر رمضان، فكان يتصدّقُ في كل يوم يمكنُه صومه بمائة درهم، ثم ضعُف عن الصوم فلم يُطِقه ومات في الشهر. ولما نُعِي إلى المتوكل غمّه وحزِن عليه وقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته. رحمه الله تعالى.

ذِكْرُ أخبار عَلُّويَه

هو أبو الحسن عليُّ بنُ عبدِ الله بن سيف. وجدُّه سيفٌ من الصُّغْدِ[٥] الذين سباهم الوليدُ بنُ عثمانَ بنِ عفّان واسترقّ[٦] منهم جماعةً اختصّهم لخدمتهِ وأعتق بعضَهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان عليٌّ هذا مغنّيًا حاذقًا، ومؤدّبًا مُحسِنًا، وصانعًا متقِنًا، وضاربًا متقدّمًا، مع خفّة رُوحٍ وطيب مجالسةٍ وملاحَةِ نوادر. وكان إبراهيمُ الموصليُّ علّمه وخرّجه وعُنِي بتحذيقه جدًّا، فبرع وغنّى لمحمد الأمينِ[٧] وعاش إلى أيام المتوكّلِ وما بعدَ إسحٰقَ الموصلي بيسير.

---

(١) الصالحية: موقع على الفرات، بالدقة بمحافظة دير الزور، كانت تقوم عليه قديمًا مدينة دورا أوروبوس، وقد اتخذ خلفاء بني العباس من هذا الموقع مقامًا للراحة والانتجاع. انظر: معجم البلدان، لياقوت ٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠. دار صادر ـ دار بيروت ٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠ بيروت ١٩٨٤ م.

(٢) الأصيبية: تصغير صبية، وهم الأولاد.

(٣) القولنج: مرض يصيب الأمعاء، وهو السّداد.

(٤) الذرب: مرض يصيب المعدة والأمعاء.

(٥) الصغد: جماعة أو أقوام سكنوا الصغد، وهي كورة عجيبة نصبتها سمرقند، وقيل: بخارى إلى الشمال الشرقي من خراسان.

(٦) استرقّهم: جعلهم رقيقًا وعبيدًا.

(٧) الأمين: لقب الخليفة العباسي محمد بن هارون الرشيد. أمه زبيدة. قتل في نزاع حول الخلافة مع أخيه المأمون. وذلك سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣٠٠.

وكان سبب وفاته أنه خرج عليه جَرَبٌ، فشكاه إلى يحيىٰ بن ماسَوَيْهِ[(١)]، فبعث إليه بدواء مُسهل وطِلاء، فشرب الطلاءَ واطَّلى بالدواء، فقتله ذلك. قال: وكان عَلُّويَه أعسرَ، فكان عوده مقلوبَ الأوتار: البَمُّ[(٢)] أسفلُ الأوتارِ كلّها ثم المِثْلَثُ[(٣)] فوقَه ثم المَثْنَى[(٤)] ثم الزِّيرُ[(٥)]؛ فكان عودُه إذا كان في يد غيرِه يكونُ مقلوبًا، وإذا أخذه كان في يده اليمنى وضرب باليسرى فيكون مستويًا. وكان إسحٰقُ يتعصّبُ له في أكثر أوقاته على مُخَارِق[(٦)]. وقال حماد بنُ إسحٰقَ: قلتُ لأبي: أيّما أفضل عندكَ مُخَارقٌ أم عَلُّويه؟ فقال: يا بنيّ، عَلُّويه أعرقُهما فهمًا بما يخرج من رأسه، وأعلمُهما بما يغنّيه ويؤدّيه، ولو خُيّرت بينهما من يطارح[(٧)] جواريّ، أو شاورني من يستنصحني لما أشرت إلا بعَلُّويه؛ لأنه يؤدّي الغناءَ، وإذا صنع شيئًا صنعه صَنعةً مُحكمةً، ومخارقٌ لتمكُّنِه من حَلقهِ وكثرةِ نَغَمه لا يُقْنَع بالأخذ منه، لأنه لا يؤدّي صوتًا واحدًا كما أخذه ولا يغنّيه مرّتين غناءً واحدًا لكثرة زوائدِه فيه، ولكنهما إذا اجتمعا عندَ خليفةٍ أو سُوقةٍ[(٨)] غلب مُخارق على المجلس والجائزةِ بطيب صوتهِ وكثرةِ نغمه.

وقال أبو عبد الله بن حمدون: حدّثني أبي قال: اجتمعتُ مع إسحٰقَ يومًا في بعض دُور بني هاشم، وحضر علُّويه فغنّى أصواتًا ثم غنّى من صنعته: [من الطويل]

ونُبِّئتُ ليلى أُرسِلتْ بشفاعةٍ إليّ فهلّا نفسُ ليلى شفيعُها!

فقال له إسحٰق: أحسنتَ أحسنتَ واللهِ يا أبا الحسن! أحسنتَ ما شئت! فقام علُّويه من مجلِسه فقبّل رأسَ إسحٰقَ وعينيْه وجلس بينَ يديه وسُرّ بقولهِ سرورًا كثيرًا؛ ثم قال: أنت سيدي وابن سيدي وأستاذي وابن أستاذي، ولي إليك حاجة. قال: قل، فوالله إني أبلُغ فيها ما تُحبّ. قال: أيّما أفضلُ أنا عندك أم مُخارق؟ فإني أُحبّ أن أسمعَ منك في هذا المعنى قولًا يُؤثَرُ ويحكيه عنك من حضر، فشرّفني به. فقال

(١) هو يوحنا، ويعرف بابن ماسويه، الطبيب السرياني المشهور. خدم الرشيد وخلفاءه حتى المتوكل. ولّاه الرشيد ترجمة كتب الطبّ القديمة. من آثاره: «النوادر الطبّية» و«كتاب الحميات» و«كتاب الأزمنة». توفي سنة ٨٥٧ م.
(٢) البمّ: أغلظ أوتار العود.
(٣) المثلث: ثالث أوتار العود.
(٤) المثنى: ثاني أوتار العود.
(٥) الزير: أدق أوتار العود.
(٦) مخارق: من مشاهير المغنّين في العهد العباسي. نادم الرشيد والمأمون. توفي سنة ٨٤٥ م.
(٧) يطارح: يناظر ويجاوب.
(٨) السوقة: الرعيّة من الناس، لأن الملك يسوقهم ويصرفهم إلى ما شاء من أمره.

إسحٰق: ما منكما إلا مُحسِنٌ مُجمِل، فلا تُرِد أن يجري في هذا شيء. قال: سألتك بحقّي عليك وبتُرْبة أبيك وبكل حقٍ تُعظّمه إلا حكمت! فقال: ويحك! والله لو كنت أستجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب، فأمّا إذ أبيتَ إلا ذكر ما عندي، فلو خُيّرت أنا من يطارح جواريّ ويُغنّيني لما اخترت غيرك، ولكنكما إذا غنّيتما بين يدي خليفةٍ أو أمير غلبك على إطرابه واستبدّ عليك بجائزته. فغضب علُّويه وقام وقال: أُفٍّ من رضاك وغضبِك!

وكان الواثقُ بالله يقول: علُّويه أصحُ الناسِ صنعةً بعدَ إسحٰقَ، وأطيبُ الناس صوتًا بعد مُخارق، وأضربُ الناسِ بعدَ زَلْزَلٍ[١] وملاحظ، فهو مُصَلّي[٢] كلّ سابق نادر وثاني كل أوّل، وأصلُ كل متقدّم. وكان يقول: غناء علُّويه مثل نقْر الطَّست[٣] يبقى ساعة في السمع بعد سكوته.

وقال عبد الله بنُ طاهر[٤]: لو اقتصرت على رجل واحد يغنّيني لما اخترتُ سوى علُّويه؛ لأنه إن حدّثني ألهاني، وإن غنّاني أشجاني، وإن رَجعت إلى رأيه كفاني.

وقال محمد بنُ عبدِ الله بنِ مالك: كان علُّويه يغنّي بين يدي الأمين، فغنَّى في بعض غنائه: [من الرمل]

لـيـتَ هـنـدًا أنـجـزتـنـا مـا تـعِـدْ   وشَـفَـت أنـفُـسَـنـا مِـمـا تَـجِـدْ[٥]

وكان الفضل بنُ الربيعِ[٦] يضطغن[٧] عليه شيئًا، فقال للأمين: إنما يُعرِّض بك ويستبطىء المأمونَ في محاربته إياك؛ فأمر به فضُرِب خمسين سوطًا وجُرّ برجله حتى

(١) زلزل: من أشهر المغنيّن العباسيين، ومثله ملاحظ.
(٢) المصلّي، اسم الفاعل من صلّى الفرس تصليةً، إذا جاء بعد السابق.
(٣) الطست، الإناء من نحاس وغيره.
(٤) عبد الله بن طاهر، من أشهر الولاة في عهد المأمون العباسي. وطّد الأمن في مصر. خلف أخاه طلحة في حكم خراسان. توفي سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م. انظر: الفهرست، ص ٢٧٠.
(٥) هذا الشعر لعمر بن أبي ربيعة. وتجد: تحزن من شدة العشق والحب. انظر القصيدة كاملةً في: ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٧٣، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٦٨.
(٦) الفضل بن الربيع، حاجب المنصور العباسي، صار وزيرًا للرشيد بعد نكبة البرامكة. ولما جاء الأمين أقرّه في الوزارة، لكن المأمون أبعده منها. توفي سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م. انظر: الفهرست، ص ٢٣٦.
(٧) يضطغن: يحقد.

أُخرِج، وجفاه مدّة؛ حتى سأل كوثرًا أن يترضّاه له فترضّاه له وردّه إلى الخدمة وأمر له بخمسة آلاف درهم. فلما قدِم المأمون تقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يحبّ، وقال: إن الملك بمنزلة الأسدِ أو النار فلا تتعرّضْ لما يُغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يُتلفُك ثم لا يَقدِر بعد ذلك على تلافي ما فَرَط منه؛ ثم قرُب من المأمون بعد ذلك.

قال علّويه: أمرنا المأمون أن نباكره لنصطبح[١]، فلقيني عبدُ اللهِ بن إسماعيلَ المراكبي مولى عَرِيب[٢] فقال: أيها الظالمُ المعتدي، أمَا ترحمُ ولا ترِقّ! عَرِيب هائمة من الشوق إليك تدعو الله وتستحكمُه عليك وتحلُم بك في نومها في كل ليلة ثلاث مرات. قال علّويه: فقلت أمّ الخلافة زانية ومضيت معه. فحين دخلت قلت: أستوثق من الباب فإني أعرَفُ الناس بفضول الحُجّاب؛ وإذا عَريب جالسة على كرسيّ تطبخ ثلاث قدور من دَجاج. فلما رأتني قامت فعانقتني وقبّلَتني وقالت: أيَّ شيء تشتهي؟ فقلت: قِدْرًا من هذه القدور؛ فأفرغت قِدْرًا بيني وبينها فأكلنا، ودعت بالنبيذ فصبّت رِطلًا فشربَتْ نصفه وسقتني نصفه؛ فما زلتُ أشربُ حتى كدْتُ أن أسكر. ثم قالت: يا أبا الحسنِ، غنّيتُ البارحةَ في شعر لأبي العتاهيةِ[٣] أعجبني، أفتسمعه وتُصلحه؟ فغنّت: [من الطويل]

عَذِيري من الإنسان لا إن جَفَوتُه ... صفا لي ولا إن صرتُ طوْعَ يديه
وإنّي لَمشْتاقٌ إلى ظِلّ صاحبٍ ... يروقُ ويصفُو إن كَدِرْتُ عليه[٤]

فصيّرناه مجلسنا. وقالت: قد بقي فيه شيء؛ فلم أزل أنا وهي حتى أصلحناه. ثم قالت: أُحبّ أن تغنّي أنت أيضًا فيه لحنًا ففعلتُ، وجعلنا نشرب على اللحنين ثلاثًا. ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب واستخرجوني، فدخلت على المأمون فأقبلت

---

(١) نصطبح: نتناول خمرة الصباح.

(٢) عريب: ويطلق عليها اسم عريب المأمونية، شاعرة مغنيّة قرّبها المأمون فنسبت إليه. عشقها إبراهيم بن المدبّر، فكانا يتراسلان شعرًا ونثرًا. توفيت سنة ٨٩٠ م.

(٣) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم، شاعر مكثر سهل الأسلوب. نشأ في الكوفة واشتغل بصناعة الجرار. كني بأبي العتاهية لميله إلى التعته والمجون. لكنه غلب عليه الزهد والنسك في آخر حياته ووضع شعرًا في الزهد من أرقى الشعر وأوفره. اتصل بالمهدي والهادي وبلغ منزلة عالية عند الرشيد. له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٨٢٥ م.

(٤) العذير: القادر، والناصر أو النصير. وجفوته: ابتعدت عنه. وانظر الشعر في: ديوان أبي العتاهية. ط دمشق ١٩٧٥ م.

أرقُص من أقصى الإيوان[(١)] وأُصفّق وأُغنّي بالصوت؛ فسمع المأمون والمغنُّون ما لم يعرفوه فاستطرفوه، وقال المأمون: ادنُ يا علُّويه وردّده، فردّدته عليه سبع مرات. فقال لي في آخرها عند قولي: «يروق ويصفو إن كَدِرت عليه»: يا علُّويه خذ الخلافة وأعطني هذا الصاحب.

وقال علُّويه: قال إبراهيم الموصليّ يومًا: إني قد صنعت صوتًا وما سمعه مني أحد بعدُ، وقد أحببت أن أنفعك به وأرفع منك بأن أُلقيه عليك وأَهَبَه لك، ووالله ما فعلت هذا بإسحٰق قطّ، وقد خصَصْتك به، فانتحله وادّعِه، فلست أنسبه إلى نفسي، وستكسِب به مالًا. فألْقى عليّ: [من الطويل]

إذا كان لي شيئانِ يا أمَّ مالكٍ ... فإنَّ لجارِي منهما ما تخيَّرا[(٢)]

فأخذتُه عنه وادّعيته، وسترته طولَ أيامِ الرشيدِ خوفًا من أن أُتَّهمَ فيه وطولَ أيام الأمين، حتى حدث عليه ما حدث وقدِم المأمون من خُراسانَ، وكان يخرج إلى الشّمّاسِيّة[(٣)] فيتنزّه، فركبت يومًا في زُلَالِي[(٤)] وجئت أتبعه، فرأيت حَرّاقة[(٥)] عليّ بنِ هشامٍ، فقلت للملّاح: اطرحْ زُلَالي على الحرّاقة ففعل، واستؤذِن لي فدخلت وهو يشربُ مع الجواري، وما كانوا يحجبون جواريَهم، فغنيّته الصوتَ فاستحسنَه جدًّا وطرِب عليه، وقال: لمن هذا؟ فقلت: هذا صوت صنعتُه وأهديتُه لك ولم يسمعْه أحدٌ قبلَك؛ فازداد به عجبًا وطربًا، وقال للجارية: خُذِيه عنه، فألقيته عليها حتى أخذته، فسُرّ بذلك وطرِب، وقال لي: ما أجد لك مكافأة على هذه الهديّة إلا أن أتحوّل عن هذه الحرّاقة بما فيها وأسلمه إليك؛ فتحوّل إلى أخرى وسُلّمت لي بخزانتها وجميع آلاتها وكل شيء فيها؛ فبعت ذلك بمائة ألف وخمسين ألف درهم، واشتريت ضيعتي الصالحية.

وقال عَلّويه: خرج المأمون يومًا ومعه أبياتٌ قد قالها وكتبها في رُقعة بخطّه وهي: [من الطويل]

خرجتُ إلى صَيْدِ الظِّباء فصَادَني ... هُناكَ غَزَالٌ أدْعجُ العَيْن أحْوَرُ[(٦)]

---

(١) الإيوان: المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان، وهو القصر أيضًا.
(٢) أم مالك: كنية التي يتحدث عنها الشاعر ويخاطبها.
(٣) الشماسية: وهي مجاورة لدار الروم في أعلى مدينة بغداد. وهي تنسب إلى بعض شمّاسي النصارى.
(٤) الزلالي: ضرب من المراكب النهرية. (٥) الحراقة: ضرب من المراكب النهرية.
(٦) الأحور: الذي فيه حور، أي شدة بياض العين وشدة سوادها، وهو كناية عن الحبيب. =

غـزالٌ كـأنّ الـبَـدْرَ حـلَّ جـبـيـنَـه وفي خدّه الشِّعْرَى[1] المُنِيرةُ تَزْهَرُ
فـصـادَ فُـؤادي إذ رَمـانـي بـسـهـمـه وسهمُ غزالِ الإنس طرْفٌ ومحْجَرُ[2]
فيا من رأى ظبيًا يصِيد، ومن رأى أخا قَنَصٍ يُصطادُ قهرًا ويُقْسَرُ[3]

قال: فغنّيته فأمر لي بعشرين ألف درهم.

ذِكْر أخبارِ معبَد اليَقْطيني

قال أبو الفرج: كان معبَد هذا غلامًا مولّدًا[4] من مولّدي المدينة، أخذ الغناء عن جماعة من أهلها، واشتراه بعضُ ولدِ عليّ بنِ يَقْطين[5]. وأخذ الغناء بالعراق عن إسحٰقَ وابنِ جامع وطبقتِهما، وخدم الرشيدَ ولم يخدمْ غيرَه من الخلفاء، ومات في أيامه. وكان أكثرُ انقطاعِه إلى البرامكة[6]. وروى أبو الفرج الأصفهانيُّ حكايةً عنه أحببت أن أذكرَها في هذا الموضع، وهي ما رواه بسنده إلى محمد بنِ عبدِ الله بنِ مالكٍ الخُزَاعيّ، قال: حدّثني معبَد الصغير المغنّي مولى علي بنِ يَقْطين قال: كنت منقطعًا إلى البرامكةِ أُحدّثُهم وأُلازمُهم. فبينا أنا ذاتَ يوم في منزلي إذ أتاني آتٍ فدقّ بابي، فخرج غلامي ثم رجع إليّ فقال لي: على الباب فتى ظاهرُ المُروءة يستأذنُ عليك؛ فأذِنت له، فدخل شابّ ما رأيت أحسنَ وجهًا منه ولا أنظفَ ثوبًا ولا أجمل زِيًّا منه من رجلٍ دَنِفٍ عليه آثارُ السّقمِ ظاهرة. فقال لي: إني أُحاول لقاءك منذ مدّة ولا أجد إلى ذلك سبيلًا، وإن لي حاجة. فقلت: وما هي؟ فأخرج ثلاثمائة دينارٍ فوضعها بين يديّ فقال: أسألك أن تقبلَها وتصنع في بيتين قلتُهما لحنًا تغنّيني به.

= والأدعج: الواسع العينين أسودهما.

(١) الشعرى: نجم مشهور، وهو نوعان: الشعري الشامية في السماء الشمالية، والشعري اليمانية في السماء الجنوبية.

(٢) الطرف: العين. والمحجر، مكانها ومستقرّها.

(٣) يقسر: يرغم ويؤسر.

(٤) المولّد من الأعاجم: من ولد في ديار العرب فتأثر بهم وبأخلاقهم وآدابهم.

(٥) علي بن يقطين: أحد أتباع الإمام الصادق، ومن شيعته. عمل لدى الخلفاء العباسيين وكان يقضي مصالح المقرّبين إليه.

(٦) البرامكة: أسرة فارسية من بلخ. تولّى أبناؤها الوزارة في عهد العباسيين. عظم شأنهم وقرّبوا الشعراء واشتهروا بالكرم. نقم عليهم الرشيد ونكبهم؛ أشهرهم خالد بن برمك الذي خدم السفّاح، ويحيىٰ بن خالد مؤدب الرشيد ووزيره، والفضل بن يحيىٰ مؤدب الأمين، وجعفر بن يحيىٰ الذي قتله الرشيد سنة ٨٠٣ م. انظر خبر نكبتهم في: مروج الذهب، للمسعودي، ٣/ ٣٨٧.

فقلت: هاتِهما؛ فأنشدني: [من البسيط]

واللهِ يا طَرْفِي[١] الجاني على بَدنِي لَتُطفِئَنَّ بدمعي لوعَة الحَزَنِ
أو لأبوحنّ حتى يحجُبُوا سَكَنِي فلا أراه وقد أُدرِجتُ[٢] في كَفَنِي

قال: فصنعت فيه لحنًا ثم غنّيته إياه، وأُغمِي عليه حتى ظننته قد مات، ثم أفاق فقال: أعِدْ، فديتُك! فناشدتُه الله في نفسه وقلت: أخشى أن تموت؛ فقال: هيهات! أنا أشقى من ذلك. وما زال يخضع لي ويتضرّع حتى أعدته، فصعِق صعقةً أشدَّ من الأولى حتى ظننت أنّ نفسَه قد فاضت[٣]. فلما أفاق رددت عليه الدنانيرَ فوضعتُها بين يديه، وقلت: يا هذا، خذ دنانيرَك وانصرفْ عني، قد قضيت حاجتَك وبلغت وطرًا[٤] مما أردته، ولست أُحبّ أن أُشركَ في دمك. فقال: يا هذا، لا حاجة لي في الدنانير، وهذه مثلُها لك، ثم أخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يديّ وقال: أعِد الصوتَ عليّ مرةً أُخرى وحِلٌّ لك دمي! فشرِهَتْ[٥] نفسي في الدنانير، وقلت: لا واللهِ ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط. قال: وما هي؟ قلت: أولاهن أن تقيم عندي وتتحرّمَ بطعامي. والثانية أن تشربَ أقداحًا من النبيذ تُطَيِّبُ قلبك وتسكِّن ما بك. والثالثة أن تُحدّثني بقصّتك. قال: أفعلُ ما تريد. فأخذت الدنانير ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابة مُعَذِّرٍ[٦]، ثم دعوت بالنبيذ فشرب أقداحًا، وغنّيته بشعرِ غيره في معناه وهو يشربُ ويبكي، ثم قال: الشرطَ أعزّك الله! فغنّيته صوته فجعل يبكي أحرّ بُكاءٍ ويَنْشِج أشدّ نَشِيج وينتحب. فلما رأيت ما به قد خفّ عما كان يلحَقه ورأيت النبيذ قد شدّ قلبَه، كررت عليه صوتَه مرارًا. ثم قلت: حدّثْني حديثك، فقال: أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزِّهًا في ظاهرها وقد سال العقيق[٧] في فِتية من أقراني وأخداني[٨]، فبصرنا بفَتَيات قد خرجت لمثل ما خرجنا له، فجلسن حَجْرَةً[٩] منا، وبُصِرْتُ منهن بفتاة كأنها قضيبٌ قد طلّه الندى، تنظر بعينين ما ارتد طرْفَهما إلا بنفس مَن

(١) طرفي: عيني وبصري.
(٢) أدرجت: دخلت.
(٣) فاضت: خرجت وانسلخت منه.
(٤) وطرًا: مأربًا وحاجة.
(٥) شرهت: طمعت.
(٦) المعذّر: المقصّر في الأمر بعد جهد.
(٧) العقيق: وادٍ بناحية المدينة وفيه عيون ونخل ودور وقصور ومنازل وقرى. وكان هذا الوادي يمتلىء بالمياه ثم تنضب فيترك في جنابه من الزهر والنور والنّبت، من كل زوج بهيج. وقد تغنّى بحسنه ومقيله الشعراء والمغنّون. انظر: معجم البلدان ٤/١٣٩ ـ ١٤٠.
(٨) أخداني: أصدقائي، جمع خدن.
(٩) الحجرة: الناحية.

يلاحظهما. فأطلنا وأطلن حتى تفرّقَ الناسُ، وانصرفن وانصرفنا وقد أبقت بقلبي جُرحًا بطيئًا اندمالُه[١]؛ فعدت إلى منزلي وأنا وَقِيذ[٢]، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحبها أثرًا، ثم جعلت أتتبّعها في طرق المدينة وأسواقها، وكأنّ الأرض أضمَرتها فلم أحسَّ لها بعين ولا أثر، وسقِمت حتى أيِس مني أهلي. وخَلتْ بي ظِئري[٣] فاستعلمتني حالي وضمنت لي كتمانَها والسعي فيما أحبّه منها، فأخبرتها بقصتي؛ فقالت: لا بأس عليك، هذه أيام الربيع وهي سنة خِصْب وأنواءٍ[٤] وليس يبعد عنك المطرُ، ثم هذا العقيقُ فتخرج حينئذٍ وأخرج معك فإن النسوة سيجئن؛ فإذا فعلن ورأيتُها أتبعُها حتى أعرف موضعها ثم أصل بينك وبينها وأسعى لك في تزويجها. فكأنّ نفسي اطمأنت إلى ذلك ووثِقت به وسكنت إليه، فقويتُ وطمِعت وتراجَعتْ إليّ نفسي. وجاء مطر بعقبِ ذلك وسال العقيق وخرج الناس وخرجت مع إخواني إليه، فجلسنا مجلِسنا الأوّل بعينه، فما كنا والنسوةَ إلا كفَرَسَيْ رِهان[٥]؛ فأومأتُ إلى ظِئري فجلستْ، وأقبلتُ على إخواني فقلت: لقد أحسن القائل: [من الطويل]

رمتني بسهم أقصدَ القلبَ[٦] وانثنَتْ وقد غادرتْ جُرْحًا به ونُدُوبا[٧]

فأقبلتْ علي صواحباتها وقالت: أحسن والله القائل، وأحسن من أجابه حيث يقول: [من الطويل]

بنا مثلُ ما تشكو فصبْرًا لعلّنا نرى فَرَجًا يَشفِي السَّقامَ[٨] قَرِيبًا

فسكتُّ عن الجواب خوفًا من أن يظهر مني ما يفضحُني وإياها، وعرفت ما أرادت. ثم تفرّق الناس وانصرفنا، وتبعَتْها ظئري حتى عرفت منزلَها، وصارت إليّ فأخذت بيدي ومضينا إليها، فلم نزل نتلطّف حتى وصلتُ إليها، فتلاقينا وتزاورنا على حال مخالسةٍ ومُراقبةٍ، حتى شاع حديثي وحديثُها وظهر ما بيني وبينها، فحجبها أهلها

---

(١) اندماله: شفاؤه. (٢) الوقيذ: الشديد العياء والمرض.

(٣) الظئر: الأنثى العاطفة على ولد غيرها.

(٤) الأنواء: جمع نوء، وهو المطر في وقت معلوم، تنبىء به مطالع النجوم ومساقطها. وهي ثمانية وعشرون نوءًا على مدار العام، وكل نوء يساوي ثلاثة عشر يومًا.

(٥) فرسا الرهان: هما الفرسان اللذان يعدوان في الحلبة، ويتراهن على أيّ يكون سابقًا.

(٦) أقصد القلب: أصابه. (٧) الندوب: الجروح.

(٨) السقام: العلّة والمرض.

وسدّوا أبوابها؛ فما زلت أجهد في لقائها فلا أقدِر عليه، وشكوت ذلك إلى أبي لشدّة ما نالني وسألته خِطْبتَها لي. فمضى أبي ومَشْيَخة أهلي إلى أبيها فخطبوها؛ فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يفضَحها ويشهَرها لأسعفته بما التمس، ولكنه قد فضحها فلم أكن لأحقّق قول الناس فيها بتزويجه إياها؛ فانصرفتُ على يأسٍ منها ومن نفسي. قال معبد: فسألته أن ينزل بجواري، وصارت بيننا عِشرة. ثم جلس جعفرُ بنُ يحيىٰ[1] ليشربَ فأتيتُه، فكان أوّل صوت غنّيته صوتي في شعر الفتى، فشرِب وطرِب عليه طربًا شديدًا، وقال: ويحك! إن لهذا الصوت حديثًا فما هو؟ فحدّثته، فأمر بإحضار الفتى فأُحضِر من وقته، واستعاده الحديث فأعاده؛ فقال: هي في ذمتي حتى أزوّجك إياها؛ فطابت نفسُه وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح، وغدا جعفر إلى الرشيد فحدّثه الحديثَ، فعجب منه وأمر بإحضارنا جميعًا فأُحضِرنا، وأمر بأن أغنّيه الصوتَ فغنيته إياه وشرِب عليه وسمع حديث الفتى؛ فأمر من وقته بكتاب إلى عامل الحجازِ بإشخاصِ[2] الرجلِ وابنتِه وجميعِ أهله إلى حضرتِه؛ فلم تمضِ إلا مسافةُ الطريقِ حتى أُحضِروا. فأمر الرشيدُ بإحضار أبي الجاريةِ إليه فأُحضِر، وخطب إليه الجارية للفتى وأقسم عليه ألّا يخالف أمرَه؛ فأجابه وزوّجها إياه؛ وحمل الرشيدُ إليه ألفَ دينار لجِهازها وألف دينارٍ لنفقة طريقِه، وأمر للفتى بألفِ دينار ولي بألف دينار، وأمر جعفرٌ لي وللفتى بألف دينار. وكان المدِينيُّ بعدَ ذلك من نُدماء جعفرِ بنِ يحيىٰ.

ذكر أخبار محمد الرّف

هو محمدُ بنُ عمرو مولى بني تميم، كوفيُّ المولدِ والمنشأ. والرفّ لقبٌ غلبَ عليه. وكان مُغنّيًا ضاربًا صالحَ الصَّنعةِ مليحَ النادرة. وكان أسرعَ خلقِ اللهِ أخذًا للغِناء وأصحَّهم أداءً له وأذكاهم. وكان إذا سمع الصوتَ مرتين أو ثلاثًا أدّاه لا يكونُ بينَه وبينَ مَن أخذه عنه فرقٌ فيه. وكان متعصِّبًا على ابن جامعٍ مائلًا إلى إبراهيمَ الموصليّ وابنِهِ إسحٰقَ، وكانا يرفعان منه ويقدّمانه ويأخذانِ له الصِّلاتِ من الخلفاء. وكانت فيه عربدةٌ إذا سكِر. فعربد بحضرة الرشيدِ مرةً، فأمر بإخراجِهِ ومنعه من الدخول إليه

---

(١) جعفر بن يحيىٰ: الوزير البرمكي، جعفر بن يحيىٰ بن خالد بن برمك، قرّبه الرشيد ثم انقلب عليه لأسباب غير واضحة وقتله في نكبة مشهورة تعرف بنكبة البرامكة، وذلك سنة ٨٠٣ م. انظر: مروج الذهب، ٣/ ٣٨٧.

(٢) إشخاص: إحضار.

وجفاه وتناساه. قال أبو الفرج: وأحسبه مات في خلافتِه أو خلافة الأمين. ومن أخباره في جودة الأخذِ وسرعة الحفظِ ما رواه حمادُ بنُ إسحٰقَ عن أبيه قال: غنّى ابن جامع يومًا بحضرة الرشيد: [من الطويل]

جَسُورٌ[١] على هجري جَبانٌ عن الوصلِ
كذوبُ عِدَاتٍ[٢] يُتْبِعُ الوعدَ بالمَطْلِ[٣]
مُقَدِّمُ رِجلٍ في الوِصَالِ مؤخِّرٌ
لأُخرى يشوبُ[٤] الجِدّ في ذاك بالهَزْلِ
يَهُمّ بنا حتى إذا قلتُ قد دَنَا
وجاذبني عِطْفاه[٥] مالَ إلى البُخْلِ
يزيدُ امتناعًا كلما زِدْتُ صَبْوَةً[٦]
وأزدادُ حِرْصًا كلما ضَنّ[٧] بالبَذْلِ[٨]

فأحسن فيه ما شاء وأجمل، فغمزت عليه محمد الرفّ وفَطِن لما أردت، واستحسنه الرشيدُ وشرب عليه واستعاده مرتين أو ثلاثًا. ثم قمتُ إلى الصلاة وغمزت الرفَّ فجاءني، وأومأتُ إلى مُخارق وعلويّهِ وعقيدٍ فجاءوني؛ فأمرته بإعادة الصوت فأعاده وأدّاه كأنه لم يزل يرويه؛ ولم يزل يكرره على الجماعة حتى غنّوه. ثم عدتُ إلى المجلس؛ فلما انتهى الدّورُ إليّ ابتدأتُ فغنّيته قبل كل شيء غنّيته. فنظر إلى ابن جامع محدّدًا طَرْفَه؛ وأقبل عليّ الرشيد وقال: أكنت تَرْوِي هذا الصوت؟ قلت: نعم يا سيِّدي. فقال ابن جامع: كذب والله ما أخذه إلا مني الساعة. فقلت: هذا صوت أرويه قديمًا، وما فيمن حضر أحد إلا وقد أخذه منّي. وأقبلت عليهم فقلت لهم: غنُّوه، فغنّاه علّويهِ ثم عقيدٌ ثم مُخارِق. فوثب ابنُ جامع فجلس بين يديه فحلف بحياته وبطلاق امرأتِه أنّ اللحنَ صنعه منذُ ثلاثِ ليالٍ وما سُمِع به قبل ذلك الوقت. فأقبل الرشيد عليّ وقال: بحياتي اصدُقني عن القِصّة، فصدَقته، فجعل يضحكُ ويصفّقُ ويقول: لكل شيء آفة[٩]، وآفةُ ابنِ جامعٍ الرفُّ.

(١) الجسور: الجريء.
(٢) عدات: جمع عدة، وهي الوعد. من وعد عدةً ووعدًا.
(٣) المطل: التسويف.
(٤) يشوب: يخلط.
(٥) عطفاه: جانباه.
(٦) صبوةً: ميلًا إليه وحبًّا.
(٧) ضنّ: بخل.
(٨) البذل: العطاء، وهنا، كناية عن الوصال.
(٩) الآفة: العلّة.

قال إسحٰق بنُ إبراهيمَ: كان محمدُ الرفّ أروَى خلقِ الله تعالى للغناء وأسرعَهم أخذًا لما سمعه، ليست عليه في ذلك كُلْفة، إنما يسمع الصوتَ مرة واحدة وقد أخذه. وكنا معه في بلاء إذا حضر، فكان كل من غنّى منّا صوتًا فسأله عدوٌ له أو صديقٌ بأن يُلقِيَه عليه فبخِل ومنعه إياه واسأل محمد الرفّ أن يأخذه فما هو إلا أن يسمعه مرّةً واحدةً حتى أخذه وألقاه على مَنْ سأله. قال: وكان أبي يُبِرّه ويصله ويُجْدِيه[1] من كل جائزة وفائدة تصل إليه. وكان محمد الرفّ مُغْرًى بابن جامعٍ خاصّةً من بين المغنّين لبخله، وكان لا يفتح ابنُ جامعٍ فاه بصوتٍ إلا وضع عينَه عليه وصغَى بسمعه إليه حتى يحكِيَه. وكان في ابن جامعٍ بخلٌ شديدٌ لا يقدِر معه على أن يُسْعِفه ببرّ ورِفْد. وساق نحو ما تقدّم إلا أنه قال: إن الرّف أخذ الصوت لأوّل مرة وألقاه على إسحٰقَ فأخذه عنه في ثلاثة مرار. قال حماد: وللرفّ صَنعةٌ يسيرة، وذكر منها أصواتًا.

ذِكْرُ أخبار محمد بن الأشعث

قال أبو الفرج: كان محمدُ بنُ الأشعثِ القرشيُّ ثم الزُّهْريّ كاتبًا، وكان من فِتيان أهل الكوفةِ وظُرفائِهم، وكان يقول الشعرَ ويُغَنّي فيه. فمن ذلك قولُه في سَلّامة زرقاء ابن رامين: [من البسيط]

أمسى لسلّامةَ الزرقاءِ في كَبِدِي ... صَدْعٌ[2] يُقيم طَوالَ الدهر والأبَدِ
لا يستطيع صَنَاعُ[3] القومِ يَشْعَبُه[4] ... وكيف يُشْعَب صَدْعُ الحبِّ في الكبِد
إلّا بوصلِ التي مِنْ حبّها انصدعتْ ... تلك الصدوعُ مِنَ الأسقام[5] والكَمَدِ[6]

وكان ملازمًا لابنِ رامينَ ولجاريتهِ سلّامةَ الزرقاء، فشُهِر بذلك، فلامه قومُه في فعله فلم يَحْفِلْ بمقالتهم؛ وطال ذلك منه ومنهم، حتى رأى بعضَ ما يكره في منزل ابن رامين، فمال إلى سحيقةَ جاريةِ زُرَيق ابنِ مَنِيح مولى عيسى بن موسى[7]، وكان زُرَيْقٌ شيخًا كريمًا نبيلًا، يجتمع إليه أشرافُ أهل الكوفةِ من كل حيّ، وكان الغالبُ على منزله رجلًا من ولدِ القاسم بنِ عبدِ الغفارِ العِجْليّ كغلبةِ

---

(١) يجديه: يعطيه وينوّله.
(٢) الصدع: الشق والجرح.
(٣) الصناع: الحاذق، والأتقن صنعةً.
(٤) يشعبه: يعيده إلى ما كان عليه.
(٥) الأسقام: الآلام والأمراض.
(٦) الكمد: شدّة الحزن.
(٧) عيسى بن موسى: أمير عباسي، ابن أخي أبي العباس السفاح، أول خليفة عباسي. تولّى عيسى الكوفة ومات سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م. انظر: شذرات الذهب ١/٢٦٦.

محمدِ بنِ الأشعث[(١)] على منزلِ ابنِ رامين؛ فتلازما على ملازمة زُرَيق. وفي ذلك يقول محمد بن الأشعث: [من الخفيف]

يا ابنَ رامينَ بُحتُ بالتصريح — في هوايَ سحيقةَ ابنِ منِيحِ
قينةٌ[(٢)] عَفَّةٌ ومولًى كريمٌ — ونديمٌ من اللُّباب الصريحِ[(٣)]
رَبَعِيٌّ[(٤)] مُهَذَّبٌ أرْيَحِيٌّ[(٥)] — يشتري الحمدَ بالفَعَالِ الرّبيحِ
نحن منه في كل ما تشتهي الأنـ — ـفسُ مِنْ لَذّةٍ وعيشٍ نجيحِ
عند قومٍ من هاشم في ذُرَاها[(٦)] — وغِناءٍ مِنَ الغَزالِ المليحِ
في سُرورٍ وفي نعيمٍ مُقِيمٍ — قد أمِنّا مِنْ كل أمرٍ قبيحِ
فاسلُ عنّا كما سلوناك إنّي — غيرُ سالٍ[(٧)] عن ذاتِ نفسي ورُوحِي
حافظٌ منك كلُّ ما كنت قد ضـ — ـيَعت مما عَصَيتُ فيه نَصيحِي
فالقِلَى[(٨)] ما حييتُ مني لك الدهـ — ـرَ بودٌّ لمنيّتي ممنوحِ
يا ابن رامين فالْزَمَنْ مَسْجِدَ الحـ — ـيّ بطول الصلاة والتسبيحِ

قال عمرُ بنُ نوفلٍ وهو راوي هذه الأبيات: فلم يَدع ابنُ رامين شريفًا بالكوفة إلا تَحَمَّل به على ابنِ الأشعثِ وهو يأبى أن يرضَى عنه وأن يعاودَ زيارتَه، حتى تحمّل عليه بالجَحْوَانيّ، وهو محمدُ بنُ بشرِ بنِ جَحْوَانَ الأسديّ وكان يومئذٍ على الكوفة، فكلّمه فرضِي عنه وعاد إلى زيارته، ولم يقطع منزلَ زُرَيق. وقال في سحيقة: [من الوافر]

سحيقةُ أنتِ واحدةُ القِيانِ — فما لكِ مُشبِهٌ فيهنّ ثانِي

(١) هو محمد بن الأشعث الكندي: قتل سنة ٦٧ هـ، في عداد جيش مصعب بن الزبير، وذلك في الفتنة بين الزبير والمختار بن أبي عبيد الثقفي. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٥.
(٢) القينة: المغنيّة.
(٣) اللباب الصريح: خالص كل شيء.
(٤) ربعي: نسبة إلى الربع، وهو الرجل بين القصير والطويل.
(٥) أريحي: فيه أريحية. وهو الواسع الخلق النشط إلى المعروف.
(٦) ذراها: أعاليها.
(٧) السالي: المتشاغل، الناسي.
(٨) القلى: الكراهية والبغض.

فَضَلْتِ على القِيان بفضلِ حِذْقٍ[1]
فحُزْتِ[2] على المَدَى قَصَبَ الرِّهانِ[3]
سجدْنَ لكِ القِيانُ مُكَفِّراتٍ[4]
كما سَجَدَ المجوسُ[5] لِمَرْزُبان[6]
ولا سِيَمَا إذا غنتْ بصوتٍ
وحرّكتِ المَثَالِثَ والمثاني[7]
شَرِبْتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أني
أبو قابوسَ[8] أو عبدُ المَدَان
فإعمالُ اليَسار على الملاوي
ومن يُمناكِ ترجمةُ البيان

ولمحمد بن الأشعث أصوات له فيها غِناء. منها: [من مجزوء الكامل]

رَحُبتْ بلادُك يا أمامَهْ[9] وسَلِمْتِ ما سَجَعتْ[10] حمامَهْ
وسَقى دِيارَكِ كلما حَنّتْ إلى السُّقْيا غَمَامه
إنّي وإنْ أقصيتني شفِقٌ[11] أُحِبّ لكِ الكرامه
وأرى أمورَكِ طاعةً مفروضة حتى القيامه

وله غير ذلك من الأصوات.

ذِكْر أخبار عمرو بن بانة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو عمرو بنُ محمدِ بنِ سليمانَ بنِ راشدٍ مولى ثقيف. وكان أبوه صاحبَ ديوانٍ ووجهًا مِن وجوه الكتّابِ، ونُسِب إلى أمه. وكان

(١) الحذق: المهارة والإتقان. (٢) حزت: نلت.
(٣) قصب الرهان: يعطي للسابق في الحلبة. الذي يصل إليه أولًا.
(٤) مكفّرات: مشتملات. (٥) المجوس: عبدة النيران.
(٦) المرزبان: الرئيس. (٧) المثالث والمثاني: من أوتار العود.
(٨) أبو قابوس: كنية النعمان بن المنذر، من ملوك الحيرة.
(٩) أمامه: اسم المرأة. (١٠) سجعت: غنّت.
(١١) الشفِق: الشفيق، وهو الحريص على الخير والإصلاح.

مغنِّيًا محسنًا، وشاعرًا صالحَ الشعرِ، وصَنعتُه صَنعةٌ متوسِّطةٌ، وكان مرتجلًا. قال: وكتابُه في الأغاني أصلٌ من الأصول. وكان يذهب مذهبَ إبراهيمَ بنِ المهديِّ في الغناء، ويخالف إسحٰقَ ويتعصّبُ عليه تعصّبًا شديدًا ويواجهُه بنفسِه. وهو معدود في ندماءِ الخلفاء ومغنّيهم، على ما كان به من الوَضَح[١]. وفيه يقول الشاعر: [من المتقارب]

أقــول لــعــمــرٍو وقــد مــرّ بــي فــســلّم تــســلــيــمــةً جــافــيَــهْ[٢]

لــئــن فَــضَّــلوك بــفــضــلِ الــغِــنــا ءِ فــقــد فــضّــل الله بــالــعــافــيــهْ

وقال أحمدُ بنُ حمدون: كان عمرو حسنَ الحكايةِ لمن أخذ عنه الغناءَ، حتى كان من يسمعُه لو توارى[٣] عن عينه عمرو لم يشكَّ في أنه هو الذي أخذ عنه، لحسن حكايتِه. وكان محظوظًا ممن يعلّمه، ما علّم أحدًا قطّ إلا خرج نادرًا مبرّزًا. وله أخبارٌ مع الخلفاءِ وإنعامٌ منهم عليه، منهم المتوكلُ على الله. رحمه الله.

ذِكر أخبار عبد الله بن العباس الربيعيّ

هو أبو العباسِ عبدُ اللهِ بنُ العباسِ بنِ الفضلِ بنِ الربيع. والربيعُ، على ما يدّعيه أهلُه، ابنُ يونسَ بن أبي فَروة. وآل أبي فروةَ يدفعون[٤] ذلك ويزعمون أنه لَقِيطٌ[٥] وُجِدَ منبوذًا[٦] كَفَله يونسُ، فلما خدَم المنصور[٧] ادّعى إليه. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان شاعرًا مطبوعًا ومغنّيًا مُحسنًا جيِّدَ الصَنعة نادرَها. قال: وهو أوّلُ مَنْ غَنّى بالكنكلةِ[٨] في الإسلام.

وكان سبب دخوله في الغناء على ما رواه أبو الفرج بسنده إليه قال: كان سبب دخولي في الغناء وتعلُّمي إياه أنّي كنت أهوَى جاريةً لعمّتي رُقَيّة بنتِ الفضلِ بنِ

---

(١) الوضح: البرص، وهو بياض يعتري البشرة. ويعتبر من العاهات.

(٢) جافية: نابية، فيها غلظ.

(٣) توارى: احتجب واستتر.

(٤) يدفعون: يردّون.

(٥) اللقيط: المولود الذي ينبذ فيلقط، غير معروف الأبوين.

(٦) منبوذًا: مطروحًا لوحده، بلا صاحب أو كفيل.

(٧) المنصور: لقب الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر عبد الله. خلف أخاه السفّاح. قتل قائده أبا مسلم الخراساني. أخضع العلويين وقضى على ثورة النفس الزكية في المدينة وثورة إبراهيم أخي محمد في الكوفة، كما قضى على ثورة المقنّع في فارس. بنى بغداد وجعلها عاصمته. توفي محرمًا بالحجّ سنة ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م. انظر: التنبيه والإشراف ص ٢٩٥.

(٨) الكنكلة: ضرب من الغناء أو الموسيقى على وتر فوق قرعة، تقوم مقام العود أو القنج.

الربيع، وكنت لا أقدِرُ على مُلازمتها والجلوسِ معها خوفًا من أن يظهر ما لها عندي، فيكون ذلك سببَ منعي منها؛ فأظهرت لعمّتي أني أشتهي أن أتعلّم الغناءَ ويكون ذلك في سِترٍ عن جدّي ـ وكان جدّي وعمّتي على حال من الرقّة عليّ والمحبّة لي لا نهاية وراءها، لأن أبي تُوُفّي في حياة جَدّي الفضل ـ فقالت: يا بُنَيّ، وما دعاكَ إلى ذلك؟ فقلت: شهوةٌ غَلبتْ على قلبي، إن مُنِعتُ منها مُتّ غمًّا ـ قال: وكان لي في الغناء طبعٌ قويّ ـ فقالت لي: أنت أعلمُ وما تختاره، والله ما أحبُّ منعَك من شيء، وإني كارهةٌ أن تحذِقَ في ذلك وتشتهر فتسقُط ويفتضح أبوك وجدُّك. فقلت: لا تخافي من ذلك، فإنما آخذ منه مقدارَ ما ألهو به. ولازمتُ الجاريةَ لمحبتي إياها بعلّة الغِناء، فكنتُ آخذُ عنها وعن صواحباتها حتى تقدّمتُ الجماعةَ حذْقًا وأقرّت لي بذلك، وبلغت ما كنت أريد من الجارية، وصرت ألازم مجلسَ جدّي. ثم لم يكن يمرّ لإسحٰقَ ولا لابنِ جامعَ ولا للزّبيرَ بنِ دَحْمان ولا لغيرهم صوتٌ إلا أخذتُه، وكنت سريعَ الأخذِ، إنما كنت أسمعه مرّتين أو ثلاثًا وقد صحّ لي. وأحسست في نفسي قوّة في الصناعة، فصنعت أوّلَ صوتٍ صنعتُه في شعر العَرْجيّ[1]: [من الطويل]

أماطتْ[2] كِساءَ الخَزِّ[3] عن حُرِّ وجهِها[4]
وأدنتْ على الخَدَّينِ بُرْدًا[5] مُهَلْهَلا[6]

ثم صنعتُ: [من المنسرح]

أَقفَرَ من بعد خَلّةٍ[7] شَرَفُ[8] فالمُنْحَنى فالعَقِيقُ فالجُرُف[9]

وعرضتهما على الجارية التي كنت أهواها وسألتُها عما عندها فيهما؛ فقالت: لا يجوزُ أن يكونَ في الصنعةِ فوقَ هذا. وكان جواري الحارث بن بُسْخُنّر وجواري أبيه يدخلْنَ إلى دارِنا فَيَطّرَحْنَ على جواري عمّتي وجواري جدّي ويأخذن أيضًا ما ليس عندهن، فأَخَذْنَهما منّي، وسألن الجاريةَ عنهما فأخبرتهن أنهما من صَنعتي. ثم

---

(١) العرجي: هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، الشاعر الأموي الماجن، نسبة إلى العرج، موضع بين مكة والمدينة، وهو أقرب إلى المدينة بكثير جدًا.
(٢) أماطت: أبعدت وأذهبت وكشفت.
(٣) الخز: ضرب من الحرير.
(٤) حرّ وجهها: خالص وجهها.
(٥) البرد: الثوب.
(٦) المهلهل: الرقيق.
(٧) الخلّة: المرأة الخفيفة.
(٨) الشرف: ماء لبني كلاب. ويقال لباهلة.
(٩) المنحني والعقيق والجرف: أسماء مواضع بعينها.

اشتهرا حتى غُنّي الرشيدُ بهما يومًا فاستظرفهما، وسأل إسحٰق: هل تعرفهما؟ فقال: لا، وإنهما لمن أحسن الصنعة وجيِّدها ومُتْقَنها. ثم سأل الجاريةَ عنهما فوقفت خوفًا من عمّتي وحَذَرًا أن يبلُغ جدّي أنها ذكرتني؛ فانتهرها الرشيدُ فأخبرته القصّةَ؛ فوجّه من وقتِه فدعا بجَدِّي فقال له: يا فضلُ، أيكونُ لك ابنٌ يغنّي ثم يبلُغ في الغِناء المبلغَ الذي يمكنُه أن يصنعَ صوتين يستحسنُهما إسحٰقُ وسائرُ المغنين ويتداولُهما جواري القِيانِ[١] فلا تُعْلِمني بذلك، كأنك رفعت قدره عن خِدمتي في هذا الشأن! فقال له جدّي: وحقِّ ولائِك يا أميرَ المؤمنين ونعمتِك وإلا فأنا بريء من بيعتك وعليّ العهدُ والميثاقُ والعِتْقُ والطلاقُ إن كنتُ علمتُ بشيء من هذا قطُ إلا منك الساعة. فمن هذا مِنْ ولدي؟ قال: عبدُ اللهِ بنُ العباسِ هو، فأحضِرْنيه الساعة. فجاء جدّي وهو يكاد أن ينشقَّ غيظًا، فدعاني؛ فلما خرجتُ إليه شتمني وقال: يا كلب بلغ من أمرك أنك تجسُرِ على أن تتعلَّم الغِناءَ بغير إذني! ثم زاد ذلك حتى صنعت، ولم تَقنَعْ بهذا حتى ألقيتَ صنعتَك على الجواري في داري، ثم تجاوزهن إلى جواري الحارثِ بنِ بُسْخُنَّر، فاشتُهِرتَ، وبلغ أميرَ المؤمنين فتنكّر لي ولامني، وفضحت آباءَك في قبورهم وسقطتَ للأبد إلا من المغنِّين! فبكيتُ مما جرى عليّ وعلمتُ أنه صدَقني؛ فرحِمني وضمّني إليه وقال: قد صارت الآن مصيبتي في أبيك مصيبتين، إحداهما به وقد مضى وفات، والأخرى بك وهي موصولة بحياتي، ومصيبة باقية العارِ عليّ وعلى أهلي بعدي، وبكى وقال: عزّ عليّ يا بُنَيّ أنّي أراك أبدًا ما بقيت على غير ما أُحبّ؛ وليست لي في هذا الأمر حيلة لأنه أمرٌ قد خرج عن يدي. وقال: جئني بعود حتى أسمعُك وأنظر كيف أنت، فإن كنت تصلُح للخدمة في هذه الفضيحة وإلا جئتُ بك منفردًا وعرّفته خبرَك واسْتعفيتُه لك[٢]. فأتيتُ بعودٍ وغنّيتُه غِناءً قديمًا؛ فقال: لا، بل صوتيك اللذين صنعتَهما، فغنّيته إياهما، فاستحسنهما وبكى، ثم قال: بَطَلتَ واللهِ يا بنيّ وخاب أملي فيك. فواحزنا عليك وعلى أبيك! فقلت: ليتني مِتّ قبل ما أنكرته أو أُخرست! ومالي حيلة! لكني وحياتك يا سيِّدي ـ وإلا فعليّ عهد الله وميثاقه والعتق والطلاق وكل يمين يحلف بها حالف لازمة لي ـ لا غَنّيتُ أبدًا إلا لخليفة أو وليّ عهد. فقال: قد أحسنتَ فيما نَبهت[٣] عليه من هذا. فركب وأمَر بي فأُحضِرْتُ، ووقفتُ بين يدي الرشيد وأنا أُرْعَد؛ فاستدعاني واستدناني حتى صرتُ أقربَ الجماعة إليه، ومازحني وأقبل

---

(١) القيان: المغنيات.

(٢) استعفيته: طلبت العفو عن تكليفه.

(٣) نبهت عليه: فطنت وأدركت.

عليّ وسكنّ مني، وأمر جَدّي بالانصراف؛ وأومأ إلى الجماعة فحدّثوني وسُقِيت أقداحًا وغنّى المغنون جميعًا؛ وأومأ إليّ إسحٰق بعينِهِ أن أبدأ فغَنِّ إذا بلغت النوبة إليك قبل أن تُؤمرَ بذلك ليكونَ ذلك أملحَ وأجملَ بك. فلما جاءت النَّوْبةُ إليّ أخذتُ عودًا ممن كان إلى جنبي وقمتُ قائمًا واستأذنتُ في الغِناء؛ فضحِك الرشيدُ وقال: غَنّ جالسًا؛ فغنّيت لحني الأول، فطرِب واستعاده ثلاث مرّاتٍ وشرِب عليه ثلاثةَ أنصاف. ثم غنّيتُ الثاني فكانت هذه حاله، فسكِر ودعا بمسرورٍ وقال: احمل الساعةَ مع عبدِ اللهِ عشرةَ آلافِ دينارٍ وثلاثين ثوبًا مِن فاخر ثيابي وعيبةً[1] مملوءةً طِيبًا، فحُمل ذلك كله معي. قال عبدُ الله: ولم أزل كلما أراد وليُّ عهد أن يعلم مَنِ الخليفةُ بعدَ الخليفةِ هو أم غيرُه دعاني وأمرني أن أغنّي، فأُعرّفه يميني فيستأذن الخليفة في ذلك، فإن أذِن لي في الغناء علم أنه وليُّ عهدٍ وإلا عرَف أنه غيره، حتى كان آخرهم الواثق فدعاني في أيام المعتصم وسأله أن يأذَن لي في الغناء، فأذِن لي ثم دعاني من الغد فقال: ما كان غِناؤك إلّا سببًا لظهور سِرّي وأسرار الخلفاء قبلي! والله لقد هَمَمتُ أن آمرَ بضربِ رقبتِك! لا يبلُغني أنك امتنعت من الغناء عندَ أحد، فواللهِ لئن امتنعتَ لأضربَنّ عنقَك! فأعْتِقْ من كنتَ تملِكه يوم حلفت، وطلّق من كان عندك يومئذٍ، وأرِحنا من يمينك هذه المشؤومة. فقمت وأنا لا أعقِل جَزَعًا منه؛ فأعتقت جميعَ ما كان بقي عندي من مماليكي الذين حلفت يومئذٍ وهم في ملكي ثم تصدّقت بجملة، واستفتيت في يميني أبا يوسف القاضي[2] حتى خرجت منها؛ وغنّيت بعد ذلك إخواني جميعًا حتى اشتُهِر أمري، وبلغ المعتصمَ خبري فتخلّصتُ منه.

وروى أبو الفرج أيضًا عن الصُّوليّ[3] عن الحسينِ بنِ يحيىٰ قال: قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ العباس: إنه بلغني لك خبرٌ مع الرشيد أوّل ما شُهِرتَ بالغناء فحدّثني به؛

---

(١) العيبة: الزنبيل من أَدَم، وما تجعل فيه الثياب أو الطّيب، كالصندوق مثلًا.

(٢) أبو يوسف القاضي، يعقوب بن إبراهيم. وُلد في الكوفة ودرس على أبي حنيفة. تولّى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. وهو أول من أطلق عليه لقب قاضي القضاة. من مصنّفاته كتاب «الخراج» و«الردّ على سير الأوزاعي». مات سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. انظر: الفهرست، ص ٢٨٦.

(٣) ثمة صوليّان، أحدهما إبراهيم بن العباس، الشاعر والكاتب. كتب للمعتصم والواثق والمتوكل صاحب «ديوان الرسائل» و«الديوان الشعري». مات سنة ٨٥٧ م. والآخر أبو بكر، الأديب والشاعر، وصاحب «أخبار أبي تمام» و«أدب الكتاب» و«الأوراق». وليس هو المراد أعلاه، والله أعلم. مات هذا الأخير سنة ٩٤٦ م.

فقال: نعم! أوّل صوت صنعته: [من المتقارب]

أتـانـي يُـؤَامِـرنـي فـي الـصَّـبُـو ... ح[١] لـيـلًا فـقـلـتُ لـه غَـادِهـا[٢]

فلما دار لي وضربت عليه بالكنكلة، عرضتُه على جاريةٍ لنا يقال لها راحةُ، فاستحسنَتْه، وأخذتْه عني. وكانت تختلفُ إلى إبراهيمَ الموصلي، فسمعها يومًا تغنّيه وتناغي به جاريةً مِن جواريه، فاستعادها إياه فأعادته؛ فقالت: لمن هذا الصوت؟ قالت: صوتٌ قديم. قال: كذبتِ، لو كان قديمًا لعرفتُه. وما زال يداريها ويتغاضبُ عليها حتى اعترفت له أنه من صنعتي، فعجِب من ذلك. ثم غناه يومًا بحضرة الرشيدِ ليُغرِبَ به على المغنّين؛ فاستحسنه الرشيدُ، فقال له: لمن هذا يا إبراهيم؟ فأمسك عن الجواب وخشِي أن يكذِبه فينمِي إليه الخبر من غيره، وخاف من جدّي إن يصدُقْه؛ فقال له: ما لك لا تجيبني؟ قال: ما يمكنُني يا أميرَ المؤمنين. فاستراب[٣] بالقصّة، فأقسم الرشيدُ أنه إن لم يعرّفه عاقَبَه عقوبةً تُوجعه، وتوهّم أنه لعُلَيّة بنتِ المهديّ أو لبعضِ حُرَمِهِ فأستُطِير غضبًا. فلما رأى إبراهيمُ الحدُّ منه صدَقه فيما بينه وبينه سرًّا. فدعا لوقته بالفضلِ بنِ الربيعِ وقال له: أيصنعُ ولدُك غناءً يرويه الناسُ ولا تعرّفني! فجزِع وحلف بحياتِهِ وبيعتِهِ أنه ما عرَف ذلك قطُ ولا سمع به إلا في وقته ذلك. وساق باقي الخبرِ نحوَ ما تقدّم.

قال عبدُ اللهِ بنُ العباس: دخل محمدُ بنُ عبد الملكِ الزياتُ[٤] على الواثقِ وأنا بين يديه أُغنّيه وقد استعادني صوتًا فأعدته، فاستحسنه محمدُ بنُ عبد الملك وقال: هذا واللهِ يا أميرَ المؤمنين أولى الناسِ بإقبالِك عليه وإصغائِك إليه؛ فقال: أجل! هذا واللهِ مولاي وابنُ مواليّ لا يعرِفون غير ذلك. فقال: ليس كل مولى يا أمير المؤمنين مولى لمواليه، ولا كلَ مولى يُتَحَمَّل بولائِه يجمعُ ما جمعه عبدُ اللهِ من ظَرْفٍ وأدبٍ وصحّةٍ وفضلِ علمٍ وجودةِ شعر. فقال له: صدَقتَ يا محمدُ. فلما كان من الغد جئتُ محمدَ بنَ عبد المَلك شاكرًا لحسنِ مَحْضَره، فقلت في أضعاف كلامي: وأفرط الوزير، أعزّه الله تعالى، في وصفي وتقريظي[٥] بكل شيء حتى وصفني بجودة

---

(١) الصبوح: خمرة الصباح. (٢) غادها: ائتها غدوة.
(٣) استراب: وقع في الريبة والظّنّ.
(٤) محمد بن عبد الملك الزيات: وزير الخليفة العباسي المعتصم، ثم وزير الواثق من بعده، ثم وزير المتوكل، فقتله المتوكل بعد أربعين يومًا من خلافته، وذلك سنة ٢٤٧ هـ. التنبيه والإشراف، ص ٣١٣.
(٥) تقريظي: مدحي وإظهار محاسني.

الشعر، وليس ذلك عندي، وإنما أعبثُ بالبيتين والثلاثة. ولو كان عندي أيضًا شيء من ذلك لصَغُر عن أن يصفه الوزيرُ ويحكيَه في هذا المجلس الرفيع المشهور. فقال: والله يا أخي لو عرفتَ مقدارَ قولك: [من المجتث]

يـا شـادنًـا[(١)] رام إذ مـرّ في الشعانين[(٢)] قتلي
يقول لي: كيف أصبحت؟ كيف يُصبِح مِثلِي

لَمَا قلتَ هذا القول. والله لو لم يكن لك شعر في عمرِك إلا قولُك: «كيف يصبحُ مثلي» لكنت شاعرًا مُجيدًا. وهذا الشعر قاله عبدُ اللهِ بنِ العباسِ في نصرانيةٍ كان يهواها ولا يصلُ إليها إلا إذا خرجت إلى البِيعة. وله معها أخبار وأشعارٌ له فيها أصوات. منها قوله: [من الرمل]

إنّ فِي القلبِ مِن الظَّبْيِ كُلومْ[(٣)] فـدَعِ اللّومَ فإنّ اللّوْمَ لَومْ
حبذا يومُ الشّعانِينِ وما نِلتُ فيه من نعيم لو يدوم
إن أكن أعظمتُ أنْ هِمتُ به فالذي تركب من عَذْلِي[(٤)] عظيمْ
لم أكن أوّل مَنْ سنّ[(٥)] الهوى فدَعِ العَذْل فذا داءٌ قدِيمْ

وروى أبو الفرج بسنده إلى محمدِ بنِ جُبَيْرٍ قال: كنا عندَ أبي عيسى بنِ الرشيدِ في زمنِ ربيع وعندَنا مُخارق وعلّويه وعبد الله بن العباس الربيعيّ وعبد الله بن الحارث بن بُسْخُنَّر ونحن مصطبحون[(٦)] في طارمة[(٧)] مضروبةٍ على بستانِه وقد تَفتّح فيه وردٌ وياسَمينٌ وشقائقُ والسماءُ متغيّمة غيمًا مطبقًا وقد بدأت تَرُشّ رشًا ساكبًا، فنحن في أكمل نشاطٍ وأحسن يوم، إذ خرجت قَيِّمةُ دار أبي عيسى فقالت: يا سيِّدي، قد جاءت عَسَاليج؛ قال: تخرجُ إلينا فليس بحضرتنا من تحتشمه. قال: فخرجت إلينا جاريةٌ شَكِلةٌ حُلْوةٌ حسنةُ العقلِ والهيئةِ والأدبِ في يدها عودٌ فسلّمت، وأمرها أبو عيسى بالجلوسِ فجلست. وغنّى القومُ حتى انتهى الدّورُ إليها، وظنّنا أنها لا تصنعُ شيئًا وخِفْنا أن تهابنَا فتَحْصَر، فغنّت غناءً حسنًا مُطرِبًا مُتْقَنًا، لم تدع أحدًا ممن حضر

(١) الشادن: ولد الظبي أو هو الظبي الذي شدن واستوى.
(٢) يوم الشعانين: عيد للنصارى يسبق عيد الفصح في أوائل الربيع.
(٣) الكلوم: الجروح.
(٤) عذلي: لومي.
(٥) سنّ: شرّع.
(٦) مصطبحون: نتناول أو نعاقر خمرة الصباح.
(٧) الطارمة: خصّ من خشب كالعرزال.

إلا غنّت صوتًا مِن صَنْعته فأدّته على غايةِ الإحكام؛ فطربنا واستحسنّا غناءها وخاطبناها بالاستحسانِ؛ وألح عبدُ اللهِ بنُ العباسِ مِن بينِنا بالاقتراحِ عليها والمِزاح معها والنظرِ إليها. فقال أبو عيسى: عَشِقْتَها وحياتي يا عبد الله! فقال: لا والله يا سيّدي وحياتِك ما عشِقتُها، ولكن استملحت كلّ ما شاهدتُه منها من مَنْظَر وشَكْل وعقلٍ وعشرةٍ وغناء. فقال له: ويحك! فهذا واللهِ هو العشقُ وسببُه. ورُبَّ جدٍّ جرّه اللعب. قال: وشربنا؛ فلما غلب النبيذُ على عبدِ اللهِ غنّى أهزاجًا قديمة وحديثةً، وغنّى فيما بينها هزجًا في شعر قاله فيها لوقته، فما فطِن له إلا أبو عيسى، وهو: [من الرمل]

نطق المكتومُ[1] منّي فبَدَا	كم ترى المكتومَ منّي لا يَضِح[2]
سحرُ عينيك إذا ما رَنَتَا[3]	لم يدع ذا صَبْوةٍ[4] أو يفتضح
ملكتْ قلبًا فأمسى غَلِقًا[5]	عندها صبًّا[6] بها لم يسترح
بجمالٍ وغناءٍ حَسَنٍ	جلّ عن أن ينتقيه المقترح
أوْرَثَ القلب همومًا ولقد	كنتُ مسرورًا بمرآه فَرِح
ولكم مُغْتَبِقٍ[7] همًّا وقد	باكر اللهوَ بُكُورَ المُصْطَبِح

فقال له أبو عيسى: فعلتَها واللهِ يا عبدَ اللهِ، صح واللهِ قولي لك في عساليج وأنت تُكابرُ حتى فضَحَك السُّكْر. فجحد وقال: هذا غناءٌ كنت أرويه. فحلف أبو عيسى أنه ما قاله وما غنّاه إلا في يومه؛ وقال له: احلف بحياتي أنّ الأمر ليس هو كذلك! فلم يفعل. فقال أبو عيسى: والله لو كانت لي لوهبتُها لك، ولكنها لآل يحيىٰ بنِ معاذٍ، ووالله إن باعوها لأُمَلّكنّك إياها ولو بكل ما أملك! ووحياتي لَتَنْصَرِفَنّ قبلَك إلى منزلك. ثم دعا بحافظتِها وخادمًا مِن خدمِه فوجّه بها معهما إلى منزله. والتوى عبدُ الله قليلًا وتجلّد ثم انصرف. واتصل الأمرُ بينهما بعدَ ذلك فاشترتها عمته رُقَيّةُ بنتُ الفضلِ بنِ الربيعِ مِن آل يحيىٰ بن معاذ، وكانت عندَهم حتى ماتت. قال: وقالت بذلٌ الكبيرة لعبدَ الله بن العباس[8]: قد بلغني أنك عشِقتَ جارية اسمُها

(١) المكتوم: المستور، والمخبّأ.
(٢) يضح: يظهر.
(٣) رنتا: نظرتا.
(٤) الصبوة: العشق والميل إلى الهوى.
(٥) الغلق: المغلق والمعلّق.
(٦) صبًّا: ميّالًا إلى الهوى.
(٧) المغتبق: من يعاقر خمرة المساء، وخلافه المصطبح.
(٨) هو عبد الله بن العباس بن محمد، أبو الفضل الهاشمي، الأمير العباسي الذي تولّى لأخيه=

عساليجُ، فاعرِضْها عليّ، فإما أن عذرتُك أو عَذَلتُك؛ فوجّه إليها فحضرت، وقال لبذل: هذه هي يا سيِّدتي، فاسمعي وانظري ثم مُرِيني بما شئتِ أُطِعْك. فأقبلت عليه عساليجُ وقالت: يا عبدَ اللهِ، أتشاورُ فيّ! فوالله ما شاورت فيك لَمّا صحِبتك. فقالت بذلٌ: أحسنتِ والله يا صبيّة! ولو لم تُحسني شيئًا ولا كانت فيك خَصلة تُحمد لوجب أن تُعْشَقي لهذه الكلمة. ثم قالت لعبدِ الله: ما ضيّعت، احتفظ بصاحبتك هذه.

وقال حمدون بنُ إسماعيلَ: دخلتُ يومًا على عبدِ اللهِ بن العباسِ الربيعيّ وخادمٌ له يسقيه، وبيده عودٌ وهو يغنّي: [من المجتث]

إذا اصطبحتُ[1] ثلاثًا … وكان عودي نَديمي[2]
والكأس تضحَك ضِحكًا … من كفّ ظبيٍ رخيمِ[3]
فما عليّ طريقٌ … لطارقاتِ الهمومِ[4]

فما رأيتُ أحسنَ مما حكى حالَه في غنائِه ولا سمعت أحسنَ مما غنّى. ومن صنعتِهِ وشعره قوله: [من مجزوء الرمل]

صدَعَ[5] البينُ الفؤادا … إذ به الصائحُ نادَى
بينما الأحبابُ مجمو … عون إذ صاروا فُرَادَى
فأتى بعضٌ بلادًا … وأتى بعضٌ بِلادا
كلما قلت تَنَاهَى … حَدَثانُ الدّهرِ[6] زادا

ذِكْرُ أخبار وجه القَرْعة

هو أبو جعفر محمدَ بنُ حمزةَ بنِ نصيرٍ الوصيفِ مولى المنصورِ، ويُلَقَّب وجهَ القَرْعة، أحد المغنِّين الحُذّاق الضُّرّاب الرواة. أخذ الغناءَ عن إبراهيمَ الموصليّ وطبقته. وكان حسنَ الأداء طيِّب الصَوت لا علّةَ فيه، إلا أنه كان إذا غنّى الهزجَ

= المنصور دمشق. وولي الجزيرة أيام الرشيد.
(١) اصطبحت: شربت الخمرة في الصباح. (٢) نديمي: رفيقي في الشراب.
(٣) رخيم: ناعم.
(٤) طارقات الهموم: صروف الدهر التي تأتي ليلًا.
(٥) صدع: شقّ وجرح. (٦) حدثان الدهر: صروفه وأحداثه.

خاصّة خرج لا لسببٍ يُعْرَفُ، إلا أنه إن تعرّض للحنين في جِنسٍ من الأجناس فلا يصحُّ له البتة.

وروى أبو الفرج بسنده عن محمدِ الهاشميّ أنه شهدَ إسحٰق بنَ إبراهيمَ الموصليّ عند عمّه هارونَ بنِ عيسى وعنده محمدُ بنُ الحسنِ بنِ مصعبٍ، قال: فأتانا محمد بن حمزةَ وجهُ القَرْعة، وكان شرِسَ الأخلاقِ أبيَّ النفس، وكان إذا سُئل الغناءَ أباه، فإذا أُمسِك عنه كان هو المبتدىء به؛ فأمسكنا عنه حتى طلب العود فأُتِي به فغنّى: [من مجزوء الرمل]

مَـرّ بـي سِـرْبُ ظِـبـاءِ ... رائـحـاتٍ مـن قُـبَـاءِ
زُمَـرًا نـحـو الـمُـصَـلّى ... يـتـمـشّـيـنَ حِـذَائـي
فـتـجـاسـرتُ وألـقـيـ ... ـتُ سـرابـيـلَ الـحـيـاءِ
وقـديـمًـا كـان لَهْـوِي ... وفـنـونـي بـالـنـسـاءِ[١]

قال: وكان يُحسنُه ويُجيده، فجعل إسحٰقُ يشربُ ويستعيدُه حتى شرِب ثلاثة أرطال، ثم قال: أحسنتَ يا غلام! هذا الغناء لي وأنت تتقدّمني فيه! ولا يَخْلُق الغناء ما دام مثلك ينشأ فيه.

وقال أيضًا: كنا في البستان المعروفِ ببستانِ خالصٍ النصرانيّ ببغدادَ، ومعنا محمد بنُ حمزةَ وجه القَرْعة وهو يغنينا: [من مجزوء الكامل]

يـا دارُ أقـفَـرَ رَسْـمُـهـا ... بين المُحَصَّب والحَجُونِ
يـا بِـشْـرُ إنـي فـاْعـلَمِـي ... والله مـجـتـهِـدًا يـمـيـنـي
مـا إن صـرمـتُ حـبـالَـكـم ... فصِلي حِبالي أو ذَرِيني[٢]

(١) السرب: الجماعة. ورائحات: ذاهبات مساءً. وقباء: اسم بئر في المدينة المنوّرة. وعندها كان قرية، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار. وهي على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، وبها مسجد التقوى ومسجد ضرار. وزمرًا: جماعات. وحذائي: مقابلي. وتجاسرت: تجرّأت. وسرابيل: ثياب. والأبيات لعمر بن أبي ربيعة المخزومي. انظر الأبيات في: ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ١٤.

(٢) أقفر: خلا. ورسمها: أثرها، والمحصب: مكان التحصيب، أي الرمي بالحجارة، في منى. والحجون: جبل بأعلى مكة، عليه سقيفة آل زياد بن عبيد الله الحارثي. وبالقرب منه مسجد البيعة على شِعب الجزارين. وصرمت: قطعت وجذمت. وذريني: اتركيني.

فإذا برجل راكب على حمار يؤُمُّنا وهو يصيح: أحسنت والله! فقلنا: اصعَدْ إلينا كائنًا من كنت؛ فصعِد وقال: لو منعتموني من الصعود لما امتنعت؛ ثم سَفَر اللثامَ عن وجههِ فإذا هو مُخارق. فقال: يا أبا جعفر، أعِد عليّ صوتك فأعاده، وشرب رطلًا من شرابنا وقال: لولا أني مدعوّ الخليفة لأقمت عندكم واستمعت هذا الغناء الذي هو أحسنُ من النزْهة غِبَّ[1] المطر.

وله مع إسحٰقَ بنِ إبراهيمَ ومخارق أخبارٌ شهدا له فيها بحسنِ الصنعةِ؛ وكفاه ذلك فضلًا في صناعته.

ذِكر أخبار محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر

قال أبو الفرجِ الأصفهاني: هو مِن أهلِ الرَّيِّ[2]، مولى المنصورِ، من ولدِ بَهْرامَ شوبينَ مَرْزُبانِ الريّ. قال: وهو مرتجلٌ قليلُ الصَّنعةِ حسنُ الغناءِ والنغم بقوّة وشجًا واقتدارِ شديدٍ على الغِناء، وكان في زمانه أحدَ المعدودين في حسنِ الأدبِ وتمام المروءةِ وحُسنِ الزِّيِّ والآلة، وكان عظيمَ التِّيهِ رفيعَ الهمةِ، وكانت له منزلةٌ عندَ المأمون. قال محمدُ بنُ الحارث: كنتُ معَ المأمونِ وهو يريدُ بلادَ الرومِ ومعه عدّةٌ من المغنّين، فجلس يومًا والمعتصمُ والعباسُ معه من حيثُ لا نراهم وهم يسمعون غناءنا؛ فغنّى المغنُّون جميعًا وغنيتُ هَزَجًا لإسماعيلَ بنِ جامعٍ، فبعث إليّ المأمونُ بأصل شاهشفرم[3] وقد لُفّ أصلُه بمنديلِ حريرٍ؛ فجاءني به الغلامُ وقال: أعِدِ الصوتَ؛ فأخذته وشممتُه ووثبتُ فأعدتُه قائمًا، ووضعت الأصلَ بينَ يدي وشربت رطلًا وقلتُ للمغنّين: حكم لي أميرُ المؤمنين بالحِذْق والغِناء. فقالوا: وكيف؟ قلت: دفع إليّ لواءَ الغناءِ من بينِكم. فقالوا: ليس كما ذكرتَ، ولكن حيّاك إذ أطربته، والرسولُ قائمٌ فانصرف بالخبرِ، فما لبث أن رجع إليّ فقال: هو كما ذكرت.

قال أبو العَنْبَسِ بنُ حمدون: كان محمدُ بنُ الحارثِ أحسنَ خلقِ الله شمائلَ[4] وإشارةً إذا غنّى. وقال أحمد بن حمدون: صنع محمد بنُ الحارث هزجًا في هذا

---

(١) غبّ: بعد.

(٢) الريّ: مدينة مشهورة قديمة، من أمهات البلاد وأعلام المدن، بين قزوين ونيسابور، بإيران. خربت أيام التتار. وكان فتحها المسلمون سنة ١٩ هـ. جدّد بناءها القديم الخليفة المهدي، وبنى فيها مسجدًا جامعًا. إليها ينسب كثير من العلماء والفقهاء. انظر: معجم البلدان ٣/١١٦ ـ ١٢١.

(٣) شاهشفرم: ضرب من النبات العطري، واللفظة أعجمية.

(٤) الشمائل: جمع شميلة، وهي الطباع والأخلاق الحسنة.

الشعر: [من مجزوء الكامل]

أمسَيْتُ عبدًا مُسترَقًا[١] أبكِي الأُلى[٢] سكنوا دِمَشْقا

أعطيتُهم قلبي فمَنْ يبقَى بلا قلبٍ فأبقى!

وطرحه على المسدود الطُّنبوريّ فوقع له موقعًا حسنًا؛ واستحسنه محمدٌ منه فقال: أتحبُّ أن أهَبَه لك؟ قال: نعم؛ قال: قد فعلت. فكان المسدود يُغَنِّيه ويدّعيه، وإنما هو لمحمدِ بنِ الحارث.

قال محمد: لمّا قدِم المأمونُ من خُراسانَ لم يَشتَقْ مغنّيًا بمدينة السلام[٣] غيري. فبعث إليّ فكنت أُنادمُه سرًّا، ولم يظهر للندماء حتى ظفِر بإبراهيمَ بنِ المهديّ؛ فلما عفا عنه ظهر للندماء.

ولمحمد بنِ الحارثِ شعرٌ، منه قوله: [من الطويل]

ومن ظنّ أنّ التِّيهَ[٤] من فضلِ قَدْرِهِ فإني رأيت التيهَ من صِغَر القَدْرِ

ولو كان ذا عزٍّ ونفسٍ أبيّةٍ لغَضَّ[٥] الغنى منه وعزّ عن الفقرِ

رأى نفسَه لا تَستقِلُّ بحقِّها فتَاهَ لنقصِ النفس أو قلّةِ الشُكر

ذِكْر أخبار أحمد بن صَدَقة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: هو أحمد بنُ صدقةَ بنِ أبي صدقة. كان أبوه حجازيًّا مغنّيًا، قدِم على الرشيد وغنَّى له. وقد ذكرنا أخباره في النوادر من كتابنا هذا، فلا حاجة بنا إلى إعادتها. وكان أحمد طُنبوريًا[٦] مُحسِنًا مُقدَّمًا حاذِقًا حسَنَ الغِناء مُحْكم الصَّنعة. قال: وله غناء كثير في الأرمال والأهزاج وما يجري مجراها من غناء الطُّنبوريّين. وكان ينزل الشأم. ووُصِف للمتوكل فأمر بإحضاره، فقدِم عليه فغنّاه، فاستحسن غناءه وأجزل صِلتَه. واشتهاه الناس وكثُر من يدعوه؛ فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافًا.

(١) مسترقًّا: مملوكًا. (٢) الأولى: الذين.
(٣) مدينة السلام، هي بغداد، أطلق عليها هذا الاسم أيام المنصور العباسي، وهو الخليفة الذي أمر ببنائها سنة ١٤٤ هـ.
(٤) التيه: الكبر. (٥) غضّ: انتقص وعاب.
(٦) طنبوريًا: نسبةً إلى الطنبور، الآلة الموسيقية التي تشبه العود.

وروى أبو الفرج عن أحمدَ بنِ صدقةَ قال: اجتزت بخالدِ بنِ يزيدَ الكاتب[١]، فقلت له: أنشِدْني بيتين من شعرك حتى أغنّي فيهما. فقال: وأيّ حظٍّ لي في ذلك! تأخذ أنت الجائزةَ وأحصُل أنا على الإثم! فحلفت أني إن أخذت بشعره فائدة جعلت له فيها حظًا، وأذكرت به الخليفةَ وسألتُه فيه. فقال: أمّا الحظُّ من جهتك فأنت أنذلُ من ذلك. ولكن عسى أن تُفْلِحَ في مسألة الخليفة؛ وأنشدني: [من المتقارب]

تقول سَلَا[٢]، فَمنِ المُدْنَفُ[٣] ومَـنْ عـيـنُـه أبـدًا تَـذْرِف!

ومَـنْ قـلبُـه قَـلِقٌ خـافـقٌ عـلـيـك وأحـشـاؤه تَـرْجُـف!

فلما جلس المأمون للشرب دعاني، وكان قد غضِب على حظِيّةٍ[٤] له، فحضرتُ مع المغنّين. فلما طابت نفسُه وَجّهتْ إليه بتُفّاحةٍ من عَنْبَرٍ عليها مكتوبٌ بالذهب: «يا سيِّدي سلوت»، وما علِم الله أني عرفت شيئًا مِن خبرهما. وانتهى الدَّورُ إليّ فغنّيت البيتين؛ فاحمرّ وجهُ المأمونِ وانقلبت عيناه وقال: يا ابنَ الفاعلةِ، لك عليّ وعلى حُرَمي صاحب خبر! فوثبت وقلت: يا سيّدي، ما السبب؟ قال: من أين عرفتَ قِصّتي مع جاريتي حتى غنّيت في معنى ما بيننا؟ فحلفت أني لم أعرف شيئًا من ذلك، وحدّثته بحديثي مع خالد، فلما انتهيت إلى قوله: «أنت أنذل من ذلك» ضحك وقال: صدَق، وعجِب من هذا الاتّفاق؛ وأمر لي بخمسة آلاف درهم ولخالد بمثلها.

وروى عنه أيضًا قال: دخلت على المأمون في يوم الشعانين[٥] وبين يديه عشرون وصيفةً[٦] جَلَبٌ[٧] روميّات مُزَنَّرات قد تزيّنّ بالديباج[٨] الروميّ، وعلّقن في

---

(١) خالد بن يزيد: الكاتب المتوفّى سنة ٨٧٦ م. من الكتّاب والشعراء، في غزله رقة وحلاوة. خراساني الأصل. عاش في بغداد. كان في خدمة المعتصم، وكتب في ديوان الجند. له ديوان شعر.

(٢) سلا: نسي وتلهّى.

(٣) المدنف: المريض الذي ثقل عليه مرضه ودنا من الموت. وهنا، صفة للمحب العاشق.

(٤) الحظيّة: السرّية المكرّمة من النساء، عند أمير أو ملك.

(٥) يوم الشعانين: هو اليوم الواقع في آخر نهار أحد يسبق عيد الفصح عند النصارى، وفيه يزيّنون ويفرحون ويسيرون في المواكب.

(٦) الوصيفة: الخادمة.

(٧) جلب: أُتي بهنّ من الخارج.

(٨) الديباج: الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير الخالص. واللفظة فارسية، ثم عرّبت.

أعناقهن صُلبانًا من الذهب، وفي أيديهن الخوصُ[١] والزيتون. فقال لي المأمون: ويلك يا أحمد! قد قلتُ في هؤلاء أبياتًا فغَنِّ بها، ثم أنشدني: [من الهزج]

ظِباءٌ كالدّنانيرِ ... مِلَاحٌ في المقاصيرِ[٢]
جلاهنّ الشَّعانِينُ ... علينا في الزَّنانِيرِ[٣]
وقد زَرْفَنَّ[٤] أصداغًا[٥] ... كأذنابِ الزرازيرِ[٦]
وأقبلْنَ بأوساطٍ[٧] ... كأوساط الزّنابيرِ[٨]

فحفظتُه وغنّيتُه؛ فلم يزل يشربُ والوصائفُ يرقُصن بين يديه بأنواعِ الرقص من الدّسْتَبَنْدَا[٩] إلى الإيليّ[١٠] حتى سكر، وأمر لي بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار، فقبضت الألف ونُثِرتْ ثلاثةُ آلاف الدينار فانتهبتُها معهنّ.

قال: ولم يزل أحمدُ بالعراق حتى بلغه موتُ بُنَيَّةٍ له بالشأم، فشخص نحو منزله، وخرج عليه الأعرابُ فأخذوا ما معه وقتلوه.

ذِكْر أخبار أبي حَشِيشة

قال أبو الفرج: أبو حشيشة لَقَب غلب عليه، وهو محمدُ بنُ أبي أميّةَ، ويكنّى أبا جعفر. وكان أهله جميعًا متّصلين بإبراهيم بن المهديّ، وكان هو من بينهم يغنّي بالطُّنبور أحسنَ الناس غناء. وخدم جماعةً من الخلفاءِ، أوّلهم المأمونُ ومن بعدِه إلى المعتمد[١١]. قال: وكان أكثر انقطاعه إلى أبي أحمد بن الرشيد أيامَ حياته. وكان أبوه وجَدُّه وأخواله كُتَّابًا.

---

(١) الخوص: ورق النخل.
(٢) المقاصير: جمع مقصورة، وهي الردهة والحجرة في المنزل.
(٣) الزنانير: جمع زنّار، وهو الحزام، يزنّر به الخصر.
(٤) زرفنّ: جعلن كالزرفين، وهو حلقة الباب.
(٥) أصداغًا: جمع صدغ، وهو الشعر المتدلّي على ما بين العين والأذن من الوجه.
(٦) الزرازير: جمع زرزور، وهو طائر معروف.
(٧) الأوساط: جمع وسط، كناية عن الخصر.
(٨) الزنابير: جمع زنبور، وهو ضرب من الحشرات تشبه النّحل.
(٩) الدستبندا: ضرب من الرقص، واللفظة فارسية.
(١٠) الإيلي: ضرب من الرقص.
(١١) المعتمد على الله: أحمد بن المتوكل، الخليفة العباسي الخامس عشر. حارب البيزنطيين وانتصر=

قال أحمدُ بنُ جعفر جحظةُ[١] في ترجمة أبي حشيشة: وكان له صنعةٌ تقدّم فيها كلَّ طُنبوريٍّ لا أُحاشي أحدًا في ذلك. قال: فمنها: [من الطويل]

كأنّ همومَ الناسِ في الأرض كلِّها ... عليّ وقلبي بينهم قلبُ واحدِ
ولي شاهدَا عدلٍ سُهَادٌ[٢] وعَبْرةٌ[٣] ... وكم مُدَّعٍ للحبّ من غير شاهدِ

قال جحظة: ورأيته بين يديّ المعتمدِ على اللهِ وقد غنّاه من شعر عليّ بنِ محمد بن نصر: [من المجتث]:

حُرِمتُ بَذْل نوالِكْ[٤] ... واسَوْءتَا[٥] من فِعالكْ!
لمّا ملكتَ وِصالي ... آيستني[٦] من وِصالِكْ

فوهب له مائتي دينار. قال: وغنّى يومًا عندَ ابنِ المدبّر بحضرة عَريب؛ فقالت له: أحسنتَ يا أبا جعفر! ولو عاش الشيخان ما قلتُ لهما هذا (تعني علّويه ومُخَارقا).

وقال أبو الفرج: إنّ أبا حشيشةَ ألّف كتابًا جمع فيه أخبارَه مع مَن عاشر وخدم من الخلفاء؛ قال: وهو تاب مشهور. قال: أوّل من سمعني من الخلفاء المأمون، وصَفَني له مُخارق، فأمر بإشخاصي إليه، وأمر لي بألف درهم أتجهّز بها. فلما وصلت إليه أدناني وأُعجب بي؛ وقال للمعتصم: هذا أثر خَدَمك وخَدَم آبائك وأجدادك يا أبا إسحٰق. وذكر ما كان يشتهيه عليه كلُّ خليفة، فقال: كان المأمون يشتهي من غِنائي: [من الرمل]

كان يَنْهَى فَنُهِي حتى سلا ... وانجلتْ عنه غَبَاياتُ[٧] الصِّبا[٨]

= على الزنج بفضل قيادة أخيه الموفق. أعاد العاصمة إلى بغداد. توفي مسمومًا سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٨.

(١) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيىٰ البرمكي، الملقب بجحظة، صاحب الألحان والغناء والنوادر، والنجومي والظريف، والشاعر صاحب الأبيات السائرة. تُوفي بواسط، ثم حمل تابوته إلى بغداد وذلك سنة ٣٢٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) السهاد: الأرق وعدم النوم.

(٣) العبرة: الدمعة.

(٤) البذل والنوال: العطاء والجود.

(٥) واسوءتا: للتعجب من كثرة سوئه.

(٦) آيستني: جعلتني أيأس.

(٧) غبايات: جمع غباية وغباوة، وهي الجهل وقلّة الفطنة.

(٨) الصبا: الشوق، وسن الفتوّة.

خَلع اللهوَ وأضحى مُسْبِلًا[١] للنُّهى[٢] فضلَ قميصٍ وردَا[٣]

قال: وكان المعتصم يشتهي عليّ: [من مجزوء الكامل]

أسْرَفْتَ في سُوءِ الصَّنيعِ وفَتكْتَ[٤] بي فَتْكَ الخَليعِ[٥]
ووَلِعتَ[٦] بي متمرّدًا والعُذْرُ في طَرْق الوَلُوعِ
صَيّرتُ حبَّك شافعًا فأُتِيتُ من قِبَلِ الشَّفِيعِ

قال: وكان الواثق يختار من غِنائي: [من مجزوء الكامل]

يا تارِكي مُتَلَذِّذَ الـ ـعُذَّالِ[٧] جَذْلانَ[٨] العُداةِ
انْظُرْ إليّ بعينِ را ضٍ نظرةً قبل المماتِ
خَلَّيتَني بين الوعيـ ـدِ وبين ألسِنَةِ الوُشاةِ![٩]
ماذا يُرَجّي بالحيا ةِ مُنَغَّصٌ[١٠] رُوحَ الحياةِ!

قال: وكان المتوكل يحبّني ويستخفُّني، وكانت أغانيه التي يشتهيها عليّ كثيرة. منها: [من المتقارب]

أطعتَ الهوى وخَلَعتَ العِذَارَا[١١] وباكرتَ بعد المراح[١٢] العُقَارَا[١٣]
ونازعك الكأسَ من هاشمٍ كريمٌ يُحِبُّ عليها الوَقارا
فتًى فرّق الحمدُ أموالَه يَجُرُّ القميصَ ويُرْخِي الإزارا[١٤]
رأى اللهُ جعفرَ[١٥] خيرَ الأنامِ[١٦] فملَّكه ووَقاهُ الحِذارا

---

(١) مسبلًا: مرخيًا.
(٢) النهى: العقل.
(٣) الردا: الرداء، حذف منه الهمزة.
(٤) فتكت بي: بطشت بي، وقتلتني.
(٥) الخليع: المتهتك الماجن.
(٦) ولعت: شغفت.
(٧) العذّال: جمع عاذل، وهو اللائم.
(٨) جذلان: مسرور وفرح.
(٩) الوشاة: جمع واشٍ، وهو الساعي بين الآخرين بالنميمة والكذب.
(١٠) منغّص: مكدّر.
(١١) العذار: الحياء.
(١٢) المراح: الفرح والبطر والاختيال وشدة النشاط.
(١٣) العقار: الخمرة.
(١٤) الإزار: ما يؤتزر به من الثياب وغيره.
(١٥) جعفر: اسم الخليفة المتوكل.
(١٦) الأنام: الناس.

قال: وكان المستعينُ[١] يشتهي عليّ: [من المتقارب]

وما أنسَ لا أنسَ منها الخُشوع ... وفَيْضَ الدّموع وغَمْزَ[٢] اليدِ
وخَدّي مُضافٌ إلى خَدّها ... قيامًا إلى الصبحِ لم نَرْقُدِ[٣]

قال: واشتهى عليّ المعتمد: [من مجزوء الكامل]

قلبي يُحِبُّكِ يا مُنَى ... قلبي ويُبْغِضُ مَن يُحِبُّكْ
لأكونَ فردًا في هوا ... كِ، فليت شعري كيف قلبُكْ؟

قال جحظة: وكانت وفاة أبي حشيشةَ بسُرّ مَن رأى[٤]. وسببُها أنه اصطبح عندَ قَلَم غلام الفضل بن كَاوُش في يوم بارد؛ فقال له: أنا لا آكل إلا طعامًا حارًّا، فأتاه بفُجْليّة باردة وقال: تُساعدني وتأكل معي، فأكل منها فخمِد قلبُه فمات.

ذِكْر أخبار القيان وأوّل مَن غنّى من النساء ومَن اشتهر بالغناء منهنّ في الإسلام

قالوا: أوّل من غنّى الغناء العربيّ جَرَادَتا ابنِ جُدْعان. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: قال ابنُ الكلبي[٥]: كان لابنِ جُدْعانَ أمتان يُسَمَّيان الجرادتين يُغَنِّيان في الجاهليّة، وسمّاهما جرادتيّ عباد؛ ووهبهما عبدُ الله بن جُدْعان لأُمَيّة بن أبي الصَّلْت[٦] الثَّقَفيّ وكان قد امتدحه. وابن جُدْعان هو عبدُ اللهِ بنُ جدعانَ بنِ عمرو بنِ كعبِ بنِ سعد بن تيم بنِ مُرّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالب. كان سَيِّدًا جوّادًا؛ فرأى

(١) المستعين بالله: أحمد بن محمد بن المعتصم، الخليفة العباسي الثاني عشر، تسلّم مقاليد الخلافة بعد وفاة المنتصر، ثم قتله الأتراك وولّوا المعتز بعده. وذلك في سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٥.

(٢) غمز اليد: جسّها. (٣) نرقد: ننام.

(٤) سُرّ من رأى: هي مدينة سامرّاه بالعراق إلى الشمال من بغداد. أمر ببنائها الخليفة العباسي المعتصم، ثم نقل إليها عاصمة الخلافة. فيها مسجد الملويّة المشهور.

(٥) ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السايب الكلبي، العالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها، وصاحب المصنّفات البديعة وأهمها: المناظرات، وبيوتات قريش، والكنى، وألقاب قريش، والأنساب، والمعمّرون، والخيل، ومنطق الطير، والأصنام، وهذا الأخير أهمها. تُوفي سنة ٧٦٣ م. انظر: الفهرست، ص ١٤٠ ـ ١٤٣.

(٦) أمية بن أبي الصلت: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، من ثقيف خاصة، نبذ الدنيا ولبس المسوح تعبّدًا ولم يؤمن بعبادة الأوثان والأصنام. انظر ترجمة حياته مفصّلة في: الأعلام، للزركلي ١/ ٣٦٤، ط ٢، ط دمشق.

أُمَيّةَ ينظر إلى الجرادتين وهو عنده فأعطاه إياهما. وقد قيل في سبب إعطائه إياهما: إن أُمَيّة بن أبي الصَّلْت قدِم عليه؛ فقال له عبدُ الله: أمرٌ ما أتى بك! فقال أمَيّة: كلاب غرماء قد نبحتني ونهشتني. فقال له عبدُ الله: قَدِمتَ عليّ وأنا عليل وحقوقٌ لحقتني ولزمتني، فأَنظِرْني قليلًا وقد ضَمِنتُ قضاءَ دينك فلا أسألك عن مبلغه، قال: فأقام أميّة أيامًا ثم أتاه فقال: [من الوافر]

أَأَذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤُك إنّ شِيمتَك[1] الحياءُ
وَعِلْمُك بالأمورِ وأنت قَرْمٌ[2] لك الحسبُ المهذَّبُ والسَّناءُ[3]
كريمٌ لا يُغَيِّره صباحٌ عن الخُلُقِ الكريم ولا مَساءُ
تُبارِي[4] الريحَ مَكْرُمةً ومجدًا إذا ما الكلب أَجْحره[5] الشّتاءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا كفاه مِنْ تَعَرُّضه الثناءُ
إذا خَلّفتَ عبدَ الله فاعلَمْ بأنّ القومَ ليس لهم جزاءُ
فأَرْضُك كلّ مَكْرُمةٍ بنتها بنو تيم[6] وأنت لهم سماءُ
وهل تخفَى السماءُ على بصيرٍ! وهل بالشمسِ طالعةً خفاءُ!

فلمّا أنشده أُمَيّةُ هذا الشعرَ كانت عنده قينتان، فقال لأميّة: خذْ أيّتَهما شئتَ، فأخذ إحداهما وانصرف؛ فمرّ بمجلس من مجالس قريشٍ فلاموه على أخذها، وقالوا له: لقد ألفيته[7] عليلًا، فلو رَدَدْتها عليه، فإن الشيخَ محتاج إلى خدمتِها، كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حقّ ضمِنه. فوقع الكلامُ مِن أميّةَ موقعًا ونَدِم؛ فرجع إليه ليردَّها عليه. فلما أتاه بها، قال ابن جُدْعان: لعلك إنما رددتَها لأن قريشًا لاموك على أخذها؛ وذكر لأميّةَ ما قال القوم. فقال أميّة: والله ما أخطأتَ يا أبا زهير. قال: فما الذي قلتَ في ذلك؟ فقال: [من الطويل]

عطاؤكَ زَيْنٌ لامرىءٍ إن حَبَوْتَه[8] ببَذْلٍ وما كلُّ العطاءِ يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ[9] لامرىءٍ بذلُ وجهِهِ إليك كما بعضُ السؤالِ يَشِينُ

(١) الشيمة: الخلق والطبع. (٢) القرم من الرجال: السيد المطاع، والمقدام.
(٣) السناء: الرفعة والعلوّ. (٤) تباري: تنافس.
(٥) أجحره: ضيّق عليه. كناية عن شدّة البرد والقرّ.
(٦) تيم: بطن من قريش، يقال لهم بنو تيم بن مرّة.
(٧) ألفيته: وجدته. (٨) حبوته: أعطيته، وجدت عليه.
(٩) الشين: بخلاف الزين، وهو ما يصيب ويقبح.

فقال عبدُ الله لأمية: خذ الأخرى؛ فأخذهما جميعًا وخرج. فلما أن صار إلى القوم بهما أنشأ يقول: [من الوافر]

ومـا لـي لا أحَـيِّـيـهِ وعـنـدي مَوَاهِبُ قد طلعنَ من النِّجادِ[١]

لأبيضَ من بني عَمْرِو بنِ تَيْمٍ وهم كالمَشْرَفِيّاتِ[٢] الحِدَادِ[٣]

لِكلِّ قبيلةٍ هادٍ[٤] ورأسٌ وأنتَ الرأسُ تقدُم كلَّ هادِ

عِمادُ الخَيْفِ[٥] قد علمت مَعَدٌّ[٦] وإنّ البيتَ يُرْفَع بالعمادِ

له داعٍ بمكّةَ مُشْمَعِلٌّ[٧] وآخرُ فوق دَارتهِ يُنادِي

إلى رُدُحٍ[٨] من الشِّيزَى[٩] مِلاءٍ لُبَابَ[١٠] البُرِّ يُلْبَكُ[١١] بالشِّهادِ[١٢]

وكان سبب قول أميّة بن أبي الصلت هذا الشعرَ أنّ عبدَ اللهِ بنَ جُدْعانَ وفد على كسْرَى[١٣] فأكل عنده الفالُوذَ[١٤]؛ فسأل عنه فقيل له: هذا الفالوذ. قال: وبِمَ يصنع؟ قيل: لُبابُ البُرِّ يُلبك مع عسل النحل. قال: أبغوني[١٥] غلامًا يصنعه؛ فأتوه بغلام يصنعه فابتاعه، ثم قدِم به مكةَ؛ فأمره أن يصنع الفالُوذ ففعل، ثم وضع الموائد من الأبطح[١٦]

---

(١) النجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، والنجاد: حمالة السيف.

(٢) المشرفيات: صفة للرماح. (٣) الحداد: الماضية، القاطعة.

(٤) الهادي: الدليل.

(٥) الخيف: الجهة والناحية. والخيف، ناحية بمنى، قريبة من مكة.

(٦) معدّ، عرب الشمال الذين ينسبون إلى معد بن عدنان، وكان نزار بن عدنان قد ترك أربعة بنين هم مضر وربيعة وأنمار وإياد. انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه ٢/٤٦. دار ومكتبة الهلال. بيروت ١٩٨٦ م.

(٧) مشمعلّ: جادّ ومثابر.

(٨) ردح: جمع ردحة، وهي السترة في مؤخر البيت. وهي الشجرة الكبيرة. والجفنة العظيمة والكتيبة من الجيش.

(٩) الشيزى: ضرب من الخشب، وهو الأبنوس. وهو القصعة الكبيرة.

(١٠) لباب البرّ: خالص القمح. (١١) يلبك: يخلط.

(١٢) الشهاد: جمع شهد، وهو العسل ما دام لم يعصر من شمعه.

(١٣) كسرى: هو كسرى بن قباذ، ملك الفرس الساسانيين. اشتهر بعدله وإصلاحه.

(١٤) الفالوذ: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، معرّبة عن الفارسية.

(١٥) أبغوني: أعطوني.

(١٦) الأبطح: كل مسيل فيه دقاق الحصى، وهو الرمل المنبسط على وجه الأرض، وهو مسيل الماء ضيّقًا أو واسعًا. وهنا، المراد به أبطح مكة، وثمة أبطح مِنًى، وقد يقصد به المحصّب أيضًا، وهو خيف بني كنانة. انظر: معجم البلدان، لياقوت ١/٧٤.

إلى باب المسجد[١]، ثم نادى مناديه: ألَا من أراد الفالُوذَ فليحضُرْ، فحضره الناس. وكان فيمن حضر أميّةُ بنُ أبي الصلتِ فقال الأبيات. وقال فيه أيضًا: [من مجزوء الكامل]

ذُكِـر ابـنُ جُـدْعـانٍ بـخـيـ ـر كـلّـمـا ذُكِـرَ الـكِـرامُ
مـن لا يـخـونُ ولا يَـعُـقّ[٢] ولا يُـبَـخِّـله الأنـامُ
يَـهَـبُ الـنـجـيـبـةَ[٣] والـنـجـيـ ـبَ[٤] لـه الـرِّحـالـةَ[٥] والـزِّمـامُ[٦]

وابن جُدْعان ممن ترك شربَ الخمر في الجاهليّة. وقد تقدّم ذكره. وهجاه دُرَيْد بن[٧] الصِّمّة بشعر؛ فلقيه بعد ذلك عبدُ الله بسُوق عكَاظ[٨]، فحيّاه وقال: هل تعرفني يا دُرَيد؟ قال: لا. قال: فلِمَ هَجوتَني؟ قال: ومَن أنت؟ قال: عبدُ الله بن جُدْعان. قال: هجوتُك لأنك كنت أَثِرًا كريمًا فأحببتُ أن أضع شعري موضعه. فقال له عبد الله: لئن كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ؛ وكساه وحمله على ناقة برحلها، فقال دُرَيد: [من المتقارب]

إلـيـك ابـنَ جُـدْعـانَ أعـمـلـتُـهـا مُـجَـفَّـفَـةً لـلـسُّـري[٩] والـنَّـصَـبْ[١٠]
فـلا خـفـضَ حـتـى تُـلاقـي امـرأً جـوادَ الـرِّضـا وحـلـيـمَ الـغَـضَـبْ
وجـلـدًا[١١] إذا الـحـربُ مَـرَّتْ بـه يُـعِـين عـلـيـهـا بـجَـزْلِ الـحـطـبْ[١٢]
وجُـلْـتُ الـبـلادَ فـمـا إن أرى شـبـيـهَ ابـنِ جُـدْعـانَ وَسْـط الـعـرب
سـوى مـلِـكٍ شـامـخٍ مُـلْـكُـهُ لـه الـبـحـرُ يـجـري وعَـيْـنُ الـذهـب

(١) المسجد: المراد به المسجد المكّي الشريف، وفي وسطه الكعبة المشرّفة.
(٢) يعقّ: يعصي، والعقوق يطلق على عصيان الوالدين خاصةً.
(٣) النجيبة: الناقة الفتيّة الكريمة. (٤) النجيب: الجمل الفتيّ الكريم.
(٥) الرحالة: السرج من جلد، لا خشب فيه. (٦) الزمام: العنان تقاد به الدابة.
(٧) دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية. . . بن هوازن، من فرسان الجاهلية وشعرائها المذكورين، حارب الإسلام والمسلمين. وقتل في معركة حنين سنة ٦٣٠ م.
(٨) عكاظ: من أسواق العرب ومواسمهم السنوية في الجاهلية. فيه كانت العرب تتبارى وتتناشد الأشعار.
(٩) السُري: السير ليلًا. (١٠) النصب: التعب والإعياء أو العياء.
(١١) جلدًا: شجاعًا. (١٢) الحطب الوافر.

وأخبار ابن جُدعان كثيرة وسيادتُه في الجاهليّة مشهورة، ليس هذا موضع إيرادِها، وأنما أوردنا ما أوردنا منها في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، فالشيء بالشيء يذكر. فلنرْجع إلى أخبار القِيان.

ذكر أخبار جميلة

هي جميلةُ مولاةُ بني سُلَيم، ثم مولاةُ بطنٍ منهم يقال لهم بنو بَهْز، وكان لها زوج من موالي بني الحارث بنِ الخزرج، وكان ينزل فيهم، فغلب عليها ولاءُ زوجها فقيل لها: مولاة الأنصار. وقد قيل: إنها كانت لرجل من الأنصار ينزل بالسُّنْح[١] وقيل: كانت مولاة الحجّاج بن عِلَاط السّلَمِيّ. قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهي أصل من أصول الغناء، أخذ عنها مَعْبَد وابنُ عائشةَ وحَبَابةُ وسلّامةُ وعقيلةُ والعتيقةُ وغيرُهم. وفيها يقول عبد الرحمٰن بن أرْطاة[٢]: [من المتقارب]

إنّ الـدّلالَ وحـسـنَ الـغـنـا ... ءِ وَسْطَ بُيوتِ بني الخَزْرَجِ[٣]
وتِـلكُـم جـمـيـلةُ زَيـنُ الـنسـاء ... إذا هـي تـزدان[٤] لـلمَـخْـرَجِ
إذا جـئـتَـهـا بـذَلـتْ وُدَّهـا ... بـوجـهٍ مُـنـيـرٍ لـهـا أبـلجِ[٥]

قال: وكانت جميلةُ أعلمَ خلقِ الله بالغناء. وكان معبد يقول: أصل الغناء جميلةُ وفرعُه نحن، ولولا جميلةُ لم نكن نحن مغنِّين. قال: وسئلت جميلةُ: أنَّى لك هذا الغناء؟ قالت: واللهِ ما هو إلهامٌ ولا تعليم، ولكنّ أبا جعفر سائبَ خاثر كان جارَنا، وكنت أسمعُه يغنِّي ويضرب بالعود فلا أفهمُه، فأخذت تلك النغماتِ وبنيتُ عليها غِنائي، فجاءت أجودَ مِن تأليف ذلك الغناءِ، فعَلِمتُ وألقيت؛ فسمعني مَوْلَياتي[٦] يومًا وأنا أُغَنِّي سرًّا، ففهِمنني ودخلْنَ عليَّ وقلن: قد عَلِمنا ما تكتمين وأقسمن عليّ؛

(١) السّنح: محلّة من محالّ المدينة، وفي طرف من أطرافها، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة. انظر: معجم البلدان ٣/ ٢٦٥.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن أرطاة بن سيحان المحاربي، شاعر إسلامي أموي، وُلد بالمدينة ثم وفد على الشام، وكان مكثرًا من شعر الخمرة والمجون والغزل والفخر. تُوفي سنة ٥٠ هـ.

(٣) الخزرج: قبيلة عربية من الأزد، وهم الأنصار الذي نزل في ظهرانيهم محمد ﷺ بالمدينة.

(٤) تزدان، وتزّين، بمعنى واحد. والزين، بخلاف الشّين.

(٥) أبلج: واضح ظاهر، فيه بياض وزُهرة.

(٦) مولياتي: جمع مولاة، وهي الجارية المملوكة.

فرفعت صوتي وغنّيتهن بشعر زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمَى[(١)]: [من البسيط]

وما ذَكَرْتُكِ إلا هِجْتِ لي طَرَبًا ... إنّ المحبَّ ببعض الأمرِ معذورُ

ليس المحبُّ كَمَنْ إنْ شَطَّ[(٢)] غيَّره ... هَجْرُ الحبيب، وفي الهِجرانِ تغييرُ

فحينئذٍ شاع أمري وظهر ذكري وقصدني الناسُ وجلست للتعليم؛ فكان الجواري يكثُرْنَ عندي، وربما انصرف أكثرُهن ولم يأخذن شيئًا سوى ما سمعنني أُطارح[(٣)] غيرهن، وقد كسَبت لمواليّ ما لم يَخْطُر لهم ببال، وأهل ذلك كانوا وكنت. وقد أقرّ لجميلةَ كلُّ مكيٍّ ومدنيّ من المغنّين. قال: ولما قدِم ابنُ سريج والغَرِيضُ وابنُ مِسْجَح وسَلْم بن مُحْرِز المدينةَ واجتمعوا هم ومَعْبَد وابن عائشة حَكّموها بينهم؛ واجتمعوا عندها، وصنع كل منهم صوتًا وغناه بحضرتها ـ وقد ذكر الأصفهانيّ الأصوات ـ فلما سمعت الأصوات قالت: كلّكم مُحسِنٌ مجيدٌ في غِنائه ومذهبه. قال ابن عائشةَ: ليس هذا بمُقْنِع. قالت: أمّا أنت يا أبا يحيىٰ فتُضْحِك الثّكلى[(٤)] بحسن صوتِك ومشاكلته[(٥)] النفوسَ. وأمّا أنت يا أبا عَباد فنسِيجُ وَحْدِه بتأليفك وحسن نظمك وعذوبة غنائك. وأمّا أنت يا أبا عثمان فلك أوّليّةُ هذا الأمر وفضلُه. وأمّا أنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُح. وأمّا أنت يا أبا الخَطّاب فلو قدّمتُ أحدًا على نفسي لقدّمتك. وأمّا أنت يا مولى العَبَلات فلو ابتدأتَ قدّمتُك عليهم. ثم سألوها جميعًا أن تغنّيهم لحنًا كما غَنّوْا، فغنّتهم، فكلهم أقرّوا لها وفضّلوها.

وكانت جميلة قد آلت أنها لا تغنّي أحدًا إلا في منزلها. فكان عبدُ اللهِ بنُ جعفر[(٦)] يأتيها في مجلسها فيجلس عندها وتغنّيه. فأرادت أن تكفِّر[(٧)] عن يمينها وتأتيه فتغنّيه في بيته؛ فقال: لا أكلّفك ذلك.

---

(١) شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. شعره دقيق التعبير، متين التركيب، عمل جاهدًا على تثقيفه وتقويمه ولذا سميت قصائده بالحوليّات لأنه كان يطلعها من الحول إلى الحول. مدح وفخر وتغزّل وكانت الحكمة غالبة على شعره. وضعه ابن سلام ثالثًا في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، بعد امرىء القيس والنابغة الذبياني، وقبل الأعشى. انظر: طبقات الشعراء، لابن سلّام. ص ٢٥. ط أوروبّا.

(٢) شطّ: نأى وابتعد.

(٣) أطارح: أساجل.

(٤) الثكلى: من فقدت ولدها.

(٥) مشاكلته: ملاءمته.

(٦) عبد الله بن جعفر: أحد الصحابة الذين ولدوا في الحبشة، وهو ابن أخي علي بن أبي طالب، كان من الأجواد والشجعان، وسمي ببحر الجود لكرمه. تُوفي سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م.

(٧) تكفّر عن يمينها: تعطي كفّارة، وهي مقدار من المال وغيره يدفعه صاحب اليمين الكاذبة.

وروى الأصفهانيُّ أنّ ابنَ أبي عَتِيق وابنَ أبي ربيعةَ[١] والأحوصَ[٢] بنَ محمد الأنصاريّ أتوا منزلَ جميلةَ واستأذنوا عليها فأذِنت لهم. فلما جلسوا سألت عن عمرَ، فقال لها: إني قصدتُك من مكةَ للسلام عليك؛ فقالت: أهلُ الفضل أنت. قال: وقد أحببتُ أن تُفَرِّغي لنا نفسَك اليوم وتُخْلِي مجلسَك؛ قالت: أفعل. فقال لها الأحوص: أحبّ ألّا تغنّي إلا بما نسألك؛ فقالت: ليس المجلس لك، القوم شركاؤك؛ فقال: أجل. قال عمر: فإني أرى أن نجعل الخيارَ إليها. قال ابنُ أبي عتيق: وفّقك الله. فدعت بعودٍ فغنّت: [المنسرح]

تَمشِي الهُوَيْنَى[٣] إذا مشتْ فُضُلًا[٤] ... مَشْيَ النَّزِيفِ[٥] المخمورِ في الصُّعُدِ[٦]
تَظَلُّ من بعدِ بيتِ جارتها ... واضعةً كفَّها على الكَبِدِ
يا مَنْ لِقلبٍ مُتَيَّمٍ[٧] سَدِمٍ[٨] ... عانٍ[٩] رهينٍ مُكَلَّمٍ[١٠] كَمِدِ[١١]
أزجُرُه[١٢] وهو غيرُ مُنزَجِرٍ ... عنها بطَرْفٍ[١٣] مُكَحَّلِ السهَدِ[١٤]

قال راوي هذه الحكاية: فلقد سمعتُ للبيت زَلزلةً وللدار هَمْهمةً[١٥]. فقال عمر: لله دَرُّكِ يا جميلة! ماذا أُعطِيت! أنت أوّل الغناء وآخره! ثم سكتت ساعةً وأخذت العود فغنّت، فطرب القوم وصفّقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحرّكوا رؤوسَهم، وقالوا: نحن فِداؤُك من المكروه، ما أحسنَ ما غنّيتِ وأجملَ ما قلتِ!.

---

(١) هو عمر بن أبي ربيعة، شاعر غزل مشهور، من بني مخزوم من قريش. شعره رقيق العبارة، جيد الأسلوب، لطيف الحاشية رقيقها. مال إلى الغزل والمجون فغلب على غزله الطابع المادي وذكر المغامرات مع النسوة الشريفات وغير الشريفات. تاب في آخر حياته، ومات سنة ٧١٢ م.

(٢) الأحوص، لقب له، واسمه عبد الله، شاعر أموي من أهل المدينة. أكثر شعره في الغزل والهجاء والمجون، وعوقب على ذلك كثيرًا. مات سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م. انظر: الأعلام، للزركلي ٤/٢٥٧.

(٣) الهوينى: على مهل.

(٤) فضلًا: متوشحة في ثوبها الفضُل، وهو ما يلبس في البيت، ولا يبالغ في وشيه.

(٥) النزيف: السكران.

(٦) الصعد: العلوّ.

(٧) متيم: عاشق، متبول.

(٨) سدم: شديد العشق.

(٩) عانٍ: أسير مكبّل.

(١٠) مُكَلّم: مجروح.

(١١) كمد: حزين.

(١٢) أزجره: أصيح عليه كي يبتعد وينأى.

(١٣) الطرف: العين.

(١٤) السهد: الأرق وعدم النوم.

(١٥) الهمهمة: الصوت الخافت غير الواضح.

وأُحضِر الغداءُ فتغدّى القومُ بأنواع من الأطعمةِ ومن الفواكه، ثم دعتْ بأنواع الأشرِبة؛ فقال عمر: لا أشرب، وقال ابنُ أبي عَتِيق مثل ذلك؛ فقال الأحوص: لكنّي أشْرَب، وما جزاء جميلةَ أن يُمتنَعَ من شرابها! فقال عمر: ليس ذاك كما ظننت. فقالت جميلة: من شاء أن يحملَني بنفسه ويخلِط رُوحه بروحي فعل، ومن أبى ذلك عذَرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأُنس بمحادثته. قال ابن أبي عتيق: ما يَحسُنِ بنا إلا مساعدتُك. فقال عمر: إني لا أكون أخسَّكم[١]، افعلوا ما شئتم تجدوني سامعًا مطيعًا. فشرب القوم أجمع؛ فغنّت بشعر ابن أبي ربيعة: [من الرمل]

ولـقـد قـالـت لـجـاراتٍ لـهـا   كالمَها[٢] يلعَبْن في حُجْرتِها[٣]
خُـذْنَ عـنـي الـظـلَّ لا يـتـبَعـنـي   ومـضـتْ تـسـعَـى إلـى قُـبّـتِـهـا
لـم تُـعَـلِّقْ رَجُـلًا فـيـمـا مَـضـى   طَـفْـلةٌ[٤] غـيـداءُ[٥] فـي حُـلّـتـهـا[٦]
لم يَطِشْ[٧] قطُّ لـهـا سـهـمٌ ومَـنْ   تَـرْمِـهِ لا يـنـجُ مـن رَمْـيـتِـهـا

فصاح عمرُ ثم شقّ جيبَ قيمصِه إلى أسفلِه، ثم ثاب إليه عقلُه فندِم واعتذر وقال: لم أملك من نفسي شيئًا. وقال القوم: قد أصابنا الذي أصابك وأُغْمِيَ علينا غير أننا قد فارقناك في تخريق الثّياب. فدعتْ جميلة بثياب فجعلتها على عمر فقبِلها ولبِسها، وانصرف القوم إلى منازلهم. وكان عمر نازلًا على ابن أبي عتيق[٨]، فوجّه إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب كانت معه فقبِلتها جميلة، وانصرف عمر إلى مكة جذلانَ مسرورًا.

وروى أبو الفرج بأسانيد رفعها إلى يونس الكاتب[٩] والزبير بن بَكّار[١٠] عن

(١) أخسّكم: أوضعكم وأدناكم.
(٢) المها: جمع مهاة، وهي بقرة الوحش، تشبّه بها المرأة لجمال عينيها.
(٣) حجرتها: مقصورتها. (٤) طفلة: الطفلة، الرخصة الناعمة من النساء.
(٥) غيداء: من فيها غيد، وهو بياض الجيد والعنق.
(٦) حلّتها: ثوبها.
(٧) يطش: من طاش السهم، إذا خاب وأخطأ هدفه.
(٨) ابن أبي عتيق: من أقرب الناس إلى عمر بن أبي ربيعة، وهو رفيقه ومغنّيه وعشيره.
(٩) يونس الكاتب، ويعرف بيونس المغنّي. من أهل فارس، ومن موالي الزبير بن العوام. له كتب مشهورة في الأغاني والمغنين. أشهر كتبه «كتاب القيان» و«كتاب النغم» الفهرست، ص ٢٠٧.
(١٠) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله. . . بن عبد الله بن الزبير بن العوام. راوية ونسابة وشاعر. ولي قضاء مكة ودخل بغداد للمرة الأخيرة سنة ٢٥٣ هـ. مات=

عمه مُصْعَب قالا: حجّتْ جميلةُ فخرج معها من الرجال المغنّين والنساء والأشراف وغيرهم جماعةٌ ذكرهم أبو الفرج، منهم من المغنّين هِنْبٌ وطُوَيْسٌ والدَّلَالُ ومَعْبَدٌ ومالكُ بنُ أبي السَّمْحِ وابنُ عائشةَ ونافعُ الخيرِ ونافعُ بنُ طُنْبورةَ وغيرُ هؤلاء ممن ذكرهم؛ ومن النساء المغنِّيات جماعةٌ ذكرهنّ: منهن الفَرِهةُ وعزّةُ الميلاءُ وحَبابةُ وسلّامةُ وخُلَيْدةُ وعَقِيلةُ والشمّاسيّةُ وفرَعةُ ونَبيلةُ ولذّةُ العيشِ وسعيدةُ والزَّرْقاءُ؛ ومن غيرِ المغنِّين من الأشراف ابنُ أبي عتيقٍ والأحوصُ وكُثَيِّرُ عَزّةَ[١] ونُصَيْبٌ[٢]؛ وجماعةٌ من الأشراف الرجال والنساء. وحج معها من القِيان مُشيِّعاتٌ لها ومعظِّمات لقدرِها خمسون قينةً وجّه بهنّ مواليهنّ معها وأعطوهنّ النفقاتِ وحملوهنّ على الإبل في الهوادجِ والقِباب وغير ذلك؛ فأبت جميلةُ أن تنفقَ واحدةٌ منهنّ درهمًا فما فوقه حتى يرجِعن. قال: وتخَاير مَنْ خرج معها في اتخاذ أنواع اللِّباس العجيب والهوادج والقِباب. قال: ولما قاربوا مكةَ تلقّاهم سَعِيدُ بنُ مِسْجَحٍ وابنُ سُرَيجٍ والغَرِيضُ وابنُ مُحْرِزٍ والهُذَلِيّون وجماعة من المغنّين من أهل مكةَ وفتيانٌ كثير؛ ومن غير المغنّين عمرُ بنُ أبي ربيعةَ والحارثُ[٣] بنُ خالدِ المخزوميّ والعَرْجُيّ[٤] وجماعةٌ من الأشراف. فدخلت جميلةُ مكةَ وما بالحجاز مغنٍّ حاذقٌ ولا مغنِّية إلا وهو معها وجماعةٌ من الأشراف ممن سَمّينا وغيرهم من الرجال والنساء، وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسنِ هيئتهم. فلما قضت حجَّها سألها المكّيون أن تجعلَ لهم مَجْلِسًا؛ فقالت: للغناء أم للحديث؟ فقالوا: لهما جميعًا. قالت: ما كنت لأخلِط جِدًّا بهَزْل، وأبتْ أن تجلس للغناء. فقال عمرُ بنُ أبي

= سنة ٢٥٦ هـ وقبره في مكة. انظر: الفهرست، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(١) كُثَيِّر: ويعرف بكُثَيِّر عَزَّة، اسم حبيبته. شاعر أموي عذري مشهور. يمتاز برقة نسيبه وغزله. عاش في المدينة، وتُوفي سنة ٧٢٣ م.

(٢) نصيب: شاعر أموي عباسي مخضرم. عاصر عبد الملك بن مروان، ومدحه، كان عبدًا أسود، مشوّه الخلقة، وله مع عبد الملك محادثات ومساجلات، انظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرد ١/ ٣٣٤. مكتبة المصارف، بيروت.

(٣) الحارث بن خالد المخزومي، أحد أشهر اللاهين في عصر بني أمية، تنافس وعمر بن أبي ربيعة في حب عائشة بنت طلحة. وبلغ من استهتاره ومجونه، أنه أمر ذات يوم بتأخير الصلاة، وكان واليًا على مكة من قبل عبد الملك بن مروان، حتى فرغت عائشة من طوافها، فنمي ذلك إلى عبد الملك فأنّبه على ذلك، فقال: «ما أهون، والله، غضب عبد الملك إذا رضيت عائشة». انظر الخبر في: الأغاني، لأبي الفرج الأصفاني ٣/ ١٠٣. ط بولاق وطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩ م.

(٤) العرجي: سبق التعريف به.

ربيعة: أقسمتُ على مَن كان في قلبه حبٌّ لسماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة، فإني خارج معها. فخرجتْ في جمع كثير من الأشراف وغيرهم أكثر من جمعها بالمدينة. فلما قدِمت المدينة تلقّاها الناس والأشرافُ من الرجال والنساء، فدخلت بأحسنَ مما خرجت منها، وخرج الرجالُ والنساء فوقفوا على أبوابِ دُورِهم ينظرون إلى جمعِها وإلى القادمين معها. فلما دخلت إلى منزلها وتفرّق الناسُ إلى منازلهم ونزل أهلُ مكةَ على أقاربهم وإخوانهم، أتاها الناسُ مسلِّمين، وما استنكف[1] من ذلك صغير ولا كبير. فلما مضى لمَقْدَمِها عشرةُ أيام جلست للغناء، وقالت لعمرَ بنِ أبي ربيعة: إني جالسة لك ولأصحابِك، فإذا شئتَ فعِدِ الناس. فغَصّت الدارُ بالأشراف من الرجال والنساء، وابتدأت جميلةُ فغنّت بشعر لعمرَ بنِ أبي ربيعة: [من البسيط]

هيهاتَ[2] من أَمَةِ[3] الرّحمٰنِ منزلُنا ... إذا حَلَلنا بِسيفِ البَحْرِ[4] من عَدَنِ[5]
واحتلّ أهلُك أجيادًا[6] فليس لنا ... إلا التّذَكُّرُ أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتْ بالجِزْعِ[7] عَبْرتَه ... وقد تَغَرَّد قُمْرِيّ[8] على فَنَنِ[9]
إذًا رأتْ غيرَ ما ظنّتْ بصاحبها ... وأيقنَتْ أنّ لَحْجًا[10] ليس من وطنِي
ما أنسَ لا أنسَ يوم الخَيْفِ[11] مَوْقِفَها ... وموقفي وكِلانا ثَمّ ذو شَجَنِ[12]
وقولَها للثُّرَيّا[13] وهي باكيةٌ ... والدمعُ منها على الخَدَّينِ ذو سُنَنِ[14]
باللهِ قولي له من غيرَ مَعْتَبةٍ ... ماذا أردتَ بطول المُكْثِ[15] في اليمنِ
إن كنتَ حاولتَ دنيا أو ظفِرتَ بها ... فما أصبتَ بترك الحج من ثمنِ

---

(١) استنكف: أبطأ وامتنع.
(٢) هيهات: اسم فعل بمعنى بعُد.
(٣) الأمة: الجارية.
(٤) سيف البحر: ساحله.
(٥) عدن: اسم بلد بعينه، في جنوب اليمن.
(٦) أجياد: اسم موضع بمكة يلي الصفا.
(٧) الجزع: منقطع الوادي، ومحلّة القوم.
(٨) القمري: مذكر القمرية، وهي الحمامة البريّة.
(٩) الفنن: الغصن.
(١٠) لحج: اسم موضع بعينه جنوب اليمن، في عدن.
(١١) الخيف: اسم موضع بعينه، في منى من عرفات.
(١٢) الشجن: الحزن.
(١٣) الثريا: حبيبة عمر بن أبي ربيعة. ذكرها كثيرًا في شعره، وهي بنت علي بن عبد الله، المكية القرشية، كانت من أجمل نساء عصرها.
(١٤) ذو سنن: ذو طُرق.
(١٥) المكث: الإقامة واللّبث.

فكلُّهم استحسن الغناء، وضجّ القومُ لحسنِ ما سمعوا، وبكى عمرُ حتى جرت دموعُه على ثيابه ولحيته. ثم أقبلت على ابنِ سريج فقالت: هاتِ، فغنّى صوته بشعر لعمر: [من مجزوء الوافر]

ألـيـسـتْ بـالّـتـي قـالـت ... لـمـولاةٍ لـهـا ظُـهُـرَا
أشـيـرِي بـالـسـلام لـه ... إذا مـا نَـحْـوَنـا نَـظَـرا
وقُـولِي فـي مُـلَاطَـفَـةٍ ... لـزيـنـبَ نَـوِّلي عُـمَـر
وهـذا سِـحـرُكَ الـنّـسـوا ... نَ قد خَبَّرنني الخبرَا[1]

ثم قالت لسعيدِ بن مِسجح: هاتِ يا أبا عثمانَ، فاندفع فغنّى. ثم قالت: يا معبدُ هاتِ، فاندفع فغنّى فاستحسنته. ثم قالت: هاتِ يا ابنَ مُحرِز، فإني لم أُؤَخِّرْك لخَسَاسةٍ[2] بك ولا جهلًا بالذي يجب في الصَناعة، ولكني رأيتُك تحبّ من الأمورِ كلها أوسطَها وأعْدَلَها. فجعلتك حيث تحب واسطةً بين المَكّيين والمدنيّين. فغنّى. ثم قالت للغرِيض: هاتِ يا مولى العَبَلات؛ فغنّى بشعر عمرو بن شأس[3] الأبياتَ، وفي آخرها: [من الطويل]

أرادتْ عِرَارًا[4] بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ ... عِرَارًا لَعَمْرِي بالهَوانِ فقد ظَلَمْ

فقالت: أحسن عمرو بنُ شأسٍ ولم تُحسِنْ، إذ أفسدتَ غناءك بالتعريض، وواللهِ ما وضعناك إلا موضعَك ولا نقصناك من حظّك، فبماذا أهنّاك! ثم أقبلت على الجماعة فقالت: يا هؤلاءُ اصدُقوه وعَرِّفوه نفسَه ليقنَع بمكانه. فأقبل القومُ عليه وقالوا: يا أبا زيد، قد أخطأتَ إن كنتَ عرّضت. فقال: قد كان ذلك، ولست بعائد؛ وقام إلى جميلةَ فقبّل طَرَف ثوبِها واعتذر، فقبِلتْ عذره وقالت: لا تعد، وأقبلت على ابنِ عائشةَ فقالت: يا أبا جعفر، هات، فغنّي، فقالت: حَسَنٌ ما قلت. ثم أقبلت على نافع وبُدَيْح فقالت: أُحِبّ أن تغنّيا جميعًا بصوت ولحنٍ واحد، فغنيا. ثم أقبلت على الهُذَليين الثلاثة فقالت: غَنّوا صوتًا واحدًا، فاندفعوا فغنَّوْا. ثم أقبلت على نافع بن

---

(١) الأبيات أعلاه تجدها في ديوان عمر، ص ١٤٤، قالها في زينب الجمحية.

(٢) الخساسة: الدناءة.

(٣) عمرو بن شأس: شاعر أموي، والد عرار الخطيب والبليغ والفصيح.

(٤) عرار: العرار، نبت طيب الريح. وهو موضع بعينه، وهو في ديار باهلة من اليمامة. لكن هنا، عرار، هو عرار بن عمرو بن شأس الأسدي.

طُنبورةَ فقالت: هاتِ يا نَقْشَ الغَضَارة[١] ويا حَسَنَ اللسان؛ فاندفع فغنّى، فقالت: حَسَنٌ والله. ثم قالت: يا مالك هاتِ، فإني لم أُؤخِّرك لأنك في طبقة آخرهم، ولكن أردتُ أن أختِمَ بك يومَنا تَبَرُّكًا بك، وكي يكون أوّلُ مجلِسنا كآخره ووسطُه كطَرَفه؛ فإنك عندي ومَعْبَدًا في طريقةٍ واحدة ومَذْهبٍ واحد، لا يدفع ذلك إلا ظالمٌ ولا يُنكره إلا عاضِلٌ[٢] للحق، والحقّ أقول، فمن شاء أن ينكر؛ فسكت القوم كلهم إقرارًا بما قالت. فاندفع فغنّى: [من الطويل]

عَدُوٌّ لمن عادتْ وسِلْمٌ لسِلْمِها ... ومَنْ قرّبت سلْمى أُحِبُّ وقُرّبَا
هَبِيني امرأً إمَّا بريئًا ظَلمتِهِ ... وإمّا مُسِيئًا تاب بعدُ وأَعْتَبا
أقولُ التماسَ العُذْرِ لمّا ظَلَمتِنِي ... وحَمَّلتِني ذنبًا وما كنتُ مُذْنِبا
لِيَهْنِكِ إشماتُ[٣] العدوِّ بهَجْرِنا ... وقَطْعُك حبلَ الودّ حتى تَقَضّبا[٤]

فقالت جميلة: يا مالكُ، ليت صوتَك قد دام لنا ودُمنا له! وقطعت المجلس، وانصرف عامّةُ الناس وبقي خواصُّهم. قال: ولما كان في اليوم الثاني حضر القوم جميعًا. فقالت لطُوَيْس: هاتِ يا أبا عبد النّعيم، فغنّى: [من المنسرح]

قد طال ليلي وعادني طَرَبي ... من حُبِّ خَوْدٍ[٥] كريمةِ الحَسَبِ
غَـرّاء[٦] مثل الهلالِ آنِسةٍ ... أو مثل تِمثالِ صُورةِ الذَّهَبِ
صادتْ فؤادي بجِيدِ مُغْزِلةٍ ... ترعَى رِياضًا مُلْتَفّةَ العُشُبِ

فقالت جميلة: حسنٌ والله يا أبا عبدَ النعيم. ثم قالت للدّلال: هاتِ يا أبا يزيدَ، فغنّى، فاستحسنت غناءه. ثم قالت لهِنْب: إنا نُجِلّك اليوم لكِبَر سِنّك ورِقّةِ عظمك؛ فقال: أجل. ثم قالت لبَرْد الفؤاد ونَوْمة الضُّحَى: هاتِيَا جميعًا لحنًا واحدًا، فغنّيا، فقالت: أحسنتما. ثم قالت لفِند وزجة وهِبة الله: هاتوا جميعًا صوتًا واحدًا، إنكم متفقون في الأصوات؛ فاندفعوا فغنّوْا. ثم غنّت جميلةُ بشعر الأعشى[٧]:

---

(١) الغضارة: النعمة، وطيب العيش، والرخاء. (٢) عاضل: كاره، ومضيّق.
(٣) إشمات العدو: جعله يشمت ويفرح ببليّته. (٤) تقضّب: انكسر، وانبتّ.
(٥) الخود من النساء: المرأة الشابّة.
(٦) غرّاء: مؤنث أغرّ، وهي التي في جبينها غرّة وبياض.
(٧) الأعشى: ميمون بن قيس، شاعر جاهلي معروف، من أصحاب المعلقات، يلقب بصناجة العرب. وضعه ابن سلام في المرتبة الرابعة من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، مات سنة ٦٢٩ م. انظر: طبقات الشعراء ص ٢٥.

[من البسيط]

بانت سعادُ وأمسى حبلُها انقطعا ... واحتلَّت الغَوْرَ فالجَدَّيْنِ فالفَرَعا(١)
واستنكرتني وما كان الذي نَكرتْ ... من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعا
تقولُ بِنْتي وقد قَرّبتُ مُرْتَحِلًا ... يا رَبِّ جَنِّبْ أبِي الأوصابَ(٢) والوَجَعا
وكان شيءٌ إلى شيءٍ فغَيَّره ... دهرٌ مُلِحٌّ على تفريقِ ما جمعا

قال: فلم يُسْمَع شيءٌ أحسنُ من ابتدائها بالأمس وخَتْمِها في اليوم؛ وقطعت المجلسَ وانصرف قوم وأقام آخرون. فلما كان في اليوم الثالث اجتمع الناس فضربت سِتارة وأجلست الجواري، فضربْنَ كلُّهنّ، وضربت هي فضربت على خمسين وَتَرًا فزُلْزِلت الدار. ثم غنّت على عودها وهنّ يضربن على ضربها: [من الطويل]

فإن خَفِيتْ كانت لعينِكَ قُرّةً(٣) ... وإن تَبْدُ يومًا لم يُعَمِّمْك عارُها
من الخَفِراتِ البِيضِ لم تَرَ غِلْظةً ... وفي الحَسَبِ الضَّخْمِ الرفيعِ نجارُها(٤)
فما رَوْضةٌ بالحَزْنِ(٥) طيِّبةُ الثَّرَى ... يَمُجّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها(٦)
بأطيبَ مِنْ فِيها إذا جئتَ مَوْهِنًا ... وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ(٧) الرَّطِب نارُها

فدَمَعتْ أعينُ كثيرٍ منهم حتى بَلُّوا ثيابهم وتَنَفَّسوا الصُّعَدَاء، وقالوا: بأنفسنا أنتِ يا جميلة! ثم قالت للجواري: اكففن فكفَفْن؛ وقالت: يا عَزّ غَنِّي، فغنّت بشعر لعمر: [من المتقارب]

تَذكّرتَ هِندًا وأعصارَها ... ولم تَقْضِ نفسُك أوطارَها(٨)
تَذَكّرتِ النفسُ ما قد مضى ... وهاجتْ على العينِ عُوّارَها(٩)
لِتمنَحَ رامة مِنّا الهوى ... وتَرْعَى لرامةَ(١٠) أسرارَها
إذا لم تَزُرْها جِذارَ العِدَا ... حَسَدنا على الزَّوْرِ زُوّارَها

(١) الغور والجدّان والفرع، أسماء مواضع بعينها.
(٢) الأوصاب: الأوجاع، جمع وصب.
(٣) قرّة: ما تقرّ به العين وتسرّ.
(٤) نجارها: أصلها وحسبها.
(٥) الحَزن: ما غلظ وارتفع من الأرض.
(٦) جثجاثها وعرارها: ضربان من النباتات الطيّبة الرائحة.
(٧) المندل: ضرب من النبت الطيّب الرائحة.
(٨) هذا البيت والذي يليه تجده في ديوان عمر، ص ١٦١.
(٩) عوّارها: قذاها وما يدخل العين من الغبار.
(١٠) رامة: اسم موضع بعينه في الطريق بين مكة والبصرة.

فقالت جميلة: يا عزَّ، إنك لباقيةٌ على الدهر، فهنيئًا لك حسنُ هذا الصوت مع جودة هذا الغناء. ثم قالت لحَبَابة وسَلّامة: هاتِيا لحنًا واحدًا، فغنّتا فاستُحسِن غناؤهما. ثم أقبلت على خُلَيْدة فقالت: بنفسي أنت! غنّي فغنّت، فاستُحسِن منها ما غنّت. ثم قالت لعقِيلةَ والشَّمّاسِيّة: هاتِيا، فغنّتا. ثم قالت لفِرعةَ ونَبِيلةَ وندِيمةَ ولذةِ العيشِ هَاتِين، فغنّين، فقالت: أحسنتُنّ. وقالت لسعيدةَ والزّرقاء: غنيا، فغنّتا. ثم قالت للجماعة فغَنّوْا، وانقضى المجلس وعاد كل إنسانٍ إلى وطنه. فما رُئي مجلسٌ ولا جمعٌ أحسنُ من هذه الأيام الثلاثة. وقد ذكر أبو الفرج ما غَنّى به كل واحد منهم فأوردنا بعضه وتركنا بعضه اختصارًا. وأخبارُ جميلَة كثيرةٌ، قد ذكر منها أبو الفرج الأصفهانيّ جملةً تدلّ على أنها كانت مُبَجّلة[١] عندَ الأشرافِ معظّمة عند المغنّين؛ يأخذون عنها ويأتمرون بأمرها، ويسعَوْن إليها، وينطقون إذا استنطقَتْهم، ويكُفّون إذا استكفَّتْهم؛ وفيما قدّمناه دلالةٌ على ذلك والله أعلم.

ذِكْر أخبار عَزَّةَ المَيْلَاء

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت عَزّةُ مولاةً[٢] للأنصار[٣]، ومسكنُها المدينة، وهي أقدمُ مَن غَنّى الغِناء المُوقَعَ من نساء الحجاز، وماتت قبل جميلة. قال: وقد أخذ عنها مَعْبَدٌ ومالك بن أبي السَّمْح وابن مُحْرِز وغيرُهم من المكّيين والمدنيّين. وكانت من أجمل النساء وجهًا وأحسنِهنّ جسمًا. وسُمِّيت الميلاء لتمايُلها في مِشْيتها.

وقال معبد: كانت من أحسن النساء ضَرْبًا بعود، مطبوعةً[٤] على الغناء، لا يُعْيِيها[٥] أداؤه ولا صنعته ولا تأليفه، وكانت تُغَنّي أغانيَ القِيَانِ القُدَماء مثل شِيرِين وزِرْياب وخَوْلَةَ والرَّبابِ وسلمى ورائقةَ؛ وكانت رائقة أستاذتها. فلما قَدِم نَشِيط وسائب؛ خاثر المدينةَ غَنّيا أغاني بالفارسيّة، فأخذت عَزّة عنهما نَغَمًا وألَّفَتْ عليها ألحانًا عجيبة؛ فهي أوّل مَنْ فَتَنَ أهل المدينة بالغِناء وحرّض رجالَه ونساءهم عليه.

وقال الزُّبَيْريّ: وجدتُ مشايخَ أهل المدينة إذا ذكروا عَزّة قالوا: لله دَرُّها! ما كان أحسن غِناءَها، وأطَلّ[٦] صوتَها، وأندَى حَلْقَها، وأحسنَ ضَرْبَها بالمزاهر

---

(١) مبجّلة: موقّرة ومحترمة. (٢) مولاة: جارية مملوكة.

(٣) الأنصار: هم الذين نصروا النبيّ ﷺ لما جاء المدينة المنوّرة مهاجرًا من مكة.

(٤) مطبوعة: مفطورة. (٥) يعييها: يجعلها تعيا، وتتعب.

(٦) أطلّ: أحسن وأكثر رونقًا.

والمعازف وسائر الملاهي، وأجملَ وجهَها، وأظرفَ لسانَها، وأقربَ مَجلِسَها، وأكرمَ خُلُقَها، وأسخى[١] نفسَها، وأحسنَ مُساعدتَها!. وكانت جميلةُ تقول مثل ذلك فيها.

وكان ابن سُرَيج في حَداثة سنِّه يأتي المدينةَ فيأخذ عنها ويتعلّم منها؛ وكان بها مُعْجَبًا، وكان إذا سئل: مَنْ أحسنُ الناس غناء؟ قال: مولاةُ الأنصارِ المُتَفَضِّلةُ على كل مَنْ غَنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء.

وكان ابنُ مُحْرِز يُقيم بمكةَ ثلاثةَ أشهرٍ ثم يأتي المدينةَ فيقيمُ بها ثلاثةَ أشهرٍ من أجلِ عَزّةَ، وكان يأخذُ عنها. وقد تقدّم ذلك في أخباره.

وكان طُوَيْس أكثرُ ما يأوي إلى منزل عَزّة، وكان في جِوارها، وكان إذا ذكرها يقول: هي سيِّدة من غَنّى من النساء، مع جمالٍ بارع، وخُلُقٍ فاضل، وإسلام لا يشوبه[٢] دَنَس؛ تأمر بالخير وهي من أهله، وتنهى عن الشرّ وهي تُجانبه[٣]، فناهيك بها! ما كان أنبلَها وأنبل مَجْلِسَها!. ثم قال: كانت إذا جلست جلوسًا عامًّا فكأنّ الطيرَ على رؤوس أهل مجلِسها، فمن تكلّم أو تحرّك نقرَ رأسه.

وقال صالحُ بنُ حسّان الأنصاريّ: كانت عَزّة مولاةً لنا، وكانت عفيفة جميلة. وكان عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ وابنُ أبي عتِيقٍ وعمرُ بنُ عبدِ اللهِ بن أبي ربيعةَ يَغْشَوْنها[٤] في منزلها فتغنّيهم. وغنّت عمرَ بنَ أبي ربيعةَ لحنًا لها في شيء من شعره، فشقّ ثيابه وصاح صيحةً عظيمةً صَعِق معها. فلما أفاق قال له القوم: لغيرِكَ الجهلُ يا أبا الخطّاب؛ قال: إني سمعت والله ما لم أملِك معه نفسي ولا عقلي.

وكان حسّانُ بنُ ثابتٍ[٥] مُعْجَبًا بها، وكان يقدّمُها على سائر قِيان المدينة. وقد ذكرنا خبرَها مع النعمان بن بشِير[٦] وحسّان بن ثابت، وأن كلّ واحد منهما سمع غناءها، فبكى حسّان بنُ ثابتٍ واستعاد النعمانُ بنُ بشيرٍ صوتَها مرارًا؛ وتقدّم أيضًا من

(١) أسخى: أجود. (٢) يشوبه: يخالطه.
(٣) تجانبه: تفارقه. (٤) يغشونها: يأتونها.
(٥) حسان بن ثابت: شاعر جاهلي إسلامي مخضرم، من المدينة المنوّرة. مدح الغساسنة في الجاهلية، ولما أسلم مدح النبيّ ﷺ فلقّب بشاعر النبيّ، لدفاعه عن المسلمين وهجائه المشركين.
(٦) النعمان بن بشير: شاعر إسلامي، وصحابي تولّى الكوفة لمعاوية وحمص ليزيد، ابنه. ولما قامت ثورة ابن الزبير، عبد الله، ناصره وبايعه، فكان جزاؤه الاغتيال سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م.

أخبارها في خبر عائشةَ بنتِ طلحةَ وأخبارِ جميلةَ ما يُسْتغنَى عن إعادته في هذا الموضع. فلنذكر مَنْ سِواها.

ذِكْر أخبار سَلّامة القَسّ

كانت سلّامةُ القَسّ هذه مولَّدةً مِن مولَّدات المدينةِ، وبها نشأت، وأخذت الغناءَ عن معبَد وابنِ عائشة وجميلةَ ومالكِ بنِ أبي السَّمْح ومن دونهم، فمهرت فيه. وإنما سُمِّيت سَلّامة القَسّ لأنّ رجلًا يُعرفُ بعبدِ الرحمٰن بنِ أبي عمّارِ بنُ جُشَم بنِ معاويةَ ـ وكان منزلهُ بمكةَ، وهو من قُرّاء أهلِ المدينة، كان يُلَقّب بالقسّ لعبادته ـ شُغِف بها وشُهِر بحبها. وكان سبب ذلك أنه سمع غناءها على غير تَعَمُّدٍ منه فبلغ منه كلَّ مبلغ. فرآه مولاها فقال: هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى. فقال له مولاها: أنا أُقعِدُها حيث تسمعُ غناءها ولا تراها. فلم يزل به حتى دخل، فأسمعه غناءها فأعجبه. فقال: هل لك أن أخرجها إليك؟ قال: لا. فلم يزل به حتى أخرجها فأقعدها بين يديه، فغنّت فشُغِف وشُغِفت به وعرَف ذلك أهلُ مكة. فقالت له يومًا: أنا والله أحبُّك. فقال: وأنا والله الذي لا إلٰه إلا هو أُحبّك. فقالت: والله أشتهي أن أُعانقَك وأقبّلك. فقال: والله وأنا أشتهِي مثلَ ذلك. قالت: وأشتهي واللهِ أن أُضاجعَك وأضعَ بطني على بطنك وصدري على صدرك قال: وأنا واللهِ كذلك. قالت: فما يمنعُك من ذلك؟ واللهِ إنّ المكانَ لخال. قال: يمنعني منه قولُ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرُف: الآية ٦٧]، فأنا أكره أن تحولَ مودّتي إياكِ عداوةً يوم القيامة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُسك(١)، ولم يعد إليها بعد ذلك. وكان يُشَبَّه بعَطَاء بن أبي رَبَاح(٢). وله فيها أشعارٌ كثيرة، منها قوله: [من الكامل]

إنّ التي طرقَتْكَ(٣) بين ركائبٍ ... تَمْشِي بِمزْهَرِها(٤) وأنت حَرامُ
لَتصِيدُ قلبَك أو جزاءَ مودّةٍ ... إنّ الرّفيق له عليك ذِمامُ(٥)
باتت تُعَلِّلنا وتحسَب أننا ... في ذاك أيقاظٌ ونحن نيامُ

(١) النسك: العبادة، والانقطاع عن الناس.
(٢) عطاء بن رباح: من التابعين والعابدين. تولّى الإفتاء بمكة، وكانت وفاته سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م.
(٣) طرقتك: زارتك ليلًا.
(٤) مزهرها: عودها، أو ما يشبه العود، وهو آلة موسيقية.
(٥) ذمام: عهد.

حتى إذا سطَع الضياء لناظرٍ ... فإذا وذلك بيننا أحلامُ
قد كنتُ أعذُل في السَّفاهةِ أهلَها ... فاعجَبْ لِما تأتي به الأيامُ
فاليوم أعذُرُهم وأعلَمُ أنما ... سُبُلُ الضَّلالةِ والهُدَى أقسامُ

وقوله أيضًا فيها: [من الطويل]

ألم ترها ـ لا يُبعِدُ اللهُ دارَها ـ ... إذا رَجَّعَتْ[1] في صوتِها كيف تَصْنَعُ!
تَمُدّ نِظامَ القولِ ثم تَرُدُّه ... إلى صَلْصَلٍ[2] من صوتها يَتَرَجَّعُ

وقوله فيها: [من الطويل]

أَلَا قُلْ لهذا القلبِ هل أنت مبصرُ ... وهل أنت عن سَلَّامة اليوم مُقْصِرُ
أَلَا ليتَ أنّي حيث صارتْ بيَ النَّوَى ... جليسٌ لسَلْمَى كُلّما عَجّ[3] مِزْهَرُ

وله من قصيدة طويلة أوّلها: [من السريع]

سلَّامُ هل لي منكُم ناصِرُ ... أم هل لقِلبي عنكُم زاجرُ[4]
قد سَمِع الناسُ بوجدِي بكم ... فمنهمُ اللائمُ والعاذِرُ

في أشعار كثيرة يطول الشرحُ بذكرها. ومدحها الأحوصُ أيضًا بشعر كثير. وقال فيها أيضًا ابنُ قيسِ الرُّقَيّات[5].

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ قال: كانت سَلّامةُ وريّا أُختين، وكانتا من أجملِ النساء وأحسنِهنّ غناءً؛ فاجتمع الأحوصُ وابنُ قيسِ الرقيّات عندهما. فقال لهما ابن قيس الرقيّات: إني أريد أن أمدحكما بأبيات فأصدُقَ فيها ولا أكذِب. فإن أنتما غنّيتماني بذلك وإلّا هجوتُكما ولم أقْرَبْكما أبدًا. قالتا: فما قلت؟ قال: قلت: [من الطويل]

لقد فَتنتْ رَيّا وسَلَّامةُ القَسّا[6] ... فلم يتركا للقسِّ عقلًا ولا نَفْسا

(١) رجّعت: أعادت الغناء، ووقّعته.
(٢) الصلصل: أرخم الأصوات وأصفاها.
(٣) عجّ: صدح وغنّى.
(٤) زاجر: رادع.
(٥) ابن قيس الرقيات: هو عبيد الله بن قيس، من بني عامر بن لؤي، ولقّب بالرقيّات لأنه شبّب بثلاث نسوة اسم كلّ منهنّ رقيّة. مدح الأمويين، ومصعب بن الزبير. مات سنة ٧٠٥ م.
(٦) القسّ: رجل الدين النصراني.

فتاتانِ أمَّا منهما فشبيهةُ الـ ـهِلالِ وأخرى منهما تُشْبه الشمسَا
تَكُنَّانِ[١] أبشارًا[٢] رِقاقًا وأوجُهًا عِتاقًا وأطرافًا مُخَضَّبةً[٣] مُلْسا

فغنّته سلّامةُ فاستحسنه. وقال ابنُ قيسِ الرقيّات للأحوص: يا أخا الأنصار، ما قلت؟ قال: قلت: [من الكامل]

سلّامُ هل لِمُتَيَّمٍ تَنْويلُ[٤] أم قد صَرَمتِ[٥] وغَالَ[٦] وُدَّكِ غُولُ
لا تَصْرِمِي عنّي ولاءكِ إنه حَسَنٌ لديّ وإن بَخِلتِ جميلُ
أزَعمتِ أنّ مودّتي وصبابتي[٧] كَذِبٌ وأنّ زيارتي تقليل

فغنّت الأبيات. فقال ابنُ قيس الرقيّات: أحسنتِ والله! ما أظنك إلا عاشقةً لهذا الجِلْف[٨]. فقال له الأحوص: وما الذي أخرجك إلى هذا؟ قال: حُسْنُ غِنائها بشعرك، فلولا أنّ لك في قلبها مَحَبّة مُفْرِطةً[٩] ما جاء هكذا حسنًا على هذه البديهة[١٠]. فقال الأحوص: على قدر حُسْنِ شعري على شعرك هكذا حَسُن الغناء به. وما هذا منك إلا حسدٌ، وليس ذلك إلا ما حسدت عليه. فقالت سلّامة: لولا أنّ الدخول بينكما يُوجب بِغْضةً لحكمتُ بينكما حكومةً لا يَرُدُّها أحد. قال الأحوص: فأنتِ [من ذلك] آمنة. قال ابنُ قيس الرقيّات: كلّا! قد أمِنتَ أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقتَ بالأمان لها. فتفرّقا على ذلك. ثم مشى ابنُ قيس الرقيّات إلى الأحوص فاعتذر إليه فقبِل عُذْرَه. ومن شعر الأحوص فيها: [من الكامل]

سَلَامُ إنّكِ قد مَلَكتِ فأَسْجِحِي[١١] قد يملكُ الحُرُّ الكريمُ فيُسْجِحُ
مُنِّي على عانٍ[١٢] أطلْتِ عناءَه[١٣] في الغُلِّ[١٤] عندكِ والعُناةُ تُسَرَّحُ
إنّي لأنْصَحُكُمْ وأعلَم أنه سِيّانِ عندكِ من يَغُشُّ ويَنْصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلَامةَ حُبَّها قالت أجِدٌّ منك ذا أم تمزَحُ

---

(١) تكنّان: تستران.
(٢) أبشارًا: جلودًا.
(٣) مخضّبة: مصبوغة بالخضاب، وهو الحنّاء وغيره.
(٤) تنويل: عطاء.
(٥) صرمت: قطعت.
(٦) غال: أهلك.
(٧) صبابتي: شوقي وحبّي.
(٨) الجلف: القاسي القلب السّمج.
(٩) مفرطة: زائدة.
(١٠) على البديهة: ارتجالًا، على طبيعتها وسجيّتها.
(١١) أسجحي: رددي صوتك.
(١٢) عانٍ: أسير.
(١٣) عناءه: تعبه.
(١٤) الغلّ: القيد.

وحكى أبو الفرج قال: لمّا قدِم عثمانُ بنُ حَيّان المُرّيُ المدينةَ واليًا عليها، قال له قوم من وجوه الناس: إنك قد وَليت المدينةَ على كثرةٍ من الفساد؛ فإن كنت تريد أن تُصلحَ فطَهِّرْها من الغناء والرّثاء[١]. فصاح في ذلك وأجّل أهلَه ثلاثًا يخرجون فيها من المدينة، وكان ابن أبي عتيق غائبًا، وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح. فلما كان آخر ليلة من الأجل قدِم فقال: لا أدخل منزلي حتى أدخل على سَلّامة القَسّ. فدخل عليها فقال: ما دخلتُ منزلي حتى جئتُكم لأُسَلِّم عليكم. فقالوا: ما أغفلك عن أمرنا! وأخبروه الخبر. فقال: اصبروا عليّ الليلة. فقالوا: نخاف ألّا يُمْكِنَك شيء. قال: إن خفتم شيئًا فاخرجوا في السحر[٢]. ثم خرج فاستأذن على عثمانَ بنِ حيّان فأذِن له، فسلّم عليه وذكر غيبته وأنه جاء ليقضي حقّه، ثم جزاه خيرًا على ما فعل من إخراج أهل الغناء والرّثاء، وقال: أرجو ألّا تكون كمِلت عملًا هو خير لك من ذلك. قال عثمان: قد فعلتُ ذلك وأشار عليّ به أصحابك. فقال: قد أصبتَ، ولكن ما تقولُ في امرأةٍ كانت هذه صِناعتُها وكانت تُكْرَه على ذلك، ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير، وأنا رسولها إليك تقول: أتوجه إليك وأعوذُ بك أن تُخرِجني من جِوار رسول الله ﷺ ومسجده؛ قال قال: فإني أدَعُها لك ولكلامك. فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس، ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها، فإن رأيت أن مثلَها ينبغي أن يُترك تركتَها؛ قال: نعم فجاءه بها. وقال: احملي معك سُبْحةَ وتَخَشَّعي ففعلت. فلما دخلت على عثمان سلّمت عليه وجلست وحدّثته، فإذا هي من أعلم الناس بأمور الناس، فأُعجِب بها؛ وحدّثته عن آبائه وأمورهم ففَكِهَ لذلك فقال ابنُ أبي عتيق: اقرئي للأمير. فقرأت؛ فقال لها: احدِي[٣] ففعلت. وكثُر عَجَبُه منها. فقال: كيف لو سمعتها في صناعتها! فلم يزل يُنْزِله شيئًا فشيئًا حتى أمرها بالغناء فغنّته. فقام عثمانُ من مجلِسه وقعد بين يديها، ثم قال: لا والله ما مثل هذه تخرج. فقال ابن أبي عتيق: لا يدعك الناس تُقِرّ سلّامة وتُخرِج غيرها. قال: فدعوهم جميعًا. فتركهم جميعًا وأصبح الناس يتحدّثون بذلك.

ثم اشتري يزيدُ بنُ عبدِ الملك[٤] سلّامةَ، وكانت لمُصْعَبَ بنِ سُهَيْلٍ الزُّهريّ،

---

(١) الرثاء: ولعله الرثاء، وهو الكذب والغش والخداع.

(٢) السحر: ما قبل الفجر وانبلاج النور. (٣) احدِي: غنيّ حداءً.

(٤) يزيد بن عبد الملك: هو الخليفة الأموي التاسع. خلف عمر بن عبد العزيز. قضى أخوه مسلمة على ثورة يزيد بن المهلب عامله على خراسان. كان ميّالًا إلى اللهو، توفي في إربد من أعمال الأردن، ودفن بدمشق سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. انظر: تاريخ الخلفاء، أو الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ١٠٣/٢. تحقيق: طه الزيني، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٧.

وقيل: لسهيلِ بنِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ عوف. وكانت حَبَابة جاريةَ آل لاحِق؛ فاشتراهما جميعًا؛ فاشتري سلّامة بعشرين ألف درهم، وتسلّمها رُسُل يزيدَ فخرجوا بها وشيّعها الناس. فلما نزلتْ سِقايةَ سليمان بنِ عبدِ الملك[1] قالت للرّسل: إنّ لي قومًا كانوا يَغْشَوْنَني ويُسَلِّمون عليّ، ولا بدّ لي من وَدَاعهم والسلام عليهم؛ فأذِن للناس عليها، فأتوا حتى ملئوا رَحبة القصر والفِناء؛ ووقفت هي بينهم بارزةً ومعها العودُ فغنّت: [من الخفيف]

فـارَقُـونـي وقـد عـلـمـتُ يـقـيـنًـا ... مـا لـمـن ذاق مِيتةً من إيابِ[2]
إنّ أهـلَ الـحِـصَـابِ قـد تـركـونـي ... مُـوزَعًـا مُـولَعًـا بـأهـلِ الـحِـصَـابِ
أهـلِ بـيـتٍ تـتـايـعـوا لـلـمـنـايـا ... ما على الدّهرِ بعدهم من عِتابِ
كم بذاك الحَجُونِ[3] من حَيٍّ صِدْقٍ ... مـن كُـهُـولٍ أعِـفّـةٍ وشَـبَـاب
سكنوا الجِزْعَ جِزْعَ بيت أبي مو ... سى إلى النخل من صُفِيِّ السِّبابِ[4]
فـلِيَ الـويـلُ بـعـدَهـم وعـلـيـهـم ... صرتُ فرْدًا ومَلّني أصحابِي[5]

قال: فلم تزل تردّد هذا الصوتَ حتى راحت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها؛ فما شئتَ أن ترى باكيًا نبيلًا إلا رأيته.

قالوا: وكانت حَبَابةُ عندَ يزيدَ متقدّمةً على سلّامة، وكانت حبابةُ تنظر إلى سلّامةَ بتلك العين الجليلةِ المتقدّمة وتعرف فضلَها عليها؛ فلما رأت أَثَرَة يزيد لها ومحبَّته إيّاها استخفّت بها. فقالت لها سلّامة: أي أُخَيّة، نَسِيتِ فضلي عليك! ويلك! أين تأديبُ الغناء! أين حقُّ التعليم! أنسيتِ قولَ جميلة لك وهي تطارحنا: خُذِي إحكام ما

---

(١) سليمان بن عبد الملك: الخليفة الأموي السابع، أسس مدينة الرملة في فلسطين. وحاصر القسطنطينية لكنه لم يقو على فتحها. توفي في دابق بالقرب من حلب سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ٩٢.

(٢) إياب: رجوع.

(٣) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. وبحذائه مسجد البيعة على شِعب الجزارين. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٤) صفي السباب: اسم موضع بمكة، وهو وبيت أبي موسى، والمقصود أبو موسى الأشعري، ما بين دار سعيد الحرشي التي بناها إلى بيوت أبي القاسم بن عبد الواحد التي بأصلها المسجد الذي صلّي على الخليفة المنصور عنده وكان به نخل وحائط لمعاوية يعرف بحائط خرمان. انظر: معجم البلدان ٣/ ٤١٥.

(٥) الشعر علاه لكثير بن كثير السهمي. راجع المصدر السابق ٣/ ٤١٥.

أُطارحك من أُختك سلّامة، فلا تزالين بخيرٍ ما بَقِيتْ لك وكان أمرُكما مؤتلفًا! فقالت: صَدَقْتِ والله لا عدتُ لشيء تكرهينه أبدًا. وماتت حَبَابة وعاشت سلّامة بعدها دهرًا.

ولما مات يزيدُ أحضرها ابنهُ الوليد(١) وأمرها بالغناء، فتنغصّتْ من ذلك وبكت، ثم غنّته. فقال: رحِم الله أبي وأطال عمري وأمتعني بحُسْنِ غِنائك!. يا سلّامةُ، بم كان أبي يُقَدّم حَبَابةَ عليك؟ قالت: لا أدري والله. قال: ولكنني أدري ذلك، بما قسم الله عزّ وجلّ لها. قالت: يا سيِّدي أجَلْ. وهي إحدى من اتُّهِم بهنّ الوليدُ من جواري أبيه.

ذكر أخبار حَبَابة

كانت حَبَابة جاريةً مولَّدة من مولّدات المدينة لرجل من أهلها يُعرفُ بابنِ دبابة، وقيل: بل كانت لآلِ لاحِق المكّيين، وقيل: كانت لرجل يعرفُ بابنِ مينا. وكانت تسمّى العالية، فسماها يزيدُ بن عبدِ الملكِ لما اشتراها حَبَابة. وكانت حُلوةَ جميلةَ الوجه ظريفةً حسنةَ الغناء طيِّبةَ الصوت ضاربةً بالعود. أخذت الغناءَ عن ابن سُرَيْجٍ وابن مُحْرِز ومالكِ بنِ أبي السَّمْح ومَعْبَد وعن جميلةَ وعَزّةَ الميلاء.

وكان يزيدُ بنُ عبدِ الملك يقول: ما تَقَرّ عيني بما أُوتيتُ من الخلافة حتى أشترِيَ سلّامة جاريةَ مُصْعَب بن سُلَيم وحبَابَة جارية ابن لاحِق المكيّة. فأرسل فاشتُريتا له. فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآنَ كما قال الأوّل: [من الطويل]

فألقت عصاها واستقرّ بها النَّوَى كما قَرّ عينًا بِالإيابِ المسافِرُ

وكان يزيدُ بنُ عبدِ الملك في خلافة أخيه سليمانَ قد قَدِم المدينةَ فتزوّج سَعْدةَ بنتَ عبدِ الله بنِ عمرو بن عثمانَ على عشرين ألف دينار، ورُبَيْحةَ بنت محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مثل ذلك، واشترى العاليةَ بأربعة آلاف دينار. فبلغ ذلك سليمانَ فقال: لأحجُرَنّ(٢) عليه. فبلغ يزيدَ ذلك فاستقال مولى حَبَابة؛ ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل إفريقية. فلما وَلِي يزيدُ اشترتها

---

(١) الوليد: هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الخليفة الأموي الحادي عشر. خلف عمه هشام بن عبد الملك. عاش في قصره بالبادية منصرفًا إلى الخمر والشعر والغناء. خلع وقتل سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/ ١١٠.
(٢) لأحجرنّ: لأضيقنّ.

سَعْدةُ امرأتُه وعلمت أنه لا بدّ طالبها ومشتريها. فلما حصلت عندها قالت له: هل بقي عليك شيء من الدنيا لم تنله؟ قال: نعم، العالية. قالت: أوَ رأيتها؟ قال: نعم. قالت: أفتعرفها؟ قال: نعم. فرفعت الستر فرآها، فقالت: هذه هي؟ قال: نعم؛ قالت: هي لك، وخرجت عنهما. فسمّاها حبابة وعظُم قدرُ سَعْدة عنده. ويقال: إنها أخذت عليها قبل أن تَهبَها له أن تُوَطِّىء[١] لابنها عنده في ولاية العهد.

قال: وارتفع قدرُ حَبَابةَ عند يزيدَ وتمكّن حبُّها في قلبه تمكنًا عظيمًا. وكان أوّل ذلك أنه أقبل يومًا إلى البيت الذي هي فيه فقام من وراء الستر فسمعها تترنّم وتغنّي: [من الخفيف]

كان لي يا يزيدُ حبُّك حَيْنًا[٢] كاد يَقْضِي عليّ لمّا التقينا

فرفع السترَ فوجدها مضطجعةً مقبلةً على الجِدار، فعلم أنها لم تعلَم به ولم يكن ذلك لمكانه؛ فألقى نفسَه عليها وحرّكت منه.

قال: وأراد يزيدُ بنُ عبد الملك أن يتشبّه بعُمرَ بنِ عبدِ العزيز[٣]، وقال: بماذا صار عمرُ أرْجَى لربه مني!. وقيل: بل لَامَه مَسْلَمة بن عبد الملك[٤] على الإلحاح على الغناء والشرب، وقال له: إنك وَلِيتَ بعقب عمرَ بنِ عبدِ العزيز وعَدْلِه، وقد تشاغلتَ بهذه الإماء[٥] عن النظر في الأمور، والوفودُ ببابك وأصحابُ الظُّلَامات[٦] يصيحون وأنت غافل! قال: صدقتَ والله، وهمّ أن يترك الشربَ، ولم يدخل على حبابةَ أيامًا، فشقّ ذلك عليها فأرسلت إلى الأحْوَص أن يقول أبياتًا في ذلك، فقال: [من الطويل]

أَلَا لا تَـلُمْـهُ الـيـوم أن يَـتَـبَـلَّدا فقد غُلِبَ المحزونُ أن يتجلّدا[٧]

بكَيْتُ الصِّبَا جُهْدِي فمن شاء لَامَنِي ومن شاء آسَى[٨] في البكاء وأَسْعَدَا

---

(١) توطِّىء: تمهّد. (٢) حينًا: هلاكًا.

(٣) عمر بن عبد العزيز: الخليفة الأموي الثامن، عرف بعدله وإصلاحه تُوفي سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م. انظر: تاريخ الخلفاء ٢/٩٦.

(٤) مسلمة بن عبد الملك: أمير أموي، قاد جيش أخيه يزيد بن عبد الملك وقضى على ثورة يزيد بن المهلب بخراسان. تُوفي سنة ١٢٠ هـ.

(٥) الإماء: الجواري.

(٦) الظلامات: جمع ظلامة، وهي ما احتمل من الظلم، وما أخذ ظلمًا.

(٧) يتجلّد: يتصبّر. (٨) آسى: واسى.

وإنّي وإن فُنِّدْتُ[1] في طلب الصِّبَا لأعلَمُ أنّي لستُ في الحبِّ أوحدَا
إذا أنت لم تَعشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فكن حَجَرًا من يابس الصَّخْرِ جَلْمَدا[2]
فما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتَشْتَهِي وإن لامَ فيه ذو الشَّنَانِ[3] وفَنَدَا[4]

قال: فلما كان في يوم الجمعة تعرّضتْ له حَبَابةُ عندَ خروجِه إلى الصلاة، فلقيته والعودُ في يدها، فغنّت البيتَ الأوّل، فغطى وجهَه وقال: مَهْ[5] لا تفعلي. ثم غنّت «وما العيش إلا ما تَلَذّ وتشتهي» فعدل إليها وقال: صَدَقتِ، قبّح الله من لَامني فيكِ! يا غلام، مُرْ مَسْلَمة فلْيُصَلِّ بالناس. وأقام معها يشربُ وهي تغنّيه وعاد إلى حاله، وقال لها: من يقولُ هذا الشعر؟ قالت: الأحوص. فاستدعاه واستنشده الشعرَ فأنشده الأبياتَ. ثم أنشده قصيدتَه التي أوّلها: [من البسيط]

يا مُوقِدَ النّارِ بالعَلْياءِ من إضَمِ[6] أَوْقِدْ فقد هِجتَ شوقًا غيرَ مُنْصَرِمِ

وهي قصيدة طويلةٌ، فقال له يزيدُ: ارفعْ حوائجَك؛ فكتب إليه في نحو أربعينَ ألف درهم من دين وغيره فأمر له بها. وقد قيل في أمر هذه الأبيات: إن حَبَابة لمّا بعثتْ إلى الأحوص في عمل الشعر قالت له: إن رددتَ أميرَ المؤمنين عن رأيه فلك ألفُ دينار، فدخل الأحوص عليه واستأذنه في الإنشاد؛ فقال: ليس هذا وقتك. فلم يزل به حتى أذِن له فأنشده الأبيات. فلما سمعها وثب حتى دخل على حَبَابَة وهو يتمثّل: [من الطويل]

وما العيشُ إلا ما تَلَذُّ وتشتَهِي وإن لام فيه ذو الشَّنَانِ وفنّدا

قالت: ما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: أبيات أنشدنيها الأحوصُ، فسَلِي ما شئتِ. قالت: ألف دينار تعطيها الأحوصَ؛ فأعطاه ألف دينار.

قال: وقال يزيدُ يوما لسَلّامة وحَبَابة: أيُّكما غنّتني ما في نفسي فلها حُكمها. فغنّت سلّامةُ فلم تُصِبْ ما في نفسِه؛ وغنّت حَبَابةُ بشعرِ ابنِ قيسِ

---

(١) فندت: كُذّبت.
(٢) جلمد: يابس.
(٣) الشنان: الكراهية.
(٤) فند: كذّب.
(٥) مه: اسم فعل، بمعنى، مهلًا.
(٦) إضم: اسم ماء بين مكة واليمامة عند السّمينة، وقيل: هو وادٍ بجبال تهامة، ويوم إضم من أيام العرب. انظر: معجم البلدان ١/ ٢١٥.

الرُّقيّات: [من الخفيف]

حِلَقٌ[١] من بني كِنانةَ حَوْلِي ... بِفِلَسْطِين يُسْرِعون الرُّكوبَا

جَزِعتْ أنْ رأت مَشِيبيَ عِرْسِي[٢] ... لا تَلُومِي ذوائبي[٣] أنْ تَشِيبَا

فأصابت ما في نفسه، فقال: احتكمي. قالت: تَهَبُ لي سلّامةَ ومالَها. قال: اطلُبي غيرَها؛ فأبت غيرها؛ فقال: أنت أولَى بها ومالها، فلَقِيتْ سلّامةُ من ذلك أمرًا عظيمًا. فقالت حَبَابَة: لا تَرَيْنَ إلّا خيرًا. فجاءها يزيدُ فسألها أن تَبيعه إيّاها بحكمها. فقالت: أُشهِدكَ الآن أنها حُرّة، فاخْطُبْها الآن أُزَوِّجْك مولاتي.

قالت: وغنّت حَبَابة يومًا يزيد: [من المنسرح]

ما أحسَنَ الجِيدَ[٤] من مُلَيْكَةَ والـ ... ـلبّاتِ[٥] إذ زانها تَرائبُها[٦]

يا ليتنِي ليلةً - إذا هَجَع[٧] النا ... سُ ونام الكلابُ - صاحِبُها

في ليلةٍ لا يُرَى بها أحدٌ ... يسعَى علينا إلّا كَوَاكِبُها

فطرِب يزيدُ، وقال: هل رأيتِ قطُّ أطربَ منّي؟ قالت: نعم، ابن الطيار مُعاوية بن عبد الرحمٰن بن جعفر. فكتب يزيدُ إلى عبد الرحمٰنِ بنِ الضحّاك فحمله إليه. فلما قدِم أرسلت إليه حَبَابة: إنما بعث إليك لكذا وكذا وأخبرته بالقصة؛ فإذا أُدخِلْتَ عليه وتَغَنّيتُ فلا تُظهِرنّ طَرَبًا حتى أُغَنّي الصوتَ الذي غنّيتُه؛ فقال: سَوْءَةً على كِبَر السنّ! فدعاه يزيدُ وهو على طنفسةِ[٨] خَزٍّ، ووضع لمعاويةَ مثلَها، وجاءوا بجامَيْنِ[٩] فيهما مِسْكٌ، فوُضِع أحدُهما بين يدي يزيد والآخرُ بين يدي مُعاوية. قال معاوية: فلم أدر كيف أصنَع، فقلتُ: أنْظُرُ كيف يصنع فأصنع مثلَه؛ فكان يُقَلّبه فتفوح ريحهُ وأفعل مثلَ ذلك. فلما جيءَ بحَبَابةَ وغنّت، فلما غنّت ذلك الصوتَ أخذ معاويةُ الوِسادةَ فوضَعها على رأسه وقام يدورُ ويقول: الدُّخْنُ[١٠]

---

(١) حلق: جمع حلقة، وهي كل ما استدار من الناس والأشياء وغيرها...

(٢) عرسي: زوجتي. (٣) ذوائبي: جمع ذؤابة، وهي خصلة الشعر.

(٤) الجيد: العنق.

(٥) اللبات: جمع لبّة، وهي مكان أو موضع القلادة من الصدر.

(٦) ترائبها: جمع تريبة، وهي أعلى الصدر. (٧) هجع: رقد.

(٨) الطنفسة: البساط، والفراش، والحصير، والثوب، واللفظة معرّبة من الفارسية.

(٩) جامين: مثنى جام، وهي الكأس، واللفظة معرّبة من الفارسية.

(١٠) الدّخن: نبات من فصيلة النجيليات، حبّه صغير يقدم طعامًا للطيور.

بالنَّوَى[١] يعني اللُّوبيا! وأمر له يزيد بصِلَاتٍ في دَفَعات مبلغُها ثمانيةُ آلاف دينار.

وحُكي أيضًا أنها غنّتْ يومًا يزيدَ فطرِب، ثم قال: هل رأيتِ أطرَبَ منّي؟ قالت: نعم، مولاي الذي باعني. فغاظه[٢] ذلك، فكتب في حَمْله مُقيَّدًا. فلما وصل أمر يزيدُ بإدخاله عليه فأُدخِل يَرسُفُ[٣] في قيوده، وأمر يزيدُ حَبابَةَ أن تغنّي فغنّت: [من المتقارب]

تَـشِـطُّ[٤] بـنـا دارُ جِـيـرَانِـنـا وَلَلدَّار بَـعْـدَ غَـدٍ أبـعَـدُ

فوثب حتى ألقَى نفسَه على الشمعة فاحترقتْ لِحيتُه، وجعل يصيح: الحريق يا أولادَ الزنا! فضحِك يزيدُ وقال: لَعَمْري إن هذا لأطرب الناس! وأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حَبَابة، وردّه إلى المدينة.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ بسنده إلى غانم الأزديّ قال: نزل يزيدُ بنُ عبدِ الملك ببيتِ رأسٍ بالشأم ومعه حَبَابةُ، فقال: زعموا أنه لا يصفو لأحدٍ يومًا عيشُه إلى الليل لا يُكدِّره شيء عليه، وسأُجرِّب ذلك؛ ثم قال لمن معه: إذا كان غدٌ لا تُخْبِروني بشيء ولا تأتوني بكتاب. وخلا هو وحَبَابة، فأُتِيا بما يأكلانِ، فأكلت رُمّانة فشَرِقتْ بحَبّة منها فماتت، فأقام لا يدفنها ثلاثًا حتى تغيّرت وأنتنت وهو يشَمُّها ويرشِفُها. فعاتبه على ذلك ذووه وأقرباؤه وصَدِيقُه وعابوا عليه ما يصنع، وقالوا: قد صارت جيفةً بين يديك، فأَذِن لهم في غَسْلها ودفنها، فأُخرِجتْ في نِطْع[٥]، وخرج معها لا يتكلّم حتى جلس على قبرها. فلما دُفِنت قال: أصبحتُ والله كما قال كُثَيِّر: [من الطويل]

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهَوَى فباليأسِ تسلُو[٦] عنكِ لا بِالتَّجلُّدِ[٧]
وكـلُّ خـلـيـلٍ راءنِـي فـهـو قـائـلٌ مِنَ اجْلِكِ هذا هامةُ[٨] اليومِ أو غدِ

---

(١) النوى: جمع نواة، وهي البزرة داخل الثمرة.
(٢) غاظه: أزعجه وأغضبه. (٣) يرسف: يقيّد.
(٤) تشطّ: تبعد، تنأى.
(٥) نطع: النطع، بساط من جلد يوضع تحت المحكوم بالإعدام ليتلقى الرأس، وهنا: الجلد، والكساء والبساط أيًا يكن.
(٦) تسلو: تنسى. (٧) التجلّد: التصبّر.
(٨) هامة: الهامة، زعيم القوم. وهو أعلى الشيء. وهي طائر أسطوري يخرج من رأس القتيل.

فما بقي إلا خمسَ عشرةَ ليلةً ومات، فدُفِن إلى جنبها.

ورُوِيَ أيضًا عن مَسْلَمةَ بنِ عبد الملك قال: لمّا ماتت حَبَابةُ جزع[1] عليها يزيدُ، فجعلتُ أُسَكّنه وأُعَزّيه وهو ضاربٌ بذَقَنه على صدره ما يكلّمني حتى دفنها. فلمّا بلغ إلى بابه التفتَ إليّ وقال: فإن تَسْلُ عنك النفس. . . البيت، ثم دخل بيته فمكث أربعين يومًا ثم هَلَك.

قال: ورَوى المدائنيّ[2] أنه اشتاق إليها بعد ثلاثةِ إيامٍ من دفنِه إيّاها؛ فقال: لا بُدّ أن تُنبشَ حتى أنظرَ إليها، فنُبِشت وكُشِف له عن وجهها وقد تغيّرت تَغَيُّرًا قبيحًا، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، اتّقِ الله تعالى! ألَا تراها كيف صارت! فقال: ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منها اليوم، أَخرِجوها. فجاء مَسْلَمةُ ووجوهُ أهله، فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها؛ وانصرف، وكمِد[3] كَمَدًا شديدًا حتى مات، فدُفِن إلى جانبها.

ورُوِيَ عن عبدِ الله بنِ عُرْوةَ بنِ الزُّبير قال: خرجتُ مع أبي إلى الشأم زمنَ يزيدَ بنِ عبد الملك. فلما ماتت حَبَابةُ وأُخرِجتْ، لم يستطع يزيد الركوبَ من الجَزَع ولا المشيَ، فحُمِل على مِنبر على رِقاب الرجال. فلمّا دُفنت قال: لم أُصَلِّ عليها، انبشوا عنها. فقال له مَسْلَمة: نَنْشدُكَ الله يا أمير المؤمنين، إنما هي أَمَةٌ من الإماء وقد واراها[4] الثرى[5]. فلم يأذَنْ للناس بعد حَبَابة إلا مرّةً واحدة؛ قال: فوالله ما استتمّ دخول الناس حتى قال الحاجب: اخرجوا رحمكم الله. ولم يَنْشَبْ[6] يزيدُ أن مات كَمَدا.

ذِكْرُ أخبار خُلَيدة المكّيّة

قال أبو الفرج: هي مولاة لابنِ شَمّاسٍ، كانت هي وعَقِيلةُ ورُبَيْحةُ يُعْرَفْن بالشّمَاسِيّات. وقد أخذت الغناءَ عن ابنِ سُرَيْجٍ ومالكٍ ومَعْبَد.

(١) جزع: خاف.

(٢) المدائني: هو أبو الحسن علي بن محمد المدائني. وُلد سنة ١٣٥ هـ ومات سنة ٢١٥ هـ. متكلم، ومصنف. له عدة كتب، أشهرها كتاب المغازي، ونسب قريش، ومناكح الأشراف وأخبار النساء، وغير ذلك كثير. انظر: الفهرست ص ١٤٧ ـ ١٥٠.

(٣) كمد: حزن شديد وهم وغمّ.

(٤) واراها: سترها وأخفاها.

(٥) الثرى: التراب.

(٦) لم ينشب: لم يفتأ، ولم يلبث.

وروى أبو الفرج بسنده إلى الفضلِ بنِ الربيع[١] أنه قال: ما رأيتُ ابنَ جامع يطرَبُ لغناءٍ كما يطرَب لغناء خُلَيْدةَ المكيّة. وكانت سوداءَ، وفيها يقول الشاعر: [من الخفيف]

فَتَنتْ كاتبَ الأمير رَباحِ　　يا لَقَوْمِي خُلَيْدةُ المَكّيّة

وغنّت هشامَ بنَ عُرْوةَ يومًا، فلما سمِعها قال: اكتُبي على صَدْرِك ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] وبين يديك المُعَوِّذتينِ[٢] لا تُصيبُك العين.

وقال عُمَرُ بنُ شَبّة[٣]: بلغني أن محمدَ بنَ عبدِ الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان أرسل إلى خُلَيْدةَ المكيّةِ أبا عَوْنٍ مولاه يخطُبها عليه. فاستأذن فأذِنتْ له وعليها ثيابٌ رِقاقٌ لا تسترُها، ثم وثبتْ فقالت: إنما ظننتُك بعضَ سُفَهائنا، ولكنّني ألبَس لك ثيابَ مثلك ففعلت. وقال: قد أرسلني إليك مولاي، وهو من تعلمين من رسول الله ﷺ ومن عثمان بن عفّان ومن عليّ وهو ابن عمّ أمير المؤمنين، يخطُبك. قالت: قد نَسَبتَ فأبلغتَ، فاسمع نسبي أنا بأبي أنت! إن أبي بِيعَ على غير عَقْد الإسلام ولا عَهْده، فعاش عبدًا ومات في رجله قيدٌ وفي عُنقه سِلْسِلةٌ عى الإباق[٤] والسَّرِقة، وولدتني أمي على غير رِشْدةٍ وماتت وهي آبقة، فأنا مَنْ تعلَم. فإن أراد صاحبُك نكاحًا مباحًا أو زِنًا صُراحًا[٥] فهَلُمّ إلينا فنحن له. فقال: إنه لا يدخل في الحرام. فقالت: لا ينبغي أن يستحي من الحلال، فأمّا نكاح السرّ فلا والله لا فعلتُه ولا كنتُ عارًا على القِيان. قال: فأتيتُ محمدًا فأخبرته؛ فقال: ويحك! أتزوّجها مغنّية وعندي بنتُ طلحة بنِ عبيدِ الله! لا! ولكن ارجِعْ إليها فقل لها: تختلف إليّ أُرَدّد بَصَري فيها لعلّي أسلو، فرجعتُ إليها فأبلغتها الرسالة فضحِكت وقالت: أمّا هذا فنعَمْ، لسنا نمنعه.

ذِكْرُ أخبار مُتيَّم الهشاميّة

قال أبو الفرج: كانت متيّم مولَّدةً صفراءَ من مولَّدات[٦] البَصْرةِ، وبها نشأتْ

---

(١) الفضل بن الربيع: صاحب المنصور العباسي، ووزير الرشيد. سبق التعريف به.
(٢) المعوّذتين: وهما: سورة الناس، وسورة الفلق.
(٣) عمر بن شبة: مولى بني نمير. شاعر أخباري فقيه صادق اللهجة، وابنه أحمد شاعر، مثله، تُوفي سنة ٢٦٠ هـ. له عدة مصنّفات.
(٤) الإباق: الهروب من الأسر والرّق.　(٥) صراحًا: خالصًا.
(٦) مولدات: جمع مولّدة، وهي الأعجمية التي نشأت في بيئة عربية وتأدّبت بآداب العرب.

وتدرّبت وغَنّت. وأخذت عن إسحٰق وأبيه قبلَه وعن طبقتِهما من المغنّين. وكانت من تخريج بَذْلٍ وتعليمها. واشتراها عليّ بنُ هشامٍ بعد ذلك فازدادت أخذًا ممن كان يغشاه من أكابر المغنّين. وكانت من أحسن الناسِ وجهًا وغناءً وأدبًا. وكانت تقول: الشعرَ ليس مما يُستجادُ ولكنه يُسْتَحْسَن من مثلها. وحَظِيتْ[1] عند عليّ بنِ هشام حُظْوةً شديدةً، وتقدّمت جواريَه جُمَعَ عنده، وهي أمّ ولده كلهم.

حكى أبو الفرج قال: كان عندَ عليّ بن هشام بِرذَوْنٌ[2] أشهبُ[3] قِرْطاسيٌ في نهاية الحسنِ والفَرَاهةِ[4] وكان به مُعْجَبًا، وكان إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ يَشتهيه شهوةً شديدةً ويُعَرِّض لعليّ مرارًا في طلبه فلم يَسمَحْ به. فسار إسحٰقُ إلى عليٍّ يومًا وقد صنعتْ متيم: [من الطويل]

فلا زِلْنَ حَسْرَى[5] ظُلَّعًا[6]، لِمْ حَمَلْنها   إلـــى بَـــلَدٍ قـــليـــلِ الأصـــادقِ

فاحتبسه عليٌّ وبعث إلى متيّم يأمرُها أن تجعلَ صوتَها في صدرِ غنائها ففعلت، فأطربت إسحٰقَ إطرابًا شديدًا، وجعل يستعيدُه ويستوفيه ليزيدَ في طَرَبه وهو يُصغِي إليه ويتفهّمه حتى صحّ له. ثم قال لعليّ: ما فعل البِرْذَوْنُ الأشهب؟ قال: على مَا عهدتَ من حُسْنه وفَراهته. قال: اختر الآن منّي خَلَّةً[7] من اثنتين: إمّا أن طِبْتَ لي نفسًا به وحملتَني عليه، وإمّا أن أبيت فأدّعي والله هذا الصوت لي وقد أخذته، أفتراك تقول: إنه لمتيّم وأقول: إنه لي، فيؤخذ قولُك ويُترك قولي؟ فقال: لا والله ما أظنّ هذا ولا أراه؛ يا غلام، قُدِ[8] البرذونَ إلى منزل إسحٰق، لا بارك الله لك فيه!.

وحُكي أن عليَّ بنَ هشام مولاها كلّمها بشيء فأجابته جوابًا لم يُرضه، فدفع يده في صدرها، فغضِبتْ ونهضت وتثاقلت عن الخروج إليه. فكتب إليها: [من الطويل]

فليتَ يدي بانتْ[9] غداةَ مددتُها   إليكِ ولم تَرجِعْ بكَفٍّ وساعِدِ

فإن يرجِعِ الرحمٰنُ ما كان بيننا   فلستُ إلى يوم التّنادي[10] بعائد

---

(١) حظيت: نالت حظوة ومكانة.

(٢) برذون: ضرب من الجياد مهجّنة، وهو البغل.

(٣) أشهب: لونه أبيض وأسود.

(٤) الفراهة: الرونق وحسن المنظر.

(٥) حسرى: كاشفة عن رؤوسها.

(٦) ظلّعا: فيها ظلع، وهو العرج.

(٧) خلّة: صفة، وخصلة.

(٨) قد: الأمر من قاد، إذا جرّ وأخذ.

(٩) بانت: فارقت.

(١٠) يوم التنادي: يوم القيامة بحيث ينادي كل إنسان للقاء ربه ويعرض للحساب.

قال: وعتَبت عليه مرّةً فتمادَى عتبُها، فترضّاها[١] فلم ترضَ، فكتب إليها: الإدلالُ يدعو إلى الملال، وربّ هجرٍ دعا إلى صبر، وإنما سُمِّي القلبُ قلبًا لتقلُّبه؛ وقد صدق عندي العباسُ بنُ الأحنفِ[٢] حيث يقول: [من الخفيف]

مـا أُرانـي إلا سـأهـجُـرُ مَـن لـيـ — ـس يـرانـي أقـوى عـلى الـهِـجْـرانِ
مَـلّـنـي واثـقًـا بـحـسـن وفـائـي — مـا أضَـرَّ الـوفـاءَ بـالإنـسـان

قال: فخرجتْ إليه من وقتها ورضيت.

ورُوِيَ عن يحيىٰ المكيّ قال: قال لي عليّ بن هشام: لمّا قَدِمتْ جَدّتي شاهك من خُراسان، قالت: اعرِض جواريَك عليّ؛ فعرضتهن عليها. ثم جلسنا على الشراب وغنّتنا مُتَيّمُ، فأطالت جَدّتي الجلوسَ، فلم أنبسط إلى جواري كما كنت أفعل، فقلت هذين البيتين: [من الطويل]

أنـبـقَـى عـلـى هـذا وأنـتِ قـريـبـةٌ — وقـد مَـنَـع الـزُّوّارُ بـعـضَ الـتـكـلُّم
سـلامٌ عـلـيـكـم لا سـلامَ مُـوَدِّعٍ — ولـكـن سـلامٌ مـن حـبـيـبٍ مـتـيَّـم

وكتبت بهما في رقعة[٣] ورميتُها إلى متيّم؛ فأخذتها ونهضت لصلاةِ الظهر، ثم عادت وقد صنعت فيه لحنًا فغنّته. فقالت شاهك: ما أرانا إلا قد ثَقَّلْنا عليكم اليوم؛ وأمرت الجواري فحملوا مِحَفّتها[٤]، وأمرت للجواري بجوائزَ ساوت بينهن، وأمرت لمتيّم بمائة ألف درهم.

قال: ومرّت متيّم في نسوةٍ وهي مُتَخَفِّيةٌ بقصر علي بنِ هشام بعدَ أن قتله المأمون. فلما رأت بابَه مُغلقًا لا أنيسَ به وقد علاه الترابُ والغُبْرة وطُرِحتْ في أفنِيته المزابلُ وقفتْ عليه وتمثّلت: [من السريع]

يـا مَـنْـزِلًا لـم تَـبْـلَ أطْـلالُهُ — حـاشـى لأطـلالِكَ أن تَـبْـلَى[٥]
لـم أبـك أطـلالَك لـكِـنَّـنـي — بـكـيـتُ عـيـشـي فـيـك إذ وَلّى[٦]

---

(١) ترضّاها: طلب رضاها.
(٢) العباس بن الأحنف: أبو الفضل، أحد الشعراء المجيدين، في الغزل خاصة. له أخبار مع الرشيد، وكانت وفاته سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٣٤.
(٣) رقعة: ورقة.
(٤) محفّتها: هودجها ومركبها.
(٥) تبلى: تفنى.
(٦) ولّى: ذهب.

قد كان لي فيك هَوًى مَرّةً غَيّبه التربُ وما مُلّا
فصِرْتُ أبكي بعدَه جاهِدًا عند اذّكاري[1] حيث قد حَلّا
والعيشُ أوْلَى ما بكاه الفتى لا بُدّ للمحزونِ أن يَسْلَى

قال: ثم بكت حتى سقطت من قامتِها، وجعل النسوةُ يناشدْنها ويقلن: الله الله في نفسك! فإنك الآن تؤخَذين. فبعد لأيٍ مّا احْتُمِلَتْ تتهادى بين امرأتين حتى جاوزت الموضع.

وحُكِيَ عنها قالت: بعث إليّ المعتصِمُ بعدَ قدومه بغدادَ؛ فلما دخلتُ أمر بالعُود فوُضِع في حجري، وأمرني بالغناء فغنّيتُ: [من المجتث]

هل مُسْعِدٌ لبكائي بعَبْرةٍ أو دِمَاءِ
وذاك شيءٌ قليلٌ لسادتي النُّجَباءِ[2]

ـ وهذا الشعر لمراد جارية عليّ بن هشام ترثيه ـ فقال: اعدِلي عن هذا الصوت؛ فغنّيتُ: [من الطويل]

* ذهبتُ عن الدنيا وقد ذهبتْ عنّي *

فدمَعتْ عيناه وقال: غَنّي غيرَ هذا؛ فغنّيت: [من الطويل]

أولئك قومي بعد عِزٍّ وثَرْوةٍ تَفَانَوْا[3] فإلّا تَذْرِفِ العينُ أكمَدِ[4]

فبكى بكاء شديدًا، ثم قال: ويحكِ[5]! لا تُغَنّي في هذا المعنى شيئًا. فغنّيتُه: [من البسيط]

لا تأمَنِ الموتَ في حلٍّ وفي حَرَمٍ[6] إنّ المنايا بجَنْبَيْ كلّ إنسانِ
واسلُكْ طريقَك هَوْنًا[7] غيرَ مُكترِثٍ فسوف يأتيك ما يَمْني[8] لك المانِي

(١) اذكاري: انتباهي.
(٢) النجباء: الأشراف والسادة.
(٣) تفانوا: أفنى بعضهم بعضًا.
(٤) أكمد: أحزن.
(٥) ويحك: ويلك.
(٦) الحل والحرم: الحل، ما كان خارج الحرم المكي. والحرم، داخله، وفيه الكعبة.
(٧) هونًا: بتؤدة.
(٨) يمني: يقدّر ويختبر، ويبتلي.

فقال: واللهِ إني لأعلمُ أنكِ إنما أردتِ بما غنّيتِ ما في قلبك لصاحبك وأنّكِ لم تريديني، ولو أعلم أنك تُريدينني لقتلتُك، ولكن خذوها! فأخذوا بيدي فأُخْرِجتُ. وهذه متيّم هي التي كان يهواها عبدُ الصمدِ بنُ المُعَذّلِ، وأظنّ ذلك قبل اتصالِها بعليّ بن هشام، وهي إذ ذاك عند رجلٍ من وجوهِ البصرة.

قال: وكانت لا تخرُج إلا متنقِّبة[1]. فحكى المبرّدُ[2] وغيره: أنها قَدِمتْ يومًا إلى ابن عبيدِ اللهِ بنِ الحسينِ العنبريّ القاضي، فاحتاج إلى أن يُشْهِد عليها، فأمَر بها أن تَسْفِر[3] ففعلت. فقيل لعبدِ الصمد: لو رأيتَ متيَّم وقد أسفرها القاضي لرأيت شيئًا عجيبًا! فقال: [من الطويل]

ولـمّـا سَـرَتْ عـنـهـا القِـنـاعَ مُـتَـيَّـمٌ ... تـروَّح مـنـهـا الـعَـنْـبـرِيُّ مـتـيّـمـا
رأى ابـنُ عُـبَـيْـدِ الله وهـو مُـحَـكَّـمٌ ... عليها لـهـا طَـرْفًـا عليه محكَّما
وكان قَدِيمًا كالحَ[4] الوجهِ عابسًا ... فلما رأى منها السفورَ تَبَسَّما
فإن يَصْبُ قلبُ العنبريِّ فقبله ... صبا باليتامى قلبُ يحيىٰ بنِ أكثما

فبلغ قولُه يحيىٰ بنَ أكثَم[5]؛ فكتب إليه: عليك لعنةُ الله! أيَّ شيء أردتَ منّي حتى أتاني شَرُّك من البَصْرة! فقال لرسوله: قل له: متيّم أقْعَدتْك على طريق القافية.

ذِكر أخبار ساجي
جارية عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

قال أبو الفرج: كانت ساجي إحدى المُحسنات المبرّزات المتقدّمات، وهي تخريجُ مولاها عبيدِ الله. وكان مهما صنع من الغِناء نسبه إليها، وكان قد بلغ من ذلك الغاية، ولكنه كان يترفّع عن ذكره ويكره أن يُنْسَب إليه.

---

(١) متنقبة: لابسة نقابًا.
(٢) المبرّد: واسمه محمد بن يزيد، وكنيته أبو العباس. من كبار رجال النحو. أخذ النحو عن الجرمي والمازني. وُلد سنة ٢١٠ هـ ومات سنة ٢٨٥ هـ، ودفن بمقابر الكوفة. له من الكتب «الكامل» في النحو و«معاني القرآن» وغير ذلك كثير. انظر: الفهرست، ص ٨٨.
(٣) تسفر: تظهر وجهها.
(٤) كالح الوجه: عابس.
(٥) يحيىٰ بن أكثم: القاضي المشهور، سبق التعريف به.

حَكَى أبو الفرج عن أحمدَ بنِ جعفرٍ جحظة[١] قال: كتب المعتضدُ[٢] إلى عُبَيدِ الله[٣] بنِ عبد الله بقُمّ[٤] أن يأمر جاريتَه ساجِي بزيارته ففعل. قال جحظة: فحدّثني من حضر ذلك المجلسَ من المغنّيات قالت: دخلتْ علينا وما فينا إلا من تَرْفُل[٥] في الحُليّ والحُلَل وهي في أثوابٍ ليست كأثوابنا فاحتقرناها؛ فلما غنّت احتقرنا أنفسنا؛ ولم تزل تلك حالنا حتى صارت في أعيننا كالجبل وصِرنا كلا شيء. ولمّا انصرفت أمر لها المعتضِدُ بمال وكُسوة. ودخلت إلى مولاها فجعل يسألُها عن خبرها وما رأت مما استظرفت وسمعت واستغربت؛ فقالت: ما استحسنتُ هناك شيئًا ولا استغربته من غناء ولا غيره إلّا عُودًا من عود محفورًا فإني استظرفته. قال جحظة: فما قولُك فيمن تدخل إلى دار الخليفة ولا تُمدّ عينَها إلى شيء تستظرفه وتستحسنه إلّا عودًا!

قالوا: وكان المعتَضِدُ إذا استحسن شيئًا بعث به إلى ساجي فتُغنّي فيه. وكانت صنعتها في عصره تُسمَّى غناءَ الدار. وماتت ساجي في حياةِ مولاها وكان عليلًا، فرثاها ببيتين فقال: [من الطويل]

يَمِينًا يقينًا لو بُلِيتُ بفَقْدِها وبي نَبْضُ عِرْقٍ للحياةِ وللنُّكْسِ[٦]
لأوشكتُ قتْلَ النفسِ قبل فِرَاقِها ولكنها ماتت وقد ذهبَتْ نَفْسِي

ذِكْرُ أخبار دُقَاق

قال أبو الفرج: كانت دُقاق مغنّيةً محسِنةً مُتْقِنةَ الأداء والصنعة جميلةَ الوجه. أخذت الغناءَ عن أكابرِ مغنّي الدَّولةِ العبّاسية. وكانت ليحيىٰ بنِ الربيع[٧]، فولدت له ابنه أحمدَ. ومات يحيىٰ فتزوّجت بعده بعِدَّةٍ من القوّادِ والكتّابِ فماتوا ووَرِثتْهم، ثم

(١) جحظة: سبق التعريف به.
(٢) المعتضد بالله: أحمد بن الموفق، الخليفة العباسي السادس عشر. عقد صلحًا مع خمارويه الطولوني ثم اقترن بابنته. هزم جيشه أبو سعيد الجنابي. مات سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م.
(٣) عبيد الله: هو ابن عبد الله بن طاهر. أمير وأديب وشاعر، بغدادي النشأة، وُلي شرطة بغداد، قرّبه المعتضد، الخليفة العباسي. من مصنّفاته: «الإشارة في أخبار الشعراء» و«السياسة الملوكية» مات سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٣ م.
(٤) قم: إحدى مدن إيران القديمة بين طهران وإصفهان.
(٥) ترفل: تنعم.
(٦) النكس: العودة إلى المرض من بعد شفاء.
(٧) يحيىٰ بن الربيع: أخو الفضل بن الربيع البرمكي الذي كان وزيرًا لهارون الرشيد.

انقطعت إلى حَمْدونةَ بنتِ الرشيدِ ثم إلى غَضِيض. وكانت مشهورةً بالظَّرْف والمُجُون.

قال هِبةُ اللهِ بنُ إبراهيمَ بنِ المهديّ: وكانت تُواصِل جماعةً كانوا يميلون إليها وتُرِي كلَّ واحد منهم أنها تهواه. وكانت أحسنَ أهل عصرها وجهًا وأشأمهم على من تزوّجها أو رابطها. فقال فيها إبراهيمُ بنُ المهديّ: [من الوافر]

عَدِمْتُكِ[1] يا صَدِيقةَ كلِّ خَلْقٍ أَكُلَّ الناسِ وَيْحَكِ تَعْشَقينا
وكيف إذا خَلَطتِ الغَثَّ[2] منهم بِلَحْمِ سَمِينِهم لا تَبْشَمِينا[3]

قال أبو هفّان: خرج يحيىٰ بنُ الربيع إلى بعض النواحي وترك جاريته دُقاقَ في داره؛ فعمِلت بعده الأوابد[4]. فقال موسى الأعمى فيه: [من الخفيف]

قُلْ لِيحيىٰ نعمْ صَبَرْتَ على المو ت ولم تخشَ ريبَ[5] سَهْمِ المَنُونِ
كيف قل لي أطَقْتَ ويحكَ يا يحـ ـيىٰ على الضّعْفِ منك حَمْلَ القُرون

يشير بقوله: «سهم ريب المنون» إلى شُؤمها.

ذِكْر أخبار قَلم الصالحيّة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت قَلم الصالحيّةُ مُوَلَّدةً صفراءَ حُلْوةً حَسَنَةَ الغِناء والضَّرْبِ حاذقةً، قد أخذت عن إبراهيمَ وابنهِ إسحٰقَ ويحيىٰ المكيِّ وزُبَير بنِ دحمان. وكانت لصالحِ بنِ عبدِ الوهاب أخي أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد، وقيل: بل كانت لابنهِ. قال: وكانت لها صَنْعةٌ يسيرة نحو عشرين صوتًا، فاشتراها الواثقُ[6] بعشرة آلاف دينار.

قال أحمد بنُ الحسينِ بنِ هشام: كانت قَلم إحدى المغنِّيات المُحسِنات المتقدّمات، فغُنِّي بين يدي الواثق لحنٌ لها في شعر محمد بن كناسة، وهو:

---

(1) عدمتك: فقدتك.
(2) الغث: الهزيل.
(3) تبشمين: تتخمين من الشبع.
(4) الأوابد: الدواهي، جمع آبدة.
(5) ريب المنون: صرف الدهر.
(6) الواثق بالله: هارون بن المعتصم، الخليفة العباسي الذي ناصر المعتزلة ودافع عن القول بخلق القرآن محتذيًا حذو المأمون. مات سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م. انظر: التنبيه والإشراف، ص ٣١٢.

[من المنسرح]

فيّ انقباضٌ وحِشْمةٌ[١] فإذا صادفتُ أهل الوفاءِ والكرم
أرسلتُ نفسي على سَجِيّتِها[٢] وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحْتَشِمِ

فسأل: لمن الصَنعة؟ فقيل: لقلم الصالحيّةِ جاريةِ صالحِ بنِ عبد الوهاب. فبعث إلى محمدِ بنِ عبدِ الملك الزّيات[٣] فأحضره وسأله: مَنْ صالحُ بنُ عبدِ الوهاب؟ فأخبره. قال: وأين هو؟ قال: ببغداد. قال: ابعثْ وأشخِصْه[٤] وليُحْضِرْ معه جاريته قَلم. فكتب في إشخاصهما، فقدِما على الواثق، فدخلت عليه، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنّت فاستحسن غِناءها وأمر بابتياعها. فقال صالح: أبيعها بمائة ألف دينار ووِلاية مصر. فغَضِب الواثقُ من ذلك وردّها إليه. ثم غنّى بعد ذلك زرزر الكبير في مجلس الواثق بشعرِ الغِناءُ فيه لها؛ فقال الواثق: لمن هذا الغناء؟ فقال: لقلم الصالحيّة؛ فبعث إلى ابنِ الزيّاتِ بإشخاصِها ففعل، فدخلتْ على الواثقِ فأمرها بالغناء، فغنّته من صنعتها فأعجبه غناؤها، وبعث إلى صالح فأحضره وقال له: إنّي قد رَغِبتُ في هذه الجارية فاسْتَمْ[٥] في ثمنها سَوْمًا يجوز أن تُعْطاه. فقال: أمّا إذ وقعت الرغبةُ فيها من أميرِ المؤمنينَ فما يجوز أن أملِكَ شيئًا له فيه رغبة، وقد أهديتُها إلى أمير المؤمنين، فإنّ من حقها عليّ إذا تَناهَيْتُ في قَضَائه أن أُصَيِّرها ملكه، فبارك الله له فيها. فقال الواثق: قد قَبِلتُها، وأمر ابنَ الزيّاتِ أن يدفعَ إليه خمسةَ آلافِ دينار، وسمّاها اعتباطًا. فلم يُعْطِه ابنُ الزيّاتِ المالَ ومَطَله[٦] به؛ فوَجّه إلى قلم مَنْ أعلمها بذلك؛ فغنّت الواثقَ صوتًا وقد اصطبح[٧]؛ فقال لها: بارك الله فيك وفيمن ربّاك. فقالت: يا سيِّدي وما نَفْعُ مَنْ ربّاني منّي إلّا التعب والغُرْم والخروج منّي صِفْرا[٨]! فقال: أوَلم نأمر له بخمسة آلاف دينار؟ قالت: بلى! ولكنّ ابنَ الزيّاتِ لم يُعْطِه شيئًا. فدعا بخادم من خاصّةِ الخدم ووَقَّع إلى ابنِ الزيّات بحملِ خمسة آلاف الدينار إليه وبخمسة آلاف أخرى معها. قال صالح: فصِرْتُ مع الخادم إليه فقرّبني وقال: أمّا

(١) الحشمة: الوقار والاحترام. (٢) على سجيتها: على رسلها وطبعها.
(٣) هو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، استوزره الخليفة المعتصم، ثم الواثق، ثم المتوكل، وهذا الأخير استوزره أربعين يومًا من خلافته ثم قتله، مستوزرًا من بعده محمد بن الفضل الجرجرائي. وكان ذلك ٢٣٣ هـ. انظر: التنبيه والإشراف ص ٣١٠ ـ ٣١٥.
(٤) أشخصه: أحضره. (٥) استم: اطلب الثمن الذي يتم الاتفاق عليه.
(٦) مطله به: أجلّ دفعه له. (٧) اصطبح: شرب الخمرة صبحًا.
(٨) صفرًا: خاليًا من أيّ شيء.

خمسةُ الآلاف الأولى فقد حضرتْ، وخمسةُ الآلاف الأخرى أنا أدفعها إليك بعد جمعة. قال: فقمت، ثم تناساني كأنه لم يعرفني. فكتبت إليه أقتضيه؛ فبعث إليّ: اكتُبْ لي قبضًا بها وخذها بعد جمعة. فكرِهتُ أن أكتب إليه قبضًا فلا يحصُل لي شيء. قال: فاستترت في منزل صديق لي. فلما بلغه استتاري خاف أن أشكوَه إلى الواثق، فبعث إليّ بالمال وأخذ كتابي بالقبض. قال: فابتعتُ بالمال ضَيْعةً وتعلّقت بها وجعلتها معاشي، وقَعَدتُ عن عمل السلطان، فما تعرّضْت لشيء بعدها.

ذِكر أخبار بَصْبَص جارية ابن نَفِيس

قال أبو الفرج: كانت جاريةً من مولَّدات المدينة حُلوةَ الوجهِ حسنةَ الغِناء، قد أخذت عن الطبقة الأولى من المغنّين. وكان يحيىٰ بنُ نَفِيسٍ مولاها صاحب قِيَان، يغشاه[1] الأشرافُ ويسمعون غناءَ جواريه. ثم اشتُريت للمهديّ، وهو وليُّ عهد، بسبعةَ عشَر ألف دينار. وقيل: إنها ولدت له عليّةَ بنتَ المهديّ وقيل: أمّ عليّة غيرها. قال: وكان عبدُ اللهِ بنُ مُصْعَب بنِ ثابتِ بنِ عبدِ الله بن الزُّبَير يأتيها فيسمع منها، وكان يأتيها فتيانُ قريشٍ فيسمعون منها. فقال عبدُ الله بن مُصْعَب حين قدِم المنصورُ مُنْصرِفًا إلى الحجّ ومرّ بالمدينة يذكر بَصْبَصَ: [من السريع]

أرَاحِـلٌ أنـت أبـا جَـعْـفَـرِ من قبلِ أن تسمَع مِنْ بَصْبَصَا
هـيـهـاتَ أن تـسـمـع مـنـهـا إذا جاوزتِ العِيسُ[2] بك الأعْوَصا[3]
فـخُـذْ عـلـيـهـا مَـجْـلِسَـيْ لَذّةٍ ومَجلِسًا من قبلِ أن تَشْخَصا
أحـلِفُ بـالله يـمـيـنًـا ومَـنْ يَـحـلِفُ بـالله فـقـد أخـلصا
لـو أنـهـا تـدعـو إلـى بَـيْـعـة بايعتُها ثم شَقَقتُ العصا[4]

فبلغ الشعرُ أبا جعفرٍ المنصورَ، فغضِب ودعاه، ثم قال: أمَا إنكم يا آل الزبير قديمًا ما قادتكم النساء وشققتم معهنّ العصا، حتى صرت أنت آخر الحَمْقَى تُبايع المغنّيات! فدونكم يا آلَ الزبيرِ هذا المرتَعَ الوخيم[5].

---

(١) يغشاه: يأتيه ويزوره.

(٢) العيس: جمع عيساء، وهي الناقة البيضاء يخالط لونها سواد خفيف.

(٣) الأعوص: اسم موضع قرب المدينة المنوّرة. وثمة أعوص آخر، هو وادٍ في ديار باهلة. انظر: معجم البلدان ١/ ٢٢٣.

(٤) شققت العصا: خالفت ولم تطع.

(٥) المرتع الوخيم: المكان الذي يرتع فيه ويلعب، لكن عاقبته وخيمة وسيئة.

وقال هارون بنُ محمدِ بنِ عبد الملك وهو ابنُ ذي الزوائد فيها: [من السريع]

بَصْبَصُ أنتِ الشمسُ مُزْدانةً فإنْ تبدّلْتِ فأنتِ الهِلالُ
سبحانَك اللّهمّ ما هكذا فيما مضى كان يكون الجَمَالُ
إذا دعتْ بالعودِ في مَشْهَدٍ[١] وعاونتْ يُمْنَى يديها الشِّمالُ
غنّتْ غناءً يَستفِزُّ[٢] الفتى حِذْقًا[٣] وزَانَ الحذقَ منها الدَّلالُ

قال: وهَوِيَ محمدُ بنُ عيسى الجعفريّ بصبصَ فهام بها وطال ذلك عليه؛ فقال لصديق له: قد شغلتني هذه عن صَنْعتي وكلِّ أمري، وقد وجدتُ مَسّ السُّلُوّ عنها، فاذهبْ بنا إليها حتى أُكاشفَها ذلك وأستريح. فأتياها؛ فلما غنّتهما قال لها محمد بن عيسى: أتغنّين: [من الوافر]

وكنتُ أُحِبُّكُمْ فسلَوْتُ عَنْكُم عَلَيْكُم في ديارِكُمُ السَّلامُ

فقالت: لا، ولكني أُغَنِّي: [من الوافر]

تَحَمَّلَ أهلُها عنها فبانوا[٤] على آثارِ مَنْ ذهَبَ العَفَاءُ[٥]

قال: فاستحيا وازداد بها كَلَفًا ولها عِشقًا؛ فأطرق ساعةً ثم قال لها: أتغنِّين: [من الطويل]

وأخضَعُ بالعُتْبَى[٦] إذا كنتُ مُذْنِبًا وإن أذنبتْ كنتُ الذي أتنصَّلُ[٧]

قالت: نعم، وأغنِّي أحسن منه: [من الطويل]

فإن تُقْبِلوا بالوُدّ نُقْبِلْ بمثله ونُنْزِلكم منّا بأقرب منزِلِ

فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين، وما شعر بهما أحد.

قال: وحضر أبو السائب المخزوميّ مَجلِسًا فيه بَصْبَص، فغنّت: [من المنسرح]

قلبي حبيسٌ عليكِ موقوفُ والعينُ عَبْرَى[٨] والدمعُ مذروفُ[٩]

(١) مشهد: محضر.
(٢) يستفزّ: يثير، ويدعو إلى الخفّة والطرب.
(٣) حذقًا: مهارة.
(٤) بانوا: فارقوا وارتحلوا.
(٥) العفاء: البلى والاندثار والهلاك.
(٦) العتبى: الرضا.
(٧) أتنصّل: أتراجع.
(٨) عبرى: فيها عبرات ودموع.
(٩) مذروف: سائل.

والـنـفسُ فـي حَـسْـرةٍ بـغُـصّـتـهـا   قـد شَـفّ[١] أرجاءَها الـتساويفُ[٢]
إن كنتِ بالحُسْنِ قد وُصِفْتِ لنا   فـإنّـنـي بـالـهـوى لـمَـوصـوفُ
يـا حَـسْـرَتـا حـسـرةً أمـوتُ بـهـا   إنْ لـم يـكـن لـي إلـيـكِ مـعـروفُ

قال: فطَرِب أبو السائب ونَعَر[٣] وقال: لا عَرَف الله من لا يعرِف لك معروفَك، ثم أخذ قِناعَها عن رأسِها ووضعه على رأسِه وجعل يبكي ويَلْطِم ويقول لها: بأبي أنتِ! والله إني لأرجو أن تكوني عندَ الله أفضلَ من الشُّهداء لِما تُولِينا من السرور، وجعل يصيح: واغَوْثاه![٤] ياللهِ ما يلقَى العاشقون!

وقال عثمانُ بنُ محمد الليثيّ: كنت يومًا في منزل ابنِ نَفيسٍ، فخرجتْ إلينا جاريتُه بَصْبَصُ، وكان في القوم فتًى يحبُّها، فسألتْه حاجةً فقام ليأتِيَها بها، فنسِي أن يلبس نعله ومضى حافيًا. فقالت له: يا فلان، نسيتَ نعلك؛ فرجع فلبِسها وقال: أنا والله كما قال الأوّل: [من الطويل]

وحُبّكِ يُنْسِينِي عن الشيء في يَدِي   ويَشْغَلُني عن كلّ شيءٍ أُحاوِلُهْ

فأجابته فقالت: [من الطويل]

وبي مثلُ ما تشكوه مِنّي وإنّني   لأُشْفِق من حبٍّ لذاكَ تُزايِلُهْ[٥]

ذِكر أخبار جواري ابن رامين
وهنّ سلّامة الزَّرْقاء، وربيحة، وسَعْدَة

قال أبو الفرج: وابنُ رامينَ هو عبدُ الملكِ بنُ رامين مولى عبدِ الملكِ بنِ بِشْر بن مروان. وكان له جوارٍ مُغنِّيات مُجيدات، وهنّ سلّامةُ الزرقاء، وربيحةُ، وسَعْدَة. وفيهنّ يقول إسماعيلُ بنُ عمّار قصيدته التي أوّلها: [من البسيط]

هـل مِـن شِـفَـاءٍ لـقـلـبٍ لَجَّ مَـحْـزُونِ   صَـبَـا[٦] وصَـبَّ إلـى رِئْـمٍ[٧] ابـن رامـيـن
إلــى ربــيــحــة إن الله فَــضَّــلـهــا   بـحُـسْـنِـهـا وسـمـاعِ ذي أفـانـيـنِ[٨]

---

(١) شفّ: رقّق.
(٢) التساويف: المطل، والوعود الكاذبة.
(٣) نعر: هاج واضطرب.
(٤) واغوثاه: واطلبًا للغوث والمعونة.
(٥) تزايله: تفارقه.
(٦) صبا: مال.
(٧) رئم: غزال خالص البياض. كناية عن الحبيب.
(٨) أفانين: فنون، أشكال وضروب.

نَعَمْ شِفاؤكَ منها أن تقولَ لها قَتَلْتِني يومَ دَيْرِ اللُّجِّ[١] فاحييني
أنتِ الطبيبُ لداءٍ قد تَلَبَّس بي من الجَوَى[٢] فانْفُثِي[٣] في فيّ[٤] وارقِيني
نَفْسِيَ تأبَى لكم إلّا طَوَاعِيةً وأنتِ تَحْمَيْنَ أنفًا أن تُطيعيني

ومنها: [من البسيط]

لم أنسَ سَعْدةَ والزَّرقاءَ يومَهما باللُّجِّ شَرْقِيَّه فوقَ الدكاكين
يُغَنِّيان ابنَ رامينٍ ضُحَاءَهما[٥] بالمِسْجَحِيِّ[٦] وتشبيب المحبِّينِ
فما دعوت به في عيشِ مملكةٍ ولم نَعِشْ يومَنا عيشَ المساكين

وهي أبيات طويلة، وله فيهنّ غيرها.

قال: واشترى جعفرُ بنُ سليمانَ بنِ عليٍّ سلّامةَ الزرقاءَ بثمانينَ ألف درهم؛ وقيل: إنه اشترى ربيحةَ بمائة ألف درهم، والأوّل أصح. وقيل: إنّ الذي اشترى ربيحة محمدُ بنُ سليمانَ، واشترى صالحُ بنُ عليٍّ[٧] سَعْدةَ بتسعين ألف درهم. وقيل: اشترى مَعْنُ بنُ زائدةَ[٨] إحداهنّ. قال: وكانت سلّامة الزرقاء عاقلةً شَكِلةً[٩]. قال: ولمّا اشتراها جعفرٌ ومضتْ لها مدّةٌ عنده، سألها يومًا: هل ظَفِر منك أحَدٌ قطُّ ممن كان يهواكِ بخَلْوة أو قُبْلة؟ فخشِيتْ أن يبلُغه شيء كانت فعلتْه بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه شيء، فقالت: لا واللهِ إلا يزيد بن عَوْن العباديّ الصيرفي، فإنه قَبّلني قُبْلةً وقذف في فيَّ لؤلؤةً بعتُها بثلاثين ألف درهم. فلم يزل جعفر بن سليمان يحتال له حتى وقع به فضربه بالسِّياط حتى مات.

(١) دير اللّجّ: اسم موضع يقع في الحيرة، بناه النعمان بن المنذر اللخمي، جنوب العراق.
(٢) الجوى: حرقة الهوى والعشق.
(٣) انفثي: اقرئي عليه ما تودّين من الرّقى والطلاسم والعزائم.
(٤) فيّ: فمي.
(٥) ضحاءهما: وقت ارتفاع النهار.
(٦) المسجحي: النغم أو اللحن المنسوب إلى ابن مسجح، المغنّي المعروف.
(٧) صالح بن علي: هو عم السفّاح أول خليفة عباسي، وعم المنصور الخليفة الثاني. تولّى مصر والشام وفلسطين. وأنشأ مدينة أدنة في الأناضول بتركيا. تُوفي في قنسرين سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م.
(٨) معن بن زائدة: من أشهر أجواد العرب وسراتهم. عمل لدى الأمويين والعباسيين. ولّاه الخليفة المنصور بلاد اليمن وسجستان حيث قتل هناك وذلك سنة ٧٦٩ م. ولقد حفلت كتب الأدب والرواية بأخباره والإطراء على جوده وكرمه. وتضمنت العديد من الأشعار التي قيلت فيه.
(٩) شكلة: فيها غنج ودلال.

وقد روى أبو الفرج الأصفهانيّ في خبر يزيدَ بنِ عون هذا بسندٍ رفعه إلى عبدِ الرحمـٰنِ بنِ مقرون أنه اجتمع هو ورَوْح بنُ حاتـم[١] عندَ ابنِ رامين، وأن الزرقاء خرجتْ عليهم في إزارٍ ورداء قَهْوِيَّين مُوَرَّدين، كأنَّ الشمس طالعةٌ بين رأسها وكعبها. قال: فغنّتنا ساعة؛ ثم جاء الخادم الذي كان يأذَن لها ـ وكان الإذنُ عليها دون مولاها ـ فقام على الباب وهي تغنّي، حتى إذا قطعت الغناءَ نظرتْ إليه فقالت: مه! قال: يزيد بن عَوْن العباديّ الصيرفيّ الملقَّب بالماجن على الباب. قالت: ائذن له. فلما استقبلها طَفَر[٢] ثم أقعَى[٣] بين يديها، فوَجِدتْ[٤] والله له، ورأيتُ أثر ذلك، وتنوّقتْ تَنَوُّقًا[٥] خلافَ ما كانت تفعل بنا. فأدخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين فقال: انظري يا زرقاءُ، جُعِلتُ فداكِ! ثم حلف أنه نَقَد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم. قالت: فما أصنعُ بك؟ قال: أردتُ أن تعلَمي. فغنّت صوتًا ثم قالت: يا ماجنُ هَبْهما لي! قال: إن شئتِ والله فعلتُ. قالت: قد شئتُ. قال: فاليمينُ التي حلفتُ بها لازمةٌ لي إن أخذتِهما إلا بشَفَتَيْكِ من شَفَتيّ. فقال ابنُ رامين للغلام: ضَع لي ماءً ثم خرج عنا؛ فقالت: هاتِهما. فمشى على رُكبتيه وكفّيه وهما بين شفتيه وقال: هاكِ؛ فلما ذهبتْ تتناولهما جعل يَصُدّ عنها يمينًا وشمالًا ليستكثر منها؛ فغمزتْ جاريةً على رأسها، فخرجت كأنها تريد حاجةً ثم عطفت عليه؛ فلما دنا وذهب ليروغ دفعتْ مَنْكِبيه وأمسكتهما حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بشفتيها من فمه ورَشَح جبينها عرقًا حياءً منا. ثم تجلّدَت علينا فأقبلت عليه وقالت: المغبونُ في استِه عود. فقال: فأمّا أنا فلا أُبالي، والله لا يزال طيبُ هذه الرائحة في أنفي وفمي ما حَيِيت.

قال: واجتمع عندَ ابنِ رامين مَعْنُ بنُ زائدةَ ورَوْحُ بنُ حاتـم وابنَ المُقَفَّع[٦]. فلما تغنّت الزَّرقاءُ وسَعْدةُ بعث مَعْن فجيء ببَدْرةٍ فصَبّها بين يديها، وبعث رَوْح فجيء

---

(١) روح بن حاتم: أخو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب أبي صفرة الأزدي. وُلي بلاد السند، للسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد، وهم أوائل الخلفاء العباسيين. مات سنة ١٧٠ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٢٧٣.

(٢) طفر: وثب.

(٣) أقعى: جلس أو قعد على استه.

(٤) وجدت: رثيت وحزنت.

(٥) تنوقت تنوقًا: تدفّق تدفقًا، وتجوّد وتأنّق.

(٦) ابن المقفع: واسمه عبد الله، من أصل فارسي. من كبار الكتاب والمبدعين في العصر الأموي ثم في أول العصر العباسي. قتله الخليفة المنصور سنة ٧٥٩ م بعد أن أوعز إلى واليه في البصرة بأن يميته شرّ ميتة، فسجره في التنوّر، وذلك بسبب ادعاء المنصور أن ابن المقفع كان مجوسيًا. له من المصنّفات، «كليلة ودمنة» و«الأدب الصغير» و«الأدب الكبير».

ببَدْرة فصبّها بين يديها، ولم تكن عند ابن المقفّع دراهم، فبعث فجاء بصَكّ ضيعةٍ، وقال: هذه عُهْدَةُ ضَيْعتي خذيها، فأمّا الدراهم فما عندي منها شيء. وشربت زَرْقاء دواءً فأهدى لها ابن المقفّع ألفَ دُرَّاجة[1].

وعن إسحٰق بنِ إبراهيم قال: كان رَوْحُ بنُ حاتمِ بنِ المُهَلَّب كثيرَ الغِشْيان[2] لمنزل ابنِ رامين، وكان يختلفُ إلى الزَّرْقاء، وكان محمدُ بنُ جميلٍ يهواها وتهواه؛ فقال لها: إنّ رَوْحَ بنَ حاتمٍ قد ثَقُل علينا. قالت: فما أصنع وقد غَمَر مولاي ببِرِّه! قال: احتالِي له. فبات عندهم رَوْح ليلةً، فأخذت سراويلَه وهو نائم فغسلته. فلما أصبح سأل عنه، فقالت: غسلناه. فظنّ أنه أحدَثَ فيه فاحتيج إلى غَسْله فاستحيا من ذلك فانقطع عنهم؛ وخلا وجهُها لابنِ جميل.

ذِكر أخبار عِنَان جارية الناطفيّ

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت عِنَانُ مولَّدة من مولَّداتِ اليمامةِ، وبها نشأت وتأدّبت، واشتراها الناطفيُّ وربّاها. وكانت صفراءَ جميلةَ الوجهِ شَكِلةً مليحةَ الأدبِ والشعرِ سريعة البَديهةِ، وكان فحول الشعراء يُساجلونها ويُعارضونها فتنتصف منهم. ولها مع أبي نُوَاس[3] الحسنِ بنِ هانىءٍ وغيرهِ من الشعراء والفضلاءِ مُعَاياةٌ[4] ومُرَاجَعات، نذكر منها طَرَفًا.

قال أبو حَبَش: قال لي النّاطِفِيّ: لو جئتَ إلى عِنَان فطارحتَها! فعزمتُ على الغُدُوّ إليها، وبِتُّ ليلتي أحوكُ بيتين، ثم غدوتُ عليها فأنشدتها: [من الطويل]

أحَبَّ المِلَاحَ البِيضَ قلبي ورُبّما ... أحَبَّ المِلاحَ الصُّفْرَ من وَلَدِ الحَبَشْ[5]
بَكَيتُ على صفراءَ منهنّ مَرّةً ... بكاءً أصابَ العين مِنّيَ بالعَمَشْ[6]

---

(١) الدراجة، واحدة الدرّاج، وهو ضرب من الطيور يشبه السّماني.
(٢) الغشيان: الإتيان.
(٣) أبو نواس: الحسن بن هانىء، أحد ألمع شعراء العصر العباسي الأول، وزعيم المدرسة التجديدية في الشعر العربي. لقب بشاعر الخمرة، ومال إلى اللهو والتهتك، وفي آخر حياته تاب إلى ربه وزهد الحياة الدنيا. اتصل بالبرامكة وبالأمين فكان شاعره الخاص. تُوفي سنة ٨١٤ م.
(٤) المعاياة: إلقاء الكلام الذي لا يهتدى إليه بسهولة.
(٥) الحبش: جنس من الزنوج في إفريقيا.
(٦) العمش: ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات.

فقالت عنان: [من الطويل]

بكيتُ عليها إنّ قلبي يُحِبُّها وإنّ فُؤادي كالجَناحَيْنِ ذو رَعَشْ[١]

تَعَيَّيْتَنا بالشعرِ لمّا أتيتَنا فدونَك خذه مُحْكَمًا يا أبا حَبَشْ

وقال مَرْوَانُ بنُ أبي حَفْصَةَ[٢]: لقيني الناطفيُّ فدعاني إلى عِنَان، فانطَلقت معه. فدخل إليها قبلي فقال: جئتكِ بأشعر الناسِ مروانَ بنِ أبي حفصةَ؛ فوجدها عليلة فقالت: إني عن مروان لفي شغل. فأهوى إليها بسوط[٣] فضربها، وقال لي: أُدخل؛ فدخلت وهي تبكي، فرأيت الدموع تتحدّر من عينيها؛ فقلت: [من السريع]

بكتْ عِنَانُ فجرى دمعُها كالدُّرّ إذ يَسْبِقُ من خَيْطهِ

فقالت مُسرِعة: [من السريع]

فليتَ مَنْ يضربها ظالِمًا تَيْبَسُ يُمْناهُ على سَوْطِهِ

قال مروان: فقلت: أُعْتِق[٤] ما أملك إن كان في الجنّ والإنس أشعرُ منها.

وقال أحمدُ بنُ مُعَاويةَ قال لي رجل: تَصَفّحتُ كتبًا فوجدتُ فيها بيتًا جَهَدت جهدي أن أجدَ مَن يُجيزه[٥] فلم أجِد. فقال لي صديق لي: عليك بعِنَان جارية الناطفيّ؛ فأتيتُها فأنشدتُها البيتَ وهو: [من الطويل]

وما زالَ يشكو الحبَّ حتى رأيتهُ تَنَفَّس من أحشائه وتَكَلّما

فلم تلبث أن قالت: [من الطويل]

ويَبْكِي فأبكِي رحمةً لبكائِهِ إذا ما بَكَى دمعًا بكيتُ له دما

وقال موسى بنُ عبدِ الله التميميّ: دخل أبو نُوَاس على الناطفيّ وعِنانُ جالسةٌ تبكي، وقد كان الناطفيّ ضربها، فأومأ إلى أبي نُوَاس أن حَرِّكْها بشيء؛ فقال أبو

---

(١) رعش: اضطراب وارتعاد.

(٢) مروان بن أبي حفصة: شاعر مخضرم أموي عباسي، شعره رقيق، وعبارته صافية. مدح الرشيد ومن قبله المهدي، كما مدح معن بن زائدة، الجواد الكريم المشهور. مات سنة ٧٩٨ م.

(٣) السوط: الدّرّة، يضرب بها.

(٤) أعتق: أحرّر. وعتق الملك: تحرير الإماء والعبيد من الرقّ.

(٥) يجيزه، من الإجازة، وهي أن تقول بيتًا من الشعر، أو نصف بيت أو أكثر وتطلب إلى الآخر أن يكمله على الرويّ نفسه والقافية عينها.

نُوَاس: [من المنسرح]

عِنَانُ لو جُدْتِ لي فإنِّيَ مِنْ عُمْرِيَ في ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ﴾[١]

فقالت: [من المنسرح]

فإن تمادى[٢] ولا تَمَاديتَ في قَطْعِكَ حَبْلي أكُنْ كمن خَتَما

فقال أبو نواس: [من المنسرح]

عَلَقتُ مَنْ لو أتَى على أنفُس الـ ـماضين والغابرين[٣] ما نَدِما

فقالت: [من المنسرح]

لو نَظَرتْ عينُها إلى حَجَرٍ وَلَّدَ فيه فُتُورُها[٤] سَقَما[٥]

وقال أبو جعفر النَّخَعِيّ: كان العبَّاسُ بنُ الأحْنَفِ[٦] يهوَى عِنانَ جارية الناطفيّ. فجاءني يومًا فقال لي: امضِ بنا إلى عِنان. فصِرنا إليها، فرأيتها كالمُهَاجِرة له؛ فجلسنا قليلًا؛ ثم ابتدأ العبّاس فقال: [من مجزوء الرمل]

قال عبّاسٌ وقد أُجْـ ـهِدَ من وجْدٍ شَدِيدِ
ليس لي صَبْرٌ على الهَجْـ ـرِ ولا لَذْعِ الصُّدودِ[٧]
لَا ولَا يَصْبِر للهَجْـ ـرِ فؤادٌ من حَدِيدِ

فقالت عنان: [من مجزوء الرمل]

مَنْ تراه كان أغنَى منكَ عن هذا الصُّدودِ
بعدَ وَصْلٍ لك مِنِّي فيه إرغامُ الحَسُودِ!
فاتَّخِذْ للهَجْرِ إن شئـ ـتَ فؤادًا من حَدِيدِ
ما رأيناك على ما كنتَ تَجْنِي بِجَلِيدِ[٨]

---

(١) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ﴾ هذا الكلام هو أول الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، وهي قبل انتهاء آيات البقرة بآية واحدة. إشارة منه إلى دنوّ أجله. وتمام الآية هو: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

(٢) تمادى: تجاوز الحد. (٣) الغابرين: الماضين.

(٤) فتورها: كسلها، وهو مستملح في العين. (٥) سقمًا: مرضًا وداءً.

(٦) العباس بن الأحنف، شاعر عباسي سبق التعريف به.

(٧) الصدود: الامتناع. (٨) جليد: صبور.

فقال عبّاس: [من مجزوء الرمل]

لـو تـجُـودِيـنَ لـصَـبٌ[١] راحَ ذا وَجْـدٍ شَـدِيـدِ
وأخِـي جَـهْـلٍ بـمـا قـد كـان يـجـنـي بـالـصُّـدودِ
لـيـس مَـنْ أحـدث هـجـرًا لِصَـديـقٍ بِـسـديـدِ[٢]
لـيـس مـنـه الـمـوتُ إن لـم تَـصِـلِـيـهِ بِـبَـعِـيـدِ

قال: فقلت للعبّاس: ويحَك! ما هذا الأمر؟ قال: أنا جَنَيتُ على نفسي بتتايُهي[٣] عليها. فلم أبرَحْ حتى تَرَضَّيتها له.

وقال الأصمَعيّ: بعثت إليّ أمُّ جعفرٍ أنّ أمير المؤمنين قد لَهِج بذكر هذه الجارية عِنان، فإنْ صَرَفتَه عنها فلك حكمُك. قال: فكنت أربَعُ[٤] لأنْ أجِد للقول فيها موضِعًا فلا أجده ولا أُقدِمُ عليه هيبةً له؛ إذ دخلتُ يومًا فرأيتُ في وجهه أثر الغَضَبِ فانخزلتُ[٥]. فقال: مالك يا أصمعيّ؟ قلت: رأيتُ في وجه أمير المؤمنين أثَر الغضب، فلعن اللهُ مَن أغضبه! فقال: هذا الناطفيُّ، واللهِ لولا أنّي لم أجُزْ في حكمٍ قطُّ متعمِّدًا لجعلتُ على كل جبل منه قِطعة! ومالي في جاريته من أرَبٍ[٦] غيرَ الشعر. قال الأصمعيّ: فذكرتُ رسالةَ أمّ جعفر فقلت: أجَلْ، والله ما فيها غيرُ الشعر، أفيَسُرّ أميرَ المؤمنين أن يُجامع الفرزدق[٧]! فضحِك حتى استلقى. واتّصل قولي بأمّ جعفر فأجزلتْ لي الجائزة.

وقال يعقوبُ بنُ إبراهيم: طلب الرشيدُ من الناطفيّ جاريتَه، فأبى أن يَبيعها بأقلَّ من مائة ألف دينار. فقال الرشيد: أعطيك مائةَ ألف دينار على أن تأخذ الدينارَ بسبعة دراهم، فامتنع عليه، فأمر أن تحمل إليه. فذكروا أنها دخلتْ مَجْلِسَه في هيئتها؛ فقال لها الرشيدُ ويلَك! إن هذا قد اعتاص[٨] عليّ في أمرك. فقالت: ما مَنَعك أن تُوفِيه وتُرْضِيه؟ فقال: ليس يقنَع بما أُعطيه، وأمرها بالانصراف. فتصدّق الناطفيّ حين رجعت إليه بثلاثين ألف درهم. فلم تزل في قلب الرشيد حتى مات مولاها. فلما

---

(١) الصّب: العاشق.
(٢) سديد: مصيب.
(٣) التتايه: الكبر والعلوّ، من التّيه.
(٤) أربع: أحاول جاهدًا.
(٥) انخزلت: رجعت.
(٦) أرب: حاجة.
(٧) الفرزدق: هو همّام بن صعصعة بن مجاشع الدارمي التميمي. من عمالقة الشعراء الأمويين. اشتهر بالمدح والهجاء. عرف بنقائضه مع خصمه الألدّ جرير. شعره متين التركيب، قوي العبارة جزلها. مات سنة ٧٣٣ م.
(٨) اعتاص عليّ: عسر عليّ، وخفي وعسُر.

مات بعث الرشيد مسرورًا الخادم، فأخرجها إلى باب الكَرْخ[١] وأقامها على سرير وعليها رداءٌ سِنْدِيّ قد جَلّلها، فنُودي عليها فيمن يزيد بعد أن شاور الفقهاءَ فيها، فقالوا: هذه كَبِدٌ رَطْبَة وعلى الرجل دَين، فأشاروا ببيعها. وكانت تقول وهي على المصطبة: أهان الله من أهانني وأرذل من أرذلني! فوكَزَها مسرورٌ بيده. وبلغ بها مسرورٌ مائتي ألف درهم؛ فجاء رجل فقال: عليّ زيادة خمسة وعشرين ألف درهم؛ فوكزه مسرور وقال: أتَزيد على أمير المؤمنين! فبلَغ بها مائتين وخمسين ألف درهم وأخذ مالها. قال: ولم يكن فيها عيبٌ يعاب، فطلبوا لها عيبًا لا تُصيبها العينُ، فأوقعوا بخِنْصَر رِجْلها في ظُفره شيئًا. قال: وأولدها الرجل الذي اشتراها ولدين، ثم خرج بها إلى خُرَاسانَ فمات هناك وماتت بعده.

ذِكر أخبار شارية جارية إبراهيم بن المهديّ

قال أبو الفرج: كانت شاريةُ مولَّدةً من مولّداتِ البَصْرة. يقال: إنّ أباها كان مِن بني سامةَ بنِ لُؤيٍّ المعروفين ببني ناجيةَ، وإنه جحدها. وكانت أمُّها أمَةً، فدخلت في الرقّ. وقيل: إن أمّها كانت تدّعي أنها بنتُ محمدِ بنِ زيدٍ من بني سامةَ بنِ لؤيّ، وقيل: إنها كانت تدّعي أنها من بني زُهْرة، وقيل: بل سُرِقت فبيعت، فاشترتها امرأةٌ من بني هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناءَ، ثم اشتراها إبراهيمُ بنُ المهديّ، فأخذت عنه غناءه كلَّه أو أكثره. وبذلك يحتجّ من يُقَدّمها على عَرِيب ويقول: إنّ إبراهيم خرّجها، وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعرفةِ ما يأخذها به؛ ولم تلق عَريب ذلك، لأن المراكبيّ لم يكن يُقارب إبراهيم في العلم ولا يقاس به في بعضه فضلًا عن سائره.

قال: ولما عَرَضتها مولاتُها الهاشميّةُ للبيع ببغدادَ عُرضت على إسحٰقَ بنِ إبراهيمَ الموصليّ فأعطى فيها ثلاثمائة دينار، ثم استغلاها بذلك ولم يُرِدها. فجيء بها إلى إبراهيمَ بنِ المهديّ فساوم بها؛ فقالت له مولاتها: إن إسحٰقَ بنَ إبراهيمَ أعطى بها ثلاثمائة دينار وأنت أحقُّ بها. فقال: زنوا لها ما قالت فوُزِن لها. ثم دعا بقيمته[٢] فقال: خُذِي هذه الجاريةَ ولا تُزَيّنيها سنةً، وقولي للجواري يطرحن عليها. فلما كان بعدَ سنة أُخرِجَتْ إليه، فنظر إليها وسمع منها؛ فأرسل إلى إسحٰقَ بنِ إبرهيمَ؛ فلما أتاه أراه إيّاها وأسمعه غناءها، وقال: هذه جاريةٌ تباع، فبكم تأخذُها لنفسك؟ قال إسحٰقُ: آخذُها بثلاثة آلاف دينار وهي رخيصةٌ بها. فقال له إبراهيم: أتعرفها؟ قال:

---

(١) الكرخ: محلة ببغداد إلى الغرب من دجلة. (٢) القيّمة: الوصيفة والمربيّة والمشرفة.

لا. قال: هذه الجارية التي عرضتُها الهاشميّة بثلاثمائة دينار فلم تقبلها. فعجِب إسحٰقُ من حالها وما صارت إليه.

وقد حُكي عن هبةِ اللهِ بنِ إبراهيمَ بنِ المهديّ أنها عُرِضت ببغدادَ على إبراهيمَ فأُعجِبَ بها إعجابًا كبيرًا، فلم يزل يُعْطِي بها حتى بلغت ثمانية آلاف درهم. قال: ولم يكن عند أبي درهمٌ ولا دانق[١]؛ فقال لي: ويحَك! قد والله أعجبتني هذه الجاريةُ إعجابًا شديدًا، وليس عندنا شيء. فقلت له: بع ما تملُكه حتى الخزف[٢] وتجمع ثمنها. فقال لي: قد تذكّرتُ في شيء، اذهب إلى عليّ بنِ هشامٍ فأقرئْه منّي السلام، وقل له: قد عُرِضتْ عليّ جاريةٌ وقد أخذتْ بمجامع قلبي[٣]، وليس عندي شيء، فأُحِبّ أن تُقْرِضَني عشرةَ آلاف درهم. فقلت: إن ثمنها ثمانية آلاف درهم، فلِمَ نُكثِر على الرجل بعشرة آلاف درهم! فقال: إذا اشتريتها بثمانية آلاف درهم فليس لنا بدٌّ من أن نكسوَها ونقيمَ لها ما تحتاجُ إليه. قال: فصِرتُ إلى عليٍّ بنِ هشام وأبلغته الرسالةَ؛ فدعا بوكيل له وقال: ادفعْ إلى خادمه عشرين ألفَ درهم، وقل له: أنا لا أصلُك، ولكن هي لك حلالٌ في الدنيا والآخرة. قال: فصرتُ إلى أبي بالدراهم، فلو طلعتُ عليه بالخلافة لم تكن تَعدِل عنده تلك الدراهم. قال: وكانت أمُّها خبيثةً، وكانت كلما لم يُعْطِ إبراهيم ابنتها ما تشتهي ذهبتْ إلى عبدِ الوهاب بنِ عليّ، ودفعت إليه رُقعةً يُوصلُها إلى المعتصمِ تسألُه أن تأخذَ ابنتَها من إبراهيم.

وحُكِيَ عن يوسفَ بنِ إبراهيمَ المِصريّ صاحبِ إبراهيمَ بنِ المهديّ أنّ إبراهيمَ وجّه به إلى عبدِ الوهاب بنِ عليٍّ في حاجةٍ كانت له. قال: فلقِيته وانصرفت من عنده؛ فلم أخرج من دِهليز[٤] عبدِ الوهاب حتى استقبلتني امرأةٌ؛ فلما نظرتْ في وجهي سترتْ وجهها، فأخبرني شاكريٌّ أن المرأة أمُّ شارية جاريةِ إبراهيم. فبادرت إلى إبراهيمَ وقلت له: إني رأيت أمَّ شاريةَ في دار عبدِ الوهاب، وهي مَن تعلم، وما يفجَؤك إلا حِيلةٌ قد أوقعتها. فقال لي: اشهدْك أنّ جاريتي شارية صَدَقةٌ على ميمونةَ بنتِ إبراهيمَ بنِ المهديّ، ثم أشهَد ابنَه هبةَ الله على مثلِ ما أشهدني، وأمرني بالركوب إلى ابن أبي داودَ وإحضار مَن قَدَر عليه من الشهود المعدّلين عنده؛ فأحضر

---

(١) دانق: الدانق، لفظة فارسية، وهي ضرب من العملات يساوي الواحد سدس الدرهم.

(٢) الخزف: الفخار.

(٣) أخذت بمجامع قلبي: فتنتني وأعجبتني كثيرًا.

(٤) الدهليز: المسلك الطويل الضيّق.

أكثر من عشرين شاهدًا. وأمر بإخراج شاريةَ فأخرِجت. فقال لها: استُري وجهك؛ فجزِعتْ[١] من ذلك، فأعلمها أنما أمرها بذلك لخير يريده لها ففعلت. فقال لها: تَسَمَّيْ[٢]؛ فقالت: أما أمَتُك[٣]. فقال لهم: تأمّلوا وجهَها ففعلوا. ثم قال: فإني أُشهِدكم أنها حرّةٌ لوجه الله تعالى، وأني قد تزوّجتُها وأصدقْتُها عشرةَ آلاف درهم؛ يا شاريةُ أرضِيتِ؟ قالت: نعم يا سيّدي، قد رضيت، والحمد لله تعالى على ما أنعم به عليّ. فأمرها بالدخول، وأطعم الشهود وطيّبهم وانصرفوا. قال: فما أحسبهم تجاوزوا دارَ ابنِ أبي داودَ حتى دخل علينا عبدُ الوهابِ بنُ عليّ، فأقرأ عمّه سلامَ المعتصم، ثم قال له: يقول لك أمير المؤمنين: مِنَ المفتَرض عليّ طاعتُك وصِيانتُك عن كلّ ما يسُوءك، إذ كنت عمّي وصِنو[٤] أبي. وقد رفعت امرأة إليّ قِصّة ذكَرت فيها أن شارية ابنتُها، وأنها امرأةٌ مِن قريشٍ من بني زُهْرةَ، واحتجّت بأنه لا تكون بنت امرأة من قريش أمة. فإن كانت هذه المرأة صادقةً في أنّ شاريةَ بنتُها، وأنها من بني زهرةَ، فمن المحال أن تكون شارية أمَة. والأشبهُ بك والأصلحُ إخراجُ شاريةَ مِن دارك وتُصيِّرها عندَ مَن تثقُ به من أهلك، حتى يُكْشَف عما قالته هذه المرأة. فإن ثبت ذلك أمرتَ مَنْ جعلتَها عنده بإطلاقها، وكان في ذلك الحظ لك في دِينك ومروءتك[٥]. وإن لم يصح ذلك أعيدت الجاريةُ إليك وقد زال عنك القول الذي لا يليق بك ولا يحسن. فقال إبراهيم: فديتك، هَبْ شاريةَ بنتَ زهرة بن كلاب، أيُنْكَرُ على ابن العباس بن عبد المطلب أن يكون بعلًا[٦] لها؟! فقال عبد الوهاب: لا. فقال: أبلِغْ أميرَ المؤمنين ـ أبقاه الله ـ السلامَ، وأخبِرْه أنّ شاريةَ حرّةٌ، وأني قد تزوّجتُها بشهادةِ جماعةٍ من العدول[٧]. وقد كان الشهودُ أعلموا ابن أبي داودَ بالقصة، فركب إلى المعتصم وحدّثه بالحديث معجبًا له منه؛ فقال: ضَلَّ[٨] سَعْيُ عبد الوهاب. ثم دخل عبد الوهاب على المعتصم. فلما رآه يمشي في صحن الدار سدّ المعتصمُ أنفه وقال: يا عبدَ الوهاب، أنا أَشُمّ رائحةَ صُوف مُحْرَق، وأحسب عمّي لم يُقْنِعه ردُّك على أُذنك صوفةٌ حتى أحرقها، فشمَمْتُ رائحتها منك. فقال: الأمر على ما ظنّ أمير المؤمنين وأسمج[٩]. قال: ثم ابتاع

(١) جزعت: خفت. (٢) تسمّي: اذكري اسمك.
(٣) أمتك: جاريتك ومملوكتك. (٤) الصنو: المثل، والنظير.
(٥) المروءة: آداب نفسية تحمل المرء على اتباع أحسن العادات والأخلاق والطباع.
(٦) بعلًا: زوجًا.
(٧) العدول: أصحاب العدل والكفاءة والثقة والصّدق.
(٨) ضلّ: أخطأ، وخاب. (٩) أسمج: أثقل وأبشع.

إبراهيمُ من بنته ميمونة شارية بعشرة آلاف درهم وستر ذلك عنها؛ فكان عتقه إياها وهي في ملك غيره، ثم ابتاعها من ميمونة فحلّت له، فكان يطؤها[١] بملك اليمين[٢] وهي تتوهّم أنها زوجته. فلما تُوُفِّي طلبت شاريةُ مشاركةَ أمّ محمد بنت خالد زوجة إبراهيم في الثُّمن، فأظهرت خبرها؛ فأمر المعتصمُ بابتياعها من ميمونة بخمسة آلاف وخمسمائة دينار فَحُوّلت إلى داره، وكانت في مِلْكه حتى تُوفِّي. وقال ابن المعتز: وقد قيل: إنّ المعتصمَ ابتاعها بثلاثمائة دينار؛ وملكها إبراهيم ولها سبع سنين وربّاها تربية الولد.

قال: وحدّثت شارية أنها كانت مع إبراهيمَ في حرّاقةٍ[٣] قد توسّط بها دجلةَ في ليلة مُقْمِرة، فاندفعتْ فغنّت: [من مجزوء الوافر]

لقد حَثُّوا[٤] الجِمالَ لِيهـ ـرُبُوا منّا فلم يَئِلُوا[٥]

فوثب إليها فأمسك فاها فقال: أنتِ والله أحسنُ من الغَرِيض وجهًا وغناءً، فما يُؤْمِنُني عليك! أمسكي.

ويقال: إنها لم تضرِبْ بالعود إلا في أيامِ المتوكِل لمّا اتّصل الشرُّ بينها وبين عَرِيب، فصارت تقعد بها عند الضرب، فضربتْ بعد ذلك.

قال ابن المعتز[٦]: وحدّث محمدُ بنُ سهلِ بنِ عبدِ الكريمِ المعروف بسهل الأحول، وكان قاضيَ الكتّاب في زمانه، كان يكتبُ لإبراهيمَ وكانَ ثقةً، قال: أعطى المعتصم إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار، فامتنع من بيعها. قال: فعاتبتُه على ذلك، فلم يجبني بشيء. ثم دعاني بعد أيام وبين يديه مائدة لطيفة، فأحضر الغلام سَفُّودًا[٧] فيه ثلاثة فَراريجَ، فرمى إليّ بواحدة فأكلتُها وأكل اثنتين، ثم شرب رطلًا وسقاني؛ ثم أُتِي بسَفُّودٍ آخَر ففعل كما فعل وشرب كما شرب وسقاني؛ ثم ضُرِب سِتْرٌ إلى جانبه فسمعتُ حركةَ العيدان؛ ثم قال: يا شاريةُ تغَنّي، فسمعتُ شيئًا ذهب بعقلي. فقال: يا

---

(١) يطؤها: يجامعها.
(٢) ملك اليمين: إشارة إلى أنها جارية غير حرّة.
(٣) الحرّاقة: ضرب من المراكب النهرية. (٤) حثّوا الجمال: جعلوها تمشي بسرعة.
(٥) يئلوا: من الوأل، وهو طلب النجاة والملجأ.
(٦) ابن المعتز: وكنيته أبو العباس، واسمه عبد الله. من كبار أمراء بني العباس. ولي الخلافة يومًا وبعض يوم، وذلك بعد أن خلع المقتدر ولقّب بالمرتضي بالله. لكنه مات خنقًا سنة ٩٠٨ م. كان شاعرًا وأديبًا. من كتبه «طبقات الشعراء» و«كتاب البديع». وله ديوان شعري مطبوع.
(٧) السفّود: حديدة طويلة ودقيقة يشوى بها اللحم.

سهل، هي التي عاتبتَني في أن أبيعها بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار!

وحُكِيَ عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عبدِ الله بن طاهر[١] قال: أمرني المعتزُ[٢] باللهِ ذاتَ يوم بالمُقام عندَه فأقمت، ومُدّت الستارةُ وخرج مَن كان يغنّي وراءَها وفيهنّ شاريةُ، ولم أكن سمعتها قبل ذلك فاستحسنتُ ما سمعتُ منها؛ وقال لي المعتز: يا عبيد الله، كيف ما تسمع منها عندك؟ فقلت: حظُّ العَجَب من هذا الغناء أكثر من حظ الطرَب؛ فاستحسن ذلك، وأخبرها به فاستحسنته.

قالوا: وكانت شارية أحسنَ الناس غِناءً منذ تُوُفّي المعتصمُ إلى آخر خلافةِ الواثق. وقيل: إن إبراهيمَ بنَ المهديّ لم يطأ شاريةَ، وإن الذي افتضّها[٣] المعتصمُ. وكان إبراهيمُ يُسمّي شاريةَ بنتي.

وقال يعقوبُ بنُ بيان: كانت شاريةُ لصالحِ بنِ وصيفِ[٤]. فلما بلغه رحيلُ موسى بنِ بُغا[٥] من الجبلِ يريدُه بسبب قتلِ المعتز، أودع شاريةَ جوهرَه، فظهر لها جوهرٌ كثير بعدَ ذلك. فلما أوقع موسى بصالح استترت شارية عند هارون بن شعيب العُكْبَريّ، وكان أنظف خلقِ الله طعامًا وأسراهم مائدة، وأوسخهم كلَّ شيء بعد ذلك، وكان له بسُرَّ مَنْ رأى منزل وفيه بستان كبير، وكانت شارية تُسمّيه أبي، وتزوره في منزله فتحمل معها كل شيء تحتاج إليه حتى الحصير تقعد عليه. وكانت من أكرم الناس. عاشرها أبو الحسن عليّ بن الحسين عند هارون هذا، ثم أضاق[٦] في وقت فاقترض منها على غير رهن عشرة آلاف دينار فأقرضته، ومكثت أكثر من سنة ما أذكرته بها ولا طالبته بردّها.

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) المعتزّ بالله: محمد بن المتوكل. الخليفة العباسي الثالث عشر، ولي الخلافة بعد عزل المستعين. عزله الأتراك ثم قتلوه سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م.

(٣) افتضّها: أخذ بكارتها.

(٤) صالح بن وصيف: قائد تركي، هو مملوك في الأصل، لكن منزلته ارتفعت عند العباسيين حتى أنه أقدم على قتل الخليفة المعتز بالله، وصادر أمه صبيحة واستصفى نعمتها وأخذ منها ثلاثة ملايين دينار، ثم نفاها إلى مكة، كما صادر خاصة الخليفة وكتّابه. قتل سنة ٢٥٦ هـ. انظر خبره في: شذرات الذهب ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) موسى بن بغا: قائد تركي كبير وشجاع، ارتفعت منزلته لدى العباسيين، حتى أنه أقدم على مهاجمة الخليفة المهتدي بالله، وانتهب رجاله القصر. مات سنة ٢٦٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٤٧.

(٦) أضاق: مرّ بالضيق والفقر.

قال يعقوب بن بيان: وكان الناس بسُرّ مَنْ رَأى متحازبين[١]، فقوم مع شاريةَ، وقوم مع عَرِيب، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. وكان [أبو الصقر] إسماعيلُ بنُ بلبل[٢] عَرِيبيًّا؛ فدعا عليّ بن الحسينِ يومَ جمعة أبا الصقر وعنده عريب وجواريها. فاتصل الخبر بشارية فبعثت بجواريها إلى عليّ بن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرت إحداهنّ ـ قال: وما أدري [من] هي: مهرجان أو مطرِب أو قمرية[٣]، إلا أنها إحدى الثلاث ـ أن تُغنّيه: [من مجزوء الخفيف]

لا تـعـودَنّ بـعـدَهـا فـتـرى كـيـف أصْـنَـعُ

فلما سمع الغناء ضحِك وقال: لستُ أعود.

قال: وكان المعتمدُ قد وَثِق بشاريةَ فلم يكن يأكلُ إلا طعامَها؛ فمكثت دهرًا تُعِدّ له كلَّ يوم جَوْنَتين[٤]، فكان طعامه منهما في أيام المتوكل.

وقال أبو الفرج: حدّثني جحظةُ قال: كنت عندَ المعتمدِ يومًا فغنَّتْ شاريةُ بشعر مولاها إبراهيمَ بنِ المهديّ ولحنِه: [من الكامل]

يـا طـولَ عِـلّةِ قـلبـيَ الـمـعـتـادِ إلْفَ الـكِـرام وصُـحْـبـةَ الأمـجـادِ
مـا زِلـتُ آلَفُ كـلَّ قَـرْمٍ[٥] مـاجـدٍ مـتـقـدِّم الآبـاء والأجـداد

فقال لها: أحسنتِ والله! فقالت: هذا غنائي وأنا عاريةٌ، فكيف لو كنتُ كاسيةٌ![٦] فأمَر لها بألف ثوب مِن جميع أصنافِ الثياب الخاصّة، فحُمِل ذلك إليها. فقال لي عليُّ بنُ الحسينِ بنِ يحيىٰ المنجم: اجعل انصرافَك معي، ففعلتُ. فقال لي: هل بلغك أنّ خليفةً أمر لمغنّيةٍ بمثلِ ما أمر به أميرُ المؤمنينَ اليومَ لشارية؟ قلت: لا. فأمر بإخراج سِيَر الخلفاءِ، فأقبل بها الغلمانُ في دَفَاترَ عِظامٍ، فتصفّحناها كلُّها فما وجدْنا أحدًا قبلَه فعَل مثلَ ذلك. انقضت أخبار شارية.

(١) متحازبين: كل منهما في حزب مناوىء للآخر.
(٢) أبو الصقر: كنيته، واسمه اسماعيل بن بلبل، وزير الخليفة المعتمد العباسي. وزر له بعد ابن خاقان والحسن بن مخلد بن الجراح، وسليمان بن وهب. أُلقي القبض عليه زمن الخليفة المعتضد، سنة ٢٨٠ هـ.
(٣) القمرية: الحمامة البريّة.
(٤) جونتين: مثنى جونة، وهي القِدر.
(٥) قرم: سيّد.
(٦) كاسية، بخلاف عارية، وهي التي عليها الثياب والأكسية.

ذِكْر أخبار بَذْل

قال أبو الفرج: كانت بذل صفراءَ مولَّدةً من مولّداتِ المدينةِ ورُبِّيتْ بالبصرةِ، وهي إحدى المحسناتِ المتقدّماتِ الموصوفاتِ بكثرةِ الرواية. يقال: إنها كانت تغنّي ثلاثين ألف صوت. قال: ولها كتابٌ في الأغاني منسوبُ الأصوات [غير مُجنّس] يشتمل على اثنَيْ عشرَ ألف صوت، يقال: إنها عملته لعليّ بنِ هشام. قال: وكانت حُلْوةَ الوجهِ ظريفةً ضاربةً متقدّمة. وابتاعها جعفرُ بنُ موسى الهادي؛ فأخذها منه محمدُ الأمينُ وأعطاه مالًا جزيلًا. وأخذت بذل عن أبي سعيدٍ مولى فائدٍ ودحمانَ وفليحٍ وابنِ جامعٍ وإبراهيمَ وطبقتهم.

وقال جحظة عن أبي حشيشة[١]: وكانت أحسَن الناس غناءً في دهرها، وكانت أستاذةَ كل مُحْسِنٍ ومحسنةٍ، وكانت أرْوَى خلقِ اللهِ للغناء. وكانت لجعفرِ بنِ موسى الهادي؛ فوُصِفت لمحمدِ الأمين، فبعث إلى جعفر فسأله أن يُزيره إياها فأبى؛ فأتاه الأمينُ إلى منزله فسمع ما لم يسمع مثلَه قطّ؛ فقال لجعفر: يا أخي، بِعْنِي هذه الجارية. فقال له: يا سيِّدي، مثلي لا يبيع جارية. قال: هَبْها لي. قال: هي مُدَبرة[٢]. فاحتال الأمين عليه حتى أسكره وأمر بحمل بَذْلٍ إلى الحَرّاقة وانصرف بها. فلما أفاق جعفر سأل عنها، فأُخبر بالخبر، فسكت. فبعث إليه محمد من الغد، فجاء وبَذْل جالسةٌ فلم يقل شيئًا. فلما أراد جعفر أن ينصرف قال الأمين: أوْقِروا[٣] حَرَّاقةَ ابنِ عميّ دراهم فأُوقِرتْ، فكان مبلغ ذلك عشرين ألف ألف درهم. وبقيت بذلك عند الأمين إلى أن قُتِل؛ ثم خرجت فكان ولد جعفر وولد الأمين يدّعون ولاءها؛ فلما ماتت ورثها ولد الأمين.

وقال محمد بنُ الحسن الكاتب: إن الأمين وَهَبها من الجوهر ما لم يملك أحدٌ مثلَه، فسُلِّم لها بعد مقتل الأمين، فكانت تبيع منه الشيءَ بعدَ الشيء بالمال العظيم؛ فكانت على ذلك مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقيةٌ عظيمة. قال: ورغِب إليها وجوهُ القُوّاد والكُتّاب والهاشميّين في التزويج فأبَتْه، وأقامت على حالِها حتى ماتت.

---

(١) أبو حشيشة: هو محمد بن علي بن أمية، كنيته أبو جعفر من ولد أبي أمية الكاتب، وكان طنبوريًا حاذقًا في صنعته. أخذ الغناء عن جحظة. له من الكتب «المغنى المجيد». انظر: الفهرست، ص ٢٠٨.

(٢) مدبّرة: حرّة بعد موته.

(٣) أوقروا: املأوها وقرًا، أي حملًا.

وحكى أبو حشيشةَ قال: كنت يومًا عند بَذْلٍ وأنا غلام، وذلك في أيّام المأمون وهو ببغدادَ، وهي في طارمة[١] لها تمتشط؛ فخرجتُ إلى الباب فرأيتُ الموكِبَ فظننتُ أنّ الخليفة يمرّ على ذلك الموضع؛ فرجعتُ إليها فقلت: يا سيّدتي، الخليفةُ يمرّ على بابك. فقالت: انظُروا أيّ شيء هذا، إذ دخل بوّابُها فقال: عليُّ بنُ هشام بالباب. فقالت: وما أصنعُ به! فقامت إليها جاريتُها وشيك، وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره في حوائجها، فأكبّت على رجلها وقالت: الله! الله! أتحتجِبين على عليِّ بنِ هشام! فدعتْ بمنديلٍ فطرَحته على رأسِها ولم تقم إليه. فقال: إني جئتك بأمر سيّدي أميرِ المؤمنين، وذلك أنه سألني عنك فقلت له: لم أرها منذ أيام؛ فقال: هي عليك غَضْبى، فبحياتي لا تدخلُ منزلك حتى تدخلَ إليها فتسترضيها!. فقالت: إن كنتَ جئتنا بأمرِ الخليفة فأنا أقوم، فقامت فقبَّلَت رأسه ويديه؛ وقعد ساعة وانصرف. فقالت: يا وَشِيك، هاتي الدواةَ وقرطاسًا[٢] ففعلت، فجعلتْ تكتب فيه يومها وليلتها حتى كتبت اثني عشر ألف صوت ـ وقيل: سبعة آلاف صوت ـ ثم كتبت إليه: يا عليّ بن هشام، تقول: استغنيتُ عن بَذْل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها! وقد كتبتُ هذا وأنا ضَجِرة، فكيف لو فرّغتُ لك قلبي كلَّه!. وختمت الكتاب وقالت لها: امضِي به إليه. فما كان أسرَعَ من أن جاء رسوله (خادم أسود يقال له مُخَارق) بالجواب يقول فيه: يا سيِّدتي، لا والله ما قلتُ الذي بلَغك، ولقد كُذِب عليّ عندك، إنما قلتُ: لا ينبغي أن يكون في الدنيا أكثر من أربعة آلاف صوت، وقد بعثتِ إليّ بديوان لا أُؤدّي شكرك عليه أبدًا؛ وبعث إليها بعشرة آلاف درهم وتخوت[٣] فيها بَز[٤] ووَشْي[٥] ومُلَح وتختًا مطبقًا فيه أنواع الطيب.

وقيل: إن إبراهيمَ بنَ المهديّ كان يعظِّمُها، ثم يرى أنه يستغني عنها بنفسه. فصارت إليه، فدعت بعود فغنّت في طريقة واحدة وانقطاعٍ واحدٍ وإصبعٍ واحدةٍ مائةَ صوتٍ لم يعرفْ إبراهيمُ منها صوتًا واحدًا، ثم وضعت العودَ وانصرفت، ولم تدخل دارَه حتى طال طلبُه لها وتضرُّعُه[٦] إليها في الرجوع إليه.

وقال أحمدُ بنُ سعيدٍ المالكيّ: إن إسحٰقَ بنَ إبراهيمَ الموصليّ خالف بَذْلًا في نسبة صوتٍ غنّته بحضرة المأمون؛ فأمسكت عنه ساعةً ثم غنّت ثلاثة أصوات في

---

(١) الطارمة: خصّ أو بيت خشبي له قبّة. (٢) قرطاسًا: ورقًا.
(٣) تخوت: جمع تخت، وهو السرير، وخزانة الثياب.
(٤) البزّ: الثياب من القطن أو الكتّان. (٥) الوشي: الثياب المنقوشة المصبوغة.
(٦) تضرّعه: خشوعه وانقياده.

الثقيل الثاني واحدًا بعد واحد، وسألت إسحٰق عن صانعها فلم يعرفه. فقالت للمأمون: هي والله لأبيه أخذتُها من فيه، فإذا كان لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره! فاشتدّ ذلك على إسحٰق حتى رُئي ذلك فيه.

وقال حمادُ بن إسحٰق: غنّت بذلُ بين يدي أبي: [من المديد]

إن تَـرَيْـنِـي نـاحـلَ الـبَـدَنِ   فـلِطُـولِ الـهـمّ والـحَـزَنِ
كـان مـا أخـشَـى بـواحـدتـي   لـيـتَـه واللهِ لـم يَـكُـنِ

قال: فطرِب أبي طربًا شديدًا وشرب رِطلًا وقال لها: أحسنتِ يا بنتي، والله لا تُغنّين صوتًا إلا شربتُ عليه رطلًا.

انتهت أخبارُ بذلك.

ذِكر أخبار ذَاتِ الخالِ

قال أبو الفرج الأصبهانيّ: واسمُ ذاتِ الخال خِشْفٌ[١]، وكانت لأبي الخطّاب النحاسِ المعروفِ بقرين مولى العبّاسة[٢] بنتِ المهديّ. وكانت ذاتُ الخال من أجملِ النساءِ وأكملهنّ، وكان لها خالٌ[٣] فوقَ شفتِها العُليا، وقيل: على خدّها. وكان إبراهيم الموصلي يتعشّقُها، وله فيها أشعار كثيرة كان يقولُها ويغنّي فيها حتى شَهَرها بشعره وغِنائه. واتصل خبرُها بالرشيد، فاشتراها بسبعين ألف درهم. فقال لها ذاتَ يوم: أسألك عن شيء، فإن صَدَقتِني وإلا صَدَقني غيرُك وكَذّبتُك. قالت: أصدُقك. قال: هل كان بينك وبين إبراهيم الموصليّ شيءٌ قط؟ وأنا أُحَلّفه أن يَصْدُقَني. قال: فسكتت ساعةً ثم قالت: نعم! مرّة واحدة؛ فأبغضها. وقال يومًا في مجلسه: أيّكم لا يُبالي أن يكون كِشْخَانًا[٤] حتى أهَبَه ذات الخال؟ فبدَر حَمويهِ الوصيفُ فقال: أنا؛ فوهَبَها له. ثم اشتاقها الرشيد يومًا فقال: ويلك يا حَمَوَيهِ! وَهَبْنا لك الجاريةَ على أن تسمع غناءها وحدَك! فقال: يا أمير المؤمنين، مُرْ فيها بأمرك. قال: نحن عندك غدًا. فمضى فاستعدّ لذلك واستعار لها من بعض الجوهريين بَدَنةً[٥] وعقودًا ثمنُها اثنا عشر

---

(١) الخشف، في الأصل، ولد الظبي أول ما يولد.
(٢) هي عليّة بنت المهدي، وأخت هارون الرشيد. شاعرة وأديبة ومغنيّة. لها ديوان شعر، ماتت سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م.
(٣) الخال: نكتة سوداء على الخد من الوجه، خاصة. وهي موضع استحسان وإعجاب.
(٤) كشخانًا: دنيئًا محتقرًا فاقد الحياء.
(٥) القميص بلا كمّين.

ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهي عليها. فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويهِ! من أين لك هذا؟! ما وَلّيتك عملًا تكسِب فيه مثلَه ولا وَصَل إليك منّي هذا القدر! فصدَقه عن أمره، فبعث الرشيدُ إلى أصحاب الجوهر، فأحضرهم واشترى الجوهرَ منهم ووهبه لها، وحلف ألّا تسأله في يومه ذلك حاجةً إلّا قضاها؛ فسألته أن يُوَلّي حَمَويْهِ الحربَ والخراجَ بفارس سبعَ سنين، ففعل ذلك وكتب له عهدَه بذلك، وشرط على وليّ العهد أن يتممها له إن لم تتمّ في حياته.

قال الأصفهانيّ: ولإبراهيمَ الموصليّ في ذات الخالِ شعر كثيرٌ غنّى فيه. فمنه قوله: [من مجزوء الوافر]

أذاتَ الـخـالِ قـد طـالَ ... بـمـن أسْـقَـمْـتِـهِ الـوَجَـعُ
ولـيـس إلـى سـواكُـمْ فـي الّـ ... ـذي يـلـقَـى لـه فَـزَعُ
أمَـا يَـمْـنَـعُـكِ الإسـلا ... مُ مـن قـتـلي ولا الـورَعُ(١)
ومـا يـنـفـكّ لـي فِـيـكِ ... هـوًى تَـغْـتَـرُّهُ خُـدَعُ

ومنها: [من الطويل]

جزى الله خيرًا من كَلَفْتُ بحبّه ... وليس به إلا التّمَوُّهُ(٢) من حُبّي
وقالوا قلوبُ الغانياتِ رقيقةٌ ... فما بالُ ذاتِ الخالِ قاسيةَ القلبِ
وقالوا لها هذا حبيبُك مُعْرِضًا ... فقالت لهم إعراضُه أيسرُ الخَطْبِ(٣)
فما هي إلا نظرةٌ بتَبَسُّمٍ ... فتنشَبُ(٤) رجلاه ويسقُطُ للجَنْبِ

وله فيها أشعارٌ كثيرة غير ما أوردناه.

ذِكْر أخبار دنانير البرمكيّة

قال أبو الفرج: كانت دَنَانِيرُ مولاةَ يحيىٰ بنِ خالدٍ البرمكيّ، وكانت صفراءَ مولّدةً، من أحسنِ الناس وجهًا، وأظرفهم وأكملهم أدبًا، وأكثرهم رِوايةً للغناء والشعر، ولها كتاب مجرّد في الأغاني مشهور. وكان اعتمادُها في غِنائها على ما أخذتْه من بَذْل، وهي خرّجتها؛ وقد أخذتْ أيضًا عن الأكابرِ الذين أخذت بَذْل عنهم

---

(١) الورع: التقوى. (٢) التموّه: التدليس والتزوير.
(٣) الخطب: الرّزء والمصيبة.
(٤) كذا بالأصل، ولا معنى له؛ والصواب «فتصطكّ».

مثل فُلَيْحٍ وإبراهيمَ وابنِ جامعٍ وإسحٰقَ ونُظَرائِهم. وكانت تغنّي غناءَ إبراهيمَ فتَحْكِيه فيه حتى لا يكون بينهما فرقٌ؛ فكان يقول ليحيىٰ: متى فقدتَني ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتني.

وقال أحمد بنُ المكيّ: كانت دنانيرُ لرجل من أهلِ المدينة، كان قد خرّجها وأدّبها، وكانت أروَى الناس للغناء القديم، وكانت صفراءَ صادقةَ الملاحَة. فلما رآها يحيىٰ وقعت مِن قلبه مَوْقِعًا فاشتراها. وشُغِف بها الرشيدُ حتى كان يصير إلى منزل مولاها فيسمعها، فألِفها واشتدّ إعجابُه بها، ووهَب لها هِبَاتٍ سنِيّة[1]. منها أنه وهب لها في ليلة عِقدًا قيمتُه ثلاثون ألف دينار، فردّته عليه في مصادرة البرامكة بعد ذلك. وعرفت أمُّ جعفر الخبر فشكته إلى عُمومته وأهله، فصاروا جميعًا إليه فعاتبوه؛ فقال؛ مالي في هذه الجارية أرَبٌ في نفسها، وإنما أَرَبي في غِنائها؛ فاسْمعوها، فإن استحقّت أن تُؤْلَف لغنائها وإلّا فقولوا ما شئتم. فلمّا سمعوها عَذَروه؛ وعادوا إلى أمّ جعفر وأشاروا عليها ألّا تُلِحّ في أمرها؛ فقبلت ذلك، وأهدت إلى الرشيد عشر جوارٍ منهنّ أمُّ المأمون وأمُّ المعتصم وأمُّ صالح.

وقال عمرُ بنُ شَبّة[2]: إنّ دنانيرَ أصابتها العلّةُ الكلبية فكانت لا تصبرُ عن الطعام ساعةً واحدة، وكان يحيىٰ يتصدّقُ عنها في كل يومٍ من شهرِ رمضانَ بألف دينارٍ لأنها كانت لا تصومه. وبقِيت عند البرامكة مدّة طويلة.

وقال إسحٰقُ وأحمدُ بنُ الطيّب: إنّ الرشيدَ دعا بدنانيرَ بعدَ البرامكة، فأمرها أن تغنّي. فقالت: يا أميرَ المؤمنين، إني آليتُ[3] ألّا أُغَنّي بعد سيّدي أبدًا. فغضِب وأمر بصَفْعِها[4] فصُفِعت، وأُقِيمت على رجليها وأُعطِيت العودَ؛ فأخذته وهي تبكي أحرَّ بكاء، واندفعت فغنّت: [من المنسرح]

يا دارَ سَلْمَى بنازح السَّنَدِ[5] ... من الثَّنايا ومَسْقَط اللِّبَدِ

لمّا رأيتُ الديارَ قد دَرَستْ[6] ... أيقنتُ أنّ النعيمَ لم يَعُدِ

قال: فَرقَّ لها الرشيدُ، وأمر بإطلاقها، فانصرفت.

---

(١) سنيّة: كثيرة وثمينة.
(٢) عمر بن شبّة، سبق التعريف به.
(٣) آليت: أقسمت.
(٤) صفعها: ضرب وجهها بجمع يده.
(٥) نازح السند: أبعده. والسند: ما قابلك من الجبل وعلا من السّفح.
(٦) درست: بليت، وصارت دارسة.

وقال أبو عبد الله بن حمدون: إنّ عَقِيدًا مولى صالح بن الرشيد خطَب دنانير وشُغِف بها فردّته؛ فاستشفع إليها بمولاه صالح بن الرشيد وبِبَذْل والحسن بن مُحْرِز فلم تُجب، وأقامت على الوفاء لمولاها. فكتب إليها عَقِيد: [من الخفيف]

يـا دنـانـيـرُ قـد تَـنَـكَّـر عـقـلي ... وتَـحَـيّـرتُ بـيـن وَعْـدٍ ومَـطْـلِ[1]
شَـغَـفِـي شـافـعِـي إلـيـكِ وإلَّا ... فاقتُلِيني إن كنتِ تَهْوَيْنَ قتلِي
أنـــا بـــالله والأمـــيـــرِ ومـــا آ ... مُلُ من مَوْعِدِ الحسين وبَذْلِ
ما أُحِبّ الحياةَ يا حِبّ[2] إن لم ... يـجـمـعِ الله عـاجِلًا بكِ شـمـلِي

فلم يَعْطِفها ذلك عليه، ولم تزل على حالها حتى ماتت. ولعَقِيدٍ هذا فيها أشعار فيها غناء. وكان عقيد حسنَ الغناء؛ وله فيها أصوات؛ منها قوله: [من البسيط]

هـذِي دنـانـيـرُ تـنـسـاني وأذكُـرُها ... وكيف تنسَى مُحِبًّا ليس ينساها
أعـوذُ بـالله مـن هِـجْـرانِ جـاريـةٍ ... أصبحتُ من حُبِّها أهذِي[3] بذكراها
قد أُكمِلَ الحُسْنُ في تركيبِ صُورتِها ... فـارتَـجَّ[4] أسْفَلُها واهتَزّ أعـلاهـا
قامتْ لتمشِي فليت الله صوّرني ... ذاك الترابَ الذي مَسّته رِجلاها
والله والله لـو كـانـت، إذا بـرزت، ... نـفسُ الـمتيَّـم في كَفَّيْهِ ألـقـاهـا

ذِكر أخبار عَرِيبَ المأمونيّة

قال أبو الفرج الأصفهانيّ: كانت عَريب مغنِّية مُحسنة، وشاعرةً صالحةَ الشعر، وكانت مليحةَ الخطِّ والمذهبِ في الكلام، ونهايةً في الحسن والجمالِ والظَّرْف وحُسْن الصوت وجودةِ الضَّرْب وإتقان الصَّنْعةِ والمعرفةِ بالنَّغَم والأوتارِ والرواية للشعر؛ لم يتعلّق بها أحدٌ من نُظَرائها[5]، ولا رُئي في النساء ـ بعد القِيانِ الحجازيّات مثل جميلةَ وعزّةَ الميلاءِ وسلّامةَ الزرقاءِ ومَن جرى مجراهنّ على قِلّة عددهنّ ـ نظيرٌ لها. قال: وكان فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لهنّ مما يكون في مثلها من جواري الخلفاء ومَن نشأ في قصور الخلفاء وغُذِي برقيق العيش الذي لا يُدانيه عيشُ الحجاز والمَنْشأ بين العامّة والعرب الجُفَاة[6]. قال: وقد شهِد لها مَن لا تحتاج مع شهادته

(١) المطل: التسويف وإرجاء الوعود الكاذبة.
(٢) الحِبّ: الحبيب أو الحبيبة.
(٣) أهذي: أهجر، أقول كلامًا غير صحيح.
(٤) ارتجّ: اهتزّ.
(٥) نظرائها: جمع نظير، وهو الشبيه والمثل.
(٦) الجفاة: القساة.

إلى غيره؛ فرُوِي عن حمّاد بن إسحٰق[١] قال قال أبي: ما رأيتُ امرأةً أضربَ من عريب، ولا أحسنَ صنعةً ووجهًا، ولا أخفَّ روحًا، ولا أحسنَ خطابًا بارعًا، ولا أسراعَ جوابًا، ولا ألعبَ بالشِّطْرَنْج[٢] والنَّرْد[٣]، ولا أجمعَ لخَصْلةٍ[٤] حسنةٍ لم أرَها في امرأة غيرها قطُّ. قال حماد: فذكرتُ ذلك ليحيىٰ بنِ أكثَم[٥]، فقال: صدَق أبو محمد، هي كذلك. قلت: أفسمعتَها؟ قال: نعم، هناك (يعني في دار المأمون). قلت: أفكانتْ كما ذكر أبو محمد في الحِذق؟ قال يحيىٰ: هذه مسألةٌ الجوابُ فيها على أبيك، هو أعلم منّي بها. فأخبرتُ أبي بذلك، فضحِك ثم قال: أَمَا استحييتَ من قاضي القضاة أن تسأله عن مثل هذا!

وقال إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ: استدعاني المأمونُ يومًا فدخلت عليه، فسألني عن صوت وقال لي: أتدري لمن هو؟ فقلت: أسمعه ثم أُخبرُ أميرَ المؤمنين إن شاء الله بذلك. فأمر جاريةً من وراء السِّتارة أن تُغنِّيه، فضربت فإذا هي قد شبّهته بالقديم؛ فقلت: زِدْني معها عودًا آخر، فإنه أثبَتُ لي؛ فزادني عودًا آخر. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، هذا صوتٌ مُحْدَثٌ لامرأةٍ ضاربة. قال: من أين قلت ذلك؟ فقلت: إني لمّا سمعتُ لِينَه عرفتُ أنه مُحْدَث من غناء النساء، ولمّا رأيت جودة مَقَاطعه علمتُ أنّ صاحبته ضاربة حفِظتْ مقاطعَه وأجزاءه، ثم طلبتُ عودًا آخر فلم أشكّ. قال: صدَقت، الغناءُ لِعَرِيبَ.

وقال ابن المعتزّ[٦]: قال عليّ بنُ يحيىٰ: أمرني المعتمدُ[٧] على اللهِ أن أجمع غِناء عريب الذي صنعته، فأخذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التي كانت قد جمعتْ فيها غِناءها، فكتبتُه فكان ألَف صوت، وقد قيل أكثر من ذلك. وقد وصفها أبو الفرج الأصفهانيّ وأطنب في وصفها وتفضيلها، واستدلّ على ذلك وبسط القولَ فيه.

---

(١) حماد بن إسحٰق: هو أديب وراوية شارك أباه إسحٰق الموصلي الغناء والسماع. ألّف كتبًا في الأدب وغيره أشهرها: كتاب «الأشربة»، وكتاب «أخبار ذي الرّمّة» وكتاب «أخبار عروة بن أذينة» و«أخبار الندامى». انظر: الفهرست، ص ٢٠٤.

(٢) الشطرنج: لعبة مشهورة، فارسية الأصل، ثم عرّبت، ومعناه: ستة ألوان، أو ستة أصناف، تمثل: الشاه، والفرزان، والفيل، والفرس، والرّخ، والبيذق.

(٣) النرد: لعبة وضعها أحد ملوك الفرس، وتعرف بـ «لعبة الطاولة».

(٤) الخصلة: الصفة الحسنة.

(٥) القاضي المشهور، سبق التعريف به.

(٦) الأمير العباسي والأديب والشاعر، سبق التعريف به.

(٧) الخليفة العباسي، سبق التعريف به.

وأمّا ما قيل في نسبها وسنّها وكيف تنقّلت بها الحال إلى أن اتصلت بالمأمون، فقد رُوِي عن إسماعيلَ بنِ الحسين خالِ المعتصِم أنها ابنةُ جعفر بن يحيىٰ[١]، وأنّ البرامكةَ لما نُهِبوا سُرِقتْ وهي صغيرة فبِيعتْ. قال أحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ إسماعيلَ المَرَاكبيّ: إن أمّ عريب كانت تُسَمّى فاطمةَ، وكانت يتيمةً؛ فتزوّجها جعفرُ بنُ يحيىٰ بن خالد؛ فأنكر عليه أبوه، وقال له: تتزوّج بمن لا يُعرف لها أمّ ولا أب! اشْترِ مكانها ألفَ جارية. فأخرجها جعفرٌ وأسكنها في دار في ناحية بابِ الأنبار[٢] سِرًّا من أبيه، ووكّل بها من يحفَظُها، وكان يتردّد إليها؛ فولدت عريب في سنة إحدى وثمانين ومائة. وكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستًّا وتسعين سنة. قال: وماتت أمّ عريب في حياة جعفر، فدفعها إلى امرأةٍ نَصْرانيّة وجعلها[٣] دايةً لها. فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثةُ باعتها من سنبس النخّاس، فباعها من المراكبيّ.

قال ابن المعتزّ: وأخبرني يوسفُ بنُ يعقوبُ قال: كنت إذا نظرتُ قَدَمَيْ عَرِيب شَبّهتُهما بقدمي جعفر بن يحيىٰ. قال: وسمعت من يحكي أنّ بلاغتها في كتبها ذُكِرتْ لبعض الكتّاب، فقال: وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيىٰ! هذا ملخص ما حكاه أبو الفرج في نسبها.

وأمّا أخبارُها مع مَنْ مَلَكها وكيف تنقّلت بها الحال، فقد حكَى ابنُ المعتزّ عن الهشاميّ أنّ مولاها خرج بها إلى البَصْرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغِناء، فبَرَعت في ذلك أجمع، وتزايدت حتى قالت الشعر. وكان لمولاها صديقٌ يقال له حاتمُ بنُ عديّ من قوّاد خُرَاسانَ، وقد قيل: إنه كان يكتب لعجيف على ديوان[٤] العَرْض؛ فكان مولاها يدعوه كثيرًا ويُخالطه. فركِبه دَيْن فاستتر عنده؛ فمدّ عينَه إلى عَرِيب وكاتبها فأجابته، ودامت المواصلة بينهما وعَشِقته؛ ثم انتقل من منزل مولاها. فلم تزل تحتال حتى اتّخذت سُلّما من سِبّ[٥]، وقيل: من خيوط غِلاظ، وكان قد اتخذ لها موضعًا، ثم لفّت ثيابها وجعلتها في فِراشها بالليل ودَثّرتها[٦]

(١) هو جعفر بن يحيىٰ البرمكي، قرّبه الرشيد ثم انقلب عليه لأسباب غير واضحة، وقتله في نكبة مشهورة تعرف بنكبة البرامكة، وذلك في سنة ٨٠٣ م.

(٢) باب الأنبار: أحد الأبواب التي كانت لبغداد. وهذا الباب أضيف إلى الأنبار، المدينة العراقية الواقعة على الفرات غربي بغداد. جدّد بناءها أبو العباس السفاح وبنى بها قصورًا كثيرة. انظر: معجم البلدان ١/ ٢٥٧.

(٣) دايةً: مرضعة ومربّية وظئرًا.

(٤) ديوان العرض: ديوان الشكاوى.

(٥) السّبّ: ضرب من الكتّان.

(٦) دثّرتها: غطّتها بالدّثار، وهو الغطاء أو اللحاف وغيره.

بدِثارها، ثم تسوّرت[١] الحائطَ وهرَبت، وأتته فمكثت عنده؛ ومولاها لا يتهمه بشيء من أمرها. فقال عسيى بنُ عبدِ الله بنِ إسماعيلَ المراكبيّ يهجو أباه ويعيِّره بها ـ وكان كثيرًا ما يهجوه: [من مجزوء الرمل]

قاتل اللهُ عَريبَا ... فعلتْ فِعلًا عَجيبا
رَكبتْ والليلُ دَاجٍ ... مَرْكَبًا صَعْبًا مَهيبا
فارتقتْ مُتَّصِلًا بالنَّـ ... ـجم أو مِنه قريبا
صَبَرَتْ حتى إذا ما ... أقصَدَ[٢] النومُ الرَّقيبا
مَثَلتْ بين حَشَايا ... ها، لِكَيْ لَا تَسْتريبا
خَلَفًا منها إذا نُو ... دِي لم يُلْفَ[٣] مُجِيبا
ومضتْ يحمِلها الخَوْ ... فُ قَضِيبًا وكَثِيبا[٤]
مُحّةٌ[٥] لو حُرِّكتْ خِفْـ ... ـتَ عليها أو تَذُوبا
فتدلّتْ لِمُحِبٍّ ... فتلَقّاها حَبِيبا
جَذِلًا[٦] قد نال في الدُّنْـ ... ـيَا من الدُّنيا نَصِيبا
أيُّها الظبيُ الذي تَسْـ ... ـحَرُ عيناه القلوبا
والذي يأكُلُ بعضًا ... بعضُه حُسْنًا وطِيبا
كنتَ نَهْبًا لِذِئابٍ ... فلقد أطمعتَ ذِيبا
وكذا الشاةُ إذا لم ... يَكُ راعِيها لبيبا[٧]
لا يُبالِي وَبَأَ المَرْ ... عَى إذا كان خَصِيبا
ولقد أصبح عبد اللَّـ ... ـهِ كَشْخَانًا[٨] جَرِيبا
قَدْ لَعَمْرِي لَطَم الخَدّ ... وقد شَقَّ الجيوبا[٩]
وجرت منه دموعٌ ... بَلَّتِ الذَّقْنَ الخَضِيبا[١٠]

(١) تسوّرت: صعدت إلى السور، وهو الحائط. (٢) أقصد: أصاب، ومسّ.
(٣) لم يُلف: لم يلق.
(٤) القضيب، كناية عن قدّها وخصرها. والكثيب، كناية عن عجيزتها وأردافها.
(٥) محّة: خالصة، رخوة لدنة. (٦) جذلًا: مسرورًا.
(٧) لبيبًا: عاقلًا. (٨) كشخانًا: محتقرًا ذليلًا وناقصًا.
(٩) الجيوب: جمع جيب، وهو الثوب في أعلى الصدر.
(١٠) الخضيب: المصبوغ بالخضاب، وهو الحنّاء.

قال ابن المعتزّ: وحدّثني محمدُ بنُ موسى بنِ يونس: أنها ملّته بعد ذلك فهرَبت منه، فكانت تغنّي عند أقوام عرفتهم ببغدادَ وهي مستترةٌ متخفّية. فلمّا كان يومٌ من الأيام اجتاز ابنُ أخي المَرَاكبيّ ببُستانٍ كانت فيه مع قوم تغنّي، فسمع غِناءها فعرفه؛ فبعث إلى عمّه وأقام هو مكانه، فلم يبرَح حتى جاء عمّه وكَبَسها، فأخذها وضربها مائةَ مِقْرَعة(١) وهي تصيح: يا هذا، لِم تقتلني! لست أصبِر عليك، أنا امرأة حُرّة، فإن كنتُ مملوكةً فبِعْني، لستُ أصبِر على الضّيق. فلما كان من الغد نَدِم على فعله وصار إليها فقبّل رأسَها ويدها ورجلها ووَهَب لها عشرةَ آلاف درهم. ثم بلغ محمدًا الأمينَ خبرُها فأخذها. قال: وكان الأمينُ في حياة أبيه طلبها منه فلم يُجِبه إلى ذلك. فلما أفضتْ إليه الخلافةُ جاء المراكبيّ ومحمدٌ راكب ليقبّل يده؛ فأمر بمنعِهِ ودفعه، ففعل ذلك الشاكريّ؛ فضربه المراكبيّ وقال: أتمنعني من تقبيل يد مولاي! فجاء الشاكريّ لمّا نزل محمدُ الأمين فشكاه؛ فأمر بإحضار المراكبيّ فأمر بضرب عنقِهِ، فسئل في أمره فعفا عنه وحبسه، وطالبه بخمسمائة ألف درهم مما اقتطعه من نفقات الكراع(٢)؛ وبعث فأخذ عريب من منزله مع خَدَم كانوا له. فلمّا قُتل محمد الأمين هَربتْ عريب إلى المراكبيّ فكانت عنده.

قال ابن المعتزّ: وأمّا روايةُ إسماعيلَ بنِ الحسن خالِ المعتصم فإنها تخالفُ هذا، وذكر أنها إنما هربت من دارِ مولاها المراكبيّ إلى محمدِ بنِ حامدِ الخاقانيّ المعروفِ بالخَشِن أحد قوّاد خُراسان، وكان أشقرَ أصهبَ(٣) أزرقَ العين. وفيه تقول عَرِيب ولها فيه غناء: [من مجزوء الخفيف]

بــأبــي كــلّ أصْــهَــبِ أزرقِ الــعــيــنِ أشــقــرِ
جُــنَّ قــلــبــي بــه ولــيــــ ــس جُــنُــونــي بِــمُــنْــكَــرِ

وقال إسحٰقُ بنُ إبراهيم: لمّا نُمي إلى الأمينِ خبرُ عَريب بعث في إحضارها وإحضار مولاها فأُحضرا، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهديّ، فطَرِب الأمينُ واستعادها، وقال لإبراهيمَ: كيف سمعت؟ قال: سمعت يا سيِّدي حسنًا، وإن تطاولتْ بها الأيام وسَكَن رَوْعها ازداد غِناؤها حُسْنًا وطِيبًا. فقال للفضل بن الربيع:

---

(١) مقرعة: درّة أو سوط.
(٢) الكراع: الماشية، وثمة ديوان كان يطلق عليه اسم ديوان الكراع.
(٣) الأصهب: الذي في شعره أو لون بشرته حمرة وشقرة.

خذْها إليك وسَاوِمْ بها ففعل، فاشتطّ[١] مولاها في السَّوْم ثم أوجبها له بمائة ألف درهم. وانتقض أمر الأمين وشُغِل عنها فلم يأمُرْ لمولاها بشيء حتى قُتل بعد أن افتضّها[٢]؛ فرجعت إلى مولاها، ثم هَربت منه إلى ابنِ حامدٍ؛ فلم تزل عنده حتى قدِم المأمونُ بغدادَ فتظلم المراكبيّ من محمد بن حامد، فأمر المأمون بإحضاره وسُئل عنها فأنكرها. فقال له المأمون: كذَبتَ، وقد سَقط إليّ خبرُك، وأمر صاحبَ الشُّرَط أن يجرّده في مجلس الشُّرط ويضع عليه السِّياطَ حتى يردّها فأخذه. فبلغها الخبرُ، فركبت حمار مُكَارٍ[٣] وجاءت وقد جُرِّد ليُضْرَب، وهي مكشوفة الوجه وهي تصيح: إن كنتُ مملوكةً فليبِعْني، وإن كنتُ حُرّةً فلا سبيلَ عليّ. فرُفع خبرُها إلى المأمون، فأمر بتعديلها عند قُتَيبةَ بنِ زيادٍ القاضي فعُدِّلت عنده. وتقدّم إليه المَرَاكبيّ مطالبًا بها، فسأله البيِّنَة على ملكه إياها فعاد متظلّمًا إلى المأمون وقال: قد طولبتُ بما لم يُطالَبْ به أحدٌ في رقيق. وتظلمت زُبَيدة بنتُ جعفر إليه وقالت: مِنْ أغلظِ ما جَرَى عليّ، بعد قتل ابني، هجومُ المَرَاكبيّ على داري وأخذُ عَرِيب منها. فقال المراكبيّ: إنما أخذتُ مِلْكي، لأنه لم يَنْقُدْني الثمن. فأمر المأمون بدفعها إلى محمد بن عمر الواقديّ، وكان قد ولّاه القضاء بالجانب الشرقيّ، فأخذها من قُتَيبةَ بنِ زيادٍ وأمر ببيعها ساذَجةً؛ فاشتراها المأمونُ بخمسين ألف درهم، وقيل: اشتراها بخمسة آلاف درهم. ودعا عبدَ اللهِ بنَ إسماعيلَ وقال له: لولا أنّي حلفتُ ألّا أشتري مملوكًا بأكثر من هذا لزدتك، ولكني سأُوَلِّيك عملًا تَكسِب فيه أضعافَ هذا الثمن، ورمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتُهما ألف دينار، وخلع عليه خِلَعًا[٤] سنيّة. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ينتفع بهذا الأحياءُ، وأمّا أنا فإني لا محالة ميّتٌ؛ لأن هذه الجاريَة كانت حياتي. وخرج فاختلط[٥] وتغيّر عقلُه ومات بعدَ أربعين يومًا. وذهبت بالمأمون كلَّ مذهب ميلًا إليه ومحبّةً لها، حتى قيل: إن المأمون قبّل رجلَها في بعض الأيام وإنها قالت أثر ذلك: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، لولا ما شرّفها اللهُ به من وضعَ فمك الكريم عليها لقطعتها! ولكن للهِ عليّ ألّا أغسِلها لغيرِ وضوء أو طُهْر إلا بماء الوردِ ما عِشْتُ. فكانت تفعلُ ذلك إلى أن ماتت.

---

(١) اشتطّ: بالغ. (٢) افتضّها: أخذ بكارتها.
(٣) المكاري: من يكري دوابه لحمل الناس أو أمتعتهم.
(٤) خلعًا: ثيابًا. (٥) اختلط: خالطه شيء ما في عقله.

وحَكى عليُّ بنُ يحيىٰ المنجّم أنّ المأمونَ لمّا مات بِيعتْ في ميراثه[١] ـ ولم يُبَعْ له عبدٌ ولا أمةٌ غيرُها ـ فاشتراها المعتصمُ بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته. وقيل: إنه لمّا مات محمدُ الأمين تدلّت عَرِيب من قصر الخُلْد بحبل إلى طريق وهَربت إلى حاتم بن عديّ.

وحكى إبراهيمُ بنُ رَباح قال: كنت أتولّى نفقاتِ المأمون، فوَصَف له إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ عَرِيب، فأمره أن يشتريَها له، فاشتراها بمائة ألف درهم؛ فأمرني المأمونُ بحملها، وأن أحمل إلى إسحٰقَ مائةَ ألف درهم، ففعلت ذلك؛ فلم أدر كيف أثبِتها، فكتبتُ في الدِّيوان أنّ مائة الألف خرجتْ في ثمن جوهرة، ومائة الألف الأخرى خرجت لصائغها ودَلّالها. فجاء الفضلُ بنُ مروانَ إلى المأمون وقد رأى ذلك وأنكره، وسألني عنه فقلت: نعم، هو ما رأيت. فسأل المأمونَ عن ذلك فقال: وهبتَ لدلّال وصائغ مائةَ ألف درهم! وغلّظ القِصّة؛ فأنكرها المأمون، ودعاني فدنوتُ وأخبرته أنّ المال الذي خرج في ثمن عَرِيب وصِلَةِ إسحٰق، وقلت: أيّما أصْوَبُ يا أمير المؤمنين: ما فعلتُ، أم أُثبت في الديوان أنها خرجتْ ثَمَنَ مُغَنِّية وصلةَ مُغَنّ. فضحِك المأمون وقال: الذي فعلتَ أصوَبُ. ثم قال للفضل بن مروان: يا نَبَطِيّ، لا تعترض على كاتبي هذا في شيء.

ولعَرِيب أخبارٌ قد بسَط أبو الفرج الأصبهانيّ القولَ بها في كتابه الذي تَرْجَمه «تحف الوسائد في أخبار الولائد»، وذكر أيضًا نُتَفًا من أخبارها في كتابه المترجم «بالأغاني». منها خبرها مع محمد بن حامد المعروف بابن الخَشِن، وأخبار لها مع المأمون، وأخبار مع صالح المنذريّ الخادم، وإبراهيم بن المدبّر، وغير ذلك من أخبارها. وقد رأينا أن نُثْبِت لُمَعًا[٢] من ذلك.

* * *

أما أخبارها مع محمد بن حامد ـ وهو أحد من كانت تعشقه وتهواه وتخاطر بنفسها في الاجتماع به ـ فمنها ما رُوي عن ابن عبد الملك الضرير أنها لمّا صارت في دار المأمونِ احتالت حتى وصلت إليه، وكانت تلقاه في الوقت بعد الوقت حتى حَمَلتْ منه وولَدتْ بنتًا؛ فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها. وقال محمد بن موسى: اصطبح[٣]

---

(١) ميراثه: تركته. (٢) لمعًا: نتفًا.
(٣) اصطبح: شرب الصَّبُوح، وهو شراب الصباح.

المأمونُ يومًا ومعه نُدَماؤه وفيهم محمدُ بنُ حامدٍ وجماعةٌ من المغنّين وعَريب معه على مصلاة؛ فأومأ إليها محمدُ بن حامد بقُبْلة؛ فاندفعت فغنّت ابتداء: [من الطويل]

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمرّ بطَعْنةٍ كحاشية البُرْدِ اليَمَانِي المُسَهمِ

تريد بغنائها جوابَ محمد بن حامد بأن تقول له: طعنة. فقال المأمون للندماء: أيُّكم أومأ إلى عَريب بقُبْلة؟ والله لئن لم يَصْدُقني لأضرِبنّ عُنُقَه! فقال محمد بن حامد: أنا يا أمير المؤمنين أومأتُ إليها، والعفوُ أقرب للتقوى. فقال: قد عفوتُ عنك. فقال: كيف استدلّ أميرُ المؤمنين على ذلك؟ فقال: ابتدأتْ صوتًا، وهي لا تغنّي ابتداء إلا لمعنًى، فعلمتُ أنها لم تبتدىء هذا الصوتَ إلا لشيء أُومِىء إليها به، ولم يكن من شرط هذا الموضع إلا إيماءٌ بقُبلة، فعلمتُ أنها أجابته بطعنة. وقد حُكي أنّ المأمونَ قال في هذه الواقعةِ عن محمدِ بنِ حامد: نُكَشْخِنه قبل أن يُكَشْخِننا(١)؛ فزوّجه إياها، واشترط عليه أن يُحْضِرَها إلى مجلسه في أوقات عيَّنها له المأمون.

وقال حمدون: كنت ليلةً في مجلس المأمونِ ببلاد الروم بعدَ العشاءِ الآخرة في ليلةٍ ظلماءَ ذاتِ رُعُودٍ وبُروق؛ فقال لي المأمون: اركَبِ الساعةَ فرسَ النّوبة وسِرْ إلى عسكر أبي إسحٰقَ، (يعني المعتصم)، فأدِّ إليه رسالتي وهي كيت وكيت. فركبت فلم تَثْبُت معي شمعة، وسمعتُ وقْع حافر دابّةٍ فرَهِبتُ ذلك فجعلت أتوقّاه حتى صَكّ(٢) ركابي(٣) تلك الدابّة، وبرقت بارقةٌ فأبصرتُ وجهَ الراكبِ فإذا عَرِيب؛ فقلت: عَرِيب؟ قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم. ثم قلت لها: مِنْ أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت: من عندِ محمدِ بنِ حامد. قلت: وما صنعتِ عنده؟ قالت: يا نِكْس(٤)، عَرِيب تجيء في هذا الوقت من عندِ محمد بن حامد خارجةً من مَضْرِب الخليفة راجعةً إليه تقول لها: أيّ شي عملتِ معه! صَلَّيتُ معه التراويح(٥)، أو قرأتُ عليه أجزاء من القرآن، أو دارسته شيئًا من الفقه! يا أحمقُ، تحادثنا وتعاتبنا واصطلحنا ولعبنا وشربنا وغَنّينا وانصرفنا. قال: فأخجلتني وغاظتني وافترقنا.

(١) نكشخنه: نعيّره وننسبه إلى الدناءة والصّغار.
(٢) صكّ: ضرب، وقرع.
(٣) ركابي: موضع قدم الفارس من ظهر الدابة.
(٤) نكس: ناقص، لئيم.
(٥) التراويح: صلاة التراويح، صلاة نافلة يؤتى بها في المساجد ليالي شهر رمضان.

ومضيتُ فأدّيت الرسالةَ؛ ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشدنا الأشعارَ، فهممتُ أن أُحدّثه بحديثها ثم هِبْتُه، فقلت: أُقدّم قبل ذلك تعريضًا بشيء من الشعر فأنشدته: [من الطويل]

أَلَا حَيِّ أطلالًا لقاطعة الحَبْلِ أَلُوفٍ[١] تُساوِي صالحَ القوم بالرَّذْلِ
فلو أنّ من أمسَى بجانب تَلْعَةٍ[٢] إلى جَبَلَيْ طيٍّ[٣] فساقطةِ النعلِ
جُلُوسٌ إلى أن يَقْصُرَ الظِّلُّ عندها لراحوا وكلّ القومِ منها على وَصْلِ

فقال لي المأمون: اخفِضْ صوتَك لا تسمع عريب فتغضَب وتظنّ أنّا في حديثها؛ فأمسكت عما أردت أن أُخبره به، وخار[٤] الله لي في ذلك.

وقال محمد بن عيسى الواثقيّ: قال لي محمد بن حامد ليلةً: أُحِبّ أن تُفَرِّغَ لي مَضْرِبك[٥]، فإني أريد أن أجيئك فأُقيم عندك؛ ففَعلت وأتاني. فلما جلس جاءت عَريب فدخلتْ وجلسنا؛ فجلس محمد يعاتبها ويقول: فعلتِ كذا وفعلتِ كذا! فقالت لي: يا محمدُ، هذا عندك رأي! ثم أقبلتْ عليه فقالت: يا عاجزُ، خُذْ بنا فيما نحن فيه، واجعل سراويلي مِخْنَقَتي[٦] وألْصِقْ خَلْخالي[٧] بقُرْطي[٨]، فإذا كان غدٌ فاكتب بعتابك في طُومار[٩] حتى أكتب إليك بعُذْري في مثله، ودع عنك هذا الفضول؛ فقد قال الشاعر: [من الوافر]

دعِي عَدَّ الذنوبِ إذا التقينا تَعَالَيْ لا نَعُدُّ ولا تَعُدِّي
فأُقسمُ لو هَمَمْتِ بمدّ شَعْري إلى باب الجحيم لقلتُ مُدِّي

وقال أحمد بنُ حمدون: وقع بين عريب وبين محمد بن حامد شرٌّ حتى كادا يخرجان إلى القطيعة، وكان في قلبها منه أكثر مما في قلبه منها. فلقيته يومًا فقالت: كيف قلبك يا محمد؟ قال: أشقَى ما كان وأقرحَه. فقالت: استَبْدِلْ تَسْلُ. فقال لها: لو كانت البلوَى باختيار لفعلتُ! فقالت: لقد طال إذًا تَعَبُك. فقال: وما يكون! أصبِر

---

(١) ألوف: شديدة الألفة والمعاشرة. (٢) تلعة: تلّة صغيرة.
(٣) جبلي طيّ: وهما: أجأ وسلمى، بنجد.
(٤) خار لله: استخار الله في الإقدام على عمل ما. وجعل له في الخير.
(٥) مضربك: موضع إقامتك. (٦) مخنقتي: قلادتي.
(٧) خلخالي: الحلية من فضّة وغير ذلك توضع في رجل المرأة.
(٨) القرط: ما يعلّق في شحمة الأذن من لؤلؤ أو درّ أو حجر كريم.
(٩) الطومار: الصحيفة.

مُكْرَها! أمَا سمعتِ قولَ العبّاسِ بنِ الأحنف: [من الكامل]

تَعَبٌ يطولُ مع الرَّجاءِ لِذِي الهوى خيرٌ له من راحةٍ في اليأس
لولا كرامتُكم لَمَا عاتبتُكمْ ولكنتُمُ عندي كبعض النّاس

قال: فذَرَفَت عيناها، واعتذرت إليه واعتنقته، واصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه.

وحكى أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ حامد قال: لمّا تُوُفّي عمّي محمدُ بنُ حامدٍ، صار جَدّي إلى منزله، فنظر إلى تركته وجعل يقلّب ما خَلَّف، ويُخرَج إليه منها الشيءُ بعد الشيء، إلى أن أخرِج إليه سَفَطٌ[1] مختوم؛ ففَضّ[2] الخاتَم وفتحه، فإذا فيه رِقاعُ عَرِيب إليه؛ فجعل يتصفّحها ويبتسمُ، فوقعتْ في يده رُقْعةٌ فقرأها ووضعها بين يديه، وقام لحاجته؛ فقرأتها فإذا فيها: [من المجتث]

وَيْلِي عليكَ ومنكا! أوقعتَ في الحقّ شكّا
زعمتَ أنّي خَؤونٌ جَوْرًا عليّ وإفكا[3]
إن كان ما قلتَ حَقًّا أو كنتُ أزمعتُ تَرْكا
فأبدل الله ما بي من ذِلّة الحُبّ نُسْكا[4]

قال: وهذا الشعر لعَرِيب.

* * *

وأمّا أخبارها مع المأمون وإخوته وغير ذلك من أخبارها ـ قال صالح بنُ عليِّ بنِ الرشيد المعروف بزعفرانة: تمارَى[5] خالي أبو عليّ والمأمونُ في صوت، فقال المأمون: أين عَرِيب؟ فجاءت وهي محمومة[6]، فسألها عن الصوت؛ فقالت فيه بعلمها. فقال لها: غَنّيه. فولّت لتجيء بالعود؛ فقال: غَنّيه بلا عُود. فاعتمدتْ من الحُمّى على الحائط وغنّت، وأقبلت عقربٌ فرأيتها وقد لَسَبَتْ يدَها مرّتين أو ثلاثًا، فما نحّت[7] يدها ولا سكتت حتى فرغت من الصوت؛ ثم سقطت وقد غُشي[8] عليها.

(١) السفط: وعاء من قضبان الشجر وغير ذلك. (٢) فضّ: فتح.
(٣) الإفك: الكذب والإثم. (٤) النسك: الانقطاع إلى العبادة.
(٥) تمارى: تجادل وتنافس. (٦) محمومة: أصابتها الحمّى.
(٧) نحّت: أبعدت. (٨) غشي عليها: أغمي عليها.

قال عثمان بنُ العَلَاء عن أبيه: عَتَب المأمونُ على عَرِيب فهجرها أيامًا؛ ثم اعتلّت فعادها فقال: كيف وجدتِ طعمَ الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارةُ الهجر ما عُرِفتْ حلاوةُ الوصل، ومن ذمّ بدءَ الغضب حَمِد عاقبةَ الرضا. فخرج المأمون إلى جلسائه فحدّثهم بالقِصة؛ ثم قال: أتُرَى لو كان هذا من كلام النَّظّام[(١)] لم يكن كثيرًا!

وقال أحمدُ بنُ أبي دُوادَ[(٢)]: جرى بين المأمونِ وبينَ عريب كلام، فكلّمها المأمون بشيء غضِبت منه فهجرته أيامًا. فدخلتُ على المأمون، فقال: يا أحمدُ، اقضِ بيننا. فقال عريب: لا حاجةَ لي في قضائه ودخوله بيننا، وأنشأت تقول: [من المنسرح]

ونخلِط الهجرَ بالوصال ولا يدخل في الصُلْح بيننا أَحَدُ

وكانت قد تمكّنتْ من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبُّها كل مَذْهَب؛ وقد قدَّمنا أنه قبّلَ رجلها.

وكانت عريب تهوَى أبا عيسى بنَ الرشيد أخا المأمون، وكان المثلُ يُضرب بحسنه وحسنِ غنائه، وكانت تزعم أنها ما عشِقتْ أحدًا من بني هاشم وأصْفَتْه من الخلفاء وأولادهم سواه. ولم تزل عَرِيب مبجَّلة[(٣)] عند الخلفاء محبوبة إليهم مُكَرَّمةً لديهم إلى أن غضب عليها المعتصمُ والواثقُ وانحرفا عنها. وكان سبب ذلك أن المعتصمَ وجد لها كتابًا إلى العبّاسِ بنِ المأمونِ ببلدِ الروم تقول فيه: أُقتلْ أنت العِلْجَ[(٤)] حتى أقتلَ أنا الأعورَ الليليّ هٰهنا (تعني الواثق، وكان المعتصم استخلفه ببغداد). ولَعَمْري إنّ هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحْتَمَل من الأولاد والإخوة فكيف من أَمَة مغنِّية! ولو لم تكن لها عندهم المكانة العظمى والمحلّ الكبير لما أبَقوْها بعد الاطّلاع من باطن حالها على هذه الطّوِيّة[(٥)]. وكانت عَريب تُكايد

(١) النظام: هو إبراهيم بن سيّار، تلميذ أبي الهذيل العلّاف، من ألمع رجال المعتزلة. نشأ في البصرة وأقام في بغداد. له آثار شعرية ومباحث كلامية. كان أستاذًا للجاحظ. انتقد الجبرية والمرجئة، وإليه تنسب الفرقة الكلامية المعروفة بالنظامية. مات سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م. انظر: الحيوان ٢/ ١٦٧. دار ومدرسة الهلال. بيروت ١٩٨٦.

(٢) هو أحمد بن أبي دؤاد القاضي المشهور. كان على مذهب المعتزلة. ولد في البصرة، وكان مقربًا من المأمون، أسماه المعتصم قاضي القضاة. التنبيه والإشراف، ص ٣٠٨.

(٣) مبجّلة: مكرّمة.

(٤) العلج: الكافر من رجالات العجم.

(٥) الطويّة: الحظوة والمكانة.

الواثقَ فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ في ذلك الشعرَ تغنّيه لحنًا فيكون أجودَ مِن لحنه.

قال: وكانت عَرِيب تتعشّق صالحًا المنذريّ الخادم، فتزوّجته سرًّا. فحُكِي عنها أنّ بعض الجواري دخلتْ عليها يومًا؛ فقالت لها عريب: ويحك! تعالَيْ إليّ! فجاءت؛ فقالت: قَبِّلي هذا الموضع منّي، فإنك تَجِدين ريح الجنّة، وأومأت إلى سالفتها[1]، ففعلت ثم قالت لها: ما السبب في هذا؟ قالت: قَبَّلني الساعةَ صالح المنذريّ في هذا الموضع. قال: ووجّهه المتوكل إلى مكان بعيد في حاجةٍ؛ فقالت عريب فيه: [من مجزوء الكامل]

أمّا الحبيبُ فقد مَضَى ... بالرَّغْم منّي لا الرِّضا

أخطأتُ في تَرْكِي لِمَنْ ... لم أَلْقَ منه عِوَضا

وكانت عَرِيب تهوَى إبراهيمَ بنَ المدبّر ويهواها، ولها معه أخبار وحكاياتٌ، وبينهما أشعار وفُكاهات. فمن مُكاتباتها إليه ما رُوِي عن ابن المعتز قال: كتبتْ إليه تدعو له في شهر رمضان: أفديك بسمعي وبصري، وأهَلّ الله عليك هذا الشهرَ باليُمن والمغفِرة، وأعانك على المُفْتَرَض[2] منه والمُتَنفَّل[3]، وبلّغك مثلَه أعوامًا، وفرّج عنك وعنّي فيه. وكتبتْ في شيء بلَغها عنه: وَهَب الله لنا بقاءك مُمَتَّعًا بالنِّعَم. ما زلتُ أمسِ في ذكرك، فمرّةً بمدحك، ومرّةً بأكلك وبذكرك بما فيك لَوْنًا لونًا. اجْحَدْ ذنبَك الآن، وهاتِ حُجَج الكُتّاب ونفاقَهم. فأمّا خبرُنا أمسِ فإنا شَرِبنا من فضل نبيذك على تَذْكارك رِطْلًا، وقد رفعنا حسابنا إليك، فارفَعْ حسابك إلينا، وخَبِّرنا مَنْ زارك أمسِ وألهاك، وأيّ شيء كانت القِصّة على جهتها. ولا تُخَطْرِب[4] فتُحْوِجَنا إلى كَشْفك والبحث عليك وعن حالك، وقل الحق، فمن صدق نجا. وما أحوجك إلى تأديب، فإنك لا تُحْسِن أن تودّ. والحقّ أقول إنه يعتريك كُزَاز[5] شديد يجوز حدّ البَرْد. وكفاك بهذا من قولي عقوبةً. وإن عُدْتَ سمعتَ أكثر منه. والسلام.

(١) السالفة: الخصلة من الشعر على جانب الوجه.
(٢) المفترض: ما كان مفروض الأداء كالصلاة اليومية مثلًا.
(٣) المتنفل: ما كان نافلة ومستحبًا، غير واجب، لكنّه حسن كالصيام في غير شهر رمضان مثلًا.
(٤) التَّخَطْرُب: هو الذي يفتري على الناس ويتقوّل عليهم مختلف الأقاويل.
(٥) الكزاز: تشنّج يصيب المرء.

ولما نَكَب عبدُ اللهِ بنُ يحيىٰ بنِ خاقانَ[1] ابنَ المدبّر وحبسه، كتبتْ إليه كتابًا تتشوّقُه وتُخبره استيحاشَها له واهتمامَها بأمره، وأنها قد سألت الخليفةَ في أمره فوعدها ما تحبّ. فأجابها عن كتابها، وكتب في آخر الجواب: [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما صوتٌ بديعٌ لِمَعْبَدٍ ... بأحسنَ عندي من كتاب عَرِيبِ
تأمّلتُ في أثنائه خطَّ كاتبٍ ... ورِقَّةَ مُشْتاقٍ ولفظَ خَطِيب
وراجعني من وَصْلها ما استفزّني[2] ... وزهّدني في وصل كلِّ حبيب
فصِرتُ لها عبدًا مُقِرًّا بملْكِها ... ومُسْتَمْسكًا من وُدّها بنصيب

وقال أبو عبد الله بن حمدون: اجتمعتُ أنا وإبراهيمُ بنُ المدبّر وابنُ مَيّادةَ[3] والقاسمُ بنُ زرزر في بستان بالمَطِيرة في يوم غَيْمٍ ورَذَاذٌ يقطرُ أحسنَ قَطْر ونحن في أطيب عيشٍ وأحسن يوم، فلم نشعُر إلا بعَرِيبَ قد أقبلتْ من بعِيد؛ فوثب إبراهيمُ مِن بيننا فخرج حافيًا حتى تلقاها، وأخذ بِركابها حتى نزلت، وقبّل الأرضَ بين يديها. وكانت قد هجرته مدّةً لشيءٍ أنكَرْته عليه. فجاءت وجلستْ وأقبلت عليه متبسمة، ثم قالت: إنما جئتُ إلى مَنْ هٰهنا لا إليك. فاعتذر وشفَعنا له فرضِيت. وأقامت عندنا يومئذ وباتت، واصطبحنا من غد وأقامت عندنا. فقال إبراهيم: [من الرمل]

بِأبِي مَنْ حَقَّق الظنَّ به ... وأتانا زائرًا مُبْتَدِيَا
كان كالغيث تَراخَى مُدّةً ... وأتى بعد قُنُوط[4] مُرْوِيَا
طاب يومانِ لنا في قُرْبِهِ ... بعد شهرينِ لهجرٍ مَضَيَا
فأقرّ اللهُ عيني وشفَى ... سَقَمًا كان لجسمي مُبْلِيا

وقال فيها أيضًا: [من المتقارب]

أَلَا يا عَرِيبُ وُقِيتِ الرَّدَى[5] ... وجَنَّبكِ اللهُ صَرْفَ[6] الزَّمَنْ

(١) عبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان: هو وزير المعتمد على الله، الخليفة العباسي. وكان ولده محمد الملقب بدقّ صدره وزيرًا للمقتدر.
(٢) استفزّني: أثار حفيظتي.
(٣) ابن ميّادة: هو الرماح بن أبرد المرّي، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مات سنة ١٤٩ هـ. انظر ترجمته كاملة في: معجم الأدباء، لياقوت ١١/١٤٣. ط دار المأمون القاهرة.
(٤) قنوط: يأس.
(٥) الردى: الهلاك.
(٦) صرف الزمن: حوادثه.

فإنّكِ أصبحتِ زَيْنَ النساء ... وواحدةَ النّاسِ في كلّ فَنّ
فقُرْبُكِ يُدْنِي لذيذَ الحياةِ ... وبُعْدُكِ يَنْفِي لذيذَ الوَسَنْ[١]
فنِعْمَ الأنيسُ ونعم الجليسُ ... ونعم السميرُ ونعم السَّكَنْ[٢]

وقال أيضًا فيها وفي جاريَتَيْنَ بِدْعة وتُحْفة: [من السريع]

إنّ عَرِيبًا خُلِقتْ وَحْدَها ... في كلّ ما يَحْسُنُ من أمْرِها
ونعمةً للهِ في خَلْقِهِ ... يُقَصِّرُ العالَمُ في شُكرِها
أشْهَدَني جاريتاها على ... أنّهما مُحسنتَا دهرِها
فبِدْعةٌ تُبْدِعُ في شَجْوِها ... وتُحْفةٌ تُتْحِف في زَمْرِها[٣]
يا ربُّ أمْتِعْها بما خُوِّلتْ ... وامدُدْ لها يا ربُّ في عُمرِها

وقال عليّ بن العباس بن أبي طلحةَ الكاتبُ: كنت عندَ إبراهيمَ بنِ المدبّر، فزارته بِدْعة وتُحْفة، وأخرجتا رقعةً من عَرِيب؛ فقرأها فإذا فيها: بنفسي أنت وسمعي وبصري، وقَلّ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيبًا ـ طيّب الله عيشَك ـ قد احتجبت سماؤه، ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت في رِقّة شمائلك وطِيب مَخْضرك ومَخْبَرِك، لا فقدت ذلك أبدًا منك! ولم يُصادِف حسنُه وطِيبُه منّا نشاطًا ولا طَرَبًا لأمور صدّتني عن ذلك، أكره تنغيصَ[٤] ما أشتهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثتُ إليكَ بِبِدْعة وتُحْفة ليؤنِساك وتُسَرّ بهما، سرّكَ الله وسرّني بك! فكتب إليها: [من الكامل]

كيف السرورُ وأنتِ نازحةٌ[٥] ... عَنّي! وكيف يسوغُ لي الطربُ!
إن غبتِ غاب العيشُ وانقطعتْ ... أسبابُه وألَحّتِ[٦] الكُرَبُ[٧]

وأنفذ الجواب إليها. فلم تلبث أن جاءت على حمار مِصْريّ، فبادر إليها وتلقاها حافيًا حتى جاء بها إلى صدر المجلس، يطأُ[٨] الحمارُ بِساطَه وما عليه، حتى

(١) الوسن: النعاس.
(٢) السكن: كناية عن الزوجة.
(٣) زمرها: غنائها.
(٤) تنغيص: تكدير.
(٥) نازحة: بعيدة.
(٦) ألحّت: أقبلت مسرعة.
(٧) الكرب: الهموم والأحزان، جمع كربة.
(٨) يطأ: يدوس.

أخذ بركابها فأجلسها في مَجْلِسه وجلس بين يديها. ثم قال: [من الطويل]

أَلَا رُبَّ يـومٍ قَـصَّـرَ اللهُ طُـولَهُ   بقُرْبِ عَرِيب، حَبّذا هو من قُرْبِ
بها تحسُن الدّنيا ويَنْعَمُ عيشُها   وتجتمع السَّرَّاء[1] للعينِ والقلبِ

وقال إبراهيم بنُ اليزيديّ: كنتُ مع المأمون في بلد الروم. فبينما أنا أسير في ليلة مظلمة شاتية ذاتِ غَيْم وريحٍ وإلى جانبي قُبّة، إذ بَرَقتْ بَرْقةٌ فإذا في القُبّة عَرِيب. فقالت: يا إبراهيم بن اليزيديّ. فقلت: لَبَّيكِ[2]! قالت: قل في هذا البرق أبياتًا مِلَاحًا لأُغنّي فيها. فقلت: [من الرجز]

مـاذا بـقـلـبي مـن ألـيم الـخَـفْـقِ   إذا رأيـتُ لَمَـعـانَ الـبَـرْقِ
مـن قِـبَـلِ الأُرْدُنِّ أو دِمَـشْـقِ   لأن مَـنْ أهـوَى بـذاك الأُفْـقِ
فـارقـتُـه وهـو أعـزُّ الـخَـلْقِ   عـليّ والـزُّورُ[3] خِلافُ الـحـقّ
ذاك الـذي يَـمـلِكُ مِـنّـى رِقِّـي   ولستُ أبغِي ما حَيِيتُ عِتْقِي[4]

فتنفَّسْت نَفَسًا ظننتُه قد قطَع حَيَازِيمَها[5]؛ فقلت: وَيْحَكِ! على مَنْ هذا التنفس؟ فضحِكت ثم قالت: على الوطن. فقلت: هيهات! ليس هذا كله على الوطن. فقالت: ويلك! أظننتَ أنك تَسْتَفِزّني! والله لقد نظرتُ نظرةً مُرِيبةً في مجلسٍ فادّعاها أكثرُ من ثلاثين رئيسًا، والله ما علم أحدٌ منهم لمن كانت إلى هذا الوقت.

وقال أبو العُبَيْس بن حمدون: غضِبتْ عريب على بعض جواريها، فجئتُ إليها وسألتها أن تعفو عنها؛ فقالتْ - في بعض ما تقوله مما تعتدّ به عليها من ذنوبها -: يا أبا العباس، إن كنتَ تشتهي أن ترى زِنَايَ وصَفَاقةَ[6] وجهي وجُرْأتي على كلّ عظيمةٍ أيّام شبابي، فانظُرْ إليها واعرِفْ أخبارها. قال: وكانت في شبابها يُقَدَّم إليها البرذونُ فتَطْفِر[7] عليه بلا رِكاب.

---

(١) السّراء، بخلاف الضراء، وهي البهجة والسرور.
(٢) لبيك: إجابةً بعد إجابة.   (٣) الزور: الباطل.
(٤) عتقي: تحريري من الرّق والعبودية.
(٥) حيازيمها، جمع حيزوم، وهو المرتفع من الأرض، ووسط الصدر. وهو مكان الحزام من الدّابّة.
(٦) صفاقة: وقاحة.   (٧) تطفر: تثب وتقفز.

وقال أبو العبّاس بن الفُرات: حدّثتني بِدْعة جاريةُ عريب: أنّ عريبَ كانت تجد في رأسها بَرْدًا وكانت تُغَلِّف رأسها بستين مِثقالًا[١] مِسكًا وعنبرًا، وتغسِله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته جدّدت غيره، وتقتسم الجواري غُسَالةَ رأسها.

وقال عليّ بن المنجّم: دخلت يومًا على عريبَ مُسَلِّمًا عليها، فلما جلستُ هطلت السماءُ بمطر عظيم. فقالت: أقِمْ عندي اليوم حتى أُغنِّيك أنا وجواريّ، وابعَثْ إلى مَن أحببتَ من إخوانك، فأمرتُ بدوابّي فرُدّت، وجلسنا نتحدّث. فسألتني عن خبرنا بالأمس في مجلس الخليفة ومن كان يُغَنِّينا، وأيّ شيء استحسنّاه من الغناء. فأخبرتها أنّ صوت الخليفة كان لَحْنًا صنعه بنان من الماخوريّ. فقالت: وما هو؟ فقلت: [من مجزوء الوافر]

تَـجَـافَـى[٢] ثـم تَـنْـطَـبِـقُ　　جُـفُـونٌ حَـشْـوُهـا الأرَقُ
وذِي كَـلَفٍ[٣] بـكـى جَـزَعًـا　　وسَـفْـرُ الـقـومِ مُـنْـطَـلِقُ
بـه قَـلَقٌ يُـمَـلْـمِـلُهُ　　وكـانَ ومـا بـه قَـلَقُ
جـوانِـحُـه عـلى خَـطَـرٍ　　بـنـار الـشَّـوقِ تَـحْـتَـرِقُ

فوجّهت رسولًا إلى بنان، فحضر وقد بلّته السماءُ؛ فأمرت بِخَلع فاخرة فخُلِعتْ عليه، وقُدِّم له طعامٌ فأكل، وجلس يشرب معنا. فسألته عن الصوت فغنّاها إياه. فأخذتْ دواةً ورُقْعةً وكتبت: [من مجزوء الوافر]

أجـابَ الـوابـلُ[٤] الـغَـدِقُ[٥]　　وصـاح الـنَّـرْجِـسُ[٦] الـغَـرِقُ
وقـد غَـنّـى بـنـانُ لـنـا:　　«جُـفُـونٌ حـشْـوُهـا الأرَقُ»
فـهـاكَ[٧] الـكـأسَ مُـتْـرَعـةً[٨]　　كـأنّ خـتـامَـهـا حَـدَقُ[٩]

قال: فما شرِبنا بقيّة يومِنا إلا على هذه الأبيات.

وأخبار عريبَ كثيرةٌ، وقد وضع عبدُ اللهِ بنُ المعتز فيها ديوانًا. وفيما أوردناه من أخبارها كفايةٌ لا تحتمل المختصراتُ أكثرَ منها. والله تعالى أعلم.

---

(١) المثقال: ما يوزن به قليلًا كان أو كثيرًا. وكان يساوي قديمًا درهمًا ونصف درهم.
(٢) تجافى، والأصل تتجافى: تمتنع.　(٣) كلف: مولع.
(٤) الوابل: المطر.　(٥) الغدق: الغزير الكثير.
(٦) النرجس: ضرب من النوريّات.　(٧) هاك: خذ، اسم فعل.
(٨) مترعة: ملأى.
(٩) حدق: جمع حدقة، وهي حدقة العين وسوادها.

ذِكر أخبار محبوبة

قال أبو الفرج: كانت مولَّدةً من مولدات البَصْرةِ، شاعرةً، سريعةَ الخاطر، مطبوعةً، لا تكاد فَضْلُ الشاعرة اليمانية تتقدّمها، وكانت أجمل من فضل وأعفّ، وكانت تغنّي غناءً غير فاخر.

وقال عليّ بن الجَهْم[١]: كانت محبوبةُ لعبدِ الله بن طاهر أهداها إلى المتوكّل في جملةِ أربعمائة جارية. وكانت بارعةَ الحسن والظَّرْف والأدب، مغنّيةً محسنة، فحَظِيتْ عندَ المتوكل حتى كان يُجْلِسَها خلفَ السِّتارة وراء ظهرِه إذا جلس للشُّرب، فيُدْخِل رأسَه إليها فيراها ويحدِّثُها في كل ساعة.

وقال عليّ بن يحيىٰ المنجِّم: كان عليّ بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جِدًّا، فلا يكتُمه شيئًا من سِرّه مع حُرَمه وأحاديث خَلَواته. فقال له يومًا: إنّي دخلتُ على قبيحةَ فوجدتُها قد كتبت اسمي على خدّها بغالية[٢]، فلا والله ما رأيت شيئًا أحسنَ من سواد تلك الغاليةِ على بياض ذاك الخدّ؛ فقل في هذا شيئًا ـ قال: وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة ـ فدعا عليّ بن الجَهْم بدواة، فإلى أن أُتِي بها وابتدأ يفكّر قالت محبوبة على البَدِيهة[٣] من غير فِكرة ولا رَوِيّة: [من الطويل]

وكاتبةٍ في الخَدّ بالمِسْكِ جعفرًا ... بنفسي مَخَطّ[٤] المِسك من حيثُ أثَّرا

لئن كتبتْ في الخدّ سَطْرًا بكَفِّها ... لقد أودعتْ قلبي من الحبّ أسطُرا

فيا مَنْ لمملوكٍ لِملْكِ يَمينِهِ ... مُطيعٍ له فيما أسرَّ وأظهرا!

ويا مَنْ هواها في السريرة[٥] جعفرٌ ... سَقَى اللهُ من سُقْيَا ثَنَاياكِ جعفرا

قال: فبقي عليُّ بنُ الجَهْم واجمًا لا ينطق بحرف، وأمر المتوكّل بالأبيات فبُعِثتْ إلى عَرِيبَ وأمرها أن تغنّي فيها. قال عليّ بن الجهم: فتحيّرتُ واللهِ وتقلبت خواطري، فوالله ما قَدَرتُ على حَرْف واحدٍ أقوله.

---

(١) علي بن الجهم: شاعر عباسي عاش في بغداد، عرف بهجائه وخبث لسانه فنفاه المتوكل إلى خراسان وهناك حبسه طاهر بن عبد الله وصلبه مجردًا من ثيابه مدة يوم واحد. قتل في طريق الغزو على أيدي جماعة من أعراب كلب، وذلك سنة ٨٦٣ م.

(٢) الغالية: الطّيب والمسك. (٣) على البديهة: ارتجالًا.

(٤) مخطّ: موضع الخط، اسم المكان من خطّ. (٥) السريرة: الطويّة، والسرّ.

وقال أيضًا: غاضب[1] المتوكلُ يومًا محبوبةَ وهجرها ومنع جواريَها جميعًا من كلامِها؛ ثم نازعته نفسُه إليها وأراد ذلك، ثم نازعته العِزّةُ منها وامتنع من ابتدائها، وامتنعت من ابتدائه دَلَالًا عليها لمَحَلِّها منه. قال عليّ: فبكّرت إليه يومًا؛ فقال لي: يا عليّ، إني رأيت البارحةَ في نومي كأنّي صالحتُ محبوبة. فقلت: أقرّ الله عينَك يا أميرَ المؤمنين وأنامك على خيرٍ وأيقظك على سرور! أرجو أن يكون هذا الصلح في اليقظة. فبينا هو يحدّثني وأحدّثه إذا بوصيفةٍ قد جاءت فأسرّت إليه شيئًا، فقال: أتدري ما أسرّت إليّ هذه؟ قلت: لا. قال: حدّثتني أنها اجتازت بمحبوبةَ الساعةَ وهي في حجرتها تغنّي، أفلا تعجب من هذا؟ أنا مُغَاضِبُها وهي متهاونةٌ بذلك، لا تبدؤني بصلح ثم لا ترضى حتى تغنّي في حُجرتها؛ فقُمْ بنا حتى نسمع ما تغنّي. ثم قام وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها. وإذا هي تغنّي: [من المنسرح]

أدورُ في القَصْر لا أرى أحدًا ... أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأنّي أتيتُ مَعْصِيةً ... ليست لها توبةٌ تُخَلِّصني
فهل لنا شافعٌ لي مَلِكٍ ... قد زارني في الكَرَى[2] وصالحني
حتى إذا ما الصَّباحُ لاح لنا ... عاد إلى هجره فصارَمني[3]

فعجِب المتوكلُ، وأحسّتْ بمكانه فأمرَتْ بخدمها فخرجوا وتَنَحّينا، وخرجت إليه فحدّثته أنها رأته في منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنّت فيها؛ فحدّثها هو أيضًا رؤياه واصطلحا. فلما قُتل المتوكلُ سَلَاه جميعُ جواريه غيرَها؛ فإنها لم تزل حزينةً هاجرة لكل لذّة حتى ماتت. ولها فيه مَراثٍ[4].

حكى أبو الفرج: أنّ وَصِيفًا بعد قتلِ المتوكل أحضرها يومًا وأحضر الجواري، فجئن وعليهن الثياب الملوّنة المُذْهَبة[5] والحليّ وقد تَزَيّنّ وتعطّرن، وجاءت محبوبةُ وعليها ثيابٌ بِيض غير فاخرة حزنًا على المتوكل. فغنّى الجواري جميعًا وشَرِبن، وطَرِب وصيف وشَرِب. ثم قال: يا محبوبةُ، غَنّي؛ فأخذت العودَ وغنّت وهي تبكي: [من مجزوء الخفيف]

أيّ عيشٍ يَطِيبُ لي ... لا أرى فيه جعفرا

(١) غاضب: غضب عليها.
(٢) الكرى: النوم.
(٣) صارمني: هجرني المرّة بعد المرّة، وجفاني.
(٤) مراث، جمع مرثاة، وهي أبيات الشعر في الرثاء.
(٥) مذهبة: مزدانة بالذهب.

مـلِكًـا قـد رأتـه عـيــ ـنـي قَـتِـيـلًا مُـعَـفَّـرا[١]
كـلُّ مـن كـان ذا هُـيـا مِ[٢] وحُزن فقد بَـرَا[٣]
غـيـر مـحـبـوبـة الـتـي لـو ترى الموتَ يُشتَرى
لاشـتـرتـه بـمـلكِـهـا كـلّ هـذا لِتُـقْـبَـرَا
إنّ مـوت الـكـئـيـبِ أصــ ـلحُ مِـنْ أن يُـعَـمَّـرا

فاشتدّ ذلك على وصيف وأمر بقتلها؛ فاستوهبها بُغَا منه فوهبها له. فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون حيث تختار من البلاد. فخرجت إلى بغدادَ من سُرَّ مَنْ رَأَى، وأخملت ذكرها طول عمرها؛ وما طمِع فيها أحد. رحمها الله تعالى.

ذِكر أخبار عُبَيْدة الطُّنبوريّة

قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت عُبَيدة الطُّنبوريّةُ من المحسنات المتقدّمات في الصَّنْعة والأدبِ، شهد لها بذلك إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصليّ؛ قال: وحسْبُها بشهادته. قال: وكان أبو حشيشةَ[٤] يعظِّمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذيّة. وكانت من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم صوتًا، وكانت لا تخلو من عشق. قال: ولم يُعْرَف في الدنيا امرأةٌ أعظم صنعةً منها في الطُّنبور[٥]. وكانت لها صنعة عجيبة. فمنها: [من المجتث]

كُـنْ لـي شـفـيـعًـا إلـيـكـا إن خَـفَّ ذاك عـلـيـكـا
وأغْـنِـنِـي مـن سُـؤالـي سـواك مـا فـي يـديـكـا
يـا مَـنْ أُعِـزُّ وأهـوَى مـا لِي أهـونُ[٦] لـديـكـا

قال: وحضرت يومًا عندَ عليّ بن الهيثم اليزيديّ وعنده عمرو بن مَسْعَدةَ[٧] وهارونُ بنُ أحمدَ بنِ هشام؛ فجاءه إسحٰقُ بنُ إبراهيمَ الموصلي فأخبره خبرهم. فقال له إسحٰق: إني كنتُ أشتهي أن أسمع عُبَيْدة، ولٰكنها إن عرفتْني وسألتموني أن أغنّي

(١) معفّرًا: ممرّغًا بالثرى وغيره، ومغبّرًا أشعث.
(٢) الهيام: شدة الوجد والحب والعشق.
(٣) برا، أصلها برىء، شفي.
(٤) أبو حشيشة، سبق التعريف به.
(٥) الطنبور: آلة من آلات الطرب.
(٦) أهون: أكون بلا قيمة ومكانة.
(٧) عمرو بن مسعدة: وزير الخليفة العباسي المأمون. كاتب بليغ، في أسلوبه طلاوة وجزالة وإيجاز. مات سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م.

بحضرتها انقطعت ولم تصنع شيئًا، فدعوها على جِبِلتها(١)؛ فوافقوه على ذلك، ودخل وكتموها أمره، وكانت لا تعرف إسحٰق. وقُدِّم النبيذ، فغنَّت لحنًا لها: [من مجزوء الوافر]

قـريـبٌ غـيـر مُـقْـتـرِبِ ومُـؤْتَـلِفٌ كَـمُـجْـتَـنِـبِ(٢)
لـــه ودِّي ولِي مــــنــــهُ دَوَاعـي الـهَـمِّ والـكَـربِ
أُواصِـــلهُ عـــلى سَـبَـــبِ ويـهـجُـرنـي بِـلا سـبـبِ
ويـظـلـمـنـي عـلى ثـقـةٍ بـأنّ إلـيـه مُـنْـقَـلَـبـي(٣)

قال: فطرِب إسحٰقُ وشرب نِصْفًا، ثم تغنّت وشرب، حتى وَالَى بين عشرة أنصاف؛ قال عليّ بن الهيثم: وشربنا معه. وقام إسحٰقُ ليصلّي؛ فقال لها هارون: ويحك يا عُبَيدة! ما تُبالين والله مَتَى مُتّ! قالت: ولم؟ قال: أتدرين مَن المستحسِنُ غناءك والشاربُ عليه ما شرِب؟ قالت: لا والله. قال: إسحٰق بن إبراهيم، فلا تُعَرِّفيه أنك قد عَرَفتيه. فلما جاء إسحٰقُ ابتدأت تغنّي فلَحِقتها هيبةٌ له واختلاط، فنقصتْ نقصانًا بَيِّنًا. قال: أعرّفتموها من أنا؟ فقلت: نعم، عرّفها هارون. فقال إسحٰق: نقوم إذًا فننصرف؛ فإنه لا خير في عِشرتكم الليلة ولا فائدةَ لي ولا لكم؛ وقام فانصرف.

وقال مُلَاحظ غلامُ أبي العبّاس: اجتمع الطُّنبوريّون عندَ أبي العباس بن الرشيد يومًا وفيهم المَسْدُودُ وعبيدةُ. فقالوا للمسدود: غَنِّ؛ فقال: لا واللهِ، لا تقدّمتُ على عبيدةَ وهي الأستاذُ، فما غنّى حتى غنّت. وقال محمدُ بنُ عبدِ الله بن مالك الخُزَاعيّ: سمعتُ إسحٰقَ يقول: الطنبورُ إذا تجاوز عُبَيدةَ هَذَيان(٤).

هذا ما أمكن إيرادُه في هذا الباب من أخبارِ مَن اشتهر بالغناء، وأخبار القيان، وهو مختصرٌ مما أورده أبو الفرج الأصفهاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه المترجم بالأغاني من أخبارهم. ولم نلتزم استيعابَهم بل ذكرنا أكثرهم وأشهرهم بالغناء، وذكرنا مِن أخبارِهم ما فيه كفاية. فلنذكرْ خلافَ ذلك.

---

(١) جبلّتها: فطرتها. (٢) مجتنب: مختلف ومزايل ومفارق.
(٣) المنقلب: المصدر الميمي من انقلب، إذا رجع.
(٤) هذيان: كلام غير معقول لعلّة أو لغير علّة.

الباب السابع
من القسم الثالث من الفنّ الثاني
فيما يحتاج إليه المغنّي ويُضطرّ إلى معرفته، وما قيل في الغناء، وما وُصفت به القِيان، ووصف آلات الطَّرَب

ذكر ما يحتاج إليه المغنّي ويضطرّ إلى معرفته وما قيل في الغناء والقيان من جيّد الشعر

قال مالكُ بنُ أبي السَّمْح: سألت ابنَ أبي إسرائيلَ عن المُحْسِن المصيبِ من المغنّين، فقال: هو الذي يُشبع الألحانَ، ويملأ الأنفاسَ، ويُعَدّل الأوزانَ، ويفخّم الألفاظَ، ويعرِف الصوابَ، ويُقيم الإعرابَ، ويستوفي النَّغم الطِّوالَ، ويُحسنُ مقاطعَ النّغَم القصارَ، ويُصيب أجناسَ الإيقاع، ويختلس[١] مواضعَ النَّبَرات، ويستوفي ما يشاكلها[٢] من النَّقَرات. فعرضتُ ما قال على مَعْبَد، فاستحسنه وقال: ما يقال فيه أكثرُ من هذا. وقد رُويتْ هذه المقالةُ عن ابنِ سُرَيج. وقال إبراهيمُ الموصليّ: الغناءُ على ثلاثة أضرب: فضربٌ مُلْهٍ مطربٌ يحرِّك ويَستخِفُّ، وضربٌ ثانٍ له شجًى[٣] ورقّة، وضربٌ ثالث حكمة وإتقانُ صنعة. وقال: كان هذا كله مجموعًا في غناء ابن سُرَيج. وقال أبو عثمانَ الناجم: بُحُوحةُ الحَلْق الطيِّب تُشبه مَرَض الأجفان الفاترة[٤].

* * *

وأمّا ما قيل في الغناء وما وصفت به القِيان.

حُكِيَ أنّ بعض المُحْدَثين سمع غناءً بخُرَاسانَ بالفارسيّة، فلم يَدْرِ ما هو غير أنه شوقه لشجاه وحُسْنه؛ فقال في ذلك، وقيل: إنه لأبي تَمّام[٥]: [من الوافر]

حَمِدْتُكِ ليلةً شَرُفتْ وطابت ... أقام سُهادُها[٦] ومضى كَرَاها[٧]

---

(١) يختلس: يسترق.
(٢) يشاكلها: يجانسها ويماثلها.
(٣) شجى: حزن.
(٤) الفاترة: الناعسة.
(٥) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي. من أشهر شعراء بني العباس. نشأ في بلاد الشام وعاش في بغداد فمدح الخلفاء العباسيين، والمعتصم خاصةً. جيّد النظم والأسلوب. صاحب صناعة مميزة في الشعر. مات سنة ٨٤٥ م.
(٦) سهادها: عدم نومها.
(٧) كراها: رقادها ونومها.

سمعتُ بها غِناءً كان أولَى بأن يقتادَ نفسي مِن عَناها[١]
ومُسمِعةٍ يحارُ السَّمْعُ فيها ولم تُصْمِمْهُ[٢]، لا يَصْمَمْ صَدَاها
مَرَتْ[٣] أوتارَها فشفَتْ وشاقتْ فلو يَستطِيع حاسدُها فَدَاها
ولم أفهمْ مَعَانِيَها ولكِن ورتْ[٤] كَبِدي فلم أجهَل شجاها[٥]
فكنتُ كأنني أعمَى مُعَنًّى[٦] بِحبّ الغانياتِ وما رآها

وقال كُشَاجم[٧] في بُحّة حَلْق المغنّي: [من الخفيف]

أشتهي في الغناء بُحّةَ حَلْقٍ ناعِم الصوتِ مُتْعَبٍ مَكدودِ[٨]
كأنين المُحِبِّ أضعفَه الشو قُ فضاهَى[٩] به أنينَ العُودِ
لا أُحِبُّ الأوتار تعلو كما لا أشتهِي الضربَ لازِمًا لِلعمودِ
وأُحِبّ المحنبات[١٠] كحبّي للمبادِي موصولةً بالنّشِيدِ
كهُبوب الصَّبا[١١] تَوسّط حالًا بين حالَين شِدّةٍ وركُود

وقال الناجم: [من مجزوء الكامل]

شَدْوٌ ألذُّ من ابتدا ء العَيْنِ في إغفائها
أحلَى وأشهَى من مُنَى نَفْسٍ وصِدْقِ رجائها

وقال محمد بنُ بشير: [من الهزج]

وصوتٍ لبني الأحرا رِ أهلِ السِّيرةِ الحُسْنَى
شَجٍ يستغرق الأوتا رَ حتى كلُّها تفنَى
فما أدري اليدُ اليُسْرَى به أشْقَى أم اليُمْنَى؟
وقلنا لمغنّيه وقد غَنَّى على المَثْنَى[١٢]

---

(١) عناها: أتعبها.
(٢) تصممه: تجعله أصمّ لا يسمع.
(٣) مرت: جسّت ولمست.
(٤) ورت: أشعلت.
(٥) شجاها: حزنها.
(٦) معنى: متعب.
(٧) كشاجم: هو أبو الفتح محمود، الشاعر والأديب والكاتب المنشىء. أصله فارسي، زار مصر والشام وأقام في حلب وراح يمدح الحمدانيين. له من الكتب «أدب النديم» كما أن له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٩٦٠ م.
(٨) مكدود: متعب ومجهد.
(٩) ضاهى: شاكل وماثل.
(١٠) المحنبات: اللينات المائلات.
(١١) الصبا: ريح شرقية ناعمة.
(١٢) المثنى: أحد أوتار العود، والغناء.

أَلَا يـا لـيـتَ هـذا الـصـو ... تَ حتى الصُّبْحِ لا يَفْنَى
فـقـد أيـقـظَـتِ الـلـذّا ... تُ عينًا لم تزلْ وَسْنَى[١]
ومـا أفـهـم مـا يـعـنِـي ... مُـغَـنِّـيـهِ إذا غَـنَّـى
ولـكـنّـيَ مـن حُـبّـي ... لـه أستحسن المعنَى

وقال الثّعالبيّ[٢]: [من المتقارب]

غِنـاؤك يَهْزِم جيشَ الكُرُوبِ ... وعينـاك للناس عُذْرُ الذنوبِ
فويلُ القُلوبِ إذا ما رَنَوْت[٣] ... وإمّا شَدَوْتُ فويلُ الجُيوب

وقال أيضًا: [من الوافر]

وسـائلةٍ تسـائل عـنـكِ قلنا ... لها في وصفكِ العَجَبَ العَجِيبَا
رَنَا ظَبْيًا وغَنَّى عَنْدَلِيبًا[٤] ... ولاحَ شَقَائقًا ومَشَى قَضِيبا

وقال عُكاشةُ يصف قَيْنة: [من الكامل]

مِنْ كَفِّ جاريةٍ كأنّ بَنانَها[٥] ... من فِضَةٍ قد طُرِّفتْ عُنَّابا[٦]
وكأنّ يُمْناها إذا نطقتْ به ... تُلْقِي على يدها الشِّمالِ حِسَابا

وقال ابنُ الروميّ[٧]: [من الخفيف]

وقِيَـانٍ كـأنـهـا أمّـهـاتٌ ... عاطفاتٌ على بَنِيها حَوَانِي
مُطْفِلاتٌ[٨] وما حَمَلن جَنِينًا ... مُرْضِعاتٌ ولسْنَ ذاتَ لِبَانِ[٩]

---

(١) وسنى: ناعسة.
(٢) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. وُلد في نيسابور سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م. مؤلف وأديب وكاتب وشاعر. لقب بالثعالبي لأنه كان فرّاء يخيط جلود الثعالب ويعملها. مات سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م. انظر: حياته في مقدمة كتابه «فقه اللغة» ص ٥ ـ ٦. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٣.
(٣) رنوت: نظرت.
(٤) العندليب: البلبل ذو الصوت الحسن من الطيور، وهو الهزار أيضًا.
(٥) بنانها: طرف إصبعها.
(٦) العنّاب: ضرب من الثمار يعرف بلونه المسمى «العنّابي».
(٧) ابن الرومي، علي بن العباس، الشاعر البغدادي الذائع الصيت. من شعراء العصر العباسي. وُلد في بغداد من أب رومي وأم فارسية. شعره يتميز بالغرابة. غلب عليه التطير والتشاؤم. شهر بالهجاء والوصف، وصف الطبيعة خاصةً. مات سنة ٨٩٦ م.
(٨) مطفلات: ذوات أطفال. (٩) اللبان: الحليب.

كلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأسماء شَتَّى — بين عُودٍ ومِزْهَرٍ وكِران[١]
أُمُّهُ دهرَها تُتَرْجِمُ عنه — وهو بادي الغِنَى عن التَّرْجُمانِ

وقال أيضًا: [من السريع]

كأنما رِقَّةُ مسموعِها — رِقَّةُ شكوَى سبقتْ دَمْعَهْ
غنّتْ فلم تَحْتَجْ إلى زامرٍ — هل تُحْوِجُ الشمسُ إلى شَمْعَهْ
كأنما غنّت لشمسِ الضُّحَى — فألبستها حُسْنَها خلْعَه[٢]

وقال الناجم: [من المنسرح]

ما صدحتْ[٣] عاتبٌ ومِزْهَرُها — إلّا وثِقْنا بالَّلهو والفَرَح
لها غِناءٌ كالبُرْءِ[٤] في جَسَدٍ — أضناه[٥] طولُ السَّقَامِ والتَّرَح[٦]
تعبُدها الرّاحُ[٧] فهي ما صَدَحتْ — إبريقُنا ساجدٌ على القَدَحِ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

ما تغنّت إلّا تكشَّفَ همٌّ — عن فُؤادٍ وأقشَعَتْ[٨] أحزانُ
تفضُلُ المُسْمِعِين طِيبًا وحُسْنًا — مثلَ ما يفضُلُ السَّماعَ العِيانُ

وقال أبو عُبَادَةَ البُحْتُرِيّ[٩]: [من الخفيف]

وأشارتْ على الغِناءِ بألحا — ظِ مِرَاضٍ من التَّصابِي[١٠]، صِحَاحِ
فطَرِبْنا لهنّ قبلَ المَثَانِي — وسَكرنا لهنّ قبل الراح

وقال كشاجم وهو أبو الفتح محمود: [من مجزوء الكامل]

أفدِي التى أهدتْ لنا — شمسَ الضُّحَى والليلُ حَالِكْ[١١]

---

(١) كران: اسم آلة طرب.
(٢) الخلعة: الثوب والرداء.
(٣) صدحت: غنّت.
(٤) البرء: الشفاء.
(٥) أضناه: أضعفه وأهزله.
(٦) الترح: الحزن.
(٧) الراح: الخمرة.
(٨) أقشعت: أزالت.
(٩) البحتري: أبو عبادة، شاعر عربي طائي عباسي. وُلد في منبج قرب حلب، وقصد بغداد فمدح المتوكل الخليفة العباسي ووزيره الفتح بن خاقان. شعره رقيق العبارة والديباجة كأنه سلاسل الذهب. له مدائح ومراثٍ وأوصاف بديعة. له ديوان شعر مطبوع. كما أن له كتاب «الحماسة» على شاكلة حماسة أبي تمام. مات سنة ٨٩٧ م.
(١٠) التصابي: الميل إلى اللهو واللعب والجهل.
(١١) حالك: شديد السواد.

مـمـلوكـةٌ جـلّتْ فـلـيـ ... ـس تَفِي بقِيمتِها المَمَالِك
عـرضـتْ فـأعـطـتْ عُـودَهـا ... ضَرْبًا يُعَرِّض للمهالِك
وتَـبِـعـتُـهـا فـتـصـرّفـتْ ... بالضَّرْبِ في كلّ المسالِك
ويـئـسـتُ مـن إدراكِـهـا ... فجعلتُ صَوْتي عند ذلك
قَـصُـرَتْ يـدِي عـنـك الـغـدا ... ةَ، فكيف لي بِيَدٍ تنالكْ

وقال أيضًا: [من الهزج]

بـدتْ فـي نِـسـوةٍ مـثـل الـ ... ـمَهَا أُدْمِجْنَ[1] إدماجا
يُـجَـاذِبْـنَ مـن الأردا ... ف[2] كُثبانًا وأمواجا
ويـسـتـرن مـن الأبـشـا ... رِ[3] في الدِّيباج[4] دِيباجا
وقُـضْـبـانًـا مـن الـفِـضّـ ... ـةِ قد أثمرَتِ العاجا
وقـد لاثَـتْ[5] مـن الـنـ ... ـور على مَفرِقها تاجا
فـلـمـا طُـفْـنَ بـالـمـجـلـ ... ـس أفرادًا وأزواجا
تـجـاوَبـن فـغَـنَّـيـنـ ... ـكِ أرْمالًا وأهزاجا
وحـرّكـن مـن الأوتـا ... رِ إمساكا وإدماجا
فـلا لـومَ عـلـى قـلـبـ ... ـك إن هُيِّج فاهتاجا

وقال عليّ بنُ عبدِ الرحمٰن بنِ يونسَ المنجّم في عوّادة[6]: [من الكامل]

غنّتْ فأخفتْ صوتَها في عُودِها ... فكأنما الصوتانِ صوتُ العود
غيداءُ تأمر عودَها فيُطِيعُها ... أبدًا ويَتْبَعُها اتّباعَ وَدُودِ[7]
أنْدَى من النُّوّارِ[8] صُبْحًا صوتُها ... وأرَقُّ من نَشْرِ الثَّنَا المعهودِ
فكأنما الصوتانِ حين تَمَازَجا ... ماءُ الغمامةِ وابنةُ العُنْقُودِ[9]

(١) أدمجن: كنّ مدملجات مفتولات فتلًا.
(٢) الأرداف، جمع ردف، وهو الكفل والعجز.
(٣) الأبشار: الأجساد وجلودهنّ.
(٤) الديباج: الحرير.
(٥) لاثت: عصبت ولفّت.
(٦) العوّادة: ضاربة العود.
(٧) ودود: محبّ.
(٨) النّوّار: النور والزهر والضياء.
(٩) ابنة العنقود، كناية عن الخمرة تعصر من عناقيد العنب.

وقال أبو عَوْنٍ الكاتبُ: [من مجزوء الكامل]

تـشـدو فـيُـرْقَـصُ بـالـرؤو ... سِ لـهـا ويُـزْمَـرُ بـالـكـؤوس

وقال الناجِم: [من الكامل]

طفِقتْ تُغَنِّينا فخِلْنا أنّها ... لسرورنا بغِنائها تَغْنِينا

وقال أبو هِلالٍ العسكريّ[١]: [من البسيط]

وهَيَّجَتْ لِيَ من شَجْوٍ ومن فَرَحٍ ... أيْدٍ نَشَرْنَ على الأوتارِ عُنَّابا

لا عيبَ في العيش إلّا خَوْف غَيْبتِكم ... إنّ السرورَ إذا ما غِبْتُمُ غابا

وقال هارونُ بنُ عليّ[٢] المنجّم: [من الرجز]

غُصْنٌ على دِعْصٍ[٣] نَقًا[٤] مُنْهالِ[٥] ... سعَى بكأسٍ مثل لَمع الآل[٦]

وفاتناتِ الطَّرْفِ والدَّلَالِ ... هِيْفِ الخُصورِ[٧] رُجَّح الأكفالِ[٨]

يأخُذْنَ من طرائف الأرْمالِ ... ومُحْكَم الخِفافِ والثِّقالِ

تجرِي مع النّاس بلا انفصالِ ... مثلَ اختلاط الخمر بالزُّلَالِ[٩]

تدعو إلى الصَّبْوةِ[١٠] كلَّ سالِ[١١] ... تَضرَعُ كلَّ فاتِكٍ بَطّالِ[١٢]

بين حَرَامِ اللَّهوِ والحلالِ ... أكرمُ من مَصَارع الأبطالِ

وقال شاعرٌ يذمُّ مُغَنّيًا: [من مجزوء الرمل]

ومُغَنٍّ باردِ النَّغْـ ... ـمةِ مُخْتَلِّ اليَدَيْنِ

ما رآه أحدٌ في ... دار قومٍ مَرَّتَينِ

صوتُه أقطعُ لِلّـ ... ـذّاتِ من سَطْوةِ بَيْنِ[١٣]

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسن، أديب وشاعر ومؤلف عدة كتب منها: «النظم والنثر» و«كتاب الصناعتين» و«جمهرة الأمثال». كما أن له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ١٠٠٠ م.

(٢) هو هارون بن علي بن يحيىٰ بن أبي منصور المنجم، كنيته أبو عبد الله. كان منجمًا، وشاعرًا، امتاز بالورع والفضل. تُوفي سنة ٢٨٩ هـ.

(٣) دعص: تلّ.

(٤) نقا: صفة للرمل.

(٥) منهال: ليّن.

(٦) الآل: السراب.

(٧) هيف الخصور: خصورهن ضامرة.

(٨) رجّح الأكفال: أعجازهنّ ثقيلة وكبيرة.

(٩) الزلال: صفة للماء.

(١٠) الصبوة: الجهل والميل إلى اللهو.

(١١) السيالي: الخالي من الهم والحب.

(١٢) الفاتك البطّال: المتهتك الماجن بشجاعة.

(١٣) البين: الفراق.

وقال ابنُ الروميّ: [من البسيط]

فظِلْتُ أشربُ بالأرطالِ لا طَرَبًا عليه بل طَلَبًا للسُّكْر والنَّوْمِ

ذكر ما قيل في وصف آلات الطرب

فمن ذلك ما وُصِف به العود. نظم أبو الفتح محمودٌ المعروفُ بكُشاجَم قولَ الحكماء: إنّ العودَ مُركّب على الطبائع الأربع، فقال: [من الطويل]

شَدَتْ فجَلَتْ أسماعَنا بمُخَفَّفٍ يُحَدِّثها عن سرِّها وتُحَدِّثُه
مُشاكِلةٌ[١] أوتارُه في طِباعها عَناصِرَ منها أحدث الخَلْقَ مُحْدِثُهْ
فللنار منه الزِّيرُ[٢] والبَمّ[٣] أرضُه وللريح مَثْنَاه[٤] وللماءِ مَثْلَثُهْ[٥]
وكلُّ امرىء يرتاح منه لِنَغْمةٍ على حَسَب الطَّبْع الذي منه يبعثُهْ
شكا ضَرْبَ يُمْنَاها فظَلَّتْ يَسارُها تُطَوِّقه طورًا وطورًا تُرَعِّثُهْ[٦]
فما بَرِحتْ حتى أرَتْنا مُخارِقًا يُجَاوِبُه في أحسن النَّقْر عَثْعَثُه[٧]
وحتى حسبت البابِلِيَّيْنِ[٨] ألقَيا على لَفْظِها السِّحْرَ الذي فيه تَنفُثُهْ

وقال آخر: [من البسيط]

جاءتْ بعُودٍ تُناغِيهِ فيُسْعِدُها انظُرْ بدائعَ ما تأتي به الشَّجَرُ
غَنّتْ على عُودِهِ الأطيارُ من طَرَبٍ رَطْبًا، فلمَّا ذَوَى غنّت به البَشَرُ
فلا يزال عليه أو بِهِ طَرَبٌ يَهِيجُه الأعجمانِ[٩]: الطيرُ والوَتَرُ

وقال آخر: [من الطويل]

سقى الله أرضًا أنبتت عودَكَ الذي ذَكَتْ منه أنفاسٌ وطابَتْ مَغَارِسُ
تغنّت عليه الوُرْقُ[١٠] والعُودُ أخضر وغنّت عليه الغِيدُ والعودُ يابسُ

---

(١) مشاكلة: مماثلة.
(٢) الزير: أحد أوتار العود.
(٣) البمّ: أحد أوتار العود.
(٤) المثنى: أحد أوتار العود.
(٥) المثلث: أحد أوتار العود.
(٦) ترعثه: تلبسه.
(٧) مخارق: اسم مغنّ مشهور. وعثعثه: ترنيمه.
(٨) البابليان: ماروت وهاروت اللذان ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وهما ملكان كانا يعلّمان الناس السحر.
(٩) الأعجمان: الساكتان اللذان لا ينطقان.
(١٠) الورق: الحمائم، جمع ورقاء.

وقال آخر: [من البسيط]

لا تحسَبِ العودَ إن غنّتك شادنةٌ[(١)] جاءتك بالطَّيْفِ[(٢)] فيه نَغْمةُ الوَتَرِ
وإنما الطيرُ ألقتْ عنده خَبَرًا فعذّبوه فنَمّ[(٣)] العودُ بالخَبَرِ

وقال آخر: [من الكامل]

فكأنه في حِجْرها[(٤)] ولدٌ لها ضَمّته بين تَرائبٍ[(٥)] ولَبَانِ[(٦)]
طَوْرًا تُدَغْدِغُ بطنَه فإذا هفا[(٧)] عَرَكتْ[(٨)] له أُذُنًا من الآذان

وقال الناجم: [من المتقارب]

إذا احتضنت عودَها عابث وناغته أحسنَ أن يُغرِبا
تُدَغْدِغُ في مَهَلٍ بطنَهُ فيُسْمِعُنا مُضْحِكًا مُعْجِبا

وقال الحمدونيّ: [من البسيط]

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له كأنه فَخِذٌ نِيطتْ[(٩)] إلى قَدَم
يُبْدِي ضميرَ سواه في الحديث كما يُبْدِي ضمير سواه الخطُّ بالقلم

وقال كشاجم: [من المنسرح]

جاءت بعودٍ كأنَّ نَغْمَتَهُ صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فَتَى
مُخَفَّفٌ خَفّتِ النفوسُ بِهِ كأنما الزَّهْرُ حولَه نَبتَا
دارتْ مَلَاوِيهِ[(١٠)] فيه واختلفت مثلَ اختلاف الكَفَّيْنِ شُبِّكتا
لو حَرّكتْه وراءَ مُنْهَزِمٍ على بَرِيدٍ لَعَاجَ[(١١)] والتفتا
يا حُسْنَ صَوْتَيْهما كأنهما أُختان في صَنْعةٍ تَرَاسلتا
وهو على ذا ينوبُ إن سَكَتَتْ عنها، وعنه تنوب إن سكتا

(١) الشادنة، مؤنث الشادن، وهو الظبي أول ما يطرّ.
(٢) الطيف: المنام.
(٣) نمّ: أعلن وباح.
(٤) حجرها: حضنها.
(٥) الترائب: أعلى الصدر، جمع تريبة.
(٦) اللبان: النّحر.
(٧) هفا: أخطأ وزلّ.
(٨) عركت: فركت.
(٩) نيطت: علّقت.
(١٠) ملاويه: طرقه المختلفة، وهنا كناية عن أوتاره.
(١١) عاج: مال.

وقال أيضًا: [من المتقارب]

وجـاريـةٍ مـثـل شـمـسِ الـنـهـارِ أو البَدْرِ بين النجوم الدَّراري[١]
أَتَتْكَ تَميسُ[٢] بقَدّ القَضيبِ[٣] وترنـو[٤] بعين مَهَاةِ[٥] القِفَار
وتَرْفُلُ[٦] في مُصْمَتٍ أبيضٍ تلوّن من خَدّها الجُلَّنارِي[٧]
وتحملُ عودًا فصيحَ الجواب يُشارِكُ أرواحَنا في المَجَاري
لـه عُـنُـقٌ كـذراع الـفـتـاةِ ودَستانةٌ[٨] بمكان السِّوَارِ[٩]
فـجـادتْ عـلـيـه وجـادتْ لـه بعَسْفِ[١٠] اليمين ولُطْفِ اليَسَارِ
فما أمهلتْه ولا نَهْنَهته[١١] من الظُّهْر حتى تَقَضّي النهار
ولـمّـا تـغـنّـتْ غِـنـاءَ الـوَدَاع بكيتُ وقلتُ لبعض الجواري:
لئن عِشْتُ عند هزار[١٢] اللِّقاء لـقـد مُـتُّ عـنـد هـزار الإزار

وقال أيضًا: [من الكامل]

وكثيرةِ النَّغَماتِ تحسَبها في كلّ عُضْوٍ أوتيَتْ حَلقا
غـنّـتْ فـظلتُ إخالُني طَرِبًا أسمو[١٣] إلى الأملاك أو أرقى
وتـكـلّـمـتْ أوتـارُهـا فـأنـا فـيـهـا أُخَبِّرُ بالذي ألقى
تحكِي أنيني وهي شاكيةٌ مما أُجِنّ[١٤] وتشْتَكي عِشقا
وتَـرى لـهـا عـودًا تُـعـانِـقُـهُ وكـلامُـه وكـلامُـهـا وَفْـقـا
لـو لـم تُـحَـرّكْـهُ أنـامِـلُهـا كـان الـهـواء يُـفـيـده نُـطْـقـا
جَـسّـتـه عـالـمـةً بـحـالـتـه جَسَّ الطبيب لمُدْنَفٍ[١٥] عِرْقا[١٦]
فـحسِبـتُ يـمـنـاهـا تـحـرّكـه رَغْدًا، وخلتُ يسارَها بَرْقا

---

(١) الدراري: المضيئة كالدّرّ. (٢) تميس: تتمايل وتختال.
(٣) قد القضيب: كناية عن الجسم الفارع الطويل والنحيل.
(٤) ترنو: تنظر. (٥) المهاة: البقرة الوحشية، كناية عن المرأة.
(٦) ترفل: تنعم.
(٧) الجلناري: المنسوب إلى الجلنار، وهو زهر الرّمان الأحمر.
(٨) دستانة: الوتر أو الأوتار في العود. (٩) السوار: ما يوضع في المعصم من الحلي.
(١٠) عسف: خبط وضرب. (١١) نهنهته: كفّته وزجرته.
(١٢) الهزار: العندليب، ضرب من الطيور الصادحة.
(١٣) أسمو: أرقى. (١٤) أجنّ: أخفي وأستر.
(١٥) المدنف: المريض المشرف على الموت. (١٦) العرق: الوريد أو الشريان.

وقال أيضًا: [من المتقارب]

تَمِيسُ من الوَشْي[١] في حُلَّةٍ[٢] تُجرّر من فضلِ أذيالها
وتحمل عودًا فصيحَ الجواب يُضاهِي[٣] اللُّحونَ بأشكالها
له عُنُقٌ مثلُ ساق الفتاةِ ودَستانةٌ مثلُ خَلْخالِها[٤]
فظلّتْ تُطارح أوتارَهُ بأهزاجها وبأرمالها
وتعمَل جَسًّا لجسّ العروق وتلوِي المَلَاوِي بأمثالِها

وقال آخرُ يصفُ الطُّنبور: [من مجزوء الخفيف]

مُخْطَفُ[٥] الخَصْرِ أجوفُ جِيدُه نصفُ سائرِهْ
أنطقته يَدَا فتًى فاتِرِ اللَّحْظِ ساحرِهْ
فجَلَا عن ضميره ما حَوَى في خواطرِهْ

وقال سيفُ الدين المشدّ في دُفّ: [من المتقارب]

وطاريّةٍ[٦] قَرَعَتْ طارَها[٧] وغنّت عليه بصوتٍ عجيبِ
فعاينتُ شمس الضُّحَى أقبلتْ وبَدْرٌ تَقَدّمها عن قريبِ

وقال أيضًا يصفُ شبّابة: [من الطويل]

وعاريةٍ من كلّ عيب، حبيبةٍ إلى كل قلب بات بالبين مجروحا
لها جسدٌ مَيْتٌ يعيش بنفخةٍ متى داخلتْه الريحُ صارت به رُوحا
تُعِيد الذي يُلْقَى عليها بلذّةٍ تَزيد فؤادَ الصّبّ وجدًا وتبريحا[٨]
وتنطق بالسحر الحلال عن الهوى وتُوحي إلى الأسماع أطيَبَ ما يُوحَى

(١) الوشي: الثوب المزيّن. (٢) الحلّة: الثوب الجديد.
(٣) يضاهي: يماثل ويحاكي.
(٤) الخلخال: ما يوضع في القدم للزينة، من فضّة وغيرها.
(٥) مخطف الخصر: ضامره. (٦) الطاريّة: صاحبة الطار، والضاربة عليه.
(٧) طارها: دفّها. (٨) تبريحًا: عذابًا وإيلامًا.

القسم الرابع

من الفنّ الثاني في التهاني والبشائر والمراثي والنّوادب والزهد والتوكّل والأدعية

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل

من هذا القسم في التهاني والبشائر

والتهاني تنقسمُ إلى قسمين وتنحاز في جهتين: خصوص وعموم. فالخصوصُ هو ما يتعلّق بالرجل من مَنْصِبٍ يليه، ونعمةٍ تواليهِ؛ وولد رُزِقَه، وشفاء من مرض أقلقه وأرّقه؛ وقدوم من سَفَر، وزواج قضى به الأرَبَ والوَطَر[١]. والعموم هو ما يتعلّق بالجمهور، ويتساوى فيه الملك والمملوك والآمر والمأمور: من انصباب غيث[٢] عمّ الرُّبا والوِهادَ[٣]، وجَرَيانِ نِيل شمِلَ بريِّه البلاد وآمنَ العباد؛ وهزيمةِ عدوٍّ زاد في عُدْوانه وتمادى في طُغْيانه، وفتوح حِصْن أمِن أهلُه بتشييد أركانِه وإتقانِ بنيانه.

ذِكر شيء مما هُنِّىء به وُلاة المناصب

كتب بعض الفضلاء تهنئة بخلافة فقال:

أمّا بعدُ، فإن أولى النعم بالدوام، وأرجاها للبقاء والتمام، وأجْدَرها بالخلود، وأقربَها إلى المزيد، وأحراها بالسلامة على نُوَبِ الأيام[٤] وتصاريف الأحداث، نعمةٌ نشأت بفِنائه، وسكنت ذَرَاه فحمِدتْ مثواه، وساسها أولياؤها بحسن المجاورة وكرم المصاحبة سياسةَ الحاني الشفيق، وكَفَلوها كفالةَ الحَدِب[٥] الرفيق؛ فنَمَتْ وتمّتْ، وخَصّتْ وعَمّتْ؛ ثم اعترضها من ريب الزمان ما هاج سَوَاكِنَها، وأزعج كَوَامنَها؛

---

(١) الأرب: الوطر، والحاجة.

(٢) الغيث: المطر.

(٣) الوهاد: المنخفضات.

(٤) نوب الأيام: صروفها وحوادثها المهلكة.

(٥) الحدب: العطوف.

وأصارها إلى الوحشة بعد الأنس، والنُّفْرة بعد الإلف، تتقلقل تقلقلَ العوادِي، وتَشْرُد شرودَ الضوالِّ، لافظةً لها الأقطار ونابيةً بها المحالّ؛ إلى أن أعادها الله تعالى بلُطفه إلى مَغْناها المعروف، ورَبْعِها المألوف؛ واستقرّت بعد الاضطراب، وفاءت[1] بعد الاغتراب. وتلك نعمة الله عند سيّدنا أمير المؤمنين، لما جدّد له من كرامته، واصطفاه له من خِلافته، وطوّقه إياه من إمامته؛ وردّه إليه من تدبير الملك، واعتمد عليه من سياسة الأنام؛ فأحيا به السُّنَنَ القاصرة، وأزال به الرسومَ الجائرة؛ ونهَج به سبيلَ العدل، وأقام به منار الفضل.

وقال طُرَيحُ بنُ إسماعيلَ الثَّقَفيّ في المنصور لمّا أفضت الخلافة إليه: [من المنسرح]

لـمّـا أتـى الـنـاسَ أنّ مُـلْكَـهُـمُ إلـيـك قـد صـار أمـرُه سـجـدوا
واستبشروا بالرضا تَبَاشُرَهم بالخُلْد لو قيل إنهم خَلَدوا
كنتُ أرى أنّ ما وجدتُ من الفَرْ حةِ لم يلقَ مثلَه أحَدُ
حتى رأيتُ العبادَ كلَّهُم قد وجدوا فيك مثلَ ما أجِد
قد طلب الناسُ ما بلغتَ فما نالوا ولا قاربوا ولو جَهَدوا
يرفعك الله بالتَّكَرُّم والتقـ ـوى فتعلو وأنت تقتصد

وقال زيدٌ السِّنْدِيُّ يهنىء الوزيرَ يعقوبَ بنَ كِلّس بوزارة العزيز[2] بمصر: [من الكامل]

إنّ الوزارةَ لم تَزَلْ بك صَبّةً تهواك لم يخطُر سواك ببالها
خُطِبتْ فلم تُعْطِ القِيادَ لطالبٍ وأبَتْ على طُلّابها بِوِصالها

وقال ابن بشر الصِّقِلّيّ الكاتب يهنّىء الحسن بن إبراهيم التُّسْتَرِيّ بوزارة مصر، وقد وَزَر للمستنصر[3] في سنة أربع وخمسين وأربعمائة: [من الطويل]

بيومِك طارتْ في البلاد البشائرُ وطابتْ بمرجوع الحديثِ المحَاضِرُ

---

(١) فاءت: رجعت.

(٢) هو العزيز بالله: نزار بن المعزّ، خامس الخلفاء الفاطميين في مصر. قتل في حلب سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م.

(٣) هو المستنصر بالله: معدّ بن الظاهر، ثامن الخلفاء الفاطميين، استقل عنه المعزّ بن باديس الزيري أمير إفريقيا فوجّه إليه أعراب بني هلال وبني سليم الذين غزوا إفريقيا. من وزرائه الجمالي، بدر، وابنه الأفضل. مات سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م.

وأصبحتِ الأمصارُ[١] أمْنًا وغِبْطةً أسِـرّتـهـا مُـهْـتـزَّة والـمـنـابـرُ
وقام خطيبُ الحمدِ في كل مَوْقِفٍ يُـعَـدّد مـا تُـمْـلِي عـلـيه الـمـآثـرُ

ومنها:

لقد عاشرتْ منك الوزارةُ ماجدًا له كَنَفٌ[٢] لا يَجتويه[٣] المُعَاشِرُ
فسيحُ امتدادِ الظِّلِّ بين رِحَابهِ وبين المعالي آهلُ الرَّبْعِ عامرُ
«فألقتْ عَصَاها واستقرّ بها النَّوَى كما قَرّ عَيْنًا بالإيابِ المسافرُ»[٤]
وما زلتَ ملحوظًا لها ومُؤَهَّلًا لِذا الأمرِ مذ شُدّتْ عليك المآزِرُ[٥]

وقال آخر: [من الخفيف]

كُـلّـمـا رمْـتُ أن أُهَـنِّـيـك وقـتًـا بـمَـحَـلٍّ مـن الـعُـلَا تـرتَـقـيـهِ
شِمتُ[٦] مقدارَك الذي أعجز الوا صفَ أعلى من الذي أنت فيهِ

وكتب الحمدونيُّ أخو صاحبِ التَّذكِرة يُهَنِّىءُ بالسلامة من حريقٍ وقع في دار الخلافة:

الدّنيا ـ أعزَّ الله أنصارَ الخدمة الشريفة ـ دارُ الامتحان والاختبار، ومجاز الابتلاء والاعتبارِ؛ ولله فيما نَزَّله فيها إلى عباده من نِعَمه، وتخوّلهم من مَوَاهبه وقِسَمه، عاداتٌ يقتضيها بالغُ حِكمتِه، وماضي إرادته ومشيئته؛ ليستيقظ الذاهلُ، ويعترف الجاهلُ؛ ويزدادَ العالمُ اللبيب اعتبارًا، ويستفيد العاقلُ الأريب تفكُّرًا واستبصارًا؛ فلا يغفُل عن واجب الشكر إذا سِيقتْ النعمةُ إليه، ولا يلهو عن استدعاء المزيد منها بالاعتراف إذا أُسْبِغتْ[٧] عليه؛ وهو أن الباري سبحانه إذا تابع آلاءه إلى عبد ووالاها، وجرّدها له من الشوائب وأخلاها؛ وأماط عن مَشَاربها أكدارَ الدنيا المطبوعة على الكَدَر، وغَمَر مساربها بالأمن من طوارق الغِيَر؛ خِيْفَ عليها الانتقاض[٨] والزوال، وتُوُقِّع لها الانتهاء والانتقال. ومن ذلك الخبرُ المرويّ: أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية

---

(١) الأمصار: جمع مصر، وهو القطر والبلد.
(٢) الكنف: الجانب والظلّ والحرز.
(٣) يجتويه: يملّه ويبغضه.
(٤) البيت بكامله مستعار، وقد ضمنه شعره هذا.
(٥) المآزر: جمع مئزر، وهو الثوب الذي يؤتزر به.
(٦) شمت: نظرت إليه.
(٧) أسبغت عليه: منّ بها عليه.
(٨) الانتقاض: الهدم.

٣] ابتهج الصحابةُ رضي الله تعالى عنهم إلا عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه فإنه بكى. فقالوا: ما يُبْكيك وقد أكمل الله لنا ديننا برحمته، وأتمّ لنا سابغَ نعمته[١]؟ فقال: يُبكيني أنه ما تمّ أمرٌ إلا بدا نقصُه. فقُبِض[٢] رسولُ الله ﷺ عن قريب. وإذا كانت مشوبة[٣] برائعٍ يتخلّل صَفْوَها، وطارقٍ[٤] يَجْهَم[٥] في بعض الأوقات عَفْوَها[٦]؛ كان ذلك صارفًا عنها عين الكمال، مُؤذِنًا بطول الآجال؛ حاكمًا لها بتراخي عمر البقاء، دالّاً على الصعود بها إلى دَرَج المُكْث الطويل والارتقاء؛ وحكمه حكمُ المرض الذي تَصِحّ به الأجساد، وتُمَحِّص[٧] ذنوبُ من يُسَلَّط عليه من العباد: [من الطويل]

فلا يُبْهِجِ الأعداءَ سوءُ ظنونهم فلِلّه صُنْعٌ في الذي ساء ظاهرُ
فكم طالبٍ شيئًا به الشرُّ كامنٌ وكم كارهٍ أمرًا به الخيرُ وافرُ

فالحمد لله الذي جعل ما جرت به الأقدار من الألم الواقع ظاهرُه، الوجِل لوقعِهِ ناظرُه؛ لعنايته جلّت عظمته عُنْوانًا، وعلى دوام نعمته دليلًا واضحًا وبرهانًا. وإليه الرغبة في أن يجعل الديارَ وساكنيها، والناس في أقاصي الدّنيا وأدانيها؛ لشريف الحوزة[٨] التي بها صلاحُ العالم فداء، وعنها للمكروه وِقاء. فكل حادثٍ مع دوام هذه الأيام الزاهرة جَلَل[٩]، وكل غمرٍ[١٠] من نوائبِ الدهر ما دافع لطفُ الله عنها وَشَل[١١].

وقال أبو عُبَادة البُحْتُريُّ يهنّىء الفتحَ بن خَاقَان[١٢] بسلامته من الغَرَق: [من الكامل]

بعَدُوّك الحَدَثُ الجليلُ الواقعُ ولمن يُكايدك الحِمامُ[١٣] الفاجعُ
قلنا: لعًا[١٤] لمّا عَثَرْتَ ولا تزلْ نُوَبُ الليالي وهي عنك رواجعُ

---

(١) سابغ نعمته: وافرها.
(٢) قبض: انتقل إلى الرفيق الأعلى.
(٣) مشوبة: مخلوطة.
(٤) الطارق: ما يطرق ويأتي ليلًا من الحوادث.
(٥) يجهم: يعبس.
(٦) عفوها: جودها.
(٧) تمحّص: تطهّر، وتذهب.
(٨) الحوزة: الملك.
(٩) جلل: فادح.
(١٠) الغمر: الماء الكثير.
(١١) الوشل: الماء القليل.
(١٢) الفتح بن خاقان: وزير عباسي مشهور. اتخذه المتوكل رفيقًا ونديمًا ثم استوزره، وبتحريض من المنتصر ابن المتوكل قتل المتوكل ووزيره الفتح معًا. وذلك سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م.
(١٣) الحمام: الموت.
(١٤) لعًا: دعاء بالنجاة.

ولـربـمـا عَـثَـر الـجـوادُ وشـأْوُه متقـدِّمٌ ونبا الـحُـسَـامُ[(١)] الـقـاطـعُ
لـن تـظـفَـرَ الأعـداءُ مـنـك بـزَلَّةٍ واللهُ دونـك حـاجـزٌ ومُـدَافِـعُ
إحدى الحوادثِ شارفتْك فردَّها صُـنْـعُ الإلـٰه ولـطـفُـه الـمـتـتـابـع
حتى برزتَ لنا وجأشُك[(٢)] ساكنٌ من نجدة وضياءُ وجهِك ساطعُ
مـا حَـالَ لـونٌ عـنـد ذاك ولا هَـفَـا عـزمٌ ولا راع[(٣)] الـجـوانـح[(٤)] رائـع

وقال المتنبّي[(٥)] يهنّىء بعافية: [من البسيط]

المجدُ عُوفِيَ إذ عُوفِيتَ والكَرَمُ وزال عـنـك إلـى أعـدائـك الألَمُ
ومـا أخُـصُّـك فـي بُـرْءٍ بـتـهـنـئـةٍ إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سَلِموا

ومما هنِّىء به مَنِ اتّصل بزوجة ذات جمال وحسب، وأصالة وأدب. وقلما تقع التهنئة بذلك إلا بين صديقين صَحّ بينهما الالتئام[(٦)]، وسقَطت بينهما مؤونة الاحتشام؛ وتساويا في الرتبة، واتّحدا في الصحبة.

فمن ذلك ما كتب به الوزير أبو الحسن العامريّ إلى بعض إخوانه وقد ابتنى بأهْل[(٧)]: [من الوافر]

بـأيْـمَـنِ طـائـرٍ وأتَـمِّ سَـعْـدٍ يكون من الكريمينِ اجتماعُ

أمَا إنّه المجد اليَفَاع[(٨)]، والحسنُ المُطاع، تعارفت الطباعُ، فالتأمت الأنفس الشَّعَاعُ[(٩)]؛ كما التقى الثُّرَيّان، واقترن النيِّرانِ؛ كما حاصر الرئم[(١٠)] الضيغمُ[(١١)]، وهاصر[(١٢)] النسيمُ الغصنَ المُنَعّم؛ كما راق فوق المعْطَف الصارم العَضْب[(١٣)]، كما

---

(١) الحسام: السيف.
(٢) الجأش: الصدر والقلب.
(٣) راع: أفزع.
(٤) الجوانح: الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر، جمع جانحة.
(٥) المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، من كبار شعراء العهد العباسي. وُلد في كندة بالكوفة. أقام في الشام وفي مصر وفي فارس. مدح سيف الدولة الحمداني، وكافورًا الإخشيدي، وعضد الدولة البويهي وبدر بن عمار وغيرهم كثير. شعره متين النسج، شائع الحكمة، له ديوان مشهور مطبوع. مات سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م.
(٦) الالتئام: الالتمام والتوافق.
(٧) الأهل: كناية عن الزوجة.
(٨) اليفاع: العالي، واليفع واليفاع: التلّ المشرف العالي.
(٩) الشعاع: المتفرقة.
(١٠) الرئم: الظبي.
(١١) الضيغم: الأسد.
(١٢) هاصر: هزّ وكسر.
(١٣) العضب: السيف القاطع.

التقت الصهباء والبارد العَذْب؛ بل كما فازت القِدَاح[١]، ونُظِم الوِشاح؛ واعتنق شَنٌّ طَبَقه[٢]، واعتلق الرَّوض عَبَقه. فحبّذا النَّسَبُ شابَكه الصِّهْر، والحَسَب عاقَده التُّقى والبِرّ؛ على حين جرت الأيامِنُ، واكتُنِف الحَرَمُ الآمن. وبالبنين والرِّفاء، والنعيم والصَّفاءِ، والثروة والنماء والزمن الرَّغْد والعِزّة القعساء[٣] الشمّاء[٤]؛ على الوِفاق، والوِئام والاتّساق؛ والحظوظ والجدود، والفُسْطاط[٥] الممدود، وهَصْر العيش الأملود[٦]، والالتئام وتتابُع البشرى بالفارس المولود. وما لي تأوّدت[٧] أعطافًا، وتأنّقتُ أوصافًا! وتهلّلت جَذَلًا، وبسطتُ في الدعاء بَذِلا! أهَنأني الأرَب، أم صَفَا لي المَشْرَب! وقد غِبت عن اليوم المشهود، وعَطَّلْت سُدَّةَ الإذن للوفود، ولم أَقُمْ في السِّماط، سافرًا عن وجه الاغتباط؛ أتلقّى الوالج[٨] بمبرور التحيّة، وأُفدّي الخارج بحكم السرور والأريحيّة[٩]؛ وأتخدّم رفعَ الوحي والإيماء، وأتقدّم من المصافاة والموالاة في الغفير الجَمّاء[١٠]، كلا! ولا شهدت ليلةَ الزِّفافِ، وما حلت من محاسنها الأفواف[١١]؛ حيث دارت المنى سُلَافًا[١٢]؛ وصارت العُلَا دَوْحةً ألفافًا[١٣]؛ وأبدى رَوْنَق السيف جِلَاء، وأبرز عقيلةَ[١٤] الحيّ هِدَاء؛ هنالك حلّت النعماء، ونهلت الأظماء؛ فيا له منظرًا، ووعدًا منتظرًا؛ لو ناجيته من كثَب، وكرعت منه في المنهل الأعذب! بلى! إنه وَقَع، فشفى ونَفَع؛ والرّكب سَنَح، فنعم ما منح؛ أهداها حَمَلا، فكأنما أسداها أمَلًا؛ أثلج الفؤادَ، وأورَى الزِّنادَ، وَفَى بالنفس أو كاد؛ وقلت عن قِراه، نفس جذِلت بسراه، وأرجت لذكراه. ولله ما

(١) القداح: السهام التي كانوا يضربونها عند أصنامهم في الجاهلية لمعرفة الغيب والاستقسام بها.

(٢) شن وطبقة: الأول من دهاة العرب وعقلائهم، والثاني اسم فتاة كانت أجابت شنًا عن جميع أسئلته، فتزوجها فضرب المثل بهما في الوفاق والمجانسة فقيل: «وافق شن طبقة». انظر قصة المثل في: مجمع الأمثال، للميداني ٣٥٩/٢. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ م.

(٣) القعساء: الثابتة.

(٤) الشماء: العالية.

(٥) الفسطاط: الخيمة الكبيرة.

(٦) الأملود: الناعم اللين، وهو صفة للغصن.

(٧) تأودت: تمايلت وتثنت، والتوت.

(٨) الوالج: الداخل.

(٩) الأريحية: الشمائل الحسنة، والاندفاع لكل ما هو خير، والارتياح له.

(١٠) الغفير الجماء: الكثير العدد.

(١١) الأفواف: جمع فوفة، وهي الأثواب أو البرود اليمانية البيض الجميلة.

(١٢) سلافًا: خمرةً.

(١٣) دوحة ألفافًا: روضة وأشجارًا ملتفّة.

(١٤) العقيلة: كناية عن الزوجة الكريمة.

أحظاه مَقْدَمًا وأعلاه في الإحسان قَدَمًا، لو وهبت لمقتضاه من الكرامة دمًا. وقد كان في الحق أن أهاجر، وأعصِي الناهيَ والزاجرَ؛ فابْسُطْ لي عُذْرًا، وأعِدَّني لك ذخرًا، وطِبْ مَدَى الدهر خَبَرًا وخُبْرًا.

ومما هنىء به مَنْ رزقه الله ولدًا وزاده به قوّة وعددًا. فمن ذلك ما كتب به الأستاذ ابنُ العميدِ[١] في فصل يهنىءُ عضدَ الدولةِ[٢] بنِ بُوَيْهِ وقد وُلد له ابنان توأمان:

وصل كتابُ الأمير بالبشرى التي أبت النعمةُ بها أن تقع مُفردةً، وامتنعت العارفة فيها أن تَسْنَح مُوحدةً، حتى تيسّرت مِنْحَتانِ في وَطَن، وانتظمت مَوْهِبتانِ في قَرَن، وطلع من النجيبينِ أبي القاسم وأبي كاليجار - أدام الله عِزَّهما - طالعَا مُلْك، ونجما سعد، وشهابا عِزٍّ، وكوكبا مجدٍ؛ فتأهلت بهما رِباعُ المحاسن، ووُطِّئت لهما أكنافُ المكارم، واستشرفت إليهما صدورُ الأسِرّة والمنابر. وفهمته وشكرت الله تعالى شُكْرَ مَنْ نادى الآمالَ فأجابته مُكَتَّبةً[٣]، ودعا الأماني فجاءته مُصْحِبةً[٤]، وحمِدته حمدًا مكافِئًا جسيمَ ما أتاح وعظيمَ ما أفاد؛ واكتنفني من السرور ما فَسَح مناهج الغِبطة، وسهّل مواردَ البهجة؛ وأشعْتُ ما ورد إشاعةً شرحتْ صدور الأولياء بمَسَارّها، وأزعجت قلوب الأعداء عن مَقَارّها؛ وسألت الله إتمامَ ما آذن به الأميران السيِّدانِ من سعادة لا يهتدى إليها الاختيار علوًّا، ولا ترتقي إليها الأفكارُ سموًّا؛ وسلطانٍ تضيق البحارُ عن اتساعهِ، وتنخفض الأفلاكُ عن ارتفاعهِ؛ ويُبَلِّغهما أفضلَ ما تقسِمه السعودُ، وتعلو به الجدودُ[٥]، حتى يستغرقا مع السابقين إخوتهما مساعِي الفضل، ويَشِيدا قواعدَ الفخر، ويَرْجُما صروفَ الدهر، ويَضْبِطَا أطرافَ الأرض، وهو تعالى قريبٌ مجيب.

---

(١) ابن العميد: هو أبو الفضل محمد، الكاتب المشهور، والشاعر والأديب. وُلي الوزارة لركن الدولة البويهي. له عدة مؤلفات وأشعار، وأهم كتبه: «الرسائل» مات سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م.

(٢) هو فنا خسرو، الملقب بعضد الدولة، من أعظم ملوك بني بويه. رعى العلماء والشعراء والأدباء. من الشعراء الذين وفدوا عليه فمدحوه، أبو الطيب المتنبي، والصاحب بن عباد، من الكتاب الوزراء، مات سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م.

(٣) مكتّبة: مجموعة كتائب كتائب، أي طائعة. (٤) مصحبة: منقادة.

(٥) الجدود: الحظوظ.

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن الجدّ الأندلسيّ:

إنّ أحقّ ما انبسط فيه للتهنئةِ لسانٌ، وتصرّف في ميادين معانيه بيانٌ وبنان؛ أملٌ رُجّي فتأبّى[١] زمانًا، واستُدْعِي فلَوَى عِنَانًا[٢]؛ وطاردته الأمانيّ فأتعبها حِينًا، وغازلته الهممُ فأشعرها حنِينًا؛ ثم طلع غيرَ مُرْتَقب، ووَرَد من صحبة المناجح في عسكر لَجِب[٣]؛ وكان كالمشير إلى ما بعده من مواكب الآمال، والدليلِ على ما وراءه من كواكب الإقبال؛ أو كالصُّبْح افترَّتْ[٤] عن أنوار الشمس مَبَاسمُه، والبَرْقِ تتابعت إثرَ ومِيضِه[٥] غمائمُه. وفي هذه الجملة ما دلّ على المولود، المؤذِن بترادفِ الحظوظ وتضاعفِ السعود. فيا له نجمَ سعادة، طلع في أُفق سِيادة؛ وغُصْنَ سَنَاء[٦]، تفرّع عن دَوْحَة[٧] عَلَاء. لقد تهلّلت وجوهُ المحاسن باستهلالِه، وأقبلت وفودُ الميامن لاستقبالِه؛ ونُظمت له قلائدُ التَّمائم[٨]، من جواهر المكارم؛ وخُصّ بالثُّدِيّ[٩] الحَوافل، بلِبان[١٠] الفضائل. وما كان مَنْبِت الشرف بإفراد تلك الأرومة[١١] الكريمة إلا مُقْشَعِرّ الرُّبا، مُغْبَرّ الثرى، متهافت أغصان الرضا. فأمّا وقد اهتزّ في أيكة[١٢] السِّيادة قضِيبٌ، ونشأ من نِبْتةِ النَّجابة نجيبٌ؛ فأَخْلِقْ بذلك المَنْبِت أن تعاودَه نَضْرتُه[١٣]، وتَرِفّ عليه حَبْرته[١٤]؛ ويُراجعه رَوْنَقُه وبهاؤه، وتضاحكه أرضه وسماؤه. فالحمد لله على ما أتاحه من انثناءِ الأمل من جِمَاحه، واختيال الجَذَل في حَلْبة[١٥] غُرَره وأوضاحه. وهو المسؤول أن يهبَك منه صَنَعًا يحسُنُ في مثله الحسد، ويُتَمنَّى لفضله النسلُ والولدُ، بعزّته.

وقال أبو هِلَال العسكريّ[١٦]: [من الكامل]

قد زاد في عدد الكرام كريمُ مَحْضٌ صريحٌ في الكرامِ صَمِيمُ

---

(١) تأبّى: امتنع.
(٢) العنان: الرّسن.
(٣) لجب: كثير العدد.
(٤) افترّت: تفتّحت.
(٥) وميضه: لمعانه.
(٦) سناء: رفعة.
(٧) الدوحة: الشجرة الملتفّة الأغصان.
(٨) التمائم: جمع تميمة، وهي ما يعلّق على الجسم من كتابات وطلاسم على سبيل الحفظ من الأذى.
(٩) الثدي: جمع ثدي، وهو الضرع.
(١٠) اللبان: الحليب.
(١١) الأرومة: الأصل، ومنبت الشيء وجذره.
(١٢) الأيكة: الروضة الغنّاء.
(١٣) نضرته: رونقه وبهجته وحسنه.
(١٤) الحبرة: السرور والنعمة.
(١٥) الحلبة: الميدان للسباق.
(١٦) سبق التعريف به.

عَـالِي الـمَـحَـلَّةِ لا يـزال كـأنـه لـلفَـرْقَـدينِ[١] ولـلسِّـماكِ[٢] نـديمُ
فلِأمره التتميمُ كيف تَصَرّفتْ حـالاتـه، ولـشـأنـه الـتـفـخـيمُ
فـابـشِـرْ فـقـد وافـاك يـومَ رُزِقْـتَهُ حـظٌّ بـتـخـلـيـد الـسـرور زعـيـمُ
فَـرْعٌ تـكـفَّـلَ دهـرُه بـتـمـامِـه حـتـى يـكـرّ الـدهـرُ وهـو أرُومُ
إنّ الـهـلال يـصـيـر بـدرًا كـامـلًا ويَـهُـدُّ سـدَّ الـلّـيـل وهـو بـهـيـمُ
وهـو الـوجـيـه إذا تـبـدّى وجـهُـهُ وغـدًا إذا نـزل الـعـظـيـمُ عـظـيـم
فـلِأهـلـه شَـرَفٌ بـه مُـتَـوَطِّـدٌ ولـهـم بـه شـرفٌ أشَـمُّ عـمـيـم
فـاقْـرَرْ بـه عـيـنًـا فـإنّ خِـلالَه تـصـفـو وتَـسْـلَسُ أو يُـقـال نـسـيـم
ولـجَدّه التصميمُ حيث تَلاحقتْ أقـرانُـه ولـشـأوِهِ[٣] الـتَّـقْـدِيـم

ومن كلام الصاحب بن عَبّاد[٤] تهنئة ببنت:

أهلًا وسهلًا بعَقِيلةِ النساء، وأُمّ الأبناء؛ وجالبة الأصهار، وأولاد الأطهارِ؛ والمبشِّرة بإخوةٍ يتنافسون، ونُجباءَ يتلاحقون: [من الوافر]

فـلو كـان الـنِّـسـاءُ كـمـثـلِ هـذي لـفُـضِّـلَـت الـنِّـسـاءُ عـلى الـرِّجـال
وما التأنيثُ لاسم الشمسِ عيبٌ ولا الـتـذكـيـرُ فـخـرٌ لـلـهِـلالِ

فادَّرِعْ[٥] يا سيِّدي اغتباطًا، واستأنف نشاطًا؛ فالدنيا مؤنّثةٌ والرجالُ يخدِمُونها، والذكورُ يعبدونها؛ والأرضُ مؤنّثةٌ ومنها خُلِقت البريةُ؛ وفيها كثُرت الذُّرِّيّةُ؛ والسماء مؤنّثة وقد تَزَيّنتْ بالكواكب، وحَلِيَتْ بالنجم الثّاقبِ؛ والنّفسُ مؤنّثة وهي قِوامُ الأبدان، ومِلاكُ الحيوان؛ والجنّة مؤنّثة وبها وُعِد المتّقون، وفيها ينعَم المرسلون. فهنيئًا هنيئًا ما أُولِيت، وأوزعك الله شكرَ ما أُعْطِيت؛ وأطال بقاءك ما عُرِف النسلُ والولدُ، وما بَقِي الأبد، وكما عُمِّر لُبَد[٦].

(١) الفرقدان: نجمان متلازمان يقعان بين نجم القطب وبنات نعش الكبرى.
(٢) السماك: نجم معروف، وهما اثنان: أحدهما يقال له السماك الرامح، والآخر السماك الأعزل.
(٣) شأوه: الأمد والسبق.
(٤) الصاحب بن عباد: واسمه إسماعيل، هو الكاتب الأديب واللغوي والوزير. من كبار وزراء الدولة البويهية. وزر لمؤيد الدولة ثم لفخر الدولة البويهيين. قرّب إليه الشعراء والعلماء والأدباء. كتاباته غلب عليها السجع والصنعة والإيجاز. من كتبه: «المحيط» وهو معجم لغوي و«كتاب الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» و«الرسائل». مات سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٩٥ م.
(٥) ادّرع: اتخذ درعًا.
(٦) لبد: اسم أحد نسور لقمان السبعة. قيل إنها عمّرت طويلًا، وذكرها الشاعر النابغة الذبياني في=

ومن كلام أبي المكارم بنِ عبدِ السلام من شعراء الخريدة[١]:

هذا شُعَيبٌ[٢] النبيّ بابنتهِ صَفُوراءَ استأجر موسى كليم الله. وهذا سيِّدُ المرسلين، أبقى اللهُ بفاطمةَ ابنتِه نسلَه إلى يوم الدِّين. وهذه أُمّ الكِتاب سُمِّيت الفاتحةَ، وهي لأبوابِ مُناجاة الرحمٰن فاتحة. وهذه مُحْكَمات[٣] القرآن، بها ثبتت شرائعُ الإيمان. وهذه سورة النساءِ وسُمِّيت بهنّ وهي من الطِّوال، ولا سورةَ من القِصار سُمِّيت بالرجال. على أنّ الدّنيا بأسْرها مؤنّثةٌ والملوكُ من خُدّامها، والشّمسُ مؤنّثة والضِّياءُ والبهاءُ من تَمامِها؛ والنفسُ تؤنّث وبها فُضِّل الناس، والحياة تؤنّث وهي أساس الحواس؛ والعين تؤنّث وبها يُتَوسّل إلى علمِ الدقائق؛ واليدُ تؤنّث وهي المتصدّية لتحبيرِ الأشياء، والعَضُد تؤنّث وبها استعانةُ سائر الأعضاء؛ والسماء تؤنّث وهي تُزْجِي[٤] الأمطارَ، والأرض تؤنَّث وهي مَجمعُ أطايبُ الثِّمار، والجنّة تؤنّث وبها وُعِد الأبرارُ الأخيار؛ والعين (أعني الذهب) تؤنّث وبها يُدْفَع الهُلْك، والقَوْسُ تؤنَّث وبها عِزُّ المُلْك.

ومما هُنِّىء به في المَوَاسم والقدوم ـ قال ابنُ الرومي[٥] تهنئةً بعيدِ الفطر: [من الخفيف]

قد مضى الصَّوْمُ صاحبًا محمودا ... وأتى الفِطْرُ صاحبًا مَوْدُودا[٦]
ذهب الصَّوْمُ وهو يَحْكِيك[٧] نُسْكًا[٨] ... وأتى الفطرُ وهو يَحكيك جودا[٩]

وقال آخر: [من المتقارب]

رأى العِيدُ وجهَك عِيدًا له ... وإن كنتَ زِدتَ عليه جَمَالَا
وكَبَّر حين رآك الهلالُ ... كفِعْلِكَ حين رأيتَ الهِلَالَا
رأى منكَ ما منه أبصرتَه ... هِلالًا أضاء ووجهًا تَلَالَا[١٠]

= شعره فقال: «أخنى عليها الذي أخنى على لبد». انظر: ديوان النابغة، ص ٣٧. ط دار صادر. بيروت.

(١) هي «خريدة الدهر في محاسن أهل العصر».
(٢) شعيب: نبي أرسله الله في أرض مدين من جزيرة العرب. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.
(٣) هنّ الآيات التي لا تحتاج إلى تأويل. ويطلق عليها اسم «أم الكتاب».
(٤) تزجي: ترسل.
(٥) شاعر عباسي سبق التعريف به.
(٦) مودودًا: محبوبًا.
(٧) يحكيك: يماثلك.
(٨) نسكًا: انقطاعًا إلى العبادة.
(٩) جودًا: كرمًا.
(١٠) تلالا: شعّ وأضاء.

وقال ابن الروميّ يُهَنِّىء بعيد أضحى وهو يوم نَوْرُوز[١]: [من البسيط]

عِيدَانِ: أضحى ونَوْرُوزٌ كأنهما يومَا فِعَالِك من بُؤْسٍ وإنعامِ
كذاك يَوْمَاكَ: يومٌ سَيْبُهُ[٢] دِيَمٌ[٣] على العُفَاةِ[٤]، ويومٌ سيفُه دامِي

وقال أبو إسحٰق[٥] الصّابي: [من مجزوء الكامل]

يا سيِّدًا أضحى الزما نُ بأُنْسِه منه رَبِيعا
أيّامُ دَهْرِكَ لم تَزَلْ للنّاس أعيادًا جميعا
حتى لأوشك بينها عِيدُ الحقيقة أن يضيعا

وقال الشّريفُ الرَّضِيّ تهنئةً بقُدوم: [من الكامل]

قَدِم السرورُ بقَدْمةٍ لك بَشَّرتْ غُرَرَ العلا وعَوَالِيَ التِّيجانِ
قَلِقَتْ ظُبَا[٦] الأسيافِ منك بفرحةٍ فتكاد تُنْهِضها من الأجفانِ
قد كان هذا الدهرُ يَلْحَظ جانبي عن طَرْفِ لَيْثٍ[٧] ساغِبٍ[٨] ظمآنِ
فالآن حين قَدِمتَ عُذْنَ صُروفُهُ يَرمُقْنَني[٩] بنواظر الغِزْلانِ

ومما قيل من شَوَاذّ التهاني وهي الجمعُ بين التهنئة والتعزية، والبِشارة والتسلية - فمن ذلك ما قاله عبدُ الملكِ بنُ[١٠] صالح للرشيد، وكان من يحسُده قد قال للرشيد عنه: إنه يُعِدّ كلامه. فأنكر الرشيد ذلك. وقال: بل هو طبع. وجلس في بعض الأيام

(١) النوروز: لفظة فارسية وتعني: اليوم الجديد. وهو يوم عيد يحتفل به حتى الآن في بلاد العجم. ويقع في أول الربيع من كل عام.
(٢) سيبه: عطاؤه.
(٣) ديم، جمع ديمة، وهي المطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق.
(٤) العفاة: طالبو المعروف، جمع عافٍ.
(٥) أبو إسحٰق الصابىء: واسمه إبراهيم، من طائفة الصابئة الحرنانية في العصر العباسي. خدم أسرة البويهيين، وكان كاتبًا وعالمًا بالفلك، وشاعرًا. له «رسائل الصابىء» والديوان الشعري. تُوفي سنة ٩٩٤ م.
(٦) الظّبا: جمع ظُبية وظباة، وهي حدّ السيف. (٧) الليث: الأسد.
(٨) الساغب: الجوعان. (٩) يرمقنني: ينظرن إليّ.
(١٠) عبد الملك بن صالح، الأمير العباسي، ابن عم المنصور والسّفاح، الخليفتين العباسيين. بليغ وفصيح وخطيب. ولّاه الهادي إمرة الموصل. ولما تسلم الرشيد مقاليد الخلافة عزله ثم ولّاه المدينة ومصر ودمشق. لكن سرعان ما سجنه، ولما جاء الأمين أطلق سراحه. مات سنة ١٩٦ هـ/ ٨١١ م.

ودخل عبدُ الملكِ؛ فقال الرشيدُ للفضل[١]: قلْ له: وُلِد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابنٌ ومات له ابن. فقال الفضلُ له ذلك. فدنا عبد الملك وقال: يا أميرَ المؤمنين، سَرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سَرّك، وجعلها واحدةً بواحدة، ثوابَ الشاكر وأجرَ الصابر. فقال الرشيد: أهذا الذي زعموا أنه يتصنّع الكلام! ما رأى الناس أطبعَ مِن عبدِ الملك في الفصاحة.

ومن ذلك ما حكاه ثُمَامةُ بنُ أشْرَسَ[٢] قال: لمّا دخل المأمونُ بغدادَ بعد قتل الأمين دخلت عليه زُبَيْدةُ[٣] ابنةُ جعفرٍ أمّ الأمين، فجلست بين يديه وقالت: الحمد لله! أُهَنِّئُك بالخلافة فقد هَنَأتُ بها نفسي قبل أن أراك، وإن كنتُ فقدتُ ابنًا خليفةً لقد اعتضتُ ابنًا خليفة. وما خَسِر من اعتاضَ مثلك، ولا ثَكِلتْ أُمٌّ ملأتْ عينَها منك. وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وإمتاعًا بما وَهَب. فقال المأمون: ما تَلِد النساءُ مثلَ هذه، ما تراها أبقت في الكلام لبلغاء الرجال!

وقال عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ الجعفريّ السمرقنديّ يُهَنِّىء العزيزَ بخلافةِ مصرَ ويرثي أباه المُعِزّ[٤]: [من البسيط]

قد أصبح الجَوْهَرُ العُلْوِيّ منتقِلا — في خيرِ مَنْ كان مِنْ خير الوَرَى[٥] بَدَلَا
يا مِنْحةً كملتْ في مِحْنةٍ عَظُمتْ — لولاكَ في الدّهر ما نال امرؤٌ أمَلَا
صُنْعٌ من الله في خَطْبٍ أُتِيحَ لنا — عمّ البلادَ وعمّ السَّهْلَ والجَبَلا
كان الزمانُ بمن أبقَى ومَنْ أخذتْ — صُروفُهُ مُذْنِبًا طورًا ومُنْتَصِلا[٦]
قام العزيزُ بما أفضى المُعِزُّ به — إليه مُضْطَلِعًا بالعِبْء مُحْتَمِلا

---

(١) هو الفضل بن الربيع، وزير الرشيد بعد نكبة البرامكة، ساعد الأمين ضدّ المأمون، ولما انتصر المأمون أبعده من الوزارة. مات سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.

(٢) ثمامة بن أشرس: وكنيته أبو بشر، من بني نمير. متكلم من المعتزلة. بلغ من المأمون منزلة رفيعة. عرض عليه الوزارة فامتنع. إليه تنسب الفرقة الكلامية المعروفة بـ «الثمامية». مات سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م. انظر ترجمة حياته في: الفهرست، التكملة، ص ٢.

(٣) هي زبيدة بنت جعفر، أم الأمين، زوجة هارون الرشيد، وابنة عمه، اشتهرت بإحسانها. قبرها في بغداد معروف. توفيت سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م.

(٤) المعز لدين الله، معدّ بن المنصور، رابع الخلفاء الفاطميين. خلف أباه سنة ٣٤١ هـ/ ٩٥٣ م. احتلّ جوهر، قائده، الفسطاط، وأسّس القاهرة فصارت عاصمة الفاطميين. استولى على طرابلس وبيروت، وهزم الامبراطور البيزنطي يوحنا بن شمشقيق. أنشأ الأزهر، وشجع العلماء والأدباء. مات سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م.

(٥) الورى: الخلق والأنام. (٦) منتصلًا: خارجًا نصله.

فقام أحفظَ مُسْتَرْعًى رَعَى فكَفَى ... من بعد خيرِ إمَامٍ قَوّم المَيَلا
كالسيف مُنْصَلِتًا[١] والبحرِ مُنْدَفقًا ... والبَدْرِ مُؤْتَلِقًا والغَيْثِ مُحْتَفِلا

ومنها:

في طلعة البدرِ من شمس الضُّحَى عِوَضٌ ... وظُلْمةُ اللّيلِ يجلو جُنْحَها ابنُ جَلَا
وما الأئمّةُ إلا أنجمٌ زُهُرٌ ... يبدو لنا كوكبٌ إنْ كوكبٌ أَفَلا[٢]
إنّ المُعِزَّ الذي لا خَلْقَ يُشْبِهُه ... إلّا العزيز ابنه إنْ قال أو فعلا
مَلْكٌ وجدنا التُّقَى والعَدْلَ عُدَّتَه ... إذا الملوكُ استعدّوا الكيدَ والحِيَلا
سَمَتْ إلى العالَم النُّورِيّ هِمَّتُهُ ... ففارَق القَتَمَ[٣] الأرضيَّ وانتقلا
راجعت نفسُه في القُدْس عُنْصُرَها ... ولم يزل بحبال الله مُتَّصِلا
لم يَرْضَ خَلْقًا من الدُّنيا يُجاوِرُه ... إلّا الملائكَ في الفِرْدَوْسِ والرُّسُلا
لولا نِزَارٌ[٤] وعينُ الله تَحرُسُهُ ... كنّا بفقد مَعَدٍّ أُمّةً هَمَلا[٥]
فإنْ مَضَى كافِلُ الدُّنْيا وما ضَمِنَت ... فَذَا ابنُه كافلٌ عنه بما كَفَلا
وإن هَوَى الجبلُ الراسي فذا جَبَلٌ ... رَاسٍ لنا بعده، أَعْظِمْ به جَبَلا!
عمّتْ خِلافتُه الدُّنيا برونَقِها ... كأنه الشَّمسُ فيها حَلّتِ الحَمَلا[٦]
مُلْكٌ أغرُّ[٧] وأيامٌ مُحَجَّلةٌ[٨] ... ودولةٌ كلَّ وقتٍ تَقْهَرُ الدُّوَلا
أضحتْ ملوك بني الدُّنيا له خَوَلًا[٩] ... وما حَوَتْ كلُّ دارٍ منهمُ نَفَلا[١٠]
يا أيّها الملك المأمولُ نائلُه ... ومَنْ هو الغاية القُصْوَى لنا أملا
كان السريرُ سريرُ الملِك منخفضًا ... حتى ارتقيتَ ذُرَاه فارتقى وعَلَا

---

(١) منصلتًا: خارجًا من غمده. (٢) أفل: غاب وغرب.
(٣) القتم: ما كان على الأرض من غبار وغيره. (٤) نزار: ولد المعز لدين الله.
(٥) هملًا: شاردة، لا راعي لها.
(٦) الحمل: برج في السماء معروف، تنزله الشمس في أول الربيع، وهو من البروج التي يتفاءل بها خيرًا.
(٧) أغرّ: في جبينه بياض.
(٨) محجّلة: فيها بياض. وفي الأصل التحجيل يكون في قوائم الفرس.
(٩) خولًا: خدمًا وعبيدًا. (١٠) النفل: الزيادة.

ومن ذلك ما كتب به عامل إلى المصروف به:

قد قُلِّدتُ العملَ بناحيتِك، فهنّأك الله بتجدّدِ ولايتكِ، فأنفذتُ خليفتي لخلافتِك، فلا تُخْلِهِ من هِدَايتك، إلى أن يَمُنّ الله بزيارتك.

فأجابه: ما انتقلت عنّي نعمةٌ صارت إليك، ولا خلوتُ من كرامة اشتملت عليك. وإني لأجد صَرْفي بك ولايةً ثانية وصِلة وافية؛ لما أرجو لمكانك من حسن الخاتمة ومحمودِ العاقبة. والسلام.

وكتب إبراهيمُ بن عيسى الكاتب يُهَنِّيء إبراهيمَ بنَ المدبِّر بالعَزْل عن عمل: [من الطويل]

لِيَهْنِيءْ أبا إسحٰق أسبابُ نِعْمةٍ مُـجَـدَّدةٍ بـالـعَـزْلِ، والـعـزلُ أنـبـلُ
شَهِدتُ لقد مَنُّوا عليك وأحسنوا لأنك بعد العَزْلِ أعلى وأفضل

آخر: [من مجزوء الكامل]

إنّ الأمـيـرَ هـو الّذي يُضْحِي أميرًا عند عَزْلِهْ
إن زال سـلـطـانُ الـوِلا يَةِ فهو في سُلطان فَضْلِهْ

وكتب أبو إسحٰقَ الصّابيُ إلى رجل زوّج أمّه:

قد جعلك الله ـ وله الحمدُ ـ من أهل التحصيلِ، والرأيِ الأصيل؛ وصِحّة الدِّين، وخُلُق ذي اليقين. فكما أنّك لا تتّبعُ الشهوةَ في محظور تُحِلُّه، فكذلك لا تُطيع الأنَفَة في مُباح تحظُره. وتأدّى إليّ من اتّصال الوالدة ـ يسّر الله لها في مُدّتك، وأحسن بالبقيّة منها إمتاعَك ـ بأبي فلان، أعزّه الله، ما علمتُ فيه أنّك بينَ طاعةٍ للدِّيانة تَوخَّيْتَها، ومَشَقَّةٍ تَجَشَّمْتَها؛ وأنّك جَدعتَ[1] أنفَ الغَيْرةِ[2] بها، وأضْرعتَ[3] خَدّ الحَمِيَّة فيها، وأسخطت نفسَك بإرضائها، وعَصَيت هواك لرأيها. فنحن نُهَنِّيك بعزيمة صبرِك، ونُعَزِّيك عن فائت مُرادك؛ ونسأل الله الخِيَرَةَ لك فيه، وأن يجعلَها أبدًا معك فيما شِئتَ وأبَيتَ، وتَجنَّبت وأتيتَ.

(١) جدعت: قطعت.
(٢) الغيرة: الحميّة.
(٣) أضرعت: أخضعت وأنزلت.

وقال كاتب مُتَقَدِّم في مثل ذلك:

الرِضا بما يُبيحه حكمُ اللهِ أولى من الامتعاض فيما تحظُره أَنَفَةُ الحَمِيّة. ولا قُبْحَ فيما أحلّ الله، كما لا جمالَ فيما حرّم الله. فعرّفك الله الخِيَرَةَ فيما اختارته من طهارة العَفَاف ونُبْل الحَصَانة، وعطفك من بِرِّها على ما تُؤَدِّي به حقَّها، وما لزمك من المعروف في مُصاحبتها.

وكتب الصّاحبُ بنُ عَبّادٍ تهنئةً بزواج أُمٍّ وتعزيةً بموتِ أبٍ، فقال:

الأيّامُ ـ أطال اللهُ بقاءك ـ تجري على أنحاء مختلفةٍ، وشُعَبٍ متفرّقة؛ وأحكامُها تتفاوتُ بيننا بما يسوء ويَسُرّ، وينفع ويَضُرّ. وبلغني من نفوذ قضاء الله في شيخِك ـ رحمه الله ـ ما أزعجني، وأبْهم طُرُقَ السلوةِ دوني، وإن كان مَنْ خَلَّفك غيرَ خارج عن مَزِيّة الأحياء، ولا حاصلٍ في زُمْرة الأموات. والله يأسو[1] كَلْمَك[2]، ويَسُدّ ثَلْمَك[3]. وقد فعل ذلك بأنْ أتاح الله لك بعدَ أبيك أبًا لا يَقْصُر عنه شفقةً عليك وحُنُوًّا، وإيثارًا لك وبِرًّا. وقد لعمري وُفِّقتَ حين وصلتَ بحبلك حبلَه، وأسكنت الكبيرةَ ـ حَرَسها الله تعالى ـ ظلَّه؛ لئِلا تَفْقِد من الماضي ـ عفا الله عنه ـ إلّا شخصَه. فالحمد لله الذي أرشدك لما يُعيد الشَّمْلَ مُجْتمِعًا بعد فِراقه، والعَدَدَ موفورًا بعد انتقاصه؛ حمدًا يقضِي لك بالمَسَرّة، ويَحْسم دونك مَرَادَ الوَحْشة، ويُلَقِّيك ثوابَ ما قَضَيتَه من الحق، وتحمّلتَه فيه من الأَوْق[4]؛ إنه فَعّال لما يريد.

فهذه نبذةٌ كافيةٌ في التهاني الخاصة؛ فلنذكر العامّة.

ذكر نبذة من التهاني العامّة والبشائر التامّة

ولنبدأ من ذلك بما قيل في البشارة بوفاء النيلِ، لما فيه من عموم المنافع الشاملة، وشُمول النِّعمِ الكاملة، والخِصْب الذي يتساوَى في الانتفاع به الغَنِيّ والفقيرُ، والمأمورُ والأمير.

فمن ذلك ما كتب به المولى الفاضلُ، الصدرُ الكبيرُ الكاملُ، ذو المناقبِ والمآثِر، والفضائلِ والمفاخرِ، شهابُ الدين محمودُ الحلبيّ:

(١) يأسو: يشفي.
(٢) كلمك: جرحك.
(٣) ثلمك: ما ثلم وتصدّع منك.
(٤) الأوق: الثقل.

وسَرّه بنبأ النيلِ الذي عَمّ نَيْلًا، وجرّ على وجه الأرضِ مُلَاءة مِلأته، فشمّر[١] المَحْل للرّحْلة ذَيْلًا، وجَرّد[٢] على الجدب سيفَ خِصْبِه فسال مُحْمَرُّ دَمِه على وجه الصَّعِيدِ[٣] سَيْلًا، وجَرَى وسَرَى في ضياء إشراقه وظُلْمةِ تَرَاكُمه إلى الأرض التي بارك به حولَها، فجَلّ من أجراه نهارًا وسبحانَ من أسْرَى به ليلًا. صَدَرتْ هذه المكاتبةُ إليه - أعزّه الله تعالى - ونِعَمُ الله قد عَمّتْ، وآلاؤه مع تَحقُّق المزيدِ قد تَمّتْ، ومَوَادّ فضلهِ قد أمّت الأقطارَ فقامت صَلاة الصِّلات إذ أمّتْ[٤]؛ وكلمة الخِصب قد نَمتْ في الآفاق، فوَشَتْ بمكنون حديثها للأرض ونَمّتْ؛ والخِصْبُ قد أقبل على الجَدْب فلم يكن له بمقاومته قِبَل، وطُوفان الرَّحْمة قد طَبق الوِهَاد[٥]، فلم يُغْنِ المَحْلَ[٦] أن قال: سآوي منه إلى جبل. والسيلُ قد بلغ في تَتَبُّع بقايا القَحْطِ الزُّبَى[٧]، والنِّيل قد عمّ بنَيْله الأرضَ حتى كَلّل مَفَارِقَ الآكام[٨] وعَمّم رؤوسَ الرُّبَا؛ وحَمَى الأرضَ من تَطَرُّق المُحولِ إليها فأصبحت منه في حَرَم، وظهرت به عجائبُ القدرةِ، ومنها أنّ ابنَ الستةَ عشرَ بلغ إلى الهرَمَ[٩]، وبثّ جُودَه في الوجود فلو صوّر نفسَه لم يزدها على ما فيه من كَرَم؛ وتَلَقّت منه النفوسُ أبهج محبوبٍ طَرَدَ ممقوتًا، ووَثِقت من حُمْرته بالغِنَى والمُنَى إذ لم تَدْرِ أياقوتًا تُشاهد منه أم قُوتًا. وجرى في الوفاء على أكمل ما أَلِف من عادته، وظهر بإشراقه وعمومِ نَفْعه ظهورَ الشَّمس فألقَى على الأرض أشِعّةَ سعادته؛ وأقبلَتْ به على الخَلْق بوادرُ الإقبال، وركِب الناسُ منه في سُفن النجاح والنجاةِ فهي تجرِي بهم في مَوْج كالجبالِ. وبَلّغ الله به المنافع فزعزعَ الشُّمّ ولم يتجاسر على الجسور، وأَمِنَ الناس به طروقَ المحَلْ المطرود به عنهم فضُرِب بينهم بِسُور، وأقطع الخِصْب الأرض كلها فله في كل بُقْعة مِثالٌ مَرْئِيّ ومنشور منشور، وبعث إلى كل عمل من سَرَايا جُوده عارضًا[١٠] مُغْضَبًا على المحَلْ ما يخطر إلّا وسيفُه مشهور؛ وأودع بطن الثَّرَى مَوَادّ ثَرائه، واستقبل الورَى بوجه ما تأمّله امرؤٌ صادي[١١] الجوانح إلا ارتَوَى من مائه، وأظهر الله به مثالَ ما سَلَف من كرامة أصفيائِه؛ إذ جعل تحتَ كل نخلةٍ من سراه سريّا[١٢]، وجَلَا به عن الأمّة ظُلمَ الغُمّة إذ أطلع منه في أوّل مَطَالعه

(١) شمّر: رفع ثوبه.
(٢) جرّد: أخرج.
(٣) الصعيد: الأرض التي هي في أعالي مصر.
(٤) أمّت: قصدت.
(٥) الوهاد: الأراضي المنخفضة.
(٦) المحل: بخلاف الخصب.
(٧) الزبى: جمع زبية، وهي التلّة التي لا يصل إليها السيل، والمعنى أنه جاوز الحد.
(٨) الآكام: جمع أكمة، وهي التل الصغير.
(٩) الهرم: أحد أهرامات مصر المشهورة.
(١٠) العارض: السيل.
(١١) صادي: عطشان.
(١٢) سريّا: جدول ماء.

المرتَقَبة مُحَيًّا[١] بَدْرِيًّا. وذلك أنه لما كان في اليوم الفلانيّ وَفَى النِّيلُ المباركُ ستة عشر ذراعًا، ومدّ بحُسْن صُنْع الله إلى مَصَالح البلاد يدًا صَنَاعًا؛ وركبنا إلى المِقياس الذي تُعْلَم به مواقعُ الرحمة في كلّ يوم، وتُهْدَى منه وارداتُ السرور إلى كلّ قوم؛ ووقفنا به لابسين من رحمةِ الله تعالى أحسنَ لِباس، آنسين من أنوار رحمة الله التي أزالت اليأْسَ وأذهبت الباسَ، ناظرين إلى أثر رحمة الله التي أحيت الأرضَ بعد موتها، ذلك من فضلِ الله علينا وعلى الناس. وجرى الأمرُ في التخليق على أجمل عاداتِ البدور، وعُلِّقت سِتارةُ المِقْيَاس لا للإخفاء على عادة الأستار، بل للإشاعة والظهور؛ واستقرّ حُكم المَسَرّة على السَّنَن[٢] المعهود، وعاد للناس عيدُ سرورِهم إذ ذاك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود. وركب مولانا السلطانُ إلى سدِّ الخليج والماءُ قد استطال عليه، وسَرَتْ سرايا أمواجِه إليه، وصَدَمه بقوّةٍ فاندفع منكسرًا بين يديه؛ فانجبرت القلوبُ بكَسره، واستوفت الأنفس السُّرورَ بأسره، وأيقن كل ذي عُسْر بحصول يُسْره؛ وساق اللهُ به الماءَ إلى الأرض الجُرُز[٣] فأحياها وحيّاها، ورقّ لوجهها المُغْبَرّ فستر بردائه المحمرّ صفحةَ مُحَيّاها. كل ذلك وهو ـ بحمد الله تعالى ـ آخذٌ في الازدياد، جارٍ على وَفْق المُراد إلى حَدّه المعتاد، سالكٌ ببَلاغه سبيلَ أهل البلاغة إذ يَهِيمون في كلّ واد. وها هو الآن يرتفع إلى كلّ رَبْوة على جَنَاح النَّجاح، ويُخِيفُ السُّبُلَ وما عليه حَرَجٌ ويَقْطَع الطُّرُقَ وليس عليه جُنَاح. فليأخذْ مولانا حظَّه من هذه البُشْرَى التي عَمّ بِشْرُها، ووجب على كل مؤمن شُكْرُها؛ ويتحقق أنّ هذه بوادرُ خير تَسْري إليه على ركائب السّحائب، وطلائعُ خِصْب هذه لديه أقربُ غائبٍ وأسرعُ آئب[٤]. والله تعالى يُعِزّ أنصارَه، ويُوَالي مَبَارّه، بمحمدٍ وآله.

وكتب أيضًا في مثل ذلك:

ضاعف الله نعمةَ المجلس العالي، وبَشّره بما أجرى الأُمّةَ عليه من عوائد كَرَمِهِ، وسَرّه بما يَسّره من خصوص بِرّه وعموم نِعَمه، وهنّاه بما سَنّاه[٥] من هَرَب جيش المَحْل بعد قِدَم وثَباتِه وثَبَاتِ قَدَمه، وأورد على سمعه من أنباء نُصْرة الخِصْب ما يتحقّق به أنْ لم يبقَ في الأرض عَلَمٌ إلا تحت عَلَمِه، وأنه ذَبح الجَدْبَ بسيفِ مَدَده الذي أنبأ بحُمرة عَنْدمِه[٦] عن دمه، وبَثّ

(١) المحيّا: الطلعة والوجه.
(٢) السنن: الطريق.
(٣) الجرز: المجدبة، لا ماء فيها.
(٤) آئب: راجع.
(٥) سنّاه: يسّره وسهّله.
(٦) العندم: ضرب من النبات يصبغ به.

سَراياه[١] في الأقطار، على مُتون القِطَار[٢]، مُرهِفًا على بقايا المَحْل سيوفَ بُروقه ونِبالَ دِيَمه[٣]؛ وضرب قِبابَ موجه على المسالك، فلو هَبَّت بينها عاصفةُ جَدْبٍ تَعَثّرتْ بأطناب خِيَمه، ولَعِب على ما شَمَخ من الرُّبا، فعَجَبٌ له من كاملٍ يلعَب وقد بلَغ إلى هَرَمِه! صدرتْ هذه المكاتبةُ تَقُصُّ عليه من نِعَم الله أحسنَ القَصَص، وتُهْدِي إليه من مَوادّ فَضْله ما يَخُصّ الشأم وأهلَه منه بأوفى الأقسام وأوفر الحِصَص، وتَحُثّه على شكر الله تعالى الذي به ينتهزُ من مزيدِ بِرّه أعظمَ الحظوظ وأفضلَ الفُرَص، وتُعْلِم أن الله نصَرَ جيشَ الرخاء بمَدَد لُطْفِهِ على اليأس الذي تولّى الشيطانُ أمرَه فلمّا تراءتِ الفِئتانِ نَكَص[٤]، وأنعم على خَلْقه بما أرخَصتْه عزائم كَرَمه بهم، فوجب أن تُقَابَلَ نِعَمُه بعزائم الشكر دون الرُّخَصِ؛ وذلك أن الله تعالى أجاب دعوةَ المضطرّ، وأفاض بِرّه العميمَ على الغنيّ والفقير والقانع والمعترّ؛ وأحيا الأرضَ بعد موتِها، وتداركَ برحمته دنيا الدَّهْماء[٥] بعد أن أشرفت على فَوْتها؛ وأجرى الخَلْقَ على عوائد كَرَمه، وأجرى لهم بقدرته من حُجُب الغيب مَوادّ نِعَمه، وأعلى لديهم مواردَ نِيلهم حتى كاد ما يَشْرَب بفرُوق ساقِه يتناول الماءَ بفَمِه؛ وأمَرَ البحرَ فأقبل بالفَرَج القريب من الأمد البعيد، وأذِن له في الترفُّع من مَحَلِّه فسجَد على التُّرْب شكرًا وتَيَمّم الصعيدَ[٦] وإن لم يبقَ به الآن على وجه الأرض صعيد؛ وأسرى منه ركائبَ السرور إلى الأقطار ففي كلّ نادٍ من هَدِيره حادٍ وفي كل برٍّ من بروره بَريد، وذَكَّر بإحياء الأرض بعد موتِها إحياءَ أمواتها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: الآية ٣٧]، ونشَر ألويتَه[٧] على الثّرَى لأهلِ الأرض بُشْرًا بين يَدَيْ رَحْمته، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٨]؛ وأقبل بعد نقص عامه الماضي بوجه عليه حُمرةُ الخَجَل، وعَزْمٍ سَبَق سَيفُه إلى المَحْل العَذْلَ بل الأجَل، وحَزْمٍ أدرك الجَدْبَ بوجه قبل أن يقول: سآوِي إلى جبل، واستظهارٍ على كلّ ما عَلَا من الأرض حتى إن الهَرَمَيْن باتا منه على وَجَل؛ ومَهّد الأرضَ التي كانت تَرْقُبه فهو لها المنتظَر على الحقيقة، ووَطِىء بطنَ القُرى فنتج الخِصْبُ بينهما وذُبح المَحْلُ في العَقِيقة[٨]؛ وقَطَع الطُّرُق فآمن بذلك كلّ حاضر وباد ورائح وغاد، واتّبعه الرّيّ

(١) سراياه: كتائبه، جمع سريّة، وهي المجموعة من الجند.
(٢) القطار: القطعة من الإبل يلي بعضها بعضًا على نسق واحد.
(٣) ديمه: مطره الذي لا برق فيه ولا رعد.
(٤) نكص: أحجم وتراجع.
(٥) الدهماء: جماعة الناس غير السّراة.
(٦) الصعيد: التراب.
(٧) ألويته: أعلامه.
(٨) العقيقة: النهر.

لا الرَّوِيّ حتى أضحى كالشعراء يهيم في كل واد؛ وعمت بركاتُه على الأرض «فتركن كلَّ قَرَارةٍ كالدرهم»(١) من الخصب مرتعًا، وأربى على رِيّه فيما سلف من السنين، فأضحى كهوى ابن أبي ربيعة(٢) «يقيس ذراعًا كلما قسْنَ إصبعًا»(٣) وتجعّد على الآكام فخُيِّل للعيون أنها تسيلُ، وشَيَّب مفارقَ الرُّبا ببياض زَبَده، وعادةُ بياض الشيب أن يُخْضَب بورق النيل. وكأنّ ما بقي من المَحْل قد جعل بينه وبينه سَدًّا؛ وتستَّر منه وراَه وهو يُمْلي ويَعُدّ له عَدًّا؛ فصدَمه بقلبه وجعله دكًّا إذ جاء أمرُ ربه وأدركه ومَلكه، وسفَك دمَه فجرى مستطيلًا إذ سفكه؛ ووفَى بما وَعَد من ظَفَرِه، وأتى لنُصْرة الخِصْب من مكانٍ بعيدٍ فأسفر عن النُّجْح وجهُ سَفَرِه، وأسبل على مقياسه ستر السرور لإخفاره ذمّةَ الجَدْب لا لِخَفَره، وبَشَّر مصره سَرَايا السحائب(٤) في أقطار الممالك لأنها من أشياعه ونَفَره. ولما كان اليومُ الفلانيُ عُلِّق السترُ وخُلِّق المقياسُ، وكُسِر الخليجُ فكان في كسْره جَبْرٌ للخليقة ومنافعُ للناس؛ وذلك بعد أن وفَى النيل المبارك ستةَ عَشر ذراعًا، وصرف في مصالح البلاد يدًا تَضِنّ(٥) بالبذل خُرْقًا(٦) وتكفي بحُسْن التدبير ضِياعًا، [وبَثَّ في أرجاء الأعمال بحارًا تحسب بتلاطم الأمواج ركامًا وبمضاعفة الفجاج سراعًا]. وهو بحمد الله آخذٌ في ازديادِه إلى حَدّه، جارٍ على اعتياده في المشي على وجه الثرى وخدّه؛ يتتبّع أدواء المَحْل تتَبُّعَ طبيبٍ خبير، ويعكس بيتَ أبي الطَّيِّب فتُمْسِي وبُسطُها ترابٌ، ويُصَبِّحها وبُسطُها حرير. وقد وثِقت الأنفسُ بفضل الله العَميم، وأصبح الناسُ بعدَ قطوبِ اليأس تعرفُ في وجوههم نَضْرةَ النَّعيم(٧)؛ تَيَمُّنًا ببركةِ أيّامنا التي أعادت إليهم الهجوعَ(٨)، وأعاذتهم مما ابْتُلِي به غيرُهم من الخوف والجوع. فَلْيأخذ المجلس العالي حظَّه من هذه

(١) مأخوذ من شعر عنترة في قوله:

«جادت عليه كلّ عين ثرّة فتركن كل حديقة كالدرهم»

انظر: ديوان عنترة بن شداد، ص ١٤٥. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠ م.

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي، شاعر الغزل الإباحي وزعيم المدرسة الغزلية الحضرية في العصر الأموي.

(٣) وقول عمر بن أبي ربيعة هو التالي:

«وقرّبن أسباب الهوى لمتيّم يقيس ذراعًا كلّما قِسْن إصبعا»

انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٧٨: الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ١٩٦٨ م.

(٤) السحائب: الغيم الممطر، جمع سحابة. (٥) تضنّ: تبخل.

(٦) خرقًا: حمقًا وجهلًا.

(٧) هذا القول هو الآية ٢٤ من سورة المطففين. ضمّنه كلامه بتمامه.

(٨) الهجوع: الرقاد.

البشرى التي خَصّت وعَمّت، ووَثِقت النفوس بمزيد النعمة إذ قيل: تَمّت؛ ويُذيعها في الأقطار، ويعرّفهم قدر ما منح الله جيوشَ الإسلام من فضله الذي يُعْجِب الزُّرّاعَ ليَغِيظَ بهم الكُفّارَ؛ ويستقبل نعمَ الله التي سَيَسِم الأرضَ وَسْمِيُّها[١] ويُولي النعم وَلِيُّها[٢] ويأتي بالبركات أَتِيُّها[٣] حتى تَغَصّ بالنعم تلك الرِّحاب، ويُظَنّ لعموم رِيّ البلاد الشاميّة أنّ نيلَ مصر وصل إليها على السَّحاب؛ ويقيم منارَ العَدْل الذي هو خير بالأرض من أن تُمْطَر، ويُعَفِّي[٤] آثارَ الظلم حتى لا تكاد تَظْهَر.

ومما قيل في التهاني بالفتوحات، وهزيمة جيوش الأعداء.

فمن ذلك ما كتب به المُهَلَّب بن أبي صُفْرة[٥] إلى الحجّاج بنِ يوسفَ[٦] الثقفيِّ في حرب الأزارقة[٧]:

أمّا بعدُ، فالحمد لله الذي لا تنقطع مَوادُّ نعمتِهِ من خلقه حتى تنقطعَ مَوَادُّ الشكر. وإنّا وعدوّنا كنا على حالتين: يَسُرُّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا، ويَسوءهم منّا أكثرُ مما يَسُرُّهم؛ فلم يزل الله عزّ وجلّ يزيدنا ويَنْقُصهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويُؤَيِّدنا ويخذُلهم، ويمحَصُنا[٨] ويمحَقُهم[٩]؛ حتى بلغ الكتابُ أجلَه، فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وكتب الحارثُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي ربيعةَ حين وُلّي العراقَ من قِبَل عبدِ الله بنِ الزبير[١٠] إليه يُخْبِرُه بهزيمةِ الخوارج: أمّا بعدُ، فإنا مذ خرجْنا نؤُمّ هذا العدوّ في نعمِ

---

(١) وسميّها: الوسمي، اسم مطر بعينه. (٢) الوليّ: اسم مطر بعينه يأتي بعد الوسمي.
(٣) الأتيّ: السيل المندفع من المياه. (٤) يعفّي: يزيل.
(٥) هو المهلب بن أبي صفرة، ظالم بن سراق الأزدي العتكي. كنيته أبو سعيد من الفرسان والأجواد والولاة المشهورين. وُلي البصرة ثم خراسان وفيها مات سنة ٨٣ هـ.
(٦) الحجاج بن يوسف الثقفي. قائد وخطيب ووالٍ معروف. وُلد بالطائف. ولّاه عبد الملك بن مروان إمرة الجيش فقضى على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز. ثم تولى مكة والمدينة والطائف والعراق. قضى على ثورة ابن الأشعث في معركة وادي الجماجم. أسّس مدينة واسط بالعراق. عرف عنه حبّه للدماء والبطش بلا حرمة. خطيب بليغ، له خطب معدودة. مات سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م.
(٧) الأزارقة: فرقة من الخوارج ينسبون إلى نافع بن الأزرق. استولوا على الأهواز، وكان من أبرز زعمائهم قطري بن الفجاءة. قضى على ثورتهم المهلب بن أبي صفرة. انظر خبرهم ومصرعهم في: الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد ص ٢٠٢ ـ ٣١٤.
(٨) يمحصنا: يخلّصنا. (٩) يمحقهم: يهلكهم.
(١٠) عبد الله بن الزبير: أحد أبرز القوّاد والمشاركين في الفتوحات. ثار على ولاة بني أمية في=

من الله متّصلةِ علينا، ونقمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم؛ نُقْدِم ويُحْجمون، ونَجِدُّ ويرحَلون، إلى أن حللنا بسوقِ الأهواز[١]. والحمدُ لله رب العالمين.

ثم كتب إليه بعد هذا الكتاب: أمّا بعد، فإنا لقينا الأزارقة بجِدٍّ وحَدٍّ، وكانت في الناس جولةٌ ثم ثاب أهلُ الحِفاظ والصبر بنيّاتٍ صادقة وأبدانٍ شدادٍ وسيوف حِداد؛ فأعقب الله خيرَ عاقبةٍ، وجاوز بالنعمةِ مقدارَ الأمل، فصاروا دَريئةَ[٢] رماحِنا وضَريبة[٣] سيوفِنا، وقتل اللهُ أميرَهم ابنَ الماحُوز؛ وأرجو أن يكونَ آخرُ هذه النعمة كأوّلِها. والسلام.

وكتب طاهرُ بنُ الحسينِ[٤] إلى المأمون لمّا فتح بغدادَ وقتلَ محمدًا الأمين: أمّا بعدُ، فإن المخلوعَ وإن كان قسيمَ أميرِ المؤمنين في النسب واللُّحمة، لقد فرّق الله بينهما في الولاية والحُرْمة؛ لمفارقتِه عصمةَ الدين، وخروجِه عن الأمر الجامع للمسلمين. قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هُود: الآية ٤٦]. ولا صلةَ لأحدٍ في معصيةِ اللهِ، ولا قطيعةَ في ذات الله. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وقد قُتِل المخلوعُ وردّاه الله رداءَ نَكْبة، وأحمدَ لأمير المؤمنين أمرَه، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده. والحمد لله المتولّي لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بمعلوم حقِّه، والكائد له ممن ختَر[٥] عهده ونكَث عقده؛ حتى ردّ له الألفة بعد تفريقِها، وأحيا الأعلامَ بعد دروس أثرِها، ومكّن له في الأرض بعد شتاتِ أهلها.

ولمّا فتح المعتصمُ عَمُّورِيّةَ[٦] أكثرَ الشعراءُ من ذكر هذا الفتحِ؛ فمن ذلك قول أبي تمامٍ حبيبِ بنِ أوسٍ الطائي من قصيدته التي يقول في أوّلها: [من

= الحجاز وأعلن نفسه خليفة بعد موت يزيد بن معاوية، متخذًا من المدينة المنوّرة عاصمة له. حكم تسع سنوات، قضى عليه الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة، سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م.

(١) الأهواز: مدينة فارسية في مقاطعة خوزستان.

(٢) الدريئة: ما يتخذ من حديد وغيره ليردّ ضرب السهام.

(٣) الضريبة: موقع الضرب من الجسد، والمضروب بالسيف.

(٤) طاهر بن الحسين: من كبار قواد المأمون. زحف على بغداد وظفر بالأمين وقتله وأعلن البيعة للمأمون. قضى على ثورة الخوارج في خراسان واستقل بحكمها. كان من مؤسسي الدولية الطاهرية. قتل سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م.

(٥) ختر: نقض.

(٦) عمورية: مدينة بيزنطية في آسيا الصغرى. فتحها الأفشين قائد المعتصم، الخليفة العباسي في معركة مشهورة سنة ٨٣٨ م.

البسيط]

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ
في حَدّه الحدُّ بين الجِدّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصفائحِ[١] لا سود الصحائف[٢] في
متونهنّ جَلاءُ الشكّ والرِّيَبِ
والعلمُ في شُهُب الأرماح لامعةً
بين الخَمِيسَيْنِ[٣] لا في السبعة الشُّهُبِ[٤]

جاء منها:

فتحُ الفتوح تعالى أن يُحِيطَ به
نظمٌ من الشّعر أو نثرٌ من الخُطَبِ
فتحٌ تَفَتَّح أبوابُ السماء له
وتبرُزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ[٥]

ومنها:

وبرزةُ الوجه قد أعيَتْ رياضتُها
كسرى وصدّت صدودًا عن أبي كَرِبِ[٦]
بِكرٌ فما افترعتها[٧] كفُّ حادثة
ولا تَرَقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ[٨]
من عهد إسكَندرٍ أو قبل ذاك فقد
شابت نواصِي[٩] اللّيالي وَهْيَ لم تَشِبِ

---

(١) كناية عن السيوف والسلاح، وتاليًا عن القوة.
(٢) كناية عن الكتب والأقلام، وتاليًا عن الفكر والذكاء والعقل وأقوال المنجمين.
(٣) مثنى خميس، وهو الجيش العرمرم ذو الفرق الخمس: الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة والقلب.
(٤) كناية عن الكواكب السبعة التي عليها كان يقول أصحاب التنجيم في الاطلاع على الغيب، وهي الشمس والقمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشتري وزحل.
(٥) القشب: النضرة الجميلة والجديدة.
(٦) أبو كرب: أحد ملوك عرب الجنوب قبل الإسلام.
(٧) افترعتها: افتضّتها وأخذت بكارتها. (٨) النوب: صروف الدهر ونوائبه.
(٩) جمع ناصية: وهي خصلة الشعر في مقدمته.

حتى إذا مَخَضَ[١] اللهُ السنين لها
مَخْضَ الحليبة كانت زُبْدَةَ الحِقَب

أتتهُمُ الكُرْبَةُ السوداءُ سادرةً[٢]
منها وكان اسمُها فَرّاجةَ الكُرَبِ

لمّا رأت أُختَها بالأمس قد خَرِبَت
كان الخرابُ لها أعْدَى من الجَرَبِ

أشار في هذا البيت إلى فتح أنقِرة.

ومنها:

لَبَّيْتَ صوتًا زِبَطْرِيًّا[٣] هَرَقْتَ[٤] له
كأسَ الكَرَى[٥] ورُضَابَ[٦] الخُرَّدِ[٧] العُرُبِ[٨]

قيل: كانت الرومُ لمّا فتحت زِبَطْرة صاحت امرأةٌ من المسلمين: وامحمداه! وامعتصماه! فلما بلغه الخبرُ ركب لوقتهِ يؤمُّ الشأمَ، وصاح: لبَّيْكِ! لبّيكِ! ولم يرجع إلى أن فتح أنْقِرة وعمُّورِيّة. ومنها:

خليفةَ الله جازى الله سَعْيَكَ عن
جُرثومة الدِّين والإسلام والحَسَبِ

إن كان بين صُروف الدهر مِن رَحِمٍ
موصولةٍ أو ذِمَامٍ[٩] غير مُنْقَضِبِ[١٠]

فبين أيامِكَ اللّاتي نُصِرتَ بها
وبين أيام بَدْرٍ[١١] أقْربُ النسب

---

(١) مخض: هزّ. (٢) سادرة: متحيّرة.
(٣) زبطريًا: نسبة إلى زبطرة، البلدة الرومية. والصوت هو صوت المرأة المسلمة التي استغاثت بالمعتصم لما هاجمها الروم فقالت: وامعتصماه؟
(٤) هرقت: أسلت. (٥) الكرى: النوم.
(٦) رضاب: ريق. (٧) الخرد: الحسان من النساء العذارى.
(٨) العرب: الخالصة البياض والحسن والأصل. (٩) ذمام: عهد.
(١٠) منقضب: منقطع.
(١١) بدر: واقعة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون بقيادة النبيّ ﷺ على المشركين.

وكتب أبو عبيد عبد الله البكري إلى المعتمدِ على الله المؤيَّدِ بنصرِ الله يهنّئه بالفتح الذي كان في سنة سبعٍ وسبعينَ وأربعمائة:

أطال الله بقاءَ سيّدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي الغرّ، والنعَم الزُّهر؛ وهنأه ما مُنِحَه من فتح ونصر، واعتلاءٍ وقهر. بطالع السعدِ يا مولاي أُبتَ، وبسانح[1] اليُمن غُدْتَ، وبكَنَف الحرزِ[2] عُذْتَ، وفي سبيل الظَّفَر سرْتَ، وبقدم البِرّ سَعَيْتَ، وبجُنَّة[3] العصمة أتَيْتَ، وبسهم السَّدادِ رميتَ فأصميتَ[4]. صَدَر[5] عن أكرم المقاصد وأشرف المشاهد، وعودٌ بأجلّ ما ناله عائدٌ وآبَ به واردٌ؛ فتوحٌ أضحكت مَبْسِمَ الدهر، وسَفَرت عن صفحةِ البشر، وردّت ماضيَ العُمْر، وأكْبَتْ[6] واريَ الكُفْر؛ وهزّت أعطافَ الأيام طربًا، وسقت أقداحَ السرور نَخبًا، وثَنَتْ آمال الشرك كَذِبًا، وطوت أحشاءَ الطاغية رَهَبًا؛ فذكرُها زادُ الراكب، وراحة اللّاغب[7]؛ ومُتْعة الحاضر، ونُقْلة المسافر: [من الطويل]

بها تُنْقَضُ الأحلاسُ[8] في كلِّ منزل وتُعْقَد أطرافُ الحبال وتُطْلَقُ

شمِلت النعمة وجَبرت الأمة، وجَلَت الغُمّة؛ وشفَت المِلّة، وبرّدت الغُلّة[9]، وكشفت العِلّة: [من الخفيف]

كان داءَ الإشراك سيفُك واشتـ ـدّت شَكاةُ[10] الهُدى وكان طبيبا

فغدا الدِّينُ جديدًا، والإسلامُ سعيدًا، والزمانُ حَمِيدًا؛ وعَمودُ الدين قائمًا، وكتابُ اللهِ حاكمًا؛ ودعوةُ الإيمان منصورة، وعَين الملك قريرة. فهَنأ الله مولانا وهَنأنا هذه المِنَحَ البهيّةَ مطالعُها، الشَّهيّة مواقعُها؛ المشهورةَ آثارُها، المأثورةَ أخبارُها؛ ونصر الله أعلامَه ففي البِرّ تُحَلّ وتُعْقَد، وعَضَد حُسَامه فبالقِسط يُسَلّ ويُغْمد؛ وأيّد مذاهبه فبالتَّحَزُّم تُسْدَى وتُلْحَم[11]، وأمّر كتائبه ففي الله تُسْرَجُ وتُلْجم. فكم فادِحِ خَطْب كفاه، وظلامِ كَرْبٍ جَلَاه، وميّتِ حقّ أحياه، وحيٍّ باطلٍ أرداه! وكم جاحم[12] ضلالةٍ

(١) السانح: الطائر الذي يمر عن يمين الناظر إليه فيتفاءل به.
(٢) الحرز: الرقية والعوذة.
(٣) الجنّة: الدرع الواقية، والسترة.
(٤) أصميت: أصبت في الصميم.
(٥) صدر: رجوع عن الماء بعد الارتواء منه.
(٦) أكبت: جعله لا ينقدح.
(٧) اللاغب: الضعيف المرهق.
(٨) الأحلاس: جمع حلس، ما يبسط على الأرض تحت الثياب.
(٩) الغلّة: شدة العطش.
(١٠) الشكاة: المرض.
(١١) تسدى، من السّدى، وهو خيط النسيج. أما اللحمة، فهو الخيط الآخر المعاكس له.
(١٢) جاحم: موقد.

أطفأ نارَه، وناجم[١] فتنةٍ قلّم أظفارَه، ومفلول سُنّة أرهَفَ شِفَارَه، ومستباحِ حُرْمة حَمَى ذِمارَه[٢]. فَلِلّه هذه المساعي الكريمةُ والمنازع القويمة، المتبلّجة عن ميمون النّقيبة ومحمود العزيمة؛ فقد تمثّل بها العهدُ الأوّل والقرنُ الأفضل الذي أُخْرِج للناس يأمرُون بالمعروف ويَنْهَون عن المنكر؛ والذي سطع هذا السّراج، وانتهج هذا المنهاج؛ فلا زالت الفتوحُ تتوالى عليه، وصنائع الله تَتّصل لديه، إدالةً من مشاقّيه وإذالةً لمحاربيه، وإبادةً لمناوئيه. وإن أجلّ هذه النعم في الصدور، وأحقَّها بالشكر الموفور؛ ما منَّ الله به من سلامة مولاي التي هي جامعةٌ لعزّ الدّينِ وصلاحِ كافّةِ المسلمين، بعد أن صَلِي من الحرب نِيرانَها، فكان أثبَتَ أركانها وأصبرَ أقرانها: [من الطويل]

وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ … كأنّك في جَفْنِ الردى وَهْوَ نائمُ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمى[٣] هَزيمةً … ووجهُكَ وَضّاحٌ وثغرُك باسمُ
هنيئًا لضرب الهَامِ[٤] والمَجْدِ والعُلا … ووجهِك والإسلامِ أنّك سالمُ

فللّهِ الحمد والإبداعُ والإلهام، وله المِنّةُ وعلينا متابعةُ الشكر والدوام. وقد فازت الكفُّ الكليم، بأعلى قداحِ المكلوم لدى المَقَام الكريم؛ وإنها لهي التالية للإصبع الدامية في المنزلة العالية: [من البسيط]

بَصُرْتَ بالراحة العُليا فلم تَرَها … تُنَال إلا على جِسْرٍ من التَّعب

ومن كلام القاضي الفاضل عبدِ الرحيم البيسانيّ جوابُ كتابٍ وردَ عليه يُخْبَر فيه بانتصار المسلمين. ابتدأه بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧١]. وصلت بُشرى المجلس السامي - أعلاه الله وشيّده، وأسعده وأصعده، وشكر مشهَده وأنجح مقصِدَه، وملأ بالحسنات أمسَه ويومَه وغده، وأهلك وعادى أعداءه وحُسَّدَه، واجتبّ[٥] بسيفه زرع الكفّار وذَراه وحصده - بما منّ الله سبحانه من نُصْرة المسلمين عند لقاء عدوّهم؛ وما وَلِيهم الله من القوّة والإظهار، وما قذف في قلوب الكفر من الخوف والحِذار؛ وشرح القضيّة شرحًا شَرح الصدور، واستوى فيها الغُيّاب مع الحضور؛ فكانت البِشارةُ منه وكانت المباشَرَةُ له، وما كلّ من بَشّر باشر، ولا كلُّ من غار غاوَر؛ ولا

---

(١) ناجم: مظهر.
(٢) ذماره: حياضه.
(٣) كلمى: جرحى.
(٤) الهام: الرؤوس.
(٥) اجتبّ: قطع.

كلّ من خبّر عن السيوف لقيَها بوجهِه، ولا كلّ من حدّث عن الرماح عانقها بصدره. فنفعه الله بالإسلام كما نفع الإسلامَ به، وأتمّ النعمةَ عليه كما أتمّها فيه؛ وتقبّل جهادَه الذي جلا فيه الكُرُباتِ، وابتغى فيه القُرُبات. ويُتوقّع إن هان العدوّ في العيون، وظهر منه غيرُ ما كان في الظنون، أن يكسر الله بكم مَصَافّه، ويفتح عليكم بلاده، ويُطهّر بسيوفكم الشام، ويسرّ بنصركم الإسلام، ويشرّف بيوم نصركم الأيّام. والخير يُغْتَنَم إذا عَنَتْ[١] فُرَصُه، ويُصاد إذا أمكن الصائدَ قنصُه، والجهاد فرض على المُطِيق تقتضيه عزائمه ولا تقتضيه رُخَصُه[٢]. وقد حضر المولى وحضر كلّ خير، وحضر من رأيه ما يكفي أمرَ العدوّ ولو لم يكن إلا رأيه لا غير؛ فكيف وفي يده من العَضْب[٣]، مثل ما في صدره من القلب؛ كلاهما حديدٌ لا تَكِلّ مضاربه، ولا تخونه ضرائبه، ولا تفنَى إذا عُدِّدت عجائبه. فكم له مِن يوم أغر محجّلِ[٤] الأطراف، وليلةٍ في سبيل اللهِ دهماء[٥] الأهوال بيضاء الأوصاف؛ والنفوسُ واثقةٌ بأن الظَّفَر على يده يجري، والمبشّر من جهته يسرّ ويَسْرِي. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: الآية ٦٤].

وكتب أيضًا في مثل ذلك: ورد كتاب المجلس ـ نصر الله عَزْمَته، وشكر هِمّته، وأتمّ عليه نعمته، وصَرَف به وعنه صَرْفَ كلّ دهر ومُلِمَّته ومؤلمته، وأعان أولياءه على أن يُؤَدّوا خدمته، ويستوهبوا له فضل الله ورحمته، وأجزل قِسْمه من الخير الذي يُحْسِن بين محبّيه قِسْمتَه ـ سافرًا عن مثل الصباح السافر، متحدِّثًا عن روض أفعالِه بلسان النسيم السِّحْرِيّ الساحر، حاملًا حديثَ بِيضه[٦] وسُمْره[٧] حديث السامر[٨]. وهنًأ بالفتحِ وهو المهنّأ به، وكيف لا يُهَنّأُ بالفتح من هو فاتحُه! وكيف لا يشرح خبره من هو فاتح كلَّ صدرٍ وشارحُه! ولقد دعا له لسانَ كلّ مسلم وساعدت لسانَه جوارحُه؛ وعلم أنه باشر الحربَ وتولّى كِبرها، وأخمد جمرهَا، ولقي أقرانها، وافترس فُرسانَها، وجَبّن شجعانَها، وشجّع جبانَها؛ وأنفق الكريمين على النفس: النَّفْسَ والمال، وحفظ على الإسلام الطَّرَفَيْنِ: الفاتحةَ والمآل. وإذا تأمل المجلس الدنيا علم أن الذي يبقى بها أحاديث، وإذا نظر إلى المال علم أن الذي في الأيدي

---

(١) عنَت: سنحت.

(٢) رخصه: ما كان ضعيفًا منه.

(٣) العضب: السيف.

(٤) محجّل: فيه تحجيل، وهو البياض في السواد. وفي الأصل، التحجيل في قوائم الخيل.

(٥) دهماء: سوداء.

(٦) بيضه: كناية عن السيوف.

(٧) سمره: كناية عن الرياح.

(٨) السامر: المتحدث ليلًا.

منه مَوَاريث؛ فالحازم من ورِث ماله ولم يُورثه لغيره، والسعيد من لم يرض لنفسه من الحديث إلا بخيره. وما يخفى عن أحد ما فعله، ولا ما بذّله، ولا ما هان عليه، ولا ما أهان اللهُ كرائمَ المال بيديه؛ ولقد حلّت نعمة الله في محلّها لديه، وكان كفأها الكريمَ الذي أصدقها ما في كفَّيْه: [من البسيط]

هذا ثنائي وهاتيكم مَنَاقِبُكم[١] يا أعيُنَ النّاسِ ما أبعَدْتِ إسهَادي[٢]

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: الآية ١١٢]، بل هو سبحانه يُوفي عباده مثاقيل الذرّ، وللصابرين عنده الأجر بغير حساب لجلالة قدْر الصبر. والمجلس صبّر نفسه على المشقّات فليُبْشِر بثوابها، وكثّر أعمال البِرّ فهو يدخل الجنّة بفضل الله من جميع أبوابها. وكما يُهَنَّأ المجلس بالافتتاح فهو يُهَنَّأ بالجِراح؛ ولا يَغْسِل ثوبَ العمل إلا الدمُ المسفوح، وكل جُرْح إنما هو باب إلى الجنة مفتوح. والحمد لله على أن أمتع الأمّة بنفسه التي بذلها، وقد باعها له وأبقاها لنا وقَبِلها. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النّمل: الآية ٧٣].

وكتب المرحوم علاءُ الدين عليُّ بنُ القاضي محيي الدين بن الزكيّ إلى أخيه بهاءِ الدين مُبَشّرًا بفتحِ صَفَد[٣]، وكان هذا الفتحُ في يوم الجمعة ثامنَ عشَر شوّال سنة أربع وستين وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك في أيام الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس[٤]:

يقبّل اليد الكريمة، ويبُثّ ما يعالجه من لواعج الأشواق التي تركته بين الأصحاب مُدَلّهًا[٥]، وسلبت لُبّه فلا أعلم عليه مَنْ دَلّها؛ ويُنْهى أن المملوك فارق كريمَ جنابه وتوجّه إلى صَفَد المحروسةِ فوصل إليها في تاريخ كذا، ووافها والحِصنُ قد تزعزعت أركانُه، والكفرُ قد انهدم بُنيانُه، وشمّر عن ساق الهزيمة شيطانُه؛ وحُمَاةُ الحرب قد وقفت في مراكزها، وكُماة[٦]

(١) مناقبكم: مآثركم الكريمة. (٢) إسهادي: جعلي محرومًا من النوم أو الرقاد.
(٣) صفد: مدينة من أعمال فلسطين، في الجزء الشمالي منها.
(٤) هو الملك الظاهر بيبرس الأول، رابع سلاطين المماليك البحريني ومؤسس دولتهم الحقيقي. حارب الصليبيين والمغول. أسر لويس التاسع في معركة المنصورة، واغتال توران شاه آخر الأيوبيين. انتصر على المغول في عين جالوت بفلسطين. دارت حوله مباحث كثيرة بلغت حدّ الأسطورة، مات سنة ١٢٧٧ م.
(٥) مدلّهًا: متحيرًا ومندهشًا. (٦) الكماة: الفرسان، جمع كميّ.

الهيجاء[١] قد استعدّت لأخذ فُرَص النصر ومناهزها؛ والرماحُ قد اهتزّت شوقًا إلى لقائهم، والسيوفُ قد آلت أنها لا توافق على مُقامهم، والمجانِيق[٢] تزور حِماهم وتلك الزيارة لشقائهم؛ وتُدَمّر بحجارتها عليهم تدميرًا، وتُريهم من بأسها يومًا عبوسًا قَمْطرِيرًا[٣]، وتصير بهم إلى الهَلاك وتعِدُهم جهنّم وساءت مصيرًا؛ والقِسِيّ[٤] تُرسِل إليهم المنايا في أجنحة السهام، وقد أحدقت بهم كماةُ الترك كأنها ظِباءٌ بأعلى الرقمتين[٥] قِيام؛ فمِنْ نازعٍ[٦] بقوسه وهو لِمُهَج[٧] الكافرين مُنازع، ومن متدرِّع بنحره نحو المنايا يسارع، ومن واردٍ مَنْهَل المنيّة وآخر في إثْرة كارع، ومن متدرّع وحاسرٍ[٨] عَلِما أن ليس لقضاء الله دافع؛ وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا، وما سلك بهم إلا صِرَاطًا مستقيمًا، وما اشترى أنفسهم وأموالهم إلا بالجنّة وأعدّ لهم أجرًا كريمًا. والسلطان ـ عزّ نصره ـ قد شحَذ شبَوَاتِ[٩] عزمه، وفَوّق[١٠] سديدَ سهمِه ليفوز بجزيلِ سهمه؛ وهو يرتّبُ عساكرَه، ويُهَيِّى ميامنَه ومياسرَه، ويُنفذ أوائلَه ويقدّمُ أواخرَه، ويَحُثّ صناديدَه[١١]، ويُثَبت رعاديده[١٢]؛ ويُسعِر هِمّةَ مَساعره، ويُذْكي نارَ الحرب في مَجَامره؛ ويقابل الأبراجَ ببروجٍ يَهدِمونها، ويَكِلُ بالنُّقوب نُقباء يحفِرونها، ويَعِد للمؤمنين مغانمَ كثيرةً يأخذونها؛ ويُعِدّ لكل مقامٍ رجالًا، ويرتّب لكل مُقاتلٍ من المسلمين قِتالًا، ويبسُط لهم بقتل الكافرين آمالًا؛ حتى قامت الحربُ على ساق، وضاق بأهل الشقاق الخِناق؛ وبلغت الأرواح منهم التّراقي[١٣]، ودارت عليهم كؤوسُ المنايا فانتشى المَسْقِيّ والساقي؛ وأحدقت بهم الجياد تَصْهِل، وسُحُب القِسِيّ تَهْطِل، وكواذب الآمال تَعِدهم وتَمْطُل، وخرَصوا[١٤] لأنفسهم الفرَجَ فكذّبتهم أسنّة

---

(١) الهيجاء: الحرب.
(٢) المجانيق، جمع منجنيق، الآلة الحربية تشبه المدفع.
(٣) قمطرير: شديد.
(٤) القسيّ: جمع قوس، وهي التي يرمى منها السهام.
(٥) الرقمتان: تثنية الرقمة، مجتمع الماء في الوادي. والرقمتان، قريتان بين البصرة والنباج. وهما اسم موضع قرب المدينة، نهيانِ من أنهاء الحرّة. انظر: معجم البلدان ٣/ ٥٨.
(٦) نازع: رام. (٧) مهج: أرواح.
(٨) المتدرع: لابس الدرع. والحاسر، بخلافه، وهو الذي ليس على رأسه بيضة.
(٩) شبوات: جمع شباة، وهي حدّ كل شيء قاطع، والشفرة.
(١٠) فوّق: سدّد. (١١) صناديده: أبطاله الشجعان.
(١٢) الرعاديد: جمع رعديد، وهو الجبان.
(١٣) التراقي: جمع ترقوة، وهي مقدم الحلق في أعلى الصدر حيث يلتقى النفس.
(١٤) خرص: حدس وظنّ.

الخرصان[١]، ونظروا إلى الحياة بعين الطمع فكحّلتهم بنات الحَنِيّة المِرْنان؛ فلما أُشرِب العجزَ نفوسُهُم، واستوى في الشُّورَى مرؤوسهم ورئيسُهم؛ ومُنُوا بالمنايا من كل جانب، وسمَح كلٌّ منهم بالمال والذهب مذ عَلِم أنّه ذاهب؛ وتحقّقوا أن لا ملجأ من السيف إلا إليه، ولا مُعَوّل بعد المعوّل إلا عليه، وتيقّنوا أن لا مُقامَ لهم ولا مَقَرّ، وقال الكافر يومئذٍ أينَ المَفرّ[٢]. والمسلمون مثابرون على العمل الصالح يرفعونه، ومبادرون أجَلَ عدوّهم يمزّقون منه كل ما يرقّعونه؛ وإذا بصَيْحة كالصيحة التي تأخذهم وهم ينظرونها، أو الصعقة التي ينتظرونها، إذ أُمِرَّت السيوفُ على رِقابهم وهم يُبصرونها؛ فارتجّت أرْجاءُ الحِصن بالاصطخاب، ووقع الاختلافُ بينهم والاضطراب؛ وقيل: إن الكافرَ قد طلب الأمان، وإنه ركب ظهر المَذَلّة مذ ناوله الجَزَعُ العِنان، وإن الكفر قد ذلّ للإيمان، وإن شيطانه قد نكَص[٣] على عَقِبه لما تراءت الفئتان؛ فأمسكت المجانيقُ عن ضربها، وكفّت الحَنَايا عن إرسال شُهبها، وأقصرت ليوث الحرب الضارية عن وَثْبها. فما كان إلّا هُنَيهة وقد خرج رسول منهم حيث لا تنفع الرسائل، واخترق وشِيجَ القنا وشوك النّصال وظُبَا[٤] المَناصل، ورأى كثرةَ هالته فكادت تنقدُّ[٥] تحت الذعر منه المفاصل، ومشى إلى السلطان خاضعًا وأعيا على السّماطين[٦] يقوم كلما عوّجته الأفاكل[٧]: [من الطويل]

وقـبّـل كُـمَّـا قـبّـل الـتُّـربَ قـبـلَه ... وكـلُّ كَـمِـيٍّ واقـفٌ مُـتَـضـائِلُ

وأدّى الرسالةَ وإذا هي كما قال أبو الطيبِ دروع، ورجع إلى أهله وفي قلبه من جيش الإسلام ـ كثره الله ـ صدوع[٨]: [من الطويل]

فأقبل من أصحابه وهو مُرْسَلٌ ... وعـاد إلـى أصـحـابـه وهـو عَـاذِلُ

فأبَوْا لنصيحتهِ قَبُولًا، وقالوا: قاتلك اللهُ رسولًا؛ لقد خرجتَ عن سُنّة إخوانك، وألقيتَ إلى المسلمين فاضلَ عِنانك، ولم ترقُب رِضا أقِسَّتِك[٩] ورهبانك. والرعب قد خرج به عن قومه وآله، وهو يُناشدهم اللهَ في أموالهم وأنفسهم ويُنشدهم بلسان

---

(١) الخرصان: الرماح.
(٢) إشارة إلى قوله تعالى في الآية ١٠ من سورة القيامة ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.
(٣) نكص: تراجع.
(٤) ظُبا: جمع ظباة، وهي حدّ السيف وشفرته.
(٥) تنقدّ: تقطع.
(٦) السماطان: الصفّان.
(٧) الأفاكل: الجماعة من الناس، والرّعدة.
(٨) صدوع: شقوق.
(٩) الأقسّة: جمع قسّ وقسّيس، وهو رجل الدين النصراني.

حاله: [من الطويل]

أمرتُهم أمري بمُنعَرَج اللِّوى فلم يَستبِينوا الرُّشدَ إلا ضُحَى الغدِ

فلما استحكمت مِرّةُ[١] عِصيانِهم، وأبَوْا إلا مغالاةً في طُغيانهم؛ ولم يسمَحوا بتسليم ذلك الحِصن الحصين، وقالوا: إنه على حفظ أرواحنا لقويٌّ أمين؛ أُرسِلت عليهم من المجانيق حجارةٌ كالمطر، إلا أنها ترمي بشَرَرٍ كالقصر فتهدِم قصورًا كالشرر؛ فزعزعت منها بُرُوجًا وبُدنًا، وقالت: هذا جزاؤكم وإن عُدْتم عدْنا[٢]، ولنُتْبِعنّ بعدها آثارَكم ونقلعَ منكم قِلاعًا ومُدنًا. فلما أكذبهم الحِصنُ في آمالهم، وأراهم الله قُرْب آجالهم؛ وكان ذلك في اليوم الأغرّ يوم الجمعة والفتح، سلكوا في التسليم عادةً لم يسلُكوها، ورأوا من الجزَع خُطّةً ملكتهم ولم يملِكوها؛ فأجمعوا أمرهم وشركاءهم إلا أنه كان عليهم غُمّة، وطلبوا الذِّمام ومن قبلها كانوا لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ[٣] ولا ذِمّة؛ فألقَوْا إلى الإسلامِ يومئذٍ السلَم، ورأَوْا نور الله الظاهرَ أشهرَ من نار على علَم[٤]؛ فخرجوا من الحصن زَرافاتٍ وأوْزاعًا[٥]، مُهْطِعين[٦] إلى الداعي كيوم يخرجون من الأجداث[٧] سِراعًا. فلو تراهم نحو المنايا يركُضون، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج: الآيتان ٤٣، ٤٤].

جرت الرياحُ على مَقَرِّ ديارِهِمْ فكأنما كانوا على مِيعادِ

وصدق الله المؤمنين وعدَه، وكان يصدق وعدِه حقيقًا، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦﴾ [الأحزاب: الآية ٢٦]. فلما كان يومُ السبت نادى فيهم السيفُ بالرحيل، ولم يتزوّدوا من متاع الدنيا إلا القليل؛ وقام النصرُ على منابرِ الهامات خطيبًا، وكثُر القتلُ فصار المهنّدُ[٨] الصقيلُ خَضِيبًا؛ وأجرى أوديةً من دِمائهم، ولم يغادر بقيّةً من ذَمَائهم[٩]؛ واستوى العبيدُ منهم والأرباب، وصار فُرسانُهم فرائسَ الذئاب، واستمرءوا المَرْعَى

---

(١) المرّة: الشدّة، والطبيعة.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في الآية ٨ من سورة الإسراء: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

(٣) إلاًّ: عهدًا.

(٤) العلم: الجبل.

(٥) أوزاعًا: متفرقين.

(٦) مهطعين: خائفين ضارعين.

(٧) الأجداث: القبور، جمع جدث.

(٨) االمهند: السيف.

(٩) الذماء: بقيّة الروح.

الوخيم فرعاهم الذُّبابَ؛ ووجدوا غِبَّ البغي علينا، وقلنا: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٥]؛ وآب المسلمون بخير عميم، وفتح عظيم وأجر كريم؛ وجعل الله الجنَّةَ جزاءً للسالمين منهم والذاهبين، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٤]. فليأخذْ حظّه من هذه البشرى فإن لها من النصر العزيز ما بعدها، ومن المغانم الكثيرة ما يُنجز للأمّة المحمديّة وعدَها؛ ويثق بأن له إن شاء الله من ثوابِ هذه الغزوة أوفرَ نصيب، وأن سهم عزمه في نحور الأعداء إن شاء الله مصيب؛ فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن بالمدينة قومًا ما سِرْتم مَسِيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم». والله لا يُخليه من أجرها، ولا يَحرِمه وافرَ بِرّها؛ ويُتحفه من مقربات التهاني بما تكون له هذه بمنزلة العنوان في الكتاب، والآحاد في الحساب؛ وركعةِ النافلة[١] بالنسبة إلى الخمس[٢]، والفجرِ الأوّل قبل طلوع طلعة الشمس؛ وأن يُديم على الإسلام والمسلمين حياةَ مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين، ويؤيّده بالملائكة المقربين، ما دامت السمٰوات والأرضونَ، إن شاء الله تعالى.

ومن إنشاء المولى المرحوم محي الدين عبدِ الله بنِ عبدِ الظاهر كتابٌ كتبه عن السلطان الملكِ الأشرفِ خليلٍ[٣] إلى الملك المظفَّرِ يوسفَ بنِ عمرَ[٤] صاحبِ اليمنِ قرين كتاب السلطان الملك المنصور المسيّر إليه بالهناء بفتح طرابلس الشأم:

أعز الله نُصرةَ المقام وأوفد عليه كلّ بشرى أحسن من أختها، وكل تهنئة لا يُجَلِّيها ألا هو لوقتها، وكل مُبْهِجة يعجَز البيان والبنان عن ثبتها ونعتها، وتتبلّج فتودُ الدُّرَر والدراري لو زُفّت هذه إلى تَرَاقيها وسَمَتْ هذه إلى سَمْتها[٥]؛ وصبّحه منها بكل هاتفةٍ أسجعَ من هواتف الحمائم، وبكلّ عارفة أسرعَ من عَوَارف الزّهر عند عزائم النسائم، وبكل عاطفة أعنّةَ[٦] الإتحاف بالإيجاف[٧] الذي شكرت

(١) النافلة: الصلاة المستحبّة غير الواجبة.
(٢) الخمس: يريد الصلوات الخمس اليومية الواجبة.
(٣) هو السلطان التاسع من سلاطين المماليك.
(٤) هو ثاني ملوك الدولة الرسولية في اليمن وأشهرهم. وُلد بمكة وولي بعد مقتل أبيه بصنعاء. كان أديبًا وعالمًا بالفلك والطب. مات سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م.
(٥) سمتها: النقطة من الكرة السماوية واقعة على شاقول المكان فوق الأرض. والسمت: الرأس، والطريق والمحجّة.
(٦) الأعنّة: جمع عنان، وهو الرسن.
(٧) الإيجاف: والمقصود إيجاف الخيل، وغزوها.

الصِّفَاحُ[١] منه أعظمَ قادرٍ والصحائفُ أكرمَ قادم، والغزو الذي لا تُخَصّ تِهامةُ[٢] ببُشراه بل جميع النجود والتهائم، وذوو الصوارم والصرائم[٣]، وأولو القُوى والقوائم، وكلّ ثغر عن ابتهاج أهل الإسلام باسم، وكلّ بَرٍّ بَرٍّ بتوصيل ما ترتّب عليه من ملاحم، وكلّ بحر عَذْبٍ يَمُونُ كلّ غاز لا يحبس عن جهاد الكفار في عُقْر الدار الشكائم[٤]، وكلّ بحر مِلْح كم تغيّظ من مجاورة أخيه لأهل الشرك ومشاركتهم فيه فراح وموجه المتلاطم. المملوك يجدّد خدمةً يقتفي فيها أثرَ والدِه، ويجري في تبليغها على أجمل عوائده، ويستفتح فيها استفتاحًا تَحُفّ به من هنا ومن هنا تُحِفُ محامده؛ ويَصِف ولاءً قد جعله أجمل عقوده وأكمل عقائده، ويشفعهما بإخلاص قد جعله ميلُه أحسن وسائله وقلبُه أزين وسائده؛ ويُطلع العِلم الكريم أن من سجايا[٥] المتعرّضين إلى الإعلان بشكر الله في كلّ ما يعرِض للمسلمين من نَصْر، ويُفْرَض لهم من أجر غزوٍ كم قعد عنه مَلِكٌ فيما مضى من عصر؛ أن يقدُروا تلك النعمةَ حقّ قدرها من التحدّث بنعمتها، والتنبيه لسماع نَغْمتها؛ وإرسال أعِنّة الأقلام في ميادين الطروس[٦]، وإدارة حِرْباء وصف خير حربٍ إلى مُواجهة خير الشموس. ولما كانت غزواتُ مولانا السلطان ملكِ البسيطةِ الوالدِ ـ خلّد الله سلطانه ـ قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفُه للنصر فكم جاءت هي والقدرُ على قَدَر؛ وقد صارت سِيَرُها وسيرُها هذه شَذْو الأسمار[٧]، وهذه جادّةٌ[٨] يستطيب منها حسنَ الحَذْو السُّفّار، فكم قاتلت من يليها من الكفّار، وكم جعلت من يُواليها وهو منصورها منصورًا بالمهاجرين والأنصار. ولما أذلّ الله ببأسِها طوائفَ التتار[٩] في أقاصي بلاد العجم، وجعل حظَّ قلوبهم الوجعَ من الخوف ونصيبَ وجوههم الوجَمَ، وأخلى الله من نسورهم الأوكارَ ومن أُسودهم الأجَم[١٠]، وقصُرت بهم هممُهم حتى صاروا يخافون الصبحَ إذا هجم والظنَ إذا رجَم، وصارت رؤيةُ الدماء تُفزِعُهم فلو احتاج أحدُهم لتنقيص دم لمرضٍ

---

(١) الصفاح: كناية عن السيوف والرماح وسواها من الآلات تصنع من الحديد وغيره.
(٢) تهامة: منطقة جنوب الحجاز منخفضة. وبخلافها النجد.
(٣) الصوارم: السيوف. والصرائم، جمع صريمة، وهي القطيعة، والقطعة من الليل.
(٤) الشكائم: جمع شكيمة، وهي ما يوضع في شدق الفرس، كالحديدة.
(٥) سجايا: جمع سجيّة، وهي الطبع والخلق. (٦) الطروس: جمع طرس، وهو الصحيفة.
(٧) الأسمار: أحاديث الليل. (٨) جادة: طريق واسعة.
(٩) التتار: قبائل سكنت في أواسط آسيا من أصل مغولي. عرفوا بغزواتهم الكثيرة، وقد هاجموا الدولة الإسلامية مرات كثيرة.
(١٠) الأجم: جمع أجمة، وهي الشجر الكثيف الخفيف، وفيها تكون بيوت الأسود.

لأحجم من خوفه وما احتجم[١]. وأباد الله الأرمنَ فحلَّ بالنَّيْل منهم الويل، وما شمّر أحد من الجنود الإسلامية عن ساعد إلا وشمّر هو من الذُل الذَّيْل، ولا أثارت الجياد من الخيل عِثْيَرًا[٢] منعقِدًا إلا وظنّوه مساءً قد أقبل أو ليل. وانتهت نوبة القتل بهم والإسار إلى «التَّكْفُور ليفون» ملك الأرمن الذي كان يحمي سَرْحَهم[٣] ويمرّد[٤] صَرْحَهم[٥]، ويستنطق هَتْفَ التّتار ويسترجع صَدْحهم؛ وتعتزّ طرابُلس الشأم بأنه خال إبرنسها الكافر، ولسان مشورته السفير ووجه تدبيره السافر؛ وطالما غرّ وأغرى، وجرّ وأجرى، وضرّ وأضرى؛ فلما توكّل مولانا السلطانُ وعزم وعزم فتوكّل، وتحقّق أن البلاءَ به قد نزل، وما تشكّك أن ذلك في ذهن القَدَر قد تصوّر وتشكّل؛ وأنّ يومه في الفتك سيكون أعظمُ من أمسِه وأعظم منهما معاداة غدِه، وأن نصر الله لن يُخلفَه صادقُ موعده، أكل يده ندامةً على ما فرّط في جَنْب الله؛ وساق الحَتْفَ[٦] لنفسه بيده فعمَر الله بروحه الخبيثة الدّرَكَ الأسفل من النار، وسقاه الحَتْف كأسًا بعد كأس لم يكن لها غيرَ الهُلْك من خُمار. وكانت طرابلسُ هي ضالّة الإسلام الشريدة، وإحدى آبقاته[٧] من الأعوام العديدة؛ وكلما مرّت شمخت بأنفها، وتأنّقت في تحسين منازه منازهها وتزيين رَيْحانها وعَصْفها، ومرّتْ وهي لا تُغازل مَلِكًا بطرْفها وكلما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها؛ إذ البحرُ لها جِلْباب[٨] والسحابُ لها خِمار[٩]، وليس بها من البَرّ إلا بمقدار ساحةِ الباب من الدار؛ كأنها في سِيف ذلك البحر جبلٌ قد انحطّ، أو مَيْل استواء قد خرج عن الخط، وما قصد أحدٌ شطَّها بنكايةٍ إلا شطّ[١٠] واشتط[١١]؛ قدّر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العِنانَ، وسبق جيشُه إليها كلَّ خبر وليس الخبر كالعِيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادةُ قد أحرسته عيونَها وتلك المخاوف

(١) احتجم: عمل الحجامة، وهي ضرب من العلاج الطبي كان شائعًا في القديم، وطريقتها أن يؤتى بالمحجم بشيء كالكأس يفرغ من الهواء ثم يوضع على الجلد فيحدث تهيجًا ويجذب الدم بقوّة.

(٢) عثيرًا: غبارًا.

(٣) السرح: ساحة الدار، وفناؤها، وكل شجر طال ولا شوك فيه. والسرح أيضًا، الماشية، والخيل.

(٤) يمرّد: يملّس ويسوّي.

(٥) الصرح: البناء الشاهق.

(٦) الحتف: المنية.

(٧) آبقاته: جمع آبقة، وهي الآفة والشرّ العظيم.

(٨) جلباب: ثوب طويل.

(٩) الخمار: النقاب، للرأس أو الوجه، أو الاثنين معًا.

(١٠) شطّ: بعد.

(١١) اشتطّ: بالغ في الشطط وجاوز الحدّ.

كلُّهن أمان، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجأته لها أمدّ عِنان؛ وفي خدمته جنود لا تستبعد مَفَازة، وكم راحت وغدتْ وفي نفوسها للأعداء حَزَازة[١]؛ فامتطَوْا بخيولهم من جبال لُبنان تيجانًا لها صاغتها الثّلوجُ، ومعارجَ لا تُرافق بها غير الرياح الهُوج؛ وانحطّت تلك الجيوش من تلك الجنادل[٢]، انحطاطَ الأجادل[٣]، واندفعوا في تلك الأوعارِ اندفاعَ الأوعال[٤]، ولم يَحفِلْ أحدٌ منهم بسَرَبٍ لاصق ولا بجبلٍ شاهقٍ فقال: هذا منخفضٌ أو عال؛ وشرعوا في التحصيل لما يُوهي ذلك التحصين، وابتناءِ كلِّ سُور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأي الرصين؛ فما لبثوا إلا مقدار ما قيل لهم: دونَكم والاحتطاب، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب؛ حتى جرُّوها بأسرعَ من جرّ النَّفَس، وأجْرَوْها على الأرض سفائنَ وكم قالوا: السفينةُ لا تَجْري على يَبَس. وفي الحال نقلت إليها فرأوا من مُتَوَقَّلها[٥] من يمشي بها على رجلين ومنهم مَن يمشي على أربع، ووجّهت سهامُها وجوهَها إلى منافذها فما شوهدت منها عينٌ إلا وكان قُدّامها منها إصبع؛ وأُلقِيت العداوةُ بين الحجارةِ من المجانيق وبين الحجارةِ من الأسوار، فكم نَقبت ونقّبت من فِلْذة كَبِدِها عن أسرار؛ وأُوْقِدت نِيرانُ المكايد ثَمَّ فكم حولها من صافن[٦] ومن صافر[٧]، وكم رمتهم بشرر كالقصر فوقع الحافر كما يقال على الحافر. وما برحت سُوقُ أهل الإيمان في نَفَاقٍ على أهل النِّفاق، وأكابرهم تساقُ أرواحهم الخبيثة إلى السِّياق. وكان أهل عَكّاء قد أنجدوهم من البحر بكلّ بَرّ، ورمَوْا الإسلام بكل شَرَرٍ وكل شرّ؛ فكان السهمُ الذي يخرج منها لا يخرج إلا مقترنًا بسهام. وشُرُفات ذلك الثغر[٨] كالثنايا[٩] ولكنها لكثرة من بها لا تفتَرّ عن ابتسام؛ وما زالت جنود الإسلام كذلك، ومولانا السلطان لا تُرَى جماعةٌ مُقْدِمَةٌ ولا متقدِّمةٌ إلا وهو يُرَى بين أولئك. واستمرّ ذلك من مُستهلّ شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، فزحف عليها في بُكْرة ذلك النهار زَحْفًا يقتحم كلَّ هَضْبة ووَهْده، وكلّ

(١) الحزازة: التعسّف في الكلام، وهي الغيظ أيضًا.

(٢) الجنادل: الصخر العظيم. (٣) الأجادل: صفة للنسور أو الصقور.

(٤) الأوعال: جمع وعل، وهو تيس الجبل له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين.

(٥) متوقلها: صعيدها، وظاهر أرضها.

(٦) الصافن من الخيل: ما كان قائمًا على ثلاث قوائم.

(٧) الصافر من الطير: كل ذي صوت منها.

(٨) الثغر: الفم. وهنا، المدينة التي يدافع عنها على تخوم الدولة بمواجهة العدو.

(٩) الثنايا: الأسنان في مقدم الفم.

صُلْبة وصَلْده، حتى أنجز الله وعدَه، وفتحها المسلمون مجازًا وفي الحقيقة فتحها وحدَه؛ وطلعت سناجقُ(١) الإسلام الصُفْرُ على أسوارِها، ودخلت عليهم من أقطارها، وجاست الكسّابة(٢) خِلالَ ديارها؛ فاحتازها مولانا السلطانُ لنفسِه مِلْكًا، وما كان يكون له في فتحها شريك وقد نفى عنها شِرْكًا؛ وكلما قيل: هذه طرابُلُس فُتِحت قال النصر بمن قتل فيها من النُّجُد الواصلة وأكثر عكا وأهل عكا(٣)؛ وأعاد الله قوّةَ الكفر بها أنكاثًا(٤)، وكان أخذُها من مائة سنة وثمانين سنة في يوم ثلاثاء واستُرِدّتْ في يوم الثلاثاء. ولما عمّت هذه البشائر ووَكَل بها مولانا السلطان إلى كلّ من يستجلي حِسانَ هذه العرائس، ويستحلِي نفيسَ هذه النفائس(٥)؛ سيّر مولانا السلطان إلى مولانا بُشْرى فقعقع(٦) بها البريد، لتُتْلَى بأمر مولانا على كل من أُلقي السمعَ وهو شهيد، وكما عمّ السرور بذلك كلّ قريب قصد أن يُعمّ الهناءُ كل بعيد. وأصدر المملوك هذه الخدمة يتحجّب بين يدي نجواها، ويتوثّب بعد هذه المفاتحة لكلّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرّها ومثواها. لا برح المقام يستبشر لكُماة الإسلام بكل فضل وبكلّ نُعْمَى، ويفرَح لسَرْحِ الكفر إذا انْتُهِك ولسفح المُلْك إذا يُحْمَى، ولسمع الشِّرك إذا يُصَمّ ولقلبه إذا يُصْمَى.

وكتب المولى محيي الدين أيضًا عن نفسه مطالعةً إلى السلطان الملك المنصور يهنّئه بهذا الفتح: [من مجزوء الكامل]

هُنِّئتَ يا ملكَ البَسِيطة(٧) فتحًا به النُّعْمَى مُحِيطه
وبَقِيتَ يا خير الملو ك بسيفِك الدّنيا مَحُوطَه

يقبِّلُ الأرضَ ويبتهلُ إلى دُعاءِ صالح يقدِّمه بين يدي بِشْره وبُشْراه، وكلّ مقام محمود من الإجابة يحوّله في سِرّه ونجواه؛ ويُهَنّيء بهذا الفتح الذي كم مضى مَلِكٌ وفي قلبه منه حَسْرة، وما ادّخر الله إلا لمولانا السلطان أجرَه وفخرَه. فالحمدُ لله على هذا النصرِ العزيزِ وهاذ الفتحِ المبين، والظفر الذي أعطاه الله إيّاه في شهر وقد أقامت جموعُ الكفر حتى حازت بعضَه في مُدّة سبع سنين. وله الشكر على أن جعل الكفرَ

(١) سناجق: جمع سنجق، وهو اللواء. واللفظة فارسية.
(٢) الكسّابة: الذين يكسبون كثيرًا. وجاست: دخلت.
(٣) عكا: ثغر إسلامي متقدم، من أعمال فلسطين، على البحر.
(٤) أنكاثًا: متفرقين، جمع نكث، وفي الأصل، النكث، ما نُقض من الأكسية والأخبية ليُغزل ثانيةً.
(٥) النفائس: جمع نفيسة، وهي المال الكثير، والشيء الثمين جدًا.
(٦) قعقع بها البريد: ذهب بها بعيدًا. (٧) البسيطة: الأرض.

مِن بعدِ قوةٍ أنكاثًا، وجعل أخذَ مدينةِ طرابُلسَ من الكفّار في يومِ الثلاثاء وكان أَخْذُها من المسلمين في يوم الثلاثاء؛ وله المِنّةُ في ردّ هذه الأخِيذةِ، وجعلها بين يدي مولانا السلطان مَنْبوذة. ثم المنّة لله على أن سطر في سيرةِ مولانا السلطانِ هذه السَّنَةَ، وجعلها ما بين نومةِ عينٍ وانتباهتِها في أقرب من سِنَة[١]، وردّ إباقها[٢] على المسلمين بعد أن أقامت هاربةً عندَ الكفار مائةَ سنة وستًّا وثمانين سنة؛ والله يلحق بها في الفتح أخواتِها من المدن، ولا يلبث إن شاء الله هاديًا بها بعدها مثل عَكّاء وصُور وصَيْدَا حتى يراهنّ إلى قبضته قد عُذْن، إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى الأمير حسام الدين طرنطاي عن الأمير بدر الدين بيدرا في ذلك:

المملوك يهنىء بهذا الفتح الذي كادت به هذه الغزوةُ تزهو على غيرها من الغزوات وتتيه، وأشرقت الأرضُ بنورِ ربِّها ابتهاجًا بما أمضاه اللهُ منه وما سيُمضيه، وبما سيُعطيه حتى يُرضيه، وذلك أن فتح طرابُلسَ التي طالما شمَخت بأنفها على الملوك، وكم أبتْ على مستفتِح فما قال لغيره إباؤها: لله أبوك؛ وأخّر الله مدّتَها إلى خير الأزمان، وفتحها على يدي سلطانِنا الذي حقّق الله به آمالًا تنفُذ إلا منه بسلطان. فالحمد لله الذي عضَد[٣] هذا الملكَ من مولانا بخير من دبّره، وحماه منه بأقطع حُسامٍ جرّده الله لنقضِ ما أَمَرَّه؛ وما من فُتوح ولا أمر ممنوح إلا ومولانا مُنَضِّد عقودِهِ، ومجهِّز بَريدِه، ومطلع سعودِه؛ ورافع علمه، ومُمْضي سيفه ومُرضي قلمه. فأمْتع اللهُ الأمةَ من مولانا السلطانِ بسلطانٍ يستردُّ لهم الحقوقَ ويتقاضى الديونَ، وأمتع الله سلطانَها مِن مولانا بمن آراؤه أقفال الممالِك وسيوفُه مفاتيحُ الحصون.

ومن إنشاء المولى شهابِ الدينِ محمود الحلبي ما كتب به عن الأمير سيفِ الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة إلى النائب بقلعة الجبلِ عند كسرة التتارِ بمَرْج الصُّفَّر[٤] في شهر رمضانَ سنة اثنتين وسبعمائة:

وبشّره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خَلْقًا جديدًا، والنصرِ الذي أنزل الله فيه من الملائكة أنصارًا للملّة[٥] وجنودًا، والظفَرِ الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يَرْهَب خُمودًا، والغزوةِ التي زلزل الله بها جبالَ أهل الشرك وقد تدفّقت على الأرض

---

(١) السِّنة من النوم: الغفلة القصيرة جدًا.
(٢) إباقها: هروبها من الأسر.
(٣) عضد: آزر وساعد.
(٤) مرج الصُّفَّر: موضع بين دمشق والجولان.
(٥) الملّة: الطريقة أو الشريعة في الدّين.

أمثال البحار عددًا وعديدًا. المملوك يقبّل اليد العالية التي لها من هذه النُّصرة وإن لم تبلغها أجرُ الرامي المسدِّدِ سهمَه، المعجِّلِ من التهاني غُنْمَه(١)، الموفَّر من المحامد الجزيلة قِسمَه(٢)؛ ويهنّىء المولى بهذا الفتح الذي مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله، ومنّ على أيّامنا الزاهرة فيه بالشأم وأهله، وبَرز فيه الإسلامُ كلّه للشرك كلّه. ولله الحمد الذي أعز دينَه ونَصرَه، وحصَد بسيوف الإسلام عدوَّ دينه بعد أن حَصَره؛ وأباد جيوشَ الشِّرك وهم مائة ألف أو يزيدون، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثالَ الرمال لا يُعَدّون؛ ويُنْهِي أنّ علمه الكريم قد أحاط بما كان من أمر هذا العدوّ المخذول ودخولِه إلى البلاد المحروسة بجيوشه وكتائبه وجُموعه وجُنوده من أشياع أهل الكفر وأحزاب الشرك. ولما تواصلت الأخبارُ بقُربه، واستعدادِه بحزبه، ومهاجمتِه البلاد، وإيقاعِ الرُّعب في قلوب أهلها بالتنوّع في الفساد؛ ساق الرّكابُ الشريف في طلبه يَطْوِي المَرَاحل(٣)، ويقطَع في كلّ يوم منزلتين بل منازل. ولما حَلّ الركاب الشريفُ بمَرْج الصُّفَّر على مَرْحلة من دمشقَ المحروسةِ في يوم السبت مستهلّ شهر رمضان المعظَّم زُيِّنَتِ العساكرُ المنصورة لِلقاء حال وصولها، واستعدّت للحرب دون تشاغُلٍ بأسباب نُزولها؛ فوافى العدوّ المخذولُ في مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال، وتعلو الجبالَ بأشدَّ من الجبال؛ وحين وصلوا حَملوا على الميمنة(٤) بجُمْلتهم، وقصدوا إزاحتَها عن موقفها بجملتهم؛ فتلقّتهم الجيوشُ المنصورة بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدوّ الله وعدوِّها، ووثِقت بما أعد الله لها من الجزاء في رواحها في سبيله وغُدُوِّها؛ وصَدَمتهم صدمةً كسرت حدَّهم، وأوهنت شِدّتهم وشَدَّهم؛ وأزالت طمَعَهم، وأبانت ظَلَعهم(٥)؛ وسالت عليهم الجيوشُ المنصورةُ من كلّ جانب، وحَمِيت الحرب بين الكتائب الإسلاميّة وبين تلك الكتائب؛ ودخل الليل ونار الحرب تشتعل، والجياد من الحوافر تَحْفى(٦) وبالجماجم تَنْتعِل؛ فأوَوْا إلى جبال اعتصموا بهِضابها، واحتَمَوْا بتوعُّر مسالكها وضِيقِ عِقابها(٧)؛ وأحاطت بهم الجيوشُ المنصورةُ لحَوْسهم(٨) لا لحِفْظهم، وتَضُمّ أطرافَهم لا لحُبّهم بل لبُغْضهم؛ فكانوا ـ

(١) غنمه: ربحه في الحرب، والغنم بخلاف الغرم.
(٢) قسمه: نصيبه.
(٣) المراحل: جمع مرحلة، وهي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه.
(٤) الميمنة: الفرقة من الجيش عن يمين القلب وتقابلها من الجهة الثانية الميسرة.
(٥) ظلعهم: عرجهم وغمزهم، وعدم استوائهم في مشيهم أو سيرهم.
(٦) تحفى: تصير حافية، غير منتعلة. (٧) عقابها: جبالها.
(٨) حوسها: قتلها.

بعد كثرةِ مَن قُتِل منهم في المعركة الأولى أو فَرّ من أوّل الليل - جمعًا يناهز الأربعين ألف فارس، فأصبحوا يعاودون القتال، وينزلون إلى أطراف الجبال للنّزال؛ والجيوشُ المنصورة تَلْزَمهم من كل جانب، وتُحَكِّم في أبطالهم القَنَا والقَوَاضب[١]. وجرت في أثناء ذلك حَمَلاتٌ ظهرَ في كل منها خَسارُهم، وشهِد عندهم بما يُكابدون قتلُهم وإسارُهم؛ وبعد ذلك نزلوا من جانب واحد يطلبون الفِرار، ويتوقّعون القتل إن تعذّر الإسار؛ فساقت خلفهم الجيوش المنصورة تتخطّفهم رِماحُها، وتتلقّفهم صِفاحُها؛ وتقاذفت بمن نجا منهم الفَلَوات، وغرّقتهم أمواج السَّراب قبل أمواج الفُرات؛ فأُخِذُوا قَنْصًا باليد من بطون الأودِية ورؤوس الشِّعاب[٢]، ولم يحصُل أحد منهم على الغنيمة بالإياب؛ وقُتل أكثر مقدّمي التمانات وفرّ كبيرهم وأنّى له الفِرار، وبين يديه مفاوز[٣] إن سلك منها تناولته بأرماح من العطش القِفار. فليأخذ المولى حظَّه من هذه البُشرى التي تُنبىء عن الفتح العظيم والفضل العميم، والنُّصرة التي حفِظ الله بها على الإسلام البلادَ والثغورَ والأموالَ والحريمَ؛ ويكتُبْ إلى البلاد بمضمونها، ويَسُرّ قلوب أهل الثغور بمكنونها؛ ويَستنهض المولى الأُمّة لشكر الله عليها، ومن ذا الذي يقوم بشكر ذلك! ويعرِّفْهم مواقع هذه النُّصرة التي أنجد الله فيها الإسلام بالملائك؛ ويَتَقدّمْ أمرُه بضرب البشائر بكلّ مكان، ويَشْهَر في جميع الثغور أن عدوَّ الله وعدوَّ الإسلام دخل في خبرِ كان؛ وأن الله تعالى كسرَ جيوش التتار كسْرًا لا يُجْبَر[٤] صَدْعُه، ولا يتأتّى إن شاء الله تعالى جَمْعُه. والله تعالى يُسمعه من التهاني كلّ ما يَسُرّ الإسلامَ وأهلَه، ويشكر قولَه في مصالح الإسلام وفعلَه؛ إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الثاني في المراثي والنوّادب

والمراثي إنما جُعلت تسليةً لمن عضَّته النوائبُ بأنيابها، وفرّقت الحوادثُ بينَ نفسه وأحبابِها؛ وتأسيةً[٥] لمن سبق إلى هذا المَصْرَع[٦]، ونهل من هذا المَشْرَع[٧]؛ ووثُوقًا باللَّحاق بالماضي، وعلمًا أنّ حادثة الموت من الديون التي لا بدّ لها من

(١) القواضب: الشديدة القطع، صفة للسيوف. (٢) الشعاب: جمع شعب، وهو منفرج الوادي.
(٣) مفاوز: جمع مفازة، وهي الفلاة الواسعة من الأرض.
(٤) يجبر: يُلحم. وصدعه: كسره. (٥) تأسية: تسلية.
(٦) المصرع: المهلك. (٧) المشرع: مكان الشرب.

التقاضي؛ وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء، ولا بدّ لكلّ نفس من الذَّهاب ولكلّ جسد من الفناء. قال الله تعالى في محكم تنزيله مخاطبة لرسوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: الآيتان ٣٤، ٣٥]. فليَرْضَ من فُجِع بخليله[١] وشقيقه، وصاحبه وصديقِهِ؛ وأهله وولدِه، وجمعِه وعَدَده، وماله ومدده؛ نفسَه الجامحة[٢] في ميادين أسفِها وبكائها، الجانحةَ[٣] إلى طلب دوائها من مَظَانّ[٤] أدوائها؛ بزمام الصبر الجميل، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى على قومٍ بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: الآية ٣٥]؛ وقال تعالى إخبارًا عن لُقْمان في وصيّته لابنه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧]. وليسترجِعْ مَنْ أصابته مصيبة أو نزلت به بليّة، وطَرقته حادثةٌ أو ألمّ به رزيّة[٥]؛ لما جعل الله تعالى للمسترجِع بفضله ومنّته، من صَلاته عليه ورحمته؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]. ولْيتأسَّ[٦] الفاقدُ برسول الله ﷺ، فقد جعل الله فيه أُسوةً حسنةً لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ، وليَقْتَدِ بأصحابه رضي الله عنهم ليفوزَ بثوابِ الصابر ويحوز أجر الشاكر.

وباب الرِّثاء فهو باب فسيحُ الرِّحاب والنوادي، فصيحُ اللسان في إجابة المنادي ذي القلب الصادي[٧]؛ متباين الأُسلوب، مختلف الأطراف متباعدُ الشعوب؛ منه ما يُصْمِي[٨] القلوبَ بنباله، ومنه ما يُسَلّيها بلطيف مَقاله؛ ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يَصرِفُها عن موارد التّلف. وقد أكثر الشعراءُ القولَ في هذا الباب، وارتقَوْا الذِّروة العلياءَ من هذه الهِضاب؛ ووجدوا مكان القول ذا سعةٍ فقالوا، وأصابهم هجيرُ اللوعة فمالوا إلى ظِلِّهِ وقالوا. قال الأصمعيّ: قلت لأعرابيّ: ما بالُ المراثي أشرفَ أشعارِكم؟ قال: لأنا نقولُها وقلوبُنا محترقة. وعلى الجملة فالموتُ هو المصيبةُ التي لا تُدْفَع، والرزيّة التي لا تُرَدُّ بكثرة الجموع ولا تُمنع؛ والحادثةُ التي لا تنصرف بالفِداء وإن جلّ مقدارُه، والنازلةُ[٩] التي لا تتأخر عن وقتها بالدعاء

(١) خليله: صاحبه.
(٢) الجامحة: الهائجة.
(٣) الجانحة: المائلة.
(٤) مظان: جمع مظنّة، وهي الموضع.
(٥) رزيّة: مصيبة.
(٦) ليتأسّ: ليتّخذ أسوة.
(٧) الصادي: العطشان.
(٨) يصمي: يصيب في الصميم.
(٩) النازلة: المصيبة الشديدة.

وإن عظُمت في غيرها آثاره؛ وهو أحد الأربعة التي فُرِغ منها، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنها. وقد قالت الحكماء: أعظم المصائبِ كلِّها انقطاعُ الرجاء. وقالوا: كل شيء يبدو صغيرًا ثم يعظُم إلا المصيبةَ فإنها تبدو عظيمةً ثم تصغُر. وقالوا: لا يكون البكاء إلا مِن فضل، فإذا اشتدّ الحزنُ ذهب البكاء. قال شاعر: [من الكامل]

فلئن بَكَيْناه لَحُقّ لنا ... ولئن تركنا ذاك للصَّبْرِ
فلِمثله جَرَتِ العيونُ دَمًا ... ولمثله جَمَدَت فلم تَجْرِ

وقيل: مرّ الأحنف[1] بامرأةٍ تبكي ميّتًا ورجلٌ ينهاها؛ فقال: دعها فإنها تندُب عهدًا وسفَرًا بعيدًا. قيل لأعرابيّة مات ابنُها: ما أحسنَ عزاءَك؟ قالت: إنّ فقدي إيّاه آمنني كلَّ فقدٍ سواه، وإنّ مُصيبتي به هوّنتْ عليّ المصائبَ بعده؛ ثم أنشأت تقول: [من مجزوء الكامل]

كنتَ السوادَ لِمُقْلتِي ... فعَمِي عليكَ النَّاظرُ
مَنْ شاء بعدَكَ فَلْيَمُتْ ... فعليك كنتُ أحاذرُ
ليتَ المنازَل والدّيا ... رَ حفائرٌ ومَقابِرُ
إنِّي وغيري لا محا ... لةَ حيثُ صِرتَ لَصَائِرُ

وقد نقل أبو الفرج الأصفهاني: أن بعضَ هذا الشعرِ لإبراهيمَ[2] بنِ العباسِ بنِ محمدِ بنِ صُولٍ يرثي ابنًا له فقال: [من مجزوء الكامل]

أنتَ السوادُ لمقلةٍ ... تَبْكِي عليك وناظرُ
مَنْ شاء بعدكَ فليَمُتْ ... فعليكَ كنتُ أُحاذِر

ولم يزد على هذين البيتين شيئًا. أخذ الحسنُ بنُ هانىء[3] معنى البيت الأوّلِ فقال في الأمين: [من الطويل]

طوى الموتُ ما بيني وبين محمدٍ ... وليس لما تطوي المنيّةُ ناشرُ

(١) هو الأحنف بن قيس، الجواد المشهور، وقد سبق التعريف به.
(٢) هو إبراهيم بن العباس، أحد العراء والكتّاب والبلغاء. نشأ في بغداد وكان كاتبًا للمعتصم والواثق والمتوكل. تسلّم ديوان النفقات والضياع. شعره رقيق، وعبارته رائعة. له ديوان رسائل، وديوان شعر. تُوفي سنة ٨٥٧ م.
(٣) هو أبو نواس، الشاعر العباسي المعروف، وقد سبق التعريف به.

وكنت عليه أحذَرُ الموتَ وحدَهُ فلم يبقَ لي شيءِ عليه أُحَاذِرُ
لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحِبّه لقد عَمَرت ممّن نُحِبّ المقابرُ

وقيل: من أحسن ما قيل في التعازي أن أعرابيًا مات له ثلاثة بنين في يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلِسه، فجعل يتحدّثُ كأن لم يفقِدْ أحدًا؛ فَلِيم على ذلك، فقال: ليسوا في الموت ببديع، ولا أنا في المصيبة بأوحدَ، ولا جَدْوَى للجَزع[١]، فعَلَامَ تلومونني، وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها!. وعزّى أعرابيّ رجلًا فقال: لا أراكَ الله بعد مصيبتك ما يُنسِيكَها. وقيل: لمّا دفَن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فاطمةَ رضي الله عنها تمثّل على قبرِها بهذيْن البيتين: [من الطويل]

لكل اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ وكلُّ الذي دون المَماتِ قليلُ
وإنَّ افتقادي واحدًا بعد واحدٍ دليلٌ على ألّا يدومَ خَليلُ

وعزّى عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه الأشعثَ بنَ قيسٍ عن ابنه فقال: إن تَحزَنْ فقد استحقّتْ ذلك منك الرَّحِمُ، وإن تَصْبِر ففي الله خَلَفٌ من كلِّ هالك، مع أنك إن صبَرت جرى عليك القدرُ وأنت مأجور، وإن جَزِعت جرى عليك القدر وأنت موزور[٢]؛ سرّك الله وهو بلاءٌ وفِتنة، وحزَنَك وهو ثوابٌ ورحمة.

وعزّى أكثمُ بنُ صَيْفِي[٣] حكيمُ العرب عَمرو بنَ هندٍ[٤] الملكَ عن أخيه فقال: أيها الملكُ، إنّ أهلَ هذه الدار سَفْرٌ[٥] لا يحلُّون عُقَدَ الرحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردودٍ عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك مَنْ سَيَظْعَن ويدعُك؛ فما أحسنَ الشكرَ للمنعم والتسليمَ للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعُها، فما بقاء الفرعِ بعد أصلِهِ! واعلمْ أنْ أعظمُ من المصيبة سوءُ الخَلَف منها، وخيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌّ من الشر فاعلُه.

---

(١) الجزع: الفزع مع القنوط. (٢) موزور: آثم، تحمل وزرًا.
(٣) أكثم بن صيفي: أحد حكماء العرب في الجاهلية المشهورين. من بني تميم. له حكم وأمثال. كان في جملة الوافدين على كسرى فألقى بين يديه خطبة بليغة للغاية. انظر خبر وفوده على كسرى وما قاله في: العقد الفريد ١/١٠٣ وما بعدها.
(٤) هو ملك الحيرة، ابن المنذر الثالث، وأمه هند الكنديّة ينسب إليها. كان سيّء الأخلاق والطباع، لكنه قرّب إليه الشعراء والخطباء. هو الذي أمر بقتل طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي. قتل عمرو بن هند على يدي عمرو بن كلثوم حوالي سنة ٥٧٨ م.
(٥) سفر: مسافرون.

وقال ابن السَّماك[١]: المصيبة واحدة، فإن كان فيها جَزَعٌ فهي اثنتان. وقال أبو علي الرّازي: صَحِبتُ الفُضَيْلَ بنَ عِيَاض[٢] ثلاثين سنة ما رأيتُه ضاحكًا ولا مُتبسّمًا إلا يومَ مات ابنُه عليٌّ؛ فقلت له في ذلك؛ فقال: إنّ الله أحبّ أمرًا فأحببتُ ما أحبّ الله. وقال صالح المُرِّيّ: إن تكن مصيبتُك في أخيك أحدثتْ لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك، وإن تكن مصيبتُك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فَبئسَت المصيبةُ مصيبتُكَ. وقال عليُّ بنُ موسى[٣] للفضلِ بن سهلٍ[٤] يعزّيه: التهنئةُ بآجل الثواب أولى من التّعزية على عاجل المُصيبة. وعَزّى الرشيدَ رجلٌ فقال: كان لك الأجرُ يا أميرَ المؤمنين لا بك، وكان العزاءُ لك لا عنك. أخذه الآخر فقال: [من السريع]

كُنِ الـمُـعَـزّى لا الـمُـعَـزَّى بـه إن كـان لا بُـدَّ مـن الـواحـدِ

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ[٥] لابنهِ عبدِ الملكِ وقد اشتدّ به الألمُ: كيف تَجِدُكَ يا بُنيّ؟ قال: أجدني في الموت، فاحتسِبْني، فإنّ ثواب الله خير لك مني. قال: والله يا بُنيّ لأن تكون في ميزاني أحبُّ إليّ من أن أكون في ميزانك. قال: وأنا والله لأن يكون ما تُحِبُّ أحب إليّ من أن يكون ما أُحِبُّ.

وعزّى شبيبُ بنُ شبّةَ أبا جعفرِ المنصورَ بأخيه أبي العباسِ السفّاحِ فقال: جعل الله ثوابَ ما رُزِئْتَ لك أجرًا، وأعقبك عليه صَبْرًا؛ وختم لك بعافيةٍ تامّة، ونعمة عامّة؛ فثوابُ الله خيرٌ لك منه، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل.

ودخل البَلَاذُرِيّ[٦] على عليّ بنِ موسى الرِّضَا يعزّيه بابنهِ فقال: أنت تَجِلُّ عن وصفنا، ونحن نقصُرُ عن عِظَتِك، وفي علمك ما كفاك، وفي ثوابِ الله ما عزّاك.

---

(١) ابن السماك: أحد الوعاظ والزهاد المعروفين. كان زمن الرشيد الخليفة العباسي، وكان يدخل عليه فيعظه. انظر شيئًا من حكمه ومن عظاته في: العقد الفريد ١/ ٣.

(٢) الفضيل بن عياض: من الناسكين الزاهدين والعابدين، عاش زمن العباسيين، وعظ الرشيد وجماعة آخرين. انظر خبر ذلك وشيئًا من مواعظه في: البيان والتبيين، للجاحظ ٣/ ٤٥٥، دار صعب. بيروت ١٩٦٨.

(٣) لعله علي بن موسى، الرضا، الإمام الثالث من الأئمة الإثني عشر. كان في زمن المأمون، فأوكل إليه هذا ولاية العهد، وسرعان ما خاف منه فعمل على دسّ السمّ له. له مرقد مشهور في طوس (مشهد) بإيران. كانت وفاته سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م.

(٤) الفضل بن سهل: وزير المأمون، الخليفة العباسي. فارسي الأصل. والى البرامكة وعادى الفضل بن الربيع. اغتيل في الحمّام بإيعاز من الخليفة المأمون، وذلك سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٩ م.

(٥) عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأموي، سبق التعريف به.

(٦) هو أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ بن جابر البلاذري. مؤرخ بغدادي مشهور. من أشهر تآليفه: =

فهذه نُبذة في التعازي كافية، وجُنّة[١] لمن تحصّن بها من ذوي الفجائع واقية. فلنذكر المراثي.

ذكر شيء من المراثي والنوادب

وَلْنبدأ مِن ذلك بما قاله رسولُ الله ﷺ، وبشيء مما قيل عند وفاة رسول الله ﷺ. فمن ذلك ما قاله رسول الله ﷺ يومُ وفاةِ ولدهِ إبراهيمَ عليه السلام: «يا إبراهيمُ لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرَنا سيَلْحَقُ أوّلَنا لَحَزِنّا عليك حزنًا هو أشدّ من هذا وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون تَبْكي العينُ ويحزَن القلب ولا نقول ما يُسْخِطُ الربّ». ذكره الجوّانيّ النَسابة في شجرة الأنساب، وذكره غيره مختصرًا.

ومنه ما روي أن فاطمةَ[٢] رضي الله عنها وقفت على قبرِه ﷺ وقالت: [من البسيط]

إنّا فقدناك فَقْدَ الأرضِ وابلَها[٣] وغاب مذ غِبْتَ عنّا الوحي والكُتُبُ
فليت قبلك كان الموتُ صادفَنا لمّا نُعِيتَ وحالت دونك الكُثُبُ[٤]

ووقف عليٌّ رضي الله عنه على قبرِهِ ﷺ ساعةَ دُفن وقال: إنّ الصبرَ لجميلٌ إلّا عنك، وإن الجَزَع لَقَبيحٌ إلا عليك؛ وإنّ المصاب بك لجليلٌ، وإنه قبلك وبعدك لجَلَل. وقد ألمّ الشعراءُ بهذا المعنى؛ فقال إبراهيمُ بنُ إسماعيلَ في عليّ بن موسى الرِّضا: [من الكامل]

إنّ الرزيّةَ يا ابن موسى لم تَدَعْ في العين بعدك للمصائب مَدْمَعا
والصبرُ يُحْمَدُ في المواطن كلّها والصبرُ أنْ نبكي عليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابيٌ على قبر رسول اللهِ ﷺ فقال: قلتَ فقبلنا، وأمرت فحفِظنا؛ وقلتَ عن ربّك فسمعنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ

= كتاب البلدان الصغير، والكبير، ولم يكمله. كتاب الأخبار والأنساب. كتاب عهد أردشير، فتوح البلدان، وأنساب الأشراف. مات سنة ٨٩٢ م.

(١) جنّة: درع وسترة واقية.

(٢) هي فاطمة الزهراء، ابنة النبيّ ﷺ وزوجة الإمام علي بن أبي طالب، وأم الحسنين. وُلدت بمكة قبل الهجرة، وتُوفيت في السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية الشريفة.

(٣) وابلها: مطرها.

(٤) الكثب: جمع كثيب، وهو مجتمع الرمل.

وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٦٤]، وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا؛ فما بقيت عينٌ إلا سالت.

ودخل عمرُ بن الخطاب على أبي بكرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنهما في مرض موته، فقال: يا خليفةَ رسولِ الله ﷺ، لقد كلّفتَ القومَ بعدك تَعَبًا، وولّيتهم نَصَبًا؛ فهيهات مَنْ شقَّ غُبَارَك[١]! وكيف باللّحاقِ بك!.

وقالت عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنها وأبوها يُغَمّض: [من الطويل]

وأبيض يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجهه ... ثِمال[٢] اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فنظرَ إليها وقال: ذاك رسول الله ﷺ. ثم أُغْمِي عليه، فقالت: [من الطويل]

لَعَمْرُك ما يُغْنِي الثَّرَاءُ[٣] عن الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصدرُ[٤]

فنظر إليها كالغضبان وقال: قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [قٓ: الآية ١٩]. ثم قال: انظروا مُلاءتَيّ فاغسلوهما وكفّنوني فيهما، فإن الحيَّ أحوجُ إلى الجديد من الميّت. ووقفتْ رضي الله عنها على قبره رضي الله عنه فقالت: نضّر اللهُ وجهَكَ، وشكر لك صالح سَعيِك؛ فقد كنتَ للدنيا مُذِلّا بإدبارِك عنها، وكنتَ للآخرةِ مُعِزًّا بإقبالك عليها؛ ولئن كان أجلُّ الحوادثِ بعدَ رسول الله ﷺ رُزءك، وأعظمُ المصائب بعدَه فقدك؛ إن كتاب الله لَيَعِدُ بحسن الصبر فيك وحسن العِوَض منك؛ فإنا لنتنجّز موعودَ الله بحسن العَزَاء عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك. أمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدِّين حين وَهَى[٥] شَعْبُه[٦]، وتفاقم صَدْعُه، ورَجَفت جوانبه. فعليك السلام ورحمة الله توديعَ غير قاليةٍ[٧] لك، ولا زاريةٍ على القضاء فيك. ثم انصرفت.

ولما قُبض رضي الله عنه سُجِّي عليه الثوب، فارتجّت المدينة بالبكاء ودَهِش القوم كيومَ قُبِض رسولُ الله ﷺ؛ وجاء عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه باكيًا مسرعًا مُسْترجِعًا حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله أبا بكر، كنتَ والله أوّلَ القوم

(١) شق غبارك: باراك وسبقك.
(٢) ثمال اليتامى: أي يقوم بأودهم.
(٣) الثراء: كثرة المال والقوم.
(٤) أي الروح ساعة مفارقتها الجسد، فهي في حشرجة ونزاع.
(٥) وهى: تمزّق.
(٦) شعبه: صدعه.
(٧) قالية: كارهة.

إسلامًا، وأخلصَهم إيمانًا، وأشدَّهم يقينًا، وأعظمَهم غَنَاء، وأحفظَهم على رسول الله ﷺ، وأحدبَهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبَهَهم برسول الله ﷺ خُلُقًا وفضلًا وهَدْيًا وسَمْتًا؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ خيرًا، صدّقتَ رسولَ الله ﷺ حين كذّبه الناس، وواسيتَه حين بَخِلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صِدّيقًا فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣٣]، يريد محمدًا ويريدك. كنت واللهِ للإسلام حصنًا وعلى الكافرين عذابًا، لم تُفْلَلْ(١) حُجّتُكَ ولم تضعُف بصيرتُك(٢)؛ ولم تجبُن نفسُك. كنت كالجبل الذي لا تحرّكه العواصف ولا تُزيله القواصف. كنتَ كما قال رسول الله ﷺ ضعيفًا في بدنك، قويًا في أمر الله، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند الله؛ جليلًا في الأرض، كبيرًا عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مَطْمَعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة؛ فالقوي عندك ضعيفٌ حتى تأخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ عندك قويٌّ حتى تأخذ الحقَّ له. فلا حرمَنا اللهُ أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

فانظرْ إلى هذا الأسلوبِ العجيبِ، وتأمّلْ هذا النمطَ الغريبَ؛ الذي جمع بينَ سلاسةِ الألفاظِ وإيجازِها، وإصابة المعاني وإعجازها. ولا يُستكثر على من أُنزِل القرآن بلغتِهم، أن يكون هذا القول من بَدِيهتهم.

* * *

ولنذكرْ لُمْعة من رسائل البلغاء والفضلاء، ولَمْحةً من أشعار الأدباء والشعراء. فمن ذلك رسالةٌ كتبها الوزيرُ الفقيهُ الكاتبُ أبو القاسم محمدُ بنُ عبدِ الله بن الجدّ، إلى الوزير الفقيه أبي القاسمِ الهُوريني يعزّيه عن أخيه، ابتدأها بأن قال: [من السريع]

لا بُـدّ مِـن فـقـدٍ ومـن فـاقِـد ... هيهات ما في الناس من خالدِ
كُـن الـمُـعَـزّى لا الـمـعـزِّى بـه ... إن كـان لا بُـدَّ مِـن الـواحـد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحِمام(٣)، وتشتُّتِ النِّظام، وانصِداع(٤) شَمْل الكرام؛ فمن الاتفاق السعيد والقدَر الحميد أن يرثَ أعمارَ البِنْيَةِ الكريمةِ مُشَيِّد عُلَاها، وتسْلَم

(١) تفلل: تصاب بالفلّ، وهو الثلم وانثلام حدّ السّيف.
(٢) البصيرة: الحجّة والشاهد. (٣) الحمام: الموت.
(٤) انصداع: كسر.

من القِلادة[١] وُسْطاها[٢]، فمدار الكنانة[٣] على مُعَلَّاها، وفخارُ الحَلْبة بمُحْرِز مَداها. وفي هذه النُّبذة إشارةٌ إلى من فرَط من الإخوة النبلاء، ودرَج من السادة النُّجَباء؛ فإنهم وإن كانوا في رتبة الفضل صُدورًا، وغَدَوا في سماء النُّبل بدورًا؛ فإنّ شمس عَلائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارًا، وظِلّ جنابك على بنيهم ومُخلِّفيهم أندى آصالًا[٤] وأبردُ أسحارًا. نُعِي إليّ - أوشك الله سلوانك، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك! - الوزيرُ أبو فلان، برّد الله ثراه، وكرّم مثواه؛ فكأنما طَعَن ناعِيه في كبِدي، وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدي[٥]. لا جَرَمَ أنّي دُفِعتُ إلى غمرة من التَّلَدُّد[٦] لو صُدِم بها النجمُ لحار، أو دُهِم بها الحَزْم لخار؛ ثم ثابتْ إليّ نفسي وقد وقَذَها[٧] الجَزَع، وعضّها الوجَعُ؛ فأطلتُ الاسترجاع[٨]، وجمعت الجَلَد الشَّعاع[٩]؛ وها أنا عند الله أحتسبه جِمَاعَ فضائل، وجمالَ محافل؛ وحديقةَ مكارم صَوَّحت[١٠]، وصحيفةَ محاسن دَرَست[١١] وانمحت. وما اقتصرت من رسم التعزية المألوف، على القليل المحذوف؛ إلا لعلمي بأن المعزِّي لا يُورد عليك غريبًا، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبًا؛ فبك يقتدِي اللّبيب، وعلى مثالك يحتذِي الأديب، وإلى غَرَضك في كل موطن يُوفِي المُصِيب؛ وفي تجافي الأقدار عن حَوْبائك[١٢]، وسقوطها دون فِنائك؛ ما يدعو إلى حسن التعزية. لا صدَع الله جمعَك، ولا قرَع بنبأة[١٣] المكروه سمعَك.

ومن إنشاء القاضي الفاضلِ عبدِ الرحيم البيساني:

ورد الخبرُ بمصرَع فلان الذي عزّ على المعالي، وعُزِّيت به الليالي؛ وسقط به نجمُ الشرفِ وهَوَى، وجفّ به روض الكَرَم وذَوَى؛ ونقصت الأرضُ من أطرافها، ورَجَفت الجبالُ من أعرافها؛ وبكت عليه السماء فإنّ يده كانت من سُحبها، وتناثرت

---

(١) القلادة: ما يحيط بالعنق من اللآلىء والأحجار الكريمة، وهي العقد.
(٢) وسطى القلادة: أثمنها حبّةً وأكبرها. (٣) الكنانة: جعبة السهام.
(٤) آصال، جمع أصيل، وهو الوقت قبل مغيب الشمس.
(٥) جلدي: صبري وقوتي.
(٦) التلدّد: التلفّت يمينًا وشمالًا، كناية عن الحيرة والدهشة والذهول.
(٧) وقذها: صرعها.
(٨) الاسترجاع: القول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».
(٩) الشعاع: المتفرّق والمتصدّع. (١٠) صوّحت: ذبلت ويبست.
(١١) درست: انمحت. (١٢) الحوباء: النفس.
(١٣) النبأة: الصوت الخفي.

له النجوم فإنّ عزمه كان من شُهُبها؛ واظلمت في عيني الدنيا الظالمة، وتجرّعتُ منها كأسًا لا تُسيغها[١] النفسُ كاظمة[٢]؛ وتقسّمت الأيامُ فريقين في مودّتي وعداوتي، فآهًا[٣] على السالفة[٤] ولا مرحبًا بالقادمة؛ وأصبحت أخوض الماء وأحشائي تتقطّع غليلًا، وأرى الناسَ كثيرًا بعيني وبقلبي قليلًا: [من الطويل]

وما النّاسُ في عَيْنيَّ إلّا حجارةٌ   لـبـيـنِـك والأعـراسُ إلا مـآتِـمُ

فقد استوحشت الدنيا لفقده، وارتابت بنفسها مِنْ بعده، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعده؛ وانصرف ذوو الأبواب عن بابه، واجتنبت الآمال مَغْنَى جنابه، وبكت الرياض على آثار سحابه: [من الطويل]

فإنْ يُمْسِ وَحْشًا بابُه فَلَرُبَّما   تناطح أفواجًا عليه المواكبُ

ومن إنشائه أيضًا رحمه الله تعالى: ما شككتُ ـ أطال الله بقاءك ـ حين ورد النعيُ بالمصائبِ التي قَصَمت[٥] الظهورَ بمكروهها، وحَسَرت[٦] فيها الحسراتُ عن وجوهها؛ أنّ السماءَ على الأرض قد انطبقت، وأنّ الأيّامَ ما أبْقتْ والسعادةَ قد أَبِقَتْ[٧]؛ والحياةَ لم يبق في طولها طائل، والصبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل؛ وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها، ونفسَ المكارم قد نُزِعت من بين ضلوعها؛ وغابَ الإسلامَ قد غاب منه أيُ لَيث، ورياضَ الآمال قد أقلع عن سُقياها أيُّ غيث. فإنّا لله وإنا إليه راجعون، رضًا بحكمه، وتجلُّدًا على ما رمى به الحادث من سهمه، وَطِبًّا[٨] للقلوب على مَضَض[٩] البلاء وكَلْمه[١٠]، وفِرارًا من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه. وسقى الله ذاك الضريحَ[١١] ما شاء أن يسقيه من سحاب كصَوْب[١٢] يديه، ورحمه رحمةً تحُفّ بجانبيه. وآهًا للماء العَذْب كيف ارتشفته النوازلُ[١٣] وأبقت المِلْحَ، ثم آهًا للصباح الطَّلْق[١٤] كيف اغتالته الأصائل وأطلقت الجُنْح[١٥]؛ ووا أسفًا لتلك الذخيرة التي فذلكت[١٦] بها الأيّام ذخائري،

---

(١) تسيغها: تستطيبها وتشربها.
(٢) كاظمة: ساكتة وعطشى.
(٣) آهًا: للتأسّف.
(٤) السالفة: الغابرة الماضية.
(٥) قصمت: قطعت.
(٦) حسرت: كشفت.
(٧) أبقت: ولّت.
(٨) طبًا: شفاءً.
(٩) مضض: وجع.
(١٠) كلمه: جرحه.
(١١) الضريح: القبر.
(١٢) الصوب: المطر.
(١٣) النوازل: المصائب الشديدة.
(١٤) الطلق: الضاحك.
(١٥) الجنح: الطائفة من الليل.
(١٦) فذلكت: لعبت، وأنهت.

والسريرةِ[١] التي طالما صُنتها أن تمرّ بسرائري؛ شَفَقًا عليها من سهام دهر بالذخائر مُولَعة، وسَتْرًا لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة. ولئن صحب قلبي بعده أضلعي، وتحمّلتُ بعد فقده على ظَلَعي؛ فإنّا غدًا على أثره، وإن كنّا اليوم على خبره. وقَصْرُ الحياة إلى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور. والتأدّبُ بأدب الله أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكِبه، وطريقُ السّلوان لا بدّ أن يُراجعه عَزْم مُنكَبِّه. فأنشُدها الله إلا جعلتْ مصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبَسه من صبر يَلْبِس عليه المصيبةَ فيُشبِّهها بنِعْمة، وبما تستشعره من تجلُّد في النازلة يُنْزِل عليها صلواتٍ من ربِّها ورَحْمة. ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابًا، وساكنِ تُربٍ لم يبق بعده إلا من سقى بدمعه تُرابًا؛ اشترك فيه الأُمَّتان العربُ والعجَم، وعُزّي به العزيزان المجدُ والكرم، واستباح الدهرُ به الصيدَ في الحَرَم: [من الكامل]

وتَشابَه الباكون فيه فلم يَبِنْ دمعُ المُحقّ لنا من المُتَعَمِّلِ[٢]

وكتب أيضًا في مثل ذلك: أخّرت مكاتبة الحضرة ـ مدّ الله في عمرها وفي صبرها وفي أجرها، وألهمها التسليم لحكم من هو غالب على أمرها ـ إلى أن تنقضي نَبْوة[٣] الخَطْب، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحرب، ويُخرِجَ ماءُ الجفن نارَ القلب؛ وتَراجَعَ الخواطرُ إلى عاداتها، وتنظرَ في الدنيا التي ما صُحِبت إلا على عادياتها ومُعاداتها؛ فتكون الحضرة عرفت من غير تعريف، ووقَفتْ على الحزم من غير توقيف؛ وتوفَّر عليها الثواب بغير مُشارِك، ورجعتْ إلى فهمِ مُدْرِكٍ وصوابِ مدارِك[٤]. وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرع فيها، ولكنْ إنما يحتاج أن يُثبِّت مَنْ صَبْرُه هاف[٥]، ويُرَمّ[٦] مَنْ تَجلُّده عاف. وقد علم الله اهتمامي واغتمامي بفقد شيخها رحمه الله وعدَمِها منه من لا عِوَض عنه إلا ثواب الله الذي يُهَوِّن الوقائع، ويُوطِّن على الروائع. وأسباب التعزية غير واحدة، منها أنه إنما دَرَج في السنّ التي هي مُعتَرَك المنايا، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا إلى أن رأى منها خَلَفًا يهوِّن الرزايا؛ ومنها أنه لقي الله بعملٍ صالح هو بمشيئة الله نجاته، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته:

(١) السريرة: الطوية، وما تضمره في نفسك.
(٢) المتعمل: المتظاهر بالبكاء وغيره.
(٣) النبوة: الجفوة.
(٤) مدارك: لاحق وتابع.
(٥) هاف: نفد.
(٦) يرمّ: يقطّع.

[من الطويل]

ولكنَّ للأُلَّاف[(١)] لا بدّ حسرةً إذا جعلتْ أقرانُها تنقطع

ومنها أن الحزن لو أطِيع والحزم لو أُضِيع لما أفضى[(٢)] إلى مُرَاد، ولا أعاد ميّتًا قبل المَعاد. وأحقُّ متروك ما يأثَم طالبُه، ويُؤْجَرُ مُجانبُه[(٣)]: [من الطويل]

عن الدهر فاصْفَحْ[(٤)] إنه غيرُ مُعْتِب[(٥)] وفي غيرِ مَنْ قد وارت التُّربُ فاطمَع

والحضرةُ تُعْلِمني من لاحقةِ رجوعها إلى الله بعد الاسترجاع، ومن تسليم خاطِر الحزن إلى حكم الله ما يُسرّ خاطر الاستطلاع؛ وحسبه - أبقاه الله تعالى - من كل هالك، ولا يجزَع المحاسَب مِنْ فَذَالك، ومثلُه مَنْ أخذ بعزائم الله فيما هو آخذٌ وتارك. جبرَ الله مُصابَه، وعظَّم ثوابه، وسقى الماضي وروّى ترابه، ولا تذهب النفس حسرةً لما شهدت العينُ ذَهابَه: [من الكامل]

وتخطّفتْه يدُ الرَّدَى[(٦)] في غَيْبتي هَبْنِي حضرتُ فكنتُ ماذا أصنَعُ

ومن إنشاء الشيخ ضياءِ الدينِ أحمدَ بنِ محمدٍ القُرْطُبيّ ما كتب به إلى الصاحب شرف الدين الفائزيّ يعزّيه في مملوك تُوفّي له، وكان الصاحب قد جزِع لفقده. ابتدأ كتابه بأن قال: [من الوافر]

فِدًى لك من يُقَصِّرُ عن مَداكا فلا أحدٌ إذًا إلا فِداكا

إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كان لكم في رسول الله أُسْوةٌ حَسَنة، وسُنّة في الأسى مُسْتَحْسنة؛ وإنما الأنفُس ودائعُ مُستودَعة، وعَوارٍ[(٧)] مُسترجَعة، ومواهبُ بيد الفناء مُستنزَعة: [من الكامل]

فالعمر نومٌ والمنيّة يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ سارِي[(٨)]

وما برِح ذوو العَزمات[(٩)] يتلَقَّون وارداتِ المصائب بصبرهم، وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمِنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرِهم[(١٠)]. وإنّ يد الله

---

(١) الأُلَّاف: جماعة الرفاق المؤتلفين. (٢) أفضى: أدّى.
(٣) مجانبه: مفارقه وتاركه. (٤) أصفح: أغفر وتجاوز.
(٥) معتب: مرضٍ. (٦) الردى: الهلاك.
(٧) عوار: جمع عارية، وهي الشيء الذي يُعار. (٨) ساري: سائر ليلًا.
(٩) ذوو العزمات: أصحاب الصبر والقوة على تحمل المشاق.
(١٠) أول الآية ٣٦ من سورة الأحزاب. والبقية ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ =

لمليّة بفيض المواهب، وفي الله عوضٌ من كل بائن وخلفٌ من كل ذاهب. وإذا سلم مولانا في نفسه وولده، فلا بأس إذا تطرّقت يد الردى إلى مِلك يده: [من البسيط]

فأنت جوهرة الأعناق، ما مَلَكت كفَّاك من طارفٍ[١] أو تالد[٢] عَرَضُ[٣]

والحمد لله الذي جعل المصيبةَ عندك لا بك، والرزيَّةَ لك لا فيك: [من البسيط]

* إذا سَلِمتَ فكلُّ الناس قد سلموا *

وإذا تخطّتكما المنيّة فلها في سواكما الخِيار، ولنا القِدْحُ المُعَلّى[٤] إذا أورى[٥] زَنْدُ[٦] هذا الاختيار. ولا بدّ في مَشْرَع[٧] المنيّة من مفقودٍ وفاقد: [من السريع]

كن المُعَزّى لا المعزَّى به إن كان لا بدّ من الواحد

وهذا فقد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه، وأبقاه له من حيث رآه ذاهبًا عنه؛ فهو بالأمس عاريَةٌ مردودة، واليوم ذخيرة موجودة؛ وكان عطيَّةً مسلوبة وهو الآن نعمةٌ موهوبة؛ كنتَ له وهو الآن لك، وفزتَ به والسعيدُ من فاز بما ملك. وهذه دارٌ دواؤها دَاؤها، وبقاؤها فَناؤها؛ طالبها مطلوب، وسالبها مسلوب؛ وإنَّ لنا فيمن سَلَف لعزاء، ولنا برسول الله ﷺ اقتداء؛ ولا بدّ من ورُود هذا المشرع، ومُلاقاة هذا المصرع.

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الدين الحمويّ النائب ـ كان بدِمَشْق ـ تعزيةً بولده:

أعزّ الله أنصار المقرّ الكريم العالي، ولا هدمت له الخطوب ركنًا، ولا فجأت له الحوادث حِمًى ولا طلبت عليه إذنًا، ولا هصرت[٨] أيدي الأقدار من عروشه الناضرة غُصْنًا، ولا أذاقته الأيّام بعدما مرّ أسفًا على مَن يحبّ ولا حُزنًا،

[الآية ٣٦].

(١) الطارف: المال الحديث. (٢) التالد: المال القديم.

(٣) عرض: شيء يذهب ويعرض ولا يثبت.

(٤) القدح المعلّى: السهم الفائز. والقدح، في الأصل، السهم قبل أن ينصل ويراش.

(٥) أورى: أشعل. (٦) زند: حجر الصّوان تورى به النار.

(٧) مشرع: مكان الشروع، أو هو المصدر الميمي من شرع في الماء، إذا دخل فيه أو شرب بكفّيه منه.

(٨) هصرت: لوت وهزّت.

ولا سلَبه الجزَع رداء الصَّبر الذي يخصّه بجزيل الأجر وإن شَرِكه في الأسى والأسف كلٌّ منا.

المملوك يقبّل اليد الكريمة، ويُنْهِي أنه اتّصل به النبأ الذي صدَع قلبَه، وشغَل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه وبالحزن لُبّه[١]؛ وهو ما قدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر - تغمده الله برضوانه - الذي اختار الله له ما لديه، وارتضى له البقاءَ الدائم على الفاني فنقله إليه؛ على أن الدين فقد منه رُكنًا شديدًا، ورأيًا سديدًا، وعزمًا وحزمًا مُعينًا مفيدًا، وأميرًا أردنا أن يعيش سعيدًا، فأبى الله إلا أن يموت شهيدًا؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد كان للرجاء في اعتضاد[٢] الدولةِ القاهرة به أيُّ مجال، وللآمال في الانتظار ببأسه ظنونٌ تُحقّق أن الغلبة للدِّين دائمًا مع أن الحروب سِجال[٣]؛ وللمواكب بطلوع طَلْعته أيُّ إشراق، وللعيون عن مشاهدة كماله وأبهة جلاله أيُّ إغضاء[٤] وأيّ إطراق. ولله أيُّ بدرٍ هوى من أُفُق بروجه عن فَلَك، وأيُّ شمس ما رأته الجواري الكُنَّس[٥] إلا قلن: حاش لله ما هذا بَشَرًا إنْ هذا إلا ملكٌ[٦]؛ وأيّ حِصن كانت منه ثمارُ الشجاعة تُجتَنى، وأيّ أسد براثِنُه[٧] الصوارم[٨] وأجَماته[٩] القَنَا[١٠]. لقد فَتَّ في عَضُد الدين مُصابُه، وأذهب صحّةَ الأنْس به وحلاوةَ وجوده أوصابُ[١١] فقده وصابه؛ وكادت الصوارمُ أن تَشُقّ عليه غُمودَها، والرّاياتُ أن تقطّع عليه ذوائبَها وتغيّر بنودَها[١٢]، والرماحُ أن تَعْرِض على النار لتَقْصِف لا لتُثَقِّفَ[١٣] قدودَها؛ والجيادُ أن تتعثّر للحزن بذُيُولها، وتعتاضَ بالنَّوْح عن صهيلها. ولو أُنْصِف لأكنّته[١٤] القلوب في ضمائرها، ولو قُبِل الفِداءُ لسمَحَتْ فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها؛ أو لو كان الحتف[١٥] مما يُدَافَعُ بالجنود تحطّمت دونه القنا في دروع عساكرها، ولكنه السبيل الذي لا

---

(١) لبّه: عقله. (٢) اعتضاد: احتضان واستعانة.
(٣) سجال: أي كل فريق يسجّل انتصارًا على الآخر، فلا منتصر ولا منهزم.
(٤) إغضاء: إخفاء وإطراق. (٥) الكنّس: المستترة.
(٦) هذا الكلام، هو آخر الآية ٣١ من سورة يوسف، ولا ينقص ذلك إلا لفظة (كريم).
(٧) براثنه: أظفاره. (٨) الصوارم: السيوف القاطعة.
(٩) أجماته: جمع أجمة، وهي المكان الذي يكون فيه بيت الأسد.
(١٠) القنا: الرماح. (١١) أوصاب: أوجاع.
(١٢) بنودها: أعلامها وراياتها. (١٣) تثقّف: تقوّم.
(١٤) أكنّته: سترته. (١٥) الحتف: المنيّة.

مَحِيدَ عن طريقه، والمُعَرَّسُ[١] الذي لا بدّ لكل حيّ من النزول على فَرِيقه؛ وهو الغاية التي تستَنّ إليها النفوس استنان الجياد، والحَلْبة التي كنّا نحن وهذا الدارجُ نَركُض إليها ولكنّ السابق كان الجواد؛ على أن المتأخِّر لا بدّ له من اللّحاق، وماذا عسى يسرّ البدر بكماله وهو يعلم أن وراءه المِحَاق[٢]! وفي رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كلّ رُزءٍ بعده جَلَل[٣]، وإذا انتقل العبدُ إلى الله تعالى غيرَ مفتون في دينه ولا مُثْقَلَ الظهرِ من الأوزار[٤] حمِدَ في غَدٍ ما فعل؛ وغُبِط[٥] بقدومِه على أكرم الأكرمين مسرورًا، ولقي الله وقد جعل في قلبه نورًا وفي سمعه نورًا وفي بصره نورًا. والمولى أعزه الله تعالى أولى مَنْ تَلَقَّى أمر الله بالتسليم والرضا، وقابل أقدارَه بأن الخِيَرَة فيما قدّر وقضى؛ وحمِد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظمُ خَلَف، وأجملُ عوض يقال به للدّهر الذي اعتذر بدوام المسَرّة فيهم: عفا اللهُ عمّا سلف؛ وعلم أنْ الخطب الذي هدّ ركن الدين باحترابه واجتراحه، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمام بساحة شهابه والتعرُّض إلى حِمَى فخره والنظرِ إلى حيّ صلاحه؛ ففي بقائهم ما يُرْغم العدا، ويُعِزّ حزب الهدى؛ ويُقيم كلّا منهم في خدمة الدولة القاهرة بين يدي المولى مقامَ الشِّبل[٦] المنتمِي للأسد، ويُنْهِضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثَّبات من الوالد وسُرعةِ الوَثَبات من الولد. والله تعالى يُجزِل له من الأجر أوفاه، ويحفظ عليه ـ وقد فعل ـ أُخْراه؛ ويجعله للإسلام ذُخْرًا، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةً أخرى.

ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخَنْساء[٧] في رِثائها لأخيها صَخْرٍ، فمن ذلك قولها: [من الوافر]

أَلَا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني ... لقد أضحكتني دهرًا طَويلَا

(١) المعرّس: الموضع يعرّس فيه القوم. والتعريس: نزول القوم من السفر للاستراحة ثم يرتحلون.
(٢) المحاق: الانطماس، وهو عبارة عن خفاء الشهر لعدة ليال في آخره.
(٣) الجلل: الهيّن واليسير. وقد يأتي بمعنى العظيم.
(٤) الأوزار: جمع وزر، وهو الخطأ والإثم. (٥) غبط: فُرح.
(٦) الشبل: ولد الأسد.
(٧) الخنساء: لقب لها لخنس في أنفها أو وجهها. واسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث، وكنيتها أم عمرو. شاعرة جاهلية إسلامية مشهورة بكت أخويها صخرًا ومعاوية ورثتهما أجمل رثاء. كما رثت أولادها الأربعة الذين قتلوا في القادسية، في الإسلام. لها ديوان شعر مطبوع. ماتت حوالي سنة ٦٤٥ م.

دفعتُ بك الجليلَ وأنت حَيٌّ فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا[١]
إذَا قَبُح البكاءُ على قتيلٍ رأيتُ بكاءَك الحَسَنَ الجميلَا

وقالت أيضًا فيه: [من الطويل]

أَلَا هَبِلتْ[٢] أمُّ الذين غَدَوْا به إلى القبر، ماذا يحمِلون إلى القبر!
وماذا يُوارِي القبرُ تحت تُرابِه من الجُود! يا بؤسَ الحوادثِ والدهرِ!
فشأنَ المنايا إذ أصابك رَيْبُها لِتَغْدُ على الفِتْيانِ بعدَك أو تَسْرِي

وقالت: [من الوافر]

يُذَكِّرني طلوعُ الشمسِ صَخْرًا وأبكِيه لكُلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يَبْكُون مثلَ أخي ولكنْ أُسَلِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[٣]

وقالوا: أرثي بيت قالته العربُ قولُ مُتَمِّم[٤] بنِ نُوَيرةَ في أخيه مالك، وكان قد قتله خالد بنُ الوليد[٥] في الرِّدَّة. وكان متمم قدِم العراقَ، فأقبل لا يرى قبرًا إلا بكى؛ فقيل له: يموت أخوك بالمَلَا[٦] وتبكي على قبر بالعراق! فقال: [من الطويل]

لقد لامَني عند القبور على البُكا رفيقي لتَذْرافِ[٧] الدموع السَّوافكِ[٨]
أمِن أجل قبرٍ بالمَلَا أنت نائحٌ على كلّ قبر أو على كلّ هالكِ
وقال: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكَادكِ[٩]
فقلت له: إن الشَّجَا[١٠] يبعث الشجا فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

---

(١) الجليل: العظيم. (٢) هبلت: فقدت، وثكلت.
(٣) التأسّي: إظهار الصبر والتجمّل.
(٤) متمم بن نويرة: هو أبو مالك اليربوعي، من شعراء الرثاء المقلّين. رثى أخاه مالكًا وكان هذا فارسًا وشجاعًا، أسلم ثم ارتدّ، فقتله ضرار بن الأزور بأمر من خالد بن الوليد، فجزع عليه متمم كثيرًا وقال فيه أصدق الشعر وأرقّه. مات متمم سنة ١٢ هـ/ ٦٣٤ م.
(٥) خالد بن الوليد: من قادة العرب وفرسانهم. شارك في فتوح فارس والشام. هزم الروم بأجنادين واليرموك. تُوفي في حمص أو في المدينة سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م.
(٦) الملا: اسم موضع ما بين نقعاء وملتقى الرمل والخرانق.
(٧) تذراف: مصدر على وزن (تفعال) من ذرف بمعنى سكب.
(٨) السوافك: المنهملة.
(٩) اللوى: منقطع الرمل. وهو اسم موضع بعينه. والدكادك: الأراضي الغليظة.
(١٠) الشجا: الحزن والأسى.

معناه قد ملأ الأرض مُصابُه عِظَمًا، فكأنه مدفونٌ بكلّ مكان. وهو أبلغ ما قيل في تعظيم ميّت. وقيل أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث: [من الطويل]

على قبره بين القبور مهابةٌ ... كما قبلها كانت على صاحب القبرِ

وقيل: بل قول الآخر: [من الطويل]

أرادوا لِيُخْفُوا قبرَه عن عدوِّهِ ... فطِيبُ تراب القبرِ دَلَّ على القبرِ

وقالوا: بل بيت غيره: [من الطويل]

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْك واحدٍ ... ولكنّه بُنيانُ قومٍ تهدَّما

وقال الأصمعي: أرثى بيت قالته العرب قول الشاعر: [من الطويل]

ومن عَجَبٍ أن بِتَّ مُستشعِرَ الثَّرَى ... وبِتُّ بما زوَّدتَني مُتمتِّعا

ولو أنني أنصفتُكَ الودَّ لم أبِتْ ... خلافَكَ حتى ننطوي في الثرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسديّ[1]: [من الطويل]

أَلِمّا بمَعْنٍ ثم قُولَا لقبره: ... سقتْك الغوادِي[2] مَرْبعًا ثم مَرْبعا

فَتَى عِيشَ في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

أيا قبرَ معن كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ ... من الأرض خُطّتْ للسماحة مَضْجَعا[3]

ويا قبرَ معن كيف واريتَ[4] جُودَهُ[5] ... وقد كان منه البَرُّ والبحر مُتْرَعا!

بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ مَيِّتٌ ... ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعا

ولمّا مضى معنٌ مضى الجُود والنَّدى ... وأصبح عِرْنينُ[6] المكارمِ أجْدَعا[7]

قال أبو هلال العسكريّ: هذه الأبيات أرثى ما قيل في الجاهلية والإسلام.

---

(١) شاعر عباسي مولّد، رقيق العبارة، جيد الأسلوب، رثى العديد من الأعيان ومنهم معن بن زائدة الشيباني.

(٢) الغوادي: جمع غادية، وهي السحابة الممطرة في الغداة.

(٣) مضجع: موضع الاضطجاع، كناية عن القبر.

(٤) واريت: سترت وأخفيت.

(٥) جوده: كرمه.

(٦) عرنين الأنف: أعلى قصبته.

(٧) أجدع: مقطوع.

وقال بكر بن النطّاح[(١)] يَرْثي معقل بن عيسى: [من الطويل]

وحدّثني عن بعض ما قال أنه رأيت عينُه فيما ترى عينُ نائم
كأن النّدى[(٢)] يبكي على قبر مَعْقلٍ ولم تَرهُ يبكي على قبرِ حاتم[(٣)]
ولا قبرِ كَعْب[(٤)] إذ يجود بنفسه ولا قبرِ جِلْف الجود قَيْسِ بن عاصمِ[(٥)]
فأيقنتُ أن الله فضّل معقِلًا على كل مذكور بفضل المكارمِ

وقال آخر: [من الطويل]

لعَمْرُك ما وارى الترابُ فَعالَه ولكنما وارى ثيابًا وأعظُما

ومثله لمنصور[(٦)] النَّمَرِيّ: [من الطويل]

فإن تَكُ أفنته الليالي وأوشكت فإن له ذكرًا سيَبْقَى اللياليَا

وقال التميميّ في منصور[(٧)] بن زياد: [من الكامل]

أمّا القبورُ فإنّهنّ أوانسٌ بفِناء قبرك والدّيار قبورُ
عمّت صنائعُه فعمّ مُصابُه فالناسُ فيه كلُّهم مأجورُ
يُثني عليك لسان من لم تُولِهِ خيرًا لأنك بالثناء جدير
رَدّتْ صنائعُه إليه حياتُه فكأنه من نشرها منشورُ
فالناس مأتمهم عليه واحدٌ في كل دار رَنّةٌ وزفيرُ

---

(١) بكر بن النطاح: من بني حنيفة، كنيته أبو وائل. شاعر غزل، وفارس، وجواد من الأجواد. عاش في اليمامة. انتقل إلى بغداد أيام الرشيد، وفيها مات سنة ١٩٢ هـ.
(٢) الندى: الجود والكرم.
(٣) هو حاتم الطائي، الشاعر والجواد والفارس الذي يضرب بشجاعته وجوده المثل في الجاهلية.
(٤) لعلّه كعب بن مامة الإياديّ، من أبرز الأعيان والأجواد في الجاهلية. ضرب المثل بجوده وكرمه وشجاعته.
(٥) قيس بن عاصم: من شعراء الجاهلية الأجواد. أدرك الإسلام فأسلم وكان في جملة من وفد على الرسول ﷺ مع وفد تميم.
(٦) منصور النمري: شاعر عباسي اتصل بهارون الرشيد ومدحه، كما مدح عددًا آخر من أمراء بني العباس. مات سنة ٨٠٥ م.
(٧) هو محمد بن منصور بن زياد، كاتب البرامكة.

وقال ابن القزّاز المغربيّ: [من الطويل]

سأبكيك لا أنَّ البكا عَدْلُ[1] لوعتي ... ولا أنّ وجدي فيك كُفْءُ تَنَدُّمي
وقَلّ لعيني أن تَفِيضَ دموعُها ... عليك ولو أنّ الذي فاض من دمي

وقال الخُرَيْمي[2]: [من الطويل]

وأعددتهُ ذُخْرًا لكلّ مُلِمّةٍ[3] ... وسهمُ الرزايا بالذخائر مُولَعُ
وإني وإن أظهرتُ منّي جَلَادةً ... وصانعتُ أعدائي عليه لمُوجَعُ
ولو شئتُ أن أبكي دمًا لبكيتُه ... عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسعُ

وقال أبو هِلال العسكريّ[4]: [من الطويل]

على الرغم من أنف المكارمِ والعُلا ... غدتْ دارُه قَفْرًا ومَغْناه بَلْقعا[5]
ألم تر أنّ البأسَ أصبحَ بعده ... أشلَّ[6] وأن الجودَ أصبح أجْدَعا[7]
فمُرّا على قبر المُسَوَّدِ وانظُرا ... إلى المجد والعلياء كيف تخشّعا
فإن يك واراه الترابُ فكَبّرا ... على الجودِ والمعروفِ والفضلِ أربعا
ولا تَسْأما نَوْحًا عليه مُكرَّرًا ... ونَوْحًا لفقد العارفات مُرَجَّعَا
فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ... ولكنّه بُنيانُ قومٍ تَضَعْضَعا[8]
ولا تحسَبا أنّي أُواريه وحدَه ... ولكنني واريتُه والنَّدَى معا

وقال أيضًا: [من الطويل]

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائلِ ... وكيف غروبُ النجم بين الجنادلِ![9]
فما للمنايا أغفلت كلَّ ناقصٍ ... ونقّبن في الآفاق عن كلِّ فاضلِ!
على الرغم من أنف العُلا سِيقَ للرّدى ... بكل كريم الفعل حُرِّ الشمائلِ[10]

(١) عدل: مثل ونظير.
(٢) الخريمي: إسحٰق بن حسان. كنيته أبو يعقوب، من أصل فارسي. كان مولى ابن خريم بن عمرو من بني مرّة، مُعرف به.
(٣) ملمّة: صفة لكل أمر عظيم شديد.
(٤) أبو هلال العسكري: صاحب «الصناعتين» الكتاب المشهور. سبق التعريف به.
(٥) بلقع: قفر.
(٦) أشلّ: يده مشلولة. كناية عن النقص.
(٧) أجدع: الأجدع، من كان قطع أنفه.
(٨) تضعضع: تهدّم أو أشرف على الهدم.
(٩) الجنادل: الحجارة الكبيرة.
(١٠) الشمائل: الصفات المحمودة.

علـى أنّ مـن أبقـتـه لـيس بـخـالـدِ   وليـس امرؤٌ يـرجـو الـخلودَ بعـاقـلِ
رأيـت الـمـنـايـا بـيـن غـاد ورائـح   فـمـا لـلـبـرايـا بـيـن ساهٍ وغـافـلِ!
ولـم أر كـالـدنـيـا حـبـيـبًا مُـضِـرّةً   ولـم أر مثـل الـموت حقًّا كـباطـل

وقال الرَّقاشيّ[١] في البرامكة: [من الطويل]

أَلَانَ استرحْنا واستراحت ركابُنا   وقَلَّ الذي يُحْدَى ومن كان يَحْتدي[٢]
فقل للمطايا[٣]: قد أمِنْتِ من السُّرَى[٤]   وطَيِّ الفيافي[٥] فَدْفَدًا[٦] بعد فَدْفدِ
وقل للمنايا: قد ظفِرْتِ بجعفرٍ[٧]   ولـن تـظـفـري مـن بـعـده بـمُـسَـوَّد
وقل للعطايا بعد فَضْل[٨]: تعطَّلي   وقـل لـلرزايـا كـل يـوم: تَـجـدّدي
ودونَـكَ سـيـفًـا بَـرْمـكـيًّـا مُـهَـنّدًا[٩]   أُصِـيـب بـسـيـفٍ هـاشـمـيٍّ مـهـنّـدِ

وقال آخر: [من الطويل]

سأبكيك للدّنيا وللدّين، إنني   رأيتُ يدَ المعروف بعدك شَلّتِ[١٠]
ربيعٌ إذا ضَنّ[١١] الغمامُ بمائه   وليثٌ إذا ما المَشْرفيّةُ[١٢] سُلّتِ[١٣]

وقال عبد الله بن المعتزّ[١٤]: [من الطويل]

ألستَ ترى موت العُلَا والمحامدِ   وكيف دفنّا الخَلْقَ في قبر واحدِ
ولـلـدّهـرِ أيّـامٌ يُـسِـئْـنَ عِـوامِـدًا   ويُـحـسِـنّ إنْ أحْسَـنَّ غيـرَ عـوامِـدِ

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من الكامل]

إنـي لأعـلـم ـ والـلـبـيـبُ خـبـيـرُ ـ   أن الـحـيـاة وإن حَـرِصـت غُـرور

(١) الرقاشي: وقيل: هو أشجع السلمي الشاعر العباسي الذي مدح البرامكة ونال أعطياتهم.
(٢) وفي (مروج الذهب) تجد: (يجدي) و(يجتدي) بدلًا من (يحدي) و(يحتدي). انظر: مروج الذهب ٣/ ٣٩٠.
(٣) المطايا: جمع مطيّة، وهي كل دابّة مركوبة. (٤) السُّرَى: السير ليلًا.
(٥) الفيافي: الصحارى الواسعة. (٦) الفدفد: المكان الواسع فيه صلابة وغلظ.
(٧) هو جعفر بن يحيىٰ البرمكي، الوزير، وسبق التعريف به.
(٨) هو الفضل بن يحيىٰ البرمكي، أخو الرشيد بالرضاعة، ومؤدب الأمين.
(٩) مهنّدًا: صفة للسيف المنسوب إلى الهند. (١٠) شلّت: قُطعت.
(١١) ضنّ: بخل. (١٢) المشرفية: صفة للسيوف.
(١٣) سلّت: أخرجت من أغمادها.
(١٤) عبد الله بن المعتز، العباسي، الخليفة والأمير، سبق التعريف به.

ما كنتُ أعلم قبلَ دفنك في الثرى ... أن الكواكب في التُّراب تَغورُ[(١)]
خرجوا به ولكلّ باكٍ حوله ... صَعَقاتُ موسى يوم دُكَّ الطُّورُ[(٢)]
حتى أتَوْا جَدَثًا[(٣)] كأنّ ضريحَه ... في قلب كلّ مُوَحِّدٍ محفورُ
نبكي عليه وما استقرّ قراره ... في اللحدِ[(٤)] حتى صافحته الحُورُ[(٥)]

ومنها: [من الكامل]

صبرًا على المكروه فيه تَكَرُّما ... إنّ العظيم على العظيم صَبورُ
ولكلّ مفجوعٍ سواكم مُشبِهٌ ... ولكلّ مفقودٍ سِواهُ نظيرُ

وقال آخر: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أنّي تخلّفتُ بعده ... أدورُ مع الباكين في عَرَصاتهِ[(٦)]
وصارت يميني ما حلَفتُ بقبره ... وكانت يميني قبلها بحياتهِ

وقال آخر: [من الطويل]

وكنتُ أخاف الدّهرَ ما كان باقيًا ... فلما تولّى مات خوفي على الدّهرِ

وقال آخر: [من الطويل]

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبُكَا ... أجاب البكا طوعًا ولم يُجِبِ الصبرُ
وإن يَنْقطِعْ منك الرجاءُ فإنه ... سيَبْقَى عليك الحزنُ ما بَقِيَ الدهرُ

وقال آخر: [من الطويل]

فوالله لو أسطيعُ قاسمتُه الرّدَى[(٧)] ... فمُتْنَا جميعًا أو يُقاسِمُني عمري
ولكنما أرواحُنا مِلكُ غيرنا ... فما لِيَ في نفسي ولا فيه من أمرِ
أحَمِّلُه ثِقْلَ التّرابِ وإنني ... لأخشى عليه الثقل من مَوْطِىء الذَّرّ
وما أنا بالوافي وقد عشتُ بعده ... وربَّ اعتراف كان أبلغَ من عُذر

(١) تغور: تذهب بعيدًا وتختفي.
(٢) الطور: الجبل الذي تجلّى فيه سبحانه وتعالى لموسى، النبي. ودكّ: خرّ. وفي الكلام إشارة إلى قوله تعالى: ﴿...فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا...﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].
(٣) جدثًا: قبرًا. (٤) اللحد: جانب القبر.
(٥) الحور: أي الحور العين اللائي وعد الله بهنّ عباده الصالحين في الجنة، يتزوجون بهنّ.
(٦) عرصاته، جمع عرصة، وهي فناء الدار. (٧) الردى: الموت والهلاك.

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

يـا راحـلًا لـم يُـبْـقِ لـي من بعده في العيش نَفْعا
ضـاقـت عـليّ الأرضُ فـيـ ـك وضِقْـت بـالإخـوان ذَرْعَـا
ورعَـيْـتُ فـيـك الـنَّـجـمَ يـا من كـان يـحـفَـظُـني ويَـرْعـى
أبْـكـيـك بـالـشـعـر الـذي قـد رقّ حـتـى صـار دمـعـا

وقال تاج الملوك[1] بن أيّوب يَرثِي أخاه: [من الكامل]

لو كان يَشفِي الدمعُ غُلّة[2] واجدٍ[3] لشَفَى غليلي فيضُ دمعي الهامرِ
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثَوى من كان من عُدَدي وخير ذخائري
يـا لـلرّجـالِ لِنَكْـبـةٍ قـد أذهـبـت جَلَدَ[4] الجليدِ وحُسْنَ صَبْرِ الصابرِ
طرَقَتْ فتى المُلْك المعظَّمِ فانثنى نـم بـعـد بَـهـجـتِـه كـرَبْـع داثـرِ

ومنها:

جَبَـلٌ هـوَى فـارتـجّـت الـدنـيـا لـهُ فـكـأنـمـا رَكِـبـتْ جَـنـاحَـيْ طـائـرِ

ومنها:

مَنْ للنّوائب[5] يوم تفترس الورى[6] قَـسْـرًا[7] بـأنـيـاب لـهـا وأظـافِـرِ
أضحى وحيدًا في التراب كأنّه ما سار بين مواكب وعساكرِ
قد كان لا تَعْصِي البريّةُ أمرَه فـانـقـاد مـمـتـثِـلًا لأمـر الآمـرِ
مـولاي دعـوةُ والـهٍ[8] غـاردتَـه وَقْفًا على نُوَب[9] الزمان الغادرِ
هـل مـن سبـيـل لـلزيـارة عـنـدهـا هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خَصْمُك غيرَ حادثة الرّدى لـرددتُـه بـذوابِـلٍ[10] وبـواتـرِ[11]

---

(١) تاج الملوك بن أيوب بن محمد ملك الأيوبيين في مصر.
(٢) الغلّة: الحرقة وشدة العطش.
(٣) الواجد: الواله الحزين.
(٤) الجلد: الصبر والثبات.
(٥) النوائب: جمع نائبة، وهي المصيبة.
(٦) الورى: الخلق والبريّة.
(٧) قسرًا: كرهًا.
(٨) الواله: المحب المحزون.
(٩) النوب والنوائب: جمع نائبة، أي مصيبة.
(١٠) الذوابل: صفة للرماح.
(١١) البواتر: القواطع، صفة للسيوف.

أو كان يُدْرَكُ ثأرُ من أودى[١] به رَيْبُ المنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنّه الموت الذي قهر الورَى من حيث لا تَثْنيه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه[٢] يرثي الأمير علي ابن الخليفة الناصر لدين الله: [من السريع]

الناس للموت كخيل الطِّرادْ فالسابقُ السابقُ منها الجوادْ
والله لا يدعو إلى داره إلا مَنْ استصلح من ذي العبادْ
والموت نَقّاد، على كفه جواهرٌ يَختار منها الجِيادْ
والمرء كالظلّ ولا بدّ أن يزولَ ذاك الظلُّ بعد امتدادْ
لا تصلُحُ الأرواحُ إلّا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفسادْ
أرغمتَ يا موتُ أُنوفَ القنا ودُسْتَ أعناقَ السيوف الحِدادْ[٣]
كيف تخرّمتَ[٤] أميرًا وما أنجده كلُّ طويلِ النِّجادْ[٥]
مُصيبةٌ أذكت قلوبَ الورى كأنما في كلّ قلبٍ زِنَادْ[٦]
نازلةٌ[٧] عمّت فمِنْ أجلها سنَّ بنو العباس لُبْسَ السَّوادْ
مأتمةٌ[٨] في الأرض لكن لها عُرْسٌ على السبع الطِّباق الشِّداد[٩]
طرقتَ يا موتُ كريمًا فلم يقنَعْ بغير النفس للضيفِ زَادْ
قصمتَه[١٠] من سِدْرة المُنْتَهى[١١] غُصْنًا فشلّت يَدُ أهل العنادْ
يا ثالثَ السِّبطَيْن[١٢] خلّفتني أهيم من همِّيَ في كلّ وادْ
يا نائمًا في غَمَرات[١٣] الرّدَى كَحَلْتَ أجفاني بمِيلِ السُّهادْ[١٤]

---

(١) أودى به: أهلكه.
(٢) ابن النبيه: واسمه علي، من شعراء مصر في العهد الأيوبي. مدح ملوكهم، وله ديوان شعري مطبوع. مات سنة ١٢٢٢ م.
(٣) الحداد: الماضية، المسنونة جيدًا.
(٤) تخرّمت: أهلكت واستأصلت.
(٥) النجاد: حمّالة السيف.
(٦) الزناد: حجر القدّاحة تورى به النار.
(٧) النازلة: المصيبة الشديدة.
(٨) المأتمة: المناحة في الموت.
(٩) السبع الطباق الشداد، صفة للسمٰوات السبع.
(١٠) قصمته: قطعته وصرعته.
(١١) سدرة المنتهى، شجرة في الجنة، وقيل في السماء السابعة قريبة من العرش.
(١٢) السبطان: الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب.
(١٣) غمرات: لجج.
(١٤) السهاد: الانتباه وعدم القدرة على النوم.

ويا ضجيعَ التُّرب أسقمَتني كأنما فَرْشِيَ شوكُ القَتَادْ[١]
دُفِنتَ في الترب ولو أنصفُوا ما كنتَ إلا في صميم الفؤادْ
خليفةَ الله اصطبرْ واحتسِبْ فما وهى[٢] البيتُ وأنت العِمادْ
في العلم والحلم بكم يُقْتَدَى إذا دجا الخطبُ وضَلَّ الرشادْ
وأنت لُجُّ البحرِ ما ضرّه أن سال من بعض نواحيه وادْ

ولما مات الإخشيد محمدُ بنُ طُغْجٍ[٣] رثاه جماعةٌ من الشعراء منهم محمدُ بنُ الحسنِ بن زكريا فقال: [من الخفيف]

في الرزايا روائعُ الأوجالِ[٤] والبرايا دَرِيئةٌ[٥] الآجالِ[٦]
وكذا الليلُ والنهارُ اعتبارٌ للورى في تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شيء وإن تمادَى مداه قَصْرُهُ للفَناء أو للزَّوال
وأرى كلَّ عِيشةٍ لأناسٍ كونُها مُؤذِنٌ بوَشْك انتقالِ
كل ذي جِدّة ـ إذا ما الجديدا ن[٧] ألحّا عليه ـ مُودٍ بالِ
ما لخَلْقٍ من المنون مَفَرٌّ لا ولا دون بطشِها من مآلِ
كان غيث الأيّام أن أخلف[٨] الغيـ ـثُ أطلّتْ سحابُه بانهمال
فجَعَتْنا بواهبٍ لا نراه يَخْلُق الوجهُ عنده بابتذالِ
فجعتنا ببهجة الأرض في الأر ض وشمسِ الضُّحى وبدرِ اللّيالي
فجعتنا بمن حَمَى حُرمةَ الإسـ ـلام من حادث ومن خَتالِ[٩]
فجعتنا بالباسل البَطَل السا مي غداةَ الوغَى إلى الأبطالِ
فجعتنا بالواهب المُجزِلِ المر تاح حين السؤال للسؤّالِ
عَجبٌ إذ دنتْ إليه المنايا وحِمَى عِزِّه المنيعُ العالي
أين من يشتري المدائحَ والشكـ ـر بأسْنى[١٠] وَفْرٍ وأوفى نَوالِ

---

(١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر. (٢) وهى: سقط وخرّ. وضعف.
(٣) الإخشيد محمد بن طغج، مؤسس دولة الإخشيديين التي خلفت دولة الطولونيين في حكم مصر وسوريا.
(٤) الأوجال: المخاوف. (٥) دريئة: جُنّة ووقاية.
(٦) الآجال: غاية الوقت، الموت. (٧) الجديدان: الليل والنهار.
(٨) أخلف الغيث: تأخر ولم يمطر. (٩) ختّال: مخادع.
(١٠) أسنى: أرفع.

قطع الموتُ وَصْلَنا منه كرهًا والرَدَى قاطعٌ لكل اتّصالِ
رحمة الله والسلام عليه في الضُّحَى والعِشاء والآصال
وسقى الله حُفرةً ضمّنَتْهُ شُكرَ واهٍ من الحَيَا[1] هطّالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنهِ فقال:

إنْ خبا[2] بدرُه فقد لاح للأمّـ ـة لمّا خَبَا طلوعُ الهلالِ
نُوره مُشرِقٌ مضيءٌ مدى الدهـ ـر منيرٌ وليس ذا اضمحلالِ

وقال أبو الطيب المتنبّي يرثيه: [من البسيط]

هو الزمانُ مُشِتٌّ[3] بالذي جمعا
في كل يوم نرى من صَرْفه[4] بِدَعا
لو كان مُمْتَنِعٌ تُغْنيه مَنْعَتُه
لم يصنع الدهرُ بالإخشيد[5] ما صنَعا
ذاق الحِمام[6] فلم تَدْفَع كتائبُه[7]
عنه القضاءَ ولا أغْناه ما جمعا
لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخَرٍ
وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نعى
لله ما حلّ بالإسلام حين ثَوَى!
لقد وهى شَعْبُ هذا الدِّين فانصدعا
فمن تراه يقودُ الخيلَ ساهمةً[8]
سدَّ الفضاءِ ومِلْءَ الأرض ما وَسِعا
ترى الحُتُوفَ غُلُوقًا[9] في أسِنّته
لدى الوغى وشهابَ الموت قد لَمَعا

(١) الحيا: المطر.
(٢) خبا: ضعف نوره.
(٣) مشتّ: مفرّق.
(٤) صرفه: نُوبه.
(٥) الإخشيد، هو محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية.
(٦) الحمام: الموت.
(٧) كتائبه: جيوشه، جمع كتيبة.
(٨) ساهمة: عابسة.
(٩) كذا بالأصل، ولم نجد معنًى مناسبًا لقوله (غلوقًا) بالمعجمة هنا. فربما كان الصواب (علوقًا)=

لـو كـان يـسـطـيـع قـبـرٌ ضـمّـه لـسـعـى
إلـيــه شــوقًــا لــيـلـقــاه وإن شَــسَــعــا[١]

فـليَـعْـجـب الـنـاسُ مـن لـحـدٍ تـضـمّـن مَـنْ
تـضـمّـن الـرزقَ بـعـد الله فـاضْـطـلَـعـا

لـو يـعـلـم الـلـحـدُ مـا قـد ضَـمّ مـن كـرمٍ
ومــن فــخَــارٍ ومــن نَــعْــمــاء لاتّــسـعــا

يـا لـحْـدَه إن تَـضِـقْ عـنـه فـلا عـجـبٌ
فيه الحِجا[٢] والنُّهى[٣] والبأسُ قد جُمِعا

يـا لـحدُ طُلْ إنّ فـيـك الـبـحرَ مُـحـتـبِسًـا
والـلّـيـثَ مـنـهـصِـرًا[٤] والـجُـودَ مـجـتـمِـعـا

يـا يـومَـهُ لـم تـخـصّ الـفـجـعَ أُسْـرَتُـه
كـلُّ الـورى بِـرَدَى الإخـشـيـد قـد فُـجِـعـا

يـا يـومـه لـم تَـدَعْ صـبـرًا لـمـصـطـبـرٍ
ولــم تــدعْ مَــدْمَــعًــا إلا وقــد دَمَــعــا

أردَى الـرِّفـاقَ رَدَى الإخـشـيـد فـانـقـرضُـوا
فـمـا تـرى مـنـهُـمُ فـي الأرض مـنـتـجـعـا

يـا أيـهـا الـمـلـك الـمُـخْـلِـي مـجـالـسَـه
أحْـمـيـتَ أعـيـنَـنـا الإغـمـاضَ فـامـتـنـعـا

ومنها:

لـئـن مـضـيـتَ حـمـيـدَ الأمـر مُـفْـتَـقَـدًا
لـقـد تـركـتَ حـمـيـدَ الأمـر مُـتَّـبَـعـا

= بالمهملة أي أن الحتوف معلّقة ومعقودة بأسنة رماحه. و(العَلوق) بالعين المهملة المفتوحة اسم من أسماء المنية فلعل معنى:

تـرى الـحـتـوف عَـلـوقًـا فـي أسـنـتـه

على هذا أن الحتف والهلاك تراه موتًا مجسمًا أو منيّةً مجسمة في اسنة رماحه.

(١) شسع: بعد.
(٢) الحجا: العقل.
(٣) النهى: العقل.
(٤) منهصرًا: منجذبًا منقادًا.

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد:

ثَبْتُ الجَنانِ[١] فلا نكْسٌ[٢] ولا وَرَعٌ[٣]
تلقاه مؤتزرًا بالحزم مُدَّرعا
أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها
ولو أبت أخذت أسيافه البِيَعا[٤]
وانقاد أعداؤه ذُلًّا لهيبته
وظَلّ متبوعُهم من خوفه تَبعا
أضحت به هِمَمُ الغِلْمان عاليةً
كأنّ مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بنُ يموتَ يَرثيه أيضًا: [من الخفيف]

أيّ عزٍّ مضى من الإسلام! أيّ ركن أضحى حديثَ انهدام!
ذاق موتًا محمد بن طُغج هو ليثُ الشّرى[٥] وغيثُ الغَمامِ
فَقَدَ الناسُ مُوليَ الإنعامِ فهُمُ سائمون[٦] كالأنعامِ
مات ربُّ العُلَا وراعي الرعايا والسرايا[٧] وكافل الأيتام
أين ما كنتَ فيه من عزِّك البا ذخ والمُرْتقَى عزيزِ المُرام!
أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ ـبة أين الزِّحامُ وقت الزّحامَ!
من أميرٍ وقائدٍ وخطيرٍ ورئيسٍ وماجدٍ وهُمام[٨]
كلّهم مطرِقٌ لديك من الهيـ ـبة خوف الإجلال والإعظام
أين تلك الخيامُ حَوْلَك إن عرّ ست[٩] والأسدُ حول تلك الخيام
من عديد وعُدّة لك ما بيـ ـن قُعود فيها وبين قِيامِ
لم يُطِقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ ـك ولم يمنعوك منعَ اعتصامِ
أسلمتك الخيولُ قَسْرًا[١٠] وقد كنـ ـتَ عليها سُورًا على الإسلامَ

(١) الجنان: القلب أو الفؤاد. (٢) النكس: الضعف والانكسار والانخساف.
(٣) الوَرُع: الضعف.
(٤) البيع: جمع بيعة، وهي بيت الصلاة للنصارى والنسّاك وغيرهم.
(٥) الشرى: اسم موضع تكثر فيه الأسود. (٦) سائمون: ذاهبون على وجوههم.
(٧) السرايا: جوع سريّة، وهي القطعة من الجيش.
(٨) همام: سيّد شجاع سخيّ. وهنا صفة للأسد.
(٩) عرّست: أقمت للراحة استعدادًا لمتابعة السير.
(١٠) قسرًا: كرهًا.

خانك السيف وهو يصدرُ عن أمـ ـرك مُستعدِيًا بغير احتجام
خذل الرمحُ وهو عونُك لو حا ن لقاءٌ وثار نَقْعُ[١] قَتَامِ[٢]
لم تَرُدّ القِسِيّ[٣] عنك سهامَ الـ ـحتفِ[٤] والحتفُ عندها في السهام
ما وقتك الحرابُ حربَ المنايا حين وافاك جيشُها من أمام
لم يُحَصِّنك ما اقتنيتَ من الآ لات من جَوْشَن[٥] ولا من لَامِ[٦]
حكَم الموتُ فيك من بعد ما كنـ ـتَ تُرى حاكمًا على الحُكّام
فقدَتْك الفُسطاط[٧] وجدًا مدى الد هر ومن بعدها بلادُ الشام
فُجِعَتْ يَثْرِبٌ[٨] ومكّةُ والبيـ ـتُ[٩] إلى زمزم[١٠] أجَلْ والمَقَام[١١]
عمّ فيك المصابُ فاشترك العا لَمُ في الرُّزْءِ[١٢] منه والآلام
حَسْبُنَا الله عزَّ من حَكَمٍ يجـ ـري على الحاكمين بالأحكام
كلّ شيء إلى زوال، ومن ذا نال ملك الدنيا بغير اخترام[١٣]
أين أين الملوك في سالف الدّهـ ـر دَهَتهم[١٤] حوادث الأيّام
أين من قد كانوا يُخافون في البأ سِ ويُرْجَون للعطايا الجِسام
ليس يَبْقى إلا الإلٰه تعالى من له الملك ثابتًا بالدّوام
أيّهذا الأمير بل يا أبا القا سم يا ابن السَّمَيْدَع[١٥] القَمْقام[١٦]
ارضَ حكم الإلٰه في المَلِك الما ضي وسلِّم لنافذ الأحكامِ
وهناك الذي بلغتَ من الأمـ ـر وما حزتَه بحسن انتظامِ

---

(١) النقع: الغبار.
(٢) القتام: الغبار.
(٣) القسيّ: جمع قوس، تطلق منه السهام.
(٤) الحتف: المنية.
(٥) الجوشن: الدّرع.
(٦) اللام: الدروع، مفرده اللّامة.
(٧) الفسطاط: أول مدينة أسسها العرب في مصر. بناها عمرو بن العاص على ضفة النيل الشرقية، ثم صارت مركزًا للحكم زمن الأمويين. ظلّت مزدهرة وعامرة حتى تأسيس القاهرة بجانبها على يد جوهر، زمن الفاطميين.
(٨) يثرب: اسم المدينة المنوّرة قبل الإسلام.
(٩) البيت، يريد البيت الحرام، أي الكعبة.
(١٠) زمزم: اسم البئر بفناء الكعبة، حفرها إسماعيل بن إبراهيم وأمّه هاجر. تولى السقاية منها بنو عبد المطّلب.
(١١) المقام: المراد به مقام إبراهيم النبيّ، بإزاء الكعبة.
(١٢) الرزء: الخطب والمصيبة.
(١٣) اخترام: هلاك وموت.
(١٤) دهتهم: أصابتهم بمصابها.
(١٥) السميدع: صفة للأسد أو للرجل الشريف المقدام.
(١٦) القمقام: الكثير البذل والجود.

مـا كـمـثـل الـذي رُزِئـت ولا مـثـ ـل الـذي قـد مَلكـتَ فـي ذا الـعـام
أنت مثل الإخشيد فانهض بما مُلِّـ ـكـتَ بـالـجـدّ مـنـك والاعـتـزام

وقال بعض الشعراء يَرْثي الوزيرَ يعقوبَ بن كِلِّس وزيرَ العزيزِ[1] بنِ المُعِزِّ خليفةِ مصر: [من الكامل]

إن الـتـصـبـر فـي الأمـور جـمـيـلُ إلا عـلـيـك فـمـا إلـيـه سـبـيـلُ
يـا حـامـلًا ثِـقْـلَ الـعُـلَا وكـأنـه لـعُـلُوّ هـمّـتِـه بـهـا مـحـمـولُ
يـا واهـبًـا فـوق الـمُـنَـى وكـأنـه لـسـخـائـه مـمـا يـجـود بـخـيـلُ

جاء منها:

يـا تُـرْبُ لا تـأكُـل لـسـانًا طـالـما والَى بـه الـتـحـمـيـدُ والـتـهـلـيـلُ
يـا تُـرْبُ لا تَـعْـنُـفْ بـكـفٍّ طـالـما قـد كـان يُـؤْلِـمُ ظـهـرَهـا الـتـقـبـيـلُ

ومنها:

يا دهر تعلمُ ما جنيتَ على الورى؟! خَطْبٌ لعمرُك إنْ علمتَ جليلُ
مـا كـان ضـرَّك لـو مَـهَـلتَ بـمـثـلـه يـا دهـرُ إنـك بـعـدَهـا لـعَـجُـولُ

ومن المراثي المشهورة التي عُني بها، واتصلت أسبابُ الشارحين بسببها، المرثيَةُ العَبْدونيّة التي نظمها الوزيرُ الكاتبُ أبو محمد عبدُ المجيد بن عبدون[2] يرثي بها بني مسلمةَ المعروفين ببني الأفطس[3]، وهي من أمهات القصائد ووسائط القلائد؛ فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنَّةً تقيهم من وثباته؛ ودبّت عليهم الأيام بصروفها، وسقتهم المنيّةُ بكأس حُتوفها. وها نحن نذكرها ونزيدُها تبيانًا بشرح من استبهَمَت أخبارُه، وخَفِيت على المُطالع آثارُه.

---

(١) أحد الخلفاء الفاطميين، سبق التعريف به.

(٢) هو عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري، أبو محمد، ذو الوزارتين. من الشعراء، ومن الأدباء والكتّاب الأندلسيين. استوزره بنو الأفطس. أشهر شعره مرثاته الشعرية المعروفة بـ «البسّامة» في سقوط دولة بني الأفطس. مات سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م.

(٣) بنو الأفطس: أسرة بربرية من ملوك الطوائف بالأندلس. جعلوا مركز حكمهم بطليوس ودام حكمهم من سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م إلى ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٥ م أسسها عبد الله بن محمد المعروف بابن الأفطس وقضى عليها يوسف بن تاشفين فقتل آخر ملوكها عمر بن محمد وولديه.

وأوّل القصيدة: [من البسيط]

الدّهرُ يفجَعُ بعد العَيْن بالأثَرِ فما البكاءُ على الأشباح والصُّورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك مَعْذِرةً عن وقفةٍ بين ناب الليثِ والظُّفُرِ
فالدهرُ حربٌ وإن أبدى مُسالَمة فالبِيضُ والسُّمْرُ مثلُ البيض والسُّمُرِ
ولا هَوادةَ بين الرأس تأخذه يدُ الضِّراب وبين الصارم الذَّكَرِ
فلا تغُرَّنْك من دنياك نومتُها فما صناعةُ عينيها سوى السَّهرِ
ما لِلّيالي ـ أقال الله عثرتنا[١] من اللّيالي وخانتها يدُ الغِيَر[٢] ـ
في كلّ حينٍ لها في كلّ جارحةٍ[٣] منّا جِراحٌ وإن زاغت عن البصرِ
تسُرّ بالشيء لكن كي تَغُرَّ به كالأيمْ[٤] ثار إلى الجاني من الثمرِ
كم دولةٍ وَلِيتْ بالنصر خدمتَها لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراك من خَبَرِ
هوت «بدارا» وفلّت غَرْبَ[٥] قاتله وكان غَضْبًا[٦] على الأملاك ذا أُثُرِ

«دارا» الذي ذكره هو دارا بن دارا آخر ملوك الفرس؛ وقاتله الإسكندر. وسنذكر إن شاء الله أخبارهما في فنّ التاريخ.

واستَرْجعت من بني سَاسَانَ ما وهبت ولم تَدَعْ لبني يونانَ من أَثَرِ

«بنو ساسان» هم الفرسُ الأُخَر ولهم دولة مشهورة انقرضت في الإسلام. و«بنو يونان» أيضًا من الملوك أرباب الدول المشهورة، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر بن فيلبس. وسترد إن شاء الله أخبارهم.

وأتْبَعَتْ أُختَها طَسْمًا، وعاد على عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت «طسم» جَدِيس، وهما أبناء عمٍّ كثر نسلهما وهم العرب العاربة[٧]. وسنذكر أخبارهما إن شاء الله في وقائع العرب. و«عاد» هم قوم هود. و«جرهم» هو

(١) عثرتنا: زلّتنا.
(٢) الغير: صروف الدهر ونوبه.
(٣) الجارحة: العضو في جسد الإنسان، واليد خاصةً.
(٤) الأيم: الحيّة.
(٥) الغرب: مؤخر الرأس، وأول كل شيء وحدّه. وهنا المقصود حدّ قاتله، أي سيفه. وفلّت: ثلمت.
(٦) غضبًا: صفة للسيف القاطع.
(٧) العاربة من العرب، الصرحاء الخلّص بخلاف المستعربة. ويطلق على العاربة أيضًا اسم العرب البائدة.

ابن عوف بن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبَأ الأكبر بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، وقيل: إن العمالقة من ولد جرهم. أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت.

وما أقالت ذوي الهيئاتِ من يَمَنٍ ولا أجارتْ ذوي الغايات من مُضَرِ

«اليمن» كلّهم باتفاق العلماء بالأنساب من ولدِ قَحْطانَ، ومنهم ملوكٌ نذكرهم إن شاء الله في التاريخ. و«مضر» بن نزار بن معدّ بن عَدْنان. وقد تقدم ذكرهم في الأنساب.

ومزّقت سَبَأً في كلّ قاصيةٍ فما التقى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ

«سبأ» الذي أشار إليه هو سبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يعرُبَ بنِ قحطانَ، واسمُه عبدُ شمسٍ، وإنما قيل فيه سبأ لأنه أوّلُ من أدخل بلادَ اليمن السَّبْي. وكان له عشرة أولاد سكن الشامَ منهم أربعةٌ وهم: لَخْم وغَسّان وجُذَام وعاملة، وسكن اليمنَ منهم ستةٌ: كِنْدةٌ ومَذْحجٌ والأزْدُ وأنْمار والأشعر وعمرو؛ وقد ذكر الله عزّ وجلّ تمزيقَهم بقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبأ: الآية ١٩]. وسنذكر أخبار سيل العَرِم[١] وسدّ مأرب[٢].

وأنفذتْ في كُلَيب حكمَها ورَمَتْ مُهَلْهِلا[٣] بين سمع الأرض والبصرِ

«كليب» الذي ذكر هو كليب بنُ ربيعةَ بنِ الحارثِ الذي ضرب به المثل فقيل: «أعزُّ من كُلَيْب وائل». وأشار ابن عبدون في هذا البيت إلى ما كان من قتل جسَّاس بن مرّة كليبًا وما وقع بين بكر وتَغْلِب من الحروب التي نشرحها إن شاء الله في وقائع العرب. وقوله: «ورمت مهلهلًا بين سمع الأرض والبصر» كأنه أراد ما حكي أنه قتل في موضع لم يطّلع عليه أحد، وهو مثل؛ يقال: فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليًا.

ولم تَرُدّ على الضِّلِّيل صِحّتَه ولا ثَنَت أسدًا عن ربّها حُجُرِ

(١) سيل العرم: السيل الذي بناه السبئيون في مأرب بين جبلين لحجز المياه. ثم تفرّق عرب الجنوب إثر انهياره في القرن الثالث الميلادي.

(٢) مأرب: بلدة يمنية إلى الشمال الشرقي من صنعاء. اشتهرت بالسّدّ القديم المعروف باسمها.

(٣) المهلهل: لقب عدي بن ربيعة، الشاعر الجاهلي، وأحد أبطال حرب البسوس. هو خال امرىء القيس الشاعر المعروف، ويعرف مهلهل أيضًا بـ «الزير». أكثر شعره قاله في رثاء أخيه كليب الذي قتل في حرب البسوس.

«الضِّلّيل» الذي أشار إليه هو امرؤ القيس بن حُجْر بن عمرو، والحارث هو آكل المُرَار؛ وسُمِّي امرؤ القيس بالضلّيل لأنه ترك ملكه وتوجّه إلى قيصر يطلب منه جيشًا يأخذ به ثأر أبيه من بني أسد. وإشارته إلى الصحّة لقول امرىء القيس في قصيدته السينيّة: [من الطويل]

وبُدِّلْتُ قُرْحًا[1] داميًا بعد صحّةٍ ... لعلّ منايانا تحوّلْنَ أبْؤُسا
لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أرضه ... ليُلْبِسني من دائه ما تلبَّسا[2]

و«الطّماح» رجل مِن بني أسدٍ أرسله قيصرُ إلى امرىءِ القيس بحُلّةٍ مسمومة، فلما لبِسها تقطّع ومات بأنقِرة. وإشارته إلى أسد لأن بني أسد كانوا قتلوا حُجْر بن الحارث يوم ماقِط. [من البسيط]

ودوّخت آلَ ذُبْيانٍ وإخوتَهم ... عَبْسًا وعضّت بني بَدْر على النَّهَرِ

أشار إلى ما كان بين عبسٍ وذبيانَ من الحروب بسبب داحس والغبراء. وسيردُ ذلك في وقائع العرب إن شاء الله تعالى.

وألحقت بعَديٍّ بالعراق على ... يد ابنه أحْمَرَ العينين والشَّعَرِ

أراد عديَّ بنَ أيوب بن زيد مَناة بن تميم الشاعر. وأحمر العينين والشعر هو النّعمان بنُ المُنذر. وكان عديّ هذا ترجمانًا لأبْرَويز[3] وكاتبه بالعربيّة، فلما مات قابوسُ بن المنذرِ تلطّف عديّ وتحيّل على أبرويزَ حتى ولّى النعمان إمْرة العرب وقدّمه على إخوته وكان أدمّهم، ثم اتهمه النعمان أنه وشى به فاحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق؛ فتلطّف ابنه زيد بن عديّ وتوصّل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز، على ما يرد إن شاء الله تعالى في التاريخ. والله أعلم.

وأشرفت بخُبَيْبٍ فوق فارعةٍ ... وألصقت طَلْحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ

أشار إلى خبيب بن عديّ الأنصاريّ وهو بَدْرِيّ وأسِر في السريّة التي خرج فيها مَرْثَد بن أبي مَرْثَد فانطلق به المشركون إلى مكّة واشتراه حجر بن إهاب التميميّ

(١) قرحًا: جرحًا.
(٢) انظر البيتين في: ديوان امرىء القيس، ص ٢٧. ط دمشق ١٩٧٣.
(٣) هو كسرى أبرويز الثاني، الملك الساساني ابن هرمزد الرابع. توصل إلى العرش بمساعدة موريق امبراطور بيزنطية. احتلّ أورشليم سنة ٦١٤، لكن هرقل انتصر عليه.

حليف بني نَوْفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه، وكان خبيب قتل الحارثَ أبا عقبةَ يومَ بَدْر، فصلبه عقبةُ على خشبةٍ بالتَّنعيم وقتله. وطلحة الفيّاض هو طلحة بنُ عبدِ الله التميميّ أحدُ العشرةِ أصحابِ رسول الله ﷺ، قتل يوم الجَمل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ومزّقَتْ جعفرًا بالبِيض، واختلَسَت   من غِيلِه[1] حَمْزَةَ الظّلَام للجُزُرِ[2]

«جعفر» الذي ذكره هو جعفرُ بن أبي طالب أخو عليّ رضي الله عنهما قُتل في غَزْوةِ مُؤْتة. «حمزة» هو ابنُ عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ وقتل يوم أُحُد قتله وحشيّ غلام جُبَيْر بن مُطْعِم؛ وجعله ظلّامًا للجزر وصَفَه بالكرم.

وبلّغَتْ يَزْدَجِرْدَ الصّينَ واخترلتْ   عنه سوى الفُرْس جمعَ التُّرك والخَزَرِ
ولم تَرُدّ مواضي رُسْتَمٍ وَقَنَا   ذي حاجبٍ عنه سَعْدًا في ابنة الغِيَرِ

«يزدجرد» الذي ذكر هو ابن شهريار آخر الملوك الساسانيّة. ورُستُم هو الأرمينيّ وهو الذي قاتل سعد بن أبي وقّاص وقُتِل يوم القادسيّة، عل ما يأتي شرح ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وخَضّبت شيبَ عثمانٍ دمًا، وخَطَت   إلى الزبير، ولم تَسْتَحْيِ من عُمَرِ

أشار في هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوّام رضي الله عنهم. وسترد إن شاء الله أخبارهم.

وما رَعَتْ لأبي اليَقْظانِ صُحْبَتَه   ولم تُزَوِّده إلا الضَّيْحَ[3] في الغُمَرِ[4]

«أبو اليقظان» هو عمّار بن ياسر العَنْسيّ قُتل بصِفّين وكان مع عليّ؛ وعنه قال رسول الله ﷺ: «تَقْتُل عمّارًا الفِئةُ الباغية». ولما قتل كانت الرايةُ يومئذٍ بيده فعطِش فدعا بشربة من الماءِ فأُتِي بضَيْحة فشربها ثم قال: أخبرني رسول الله ﷺ أن اللّبن آخِرُ شَرْبَةٍ أشربها في الدنيا؛ فقُتل يومئذٍ رضي الله عنه.

وأجْزَرت[5] سيفَ أشقاها أبا حسنٍ   وأمكنتْ من حسين راحتَيْ شَمِرِ

---

(١) الغيل: الأجمة، والشجر الكثير الملتفّ.
(٢) الجزر: جمع جزور، وهي ما يجزر من نوق أو غنم.
(٣) الضيح: اللبن الرقيق الممزوج بالماء. (٤) الغمر: القدح الصغير.
(٥) أجزرت: جعلته يجزره، أي يقتله.

أشقاها هو عبدُ الرحمـٰن بن مُلْجَم المُرادِيّ قاتلُ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه لقوله ﷺ: «يا عليُّ، أشقاها الذي يَخْضِب هذه من هذه» وأشار إلى لحية عليّ ورأسه. والحسينُ الذي ذكره هو الحسين بنُ عليّ. وشمر هو شمر بنُ ذي الجَوْشَنِ وهو الذي أرسله عبيدُ الله بن زياد إلى عمرَ بنِ سعدٍ يحرّضُه على قتل الحسين؛ وقيل: إن شَمِرًا لم يباشر قتلَ الحسين، والذي قتله سِنانُ بن أَنس النَّخعي، وشَمِرٌ فهو المُجْهِز والمُحَرِّض على قتله، فلذلك ذكره.

وليتَها إذ فَدَتْ عمرًا بخارجةٍ   فدَتْ عليًا بمن شاءت من البشرِ

عمرو الذي أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، أمير مصر لمعاوية بن أبي سفيان. وخارجة رجل من سهم بن عمرو. وكان من خبره أن الخوارج كانت قد اجتمعت على قتل عليّ ومعاوية وعمرو، فكان الذي انتدب لقتل عمرٍو زادويه مولى بني العَنْبر، ورَصَده إلى ليلة المعاد التي اتفقوا على الفتك بهم فيها؛ فاشتكى عمرو تلك الليلةَ من بطنه ولم يخرج للصلاة واستخلف خارجةَ ليُصلّي بالناس؛ فلما قام في المحراب وثب عليه زادويه وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله؛ وأُخِذَ زادويه وأُدْخِل على عمرو، فسمِع الناسَ يخاطبونه بالإمرة، فقال: أوَ ما قتلتُ عمرًا؟ قيل له: [لا] إنما قتلت خارجة؛ فقال: «أردتُ عمرًا وأراد الله خارجة». فلذلك قال: [من البسيط]

* وليتها إذ فدت عمرًا بخارجة *

وفي ابن هندٍ وفي ابن المصطفى حسنٍ   أتت بمُعْضِلة[1] الألبابِ والفِكَرِ
فبعضُنا قائلٌ ما اغتاله أحدٌ   وبعضُنا ساكِتٌ لم يُؤْتَ من حَصَرِ

ابن هند الذي أشار إليه هو معاوية بن أبي سفيان، أراد ما كان بينه وبين الحسن بن عليّ في أمر الخلافة. وأراد بالبيت الثاني ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن مات مسمومًا وأنّ معاوية وعدَ زوجة الحسن جَعْدة بنت قيس الكِنديّ بمائة ألف درهم ويزوّجها لابنه يزيد إن قتلت الحسن، ففعلت وسمّته. ولما مات الحسن وفى لها بالمال وقال: حبُّ حياة يزيد منعني تزويجه منك؛ وقيل: مات الحسن حَتْفَ أنفه[2]. والله أعلم.

وعمّمَتْ بالرَّدى فَوْدَيْ[3] أبي أنسٍ   ولم تَرُدّ الردى عنه قنا زُفَرِ

---

(١) المعضلة: المشكلة، والشيء العظيم.
(٢) حتف أنفه: أي على فراشه.
(٣) الفودان: جانبا الرأس، والمفرد الفود.

أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفِهْري. يُشير إلى ما وقع بينه وبين مروان بن الحكم بمَرْج راهط[١]، وكان الضحاك يدعو لابن الزبير فقُتل الضحَّاك، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار مروان. وكان زُفَر بن الحارث الكلابيّ مع الضحّاك ففرّ عنه.

وأرْدَتِ ابنَ زياد بالحسين فَلَمْ   يَبُؤْ بشِسْعٍ له قد طاح أو ظُفُرِ

أشار إلى عبيد الله بن زياد ابن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق، وهو الذي جهّز عمر بن سعد لحرب الحسين بن عليّ رضي الله عنهما. وقوله: «يبؤ بشسع له» أخذه من قول مهلهل حين قتل بُجَيْر بن الحارث وقال: بُؤْ بشِسْع نعل كُلَيْب.

وأنزلتْ مُصْعبًا من رأس شاهقةٍ   كانت به مهجةُ المُختار في وَزَرِ[٢]

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله. والشاهقةُ هي الكوفة. جعلها شاهقة لمَنْعتها وكثرة رجالها. وأراد ما كان بين مصعب وعبد الملك بن مروان من الحرب التي قُتِل فيها مصعب. والمختار الذي ذكره هو المختار بن أبي عُبَيْد بن مسعود بن عمرو الثَّقفيّ. أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقَتْل المختار. وسنُورد كلّ هذه الوقائع إن شاء الله في التاريخ.

ولم تُراقِبْ مكان ابن الزبير ولا   راعت عِياذَتَهُ بالبيت[٣] والحَجَرِ[٤]

أراد عبدَ الله بن الزبير، وكان يُسَمّى العائذ لأنه كان يقول: أنا العائذ بالبيت، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفيّ لما وجّهه عبد الملك لحربه.

ولم تَدَعْ لأبي الذِّبّان قاضيَةً   ليس اللَّطِيمُ لها عمرٌو بمُنْتَصِرِ

أبو الذِّبّان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم، سمِّي بذلك لبَخَره[٥]. وقوله: «قاضيه» لأنه كان مُظَفَّرًا على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه في سلطانه مثل عبد الله ومصعب ابنيْ الزبير، وعمرو بن سعيد، وعبد الرحمٰن بن الأشعث، ما منهم إلا من

(١) مرج راهط: موقع في سورية إلى الشمال من دمشق انتصر فيه مروان بن الحكم على القيسيّة وذلك سنة ٦٨٤ م.
(٢) الوزر: الملجأ.
(٣) البيت: هو البيت الحرام في مكة. ويراد به الكعبة المشرّفة.
(٤) الحجر: هو حجر إسماعيل، النبيّ، بإزاء الكعبة.
(٥) البخر: رائحة الفم الفاسدة والكريهة.

قُتِل وحكَم فيه قاضيه وهو سيفه، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمّا أتته منيّتُه. وأما اللَّطِيم فهو عمرو بن سعيد الأشْدَق، سمّي بذلك لمَيْلٍ كان في فمه فقيل له من أجله لَطِيمُ الشيطان، وقتله عبد الملك بن مروان.

وأظْفَرْت بالوليد بن اليزيد ولم تُبْقِ الخلافةَ بين الكأس والوترِ

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهو الذي يقال له الجبّار العنيد. أشار إلى ظفر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله. و[قوله]:

.... ولم تُبْق الخلافة بين الكأس والوترِ

أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللّهو واللّعب.

ولم تُعِدْ قُضُبَ[١] السفَّاح نابيةً[٢] عن رأس مروان أو أشياعه[٣] الفُجُرِ[٤]

السفّاح هو أبو العباس عبدُ الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وهو أوّل خلفاء الدولة العباسيّة. يُشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله، وانقراض دولة بني أميّة وقتلهم على يديه.

وأسبلتْ عَبَراتٍ للعيون على دَمٍ بفَخٍّ[٥] لآل المصطفى هَدَرِ

أشار في هذا البيت إلى ذكر من قُتل بفَخّ وهم الحسين بن عليّ بن حسن بن حسن بن علي، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن عليّ، وعبد الله بن إسحٰق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن، على ما نذكره في التاريخ إن شاء الله تعالى.

وأشرقَتْ جعفرًا والفضلُ ينظره والشيخُ يحيىٰ بِريق الصارمِ الذَّكَرِ

أشار في هذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيىٰ بن خالد بن بَرْمَك ونكبة البرامكة في أيام الرشيد.

وأخْفَرتْ في الأمين العهدَ، وانتدبت لجعفر بابنه والأعْبُدِ الغُدُرِ

---

(١) القضب: السيوف.
(٢) نابية: خائبة.
(٣) أشياعه: زمره وأتباعه.
(٤) الفجر: الفاجرون العاهرون.
(٥) فخ: موضع قريب من مكة. حدثت عنده موقعة قتل فيها جنود الهادي، الخليفة العباسي، الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، والحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وإثر هذه الموقعة فرّ إدريس بن عبد الله بن إسحٰق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب فأسس دولة الأدارسة.

الأمين هو محمد بن هارون الرشيد. يُشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد الذي كان الرشيدُ كتبه بينهما. وجعفر الذي أشار إليه هٰهنا هو المتوكل ابن المعتصم. أراد ما كان من قتل باغِر التركي له بمواطأةٍ من ابنه المُنتَصر، على ما نُورده في أخباره.

وروَّعَتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ   وأسلمت كلَّ منصور ومُنْتَصِرِ

المأمون هو عبد الله بنُ الرشيد وهو أوّل من لُقّب بالمأمون، ولُقّب به بعد ذلك ولَدٌ من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيىٰ بن ذي النون صاحبُ طُلَيْطُلة. والمؤتَمن فأوّلُ من لقب به مروان بن الحكم على قول من يقول إنه كان لبني أميّة ألقاب، ثم لُقّب به القاسم بن الرشيد. وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل ابنه المؤتَمن بعد المأمون، وجعل أمرَ المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلَعه؛ فلما أفضت الخلافةُ إلى المأمون أزال المؤتَمن فارتاع لذلك. وتلقَّب بالمؤتَمَن محمدُ بنُ ياقوت مولى المُعْتَضد صاحب فارس. وتلقّب به سلامة الطُّولُوني، وعبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن أبي عامر ثم تسمَّى بالمنصور. وأما المنصور فأوّلُ من لُقّب به هشام بن عبد الملك بن مروان على تلك الرواية، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن عليّ العباسي، ثم أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي صاحب إفريقيّة، ثم محمد بن أبي عامر بالأندلس، وتلقّب به ابن زيري الصِّنْهاجي[١]، وتلقّب به سابور صاحبُ بَطَلْيُوس[٢]، وعبد الله بن محمد بن مسلمة التُّجِيبيّ[٣]، وحفيده يحيىٰ بن محمد بن عبد الله، وعبد العزيز بن أبي عامر؛ ثم تلقّب به جماعةٌ من الملوك بعد نظم هذه المَرْثِيَة. وأما المنتصر فهو محمد بن المتوكّل؛ وممّن تَلقّب بالمنتصر مِدْرار بن الْيَسَع صاحب سِجِلْماسَة[٤].

(١) الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة من قبائل البربر القديمة في المغرب. كانت بينهم وبين زناتة حروب ومنازعات. ناصروا الفاطميين، ومن دولهم دولة بني زيري، ودولة بني حماد، ودولة المرابطين.

(٢) بطليوس، مدينة أندلسية على نهر غواديانا، كانت عاصمة بني الأفطس، وتعرف اليوم باسم بداخس.

(٣) نسبة إلى بني تجيب، السلالة العربية التي خدمت الأمويين وحكمت سرقسطة سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م. خلفها بنو هود، وإليهم ينتسب بنو صمادح من ملوك الطوائف.

(٤) سجلماسة، مدينة قديمة في جنوب المغرب كانت قاعدة تافيلالت، مهد دولة الأشراف العلوية. أطلالها في إقليم قصر السوق على وادي زيز.

وكلُّ هؤلاء أبادهم الموت.

وأعثرتْ آلَ عبّاسٍ ـ لَعًا لَهُمُ[١] ـ بذيْل زَباء[٢] من بِيضٍ ومن سُمُرِ

أشار في هذا البيت إلى ما كان من تَغلُّبِ الأتراك والدَّيلم على خلفاء الدولة العباسيّة حتى لم يبق لهم إلا اسم الخلافة، على ما سيَرد في أخبارهم. وقوله:

* بذيل زباء من بيض ومن سمر *

تنبيهًا على كثرة عدد المتغلِّبين على الأمر وقدرتهم على السِّلاح.

ولا وَفَتْ بعهود المْستعينِ ولا بما تأكَّد للمعتزّ من مِرَرِ[٣]

المستعين هو أحمدُ بن المعتصم العَبّاسي. أشار إلى ما كان من قيام المُعتزّ على المستعين وهرب المستعين من سَامُرّا إلى بغداد. والمعتزّ هو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل، وستَرِد أخبارُهم إن شاء الله تعالى:

وأوثقتْ في عُرَاها كلَّ معتمدِ وأشرقتْ بقَذَاها كلَّ مُقْتَدِرِ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكّل، وهو أوّل من لُقِّب بهذا اللقب، وتلقّب به محمد بن عبّاد بإشبيلية. والمقتدِر هو أبو الفضل جعفر بن المعتضِد، وهو أوّل من لُقِّب بالمقتدر، ثم لُقِّب به أحمد بن سليمان بن هود الجُذاميّ بِسَرَقُسْطَة[٤]. ثم أخذ ابن عبدون في رثاء بني الأفْطَس فقال:

بَني المُظَفَّر والأيّامُ ما بَرِحتْ
مَراحِلًا والورى منها على سَفَرِ
سُحْقًا[٥] ليومكُم يومًا ولا حمَلتْ
بمثله ليلةٌ في مُقْبِل العُمُرِ

---

(١) لعًا لهم: دعاء لهم بمعنى: أنعشهم الله وأقامهم من عثرتهم.
(٢) الزباء: الداهية العظيمة. (٣) مرر، جمع مرّة، وهي القوّة.
(٤) سرقسطة: مدينة أندلسية افتتحها العرب سنة ٧١٢ م. كانت عاصمة بني تجيب وبني هود من ملوك الطوائف.
(٥) سحقًا: بُعدًا.

مَـــنْ لـــلأسِـــرّة أو مَـــنْ لـــلأعـــنَّـــة أو
مـــن لـــلأسِـــنّـــة يُـــهـــديـــهـــا إلـــى الـــثُّـــغَـــرِ
مَـــنْ لـــلـــبـــراعـــة أو مـــن لـــلـــيَـــراعـــةِ[1] أو
مـــن لـــلـــســـمـــاحـــة أو لـــلـــنـــفـــع والـــضَّـــرَرِ
أو رفـــعِ كـــارثـــة أو دفـــعِ آزفـــةٍ[2]
أو قـــمـــعِ حـــادثـــةٍ تَـــعْـــيَـــا عـــلـــى الـــقـــدرِ
مـــن لـــلـــظُّـــبَـــى[3] وعـــوالـــي الـــخـــطّ[4] قـــد عُـــقِـــدَتْ
أطـــرافُ ألْـــسُـــنـــهـــا بـــالـــعِـــيّ والـــحَـــصَـــرِ[5]
وطُـــوِّقـــتْ بـــالـــثـــنـــايـــا الـــسُّـــود بِـــيـــضُـــهـــم
أعْـــجِـــبْ بـــذاك ومـــا مـــنـــهـــا ســـوى ذَكَـــرِ
ويـــح الـــسّـــمـــاح وويـــح الـــجـــود لـــو سَـــلِـــمـــا
وحـــســـرةَ الـــدّيـــن والـــدّنـــيـــا عـــلـــى عـــمـــرِ[6]
سقَـــتْ ثـــرى الـــفـــضـــل والـــعـــبّـــاس[7] هـــامـــيـــةٌ[8]
تُـــعْـــزَى إلـــيـــهـــم سَـــمـــاحًـــا لا إلـــى الـــمـــطـــرِ
ثـــلاثـــةٌ مـــا ارتـــقـــى الـــنَّـــســـران حـــيـــث رقُـــوا
وكـــلّ مـــا طـــار مـــن نَـــسْـــرٍ ولـــم يَـــطِـــرِ
ثـــلاثـــةٌ مـــا رأى الـــعـــصـــران مـــثـــلَـــهُـــم
فـــضـــلًا ولـــو عُـــزِّزا بـــالـــشـــمـــس والـــقـــمـــرِ
ومـــرّ مـــن كـــل شـــيء فـــيـــه أطـــيـــبُـــه
حـــتـــى الـــتـــمـــتـــع بـــالآصـــال والـــبُـــكَـــرِ

(١) اليراعة: القلم، كناية عن المجد الأدبي والفكري.
(٢) الآزفة: الكارثة الوشيك وقوعها. وهي اسم من أسماء يوم القيامة.
(٣) الظبي، جمع ظباة، وهي شفرة السيف.
(٤) عوالي الخطّ، كناية عن الرماح التي تصنع ببلدة الخطّ القديمة.
(٥) العي والحصر: العجز وعدم القدرة على النّطق.
(٦) عمر، هو آخر ملوك بني الأفطس الذي قتل ومعه ولداه.
(٧) لعل الفضل والعباس، هنا، ولدا عمر، وكانا قتلا معه.
(٨) الهامية: السحابة الممطرة.

مَــنْ لــلجـلال الــذي عــمَّــتْ مــهـابـتُـهُ
قــلوبَـنــا وعــيــونَ الأنــجــم الــزُّهُــرِ
أيـــن الإبـــاءُ الـــذي أرسَـــوْا قـــواعـــدَه
عــلى دعــائــمَ مـــن عـــزٍّ ومـــن ظَـــفَــرِ
أيـــن الـــوفـــاء الـــذي أصــفَــوْا مــشـاربَـه
فــلم يَــرِدْ أحــدٌ مــنــهــا عــلى كَــدَرِ
كـــانـــوا رواســـيَ أرض الله مـــنـــذ نـــأوا
عـنـهـا استـطـارت بـمـن فـيـهـا ولـم تَـقِرِ[1]
كـانـوا مـصابـيـحَـهـا فـمـذ خَـبَـوْا[2] غَـبَـرتْ[3]
هـــذي الـــخـــلـيـــقــةُ يــا لله فــي سَــدَرِ[4]
كـانـوا شـجـا الـدهـر فـاسـتـهـوتـهـمُ خُـدَعٌ
مـنـه بـأحـلام عـادٍ فـي خُـطـا الـخَـضِـرِ
مَـنْ لـي ولا مَـنْ بـهـم إن أطـبـقَـتْ مِـحَـنٌ
ولـم يـكـن وِرْدُهـا[5] يُـفـضـي[6] إلـى صَـدَرِ[7]
مَـنْ لـي ولا مـن بـهـم إن أظـلـمـت نُـوَبٌ
ولـم يـكـن لـيـلُـهـا يُـفـضـي إلـى سَـحَـرِ
مَـنْ لـي ولا مـن بـهـم إن عُـطِّـلت سُـنَـنٌ
وأُخْـفِـتَـتْ ألـسُـن الأيـام والـسِّـيَـرِ
عـلى الـفـضـائـل إلّا الـصـبـرَ بـعـدهـمُ
سـلامُ مُـرْتَـقِـبٍ لـلأجـر مـنـتـظِـرِ
يـرجـو عـسـى، ولـه فـي أخـتـهـا طـمَـعٌ
والـدَّهـر ذو عُـقُـبٍ شـتّـى وذو غِـيَـرِ
قَـرّطْـتُ[8] آذانَ مـن فـيـهـا بـفـاضـحـةٍ
عـلى الـحـسـان حـصـى الـيـاقـوت والـدُّرَرِ

(١) تقر: تستقرّ وتهدأ.
(٢) خبوا: انطفأوا.
(٣) غبرت: مرّت.
(٤) السدر: الحيرة والدهشة.
(٥) وردها: إتيان مائها للشرب.
(٦) يفضي: يؤدّي.
(٧) الصدر: الرجوع من الماء بعد الشرب.
(٨) قرّطت: زيّنت، جعلت منها أقراطًا في آذانها من الياقوت والدرر.

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مراثي أبي تمامٍ حبيبِ بنِ أوسٍ الطائي؛ فمِن ذلك ما قاله يرثي به غالبَ بنَ السَّعْديّ: [من الطويل]

هـو الـدّهـر لا يُـشْـوِي[١] وهـنّ الـمـصـائـبُ
وأكـثـر آمـال الـرّجـال كـواذبُ
فـيـا غـالـبًـا لا غـالـبٌ لـرزيّـةٍ
بـل الـمـوتُ لا شـك الـذي هـو غـالـبُ
وقـلـتُ: أخـي، قـالـوا: أخٌ مـن قـرابـة؟
فـقـلـتُ لـهـم إنّ الـشُّـكـول[٢] أقـاربُ
نـسـيـبـيَ فـي رأيٍ وعـزْمٍ ومَـنْـصِـبٍ
وإن بـاعـدتـنـا فـي الأصـول الـمـنـاسِـبُ
كـأن لـم يـقـل يـومًـا: كـأنّ، فـتـنـثـنـي
إلـى قـولـه الأسـمـاعُ وهـي رَواغِـبُ
ولـم يَـصْـدَع الـنـادي بـلـفـظـة فَـيْـصـلٍ[٣]
سِـنـانـيّـةٍ فـي صـفـحـتـيـهـا الـتَّـجـارِبُ

ومنها:

مـضـى صـاحـبـي واسـتـخـلف الـبَـثّ[٤] والأسـى
عـلـيّ، فـلـي مـن ذا وهـذاك صـاحـبُ
عـجِـبـتُ لـصـبـري بـعـده وهـو مـيّـتٌ
وكـنـت امـرأً أبـكـي دمًـا وهـو غـائـبُ
عـلـى أنّـهـا الأيـام قـد صِـرْن كـلُّـهـا
عـجـائـبَ حـتـى لـيـس فـيـهـا عـجـائـبُ

وقال يرثي محمد بن الفضل الحِمْيَريّ: [من الخفيف]

ريْـبُ دهـر أصـمّ دون الـعـتـابِ مُرْصَدٌ بالأوجال[٥] والأوْصابِ[٦]

(١) يشوي: يخطىء غرضه، من إشواء السهم. (٢) الشكول: جمع شكل، وهو المِثل والنظير.
(٣) الفيصل: صفة للسيف الذي يفصل بين الحق والباطل.
(٤) البث: الحزن. (٥) الأوجال: جمع وجل، وهو الخوف.
(٦) الأوصاب: جمع وصب، وهو التعب والعناء.

جفَّ دَرّ الدنيا فقد أصبحت تَكـ ـتَال أرواحَنا بغير حسابِ
لو بدَتْ سافرًا أُهِينَتْ ولكن شغَفَ الخلقَ أنّها في النِّقابِ
إن ريب الزمان يُحْسن أن يُهـ ـدي الرّزايا إلى ذوي الأحسابِ
فلهذا يجفّ بعد اخضرارٍ قبل روض الوِهاد روضُ الرَّوابي

جاء منها:

ذهبتْ يا محمد الغُرُّ من أيّـ ـامك الواضِحاتِ أيَّ ذَهابِ
عبَّس اللحدُ والثرى منك وجهًا غيرَ ما عابسٍ ولا قطَّابِ
أطفأ اللحدُ والثرَى لُبَّك المَسْـ ـروجَ في وقت ظُلمة الألبابِ
وتبدّلتَ منزلًا ظاهرَ الجَدْ ب يُسَمَّى مُقَطِّعَ الأسبابِ
منزلًا مُوحِشًا وإن كان معمو رًا بجُلّ الصديق والأحبابِ
يا شِهابًا خبا لآل عبيد الله أعْزِزْ بفقد هذا الشِّهابِ

ومنها:

أنزلته الأيّامُ عن ظهرها من بعد إثبات رِجْلِه في الرِّكابِ
حين تمّ الشّبابُ واغتدت الدنـ ـيا إليه مفتوحةَ الأبوابِ
وحكى الصارمَ المُحَلَّى سوى أنّ حُلَاه جَواهِرُ الآدابِ
قصدَتْ نحوه المنيّة حتى وهبَت حسنَ وجهه للترابِ

وقال يرثي إسحٰق بن أبي رِبْعيّ: [من السريع]

أيّ ندًى بين الثرى والجُيوبِ وسُؤدُدٍ(١) لَدْنٍ ورأيٍ صليبِ(٢)
يا ابن أبي رِبْعِيٍّ استُقْبِلتْ من يومك الدنيا بيومٍ عصيبِ(٣)
شقّ جيوبًا من أناسٍ لو اسـ ـطاعوا لشقّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعد قريبًا فقد صرتَ على قربك غيرَ القريبِ
راحت وفودُ الأرض عن قبره فارغةَ الأيدي مِلاءَ القلوبِ
قد علِمتْ ما رُزِئتْ، إنما يُعْرَف فقدُ الشَّمس بعد المَغِيبِ

(١) سؤدد: مجد ورفعة.
(٢) صليب: شديد قوي.
(٣) عصيب: شديد.

إذا البعيدُ الوطن انتابه حَلّ إلى نَهْي ووادٍ خصيبِ
أدنته أيدي العيس[١] من ساحةٍ كأنها مَسْقِطُ رأس الغريبِ
أظلمتِ الآمالُ من بعده وعُرِّيتْ من كل حسن وطِيبِ
كانت خدودًا صُقِلتْ برهَةً واليوم صارت مألَفًا للشّحوبِ
كم حاجةٍ صارت رَكُوبًا به ولم تكن من قبله بالرَّكُوبِ
حلّ عِقالَيها[٢] كما أطْلقت من عُقَد المُزْنَة[٣] ريحُ الجنُوبِ
إذا تيمّمناه في مَطْلبٍ كان قَلِيبًا[٤] ورشاءً[٥] القليبِ
ونعمة منه تسربلتُها كأنها طُرّةُ[٦] بُرْدٍ[٧] قَشِيبِ[٨]
من اللّواتي إن ونَى شاكرٌ قامت لمُسْدِيها مَقامُ الخطيبِ
متى تُنَخْ تُرْحَلْ بتفضيله أو غاب يومًا حضرَتْ بالمَغِيبِ
فما لنا اليوم ولا للعُلا من بعده غيرُ الأسى والنَّحيبِ

وقال يرثي أحمد بن هارون القرشيّ: [من الخفيف]

دأبُ[٩] عيني البكاء، والحزنُ دابي فاتركيني - وُقيتِ ما بي - لما بي
سأُجزَى بقاءَ أيامِ عمري بين بَثّي وعَبْرتي واكتئابي
فيك يا أحمد بن هارونَ خَصّت ثم عمّت رزيّتي ومُصابي
فجعتني الأيّامُ في الصادق النُطـ ـق فتى المَكْرُمات والآدابِ
بخليلٍ دون الأخلاءِ لا بل صاحبي المُصْطَفى على أصحابي
أفلَمَا تَسَرْبل المجدَ واجتا ب[١٠] من الحمد أيّما مُجْتابِ
وتراءته أعينُ النّاظريه قمرًا باهرًا ورِئبال[١١] غابِ
وعلا عارضَيْه[١٢] ماء النّدَى الجا ري وماءُ الحِجَا[١٣] وماءُ الشبابِ
أرسلتْ نحوه المنيّةُ عينًا قطّعت منه أوثَق الأسبابِ

---

(١) العيس: النوق البيض.
(٢) عقاليها، مثنّى عقال، وهو الحبل تشدّ به الدابّة.
(٣) المزنة: الغيمة الممطرة.
(٤) قليبًا: بئرًا.
(٥) الرشاء: الحبل تشدّ به الدّلو للسّقاء.
(٦) طرّة الثوب: طرفه وحاشيته.
(٧) البرد: الثوب الموشّى.
(٨) قشيب: جديد.
(٩) الدأب: العادة.
(١٠) اجتاب: لبس وتسربل.
(١١) الرئبال: الأسد.
(١٢) عارضيه: جانبي رأسه.
(١٣) الحجا: العقل والوقار.

وقال يرثي أبا الصقر[١]: [من البسيط]

لو صُحِّح الدمعُ لي أو ناصَحَ الكمدُ[٢] لقلّما صَحِبَاني الرُّوح والجسدُ
خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ له أخًا فلم يتخوَّنْ جسمَه الكَمدُ
تساقُطُ الدمع أدنى ما بُليتُ به للوجد إذ لم تَسَاقَطْ مُهجةٌ ويدُ
فوالذي رَتَكت[٣] تَطْوِي الفِجاجَ له سفائنُ البرّ[٤] في خَدّ الثرى تَخِدُ[٥]
لأَنفَدَنَّ أسًى إن لم أمتْ أسفًا وينفَد العمر بي أو ينفَدَ الأمدُ
عنّي إليك فإني عنك في شُغُلٍ لي منه يومٌ سيُبْلِي مهجتي وغدُ
وإن بُجْرِيةٌ[٦] نابت جأرتُ[٧] لها إلى ذَرَى جَلَدي فاستؤهل الجَلَدُ
هي النوائبُ فاشْجَيْ أوفِعي عِظةً فإنها شجرٌ أثمارُها رَشَدُ
هُبِّي تَرَيْ قلقًا من تحته أرقٌ يحدوهما كمدٌ يَعْنو[٨] له الجسدُ
صمّاءُ سمُّ العِدا في جنبها ضَرَبٌ[٩] وشربُ كأس الردَى في ظلّها شَهَدُ
هناك أُمُّ النُّهَى لم تُودِ من حَزَن ولم تَجُدْ لبني الدنيا بما تَجِدُ
لو يعلم الناسُ علمي بالزمان وما عانت يداه لما ربَّوْا ولا وَلَدُوا
لا يُبْعِد الله ملحودًا أقام به شخصُ الحجا وسقاه الواحِد الصَّمَدُ
يا صاحب القبر، دعوى غير مُتَّئِبٍ[١٠] إن قال أودى[١١] النَّدى والبدرُ والأسدُ
بات الثرى بأخي جذلانَ مبتهجًا وبِتُّ يحكم في أجفانيَ السَّهَدُ[١٢]
لهفي عليك وما لهفي بمُجْدِيةٍ ما لم يَزُرك بنفسي حَرُّ ما أجِدُ[١٣]
أمسى أبو الصقر يعفو التربُ أحسنَه دوني ودَلْوُ الرَّدى في مائه يَرِدُ
ويْلٌ لأُمّك أَقْصِرْ إنه حَدَثٌ لم يَعْتقِدْ مثلَه قلبٌ ولا خلدُ[١٤]

---

(١) أبو الصقر: ربما هو أبو الصقر، إسماعيل بن بلبل، وزير المعتمد، الخليفة العباسي.
(٢) الكمد: الحزن والغمّ الشديد.
(٣) رتكت: راحت تمشي بسرعة وتعدو.
(٤) سفائن البرّ، كناية عن الجمال.
(٥) تخد: تمشي الوخد، وهو ضرب من سير الإبل، فيه سرعة.
(٦) البجرية: النائبة والداهية والأمر العظيم.
(٧) جأرت: تضرّعت.
(٨) يعنو: يخضع ويذلّ.
(٩) الضرب: العسل الأبيض الغليظ.
(١٠) متّئب: منخذل.
(١١) أودى: هلك.
(١٢) السهد، والسهاد: عدم النوم والرقاد.
(١٣) أجد: أحزن.
(١٤) خلد: نفس.

غال[١] الزمانُ شقيقَ الجود لم يَقِه أهلٌ ولم يَفْدِه مالٌ ولا ولدُ
حين ارتوى الماءَ وافترّت شبيبتُه عن مَضْحَكٍ للمعالي ثغرُه بَرَدُ
وقيل: أحمدُها، بل قيل: أمجَدُها بل قيل: أنجدُها إن فرّتِ النُجُدُ
رُؤْدُ[٢] الشباب كنصل السيف لا جَعَدٌ في راحتيه ولا في عوده أَوَدُ[٣]
سقى الحبيسَ ومحبوسًا ببَرْزَخِه[٤] من السُّمِيّ كغيثِ الوَدِقِ[٥] يَطَّرِدُ[٦]
بحيث حلّ أبو صقر فودّعه صفوُ الحياة ومن لذّاتها الرَّغَدُ
بحيث حلّ فقيدُ المجد مُغْتَرِبًا ومُورِثًا حسراتٍ ليس تُفْتَقَدُ

وقال يَرثي عُمَيْر بن الوليد: [من الوافر]

أعِيدي النَّوحَ مُعْوِلَةً أعِيدي وزيدي في بكائك ثم زِيدِي
وقُومِي حاسِرًا في حاسرات خَوَامِشَ للنُّحور وللخُدودِ
هو الخطبُ الذي ابتدأ الرَّزايا وقال لأعين الثَّقَلَيْنِ[٧] جُودي
ألَا رُزِئَتْ خُرَاسانٌ فتاها غداةَ ثوى عُمَيْرُ بن الوليدِ
إلَا رُزِئت بمسؤول مُنِيلٍ ألَا رُزِئَتْ بمِتلافٍ[٨] مُفيدِ
ألَا إنّ النَّدى والجودَ حلَّا بحيث حلَلْتَ من حُفَر الصَّعِيدِ[٩]
بنفسي أنت من ملكٍ رمتْه منيّتُه بسهمِ رَدًى سديدِ
تجلّتْ غَمْرةُ الهيجاء عنه خَضيبَ الوجه من دمه الجَسيدِ
فيا بحر المَنُون ذهبتَ منه ببحر الجود في السَّنَة الصَّلُودِ[١٠]
ويا أسدَ المنون فرَسْتَ[١١] منه غداةَ فرستَه أسدَ الأسودِ
أبالبطل النَّجيد[١٢] فتكتَ منه نعم وبقاتل البطل النَّجيدِ
تَراءَى للطِّعان وقد تَراءَتْ وجوه الموت من حُمْرٍ وسُودِ

---

(١) غال: أردى وصرع.
(٢) رؤد: حسن، ونضير.
(٣) الأود: الاعوجاج.
(٤) البرزخة: الحاجز بين الشيئين.
(٥) الودق: المطر.
(٦) يطّرد: يتسارع.
(٧) الثقلان: الإنس والجنّ.
(٨) متلاف: للمبالغة من أتلف الشيء: إذا بدّده وصرفه.
(٩) الصعيد: التراب.
(١٠) السنة الصلود: القليلة الخير والأمطار.
(١١) فرست: قتلت، وصرعت.
(١٢) النجيد: السريع النجدة.

فـيـا لَكِ وقـعـةً جَـلَلًا[١] أعـادت أسًـى وصـبـابـةً جـلَدَ الـجـلـيـدِ
ويـا لـكِ سـاعـةً أهـدتْ غَـلـيـلًا[٢] إلـى أكـبـادنـا أبَـدَ الأبِـيـدِ
ألا أبْـلِـغْ مـقـالـتـيَ الإمـامَ الـ ـخليـفـة والأمـيـنَ بـنَ الـرشـيـدِ
بـأن أمـيـرَنـا لـم يَـألُ[٣] عـدلًا ونُـصْـحًـا فـي الرَّعـايـا والـجـنـودِ
أفـاض نـوالَ راحـتـه عـلـيـهـم وسـامـح بـالطَّـريـف وبـالـتَّـلـيـدِ[٤]
وأضـحـى دونـهـم لـلـموت حـتـى سقاه الموتُ من مَقِرٍ[٥] هَبِيدِ[٦]
ومـا ظـفِـروا بـه حـتـى قَـرَاهـم قَـشـاعِـمَ[٧] أنْـسُـر وضِـبـاعَ بـيـدِ
بـطـعـنٍ فـي نـحـورهُـم رشـيـقٍ وضـربٍ فـي رؤوسـهـمُ عـتـيـدِ
فـيـا يـومَ الـثـلاثـاء اصـطـبـحـنـا غـداةً مـنـك هـائـلـةَ الـورودِ
ويـا يـوم الـثـلاثـاء اعـتَـمَـدْنـا بـفـقـدٍ فـيـك لـلسَّـنَـد الـعَـمِـيـدِ
وكـم أسـخَـنْـتَ فـيـنـا مـن عـيـونٍ وكـم أعـثـرتَ فـيـنـا مـن جُـدودِ[٨]
فما زُجِرتْ طيورُك عن سَنِيحٍ[٩] ولا طَـلـعـتْ نـجـومُـك بـالـسُّـعـودِ
ألَا يـا أيـهـا الـمـلـكُ الـمُـرَدّى رداءَ الـمـوت فـي جَـدَثٍ[١٠] جـديـدِ
حـضـرتُ فِـنـاءَ بـابـك واعـتـرانـي شجًى بين المُخَنَّق[١١] والوَرِيدِ
رأيـتُ بـه مـطـايـا مُـهْـمَـلَاتٍ وأفراسًا صَوافِنَ[١٢] بالوَصِيدِ[١٣]
فـكـنـتَ عَـتَـادَ إمـا فَـكُّ عـانٍ[١٤] وإمـا قـتـلِ طـاغـيـةٍ عَـنُـودِ
رأيـتُ مـؤمِّـلـيـك عَـدَتْ عـلـيـهـم عوادٍ[١٥] صعَّدَتْهم في كَؤودِ[١٦]
وأضـحـت عـنـد غـيـرك فـي هـبـوطٍ حـظـوظٌ كـنّ عـنـدك فـي صُـعُـودِ

---

(١) جللًا: عظيمة.
(٢) الغليل: اللوعة والحرقة وشدة العطش.
(٣) يأل: يقصّر.
(٤) التليد، من المال، القديم. والطريف: المحدث.
(٥) المقر: السمّ، والشيء الشديد المرورة.
(٦) الهبيد: الحنظل، ويعرف بمرورة طعمه.
(٧) قشاعم: صفة للنسور.
(٨) جدود: حظوظ.
(٩) السنيح من الطير، من يمرّ عن يمين الناظر إليه.
(١٠) الجدث: القبر.
(١١) المخنّق: موضع الخناق من العنق.
(١٢) صوافن الخيل: التي تقف على ثلاث قوائم وتبقي الرابعة مطوية.
(١٣) الوصيد: الكهف، وفناء الدار.
(١٤) العاني: الأسير.
(١٥) العوادي: النوازل والمصائب، جمع عادية.
(١٦) الكؤود: الشاقة المصعد، الصعبة المرتقى.

وأصبحتِ الوفودُ إليك وفقًا على أن لا مُفَادَ لِمُسْتَفِيدِ
فكلُّهُم أعدّ اليأسَ وقْفًا عليك ونصَّ[1] راحلةَ القُعودِ
لقد سَخِنتْ عيونُ الجود لمّا ثوبتَ وأُقْصِدتْ[2] غُرَرُ القصيدِ

وقال يرثي محمدَ بنَ حُمَيْد الطُّوسيّ[3]: [من الطويل]

كذا فَلْيَجِل الخطبُ[4] وليَفْدحِ[5] الأمرُ
فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفِّيتِ الآمالُ بعد محمدٍ
وأصبح في شغلٍ عن السَّفر السَّفْرُ[6]
وما كان إلا مالَ من قلّ مالُه
وذُخرًا لمن أمسى وليس له ذُخرُ
وما كان يَدري المُجْتدي[7] جودَ كفّه
إذا ما استهلّت أنه خُلِق العُسرُ
ألَا في سبيل الله من عُطِّلت له
فِجاجُ سبيل الله وأثّغر الثغرُ[8]
فتًى كلما فاضت عيونُ قبيلةٍ
دمًا ضَحِكت عنه الأحاديثُ والذِّكرُ
فتًى دهرُه شطران فيما يَنُوبه
ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطرُ
فتًى مات بين الضرب والطعن مِيتةً
تقوم مَقام النَّصر إذ فاته النَّصرُ

(١) نصّ الفرس والناقة والدابة: استحثّها شديدًا. (٢) أقصدت: طُعنت.
(٣) محمد بن حميد الطوسي، من الأعيان والقوّاد، جهّزه المأمون لقتال بابك الخرمي، فقتل في تلك الوقعة أو الحملة سنة ٢١٤ هـ.
(٤) الخطب: الرّزء. (٥) يفدح: يعظم.
(٦) السفر: جماعة المسافرين. (٧) المجتدي: طالب المعروف.
(٨) اثّغر الثغر: اثّغر: سقط السنّ، والثغر، الفم. وهنا: المقصود بالثغر: المكان المتقدم على تخوم الأعداء. فبموت محمد ثغر هذا الثغر، أي سقط في أيدي الأعداء.

وما مات حتى ماتَ مَضْرَبُ سيفه
من الشلّ[١] واعتلّت عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلًا فردّه
عليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنه
هو الكفرُ يوم الرَّوع[٢] أو دونه الكُفرُ
فأثبتَ في مُسْتَنقع الموت رِجْلَه
وقال لها من تحت أخمصك[٣] الحشرُ[٤]
غدا غُدوةً والحمدُ نسجُ ردائه
فلم ينصرف إلا وأكفانُه الأجرُ
تردّى ثيابَ الموت حُمْرًا فما أتى
لها الليل إلا وهي من سندسٍ خُضْرُ
كأنّ بَني نَبْهان يوم وفاته
نجومُ سماء خرَّ من بينها البدرُ
يُعَزّون عن ثاوٍ تُعَزّى به العُلَا
ويَبْكي عليه الجُود والبأس والشعرُ
وأنّى لهم صبرٌ عليه وقد مشى
إلى الموت حتى استُشْهِدا هو والصَّبرُ!
فتًى كان عذبَ الروح لا عن غَضَاضةٍ[٥]
ولكنّ كِبرًا أن يكون له كِبْرُ
فتًى سلبته الخيلُ وهو حِمًى لها
وبزّته نارُ الحرب وهو لها جَمْرُ
وقد كانت البِيضُ المآثِير في الوغى
بَواترَ فهي الآن من بعده بُتْرُ[٦]

---

(١) الشل: طرد العدو.
(٢) الروع: الحرب، والفزع.
(٣) أخمص القدم أو الرجل: أسفلها.
(٤) الحشر: البعث والنشور.
(٥) الغضاضة: الذلّة.
(٦) بتر: مقطوعة. والبواتر: صفة للسيوف.

أمِن بعد طيِّ الحادثات محمدًا
يكون لأثواب العلا أبدا نَشْرُ!
إذا شَجَرات العرف جُذَّتْ أصولُها
ففي أيّ فرع يُوجد الورقُ النَّضرُ!
لئن أبغِضَ الدهرُ الخؤون لفقده
لَعَهْدي به ممّن يُحَبُّ له الدهرُ
لئن غدرتْ في الرَّوع أيامُه بهِ
لَمَا زالت الأيامُ شيمتها الغدرُ
لئن ألْبِسَتْ فيه المصيبةَ طيِّءٌ
لَمَا عُرِّيتْ منها تميمٌ ولا بَكْرُ[1]
كذلك ما ننفكّ نفقِد هالكًا
يُشاركنا في فقده البدو والحَضْرُ
سقى الغيثُ غيثًا وارتِ الأرضُ شخْصَه
وإن لم يكن فيها سحاب ولا قَطْرُ
وكيف احتمالي للسّحاب صنيعةً
بإسقائِها قبرًا وفي لحده البحرُ
ثوى في الثَّرَى من كان يحيا به الثّرى
ويَغْمُرُ صرفَ الدهر نائلُه الغَمْرُ[2]
مضى طاهرَ الأثواب لم تَبْقَ رَوضةٌ
غَداةَ ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ
عليك سلامُ الله وقْفًا فإنني
رأيتُ الكريم الحرَّ ليس له عمرُ

وقال يرثي إدريس بن بدر السّاميّ: [من الطويل]

دموعٌ أجابت داعيَ الحزن هُمَّعُ[3] تَوَصَّلُ منا عن قلوب تَقطَّعُ
عَفاءٌ[4] على الدنيا طويلٌ فإنها تَفَرَّقُ من حيث ابتدت تَتَجمَّعُ

---

(١) طيىء وتميم وبكر، من قبائل العرب.
(٢) الغمر: الكثير الماء.
(٣) همّع: سائلة.
(٤) عفاء: زوال وانطماس.

تبـدَّلَتِ الأشـيـاءُ حـتـى لَخِلتُـهـا ... ستَثْنِي غروبَ الشمس من حيث تَطْلُعُ
لـهـا صَيْحةٌ في كـل رُوح ومهجةٍ ... وليست لشيءٍ ما خلا القلبَ تُسْمِعُ
أإدريسُ ضاع المجدُ بعدَك كلُّه ... ورأيُ الذي يرجوه بعدك أضْيَعُ
وغُودِر وجهُ العُرْف[١] أسودَ بعد ما ... يُرَى وهو كالبِكر[٢] الكَعاب[٣] تَصَنَّعُ
وأصبحتِ الأحزانُ لا لمبرّةٍ ... تُسَلِّم شَزْرًا[٤] والمعالي تُودِّعُ
وضلّ بك المُرْتاد[٥] من حيث يَهْتدي ... وضرّتْ بك الأيامُ من حيث تنفعُ
وأضحت قَرِيحات القلوب من الجَوى[٦] ... تَقيظ[٧] ولكن المدامعَ تَرْبعُ[٨]
عيونٌ حفِظن الليلَ فيك محرَّمًا ... وأعطينك الدمعَ الذي كان يُمْنَعُ
وقد كان يُدعى لابسُ الصبر حازمًا ... فأصبح يُدْعَى حازمًا حين يَجْزَعُ
وقالوا عزاءً: ليس للموت مَدْفَعٌ ... فقلت: ولا للحزن للمرء مَدْفعُ
لإدريسَ يومٌ ما تزال لذكره ... دموعي وإن سكّنتُها تتفرَّعُ
ولما نضا[٩] ثوبَ الحياة وأوقعت ... به نائباتُ الدهر ما يُتوقَّعُ
غدا ليس يَدْري كيف يَصنَع مُعْدِمٌ ... درَى دمعُه من وجده كيف يَصنعُ
وماتت نفوس الغالبيِّين كلهم ... وإلا فصبرُ الغالبيّين أجمعُ
غَدَوْا في زوايا نعشه وكأنما ... قريشٌ قريشٌ حين مات مُجَمِّعُ[١٠]
ولم أنسَ سَعْيَ الجود خلفَ سريره ... بأكسفِ[١١] بالٍ يَستقيم ويَظْلَعُ[١٢]
وتكبيرَه خَمْسًا عليه مُعالِنًا ... وإن كان تكبير المصلّين أربَعُ
وما كنت أدري يعلم الله قبلها ... بأن النَّدى في أهله يتشيَّعُ[١٣]
وقمنا فقلنا بعد أن أُفرِد الثرى ... به ما يُقال في السَّحابة تُقْلِعُ

(١) العرف: المعروف.
(٢) البكر من النساء: العذراء.
(٣) الكعاب من النساء، من كعب نهداها وظهرا في مقتبل العمر.
(٤) شزرًا: غضبًا.
(٥) المرتاد: طالب الورد والمعروف.
(٦) الجوى: الحزن.
(٧) تقيظ: يشتدّ حرّها.
(٨) تربع: تخصب.
(٩) نضا: خلع ونزع.
(١٠) مجمّع: هو لقب قصي بن كلاب، أحد أجداد النبيّ ﷺ ومن أبرز أعيان قريش.
(١١) أكسف: أضيق، وأشدّ عبوسًا.
(١٢) يظلع: يعرج.
(١٣) يتشيّع: يعلن انتماءه إلى الشيعة. وفي البيت، والبيت الذي قبله إشارة إلى أنّ الجود، أي الكرم، مشى في جنازة المرثيّ، وصلّى عليه، وكبّر خمس تكبيرات، كما هو الحال عند الشيعة لا أربع، كما عند السّنة.

هذا مأخوذ من قول مسلم[١]: [من الكامل]

فاذهبْ كما ذهبتْ غَوادي مُزْنَةٍ ... أثنى عليها السهلُ والأوعارُ
ألم تك تَرْعانا من الدَّهر إن سطا ... وتحفَظُ من أموالنا ما نُضَيِّعُ
وتبسُطُ كفًّا في الحقوق كأنما ... أناملُها في البأس والجود أذْرُعُ
وتَلْبَسُ أخلاقًا كِرامًا كأنها ... على العِرْض من فرط الحَصانة أدْرُعُ
وتربِطُ جأشًا والكُماةُ[٢] قلوبُهم ... تَزَعْزَعُ خوفًا من قَنًا تَتَزَعْزَعُ
وأمنيَّةُ المرتاد يحضُرك النَّدى ... فيَشْفَع في مثل الفلا فيُشَفَّعُ
فأُنطِقَ فيه حامدٌ وهو مُفحَمٌ ... وأفْحِمَ[٣] فيه حاسدٌ وهو مِصْقَعُ[٤]
ألا إنّ في ظُفْر المنيّة مُهجةً ... تَظلّ لها عينُ العُلا وهي تدمَعُ
هي النفس إن تبْكِ المكارمُ فقدَها ... فمن بين أحشاء المكارِم تُنزَعُ
ألا إنّ أنفًا لم يَعُدْ وهو أجدع[٥] ... لفقدك عند المكرمات لأجدَعُ
وإن امرءًا لم يُمْسِ فيك مُفجَّعًا ... بملحوده، في عقله لمُفجَّعُ

وقال يرثي القاسم بنَ طَوْق بن مالك: [من الطويل]

جوًى ساور الأحشاءَ والقلبَ واغِلُهْ[٦] ... ودمعٌ يَضِيم[٧] العينَ والجفنَ هامِلُهْ[٨]
وفاجعُ موت لا عدوٌّ يخافه ... فيُبْقِي، ولا يُبْقي صديقًا يُجَامِلُهْ
وأيُّ أخي عِزّ وذي جَبَرية ... ينابذه أو أيُّ رامٍ يناضِلُهْ[٩]
إذا ما جرى مَجْرى دم المرء حُكْمُه ... وبُثّت على طُرق النفوس حَبَائلُهْ!
فلو شاء هذا الدهرُ أقْصَرَ شرُّه ... كما أقصرتْ عنّا لُهَاهُ[١٠] ونائلُهْ[١١]

---

(١) مسلم: هو مسلم بن الوليد، الشاعر العباسي، والملقب بصريع الغواني. مدح الرشيد والبرامكة واتصل بالفضل بن سهل وزير المأمون فولّاه البريد في جرجان. مات سنة ٨٢٣ م.
(٢) الكماة: جمع كميّ، وهو الفارس.
(٣) أفحم: أرغم على السكوت، وعدم القدرة على الرّد.
(٤) مصقع: المصقع من الخطباء: البليغ المفوّه. (٥) أجدع: مقطوع الأنف.
(٦) واغله: الذاهب بعيدًا. (٧) يضيم: يقهر ويظلم.
(٨) الهامل: المنسكب. (٩) يناضله: ينافحه ويدفعه ويحاربه.
(١٠) لهاه: المفرد لهوة، والجمع اللهى، وهي العطيّة، والبدرة من المال.
(١١) النائل: المعروف والعطيّة.

سنشكوه إعلانًا وسرًّا ونيّةً شكيّةَ من لا يستطيع يُقاتلُهْ
فمن مبلغٌ عنّي ربيعةَ[١] أنّه تقشّعَ[٢] طَل[٣] الجُود عنها ووابلُهْ[٤]
وأن الحِجَا منها استطارت صُدوعه وأنّ الندى منها أصيبت مَقَاتلُهْ
مضى للزِّيالِ القاسمُ الواهبُ اللُّهى ولو لم يُزَايلنا[٥] لكنّا نُزَايِلُهْ
ولم يعلموا أنّ الزمان يريده بفجع ولا أنّ المنايا تُراسِلُهْ

ومنها:

طواه الردى طَيَّ الرِّداء وغُيِّبت فضائلُه عن قومه وفَوَاضلُهْ[٦]
طوى شِيَمًا[٧] تروحُ وتغتدِي وسائلَ من أعيتْ عليه وَسَائلُهْ
فيا عارضًا للعُرْف أقلَعَ مُزْنُه ويا واديًا للجُود جَفَّت مَسايِلُهْ

وقال يرثي محمد بن حُميد وأخاه قحطبة: [من الكامل]

بأبي وغيرِ أبي - وذاك قليلُ - ثاوٍ[٨] عليه ثرى النُّبَاج[٩] مَهِيلُ[١٠]
خَذَلَته أسرته كأنّ سَراتَهم[١١] جهلوا بأن الخاذلَ المخذولُ
أكّالُ أشلاءِ[١٢] الفوارس بالقَنَا أضحى بهنّ وشِلْوُهُ[١٣] مأكولُ
كُفّي، فقتلُ محمدٍ لِيَ شاهدٌ أن العزيزَ مع القضاء ذليلُ

ومنها:

هيهات لا يأتي الزمانُ بمثله إنَّ الزمانَ بمثله لبَخيلُ
ما أنتَ بالمقتولِ صبرًا[١٤] إنّما أَمَلِي غداةَ نَعِيِّك[١٥] المقتولُ

---

(١) ربيعة: قبيلة عربية كبيرة ينسبون إلى ربيعة بن نزار، ومن نسل ربيعة بكر ووائل وتغلب، وغيرها من البطون العربية الكثيرة العدد.
(٢) تقشع: تبدّد، وزال.
(٣) الطلّ: الندى، والمطر الضعيف، وكل حسن معجب.
(٤) الوابل: المطر القوي الشديد.
(٥) يزايلنا: يفارقنا.
(٦) الفضائل، جمع فضيلة، وهي الدرجة الرفيعة في الفضل. ومثلها الفاضلة، وجمعها فواضل.
(٧) شيمًا: صفاتٍ وأخلاقًا حسنة.
(٨) ثاوٍ: مقيم.
(٩) النباج: التراب.
(١٠) مهيل: متصبّب ومكدّس.
(١١) سراتهم: سراة القوم، أعلاهم وأشرفهم.
(١٢) أشلاء: قطع ممزّقة من اللحم.
(١٣) شلوه: القطعة من الأشلاء.
(١٤) صبرًا: ظلمًا تحت حدّ السيف، يضرب حتى يموت.
(١٥) نعيّك: خبر وفاتك وموتك.

ومنها:

مَن ذا يحدّث بالبقاء ضميره! هيهات! أنت على الفَناء دليلُ
يا ليت شعري بالمكارم كلِّها ماذا، وقد فقدت نداك، تقولُ؟

ومنها:

يا يومَ قحطبةٍ لقد أبقيتَ لي حُرَقًا أرى أيّامها ستطولُ
ليثٌ لو أن الليث قام مَقامه لانصاع[١] وهو يَرَاعةٌ[٢] إجْفيلُ[٣]
لمّا رأى جمعًا قليلًا في الوغَى وأولو الحِفاظ من القليل قليلُ
لاقى الكريهةَ وهو مُغْمِدُ رَوْعه فيها ولكنْ بأسُه مسلولُ
ومشى إلى الموت الزُّؤام[٤] كأنما هو من محبّته إليه خليلُ

ومنها:

أضحتْ عِراصُ[٥] محمدٍ ومحمدٍ وأخيهما وكأنهنّ طُلولُ
ابني حُمَيدٍ ليس أوّلَ ما عفا[٦] بعد الأسود من الأسود الغِيلُ[٧]
ما زال ذاك الصبرُ وهو عليكُمُ بالموت في ظلّ السيوف كفيلُ
مستبسلون كأنّما مُهُجاتُهُم[٨] ليست لهم إلا غداةَ تسيلُ
أَلِفوا[٩] المنايا فالقتيلُ لديهمُ من لم يُخَلِّ العيشَ وهو قتيلُ
إن كان ريبُ الدهر أَثْكلنِيكُمُ[١٠] فالموتُ أيضًا ميِّتٌ مثكولُ

---

(١) انصاع: انقاد.
(٢) يراعة: اليراعة، القلم. واليراعة، كما هو أعلاه: الجبان.
(٣) إجفيل: الشديد الجفول، والهارب من المواجهة أو الموت.
(٤) الزؤام: السريع والكريه.
(٥) عراص: جمع عرصة، وهي الباحة، وفناء البيت.
(٦) عفا: درس.
(٧) الغيل: الأجمة، حيث الشجر الكثير الملتف، وفيها تكون بيوت الأسود.
(٨) مهجاتهم: أرواحهم. (٩) ألفوا: أنسوا بها، واتخذوها إلفًا.
(١٠) أثكلنيكم: جعلني أثكلكم، أي أفقدكم.

وقال يعزّي مالكَ بنَ طَوْق[1]: [من الطويل]

أمالكُ إنّ الحزنَ أحلام حالمٍ ... ومهما تدُمْ فالحزنُ ليس بدائِمِ
أمالكُ إفراطُ الصبابة تاركٌ ... حِنًا[2] واعوجاجًا في قناة المكارمِ
تأمّلْ رُوَيْدًا هل تَعُدَّنَ سالمًا ... إلى آدمٍ أم هل تعدُّ ابنَ سالمِ!
متى تُرْعِ هذا الموتَ عينًا بصيرةً ... تَجِدْ عادلًا منه شبيهًا بظالِمِ
فإن تكُ مفجوعًا بأبيضَ لم تكن ... تشُدُّ على جدواه[3] عقدَ التمائمِ[4]
بفارس دُغْمِيٍّ[5] وهَضْبةِ وائلٍ[6] ... وكوكبِ عتّابٍ[7] وحمزةِ[8] هاشمِ[9]
شَجا[10] الريحَ فازدادتْ حنينًا لفقده ... وأحدثَ شَجْوًا في بُكاء الحمائمِ
فمن قبله ما قد أصيب نبيُّنا ... أبو القاسم[11] النورُ المبينُ بقاسِمِ[12]
وخُبِّرَ قَيْسٌ بالجليّةِ في ابنه ... فلم يتغيّر وجهُ قيس بن عاصمِ[13]
وقال عليٌّ[14] في التعازي لأشعثٍ ... وخاف عليه بعض تلك المآثمِ
أتصبر للبلوى عزاءً وحِسبةً ... فتُؤجَرَ، أم تسلو سلوّ البهائمِ؟[15]

---

(١) هو مالك بن طوق التغلبي، من ولاة العباسيين. بنى مدينة الرّحبة على الفرات وذلك في عهد المأمون.

(٢) حنًا: انحناءً واعوجاجًا. (٣) جدواه: عطيّته.

(٤) التمائم: جمع تميمة، وهي ما يعلّق على الجسد لدفع الأذى والشرّ من الجنّ والإنس.

(٥) لعل في هذه اللفظة تصحيفًا. والأصوب أن تكون (دعميّ) بالعين، ودعميّ هو ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ. ويؤيد هذا ذكره (وائلًا) و(حمزة) و(عتّابا).

(٦) وائل، وإليه تنسب قبيلة وائل بن قاسط، القبيلة العربية العدنانية، ومن أشهر فروعها بكر وتغلب.

(٧) عتّاب: أحد أجداد العرب، تنسب إليه قبيلة.

(٨) هو حمزة بن عبد المطلب، عمّ النبيّ ﷺ استشهد في موقعة أحد إلى الشمال من المدينة المنوّرة.

(٩) هاشم، جدّ النبيّ ﷺ وأبو عبد المطلب. (١٠) شجا: أحزن.

(١١) أبو القاسم: كنية النبيّ ﷺ.

(١٢) قاسم، ابن النبيّ ﷺ، مات في حياته وهو طفل صغير.

(١٣) قيس بن عاصم، من شعراء الجاهلية وفرسانها. أسلم في وفد من تميم.

(١٤) هو الإمام علي بن أبي طالب.

(١٥) إشارة إلى ما قاله الإمام علي للأشعث بن قيس معزّيًا إياه بفقد بعض ولده: «اصبر صبر الأكارم أو فاسْلُ سلوّ البهائم».

خُـلِقـنـا رجـالًا لـلـتـجـلُّد والأسَـى | وتـلـك الـغَـوَانِـي[١] لـلـبُـكَـا والـمـآتِـمِ
وأيُّ فتًى في الناس أحرضُ[٢] من فتًى | غدا في خِفَارات الدموع السَّواجِمِ
وهل من حكيم ضيّع الصبرَ بعدما | رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازمِ
فلا بَرِحت تسطو ربيعةُ منكم | بـأرقَـمَ عـطّـافٍ وراء الأراقـمِ
فأنت وصِنواك الشقيقانِ إخوة | خُلقتم سَعُوطًا[٣] للأنوف الرواغمِ
ثلاثة أركان، وما انهدّ سؤدُدٌ | إذا ثبتت فيه ثلاثُ دعائمِ

وقال يرثي عُمَيْر بنَ الوليد: [من الكامل]

كفُّ الندى أمستْ بغير بَنانِ[٤] | وقنَاتُهُ أضحت بغير سِنانِ
جبلُ الجبال غدتْ عليه مُلمّةٌ | تركَته وهو مهدَّم الأركانِ
أَنَعَى عُمَيْرَ بن الوليد لغارةٍ | بِكْرٍ من الغارات أو لَعَوانِ[٥]
أنعَى فتى الفِتْيانِ غيرَ مكذَّبٍ | قولي، وأنعَى فارس الفُرسانِ
عَثَر الزمانُ ونائباتُ صروفِه | بمُقيلنا عثراتِ كلّ زمانِ
لم يترك الحَدَثانُ[٦] يوم سطابه | أحدًا نَصُول به على الحَدَثانِ
قد كنتَ حَشْوَ الدرع ثم أراك قد | أصبحتَ حشوَ اللحد والأكفانِ
شُغِلت قلوبُ الناس ثم عيونُهم | مذ مُتَّ بالخفقَانِ والهَمَلانِ
واستعذبوا الأحزانَ حتى إنّهم | يتحاسدون مَضَاضةَ[٧] الأحزانِ
ما يرعَوِي[٨] أحدٌ إلى أحدٍ ولا | يشتاق إنسانٌ إلى إنسانِ
أأصاب منك الموتُ فرصةَ ساعةٍ | فعَدَا عليك وأنتما أخَوانِ!
فَمَن الذي أبْقَى ليومِ تكرُّمٍ | ومن الذي أبقى ليوم طِعانِ!

وقال يرثي ابنًا له: [من مخلّع البسيط]

كان الذي خِفتُ أن يكونا | إنّا إلى الله راجعونا
أمسى المُرَجَّى أبو عليٍّ | مُوسَّدًا[٩] في الثرى يمينا

(١) الغواني: النساء.
(٢) أحرض: أطول همًّا وسقمًا.
(٣) السعوط: الدواء يصبّ في الأنف.
(٤) البنان: طرف الإصبع، أو الإصبع كلّه.
(٥) العوان: ما كان في منتصف السنّ. والعوان: الحرب الشديدة.
(٦) الحدثان: نوائب الدهر.
(٧) المضاضة: الوجع الشديد.
(٨) يرعوي: يكفّ ويرتدع.
(٩) موسّدًا: متكئًا إلى الوسادة. ممدّدًا.

حين استوى وانتهى شبابًا وحقّق الرأيَ والظنونا
أُصِبْتُ فيه وكان عندي على المصيباتِ لي مُعينا
كنتُ كثيرًا به عزيزًا وكنتُ صَبًّا به ضَنِينا[(١)]
دافعتُ إلا المَنُونَ عنه والمرءُ لا يدفع المنونا
آخِرُ عهدي به صريعًا للموت بالداء مُستكينا
إذا شَكَا غُصَّة وكَرْبًا[(٢)] لاحَظَ أو راجَعَ الأنينا
يُدير في رَجْعه لسانًا يمنعه الموتُ أن يُبِينا
يشخصُ طورًا بناظرَيْهِ وتارةً يُطْبِق الجُفُونا
ثم قضى نَحْبَه وأمسَى في جَدَثٍ للثرى دفينا
باشَرَ بَرْدَ الثرى بوجهٍ قد كان من قبلِه مَصُونا
بَعِيد دارٍ قريب جارٍ قد فارق الإلف والقَرينا
بُنَيَّ يا واحدَ البنينا غادرتَني مُفْردًا حزينا
هوّن رُزْئي بك الرزايا عليّ في الناسِ أجمعينا
آليتُ أنساك ما تجلَّى صبحُ نهارٍ لمُصْبِحينا
وما دعا طائرٌ هَدِيلًا ورجَّعتْ وَالِهٌ[(٣)] حَنينا
تصرَّف الدهرُ بي صُروفًا وعاد لي شأنُه شُؤونا
وحزّ في اللحم بل بَرَاه واجتثَّ[(٤)] من طلحتي[(٥)] فُنُونا
أصاب منّي صميمَ قلبي وخِفتُ أن يقطع الوَتِينا[(٦)]
والمرء رهنٌ بحالتيه فشدّةً مرّةً ولِينا

ومما قيل في شواذّ المراثي:

من ذلك ما قالته جَلِيلةُ بنتُ مُرّةَ أختُ جسّاسٍ زوج كُليْب لما قتل أخوها جسّاس زوجها كليبًا؛ وكان نساء الحيّ لما اجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب: رَحِّلي

(١) ضنينًا: بخيلًا.
(٢) كربًا: حزنًا وغمًّا.
(٣) الواله، والوالهة: من ذهب عقلها من شدّة الحزن والكرب.
(٤) اجتثّ: انتزع.
(٥) طلحتي: جوفي وداخلي.
(٦) الوتين: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها.

جليلةَ عنكِ فإن قيامها فيه شماتةٌ وعار علينا عند العرب، فقالت لها: أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت واترنا[١] وشقيقة قاتلنا، فخرجتْ وهي تجرّ أعطافها؛ فلقيها أبوها مُرّة فقال لها: ما وراءكِ يا جليلة؟ فقالت: ثُكْل[٢] العَدَد، وحزن الأبد؛ وفقدُ حليل[٣]، وقتل أخ عن قليل؛ وبين ذلك غَرْس الأحقاد، وتفتُّت الأكباد. فقال لها: أَوَ يَكُفُّ ذلك كرمُ الصَّفح وإغلاء الدِّيَات[٤]؟ فقالت جليلة: أُمنيَّةُ مخدوع وربِّ الكعبة، أبالبُدْن[٥] تَدَعُ لك وائل دم ربِّها! قال: ولما رحلت جليلة قالت أختُ كليب: رِحلَةَ المعتدي وفراقَ الشامت! ويلٌ غدًا لآل مُرّة، من الكَرّة بعد الكَرّة! وبلغ قولُها جليلةَ فقالت: وكيف تشمَت الحُرّة بهتك سِتْرها وترقُّب وتْرها! أسعد الله أختي، ألا قالت: نَفْرةَ الحياء وخوفَ الأعداء ثم أنشأتْ تقول: [من الرمل]

يا ابنةَ الأقوام إن لمتِ فلا ... تَعْجَلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنتِ تبينتِ الذي ... يُوجب اللوم فلُومي واعذُلِي
إن تكن أخت امرىء لِيمتْ على ... جَزَع منها عليه فافعلي
جلّ عندي فعلُ جَسّاس فيا ... حسرتا عما انجلت أو تنجلي
فعل جسّاس على ضَنِّي به ... قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أَجَلي
لو بعين فقئت عينٌ سوى ... أختها وانفقأت[٦] لم أحفِلِ
تحمِلُ العينُ قَذَى[٧] العين كما ... تحملُ الأمّ أذَى ما تفتلي[٨]
إنّني قاتلةٌ مقتولةٌ ... فلعلّ الله أن يرتاحَ لي
يا قتيلًا قوّض[٩] الدهرُ به ... سقفَ بيتَيّ جميعًا من عَلِ
ورماني فقده من كثَبِ ... رَميةَ المُصْمَى[١٠] به المُستأصَلِ[١١]

---

(١) واترنا: الذي وترنا، أي قتل منّا واحدًا يوجب الأخذ بالثأر له.
(٢) ثكل: فقد. (٣) الحليل: الزوج.
(٤) الديات: جمع دية، وهي المبلغ من المال، أو العدد من الجمال وغيرها يدفعه ذوو القاتل لذوي القتيل.
(٥) البُدن: النّياق. (٦) انفقأت، وفقئت العين: انشقّت.
(٧) قذى العين: ما يدخلها من عوار وغبار وغيره.
(٨) تفتلي: تحمل من الأولاد. (٩) قوّض: صدع.
(١٠) المصمى: الذي أصابه السهم فأصماه.
(١١) المستأصل: من رماه السهم وغيره فاستأصل جزءًا منه.

هدم البيتَ الذي استحدثتُهُ وبدا في هَدْم بيتي الأوّلِ
يا نسائي دونَكنّ اليوم قد خصّني الدهرُ برُزءٍ مُعضلِ[1]
مسّني فقدُ كُلَيْب بلظًى من ورائي ولظًى مُستَقْبلي
ليس من يبكي ليومين كمن إنما يبكي ليوم ينجَلي
دَرَكُ الثائر شافِيه وفي دَرَكي ثارِيَ ثُكْلُ المُثْكِلِ
ليتَه كان دَمِي فاحتَلَبوا دِرَرًا[2] منه دما من أكْحَلِي

ولما مات معاويةُ بنُ أبي سفيانَ اجتمع الناسُ بباب يزيدَ فلم يقدروا على الجمع بين التهنئةِ والتعزية، حتى أتى عبدُ الله بن هَمّام فقال: يا أميرَ المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزّية. وبارك لك في العطيّة، وأعانك على الرعية؛ فقد رُزئت عظيمًا، وأُعطِيتَ جسيمًا؛ فاشكر الله على ما أُعطيت، واصبر على ما رُزيت؛ فقد فقدت خليفةَ اللهِ، وأُعطيت خلافةَ الله؛ ففارقت جليلًا، وأُعطيت جزيلًا؛ إذ قضى معاويةُ نَحبه؛ ووليت الرياسةَ، وأُعطيت السياسةَ؛ فأورده الله موارد السرور، ووفّقك في جميع الأمور: [من البسيط]

فاشكر يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ[3] واشكر حِباءً[4] الذي بالملك حَابَاكَا
أصبحت تملك هذا الخلق كلَّهُم فأنت ترعاهمُ والله يرعاكا
لا رُزْءَ أعظمُ في الأقوام قد علموا مما رُزِئتَ، ولا عُقْبَى[5] كَعُقباكَا
وفي معاوية الباقي لنا خَلَفٌ إذا نُعِيتَ ولا نسمعُ بمَنْعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجَرَوْا على منواله.

وقال أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانيء يعزِّي الفضلَ بنَ الربيعِ[6] عن الرشيد ويهنِّئه بالأمين: [من الطويل]

تَعَزَّ أبا العبّاس عن خير هالكٍ بأكرمِ حيٍّ كان أو هو كائنُ

(١) الرزء المعضل: المصيبة التي لا خلاص منها.
(٢) دررًا: جمع درّة، وهي الدفعة من الحليب وغيره.
(٣) مقة: حبّ، وهي مصدر ومق ومقًا ومقةً. (٤) حباء: عطاء.
(٥) عقبى: العقبى: آخر كل شيء، والجزاء.
(٦) الفضل بن الربيع: حاجب المنصور العباسي ووزير الرشيد بعد نكبة البرامكة.

حـوادثُ أيـام تـدور صـروفُـهـا لـهـنّ مَـسَـاوٍ مـرّةٍ ومَـحَـاسِـنُ
وَفَى الحيّ بالميْتِ الذي غيّب الثرى فلا أنت مغبونٌ[1] ولا الموت غابِنُ[2]

وقال أبو تمام يرثي المعتصمَ ويهنىء الواثق: [من الكامل]

مـا لـلدمـوع تـرومُ كـلّ مَـرَامِ والـجفـنِ ثـاكـل هَـجْـعةٍ[3] ومَنامِ
يا حُفرةَ المعصوم تربُكِ مُودَعٌ مـاءَ الـحـيـاةِ وقـاتـلَ الإعـدامِ
إن الصفائح منكِ قد نُضِدَت على مـلقـى عِـظـام لـو عـلمـتِ عـظـامِ
فَتقَ المدامع أن لحدك[4] حلّه سكـنُ الـزمـان ومُـمْـسِـكُ الأيـامِ
ومصرِّفُ المُلْك الجَمُوح كأنه قـد زُمّ[5] مُـضْـعَـبُـه[6] لـه بـزِمـامِ
هدمَتْ صروفُ الدهر أرفعَ حائطٍ ضُـرِبَـت دعـائـمـه عـلى الإسـلامِ
دخلتْ على مَلِك الملوك رُواقَه[7] وتـسـرّبـتْ لـمُـقـوّم الـقُـوّامِ
مفتاحُ كلِّ مدينةٍ قد أُبْهِمت غَـلَقًـا ومُـخْـلي كـلِّ دارِ مُـقَـامِ
ومُعَرِّف الخلفاء أنّ حظوظها في حيِّز الإسراج[8] والإلجامِ[9]
أخذ الخلافةَ عن أسِنّته التي مـنـعـتْ حِـمَـى الآبـاء والأعـمـامِ
فلسُورة الأنفال[10] في مِيراثه آثـارُهـا ولـسُـورة الأنـعـامِ[11]
ما دام هارونُ[12] الخليفةَ فالهُدَى فـي غِـبْـطـة مـوصـولـةٍ بـدوامِ
إنّا رحَلنا واثقين بواثقٍ[13] بـالله شـمـس ضُـحًـى وبـدر تَـمَـامِ
لله أيّ حـيـاةٍ انـبـعـثـت لـنـا يوم الخميس وبعد أيّ حِمامِ[14]
أودى بخير إمامٍ اضطربت به شُـعَـب الـرجـال وقـام خـيرُ إمـامِ
تـلك الـرزيّـةُ لا رزيّـةَ مـثـلُـهـا والـقِـسْـمُ لـيـس كـسـائـر الأقـسـامِ

---

(١) المغبون: المخدوع والمغلوب في البيع أو الشراء، وغير ذلك.
(٢) الغابن: الخادع والغالب في البيع وغيره.
(٣) ثاكل هجعة: فاقد نومة.
(٤) اللحد: جانب القبر.
(٥) زمّ: رُبط أو شُدّ بالزّمام.
(٦) المصعب: الفحل من الخيل أو الجمال لم يركب فصار صعبًا.
(٧) رواقه: سقفه في مقدم البيت.
(٨) الإسراج: جعل السّرج على ظهر الفرس.
(٩) الإلجام: جعل اللجام في فمها.
(١٠) الأنفال: سورة في القرآن الكريم.
(١١) الأنعام: سورة من سور القرآن الكريم.
(١٢) هارون: اسم الخليفة الرشيد.
(١٣) الواثق: لقب هارون بن المعتصم.
(١٤) الحِمام: الموت.

جاء منها:

نقضٌ كَرجْع الطَّرْف قد أبرَمْتَه[١] يـا ابـن الـخـلائـف أيّـمـا إبـرامِ
ما إن رأى الأقوامُ شمسًا قبلها أَفَـلَتْ فـلـم تُـعـقـبْـهُـمُ بـظَـلامِ
أكْـرِمْ بـيـومـهـمُ الـذي مُـلِّكْـتَـهُـمْ فـي صـدره وبـعـامـهـم مـن عـامِ

ثم أخذ في مدح الواثق.

وفي هذه الواقعة يقول ابنُ الزيّات[٢]: [من المنسرح]

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطَفَقتْ[٣] عـلـيـك أيـدٍ بـالـتُّـرْب والـطـيـن
اذهب فنِعم المعينُ كنتَ على الد نـيـا ونـعـم الـظـهـيـر لـلـديـن
لـن يـجـبُـرَ[٤] الله أمّـةً فـقـدتْ مـثـلَـك إلا بـمـثـل هـارون

ومن أشدّ الرثاء صعوبةً على الشاعر وأضيقه مَجالًا أن يرثي امرأةً أو طفلًا. وقد أُخِذ على المتنبيّ في قوله يَرثي أمّ سَيف الدولة[٥] بن حَمْدان: [من الوافر]

سـلامُ الله خـالِقـنـا حَـنـوطٌ[٦] على الـوجه الـمُكَفَّن بـالـجمالِ

وقالوا: ما له ولهذه العجوز يصف جمالها! ووبّخه الصاحب بن عبّاد[٧] في قوله فيها:

رواق الـعـز فـوقَـك مُـسْـبَـطِـرٌ[٨] ومُـلْـكُ عـليٍّ ابـنـكِ فـي كَـمَـالِ

---

(١) أبرمته: عقدته.
(٢) ابن الزيات، هو محمد بن عبد الملك الزيّات، الوزير العباسي. سبق التعريف به.
(٣) اصطفقت: يقال اصطفقت النساء على الميّت، إذا تجاوبن في النّوح والبكاء عليه.
(٤) يجبر: يصلح ويرتق.
(٥) سيف الدولة: لقب الأمير الحمداني علي بن عبد الله، أكبر ملوك الحمدانيين. ملك دمشق وانتزع حلب من الإخشيديين، حارب البيزنطيين، وأغدق على الشعراء والأدباء والفلاسفة ومن بين الشعراء الذين حظوا عنده بالمكانة الرفيعة أبو الطيّب المتنبي. مات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م.
(٦) الحنوط: الطيّب يحشى به جثّة الميت كي لا يدركها الفساد سريعًا.
(٧) الصاحب بن عباد: أديب ولغوي وشاعر ووزير. استوزره مؤيد الدولة البويهي ثم استوزره فخر الدولة. له رسائل مسجّعة جيّدة. من كتبه «المحيط» وهو معجم لغوي، و«كتاب الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» و«جوهرة الجمهرة» مات سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م.
(٨) مسبطرّ: منتشر وممدّد ومستقيم.

قال أبو الحسن عليُّ بنُ رَشيق[١] الأزدي في كتابه المترجم بالعمدة وبالأغاني أيضًا: أشدُّ ما هجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها «بفوقك» فجاء عملًا تامًّا لم يبق فيه إلا الإفضاء. وإن يكن المتنبي أخطأ في هذا فلقد أجاد في غيره؛ والفاضلُ مَن عُدّت سَقَطاتُه، وحُفِظت هَفَواته[٢] وفَلَتاتُه؛ وانظرْ إلى قوله في أخت سيف الدولة: [من البسيط]

يا أختَ خير أخٍ يا بنتَ خير أب ... كنايةٍ بهما عن أشرف النسَب
أجِلُّ قدرَكِ أنْ تُدْعَيْ مُؤَنَّثَةً ... ومن يَصِفْكِ فقد سمّاكِ للعَرَب

وقوله أيضًا: [من الوافر]

ولو كان النساء كمن فقدْنَا ... لفُضِّلت النساء على الرجالِ
مَشى الأمراءُ حولَيْها حُفَاةً ... كأن المَرْوَ[٣] من زِفّ[٤] الرئالِ[٥]

ومن جيّد ما رُثِي النساء به وأشدِّه تأثيرًا في القلب وإثارةً للحزن قولُ ابنِ عبدِ الملك بن الزيّات في أمّ ولده: [من البسيط]

ألَا مَن رأى الطفل المفارِقَ أمَّه ... بُعَيدَ الكَرى[٦] عيناه تبتدرانِ[٧]
رأى كلَّ أُمٍّ وابنَها غيرَ أُمِّه ... يبيتانِ تحت الليل يَنْتجيانِ
وبات وحيدًا في الفراش تحثُّه ... بلابلُ قلب دائِم الخَفَقانِ

ومنها بعد أبيات:

ألا إنّ سَجْلًا[٨] واحدًا قد أرقتُه ... من الدمع أو سَجْلين قد شَفَيانِي
فلا تَلْحَيانِي[٩] إن بكيتُ فإنما ... أُدَاوي بهذا الدمع ما تَرَيانِ
وإنّ مكانًا في الثَّرَى خُطَّ لحدُه ... لمن كان من قلبي بكلّ مكانِ
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عُجتُ[١٠] منتظرانِ؟

---

(١) ابن رشيق القيرواني: شاعر وأديب لازم بلاط المعزّ بن باديس بالقيروان. رافق الأمير الزيدي إلى المهديّة إبّان الغزو الهلالي ثم رحل إلى صقلية. مات سنة ١٠٧١ م.

(٢) هفواته: سقطاته وأخطائه.

(٣) المرو: الحصا، والحجارة.

(٤) الزّف: صغار الريش.

(٥) الرئال: أولاد النعام، والمفرد رئل.

(٦) الكرى: النوم.

(٧) تبتدران: تدمعان بانهمار سريع.

(٨) السجل: الدلو.

(٩) تلحياني: تلوماني وتعيبان عليّ.

(١٠) عجت: ملت على.

فهَبْني عزمتُ الصبْرَ عنها لأنّني　　جَليدٌ فمن بالصبر لابن ثَمَانِ
ضعيف القُوَى لا يعرف الأجرَ حِسبةً　　ولا يأتَسِي[١] بالناس في الحَدَثانِ
ألا مَنْ أُمَنِّيه المُنَى وأُعِدُّهُ　　لعَثْرة أيّامٍ وصَرْفِ زَمانِ
ألا مَن إذا ما جئتُ أكرمَ مجلِسي　　وإن غبتُ عنه حَاطَني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف تُصيبني　　ولا مثلَ هذا الدهرِ كيف رماني

وقال أبو تمّام يرثي جارية له: [من الطويل]

ألم ترني خلَّيْتُ عيني وشانَهَا　　ولم أحفِلِ الدنيا ولا حَدَثانَهَا
لقد خوّفتني النائباتُ صروفَها　　ولو أمّنتني ما قبِلتُ أمانَها
وكيف على نار الليالي مُعَرَّسِي[٢]　　إذا كان شيبُ العارضَيْنِ[٣] دُخانَهَا
أُصِبتُ بخَوْد[٤] سوف أخبُرُ بعدها　　حليفَ أسًى أبكِي زماني زمانَهَا
عِنانٌ من اللذَّات قد كان في يدي　　فلما مضى الإلفُ استردّتْ عِنانَها
منحتُ الدُّمَى هجري فلا مُحْسِناتها　　أَوَدُّ ولا يهوَى فؤادي حِسانَها
يقولون: هل يبكي الفتى لخريدةٍ[٥]　　متى ما أراد اعتاض عشْرًا مكانَها!
وهل يستعيضُ المرء من خَمْس كَفِّه　　ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين[٦] بنانَها!

وقال أبو الفتح كُشاجم[٧] يعزِّي بابنة: [من الهزج]

تأسَّ يا أبا بكرِ　　لموت الحُرَّة البِكْرِ
فقد زوّجتَها القبرَ　　وما كالقبر من صِهْرِ
وعُوِّضت بها الأجرَ　　وما كالأجر من مَهرِ[٨]
زِفافٌ أُهديت فيه　　من الخِدْر إلى القبرِ
فتاةٌ أسبغ الله　　عليها أفضل السِّترِ

---

(١) يأتسي: يتخذ أسوةً وقدوة.
(٢) المعرّس: مكان التعريس، وهو الإراحة بعد السفر استعدادًا له ثانيةً.
(٣) العارضان: جانب الرأس وما عليهما من شعر.
(٤) الخود: الحسناء الفتيّة من النساء.
(٥) الخريدة: اللؤلؤة التي لم تثقب، وهي صفة أو كناية عن الفتاة.
(٦) اللجين: الفضّة.　　(٧) كشاجم، شاعر عباسي، سبق التعريف به.
(٨) المهر: صداق المرأة، أي الثمن الذي يتعهد بدفعه لها لدى عقد الزواج.

ورزءُ أشـبـهَ الـنـعـمــ ـة في الـموقِـعِ والـقَـدْرِ
وقـد يُـخـتـار فـي الـمـكـرو هِ لـلـمـرء ومـا يـدري
فـقـابـلْ نـعـمـةَ الله ومـا أولاك مـن شـكـرِ
وعَـزِّ الـنـفـسَ عـمّـا فـا ت بـالـتـسـليم والـصـبـرِ

وقال أبو مروانَ بنُ أبي الخصالِ الأندلسيّ في مثل ذلك: [من الوافر]

ألا يـا مـوتُ كـنـت بـنـا رَؤوفًـا فـجـدّدت الـحـيـاة لـنـا بـزَوْرَهْ
حـمِـدتُ لـفـعـلـك الـمـأثـور لـمّـا كـفـيـتَ مـؤونـة وسـتـرتَ عَـورهْ
فـأنـكَـحْـنـا الـضـريـحَ بـغـيـر مَـهْـر وجـهّـزْنـا الـفـتـاةَ بـغـيـر شَـوْرهْ

وقال أبو تمّام حبيبُ بنُ أوسٍ الطائيّ في ابنيْن لعبدِ الله بنِ طاهرٍ[1] ماتا صغيرين في يوم واحد من قصيدة: [من الكامل]

نـجـمـان شـاء الله ألّا يـطـلُـعـا إلا ارتـدادَ الـطَّـرْفِ حـتـى يـأْفُـلَا
إنّ الـفـجـيـعـةَ بـالـريـاض نـواضـرًا لأجَـلُّ مـنـهـا بـالـريـاض ذوابِـلَا
لـو يُـنْـسَـآنِ[2] لـكـان هـذا غـاربًـا لـلـمـكـرُمـاتِ وكـان هـذا كـاهِـلَا[3]
لَـهْـفي على تلك الشواهد فيهما لـو أُمْـهِـلـتْ حتى تكونَ شمـائـلَا
لَغَدا سكونهما حِجًا وصِباهما حِلْمًا وتـلـك الأرْيَـحـيَّـةُ[4] نـائـلَا
إنّ الــهــلالَ إذا رأيــتَ نُـمُـوَّه أيـقـنـتَ أن سيـكـونُ بـدرًا كـامـلَا

وقال أبو الحسن الأنباري في محمدِ بنِ بقيَّة وزيرِ عزِّ الدولةِ بختيارَ بنِ معزّ الدولة ابن بُوَيْهِ لما صلبه عَضُدُ الدولة ابن رُكن الدولة بن بُوَيْهِ عند خلع بختيار، وهي من نوادر المراثي: [من الوافر]

عُـلُـوٌّ فـي الـحـيـاةِ وفـي الـمـمـاتِ لَـحَـقٌّ أنـت إحـدى الـمُـعـجـزاتِ
كـأنّ الـنـاسَ حـولـك حـيـن قـامـوا وفُـودُ[5] نَـدَاكَ أيّـامَ الـصِّـلاتِ

---

(١) عبد الله بن طاهر: الوالي الذي وطّد الأمن في مصر للعباسيين. ثم خلف أخاه طلحة في حكم خراسان، مات سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م.
(٢) ينسآن: ينسخان، فيكون أحدهما مكان الآخر.
(٣) كاهلًا: سندًا ومعتمدًا.
(٤) الأريحية: الخصلة تجعل الإنسان يرتاح إلى الأفعال الحميد والبذل.
(٥) وفود: رُسُل وجماعات.

كـأنـك قـائـمٌ فـيـهـمْ خـطـيـبًـا | وكُـلُّـهـمُ قِـيـامٌ لـلـصَّـلاةِ
مَـدَدْتَ يـديْـك نـحـوَهُـمُ جـمـيـعًـا | كـمـدِّهـمـا إلـيـهـمْ بـالـهِـبَـاتِ[١]
ولـمـا ضـاق بـطـنُ الأرض عـن أنْ | يَـضُـمَّ عُـلَاكَ مـن بـعـد الـمـمَـاتِ
أصـاروا الـجـوَّ قـبـرَكَ واسـتـنـابـوا | عـن الأكـفـانِ ثـوبَ الـسـافـيـاتِ[٢]
لعُظْمِك في النفوس بَقِيتَ تُرْعَى | بـحُـرّاس وحُـفّـاظ ثِـقـاتِ
وتُـشْـعَـلُ عـنـدك الـنـيـرانُ لـيـلًا | كـذلـك كـنـتَ أيّـامَ الـحـيـاةِ
ولـم أرَ قـبـلَ جـذْعـك قـطُّ جـذعًـا | تـمـكَّـنَ مـن عِـنـاقِ الـمـكـرُمـاتِ
ركـبـتَ مـطـيّـةً مـن قـبـلُ زيـدٌ | عَـلَاهـا فـي الـسـنـيـن الـذاهـبـاتِ

أشار في هذا البيت إلى زيدِ بنِ الحسن بن عليّ بن أبي طالب لمّا قُتِلَ وصُلِب في أيّام هشامِ بنِ عبدِ الملك.

ومما يدخل في هذا الباب ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التي تعُمّ بها البليّةُ، وتشمَل بسببها الرزيّة؛ كاستيلاء أهلِ الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام[٣]؛ فمن ذلك ما كتب به القاضي الفاضلُ عبدُ الرحيم البَيْساني إلى الأمير عزّ الدين سامةَ لما استعاد الفِرِنْج ـ خذلهم الله تعالى ـ مدينة بيروت: ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة: قال الله سبحانه في كتابه العزيز مُسلّيًا لنبيّه الكريم ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: الآية ٧١]، فإذا كان من الناس مَن خان الله ورسوله ﷺ فكيف لا يخون الناسُ الناس! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون في البأساء والضرّاء وحين الباس: [من الوافر]

وقـد كـانـوا إذا عُـدُّوا قـلـيـلًا | فـقـد صـاروا أقـلَّ مـن الـقـلـيـل

والمولى ـ أعزّه الله بنصره، وعوّضه أحسنَ العِوَض من أجره، وكتب له ثوابَ تسليمه إليه وصبره ـ ليس بأوّل من وَثِق بمن خان، وقضيّةُ بيروتَ بأوّل مقدور قال الله له: كن فكان؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمُّ اللاحق، ومن الخَجَلات المستعارة خَجْلةُ الواثق، والموثوقُ به لائقٌ به الخجلُ الصادق؛ ومعاذَ الله أن ينكّسُ المجلس رأسَه حياء، أو أن يَسْخَط لله قضاء؛ أو أن يأسفَ على مال نقله من مُودَعه الذي لا يُؤمَن

(١) الهبات: الأعطيات.
(٢) السافيات: صفة للرمال المتحركة المتناثرة بفعل الرياح التي تسفي.
(٣) اللهام: الجيش العظيم كأنه يلتهم كل شيء.

من الآفات عليه، إلى مُودَع الله الذي يحفظه إلى أن يأتيَه به أحوجَ ما كان إليه؛ والحمد لله الذي جعل مصائبَنا في الدنيا فوائدَنا في الأُخرى، ثم الحمد لله الذي جعل البادرةَ للعُدوان والعاقبةَ للتقوى. وقد علم الله أني مُقَاسِمه ومُساهِمه، ومُضمِرٌ من الهمّ بما اتفق من هذا المقدور ما مُقَدّره عالمه؛ غير أنه لا حيلةَ لمن لا حيلة له إلا الصبر، وإن صبَر جرى عليه القدَر وجرى له الأجْر، وإن لم يصبر جرى عليه القدَر وكُتِب عليه الوِزْر[١]؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبُه فقد أنعم الله عليه، حيث أخرج ما في يديه وأبقى يديه؛ والمال غاد ورائح، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح؛ وإن اجتمع مُوصلها بحضرته فهو يُنْهِي ما عندي، ويُؤَدّي حقيقةَ ودّي؛ ورأيه الموفَّق.

وقال أبو المظفَّر الإبيوَرْدِيّ لما استولى الفِرِنْج على البيتِ المقدّس في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها: [من الطويل]

مَزَجنا دماءً بالدموع السواجِم[٢] ... فلم يبقَ منا عُرضة للمرَاجِم[٣]
وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ ... إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارمِ
فإيهًا بني الإسلام! إن وراءكم ... وقائعَ يُلْحِقْنَ الذُّرَى بالمَنَاسِمِ
أتَهْويمةً[٤] في ظِلّ أَمْنٍ وغِبْطةٍ ... وعيشٍ كنُوّار[٥] الخميلةَ[٦] ناعمِ!
وكيف تنام العينُ مِلْءَ جُفونها ... على هَبَوات[٧] أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانُكم بالشأم يُضحِي مَقيلُهم[٨] ... ظهورَ المَذَاكِي[٩] أو بطونَ القَشَاعِمِ[١٠]
يسومُهُمُ الرومُ الهوان[١١] وأنتُمُ ... تجرُّون ذيلَ الخَفْضِ فعلَ المُسَالِمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ، ومن دُمًى ... تُوَارِي حياءً حُسْنَها بالمعاصِمِ

(١) الوزر: العبء والثقل، والخطأ الفادح. (٢) السواجم: المنصبّة بغزارة.
(٣) المراجم: القبيح من الكلام. والمراجم، جمع مرجم، وهو الشديد الوطء.
(٤) التهويمة: واحدة التهويم، وهو النوم قليلًا، أو هزّ الرأس من النعاس.
(٥) النوّار: النّور والزهر. (٦) الخميلة: الموضع الكثير الشجر.
(٧) هبوات: جمع هبوة وهي الغبرة وما يرتفع في الجوّ من غبار الزوابع.
(٨) المقِيل: موضع القيلولة، وهي النوم ظهرًا للاستراحة.
(٩) المذاكي: جمع مذكي، وهو من الخيل ما تمّت سنّه وكملت قوته.
(١٠) القشاعم: جمع قشعم، وهو المسنّ من النسور.
(١١) الهوان: الذل.

بحيث السيوفُ البيضُ مُحمرَّةُ الظُّبَى وسُمْرُ العَوَالِي داميات اللَّهَاذِمِ[١]
وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ تَظَلُّ لها الوِلْدانُ[٢] شيبَ القَوادِمِ[٣]
وتلك حروبٌ مَن يَغِبْ عن غِمارها لِيسلم يَقْرَعْ بعدها سِنَّ نادمِ
سَلَلْنَ بأيدي المسلمين قَوَاضِيًا ستُغْمَد منهم في الطُّلى[٤] والجماجِمِ
يكادُ بهنّ المُستجِنّ بطَيْبة[٥] ينادي بأعلى الصوت: يا آل هاشمِ
أرى أمّتي لا يشرعون إلى العِدا رماحَهُمُ والدِّينُ واهي الدعائمِ
ويجتنبون النارَ خوفًا من العِدا ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازمِ
أترضى صناديدُ[٦] الأعاريبِ بالأذَى وتُغْضِي على ذُلٍّ كُمَاةُ الأعاجمِ!
فليتهمُ إذ لم يَذُودوا حميّةً عن الدين ضنُّوا غَيْرةٍ بالمحارمِ
وإن زَهِدوا في الأجر إذ حَمِيَ الوَغى فهلّا أَتَوْه رغبةً في المغانمِ!
لئن أذعنت تلك الخياشيم[٧] للثرى فلا عَطَسوا إلا بأجدعَ[٨] راغمِ[٩]
دعوناكُمُ والحربُ ترنُو مُلِحّةً إلينا بألحاظ النسور القشاعمِ
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً تُطِيل عليها الرومُ عَضّ الأباهِمِ
فإن أنتُمُ لم تغضَبوا عند هذه رمتنا إلى أعدائنا بالجرائمِ

وقال عَلاءُ الدين عليُّ الأوتاريّ الدمشقيّ في مثل ذلك لما استولى التتارُ على دِمشقَ في سنة تسع وتسعين وستمائة: [من الخفيف]

لَكَ عِلْمٌ بما جرى يا سُهَادي من جفوني على افتقاد رُقادي
لم أجد عند شِدّتي مُؤنِسًا لي غير سُهْدي مُلازمًا لسَوَادِي
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها[١٠] مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ[١١]

---

(١) اللهاذم: جمع لهذم، وهو حدّ كل شيء قاطع من السيف أو السنان وغيره.
(٢) الولدان: جمع وليد، وهو المولود، والصبيّ والعبد.
(٣) القوادم: جمع قادمة، وهي الريشة الكبيرة في رأس جناح الطائر، كناية عن الشعر.
(٤) الطلى: الأعناق. (٥) طيبة: اسم للمدينة المنوّرة.
(٦) صناديد: فرسان أشدّاء وشجعان.
(٧) الخياشيم: جمع خيشوم، وهو أقصى الأنف.
(٨) الأجدع: المقطوع الأنف. (٩) راغم: كاره، مقهور.
(١٠) جفاها: نبذها.
(١١) الأنكاد: جمع نكد، وهو العسر القليل الخير.

أحسن الله يا دِمَشقُ عَزَاكِ ... في مَغانيكِ يا عمادَ البلادِ
وبرُسْتاق[١] نَيْرَبَيكَ[٢] مع المِـ ... ـزّة مع رَوْنَقٍ بذاك الوادي
وبأُنسٍ بَقاسِيُونَ[٣] وناسٍ ... أصبحوا مَغْنَما لأهل الفسادِ
طَرَقتهم حوادِثُ الدهر بالقتـ ... ـلِ ونَهْبِ الأموال والأولادِ
وبناتٍ مُحَجّباتٍ عن الشمـ ... ـسِ تناءت بهِنّ أيدِي الأعَادِي
وقُصُور مُشَيَّدات تَقَضَّتْ ... في ذَرَاها الأيام كالأعيادِ
وبيوت فيها التِّلاوةُ والذكـ ... ـرُ وعالي الحديثِ بالإسنادِ
حَرّقُوها وخرّبوها وبادَتْ ... بقضاء الإلٰه ربِّ العبادِ
وكذا شارعُ العُقَيْبة والقصـ ... ـر وشاغُورُها[٤] وذاك النادِي
أصبحوا اليومَ مثلَ أمسٍ تَقَضَّى ... وبَكَتهم سماؤهم والغَوَادِي
ولَكَمْ سُورُها حَوَى مِن مُعَنى ... مُقْرَحِ القلبِ والحشى والفُؤادِ
إن بكى لا يُفِيده أو تَشَكَّى ... وَجْد المُشْتَكَى حليفَ سُهادِ
يشتكِي فوق ما اشتكاه بأضعا ... فٍ فيغدُو وهمه في ازديادِ
فالغَلَا والجَلَا مع الجُوع والعُرْ ... يِ ونهبِ الأقواتِ والأزوادِ
والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو ... فُ مع السادة العُرَاة المَكَادي[٥]
وبوَزْنِ الأموالِ من غير وَجْدٍ ... باعتساف[٦] الغُتْم[٧] الغِلاظِ الشدادِ
كاتُرْ آقجا كبر خوار أنت ياغِيه ... لمحمود غازان قاآن البلادِ[٨]
يا تُرى هل لكَرْبنا من مُجيرٍ[٩] ... أم لتشديد أَسْرنا من مُفادِي

(١) رستاق: لفظة فارسية معرّبة، وتعني السواد، والبيوت المجتمعة.
(٢) نيربيك: اسم قرية بدمشق في وسط البساتين، فيها مصلّى الخضر، والمزّة، اسم موضع بدمشق.
(٣) قاسيون: اسم جبل يشرف على دمشق لجهة المشال.
(٤) العقيبة والقصر والشاغور: أسماء مواضع بعينها.
(٥) المكادي: جمع مكدي، وهو الأسير. (٦) اعتساف: ظلم.
(٧) الغتم: الشداد الغلاظ من الأعاجم.
(٨) معنى هذا البيت الذي لا يضم إلا بضع كلمات عربية: ادفع الخراج أيها العلج الأعجمي لكبير الملوك محمود غازان.
(٩) مجير: مغيث.

لهفَ نفسي على جُيوش تَولَّت ... ثـم وَلَّت جـريـحـةَ الأكـبـادِ
كـلّ نَـدْبٍ عَـضْـب حَـمِيٍّ كَـمِيٍّ ... أمـجـدٍ أصْـيَـدٍ[1] شـجـاعٍ جَـوادِ
إن سطا في هِبَاته كان بحرًا ... أو سـطـا خـلـتـه مـن الآسـادِ
أو بَدَا حاملًا تَخَلْ عَنتريًا[2] ... أو غدا سابِق الجوادِ فغادي
إنْ أتـانـي مـبـشّـرٌ بـلقـاهـم ... حـاز رُوحي ومُـهْجتي وقِيادِي
ولثِمتُ التراب شُكْرًا وعفر ... تُ[3] خدودي على بلوغ مُرادي
لست أرجو غير البشير شفيعًا ... عند ربّي في المنّ بالإنجادِ[4]
فهو الصادق الذي وعد الديـ ... ـنَ بنصرٍ جارٍ على الآبادِ
غيرَ أنّ الفسادَ يكسِب ذُلّا ... ويُعَمّي الفسادُ طُرْقَ السَّدادِ
وارتكاب الفسادِ يُورث فقرًا ... وخرابُ البيوتِ عُقْبَى الفسادِ
يا حبيبَ الإلـٰهِ لا تَتَخَلَّى ... عن عُصاة غمرتَهم بالأيادي
يا حبيبَ الإلـٰهِ قد مسّنا الضـ ... ـرّ فجُد بالإسعاف والإسعادِ
يا حبيب الإلـٰه تُبْنا إلى الـلـ ... ـه وأنت العِمادُ حتّى المَعَادِ
مَنْ لأسْرَى كَسْرَى حَيَارى دَهَتْهم[5] ... دَهَمتهم جِيادُ أهلِ العِنَادِ
واضع اللقط[6] في الحساب عناه ... ـ لو يعِشْ ـ حصرُ كثرةِ الأعدادِ
منهُمُ الطفلُ والصبِيّةُ والشا ... بّ يُنادي، فمن يجيب المنادي!
ويُنَادَى عليهم برغيفٍ ... وبنَزرٍ بَخْس بسُوق الكَسَادِ
عُوِّضوا عن سرورهم بغرور ... وقصورِ البلاد سُكْنى البَوَادي
وبأهل الوداد شرَّ أُناسٍ ... وبلينِ المِهادِ شواكَ القَتَادِ[7]
أيُّ عينٍ عليهمُ ليس تبكِي ... أيُّ قلب عليهمُ غيرُ صادي!
فَلأنت الرحيم قلبًا ولُبًّا ... ولأنت الهادي لسُبْل الرَّشادِ
ولأنتَ البديعُ خَلْقًا وخُلْقًا ... ولأنتَ السميعُ للإنشادِ
ولأنت الطِّرازُ[8] في كلّ معنًى ... ولسيفِ المقال شبهُ النِّجادِ

---

(١) أصيد: الأصيد من الأسود، الذي في عنقه صيد، وهو الميل في العنق. وهو الأسد عامة.
(٢) عنتريًا: منسوبًا إلى عنترة في الشجاعة.
(٣) عفرت: مرّغت.
(٤) الإنجاد: الإسعاف، والإغاثة.
(٥) دهتهم: أصابتهم بالهلاك.
(٦) اللقط: ما هو يلقط من الأشياء.
(٧) القتاد: شجر شائك، واحدته قتادة.
(٨) الطراز: النمط، والنموذج.

ولأنت الحاوي فُنونَ صِفاتٍ دون حصرٍ لها فَناءُ المِدَادِ
ولأنت الممدوح من فوق عرشٍ بعدُ ماذا يقول قُسُّ الإيادي[(١)]
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنًى نَشْرُ فضل الممدوح بين العبادِ
فإذا كان مُنشىء المدحِ رَبِّي عاد مدحُ الفصيح جمعَ سَوَادِ
فعليكَ الصلاةُ يرجو بها الأمـ ـنَ عليٌّ من سائر الأنكادِ

وحيث انتهينا من المراثي والنوادب إلى هذه الغاية، فَلْنذكرْ نُبْذةً من الزهد والتوكُّل.

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الثاني في الزهد والتوكل

وهذا الباب ـ وفّقنا الله وإياك لقصدنا، وألهمنا سلوكَ سبيل رشدنا؛ واستعمَلَنا في مَرَاضيه، وجنّبنا عن الالتفات بالقول والفعل إلى معاصيه ـ من هذا الفنّ هو واسطة عقْده[(٢)]، وعضُد زَنْده، وقائم مُرْهَفه[(٣)] وحَدّ فِرِنْده[(٤)]؛ وشَبَا سِنَانه[(٥)]، ومَثْنَى عِنانه، وإنسانُ حَدَقته[(٦)]، وحدقة إنسانه؛ وكيف لا وهو للنفس دُرّة تاجها، وطبيبُ عِلاجها، وواضح مِنْهاجها؛ ودليلها المُرشد إذا ضلّ الدليل، ومُنْجيها من الهول الأعظم إذا فرّ المرءُ من الأخ والأمّ والأب والابنِ والصاحبةِ والخليل[(٧)]. فتأمّلْه أيها المُطالعُ بعين قلبِك قبلَ ناظرك، واتخذه من أحصن جُنَّتك[(٨)] وأعدّ عُدَدك وأنفس ذخائرك؛ ورُضْ[(٩)] به نفسَك إذا جَمحتْ[(١٠)]، وسكِّن به آمالك إذا مالت إلى المطامع وجَنَحتْ. واعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وعدوٌّ قد نَصب لك الشُّباك ومدّ الحبائل، وأنك لا بدّ مسؤول عما اكتسبتَه منها، فليت شعري ما أعددتَ لجواب المُسَائل؟ فهي العدوّ الذي أشبه

(١) قسّ الإيادي: هو قس بن ساعدة، من بني إياد، كان خطيبًا مصقعًا، وكاهنًا يلجأ إليه، في الجاهلية.
(٢) واسطة العقد: أثمن حبة فيه وأكبرها.
(٣) قائم مرهفه: مقبض سيفه.
(٤) فرنده: سيفه.
(٥) شبا سنانه: حدّ شفرته ونصله.
(٦) إنسان حدقته: السواد الموجود في الحدقة وبها العين يتم إبصار العين.
(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: الآيات ٣٤ - ٣٧].
(٨) جنتك: درعك وسترتك الواقية.
(٩) رض: عوّد.
(١٠) جمحت: نفرت وذهبت بعيدًا في الغيظ.

بالصديق، والغادر الماكر الذي ما أخوفني أنّ مَكْرَه بي وبك سَيَحيق[١]. فاقتصر على القليل منها، واعلم أنك سترحل في غد عنها؛ وأن الموت نازلٌ بك فلا ينفعك ما جمعته من مال وخَوَل[٢]، ولا يصحبك من الدنيا إلا ما قدّمته لآخرتك من صالح العمل؛ وأنّ مالك سيقتسمه من لعلّه لا يشكرك عليه، وماذا ينفعك شكره أن لو فعل! وغاية ما ينالك من دنياك، وإن بلغتَ منها مُناك، وطال بها مَدَاك؛ أن تتمَتّع بزَهْرتها، وتنال من لذّتها؛ وقد علمتَ بالمشاهدة من حالك وحال غيرك ما يؤول أمر مَلَاذِّها إليه في العاجل، وما يُتَوَقَّع لمن اقتصر من دنياه عليها في الآجل؛ فالمأكل والمَشْرب صائران إلى ما علمته وإنما تحصل اللذّة بهما قبل الازدراد[٣]؛ والمَنْكح والمركب فأنت وهما في الموت والفَنَاءِ على مِيعاد، والملابس فستُخْلِقها[٤] الأيام بعد الجِدّة، والمساكن فستُعَفّي[٥] الليالي آثارَها ولو بعد مُدّة. فإذا علمت أن مآل الدنيا إلى الزوال، وقُصَاراها إلى الانتقال؛ وملاذّها إلى هذه الغاية، والعمر فيها وإن طال سريعُ النهاية؛ فتقلّل منها حسب طاقتك، واقتصر على ما تسُدّ به بعض خَلّتك[٦] وفاقتك؛ واعمل لآخرتك التي لا ينقضي أَمَدُها، ولا يفْنَى من النعيم الدائِم مَدَدُها. وقد أمرتك الخير وليتني به لو ائتمرت، وأوضحتُ لك سبيل الرشاد وليتني به لو مَرَرت: [من البسيط]

أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ائتَمَرْتُ به ... وما استقمتُ فما قولي لك: استقمِ!

وسأورد إن شاء الله على سمعك من هذا الباب ما إن تمسّكت به كان سببًا لإرشادك، وذخيرةً تجدها في يوم مَعَادِك.

ذِكر بيان حقيقة الزهد

قال الإمام الأوحد العالم زينُ الدين حجّةُ المتكلّمين أبو حامدٍ محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمد الغزاليّ[٧] الطُّوسيّ رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين: إعلمْ أن الزهدَ في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين. وينتظم هذا المقام

(١) سيحيق: سيحيط ويحلّ.
(٢) الخول: العبيد والإماء.
(٣) الازدراد: البلع.
(٤) تخلقها: تبليها.
(٥) تعفّي: تمحي.
(٦) خلّتك: فقرك.
(٧) الغزالي: أبو حامد محمد، الفيلسوف والمتكلم والمتصوّف المشهور. وُلد في طوس، وتتلمذ على الجويني، علّم في بغداد، ومال إلى التصوّف، له عدة كتب أهمها: تهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال. مات سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م.

من علم وحال وعمل كسائر المقامات؛ لأن أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف[١] ترجع إلى عَقْد وقول وعمل. وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال، إذ به يظهر الحال الباطن، وإلا فليس القول مرادًا بعينه؛ وإذا لم يكن صادرًا عن حال سُمّي إسلامًا ولم يسمَّ إيمانًا. والعلم هو السبب في الحال يجري مَجْرى المُثمر، والعمل يجري مجرى الثمرة.

فأما الحال فنعني بها ما يُسمَّى زهدًا، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه؛ فكلّ من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه. فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يُسَمَّى زهدًا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى رغبةً وحبًا. فإذًا يستدعي حال الزهد مرغوبًا عنه ومرغوبًا فيه هو خير من المرغوب عنه. وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضًا مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه؛ فمن رغب عما ليس مطلوبًا في نفسه لا يسمَّى زاهدًا، فتارك التراب والحجارة والحشرات لا يسمّى زاهدًا، لأن ذلك ليس في مَظِنَّة[٢] الرغبة، وإنما يسمَّى زاهدًا تاركُ الدراهم والدنانير. وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرًا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة؛ فالبائع لا يُقْدِم على البيع إلا والمُشتَرَى عنده خيرٌ من المَبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدًا فيه، وبالإضافة إلى العِوَض رغبةً وحبًّا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٢٠] وشَرَوْه بمعنى باعوه، ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طمِعوا أن يخلُوَ لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عندهم أحبّ إليهم من يوسف فباعوه طَمَعًا في العِوَض. فإذًا كلُّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكلُّ من باع الآخرةَ بالدنيا فهو أيضًا زاهدٌ ولكن في الآخرة؛ ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا؛ كما خُصِّص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصّة، وإن كان هو الميل في وضع اللسان. قال: ولما كان الزهد رغبةً عن محبوبٍ بالجملة لم يُتَصوَّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحبّ منه، وإلا فتركُ المحبوب بغير الأحبّ محال. والذي يرغب عن كلّ ما سوى الله تعالى حتى الفِرْدَوس[٣] ولا يحبّ إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق. والذي يرغب عن كل حظٍّ يُنَال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمِع في الحُور

---

(١) السلف: أي الصحابة والتابعون. (٢) المظنّة: الموضع الذي يظنّ فيه وجوده.
(٣) الفردوس: الجنّة.

العِين[١] والقُصور والفواكه والأنهار فهو أيضًا زاهد ولكنّه دون الأوّل. والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسُّعَ في الأكل ولا يترك التجمُّل في الزينة، فلا يستحقّ اسم الزهد مطلقًا؛ ودرجته في الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهدٌ صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة؛ فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظّ النفس. والمُقْتصر على ترك المحظورات لا يسمَّى زاهدًا، وإن كان زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكنّ العادة تخصّص هذا الاسم بتارك المباحات. فإذًا الزهد عبارةٌ عن رغبةٍ عن الدنيا عُدُولًا إلى الآخرة أو عن غير الله عدولًا إلى الله، وهي الدرجة العليا. وكما يُشْتَرط في المرغوب فيه أن يكون خيرًا عنده؛ فيُشْتَرط في المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإنّ ترك ما لا يُقْدَر عليه محال، وبالترك يتبيّن زوال الرغبة؛ ولذلك قيل لابن المبارك[٢]: يا زاهد؛ فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز[٣]، إذ جاءته الدنيا راغمةً فتركها، وأما أنا ففيم زهِدتُ!.

* * *

وأمّا العلم الذي هو المُثمِر لهذا الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوَض خيرٌ من المَبيع فيرغب فيه؛ وما لم يتحقّق هذا العلم لا يُتَصَوَّر أن تزول الرغبة عن المَبيع، فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خيرٌ وأبقى، أي لذّتها خيرٌ في نفسها وأبقى. فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوَى الرغبةُ في البيع والمعاملة؛ حتّى إنّ من قويَ يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبَة: الآية ١١١] الآية، ثم بيّن أن صَفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبَة: الآية ١١١]. فليس يُحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدْر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وقد يعلم

(١) الحور العين: هنّ اللواتي وعد الله بالزواج منهن في الجنّة عباده الصالحين.
(٢) ابن المبارك: هو أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك التميمي، الزاهد المشهور. كان في أول حياته ميالًا إلى اللهو، مولعًا بالضرب على العود والطنبور، ولما سمع صوتًا في منامه يدعوه إلى الإنابة إلى الله، تاب وزهد وأقبل على العبادة. مات سنة ١٨١ هـ. انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٢٨ بمجلد ٢٧، ج ١ الكويت.
(٣) عمر بن عبد العزيز، هو الخليفة الأموي العادل، سبق التعريف به.

ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إمّا لضعِف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الدنيا والشهوة في الحال عليه ولكونه مقهورًا في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف[١] يومًا فيومًا إلى أن يختطفه الموتُ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفَوْت. قال: وإلى تعريف خَسَاسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النّساء: الآية ٧٧]، وإلى تعريف نَفَاسة الآخرة الإشارة بقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٠]؛ فنبّه على أنّ العلم بنفاسته[٢] هو المُرَغَّب عن عِوَضه. قال: ولمّا لم يُتَصَور الزهد إلا بمعاوضةٍ ورغبةٍ عن محبوب في أحبَّ منه قال رجل: اللَّهمّ أَرِنِي الدنيا كما تراها؛ فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُلْ هذا ولكْن قل اللَّهمّ أَرِني الدنيا كما أَرَيْتَها الصالحين من عبادك». وهذا لأن الله يراها حقيرةً كما هي، وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جَلاله حقير، والعبد يراها حقيرةً في حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يُتَصَوَّر أن يرى بائعُ الفرس وإن رغِب عن فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلًا، لأنّه مستغن عن الحشرات أصلًا وليس مستغنيًا عن الفرس؛ والله تعالى غنيٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه، فيرى الكلّ في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوُتها بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره.

* * *

وأمّا العمل الصادر عن حال الزهد فهو تَرْكٌ وأَخْذ، لأنه بيعٌ ومعاملة واستبدالُ الذي هو خير بالذي هو أدنى. فكما أنّ العملَ الصادرَ مِن عقدِ البيع هو تركُ المبِيع وإخراجُه عن اليدِ وأخْذ العِوَض، فكذلك الزهد يوجب تركَ المزهودِ فيه بالكُلّية وهي الدنيا بأسرِها مع أسبابها ومُقَدماتها وعلائقها، فيُخْرِج من القلب حبَّها ويُدخل حبَّ الطاعاتِ ويُخرج من اليد والعين ما أخرجه مِن القلب، ويُوَظّف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف من الطاعات، وإلّا كان كمن سلّم المَبِيع ولم يأخذ الثمن. فإذا وفَى شرطَ الحالتين في الأخْذ والترك فليَسْتبشر ببيعه الذي بايع به، فإن الذي بايعه بهذا البيع وَفِيٌّ بالعهد؛ فمن سلّم حاضرًا في غائب وسلّم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سُلِّم إليه الغائبُ حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يُوثَق بصدقه وقُدْرته ووفائه بالعهد. وما دام مُمْسِكًا للدّنيا فلا يصحّ زهدُه أصلًا، ولذلك لم يصف

(١) التسويف: المماطلة.

(٢) نفاسته: ندرته وغلاء ثمنه.

الله تعالى إخوةَ يوسف[١] بالزهدِ في بنيامين[٢] وإن كانوا قد قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يُوسُف: الآية ٨]، وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى شفع فيه أحدُهم فتُرِكَ، ولا وصفهم أيضًا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع. فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج. فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهدٌ فيما أخرجت فقط، ولست زاهدًا مطلقًا؛ وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يُتَصَوَّر منك الزهد، لأنّ ما لا تقدِر عليه لا تقدر على تركه. وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل إليك أنّ الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهدٌ فيها، فلا ينبغي أن تتدلّى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بمَوْثِق غليظ من الله تعالى؛ فإنّك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها؛ فكم من ظانٍّ بنفسه كراهةَ المعاصي عند تعذُّرها فلما تيسَّرت له أسبابها من غير مُكَدِّر ولا مخوف من الخلق وقع فيها. وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإيّاكَ أن تثقَ بوعدِها في المباحات. والموثِقُ الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجرّبَها مرّة بعد مرّة في حال القدرة، فإذا وفَتْ بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقًا ما، ولكن تكون من تغيُّرها على حذَر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبةُ الرجوع إلى مُقتضَى الطبع. وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما تركت فقط وذلك عند القدرة. قال: وليس مِنَ الزهد بذلُ المال على سبيل السخاء والفُتُوَّةِ وعلى سبيل استمالة القلوبِ ولا على سبيلِ الطمع، فذلك كلُّه من محاسنِ العادات ولا مدخلَ له في العبادات، إنما الزهدُ أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتِها بالإضافة إلى نفاسةِ الآخرة. فأمّا كل نوع من الترك فإنه يُتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مُروءة وفتوّةً وسخاء وحسن خُلُق، وحسنُ الذكر ومَيْل القلوب من حظوظ العاجلة، وهي ألذّ وأهنأ من المال؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمةً[٣] عفوًا وصفوًا وهو قادرٌ على التنعُّم بها من غير نقصانِ جاه وقبح اسم وفوات حظٍّ للنفس، فتَركَها خوفًا من أن يأنس بها فيكون آنسًا بغير الله ومحبًّا لما سوى الله، ويكون مُشركًا في حبِّ الله غيرَ الله؛ أو تركها طَمَعًا في ثواب آخرَ فترك التمتُّع بأشْرِبة الدنيا طمعًا في

(١) يوسف: هو النبيّ يوسف بن يعقوب. باعه إخوته حسدًا إلى تجّار إسماعيليين. استوزره فرعون مصر، وأقرّ عين أبيه به بعد غياب طويل.

(٢) بنيامين: هو ابن يعقوب النبيّ، وأخو يوسف من غير أمه، حمل اسمه أحد أسباط إسرائيل.

(٣) راغمة: مكرهة.

أشربة الجنّة، وترك التمتُّع بالسراري[١] والنسوانِ طمعًا في الحُور العِين، وترك التفرُّج في البساتين طمعًا في بساتين الجنّة وأشجارها، وترك التزيُّن والتجمُّل بزينة الدنيا طمعًا في زينة الجنّة، وترك المطاعم اللذيذة طمعًا في فواكه الجنّة وخوفًا من أن يقال له: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠] فآثر في جميع ذلك ما وُعِد به في الجنّة على ما تيسّر له في الدنيا عفوًا صفوًا، لعلمه بأن ما في الآخرة خيرٌ وأبقى؛ وما سوى هذه فمعاملات دُنيويّة لا جَدْوى لها في الآخرة أصلًا. وحيث قدّمنا هذه المقدّمة من أحوال الزهد في الحال والعلم فلنذكر بيان فضيلة الزهد وذم الدنيا.

ذِكْرُ فضيلة الزهد وبغض الدنيا

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القَصَص: الآيتان ٧٩، ٨٠]، فنسب الزهد إلى العلماءِ ووصف أهلَه بالعلم، وذلك غايةُ الثناء. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القَصَص: الآية ٥٤] جاء في التفسير: على الزهد في الدنيا. وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٧]. قيل: معناه أيّهم أزهدُ في الدنيا، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ﴾ [الشورى: الآية ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: الآية ١٣١]... إلى قوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١]. وقال رسول الله ﷺ: «مَن أصبح وهمُّه الدُّنيا شتَّت اللهُ عليه أمرَه وفرّق عليه ضَيْعَته وجعل فقرَه بين عينَيْه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له ومن أصبح وهمُّه الآخرةُ جَمع اللهُ له أمرَه وحفِظ عليه ضَيْعَتَه[٢] وجعل غِناه في قلبِه وأتته الدنيا وهي راغمة». وقال ﷺ: «إذا رأيتم العبدَ قد أُوتِيَ مَنطقًا وزهدًا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة». وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٩]؛ ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيعَ الحكمةِ في قلبه وأطلق بها لسانَه. وقال رسولُ الله ﷺ: «إن أردتَ أن يحبَّك اللهُ فازهدْ في الدنيا» فجعل الزهدَ سببًا للمحبّة؛ فمن أحبّه الله فهو في أعلى

---

(١) السراري: جمع سرّيّة، وهي الأمة التي تقام في البيت.

(٢) الضيعة: المرّة من ضاع، إذا تلف وهلك وضلّ. والضيعة: العقار والمال...

الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في أفضلِ المقامات. ولما سئل رسولُ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥] وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: «إن النُّور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح». قيل: يا رسولَ الله، هل لذلك من علامة؟ قال: «نَعَمْ التجافي[(١)] عن دار الغرور والإنابةُ[(٢)] إلى دار الخلود والاستعدادُ للموت قبلَ نزولِهِ». وقال رسول الله ﷺ: «استَحْيُوا من الله حقَّ الحياء» قالوا: إنا نستحي من الله، فقال: «ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون». فبيّن أن ذلك يناقض الحياء من الله. وقدم وفدٌ على رسول الله ﷺ فقالوا: إنّا مؤمنون. قال: «وما علامة إيمانكم؟» فذكروا الصبرَ على البلاء، والشكر على الرخاء، والرّضا بمواقع القضاء، وتَرْكَ الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء. قال: «إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تَنَافَسُوا فيما عنه ترحَلون»؛ فجعل الزهدَ تكملةَ إيمانهم. ورُوِي أن رسول الله ﷺ مرّ في أصحابه بإبِل عِشار حُفَّل وهي الحوامل، وكانت من أحبّ أموالهم إليهم وأنْفَسِها عندهم، لأنها تجمع بين اللحم واللبن والوبر والظَّهْر، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وغضَّ بصرَه. فقيل له: يا رسول الله، هذه أَنْفَسُ أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: الآية ١٣١]. وروى مسروقٌ عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا تستطعمُ الله فيُطْعِمك؟ قالت: وبكيت لِمَا رأيت به من الجوع. فقال: «يا عائشةُ والذي نفسي بيده لو سألتُ ربّي أن يُجْرِيَ معي جبالَ الدنيا ذَهَبًا لأجراها حيثُ شئتُ من الأرض ولكن اخترتُ جُوع الدنيا على شبعها وفقرَ الدنيا على غِناها وحزنَ الدنيا على فرحها يا عائشةُ إنّ الدنيا لا تنبغي لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ يا عائشةُ إن الله لم يرضَ لأُولي العزم[(٣)] من الرسل إلا الصبرَ على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن يُكَلِّفني ما كلَّفهم فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥] واللهِ ما لي بُدٌّ من طاعته وإنّي والله لأصبِرَنَّ كما صَبرُوا جهدي ولا حَوْلَ ولا قُوّة إلا بالله».

ورُوِي عن عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه أنه حين فُتِحَ عليه الفتوحاتُ قالت له ابنتُه حفصةُ: الْبَسْ لَيِّنَ الثيابِ إذا وفَدَت عليك الوفودُ من الآفاق، ومُرْ بصَنْعَة طعام

(١) التجافي: البعد والاجتناب. (٢) الإنابة: التوبة والعودة.

(٣) أولو العزم من الأنبياء هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ.

تَطْعَمُه وتُطعم مَنْ حضر. فقال: يا حفصةُ، ألستِ تعلمين أنّ أعلمَ الناس بحال الرجل أهلُ بيته؟ قالت: بلى. قال: ناشدتُكِ الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ لبِث في النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَع هو ولا أهل بيته غُدْوَةً إلّا جاعوا عشيَّة، ولا شبِعوا عشيَّةً إلا جاعوا غُدْوة؟ وناشدتكِ الله، هل تعلمين أن النبيّ ﷺ لبِث في النبوّة كذا وكذا سنةً لم يشبَعْ من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر[1]؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ قرّبتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشقّ ذلك عليه حتى تغيّر لونُه ثم أمر بالمائدة فرُفِعت ووُضِع الطعامُ على دون ذلك أو وُضِع على الأرض؟ ناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان ينام على عَبَاءة مَثْنِيّة فثُنِيَت له ليلةً أربعَ طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال: «منعتُموني قيام الليلة بهذه العبَاءَة اثنوها باثنتين كما كنتم تَثْنُونها»؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان يَضَعُ ثيابه لتُغْسَل فيأتيه بِلَالٌ[2] فيُؤْذِنه بالصلاة فما يجد ثوبًا يخرُجُ به إلى الصلاة حتى تجِفّ ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ صَنَعَتْ له امرأةٌ من بني ظَفَر كِساءَيْنِ إزارًا[3] ورِدَاء[4] وبعثتْ إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مُشتمل به ليس عليه غيرُه قد عَقَد طَرَفيه إلى عُنُقه فصلّى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظَنَنّا أنّ نفسه ستخرُج. وفي بعض الروايات زيادةٌ من قول عُمر وهو أنّه قال: كان لي صاحبانِ سَلَكا طريقًا، فإن سلكتُ غير طريقهما سُلِكَ بي طريقٌ غيرُ طريقهما، وإنّي والله سأصبِر على عَيْشهما الشديد لَعَلّي أُدرك معهما عيشهما الرَّغيد. وعن أبي سَعِيد الخُدْرِيّ[5] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لقد كان الأنبياء قبلي يُبْتَلَى أحدُهم بالفقر فلا يَلْبَس إلا العباءة وإن كان أحدهم لَيُبْتَلَى بالقَمْل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحبَّ إليهم من العطاء إليكم». وعن ابنِ عبّاسٍ[6] رضي الله عنه عن

---

(١) خيبر: حصن لليهود إلى الشمال من يثرب في الحجاز، فيه كانت وقعة خيبر وانتصار المسلمين، وذلك سنة سبع للهجرة، انظر خبر فتحها في: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٥٧.

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي، الصحابي، وأوّل مؤذّن أذّن في الإسلام. عرف ببلال مؤذّن الرسول. مات في دمشق سنة ٢٠ هـ.

(٣) الإزار: الثوب الذي يؤتزر به من أسفل.

(٤) الرداء: الثوب الذي يلبس ويلفّ به الجسم، في أعلاه خاصة.

(٥) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك الأنصاري، من أعيان الصحابة وفقهائهم، شهد وقعة الخندق وبيعة الرضوان وغيرهما. مات سنة ٧٤ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨١.

(٦) ابن عباس، عبد الله بن عباس، حبر الأمة وفقيهها، والصحابي العلم، والمحدث الجليل. مات سنة ٦٨ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨٣.

النبيّ ﷺ أنه قال: «لما ورد موسى عليه السلام ماء مَدْيَن[١] كانت خُضْرة البَقْل تُرَى في بطنه من الهُزَال. وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣٤] الآية، قال رسول الله ﷺ: «تبًّا[٢] للدُّنيا! تبًّا للدِّينار والدرهم!» فقلنا: نهانا الله عن كَنْز الذهب والفِضَّة فأيّ شيءٍ نَدَّخر؟ فقال ﷺ: «ليتَّخِذْ أحدُكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجةً صالحةً تُعِينه على أمر آخرته». وفي حديث حُذَيفةَ[٣] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «مَنْ آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاث: هَمًّا لا يُفارق قلبَه أبدًا وفقرًا لا يَسْتَغْنِي أبدًا وحِرْصًا لا يشبَعُ أبدًا». وقال ﷺ: «لا يستكمل العبدُ الإيمانَ حتّى يكون ألّا يُعْرَفَ أَحَبَّ إليه مِن أن يُعْرَفَ وحتى تكون قِلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرته». وقال المسيح عليه السلام: الدنيا قَنْطرةٌ فاعبُرُوها ولا تعمُرُوها. وقيل له: يا نبيَّ الله، لو أمرتنا أن نبتني بيتًا نعبُدُ الله فيه! قال: اذهبوا فابنُوا بيتًا على الماء. فقالوا: كيف يستقيم بُنْيانٌ على الماء! قال: وكيف تستقيم عِبادةٌ مع حُبّ الدنيا!. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ ربِّي عَرَض عليّ أن يجعل لي بَطْحاءَ مكة[٤] ذهبًا فقلت: لا يا ربِّ ولكنْ أجُوع يومًا وأشبَعُ يومًا فأمّا اليوم الذي أجوع فيه فأتضرَّعُ إليك وأدعوك وأمّا اليوم الذي أشبع فيه فأحمَدُكَ وأُثْنِي عليك». وعن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ ذاتَ يوم يمشي وجبريلُ[٥] معه فصعِد على الصَّفا، فقال له النبيّ ﷺ: والذي بعثكَ بالحقّ ما أَمْسَى لآل محمد كفُّ سَوِيقٍ[٦] ولا سَفَّةُ دقيق[٧]. فلم يكن كلامه بأسرَعَ من أن سمِع هدَّةً من السماء أفظعتْه، فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن هذا إسرافيلُ[٨] قد نزل إليك حين سمع كلامك. فأتاه إسرافيلُ فقال: إنّ الله عزّ وجلّ سمِع ما ذكرتَ، فبعثني بمفاتيح الأرض وأمرني أن أَعْرِض عليك إنْ أحببتَ أن أُسيّر

(١) مدين: جبال في شمال غربي الجزيرة العربية على البحر الأحمر متفرّعة من جبال الشراة، جاءها موسى النبيّ، وكان فيها شعيب النبي.
(٢) تبًّا: قبحًا ولعنةً.
(٣) هو حذيفة بن اليمان، الصحابي المشهور، ومن الفاتحين. ولّاه عمر على المدائن، وانتصر على الفرس في نهاوند. مات سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م.
(٤) بطحاء مكة: مسيلها الواسع القائمة عليه بيوتها. وفيه البيت الحرام.
(٥) جبريل، الملاك المولج بتبليغ الوحي من الله للأنبياء.
(٦) السويق: الناعم من دقيق الحنطة أو الشعير. (٧) الدقيق: البرّ والقمح مطحونًا.
(٨) إسرافيل: اسم الملاك الذي ينفخ في الصور إيذانًا بالبعث والنشور.

معك جبالَ تِهامة(١) زُمُرُّدًا(٢) وياقوتًا وذهبًا وفِضّة فعلتُ، وإن شِئتَ نبيًا ملِكًا وإن شئتَ نبيًا عبدًا. فأومأ إليه جبريلُ أن تواضَعْ لله. فقال: «نَبيًا عبدًا» ثلاثًا. وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا زَهَّده في الدنيا ورَغَّبه في الآخرة وبَصَّره بعيوب نفسه». وقال ﷺ: «مَن أراد أن يُؤتيه الله علمًا بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هِدَاية فليَزْهَدْ في الدنيا». وقال ﷺ: «من اشتاق إلى الجَنّة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لَهَا عن الشهوات ومن ترقَّب الموت ترك اللذّات ومن زَهِد في الدنيا هانت عليه المصائب». والأحاديث في ذلك كثيرة وفيما ذكرناه منها كفاية. فلنذكر ما جاء من ذلك في الأثر.

قيل: جاء في الأثر: لا تزال لا إلـٰه إلّا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يَسْألوا ما نقص من دُنياهم. وفي لفظ آخر: ما لم يُؤْثِروا صفقة دنياهم على دِينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إلـٰه إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمالَ كلَّها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زُهد الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر التابعين: أنتم أكثر أعمالًا واجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرًا منكم. قيل: ولم ذاك؟ قال: كانوا أزهدَ في الدنيا منكم. وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحةُ القلب والجسد. والآثار أيضًا في ذلك كثيرة فلا نُطوِّل بسردها.

ذِكْر بيان ذمّ الدنيا وشيء من المواعظ والرقائق الداخلة في هذا الباب

وقد ورد في كتاب الله عزّ وجلّ كثيرٌ في ذمّ الدنيا وصَرْف الخلق عنها ودَعْوتهم إلى الآخرة؛ وهو أيضًا مقصود الأنبياء ولذلك بُعِثُوا، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بالآيات لظهورها. فلْنذكر نُبْذة من الأخبار والآثار الواردة في ذلك، وذلك من جملة ما اختاره الغزاليُّ رحمه الله في كتابه المترجم بإحياء علوم الدين. فمن ذلك ما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه مرّ على شاة(٣) ميّتة فقال: «أتَرَوْنَ أن الشاة هيّنةٌ على أهلها»؟ قالوا: مِن هَوَانِها عليهم أَلقَوْها. قال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدِل عند الله جَناح بَعُوضة ما سَقَى كافرًا منها شربة [ماء]». وقال ﷺ: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان لله منها». وقال ﷺ:

---

(١) تهامة: منطقة في الجزيرة العربية، على البحر الأحمر جنوب الحجاز.

(٢) الزمرّد، والياقوت، من الأحجار الكريمة. (٣) الشاة: أنثى الضّأن والغنم.

«حُبُّ الدنيا أُسُّ كلّ خَطِيئة». وقال ﷺ: «يا عَجَبًا كلَّ العَجَبِ لِلمُصَدِّقِ بدار الخُلود[١] وهو يسعَى لدار الغرور![٢]».

ورُوِي أنّ رسول الله ﷺ وقف على مَزْبَلة فقال: «هَلُمُّوا[٣] إلى الدنيا وأخذ خِرَقًا قد بَلِيَتْ على تلك المزبلة وعظامًا قد نَخِرت فقال هذه الدنيا» وهذه إشارةٌ إلى أن زينتها ستخلق[٤] مثل تلك الخِرَق، وأن الأجسام التي تُرَى بها ستصير عظامًا بالية. وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: لا تتّخذوا الدنيا رَبًّا فتتّخِذَكم عبيدًا، اكنِزُوا كَنْزَكم عند من لا يُضيِّعه، فإنّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة[٥] وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة. وقال أيضًا: يا معشر الحَوَارِيِّين[٦]، إني قد كَبَبْتُ لكم الدنيا على وجهها فلا تُنعِشوها بعدي، فإنّ من خبث الدنيا أن الله عُصِي فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تُدرَكُ إلا بتركها. ألَا فاعبُرُوا الدنيا ولا تعمرُوها، واعلموا أن أصلَ كلّ خَطِيئة حبُّ الدنيا. وربَّ شهوة أورثتْ حُزْنًا طويلًا. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جلّ ثناؤه لم يخلُقْ خلقًا أبغضَ إليه من الدنيا وإنه منذ خَلَقها لم ينظر إليها». وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثُر يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبِستَ فأبليت أو تصدّقت فأبقيتَ!». وقال ﷺ: «الدنيا دارُ من لا دارَ له ومالُ من لا مالَ له ولها يجمع من لا عقلَ له وعليها يُعادِي من لا علمَ له وعليها يَحْسُد من لا فِقْهَ له ولها يسعى من لا يَقِينَ له». وقال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبرُ هَمِّه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربَع خِصال همًّا لا ينقطع عنه أبدًا وشُغْلًا لا يتفرّغ منه أبدًا وفقرًا لا يبلغ غناه أبدًا وأَمَلًا لا يبلغ منتهاه أبدًا». وقال أبو هُريرة[٧] رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هُريرةَ ألَا أرِيك الدنيا جميعًا بما فيها»؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بيدي وأتَى بي واديًا من أودية المدينة، فإذا مَزْبَلة فيها رؤوس

(١) دار الخلود: كناية عن الآخرة.
(٢) دار الغرور: كناية عن الدنيا.
(٣) هلموا: اسم فعل بمعنى: تعالَوْا.
(٤) تخلق: تبلى.
(٥) الآفة: الهلاك والتلف.
(٦) الحواريون: أتباع عيسى ابن مريم، الذين نصروه ولحقوا به ولم يكذّبوا بدعوته، وكرزوا بها في الأمصار، وعدّتهم اثنا عشر حواريًا. وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم أكثر من مرّة، منها قوله تعالى في الآية ٥٢ من سورة آل عمران: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٢].
(٧) أبو هريرة: عبد الرحمٰن بن صخر الأزدي، من صحابة النبيّ ﷺ وكبار رواة الحديث. تُوفي في المدينة سنة ٥٩ هـ/ ٦٧٨ م.

ناس وعَذِرات[١] وخِرَقٌ وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوسُ كانت تحرِصُ كحِرْصِكم وتأمُلُ آمالَكم هي اليوم عظامٌ بلا جِلْد ثم هي صائرة رمادًا وهذه العَذِرات هي ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قَذَفُوها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامَوْنَها وهذه الخِرَق الباليةُ كانت رِياشَهم ولباسَهم فأصبحت الرياحُ تُصَفِّقها وهذه العظام عظام دَوَابِّهم التي كانوا ينتجعون[٢] عليها أطرافَ البلاد فمن كان باكيًا على الدنيا فليَبْكِ». قال: فما بَرِحْنا حتى اشتدّ بكاؤنا. وقال ﷺ: «الدنيا موقوفة بينَ السماء والأرض منذُ خلقها الله تعالى لا ينظرُ إليها وتقول يومَ القيامة: يا ربّ اجعلني لأدنى أوليائك نصيبًا اليوم فيقول اسكُتي يا لا شيء إني لم أرْضَكِ لهم في الدنيا أأرضاك لهم اليوم»! وقال ﷺ: «لَيَجِيئَنَّ أقوامٌ يومَ القيامة وأعمالهم كجبال تِهامةَ فيُؤْمَرُ بهم إلى النار». قالوا: يا رسول الله، مصلين؟ قال: «نعم كانوا يُصَلُّون ويصومون ويأخذون هَنَةً[٣] من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وَثَبُوا عليه». وقال ﷺ في بعض خُطَبه: «المؤمن بين مخافتين بين أَجَلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ فيه وبين أجلٍ قد بَقِي لا يدري ما الله قاضٍ فيه فليَتَزَوَّد العبدُ من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لِمَوْته ومن شبابه لِهرَمَه فإنّ الدنيا خُلِقَتْ لكم وأنتم خُلِقْتم للآخرة والذي نفسي بيده ما بعد الموت مُسْتَعتب[٤] ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنّة أو النار».

قال ﷺ: «احذروا الدنيا فإنها أسحرُ من هَارُوتَ ومَارُوتَ»[٥].

وقال عليه السلام لأصحابه: «هل منكم مَن يريد أن يُذْهِبَ الله عنه العَمَى ويجعله بصيرًا أَلَا إنه من رغِب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبَه على قَدر ذلك ومن زَهِد في الدنيا وقَصُر أملُه فيها أعطاه الله علمًا بغير تَعَلُّم وهُدًى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلْك إلا بالقتل والتَّجبُّر ولا الغنى إلا بالفَخْر والبُخْل ولا المحبَّة إلا باتِّباع الهوى أَلَا فمن أدرك ذلك الزمانَ منكم فصَبَرَ للفقر وهو يقدِر على الغِنَى وصَبَرَ على البَغْضاء وهو يقدِر على المحبَّة وصَبَرَ

---

(١) عذرات: جمع عذرة، وهي الخرء والسّؤر وفضلات الإنسان التي يخرجها من جوفه.

(٢) ينتجعون: يطلبون النجعة، أي ورود الماء. (٣) الهنة: الشيء الصغير.

(٤) مستعتب: استرضاء.

(٥) هاروت وماروت: اسما ملكين ببابل، كانا يعلّمان السحر. ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: الآية ١٠٢].

للذُلّ وهو يقدِر على العِزّ لا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صِدِّيقًا».

وقال عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام: وَيْلٌ لصاحب الدنيا! كيف يموت ويتركُها، ويأمَنُها وتَغُرُّه، ويَثِقُ بها وتخذله!، وويلٌ للمغترّين! كيف أرتْهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبُّون، وجاءهم مَا يُوعَدون! وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه، والخطايا عملُه كيف يفتضح غدًا بذنبه!. وقيل له: علِّمنا علمًا واحدًا يحبّنا الله عليه، قال: أَبغِضوا الدنيا يحبَّكم الله.

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضَحِكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة».

ومن الآثار في ذلك ما حكاه داوود بن هلال قال: مكتوبٌ في صُحُفِ إبراهيمَ[1] عليه السلام: يا دنيا، ما أهونَكِ على الأبرار الذين تصنَّعْتِ وتزَّينْتِ لهم! إني قذفتُ في قلوبهم بغضَك والصدودَ عنك، وما خلقتُ خَلْقًا أهونَ عليّ منك، كلُّ شأنك صغير، وإلى الفناء تصيرين، قضيتُ عليك يوم خلقتُك أَلّا تدومي لأحد ولا يدوم أحدٌ لك وإن بخِل بك صاحبُك وشحّ[2] عليك. طوبى[3] للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة! طوبى لهم! ما لهم عندي من الخير إذا وفدوا إليّ من قبورهم [إلا] النورُ يسعى أمامهم والملائكةُ حافُّون بهم حتى أبلِّغهم ما يرجُون من رحمتي.

وقال عمّارُ بنُ سعيد: مرّ عيسى ابنُ مريَم عليه السلام بقرية فإذا أهلُها موتى في الأفنية والطرق، فقال: يا معشرَ الحواريِّين، إن هؤلاء ماتوا عن سَخْطة[4]، ولو ماتوا عن غير ذلك لَتَدافنُوا. فقالوا: يا رُوح الله، وَدِدْنا أنّا علمنا خبرهم، فسأل الله تعالى فأوحى إليه: إذا كان الليل فنادِهم يُجيبوك. فلما كان الليل أشرف على نَشَز[5]، ثم نادى يا أهلَ القرية، فأجابه مُجيب: لَبَّيْكَ يا رُوح الله. فقال: ما حالكم وما قِصّتكم؟ قال: بِتْنا في عافية وأصبحنا في الهاوية. قال: وكيف ذاك؟ قال: لحُبِّنا الدنيا وطاعتِنا

(١) صحف إبراهيم: الكتب التي نزلت عليه هداية للناس وتبيانًا للحق، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: الآيتان ١٨، ١٩].

(٢) شحّ: بخل.

(٣) طوبى: هنيئًا.

(٤) سخطة: غضبة وانتقام.

(٥) النشز: ما ارتفع من الأرض.

أهل المعاصي. قال: وكيف كان حبُّكم للدنيا؟ قال: حُبَّ الصبيّ لأمّه، إذا أقبلت فرِح بها، وإذا أدبرت حزِن وبكى عليها. قال: فما بال أصحابك لا يُجيبوني؟ قال: لأنه مُلْجَمون[١] بلُجُم من نار بأيدي ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد. قال: فكيف أجبتني من بينهم؟ قال: لأنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا مُعلّق على شَفِير جهنّم لا أدري أنجو منها أم أُكَبُّ فيها. فقال المسيح للحواريِّين: لأَكْلُ الخبز الشعير بالملح الجرِيش[٢] ولُبْسُ المُسُوح[٣] والنوم على المزابل كثيرٌ مع عافية الدنيا والآخرة.

قيل: وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى لا تركَنَنَّ إلى حبِّ الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشدُّ منها.

وقال لُقمانُ[٤] لابنهِ: يا بُنَيّ، إن الدنيا بحر عميق وقد غرِق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتُك فيها تَقْوى الله عزّ وجلّ، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى، وشِراعُها التوكُّل على الله عزّ وجلّ، لعلك تنجو وما أراك ناجيًا.

وقال بعض الحكماء: إنك لن تُصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك ويكون له أهلٌ بعدك؛ وليس لك من الدنيا إلا عَشَاءُ ليلةٍ وغَدَاءُ يوم، فلا تهلِكْ في أَكْلة، وصُم [عن] الدنيا وأَفْطِر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى ورِبْحَها النار.

وقيل لبعضهم: كيف ترى الدهرَ؟ قال: يُخْلِقُ الأبدانَ، ويُجَدِّد الآمالَ، ويُقَرِّب المنيّةَ، ويُبْعد الأُمْنيّة. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفِر به تَعِب، ومن فاته نَصِب[٥]. وفي ذلك قيل: [من الطويل]

وَمَنْ يَحْمِدِ الدنيا لعيش يَسُرُّهُ
فسوف لعمري عن قريب يَلُومُها
إذا أَدْبرت[٦] كانت على المرءِ حَسْرَةً
وإن أقبلتْ كانتْ كثيرًا هُمُومُها

---

(١) ملجمون: في أفواههم اللّجم، فما ينطقون. (٢) الجريش: الخشن.
(٣) المسوح: الثياب من شعر وغيره، جمع مسح.
(٤) لقمان: من أنبياء العرب وصلّاحهم. اشتهر بلقب الحكيم. خصّه القرآن الكريم بسورة تحمل اسمه هي سورة لقمان.
(٥) نصب: تعِب. (٦) أدبرت: ولّت.

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإنّ عيشَها نكَد[١]، وصفوها كَدَر، وأهلَها منها على وَجَل[٢]، إمّا بنعمة زائلة، أو بليّة نازلة، أو منيّة قاضية.

وقال أبو حازم[٣]: إيّاكم والدنيا، فإنّه بلغني أنه يُوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعَظِّمًا للدنيا فيقال: هذا عظَّم ما حقَّره الله.

وقال ابن مسعود[٤]: ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضَيْفٌ ومالُه عارية، فالضيف يرتحل والعارية مردودة. وفي ذلك قيل: [من الطويل]

وما المالُ والأهلون إلّا وديعةٌ ولا بُدّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ

وزار رابعةَ العدوية[٥] أصحابُها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمّها، فقالت: أمسِكوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألَا من أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره.

وقال رجل لعليّ رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين، صِفْ لنا الدنيا؛ فقال: وما أصِفُ لكم من دار مَنْ صَحَّ فيها ما أَمِنَ، ومن سَقِم فيها نَدِم، ومن افتقر فيها حزِن، ومن استغنى فيها فُتِن؛ في حَلالها الحِسابُ، وفي حرامها العذاب.

وقال الحسنُ بعدَ أن تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: الآية ٣٣]: من قال ذا؟ مَنْ خلقها مَن هو أعلم بها. إيّاكم وما شَغَل من الدنيا فإنّ الدنيا كثيرةُ الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه بابَ شغل إلا أوشك ذلك البابُ أن يفتح عليه عَشْرةَ أبواب. وقال أيضًا: مسكينٌ ابنُ آدم رَضِي بدار حلالُها حساب، وحرامُها عذاب، إن أخذه من حلّه حُوسب به، وإن أخذه من حرامٍ عُذِّب به. ابن آدم يستقلّ ما له ولا يستقلّ عمله، يفرح بمصيبته في دِينه ويجزَع من مصيبته في دنياه.

---

(١) نكد: حزن ونصب. (٢) وجل: حذر.

(٣) أبو حازم: من الصالحين الزاهدين في أيام بني أمية، ويعرف بأبي حازم الأعرج.

(٤) ابن مسعود، عبد الله، الصحابي والمحدّث. خدم النبيّ ﷺ ولزمه مدّة حياته. من القرّاء الأربعة. أتقن القرآن. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/٣٨ ـ ٣٩.

(٥) رابعة العدوية: هي أم الخير القيسية التي غلب عليها اشتهارها برابعة العدوية، من أشهر نساء المتصوّفة، وشعرها في الحبّ الإلٰهي معروف. تُوفيت سنة ١٣٥ هـ. انظر شيئًا من أقوالها وأشعارها في: البيان والتبيين، للجاحظ ٣/٤٤٨ ـ ٤٧١ دار صعب. بيروت ١٩٦٨.

وقال داودُ الطائيّ[١]: يا ابن آدم، فرِحتَ ببلوغ أملك، وإنّما بلغتَه بانقضاء أجلك، ثم سوّفتَ بعملك، كأنّ منفعته لغيرك.

وقال بِشر[٢]: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه.

وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يَسُرُّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك.

وقال الحسن[٣]: أَهِينوا الدنيا، فوالله ما هي لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضًا: إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أعطاه عطيّةً من الدنيا ثم يُمسك، فإذا نفِد أعاد عليه؛ وإذا هان عليه عبدٌ بَسَطَ له الدنيا بَسْطًا.

قال الجُنَيْد[٤]: كان الشافعيّ[٥] رحمه الله من المُريدين الناطقين بلسان الحقّ في الدين، وَعَظ أخًا له في الله تعالى وخوّفه بالله فقال: يا أخي، إنّ الدنيا دَحْضُ[٦] مَزَلّة، ودار مذلّة، عُمْرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر؛ شملها على الفُرقة موقوف، وغِناها إلى الفقر مصروف؛ الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يَسَار[٧]؛ فافزَع إلى الله وارضَ برزق الله. لا تَسْتسلف من دار بقائك في دار فَنَائك، فإن عيشك فَيءٌ[٨] زائل، وجِدارٌ مائل؛ أكثِرْ من عملك، وقَصِّرْ من أملك. وهذا من أبلغ المواعظ والترغيب.

---

(١) داود الطائي: هو داود بن نصر الطائي، أحد العباد والزهاد في العصر الأموي والعباسي.

(٢) هو بشر الحافي: أبو نصر بن الحارث، من الزهاد النادرين في العبادة والانقطاع إلى النسك. من أهل مرو، وساكني بغداد. كانت وفاته سنة ٢٢٠ هـ.

(٣) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، من أشهر الزهاد وألمع النساك والوعاظ. تابعي ومتكلم ومحدّث. ولد في المدينة وسكن البصرة. تعمق في دراسة الأحكام الإسلامية الشرعية، وانصرف إلى الوعظ والتدريس والحديث. مات سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م. انظر خبر الحسن البصري وشيئًا من أقواله ومواعظه في: البيان والتبيين ٢/ ٣٧٣ و٣/ ٤٤٧ ـ ٤٤٩.

(٤) الجنيد: أبو القاسم بن محمد المروزي المولد، والصوفي البغدادي. تلميذ خاله السّري السّقطي. صاحب الطريقة الجنيدية المعروفة باسمه. ومن أنصار القائلين بالحلول. مات سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م.

(٥) الشافعي، محمد بن إدريس، إمام المذهب السنّي المعروف باسمه. وُلد في غزّة ونشأ في مكة. وفيها لازم الإمام مالك كما لازمه في المدينة المنوّرة، ودرس عليه. له تصانيف عدة أهمها: «الأمّ» في الفروع، و«المسند» في الحديث، و«السّنن» و«الرسالة» في الأصول. مات سنة ٢٠٤ هـ/ ٨٢٠ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٩ ـ ١٠.

(٦) الدحض: الزّلق. (٧) اليسار: الغنى.

(٨) الفيء: الظلّ.

ومن المواعظ ما قاله أبو الدرداء[١] رضي الله عنه: والله لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعُدات[٢] [تجأرون[٣] و]تبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها ولا راجعَ إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الأمل، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شرٌّ من البهائم التي لا تدع هواها مخافةً مما في عاقبته. ما لكم لا تَحَابُّون ولا تَنَاصحون وأنتم إخوان على دين الله؛ ما فرّق بين أهوائكم إلا خُبْث سرائركم، ولو اجتمعتم على البِرّ لتحاببتم. ما لكم تَنَاصحون في أمر الدنيا ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يُحِبّه ويُعينه على أمر آخرته! ما هذا إلا من قلّة الإيمان في قلوبكم. لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما تُوقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك بأموركم. فإن قلتم: حبُّ العاجلة[٤] غالب؛ فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل مما تكُدُّون أنفسكم بالمشقّة والاحتراف في طلب أمرٍ لعلكم لا تُدركونه. فبئس القوم أنتم! ما حقّقتم إيمانكم بما يُعْرَف به الإيمان البالغ فيكم. فإن كنتم في شكٍّ مما جاء به محمد ﷺ فأتونا لنبيِّن لكم ولنريكم من النور ما تطمئنّ إليه قلوبكم. والله ما أنتم بالمنقوصة عقولُكم فنعذرَكم؛ إنكم لَتَبَيّنُون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم. ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تُصيبونه وتحزَنون على اليسير منها يفوتكم، يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم، وتسمُّونها المصائب وتُقيمون فيها المآتم، وعامّتكم قد تركوا كثيرًا من دينهم ثم لا يتبيّن ذلك في وجوهكم ولا يتغيّر حالٌ بكم!. إني لأرى الله قد تبرّأ منكم. يلقى بعضكم بعضًا بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبَه بما يكره مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثله، فاصطحبتم على الغلّ[٥]، ونبتت مراعيكم على الدِّمن[٦]، وتصافيتم على رفض الأجل. ولَوَدِدْتُ أن الله أراحني منكم وألحقني بمن أُحبّ رؤيته، ولو كان حيًّا لم يصابركم. فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم؛ وإنْ تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرًا. والله أستعين على نفسي وعليكم.

---

(١) أبو الدرداء: عويمر بن مالك الخزرجي الأنصاري، من رواة الحديث. كان قاضيًا في دمشق. تُوفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٣٩.
(٢) الصعدات: الأماكن العالية.
(٣) تجأرون: تصيحون وترفعون أصواتكم بالبكاء عاليًا.
(٤) العاجلة: كناية عن الدنيا. (٥) الغلّ: الحقد والكراهية.
(٦) الدمن: جمع دمنة، وهي المزبلة.

وكتب الحسن البصريّ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز رحمهما الله تعالى:

أمّا بعد، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أُنزل آدمُ عليه السلام من الجَنّة إليها عقوبة؛ فاحذَرْها يا أمير المؤمنين؛ فإنّ الزاد منها تركُها، والغنَى منها فقرها؛ لها في كلّ حين قتيل؛ تُذِلّ من أعزّها، وتُفقر من جمعها؛ هي كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه. فكن فيها كالمُداوِي جراحتَه، يحتمي قليلًا مخافةَ ما يكره طويلًا، ويصبر على شدّة الدواء مخافة طول الداء. فاحذر هذه الدار الغدّارة الختّالة[١] الخدّاعة التي قد تزيّنت بخُدَعها وفتنت بغرورها، وحَلَت بآمالها، وسوّفت[٢] بخطّابها؛ فأصبحت كالعروس المجلوّة[٣]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قالية[٤]؛ فلا الباقي بالماضي معتبِر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر[٥]، والعارف بالله عزّ وجلّ حين أخبره عنها مذّكر؛ فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى ونَسِيَ المعاد، فشغل لبّه حتى زلّت به قدمه، فعظُمت ندامته، وكثُرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألُّمه، وحسرات الفوت بغُصّته؛ وراغبٌ فيها لم يدرك فيها ما طلب، ولم يروّح نفسه من التعب؛ فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد. فاحذَرْها يا أمير المؤمنين، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ فيها إلى سرورٍ أشخصته إلى مكروه؛ السارّ فيها أهلَها غارّ، والنافع فيها غدّار ضارّ؛ وقد وُصِل الرخاءُ فيها بالبلاء، وجُعِل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوبٌ[٦] بالأحزان. لا يرجع منها ما ولّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فينتظر؛ أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشُها نكد، وابن آدم فيها على خطر، ومن البلاء على حَذَر. فلو كان الخالق لم يُخبر عنها خَبَرًا، ولم يضرب لها مثلًا، لكانت الدنيا أيقظت النائمَ ونبّهت الغافلَ، فكيف وقد جاء من الله عزّ وجلّ عنها زاجرٌ وفيها واعظ! فما لها عند الله جلّ ثناؤه قَدْر، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرضت على نبيّك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا يَنْقصه ذلك عند الله جَناحَ بَعُوضة فأبى أن يقبلها إذ كَرِه أن يُخالف على الله أمره، أو يُحِبّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وَضع مليكُه. فزَوَاها[٧] عن الصالحين اختبارًا. وبَسطها لأعدائه اغترارًا؛

(١) الختّالة: الخدّاعة.
(٢) سوّفت: ماطلت، وأخلفت.
(٣) المجلوّة: المزيّنة ليلة دخولها على عريسها.
(٤) قالية: كارهة ومبغضة.
(٥) مزدجر: ممتنع.
(٦) مشوب: مخلوط.
(٧) زواها: أبعدها ونحاها جانبًا.

فيظنّ المغرور المقتدر عليها أنه أُكرِم بها، ونسِيَ ما صنع الله عزّ وجلّ بمحمد ﷺ حين شدّ الحجر على بطنه[١]. ولقد جاءت الرواية عنه عن ربّه عزّ وجلّ أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغِنَى مُقبلًا فقل: ذَنْبٌ عُجِّلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلًا فقل: مرحبًا بشِعار الصالحين. فإن شئت اقتديت بصاحب الروحِ والكلمةِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي[٢] الجوع، وشِعاري[٣] الخوف، ولباسي الصوف، وصِلائي[٤] في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابّتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما تُنبت الأرض، أبيت ليس لي شيءٌ وأُصبح وليس لي شيءٌ وليس على الأرض أغنى منّي.

وقال بعضهم لبعضِ الملوك: إن أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها وأُعطي حاجته منها، لأنه يتوقّع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جَمْعه فتفرّقه، أو تأتي سلطانَه فتهدمه من القواعد، أو تدِبّ إلى جسمه فتُسْقمه، أو تَفْجَعه بشيء هو ضنين به من أحبابه. فالدنيا أحقُّ بالذمِّ، هي الآخذة لما تُعطي، الراجعة فيما تَهَب. بينا هي تُضْحِك صاحبَها إذ أضحكت منه غيرَه، وبينا هي تبكي له إذ بكت عليه، وبينا هي تبسُط كفَّه بالإعطاء إذ بَسَطتها بالاسترداد. تعقِد التاجَ على رأس صاحبها اليومَ وتُعَفِّره في التراب غدًا؛ سواءٌ عليها ذَهابُ ما ذهب وبقاءُ ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خَلَفًا، وتَرْضَى بكُلٍّ من كلٍّ بدلًا.

وعن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ[٥] أنه قال:

لمّا بعث الله عزّ وجلّ موسى وهارون[٦] عليهما السلام إلى فرعونَ قال: لا يَروعنّكما[٧] لباسُه الذي لبِس من الدنيا، فإنّ ناصيته[٨] بيدي ليس ينطِق ولا يطرِف ولا يتنفّس إلا بإذني، ولا يُعجبنّكما ما مُتّع به منها فإنما هي زَهْرةُ الدنيا وزينة المُتْرَفين. فلو شئتُ أن أُزَيّنكما بزينة من الدنيا يعرف فرعونُ حين يراها أنّ قدرته تعجِزُ عمّا أُوتيتما لفعلت، ولكنّي أرغب بكما عن ذلك فأَزوِي ذلك عنكما، وكذلك

(١) كناية عن الجوع: كانوا إذا شعروا بالجوع الشديد، يضعون حجرًا على البطن ثم يشدّونه عليها.
(٢) إدامي: الإدام، ما يؤكل مع الخبز من الطعام.
(٣) شعاري: غطائي.
(٤) صلائي: ما اصطلي به من النار.
(٥) وهب به منبّه: أحد التابعين والمؤرخين المتخصصين بتاريخ الأقدمين. وُلد في اليمن بصنعاء وعاش فيها. له «التيجان في ملوك حمير». مات سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م.
(٦) هارون: أخو موسى، النبيّ، وأول أحبار بني إسرائيل.
(٧) يروعنّكما: يخوفنكما.
(٨) ناصيته: الناصية، شعر مقدّم الرأس.

أفعل بأوليائي، إني لأذودُهم[١] عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمَه عن مراتع[٢] الهَلَكة؛ وما ذاك لهوانهم عليّ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا مُوَفّرًا. إنما يتزيّن لي أوليائي بالذُّلّ والخضوع والخوف والتقوى تَنْبُت في قلوبهم فتظهر على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبَسون، ودِثارهم[٣] الذي يُظهرون، وضميرُهم الذي يستشعرون، ونجاتُهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إيّاه يأمُلون، ومجدهم الذي به يفخَرون، وسيماهم[٤] التي بها يُعْرَفون. فإذا لَقِيتَهم فاخفِضْ لهم جَناحك وذلِّل لهم قلبك ولسانك. واعلم أنّ من أخاف لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.

وخطب عليّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه يومًا خطبة فقال فيها:

اعلموا أنكم مَيِّتون، ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومَجْزِيُّون بها، فلا تَغُرَّنّكم الحياة الدنيا؛ فإنّها بالبلاء محفوفة، وبالفَناء معروفة، وبالغَدْر موصوفة؛ وكلّ ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دُوَلٌ وسِجَال[٥]؛ لا تدوم أحوالها، ولا يسلَم من شرها نُزّالها؛ بينا أهلُها في رخاءٍ وسرور، إذا هم منها في بلاءٍ وغرور؛ أحوال مختلفة، وتارات متصرِّفة؛ العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم. وإنما أهلها فيها أغراضٌ مستهدَفَةٌ ترميهم بسهامها، وتُقْصِيهم بحِمامها[٦]؛ وكلٌّ حتفُه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور. واعلموا عبادَ الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَنْ قد مضى ممن كان أطولَ منكم أعمارًا، وأشدّ منكم بَطْشًا وأعمر دِيارًا، وأبعد آثارًا؛ فأصبحت أصواتهم هامدةً وخامدةً من بعد طُول تقلُّبها، وأجسادُهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية؛ استبدلوا بالقصور المشيَّدة، والسُّرُرِ والنمارِق[٧] الممهَّدة، الصخورَ والأحجارَ المُسْنَدة، في القبور اللاطئة[٨] المُلْحَدَة؛ فمحَلُّها مُقترِب، وساكنُها مُغترِب، بين أهلِ عمارةٍ مُوحشين، وأهلِ مَحَلَّة مُتشاغلين؛ لا يستأنسون بالعُمْران، ولا يَتَواصلون تواصُلَ الجِيران والإخوان؛ على ما بينهم من قرب

---

(١) أذودهم: أبعدهم.
(٢) مراتع: الأمكنة التي ترعى بها الماشية.
(٣) دثارهم: ثوبهم.
(٤) سيماهم: علامتهم وهيئتهم.
(٥) دول وسجال: أي أن بعض أيامها حروب تنتقل من هذا الفريق إلى هذا الفريق. وتارة ينتصر هذا، وتارة ينتصر ذاك.
(٦) حمامها: موتها.
(٧) النمارق: مجمع نمرقة، وهي الطنفسة، والوسادة الصغيرة يتكأ عليها.
(٨) اللاطئة: القليلة الارتفاع، المنخفضة.

المكان والجِوار، ودنوّ الدار. وكيف يكون بينهم تواصلٌ وقد طحنهم بكَلْكَله[١] البِلَى، وأكلتهم الجنادل[٢] والثرى؛ وأصبحوا بعد الحياة أمواتًا، وبعد غَضَارة[٣] العيش رُفاتًا[٤]؛ فُجِع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات! كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ[٥] إلى يوم يُبْعَثون؛ فكأنْ قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدةِ في دار المثوى، وارْتُهِنتم في ذلك المَضْجَع، وضمّكم ذلك المُستودَع؛ فكيف بكم لو قد عاينتم الأمور، وبُعْثِرت القبور، وحُصِّل ما في الصدور؛ ووُقِفْتم للتحصيل، بين يدي الملك الجليل؛ فطارت القلوب، لإشفاقها من سالف الذنوب؛ وهُتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؛ هنالك تُجْزَى كلُّ نفسٍ ما كسبت. إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١]؛ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: الآية ٤٩]. جعلنا الله وإيّاكم عاملين بكتابه، متّبعين لأوليائه، حتى يُحِلّنا وإيّاكم دارَ المُقامة من فضله، إنه حميد مجيد.

ومما يلتحق بهذا الفصل ويدخل فيه، خطبةُ قَطَرِيّ بنِ الفجاءةِ[٦] وسترد في كلام البلغاء في باب الكتابة.

وقال بعضهم: يا أيها الناسُ، اعملوا على مَهَل، وكونوا من الله على وَجَل، ولا تغترّوا بالأَمَل ونسيان الأجل؛ ولا تركَنوا إلى الدنيا فإنَها غدّارة خدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغُرورها، وفَتنتكم بأمانيها، وتزينت لخُطّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة؛ العيونُ إليها ناظرة، والقلوبُ عليها عاكفة[٧]، والنفوسُ لها عاشقة. فكم من عاشقٍ لها قتلتْ، ومطمئنٍّ إليها خَذلتْ. فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنّها دار كثرت بوائقُها[٨]، وذمّها خالقها؛ جديدها يبلَى، وملكها يفنَى؛ وعزيزُها يَذِلّ، وكثيرها يقِلّ؛

---

(١) الكلكل: الصدر. (٢) الجنادل: الحجارة الضخمة.

(٣) الغضارة: نعمة العيش والرواء الحسن.

(٤) الرفات: الحطام، ما بلي ورثّ من جثمان الميّت.

(٥) البرزخ: المرحلة الفاصلة بين الموت والبعث. والحساب في القبر، يعرف بحساب البرزخ.

(٦) قطري بن الفجاءة: من شعراء الخوارج وخطبائهم المعدودين. قلّده الخوارج الخلافة، قضى ثلاث عشرة سنة وهو يقاتل الحجّاج ويرد هجماته. وأخيرًا قتل في معركة بطبرستان سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م.

(٧) عاكفة: مقيمة. (٨) بوائقها: شرورها ومصائبها.

وحيّها يموت، وخيرها يفوت. فاستيقظوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم؛ قبل أن يقال: فلانٌ عليل، أو مُدْنَفٌ[١] ثقيل، فهل على الدواء من دليل، أو على الطبيب من سبيل؛ فيُدْعَى لك الأطبّاء، ولا يُرْجَى لك الشفاء؛ ثم يقال: فلان أوصَى، ولماله أحصَى؛ ثم يقال: قد ثقُل لسانُه فما يكلِّم إخوانه، ولا يعرِف جيرانه؛ وعرِق عند ذلك جبينُك، وتَتَابع أنينُك، وثبت يقينك، وطَمَحت[٢] جُفونك، وصدَقت ظنونك؛ وتلجلج[٣] لسانُك، وبكى إخوانك؛ وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومُنِعْتَ الكلام فلا تنطق؛ ثم حلّ بك القضاء، وانْتُزِعت نفسُك من الأعضاء، ثم عُرج بها إلى السماء؛ فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحْضَرت أكفانك؛ فغسّلوك وَكَفّنوك؛ فانقطع عُوّادك[٤]، واستراح حُسّادُك؛ وانصرف أهلُك إلى مالك، وبقيت مُرْتَهَنًا بأعمالك.

وقال بعض الحكماء: الأيام سِهامٌ، والناسُ أغراضٌ، والدهرُ يرميك كلَّ يوم بسهامِه، ويتخرّمك[٥] بلياليه وأيّامه، حتّى يستغرقَ جميعَ أجزائك؛ فكم بقاءُ سلامتك مع وقوع الأيّام بك، وسرعةِ الليالي في بَدَنك! لو كُشِف لك عما أحدثت الأيامُ فيك من النقص لاستوحشتَ من كلّ يوم يأتي عليك، واستثقلت ممرّ الساعات بك؛ ولكنّ تدبير الله فوق تدبير الاعتبار؛ وبالسلوّ عن غوائل[٦] الدنيا وُجِد طعمُ لذّاتها، وإنّها لأمرُّ من العَلْقم[٧] إذا عَجَمها[٨] الحكيم؛ وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يُحيط به الواعظ. اللهم أرشدنا للصواب.

وخطب عمر بنُ عبدِ العزيز رحمه الله فقال: أيها الناس، إنكم خُلِقتم لأمرٍ إن كنتم تصدِّقون به فإنكم حَمْقَى، وإن كنتم تكذِّبون به إنكم لهَلْكى؛ إنما خُلِقتم للأبد، ولكنكم من دارٍ إلى دارٍ تُنْقَلون. عباد الله، إنكم في دارٍ لكم فيها من طعامكم غَصَص[٩]، ومن شرابكم شَرَق[١٠]، لا تصفو نعمةٌ تُسَرُّون بها إلا بفراق أُخرى تكرهون فِراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه خالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

---

(١) مدنف: مريض.
(٢) طمحت: جمحت وارتفعت.
(٣) تلجلج: تعثّر ولم يفصح.
(٤) عوّادك: زوّارك في المرض.
(٥) يتخرّمك: يقطعك ويشقّك.
(٦) غوائل: شرور ومصائب.
(٧) العلقم: نبات الحنظل.
(٨) عجمها: امتحنها واختبرها.
(٩) غصص: عدم إساغة.
(١٠) شَرِقَ فلان بالماء: غصّ.

ذِكر بيان الزهد وأقسامه وأحكامه

فأمّا درجاته فقد قال الغزاليّ رحمه الله: إنها تتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث:

الأولى وهي السفلى منها: أن يزهدَ في الدنيا وهو لها مُشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتةٌ ولكنّه يجاهدها ويَكُفّها، وهذا يسمّى التزهُّد، وهو مبدأ الزهد في حقّ مَن يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد. والمتزهّد يُذيب أوّلًا نفسَه ثم كسبه، والزاهد يُذيب أوّلًا كسبَه ثم يُذيب نفسه في الطاعة لا في الصبر على ما فارقه. والمتزهّد على خَطَر، فإنه ربما تغلِبه نفسُه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

الثانية: الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمِع فيه كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين فإنّه لا يشُقّ عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل. ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه، فيكاد يكون مُعْجَبًا بنفسه وبزهده، ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئًا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه؛ وهذا أيضًا نقصان.

الثالثة وهي العليا: أن يزهد طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئًا إذ عرَف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خَزَفَةً(١) وأخذ جوهرةً فلا يرى ذلك معاوضةً ولا يرى نفسه تاركًا شيئًا. والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خزفة بالإضافة إلى جوهرة؛ فهذا هو الكمال في الزهد، وسببه كمال المعرفة. وأما أقسامه فمنها ما هو مضاف إلى المرغوب فيه والمرغوب عنه؛ فأما المرغوب فيه فهو على ثلاث درجات:

الأولى وهي السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار. وفي الخبر: «إن الرجل ليُوقَف في الحساب حتى لو وردتْ مائةُ بعير عِطاشًا على عَرَقه لصَدَرَتْ رِوَاء»(٢)؛ فهذا زهد الخائفين وكأنّهم رَضُوا بالعدم لو أُعْدِموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم.

(١) الخزفة: الفخّارة.

(٢) رواء: شبعي من الماء.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبةً في ثواب الله ونعيمه واللّذّات الموعودة في جنّته من الحُور والقصور وغيره، وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعةً بالعدم والخلاص من الألم بل طمِعوا في وجودٍ دائم ونعيم سَرْمَدٍ[1] لا آخر له.

الدرجة الثالثة وهي العليا: ألا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذّات ليقصِد نَيْلَها، والظفرَ بها، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى، وهو الموحّد الحقيقيّ الذي لا يطلب غير الله تعالى، لأنّ من طلب غير الله فقد عبده؛ وكلّ مطلوب معبود، وكلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلبُ غير الله من الشرك الخفيّ؛ وهذا زهد المحبّين وهم العارفون، لأنه لا يحبّ الله تعالى خاصّة إلا من عرفه؛ وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنّه لا يقدِر على الجمع بينهما لم يحبّ إلا الدينار، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف لذّة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذّة وبين لذّة التنعُّم بالحُور العِين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولا يُؤْثر غيره. قال: ولا تَظُنَّنّ أن أهل الجنّة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحُور والقُصور مُتَّسعٌ في قلوبهم، بل تلك اللذّة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّة كلذّة مُلْك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخَلْق بالإضافة إلى الاستيلاء على عُصفور واللعب به؛ والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبيّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للّذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذّة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأمّا المرغوب عنه، فقد كثرت فيه الأقاويل.

قال الغزاليّ رحمه الله: لعلها تزيد على مائة قول، وأشار إلى كلام محيط بالتفاصيل فقال: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل.

أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كلّ ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتّى يزهد في نفسه أيضًا.

(١) سرمد: دائم لا ينتهي.

والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفةٍ للنفس فيها مُتعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكِبْر والرياسة والمال والجاه وغير ذلك.

وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجِع جميع حظوظ النفس.

وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه، إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثُرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة. قال: وأعني به كلّ علم وقدرة مقصودهما ملك القلوب؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها. قال: فإن جاوزتَ هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فتكاد تُخْرِج ما فيه الزهدُ عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [آل عِمران: الآية ١٤]. ثم ردّه في آية أخرى إلى خمسة فقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحَديد: الآية ٢٠]. ثم ردّه في موضع آخر إلى اثنين فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٤]. ثم ردّ الكلّ في موضع آخر إلى واحد فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١]؛ فالهوى لفظٌ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه.

قال: فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها.

وقال أبو سليمان الداراني[1]: سمعنا في الزهد كلامًا كثيرًا، والزهد عندنا ترك كلّ شيء يشغَلك عن الله عزّ وجلّ، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٩]، قال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله. فهذا بيان أقسامه بالإضافة إلى المرغوب فيه وعنه.

---

(١) أبو سليمان الداراني: من أصحاب الرياضات والمجاهدة في التصوّف والعرفان. انظر شيئًا من أقواله في: شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١١/ ٧٤ ـ ٢٠١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٦٧.

وأما أحكامُه فتنقسم إلى فرضٍ ونفلٍ وسلامة. فالفرضُ هو الزهدُ في الحرام، والنفلُ هو الزهدُ في الحلال، والسلامةُ هو الزهدُ في الشبهات. فهذه درجاته وأقسامُه وأحكامُه على سبيل الاختصار.

ذكر بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

قال الغزاليّ رحمه الله: اعلم أنّ ما الناسُ منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهِمّ؛ فالفضول كالخيل المسوّمة[1] - إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها وهو قادر على المشي - وغيرِ ذلك مما لا ينحصر. ثم حصَر المهمّ الضروريّ فتميّز ما عداه أنّه فُضُول. قال: والمهمّ أيضًا يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته على ما يشرحه من قوله. قال: والمهمّات ستّة أمور، وهي: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض.

فالمهمّ الأوّل المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يُقيم صُلبه، ولكن له طول وعرض ووقت. فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه قد لا يقنع به، وهو لا يقصُر إلا بقصر الأمل، وأقلّ درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّته وخوف المرض. ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غدائه لعشائه؛ وهذه الدرجة العليا.

والثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يومًا.

والثالثة: أن يدّخر لسنةٍ فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهّاد. ومن ادّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأنّ من أمّل بقاءً أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًّا فلا يتمّ منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائيّ فإنه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها عشرين سنة، فهذا لا يضاد الزهد إلا ند من جعل التوكل شرط الزهد.

وأمّا عَرْضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُدّ - وهو ما قدّره الله تعالى في إطعام المساكين في الكفّارة - وما وراء ذلك فهو اتساع واشتغال بالبطن. ومن لم يقدِر على الاقتصار على مُدّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب.

(١) المسوّمة: المرعيّة، المرسلة مطلقةً، والمعلمة بعلامات تعرف بها.

وأمّا بالإضافة إلى الجنس فأقلّه ما يَقوت وهو الخبز من النُّخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البُرّ[١] غير منخول؛ فإذا مُيّزت النُّخالة منه وصار حُوّارَى[٢] فقد دخل في التنعُّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلًا عن أوائله.

وأمّا الأُدم[٣]، فأقلّه المِلحُ أو البقلُ والخلُّ، وأوسطهُ الزيتُ أو يسيرٌ من الأدهان، وأعلاه اللحمُ وذلك في الأسبوع مرّةً أو مرّتين؛ فإن صار دائمًا أو أكثر من مرّتين في الأسبوع خرج من آخرِ أبوابِ الزهد فلم يكن صاحبُه زاهدًا في البطن أصلًا.

وأمّا بالإضافة إلى الوقت فأقلّه في اليوم والليلة مرّة وهو أن يكون صائمًا ثم يُفطر في وقت الإفطار؛ وأوسطه أن يصومَ ويشرَب ليلةً ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب؛ وأعلاه أن ينتهي إلى أن يَطْوِي[٤] ثلاثة أيام وأسبوعًا وما زاد عليه. وانظر إلى أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه في كيفيّة زهدهم في المطاعم وتركهم الأُدم واقتصارهم على ما يُمسك الرمَق[٥]. قال عائشة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يُوقَد في بيت رسول الله ﷺ مصباحٌ ولا نار. قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودَين التمر والماء. وجاء أهل قُبَاء[٦] إلى النبيّ ﷺ بشربة من لبن مَشُوبةٍ بعسل، فوضع القدحَ من يده وقال: «أمَا إنّي لست أُحرِّمه ولكنّي أتركه تواضعًا لله تعالى». وأُتِي عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزِلوا عنّي حسابها. وقال يحيىٰ بن مُعاذ[٧] الرازيّ: الزاهد الصّادق قوتُه ما وجَد، ولباسه ما سَتر، ومسكنه حيث أدرك؛ الدنيا سجنه، والقبر مضجَعه، والخَلوة مجلِسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والربّ أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شِعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبرُ معتمده، والتوكّل حسبه، والعقل دليله، والعبادة حِرفته، والجنّة مَبلغُه إن شاء الله تعالى.

---

(١) البرّ: القمح.
(٢) حوّارى: الدقيق الأبيض الخالي من النخّالة.
(٣) الأدم، والإدام: ما يؤكل مع الخبز.
(٤) يطوي: يصبر على الجوع، ويصوم.
(٥) الرمق: بقية الرّوح.
(٦) قباء: موضع يبعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير، وهناك مسجد التقوى، ومسجد ضرار. انظر: معجم البلدان ٤/ ٣٠٢.
(٧) يحيىٰ بن معاذ: كنيته أبو زكريا، من الريّ، أحد رجال الطريقة الصوفية، ومن العارفين المشهورين تُوفي سنة ٢٥٨ هـ بنيسابور. انظر: شذرات الذهب ٢/ ١٣٨.

المهم الثاني الملبس: وأقلّ درجاته ما يدفع الحَرّ والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطّى به؛ وأوسطه قميصٌ وقَلَنْسُوة[(١)] ونعلان؛ وأعلاه أن يكون معه مِنديل وسَرَوايل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مُجاوِز حدّ الزهد. وشرط الزهد ألّا يكون له ثوبٌ يلبسُه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعودُ في البيت؛ فإذا صار صاحبَ قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد. هذا من حيث المقدار. وأما الجنسُ، فأقلّه المُسُوحُ الخشنة، وأوسطه الصوفُ الخشن، وأعلاه القطنُ الغليظ.

وأما من حيث الوقتُ، فأقصاه ما يستُر سنَةً، وأقلُّه ما يبقَى يومًا، وقد رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه؛ وأوسطه ما يتماسك عليه شهرًا وما يقاربه. فطلبُ ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل، وهو مُضادٌّ للزهدِ إلا إذا كان المطلوب خشونته وقد يتبَع ذلك قوّته ودوامُه. فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به؛ فإن أمسكه لم يكن زاهدًا بل كان محبًّا للدنيا. ولينظر إلى أحوال الأنبياء صلّى الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم كيف تركوا الملابس. قال أبو بُردة: أخرجتْ لنا عائشة رضي الله عنها كِساءً مُلَبَّدًا وإزارًا غليظًا فقالت: قُبِض رسول الله ﷺ في هذين. وقال ﷺ: «إن الله تعالى يُحبّ المُتَبَذِّل[(٢)] الذي لا يُبَالِي ما لبِس». وفي الخبر: «ما من عبدٍ لبِس ثوب شُهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزِعه وإن كان عنده حبيبًا». واشترى رسول الله ﷺ ثوبًا بأربعة دراهم وكان إزاره أربعة أذرع ونصفًا، واشترى سراويل بثلاثة دراهم، وكان يلبَس شَمْلتين[(٣)] بَيْضاوَينِ من صوف وكانت تسمَّى حُلَّةً لأنهما ثوبان من جنس واحد. وربما كان يلبس بُردين يمانِيَيْنِ أو سَحُولِيّين[(٤)]. ولبس ﷺ يومًا واحدًا ثوبًا سِيراء[(٥)] من سُندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمِسُونه ويقولون: يا رسول الله، أنزَلَ هذا عليك من الجنّة! تعجُّبًا، وكان قد أهداه إليه المُقَوْقِس ملك الإسكندرية، فأراد أن يُكرمه بلُبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصَلَه به، ثم حرّم لُبسَ الحرير والديباج. وقد صلّى رسول الله ﷺ

(١) القلنسوة: نوع من ملابس الرأس.
(٢) المتبذّل: التارك للاحتشام والتصوّن والفخفخة.
(٣) شملتين: مثنى شملة، وهي الكساء الواسع يشتمل به.
(٤) سحوليين: نسبةً إلى سحول، قرية من قرى اليمن يحمل منها ثياب قطنية بيض تدعى السحولية. انظر: معجم البلدان ١٩٥/٣.
(٥) سيراء: برود مخطّطة يخالطها الحرير.

في خَمِيصةٍ[١] لها علم فلمّا سلّم قال: «شَغَلني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جَهْم واتوني بأنبجانيّتِهِ» (يعني كساءه) فاختار لبس الكِساء على الثوب الناعم. وكان شِراك[٢] نعله قد أَخْلق[٣] فأُبْدِل بسَيْرٍ جديد فصلّى فيه؛ فلما سلّم قال: «أَعِيدوا الشِّراكَ الخَلَق وانزِعوا هذا الجديد فإنّي نظرت إليه في الصلاة». وعن جابر[٤] رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله عنها وهي تطحَن بالرحا[٥] وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فاطمة تجرَّعي[٦] مرارةَ الدنيا لنعيم الأبد». فأنزل الله عليه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: الآية ٥]. [وقد أوْصى أمته عامّة باتباعه إذ قال: «من أحبني فَلْيَسْتَنَّ بسُنّتي»[٧]. وقال: «عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين من بعدي عَضُّوا عليها بالنواجذ»[٨]. وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١]]. وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال لها: «إنّ أردتِ اللُّحوق بي فإيّاك ومجالسة الأغنياء ولا تَنْزِعِي ثوبًا حتى تَرْقَعيه». وعُدَّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتان وعشرون رقعة بعضها من أدَم[٩]. وفي الخبر: «من ترك ثوب جَمال وهو يقدِر عليه تواضعًا لله تعالى وابتغاءَ لوجهه كان حقًّا على الله أن يدّخر له من عبقريّ الجنّة في أتخات[١٠] الياقوت». وقال عمر رضي الله عنه: اخلَوْلِقُوا[١١] واخشوشنوا[١٢]، وإيّاكم وزِيَّ العجم كسرى[١٣] وقيصر[١٤]. وقال الثوريّ[١٥] وغيره: الْبَسْ من الثياب ما لا يُشَهِّرك عند العلماء ولا يُحقِّرك عند الجهّال. وقال بعضهم: قوّمت ثوبي سُفْيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانيق[١٦]. والأخبار في التقلُّل من اللباس كثيرة فلا نطوّل بسردها.

---

(١) الخميصة: ثوب أسود مربّع.
(٢) الشراك: سير النّعل على ظهر القدم.
(٣) أخلق: بلي، ورثّ.
(٤) جابر: هو جابر بن عبد الله، الصحابي الخزرجي الأنصاري، أحد أشهر رواة الحديث عن النبيّ ﷺ. مات سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م. انظر: شذرات الذهب ١/ ٨٤.
(٥) الرحى: الطاحون.
(٦) تجرّعي: اشربي جرعة بعد جرعة.
(٧) سنّتي: طريقتي.
(٨) النواجذ: الأضراس.
(٩) أدم: جلد.
(١٠) أتخات: جمع تخت، وهي الخزانة والعيبة.
(١١) اخلولقوا: استووا بالأرض.
(١٢) اخشوشنوا: تخشّنوا، تعوّدوا حياة الخشونة.
(١٣) كسرى: لفظة تطلق على كل ملك من ملوك الفرس.
(١٤) قيصر: لفظة تطلق على كل ملك من ملوك الروم.
(١٥) الثوري: هو سفيان الثوري، أبو عبد الله، المحدث والمجتهد. له من الكتب الجامع الكبير، والجامع الصغير، في الحديث. مات سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م.
(١٦) دوانيق: جمع دانق، وهو ما يساوي سدس الدرهم.

المهم الثالث المسكن: وللزهد فيه أيضًا ثلاث درجاتٍ، أعلاها ألّا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُفَّة(١)، وأوسطها أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه مثل كُوخ مبنيّ من سَعَف(٢) أو خُصّ(٣) أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حُجرةً مبنيّة إما بشراء أو إجارة. فإن كان قدرُ سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم تكن فيه زينةٌ لم يُخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد. فإنْ طلب التشييدَ والتجصيصَ(٤) والسعةَ وارتفاعَ السقفِ أكثرَ من ستة أذرع فقد جاوز بالكليّة حدّ الزهد في المسكن. قال: والغرض من المسكن دفعُ المطرِ والبردِ ودفعُ الأعينِ والأذى. وأقلُّ الدرجاتِ فيه معلوم، وما زاد عليه فهو من الفضول، والفضول كلُه من الدنيا، وطالبُ الفضولِ والساعي له بعيدٌ من الزهد. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا أهلك مالَه في الماء والطين». وقال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لَبِنةً على لبنةٍ ولا قَصَبةً على قصبة. وقال عبد الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خُصًّا فقال: «ما هذا» قلنا: خصٌّ لنا قد وَهَى؛ قال: «أرى الأمر أعجل من ذلك». واتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قَصَب؛ فقيل له: لو بَنَيت! فقال: هذا كثير لمن يموت. وقال الحسن: دخلنا على صَفْوانَ بنِ مُحْرِز وهو في بيت من قَصَب قد مال عليه؛ فقيل له: لو أصلحته! فقال: كم من رجلٍ قد مات وهذا قائم على حاله. وقال رسول الله ﷺ: «من بنى فوق ما يكفيه كُلِّف أن يحمله يوم القيامة». وفي الخبر: «كلّ نفقةٍ للعبد يُؤْجَر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين». وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القَصَص: الآية ٨٣] أنه الرياسة والتطاوُل في البُنيان. وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ بناءٍ وبالٌ(٥) على صاحبه يوم القيامة إلا ما أَكَنَّ(٦) من حرّ وبرد». ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشأم إلى صَرْح قد بُنِي بِجَصّ وآجُرّ، فكَبَّر وقال: ما كنت أظنّ أن يكون في هذه الأمّة من يبني بنيانَ هامانَ(٧) لفرعون. وكان ارتفاعُ بناءِ السلفِ قامةً وبَسْطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا علا العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه مَلَك: إلى أين يا أفسق الفاسقين. وقال الفُضَيل: إنّي لا أعجب

---

(١) الصّفّة: المصطبة المرتفعة الضيّقة، والمقعد قرب المسجد، وهو مظلّل. وهي مقعد الزهّاد.

(٢) السعف: جريدة النّخل.

(٣) خصّ: بيت صغير من قصب أو شجر.

(٤) التجصيص: طلي البناء بالجصّ، وهو الجفصين.

(٥) الوبال: الشدّة وسوء العاقبة.

(٦) أكنّ: أظلّ وستر.

(٧) هامان: هو وزير فرعون الذي ذكر في القرآن الكريم.

ممن بنى وترك ولكنّي أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود: يأتي قومٌ يرفعون الطين، ويَضَعون الدين، ويستعملون البراذين[١]، يصلُّون إلى قِبْلتكم، ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع أثاث البيت: وللزهد فيه أيضًا درجات، أعلاها حال عيسى عليه السلام إذ كان لا يصحبه إلا مشطٌ وكُوز؛ فرأى إنسانًا يمشطُ لِحيته بأصابعه؛ فرمى بالمشط. ورأى آخرَ يشربُ من النهر بكفَّيه فرمى بالكوز. وهذا حكم كلّ أثاثٍ فإنه إنما يراد لمقصودٍ فإذا استغنى عنه فهو وبالٌ في الدنيا والآخرة. وما لا يُستغنى عنه فيُقتصر فيه على أقلّ الدرجات وهو الخَزَف في كلّ ما يكفي فيه الخزف، ولا يُبالي أن يكون مكسور الطرَف إذا كان المقصود يحصل به. وأوسطها أن يكون له أثاثٌ يقدر الحاجة صحيحٌ في نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذي معه قَصْعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها. وكان السلف يستحلّون استعمالَ آلةٍ واحدة في أشياء للتخفيف. وأعلاها أن يكون له بعدد كلّ حاجةٍ آلةٌ من الجنس النازل الخسيس؛ فإنْ زاد في العدد أو في نَفاسة الجنس خرج من جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول. ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم. قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضِجاع[٢] رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وِسادةً من أَدَم حَشْوُها لِيف. وقال الفُضَيل: ما كان فِراش رسول الله ﷺ إلّا عَباءةً مَثْنيّة ووسادة حشوها ليف. ورُوِيَ أن عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مَرْمُولٍ[٣] بشريط، فجلس فرأى أثر السرير في جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر. فقال له النبيّ ﷺ: «ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب»؟ قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من المُلْك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيّه[٤] ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط! فقال ﷺ: «أمَا ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة»! قال: بلى يا رسول الله. قال: «فذلك كذلك». ودخل رجل على أبي ذَرّ[٥] فجعل يقلِّب بصره في بيته فقال: يا أبا ذَرّ، ما أرى في بيتك متاعًا ولا غير ذلك من الأثاث! فقال: إن لنا بيتًا نوجّه إليه صالح

---

(١) البراذين: جمع برذون، وهي دابّة الحمل الثقيلة، أو التركيّ من الخيل العراب.

(٢) ضجاع: نوم.

(٣) مرمول: مرقّق، مزيّن بالحصير.

(٤) صفيّه: مَن اصطفاه الله واختاره.

(٥) أبو ذرّ: هو أبو ذرّ الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، أحد أشهر صحابة الرسول ﷺ ومن أقدم المؤمنين. اشتهر بالزهد والتقشف والتقوى. مات سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م.

متاعنا. فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ هٰهنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه. ولما قدِم عُمَيْر بن سعد أمير حِمْص على عمر قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكّأ عليها وأقتل بها حيّةً إن لقيتها، ومعي جِرابي[1] أحمل فيه طعامي، ومعي قَصْعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي، ومعي مِطْهَرتي[2] أحمل فيها شرابي ووَضُوئي للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تَبَعٌ لما معي. فقال عمر: صدقتَ، رحمك الله. وقِدم رسول الله ﷺ من سفر، فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستْرًا وفي يديها قُلْبَيْن[3] من فضّة فرجع. فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ. فسأله أبو رافع فقال: «من أجل الستر والسّوارين»: فأرسلت بهما بِلالًا إلى رسول الله ﷺ وقالت: قد تصدّقت بهما فضَعْهما حيث ترى. فقال: «اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفَّة». فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم. فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال: «بأبي أنتِ قد أحسنتِ». وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قطّ، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس المنكح: قال الغزاليّ: وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته؛ وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حُبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهنّ! ووافقه ابن عُيَينة، وقال: كان أزهد الصحابة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربعُ نسوة وبضْعَ عشرةَ سُرِّيَّة. قال الغزالي: والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانيّ إذ قال: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم. والمرأة قد تكون شاغلًا عن الله. قال: وكَشْفُ الحقّ فيه أنّه قد تكون العُزُوبة أفضل في بعض الأحوال فيكون ترك النكاح من الزهد. وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعلِه ولكن ترك النكاح احترازًا عن مَيْل القلب إليهنّ والأنس بهنّ بحيث يشتغل عن ذكر الله فتركُ ذلك من الزهد. وإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذّة النظر والمضاجعة[4] والمواقعة[5] فليس هذا من الزهد أصلًا؛ فإن الولد

---

(١) الجراب: وعاء من جلد.
(٢) المطهرة: الإناء يتطهّر به.
(٣) قلبين، مثنى قلب: وهو سوار المرأة.
(٤) المضاجعة: النوم مع المرأة.
(٥) المواقعة: المجامعة.

مقصود لبقاء نسله، وتكثيرُ أمّة محمد ﷺ من القُربات. واللذّة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضرّه إذا لم تكن هي المقصد والمطلَب؛ وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذّة الأكل والشرب، وليس ذلك من الزهد في شيء؛ لأن في ترك ذلك فواتَ بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاعُ نسله؛ فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا في لذّته من غير آفةٍ أُخرى. قال: وأكثر الناس تشغَلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمالُ المرأة فلينكح واحدةً غير جميلة وليراعِ قلبه في ذلك. قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن تختار المرأةَ الدُون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة. وقال الجُنَيْد: أُحِبّ للمريد المبتدي ألّا يشغل قلبه بثلاث وإلّا تغيّر حالُه: التكسّب، وطلب الحديث، والتزوّج. فقد ظهر أن لذّة النكاح كلذّة الأكل والشرب، فما شغل عن الله تعالى فهو محذور فيهما جميعًا.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه. [أمّا الجاه] فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليُتَوَصّل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال. وكلّ من لا يقدِر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدُمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محلٌّ وقدْر لم يقم بخدمته. وقيام القدر والمحلّ في القلوب هو الجاه. قال: وإنما يُحتاج إلى المحلّ في القلوب إما لجلْب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم. فأمّا النفع فيُغني عنه المال؛ فإنّ من يخدُم بأجرة خدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يُحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أُجرة. وأما دفع الضرر فيُحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمُلُ فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدِر على دفع شرّهم إلا بمحلّ له في قلوبهم أو محلّ له عند السلطان. وقدر الجاه فيه لا ينضبط. والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك. بل حق الزاهد ألّا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلًا؛ فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحلّ في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين.

وأمّا التوهُماتُ والتقديراتُ التي تُحْوِج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة؛ إذ مَن طلب الجاه لم يخل عن أذى في بعض الأحوال؛ فعِلاج ذلك بالاحتمالِ والصبرُ أولى من علاجه بطلب الجاه. فإذًا طلبُ المحلّ في

القلوب لا رخصة فيه أصلًا، واليسير منه داعٍ إلى الكثير، وضراوتُه أشدّ من ضراوة[(١)] الخمر، فليُحترز من قليله وكثيره.

* * *

وأمّا المالُ، فهو ضروريّ في المعيشة أعني القليل منه. فإن كان كسوبًا، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، هذا شرط الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهّاد وأقويائهم جميعًا. وإن كانت له ضيعة ولم تكن له قوّة يقين في التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنةٍ واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضُل عن كفاية سنة؛ ولكن يكون من ضعفاء الزهّاد.

قال: وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المُعِيل[(٢)]. وقد قال أبو سليمان[(٣)]: لا ينبغي أن يُرهق الرجل أهلَه إلى الزهد بل يدعوهم إليه؛ فإن أجابوا وإلّا تركهم وفعل بنفسه ما شاء. قال: والذي يُضطرّ الإنسان إليه من الجاه والمال ليس بمحدود؛ فالزائد منه على الحاجة سمٌّ قاتل، والاقتصار على قدْر الضرورة دواءٌ نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلًا فهو مضرّ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواءً نافعًا لكنّه قليل الضرر. والسمّ محظور شُربُه، والدواء فَرْض تناوُله، وما بينهما مشتبهٌ أمرُه. فمن احتاط فإنما يحتاطُ لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينهِ وترك ما يَريبه إلى ما لا يريبه وردّ نفسه إلى مَضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهمّ لا يجوز أن يُنْسَب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرطُ الدين، والشرط من جملة المشروط.

وقد رُوِيَ أن إبراهيمَ الخليل عليه السلام أصابته حاجةٌ إلى صديقٍ له يستقرضُه شيئًا فلم يُقرضْه فرجع مهمومًا. فأوحى الله تعالى إليه: لو سألتَ خليلك لأعطاك. فقال: يا ربِّ، عرفتُ مَقْتك[(٤)] للدنيا فخِفت أن أسألك منها شيئًا. فأوحى الله إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فعلى هذا يكون قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبالٌ في

(١) ضراوة الخمر: شدّتها وسورتها. (٢) المعيل: ذو العيال من زوجة وأولاد.
(٣) أبو سليمان: هو أبو سليمان الداراني، من رجال المتصوفة وأصحاب الرياضة والمجاهدة. انظر شيئًا من أقواله وحكمه في: شرح نهج البلاغة ١١/ ٧٤ ـ ٧٩.
(٤) مقتك: كرهك.

الآخرة؛ وهو أيضًا في الدنيا كذلك، يعرفه من يخبُرُ أحوال الأغنياء وما عليهم من المِحْنة في كسب المال وجَمْعِه وحفظه واحتمال الذُّل فيه؛ وغايةُ سعادته به أن يسلَم لورثته فيأكلوه، وربما يكونون أعداءً له، وقد يستعينون به على المعاصي فيكون هو مُعِينًا لهم عليها. ولذلك شُبِّه جامع الدنيا ومتّبع الشهوات بدود القَزّ إذ لا يزال يَنسُج على نفسه حيًّا ثم يروم[1] الخروج فلا يجد مَخْلَصًا فيموت ويهلِك بسبب عمله الذي عمِله بنفسه؛ فكذلك كلّ من اتبع الشهوات الدنيا. قال الشاعر: [من الطويل]

كَدُودٌ كدودِ القَزِّ ينسُج دائمًا ويَهْلِك غَمًّا وَسْطَ ما هو نَاسِجُهْ

قال: ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبدَ مُهْلِكٌ نفسَه بأعماله واتبّاعه هوى نفسِه إهلاكَ دود القَزّ نفسَه رفضوا الدنيا بالكلّيّة؛ حتى قال الحسن: رأيت سبعين بَدْرِيًّا[2] كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرَحًا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم: مجانين، ولو رأوا خِياركم قالوا: ما لهؤلاء من خَلَاق[3]، ولو رأوا شِراركم قالوا: ما يُؤمن هؤلاء بيوم الحساب. وكان أحدهم يعرض له المالُ الحلالُ فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يُفسد عليَّ قلبي. فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حُبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: الآية ٧]؛ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: الآية ٢٨]؛ وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: الآيتان ٢٩، ٣٠]؛ فأحال ذلك كلّه على الغفلة وعدم الفكر.

وقال بعضهم: ما من يوم ذَرَّ شارقُه إلا وأربعة أملاكٍ يُنادون في الآفاق بأربعة أصوات: ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي[4] الخير هلّم، ويا باغي الشرّ أَقْصِرْ[5]. ويقول الآخر: اللّهمّ أَعْطِ مُنفقًا خَلَفًا، وأَعط مُمسكًا تلفًا. ويقول اللذان بالمغرب أحدهما: لِدُوا للموت وابنوا للخراب؛ ويقول الآخر: كُلُوا وتمتّعوا لطول الحساب.

---

(١) يروم: يطلب.
(٢) بدريًا: البدري، مَن شهد بدرًا، الموقعة المعروفة بين المسلمين والمشركين زمن النبيّ ﷺ.
(٣) خلاق: نصيب. (٤) باغي: طالب.
(٥) أقصر: توقّف.

ذِكْرُ بيان علامات الزهد

قال الغزاليّ رحمه الله تعالى: اعلم أنه قد يُظَنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد. فكم من الرَّهَابين[١] من ردّوا أنفسهم كل يوم إلى نَزْرٍ[٢] يسير من الطعام ولازموا ديرًا لا باب له، وإنما مسرّة أحدهم معرفةُ الناس حالَه ونظرُهم إليه ومدحُهم له؛ فذلك لا يَدلّ على الزهد دلالةً قاطعة؛ بل لا بدّ من الزهد في المال والجاه جميعًا حتى يكملُ الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا؛ بل قد يدّعي جماعةٌ الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخوّاص في وصف المدّعِين إذ قال: وقوم ادّعَوُا الزهد ولبِسوا الفاخر من الثياب يُمَوِّهُون[٣] بذلك على الناس ليُهْدَى إليهم مثل لباسهم لئلّا يُنْظَرَ إليهم بالعين التي يُنْظَرَ بها إلى الفقراء فيُحقروا فيُعْطَوْا كما يُعْطَى المساكين ويحتجّون لأنفسهم باتّباع العلم وأنّهم على السنّة وأنّ الأشياء داخلةٌ إليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون ما يأخذون بعِلّة غيرهم؛ هذا إذا طُولبوا بالحقائق وأُلجِئوا إلى المضايق. وكلّ هؤلاء أَكَلة الدنيا بالدين لم يُعْنَوْا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادّعَوْها حالًا لهم، فهم مائلون إلى الدنيا مُتبعون للهوى. هذا كلام الخوّاص.

قال الغزاليّ رحمه الله: فإذًا معرفة الزهد أمرٌ مُشكل، [بل حال الزهد على الزاهد مشكل]؛ فينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: ألّا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٣]، بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك وهو أن يحزن لوجود المال ويفرَح لفقده.

العلامة الثانية: أن يستويَ عنده ذامُّه ومادحُه؛ فالأولى علامة الزهد في المال، والثانية علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أُنسه بالله عزّ وجلّ، والغالبُ على قلبه حلاوةُ الطاعة، إذ لا يخلو القلبُ من حلاوة المحبّة، إما محبّة الدنيا وإما محبّة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القَدَح؛ فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان؛ وكلّ من أَنِس

(١) الرهابين: جمع راهب، وهو العابد المنقطع إلى الله في صومعته أو ديره.
(٢) النزر: القليل. (٣) يموّهون: يضلّلون ويتصنّعون.

بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره. وقد قال أهل المعرفة إذا تعلّق الإيمان بظاهر القلب أحبّ الدنيا والآخرة جميعًا وعمِل لهما، وإذا بَطَن الإيمان في سويداء[١] القلب وباشره أبغض الدنيا ولم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقد ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللّهمّ إنّي أسألك إيمانًا يُباشر قلبي. وقال أبو سليمان[٢]: من شُغِل بنفسه شُغِل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شُغِل بربّه شُغِل عن نفسه، وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ أن يكون في أحد هذين المقامين.

وبالجملة فعلامةُ الزهد استواءُ الفقرِ والغنى والعزّ والذُّلّ والمدح والذمّ، وذلك لغلبة الأُنسِ بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علاماتٌ أُخَرُ مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي مَنْ أخذها. وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أبني رباطًا[٣] أو أعمُرُ مسجدًا؛ وهذا من كلام الأستاذ أبي عليّ الدقّاق[٤]. وقال ابن خفيف: علامته وجودُ الراحة في الخروج من الملك. وقال الجُنَيد: علامته خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد. وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ[٥] وسُفيان[٦]: علامة الزهد قِصَر الأَمل. وقال رجل ليحيىٰ بنِ معاذ: متى أدخل حانوتَ التوكُّل وألبَسُ بُرد الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتك لنفسك في السرّ إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعُف في نفسك؛ فأمّا ما لم تبلُغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح. قالوا: ولا يتمّ الزهدُ إلا بالتوكّل؛ فلنذكر التوكّل.

ذِكْر ما ورد في التوكل من فضيلته وحقيقته

أمّا فضيلتُه فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ١٢]. وقال

(١) سويداء القلب: حبّته.

(٢) هو أبو سليمان الداراني، المتصوّف، سبق التعريف به.

(٣) الرباط: المعهد المبنيّ الموقوف للفقراء.

(٤) أبو علي الدّقّاق: أحد المتصوّفة والعارفين، انظر خبره ونتفًا من أقواله ومواعظه في: شرح نهج البلاغة ١١/ ٧٢ و١١/ ٧٨ و١١/ ١٢٨ و١١/ ١٨٣ ـ ١٩٣.

(٥) أحمد بن حنبل: أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب السنيّة الأربعة، ومذهبه الحنبلي يتصف بالشدّة والتمسّك بالنزعة السلفية، ومخالفة الرأي. قاوم المعتزلة في معضلة «خلق القرآن»، لقي الهوان في عهد المأمون والمعتصم. سجن وعذّب وعفا عنه المتوكل. أشهر آثاره «المسند» في الحديث. مات سنة ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. انظر: شذرات الذهب ٢/ ٩٦ ـ ٩٧.

(٦) سفيان، هو سفيان الثوري، سبق التعريف به.

تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: الآية ٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]؛ وناهيك بذلك مقامًا. وقال رسول الله ﷺ: «أُريتُ الأُمم في الموسم ـ فرأيت أمّتي قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي أرَضيت قلت: نعم قال: ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين يلا يكتوُون(١) ولا يتطيّرون(٢) ولا يَسْتَرْقُون(٣) وعلى ربّهم يتوكّلون». وقال ﷺ: «من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله تعالى مَؤُونة رزقِه من حيثُ لا يحتسبُ ومن انقطع إلى الدنيا وكله اللهُ إليها».

* * *

وأمّا حقيقةُ التوكل فقد قال الغزاليّ رحمه الله: التوكّل مشتقٌّ من الوِكالة يقال: وَكَل أمرَه إلى فلان أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه. ويسمّى الموكول إليه وكيلًا، ويسمّى المفوّض إليه مُتّكلًا عليه ومُتَوَكِّلًا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتّهمه فيه بتقصيره ولم يعتقد فيه عجزًا ولا قصورًا. ثم قال بعد أن ضرب لذلك أمثلة يطول شرحها: واعلم أن حالة التوكّل في القوّة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون حالُه في حقِّ الله تعالى والثقة بكفالتِه وعنايته كحالهِ في الثقة بالوكيل.

الثانية وهي أقوى: أن يكون حالُه مع الله تعالى كحال الطفل في حق أمّه فإنه لا يعرف غيرَها ولا يفزع إلى سواها ولا يعتمد إلا إياها؛ فإن رآها تعلّق في كلّ حال بها، وإن نابه أمرٌ في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه: يا أمّاه، وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمه لوثوقه بكفالتها وكِفايتها وشفقتها.

الثالثة وهي أعلاها: أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثلَ الميّت بين يدي الغاسلِ يقلّبُه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير. قال: وهذا المقام في التوكل يُثمر تركَ الدعاء والسؤال منه ثقةً بكرمه وعنايته، وأنه يُعطِي ابتداء أفضلَ مما يُسأل. وقد تكلّم المشايخُ في التوكّلِ وبيانِ حدِّه واختلفت عباراتُهم وتكلّم كلُّ واحدٍ عن مقامِ نفسِه وأخبر عن حدّه.

---

(١) يكتوون: يتطببّون بالكيّ، كيّ اللحم بأسياخ الحديد المحمّاة بالنار.

(٢) يتطيّرون: يعتقدون بالطّيرة، وهي ضربٌ من العيافة والتشاؤم لدى رؤية شيء ما يتطيرون به ومنه.

(٣) يسترقون: يستعملون الرّقية لمنع إيذاء الجنّ أو الإنس.

قال أبو موسى الدَّيلي: قلت لأبي يزيد[١]: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرُّك. فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب، ولكن لو أن أهلَ الجنة في الجنّة يتنعّمون، وأهل النار في النار يُعَذبون، ثم وقع بك تمييزٌ عليهما خرجت من جملة التوكّل. وسُئل أبو عبدِ الله القرشيُّ عن التوكّل فقال: التعلُّق بالله تعالى في كلّ حال. فقال السائل: زِدْني، فقال: ترك كلّ سبب يُوَصِّل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولّي لذلك. وهذا مثلُ توكّل إبراهيمَ الخليل عليه السلام إذ قال له جبريل: ألك حاجةٌ؟ فقال: أمّا إليك فلا؛ إذ كان سؤاله يُفضي إلى سبب فترك ذلك ثقةً بأن الله يتولّى ذلك.

قال أبو سعيد الخرّاز[٢]: التوكّل اضطرابٌ بلا سكون، وسكونٌ بلا اضطراب. أشار بالأوّل إلى فزعه إلى الله تعالى وابتهاله وتضرُّعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمّه؛ وبالثاني إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به. وقال أبو عليّ الدقّاق: التوكّل على ثلاثِ درجات: التوكّل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكّل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضَى بحكمه. وقال: التوكّل بداية، والتسليم وسائط، والتفويض نهاية. وقال: التوكّل صفة المؤمنين، والتسليم صفةُ الأولياء، والتفويض صفةُ الموحّدين.

وسئل ابنُ عطاءٍ[٣] عن حقيقةِ التوكّل فقال: ألّا يظهر فيك انزعاجٌ إلى الأسباب مع شدّة فاقتِكَ إليها، ولا تزولَ عن حقيقة السكون إلى الحقّ مع وقوفك عليها. وقال أبو نصر السرَّاج: شرطُ التوكّل ما قاله أبو تُراب النَّخْشَبِيّ وهو طرحُ البدن في العبودية وتعلّق القلب بالربوبيّة والطّمأنينة إلى الكفاية، فإن أُعْطِي شكر، وإن مُنِع صبَر. وكما

(١) هو أبو يزيد البسطامي، واسمه طيفور، من كبّار صوفية أهل خراسان. اعتقد بمذهب الفناء والوحدة في الله، ووحدة الوجود. مات سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م.

(٢) أبو سعيد الخرّاز، واسمه أحمد بن عيسى، أحد المتصوّفة الذين تحدّثوا عن الوجد والحب الإلـٰهي، وكان ممن صحب ذا النون المصري. تُوفي سنة ٢٩٧ هـ. انظر لمعًا من أخباره وأقواله في: شرح نهج البلاغة ١١/ ٧٥ ـ ٨٠. وانظر شعره في: اللمع في التصوّف، لابن الجراح الطوسي ص ٢٥٦، تحقيق: رينولد نكلسون. ط بريل لندن ١٩١٤. وانظر أيضًا: روض الرياحين في حكايات الصالحين، لليافعي. ط ٢. مطبعة البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٥.

(٣) ابن عطاء، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء، صاحب الجنيد، وفاته سنة ٣٠٩ هـ. وهو الذي حدد المعرفة الصوفية. انظر خبره وشعره وأقواله في: طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمٰن السلمي. ص ٢٦٥. ط ليدن بريل ١٩٦٠.

قال ذو النُّون[١]: التوكّل تركُ تدبير النفس والانخلاعُ من الحول والقوّة. وقال أبو بكر الدقّاق: التوكّل ردُّ العيش إلى يومٍ واحد وإسقاطُ همّ غد.

وسئل ذو النون: ما التوكّل؟ فقال: خلعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب. فقال السائل: زدني؛ فقال: إلقاءُ النفس في العُبودية وإخراجُها من الرُّبوبيّة. وقال مَسْروق: التوكّل الاستسلام لجَرَيان القضاء والأحكام. وقال أبو عثمان: التوكّل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه. وقيلَ: التوكل الثقةُ بما في يد الله واليأسُ مما في يد الناس. وقيل: التوكّل فراغُ السرّ عن التفكُّر في التقاضي في طلب الرزق.

ذِكْر بيان أعمال المتوكلين

قال الغزاليّ رحمه الله: قد يُظَنّ أن معنى التوكُّل تركُ الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوطُ على الأرض كالخِرْقة المُلقاة وكاللحم على الوَضَم[٢]؛ وهذا ظنّ الجهّالِ، فإنّ ذلك حرامٌ في الشرع؛ والشرع قد أثنى على المتوكِّلين فكيف يُنال مقامٌ من مقامات الدِّين بمحظورات الدِّين! بل إنما يظهر تأثير التوكّل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده. وسعيُ العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار، أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل[٣] والسارق والسباع، أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتداوي من المرض. فمقصود حركات العبد لا يعدو هذه الحالات الأربع التي هي جلبُ النافع أو حفظه أو دفعُ الضارّ أو قطعه. ثم ذكر شرط التوكّل ودرجاته في كل واحد منها، وقرن ذلك بشواهد الشرع، فقال ما مختصره ومعناه:

* * *

أمّا جلب النافع، فالأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظنًّا يوثق به، وموهوم وهمًا لا تثق النفس به ثقةً تامّة ولا تطمئنّ إليه.

فالدرجة الأولى: المقطوع به كالطعام إذا وُضع بين يدي الرجل وهو جائع محتاج إلى تناوله فامتنع من مدّ يده إليه وقال: أنا متوكّل، وشرط التوكل ترك السعي،

(١) ذو النون، أبو الفيض، ثوبان المصري، من كبار رجال المتصوّفة المصريين. أدخل حال الوجد والحب المطلق في التصوّف. اتهم بالزندقة، وسجن ثم أطلق المتوكل سراحه. تُوفي في مصر سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م.

(٢) الوضم: الخشبة التي يقطع اللحام عليها اللحم.

(٣) الصائل: الذي يصول على الناس ويعتدي عليهم.

ومدُّ اليد إلى سعيٌ وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسفله؛ فهذا جنون وليس من التوكّل في شيء، فإنه إن انتظر أنّ الله تعالى يخلق فيه شِبَعًا دون الخبز أو يسخِّر مَلَكًا يمضغه ويُوصله إلى معدته فهذا رجلٌ جهل سنّة الله تعالى؛ وكذلك لو لم يزرع الأرض وطمِع أنّ الله تعالى يخلق نباتًا من غير بَذْر أو تلد زوجه من غير مباضعةٍ[1] كمَرْيم[2]، فكلّ ذلك جنون؛ بل يجب عليه أن يعلم أن الله تعالى خالق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة، وأنّه الذي يُطعمه ويَسقيه، وأن يكون قلبه واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، فليمدَّ يدَه ويأكل فإنه متوكل.

والدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متعيِّنة، ولكن الغالب أن المسبَّبات لا تحصل دونها واحتمالُ حصولها دونها بعيدٌ كالذي يفارق الأمصار[3] والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرُقها الناس إلا نادرًا ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطًا في التوكّل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنّة الأوّلين مع الاعتماد على فضل الله عزّ وجلّ لا على الزاد؛ ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل وهو فعل الخواصّ. قال الغزاليّ: فإن قلت: فهذا سعيٌ في الهلاك وإلقاء النفس إلى التَّهْلُكة، فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حرامًا بشرطين: أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسَه وجاهدها حتى صبَرت عن الطعام أسبوعًا أو ما يقاربه بحيث إنه لا يناله ضيق قلب ولا تشويش خاطر. والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوّت بالحشيش وما يَتّفق من الأشياء الخسيسة، فإنه لا يخلو غالبَ الأمر في البوادي في كلِّ أسبوع أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى مَحَلّة أو قرية أو إلى حشيش يتقوّت به؛ وعلى هذا كان يُعَوّل الخَوّاص ونظراؤه من المتوكِّلين. وقد كان الخوّاص مع توكُّله لا تفارقه الإبرة والمِقْراض[4] والحبل والركوة[5]، ويقول: هذا لا يقدح في التوكّل.

وأمّا لو انحاز إلى شِعب من شِعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرُقه طارق فيه وجلس متوكلًا فهو آثم به ساع في إهلاك نفسه.

---

(١) المباضعة: المجامعة والزواج.
(٢) مريم، هي البتول مريم العذراء التي ولدت المسيح بقدرة الله، بلا واسطة ما.
(٣) الأمصار: البلدان، جمع مصر. (٤) المقراض: المقصّ.
(٥) الركوة: إناء للشرب.

وأمّا القاعد في البلد بغير كسب فليس ذلك حرامًا، لأنه لا يبعد أن يأتيه الرزقُ من حيث لا يحتسبُ ولكن قد يتأخّر عنه. فإن أغلق بابَ البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعلُه ذلك حرام. فإن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى، ولكن ليس فعله حرامًا إلّا أن يُشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب. وإن كان مشغول القلب بالله غير متطلّع إلى الناس ولا إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزق، بل تطلُّعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكّل، فإن الرزق يأتيه لا محالة. فلو هرب العبد من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: اختلف الناسُ في كلّ شيء إلا في الرزق والأجل فإنّهم أجمعوا أن لا رازق ولا مُميت إلا الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ: «لو توكّلتم على الله تعالى حقَّ تَوَكُّله لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خماصًا[١] وتروح بِطانًا[٢] ولزالت بدعائكم الجبال». وقال عيسى عليه السلام: انظُروا إلى الطير لا تزرَع ولا تحصُد ولا تدّخر والله تعالى يرزقها يومًا بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونًا، فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكّلون تجري أرزاقُهم على أيدي العباد بلا تعبٍ منهم وغيرُهم مشغولون مكدودون[٣]. وقال بعضهم: العبيد كلّهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذلٍّ كالسؤّال، وبعضهم يأكل بتعب كالتجّار، وبعضهم بامتهانٍ كالصنّاع، وبعضهم بعزٍّ كالصوفيّة، يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة.

والدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يُتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يُخرج بالكلّيّة عن درجات التوكّل كلّها، وهو الذي الناسُ كلّهم فيه من التكسُّب بالحيل الدقيقة اكتسابًا مباحًا لمالٍ مباح. هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى في جلب النافع، وذكر لذلك أمثلة ونظائر تركناها اختصارًا.

* * *

وأمّا حفظ النافع فهو التعرضُ لأسباب الادّخار، فمن حصل له مال بإرثٍ أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادّخار ثلاث أحوال:

---

(١) خماصًا: ضامرة البطون من شدة الجوع. (٢) بطانًا: بطونها ممتلئة من الطعام.
(٣) مكدودون: متعبون مجهدون.

الأولى: أن يأخذ قدرَ حاجته في الوقت فيأكلَ إن كان جائعًا، ويلبس إن كان عاريًا، ويشتري مسكنًا مختصرًا إن كان محتاجًا، ويُفرّق الباقي في الحال ولا يدّخر منه إلا ما أرصده لمحتاج؛ فهذا هو المُوفي بموجب التوكّل تحقيقًا، وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية المقابِلةُ لهذه المُخرجة له عن حدود التوكّل: أن يّدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكّلين أصلًا.

الحالة الثالثة: أن يدّخر لأربعينَ يومًا فما دونها، فهذا يُوجب حرمانَه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكّلين. وقال الخَوّاص: لا يخرج بأربعين يومًا ويخرج بما زاد عليها.

* * *

وأمّا دفع الضارّ عن النفس والمال فقد قال الغزاليّ رحمه الله: ليس من شرط التوكل تركُ الأسباب الدافعة للضرر. أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المَسْبعة[١] أو في مجاري السيل من الوادي أو تحتَ الجدار المائل أو السقف المتكسّر، فإنّ ذلك مَنهيٌّ عنه وصاحبُه قد عرّض نفسَه إلى الهلاك بغير فائدة. وأمّا في المال فلا يَنقص التوكّلَ إغلاق باب البيت عند الخروج منه ولا أن يُعقَل البعيرُ. فهذه أسباب عُرفت بسنّة الله تعالى، فقد رُوِيَ عن أَنَسِ[٢] بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل على ناقة فقال: يا رسول الله، أَدَعُها وأتوكل؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعقِلْها[٣] وتوكّل».

* * *

وأمّا إزالة الضرر فقد قال الغزاليّ رحمه الله تعالى: إن الأسباب المزيلةَ للضرر تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع؛ وإلى مظنون كالفَصْد[٤] والحجامة[٥] وشرب الدواء وسائر أبواب الطبِّ؛ وإلى موهوم كالكيّ والرُّقْية.

---

(١) الأرض المسبعة: الكثيرة السباع والوحوش.

(٢) أنس بن مالك، صحابي مشهور، خدم النبيّ ﷺ وهو صغير حتى عرف بخادم الرسول. مات سنة ٩٣ هـ/ ٧١١ م.

(٣) اعقلها: اربطها، واجعل لها عقالًا، أي رباطًا. (٤) الفصد: شقّ العرق لاستخراج الدم منه.

(٥) الحجامة: التداوي بالمحجمة، وهي كأس توضع على جلد المريض فتجذب الدم وتشنّج العضو المشكوّ منه.

أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرامٌ عند خوف الموت.

وأمّا الموهوم، فشرط التوكل تركه، إذ بتركه وَصف رسولُ الله ﷺ المتوكّلين، قال رسول الله ﷺ: «لم يتوكّل من استَرْقَى واكتوى». وقال سعيد بن جُبَير[١]: لدغتني عقربٌ فأقسمت عليّ أُمّي لَتَسْتَرْقِيَنّ، فناولتُ الراقي يدي التي لم تُلدغ.

وأمّا الدرجة الوسطى وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعلُ ذلك لا يُناقض التوكّل بخلاف الموهوم، وتركُه ليس بمحظور[٢] بخلاف المقطوع به. وقد تداوى رسولُ الله ﷺ وأمر بالتداوي وقال: «ما من داءٍ إلا وله دواءٌ عرَفه من عرفه وجهِله من جهله إلّا السامَ» يعني الموت؛ وتضافرت الأحاديث بالأمر بالدواء.

ومنهم من رأى أن ترك التداوي قد يُحمد في بعض الأحيان إذا اقترن به أحد أسباب ستة:

الأوّل: أن يكون المريض من المكاشَفين وقد كُوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه، وتحقّق ذلك إما برُؤْيا صادقةٍ أو بحَدْس وظنّ أو بكشف محقّق كحال أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه لمّا قيل له في مرض موته: لو دعَوْنا لك طبيبًا! فقال: الطبيب نظر إليّ وقال إنّي فعّال لما أُريد. وكان رضي الله عنه من المكاشَفين؛ والدليل على ذلك أنّه قال لعائشةَ رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هنّ أُختاك؛ وما كان لها إلا أُختٌ واحدة وكانت امرأته حاملًا فولدت أنثى؛ فلا يبعد أن يكون كوشف بانتهاء أجله؛ ومحال أن يُنكر التداوي وقد رأى رسولَ الله ﷺ فَعَله.

الثاني: أن يكون المريض مشغولًا بحاله وبخوف عاقبته واطّلاع الله تعالى عليه، فيُنسيه ذلك ألَمَ المرضِ فلا يتفرّغُ قلبُه للتداوي شُغلًا بحاله، كحال أبي ذَرّ لمّا رَمِدتْ[٣] عيناه، فقيل له: لو داويتَهما! فقال: إنّي عنهما مشغول. فقيل له: لو سألت اللهَ أن يعافيَك! فقال: أسأل فيما هو أهمُّ عليّ منهما. وكحال أبي الدرداءِ فإنه قيل له في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرةَ ربي. قالوا: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب أمرضني. ويكون حال هذا كالمصاب بموت عزيز من أحبابه أو كالخائف من ملِك فيشغَله ذلك عن ألم الجوع.

---

(١) سعيد بن جبير، صحابي جليل، سبق التعريف به.

(٢) محظور: ممنوع.

(٣) رمدت عينه: أصابها الرمد، وهو داء يحدث غالبًا في الربيع.

الثالث: أن تكون العلّة مزمنةً والدواء الذي يُؤمر به بالإضافة إلى علّته موهوم كالكيّ والرَقية، فتَرَكه للتوكّل كالربيع بن خيثَمْ فإنه أصابه فالج، فقيل له: لو تداويت! فقال: لقد هَمَمت ثم ذكرت عادًا[١] وثمود[٢] وقرونًا بين ذلك كثيرًا وكان فيهم الأطِبّاء فهلَك المُداوِي والمداوَى ولم تُغنِ الرُّقى شيئًا. أي إن الدواء غير موثوق به.

الرابع: أن يقصد العبد تركُ التداوي استيفاءً للمرض لينال ثوابَ المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى وليجرِّب نفسه في القدرة على الصبر.

الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوبٌ وهو خائفٌ منها عاجزٌ عن تكفيرها فيرى المرضَ إذا طال تكفيرًا، وتَرَك التداوي خوفًا من أن يُسرع زوالُ المرض ورغب في مضاعفة الأجر. فقد ورد عن النبيّ ﷺ أنه قال: «حُمَّى يومٍ كفّارة[٣] سنة».

السادس: أن يستشعر العبدُ في نفسه مبادىء البَطَر[٤] والطُّغيان بطول مدّة الصحّة، فيترك التداويَ خوفًا من أن يُعاجلَه زوالُ المرض فتعاودَه الغفلةُ والبطرُ والطغيانُ أو طولُ الأمل والتسويفُ في تدارك الفائت وتأخيرِ الخيرات؛ فإن الصحة تُحرّك الهوى وتبعث على الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلّها أنّ تدعو إلى التنعّم في المباحات وهو تضييع الأوقات وإهمال الربح العظيم في مخالفة النفس وملازمةِ الطاعات. وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا لم يُخلِهِ عن التنبيه بالأمراض والمصائب؛ ولذلك قيل: لا يخلو المؤمنون من عِلّة أو قِلّة[٥] أو ذِلّة. قال: فلما أن كثُرت فوائد المرض رأى جماعة تركَ الحيلة في زوالها، إذ رأَوْا لأنفسهم مَزيدًا فيها لا من حيث رأوا التداوي نُقصانًا، وكيف يكون ذلك نقصانًا وقد فعله رسول الله ﷺ!.

فهذه نُبذة كافية في مقامي الزهد والتوكل. فلنذكر الأدعية.

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفن الثاني في الأدعية

وهذا الباب ـ يقبل الله منا ومنك وفينا وفيك صالح الدعوات، وجعلنا وإيّاك ممن اعتمد على كرمه ومنّته في الحركات والسكنات؛ ووفّقنا للتضرع والسكون إلى

(١) عاد: قوم من قدامى العرب كفرت بالنبيّ الذي أرسله الله إليهم وهو لوط.
(٢) ثمود: قوم أرسل الله إليهم نبيّه صالحًا فكذّبوه.
(٣) الكفارة: مقدار معيّن يدفعه المسيء تكفيرًا عن سيّئة. أو هو القيام بصلاة ما أو بصوم ما معلوم.
(٤) البطر: كفران النعمة. (٥) القلّة: الفقر والضائقة المادية.

فضله، وعاملنا بما هو من أهله لا ما نحن من أهله ـ هو مَشْرَع[١] الظمآن إلى موارد الكرم العذبة، ومَفْزَعُ الحيران إذا ألمّتْ به الضائقة وحصرته الكُربة؛ فيه يُتَوَسّل إلى الله تعالى في مطالب الدنيا والآخرة، ويُتَوَصّل إلى النعم الوافية والخيرات الوافرة؛ كيف لا وقد أمرنا الرب العظيم بالدعاء والإنابة، ووعدنا وهو الوفيّ الكريم بالقبول والإجابة؛ وترادفت بفضله الأخبار الصحيحةُ، وجاءت بشرفه الآثارُ الصريحة؛ على ما ستقف على ذلك إن شاء الله تعالى واضحًا، وتعوّل عليه مقيمًا وظاعنًا[٢] وغاديًا ورائحًا. فلازِمه في سائر أحوالك، وتَعَاهَدْه[٣] في بُكَرِك[٤] وآصالك[٥]؛ فستجني إن شاء الله منه ثمار غَرْسك، وتجد حلاوة ذلك في قلبك وأنسَه في نفسك.

واعلم أن للدعاء، كما قال ابنُ عطاءٍ، أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا. قال: فإن وافق أركانَه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السمٰوات، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنْجح. فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب. وأجنحته الصدق. ومواقيته الأسحار. وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦]. رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه فيقول نعم فيقول له أمَا إنك ما دعوتني بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها أليس دعوتني يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة فيقول نعم ويقول ودعوتني يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة فيقول نعم فيقول فإني ادّخرتها لك في الجنة فلا يُبقي له دعوة إلا بيّنها له حتى يتمنّى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره في الآخرة». وعن النعمان بن بَشِير[٦] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» قال: وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: الآية ٦٠]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الدعاء ينفع مما

(١) المشرع: موضع شروع الماء والأخذ منه. (٢) ظاعنًا: مرتحلًا.
(٣) تعاهده: صنه ولازمه وحافظ عليه. (٤) البكر: الغدوات صباحًا.
(٥) الآصال: جمع أصيل، وهو الوقت قبل غروب الشمس.
(٦) النعمان بن بشير: من الشعراء الصحابة والولاة. وُلي الكوفة لمعاوية، وحمص ليزيد. انضمّ إلى ثورة ابن الزبير فمات قتلًا سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م.

نزل ومما لم ينزل فعليكم عبادَ الله بالدّعاء». وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ حيٌّ كريم يستحيي إذا بَسَطَ الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صِفْرًا[١] ليس فيهما شيء». وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ[٢] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «دعوةُ المسلم لا تُرَدُّ إلا بإحدى ثلاث ما لم يدعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِم إمّا أن يستجيبَ الله له فيما دعا أو يدّخر له في الآخرة أو يَصرِف عنه من السوء بقدر ما دعا». وعن أنس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: إنا ندعو بدعاء كثيرٍ منه ما نرى إجابتَه ومنه ما لا نرى إجابته فقال: «والذي نفسي بيده ما من أحدٍ يدعو بدعوة إلا استُجِيب له أو صُرِف عنه مثلُها شرًّا». قالوا: يا رسول الله، إذًا نُكثر؟ قال: «الله أكثر وأكثر» ثلاث مرات. وعنه رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «دعوة في السر تَعدِل سبعين دعوةً في العَلَانِيَة». وعن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عزّ وجلّ في الليل والنهار عُتَقاءَ[٣] من النار ولكلّ مسلم ومسلمةٍ في كلّ يومٍ وليلة دعوة مستجابة». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول من ذا الذي دعاني فلم أُجِبْه وسألني فلم أُعْطِه واستغفرني فلم أَغْفِر له وأنا أرحم الراحمين». وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فَتَح الله على عبدٍ بابَ الدعاء فليُكثر فإنّ الله يَستجيب له». وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من فُتِح له بابٌ في الدعاء فُتِحت له أبواب الإجابة». وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من لم يسألِ الله يغضَبْ عليه». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦] الآية فقال ﷺ: «اللّهم إنّكَ أمرتَ بالدعاء وتوكّلت بالإجابة لبّيك اللهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك أشهد أنّك فردٌ أحد صَمَدٌ لم يَلِد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد وأشهد أنّ وعدك حق ولقاءك حقّ والجنة حق والنار حق وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنّك تبعث من في القبور». هذا مما ورد في الحثّ على الدعاء.

***

وأمّا ما ورد في نفع الدعاء ودفعه للبلاء؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أنواعَ البِرّ[٤] كلّها نصفُ العبادة والنصف الآخر الدعاء». وعن عائشة رضي الله عنها

(١) صفرًا: خاليتين خائبتين.
(٢) أبو سعيد الخدري، من المحدثين الثقات.
(٣) عتقاء: جمع عتيق، وهو الناجي والمحرّر.
(٤) البرّ: التقوى والخير والمعروف.

أنها قالت: قال رسول الله ﷺ «لا ينفع حَذَرٌ من قَدَر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاءَ لَيَلْقَى البلاءَ فيعتلجان إلى يوم القيامة». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن الدعاء لَيَردّ القضاء المُبْرَم(١) وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدُهما يدفع صاحبَه إلى يوم القيامة». وعن سَلْمان الفارسيّ(٢) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ ولا يزيد في العمر إلا البرّ». وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سِلاحُ المؤمن وعِمادُ الدِّين ونورُ السمٰوات والأرض».

* * *

وأمّا ما ورد في الإلحاح في الدعاء وهيئة الذِّلّة والإنابة؛ قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ٥٥]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يحبّ المُلِحِّين في الدعاء». وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة واعلموا أن الله عزّ وجلّ لا يستجيبُ دعاءً من قلب ساهٍ لاهٍ»(٣). وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه في الدعاء حتى يُرَى بياضُ إبطيْه(٤). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا جعل باطن كفّيه إلى وجهه. وعنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «سلوا الله ببطون أكفّكم ولا تسألوه بظهورها فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم» وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم عزّ وجلّ حيٌّ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردّهما صِفْرًا لا خير فيهما فإذا رفع أحدكم يده فليقل يا حيّ لا إلٰه إلا أنت يا أرحم الراحمين ثلاث مرات ثم إذا ردّ يده فليُفرغ ذلك الخير على وجهه». وعن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردّهما حتى يمسح بهما وجهه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الإخلاص هكذا ورفع إصبعًا واحدًا من اليد اليمنى والدعاء هكذا وجعل بطونهما مما يلي السماء والابتهال هكذا ومدّ يديه شيئًا وجعل ظهر الكفّ مما يلي السماء».

---

(١) المبرم: الذي لا مردّ له، ولا مناص منه.

(٢) سلمان الفارسي: صحابي جليل، من أصل فارسي. شارك المسلمين وقعة الخندق، ودلّهم على طريقة حفر الخندق. ولّاه عمر المدائن بالعراق. مات سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م.

(٣) ساهٍ: غافل.

(٤) إبطيه: مثنى إبط، وهو باطن الكتف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد فأكثِروا الدعاء».

* * *

وأمّا ما ورد من كراهية استعجال الإجابة ورفع البصر والسجع في الدعاء قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: الآية ٤١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يستجابُ لأحدكم ما لم يعجَل فيقول قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي». وعنه ﷺ: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول قد دعوت الله مرارًا فلا أراه يستجيب لي». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوام عن رفع أبصارهم عند الدعاء في الصلاة إلى السماء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: إيّاك والسجْعَ في الدعاء فإنّي شهِدت النبيّ ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك.

* * *

وأمّا ما ورد فيمن تجاب دعواتُهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: الآية ٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٦٧]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خمسُ دَعواتٍ لا تُرَدّ دعوةُ الحاجّ حتّى يصدُر ودعوة الغازي حتى يرجع ودعوة المظلوم حتى يَنتصِر ودعوة المريض حتى يبرأ ودعوة الأخ لأخيه بالغيب وأسرعُ هؤلاء الدعوات إجابةً دعوةُ الأخ لأخيه بالغيب». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: ثلاثُ دعوات مستجابات لا شكّ فيهنّ دعوةُ الوالد ودعوة المسافر ودعوة المظلوم». وفي حديث آخر: «دعوة الصائم بدل دعوة الوالد». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمُعاذ[1] حين بعثه إلى اليمن: «إنّك تأتي قومًا أهلَ كتابٍ فاتّق دعوة المظلوم». وعنه ﷺ: «الإمام العادل لا تُرَدُّ دعوته». وقال ﷺ: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم إمامٌ مُقْسِط[2] ودعوة الصائم ودعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السَماء ويقول الله عزّ وجلّ لأنصرنّك ولو بعد حين». وعنه ﷺ: «دعاء الوالد لولده مثل دعاء النبيّ لأمته». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أسرعُ الدعاء

---

(١) هو معاذ بن جبل الذي اشترك في غزو الشام، ومات بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م.
(٢) مقسط: عادل.

إجابةً دعوةُ غائب لغائب». وعن أبي الدرداء[١]، رضي الله عنه، عنه ﷺ أنه قال: «دعوةُ الرجل لأخيه بظهر الغيب تعدِل سبعين دعوةً مستجابةً ويُوَكِّل الله عزّ وجلّ ملَكًا يقول آمين ولك مثل ما دعوت». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن مؤمنٍ يدعو لأخيه المؤمن بظهرِ الغيبِ إلّا قال له ملَكٌ عن يمينه وملَكٌ عن شِماله ولكَ مثلُه». وعن أبي أُمَامةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حامل القرآن له دعوةٌ مستجابة». وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا دخلت على المريض فسَلْه يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة». وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من أُلهم الدعاء لم يُحْرَم الإجابةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠] ومن أُلهم التوبةَ لم يحرم القَبولَ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٢٥] ومن أُلهم الشكر لم يحرَم الزيادةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] ومن أُلهم الاستغفارَ لم يحرم المغفرةَ لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: الآية ١٠] ومن ألهم النفقةَ لم يحرم الخَلَفَ[٢] لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: الآية ٣٩].

ذِكْر الأوقات التي يُرجى فيها إجابةُ الدعاء

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: الآية ٦]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَنزِل الله حين يبقى ثُلثُ اللّيل إلى السماء الدُّنيا فيقول من يسألني فأُعطيَه ومن يدعوني فأستجيبَ له ومن يستغفرني فأغفرَ له». وعنه ﷺ: «تُفتح أبوابُ السماء ويُستجاب دعاءُ المسلم عند إقامة الصلاة وعند نزول الغيث[٣] وعند زَحْف الصفوف[٤] في سبيل الله وعند رُؤية الكعبة». وعنه ﷺ أنه قال: «إذا فاءت الأفياء وهبّت الرياح فارفعوا إلى الله حوائجكم فإنّها ساعة الأوّابين[٥] إنه كان للأوّابين غفورًا». وعن أبي أُمامةَ قال قلت: يا رسول الله، أيّ الدعاء أسمع؟ قال: «جوفَ الليل وأدبارَ المكتوبات»[٦]. وعن ابن عمر قال: أفضلُ الساعات مواقيت

---

(١) أبو الدرداء: من رجال الحديث، سبق التعريف به.

(٢) الخلف: العوض.

(٣) الغيث: المطر.

(٤) الصفوف: الجيوش المصطفّة.

(٥) الأوّابون: التوابّون، جمع أوّاب.

(٦) أدبار المكتوبات: أواخر الصلوات اليومية المفروضة خمس مرّات.

الصَّلاة فادعوا فيها. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «خيرُ يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة إن فيه لساعةً لا يوافقها عبدٌ يصلّي يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إيّاه». وقد اختلف في ابتداء وقت هذه الساعة فقيل: أوّلُ ساعة من طلوع الشمس، وقيل: آخرُ ساعة من غروبها، وقيل: عند جلوس الإمام على المنبر، وقيل: من الزوال[1] إلى ابتداء الصلاة، وقيل: من بعد العصر إلى الغروب، وقيل: إنها تنتقل في ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القَدْر في شهر رمضان. رُوِيَ عن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعريّ قال: قال لي عبد الله بن عمر رضي الله عنهم: أسمعتَ أباك يحدّث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة يقول: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاةُ». وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها عن أبيها ﷺ أنه قال: «إن في الجمعة لساعةً لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه». فقلت: يا أبت، أيّ ساعة هي؟ قال: «إذا تدلّى نصف الشمس للغروب». فكانت فاطمة رضي الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلامًا لها يقال له زيد يرصُد لها الشمس، فإذا تدلّى نصف الشمس للغروب أعلمها، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس وتصلّي.

وحيث ذكرنا هذه المراتب فلنذكر الأدعية المنصوص عليها.

ذكر دعوات ساعات الأيام السبعة ولياليها

قد أورد الشيخ أبو العباس أحمدُ بنُ عليِّ بنِ يوسفَ القرشيّ البُونِي رحمه الله تعالى دعواتِ الساعاتِ في اللُّمعة النورانيّةِ فبدأ بيوم الأحدِ وذكر دعاءَ كل ساعةٍ منه، ثم ذكر يومَ الاثنين فقال: ساعة كذا يُدعَى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الأحد، ثم ذكر يوم الثلاثاء فقال: ساعة كذا يدعى فيها بدعاء ساعة كذا من يوم الاثنين وكذلك في بقيّة ساعات الأيام والليالي، يذكر كلّ ساعة ويُحيل في دعائها على ساعة من اليوم أو الليلة التي قبلها. فرأيت أن الراغب في الدعاء يحتاج في معرفته إلى كشف طويل وتحقيق إلى أن يصل إلى تلك الساعة من يوم الأحد، وربما تعذّر ذلك على كثير من الناس، فرتّبت الأدعية على ما ستقف إن شاء الله تعالى عليه ليسهُل على المتناول طريقها ويدنو من المحاول تحقيقُها؛ فقلت وبالله التوفيق:

---

(١) الزوال: الظهر، عندما تبدأ الشمس بمفارقة سمت الرأس في وسط السماء.

دعاء يُدْعَى به في الساعة الأولى من يوم الأحد، وفي الثامنة من ليلة الاثنين، وفي العاشرة من يوم الاثنين، وفي الخامسة من ليلة الثلاثاء، وفي السابعة من يوم الثلاثاء، وفي الثانية من ليلة الأربعاء وفي الرابعة من يوم الأربعاء، وفي الحاديةَ عشرَة من ليلةِ الخميس وفي الأولى من يوم الخميس، والحادية عشرة من ليلة الجمعة والعاشرة من يوم الجمعة، وفي الثامنة من ليلة السبت وفي السابعة من يوم السبت، وفي الخامسة من ليلة الأحد، وهو:

«ربّ اغمسني(١) في بحر من نور هيبتك(٢) حتى أخرجَ منه وفي وجهي شعاعات هيبةٍ تخطَف أبصار الحاسدين من الجنّ والإنس فتُعمِيهم عن رمي سهام الحسد في قرطاس(٣) نعمتي، واحجُبني عنهم بحجاب النور الذي باطنُه النورُ وظاهرهُ النار. أسألك باسمك النور وبوجهك النور يا نور النور أن تحجُبني في نور اسمك بنور اسمك حجابًا يمنعني من كلّ نقصٍ يُمازج منّي جوهرًا أو عَرَضًا إنّك نُور الكلّ ومنوّر الكل بنورك».

قال البُوني: تدعو بهذا الدعاء ثمانيًا وأربعين مرّة في هذه الساعة على وضوء بعد صلاة ركعتين فيما يتعلق بسؤال الهيبة وإقامة الكلمة وقهر العدوّ. ويناسب هذا الدعاء من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النُور: الآية ٣٥] الآية، قال: من قرأ هذه الأية هذا العددَ المتقدّمَ في بيت مظلم وعيناه مغلقتان شاهد أنوارًا عجيبة تملأ قلبه، وإن استدام ذلك تشكّلت له في عالَم الحسّ. وهو ذِكْرٌ يصلُح لأربابِ الهممِ وأهل الخلوات، وكاتبُه وحاملُه تظهر له زياداتٌ في قوى نفسه وقهر عدوّه وخَصْمه لم يكن يعهدها من قبل؛ ومن أمكنه أن يداوي به العلل الكائنة في الرأس خصوصًا من البرودة وجد تأثير ذلك لوقته.

دعاء يدعى به في الساعة الثانية من يوم الأحد والتاسعة من ليلة الاثنين وفي الحادية عشرة من يوم الاثنين، وفي السادسة من ليلة الثلاثاء وفي الثامنة من يوم الثلاثاء، وفي الثالثة من ليلة الأربعاء وفي الخامسة من يوم الأربعاء، وفي الثانية عشرة من ليلة الخميس وفي الثانية من يوم الخميس، وفي الحادية عشرة من يوم الجمعة، وفي التاسعة من ليلة السبت وفي الثامنة من يوم السبت، وفي السادسة من ليلة الأحد وهو:

---

(١) اغمسني: أنزلْني، واجعلني أغوص فيه. (٢) هيبتك: وقارك.
(٣) قرطاس: ورق.

«ربّ فرّحني بما ترضى به عنّي فرحًا يُبهجني بجميل المَسَارّ[١]، حتى لا ينبسط شيء من وجودي إلا بما بسطه جودك العليّ. ربّ فرّحني بنيل المراد منك بفناء إرادتي منّي حتى لا يكون في كَوْنِي إرادةٌ إلا إرادتُك محفوظةً من عوارض التكوين، وأبهج بذلك في سرّ سماء الأفراح في الوجودَيْن برزق الباطن والظاهر، إنك باسطُ الرزق والرحمة يا ذا الجودِ الباسطِ يا ذا البسط والجود».

هذا الذكرُ من ذَكَره في ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرةً أذهب الله تعالى عن قلبه الحزنَ وعن صدره الحَرَجَ والضّيق، ونفى عنه كل همّ وغمّ، وبه يدعو المسجونون والمأسورون والمحزونون فيفرّج الله تعالى عنهم، وذلك بعد صلاة تسليمتين[٢]؛ والآيات المناسبة لهذا القسم ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٧٠] الآية، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ [يُونس: الآية ٥٨] الآية. قال البُوني: ويقدّم على ذكر هذه الآيات: اللّهُمّ اجعلني من الفَرِحين بما آتاهم الله من فضله، يقول ذلك بعد الذكر الأوّل مثل العدد المذكور، فيرى المهموم من فضل الله تعالى به عجبًا، ويزداد به ذو السرور سرورًا لا يعرف سببه. ويصلح هذا الذكرُ لأرباب الفيض من أهل الخَلَوات فإنّهم يَسْتَرْوِحون منه أُنسًا في خَلَواتهم ومخاطباتٍ بألفاظ مختلفةٍ بقدر الفيضِ والمقام والسببِ، يعرف ذلك من كانت له إحاطةٌ بكشف أسرار الدعوات والأسماء.

دعاء يُدْعَى به في الساعة الثالثة من يوم الأحد، والعاشرة من ليلة الاثنين وفي الثانية عشرة من يوم الاثنين، وفي السابعة من ليلة الثلاثاء وفي التاسعة من يوم الثلاثاء، وفي الرابعة من ليلة الأربعاء وفي السادسة من يوم الأربعاء، وفي الأولى من ليلة الخميس وفي الثالثة من يوم الخميس، وفي الأولى من ليلة الجمعة وفي الثانية عشرة من يوم الجمعة، وفي العاشرة من ليلة السبت وفي التاسعة من يوم السبت، وفي السابعة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ قَلِّبني في أطوار معارف أسمائك تقليبًا تُشْهدني به في ذَرَّات وُجودِي ما أودعته ذرّات وجودِي المُلْكِ والمَلَكُوت حتّى أعاين سَرَيان سرّ قدركَ في معالم المعلومات، فلا يبقى معلوم إلا وبيدي سِرّ دقيقةٍ منه مجذوبةٍ بيد الكمال ونور الطوع؛

(١) المسارّ: جمع مسرّة، وهي السّرّاء، والفرح والابتهاج.
(٢) تسليمتين، مثنّى تسليمة، وهي توجيه التحية والسلام إلى النبيّ في دبر كل صلاة.

وأذهِبْ ظلمة الإكراه حتى أتصرّف في المُهَج[1] بمُبهجات المحبّة إنك أنت المحبّ المحبوب يا مقلّب القلوب».

قال: من دعا بهذا الاسم والذكر ستَّ عشرةَ مرةً بعد صلاةِ ثلاث تسليمات قلب الله قلبه عن كل خاطر فيه نقصٌ إلى كلّ خاطر فيه كمالٌ في حقه، ويصلح لأرباب الاستخارات، وفيه لسرعة قضاء الحاجات معنى بديع. والآيات المناسبة له ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: الآية ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥] إلى آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: الآيتان ٥، ٦] الآية؛ وما يناسب ذلك من القرآن.

وهو ذكرٌ يصلح لأرباب القلوب من تكرار الخواطر والوساوس، وله في تقلُّب الأحوال أمور عجيبة عظيمةٌ لمن فهم ذلك؛ وكذلك من كتب الذكر كله وعلّقه عليه عصمه الله في تقلّباته من الآفات حتى في أمور دنياه وآخرته.

دعاء يُدعى به في الساعة الرابعة من يوم الأحد، وفي الحادية عشرة من ليلة الاثنين وفي الأولى من يوم الاثنين، وفي الثامنة من ليلة الثلاثاء وفي العاشرة من يوم الثلاثاء، وفي الخامسة من ليلة الأربعاء وفي السابعة من يوم الأربعاء، وفي الثانية من ليلة الخميس وفي الرابعة من يوم الخميس، وفي الثانية من ليلة الجمعة والأولى من يوم الجمعة، وفي الحادية عشرة من ليلة السبت وفي العاشرة من يوم السبت، وفي الثامنة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ قابلني بنور اسمك مقابلة تملأ وجودي ظاهرًا وباطنًا حتى تمحو منّي حظوظ الأشكال كلها فيبدو لي في وجودي ومن وجودي سرّ ما كتبه قلم تقديرك من كل مُستودَع في مُستَقَرّ ومستقرٌ في مستودع فلا يخفى عليّ ما غاب عنّي فَأَنْظِرْني بك وأَنْظِر مَنْ سواي بنور اسمك فأرى الكمال المطلق في المُلْك المطلق، يا مُودِع الأنوار قلوبَ عباده الأبرار يا سريعُ يا قريبُ».

قال: من دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات ستَ عشرةَ مرةً ثم قصد أيَّ حاجةٍ أراد، أسرع الله تعالى قضاءها ونمّى له ما يملِكه من مال أو جاه أو حال أو مقام. ومن خاصّة هذا الذكر وضع البركة في أيّ شيء وُضع عليه. ويصلح هذا الذكر لطالبي المكاشفات من أرباب الخَلَوات فإنهم إذا داوموا هذا الذكر ألْقى إليهم الخاطر

(١) المهج: الأرواح، جمع مهجة.

الصحيح. قال: وإن أضيف له يا سريعُ يا قريبُ يا مُبين ظهر له ما يريد من كشف العواقب في الأفعال المرتبطة بعالَم الغيب والشهادة.

دعاء يُدعى به في الساعة الخامسة من يوم الأحد، وفي الثانية عشرة من ليلة الاثنين وفي الثانية من يوم الاثنين، وفي التاسعة من ليلة الثلاثاء وفي الحادية عشرة من يوم الثلاثاء، وفي السادسة من ليلة الأربعاء وفي الثامنة من يوم الأربعاء، وفي الثالثة من ليلة الخميس وفي الخامسة من يوم الخميس، وفي الثالثة من ليلة الجمعة وفي الثانية من يوم الجمعة، وفي الثانية عشرة من ليلة السبت وفي الحادية عشرة من يوم السبت، وفي التاسعة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ أسألك مددًا رُوحانيًا تقوَى به قُواي الكلّية والجزئيّة حتى أقهر بمبادىء نفسي كلّ نفسٍ قاهرة فتنقبض لي رِقابُها انقباضًا تسقُطُ به قُواها، فلا يبقى في الكون دو رُوح إلّا ونارُ القهر أخمدت ظهورَه، يا شديدُ يا ذا البطش يا قهّارُ يا جبّارُ أسألك بما أودعته عزرائيل من قُوى أسمائك القهريّة فانفعلت له النفوسُ بالقهر أن تكسوني ذلك السرّ في هذه الساعة حتى أُليّن به كلّ صعب، وأُذِلّ به كلّ منيع بقوّتك يا ذا القوّة المتين».

قال: مَن دعا بهذا الدعاء في ساعة من هذه الساعات تسعًا وثمانين مرة، ثم دعا على ظالم أُخِذ لوقته، وذلك بعد صلاة خمس تسليمات بالفاتحة لا غير. ويناسب هذا الدعاء من آي القرآن العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: الآية ١٠٢]. قال: في هذا الذكر قمعُ الجبابرة، وقطعُ دابرِ الظالمين، وخرابُ ديار الماردين[١]، وما شابه ذلك. وهو ذكر يليق بالسالكين في مبادىء الرياضات والمنتهين في مقامات التجلّي إلى الخلوة؛ وهو من الأسرار العجيبة، ولا يذكره من غلبته الشيخوخة إلّا وجد في قلبه خفقانًا بالخاصيّة، ولا يذكره محمومٌ إلا برىء من حُمّاه لوقته، وإن كتبه وعلّقه عليه دامت صحّته.

دعاء يدعى به في الساعة السادسة من يوم الأحد، وفي الأولى من ليلة الاثنين وفي الثالثة من يوم الاثنين، وفي العاشرة من ليلة الثلاثاء وفي الثانية عشرة من يوم الثلاثاء، وفي السابعة من ليلة الأربعاء وفي التاسعة من يوم الأربعاء، وفي الرابعة من ليلة الخميس وفي السادسة من يوم الخميس، وفي الرابعة من ليلة الجمعة وفي الثالثة

(١) الماردون: العتاة والعصاة.

من يوم الجمعة، وفي الأولى من ليلة السبت وفي الثانية عشرة من يوم السبت، وفي العاشرة من ليلة الأحد. وهو:

«رب صَفِّني من كدرات الأغيار صفاء من صفَّته يدُ عنايتك من نقص التكوين حتى ينجلي في مرآة قلبي ومستوى نفسي كلُّ اسم انطبع في قُوّة جبرائيل فقويِ به على كشف ما في اللوح من أسرار أسمائك ومجامع رسائلك، فكلّ نفس منفوسة امتدّت لها من دقائقه دقيقةٌ طرفها منه والثاني لمن هو به، ومجامع هذه الدقائق في دقيقة الاسم الجبرائيلي العالم العليم العلّام، ياذا الكرم الذي علّم بالقلم، فموادّ الوحي والإلهام والتحديث والفهم تسري بنفحة منه في هذه الساعة إلى مثلها. إلٰهي مَنْطِقْنِي بالدقيقة العظمى منه حتى أتلقى عنك بما به تلقَّى عنك جبرائيل مما أملأُ به وجودي بل ميلٍ لغلبة حتى أتلذّذ بمصافاتك تلذُّذ جبريل برسائلك، إنك علّام الغيوب».

قال: مَن دعا به خمسًا وعشرين مرة في ساعة من هذه الساعات أُلهم رشده في عواقب أموره. والاسم اللائق بهذا الدعاء يا علّام الغيوب يا عالم الخفيّات وما شاكل هذا النمط من الأسماء، ومن القرآن العظيم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعَام: الآية ٥٩] الآية. قال: وهو من الكبريت الأحمر وبعضه من الدِّرياق[١] الأكبر. وهذا الذكر للذي فُتِح عليه بابٌ من المعارف فإنّه مهما استدامه أُلهم قلبُه إلى علوم جليلةٍ، ويُخاطب في نفسه بإلقاءات من وحي الإلهام، ويخاطبه الحيوانُ بمعنى يفهمه فيستفيد علومًا عظيمة، يعرف ذلك أرباب المنازلات لفهم الحديث.

دُعاء يدعى به في الساعة السابعة من يوم الأحد، وفي الثانية من ليلة الاثنين وفي الرابعة من يوم الاثنين، وفي الحادية عشرة من ليلة الثلاثاء وفي الأولى من يوم الثلاثاء، وفي الثامنة من ليلة الأربعاء وفي العاشرة من يوم الأربعاء، وفي الخامسة من ليلة الخميس وفي السابعة من يوم الخميس، وفي الخامسة من ليلة الجمعة وفي الرابعة من يوم الجمعة، وفي الثانية من ليلة السبت وفي الأولى من يوم السبت، وفي الحادية عشرة من ليلة الأحد. وهو:

«ربّ أوقفني موقف العزّ حتّى لا أجد فيّ ذرّةً ولا رقيقةً ولا دقيقة إلا وقد غشّاها[٢] من عزّ عزّتك ما منعها من الذُّلّ لغيرك، حتى لا أشهدَ ذلّ مَنْ سواي لعزّتي

(١) الدرياق: لغة في الترياق، وهو السّمّ الشافي، والدواء.
(٢) غشّاها: غطّاها.

بك مُؤيَّدًا برقيقة من الرعب يخضع لها كلّ شيطان مَرِيد[١]، وجَبارٍ عَنِيد؛ وأَبِق على ذلّ العبوديّة في العزّة بقاءً يبسط لسانَ الاعتراف، ويقبِض لسانَ الدعوى، إنّك العزيز الجبّار المتكبّر القهّار».

قال: من دعا بهذا الدعاء في هذه الساعة أو في ساعة من هذه الساعات ستّ عشرة مرة بعد صلاةٍ وحضورِ قلبٍ نُصِر على أيّ عدوٍّ قصده ظاهرًا وباطنًا.

دعاء يدعى به في الساعة الثامنة من يوم الأحد، وفي الثالثة من ليلة الاثنين وفي الخامسة من يوم الاثنين، وفي الثانية عشرة من ليلة الثلاثاء، وفي الثانية من يوم الثلاثاء، وفي التاسعة من ليلة الأربعاء وفي الحادية عشرة من يوم الأربعاء، وفي السادسة من ليلة الخميس وفي الثامنة من يوم الخميس، وفي السادسة من ليلة الجمعة وفي الخامسة من يوم الجمعة، وفي الثالثة من ليلة السبت وفي الثانية من يوم السبت، وفي الثانية عشرة من ليلة الأحد. وهو:

«إلـٰهي أطلع على وجودي شمس شهودي منك في الأكوان والألوان حتى أمشيَ بما أشهدتني في آفاق الملكوت فأكشفَ منه معنى كلمةِ التكوين فينفعلَ لي كلُّ مكَّونٍ انفعاله للكلمة بإذنك الذي سخّرت به ما في الوجودين بلا ظلمةِ وَضْع ولا ظلمة طبع، إنك منوِّر الكلّ بكلّك ومنوِّر الأنوار بنورك الذي صدورُه عن اسمك النورِ والظاهر والحي والقيُّوم، كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الآية.

قال البُوني: لا يذكر أحدٌ هذا الذكر في ساعة من هذه الساعات تسعًا وأربعين مرة إلا كساه الله نورًا يجد ذلك في نفسه، ويُيسّر عليه المقسوم من الرزق، وتسري كلمته في الأسباب سَرَيانًا عجيبًا. وهو ذكر يصلح لأرباب المكاشفات يُثبت لهم ما يكاشفون.

دُعاء يدُعى به في الساعة التاسعة من يوم الأحد، وفي الرابعة من ليلة الاثنين وفي السادسة من يوم الاثنين، وفي الأولى من ليلة الثلاثاء وفي الثالثة من يوم الثلاثاء، وفي العاشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية عشرة من يوم الأربعاء، وفي السابعة من ليلة الخميس وفي التاسعة من يوم الخميس، وفي السابعة من ليلة الجمعة وفي السادسة من يوم الجمعة، وفي الرابعة من ليلة السبت وفي الثالثة من يوم السبت، وفي الأولى من ليلة الأحد. وهو:

---

(١) مريد: الشديد المرادة والعصيان والخبث والشرّ.

«سيِّدي أدخلْني في بواطن رياض اسمك من الباب الخاصّ الذي لا يُحْجَب بنورٍ ولا بظلمة ولا بشيء منه ولا بشيء خارجٍ عنه، وأطلق يد قُوَايَ في نيل النعمة، وألهمني تحقيق ذوق كلّ مَذُوق منه حتى أكونَ بك فيه وأكونَ فيه بك مبتهجًا منك وبك، ربّ إنك لطيفٌ عَطُوف رحيم رحمٰن».

قال: هذا الذكر بخاصيّة فيه يجلب الفرح ويُذهب الحزن ويُطيب الوقت ويجلو الكرب(١)؛ ومن دعا به أربعين مرة في ساعة من هذه الساعات على طهارة واستقبال فُرِّج به كربُه وانجلى غمُّه.

دعاء يُدعى به في الساعة العاشرة من يوم الأحد، وفي الخامسة من ليلة الاثنين وفي السابعة من يوم الاثنين، وفي الثانية من ليلة الثلاثاء وفي الرابعة من يوم الثلاثاء، وفي الحادية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الأولى من يوم الأربعاء، وفي الثامنة من ليلة الخميس وفي العاشرة من يوم الخميس، وفي الثامنة من ليلة الجمعة وفي السابعة من يوم الجمعة، وفي الخامسة من ليلة السبت وفي الرابعة من يوم السبت، وفي الثانية من ليلة الأحد. وهو:

«يا مَن نسبةُ العلوم إلى علمه نسبةُ لا شيءٍ لشيء لا يتناهى، أظهرت الحروفَ بالقلم فكان له صريف(٢) في ألواح الملكوت(٣) قام لها مقام مخارج الحروف من الحلق والصدر واللّها(٤) واللسان، كلّ جنس صدر عنه اسمٌ لا يعلم تركيبه سوى مَلَك قلمك؛ وكلّ نوع صدر عنه مركّبًا، فلوح إسرافيل(٥) أظهره بقوّة ما في آحاد كليّاته من جزئيّات تراكيبه، أسألك بهذا السرّ الخفيّ الذي وقف العقل دونه وتقدّم إليك السرّ بسرٍّ أودعته فيه يوم إمكان وجوده، أسألك كشف حجاب الغيب حتى أُعاينَ(٦) الغيب بما به حَيَّ الرُّوح الباقي، يا حيّ، ياهْ يا هو، يا أنت يا مهيمنُ يا خالقُ يا بارىء أنت هو».

قال البُوني: هذا الذكر من ذكره في ساعة من هذه الساعات مائةَ مرة يُسِّر له قضاءُ أيّ حاجة قصدها بغير مشقّة.

(١) الكرب: الحزن الشديد. (٢) الصريف: الصوت.
(٣) الملكوت: الملك العظيم، والعزّ والسلطان، ولا يكون إلّا لله تعالى.
(٤) اللها، جمع لهاة، وهي اللحمة في أقصى سقف الحلق.
(٥) إسرافيل: الملك المولج بالنفخ بالصور إيذانًا بالبعث والنشور.
(٦) أعاين: أرى بعيني.

دعاء يُدعى به في الساعة الحادية عشرة من يوم الأحد، وفي السادسة من ليلة الاثنين وفي الثامنة من يوم الاثنين، وفي الثالثة من ليلة الثلاثاء وفي الخامسة من يوم الثلاثاء، وفي الثانية عشرة من ليلة الأربعاء وفي الثانية من يوم الأربعاء، وفي التاسعة من ليلة الخميس وفي الحادية عشرة من يوم الخميس، وفي التاسعة من ليلة الجمعة وفي الثامنة من يوم الجمعة، وفي السادسة من ليلة السبت وفي الخامسة من يوم السبت، وفي الثالثة من ليلة الأحد. وهو:

«يا من لوجوده العليّ باعتبار حكمته إلى كلّ موجود حصل من وجوده اسم يليق به هو مفتاحه الخاصّ، ومعناه المغيّب، وحقيقته الوجودية وسرّه القابل؛ فما في الأكوان جوهر فرد من جواهر آحاد العالم العُلويّ والسُّفليّ إلا ومقاليد أحكامه متعلّقة باسم من أسمائه، واجتماعُها برقائقها بيد اسمك الذي استأثرتَ به عن جميع خلقك فلم يظهر لهم إلا ما ناسب الأفعال، فأسماؤك إلٰهي لا تُحصى، ومعلوماتك لا نهايةَ لها، أسألك غمسةً في بحر هذا النور حتى أعود إلى الكمال الأوّل فأتصرّف في الكون باسم الكمال تصرُّفًا يَنْفي النقص بالوقوف على عبودية النقص، إنّك المُعِزّ المُذِلّ اللطيف الخبير العَدْل المُجِيب».

قال: من ذكر هذا الذكر ستّ عشرة مرة في ساعة من هذه الساعات ثم سأل الله تعالى فيها رزقًا، وتيسير أسباب، وسكونَ بحر هائج، وسلطان غاصب، ونفسٍ متمرّدة من شيطاني الإنس والجنّ وما ناسب ذلك إلّا أُجيب له لوقته، وذلك على طهارة وصلاة وجمع همة في موضع خال من الأصوات.

دعاء يُدعى به في الساعة الثانية عشرة من يوم الأحد، والسابعة من ليلة الاثنين والتاسعة من يوم الاثنين، وفي الرابعة من ليلة الثلاثاء وفي السادسة من يوم الثلاثاء، وفي الأولى من ليلة الأربعاء وفي الثالثة من يوم الأربعاء، وفي العاشرة من ليلة الخميس وفي الثانية عشرة من يوم الخميس، وفي العاشرة من ليلة الجمعة وفي التاسعة من يوم الجمعة، وفي السابعة من ليلة السبت وفي السادسة من يوم السبت، وفي الرابعة من ليلة الأحد. وهو:

«تعاليتَ يا من تَقَاصر كلُّ فكرٍ عن حصر معنًى من معاني أسمائه، فكل علوّ ورِفْعة فمن ذلك العلوّ والرِفعة صدورُه ظاهرًا وباطنًا؛ تقدّس مجدك يا من أستارُ عرشه أظهر فيها كبرياءه ومجده، أسألك بالصفات التي لا تَعَلُّقَ لها بموجود، ياذا العظمة والكبرياء والجلال والجمال والبهاء، أسألك الأُنس بمقابلات سِرّ القَدَر أُنسًا يمحو آثار

وحشة الفكر حتى يطيب وقتي بك فأطيب بوقتي لك، فلا يتحرّك ذو طبع لمخالفتي إلا صَغُر لعظمتك وقُصِم بكبريائك، إنك جبّار الأرض والسماء، وقاهر الكلّ بقهرك يا مجيب».

قال البُوني: من ذكر هذا الذكر سبعًا وعشرين مرةً في ساعة من هذه الساعات ودعا [بما يريد] كُفِي لوقته [شرَّ ما يحاذره]. فهذه دعوات ساعات الأيّام والليالي.

ذِكر ما يُدعى به في المساء والصباح، والغدوّ والرّواح، والصلاة والصوم، والجماع والنوم؛ والوِرْد والصدَر، والسفر والحضر؛ وغير ذلك

فأمّا ما يقال عند المساء والصباح؛ فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وقد سأله فقال: يا رسول الله مُرْني بشيء أقولُه إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ. فقال: «قل اللهمّ عالَم الغيبِ والشهادةِ فاطرَ السمٰوات والأرض ربَّ كلّ شيء ومليكَه أشهد أن لا إلٰه إلّا أنت أعوذُ بك من شرّ نفسي وشرّ الشيطان وشِرْكه قُلْهن إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ وإذا أخذتَ مَضْجَعَك»(١). وكان رسول الله ﷺ إذا أَصبح يقول: «أصبحنا على فِطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا محمد ﷺ وملّةِ أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين». وكان ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا وأصبح الملْكُ والكبرياءُ والعظمةُ والخَلق والأمر واللّيل والنهار وما سَكَن فيهما من شيء لله وحده لا شريكَ له اللّهم اجعل أوّلَ هذا النهار لنا صَلاحًا وأوسطَه فَلاحًا وآخرَه نَجاحًا أسألك خيرَ الدنيا وخير الآخرة يا أرحم الراحمين». وكان ﷺ يقول إذا أصبح: «اللّهمّ بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور»(٢). وإذا أمسى قال: «اللّهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت». وعنه ﷺ أنه قال: «من قال حين يصبح أو يمسي اللّهم أنت ربِّي لا إلٰه إلّا أنت خلقتَني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء(٣) لك بنعمتك عليك وأبوءُ بذنبي فاغفر لي إنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت فمات من يومه أو من ليلته دخل الجنة». وعنه ﷺ أنه قال: «من قال لا إلٰه إلّا الله وحده

(١) مضجعك: مرقدك ونومك.
(٢) النشور: البعث يوم القيامة.
(٣) أبوء: أنيب وأرجع.

لا شريكَ له له الملكُ وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير بعد ما يصلّي الغداة عشر مرّات كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيِّئات ورفع له عشر دَرَجات وكنّ له عِدْل رقبتين من ولد إسماعيل وكنّ له حجابًا من الشيطان حتّى يُمسي فإن قالها حين يُمسي كان له مثلُ ذلك وكنّ له حجابًا من الشيطان حتى يُصبح»، وفي رواية: «من قالها في يومٍ مائةَ مرّة كانت له عِدْل عشر رقاب وكُتِبت له مائة حسنة ومُحِيت عنه مائةُ سيّئة وكانتْ له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتّى يُمسي ولم يأت أحد بأفضلَ مما جاء به إلا رجلٌ عمِل أكثر منه ومن قال سبحانَ الله وبحمده في اليوم مائةَ مرة حُطّت خَطَاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر». وعنه ﷺ أنه قال: «من قال حين يُمْسي أعوذ بكلمات الله التامّات كلّها من شرّ ما خلق لم تضرّه لَدْغة عقرب حتى يُصبح». وعنه ﷺ: «من قال حين يُصبح في أوّل يومه أو في أوّل ليلته باسم الله الذي لا يَضُرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثًا لم يضرّه شيءٌ في ذلك اليوم أو تلك الليلة». وعنه ﷺ : «من قال إذا أصبح باسم الله العليّ الأعْلى الذي لا ولدَ له ولا صاحبةَ ولا شريكَ أشهد أنّ نوحًا رسولُ الله وأنّ إبراهيم خليلُ الله وأنّ موسى نَجيُّ[1] الله وأنّ داود خليفةُ الله وأنّ عيسى روحُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وأنّ محمدًا رسول الله وخاتَمُ النبيّين لا نبيَّ بعده لم تلسعه حيّة ولا عقرب ولم يخف من سلطان ولا كاهن ولا ساحر حتى يُمسي وإذا قالها إذا أمسى لم يخف شيئًا من ذلك حتى يُصبح».

* * *

وأمّا ما يقال عند النوم؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وإذا أخذتَ مضجَعك فتوضّأ وضوءَك للصّلاة ثم اضطجِع[2] على شِقِّك الأيمن ثم قُلْ أسلمتُ وجهي إليك وفوّضتُ أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبةً ورغبةً إليك لا ملجأَ ولا منجى منك إلا إليك اللّهم آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ ونبيِّك الذي أرسلتَ فإن متّ من ليلتك متّ على فِطرة الإسلام واجعلهنّ آخر ما تتكلّم به». قال البَرَاء بن عازِب[3]: فردّدتها على النبيّ ﷺ، فلما بلغتُ اللهم آمنتُ بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولِك قال: «ونبيك الذي أرسلتَ». وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قام من اللّيل يقول: «اللهم لك الحمدُ أنت نورُ السمٰوات والأرض

---

(١) نجيّ الله: من ناجاه الله وكلّمه. (٢) اضطجع: تمدّد للنوم.

(٣) البراء بن عازب: من الصحابة والمحدثين والمجاهدين. شارك في فتح فارس، ومات سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م.

ولك الحمدُ أنت قَيّام السمٰوات والأرض ومَن فيهنّ أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنّة حق والنار حق والساعة حق اللّهم لك أسلمتُ وبك آمنت وعليك توكّلت وإليك أنَبْتُ وبك خاصمتُ وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرت وما أسرَرْت وما أعْلنت أنت إلٰهي لا إلٰه إلا أنت».

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول المنزل والمسجد والخروج منهما؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا وَلج[1] الرجلُ بيتَه فليقُلْ باسم الله اللّهم إنّي أسألك خيرَ المَوْلِج وخيرَ المَخْرَج باسم الله وَلَجْنا وباسم الله خرجْنا وعلى الله توكّلنا ثم ليسلِّمْ على أهله». وعنه ﷺ: «إذا دخل الرجلُ بيته فقال باسم الله قعد الشيطانُ على الباب وقال ما مِنْ مقِيلٍ[2] فهل من غَدَاء فإذا أُتي بغَدَائه فقال باسم الله قال ما مِنْ غَدَاء ولا مَقِيل». وعنه ﷺ: «إذا خرج الرجلُ من بيته فقال سبحان الله قال المَلك هُدِيتَ وإذا قال لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله قال الملك وُقِيتَ فإذا قال توكّلت على الله يقول الملك كُفِيت يقول الشيطان عند ذلك كيف أعمَل بمن كُفِي وهُدِي ووُقي». وعن أُمّ سَلَمة[3] رضي الله عنها قالت: ما خرج رسول الله ﷺ من بيته صباحًا قطّ إلا قال: «اللّهم إنّي أعوذ بك أن أزِلّ أو أضِلّ أو أظلم أو أجهل أو يُجْهَل عليّ». وعنه ﷺ: «ما من مسلم خرج من بيته يريد سفَرًا أو غيره فقال حين يخرج باسم الله آمنتُ بالله اعتصمتُ بالله توكّلت على الله لا حول ولا قوّة إلا بالله إلا رُزِق خيرَ ذلك المَخْرَج وصُرف عنه شرُّ ذلك المخرج». وعن أبي سعيد[4] رضي الله عنه قال فُضَيل بن مرزوق ـ أحسبه رفعه ـ قال: «من قال حين يخرج إلى الصّلاة اللّهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك وبحقّ مَمْشاي هذا إني لم أَخْرج أشَرًا[5] ولا بَطَرًا ولا رياءً ولا سُمْعة خرجتُ خوفَ سخطك وابتغاءَ مَرْضاتِك أسألك أنْ تُنقذني من النّار وأن تغفر ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وكّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل اللهُ عليه بوجهه حتى يفرُغَ من صَلاته». وعن فاطمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال: «باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم اغفر لي وافتح لي أبوابَ رحمتك وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللّهم اغفر لي ذنوبي وافتح

(١) ولج: دخل.
(٢) المقيل: النوم عند الظهر، القيلولة، أو موضع القيلولة.
(٣) أم سلمة: إحدى أزواج النبيّ ﷺ.
(٤) هو أبو سعيد الخدري، سبق التعريف به.
(٥) الأشر: البطر والمرح.

لي أبوابَ فضلك». وقال ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللّهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللّهم إني أسألك من فضلك».

* * *

وأمّا ما يقال عند النداء؛ فقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا كان عند الأذان فُتِحت أبوابُ السماء واستُجِيب الدعاءُ وإذا كان عند الإقامة[١] لم تُرَدّ دعوة». وعنه ﷺ: «من قال حين يسمع المؤذِّن وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمدًا عبده ورسوله رضيتُ بالله ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا غُفِر له ذنبُه». وعنه ﷺ أنه قال: «من سمع المؤذِّن فقال اللّهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلة وابعثه مَقَامًا محمودًا الذي وعدتَه حلّت له شفاعتي يوم القيامة». وعنه ﷺ: «إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثلَ ما يقول ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلّى عليّ مرّةً صلّى الله عليه بها عشرًا».

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول الخلاء[٢]؛ فقد كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخَلاء قال: «اللّهم إني أعوذ بك من الخُبْث والخبائث» وإذا خرج قال «غفرَانَك». وفي لفظٍ إذا خرج قال: «الحمدُ لله الذي أَذْهب عنّي الأذَى وعافاني». وعن أَنَس رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا دخل الخلاء قال: «اللّهم إنّي أعوذ بك من الرِّجس النِجس الخبِيث المُخْبِث الشيطان الرجيم»، وإذا خرج قال: «الحمد لله الذي أذهب عنّي الأذى وعافاني».

* * *

وأمّا ما يقال عند الوضوء وغَسْل الأعضاء؛ قال رسول الله ﷺ: «لا صلاةَ لمن لا وُضوء له ولا وضوءَ لمن لم يذكر اسم الله عليه». وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليُّ إذا توضّأْتَ فقلْ بِاسم اللهِ والصلاةُ على رسول الله». وعن محمدِ بنِ الحَنَفيّة[٣] قال: دخلتُ على والدي علَيّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ وإذا عن يمينه إناءٌ من ماءٍ، فسمّى ثم سَكَب على يمينه ثم

(١) الإقامة: كالأذان تقريبًا مع اختلاف يسير، وهي تلي الأذان، قبل الدخول في الصلاة.

(٢) الخلاء: الكنيف والمرحاض.

(٣) محمد بن الحنفية: والحنفية لقب أمّه، ابن علي بن أبي طالب. واسم أمّه خولة. مال بعض الشيعة إلى موالاته بعد استشهاد الحسين، فعرفوا باسم الكيسانية. مات سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م.

تَمَضْمض[١] فقال: اللّهم حَصِّنْ فَرْجي واستُرْ عورتي ولا تُشْمِت بي الأعداء؛ ثم تمضمض واستنشق[٢] وقال: اللّهم لَقِّنِّي حُجّتي ولا تحرِمني رائحةَ الجنّة. ثم غسل وجهَه وقال: اللّهم بَيِّضْ وجهي يوم تَسْوَدُّ الوجوه ولا تُسَوِّدْ وجهي يوم تبيضّ الوجوه. ثم سكب على يمينه فقال: اللّهم أعْطِني كتابي بيميني والخلدَ بشمالي. ثم سكب على شماله وقال: اللّهم لا تُعْطِني كتابي بشمالي ولا تجعلها مغلولةً[٣] إلى عُنُقي. ثم مسح برأسه وقال: اللّهم غَشِّنا برحمتك فإنّا نخشى عذابك، اللّهم لا تجمع بين نواصينا[٤] وأقدامنا. ثم مَسَح عنقه فقال: اللّهم نَجِّنا من مُقَطَّعات[٥] النيران وأغلالها. ثم غسل قدميه فقال: اللّهم ثَبِّتْ قَدَميّ على الصراط المستقيم يوم تَزِلّ فيه الأقدام. ثم استوى قائمًا فقال: اللّهم كما طَهّرتنا بالماء فطهِّرنا من الذنوب، ثم قال بيده هكذا، يقطُرُ الماء من أنامله، ثم قال: يا بُنَيّ، افعل كفعلي هذا فإنه ما من قَطْرةٍ تقطر من أناملك إلا خلق الله منها مَلَكًا يستغفر لك إلى يوم القيامة. يا بُنَيّ؛ من فعل كفعلي هذا تساقطت عنه الذنوب كما يتساقط الورق عن الشجر يوم الريح العاصف.
وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا توضّأتَ فقل اللّهم إني أسألك تمامَ الوضوء وتمامَ مغفرتك ورضوانك». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «من توضّأ فأحسن وضوءه ثم قال أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صادقًا من قلبه فتح الله له ثمانية أبواب الجنّة يدخل من أيّها شاء». وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليّ إذا فرغتَ من وُضوئك فقل أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله اللّهم اجعلني من التوّابين واجعلني من المتطهِّرين تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمّك وتُفتح لك ثمانيةُ أبواب الجنة فيقال ادخلْ مِن أيِّها شئت».

* * *

وأمّا أدعية الصلاة، فهي إمّا أن تقع قبلها أو فيها أو بعدها. فأمّا ما يقال قبلها فقد رُوي عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمـٰن قال: سألتُ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها بأيّ شيء كان نبيّ الله ﷺ يفتتح الصلاة إذا قام من الليل؟ قالت: إذا قام يفتتح

(١) تمضمض: أدخل الماء فمه ولاجه ثم قذفه. (٢) استنشق: أدخل الماء إلى أنفه ثم رماه.
(٣) مغلولة: مقيّدة.
(٤) نواصينا: جمع ناصية، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٥) مقطّعات: الجباب من الثياب.

صلاته يقول: «اللهم ربَّ جِبريل وميكائيل وإسرافيل فاطرَ السمٰوات والأرض عالَم الغيب والشهادة أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفتُ فيه من الحقّ بإذنك إنك تَهْدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وإمّا ما يُدعى به في نفس الصلاة، فقد رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح الصلاة رفع يديه حذو مَنْكِبيه ثم يقول: «سبحانَك اللّهُمّ وبحمدك تبارك اسمُك وتعالى جَدُّك ولا إلٰه غيرُك». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا كبّر في الصلاة سكت هُنَيَّةً قبل أن يقرأ. فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما تقول في سكوتك بين التكبير والقراءة؟ قال: «أقول اللّهم باعِدْ بيني وبين خَطَاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب اللّهم نَقِّني من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنس واغْسِلني من خطاياي بالثلج والماء والبَرَد». وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه أنه رأى النبيّ ﷺ يصلِّي قال: فكبّر فقال: «الله أكبر كبيرًا ثلاث مرات والحمد لله كثيرًا ثلاث مرات وسبحان الله بكرةً وأصيلًا ثلاث مرات اللّهمّ إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونَفْثه». قال راويه عمرو بن مُرّة: نفخه: الكبر، ونفثه: السحر، وهَمْزه: المُوتة، وهي الجنون. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ كان إذا افتتح الصلاة كبّر ثم قال: «وجّهت وجهي للّذي فطر السمٰوات والأرضَ حنيفًا مُسلمًا وما أنا من المشركين إن صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين اللّهم أنت الملك لا إلٰه إلا أنت أنت ربّي وأنا عبدك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا لا يغفر الذنوبَ إلا أنت واهْدِني لأحسنِ الأخلاق لا يَهدي لأحسنها إلا أنت واصرِف عني سيِّئها لا يصرِف سيِّئها إلا أنت لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخير كلّه في يديك والشرّ ليس إليك وأنا بك وإليك تباركتَ وتعاليتَ أستغفرك وأتوب إليك». فإذا ركع قال: «اللّهم لك ركعتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ خشَع لك سمعي وبصري ومُخّي وعظمي وعَصَبي». فإذا رفع رأسه قال: «سمع الله لمن حمِده ربّنا ولك الحمد مِلْءَ السمٰوات والأرض وما بينهما وملءَ ما شئت من شيء بعد». فإذا سجد قال: «اللّهمّ لك سجدتُ وبك آمنتُ ولك أسلمتُ سجد وجهي للّذي خلقه وصوّره فأحسن صُوره وشقّ سمعه وبصره فتبارك الله أحسنُ الخالقين». فإذا فرغ من الصلاة وسلّم قال: «اللّهمّ اغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم مني أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إلٰه إلا أنت». وقد ورد

في لفظ آخر أنه يقول: اللّهمّ اغفر لي إلى آخر الدعاء بين التشهُّد والتسليم. وعن حذيفة[١] رضي الله عنه قال: صلّيت مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول في ركوعه: «سبحانَ ربّي العظيم»، وفي سجوده: «سبحانَ ربّي الأعلى». وفي لفظٍ أنه كان يقول ذلك ثلاث مرات. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده وركوعه: «سُبُّوح قُدُّوس ربّ الملائكة والروح». وعن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «ربّنا لك الحمد ملء السمٰوات وملء الأرض وملء ما شئتَ من شيء بعدُ أهل الثناء والمجد أحقّ ما قال العبد وكلّنا لك عبد اللّهمّ لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعطي لما منعتَ ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ». وعن النبيّ ﷺ: «من قال وهو ساجدٌ ثلاث مرّات ربّ اغفر لي لم يرفع رأسه حتّى يُغْفَرَ له». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا التشهّد كما يعلّمنا السُّورة من القرآن، وكان يقول: «التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله سلامٌ عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته سلامٌ علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمدًا رسولُ الله». ورُوِيَ: «السلامُ» في الموضعين. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنّا نقول في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: السلام على الله السلام على فلان. فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: «إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيّاتُ لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإذا قالها أصابت كلَّ عبد صالح في السماء والأرض أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ثم يتخيّر في المسألة ما شاء». وقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه الصلاة عليه. وفي سأله كعب بن عُجْرة[٢] عنها فقال: «قولوا اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآلِ إبراهيم إنّك حميدٌ مَجيد وبَارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهّد فليتعوّذ بالله من أربع: من عذاب جهنم وعذاب القبر وفتنة المَحْيا والممات وشرّ المسيح الدجّال». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال:

---

(١) هو حذيفة بن اليمان، الصحابي والفاتح. ولّاه عمر المدائن فانتصر على الفرس في نهاوند سنة ٦٤٢ م.

(٢) هو كعب بن عجرة الأنصاري الحديبي. كان من فضلاء الصحابة. مات سنة ٥٢ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/٥٨.

قلت يا رسول الله: علِّمني دعاءً أدعو به في الصلاة وفي بيتي قال: «قل اللّهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك إنّك أنت الغفور الرحيم». ورُوِيَ بعد قوله من عندك: «وارحمني إنك أنت التوّاب الرحيم».

* * *

وأمّا ما يُدعى به بعد التسليم؛ فقد رُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول دُبُرَ(١) كلّ صلاة: «لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمد يحيي ويُميت وهو على كلّ شيء قدير اللّهم لا مانعَ لِمَا أعطيتَ ولا مُعْطِيَ لما منعت ولا ينفع ذَا الجَدّ منك الجَدّ». وعن عبد الله بن الزُّبَير(٢) رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سلّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «لا إلـهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حولَ ولا قوّة إلا بالله ولا نعبد إلا إيّاه له النعمةُ وله الفضلُ وله الثناء الحسن لا إلـه إلا الله مُخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون». وفي طريق آخر: «له الدينَ وهو على كل شيء قدير». وعن أُمّ سلمةَ رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان إذا صلّى الصبح قال: «اللّهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيّبًا وعملًا مُتَقَبّلًا». وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «من قال حين ينصرف من صلاته سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم ثلاث مرات فإنه مغفور له». وعن أبي أُمامة الباهليّ(٣) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسيّ دُبُرَ كلّ صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبدٍ بَسَط كفَّيه في دبر صلاته ثم يقول إلـهي إلـه إبراهيم وإسحـٰق ويعقوب إلـه جبريلَ وميكائيل وإسرافيل أسألك أن تستجيبَ دعوتي وتَعْصِمَني في دِيني فإني مبتلًى وتنالَني برحمتك فإنّي مذنبٌ وتنفيَ عني الفقرَ فإني مُستمسك إلّا كان حقًّا على الله ألّا يردّ يديه خائبتين». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «من

(١) دبر: بعد.

(٢) عبد الله بن الزبير بن العوام. شارك المسلمين فتوحاتهم. وناصر عائشة في معركة الجمل. ثار على الأمويين وأعلن نفسه خليفة في الحجاز بعد موت يزيد بن معاوية. قضى عليه الحجاج سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م.

(٣) هو أبو أمامة الباهلي: أحد رواة الحديث النبوي. روى حوالي ٢٥٠ حديثًا. انظر: شذرات الذهب ١/ ٦٣.

قال دبر كلّ صلاة الحمدُ لله ثلاثًا وثلاثين مرّة وسبحانَ الله ثلاثًا وثلاثين مرة واللهُ أكبرُ ثلاثًا وثلاثين مرّةً وتمامَ المائة لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غُفِرَتْ ذنوبُه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر». وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر وَتْره: «اللّهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِك وأعوذُ بمُعافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحْصِي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك». وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: علّمني رسولُ الله ﷺ كَلِماتٍ أقولهنّ في الوَتْر[1]، وفي لفظ: في قُنوت[2] الوتر: «اللّهم اهْدِني فيمن هديتَ وعافِنِي فيمن عافيتَ وتولّني فيمن تَوَلّيت وبارك لي فيما أعطيتَ وقِنِي شرَّ ما قضيتَ إنك تَقْضِي ولا يُقْضَى عليك وإنّه لا يَذِلُّ من وَالَيْتَ تباركت ربَّنا وتعاليت». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ على جنازةٍ فقال: «اللّهم اغفر لحيِّنا وميّتنا وصغيرنا وكبيرنا وذَكَرنا وأُنثانا وشاهدنا وغائبنا اللّهم من أَحْييته منّا فأَحْيِهِ على الإيمان ومن توفَّيْته منا فتوفَّه على الإسلام اللّهم لا تحرِمْنا أجرَه ولا تُضِلّنا بعده».

وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا صلّيت على جنازة رجلٍ فقل اللّهم هذا عبدُك ابن عبدِك ابنُ أمتك ماضٍ فيه حكمُك خلقتَه ولم يكن شيئًا مذكورًا نزل بك وأنت خيرُ منزولٍ به اللّهم لَقِّنْه حُجّته وألْحِقْه بنبيّه محمد ﷺ وثبّته بالقول الثابت فإنه افتقر إليك واستغنيتَ عنه كان يشهدُ أنْ لا إلـٰه إلّا الله فاغفر له وارحمه ولا تحرِمْنا أجرَه ولا تفتِنّا بعده اللّهم إن كان زاكيًا فَزكِّه وإن كان خاطئًا فاغفرْ له. وإذا صلّيتَ على جنازة امرأةٍ فقل اللّهم أنتَ خلقتها وأنت أَحْييتها وأنت أَمتَّها تعلم سرّها وعَلانِيَتَها جئناك شفعاءَ لها فاغفر لها وارحمها ولا تحرِمنا أجرها ولا تفتِنّا بعدها. وإذا صلّيتَ على جنازة طفل فقل اللّهم اجعله لوالديه سَلَفًا واجعله لهما ذُخرًا واجعله لهما رَشَدًا واجعله لهما نُورًا واجعله لهما فَرَطًا[3] وأَعْقِب لوالديه الجنّة ولا تحرِمنا أجره ولا تفتِنّا بعده». وعن عَوْف بن مالك[4] رضي الله عنه قال: سمعت النبيّ ﷺ صلّى على جنازة يقول: «اللّهم اغفر له وارحمه واعفُ عنه وعافه وأكرم نُزُلَه ووسِّع مَدْخله واغسِله بماءٍ وثلج وبَرَد ونَقِّه من الخَطَايا كما يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنَس وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه وقِهِ فتنةَ

---

(١) الوتر: هي صلاة الوتر التي تعقب صلاة الشفع، قبيل الفجر من صلاة الليل.

(٢) القنوت: الدعاء في الصلاة قبيل الركوع. (٣) فرطًا: الفرط، المتقدم قومه إلى الماء.

(٤) هو عوف بن مالك الأشجعي. كان ممّن شهد فتح مكة. مات سنة ٧٣ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٩.

القبر وعذابَ القبر وعذابَ النار». قال عوف رضي الله عنه: فتمنّيتُ لو كنت أنا الميّت لدعاء رسول الله ﷺ.

* * *

وأمّا ما يقال عند رؤية الجنازة والتلقينِ[١] والدفن، وما في ذلك من الأجر؛ رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: من رأى جنازةً فقال الله أكبرُ صدَق الله ورسولُه هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه اللّهم زِدْنا إيمانًا وتسليمًا كُتِبَ له عشرون حسنةً في كلّ يومٍ من يوم يقولها إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «لَقِّنوا موتاكم لا إلـه إلا الله». وقال ﷺ: «إذاً وضعتم مَوْتاكم في القبر فقولوا باسم الله وعلى مِلَّة رسول الله». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا سُوِّيَ على الميّت الترابُ قال: «اللّهم أَسْلَمَه إليك الأهلُ والمالُ والعشيرةُ وذنبُه عظيم فاغفرْ له». وعن سعيد بن عبد الله الأَوْديّ قال: شهدت أبا أُمامة وهو في النَّزْع[٢] فقال: إذا أنا مُتُّ فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ أن نصنع بموتانا، أمرنا فقال: «إذا مات أحد من إخوانكم فسوَّيتم الترابَ على قبره فليقُمْ أحدكم على رأس قبره فليقل يا فلان ابن فلان فإنه يسمعه ولا يُجيبه ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنّه يستوي قاعدًا ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يقول أَرْشدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقُل اذْكُرْ ما خرجتَ عليه من الدنيا شهادة أن لا إلـه إلّا الله وأنّ محمدًا عبدُه ورسولُه وأنّك رضيت بالله ربًا وبالإسلام دِينًا وبمحمد نبيًا وبالقرآنِ إمامًا فإن مُنْكَرًا ونكِيرًا[٣] يأخذُ كلُّ واحدٍ منهما بيدِ صاحبه ويقول: انطلِقْ بنا ما نقعد عند من لُقِّن حُجّته فيكون الله حجيجَه[٤] دونهما». فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أُمَّه؟ قال: «فينسبه إلى حوّاء يا فلان ابن حوّاء».

* * *

وأمّا ما يقال عند زيارة القبور؛ عن عائشة رضي الله عنها أنّها تبِعت النبيَّ ﷺ إلى زيارة البَقِيع[٥] فقال لها: «قولي السَّلامُ على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات ويرحمُ اللهُ المُستقدِمين منّا والمُستأخِرين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون». وكان

(١) التلقين: تلقين الميّت الشهادة وهو مضطجع في لحده قبل أن يهال التراب عليه.
(٢) النزع: الاحتضار قبل الموت.
(٣) منكر ونكير: الملكان اللذان يحضران في القبر عقب دفن الميّت لمحاسبته عن أعماله وسؤاله عن دينه والإقرار بالشهادة.
(٤) الحجيج: المغالب بإظهار الحجّة.
(٥) البقيع: مقبرة قريبة من مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنوّرة.

رسول الله ﷺ إذا أتى المقابر قال: «السلامُ عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون أنتم لنا فَرَطٌ ونحن لكم تَبَعٌ أسأل الله العافيةَ لنا ولكم».

* * *

وأمّا ما يقال عند الإفطار من الصوم، والأكل والشرب؛ رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه كان إذا أَفطر قال: «اللّهم لك صُمْنا وعلى رزقك أَفطرنا فتقبَّلْ منّا إنك أنت السميع العليم». وعنه ﷺ: «من قال اللّهم لك صُمتُ وعلى رزقك أَفطرتُ وعليك توكَّلت كُتِبَ له من الأَجْر بعدد من صام ذلك اليوم». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحدكم لَتُوضَعُ مائدةٌ بين يديه فما تكاد أن تُرْفَعَ حتى يُغْفَرَ له». قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «لأنه يُسَمِّي الله إذا وُضِعت المائدةُ وأَكَل ويحمَدُ الله إذا رُفِعت». وعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: «إذا نَسِيَ أحدُكم أن يذكر اسم الله في أوّل طَعامه فليقل باسم الله أوّلَه وآخِرَه». وعنه ﷺ: «من أكل طعامًا ثم قال الحمدُ لله الذي أَطْعمني هذا الطعامَ ورزقَنِيه بغير حول منّي ولا قُوّة غُفِر له ما تقدّم من ذنبه». وكان رسول الله ﷺ إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعم وسَقَى وسوَّغه[(١)] وجعل له مَخْرَجًا». ومن رواية أنس: «الحمد لله الذي أَطْعمني وسقاني وهداني وكلّ بلاء حسن أبلاني الحمدُ لله الرازقِ ذِي القوّة اللّهم لا تَنْزِعْ منّا صالحًا أعطيتَناهُ ولا صالحًا رَزَقْتناهُ واجعلنا لك من الشاكرين». وعنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعَمنا وسقَانا وأَشْبَعَنا وآوانا وكفانا». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا شربتَ ماءً فقل الحمدُ لله الذي سقانا ماءً عَذْبًا فُراتًا[(٢)] برحمته ولم يجعلْه مِلْحًا أُجَاجًا[(٣)] بذنوبنا تُكْتَب شاكرًا». وكان ﷺ إذا أَفطر عند أهل بيتٍ قال لهم: «أَفطَرَ عندكم الصائمون وأَكَل طعامكم الأبرارُ ونزلت عليكم الملائكة»؛ ورُوِيَ: «وصلّت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده».

* * *

وأمّا ما يقال عند لباس الثوب وإلباسه؛ وعند النظر في المرآة والتسريح[(٤)] وفي المجلس؛ روى أبو سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استجدّ

(١) سوّغه: جعله سائغًا سهلًا مأكله ومشربه.
(٢) فراتًا: عذبًا.
(٣) أجاجًا: شديد الملوحة.
(٤) التسريح: تمشيط الشعر وزينته.

ثوبًا ـ سمّاه باسمه قميصًا أو إزارًا أو عمامةً ـ يقول: «اللّهم لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنِيه اللّهم إني أسألك من خيره وخيرِ ما صُنِع له وأعوذُ بك من شرّه وشرّ ما صُنِع له». وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليّ إذا لَبِست ثوبًا فقل باسم الله الحمدُ لله الذي كساني ما أوَارِي[1] به عَوْرتي وأستغني به عن الناس لم يبلغ الثوبُ رقبَتك حتى يُغْفَرَ لك يا عليّ من لبِس ثوبًا جديدًا وكَسَا أسماله[2] عُرْيانًا أو مِسكينًا كان في جِوار الله وأَمْنِه وحفظِه ما دام عليه منه سِلْك»[3]. وعن رسول الله ﷺ: «مَن لَبِس ثوبًا فقال الحمدُ لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حولٍ منّي ولا قوّة غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان النبيّ ﷺ إذا نظر في المرآة يقول: «الحمد لله رب العالمين الذي خلقني وسوَّى خَلْقِي وجعلني بَشَرًا سَوِيًا ولا حول ولا قوّة إلا بالله». قال ابن عباس رضي الله عنهما: فما تركتُها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ، ثم قال: لا يَمَسّ وجهَ من قالها سوءٌ أبدًا. وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا نظرت في المرآة فقل اللهم كما حسّنتَ خَلْقي فأَحْسِنْ خُلُقي وارزقني». وعن الرِّضَى عليّ بن موسى[4] عن أبيه عن آبائه أبًا فأبًا رضي الله عنهم عن النبيّ ﷺ قال: «من أَمَرّ المشط على رأسه ولِحيته في كل يومٍ سبعَ مرات وقال في كلّ مرة سبحانَ الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم لم يقارنه ذنب». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من جلس في مجلس كثُر لَغَطه فيه فقال قبل أن يقوم سبحانَك اللّهم ربّنا وبحمدك لا إلٰه إلّا أنت أستغفُرك وأتوبُ إليك غَفَر الله له ما كان في مجلسه ذلك».

* * *

وأمّا ما يقال في المرض والرُّقَى والوَسْواس والحَرِيق؛ عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: «باسم الله تربةُ أرضِنا وريقةُ بعضِنا يُشْفَى سقيمُنا بإذْن ربّنا». وعن عثمان بن أبي العاص الثقفيّ رضي الله عنه قال: قدِمتُ على رسول الله ﷺ وبي وَجَعٌ قد كان يُبْطِلني فقال لي ﷺ: «اجعل يدك اليمنى عليه ثم قل

(١) أواري: أستر.
(٢) أسماله: ثيابه.
(٣) سلك: خيط.
(٤) هو علي بن موسى: الملقب بالرضى، الإمام الثامن من الأئمة الشيعة الاثني عشر. مات في طوس، ودفن هناك.

باسم الله أعوذُ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أَجِد سبعَ مرات»، ففعلت ذلك فشفاني الله تعالى. وعنه ﷺ: «مَن عاد مريضًا لم يحضُرْ أجلُ فقال عنده سبعَ مرات أسألُ الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يَشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض». وكان ﷺ إذا دخل على مريض وضع يده اليمنى على خَدّه وقال: «أذْهِب البَاس، ربَّ النَاس واشفِ أنت الشافي شِفاءً لا يغادر سَقَمًا». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ في أُذُن مبتلًى فأفاق، فقال له النبيّ ﷺ: «ما قرأت في أذنه»؛ قال: قرأت ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥] إلى آخر السورة. فقال النبيّ ﷺ: «لو أنّ رجلًا مُوقِنًا قَرَأ بها على جبلٍ لزال». وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال: «من رأى صاحب بَلَاءٍ فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكَ به وفضّلني عليك وعلى كثيرٍ ممن خَلَق الله عافاه من ذلك البلاء كائنًا ما كان أبدًا ما عاش». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أَرْقِي رسول الله ﷺ من العَين فأضعُ يدي على صدره وأقول: أَذْهِب البَاس، ربّ الناس؛ بيدك الشفاءُ ولا كاشف له إلا أنت. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما رفع الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال: «هذه الكلمات دواءٌ من كلّ داء أعوذُ بكلمات الله التامّة وأسمائه كلها عامّة من السامّة والهامّة[١] وشرِّ العين اللّامّة[٢] ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد ومن شرِّ أبي قِتْرَةَ[٣] وما وَلَد ثلاثون من الملائكة أَتَوْا ربَّهم عزّ وجلّ فقالوا وَصَبٌ بأرضنا فقال خُذُوا تربةً من أرضكم وامسحوا بوَصَبكم رُقْيَةَ محمد ﷺ من أخذ عليها صَفَدًا[٤] أو كَتَمَها أحدًا فلا أَفْلح أبدًا». وعن عليّ رضي الله عنه قال: من اشتكى ضِرْسه فليأخذ الترابَ من موضع سجوده ثم يمسح يده على الموضع الذي يشتكي، ثم يقول: باسم الله، والشافي الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه أتاه رجل فذكر له أن أباه احتبس بوله وأصابته حَصَاةٌ منعته البول فعَلّمه رُقْية سمعها من النبيّ ﷺ وهي: «ربَّنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك أمرُك في السماء والأرض كما رَحْمَتُك في السماء فاجعل رحمتَك في الأرض واغفِرْ لنا حُوبَنا[٥] وخطايانا أنت ربّ الطيّبين فأَنْزِلْ شفاءً من شفائك ورحمةً من رحمتك على الوَجَع فيبرأ»؛ فأمره برَقْيه بها فرقاه بها فبرىء. وعن عليّ رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ فوافقه مُغْتَمًّا، فقال: يا

---

(١) الهامّة: وجمعها الهوام، وهي كل ما يزحف ويدبّ.
(٢) اللامّة: المصيبة بسوء.
(٣) أبو قترة: اسم علم لإبليس.
(٤) صفد: أجر وعطاء.
(٥) حوبنا: إثمنا وخطأنا وزلّتنا.

محمد، ما هذا الغمّ الذي أراه في وجهك؟ قال: «الحسن والحسين أصابتهما عَيْن». فقال: يا محمد، صدِّق العينَ فإن العَيْنَ حقّ. ثم قال: أَفَلا عوّذتَهما بهؤلاء [illegible]»، فقال: «قل اللّهمّ ذا السلطان العظيم، ذا المَنِّ القديم، ذا الوجهِ الكريم، والكلمات التامّات، والدعوات المُستجابات عافِ الحسنَ والحسينَ من أَنْفُس الجِنّ وأَعْيُن الإنس». فقالها النبيّ ﷺ فقاما يلعبانِ بين يديه. فقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «عَوِّذُوا أنفسكم بهذا التعوُّذ فإنّه لم يتعوَّذ المتعوِّذون بمثله». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني النبيّ ﷺ فقال: «أَمَانٌ لك من الحَرَق أن تقول سبحانَك ربِّي لا إلٰهَ إلّا أنت عليك توكّلتُ وأنت ربّ العرش العظيم». وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ أمانٌ لك من الوَسْواس أن تقرأ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٥]، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: الآية ٤٦].

* * *

وأمّا ما يقال عند دخول السوق وشراء الجارية والدابّة؛ رُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ كان إذا دخل السوق قال: «اللّهم إنّي أسألُك من خير هذه السوق وأعوذُ بك من الكفر والفُسوق». وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عليّ إذا دخلت السوق فقل حينَ تدخل باسم الله وبالله أشهدُ أن لا إلٰه إلّا الله وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسوله يقول الله عزّ وجلّ عبدي هذا ذَكَرني والناسُ غافلون اشهَدوا أنّي قد غفرتُ له». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من دخل السوق فقال لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيي ويُميت وهو حيٌّ لا يموت بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير كتب اللهُ له ألفَ ألفِ حسنة ورفع له ألفَ ألفِ درجة» أو قال: «وبنى له بيتًا في الجنّة». وعن رسول الله ﷺ: «إذا أفاد أحدُكم الجاريةَ أو المرأةَ أو الدابّة فليأخذْ بناصيتها وليَدْعُ بالبركة وليقُل اللّهم إنّي أسألك خيرَها وخيرَ ما جُبلْتَ عليه وأعوذُ بك من شرّها وشرِّ ما جُبِلت عليه فإن كان بعيرًا[1] فليأخذ بذروة سَنَامه»[2].

* * *

(١) بعيرًا: جملًا.

(٢) سنامه: حدبته في أعلى ظهره.

وأمّا ما يقال عند هبوب الرياح وفي الرعد والمطر؛ عن أُبَيّ بن كعب[(١)] رضي الله عنه أن الريح هاجت على عهد رسول الله ﷺ فسبَّها رجلٌ فقال له النبيّ ﷺ: «لا تسبّها فإنها مأمورة ولكن قل اللّهم إني أسألك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُمِرَتْ به وأَعوذُ بك من شرّها وشر ما فيها وشرّ ما أُمِرت به». وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمِع الرعْد أو البرْق قال: «اللّهم لا تقتلنا غَضَبًا ولا تقتلنا بغتةً وعافِنا قبل ذلك». وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللّهم لا تُهْلِكنا بغضبك ولا تقتلنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك». وعن أَنَس أن النبيّ ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء[(٢)] حتى يُرى بياضُ إبطَيه. وعن كعب بن مُرّة السلميّ رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ وجاءه رجل فقال: يا رسول الله، استسق الله لمُضَر[(٣)]، فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: «اللّهم اسقِنا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيعًا مريئًا عاجلًا غيرَ رائثٍ نافعًا غيرَ ضارّ». قال: فما جَمّعوا[(٤)] حتى أَحْيَوْا[(٥)]. فأَتَوْه فشكَوْا إليه المطرَ فقالوا: يا رسول الله قد تهدّمت البيوتُ. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم حَوَالَيْنا ولا علينا»، فجعل السحاب يتقطّع يمينًا وشمالًا. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ كان إذا رأى ناشئًا[(٦)] في أُفُق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة، ثم يقول: «اللّهم إني أعوذُ بك من شرِّها»؛ فإن رأى مطرًا قال: «اللّهم صَيِّبًا هَنِيئًا». وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى المطرَ قال: «اللّهم صيِّبًا نافعًا».

* * *

وأمّا ما يقال في الخوف والشدائد؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا تخوّف الرجلُ من السلطان فليقل اللّهم ربّ السمٰوات السبع وربَّ العرش العظيم كن لي جارًا من فلان ابن فلان يسمِّي الذي يريد وشرِّ الجِنّ والإنس وأحزابهم وأتباعهم أن يفرُط عليّ أحدٌ منهم أو يَطْغَى عَزّ جارُك وجلّ ثناؤك ولا إلـٰهَ غيرُك». وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ: «من خاف من

(١) أُبي بن كعب: أبو المنذر بن كعب الخزرجي، سيّد القرّاء، من علماء الصحابة. تُوفي سنة ١٩ أو ٢٢ هـ. انظر: شذرات الذهب ١/٣١.
(٢) الاستسقاء: الدعاء إلى الله والصلاة له لكي يبعث المطر بعد طول احتباس.
(٣) مضر: أي العرب، وعرب الشمال خاصةً أو العدنانية.
(٤) جمّعوا: دخلوا في الجمعة. (٥) أحيوا: نزل عليهم الحياء وهو المطر.
(٦) ناشئًا: أول ما يظهر من السحاب.

السلطان أو غيره فليفزَعْ إلى هذه الدعوةِ الله أكبر وأعزُّ من خَلْقه جميعًا الله أكبرُ وأعزُّ مما أخافُ وأحذَر وأعوذ بالله الذي لا إلـٰهَ إلّا هو مُمْسِك السمٰوات السبع أن يَقَعْنَ على الأرض إلّا بإذنه من شرّ فلان ابن فلان يا ربّ كن لي جارًا من شرّه عزَّ جارُك وجلَّ ثناؤك ولا إلـٰهَ إلا أنت العليّ العظيم يقولهنّ ثلاثَ مرات إلّا أعاذه الله من شرّ ذلك». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني النبيّ ﷺ فقال: «يا عليّ إذا اشتدّ بك أمرٌ فكبِّر ثلاثًا وقل الله أكبرُ وأعزُّ من كل شيء والله أكبرُ أعزّ من خَلقه وأقدر وأعزّ مما أخاف وأحذر اللّهم أَدْرَأُ[1] بك في نَحْره وأعوذُ بك من شرّه فإنك تُكْفَى بإذن الله عزّ وجلّ».

* * *

وأمّا ما يقال في الغضب والفزع؛ عن سليمانَ بنِ صُرَدٍ[2] رضي الله عنه قال: استَبّ[3] رجلان عند النبيّ ﷺ فجعل أحدُهما تحمَرّ عيناه وتنتفِخ أوداجهُ. فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعرف كلمةً لو قالها لَذَهَب عنه الذي يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وعن النبيّ ﷺ: «إذا فزع أحدكم فليقُلْ أعوذُ بكلمات الله التامّة من غضبه وعذابه ومن شرّ عباده ومن هَمَزَات الشياطين وأن يحضرونِ فإنّها لم تضرّه». قال فكان عبد الله يعلّمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلُغْ منهم كَتَبها في صَكٍّ وعلّقها عليه. وفي لفظ: «إذا فزع أحدكم في النوم فليقل...» يعني الكلمات؛ وفي طريقٍ: كان خالد بن الوليد رجلًا يفزع في نومه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له: «إذا اضطجعت للنوم فقل...» يعني الكلمات، فقالها فذهب ذلك عنه.

* * *

وأمّا ما يقال في السفر وركوب الدابّة والسفينة ودخول القرية؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا توضّأ فأسبغ وضوءه وصلّى ركعتين، ويقول وهو في مجلسه مستقبِلَ القبلة: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئًا ربِّ أعِنّي على أهوال الدنيا والآخرة ومن مصيبات الليالي والأيّام في سفري فاحفظني وفي أهلي

---

(١) أدرأ: أدفع.

(٢) هو سليمان بن مرو الخزاعي الصحابي، أحد قادة جيش التوّابين الذين خرجوا سنة ٦٥ هـ يطلبون بدم الحسين بن علي، فقتل سليمان فيها على أيدي جنود عبيد الله بن زياد؛ انظر: شذرات الذهب ١/ ٧٣.

(٣) استبّ: سبّ كل واحد منهما الآخر.

فاخلُفني». وعن النبيّ ﷺ: «ما استخلَف العبد في أهله إذا هو شدّ عليه ثيابَ سفره خيرًا من أربع ركعاتٍ يُصَلّيهِنّ في بيته يقرأ في كل واحدة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول اللّهم أنّي أتقرّب بهنّ إليك فاجعلْهُنّ خليفتي في أهلي ومالي قال فهو خليفته في أهله وماله وولده ودُورِ حولَ داره حتى يرجِعَ إلى داره». وعن أنس رضي الله عنه قال: لم يُرِد النبيّ ﷺ سفرًا قطّ إلا قال حين ينهض من جلوسه: «بك انتشرتُ إليك وَجَّهت وبك اعتصمت أنت ثِقتي ورجائي اللّهم اكفِنِي ما يهمُّني وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّي اللّهم زوّدني التقوَى واغفر لي ذنبي ووجِّهني إلى الخير أينما توجّهتُ». وعن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا ركبتم الإبل فتعوّذوا بالله واذكروا اسم الله عليه فإنّ على سَنَام كلّ بعيرٍ شيطانًا». وكان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره يريد السفر كبّر ثلاثًا ثم قال: «سبحانَ الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقْرِنين وإنا إلى ربّنا لَمُنْقَلِبُون اللّهم إنا نسألك في سفرنا هذا البِرّ والتقوى ومِن العمل ما ترضَى اللّهم هَوِّنْ لنا سفرنا هذا واطْوِ عنّا بُعْدَه اللّهم أنت الصاحبُ في السفر والخليفةُ في الأهل والمال والولد»، وإذا رجع ﷺ قالهن وزاد فيهن: «آئبون تائبون لربّنا حامدون». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ كان إذا قَفَل من حَجّ أو عُمرة فأَشرفَ على شَرَفٍ كبّر ثلاثًا ثم قال: «لا إلٰهَ إلّا الله وحده لا شريك له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير آئبون تائبون لربّنا حامدون صدق اللهُ وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه وكلُّ شيء هالكٌ إلّا وجهَه له الحكُم وإليه تُرْجعون اللّهم إني أعوذ بك من وَعْثَاء[1] السفَر وكآبة المُنْقَلَب وسوءِ المنظَر في الأهل والمال». وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَانٌ لأُمّتي من الغَرَق إذا ركِبوا السُّفُن أن يقولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعًا قَبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسمٰواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سبحانَهُ وتَعَالَى عَمّا يُشْرِكون باسم الله مَجْريها ومُرْساها إن رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيم». وكان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل اللّيلُ قال: «يا أرضُ ربِّي وربُّكِ اللهُ أعوذُ بالله من شرِّك وشرّ ما فيك وشرّ ما يدِبّ عليكِ أعوذُ بالله من أَسَدٍ وأَسْوَدَ ومن الحيّة والعقرب ومن ساكنِ البلد ومن والد وما وَلَد». وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ «يا عليّ إذا نزلتَ منزلًا فقل باسم الله اللّهم أَنْزِلْنا منزلًا مباركًا وأنت خيرُ المُنْزِلين تُرْزَقْ خيرَه ويُدْفَعْ عنك شرُّه». وقال ﷺ: «مَنْ نزل منزلًا ثم قال أعوذُ بكلماتِ الله التامّات كلّها من شرِّ ما خلق لم يضرّه شيءٌ حتى

(١) وعثاء: مشقة.

يرتحل من منزله ذلك». وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إذا أردتَ الدخول إلى مدينةٍ أو قرية فقل حين تُعاينها اللّهم إنّي أسألك خيرَ هذه القريةِ وخيرَ ما كتبتَ فيها وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما كتبت فيها اللّهم ارزُقْني خيرَها وأعوذُ بك من شرِّها وحَبِّبْنا إلى أهلها وحَبِّبْ أهلَها إلينا». وعن صُهَيبٍ[1] رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ لم ير قريةً يُريدُ دخولَها إلّا قال: «اللّهم ربَّ السمٰوات السبع وما أظْلَلْنَ وربَّ الأرَضِينَ السبع وما أقْلَلنَ وربَّ الرياحِ وما ذَرَيْنَ وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلنَ أسألك خيرَ هذه القريةِ وخير ما فيها وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها». وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأراد أن ينزل قريةً عدَل إليها وقال: «اللهُ أكبرُ ثلاثًا اللّهم ارزُقْنا خيرَها واصْرِفْ عنّا وَبَاءَها وحَبِّبْنا إلى صالح أهلها وحَبِّبْهم إلينا».

* * *

وأمّا ما يقال في الزواج والجماع؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوّج أحدكُم ثم دخل على أهله[2] فليقُل اللّهمّ بارك لي في أَهْلي وبارك لأهلي فيّ وارزُقْني منها وارزقها مني واجْمَع بيننا ما جمعتَ في خيرٍ وإذا فرّقتَ بيننا ففرّق في خير». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبيّ ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهلَه قال اللّهم جنّبنِي الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزقتَني فإنْ قُضِي بينهما وَلَدٌ لم يضرّه الشيطان»، أو قال: «لم يُسَلَّط عليه».

* * *

وأمّا ما يقال في قضاء الدَّين ونجاح الحوائج؛ عن أبي سَعيد رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجدَ فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة مالي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت صلاة»؟ قال: همومٌ لَزِمتني وديونٌ يا رسول الله. قال: «أفلا أُعلِّمك كلامًا إذا قلتَه أذهب اللهُ همَّك عنك وقضى عنك دَيْنَك»! قال: بلى يا رسول الله. قال: «قل إذا أصبحتَ وأمسيتَ اللّهم إني أعوذ بك من الهمّ والحَزَن وأعوذُ بك من العجز والكَسَل وأعوذ بك من الجبن والبُخْل وأعوذُ بك من غَلَبة الدَّين وقَهْرِ الرجال»؛ قال: ففعلت ذلك

(١) هو صهيب بن سنان الرومي، من خدام النبيّ ﷺ وصحابته. تُوفي في المدينة سنة ٣٨ هـ. انظر خبره في: شذرات الذهب ١/ ٤٧.

(٢) أهله: زوجته.

فأذهب الله همّي وقضى عنّي دَيْني. وعن مُعاذ بن جَبَل رضي الله عنه أنّه تخلّف عن صلاة من الصلوات ففقده النبيّ ﷺ. فلما جاءه قال: «ما خلّفك عن الصلاة يا معاذ»؟ قال: ليُوحَنّا اليهوديّ عليّ دَيْنٌ فخشِيتُ إن خرجتُ أن يَلْزَمني فلا أنا وصلتُ إليك ولا أنا كنتُ في أهلي. فقال ﷺ: «ألَا أُعلِّمك كلماتٍ إذا قلتَهنّ قضى الله عنك دينكَ ولو كان مثلَ الأرض أو مثل صبرٍ[1] ذهبًا أو وَرِقًا قضاه الله عنك»! قلت: بلى يا رسول الله قال: «قل اللّهُمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. رَحْمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما تُعطِي منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء أسألك بعِزّتك ورحمتك أن تقضيَ عنّي دَيني». وعن عبد الله بن أبي أَوْفى[2] الأسلميّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له حاجةٌ إلى الله أو إلى أحد من بني آدم فليتوضّأ وليُحسِن الوضوءَ وليصلِّ ركعتين ثم لْيُثْنِ على الله عزّ وجلّ ويصلّ على النبيّ ﷺ ثم ليقُلْ لا إلـٰه إلا الله الحكيم الكريم سبحانَ الله ربَّ العرش العظيم والحمدُ لله ربّ العالمين أسألك مُوجباتِ رحمتك وعزائمَ مغفرتِك والغنيمةَ من كلّ بِرّ والسلامةَ من كلّ ذنب لا تدع لي ذنبًا إلا غفرتَه ولا همًّا إلا فرّجتَه ولا حاجةً هي لك رِضًا إلا قضيتَها».

وعن عليّ رضي الله عنه قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «يا عليّ إذا خرجتَ من منزلك تريدُ حاجةً فاقرأ آيةَ الكُرْسيّ[3] فإنّ حاجتَك تُقْضَى إن شاء الله تعالى». وعنه رضي الله عنه قال: «إذا أراد أحدُكم الحاجةَ فليُبَكِّرْ في طلبها يوم الخميس ولِيقرَأْ إذا خرج من بيته آخر سورةِ آلِ عِمْرانَ وآيةَ الكرسيّ وإنّا أنزلناه في ليلة القدر وأمّ الكتاب[4] فإنّ فيها قضاءَ حوائج الدنيا والآخرة».

* * *

(١) صبر: اسم جبل في اليمن.

(٢) عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي، آخر الصحابة موتًا بالكوفة، وآخر من مات من أهل بيت الرضوان. مات سنة ٨٦ هـ: شذرات الذهب ١/ ٩٦.

(٣) آية الكرسي، هي الآية ٢٥٥ من سورة البقرة، وهي التالية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

(٤) أم الكتاب: هي الفاتحة.

وأمّا ما يقال في ردّ الضالة[١]؛ عن مكحول[٢] رضي الله عنه أنه كان يدعو في الضالّة: اللّهم هاديَ ورَادَّ الضَّوَالِّ ارددْ عليّ ضالّتي ولا تُعَنِّنِي بطلبها ولا تَفْجَعْني بمُصِيبتها فإنها من رزقك وعطائك. وكان يقول في الآبق: اللّهم ضَيِّق عليه البلادَ واجعلْه في أضيقَ من ضرورة الحمل حتى تَرُدَّه.

* * *

دعاء الاستخارة؛ عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا أراد الأمرَ: «اللّهم خِرْ لِي واخْتَرْ لي». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمنا الاستخارةَ في الأمور كما يعلِّمنا السورةَ من القرآن، يقول: «إذا همّ أحدكم بالأمر فليركَعْ ركعتين من غير الفريضة ثم ليقُلْ اللّهم إنّي أستخيرُكَ بعلمك وأستَقْدِرُك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدِر ولا أقدِر وتعلَم ولا أعلَم وأنت علّامُ الغيوب اللّهم إنْ كنت تعلم أن هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومَعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاقدُرْهُ لي [ويسّره لي ثم بارك لي فيه] وإن كنتَ تعلم أن هذا الأمرَ شرٌّ لي في دِيني ومعاشي وعاقبةِ أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فا[صْرفه عنّي وا]صرِفْني عنه واقدُرْ لي الخيرَ حيث كان ثم رَضِّني به ويُسَمِّي حاجتَه».

ذِكْر ما ورد في أسماء الله الحسنى والاسم الأعظم

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للهِ عزّ وجلّ تسعةً وتسعين اسمًا مائةً غيرَ واحدٍ إنّه وِترٌ[٣] يُحبّ الوتْر مَن أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إلٰهَ إلّا هُوَ الرحمٰن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السَّلَام، المُؤْمِن، المُهَيْمِن، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، الخالق، البارىء، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب،

(١) الضالّة: الشيء الذي يفقد.

(٢) هو أبو عبد الله مكحول مولى بني هذيل. فقيه وصاحب فتوى. مات سنة ١١٣ هـ. شذرات الذهب ١/١٤٦.

(٣) وتر: واحد أحد.

الواسع، الحكيم، الودود، المَجِيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، المتين، الوليّ، الحميد، المُحْصِي، المُبْدِيء، المُعيد، المُحيي، المُميت، الحيّ، القَيُّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصَّمَد، القادر، المقتدِر، المقدِّم، المُؤَخِّر، الأوّل، الآخِر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البَرّ، التوّاب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِط، الجامع، الغني، المغْنِي، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصَّبُور.

وقد نبّه البُوني رحمه الله في اللُّمعة النورانية على كيفية العلم والعمل بأسماء الله الحسنى وخاصيّة كل اسم منها، ورتّب ذلك وجعله عشرة أنماط فقال:

النمط الأوّل

مِنْ نَظْمِ الأسماء اسمُه الله، والإلـٰه، والربّ، والخالق، والبارىء، والمصوّر، والمبدىء، والمُعيد، والمُحيي، والمُميت. قال البوني: هذا النمط عشرة أسماء لا تكون إلّا أذكارًا للذاكرين على اختلاف أحوالهم. فالله والإلـٰه ذِكْرُ الأكابر والمُوَلّهين في الغالب. والربُّ، والخالقُ، والبارىء ذكر الأكابر من السالكين المُرِيدين. والمصوّر، والمبدىء، والمعيد، والمُحْيي، والمُميت ذكر عباد الله المتعبِّدين والمتبصّرين.

النمط الثاني

الأحد، الواحد، الصمد، الفعّال، البصير، السميع، القادر، المقتدر، القويّ، القائم. قال: هذه الأسماء العشرة سِلْكٌ واحدٌ في تقارب الأذكار؛ وهذا القسم فيه أذكار السالكين المتعلّقين بأسرار التوحيد ذكرُهم الأحد والواحد. وأمّا الصمد فذكر يصلح للمرتاضين بالجوع، فذاكره لا يُحِسّ بألم الجوع البتّة ما لم يُدخل عليه ذكرًا غيره. والفعّال اسم للمغلوبين بالخواطر والوساوس وكثرة الأفكار واغتمام القلب بهذا السبب؛ فمهما ذكره مَنْ هذه صفتُه تقلّبت أفكاره إلى ما يقع له به سرور وفرح. وأما السميع والبصير فتنزيه جليل، وهو ذكر يصلح للملحّين في الدعاء فإنه ربما أسرعت لهم الإجابة. وأمّا القادر، والمقتدر، والقويّ، والقائم فذكر يصلح لأصحاب الإعياء والحِرَف الثقيلة؛ ولو علم سرّه من يعاني الأثقال واستدامه لم يحسّ بثِقلٍ فيما يتعاطاه البتّة؛ ومن نقشها في فص[1] خاتم وتختّم به أدرك ذلك لوقته؛ ومن ضعُف عن شيء ما وعلّقه عليه وذَكَره قوِي لوقته.

---

(١) فصّ الخاتم: ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة.

النمط الثالث

الحيّ، القيُّوم، الرحمٰن، الرحيم، الملك القدير، العليّ، العظيم، الكبير، المتعال. قال: هذا القسم من الأسماء يحتوي على أذكار المراقبين، وفيه أعمال جليلة البرهان. فالحيّ القيُّوم اسمان جليلان، ذكرٌ لأهل الحضرة، وهو من أذكار إسرافيل وملائكة الصُور أجمعين، يصلُح أن يُذكر من مبادىء الفجر إلى طلوع الشمس، يجد ذاكره من الزيادة والخشية والتطلُّع إلى طلب الفضائل ما لم يعهَدْه قبلُ؛ ومن نقش الاسمين عند طلوع الشمس من يوم الجمعة مستقبلَ القِبلة على ذِكْرٍ وأمسكه عنده أحيا الله ذِكْرَه إنْ كان خَاملًا، وأحيا رزقَه إنْ كان قليلًا. وأمّا الرحمٰن الرحيم فأذكار شريفة للمضطرّين وأمانٌ للخائفين لا ينقُشه أحدٌ في خاتم في يوم جمعة آخر النهار فيرى ما يكرهه ما دام عليه. ومن أكثر من ذكره كان مَلْطوفًا به في كل أموره. وأمّا الملك والقدير فـذكر يذكر عند كل ذي ملك وقدرة فإنه ما من مَلِك يستديم هذا الذِّكرَ في عموم أوقاته إلّا ثبت مُلْكه وانبسطت قدرته؛ ويصلح للسالك الذي تغلبه شهواتُ نفسه؛ فإنه ما يستديم ذكره مَنْ هذا مقامُه إلا بعث الله إليه قوّةً مَلَكِيّةً تؤيّده وتنصره على من يخالفه من عوالمه. وأما العليّ العظيم فللتنزيه. والكبير المتعال مناسب للتنزيه أيضًا، وهما اسمان لائقان بأهل التعظيم من أرباب الأحوال ليس للعامّة في الذكر بهما قسم.

النمط الرابع

المهيمِن، المُقيت، العزيز، الجبّار، المتكبِّر، المحيط، الحفيظ، الفاطر، المجيد ذو الجلال. قال البوني: أمّا المهيمن، والمُقيت فللعلم والاستيلاء والمراقبة في الجزئيات والكليات. والعزيز، والجبّار، والمتكبِّر فمن أسماء صفات الذات اللازمة للخوف والرهبة والعظمة، لا يذكرها ذليل إلا عزّ، ولا حقير إلا ارتفع، ولا بين يدي جبّار إلا ذلّ وخضَع، ولا يذكرها ملك من ملوك الأرض إلا وجد في نفسه ذِلَّةً وانكسارًا. وأما الحفيظ فإنه اسم سريع الإجابة للخائفين في الأسفار. وأما المحيط، والمجيد، والفاطر، وذو الجلال، فأسماء التنزيه وزيادات في التوحيد.

النمط الخامس

العليم، الحكيم، البديع، النور، القابض، الباسط، الأوّل الآخر، الظاهر، الباطن. قال: هذا القسم من الأسماء جليل القدر عظيم الشأن. فأمّا العليم، والحكيم

فللتوحيد الخاص، لا يصلحان إلا لمَنْ أُبهِمَ عليه أمرٌ من كشف سرٍّ من أسرار الله تعالى يعسُرُ على الفكر إدراكُه، فإنه إذا استدام ذِكْرَ العليم الحكيم يسّر الله عليه علم ما سأل وعرّفه الحكمة فيه، ومنه اسمه البديع أيضًا مثل ذلك. وأمّا النُور، والباسط، والظاهر، فذكر أرباب المكاشفات. ومن أراد أن ينظر شيئًا في منامه فليذكر هذه الأسماءَ على طهارة وهو في فراشه إلى أن ينام على هذا الذكر، ويُعْمِلْ همَّتَه فيما يريده فإنه يُمَثَّلُ له في نومه كشف ذلك. وأمّا القابض، والأوّل، والآخر، والباطن، فكلها أسماء للتعظيم والتوحيد.

النمط السادس

الحليم، الرؤوف، المنّان، الكريم، ذو الطَّوْل، الوهّاب، الغَفُور، الغافر، العَفُوّ، المُجِيب. قال: هذا النَّمَطُ من الأسماء عليه مدار إبقاءِ الوجود ودفع الأضداد وجمع المتفرّق. أما الحليم، والرؤوف، والمنّان، فذكر للخائفين؛ ما داومه مَنْ يخاف شيئًا إلا أوجده الله تعالى بَرْدَ الطُّمَأْنينة وسكَّن رَوْعَه. قال البوني: وذكر لي من له اطلاع أنه من استدام هذا الذكر إلى أن يغلب عليه حال منه على خلوّ معِدَة ثم أمسك النارَ لم تَعْدُ عليه، ولو تنفّس حينئذٍ على قِدْر تَغْلي سَكَن غَلَيَانُها بإذن الله تعالى، ولا يكتبها أحد ويقابل بها من يخاف منه إلّا أطفأ الله شرّه عند رؤيته، ولا يستديم هذا الذكر مَنْ غلبته شهوتُه إلا نَزَع الله منه النزوعَ إليها في أثناء ذكره. وأما الكريم، الوهّاب، وذو الطَّول[1]؛ فلا يتسديم على هذا الذكر مَنْ قُدِر عليه رِزْقُه ومسّته حاجةٌ إلا يَسّر الله عليه من حيث لا يشعر، ومن نقش هذه الأسماءَ وعلّقها عليه لم يدر كيف يُيَسِّر الله عليه المطالب من غير عُسْر. وأما الغفور، والغافر، والعفوّ، فَنَظْمٌ متقارِبٌ لسؤال دفع المُؤْلِم خصوصًا من آلام الدين والدنيا. وأمّا المجيب، فيذكر في آخر الدعوات.

النمط السابع

الكافي، الغنيّ، الفتاح، الرزاق، الوَدُود، اللطيف، الواسع، الشهيد، نِعْم المولى ونعم النصير. قال: هذا النَّمَطُ من الأسماء جليل القدر، به يُنَزِّل الله الرغائب من كل مفضول به على أحد من عباده. فاسمه الكافي، والغنيّ، والفتاح، والرزّاق لا يذكرُ أحدٌ هذه الأسماءَ الأربعةَ وهو يتمنّى شيئًا لم تبلغه أمنيّته إلا بَلغَه بإذن الله تعالى

(١) الطول: القدرة.

من جهةٍ لا يعتمد عليها لم تخطر بباله. لا يذكر أحد هذا الذكر على القليل إلا كثّره الله ولا على طعام إلا ظهرت فيه زيادة، ولا يذكره مَنْ هو في رتبة وهِمَّتُه طالبةٌ أعلى منها إلا يسّر الله له الوصولَ إليها. وأمّا الوَدُود، واللطيف، والواسع، والشهيد، فنَمَطٌ جليل النظم لأرباب الهجوع والخَلْوة؛ واللطيف خصوصًا لتفريج الكرب في أوقات الشدائد لا يضاف إليه غيره؛ لا يذكره من يُؤْلِمه شيء في نفسه وبدنه إلا أزاله الله عنه أثناء الذكر.

النمط الثامن

الشديد، ذو القوّة، المتين، السريع، الرقيب، المقتدر، القاهر، الوارث، الباعث، القويّ. هذا النمط من الأسماء عظيم الشأن. فأمّا الشديد، وذو القوّة، والقاهر، والمقتدر، فهي أسماء القهر لا يذكرها ضعيف الهِمّة إلا قَوِيت نفسه، ولا يدعو بها أحد على ظالم في احتراق الشهر في السابعة من الليل في بيت مظلم حاسرَ[1] الرأس على الأرض لا حائل بينه وبينها مائة مرة يقول في آخرها: يا شديد خُذْ لي بحقّي من فلان؛ ولا يشخِّص شيئًا فالله أعلم بما يعمل. قال: وقد جُرّب مِئِين من المرّات. ولا ينقشها أحد في خاتم ويتختّم به إلا ألبسه الله تعالى مهابة يُدْرِكها مِن نفسه ويُدْركها غيره منه، ويرتاع منه كل جبّار عَنِيد عند رؤيته، حتى كأن الجبال على كاهله ما دام ينظر إلى من هو معه. وأمّا السريع، والرقيب، والمتين، فذكر لأرباب المراقبة في الأفعال تنفتح لهم بذلك مكاشفات وأسرار. وأمّا الوارث، والباعث، فلحكمة الاعتبار والتصديق بآثار القدرة.

النمط التاسع

التوّاب، الشاكر، الوليّ، الحسيب، الوكيل، القريب، الصادق، البَرُّ، الباقي، الخلّاق. قال: هذا القسم مرتَّب على سلوك مقامات السالكين؛ فالتوّاب للتائبين، والشاكر للشاكرين، والوليّ للأولياء، والحسيب لأهل الكفاية، والوكيل للمتوكلين، والقريب من أهل القرب، والصادق مع الصادقين، والبَرُّ مع أهل البِرّ، والباقي مع الشهداء، والخلّاق لذوي الاعتبار. وللمشايخ في هذا الميدان مَجَالٌ رَحْب بحسب اختلاف أحوالهم.

---

(١) حاسر الرأس: مكشوف الرأس.

النمط العاشر

الهادي، الخبير، المبين، علّام الغيوب، ذو الجلال والإكرام، القُدُّوس، السلام، المُؤمِن، وينتظم في ذلك المُعِزّ، والمُذِلُّ، وما في آخر سورة الإخلاص. قال: فالهادي، والخبير، والمبين، لمن أراد كشف عواقب الأمور بجُوع وسهَر؛ ويَذْكُرُ هذه الأسماء وعلى رأس مائة من أعداد الذكر يقول: اهدني يا هادي، وخبِّرني يا خبير، وبيِّن لي يا مُبين؛ ويسمِّي ما يريده وذلك في جوف الليل، فإذا أدركه النوم مُثِّلَ له كشفُ ما أراده من أيّ نوع شاء. هذا مختصر ما قاله البوني في ترتيب أسماء الله الحسنى.

وأمّا ما ورد في الاسم الأعظم؛ فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه سمع رجلًا يقول: اللّهم إني أسألك أني أشهَدُ أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد، الصمد، الّذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحد؛ فقال: «لقد سألتَ اللهَ بالاسم الذي إذا سُئِل به أعطى وإذا دُعِي به أجاب». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل من الأنصار يقال له أبو عَيَّاش الزُّرَقِيّ[1] يصلِّي، فدنوت منه، فدعا في صلاته: اللّهم إني أسألك ـ بأن لك الحمدَ لا إلـٰهَ إلا أنت المنّان بديعُ السمـٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام ـ أن تغفرَ لي. فقال رسول الله ﷺ: «لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم الذي إذا دُعِي به أجاب وإذا سُئِل به أعطى». وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: الآية ١٦٣] وفاتحة سورة آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الآيتان ١، ٢]. وعن أبي أُمَامة واسمه صُدَيّ بن عَجْلَان الباهِلِيّ[2] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن في البقرة وآل عمران وطـٰه». قال فالتمستها فوجدت في البقرة آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [الآية ٢٥٥]، وفاتحة آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾، وفي طـٰه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [الآية ١١١].

---

(١) من الصحابة الذين رووا عن النبيّ حديث صلاة الخوف.

(٢) سبق التعريف به.

والأدعية المختارة كثيرةٌ وقد أتينا منها بما فيه كفايةٌ لمن توجّه إلى الله تعالى وسأله. ولْنَختمْ هذا الباب بما ختم به البخاريُّ[١] كتابَه: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمـٰن: سبحانَ اللهِ وبحمدهِ سبحانَ اللهِ العظيم.

تمّ الجزء الخامس من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويريّ،
والحمد لله وحده، وصلّى الله على مَن لا نبيّ بعده محمد وآله وسلّم
يتلوه إن شاء الله الجزء السادس

(١) البخاري: أبو عبد الله محمد، محدّث مشهور. وُلد في بخارى. أشهر مصنفاته «الجامع الصحيح» وهو أحد الكتب الستّة في الحديث. مات سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م.

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ **الأعلام**، للزركلي، الطبعة الثانية، دمشق.

٢ ـ **الأغاني**، لأبي الفرج الأصبهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩.

٣ ـ **البيان والتبيين**، للجاحظ، دار صعب، بيروت ١٩٨٦.

٤ ـ **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، دار صعب، بيروت.

٥ ـ **الحيوان**، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

٦ ـ **ديوان أبي العتاهية**، طبعة دمشق، ١٩٧٥.

٧ ـ **ديوان امرىء القيس**، طبعة دمشق، ١٩٧٣.

٨ ـ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٦٨.

٩ ـ **ديوان عنترة**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠.

١٠ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، دار صعب، بيروت ١٩٨٠.

١١ ـ **رياض الرياحين في حكايات الصالحين**، لليافعي ط٢، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٥.

١٢ ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام، تحقيق السقا ـ . الإبياري شلبي، دار الكنوز الأدبية.

١٣ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤ ـ **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٧.

١٥ ـ **طبقات الصوفية**، لأبي عبد الرحمٰن السلمي، ليدن بريل ١٩٦٠.

١٦ ـ **طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين**، لابن سلّام، ط أوروبا.

١٧ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

١٨ ـ **فقه اللغة**، للثعالبي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٠.

١٩ ـ **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

٢٠ ـ **الكامل في اللغة والأدب**،للمبرد، مكتبة المعارف، بيروت.

٢١ ـ **اللمع في التصوف**، لابن الجراح الطوسي، بريل ليدن ١٩١٤.

٢٢ ـ **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مجلد ٢٧، ج ١، الكويت.

٢٣ ـ **مجمع الأمثال**، للميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنّة المحمدية ١٩٥٥.

٢٤ ـ **معجم الأدباء**، لياقوت، ط. دار المأمون، القاهرة.

٢٥ ـ **معجم البلدان**، لياقوت، دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٨٤.

فهرس المحتويات

القسم الرابع
من الفنّ الثاني في التهاني والبشائر والمراثي والنّوادب والزهد والتوكّل والأدعية

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

٦-٧-٨

تحقيق

الدكتور علي بوملحم

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9 782745 138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القسم الخامس

في المَلِك وما يُشترطُ فيه وما يحتاجُ إليه
وما يجبُ له على الرعيّة وما يجب للرعية عليه،
ويتصل به ذِكرُ الوزراءِ وقادةُ الجيوشِ وأوصافُ السلاحِ
ووُلاةُ المناصبِ الدينية والكتّابُ والبلغاءُ

وفيه أربعة عشر بابًا:

الباب الأوّل
من هذا القسم في شروط الإمامة الشرعيَّة والعُرفيّة

أما الشروطُ الشرعية، فقد ذكر منها الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن الحليم الحَليميّ الجُرْجاني الشافعيّ[1] - رحمه الله - في كتابه المترجم بـ «المنهاج» لُمْعةً واضحةَ البيانِ، حسنةَ التِّبيانِ؛ اكتفينا بإيرادها عما سواها، واقتصرنا عليها دون ما عداها؛ لجمعها أكثر الشروطِ مع إيجازِ اللفظ وإصابةِ الغرض، على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

قال الحَليميّ: إذا أراد أهل الاجتهاد نَصْبَ إمام حين لا إمامَ لهم، فأولُ شرائطهِ أن يكون من قريش. والثانيةُ أن يكون عالمًا بأحكامِ الدين من الصلاةِ وأَخْذِ الصدقاتِ ومصارفها والقضايا والجهاد بالمسلمين وقَسْمِ الغنائم والنظر في حدود الله تعالى إذا

---

(١) الجرجاني، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن الحليم الحليمي الشافعي، (٣٣٨ هـ/ ٩٤٩ م - ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م). كان يعد من أكبر علماء الدين فيما وراء النهر. ترك:

١ - كتاب: «شعب الإيمان» انظر: Revue de l'histoire XXVI ومنه قطعة (٣ أجزاء) في حلب، والجزء الخامس في بطرسبرج ثالث ٤٨٩ وله مختصر في القاهرة أول/ ٢/ ٥٣.

٢ - «المنهاج» ويقع في ثلاثة مجلدات فيه أحكام كثيرة ومسائل فقهية. ترجمته في: - وفيات الأعيان، لابن خلكان (ڤستنفلد) ١٨٥. - تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ٤/ ٥٢.

رُفِعَت إليه فيقيمَها أو يدرأَها وغير ذلك. والثالثة أن يكون عَدْلًا في دينه وتعاطيه ومعاملاته.

فأما اشتراط النسبِ؛ فلما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأئمةُ من قريش. . .» وأنه ﷺ قال: «قدِّموا قريشًا ولا تَقَدَّموها ولولا أن تَبْطَرَ قريشٌ لأخبرتها بما لها عند الله تعالى».

وأما اشتراطُ العلم بأحكام الصلاةِ والزكاة والجهاد والقضاء والحدود والأموال التي يتولّاها الأئمةُ، فإنهَ لا يُمكنه أن يقوم بحقِّها والواجبِ فيها إلا بعد العلم، لتكون معالمُ الدنيا قائمةً، وأحكامُ الله تعالى بين عباده جارية. فإذا لم يكن عنده من العلم ما يتوصّلُ به إلى ما يحتاجُ الإمام إليه فوجودُه وعدمُه بمنزلةٍ واحدة. وينبغي أن يكون شجاعًا شَهْمًا، لأن رأسَ أمورِ الناسِ الجهادُ؛ فإذا كان من يتولّى أمورَهم جبانًا فَشِلًا منعه ذلك من مجاهدةِ المشركين وحَمَله على أن يترك كثيرًا من حقوق المسلمين فكان ضررُهُم به أكثرَ من نفعهم.

وأما اشتراطُ العَدالةِ، فلأن الإمامَ إذا كان يتولّى حقوقَ الله تعالى وحقوق المسلمين فَمَنْصَبُه منصِبَ الأمانة ائتمانٌ له على الحقوق؛ ولا يجوزُ أن يُؤْتَمَنَ على حقوق الله تعالى مَن ظهرت خيانتُه للهِ ولعباده، ولأن الفاسقَ ناقصُ الإيمانِ فلا يجوزُ أن يُشْرِفَ بالتّوْليةِ على المسلمين الذين فيهم مَنْ هو كاملُ الإيمانِ وأقربُ إلى كماله منه، كما لا يجوز أن يُوَلَّى شيئًا من أمور المسلمين كافرٌ، ولأن الفاسقَ لا يُرْضَى للشهادة فكان بألّا يُرْضَى للحُكم وهو أرفعُ منزلةً من الشهادة أولى، وإذا لم يُرْضَ للحكم كان بألّا يُرْضَى للإمامة التي هي أجمعُ من الحكم أولى، واللهُ أعلم، ولأنه إذا لم يكن يُصلِحُ نفسَه، إما تضييعًا لها أو عجزًا عن إصلاحها، فهو في حقّ غيره أكثرُ تضييعًا ولإصلاحه أشدُّ عجزًا، ومَن كان بهذه المنزلةِ فهو أبعدُ الناس من موقفِ الأئمة.

فصـــــل

وإذا اجتمعت هذه الشرائطُ التي ذكرناها في رجل، فإن كان الإمامُ الذي تقدّمه ولّاه في حياته ما يتولّاه إما استخلافًا عند عجزِهِ عن القيام بما عليه فيه، وإما انخلاعًا إليه منه فلا اعتراض في ذلك عليه، وإن كان أوصى له بالولاية بعد موته فالأظهرُ جوازُ ذلك. قال: فإن لم يكن لمن جمع شرائطَ الإمامةِ عهدٌ من إمام قبله واحتيج إلى نصب إمامٍ للمسلمين فاجتمع أربعون عدلًا من المسلمين أحدُهم عالم يصلُحُ

للقضاءِ بين الناس، فعقَدُوا لرجلٍ جَمَع الشرائطَ التي تقدّم ذكرها بعد إمعانِ النظر والمبالغة بالاجتهاد، ثبتت له الإمامةُ ووجبت طاعتُهُ. وينبغي أن يبدأ العالم الذي بينهم بالعقد ثم الذين ليسوا في العلم والرأي مثله.

فصل

قال: وإذا لم يجدوا من قريش من توجد فيه شرائطُ الإمامةِ ـ وهذا بعيد جدًّا وإنما هي مسائلٌ توضعُ لاحتمالِ الوقوع ـ فعند ذلك يكون الإمامُ من أقرب القبائل إلى قريش، فيكون من كِنانةٍ؛ لقوله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانةَ من العرب واصطفى قريشًا من كنانة»؛ فإن لم يوجد فيهم كان من أقربِ العرب من كنانة، حتى إذا اسْتُوفِي بنو إسماعيل لم يُعْدَلْ إلى بني إسحٰق، وإن كانوا أقرب لأنهما ابنا إبراهيم، ولكن إلى جدّهم من العرب، ثم الأقربُ فالأقرب.

فصل

وإذا وُجد قرشيٌّ عالمٌ غير عدلٍ وقرشيٌّ عدلٌ غير عالم وكنانيٌّ عالمٌ عدل، قال الحليميّ: الأشبهُ عندي أن يُقدَّم القرشيّ العدلُ، فإن أَشْكَلَ عليه شيءٌ عَمِل فيه برأي أهل العلم.

فصل

وإذا خَلَع الإمامُ نفسَه ولم يُوَلِّ أحدًا مكانه، فإن كان الإمامُ صالحًا للإمامة بالإطلاق فذلك منه غير نافذٍ، لأنه نُصِب ناظرًا للمسلمين، وخَلْعُه نفسَه في هذه الحالة ضررٌ عليهم، لأنه يدعهم بلا إمام ويعرّضُهم للاجتهاد في نصب غيره، وقد يُصيبون في ذلك أو يُخطئون.

فصل

وإذا أَمَّرَ الإمام أُمراءَ واستقضَى قضاةَ ثم مات، كان أُمراؤُه وقضاتُه على أعمالهم كما كانوا في حياته ولا ينعزلون، وليسوا كالوكيل ينعزلُ بموت الموكِّل، لأن الوكالةَ نيابةٌ، والولايةَ شركةٌ. هذا ما قاله الحَلِيميُّ، والله تعالى أعلم. فهذه الشروط الشرعيةُ التي لا بدَّ منها في حقّ الإمام.

* * *

وأما الشروطُ العرفيةُ والاصطلاحيةُ، وهي ما ينبغي أن يأتيه المَلِك من جميل الفِعَال، ويَذَرُه من قبيح الخِصال.

قال معاوية بن أبي سفيان(١): مهما كان في الملِك فلا ينبغي أن تكون فيه خمسُ خصال: لا ينبغي أن يكون كذّابًا، فإنه إذا كان كذّابًا فوعدَ بخيرٍ لم يُرْجَ، وإن وعد بشرٍّ لم يُخَفْ؛ ولا ينبغي أن يكون بخيلًا، فإنه إذا كان بخيلًا لم يناصحه أحدٌ، ولا تصلُح الولايةُ إلا بالمُنَاصَحة؛ ولا ينبغي أن يكون حديدًا، فإنه إذا كان حديدًا مع القدرة هَلَكت الرعيّة؛ ولا ينبغي أن يكون حسودًا، فإنه إذا كان حسودًا لم يُشَرِّف أحدًا، ولا يصلُح الناسُ إلا على أشرافهم؛ ولا ينبغي أن يكون جبانًا، فإنه إذا كان جبانًا اجترأ عليه عدوّه.

وقال ابن المُقَفَّع(٢): ليس للملك أن يغضَبَ، لأن القدرةَ من وراء حاجته؛ وليس له أن يَكْذِبَ، لأنه لا يُقْدَرُ على استكراهه على غيرِ ما يريد؛ وليس له أن يبخَلَ، لأنه أقلُّ الناسِ عذرًا في خوف الفقر؛ وليس له أن يكون حقودًا، لأن خطرَهُ أعظمُ من المجازاة.

وقالت الحكماءُ: يجب على المَلِك أن يتلبّسَ بثلاث خصالٍ: تأخيرُه العقوبةَ في سلطان الغضب، وتعجيلُ مكافأةِ المحسن، والعملُ بالأناةِ فيما يَحْدُث؛ فإن له في تأخير العقوبةِ إمكانًا، وفي تعجيلِ المكافأةِ بالإحسانِ المسارعةَ في الطاعة من الرعية، وفي الأناةِ انفساحَ الرأي وإيضاحَ الصوابِ.

---

(١) معاوية بن أبي سفيان (٦١ هـ) توفي عن ثمانين عامًا أسس الدولة الأموية سنة ٤١ هـ وهو ببيت المقدس. مات سنة ٦١ هـ ودفن بدمشق بباب الصغير. انظر: ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، توزيع دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م، المجلد الثاني، ٣. ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك دار المعارف بمصر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، سنة ١٩٧١، الجزء الخامس، ص ١٦٢.

(٢) ابن المقفع، أبو عمرو عبد الله روزبة بن المقفع داذويه، عمل كاتبًا لداود بن عمر بن الحسن آخر ولاة بني أمية بكرمان، ثم كتب لعيسى بن علي العباسي عم المنصور قتله والي البصرة ١٤٢ هـ/٧٥٩ م. انظر: المجموعة الكاملة، الأدب الكبير، ص ١١٣ و١١٤. ـ ابن النديم، الفهرست، ص ١١٨. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٩٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم ١٨٦. ترك ابن المقفع كتب كثيرة منها: ـ كليلة ودمنة وقد ترجمت لمعظم لغات العالم ونظمت شعرًا. ـ سير ملوك العجم. ـ الآئين. ـ التاج. ـ مزدك. ـ الأدب الكبير والأدب الصغير والصحابة. ـ حكم ابن المقفع.

وقالوا: ينبغي للملك أن يأْنَف أن يكون في رعيّته مَن هو أفضلُ منه دِينًا، كما يأنفُ من أن يكون منهم مَن هو أنفذُ منه أمرًا.

وقيل: لا ينبغي للملك أن يُسرعَ إلى حبس من يُكْتَفَى له بالجفاء والوعيد. وقالوا: ينبغي للملك أن تَعرِفه رعيّتُه بالأمانة، ولا يُعَجّلُ بالعقابِ ولا بالثوابِ، فإن ذلك أَدومُ لخوفِ الخائفِ ورجاءِ الراجي.

وقال بعضُ حكماءِ الفرس: أحزمُ الملوكِ مَن غلب جِدُّه هَزْلَه، وقهر رأيُه هواه، وعبَّر عن ضميرِهِ فعلُه، ولم يخدَعْه رضاهُ عن حظّه، ولا غضبُه عن كيدِه.

الباب الثاني

من القسم الخامس من الفن الثاني في صفات الملكِ وأخلاقِه وما يُفَضَّلُ به على غيره، وذِكْر ما نُقِل من أقوال الخلفاء والملوك الدالّة على علوّ هِمَمهم وكرم شِيَمهم

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه(١): السلطانُ زِمامُ الأمورِ، ونِظامُ الحقوقِ، وقِوَامُ الحدودِ، والقطبُ الذي عليه مَدار الدِّين والدنيا؛ وهو حِمَى اللهِ في بلاده، وظلُّه الممدودُ على عباده، به يُمنَع حريمُهم، ويُنْصَرُ مظلومُهم، ويُقمَع ظالمهم، ويؤمَّنُ خائفهُم.

وقال بعضُ البلغاء: المَلِك من تَبْيَضُّ آثارُ أياديه، وتسودُّ أيّام أعاديه؛ وتخضَرُّ مواقعُ سَيْبِه، وتحمرُّ مواضعُ سيفه؛ وتصفرّ وجوه حُسّاده، وتروقُ أعينُ أنداده.

وقال سهل بن هارون(٢): المَلِكُ صبيُّ الرضا، كَهْلُ الغضبِ؛ يأمرُ بالقتل وهو

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦ هـ/ ٨٦٩ م - ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م). انظر فيه: - الثعالبي، اليتيمة، ٤١٢/١ - ٤٣٦. - ابن خلكان، الوفيات، رقم ٤٥. - ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ٥١ - ٥٣. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١٣٩/٣ - ١٤١. ترك كتبًا منها: - العقد الفريد. - شعرًا كثيرًا في الغزل ثم نظم إزاءها قصائد في الزهد. لم تجمع حتى الآن.

(٢) سهل بن هارون (٢١٥ هـ) كتب ليحيىٰ بن خالد البرمكي، وولاه المأمون خزانة الحكمة، ذكر له الجاحظ: «كتاب تعلة وعفرة في معارضة كتاب كليلة ودمنة، وكتاب الإخوان، وكتاب المسائل، وكتاب المخزومي والهذلية، ورسالة في البخل. انظر: - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، البيان والتبيين، تحقيق: د. علي بو ملحم، ٣ مجلدات، منشورات دار ومكتبة الهلال، ط ١٠، سنة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م، م ٦٥/١، ٦٩، ٨٣، ٩٢، ٩٤، ١١٣، ١٧٢، ٢٠٢، ٢٧٠. م ٢٧/٢، ٣٠، ٤٩، ٧١، ١٣٦. م ٢١/٣، ٢٢٩، ٢٤٣. - الجاحظ، =

يضحك، ويستأصل شَأفة[١] القوم وهو يَمْزَحُ، يخلِط الجِدَّ بالهزل، ويتجاوزُ في العقوبة قَدْرَ الذنب، وربما أحفظه الذنبُ اليسير، وربما أعرض صفحًا عن الخَطْب الكبير؛ أسبابُ الموتِ والحياة متعلّقةٌ بطَرَف لسانه، لا يعرفُ أَلَمَ العقوبة فيُبْقِي، ولا يُؤَنَّبُ على بادرة فينتهي، يُخطىءُ فيُصَوَّبُ ويُصيبُ فيُفْتَرَضُ، مفتون الهوى فظُّ الخليقة، أخرَقُ العقوبة، لا يمنعه من ذي الخاصّة به ما يعلم من عنايته وطول صحبته أن يقتله بخَطْرةٍ من خَطَرات مَوْجِدته، ثم لا ينفكّ أن يُخْطَبَ إليه موضعُه، فلا الثاني بالأوّل يعتَبِرُ، ولا الملك عن مثل ما فَرَط منه يزدجِر.

قال عمرو بن هند[٢]: الملوك يَشْتُمون بالأفعال لا بالأقوال، ويُسَفِّهون بالأيدي لا بالألسُن. قال مَعْبَد بن عَلْقمة[٣]: [من الطويل]

وتجهلُ أيدينا ويحلُمُ رأينا ونَشْتُمُ بالأفعال لا بالتَّكَلُّمِ

وأما ما يُفَضَّلُ به المَلِك على غيره، فقد قيل: تميّزُ الملك على غيره إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات. وفضلُ ذات الملك بخمس خصالٍ: رحمةٌ تشملُ رعيّتَه، ويَقظةٌ تَحوطُهم، وصَوْلةٌ تذُبُّ[٤] عنهم، ولِين يَكِيد به الأعداء، وحزمٌ ينتهز به الفُرَص، فهذه فضيلةُ الذاتِ.

وأما فضيلةُ الآلاتِ، فاتخاذُ المباني الوثيقة العليّة، والملابسِ الأنيقةِ السنيّة، والذخائر النفيسة، والمطاعم الشهيّة، والمراكب البهيّة.

وقالت أمّ مَلِك طَخارِسْتَان لنَصْر بن سَيّار[٥]: ينبغي للملك أن يكون على

= البخلاء، رسالة سهل بن هارون في مقدمة الكتاب. ـ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط ٣، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٤٠ م/ ١٤٨ ـ ١٥٤.

(١) الشأفة: قرحة تخرج في القدم، شأفة الرجل أهله وماله. الشأفة: الأصل. اللسان، مادة شأف ٩/١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) عمرو بن هند: عمرو بن المنذر بن امرىء القيس قتله عمرو بن كلثوم سنة ٥٧٨ م. ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١/ ٣٣٤. ـ النقائض، ص ٦٥٢ و١٠٨١. ـ المعلقات، الغلاييني، ط ٢، العصرية ـ صيدا، ص ١٩١ ـ ١٩٦. ـ أيام العرب، جاد المولى والبجاوي وإبراهيم دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ١٠٠.

(٣) معبد بن علقمة المازني أخو عباد (بن أخضر) بن علقمة الذي ندبه عبيد الله بن زياد لقتال الخوارج في الكوفة. انظر: ـ المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد؛ الكامل في اللغة والأدب مكتبة المعارف ـ بيروت، ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٩.

(٤) تذب: تدفع. اللسان: مادة ذبب.

(٥) نصر بن سيار: والي خراسان من قبل الوليد بن يزيد ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، =

ستة أشياء خاصّة به: وزيرٌ يثقُ به ويُفْضِي إليه بسرّه، وحِصْنٌ إذا فَزِع يأوي إليه، وسيفٌ إذا نَزَل به أمرٌ لم يخَف أن يخونه، وذخيرةٌ خفيفةٌ إذا نابته نائبةٌ استعان بها، وامرأةٌ جميلة إذا دخل عليها أذهبت همَّه، وطبّاخٌ إذا لم يَشْتَهِ الطعام عَمِل له ما يشتهيه.

ذكر شيء من الأقوال الصادرة عن الخلفاء والملوك الدالّة على عِظَم هِمَمهم، وكرم أخلاقهم وشيمهم، وشدّة كيدهم، وقوّة أيدهم[1]

قيل للإسكندر[2] وهو يحاربُ دَارَا[3]: إن دارا في ثمانين ألفًا؛ فقال: إن القَصّاب لا يهولُه كثرةُ الغنم.

واصطنع أنُو شِرْوَانُ[4] رجلًا؛ فقيل له: إنه لا قديمَ له؛ فقال: اصطناعُنا إيّاه بيتُه وشرفُه. ولما رَهَن حاجب ابن زُرَارة قوسَه عند كِسْرى قال: لولا أنهم عندي أقلّ من القوس لم أقبلها.

قال النُّعمان بن المُنذِر[5]: [من المجتث]

يعفو الملوكُ عن الكثـ ـيرِ من الذنوبُ لفضلها
ولقد تُعاقبُ في اليسـ ـير وليس ذاك لجهلها
لكنْ ليُرْجَى عفوُها ويُخافَ شدّةُ نَكْلِها

ومن كلام معاوية[6]: نحن الزمان، من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتَّضع. وكان يقول: إني لآنَفُ أن يكون في الأرض جهلٌ لا يسعه حلمي، وذنبٌ لا يسعه عفوي، وحاجةٌ لا يسعها جُودي. وقال معاوية أيضًا: إني لأرفعُ نفسي أن يكون

= وكانت له حروب مع أبي مسلم الخراساني بعد الكرماني جديع بن علي، وقد نبه مروان إلى خطر المسودة دعاة العباسيين في مراسلات لم تؤد إلى نتيجة. انظر: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٢. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: إبراهيم ٧/ ٢٢٤.

(١) أيدهم: قوتهم وشبابهم، اللسان، مادة أيد/ ٣/ ٧٦.

(٢) الإسكندر المقدوني: ملك اليونان، المسعودي، المروج/ ١/ ٢١٧.

(٣) دارا ملك الفرس. المسعودي، المروج/ ١/ ١٧٥.

(٤) أنو شروان: أحد ملوك الفرس. المسعودي، المروج/ ١/ ١٩٩.

(٥) النعمان بن المنذر: المسعودي، المروج، ١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٤.

(٦) معاوية بن أبي سفيان: انظر هامش ١ صفحة ٦.

ذنبٌ أوسعَ من حلمي، وما غضبي على من أملِك، أو ما غضبي على من لا أملِكُ! يريد: إني إذا كنت مالكًا للمذنب فإني قادرٌ على الانتقام منه، فلِم ألزم نفسي الغضبَ! وإن لم أكن أملكه فليس يضرّه غضبي، فلِم أغضب عليه فأضرَّ نفسي ولا أضرَّه!

ومن كلام السَّفّاح(١): ما أقبَحَ بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالُون من حسن آثارنا!. ومن كلام المأمون(٢): إنما تُطْلَبُ الدنيا لتُملكَ، فإذا مُلِكت فَلْتُوهَبْ. وكان يقول: إنما يَستكثُر من الذهب والفضّة من يَقِلّان عنده.

ومن كلام العبّاس بن محمد(٣) للرشيد(٤): إنما هو درهمُك وسيفُك، فازرَعْ بهذا مَن شكرك، واحصُدْ بهذا مَن كفرك؛ فقال: يا عمّ، واللهِ ما للملك غيرُ هذا. كما قيل: [من السريع]

لـم أرَ شـيـئًا صـادقًا نـفـعُـهُ   لـلـمـرء كـالـدرهـم والـسـيـفِ
يَـقْـضِـي لـه الـدرهـمُ حـاجـاتِـهِ   والـسـيـفُ يَـحْـمـيـه مـن الـحَـيْـفِ

قيل: لمّا أُشير على الإسكندر بتبييت الفرس قال: لا أجعلُ غَلَبتي سَرقة. وقيل له: لو تزوّجتَ ببنت دارا! فقال: لا تغلِبْني امرأةٌ غلبتْ أباها.

ومن كلام أنو شِرْوان: إن الملِك إذا كثُرت أموالُه مما يأخذُ من رعيّته كان كمن يَعْمُرُ سَطحَ بيته مما يقتلِعُ من قواعد بُنيانه. وكان يقول: وجدنا للذّة العفوِ ما لم نجدْ للذّة العقوبةِ.

ومن كلام المنصور: يحتمل الملوكُ كلَّ شيء إلا ثلاثةً: القَدْحُ في الملك، وإفشاءُ السرّ، والتعرّضُ للحُرَم.

---

(١) السفاح، أول خلفاء بني العباس. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٩٩ ـ ٢٢٢.
(٢) المأمون: تولّى الخلافة بعد انتصاره على الأمين، لمدة إحدى وعشرين سنة ١٦٩ هـ ـ ٢١٨ هـ هو مؤسس بيت الحكمة في بغداد من أهل العقل. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٣٢١ ـ ٣٦٠. هو عبد الله بن هارون الرشيد كنيته أبو جعفر ولقبه المأمون، بايع بمشورة الفضل بن سهل لعلي بن موسى رضا وقد توفيا بظروف غامضة. كان يعقد مجلسًا لأهل الرأي من مختلف المذاهب والطوائف والأديان، للحوار.
(٣) العباس بن محمد: عم الخليفة هارون الرشيد.
(٤) الرشيد أكثر خلفاء العباسيين تألقًا. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٢٦٧ ـ ٣٠٦.

الباب الثالث من الفن الثاني
فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة والنصيحة والتعظيم والتوقير

وأما الطاعةُ فواجبةٌ على سائر الرعيّة، لأن الله تعالى قَرَن طاعة أُولي الأمر بطاعته وطاعة رسوله، ونصّ على ذلك في مُحكم تنزيله فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: الآية ٥٩]، فبأمره تبارك وتعالى وجَبت، وبسنّة نبيّه ﷺ تأكّدت وترتّبت. رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن يَعْصِني فقد عصى الله ومن يُطِع الأميرَ فقد أطاعني ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصاني»[١] وهذا الحديث ثابتٌ في صحيح مسلم. وعنه ﷺ أنه قال: «اسمعوا وأطيعوا ولو أُمِّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأنّ رأسه زَبيبة»[٢]. فقد تبيّن بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ وجوبُ طاعة الإمام على كلّ مسلم.

وأما النصيحة، فلِمَا رُوي عن تَميم الدَّاريّ[٣] رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدِّينَ النصيحةُ إن الدين النصيحةُ إن الدينَ النصيحةُ»؛ قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ورسوله وأئمةِ المؤمنين» أو قال: «أئمة المسلمين وعامّتهم». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ رَضِي لكم ثلاثًا وسخِط لكم ثلاثًا رَضِي لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تَفرّقوا، وأن تُناصِحُوا من ولّاهُ الله عزّ وجلّ أمرَكم». وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الخيريّ رحمه الله: فانْصَحْ للسلطان وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد في القول والعمل، فإنهم إذا صَلَحُوا صَلَحَ العبادُ والبلادُ بصَلاحهم، وإيّاك أن تدعوَ عليهم فيزدادوا شرًّا ويزدادَ البلاءُ بالمسلمين، وإيّاك أن تأتيَهم أو تتصنّعَ لإتيانهم أو تُحِبَّ أن يأتوك، واهرُبْ منهم ما استطعت.

---

(١) الحديث ورد في: ـ البخاري كتاب ٩٣ باب ١؛ حديث ٩، كتاب الأحكام، ص ١١١. مسلم كتاب ٣٣ حديث ٣٢ و٣٣. النسائي كتاب ٣٩ باب ٢٨.

(٢) البخاري، ج ٩/ كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة ص ١١٣.

(٣) حديث شريف: النسائي: كتاب ٣٩، باب ٢٢. ـ الترمذي: كتاب ٥، باب ١٧. ـ الدارمي: كتاب ٢٠، باب ٤١. ـ أحمد بن حنبل: أول ص ٣٥، ثاني ص ٢٩٧. راجع ص ١٠٢. ـ أبو داود: كتاب ٤٠، باب ٥٩.

وفي كتاب للهند أن رجلًا دخل على بعض ملوكهم فقال: أيها الملك، إنّ نصيحتك واجبة في الصغير الحقير والكبير الخطير، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك واحتمالِ ما يسوء موقِعُه منك في جَنْب صَلاح العامّة وتَلَافي الخاصّة لكان خُرْقًا منّي أن أقولَ، ولكنّا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا مشمولٌ ببقائك، وأنفسَنا معلَّقةٌ بنفسك لم نجد بُدًّا من أداء الحقّ إليك وإن أنت لم تَسَلْنِي ذلك؛ فإنه يقال: من كتم السلطانَ نصيحتَه والأطباءَ مرضَه والإخوانَ بَثَّه فقد أخلّ بنفسه. وأنا أعلم أنّ كلّ ما كان من كلام يكرهه سامعه، لم يتشجَّع عليه قائلُه إلا أن يثِقَ بعقل المقول له، فإنه إذا كان عاقلًا احتمل ذلك، لأنه ما كان فيه من نفعٍ فإنما هو للسامع دون القائل. وإنك أيها الملك ذو فضيلةٍ في الرأي وتصرُّفٍ في العلْم، وإنما يُشجّعني ذلك على أن أُخبِرَك بما تكره واثقًا بمعرفتك بنُصْحي لك وإيثاري إيّاك على نفسي.

وقال عمرو بن عُتْبة(١) للوليد بن يزيد(٢) حين تغيّر الناسُ له: يا أمير المؤمنين، إنه يُنطقني الأمنُ منك، وتُسكِتني الهيبةُ لك، وأراك تأمَن أشياءَ أخافُها عليك، أفأسكُتُ مطيعًا، أم أقولُ مشفِقًا؟ قال: قل، مقبولٌ منك، ولله فينا علمُ غيبٍ نحن صائرون إليه؛ فقُتِل بعد ذلك بأيام.

وقالوا: ينبغي لمن صَحِب السلطان ألّا يكتم عنه نصيحته وإن استقلّها، وليكن كلامه له كلامَ رِفْقٍ لا كلامَ خُرْق، حتى يُخبرَه بعيبه من غير أن يواجهه بذلك، ولكن يضربُ له الأمثال ويُعرّفه بعيب غيره، ليَعرِفَ به عيبَ نفسه.

دخل الزُهريّ(٣) على الوليد بن عبد الملك(٤) فقال له: ما حديثٌ يحدِّثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: يحدّثوننا أن الله إذا استرعى عبدًا رعيّة

---

(١) عمرو بن عتبة: وقد جاء في الطبري أنه معاوية بن عمرو بن عتبة. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٢٣٨.

(٢) الوليد بن يزيد: (١٢٥ هـ ـ ١٢٦ هـ) تولى الخلافة بعد هشام بن عبد الملك. كانت خلافته سنة وثلاثة أشهر. قُتِل عن ثمانٍ وثلاثين سنة، قتله يزيد الناقص. انظر فيه: ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٢٠٩ ـ ٢٥٤. ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٦٧ ـ ١٧١.

(٣) الزهري، محمد بن مسلم بن شهاب، ٨٥٠ هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٧٧ م/ ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م. أشهر الفقهاء في بلاط بني أمية انظر فيه: ـ كتاب المعارف لابن قتيبة، ص ١٦٢؛ الأنساب للسمعاني، ص ٢٨١؛ ابن خلكان، ص ٥٣٥؛ آثاره في ليبزغ، ص ٢ ـ ٣٢٠؛ بروكلمان تاريخ الأدب العربي ١/ ٢٥٤.

(٤) الوليد بن يزيد ٨٦ ـ ٩٥ هـ. تولّى الخلافة بعد أبيه عبد الملك بن مروان. كانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر، هلك وهو ابن ثلاث وأربعين سنة وكان يكنى بأبي العباس. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٢١ ـ ١٣٤. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص ٧.

كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات؛ قال: باطلٌ يا أمير المؤمنين، أنبيٌّ خليفةٌ أكرمُ على الله، أم خليفةٌ غيرُ نبيّ؟ قال: نبيٌّ خليفةٌ؛ قال: فإن الله تعالى يقول لنبيّه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صَ: الآية ٢٦]؛ فهذا يا أمير المؤمنين وعيدُه لنبيٍّ خليفة، فما ظنّك بخليفةٍ غير نبيّ! قال: إن الناس لَيَغُرُّونَنَا من ديننا.

خطب المنصور(١) فقال في خطبته ما كأنّه تفسيرُ ما أدمجه فيثَاغُورث وإيضاحُه وهو: معشرَ الناس، لا تُضمِروا غِشَّ الأئمةِ فإنه من أضمر ذلك أظهره الله على سَقَطات لسانه، وقَلَبَاتِ أحواله وسَحْنَة وجهه.

قال: خرج الزُّهريّ(٢) يومًا من مجلس هشام بن عبد الملك(٣) فقال: ما رأيتُ كاليوم ولا سمعتُ كأربع كلمات تكلّم بهنّ رجلٌ عند هشام بن عبد الملك، دخل عليه فقال: يا أميرَ المؤمنين، احفظْ عنّي أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك، واستقامةُ رعيّتك، قال: هاتهن؛ فقال: لا تعِدَنّ عِدةً لا تثقُ من نفسك بإنجازها، ولا يغُرّنّك المُرْتَقَى وإن كان سهلًا إذا كان المُنْحَدَرُ وَعْرًا، واعلم أن للأعمالَ جزاءً فاتّقِ العواقبَ، وأن للأمور بَغَتاتٌ فكن على حَذَر؛ قال عيسى بن دَأْبِ: فحدّثت الهادي بها وفي يده لُقْمةٌ قد رفعها إلى فِيه فأمسكها، وقال: ويحك! أعِدْ عليّ؛ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أسِغْ لقمتك؛ فقال: حديثك أعجبُ إليّ.

وقال ابن المقفّع(٤): اعلم أن السلطان يقبل من الوزراء التبخيل(٥) ويَعُدُّه منهم شفقةً ويحمَدُهم عليه وإن كان جَوَادًا، فإن كنت مبخِّلًا غَشَشْت صاحبك بفساد مُرُوءته، وإن كنت مُسَخِّيًا لم تأمنْ إضرارَ ذلك بمنزلتك؛ فالرأي تصحيحُ النصيحةِ

(١) المنصور، أبو جعفر، المؤسس الحقيقي للدولة العباسية. ٩٥ هـ ـ ١٥٨ هـ/ تولّى الخلافة سنة ١٣٦ هـ واستمر خليفة مدة اثنتين وعشرين سنة. مات عن ثلاث وستين سنة. انظر: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٢٢٣ ـ ٢٤٣ هـ. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٤٧١.

(٢) الزهري: انظر هامش ٣ صفحة ١٢.

(٣) هشام بن عبد الملك: ٧٢ هـ/ ٨٢٥. تولّى الخلافة سنة ١٠٥ هـ بعد يزيد بن عبد الملك مدة عشرين سنة تقريبًا ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٦١ ـ ١٦٦. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٢٥ ـ ٢٠.

(٤) ابن المقفع، انظر هامش ٢ صفحة ٦.

(٥) التبخيل: المطالبة بالبخل، اللسان، مادة بخل.

على وجهها، والتماسُ المَخْرَج من العيب واللائمة فيما تترك من تبخيل صاحبك، فلا يعرفُ منك فيما تدعوه إليه مَيلًا إلى شيء من هواك، ولا طلبًا لغيْر ما ترجو أن يَزِينَه وينْفَعَه.

* * *

وأما تعظيمُه وتوقيرُه والأدبُ في خدمته والتمسّكُ بجماعته، فلما رُوِيَ عن أبي بكر الصِّدِّيق[١] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «السلطان ظلُّ الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله». وعن أبي عُبَيدة بن الجَرّاح رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تسُبُّوا السلطان فإنه فيءُ الله في أرضه». وعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: خطبَنا رسول الله ﷺ فقال: «إنه كائنٌ بعدي سلطانٌ فلا تُذِلُّوه فمن أراد أن يُذِلَّه فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه وليس بمقبول توبتُه حتى يسُدّ الثُّلْمةَ التي ثَلَم ثم يعودَ فيكونَ فيمن يُعِزّه». وقد رُوِيَ عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتَ ببلدٍ ليس فيه سلطانٌ فلا تدخلْه فإنما السلطانُ ظلُّ الله ورُمْحُه في الأرض». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات مِيتَةً جاهليّة»[٢] وعن أبي رَجَاء العُطَارِدِيّ قال: سمعت ابن عبّاس يَرويه عن النبيّ ﷺ قال: «من رأى من أميره ما يَكْرَهُه فليصبِرْ فإنه ليس أحدٌ يُفارق الجماعة شِبرًا فيموتُ إلا مات مِيتةً جاهليّة»[٣] رواه البخاريّ. فقد تبيّن لك من سنّة رسول الله ﷺ وجوب تعظيم السلطان وتوقيرِه.

* * *

وقال بُزُرْجمِهر[٤]: من جالس الملوكَ بغيرِ أدب فقد خاطر بنفسه. وقال ابن المقفّع[٥]: من خدَم السلطانَ فعليه بالملازمة من غير معاتبة. وقال: إن سأل السلطانُ غيرَك فلا تكن المجيبَ عنه، فإن استلابك الكلام خِفّةٌ منك واستخفافٌ بالسائل والمسؤول؛ وما أنت قائل إن قال لك: ما إيّاك سألت! أو قال لك المسؤول عند

(١) أبو بكر الصديق: ٥٠ قبل الهجرة ـ ١٣ هـ. ولد بعد الفيل بثلاث سنين أي حوالي ٥٧٣ م. تولّى الخلافة بعد النبيّ مدة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام وهو عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة، لقبه عتيق (عتيق الله من النار). انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ١/ ٥١٥ ـ ٥٢٠.

(٢) حديث: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية. البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة، ٩/ ١١٣.

(٣) حديث، البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، ٩/ ١١٣.

(٤) بزرجمهر: حكيم فارسي.

(٥) ابن المقفع: انظر هامش ٢ صفحة ٦، المجموعة الكاملة، الأدب الكبير، ص ١٢٠.

المسألة [يُعَادُ له بها][(١)]: يا هذا، دونَك فأجب؟ وإذا لم يقصِد الملك بمسألته رجلًا بعينه وعمّ بها جميعَ من عنده فلا تُبادرنّ بالجواب، ولا تُسابقِ الجلساءَ ولا تُواثِبْ بالكلام مواثبةً، فإنك إن سَبقْتَ القومَ إلى الجواب صاروا لكلامك خصومًا فتعقّبوه بالعيب له والطعنِ فيه، وإذا أنت لم تعجَلْ بالجواب وخلّيته للقوم عرضت قولهم على عينك، ثم تدبّرته وفكّرت فيه وفيما عندك، ثم هيّأتَ من تفكيرك ومما سمعت جوابًا مَرْضِيًا، ثم استدبرتَ به أقاويلهم حتى تصغي إليك الأسماع، ويهدأ عنك الخصوم. فإن لم يبلغْكَ الكلامُ واكْتُفِي بغيرك وانقطعَ الحديثُ فلا يكوننّ من الغَبْن عند نفسك فوتُ ما فاتك من الجواب، فإن صيانةَ القولِ خيرٌ من سوء موضعه. وقال: إذا كلّمك السلطانُ فاستمعْ لكلامه واصغَ إليه، ولا تشغَلْ طَرْفك بنظرٍ، ولا أطرافَك بعمل، ولا قلبك بحديث نفس، واحذَرْ هذا من نفسك وتعهّدْها به. وقال: لا تشكوَنَّ إلى وزراء السلطان ودُخَلائه ما اطّلعت عليه منه من رأي أنت تكرَهُهُ، فإنك تكون قد فَطّنتهم لهواه والميلِ عليك معه. وقال: لا تكونَنَّ صحبتُكَ للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك، وموافقتِهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، وعلى ألّا تكتُمَهم سرَّك ولا تستطلِعَهم ما كتموك، وتُخفيَ ما أطلعوك عليه عن الناس كلهم حتى تَحْمِيَ نفسك الحديثَ به، وعلى الاجتهاد في طلب رضاهم، والتلطُّفِ لحاجاتهم، والتثبيت لحجتهم، والتصديق لمقالتهم، والتزيين لرأيهم، وقلّة الامتعاض لما فعلوا إذا أساؤوا، وتركِ الانتحال لما فعلوا إذا أحسنوا، وكثرةِ النشْر لمحاسنهم، وحسنِ السَّتر لمساوئهم، والمقاربةِ لمن قاربوا وإن كان بعيدًا، والمباعدةِ لمن باعدوا وإن كان قريبًا، والاهتمام بأمورهم وإن لم يهتمُّوا، والحفظِ لأمورهم وإن ضيّعوا، والذكرِ لأمورهم وإن نَسُوا، والتخفيف بمؤونتك عنهم، والاحتمال لكل مؤونة لهم، والرضا منهم بالعفو، وقلة الرضا من نفسك بالمجهود. فإن كنت حافظًا إذا ولّوك، حَذِرًا إذا قرّبوك، أمينًا إذا ائتمنوك، ذليلًا إذا صرموك، راضيًا إذا أسخطوك، تُعَلِّمهم وكأنك بتعلَّمُ منهم، وتُؤَدِّبهم وكأنك تتأدّبُ منهم، وتشكُرهم ولا تُحَمِّلهم الشكر، وإلّا فالبعدَ منهم كلّ البعد.

ومن الآداب العرفية في صحبة الملوك وخدمتهم، ألّا يُسَلَّم على قادم بين أيديهم، وإنما استَسنّ ذلك زيادُ ابن أبيه[(٢)]، وذلك أن عبدَ الله بن

---

(١) الزيادة عن الأدب الكبير، والمراد من الجملة: ماذا أنت قائل إذا أعاد السائل السؤال على المسؤول الأول دون التفات إلى جوابك.

(٢) زياد ابن أبيه: ٥٣ هـ يكنى بأبي المغيرة، ألحقه معاوية بن أبي سفيان بنسبه. كتب للخلفاء=

عبّاس[١] قدِم على مُعاوية بن أبي سفيان[٢] وعنده زياد، فرحّب به معاوية وألطفه وقرّبه ولم يكلِّمه زياد بكلمة، فابتدأه ابن عبّاس[٣] وقال: ما حالُكَ يا أبا المُغيرة! كأنك أردت أن تُحْدِث بيننا وبينك هِجرة؛ قال: لا، ولكنه لا يُسَلِّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين؛ فقال له ابن عبّاس: ما ترك الناسُ التحيّةَ بينهم عند أمرائهم؛ فقال له معاوية: كُفّ عنه يا ابن عبّاس، فإنك لا تشاء أن تَغْلِب إلا غَلَبتَ.

وقالوا: كن على التماس الخطإ بالسكوت بين يدي السلطان أحرصَ منك على التماسه بالكلام.

وقالوا: مُساءلةُ الملوكِ عن أحوالهم من تحيّة النَّوْكَى[٤].

وقالوا: لا نُسَلِّمْ على الملك، فإنه إن أجابك شقَّ عليه، وإن لم يُجبك شقّ عليك.

وقال الفضل بن الربيع[٥]: سُنتان مُهْمَلتان عند الملوك: السلام والتشمِيت[٦]، لأنهم يُصانون عن كلّ ما يقتضي جوابًا.

وقيل: لا يقدِرُ على صحبة السلطان إلا من يستقِلُّ بما حَمّلوه، ولا يُلْحِف إذا سألهم، ولا يغترُّ بهم إذا رَضُوا عنه، ولا يتغيّرُ لهم إذا سخِطوا عليه، ولا يَطْغَى إذا سلّطوه، ولا يَبْطَرُ إذا أكرموه.

= الراشدين، وولّاه علي، تم تولي لمعاوية البصرة والكوفة والحجاز. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٢/١٩ ـ ٢٠.

(١) عبد الله بن عباس: ٦٨ هـ/٦٦٨ م وقيل ٦٩ أو ٧٠ هـ. لتفسير القرآن، استخدم ابن عباس روايات أهل الكتاب كما استخدم أبيات الشعر الجاهلي. هو ابن عم الرسول وهو جد الخلفاء العباسيين، تولّى البصرة لعلي، وفي إحدى روايات المسعودي أن عمر بن الخطاب عرض عليه العمل في أيام خلافته لكنه رفض هذا العرض. مات في الطائف كفيفًا. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/٣٩ ـ ٤٠ و٧٨. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٤/٧ ـ ٩. ـ ينسب إليه تفسير لكلمات القرآن ودعاء منظوم وقصة الإسراء والمعراج وكتاب غريب القرآن.

(٢) معاوية بن أبي سفيان: انظر هامش ١ صفحة ٦.

(٣) أبو المغيرة: زياد ابن أبيه. انظر هامش (١) من الصفحة السابقة.

(٤) النوكى: لسان العرب، مادة نوك: الحمقى.

(٥) الفضل بن الربيع: له أخبار مع أبي جعفر المنصور وله القول الذي يردده الجاحظ: مسألة الملوك عن حالهم وتحية النوك. انظر: ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧/٥٠٦. ـ مروج الذهب في أخبار أبي جعفر المنصور ٢/٢٣٧ و٢٣٨ و٢٤٦. ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/١٧٦، ٣/١٨٤ و١٩١.

(٦) التشميت: من شمت فرح ببلية العدو. وتشميت العاطس: دعاء وكل داع لأحد بخير فهو مشمِّت الجوهري، الصحاح، ج ١، مادة شمت.

وقال فيلسوف: إذا قرّبك السلطانُ فكن منه على حدّ السِّنان، وإن استرسَل إليك فلا تأمنْ انقلابَه عليك، وارْفُقْ به رِفقك بالصبيّ، وكلِّمه بما يشتهي. قال الصاحب بن عَبّاد[١]: [من الوافر]

إذا ولّاك سلطانٌ فـزِدْهُ ... من التعظيم واحذَرْهُ وراقِبْ
فما السلطان إلّا البحرُ عُظْمًا ... وقُرْبُ البحرِ محذورُ العواقِبْ

وقال أبو الفتح البُسْتيّ[٢]: أجهلُ الناس من كان مُدِلّا على السلطان مُذلّا للإخوان.

قال الشَّعْبِيّ[٣]: قال لي ابن عبّاس قال لي أبي: إني أرى هذا الرجلَ - يعني عمر بن الخطاب - يَستفهمك ويُقدّمك على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، وإني مُوصيك بخلالٍ أربع: لا تُفْشِيَنّ له سِرًّا، ولا يُجَرِّبَنّ عليك كذِبًا، ولا تَطْوِ عنه نصيحةً، ولا تغتابَنّ عنده أحدًا؛ قال الشَّعْبيّ فقلت لابن عباس: كلٌّ واحدةٍ خيرٌ من ألف؛ قال: إِي واللهِ ومن عشرة آلاف!.

الباب الرابع
من القسم الخامس من الفن الثاني في وصايا الملوك

كتب أرسطاطاليس[٤] إلى الإسكندر: أنْ املِكِ الرعيّةَ بالإحسان إليها تظْفَرْ

---

(١) الصاحب بن عباد: كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس الصاحب الطالقاني ٣٣٤ هـ/ ٩٣٦ م/ ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م ولد في إصطخر، كان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة ابني بويه، درس على أبيه وابن فارس كتب لابن العميد ثم وزير لمؤيد الدولة البويهي وأخيه فخر الدولة ثماني عشرة سنة. شجع العلم والأدب وترك تآليف كثيرة منها معجم المحيط، ورسائل وديوان شعر والأمثال السائرة من شعر المتنبي والكشف عن مساوىء شعر المتنبي والإبانة عن مذهب أهل العدل والتوحيد. انظر فيه: - الثعالبي، اليتيمة، ٣/ ٣١ وما بعدها. ابن خلقان، ص ٩٣. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٢٦٨ وما بعدها.

(٢) أبو الفتح البستي: علي بن محمد، ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م. عمل في خدمة صاحب بلده بيتوز ثم نقله سبكتكين إلى روهج قرب نيسابور ثم إلى بلاد الترك. له ديوان شعر. انظره في: - الثعالبي، اليتيمة، ٤/ ٢٠٤ - ٢٣١. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٤٤٣. - بروكلمان، تاريخ، ٥/ ٢٣ وما بعدها.

(٣) الشعبي: ١٠٤ هـ أو ١٠٥ هـ أو ١١٠ هـ، أبو عمرو عامر بن شراحيل محدث وشاعر. انظر: - الأغاني، ٦/ ٣٣ - ٦٢. - بروكلمان، تاريخ، ١/ ٢٣٧.

(٤) أرسطوطاليس: فيلسوف يوناني، وهو صاحب المنطق وقد أرسى أصول هذا العلم، وضع فيه=

بالمحبّة منها، فإنّ طَلَبَك الناسَ بإحسانك هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك؛ واعلم أنك إنما تَمْلِك الأبدان فاجمع لها القلوب؛ واعلمْ أن الرعيّةَ إذا قَدَرت أن تقول قَدَرَت أن تفعل. وهذا مخالفٌ لما حُكِي عن معاوية أن رجلًا أغلظ عليه فحلُم عنه؛ قيل له: أتحلمُ عن مثل هذا؟ فقال: إنا لا نحولُ بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يُحولوا بيننا وبين سلطاننا. وكتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر: اعلمْ أنك غير مستصلِح رعيّتَك وأنت مُفسدٌ، ولا مُرْشِدُهم وأنت غاوٍ، ولا هاديهم وأنت ضالٌّ؛ وكيف يقدر الأعمى على الهُدى، والفقيرُ على الغنى، والذليل على العزّ!.

وقال أنو شِرْوَان[١]: ثمانية أشياء هي أساس الملك، يأتي بأربعة، ويحذَرُ أربعة؛ فالذي يأتي به: النصحُ في الدين، وكِفاءُ[٢] الأمين، وتقديمُ الحَزْم، وإمضاءُ العَزْم. والذي يحذره: غَشُّ الوزيرِ، وسوءُ التدبيرِ، وخُبثُ النيّةِ، وظلمُ الرّعية.

وقال أرْدَشِيرُ لأصحابه: إني إنما أملِك الأجسادَ لا النيّاتَ، وأحكُم بالعدل لا بالرضا، وأفحَصُ عن الأعمال لا عن السرائر.

وقال أَبْرَوِيز لابنه شِيرَوَيْهِ[٣]: لا تُوسعنَّ على جُندك سِعَةً يستغنُون بها عنك فيَطْغَوْا، ولا تضيِّقْ عليهم ضيقًا يَضِجّون به منك، ولكنْ أَعْطِهم عطاءً قَصْدًا[٤] وامنَعْهم منعًا جميلًا، وابسُط لهم في الرجاء، ولا تَبسط لهم في العطاء. وكتب إليه أيضًا من الحبس: اعلمْ أن كلمةً منك تَسْفِك دمًا وأُخرى تَحْقِنُ دمًا، وأن سُخْطَ سيفِك مسلول على مَن سَخِطتَ عليه، وأن رضاك بركةٌ مستفادة على من رَضِيت عنه، وأنّ نفاذَ أمرِك مع ظهور كلامك، فاحترسْ في غضبك من قولك أن يُخطىءَ، ومن لونك أن يتغيَّر، ومن جسدك أن يخِفَّ؛ فإنّ الملوك تُعاقِبُ حَزْمًا وتعفو حِلْمًا. واعلم أنك تَجِلُّ عن الغضب، وأن مُلكك يصغُر عن رضاك، فقدِّرْ لسخطك من العقاب كما تُقَدِّرُ لرضاك من الثواب. وكتب إليه أيضًا من الحبس: اخترْ لولايتك امرأً كان في وضيعةٍ فرفعتَه، وذا شرفٍ كان مُهْمَلًا فاصطنعته، ولا تجعله امرأً أصبته بعقوبةٍ فاتَّضعَ

= كتابًا ضخمًا كما ألّف كتاب الحيوان. عاصر الإسكندر المقدوني ملك اليونان.

(١) أنو شروان وأردشير من ملوك الفرس. انظر هامش ٤ صفحة ٩.

(٢) كِفاء: جزاء. لسان العرب مادة كفأ.

(٣) أبرويز وابنه شيرويه: ملكان من ملوك الفرس. حصلت معركة ذي قار أي أيام الأول أبرويز سنة مبعث الرسول وبعضهم يقول بعد هجرته. قتل شيرويه أباه لذلك سمي المشؤوم. انظر: - المسعودي، مروج الذهب، ٢٠٨/١ وما بعدها.

(٤) القصد: الوسط بين التقتير والتبذير. لسان العرب، مادة قصد.

لها، ولا امرأً أطاعك بعد ما أذللته، ولا أحدًا ممن يقع في خَلَدك[١] أنّ إزالة سلطانك أحبُّ إليه من ثبوته؛ وإيّاك أن تستعمله ضرعًا[٢] غُمْرًا، كثيرًا إعجابُه بنفسه، قليلًا تجربتُه في غيره، ولا كبيرًا مُدْبِرًا قد أخذ الدهرُ من عقله كما أخذتِ السِّنّ من جسمه.

قال لَقِيط الإياديّ[٣]: [من البسيط]

فقلّدوا أمركم لله دَرُّكُمُ رَحْبَ الذِّراع بأمر الحرب مُضْطَلِعا[٤]
لا مُتْرَفًا إنْ رَخاءُ العيشِ ساعَدَه ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعا
ما زال يحلِب دَرّ الدهر أَشْطُرَه يكون مُتَّبِعًا طورًا ومتَّبَعا
حتّى استمرّت على شَزْرٍ مَريرتُه مُستَحْصِدَ الرأي لا قَحْمًا ولا ضَرَعا

وكتب سابور بن أَرْدَشِير[٥] في عهده إلى ولده: ليكن وزيرُك مقبولَ القولِ عندك، قويَّ المنزلة لديك، يمنعه مكانه منك وما يثِقُ به من لطافة منزلته، من الخشوع لأحدٍ أو الضراعةِ أو المداهنةِ لأحد في شيءٍ مما تحت يدِه، لتبعثَه الثِّقةُ بك على مَحْض النصيحةِ لك، والمنابذةِ لمن أراد غِشّك وانتقاصَك حقَّك. وإنْ أوْرَدَ عليك رأيًا يخالفُك ولا يوافقُ الصوابَ عندك، فلا تَجْبَهْهُ جَبْه الظَّنِين، ولا تَردَّه عليه بالتّجهُّم فيفُتَّ ذلك في عَضُدِه، ويَقْبِضَه عن إبثاثك كلَّ رأيٍ يلوحُ صوابُه، بل اقبَلْ ما ارتضيت من قوله، وعرِّفه ما تخوّفْتَ من ضرر الرأي الذي انصرفت عنه، لينتفِعَ بأدبك فيما يستقبِلُ الرأيَ فيه. واحذرْ كلَّ الحذرِ أن تُنْزِلَ هذه المنزلةَ سواه ممن يُطيف بك من خَدَمك وخاصّتك، وأن تسهِّلَ لأحد منهم سبيلَ الانبساط بالنطق عندك

(١) الخلد: النفس لسان العرب، مادة خلد.
(٢) ضرعًا: صغير السن. لسان العرب، مادة ضرع.
(٣) لقيط الإيادي: لقيط بن يعمر (أو معمر) الأيادي، من عرب العراق، شاعر جاهلي، اشتهر بقصيدته التي حذر فيها قبيلته من كسرى ملك الفرس. له ديوان شعر. انظر فيه: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٩٧. - الأصفهاني، الأغاني ٢٠/ ٢٣ - ٢٥. - بروكلمان، تاريخ الأدب، ١/ ١١٢.
(٤) المضطلع: الخبير والقوي والقائم بها. لسان العرب، مادة: ضلع.
(٥) سابور بن أردشير: مدّن المدن وعمر الكور ورتب الطبقات وقسم البلاد ثم تنحّى عن الملك وولّى مكانه ابنه سابور وهو أول من سمي شاه شاه (ملك الملوك). حكم اثنتي عشرة سنة، وابنه سابور حكم ثلاثين سنة. وفي أيامه ظهر ماني التنوي. انظر: - المسعودي، مروج، ١/ ١٨٥ وما بعدها.

والإفاضة في أمور ولايتك ورعيتك، فإنه لا يُوثَقُ بصحّة رأيهم، ولا يُؤمَنُ الانتشارُ فيما أُفضِيَ من السرّ إليهم.

وقال ابن المقفّع[١]: عوِّد نفسك الصبرَ على مَن خالفك من ذوي النصيحة، والتجرُّعَ لمرارةِ قولهم وعذْلهم، ولا تسهِّلن ذلك إلا لأهل الفضل والعقل والسِّن والمروءة في سِتْر، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترىءُ به سفيهٌ أو يستخفُّ به شانىء. واعلمْ أن رأيك لا يتّسع لكل شيء ففرّغه لمهمّ ما يَعْنِيك، وأن مالك لا يتّسعُ للناسِ فاخصُصْ به أهل الحق، وأن كرامتك لا تُطيقُ العامّة فتوخَّ بها أهل الفضل، وأن ليلَك ونهارَك لا يستوعبان حاجاتِك وإن دأبتَ فيهما، فأحسِنْ قسمتهما بين عملك ودَعَتِك. واعلم أن ما شغلتَ من رأيك بغير المهمّ أزرى بك، وما صرفتَ من مالِك في الباطل فقَدْتَه حين تريدُه للحقّ، وما عَدَلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرّ بك في العجز عن أهل الفضل.

وكتب عبد الله بن عبّاس[٢] إلى الحسن بن عليّ[٣] لمّا ولّاه الناس أمرهم بعد عليّ[٤] رضي الله عنهما: أن شَمِّرْ للحرب، وجاهدْ عدوَّك، واشْتَرِ من الضَّنِين دِينَه بما لا يَثْلَمِ دينَك، ووالِ أهلَ البيوتات تستصلحْ له عشائرَهم.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: يجب على الوالي أن يتعهَّد أموره ويتفقَّد أعوانَه حتى لا يَخْفى عليه إحسانُ مُحْسِنٍ ولا إساءةُ مسيءٍ، ثم لا يترُكُ أحدَهما بغير جزاء، فإنه إذا ترك ذلك تهاوَنَ المحسنُ واجترأ المسيءُ، وفسد الأمرُ وضاع العمل.

وقال بعض الحكماء: الملكُ المُنعم إذا أفاض المكارم واغتفَر الجرائمَ ارتبطَ بذلك خلوصُ نيّةٍ من قَرُب منه وهم الأقلُ، وانفساحُ الأمل ممن بَعُد عنه وهم الأكثرُ، فيَستخلص حينئذٍ ضمائرَ الكلّ من حيث لم يَصِل معروفُه إلا إلى البعض.

---

(١) ابن المقفع: انظر هامش ٢ صفحة ٦. (٢) عبد الله بن عباس: انظر هامش ١ صفحة ١٦.

(٣) الحسن بن علي بن أبي طالب: تولّى الخلافة بعد علي لكنه آثر السلام والعافية على الحرب، فصالح معاوية بن أبي سفيان. بويع بعد وفاة أبيه بيومين في شهر رمضان سنة ٤٠ هـ ودخل معاوية الكوفة في ربيع الأول سنة ٤١ هـ. مات مسمومًا في عهد معاوية بن أبي سفيان. انظر: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٦١٩/١ وما بعدها.

(٤) علي بن أبي طالب: ٣٥ هـ ـ ٤٠ هـ يكنى بأبي الحسن تولّى الخلافة بعد أبي بكر وعمر وعثمان فهو رابع الخلفاء الراشدين. قتله الخوارج عن عمر بلغ اثنتين وستين وقيل: اثنين وسبعين قضى خلافته في قمع الفتن التى أثارها أهل الجمل وصفين والنهروان. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٥٥٧/١ وما بعده.

ولم أرَ فيما طالعتُه من هذا المعنى أجمعَ للوصايا ولا أشملَ من عهدٍ كتبه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشْتر[١] حينَ ولّاه مصر، فأحببت أن أُورده على طوله وآتيَ على جُملته وتفصيله، لأن مثلَ هذا العهدِ لا يُهمَلُ، وسبيلَ فضله لا يُجْهل؛ وهو:

هذا ما أمر به عبد الله عليٌّ أميرُ المؤمنين إلى مالك بن الحارث الأشتر[١] في عهده إليه حين ولّاه مصر، جِبايةَ خراجها، وجِهادَ عدوّها، واستصلاح أهلها، وعِمَارةَ بلادِها، أمره بتقوى الله، وإيثارِ طاعته، واتّباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسُنَنه التي لا يَسْعَد أحدٌ إلا باتّباعها، ولا يَشقى إلّا بالعدول عنها؛ وأن ينصرَ اللهَ تعالى بيده وقلبه ولسانه، فإنه جلّ اسمُه قد تكفّل بنصرِ من نَصَرَه وإعزازِ من أعزّه؛ وأمره أن يَكسِر نفسَه عند الشهوات ويزَعَها عند الجَمَحات، فإن النفس لأمّارةٌ بالسوء.

ثم اعلم يا مالكُ أني قد وجّهتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليها دُول قبلك من عدل وجَوْر، وأن الناس ينظُرون من أمورك في مثل ما كنتَ تنظرُ فيه من أمر الوُلاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقولُ فيهم. وإنما يُستَدلُّ على الصالحين بما يُجْري الله لهم على ألسن عباده. فليكن أحبُّ الذخائر إليك ذخيرةَ العملِ الصالح. فامْلِكْ هواك وشُحَّ بنفسك عما لا يَحِلُّ لك؛ فإن الشُّحَّ بالنفس الإنصافُ منها فيما أَحَبّت أو كرِهت. وأَشْعر قلبك الرحمةَ للرعيّة والمحبّة لهم؛ واللُطْفَ بهم، ولا تكونَنّ عليهم سَبُعًا ضاريًا تغتَنِمُ أكْلَهم؛ فإنهم صنفان: إما أخٌ في الدِّين، وإما نظيرٌ لك في الخَلْق، يَفْرُط منهم الزَّلَلُ وتعرِض لهم العِلَل ويُؤْتَى على أيديهم في العَمْد والخطأ؛ فأَعطِهم من صَفْحك وعفوك مثلَ الذي تُحِبّ أن يُعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمرِ عليك فوقك؛ والله فوق من ولّاك؛ وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم. فلا تنصِبَنّ نفسك لحرب الله، فإنه لا قوّةَ لك بنِقْمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته. ولا تندَمنّ على عفو، ولا تَبْجُحَنّ بعقوبة، ولا تُسرِعَنّ إلى بادرة وجدتَ منها مندوحة، ولا تقولَنّ: إني مُؤَمَّر آمُرُ فأُطَاع، فإن ذلك إدغالٌ[٢] في القلب ومَنْهَكَةٌ للدِّين وتقرّب من الغِيَر. فإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبَّهةً أو مَخِيلَةً،

(١) مالك بن الحارث الأشتر: من أصحاب علي، ولّاه مصر فسمّ وهو في الطريق إليها. ـ المسعودي، مروج الذهب، ١/٥٥٧ وما بعدها.

(٢) إدغال: إدخال ما يفسد. لسان العرب، مادة دغل.

فانظرْ إلى عِظَم مُلك الله تعالى فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يُطامِن[١] إليك من طِمَاحك، ويكُفُّ عنك من غَرْبك ويَفِيء إليك بما عَزَب عنك من عقلك. وإياك ومساماةَ[٢] الله في عظمته والتشبّهَ به في جَبَرُوته، فإن الله يُذِلّ كلّ جبّار ويُهِين كلّ مُختالٍ. أنْصِفِ اللهَ وأنصفِ الناسَ من نفسك ومن خاصّة أهلك وممن لك فيه هوًى من رعيّتك، فإنك إلّا تفعلْ تَظْلِمْ، ومن ظلم عبادَ الله كان خَصْمَه دون عباده، ومن خاصمه اللهُ أَدْحضَ حُجَّته وكان لله حَرْبًا حتى ينْزِعَ ويتوبَ. وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نِقْمته من إقامةٍ على ظلم فإن الله سميعٌ دعوةَ المضطَهَدين وهو للظالمين بالمِرْصاد. وليكن أحبُّ الأمور إليك أوسطَها في الحق وأعمَّها في العدل وأجمَعها لرضا الرعيّةِ، فإنّ سُخْطَ العامةِ يُجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصة يُغْتَفَر برضا العامة. وليس أحدٌ من الرعيّة أثقلَ على الوالي مؤونةً في الرخاء، وأقلَّ مَعُونةً في البلاء، وأكرَه للإنصاف، وأسأَلَ بالإلحاف، وأقلَّ شكرًا عند الإعطاء، وأبطأَ عُذْرًا عند المنع، وأضعفَ صبرًا عند مُلِمَّات الدهر من أهل الخاصة، وإن عمود الدين وجِمَاعَ المسلمين والعُدَّة للأعداء العامَّةُ من الأمة؛ فليكن صَغْوك لهم وميلَك معهم. وليكن أبعدُ رعيّتك منك وأشْنَؤهم عندك أطلَبهم لعيوبِ الناس، فإن في الناس عيوبًا الوالي أحقُّ بسَتْرها، فلا تكشِفَنّ عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهيرُ ما ظهر لك، واللهُ حَكَمٌ على ما غاب عنك منها. فاسْتُر العورةَ ما استطعت يسْتُرِ الله ما تحبُّ سَتْرَه من عيبك. أطلِقْ عن الناس عُقْدَة كلّ حِقْد، واقطَعْ عنهم سببَ كل وِتْر، وتَغَابَ عن كل ما لا يصحُّ لك، ولا تعْجَلَنّ إلى تصديق ساعٍ، فإن الساعيَ غاشّ وإن تشبّه بالناصحين. ولا تُدْخِلَنّ في مَشُورتك بخيلًا فيعدِلَ بك عن الفضل ويعِدَك الفقرَ، ولا جبانًا فيُضْعِفَك عن الأمور، ولا حريصًا فيُزَيِّنَ لك الشرَهَ بالجَور؛ فإن البخلَ والجبنَ والحِرْصَ غرائزُ شتّى يجمعها سوءُ الظنّ بالله. واعلمْ أن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا ومن شَرِكهم في الآثام، فلا يكونُنّ لك بطانةً، فإنهم أعوانُ الأثمةِ وإخوانُ الظَّلَمَة. وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلَف ممن له مثلُ آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثلُ آصارهم[٣] وأوزارهم، ممن لم يُعاونْ ظالمًا على ظلمه ولا آثمًا على إثمه، أولئك أخفُّ عليك مَؤونةً وأحسنُ لك مَعُونة، وأحنى عليك عِطْفًا وأقلّ لغيرك إِلْفًا،

(١) يطامن: يسكن ويخفض. لسان العرب، مادة طحن.
(٢) مساماة: أن تسمو إلى مرتبة الله. لسان العرب، مادة سمو.
(٣) آصارهم: آثامهم. لسان العرب، مادة أصر.

فاتّخِذْ أولئك خاصّة لخَلَواتك وحَفَلاتك. ثم ليكن آثَرُهم عندك أقولَهم للحق، وأقلَّهم مساعدةً فيما يكون منك مما كَرِه الله تعالى لأوليائه واقعًا من هواك حيث وقع. ثم رُضْهم على ألّا يُطْرُوك ولا يُبَجِّحوك بباطل لم تفعل، فإن كثرة الإطراء تُحدِث الزَّهْوَ وتُدني إلى العِزّة. ولا يكونَنّ المُحسِنُ والمسيءُ عندك بمنزلةٍ واحدة، فإن في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة، وألزِمْ كلّاً منهم ما ألْزَم نفسَه. واعلم أنه ليس شيءٌ أدعى إلى حسن ظنِ والٍ برعيّته من إحسانه إليهم وتخفيفِ المؤونات عنهم وتركِ استكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلَهم. وليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسنُ الظنّ برعيّتك، فإنّ حسن الظنّ يقطعُ عنك نَصَبًا طويلًا. وإن أحقَّ من حَسُنَ ظنُّك به من حَسُنَ بلاؤُك عنده، وإن أحقَّ من ساء ظنُّك به لَمَنْ ساء بلاؤُك عنده. ولا تَنْقُضْ سُنّةً صالحةً عَمِل بها صدورُ هذه الأمة واجتمعت بها الأُلفة وصلَحت عليها الرعيّة، ولا تُحدِثَنّ سُنّة تضرُّ بشيءٍ من ماضي تلك السنن، فيكونَ الأجرُ لمن سنّها، والوِزْر عليك بما نقضت منها. وأكْثِرْ مُدَارسةَ العلماءِ ومناقشةَ الحكماءِ في تثبيت ما صلح عليه أمرُ بلادِك، وإقامةِ ما استقام به الناسُ قَبْلك. واعلم أنّ الرعيّة طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنودُ الله، ومنها كتّابُ العامّة والخاصّة، ومنها قُضاةُ العدل، ومنها عمّالُ الإنصاف والرفق، ومنها أهلُ الجزْية والخَراج من أهل الذّمّة ومَسْلمة[1] الناس، ومنها التجّارُ وأهلُ الصناعات، ومنها الطبقةُ السُفْلى من ذوي الحاجة والمَسْكَنة، وكلٌّ قد سمّى اللهُ سهمَه، ووضع على حدّه فريضته في كتابه وسنّة نبيّه ﷺ عهدًا منه محفوظًا. فالجنودُ بإذن الله حصونُ الرعيّة وزَيْنُ الولاةِ وعزُّ الدّين وسُبُلُ الأمن، وليس تقوم الرعيّةُ إلا بهم. ثم لا قِوامَ للجنود إلا بما يُخرجُ اللهُ لهم من الخَراج الذي يَقْوَوْن به في جهاد عدوّهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قِوام لهذين الصِّنفين إلا بالصِّنف الثالث من القضاة والعُمّال والكُتّاب لما يُحْكِمون من المعاقد، ويَجمعون من المنافع، ويُؤْتَمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها. ولا قِوامَ لهم جميعًا إلا بالتجّارِ وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقومون به في أسواقهم، ويَكْفُونهم من الرِّفق[2] بأيديهم ما لا يبلغه رِفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمَسْكَنة الذين يحِقُّ رِفْدُهم ومعونتهم؛ وفي الله لكلٍّ سِعَة؛ ولكلٍّ على الوالي حقٌّ بقدر ما يُصلحه. وليس يخرجُ الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من

(١) مسلمة: المسلمون.

(٢) الترفق: النفع. لسان العرب، مادة رفق.

ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطينِ نفسهِ على لزوم الحقّ والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثَقُلَ. فولِّ من جنودك أنصَحَهم في نفسك لله تعالى ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم، جيبًا، وأفضلهم حِلْمًا، ممن يُبطىءُ عن الغضب ويستريحُ إلى العذر ويرفِقُ بالضعفاء وينْبُو[1] عن الأقوياء، وممن لا يثيره العُنْف ولا يقعُد به الضعف. ثم ألحق بذوي الأحسابِ وأهلِ البيوتات الصالحة والسوابقِ الحسنة أهلَ النَّجْدةِ والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جِمَاعُ الكَرم وشُعَبُ العُرْف؛ ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما. ولا يتفاقَمنّ في نفسك شيءٌ قوّيتَهم به، ولا تَحْقِرنّ لُطفًا تَعاهدُهم به وإن قلّ، فإنه داعيةٌ لهم إلى بَذْل النصيحة لك، وحسنِ الظن بك. ولا تَدَعْ تفقُّد لطيفِ أمورهم اتّكالًا على جسيمها، فإن لليسير من لطفك مَوْضِعًا ينتفعون به، وللجسيم موقعًا لا يستغنُون عنه. وليكن آثرُ رؤوس جندِكَ عندك مَن واساهم في معونته وأَفضلَ عليهم من جِدَته بما يسعهم ويَسَعُ مَنْ وراءهم من خُلوف أهليهم حتى يكونَ همّهم همًّا واحدًا في جِهاد العدوّ، فإنّ عطفك عليهم يُعَطِّف عليك قلوبهم؛ وإنّ أفضلَ قُرّةَ عينِ الولاةِ استقامةُ العدلِ في البلاد وظهورُ مودّة الرعيّة؛ وإنه لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صدرهم، ولا تَصِحُّ نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أمورهم وقِلّةِ استثقال دُوَلهم وتركِ استبطاء انقطاع مدّتهم، فافسح في آمالهم وواصِلْ في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذِّكر لحسن فَعَالهم تَهُزّ الشجاعَ وتحرّض الجبَان إن شاء الله. ثم اعرفْ لكل امرىءٍ منهم ما أبلى. ولا تَضُمّنّ بلاءَ امرىءٍ إلى غيره، ولا تُقَصِّرنّ به دون غاية بلائه. ولا يدعوَنّك شرفُ امرىءٍ إلى أن تُعظِّم من بلائه ما كان صغيرًا، ولا ضَعَةُ امرىءٍ إلى أن تستصغِر من بلائه ما كان عظيمًا. واردُدْ إلى الله ورسوله ما يُضلعُكَ[2] من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النّساء: الآية ٥٩]؛ فالرادُّ إلى الله هو الآخِذُ بمُحْكَم كتابه، والرادُّ إلى الرسول الآخذُ بسنّته الجامعة غير المتفرّقة.

ثم اخترْ للحكم بين الناس أفضلَ رعيّتك في نفسك ممن لا تَضِيق به الأمور، ولا تُمحِكُه[3] الخصوم، ولا يتمادى في الزَّلَّة، ولا يَحْصَرُ[4] من الفَيْء إلى الحق إذا

---

(١) ينبو عن الأقوياء: إذا لم يتقدْ لهم. لسان العرب، مادة: نبوَ.

(٢) يضلعك: يصيبك ينزل بك؛ لسان العرب، مادة ضلع.

(٣) تمحكه من المحك: اللجاج، الجوهري، الصحاح ٤، مادة محك.

(٤) لا يحصَر من الفيء إلى الحق: لا يمتنع من العودة إلى الحق. الجوهري، الصحاح،=

عَرَفه، ولا تُشْرِف نفسه على طمع، ولا يَكْتفي بأدنى فهم دون أقصاه، أَوْقَفَهم في الشُّبُهات، وآخَذَهم بالحُجَج، وأقلَّهم تبرُّمًا بمراجعة الخَصْم، وأصبَرَهم على تكشُّف الأمور، وأصرمَهم عند إيضاح الحكم، ممن لا يَزْدَهِيه إطراءٌ، ولا يستميله إغراءٌ؛ وأولئك قليل. ثم أَكْثِرْ تعاهُدَ قضائه؛ وافْسَحْ له في البَذْل ما يُزيح علّته وتَقِلُّ معه حاجتُه إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يَطمعُ فيه غيره من خاصّتك، ليأمَنَ بذلك اغتيالَ الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظرًا بليغًا؛ فإن هذا الدِّينَ قد كان أسيرًا في أيدي الأشرار يُعْمَلُ فيه بالهوى وتُطْلَب به الدنيا.

ثم انظرْ في أمور عُمّالك فاستعمِلْهم اختبارًا ولا تُوَلِّهم مُحاباة وأَثَرَة، فإنهما جُمَّاعٌ من شُعَب الجَوْر والخيانة. وتوَخَّ منهم أهلَ التجْرِبة والحَيَاء من أهل البيوتات الصالحة والقَدَم في الإسلام المتقدّمة، فإنهم أكرمُ أخلاقًا، وأصحُّ أعراضًا، وأقلُّ في المطامع إسرافًا، وأبلغُ في عواقب الأمور نَظَرًا. ثم أَسْبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوّةٌ لهم على استصلاح أنفسهم، وغِنًى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجّةٌ عليهم إن خالفوا أمرك أو ثَلَمُوا أمانتك. ثم تفقّد أعمالهم، وابعَثِ العُيون من أهل الصدق والوَفاءِ عليهم، فإنّ تَعاهُدَكَ في السرّ لأمورهم حدوَةٌ[1] لهم على استعمال الأمانة والرِّفق بالرعيّة. وتحفَّظْ من الأعوان، فإنْ أحدٌ منهم بَسَط يده إلى خيانة اجتمعتْ بها عليه عندك أخبارُ عيونك اكتفيتَ بذلك شاهدًا، فبسطتَ عليه العقوبة في بدنه، وأخذتَه بما أصاب من عمله، ثم نصبتَه بمُقَام الذِّلة، ووسَمْتَه بالخيانة، وقلّدتَه عَار التُّهمة.

وتفقدْ أمر الخَراجِ بما يُصلح أهلَه، فإنّ صلاحهم وصلاحه صلاحٌ لمن سواهم، ولا صلاحَ لمن سواهم إلا بهم، لأنّ الناس كلّهم عِيَالٌ على الخَراج وأهله. وليكن نظرُك في عِمَارة الأرض أبلَغَ من نظرك في استجلاب الخَراج، لأن ذلك لا يُدْرَك إلا بالعِمَارة؛ ومن طلب الخراجَ بغير عمارة أخرب البلادَ، وأهلك العبادَ، ولم يستقم أمره إلا قليلًا. فإن شكَوْا ثِقَلًا أو عِلّةً أو انقطاعَ شِرْب[2] أو بالّةٍ أو إحالة أرض اغتمرها غَرَق أو أجحف بها عَطَش، خفّفتَ عنهم بما ترجو أن يَصْلُح به أمرهم؛ ولا يثقُلنّ عليك شيءٌ خفّفتَ به المؤونة عنهم، فإنه ذُخْرٌ يعودون به عليك في عِمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حُسْنَ ثنائهم

= ٢/مادة حصر.

(١) حدوة: من حدا بمعنى يدفع ويحث. لسان العرب، مادة حدا.

(٢) شرب: ماء. لسان العرب مادة شرب.

وتَبَجُّحِك[١] باستفاضة العدل فيهم، معتمدًا فضلَ قُوّتهم بما ذَخَرتَ عندهم من إجمامك[٢] لهم والثِّقَةَ منهم بما عوّدتَهم من عدلك عليهم ورِفْقِك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عوّلتَ فيه عليهم من بعدُ، احتملوه طَيِّبَةً أنفسُهم به، فإن العُمْرانَ يَحْتمِل ما حمّلتَه، وإنما يُؤتيَ خرابُ الأرضِ من إعواز أهلها، وإنما يُعْوِزُ أهلُها لإشرافِ أنفس الوُلاة على الجمع وسوءِ ظنّهم بالبقاء، وقلّةِ انتفاعهم بالعِبَر. واستعمل مَن يُحبُّ أن يَدَّخِر حسنَ الثناء من الرعيّة والمثوبةَ من الله عزّ وجلّ والرضا من الإمام.

ثم انظر في حال الكُتّاب فولِّ أمورَك خَيْرَهم. واخصُصْ رسائلَكَ التي تُدْخِلُ فيها مكايدَك وأسرارَك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تُبْطِرُه الكرامة فيجترىءُ بها عليك في خِلَافٍ لك بحضرة مَلأٍ، ولا تُقَصِّر به الغَفْلة عن إيراد مكاتبات عُمّالك عليك وإصدارِ جوابها على الصواب منها عنك، وفيما يأخذُ لك ويُعطى منك، ولا يُضْعِف عَقْدًا اعتقده لك، ولا يَعجِزُ عن إطلاق ما عُقِد عليك، ولا يجهَلُ مبلغَ قَدْر نفسه في الأمور، فإن الجاهلَ بقَدْرِ نفسه يكونُ بقَدْر غيره أجهلَ. ثم لا يكن اختيارُك إيّاهم على فِرَاستك واستنامتك وحسنِ الظّن منك، فإن الرجال يَتَعَرّفون لفِرَاسات الوُلاة بتصنّعهم وحسن خدمتهم؛ وليس وراءَ ذلك من النصيحة والأمانة شيءٌ؛ ولكن اختبِرْهم بما وَلُوا للصالحين قبلك، فاعمِدْ لأحسنهم كان في العامّة أَثَرًا، وأعرِفهم بالأمانة وجهًا، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وَلِيتَ أمرَه. واجعلْ لرأسِ كلّ أمر من أمورك رأسًا منهم لا يقْهَره كبيرُها ولا يتشتّت عليه كثيرُها. ومهما كان في كُتّابك من عيبٍ فتغابيت عنه أُلْزِمتَه.

ثم استوصِ بالتجّار وذوي الصناعات، وأوصِ بهم خيرًا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفّق ببدنه، فإنهم موادّ المنافع وأسباب المَرَافق وجُلّابُها من المَبَاعد والمَطَارح في برّك وبَحْرك وسَهْلك وجَبَلك وحيث لا يلتئِمُ الناسُ لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنّهم سِلْمٌ لا تُخاف بائقته[٣]، وصلحٌ لا تُخشى غائلته. وتفقدْ أمورَهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم أن في كثير منهم ضِيقًا فاحشًا وشُحًّا قبيحًا واحتكارًا للمنافع في المبايعات، وذلك بابُ مضَرّةٍ للعامّة، وعيبٍ على الوُلاة. فامنعْ من الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ منع منه. وليكن البيعُ بيعًا سَمْحًا بموازين

(١) تبجح: فرح وسرور. لسان العرب، مادة بجح.
(٢) إجمامك: تركك إياهم حتى إذا ما استراحوا تقووا على معونتك. لسان العرب مادة جمم.
(٣) بائقته: مصيبته وشره.

عدلٍ وأسعارٍ لا تُجحِف بالفريقين البائع والمبتاع، فمن قَارفَ حُكْرة بعد نهيك إيّاه فنكّلْ به وعاقِبْه من غير إسراف.

ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السُّفلى من الذين لا حيلةَ لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البُؤْسَى والزَّمْنَى، فإن في هذه الطبقة قَانِعًا ومُعْتَرًّا، فاحفظْ لله ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعلْ لهم قِسْمًا من بيت مالك، وقِسْمًا من غَلّات صَوافِي[١] الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثلَ الذي للأدنى. وكلٌّ قد استُرْعِيتَ حقّه فلا يشغلنّك عنهم بَطر فإنك لا تُعذَر بتضييعك التافِهَ لإحكامك الكثير المُهمّ، فلا تُشْخِص همَّك عنهم ولا تُصَعِّر خدّك[٢] لهم؛ وتفقّدْ أمورَ من لا يصلُ إليك منهم ممن تقتَحِمه العيونُ وتَحقِره الرجالُ، ففرِّغ لأولئك ثِقَتَك من أهل الخَشْية والتواضع، فليَرْفَعْ إليك أمورَهم؛ ثم اعْمَلْ فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه وتعالى يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعيّة أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم. وكلٌّ فأَعْذِرْ إلى الله تعالى في تأدية حقّه إليه. وتعهّدْ أهل اليُتْم وذوي الرِّقّة في السنّ ممن لا حيلةَ له ولا يَنْصِبُ للمسألة[٣] نفسَه. وذلك على الولاة ثقيل؛ والحق كله ثقيل وقد يُخفّفه الله على أقوام طلبُوا العاقبة فصبَّروا أنفسهم ووثِقُوا بصدقِ موعودِ الله لهم.

واجعلْ لذوي الحاجات منك قِسمًا تُفرِّغُ لهم فيه شخصَك وتجلسُ لهم فيه مجلسًا عامًّا فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتُبعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطِك حتى يُكَلِّمَك متكلِّمهم غيرَ مُتَعْتَع[٤] فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: «لن تُقدَّس أُمّةٌ لا يُؤخذ للضعيف فيها حقّه من القويّ غير مُتَعْتَع». ثم احتمِل الخُرْق منهم والعِيّ، ونَحِّ عنك الضِّيقَ والأَنَف يبسُطِ الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجِبْ لك ثواب طاعته، وأَعْطِ ما أعطيت هنيئًا، وامنَعْ في إجمال وإعذار.

ثم أمورٌ من أمورك لا بدَّ لك من مباشرتها: منها إجابةُ عُمّالك بما لا يُغني عنه كُتّابك، ومنها إصدارُ حاجاتِ الناس عند ورودها عليك مما تَحْرَجُ به صدور أعوانك. وأَمْضِ لكلّ يوم عمَلَه فإن لكلّ يوم ما فيه. واجعلْ لنفسك فيما بينك وبين الله أفضلَ

---

(١) صوافي: أراضي الغنيمة، اللسان مادة صوف.

(٢) تُصَعِّر: تميل خدَّك كِبرًا. الجوهري، الصحاح، ٢/مادة صعر.

(٣) ينصب للمسألة نفسه: يسأل الناس، يتسول.

(٤) التعتعة: التردد في الكلام من عجز وعي، والمراد أنه غير خائف.

تلكَ المواقيت وأجزَلَ تلك الأقسام، وإن كانت كلُّها لله إذا صَلَحت فيها النِّيّة وسَلِمت منها الرعيّة.

وليكن في خاصّة ما تُخلِص لله به دينك إقامةُ فرائضه التي هي له خاصّة، فأعطِ الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفِّ ما تقرّبت به إلى الله تعالى من ذلك كاملًا غيرَ مَثلوم ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ. وإذا قمتَ في صِلاتك للناس فلا تكونَنَّ صفِّرًا ولا مضيِّعًا؛ فإن في الناسِ من به العِلّة وله الحاجةُ؛ وقد سألتُ رسولَ الله ﷺ حين وجّهني إلى اليمن كيف أُصلّي بهم؟ قال: «كصلاةِ أضعفِهم وكن بالمؤمنين رحيمًا»[1].

وأما بعد، هذا فلا يَطولَنّ احتجابُك عن رعيّتك، فإن احتجابَ الوُلاة عن الرعيّة شُعْبةٌ من الضِّيقِ وقلّةُ علم بالأمور. والاحتجابُ منهم يقطعُ عنهم علمَ ما احتجبوا دونه، فيصْغُر عندهم الكبيرُ، ويعْظُم الصغيرُ، ويقْبُح الحسنُ، ويحْسُنُ القبيحُ، ويُشاب الحقّ بالباطل. وإنما الوالي بَشَرٌ لا يعرِفُ ما يُواري عنه الناسُ من الأمور؛ وليست على الحق سِمَاتٌ تُعْرَف بها ضروبُ الصّدق من الكذب. وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سَخَتْ نفسُك بالبَذْل في الحقّ، ففيم احتجابُك من واجبِ حقّ تُعطيه أو فعلٍ كريم تُسديه؟ وإما امرؤ مُبْتَلًى بالمنع، فما أسرعَ كفَّ الناسِ عن مسألتك إذا يئسوا من ذلك! مع أنّ أكثَرَ حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شَكاة مَظْلَمَةٍ أو طلبِ إنصافٍ في معاملة.

ثم إن للوالي خاصةً وبِطانة فيهم استئثارٌ وتطاوُل وقلة إنصاف في معاملة، فاحْسِم مادّة ذلك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا تُقْطِعنّ لأحد من حاشيتك وخاصّتك قطيعةً، ولا يُطْمَعَنّ منك في اعتقاد عُقْدة[2] تضرّ بمَن يليها من الناس في شِرْب أو عمل مشترَك يحمِلون مؤونته على غيرهم، فيكون مَهْنَأ ذلك لهم دونك، وعَيْبُه عليك في الدنيا والآخرة.

وألْزِم الحقّ مَن لَزِمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرًا مُحتسِبًا واقعًا ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع؛ وابتَغِ عاقبتَه بما يثْقُل عليك منه، فإن مَغَبّة ذلك محمودة. وإن ظنّت الرعيّة بك حَيْفًا

---

(١) حديث في معناه: إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير. أو وذا الحاجة. ـ البخاري، الصحيح، ١/ ٢٨٤ كتاب الصلاة، باب تخفيف الصلاة وتطويل الإمام.

(٢) اعتقاد عُقده: امتلاك ضيعة.

فأَصحِر[١] لهم بعُذْرك واعْدِل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك إعذارًا تبلُغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ.

ولا تدفعَنّ صلحًا دعاك إليه عدوّك ولله فيه رِضًا، فإن في الصلح دَعَةً لجنودك وراحةً من همومك وأمْنًا لبلادك. ولكن احذَرْ كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإن العدوّ ربما قارب ليتغفّلَ، فخذْ بالحزم واتّهِمْ في ذلك حسنَ الظن. فإن عقدتَ بينك وبين عدوّك عُقْدةً وألبستَه منك ذِمّة فَحُطْ عهدك بالوَفاء وارْعَ ذِمّتك بالأمانة واجعل نفسك جُنّة[٢] دون ما أعطيتَ، فإنه ليس من فرائض الله شيءٌ الناسُ أشدُّ عليه اجتماعًا مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود؛ وقد لَزِم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لِمَا استَوبلوا[٣] من عواقب الغدر. فلا تغدُرنّ بذمّتك ولا تَخِيسَنّ بعهدك[٤] ولا تَختِلَنّ عدوّك، فإنه لا يجترىءُ على الله إلا جاهلٌ شقيٌّ. وقد جعل اللهُ عهده وذمّته أَمْنًا قضاه بين العباد برحمته، وحَرَمًا يسكنون إلى مَنَعَته ويستفيضون إلى جِوَاره، فلا إدغالَ ولا مدالسةَ[٥] ولا خِداعَ فيه. ولا تَعْقِدْ عَقْدًا تجوزُ فيه العِلَلُ. ولا تُعَوِّلنّ على لَحْنِ قول بعد التأكيد والتوثقة. ولا يدعُوَنَّك ضيقُ أمرٍ لزِمك فيه عهدُ الله إلى طلب انفساخه بغير الحقّ، فإنّ صبرك على ضِيقٍ ترجو انفراجَه وفضلَ عاقبته خيرٌ من غدر تَخاف تَبِعَتَه وأن تُحيطَ بك من الله طِلْبَة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتَك.

إيّاك والدماءَ وسَفكَها بغير حِلّها، فإنه ليس شيءٌ أدعى لِنقْمةٍ ولا أعظم تَبِعةً ولا أحرى بزوال نعمةٍ وانقطاعِ مُدّة من سفك الدماء بغير حقّها، واللهُ سبحانه مبتدىءٌ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة؛ فلا تُقَوِّينّ سلطانك بسفك دَمٍ حرام، فإن ذلك مما يُضعفه ويُوهنه بل يُزيله وينقُله. فلا عُذرَ لك عند الله ولا عندي في قتل العَمْد، لأن فيه قَوَدَ البدن. فإن ابتُليت بخطإٍ وأفرط عليك سوطُك أو سيفك أو يدُك بعقوبة؛ فإن في الوَكْزَة فما فوقها مَقْتَلة، فلا تطمَحَنّ بك نَخْوةُ سلطانك عن أن تُؤَدِّيَ إلى أولياءِ المقتولِ حقَّهم.

---

(١) أصحر: أظهر. لسان العرب مادة صحر. (٢) جُنة: درع.

(٣) استوبلوا: طلبوا الوبال.

(٤) تخيس بعهدك: نكث: الجوهري، الصحاح، ٣/٩٢٦ مادة خيس. لسان العرب، مادة خيس.

(٥) المدالسة: المخادعة، التدليس في البيع: كتمان عيب السلعة عن المشتري، الجوهري، الصحاح، ٣/٩٣٠ مادة دلس.

وإيّاك والإعجابَ بنفسك والثقةَ بما يُعجبك منها وحُبَّ الإطراء، فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان في نفسه ليَمْحَق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإيّاك والمَنَّ على رعيتك بإحسانك، والتزيّدَ فيما كان من فعلك، وأن تَعِدهم فتُتْبع مَوْعِدك بخلف، فإن المَنّ يبطلُ الإحسانَ، والتزيّد يذهبُ بنور الحق، والخُلْف يُوجب المقت عند الله والناس. قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ③﴾ [الصَّف: الآية ٣].

وإياك والعَجَلَة بالأمور قبل أوانها، أو التسقُّط[١] فيها عند إمكانها، أو اللَّجاجةَ[٢] فيها إذا تنكّرتْ، أو الوَهْنَ[٣] عنها إذا استُوضِحتْ؛ فضع كلَّ أمر موضِعَه وأوقعْ كلّ عمل مَوْقِعَه.

وإياك والاستئثارَ بما الناسُ فيه أُسوة، والتغابى عما يُعْنَى به مما قد وضح لعيون الناظرين، فإنه مأخوذٌ منك لغيرك، وعما قليلٍ تنكشفُ عنك أغطيةُ الأمورِ ويُنْتَصفُ منك للمظلوم.

املِكْ حَميّةَ أَنْفك وسَوْرةَ حَدِّك وسَطْوة يدك وغَرْبَ[٤] لسانك، واحترسْ من كلّ ذلك بكفّ البادرة وتأخير السطوة حتى يسكُنَ غضبُك فتملِكَ الاختيار، ولن تُحْكِم ذلك من نفسك حتى تكثُرَ همومُك بذكر المَعَاد إلى ربك.

والواجبُ عليك أن تتذكّرَ ما مضى لمن تَقدّمك من حكومةٍ عادلة، أو سُنّةٍ فاضلة، أو أَثَرٍ عن نبيّنا ﷺ، أو فريضةٍ في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عَهِدتُ إليك في عهدي هذا، واستوثقتُ به من الحُجّة لنفسي عليك لكيلا تكونَ لك علّةٌ عند تسرّع نفسك إلى هواها.

وأنا أسألُ الله بسَعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كلّ ذي رغبة: أن يوفّقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد وجميل الأثَر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يَخْتِمَ لي ولك بالسعادة والشهادة. إنّا للهِ وَإِنّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ. تمّ العهد بعون الله تعالى.

---

(١) التسقط: طلب السقط أي العثرة والذلة والخطأ في الكتابة والحساب. الجوهري، الصحاح، ٣/ مادة سقط.

(٢) اللجاجة: الإلحاح.

(٣) الوهن: الضعف. اللسان، مادة وهن.

(٤) غرب لسانك: حِدة.

وقيل: ينبغي للملك أن يسوق العُنُف باللطف، والتوفير بالتوقير، ولا يتخذَ أعوانًا إلا أعيانًا، ولا أخِلاء إلا أجِلّاء، ولا نُدماء إلا كرماء، ولا جلساء إلا ظُرَفاء.

الباب الخامس
من القسم الخامس من الفن الثاني
فيما يجب على المَلِك للرعايا

ويجب على الملك أن يبسُط لرعيّته من العدل بساطًا، ويَبنِيَ لهم من الأمن فُسْطاطًا(١)، وينشُرَ عليهم أَلْوِية حِلْم خفقت ذوائبها، ويُسلْسِلَ لهم أنهارَ بِرٍّ امتدّت دوائبها(٢)؛ ويكُفَّ عنهم أكُفّ المظالم، ويُوكِف عليهم سحائب المكارم. وأهمّ ما قدّم من ذلك «العدل».

ذكر ما قيل في العدل وثمرته وصفة الإمام العادل

والعدلُ واجبٌ على كل من استُرْعي رعيّةً من إمام وغيره؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: الآية ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: الآية ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [صَ: الآية ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: الآية ٤١]. وقال رسول الله ﷺ: «عدلُ ساعة في حكومة خيرٌ من عبادة ستين سنة» وقال ﷺ: «ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته فالإمامُ الذي على الناس راع عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجلُ راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعيةٌ على بيت بَعْلِها وولدِه وهي مسؤولة عنهم والعبدُ راعٍ على مال سيّده وهو مسؤول عنه، فكلّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته» قال بعض الشعراء:

فكـلُّكُـمُ راعٍ ونحـن رعـيّـةٌ ... وكلٌّ سيَلْقى ربّه فيُحاسَبُهْ

---

(١) فسطاط: بيت من الشعر: الجوهري، الصحاح، ج ٣ مادة فسط.
(٢) دوائبها: لعله أراد ذنائبها جمع ذناب وهو مسيل ما بين التلعتين. اللسان، مادة ذنب.

وقالت الحكماء: إمامٌ عادلٌ خيرٌ من مَطَرٍ وابل، وإمام غَشُوم خيرٌ من فتنة تدوم.

يقال: إنّ جَمْشِيد[١] أحدَ ملوك الفرس الأُول، لما ملَك الأقاليم عَمِل أربعة خواتيم: خَاتَمًا للحرب والشُّرْطة وكتب عليه الأَناة، وخاتمًا للخراج وكتب عليه العِمَارة، وخاتمًا للبريد وكتب عليه الوحا[٢]، وخاتمًا للمظالم وكتب عليه العدل، فبقِيتْ هذه الرسومُ في ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[٣]: إذا كان الإمام عادلًا فله الأجرُ وعليك الشكر، وإذا كان جائرًا فله الوِزْر وعليك الصبر.

وقال أَرْدَشِير[٤] لابنه[٥]: يا بُنَيّ إن المُلكَ والعدلَ أخَوان لا غِنى لأحدهما عن صاحبه، فالمُلك أُسٌّ والعدل حارس، فما لم يكن له أُس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع، يا بُنَيّ اجعلْ حديثك مع أهل المراتب، وعطيّتَك لأهل الجِهَاد، وبِشْرَك لأهل الدِّين، وبِرَّك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول.

وقال بعض الحكماء: يجب على السلطان أن يلتزِم العدلَ في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه، فإذا فسَدت السياسةُ ذهب السلطانُ؛ ومدارُ السياسةِ كلِّها على العدل والإنصاف، فلا يقومُ السلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما، ولا يدور إلا عليهما.

وقال عبد الملك بن مَرْوان[٦] لبنيه: كلّكم يترشّحُ لهذا الأمر، ولا يصلحُ له منكم إلا من له سيفٌ مسلول، ومالٌ مبذول؛ وعدلٌ تطمئنّ إليه القلوب.

---

(١) جمشيد: أحد ملوك الفرس الأول، أخو طهمورث ومعناه شعاع القمر، عمر طويلًا، أحدث النيروز وأنواعًا من الصناعات والأبنية والمهن وادعى الإلهية. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ١/ ١٦٩ وما بعدها.

(٢) الوحا: السرعة، توحَّ: أسرع. والوحى: الصوت يكون في الناس وغيرهم. اللسان، مادة وحا.

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب: من رجال الصحابة، ضمه عمر إلى الرجال الذين عهد إليهم اختيار خلفه، لكن دون حق اختياره. ابتعد عن الخلافات وزهد في الدنيا. انظر فيه: ـ محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، ٢/ ٤٥٨ وما بعدها.

(٤) أردشير: انظر هامش ٥ صفحة ١٩. (٥) ابنه: سابور.

(٦) عبد الملك بن مروان: ٢٠ هـ/ ٨٦ هـ. تولّى الخلافة سنة ٦٥ هـ وقضى فيها ٢١ سنة استطاع أن يقضي على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ وابن الأشعث سنة ٨٢ هـ كان له إقدام على الدماء، بخيلًا، محبًّا للشعر والفخر والمدح. وكان عماله على مثل مذهبه: الحجاج والمهلب وهشام بن إسماعيل. انظر فيه: ـ المسعودي، المروج، ٢/ ٧١ وما بعدها.

وخطبَ سعيد بن سُوَيدٍ بحِمْص، فحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناسُ، إن للإسلام حائطًا مَنِيعًا وبابًا وثيقًا؛ فحائطُ الإسلام الحقُّ وبابُه العدلُ؛ ولا يزالُ الإسلام مَنِيعًا ما اشتدّ السلطانُ؛ وليس شدّة السلطان قتلًا بالسيف ولا ضربًا بالسَّوْط، ولكنْ قَضاءٌ بالحقّ وأخذٌ بالعدل.

وكتب إلى عُمَرَ بن عبد العزيز[١] بعضُ عُمّاله يستأذِنه في تحصين مدينة؛ فكتب إليه: حصِّنها بالعدل ونقِّ طريقها من الظلم.

وقال معاوية[٢]: إنّي لأستحي أن أَظلِم من لا يجدُ عليّ ناصرًا إلا الله.

وقال المهديّ[٣] للربيع بن الجَهْم وهو والٍ على أرض فارس: يا ربيعُ، انشُرِ الحقَّ والزَم القَصْدَ وابسُطِ العدلَ وارفُقْ بالرعيّة؛ واعلمْ أن أعدلَ الناس مَن أنصفَ من نفسه، وأَجْوَرَهم من ظلم الناسَ لغيره.

وقال جعفر بن يحيىٰ[٤]: الخراجُ عَمود المُلْك، وما استُغزِر بمثل العدل، ولا استُنزِر[٥] بمثل الظلم.

وقال عمرو بن العاص[٦]: لا سلطانَ إلا برجال، ولا رجالَ إلا بمال، ولا مالَ إلا بعِمَارة، ولا عِمَارة إلا بعدل.

---

(١) عمر بن عبد العزيز: ٦٢ هـ/١٠١ هـ. تولّى الخلافة سنة ٩٩ هـ بعد سليمان بن عبد الملك لمدة سنتين. كان في نهاية النسك والتواضع، ترك لعن علي بن أبي طالب. عدل في حكمه وألف بين القلوب فلم تعرف في عهده ثورات. المسعودي، المروج، ٢/٤٣ أو ما بعدها.

(٢) انظر هامش ١ صفحة ٦.

(٣) المهدي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. ١٢٧ هـ - ١٦٩ هـ. تولّى الخلافة ١٥٨ هـ لمدة عشر سنين. كان المهدي محببًا للناس، كف عن القتل وعدل وآمن الخائف، كان كريمًا صرف كل ما جمعه المنصور وما جبي في أيامه. - المسعودي، مروج الذهب، ٢/٢٤٥ وما بعده.

(٤) جعفر بن يحيىٰ [بن خالد] البرمكي: اشتهر بالكتابة والنصاحة، وزر مع إخوته وأبيه وجده، للرشيد، مدة سبعة عشر عامًا ثم نكبهم الرشيد بعد تسلطهم في الدولة، وازدياد نفوذ الفرس، واختيار الأموال دون الخليفة، ولصلات مع الطالبيين ولعلاقة جعفر بالعباسة أخت الرشيد. كان ذلك سنة ١٨٧ هـ. انظر: - المسعودي، المروج، ٢/٢٩١ وما بعدها. - الجاحظ، البيان والتبيين، ١/١٠٦ - ١٠٧ و١١٣ - ٤٧ ق.هـ/٤٣ هـ.

(٥) استنزر: طلب النزر أعطى عطاءً بإلحاح وعكسه أعطى عفوًا. اللسان، مادة نزر.

(٦) عمرو بن العاص بن وائل بن سهم بن سعيد بن سعد؛ توفي بمصر سنة ٤٣ هـ: هو من دهاة العرب، ولّى مصر لعمر بن الخطاب، ثم انحاز لمعاوية بن أبي سفيان في خلافه مع علي بن أبي طالب لقاء أن يعيد إليه مصر. فتح مصر وتولّاها ومات فيها. - المسعودي، مروج الذهب، =

وقيل: سأل الإسكندر حكماء بَابِل، فقال: أيُّما أبلغُ عندكم، الشجاعةُ أم العدل؟ فقالوا إذا استعملنا العدلَ استغنينا عن الشجاعة.

ولما جيءَ بالهُرْمُزَان ملكِ خُوزِسْتان أسيرًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم يزل الموكَّل به يقتفي أَثَر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى وجده بالمسجد نائمًا متوسّدًا دِرّته، فلما رآه الهُرْمُزَان قال: هذا هو الملك؟ قيل: نعم؛ فقال له: عدَلت فأَمِنت فنِمت، واللهِ إني قد خدمت أربعةً من ملوك الأكاسرة أصحابَ التِّيجان فما هِبْتُ أحدًا منهم هَيْبتي لصاحب هذه الدِّرّة.

وقالوا: إذا عَدَل الإمام خَصِبَ الزمان.

وقال ابن عبّاس رضي[1] الله عنهما: إن الأرضَ لتَزَيَّنُ في أعْيُن الناس إذا كان عليها إمامٌ عادل، وتَقْبُح إذا كان عليها إمامٌ جائر.

وحُكي أن كسرى أبْرَوِيز[2] نزل متنكِّرًا بامرأة، فحلَبت له بقرةً فرأى لها لبنًا كثيرًا، فقال لها: كم يلزمُك في السنة على هذه البقرة للسلطان؟ فقالت: درهمٌ واحدٌ، فقال: وأين تَرتع وبكم منها يُنتَفع؟ فقالت: ترتعُ في أراضي السلطان، ولي منها قُوتي وقُوتُ عِيَالي؛ فقال في نفسه: إن الواجبَ أن أجعل إتاوة على البقور فلأصحابها نفعٌ عظيم؛ فما لَبِث أن قالت المرأة: أوَّهْ! إن سلطاننا هَمّ بجَوْر؛ فقال أبْرَوِيز: لِمَهْ؟ فقالت: لأن دَرّ البقرة انقطع، وإن جَوْر السلطان مُقْتَضٍ لجَدْب الزمان؛ فأقلَع عما كان همّ به. وكان يقول بعد ذلك: إذا همّ الإمام بجور ارتفعت البَرَكة.

وقال سُقْراط: يَنْبُوعُ فَرَحِ العالَم الملكُ العادل، ويَنْبوعُ حُزْنهم الملكُ الجائر.

وقال الفضل[3]: لو كان عندي دعوةٌ مستجابة لم أجعلها إلا في الإمام، فإنه إذا صلُح أخصبت البلاد، وأَمِنت العباد؛ فقبّل ابن المبارك رأسه وقال: لا يحسبَنَّ هذا غيرُك.

وقال قُدَامة: حسبكم دلالةً على فضيلة العدل أن الجَوْر الذي هو ضدّه لا يقوم إلا به؛ وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأموال واقتسموها بينهم احتاجوا إلى استعمال العدل في اقتسامهم وإلا أضرّ ذلك بهم.

= ١٧/٢ وما بعدها.

(١) ابن عباس: انظر هامش ١ صفحة ١٦. (٢) كسرى أبرويز: انظر هامش ٣ صفحة ١٨.

(٣) الفضل: هو الفضل أخو جعفر بن يحيىٰ البرمكي: انظر هامش ٤ ص ٣٣.

صفةُ الإمام العادل ـ كتب عمر بن عبد العزيز[1] لما وَلِي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البَصريّ[2] أن يكتب له بصفة الإمام العادل؛ فكتب إليه الحسن: اعلم يا أميرَ المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كلّ مائل، وقَصْدَ كلِ جائر، وصلاحَ كلّ فاسد، وقوّةَ كلّ ضعيف، ونَصَفة كلّ مظلوم، ومَفْزَع كلّ ملهوف. والإمامُ العادل يا أميرَ المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، والحازم الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذُودُها عن مراتع الهَلَكَة، ويَحْمِيها من السباع، ويكْنِفُها من أذى الحرّ والقُرّ. والإمامُ العادلُ يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على وَلَده، يسعى لهم صِغارًا، ويعلّمهم كبارًا، يكسِب لهم في حياته، ويدّخرُ لهم بعد وفاته. والإمامُ العادلُ يا أمير المؤمنين كالأمّ الشفيقة البَرَّة الرفيقة بولدها، حملَتْه كُرْهًا، ووضعتْه كُرْهًا، وربّته طفلًا، تسْهَر لسهره وتسكن لسكونه، وتُرْضِعه تارةً وتَفْطِمه أخرى، وتفرحُ بعافيته، وتغتمُّ بشِكَايته. والإمامُ العادلُ يا أميرَ المؤمنين وصيُّ اليتامى، وخازنُ المساكين، يربِّي صغيرَهم، ويَمُون كبيرهم. والإمامُ العادلُ يا أميرَ المؤمنين كالقلبِ بين الجوارح، تصلُح الجوارحُ بصلاحه، وتفسُد بفساده. والإمامُ العادلُ يا أميرَ المؤمنين هو القائمِ بين الله وبين عباده، يَسْمع كلام الله ويُسمعهم، وينظُر إلى الله ويُريهم، وينقادُ لله ويَقُودهم. فلا تكنْ يا أميرَ المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيّده واستحفظه مالَه وعيالَه، فبدّد المال وشرّد العيال فأفْقر أهله وأهلك مالَه.

واعلمْ يا أميرَ المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القِصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم! واذكرْ يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده، وقلّة أشياعك عنده وأنصارِك عليه؛ فتزوّد له وما بعده من الفزع الأكبر.

---

(١) عمر بن عبد العزيز: انظر هامش ١ ص ٣٣.

(٢) الحسن البصري: ١١٠ هـ/٧٣٨ م. كان رأس المتكلمين بالعراق وسيّد التابعين، كان أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري من سبي ميان ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب. جمع كل فن من علم وزهد وورع، كان ممن أسسوا مذهب الصوفية. انظر فيه: ـ ابن الجوزي، الحسن البصري (آيا صوفيا) طبع في القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١ م. ـ ينسب إليه تفسير للقرآن برواية عمرو بن عبيد. ـ رسالة في فضل حرم مكة. ـ رسالة عبد الملك إلى الحسن البصري وجوابه عليها. ـ رسالة في الفرائض ورسالة في التكاليف. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢٥٧/١ وما بعدها. ـ الجاحظ، البيان والتبيين ٨٧٠/١، ٨٩، ١٠٣، ١١٦، ١٤٩، ١٥٤، ١٧٨، ٢٠٤، ٢٢١، ٢٤٥، ٤٣/٢، ٤٦، ٦٨، ٧٤، ٧٨، ٧٥/٣، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٨، ١٠٥، ١٠٧، ١١٢، ١١٣، ١١٧، ١٢٢، ١٥٠، ١٩٠، ٢٦٣، ٢٩٦.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت به، يطول فيه ثَوَاؤُك، ويفارقك أحبّاؤك، ويُسلِمونك في قَعْره فريدًا وحيدًا؛ فتزوّد له ما يصحَبك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾. واذكر يا أمير المؤمنين ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ، وحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾؛ فالأسرارُ ظاهرةٌ، والكتابُ ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؛ فالآن يا أميرَ المؤمنين وأنت في مَهَل، قبل حلولِ الأَجَل، وانقطاعِ الأَمَل؛ لا تَحْكُمْ يا أميرَ المؤمنين في عباد الله بحُكم الجاهلين، ولا تسلُكْ بهم سبيلَ الظالمين، ولا تُسَلِّطْ المستكبرين على المستضْعَفِين، فإنّهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبَة: الآية ١٠] فتبوءَ بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك، وتَحْمِلَ أثقالك وأثقالًا مع أثقالك. ولا يَغُرَّنك الذين ينعَمون بما فيه بُؤْسك، ويأكلون الطيِّبات من دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظُرَنّ إلى قدرك اليوم، ولكن انظرْ إلى قدرك غدًا وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله تعالى في مَجْمع الملائكة والمُرْسَلين، وقد عَنَتِ الوُجُوهُ للحيّ القيُّوم. إني يا أمير المؤمنين إن لم أبلُغ في عِظَتي ما بلغه أولو النُّهَى قبلي، فلم آلُك شَفَقةً ونُصْحًا؛ فأَنْزِلْ كتابي هذا إليك كمُداوي حبيبه يَسْقيه الأدْوِيَةَ الكريهة لما يرجو بذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وحيثما ذكرنا العدل وصفة الإمام العادل فلنذكر الظلم وسُوءَ عاقبته.

ذكر ما قيل في الظلم وسوء عاقبته

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هُود: الآية ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجنّ: الآية ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ﴾ [إبراهيم: الآيتان ٤٢، ٤٣]؛ قيل: هذا تعزيةٌ للمظلوم ووعيدٌ للظالم. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٢٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٠]. وقال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة

إمامٌ جائر» وفي لفظ آخر: «أبغضُ الناس إلى الله يوم القيامة وأشدُّهم عذابًا إمام جائر». وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حِجاب» وفي لفظ: «فإنها مستجابة».

ويقال: ما أنعم الله على عبدٍ نِعْمةً فَظَلَم بها إلا كان حقيقًا على الله أن يُزيلها.

وقال الأحنفُ[1]: إذا دعتْك نفسك إلى ظلم الناس فاذكرْ قدرةَ اللهِ على عقوبتك، وانتقامَ الله لهم، وذهابَ ما آتيتَ إليهم عنهم. وقال يوسف بن أَسْبَاط: من دَعَا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يُعْصَى الله.

ورُوِيَ في الحديث: «إن الله تعالى يقول وعِزّتي لأُجيبَنّ دعوةَ المظلومِ وإن كان كافرًا». وقال: «ما من عبد ظُلِم فشَخَص ببصره إلى السماء ثم قال: يا ربِّ؛ عبدك، ظُلِمتُ فلم أنتصِرْ إلا بك إلا قال الله لَبَّيك عبدي لأَنْصُرَنّك ولو بعد حين».

وقيل: الظلمُ أدعى شيءٍ إلى تغيير نِعْمةٍ وتعجيل نِقْمة.

وقال ابن عبّاس[2]: ليس للظالم عهد، فإن عاهدته فانْقُضه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٤]. وأجمعوا على أن المظلوم موقوف على النُّصْرة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحَج: الآية ٦٠]. والظالم مَدْرجةُ العقوبةِ وإن تنفّست مدّته.

وقيل لعمر بن الخطاب[3] رضي الله عنه: كان الرجل يُظْلَمُ في الجاهلية فيدعو

(١) الأحنف بن قيس ولد في البصرة، من أصحاب علي وعظماء العرب سيد بني تميم وأحد الدهاة والعظماء والشجعان، يضرب به المثل في الحلم. ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٦٨، ٧٠، ١٧٣، ١٨٣، ٢٠٠، ٢١٥، ٢٢٨؛ ٢/ ٤٢، ٥٠، ٥٨، ٥٩، ٦٣، ٧٩، ٩٢، ٩٨، ١٠١، ١٠٦، ١٢٢، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٦٢، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٣٢، ٢٤٤؛ ٣/ ٦٧، ٧٢، ١٤١، ٢٢٠، ٢٨٦، ٢٩٠.

(٢) ابن عباس: انظر هامش ١ صفحة ١٦.

(٣) عمر بن الخطاب: ثاني الخلفاء الراشدين ٤٠ ق.هـ ـ ٢٣ هـ عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى... بن كعب وفي كعب يجتمع نسبه بالنبيّ. سمّي الفاروق لأنه فرّق بين الحق والباطل، كنيته أبو حفص وأول من سمي بأمير المؤمنين. كان متواضعًا، خشن الملبس، حقق العرب في أيامه نصر القادسية ونصر اليرموك وفتح العراق والشام ومصر، وتم تمصير الكوفة والبصرة. عهد إليه أبو بكر بالخلافة وعهد هو إلى مجلس شورى ليختار الخليفة من بعده مؤلف من ستة أشخاص تولّى الخلافة عشر سنين. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ١/ ٥٢١=

على مَن ظلمه فيُجاب عاجلًا ولا يُرَى ذلك في الإسلام؛ فقال: هذا حاجزٌ بينهم وبين الظلم، وإن مَوْعِدَكم الآن الساعةُ، والسَّاعَةُ أَدْهَى وأَمَرُّ.

وقيل: تندمِلُ من المظلوم جِرَاحُه، إذا انكسر من الظالم جَنَاحُه. وقالوا: الجَوْر آفةُ الزمانِ، ومُحدثُ الحَدَثَان؛ وجالبُ الإحَن[١]، ومسبِّب المِحَن؛ ومُحيل الأحوال، ومُمْحقُ[٢] الأموال؛ ومُخْلي الديار، ومُحيي البَوَار. وهو مأخوذ من قولهم: جارَ عن الطريق إذا نَكب[٣] عنها، فكأنه عَدَل عن طريق العدل وحاد عن سبيله.

وفي الإسرائيليّات أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، قل لبني إسرائيل: تجنّبوا الظلم؛ وعزّتي وجلالي إن له عندي مَغَبّة؛ قال: يا رب وما مغبته؟ قال: يُتْمُ الولدِ، وتقليلُ العَدَدِ، وانقطاعُ الأَمَدِ، والثَّوَاءُ في النار.

وقد أوردنا في ذلك ما يَكتفي به من يعلم أن الله تعالى مُسَائِله ومُحاسبه، ومُناقشه غدًا ومُطالبه، وجامعُ الناسِ ليوم لا ريبَ فيه، ومُوقِف المظلوم لطلب حقّه ممن ظلمه بِمِلْءِ فِيهِ؛ ورُبما يُعجِّل له العقوبةَ في دنياه، ويضاعفُ عليه العذاب في أُخراه، ويُريه عاقبة بَغْيه في يوم ينظُر المرء ما قدّمت يداه. نسأل الله تعالى أن يَحْمِينَا أن نظْلِم أو نُظلَم، وأن يجعلَنا ممن فوّض أمرَه إليه وسلّم، ولا يمتحنّنا بمكروهٍ، فهو بضَعْفنا عن حَمْله أدرى، وبعجزنا أعلم، بمَنّه وكرمه.

ذكرُ ما قيل في حسن السِّيرة والرِّفق بالرعيّة

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٩]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أُعْطِيَ حظَّه من الرفق فقد أُعْطِيَ حظَّه من الخير كلِّه، ومن حُرِم حظَّه من الرِّفق فقد حُرِم حظَّه من الخير كلِّه»[٤].

ولما وَلِي عمر بن عبد العزيز[٥] الخلافة أرسل إلى سالم بن عبد الله[٦] ومحمد بن كعب[٧] فقال لهما: أَشِيرا عليّ؛ فقال له سالم: اجعلِ الناسَ أبًا وأخًا

= وما بعدها.

(١) إحن جمع إحنة: حقد في الصدر. اللسان، مادة أحن.

(٢) محق: النقص وذهاب البركة. اللسان مادة محق.

(٣) نكب عنها: مال عنها. اللسان مادة نكب.

(٤) مَن أعطي حظه من الرفق فقد أعطي الخير كلّه.

(٥) عمر بن عبد العزيز: انظر هامش ١ صفحة ٣٣.

(٦) سالم بن عبد الله: ورد ذكره في البيان والتبيين ٣/ ٨٦ و١٨٧.

(٧) محمد بن كعب: ورد ذكره في البيان والتبيين ٢/ ١٩٨.

وابنًا، فبِرَّ أباك، واحفظْ أخاك، وارحمْ ابنك. وقال محمد بن كعب: أحببْ للناس ما تُحبُّ لنفسك، واكْرَهْ لهم ما تَكْرَهُ لنفسك، واعلمْ أنك أوّلُ خليفة يموت.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِيّ بن أَرْطَاةَ(١): أما بعد، فإذا أمكنتْك القدرةُ على المخلوق فاذكرْ قدرةَ الخالقِ عليك، واعلمْ أن ما لَك عند الله مثلُ ما للرعيّة عندك.

وقال المنصور(٢) لابنه المهديّ(٣): يا بُنيّ لا تُبْرِم أمرًا حتى تفكّر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناتِه وسيئاتِه؛ واعلم أن الخليفةَ لا يُصلِحه إلا التقوى، والسلطانَ لا يُصلِحه إلا الطاعة، والرعية لا يُصلحها إلا العدل؛ وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلًا مَن ظلم مَن هو دونه.

وقال خالد بن عبد الله القَسْريّ(٤) لبلال بن أبي بُرْدَة: لا يحمِلَنّك فضلُ المقدرة على شدّة السَّطْوة، ولا تطلبْ من رعيّتك إلا ما تبذُلُه لها، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: الآية ١٢٨].

وقيل: لما انصرف مَرْوان بن الحَكَم(٥) من مصر إلى الشام، استعمل ابنه عبد العزيز على مصر، وقال له حين ودّعه: أرسلْ حكيمًا ولا تُوصِه؛ انظر أَيْ بُنيّ إلى أهل عملك؛ فإن كان لهم عندك حقٌّ غُدْوةً فلا تُؤخِّره إلى عَشِيّة، وإن كان لهم

(١) عدي بن أرطاة: ذكره الجاحظ في ١/ ١٠٢، البيان والتبيين ٢/ ١٧٠.

(٢) المنصور: هامش ١ صفحة ١٣.

(٣) المهدي: أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ١٢٧ هـ/ ١٦٩ هـ تولّى الخلافة سنة ١٥٨ هـ مدة عشر سنين، قيل مات مسمومًا، صلّى عليه هارون الرشيد لأن موسى الهادي كان غائبًا. كان محببًا لأنه نظر في المظالم. كريمًا وزع ما جمعه المنصور وما جمع من الضرائب في أيامه. . . ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٢٤٥ وما بعده.

(٤) خالد بن عبد الله القسري: أبو الهيثم من بجيلة، تولّى للأمويين مكة والعراقين، يماني الأصل، أحد خطباء العرب وأجوادهم. ذكره الجاحظ في البيان والتبيين: ١/ ١٧١، ٢/ ١٤٠.

(٥) مروان بن الحكم: هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يكنّى بأبي عبد الملك. تولّى الخلافة بعد معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان مدة تسعة أشهر. كان مضطربًا، إذ كانت السيطرة لعبد الله بن الزبير في الحجاز والعراقين ومصر وفي بعض بلاد الشام (حمص). ولما قضى ابن الزبير على المختار الثقفي وحركته، انصرف لمعالجة أمر ابن الزبير. لكنه توفي وهناك خلاف في سبب وفاته: فمنهم من رأى أنه طعن أو مات حتف أنفه أو خنقته فاختة أم خالد بن يزيد بن معاوية وهو الأغلب. انظر فيه: =

عشِيّةً فلا تُؤخِّره إلى غدوة، وأعطهم حقوقَهم عند مَحلِّها تستوجبْ بذلك الطاعةَ منهم. وإيّاك أن يظهر لرعيّتك منك كَذِبٌ، فإنهم إن ظَهَر لهم منك كَذِب لم يصدّقوك في الحق. واستشرْ جلساءَك وأهلَ العلم، فإن لم يستَبِنْ لك فاكتبْ إليّ يأتِك رأيي فيه إن شاء الله. وإن كان بك غَضَبٌ على أحد من رعيّتك فلا تُؤاخِذه به عند سَوْرَة الغضب، واحبِس عقوبتَك حتى يسكُنَ غضبُك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكنُ الغضبِ مُطفأُ الجمرة، فإنّ أوّلَ من جعل السجنَ كان حليمًا ذا أناة؛ ثم انظرْ إلى أهل الحسبِ والدِّين والمروءة، فليَكونوا أصحابَك وجلساءَك، ثم ارفعْ منازلهم منك على غيرهم على غير استرسال ولا انقباض. أقولُ هذا وأستخلفُ الله عليك.

الباب السادس

من القسم الخامس من الفن الثاني في حسن السياسة، وإقامة المملكة، ويتّصل به الحزمُ، والعزمُ، وانتهازُ الفرصة، والحلم، والعفو، والعقوبة، والانتقام

فأما ما قيل في حسنِ السياسة وإقامةِ المملكة؛ قالوا: مَن طلب الرياسةَ فليصبِرْ على مَضَض السياسة. ويقال: إذا صحّت السياسة تمّت الرياسة.

كتب الوليد بن عبد الملك(١) إلى الحجّاج بن يوسف(٢) يأمره أن يكتبَ إليه بسيرته فكتب إليه: إنّي أيقظتُ رأيي وأَنَمْتُ هواي، وأدنيتُ السيِّدَ المُطاعَ في قومه، ووليّت الحربَ الحازمَ في أمره، وقلّدتُ الخَراجَ الموفَّرَ لأمانته، وقسمتُ لكلّ خَصْم من نفسي قِسْمًا، أعطيته حظًّا من لطيف عنايتي ونظري، وصرَفت السيفَ إلى

= المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٦٦ وما بعدها.

(١) الوليد بن عبد الملك: انظر هامش ٤ صفحة ١٢.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي: ٤١ هـ - ٩٥ هـ. تولّى الكوفة لعبد الملك بن مروان وضم إليه البصرة مدة عشرين سنة. كان خطيبًا مفوّهًا، حاكمًا حازمًا، سفاكًا للدماء. قاتل الخوارج وأنهكهم، وقضى على ثورة ابن الأشعث. مات الحجاج وأحصي من قتله صبرًا سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجدوه مائة وعشرين ألفًا، ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفًا مجردة، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر من الشمس ولا من المطر والبرد. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٩٧ وما بعدها و١٢٨.

النَّطِف[١] المسيء، والثوابَ إلى المحسن البريء، فخاف المُريبُ صولةَ العقاب، وتمسّك المُحسن بحظّه من الثواب. وقال الوليدُ بن عبد الملك لأبيه: يا أبتِ، ما السياسةُ؟ فقال: هيبةُ الخاصّة مع صدق مَوَدّتها، واقتياد قلوب العامّة مع الإنصاف لها، واحتمال هَفَوات الصنائع[٢].

وقيل: بلغ بعضَ الملوكِ سياسةُ ملكٍ آخر فكتب إليه: قد بلغتَ من حسن السياسة مبلغًا لم يبلُغْه ملِك في زمانك، فأفِدْني الذي بلغتَ به ذلك؛ فكتب إليه: لم أهزِلْ في أمرٍ ولا نَهْيٍ ولا وعدٍ ولا وعيدٍ، واستكفيتُ أهل الكِفايةِ وأَثَبْتُ على العَنَاء لا على الهوى، وأودعتُ القلوبَ هيبةً لم يَشُبْها مَقْتٌ، ووُدًّا لم يَشُبْه كذِبٌ، وعمّمت القُوت، ومنعت الفضول. وقيل: إن أَنُو شِرْوان كان يُوَقِّع في عهود الولاة: سُسْ خيارَ الناس بالمحبّة، وامزُجْ للعامّة الرغبةَ بالرهبة. ولما قدِم سعدُ العشيرةِ في مائة من أولاده على مَلك حِمْيَر سأله عن صلاح المُلك؛ فقال: مَعْدِلَةٌ شائعةٌ، وهَيبةٌ وازعةٌ، ورعيّةٌ طائعةٌ؛ ففي المعدلة حياةُ الإمام، وفي الهيبة نفيٌ للظُّلّام وفي طاعة الرعية حسنُ التئام. وقال أبو مُعاذ للمتوكّل: إذا كنتم للناس أهلَ سياسة فسوسوا كرامَ الناس بالرفق والبذْل، وسوسوا لئامَ الناسِ بالذُّلّ يَصْلُحوا على الذلّ، إن الذلّ يُصلح النَّذْلَ. وقال أنو شِرْوانَ: الناس ثلاث طبقات، تسوسهم ثلاث سياسات، طبقةٌ هم خاصّةُ الأشرافِ، تسوسهم باللين والعطف، وطبقةٌ وهم خاصّة الأشرار، تسوسهم بالغِلْظة والعنف، وطبقةٌ هم العامّة، تسوسهم بالشدّة واللين.

وقال مُعاوية بن أبي سُفيان[٣]: إني لا أَضَعُ سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضعُ سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين العامّة شعرةً ما انقطعت؛ قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا جذبُوها أرخيتُها وإذا أرخَوْها جذبتُها. وقال المأمون[٤]: أسْوَسُ الملوكِ من ساس نفسه لرعيّتِه، فأسقطَ مواقعَ حُجّتها عنه وقطعَ مواقعَ حجّته عنها.

***

وأما ما قيل في الحزم والعزم وانتهاز الفُرصة؛ قال الحكماء: أحزمُ الملوكِ من قَهَر جدُّه هَزْلَه، وغلَب رأيُه هواه، وأعربَ عن ضميره فعلُه، ولم يختدعه رضاه عن

(١) النطف: المريب.
(٢) الصنائع: جمع صنيعة فلان: إذا اصطنعه وخرّجه وأدّبه وربّاه. اللسان، مادة صنع.
(٣) معاوية بن أبي سفيان: انظر هامش ١ صفحة ٦. (٤) المأمون: انظر هامش ٢ صفحة ١٠.

سخطه، ولا غضبُه عن كيده. وقيل لبعضهم: ما الحزمُ؟ فقال: التفكُّر في العواقب. وقال عبد الملك بن مروان[١] لابنه الوليد[٢]: يا بُنَيّ، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملِكَ الرعيَّةَ أو تملِكَهُ الرعيَّةُ إلّا حزمٌ أو تَوَانٍ. وقالوا: ينبغي للعاقل ألّا يستصغرَ شيئًا من الخطأ والزَّلَل، فإنّ من استصغر الصغيرَ يُوشك أن يقعَ في الكبير، فقد رأينا المُلْك يُؤتَى من العدوّ المحتَقَر، ورأينا الصِّحّة تُؤتَى من الداء اليسير، ورأينا الأنهارَ تنبثق من الجداول الصغار. وقال مَسْلَمة بن عبد الملك: ما أخذتُ أمرًا قطُّ بحزم فلُمْتُ نفسي فيه وإن كانت العاقبةُ عليَّ، ولا أخذتُ أمرًا قطّ وضيّعت الحزمَ فيه فحمِدْتُ نفسي وإن كانت العاقبة لي. وقال عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: ما العزيمةُ في الأمر؟ فقال: إصدارُه إذا أُورد بالحزم؛ قال: وهل بينهما فرقٌ؟ قال: نعم، أمَا سمعتَ قول الشاعر: [من الكامل]

ليستْ تكونُ عزيمةٌ ما لم يَكُنْ ... معها من الحزم المشيِّد رافدُ

وقيل لملك سُلِبَ ملكَه: ما الذي سَلَبك ملكَك؟ فقال: دفعُ شغلِ اليوم إلى غد، والتماسُ عُدّة بتضييع عُدَد، واستكفاءُ كلِّ مخدوعٍ عن عقله. والمخدوع عن عقله: من بلغ قدرًا لا يستحقُّه أو أُثِيبَ ثوابًا لا يستوجبُه. وفي كُتُب للهند: الحازم يحذَر عدوَّه على كل حال، يحذر المُوَاثبةَ إن قرُب، والمغارة إن بعُد[٣]، والكمينَ إن انكشف، والاستطرادَ إن ولّى. وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة[٤]: إذا عرَف الملك أنّ رجلًا يُسَاوَى به في المنزلة والرأي والهِمّة والمال واتُّبعَ فليصْرَعْه، فإن لم يفعلْ فهو المصروع. وقيل: من لم يُقَدِّمْه حزمُه أخّره عجزُه. وقيل: من استقبل وجوهَ الآراء عرف مواقعَ الخطأ.

قال البُحْتُرِيّ[٥]: [من الطويل]

فَتًى لم يُضَيِّعْ وجهَ حزمٍ ولم يَبِتْ ... يُلَاحِظ أعجازَ الأُمورِ تَعقُّبا[٦]

(١) عبد الملك بن مروان: انظر هامش ٦ صفحة ٣٢.
(٢) الوليد بن عبد الملك: انظر هامش ٤ ص ١٢. (٣) المغارة: لعله أراد الإغارة فيستقيم النص.
(٤) صاحب كليلة ودمنة: ابن المقفع.
(٥) البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ولد في منبج سنة ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م وتوفاه الله في حلب سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م. اتصل بأبي تمام وقدم بغداد ومدح المتوكل، يرأس مدرسة في الشعر مقابل مدرسة أبي تمام. أحسن في الوصف. انظر فيه: ـ الأغاني لأبي الفرج ١٨/ ١٦٧ ـ ١٧٥ ـ ابن خلكان، ووفيات الأعيان، رقم ٧٤١. ـ ديوان البحتري. ـ بروكلمان تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٤٨ ـ ٥٢.
(٦) أعجاز الأمور: نهاياتها «اللسان»، مادة عجز.

ومثله قول آخر:

وخيرُ الأمرِ ما استقبلتَ منه ... وليس بأن تَتَبَّعَه اتّباعا

وقيل: من لم ينظرْ في العواقب فقد تعرّض لحادثات النوائب. قال الشاعر:

ومَنْ تركَ العواقِبَ مُهْمَلاتٍ ... فأيسرُ سَعْيِهِ أبدًا تَبَارُ

وقال صاحب كتاب كليلة ودمنة: رأسُ الحزمِ للملك معرفتُه بأصحابه وإنزالُهم منازلهم واتهامُ بعضهم على بعض، فإنه إنْ وجد بعضُهم إلى هلاك بعضٍ سبيلًا أو إلى تهجين بَلَاء المُبلين وإحسانِ المُحسنين والتغطيةِ على إساءة المُسيئين، سارَعوا إلى ذلك، واستحالوا[١] محاسنَ أمور المملكة، وهَجّنوا محاسن رأيه؛ ولم يَبْرَح منهم حاسد قد أفسد ناصحًا، وكاذبٌ قد اتّهم أمينًا، ومحتالٌ قد أغضب بريئًا. وليس ينبغي للملك أن يُفسد أهلَ الثقة في نفسه بغير أمرٍ يعرفه، بل ينبغي في فضل حلمه وبَسْطَةِ علمه الحَيْطَةُ على رأيه فيهم، والمحاماةُ على حُرمتهم وذِمامهم، وألّا يرتاحَ إلى إفسادهم، فلم يزل جُهّال الناس يحسُدون علماءهم، وجبناؤُهم شجعانَهم، ولئامُهم كرماءهم، وفجّارُهم أبرارَهم، وشِرارهُم خيارَهم.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[٢]: انتهِزوا هذه الفُرَصَ فإنها تمرّ مرّ السَّحاب، ولا تطلبوا أثرًا بعد عَيْن.

وكتب يزيد بن الوليد[٣] إلى مَرْوان بن محمد[٤]، وقد بلغه عنه تلكّؤٌ في بَيْعته: أما بعد، فإني أراك تُقدِّم رِجلًا وتؤخّرُ أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيِّهما شئت والسلام.

---

(١) استحالوا: جعلوا محاسن أمور المملكة محالًا.

(٢) علي بن أبي طالب: انظر هامش ٤ ص ٢٠.

(٣) يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان: أو يزيد الناقص، بويع بالخلافة بعد مقتل أبيه الوليد سنة ١٢٦ هـ. حكم خمسة أشهر حتى مات. فبويع بالأمر من بعده أخوه إبراهيم. كان يزيد أحول سمي الناقص لنقص في أعطيات الجند. كان يذهب مذهب المعتزلة. وبعدهما تولّى الأمر مروان بن محمد الذي قتل إبراهيم وبه مال نجم المروانيين إلى الأفول. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ١٧٣/٢ وما بعدها.

(٤) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك آخر خلفاء بني أمية ٦٢ هـ - ١٣٢ هـ. وهو الجعدي بويع سنة ١٢٧ هـ وانتهى ١٣٢ هـ بمعركة الزاب التي انتصرت فيها جموع أبي مسلم الخراساني على جيوش الأمويين. قتل ببوصير وهو هارب باتجاه المغرب العربي والأندلس. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ١٨٣/٢ وما بعدها.

وكتب عبد الله بن طاهر الخُراسانيّ(١) إلى الحسن بن عمر التَّغْلَبِيّ: أما بعد، فإنه بلغني من قَطْع الفَسَقةِ الطريقَ ما بلغني، فلا الطريقَ تَحمي، ولا اللصوصَ تَكْفِي، ولا الرعيةَ تُرضِي، وتطمعُ بعد هذا في الزيادة! إنك لمنفسِحُ الأمل! وايمُ اللهِ لتكفيَنَّ مَنْ قِبَلك أو لأُوجِّهنّ إليك رجالًا لا تعرِف مُرَّة بن جُشَم، ولا عَدِيًا من رُهْم. ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله.

وكتب الحجاج بن يوسف(٢) إلى قُتَيْبة بن مُسلم والي خُراسان: أما بعد، فإن وَكيع بن حسّانٍ(٣) كان بالبصرة منه ما كان، ثم صارَ لِصًّا بسِجِسْتَانَ، ثم صار إلى خُراسانَ، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدِم بناءَه واحلُلْ لواءَه. وكان على شُرْطة قُتَيْبة فعزله وولّى الضَّبِّي.

ذكر ما قيل في الحلم

الحلمُ دفع السيئة بالحسنة. وقيل: تجرُّع الغيظ. وقيل: الحلمُ دِعَامةُ العقل، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصّلَت: الآيتان ٣٤، ٣٥].

وقال عليّ(٤) رضي الله عنه: حلمُك عن السفيه يُكثر أنصارَك عليه.

وقيل: ليس الحليم من إذا ظُلِم حَلُمَ حتى إذا قَدَر انتصر، ولكن الحليم من ظُلِم فإذا قدَر غفر.

وقيل: الحليم من لم يكن حِلْمه لفقد النُّصرة أو لعدم القدرة. وهو جوهرٌ في الإنسان يَصْدُر عن صدْر سالم من الغوائل والأذى، صافٍ من شوائب الكَدَر والقَذَى؛ لا يُستطاع تعلّمًا، ولا يُدرك تبصُّرًا وتفهّمًا؛ كما قال أبو الطيّب(٥):

---

(١) عبد الله بن طاهر: أمير خراسان، من أشهر الولاة والقادة العباسيين. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب: ٢/٣١٥ وما بعدها.

(٢) الحجاج بن يوسف: انظر هامش ٢ صفحة ٤٠. (٣) ابن حسان: قائد من قواد الخوارج.

(٤) علي بن أبي طالب: انظر هامش ٤ ص ٢٠.

(٥) أبو الطيب المتنبي: ٣٠٣ هـ/ ٩٠٥ م - ٣٥٤ هـ/ ٩٥٦ م أحمد بن الحسين الجعفي، أشهر شعراء زمانه، ولد في الكوفة، وشب في الشام، انضم للقرامطة وسجن في حمص، اتصل بسيف الدولة الحمداني في حلب وكانت فيه أفضل أشعاره، ثم رحل إلى مصر واتصل بكافور وقد منّى النفس بعمل ثم رحل إلى العراق وفارس حيث مدح عضد الدولة البويهي وفي طريق=

[من الخفيف]

وإذا الحلمُ لم يكن في طِباعٍ لم يُحلِّم تقادمُ الميلادِ(١)

ويدلّ على ذلك أنه غريزة في الإنسان. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأشجّ عبد القَيْس: «يا أبا المنذر إن فيك خَصْلتين يرضاهما الله ورسوله: الحلمُ والأناةُ» فقال: يا رسول الله، أشيءٌ جَبَلني الله عليه أم شيءٌ اخترعتُه من قِبَل نفسي؟ قال: «بل شيءٌ جَبَلك اللهُ عليه»؛ قال: الحمد لله الذي جبلني على خُلُق يرضاه الله ورسوله.

ومن الناس من يقول: إن الحلمَ ليس غريزةً ولا طبيعةً بل مكتسَب مستفاد، تتمرّن النفسُ الأبيّةُ عليه، وتنقاد حُبًّا في المحمَدة إليه.

وقالوا: الحلم بالتحلُّم كما أن العلم بالتعلّم. ويدلّ على ذلك ما حُكي عن جعفر الصادق أنه كان عنده عبد سيِّئُ الخُلُق، فقيل له: أما تأْنف من مثل هذا عندك وأنت قادر على الاستبدال به؟ فقال: إنما أتركه لأتعلَّم عليه الحلمَ. ويحكى عنه أنه كان إذا أذنبَ إليه عبدٌ أعتقه؛ فقيل له في ذلك؛ فقال: أريد بفعلي هذا تعلُّمَ الحلمِ. قال الشاعر: [من الطويل]

وليس يتمّ الحلمُ للمرء راضيًا إذا هو عند السُّخط لم يتحلَّمِ
كما لا يتِمّ الجُودُ للمرء مُوسرًا إذا هو عند القَتْر لم يتجشَّمِ

ورُوِيَ عن سَرِيّ السَّقَطِيّ أنه قال: الحلمُ على خمسة أوجه: حلم غريزيّ، وهو هِبة من الله للعبد، يعفو عمّن ظلَمه، ويَصِلُ من قطعه، ويُعطي مَن حرمه، ويُحسنُ لمن أساء إليه؛ وحلُم تحالُم، يَكْظِم غيظه رجاءَ الثواب وفي القلب كراهيةَ؛ وحلمُ كِبْر، لا يرى المسيءَ أهلًا أن يُجاريه؛ وحلمٌ مذمومٌ، رِياء وسُمعة وهو حاقد ساكت يُرائي به جلساءه؛ وحلمُ مَهانةٍ وذِلّة وعجزٍ وضعف نفسٍ وصِغَر هِمّة.

= عودته قتله فاتك الأسدي. ما يزال المتنبي يحتفظ بمجده الشعري وشهرته حتى اليوم. انظر فيه: ـ الديوان. ـ يتيمة الدهر للثعالبي ١/ ٧٨ ـ ١٦٢. ـ ابن خلكان رقم ٤٩. ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه لأحمد الجرجاني. ـ المتنبي ماله وما عليه للثعالبي. ـ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عباد. ـ الإبانة من سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد العامدي. ـ الرسالة الحاتمية في ذكر سرقات المتنبي لمحمد بن الحاتمي البغدادي. ـ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ليوسف البديعي. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٨١ وما بعدها.

(١) وهو في الديوان:
وإذا الحلم لم يكن عن طباع لم يكن عن تقادم الميلاد

وقال أبو هلال العسكريّ[١]: أجمع كلمةٍ سمعناها في الحلم ما سمعتُ عَمَّ أبي يقول: الحليمُ ذليلٌ عزيزٌ؛ وذلك أن صورة الحليم صُورة الذليل الذي لا انتصارَ له، واحتمال السفيه والتغافل عنه في ظاهر الحال وذلّ وإن لم يكن به. وقيل: «الحليم مطيّة الجهول» لاحتماله جهلَه وترْكه الانتصافَ منه. وقال الأوّل: البيتين وقد تقدّما.

ولهذا قال شيخٌ من الأعراب وقد قيل له: ما الحلمُ؟ فقال: الذي تصبِرُ عليه. وقال: الحلم عقال الشرّ، وذلك أن من سمع مَكروهةً فسكت عنها انقطعت عنه أسبابها، وإن أجاب اتصلت بأمثالها.

وقالوا: الحلمُ والأناة توءمان ينتجهما علوّ الهمة.

ومن كلام النبوّة: «كاد الحليمُ أن يكون نبيًّا».

ورأى حكيمٌ رِقّةً من مَلِك فقال: أيها الملك! ليس التاجُ الذي يفتَخِر به عظماء الملوك فِضّةً ولا ذَهَبًا، ولكنه الوَقَارُ المكَلّلُ بجواهرِ الحلم، وأحقُّ الملوك بالبَسْطة، مَن حَلُم عند ظهور السَّقطة.

وقال معاوية لابنه يزيد[٢]: عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمْكنك الفُرصةُ، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك مُعضِلات الأمور، ويَقيك مصارع المحذور. وقال أيضًا: أفضل ما أُعطِيَ الرجُلُ الحلمُ. وقال: ما وجدتُ لذّةً هي عندي ألذُّ من غيظٍ أتجرّعه وسَفَهٍ بحلم أقمَعُهُ.

وقالوا: الحلمُ مطيّةٌ وطِيئةٌ تبلّغُ راكبَها قاصية المَجْد، وتملّكه ناصيةَ الحمد.

---

(١) أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م. انظر فيه: ـ الإرشاد لياقوت ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٩. ـ بغية الوعاة للسيوطي: ص ٢٢١. ـ جمهرة الأمثال. ـ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. ـ ديوان المعاني. ـ كتاب المعجم في بغية الأشياء. ـ شرح ديوان أبي محجن. ـ كتاب الأوائل. ـ الفروق اللغوية وله مختصر اللمع في الفروق. ـ رسالة في ضبط وتحرير مواضع من ديوان الحماسة لأبي تمام. ـ النوادر في العربية. ـ كتاب الكرماء. ـ الحث على طلب العلم؛ والتلخيص في معرفة أسماء الأشياء. ـ المعرب عن المغرب؛ وتفسير القرآن. ـ أشعار متفرقة. ـ محاسن النثر والنظم؛ ومجموعة رسائل العسكري. ـ كتاب الدينار والدرهم ـ صنعة الكلام ـ وشرح الفصيح. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٢٥٢ وما بعده.

(٢) معاوية ويزيد: انظر هامش ١ صفحة ٦.

وقال أبو هلال[1]: ومن أشرفِ نُعوتِ الإنسان أن يُدعى حليمًا، لأنه لا يُدعاه حتى يكون عاقلًا وعالمًا ومُصْطَبِرًا مُحتسِبًا وعَفُوًّا وصافحًا ومُحتمِلًا وكاظمًا. وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخِصال.

ذكر أخبار من اشتهر بالحلم واتصف به

كان ممن اشتهر بالحلم الأحْنَف بن قيس[2]. قيل له: ممّن تعلّمت الحلمَ؟ قال: من قيس بن عاصم المِنْقَريّ، رأيته قاعدًا بفِناء داره مُحتَبِيًا بحمائل سيفِه يحدّث قومه، حتى أُتِيَ بمكتوف ورجلٍ مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنَك؛ قال: فوالله ما حَلّ حُبْوته ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال: يا ابن أخي أثِمت بربّك[3]، ورمَيْت نفسك بسَهْمك، وقتلت ابن عمك؛ ثم قال لابن له آخر: ثم يا بُنَيّ فوَارِ أخاك وحُلّ كِتَاف ابن عمك وسُق إلى أمّك مائة ناقةٍ دِيَة ابنها فإنها غَرِيبةٌ. وقد ساق أبو هلال هذه القصة بسند وزاد فيها زيادة حسنة نذكرها، فقال: إن قيس بن عاصم لما فرغ من حديثه التفت إلى بعض بَنِيه، فقال: قمْ إلى ابن عمك فأطلقْه، وإلى أخيك فادفِنْه. فبدأ بإطلاق القاتل قبل دفن المقتول. وقال في خبره: ثم اتّكأ على شِقّه الأيسر وقال: [من الكامل الأحذّ]

إنّـي امـرؤٌ لا يَـعْـتـري خُـلُـقـي ... دَنَــسٌ يُــفَــنِّــده ولا أَفَــنُ[4]
مـن مِـنْـقَـرٍ فـي بـيـت مَـكْـرُمـةٍ ... والـفـرع يـنـبُـت فـوقـه الـغُـصُـنُ
خُـطَـبـاءُ حـيـن يـقـولُ قـائـلُـهـم ... بـيـضُ الـوجـوه مَـصَـاقِـعٌ لُسُـنُ[5]
لا يَـفْـطِـنـون لـعـيـب جَـارِهـم ... وَهُـمُـو لـحِـفْـظ جِـوَارِهِ فُـطُـنُ

وقيل: قُتِل للأحنف بن قيس ولد وكان الذي قتله أخ للأحنف، فجيءَ به مكتوفًا لِيُقَيِّدَه؛ فلما رآه الأحنف بكى، وأنشد: [من البسيط]

أقـول لـلـنـفـس تَـأْسَـاءً[6] وتـعـزِيـةً ... إحدى يَـديَّ أصابـتـنـي ولـم تُـرِدِ
كـلاهـمـا خَـلَـفٌ من فَـقْـد صـاحـبـه ... هـذا أخي حـيـن أدعـوه وذا وَلَـدي

---

(١) أبو هلال العسكري: انظر هامش ١ صفحة ٤٦. (٢) الأحنف بن قيس: انظر هامش ١ صفحة ٣٧.
(٣) كذا بالأصل وهو خطأ لأن فعل (أثم) لا يتعدى بالباء فهو محرف عن (أشمت) من الشماتة. ولعل الأصل أشمت عدوك بك أو أشمت بي وبك عدونا أو نحو ذلك.
(٤) أفن: نقص في اللسان مادة أفن.
(٥) مصاقع لسن: خطيب مصقع: بليغ. الصقع: البلاغة في الكلام والوقوع على المعاني. اللسان مادة صقع. لسن: فصاحة. اللسن: جودة اللسان وسلاطته. اللسان مادة لسن.
(٦) تأساء: مؤاساة.

وممن اشتهر بالحلم «معاوية بن أبي سفيان»[(١)]. حُكِي أن رجلًا خاطر[(٢)] رجلًا أن يقوم إلى معاوية إذا سَجَد فيضع يده على كَفَلَه[(٣)] ويقول: سبحانَ الله يا أمير المؤمنين! ما أشبَهَ عجِيزَتَك[(٤)] بعجيزة أُمّك هند! ففعل ذلك؛ فلما انفتل معاوية عن صلاته قال له: يا أخي، إن أبا سفيان كان محتاجًا إلى ذلك منها؛ فخذ ما جعلوه لك. فأخذه؛ ثم خاطره آخر بعد ذلك أن يقوم إلى زِياد وهو في الخطبة فيقول: أيها الأميرُ، مَن أُمُّكَ، ففعل؛ فقال زياد: هذا يُخبرك، وأشار إلى صاحب الشُّرْطَة، فقدّمه وضرب عنُقه؛ فلما بلغ ذلك معاويةَ قال: ما قتله غيري، ولو أدّبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانية.

قيل: ودخل خُرَيْم الناعم على معاوية بن أبي سفيان فنظر معاوية إلى ساقَيْه، فقال: أيُّ ساقَيْن! لو أنهما على جارية! فقال له خُرَيم: في مثل عَجِيزتك يا أمير المؤمنين؛ فقال: واحدةٌ بواحدة والبادىء أظلم.

وقيل: خاطر رجل على أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول له: أيها الأمير، مَن أُمُّك؛ ففعل؛ فقال عمرو: النابغةُ بنت عبد الله أصابَتْها رماحُ العرب فبِيعت بعُكَاظ؛ فاشتراها عبد الله بن جُدْعان فوهبها للعاصي بن وائل فولدت له فأنجبت، فإن كانوا جعلوا لك شيئًا فخذه.

وقيل: أسمعَ رجل عمرَ بن عبد العزيز[(٥)] بعضَ ما يَكْره؛ فقال: لا عليك، إنما أردتَ أن يستفزّني الشيطانُ بعزّ السلطان فأنالَ منك اليومَ ما تناله منّي غَدًا، انصرف إذا شئت.

حكى صاحب العِقْد[(٦)] عن ابن عائشة أن رجلًا من أهل الشأم دخل المدينة، قال: فرأيتُ رجلًا راكبًا على بغلة لم أرَ أحسنَ وجهًا ولا سَمْتًا ولا ثوبًا ولا دابّةً منه، قال: فمال قلبي إليه، فسألت عنه، فقيل: هذا الحسن بن عليّ بن أبي طالب[(٧)]،

---

(١) معاوية بن أبي سفيان: انظر هامش ١ صفحة ٦. (٢) خاطر: راهن. اللسان مادة خطر.
(٣) كفل: عجز، المؤخرة. (٤) العجيزة: المؤخرة.
(٥) عمر بن عبد العزيز: انظر هامش ١ صفحة ٣٣.
(٦) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: ٢٤٦ هـ/ ٨٦٩ م - ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م. كان مولى الأمويين، كان شاعرًا مطبوعًا، يقال إنه أول الشعراء الكبار بالمغرب، نظم القصائد والموشحات أصيب بالفالج في أواخر أيامه. انظر فيه: - الثعالبي، اليتيمة، ١/ ٤١٢ - ٤٣٦. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٤٥. - العقد. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٣٩ وما بعدها.
(٧) الحسن بن علي بن أبي طالب: تولّى الخلافة بعد مقتل علي بيومين في شهر رمضان سنة ٤٠ هـ. =

فامتلأ قلبي بُغْضًا له وحسدت عليًا أن يكون له ولدٌ مثلُه، فصرت إليه فقلت: أنت ابن أبي طالب؟ قال: أنا ابن ابنه؛ قلتُ: قلتُ فيك وفي أبيك أشتُمهما، فلما انقضى كلامي، قال: أحسَبكَ غريبًا؛ فقلت: أجل؛ قال: فإن احتجتَ إلى منزل أنزلناك أو إلى مالٍ آسيناك أو إلى حاجةٍ عاونّاك؛ فانصرفت وما على الأرض أحبُّ إليَّ منه.

حدّث زياد عن مالك بن أنس قال: بعث إليّ أبو جعفر المنصور وإلى ابن طاوس؛ فأتينا فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضِدت، وبين يديه أَنْطَاعٌ[1] قد بُسِطت، وجَلاوِزَةٌ[2] بأيديهم السيوف يضربون بها الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسنا فجلسنا، ثم أطرقَ عنا طويلًا، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طَاوُس فقال: حدّثني عن أبيك؛ قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أشدَّ الناسِ عذابًا يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجورَ في عدله»؛ فأمسك ساعة؛ قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافةَ أن يملأني من دمه؛ ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عِظْني يا ابن طاوس؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: الآيات ٦ – ١٤]؛ قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني دمه؛ فأمسك ساعة حتى اسوَدَّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا ابن طاوس ناولْني هذه الدواة؛ فأمسك؛ فقال: ما يمنعك أن تُناوِلَنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصيةً لله فأكونَ شريكَك فيها؛ فلما سمع ذلك قال: قُوما عنّي؛ فقال ابن طاوس: ذلك ما كنّا نبغي منذ اليوم. قال مالك: فما زلتُ أعرف لابن طاوس فضلَه.

وقيل: دخل الحارث بنِ مسكين على المأمون[3] فسأله عن مسألة؛ فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك الرشيد؛ وذكر قوله فلم يُعجِب المأمونَ، فقال:

= وتم الصلح بين معاوية والحسن في ربيع الأول سنة ٤١ هـ. توفي بعدها مسمومًا. وهو والحسين سيدا شباب الجنة. تولّى الخلافة ثمانية أشهر وعشرة أيام. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٦١٩/١ وما بعدها.

(١) أنطاع: جمع نطع وهو بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بالإعدام. اللسان، مادة نطع.

(٢) جلاوزة: جمع جلواز: الشرطي، اللسان مادة جلز.

(٣) المأمون: انظر هامش ٢ صفحة ١٠.

لقد تَتَيّست فيها وتَتَيّس مالك؛ فقال الحارث بن مسكين: فالسامعُ يا أمير المؤمنين من التيسين أَتْيس؛ فتغيّر وجهُ المأمون، وقام الحارث وندم على ما كان منه؛ فلم يستقرّ في منزله حتى أتاه رسول المأمون، فأيقن بالشرّ ولبِس ثيابَ أكفانه، ثم أقبل حتى دخل عليه، فقرّبه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه وقال له: يا هذا، إنّ الله تبارك وتعالى قد أمر مَنْ هو خيرٌ منك بإلانة القولِ لمن هو شرٌّ منّي، قال لنبيّه موسى ﷺ إذا أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: الآية ٤٤]؛ فقال الحارث بن مسكين: يا أمير المؤمنين، أَبُوءُ بالذنبِ وأستغفرُ الربَّ؛ فقال: عفا الله عنك، انصرِف إذا شئت.

وقد مدح الشعراء ذوي الحلم، فمن ذلك قولُ بعضهم: [من البسيط]

لن يُدْرِكَ المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا ... حتّى يذِلُّوا - وإن عَزُّوا - لأقوام
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُسْفِرَةً ... لَا ذلَّ عجزٍ ولكنْ ذُلَّ أحلامِ[1]

وقال آخر: [من الطويل]

لقد أَسمعُ القولَ الذي هو كلّما ... تُذَكِّرُنِيهِ النفسُ قلبِي يُصَدّعُ
فأُبْدِي لمن أبداه منّي بشاشةً ... كأنّيَ مسرورٌ بما منه أسمعُ
وما ذاك من عجزٍ به غير أنّني ... أرَى أنَّ تَرْكَ الشرِّ للشرّ أدفعُ

وقال مِهْيار[2]: [من الكامل]

وإذا الإباءُ المُرُّ قال لك: انتقِمْ ... قالت خلائقُك الكرامُ: بل احلُمِ
شَرْعٌ من العفو انفردتَ بدينِهِ ... وفضيلةٌ لسواك لم تَتَقَدَّمِ
حتّى لقد وَدَّ البَرِيء لوَ انّهُ ... أدْلى إليك بفضل جاه المُجرِمِ

وقال آخر: [من السريع]

فدهرَهُ يَصْفَحُ عن قدرةٍ ... ويَغفِرُ الذنبَ على علمِهِ
كأنّه يأْنَفُ من أنْ يَرَى ... ذنبَ امرىءٍ أعظمَ من حلمِهِ

---

(١) مسفرة: مشرقة سرورًا.

(٢) مهيار الديلمي: أبو الحسن مهيار بن مرزويه، ديلمي الأصل مجوسي الديانة، تتلمذ للشريف الرضي وأسلم على يديه سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣ م. توفي سنة ٤٢٨ هـ/ ١٣٠٧ م. شاعر كبير في معانيه ابتكار. انظر فيه: ـ الباخرزي، دمية القصر، ص ٩٦. ـ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٣/ ٢٧٦. ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٧٢٦. ـ ديوان شعر. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٦٥ وما بعدها.

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

أَسَــدٌ عــلى أعــدائــهِ ما إن يَـذِلُّ ولا يَـهُـونُ
فـإذا تـمـكّـن مـنـهُـمُ فهناك أحلمُ ما يكونُ

وقال محمود الورّاق[1]: [من الكامل الأحذ]

إنّي وهبتُ لظالمي ظُلْمي وغـفـرتُ زَلَّتَهُ عـلى عـلمـي
ورأيــتُــهُ أسْــدَى إلــيّ يــدًا لَمّـا أَبَـان بـجـهـله حـلمـي
فـكـأنّـمـا الإحـسـانُ كـان لَهُ وأنا المسيءُ إليه في الحكم
مـا زال يـظـلِـمُـنِـي وأرحَـمُـهُ حتـى بَكَيْتُ لـهُ من الظُّلم

وقال آخر[2]: [من الطويل]

وذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِهِ بحلمِيَ عنهُ حين ليس له حلمُ
إذا سُمْتُهُ وصْلَ القرابةِ سَامَنِي قطيعتَها، تلك السفاهةُ والإثمُ
فـداويـتُـهُ بـالـحـلم، والـمرءُ قـادِرٌ على سهمه ما كان في كفِّه السهمُ
لأستلَّ منه الضِّغْنَ حتّى سللتُهُ وإن كان ذَا ضغنٍ يضيقُ به الحزمُ

وقد كرِه بعضهم الحلمَ في كل الأمور، فمن ذلك ما أنشد المبرّد: [من الطويل]

أبا حَسَنٍ ما أقبحَ الجهلَ بالفَتَى ولَلْحِلْمُ أحيانًا من الجهل أقبحُ
إذا كـان حـلمُ الـمرْءِ عـونَ عـدوِّهِ عـليه فـإنّ الـجـهـلَ أَغْـفَـى وأروحُ

---

(١) محمود الوراق: ٢٣٠ هـ. كان أكثر شعره مواعظ وحكمًا وأمثالًا. انظر فيه: ـ ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٣٦٧. ـ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٣/٨٧. ـ الكتبي، فوات الوفيات، رقم ٤٦٢. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، هامش ص ٧٤٥.

(٢) معن بن أوس المزني رضيع عبد الله بن الزبير، وكان مصاحبًا له وكف في آخر عمره. وفي رواية للزبير هو القائل:

لـسـنـا وإن كـرمـت أوائـلـنـا يومًا على الأحساب نتكل
نـبـنـي كـمـا كـانـت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

انظر: ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٣٩٩ وما بعدها. ـ الأصفهاني، الأغاني (ساسي) ١٠/ ١٥٦. ـ نشرت أشعاره مع الشرح في ليبزغ سنة ١٩٠٣ Gedichte des M.B.A. arabe texte u.cmt hag. u.p. schwarz leipzig. ـ مصطفى كمال، معن بن أوس حياته وشعره وأخباره، القاهرة سنة ١٩٢٧.

وقال آخر: [من الطويل]

ترفّعتُ عن شتم العشيرةِ إنّني رأيتُ أبي قد عفَّ عن شتمهم قبلي
حليمٌ إذا ما الحلمُ كان جلالة(١) وأجهلُ أحيانًا إذا التمسوا جهلي

وقال آخر: [من الطويل]

إذا الحلمُ لم ينفعْكَ فالجهلُ أحزمُ

وقال الأحنف: آفةُ الحلم الذُّلُّ. وقال: لا حلمَ لمن لا سفيه له. وقال: ما قلّ سفهاءُ قومٍ إلا ذَلُّوا. وقال النابغَة الجَعْديّ(٢): [من الطويل]

ولا خيرَ في حلم إذا لم تكن لَهُ بوادرُ تَحْمِي صفوَهُ أن يُكَدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أوْرد الأمرَ أصدرا

ولما أنشدَ هذين البيتين النبيَّ ﷺ قال: «أجدت لا يفْضُضِ الله فاك»؛ قال: فعاش مائةً وثلاثين سنة لم تنفضّ له ثَنِيّة.

وقال كعب بن زُهَيْر(٣): [من الطويل]

إذا أنت لم تُعْرِضْ عن الجهلِ والخَنَا أصبتَ حليمًا أو أصابك جاهلُ(٤)

---

(١) انظر فيه: ـ أبو هلال العسكري، ديوان المعاني. ـ الأصفهاني، الأغاني (طبعة بولاق) ١٣/ ٥٦.

(٢) النابغة الجعدي سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م. أبو ليلى عبد الله بن قيس من بني ثعلبة من بني جعدة بن كعب. ولد في الفلج جنوبي نجد، وفد على الرسول سنة ٩ هـ/ ٦٣٠ م وشهد فتح فارس، وحارب مع علي يوم صفين، ومات معمرًا بأصبهان. انظر فيه: ـ الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٢٦ ـ ٢٨. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٥٨ ـ ١٦٤. ـ الأصفهاني، الأغاني (بولاق) ٤/ ١٢٨ ـ ١٤٠. دار الكتب: ٥/ ١ ـ ٣٤. ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٣٢١. ـ هناك قطعة من ديوانه بالموصل (مخطوطات الموصل لداود الحلبي ص ٩٩). ـ جمعت ماريا نلينو قطعًا من شعره. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٣٢.

(٣) كعب بن زهير: ورث عن أبيه زهير بن أبي سلمى ملكة الشعر، أهدر الرسول دمه، لكنه عاد وأمنه وعفا عنه وأنشد قصيدة بانت سعاد فكساه الرسول بردة اشتراها معاوية فيما بعد بعشرين ألف درهم وهي التي كان يلبسها الخلفاء في العيدين. انظره في: ـ ابن هشام الأنصاري، السيرة، ص ٨٨٩. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٦٧ وما بعدها. ـ الأصفهاني، الأغاني (بولاق) ١٦/ ١٤٧ ـ ١٥١. ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٣٤٣. ـ ديوان كعب بن زهير. ـ القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص ١٤٨ ـ ١٥١. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٥٦ ـ ١٦٢.

(٤) الخنا: الفحش في الكلام، قبيح الكلام؛ وأخنى عليه الدهر: أهلكه. اللسان مادة خنا.

ذكر ما قيل في العفو

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّور: الآية ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشّورى: الآية ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمران: الآية ١٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: الآية ٢٣٧]. وقال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: الآية ١٠٩]. وقال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩].

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ العفوَ لا يزيدُ العبدَ إلا عزًّا فاعفُوا يُعِزُّكُم الله». وعنه ﷺ أنه قال: «إذا كان يومُ القيامة وجمع الله الخلقَ في صعيدٍ واحدٍ حيث يُسمعهم الداعي ويَنفُذُهم البصر يُنادِي مُنادٍ من تحت العرش ألَا مَنْ كان له على الله حقٌّ فليقُمْ فلا يقوم إلا مَنْ عفا عن مُجرم». وفي لفظٍ «ينادي منادٍ يوم القيامة ألَا من كان له أجرٌ على الله فليقمْ، فيقوم العافون عن الناس». وعنه ﷺ أنه قال: «ما من إمام عفا بعد قُدرة إلا قيل له يوم القيامة ادخل الجنّة بغير حساب». وقال مُعَاذ بن جبلٍ[1]: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لي: «يا مُعَاذ ما زال جبريلُ يُوصيني بالعفو فلولا عِلْمي بالله لظننت أنه يُوصيني بترك الحدود». وعنه ﷺ أنه قال: «من عفا عن مَظْلِمةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ فأجرُهُ على الله ومن كان أجرُهُ على الله فهو من المقرَّبين يوم القيامة».

وعن عليّ بن الحسين[2] أنه قال: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: ليقُمْ أهلُ الفضلِ فيقوم ناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم الملائكةُ وهم سائرون فيقولون لهم: أين تريدون؟ فيقولون: الجنة؛ فيقولون لهم: قبل الحساب؟ فيقولون: نعم؛ فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الفضل؛ فيقولون: وما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا جُهِل علينا حَلُمْنا، وإذا ظُلِمنا صَبَرْنَا، وإذا أُسيءَ إلينا عفونا؛ فيقولون: يحِقّ لكم أن تكونوا من أهل الجنّة فنعم أجر العاملين.

(١) معاذ بن جبل.

(٢) علي بن الحسين ٣٨ هـ - ٩٥ هـ هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب زين العابدين والسجاد وذو الثفنات. الإمام الرابع لدى الشيعة، ومنه كعقب الحسين بن علي. كان زاهدًا بعيدًا عن حركات التمرد والسياسة القائمة في عهد الأمويين. تقوم شهرته على الأدعية المنسوبة إليه. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ١٢٣/٢.

وقيل لأبي الدَّرْدَاء[١]: مَن أعزُّ الناس؟ فقال: الذين يعفُون إذا قَدَرُوا؛ فاعفوا يُعزّكم اللهُ تعالى.

قيل: حدُّ العفوِ تركُ المكافأةِ عند القدرة قولًا وفعلًا. وقيل: هو السكون عند الأحوال المهيِّجة للانتقام.

قال الأحنف[٢]: إياك وحَمِيَّةَ الأوغادِ؛ قيل: وما هي؟ قال: يَرَوْن العفو مَغْرمًا والتحمُّلَ مَغْنمًا.

وقيل لبعضهم: هل لك في الإنصاف، أو ما هو خيرٌ من الإنصاف؟ فقال: وما هو خيرٌ من الإنصاف؟ فقال: العفو.

وقيل: العفوُ زكاةُ النفسِ. وقيل: لذّةُ العفوِ أطيبُ من لذّة التَّشفِّي؛ لأن لذة العفو يلحقها حَمْدُ العاقبة، ولذة التشفِّي يلحقها ذمّ الندم.

وقيل للإسكندر: أيُّ شيءٍ أنت أسرّ به مما ملكت؟ فقال: مكافأةُ مَن أحسن إليّ بأكثرَ من إحسانه، وعفوي عمّن أساء بعد قدرتي عليه.

قال أشجع[٣]: [من الكامل المرفّل]

يعفُو عن الذنبِ العظيـ ـمِ وليس يُعجِزُه انتصارُهْ
صفحًا عن الجاني عليـ ـه ولو حاط به اقتدارُهْ

وقال المتنبّي[٤]: [من الوافر]

فَتَى لا تَسْلُبُ القَتْلى يداهُ ويسلُبُ عفوُه الأَسْرى الوَثَاقا

---

(١) أبو الدرداء: هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الخزرجي الأنصاري، صحابي من حكماء الفرسان من القضاة النساك.

(٢) الأحنف بن قيس: انظر هامش ١ صفحة ٣٧.

(٣) أشجع بن عمرو السلمي أبو الوليد من بني سُلَيم من قيس عيلان. شاعر فحل، اتصل بالبرامكة ومدح الرشيد ورثى البرامكة. ولد باليمامة ونشأ بالبصرة. انظر فيه: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، رقم ٢٠٦ ص ٧٥٨ ـ ٧٦٢. ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٧/ ٣٠ وما بعدها ودار الثقافة ١٨/ ١٤٣. ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٢٩٥. ـ ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٥١. ـ الصولي، الأوراق، قسم أخبار الشعراء. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٣٣ وما بعدها.

(٤) المتنبي: انظر هامش ٥ صفحة ٤٤.

وقال قابوس وشمكير[١]: العفوُ عن المذنب من واجباتِ الكرم.

وقالوا: العفوُ يَزين حالات مَن قَدَر، كما يزين الحَلْي قَبِيحات الصُّوَر.

وقال المنصور لولده المهديّ[٢]: لذّةُ العفو أطيبُ من لذّة التشفّي، وقد تقدّم ذكر الدليل. وقال الشاعر: [من الخفيف]

لـذّةُ الـعـفـوِ إن نـظـرت بـعـيـن الـ ـعـدلِ أشـفـى مـن لَذّة الانـتـقـامِ
هـذه تـكـسـبُ الـمـحـامـدَ والأجـ ـرَ وهـــذي تـــجـــيءُ بـــالآثـــام

قال عمر بن حبيب العَدَويّ: كنت في وفد أهل البَصرة لما قَدِموا على المنصور يسألونه أن يُولّيَ عليهم قاضيًا، فبينا نحن عنده إذ جيء برجل مُصَفَّد بالحديد، يدُه مغلولة في عنقه، فوقف بين يديه فساءله طويلًا، ثم بُسِط له نِطْع وأَمَر بضرب عنقه، والرجل يَحْلِف وهو يُكذِّبه، ولم يتكلّمْ أحدٌ من الجمع، فقمت وكنت أحدَثَهم سِنًّا فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أتأذنُ لي في الكلام؟ فقال: قل؛ قلتُ: يُروى عن ابن عمِّك رسولِ الله ﷺ أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه المسلم فلم يقبل لم يَرِد على الحوض»، وقد اعتذر إليك فاقبَلْ منه عُذْرَه؛ فقال: يا غلام اضرِب عنقَه؛ قلت: إن أباك حدَّثني عن جَدِّك عن ابن عبّاس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ من تحت العرش ليقم كل من كان له عند الله يَدٌ فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه المسلم»، فقال: اللهِ أبي حدّثك؟ فقلت: آللهِ إن أباك حدّثني عن جَدِّك عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ؛ فقال أبو جعفر: صدق، حدّثني أبي عن جَدّي عن ابن عباس بهذا؛ فقال: يا غلام خَلِّ له السبيلَ، وأمر له بجائزة وولّاني قضاء البصرة.

وقيل: أُتيَ المأمونُ[٣] برجل يريد أن يقتله وعليّ بن موسى الرِّضا[٤] جالس،

---

(١) قابوس وشمكير: سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠٦٢ م. شمس المعالي قابوس بن أبي طاهر وشمكير الجيلي ولي بعد وفاة أخيه سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م إمارة جرجان وطبرستان، لكنه فقد ملكه وتغلّب عليه بنو بويه ونفوه، ولما توفي فخر الدولة البويهي استعاد ملكه سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٨٨ م. وبسبب ولوغه في الدماء اتفق القواد على خلعه وتولّى ابنه السلطة فحبسه ومات في الحبس. انظر فيه: ـ الثعالبي، اليتيمة، ٣/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠. ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم ٥١٢. ـ كمال البلغاء (رسائل) نشرها في القاهرة نعمان الأعظمي ومحب الدين الخطيب سنة ١٣٤١ هـ. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١٢١ وما بعدها.

(٢) المنصور والمهدي: انظر هامش ١ صفحة ١٣ ثم هامش ٣ صفحة ٣٣.

(٣) المأمون: انظر هامش ٢ صفحة ١٠.

(٤) علي بن موسى الرضا: علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي=

فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: أقول: إن الله تعالى لا يزيدك بحسن العفو إلا عِزًّا؛ فعفا عنه. وكان المأمونُ مُؤْثِرًا للعفو كأنه غريزةٌ له؛ وهو الذي يقول: لقد حُبِّب إليّ العفوُ حتى إني أظُنّ أني لا أُثاب عليه. وأُحْضِر إلى المأمون رجلٌ قد أذنب، فقال له المأمون: أنت الذي فعل كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أنا الذي أَسْرف على نفسه واتكل على عفوك؛ فعفا عنه.

قال: ولما ظَفِر المأمون بإبراهيم بن المهديّ[1] أمر بإدخاله عليه، فلما مَثُل بين يديه قال: ولَيُّ الثأر مُحَكَّم في القِصاص، والعفوُ أقربُ للتقوى، والقدرةُ تُذهِبُ الحَفِيظة، ومن مَدّ له الاعتذارُ في الأمل هجمت به الأناةُ على التلف، وقد جعل الله كلّ ذنب دون عفوك، فإن صفَحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقّك[2]؛ قال المأمون: إني شاورت أبا إسحٰق والعبّاسَ في قتلك فأشارا عليّ به؛ قال: أمّا أن يكونا قد نصحاك في عِظَم قدْرِ الملك ولمَا جرت عليه السياسة فقد فعلا، ولكن أبيتَ أن تستجلبَ النصرَ إلا من حيث عوّدك الله، ثم استعبرَ باكيًا؛ فقال له المأمون: ما يُبكيك؟ قال: جَذَلًا إذ كان ذنبي إلي مَن هذه صفتُه، ثم قال: إنه وإن كان جُرْمي بلغ سَفْكَ دمي فحِلْمُ أمير المؤمنين وفضلُه يُبلِّغانِي عفوَه، ولي بعد هذا شُفْعةُ الإقرار بالذنب وحُرمةُ الأب بعد الأب؛ قال المأمون: لو لم يكن في حق نسبك ما يُبَلِّغ الصفحَ عن جُرْمك لبلّغك إليه حسن تنصُّلك. فكان تصويبُ إبراهيم لرأي أبي إسحٰق والعباس ألطفَ في طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما. ثم قال المأمون لإسحٰق بن العبّاس: لا تحسَبَنّي أغفلتُ إجلابك مع ابن المهديّ وتأييدَك لرأيه وإيقادَك لناره؛ فقال: واللهِ لإجرامُ قريش إلى رسول الله ﷺ أعظمُ من جُرمي إليك، ولَرَحِمِي أمسّ من أرحامهم، وقد قال لهم رسول الله ﷺ كما قال يوسف لإخـــوتـــه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

= طالب هو الإمام الثامن لدى الشيعة الإمامية. جعله المأمون وليًا للعهد، لكن ما لبث أن توفي في ظروف غامضة. كنيته أبو الحسن. ولد بالمدينة وقد زوجه المأمون ابنته أم حبيبة، فكانت إحدى الأختين زوج علي والأخت الثانية زوج ابنه محمد بن علي بن موسى.

(١) إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة وهو عم الخليفة المأمون. وكان المأمون يظهر التشيع وعمه يظهر التسنن. خرج على المأمون ثم اختفى، وبث المأمون العيون حتى ظفر به سنة سبع ومائتين في زي امرأة. وقد صنّف يوسف بن إبراهيم الكاتب صاحب إبراهيم بن المهدي كتبًا منها كتاب إبراهيم بن المهدي. اهتم بالموسيقى وهو صاحب مدرسة في الغناء يعتبر علمًا من أعلامهما. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٢/٣٢٩ وما بعدها.

(٢) ورد النص مع بعض التحريف في مروج الذهب، المصدر عينه.

[يُوسُف: الآية ٩٢]، وأنت يا أمير المؤمنين أحقُّ وارث لهذه المِنّة ومتمثّلٍ بها؛ قال: هيهات! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام، وجُرْمك جرمٌ في إسلامك في دار خلافتك؛ قال يا أمير المؤمنين، فوالله لَلْمسلمُ أحقُّ بإقالة العَثْرة وغُفْران الذنب من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك، يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٣] الآية إلى ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤]، فهي للناس يا أمير المؤمنين سُنّة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف؛ قال: صدقتَ، اجلس وَرِيَت[1] بك زِنَادي، وعفا عنه.

وقال أحمد بن أبي دُؤاد[2]: ما رأيت رجلًا نزل به الموت فما شَغَله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جَمِيل، فإنه كان تغلّب على شاطىء الفرات فظُفِر به، وَوافَى به الرسول بابَ المعتصم[3] في يوم المَوْكِب في حين جلوسه للعامّة فأُدخِل عليه، فلما مَثُل بين يديه دعا بالنِّطْع والسيف فأُحضِرا، وجعل تَميمُ بن جَمِيل يُصعِّد النظرَ إلى ذلك ولا يقول شيئًا، وجعل المعتصم يُصعِّد النظر فيه ويصوِّبه، وكان جسيمًا وَسِيمًا، فرأى أن يستنطِقه ليَنظُرَ أين جَنَانُه ولسانُه من منْظَره، فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأْتِ به أو حُجّةٌ فأَدْلِ بها؛ فقال: أَمّا إذ قد أَذِنت لي يا أمير المؤمنين بالكلام فإني أقول: الحمدُ لله الذي أحسن كلّ شيء خَلْقه وبدأ خَلْق الإنسانِ من طين، ثم جعل نَسْلَه من سُلَالة من ماء مَهِين، يا أمير المؤمنين جبرَ الله بك صَدْعَ الدِّين، ولأَمَ بك شَعَب الأُمّة، وأخمد بك شِهابَ الباطل، وأوضح بك سِرَاجَ الحقّ؛ يا أميرَ المؤمنين، إن الذنوبَ تُخرسُ الألسنة، وتَصدَعُ الأفئدة، ولقد عظُمت الجريرة وكبُر الذنب وساء الظنّ، ولم يبق إلا عفوُك أو انتقامُك، وأرجو أن

---

(١) ورى الزند: أخرج النار اللسان مادة ورى.

(٢) أحمد بن أبي دؤاد سنة ٢٤٠ هـ لقب جعفر بن محمد بن هارون الرشيد بالمتوكل على الله سنة ٢٣٢ هـ. من رؤوس المعتزلة، غلب على المعتصم والواثق الذي فوضه مع محمد بن عبد الملك الزيات أمر السلطة فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعتب عليهما فيما رأياه وقلدهما الأمر وفوّض إليهما ملكه. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٣٦١ و٣٧٥ و٣٩١. ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٩٠.

(٣) المعتصم: محمد بن هارون الرشيد ١٨٠ هـ/ ٢٢٧ هـ يكنى بأبي إسحٰق تولّى الخلافة بعد الرشيد سنة ٢١٨ هـ غلب عليه ابن الزيات وابن أبي دؤاد، وكان من أهل العدل يرى رأي المعتزلة. كان ذا بأس ويحب العمارة. نقل العاصمة إلى سامراء لما تأذّى الناس بالأتراك. فتك ببابك وبالأفشين والمازيار. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٣٦١ وما بعدها.

يكون أقربُهما منك وأسرعهما إليك أَوْلاهما بإمامتك وأشبَهَهما بخلافتك، ثم أنشد: [من الطويل]

أرى الموتَ بين السيف والنِّطْعِ كامنًا ... يُلاحِظُني من حيثُما أتلفّتُ[1]
وأكبرُ ظنِّي أنّك اليومَ قاتلي ... وأيُّ امرىءٍ مما قضى اللهُ يُفْلِتُ!
ومن ذا الذي يُدْلِي بعُذرٍ وحُجَّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ
يعِزُّ على أبناء تغلِبَ موقِفٌ ... يُسَلّ عليَّ السيفُ فيه وأسكُتُ
وما جزعي من أن أموت وإنّني ... لأعلمُ أنّ الموتَ شيءٌ مُؤَقّتُ
ولكنّ خَلْفي صِبْيَةً قد تركتُهم ... وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتَّت
كأني أراهم حين أُنْعَى إليهِمُ ... وقد خَمَشوا تلك الوجوهَ وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغِبْطةٍ ... أَذودُ الردى عنهم وإن مُتُّ مُوّتوا
وكم قائلٍ: لا يُبعِدِ اللهُ دارَه ... وآخرَ جذلانٍ يُسَرُّ ويَشْمَتُ

قال: فتبسّم المعتصم[2] وقال: كادَ واللهِ يا تميمُ أن يَسبِق السيفُ العَذَل! اذهب فقد غفرتُ لك الهفوة وتركتك للصِّبْيَة.

وحُكِي: أن عبد الملك بن مَرْوان[3] غضِب على رجل فهرَب منه، فلما ظفِر به أمر بقتله؛ فقال له الرجل: إن الله قد فعل ما أحببتَ من الظفَر فافعل ما يُحبّه من العفو، فإن الانتقام عدلٌ والتجاوزَ فضلٌ، واللهُ يُحِبّ المحسِنين؛ فعفا عنه.

وحُكِيَ عن محمد بن حُمَيْد الطُّوسيّ أنه كان يومًا على غَدائه مع جلسائه إذا بصيحة عظيمة على باب داره، فرفع رأسَه وقال لبعض غِلمانه: ما هذه الضجّة؟ من كان على الباب فليدخلْ؛ فخرج الغلام ثم عاد إليه وقال: إن فلانًا أُخِذ وقد أُوثِق بالحديد والغِلمانُ ينتظرون أمرَك فيه؛ فرفع يده من الطعام؛ فقال رجلٌ من جلسائه: الحمدُ لله الذي أمكنك من عدوّك، فسبيلُه أن تسقِيَ الأرضَ من دمه؛ وأشار كلٌّ من جلسائه عليه بقتله على صفة اختارها، وهو ساكتٌ؛ ثم قال: يا غلامُ، فُكَّ عنه وَثَاقه ويدخلَ إلينا مكرّمًا، فأُدخِل عليه رجلٌ لا دمَ فيه؛ فلما رآه هشَّ إليه ورفع مجلِسَه وأمر بتجديد الطعام، وبسَطَه بالكلام ولَقَّمه حتى انتهى الطعام، ثم أمر له بِكُسوة حسنة وصِلة، وأمر بردِّه إلى أهله مكرَّمًا ولم يعاتبه على جُرْم ولا جنايةٍ، ثم التفت

---

(١) النطع: بساط من أدم. اللسان مادة نطع. (٢) المعتصم: انظر هامش ٣ صفحة ٥٧.
(٣) عبد الملك بن مروان: انظر هامش ٦ صفحة ٣٢.

إلى جلسائه وقال لهم: إنّ أفضلَ الأصحابِ من حضّ الصاحبَ على المكارم، ونهاه عن ارتكاب المآثم؛ وحسّن لصاحبه أن يجازي الإحسانَ بضِعْفه، والإساءةَ بصفحه؛ إنا إذا جازينا مَن أساء إلينا بمثلِ ما أساء فأين موقعُ الشكر على النعمة فيما أُتيح من الظفَر! إنه ينبغي لمن حضر مجالِسَ الملوك أن يُمسك إلا عن قولٍ سديدٍ وأمرٍ رشيد، فإنّ ذاك أدوَمُ للنعمة وأجمعُ للألفة؛ إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآيتان ٧٠ و٧١] الآية.

وقيل: بعث بعضُ الملوك في رجلٍ وَجَد عليه فظفِر به، فلما مَثُل بين يديه قال: أيها الأمير، إنّ الغضبَ شيطانٌ فاستعذْ بالله منه، وإنما خُلِق العفوُ للمذنب، والتجاوُزُ للمسيءِ، فلا يَضِيقُ عليّ ما يسعُ الرعيّةَ من حلمك وعفوك؛ فعفا عنه وأطلق سبيله.

وقال خالد بن عبد الله[1] لسليمان بن عبد الملك[2] حين وَجَد عليه: يا أميرَ المؤمنين، إنّ القدرةَ تُذْهِب الحَفيظة، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة، ونحن مُقِرُّون بالذنب، فإن تعفُ عنّي فأهلُ ذلك أنت، وإن تعاقِبْني فأهلُ ذلك أنا؛ فعفا عنه.

وقيل: أُتِي الحجاج[3] بأَسْرى من الخوارج، فأمر بضرب أعناقهم فقُتِلوا، حتى قُدِّم شابٌّ منهم فقال: واللهِ يا حجّاج إن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو؛ فقال الحجاج: أُفًّا لهذه الجِيفَ! أما كان فيهم من يقولُ مثلَ هذا! وأمسك عن القتل. وأُتي الحجاج بأسرى فأَمر بقتلهم، فقال له رجل منهم: لا جزاكَ الله يا حجّاجُ عن السُّنّة خيرًا، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمّد: الآية ٤]، فهذا قول الله تعالى في كتابه، وقال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق: [من الطويل]

وما نقتلُ الأَسْرَى ولكن نَفُكُّهم إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارم

فقال الحجّاج: ويحكَم! أَعَجِزْتم أن تخبروني ما أخبرني به هذا المنافق! وأمسك عمّن بقي.

---

(١) خالد بن عبد الله القسري أقره سليمان بن عبد الملك على مكة ثم ولّاه العراق، انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٣٥ وما بعدها.

(٢) سليمان بن عبد الملك: ٦٠ هـ ـ ٩٩ هـ بويع سنة ٩٦ هـ، وكان أكولًا ومعجبًا بنفسه انظره في مروج الذهب، ٢/ ١٣٥ ـ ١٤١.

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفي: انظر هامش ٢ صفحة ٤٠.

ذكر ما قيل في العقوبة والانتقام

ومن الناس من يرجِّح عقوبةَ المذنب على ذنبه، ومقابلةَ المسيءِ بما يستحقّه من نَكاله وضربه؛ ورأى أن العفوَ عن المجرم موجِبٌ لتكراره، والإحسانَ إلى المسيء مقتضٍ لإصراره؛ وقال: إنّ طِباع اللؤمِ التي حملته على ذلك لا ترتدعُ بالإحسان، ومرارةَ الذنبِ التي استحلاها لا تغيّرها حلاوةُ الغفران. وأخذ في ذلك بالكتاب والحديث، وقابل على الذنب القديم بالعذاب الحديث؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٤]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: الآية ١٢٦]. وقد أمر رسول الله ﷺ بقتل أبي عزّة، لِما كان يتعرّض له من أذى رسول الله ﷺ، وصلَب عُقْبة بن أبي مُعَيْطٍ يوم بَدْر إلى شجرة؛ فقال: يا رسول الله، أنا من بين قريش! قال: «نعم»؛ قال: فمن للصبية؟ قال: «النار». وقيل: إنه أوّل مصلوبٍ صُلِب في الإسلام. وكان النَّضْرُ بن الحارث بن كَلَدَة شديدَ العداوةِ لرسول الله ﷺ، فأُخِذ أسيرًا يوم بدر، فأمر النبيّ ﷺ بقتله، فقُتل صبرًا بيد عليّ بن أبي طالب. وقال عليّ رضي الله عنه: الخيرُ بالخير والبادىء أفضل، والشرّ بالشرّ والبادىءُ أظلم. وقال: «رُدَّ الْحَجَرَ من حيث جاءك»[(١)] فالشرّ لا يُدْفَعُ إلا بالشرّ؛ وأنشد[(٢)]: [من الطويل]

لئن كنتُ محتاجًا إلى الحِلم إنّني ... إلى الجهل في بعض الأحايينِ أَحْوجُ
ولِي فرسٌ للخيرِ بالخير مُلْجَمٌ ... ولي فرسٌ للشرّ بالشرّ مُسْرَجُ
فمَنْ رام تقويمي فإنّي مُقَوَّمٌ ... ومن رام تعويجي فإنّي مُعَوَّجُ

وقال الجاحظ: من قابل الإساءةَ بالإحسان فقد خالفَ اللهَ في تدبيره، وظنّ أن رحمةَ الله دون رحمته، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٢٣]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: الآية ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن

---

(١) ورد هذا المثل في مجمع الأمثال للميداني، ومعناه لا تقبل الضيم وارم من رماك.

(٢) هذه الأبيات الثلاثة للشاعر محمد بن وُهيب وقد وردت في عيون الأخبار لابن قتيبة، المجلد الأول، ص ٢٨٩ من ضمن مقطوعة تبلغ ستة أبيات خلال حديثه في كتاب السؤدد. ـ ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ٤ مجلدات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، بيروت، ط.، سنة ١٩٧٢، م ١، ص ٢٨٩. ـ الشاعر هو محمد بن وهيب الحميدي البصري كنيته أبو جعفر مدح المأمون والمعتصم، وهو شاعر مطبوع ومكثر. وقد ورد ذكره في معجم الشعراء للمرزباني وقد أورد له بيتين من الشعر. انظر: المرزباني، أبو عبد الله، معجم الشعراء، ط ١، مكتبة القدسي ودار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]. وقال أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ(١): من تعمّد الذنبَ فلا ترحمه دون العقوبة، فإنّ الأدبَ رِفقٌ، والرفقُ يُمْنٌ. قال أبو الطيّب المتنبيّ(٢): [من الطويل]

مِنَ الحلمِ أن تستعمِلَ الجهلَ دونهُ إذا اتّسعت في الحلمِ طُرْقُ المَظَالِم

وقالوا: تواضعْ للمحسنِ إليك وإن كان عبدًا حبشيًّا، وانتصِفْ ممن أساء إليك وإن كان حرًّا قرشيًّا.

وقال الشعبيّ(٣): يُعجبني الرجل إذا سِيم هوانًا دَعته الأنَفَة إلى المكافأة، وجَزَاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مِثْلها. ورُفِع كلامُه إلى الحجّاج بن يوسف الثقفيّ فقال: لله درُّهُ! أيُّ رجلٍ بين جنبيه! وتمثّل بقول الشاعر: [من الطويل]

ولا خيرَ في عِرضِ امرىءٍ لا يصونُهُ ولا خيرَ في حلمِ امرىءٍ ذَلّ جانِبُه

وقال رجل لابن سِيرين(٤): إنّي وقعتُ فيك فاجعلني في حِلّ؛ قال: ما أُحِبُّ أن أُحِلّ لك ما حرّم الله عليك. وقالوا: مَن ترك العقوبةَ أغرى بالذنب، ولولا السيفُ كثُر الحيفُ. قال الشاعر: [من الطويل]

إذا المرءُ أولاكَ الهوانَ فأَوْلِهِ هوانًا وإن كانت قريبًا أَواصرُهْ
وإنْ أنت لم تقدِرْ على أن تُهِينَه فدَعْه إلى اليوم الذي أنت قادِرُهْ
وقارِبْ إذا ما لم تكن لك حِيلةٌ وصَمِّمْ إذا أيقنتَ أنّك عاقِرُهْ

وقيل: استُؤْمِرَ عبدُ الله بن طاهر بن الحسين(٥) في رجلين كانا في السجن، أحدهما ضعيف والآخر عليل، فوَقّع: الضعيفُ يَقْوَى والعليلُ يَبرأ، فإن يكنْ في

(١) هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن معاوية التميمي، حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين أدرك الإسلام وعندما بلغه خبر الرسول ركب بعيره قاصدًا إليه فمات في الطريق. انظر فيه: الجاحظ، البيان والتبيين، ٢/ ٢٦ و٣/ ١٧٠.

(٢) أبو الطيب المتنبي: انظر هامش ٥ صفحة ٤٤.

(٣) الشعبي، عامر بن شراحبيل م ١٠٤ أو ١٠٥ أو ١١٠ هـ كان محدثًا وشاعرًا. بروكلمان ١/ ٢٣٧.

(٤) محمد بن سيرين من فقهاء البصرة ١١٠ هـ/٧٢٨ م، كان يعمل بزازًا صاحب الحسن البصري ثم تهاجرا. له باع في تعبير الرؤيا انظره في: ابن خلكان، ص ٥٧٦؛ وتاريخ بغداد للخطيب ٥/ ٣٥١ ـ ٣٥٨؛ الجاحظ، الحيوان ١/ ١٣٠، ٧/ ٥٧. وانظره متفرقًا في: البيان والتبيين، وعيون الأخبار لابن قتيبة وأخيرًا في بروكلمان، ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٥) عبد الله بن طاهر بن الحسين: انظر هامش ١ صفحة ٤٤.

الحبس ممن يُؤمَن شرُّه غيرُهما فليُفْرَجْ عنه ودَعْهما في موضعهما، فإنه مَن أطلق مثلَهما على الناس فهو شرٌّ منهما وشريكُهما في فعلهما.

وكتب رجل إلى المأمون[١] ـ وكان قد طال حبسه ـ: أغْفلتَ يا أميرَ المؤمنين أمري، وتناسيتَ ذكري، ولم تتأمّل حُجّتي وعذري، وقد ملّ من صبري الصبرُ، ومسّني في حبسك الضُّرُّ. فأجابه المأمون: ركوبُك مطيّةَ الجهل، صيَّرك أهلًا للقتل، وبَغْيُك عليّ وعلى نفسك نَقَلك من سِعة الدنيا إلى قبرٍ من قبور الأحياء، ومَن جَهِل الشكر على المِنَن قلّ صبرُه على المِحَن، فاصبِرْ على عواقب هفَواتك ومُوبِقات زَلّاتك، على قدر صبرك على كثيرِ جناياتك؛ فإن حصل في نفسك كَفٌّ عن مَعْصِيتي، وعزمٌ على طاعتي، وندمٌ على مخالفتي، فلن تعدَمَ مع ذلك جميلًا من بيني[٢] والسلام.

وقيل لأعرابيّ: أيسرُّكَ أن تدخلَ الجنّة ولا تُسيءَ إلى من أساء إليك؟ قال: بل يسرّني أن أُدْرِكَ الثأر وأَدخُلَ النارَ. قال البُحْتُرِيّ[٣]: [من الطويل]

تَـذُمُّ الـفـتـاةُ الـرُّؤْدُ شِـيـمـةَ بَـعْـلِـهـا ... إذا بات دون الثأْرِ وهو ضَجِيعُهَا[٤]

ويقال: إنما هو مالُك وسيفُك، فازرعْ بمالك من شَكَرك، واحصُدْ بسيفك من كَفَرك. قال الشاعر: [من الكامل]

قُـطَّ الـعِـدَا قَـطَّ الـيَـرَاعـةِ وانـتـهِـزْ ... بظُبَا السيوفِ سوائمَ الأضغانِ[٥]

إنّ الـبـيـادِقَ إنْ تَـوَسَّـع خَـطْـوُهـا ... أخـذتْ إلـيـك مـآخِـذَ الـفِـرْزانِ[٦]

وقالوا: العفوُ يُفْسِد من اللئيم، بقدر ما يُصْلِح من الكريم. وقال مُعاوية بن يزيد بن معاوية[٧] لأبيه: هل ذَمَمْتَ عاقبةَ حلم قطّ؟ قال: ما حلُمتُ عن لئيمٍ وإن

(١) المأمون: انظر هامش ٢ صفحة ١٠.
(٢) لعله بري.
(٣) البحتري: انظر هامش ٥ صفحة ٤٢.
(٤) الرؤد من رأد: الشابة الحسنة. لسان العرب مادة، رأد.
(٥) قط القلم: بريه وهو قطعه عرضًا. لسان العرب مادة قطط. يراعة: القصب والقلم. سوائم جمع سائمة: الماشية ترسل للرعي. لسان العرب مادة سوم. الأضغان: الأحقاد. مادة ضغن. سواكم الأضغان: التي ترعى الأحقاد.
(٦) البيادق والفرزان: من حجارة الشطرنج. كلمتان فارسيتان.
(٧) معاوية بن يزيد بن معاوية: تولى الخلافة بعد أبيه ثم اعتزلها.

كان وليًّا إلا أعقبني نَدَمًا على ما فعلت. قال بعض الشعراء:

متى تَضَعِ الكرامةَ من لئيمٍ فإنّك قد أسأْتَ إلى الكَرامهْ

وقالوا: جَنِّبْ كرامتَك اللئامَ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن أساؤوا لم يشعروا.

ومن رسالة لأبي إسحٰق الصابي[1] في حقّ من نزع يده من الطاعة:

وكان الذي أثمره الجهادُ، ودلّ عليه الارتيادُ؛ اليأسَ من صلاح هذه الطوائف الناشئة على اعتياد المعاصي والاستئناسِ بالدواهي، والثقةَ بأنّ أَوَدَها لا يتقوَّمُ، وزيْغَها لا يتسدّد، وخلائقَها لا تنصرفُ عمّا ضَرَبت العادةُ عليه بسِياجها، واستمرّت به على اعوِجاجها، إذ كانت العادةُ طبيعةً ثانية، وسجيّةً لازمةً؛ كذلك زعمت الحكماء، وبرهنت عليه العلماء. قال بعض الشعراء[2]: [من البسيط]

ما كلَّ يومٍ ينالُ المرءُ ما طلبَا ولا يُسَوِّغُه المِقْدَار ما وهبا

وأَنْصفُ الناسُ في كلِّ المواطن مَنْ سَقَى الأعاديَ بالكأسِ التي شَرِبَا

وليس يَظلمُهُم مَن باتَ يَضربُهم بحَدِّ سيفٍ به مِنْ قبلهم ضُرِبا

فالعفوُ إلّا عن الأعداءِ مَكْرُمةٌ من قال غيرَ الذي قد قلتُه كَذَبا

قتلتَ عمرًا وتستبقي يزيدَ لقد رأيتَ رأيًا يجُرّ الويلَ والحَرَبا[3]

لا تقطعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتتركَها إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأسَها الذنبا

هم جَرّدوا السيفَ فاجعلْهم به جَزَرًا[4] هم أوقدوا النارَ فاجعلْهم لها حَطَبَا

---

(١) أبو إسحٰق الصابي: إبراهيم بن هلال بن إبراهيم الحراني ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م - ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م. جعله عزّ الدولة البويهي رئيسًا على ديوان الرسائل. انظره في: - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١١٩ - ١٢١. - ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٤. - الثعالبي، اليتيمة، ٢/ ٢٣ - ٨٦. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ١٢. وله رسائل وأشعار والتاجي في أخبار الدولة العباسية وهو مفقود.

(٢) جاء في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ٢٤٣ ثلاثة أبيات نسبها لأحد الغسانيين يحرّض الأسود بن المنذر على قتل أعدائه. وجاء في هامش نهاية الأرب ٦/ ٦٨، طبعة دار الكتب أنه أبو أذينة يحرّض ابن عمه الأسود بن المنذر أخا النعمان على قتل جماعة من ملوك الشام وقعوا في أسره وقد عقد النية على العفو عنهم. تاريخ أبي الفداء.

(٣) الحَرَب: الهلاك، لسان العرب مادة حرب.

(٤) جزرًا: ما يذبح من الشاه ومنها الجزار الذي يذبح. لسان العرب، مادة جزر.

ومنهـا:

لا عفوَ عن مِثلهم في مثلِ ما طَلَبوا ... لـكـنَّ ذلـك كـان الـهُـلْكَ والـعَـطَبَـا
عـلامَ تـقـبـلُ مـنـهـم فِـدْيـةً وهُـمُ ... لا فِـضَّـةً قـبِـلُوا مِـنّـا ولا ذَهَـبَـا

الباب السابع

من الفن الثاني في المشورة وإعمال الرأي والاستبداد ومن يعتمد على رأيه وذكر من كره أن يستشير

ذكر ما قيل في المشورة وإعمال الرأي

قد أمر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ بمشاورة مَن هو دونه من أصحابه فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩]؛ ذهب المفسّرون إلى أن الله تعالى لم يأمر نبيّه ﷺ بمشاورة أصحابه لحاجةٍ منه إلى رأيهم ولكن لِيُعْلَم ما في المشاورة من البركة. وقيل: أمره بذلك تألُّفًا وتطييبًا لنفوسهم. وقيل: ليستنّ بذلك المسلمون.

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نَدِم مَن استشار ولا خاب مَن استخار».

وقيل: الخطأُ مع الاستشارة أحمدُ من الإصابة مع الاستبداد. وقيل: مَن استشار فيما نَزَل به صديقَه واستخار ربّه واجتهدَ رَأيه، فقد قضى ما عليه، وأَمِنَ من رجوعِ الملامة إليه؛ ويفعلُ الله في أمره ما يشاء. وقيل: ما هَلَك امرؤ عن مشورة.

وقال علي بن أبي طالب(١) رضي الله عنه: نِعْم المؤازرةُ المشاورةُ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ. وقيل: الأحمقُ مَن قطعه العُجْب عن الاستشارة، والاستبدادُ عن الاستخارة. وقيل: لما همّت ثَقِيفُ بالارتداد بعد وفاة النبيّ ﷺ، استشاروا عثمان بن أبي العاصي وكان مُطاعًا فيهم؛ فقال: لا تكونوا آخِرَ العرب إسلامًا وأوّلَهم ارتدادًا؛ فنفعهم الله تعالى برأيه.

---

(١) علي بن أبي طالب: انظر هامش ٤ صفحة ٢٠.

وقال العُتْبيّ[١] لرجل من عَبْس: ما أكثرَ صوابَكم! فقال: نحن ألفُ رجلٍ وفينا حازمٌ واحدٌ، فنحن نُشاوره فكأنّا ألفُ حازم. وسُئل بعض الحكماء: أيُّ الأمورِ أشدُّ تأييدًا للعقل، وأيها أشدُّ إضرارًا به؟ فقال: أشدُّها تأييدًا له ثلاثةُ أشياء: مشاورةُ العلماء، وتجربةُ الأمور، وحسنُ التثبُّت. وأشدُّها إضرارًا به ثلاثة أشياء: الاستبدادُ، والتهاونُ، والعَجَلةُ.

وقال بعض الحكماء: إذا استبدّ الرجلُ برأيه عَمِيت عليه المَرَاشدُ.

وقال الفَضْل بن سَهْل[٢]: الرأي يَسُدّ ثُلَمَ السيف، والسيفُ لا يَسُدّ ثُلَمَ الرأي.

وقالوا: من استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه. وقال بعض البلغاء: إذا أشكلت عليك الأمور، وتغيّر لك الجمهور؛ فارجِعْ إلى رأي العقلاء، وافزَعْ[٣] إلى استشارة العلماء؛ ولا تأنَفْ من الاسترشاد، ولا تستنكفْ من الاستمداد؛ فلأَن تسأَلَ وتسلَمَ خيرٌ من أن تستبِدَّ وتندَم.

وقال حكيم لابنه: يا بُنَيّ، إنّ رأْيك إذا احتجتَ إليه وجدتَه نائمًا ووجدتَ هواكَ يَقْظان، فإيّاك أن تستبِدّ برأيك، فإنّه حينئذٍ هواك. ويقال: تعوَّذْ من سكَرَات الاستبداد بصحَوَات الاستشارة، ومن عَثَرات البَغْيِ باستقالة الاستخارة.

---

(١) العتبي: ٢٢٨ هـ أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان عمرو بن عتبة يغمز في نسبه، بصري علّامة راوية للأخبار والآداب وكان حسن الصورة جميل الأخلاق بلغ سنًا عالية، وكان حسن الخضاب تتابعت عليه المصائب بوفاة الذكور من أبنائه بمرض الطاعون الذي ضرب البصرة سنة تسع وعشرين ومائتين وقبل ذلك. له شعر في العقد الفريد وعيون الأخبار. انظره في: ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٤٢٠. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١/ ٩ و٥٥ و٨٢ و٨٣ و٨٨ و٩٢ و١٩٦ و٢٠٢، م ٢/ ١٤ و١٨ و٣٩ و٤٦ و٦٠ و٧٧ و١٥٣ و١٨٢. ـ ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٣٨.

(٢) الفضل بن سهل: ٢٠٢ هـ الملقب بذي الرياستين لتوليه الوزارة وقيادة الجيش معًا. غلب مع أخيه الحسن على المأمون. وتولّى الوزارة بعده عمرو بن مسعدة وأبو عبادة وأحمد بن خالد الأحول. قتل غيلة في حمام في مدينة سرخس ببلاد خراسان في دار المأمون، فاستعظم المأمون الأمر وقتل قتلته وسار عائدًا إلى العراق. وقيل إن المأمون هذا الذي دسّ له من قتله. انظره في: ـ المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٣٢٩ ـ ٣٦٠. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/ ٩٤ و٢٥٩، ٣/ ١ و١٢٤.

(٣) افزع: من فزع بمعنى لجأ، لسان العرب مادة فزع.

وقال ابن المقفّع(١): لا يُقْذَفَنَّ في رُوعك أنك إذا استشرتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجةُ إلى رأي غيرك فتنقطعَ بذلك عن المشورة، فإنك لا تريد الفخر ولكن الانتفاع.

قال بشّار(٢): [من الطويل]

إذا بَلَغَ الرأيُ المشُورَةَ فاستعِنْ ... برأيِ نَصِيحٍ أو نصيحةِ حازمِ

ولا تحسَبِ الشُورى عليك غَضاضةً ... فإن الخوافِيَ رافداتُ القَوَادِمِ

قال الأصْمَعيّ(٣): قلت لبشار: إن الناس يَعْجَبون من أبياتك في المشورة؛ فقال: يا أبا سعيد، إن المُشاوِرَ بين صوابٍ يفوزُ بثمرته، وخطإٍ يُشارَكُ في مكروهه؛ فقلت: أنت واللهِ في قولك أشعرُ منك في شعرك. وهذان البيتان من قصيدة كان بشّار بن بُرْد قد كتب بها إلى إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يمدحه بها ويُحَرِّضه على أبي جعفر المنصور، فمات إبراهيم قبل وصول القصيدة إليه، فخاف بشار من اشتهارها فقلبها وجعل التحريض على أبي مُسلم الخراسانيّ(٤)

---

(١) ابن المقفع: هامش ٢ صفحة ٦.

(٢) بشار بن برد: أبو معاذ المرعث العقيلي ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م. ولد ضريرًا بالبصرة وكان يزور الأمراء ويمدحهم ومنهم سليمان بن هشام بن عبد الملك. صحب واصل بن عطاء، هجا كثيرًا من الشعراء وغيرهم حتى أنه هجا الخليفة ووزيره فضربه سبعين سوطًا فمات. كان كثير التصرف في الشعر، أحسن في الغزل. كان فاتر العقيدة الإسلامية يميل إلى المعارضة. انظره في: ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٣٣. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢/ ٦٤٣. ـ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٣/ ١٩؛ ٦/ ٤٢. ـ ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢١. ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ١١٠. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١٣ ـ ١٧.

(٣) الأصمعي: ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. أبو سعيد عبد الملك بن مُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع يعود إلى قيس عيلان. صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والمُلح. روى عن شعبة بن الحجاج والحمادَيْن ومسعر بن كِدام. بصري، يروى أنه حفظ ست عشرة ألف أرجوزة. ترك كتبًا كثيرة منها: ـ خلق الإنسان، الخيل، الشاء، الوحوش، الأضداد، القلب والإبدال، النبات الدارات، النخل والكرم، فحولة الشعراء. ومما لم يطبع من كتبه: الأنواء، والصفات، والميسر والقداح، والأمثال، ومياه العرب، وجزيرة العرب، والرحل ونوادر العرب. انظره في: ـ الأصمعيات، المقدمة، ص ١١ ـ ١٤. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) أبو مسلم الخراساني: كان من أهل البرس من قرية خرطينة من أعمال الكوفة وسوادها، كان قهرمانًا لإدريس بن إبراهيم العجلي ثم اتصل بمحمد بن علي ثم بإبراهيم بن محمد الإمام فأنفذه إلى خراسان وولاه الدعوة هناك. وأظهر السواد وكان معه من رجال الدعوة خالد بن برمك وقحطبة بن شبيب وسليمان بن كثير. نازل نصر بن سيار والي مروان بن محمد فكتب إلى الخليفة يستنجده فوجده مشغولًا بقتال الخوارج واستنجد بابن هبيرة فوجده مشغولًا بدفع فتن=

فقال: [من الطويل]

أبا مسلمٍ ما طِيبُ عَيْشٍ بدائِمٍ ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالِمِ

وإنما كان قال:

أبا جعفرٍ ما طيبُ عيشٍ بدائِمِ

قال فيها بعد هذين البيتين المُقدَّمين: [من الطويل]

وخَلّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ نَؤُومًا فإنّ الحزم ليس بنائِمِ

وما خيرُ كفٍّ امسك الغُلُّ أُختها وما خيرُ سيف لم يُؤَيَّدْ بقائِمِ(١)

وحارِبْ إذا لم تُعْطَ إلّا ظُلامةً شَبَا الحربِ خيرٌ من قَبول المَظَالِمِ

وأدنِ على القُرْبَى المقرَّبَ نفسه ولا تُشْهِد الشُّورَى امرءًا غير كاتم

فإنّك لا تستطردُ الهَمَّ بالمُنَى ولا تبلُغُ العَلْيَا بغير المكارِمِ

إذا كنت فردًا هرّك القومُ مُقْبِلًا وإن كنتَ أدنى لَم تفُزْ بالعزائم(٢)

وما قرع الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثلُ عالِمِ(٣)

وقال الهَيْثم(٤): ما رأيت ابنَ شُبْرُمة قطّ إلا وهو متهيىءٌ كأنه يريدُ الركوبَ، فذُكِر ذلك له وأنا حاضر؛ فقال: إنّ الرجل لا يَسْتَجْمِعُ له رأيُه حتى يجمَعَ عليه ثيابَه، ثم قال: أتى رجلٌ من الحيّ فقال لدُهْقان: يا هذا، إنه ربما انتشر عليّ أمري في

= العراق. فهرب نصر ومات كمدًا. ثم كانت معركة الأدب وانتصار العباسيين بعدها قتله أبو جعفر منصور عندما أحسن بقوة أبي مسلم الخراساني فظهرت على أثر ذلك الخرّمية... انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٨٨ وما بعدها.

(١) الغُلُّ: طوق من الحديد يجعل في العنق واليد، لسان العرب مادة غلل.

(٢) يريد أنك إذا انفردت برأي نفسك ولم تستعن بآراء ذوي التجارب باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تفز بحاجتك التي اعتزمت عليها.

(٣) المشيَّع: الشجاع، لسان العرب مادة شيع.

(٤) الهيثم بن عدي: عاش زمن الرشيد والمأمون إذ ورد في هامش البيان والتبيين ٢/ ١٦٤ أن داود بن يزيد المهلبي الذي ولاه الرشيد السند ومات وهو والٍ عليها زمن المأمون سنة ٢٠٥ هـ، ضرب الهيثم بن عدي النسابة وصاحب المثالب ليطلق زوجه، وكانت له ميول خارجية وشعوبية، أخباره وأقواله مبثوثة في البيان والتبيين وعيون الأخبار انظره في: ـ الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٦٨ و١١٥ و٢٨٠ و٢/ ١٦٤ و٣/ ٢٣٨ و٢٧٠. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار م ١/ ٦٣ و١٤٢ و١٩٥ و٣١١، م ٢/ ٤٧ و٢٣٦.

الرأي فهل عندك مشورة؟ فقال: تهيّأْ والبَسْ ثيابك ثم اهمُمْ بما تريد، فهو أجمعُ لرأيك، فليس من أحدٍ يفعل ذلك إلا اجتمَعَ له رأيُه.

وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوُّك فجرّد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى مُوالاتك. وقيل: إذا أردتَ أن تعرِف الرجل فشاوِره، فإنك تقفُ من مشورته على جَوْره وعدله، وحبّه وبُغضه، وخيره وشرّه.

وقيل: لما سار رسول الله ﷺ إلى قريش في غَزاة بَدْر نزل ﷺ أدنى ماء من مياه بدر، فقال له الحُبَاب بن المُنْذِر: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله عزّ وجلّ ليس لنا أن نتقدّمَهُ ولا نتأخرَ عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكِيدةُ؟ قال: «بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدة»؛ فقال: يا رسول الله، فإنّ هذا ليس لك بمنزل فارحَل بالناس حتى نأتي أدنى ماء من مياه القوم فننزِلَه، ثم نُعَوِّرَ[1] ما سواه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشربَ ولا يشربوا؛ فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»؛ وفَعَل ما أشار به الحُبَاب.

وقال بُزرْجِمهر: أفرُه[2] ما يكون من الدوابّ لا غِنَى به عن السوط، وأعقلُ ما يكون من النساء لا غِنى بها عن الزوج، وأدهى ما يكون من الرجال لا غنى به عن المشورة.

وقيل: كانت اليونان والفرس لا يَجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون فيه، وإنما يستشيرون الواحدَ منهم من غير أن يعلم الآخرُ به، لمعانٍ شتَّى: منها لئلا يقعَ بين المشاوَرِين منافسة تُذْهِب أصالَة الرأي وصحّةَ النظر، لأن من طباع المشترِكين في الأمر التنافسَ والتغالُبَ والطعنَ من بعضهم على بعض، وربما أشار أحدهم بالرأي الصواب وسَبَق إليه فحسده الآخرون فتعقَّبوه بالإعراض والتأويل والتهجين وكدّروه وأفسدوه. ومنها أنّ في اجتماعهم على المشورة تعريضَ السرّ للإضاعة والشناعة والإذاعة؛ ولذلك قالت الفرس: إنما يُراد الاجتماعُ والكثرةُ والتناصرُ في الأمور التي يُحتاج فيها إلى القوّة، فأمّا الآراءُ والأمورُ الغامضةُ فإنّ الاجتماعَ يُفسدُها ويُولِّدُ فيها التضاغُن والتنافس.

---

(١) نعوره: نردمه حتى تغور الماء، لسان العرب مادة عور.

(٢) أفره: أنشط وأخف، لسان العرب مادة فره.

ذكر ما قيل فيمن يُعْتَمد على مَشورته وبديهته، ويُعْتَضد بفكرته ورويّته

قال بعض الحكماء: عليك بمشورة من حلَب أشطُرَ دهره، ومرّت عليه ضروبُ خيرِه وشرّه؛ وبلغ من العمر أَشُدَّه، وأَوْرت التجرِبةُ زَنْدَه. وقيل: استشار زِيادٌ رجلًا؛ فقال الرجل: حقُّ المستشار أن يكون ذا عقلٍ وافرٍ، واختبارٍ متظاهر، ولا أراني كذلك. قال إبراهيم بن العبّاس[1]: [من الكامل الأحذّ]

يُمْضِي الأمورَ على بديهَتِهِ ... وتُريه فكرتُه عواقبَها
فيَظَلُّ يُصدرُها ويُوردُها ... فيعُمُّ حاضرَها وغائبَها
وإذا الحروبُ عَلَتْ بعثتَ لها ... رأْيًا تَفُلُّ به كتائبَها
رأْيًا إذا نَبَتِ السيوفُ مَضَى ... قُدُمًا بها فسَقَى مَضَارِبَها

وقال آخر[2]: [من الخفيف]

أَلْمَعِيٌّ يَرَى بأَوَّلِ رَأْيٍ ... آخِرَ الأمرِ من وراء المَغِيبِ
لا يُرَوِّي ولا يقلِّبُ كَفًّا ... وأَكُفُّ الرجالِ في تقليبِ

وقال آخر[3]: [من المنسرح]

الألمعيُّ الذي يَظُنُّ بك الظَّنَّ ... كأنْ قد رَأَى وقد سَمِعا

---

(١) إبراهيم بن العباس الصولي: ١٧٦ هـ/ ٧٩٢ م ـ ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م. ابن أخت العباس بن الأحنف، تولّى الكتابة للوزير الفضل بن سهل، ثم تولّى الخراج بالأهواز في خلافة الواثق، وترأس ديوان النفقات والضياع بسامراء في خلافة المتوكل. انظره في: ـ ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٦. ـ الأصفهاني. الأغاني، ٩/ ٢٠ ـ ٣٢. ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم ١٠. ـ له ديوان جمعه حفيده أبو بكر الصولي ونشره عبدالعزيز الميمني في كتاب الطرائف الأدبية، القاهرة، سنة ١٩٣٧. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٤٢، ٤٣.

(٢) ابن الرومي: هو ابن الرومي علي بن العباس بن جريج ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م، ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م بغدادي هجاءٌ ورثاءٌ ووصاف مات مسمومًا على يدي أبي الحسن القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وكان يخاف هجاءه. ترك ديوانًا مخطوطًا رواه الصولي (٣٣٥)، كذلك شرحه محمد شريف سليم وصدر عن الهلال، القاهرة، سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٩. والكيلاني مع مقدمة للعقاد في ٣ أجزاء، القاهرة سنة ١٩٢٥ انظره في: ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٤٤ ـ ٤٧. ـ المرزباني، الموشح، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨؛ والمعجم، ص ٢٨٩ و٢٩٠. ـ ابن خلكان، الوفيات، رقم ٤٣٦. ـ ومن النقاد في العصر الحديث طه حسين والعقاد والمازني.

(٣) هو أوس بن حجر التميمي شاعر جاهلي ولد بالبحرين نادم ملوك الحيرة، وكان زهير بن أبي=

وكانت العرب تحمَدُ آراءَ الشيوخ لتقدُّمِها في السن، ولأنها لا تُتْبِع حسناتِها بالأذى والمنّ، ولِما مرّ عليها من التجارِب التي عرَفت بها عواقبَ الأُمور، حتى كأنّها تنظرُها عِيانًا، وطرأ عليها من الحوادث التي أوضحتْ لها طريقَ الصواب وبيّنته تِبيانًا؛ ولما مُنِحَتْه من أَصالة رأيها، واستفادَتْه بجميل سَعْيِها. ولذلك قال عليّ بن أبي طالب[1] رضي الله عنه: رَأْيُ الشيخِ خيرٌ من مشهد الغلام.

ومن أمثالهم «زاجِمْ بعَوْدٍ أو دعْ»[2]. قال بعض الشعراء: [من الوافر]

لئن فقدوا الشبابَ فرُبّ عقلٍ   أفادُوه على مَرّ الليالي
خبَتْ نارُ الذكاء فأجَّجُوها   بآراءٍ أحدَّ من النّصالِ

وقد عدَل قوم عن ذلك، وسلكوا في خِلافه أوضحَ الطُّرُق وأنهجَ المَسَالك؛ وقالوا: بل رأيُ الشباب هو الرأيُ الصائبُ، وفهمُهم الفهمُ الثاقبُ؛ ونجمُ سعدهم الطالع، وسحابُ جَدِّهم الهامع؛ وإن لهم من الفِطْنة أوفرَ نَصيب، وإنّ سَهْمَ رأيهم الرائش[3] المُصيب؛ وإن عقولَهم سليمةٌ من العوارض، وأذهانَهم آخِذَةٌ بحظٍ وافرٍ من الغوامض. ولذلك قالت الحكماء: عليكم بآراء الأحداث ومَشُورةِ الشبّان، فإن لهم أذهانًا تَفُلُّ القواصل[4]، وتُحطِّم الذوابل.

وقالوا: آراءُ الشَّباب خَضِرة نَضِرة لم يَهتصر[5] غُصنَها هَرَم، ولا أذوى زَهْرتَها قِدَم، ولا خَبَا من ذَكائها بطول المدّة ضَرَم. قال شاعر: [من الطويل]

عليكم بآراء الشَّباب فإنّها   نتائجُ ما لم يُبْلِه قِدَمُ العهدِ
فُروعُ ذَكاءٍ تستمدّ من النُّهى   بأنورَ في اللَّأْوَاءِ من قَمَر السعدِ[6]

= سلمى راويته شهره شعره في وصف الصيد والسلاح والرثاء. جمع شعره ابن السكيت، ونشر ديوانه جابر في ڤيينا سنة ١٨٩٢. انظر فيه: ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/١١٢ ـ ١١٣. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٩٩ وما بعدها. ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٠/٦ ـ ٨. ـ المرزباني، الموشح، ص ٦٣.

(١) علي بن أبي طالب: انظر هامش ٤ صفحة ٢٠.

(٢) المثل في مجمع الأمثال للميداني. ـ القود: المسن من الإبل، أي لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور.

(٣) السهم الرائش: السهم ذو الريش.

(٤) القواصل: السيوف القاطعة. لسان العرب مادة: قصل.

(٥) يهتصر: يعطف الغصن ويكسره دون انفصال، لسان العرب مادة هصر.

(٦) اللأواء: الشدة، لسان العرب، مادة لوأ. النهى: العقل، لسان العرب نهي.

وقال آخر: [من الوافر]

رأيتُ العقلَ لم يكنِ انتهابًا ولم يُقْسَمْ على عَدَد السِّنينا
ولو أنّ السنينَ تقسَّمتْهُ حوى الآباءُ أنْصِبَةَ البنينا

وقال آخر: [من الكامل]

أدركتَ ما فات الكُهُولَ من الحِجَا في عُنْفُوَان شَبابِك المُسْتقبلِ
فإذا أمرتَ فلا يُقالُ لك: اتَّئِدْ وإذا قضيتَ فلا يُقالُ لك: اعْدِلِ

ذكر ما قيل فيمن نُهِيَ عن مشاورته ومعاضدته وأُمِر بالامتناع من مشايعته ومتابعته

وقد كَرِهت العربُ والحكماءُ مشاورةَ من اعترتْه الشواغلُ، وأَلَمّت به النوازل؛ مع وفُور عقله وحَزْمه، والتمسُّك بنُصْحه وفهمه.

قال قُسُّ بنُ ساعدةَ الإياديّ[1] لابنه: لا تُشاوِرْ مشغولًا وإن كان حازمًا، ولا جائعًا وإن كان فَهِمًا، ولا مذعورًا وإن كان ناصحًا، ولا مهمومًا وإن كان عاقلًا، فالهمُّ يَعقِل العقلَ فلا يتولَّدُ منه رأيٌ ولا تَصْدُق به رويّة.

وقال الأحنف بن قَيْس[2]: لا تُشاورِ الجائعَ حتّى يَشبَعَ، ولا العطشانَ حتى يَرْوَى، ولا الأسيرَ حتّى يُطلَقَ، ولا المُقِلَّ حتى يَجِد، ولا الراغبَ حتّى يَنجح.

وقالوا: لا تُشاورِ المعزولَ، فإنّ رأيَهُ مفلول.

---

(١) قس بن ساعدة الإيادي: جاهلي شاهده الرسول وروى خطبة له. هو حكيم وخطيب وشاعر كما في البيان والتبيين وإن لم يصل إلينا شيئًا من شعره. يدين بالنصرانية وكان يقف خطيبًا في سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: «أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا...». وصفه الجاحظ بالقدر، والرياسة، والبيان، والخطابة، والحكمة، والدهاء، وكان يضرب به المثل في الخطابة. انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٥٨ و٦٠ و٦٥ و٢٥٣ و٢٥٤ و٢٩٢، ٢/١٨٤.

(٢) الأحنف بن قيس: بصري خطيب وشاعر وحليم شريف، سوده عمر على قومه عندما كان في الوفد يوم قدم المدينة. مال إلى علي وشهد صفين وهادن معاوية، كان مسودًا وموفدًا كما وصفته فرغانة بنت أوس بن حجر عندما وقفت على قبره ترثيه. انظر: ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٦٨ و٧٠ و١٧٣ و١٨٣ و٢٠٠ و٢١٥ و٢٢٨، ٢/٤٢ و٥٠ و٥٨ و٥٩ و٦٣ و٧٩ و٩٢ و٩٨ و١٠١ و١٠٦ و١٢٢ و١٣٤ و١٣٧ و١٣٨ و١٣٩ و١٤٠ و١٦٢ و١٩٦ و١٩٩ و٢٠٦ و٢٣٢ و٢٤٤، ٣/٦٧ و٧٢ و١٤١ و٢٢٠ و٢٨٦ و٢٩٠.

وقيل: لا تُدخِلْ في مَشُورتك بخيلًا فيُقَصِّرَ بفعلك، ولا جَبَانًا فيُخَوِّفَك، ولا حريصًا فيَعِدَك ما لا يُرْجَى؛ فإنّ البخلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طبيعةٌ واحدةٌ يَجمعها سوءُ الظنِّ بالله. قال الشاعر: [من الطويل]

وأنفعُ مَن شاورتَ مَن كان ناصحًا ... شفيقًا فَأَبْصِرْ بعدَهَا مَن تُشاوِرُ
وليس بشافيكَ الشفيقُ ورأيُهُ ... عَزِيبٌ ولا ذُو الرأيِ والصدرُ واغِرُ[1]

ذكر ما قيل في الأناة والروِيّة

كانت العرب تَحْمَدُ الأَنَاةَ في الرأي وإِجالةَ الفِكْرة فيه وعدمَ التسرُّع.

وكان عبد الله بن وَهْب الرَّاسِبِيّ[2] يقول: إيّايَ والرأْيَ الفَطِيرَ! وكان يستعيذ بالله من الرأي الدَّبَرِيّ؛ وهو الذي يَسنَحُ بعد الفَوْت.

وأوصى إبراهيم بن هُبَيْرَة ولدَه فقال: لا تكن أوّلَ مُشير، وإيّاكَ والرأْيَ الفَطِير؛ ولا تُشيرنَّ على مُستبِدٍّ، فإنّ التماسَ مُوافقته لُؤْمٌ والاستماعَ منه خِيانةٌ.

وكان عامِرُ بن الظَّرِب حكيم[3] العرب يقول: دَعُوا الرأيَ يغِبّ حتّى يَختمِر، وإيّاكم والرأيَ الفَطِير[4]! يريد الأناة في الرأي والتثبُّتَ فيه. قال شاعر: [من المتقارب]

تَأَنَّ وشَاوِرْ فإنّ الأُمُو ... رَ منها مُضيءٌ ومستغْمِضُ
فرأيانِ أفضلُ من واحدٍ ... ورأيُ الثلاثة لا يُنْقَضُ

وقال آخر: [من البسيط]

الرأيُ كاللّيل مُسْوَدٌّ جوانِبُهُ ... والليلُ لا يَنجلي إلّا بإصْباحِ
فاضْمُمْ مصابِيحَ آراءِ الرِّجالِ إلى ... مِصباح رأيك تزْدَدْ ضَوْءَ مِصباحِ

---

(١) العزيب: البعيد، لسان العرب مادة عزب.

(٢) عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي: من زعماء الخوارج، خطيب وشاعر خرج على علي بن أبي طالب بأربعة آلاف، وقتل في معركة النهروان سنة ٣٨ هـ. ـ المبرد، الكامل، كتاب الخوارج. ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٧٩، ٢/ ١١ و٧٩.

(٣) عامر بن الظرب العدواني حكيم العرب من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ٢٢١ و٢٩٢ و٣١٦.

(٤) الرأي الفطير: الذي لم ينضج. لسان العرب مادة فطر.

وقال المتنبّي[١]: [من الكامل]

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعانِ هو أوّلٌ وهْيَ المَحَلُّ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرَّةٍ بلغتْ من العَلْياء كلَّ مكانِ

وقال طاهر بن الحُسَين[٢]: [من البسيط]

اعْمَلْ صوابًا تَنَلْ بالحَزْم مَأْثَرَةً فلن يُذَمَّ لأهلِ الحزم تدبيرُ
فإنْ هَلَكتَ برأيٍ أو ظَفِرتَ به فأنت عند ذوي الألباب معذُورُ
وإن ظَفِرتَ على جهلٍ وفُزْتَ به قالوا: جَهُولٌ أعانتْهُ المقادِيرُ

ومن أحسن ما قيل فيمن أُشير عليه فلم يَقْبل، قول السُّبَيْع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد بهم: يا بَنِي حَنِيفة بُعْدًا كما بعَدتْ عادٌ وثمود، واللهِ لقد أنبأتُكم بالأمر قبل وقوعه، كأنّي أسمع جَرْسَه وأُبْصِر غِبَّه، ولكنّكم أبيتم النصيحةَ فاجتنيتُم الندامة، وإنّي لمّا رأيتُكم تَتَّهِمون النصيحَ، وتُسفِّهون الحليمَ، استشعرتُ منكم اليأسَ وخِفتُ عليكم البَلاءَ. والله ما منعكم اللهُ التوبةَ ولا أَخَذَكم على غِرّة، ولقد أمهلكم حتّى ملّ الواعظُ وهَرأ[٣] الموعوظ، وكنتم كأنّما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم، فأصبحتُم وفي أيديكم من تكذيبي التصديقُ ومن نُصْحي الندامةُ، وأصبح في يدي من هلاككم البكاءُ ومن ذُلِّكم الجَزَعُ، وأصبح ما كان غيرَ مردود، وما بقي غيرَ مأمون.

ذكر ما قيل في الاستبداد وترك الاستشارة وكراهة الإشارة

ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكَرِه أن يَستشير. قال عبدُ الملك بن صالح[٤]: ما استشرتُ أحدًا قطُّ إلا تكبَّر عليّ وتصاغرتُ له، ودخلتْه العِزَّةُ ودخلتْني

(١) المتنبي: انظر هامش ٥ صفحة ٤٤.
(٢) طاهر بن الحسين: من كبار قواد ووزراء المأمون، وهو الذي حاصر بغداد وخلع الأمين وقتله وأرسل برأسه إلى المأمون في خراسان. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٣١٥ وما بعدها.
(٣) هرأ في منطقه: أكثر في الخطأ أو قال القبيح، لسان العرب مادة هرأ.
(٤) عبد الملك بن صالح العباسي: تولّى المدينة ومصر في زمن الرشيد ثم سجنه عند الفضل بن الربيع حتى توفي، فولاه الأمين الرقة وتوفي قبل وفاة الأمين شارك في الغزوات، وعمل على توليه القاسم بن الرشيد الذي كان في حضنه هو خطيب لسن ترك وصايا خيرها وصيته لابنه ولأمير سرية إلى بلاد الروم. انظر: ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١/ ٢١ و١٠٩ و١١٧ و٢٨٣. ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٨. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ١٤٥ و١٨٨=

الذِّلّةُ. فعليك بالاستبداد، فإن صاحبَه جليلٌ في العيون مَهيبٌ في الصدور. واعلم أنك متى استشرتَ تضعضع شأنُك، ورَجَفَت بك أركانُك. وما عزّ سلطانٌ لم يغْنِه عقلُه عن عقول وُزرائِه، وآراءِ نُصحائه. فإيّاكَ والمشورةَ وإن ضاقت عليك المذاهبُ، واستَبْهمَت لديك المسالك؛ وأنشد: [من الطويل]

فما كلُّ ذي نُصْحٍ بمُؤتيكَ نُصْحَهُ ولا كـلُّ مُؤْتٍ نُـصْحَـه بـلبيـبِ

وقال المُهَلَّبُ بن أبي صُفْرةَ[1]: لو لم يكن في الاستبداد بالرأي إلّا صَوْنُ السِّرِّ وتوفيرُ العقل لوجب التمسُّكُ به.

وقال بُزُرْجمِهْر: أردتُ نصيحًا أثِقُ به فما وجدتُ غيرَ فكري، واستضأتُ بنور الشمس والقمر فلم أستضِيءْ بشيءٍ أَضْوأَ من نور قلبي.

وقال عليُّ بن الحُسَين[2]: الفِكْرةُ مِرآةٌ تُري المؤمنَ سيئاتِهِ فيُقْلِعُ عنها، وحسناتِهِ فيُكثِرُ منها، فلا تقع مِقْرَعةُ التقريع عليه، ولا تنظُرُ عيونُ العواقبِ شَزْرًا إليه.

وما زال المنصورُ يستشِير أهلَ بيته حتّى مَدحَه ابنُ هَرْمَة[3] بقوله: [من الطويل]

يَزُرْنَ امرأً لا يُصلِح القومُ أمرَهُ ولا يَنْتَجِي الأدْنَيْنَ فيما يُحاولُ

فاستوى جالسًا وقال: أصبتَ واللهِ! واستعاده، وما استشار بعدها.

= و٢٣٩ و٢٤١ و٢٥٦ و٢٦٨ و٢٦٩ و٢٧٦ و٢٩٧ و٣٠٢ و٣٤٦.

(١) المهلب بن أبي صفرة، أبو سعيد ولاه أهل البصرة قتال الخوارج وكانوا أتباع ابن الزبير ثم ولاه الحجاج خراسان في زمن عبد الملك بن مروان، فتبع الخوارج وكانت بينهم حروب ثم تولّى الأمر من بعده أبناؤه فتابعوا سيرة أبيهم. ونجد أخبار المهلب وأبنائه في حروبهم مع الخوارج في كتاب الكامل للمبرد. انظر: ـ المبرد، الكامل، ص ٢٢٥ ـ ٣٠٣. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/ ٣١ و٨٢ و١٢٩ و١٣٠ و١٦٤ و٣٠٦ و٢٣٠. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، في الرابع والخامس والسادس والسابع ٢/ ٢٦ و٤٣ و٤٤.

(٢) علي بن الحسين: انظر هامش ٢ صفحة ٥٣.

(٣) ابن هرمة: إبراهيم بن علي بن سلمة الكناني القرشي، شاعر يعتبر من ساقة الشعراء، غزل من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية مدح الوليد بن يزيد الأموي. والمنصور. انظره في: ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٥٢ و١٩٢، ٢/ ٢٢٦، ٣/ ١٤١ و١٧٤ و٢٤١ و٢٤٢. ـ ابن قتيبة الشعر والشعراء، ص ٦٣٩. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار: ١/ ٨٩ و٢٩٤ و٣٠٠، ٢/ ٨٦، ٣/ ٢٤٩ و٣٠١. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٢٨.

قالوا: وعلى المستَبِدّ أن يَتَرَوَّى في رأيه، فكلُّ رأيٍ لم تتمخّض به الفِكرةُ ليلةً فهو مولُودٌ لغير تَمامٍ. قال شاعر: [من الطويل]

إذا كنت ذَا رأيٍ فكن ذَا أناءةٍ فإنّ فسادَ الرأيِ أن تتعجّلا
وما العجزُ إلّا أن تُشاوِرَ عاجزًا وما الحَزْمُ إلا أن تَهُمَّ فتفعلا

قال بعضُ جلساء هارونَ الرشيد: أنا قتلتُ جعفرَ بنَ يحيىٰ، وذلك أنّي رأيتُ الرشيد يومًا وقد تنفّس تنفُّسًا مُنكَرًا فأنشدتُ في إِثْر تنفُّسه: [من الرمل]

واستبدّتْ مَرّةً واحدةً إنّما العاجزُ مَن لا يستبِدْ[1]

وممّا مُدِح به ذو الرأي قولُ بعض الشعراء: [من الطويل]

بَصيرٌ بأعقاب الأمور كأنّما يُخاطبه من كلّ أمرٍ عواقِبُهْ
وأين مَفَرُّ الحزمِ منه وإنّما مَرَائِي الأمورِ المُشكِلاتِ تَجارِبُهْ

وقال البُحتريّ[2] في سليمان بن عبد الله[3]: [من البسيط]

كأنّ آراءَهُ والحزمُ يَتبَعُها تُرِيهِ كلّ خَفِيٍّ وهْو إعلانُ
ما غابَ عن عَيْنِه فالقلبُ يَكْلَؤُهُ وإن تَنَمْ عينُه فالقلبُ يَقْظانُ

---

(١) هذا البيت لعمر بن أبي ربيعة ٢٣ هـ/٦٤٣ م قرشي مخزومي شاعر الغزل الإباحي وزعيمه في صدر الإسلام والعصر الأموي. ابن تاجر موسر عمل للرسول على ناحية الجند في اليمن. ولد في المدينة وعاش في مكة. كان يبعده الخلفاء عن مكة زمن الحج كي لا يشبب بالحاجّات. لم يعرف غير الغزل وقد جدد فيه. انظره في: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٤٨. - الأصفهاني، الأغاني، ١/ ٣٠ - ٩٧. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم ٤٦٣. - له ديوان شعر طبع عدة طبعات في القاهرة وبيروت. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٨٩ وما بعدها.

(٢) البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي ٢٠٦ هـ/٨٢١ - ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م ولد في منبج واتصل بأبي تمام والمتوكل، قامت مفاضلات بينه وبين أبي تمام، هو شاعر فحل محدث سهل الألفاظ مداح وصاف. انظره في: - الأصفهاني، الأغاني، ١٨/ ١٦٧ - ١٧٥. - ابن خلكان، وفيات، رقم ٧٤١. - ديوانه نشر في مجلة الضياء سنة ١٩٠٤ م وفي إستانبول سنة ١٣٠٠ هـ وفي بيروت سنة ١٣١٣ هـ/١٨٨٩ م و١٩١١ وفي القاهرة ١٣٢٩ هـ.

(٣) سليمان بن عبد الله بن طاهر ٢٦٦ هـ تولى طبرستان سنة ٢٥٠ هـ أخرجه عنها الحسن بن زيد ثم عاد إليها سنة ٢٥١ ثم تولى شرطة بغداد والسواد سنة ٢٥٥ هـ في أيام المعتز. ثم تولى بغداد وشغب الناس في أيامه الفوضى. انظره في: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٩/ ١٢٤ و٢٧١ و٢٧٥ و٣٠٧ و٣٤٢ و٣٨٦ و٣٩٢ و٣٩٩ و٤٠١ - ٤٠٣ و٤٤٠ و٥٤٩.

وقال أيضًا: [من البسيط]

كـأنّـه وزِمـامُ الـدَّهـرِ فـي يـدِهِ ... يَـرَى عـواقِـبَ مـا يـأتـي ومـا يَـذَرُ

وقال آخر: [من البسيط]

يَرى العـواقبَ في أثنـاء فِكْرَتـهِ ... كـأنَّ أفـكـارَهُ بـالـغَـيْـب كُـهَّـانُ

وقال آخر: [من الوافر]

بَـدِيـهـتُـهُ وفِـكْـرتُـهُ سَـواءٌ ... إذا مـا نـابَـهُ الـخَـطْـبُ الـخَـطِـيـرُ

وأحـزَمُ مـا يـكـونُ الـدهـرَ يـومًـا ... إذا عَـجِـز الـمُـشـاورُ والـمُـشِـيـرُ

ومن الناس من كَرِه أن يُشيرَ، فمنهم عبد الله بن المُقَفَّع[1]؛ وذلك أنّ عبد الله بن عليّ استشاره فيما كان بينه وبين المنصور؛ فقال: لستُ أَقُودُ جيشًا، ولا أتقلَّد حَرْبًا، ولا أُشير بسفك دَمٍ، وعَثْرَةُ الحربِ لا تُستقال، وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان.

واجتمع رؤساء بني سعد إلى أَكْثَم بن صَيْفِيّ[2] يَستشيرونه فيما دَهَمَهم يومَ الكُلَاب؛ فقال: إنّ وَهْنَ الكِبَرِ قد فشا في بَدَني، وليس معي من حِدَّةِ الذِّهن ما أبتدىءُ به الرأي، ولكن اجتمِعُوا وقولوا، فإنّي إذا مرّ بي الصوابُ عرفتُه. وسيأتي خبرُ كلامه في وقائع العرب؛ وإنما أوردناه في هذا الموضع لدخوله فيه والتِئامه به، ومناسبتِهِ له، لا على سبيل السهو والتَّكْرَار لغير فائدة.

الباب الثامن

من الفن الثاني في حفظ الأسرار والإذن والحِجَاب

ذكر ما قيل في حفظ الأسرار

قال الله تعالى إخبارًا عن نبيّه يعقوبَ بن إسحٰق حين أوصى يوسفَ ابنَهُ عليهم السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: الآية ٥]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكِتْمان».

---

(١) عبد الله بن المقفع: انظر هامش ٢ صفحة ٦.

(٢) أكثم بن صيفي: هامش ١ ص ٦١.

وقالت الحكماء: صدرُك أوسعُ لسرِّك. وقالوا: سِرُّك من دَمِك. يَعْنُون أنه ربما كان في إفشاء السرِّ سَفْكُ الدَّم.

وقالوا: أَصْبَرُ الناس مَن صَبَرَ على كِتْمان سِرِّه، فلم يُبدِه لصديق فيُوشِكَ أن يصيرَ عدُوًّا فيُذِيعَهُ.

وقالوا: ما كنتَ كاتِمَهُ عن عدوّك فلا تُظهر عليه صديقَكَ.

وقال عمرو بن العاص(١): ما استودعتُ رجلًا سِرًّا فأفشاه فلُمْتُه، لأنّي كنتُ أَضْيَقَ صدرًا حين استَوْدعتُه منه حين أفشاه.

قال عُبَيْدُ الله بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود الفقيهُ(٢): [من الطويل]

إذا كان لي سِرٌّ فحدّثتُه العِدا   وضاقَ به صدري فَللنّاسُ أعذَرُ
هو السِّرُّ ما استُودِعْتَهُ وكتمتَهُ   وليس بسِرٍّ حين يَفْشُو ويَظْهَرُ

وقال آخر: [من الطويل]

فلا تُودِعَنَّ الدهرَ سِرَّك أحمقًا   فإنّك إن أَودعْتَه منه أحمَقُ
إذا ضاق صدرُ المرء عن كَتْم سرِّهِ   فصدرُ الذي يُستَودَعُ السِّرَّ أضيقُ

وكتب عبدُ الملك بنُ مَرْوان(٣) إلى الحجّاج(٤): [من المتقارب]

لَا تُفْشِ سِرَّك إلا إليك   فإنَّ لكل نصيحٍ نَصِيحا
فإنّي رأيتُ غُواةَ الرجا   لِ لَا يَتركون أَدِيمًا صحيحا

---

(١) عمرو بن العاص: ٤٧ قبل الهجرة ٤٣ هـ: قرشي، من دهاة العرب تولى مصر في عهد عمر بن الخطاب ثم وليها في عهد معاوية وربما كانت صفقة. انحاز إلى معاوية ضد علي. توفي سنة ٤٣ هـ في مصر ودفن فيها وكانت ولايته لها عشر سنين وأربعة أشهر. انظر فيه: ـ المسعودي، مروج الذهب، ١٧/٢ ـ ١٨. ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٨/٢ ـ ٢٦٠، ٢٣٩/٤ ـ ٢٤١، ٥١/٥ ـ ٥٥ و٦٧ ـ ٧١ و٩٨ ـ ١٠٦. ـ بروكلمان، ١٣٧/٧ وتاريخ الأدب العربي، ١/ ١٧٤.

(٢) عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الفقيه: من فقهاء المدينة تولى قضاء المدينة في عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٣/١ و٣٦٩، ٣ و٤ و٦.

(٣) عبد الملك بن مروان: انظر هامش ٦ ص ٣٢.

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي: انظر هامش ٢ ص ٤٠.

وقال الوليدُ بن عُتْبة لأبيه: إنّ أمير المؤمنين أسرَّ إليّ حديثًا ولا أراه يَطْوِي عنك ما يَبْسُطه لغيرك أفلا أخبرك به؟ فقال: لا!، يا بُنيّ إنّه مَن كَتَم سرًّا كان الخِيارُ له، ومن أظهره كان الخِيار عليه، فلا تكن مملوكًا بعد أن كنتَ مالكًا.

وفي كتاب التاج: أن بعضَ ملوك العَجَم استشار وزيرَيْه، فقال أحدهما: إنّه لا ينبغي للملك أن يَستشِير منّا أحدًا إلا خاليًا به، فإنَّهُ أَمْوَتُ للسرّ، وأحزمُ للرأي، وأجدرُ بالسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض؛ فإن إفشاء السِّرِّ إلى رجل واحد أوثقُ من إفشائه إلى اثنين، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة؛ لأنّ الواحد رَهْنٌ بما أُفشِي إليه، والثاني مُطْلِقٌ عنه ذلك الرهنَ، والثالث عِلَاوةٌ فيه. فإذا كان السرّ عند واحد كان أَحْرَى ألّا يُظهِره رَهْبةً ورَغْبة. وإن كان عند اثنين كان الملك على شُبهة، واتسعت على الرجلين المَعاريض. فإن عاقبهما عاقَبَ اثنين بذنبِ واحدٍ، وإن اتّهمهما اتّهم بريئًا بجنايةِ مُجرِم. وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولاذنبَ له، وعن الآخر ولا حُجَّة عليه.

وقال عليٌّ[1] رضي الله عنه: الظَّفَرُ بالحَزْم، والحزمُ بأَصَالة الرأي، والرأي بتحصين السرّ.

وقيل: مَن حصَّن سِرَّه فله من تحصينه إيّاه خَلَّتان: إمّا الظفَرُ بما يريد، وإما السلامةُ من العيب والضرَرِ إن أخطأه الظفر.

وقيل: كلّما كَثُرَ خُزَّانُ السرّ ازدادَ ضَيَاعًا.

ويقال: إذا انتهى السرّ من الجَنَان إلى عَذَبة اللسان، فالإذاعةُ مستوليَةٌ عليه.

وقال عمرو بن العاص[2]: القلوب أوعِيَةٌ للأسرار، والشِّفاهُ أقفالُها، والألسنُ مفاتيحُها، فليَحْفَظْ كلُّ امرىءٍ مِفتاحَ سرِّه. قال شاعر: [من المتقارب]

صُنِ السرَّ عن كلّ مُسْتخْبِرٍ وحاذِرْ فما الحزمُ إلا الحَذَرْ
أَسِيـرُك سِرُّك إن صُنْـتَـهُ وأنـتَ أسيـرٌ لـه إن ظَـهَـرْ

وكان يقال: الكاتِمُ سرَّه بين إحدى فَضِيلتَيْن: الظَّفَر بحاجته، والسلامة من شرّ إذاعته.

ويقال: أصبرُ الناسِ مَن صَبَرَ على كِتْمان سرّه.

(١) علي بن أبي طالب: هامش ٤ صفحة ٢٠. (٢) عمرو بن العاص: هامش ١ صفحة ٧٧.

وقال آخر: كِتمانُك سرّك يُعقِبُك السلامة، وإفشاؤه يعقبُك الندامة، والصبرُ على كِتْمان السرّ أيسرُ من الندامة على إفشائه. قال شاعر(١): [من الطويل]

إذا أنتَ لم تَحفَظْ لنفسك سِرَّها   فسرُّك عندَ الناسِ أَفْشى وأضيَعُ

وقال آخر: [من المتقارب]

تَبُوح بسرِّك ضِيقًا بهِ   وتَحسَبُ كلَّ أخٍ يَكْتُمُ
وكِتمانُك السرَّ ممن تخافُ   ومَن لا تَخافَنَّه أحزَمُ
إذا ذاع سرُّك من مُخْبَرٍ   فأنت متى لُمْتَهُ أَلْوَمُ

وكان يقال: لا تُظهر كوامِن صَدرِك بإذاعة سِرِّك، فيمكُرَ بك حاسدُك، ويَظهرَ عليك مُعاندُك. قال عمر بن أبي ربيعة(٢): [من الطويل]

فقالت وأرخَتْ جانبَ السِّترِ إنّما   معي فتحدَّثْ غيرَ ذي رِقْبَةٍ أهلي
فقلتُ لها ما بي لَهُمْ من تَرَقُّبٍ   ولكنّ سِرِّي ليس يحمِلُه مِثْلي

ومما قيل في استراحة الرجُل بمكنون سرّه إلى صديقه ـ قال الله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: الآية ٦٧]. وقالت الحكماء: لكل سِرٍّ مُسْتَوْدَعٌ. قال بعض الشعراء: [من الطويل]

وأبثثتُ عَمْرًا بعضَ ما في جوانحي   وجرّعْتُه من مُرّ ما أتجرَّعُ
فلا بُدَّ من شَكْوى إلى ذي حفيظةٍ   إذا جَعَلَتْ أسرارُ نفسي تَطَلَّعُ

وقال حَبِيب(٣): [من الطويل]

شكوتُ وما الشكوى لمثليَ عادةً   ولكنْ تفِيض الكأس عند امتلائِها

(١) ينسب هذا البيت في عيون الأخبار إلى عمرو بن العاص. ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/ ٤٠.
(٢) عمر بن أبي ربيعة: هامش ١ ص ٧٥.
(٣) حبيب بن أوس الطائي (أبو تمام): ١٩٢ هـ/ ٨٠٧ م ـ ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م ولد في الجاسم قرب طبرية وارتاد حمص ثم مصر وعاد منها إلى دمشق فالموصل حيث أقام سنتين وبعدها قدم بغداد بعد وفاة المأمون ولقي حظوة لدى المعتصم واتصل بابن طاهر. هو شاعر فحل أفرط في حشد المعاني والمجازات وكان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ (ابن الرومي)، يكثر من استعمال الغريب. سماه الأصفهاني بأمير الشعراء. انظره في: ـ الأغاني، ١٥/ ١٠٠ ـ ١٠٨. ـ وفيات الأعيان، رقم ١٤٣. ـ أبو بكر الصولي، أخبار أبي تمام، القاهرة، ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م. ـ ديوان أبي تمام بترتيب الصولي، القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ. ـ له شروح كثيرة منها شرح الصولي والمرزوقي، والتبريزي والمبارك الإربيلي. ـ جمع ديوان الحماسة وقد شاركت في تحقيق شرح=

وقال أبو الحسن بن محمد البصريّ: [من الطويل]

لعبَ الهوى بمَعَالِمِي ورُسُومي ... ودُفِنتُ حيًّا تحت رَدْمِ همومي
وشكوتُ همِّي حين ضِقتُ، ومَنْ شكا ... همًّا يَضِيقُ به فغيرُ مَلُومِ

* * *

ومما وصف به كتمان السرّ ـ قيل: أسَرَّ رجلٌ إلى صديق له حديثًا، فلما استقصاه قال: أفهِمتَ؟ قال: بل نسِيتُ. وقيل لآخر: كيف كِتمانُكَ للسرّ؟ فقال: أجحَدُ المُخبِرَ، وأحلِف للمُستخبِر.

ومن جيّد ما قيل في كِتمان السرّ قولُ الأوّل: [من الطويل]

تلاقتْ حَيَازِيمي على قلب حازمٍ ... كَتُومٍ لما ضُمَّتْ عليه أضالِعُهْ
أُوَاخِي رجالًا لستُ أُطلِعُ بعضَهم ... على سرِّ بعضٍ، إنّ قلبيَ واسِعُهْ

قال قَيس بن الخَطِيم[1]: [من الطويل]

إذا جاوز الاثنين سِرٌّ فإنّهُ ... بِنَثٍّ وتكثيرِ الحديثِ قَمِينُ[2]
وإن ضيَّع الإخوانُ سِرًّا فإنّني ... كَتُومٌ لأسرار العَشِير أمِينُ
يكون له عندي إذا ما ضَمَمْتُهُ ... مكانٌ بسوْدَاءِ الفُؤاد مَكينُ

وقال أبو إسحٰق الصابىء[3]: [من الطويل]

لِسرِّ صديقي مَكْمَنٌ في جوانِحِي ... تَمَنَّعَ أن تدنو إليه المباحِثُ
تَغَلْغَل منّي حيث لا تستطيعُه ... كُؤوسُ النَّدَامَى والأنيسُ المُحَادِثُ
إذا الفَحْصُ آلَى جاهدًا أن يَنالَهُ ... تَرَاجَعَ عنه وهو خَزْيانُ حانِثُ
فقل لصديقي إذا لم السِّر آمِنًا ... إذا لم يكن ما بيننا فيه ثالثُ[4]

= التبريزي ووضعت مقدمة له. ثم الحماسة الصغرى والوحشيات وفحول الشعراء ومختار أشعار القبائل. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٧١ ـ ٧٧.

(١) قيس بن الخطيم: مات قبل الهجرة بقليل مع أنه أدرك الإسلام. كان يلافي الخزرج لقتلهم أباه وجده ثم كان مقتله هو عندما أصيب بسهم قرب بيت خزرجي. ـ الأغاني، ٢/ ١٥٩ ـ ١٧٠. ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢. ـ ديوان الحماسة ١/ ٩٤ و٣/ ١٠٤. ـ ما زال ديوان قيس مخطوطًا. انظر فيه: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) النث: الإفشاء. لسان العرب مادة نثث. (٣) أبو إسحٰق الصابي: هامش ١ صفحة ٦٣.

(٤) ليستقيم الوزن والمعنى يجب أن يكون البيت هكذا:

فقل لصديقي كن على السر آمنا ... .

وهذا البيت مأخوذ من قول جَمِيل: [من الطويل]

ولا يَسْمَعَنْ سِرِّي وسِرَّك ثالثٌ ... أَلَا كلُّ سرٍّ جاوز اثنين ضائعُ

وقال الصابىء أيضًا(١): [من الطويل]

وللسرِّ فيه بين جَنْبَيَّ مَكْمَنٌ ... خَفِيٌّ قَصِيٌّ عن مَدَارج أنفاسِي
أَضَنُّ به ضَنِّي بموضِع حِفْظِهِ ... فَأحمِيهِ عن إحساس غيري وإحساسي
فقد صار كالمعدوم لا يستطِيعُهُ ... يقِينٌ ولا ظَنٌّ لخَلْقٍ من الناس
كأنِّيَ من فَرْط احتياطي أَضعتُهُ ... فبَعْضِي له واعٍ وبعضي له ناسِي

وقال كُثَيِّر(٢): [من الطويل]

كريمٌ يُمِيت السرَّ حتى كأنَّه ... إذا استنطقُوه عن حديثِكِ جاهلُهْ
طوى سِرَّكم مستودَعُ القلبِ والحشا ... شفيقٌ عليكم لا تُخافُ غوائِلُهْ
وأكتُمُ نفسي بعضَ سرِّي تَكرُّمًا ... إذا ما أضاع السرَّ في الناس حامِلُهْ

ذكر ما قيل في الإذن والاستئذان

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: الآيتان ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: الآية ٥٨] الآية. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] الآية. وقيل: استأذن رجل على النبيّ ﷺ وهو في بيت فقال: أَألج؟ فقال النبيّ ﷺ لخادمه: «أُخرُج إلى هذا وعلِّمْهُ الاستئذانَ وقل له يقول السلام عليكم أأدخُل». وقال النبيّ ﷺ: «الاستئذانُ ثلاثٌ فإن أُذِن لك وإلا فارجِعْ».

---

(١) ينسب الشعر في حماسة البحتري إلى قيس بن منقلة الخزاعي. طبعة ليدن ص ٢١٧.

(٢) كُثَيِّر عَزَّة بن عبد الرحمٰن (١٠٥ هـ). رواية جميل بثينة، رباه خاله متشيع كيساني، اتهم بأنه يقول بالتناسخ، اتصل بالأمويين ومدحهم. انظر فيه: ـ الأغاني، ٨/ ٢٧ ـ ٤٤؛ ١١/ ٤٦ ـ ٥٢. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣١٦. ـ المرزباني، المعجم، ص ٢٥٠. ـ البغدادي، خزانة الأدب ٣/ ٣٨١. ـ ابن خلكان رقم: ٥١٩. ـ له قصائد متفرقة في باريس وبرلين والأسكوريال ومانشستر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

وقال عليُّ بن أبي طالب[١] رضي الله عنه: الأولى إذْنٌ والثانية مُؤامرةٌ والثالثة عَزْمة، إما أن يأذَنُوا وإما أن يرجِع.

وقال زيادُ ابن أبيه[٢] لعَجْلانَ حاجبه: كيف تَأذَنُ للناس؟ قال: على البيوتات ثم على الأسنان ثم على الأدب؛ قال: فمن تُؤخِّر؟ قال: الذين لا يَعْبَأُ الله بهم؛ قال: ومَن هم؟ قال: الذين يَلبَسُون كُسوةَ الشتاء في الصيف وكُسوةَ الصيف في الشتاء.

وكان سعيد بن عُتْبة بن حُصَين إذا حضر بابَ أحدٍ من السلاطين جلس جانبًا؛ فقيل له: إنك لتَتَباعدُ من الآذن جُهْدك؛ فقال: لأَن أُدْعَى من بعيدٍ خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب. قال بعض الشعراء: [من الطويل]

رأيتُ أُناسًا يُسرِعون تبادُرًا   إذا فتحَ البوّابُ بابَكَ إصبَعا
ونحن جُلوسٌ ساكنون رَزَانةً   وحِلْمًا إلى أن يَفْتَح البابَ أجمعا

وقيل لمعاوية[٣]: إنّ آذِنَك لَيُقَدِّمُ معارفَه في الإذن على وجوه الناس؛ قال: وما عليه! إنّ المعرفة لَتنفَعُ في الكَلْب العَقُور[٤] والجَمَل الصَّؤُول[٥]، فكيف رجلٌ حسيبٌ ذُو كرمٍ ودِين!

ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم[٦] وهو واقف في الشمس عند باب المنصور، فقال له: لقد طال وقوفُك في الشمس؛ فقال: ذلك لِيطُولَ جلوسي في الظلّ.

ذكر ما قيل في الحجاب

قال خالد بن عبد الله القَسْريّ[٧] أميرُ العراق لحاجبه: إذا أخذتُ مجلِسي فلا تَحْجُبَنّ عني أحدًا، فإنّ الوالي يَحتجب عن الرعيّة لإحْدَى ثلاث: إمّا لِعِيٍّ

(١) علي بن أبي طالب: هامش ٤ صفحة ٢٠. (٢) زياد ابن أبيه: هامش ١ صفحة ١٥.
(٣) معاوية بن أبي سفيان هامش ١ صفحة ٦.
(٤) العقور: الذي يعض، لسان العرب مادة عقر.
(٥) الصؤول: صاحب السطوة والغلبة والقهر، لسان العرب مادة صول.
(٦) روح بن حاتم: من رجالات الدولة العباسية، عاش في زمن المنصور، مهلبي لذا يمدحه أبو دلامة بأنه أخذ عن المهلب حب الموت، وهو رجل منابر وتذكر الأخبار أنه صعد المنبر وحصر. وكان له كتاب إذ يستفاد من أحد الأخبار أنه أرسل مبلغًا من المال إلى كاتب له ويبرز في الرسالة المرفقة المبلغ الذي أرسله. انظر: ابن قتيبة، عيون الأخبار، ١/ ١٦٤ و٢٣٥، ٢/ ١٦٩.
(٧) خالد بن عبد الله القسري أمير العراق، أبو الهيثم ابن النصرانية كما جاء في فهارس الطبري. تولى مكة سنة ٨٩ هـ وعزله عنها سليمان بن عبد الملك سنة ٩٤ هـ... انظر هامش ٤ صفحة ٣٩.

يكره أن يُطَّلَع عليه، وإما لبُخلٍ يَكْره أن يُسأل شيئًا، وإما لرِيبةٍ لا يُحبُّ أن تَظْهَر منه. وقال زِياد لحاجبه: وَلَّيتُك حِجَابتي وعزلْتُك عن أربع: المنادي إلى الصلاة والفلاح، لا تُفرِّجَنَّه عنّي فلا سُلطانَ لك عليه، وطارقِ الليل لا تحجُبه فشرٌّ ما جاء به، ولو كان خيرًا ما جاء به تلك الساعة، ورسولِ الثَّغْر فإنّه إن أبطأ ساعةً فَسَد عملُ سنة فأَدْخِله عليّ وإن كنتُ في لِحَافي، وصاحبِ الطعام فإن الطعام إذا أُعِيد تسخينُه فَسَد.

وقف أبو سُفْيان(١) بباب عثمان بن عَفَّان(٢) رضي الله عنه وقد اشتغل بمصلحةٍ للمسلمين فحجبه؛ فقال له رجلٌ وأراد إغراءَه: يا أبا سفيان، ما كنتُ أَرى أن تقف بباب مُضَرِيّ فيحجُبَك! فقال أبو سفيان: لا عدِمتُ مِن قومي مَن أقِف ببابه فيحجُبُني.

واستأذن أبو الدَّرْدَاء على مُعاوية بن أبي سُفيان فحجَبَهُ؛ فقال: مَن يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ ويقعدْ، ومن يَجِدْ بابًا مُغْلَقًا يَجِدْ إلى جانبه بابًا مفتوحًا إن دعا أُجِيب وإن سأل أُعطِي. قال محمود الورّاق(٣): [من الكامل]

شاد الملوكُ قُصورَهم فتحصَّنُوا　　　من كل طالبِ حاجةٍ أو راغِبِ

(١) أبو سفيان: صخر بن حرب بن عبد شمس بن عبد مناف سيد قريش في الجاهلية، ووالد معاوية ويزيد وقد وليا الشام لأبي بكر وعمر وعثمان. بعد وفاة النبي حث عليًا على تولي الخلافة رافضًا خلافة أبي بكر، ولما تولى عثمان الخلافة قال لبني أمية تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة. مات في خلافة عثمان إذ لم أعثر على أخباره في خلافة علي والحسن ومعاوية من بعدهما. المسعودي، مروج الذهب ١/ ٥٣١ ـ ٥٣٣.

(٢) عثمان بن عفان: ٢٣ هـ ـ ٣٥ هـ. ولد سنة ٤٧ قبل الهجرة وتوفي سنة ٣٥ هـ. وتولى الخلافة اثنتي عشرة سنة ٢٣ هـ ـ ٣٥ هـ. عمر اثنتين وثمانين سنة. هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. يكنّى بأبي عبد الله، تزوج رقية بنت الرسول وله منها عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر. كان عثمان في نهاية الجود والبذل ولطالما جهز بعثة على نفقته لوحده. ولي الأعمال لأنسبائه وكان ضعيفًا أمامهم فكانوا سببًا للثورة التي أدت إلى مقتله في داره وهو يقرأ القرآن. فتولى الخلافة من بعده علي بن أبي طالب. المسعودي، مروج الذهب، ١/ ٥٤٣ ـ ٥٥٥.

(٣) محمود الوراق: شاعر عباسي توفي في حدود المائتين والثلاثين للهجرة، شعره أكثر في الحكم والمواعظ والأمثال وأدب ليس يقصر عن صاع بن القدوس وسابق البربري نجده في: ـ ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧. ـ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١٣/ ٨٧. ـ الكتبي، فوات الوفيات رقم ٤٦٢.

غَالَوْا بأبواب الحديد لعِزِّها ... وتنوّقُوا[1] في قُبح وجه الحاجبِ
فإذا تلَطَّفَ في الدخول إليهِمُ ... راجِ تَلَقَّوْه بوعدٍ كاذبِ
فاطلُبْ إلى مَلِكِ الملوك ولا تكن ... ياذا الضَّراعةِ طالبًا من طالبِ

قال أبو مُسْهِر[2]: أتيتُ إلى باب أبي جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان، فحجَبني فكتبتُ إليه: [من البسيط]

إني أتيتُك للتسليم أمسِ فلَمْ ... تأذَنْ عليكَ لِيَ الأستارُ والحُجُبُ
وقد علمتَ بأني لم أُردَّ ولا ... واللهِ ما رُدَّ إلّا العلمُ والأدبُ

فأجابه ابنُ عبد كان: [من البسيط]

لو كنتَ كافأتَ بالحُسْنَى لقلتَ كما ... قال ابنُ أَوْسٍ وفيما قاله أدبُ
ليس الحجابُ بمُقْصٍ عنك لي أَملًا ... إنّ السماءَ تُرَجَّى حين تحتَجِبُ

وقف إلى باب محمد بن منصور رجلٌ من خاصَّته فَحُجِب عنه، فكتب إليه: [من الطويل]

على أيِّ بابٍ أطلُب الإذنَ بعد ما ... حُجِبتُ عن الباب الذي أنا حاجبُهْ

وقف أبو العَتَاهِيَة[3] إلى باب بعض الهاشميّين، فطلَب الإذن؛ فقيل له: تكون لك عودة؛ فقال: [من الطويل]

لئن عُدْتُ بعد اليوم إنّي لظالمٌ ... سأَصرِفُ وجهي حيث تُبْغَى المكارِمُ
متى يَظْفَرُ الغادي إليك بحاجةٍ ... ونصفُك محجوبٌ ونصفك نائِمُ

---

(١) تنوقوا: جودوا وبالغوا، اللسان، مادة نوق.

(٢) أبو مسهر، عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي من حفاظ الحديث وهو ابن أبي دارم، كان شيخ الشام. نصه المأمون عن محنته في القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له بالسيف، فأقر ذميمًا، وطلب إلى الوالي أن يعيد إنصاحه عن إقراره، فإن كان مقيمًا عليه أشهر ذلك وأظهر. ثم يذكر الطبري أخبار مَن لم يقرّ ولم يرد ذكر أبي مسهر من بين الأربعة الذين رفضوا. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨/٦٤٣. في رسالة المأمون إلى إسحٰق بن إبراهيم.

(٣) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم مولى بني عنزة ولد سنة ١٣٠ هـ/٧٤٨ م في عين التمر بالحجاز وقيل قرب الأنبار. وتوفي ٢١١ هـ/٨٢٦ م. كان من ندماء الرشيد، كثير الغزل حتى انتقل الرشيد إلى الرقة فانقلب أبو العتاهية إلى التصوف والزهد حتى رمي بالزندقة. وصفه أبو هلال العسكري شعره بالبرودة، ولاحظ Rescher تأثره بوعاظ النصارى. تجده في: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٩٧. - أبو الفرج، الأغاني، ٣/١٢٦ - ١٨٢. - ابن خلكان، وفيات، رقم ٩١. - البستاني، الروائع، ص ١٠. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/٣٤ - ٣٥. وديوانه لم يجمع كاملًا.

ونظيره قولُ العُمَانِيّ[١]: [من الخفيف]

قد أتيناك للسلام مِرَارًا غيرَ مَنٍّ بنا بتلك المِرَارِ
فإذا أنت في استتارك بالليـ ـل على مِثْل حالِنا بالنَّهارِ

وقال أبو تمّام[٢]: [من الطويل]

سأتركُ هذا البابَ ما دام إِذْنُهُ على ما أرى حتّى يَلِينَ قليلا
فما خاب مَن لم يأتِهِ مُتعمِّدًا ولا فاز مَن قد نال منه وُصولا
ولا جُعِلتْ أرزاقُنا بيد امرئٍ حَمَى بابَه من أن يُنَالَ دُخولا
إذا لم أَجِدْ للإذنِ عندك موضِعًا وجدتُ إلى ترك المَجِيءِ سَبِيلا

وقال آخر: [من الطويل]

أتيتُك للتسليم لا أنني امرؤٌ أردتُ بإتيانِيك أسبابَ نائِلِكْ
فألفيتُ بوّابًا ببابك مُغْرَمًا بهدْم الذي وطّدْتَهُ من فضائِلِكْ

وقال العُمَانيّ: [من المتقارب]

إذا ما أتيناهُ في حاجةٍ رفعنا الرِّقاعِ له بالقَصَبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ وحاجبُ حاجبِه مُحتَجِبْ

وقال آخر: [من المديد]

يا أبا موسى وأنت فَتَى ماجِدٌ حُلْوٌ ضرائِبُهُ[٣]
كُن على مِنْهاجِ معرفةٍ أنَّ وجهَ المرءِ حاجِبُهُ
فيه تبدُو محاسنُهُ وبه تبدُو معايِبُهُ

وقف عبد الله بن العباس بن الحسين العلويّ على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجبُ ثم أطرق؛ فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أَذِن لنا لدخلنا، ولو صَرَفنا

(١) العماني، محمد بن ذؤيب الفُقيمي، لقبه داكن الراجز بالعماني لاصفرار وجهه ولطمًا له، مدح الرشيد وكان مخضرمًا إذ إنه مدح يزيد بن الوليد وإبراهيم ثم السفاح والمنصور والمهدي. كان يجيد وصف الفرس. ترجمته في: ـ الأغاني، ١٨/ ٢٣١. ـ طبقات ابن المعتز، ص ١٠٩ ـ ١١٤. ـ طبقات ابن قتيبة، ص ٦٤١ ـ ٦٤٢. وقد ورد البيتان في العقد الفريد للعتابي ١٠/ ٥٢٠.

(٢) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: انظر هامش٣ صفحة ٧٩.

(٣) ضرائبه جمع ضريبة وهي السجية والطبيعة، لسان العرب مادة ضرب.

لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، فأمّا الفَتْرة بعد النَّظْرة، والتوَقُّف بعد التعرُّف، فلا أفهمه، ثم تمثّل: [من الطويل]

وما عن رِضًا كان الحِمَارُ مَطِيَّتي ولكنّ مَن يمشِي سَيرْضَى بما رَكِبْ

وانصرف؛ فبلغ المأمون كلامُه، فصرَف الحاجبَ وأمر لعبد الله بصلَة جزيلة وعشر دوابّ. وحُجِب بعضُ الهاشميّين فرجع مُغْضَبًا فرُدَّ فلم يرجِع، وقال: ليس بعد الحجاب إلا العذابُ، لأن الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين: الآيتان ١٥، ١٦].

ذكر ما قيل في النهي عن شدّة الحجاب

قيل: لا شيءَ أضيعُ للمملكة، وأهلَكُ للرعيّة من شِدّة الحِجاب، لأنّ الرعيّة إذا وثِقت بسهولة الحجاب أحجمتْ عن الظلم، وإذا وَثِقت بصعوبته هجَمتْ على الظلم. وهذا مخالفٌ لوصيّة زياد لابنه: عليك بالحجاب، فإنّما تجرَّأت الرُّعاةُ على السِّباع لكثرة نظرها إليها. قال سعِيد بن المُسَيِّب[1]: نِعْم الرجلُ عبدُ العزيز لولا حِجَابُه! وعن عليّ رضي الله عنه: إنما أُمهِل فرعونُ مع دعواه ما ادّعاه لسهولةِ إذنه وبَذْل طعامه. وقال ميمون بن مِهْران[2]: كنت عند عمر بن عبد العزيز[3]، فقال لابنه: مَن بالباب؟ فقال: رجل أناخ الآن يَزْعُم أنه ابن بِلال[4] مؤَذّن رسول الله ﷺ يقول: من وَلِيَ شيئًا من أمور المسلمين ثم حَجَب عنه حَجَبَه الله يوم القيامة؛ فقال لحاجبه: الزَمْ بيتك. فما رُئِيَ على بابه بعده حاجبٌ.

وقال عمرو بن العاص[5] لابنه وقد وُلّيَ ولاية: انظر حاجبَك فإنّه لحمُك ودمُك، ولقد رأيتُنا بصِفّين وقد أَشرع قومٌ رِمَاحَهم في وجوهنا يريدون نفوسَنا ما لنا ذَنْبٌ إليهم إلا الحجابُ.

---

(١) سعيد بن المسيب بن حزم بن وهب المخزومي القرشي الراوي أحد الفقهاء السبعة توفي في المدينة سنة ٩٤ هـ في السنة نفسها التي توفي فيها علي بن الحسين وعروة بن الزبير وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٦/ ٤٩٠.

(٢) ميمون بن مهران راوٍ للحديث، انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢/ ٣٨٨، ٦/ ٥٦٧، ٧/ ٤٠ و٢٠٣.

(٣) عمر بن عبد العزيز: انظر هامش ١ صفحة ٣٣.

(٤) بلال بن رباح مؤذن الرسول ومولى أبي بكر الصديق أخباره في الطبري: ٢/ ٢٧٩ و٣١٥ و٤٥٢ و٣٥٣ و٥٩٩، ٣/ ١٤ و١٧ و٤٣٧ و٦٠٠، ٤/ ٦٦ و٦٧ و١١٢.

(٥) عمرو بن العاص: انظر هامش ١ صفحة ٧٧.

وقيل: وَلّى المنصورُ[1] حِجابَتَه الخَصِيب فقال: إنّك بوِلايتي عظيمُ القَدْر، وبحِجابتي عظيمُ الجاه، فبَقِّها على نفسك، ابسُطْ وجهك للمستأذِنين، وصُنْ عِرْضك عن تناول المحجوبين، فما شيءٌ أوقعُ بقلوبهم من سهولة الإذن وطَلاقة الوجه.

قال سليمان بن زيد النابُلسِيّ: [من الطويل]

سأهجُركم حتى يَلِينَ حِجَابُكم ... على أنّه لا بدّ أن سيَلِينُ
خُذُوا حِذْرَكم من نَبْوَة الدَّهر إنّها ... وإن لم تكن حانت فسوف تَحِين

وقال آخر: [من السريع]

كم من فَتَى تُحْمَدُ أخلاقُهُ ... وتسكُنُ الأحرارُ في ذِمّتِهْ
قد كثَّر الحاجبُ أعداءَهُ ... وسلَّطَ الذمَّ على نِعْمَتِهْ

وقال أعرابيّ: [من المتقارب]

لَعَمْرِيَ إن حَجَبَتْنِي العبيدُ ... ببابك ما تُحْجَبُ القافِيهْ
سَأرمِي بها من وراء الحِجابِ ... فتعدُو عليك بها دَاهِيهْ
تُصِمُّ السميعَ وتُعمِي البصيرَ ... وتُسأَلُ من مثلها العافِيهْ

وقال جعفر المصري: [من الخفيف]

وتفضّلْ عليّ بالإذن إن جئـ ... ـتُ فإنّي مُخَفِّفٌ في اللقاءِ
ليس لي حاجةٌ سوى الحمدِ والشكـ ... ـرِ فدعني أقرِيكَ حُسْنَ الثناءِ

الباب التاسع
من القسم الخامس من الفن الثاني
في الوزراء وأصحاب الملك

ذكر ما قيل في الوزارة وشروطها واشتقاقها وما يحتاج الوزير إليه

قال الله عزّ وجلّ إخبارًا عن موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: الآيات ٢٩ - ٣٢]. ورُوِيَ

(١) المنصور: انظر هامش ١ صفحة ١٣.

عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما من أحد أعظم أجرًا من وزير صالح يكون مع إمامٍ فيأمر بذات الله تعالى»(١).

قالت الحكماء: أعْرَفُ الملوك يَحتاجُ إلى الوزير، وأشجعُ الرجالِ يحتاجُ إلى السلاح، وأجودُ الخيل يحتاجُ إلى السَّوْط، وأَحَدُّ الشِّفارِ يحتاجُ إلى المِسَنّ.

وقالوا: صَلَاحُ الدنيا بصلاح الملوك، وصلاحُ الملوكِ بصلاح الوُزَرَاء، ولا يَصْلُح المُلْكُ إلا لأهله، ولا تَصْلُح الوِزارةُ إلا لمستحقِّها.

وقالوا: أفضلُ عُدَدِ الملوكِ صلاحُ الوُزراء الكُفَاة، لأن في صلاحهم صَلَاحَ قلوبِ عوامّهم لهم.

وقالوا: خيرُ الوزراءِ أصلحُهم للرعيّة، وأصدقُهم نِيّةً في النصيحة، وأشدُّهم ذَبًّا عن المملكة، وأسدُّهم بصيرةً في الطاعة، وآخَذُهم لحقوق الرعيّة من نفسه وسلطانه.

وقالوا: الوزيرُ الخَيِّرُ لا يَرَى أنّ صلاحه في نفسه وسلطانِه كائن صلاحًا حتى يتّصِلَ بصلاحِ المَلِك ورعِيّتِه، وتكونَ عنايتُه فيما عطَّف الملِك على عامّته، وفيما استعطف قلوبَ العامّة على الطاعةِ لملِكه، وفيما قَوَّم أمرَ الملك والمملكة من تدبير، حتى يَجمعَ إلى أخذ الحق وتقديمه عمومَ الأمن والسلامة، ويجمع إلى صلاح المَلك صَلَاح أتباعه. وإذا تطرّقت الحوادثُ ودَهِمَت العظائم كان للمَلِك عُدَّةً وعَتَادًا، وللرعيّة كافيًا محتاطًا، ومن ورائها ذَابًّا ناصرًا، يَعنيه من صلاحِها ما لا يَعنيه من صلاح نفسه دونها.

ذكر ما قيل في اشتقاق الوزارة وصفة الوزير وما يحتاج إليه

أما اشتقاقها فقد اختُلِف في معناه على ثلاثة أوجه: أحدها أنه مشتَقٌّ من الوِزْر وهو الثِّقْلُ، لأنه يَحمِل عن الملك أثقالَه. والثاني أنّه مشتَقٌّ من الأَزْر وهو الظَّهْر، لأن المَلك يَقْوَى بوزيره كقوّة البَدَن بِظَهْره. والثالث أنه مشتَقٌّ من الوَزَر ـ وهو الملجأ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ [القِيَامَة: الآية ١١] أي لا ملجأ؛ لأن المَلك يَلجأ إلى وزيره ومعُونَتِه.

(١) ورد الحديث في قوانين الوزارة للماوردي، ص ٣١٢.

وأما صفةُ الوزيرِ وما يحتاجُ إليه، فقد قال أَقْضى القُضاة أبو الحَسَن علي بن محمد بن محمد بن حَبيب الماورديّ[١] في كتابه المترجَم بـ«قوانين الوزارة» ما معناه: إن الوزير في مَنْصِب مختلفِ الأطراف، يُدَبِّرُ غيرَه من الرعايا ويَتَدبَّرُ بغيره من الملوك، فهو سائسٌ ومَسُوسٌ يقومُ بسياسة رعيَّته وينقادُ لطاعة سلطانه، فيجمعُ بين سَطْوة مُطاعٍ وانقياد مُطِيع، فشطرُ فِكْره جاذبٌ لمن يَسُوسُه، وشطرُه مجذوبٌ بمن يُطيعه؛ لأنَّ الناسَ بين سائسٍ، ومسوس، وجامعٍ بينهما، وله هذه المرتبة الجامعة؛ فهو يَجمعُ ما اختَلَف من أحكامها، ويَستكمِلُ ما تَباينَ من أقسامها؛ وبيده تدبيرُ مَملكةٍ صلاحُها مستحَقٌّ عليه، وفسادُها منسوبٌ إليه؛ يُؤاخَذُ بالإساءة ولا يُعْتَدُّ له بالإحسان، تُلَان له المبادئ بالإرغاب وتُشَدَّد عليه الغايات بالإعتاب، مستظهرًا ليُكْفَى اعتِدَادَ الإحسان إليه، ويَسْلَمَ من غِبِّ المؤاخذة له، ويلزمه ضدّها في حقّ سلطانه ألّا يَعتَدَّ عليه بصلاح مُلْكه، لأنَّه للصلاح مندوبٌ، ولا يَعتَذِر إليه من اختلاله، لأن الاختلال إليه منسوب.

والوزير مُباشر لتدبير مُلْكٍ له أُسٌّ هو الدِّين المشروع، ونظامٌ هو الحقّ المتبوع. فإن جعل الدِّينَ قائِدَه، والحقَّ رائِدَه؛ تذلّل له كلُّ صَعْب، وسَهُلَ عليه كلُّ خَطْب؛ لأن للدِّين أنصارًا وأعوانًا، إن قعدت عنه أجسادُهم لم تقعُد عنه قلوبهم. وحسبه أن تكون القلوبُ معه، فإن للدِّين سلطانًا قد انقادت إليه إمامتُهُ، واستقرّت عليه زَعامَتُه. فإن جعله ظهيرًا له في أموره، وعَوْنًا له على تدبيره، يَجِدْ من القلوب خشوعًا، ومن النفوس خضوعًا؛ فما اعتزَت مملكة إليه إلا صالت، ولا التحفت بشِعاره إلا طالت. ولن يَسْتَغزرَ الوزيرُ مَوادَّه إلا بالعدل والإحسان، ولن يَستنْزِرها[٢] بمثل الجَوْر والإساءة؛ لأن العدل استثمارٌ دائم، والجَوْرَ استئصالٌ منقطِع. وليس يختصّ بالأموال دون الأقوال والأفعال؛ فعدلُه في الأموال أن تُؤخَذَ بحقّها وتُدفَع إلى مُستحِقِّها؛ لأنه في الحقوق سفير مُؤْتَمَن، وكفيلٌ مُرْتَهَن؛ عليه غُرْمُها، ولغيره غُنْمُها. وعدله في

(١) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي، تعلم في البصرة وتولى القضاء حتى أصبح قاضي القضاة، كان مفكرًا حسن التأليف ترك كتبًا منها: الأحكام السلطانية، ونصيحة الملوك، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر، والحاوي الكبير في الفروع، وأعلام النبوة، والأمثال والحكم، ومعرفة الفضائل. انظر فيه: ـ تاريخ بغداد، ١٠٢/١٣؛ معجم الأدباء ٥٢/١٥. ـ دائرة المعارف الإسلامية؛ بروكلمان ٢٨٦/٤. ـ جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ٣٨٤/٢ ـ ٣٨٥.

(٢) يستنزرها: يستقلها ويحقرها. اللسان مادة نزر.

الأقوال ألّا يُخاطِبَ الفاضِلَ بخطاب المفضول، ولا العالِمَ بخطاب الجَهُول؛ ويَقِفَ في الحمد والذَّمّ على حسب الإحسان والإساءة، ليكونَ إرغابُه وإرهابُه وَفْقَ أسبابهما من غير سَرَفٍ ولا تقصير؛ فلسانُه ميزانُه، فليحفظْهُ من رُجْحَانٍ أو نقصان. وعدلُه في الأفعال ألّا يعاقِبَ إلا على ذَنْب، ولا يعفوَ إلا عن إنابة[١]، ولا يبعثه السُّخْط على اطِّراح المَحَاسن، ولا يَحمِله الرضا على العفو عن المَسَاوىء. وليكن وَفاؤُه بالوعد حَتْمًا، وبالوعيد حَزْمًا؛ لأن الوعد حقٌّ عليه لغيره يسقط فيه اختياره، والوعيدَ حقٌ له على غيره فهو فيه على خياره. فمن أجل ذلك لم يَجُز إخلافُ الوعد وإن جاز إخلافُ الوعيد. قال بعض الشعراء: [من الطويل]

وإنــي إذا أوعــدتُــه أو وعــدْتُــهُ لَمُخْلِف إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

لكن ينبغي أن يَقرِن بخُلف الوعيد عُذْرًا حتى لا يهونَ وعيدُه؛ ليكون نظامُ الهيبة محفوظًا، وقانونُ السياسة فيه مضبوطًا؛ وليُظهِرَهُ إن خَفِيَ ليكون بإخلاف وعيده معذورًا، وبعفوه عنه مشكورًا. ولتكن أفعالُه أكثرَ من أقواله؛ فإن زيادة القول على الفعل دناءةٌ وشَيْنٌ، وزيادةَ الفعل على القول مَكْرُمةٌ وزَيْنٌ. ولا يجعلُ لغضبه سلطانًا على نفسه يُخرجه عن الاعتدال إلى الاختلال؛ فلن يَسْلَمَ بالغضب رأيٌ من زَلَلَ، ولا كلامٌ من خَطَل؛ لأن ثورتَه طَيْشٌ مُعِرّ[٢]، ونَفْرَتَه بطشٌ مُضِرٌّ؛ لأنه يُخرجُ عن التأديب إلى الانتقام، وعن التقويم إلى الاصطلام[٣].

قال ابن عبّاس[٤]: لم يَمِلْ إلى الغضب إلّا مَن أعياه سُلطان الحُجَّة. وقال بعض السَّلَف: إيّاك وعِزّةَ الغضب، فإنها تُفْضِي بك إلى ذُلّ الاعتذار. وقال بعض الحكماء: من كَثُر شطَطُه، كَثُرَ غلَطُه. قال بعض الشعراء: [من الطويل]

ولم أَرَ في الأعداء حين اختبرتُهم عَدُوًّا لعقلِ المرء أعدى من الغَضَبْ

وليكن غضبُه تغاضُبًا يَمْلِك به عزمَه، ويُقوِّم به خَصْمَه، فيَسلَمَ من جَوْر غَضَبه ويقِفَ على اعتدال تغاضُبه. فقد قيل في بعض صُحُف بني إسرائيل: إذا كان الرجل ذَا غَضَبٍ تواترتْ عليه الوضائع، فكلّما اشتدّ غضبُه ازداد بلاءً. وقد يقترن بالغضب

(١) الإنابة: التوبة اللسان مادة نوب.
(٢) المعر: القبيح والإثم والأذى. اللسان مادة معر.
(٣) الاصطلام: اصطلم بمعنى استأصل وقطع. اللسان مادة صلم.
(٤) عبد الله بن عباس: هامش ١ صفحة ١٦.

لَجَاجٌ يساويه في مَعَرَّتِه، ويُشارِكه في مَضرَّته؛ لأن في اللَّجَاج التزامَ الخطأ واطِّراح الصواب. فليَدَعْ عنه لَجَاج الخَصْم الألَدّ، وليَتجنّبْ عواقب المدلّ الفَدْم[1]. وليُتابعِ الرأيَ فيما اقتضاه؛ فَلأن يَنْتَفِعَ بالرأي خيرٌ من أن يَسْتَضِرّ باللَّجَاج. فقد قال بعض الحكماء: مَن استعان بالرأي مَلَك، ومن كابر الأمور هلك. وقال ابن المقفَّع: دع اللَّجاج فإنه يَكسِر عزائمَ العقول. وقيل: الظَّفَرُ لمن احتَجّ، لا لمن لَجّ.

وليأخذِ الوزيرُ أمورَه بالجِدّ دون الهَزْل. فالجِدُّ والهزل ضِدّان متنافران؛ لأن الجدّ من قواعد الحقّ الباعثِ على الصلاح، والهزلَ من مَرَح الباطل الداعي إلى الفساد؛ فصار فرقُ ما بين الجِدّ والهزل هو فرقَ ما بين الحقّ والباطل. وتنافُر الأضداد يمنَعُ من الجمع بينهما؛ فمتى انفرد بأحدهما كان للآخَر تاركًا.

وقد رُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب[2] رضي الله عنه أنه قال: العقلُ حُسامٌ قاطعٌ، والحِلمُ غِطاء ساتر، فقابلْ هواكَ بعقلك، واستُر خَلَلَ خُلُقِك بحلمك، واستعمل الجِدّ يَنْقَدْ إليك الحقّ ويفارِقْك الباطلُ. ولَا تَعْدِلْ إلى الهَزْل فيتبعَك الباطل ويُنافِرَك الحقّ. وقلّما انثلمت هَيْبةُ الجِدّ أو تكاملت هَيْبَةُ الهزل. والهيبةُ أُسُّ السلطنة.

حُكِيَ عن عمرو بن مُرّة[3] أن رجلًا من قريش قال لعمر بن الخطاب[4] رضي الله عنه. لِنْ لنا فقد ملأتَ قلوبنا مهابةً؛ فقال عمر: أفي ذلك ظلمٌ؟ قال: لا؛ قال: فزادني الله في صدوركم مَهابةً. وقال حكيم الهند: ليكن فيك مع طلاقتك تشدُّدٌ، لئلا يُجْتَرأَ عليك بالطلاقة ويُنْفَرَ منك بالتشدُّد. والهَزْلُ إنما يكون من سُخْفٍ أو بَطَر يُجلُّ عنهما مَن ساس الرعايا ودَبّر الممالك. وسأل ملكُ الهند الإسكندرَ وقد دخل بلادَه: ما علامةُ دوام الملك؟ قال: الجدُّ في كلّ الأمور؛ قال: فما علامة زواله؟ قال: الهَزْلُ فيها. وليس الكِبْرُ والعُنْفُ جِدًّا، ولا التواضعُ واللطفُ هزلًا.

قالوا: وإن استكدّ[5] الجِدّ خاطرَه فلا بأسَ أن يَسْتَروِحَ ببعض الهزل ليستعينَ به على مُصابرة الجدّ، لكن يكون في زمانه راحته وأوقاتِ خَلْوَته بمقدار دَوائه من دائه،

---

(١) الفَدْم: الغليظ الأحمق الجافي، اللسان مادة فدم.

(٢) علي بن أبي طالب: انظر هامش ٤ صفحة ٢٠.

(٣) عمرو بن مُرّة الجملي راوٍ. انظره في: الطبري، ١/ ٤٠٠؛ ٢/ ٣١٠ و٣١٥ و٣١٨ و٤٧٦ و٦٢١؛ ٣/ ١٧٨ و٥٦٠؛ ٤/ ٣٣٥ و٥/ ٤٢٢.

(٤) عمر بن الخطاب: هامش ٣ صفحة ٣٧.

(٥) استكد: طلب الكد: المبالغة في الجهد، اللسان، مادة كدد.

فإن الكَلَال مَلال. وليكن ذلك كما قال بعض الشعراء: [من الطويل]

أَفِدْ طبعَك المكدُودَ بالجِدِّ راحةً يَجُمُّ وعَلِّلْه بشيءٍ من المَزْحِ
ولكن إذا أعطيتَه المَزْح فليكنْ بمقدار ما تُعطِيْ الطعامَ من المِلْحِ

وكذلك فليتَحَرَّ الصدقَ ويتجنّبِ الكذِبَ، فإنّهما ضدّان متنافران تختلف عِلَلُهما وتفترق نتائجُهما؛ فالصدق من لوازم العقل وهو أُسُّ الدِّين وقِوَامُ الحقّ؛ والكذِبُ من غرائز الجهل وهو زُورٌ يقترِنُ بغرور، إن التبست أوائله انهتكت أواخرُه، وإن جرّ التباسه نفعًا عاد انهتاكه ضررًا، فلن يَسلَمَ من مَعَرَّة زُوره، ومضرّة غُروره.

وقد قدّمنا من مدح الصدق في باب المدح، وذمّ الكذب في باب الهجاء، ما فيه غُنْيَةٌ عن تَكْراره. وحيث ذكرنا هذه المقدّمة في اشتقاق الوزارة وما يحتاج الوزير إليه فلنذكر صفةَ الوزارة وشروطها.

ذكر صفة الوزارة وشروطها

قال أقضى القضاة أبو الحسن عليّ بن محمد بن حبيب الماورديّ[1]: والوزارة ضربان: وزارةُ تفويضٍ تجمع بين كِفايتي السيف والقلم، ووزارةُ تنفيذ تختصّ بالرأي والحزم. ولكل واحدةٍ منهما حقوقٌ وشروط.

فأما وزارةُ التفويضِ فهي: الاستيلاء على التدبير بالعَقْد، والحَلّ، والتقليد والعزل. فأما العقدُ فيشتمل على شرطين: تنفيذ وإقدام. وأما الحلّ فيشتمل على شرطين: دفع وحذَر. وكلّ شرط من هذه الأربعة الشروط يشتمل على فصول.

فأما الشرط الأول، وهو التنفيذُ، فهو أُسُّ الوزارة وقاعدةُ النيابة، وهو الأخصّ بكفاية القلم في مصالح المُلْك واستقامةِ الأعمال. ويشتمل على أربعة أقسام:

الأولّ: تنفيذ ما صدرت به أوامرُ الملك. وعلى الوزير فيها حَقّانِ: أحدهما أن يتصفّحها من زَلَلٍ في ابتدائها، ويحرُسَها من خَلَلٍ في أثنائها؛ ليردَّه عن زَلَلها باللطف، ويُقَوِّيَ عزمه على صوابها بالإحماد. وقد قال أفلاطون: أوّلُ رياضة الوزير أن يتأمّل أخلاقَ الملك ومُعَامَلتَهُ، فإن كانت شديدةً فَظَّةً عامل الناسَ بدونها، وإن كانت ليّنة مُطلَقة عاملهم بأقوى منها، ليقرُبَ من العدل في سعيه. والثاني: تعجيل إمضائها للوقت المقدَّر لها حتى لا يقفَ فيُوحِشَ، لأن وقوف أوامره يُوحش وهو

(١) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

مندوبٌ للتنفيذ دون الوقوفِ. وقد قال حكيم الهند: العَجَلةُ في الأمر خُرْقٌ، وأخْرقُ منه التفريطُ في الأمر بعد القُدرة عليه. ودَرْكُ هذا التنفيذِ عائدٌ على الملك دون الوزير.

القسم الثاني: تنفيذ ما اقتضاه رأيُ الوزيرِ من تدبير المملكة. فعليه في إمضائه حَقّانِ: أحدهما أن يُراعِيَ أَوْلَى الأُمور في اجتهاده، وأصوبَها في رأيه، لأنه مندوبٌ لأصلحها ومأخوذٌ بأصوبِها. والثاني أن يُطالِعَ الملك به إن جلّ، ويجوز أن يَطْوِيَه إن قلّ، ليخرُج عن الاستبداد المنفِّر، ويسلَم من الحِقد المؤثِّر. وقال حكيم الهند: الأحقاد مُؤَثِّرة حيث كانت، وأخوفُها ما كان في أنفس الملوك، لأنهم يَدِينون بالانتقام ويَرَوْنَ التطلُّب بالوَتْر مكْرُمَةً وفخرًا. فإن عارضه الملكُ في رأيه بعد المطالعة به لم يَستوحِش من معارضته، لأنه مالك مُستنيب، وظانٌّ مستريب؛ وقابَلَ بين رأيه ومُعارضته، واستوضَح من الملِك أسباب المعارضة بلطفٍ إن خَفِيت، فإن وَضَح صوابُها توقَّف عن رأيه وشكَرَهُ على استدراك زَلَلِه وتلَافِي خَلَلِه وقد منَّ عليه ولم يُؤنِّب. وإن كان الصواب مع الوزير تلطَّف في إيضاح صوابه، وكَشْفِ عِلله وأسبابه. فإن ساعده على إمضائه أمضاه؛ وكان دَرْكُ تنفيذه عائدًا على الوزير دون الملك. وإن لم يساعده عليه توقَّف انقيادًا لطاعته؛ وكان دَرْكُ وقوفه عائدًا على الملك دون الوزير.

والقسم الثالث: تنفيذُ ما صدر عن خلفائه على الأعمال التي فوّضها إلى آرائهم ووَكَلَها إلى اجتهادهم. فإن تفرّدوا بتنفيذها أمضاها لهم ولم يَتَعَقَّبها عليهم ما لم يتحقّقْ زَلَلَهم فيها؛ وكان دَرْكُ تنفيذها عائدًا على العمّال دون الوزير. وإن وقَفوها على تنفيذ الوزير فعليه في تنفيذها حَقّان: أحدهما أن يستكشف عن أسبابها، ليعْلَم خطأَها من صوابها. والثاني تقويةُ أيديهم ونفيُ الارتيابِ عنهم، فإن ظهور الارتياب محشّة(١) للقلوب. فإن نفّذها لهم حين لم يتحقّق زللَهم فيها كان دركُ تنفيذها عائدًا على الوزير دون العمّال.

والقسم الرابع: تنفيذُ أمور الرعايا على ما ألِفُوه من عادات ومُعاملات اختلفوا فيها حين ائتلفوا بها، لأنّ الناسَ مجبولون على الحاجة إلى أنواع لا يقدِر الواحدُ أن يقومَ بجميعها، فخُولِف بين هممهم لينفردَ كلُّ قومٍ بنوع منها فيأتلفوا بها، فيقومَ

(١) محشة بالحاء المهملة. وهي حديدة تحرك بها النار لتشتعل وهي اسم آلة من حش النار أوقدها بدقاق العيدان. فمعنى محسة للقلوب أنها توقد فيها نار الغضب أو الحقد.

الزرّاعُ بمزارعهم، ويتشاغَل الصنّاعُ بصنائعهم، ويتوفّرَ التجّارُ على متاجرهم. وعليه في تنفيذها لهم حَقَّانِ: أحدهما ألّا يُعارضَ صِنفًا منهم في مَطْلبه، والثاني ألّا يُشاركه في مَكْسبه. وربما كان للسلطان رأيٌ في الاستكثار من أحد الأصناف فيَنْقُل إليه من لم يألفه فيختلُّ النظامُ بهم فيما نقلوا عنه وفيما نُقِلوا إليه. وربما ضَنَّ السلطانُ عليهم بمكاسبهم فتعرّض لها أو شارَكهم فيها فاتَّجر مع التجار وزَرَع مع الزرّاع. وهذا وَهْنٌ في حقوق السياسة وقَدْحٌ في شروط الرياسة من وجهين: أحدهما أنه إذا تعرّض لأمر، قَصُرَتْ فيه يَدُ مَن عداه؛ فإن تُورِكَ عليه لم يَنهَضْ به، وإن شُورِكَ فيه ضاق على أهله. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما عَدَل والٍ اتَّجر في رعيّته». والثاني لأن الملوك أشرفُ الناس مَنْصبًا فَخُصُّوا بموادّ السلطنة، لأنها أشرفُ الموادّ مَكْسبًا. فإن زاحموا العامّةَ في رَذْل مكاسبهم أَوْهَنُوا الرعايا ودنَّسُوا الممالكَ؛ وعاد وَهْنُهم عليها فاختلّ نظامُها، واعتلّ مرامُها. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا اتَّجَرَ الراعي هلَكَت الرعيّة». وكتب حكيمُ الرومِ إلى الإسكندر: أيُّ مَلِك تطنفت[1] نفسُه إلى المُحَقَّرات فالموت أكرم له.

فهذا ما اشتمل عليه الشرط الأوّل.

وأما الشرط الثاني من شروط وزارة التفويض، فهو الدفاعُ. وهو أُسُّ السلطنة وقانونُ السياسةِ والأخصُّ بكفاية السيفِ في تدبير المُلْك وضروبِ المصالح. ويشتمل على أربعة أقسام: أحدُها الدفاعُ عن المَلِك من الأولياء، والثاني الدفاعُ عن المملكة من الأعداء، والثالثُ دفاعُ الوزيرِ عن نفسه من الأكفاء، والرابعُ دفاعُه عن الرعية من خوف واختلال.

فالقسم الأول في دفاعه عن المَلِك من أوليائه: ويكون بثلاثة أسباب: أحدها أن يَقُودَهم إلى طاعته بالرغبة، ويَكُفَّهم عن معصيته بالرهبة؛ فإن الرغبةَ والرهبةَ إذا تَوَاليا على النفس ذَلَّت لهما وانقادت خَوْفًا وطَمَعًا، وبهما تَعبَّد الله الخَلْقَ في وعده ووعيده. والثاني أن يقوم بكفايتهم حتى لا يَنفُروا بالقوّة أو يتفرّقوا بالضعف؛ وكلاهما قَدْحٌ في الملك. والثالث أن يحفَظَهم من الإغواء، ويحرُسَهم من الإغراء؛ وذلك بأمرين: أحدهما البحث عن أخبارهم حتى يعلم سليمَهم من سقيمهم. والثاني بإبعاد المُفسدين عنهم حتى لا يتعدّى إليهم فسادُهم؛ فإن الكَفّ بحسب الكشف.

---

(١) تَطَنَّفت: أشرفت، وفي قوانين الوزارة تطلعت.

والقسم الثاني في دفاعه عن المملكة من أعدائها: وأعداءُ الممالك من انفرد بمُلك أو امتنع بقوّة. وهم ثلاثة أصناف: أكفاءُ مماثلون، وعظماءُ متقدّمون، وناجمة[١] منافسون. فأما الأكفاء المماثلون فيُدْفَعُون بالمقاربة والمسالمة. وأما العظماء المتقدّمون فيُدفَعُون بالمُلاطفة والمُلاينة. وأما الناجمةُ المنافسون فيُدفعون بالسوط والمخاشنة.

والقسم الثالث في دفاع الوزير عن نفسه من أكفائه: ويكون بعد استصلاح الطرَفين: الأعلى وهو المَلِك، والأدنى وهم الأعوان. وأكفاؤه ثلاثة: وَاتِرٌ، وموتورٌ، ومُنافس.

فأما الواترُ: فقد بدَأَ بشرّه وجاهرَ بعداوته؛ وكلاهما بَغْيٌ مؤنسٌ بالنصر عليه. وللوزير في تِرتِه[٢] حقّان: حقٌّ في مقابلته على ما قدّم من تِرته، وحق في استدفاع ما جاهر به من عداوته. فأما حقُّهُ في المقابلة، فإن عفا الوزيرُ عنها كان بالفضل جديرًا، وإن قابل كان في المقابلة معذورًا. وقد قيل: لذّةُ العفو أطيبُ من لذّة التشفي لأن لذّةَ العفو يَتبعها الحمد ولذة التشفي يَعقبها الندم. قال الشاعر: [من الطويل]

فإنّك تَلْقَى فاعلَ الشَّرِّ نادِمًا   عليه ولم يَنْدَمْ على الخير فاعِلُهْ

وأما حقّه في استدفاع شرّه، فقد أيقظته مجاهرته، وأَوْهَن كيدَه مُظاهرَتُه. وقد قيل في منثور الحِكَم: أوهنُ الأعداءِ كيدًا أظهرُهم بعداوته. فاحذر بادِرَته وادفَع عداوتَه. ودَفْعُها مختلِفٌ باختلاف طِباعه في انثنائه بالرغبة وتقويمه بالرهبة.

وأما الموتورُ: فقد بُودِيءَ بالإساءة فصَبَرَ عليها، وجُوهِرَ بالعداوة فأخفاها؛ فله تِرَةُ مظلوم وَوَثْبَةُ مُختَلِس، فَتُتَوقَّى تِرَةُ ظُلامته بالاستعطاف، ووَثْبَةُ مُخالسته بالاحتراز.

وأما المنافسُ: فهو طالبُ رتبة إن نال منها سِدَادًا من عَوَز يَاسَر، وإن ضُويِق فيها نافر. فليُرْخِ الوزيرُ له عِنَان الأمل، وليَخْفِضْ له جَناح منافسته بالاستنابة والعمل؛ ليندفعَ بالمُياسرة عن المنافرة. وليُغالِطْ به الأيام، فإن الساعاتِ تَهدِمُ الأعمارَ، ولا يجعلْ له فَرَاغًا يتشاغلُ فيه بمَسَاءَتِه، ويجعلُه عُذْرًا في السعي على منزلته. فإن ساق القضاءُ إليه حَظًّا كان له مُصطَنِعًا، يَرْعى له حقوقَ الاصطناع. فقد قيل: من علامة الإقبال، اصطناعُ الرجال. فإن صدّه القضاءُ عن إرادته وعَجّزه القدرُ عن طِلْبته كُفِيَ

(١) ناجمة: ثائرة، اللسان: نجم.   (٢) تِرته من وتر: ثأر.

الوزيرُ منه ما خافه وقد أحسن، ووصل إلى ما أراده وقد أجمّ[١]، وأوجب بإحسانه شُكرًا، وأقام بإجمامه عُذْرًا، اجتذبَ بهما قِيادَ مُنافسِه إلى طاعته، وصَرَفه بهما عن التعرّض لمنافسته. فهنالك يجعله قِبْلَةَ رَجائِه؛ إذ لم يَحْظَ بخير إلّا منه، ولم يَقْضِ من زمان وَطَرًا إلّا به. وقد قيل في منثور الحِكَم: مَن استصلح الأضدادَ، بلغ المراد.

وربما تعرّض لعداوة الوزير مَن قَصَّر عن رُتبة مُنافسته. فليُعطِه من رجائه طَرَفًا، وليَقْبِضْ من زِمامه طَرَفًا، وليختبرْه فيهما، فسيقفُ على صلاحه أو فساده. فإن صَلَحَ سُوعد، وإن فَسَد بُوعد. فقد قال أَرْدَشِير بن بَابَك: احذروا صولةَ الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شَبع. وقد قيل في منثور الحكم: عِلّةُ المُعاداة، قِلّة المبالاة.

والقسم الرابع في الدفاع عن الرعية من خوف واختلال: فالخوفُ من نتائج الخرق، والاختلال من نتائج الإهمال؛ وكلاهما من سوءِ السِّيرة وفسادِ السياسة، لتردّدهما بين تفريط وإفراط، وخُروجِهما عن العَدْل إلى تقصير أو إسراف. وهم قِوَامُ المُلْك المستَمَدّ، وذَخِيرةُ المستعِدّ. وليس يستقيمُ ولن يَستقِيمَ مُلْك فَسَدت فيه أحوالُ الرعايا، لأنّه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا يَنْهَضُ إلا بقوّته ولا يستقِلُّ إلا بمعونته. وعلى الوزير لهم ثلاثة حقوق:

أحدها أن يُعينَهم على صلاح معايشهم ووُفورِ مَكاسبهم، لتتوفَّرَ بهم موادُّه، وتَعمُرَ بهم بلادُه.

والثاني أن يَقْتَصِر منهم على حقوقه، ويحملَهم فيها على إنصافه، ليكونوا على الاستكثار أحرص، وفي الطاعة أخلص؛ ولا يكلهم في مقادير الحقوق إلى غيره، ليكونوا له أرْجَى وعليه أَحْنى.

والثالث أن يَحُوطَهم بكفّ الأذى عنهم، ومنع الأيدي الغالبة منهم؛ ليكون لهم كالأب الرؤوف ويكونوا له كالأولاد البَرَرة؛ فإنّه كافلٌ مُسترْعًى ومسؤُولٌ مُؤَاخَذٌ. ولله عليه فيهم حَقٌّ، وللسلطان عليه فيهم تَبِعة. فليغتنِم الوزيرُ بهم شكرَ إحسانه، ويُجَمِّلْ بِعَدْله فيهم آثارَ سُلطانه.

وأما الشرط الثالث من شروط وزارة التفويض وهو الإقدام، فهو في السياسة أَوْفَى شطريها، وفي الوزارة أكفى نَظَرَيْها؛ لظفر الإقدام، وخَيبة الإحجام. وقد قيل

---

(١) أجم: ارتاح وتقوى، اللسان مادة جمم.

في منثور الحكم: بالإقدام تثبت الأقدام. وإنما يجب الإقدام إذا ظهرت أسبابُه، وقُصِدت أبوابُه. قال الشاعر: [من الطويل]

إذا ما أتيتَ الأمرَ من غير بَابِهِ ضَلَلْتَ وإن تَقصِدْ إلى الباب تَهتدِي

ثم يَجْمع بعدهما بين حَزْمه وعَزْمه. فالحزْمُ تدبيرُ الأمورِ بموجب الرأي، والعزمُ تنفيذُها للوقت المقدَّر لها. فإذا تكاملت شروطُ الإقدام من هذه الوجوه الأربعة ـ وهي: ظهورُ أسبابه، وقصدُ أبوابِهِ، والحزمُ، والعزمُ ـ لم يَمْنع من الظَّفَر، إلا عوائقُ القَدَر.

والإقدامُ ينقسم إلى قسمين: أحدُهما الإقدامُ على اجتلاب المنافع، والثاني على دفع المضارّ. فأما الإقدامُ على اجتلاب المنافع فضربان: أحدُهما استضافة مُلْك، والثاني استزادة مَوَادّ. فأما استضافة المُلك فتكون بالحزم والعزم إذا اقترنا برَغْبة أو رَهْبة. ولأن تكون بالاغتيال والاحتيال، أولى من أن تكون بالقتال. وأما استزادةُ الموَادّ فتكون بالعدل والإحسان إذا اقترنا برِفْق ومُياسرة لتكْثُرَ بهما العِمارة وتتوفرُ بهما الزراعة؛ فإنّ الأرضَ كُنوزُ الملك يستخرجها أعوانٌ متطوّعون يُقْنِعهم الكَفُّ عنهم ويَقْطعهم العَسْفُ بهم. وأما الإقدامُ على دفع المضارّ فضربان: أحدُهما دفعُ ما اختلّ من المُلْك. وله سببان: إهمالٌ أو عَجْزٌ. والثاني دفع ما نقَص من الموادّ. وله سببان: نُفورٌ أو جَوْرٌ. فيحتاج الوزير أن يَدفعَ ضَرَر كلّ واحدٍ منهما بالضدّ من سببه، فإن علاج كل داء بضده من الدواء. فإن كان اختلالُ المُلْك من الإهمال أيقظ له عَزْمَه، وإن كان من العجز استعمل فيه حزمَه. وإن كان نقصُ الموادّ من النفور استنجد فيه رهبتَه، وإن كان من الجَوْر أظهر فيه مَعْدِلَته. فإن كان حدوثُ ذلك في المُلْك صدَر عن الوزير كان مُؤاخَذًا بتفريطه في الابتداء، ومستدرِكًا لتقصيره في الانتهاء؛ فيَجْبُر إساءَتَه بإحسانه، ويمحو قبيحَه بجميله. وإن كان حدوثُه من غيره كانت جريرةُ الإساءة على مَن أحدثه، وكان حمدُ الإحسان للوزير.

وأما الشرط الرابع من شروط وزارة التفويض وهو الحَذَرُ: فيتعيّن على الوزير أن يكون حَذِرًا، لأنّ الدهر ثائرٌ بطوارقه، ومُنافر بنوائبه، يَغدِرُ إن وَفَى، ويَفتِك إن هفا. قال عبد الحميد[1]: أصاب الدنيا مَن حَذِرَها، وأصابت الدنيا مَنْ أمِنَها. وقال

(١) عبد الحميد: أبو غالب عبد الحميد بن يحيىٰ بن سعد الأصغر، مولى بني عامر بن لؤي قتل سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م في بوصير مع مروان آخر خلفاء بني أمية على أيدي العباسيين وكان كاتبه وآثر الموت معه. أول من صنف الرسائل الأدبية، ويقال إنه ترجم رسائل فارسية في السياسة. =

عبدُ الملك بن مروان: احذَروا الجَدِيدَين، فلِلأقدار أوقاتٌ تُغضِي عنها الأبصارُ. فإذا صادفت طوارقُ الدهر غِرًّا مُستَرسِلًا صار هَدَفًا لسهامه الصوائب، وغَرَضًا لمنافرةِ الحوادث والنوائب. وقد قال بعضُ الحكماء: من أعرض عن الحَذَر والاحتراس، وبَنَى أمرَه على غير أساس، زال عنه العِزُّ واستولى عليه العجزُ؛ وإن قدّم لطوارقه حَذَرَ المتيقِّظ، وتلقّاها بعُدَّة المتحفِّظ، ردّ بادِرتَها بعزمِ ذي حَزْم قد حلَبَ أشْطُرَ دهره، وقام بواضح عُذْره. قال بعض الشعراء: [من الخفيف]

إنّ لـلدهـرِ صَـوْلَةً فـاحـذَرنـهـا لا تَـبِـيـتَـنَّ قـد أَمِـنـتَ الـدُّهـورَا

ثم هو بعد حَذَرِه مستسلِمٌ لقضاءٍ لا يُرَدّ؛ وقَدَرٍ لا يُصَدّ. وقد رُوِيَ عن أبي الدَّرْدَاء[1] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «احذَرُوا الدنيا فإنّها أسحرُ من هَارُوتَ ومَارُوتَ». وقيل لبعض الحكماء: مَن السعيدُ؟ قال: من اعتبرَ بأَمْسه، واستظهر لنفسه. قال بعض الشعراء: [من الكامل]

وحَذِرْتُ من أمرٍ فمرّ بجانبي لم يُبكِنِي ولَقِيتُ ما لم أحْذَرِ

وللحذَر حدٌّ يقِف عنده إن زاد عليه صار خَوَرًا، كما أن للإقدام حَدًّا إن زاد عليه صار تَهَوُّرًا. والزيادةُ على الحدود، نقصٌ في المحدود. ولهما زمان إن خرجا عنه صار الحذَرُ فَشَلًا، والإقدامُ خُرْقًا. وعِيارُهما معتبَرٌ بحزمِ العاقل ويَقَظةِ الفَطِن. قال بعض الحكماء: ليَعْرِفْكَ السلطانُ عند افتتاح التدبير بالحَذر، وعند وقوع الأمر بالجِدّ.

والحذرُ يلزم من أربعة أوجه: أحدها الحذر من الله تعالى فيما فَرض. والثاني الحذر من السلطان فيما فَوّض. الثالث الحذر من الزمان فيما اعترَض. والرابع الحذر من غلبة الأعداء ومكرِ الدُّهاة.

فأما الحذر من الله تعالى: فهو عِمادُ الدِّين الباعثُ على الطاعة. والحذرُ منه هو الوقوف عند أوامره، والانتهاءُ عن زواجره؛ فيعمل بطاعته فيما أَمَر، ويَنْتهي عن

= ـ ابن النديم، الفهرست، ص ١١٧. ـ ابن خلكان، الوفيات، رقم ٤١٦. ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ١/ ٨٥ ـ ٨٩ و١٦٤ ـ ١٧٢. ـ الجاحظ والرسائل. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(١) أبو الدرداء الخزرجي: صحابي راوٍ شهد اليرموك وكان قاضٍ للجيش فيها كما روى أخبار الحرورية عندما خرجوا على علي سنة ٣٧ هـ. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣/٣٩٧؛ ٤/ ٢٥٨ و٢٦٢ و٢٨٣ و٤٢١، ٥/٨٩.

معصيته فيما حَظَر. فلن يُرَى قليلُ الحذرِ إلا متجوِّزًا في دينه طائحًا في غُلَوائه، لا يَرَى رُشدًا في العاجل، وهو على وعيدٍ في الآجل؛ مع نفور النفوس منه وسِرية الذّم فيه. وقد قيل في بعض الصحف الأُولى: العِزَّة والقوَّةُ يعظمان القلب، وأفضل منهما خوفُ الله تعالى؛ لأن من لزم خشيةَ الله لم يَخَفِ الوضيعةَ ولم يَحتَجْ إلى ناصر. وقال عليّ رضي الله عنه: من حاول أمرًا بمعصية الله كان أبعدَ لِما رجا، وأقربَ لمجيءِ ما اتَّقى.

وأما الحذر من السلطان، فهو وثّابٌ بقُدرته، مُتحكِّمٌ بسَطْوَته، يَميل به الهوى فيَقطَعُ بالظنّ ويُؤاخِذ بالارتياب؛ فالثقةُ به عجزٌ، والاسترسالُ معه خَطَر. والحذر منه في حالَتي السُّخْط والرضا أسلمُ؛ لأنّه يستَذْنِبُ إذا ملّ حتى يَصيرَ المحسنُ عنده كالمسيءِ. فليَستَخْلِصْ رأيه بالنصح، ويَستَدْفِعْ تنكُّرَه بالحَذَر. وقال بعض الحكماء: اصحَبِ السلطانَ بثلاث: الحذرُ، ورفضُ الدولة، والاجتهادُ في النصح. والحذر منه يكون بثلاثة أمور: أحدها ألّا يُعوِّلَ على الثقة به في الإدلال والاسترسال، فما جرّت الثقةُ إلا نَدَمًا. وقد قيل: الخُرْقُ الدالّة على السلطان، والوَثْبةُ قبل الإمكان. فاقبِضْ نفسَك إذا قدّمك، وتواضعْ له إذا عظَّمك، واحتَشِمْه إذا آنسكَ، ولِنْ له إذا خاشنك، واصبِرْ على تَجنّيه إذا غالظك؛ فهو على التَّجني أقدر، فكن على احتماله أصبر؛ فربّما كانت مُجاملتُه لك مَكْرًا، وتَجنّيه عليك غدرًا. فقد قيل في بعض الصحف الأولى: حبُّ المَلِك وهواه يُشبه الطَّلَّ على العُشب. فلا تجعلْ له في إظهار تنكُّره عُذْرًا؛ فربما اعترف بالحق فعفّ، ورَقّ بالصبر فكفّ. وقد قيل في أمثال كَليلة ودِمْنة: صاحبُ السلطان كراكبِ الأسد يَخافُه الناسُ وهو لمركوبه أشَدُّ خوفًا.

والثاني من حذره منه أن يُساعده على مَطالبه، ويُوافقَه على مَحابِّه ومآربه، ولا يَصُدَّه عن غَرَضٍ إذا لم يَقْدَح في دِين ولا عِرْض، ولا يتوقَّفَ عن إجابته وإن شغَلَه ما هو أهمُّ؛ فإن المَلِك لا يُقيم لوزيره عُذرًا إذا وجده في أغراضه مُقصِّرًا، وإن كان على مصالح مُلْكه مُتَوَفِّرًا؛ فإنّه اتخذه لنفسه ثم لمُلْكه؛ وقد يُقَدِّم حظَّ نفسِه على مصلحة مُلكه، لغَلَبَةِ الهوى ونَازِع الشهوة. فليكنْ مُتَوَفِّرًا على مُراده ليسلَم اعتقادُه له. فإن قدَحَتْ أغراضُه في دِين أو عِرْض سَلّ الوزيرُ نفسَه من وِزْرِها وتحفّظَ من شَينها بالتلطُّف في كَفِّه عنها بما يعتاضُه بَدَلًا منها، ليَسْهُلَ عليه إقلاعُه عنها. فإن ساعده المَلِك عليها سَلم دِينُهما، وزال شَينُهما. فقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن لله خزائنَ للخير والشرِّ مفاتيحُها الرجالُ فَطُوبَى لمن جعله الله مِفتاحًا للخير مِغْلاقًا للشرّ ووَيْلٌ لمن جعله الله مِفْتاحًا للشر مِغْلاقًا للخير».

وقال الشاعر: [من الطويل]

سَتَلْقى الذي قدّمتَ للشّرِّ مُحْضَرًا   وأنتَ بما تأْتِي من الخير أَسْعَدُ

وإن أصَرّ المَلِك عليها فليَلِنِ الوزيرُ في متاركته، ويُحْجِمْ عن مساعدته؛ وهو خِدَاعٌ يَتدلّس بالمغالطة ويَخْفَى بالحزم؛ فليستنجِدْ فيه عقلَه، ويستعمِلْ فيه حزمَه؛ ليسلم من تنكُّره، ويخلُصَ من وِزره. فقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ من شِرَارِ الناسِ عند الله يومَ القيامة عبدًا أذهب آخِرَتَه بدُنْيا غَيرِهِ». والثالث من حذره منه أن يَذُبَّ عن نفسه ومُلْكه بما استطاع من مال ونَفْس؛ فإنّه عن نفسه يَذُبُّ، ولها يَرُبّ[١]؛ فإنّه لا يصلُح حالُه مع فساد حال مَلِكه وهو فرع من أصله. وهو يسترسِل لثقته به، ويستسلم لتعويله عليه؛ فليُقابِلْ ثقتَهُ بأمانته، واستسلامَه بكفايته، ولا يُلجِئْه أن يُباشِرَ دَفْع الخوفِ والحذر، فيُلجِئَه إلى ما هو أخوفُ وأحذرُ؛ لأن الوزيرَ يخافُ المَلِك ويخافُ ما يَخافُه، فيتوالى عليه خوفان، ويتمالأ عليه خَطَران. قال شاعر: [من الكامل]

إنّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضَاعَفٍ   فإذا تضاعفَ صار غيرَ مُطاقِ

وأما حذرُه من زمانه، فلأنّه يتقلّبُ بألوانه، ويخشُنُ بعد لَيَانه، فيسلُب ما أعطى ويُفرّق ما جمع. وقد رُوِيَ عن أبي بكر الصدّيق[٢] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انظروا دُورَ مَن تسكُنون وأرضَ من تَزْرَعُون وفي طُرُق مَن تَمشُون». وقال بعض الحكماء: الدنيا إن بَقِيتْ لك لم تَبْقَ لها. وقال بعض البلغاء: إن الدنيا تُقبِل إقبالَ الطالب، وتُدبِر إدبار الهارب؛ لا تَبْقى على حالة، ولا تخلُو من استحالة؛ تُصلِحِ جانبًا بإفساد جانب، وتُسرُّ صاحبًا بمَسَاءَة صاحب؛ فالكونُ فيها على خَطَر، والثّقةُ بها على غَرَر[٣]. وقال قَيس بن الخَطِيم[٤]: [من الطويل]

ومن عادةِ الأيّامِ أنّ خُطوبَها   إذا سَرَّ منها جانبٌ ساء جَانِبُ

والحَذَر من الزمان يكون من أربعة أوجه:

أحدها: ألّا يثِقَ بمساعدته، ولا يركَنَ إلى مُياسرته، فيغفُلَ عن الحذر والاستعداد، فربّما انعكس فافترس، وغَافَص[٥] فاختَلَس. وقد قيل: للدهر صُرُوف،

---

(١) يرُب: يصلح، اللسان مادة ربب.
(٢) أبو بكر الصديق: هامش ١ صفحة ١٤.
(٣) الغرر: الخطر والتعريض للهلال، اللسان مادة غرر.
(٤) قيس بن الخطيم: هامش ١ صفحة ٨٠.
(٥) غافصه: فاجأه وأخذه على حين غرّة. اللسان مادة غفص.

لست عنها بمصروف. قال أبو العِتاهيَة[١]: [من مجزوء الكامل]

إنّ الـــزمـــانَ وإن ألا نَ لأهْـلِه لـمُـخَـاشِـنُ
فـخُـطُـوبُـهُ الـمـتـحـرِّكَـا تُ كـأَنَّـهـنّ سـواكـنُ

والثاني: أن ينتَهِز فُرصةَ مَكِنَتِهِ[٢] بفعل الجميل، وغَرْسَ الصنائع وإسداءَ العوارفِ؛ ليكون ذلك ذخيرةً له في النوائب، وخَلَفًا في العواقب؛ ولا يُلهِيَه استكفاؤه عن الاستظهار، ولا يَمْنَعَهُ استغناؤُه عن الاستكثار. فقد قيل: المرء ابنُ يومِه، فلينْتَبِهْ من نومه. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «اغتَنِمْ خمسًا قبل خمس شَبَابَك قبل هَرَمك، وصِحَّتَك قبل سَقَمك، وغِنَاكَ قبل فَقْرك، وفَرَاغَكَ قبل شُغْلك، وحيَاتَك قبل موتِك». قال سعيدُ بنُ سَلْم[٣]: [من مجزوء الرمل]

إنّـمـا الـدنـيـا هِـبَـاتٌ وعَـوَارٍ مُـسـتَـرَدَّهْ[٤]
شِـدَّةٌ بـعـدَ رَخَـاءٍ ورَخَـاءٌ بـعـد شِـدَّهْ

والثالثُ: أن يَكُفَّ نفسَه عن القبيح ويَقْبِضَ يدَه عن الإساءة، ليُكْفَى رَصْدَ التِّرات، وغوائلَ الهَفَوات؛ فيأْمَنَ من وَجَلِه، ويسلَمَ من زَلَلِه؛ ولا يتطاوَلَ بالقُدْرة فيغفُلَ وهو مطلوب، ويأمَنَ وهو مسلوب.

والرابع: أن يستَعِدَّ لآخرته، ويَستظهِرَ لمَعَاده، ولا يغترّ بالأمل فيخُونَهُ الفَوْت، ولا تُلهِيَهُ الدنيا فَتَصُدَّه عن الآخرة. فقلَّ مَن لَابَسَهَا فَسَلِمَ من تَبِعاتِها؛ لهَفَوَات غُرورها، وعواقب شُرورها. رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يا عجبًا كل العَجَب للمُصَدِّق بدار الخُلُود وهو يسعى لدار الغُرور». وقيل في منثور الحكَم: طلاقُ الدنيا مَهْرُ الجَنّة.

وأما حذرُه من أهل الزمان: فلأن الإنسانَ محسودٌ بالنعمة، مغبوطٌ بالسلامة. والناسُ على أربعة أطوار متباينة:

---

(١) أبو العتاهية: هامش ٣ صفحة ٨٤. (٢) مَكِنة: التمكن، اللسان مادة مَكِنَ.

(٣) سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي: عاش في العصر العباسي، هجاه مسلم بن الوليد في زمن المأمون، تولى الرشيد الجزيرة ثم أرمينية، وشارك في دفع الروم عن مرعش. كان مقربًا للهادي والمهدي والرشيد والمأمون تولى الأمر بعد إبراهيم بن سلم. - ورد ذكره في شعر مسلم بن الوليد. - الطبري تاريخ الرسل والملوك، ٧/٦٣٩، ٨/٢١٤ و٢١٨ و٢١٩ و٢٢٧ و٢٢٨ و٢٦٦ و٢٦٩ و٣٢٤ و٣٦٢.

(٤) عوار جمع عارية: الأمانة، اللسان مادة عور.

أحدُها: خيِّرٌ عاقل يُسالِم بخيره، ويُساعِدُ بعقله؛ فالظَّفَرُ به سعادةٌ، والاستعانةُ به توفيقٌ. فَلْيَجتهِدْ ألّا يفُوتَه وإن كان قليلَ الوجود، ليَحْظَى بخيره ويَسْعدَ بعقله. وقلَّ أن يكون الخيِّر العاقلُ إلا متحلِّيًا بالعلم متزيِّنًا بالأدب. فإذا أظفره الزمانُ بمن تكاملت فضائِلُه، وتهذّبت خصائِلُه، فليَتَّخِذْه ذخيرةَ نوائبه، وعُدَّةَ شدائده، يَجِدْه كفيلَ صَلَاحِها، وزعيمَ نَجَاحِها.

والطور الثاني: شِرّيرٌ جاهل يَضُرُّ بشرِّه، ويُضِلُّ بجهله. فليحذَرْ مخالطته، فهي أضرُّ من السَّمّ، وأنفذُ من السهم. وشرُّه بجهله مُنتشرٌ يَضعُفُ إن تُورك، ويَقْوَى إن شُورِك؛ فَلْيَكْفُف شرَّه بالإبعاد، ولا يُعِزَّهُ بالتقريب، فيُلحِقه ضَرَرَيْ شرِّه وجهلِه. وضَرَرُ الجهلِ أعمُّ من ضرر الشر؛ لأن قانونَ الشر معلومٌ، وقانونَ الجهل غيرُ معلوم.

والطورُ الثالث: خَيِّرٌ جاهلٌ يُسالِم بخيره، ويُضل بجهله؛ فَلْيُقَارِبْهُ، إن شاء، لخيره، ولا يَستعملْه لجهله؛ ليكون بخيره موسومًا، ومن جهله سليمًا.

والطور الرابع: شِرِّيرٌ عاقل وهو الداهيةُ المَكِر، يُستعمَل للخطوب إذا حَزَبَت[1]. فليكن على حَذَرٍ من مَكْره، ويُتَارِكْه في الدَّعَة على استدفاعٍ لشره. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله يُؤَيِّد هذا الدِّينَ بالرجل الفاجر». ومِثْلُ هذا يُستكَفُّ بمَعُونةٍ تمُدُّه، ومُراعاةٍ تُرضيه؛ فإنّه كالسَّبُع الضاري إن أجعْتَه هاج، وإن أشبعتَه سكن؛ ليكون مذخورًا للحاجة؛ فإن للزمان خُطوبًا لا تُدْفَع إلا بشرار أهله؛ كما قال حُذَيفَةُ بنُ اليَمَان[2] لرجل: أيَسُرُّك أن تَغلِب شَرَّ الناس؟ قال: نعم؛ قال: إنك لن تَغلِبَه حتى تكونَ شرًّا منه. فَيُعَدُّ لخطوبِ الشرِّ إن طَرَقَت؛ فإنّه بها أخبر، وعلى دفعها أقدر، ولأهلها أقهر؛ فـ«إنّ الحَدِيدَ بالحديد يُفْلَحُ». فيُستَكَفُّ إلى حينها بما يَدْفَعُ عادِيَةَ شَرِّه، ويقطعُ غائِلةَ مكره، وإن كانت ضَرَاوةُ الشرِ أجذبُ، وطباعُ

(١) حَزَبت: اشتدت، اللسان مادة حزب.

(٢) حذيفة بن اليمان: أبو حُسَيْل بن جابر اليمان أبو حذيفة بن اليمان قتله المسلمون في معركة أحد دون أن يعرفوه وأراد الرسول أن يديه فتصدق ابنه حذيفة بديته على المسلمين فزادته عند رسول الله خيرًا. وهو أبو عبد الله راوٍ شارك في بدر وأحد ومعارك المسلمين وقد درسه الرسول بين أهل الخندق والمشركين ليتجسس عليهم. تولى المدائن لعمر بن الخطاب، قاد الجيش في معركة نهاوند بعد مقتل النعمان بن مقرن وانتصر سنة ٢١ هـ. وفي سنة ٣٠ هـ صُرف حذيفة عن غزو الري إلى غزو الباب. وكانت آخر أخباره ما حدث فيه يوم صفين «أن الزموا الفئة التي فيها ابن سمية يقصد عمار بن ياسر» الطبري ١/ ٧٤ و٢٩٨ و٣٠٢، ٢/ ٥٣٠ و٥٦٨ و٥٨٠، ٣/ ٤٩٧ و٥٨٨، ٤/ ٢٣ و٤٢ و١١٥ و١٢٧ ـ ١٢٩، ٥/ ٣٨ و٣٩، ٦/ ٢٥٨.

النفوسِ أغلبُ. فإن وجد الوزيرُ من هذا الداهيةِ فُتورًا في همّته وقصورًا في مُنّته[١] كانت سِرايَةُ مكره أنزر، وتأثيرُه في الخطوب أيسر. وإن كان عَاليَ الهِمَّةِ قويَّ المُنَّة يتطاولُ إلى معالي الأمور، كانت سرايةُ مكره أوفرَ، وتأثيرُه في الخطوب أكثر. فَلْيُعْطِهِ في كل حال من أمرَيْه من الحذَرَ والسكون بحسب ما تقتضيه هِمَّتُه، وتبعَثُ عليه مُنَّتُه؛ ليكون قانونُه معه مستقيمًا، ومن دهاء مَكْره سليمًا؛ لا ينالُه خَوَرٌ من سَرَف، ولا استرسالٌ من تقصير؛ فقد جعل الله تعالى لكل شيءٍ قَدْرًا.

فهذا تفصيلُ ما اشتمل عليه العَقْدُ والحلّ.

وأما التقليد والعزل، وهو الشطر الثاني من شروط وزارة التفويض،

فالتقليد على ضربين: تقليدُ تقريرٍ، وتقليدُ تدبير.

فأما تقليدُ التقرير، فهو فيما يُستأنفُ إنشاءُ قواعده، ويُبتدأ تقريرُ رسومه. وهو على ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون في حاضرٍ يَقدِرُ الوزيرُ على مباشرته، فالوزيرُ أخصُّ بتقريره، وأحقُّ بتنفيذه؛ لأنها أصولٌ مُؤَبَّدة وهي من خواصّ نظره. فإن قَلَّد عليها واستناب فيها، كان تقصيرًا منه إن جَلّ، ومعذورًا فيه إن قلّ. ولم يكن لمن قَلَّده تنفيذُ تقريره إلا عن إذنه، وإلا كان عزلًا خَفِيًّا؛ لأنه يصير مُلتزمًا وقد كان مُلْزِمًا، ومُحَكَّمًا وقد كان حاكمًا.

والثاني: أن يكون التقليدُ فيما بَعُدَ عنه ويمكن استئمارُه[٢] فيه، فيجوز أن يَستنيب في تقريره، ويكون موقوفًا على إمضاء الوزير وتنفيذه. ولا يجمع المستنابُ بين الأمرين، ليكونَ التقليدُ مقصورًا على التقرير، والوزيرُ مختصًا بالتنفيذ. فإن جَمَع المستنابُ بين التقرير والتنفيذ كان فيه مُتَجَوِّزًا، إلا أن يُؤْمَرَ به فيصير الآمرُ مُتَجَوِّزًا، إلا أن يكونَ اضطرارًا يزول معه حكمُ الاختيار.

والثالث: أن يكون التقليدُ فيما بَعُدَ عنه ويتعذّر استئماره فيه، فيجوز أن يَستَنِيبَ فيه مَن يَجمعُ بين تقريره وتنفيذه إذا تكاملت في المُستناب ثلاثةُ شروط: أحدها الكفاية التي ينهَضُ بها في التقرير. والثاني الهيبةُ التي يُطاع بها في التنفيذ. والثالث الأمانةُ التي يَكُفُّ بها عن الاسترشاء والخيانة، بعد تكامُل الشروط المعتَبَرة في جميع الولايات، وهي ثلاثة: العقلُ، والديانةُ، والمُرُوءَةُ. فلا فُسحةَ في تقليد مَن أخلّ

---

(١) المنة: القوة، اللسان مادة منن.

(٢) الاستئمار: المشاورة، اللسان مادة أمر.

ببعضها، لقصوره عن حقها، وخروجه من أهلها؛ وإنما يختلف ما سواها باختلاف الولايات، وإن كانت هذه مستَحَقّةً في جميعها. وقد قال كسرى أَبْرَوِيزُ: مَن اعتمد على كُفَاة السوء لم يَخْلُ من رأيٍ فاسدٍ وَظنٍّ كاذِبٍ وعدوٍّ غالب. وقد قال بعضُ الحكماء: لا تَسْتَكْفِيَنَّ مخدوعًا عن عقله؛ والمخدوع مَن بُلِغ به قَدْرًا لا يستحقُّه، أو أُثِيبَ ثوابًا لا يستوجِبُه.

وأما تقليدُ التدبير، فهو النظرُ فيما استقرّت رسومُه، وتمهَّدتْ قواعدُه. وهو مشتَرَكٌ بين الوزير وبين الناظر فيه؛ لكن يختصُّ الوزيرُ بمراعاته، والناظرُ بمباشرته؛ ليستَظْهِر[1] الوزيرُ بالمراعاة، ولا يَتبذَّلَ بالمباشرة. وهو ضربان: أحدهما تدبير الأجناد. والثاني تدبيرُ الأموال.

فأما تدبيرُ الأجناد، فلا يَستغنِي الوزيرُ عن تقليد سفِيرٍ فيه وإن كانوا يُلاقونه؛ ليحفَظَ بالسفير حِشْمة وِزارته ولا يَقِفَ أغراضَ أجنادِه، وقد انصانَ عن لَغَطِ كلامِهِم، وجَفْوة طِبَاعهم. والأغلبُ على تدبيرهم الرأيُ والسياسةُ. فيعتَبَرُ في هذا المختار لهذا التقليد ستةُ شروط:

أحدها: الهَيْبَةُ التي تَقودُهم إلى طاعته، لأنه يقوم بتدبيرُ ذَوِي سَطْوةٍ، فيحتاج إلى قوّة الهيبة.

والثاني: أن يكون من ذَوِي الرأي والسياسة، ليقودَهُم برأيه إلى الصواب ويَقِفَهم بسياسته على الاستقامة.

والثالث: أن يكون مُتوصِّلًا إلى استعطافِ القلوب، واجتماعِ الكلمة، ليسلموا من اختلاف أو منافرة.

والرابع: أن يكون بينه وبين الأجناد مناسبةٌ في الطباع ومشاكَلَةٌ في الأخلاق يمتَزِجُون بها في الموافقة ولا يَختلفون فيها في المباينة.

والخامسُ: أن يكون سليم الباطنِ صحيحَ المُعْتَقَد؛ لأنه يصير أَخَصَّ بهم، ويصيرون أطوَعَ له.

والسادس: ما اخْتَلَفَ باختلاف الحال، فإن كان في زمان السَّلم اعتُبِر فيه الأناةُ والسكونُ؛ وإن كان في زمان الحرب اعْتُبِر فيه الإقدامُ والسَّطْوَةُ، ليكون مطبوعًا على

(١) ليستظهر: يحتاط ويستوثق، اللسان مادة ظهر.

ما يُضاهِي حالَ زمانه. فإذا ظَفِر بمَن استكملها ـ وبعيدٌ أن يَظْفَرَ به إلا أن يُعَانَ بالتوفيق ـ وجب تقليدُهُ، ولَزِمت مُناصفَتُه في الحقوق التي له وعليه، ليدُومَ ويَستقيمَ. فقد قيل في منثور الحكَم: مَن قَضَيْتَ واجبَه، أمِنتَ جانِبَه.

وأما تدبيرُ الأموال، فالوزيرُ مَصُونٌ عن مباشرتها، وإنما يَحْفَظُ دَخْلَها بالهيبة والاستظهار، ويَضْبُطُ خَرْجَها بالحاجة والاضطرار. وللتقليد على كل حال منهما شروط.

فشروطُ التقليد على مباشرة دَخْلِها خمسة:

أحدها: أن يكون مطبوعًا على العَدْل، ليُنْصِفَ ويَنْتصِفَ.

والثاني: أن يكون متديِّنًا بالأمانة، ليَستوفيَ ويُوَفِّي.

والثالث: أن يكون كافيًا، ليَضْبُطَ بكفايته، ولا يُضيعَ بعجزه.

والرابع: أن يكون خَبيرًا بعمله يَعرِفُ وجوهَ موادّه، وأسبابَ زيادته.

والخامس: أن يكون رَفيقًا بمُعامليه غيرَ عَسُوف ولا أَخْرَقَ. حُكِي أن الإسكَندرَ كتب إلى مُعلِّمه أرسطاطاليس ليستشِيرَه في عُمَّاله؛ فكَتَبَ إليه: إنّ مَن كان له عبيدٌ فأحسنَ في سياستهم فَوَلِّهِ الجُنْد، ومن كان له ضَيْعةٌ فأحسنَ تدبيرَها فَوَلِّه الخَرَاج.

وأما شروطُ التقليدِ على مباشرة خَرْجِها، بعد الأمانة التي هي مشروطة في كلّ وِلاية، فمعتبَرَةٌ بأحوال الخَرْج. وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما كان راتبًا عن رُسُوم مستَقِرَّة كأرزاق الجيوش والحواشي، فللتقليد عليه شرطان: مَعرفةُ مقاديرِها، ومعرِفةُ مُستحِقِّيها.

والثاني: ما كان عارضًا عن أوامِرَ تقدّمتْها والناظرُ مأمورٌ بها كالصِّلات وحوادثِ النَّفَقَات، فللتقليد عليه شرطان: وقوفُها على الأوامر، ومعرفةُ أغراضِ الآمر.

والثالث: ما كان عارضًا فُوِّض إلى رأي الناظر ووُكِّلَ إلى تقريره كالمصالح والنَّفَقَات، فالتقليد عليه أَوْفَى شروطًا لوقوفها على اجتهاده وتقديره، فيحتاج مع الأمانة إلى ثلاثة شروط:

أحدها: معرفةُ وجوه الخَرْج، حتى لا يتصرف في غير حقّ.

والثاني: الاقتصاد فيه، حتى لا يُفْضِيَ إلى سَرفٍ ولا تقصير.

والثالث: استصلاح الأثمان والأجور من غير تَحَيُّفٍ[١] ولا غَبْن.

وأما العزلُ فضربان:

أحدهما: ما كان عن غير سبب فهو خارجٌ عن السياسة؛ لأن للأفعال والأقوال أسبابًا إذا تجرّدت عنها صار الفِعلُ عَبَثًا والكلامُ لَغْوًا[٢] لا يقتضيه رأيُ حصِيفٍ، ولا تُوجِبه سياسةُ لبيب. وقد قيل: العزلُ أحدُ الطّلاقَيْن. فكما أنه لا يَحْسُنُ الطلاقُ بغير سبب، كذلك لا يحسُن العزل بغير سبب. وإذا لم يَثِقِ الناظرُ باستدامة نَظَرِه مع الاستقامة، عَدَل عنها إلى النظر لنفسه، فعاد الوَهْنُ على عمله. وما يكون هذا العزلُ إلا عن فَشَلٍ أو مَلَل.

والضرب الثاني: أن يكون العزلُ لسبب دعا إليه. وأسبابه تكون من ثمانية أوجه:

أحدها: أن يكون سببُه خِيانةً ظهرت منه، فالعزلُ لها من حقوق السياسة مع استرجاع الخِيانة والمقابلةِ عليها بالزواجر المُقوِّمة. ولا يُؤاخَذُ فيها بالظنون والتُّهَم. فقد قيل: من يَخُنْ يَهُنْ.

والوجه الثاني: أن يكون سبَبُه عَجْزَهُ وقصورَ كِفايته، فالعمل بالعجز مُضاع؛ وهو نقص في العاجز إن لم يكن ذنبًا له؛ فلا يجوزُ في السياسة إقرارُه على العمل الذي عَجَزَ عنه. ثم رُوعِي عجزُه بعد عَزْله، فإن كان لثِقَل ما تقلّده من العمل جاز أن يُقَلَّدَ ما هو أسهل، وإن كان لقصور مُنَّتِه وضعف حَزْمِه لم يكن أهلًا لتقليدٍ ولا عمل.

والوجه الثالث: أن يكون سببُه اختلالَ العمل من عَسْفه أو خُرْقِه. فهذا السبب زائدٌ على الكِفاية، وخارجٌ عن السياسة، والوزير المُقلَّد فيه بين خِيارين: إما أن يَعزِله بغيره، وإما أن يَكُفَّه عَنْ عَسْفه وخُرْقه. ويجوز أن يكون مُرْصَدًا لتقليد ما تدعو السياسة فيه إلى العَسْف لمن شَاقّ ونافر. فقد قيل: لكلّ بِناء أساس، ولكلّ تُرْبة غِراس.

والوجهُ الرابع: أن يكون سببُه انتشارَ العملِ به من لِينه وقِلَّة هَيْبَته. فهذا السببُ مُوهِنٌ للسياسة. والوزير فيه بين خِيارَين: إما أن يَعزِلَه بمَنْ هو أقوى وأهيب، وإما أن

---

(١) تحيف: تنقص، اللسان مادة حيف.

(٢) اللغو: الكلام الذي لا معنى له ولا يعتد به ويفيد، اللسان: مادة لغو.

يَضُمَّ إليه مَن تتكاملُ به القوّةُ والهيبةُ. وخيارُه فيه معتَبَرٌ بالأصلح. ويجوز أن يُقلَّد بعد صَرْفه ما لا يُستَضَرُّ فيه بضعفه.

والوجه الخامس: أن يكون سبَبُه فَضْلَ كفايته وظهورَ الحاجة إليه فيما هو أكبرُ من عمله. فهذا أحمدُ وجوهِ العزل وليس بعزل في الحقيقة، وإنما هو نَقْلٌ من عمل إلى ما هو أجلُّ منه، فصار بهذا العزل زائِدَ الرتبة. وقد قال بعض البلغاء: الناسُ في العمل رجلان: رجلٌ يَجِلُّ به العملُ لفضله ورياسته؛ ورجل يَجِلُّ بالعمل لتقصيره ودناءته، فمَن جَلَّ به العملُ ازداد تَوَاضُعًا وبِشْرًا، ومَن جَلَّ بالعمل ازداد تَرَفُّعًا وكِبْرًا.

والوجهُ السادس: أن يكون سبَبُه وجودَ مَن هو أكفى[1] منه. فَيُرَاعَى حالُ الأكفى، فإن كان فضلُ كِفايته مُؤثِّرًا في زيادة العمل به كان عزلُ الناظر به من لوازم السياسة ولم يَسُغْ فيها إقرارُه على عمله؛ وإن لم يُؤَثِّر في زيادة العمل كان عزلُ الناظر من طريق الأولى في تقديم الأكفياء وتخَيُّر الأعوان، وإن جاز في السياسة إقرارُ الناظر على عمله لنهوضه به.

والوجه السابع: أن يكون سببُه أن يَخْطُبَ عَمَلَه من الكُفاة مَن يبذُل زيادةً فيه. فلا يجوز عزلُه ببذل الزيادة حتى يَكشِف عن سببها، فربما تَحَرَّص[2] بها الباذلُ لرغبة في العمل، أو لعداوة في العامل. فإن لم يَظْهَر لها بعدَ الكشفِ مُوجِبٌ لم يَجُزْ في السياسة عزلُه بهذا البذل الكاذب؛ وكان الباذلُ جديرًا بالإبعاد لابتدائه بالإدغال[3]. فإن ظَهَرَ مُوجِبُ الزيادة لم يَخلُ من ثلاثة أقسام: أحدُها أن يكون لتقصير الناظر؛ فيجب عزلُه. والوزيرُ بعد عزله بين خِيَارَين: إما أن يُقلِّدَ الباذِلَ أو غيرَه من الكُفاة. والثاني أن يكون مُوجِبُها فضلَ كفايةِ الباذل؛ فَيَجِبُ عزلُه بالباذل دون غيره. والثالث أن يكون سببُها عَسْفَ الباذِلِ وخُرْقَه، فلا يجوزُ في السياسة عزلُ الناظر ولا تقريبُ الباذل، فربما مال إلى الزيادة مَن تَغَاضَى عن العدل، فَعَزَل وقَلَّد فصار هو العاسِفَ المُجازِف.

والوجهُ الثامن: أن يكون سببُه أن الناظر مُؤْتَمَنٌ، فيخْطُب عَمَلَه ضامنٌ. فتضمينُ الأعمالِ خارجٌ عن قوانين السياسة العادلة، لأن المُؤْتَمَنَ عليها إذا كان كافيًا استَوْفَى ما

---

(١) أكفأ من الكفاية وهي حسن الاضطلاع بالأمر والقيام به والأصح قول أكفى. اللسان مادة كفي.

(٢) تحرّص (بالحاء المهملة): تكلّف الحرص.

(٣) الإدغال: الوشاية والخيانة، اللسان مادة دغل.

وَجَبَ، وكَفَّ عما لم يَجب؛ وهذا هو العدلُ. والضامنُ إن ضَمِنَها بمثل ارتفاعها لم يُؤثِرْ، وإن ضَمِنَها بأكثَرَ منه تَحَكَّمَ في عمله، وكان بين عَسْفٍ أو هَرَب، لأنه ضَمِن لِيَغْنَمَ لا لِيَغْرَمَ. وحُكِيَ أن المأمون(١) عَزَم على تضمين السَّوَاد، وعنده عُبَيدُ الله بن الحسن العَنْبَرِيّ القاضي؛ فقال له: يا أميرَ المؤمنين إن الله قد دَفَعها إليك أمانةً، فلا تُخرِجْها من يدك قَبَالة(٢). فعَدَل عن الضَّمان.

فهذا تفصيلُ ما تَعَلَّق بوزارة التفويض من عَقْدٍ وحَلٍ وتقليدٍ وعَزْلٍ. فلنذكر حُقُوقَ المَلِك على وزيره وحقوقَ الوزير على مَلِكه.

ذِكر حُقوقِ المَلِك على وزيره وحقوقِ الوزيرِ على مَلِكه

فأما حقوقُ السلطانِ على وزيره فهي ثلاثةٌ:

أحدها: قِيامُه بمصالح مُلْكه، وهي أربع: عِمَارةُ بلادِه، وتقويمُ أجناده، وتثميرُ أمواله، وحِيَاطةُ رعيّته.

والثاني: قيامُه بمصالح نَفسِه، وهي أربع: إدرارُ كفَايتِهِ، وتحمُّلُ عَوارِضه، وتهذيبُ حاشيته، وإعدادُ ما يستدفِع به النوائبَ.

والثالث: قيامُه بمقاومة أعدائِه، وذلك بأربعة أشياء: تحصينُ الثُّغور، واستكمالُ العُدّة، وترتيبُ العساكر، وتقديرُ الحدود. فيجب على الوزير أن يؤدِّيَ حقوقَ سلطانه، ويُوَفِّيَ شروط ائتمانه؛ ويحذَرَ بادِرَةَ مُؤاخَذَتِه إن قصَّر، وسَطْوَة انتقامه إن فَرَّطَ؛ لأن بادِرَةَ الانتقام، أسرعُ من ظهور الإنعام؛ لأن الانتقام يَصْدُر عن طَيْش الغضب، والإنعامَ يَصْدُر عن أَناةِ الكرم. وقد قيل في حِكَم الفُرس: ما أضعفَ طَمَعَ صاحبِ السلطان في السلامة. وذلك أنّه إن عفّ جَنَى عليه العَفافُ عداوةَ الخاصة، وإن بَسَطَ يدَه جنى عليه البَسْطُ أَلْسنة المُتَنَصِّحِين. فلَزِم لذلك أن يكون حَذَرُه أغلبَ من رجائه، وخوفُه أكثَرَ من أَمْنه. ولئن تَكَدّرَ بهما العيش فهما إلى السلامة أدعى.

وأما حقوقُ الوزير على السلطان فثلاثةٌ: **أحدُها**: معونتُهُ على نظره. وذلك بأربعة أشياء: تقويةُ يدِه، وتنفيذُ أمرِه، وإطلاقُ كِفايتِهِ، وألّا يَجْعَلَ لغيره عليه أَمْرًا.

---

(١) المأمون: هامش ٢ صفحة ١٠.

(٢) القبالة: في الاصطلاح أن يضمن السلطان عاملًا استقلال منطقة مقابل مقدار معين من المال يتكفل به.

وقد قال سَابُورُ بن أردَشيرَ في عهده إلى ابنه هُرْمُزَ: ينبغي للوزير أن يكون قَوِيَّ الأمر، مقبولَ القول، يمنَعُه مكانُه منك، من الضراعة لغيرك، وتبْعَثُه الثِّقةُ بك، على بَذْل النصيحة لك، ويُشجِّعه مَا يَعْرِفُ من رأيك، على مقاومة أعدائك؛ وأُحذِّرُك أن تُنْزِل بهذه المَنْزِلةِ مَن سِواه من خَدَمك.

والثاني: أن يَثِقَ منه بأربعة أشياء: ألّا يُؤَاخِذَه بغير ذَنْب، وألّا يَطْمَعَ في مالِه من غير خِيانة، وألّا يُقدِّمَ عليه مَن هو دونه، وألّا يُمكِّنَ منه عَدُوّا. وقد عَهِد مَلِكٌ إلى ابنه فقال: يَا بُنَيّ، إنّك لن تَصِلَ إلى إحكام ما تريده من تدبير مُلْكِك إلا بمعونة وزرائِك وأعوانك، فأعِنْهم على طاعتك بمُيَاسرتك، وعلى معونتك بمساعدتك.

والثالث: أن يحفَظَ منزِلتَه من أربعة أشياء: الأوّل: ألّا يَرْتابَ بباطنه وظاهِرُه سلِيمٌ، فيُؤَاخِذَ بالظن، ويَعْجِزَ عن دفعه باليقين؛ فليس يُؤَاخِذُ بضمائر القلوب، إلّا علّامُ الغيوب. قيل لكِسْرَى قُبَاذ: إنّ قومًا من خواصِّك قد فَسَدَت سرائرُهم؛ فَوَقَّعَ: أنا أمْلِكُ الأجسادَ دون النيّات، وأحْكُمُ بالعدل لا بالرضا، وأفْحَصُ عن الأعمال لا عن السرائر. والثاني: ألّا يستبدِلَ به ونظرُه مستقيمٌ، فيقلَّ نفعُه، ويضعُفَ نشاطُه، ولا يُجهِدُ نفسَه في النهوض بما كلّفه؛ فإن داعِيَ الطبع أبلغُ من مصنوع التكلُّف. وقد اتّخذه لاستقامةٍ وجدها به. فإذا أضاع حَقَّه بالاستبدال ظَلَم نفسه، وكان من غيره على خَطَر. وقد قال كِسْرَى: الوزارةُ أبعدُ الأمور من أن تَحْتَمِلَ غيرَ أهلِها. لأن الوزيرَ من المَلِك بمنزلة سَمْعِه وبصرِه ولِسانِه وقلبِه، لأنه مغلقُ الأبواب، مستورٌ عن الأبصار؛ ليحفَظَه في أمواله، ويستُرَ خَلَلَه في أفعاله؛ وحقِيقٌ بمن كان بهذه المنزِلةِ أن يكون محفوظًا. والثالثُ: ألّا يؤَاخِذه بدَرْك ما جرّه القضاءُ وساقه القَدَرُ، فيجعلَه غَرَضًا في معارضة خالقه. وهل الوزيرُ فيه إلا كالمَلِك! فأفعالُ الله عَزّ وجلّ لا تكون ذُنُوبًا لعباده. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إذا أراد اللهُ إنفاذَ قضائِه وقَدَرِه سَلَبَ ذوِي العقولِ عُقُولَهم حتى يَنْفُذَ فيهم قضاؤُه وقَدَرُه». والرابع: ألّا يُحَمِّلَهُ ما ليس في قُدرته، ولا يُكَلِّفَه ما ليس في طاقته، فلا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلّا وُسْعَها. وما ذاك إلّا من دواعي التَّجَنّي، ومبادىء التنكّر.

فهذه حقوقُ الوزير على سلطانه. وهي مُقابِلة لحقوق السلطان على وزيره. لكنّ حقوقَ الوزيرِ موضوعةٌ على المسامحة في أكثرها، وحقوقَ السلطان موضوعةٌ على المؤاخَذة بأقلها؛ لاستطالته عليه بالقُدرة وقصورِه عنه بالنيابة.

وحيث ذكرنا هذه الحقوقَ الداخلةَ في وزارة التفويض فلنذكُرْ وزارة التنفيذ.

ذكرُ وِزارةِ التنفيذ

قال الماورديّ ما معناه: إنّ لوزارةِ التنفيذ أربعةَ قوانين:

فالأوّل من قوانينها: السِّفَارةُ بين المَلِك وأهلِ مَمْلكتِه، لأن المَلِك مُعَظَّمٌ بالحِجاب، مَصُون عن المباشرة بالخِطَاب؛ فاقتضى ذلك اختصاصَهُ بسَفِيرٍ مُحْتَشَم ووزيرٍ معظَّم مُطاعٍ فيما يُورِده عنه من الأوامر والنواهي، ويُهاب فيما يتحمله إليه من المطالِب والمباغِي. ليكون للملِك لسانًا ناطِقًا، وأُذُنًا واعِية. وهذه السَّفارةُ مُختصّةٌ بخمسة أصناف:

أحدها: السَّفارة بين المَلِك وأجنادِه، فيَحْمِلُهم على أوامره ونواهيه، ويَتَنَجّزُ لهم من المَلِك ما استوجبوه أو سألوه. ويحتاج في سِفَارته معهم أن يَجْمَعَ بين اللِّين والعُنف، والخشونةِ واللُّطف؛ ليقتادَهم إلى طاعته بالرغبة والرهبة.

والثاني: السفارة بين المَلِك وعُمَّاله، فيَستوفِي مُنَاظرةَ العُمّال ويتصفّحُ أحوالَ الأعمال؛ ليَسْتَدركَ خَلَلًا إن كان، ويَستدِيمَ صلاحًا إن وُجد. ويحتاجُ في هذه السفارة إلى استعمال الرَّهبة خاصّةً؛ ليَكُفَّهم عن الخيانة، ويَبْعَثَهم على الأمانة.

والثالث: السّفارة بين المَلِك ورعِيَّتِهِ، ليَتَصَدَّى لإنصافهم، ويُصغِيَ إلى ظُلاماتِهِم؛ فيُمضِي ما تَيَسّر له، ويُنْهِي ما تعسّر عليه. ويحتاج في هذه السفارة إلى استعمال اللِّين واللُّطف؛ ليصِلوا إلى استيفاء الظُّلامة، ويَستدْفِعوا ذُلّ الاستِضَامة[١].

والرابع: السفارة في استيفاء حقوقِ السَّلطنة التي لِلمَلِك وعليه، من غير مباشرةِ قبضٍ ولا إقباض[٢]. ويحتاج في هذه السفارة إلى الرهبة فيما يَستَوْفِيه للمَلِك، وإلى اللُّطف فيما يَتَنَجّزه منه.

والخامس: السفارة في اختيار العُمّال، ومُشارفةِ الأعمال؛ ليُنْهِيَ حالَ مَن يَرَى تقليدَه وعزلَه من غير أن يُباشر تقليدًا ولا عزلًا؛ لأنّ التقليدَ والعزل داخلٌ في وزارة التفويض خارجٌ عن وزارة التنفيذ. وشروطُ هذه السفارة: أن يكون جَيِّدَ الحَدْس، صحِيحَ الاختيار، قلِيلَ الاغترار، عارِفًا بكُفاة العُمّال ومقاديرِ الأعمال، ليُحْمَدَ اختيارُه، ويَقِلَّ عِثَارُه.

(١) الاستضامة من الضيم.

(٢) قبض وإقباض: تسلم وتسليم.

والثاني من قوانينها: أن يُمدّ المَلِك برأيه ومَشورتِهِ؛ فإن المَلِكَ مع جزالة رأيه وصحّة رويِّتهِ محجوبُ الشخصِ عن مباشرة الأمورِ، فصار محجوبَ الرأيِ عن الخبرة بها. فاحتاج إلى بارزِ الشخص بالمباشرة، ليكون بارزَ الرأي بالخِبْرة؛ فليس الشاهدُ كالغائب، ولا المُخبَرُ كالمعايِن. والوزيرُ أَحَقُّ بهذه المرتبة. وله في المشورة حالتان:

إحداهما: أن يَبتدِئه المَلِكُ بالاستشارة، فيلزَمه أن يُشِيرَ فيها برأيِهِ سواء اختصّت بمُلْكه أو تعدّت إلى غيره. وعلى الوزير فيها حقّان: أحدهما: اجتهادُ رأيِهِ في إيضاح الصواب. والثاني: إبانةُ صِحّتِه بتعليل الجواب ليكون مُجيبًا ومحتَجًّا؛ فَيُكْفَى توهُّمَ الزَّلَل ويَسْلَم من ظِنَّة الارتياب.

والحالة الثانية: أن يَبتدِىء الوزيرُ بالمشورة على المَلِك، فله فيها حالتان:

إحداهما: ألّا يَقَعَ بمشورته اجتلابُ نفعٍ ولا استدفاعُ ضرر. فهذا تَجَوُّزٌ من الوزير، وتبسُّطٌ على المَلِك؛ إن أنكره فبحقه، وإن احتمله فبفضله.

والثانية: أن يتعلّق بمشورته اجتلابُ نفعٍ، أو استدفاعُ ضرر. فإن اختصّ بالمَملكة كان من حقوق الوزارةِ، وإن تجاوزها كان من نُصح الوزير. وعليه أن يذكُرَ سبب ابتدائه، ويُوضِّحَ صوابَ رأيِه. ويلزمه فيما يُؤَدِّي به من الاستشارة ويبدأُ به من المشورة، أن يَكْتُمَه عن كل خاصّ وعامّ؛ لأمرين:

أحدهما: أن الرأي لا يجِبُ أن يَظْهر إلا بالأفعال دون الأقوال؛ لأن ظهورَهُ بالفعل ظَفَرٌ، وظهورَه بالقول خَطَرٌ. وقد قيل: من وَهْنِ الأمرِ إعلانُهُ قبل إحكامِه.

والثاني: أنه من أسرار المَلِك التي يَجِبُ أن تُكْتَمَ في الصدور، وتُصانَ عن الظهور؛ ليَجْمعَ بين تأديةِ الأمانة وطلبِ السلامة؛ فإن في إفشاء سِرِّ المَلِك خطرًا به وبمن أفشاه. وقلّما تعفو الملوكُ عن مُفشِي أسرارِها؛ لتردُّده بين خِيانة وجِناية.

والثالث من قوانينها: أن يكون عينًا للملِك ناظرةً، وأُذُنًا سامِعة، يُنْهِي ما شاهد على حَقِّهِ، ويُخبِر بما سَمِع على صدقه؛ لأنه قد سُوهِم في الملكِ ومُيِّزَ بالاختصاص، ونُدِب للمصالح؛ فهو القائمُ مقام الملك في مشاهدة ما غاب، وسماعِ ما بَعُد. وعليه في ذلك ثلاثة حقوق:

أحدها: أن يُدِيم الفحصَ عن أحوال المملكة حتى يَعْلَمَ ما غاب كعلمه بما حضر، وما خَفِيَ كعلمه بما ظهر؛ فلا يَتَدَلَّس عليه حَقُّ أمرٍ من باطله، ولا يَشْتبهُ عليه صِدْقُ قولٍ من كَذِبه. فإن قَصَّرَ فيها حتى خَفِيت، أو استرسل فيها حتى تدلّست كان مُؤاخَذًا بجُرْم التقصيرِ، وجريرةِ الضرر.

والثاني: أن يُعَجِّلَ مطالعةَ المَلِك بها ولا يُؤَخِّرَهَا، وإن جاز تأخيرُ العمل بها؛ لأن عليه الإنهاءَ، وليس عليه العملُ. وإذ كان من المَلِك بمنزلةِ عينِهِ وأذُنِه اللتين يتعجّل العلم بهما، وجب أن يَجرِيَ معه على حكمِهما؛ ليَستدْرِكَ المَلكُ ما يجب تعجيلُه، ويُقدِّمَ الرّوِيَّة فيما يجوز تأخيرُه. فإن أخّر الوزيرُ إعلامَ المَلِك بها وقد حَسَم ضرَرَها، كان للنصيحة مؤدّيًا، ومن المَلِك على وَجَل.

والثالث: أن يُوَضِّح له حقائقَ الأمور، ويُساوِيَ فيها بين الصغير والكبير، فلا يُمايِل قريبًا، ولا يتحيّفُ بعيدًا، ولا يُعظِّم من الأمور صغيرًا، ولا يُصغِّر منها عظيمًا. فإن خاف من صِغار الأمور أن تصير كِبارًا، أو كِبارها أن تَعُودَ صِغارًا، أخبر بحقائقها في المبادىء، وذكر ما تؤول إليه في العواقب؛ ليكون بالمبادىء مُخْبِرًا، وفي الغايات مُشيرًا. فإن أخبر بالغايات وأعرض عن ذكر المبادىء، كان تدليسًا، وكان بالإنكار حقيقًا وبالذمّ جديرًا.

والرابع من قوانينها: أن يَفْتدِيَ راحةَ الملك بتعبه، ويَقِيَ دَعَتَه بنَصَبِه؛ ولا يَغِيبَ إذا أُريد، ولا يَسأَمَ إذا أُعيد؛ لأنه لِسانُ المَلِك إذا نَطَق، وعينُه إذا رَمَق، ويدُه إذا بَطَش؛ فلا يَبعُدُ عن دعائه، ولا يَضْجَر من نِدائه؛ لأن عوارِضَ المَلِك من هواجِس أفكاره وتقلُّبِ خاطره. وقد يتجدّد مع الأوقات ما لا تُعرف أسبابُه، ولا تتعيّن أوقاته؛ فليكن هذا الوزيرُ على رَصدٍ منها. وربما ملّ الوزيرُ الملازمةَ فأعقبته أسفًا إذا فارقها، لأن في ملازمته للمَلِك نَصَبًا يقتَرن بعزٍّ، وفي متاركته راحةً تؤول إلى ذُلّ. فليختَرْ لنفسه ما وافقها من عز يجتذِبه بالكدّ، أو ذلٌ يؤول إليه بالدَّعَة. فإنه إن صَبَرَ على ما أراده المَلك ظَفر بإرادته من الملك، وهو على الضدّ إن خالفها. وقد قال أنو شِرْوَانُ: ما اسْتُنْجحت الأمورُ بمثل الصبر، ولا اكتُسِبت البغضاءُ بمثلِ الكِبر. وقيل: من خَدَمَ السلطانَ خدمه الإخوانُ. فيَطَّرِد على هذا التعليل أنّ من تنكّر له السلطان، تنكّر له الإخوان. هذه قوانينُ وزارةِ التنفيذ.

ذكر ما تتميز به وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وما تختلِف فيه

وتتميز وزارة التفويض على وزارة التنفيذ وتختلِف من ستة أوجه:

أحدها: أن الملِك يُقلِّدُ وزيرَ التفويض في حقوقه وحقوقِ رعيتهِ، ويقلّدُ وزيرَ التنفيذ في حقوقه خاصة دون حقوق رعيته؛ لأنّ وزيرَ التفويض تُنفَّذُ الأمورُ برأيه، ووزيرَ التنفيذ يُمضِيها بأمر الملِك وعن رأيه.

والثاني: أن وزارةَ التفويض تَفتقِرُ إلى عَقد يصِح به نُفوذُ أفعاله، ووزارةَ التنفيذ لا تفتقِر إلى عقد، لأنه فيها مأمورٌ بتنفيذ ما صدر عن أمر الملِك.

والثالث: أن وزيرَ التفويض مأخوذٌ بدَرْك ما أمضاه، ووزيرَ التنفيذ غيرِ مُؤَاخذٍ بدركه.

والرابع: أن وزيرَ التفويض لا ينعزل إلا بالقول أو ما في معناه دُونَ المتارَكة، لأنه قد تَملَّك بها مباشرةَ الأمورِ، ووزيرَ التنفيذ ينعزِل بالمتارَكة لأنه مأمورٌ.

والخامس: أن وزيرَ التفويض لا ينعزلُ إن كفَّ وتركَ، حتى يَستعفِيَ ويُعفِيَه الملِكُ منها، لأنه مستودَعُ الأعمال فلزِمه ردُّها إلى مستحِقِّها، ووزير التنفيذ يجوز أن ينعزِل بعزل نفسِه بالكفّ والمتاركة، لأنه لا شيءَ بيده فيؤخذ برَدِّه.

والسادس: أن وزيرَ التفويض يفتقِرُ إلى كِفاية بالسيفِ والقلمِ، لنُهوضه بما أوجَبَهُما، ووزارة التنفيذ غير مفتقِرة إليهما لقصورها عنهما.

ويُعتبر في وزير التنفيذ ستة أوصاف: وهي الأُبَّهة والْمُنَّةُ والهِمّة والعفّةُ والمروءةُ وجزالةُ الرأي. وهذه الأوصاف معتبرة في كل مُدبِّر ذِي رِياسة.

ذكر حقوق الوزارة وعهودها ووصايا الوزراء

أما حقوقُ الوزارة - فهي أن تُقَلَّد لمن اجتمعت فيه ثمانيةُ أوصاف، وهي التي ذكرها الماورديّ في قوانين الوزارة، وبيّنها بالنص والتعيين لا بالتعريض والإشارة:

فأحدها: أن يكون بأعباء الوزارة ناهضًا، وفي مصالح المملكة راكِضًا؛ يقدِّمُ حظَّ الملِك على حظ نفسِه ويعلمُ أن صلاحَه مقترِنٌ بصلاحه؛ فلن تستقِيم أحوالُ الوزير مع اختلال أحوال الملك، لأن الفروعَ إنما تستمدُّ من أصولها.

والثاني: أن يكون على الكدّ والتعب قادرًا، وفي السخط والرضا صابرًا؛ لا ينفِرُ أن أُوحش، فإن نفوره عَطَبٌ. وليتوصلْ إلى راحته بالتعب، وإلى دَعتَه بالنصَب. وقد قيل: عِلّةُ الراحةِ قِلّةُ الاستراحة. وقال عبد الحميد: أَتعِب قدمَك، فكم تعبِ

قَدَّمك! . فإن تشاغلَ الوزيرُ براحته، ومال إلى لَذّته، سُلِبهما بالتنكُّر، وعَدِمهما بالتغيُّر.

والثالث: أن يكون لإحسان الملِك شاكرًا، ولإساءتِه عاذِرًا، يشكر على يسير الإحسان، ويعذِر على كثير الإساءة، ليستمِدّ بالشكر إحسانَه، ويستدفِعَ بالعذر إساءَته. فإن عدل عنهما، كان منه على ضدّهما. فقد قيل: أحقُّ الناسِ بالمنع الكَفورُ، وبالصنيعة الشَّكور.

والرابع: أن يُظهِرَ محاسِنه إن خفِيت، ويسترَ مساوِيه إن ظهرت، لأنه بمحاسنِه موسوم وبمساويه مقروف، يشارِكُه في حمد محاسنِه، ويُؤاخَذُ بذمّ مساوِيه. وربما استرسل الملِك لثقتِه بالاحتجاب، فارتكب بالهوى ما يصان عن إذاعتِه، فكان الوزيرُ أحقَّ بسترِه عليه، لأنه البابُ المسلوكُ منه إليه.

والخامس: أن تخلُصَ نِيّتُه في طاعته، ويكونَ سِرُّه كعلانيتِه، فإن القلوبَ جاذِبةٌ تملِك أعِنة الأجساد؛ فإن اتفقا، وإلا فالقلب أغْلبُ، وإلى مراده أَجْذبُ. والقلوب تَنُمّ على الضمائر فتَهْتِكُ أستارها وتُذِيعُ أسرارها. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في ابن آدم مُضْغَةٌ إذا صلَحتْ صلَح الجسدُ وإذا فسدت فسد الجسد إلا وهي القلب».

والسادس: ألّا يعارِضَ الملِكَ فيمن قرّب واستبطن، ولا يمارِيَه فيمن حَطَّ ورفَع؛ فإنه يتحكَّم بقدرته ويأنَفُ من معارضتِه. فربما انقلب بسَطْوتِه إذا عورِض، ومال بانتقامه إذا خولِف. فبَوادرُ الملِك تسبِقُ نذيرَها، وتُدْحِض أسيرها؛ فإن سلِم من الخطر لم يسلَم من الضجر.

والسابع: أن يتقاصرَ عن مُشاكلة الملِك في رتبته، ويقبِضَ نفسه عن مثل هيئتِه، فلا يَلبَسَ مِثل ملابِسه، ولا يركبَ مِثل مراكبِه، ولا يَستخدِمَ مثل خدمه؛ فإن الملِكَ يأنَف إن مُوثِل، وينتقِمَ إن شُوكِل، ويرى أن ذلك من أمواله المُجتاحة، وحِشمتِه المستباحة. ولْيقتصِرْ على نظافة لباسِه وجسدِه من غير تصنُّع، فإن النظافةَ من المُروءة، والتَّصنُّع للنساء؛ ليكون بالسلامة محفوظًا، وبالحشمة ملحوظًا.

والثامن: أن يستوفيَ للملِك ولا يستوفِيَ عليه، ويتأوّل له ولا يتأولَ عليه؛ فإن الملِك إذا أراد الإنصاف كان عليه أقدرَ، وإن لم يُرِده فيَدُ الوزير معه أقصرُ؛ وإنما أراد الوزيرَ عونًا لنفسه ولم يردْهُ عونًا عليها. فإن وجد إلى مساعدته سبيلًا سارع

إليها، وإن خاف ضررَها وانتشارَ الفسادِ بها تلطّف في كفّه عنها إن قَدَر. فإن تعذّر عليه تلطّف في الخلاص منها؛ ولا يَجهر بالمخالفة. سُئِلَ بعضُ حكماء الروم عن أصلحِ ما عوشِر به الملوكُ، فقال: قِلةُ الخِلافِ وتخفيفُ المؤنة. والملوك لا يُصْحَبون إلا على اختيارِهم، ولا يَتمسّكون إلا بمن وافقهم على آرائهم. وإذا روعِيت أحوالُ الناس وُجِدوا لا يأتلِفون إلا بالمُوافقة، فكيف الملوكُ! قال شاعر: [من الكامل الأحذّ]

النّاس إن وافقتهم عَذُبوا أَوْ لا فإنّ جَناهُمُ مُرُّ
كم من رِياضٍ لا أنيسَ بها تُرِكتْ لأنّ طريقها وَعْرُ

وأما عهودها ووصاياها ـ فلم أَرَ فيما طالعتُه في هذا المعنى أشملَ ولا أكمل ولا أنفع ولا أجمعَ من كلامٍ لأبي الحسن الماوَرْديّ(١)؛ فلذلك أوردتُه بفَصّه(٢)، وأتيت على أكثرِ نصّه.

قال الماوردي(١): فأما العهودُ الموقِظة فسأقول، وأرجو أن يقترِن بالقبول: اجعل أيها الوزيرُ لله تعالى على سرّك رقيبًا يلاحظُك من زَيْغ في حقه، واجعل لِسلطانك على خَلواتك رقيبًا يكفُّك عن تقصير في أمره؛ ليَسلمَ دِينك في حقوق الله تعالى، وتسلمَ دنياك في حقوق سلطانك، فتسعدَ في عاجلتك وآجلتك. فإن تَنافى اجتماعُهما لك فقدِّم حقَّ الله تعالى على حق الملِك. فلا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق. وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَن أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بآخرتهِ ومَن أَحَبَّ آخرتَه أَضرَّ بدنياه فآثِروا ما يَبقى على ما يَفنى» وعنه ﷺ أنه قال: «من الْتَمَسَ رِضا الله بسَخَط الناسِ رَضِي الله عنهُ وأَرْضَى عنه الناسَ». قال: حقّ عليك أيها الوزير أن تكون بأمور الناس خبيرًا، وإلى أحوالهم مُتطلِّعًا، وبهم على نفسك وعليهم مُستظهِرًا، لأنهم مِن بين مَن تسوسه أو تستعين به، لتعلمَ ما فيهم من فضلٍ ونقصٍ وعلمٍ وجهلٍ وخيرٍ وشرٍّ، وتتحرَّز من غرور المُتشبه(٣) وتدليسِ الْمُتصنّع؛ فتعطِيَ كل واحدٍ حقَّه، ولا تقصِّرَ بذي فضل، ولا تعتمِدَ على ذي جهل. فقد قيل: من الجهل صُحبةُ ذوِي الجهل، ومن المُحال مجادلة ذوي المِحال. وافرِقْ بين الأخيار والأشرار، فإنّ ذا الخيرِ يبني، وذا الشرِّ يهدِم. واحذرِ الكذوب فلن ينصحكَ مَن غَشَّ نفسَه؛ ولن ينفعَك مَنْ ضَرَّها. ولا تستكفِين عاجزًا فيضَيِّعَ العملَ، ولا شَرِهًا

(١) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩. (٢) الفص: الحقيقة، لسان العرب مادة فصص.
(٣) كذا بالأصل ولا وجه له هنا ولعل الصواب «المتشبع» بالعين، وهو المتكثّر.

فيضرَّك باحتِجانِه[١]. ولا تعبأْ بمن لا يحافظُ على المروءة، فقلما تجِدُ فيه خيرًا؛ لزهده في صيانة النفس وميلِه إلى خمول القدر. وبعيدٌ ممن أسقط حق نفسِه أن يقوم بحق غيره، وصعبٌ على من أَلِف إسقاط التكلّف أن يَحُول عنه. وقد قيل في حِكم الهند: ذو المروءة يرتفِعُ بها، وتارِكُها يهبِطُ؛ والارتقاءُ صعبٌ والانحطاطُ هينٌ، كالحجر الثقيل الذي رفْعُه عسير وحطُّه يسير.

وقال بعض البلغاء: أَحْسِنْ رِعايةَ ذوِي الحُرُمات، وأقبِل على أهل المُروءات؛ فإن رعايةَ ذوي الحرمة تدلّ على كرم الشيمة، والإقبالَ على ذوي المروءة يُعرِب عن شرف الهِمة. اختبِرْ أحوالَ من استكفيته لتعلمَ عجزَهُ من كِفايته، وإحسانَه من إساءته؛ فتعملَ بما علِمت من إقرار الكافي وصرف العاجز، وحمدِ المحسن وذمّ المسيء. فقد قيل: من استكفى الكُفاة، كُفِيَ العُداة. فإن التبست عليك أمورهم أوهنت الكافِيَ وسلّطت العاجزَ، وأضعت المحسنَ وأَغريت المسيءَ. ولأن يكون العملُ خاليًا فتصرِفَ إليه فِكرك أولى من أن يباشره عاجزٌ أو خائنٌ فيقبُحَ بهما أثرك. فاحذرِ العاجزَ فإنه مضيِّعٌ، وتوقَّ الخائنَ فإنه يَكْدَح لنفسه. قال شاعر: [من الطويل]

إذا أنت حمّلت الخؤونَ أمانةً ... فإنك قد أسندتها شرّ مُسندِ

اقتصِرْ من أعوانك بحسب حاجتِك إليهم. ولا تستكثِرْ منهم لتكثُرَ بهم. فلن يخلو الاستكثارُ من تنافرٍ يقع به الخللُ، أو اتّفاقٍ يُستأْكَلُ به العمل. وليكن أعوانُك وَفْقَ أعمالِك، فإنه أنظمُ للشَّمْلِ وأجمعُ للعمل وأبلغُ في الاجتهاد وأبعثُ على النصح. قال ابن الرومي[٢]: [من الوافر]

عدوُّك من صديقِك مستفادٌ ... فلا تَسْتكثِرنّ من الصِّحابِ
فإنّ الداءَ أكثرُ ما تراه ... يكون من الطعامِ أو الشراب
فدعْ عنك الكثيرَ فكم كثيرٍ ... يُعاف وكم قليلٍ مُستطابِ
فما اللُّجَجُ المِلاحُ بِمُرويات ... وتلقى الرّيَّ في النُّطَفِ العِذابِ[٣]

هَذِّبْ نفسك من الدنَس تتهذبْ جميعُ أتباعِك. ونزِّهْ نفسَك عن الطمع تتنزهْ جميعُ خلفائِك. وتوقَّ الشرَهَ فلن يزيدَك إلّا حِرصًا إن أَجْديت[٤]، ونقصًا إن

(١) احتجان المال: ضم المال لنفسه واحتواه. اللسان مادة حجن.
(٢) ابن الرومي: هامش ٢ ص ٦٩.
(٣) النُّطَف: الماء قلّ أو كثر، اللسان، مادة نطف.
(٤) أجديت: أصبت الجدوى أو العطية. لسان العرب مادة جدوى.

أَكْديت[١]، وهما مَعرّة ذي الفضل ومَضَرّة أُولي الحزم. رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اقتربت الساعة ولا يزدادُ الناسُ في الدنيا إلا حِرصًا ولا تزدادُ منهم إلا بُعدًا».

رُضْ[٢] نفسك عن الطمع يتنزهْ جميعُ عمّالك، وتنتظِمْ بك جميع أعمالِك. ولا تَكِلْ إلى غيرك ما تختصّ بمباشرة طلبًا للدَّعة، فتعزِلَ عنه نفسَك وتؤثِرَ به غيرَك؛ فتكونَ من وفائه على غرر، ومن نفسِك على تقصير. قال بُزُرْجمِهْر: إن يكن الشغلُ مَجْهَدَةً، فإن الفراغَ مَفْسَدَةٌ. وقال عبد الحميد[٣]: ما زَانَك ما أضاع زمانَك، ولا شانك[٤] ما أصلح شانك.

اجعلْ زمانَ فراغِك مصروفًا إلى حالتين: إحداهما راحةُ جسدِك وإجمامُ[٥] خاطرك، ليكونا عونًا لك على نظرِك. والثانية أن تفكر بعد راحةِ جسدِك وإجمام خاطرِك فيما قدّمته من أفعالك، وتصرّفت فيه من أعمالك: هل وافقتَ الصوابَ فيه فتقوِّيَه وتجعلَه مِثالًا تحتذيه، أو نالك فيه زَلَلٌ فتستدركَ منه ما أمكن، وتنتهِي عن مثله في المستقبل. فقد قيل: من فكّر أبصر. وقال بعض البلغاء: من لم يكن له من نفسه واعظٌ، لم تنفعْه المواعظُ.

اخفِضْ جَناحك لمن علا، ووطِّىءْ كَنَفَك لمن دنا، وتجافَ عن الكِبر تملِكْ من القلوب مودّتها، ومن النفوس مساعدتَها. فقد قيل لحكيم الروم: مَن أضيقُ الناس طريقًا، وأقلُّهم صديقًا؟ قال: مَن عاشر الناس بعُبوس وجهِه، واستطالَ عليهم بنفسه. ولذلك قيل: التواضعُ في الشرف، أشرفُ من الشرف.

كن شكورًا في النعمة، صبورًا في الشدّة، لا تُبطِرُك السراءُ، ولا تُدهِشُك الضراءُ؛ لتتكافأَ أحوالُكَ، وتعتدِلَ خصالُكَ؛ فتسلمَ من طيش البطر وحيرة الدَّهَش. فقد قال بعض الحكماء: اشتغِلْ بشكر النعمة عن البطر بها. وقيل في أمثال الهند: العاقل لا يَبْطَرُ بمنزلةٍ أصابها ولا شرفٍ وإن عظم، كالجبل الذي لا يتزلزل وإن اشتدّت الرياح، والسخيفُ تُبطِرُهُ أدنى منزلةٍ كالحشيش الذي تحرّكه أدنى رِيح.

---

(١) أكديت: أخفقت ولم تظفر بحاجتك. لسان العرب مادة كدي.
(٢) رض: من ريض ورياضة. مرّن نفسك. اللسان مادة ريض.
(٣) عبد الحميد الكاتب: هامش ١ صفحة ٩٧. (٤) شانك: عابك ، اللسان مادة شنأ.
(٥) إجمام: راحة، اللسان مادة جمم.

استدِمْ مودّة وليّك بالإحسان إليه، واستسِلَّ سخِيمة[١] عدوّك بعد الاحتراز منه، وداهِنْ من يجاهِرك بعداوتك. فقد قيل لبعض الحكماء: ما الحزمُ؟ قال: مُداجاة[٢] الأعداءِ، ومؤاخاة الأكْفاء. ولا تعوّل على التهم والظنون واطّرح الشك باليقين. فقد قيل: لا يُفسِدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. قال شاعر: [من الطويل]

إذا أنت لم تبرحْ تظنُّ وتقتضِي   على الظن أرْدَتْك الظنونُ الكواذِبُ

واختبِرْ من اشتبهتْ حاله عليك، لتعلمَ معتقدَه فيك، فتدرِيَ أين تضعه منك؛ فإن الألسنَ لا تَصْدُق عن القلوب؛ لما يتصنّعه المداجي ويتكلّفه المداهن. وشهاداتُ القلوبِ أصدقُ، ودلائلُ النفوس أوثقُ. فإن وقفتْ بك الحالُ على الارتياب، اعتقدتَ المودّة في ظاهره، وأخذت بالحزم في باطنه. وإذا أقنعك الإغضاء عن الاختبار فلا تتخطّه، فأكثر الأمور تمشِي على التغافل والإغضاء. فقد قال أكثم بن صَيْفِيّ[٣]: من تشدّدَ نفّر، ومن تراخى تألّف، والسَّرْوُ[٤] في التغافل. ولقلما جُوهِر المغضي وقُوطِع المتغافل، مع انعطافِ القلوب عليه، وميلِ النفوس إليه. وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق.

شاوِرْ في أمورك من تثِق منه بثلاث خِصال: صواب الرأي، وخلوص النية، وكتمان السرّ. فلا عارَ عليك أن تستشِير مَنْ هو دونك إذا كان بالشورى خبيرًا؛ فإن لكل ذي عقل ذخِيرةً من الرأي وحظًّا من الصواب، فتزدادَ برأي غيرِك وإن كان رأيك جَزْلًا، كما يزدادُ البحر بمَوادّه من الأنهار وإن كان غزيرًا. وقد يُفْضِلُ المستشِيرُ على المشِير؛ ويَظفرُ المُشيرُ بالرأي، لأنها ضالّة يظفَر بها من وجدها من فاضل ومفضول. وعوِّلْ على استشارة من جرَّب الأمور وخبَرها، وتقلّب فيها وباشرها، حتى عرف موارِدها ومصادِرَها، فلن يخفى عليه خيرُها وشرُّها، ما لم يوهنه ضعفُ الهَرم.

واعدِلْ عن استشارة من قَصَد موافقتك متابعةً لهواك، أو اعتمد مخالفتك انحرافًا عنك، وعوِّلْ على مَن توخّى الحق لك وعليك. فقد قيل في قديم الحِكم: من التمسَ الرُّخَصِ من الإخوان في الرأي، ومن الأطبّاء في المرض، ومن الفقهاء في الشّبه، أخطأ الرأي، وزاد في المرض، واحتمل الوِزر. ولا تؤاخِذْ من استشرت بدَرْك

(١) سخيمة: الغضب، اللسان مادة سخم. (٢) مداجاة: المداراة، اللسان مادة دجا.
(٣) أكثم بن صيفي: حكيم وخطيب جاهلي هامش ١ صفحة ٦١.
(٤) السرو: المروءة والشرف، اللسان مادة سرا.

الرأي إن زَلّ، فما عليه إلا الاجتهادُ وإن حجزتْه الأقدار عن الظَّفَر. فقد قيل في منثور الحِكم: من كَثُر صوابه لم يُطَّرَحْ لقليل الخطأ.

اخْتَرْ لأسرارِك من تثِقُ بدِينه وكِتمانه، تسلم من إذاعته وإعلانه، ولو قَدَرت ألّا تودِعَ سرَّك غيرَك، كان أولى بك وأسلمَ لك؛ لأنك فيها بين خطر أو حَذَر. وقد قيل في منثور الحكم: انفردْ بسرك ولا تودعْه حازمًا فيزلَّ، ولا جاهلًا فيخونَ.

تثبّتْ فيما لا تقدِرُ على استدراكه؛ فقلّما تُعقِب العَجلةُ إلا ندمًا. رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تأنّى أصاب أو كاد ومن عَجِل أخطأ أو كاد». وقيل في حِكمة آل داود: من كان ذا تُؤَدَةٍ وُصِفَ بالحكمة.

وقدِّمْ ما قدرت عليه من المعروف، فقلما يُعقب الريْثُ[١] إلا فواتًا؛ فإن للقدرة غايةً، ولنفوذِ الأمر نِهاية، فاغتنِمْها في مَكنتك تسعَدْ بما قدّمته، ويسعدْ بك من أعَنْته. قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مَرَّ السحاب. وقال بعض الحكماء: من أخّر الفرصةَ عن وقتها، فليكن على ثقة من فَوْتها.

واحذرْ قبولَ المدحِ من المتملِّقين، فإن النِّفاق مركوز في طِباعهم، ويداجونك بهيِّن[٢] عليهم؛ فإن نَفَّقوا عليك غَشَشتَ نفسك، وداهنْت حسّك؛ وأنت أعْرَفُ بنفسك من غيرك فيما تستحق به حمدًا أو ذمًّا. فناصِحْ نفسَكَ بما فيها، فإنك أعلمُ بمحاسنها ومساويها. فقد قيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة: «عَجَبٌ لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرحُ! وعجبٌ لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب!». وقال بعض البلغاء: من أظهَرَ شكرك فيما لم تأتِ إليه فاحذرْهُ أن يكفُر نِعمك فيما أسديتَ إليه. ففَوِّضْ مدحك إلى أفعالك، فإنها تمدحك بصِدقٍ إن أحسنت، وتذمُّك بحقٍّ إن أسأت. ولا تغتَرّ بمخادعة اللسانِ الكذوبِ. فقد قيل: أَبصَرُ الناس من أحاط بذنوبه، ووقَف على عيوبه. وكتب حكيمُ الرومِ إلى الإسكندر: لا ترغبْ في الكرامة التي تنالها من الناس كَرهًا، ولكن في التي تستحقُّها بحسن الأثر وصوابِ التدبير.

اعتمِدْ بنظرك إحماد سلطانِك وشكرَ رعيتك، تكنْ أيّامُك سعيدةً، وأفعالُك محمودةً، والناسُ بك مسرورين، ولك أعوانًا مساعدين؛ ويبقى بعدك في الدنيا جمِيلُ

(١) الرَّيث: ومنها التريُّث التباطؤ، اللسان مادة ريث.

(٢) هيِّن: سهل، اللسان مادة هون.

أثرك، وفي الآخرة جزيلُ أجرِك. واستعِذْ بالله من صَدّها فتعدِلَ بك إلى ضِدّها، فإن الوِلاياتِ كالمِحَكّ تُظهِر جواهرَ أربابها، فمنهم نازلٌ مرذول ومنهم صاعِد مقبول. فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحسِنوا جِوارَ نِعَم الله فقلما زالَتْ عن قوم فَعَادَتْ إليهم». وتعرّض رجلٌ ليحيىٰ بن خالد[1] وهو على الجِسر بكتاب وسأله أن يختِمه؛ فقال: يا غلام اختِم كتابَه ما دام الطين رطبًا، ثم أنشد: [من الوافر]

إذا هبّت رِياحُك فاغتنِمْها وجُدْ فلكلِّ خافِقةٍ سكونُ[2]
ولا تَغْفُلْ عن الإحسانِ فيها فما تدرِي السكونُ متى يكون

إذا نِلت من سلطانك حظًا، وأوجبت عليه بخدمتِك حقًّا، فلا تستوفِه، ودعْ لنفسِك بقيّةً يَدّخرُها لك ويراها حقًّا من حقوقِك، ويكون كفِيلَ أدائِها إليك. فإن استوفيتها برِيء وصرت إلى غايةٍ ليس بعدها إلا النقصان. قال الشاعر: [من المتقارب]

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصُهُ تَوَقّعْ زوالًا إذا قيل تمّ

واعلم أنك مُرصَدٌ لحوائج الناس، لأنّ بيدك أزِمّةَ الأمورِ وإليك غايةَ الطلب، فكن عليها صبورًا، تكنْ بقضائها مشكورًا؛ ولا تضجَرْ على طالبها وقد أمّلك، ولا تنفِرْ عنه إذا راجعك؛ فما يجِدُ الناسُ من سؤالك بُدًّا. ولَخَيْرُ دهرِك أن تُرى مرجُوًّا. قال أبو بكر بن دُرَيْد[3]: [من الكامل]

لا تدخلنّك ضَجرةٌ من سائلٍ فلَخيرُ دهرِكَ أن تُرى مسؤولا

---

(١) يحيىٰ بن خالد البرمكي (١٨٧ هـ)، من وزراء العباسيين، من أسرة فارسية لعبت دورًا في تأييد العباسيين، نكبهم الخليفة الرشيد بعدما أحس بتعاظم نفوذهم على حساب الخلافة. تربى الرشيد في كنفه وتولى تربيته، عمل للمهدي وللهادي على أذربيجان، ثم تولى الوزارة للرشيد سنة ١٧٠ هـ وقد جاء في كتاب التولية: قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عتقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل مَنْ رأيت، واعزل من رأيت، وامض الأمور على ما نرى. ودفع إليه خاتمه، وقد جمع له الوزارتين. وكان يحيىٰ يصدر عن رأي الخيزران أم الرشيد. وقد تولى ابناه الفضل وجعفر خراسان والري ومصر وسجستان والحرس. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨/٢٥٦ ـ ٣٠٧.

(٢) إذا هبت رياحك: إذا أقبل الدهر عليك (مجاز).

(٣) ابن دريد: ٢٢٣ هـ/٨٣٧ م ـ ٣٢١ هـ/ ٩٣٤ م. أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي ممن أكسبوا مدرسة البصرة شهرة وازدهارًا بتميزه في العلم والشعر، من أزد عمان، أخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشي والأشناندانى، هرب من البصرة بعد ثورة الزانج إلى عمان ثم قصد خراسان وأخيرًا عاد إلى بغداد حيث توفي وأبي هاشم الجبائي في يوم واحد. ترك=

لا تَـجْـبَـهَـنْ بـالـردّ وجـهَ مُـؤمِّـلٍ فـبـقـاءُ عِـزّك أن تُـرى مـأمـولا
واعـلَـمْ بـأنـكَ عـن قـليـلٍ صـائِرٌ خَـبَـرًا فـكـن خـبـرًا يَـرُوق جـمـيلا

وقد قيل في الصحف الأولى: القلبُ الضيقُ لا تحسنُ به الرياسة، والرجلُ اللئيمُ لا يحسنُ به الغنَى. ولئن كانت الحوائجُ كالمغارِم لمن استثقلها فهي مغانم لمن وُفّق لها. رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما عظُمت نعمةُ الله على عبدٍ إلا عظمت مؤونةُ الناس عليه فمن لم يحتمِلْ مؤونةَ الناسِ عرّض تلك النعمةَ للزوال».

وإذا جَعَلتِ الوزارةُ غاياتِ الأمورِ إليك، وحوائجَ الناس واقفةً عليك، والقدرةُ لك مساعِدةٌ، لانبساط يدِك ونفوذِ أمرِك، صرت بالتوقُّف والإعراض مُخِلًّا بحقوق نظرك، وآسِفًا على فوات مَكِنَتِك. فقد قال بَهْرام جُور في عهده إلى ملوك فارس: إنكم بمكانٍ لا مَصْرِف للناس عن حوائجهم إليكم، فلتتّسِعْ صدوركم كاتّساع سلطانكم. قال عليّ بن الجهم[1]: [من المتقارب]

إذا جـــدّدَ اللهُ لـــي نِـــعـــمـــةً شـكـرتُ ولـم يَـرَنِـي جـاحـدا
ولـــم يـــزلِ اللهُ بـــالـــعـــائـــدات عـلـى مـن يَـعُـود بـهـا عـائِدا
أيـا جـامِـعَ الـمـالِ وَفِّـرْتَـه لـغـيـرك إذ لـم تـكـنْ خـالـدا!
فـإن قـلـت أَجـمَـعُـه لـلـبـنـيـن فـقـد يـسـبِـقُ الـولـدُ الـوالِدا
وإن قلت أخشى صروفَ الزمانِ فـكـن فـي تـصـاريـفـه واحـدا

فاجعل يومك أسعدَ من أمسك، وصلاحَ الناسِ عندك كصلاح نفسِك. ومِلْ إلى اجتذاب القلوب بالاستعطاف، وإلى استمالة النفوس بالإنصاف، تجِدْهم كنزًا في شدائدك، وحرزًا في نوائبك.

احذرْ دعوة المظلوم وتوقَّها، ورِقَّ لها إن واجهَك بها، ولا تبعثْك العِزّةُ على البطش فتزدادَ ببطشك ظلمًا، وبعزتك بغيًا. وحسبُك بمنصور عليك اللهُ ناصِرُه منك.

= المقصورة وله شروح عديدة وتخميسات ثمانية: ـ مرات. ـ الجمهرة في اللغة. ـ الاشتقاق. ـ المجتنى. ـ الأربعين. ـ الوشاح. ـ المتناهي في اللغة. ـ الأمالي. انظر ابن دريد في: ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم ٦٠٩. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١٧٧ ـ ١٨٥.

(١) علي بن الجهم السامي الخراساني ٢٤٩ هـ/ ٨٦٣ م. هَجّاء نفاه المتوكل بعدما كان نديمه إلى خراسان حيث صلبه الوالي طاهر، ثم ذهب إلى الشام، وعندما حاول العودة إلى العراق سقط في مدافعة بني كلب الذين قطعوا الطريق عليه. له أشعار متفرقة لم تجمع. انظر فيه: ـ الأغاني، ٩/ ١٠٤ ـ ١٢٠. ـ المرزباني، المعجم، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥. ـ ابن خلكان، الوفيات، رقم ٤٣٥. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٤٣ ـ ٤٤.

كن عن الشهوات عَزُوفًا تنفكَّ من أسرها، فإنّ من قهرته الشهوة كان لها عبدًا، ومن استعبدتْه ذلّ بها. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اشتاقَ إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن أشفَق من النار لَهَا عن الشهوات». وقيل لبعض حكماء الروم: ما المُلكُ الأعظمُ؟ قال: أن يغلِب الإنسانُ شهوتَه.

وكن بالزمان خبيرًا تسلَمْ من عثرته؛ فإنّ الاغترار به مُرْدٍ. وقدِّمْ لمعادِك ليبقى عليك ما ذَخرته، فلن تجِدَ إلا ما قدّمته؛ وإنك لتُجازَى بما صنعتَ. واستقِلَّ الدنيا تجِدْ في نفسك عِزًّا، فترضى إذا سخِطتْ، وتُسرَّ إذا حزِنت؛ فلن يذِلَّ إلا طالبُها، ولن يحزَن إلا صاحبُها. فقد قال بعض الحكماء: ليكن طلبُك الدنيا اضطرارًا، وفكرُك فيها اعتبارًا، وسعيُك لمعادِك ابتدارًا. وقال عبد الحميد[1]: طالبُ الدنيا عليلٌ، ليس يُرْوَى له غليل.

اجعلْ صالِحَ عملِك ذُخْرًا لك عند ربك، وجميلَ سيرتِك أثرًا مشكورًا في الناس بعدَك، ليقتدِيَ بك الأخيارُ، ويزدجِرَ بك الأشرارُ، تكنْ بالثواب حقيقًا، وبالحمد جديرًا. فقد قيل: الاغترارُ بالأعمار من شِيم الأغمار[2]. فلن يبقى بعدك إلا ذكرُك في الدنيا، وثوابُك في الآخرة؛ فاظفَرْ بهما تكنْ سعيدًا فيهما؛ فإنّ الدنيا كأحلامِ النائم يستحليها في غَفوتِهِ، ويلفِظُها بعد يَقَظَتِهِ. وقد قيل في بعض الصحف الأولى: احرِصْ على العمل الصالِح لأنه لا يصحَبُك غيرُه.

انتهى كلام الماورديّ. وقد بالغ - رحِمه الله - في عَهْده، وجاد بعظيم بِرّه وجزيل رِفْدِه؛ وأوضَح ما إن استمسك به الوزيرُ كفاه، وإن حَذا على مثالِه كان ذخِيرةً لدينه ومعونةً لدنياه. فليتمسَّكْ به من رَفَل من الوزارة في حُلَلِها، وارتقى من الرياسة إلى شواهقها المنيعةِ وقُلَلِها[3]؛ وأفاضت عليه السياسة بُرودَها، وطوّقتْه السعادة عقودَها. وليأخذْ نفسه به وَيَرُضْها عليه؛ وليجعلْه نُصْب عينهِ فيما فُوّض من أمور العَالَم إليه؛ ليفوزَ بسعادة الدنيا وثوابِ الآخرة، ويلتَحق غدًا بذوي الوجوه الناضرة، التي هي إلى ربها ناظرة. وإن عَدَل عنه وعمل بضدّه فوا خيبةَ مسعاه، وسوءَ مُنقَلبِه ومثواه، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: الآية ٤٠].

(١) عبد الحميد بن يحيىٰ الكاتب: هامش ١ صفحة ٩٧.
(٢) الأغمار جمع غمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور، اللسان مادة غمر.
(٣) قُلل جمع قُلة: قِمة الجبل. اللسان مادة قلل.

ذكر ما قيل في وصايا أصحاب السلطان وصفاتهم

أما صفاتهم فقد ذكر «الحَمدونيّ» في «تَذْكرته» ما لا بدّ منه لصاحب السلطان وجليسه، ومُحادثه وأنيسِه؛ ولا يستغني عنه وزراؤه وندماؤُه، وخواصُّه وأولياؤه؛ فقال: من صحِب الملوك وقَرُب منهم فينبغي أن يكون جامعًا للخِلال المحمودة. فأوّلها العقلُ، فإنه رأسُ الفضائل. والعلمُ، فإنه من ثِمار العقلِ ولا تليق صحبةُ الملوكِ بأهل الجهلِ. والوُدُّ، فإنه خُلق من أخلاق الناس يولّده العقل في الإنسان لذوي ودّه. والنصيحةُ، وهي تابعة للودّ وهو الذي يَبعث عليها. والوفاءُ، فلا تتم الصحبةُ إلا به. وحفظُ السرّ، وهو من صِدق الوفاءِ. والعفّةُ عن الشهوات والأموال. والصرامةُ، وهي شدّةُ القلب فإن الملوك لا يجوز أن يصحبَهم أولو النُكول، ولا ينال الجسيمَ من الأمور إلا الشجاعُ النَّدْب[1] النجد[2]. والصدقُ، فإنه من لا يَصْدُق يكذِب، ومضرّةُ الكذبِ لا تُتَلافى. وحُسْنُ الزيّ والهيئة، فإن ذلك يَزيدُ في بهاء الملك. والبِشرُ في اللقاء، فإنه يَتألّف به قلبَ من يلاقيه، وفي الكُلوح تنفيرٌ عن غير ريبة. والأمانةُ فيما يُستحفَظ. ورعايةُ الحق فيما يُستَوْدَع. والعدلُ والإنصافُ، فإن العدل يُصلح السرائرَ ويُجَمّل الظواهر، وبه يُخاصِم الإنسانُ نفسَه إذا دعتْه إلى أمرٍ لا يَحسُنُ رُكوبُه. وينبغي له أن يجانبَ أضدادَ هذه الخِلالِ؛ وألّا يكونَ حسودًا فإنّ الحسد يُفسد ما بينه وبين الناس؛ وليفرّقْ بين الحسد والمُنافسةِ فإنهما يشتبهان على من لا يعقِل؛ وأن يَخْلُو من اللَّجاج والمِحَال فإن ذلك يضرُّ بالأفعال إذا وقع فيها اشتراك؛ وألّا يكون بَذَّاخًا ولا مُتكبرًا، فإن البَذْخَ من دلائِل سقوط النفس، والكِبْرَ من دواعي المقتِ؛ وألّا يكونَ حريصًا، فإن الحرصَ من ضِيق النفْسِ وشدّةِ البطش والبعدِ عن الصبر. وينبغي ألّا يكون فدمًا[3] وِخْمًا[4] ولا ثقيل الروح، فإنها صفة لا تليقُ بمن يلاقِي الملوك، وأَبَدًا تكون صفةً للمقت من غير جُرم. وينبغي لمن صحِب السلطانَ أن يَأخُذ لعمله من جميع شغله، فيأخذَ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه، لا كما يفعل الأَغْمار الجُهّال بخدمة الملوكِ، فإن أحدَهم كلما ازداد عملًا نَقَص من ساعات نَصَبه[5] وعمله فزادها في ساعات شهوته وعبثه.

---

(١) النَّدْب: الخفيف في الحاجة، اللسان مادة ندب.

(٢) النجد: الشجاع الماضي فيما يعجز غيره، اللسان مادة نجد.

(٣) الفدم: العي عن الكلام في ثقل ورخاوة، أو الأحمق الجافي، اللسان مادة فدم.

(٤) وخم: الرجل الثقيل، اللسان مادة وخم. (٥) النصب: التعب. اللسان مادة نصب.

فهذه الصفات، فلنذكر الوصايا.

* * *

وأما وصايا أصحاب السلطان ـ فهي متقارِبة من وصايا الوزراء غيرُ متفاوتة. وفيها ما يُضطرّ الوزيرُ إليه، على ما تقف إن شاء الله تعالى عليه.

قالتِ الحكماء: إذا نَزَلْتَ من الملك بمنزلةِ الثقةِ فاعزِلْ عنه كلامَ المَلَق[١]، ولا تُكثرْ من الدعاء له في كلّ كلمة، فإن ذلك يشبهُ حال الوَحْشة والغُربة، إلا أن تكلِّمَه على رؤوس الناس فلا تَألُ عما وقّره وعظّمه. وإذا أردت أن يُقْبَل قولُك فصحِّحْ رأيَك ولا تشوبَنّه بشيء من الهوى، فإن الرأي يقبَلُه منك العدوُّ، والهوى يردّه عليك الصديقُ.

وتبصَّرْ[٢] ما في الملكِ من الأخلاق التي يُحِبّ ويَكْرَه، ثم لا تكابره بالتحويل له عما يُحِبّ ويكرَه إلى ما تحب وتكره، فإنها رياضة صعبةٌ قد تحمِل على التنائي والقلِي. فقلما تقدِر على ردّ رجلٍ عن المكابرة والمناقضة وإن لم يكن جَمَحَ به عِزُّ السلطان، فكيف إذا جمح به! ولكن تُعِينُه على أحسن رأيِه وتزيِّنُه له وتُقوّيه عليه؛ فإذا قوِيت المحاسنُ كانت هي التي تَكفيك المساوي. وإذا استحكمتْ منه ناحية من الصواب كان ذلك الصوابُ هو الذي يُبصِّره مواقعَ الخطإ بألطفَ من تبصيرِك وأعدلَ من حكمك في نفسه؛ فإنّ الصواب يؤيِّدُ بعضُه بعضًا ويدعو بعضُه إلى بعض. وإذا كنتَ له مكابرًا لِحقك الخطرُ ولم تبلُغ ما تريد.

ولا يكونن طَلَبُك ما عند السلطان بالمسألة! ولا تستبطِئْه وإن أبطأَ، ولكن اطلبْ ما عنده بالاستحقاق له والاستيناء[٣] به وإن طالت الأناة، فإنك إذا استحقَقْته أتاك من غير طلب، وإذا لم تستبطئْه كان أعجَل له.

ولا تخبرنّ الملكَ أنّ لك عليه حقًّا، وأنك تعتدّ عليه بلاءً. وإن استطعت ألّا ينسي حقك وبلاءك فافعل. وليكن ما تذكّره به تجديدَك له النصيحةَ والاجتهاد، وألّا يزالَ ينظر منك إلى آخِر يذكره الأوّل؛ فإنّ السلطانَ إذا انقطع عنه الآخِرُ نسِي الأوّلَ؛ فإنّ أرحامهم منقطعة وحِبالهم منصرمة إلا عمن رَضُوا عنه في يومهم وساعتِهم.

(١) الملق: ومنها التملق، خطب وده ولو بالخداع، اللسان، مادة ملق.
(٢) هذا النص مقتبس من الأدب الكبير لابن المقفع.
(٣) الاستيناء: الصبر والتأني.

واعلم أن أكثر الناسِ عدوٌّ لصاحب السلطانِ ووزيرِه وذوي المكانةِ عنده، لأنه منفوس[١] عليه مكانه كما يُنْفَس على الملِك ملكُه، ومحسود كما يُحْسَد عليه؛ غير أنه يُجْتَرَأُ عليه ولا يجترأُ على الملكِ، لأن حسّادَه أَحْبَاءُ[٢] الملِك الذين يشاركونه في المنزلة والدخولِ، وهم حضورٌ، وليسوا كعدوّ الملِك النائي عنه الكاتِم لعداوتِه؛ فهم لا يغفُلون عن نصب الحبائلِ له. فالبسْ لهؤلاء الأعداءِ كلِّهم سلاحَ الصحّةِ والاستقامةِ ولزومِ المحجة[٣] فيما تُسِرّ وتُعلنُ. ثم روِّح عن قلبِك حتى كأنك لا عدوَّ لك ولا حاسدَ. جانِب المسخوطَ عليه والمظنونَ به عند السلطانِ، ولا يجمعنَّكَ وإياه مجلسٌ ولا منزلٌ، ولا تُظهرنّ له عذرًا ولا تُثنِيَنّ عليه خيرًا. فإذا رأيته قد بلغ في الإعتابِ[٤] مما سُخِط عليه فيه ما ترجو أن يلين له الملِك، واستيقنت أن الملِكَ قد تحقق مباعدتك إياه وشِدّتك عليه، فضَعْ عند ذلك عذره عند الملِك، واعمل في إرضائِه بالرفقِ واللطف.

وإذا أصبت الجاه عند الملِك وكانت لك خاصة منزلةٍ، فلا يُحْدثن لك ذلك تغيُّرًا على أهلِه وأعوانِه واستغناءً عنهم، فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوةٍ فتذِلَّ لهم. وإن استطعت أن يعرف صاحبك أنك تنحَله صوابَ رأيك فضلًا عن صوابِه فتُسنِدَ ذلك إليه وتزينه به، فإن الذي أنت بذلك آخذٌ أفضلُ من الذي أنت به معطٍ.

واعلمْ أن السلطان يقبلُ من الوزراء التبخيل ويعدّه منهم شفقةً ونظرًا ويحمدهم عليه وإن كان جوادًا. فإن كنت مُبَخِّلًا فقد غششت صاحبك بفساد مروءتِه، وإن كنت مُسَخِّيًا لم تأمنْ إضرار ذلك بمنزلتك. فالرأيُ لك تصحيحُ النصيحةِ والتماسُ المخرجِ، بألا يعرِفَ منك ميلًا إلى شيءٍ من هواك.

فهذه نبذةٌ من وصايا أصحابِ السلطان يكتفي بها اللبيب[٥]، ويتمسك بها الأريبُ. وقد قدّمنا في شروط الوزارة ما يحتاجُ صاحبُ السلطانِ إلى استعمالٍ في خدمته. فلنذكر ما يحتاج إليه نديمُ الملِك ومؤاكله.

---

(١) منفوس عليه مكانه: لم يره له أهلًا، اللسان مادة نفس.
(٢) أحْباء جمع حبأ: جلساء الملك وخاصته، اللسان مادة حبأ.
(٣) المحجة: جادة الطريق ووسطه، اللسان مادة حجج.
(٤) الإعتاب: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب، اللسان مادة عتب.
(٥) نقول عن الأدب الكبير لابن المقفع.

ذكر ما يحتاج إليه نديمُ الملِك، وما يأخذُ به نفسَهُ، وما يلزمه

قالوا: مما يزيدُ النديمَ في المحلّ تقدّمًا، وعند ملِكه تمكُّنًا، أن يكون عالمًا بكل ما يتنافس الملوك ويتغالَون فيه، من الرقيق المثمّن، وقيمةِ الجوهرِ النفيسِ، والآلات المحكمةِ، وأنواعِ الطيب والفُرُش، إلى غير ذلك من معرفة الخيل والسلاحِ. ولذلك قال الواصف نفسه[١] للفضل بن يحيىٰ بن خالدٍ[٢] يرغّبه في اختصاصِه بمنادمته في شعر طويل: [من الخفيف]

لستُ بالناسِك المشمّرِ ثوبيـ ـه ولا الفاتِكِ الخليعِ الوَقاحِ
أبصَر النّاسِ بالجواهرِ والخيـ ـلِ وبالخُرّد الحِسانِ المِلاحِ[٣]

قالوا: ومَنْ أبردُ من النديم مجلِسًا وأكسفُ منه بالًا إذا عُرِض على الملوك شيء من هذه الأعلاقِ فلم يُجِز جوابًا ولا وَجَدَ عنده منه عِلمًا!.

ويُستظرف من نديم السلطانِ أن يصِف اللونَ الغريب من الطعام، والصوتَ البديع من الشعر، واللحن الشجِيّ من الغِناء. وقالوا: من لم يدرِ عشرة أصواتٍ من الغِناء ويُحسِن من غرائِب الطبيخِ عشرة ألوان، لم يكن عندهم ظريفًا كاملًا، ولا نديمًا جامعًا.

* * *

وأما ما يأخذُ به نفسه ـ فقد قالوا: ينبغي أن يكون نديمُ السلطان معتدِل الأخلاقِ، سليم الجوارِح[٤]، طيّب المفاكهةِ والمحادثةِ، عالمًا بأيام الناسِ ومكارِم أخلاقِهم، راوِية للنادرِ من الشعر والمثلِ السائرِ، متصرّفًا في كل فنّ، قد أخذ

---

(١) هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق الرقاشي وابنه حمدان كلهم شعراء. وهو من شعراء البرامكة، وكان مخصوصًا بجعفر لا يكاد يفارقه، وكان يأمر البرامكة ويفرق المال على الشعراء، كان شاعرًا أديبًا ظريفًا منطقيًا مطبوعًا في الشعر، مقتدرًا عليه، يقتضب الخطب. نقل كليلة ودمنة شعرًا تلبية لرغبة يحيىٰ بن خالد البرمكي. هاجى أبو نواس. انظر فيه: ـ ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٠٤ و٢٤٠ ـ ٢٤١. ـ المرزباني، معجم الشعراء، ص ٤٩٣.

(٢) الفضل بن يحيىٰ بن خالد البرمكي، وزير الرشيد وأخوه في الرضاع، تولى خراسان. سجنه عندما نكبت البرامكة ومات في السجن في الرقة. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨/٢٥٦ ـ ٣١٧.

(٣) الخرّد: الفتيات العذارى، اللسان، مادة خرد.

(٤) الجوارح: الأعضاء، اللسان، مادة جرح.

من الخير والشر بنصيب؛ فإن مالت شهوةُ الملِك إلى ضربٍ ما وجد عنده منه علمًا.

ويلزمه أيضًا أن يحضُر في الزيّ الظاهرِ الذي يُعرف به، ويشهد فيه المجالس الحافِلة من غير أن يتشهر(١). فإن شاء الملِك أن يغيّر حاله وزِيَّه ويُكرِمَه بشيء من ثيابِه، حسُن أن يلبَس ذلك من وقتهِ حتى ينقضِيَ المجلس، ولم يحسن أن يجلس فيه ظاهرًا في مجلسٍ ثانٍ؛ لأنه شيء اختاره الملِك في ساعة بعينِها لا في كل أوقاتِه. وأما العِمامة والخُفّ فلا يخلو منهما. والغرض من ذلك إجلال السلطان عن مشاركته فيما اتسع له من التبدّلِ والتخيّرِ في الزيّ الذي لا ثِقلَ عليه منه، والانفرادِ به عمن هو دونه. وهذه كانت عادة ملوكِ الأعاجم؛ لأنهم رسموا لكل طبقةٍ من طبقات أهلِ مملكتِهم برسم من الزيّ ليتميزوا به، ولا يتشبه سُوقة بملك، ولا مشروف بذي الشرفِ، ولا تابع برئيس.

ومما يجب أن يأخذ به نفسه الإسراع في الخطو إذا كان بحيث يراه الملك، ليكون مشيه إرقالًا ولا يكون اختيالًا.

ومما يلزمه أن يتحفّظ منه ويروضَ به نفسه ألّا يُصَبِّحَه ولا يُمَسِّيَه ولا يشمّته ولا يستخبِره. وإنما تُرِك ذلك كله لما فيه من تكلّفِ الجواب. وأوّل من سنّ ذلك وحمل الناسَ عليه الفضل بن الربيع(٢).

* * *

وأما الآدابُ في محادثة السلطان ـ فقد قالوا: مِن حقّ الملِك إذا حضر سُمّارُهُ ومحدّثوه ألّا يبتدِئه أحد حديثًا. فإن بدأ هو بالحديث صرف مَنْ حضره ذِهنَه وفكره نحوه. فإن كان يعرِفُ الحديثَ الذي حدّث به الملِكُ استمعه استماع من لم يدرِه ولم يعرِفه، وأظهر السرور بفائدة الملِك والاستبشار بحديثِه؛ فإن في ذلك أمرين: أحدهما ما يظهر من حسنِ أدبِه. والآخر أن يعطِيَ الملِك حقه بحسن الاستماعِ. وإن كان لم يعرفه فالنفس إلى فوائِد الملوك والحديثِ عنهم أتوق منها إلى فوائدِ السُّوقةِ ومن

(١) يتشهر: يصطنع الشهرة أو الظهور في شنعة. اللسان مادة شهر.
(٢) الفضل بن الربيع بن يونس: (٢٠٨ هـ) كان أبوه وزيرًا للمنصور وقد ولاه الهادي الحجابة بعد أبيه الربيع سنة ١٧٠ هـ. وولاه هارون الرشيد نفقات العامة والخاصة، ثم ولاه الحجابة بعد محمد بن خالد البرمكي سنة ١٧٩ هـ. وفي الخلاف بين الأمين والمأمون انحاز إلى الأمين في مواجهة المأمون وأهل خراسان. توفي بطوس. انظر: الطبري، الجزء الثامن.

أشبهها. وقد كان رَوْح بن زِنْباع يقول: إذا أردت أن يُمكنك الملِك من أُذنِه فأمْكِنْ أُذنك من الإصغاءِ إليه إذا حدّث. وكان أسماء بن خارِجة يقول: ما غلبني أحد قطُّ غلبةَ رجلٍ يُصغي إلى حديثي.

ومن حقّ الملِك إذا قرّب إنسانًا أو أنِس به حتى يهازِله ويضاحِكه، ثم دخل عليه، أن يدخل دخولَ من لم يجرِ بينهما أُنس قط، وأن يُظْهِر من الإجلالِ والتعظيم أكثر مما كان عليه؛ فإن أخلاقَ الملوكِ ليست على نظام. ومجالستهم ومحادثتهم تحتاج إلى سياسةٍ وتحفُّظٍ من وضعَ الحديثِ والمثلِ والشعرِ في موضِعه. وإذا حدّث الملِك بحديث وفرغ منه فنظر إلى بعضِ جلسائِه، فقد أذِن له أن يحدّثه بنظيرِ ذلك الجِنس من الحديث. وليس له أن يأخذ في غير جِنس حديثِه. فإذا فرغ من ذلك الحديثِ فليس له أن يَصِله بحديث آخر وإن كان شبيهًا للحديثِ الأوّل. فإن رأى الملِكَ قد أقبل عليه بوجهِه وأصغى إلى حديثِه فليَمْضِ فيه حتى يكمله ويأتِيَ على آخره. وليس له ـ إن قطع الملكُ استماعَ حديثِه بشغل يَعْرِض له ـ أن يمرّ على كلامِه، ولكن يُنْصِت مطرقًا. فإن اتصل شغل الملِكِ، ترك الحديث. فإن فرغ ونظر إليه، فقد أذِن له في إتمامه وإعادتِه، وإلّا فلا.

ومن حقّ الملِك ألّا يُضْحَكَ بحضرته، لأن الضحِكَ جُرْأةٌ عليه؛ وألّا يعادَ عليه الحديث مرتين وإن طال بينهما الدهر، إلا أن يذكِّره الملِك، فإن ذكره فقد أذِن له في إعادته. وكان رَوْح بن زِنْبَاع[(١)] يقول: أقمتُ مع عبد الملِكِ بنِ مروان[(٢)] سبع عشرة سنة من أيامِهِ ما أعدتُ عليه حديثًا. وكان الشَّعْبِيُّ[(٣)] يقول: ما حَدَّثت بحديث مرتين لرجل بعينه قط. وكان أبو العبّاس السفّاح يقول[(٤)]: ما رأيت رجلًا أغزر علمًا من أبي

(١) روح بن زنباع الجذامي أبو زرعة من رجال الدولة الأموية، ولاه مسلم بن عتبة على المدينة بعد وقعة الحرة. من خطباء اليمن وقد هم به معاوية بن أبي سفيان فقال له: لا تشمتن بي عدوًا أنت وقمته. . . وقد لعب دورًا في أخذ البيعة ليزيد بعد موت معاوية. . . وكان من ندماء عبد الملك بن مروان. انظر فيه: ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٩٦/٥. ـ الجاحظ البيان والتبيين، ٢٨٨/١ و٣٠٩. ـ المسعودي، مروج الذهب، ٩٣/٢ ـ ٩٤.

(٢) عبد الملك بن مروان: تولى الخلافة بين سنتي ٦٥ هـ ـ ٨٦ هـ. مدة إحدى وعشرين سنة. قبض وهو ابن ست وستين سنة كان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح وكان الغالب عليه البخل وكان له إقدام على الدماء، ومن أشهر عماله الحجاج بالعراق والمهلب بخراسان؛ وفي أيامه كانت انتفاضة عين الوردة (٦٥ هـ) وحركة عبد الله بن الزبير وحركة المختار الثقفي، وحركة عمرو بن سعيد الأشدق. انظر فيه: المسعودي، مروج الذهب، ٧١/٢ ـ ٩٥.

(٣) الشعبي: هامش ٣ صفحة ٦١.

(٤) أبو العباس السفاح: هامش ١ صفحة ١٠.

بكر الهَذليّ[١] لم يُعِد عليّ حديثًا قطُّ. وكان أبو بكر الهذليّ يقول: حدّثت المنصور بأكثر من عشرة آلاف حديث، فقال لي ليلة ـ وقد حدّثته عن يومِ ذي قارٍ وقد اضطرِرت إلى التكرار ـ: أتُعِيد الحديثَ؟ فقلت: ما هذا مما مرَّ يا أمِير المؤمنين؛ فقال: أما تذكرُ ليلةَ الرعدِ والأمطارِ وأنت تحدّثُ بحديث يومِ ذِي قار فقلت لك: ما يومُ ذي قارٍ بأصعب من هذه الليلةِ؟

ومن حقِّ المحادثةِ وواجبِ المؤانسةِ تركُ المِراءِ[٢]؛ هذا مع الأكفاء فكيف مع الملوكِ والرؤساء! وقالوا: المماراة تُفْسِد الصداقةَ القديمة، وتحلّ العقدة الوثيقة وتكسِب الإِحْنة[٣] والبغضاء. وقال الصاحب بن عَبّاد: للمحدّث على السامع ثلاث: كتمانُ السر، وإصغاءُ الذهن، وتركُ التحفُّظ. هذا ما يلزم نديم الملِك.

وأما مؤاكله، فقد اصطلح الناس على إجلال رؤسائِهم وملوكِهم عن غسلِ أيديهم بحضورهم، واستجازوا ذلك مع نُظَرائِهم ومن يسقط التحفُّظ بينهم وبينهم. وربما تجمّل الرئيسُ فقال لمؤاكِله: اغْسِل يدك مكانك ولا تبرح. فالغَنِيُّ يغتنمُ ذلك ويفعل، والفَطِن يأباه ويسلكُ سبيلَ الأدبِ، فيخِفّ على القلبِ. هذا بعد الطعام. وأما قبله فجائز أن يغسل اليد بحضرةِ الرئيس. وأما الخلال[٤] فلا يستعمل بحضرته البتة.

وأما آدابُ الأكل بين يدي الرئيس ـ ألّا يخلِط طعامًا بطعام، ولا يغمِسُ اللقمةَ بالخل ثم يضعُها في الطعام، ونحو ذلك. هذا ما يلزم نديم الملِك ومؤاكِلَه. وقد ذكرنا مما يجب للملِك على رعيتِهِ من المناصحة والأدبِ والتوقير والتعظيم فيما تقدّم ما يدخل في هذا البابِ، فلا فائدة في تكراره. فلنذكر ما ورد في النهي عن صحبة الملوك.

ذكر ما ورد في النهي عن صحبة الملوك والقرب منهم

قد نَهَتِ الحكماء عن صحبة الملوكِ وقالوا: إن الملوكَ إذا خدمتهم مَلُّوك، وإن لم تخدِمهم أذلُّوك. وإنهم يستعظِمون في الثواب ردّ الجوابِ، ويستقِلُّون في العِقاب

---

(١) أبو بكر الهذلي: لعله أبو كبير الهذلي، إذ لم أجد في ديوان الهذليين أي أثر له وكذلك في جميع المنتخبات (المفضليات والأصمعيات والشعر والشعراء وطبقات الشعراء، والجمهرة...).

(٢) المراء: المجادلة والمنازعة في كذب وخداع. اللسان، مادة مرأ.

(٣) الإحنة: الحقد، اللسان مادة أحن.

(٤) الخلال: إزالة ما بقي من فضلات بين الأسنان. اللسان، مادة خلل.

ضربَ الرقابِ. وإنهم ليعثُرُون على العَثْرة اليسيرة من خَدَمهم فيبنُون لها مَنارًا، ثم يوقِدون لها نارًا، ويعتقِدونها نارًا. وقال ابن المقفَّع(١): إن وجدْتَ عن السلطان وصُحبتهِ غنًى فصُنْ عنه نفسك، واعتزِلْه جهدك؛ فإنه من يأخُذْه السلطان بحقه يَحُلْ بينه وبين لَذّةِ الدنيا وعملِ الآخرةِ. وقال العتّابيّ(٢) وقد قيل له: لم لا تَقْصِد الأمير فتخدِمُه؟ فقال: لأني أراه يعطي الواحد لغير حسنةٍ ولا يدٍ، ويقتل الآخرِ بلا سيئةٍ ولا ذنبٍ، ولست أدري أيّ الرجلين أكون، ولست أرجو منه مقدارَ ما أُخاطِر به. وقال لامرأته: [من الطويل]

أَسَرَّكِ أني نِلْتُ ما نال جعفرٌ ... من الملك أو ما نال يحيىٰ بنُ خالدِ

فقالت: بلى والله! فقال:

وأنّ أميرَ المؤمنين أَغَصَّنِي ... مَغَصّهما بالمُرْهَفاتِ البواردِ

فقالت: لا والله! فقال:

ذَرِيني تَجِئْني مِيتتي مطمئنةً ... ولم أتجشَّمْ هولَ تلك المواردِ(٣)

فإنّ جسيماتِ الأمورِ منوطةٌ ... بمستَوْدَعاتٍ في بُطونِ الأساودِ

الباب العاشر

من القسم الخامس من الفن الثاني في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروبِ، ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل في أوصاف السلاح

ذكر ما قيل في قادة الجيوش وشروطهم وأوصافهم ووصاياهم وما يلزمهم

قال الشيخ الإمام أبو عبد الله الحسينُ بنُ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ حليم الحَليميّ

(١) ابن المقفع: هامش ٢ صفحة ٦.

(٢) العتّابي: كلثوم بن عمرو العتابي التغلبي، يكنّى أبا عمرو، شاعر محسن وكاتب مجيد، مدح المأمون والرشيد. انظره في: الأغاني ١٢/٢؛ طبقات ابن المعتز، ص ٢٦٤؛ معجم المرزباني، ص ٣٥١؛ فهرست ابن النديم، ص ١٨١؛ بروكلمان، ٢/٣٦ ـ ٣٧. طبقات ابن قتيبة، ٢/٧٤٠ ـ ٧٤١.

(٣) تجشم: تكبد وتكلف وأتاه على تعب ومشقة. اللسان: مادة جشم.

الجُرجانيُّ الشافعيّ[١] في كتابه المُترجم بـ«المِنهاج» ما مختصرُه ومعناه: إذا أنفذ الإمامُ جيشًا أو سَرِيّةً فينبغي أن يؤمِّرَ عليهم رجلًا صالحًا أمينًا مُحتسِبًا، لأن القومَ إليه ينظرون. فإذا لم يكن خيِّرًا في نفسه كانت أعمالُه بحسَب سريرته وكانت أعمالُ القوم بحسبها مُضاهيةً لها، فإن رَأَوْا منه كَسَلًا كَسِلوا، وإن رَأَوْا منه فَشَلًا فَشِلوا، وإن ثبت ثبتوا، وإن رجَع رَجَعُوا، وإن جَنَح إلى السِلم جنحوا، وإن جَدّ جدّوا؛ فهم في تَبَعِه كالمأموم مع الإمام. والعدوُّ إنما يَفرَقُ من رئيس القوم، فإذا سَمِع بذي ذكر كان ذلك أهْيَبَ له من أن يَسمع بخامل لا صِيتَ له. وإذا سمع بشُجاع غيرِ فَرّار كان آيَسَ من مقاومته، منه إذا سمع بفَشِلٍ جَبَان. وإذا سمع بليّنٍ يُطْمَعُ في خِداع مثله كان أجرأ على استقباله، منه إذا سمع بصُلْب في الدِّين شديدٍ في البأس. فيكون ما يكون من العدوّ من الإقدام والإحجام بحسب ما يبلغُه من حال رأسِ المسلمين. فلهذين السببين وجب أن يكون الرأسُ مستصلَحًا جامعًا لأسباب الغَناء والكفَاية. والله تعالى أعلم.

وأما ما يلزم قائدَ الجيش ـ قال أبو الحسن الماورديُّ[٢] في كتابه المترجم بـ«الأحكام السلطانية» ما معناه: إن أمير الجيش يلزمه ستة أحكام:

الأول منها: مسيرةٌ بالجيش. وعليه في السير بهم سبعةُ حقوق: أحدها الرِّفقُ بهم في السير الذي يقدر عليه أضعفُهم وتُحفظ به قوّةُ أقواهم. ولا يجدُّ السيرَ فيُهلِكَ الضعيفَ ويستفرغَ جَلَد القويِّ. فقد قال النبيّ ﷺ: «إن هذا الدينَ متين فأَوْغِلوا فيه برِفْق فإنّ المُنْبَتَّ لا أرْضًا قَطَع ولا ظَهْرا أبْقى». والثاني أن يتفقّدَ خيلَهم التي يجاهدون عليها وظهورَهم التي يمْتطونها، فلا يُدخِل في خيل الجهاد قحمًا[٣] كبيرًا، ولا ضَرعًا[٤] صغيرًا، ولا حطِمًا[٥] كسيرًا، ولا أَعْجَف رازِحًا[٦] هَزيلًا؛ لأنها لا تُغني، وربما كان ضعفُها وَهْنًا. ويتفقّدُ ظهورَ المطايا والركوبِ، فيُخرِجُ منها ما لا يقدر على المسير ويَمنع من أن تُحمَّل زيادةً على طاقتِها. والثالث أن يُراعِيَ من معه من المُقاتِلة. وهم صِنفان: مُسترزِقة، وهم أصحابُ الديوانِ من أهل الفيءِ بحسب الغَنَاء والحاجةِ؛ ومُتَطوِّعةٌ، وهم الخارجون عن الديوانِ من البوادي والأعرابِ وسكّانِ

(١) الحليمي الجرجاني الشافعي، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم. انظر هامش ١ صفحة ٣.

(٢) أبو الحسن الماوردي: هامش ١ ص ٨٩.

(٣) القحم: الكبير السن جدًا.

(٤) ضرعًا: المهر الذي لا يقوى على العدو.

(٥) حطمًا: الفرس الذي تهدم لطول عمره.

(٦) الرازح: الساقط من الإعياء.

القُرى والأمصارِ الذين خرجوا في النَّفير الذي نَدَبَ اللهُ إليه بقوله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبَة: الآية ٤١] قيل معناه: شبّانًا وشيوخًا، وقيل: أغنياءَ وفقراءَ، وقيل: رُكبانًا ومُشاةً، وقيل: ذا عيال وغير ذي عيال. وهؤلاء يُعطَوْن من الصدقات دون الفَيْءِ. والرابع أن يُعَرِّفَ على الفريقين العُرَفاء ويُنقِّب عليهم النقباءَ، ليَعرِفَ من عُرفائِهم ونُقَبائِهم أحوالَهم ويقرُبوا عليه إذا دعاهم. وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك في مَغازيه. والخامس أن يجعلَ لكل طائفة شِعارًا يَتداعَون به ليصيروا به مُمَيّزين. فقد جعل رسول الله ﷺ شِعارَ المهاجرين: «يا بني عبدِ الرحمٰن» وشعارَ الخزرج: «يا بني عبد الله» وشعارَ الأوسِ: «يا بنِي عُبيد الله» وسمَّى خيلَه: «خيلَ الله». والسادس أن يتصفّح الجيشَ ومن فيه، فيُخرجَ منهم من كان فيه تَخْذيلٌ للمجاهدين وإِرْجافٌ بالمسلمين أو عَيْنًا عليهم للمشركين. فقد ردّ رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبَيّ ابن سَلُولَ في بعض غزواتِه لتخذيله المسلمين. قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٣] أي لا يَفتِن بعضُكم بعضًا. والسابع ألّا يُمايل[1] من ناسبه أو وافق رأيَه ومذهبَه على من باينه في النسبِ أو خالفَه في رأيٍ ومذهبٍ، فيظهرَ من المباينة ما تفرّقُ به الكلمة الجامعةُ تشاغلًا بالتقاطع والاختلافِ. فقد أغْضى رسولُ الله ﷺ عن المنافقين وهم أضدادٌ في الدين، وأجْرَى عليهم حكم الظاهرِ حتى قَوِيتْ بهم الشوكةُ وكثُر بهم العددُ وتكاملت بهم العُدّة، وَوَكَلَهم فيما أضمروه من النفاق إلى الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] قيل فيه: الدولةُ، وقيل: القوّةُ.

والثاني: تدبير الحرب. قال الماورديّ[2]: والمشركون في دار الحربِ صِنفان، صِنفٌ منهم بلغتهم دعوةُ الإسلام فامتنعوا منها وَتَأَبَّوْا عليها. فأمير الجيش مُخيّر في قتالهم بين أن يُبيّتَهم ليلًا ونهارًا بالقتل والتحريقِ، وبين أن يُنذرَهم الحربَ ويُصافَّهم في القتال. والصنفُ الثاني لم تبلغهم دعوةُ الإسلام وهم قليلٌ جدًّا، إلا أن يكونوا وراءَ من يلي هذه البلادَ الإسلاميةَ من الترك والروم في مَبادىء بلادِ المشرقِ وأقاصي المغرب، فيحرُم عليه الإقدامُ على قتالِهم غِرّةً وبَياتًا، وأن يبدأَهم بالقتال قبل إظهارِ دعوة الإسلام لهم وإعلامِهم من معجزات النبوّةِ وظهور الحجةِ ما يقودُهم إلى الإجابة. فإن أقاموا على الكفر بعد ظهورِها لهم، حارَبَهم وصاروا فيه كمن بلغتهم الدعوةُ. قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي

---

(١) يمايل: يميل مع من أو يمالىء.   (٢) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] معناه إلى دين ربّك بالنبُوّة والقرآنِ. فإن بدأ بقتالهم قبل دعائهم إلى الإسلام وإنذارهم بحُجَجه وقَتَلهم غِرَّةً وبَياتًا، ضمِنَ دِيَاتِ نفوسِهم. وهي على الأصح من مذهب الشافعي كديات المسلمين. وقيل: بل تكون كديات الكفار على اختلافها. وإذا تقابلت الصفوفُ في الحرب جاز لمن قاتَل من المسلمين أن يُعَلِّم بما يشتهرُ به في الصفوف ويتميّزُ به من بين الجيش، وأن يركبَ الأبلقَ(١) إن كانت خيولُ الناس دُهْمًا(٢) أو شُقْرًا. رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم بدر: «سَوِّمُوا فَإنَّ المَلَائِكَةَ قَدْ سَوَّمَت»(٣). ويجوز أن يُجيبَ إلى البِرازِ إذا دُعي إليه؛ فقد دعا أُبَيُّ بنُ خَلَف رسولَ الله ﷺ إلى البِراز يوم أُحُد فبرز إليه فقتله النبيّ ﷺ. ويجوز أيضًا للمقاتل من المسلمين أن يدعوَ إلى البراز لما فيه من إظهار القوّة فِي دين اللهِ تعالى بعد أن يَعلمَ من نفسه أن لن يَعْجِزَ عن مقاومة خَصمِه ويقدرَ على دفع عدوّه. ولا يجوز ذلك لزعيم الجيشِ، فإنه إذا طَلَب البِرازَ وفُقِد، أثَّر ذلك في المسلمين؛ وربما يُفضي بهم عدمُه إلى الهزيمة. ورسولُ الله ﷺ إنما برز لثقتِه بنصر الله وإنجازِ وعدِه، وليس ذلك لغيره. ويجوز لأمير الجيش إذا حضّ على الجهاد أن يُعَرِّضَ للشهادة من الراغبين فيها من يعلم أنّ قتلَه في المعركة مما يحرّض المسلمين على القتال حميّةً له.

حكى موسى بنُ إسحٰق أن النبيّ ﷺ خرج من العَريش يوم بَدْر فحرّض الناس على الجهاد ونَفّل كلَّ امرىء منهم ما أصاب، وقال: «والذي نفسي بيده لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ فَيُقتل صابرًا محتسبًا مُقبلًا غير مُدبر إلا أدخلَه اللهُ الجنّة»؛ فقال عُمَيْر بنُ الحُمام من بني سَلَمة وفي يده تمراتٌ يأكلهن: بَخٍ بخٍ! ما بقيَ بيني وبين أن أدخلَ الجنةَ إلا أن يقتلَني هؤلاء القومُ، ثم قَذف التمراتِ من يده وأخذ سيفَه وتقدّم وقاتلَ القومَ حتى قُتل ـ رحمه الله ـ وهو يقول: [من الرجز]

رَكْضًا إلى الله بغيرِ زادِ ... إلا التُّقى وعَمَلِ المعادِ
والصبرَ في الله على الجهادِ ... وكلُّ زاد عرضةُ النَّفادِ
غيرَ التُّقى والبِرِّ والرشادِ

ويجوز للمسلم أن يقتلَ من ظفِر به من مُقاتلة المشركين مُحاربًا وغيرَ محارب. واختُلف في قتل شيوخهم ورُهبانِهم من سكان الصوامع والديارات. فمن منع من

(١) الأبلق: في لونه سواد وبياض؛ اللسان: مادة بلق.
(٢) الأدهم: الأسود.
(٣) سوِّموا: اعملوا لكم سِمة أي علامة، اللسان: مادة وسم.

قتلهم قال: إنهم مُوادِعون. ومن قال بقتلهم وإن لم يقاتلوا قال: لأنهم ربما أشاروا برأي يكون فيه إنْكاءٌ للمسلمين. وقد قُتِل دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ[1] في حرب هوازنَ - وهو يوم حُنَيْن - وقد جاوز مائةَ سنة، ورسولُ الله ﷺ يراه فلم يُنكر قتلَه؛ وكان يقول حين قُتِل: [من الطويل]

أمرتُهُمُ أمري بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضُحى الغدِ
فلمّا عَصَوْني كنتُ منهم وقد أرى غَوايتَهم لا أنني غيرِ مهتدي

ولا يجوزُ قتل النساء والولدانِ في حرب ولا غيرِها ما لم يُقاتِلوا؛ لنهيِ رسولِ الله ﷺ عن قتلهم. وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل العُسَفاء والوُصَفاء - والعسفاء: المُستخدَمون، والوُصفاء: المماليكُ -. فإن قاتل النساءُ والولدان قُوتِلوا مُقبلين ولم يُقتلوا مُدبرين. وإذا تترّسوا في الحرب بنسائهم وأطفالِهم عُمِدَ قتلُهم وتُوُقِّيَ قتلُ النساء والأطفال، فإن لم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل النِّساء والأطفال جاز، ولو تترّسوا بأسرى المسلمين ولم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل الأسارى لم يجز قتلُهم، فإن أفضى الكفُّ عنهم إلى الإحاطة بالمسلمين، توصّلوا إلى الخلاص منهم كيف أمكنهم وتحرّزوا أن يعمِدوا قتلَ مسلم؛ ويجوز عَقْرُ خيلهم من تحتهم إذا قاتلوا عليها؛ ومَنَعَ بعضُ الفقهاءِ من عقرها. وليس لأحد من المسلمين أن يعقِرَ فرسَ نفسِه، لأن الخيل من القوّة التي أمر الله تعالى بإعدادها في جهاد عدوّه. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]. ولا احتجاجَ بعقر جعفر بن أبي طالب فرسه يوم مُؤْتة، فإنه اقتحم بفرس له شقراء حتى التحم القتال ثم نزل عنها وعقرها وقاتل حتى قُتل رضي الله عنه، وهو أوّلُ رجل من المسلمين عقر فرسَه في الإسلام، وهو إنما عقر فرسه بعد أن أُحيط به، فعقرُه لها خشية أن يتقوّى بها المشركون على المسلمين، فصار عقرُها كعقر خيولهم.

والثالثُ: ما يلزم أميرَ الجيش في سياستهم. والذي يلزمه فيها عشرةُ أشياءَ: أحدها: حِراستُهم من غِرّة يظفَرُ بها العدوّ منهم، وذلك بأن يتتبّع المكامنَ

(١) دريد بن الصمة، أبا قرة من جُشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور من غزيه، أمه ريحانة بنت معديكرب. شاعر جاهلي قتل في حرب الرسول مع هوازن يوم حُنين وهو شيخ كبير جاوز المائة من عمره. انظر: الأغاني، ٩/ ١٠؛ المؤتلف والمختلف، ص ١١٤؛ الأصمعيات رقم ٢٩. طبقات ابن قتيبة، ص ٦٣٥ - ٦٣٨.

فيحفَظها عليهم ويَحوط سوادَهم بحرس يَأمنون به على نفوسهم ورحالِهم، ليسكنوا في وقت الدَّعةِ ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة. والثاني: أن يتخيّر لهم موضعَ نزولِهم لمحاربة العدوّ، وذلك أن يكون أَوْطأ الأرضَ مكانًا وأكثرَها مرعى وماء وأحرسَها أكنافًا وأطرافًا، ليكون أعونَ لهم على المنازَلة وأقوى لهم على المرابَطة. والثالث: إعدادُ ما يحتاج الجيش إليه من زاد وعُلُوفةٍ تُفرَّقُ عليهم في وقت الحاجة، لتسكنَ نفوسُهم إلى مادة يستغنُون بها عن السعي في تحصيلها، وتتوفّرَ دواعيهم على منازلة العدوّ. والرابع: أن يعرفَ أخبارَ عدوِّه حتى يقفَ عليها، ويتصفّح أحوالهم حتى يَخْبُرَها ليسلم من مكرهم ويلتمسَ الغِرَّةَ في الهجوم عليهم. والخامس: ترتيبُ الجيش في مصافّ الحرب، والتعويلُ في كل جهة على من يراه كفئًا لها، ويتفقدَ الصفوف من الخلل فيها، ويراعيَ كل جهة يميل العدوّ عليها بمددٍ يكون عونًا لها. والسادس: أن يقوّي نفوسَهم بما يُشْعِرُهُمْ من الظفر ويُخَيِّلُ إليهم من أسباب النصرِ، ليقلَّ العدوُّ في أعينهم فيكونوا عليه أجرأَ. قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣]. والسابع: أن يعِدَ أهلَ الصبرِ والبلاء منهم بثواب الله إن كانوا من أهل الآخرة، وبالجزاء والنَّفَل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا. والثامن: أن يشاوِرَ ذوي الرأي فيما أعْضَلَ، ويرجِعَ إلى أهل الحزم فيما أَشْكل؛ ليأمن الخطأَ ويسلِمَ من الزلل. وقد تقدّم ذكر ما في المَشُورة من البركة والخير. والتاسع: أن يأخذَ جيشَهُ بما أوجب الله تعالى من حقوقه وأمر به من حدوده، حتى لا يكون منهم تجوّز في دين الله ولا تحيف في حق، فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «انْهَوْا جيوشَكم عن الفساد فإنه ما فسد جيشٌ قطُّ إلا قذف الله في قلوبهم الرُّعْبَ وانهَوْا جيوشكم عن الزنا فإنه ما زنى جيشٌ قطُّ إلا سلّط الله عليهم المُوتَان[1] وانهَوْا جيوشكم عن الغُلُول[2] فإنه ما غَلّ جيشٌ قطُّ إلا قذف الله الرعبَ في قلوبهم». وقال أبو الدرداء[3]: يا أيها الناسُ، عَمَلٌ صالحٌ قبل الغَزْو فإنما تُقاتلون بأعمالكم. والعاشر: ألّا يُمَكِّن أحدًا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ليصرفه الاهتمامُ بها عن مصابرة العدوّ وصدقِ الجهاد. رُوِيَ عن نبيّ من

(١) الموتان: الموت الكثير الوقوع، اللسان: مادة موت.
(٢) الغُلول: الخيانة في المغنم، اللسان: مادة غلل.
(٣) أبو الدرداء: هامش ١ صفحة ٩٨.

أنبياء الله تعالى أنه قال: «لا يغزوَنَ معي من بَنَى بناءً لم يُكمله ولا رجلٌ تزوّج امرأةً لم يدخل بها، ولا رجلٌ زرع زرعًا لم يحصده».

والرابع: ما يلزم المجاهدين معه من حقوق الجهاد. وهو ضربان: أحدهما ما يلزمهم في حق اللهِ تعالى؛ والثاني ما يلزمهم في حق الأميرِ عليهم.

فأما اللازم لهم في حق الله تعالى فأربعة أشياء. أحدها: مصابرةُ العدوّ عند التقاء الجمعين بألّا ينهزمَ عنه مِنْ مثلَيْه فما دون ذلك. وقد كان الله عزّ وجلّ فرض في أوّل الإسلام على كل مسلم أن يقاتِلَ عشرةً من المشركين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٦٥]. ثم خفّف الله عنهم عند قوّة الإسلام وكثرة أهله فأوجب على كل مسلم لاقى العدوّ أن يقاتِل رجلين منهم، فقال تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] فحرّم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لإحدى حالتين: إما أن يَتحرَّف لقتالٍ فيُوَلّيَ لاستراحة أو لمَكِيدة ويعود إلى قتالهم؛ وإما أن يتحيَّز إلى فئةٍ أخرى يجتمعُ معها على قتالهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٦] قال: وسواء قرُبت الفئة التي يتحيزُ إليها أو بعُدت. فقد قال عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنه لفِلّ القَادِسِيّة حين انهزموا إليه: أنا فِئةُ كل مسلم. ويجوز إذا زادوا على مثليه ولم يجِد إلى المصابرة سبيلًا أن يُوَلّيَ عنهم غيرَ متحرّفٍ لقتال ولا متحيِّزٍ إلى فئة. هذا مذهب الإمام الشافعي[2] رحمه الله. واختلف أصحابه فيمن عجز عن مقاومة مثليه وأشرفَ على القتل هل يجوز انهزامه، فقالت طائفة: لا يجوزُ انهزامُهُ عنهم وإن قتل، للنص. وقالت طائفة أخرى: يجوز أن يولّيَ ناويًا أن يتحرّف لقتالٍ أو يتحيّز إلى فئة ليسلم من القتل ومن إثم الخلاف؛ فإنه إن عجز عن المصابرة فلا يعجَزُ عن هذه النية. وقال أبو حنيفة: لا اعتبارَ بهذا التفصيل، والنصُّ فيه منسوخٌ، وعليه أن يقاتلَ ما أمكنه وينهزمَ إذا عجز وخاف القتل. والثاني من حقوق اللهِ تعالى: أن يقصِد بقتاله نصرة دين الله تعالى وإبطالَ ما خالفه من الأديان، ليظهرَه على الدين كله ولو كرِه المشركون. فيكون بهذا الاعتقاد حائزًا لثواب الله تعالى

(١) عمر بن الخطاب: هامش ٣ صفحة ٣٧. (٢) الإمام الشافعي: هامش ١ صفحة ٣.

ومطيعًا له في أوامره ونصرةِ دينه ومستنصِرًا على عدوّه ليستسهل ما لاقى فيكون أكثر ثباتًا وأبلغ نِكاية. ولا يقصِد بجهاده استفادة المغنم فيصِيرُ من المتكسّبين لا من المجاهدين. والثالث من حقوق الله تعالى: أن يؤدّي الأمانةَ فيما حازه من الغنائم ولا يغُلَّ منها شيئًا حتى تُقسَم بين جميع الغانمين ممن شهِد الوقعة وكانوا على العدوّ يدًا، لأن لكل واحدٍ منهم فيها حقًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦١]. والرابع من حقوق الله تعالى: ألّا يمايلَ من المشركين ذا قربى ولا يحابي[1] في نصرة الله تعالى ذا مودّة، فإن حقَ الله أوجبُ ونصرةَ دينه ألزمُ. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١]. نزلت الآية في حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ وقد كتب كتابًا إلى أهل مكة حين همّ رسولُ الله ﷺ بغزوهم يُعْلِمهم فيه بالخبر وأنفذه مع سارّةَ ـ مولاةٍ لبني المطلب ـ فأطلعَ اللهُ تعالى نبيه ﷺ على ذلك، فأنفذ عليًا والزبير في أثرها، فأدركاها وأخذا الكتاب من قرون رأسها، فدعا النبيّ ﷺ حاطبًا فقال: «ما حملك على ما صنعت»؛ فقال: واللهِ يا رسولَ الله إني لمؤمنٌ بالله ورسوله، ما كفرتُ ولا بدّلت ولكني امرؤ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهُرِهم أهلٌ وولد فصانعتهم عليهم؛ فعفا رسول الله ﷺ عنه. على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبيّنًا في أثناء السيرة النبوية عند ذكرنا لغزوة الفتح، فتأمله هناك تجده.

وأما ما يلزمُهم في حق الأميرِ عليهم فأربعة أشياء. أحدها: التزامُ طاعتهِ والدخولُ في ولايتِه؛ لأن ولايتَه عليهم انعقدت، وطاعتَه بالولاية وجبت. والثاني: أن يفوّضوا الأمر إلى رأيه ويَكِلوه إلى تدبيره، حتى لا تختلفَ آراؤهم فتختلفَ كلمتُهم ويفترقَ جمعُهُم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النّساء: الآية ٨٣] فجعل تفويضَ الأمر إلى وليّه سببًا إلى حصول العلم وسَدادِ الأمر. فإن ظهر لهم صوابٌ خَفِيَ عليه بيّنوه له وأشاروا به عليه. والثالث: أن يسارعوا إلى امتثال أمرِه، والوقوفِ عند نهيه وزجرِه، لأنهما من لوازم طاعتِه. فإن توقّفوا عما أمرهم به أو أقدموا على ما نهاهم عنه ورأى تأديبَهم على المخالفة بحسب أفعالهم، فعل. ولا يُغَلِّظ فينفِّر. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمرَان: الآية

(١) يحابي: يميل مع هوى ولا يعدل، اللسان: مادة حبا.

١٥٩]. والرابع: ألّا ينازعوه في الغنائم إذا قسَمَها فيهم، ويتراضَوْا به بعد القسمة. والخامس من أحكامها: مصابرة الأميرِ على قتال العدوّ ما صَبَر وإن تطاولت به المدّة. ولا يولّي عنهم وفيه قوّة. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠]. قيل في تأويل هذه الآية: اصبروا على الجهاد، وصابِروا العدوّ، ورابِطوا بملازمة الثغر. فإذا كانت مصابرةُ القتالِ من حقوق الجهاد فهي لازمةٌ حتى يظفَرَ بخَصلة من أربع خصال:

إحداهن: أن يُسْلِموا فيصيرَ لهم بالإسلام ما لنا وعليهم ما علينا، ويُقَرُّوا على ما ملكوا من بلاد وأموال. قال رسول الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا مني دماءهم وأموالَهم إلا بحقِّها». وتصير بلادُهم إذا أَسْلموا دارَ إسلام يجرِي عليها حكمُ الإسلام. ولو أَسْلم منهم في معركة الحرب طائفةٌ، قَلّت أو كثرت، أحرزوا بالإسلام ما ملكوا في دار الحرب من أرض ومال. فإن ظُهِر على دار الحرب لم تُغنم أموالُ من أسلم. وقال أبو حنيفة: يُغنم ما لا يُنقل من أرض ودار، ولا يُغنم ما ينقل من مال ومتاع.

والخصلة الثانية: أن يُظَفِّرَه الله تعالى بهم مع مُقامِهم على شِرْكهم، فيسبي ذراريهم ويغنم أموالهم ويقتل من لم يحصل في الأسرِ منهم. ويكون مخيَّرًا في الأسْرَى في استعمال الأصلح من أربعة أمور. أحدها: أن يقتلهم صَبْرًا بضرب العُنُق. والثاني: أن يسترقَّهم ويُجْرِي عليهم أحكام الرِّق من بيع أو عتق. والثالث: أن يُفادِيَ بهم على مال أو أسرى. والرابع: أن يمُنّ عليهم ويعفوَ عنهم. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محَمَّد: الآية ٤] معناه الأسر. ثم قال: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محَمَّد: الآية ٤].

والخصلة الثالثة: أن يبذُلوا مالًا على المسالمة والموادعةِ، فيجوز أن يقبله منهم ويوادعَهم عليه. وهو على ضربين. أحدهما: أن يبذلوه لوقتهم ولا يجعلوه خَراجًا مستمرًّا. فهذا المال غنيمةٌ لأنه مأخوذٌ بإيجافِ[1] خيلٍ ورِكَاب، فيُقْسَم بين الغانمين، ويكون ذلك أمانًا لهم في الانكفاف عن قتالهم في هذا الجهاد، ولا يمنع من جهادهم فيما بعد. والضرب الثاني: أن يبذلوه في كل عام، فيكون خراجًا مستمرًّا، ويكون الأمانُ به مستقرًّا. والمأخوذُ منهم في العام الأوّل غنيمة تُقسم بين الغانمين، وما يؤخذ

(١) إيجاف: سرعة مسير الإبل والفرس، اللسان، مادة وجف.

في الأعوام المستقبلة يُقسم في أهل الفيءِ. ولا يجوزُ أن يعاودَ جهادَهم ما كانوا مقيمين على بَذْل المال، لاستقرار الموادَعة عليه. وإذا دخل أحدُهم إلى دار الإسلام، كان له بعقد الموادعة الأمانَ على نفسه وماله. فإن منعوا المال زالت الموادعةُ وارتفع الأمانُ ولزم الجهادُ كغيرهم من أهل الحرب. وقال أبو حنيفة: لا يكون منعهم من مال الجزية والصلح نقضًا لأمانهم، لأنه حقٌ عليهم فلا ينتقض العهد بمنعهم منه كالديون.

والخصلة الرابعة: أن يسألوا الأمانَ والمهادنةَ؛ فيجوزُ إذا تعذّر الظفرُ بهم وأخذُ المالِ منهم أن يهادنهم على المسالمة في مدّة مقدّرة تعقد الهدنة عليها إذا كان الإمام قد أُذِنَ له في الهدنة أو فُوِّضَ إليه الأمرُ. فقد هادن رسول الله ﷺ قريشًا عام الحُدَيْبِيَةِ عشرَ سنين. ويقتصر في مدّة الهدنة على أقلّ ما يمكن، ولا يجاوز بأكثرها عشرَ سنين. فإن هادنهم أكثر منها بطلت الهدنة فيما زاد عليها، ولهم الأمانُ فيها إلى انقضاء مدّتها لا يُجَاهَدون فيها من غير إنذار. فقد نقضت قريشٌ صلح الحديبية، فسار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح محاربًا. وإذا نقضوا عهدهم فلا يجوزُ قتل مَن في أيدينا من رهائنهم. وقد نقض الرومُ عهدهم في زمان مُعاوِية وفي يده رهائنٌ فامتنع المسلمون جميعًا من قتلهم وخَلّوا سبيلهم وقالوا: وَفَاءٌ بغَدْرٍ خيرٌ من غدر بغدر. وإذا لم يجزْ قتلُ الرهائن لم يجب إطلاقهم ما لم يحاربوا. فإن حاربونا وجب إطلاقُ رهائنهم وإبلاغُ الرجلِ منهم مَأمنهم وإيصالُ النساء والأطفالِ والذراري إلى أهليهم. ويجوز أن يشترط لهم في عقد الهدنة ردّ من أسلم من رجالهم إليهم. فإذا أسلم أحدهم رُدّ إليهم إن كانوا مأمونين على دمه، ولم يُردَّ إليهم إن لم يُؤْمَنُوا عليه. ولا يشترط ردُّ من أسلم من نسائهم، لأنهنّ ذوات فروجٍ محرّمة. فإن شُرِط ردّهن لم يجز أن يُرْدَدْنَ؛ ودُفع إلى أزواجِهنّ مهورُهنّ إذا طُلِبْنَ.

ولا تجوزُ المهادنةُ لغير ضرورة تدعو إلى عقدها، وتجوزُ الموادعةُ أربعة أشهرٍ فما دونها ولا يزيدُ عليها.

وأما الأمانُ الخاصُ فيصحُ أن يبذُله كلُ مسلم من رجل وامرأة وحرّ وعبد؛ لقول النبيّ ﷺ: «المسلمون تتكافأُ دِماؤهم وهم يَدٌ على من سِواهم يَسْعَى بذمّتهم أدناهم» يعني عبيدَهم. وقال أبو حنيفة: لا يصحُ أمانُ العبدِ إلا أن يكون مأذونًا له في القتال.

والسادس من أحكامها: السيرةُ في نزال العدوّ وقتاله. يجوز لأمير الجيش في حِصار العدوّ أن ينصِب عليهم العَرَّادات[1] والمَجَانِيقَ[2]. فقد نصَب رسول الله ﷺ على أهل الطائف مَنْجَنِيقًا. ويجوز أن يهدِم عليهم منازلَهم، ويضع عليهم البيات والتحريق. وإذا رأى في قطع نخلهم وشجرهم صلاحًا ليظفرَ بهم عنوةً أو يدخلوا في السلم صلحًا لِما ينالهم من الضعف، فَعَل. ولا يفعل إن لم يرَ فيه صلاحًا. فقد قطع النبيّ ﷺ كروم أهلِ الطائف فكان سببًا لإسلامهم، وأَمَر في حرب بني النَّضِير بقطع نوع من النخل يقال له الأصفر يُرَى نَوَاه من وراء اللِّحاء، وكانت النخلة منها أحبَّ إليهم من الوَصِيف[3]، فحزِنوا لقطعها، وجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وِزر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحَشر: الآية ٥]. ويجوز أن يعوِّر[4] عليهم المياه ويقطعها عنهم وإن كان فيهم النساء والأطفال؛ لأنه من أقوىِ أسبابِ ضعفهم والظفَرِ بهم. وإذا استسقى منهم عطشان فالأميرُ مخيَّر في سَقْيِه أو منعه. ومن قُتل منهم واراه عن الأبصار ولم يلزم تكفينه. ولا يجوز أن يحرق بالنار منهم حيًّا ولا ميتًا. رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا تُعَذِّبوا عبادَ الله بعذابِ الله» وقد أحرق أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه قومًا من أهل الردّة. قال الماوردي[5]: ولعل ذلك كان منه والخبرُ لم يبلغه. ومَن قُتِل من شهداء المسلمين زُمِّل في ثيابه ودُفِنَ ولم يُغَسَّل ولم يُصَلَّ عليه. قال رسول الله ﷺ في شهداء أُحُدٍ: «زَمِّلُوهم بكُلُومِهم فإنهم يُبْعَثُون يومَ القيامة وأوداجُهم تشخُب دمًا اللونُ لونُ الدَّمِ والريحُ رِيحُ المِسْكِ». وإنما فُعل ذلك بهم مكرُمَةً لهم وإجراءً لحكم الحياة عليهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٩]. ولا يمنع الجيشَ في دار الحربِ من أكل طعامِهم وعُلوفةِ دوابِّهم غيرَ محتَسِبٍ به عليهم. ولا يتعدَّوا القُوتَ والعُلوفةَ إلى ما سواهما من ملبوس ومركوب. فإن دعتهم الضرورةُ إلى ذلك، كان ما لَبِسوه أو رَكِبوه أو استعملوه، مُسْتَرْجَعًا منهم في المَغْنم إن كان باقيًا، ومُحْتَسَبًا عليهم من سهمهم إن كان مستهلَكًا. ولا يجوز لأحد منهم أن يطأَ

---

(١) العرادات جمع عرادة: آلة ترمي الحجارة المرمى البعيد.
(٢) المجانيق جمع منجنيق: آلة أكبر من العرادة لرمي الحجارة من بعيد.
(٣) الوصيف: العبد، اللسان: مادة وصف. (٤) يعوِّر: يسدّهُ ليغور، اللسان: مادة عور.
(٥) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

جاريةً من السَّبْي إلا بعد أن يُعْطَاها بسهمه فيطأها بعد الاستبراء، فإن وطِئها قبل القسمة عُزِّر[١] ولا يُحَدّ، لأنّ له فيها سهمًا؛ ووجب عليه مهرُ مثلها يُضاف إلى الغنيمة. فإن أحبلها لَحِق به ولدُها وصارتْ أمَّ وَلَدٍ له إن مَلَكها. وإن وَطِىءَ من لم تدخل في السبي حُدّ، لأن وَطْأها زِنًا؛ ولم يَلْحَق به ولدُها إن علِقتْ.

وإذا عُقِدت هذه الإمارة على غَزَاة واحدة، لم يكن لأميرها أن يغزو غيرها سواء غَنِم فيها أو لم يغنَم. وإذا عُقِدت عمومًا عامًا بعد عام لزِمه معاودةُ الغزو في كل وقت يقدِر على الغزو فيه، ولا يَفْتُر عنه مع ارتفاع الموانِع إلا قدرَ الاستراحةِ. وأقل ما يجزيه أن لا يعطِّل عامًا من جهاد.

ولهذا الأمير، إذا فُوِّضتْ إليه الإمارةُ على المجاهدين، أن ينظر في أحكامهم ويُقيمَ الحدودَ عليهم وسواء من ارتزقَ منهم أو تطوّعَ. ولا ينظر في أحكام غيرهم ما كان سائرًا إلى ثغره. فإذا استقرّ في الثغر الذي تقلّده، جاز أن ينظر في أحكامِ جميع أهله من مُقَاتلة ورعيّة. وإن كانت إمارته خاصة أُجرِيَ عليها حكُم الخصوص.

* * *

وأما وصايا أمير الجيش قال الحليميّ[٢]: ويُوصِي الإمامُ أميرَ السريّة والجندِ بتقوى الله وطاعته والاحتياطِ والتيقُّظ، ويحذِّرُهم الشَّتَاتَ والفُرقة والإهمال والغفلة، ويأخذ على الجند أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم ولا يختلفوا عليه وينصحوا له، ولا يخذل[٣] بعضهم بعضًا، وإن أظفرهم الله على العدوّ لا يَغُلُّوا ولا يخونوا، ولا يَعقِروا من دوابّ المشركين التي لا تكون تحتهم، ولا يقتلوا امرأةً لا تقاتلهم ولا وليدًا، وأنهم إن وصلوا إلى قرية لا يدرون حالها، أمسكوا عنها وعن أهلها ولا يُبَيِّتونهم ولا يَشُنُّون الغارةَ عليهم حتى يَعلموا حالَهم؛ إلى غير ذلك من الآداب التي يحتاجون إلى معرفتها مما يلزمُ ويحِلُّ أو يحرُم من أمر القتل والأسر والمغنم والقَسْم وعَزْل الخُمُس ومن يُسْهَمُ له أو لا يُسْهَم ومن يُرْضخ[٤] له، والفرقِ بين الفارسِ والراجلِ ونحو ذلك.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الجَرّاح أنه بلغني أنّ رسولَ الله ﷺ كان إذا بعث جيشًا أو سريَّةً قال: «باسم الله وفي سبيل الله تقاتلون مَنْ كفر بالله لا تَغُلُّوا

(١) عُزِّرَ: عوقب دون الحد. (٢) الحليمي يعني الشافعي: هامش ١ صفحة ٣.
(٣) يخذل: يترك نصرته، الحمل على ترك النصرة. اللسان مادة خذل.
(٤) يُرضخ له: رضخ له من ماله إذا أعطاه عطية قليلة، اللسان مادة رضخ.

ولا تغدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتُلوا امرأةً ولا وليدًا». فإذا بعثت جيشًا أو سريّة فَمُرْهم بذلك.

وقال أبو بكر الصِّدِّيق(١) رضي الله عنه لخالد بن الوليد(٢) حين وجّهه لقتال أهل الرِّدّة: سِرْ على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدوّ فكن بعيدًا من الحملة فإني لا آمَن عليك الجولة، واستظهرْ(٣) بالزاد، وسر بالأدِلّاء، ولا تقاتلْ بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترسْ من البَيَات فإنّ في العرب غِرَّة، وأقْلِلْ من الكلام فإنما لك ما وُعِيَ عنك، واقبلْ من الناس عَلَانِيَتهم وكِلْهم إلى الله في سريرتهم؛ وأستودعُك الله الذي لا تضيع ودائعه.

وكان عمر بن الخطاب(٤) رضي الله عنه يقول عند عَقْد الألوية: باسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله والنصر ولزومِ الحق والصبرِ، فقاتِلوا في سبيل الله مَنْ كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين. ولا تجبُنوا عند اللّقاء، ولا تُمَثِّلُوا عند القدرة، ولا تُسْرِفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأةً ولا وليدًا، وتَوَقَّوْا قتلَهم إذا التقى الزَّحْفان وعند شَنِّ الغارات.

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وَقَّاص ومن معه من الأجناد: أما بعد فإني آمرُك ومَنْ معك بتقوى الله على كلِّ حال، فإن تقوى الله أفضلُ العُدَّة على العدوّ وأقوى المَكِيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوّكم؛ فإن ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا قوّةٌ بهم؛ لأن عددَنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتُنا كعدّتهم. فإن استَوَيْنا في المعصية كان لهم الفضلُ علينا في القوّة. وإلّا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلِبْهم بقوّتنا. واعلموا أن عليكم في مَسِيركم حَفَظَةً من اللهِ يعلمون ما تفعلون، فاستَحْيُوا منهم. ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله. ولا تقولوا إن عدوّنا شرٌّ منا فلن يُسلَّطَ علينا وإن أسأنا؛ فربَّ قومٍ قد سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم كما

---

(١) أبو بكر الصديق: هامش ١ صفحة ١٤.

(٢) خالد بن الوليد: قائد عسكري فقد لعب دورًا في هزيمة المسلمين يوم أُحد سنة ٣ للهجرة، وهو الملقب بسيف الله بعد إسلامه، قامع الردة، وبطل اليرموك، مات في مصر سنة ٢٢ هـ في خلافة عمر بن الخطاب. راجع الطبري، ٥٠٧/٢ وما بعدها، ٢٩/٣ وما بعدها و٤١٢ ـ ٤١٨؛ ١٦٠/٤.

(٣) استظهر: استقوى، احتاط، استوثق، اللسان: مادة ظهر.

(٤) عمر بن الخطاب: هامش ٣ صفحة ٣٧.

سُلِّطَ على بني إسرائيل لَمّا عملوا بمساخِطِ الله كَفَرَةُ المجوس ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ [الإسرَاء: الآية ٥]. واسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصرَ على عدوّكم. أسألُ الله ذلك لنا ولكم. وترفَّقْ بالمسلمين في مَسِيرهم، ولا تُجَشِّمْهم مسيرًا يُتعبهم، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزل يَرْفُقُ بهم، حتى يبلغوا عدوّهم والسفرُ لم يَنْقُصْ قوّتَهم؛ فإنهم سائرون إلى عدوّ مُقيم جامّي الأنفس والكُراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلةً حتى تكون لهم راحة يُجِمُّون[١] فيها أنفسَهم ويَرُمُّون[٢] أسلحتهم وأمتعتهم. وَنَحِّ منازلَهم عن قُرَى أهل الصلح والذمّة، فلا يدخلْها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحدًا من أهلها شيئًا، فإن لهم حرمةً وذمّةً ابتُلِيتُم بالوفاء بها كما ابتُلُوا بالصبر عليها؛ فما صَبَرُوا لكم فَفُوا لهم. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطِئتَ أدنى أرضِ العدوّ فأذكِ[٣] العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرُهم. وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئنُ إلى نصحه وصدقه، فإن الكَذوبَ لا ينفعك خبرُهُ وإن صدقَ في بعضه، والغاشّ عينٌ عليكِ وليس عينًا لك. وليكنْ منك عند دنوّك من أرض العدوّ أن تُكثِر الطلائعَ وتُبثَّ السَّرَايَا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقهم، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم. وانتقِ للطلائعِ أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيَّرْ لهم سوابقَ الخيل، فإن لقُوا عدوًّا كان أوّلَ ما تلقاهم القوّة من رأيك. واجعلْ أمرَ السَّرَايا إلى أهل الجهاد والصبرِ على الجِلاد، ولا تخُصَّ بها أحدًا بهوى، فيضيعَ من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصّتك. ولا تبعَثْ طليعةً ولا سريَّةً في وجهٍ تتخوّفُ عليها فيه ضيعةً ونِكاية. فإذا عاينتَ العدوّ فاضمُمْ إليك أقاصيَك وطلائعَك وسراياك، واجمع إليك مَكِيدتك وقوّتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصِرَ عورةَ عدوّك ومَقَاتله، وتعرِفَ الأرضَ كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوّك كصنيعه بك. ثم أذكِ أحراسَك على عسكرك، وتحفَّظْ من البيات جهدَك. ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عهدٌ إلا ضربت عنقه، لتُرْهِبَ بذلك عدوّك وعدوَّ اللهِ. واللهُ وليُّ أمرك ومن معك، ووليُّ النصرِ لكم على عدوّكم؛ والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان[٤] أميرًا سيَّره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجرُ اللهِ لعباده، فكن كالمضارب الكَيِّسِ الذي إن وَجَد ربحًا تَجَرَ، وإلّا تحفّظ برأس

---

(١) يجمون: يستريحون، يتركونها ترتاح، اللسان: مادة جمم.
(٢) يرمُّون: يصلحون، اللسان: روم. (٣) أذكى العيون: بث العيون، اللسان ذكى.
(٤) عبد الملك بن مروان: هامش ٢ صفحة ١٢٨.

المال؛ ولا تطلبِ الغنيمةَ حتى تحوزَ السلامة؛ وكنْ من احتيالك على عدوّك أشدَّ حذرًا من احتيال عدوّك عليك.

وكان زِياد ابن أبيه(١) يقول لقوّاده: تجنَّبُوا اثنتين لا تقاتلوا فيهما العدوّ: الشتاءُ، وبطونُ الأودية.

وكان قُتَيْبة بن مسلم(٢) يقول لأصحابه: إذا غَزَوْتم فأطيلوا الأظفار، وقَصِّروا الشعور، والحَظُوا الناسَ شَزْرًا، وكَلِّموهم رَمْزًا، واطعَنُوهم وَخْزًا.

وكان أبو مسلم الخُرَاسانيّ(٣) صاحب الدعوة يقول لقوّاده: أَشْعِروا قلوبَكم الجُرْأةَ فإنها من أسباب الظَّفَر، وأَكْثِرُوا ذكر الضغائن فإنها تبعثُ على الإقدام، والْزَمُوا الطاعةَ فإنها حِصْنُ المحارب.

وقالت الحكماء: لا تستصغِرَنَّ أمرَ عدوّك إذا حاربته، لأنك إن ظَفِرت به لم تُحْمَد وإن ظَفِر بك لم تُعْذَر؛ والضعيفُ المحترِسُ من العدوِّ القويِّ أقربُ إلى السلامةِ من القويِّ المغترِّ بالضعيف.

ذكر ما يقوله قائد الجيش وجنده من حين يُشاهَدُ العدوُّ إلى انفصال الحرب والظفر بعدوّهم

قال الشيخ أبو عبد الله الحسين الحَلِيمي(٤) في منهاجه: إذا مضى الجيش باسم الله فلَقُوا العدوّ فليتعوّذوا بالله تعالى، وليقولوا: اللّهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. فإذا قاتلوا فليقولوا: اللهم بك نصولُ ونجولُ. وليقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتِحَة: الآية ٥]. وليقولوا: اللّهم مُنَزِّلَ الكتاب وسريعَ الحِساب هازمَ الأحزاب، اللهم اهزِمْهم وزلزلْهم. وإن حَصَبُوهم فليقولوا: «شاهتِ الوُجُوه». وإن رَمَوْهم فليقولوا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفَال: الآية ١٧]. وإن بيّتهم العدوّ فليكن شعارُهم (حَـم)

---

(١) زياد ابن أبيه: هامش ١ صفحة ١٥.

(٢) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي، ولي خراسان افتتح بلاد الصفد ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي وهو في مطلع شبابه لم يجاوز السابعة عشر من عمره. راجع فيه: الطبري، ٤/ ٢٧١ و٢٩٣؛ ٥/ ٢٨٦؛ ٦/ ٢٧٢ وما يليها ٥٠٦ ـ ٥٢١؛ ٥٢٦ وما يليها؛ ٧/ ١٠٨.

(٣) أبو مسلم الخراساني: هامش ٤ صفحة ٦٦.

(٤) الحليمي، أبو عبد الله الحسين الجرجاني الشافعي: هامش ١ صفحة ٣.

لا يُنْصَرون (حمٓ عٓسٓقٓ) يفرّق أعداء الله، وبلغتْ حجة الله، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلا بالله. وليقولوا إذا دخل العدوّ ديارَهم: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٠]. وليقولوا إذا صافُّوهم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥]. وليقولوا: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٨]. وليقولوا: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ [صٓ: الآية ١١]. وليقولوا: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: الآية ٤٥]. وليقولوا: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾ [الصَّافات: الآية ١٧٠]، ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: الآيتان ٧١، ٧٢] وإن صَبَحُوا دارَهم فليقولوا: الله أكبر، هزم العسكر، إذا نزلنا ساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٧٧]. وإن بيّتوهم فليقولوا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧﴾ [الأعراف: الآية ٩٧]. وإن جاؤوهم نهارًا فليقولوا: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: الآيتان ٩٨، ٩٩]. وليقولوا في عامّة أحوالهم وأوقاتهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عِمران: الآية ١٧٣]. وليقولوا: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: الآية ٨١]. ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: الآية ٧٦]. وإن كان العدوّ يهودًا فليقل المسلمون في وجوههم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: الآية ٦٤]. وليقولوا: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾ [الأعراف: الآية ١٦٦]. وليقرؤوا المعوِّذتين غُدوةً وعَشِيًّا. وإن وقعت هزيمةٌ فتبعهم العدوّ فليتحصَّنُوا منهم بقراءة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾ [الإسراء: الآيتان ٤٥، ٤٦]. ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: الآية ٩]. وإن هَزَموا العدوّ فليقولوا على آثارهم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: الآية ٤٥]. وليقولوا: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: الآية ٤٧]. وإن لَجَّ العدوّ وثَبَتُوا فليقولوا: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾ [إبراهيم: الآية ٢٦]. وليقولوا: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: الآيتان ٢٨، ٢٩]. وليقولوا: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨]. وليقولوا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: الآية ٣٩]. وليقولوا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: الآية ٢٣] وليقولوا: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: الآية ١١١]. وليقولوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: الآيتان ٨١، ٨٢]. وليقولوا: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: الآيتان ٥٠، ٥١]. وليقولوا إذا حَملوا على العدوّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٨]. ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٤، ٢٥]. وليقولوا: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: الآية ١٣]. وليقولوا: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: الآية ٧٦]. وليقولوا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٧]. وليقولوا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المُلك: الآية ٢٧]. وليقولوا: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: الآية ١٩]. وإن حمل العدوُّ عليهم فليقولوا لأنفسهم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧]. وليقولوا: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: الآية ٣٥]. وإذا دنَوْا منهم فليقولوا: ﴿انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٧]. وليقولوا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٩]. وليقولوا: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: الآية ٥٤]. وليقولوا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: الآية ٦٤]. وإن لحق العدوَّ مَدَدٌ فليقل المسلمون: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: الآية

٧٥] وليقولوا: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ [المَائدة: الآية ٦٤]. وإن لَحِقَ المسلمينَ مَدَدٌ فليقولوا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٢٦]. وإذا تحصّنوا من العدوّ بموضع فليقولوا إن قصدوهم: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: الآية ١٦]. وليقولوا: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: الآية ٩٧]. وإن تحصَّن العدوّ منهم بموضع فليقولوا إن قصدوه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: الآية ٩٨]. وليقولوا: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ [البقرة: الآية ٣٦]. وليقولوا إذا خافوهم: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٧٥]. وليقولوا: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النُّور: الآية ٥٥]. وليقولوا: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٥١]. وليقولوا: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحَشر: الآية ٢]. وليقولوا: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عِمران: الآية ١٣٩]. وليقولوا: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٣٥]. وإنْ حاصروا العدوّ وأحدقوا بهم فليقولوا: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩]. وليقولوا: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّحمـٰن: الآية ٣٣] ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرَّحمـٰن: الآية ٣٥]. وإن حاصرهم العدوّ وأحاط بهم فليقولوا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: الآية ٦٤]. وليقولوا: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ١١٤ - ١١٦]. وليقولوا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٨٧، ٨٨]. وإن رماهم العدوّ بالنار فليقولوا: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٦٩، ٧٠].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: الآية ٢٤]. وليقولوا: الله أكبر، الله ربنا، ومحمد نبينا، وأنت يا نار لغيرنا. وليقولوا: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: الآية ٦٤]. وإن رموا العدوّ بالنار فليقولوا معها: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: الآية ٥٣]. وليقولوا: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: الآية ٤٨]. وليقولوا: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: الآية ١١]. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحجّ: الآية ٢٢]. وليقولوا: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: الآيات ١٥ - ١٨]. وليقولوا: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصَّافات: الآيات ٨ - ١٠]. وإن رموا العدوّ بالمَنْجنيق فليقولوا: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: الآيتان ٨٢، ٨٣]. وإن رماهم العدوّ بالمنجنيق فليقولوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحجّ: الآية ٣٨]. وليقولوا: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يس: الآية ٢٨]. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤]. وإذا دخلوا أرض العدوّ فليقولوا: باسم الله ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٧]. ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: الآية ٢٠]. ويقولوا إذا كانت الريح تصفّق في وجوه العدوّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: الآيتان ١٩، ٢٠]. وإن كانت الريح تهُبّ على وجوه المسلمين فليقولوا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ٥٧]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٦]، ويقولوا: «اللّهم اجعَلْها رِياحًا ولا تجعَلْها رِيحًا»، ويقولوا: اللهم إنا نسألُكَ من خير ما تأتي به الرياحُ، ونعوذُ بك من شر المساءِ والصباحِ. وإن بارز مسلم مشركًا فليقرأ عليه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٤١]. وليقل: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القَصص: الآية ١٥]. وليقل: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾

[النساء: الآية ١٤١]. وإذا التقى الصفَّانِ فليدْعُ أميرُ السَّريّةِ ويسأَلِ الله النصرَ والفتحَ ويُؤَمِّنِ الناسُ على دعائِه؛ فإنها من ساعات الإجابة.

ذكر ما قيل في المَكِيدة والخِدَاع في الحروب وغيرها

رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ»(١). وكان ﷺ إذا غَزَا أَخَذ طريقًا وهو يريد أُخرى، ويقول: «الحَرب خدعة».

وكان مالك بن عبد الله الخَثْعَميّ(٢) وهو على الصافّة(٣) يقومُ في الناس، إذا أراد أن يرحل، فيحمَدُ الله ويُثني عليه، ثم يقول: إني داربٌ بالغداة دَرْبَ كذا؛ فتتفرّق الجواسيس عنه بذلك، فإذا أصبح سَلَك بالناس طريقًا غيرَها. فكانت الروم تسمِّيه الثعلب.

وقال المُهَلَّب لبنيه: عليكم في الحرب بالمكيدة، فإنها أبلغُ من النجدة.

وسئل بعضُ أهل التمرُّس بالحروب: أيُّ المكايِدِ فيها أحزم؟ فقال: إذكاءُ(٤) العيون، وإفشاءُ الغَلَبة، واستطلاعُ الأخبار، وإظهارُ السرور، وإماتة الفَرَق(٥)، والاحتراسُ من البِطَانة، من غير إقصاءٍ لمستنصِحِ ولا استنصاحِ لمستغِشٍّ، وإشغالُ الناسِ عما هم فيه من الحرب بغيره.

وقال حكيم: اللُّطْفُ في الحِيلة، أجدى للوسيلة. وقيل: من لم يتأمَّلِ الأمر بعين عقله لم يقع سيفُ حيلته إلا على مَقَاتله، والتَّثَبُّتُ يسهِّلُ طريقَ الرأي إلى الإصابة، والعجلةُ تضمن العَثْرة.

---

(١) خُدْعة: خَدْعة الحرب تنقضي لخَدْعة واحدة؛ خُدْعة: الاسم من الخداع؛ خُدَعة: كثير الخدع. اللسان: مادة خدع.

(٢) مالك بن عبد الله الخثعمي، أبو حكيم المعروف بمالك السرايا (جمع سرية)، من كبار القادة من أهل فلسطين، ولي الصوائف زمن معاوية.

(٣) كذا بالأصل، ولعل الصواب (على الصائفة) وهي غزوة الروم في زمن الصيف: فقد كان الخلفاء وملوك حلب يعدون جنودًا لغزوهم في ذلك الفصل لتعذّر غزوهم شتاءً لشدة البرد والثلج في بلادهم وكثيرًا ما أطلقوا (الصائفة) و(الصوائف) على نفس الجنود الغزاة. وإذا قالوا ولّى الخليفة فلانًا على الصائفة أو الصوائف أرادوا أنه ولّاه رئاستهم وأمر قيادتهم ويؤيد ما قلنا قوله بعد ذلك (فكانت الروم تسمي مالكًا الثعلب) وقول مالك نفسه (إني دارب بالغداة درب كذا) والدرب كل مدخل إلى بلاد الروم. ثم إن قوله: (دارب) فيه نظر لأنه يقال: (أدرب) القوم بالهمز إذا دخلوا الدرب لغزو الروم ولم يسمع درب فهو دارب ثلاثيًا.

(٤) إذكاء العيون: بثّ الجواسيس، اللسان باب ذكي.

(٥) الفرق: الخوف، اللسان مادة فرق.

ويقال: إن سعيد بن العاص[١] صالَحَ أهلَ حِصْن من حصون فارس على ألَّا يقتلَ منهم رجلًا واحدًا، فقتلهم كلَّهم إلا رجلًا واحدًا.

وقيل: لما أُتِي بالهُرْمُزان أسيرًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل له: يا أميرَ المؤمنين، هذا زعيمُ العجم وصاحب رُسْتم[٢]؛ فقال له عمر رضي الله عنه: أَعرِضُ عليك الإسلام نُصْحًا لك في عاجلك وآجلك؛ فقال: إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغبُ في الإسلام رهبة؛ فدعا عمر بالسيف، فلما همّ بقتله، قال: يا أميرَ المؤمنين، شربةٌ من ماءٍ هي أفضل من قتلي على الظمأ؛ فأمر له بشربة من ماء؛ فلما أخذها الهرمزان قال: يا أميرَ المؤمنين، إنا آمِنٌ حتى أشربَها؟ قال: نعم؛ فرمى بها وقال: الوفاءُ يا أميرَ المؤمنين نورٌ أبلج؛ قال: صدقتَ، لك التوقُّف عنك والنظرُ فيك، ارفعا عنه السيف؛ فقال: يا أمير المؤمنين، الآن أشهدُ أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وما جاء به حقٌّ من عنده؛ فقال عمر: أسلمت خيرَ إسلامٍ، فما أخَّرك؟ قال: كرِهت أن يُظَنَّ بي أني إنما أسلمتُ خوفًا من السيف؛ فقال عمر: أَلَا إنّ لأهل فارس عقولًا استحقّوا بها ما كانوا فيه من الملك، ثم أمر ببِرِّه وإكرامه.

ونظيرُ هذه القصة ما فعل الأسير الذي أُتيَ به إلى مَعْن بن زائدة[٣] في جملة الأَسْرَى فأَمر بقتلهم؛ فقال: أتقتلُ الأسرى عِطاشًا يا معنُ؟ فأمر بهم فسُقُوا، فلما شربوا قال: أتقتل أضيافك يا معن؟ فخلّى عنهم.

ومن المكائد المشهورة حكاية قَصِيرٍ مع الزَّبّاء، وسنذكرها إن شاء الله في التاريخ في أخبار ملوك العرب، وواقعةُ ملك الهياطلة مع فَيْرُوزَ بن يَزْدَجِرْد، ونذكرها أيضًا في أخبار ملوك الفرس.

---

(١) سعيد بن العاص: وأظنه يقصد به سعيد بن العاص الأكبر أبو أحيحة، الطبري ٢/ ٣٩٨، ٤٦٨؛ ٣/ ١٧٠، ٣٢٩، في حين أن سعيد الأصغر نجد ترجمته في الطبري: ٣/ ٣٢٩، ٤/ ٢٦٩ - ٢٧١، ٢٧٥ - ٢٧٩، ٣٢١ - ٣٢٣.

(٢) رُستم بن فرخزاد، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان في وقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون حينما أرسل سعد بن أبي وقاص لفتح بلاد فارس في خلافة عمر بن الخطاب، وقد قتل رستم في هذه الوقعة. المسعودي، ١/ ٥٤٠.

(٣) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، وأحد الحلماء، كان قد اختفى عند ظهور العباسيين، لكنه ظهر فجأة مع المنصور عندما أحاطت به العباسية، فأظهر شجاعة فائقة، فأكرمه المنصور. المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ١٥٠.

ومن المكائد خبر عمرو بن العاص[١] والمُغِيرة بن شُعبة[٢] مع مُعَاوية بن أبي سُفْيان، وكان معاوية قد كتب إليهما واستقدم عمرًا من مصر والمغيرةَ من الكوفة؛ فقال عمرو للمغيرة: ما جمَعَنا إلا ليعزِلنا، فإذا دخلتَ عليه فاشكُ الضعفَ واستأذنْه أن تأتي الطائف أو المدينة، وأنا إذا دخلتُ عليه سأسأله ذلك فإنه يظن أنّا نريد أن نُفسد عليه. فدخل المغيرة على معاوية فسأله أن يُعفيه فأذن له؛ ودخل عليه عمرو وسأله ذلك؛ فقال معاوية: قد تواطأتما على أمر وإنكما لتريدان شرًّا، ارجعا إلى عمليكما.

وكتب المغيرةُ بن شُعبة إلى معاوية[٣] حين كَبِر وخاف العزل: أما بعد، فإنّه قد كَبِرت سِنِّي، ودَقَّ عظمي، وقرُب أجلي، وسفَّهني رجالُ قُرَيش، فرأيُ أمير المؤمنين في عمله مُوَفَّق. فكتب إليه معاويةُ: أمّا ما ذكرتَ من كِبرَ سنّك، فإن سنّك أكلت عمرك. وأما اقترابُ أجلك، فإني لو كنتُ أستطيع أن أدفع المنيَّةَ عن أحد لدفعتها عن آل أبي سُفيان. وأما ما ذكرتَ من العمل فـ

ضَحِّ قليلاً يُدْرِك الهيجا حَمَلْ[٤]

وأمّا ما ذكرتَ من سفهاء قريش، فإنّ حلماء قريش أنزلوك هذا المنزل. فاستأذنَ مُعاويةَ في القدوم فأذن له؛ فلما وصل إليه قال له معاوية: كَبِرت سنُّك، واقترب أجلُك، ولم يبقَ منك شيءٌ، ولا أظنُّني إلا مستبدلًا بك. قال: فانصرَفَ والكآبةُ تُعْرَف في وجهه؛ فقيل له: ما تريد أن تفعل؟ فقال: ستعلمون ذلك. ثم أتى معاويةَ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الأنفسَ يُغْدَى عليها ويُرَاح، ولستَ في زمن أبي بكر ولا عمر، وقد اجترح الناس، ولو نصبْتَ لنا عَلَمًا من بعدك نصيرُ إليه! مع أني كنت قد دعوتُ أهلَ العراق إلى يزيد فركَنُوا إليه حتى جاءني كتابك؛ قال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك فأَحْكِمْ هذا الأمر لابن أخيك، وأعاده على البريد يركُض.

---

(١) عمرو بن العاص: هامش ١ صفحة ٧٧.

(٢) المغيرة بن شعبة، أبو محمد، من دهاة العرب الثلاثة (معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة)، تقرب من علي ولما لم يجد لديه موضعًا تريث ثم مال إلى معاوية فولّاه.

(٣) معاوية بن أبي سفيان؛ هامش ١ صفحة ٦.

(٤) ضحِّ: تأنَّ قليلًا ولا تعجل، وهو شطر بيت ورد في شرح القاموس:

لبِّث قليلًا يلحق الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

وقائل هذا البيت حمل بن بدر وقيل: حمل بن سعدانة الصحابي.

وقيل: جاء بَازِيَارٌ[١] لعبد الله بن طاهر[٢] فأعلمه أن بازيًا له انحط على عُقَاب له فقتلها؛ فقال: اذْهَبْ فاقطِفْ رأسَه، فإني لا أُحبُّ الشيءَ أن يجترىء على ما فوقه. وأراد أن يبلغ ذلك المأمون[٣] فيسكُنَ إلى جانبه.

قال الشعبيّ[٤]: وجّهني عبد الملك بن مَرْوان[٥] إلى ملك الروم، فلما قَدِمتُ عليه ودفعت إليه كتابَ عبد الملك، جعل يسألني عن أشياء فأُخبره بها، فأقمتُ عنده أيامًا، ثم كتب جوابَ كتابي، فلما انصرفتُ دفعتُه إلى عبد الملك، فجعل يقرؤه ويتغيّر لونه، ثم قال: يا شعبيّ، علمتَ ما كتب به إليّ الطاغية؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كانت الكتب مختومة ما قرأتها وهي إليك؛ فقال: إنه كتب إليّ: إنّ العجبَ من قوم يكون فيهم مثلُ من أرسلتَ به إليّ فيملّكون غيره؛ فقال: قلت يا أمير المؤمنين لأنه لم يرك؛ قيل: فسُرِّيَ عنه، ثم قال: إنه حسدني عليك فأراد أن أقتلك.

قال: ولمّا ظَفِرَ الجُنَيْد بن عبد الرحمٰن[٦] ـ وهو يَلِي خُراسان في أيام هِشَام ـ بصبيح الخارجيّ وبعدّة من أصحابه فقتلهم جميعًا إلا رجلًا أعمى قال هذا الرجل أنا أدلُّك على أصحاب صبيح وأجازيك على ما صنعتَ، وكتب له قومًا؛ فأمر الجنيد بقتلهم حتى قُتِلَ مائة؛ فقال الأعمى عند ذلك: لعنك الله يا جنيد! أتزعمُ أنه يَحِلُّ لك دَمِي وأنّي ضالٌّ ثم تَقْبَلُ قولي في مائة قتلتَهم! لا! والله ما كتبتُ لك من أصحاب صبيح رجلًا، وما هم إلا منكم. فقدّمه الجنيد وقتله.

وكان مُعاوية بن أبي سُفيان[٧] من الدُّهاة؛ وله أخبار في الدَّهَاء تدُلُّ على بُعدْ غَوْره وحِدّة ذهنه. فمنها[٨] أن يزيد ابنه سمع بجمال زينب بنت إسحٰق زوج عبد الله بن سَلّام القرشيّ، وكانت من أجمل النساء في وقتها وأحسنهنّ أدبًا وأكثرهنّ مالًا، ففتُنَ بها يزيد؛ فلما عِيلَ صبرُه ذكر ذلك لبعض خِصْيان أبيه، وكان ذلك الخَصِيّ خاصًا بمعاوية واسمه رفيق، فذكر رفيق ذلك لمعاوية وقال له: إنّ يزيدَ قد ضاق ذَرْعه بها.

---

(١) بازيار: القيم على البزاة أو المتجر بها.
(٢) عبد الله بن طاهر: هامش ١ صفحة ٤٤.
(٣) المأمون: هامش ٢ صفحة ١٠.
(٤) الشعبي: هامش ٣ صفحة ١٧.
(٥) عبد الملك بن مروان: هامش ٦ صفحة ٣٢.
(٦) الجنيد بن عبد الرحمٰن: والي خراسان في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان.
(٧) معاوية بن أبي سفيان: هامش ١ صفحة ٦.
(٨) أورد صاحب ابن قتيبة في كتابه: «الإمامة والسياسة» هذه القصة مطولة وقد زيدت هنا بعض العبارات ليستقيم المعنى وتكتمل القصة.

فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره؛ فبَثّ له شأنه؛ فقال: مهلًا يا يزيد؛ فقال له: عَلَامَ تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: فأين مُرُوءتك وحِجَاك وتُقَاك؟ فقال: قد عِيلَ الصبرُ، ولو كان أحدٌ ينتفِع فيما يُبْتَلَى به من الهوى بتقاه، أو يَدْفَعُ ما أَقْصَدَه بحجاه لكان أَوْلَى الناس به داود حين ابْتُلي به؛ فقال: اكْتُمْ يا بُنَيّ أمرك، فإن البَوْحَ به غيرُ نافعك، والله بالغُ أمرِه فيك، ولا بدّ مما هو كائن. وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مُنَاه، فكتب إلى زوجها عبدِ الله بن سَلَّام، وكان قد استعمله على العراق: أن أقبل حين تنظرَ كتابي لأمر فيه حظُّك إن شاء الله تعالى فلا تتأخرْ عنه. فأغَذَّ السيرَ وقَدِم، فأنزله مُعاوية منزِلًا كان قد هُيِّء له وأُعِدّ فيه نُزُلُه؛ وكان عند معاوية يومئذ بالشأم أبو هُرَيرة وأبو الدَّرْدَاء[1]، فقال لهما معاوية: إنّ الله قد قَسَم بين عباده قِسَمًا ووهبهم نعمًا أوجب عليهم فيها شكره وحتّم عليهم حفظَها، فحَبَاني منها عزّ وجلّ بأتمّ الشرف وأفضلِ الذكر، وأوسَعَ عليّ الرزقَ، وجعلني راعِيَ خَلْقه، وأمينَه في بلاده، والحاكمَ في أمر عباده، ليبلُوَني أأشكر أم أكفر. وأوّل ما ينبغي للمرء أن يتفقّدَ وينظرَ من استرعاه الله أمرَه، ومن لا غِنَى به عنه. وقد بلغت لي ابنة أُريد إنكاحَها والنظرَ في اختيار من يُبَاعلها، لعل مَنْ يكون بعدي يقتدي فيه بهَدْيِي ويتبع فيه أثري. فإنه قد يَلِي هذا الملكَ بعدي مَن يغلب عليه الشيطان ويرقيه إلى تعضِيل[2] بناتهم فلا يرون لهم كُفُؤًا ولا نظيرًا، وقد رَضِيتُ لها ابنَ سَلَّام القرشيّ، لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه؛ فقالا له: إن أَوْلى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطَلَبِ مرضاته فيما اختصّه منها لأنت؛ فقال لهما معاوية: فاذكرا له ذلك عني، وقد كنت جعلت لها في نفسها شُورَى، غير أني أرجو ألّا تخرجَ من رأيـي إن شاء الله. فخرجا من عنده وأَتَيَا عبد الله بن سَلَّام وذكرا له القصة. ثم دخل معاوية على ابنته وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعَرَضا عليك أمر عبد الله بن سَلَّام وحَضَّاك على المسارعة إلى اتباع رأيـي فيه، فقولي لهما: إنه كفءٌ كريمٌ وقريبٌ حميمٌ، غير أنّ تحته زينبَ بنت إسحٰق، وأخاف أن يَعْرِضَ لي من الغَيْرة ما يعرِضُ للنساء فأتناول منه ما يَسخَط الله تعالى فيه فيعذّبني عليه، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقَها. فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله وأعلماه بقول مُعاوية، ردّهما إليه يخطُبان له منه، فأتياه؛ فقال: قد علمتما رِضائي به وحِرْصي عليه، وكنتُ قد أعلمتكما الذي جعلتُ لها في نفسها من

---

(١) أبو هريرة وأبو الدرداء: صحابيان، راويان للحديث عمرا حتى بلغا العصر الأموي.
(٢) تعضيل البنات: حبسهن عن الزواج ظلمًا، اللسان مادة عضل.

الشُّورى، فادخلا عليها واعرِضا عليها الذي رأيتُ لها. فدخلا عليها وأعلماها؛ فقالت لهما ما قاله معاوية لها. فرجعا إلى ابن سَلّام وأعلماه بما قالته. فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها وأعادهما إلى ابنة معاوية. فأَتَيَا معاوية(١) وأعلماه بما كان من فِراق عبد الله زوجتَه رغبةً في الاتصال بابنته؛ فأظهر معاوية كراهةَ فعله وفراقه لزينب وقال: ما استحسنتُ له طلاقَ امرأته ولا أحببته، فانصرِفَا في عافية ثم عُودَا إليها وخُذَا رضاها. فقاما ثم عادا إليه، فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها تَبَرِّيًا من الأمر، وقال: لم يكنْ لي أن أُكرهها وقد جعلتُ لها الشورى في نفسها. فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سَلَّام امرأته ليسرّها، وذكرا من فضله وكمال مُروءته وكرم مَحْتِده؛ فقالت لهما: إنه في قريش لرفيعُ القَدْر، وقد تعرفان أن الأناة في الأمور أرفقُ لما يخاف من المحذور، وإني سائلةٌ عنه حتى أعرف دَخْلة أمره وأُعلمكما بالذي يُزَيّنه الله لي، ولا قوّةَ إلا بالله؛ فقالا: وَفّقكِ الله وخَارَ لك. وانصرفا عنها، وأعلما عبد الله بقولها؛ فأنشد: [من الوافر]

فإن يَكُ صَدْرُ هذا اليوم وَلّى   فـإنّ غـدًا لـنـاظـره قـريـبُ

وتحدّث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينبَ وخِطْبتِه ابنةَ معاوية، ولامُوه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه. ثم استحثّ عبدُ الله أبا هريرة وأبا الدرداء؛ فأَتَيَاها وقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله، فإنه يَهدي من استهداه؛ فقالت: أرجو، والحمدُ لله، أن يكون الله قد خار لي، وقد استبرأت(٢) أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي، ولقد اختلف من استشرته فيه، فمنهم الناهي عنه ومنهم الآمر به، واختلافهم أوّل ما كَرِهت. فلما بلّغاه كلامها علم أنه مخدوع، وقال: ليس لأمر الله رادّ، ولا لما لا بدَّ منه صادّ؛ فإن المرء وإن كَمَل له حلمه واجتمع له عقله واستدّ رأيُه ليس بدافع عن نفسه قَدَرًا برأي ولا كيد. ولعل ما سُرُّوا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سروره، ولا يُصْرَفُ عنهم محذوره. وذاع أمره وفشا في الناس، وقالوا: خَدَعه مُعاوية حتى طلّق امرأته، وإنما أرادها لابنه، وقَبّحوا فعله. فتمّت مَكِيدته هذه؛ لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره وبضدّ تقديره. وذلك أنه لما انقضت

(١) معاوية بن أبي سفيان: هامش ١ صفحة ٦.
(٢) استبرأت الشيء: طلبت آخره لأقطع الشبهة عني، والمعنى هنا أني استقصيت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة، اللسان مادة: برأ.

أقْراء[١] زينب، وَجّه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطبًا لها على ابنه يزيد؛ فخرج حتى قَدِم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، فبدأ أبو الدرداء بزيارته، فسلّم عليه الحسين وسأله عن سبب مَقْدَمه؛ فقال: وَجّهني معاوية خاطبًا على ابنه يزيد زينبَ بنت إسحٰق؛ فقال له الحسين: لقد كنتُ أردتُ نكاحها وقصدت الإرسالَ إليها إذا انقضت أقراؤها، فلم يمنعني من ذلك إلا تخيُّر[٢] مثلك، فقد أتى الله بك، فاخطُبْ ـ رحمك الله ـ عليّ وعليه، لتتخَيَّرَ من اختاره الله لها، وهي أمانةٌ في عُنُقك حتى تؤدّيها إليها، وأَعْطِها من المهر مثل ما بَذَل معاوية عن ابنه؛ فقال: أفعلُ إن شاء الله. فلما دخل عليها أبو الدرداء قال: أيتها المرأة، إنّ الله خلق الأمور بقدرته، وكوّنها بعزته، فجعل لكل أمر قَدَرًا، ولكل قَدَر سببًا، فليس لأحد عن قدر الله مُسْتحاصٌ، ولا للخروج عن أمره مُستناص؛ فكان مما سبق لكِ وقُدِّر عليك الذي كان من فراق عبد الله بن سَلّام إيّاك، ولعل ذلك لا يضرّك ويجعلُ الله فيه خيرًا كثيرًا؛ وقد خطبك أميرُ هذه الأمة وابنُ مَلِكها ووليُّ عهده والخليفةُ من بعده يزيدُ[٣] بن معاوية، والحسينُ[٤] ابن بنت رسول الله ﷺ وسيّدُ شَبَابِ أهل الجنة، وقد بلغك شأنُهما وسناؤهما وفضلُهما، وقد جئتُك خاطبًا عليهما، فاختاري أيُّهما شئت؛ فسكتتْ طويلًا ثم قالت: يا أبا الدرداء، لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسلَ إليك واتّبعتُ فيه رأيك ولم أقتطعه دونك، فأمّا إذ كنت أنت المرسَل فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلته في يديك، فاختَرْ لي أرضاهما لديك، والله شاهدٌ عليك، فاقضِ في أمري بالتحَرّي ولا يَصُدّنّك عن ذلك اتباعُ هوى، فليس أمرهما عليك خفيًّا، ولا أنت عما طوّقتُك غبيًّا؛ فقال: أيتها المرأة، إنما عليّ إعلامُك وعليك الاختيار لنفسك؛ قالت: عفا الله عنك! إنما أنا ابنة أخيك، ولا غنى لي عنك، فلا تمنعْك رهبةُ أحدٍ عن قول الحق فيما طوّقتك، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حَمّلتك؛ والله خيرُ من رُوعِي وخيف، إنه بنا خبيرٌ لطيف. فلما لم يجد بُدًّا من القول والإشارة قال: أي بُنَيّة، إن ابنَ بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ وأرضى عندي، والله أعلم بخيرهما لك، وقد

---

(١) أقراء: الحيض. اللسان، مادة: قرأ. (٢) تخير: انتقاء، اللسان، مادة: خير.

(٣) يزيد بن معاوية: ٣١ ـ ٦٤ هـ. تولى الخلافة ثلاث سنين وثمانية أشهر (٦١ هـ)، وقد قُتِل الحسين بن علي في أيامه، ووقعت معركة الحرة حيث استباح جيش المدينة بقيادة مسلم بن عقبة ثلاثة أيام، ورميت الكعبة بالمجانيق عندما تحصن عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة. المسعودي، مروج الذهب، ٢/٥١ ـ ٥٧.

(٤) الحسين بن علي: هامش ٣ صفحة ٢٠.

رأيتُ رسول الله ﷺ وقد وضع شَفَتيه على شفتَيْ حسين، فضَعِي شَفَتَيْكِ حيث وضع رسول الله ﷺ شفتيه؛ قالت: قد اخترته وأردته ورَضِيته. فتزوّجها الحسين وساق لها مهرًا عظيمًا. فبلغ ذلك معاوية فتَعَاظَمه ولَامَ أبا الدرداء شديدًا، وقال: من يرسلْ ذا بَلَهٍ وعَمًى يركبْ خلافَ ما يهوى. وأما عبد الله بن سَلَّام فإنّ معاوية اطّرحه وقطع عنه جميع روافده، لسوء قوله فيه وتُهْمتِه أنه خدعه، ولم يزل يجفوه حتى عِيل صبره وقلّ ما في يديه. فرجع إلى العراق، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه لها مالًا عظيمًا ودُرًّا كثيرًا، فظن أنها تجحده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شيء كان منها، فلقي حُسَيْنًا فسلّم عليه، ثم قال: قد علمتَ ما كان من خبري وخبر زينب، وكنتُ قد استودعتها مالًا ولـم أَقبضه، وأثنى عليها وقال له: ذاكرْها أمري واحضُضْها على ردّ مالي. فلما انصرف الحسين[1] إليها قال لها: قد قَدِم عبد الله بن سَلَّام وهو يحسن الثناء عليك ويحمل النشر عنك في حسن صُحْبتك وما آنسه قديمًا من أمانتك، فسرّني ذلك وأعجبني، وذكر أنه كان قد استودعك مالًا، فأَدِّي إليه أمانته ورُدِّي عليه مالَه، فإنه لم يقل إلا صدقًا ولم يطلبْ إلا حقًّا؛ فقالت: صدق، استودعني مالًا لا أدري ما هو، فادفَعْه إليه بطابَعه؛ فأثنى عليها حسينٌ خيرًا وقال: أَلَا أُدْخله عليك حتى تتبرَّئي إليه منه كما دفعه إليك؟ ثم لَقِي عبد الله وقال: ما أنكرتْ مالَك، وإنها زعمتْ أنه بطابعك، فادخل إليها وتسلّم مالك منها؛ فقال: أَوَ ما تأمر من يدفعه إليّ؟ قال: لا! بل تقبِضه منها كما دفعتَه إليها. ودخل عليها حسين وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته؛ فأخرجتْ إليها البِدَر فوضعتها بين يديه وقالت: هذا مالُك؛ فشكر وأثنى. وخرج حسين عنهما، وفضّ عبد الله بن سَلَّام خواتم بَدْرة وحَثَى لها من ذلك وقال: خُذِي فهو قليل مني؛ فاستعبرا جميعًا حتى عَلَتْ أصواتهما بالبكاء أسفًا على ما ابتُلِيا به؛ فدخل الحسين عليهما وقد رقّ لهما فقال: أُشهد الله أنها طالقٌ ثلاثًا، اللّهم قد تعلَم أني لـم أستنكحها رغبةً في مالها ولا جمالها، ولكني أردت إحلالها لبَعْلها. فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساق إليها من مَهْر؛ فأجابته إلى ذلك؛ فلم يقبله الحسين وقال: الذي أرجو إليه من الثواب خيرٌ لي. فلما انقضَتْ أقراؤها تزوّجها عبد الله، وحَرَمها اللهُ تعالى يزيدَ بن معاوية.

ومن مكائد معاوية[2] أن رجلًا من قريش أُسِر فحُمِل إلى صاحب القسطنطينية، فكلّمه ملك الروم، فجاوبه القرشيّ بجواب لـم يوافقه؛ فقام إليه رجل من بطارقة

---

(١) الحسين بن علي: هامش ٣ صفحة ٢٠. (٢) معاوية: هامش ١ صفحة ٦.

صاحب القسطنطينية فوَكَزه، فقال القرشيّ: وَامُعاوِيَاهْ! لقد أغفلتَ أمورنا وأضعتنا. فوصل الخبر إلى معاوية فطَوَى عليه واحتال في فِداء الرجل. فلما وصل إليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن اسم البِطْريق الذي وكزه؛ فلما عرفه أرسل إلى رجل من قوّاد صُورَ[١] الذين كانوا قوّاد البحر ممن عُرِف بالنَّجْدة وغزو الروم، وقال له: أَنْشِئ مركبًا يكون له مجاديف في جوفه، واستعمِل السفر إلى بلاد الروم، وأَظْهِرْ أنك إنما تسافرُ لبلادهم على وجه السرّ والاستتار منا، وتوصَّلْ إلى صاحب القسطنطينية ومَكِّنْه من المال واحمِلْ إليه الهدايا وإلى جميع أصحابه، ولا تَعْرِضْ لفلان (يعني الذي لَطَم الرجل القرشيّ) واعْمَل كأنك لا تعرفه، فإذا كلّمك وقال لك: لأيِّ معنًى تُهادي أصحابي وتتركني، فاعتذِرْ إليه وقل له: أنا رجلٌ أدخل إلى هذه المواضع مستترًا ولا أعرفُ إلا من عُرِّفْتُ به، فلو عَرَفْتُ أنك من وزراء الملك لهاديتُك كما هاديتُ أصحابك، ولكني إذا انصرفت إليكم مرةً أخرى سأعرف حقك. ففعل القائدُ ذلك. ولما انصرف إليهم ثانية هاداه وألطفه[٢] وأربى[٣] في هديته على أصحابه، ولم يزل حتى اطمأن إليه العِلْج[٤]. فلما كان في إحدى سَفَراته قال له البطريق: كنت أُحِبُّ أن تجلِب إليّ من بلاد المسلمين وِطاء ديباج يكون على ألوان الزهر؛ قال: نعم. فلما انصرف أخبر معاويةَ بما طلبه البطريق؛ فأمر له ببساط على ما وَصَف، وقال: إذا دخلت وادي القسطنطينية فأَخْرِجه وابسُطه على ظهر المركب وتربّصْ في الوادي حتى يصِلَ الخبرُ إلى ذلك العِلْج، وابعَثْ له في السرّ وتحيَّنْ خروجه إلى ضَيْعته التي له على ضَفّة وادي القسطنطينية، فإذا وصلتَ إلى حدّ ضيعته فابتدِئ بها، لعلّ يحمله الشره على الدخول إليك؛ فإذا حصل عندك في المركب فَمُرِ الرجالَ بإشارة تكون بينك وبينهم أن يستعملوا المجاديف التي في جوف المركب، وكُرّ به راجعًا إلى الشأم. ففعل ما أمره به معاوية. وصادف وصولُ ذلك القائد وجودَ البطريق في ضيعته، فبَسَط ذلك البساطَ على ظهر المركب ووصل إلى عُرْض ضَيعة العلج؛ فلما عاين البساطَ حَمَله الشَرَهُ والحرص إلى أن دخل المركب، فلما صار في المركب أشار القائد إلى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريقَ ومن معه، وسار بهم حتى قَدِم على معاوية. فأحضر معاوية البطريق ووَقَفه بين يديه، وأحضر القرشيّ وقال: هذا صاحبك؟ قال: نعم؛

---

(١) صور: مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في جنوب لبنان.

(٢) ألطفه: بره، اللسان، مادة: لطف. (٣) أربى: أراد، اللسان، مادة: ربى.

(٤) العِلج: الرجل من كفار العجم، اللسان، مادة: علج.

قال: قمْ فاصنعْ به ما صنع بك ولا تزد؛ فقام القرشيّ فوكزه كما كان فعل به العلج. ثم قال معاوية للبطريق: ارجع إلى مَلِكك وقلْ له: تركتُ ملك الإسلام يقتصُّ من أصحاب بِساطك، وقال الذي ساقه: انصرفْ به إلى أوّل أرض الروم وأخرجه، واترك له البساط وكل ما سألك أن تحمله إليه من هديّة. فانصرف به إلى فم وادي القسطنطينية، فوجد ملكَ الروم قد صَنَع سلسلةً على فم الوادي ووكَّلَ بها الرجال، فلا يدخل أحد إلى الوادي إلا بإذنه؛ فأخرج العلجُ ومن معه وما معه. فلما وصل إلى مَلِكه ووصف له ما صنع به معاوية قال: هذا ملك كبير الحِيلة. فعَظُم معاوية في أعينهم وفي نفوسهم فوق ما كان. وهذه الواقعة محاسنها تستُر مساوي ما تقدّمها.

وهذا الباب متّسع، ستقف إن شاء الله في التاريخ الذي أوردناه في كتابنا هذا على ما تكتفي به وتَطّلع منه على المكائد.

وحيث انتهينا إلى هذه الغاية في أوصاف قادة الجيوش، فلنذكر الآن فضيلة الجهاد ووصف الجيوش والوقائع.

ذكر ما ورد في الجهاد وفضله وترتيب الجيوش وأسمائها في القلة والكثرة، وأسماء مواضع القتال، وما قيل في الحروب والوقائع، وما وُصِفت به

فأما ما ورد في الجهاد وفضله. قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصَّف: الآية ٤]. وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ١٩]. وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: الآية ١١١]. وأثنى الله تعالى على المجاهدين ووعدهم الجنة في آيٍ كثير. وقال رسول الله ﷺ لرجل جاءه فقال له يا رسول الله: دُلّني على عمل يعدِلُ الجهاد قال: «لَا أَجِده». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن فرس المجاهد لَيَسْتَنّ[1] في

(١) يَسْتَنُّ: يعدو من المرح والنشاط من غير أن يكون عليه أحد. اللسان، مادة: سنن.

طِوَلِه[١] فيُكْتَبُ له حَسَناتٍ. وعن رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائةَ درجةٍ أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض». وعنه ﷺ أنه قال: «لَغَدْوَةٌ[٢] في سبيل الله أو رَوْحةٌ[٣] خيرٌ من الدنيا وما فيها». وفي لفظة: «الرَّوْحةُ والغَدْوةُ في سبيل الله أفضلُ من الدنيا وما فيها». وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٌ يسرّه أن يرجِعَ إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لمَا يَرَى من فضل الشهادة فإنه يَسُرُّه أن يرجعَ إلى الدنيا فيُقْتَلَ مرةً أخرى». وعنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لولا أنّ رجالًا من المؤمنين لا تَطِيبُ أنفسهم أن يتخلّفوا عني ولا أجِدُ ما أحمِلُهم عليه ما تخلّفتُ عن سَرِيَّةٍ تغزو في سبيل الله والذي نفسي بيده لَوَدِدْتُ أَنّي أُقْتَلُ في سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل». وعنه ﷺ أنه قال: «ما اغْبَرَّتا قَدَمَا عبدٍ في سبيل الله فتَمَسَّه النارُ». وعنه ﷺ أنه قال: «الجَنّة تحت ظِلَال السيوف». والأحاديثُ الصحيحة متضافرة بفضيلة الجهاد وما أعدّ الله للمجاهدين والشهداء. وقد ترجم على ذلك البخاريّ وغيره.

* * *

وأما ما قيل في أسماء العساكر في القلة والكثرة وأسماء مواضع القتال ـ قالوا: الكَتِيبة: ما جُمِع فلم ينتشر. والحَضِيرة: العشرةُ فمن دونهم. والمِقْنَب والمَنْسِر من الثلاثين إلى الأربعين. والهَيْضَلة: جماعة غير كثيرة. والرَّمّازة: التي تموج من نواحيها. والجَحْفَل: الجيش الكثير. والمَجْر: أكثر ما يكون.

وقال الثعالبيّ[٤] في فقه اللغة عن أبي بكر الخُوَارَزْميّ[٥] عن ابن

(١) طول: حبل طويل جدًا تشد به قائمة الدابة ويمسك صاحبه بطرفه ويرسلها ترعى، اللسان، مادة: طوَل.

(٢) الغُدوة: الخروج صباحًا، اللسان، مادة: غدو. (٣) الروحة: الخروج مساءً، اللسان، مادة: روح.

(٤) الثعالبي: توفي ٤٢٩ هـ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور كان فراءً يخيط جلود الثعالب فنسب إلى صناعته، مترسل، أديب، مؤلف ومصنف وشاعر له: ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. ـ لطائف المعارف. ـ فقه اللغة. ـ والإعجاز والإيجاز. ـ خاص الخاص. ـ مكارم الأخلاق. ـ غرر أخبار الملوك. ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. ـ شمس الأدب في استعمال العرب. ـ الكتابة والتعريض. ـ أجناس التجنيس. ـ سحر البلاغة. ـ غرر البلاغة. ـ اللطف واللطائف. ـ من غاب عنه الطرب. ـ برد الأكباد في الأعداد. ـ التوفيق للتلفيق. ـ النهاية في الكناية. ـ التمثل والمحاضرة. ـ كتاب الغلمان. ـ تحفة الوزراء. ـ كنز الكتاب. ـ أحاسن المحاسن. ـ المبهج. ـ اللطائف والظرائف. ـ يواقيت المواقيت. راجع فيه: ـ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٣٢٠ و٣٢٩ ـ ٣٣٣. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٨٤. ـ دائرة المعارف الإسلامية.

(٥) أبو بكر الخوارزمي: توفي ٣٨٣ هـ هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، ابن أخت=

خَالَوَيْهِ[1]: أقلُّ العساكرِ الجَرِيدة؛ ثم السريّة وهي من الأربعين إلى الخمسين؛ ثم الكتيبة وهي من مائة إلى ألف؛ ثم الجيش وهو من ألف إلى أربعة آلاف، وكذلك الفيلق والجحفل؛ ثم الخميسُ وهو من أربعة آلاف إلى اثني عشر ألفًا؛ والعسكر يجمعها.

ولأسماء العساكر نعوت في الكثرة وشدّة الشوكة.

فأما نعوتها في الكثرة ـ فإنه يقال: كتيبةٌ رَجْرَاجةٌ؛ جيشٌ لَجِب؛ عسكر جَرَّار؛ جحفل لُهَام؛ خميسٌ عَرَمْرَم.

وأما نعوتها في شدّة الشوكة مع الكثرة ـ فإنه يقال: كتيبةٌ شهباءُ إذا كانت بيضاء من الحديد؛ وخضراءُ إذا كانت سوداء من صَدَإِ الحديد؛ ومُلَمْلَمة إذا كانت مجتمعة؛ ورَمّازة إذا كانت تموج من نواحيها؛ ورَجْرَاجة إذا كانت تتمخَّض ولا تكاد تسير؛ وجَرَّارة إذا كانت لا تقدِر على السير إلا رُوَيْدًا من كثرتها.

وأما أسماء مواضع القتال ـ فمنها: الحَوْمة؛ والمَعْركة؛ والمُعْتَرك؛ والمَأْقِط؛ والمأْزِم، والمأْزِق.

وأما أسماء غُبار الحرب ـ النَّقْع والعَكُوب: هو الغبارُ الذي يثور من حوافر الخيل وأخفاف الإبل. الرَّهْج والقَسْطَل: غبار الحرب. الخَيْضَعَة: غُبار المعركة.

* * *

= محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ. كاتب، وشاعر ولغوي ونسابة وحافظ. جالس ابن عباد. ترك رسائل وأشعار في يتيمة الدهر. راجع فيه: ابن خلكان، وفيات، ص ٥٣٣. ـ الثعالبي، اليتيمة، ٤/ ١١٤. ـ بديع الزمان الهمذاني، الرسائل، ص ٢٨ وما بعدها. ـ شوقي ضيف، الغزو ومذاهبه في النثر العربي. ـ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦.

(١) ابن خالويه: أبو عبد الحسن بن أحمد بن خالويه، ولد بهمذان قدم سنة ٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م بغداد، أخذ عن ابن دريد وابن الأنباري، أمعن الحديث في المدينة، قدم الشام وتوطن حلب واتصل بآل حمدان توفي بحلب سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م. بقي من مصنفاته: ـ رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن. ـ شواذ القراءات. ـ الحجة في قراءات الأئمة. ـ كتاب الشجر. ـ كتاب ليس. ـ كتاب الريح. ـ كتاب الإشارات. ـ شرح مقصورة ابن دريد. ـ شرح ديوان أبي فراس. ـ اشتقاق الشهور والأيام. راجع فيه: ـ الثعالبي، اليتيمة ١/ ٧٦. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ١٨٦. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

وأما ما قيل في الحروب والوقائع، وشيء مما وُصِفت به ـ قالوا: أبلغ ما قيل في صفة الحرب قول الأوّل: [من الوافر]

كـأنّ الأُفـقَ مـحـفـوفٌ بـنـارٍ   وتـحـتَ الـنـارِ آسادٌ تَـزِيـرُ[١]

وقول الآخر: [من الطويل]

ويوم كأنّ المُصْطلين[٢] بحرّه   وإنْ لم يكن جمرٌ وُقُوفٌ عَلى جمرِ
صَبَرْنَا له حتّى تجلّى، وإنّما   تُفَرَّجُ أيامُ الكريهة بالصّبر

وقال البُحْتُرِيّ[٣] يصف جيشًا اتّبع مقدّمه: [من الكامل]

حُمْرُ السيوفِ كأنّما ضَرَبتْ لهم   أيدِي القُيُونِ صفائحًا من عَسْجَدِ[٤]
في فِتْيةٍ طلبوا غُبارَك إنه   رَهَجٌ تَرَفَّع عن طريق السُّودَدِ[٥]
كالرمح فيه بِضْعَ عَشْرَةَ فِقْرَةً   مُنقادةً خلف السِّنان الأصْيَدِ

وقول النابغة الجَعْدِيّ[٦]: [من البسيط]

تبدُو كواكبُه والشمسُ طالعةٌ   لا النُّورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

وقال أبو الفَرَج البَبَّغاء[٧]: [من الطويل]

ومَوْشِيّةٍ بالبِيضِ والزَّغْفِ والقَنا   مُحَبَّرةِ الأعطافِ بالضُّمَّر القُبِّ[٨]

---

(١) تزير: تزأر، زئير الأسد: صوته، اللسان، مادة زأر.
(٢) اصطلى: تدفأ. اللسان، مادة: صلي.   (٣) البحتري: هامش ٥ صفحة ٤٢.
(٤) القين: الحداد، اللسان، مادة: قين.
(٥) رهج: غبار وسحاب رقيق، اللسان مادة: رهج.
(٦) النابغة الجعدي: أبو ليلى عبد الله بن قيس من بني جعد بن كعب، ولد في الفلج جنوب نجد، قدم مجلس النبي وشهد فتح فارس وحارب مع علي يوم صفين ومات معمرًا بأصبهان سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م. جمعت قطعًا من ديوانه ماريا نلينو. راجعه في: ـ الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٢٦ ـ ٢٨. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٥٨ ـ ١٦٤. ـ الأغاني، ٤/ ١٢٨ ـ ١٤٠. ـ المرزباني، المعجم، ص ٣٢١. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٣٢.
(٧) أبو الفرج الببغاء، عبد الواحد (وقيل عبد الملك) بن نصر بن محمد المخزومي النصيبي لقب بالببغاء للثغة كانت في لسانه، من شعراء سيف الدولة الحمداني قدم الموصل وبغداد بعد سيف الدولة. كان شاعرًا مجيدًا وكاتبًا مترسلًا جيد المعاني. توفي ٣٩٨ هـ/١٠٠٨ م. راجعه في: ـ الثعالبي، اليتيمة ١/ ١٧٣ ـ ٢٠٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى ٦/ ٤٣٣ و٧/ ٣٥ و٩/ ٢٢ و١٨٥. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٩٨.
(٨) زغف: دروع، اللسان مادة زغف. الضمر القب: من صفات الخيل. الضامرة والرفيعة الخصر. =

بعيدةِ ما بين الجَناحين في السُّرَى — قريبةِ ما بين الكمِينَيْنِ في الضربِ[(١)]
من السالباتِ الشمسَ ثَوبَ ضيائِها — بثوبِ تَوَلَّى نَسْجَه عِثْيَرُ التُّرْبِ[(٢)]
يُعاتب نشوانُ القَنا صاحِيَ الظُّبَا — إذا التقيا فيها على قِلَّة الشُّرْب
أعادتْ علينا الليلَ بالنَّقْع في الضُّحى — ورَدَّتْ علينا الصبحَ في الليل بالشُّهب
تَبَلَّجُ عن شمسَيْ نِزارٍ ويَعْرُبِ — وتَفْتَرُّ عن طَوْدَيْ عُلًا تَغْلِب الغُلْبِ[(٣)]
مُوَقَّرةٍ يقتادُ ثِنْيَ زِمامها — بصيرٌ بأدواء الكريهةِ في الحرب
أَصحّ اعتزامًا من خَؤُونٍ على قِلًى — وأنفذ حكمًا من غرامٍ على صَبِّ

وقال أحمد بن محمّد بن عبد ربّه[(٤)]: [من الوافر]

ومعتَرَكٍ تَهُزُّ به المنايا — ذكورَ الهند في أيدي ذكورِ[(٥)]
لوامع يُبصر الأعمى سَنَاها — ويَعْمَى دونها طَرْفُ البصير
وخافقةِ الذوائبِ قد أنافتْ — على حمراء[(٦)] ذاتِ شبا[(٧)] طريرِ[(٨)]
تُحَوِّم حولها عِقْبَانُ موتٍ — تخطَّفَتِ القلوبَ من الصدورِ
بيومٍ راحَ في سِرْبالِ ليلٍ — فما عُرِف الأصيلُ من البُكورِ
وعينُ الشمسِ ترنُو في قَتامٍ[(٩)] — رُنُوَّ البِكر من خلف الستور
فكم قَصَّرت من عمرٍ طويلٍ — وكم طَوَّلت من عمرٍ قصير

= اللسان، مادة ضمر ومادة قبب.

(١) الكمينين: الجيشين المتقابلين والفارسين المتضاربين. اللسان، مادة: كمن.

(٢) العثير: الغبار. اللسان، مادة: عثر.

(٣) افترّ: تلألأ. اللسان، مادة: فتر. الطود: الجبل والتلة. اللسان، مادة: طود.

(٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه، أبو عمر (أبو عمرو) ٢٤٦ هـ/ ٨٦٩ م، ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م. ولد في قرطبة مولى للأمويين ورغم ذلك كان يتشيع. كان شاعرًا مطبوعًا، كثير النتاج في الأدب والشعر، له من الكتب: ـ العقد الفريد حاكى فيه عيون الأخبار وسطا على كثير من مضمونه. راجع فيه: ـ الثعالبي، اليتيمة، ١/ ٤١٢ ـ ٤٣٦. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٤٥. ـ البستاني، الروائع، ص ٨ ـ ٩، بيروت سنة ١٩٢٧. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٣٩ ـ ١٤١.

(٥) ذكور الهند: السيوف، اللسان مادة ذكر ومادة هند.

(٦) الحمراء: القناة، اللسان، مادة: حمر. (٧) شبا: حد، اللسان، مادة: شبو.

(٨) طرير: المحدد، اللسان، مادة: طرر.

(٩) القتام: الظلام والسواد والغبار الأسود، اللسان، مادة: قتم.

وقال أيضًا: [من الطويل]

ومُعتركٍ ضَنْكٍ تعاطتْ كُمَاتُهُ كُؤوسَ دِماءٍ من كُلًى ومَفَاصلِ
يُديرونها رَاحًا من الرُّوح بينهمْ بِبِيضٍ رِقاقٍ أو بسُمْرٍ ذوابلِ
وتُسمعهُم أمُّ المنيّةِ[١] وسطها غِناءَ صَلِيلِ البَيضِ تحتَ المَناصلِ

وقال التَّنُوخِيّ[٢] شاعر اليتيمة: [من الكامل]

في موقفٍ وقفَ الحِمامُ ولم يَزُغْ عن ساحتيه وزاغتِ الأبصارُ
فَقَنًا تسيلُ من الدماء على قَنًا بِطَوالهن تُقَصَّرُ الأعمارُ[٣]
ورؤوسُ أبطالٍ تَطَايَرُ بالظُّبَا فكأنها تحت الغُبَار غُبارُ

وقال ابن الخَيَّاط الأندَلُسِيّ[٤]: [من الطويل]

سيوفٌ إذا اعتلَّتْ جِهاتٍ بغورةٍ[٥] فمنهنّ في أعناقهن تمائمُ[٦]
وكلُّ خميسٍ طَبّقَ الجوَّ نَقْعُهُ وضَيّق مَسْراه الجيادُ الصلادم[٧]
كأنّ مثارَ النقع إثمِدُ عينه وأشفارَ عينيه الشِّفارُ الصوارمُ[٨]
تَعُدّ عليه الوحشُ والطيرُ قُوتها إذا سار والتفّتْ عليه القَشَاعِمُ[٩]

والبيت الأوّل مأخوذ من قول المتنبي[١٠]: [من الطويل]

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ومن جُثَثِ القَتْلَى عليها تمائمُ

---

(١) أم المنية: من أسماء الحرب.
(٢) التنوخي، علي بن محمد (٣٤٢ هـ/ ٩٥٣) كان قاضيًا وشاعرًا. راجع فيه: ـ اليتيمة، الثعالبي، ٢/ ١٠٥ ـ ١١٥. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٤٣٨. ـ ياقوت، الإرشاد، ٥/ ٣٣٢ ـ ٣٤٧. ـ له أشعار في ٤/ ٧٥٦ Berlin. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ١٤٤.
(٣) قنا: مجاري المياه؛ قنا: رماح، اللسان، مادة: قنى.
(٤) ابن الخياط الأندلسي، شاعر.
(٥) غورة: فيها تحريف ولعلها «جهات ثغوره أو جهات بثوره، جهات بغارة».
(٦) تمائم: خرز يعلقه لدفع العين الحاسدة. اللسان، مادة: تمم.
(٧) الصلادم: الشديد الحافر من الحيوان، اللسان، مادة: صلد.
(٨) الشِّفار الصوارم: السيوف القاطعة. اللسان، مادة: شغر.
(٩) القشاعم: الطيور المسنة، اللسان، مادة: قشعم.
(١٠) المتنبي: هامش ٥ صفحة ٤٤.

وقال الحِمّانيّ[١]: [من المتقارب]

وإنّا لَتُصبِحُ أسيافُنا إذا ما انتُضِينَ ليوم سَفُوكِ
منا بِرهُن بطونُ الأكُفّ وأغمادُهن رؤوسُ الملوكِ

وقال حَسّان[٢]: [من المتقارب]

إذا ما غَضِبنا بأسيافنا جعلنا الجماجِمَ أغمادَها

قال رجل من بني تميم لرجل عِبَادِيّ: لم يكن لآل نَصْر بن ربيعة صولةٌ في الحرب. فقال: لقد قلتَ بُطْلا، ونطقت خَطَلا؛ كانوا والله إذا أَطْلقوا عُقُلَ الحرب رأيت فرسانًا تَمُور كرِجْل الجراد، وتَدَافَعُ كتدافع الأمداد؛ في فيلق حَافَتاه الأسَل، يضطربُ عليها الأجل؛ إذا هاجت لم تتناهَ دون إرادتها، ومنتهى غايات طَلِباتها؛ لا يدفعُها دافعٌ، ولا يقومُ لها جَمْعٌ جامع؛ وقد وَثِقت بالظفر لعِزِّ أنفسها، وأيقنت بالغَلَبة لضراوة عادتها؛ خُصَّتْ بذلك على العرب أجمعين.

قال جرير[٣]: [من الطويل]

لَقَوْمِيَ أحمى للحقيقة منكُم وأضربُ للجَبَّارِ والنقعُ ساطعُ
وأوثقُ عند المردَفاتِ عَشِيَّة لحَاقًا إذا ما جَرَّد السيفَ لامعُ[٤]

---

(١) الحماني: علي بن محمد بن جعفر العلوي سمي بالحماني نسبة إلى حي بالكوفة، كان أديبًا وشاعرًا في العصر العباسي.

(٢) حسان بن ثابت الأنصاري ٥٩٠ م - ٦٧٤ م/ ٥٤ هـ. مديني خزرجي مخضرم بين الجاهلية والإسلام. كان شاعرًا يفد في الجاهلية على ملوك لخم وغسان ولما جاء الإسلام أصبح شاعر النبي. وبعد النبي انضم إلى العثمانية ونسبت إليه أشعار كثيرة متضاربة... ترك ديوان شعر. راجع فيه: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٧٠ - ١٧٣. - أبو الفرج، الأغاني، ٤/ ٢ - ١٧. - المرزباني، المعجم، ص ٦٠ - ٦٣. - البستاني، الروائع، ص ٣٣. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٥٢ - ١٥٥.

(٣) جرير بن عطية (الخطفي) حذيفة بن بدر من كليب من تميم. أبو خزرة (١١٠ هـ/ ٧٢٨ م). ولد في خلافة علي شهرته قامت على الهجاء وخاصة مع الفرزدق والأخطل ويؤلف معهما شعراء النقائض. مدح عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز. ترك ديوان شعر والنقائض. راجع فيه: - الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٨٦ - ١٠٨. - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٨٣. - الأصفهاني، الأغاني، ٧/ ٣٨ - ٧٧. - دائرة المعارف الإسلامية. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢١٧ - ٢١٩.

(٤) لامع: الذي يشير بالسيف ويلوح به، اللسان، مادة: لمع.

ومن رسالة للفقيه الوزير أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني[١] قال فيها: وكتابي على حالة يشيب لشهودها مَفْرِقُ الوليد، كما تغيّر لورودها وجه الصعيد؛ بدؤها يَنْسِفُ الطريف[٢] والتالِد[٣]، ويستأصلُ الولد والوالد؛ تَذَرُ النساء أيَامَى[٤]، والأطفالَ يَتَامى؛ فلا أَيِّمَةَ إذ لم تبق أنثى، ولا يتيمَ والأطفالُ في قَيْد الأَسْرى؛ بل تعُمّ الجميع جَمًّا جَمًّا فلا تَخُصّ، وتزدلف إليهم قُدُمًا قُدُمًا فلا تَنْكُص[٥]؛ طَمَتْ حتى خِيفَ على عُرْوة الإيمان الانفضاض، وطَمّت حتى خُشِي على عمود الإسلام الانقِضاض، وسَمَتْ حتى تُوُقِّع لجَناح الدين الانهياض[٦].

وفي فصل منها: وكأن الجمعَ في رَقْدة أهل الكهف، أو على وعدٍ صادقٍ من الصَّرْف والكشف.

ومنها: وإن هذا الأمرَ له ما بعده، إلا أن يُسَنِّي[٧] الله على يديك دفعه وصدَّه: [من الطويل]

وكم مثلِها شوهاء نهنهتُ[٨] فانثنتْ
ونـاظـرُهـا مـن شـدّة النَّـقْـعِ[٩] أرمـدُ[١٠]
فمرّت تنادي: الويلُ للقادحِ الصَّفَا
لَبَعْضُ القلوبِ الصخرُ أو هي أجلدُ![١١]
وأبـقـتَ ثـنـاءً كـالـلطـائـم[١٢] نُـشِّـرتْ
تَـبِـيـد الـلـيـالـي وهـو غَـضٌّ يُـجَـدَّدُ

---

(١) عمر بن الحسن الهوزني، أبو حفص، أندلسي من أهل إشبيلية، شاعر وأديب وعالم بالحديث ومن رجال السياسة، مترسل، كان صاحب صلاة الجماعة بقرطبة على عهد عبد الرحمٰن بن معاوية وهشام الرضي ابنه، وهوزن بطن من ذي الكلاع الأصغر. ابن بسام، الذخيرة، ٢/٤٨.
(٢) الطريف: المال الحديث، اللسان مادة: طرف.
(٣) التالِد: المال الموروث، اللسان، مادة: تلد.
(٤) أيامى جمع أيم: المرأة وقد مات زوجها عنها، اللسان، مادة: أيم.
(٥) تنكص: تراجع، اللسان مادة نكص.
(٦) الانهياض: اللين، اللسان، مادة: هيض.
(٧) يُسني: يسهل، اللسان، مادة: سني.
(٨) نهنه: كف ومنع، اللسان، مادة: نهنه.
(٩) النقع: الغبار، اللسان مادة: نقع.
(١٠) أرمد: مصاب بمرض الرمد في العيون. اللسان، مادة: رمد.
(١١) أجلد: ولعلها أصلد. والجلد: القوة والصبر على التحمل، اللسان، مادة: جلد.
(١٢) اللطائم جمع لطيمة: وعاء المسك، اللسان، مادة: لطم.

وفي فصل منها في الحرب: والحربُ في اجتلائها حسناءُ عروس تَطَّبِي[١] الأغمارَ[٢] بِزَّتُها، وفي بنائها شمطاءُ[٣] عَبُوسٌ تختلي الأعمارَ[٤] غِرَّتُها[٥]؛ فالأقلُّ للَهبِها واردُ، والأكثرُ عن شُهُبها حائدُ؛ فأَخْلِقْ بمجيدٍ عن مكانها، وعُزَلةٍ في ميدانها؛ فوَقودها شِكَّةُ السلاح، وقتارُها[٦] متصاعدُ الأرواح؛ فإن عسعس ليلها مرّةً لانصرام، أو انبجس وَبْلُها ساعةً لانسجام؛ فيومُها غسق يردّ الطَّرْفَ كليلًا، ونَبْلُها صَيِّبٌ يزيد الخوفَ غليلًا.

وقال فيها: [من الطويل]

أعَبّادُ ضاقَ الذَّرْعُ[٧] واتَّسع الخَرْقُ[٨] ولا غربَ للدنيا إذا لم يكن شرقُ
ودُونَكَ قولًا طالَ وهو مقصِّرٌ وللعين معنًى لا يُعَبِّره النطقُ
إليك انتهت آمالُنا فارمِ ما دهى بعزمك يَدْمَغْ هامةَ الباطل الحق

وما أخطأ السبيلَ من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجأ الدليلَ من ناط الأمور بأربابها؛ ولربّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدْمَج، ومحبوبٍ في طَيّ المكاره مُدْرَج؛ فانتهزْ فُرصتَها فقد بان من غيرك العجزُ؛ وطَبِّقْ مَضَارِبَها فكأنْ قد أمكنك الحَزّ؛ ولا غرو أن يُسْتَمْطَرَ الغَمامُ في الجَدْب، ويُستصحبَ الحُسَامُ في الحَرْب!

ومن إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ[٩] من جوابٍ كتبه وصف فيه وقعة، كتب: ورد على المملوك كتابُ المولى يذكر الرَّجْفة التي سَرَى منها إلى أسماع الأولياء قِبَله ما سرى إلى عيون الأولياء بحضرته؛ وتَعَاظَمهم الفادحُ الذي هم راسبون في غِماره ساهون في غَمْرته؛ ووصف عِظَمَ أثرِها ورائعَ مَنْظَرِها ومطنّ هدّتها، ومزعج

---

(١) تطَّبي: تستميل.
(٢) الأغمار: الشاب الذي لا تجربة له. اللسان، مادة: غمر.
(٣) شمطاء: امرأة عجوز، اللسان، مادة: شمط. (٤) تختلي: تقطع، اللسان، مادة: خلو.
(٥) غرة من الغرور.
(٦) القتار: دخان ذو رائحة يبعث من القدر والشواء، اللسان، مادة: قتر.
(٧) الذرع: الصدر، اللسان، مادة: ذرع.
(٨) الخرق: الجهل والحمق والمزق في الثوب البالي. اللسان، مادة: خرق.
(٩) عبد الرحيم البيساني، القاضي الفاضل، ولد في عسقلان ولي أبوه القضاء للفاطميين في بيسان فنسب هو إليها، أخذ في القاهرة عن ابن الخلال وابن قادوس وابن حديد في الإسكندرية. كتب للخليفة الظافر الفاطمي (٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ) ثم لأسد الدين شيركوه وللسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي اتخذه وزيرًا ومشيرًا وكاتبًا، غلبت الصنعة على أسلوبه راجع فيه: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٥.

واقعتها وفظيع رَوْعتها؛ واضطرابَ الجبال وخشوعها، وانشقاقَ الأبنية وصدوعَها؛ وسجودَ الحصون الشُمّ، وخضوعَ الصخور الصُّمّ، وجَأَرَ[١] العبادُ إلى ربهم لِمَا مسّهم من الضرّ، ولِياذَهم بقصده لِمَا دهاهم من الأمر؛ فوصَفَ عظيمًا بعظيم، ومثّل مَقامًا ما عليه صبرٌ مقيم؛ وأنذرَ بانتقام قائم إلا أنه كريمٌ، وجبّارٍ إلا أنه حليمٌ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون نقولها واضعين الخدودَ تَذَلُّلًا، وإنا في سبيل الله وإنا إليه نائبون تخلُّصًا ونُضَمِّنها بالقلوب إخلاصًا وتَبَتُّلًا؛ وعرف المملوكُ ما وَسِعَ الخلق من معروفه وإرفاقه، وجبر الحصونَ من عمارته منازلَ التوحيد وأوكارَه، بأمواله التي وَقَفها في سبيل الله وهانت عليه إذ كان على يد البِرِّ إخراجُها، وكرُمَتْ لديه إذ طالبت بها خطراتُ الشهوات واعتلاجُها[٢]؛ واستقرضها من الأرض خراجًا ثم وَفَّاها ما اقترض بعُمْرانها، واستجرها من بُطْنَانها ثم أعادها إلى ظُهْرانها؛ وأرساها للإسلام بقواعد حُصُونها، وأَسْنَاها في يد المسلمين بوثائقِ رُهُونها؛ ولم يزل الله يختصُّه بكل حسنة متوضحة، ويُوَفِّقه لكل صالحة مُصلحة؛ ويُنعم عليه بالنية الصادقة، ويُنعم منه بالموهبة السابغة السابقة؛ فإن نزلت نازلةٌ من وقائع الأقدار، وإن عرضت عارضة من عوارض الأيام، تَلَقّاها حامدًا، وأَسَا جرحها جاهدًا، وعوّل على ربه قاصدًا، وأنفق فيما أصبح منه عادمًا ما أمسى له واجدًا.

ذكر ما ورد في الغزو في البحر

عن أنس بن مالك[٣] رضي الله عنه، قال: حدّثتني أمُّ حَرَام أن النبيّ ﷺ قَالَ يومًا في بيتها، فاستيقظ وهو يضحكُ؛ قالت: يا رسولَ الله، ما يُضحكك؟ قال: «عَجِبتُ من قومٍ من أمتي يركَبُون البحرَ كالملوكِ على الأسِرَّة»؛ فقلت: يا رسول الله، اُدْعُ الله أن يجعلني منهم؛ قال: «أنتِ منهم»، ثم نام فاستيقظ وهو يَضْحك فقال مثلَ ذلك مرتين أو ثلاثًا؛ قالت: يا رسول الله، اُدْعُ الله أن يجعلني منهم، فيقول: «أنتِ من الأوّلين»، فتزوّج بها عُبادةُ بن الصّامِت فخرج بها إلى الغزو، فلما رجعتْ قُرِّبَتْ دابّةٌ لتركبها فوقعت فاندقَّتْ عنقُها. وفي حديثٍ آخر: «يركبون البحرَ الأخضرَ في سبيل الله مثلُهم كمثل الملوك على الأسِرَّة»، قالت: يا رسولَ الله، اُدْعُ الله أن يجعلني منهم؛ فقال: «اللّهم اجعَلْها منهم» وأنه قال مثل ذلك ثانيةً؛ فقالت:

---

(١) جأر: رفع صوته. اللسان، مادة: جأر. (٢) الاعتلاج: الاشتداد، اللسان، مادة: علج.

(٣) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري أبو ثمامة، صاحب رسول الله وخادمه، راوٍ للحديث ولد وتوفي في المدينة.

أُدْعُ الله أن يجعلني منهم؛ قال: «أنتِ من الأوّلين ولستِ من الآخِرين». وساق نحوه.

ومما قيل في القتال في البحر: قال العسكري[١] في ديوان المعاني: لم يصف أحدٌ من المتقدّمين والمتأخّرين القتالَ في المراكب إلا البُحْتُرِيّ[٢]، وعدُّوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضّلوها على كثير من الشعر، وهي: [من الطويل]

غَدَوْتَ على «الميمونِ» صُبْحًا وإنّما ... غدا المركبُ الميمونُ تحت المظَفَّرِ
أَطَلَّ بعِطْفَيه ومرَّ كأنّما ... تشرّف من هَادِي[٣] حصانٍ مشهّرِ
إذا زَمْجَرَ النُّوتِيّ[٤] فوق عَلاته[٥] ... رأيتَ خطيبًا في ذُؤابةَ مِنْبَرِ
إذا عَصَفَتْ فيه الجَنُوبُ اعتلى له ... جَنَاحَا عُقَابٍ في السماء مُهَجِّرِ
إذا ما انكفا في هَبْوة الماء خِلتَه ... تَلَفَّعَ في أَثْنَاء بُرْد مُحَبَّرِ
وحولك رَكّابون للهول عاقَرُوا ... كُؤوسَ الرَّدَى من دارعين وحُسَّرِ
تَميلُ المنايا حيث مالتْ أكُفُّهم ... إذا أصلتوا حَدّ الحديد المذكَّرِ
إذا رَشَقوا بالنار لم يكُ رَشْقُهم ... ليُقْلِعَ إلا عن شِواء مُقَتَّرِ
صَدَمْتَ بهم صُهْب[٦] العثانينِ[٧] دونهم ... ضِرابٌ كإيقادِ اللّظَى المتسعِّرِ
يسوقون أسطولًا كأنَّ سفينَه ... سحائبُ صيفٍ من جَهَامٍ ومُمْطرِ

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ابن أخت أبو علي الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، وتلميذه في آن. ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م. ترك كتبًا منها: ـ جمهرة الأمثال؛ شرح الفصيح؛ صنعة الكلام. ـ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. ـ ديوان المعاني في اثني عشر بابًا. ـ كتاب المصون وهو لخاله. ـ كتاب المعجم في بقية الأشياء. ـ كتاب الزواجر والمواعظ. ـ شرح ديوان أبي محجن الثقفي؛ رسالة في ضبط وتحرير مواضع من ديوان الحماسة. ـ كتاب الأوائل؛ الكرماء. ـ معرفة الفروق في اللغة؛ الحث على طلب العلم. ـ النوادر العربية؛ ما احتكم فيه الخلفاء إلى القضاة. ـ المعرب عن المغرب؛ تفسير القرآن. ـ أسفاره؛ مجموعة رسائل العسكري. ـ محاسن النثر والنظم من الكتابة والشعر. ـ الدينار والدرهم. راجع فيه: ـ ياقوت، الإرشاد، ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٩. ـ السيوطي، بغية الوعاة، ص ٢٢١. ـ زكي مبارك، النثر الفني، ٢/ ٩٤ ـ ١٠٢.

(٢) البحتري: هامش ٢ صفحة ٧٥.

(٣) هادي: عنق، اللسان، مادة: هدي.

(٤) النوتي: الملاح الذي يدير السفينة.

(٥) علاة: السندان والناقة المشرفة الجسيمة.

(٦) صهب: ما كان لونه فيه حمرة أو شقرة. ويكنى بهم عن الروم. اللسان، مادة: صهب.

(٧) العثانين، جمع عثنون: اللحية. اللسان، مادة: عثن.

كأنّ ضجيجَ البحر بين رِماحهم إذ اختلفتْ ترجيعُ عَوْدٍ مُجرجِرِ[١]
تقاربُ من زحفيهِمُ فكأنما تُؤلّفُ من أعناق وحشٍ مُنَفَّر
فما رِمْتُ[٢] حتى أجلتِ الحربُ عن طُلَى مُقَطَّعةٍ فيهم وهام مطيَّر
على حين لا نقعٌ تطوحه الصَّبَا ولا أرضَ تُلْفَى للصريع المقطَّرِ[٣]
وكنت ابنَ «كِسْرَى» قبل ذاك وبعده مليئًا[٤] بأن تُوهِي صَفاةَ ابنِ «قَيْصَرِ»
جَدَحتُ[٥] له الموتَ الذُّعافَ[٦] فعافه وطارَ على ألواح شَطْبٍ[٧] مسمّر
مَضَى وهو مَوْلَى الريحِ يشكرُ فضلَها عليه ومن يُولَ الصَّنيعةَ يَشْكُرِ

وحيث ذكرنا الجهادَ وفضلَه والوقائعَ والحروبَ، فلنذكر ما قيل في المرابطة في سبيل الله.

ذكر ما ورد في المرابطة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠]. والمُرابطة في سبيل الله تعالى تنزل من الجهاد والقتال منزلة الاعتكاف في المساجد من الصلاة، لأنّ المرابطَ يُقيم في وجه العدوّ متأهِّبًا مستعدًا، حتى إذا أحسّ من العدوّ بحركة أو غفلة نَهَض فلا يفوته ولا يتعذّر عليه، كما أن المعتكف يكون في موضع الصلاة مستعدًا، فإن دخل الوقت وحضر الإمام قام إلى الصلاة قال الحَليميّ[٨]: ولا شك أن المرابطة أشقُّ من الاعتكاف. على أن صرف الهمة إلى انتظار الصلاة قد سُمّي رِباطًا لما جاء في الحديث فيما يكفِّر الخطايا «وانتظار الصلاةِ بعد الصلاة فذلكم الرِّبَاطُ». وقد ورد عن النبيّ ﷺ أحاديثُ تَحُثُّ على الرباط، فمنها أنه قال ﷺ: «مَنْ مات مُرَابطًا في سبيل الله أُومِنَ من عذاب القبر ونَمَا له أجرُه إلى يوم القيامة». وعنه ﷺ: «رِبَاطُ يوم وليلةٍ في سبيل الله خيرٌ من صِيامِ شهرٍ وقِيامِه فإن مات جَرَى عليه أجرُ المُرَابطة ويُؤمَّنُ من الفَتَّان ويُقْطَعُ له برزق

(١) جرجر الصوت: ردد. اللسان، مادة: جرجر.
(٢) فما رمتَ: لم تبرح مكانك، اللسان، مادة: روم.
(٣) المقطَّر: الذي يسيل دمه؛ نقع: غبار، اللسان، مادة: نقع.
(٤) المليء بالأمر: المضطلع به القدير عليه، اللسان، مادة: ملأ.
(٥) جَدَحتُ: خلطتُ ومزجتُ، اللسان، مادة: جَدَحَ.
(٦) الموت الذعاف: السريع، اللسان، مادة: ذعف.
(٧) ألواح شطب مسمّر: السفن.
(٨) الحليمي: هامش ١ صفحة ٣.

الجنة». وعنه ﷺ أنه قال: «من مات مرابطًا في سبيلِ الله مات شهيدًا ووَقَاه الله فَتَّانى القبر وأُجْرِيَ عليه أحسنُ عمله وغُدِيَ عليه ورِيحَ برزقٍ من الجنة». وعنه ﷺ: «إذا استشاط العدوّ فخير جهادكم الرباط».

وسُنَّةُ المرابطة في سبيل الله أن يُعَدّ من الخيل والسلاح ما يُحتاج إليه، إذا كان انتظارُ الوقعة من غير استعدادٍ لها يُعرِّض للهلاك. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]. وجاء في الحديث: «إن القوّةَ الحُصُنُ ومن رِباط الخيل الحُجُورة»[1] الإناث. وروى عُقْبَة بن عامر أن النبيّ ﷺ قال: «ألا هو الرمي»؛ وقد يجوز أن يكون اللفظ جامعًا للحِصْن والرمي لأن كليهما قوّة. والله تعالى أعلم.

ذكر ما قيل في السلاح وأوصافِه

والسِّلاحُ ما قُوتِل به. والجُنَّة اسم لما اتُّقِيَ به، كالدِّرْع والتُّرْس ونحوهما. وقال العُتْبيّ[2]: بعَث عمرُ بن الخطاب[3] رضي الله عنه إلى عمرو بن مَعْديكَرِب[4] أن يبعث إليه بسيفه المعروف «بالصَّمْصَامة» فبعث إليه به؛ فلما ضَرَب به وجده دون ما بلغه عنه، فكتب إليه في ذلك؛ فأجابه يقول: إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذي يضرب به.

وسأله عمر يومًا عن السلاح فقال: ما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصَفَ؛ قال: فما تقول في التُّرس؟ قال: هو المِجَنّ وعليه تدور الدوائر؛ قال: فالنَّبْل؟ قال: مَنايَا تُخطىء وتُصيب؛ قال: فما تقول في الدِّرْع؟ قال: مَثْقَلَةٌ

---

(١) الحجورة: جمع حجر وهي الأنثى من الخيل.

(٢) العتبي: هامش ١ صفحة ٦٥. (٣) عمر بن الخطاب: هامش ٣ صفحة ٣٧.

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدي، من مذحج، ويكنى أبا ثور، ابن خالة الزبرقان بن بدر التميمي، وأخته ريحانة والدة دريد بن الصمة. كان عمرو من فرسان العرب المشهورين بالبأس في الجاهلية والإسلام، قدم على الرسول في المدينة وأسلم، ثم ارتد بعد وفاة الرسول، لكنه عاد وأسلم وهاجر إلى العراق وشهد القادسية. واستشهد في معركة النهاوند وقبره (كان ما يزال قائمًا في زمن المسعودي على فرسخ من نهاوند باتجاه دينور). شاعر مجيد. لأن بين الأخير والإسلام ستة ملوك يظهر أنه بعيد عن معديكرب آخر ملوك قحطان في اليمن. ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٤/ ٢٤. ـ المرزباني، المؤتلف والمختلف، ص ١٥٦؛ المعجم، ص ٢٠٨. ـ الخزانة ١/ ٤٢٢، ٣/ ٤٦٠. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١. ـ القالي، الأمالي، ٣/ ١٥٣. ـ المسعودي، مروج الذهب، ملوك اليمن وخلافة عمر بن الخطاب.

للراجل مَشْغَلةٌ للراكب وإنها لحِصْنٌ حَصِين؛ قال: فما تقول في السيف؟ قال: هنالك قارعتك أمك عن الثُكْل؛ قال: بل أمُّك! قال: بل أمُّك يا أميرَ المؤمنين! فعَلَاه أميرُ المؤمنين بالدِّرَّة. وقيل: بل قال له ـ لما قال عمر بل أمك ـ قال: أمي يا أمير المؤمنين «والحُمَّى أضرعتني لك» أراد أن الإسلام قيدني، ولو كنتُ في الجاهليّة لم تكلمني بهذا الكلام. وهو مثل تضربه العرب إذا اضطُرّت للخضوع[1].

ومثل ذلك قول الأغرّ النهشليّ[2] لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين قومه فقال: يا بُنَيّ، كن بدًا لأصحابك على ما قاتلهم، وإياك والسيفَ فإنه ظِلُّ الموت، واتَّقِ الرمحَ فإنه رِشَاءُ المنيّة، ولا تقرَبِ السهامَ فإنها رُسُل تَعْصِي وتُطِيعُ. قال: فبم أقاتل؟ قال: بما قال الشاعر: [من الطويل]

جـلامـيـدُ أمـلَاءُ الأكُـفّ كـأنـهـا رُؤوسُ رجالٍ حُلِّقَتْ في المواسم[3]

فعليكَ بها وألْصِقْها بالأعقاب والسُّوق.

ما قيل في السيف من الأسماء والنعوت والأوصاف

وقد أوردتها على حروف المعجم على ما أورده صاحبُ كتاب خزائن السلاح. فمن ذلك «إبريق» وهو الشديد البريق «أبْيَض». «أذُوذ» وهو القاطع. «إصْلِيت» وهو الصقيل. «أغْلَف» إذا كان في غِلافه. «أنِيث» وهو الذي يُتَّخَذ من حديد غير ذكر. «بَاتر» أي قاطع. «بَتَّار» وهو اسم لسيف كان للنبيّ ﷺ. «بُصْرَوِيّ» منسوب لبُصْرَى. قال الشاعر: [من الطويل]

صفائحُ بُصْرَى أخلصتْها قُيُونُها ومُطَّرِدًا من نسج داود مُحْكما[4]

---

(١) يريد أن يصف السيف بأنه الأفتك بين أنواع السلاح فسلك سبيل الكناية عندما يقول هنالك: أي إذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف، قارعته أمه ودافعته عن الثكل والهلاك إشفاقًا عليه فإن الإشفاق أعظم ما يكون على المنازل إذا كان السلاح السيف، لأن ضرباته صائبة وقاتلة.

(٢) ورد النص في عيون الأخبار: قال أبو الأغر لابنه الأغر لما بعثه... ـ ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١/ ١٣١ كتاب الحرب.

(٣) في عيون الأخبار:

«جـلامـيـد يـمـلأن الأكـف كـأنـهـا»

وهي الرواية الأصح.

(٤) قيون جمع قين: حداد، اللسان، مادة: قين.

«بَوادِر» أي قواتل. «بَارِقة» وهي السيوف التي تبرق. «جِنثِيّ»؛ قال الشاعر: [من الطويل]

ولكنها سُوقٌ يكون بِيَاعها بِجُنثِيَّةٍ قد أخلصتها الصَّيَاقِلُ

«جُرَاز» أي قاطع. «جَمَّاد» بمعناه؛ وفيه يقول الأزهريّ[1]: [من الكامل]

لَسَمِعتُمُ من حَرّ وَقْعِ سيوفنا ضربًا بكلّ مُهَنَّدٍ جَمَّادِ

«حُسَام» أي قاطع. «حُدَّاد» من الحديد. «حداد» من الحِدَاد كأنه أشار إلى لون. «خَشِيب» أي صَقِيل، وهو من أسماء الأضداد. «خَشِيف» أي ماضٍ. «خَذِيم» أي قاطع. «خَضَعَةٌ» وهي السيوف القواطع. «دَدَان» أي لا يقطع. «ذَالِق» أي سَلِس الخروج من غِمْده. «ذَلُوق» مثله. «ذَكَر» أي ذو ماء. «ذُو الكَرِيهة» وهو الماضي في الضَّرِيبة. «ذو الفَقَار» سيف رسول الله ﷺ. «ذو هِبَّة» أي ذو هِزَّة ومَضَاء. «ذَرِب» أي محدَّد. «ذو النُّون» سيف مالكُ بن زُهَير. «ذو ذُكْرَة» وهو الصارم. «رَسُوب» وهو الذي يغيب في الضَّرِيبة «رِدَاءُ». «سيف» وجمعه أسياف وسيوف وأَسْيُف. قال الشاعر: [من البسيط]

كأنهم أَسْيُفٌ بِيضٌ يَمَانِيَةٌ غَضْبٌ مَضَارِبُها باقٍ بها الأُثُرُ[2]

«سُرَاط» و«سُرَاطي» أي قاطع. «سَقَّاط» وهو الذي يسقط من وراء الضريبة، «سُرَيْجِي» منسوب إلى قَيْن يقال له سُرَيْج. «شَلْحاء». «صَقِيل». «صَارِم» أي قاطع. «صَفِيحة» وهو العريض. «صَمْصَام» وهو الذي لا ينثني. «صَمْصَامة» مثله، وهو سيف عمرو بن مَعْدِيكَرِب[3]؛ وفيه يقول: [من الوافر]

خَلِيلٌ لم أخنهُ ولم يَخُنِّي على الصَّمصامةِ السيفِ السلامُ

---

(١) أبو منصور محمد بن أحمد بن أزهر بن طلحة الأزهري الهروي ولد ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م، قدم بغداد وحج سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٣ ووقع في أسر القرامطة، ترك من الكتب: ـ تهذيب اللغة. ـ كتاب الظاهر في غريب ألفاظ الشافعي. راجعه في: ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٦١١. ـ ياقوت، الإرشاد، ٦/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩. ـ ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٩٥١. ـ ابن العماد، الشذرات، ٣/ ٧٢. ـ السيوطي، بغية الوعاة، ص ٨. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) ورد في لسان العرب بعجز مختلف:

«بيض مضاربها يبقى بها الأثر»

مادة أثر.

(٣) عمرو بن معديكرب: هامش ٤ صفحة ١٧٠، والبيت في لسان العرب يختلف في عجزه:

«على الصمصامة أم سيفي سلامي»

مادة صمم وهي الرواية الأصح باعتبار ما أورده النويري فيه إقواء.

وقال أيضًا: [من الوافر]

خليلٌ لم أهبه على قِلَاهِ ولكنّ المواهبَ للكرام[١]

حَبَوْتُ به كريمًا من قريش فسُرّ به وصِينَ عن اللئام

«صَنِيع» مجرّب مجلوّ؛ قال الشاعر[٢]: [من الوافر]

بأبيضَ من أُمَيَّةَ مَضْرَحِيٍّ كأنّ جبينَه سيفٌ صَنِيعُ

«طَبِعٌ» وهو الصَّدِيء قال جرير[٣]: [من الكامل]

وإذا هُزِزْتَ قطعتَ كلَّ ضَرِيبةٍ وخرجتَ لا طَبِعًا ولا مبهورا

«عَضْبَ» أي قاطع. «عَقِيقَة» أي صقيل؛ قال الشاعر[٤]: [من الوافر]

حُسَامٌ كَالعَقِيقَة[٥] فهو كَمْعي[٦] سِلَاحي لا أَفَلَّ[٧] ولا فُطَارا[٨]

«عَجُوز». «عُرَاض» أي لَدْن المَهَزّة «عِطَاف»؛ قال الشاعر: [من الطويل]

ولا مالَ لي إلّا عِطَافٌ ومِدْرَعٌ لكم طَرَفٌ منه حديدٌ ولي طَرَفْ[٩]

وجمعه عُطُف. «فُطَار» أي مشقق. «فَلُوع» أي قاطع. «فَسْفَاس» أي كَهَام. «قَصّال» أي قطّاع. «قاطع». «قَرْن». «قضيب» أي قاطع وجمعه قُضُب. «قَاضِب»

---

(١) في اللسان «مِن قلاه»، مادة صمم.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن الحكم بن أبي العاصي يمدح معاوية، (اللسان مادة: صنيع). هاجاه عبد الرحمٰن بن حسان الأنصاري فغلبه الأخير، فاستنجد يزيد بن معاوية بالأخطل. راجع فيه: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٩٤. - اللسان، مادة: صنع.

(٣) جرير: هامش ٣ صفحة ١٦٤.

(٤) هو عنترة بن شداد العبسي، ابن جارية حبشية سوداء تدعى زبيبة، وهو من أغربة العرب، ولم يكن أبوه يعترف به حتى أنجب بشجاعته في حرب داحس والغبراء، وقتل في الغارة على بني نبهان من طيء. هو شاعر بالإضافة إلى كونه فارسًا؛ في معلقته يرسم موقفًا غراميًا. ترك ديوان شعر وكتبت حوله سيرة شعبية ما تزال تتداول. راجع فيه: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٣٠ - ١٣٤. - الأصفهاني، الأغاني، ٧/١٤٨ - ١٥٣. - البستاني، الروائع، ص ٢٧. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٩٠ - ٩٢.

(٥) العقيقة: شعاع البرق أو البرق وسط السحاب كأنه سيف مسلول.

(٦) الكمع: الضجيع، اللسان، مادة: كمع.

(٧) الأفل: وصف مدح لما ضرب به كثيرًا؛ وذمٌ لما به من الخلل وهو المراد هنا. اللسان، مادة: أفل.

(٨) الفطار: المتشقق الذي لا يقطع. اللسان مادة: فطر.

(٩) العطاف: السيف؛ وقد ورد البيت في اللسان ضمن مادة: عطف.

مثله. «قِرْضَاب» أي يقطع العظام. «قُرْضُوب» مثله. «قَشِيب» قريب عهد بالجلاء. «قَلَعِيّ»[١] منسوب إلى قَلَعة موضع بالبادية. «قُسَاسِيّ» منسوب إلى معدن بأرمينية يقال له قُسَاس. قال الشاعر: [من الرّجز]

إنّ القُسَاسِيَّ الذي يُعْصَى بهِ   يختضِمُ[٢] الدّارعَ في أثوابهِ

«قَضِمٌ» وهو الذي طال عليه الدهر فتكسّر حدّه. «كَهَام» أي كليل. «كلَيل» أي كَلّ حدّه. «لَهْذَم» هو السيف الحادّ، ويسمى به السنان أيضًا. «لَخِيفٌ» وكان من أسياف رسول الله ﷺ «لُجّ». «مُرْهَف» أي محدود رقيق. «مُصَمِّم» وهو الذي يمرّ في العظام. «مِقْطَع». «مِخْذَم» أي قاطع «مِجْذَر». «مأثور» وهو الذي له أُثْرٌ. «مُذَكّر» مثل ذَكَر. «مُخْتَفِد» سريع القطع. «مِخصَل». «مِخْضَل» أي مُصْلَت من غمده. «مِقْصَل» أي قاطع. «مِخْفَق» أي عريض. «مُدَجَّلٌ» المطليّ بالذهب. «مِهْذَم» قاطع. «مَغْلوب» وهو سيف الحارث بن ظالم؛ وفيه يقول الكُميت[٣]: [من الوافر]

وسيفُ الحارثِ المَغْلُوبُ أرْدَى   حُصَيْنًا في الجَبَابرة الرَّدِينَا

«مِشْمَل» أي صغير. «مِغْوَل» سيف رقيق يكون غمده كالسوط وهو الذي يُتّخذ كالعُكّاز. «مَهْوٌ» وهو الرقيق أيضًا؛ قال صَخر الغيّ[٤]: [من المنسرح]

وصارمٌ أُخْلِصَتْ خَشِيبَتُه   أبيضُ مَهْوٌ[٥] في مَتْنه رُبَدُ[٦]

---

(١) قلعي منسوب إلى حديد أو معدن (المخصص)، كتاب السلاح.

(٢) يختضم: يقطع، اللسان، مادة: خضم.

(٣) الكميت: هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي، أبو المستهل من بني سعد بن ثعلبة. ولد سنة ٦٠ هـ/ ٦٧٩ م كان يكره عرب الجنوب ويهاجي شعراء اليمن. كما كان يحب أبناء فاطمة، حبسه خالد القسري بالكوفة ثم شفع له مسلمة بن هشام، فأطلق سراحه ومدح هشامًا ثم قتله جند يوسف بحجة أنه لم يستأمر الأمير إذ كان ضد يوسف يتعصبون لخالد. عابه العجاج والأصمعي وابن جني. ترك سبع قصائد عُرفت بالهاشميات، شرحت وطبعت عدة مرات. راجع فيه: ـ الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٢٢. ـ الجاحظ، الحيوان ٥/ ٥٥ ـ ٥٦. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٦٨. ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٥/ ١١٣ ـ ١٣٠. ـ جمهرة أشعار العرب، ص ١٨٧. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٢٤٢.

(٤) صخر الغي: صخر بن عبد الله لقب بصخر الغي لخلاعته وشدة بأسه، وأخوه الأعلم من صعاليك هذيل وسيرتهما حافلة بأخبار الغزو والغارة والفتك. ترجمته في: ـ الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/ ١٩. ـ الإصابة ٣/ ٢٥٩. ـ ديوان الهذليين ٢/ ٥١ ـ ٧٦؛ ٢/ ٢٢٣. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٥٥٩.

(٥) المهو: اللؤلؤ، اللسان، مادة: مهو.

(٦) ربد: ما نراه عليه شبه غبار أو مدب نحل. اللسان، مادة: ربد.

«مُفَقَّر» أي الذي فيه حزوز مطمئنةٌ عن متنه. «مُهَنَّد» وهو الذي طُبع من حديد الهند. «مَشْرَفيّ» منسوب إلى المشارف، وهو قُرًى من أرض العرب تدنو من الرِّيف. «مُطَبِّق» الذي يقطع المفاصل؛ قال الشاعر: [من الطويل]

* يُصَمِّم أحيانًا وحِينًا يُطَبِّقُ[(١)] *

«مُنْصَل». «مُشَطَّب» أي الذي في متنه طرائق. «مُصْلَت» المسلول من غمده. «مِفْلَع» أي قاطع. «مِعْضَد» هو المُمْتَهن في قطع الشجر وغيره. «مِعْضاد» وهو الممتهن أيضًا. «مَذَاهِب» سيوف تُموّه بالذهب. «نَصْل». «نَهِيك» أي قاطع. «نُون» هو اسم سيف بعض العرب؛ قال الشاعر[(٢)]: [من الوافر]

سأجعلُه مكانَ النُّونِ منّي ... وما أعْطِيتُهُ عَرَقَ[(٣)] الخِلَالِ[(٤)]

معناه: سأجعل هذا السيفَ الذي استفدته مكان ذلك السيف، وما أُعطيتُه عن مودّة بل أخذته عنوةً. «نَوَاحِل» السيوفُ التي رَقَّت ظُبَاتها قُدُمًا من كثرة المضاربة. «هُذَام» السيف القاطع. «هَزْهَاز» هو الكثير الاهتزاز. «هُنْدُوَانيّ» هو المطبوع من حديد الهند. «هِنْدِيّ» منسوب إلى الهند. «وَقيع» الذي شُحِذ بالحجر. «يَمَاني» منسوب إلى اليمن.

* * *

ومن أسماء أجزاء السيف: «أَثْر» أَثْره: إفرنده وما يُرَى عليه مما يشبه الغُبار أو مَدَبّ النمل؛ قال عيسى بن عمر[(٥)]: [من الوافر]

جلاها الصَّيْقلُون فأخلصوها ... خِفَافًا كُلُّها يَتْقِي بأَثْرِ[(٦)]

---

(١) من أمثلة اللسان على طبق.

(٢) نسب لسان العرب البيت إلى الحارث بن زهير، وذكر أن «النون» اسم «سيف مالك بن زهير»، وكان حمل بن بدر أخذه من مالك يوم قتله، وأخذه الحارث يوم قتل حملًا. ووجدت في الطبري ذكرًا للحارث بن زُهير الأزدي يوم الجمل يرتجز:

يا أمنا يا خير أم نعلمُ ... أما ترين كم شجاع يكلمُ!
وتختلي هامتُهُ والمعصمُ!

فاختلف وعمرو بن الأشرف الآخذ بخطام الجمل ضربتين وماتا. راجع: ـ اللسان، مادة: عرق. ـ الطبري، ٤/ ٥٢٠، ٥٢١.

(٣) العرق: الجزاء؛ والنون اسم سيف مالك بن زهير أخي الحارث بن زهير. اللسان، مادة: عرق.

(٤) الخلال: المصادقة والمودة، اللسان، مادة: خلل.

(٥) نسب اللسان البيت إلى خفاف بن ندبة وأنشده عيسى بن عمر، إذ لم يكن يوق عيسى بالشعر. اللسان، مادة: أثر، المرزباني، معجم الشعراء، ص ١٠٨.

(٦) أي إذا نظر الناظر إليها اتصل شعاعها بعينيه فلم يتمكن من النظر إليها. ويتقي مخففة من يتّقي.

«إفرِنْد» وشَيئه وأثره. «جُربّان» هو حَدّه. «حَرْف» مثله. «ذُبَاب» حدّ طَرَفه وقيل: حدُّهُ مطلقًا. «رِئاس» قائمه؛ قال الشاعر:

* ومِرْفَقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا[١] *

«رُبَدٌ» ما تراه عليه شبه غُبَار أو مَدَب نمل؛ قال الشاعر[٢]:

* أبيضُ مَهْوٌ في متنه رُبَدُ *

«زِرٌّ» قال مُجَرِّس بن كليب في بعض كلامه: أَمَا وسَيْفي وزِرَّيْه، ورُمْحي ونَصْلَيْه. والزرّ: الحدّ. «سِطَام»: حدّه. «سِيلَان»: هو ما يدخل منه في النِّصَاب. «سَفَن»: جِلْدة قائمه. «شُطَبٌ»: طرائق في إحدى مَتْنيه. «شَفْرَة»: حدّه، وشَفْرَتاه: حدّاه. «صَفْح»: عرضه. «ظُبَة»: حدّه. وظُبَتاه: حدّاه. «عَجُوز»: نَصْل السيف؛ قال أبو المِقْدَام: [من الخفيف]

وعجوزٍ رأيتُ في فم كَلْبٍ   جُعِلَ الكلبُ للأمير جَمَالا

والكَلْبُ من أجزاء السيف وهو البرجق[٣]. «عَيْرٌ» هو الناشز في وسط السيف. «غِرَار»: ما بين ظُبَتيه وبين العَيْر من وجهي السيف جميعًا، وجمعه: أغِرّة. وقيل: الغراران: شَفْرتا السيف. «غَرْبٌ» غربه: حدّه. «فِرِنْد»: مثل «إفرند». «فُلُول» الفلول في حدّه، والواحد منها فَلّ. «قَبِيعة» هي التي على طرف قائمة من حديد أو فضة. «مَضْرَب»: الذي يُضرب به منه، وهو نحو شبر من طَرَفه. «مَقْبَض» المقبض: حيث تقبض عليه الأكف. «نون» والنونُ: شَفْرة السيف. قال الشاعر: [من الوافر]

* بذي نُونَين قَصَّالٍ مِقَطٍّ[٤] *

«وَشْي» وهو فرنده وأَثْره، وقد تقدّم بيانه.

* * *

ومما يضاف إلى السيف: فأما إذا احتاج إلى الشَّحْذ ـ يقال: «اسْتَوْقَع» وإذا ضُرِب به فلم يعمَل يقال: «أَحَاكَ». وإذا سُلّ من قِرَابه يقال: «استُلّ»، «أُصْلِتَ»،

---

(١) شسف: اليباس. اللسان، مادة: شسف.
(٢) الشاعر هو صخر الغي: هامش ٤ صفحة ١٧٤.
(٣) البرجق: مسمار مقبض السيف، اللسان، مادة: برجق.
(٤) المقط: القاطع، اللسان، مادة: قطط.

«امتُشِ»، «امتُعِط»، «امتُحِط»، «انتُضِي»، «اختُرط»، «جُلِط»، «جُرِّد»، «سُلّ»، «شُهِر»، «مُعِطَ»، «نُضِيَ»، «شِمْتُ»: إذا سَلَلْتَ وأغْمدتَ. وإذا خرج السيفُ من غير سَلٍّ يقال: «انْدَلق». وإذا أُغْمِض السيفُ من غير سَلٍّ يقال: «أغمدتُ» السيفَ. «أَقْربت»، «شِمْت»، «قَرَبت»، وأما إذا تَقَلّد به الرجلُ يقال: اعتُطِف؛ وفيه يقول الشاعر: [من السريع]

مَنْ يَغْتَطِفْهُ على مِئْزرٍ ... فنعمَ الرِّدَاءُ على المئزرِ

ويقال: «تُقُلِّد».

* * *

ومن أسماء قِرابه وآلته: يقال: «جَفْن»، «جُرُبَّان»، «جُلُبَّان»، «خِلَلٌ» وهي بطائن كانت تُغَشَّى بها أجفانُ السيوف. «غمْد».

حمائله: يقال فيها «حمائل» واحدتها «حَمِيلة». «قِرَابٌ» «مِحْمَل»، «نِجَاد».

حِلْيته: يقال: «رَصَائع» وهي حَلَقٌ مستديرات تُحَلّى بها السيوفُ. «قبيعة» وقد تقدّم ذكرها. «نَعْل» وهو ما يكون أسفلَ القِرَاب من فضّة أو حديد. والنعل مؤنثة؛ قال الشاعر: [من الطويل]

ترى سيفَه لا تَنْصُفُ الساقَ نعلُه ... أَجَلْ لا وإنْ كانت طِوالًا محامِلُهْ

* * *

وأما ما وصفته به الشعراء: فمن ذلك ما قاله أبو عُبَادة البُحْتُرِيّ(١): [من الكامل]

يتناولُ الرُّوحَ(٢) البعيدَ مَنَالُهُ ... عَفْوًا، ويفتحُ في القضاء المُقْفَلِ
ماضٍ وإن لم تُمْضِه يدُ فارسٍ ... بَطَلٍ، ومَصقولٌ وإن لم يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَغى(٣) فالتُّرسُ ليس بجُنَّةٍ ... من حَدِّه والدِّرعُ ليس بمَعْقِلِ
مُصْغٍ إلى حُكْم الرَّدى، فإذا مَضى ... لم يلتفتْ، وإذا قَضى لم يَعْدِلِ
متوقِّدٌ يَبْرِي(٤) بأوّلِ ضربةٍ ... ما أدركتْ ولَوَ انها في يَذْبُلِ
وإذا أصاب فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ ... وإذا أُصيب فما له من مقتلِ

(١) البحتري: هامش ٢ صفحة ٧٥.
(٢) في الأصل الرمح، والتصحيح عن الديوان.
(٣) في الأصل الورى والتصحيح عن الديوان.
(٤) في الديوان متألق يفري.

وقال أبو الهول[(١)]: [من الطويل]

حُسَامٌ غداةَ الرَّوْعِ ماضٍ كأنَّهُ ... من اللهِ في قَبْضِ النفوسِ رسولُ
كأنّ جنودَ الذَّرِّ كسّرنَ فوقه ... عيون جرادٍ بينهنّ ذُحولُ[(٢)]
كأنّ على إفرِنْده موجَ لُجَّةٍ ... تَقَاصَرُ في صَحْصَاحه وتَطُولُ[(٣)]
إذا ما تَمَطَّى الموتُ في يَقَظاتِهِ ... فلا بدَّ مِن نفسٍ هناك تسِيلُ
وإنْ لاحَظَ الأبطالَ أو صَافَحَ الطُّلَى ... تَشَحّطَ يومًا بينهن قتيلُ[(٤)]

وقال عبد الله بن المعتزّ[(٥)]: [من الطويل]

وَلِي صارمٌ فيه المنايا كَوَامِنٌ ... فما يُنْتَضى إلا لسَفْكِ دِماءِ
تَرى فوقَ متنيه الفِرِنْدَ كأنه ... بقيّةُ غَيْمٍ رَقَّ دون سماء

وقال أيضًا: [من الكامل الأحذّ]

وَسْطَ الخميسِ بكفِّه ذَكَرٌ ... عَضْبٌ كأنّ بمتنه نَمَشَا
ضَافي الحديدِ كأنّ صَيْقَلَهُ ... كتَبَ الفِرِندَ عليه أو نَقَشَا

---

(١) أبو الهول الحميري، شاعر عباسي عاصر البرامكة فمدحهم وخاصة الفضل بن يحيىٰ بن خالد البرمكي، وكان الفضل معجبًا بشعره وكان يصله بالصلات السنية، مدح أيضًا العباس بن محمد ورثاه، كذلك تغزل وأجاد في غزله. وصفه ابن المعتز بأنه من المحدثين المجيدين المشهورين. راجع فيه: ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) الذحول جمع ذحل: وهو الثأر والحقد والعداوة، اللسان، مادة: ذحل.

(٣) صحصاح: الأرض المستوية الجرداء. اللسان، مادة: صحصح.

(٤) تشحط: اضطرب وتخبط.

(٥) عبد الله بن المعتز، أبو العباس، ولد سنة ٢٤٧ هـ/٨٦١ م ـ ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م. ابن الخليفة المعتز، حدثته نفسه بتولي الخلافة بعدما ترك المقتدر أمور الخلافة لأمه وللخصيان، فخلع الجنود المقتدر وتولى ابن المعتز الخلافة ليوم وليلة وبعدها عاد المقتدر إلى الخلافة من جديد. وقتل ابن المعتز. حاول ابن المعتز التوفيق بين مذهب القدماء والمحدثين، يظهر في شعره التبرم والتوجع والشكوى. في شعره آثار السياسة والعلم والطبيعة والفلسفة. جمع الصولي ديوانه، وله: ـ الآداب؛ وفصول التماثيل في تباشير السرور؛ طبقات الشعراء. ـ كتاب البديع؛ وأشعار الملوك، وسرقات الشعراء... ترجمة ابن المعتز في: ـ الأصفهاني، الأغاني، ٩/١٤٠ ـ ١٤٦. ـ الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، ص ١٠٧ ـ ٢٩٦. ـ ابن النديم، الفهرست، ص ١١٦. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٣١٤. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/٥٣ ـ ٥٩.

وقال ابن الروميّ[(١)]: [من الخفيف]

خيرُ ما استعصمَتْ به الكفُّ عَضْبٌ ذَكَرٌ هَزُّهُ أنيثُ المَهَزِّ
ما تَأمّلتَهُ بعينك إلّا أُرعدتْ صَفْحتاه من غير هَزِّ
مثلُه أفزَعَ الشُّجاعَ إلى الدِّرعِ فغَالَى بها على كلِّ بَزِّ[(٢)]
ما يُبَالي أصَمَّمتْ شَفْرتاهُ في مَحَزٍّ أم حادتا عن محزِّ

وقال ابن المعتزّ: [من مجزوء الكامل]

ولقد هززْتُ مُهَنَّدًا عَضْبَ المضاربِ مُرْهَفا
وإذا تَوَلَّج هامةَ الْـ ـجَبَّارِ سارَ فَأَوْجفا[(٣)]
عَضْبُ المضاربِ كالغديـ ـر نَفَى القَذَى حتَّى صَفَا

وقال أيضًا: [من السريع]

في كفِّه عَضْبٌ إذا هزَّهُ حَسِبْتَه من خوفه يرتعِدْ

وقال آخر: [من الخفيف]

جرّدوها فألبسوها المنايا عِوَضًا عُوِّضَتْ من الأغمادِ
وكأنّ الآجالَ ممن أرادوا وظُبَاها كانت على مِيعادِ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه[(٤)]: [من الطويل]

وذي شُطَبٍ تَقْضي المنايا بحُكمه وليس لما تَقْضِي المنيَّةُ دافعُ
فِرِنْدٌ إذا ما اعتنّ[(٥)] للعين رَاكدٌ وبَرْقٌ إذا ما اهتَزّ بالكفّ لامعُ
يُسلِّلُ أرواحَ الكُماةِ انسلالُهُ ويرتاعُ منه الموتُ والموتُ رائعُ
إذا ما التقتْ أمثالُهُ في وَقيعةٍ هنالك ظَنُّ النفسِ بالنفس واقعُ

(١) ابن الرومي: هامش ٢ صفحة ٦٩.
(٢) البز: السلاح والثياب، اللسان، مادة: بزز.
(٣) وجف: أسرع، اللسان، مادة: وجف.
(٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه: هامش ٤ صفحة ١٦٢.
(٥) اعتنّ: ظهر، اللسان، مادة: عنن.

وقال أيضًا: [من السريع]

بِكُلِّ مأثورٍ على متنهِ مثلُ مَدَبِّ النملِ في القاعِ
يرتدُّ طَرْفُ العينِ عن حَدّهِ عن كوكبٍ للموت لَمّاعِ

وقال أبو مروان بن أبي الخصال: [من الخفيف]

وصَقِيلٍ مدارجُ النملِ فيه وهو مذ كان ما دَرَجْنَ عليهِ
أخلصَ القَيْنُ صقلَه فهو ماءٌ يتلظّى السعيرُ في صَفْحَتيه

وقال أحمد بن الأعمى الأندلسيّ: [من البسيط]

مَوْتي فإنْ خلعتْ أكفانَها علمتْ أنّ الدروعَ على الأبطال أكفانُ
نفسِي فداؤُك لا كُفْأً ولا ثَمَنًا ولو غدا المُشْتَرِي منها وكِيوانُ
والتِّبْر قد وَزَنُوه بالحديد فما سَاوى، ولكن مقاديرٌ وأوزان

وقال عبد العزيز بن يوسف شاعر اليتيمة: [من البسيط]

بيضٌ تُصَافِحُ بالأيدي مَقَابضُها وحَدُّها صَافَح الأعناقَ والقِمَما
ضَحِكْنَ من خِلَلِ الأغماد مُصْلتةً حتى إذا اختلفتْ ضَرْبًا بَكَينَ دما

وقال الشريف المُوسَوِيُّ شاعرها(١): [من الوافر]

ونصلُ السيفِ تسلَمُ شَفْرتاهُ ويُخلِقُ كلَّ أيامٍ قِرَابا

وقال مؤيّد الدين الطغرائي: [من الطويل]

وأبيضَ طاغي الحَدِّ يُرْعَدُ متنُه مخافةَ عزمٍ منك أمضى من النَّصلِ
عليمٌ بأسرار المَنُون كأنّما على مَضْرَبيه أُنْزِلتْ آيةُ القتل
تَفِيضُ نفوسُ الصِّيدِ دون غِرَاره وتطفَحُ عن متنيه في مدرج النمل
خَلعتَ عليه نُورَ وجهِك فارتدى بنورٍ كَفَاه أن يُحَادَثَ بالصَّقْلِ(٢)

---

(١) الشريف الموسوي محمد بن الحسين الطاهر ولد سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م ببغداد، كان أبوه من سادة العلويين ومن كبار الكتاب. جعله بهاء الدولة نقيبًا للأشراف خلفًا لأبيه ثم خلع عليه لقب الرضى وبعد عام لقب الشريف سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م، توفي سنة ٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م. ترك ديوان شعر مطبوع. راجعه في: ـ الثعالبي، يتيمة الدهر ٢/ ٢٩٧ وما بعدها. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٦٣٩. ـ محمد سيد كيلاني، الشريف الرضي: عصره وتاريخ حياته. ـ دائرة المعارف الإسلامية. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٦٢ ـ ٦٥.

(٢) يُحادث: يجلي، اللسان، مادة: حدث.

وقد أكثر الشعراء تشبيه الفِرند بالنمل، وأصل ذلك من قول امرىء القيس[١]: [من الكامل الأحذّ]

متوسِّدًا عَضْبًا مَضارِبُه   في متنه كمدبَّة النملِ

وقال الطغرائي: [من الطويل]

وأبيضَ لولا الماءُ في جَنَباته   تَلَسَّنَ من حَدَّيه نارُ الحُبَاحِبِ[٢]
أَضَرَّ به حبُّ الجماجمِ والطُّلى   فغادره نِضْوًا نحيلَ المضاربِ[٣]

وقال إسحٰق بن خلف[٤]: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أَلقى بجانبِ خَصْرِهِ   أمضى من الأجل المُتَاح
وكأنما ذَرُّ الهَبَا   ءِ عليه أنفاسُ الرياحِ[٥]

وقال ابن المعتز[٦]: [من الطويل]

وجرَّدَ من أغماده كلَّ مُرْهَفٍ   إذا ما انتضته الكفُّ كادَ يسيلُ
ترى فوق متنيه الفِرِنْدَ كأنّما   تَنَفَّسَ فيه القَيْنُ وهو صقيل

وقال منصور النمريّ يصف سَيْفًا[٧]: [من الكامل]

ذَكَرٌ بِرونقه الفرندُ كأنما   يعلو الرجالَ بأُرْجُوَانٍ ناقعِ
وترى مضاربَ شَفْرتيه كأنها   مِلْحٌ تناثَرَ من وراءِ الدارع

(١) امرؤ القيس جندج بن حُجر بن الحارث الكندي، الملك الضليل قضى الشطر الأول من حياته في لهو والشطر الثاني في محاولات لاسترجاع ملك أبيه الذي قتله بنو أسد. يُقال إنه مات مسمومًا بأمر من امبراطور الروم. ترك ديوان شعر مطبوع. راجع فيه: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٧ ـ ٥٦. ـ الأصفهاني، الأغاني، ٨/ ٧٢ ـ ٨٤. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٩٧ ـ ١٠١.

(٢) لسَّن: جعله كاللسان، نار الحباحب: النار الضعيفة التي يتطاير شررها في الهواء من تصادم الحجارة. اللسان، مادة: حبحب.

(٣) النضو: السهم فسد من كثرة الرفي، اللسان، مادة: نضو.

(٤) إسحٰق بن خلف أحد الشطار الذين يحملون السكاكين، ويظهرون التجلد للضرب، وجاء غلامًا من بني نهشل من ساكني مكة فقتله فحبس حتى مات في الحبس. ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٥) الهباء: الغبار، اللسان، مادة: هبأ.

(٦) ابن المعتز: هامش ٥ صفحة ١٧٨.

(٧) منصور بن سلمة بن الزِّبرقان النمري، وهو من رأس العين. يكنى أبا الفضل، مدح الرشيد والمأمون وآل الرسول. مدح وتغزّل وهو من فحولة المحدثين وله أخبار كثيرة ونوادر. ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٤١ ـ ٢٤٧.

ولما صار الصَّمْصامة (سيفُ عمرو بن مَعْدِيكَرِب)[١] إلى موسى الهادي[٢] أَذِن للشعراء أن يَصِفوه، فبدأهم ابنُ يامين[٣] فقال: [من الخفيف]

حاز صَمْصامةَ الزُّبَيْدِيِّ من دو ... ن جميعِ الأنام موسى الأمينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا ... خيرَ ما أُغمدت عليه الجُفون[٤]
أخضر المتن بين حَدَّيه نُورٌ ... من فرندٍ تمتدُّ فيه العيون
أوقدتْ فوقه الصواعقُ نارًا ... ثم شابتْ به الذُّعَافَ القُيونُ
فإذا ما سللته بَهَرَ الشمـ ... ـسَ ضِياءً فلم تكد تستبينُ
وكأنّ الفرندَ والرَّوْنَق الجا ... رِيَ في صَفْحتيه ماءُ مَعِين
وكأنّ المَنونَ نِيطَتْ إليه ... فهو من كل جانبيه مَنون
ما يبالي مَنِ انتضاه لضربٍ ... أشِمالٌ سَطَتْ به أم يمينُ

فأمر له ببَدْرة، وأخرج الشعراء.

ومن الإفراط في وصف السيف قول النابغة[٥]: [من الطويل]

يَقُدُّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نسجُه ... ويُوقدُ بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحب

فذكر أنه يقدّ الدرع المضاعف والفارسَ والفرسَ ويصل إلى الأرض فيقدَح النار.

---

(١) عمرو بن معديكرب: هامش ٤ صفحة ١٧٠.

(٢) موسى الهادي ١٤٥ هـ - ١٧٠ هـ. تولى الخلافة سنة ١٦٩ هـ سنة ونيف، غلبت عليه أمه الخيزران حتى وضع حدًا لهذا التدخل في شؤون الخلافة. استوزر الربيع ثم عمر بن بزيع فمات الربيع وقيل إنه مات مسمومًا. وكان موسى الهادي قاسي القلب شرس الأخلاق كثير الأدب، شجاعًا بطلًا جوادًا. المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٢٥٧ - ٢٦٥.

(٣) ابن يامين البصري عاصر الهادي ومدحه، ووصف سيف عمرو بن معديكرب (الصمصامة) فنال جائزة الهادي والسيف وأخرج الشعراء دون جوائز. وعاد الهادي فاشترى السيف من ابن يامين ففرق الأخير ثمنه على الشعراء الذين أُخرجوا. المسعودي، مروج الذهب، ٢/ ٢٦٥.

(٤) الجفن: غمد السيف، اللسان، مادة: جفن.

(٥) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، في النصف الثاني من القرن السابق على ظهور الإسلام، نادم ملوك الحيرة وملوك غسان ثم عاد إلى قبيلته بعد وفاة أبي قابوس النعمان في سجن الفرس. ترك ديوان شعر مطبوع. راجع فيه: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٠ - ٨١. - الأصفهاني، الأغاني، ٩/ ١٦٢ - ١٧٦. - دائرة المعارف الإسلامية. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٨٨ - ٩٠.

وقال النَّمِرُ بن تَوْلَب[١]: [من البسيط]

تَظَلُّ تحفِرُ عنه إن ضربتَ به بعدَ الذِّراعين والقَيْدين والهادي

ومن رسالة لأبي محمد بن مالك القُرْطُبيّ جاء منها في وصف السيوف، قال:

وكأنما باضت على رؤوسهم نعائم الدَّوّ[٢]، وبَرَقت في أكُفِّهم بوارق الجَوّ؛ ولكنها إذا ما هُزَّتْ فبَوَارقُ، وإذا صُبَّت فصواعقُ؛ من كل ذي شُطَب كأنما قُرَى نمل، عَلَوْن منه قِرَى نَصْل؛ فإذا أصاب فكلُّ شيء مقتَلُ، وإذا حَزَّ فكلّ عُضْو مَفْصِل؛ أمضى في الأشباح، من الأجل المُتاح؛ عَضْبُ المتنِ صقيلُ، يكاد إذا انْتُضِي يسيلُ؛ ويكاد مبصره يَغْنَى عن الوِرْد، إذا اختُرِط من الغِمْد؛ ما لم يَخَلْه رَيَعان سَرَاب، في صَحْصَحان يَباب[٣]، لاشتباه فِرِنده بحَبَاب في شراب، أو حُبابٍ[٤] في سَراب؛ فلما رأيت جفنه قد انطوى على جمر الغَضَى، وماء الأضى[٥]؛ وانتظم على خَصْره الجُنُح، ورَوْنق الصُّبحُ؛ قلت سبحانَ مكورِ الليلِ على النهار، والجامِع بين الماء والنار.

* * *

وأما ما قيل في الرمح، من الحديث، والأسماء، والنعوت، والأوصاف.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «جُعِل رزقي تحت ظِلّ رُمْحِي وجُعل الذِّلَّةُ والصَّغَارُ على من خالَفَ أمري». هذا ما ورد فيه من الحديث.

وأما الأسماءُ، والنعوت، والأوصاف: فمن ذلك: «أَسمر» وهو الدقيق «أَلَّة» وهو أصغرُ من الحَرْبة، وفي سِنانها عِرَض. وجمعها الإِلَال. «أمّ اللواءَ». «أَزَنِيّ» منسوب إلى ذِي يَزَن. «أَقْصَاد» وهو المكسر. «ثَلِبٌ» وهو المثَلَّم. «حادِر» أي غليظ.

(١) النمر بن تولب هو من عكل، كان شاعرًا جوادًا، سمي الكيس لحسن شعره، وهو جاهلي أدرك الإسلام فأسلم، هاجر إلى الكوفة، خرف في أواخر أيامه. ترجمته في: ـ في كتب الصحابة. ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٩/ ١٥٧. ـ ابن سلام، طبقات، ص ١٣٣. ـ البغدادي، الخزانة، ١/ ١٥٢. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) الدَّو: الصحراء الواسعة أو المستوي من الأرض، اللسان، مادة: دوو.

(٣) يباب: الخراب.

(٤) حُباب: جمع حُبابة، دويبة سوداء مائية، وبالفتح الفقاقيع التي تعلو الماء. اللسان، مادة: حبب.

(٥) الأضى: جمع الأضاة مستنقع الماء.

«حَرْبة». «خرصانة»[١]. «خُرْص». «خَطّار» أي ذو اهتزاز «خَالٌ» أي لواء الجيش. «خَطِّيّ» هو ما يُنسب من الرماح إلى الخَطّ، وهو موضع باليمامة. «خَطِل» وهو المضطرب. «خَوّار» وهو الخفيف. «رُمْح» «رَعّاش» وهو الشديد الاضطراب. «رُدَيْنيّ» منسوب إلى امرأة اسمها رُدَيْنَة «رَاشٌ» أي خوّار. «زَاعِبيّ»[٢] وهو الذي إذا هَزّ تدافع كلُه. «رَوَاعِف». «زاعبيّة» منسوبة إلى زاعب: رجلٍ، وقيل: بلد. «سَمْهَريّة» هي القنا الصُّلْبة منسوبة إلى سَمْهَر، كان رجلًا يُقوِّم الرماح. «شِرَاعيّ» هو الرمح الطويل. «شِطَاط»[٣] القناة المعتدلة. «صَدْق» هو الصُّلب من الرماح. «صَعْدَة» وهي القناة المستوية من أصل نَبْتها التي لا تحتاج إلى تثقيف، والجمع صِعَاد. «صُمْع» هي الصلبةُ اللطيفةُ العُقَد. «ضَلِع» هو الرمح المعوّج. «ضَلِيع» هو الرمحُ المائل. «ضب»[٤] اعوجاجٌ في الرمح. «عَنَزَة» وهي أطولُ من العصا وأقصرُ من الرمح وفيها زُجّ كزجّ الرمح. «عُكّازة» نحوها. «عَاسِل» هو الرمح الشديد الاضطراب. «عَسّال»، «عَسُول»، «عَرّات»: مثل عاسل. «عَشَوْزَنَة» القناة الصُّلبة. «عَرّاص» هو الرمح المضطرب. «عُتُلّ» هو الرمح الغليظ. «قَنَاة» وجمعها قَنًى وقَنَوات وقُنِي وقِنَاء. «قَصِدٌ» أي مكسّر. «لَدْن» إذا هو تدافع كله. «مُتَثَنِّي» كان من رماح سيّدنا رسول الله ﷺ. «مِدْعَس»[٥]، «مِطْرَد» أي صغير. «مِنْجَل» أي واسع الطعن. «مِزَجّ» هو صغير كالمزراق. «مِزْرَاق» هو أخفّ من العنَزَة. «مِتَلّ» رمح قويّ يُصْرَعُ به؛ قال لبيد[٦]: [من الرمل]

* أَعْطِفُ الجَوْنَ بِمَرْبوعٍ مِتَلّ[٧] *

---

(١) لعله خرصان جمع خُرْص: رمح. اللسان، مادة: خرص.

(٢) زاعبي: التصحيح عن اللسان والأساس ووردت في الأصل راعبي.

(٣) شطاط: الطول واعتدال القامة وحسن القوام. اللسان، مادة: شطط.

(٤) ضب ولعله طنب، لأنه لا وجود له في كتب اللغة. اللسان، مادة: طنب.

(٥) المدعس: الغليظ الشديد الذي لا ينثني.

(٦) لبيد بن ربيعة، أبو عقيل ولد في بني جعفر من كلاب من عامر من هوازن قيس حوالي سنة ٥٦٠ م. وتوفي سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م. أدرك الإسلام وأسلم وهاجر إلى الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب، ومات بها ليلة نزل معاوية بالنخيلة لمصالحة الحسن بن علي وهو ابن مائة سنة. هناك خلاف في تقويم شعره. وله قصيدة عدّها البعض من المعلقات. ترك ديوان شعر فيه مسحة دينية واضحة غطت حتى على شعره الجاهلي. ترجمته في: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٤٨. ـ البستاني، الروائع، ص ٢٤. ـ دائرة المعارف الإسلامية. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٤٥ ـ ١٤٧.

(٧) الجون: الأسود أو الأبيض أو الأحمر الخالص. اللسان، مادة: جون.

«مُسَمَّح» هو الذي ثُقِّف. «مَخْمُوسٍ» هو الذي طولُه خمسة أذرع؛ قال عبيد[١] يذكر ناقته: [من البسيط]

هاتِيكَ تحمِلُني وأبيضَ صارمًا ومُذَرَّبًا[٢] في مارِنٍ[٣] مخموسِ

«مربوع» هو الذي طوله أربعة، وقيل الذي ليس بطويل ولا قصير. «مُعَرَّن» هو الرمح المسمَّر السنان بالعِرَان وهو المسمار. «مُرَّانة»، «مثقَّفة» وهي الرماح التي ثُقِّفت أي سُوِّيت. «مَدَرِيّة» وهي التي كانت تركب فيها القرون المحدّدة مكان الأسنة، وقيل: إنها نسبت إلى قرية باليمن يقال لها مَدَر. «نَيْزَك» وهو رمح قصير، يقال: إنه فارسيّ وعُرِّب. «هُزَعٌ» أي مضطرب. «وَشِيج» وهي شجرة الرماح[٤]. «وشج» نوع منه ينبت في الأرض معترضًا. «يَزَنِيّ» مثل «أَزَنِيّ».

* * *

ومن أسماء السنان: «أَعْجَف» وهو الرقيق. «أشهب» إذا جُلي «أَذْلق» وهو الحادّ. «حَرب» يقال حرَّبْت السنانَ إذا حددتَه. «خُرْص» وهو اسم للسنان وللرمح أيضًا. «خزق»، و«خَازِق» يقال في أمثال العرب: «أمضى من خازق». «ذَرِبٌ» يقال: ذَرَبته أي حددته. «ذَلِقٌ» مثله: «رغب». «زُرْقٌ»، «سَيْحَف» هي نصال قِصَار عِرَاض؛ قال الشَّنْفَرى[٥]: [من الطويل]

لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفًا إذا آنست أُولَى العَدِيِّ اقشعرَّتِ[٦]

---

(١) عبيد بن الأبرص الأسدي، نادم ملوك الحيرة مع النابغة الذبياني، وقيل إن المنذر بن ماء السماء (٥٥٤ م) قتله وهو شيخ كبير. شعر لبيد من أصدق الشعر الجاهلي الحافل بالفخر مع الجد والإشراق في الوصف والعتاب. ترك شعرًا موزعًا. ترجمته في: ـ ابن سلام، طبقات الشعراء، ص ٣٠. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٤٣ ـ ١٤٥. ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٩/ ٨٤ ـ ٩٠. ـ ابن الشجري، مختارات، ص ٨٧ ـ ١٠٨. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١١٠ ـ ١١١.

(٢) الذرب: السنان المحدد، اللسان، مادة: ذرب.

(٣) المارن: الصلب اللين اللدن، اللسان، مادة: مرن.

(٤) في كتب اللغة: وهو شجر الرماح، اللسان، مادة: وشج. وكذلك القاموس المحيط مادة: وشج.

(٥) الشنفرى الأزدي، يماني لم يرو شعر إلا لقلة غيره. رفيق تأبط شرًا، أسره بنو فهم وعاش يغير على بني سلامان بن مفرج حتى قتل في إحدى الغارات. ترك شعرًا أشهره لامية العرب. ترجمته في: ـ الأصفهاني، الأغاني، ٢١/ ١٣٤ ـ ١٤٣. ـ أبو علي القالي، الأمالي، ٣/ ٢٠٨ ـ ٢١٢. ـ البستاني، الروائع، ص ٣. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٠٥ ـ ١٠٩.

(٦) الوفضة: الجعبة من الأدم. اللسان، مادة: وفض.

«سِنَان» وجمعه أسِنَّة. «صُلَّبِيٌّ» سنان مَسْنون. «عامِلٌ». «عذَارٌ» وعذار السنان شَفْرَتاه «عَيْرٌ» الناتىء في وَسَطه. «قَارِيَةٌ» حَدّ السنان. «لَهْذَم» هو السنان الحادّ القاطع. «مُصَلَّبٌ» أي مسنون. و«مُطْحَرٌ»[1] و«مُحَدَّد» و«مَطْرُور» مثلُه. «مُذَرَّب» أي محدّد؛ قال كَعْب[2]: [من الكامل]

بِمُذَرَّبَاتٍ بالأَكُفِّ نَوَاهِلٍ ... وبكلِّ أبيضَ كالغديرِ مُهَنَّدِ

«نَصْل» وجمعه نُصُول ونِصال. «نَحِيض»[3] يقال: نحضتُه إذا رقّقته.

* * *

ومن أسماء ما يعقد عليها: «أمّ» الأمّ: العَلَم الذي يتبعه الجيش. «بَنْدٌ» هو العلم الكبير، وهو فارسيّ معرّب. «حَقِيقة» هي الراية؛ قال عامر بن الطُّفَيْل[4]: [من الطويل]

* أنا الفارسُ الحامِي حقيقةَ جعفرٍ *

«خفق» خَفَقت الراية إذا اضطربت. «عَلَمٌ» الراية، وقيل: الذي يُعقد على الرمح. «عُقَابٌ» العُقاب: العلم الضخم. «غَايَةٌ» وهي الراية. «لِواء» وهو دون الأعلام والبنود. «عَذَبَةٌ» خِرْقَة تُعقد على رأس الرمح.

* * *

وأما إذا حمله الرجل وطَعَن به: يقال: «اعتقلَ الرمحَ» إذا جعله بين رِكَابه وسَاقِه. «أَقْرن» إذا رفع رأس رُمْحه. «اقْتلع» إذا أخذ الرمح ليحمِلَ به. «امتعط» و«انتزع» مثل اقتلع. «أشرع» إذا قابلَ به خَصْمَه «بَوّأ» يقال: بوّأت الرمح إذا سَدَّدته «تَيَمَّم» تيممه إذا قَصَده دون غيره؛ قال الخليل بن أحمد[5]: [من البسيط]

يَمَّمتُه الرمحَ شَزْرًا ثم قلتُ له: ... خُذْهَا حُذَيْفُ فأنت السيِّدُ الصَّمَدُ

---

(١) مُطْحَر: وردت هنا بمعنى مستوف وفي القاموس المحيط بمعنى مطوَّل (مادة طحر).

(٢) كعب: هامش ٣ صفحة ٥٢.

(٣) نحيض: صححناها عن القاموس وفي الأصل نحض. انظر مادة: نحض.

(٤) عامر بن الطفيل، من بني عامر بن صعصعة، قاد قومه في غارات على غطفان ومذحج، وفد على النبي سنة ٩ أو ١٠ للهجرة ولم يسلم لأن النبي رفض أن يؤمِّره على البدو كلهم. توفي بعدها بعام. نشر ديوان عامر مع عبيد بن الأبرص في نشريات جب رقم ٢١ ليدن ـ لندن سنة ١٩١٣. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/١١٧.

(٥) الخليل بن أحمد الفراهيدي، أبو عبد الرحمٰن من أزد شنوءه. عاش زاهدًا، كان يحج سنة ويغزو سنة وتوفي عن أربع وسبعين سنة، سنة ١٧٥/ ٧٩١ م. هو مؤسِّس علم النحو ومبتكر=

ومثل «تيمم» «جَعَبَ»، «جَحَلَ» «جَحْدَل»، «جَعْفَلَ»؛ قال الشاعر: [من الرّجز]

* جعفلتها لما أبتْ أن تخضعا *

«جَوَّرَ» مثله «جَدَّل» يقال: طعنه فجدّله أي رماه إلى الأرض. «جَرْجَمَ» يقال: جرجمه إذا صَرَعه. «حَفَز» أي طَعَنَ. «خَطّارٌ» هو الطعَّان بالرمح؛ قال الشاعر: [من الطويل]

* مَصَالِيتُ خَطّارون بالرّمح في الوَغَى(١) *

«خار» يقال طعنه فَخَارَ، أي أصاب خَوْرَانَه وهو مَجْرى الرَّوْث. «دَعَسَ» إذا طعن. «دَسَرَ» أي طعن طعنة قويّة. «رَامِحٌ» أي ذو رمح، لا فعل له. «رَصَعَ» إذا طعن. «رَمَحَ» مثله. «رَكَزَ» إذا غرز رمحه في الأرض. «زَجَّ» إذا طعن بالزُّجّ «سَلَقَ» إذا طعنه فوقع على ظهره. «سَرّ» إذا طعنه في سُرَّته؛ قال الشاعر: [من المتقارب]

نَسُرُّهُمُ إن هُمُو أقبلوا وإن أدبَرُوا فهُمُو مَنْ نَسُبُّ

أي نطعنهم في سَبَّاتهم(٢). «شَجَرَ» إذا طعن. «شَكَّ» إذا طَعَنه فَخَرَقَه. «طَعَنَ». «قَرْطَبَ» إذا طَعَنَ فصَرَعَ. «قَعَفَ» إذا طعنه فَقَعَفَهُ. «قَعَرَ» مثله. «قَطَّرَ» أي طعنه فألقاه على أحد قُطْرَيْه وهما جانباه؛ قال الهُذَليّ(٣): [من البسيط]

مُجدَّلًا يَتَسَقّى جلدُه دَمَه كما يُقَطَّرُ جِذْعُ الدَّوْمةِ(٤) القُطُلُ(٥)

والقطل المقطوع. «قدع» يقال: تقادعوا إذا تطاعنوا. «لَهَزَ» إذا طعنه في صدره. «لَزّه» إذا طعنه. «مُدَاعَسة» وهي المطاعَنة. «مُسَامحة» وهي الملاينة والمساهلة. «مُنَادَسة» المنادسة: المطاعنة. و«رماح نوادس»؛ قال الكميت:

ونحن صَبَحْنَا آلَ نَجْرَانَ غارةً تميمَ بن مُرٍّ والرماحَ النَّوَادِسَا

= علم العروض وأدل من جمع اللغة في معجم العين، وشكل الحروف وعلامات القراءة ترك لنا: ـ معجم العين. ـ في معاني الحروف. ـ شرح صرف الخليل ـ جملة آلات الإعراب. ترجمته في: ـ ابن المعتز، طبقات. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٢٠٦. ـ ياقوت، إرشاد الأريب، ٦/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤. ـ ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٥٤ ـ ٥٩. ـ اليافعي، مرآة الجنان، ١/ ٣٠٣. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١٣١ ـ ١٣٤.

(١) مصاليت: جمع الصلت وهو السيف الصقيل الحاد، اللسان، مادة: صلت.

(٢) سبات: جمع سبة وهي الدبر، اللسان، مادة: سبة.

(٣) الهُذلي، صخر الغي: هامش ٤ صفحة ١٧٤. (٤) الدومة: شجر له ثمر في حجم التفاح.

(٥) القُطُل: الجذع المقطوع من أصله.

«مِدْعَسٌ» أي طَعَّان. «مُدَاعِس» مثله. «مَزْجُوج» الذي طُعِنَ بالزُّجّ. «مُكَوَّر» هو الذي طُعِن بالرّمح؛ قال الفرزدق[١]: [من الطّويل]

حَمَلتُ عليه حملةً فطعنتُه فغادرتُه فوق الفِرَاش مُكَوَّرا

«جائفة» يقال طعنة طعنةً جائفة إذا وصلت إلى جوفه. «نَجْلَاء» هي الطعنة الواسعة. «نَكَتَ» يقال: طعنه فنكته إذا وقع على رأسه. «هَرَّعَ» يقال: هَرّع القومُ الرماحَ إذا شَرَعوها ومَضَوْا بها. «وَخَضَ» يقال: وَخَضَه إذا طعنه طعنًا لا ينفُذُ؛ قال الشاعر: [من الرّجز]

* وَخْضًا إلى النّصف وطَعْنًا أرصَعَا[٢] *

* * *

وأما ما وصفته به الشعراء ـ فمن ذلك ما قاله أبو تمّام حَبيب بن أوْس الطائيّ[٣]: [من البسيط]

أَنْهبت أرواحَهُ الأرماحَ إذ شُرِعَتْ فما تُرَدُّ لريبِ الدهرِ عنه يَدُ
كأنها وهي في الأوداج والغَةٌ وفي الكُلى تجدُ الغيظَ الذي تجِدُ
من كلّ أزرقَ نَظّارٍ بلا نَظَرٍ إلى المَقَاتِلِ ما في متنه أَوَدُ[٤]
كأنه كان خِدْنَ الحُبِّ مذ زمنٍ فليس يُعجزه قلبٌ ولا كَبِدُ[٥]

وقال مؤيِّد الدين الطغرائي: [من الطويل]

وخفّاقةٍ طوع الرّياحِ كأنّها كواسِرُ دَجْنٍ أَلْثَقتها الأهاضِيبُ[٦]
تَمِيدُ نَشْوَى القدودِ كأنّها قدودُ العذارى يزدهِيهنّ تطريب[٧]

---

(١) الفرزدق: أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة الملقب بالفرزدق، ولد بالبصرة سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م ومات فيها سنة ١١٠ هـ/ ٧٣٨ م. تنقل بين البصرة والكوفة والمدينة والشام. اتصل بسليمان بن عبد الملك وهو أول خليفة يتصل به. غلبت عليه المهاجاة مع جرير والأخطل وزوجه نوار. وكان زير نساء. قال يونس بن حبيب لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب. ترك لنا ديوانًا مطبوعًا ترجمته في: ـ الأصفهاني، الأغاني، ٨/١٨٦ ـ ١٩٧. ـ المرزباني، الموشح، ص ٩٩ ـ ١١٧. ـ المرزباني، المعجم، ص ٤٨٦. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٧٥٥. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/٢٠٩ ـ ٢١٤.

(٢) أرصعا، رصعه: طعنه بشدة، اللسان، مادة: رصع.

(٣) أبو تمام: هامش ٣ صفحة ٧٩.

(٤) الأود: الميل، اللسان، مادة: ميل.

(٥) الخدن: الصديق، اللسان، مادة: خدن.

(٦) ألثقتها: بللتها وندتها، اللسان، مادة: لثق.

(٧) تميد: تضطرب وتتحرك، اللسان، مادة: ميد.

يُرَنِّحها سُقْيا الدماء كأنها مُدَامٌ وآثارُ الطِّعانِ أكاويبُ(١)
بها هِزَّةٌ بين ارتياحٍ ورهبةٍ وللنصر مُرتاحٌ وللهول مرهوبُ
لها العَذَباتُ الحمرُ تهفُو كأنها ضِرَامٌ بمستَنِّ العواصف مشبوب(٢)
إذا نُشرتْ في الرّوع لاحتْ صحائفٌ عليهن عُنوانٌ من النصر مكتوب
طوالعُ، طرفُ الجوّ منهنّ خاسئٌ حسيرٌ وقلبُ الأرض منهن مرعوبُ

وقال آخر: [من الطويل]

ومُطَّرِدٍ لَدْنِ الكعوبِ كأنما تَغَشَّاهُ مُنْباعٌ من الزيت سائلُ(٣)
أَصَمّ إذا ما هُزَّ مارَتْ سَرَاتُه كما مار ثُعبانُ الرمال المُوائلُ(٤)
له رائدٌ ماضِي الغِرَارِ كأنّه هلالٌ بَدَا في ظُلمة الليل ناحِلُ(٥)

وقال حوبة(٦) بن حُوَيّة يصف السّنان: [من الكامل]

فأعَدّ أزرقَ في القَنَاةِ كأنّه في طَخْيَة الظلماء ضوءُ شِهَابِ(٧)

وقال دِعْبِل(٨): [من المتقارب]

وأَسْمَر في رأسه أزرق مثلُ لسان الحيّة الصادي

---

(١) رنحه: أضعفه وأزال قوته، اللسان، مادة: رنح؛ أكاويب، جمع كوب: كأس.
(٢) العذبات جمع عذبة وهي القذاة، اللسان، مادة: عذب. تهفو: ترتفع وتتطاير، اللسان، مادة: هفو. ضرام: الجمر والنار، اللسان، مادة: ضرم.
(٣) المطرد: الرمح، اللسان، مادة: طرد. منباع: سائل، اللسان، مادة: نبع.
(٤) أصم: مكتنز، اللسان، مادة: صمم. مارت سراته: اضطرب أعلاه، اللسان، مادة: مور. الموائل: الطالب النجاة، اللسان، مادة: وأل.
(٥) الغِرار: حد السيف والرمح والسيف، اللسان، مادة: غرر.
(٦) حوبة بن حُوَيّة: ولعله عبد الله بن حوية السعدي التميمي الذي قتل مع حجر بن عدي سنة ٥١ هـ. الطبري ٥/ ٢٧١.
(٧) الطخية: الظلمة الشديدة، اللسان، مادة: طخي.
(٨) دِعبل هو أبو جعفر الحسن بن علي الخزاعي، كان قاطعًا للطريق في مطلع حياته، ثم واليًا على سمنجان وطخارستان ١٧٣ هـ/ ٧٨٩ ـ ١٧٥ هـ/ ٧٩٢، وذهب إلى مصر وعيّنه المطلب بن عبد الله الخزاعي واليًا على أسوان ثم نحاه المطلب بعد انغماسه في الهجاء لأبي سعد المخزومي فذكر مثالب عدنان واجترأ منهجا الرشيد وبني العباس، قتل على خلاف في المكان فمنهم من يجعل قبره في السوس بالأهواز، ومنهم من يجعله في زويلة بني الخطاب (ليبيا) كما في العمدة لابن رشيق. ومنهم من يجعله في طوس سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م. ترك لنا أشعارًا متفرقة. ترجمته في: ـ الأصفهاني، الأغاني، ١٨/ ٢٩ ـ ٦١. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٥٣٩. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٢١٣. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٣٩ ـ ٤١.

وقال آخر: [من الطويل]

جـمـعْـت رُدَيْـنِـيًّـا كـأنّ سِـنَـانَـهُ سَـنَـا لَهَـبٍ لـم يَـسْـتَـعِـزْ بِـدُخَـانِ

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه[١]: [من الطويل]

بـكـلّ رُدَيْـنِـيٍّ كـأنّ سـنـانَـهُ شِهابٌ بَدَا في ظُلمة الليل ساطعُ
تَقاصرتِ الآجالُ في طُول متنه وعـادت بـه الآمـالُ وهـي فَـجَـائـع
وساءتْ ظنونُ الحرب في حسن ظَنّه فـهـن لـحـبّـات الـقـلـوب قـوارعُ

وقال أبو محمد بن مالك القرطبيّ من رسالة جاء منها في وصف الرمح: ومِنْ كلِ مثقَّفِ الكُعوب، أصمّ الأُنبوب؛ كأنما سَلَبَ من الروم زُرْقتها، واجتلب من العرب سُمْرتها؛ وأخذ من الذئب عَسَلاَنَه[٢]، ومن قلب الجَبَان خَفَقانَه، ومن رَقْرَاق السَّراب لَمَعانه؛ واستعار من العاشق نُحولَه، ومن العليل ذُبولَه. قال أبو تمام[٣]: [من البسيط]

مُـثَـقّـفـاتٌ سَـلَـبْـنَ الـرومَ زُرْقَـتَـهـا والعُربَ أُدْمتَها والعاشقَ القِضَفَا[٤]

* * *

وأما ما قيل في القوس العربية: رُوِيَ أن عليَّ بن أبي طالب[٥] رضي الله عنه دخل على النبيّ ﷺ وهو متقلّدٌ قَوْسًا عربية، فقال النبيّ ﷺ: «هكذا جاءني جبريلُ اللّهم مَنْ استطعمك بها فأَطْعِمْه ومن استنصرك بها فانْصُرْه ومن استرزقك بها فارزُقْه». وقال: «ما مَدَّ الناسُ أيديَهم إلى شيء من السلاح إلا وللقوس عليه فَضْل».

والقوس مؤنثة. وتصغيرها قُوَيْس. وجمعها أَقْوُس وأقواس وقِيَاس وقِسِيّ. ولها أجزاء وأسماء.

فأما أجزاؤها: فكَبِدها: ما بين طَرَفي العِلَاقة. ويليه الكُلْية. ويَلِي الكُلْية: الأبْهر. ثم الطائف، وهما طائفان: الأعلى والأسفل. والسِّيَة: ما عُطِف من طَرَفيها. ويدُها: أعلاها. ورجلها: أسفلها. والعَجْسُ والمَعْجِسُ: مَقْبِضها. وإنسيُّها: ما أَقْبل

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربه: هامش ٤ صفحة ١٦٢.
(٢) عسلان الذئب: أسرع واضطرب في عدوه وهزّ رأسه، اللسان، مادة: عسل.
(٣) أبو تمام: هامش ٣ صفحة ٧٩.
(٤) القضف: النحافة، اللسان، مادة: قضف.
(٥) علي بن أبي طالب: هامش ٢ صفحة ٦.

على الرامي. ووَحْشِيُّها ما كان إلى الصَّيْد. والفَرْض والفُرْضة: الحَزّة التي يقع فيها طرف الوَتَر المعقود وهو السية[١]. وما فوق الفُرْضة: الظُّفْر والكُظْر.

* * *

وأما أسماء القوس ونعوتها: فمنها: «بَانِيَة[٢]» أي بانية على وَتَرها إذا التصقت به. «جَشْوٌ» هي القوس الغليظة وقيل الخفيفة؛ قال أبو ذُؤيب[٣]: [من الكامل]

وَنَـمِـيـمَـةٍ مـن قـانـصٍ مُـتَـلَبِّـبٍ   في كفِّه جَشْوٌ أجَشُّ وأَقْطَعُ[٤]

«جلهق» وجمعها جَلاهق، وهي قِسِيُّ البُنْدُق. «حَنَّانَةٌ» التي تحِنّ عند الإنباض؛ قال الشاعر: [من الطويل]

وفي مَنْكِبِي حَنَّانَةٌ عُودُ نَبْعَةٍ   تَـخَـيَّـرَهـا لـي سُوقَ بَـكَّـةَ بـائـعُ

«حَاشِكة» وهي القوس البعيدة الرمي. «حَثِيرة» وهي القوس بغير وتر، وفي الحديث: «لو صَلّيتم حتى تكونوا كالحَنائر ما نَفَعَكم حتى تُحِبُّوا آلَ رسول الله ﷺ». «حَذْلَاء» هي القوس التي تَطَامَنَتْ[٥] سِيتَها. «حَصُوبٌ» وهي التي إذا رُمِيَ عنها انقلب وَتَرُها. «رَهِيش» التي إذا رُمي عنها اهتزّت وضرب وترُها أبهرَها. «زَفَيَان» هي السريعة الإرسال للسهم. «زَوْرَاء» سُمّيت بذلك لميلها. «شَسِيب» وهو من أسمائها. «شَرِيجَة»، «شَذْفَاء» سُمّيت بذلك لاعوجاجها. «صَفْرَاء»، «صَرِيعٌ»، «ضَرُوحٌ» وهي الشديدة الحفز[٦] والدفع للسهم. «طَحُورٌ» البعيدة الرمي. «طَرُوح» مثل ضروح. «طِلَاع الكف» إذا كان مَقْبِضها يملأُ الكفَّ. «عَاتِكٌ» هي القوس التي

---

(١) السية: التصحيح عن أساس البلاغة واللسان، وفي الأصل «السيسرة».

(٢) البانية: القوس التي قد قربت من وترها حتى كادت تلصق به وفي الأصل البايئة وهي تحريف، والتصحيح عن الجوهري في الصحاح في مادة بين. وأما البائنة: القوس التي بانت عن وترها كثيرًا. أي بتأخير النون.

(٣) أبو ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم بن باهلة، أحد الشعراء المخضرمين، كان راوية لساعدة بن جؤيه الهذلي، خرج مع عبد الله بن الزبير في مغزى نحو المغرب فمات، وقيل مات بأرض الروم ودفن هناك، فقد خمسة من بنيه في عام واحد بالطاعون أو بلبن شربت منه حية. يعد أشعر شعراء هذيل. شعره في ديوان الهذليين. ترجمته في: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣١٣ ـ ٣١٦. ـ الأصفهاني، الأغاني، ٦/٥٨ ـ ٦٩. ـ ياقوت، الإرشاد، ٤/١٨٥ ـ ١٨٨. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٤) نميمة: هنا بمعنى حركة، اللسان، مادة: نمم. متلبب: متهيىء للصيد والقتال.

(٥) تطامنت: انخفضت مع ارتفاع الجهة الأخرى. اللسان، مادة: طمن.

(٦) الحفز: الدفع من الخلف، اللسان، مادة: حفز.

احمرّت من الفِدَم[(١)]، ومثله العاتكة. «عَاتِقٌ» هي التي تغيّر لونها. «عَطْوَى» هي المُؤَاتِيةُ السهلةُ؛ قال الشاعر: [من الطويل]

لـه نَـبْـعَـةٌ عَـطْـوَى كـأنّ رنـيـنَـهـا ... بألْوى تَعَاطَتْه الأكُفُّ المَوَاسِحُ[(٢)]

«عُرَاضَةٌ» وهي العَرِيضة. «عَبْهَرٌ» هي القوس الممتلئة العَجْس[(٣)] «عِطَافَةٌ» «عَطِيفة». «عَطْفَى» القوس المعطوفة؛ قال أُسَامة الهُذَلِيّ[(٤)]: [من الطويل]

فـمـدَّ ذِرَاعـيـه وأَجْـنـأ صُـلْـبَـه ... وفرّجَـها عَطْفَى مَرِيرٌ مُلَاكِدُ[(٥)]

«عَطُوفٌ» هي المعطوفة السِّيَتَين إحداهما على الأخرى. «عَتَلَةٌ»[(٦)] والعتلة: القوس الفارسية، وجمعها عَتَلٌ. «عَوْجَاء» وهو من أسمائها. «عَثُوثٌ» وهي القوس المُرِنَة.

قال كُثَيِّر[(٧)]: [من المتقارب]

هَـتُـوفًـا إذا ذَاقَـهـا الـنَّـازِعُـونَ ... سمعتَ لها بعدَ حَبْضٍ عِثَاثَا[(٨)]

---

(١) الفدم: الأحمر المشبع حمرة، اللسان، مادة: فدم.

(٢) الألوى: الوتر؛ تعاطته: تنازعته، اللسان، مادة: لوي وعطي.

(٣) العجس: مقبض القوس أو الوسط، اللسان، مادة: عجس.

(٤) أسامة بن الحارث الهذلي أحد بني كاهل، وصفه المرزباني في المعجم بأنه مخضرم، وجعله بني قتيبة أخا مالك بن الحارث ووصفهما بأنهما مجيدان. نصح أسامة أحد بني قيس بألا يهاجر زمن عمر بن الخطاب، مما يعني أنه كان حيًا في عهد عمر. راجعه في: - ديوان الهذلي ٢/ ١٩٥ وما بعدها. - الإصابة، ١/١٠٦. - السمط، ص ٨١. - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٥٥٧ مع الهامش.

(٥) أجنأ صلبه: أحنى ظهره، اللسان، مادة: جنأ. مرير: ذو مرة أو قوة، اللسان، مادة: مرر. الملاكد: المعالج، اللسان، مادة: لكد ولاكد.

(٦) في الأصل عتكة والتصحيح عن اللسان والمخصص.

(٧) كُثَيِّر عَزّة بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة من خزاعة، يكنى أبا صخر، كان راوية جميل بن معمر. توفي سنة ١٠٥ هـ/٧٢٣ م. كان يعشق عزة فنسب إليها. كان كيساني المذهب ومع ذلك مدح عمر بن العزيز وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الأمويين. يعتبر وجميل زعيمي الغزل العذري. يعتبر في مرتبة جرير والفرزدق وإن غلب على شعره الغزل. راجع فيه: - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤١٠ - ٤٢٣. - الأغاني، ٨/٢٧ - ٤٤؛ ١١/٤٦ - ٥٢. - المرزباني، المعجم، ص ٢٥٠؛ الموشح، ص ١٤٣ - ١٥٨. - ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٠؛ الفرق بين الفرق، البغدادي، ص ٢٨ - ٣٠. - ابن خلكان، الوفيات، ص ٥١٩. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/١٩٥ - ١٩٦.

(٨) ذاق القوس: شد الوتر لينظر ما شدتها، اللسان، مادة: ذوق. النازعون: الرماة، اللسان، مادة: نزع. الحبض: الصوت الضعيف، اللسان، مادة: حبض. عثاث: ترجيع وترنم - اللسان: عوث.

«عُطُلٌ» هي التي لا وترَ عليها. «غَلْفَاء» التي في غلافها. «فَرْعٌ» و«فَرْعةٌ» وهما من جِيَاد القسيّ. «فَجَّاء» تُوصف بذلك إذا بَان وترها عن كَبِدها. «فَحْوَاء» مثلها. «فِلْقٌ» إذا كانت مشقوقةً ولم تكن قَضيبًا. «فُرُجٌ» إذا تنفّجتْ سِياتها[١]. «قوس قَعْساء» والقَعَسُ هو نتوءُ باطنِ الفرس من وسطها ودخول ظاهرها. «قَؤُود» وهي السَّلِسة المنقادة. «كبداء» هي التي يملأُ كَبِدُها الكفَّ. «كَزَّة» وهي القصيرة. «مُسْحِنَةٌ» وهي الحسنة المنظَر. «مِطْحَرٌ» التي ترمي بسهمها صُعُدًا. «مُحْدَلَةٌ» التي تطامنتْ سِيَتها مثل الحَدْلاء. «مَرُوحٌ» وهي القوس الحسنة التي يمرح من رآها عَجَبًا بها. ويقال مِمْرَاحٌ ومِمْرَحٌ أي نَشِيطٌ. «مَهُوك» القوس الليّنة. «مَسِيحة»[٢] وهو من أسمائها. «مُعَطَّفة» هي القوس المعطوفة السِّيَتين. «مُطْعَمَةٌ»؛ قال الشاعر: [من البسيط]

وفي الشِّمالِ من الشِّرْيانِ مُطْعَمَةٌ كَبْدَاءُ في عَجْسها عَطْفٌ وتقويمُ

وقيل: سُمِّيت بذلك لأنها تُطْعِم. «مَعْطُوفة». «ماسِخِيّات» هي أقواس تُنْسَب إلى مَاسِخَةَ رجلٍ من الأزد كان قَوَّاسًا؛ قال الشَّمَّاخ بن ضِرَار[٣]: [من الطويل]

فَقَرَّبتُ مُبراةً تخالُ ضُلوعَها من الماسِخِيّاتِ القِسيّ المُوَتَّرَا[٤]

«نَاتِرَة» وهي التي تقطع الوتر لصلابتها، وجمعها نَوَاتر. «نَفُوحٌ» هي الشديدة الدفع للسهم. «هَمَزَى» مثلها.

* * *

وأما الوتر: فمن أسمائه: «حِبَجْرٌ» وهو الوتر الغليظ، وكل غليظ كذلك؛ قال الشاعر: [من الرّجز]

أرمِي عليها وهي شيءٌ بُجْرُ والقوسُ فيها وَتَرٌ حِبَجْرُ[٥]

* وهي ثلاثُ أذرُعٍ وشِبْرُ *

---

(١) تنفجت سياتها: ارتفعت، اللسان، مادة: نفج.

(٢) في الأصل مسيح، والتصحيح عن اللسان والمخصص لابن سيده مادة: مسح.

(٣) الشماخ بن ضرار: وأخواه مزرِّدو جزء، ثلاثة شعراء مخضرمون كان معاصرًا للحطيئة، شارك الشماخ في القادسية وفي غزو أذربيجان، عده الحطيئة أشعر بني غطفان، كما عده ابن سلام الجمحي في الطبقة الثالثة مع لبيد والنابغة وأبي ذؤيب الهذلي. له ديوان شعر، وترجمته في: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٣٢ وما بعدها. ـ المرزباني، الموشح، ص ٦٧. ـ الأغاني، ٨/ ١٠٩. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٧٠.

(٤) مُبراة: ناقة في أنفها برة (حلقة من فضة)، اللسان: بري. الموتر: المشدود الوتر، اللسان، مادة: وتر.

(٥) بجر: عجب، اللسان، مادة: بجر.

«سَرَعَان» وهو الوتر القويّ؛ قال الشاعر: [من الطويل]

وعَطَّلْتُ قوسَ اللّهو من سَرَعَانِها   وعادتْ سِهامِي بين أَحْنَى وَنَاصِلِ[١]

«شِرْعَةٌ» الشرعة: الوتر الرقيق، وقيل: ما دام مشدوداً. «فرو»، «هِجَار»، «وَتَرٌ».

* * *

وأما أصواتُ القوس: يقال: «أَرَنَّت» إذا رمى عنها فصَوَّتت. «أَنْبَضَ»، «أَنضب»[٢]، «حُضْبٌ» وجمعه أَحْضاب. «رَجَّعَتْ»، «زَجُومٌ»، الزَّجُوم التي ليست شديدةَ الإرْنان. «سَجَعتْ» إذا مدّتْ حنينَها على جهة واحدة. «عَجّاجة»، «عَزَفَتْ» «عِدَادٌ» هو صوت الوتر. «عَوّلت» مثل أرنّت. «كَتُوم» وهي التي لا تُرِنّ «مِرْنَان» وهي التي إذا رمى عنها صَوّتت؛ قال الشنفرى[٣]:

إذا زلّ عنها السهمُ رَنَّت كأنها   مُـرَزَّأَةٌ ثَـكْـلى تَـحِـنّ وتُـعْـوِلُ

«نَأَمَتْ» أي صوّتت. «هَتَفى»، «هَتَّافة»، «هَزِجٌ» و«هَزَّجَتْ» إذا صوّتت عند إنباض الرمي عنها؛ قال الكُمَيْت[٤]: [من الخفيف]

لم يَعِبْ رَبُّها ولا الناسُ منها   غيْرَ إنذارِها عليها الحميرَا
بأهازيجَ من أغانيِّها الجُـ   ـشِّ وإتباعِها النحيبَ الزفيرَا

وقال الشمّاخ[٥]: [من الطويل]

إذا أنبضَ الرامُون عنها ترنّمتْ   تَرَنُّمَ ثَكْلى أوجعتها الجَنَائزُ

وقال آخر: [من الرجز]

وَهْيَ إذا أنبضْتَ عنها تسجَعُ   تَرَنُّمَ الثَّكْلى أبتْ لا تهجَعُ

وقال آخر: [من الرّجز]

تسمَعُ عند النَّزْع والتوتيرِ   في سِيَتَيْها رَنَّةَ الطُّنْبُورِ[٦]

* * *

(١) في الأصل نواضل والتصحيح عن اللسان، مادة: سرع ومادة: نصل.
(٢) أنبض وأنضب: إذا جذب لتصوت، اللسان: نبض ونضب.
(٣) الشنفرى: هامش ٥ صفحة ١٨٥.
(٤) الكميت: هامش ٣ صفحة ١٧٤.
(٥) الشماخ: هامش ٣ ص ١٩٣.
(٦) نزع: رمى السهم، اللسان: نزع. توتير: شد وتر القوس، اللسان: وتر.

وإذا وَتَرَ القوسَ أو أخذ عنها وَتَرها: يقال: «حَظْرَبَ قوسه» إذا شدّ تَوْتِيرها. «طَحْمَرَ» إذا وَتَرها. «مَتَّنَ» مثله. «وَتَر»، «عَطَّلَ» يقال: عطّل القوسَ إذا أخَذَ عنها الوَتَر.

* * *

وأما إذا حَمَل القوسَ أو اتّكأ عليها: يقال: «تَنَكَّبَ القوسَ» إذا ألقاها على مَنْكِبه. «تَأَتَّب» يقال: تأتّب قوسه إذا جعلها على ظهره. «مُتَقَوِّس» إذا كان معه قوس. «انْكَبُ» والأنكب الذي لا قوس معه. «ارتكز» إذا وضعها بالأرض واعتمد عليها.

هذا ما قيل في القوس من الأسماء والصفات اللغوية؛ فلنذكر تركيب القوس ومبدأ عملها.

ذكرُ ما قيل في تركيب القوس، ومبدأ عملها ومَن رَمى عنها، ومعنى الرمي

أما تركيب القوس: فقد أجمع الرُّماة أنها مبنية على طبائع الإنسان الأربع وهي: العظمُ، ونظيرُهُ في القوس الخشب. واللحمُ، ونظيرُهُ في القوس القرون. والعروقُ والعَصَبُ، ونظيرُها في القوس العَقَب. والدمُ، ونظيره في القوس الغرَاء.

* * *

وأما مبدأ عملها ومن رمى بها: اختلف الناس في القوس ومبدأ عملها ومن رمى عنها، فقال بعض أهل العلم: إن القوس جاء بها جبريلُ إلى آدم عليه السلام وعلّمه الرميَ عنها، وتوارثه ولده إلى زمن نوح عليه السلام. وذكرتِ الفرسُ في كتاب الطبقات الأربع: أنّ أوّل من رمى عنها جمشيد الملك الفارسيّ، وقيل إنه كان في زمن نوح عليه السلام، وتوارثه بعده ولده طبقة بعد طبقة. وقال آخرون: إن أوّل من رمى عنها النُّمرود، وخبره مشهور في رميه نحو السماء وعَوْدُ سهمهِ إليه وقد غُمِس من الدم. وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبيّنًا في قصة إبراهيم عليه السلام. ورمى عنها بعد النمرود سامن اليماني ثم كند بن سامن ثم رستم من المجوس ثم اسفنديار وغيرهم. وقيل إن أوّل من وضعها بَهْرَام جُور بن سابور ذي الأكتاف، وهو من الملوك الساسانيّة، وإنه عملها من الحديد والنُّحاس والذهب، ولم يكن رآها قبل ذلك، فلم تطاوعه في المدّ فعمِلها من القرون والخشب والعَقَب[1]. وهذا القول

---

(١) العقب: عصب المتنين والساقين والوظيفين، اللسان: عقب.

مردود على قائله، لأن الفرس الأُوَل لم تزل تفتخر بالرمي في الحروب والصيد، ولم يُنْقَلْ أن الرمي انقطع في دولة ملك منهم. والله تعالى أعلم.

* * *

وأما معنى الرمي: ومعنى الرمي عند العرب هو القصد، وذلك أنهم يقولون: رميت ببصري الشيء، أي قصدت إليه به؛ قال ابن الرومي(١): [من الكامل]

نظرتْ فأقْصَدَتِ الفؤادَ بسهمها ... ثـم انـثـنـتْ عـنـه فـكـاد يَـهـيـمُ
وَيْلاه إن نظرتْ وإن هي أعرضتْ! ... وقـعُ الـسّـهـامِ ونَـزْعُـهـن ألـيـمُ

وقال العَبّاس بن الأحنف(٢): [من الكامل الأحذّ]

قـالـت ظَـلُومُ سَـمِـيّـةُ الـظُّـلم ... مـا لـي رأيـتُـك نـاحـلَ الـجـسـم
يـا مَـنْ رَمـى قـلـبـي فـأقـصـدَهُ ... أنـت الـعـلـيـمُ بـمـوضـع الـسّـهـم(٣)

وأما معناه عند العجم، فقد حُكِيَ عن بَهْرام أنه قال: معنى رميتُ الشيءَ أي رُمْته فوصلت إليه. وهو مقارب لمعناه عند العرب، لأنه إنما أراد بما رامه القَصْدَ له.

هذا ما قيل في القوس. فلنذكر ما قيل في السهم، ثم نذكر بعد ذلك ما قيل فيهما من النظم والنثر.

* * *

وأما ما قيل في السهم: رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله عزّ وجلّ لَيُدْخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرِ الجنةَ صانعَه يحتسب في صَنْعته الخيرَ والراميَ به والممدّ به». وقال ﷺ: «ارْمُوا وارْكَبُوا وأن ترمُوا أحبُّ إليّ من أن تركبوا». وعنه ﷺ وقد مرّ على نفر من أَسْلَمَ(٤) ينتضلون فقال: ارمُوا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا

(١) ابن الرومي: هامش ٢ ص ٦٩.
(٢) العباس بن الأحنف من بني حنيفة، صاحب غزل في العصر العباسي شاعر مطبوع يتبع مذهب عمر بن أبي ربيعة، نشأ في بغداد ونادم الرشيد وغزا معه أذربيجان وأرمينية، لم يمدح ولم يهجُع. توفي سنة ١٨٨ هـ/٨٠٣ م له ديوان شعره حققته د. عاتكة الخزرجي ترجمته في: ـ الأصفهاني، الأغاني، ٨/١٤. ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٢٩٥. ـ المرزباني، الموشح، ص ٢٩٠. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٠٧، ـ ٧١١. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/٢٣.
(٣) أقصده: أصابه بالرمي، اللسان، مادة: قصد.
(٤) أسلم: قبيلة.

وأنا مع بني فلان»، فأمسك أحدُ الفريقين بأيديهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم لا ترمُون»؛ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم! قال: «ارموا وأنا معكم كلّكم». وعن حمزة بن أُسَيْد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بَدْرٍ حين صَففْنَا لقريش وصَفُّوا لنا: «إذا أَكْثبوكم[1] فعليكم بالنَّبْل». وعنه ﷺ أنه قال: «مَنْ تعلَّم الرميَ ثم تركه فهو نعمةٌ تركها».

ومما يدلّ على تعظيم قدر الرامي ما رُوِي عن عبد الله بن شَدَّاد قال: سمعت عليًّا يقول: ما رأيتُ النبيّ ﷺ يُفَدِّي رجلًا بعد سَعْد، سمعتُه يقول: «ارم فِدَاكَ أبي وأُمِّي». وسَعْد هذا هو سعد بن مالك. وكلامُ رسول الله ﷺ له كان في يوم أُحدٍ.

وللسهم أسماءٌ وصفاتٌ ونعوتٌ نَطَقت بها العرب: منها: «أَقَذُّ»، والأقذ: الذي لا ريش عليه. «أَهْزَعُ» وهو السهم الذي يبقى في الكِنَانة وحده لأنه أردأ ما فيها، ويقال هو أجودُها وأفضلُها؛ ويقال: ما في جَفِيره[2] أهزَعُ، قال العَجّاج[3]: [من الرّجز]

* لا تكُ كالرامي بغير أهزَعَا *

وقال آخر: [من المتقارب]

فأرسَلَ سهمًا له أهزعا فشَكَّ نَوَاهِقَه والفما[4]

«أَفْوَق» هو المكسور الفُوق[5]. «أمرط» هو الذي سَقَط قُذَذُه. «أَغْضَفُ» وهو الغليظ الريش. «أصمع» وهو الرقيق. «ثُجْرٌ» وهي سِهَام غِلَاظ. «ثُلُثٌ» وهو سهم من ثلاثة، ومثله ثَلِيثٌ وثمِين وسَبِيع وسَدِيس وخَمِيس. «جُبَّاعٌ» وهو الذي بغير نصل. «جُمّاح» سهم مدوّر الرأس يتعلم به الصبيّ الرمي. «حَشْرٌ» يقال: سهم حَشْرٌ، وسهام حَشْرٌ أي دِقاق. «حَابٍ» وهو الذي يزحف في الأرض ثم يُصِيب الهدَف. «حَابِضٌ» وهو

---

(١) أكثبوكم: قاربوكم ودنوا منكم فمكنوكم منهم. اللسان: كثب.

(٢) الجفير: الكنانة والجعبة، اللسان: جفر.

(٣) العجاج بن عبد الله بن رؤبة من بني مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وكان ابنه رؤبة أشعر من أبيه وأغزر. كان يفد على عبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك ويمدحهما. مات سنة ٩٧ هـ/ ٧١٥ م. كان يكنى أبا الشعثاء لقي أبا هريرة وسمع به. نشر الورد ديوان العجاج ورؤبة سنة ١٩٠٣. ترجمته نجدها في: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤. ـ المرزباني، الموشح، ص ٢١٥ ـ ٢١٩. ـ السيوطي، المزهر، ٢/ ٢٦٥.

(٤) النواهق: مخارج النهاق من ذي الحافر، أو العظام الناتئة في مجرى دمعه من الخد. اللسان، نهق.

(٥) الفوق: موضع الوتر.

الذي يقع بين يَدَيْ رامِيه. «حِظَاءٌ» هي سِهام صِغار، والواحدة: حُظْوَةٌ، وتُجمع على حَظَوَات، وتصغيرها: حُظَيَّات. «حُسْبَانٌ» سِهامٌ صغارٌ يُرْمى بها عن القسيّ الفارسيّة، والواحدةُ حُسْبَانة. «خَازِقٌ» وهو السهم الذي يُصيب القِرْطاس. «خَشِيبٌ» وهو حين يُبْرَى البَرْيَ الأوّل. «خِلْطٌ» وهو السهم الذي ينبت عُوده على عَوَج فلا يزال يَتَعَوَّج وإن قُوِّم. «دَالِفٌ» وهو الذي يصيب ما دون الغَرَض ثم ينبُو عن موضِعه، والجمع دُلَّف. «دَابِرٌ» وهو الذي يخرج من الهدف. «رَقَمِيَّات» سِهام تُنْسَب إلى موضع بالمدينة. «زَالِجٌ» وهو الذي يتزلَّج من القوس أي يُسرع، وكلُّ سريع زالج. «زَاحِفٌ» وهو الذي يقع دون الغَرَض ثم يَزْحَف إليه. «زَمْخَرٌ» وهو النُّشَّاب واحدته زَمْخَرة، ويقال: هو الطويل منه. «سهم سَنْدَرِيٌّ» نوع من السهام منسوب إلى السَّنْدَرة وهي شجرة. «سُرْوة» سهم صغير، والجمع سِرَاء. «شَارِفٌ» سهم طويل دقيق، وقيل الذي طال عهده. «شَاخِصٌ» أي جاز الغَرَضَ من أعلاه. «شَارِمٌ» وهو الذي يَشْرِم جانبَ الغرض. «صَادِرٌ» هو النافذ. «صَنِيعٌ». «عَبِرٌ» هو الموفور الريش. «عَمُوجٌ» هو الذي يتلوّى في ذَهَابه وهو الاعوجاج في السير. «عُصُلٌ» السهام المعوَجّة. «عفر»، «عَائرٌ» وهو السهم الذي لا يُدْرى من أين أَقْبل. «غَرْبٌ» يقال: سهمٌ غَرْبٌ، وهو الذي يأتي ولا يعلم المصابُ به من أين يأتي. «فَالِجٌ» هو السهم الفائز. «قِطْع» هو السهم العريض. «قِدْحٌ» قبل أن يُرَاشَ ويُركّبَ نَصْلُه. «قُطْبَةٌ» سهمٌ صغيرٌ يُرْمى به. «قَطيع » قبل أن يُبْرى حين يكون قَضِيبًا، والجمع قُطُعٌ. «قِتْرَةٌ» سهمٌ صغيرٌ لا حديدَ فيه. «كُتّابٌ» سهمٌ صغيرٌ مدوّرُ الرأسِ مثل «جُمّاح»، «كُتّاب» سهم صغير؛ قال الشاعر: [من الهزج]

رَمَتْ عن كَثَبٍ قلبي ولـم تَـرْمِ بـكُـتَّـابِ

«لَأْمٌ» وهو السهم. «مُعْبَرٌ» وهو السهمُ الموفور الريش. «مِنْزَعٌ» هو السهمُ مطلقًا، ويقال: المِنْزَع: الذي يرمي أبعدَ ما يكون؛ قال الأعْشى(١): [من الخفيف]

فهو كالمِنْزَعِ المَرِيشِ من الشَّوْ حَطِ غالتْ به يمينُ المُغَالِي(٢)

(١) الأعشى هو ميمون بن قيس من بني قيس بن ثعلبة، ولد في منفوحة باليمامة وبها عرف قبره. كان أعمى ويكنى أبا بصير، أدرك الإسلام في آخر عمره ولم يسلم ويسمى صناجة العرب، كان يفد على ملوك فارس والحيرة وهو كما حسبه أبو عبيدة رابع الشعراء يأتي قبل طرفة، قصائده طويلة، وهو أوصف للخمر والحمر وهو أهجى وهو أول من وضع أقصوصة. نشر ديوانه. وترجمته في: ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٧٨ ـ ١٨٦. ـ الأغاني، ٨/ ٧٧ ـ ٨٧. ـ البستاني، الروائع رقم ٣١. ـ المرزباني، المعجم، ص ٤١. ـ مجلة المشرق ٢٦/ ٨٠٩ ـ ٨١٣ و٩٠٨ ـ ٩١٢. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ١٤٥ ـ ١٥١.

(٢) الشوحط: ضرب من شجر النبع تتخذ منه الأقواس، اللسان، شحط.

«مَرِيشٌ» ذو الريش. «مُخَلَّقٌ» هو المُصلح. «مصْرَادٌ» هو النافذ. «مُقْتَعَلٌ» هو الذي لم يُبْرَ بريًا جيِّدًا؛ قال لَبِيد[١]: [من الرمل]

فـرَمَـيْـت الـقـومَ رِشْـقًـا صـائـبًـا ليس بالعُصْلِ ولا بالمُقْتَعَلْ[٢]

«مِطْحَرٌ» هو البعيد الذَّهَاب؛ قال أبو ذُؤَيْب: [من الكامل]

فَرَمى فألحقَ صَاعِديًّا مِطْحَرًا بالكَشْح فاشتملتْ عليه الأضلُعُ

«مِرْمَاةٌ» سهمٌ صغير. «مِنْجَابٌ» هو الذي لا ريشَ عليه ولا نَصْل. «مِغْلَقٌ» اسم لكل سهم. «مرِّيخٌ» سهمٌ طويلٌ له أربع قُذَذٍ. «مَنْجُوفٌ» هو السهمُ العريض. «مِرَاطٌ» التي تمرّط[٣] ريشها. «مُقَزَّعٌ» الذي رِيشَ بريش صِغار. «مُرْتَدِعٌ» الذي إذا أصاب الهدفَ انفضخ[٤] عُوده. «مِعْرَاضٌ» ذو ريش يمشي عَرْضًا، وقيل سهم طويل له أربع قُذَذ دِقاق فإذا رُمِيَ به اعترض. «مُتَصَمِّعٌ» هو المنضَمُّ الريشِ من الدم، وقيل الملطَّخ بالدم. «مِشْقَصٌ» سهمٌ له نصلٌ عريض. «مِعْقَصٌ» الذي ينكسر نَصْلُه ويبقى سِنْخُه[٥] في السهم. «نِكْسٌ» هو الذي انكسر فُوقه فجُعِلَ أسفلُه أعلاه. «نواقر» هي السهام التي تُصيب. «نُشَّاب»، «نَجِيفٌ» هو العريض النصل، والجمع نُجُف؛ قال الهُذَليّ[٦]: [من الكامل]

نُجُفٌ بذلتْ لها خَوَافِيَ نَاهضٍ حَشْرِ القوادمِ كاللِّفاع الأطحلِ[٧]

«هِزَاع» هو الذي يبقى في الكِنانة وحده مثل الأهْزَع.

* * *

وأما أسماءُ النصل: فمنها: «رَهْبٌ» وهو النصل الرقيق، والجمع رِهَابٌ. «رَهِيشٌ» مثله. «قِطْعٌ» هو النصل العريض، وجمعه أَقْطَاع، وقيل: نصلٌ صغير، وقيل: السهمُ القصير. «قُطْبَة» نصل الهدف. «مِرْمَاة» هو النصل المدوَّر. «مِعْبَلَةٌ» نصلٌ طويل عريض، وقيل حديدة مصفّحة لا عَيْرَ[٨] لها. «نَضِيٌّ» هو نصلُ السهمِ. «وَقِيعٌ»

(١) لبيد بن ربيعة: انظر هامش ٦ صفحة ١٨٤. (٢) العصل: الملتوي، اللسان: عصل.
(٣) سهم مرط: لا ريش عليها، اللسان: مرط. (٤) انفضخ: انكسر، اللسان: فضخ.
(٥) السنخ: الحديدة التي تدخل في رأس السهم، اللسان: سنخ.
(٦) هو أبو كبير الهذلي، هامش ١ صفحة ١٢٩.
(٧) الأطحل: ما لونه الطحلة وهي لون كلون الرماد، اللسان: طحل.
(٨) العَيْر: الناتيء، اللسان: عير.

هو النصلُ المحدَّدُ؛ قال عنترة(١): [من الوافر]

وَآخَرُ مِنهُمُ أَجْرَرْتُ رُمْحِي وفي البَجْلِيِّ مِعْبَلَةٌ وَقِيعُ(٢)

فهذه أسماءُ السهمِ والنصلِ.

* * *

وإذا أصاب السهمُ يقال: ارْتَزَّ السهمُ» إذا ثبت في القرطاس «أَصَابَ». «أَقصَدَ» إذا قَتَل مكانَه؛ قال الأخطل: [من الطويل]

فإن كنتِ قد أقصَدْتِنِي إذ رَمَيتِنِي بسهميكِ فالرامي يُصِيبُ ولا يَدْرِي(٣)

«بَصَّرَ» إذا طَلى رأسَه بالبَصِيرة وهي الدم. «تَازَ» يقال: تَازَ السهمُ إذا أصاب الرمِيَّةَ فاهتَزّ فيها. «خَزَقَ» إذا أصاب. «خَسَقَ» مثله. «خَصَلَ» إذا وقع بلِزْقِ القِرْطاس، وقيل: الخصل الإصابة؛ ويقال: تَخَاصل القومُ إذا تَرَاهنوا في الرمي، وأحرز فلان خَصْلَ فلان إذا غَلَبَ. «دَبَرَ» إذا خرج عن الهَدَف. «زَهَقَ» إذا جاوز الهدفَ. «شَظِفَ» إذا دخل بين الجلد واللحم. «صَرِدَ» يقال: صَرِدَ السهمُ من الرميَّة إذا نَفَذ منها. «صَافَ» مثل «ضَافَ» و«طاش» إذا لم يصب. «عَصَّل» إذا التَوى في الرمي. «عظعظ» إذا لم يقصد الرميّة. «قَحَزَ» إذا وقع بين يدي الرامي. «مَرَقَ» إذا نَفَذَ من الرميّة. «نَصَلَ» إذا ثَبَت نصلُه في الشيء فلم يخرج. «نَصَا» بمعنى ذَهَب. «نَفَذَ» أي من الرميّة.

* * *

وأما ما يضاف إلى الرامي: يقال: «أَذْلَقَ» عبارة عن سُرعة الرمي. «أَشْخَصَ» إذا مَرّ سهمه برأس الغَرَض. «انْتَضَلَ» يقال: انْتضل القومُ وتَنَاضَلُوا إذا تَرَامَوْا للسَّبَقِ. «تَيَمّم» إذا قَصَدَ نحو جهةٍ بالسهم. «تَنْعِير» إذا أراد السهم على ظفره ليعرف قوامه من عَوَجه. «تَنْفيز» مثله «رمى» معروف. «رِشْقٌ» إذا رمى القومُ بأجمعهم في جهةٍ واحدة. «زَلَخَ» الزَّلْخُ رفعُ اليد في السهم إلى أقصى ما يقدر عليه. «سَعَرَ» إذا رَمى. «عَقَّى» بالسهم إذا رَمى به في الهواء وارتفع في طيرانه. «غَلَا» إذا رَمى أقصى الغاية. «لَعَطَ»

---

(١) عنترة: هامش ٤ صفحة ١٧٣. (٢) معبلة: نصل طويل عريض، اللسان: عبل.

(٣) في الأصل: أقصدتني فرميتني والتصحيح عن اللسان، مادة: قصد. لا يدري: لا يختل، اللسان: دري.

إذا رمى فأصاب. «لَتَأَ» يقال: لَتَأَ بالسهم إذا رمى به. «نَاشِبٌ» والناشب هو الرامي. «نَدَبَ» إذا رَمى في جهة واحدة. «نَجَفَ» إذا بَرَى السهمَ.

* * *

وأما أوعية السهام: «جَعْبَةٌ» وجمعها جِعَاب. «جَفِيرٌ» وهو أوسع من «الكِنَانة»، «ظَفْرَة» إذا كانت ممتلئة. «عَيْبَةٌ» مثل جَعْبَة. «قَرَنٌ»، «نَثَلَ» يقال: نَثَلْتُ كِنانتي إذا استخرجت ما فيها.

* * *

وأما ما وُصِفَ به القوسُ والسهمُ من النظم والنثر: قال عَتَّابُ بن وَرْقاء[١]: [من الرّجز]

وحَطَّ عن مَنْكِبِهِ شَرْيَانَةً ... مما اصطفى بَارِي القِسِيِّ وانتقى
أُمُّ بناتٍ عَدَّها صانعُها ... سِتِّينَ في كِتابه ممّا بَرى
ذات رُؤوسٍ كالمصابيح لها ... أسافلٌ مثلُ عَرَاقيبِ القَطَا
إنْ حُرِّكَتْ حَنَّتْ إلى أولادها ... كَحَنَّةِ الوالهِ من فَقْدِ الطَّلَا[٢]
حتى إذا ما قُرِنَتْ ببعضها ... لانتْ ومَالَ طَرَفاها وانثنى

وقالوا: أجودُ ما شُبِّه به فُوقُ السهم قول الشاعر: [من الكامل]

أفواقُها حَشْوُ الجَفِيرِ كأنّها ... أفواهُ أَفْرِخَةٍ من النِّغْران[٣]

ومن إنشاء المولى القاضي شهاب الدين محمود الحلبيّ الكاتب: خطبةٌ عَمِلها لرامي نُشَّاب، وهي:

الحمدُ لله الذي جَعَلَ سهمَ الجهادِ إلى مَقَاتِلِ أعداء دِينِهِ مُسَدَّدًا، وحُكْمَ الجِلَادِ بإصابة الغَرَض في سبيله مُؤَيَّدًا، وسَيْفَ الاجتهاد في نِكَاية مَنْ كفر به وبرسوله على

(١) عتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو الرياحي اليربوعي التميمي، محدث أنشد له الصولي أبياتًا في وصف قلم. كما ذكره الآمدي في المؤتلف والمختلف، وله شعر ذكره أبو هلال العسكري في ديوان المعاني. ـ أبو هلال العسكري، ديوان المعاني. ـ الآمدي، المؤتلف والمختلف، ص ١٦٠. ـ المرزباني، المعجم، ص ٢٦٠.

(٢) الواله: الأم المفارقة لولدها، اللسان: وله. الطلا: ولد الغزال والصغير من كل شيء، اللسان: طلا.

(٣) النِّغران: طير كالعصافير حمر المناقير، اللسان: نغر.

الأَمَدِ مُجَرَّدًا، ورُكْنَ الإيمان بإعداد القوّة ـ وهي الرمْيُ فيما ورد عن نبيّه ـ على كَرِّ الجَدِيدَيْنِ مُجَدَّدًا؛ الذي أعاد رِدَاءَ الجِهاد في مَوَاطن الصَّبْر بالنصر مُعْلَمًا، وأَبَادَ أهلَ الإلحاد بأن جَعَل لحُمَاة دينه في أرواحهم أقسامًا وفي مَقَاتلهم أَسْهُمًا، وأزال بأيدي القِسِيِّ من مَعَاقِل أهلِ الكفر حكمَ كُمَاتِهم الذين ارتَقَوْا منها خَشْيَةَ الموتِ سُلَّمًا، وأَفَاءَ على الإسلام من النصر ما فَاءَ به كلُّ دينٍ له خاضعًا وآلَ إليه مُسْتَسلمًا، وأَبَانَ حكمَ الأدَب في تجرّد العبد من القوّة إلا به بقوله عزّ من قائل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]. نحمَده على نِعَمه التي لم يَزَلْ بها قِدْحُ الدين فائزًا وسهمُه مُصِيبًا، ومَنَنِه التي ما بَرِح بها جدّ الكفر مُدْبِرًا فلا يجد له في إصابة نَصْلٍ أو نَصْرٍ نَصِيبًا، وآلائه التي لا تَنفكّ بها سَوَامُ(١) السِّهام تَرِدُ من وريد الشرك مَنْهَلًا عَذْبًا وتَرُودُ(٢) من حَبّ القلوب مَرْعًى خَصِيبًا؛ ونشهَدُ أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً تُدْنِي النصرَ وإن بَعُدَ مَدَاه، وتُدْمِي النَّصْلَ الذي على رامِيهِ إرسالُه إلى المقاتل وعلى الله هُدَاه، وتُسْمِي القَدْرَ لمن نَاضَلَ عليها فيفوزُ في الدنيا والآخرة بما قَدَّمتْ يَدَاه؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه الذي نُصِرَ بالرُّعْب على مَنْ كفر، ورسولُه الذي رَمى جيشَ الشِّرْك بقَبْضَةٍ من تُرابٍ فكان فيها الظَّفَرُ، ونبيُّه الذي نَفَرَ إلى أهل بَدْرٍ بنَفَرٍ من أصحابه فجمَعَ اللهُ النصرَ والفَخْرَ لأولئك النَّفَرِ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آمنوا بما أُنْزِلَ عليه وجَاهَدُوا بين يَدَيْه، واختَصُّوا بالذبّ عنه بمَزَايَا القُرْبِ حتى سَعِدَ سَعْدٌ بما جمع له، حين أَمَره بالرمي، في التفدية بين أبَوَيْه، وخُصّ بعموم الرِّضْوان عمّه العبّاسُ الذي أَقَرّ اللهُ بإسلامه ناظرَيْه، وبشَّرَه رسولُ الله ﷺ باستخلاف بَنِيه في الأرض فيما أَسَرّ به إليه.

وبعد، فإنّ الرَّمْي أفضلُ ما أُعِدّ للعِدَا، وأكملُ ما أُفِيضَ به على أهل الكفر رداءُ الرَّدى؛ وأبلغُ ما يُبْعَثُ إلى المقاتل من رُسُل المَنُون، وأنفعُ ما يُقْتَضى به في الوغى من أعداء الدِّين الدُّيُون، وأسرعُ ما تُبَلَّغُ به المقاصدُ فيما يُرى قريبًا وهو أبعدُ ما يكون؛ وأنكى ما تُقْذَفُ به عن الأهِلّة شُهُبُ الحُتوف، وأسبقُ ما تُدْرَكُ به الأغراضُ قبل أن تعرِفَ بها الرماحُ أو تشعُرَ بمكانها السيوف، ما طَلَعَ في سماء النَّقْع قوسُه إلّا سَحَّ وَبْلُ النَّبْل، ولا اسْتَبَقَتِ الآجالُ وسهمُه إلا كان له في بُلُوغها السَّبَقُ من بعد والسَّبَقُ من قبل. ومِنْ شَرَف قدرِه الذي دلّ عليه كلامُ النبوّة، أن النبيّ ﷺ نَبّه على أن المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠]. ومِنْ

---

(١) السوام: المنطلقة، اللسان: سوم. (٢) ترود: ترعى.

أسباب فضله الذي أصبح بها قدرُه ساميًا، وفخرُه ناميًا، وقَطْرُه في أُفق النصر هاميًا، ما ورد من قوله ﷺ لفِتْيَةٍ ممن أسلم من أَسْلَم: «ارْمُوا يا بَنِي إسماعيل فإنّ أباكم كان رامِيًا». ومما عَظُمَتْ به على الأمة المِنّة، وغَدَتْ فيه نفوسُ أرباب الجهاد بالفوز في الدنيا والآخرة مُطْمَئِنّة، قوله ﷺ: «تَعلَّمُوا الرميَ فإنّ ما بين الغَرَضَيْنِ رَوْضةٌ من رِياض الجنّة». ومِنْ فضل الرمي الذي لا يعرِف التأويل، ما نُقِلَ من قوله ﷺ: «مَنْ رَمى بِسَهْم في سبيل اللهِ أخطأ أو أصاب فكأنما أَعْتَقَ رَقَبةً من وَلَد إسماعيل». ومما يَرْفَعُ قَدْرَ السهم ما رُوِيَ عنه ﷺ من قوله: «إن الله يُدْخِل بالسهم الواحدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ صانِعَه يَحْتَسِب في صَنْعَته الخيرَ ورامِيَه ومُنْبِلَه». ومما حَضّهم به على الرمي ليجتهدوا فيه ويَدْأَبوا: قوله ﷺ: «ارْمُوا واركَبُوا وأَنْ تَرْمُوا أحبُّ إليّ من أَنْ تَرْكَبُوا». ومِنْ خَصائص السَّهْمِ أنه ذُو خَطْوة في الهواء وحُكْم نافِذٍ في الماء، وتَصَرُّفٍ حتّى في الوَحْشِ السانح[1] في الأرض والطيرِ المُحَلِّق في السماء؛ يُكَلِّم بلسانٍ من حَدِيد، ويبطُشُ عن باعٍ مَدِيد؛ إن رَامَ غَرَضًا طار إليه بأجنحة النُّسُور، وإن حَمى مُعلمًا أصابَ الحَدَقَ وصانَ الثُّغور؛ يُوجد بَصَرُه حيثُ فُقِد، وإذا انفصل عن أُمِّه لم يَسْرِ من كَبِدٍ إلا إلى كَبِد؛ أنجز فعله على ما فيه من إخلاف الطباع، وشَرُفَتْ أجناسُه بكونها أُولي أجنحةٍ مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاع. ومن خصائص القوس أنها عَقِيمٌ ذاتُ بَنِين، صامِتَةٌ وهي ظاهرةُ الأَنِين؛ لها كَبِدٌ وهي غيرُ مُجَوَّفة، ويَدٌ لا تملك شيئًا وهي في الأرواح مُتَصرِّفة؛ ورِجْلٌ ما نَقَلَتْ قَدَمًا، وقَبْضةٌ ما عَرَفتْ إثراءً ولا عَدَمًا؛ فهي نُونٌ[2] ما أَلِفَ الماء، وهِلَالٌ ما سَكَنَ السماء، وقاتلةٌ ما بَاشَرَت الدِّماء.

ولما كان أهل هذه الفضيلة يتفاوتون في مَواهبها، ويَتَبَاينون في مَذَاهبها؛ ويبلُغُ أحدُهم بصنْعَته ما يبلغُهُ الآخَرُ بقُواه، ويَصِل بإتقانه إلى ما لا يُدْرِكُه من وجود التساوي سواه؛ وكان فلانٌ ممن له في هذا الشأن الباعُ المَدِيدِ والساعدُ الشديد، والإتقانُ الذي يَتَصَرّفُ به في الرمي كيف يشاء ويَضَعُ به السّهْم حيثُ يُريد؛ كأنما سهمُه بذَرْع الفَضَاء مُوَكَّل، أو للجَمْع بين طَرَفَي الأرض مُؤهَّل، أو لسَبْق البروق مُعَدٌّ إذا لَمَعَتْ في حَوَاشي السَّحاب المفَوَّفة[3] وخطرت في هُدَّاب الدِّمَقْس المفَتَّل. وله المواقفُ التي تشقُّ سهامُه فيها الشَّعَر، وتبلغُ بها من الأغراض المتباعدةِ ما يشُقُّ إدراكُه على النَّظَر؛ فمنها أنه لما كان في اليوم الفلاني فعل كذا وكذا. ووصف ما فعله.

هذا شيء مما قيل في السلاح فلنذكر الجنن.

---

(١) السانح: السائر، اللسان: سنح. (٢) النون: الحوت، اللسان: نون.
(٣) المفوفة: الرقيقة، اللسان: فوف.

ذكر ما قيل في الجُنَّة

والجُنَّة: ما اتُّقِيَ بها كالتُّرس، والبَيْضَة، والدِّرْع.

فأما التّرس: فمن أسمائه: «بَصِيرَةٌ»، «تُرْسٌ»، «جَوْبٌ»، «جُنَّة»، «حَجَفَةٌ» وهي الترس الصغير، وجمعها حَجَفٌ، «دَرَقَةٌ» وجمعها دَرَقٌ. «عَنْبَرٌ» وهو الترس. «فَرْضٌ» وهو الخفيف؛ قال الهذليّ[1]: [من المتقارب]

أَرِقْتُ لـه مـثـلَ لَمْـعِ الـبـشـيـرِ   يُقَلِّب بـالـكـفِّ فَرْضًـا خَـفِـيـفـا

«قَفْعٌ» والقَفْع جُنَنٌ كالمَكَابِّ تُتَّخذُ من الخَشب يدخلُ الرجالُ تحتها إذا زَحَفُوا على الحصون، ويُسَمُّونها في زماننا الحنويّات. «قَرَّاعٌ» وهو الترس الصُّلْب. «كَنِيفٌ» وهو الساتر لأنه مشتقّ من الاكتناف. «لاي»[2]، «مَجِنٌّ»، «مُجْنَأٌ»، «مِجْوَلٌ»، «مُطْرَقٌ»، «مِجْنَبٌ»، «يَلَبٌ». قال الشاعر: [من الوافر]

عـلـيـهـمْ كـلُّ سـابـغـةٍ دِلَاصٍ   وفـي أيـديـهـمُ الـيَـلَبُ الـمُـدَارُ[3]

ويسمى مَقْبَضُ الترسِ صِنَارَةً.

* * *

وأما ما وُصِف به حاملُ الترس: يقال: «تَارِسٌ» و«تَرَّاس» إذا كان معه التُّرْس، و«مُحَاجِفٌ» وهو صاحب الحَجَفَة في القتال.

* * *

وأما البيضة: فمن أسمائها: «بَيْضَة» وهي واحدة البَيْض من الحديد. «جَمَّاء غَفِير» وهو البَيْضة من الحديد والجماعةُ من الناس. «خَيْضَعَةٌ». قال لَبيد[4]: [من الرجز]

* والـضـاربونَ الـهـامَ تـحت الـخَـيْـضَـعَه *

«دَوْمَصٌ»، «رَبِيعَةٌ»، «عِمَامَةٌ» وجمعها عَمَائم وعِمَامٌ. «عَرْمَةٌ»، «مِغْفَرٌ» وهو زَرَدٌ على قَدْر الرأس.

* * *

(١) الهذلي هو صخر الغي: هامش ٤ صفحة ١٧٤.
(٢) لاي: هكذا في الأصل ولم نوفق إلى ما يؤيدها أو إلى ما تكون محرّفة عنه.
(٣) السابغة: الدرع التي تستر العنق، اللسان: سبغ. الدلاص: الدرع البراق، اللسان: دلص.
(٤) لبيد بن ربيعة: هامش ٦ صفحة ١٨٤.

ومن أسماء أجزائها: «سَابغٌ» وهو الذي يستُر العُنُق. «قَوْنَسٌ» وهو أعلى البَيْضة من الحديد. قال حُسَيْن بن الضَّحاك[١]:

بـمـطَّـرِدٍ لَدْنٍ صِـحَـاحٍ كـعـوبُـه وذِي رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ القَوَانِسَا

* * *

وأمّا ما يُوصف به لابسُها: يقال: «مُقَنَّعٌ» والمقنّع هو الذي يلبس بَيْضَةً ومِغْفَرًا. هذا ما قاله صاحب كتاب خزائن السلاح. وقال غيره: من أسمائها «التَّرْكَةُ» وهي المستديرة، وجمعها التَّرْكُ والترائك.

* * *

وأما ما قيل في الدرع: وهو يؤنّث ويذكّر. وله أسماء: منها «بَصِيرَةٌ»، «جَارِنٌ» وجمعه جَوَارِن. «جَوْشَنٌ»، «حَلْقَةٌ» وهي الدروع. «خَدْباء» وهي الدرع اللّينة؛ قال الأصمعيّ[٢]:

* خَـدْبَـاءَ يَـحْـفِـزُهـا نِـجَـادُ مُـهَـنَّـدِ *

«دِرْعٌ»، دِلَاصٌ»، «دُلَامِصٌ»، وهو الدرع البرّاق. «دِخَاسٌ» أي مُتقاربة الحَلَق. «دَرِمَةٌ»، «ذَائِلَةٌ» وهي الطويلة الذَّيْل، «زَغْفَةٌ»، «سَلُوقِيَّةٌ»، «سَابِرِيَّةٌ» وجمعها سابِريّات، وهي الرقيقة النَّسْج. «سَابِغَةٌ» وهي الواسعة. «سُكٌّ» ضيّقة الحَلَق، «سَرْدٌ» اسمٌ جامع للدروع. «سَنَوَّرٌ»؛ قال لَبِيد[٣] يرثي قَتْلى هَوَازن: [من الطويل]

وجـاؤوا بـه فـي هَـوْدَجٍ ووراءَه كتائبُ خُضْرٌ في نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

---

(١) حسين بن الضحاك الخليع، من شعراء العجم، ولد بالبصرة، صاحب أبا نواس في شبابه مدح الأمين فنفاه المأمون عن بغداد إلى البصرة ثم استقدمه المعتصم وأكرمه المنتصر توفي سنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م. ترجمته في: ـ الأغاني، ٦/ ١٦٥ ـ ٢٠٥. ـ الإرشاد، ياقوت، ٦/ ٣٠ ـ ٣٨. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب ١/ ٢٠ ـ ٢١. ـ الخطيب، تاريخ بغداد، ٨/ ٥٤. وقد نسب كل من اللسان وشرح القاموس البيت بمادة قنس إلى حُسيل بن سُجيح الضبي.

(٢) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن علي بن أجمع الباهلي، أبو سعيد، راوي الأصمعيات (٧٢ قصيدة ومجموع أبياتها ١١٦٣) وعدد شعرائها واحد وستون شاعرًا. وهو أديب شهير توفي ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م. طبعت الأصمعيات بطبعات. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ١/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) لبيد، هامش ٦ صفحة ١٨٤.

«صَمُوتٌ» التي إذا صُبَّت لم يُسْمَعْ لها صوت. «فَضْفَاضَة» أي واسعة. «قَضَّاء» أي خشنة المس؛ قال النابغة[(١)]: [من الطويل]

* ونَسْجُ سُلَيْمٍ كلُّ قَضَّاءَ ذَائلِ[(٢)] *

«لأَمَةٌ» وجمعها لُؤَمٌ. «لَبُوسٌ»، «مَاذِيَّةٌ»، «مُضَاعَفَةٌ» وهي التي نُسِجَت حَلْقتين حَلْقتين. «مَوْضُونة» أي منسوجة. «مُسَرَّدَةٌ» و«مَسْرُودة» أي مثقوبة. «نَثْرة» وهي الواسعة. «نَثْلَةٌ»، «يَلَبٌ» وهي الدرع اليمانية تُتخذ من الجلود؛ قال عَمْرو بن كُلْثوم: [من الوافر]

* علينا البَيْضُ واليَلَبُ اليَمَانِي *

* * *

ومن أسماء أجزاء الدرع: «الحِرْباء» وهي مسامير الدروع؛ قال لبيد: [من الرّمل]

أَحْكَم الجُنْثِيُّ من عَوْرَاتِها كُلَّ حِرْبَاءٍ إذا أُكرِهَ صَلّ[(٣)]

«رَيْعٌ» رَيْعُ الدرع: فُضول كُمَّيْها على أطراف الأنامل؛ قال قَيْسُ بن الخطيم الأنصاريّ[(٤)]: [من الطويل]

مُضَاعَفَةٌ يَغْشَى الأناملَ رَيْعُها قتائرها تحكي عُيُونُ الجَنَادِبِ

«قَتِير»: رؤوس المسامير في الدروع.

* * *

(١) النابغة، هامش ٥ صفحة ١٨٢. (٢) الذائل: الفضفاض، اللسان: ذأل.

(٣) الجنثي: الحدّاد، اللسان: جنث. صلّ: صوّت عند دقه، اللسان: صلل.

(٤) قيس بن الخطيم الأنصاري: هو في المفضليات «أبو قيس بن الأسلت، صيفي بن الأسلت سيد الأوس»، قيل إنه وعد بالإسلام ولم يسلم إذ سبق الموت إليه، وابنه عقبة بن أبي قيس الذي استشهد في القادسية؛ وفي الأصمعيات هو قيس بن الخطيم بن عدي، شاعر الأوس منافس حسان بن ثابت الأنصاري، وعد بالإسلام فمات قبل الحول، وهو في معجم المرزباني ثابت بن عدي يكنى أبا يزيد، إسلامه حولاً، ومات خلاله. له ديوان شعر، ترجمته في: ـ المرزباني، المعجم، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢. ـ الأغاني ١٥/ ١٥٤؛ ٢/ ١٥٤ ـ ١٦٤. ـ البغدادي، خزانة الأدب، ٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩. ـ الأصمعيات، ص ١٩٦ وما بعدها. ـ المفضليات، ص ٢٨٣ وما بعدها. ـ انظر هامش (١) ص (٨٠).

وأمّا ما يُوصف به لابسُ الدرعِ: يقال: «خَشْخَاشٌ»: جماعة عليهم سِلاح ودروع؛ قال الكميت[١]: [من البسيط]

في حَوْمةِ الفَيْلَقِ الجَأْوَاءِ[٢] إذ رَكِبَتْ قَيْسٌ وهَيْضَلُها[٣] الخَشْخَاشُ إذ نزلوا

«خَرْسَاء» يقال: كَتِيبةٌ خَرْساء، التي لا يُسْمَع لها صوت من وقارهم في الحرب، وقيل التي صَمَتَتْ من كثرة الدروع. «دَارِعٌ» هو لابسُ الدرع، «كَافِرٌ»، يقال: قد كَفَر فوق دِرعه أي سَتَره إذا لَبِسَ فوقه ثوبًا. «مُسْبِغٌ» يقال: رَجلٌ مُسْبغ: عليه درعٌ سَابِغة.

* * *

وأمّا إذا لم يكن عليه درعٌ ولا مِغْفَر: «نَثَرَ» أي نَثَر درعَه عنه إذا ألقاها، ولا يقال: «نَثَلَها». ويقال: «أَحْمَرُ» أي لا سلاح معه. «أَعْزَلُ». «حَرَضٌ»، «عُطُلٌ» وجمعه أَعْطال.

* * *

وقد وَصَف الشعراء الدروع في أشعارهم، فمن ذلك ما قاله امرؤ القيس[٤]: [من المتقارب]

ومَسْرودةِ[٥] النَّسْجِ مَوْضُونةٍ[٦] تَضَاءلُ في الطَّيِّ كالمِبْرَدِ
تَفِيضُ على المرء أردانُها كفَيْضِ الأتِيِّ[٧] على الجُدْجُدِ[٨]

قال ثَعْلَب[٩]: [من الطويل]

فنَهْنَهتهُ[١٠] حتّى لبِست مُفاضة دِلَاصًا كلون النِّهْي[١١] رِيحَ وأُمْطِرَا

---

(١) الكميت، هامش ٣ ص ١٧٤.
(٢) الفيلق الجأواء: بينة الجائي وهي التي يعلوها لون السواد لكثرة ما عليها من الدروع، اللسان: جأي.
(٣) الهيضل: الجيش العظيم، اللسان: هضل. (٤) امرؤ القيس: هامش ١ صفحة ١٨١.
(٥) المسرودة: الدرع المثقوبة، اللسان: سرد.
(٦) الموضونة: الدرع المنسوجة حلقتين حلقتين، اللسان: وضن.
(٧) الآتي: السيل، اللسان: أتي. (٨) الجُدجُد: الأرض الصلبة المستوية: جدد.
(٩) ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيىٰ، مولى بني شيبان إمام الكوفيين في زمانه، ولد سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م مات سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م. له: الفصيح وقواعد الشعر. كما جمع وشرح دواوين: زهير والأعشى، وله آمال ومجالسات ونوادر وأبيات سائرة وغريب الحديث ومجاز الكلام. ترجمته في: ـ ابن النديم، الفهرست، ص ٧٤. ـ ابن الأنباري، نزهة الألباء. ـ ابن خلكان، الوفيات، ص ٤٢. ـ ياقوت، الإرشاد، ٢/١٣٣ ـ ١٥٤. ـ السيوطي، بغية الوعاة، ص ١٧٣. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٢١٠ ـ ٢١٤.
(١٠) نهنه الثوب: نسجه رقيقًا، اللسان، نهنه. (١١) النهي: الغدير، اللسان، نهي.

وقال البحتريّ[١]: [من الكامل]

يَمْشُون في زَرِدٍ[٢] كأنّ متونَها ... في كل مَعْرَكةٍ مُتونُ نِهَاءِ
بَيْضٌ تَسِيلُ على الكُمَاة فُضولُها ... سَيْلَ السَّرَابِ بقَفْرةٍ بَيْداءِ
وإذا الأسِنَّةُ خالطتْها خِلْتَها ... فيها خَيَالَ كواكبٍ في ماء

قال محمد بن عبد الله السلاميّ: [من الكامل]

يا رُبَّ سابغةٍ حَبَتْنِي نِعْمةً ... كافأتُها بالسّوء غيرَ مفنّدِ
أضحتْ تصونُ عن المنايا مُهجتي ... وظَلِلْتُ أبذُلُها لكلّ مُهَنَّدِ

وقال عبد الله بن المعتزّ: [من السريع]

كم بطلٍ بارَزَني في الوَغى ... عليه درعٌ خلتُها تَطَّرِدْ
كأنّها ماءٌ عليه جَرى ... حتى إذا ما غابَ فيه جَمَدْ

وقال آخر: [من الطويل]

وأرعنَ ملمومِ الكتائبِ خيلُه ... مُضَرَّجَةٌ أعْرافُها ونحورُها[٣]
عليها مُذَالاتُ القُيُونُ كأنّها ... عيونُ الأفاعِي سَرْدُها وقَتِيرُها[٤]

وقال آخر: [من الكامل]

وَزَنَتْ كتائبُها الجبالَ وسُرْبِلَتْ ... حَلَقَ الحديدِ فأظهرتْه عَنَادَها
فتخالُ موجَ البحر في جَنَباتِها ... والبَرْقَ لَمْعَ قَتِيرِها وسِرَادَها

وقال سَلْمٌ الخاسر[٥]: [من الطويل]

كأنّ حَبَابَ الغُدْرِ مَارَ عليهمُ ... وما هو إلّا السابغاتُ الموائرُ[٦]

---

(١) البحتري: هامش ٥ صفحة ٤٢. (٢) «في زرد» ديوان البحتري.
(٣) الأرعن: الجيش المضطرب لكثرته، اللسان، رعن.
(٤) المذالات: الدروع الطويلة؛ اللسان: ذيل.
(٥) سلم بن عمرو الخاسر، كان منافسًا لمروان بن أبي حفصة في مدح البرامكة والحلفاء، مولى بني تيم بن مرة، راوية بشار بن برد، صديق إبراهيم الموصلي وأبي العتاهية، توفي سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م. ترجمته في: ـ الأغاني، ٢١/ ٧٣ ـ ٨٤. ـ الجهشياري، الوزراء، ١/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩. ـ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٢٢.
(٦) الموائر، مار: ماج واضطرب، اللسان: مور.

وقال ابن المعتز[١]: [من البسيط]

بحيثُ لا غَوْثَ إلّا صارِمٌ ذَكَرٌ وجُنَّةٌ كحَبَابِ الماء تغشاني

وقال محمد بن عبد الملك[٢]: [من الكامل]

نهنهتُ أُولَاها بضَرْبٍ صادقٍ هَتِنٍ كما شُقَّ الرداءُ المُعْلَمُ[٣]
وعليَّ سابغةُ الذيولِ كأنها سِلْخٌ كَسَانِيهِ الشجاعُ الأرقمُ[٤]

وقال المتنبّي[٥]: [من البسيط]

تَخُطّ فيها العوالِي ليس تنفُذُها كأنّ كلَّ سِنَانٍ فوقها قَلَمُ

وقال كُلثوم[٦]: [من الطويل]

كأن سَنَا الماذِيِّ فوق مُتُونِهِمْ مَوَاقدُ نارٍ لَمْ تُشَبْ بدُخَانِ[٧]

* * *

ومن الرسائل الشاملة لأوصاف السلاح: فمن ذلك ما أجابني به المولى الفاضل تاج الدين بن عبد المجيد اليماني، وقد كتبتُ إليه ألتمسُ رسالةً من كلامه في أوصاف السلاح، وذلك في شهور سنة سبع وسبعمائة. كتب:

أمرتني ـ أعزل الله، وأعلى في مراتب السعود جدودَك ـ أن أبعث إليك بشيء من كلامي يتضمّن وصف سلاحٍ متنوّع الأجناس، مرهوبٍ بالسطو والبَاس؛ فامتثلت مرسومك وبادرت إلى ذلك، لِما يتّجه عليّ من حقوقك الواجبة، ومن

---

(١) ابن المعتز: هامش ٥ ص ١٧٨.

(٢) محمد بن عبد الملك هناك اثنان أحدهما محمد بن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، شاعر مشهور وأديب له أخبار مع المأمون والمتوكل ومع الشعراء أبي تمام والبحتري مخاطبات وله مناقضات مع أبي الأصبغ. والثاني هو محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات المكنى بأبي جعفر تقلد الوزارة المعتصم ونكبه المتوكل سنة ٢٤٣ هـ. والله أعلم لمن يكون البيتان. المرزباني، معجم الشعراء، ص ٤٢٥ و٤١٩.

(٣) هتن: متتابع، اللسان: هتن.

(٤) السلخ: قشر الحية، اللسان: سلخ. الشجاع: حية، اللسان: شجع؛ الأرقم: ذكر الحيات، اللسان: رقم.

(٥) المتنبي: هامش ٥ صفحة ٤٤.

(٦) كلثوم: العتابي، الشاعر الجاهلي هامش ٢ صفحة ١٣٠.

(٧) الماذي: الدرع اللينة السهلة، اللسان: مذي.

مُفْتَرَضات خِدَمك اللازبة[١]؛ وأنشأت لك هذه النُبذة مرتجلًا فيها، ورتّبتها على التهيُّؤ لمراتب القتال، وقدّمتُ الدرع، وتلوتُه بالقوس وأعقبته بالرمح، وختمته بالسيف.

فمن ذلك في وصف درع:

خليقٌ بمثله أن يُفَاضَ عليه مثلُ هذه الفَضْفَاضة، وأن يبلغَ بها من نيل الأعداء أمانيَه وأغراضَه؛ وأن يتّخذها جُنَّةً تَقِيه سوءَ المَزَاريق[٢] في حَوْمة القتال، وأن يتدرّعها فتُخال عليه غديرًا صافحت صفحتَه يدُ الشَّمالِ؛ إن نُشِرَتْ على الجسد غَطَّت الكَعْبين، وإن طُوِيتْ فكالمِبْرد في يد القَيْن؛ حَمِيدةُ المَلْبَس مَيْمونةُ المساعي، مسرودةُ النسجِ في عيون الأفاعي؛ دَاوُديّة النَّسَب تُبَّعِيّة المَعْزى، قد تقاربت في الحَلَق وتناسبت في الأجزاء: [من المتقارب]

وأعـددتُ لـلحـرب فـضـفـاضـةً تَـضَـاءلُ فـي الـطـيّ كـالـمِـبْـرِدِ

دِلَاصٌ ولكن كظهر النُّون لا يستطيعها سِنَان، وموضونةٌ ولكن يُحَيِّرُ البصرُ فيها عند العِيَان: أمَوْجُ بحرٍ يَتَلاطمُ في جوانبها أم حَبابُ غُدْران. مشفوعةٌ بقَوْس طَلَعت هلالًا في سماء المَعَارك، ومَجَرّةً تنقضّ منها نجومُ المَهَالك؛ ووَكْرًا تسرَحُ منه نسورُ المَعَاطب، وأُمًّا تُفَرّق أولادها لإحراز الغَرَضِ من كلّ جانب؛ تصرَعُ بسهامها كلَّ رامحٍ ونَابل، وتَبْكي ومن العجب أن يَبْكي القتيلَ القاتلُ؛ تُطيعك في أوّل النَّزْع وتَعْصِيك في آخره، وتُرْسِل سهمًا فلا يَقْنَعُ من العدوّ إلا بسَوَاد ناظِره: [من الطويل]

إذا أَنْبَض الرامُون عنها تَرَنَّمتْ تَرَنُّمَ ثَكْلى قد أُصيبَ وحيدُها

تَهَابُها الأقرانُ، وتتحاماها الشجعان، ويؤمن بمرسلها كلُّ شيطان من الإنس والجان.

ووصف الرمح فقال: وإنّ أولى ما اعتقل مولانا من الخَطِّيّ ما سَلَبَ الرُّومَ زُرْقَتها، والعربَ سُمرتَها؛ وأشبه العاشقَ ذُبولًا واصفرارًا، وخَالَطَ الضِّرغامَ في غِيله فهو يُلقي من بأسه عند المطاعنة أخبارًا؛ وهَزّه الفارسُ فالتقى طَرَفَاه، وخُيِّل لرائيه أنّ ثَعْلَبه[٣] قد فَغَرَ فاه؛ إن حَمَله الدارع قلتَ غصنًا على غدير، وإن هَزّه الفارسُ وألقاه

---

(١) اللازبة: الثابتة واللازمة، اللسان: لزب.

(٢) المزاريق: جمع مزراق وهو الرمح، اللسان، مادة: زرق.

(٣) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جبة السنان. والجبة: رأس الرمح في أسفل السنان. اللسان، ثعلب.

قلت حيّةً على وجه الأرض تسيرُ؛ فهو كالرِّشاء[١] لكن لا يَرْضى قَلِيبًا غيرَ القَلْب، أو كالعدوّ الذي لا يَهْوى إلّا إزالةَ ما في شُغُف القلوب من حُبّ: [من الطويل]

لـه رائـدٌ مَـاضِـي الـغِـرَارِ كـأنّـه ... هَـلالٌ بَـدَا في ظُلمة الليل ناحلُ

طالما رجَعَ سَوْسَنُه عند المُطاعنة شَقيقًا، ومزّق نجمُه جلابيبَ ظُلمة القَسْطَل والعِثْيَر[٢] تمزيقًا؛ له النَّسَبُ العالي في العَوَالي والمُرّان، لأن سِنَانَه سَنَا لَهَبٍ لم يَتَّصِلْ بدُخَان؛ مقرونًا بسيف ما تأمّله الرائي إلا وأُرْعِدَت صَفْحَتاه من غير هَزّ، أو صَمّمت شَفْرَتاه في مَحَزٍّ فلا ينبُو حتى يَفْرِي ذلك المَحَزّ؛ يُرى فوق مَتْنَيْه بقيَّةُ غَيْم يُسْتَشَفُّ منها لونُ السماء، وفي صَفْحة فِرِنْده نارٌ تتأجّجُ في خَلال لُجّةٍ من الماء؛ كأنّ صَيْقله كَتَب على فِرِنْده أو نَقَش، أو كأنّ القَيْن تَنَفّس فيه وهو صَقِيلٌ فألبسه حُلَّةً من نَمَش؛ حلّت بساحته المنايا فهي فيه كَوَامن، وتبوّأتْ مقاعدَه الأماني فلإدراكها من فعله قرائن؛ إذا تَوَغّلَ في هَامة الجَبّار سَارَ وأَوْجَفَ، ومَتَى استوطن جثة المجرم أَوْهى مَبَانيها وأسرف. [من الكامل]

مـاضٍ وإن لـم تُـمْـضِـه يـدُ فـارسٍ ... بَـطَـلٍ ومـصـقـولٌ وإن لـم يُـصْـقَـلِ
يغشَى الوَغى فالتُّرْسُ ليس بجُنَّةٍ ... مـن حَـدّه والـدِّرْعُ لـيـس بـمَـعْـقِـلِ
مُـتـوقّـدٌ يَـفْـرِي بـأوّل ضَـرْبـةٍ ... مـا أدركـتْ ولَـوَ انّـهـا فـي يـذْبُـلِ
وإذا أصـابَ فـكـلُّ شـيءٍ مَـقْـتَـلٌ ... وإذا أُصِـيـبَ فـمـالـه مـن مـقـتـلِ

الباب الحادي عشر

من القسم الخامس من الفن الثاني في القضاة والحكام[٣]

وحيث ذكرنا الإمام وما يجبُ له وعليه وقواعد المملكة، فلنذكر القُضاةَ والحكّام. قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: الآية ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: الآية ١٠٥]. وقال تعالى:

(١) الرشاء: حبل الدلو، اللسان: رشأ.
(٢) القسطل: الغبار الساطع. العثير: التراب والغبار.
(٣) يعتمد في هذا الباب على الماوردي في الأحكام السلطانية.

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: الآية ٤٨]. وقال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: الآية ٤٢]، إلى غير ذلك من الآي.

ولا يجوزُ أن يُقَلَّدَ القضاءَ إلا من اجتمع فيه ثمانية شروط، وهي: الذكوريّةُ، والبلوغُ، والعقلُ، والحرّيّةُ، والإسلامُ، والعدالةُ، وسلامةُ السمع والبصر، والعلمُ بأحكام الشريعة. ولكل شرط من هذه الشروط فوائد نشرح ما تَلَخّص منها إن شاء الله.

أما الذكورية: فلقوله عزّ وجلّ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: الآية ٣٤] قيل: المراد بالتفضيل هنا العقلُ والرأي، ولما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «النِّسَاءُ ناقِصَاتُ عَقْلٍ ودينٍ»، ولنقص النساء عن رتب الولايات.

وقال أبو حنيفة: يجوز أن تقضِيَ المرأةُ فيما تصحُّ فيه شهادتُها دون ما لا تصحُّ فيه. وجوّز الطبريّ[1] قضاءَها في جميع الأحكام. والإجماعُ يردّ ذلك.

وأما البلوغُ: فلأن غير البالغ لا يجرِي عليه قَلَم، ولا يتعلّق بقوله على نفسه حُكم، فكان أولى ألّا يتعلّقَ به على غيره.

وأما العقلُ: فهو مُجْمَعٌ على اعتباره، ولا يُكْتَفى فيه بالعقل الذي يصحُّ معه التكليف من العلم بالمُدْرَكات الضروريّة، حتى يكونَ صحيحَ التمييز جيِّد الفِطْنة بعيدًا من السهو والغفلة، ليتوصّلَ بذكائه إلى وضوحِ ما أشكل، وحلِّ ما أبهم وأعضل.

وأما الحرّيّةُ: فنقصُ العبدِ عن ولاية نفسه يمنَعُ من انعقاد ولايته على غيره، ولأن الرِّقّ لما منع من قبول الشهادة كان أولى أن يمنع من نفوذ الحكم وانعقاد

(١) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير سنة ٢٢٤ هـ/ ٨٣٩ م - ٣١٠ هـ/ ٩٢٣ م. ولد في آمل (طبرستان) ورحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر ثم نزل بغداد حيث علم الحديث والفقه أسس مذهبًا خاصًا به في الفقه، ووضع أول كتاب في التاريخ، وفسر القرآن. وترك كتبًا كثيرة منها: - كتاب الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري. - كتاب تهذيب الآثار (في الحديث) مخطوط. - جامع البيان في تفسير القرآن. - اختلاف الفقهاء. - بشارة المصطفى (مخطوط). - رسالة في صناعة القوانين ورمي السهام (مخطوط). ترجمة الطبري في: - الخطيب، تاريخ بغداد، ٢/ ١٦٢ - ١٧٠. - ياقوت، الإرشاد، ٦/ ٤٢٣ - ٤٦٢. - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٣/ ٤٥ - ٥١.

الولاية. وكذلك الحكمُ فيمن لم تكمل حُرِّيته كالمُدَبَّر[١] والمُكاتَب[٢] ومن رَقّ بعضه. ولا يمنع الرقُّ من الفُتْيَا والرواية.

وأما الإسلامُ: فلقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النّساء: الآية ١٤١]. وهو شرط في قبول الشهادة. ولا يجوز أن يُقَلَّدَ الكافرُ القضاءَ على المسلمين ولا على الكفار. ورأى أبو حنيفة جواز تقليده القضاءَ بين أهل دينه. وقد جرى العرف في تقليد الكافر؛ وهو تقليدُ زعامةٍ ورياسةٍ لا تدخل تحته الأحكام والإلزام بقضائه، ولا يَقبل الإمامُ قوله فيما حكَم به بينهم. وإذا امتنعوا من تحاكمهم إليه لم يُجْبَرُوا عليه، وكان حكمُ الإسلام عليهم أنفذُ.

وأما العدالةُ: فهي معتبَرة في كل ولاية. ومعناها أن يكون الرجلُ صادقَ اللّهجة، ظاهرَ الأمانةِ، عفيفًا عن المحارم، متوقِّيًا للمآثم، بعيدًا عن الرِّيب، مأمونًا في حالتي الرضا والغضب، مستعمِلًا لمُرُوءة مثله في دينه ودُنياه. فإذا تكاملت هذه الأوصافُ فيه، فهي العدالة التي تجوز بها شهادتُه وولايتُهُ. وإذا لم يكن كذلك فلا تُسْمَعُ شهادتُه ولا تنفذُ أحكامُه.

وأما سلامةُ السمع والبصر: فَليصحَّ بها إثباتُ الحقوق، ويُفَرِّقَ بها بين الطالب والمطلوب، ويميِّز المقرَّ من المنكر، ليظهَرَ له الحقَ من الباطل، والمُحقّ من المبطِل.

وأما العلمُ بأحكام الشريعة: فالعلمُ بها يشتمل على معرفة أصولها وفروعها. وأصول الأحكام في الشرع أربعة:

أحدها: علمُه بكتاب الله عزّ وجلّ على الوجه الذي يصحُّ به معرفةُ ما تضمّنه من الأحكام ناسخًا ومنسوخًا، ومُحْكَمًا ومُتشابهًا، وعمومًا وخصوصًا، ومُجْمَلًا ومفسّرًا.

والثاني: علمه بسنّة رسول الله ﷺ الثابتة من أقواله وأفعاله، وطُرقِ مجيئها في التواترُ والآحاد، والصحَّةِ والفساد، وما كان على سبب أو إطلاق.

والثالث: علمُه بأقاويل السلف فيما أجمعوا عليه واختلفوا فيه، ليتّبع الإجماعَ ويجتهدَ رأيَه مع الاختلاف.

---

(١) المدبر: العبد الذي يعلق سيده عتقه على موته، اللسان: دبر.

(٢) المكاتب: العبد الذي يكاتب على نفسه بثمنه فإذا أداه عتق، اللسان: تتب.

والرابع: علمُه بالقياس الموجِب لردّ الفروع المسكوتِ عنها إلى الأصول المنطوقِ بها والمُجْمَعِ عليها، حتى يجدَ طريقًا إلى العلم بأحكام النوازل ويُمَيِّزَ الحقَّ من الباطل. فإذا أحاطَ علمُه بهذه الأصول الأربعة في أحكام الشريعة، صار بها من أهل الاجتهاد في الدين، وجاز له أن يُفْتي ويَقْضِي. وإن أَخَلَّ بها أو بشيءٍ منها، خرج من أن يكون من أهل الاجتهاد، ولم يَجُزْ أن يُفتي ولا أن يَقضي. فإن قُلِّدَ القضاءَ فحكم بصواب أو خطإٍ كان تقليدُه باطلًا، وحكمُه وإن وافق الصوابَ مردودًا، وتَوَجَّه الحَرَجُ عليه وعلى من قَلَّده. وجوّز أبو حنيفة تقليدَ القضاءِ من ليس من أهل الاجتهاد، ويَسْتفتي في أحكامه وقضاياه.

هذا معنى ما قاله القُضاة أبو الحسن علي الماورديّ.

وقال الحسين الحَليميّ في كتابه المترجم بـ«المنهاج»: وينبغي للإمام أَلَا يُوَلِّي الحكمَ بين الناس إلا من جمع إلى العلم السكينةَ والتثبُّت، وإلى الفهم الصبرَ والحِلْمَ، وكان عَدْلًا أمينًا نَزِهًا عن المَطَاعم الدنيّة، وَرِعًا عن المطامع الرديّة؛ شديدًا قويًا في ذات الله، متيقِّظًا متخوّفًا من سَخَط الله؛ ليس بالنِّكْس[١] الخَوّار[٢] فلا يُهَاب، ولا المتعظِّم الجَبَّار فلا يُنْتاب؛ لكن وَسَطًا خِيَارًا. ولا يدع الإمام مع ذلك أن يُديم الفَحْصَ عن سِيرته، والتعرُّفَ بحالته وطريقته؛ ويقابلَ منه ما يجب تغييرُه بعاجل التغيير، وما يجب تقريرُه بأحسن التقرير؛ ويرزقُه من بيت المال ـ إن لم يجدْ من يعمَلُ بغير رزق ـ ما يعلم أنه يكفيه؛ ولا يُقصِّرُ به عن كِفَايته، فيتطلَّعُ إلى أموال الناس ويشتغلُ عن أمورهم بطَرَف من الاكتساب يجبُر به ما نَقَصه الإمام من كِفَايته، فتختلُّ بذلك القواعدُ. وإذا رزق الإمامُ القاضيَ فلا يُصيبُ وراء ذلك من رعيّته شيئًا، لقوله ﷺ: «مَنِ استعمَلْناه على عَمَل من أعمالنا ورَزَقْناه شيئًا فما أصابَ بعد ذلك ـ أو مما سوى ذلك ـ فهو سُحْت»[٣]. وإن أُهْدِيَ إليه شيءٌ، لم يكن له قبوله. فإن كان للمُهدي قِبَلَه خصومةٌ فأهْدى ليَحكمَ له أو لئلّا يحكمَ عليه، فهذا هو الرّشوة، وهو سُحْت. وقد لَعَن رسول الله ﷺ الرَّاشِيَ والـمُرتَشِيَ والرائشَ؛ وهو الذي يمشي بينهما. وإن أَهْدى إليه المحكومُ له بعد الحكم تشكُّرًا، ولا يقبَلْه؛ لأنّ ما فعل كان واجبًا عليه.

(١) النكس: الذي لا يرتجى منه الخير، اللسان: نكس.
(٢) الخوار: الضعيف، اللسان: خور. (٣) سحت: حرام، اللسان: سحت.

قال: ويقوّي الإمامُ يدَه ويشُدُّ أَزْرَه، ويكُفُّ العمالَ وغيرهم عن معارضته ومزاحمته، ويأمرهم جميعًا بطاعته، ولا يُرَخِصُ لأحد منهم في الامتناع عليه إذا دعاه، والخروج عن أحكامه إن أمره أو نهاه، فيما يتصل بالانقياد للحكم.

ويتوقّى أن يُقال في مجلسه: هذا حكمُ اللهِ، وهذا حكمُ الديوان؛ فإن هذا من قائله إشراك بالله؛ إذ لا حكمَ إلا لله. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: الآية ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٢٦]. وقال: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرّعد: الآية ٤١].

قال: وإن سَمِع بذلك وَاليهِ فأقرّه عليه كان مثلَه؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النّساء: الآية ١٤٠]. فإذا كان هذا في القعود معهم فكيف بإقرارهم والاستحسان لهم.

ذكر الألفاظ التي تنعقد بها ولايةُ القضاء، والشروط

قال الماورديّ(١): وولايةُ القضاءِ تنعقدُ بما تنعقد به الولاياتُ: من انعقادها مع الحضور باللفظ مشافهةً، ومع الغيبة بمراسلةٍ أو مكاتبة. لكن لا بدَّ مع المكاتبة أن يَقترنَ بها من شواهد الحال ما يدُلّ عليها عند المُوَلّى وأهل عمله.

والألفاظ التي تنعقد بها الولاية ضربان: صريح وكناية.

فالصريحُ أربعةُ ألفاظٍ وهي: قد وَلَّيتك، وقَلّدتك، واستَخْلَفْتك، واسْتَنَبْتَك. فإذا أتى المُوَلِّي بأحد هذه الألفاظ انعقدت الولاية بالقضاء وغيره من الولايات، ولا يحتاجُ مع هذا الصريح إلى قرينة أخرى، إلا أن يكون تأكيدًا لا شرطًا.

وأما الكنايةُ فهي سبعة ألفاظ. وهي: قد اعتمدتُ عليك، وعَوّلتُ عليك، ورَدَدْت إليك، وجعلت إليك، وفوّضت إليك، ووَكَلْت إليك، وأسندت إليك. فهذه الألفاظ لما تضمّنته من الاحتمال تضعُف عن حكم الصريح حتى يقترنَ بها في عقد الولاية ما ينفي عنها الاحتمال وتصير في حكم الصريح، مثل قوله: فانظرْ فيما وَكَلْتُه إليك، واحكمْ فيما اعتمدتُ فيه عليك. فتصير الولاية بهذه القرينة مع ما تقدّم من

(١) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

الكناية منعقدة. ثم تمامها موقوف على قبول المُوَلَّى، فإن كان التقليد مشافهةً فقبولُه على الفور لفظًا، وإن كان بمراسلة أو مكاتبة، جاز أن يكون على التراخي. واختُلِف في صحة القبول بالشروع في النظر، فجوّزه بعضهم وجعله كالنطق، ومنعه آخرون حتى يكون نطقًا؛ لأن الشروعِ في النظر فرعٌ لعقد الولاية، فلم ينعقد قبولُها به.

فهذه الألفاظ التي تنعقد بها الولاية.

وأما شروطُها فأربعة

أحدها: معرفةُ المُوَلِّي للمولَّى أنه على الصفة التي يجوز أن يولَّى معها، فإن لم يعلم أنه على الصفة التي تجوزُ معها تلك الولايةُ لم يصحّ تقليدُهُ؛ فلو عَرَفها بعد التقليدِ استأنفها، ولا يعوِّل على ما تقدّمها.

والثاني: معرفة المولَّى بما عليه المُوَلِّي من استحقاق تلك الولاية بصفاته التي يصيرُ بها مستحِقًّا لها، وأنه قد تقلّدها وصار مستَحِقًّا للاستنابة فيها. إلا أنّ هذا الشرط معتبر في قبول المولَّى وجواز نظره، وليس بشرط في عقد تقليده وولايته، بخلاف الشرط المتقدّم. وليس يُراعى في هذه المعرفة المشاهدةُ بالنظر، وإنما يراعى انتشارُها بالخبر الشائع.

والثالث: ذكر ما تضمّنه التقليدُ من ولاية القضاء بصريح التسمية.

والرابع: ذكر تقليد البلد الذي عُقدت الولايةُ عليه ليُعْرَفَ به العملُ الذي يستحقُّ النظرَ فيه، ولا تصحُّ الولايةُ مع الجهل به.

فإذا انعقد التقليدُ تمّت الولايةُ بهذه الشروط والألفاظ. واحتاج المولَّى إلى شرطٍ زائد على شروط العقد، وهو إشاعةُ تقليده في أهل عمله ليُذعنوا بطاعته وينقادوا إلى حكمه. وهو شرط في لزوم الطاعة وليس بشرط في نفوذ الحكم.

فإذا صحّت عقدًا ولزومًا بما وصفناه، صحّ فيها نظر المولِّي والمولَّى كالوكالة، لأنهما معًا استنابة. ولم يلزَم المقامُ عليها من جهة المولِّي ولا من جهة المولَّى. وكان للمولِّي عزله عنها متى شاء، وللمولَّى عزلُ نفسه متى شاء؛ غير أنّ الأَوْلى بالمولِّي ألّا يَعْزِلَه إلا بعُذْر، وألّا يعتزلَ المولَّى إلا من عذر؛ لما في الولاية من حقوق المسلمين. وإذا عُزِلَ أو اعتزل وجب إظهارُ العزل كما وجب إظهارُ التقليد، حتى لا يُقْدِمَ على إنفاذ حكمٍ ولا يغترّ بالترافُع إليه خَصْم. فإن حكم بعد

العلم بعزله لم ينفُذْ حكمه، وإن حكم غيرَ عالم بعزله كان في نفوذ حكمه وجهان، كاختلافهما في عقود التوكيل.

وحيث ذكرنا ما تصحُّ به الولاية وتنعقدُ به من الألفاظ والشروط، فلنذكر ما يشتمل عليه النظر في الأحكام.

ذكر ما يشتمل عليه نظر الحاكم المطلق التصرّف من الأحكام

قال الماورديّ(١): إذا كانت ولاية القاضي عامّة وهو مطلق التصرّف في جميع ما تضمّنته، فنظره يشتمل على عشرة أحكام:

أحدها: فصلُ المنازعات وقطعُ التشاجرُ والخصومات، إمّا صلحًا عن تَرَاضٍ يُرَاعى فيه الجوازُ، أو إجبارًا بحكم باتٍّ يُعتبر فيه الوجوب.

والثاني: استيفاءُ الحقوقِ ممن امتنع من القيام بها وإيصالُها إلى مستحِقِّها من أحد وجهين: إقرارٍ أو بيّنةٍ. واختُلِف في جواز حكمه فيها بعلمه، فجوّزه مالك والشافعيّ في أصحّ قولَيْه؛ وقال أبو حنيفة: يجوزُ أن يحكمَ بعلمه فيما علمه في ولايته، ولا يحكم بما علمه قبلها.

والثالث: ثبوتُ الولاية على من كان ممنوعَ التصرُّف بجنون أو صغَر، والحجر(٢) على من يرى الحجرَ عليه لسَفَهٍ أو فَلَس، حفظًا للأموال على مستحِقّيها، وتصحيحًا لأحكام العقود فيها.

والرابع: النظرُ في الوقوف بحفظ أصولها وتثمير فروعها وقبضِ غَلّتها وصَرْفها في سبلها. فإن كان عليها مستحِقٌّ للنظر فيها راعاه، وإن لم يكن تَوَلّاه.

والخامس: تنفيذُ الوَصَايا على شروط المُوصِي فيما أباحه الشرعُ ولم يحظُرْه. فإن كانت لمعيَّنين كان تنفيذُها بالإقباض، وإن كانت في موصوفين كان تنفيذُها أن يتعيَّن مستحقُّوها بالاجتهاد ويملكوا بالإقباض. فإن كان فيها وَصِيٌّ راعاه، وإن لم يكن تولّاه.

والسادس: تزويج الأيَامى(٣) بالأكْفَاء إذا عُدِمَ الأولياءُ ودُعِينَ إلى النكاح. ولم يجعله أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ من حقوق ولاية القاضي، لتجويزه تفرّدَ الأيِّم بعقد النكاح.

---

(١) الماوردي، هامش ١ صفحة ٨٩. (٢) الحجر: المنع من التصرف، اللسان: حجر.
(٣) الأيامى جمع أيم، المرأة التي لا زوج لها. اللسان: أيم.

والسابع: إقامةُ الحدود على مستحِقّيها، فإن كان من حقوق الله تعالى تفرّد باستيفائه من غير طالبٍ إذا ثبت بإقرار أو بيّنة؛ وإن كان من حقوق الآدميين كان موقوفًا على طلبِ مستحقِّه. وقال أبو حنيفة: لا يستَوْفِيهما معًا إلا بخَصْمٍ مُطالِب.

والثامن: النظر في مصالح عمله من الكَفّ عن التَّعَدّي في الطُّرُقات والأَفْنِيَة، وإخراج ما لا يُستَحَقّ من الأجنحة والأبنية؛ وله أن يتفرّد بالنظر فيها وإن لم يحضره خَصْم. وقال أبو حنيفة: لا يجوزُ له النظرُ فيها إلا بحضور خصم مُسْتَعْدٍ. وهي من حقوق الله تعالى التي يستوِي فيها المُستَعْدِي والمستَعْدَى إليه، فكان تفرُّدُ الوُلاة بها أخصُّ.

التاسع: تصفُّحُ شهودِه وأُمَنائه، واختيارُ النائبين عنه من خلفائه في إقرارهم والتعويلُ عليهم مع ظهور السَّلامة والاستقامة، وصَرْفِهِم والاستبدالِ بِهم مع ظهور الجَرْح والخيانة. ومَنْ ضَعُفَ منهم عمّا يُعانيه، كان مُولِّيه بين خيارين يأتي أصلَحُهُما: إما أن يستبدلَ به مَنْ هو أقوى منه وأكفى، وإما أن يَضُمّ إليه من يكون اجتماعهما عليه أنفذ وأمضى.

والعاشر: التسويةُ في الحكم بين القويّ والضعيف، والعدلُ في القضاء بين المشروف والشريف؛ ولا يتّبع هواه في تقصير بحق أو مُمايَلَةٍ لمُبْطَلٍ. قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ: الآية ٢٦].

وقد استوفى عمرُ بن الخطّاب[(١)] رضي الله عنه في عهده إلى أبي موسى الأشعري شروطَ القضاءِ وبيّنَ أحكامَ التقليدِ حين ولّاه القضاءَ، قال:

أما بعد، فإنّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمة وسُنّة مُتّبَعةٌ. فافهمْ إذا أُدْلِيَ إليك. وأَنْفِذْ إذا تَبَيَّنَ لك فإنه لا ينفعُ تَكَلُّمٌ بحقٍّ لا نفاذَ له. وآسِ[(٢)] بَيْنَ الناس في وجهك وعَدْلك ومجلسك، حتّى لا يطمَعَ شريفٌ في حَيْفك، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلك. البيِّنةُ على من ادَّعى، واليمينُ على من أنكر. والصُّلْحُ جائزٌ بين المسلمين إلا صلحًا أَحَلّ حرامًا أو حَرّم حلالًا. ولا يمنعُكَ قضاءٌ قَضَيتَه أمسِ فراجعتَ اليومَ

(١) عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني، هامش ٣ صفحة ٣٧.
(٢) آسِ بين الناس: سَوِّ بينهم.

فيه عقلَك وهُدِيَت فيه لرُشْدِك أن ترجعَ إلى الحق؛ فإنّ الحقَ قديمٌ، ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التّمادِي في الباطل. الفَهْمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ في صدرك مما ليس في كتاب ولا سُنّة. ثم اعرِفْ الأمثالَ والأشباه، وقِسِ الأمورَ بنظائرها. واجعلْ لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بيِّنةً أمدًا ينتهي إليه؛ فإنْ أحضَرَ بيّنةً أخذتَ له بحقِّه، وإلّا استحلَلْتَ القضيّةَ عليه؛ فإن ذلك أنفى للشكّ وأجْلى للعَمى. المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض، إلا مجلودًا في حدٍ، أو مجرَّبًا عليه شهادةُ زُورٍ، أو ظَنينًا في وَلَاءٍ أو نَسَب. فإن الله قد تَوَلّى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان(١)؛ وإياك والغلقَ(٢) والضَّجَر والتأفُّف بالخصوم، فإنّ استقرارَ الحقِ في مواطنِ الحق يُعظم الله به الأجرَ ويحسنُ به الذكر. والسلام.

ذكر ما يأتيه القاضي ويَذَره في حقّ نفسه إذا دُعي إلى الولاية أو خطبها، وما يلزم الناس من امتثال أمره وطاعته، وما يعتمده في أمر كاتبه وبطانته وأعوانه وجلوسه لفصل المحاكمات والأقضية

قال الحليميُّ(٣): وإذا دعا الإمامُ رجلًا إلى القضاء، فينبغي له أن ينظرَ في حال نفسه وحالِ الناس الذين يُدْعى إلى النظر في مظالمهم. فإن وَثِق من نفسه بالاستقلال والكِفَاية والاقتدار على أداء الأمانة، وعَلِم أنه إن لم يقبَلْ صار الأمرُ إلى من لا يكون للمسلمين مثله، فأولى به أن يجيبَ إلى ما يُدْعى إليه ويقبلَه ويحسنَ النيةَ في قبوله؛ ليكون عملُه لوجه الله تعالى. وإن وجد من يقومُ مقامه ويسُدُّ مَسَدَّه فهو بالخيار؛ والتمسُّك أفضل. فأمّا إن لم يعلم من نفسه الاستقلالَ، أو لم يأمَنْ أن يكون منه سوءُ التمسّك وقلّة التمالُك، فلا ينبغي له أن يجيبَ. وهكذا إن كان هناك من هو خير منه علمًا وعقلًا وخُلُقًا. وإن عُرِض الأمر عليه فلا ينبغي له أن يتسارع إلى ما يُدْعى إليه، لينظرَ ما الذي يكون من الآخَر.

قال: وإذا دعا الإمامُ رجلًا إلى عمل من أعماله، قضاءٍ أو غيره، والرجلُ ممن يصلحُ له، فأبى، فإن وَجَد الإمامُ من يقومُ مقامه في ذلك أعفاه، وإن لم يجدْ من

(١) في الأصل: «فإن الله سبحانه عفا عن الإيمان ورد البينات» والتصحيح عن صبح الأعشى.
(٢) الغلق: ضيق الصدر وقلة الصبر، اللسان: غلق.
(٣) الحليمي: هامش ١ صفحة ٣.

يقومُ مقامه أجبره عليه اقتداءً بعُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه؛ فإنه دعا سعيدَ بن عامر الجمحيَّ فقال: إني مُستعملُكَ على أرض كذا وكذا؛ فقال: لا تَفْتِنِّي؛ فقال عمر: والله لا أدعُك، قَلَّدتموها عُنُقي وتتركوني!

قال: وإذا كان عند الرجل أنه يصلُح للقضاء فأراد أن يطلُبَه، أو دعاه الإمامُ إليه فأراد أن يُجيبه، فلا ينبغي له أن يُبادرَ بما في نفسه من طَلَبٍ أو إجابة حتى يسألَ أهلَ العلم والفَضْل والأمانة ممن خَبَره وعلم حاله، ويقول: إني أُريدُ القضاءَ، فما ترون في أمري؟ وهل تعرفون صَلَاحي لذلك أو لا؟ فإن ذلك من المَشُورة التي أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بها، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩].

وقد قَدَّمنا في باب المشورة من فضيلتها ما فيه غُنْيَةٌ عن تكراره.

قال: وإذا سأل عن نفسه فينبغي للمسؤول أن يَنْصَحَ له ويَصْدُقَه، لقول رسول الله ﷺ: «أَلَا إنّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ» قيل: لمن يا رسولُ الله؟ قال: «للهِ ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم» ولأن المستشارَ مُؤتمَنٌ، ولقوله ﷺ: «مَنْ غَشَّنا فليس مِنّا».

وإذا أراد تَقَلّدَ القضاءِ فليستخِرِ الله تَعالى ويسألْه التوفيقَ والتسديد. فإذا تقلَّد فينبغي أن يُوَكِّل المتميِّزين الثِّقاتِ الأُمناء من إخوانه وأهلِ العناية بنفسه، ويسألَهم أن يتفَقَّدوا أحوالَه وأُمورَهُ، فإن رأوا منه عَثْرةً نبّهوه عليها ليتداركَها.

قال: وأيُّما حاكم نُصِبَ بين ظَهْرَانَيْ قوم فينبغي لهم أن يسمَعُوا له ويُطِيعوا، ويترافعوا إليه إذا اختلفوا وتنازعوا، ليَفْصِلَ بينهم؛ فإذا فَصَل انقادوا لفَصْله واستسلموا لحكمه. قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء: الآية ٦٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النُّور: الآيتان ٥١، ٥٢]. وذمّ الله تعالى قومًا امتنعوا من الحكم فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النُّور: الآيات ٤٨ - ٥٠].

قال: وإذا ارتَفَع أحدُ الخَصْمَيْنِ إلى حاكم وسأله إحضارَ خَصْمِه فدعاه الحاكم فعليه أن يُجيبَه، فإذا حَضَرا فلا يخرُجَا عنْ أمر الحاكم؛ فأيُّهما خَرَج فهو

عاصٍ؛ فإنما يقضي الحاكمُ بحكم الله. وللحاكم أن يؤدِّبه بما يؤدّيه اجتهادُه. وأيُّما حاكمٍ أو وَالٍ دعا رجلًا من رعيَّته ولم يعلمْ لِم يدعُوه، فعليه إجابتُه؛ وإن عَلِم أنه لدَّعْوى رُفِعَتْ عليه من مدّعٍ، فإن كان ذلك المدَّعي حضر مع رسول الحاكم فأرضاه، سَقَطَ عنه الذَّهابُ إلىَ الحاكم، وإن كان لم يحضرْ هو ولا وكيلٌ له، فليذهبْ ليجيبَ؛ ولا يَسَعُه التخلُّف مع ترك الدّفع إلا في حالة واحدة وهي أن يكون المدَّعِي كاذبًا وقد أَعَدّ شهودًا زُورًا لا يقدِرُ على دفع شهادتهم، فخشِيَ إن حضر أُقيمت الشهادةُ عليه فحُبِسَ وأُخِذ منه المالُ قهرًا، أو يُفَرَّقُ بينه وبين امرأته، فله أن يهرُبَ أو يَتَوَارى؛ فهذا موضع عُذْرٍ وضرورةٍ فلا يُقاسُ عليه غيرُه. والله تعالى أعلم.

* * *

وأما كاتب القاضي وبطانته: قال الحَلِيمِيّ(١): وإذا افتتح القاضي عَمَلَه واحتاج إلى أعوانٍ يعمَلون له من كاتبٍ وأصحاب مسائل وقاسم، فلا يتّخذنّ إلا كاتبًا مُسلِمًا عَدْلًا أمينًا فَطِنًا متيقّظًا؛ لأنه بِطانتَه ولا يَغِيبُ عنه من أمره وأمر المترافعين إليه شيء، وأمينُه وأمينُ المتخاصمين على ما يُثبته ويَخُطُّه. ولا يجوزُ أن يكون من غير أهل الدين، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٨]. وكذلك القاسم ينبغي أن يكون أمينًا بصيرًا بالفرائض والحساب، لأنّ القاسمَ شُعْبَةٌ من شُعَب الحُكْم، فينبغي أن يكون من يَتَوَلّاه في العَدَالة والأمانة والعلم الذي يحتاجُ إليه كمن يتولّى جميعَ شُعَبِهِ. وكذلك أصحابُ المسائلِ هم أُمَنَاءُ القاضي على الشهادات التي تَتَعَلّق بها حقوقُ المسلمين، فلا ينبغي أن يَأْمَنَ عليها إلا المستحِقَّ لأنْ يُؤْتَمَنَ، ولا يَثِقَ فيه إلا بمن يَسْتَوْجِبُ بحسن أحواله الثقةَ به.

وينبغي للقاضي أن يُنَزِّه نفسه ومَنْ حوله ويُشَدِّدَ عليهم ولا يُرَخِّصَ لهم في أمر يَنْقِمُه منهم أو يخشى أن يَتَطَرَّقوا به إلى غيره ويرتَقُوا إلى ما فوقه. وقد كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إذا صَعِدَ المنبَرَ فنَهَى الناسَ عن شيء، جَمَعَ أهلَه فقال: إني نَهَيْتُ الناسَ عن كذا وكذا، وإنّ الناسَ ينظرون إليك نَظَرَ الطير إلى اللحمِ النّيِّىءِ، وأُقسمُ بالله لا أَجدُ أحدًا منكم فَعَلَه إلا أضعفتُ عليه العقوبةَ.

---

(١) الحليمي: هامش ١ صفحة ٣.

قال: ولا ينبغي للإمام ولا القاضي أن يُقَدِّمَ أقاربَه على عامّة المسلمين، ولا يُسَوِّغهم ما لا يسوِّغُ غيرَهم، ولا ينظُرَ لهم بما لا ينظرُ به لغيرهم، ولا يَسْتَعمِلَهم ويُوَلِّيهم.

* * *

وأما ما يعتمده في جلوسه، فقد قال الحَلِيمِيّ أيضًا: وإذا أراد الحاكم الجلوسَ للحُكم فليجلِسْ وهو فارغُ القلبِ لا يَهُمُّه إلا النظرُ في أمور المتظلّمين. وإن تغيّرت حالُه بغَضَب أو غمٍّ أو سرورٍ مُفْرِط أو وَجَع أو مَلَالةٍ أو اعتراءِ نومٍ أو جوعٍ فليَقُمْ إلى أن يزولَ ما به ويتمكّنَ من رأيه وعقله ثم يَجلس. فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقضِي القاضِي بين اثنين وهو غَضْبَانُ»؛ وعنه ﷺ أنه قال: «لا يقضِي القاضِي إلّا وهو شَبْعَانُ رَيّانُ». هكذا نقل الحليميُّ في[1] «منهاجه»، وهذه سُنّة السلف.

قال: والقاضي في جلوسه بالخِيَار: إن شاء أن يَخْرُجَ بالغَداة إذا طَلَعتِ الشمس فيَقْضِي حوائجَ الناسِ أوّلًا فأوّلًا حتى لا يزدحموا على بابه، فعل؛ وإن شاء أقام في بيته يتأهّبُ ويستعِدُّ بمطالعة بعض الكتب أو بالاجتهاد والتأمُّل إلى أن يجتمع الخصومُ ثم يَخْرُجُ، فعل. وينبغي أن يكون عند الحاكم من يحفَظُ نُوَبَ الناس فيُقَدِّمُ الأوّلَ فالأوّل، ويُجْلِسُهم مَجَالسهم.

وإن رأى القاضي أن يُحْضِرَ مَجْلسَه دِرّةً تُطْرَحُ على أعيُن الناس لينتَهُوا بها فإن استوجب أحدٌ من الخصوم تعزيرًا[2] أُقِيم عليه بها، فعل. رُوِيَ عن عمر بن الخَطّاب رضي الله عنه أنّ دِرّته كانت تكون معه، وكذلك جماعةٌ من قُضَاة السَّلَف رحمهم الله. وأمّا في عصرنا هذا فقد كان شيخُنا الإمامُ العَلّامةُ القُدْوَةُ مُفْتِي الفِرَق بَقيّةُ المجتهدين تَقيُّ الدِّين أبو الفَتْح محمد ابن الشيخ الإمام مَجْد الدِّين أبي الحُسَين عليّ بن وَهْب بن مُطِيع القُشَيْرِيّ المعروفُ بابن دَقِيق العِيد[3] ـ رحمه الله ـ مَنَعَ نُوَّابَه من أن يضرِبُوا بالدِّرّة في أثناء وِلايته قاضِيَ القُضَاة بالديار المصريّة، وقال: إنه عارٌ يَلْحَقُ وَلَدَ الولد. وكان سببُ مَنْعِه ـ رحمه الله ورضِي عنه ـ لذلك أن بعض نُوَّابه بالأعمال عَزَّرَ بعضَ أعيان البلاد التي هو ينوبُ بها بالدِّرّة في المسجد الجامع وقال له

(١) الحليمي: هامش ١ صفحة ٣. (٢) التعزير: عقوبة ضرب دون الحد.

(٣) ابن دقيق العيد، أبو الفتح محمد بن محمد الدين أبي الحسين علي بن وهب بن مطيع القشيري سنة ٦٩٧ هـ.

عَقِيبَ ضَرْبِه وإسقاطه: قد ألحقتُكَ بأبيك وجَدّك، وكانت هذه الحادثة في سنة سبع وتسعين وستمائة أو ما يقاربها، ففارق ذلك الرجلُ بلادَه ووَطَنَه؛ فلما اتَّصَل الخَبَرُ بقاضي القُضاة شَقّ عليه ومَنَعَ نُوّابَه من الضرب بها.

نعودُ إلى حال القاضي. قال: وينبغي للقاضي أن يَعْدِلَ بين الخَصْمَيْنِ من حين يَقْدَمَانِ عليه إلى أن تنقضِيَ خُصومَتُهما في مَدْخَلِهما عليه وجلوسِهما عنده وقيامِهما بين يديه، سواء كانا فاضلين في أنفسِهما أو ناقصين، أو أحدهما فاضلًا والآخر ناقصًا؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: الآية ١٣٥]، ولـمَا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنِ ابْتُلِيَ بالقَضاءِ بين المسلمين فليَعْدِلْ بينهم في لَحْظِه ولفظه وإشارته ومَقْعَدِه ولا يرفَعْ صوتَه على أحد الخَصْمين ما لا يرفعُ على الآخَر». وفي رواية: «مَنْ وَلِيَ قضاءَ المسلمين فليَعْدِلْ بينهم في مَجلِسِه وكلامه ولَحْظه». وفي رواية: «إذا ابْتُلي أحدُكم بالقضاء بين المسلمين فليُسَوِّ بينهم في المجلس والإشارة والنظرِ ولا يَرْفَعْ صوته على أحد الخَصْمين أكثرَ من الآخر». قال: وإذا اختصم اثنان إلى القاضي فينبغي أن يأمرَهما بالاصطلاح.

وشروط القضاءِ كثيرةٌ يعرفُها العلماءُ، فلا حاجةَ إلى الزيادة والإسهاب في ذلك؛ وإنما أوردنا ما قَدّمناه في هذا الباب منها حتى لا يُخْلي كتابُنا منه. ولْنَخْتِمْ هذا الباب بما ورد من التزهيد في القضاء.

ذكرُ شيءٍ مما ورد من التزهيد في تقلّد القضاء والترغيب عنه

قد ورد في تَقَلُّد القضاءِ أحاديثُ وآثارٌ تُزَهّد فيه، بل تكاد تُوجب الفِرَارَ منه: من ذلك ما رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ وَلِيَ القضاء فقد ذُبِحَ بغير سِكِّينٍ»؛ وعنه ﷺ: «مَا مِنْ أحدٍ حَكَمَ بين الناسِ إلّا جِيءَ به يومَ القيامةِ ومَلَكٌ آخذٌ بقَفَاه حتى يقفَ به على شَفِير جهنّم فإنْ أُمِرَ به هوى به في النار سبعين خَرِيفًا». وعن أبي ذَرّ قال: قال لي رسول الله ﷺ ستّةَ أيام: «اعقِلْ أبا ذَرٍّ ما أقولُ لك» فلما كان اليوم السابع قال: «أُوصيكَ بتَقْوَى الله في سِرِّ أمرك وعَلَانِيته وإذا أسأْتَ فأحْسِنْ ولا تسألْ أحدًا شيئًا وإن سقط سَوْطُك ولا تُؤَمَّنْ أمانةً ولا تَوَلَّيَنّ يَتَامَى وَلَا تَقْضِيَنّ بين اثنين».

وقال عثمان بن عَفّان رضي الله عنه لابن عمر: اذهبْ فكن قاضيًا؛ قال: أو يعفيني أميرُ المؤمنين؟ قال: فإني أعزم عليك؛ قال: لا تعجَلْ عليّ؛ قال: هل

سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ عَاذَ بالله فقد عَاذَ مَعَاذًا». قال: نعم، قال: فما تكره من ذلك وقد كان أبوك يقْضِي؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان قاضيًا يقضي بجَوْرٍ كان من أهل النار ومَنْ كان قاضيًا يقضِي بجهلٍ كان من أهل النار ومن كان قاضيًا عالمًا يقضِي بالعَدْلِ فبالحَرَى أن يَنْقلِبَ كَفَافًا» فما أصنعُ بهذا!

وقال بعضهم: ذكرنا أمرَ القضاء عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاءُ بالقاضي العَدْلِ يوم القيامة فيَلْقى من شِدّة الحساب ما يَتمنَّى أنه لم يَقْضِ بين اثنين في تَمْرةٍ قطّ». وقال صَعْصَعَةُ بن صُوحانَ: خَطَبَنا عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه بذي قَارٍ وعليه عِمامةٌ سوداء فقال: يا أيها الناسُ، إني سمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس من وَالٍ ولا قاضٍ إلّا يُؤتى به يومَ القيامة حتّى يُوقَفَ بين يَدَيِ الله تعالى على الصراط ثم ينشُرُ المَلَكُ سِيرَتَه فيقرَؤُها على رُؤوس الأشهاد ـ الخلائق ـ فإن كان عادِلًا نَجَّاه الله بعَدْله وإن كان غيرَ ذلك انتفض به الصراطُ انتفاضةً صارَ بين كلّ عُضْوٍ من أعضائه مَسِيرةُ مائةِ سنة ثم يتخرّق به الصراطُ فما يلتقي قعر جهنم إلّا بوجهه وحُرِّ جَبِينِه». وجاء في الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم مثلُ ذلك.

وفيما ذكرنا مَقْنَعٌ وغُنْية عن بَسْط الكلام فيه. فلنذكر ولاية المظالم.

الباب الثاني عشر
من القسم الخامس من الفن الثاني في ولاية المظالم
وهي نيابة دار العدل

وللناظرِ فيها شروط ذكرها الماوَرْدِيّ فقال: من شروط الناظر في المظالم أن يكون جليلَ القَدْرِ، نافذَ الأمر، عظيمَ الهَيْبَة، ظاهرَ العِفّة، قليلَ الطَّمَع، كثيرَ الوَرَع؛ لأنه يحتاج في نظره إلى سَطْوَةِ الحُمَاة، وتَثَبُّتِ القُضاة، فاحتاج إلى الجمع بين صفَتي الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذَ الأمر في الجهتين. فإن كان ممن يَمْلِكُ الأمورَ العامّة، كالخُلَفاء أو ممن فَوَّضَ إليه الخلفاءُ النظرَ في الأمور العامّة كالوزراء والأمراء، لم يحتَجْ للنَّظَرِ فيها إلى تقليدٍ وتَوْلِيَةٍ وكان له بعموم ولايته النظرَ فيها. وإن كان ممن لم يُفَوَّضْ إليه عمومُ النظر، احتاج إلى تقليدٍ وتوليةٍ إذا اجتمعت فيه الشروط المتقدّمة. وهذا إنما يصِحُّ فيمن يَجُوز أن يُخْتارَ لولاية العهد،

أو لوزارة التفويض إذا كان نظرُهُ في المصالح عامًّا. فإن اقتصر على تنفيذ ما عَجَز القُضَاة عن تنفيذه، وإمضاءِ ما قَصُرَتْ يَدُهم عن إمضائه، جاز أن يكون دون هذه الرُّتْبة في القَدْر والخَطَر، بعد ألّا يأخُذَه في الحقّ لومةُ لائم، ولا يستشفّه الطمَعُ إلى الرّشْوة.

ذِكر مَنْ نظر في المظالم في الجاهليّة والإسلام

والنظرُ في المظالم قديم، كان ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وقوانين العدل الذي لا يَعُمُّ الصَّلاحُ إلا بمراعاته، ولا يتُمّ التناصُفُ إلا بمباشرته؛ وكانوا يَنْتصِبون لذلك بأنفسهم في أيّامٍ معلومة لا يُمْنَعُ عنهم من يَقْصِدهم فيها من ذوي الحاجات وأرباب الضرورات.

وسببُ تمسكِهم بذلك أنّ أَصْلَ قيام دولتهم ردُّ المظالم. وذلك أن كيُومَرْث أوّلَ ملوكهم ـ وقيل: إنه أوّلُ مَلِكٍ مُلِّكَ من بني آدم ـ كان سببُ ملكه أنه لَمّا كَثُر البغيُ في الناس وأَكَل القويُّ الضعيفَ وفشا الظلمُ بينهم، اجتمع أكابرُهُم ورأوا أنه لا يُقِيم أمرَهم إلا مَلِكٌ يرجِعون إليه، ومَلَّكوه؛ على ما نورده ـ إن شاء الله ـ في فنّ التاريخ في أخبار ملوك الفرس.

وكانت قريش في الجاهلية، حين كَثُر فيهم الزعماءُ وانتشرت الرياسات وشاهدوا من التَّغَالُب والتجاذُب ما لم يَكُفَّهم عنه سلطانٌ قاهرٌ، عَقَدُوا بينهم حِلْفًا على ردّ المَظَالم، وإنصافِ المظلوم من الظالم. وكان سببُ ذلك أنّ رجلًا من اليَمَن من بني زَبِيدٍ قَدِمَ مكة مُعْتَمِرًا ومعه بِضاعةٌ، فاشتراها منه رجلٌ من بني سَهْم، قيل: إنه العاصُ بن وائل، فلَوَاه بحقِّه؛ فسأله مالَه أو مَتَاعَه، فامتنعَ عليه؛ فقام على الحَجَر وأنشد بأعلى صوته: [من البسيط]

يالَ قُصَيٍّ لمظلوم بِضاعَته ... ببطن مكةَ نائي الدارِ والنَّفَرِ
وأشعثٍ مُحْرِمٍ لم تُقْضَ حُرْمَتُه ... بين المقام وبين الحجْر والحَجَر
أقائمٌ من بني سَهْمٍ بذِمَّتهم ... أو ذاهبٌ في ضَلَالٍ مالُ مُعْتَمِرِ

وأن قَيْس بن شيبة السلمي باع متاعًا من أُبَيّ بن خَلَف فلَوَاه وذهب بحقه، فاستجار برجل من بني جُمَح فلم يُجِرْه؛ فقال قيس: [من الراجز]

يالَ قُصَيٍّ كيف هذَا في الحَرَمْ ... وحُرْمةِ البيت وأخلاقِ الكَرَمْ
* أُظْلَمُ لا يُمْنَعُ مِنِّي مَنْ ظَلَمْ *

فأجابه العَبَّاس بن مِرْدَاس[١]: [من البسيط]

إنْ كان جارُكَ لم تنفعْكَ ذِمّتُه　　وقد شَرِبْتَ بكأسِ الذُّلِّ أنفاسا

فَأْتِ البيوتَ وكن من أهلِها صَدَدًا　　لا تَلْقَ ناديَهم فُحْشًا ولا باسا[٢]

وثَمَّ كنْ[٣] بِفِناءِ البيت مُعْتصِمًا　　تلقَ ابنَ حَرْبٍ وتلقَ المرءَ عَبّاسا

قَرْمَيْ قُرَيْشٍ وحَلّا في ذَوائبِها　　بالمَجْدِ والحَزْمِ ما عاشا وما ساسا

سَاقِي الحَجِيجِ، وهذا ياسِرٌ فَلَجٌ　　والمجدُ يُورَثُ أَخْماسًا وأسداسا[٤]

فقام العَبّاس[٥] وأبو سُفيان[٦] حتى رَدّا عليه مالَه. واجتمعت بطون قُرَيش فتحالفوا في بيت عبد الله بن جُدْعان على رَدّ المظالم بمكة، وألّا يَظْلِمَ أحدٌ إلا منعوه وأخذوا للمظلوم بحقه، وكان رسول الله ﷺ يومئذٍ معهم قبل النبوّة وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، فعقدوا حِلْفَ الفضول؛ فقال رسول الله ﷺ ذاكرًا للحال: «لَقد شَهِدْتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفَ الفُضول أمّا لو دُعِيتُ إليه في الإسلام لأجبتُ وما أُحِبُّ أنّ لي به حُمْرَ النَّعَم وأَنّي نَقَضْتُه وما يزيده الإسلامُ إلا شدّةً».

وقال بعض قريش في هذا الحِلْف: [من الكامل]

تيم بن مرّة إن سألت وهاشم　　وزُهْرةُ الخيرِ في دار ابن جُدْعان

متحالفين على النَّدى ما غَرّدتْ　　ورقاءُ في فَنَنٍ من الأفنان

فهذا كان أصل ذلك وسببه في الجاهلية.

* * *

(١) العباس بن مرداس السلمي فارس وشاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم قبل فتح مكة، كان يهاجي خُفاف بن نَدْبة السلمي وتمادى الأمر إلى حرب حتى أصلح بينهما دريد بن الصمة ومالك بن عوف. وكان ابنه جاهمة من الصحابة الذين رووا عن النبي، ويذكر اسم العباس في المؤلفة قلوبهم وقد أعطاه النبي أقل من أبي سفيان وعيينة والأقرع فاحتج في شعر حتى أعطاه النبي المائة. ترجمه العباس في: ـ المرزباني، المعجم، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣. ـ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢١٨ و٦٣٢ ـ ٦٣٤. ـ الأغاني، ١٣/ ٦٢. ـ الطبري، ٣/ ١٢٧.

(٢) صددًا: قريبًا، اللسان: صدد.

(٣) في الأصل «ولا تكن» والتصحيح عن الأغاني ٣/ ٦٢.

(٤) الفلج: الفائز، اللسان: فلج.

(٥) العباس بن عبد المطلب عم الرسول.

(٦) أبو سفيان بن حرب والد معاوية مؤسس الدولة الأموية. هامش ١ صفحة ٨٣.

وأمّا في الإسلام: فقد نظر رسولُ الله ﷺ في المظالم في الشِّرْب الذي تنازعه الزُّبَيْرُ بنُ العَوّام ورجلٌ من الأنصار في شرَاج[١] الحَرَّة فحضره رسول الله ﷺ بنفسه، وقال: «اسْقِ يا زُبَيْرُ ثم أَرْسِلْ إلى جارِك»، فقال له الأنصاريّ: إن كان ابنَ عمتك! فتلوّن وجهُ رسولِ الله ﷺ، ثم قال: «اسْقِ ثم احتبِس حتى يرجعَ الماء إلى الجُدُر»، فقال الزُّبَيْر: والله إنّ هذه الآيةَ أُنزلتْ في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: الآية ٦٥]. وقد قيل في هذا الحديث إنّ رسولَ الله ﷺ نَدَبَ الزبيرَ أوّلًا إلى الاقتصار على بعض حقِّه على طريقِ التوسُّطِ والصُّلْح، فلمّا لم يَرْضَ الأنصاريُّ بذلك وقال ما قال، استوفى النبيّ ﷺ للزبير حقَّه. ويُصَحِّحُ هذا القولَ ما جاء في آخر الحديث: «فاستوعى[٢] له حقَّه» يعني للزبير.

ثم لم يَنْتَدِب للمظالم من الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم أحد، وإنما كانت المنازعات تَجْري بين الناس فيَفْصِلها حُكم القضاء. فإن تَجَوّز من جُفَاة الأعراب متجوّزٌ، ثَنَاه الوَعْظ إن تَدَبَّره، وقَادَه العُنْف إن أَبى وامتنع، فاقتصروا على حكم القضاء، لانقياد الناس إليه والتزامهم بأحكامه. ثم انتشر الأمرُ بعد ذلك وتجاهر الناسُ بالظلم والتغالُب، ولم يَكُفَّهم زواجرُ المواعظ، فاحتاجوا في رَدْع المتغَلِّبين وإنصاف المظلومين من الظالمين إلى النظر في المظالم؛ فكان أوّلُ من انفرد للمظالم وجعل لها يومًا مخصوصًا يجلِسُ فيه للناس وينظُرُ في قِصَصهم ويتأمَّلُها عبدُ الملك بن مروان[٣]، فكان إذا وَقَف فيها على مُشْكِل ردّه إلى قاضيه أبي إدريس الأوديّ فنَفّذ فيها أحكامَه، فكان عبدُ الملك هو الآمرُ وأبو إدريس هو المباشر. ثم زاد جَوْرُ الوُلاة وظلمُ العُتَاة واغتصابُ الأموال في دولة بني أُميّة، ، إلى أن أفضتْ الخلافةُ إلى عمر بن عبد العزيز[٤] ـ رحمه الله ـ فانتصَبَ بنفسه للنظر في المظالم، ورَاعَى السننَ العادلة، وردّ مظالم بني أُميّة على أهلها؛ فقيل له ـ وقد شَدَّد عليهم فيها وأَغْلَظ ـ: إنا نخافُ عليك، من ردّها، العواقبَ؛ فقال: كل ما أَتَّقيه وأخافُه دون يوم القيامة لا وُقِيتُه. ثم جَلَس لها جماعةٌ من خُلفاء الدولة العَبّاسيَّة، فكان أوّلُ من جلس منهم المهديّ، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم المأمون؛ وآخرُ من جَلَس لها منهم المهتدي. ثم انتصب لذلك جماعةٌ من ملوك الإسلام أرباب الدول المشهورة بأنفسهم وأقاموا لها نوّابًا،

---

(١) شِراج الحرة: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.
(٢) استوعى: استوفى، اللسان: وعى.
(٣) عبد الملك بن مروان: هامش ٦ صفحة ٣٢.
(٤) عمر بن عبد العزيز: هامش ١ صفحة ٣٣.

ومنهم من بَنَى لها مكانًا مخصوصًا بها سَمّاه «دارَ العَدْل» على ما نورد ذلك ـ إن شاء الله ـ في فنّ التاريخ.

ذكر ما يحتاج إليه وُلاة المظالم في جلوسهم لها ومن يجتمعُ عندهم ويحضرُ مجلسهم، وما يختصُ بنظرهم وتشمَله ولايتهم

قال الماورديّ[١]: فإذا نظر في المظالم من انتَدَبَ لها جعل لنظره يومًا معروفًا يقصِده فيه المتظلِّمون، ويُراجعه فيه المتنازعون؛ ليكون ما سواه من الأيام لِمَا هو موكولٌ إليه من السياسة والتدبير؛ إلا أن يكون من عُمّال المظالم المتفرِّدين بها، فيكون مندوبًا للنظر في جميع الأيام. وليكن سهلَ الحجاب، نَزِهَ الأصحاب.

ويستكملُ مجلسَ نظره بحضور خمسة أصناف لا يستَغْنِي عنهم، ولا ينتظمُ أمرُه إلا بهم؛ وهم الحُمَاة والأعوان، لجذب القويّ وتقويم الجريء. والصنف الثاني: القُضاة والحُكّام، لاستعلامِ ما يثبُتُ عندهم من الحقوق، ومعرفةِ ما يَجْرِي في مجالسهم بين الخُصُوم. والصنف الثالث: الفقهاءُ، ليرجِعَ إليهم فيما أَشْكَل، ويسألهم عما اشتبه وأَعْضل. والصنف الرابع: الكُتّاب، ليُثْبِتوا ما جَرَى بين الخصوم وما تَوَجّه لهم أو عليهم من الحقوق. والصنف الخامس: الشهود، ليُشْهِدَهم على ما أوجبه من حَقٍّ وأمضاه من حكم. فإذا استكمل مجلس المظالم بهذه الأصناف الخمسة، شَرَعَ حينئذٍ في نَظَرِه.

* * *

وأما ما يختصُ بنظر متولي المظالم وتشتملُ عليه ولايته فعشرة أقسام:

الأوّل: النظرُ في تَعَدِّي الوُلاة على الرعيّة وأَخْذِهم بالعَسف في السِّيرة، فهذا من لوازم النظر في المظالم، فيكونُ لسَيْر الوُلاة متصفِّحًا، وعن أحوالهم مُستكشفًا، ليقوّيَهم إن أنصفوا، ويَكُفَّهم إن عَسَفوا.

والثاني: جورُ العمال فيما يجبُونه من الأموال؛ فيرجعُ فيه إلى القوانين العادلة في الدواوين، فيحملُ الناسَ عليها ويأخذُ العمالَ بها. وينظُرُ فيما استزادُوه، فإن رَفَعوه إلى بيت المال أَمَر بردّه، وإن أخذُوه لأنفسهم استرجعه منهم لأربابه.

(١) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

والثالث: كُتَّاب الدواوين، لأنهم أمَنَاءُ المسلمين على بيوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفونه منها؛ فيَتَصَفَّح أحوالَ ما وُكِلَ إليهم، فإن عَدَلُوا عن حق في دَخْلٍ أو خَرْجٍ إلى زيادة أو نقصان، أعاده إلى قوانينه، وقَابَلَ على تَجَاوزه. وهذه الأقسام الثلاثة لا يَحْتاجُ وَالِي المظالم في تصفُّحها إلى متظلِّم.

والرابع: تَظَلُّم المُسْتَرزِقَةِ من نقص أرزاقهم أو تأخيرها عنهم وإجحاف النُّظَّار بهم؛ فيرجع إلى ديوانه في فرض العَطَاء العادل فيُجْرِيهم عليه. وينظر فيما نُقِصُوه أو مُنِعُوه، فإن أخذه وُلاة أُمورهم استرجعه لهم، وإن لم يأخذوه قَضَاه من بيت المال.

كَتَبَ بعضُ وُلاةِ الأجنادِ إلى المأمون أنّ الجند شَغَبُوا ونَهَبُوا. فكتب إليه: لو عَدَلْتَ لم يَشْغَبُوا، ولو قَوِيتَ لم يَنْهَبُوا. وعَزَلَه عنهم وأَدَرّ عليهم أرزاقهم.

والخامس: ردّ الغصوبات. وهي على ضربين: أحدها غُصُوبٌ سلطانيةٌ قد تَغَلَّب عليها وُلاة الجَوْر، كالأملاك المقبوضة عن أربابها، إما لرغبةٍ فيها أو غير ذلك. ويجوزُ أن يرجِعَ في ذلك عند تَظَلُّمهم إلى ديوان السلطنة، فإذا وجد فيه ذكرَ قبضِها عن مالكها عَمِلَ بمقتضاه وأَمَر بردّها إليه، ولم يحتَجْ فيه إلى بيِّنة تشهَدُ به، وكان ما وجده في الديوان كافيًا، كالذي حُكِي عن عُمَر بن عبد العزيز أنّه خرج ذات يومٍ إلى الصلاة فصادفه رجلٌ وَرَدَ من اليمن متظلِّمًا، فقال: [من البسيط]

تدعُون حَيْرانَ مظلومًا ببابكُمُ   فقد أتاكم بعيدُ الدارِ مظلومُ

فقال له: وما ظُلَامتُك؟ قال: غَصَبَني الوليدُ بنُ عبد الملك ضَيْعَتي؛ فقال يا مُزَاحمُ ائتني بدفتر الصَّوَافي؛ فوجد فيه: أَصْفى عبدُ الله الوليدُ بنُ عبد الملك ضَيْعة فلان؛ فقال: أَخْرِجْها من الدفتر، وليُكْتَبْ بردّ ضَيعته إليه ويُطْلَق له ضعفُ نَفَقَته.

والضربُ الثاني، ما تغلَّب عليه ذوو الأيدِي القويَّة وتَصَرّفوا فيه تصرُّفَ المُلَّاك بالقهر والغَلَبة؛ فهذا موقوفٌ على تظلُّم أربابه. ولا يُنْتَزَعُ من غُصَّابه إلا بأحد أربعة أمور: إما باعتراف الغاصب وإقراره؛ وإما بعلم وَالِي المَظَالم، فيجوز أن يحكُم عليه بعلمه؛ وإما ببينة تشهدُ على الغاصب بغَصبه أو تشهدُ للمغصوبِ منه بمِلْكه؛ وإما بتظاهر الأخبار التي ينتفي عنها التواطؤ ولا تختلج فيها الشكوكُ؛ لأنه لمّا جاز للشهود أن يشهَدوا في الأملاك بتظاهُر الأخبار، كان حكم وُلاة المظالم بذلك أحقّ.

والسادس: مشارفةُ الوقوف. وهي ضربان: عامةٌ وخاصة. فأما العامة فيَبْدَأ بتَصَفُّحها وإن لم يكن لها متظلّمٌ، ليُجْرِيَها على سُبُلها ويُمْضِيَها على شروط واقفها إذا

عرفها من أحد ثلاثة أوجه: إمّا من دواوين الحُكّام المندوبين لحِرَاستها، وإما من دواوين السّلطنة على ما جَرى فيها من معاملة أو ثَبَتَ لها من ذكر وتسمية، وإما من كُتُبٍ قديمة تقعُ في النفس صِحّتُها وإن لم يشهَدِ الشهودُ بها، لأنه ليس يتعيَّنُ الخَصْم فيها، فكان الحكمُ فيها أوسَعَ منه في الوقوف الخاصّة.

وأما الوقوفُ الخاصةُ، فإنّ نظره فيها موقوفٌ على تَظَلُّم أهلها عند التنازُع فيها، لوقُوفها على خصومٍ متعيِّنين. فيَعْمَلُ عند التشاجُرِ فيها على ما تَثْبُت به الحقوقُ عند الحاكم، ولا يجوزُ أن يرجِعَ فيها إلى ديوان السلطنة ولا إلى ما يَثْبُت من ذكرها في الكتب القديمة إذا لم يشهَدْ بها شهودٌ مُعَدَّلُون.

والسابع: تنفيذ ما وُقِفَ من أحكام القُضَاة، لضَعْفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المحكوم عليه، لتعَزُّزه وقوّة يده أو عُلُوّ قَدْره وعظم خَطَره، لكون ناظرِ المظالم أقوى يَدًا وأنفذَ أمرًا، فينفِّذُ الحكمَ عَلى ما يُوجبه عليه الحاكمُ بانتزاع ما في يده، أو بإلزامه الخروجَ مما في ذِمّته.

والثامن: النظرُ فيما عجز عنه الناظرون في الحِسْبَة من المصالح العامّة كالمجاهَرَة بمُنْكرٍ ضُعِفَ عن دَفْعه، والتعَدِّي في طريق عُجِزَ عن مَنْعه، والتَّحيُّفِ في حَقٍّ لم يُقْدَرْ على رَدِّه، فيأخُذُهم بحق الله تعالى في ذلك، ويأمرُ بحملهم على موجبه.

والتاسع: مراعاةُ العبادات الظاهرةِ كالجُمَع والأعيادِ والحَجّ والجِهاد من تقصيرٍ فيها أو إخلالٍ بشروطها؛ فإنّ حقوقَ الله تعالى أَوْلى أن تُسْتَوفى، وفروضَه أحقُّ أن تُؤَدَّى.

والعاشر: النظرُ بين المتشاجرين، والحكمُ بين المتنازعين. ولا يخرجُ في النظر بينهم عن مُوجَبِ الحقِ ومُقْتضاه، ولا يَسُوغ أن يحكَم بينهم بما لا يحكُم به الحكّامُ والقُضاة.

ذكرُ الفرق بين نظر وُلاة المظالم ونظر القضاة

قال الماورديّ[1]: والفرقُ بين نظر المظالم ونظر القضاة من عشرة أوجه:

أحدها: أنّ لناظرِ المظالم من فَضْلِ الهَيْبة وقوّةِ اليد ما ليس للقُضاة بكف الخصومِ عن التجاحُد ومَنْعِ الظَّلَمَة من التغالُبِ والتجاذب.

---

(١) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

والثاني: أنّ نَظَرَ المظالم يخرجُ من ضيق الوجوب إلى سعة الجواز، فيكون الناظرُ فيه أفسحَ مجالًا وأوسعَ مقالًا.

والثالث: أنّه يَسْتعمِل من فَضْل الإرهابِ وكَشْف الأسباب، بالآثار الدالّة أو شواهدِ الحال اللّائحةِ ما يَضِيق على الحُكّام، فيصِلُ به إلى ظهور الحقّ، ومعرفةِ المُبْطِل من المُحِقّ.

والرابع: أنه يُقابِلُ مَنْ ظهر ظُلْمُه بالتأديب، ويأخُذُ من بَان عُدْوانُهُ بالتقويم والتهذيب.

والخامس: أنّ له من التأنّي في تَرْداد الخصوم عند اشتباه أمورهم واستِبهام حُقوقهم، ليُمعِنَ في الكَشْفِ عن أسبابهم وأحوالهم، ما ليس للحكّام، إذا سألهم أحدُ الخَصمين فصلَ الحُكم، فلا يَسُوغ أن يؤخِّره الحاكمُ، ويَسُوغُ أن يؤخِّره مُتوَلّي المظالم.

والسادس: أنّ له ردَّ الخصوم إذا أعضلوا[1] إلى وَسَاطة الأُمناء، ليَفْصِلوا التنازُعَ بينهم صُلْحًا عن تَرَاضٍ، وليس للقاضي ذلك إلا عن رِضَا الخَصْمين بالرَّدّ.

والسابع: أنه يُفسح في مُلازَمة الخَصْمين إذا وَضَحت أَمارات التجاحُد، ويَأْذَنُ في إلزام الكَفَالة فيما يَسُوغُ فيه التكفيل، لتَنْقَاد الخصومُ إلى التناصُف ويَعْدِلوا عن التجاحُد والتكاذُب.

والثامن: أنه يَسْمَعُ من شهادات المستُورِين ما يخرُج عن عُرْف القُضَاة في شهادة المُعَدَّلين.

والتاسع: أنه يجوزُ له إحلافُ الشهودِ عند ارتيابه بهم إذا بَذَلُوا أيْمانهم طوعًا، ويَسْتكثِرَ من عَدَدهم، لتزولَ عنه الشُّبْهَةُ وينتَفي الارتيابُ، وليس ذلك للحاكم.

والعاشر: أنه يجوزُ له أن يبتدِىءَ باستدعاء الشهود ويسألَهم عما عندهم في تَنَازع الخصومِ؛ وعادةُ القُضاةِ تكليفُ المدَّعِي إحضارَ بيِّنةٍ ولا يسمعُونها إلا بعد مَسْألته.

فهذه عشرةُ أوجه يَقَعُ بها الفَرْقُ بَيْنَ نَظَر المظالم ونَظَر القَضَاء في التشاجرُ والتنازُع؛ وهما فيما عداهما متساويان.

---

(١) أعضلوا: ضاقت عليه الحيل فيهم، اللسان: عضل.

ذكر ما ينبغي أن يعتمدَه وُلاةُ المظالم عند رفعها إليهم، وما يسلكونه من الأحكام فيها، وما ورد في مثل ذلك من أخبارهم وأحكامهم فيما سلف من الزمان

قال الماورديّ(١): لم تَخلُ حالُ الدَّعْوى عند الترافُع فيها إلى وَالِي المَظَالم من ثلاثةِ أحوال: إمّا أن يَقْترِن بها ما يُقَوّيها، أو يقترنَ بها ما يُضعفها، أو تخلُو من الأمرين. فإن اقترنَ بها ما يُقوّيها، فَلِمَا يقترِنُ بها من القُوّة ستّةُ أحوال تختلفُ بها قوّةُ الدَّعْوى على التدريج.

فأوّلُ أحوالِها: أن يَظْهر مَعَها كِتَابٌ فيه شهودٌ مُعَدَّلون حُضُورٌ. والذي يختص به نظرُ المظالم في مثل هذه الدعوى شيئان. أحدهما: أن يبتدِئَ الناظرُ فيها باستدعاء الشهود للشهادة. والثاني: الإنكارُ على الجاحد بحسب حاله وشَوَاهدِ أحواله. فإذا حَضَر الشهودُ، فإن كان الناظرُ في المظالم ممن يَجِلُّ قَدْرُه، كالخليفة أو وزيرِ التفويض أو أمير الإقليم، رَاعى من أحوال المتنازِعَيْنِ ما تقتضيه السياسةُ: من مباشرته النَّظَرَ بينهما إن جَلَّ قدرُهما، أو ردّ ذلك إلى قاضيه بمَشْهَدٍ منه إن كانا متوسِّطَين، أو على بعدٍ منه إن كانا خاملين.

حُكِيَ أنَّ المأمونَ كان يجلِسُ للمظالم في يوم الأحد، فنَهَضَ ذاتَ يومٍ من مَجْلِسِه فتَلَقَّته امرأةٌ في ثيابٍ رَثَّة، فقالت: [من البسيط]

يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ ... ويا إمامًا به قد أشْرَق البَلَدُ
تشكُو إليك عميدَ المُلْكِ أرملةٌ ... عَدَا عليها فما تَقْوى به أسدُ
فابْتَزَّ منها ضِيَاعًا بعد مَنْعَتِها ... لَمّا تَفَرَّقَ عنها الأهلُ والوَلَدُ

فأطرق المأمونُ يسيرًا ثم رَفَع رأسَه وقال: [من البسيط]

مِنْ دونِ ما قُلتِ عِيلَ الصَّبْرُ والجَلَدُ ... وأَقْرَحَ القلبَ هذا الحزنُ والكَمَدُ
هذا أَوَانُ صلاةِ الظُّهر فانصَرِفي ... وأَحْضِرِي الخَصْمَ في اليوم الذي أَعِدُ
المَجلسُ السبتُ إن يُقْضَ الجُلوسُ لنا ... أُنصِفْكِ منه وإلّا المجلِسُ الأحَدُ

فانصرفتْ، وحضرت في يوم الأحد أوّل الناس؛ فقال لها المأمون: مَنْ خَصْمُك؟ فقالت: القائمُ على رأسك العبّاسُ ابنُ أمير المؤمنين؛ فقال المأمون لقاضيه

---

(١) الماوردي: هامش ١ صفحة ٨٩.

يحيىٰ بن أَكْثَم، وقيل بل قال لوزيره أحمد بن أبي خالد: أَجْلِسْها معه وانْظُرْ بينهما؛ فأَجْلَسَها معه ونَظَرَ بينهما بحَضْرة المأمون، فجَعَلَ كلامُها يَعْلُو، فزَجَرَها بعضُ حُجّابه؛ فقال المأمون: دعها فإنّ الحَقَّ أَنْطَقها والباطلُ أَخْرَسه. وأمر بردّ ضِيَاعها إليها.

والحال الثانية في قوّة الدعوى: أن يقترن بها كتابٌ فيه من الشهود المُعَدَّلين من هو غائب. فالذي يختصّ بنظر المظالم في مثل هذه الدَّعْوى أربعةُ أشياء. أحدُها: إرهابُ المُدَّعى عليه فربَّما يُعَجِّلُ من إقراره بقُوّة الهَيْبة ما يُغْنِي عن سَمَاع البيِّنة. والثاني: التَقَدُّمُ[1] بإحضارِ الشُّهُود إذا عُرِفَ مكانُهم ولم يَدْخُلِ الضَّرَرُ الشاقُّ عليهم. والثالث: التقدُّمُ بملازمة المدَّعَى عليه ثلاثًا، ويجتهدُ رَأْيَه في الزيادة عليها بحسب الحال من قُوّة الأمارة ودلائل الصحّة. والرابع: أن ينظُرَ في الدعْوى، فإن كانت مالًا في الذمة كَلَّفَه إقامةَ كَفِيل، وإن كانت عَيْنًا قائمةً كالعَقَار، حَجَرَ عليه فيها حَجْرًا لا يَرْفَعُ به حكمَ يده، ورَدَّ استغلَالها إلى أمين يحفَظُه على مستحِقّه منهما. فإن تَطَاوَلت المدّة ووقع اليأسُ من حُضور الشهود، جاز لمتولِّي المظالم أن يسألَ المدَّعَى عليه عن دخول يده مع تجديد إرهابه، فإن أجاب بما يَقْطَعُ التنازُعَ أمضَاه، وإلّا فَصَلَ بينهما بمُوجب الشَّرْع ومُقْتَضاه.

والحال الثالثة في قوّة الدعوى: أن يكون في الكُتاب المقترِن بها شهودٌ حُضُورٌ لكنهم غير مُعَدَّلين عند الحاكم، فيَتَقَدَّمُ ناظرُ المظالم بإحضارهم وسَبْرِ أحوالهم؛ فإن كانوا من ذوي الهَيْئات وأهلِ الصِّيانات، فالثقةُ بشهادتهم أقوى؛ وإن كانوا أرذالًا فلا يعوّلُ عليهم لكن يقوّي إرهابَ الخَصْم بهم؛ وإن كانوا أوساطًا فيجوزُ له أن يَسْتَظْهِرَ بإحلافهم، إن رأى ذلك، قبل الشهادة أو بعدها. ثم هو في سماع شهادة هذين الصِّنفين بين ثلاثة أمور: إما أن يسمَعَها بنفسه فيحكُمُ بها، وإما أن يَرُدَّ إلى القاضِي سَمَاعَها ويؤدّيها القاضي إليه، وإما أن يَرُدّ سماعها إلى الشهود المعدَّلين وهم يُخبرونه بما وَضَحَ عندهم.

والحال الرابعة من قوّة الدعوى: أن يكون في الكتاب المقترِن بها شُهُودُ مَوْتى مُعَدَّلون، فالذي يختصُّ بنظر المظالم فيها ثلاثةُ أشياء. أحدها: إرهاب المدَّعى عليه بما يضطرّه إلى الصِّدق والاعتراف بالحق. والثاني: سؤاله عن دخول يده، لجواز أن يكون من جوابه ما يَتَّضِحُ به الحقّ. والثالث: أن يكشِفَ عن الحال من جِيرَان المِلْك

(١) التقدم به: الأمر، اللسان: قدم.

ومن جِيران المتنازعين فيه، ليتَوَصّلَ بهم إلى وُضوح الحقّ ومعرفة المحِقّ. فإن لم يَصِلْ إليه بواحد من هذه الثلاثة، رَدَّها إلى وَسَاطةِ مُحْتَشَم مُطَاع، له بهما معرفةٌ وبما يتنازعانه خِبْرة. فإن حَصَل تَصَادُقُهما أو صُلْحُهما بوَسَاطته، وإلّا فَصَلَ الحكم بينهما على ما يُوجِبه حكمُ القضاءِ.

والحال الخامسة في قوّة الدعوى: أن يكون مع المُدَّعِي خَطُّ المدَّعى عليه بما تَضَمّنته الدعوى، فنَظَرُ المظالم فيه يقتضِي سؤالَ المدَّعى عليه عن الخطّ وأن يُقال له: هذا خطُّك؟ فإن اعترفَ به، سئل بعد اعترافه به عن صحة ما تضمّنه، فإن اعترف بصحته، صار مُقِرًا وأُلْزِمَ حكمَ إقراره. وإن لم يعترف بصحته فمِنْ وُلاة المَظَالم مَنْ حَكَم عليه بخَطِّه إذا اعترف به وإن لم يعترفْ بصحته، وجعل ذلك من شواهد الحقوق اعتبارًا بالعرف. والذي عليه محقّقوهم وما يَرَاه الفقهاء أنه لا يجوزُ للناظر منهم أن يحكُمَ بمجرّد الخطّ حتى يعترفَ بصحّة ما فيه؛ فإن قال: كتبته ليُقْرِضَنِي وما أقرضني، أو ليَدْفَع إليّ ثَمَنَ ما بِعته وما دَفَع، فهذا مما قد يفعله الناسُ أحيانًا. فنَظَرُ المظالم في مثله أن يُسْتَعْمَلَ الإرهابُ بحسب الحال ثم يُرَدُّ إلى الوَسَاطة؛ فإن أفضت إلى الصلح، وإلا بَتَّ الحاكم بينهما بالتحالف.

وإن أنكر الخَطَّ، فمِنْ وُلاة المظالِم من يختبرُ الخطّ بخطوطه التي يكتُبها ويُكلِّفه من كثرة الكتابة ما يمنَعُ من التصَنُّع فيها، ثم يجمعُ بين الخطين، فإذا تَشَابَها حَكَم به عليه. والذي عليه المحقّقون منهم أنهم لا يفعلون ذلك للحكم به ولكن للإرهاب. وتكون الشُّبْهة مع إنكاره للخط أضعفَ منها مع اعترافه به، وترتفعُ الشبهةُ إن كان الخط منافيًا لخطه ويعودُ الإرهابُ على المدّعي، ثم يُرَدّان إلى الوَسَاطة فإن أفضتْ إلى الصلح وإلّا بَتّ القاضي الحكم بينهما بالأيمان.

والحال السادسة من قوّة الدعوى: إظهارُ الحساب بما تَضَمّنته الدعوى، وهذا يكون في المعاملات. ولا يخلو حال الحساب من أحد أمرين: إمّا أن يكون حسابَ المدّعِي أو المدّعى عليه. فإن كان حسابَ المدّعِي فالشُّبهةُ فيه أضعفُ. ونَظَرُ المظالم في مثله أن يُرَاعى نَظْمُ الحساب، فإن كان مختلّا يُحْتَمَلُ فيه الإدغالُ[1] كان مُطَّرَحًا، وهو بضعف الدعوى أشبهُ منه بقوّتها. وإن كان نَظْمُه مُتَّسِقًا ونَقْلُه صحيحًا، فالثقةُ به أقوى، فيقتضي من الإرهاب بحسب شواهده، ثم يردّان إلى الوَسَاطة، ثم إلى الحكم الباتّ. وإن كان الحساب للمدّعَى عليه، كانت الدعوى به أقوى، فلا

(١) أدغل: أدخل ما يفسد، اللسان، مادة: دغل.

يخلو أن يكون منسوبًا إلى خطه أو خط كاتبه، فإن كان منسوبًا إلى خطه فلناظر المظالم أن يسأله عنه: أهو خطُّهُ؟ فإن اعترف به، قيل: أتعلمُ ما هو؟ فإن أقرّ بمعرفته، قيل: أتعلمُ صحتَهُ؟ فإن أقرّ بصحته، صار بهذه الثلاثة مقرًّا بمضمون الحساب، فيؤخذ بما فيه. وإن اعترفَ أنه خطُّه وأنه يعلمُ ما فيه ولم يعترفْ بصحته، فمن حَكَم بالخطّ من ولاة المظالم، حكم عليه بموجَب حسابه وإن لم يعترفْ بصحته، وجعل الثقةَ بهذا أقوى من الثقة بالخط المُرْسَل؛ لأن الحسابَ لا يُثْبتُ فيه قبضٌ ما لم يقبض، وقد تُكْتَبُ الخطوطُ المرْسَلة بقَبْض. والذي عليه المحققون منهم - وهو قول الفقهاء - أنه لا يحكمُ عليه بالحساب الذي لم يعترف بصحته، لكن يقتضي من فضل الإرهاب به أكثر مما اقتضاه الخط المرسل، ثم يُرَدّان إلى الوَسَاطة ثم إلى الحكم الباتّ.

وإن كان الخطُّ منسوبًا إلى كاتبه، سُئل المدّعى عليه قبل سؤال كاتبه، فإن اعترف بما فيه أُخِذَ به، وإن لم يعترفْ، سُئل عنه كاتبُه وأرْهِب، فإن أنكره ضَعُفت الشُّبهةُ، وإن اعترفَ بصحته صار شهادةً على المدّعى عليه، فيحكمُ عليه بشهادته إن كان عَدْلًا، ويقضي بالشاهد واليمين. فهذه حال الدعوى إذا اقترن بها ما يُقوّيها.

* * *

وأما إن اقترن بالدعوى ما يُضعفها: فَلِمَا اقتَرَنَ بها من الضعف ستةُ أحوال تنافي أحوال القوّة، فيُنْقَلُ الإرهابُ بها من جَنَبَة المدَّعى عليه إلى جنبة المدّعِي.

فالحال الأولى: أن يُقابِل الدعوى بكتابٍ شهودُه حُضورٌ مُعَدَّلون يشهدون بما يُوجب بُطْلانَ الدعوى، وذلك من أربعةِ أوجهٍ. أحدها: أن يشهَدُوا على المدّعِي ببيع ما ادّعاه. والثاني: أن يشهدوا على إقرار الذي انتقل الملك عنه للمدّعِي قبل إقراره له. والثالث: أن يشهدوا على المدّعي أنه لا حقّ له فيما ادّعاه. والرابع: أن يشهدوا للمدّعى عليه بأنه مالكٌ لما ادّعاه عليه. فتبطل دعواه بهذه الشهادة، ويؤدّبُه متولّي المظالم بحسب حاله. فإن ذَكَرَ أنّ الشهادة عليه بابتياعٍ كانت على سبيل الرهن؛ فهذا قد يفعله الناسُ أحيانًا ويسمُّونه بينهم بيع الأمانة؛ ويقتضي ذلك الإرهابَ في الجهتين. ويرجعُ إلى الكَشْف من الجيرة؛ فإن ظَهَر له ما يُوجِبُ العدولَ عن ظاهر الكتاب عَمِل بمقتضاه، وإن لم يتَبيَّن وأُبهِمَ الأمرُ أمضى الحكم بما شَهِد به شهودُ الابتياع. فإن سأل إحلافَ المدّعى عليه أن ابتياعه كان حقًّا ولم يكن على سبيل الرهن، فقد اختلف الفقهاءُ في جواز إحلافه: فمنهم من أجازه ومنهم من منعه. ولوَالِي المظالم أن يعمَلَ من القولين بما تقتضيه شواهدُ الحال. وكذلك لو كانت الدعوى بدَيْنٍ في الذمّة فأظهر

المدّعَى عليه كتابَ براءة منه، فذكر المدّعي أنه أشهد على نفسه قبل القبض ولم يقبض، كان إحلافُ المدّعى عليه على ما تقدّم ذكره.

والحالُ الثانية: أن يكون شهود الكتاب عدولًا غُيَّبًا، فهذا على ضربين: أحدهما: أن يتضمّنَ إنكارُه اعترافًا بالسبب كقوله: لا حَقَّ له في هذا الملك، لأني ابتعتُه منه ودفعتُ إليه الثمن، وهذا كتاب عهدتي بالإشهاد عليه. فيصير المدَّعَى عليه مدّعيًا. وله زيادة يَدٍ وتصرُّف، فتكون الأمارةُ أقوى وشاهدُ الحال أظهر، فإن لم يَثْبُتْ بها المِلْك فيرهبهما وَالِي المظالم بحسب ما تقتضيه شواهد أحوالهما. ويأمُرُ بإحضار الشهود إن أمكن، ويضرب لحضورهم أَجَلًا يَرُدّهما فيه إلى الوَسَاطة، فإن أفضَتْ إلى صُلْح عن تَرَاضٍ، استقرّ به الحُكمُ وعُدِلَ عن سَمَاع الشهادة إن حَضَرتْ. وإن لم يَنْبرِمْ بينهما الصلحُ، أمعن في الكَشْف من جِيرانهما وجِيران الملك. وكان لمتولِّي نَظَرِ المظالم رأيُه، في زمن الكشف، في خَصْلة من ثلاث، على ما يؤدّي إليه اجتهادُهُ بحسب الأمارات وشواهدِ الأحوال: إمّا أن يرى انتزاعَ الضَّيْعةِ من يد المدّعى عليه ويُسَلِّمها إلى المدّعِي إلى أن تقوم البيِّنةُ عليه بالبيع؛ وإما أن يسلِّمها إلى أمين تكون في يده ويحفَظُ استغلالَها على مستَحِقّه؛ وإما أن يُقِرَّها في يد المدّعى عليه ويحجُرَ عليه فيها وينصِبُ أمينًا لحفظ استغلالها. فإن وقع الإياس من حضور الشهود وظهورِ الحقّ بالكشف، فصل الحكمُ بينهما على ما تقتضيه أحكامُ القضاء. فلو سأل المدّعى عليه إحلاف المدّعِي، أحلفه له، وكان ذلك بتًّا للحكم بينهما.

والضربُ الثاني: أن لا يتضمّنَ إنكارُه اعترافًا بالسبب ويقول: هذا الملكُ أو الضيعةُ لا حقَ له فيها. وتكون شهادةُ الكِتَاب على المدّعي على أحد وجهين: إما على إقراره أنه لا حق له فيها، وإما على إقراره أنها ملكٌ للمدّعى عليه؛ فالضَّيْعةُ مُقَرَّةٌ في يد المدّعى عليه لا يجوزُ انتزاعُها منه. فأمّا الحجرُ عليه فيها وحفظُ استغلالها مدّة الكشف والوَسَاطة فمعتبرٌ بشواهد الحال واجتهادِ وَالِي المظالمِ فيما يراه بينهما، إلى أن يثبُت الحقُّ لأحدهما.

والحال الثالثة: أنّ شهودَ الكتاب المقابِلِ لهذه الدعوى حُضُورٌ غير مُعَدَّلين، فيُراعِي والي المظالمِ فيهم ما قدّمناه في جَنَبَة المدّعِي من أحوالهم الثلاث، ويُراعي حال إنكاره هل تَضَمّن اعترافًا بالسبب أم لا؛ فيعمل وَالِي المظالمِ في ذلك بما قدّمناه، تعويلًا على اجتهاد رأيه في شواهد الأحوال.

والحالة الرابعةُ: أن يكونَ شهودُ الكِتَاب مَوْتى معدَّلين، فليس يتعلّقُ به حكمٌ إلا في الإرهابِ المجرّد، ثم يعمَلُ في بَتّ الحكم على ما تضمّنه الإنكارُ من الاعتراف بالسبب أم لا.

والحالة الخامسةُ: أن يُقابِل المدّعى عليه بخط المدّعي بما يوجبُ إكذابه في الدعوى، فيعمل فيه بما قدّمناه في ذلك. وكذلك أيضًا في الحال السادسة من إظهار الحساب، فالعملُ فيه على ما قدّمناه.

***

وأما إن تجرّدت الدعوى من أسباب القوّة والضعفِ، فلم يَقْترن بها ما يُقَوّيها ولا ما يُضعفها، فنظرُ والي المظالم في ذلك أن يُراعِيَ أحوالَ المتنازِعَيْن في غَلَبَة الظن. ولا يخلو حالُهما فيه من ثلاثة أحوال. أحدها: أن تكون غلبتُه في جَنَبَة المدّعي. والثاني: أن تكون في جَنَبَة المدّعَى عليه. والثالث: أن يعتدِلَا فيه. فإن كانت غلبةُ الظن في جَنَبَة المدّعي وكانت الرِّيبةُ متوجِّهةً إلى المدّعى عليه، فقد تكون من ثلاثة أوجه. أحدها: أن يكون المدّعِي مع خُلُوّه من حُجّة مضعوفَ اليدِ مستلانَ الجانبِ والمدّعَى عليه ذَا بأسٍ وقُدْرةٍ. فإذا ادّعى عليه غَصْبَ مِلْكٍ أو ضَيْعَةٍ، غَلَبَ في الظنّ أنّ مثلَه مع لِينه واستضعافه لا يتجوّزُ في دعواه على مَنْ كان ذَا بأسٍ وسَطْوة. والثاني: أن يكون ممن اشتهر بالصدق والأمانة والمدّعَى عليه ممن اشتهر بالكذب والخِيانة، فيَغْلِبُ في الظن صدقُ المدّعِي في دعواه. والثالث: أن تتساوى أحوالهما، غيرَ أنه عُرِف للمدّعي يد متقدّمة وليس يُعْرَفُ لدخول يد المدّعَى عليه سببٌ، فالذي يقتضيه نظرُ المظالم في هذه الأحوال شيئان. أحدهما: إرهابُ المدّعى عليه لتوجُّه الريبة. والثاني: سؤالُه عن سبب دخول يدهِ وحدوثِ مِلْكه.

وأما إن كانت غَلَبَةُ الظنّ في جَنَبَة المدّعى عليه بانعكاس ما قدّمناه وانتقالِه من جانب المدّعي إلى المدّعى عليه، فمذهب مالك ـ رحمه الله ـ أنه إن كانت دعواه في مثل هذه الحال لعينٍ قائمةٍ، لم يسمعْها إلا بعد ذكر السبب الموجِبِ لها، وإن كانت في مالٍ في الذمة، لم يسمعها إلا أن تقومَ البيّنةُ للمدّعي أنه كان بينه وبين المدّعى عليه مُعاملة. والشافعيّ وأبو حنيفة ـ رحمهما الله ـ لا يَرَيان ذلك. ونظرُ المظالم موضوعٌ على فعل الجائز دون الواجب، فيسوغُ فيه مثل هذا عند ظهور الريبة. فإن وُقِفَ الأمرُ على التحالُف فهو غايةُ الحكم الباتّ الذي لا يجوزُ دَفْعُ طالبٍ عنه في نَظَر القضاء ولا نظر المظالم. فإن فَرّق المدّعي دعاويَه وأراد أن

يُحلفَ المدّعى عليه في كل مَجْلِس على بعضها قَصْدًا لإعناته وبذلته، فالذي يُوجبه حكمُ القضاءِ ألّا يُمْنَعَ من تبعيض الدعاوى وتَفْريق الأيمان، والذي يُنتجه نَظَرُ المظالمِ أن يُؤمَرَ المدّعِي بجَمْع دعاويه عند ظهور الإعنات منه وإحلافِ الخَصْم على جميعها يَمينًا واحدة.

فأمّا إذا اعتدلت حالةُ المتنازِعَيْنِ وتقابلتْ شُبْهة المتشاجرين ولم يترجّحْ أحدُهما بأَمَارة ولا ظِنّةٍ، فينبغي أن يُسَاوى بينهما في العِظَة؛ وهذا مما يتّفِق عليه القُضَاة ووُلاة المظالم. ثم يختصُّ وُلاةُ المظالم، بعد العِظة، بالإرهاب لهما معًا لتساوِيهما، ثم بالكشف عن أصل الدعوى وانتقال الملك. فإن ظَهَر بالكشف ما يُعْرَفُ به المحِقُّ منهما من المبطِل عَمِل بمقتضاه، وإن لم يظهر بالكشف ما ينفصلُ به تنازعُهما ردّهما إلى وَسَاطةٍ من وُجوه الجيران وأكابر العشائر؛ فإن تحرّر ما بينهما، وإلا كان فصلُ القضاءِ بينهما هو خاتمةُ أمرهما.

وربما ترافع إلى وُلاة المظالم في غوامض الأحكام ومُشْكلات الخِصام ما يُرشده إليه الجلساءُ ويفتحُه عليه العلماء، فلا يُنْكِرُ عليهم الابتداءَ به؛ ولا بأسَ بردّ الحكمِ فيه إلى من يعلمه منهم.

فقد حُكِيَ أنّ امرأةً أتتْ عمرَ بن الخطّاب[١] رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصومُ النهارَ ويقومُ الليلَ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله؛ فقال لها عمر: نِعْمَ الزوجُ زوجُك! فجعلت تكرّر عليه القول، وهو يكرّرُ عليها الجواب؛ فقال له كَعْبُ بن سُور الأزدِيّ: يا أميرَ المؤمنين، هذه امرأةٌ تشكو زوجَها في مُبَاعَدته إيّاها عن فراشه؛ فقال له عمر رضي الله عنه: كما فَهِمتَ كلامَها فاقْضِ بينهما؛ فقال كعبٌ: عليّ بزوجها، فأُتِيَ به؛ فقال له: امرأتُك هذه تشكوك؛ فقال الزوجُ: أفي طعام أو شراب؟ قال كعب: لا في واحد منهما؛ فقالت المرأة: [من الرجز]

يا أيُّها القاضِي الحكيمُ أَرْشِدُهْ　　أَلْهى خَلِيلي عن فِراشي مَسْجِدُهْ
زَهّدَهُ في مَضْجَعي تَعَبُّدُهْ　　نَهَارَه ولَيلَه ما يرقُدُهْ
فلستُ من أمر النِّسَاء أحمَدُهْ　　فاقْضِ القَضَا يا كعبُ لا تُرِدَّدُهْ

---

(١) عمر بن الخطاب: هامش ٣ صفحة ٣٧.

فقال الزوج: [من الرّجز]

زَهَّدني في قُرْبِها وفي الحَجَلْ أنّي امرُؤٌ أَذْهَلني ما قد نَزَلْ(١)
في سُورة النَّحْل وفي السَّبْع الطُّوَلْ وفي كتاب الله تخويفٌ جَلَلْ

فقال كعب: [من الرّجز]

إنّ لها حَقًّا عليك يا رَجُلْ نصيبَها في أربع لمن عَقَلْ
* فأعْطِها ذاكَ ودَعْ عنك العِلَلْ *

ثم قال: إنّ الله سبحانه وتعالى قد أَحَلّ لك من النساء مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاعَ، فلَكَ ثلاثةُ أيّام ولياليهنّ تَعْبُد فيهن رَبَّك، ولها يومٌ وليلةٌ. فقال عمر رضي الله عنه لكعب: ما أدري من أي أمْرَيْك أعجبُ! أمِنْ فَهْمِك أمرَهما، أم من حُكمك بينهما! اذهب فقد وَلَّيتك القضاءَ بالبصرة. وهذا القضاء من كَعْب والإمضاءُ من عمر إنما كان حكمًا بالجائز دون الواجب؛ لأن الزوجَ لا يلزَمُهُ أن يَقْسِم للزوجة الواحدة ولا يُجيبها إلى الفراش إذا أصابَها دَفْعةً واحدة. فدَلَّ هذا على أن لِوَالي المَظَالم أن يحكُمَ بالجائز دون الواجب.

ذكر توقيعات متولي المظالم وما يترتّب عليها من الأحكام

قال الماورديّ: إذا وَقَّع ناظرُ المظالم في قصص المتظلّمين إليه بالنظرِ بينهم، لم يخلُ حالُ المُوَقَّع إليه من أحد أمرين: إما أن يكون واليًا على ما وُقِّع به إليه أو غير والٍ عليه. فإن كان واليًا عليه، كتوقيعه إلى القاضي بالنظر بينهما، فلا يخلو حال ما تضمّنه التوقيعُ من أحد أمرين: إمّا أن يكون إذنًا بالحكم، أو إذنًا بالكشف والوَساطة. فإن كان إذنًا بالحكم، جازَ له الحكم بينهما بأصل الولاية، ويكون التوقيعُ تأكيدًا لا يؤثّر فيه قصورُ معانيه. وإن كان إذنًا بالكشف للصُورة أو التوسّط بين الخَصْمين فإن كان في التوقيع بذلك نَهْيُه عن الحكم فيه لم يكن له أن يحكم بينهما وكان هذا النهيُ عزلًا عن الحكم بينهما، وكان على عموم ولايته فيمن عداهما. وإن لم يَنْهَه في التوقيع عن الحكم بينهما غيرَ أنّه أمره بالكشف، فقد قيل: يكون نظره على عمومه في جواز حكمه بينهما؛ لأن أمرَه ببعضِ ما إليه لا يكونُ منعًا من غيره؛ وقيل بل يكونُ ممنوعًا من الحكم بينهما مقصورًا على ما تضمّنه التوقيع من الكشف

(١) الحجل: بيت كالقبة يستر بالثياب، اللسان: حجل.

والوَسَاطة؛ لأنّ فَحْوَى التَّوْقيع دليلٌ عليه. ثم ينظر، فإن كان التوقيعُ بالوَسَاطة، لم يَلْزَمْه إنهاءُ الحال إليه بعد الوَسَاطة، وإن كان بكشف الصورة، لزمه إنهاء حالها إليه؛ لأنه استِخْبارٌ منه فيلزمُه إجابته عنه. فهذا حكم توقيعه إلى مَنْ إليه الوِلاية.

وأما إن وَقّع إلى مَنْ لا وِلَايةَ له، كتوقيعه إلى فقيهٍ أو شاهد، فلا يخلو حالُ توقيعه من ثلاثة أحوال: أحدها أن يكون بكشف الصورة، والثاني أن يكون بالوَسَاطة، والثالث أن يكون بالحكم. فإن كان التوقيعُ بكشف الصورة، فعليهِ أن يَكْشِفها ويُنْهِيَ منها ما يصِحُ أن يشهَدَ به، ليجوزَ لناظر المظالم الحكمُ به. فإن أنْهى ما يجوزُ أن يَشهدَ به، كان خَبَرًا لا يجوزُ أن يُحْكَمَ به، ولكن يجعلُه ناظر المظالم من الأمارات التي يُغَلِّبُ بها حال أحد الخَصْمين في الإرهاب وفَصْل الكَشْف.

فإن كان التوقيعُ بالوساطة، تَوَسَّطَ بينهما. فإن أفضت الوساطةُ إلى صُلْح الخَصْمين لم يلزَمْه إنهاؤها، وكان شاهدًا فيها، مَتَى استُدْعِيَ للشهادة أدَّاها. وإن لم تُفْضِ الوَسَاطةُ إلى صُلْحهما، كان شاهدًا عليهما فيما اعترفا به عنده، يؤدّيه إلى الناظر في المظالم إذا طُلِبَ للشّهادة.

وإن كان التوقيع بالحكم بينهما، فهذه ولايةٌ يُراعى فيها معاني التوقيع، ليكونَ نظرُه محمولًا على مُوجَبه. وإذا كان كذلك فللتوقيع حالتان:

إحداهما: أن يحالَ فيه إلى إجابة الخَصْم إلى مُلْتَمسه؛ فيعتَبَرُ حينئذٍ فيه ما سأل الخَصْمُ في قِصّته ويصيرُ النظرُ مقصورًا عليه، فإن سأل الوَسَاطةَ أو كشفَ الصورةَ، كان التوقيعُ مُوجِبًا له، وكان النظرُ مقصورًا عليه. وسواء خَرَجَ التوقيع مَخْرَجَ الأمر كقوله: «أجبه إلى ملتمسه»، أو خَرَجَ مخرجَ الحكايةِ كقوله: «رأيك في إجابته إلى ملتمسه مُوَفَّقًا»؛ لأنه لا يقتضي ولاية يلزم حُكمها، فكان أمرُها أخف. وإن سأل المتظلّم في قصته الحُكْمَ بينهما، فلا بدَّ أن يكونَ الخَصْمُ في القصّة مُسَمًّى والخُصومة مذكورة، لتصِحَّ الولايةُ عليها. فإن لم يُسَمَّ الخصمُ ولم تُذْكَرِ الخُصومةُ، لم تصِحَّ الولايةُ، لأنها ليست ولايةً عامّةً فيُحْمَلُ على عمومها، ولا خاصةً للجهل بها. وإن سَمّى رافعُ القِصّةِ خَصْمَه وذكر خُصومتَه، نظر في التوقيع بإجابته إلى ملتمسه: فإن خَرَجَ مَخْرَجَ الأمرِ فوقّع «أَجِبْه إلى مُلْتَمَسِه واعْمَلْ بما التَمَسه» صَحّت ولايتُه في الحكم بينهما، وإن خَرَجَ مَخْرَج الحكايةِ للحال فوقّع «رَأيك في إجابته إلى مُلْتَمَسه مُوَفَّقًا»، فهذا التوقيع خارجٌ في الأعمال السُّلطانية مَخْرَجَ الأمر، والعُرْفُ باستعماله فيها معتاد. وأمّا في الأحكام الدينيّة، فقد جوّزته طائفة من الفقهاء اعتبارًا بالعُرْف،

ومنعَتْ طائفة أخرى من جَوَازه وانعقادِ الولاية به حتى يقترن به أمرٌ تنعقدُ ولايته به، اعتبارًا بمعاني الألفاظ. فلو كان رافعُ القِصّةِ سأل التوقيع بالحكم بينهما فوُقِّع بإجابته إلى مُلْتمسه، فمَنْ يَعْتَبِرُ العُرْفَ المعتادَ، صحَّت الولايةُ عنده بهذا التوقيع، ومن اعتبر معاني الألفاظِ لم تَصِحَّ عنده به.

والحالُ الثانية من التوقيعات: ألّا يُقْتَصَرَ فيه على إجابة الخَصْم إلى ما سأل، ويُسْتَأنَفُ فيه الأمرُ بما تضمنه، فيصيرُ ما تضمنه التوقيعُ هو المعتبر في الولاية. وإذا كان كذلك، فله ثلاثةُ أحوالٍ: حالُ كمالٍ، وحالُ جَوَازٍ، وحالٌ يخرُجُ عن الأمرين.

فأما الحال التي يكون التوقيع فيها كاملًا في صحة الولاية، فهو أن يتضمَّنَ شيئين: أحدهما الأمرُ بالنظر، والثاني الأمرُ بالحُكْم، فيذكر فيه: «انْظُرْ بين رافع هذه القِصّة وبين خَصْمِه، واحكمْ بينهما بالحقِّ ومُوجَبِ الشرع». فإذا كانت كذلك جاز، لأن الحكم لا يكونُ إلا بالحقّ الذي يُوجبه حكمُ الشرع. وإنما يُذْكَرُ ذلك في التوقيعات وصفًا لا شرطًا. فإن كان التوقيعُ جامعًا لهذين الأمرين من النظر والحكم، فهو النظر الكامل، ويَصِحُّ به التقليدُ والولايةُ.

وأمّا الحالُ التي يكون بها التوقيع جائزًا مع قُصُوره عن حال الكمال، فهو أن يتضَمّنَ الأمرَ بالحُكم دون النَظَر، فيَذْكُر في توقيعه: «احكُمْ بين رافع هذه القصّة وبين خَصْمه»، أو يقولُ: «اقضِ بينهما»، فتصِحُّ الولايةُ بذلك؛ لأن الحكم بينهما لا يكون إلا بعد تَقَدُّمِ النَظَر، فصار الأمرُ به مُتَضَمِّنًا للنظر، لأنه لا يخلو منه.

وأمّا الحالُ التي يكون التوقيعُ بها خاليًا من كَمَالٍ وجَوَاز، فهو أن يَذكرَ فيه: «انظُرْ بينهما»؛ فلا تنعقدُ بهذا التوقيع ولايةٌ، لأن النظر بينهما قد يَحْتَمِلُ الوَسَاطةَ الجائزةَ ويحتملُ الحُكْمَ اللازمَ؛ وهما في الاحتمال سواء فلم تنعقدْ به مع الاحتمال وِلَاية. فإن ذكر فيه: «انظرْ بينهما بالحق» فقد قيل: إنّ الولايةَ به منعقدةٌ، لأنّ الحق ما لزم؛ وقيل لا تنعقدُ به، لأن الصلحَ والوَسَاطةَ حَقٌّ وإن لم يَلزم.

فهذه نُبْذةٌ كافيةٌ فيما يتعلّقُ بنَظر المظالم. وقد يَقَعُ لهم من الوَقَائع والمُخَاصَمات والقَرَائن ما لم نَذْكُرْ، فيُجْرَى الحالُ فيها بحسب الوقائع والقرائن؛ وإنما هذه أصولٌ سياسيةٌ وقواعدُ فِقْهيّةٌ فيُحْمَلُ الأمرُ من أشباهها على مِنْوَالها، ويُحْذَى في أمثالها على مِثَالها. والله المُوَفّق.

الباب الثالث عشر
من القسم الخامس من الفن الثاني
في نظر الحسبة وأحكامها

قال أبو الحسن الماورديّ ـ رحمه الله ـ: والحِسْبةُ هي أمرٌ بالمعروف إذا ظَهَر تركُه، ونَهْيٌ عن المنكر إذا ظهر فعلُه. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٤].

ومن شروط ناظرِ الحسبة أن يكونَ حُرًّا، عَدْلًا، ذَا رَأْيٍ وصَرَامةٍ وخُشُونة في الدِّين، وعلمٍ بالمُنْكرات الظاهرة. واختلَفَ الفقهاءُ من أصحاب الشافعيّ: هل يجوزُ له أن يحمِلَ الناسَ، فيما يُنكره من الأمور التي اختَلَف الفقهاءُ فيها، على رأيه واجتهادِه، أم لا، على وجهين:

أحدُهما: وهو قولُ أبي سَعِيدِ الإصْطَخْرِيّ ـ أنّ له أن يحمِلَ ذلك على رأيه واجتهادِه؛ فعلى هذا يجب أن يكون المحتَسِبُ عالمًا من أهل الاجتهاد في أحكام الدين، ليَجْتَهِدَ رأيَه فيما اخْتُلِفَ فيه.

والوجه الثاني: أنه ليس له أن يَحْمِلَ الناسَ على رأيه ولا يقودَهم إلى مَذْهبه، لتسويغ اجتهادِ الكافّة فيما اختُلِفَ فيه. فعلى هذا يجوزُ أن يكونَ المحتسبُ من غير أهل الاجتهادِ إذا كان عارفًا بالمُنْكَرات المتَّفَق عليها.

ذكرُ الفرقِ بين المحتسب والمتطوّع

قال: والفرقُ بين المحتسب والمتطوِّع من تسعة أوجه:

أحدها: أنّ فَرْضَه متعيِّنٌ على المحتسِب بحكم الوِلاية، وفَرْضَهُ على غيره داخلٌ في فرض الكِفَاية.

والثاني: أنّ قيامَ المحتسِبِ به من حُقوق تَصَرُّفه الذي لا يجوزُ أن يَتَشاغَلَ عنه بغيره؛ وقيام المتطوِّع به من نَوَافل عَمَله الذي يجوز أن يَتَشاغَلَ عنه بغيره.

والثالث: أنه منسوبٌ إلى الاستعداء إليه فيما يجبُ إنكارُهُ؛ وليس المتطوّعُ منسوبًا إلى الاستعداء.

والرابع: أنّ على المحتسب إجابةَ مَنِ استعداه؛ وليس على المتطوّع إجابته.

والخامس: أنّ عليه أن يبحَثَ عن المنكَرات الظاهرة ليصِلَ إلى إنكارها، ويَفْحَصَ عما تُرِكَ من المعروف الظاهرِ ليأمُرَ بإقامته؛ وليس على المتطوّع بحثٌ ولا فَحصٌ.

والسادس: أنّ له أنْ يتخذَ على الإنكار أعوانًا، لأنه عَمَلٌ هو له منصوبٌ، وإليه مندوبٌ، ليكونَ له أقْهر، وعليه أَقْدَر؛ وليس للمتطوِّع أن يَنْدُبَ لذلك عونًا.

والسابع: أنّ له أن يُعَزِّرَ في المنكرات الظاهرة ولا يَتَجَاوَزُ بها الحُدُودَ؛ وليس للمتطوّع أن يُعَزِّرَ عليها.

والثامن: أنّ له أن يُرْزَقَ على حِسْبته من بيت المال؛ ولا يجوزُ للمتطوِّعِ أن يُرْزَقَ على إنكار مُنْكَر.

والتاسع: أنّ له اجتهادَ رأيِهِ فيما تَعَلّقَ بالعُرْف دون الشَّرْع، كالمَقَاعد في الأسواق وإخراجِ الأجنحة، فيُقرُّ ويُنكرُ من ذلك ما أدّاه إليه اجتهادُه؛ وليس هذا للمتطوّع.

فهذا هو الفرق بين متولِّي الحِسْبة وبين المتطوّعة، وإن اتَّفَقَا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ذكرُ أوضاعِ الحسبة وموافقتها للقضاء وقصورها عنه وزيادتَها عليه، وموافقَتها لنظرِ المظالم وقصورَها عنه

قال: واعلمْ أنّ الحِسْبةَ واسطةٌ بين أحكام القَضَاء وأحكام المَظَالم. فأمّا ما بينها وبين القضاء، فهي مُوافِقةٌ للقَضَاء من وجهين، ومُقَصِّرةٌ عنه من وجهين، وزائدةٌ عليه من وجهين:

أما الوجهان في موافقتها أحكام القضاء: فأحدهُما جوازُ الاستعداءِ إليه. وسَمَاعُه دَعْوَى المُسْتَعْدِي على المستعدَى عليه من حُقوق الآدميين، وليس في عموم الدعاوى. وإنما يَخْتَصّ بثلاثة أنواع من الدعوى:

أحدها: أن يكونَ فيما تَعَلّقَ ببَخْسٍ وتَطْفِيف في كَيْلٍ أو وَزْن.

والثاني: فيما تعلّق بغِشٍّ أو تَدْلِيس في مَبِيع أو ثَمَنٍ.

والثالث: فيما تعلّق بمَطْل وتأخيرٍ لدَيْنٍ مُسْتَحِقٍّ مع المَكِنَة. وإنما جاز نظرُه في هذه الأنواع الثلاثة من الدعاوى دون ما عداها، لتعَلُّقها بمنكرٍ ظاهر هو منصوبٌ

لإزالته، واختصاصِها بمعروفٍ بَيِّنٍ هو مندوبٌ إلى إقامته. وليس له أن يَتَجَاوَزَ ذلك إلى الحكم الناجز والفَصْل الباتّ. فهذا أحدُ وَجْهَي الموافقة.

والوجه الثاني: أنّ له إلزامَ المُدَّعى عليه الخُرُوجَ من الحقّ الذي عليه. وليس هذا على العموم في كل الحُقوق، وإنما هو خاصٌّ في الحقوق التي جَازَ له سماعُ الدعوى فيها إذا وَجَبتْ باعترافٍ وإقرارٍ مع الإمكان واليَسَار، فيُلْزِمُ المُقِرَّ المُوسِرَ الخرُوجَ منها ودَفْعَها إلى مُستَحِقِّها، لأنّ في تأخيره لها مُنكَرًا هو منصوبٌ لإزالته.

وأما الوجهان في قصورها عن أحكامه:

فأحدهما: قُصُورُها عن سَمَاع الدعاوى الخارجةِ عن ظَوَاهر المُنْكَرات من الدعاوى في العقود والمعاملات وسائرِ الحقوق والمطالبات، فلا يجوزُ أن يَنْتَدِبَ لسَمَاع الدعوى ولا أن يَتَعَرَّض للحكم فيها لا في كثير الحقوق ولا قليلها من دِرْهَمٍ فما دونه، إلا أن يُرَدَّ ذلك إليه بنَصٍّ صَرِيح يَزِيد على إطلاق الحِسْبة فيجوزُ له. ويصيرُ بهذه الزيادة جامعًا بين القَضَاء والحِسْبة، فيُرَاعى فيه أن يكون من أهل الاجتهاد. وإن اقْتُصِرَ به على مُطْلَق الحِسْبة، فالقُضَاةُ والحُكّام أحقُّ بالنظر في قليل ذلك وكثيره.

والوجه الثاني: أنها مقصورةٌ على الحقوق المُعْتَرَفِ بها. فأمّا ما تَدَاخَلَه جَحْدٌ وإنكارٌ، فلا يجوزُ له النظرُ فيها، لأن الحكمَ فيها يَقِفُ على سَمَاع بَيِّنةٍ وإحلافِ يمين، ولا يجوزُ للمحتَسِب أن يسمَعَ بيّنةً على إثبات حَقٍّ، ولا أن يُحْلِفَ يَمينًا على نَفْيه؛ والقُضاةُ والحُكَّامُ لسماعِ البينات وإحلافِ الخُصوم أحقُّ.

وأما الوجهان في زيادتها على أحكام القضاء: فأحدُهُما: أنه يجوزُ للناظر فيها أن يَتَعَرَّض لتَصَفُّح ما يأمُرُ به من المعروف ويَنْهى عنه من المنكر، وإن لم يَحْضُرْهُ خَصْمٌ مُسْتَعْدٍ؛ وليس للقاضي أن يتعرّضَ لذلك إلا بعد حضور خَصْمٍ يجوزُ له سماعُ الدعوى منه. فإن تعرّض القاضي لذلك فقد خرج عن مَنْصِب وِلايته وصار متجوّزًا في قاعدة نَظَره.

والثاني: أنّ للناظر في الحِسْبة من سَلَاطة السَّلْطَنة واسْتِطَالة الحُمَاة فيما تَعلّق بالمُنْكَرات ما ليس للقُضاة؛ لأنّ الحِسْبةَ موضوعةٌ على الرَّهْبة، فلا يكونُ خُروجُ المحتسب إليها بالسَّلاطة والغِلْظةِ تجوُّزًا فيها ولا خُرْقًا. والقَضَاءُ موضوعٌ للمُنَاصَفَةِ فهو بالأناةِ والوَقَار أخصُّ، وخُرُوجُه عنهما إلى السَّلاطة تجوُّزٌ وخُرْقٌ، لأنّ موضوعَ كلِّ واحدٍ من المنصِبَين مختلفٌ، فالتجاوُزُ فيه خُروجٌ عن حَدّه.

* * *

وأمّا ما بين الحسبة والمظالم: فبينهما شَبَهٌ مُؤتَلِف، وفَرْقٌ مُختلِف. فأما الشَّبَهُ الجامع بينهما فمن وجهين:

أحدهما: أنّ موضوعَهما على الرَّهْبة المختصّة بسَلاطةِ السَّلْطنة وقُوّةِ الصَّرَامة.

والثاني: جوازُ التعَرُّضِ فيهما لأسباب المصالح والتّطَلُّعِ إلى إنكار العُدْوان الظّاهر.

وأمّا الفرقُ بينهما فمن وجهين:

أحدهما: أنّ النَّظَر في المظالم موضوعٌ لما عَجَزَ عنه القُضاةُ، والنظرَ في الحِسْبة موضوعٌ لما رُفِّهَ عنه القُضاة؛ ولذلك كانت رتبةُ المظالم أعلى، ورتبةُ الحِسْبة أخفضُ، وجاز لِوَالِي المظالم أن يُوَقِّعَ إلى القُضاة والمُحْتَسِبَة، ولم يَجُزْ للقاضي أن يُوَقِّعَ إلى وَالِي المَظَالم وجازَ له أن يُوَقِّع إلى المحتسِب، ولم يَجُزْ للمحتسِبِ أن يُوَقِّعَ إلى واحدٍ منهما. فهذا فرق.

والثاني: أنه يجوزُ لوَالي المظالم أن يحكُمَ، ولا يجوزُ ذلك للمحتسِب.

وحيث قدّمنا هذه المقدّمة في أوضاع الحِسبة، فلنذكرْ ما تشتملُ عليه ولايتُها.

ذكرُ ما تشتملُ عليه ولايةُ نظرِ الحسبة وما يختصُ بها من الأحكامِ

ونَظَرُ الحسبة يَشتمِلُ على فَصْلين: أحدُهُما أمرٌ بمعروف، والثاني نَهْيٌ عن منكر. فأمّا الأمرُ بالمعروف فينقسم إلى ثلاثة أقسام: أحدها ما تَعَلّق بحقوق الله عزّ وجلّ. والثاني ما تعلّق بحقوق الآدميّين. والثالث ما كان مشتركًا بينهما، على ما سنوضح ذلك.

فأما المتعلقُ بحقوق الله تعالى فضربان:

أحدهما: ما يلزمُ الأمرَ به في الجَمَاعة دون الانفراد، كتَرْك الجمعة في وَطَنٍ مسكون؛ فإن كانوا عددًا قد اتُّفِقَ على انعقاد الجُمعة بهم كالأربعين فما زاد، فواجبٌ أن يأخُذَهم بإقامتها ويأمرَهم بفِعْلها ويؤدّبَ على الإخلال بها. وإن كانوا عددًا قد اخْتُلِفَ في انعقاد الجمعة بهم، فله ولهم أربعة أحوال:

إحداها: أنْ يَتَّفقَ رأيُه ورأيُ القوم على انعقاد الجمعة بذلك العدد، فواجبٌ عليه أن يأْمُرَهم بإقامتها، وعليهم أن يُسارعوا إلى أمره بها، ويكون في تأديبهم على تركها أَلْيَنَ منه في تأديبهم على ترك ما انعَقَدَ الإجماعُ عليه.

والحال الثانية: أنْ يَتّفقَ رأيُه ورأيُ القوم على أنّ الجمعةَ لا تَنْعقدُ بهم، فلا يجوزُ أن يأمُرَهم بإقامتها ولا بالنهي عنها لو أُقيمتْ.

والحال الثالثة: أنْ يرى القومُ انعقادَ الجمعة بهم ولا يراه المُحْتَسِبُ، فلا يجوزُ له أن يُعارضهم فيها: فلا يأمُرُ بإقامتها لأنه لا يراه، ولا يَنْهى عنها ويمنَعَهم مما يرونه فرضًا عليهم.

والحال الرابعة: أن يَرَى المحتسِبُ انعقادَ الجمعة بهم ولا يراه القومُ، فهذا مما في استمرارِ تركه تعطيلُ الجمعة مع تَطَاوُل الزمان وبُعْدُه وكَثْرةُ العَدَد وزيادتُه، فهل للمحتسب أن يأمُرَهم بإقامتها اعتبارًا بهذا المعنى، أم لا؟ فقد اخْتَلَف الفقهاء في ذلك على وجهين:

أحدهما: وهو قول أبي سَعِيدِ الإصْطَخْرِيّ ـ أنه يجوزُ له أن يأمُرَهم بإقامتها اعتبارًا بالمصلحة، لئلا ينشَأَ الصغيرُ على تَرْكها فيَظُنَّ أنها تَسقُطُ مع زيادة العدد كما تسقُطُ بنُقْصانه؛ فقد رَاعى زِيَادُ ابن أبيه مثلَ هذا في صَلاة الناس في جَامِعَي البَصْرَة والكُوفة، فإنهم كانوا إذا صَلّوا في صحبه فرفعُوا من السُّجود مَسَحُوا جِبَاهَهم من التُّراب، فأمَرَ بإلقاء الحَصى في صَحْن المَسْجِدِ، وقال: لستُ آمَنُ أن يَطُولَ الزمانُ فيَظُنّ الصغيرُ إذا نَشَأ أنّ مَسْحَ الجَبْهَة من أثر السجود سُنّةٌ في الصلاة.

والوجه الثاني: أنه لا يَتعرّضُ لأمرهم بها، لأنه ليس له حَمْلُ الناسِ على اعتقاده، ولا أن يأخُذَهم في الدين برأيه، مع تَسويغِ الاجتهادِ فيه، وأنّهم يعتقدون أنّ نُقصانَ العددِ يمنَعُ من إجراء الجمعة. فأمّا أمرُهم بصلاة العِيد فله أن يأمُرَهم بها. وهل يكونُ الأمرُ بها من الحقوق اللازمةِ أو من الحقوق الجائزة؟ على وجهين من اختلاف أصحاب الشافعي فيها: هل هي مسنونةٌ أو من فروض الكِفَاية. فإن قيل: إنها مسنونةٌ، كان الأمرُ بها نَدْبًا؛ وإن قيل: إنها من فروض الكفاية، كان الأمر بها حتمًا. فأمّا صَلاةُ الجَماعة في المساجد وإقامةُ الأذان فيها للصلوات، فمن شعائر الإسلام وعلامات مُتَعَبَّداته التي فرّق بها رسولُ الله ﷺ بين دارِ الإسلام ودار الشِّرْك. فإذا أَجْمَع أهلُ مَحِلّةٍ أو بلد على تعطيل الجماعات في مساجدهم وتركِ الأذان في أوقات صَلَوَاتهم، كان المحتسبُ مندوبًا إلى أمرِهم بالأذان والجماعة في الصلوات. وهل ذلك واجبٌ عليه يأثَمُ بتركه، أو مُستَحَبٌّ له يُثَابُ على فعله. فأمّا مَنْ ترك صلاةَ الجماعة من آحاد الناس أو تَرَكَ الأذانَ والإقامة لصلاة، فلا اعتراضَ للمُحْتسب عليه إذا لم يجعلْه عادةً وإلْفًا، لأنها من النَّدْب الذي يسقُط بالأعذار، إلا أن يَقْتَرِنَ به

استرابة أو يجعَلَه إلْفًا وعادةً، ويُخَاف تَعَدِّي ذلك إلى غيره في الاقتداء به، فيُرَاعي حكمَ المَصْلحة في زَجْره عمّا استهان به من سُنَن عبادته. ويكونُ وعيدُه على تَرْكِ الجَمَاعة معتَبرًا بشواهد حاله، كالذي رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ أصحابي أن يجمَعُوا حَطَبًا وآمُرَ بالصلاة فيُؤَذَّنَ لها وتُقام ثم أُخالِفَ إلى مَنَازل قومٍ لا يحضُرُون الصلاةَ فأُحَرِّقَها عليهم».

* * *

وأما ما يأمُرُ به آحادَ الناس وأفرادَهم، فكتأخِير الصلاةِ حتى يخرُجَ وقتُها، فيُذَكَّرُ بها ويُؤْمَرُ بفعلها. ويُرَاعِي جوابَ المأمور عنها، فإن قال: تركتُها لنسيان، حثّه على فعلها بعد ذكره ولم يؤدّبه. وإن تركها لتَوَانٍ أدّبه زَجْرًا وأخذه بفعلها جَبْرًا. ولا اعتراضَ على من أخّرها والوقتُ باق، لاختلافِ الفقهاء في فضل التأخير. ولكن لو اتّفقَ أهلُ بلدٍ على تأخير صلاة الجماعات إلى آخرِ وقتها والمحتسبُ يرى فضلَ تعجيلها، فهل له أن يأمرَهم بالتعجيل أو لا. فمن رأى أنه يأمرُهم بذلك، راعَى أنّ اعتيادَ تأخيرِها وإطباقَ جميعِ الناس عليه مُفْضٍ إلى أن الصغير يَنشأ وهو يعتقدُ أن هذا هو الوقت دون ما قبله؛ ولو عَجّلها بعضُهم تركَ من أخّرها منهم وما يراه من التأخير.

فأمّا الأذانُ والقُنُوت في الصَّلَوات إذا خالف فيه رأيَ المحتسبِ فلا اعتراضَ له فيه بأمرٍ ولا نهيٍ وإن كان يرى خلافه، إذا كان ما يفعل مُسَوَّغًا في الاجتهاد. وكذلك الطهارةُ إذا فَعَلَها على وجه سائغ يُخالفُ فيه رأيَ المحتسبِ: من إزالة النجاسة بالمائعات، والوضوءِ بماءٍ تَغَيَّر بالمذرورات الطاهراتِ، أو الاقتصارِ على مَسْحِ أقلِّ الرأسِ، والعفوِ عن قَدْر الدرهمِ من النَّجاسة، فلا اعتراضَ له في شيء من ذلك بأمر ولا نهي. وفي اعتراضه عليهم في الوضوء بالنبيذ عند عدمِ الماء وجهان، لما فيه من الإفضاء إلى استباحته على كل الأحوال، وأنه ربما آل إلى السكر من شربه. ثم على نظائر هذا المثال تكون أوامرُه بالعُرْف في حقوق الله تعالى.

* * *

وأما الأمرُ بالمعروف في حقوق الآدميين فضربان: عامٌ وخاص.

فأمّا العامُ ـ فكالبلدِ إذا تَعَطّل شِرْبُه، أو استهدم سُوره، أو كان يَطْرُقُه بنو السبيل من ذوي الحاجات فكَفُّوا عن معونتهم، فإن كان في بيت المال مالٌ، لم يَتَوَجَّهْ عليهم فيه أمرٌ بإصلاح شِرْبهم وبناءِ سُورهم ولا بمعونة بني السبيل في

الاجتياز بهم؛ لأنها حقوقٌ تَلزم بيتَ المال دونهم؛ وكذلك لو استَهْدَمتْ مساجدُهم وجَوَامعُهم. فأما إذا أَعْوَزَ بيتُ المال، كان الأمرُ ببناء سُورهم، وإصلاحِ شِرْبهم، وعِمَارةِ مساجدهم وجوامعهم، ومراعاةِ بني السبيل فيهم متوجِّهًا إلى كافّة ذوي المَكِنَة منهم ولا يتعيّنُ أحدُهم في الأمر به. فإن شَرَع ذوو المَكِنَة في عمله ومُراعاة بني السبيل، وباشروا القيامَ به، سَقط عن المحتسب حقُّ الأمرِ به. ولا يلزَمُهم الاستئذانُ في مراعاة بني السبيل، ولا في بناء ما كان مهدومًا. ولكن لو أرادوا هَدْم ما يريدون بناءَه من المُسْتَرِمّ(١) والمُسْتَهْدِم(٢)، لم يكن لهم الإقدامُ على هدمه إلا باستئذان وليِّ الأمرِ دون المحتسب، ليأذنَ لهم في هَدْمه بعد تضمينهم القيامَ بعِمارته. هذا في السُّور والجوامع. وأمّا المساجدُ المختصرةُ فلا يَسْتأذِنون فيها. وعلى المحتسب أن يأخذَهم ببناء ما هَدَموه، وليس له أن يأخذَهم بإتمام ما استأنفوه. فأمّا إذا كَفَّ ذَوُو المَكِنة عن بناء ما استَهْدَم، فإن كان المُقام في البلد ممكنًا وكان الشِّرْبُ وإن فَسَد مُقنعًا، تَاركَهم وإيّاه. وإن تعذَّر المُقامُ فيه، لتعطُّل شِرْبه واندحاض(٣) سُوره، نُظِرَ: فإن كان البلدُ ثغرًا يَضُرُّ بدارِ الإسلام تعطيلُه، لم يجز لوليِّ الأمرِ أن يُفسِح في الانتقال عنه، وكان حكمُه حكمَ النوازلِ إذا حَدَثت: في قيام كافّة ذوي المكنة به، وكان تأثيرُ المحتسب في مثل هذا إعلامَ السلطانِ به وترغيبَ أهل المكِنة في عمله. وإن لم يكن البلد ثغرًا مُضِرًّا بدار الإسلام، كان أمرُه أيسر وحكمُه أخفّ. ولم يكن للمحتسب أن يأخذ أهلَه جبرًا بعمارته، لأن السلطانَ أحقُّ أن يقومَ بعمارته. وإن أعوزَه المالُ، فيقول لهم المحتسبُ: ما دامَ عَجْزُ السلطانِ عنه أنتم مخيَّرون بين الانتقالِ عنه أو التزام ما ينصرفُ في مصالحه التي يمكن معها دوام استيطانه. فإن أجابوا إلى التزام ذلك، كلَّف جماعتهم ما تَسْمَح به نفوسهم من غير إجبارٍ، ويقول: ليُخْرِجْ كلُّ واحدٍ منكم ما يسهُل عليه وتطيبُ به نفسه، ومن أعوزه المالُ أعان بالعمل. حتى إذا اجتمعت كِفَايةُ المصلحةِ أو تعين اجتماعُها بضَمَان كل واحد من أهل المَكِنة قَدْرًا طاب به نفسًا، شَرَعَ حينئذٍ في عمل المصلحة وأَخَذَ كلَّ واحدٍ من الجماعة بما الْتزَمَ به. وإن عَمّت هذه المصلحةُ، لم يكن للمحتسب أن يتقدَّم بالقيام بها حتى يستأذِنَ السلطانَ فيها، لئلا يصيرَ بالتفرُّد مُفْتاتًا عليه، إذ ليست هذه المصلحةُ من معهود حِسْبته. فإن قلّت وشَقّ

(١) المسترم: ما دعا إلى رمه وإصلاحه من البناء: اللسان، مادة: رمم.
(٢) مستهدم: ما يريد أن يتهدم وينقض، اللسان، مادة: هدم.
(٣) اندحاض: انزلاق، اللسان، مادة: دحض.

استئذان السلطان فيها أو خِيفَ زيادةُ الضَّرَر لبعدِ استئذانه، جاز شروعُه فيها من غير استئذان. هذا أمر العامّ.

فأمّا الخاصُ: فكالحقوقِ إذا مُطِلتْ والديونِ إذا أُخِّرت، فللمحتسب أن يأمُرَ بالخروج منها مع المَكِنة إذا استَعْداه أصحابُ الحقوق. وليس له أن يَحْبِسَ عليها، لأن الحبسَ حكمٌ. وله أن يُلازِمَ عليها، لأنّ لصاحب الحقّ أن يلازِمَ. وليس له الأخذُ بنفقات الأقارب، لافتقار ذلك إلى اجتهادٍ شرعيٍّ فيمن يجبُ له وعليه، إلا أن يكونَ الحاكمُ قد فَرَضها فيجوز أن يأخُذَ بأدائها؛ وكذلك كَفَالة من تجب كَفالته من الصغار لا اعتراضَ له فيها حتى يحكِمَ بها الحاكمُ؛ ويجوزُ حينئذٍ للمحتسب أن يأمرَ بالقيام بها على الشروط المستحقّة فيها.

فأمّا قبولُ الوصايا والودائع، فليس له أن يأمرَ بها أعيانَ الناس وآحادَهم، ويجوزُ أن يأمرَ بها على العموم، حَثًّا على التعاوُن بالبِرِّ والتقوى. ثم على هذا المثال تكون أوامرُهُ بالمعروف في حقوق الآدميين.

* * *

وأما الأمرُ بالمعروف: فيما كان مشتركًا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين كأخذ الأولياء بإنكاح الأيامى من أكفائهن إذا طُلِبْن؛ وإلزامِ النساءِ أحكامَ العِدَد إذا فُورِقْن. وله تأديبُ مَن خَالَف في العِدَّة من النساء، وليس له تأديبُ من امتنع من الأولياء. ومن نَفَى ولدًا قد ثبت فِراشُ أمّه ولُحُوق نَسَبه، أخَذَه بأحكام الآباء جبرًا وعَزّره على النفي أدبًا. ويأخذُ السّادةَ بحقوق العبيد والإمَاء، وألّا يُكلِّفوا من الأعمال ما لا يُطِيقون. وكذلك أربابُ البهائم يأخذُهم بعَلُوفتها إذا قَصَّروا فيها، وألا يستعملوها فيما لا تُطيق. ومن أَخَذَ لَقِيطًا فقصَّر في كَفَالته، أمرَه أن يقومَ بحقوق التقاطه: من التزام كفالته أو تسليمه إلى من يلتزمها ويقوم بها. وكذلك واجدُ الضَّوَالِّ إذا قَصَّرَ فيها أَخَذَه بمثل ذلك من القيام بها أو تسليمها إلى من يقوم بها، ويكون ضامنًا للضالّة بالتقصير ولا يكون به ضامنًا للّقيط. وإذا سلّم الضالّةَ إلى غيره ضَمِنها، ولا يَضْمَن اللقيطَ بالتسليم. ثم على نظائر هذا المثال يكون أمرُه بالمعروف في الحقوق المشتركة.

* * *

وأما النهي عن المنكرات: فينقسمُ إلى ثلاثة أقسام: أحدها ما كان من حقوق الله تعالى. والثاني ما كان من حقوق الآدميين. والثالث ما كان مشتركًا بين الحقّين.

فأما النهي عنها في حقوق الله تعالى: فعلى ثلاثة أقسام: أحدُها ما تعلّق بالعبادات. والثاني ما تعلّق بالمحظورات. والثالث ما تعلّق بالمعاملات.

فأما المتعلقُ بالعبادات: فكالقاصد مخالفةَ هيئتها المشروعة، والمتعمِّدِ تغييرَ أوصافها المسنونة، مثل من يقصِدُ الجَهْرَ في صلاة الإسرارِ والإسرارَ في صلاة الجهر، أو يزيدُ في الصلاة أو في الأذان أذكارًا غيرَ مسنونة، فللمحتسب إنكارُها وتأديبُ المعانِد فيها إذا لم يقُلْ بما ارتكبه إمامٌ مَتبوعٌ. وكذلك إذا أخَلّ بتطهير جَسَده أو ثَوْبه أو موضع صَلاته، أنكره عليه إذا تحقّق ذلك منه، ولا يُؤاخذُهُ بالتُّهَم والظنون. وكذلك لو ظَنّ برجلٍ أنه يترُك الغُسْل من الجَنَابة أو يترُك الصلاةَ والصيامَ، لم يؤاخذه بالتُّهَم ولم يقابله بالإنكار. لكن يجوزُ له بالتهمة أن يَعِظَ ويُحذِّر من عذاب الله تعالى على إسقاط حقوقه والإخلال بمفروضاته. فإن رآه يأكلُ في شهر رمضان لم يُقْدِمْ على تأديبه إلا بعد سؤاله عن سبب أكله إذا التبست أحوالُه؛ فربما كان مريضًا أو مسافرًا. ويلزمه السؤالُ إذا ظَهرت منه أماراتُ الرِّيَب. فإن ذَكَر من الأعذار ما تحتمله حاله، كَفّ عن زَجْره وأمره بإخفاء أكله، لئلا يُعَرّضَ نفسَه للتُّهمة. ولا يلزمُه إحلافُه عند الاسترابة بقوله، لأنه موكول إلى أمانته. . وإن لم يذكرْ عذرًا، جَاهَرَ بالإنكار عليه وأدّبه أدَبَ زَجْر. وإذا عَلِمَ عذرَه في الأكل، أنْكَر عليه المجاهرةَ به، لتعريضِ نفسِه للتُّهمة ولئلا يَقْتَدِيَ به من ذوي الجَهَالة مَنْ لا يميِّزُ حالَ عُذْره من غيره.

وأمّا الممتنعُ من إخراج زكاته، فإن كان من الأموالِ الظاهرة، فعامِلُ الصَّدَقة يأخذها منه جَبْرًا أخَصّ من المُحْتسِب. وإن كان من الأموال الباطنة، فيُحْتَمَلُ أن يكون المحتسبُ أخَصَّ بالإنكار عليه من عامل الصدقة، لأنه لا اعتراضَ للعامل في الأموال الباطنة؛ ويُحتملُ أن يكون العاملُ بالإنكار عليه أخَصّ، لأنه لو دَفَعها إليه أجزأه. ويكون تأديبُه مُعتَبَرًا بشواهد حاله في الامتناع من إخراج زكاته. وإن ذكر أنه يُخْرِجها، سِرًّا وُكِلَ إلى أمانته فيها. وإن رأى رجلًا يتعرّضُ لمسألةِ الناس وطَلَبِ الصَّدَقة وعلم أنه غنيٌّ إما بمال أو عَمَلٍ، أنكره عليه وأدّبه. ولو رأى عليه آثارَ الغِنى وهو يسألُ الناسَ، أعْلمه تحريمَها على المستَغْنِي عنها، ولم يُنْكِرْ عليه، لجواز أن يكون في الباطن فقيرًا. وإذا تعرّض للمسألة ذُو جَلَدٍ وقُوّة على العمل، زَجَرَه وَأَمره أن يتعرّضَ للاحتراف بعَمَله؛ فإن أقامَ على المسألة عَزَّره حتى يُقْلِعَ عنها. وإذا دَعَت الحالُ، عند إلحاح من حُرِّمَتْ عليه المسألةُ بمالٍ أو عمل، أن يُنْفق على ذي المال جزءًا من ماله، ويؤاجِرَ ذَا العَمَل ويُنفق عليه من أجرته، لم يكن للمحتَسِبِ أن يفعل

ذلك بنفسه؛ لأن هذا حكمٌ، والحُكّامُ به أحقُّ، فيرفع أمره إلى الحاكم ليتولّى ذلك أو يأذَنَ فيه. وإذا وَجَدَ فيمن يَتَصَدَّى للعلوم الشرعيّة من لي مِنْ أهلها من فقيهٍ أو واعظٍ ولم يأمَنِ اغترارَ الناسِ به في سوء تأويلٍ أو تحريف، أنكر عليه التَّصَدِّي لما ليس هو من أهله، وأَظْهَرَ أمْرَه لئلا يُغْتَرَّ به. وإنْ أَشْكَل عليه أمرُه، لم يُقْدِمْ عليه بالإنكار إلا بعد الاختبار. وكذلك لو ابْتَدَعَ بعضُ المنتسِبين إلى العلم قولاً خَرَقَ به الإجماعَ وخَالَفَ النصَّ وردَّ قولَه علماءُ عَصْره، أنكره عليه وزَجَره فإنْ أَقْلع وتابَ، وإلّا فالسلطانُ بتهذيب الدِّين أحقُّ. وإذا تفرّد بعضُ المفسرين لكتاب الله عزّ وجلّ بتأويلٍ عَدَل فيه عن ظاهر التنزيل إلى باطن بِدْعة بتَكَلُّفٍ له أَغْمَضَ مَعَانيه، أو انفرد بعضُ الرُّواة بأحاديثَ مَنَاكِيرَ تَنْفِرُ منها النفوسُ أو يَفْسُدُ بها التأويلُ، كان على المحتسِب إنكارُ ذلك والمنعُ منه. وهذا إنما يصِحُّ منه إنكارُه إذا تَمَيَّز عنده الصحيحُ من الفاسد والحقُّ من الباطل. وذلك بأحد وجهين: إما أن يكون بقُوّته في العلم واجتهاده فيه، فلا يخفى ذلك عليه؛ وإمّا باتّفاق علماء الوقت على إنكاره وابتداعه، فيَسْتَعْدُونَه فيه، فيُعَوِّلُ في الإنكار على أقاويلهم، وفي المنعِ منه على اتّفاقهم.

* * *

وأمّا ما تعلّق بالمحظورات: فهو أن يمنعَ الناس من مواقف الرِّيَب ومظانّ التُّهم. فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «دَعْ مَا يرِيبُك إلى ما لا يُرِيبك». فيقدّم الإنكارَ، ولا يُعَجِّلُ بالتأديب قبل الإنذار. وإذا رَأى وَقْفَةَ رجل مع امرأة في طريقٍ سابلٍ[1] لم تَظْهَرْ منهما أماراتُ الرِّيَب، لم يعترضْ عليهما بزَجْرٍ ولا إنكار، فما يجدُ الناسُ بُدًّا من هذا. وإن كانت الوقفةُ في طريقٍ خالٍ، فخُلُوّ المكان ريبةٌ، فينكرها؛ ولا يُعَجِّل في التأديب عليهما حَذَرًا من أن تكونَ ذاتَ مَحْرَم. وليَقُلْ: إن كانتْ ذاتَ محرم فَصُنْها عن مواقف الرِّيَب، وإن كانت أجنبيّةً فَخَفِ اللهَ تعالى من خَلْوةٍ تؤدّيك إلى مَعْصِيَةِ الله. وليكن زَجْرُه بحسب الأمارات. وليَسْتَخْبِرْ. فقد حُكِي أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بينا هو يَطُوف بالبيت إذ رَأى رجلًا يطوفُ وعلى عُنُقه امرأةٌ مثلُ المَهَاة حسناءُ جميلة، وهو يقول: [من الرّجز]

عُـدْتُ لـهَـذِي جَـمَـلًا ذَلولَا مُـوَطَّـأً أَتَّـبِـعُ الـسُّـهُـولَا
أَعْـدِلُها بـالـكَـفِّ أَنْ تَـمِـيـلَا أحـذَرُ أن تـسـقُـطَ أو تَـزُولَا
* أرجـو بـذاك نـائـلاً جـزِئـلا *

(١) سابل: سالك، اللسان: سبل.

فقال له عمر: يا عبدَ الله، مَنْ هذه التي وَهَبْتَ لها حَجَّك؟ فقال: امرأتي يا أمير المؤمنين! وإنها حَمْقاءُ مِرْغَامه[١]، أكُولٌ قامَّه[٢]، لا يَبْقَى لها خَامَّه[٣]؛ فقال له: ما لَكَ لا تطلِّقها؟ فقال: إنها حسناءُ لا تُفْرَك[٤]، وأمُّ صِبْيان فلا تُتْرَك، قال: فشأنَكَ بها. فلم يُقْدِمْ[٥] عمر رضي الله عنه بالإنكار حتى استخبره، فلما انتفت عنه الرِّيبة أقرّه على فعله.

وإذا جاهرَ رجلٌ بإظهار الخمر، فإن كان من المسلمين، أراقها وأدّبه؛ وإن كان ذِمِّيًا أُدِّبَ على إظهارها، واختلف في إراقتها عليه، فذهب أبو حنيفة إلى أنها لا تُراق عليه، لأنها عنده من أموالهم المضمونة في حقوقهم. وذهب الشافعيّ إلى إراقتها عليهم، لأنها لا تُضْمَنُ عنده في حقّ المسلم ولا الكافر.

وأمّا المجاهرةُ بإظهار النبيذ، فعند أبي حنيفة أنه من الأموال التي يُقَرُّ المسلمون عليها، فمَنَعَ من إراقته ومن التأديب على إظهاره. وعند الشافعيّ أنه ليس بمال كالخمر وليس في إراقته غُرم. فيَعتبر ناظرُ الحِسْبة شواهدَ الحال فيه فيَنْهى فيه عن المجاهرة، ويزجُرُ عليه إن كان لمعاقَرَة، ولا يُريقه عليه، إلا أن يأمُرَ بإراقته حاكمٌ من أهل الاجتهادِ، لئلا يتوجَّهَ عليه غُرْمٌ إن حُوكم فيه.

وأمّا السكرانُ إذا تظاهر بسُكْره وسَخُفَ بهُجْرِه، أدّبه على السكرِ والهجر، تعزيرًا لا حدًّا، لقلة مُراقَبته وظهور سُخْفه.

وأما المجاهرةُ بإظهار المَلَاهي المحرَّمة، فعلى المحتَسِب أن يَفْصِلَها حتى تصيرَ خشبًا لتخرُجَ عن حكم الملاهِي، ويؤدِّبَ على المجاهرة بها، ولا يَكسِرها إن كان خشبُها يصلُح لغير الملاهي.

وأمّا اللُّعَبُ فليس يُقْصَدُ بها المَعَاصي، وإنما يُقْصَد بها إلْفُ البنات لتربية الأولاد، ففيها وجهٌ من وجوه التدبير تقارنه معصيةٌ، بتصوير ذوات الأرواح ومشابهة الأصنام؛ فللتمكين منها وجهٌ، وللمنع منها وجهٌ؛ وبحسب ما تقتضيه شواهدُ الأحوال يكون إنكارُه وإقرارُه. وقد كانت عائشةُ رضي الله عنها في صِغَرها تلعب بالبنات بمَشْهدِ من رسول الله ﷺ فلم يُنكره عليها.

---

(١) مرغامة: مغضبة لبعلها، اللسان: رغم.
(٢) قامَّة: لا تدع شيئًا، اللسان: قمم.
(٣) خامَّة: إذا تغير اللحم وفسد.
(٤) تفرك: تبغض، اللسان: فرك.
(٥) عمر بن الخطاب: هامش ٣ صفحة ٣٧.

وأمّا ما لم يظهر من المحظورات، فليس للمحتسب أن يبحَثَ عنها ولا أن يَهتِكَ الأستار فيها؛ فقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أتى من هذه القاذورات شيئًا فليَسْتَتِرْ بسِتْر الله فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحتَه نُقِمْ حَدَّ اللهِ عليه». فإن استتَر أقوامٌ لارتكاب محظورٍ يُخْشَى فواتُه مثل أن يُخبره من يثقُ بصِدْقه أنّ رجلًا خَلا برجل ليقتلَه أو امرأةٍ ليَزْنِيَ بها، فيجوزُ له في مثل هذه الحال أن يتجسّسَ ويُقْدِمَ على الكشف والبحث، حذرًا من فوات ما لا يُسْتَدْرَك من انتهاك المحارمِ وارتكاب المحظورات. وهكذا لو عَرَف ذلك قومٌ من المتطوّعة جاز لهم الإقدامُ على الكشف والإنكار. وأمّا ما هو دون هذه الرتبة، فلا يجوز التجسُّس عليه ولا كشفُ الأستار عنه. وإن سَمِعَ أصواتَ مَلَاهٍ مُنكرةٍ من دار تَظَاهَر أهلُها بأصواتهم، أنكرها خارجَ الدار ولم يَهْجُم عليها بالدخول.

وأمّا ما تَعَلَّق بالمعاملات المُنكرة، كالرِّبا والبيوعِ الفاسدة وما مَنَعَ الشرعُ منه مع تَرَاضِي المتعاقدين به إذا كان مُتَّفَقًا على حَظْره، فعلى وَالِي الحِسْبة إنكارُه والمنعُ منه والزجرُ عليه. وأمرُه بالتأديب مُختلِفٌ بحسب الأحوال وشدّةِ الحَظْر.

فأما ما اختلف الفقهاءُ في حَظْره وإباحته، فلا مَدْخَلَ له في إنكاره، إلا أن يكون مما يَضْعُفُ الخلافُ فيه وكان ذَرِيعةً إلى محظورٍ مُتّفَقٍ عليه ـ كرِبَا النَّقْدَين: الخلافُ فيه ضعيف، وهو ذريعةٌ إلى ربا النَّسَاء المتّفَق على تحريمه ـ فهل يدخل في إنكاره، أم لا. وكذلك في عقود الأنكحة يُنكر منها ما اتَّفق الفقهاءُ على حَظْرها، ولا يتعرّضُ لما اختُلِف فيه، إلا أن يكون مما ضَعُف الخلافُ فيه وكان ذريعةً إلى محظور متفَق عليه، كالمُتْعَة فربما صارت ذريعةً إلى استباحة الزنا، ففي إنكاره لها وجهان.

ومما يَتَعَلّقُ بالمعاملات غِشُّ المبيعات وتدليسُ الأثمان، فيُنكره ويمنَعُ منه ويؤدّبُ عليه بحسب الحال فيه؛ فقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ليس مِنّا مَنْ غَشّ» وفي لفظ: «مَنْ غَشّنا فليس منّا». فإن كان هذا الغِشّ تدليسًا على المشتري وهو مما يخفَى عليه، فهو أغلظُ الغُشوش تحريمًا وأعظمُها مَأثمًا، والإنكارُ عليه أغلظُ والتأديبُ أشدُّ. وإن كان مما لا يَخْفَى على المشتري، كان أخفّ مأثمًا وألين إنكارًا. وينظر في المشتري: فإن كان اشتراه ليَبيعه من غيره، توجه الإنكار على البائع لغشّه، وعلى المشتري لابتياعه؛ لأنه قد يبيعه من لم يعلم بغشه؛ وإن كان المشتري اشتراه ليستعمله، خرج من جملة الإنكار، واختص الإنكارُ بالبائع وحده. وكذلك في تدليس الأثمان.

ويمنَع من تَصْرِية[١] المواشي وتحفيلِ ضُروعها عند البيع، للنَّهي عنه وأنه نوع من التدليس.

ومما هو عمدة نظره المنعُ من التطفيف والبَخْس في المكاييل والموازين والصَّنْجَات[٢]، لوعيدِ الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين: الآيات ١ - ٣]. وليكن الأدبُ عليه أظهرُ، والمعاقبةُ فيه أكثر. ويجوزُ له إذا استراب بموازين السُّوقة ومَكَاييلهم أن يختبرها ويعايرها. ولو كان على ما عَايَره منها طابعٌ معروفٌ بين العامّة لا يتعاملون إلا به، كان أَحْوطَ وأسلَم. فإن فعل ذلك وتعامل قومٌ بغير ما طُبع عليه طابَعُه، تَوَجّه الإنكارُ عليهم إن كان مبخوسًا، من وجهين: أحدهما مخالفتُه في العدول عن مطبوعه؛ وإنكارُه لذلك من الحقوق السلطانية. والثاني للبخس والتطفيف؛ وإنكارِه من الحقوق الشرعية. وإن كان ما تَعاملوا به من غير المطبوع سليمًا من بَخْس ونَقْص، فإنكارُه لمجرَّد حق السلطنة للمخالفة. وإن زوّر قومٌ على طابَعه، كالبَهْرَج على طابع الدنانير والدراهم، فإن قُرن التزويرُ بغشّ، كان التأديبُ مستحقًّا من الوجهين، وهو أغلظُ وأشدُّ؛ وإن سلم من الغش كان الإنكارُ لحق السلطنة خاصّة.

وإذا اتّسع البلدُ حتى احتاج أهلُه إلى عِدّة من الكيّالين والوزّانين والنُّقّاد، تَخَيَّرهم ناظرُ الحِسبة، ومنع أن يَنْتدِب لذلك إلا من ارتضاه من الأُمناء الثِّقات. وكانت أجورُهم من بيت المال إن اتَّسع لها، فإن ضاق عنها قدّرها لهم، حتى لا تجري بينهم فيها استزادةٌ أو نقصان، فيكون ذلك ذريعةً إلى الممايلة أو التَحَيُّف في مَكِيل أو موزون. فإن ظهر من أحدٍ ممن اختاره للكيل والوزن تحيّفٌ في تطفيف أو ممايلةٌ في زيادة، أُدِّبَ وأُخْرِجَ منهم ومُنِعَ من أن يَتعرّض للوَسَاطة بين الناس. وكذلك القول في اختيار الدلّالين، يُقَرُّ منهم الأُمناء ويُمنع الخَوَنَةُ.

وإذا وقع في تطفيف تَخَاصُمٌ، جاز أن ينظرَ المحتسبُ فيه إن لم يقترن به تَجاحُدٌ وتناكُر، فإن أفضى إلى تجاحدٍ وتناكرٍ، كان القضاةُ أحقَّ بالنظر فيه من وُلاة الحِسْبة، لأنهم أحقُ بالأحكام، وكان التأديبُ فيه إلى المحتسب. فإن وَلّاه الحاكمُ جاز، لاتّصاله بحكمه.

---

(١) تصرية، صري المواشي إذا حبس اللبن في ضرعها ليكثر، اللسان: صري.

(٢) الصنجات: جمع صنجة وهو ما يوزن به كالأوقية والرطل. وفي الأصل صنوج والتصحيح عن الأحكام السلطانية.

ومما يُنكره المحتسبُ في العموم ولا ينكره في الخصوص والآحادِ، التَّبَايُعُ بما لم يألفه أهلُ البلد من المكاييل والأوزان التي لا تُعْرَف فيه وإن كانت معروفةً في غيره. فإن تَرَاضى بذلك اثنان، لم يعترض عليهما بالإنكار والمنْع، ويمنع من عموم التعامل بها، لأنه قد يعاملهم فيها من لا يعرِفها فيصير مغرورًا.

هذا ما يتعلّق بالنهي في حقوق الله تعالى.

* * *

وأما النهي في حقوق الآدميين المحضة: مثل أن يتعدّى رجلٌ في حد لجاره، أو حريم لداره، أو وَضْع أجذاعٍ على جِداره، فلا اعتراضَ للمحتسب فيه ما لم يَسْتَعْدِه الجارُ، لأنه حقٌّ يخُصّه يصحُّ منه العفوُ عنه والمطالبةُ به؛ فإن خاصمه فيه إلى المحتسب، نظر فيه، ما لم يكن بينهما تنازُعٌ وتناكرٌ، وأخَذَ المتعدِّيَ بإزالة تعدّيه؛ وكان تأديبُه عليه بحسب شواهد الحال. فإنْ تنازعا كان الحاكمُ بالنظر فيه أحقَّ. ولو أقرّ الجارُ جارَه على تعدّيه وعفا عن مطالبته بهدم ما تَعَدَّى فيه ثم عاد وطالب بذلك، كان ذلك له، وأُخِذَ المتعدّي بعد العفو عنه بهدم ما بناه. وإن كان قد ابتدأ البناءَ ووَضَع الأجذاعَ بإذن الجار ثم رَجَع الجارُ في إذنه، لم يؤخذِ الباني بهدمه. وإن انتشرت أغصانُ شجرة إلى دار جاره، كان للجار أن يَسْتعدِيَ المحتسبَ حتى يُعديه على صاحب الشجرة، ليأخذَه بإزالة ما انتشر من أغصانها في داره؛ ولا تأديبَ عليه لأن انتشارَها ليس من فعله. ولو انتشرت عروقُ الشجرة تحت الأرض حتى دخلت في قرار أرضِ الجار، لم يُؤْخَذْ بقَلْعها ولم يُمْنَع الجارُ من التصرُّف في قرار أرضه وإن قطعها. وإذا نَصَب المالكُ تَنوُّرًا في داره فتأذّى الجارُ بدُخَانه، لم يُعتَرَضْ عليه ولم يُمنع منه. وكذلك لو نَصَب في داره رحًى أو وَضَع فيها حَدَّادِين أو قَصَّارين، لم يُمنع منه. وإذا تَعَدَّى مستأجرٌ على أجير في نُقْصان أجره أو زيادة عمل، كَفّه عن تعدّيه؛ وكان الإنكار عليه معتبرًا بشواهد حاله. ولو قَصَّر الأجيرُ في حق المستأجر فنَقَصَه من العمل أو استزاده في الأجرة، منعه منه وأنكره عليه إذا تخاصما إليه؛ فإن اختلفا وتناكرا، كان الحاكمُ بالنظر بينهما أحقَّ.

ومما يُؤخذُ وُلاةُ الحِسْبة بمراعاته من أهل الصنائع في الأسواق ثلاثةُ أصناف: منهم من يُرَاعَى عمله في الوُفور والتقصير، ومنهم من يُرَاعى حاله في الأمانة والخِيانة، ومنهم من يُراعَى عملُه في الجَوْدة والرَّداءة.

فأمّا من يُراعَى عمله في الوفور والتقصير فكالطبّ والتعليم، لأن الطبَ إقدامٌ على النفوس يُفضي التقصيرُ فيه إلى تَلَف أو سَقَم. وللمعلمين من الطرائق التي يَنشأ الصغارُ عليها ما يكون نقلُهم عنه بعد الكِبَر عسيرًا، فيقرُّ منهم من تَوَفَّر علمُه، وحَسُنت طريقتُه، ويمنع من قَصَّر وأساء من التَّصَدِّي لما تَفْسُد به النفوس وتَخْبُثُ به الآدابُ.

وأما من يُرَاعى حالُه في الأمانة والخيانة، فمثل الصّاغة والحاكَة والقَصّارين والصبّاغين، لأنهم ربما هَرَبوا بأموال الناس، فيُراعى أهلَ الثقة والأمانة منهم فيُقرّهم ويُبعد من ظهرت خيانته، ويُشهر أمرَه، لئلا يغترّ به من لا يعرفُه. وقد قيل: إن الحُماةَ ووُلاة المَعَاون أخصُّ بالنظر في أحوال هؤلاء من وُلاة الحسبة؛ وهو الأشبهُ، لأن الخيانَة تابعةٌ للسَرِقة.

وأمّا من يراعي عمله في الجودة والرداءةِ فهو مما ينفرد بالنظر فيه وُلاة الحسبة. ولهم أن يُنكروا عليهم في العموم فسادَ العمل ورداءتِه وإن لم يكن فيه مُستَعْدٍ؛ وأما في عمل مخصوص اعتمد الصانعُ فيه الفسادَ والتدليسَ، فإذا استعداه الخَصْم، قَابَلَ عليه بالإنكار والزجر، وإن تَعَلَّق بذلك غُرْمٌ رُوعِي حالُ الغرم، فإن افتقر إلى تقدير أو تقويم، لم يكن للمحتسب أن ينظرَ فيه، لافتقاره إلى اجتهاد حكميّ؛ وكان القاضي بالنظر فيه أحقّ. وإن لم يفتقر إلى تقدير ولا تقويم واستُحِقّ فيه المِثْلُ الذي لا اجتهاد فيه ولا تنازعَ، فللمحتسب أن ينظر فيه بإلزام الغُرْم والتأديب.

ولا يجوزُ أن يُسعِّر على الناس الأقواتَ ولا غيرها في رُخْصٍ ولا غَلاء؛ وأجازه مالك ـ رحمه الله ـ في الأقوات مع الغلاء.

* * *

وأما النهي في الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين، فكالمنع من الإشراف على منازل الناس. ولا يَلْزَمُ مَنْ عَلَّى بناءَه أن يَستُر سَطْحه، وإنما يلزمُه ألّا يُشرفَ على غيره. ويُمنع أهلُ الذمة من تعلية أبنيتهم على أبنية المسلمين. فإن مَلَكوا أبنية عاليةً أُقِرُّوا عليها ومُنِعُوا من الإشراف منها على المسلمين وأهلِ الذمة.

ويأخذ أهلَ الذمة بما شرط في ذمتهم من لُبْس الغِيَار والمُخالفة في الهيئة وترك المجاهرة بقولهم في عُزَير والمسيح. ويَمنعُ عنهم من تَعَرَّض لهم من المسلمين بسبٍّ أو أذى، ويؤدّبُ عليه من خالف فيه.

وإذا كان في أئمة المساجد السَّابلة والجوامع الحافلة من يُطيل الصلاة حتى يعجزَ الضعفاء وينقطعَ بها ذوو الحاجات، أنكر ذلك؛ فقد قال رسول الله ﷺ لمُعَاذٍ حين أطال الصلاة بقومه: «أفَتَّانٌ أنت يا مُعاذُ». فإن أقام على الإطالة ولم يمتنعْ منها، لم يَجُزْ أن يؤدِّبه عليها، ولكن يَستبدلُ به مَنْ يخفّفها.

وإذا كان في القُضاة من يَحجُبُ الخصومَ إذا قَصَدوه، ويمتنعُ من النظر بينهم إذا تحاكموا إليه، حتى تقفَ الأحكامُ ويتضرَّر الخصومُ، فللمحتسب أن يأخذَه، مع ارتفاع الأعذار، بما نُدِبَ له من النظر بين المتحاكمين وفَصْلِ القضاء بين المتنازعين، ولا يمنع علوُّ رتبتِهِ من إنكار ما قَصَّر فيه.

وإذا كان في سادة العبيد من يستعملهم فيما لا يُطيقون الدوامَ عليه، كان منعُهم والإنكارُ عليهم موقوفًا على استعداء العبيد، فإذا استعدَوْه مَنَعَ حينئذٍ وزَجرَ.

وإن كان في أرباب المواشي من يَستعملها فيما لا تُطيق الدوامَ عليه، أنكره المحتسبُ عليهم ومنعهم منه وإن لم يكن فيه مُستَعْدٍ إليه. فإن ادّعى المالكُ احتمالَ البهيمة لم يَستعملها فيه، جاز للمحتسب أن ينظرَ فيه، لأنه وإن افتقر إلى اجتهاد فهو عُرْفٌ يُرْجَعُ فيه إلى عُرفِ الناس، وليس باجتهاد شرعيّ. وللمحتسب الاجتهادُ في العرف.

وإذا استَعْداه العبدُ من امتناع سيِّده من كُسْوته ونَفَقته، جاز له أن يأمره بهما ويأخذه بالتزامهما. ولو استعداه من تقصير سيّده فيهما، لم يكن له في ذلك نظرٌ ولا إلزام؛ لأنه يحتاج في التقدير إلى اجتهاد شرعيّ، ولا يحتاج في التزام الأصل إلى اجتهاد شرعيّ، لأن التقدير غير منصوصٍ عليه ولزومُه منصوصٌ عليه.

وللمحتسب أن يمنَع أربابَ السفن من حمل ما لا تَسَعه ويُخاف منه غَرَقُها. وكذلك يمنعُهم من المسير عند اشتداد الريح. وإذا حُمِلَ فيها الرجالُ والنساء، حُجِزَ بينهم بحائل[1]. وإذا اتّسعت السفن، نُصِبَ للنساء مخارج للبَرَاز لئلا يتبرَّجْن عند الحاجة.

وإذا كان في أهل الأسواق من يختصُّ بمعاملة النساء، رَاعَى المحتسبُ سِيرتَه

(١) حائل: حاجز، اللسان، مادة: حول.

وأمانته، فإذا تَحَقّقها منه، أقرّه على معاملتهن. وإن ظهرت منه الرِّيبة وبَانَ عليه الفجور، منعه من معاملتهن، وأدّبه على التعرّض لهن. وقد قيل: إن الحُماةَ ووُلاةَ المَعَاونِ أخصُّ بإنكار هذا والمنعِ منه من وُلاة الحِسْبة، لأنه من توابع الزنا. وينظُر والي الحسبةِ في مقاعد الأسواق، فيُقِرُّ منها ما لا ضَرَرَ على المارّة فيه، ويمنع ما استَضَرُّوا به. ولا يقف منعُه على الاستعداء إليه.

وإذا بنى قوم في طريقٍ سابلٍ، مَنَعَ منه وإن اتّسع له الطريق، ويأخذُهم بهدم ما بَنَوْه ولو كان المبنيّ مسجدًا؛ لأنَ مَرافق الطُّرُق للسلوك لا للأبنية. وإذا وضع الناسُ الأمتعةَ وآلاتِ الأبنية في مسالك الشوارع والأسواق ارتفاقًا لينقُلُوه حالًا بعد حال، مُكِّنوا منه إن لم يَستَضِرَّ به المارّةُ، ومُنِعُوا منه إن استَضَرُّوا به. وكذلك القولُ في إخراج الأجنحة والسوابيط[1] ومجاري المياه وآبار الحشوش[2]، يقرّ ما لم يضرّ، ويمنع ما ضرّ. ويجتهدُ المحتسبُ رأيَه فيما ضرّ وما لم يضرَّ، لأنه من الاجتهاد العرفيّ دون الشرعيّ. والفرقُ بين الاجتهادين أنّ الاجتهاد الشرعيّ ما رُوعي فيه أصلٌ ثبتَ حكمه بالشرع، والاجتهادُ العرفيّ ما روعي فيه أصلٌ ثبت حكمُه بالعرف. ويوضح الفرق بينهما بتمييز ما يَسُوغ فيه اجتهادُ المحتسبُ مما هو ممنوع من الاجتهاد فيه.

ولناظر الحسبة أن يمنع من ينقلُ الموتى من قبورهم إذا دُفِنوا في ملكٍ أو مباح، إلا من أرض مغصوبةٍ، فيكون لمالكها أن يأخذَ مَنْ دَفَنهم فيها بنقلهم منها. واختُلفَ في جواز نقلهم من أرض قد لَحِقها سَيْلٌ أو نَدًى، فجوّزه الزُّبَيْريُّ وأباه غيره. ويمنعُ من خِصَاء الآدميين وغيرهم. ويؤدّبُ عليه؛ وإن استُحِقّ فيه قَوَدٌ[3] أو دِيَةٌ استوفاه لمستحقّه ما لم يكن فيه تناكرٌ وتنازعٌ. ويمنع من خِضَاب الشَّيْب بالسواد إلا لمجاهد في سبيل الله تعالى. ويؤدّبُ من يصبغ به النساء. ولا يمنعُ من الخِضَاب بالحِنّاء والكَتَمِ[4]. ويمنع من التكسُّب بالكِهَانة، ويؤدّب عليه الآخِذ والمُعطي.

وهذا فصل يطول شرحُه، لأن المنكرات لا ينحصرُ عددها فتُسْتَوْفى. وفيما

---

(١) السوابيط جمع ساباط، سقيفة بين دارين وهي كلمة فارسية.

(٢) الحشوش جمع حش وهو البستان. اللسان، مادة حشش. ويطلق على بيت البراز.

(٣) قود: اقتصاص بالمثل، اللسان، مادة: قود.

(٤) الكتم: نبات جبلي يخضب به، اللسان، مادة: كتم.

تقدّم منها كِفايةٌ؛ والأحوالُ تؤخذُ بنظائرها وأشباهها، فلا نطوّلُ بسردها.

وفّقنا الله وإياكَ لصالح العمل، وجَنّبنا مواردَ الخطأ ومصادرَ الزللِ؛ وأعان كلّ والٍ على ما وَلّاه، وكلّ راعٍ على ما استرعاه، بمَنّه وكَرَمه ولُطْفه.

كمل الجزء السادس من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب»
يتلوه - إن شاء الله تعالى - في الجزء السابع الباب الرابع عشر
من القسم الخامس من الفنّ الثاني في الكتابة وما تَفرَّع منها

فهرس المصادر

١ ـ **القرآن الكريم**.
٢ ـ **الكتاب المقدّس**.
٣ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، لابن الأثير، ط. مصر.
٤ ـ **الأعلام «قاموس تراجم»**، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
٥ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦ ـ **تاريخ الطبري «تاريخ الأمم والملوك»**، مطبعة الاستقامة، مصر.
٧ ـ **تاريخ مختصر الدول**، لابن العبري، بيروت ١٨٩٠.
٨ ـ **حياة الحيوان**، للدميري، دار الكتب المصرية.
٩ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي.
١٠ ـ **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم، دار الكتب العلمية.
١١ ـ **ديوان امرىء القيس**، دار الكتب العلمية.
١٢ ـ **الروض المعطار**، لمحمد بن عبد المنعم الحميري.
١٣ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.
١٤ ـ **طبقات الأمم**، لابن صاعد، ط. مصر.
١٥ ـ **قاموس الجغرافيا القديمة**، لأحمد زكي باشا، ط. مصر.
١٦ ـ **قاموس الكتاب المقدّس**، لجورج بوست، بيروت ١٨٩٤.
١٧ ـ **الكاشف**، للذهبي.
١٨ ـ **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير، ط. دار الكتب العلمية.
١٩ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
٢٠ ـ **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية.
٢١ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
٢٢ ـ **مروج الذهب**، للمسعودي، ط. بولاق.

٢٣ ـ **مسند الإمام أحمد**.
٢٤ ـ **معجم ما استعجم**، للبكري، ط. مصر.
٢٥ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، لمحمد فؤاد أو عبد الباقي، دار الكتب العلمية.
٢٦ ـ **مسالك الأبصار**، لابن فضل الله العمري، ط. مصر.
٢٧ ـ **النجوم الزاهرة**، لابن تغري بردي، دار الكتب العلمية.
٢٨ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ط. مصر.

فهرس المحتويات

القسم الخامس

في المَلِك وما يُشترطُ فيه وما يحتاجُ إليه وما يجبُ له على الرعيّة وما يجب للرعية عليه، ويتصل به ذِكرُ الوزراءِ وقادةُ الجيوشِ وأوصافُ السلاحِ ووُلاةُ المناصبِ الدينية والكتّابُ والبلغاءُ

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء السابع

تحقيق

الدكتور علي بو ملحم

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الرابع عشر
من القسم الخامس من الفن الثاني
في الكتابةِ وما تفرّع من أصناف الكُتّاب

ولنبدأ بٱشتقاق الكتابة، ولم سُمّيت الكتابة كتابة، ثم نذكر شرفَها وفوائدَها، ثم نذكر ما عدا ذلك من أخبار المحترِفين بها، وما يحتاج كلٌّ منهم إليه، فنقولُ وبالله التوفيق والإعانة:

أصل الكتابة مشتقٌّ من الْكَتْبِ وهو الجمع، ومنه سُمّيَ الكتاب كتابًا، لأنه يجمع الحروف، وسُمّيت الكَتِيبَةُ كتيبة[1]، لأنها تَجْمع الجيشَ، وقد ورد في المعارف: أن حروف المُعْجَم أُنزلت على آدم عليه السلام في إحدَى وعشرين صحيفة، وسنذكر من ذلك طَرَفًا عند ذكرنا لأخبار آدم عليه السلام في فنّ التاريخ، فهذا اشتقاقها.

وأما شرفها ـ فقد نص الكتاب العزيز عليه، فقال تعالى ـ وهو أوّلُ ما أُنزل على رسول الله ﷺ من القرآن بغار حِراءٍ[2] في شهر رمضانَ المعظَّم ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: الآيات ١ - ٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: الآيات ١ - ٤]، وقال تعالى في وَصفِ الملائكةِ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفِطار: الآية ١١]، إلى غير ذلك مِن الآي.

ومن شرف الكتابة نزولُ الكتبِ المتقدّمة مسطورةً في الصُّحف كما ورد في الصحف المنزلة على شيثٍ وإدريسَ ونوحٍ وإبراهيم وموسى وداودَ وغيرهم صلى الله

---

(١) الكتيبة: القطعة الكبيرة من الجيش، من المائة إلى الألف. والجمع كتائب. وهي من الكَتْب أي الجمع. وكذا الكتاب لأنه عبارة عن جمع حروف. (ابن منظور، لسان العرب).

(٢) غار حِراء: الغار: الكهف. حراء: جبل ثلاثة أميال من بكة، كان النبي يختلف على ذلك الكهف الموجود في جبل حراء ويتعبد فيه. (ابن منظور، لسان العرب، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤).

عليهم كما أخبر به القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: الآيتان ١٨، ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠]، وما ورد في الأخبار الصحيحة والأحاديث الصريحة أنه مكتوب على العرش وعلى أبواب الجنة ما صورته: لا إلـه إلّا الله محمد رسول الله. وكفى بذلك شرفًا.

وأمّا فوائدُها: فمنها رسم المصحف الكريم(١) الموجود بين الدَّفّتين في أيدِي الناس، ولولا ذلك لاختُلف فيه ودخل الغلط وتداخل الوهم قلوبَ الناس.

ومنها رَقْمُ الأحاديث المرويَّةِ عن النبي ﷺ التي عليها بُنِيَت الأحكام، وتَميَّز الحلال من الحرام، وضبطُ كتب العلوم المنقولةِ عن أعلام الإسلام وتواريخ مَن أنقرض مِن الأنام فيما سَلَف مِن الأيام.

ومنها حفظُ الحقوق، ومنْعُ تمرُّد ذوي العقوقِ(٢)؛ بما يقعُ عليهم من الشّهادات ويُسَطَّرُ عليهم من السِجلّات التي أمر اللهُ تعالى بضبطها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢].

ومنها المكاتَبةُ بين الناس بحوائجهم من المسافات البعيدة، إذ لا ينضبطُ مثلُ ذلك برسول، ولا تُنالُ الحاجةُ به بمشافَهةِ قاصدٍ، ولو كان على ما عساه عليه يكون مِن البلاغة والحفظ لوجود المِشقَّةِ، وبُعْد الشُقَّةِ(٣).

ومنها ضبطُ أحوال الناس، كمناشير الجند، وتواقيعِ العمّال، وإدرارات(٤) أرباب الصِّلات في سائر الأعمال، إلى ما يجرِي هذا المجرَى، فكان وجودُها في سائر الناس فضيلةً، وعدمها نقيصةً إلا في رسول الله ﷺ، فإنها إحدى معجزاته لأنه ﷺ أمّيٌّ أتى بما أعجز البلغاءَ، وأَخرس الفُصحاءَ، وفَلّ حَدَّ(٥) المعارضين من

(١) المُصْحَف الكريم: القرآن. وقد سمي مصحفًا لأنه أُصحف أي جعل جامعًا للصُحُف المكتوبة بين الدفتين. (لسان العرب، مادة صحف).

(٢) ذوو العقوق: منكرو الحقوق. من عق والده عقوقًا أي شق عصا طاعته. وعق والديه: قطعهما ولم يصل رحمه منهما. ورجل عقق وعق: عاق. (لسان العرب، مادة عقق).

(٣) الشُقَّة: المسافة التي يقطعها المسافر؛ السفر البعيد؛ بعد مسير إلى الأرض البعيدة. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التوبة: الآية ٤٢]. (لسان العرب، مادة شقق).

(٤) إدرارات: جمع إدرارة، أي أعطية.

(٥) فلّ حد المؤرخين: تفوق عليهم وغلبهم. يقال: فلّ حد السيف: ثلمه؛ ويكون ذلك في المصاولة والمصارعة. (ابن منظور، لسان العرب).

غير مدارَسةِ كتب ولا ممارَسةِ تعليم، ولا مراجَعةٍ لمن عُرف بذلك وٱشتَهر به.

والكتابةُ العربيةُ أشرفُ الكتابات لأن الكتاب العزيز لم يُرْقَم بغيرها خلافًا لسائر الكتب المنزَّلة. وهذه الكتابة العربية أوّلُ من ٱخترعها على الوضع الكوفيّ سكّان مدينة الأنبَارِ(١)، ثم نُقل هذا القلمُ إلى مكة فعُرف بها، وتعلّمه من تعلّمه، وكثُر في الناس وتداولوه، ولم تزل الكتابةُ به على تلك الصورة الكوفيّةِ إلى أيام الوزير أبي عليّ بن مُقلةَ(٢)، فعرَّبها تعريبًا غير كافٍ، ونقلها نقلًا غيرَ شافٍ، فكانت كذلك إلى أن ظهر عليّ بن هلال الكاتبُ المعروفُ بابن البوّاب(٣)، فكَمّل تعريبَها، وأَحسن تبويبَها؛ وأَبدع نظامَها، وأَكمل ٱلتئامَها، وحَلَّاها بهجةً وجَمالًا، وأَولاها بل أَولى بها مِنّةً وإفضالًا؛ وألبسها من رَقْم أنامله حُللا، وجَلَاها للعيون فكان أوّلَ من أحسن في ترصيعها وترصيفها عملًا؛ ولا زال يَتنوّع في محاسنها، ويتنوّع في ترصيع عقود مَيَامنها؛ حتى تَقَرّرت على أجمل قاعدة، وتَحرّرت على أكملِ فائدة؛ وسنزيد ما قدّمناه من هذه الفصول وضوحًا وتِبيانًا، ونُقِيم على تفصيل مُجْمَلِها وبسط مُدْمَجِهَا أدلّةً وبرهانًا.

ثم الكتابة بحسب من يحترفون بها على أقسام: وهي كتابةُ الإنشاء، وكتابةُ الديوان والتصرّف، وكتابةُ الْحكم والشروط، وكتابةُ النَّسخ، وكتابةُ التعليم؛ ومنهم من عَدّ في الكتابةِ كتابةَ الشُّرَطِ(٤)، ولم نُرْد ذكرَها تنزيهًا لكتابنا عنها، ولا حكمةَ في إيرادها.

---

(١) الأنبار: مدينة عراقية تبعد عن بغداد عشرة فراسخ أول من عمرها سابور بن هرمز ملك الفرس، وسماها فيروز سابور، ثم جددها أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين وأطلق عليها اسم الأنبار، وجعلها عاصمة الدولة إلى أن تأسست بغداد. (ياقوت، معجم البلدان ج ١، ص ٢٥٧، ط. دار صادر، ١٩٨٤).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة (٢٧٢ ـ ٣٢٨ هـ) استوزره الخلفاء العباسيون، ولم يوفق في وزارته فسجن وقطعت يمينه. اهتم بالخط ونقل الكتابة من الخط الكوفي إلى الخط النسخي، وأبرزها في هذه الحلة الحسنة، فكان له فضل السبق. وكان شاعرًا وناثرًا. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٩٨ ـ ٢٠١).

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال الكاتب المشهور. هذب طريقة ابن مقلة في الخط وحسنها. عرف بابن البواب لأن أباه كان بوابًا؛ وعرف أيضًا بابن الستري، لأن البواب يلازم ستر الباب توفي في بغداد سنة ٤١٣ هـ أو ٤٢٣ هـ. (ابن خلكان، الوفيات، ج ٣، ص ٢٨ ـ ٢٩).

(٤) الشُّرَط: جمع الشرطي، وهو رجل الأمن. دعوا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات مميزة يعرفون بها. (لسان العرب مادة شرط).

ولنبدأْ بذكر كتابة الإنشاء وما يتعلّق بها.

ذكر كتابة الإنشاء وما ٱشتملت عليه من البلاغة والإيجاز والجمع في المعنى الواحد بين الحقيقة والمجاز؛ والتلعّب بالألفاظ والمعاني والتوصّل إلى بلوغ الأغراض والأماني

ولنبدأ من ذلك بوصف البلاغة وحَدِّها والفصاحةِ:

فأما البلاغة ـ فهي أن يُبْلِغَ[1] الرجل بعبارته كُنهَ ما في نفسه. ولا يسمَّى البليغ بليغًا إلا إذا جمع المعنى الكثيرَ في اللفظ القليلِ، وهو المسمَّى إيجازًا.

وينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز حذف، وهو أن يُحذَف شيء من الكلام وتدلُّ عليه القرينة، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يُوسُف: الآية ٨٢] والمراد أهل القرية وكقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٩] والمراد ولكن البرَّ برُّ من ٱتقى، وكقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٥] والمراد من قومه، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٤] والمراد لا يطيقونه؛ ونظائر هذا وأشباهُه كثير.

وإيجاز قَصْر، وهو تكثيرُ المعنى وتقليلُ الألفاظ، كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ ما جُمع فيه شرائطُ الرسالة: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: الآية ٩٤] وسمِع أعرابيّ رجلًا يتلوها فسجد وقال: سجدتُ لفصاحته، ذكره أبو عُبيد. وقوله تعالى مما جُمع فيه مكارمُ الأخلاق: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٩٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النَّمل: الآيتان ٣٠، ٣١] فجُمع في ثلاث كلمات بين العُنوانِ والكتابِ والحاجةِ؛ وقولِه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ١٨] فجمع في هذا على لسان النملة بين النداءِ والتنبيهِ والأمر والنهي والتحذير والتخصيص والعموم والإشارة والإعذار؛ ونظير ذلك ما حُكِي عن الأصمعيّ[2] أنه سمع جارية تتكلّم فقال لها: قاتَلك الله، ما أَفصحَكِ!

---

(١) البلاغة: من بلغ الشيء، أي وصل إليه. وقد سبق الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول، الفصل الثاني، إلى هذا التعريف. وهو يختلف عن النويري في أنه لا يجعل الإيجاز أساسًا للبلاغة، بل المساواة.

(٢) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب الباهلي (١٢٣ ـ ٢١٦ هـ). كان راوية للشعر والأخبار=

فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القَصص: الآية ٧] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

ولما سمع الوليدُ بنُ المُغيرةَ من النبي ﷺ قولَه تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النّحل: الآية ٩٠] قال: والله إنّ له لحلاوةً، وإن عليه لطُلَاوة، وإن أسفله لمُغْدِق[١]، وإن أعلاه لمُثمِرٌ، ما يقول هذا بَشرٌ.

وسمع آخرُ رجلًا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٠] فقال: أشهد أنّ مخلوقًا لا يقدِرُ على مثل هذا الكلام.

وقال أبو عثمانَ عمرُو بنُ بحر الجاحظُ: البيان اسم جامعٌ لكل ما كَشَفَ لك من قِناع المعنى، وهَتَك الحجابَ عن الضمير، حتى يُفضِيَ السامع إلى حقيقة اللفظ ويَهجُمَ على محصوله كائنًا ما كان[٢].

وقيل لجعفر بن يحيىٰ[٣]: ما البيان؟ فقال: أن يكون اللّفظ مُحيطًا بمعناك كاشِفًا عن مَغزاك، وتخرجَه من الشُّرْكة، ولا تستعينَ عليه بطول الفكرة، ويكونَ سليمًا من التّكلّف، بعيدًا من سوء الصنعة، بريئًا من التعقيد، غَنيًّا عن التأمّل.

= ولغويًا كبيرًا. ألّف عددًا من الكتب أهمها كتاب الألفاظ، وكتاب النوادر، وكتاب أصول الكلام. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٤).

(١) مغدق: كثير الماء. من الغَدق: المطر الكثير العام. وغَيْدَقَ المطرُ: كثر. والغَدَق أيضًا الماء الكثير وإن لم يكن مطرًا. من غَدِقَ: غزر وكثر. (لسان العرب، مادة غدق).

(٢) وقع بعض التحريف في كلام الجاحظ. وهاك هو النص الوارد في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول (الصفحة ٨٢، من طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت سنة ١٩٨٨، الطبعة الأولى): «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليه القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.
وواضح أن ثمة فرقًا كبيرًا بين القول «حتى يفضي السامع إلى حقيقة اللفظ»، والقول «حتى يفضي السامع إلى حقيقته». فالجاحظ يعني حقيقة المعنى، وليس حقيقة اللفظ.

(٣) هو أبو الفضل جعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكي. وزر لهارون الرشيد وعظمت منزلته عنده، وزوجه أخته العباسة. ولكنه غضب عليه أخيرًا فقتله ونكب أسرته. كان جوادًا ذواقة للأدب والشعر. توفي في بغداد سنة ١٨٧هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢ ـ ٣٠٥).

وقال آخر: خير البيان ما كان مصرِّحًا عن المعنى ليُسرعَ إلى الفهم تلقّيه، ومُوجَزًا ليخِفَّ على اللسان تَعاهدُه.

وقال أعرابيٌّ: البلاغة التقرُّب من معنى البُغيةِ، والتَّبَعُّدُ من وحشيِّ الكلام وقربُ المأخذِ، وإيجازٌ في صوابٍ، وقصدٌ إلى الحجة، وحُسنُ الاستعارة. قال عليّ رضي الله عنه: البلاغة الإفصاحُ عن حكمة مُستَغْلِقةٍ، وإبانةُ علمٍ مُشكِلٍ.

وقال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: البلاغة إيضاح الملتبِسات، وكشفُ عورات الجهالاتِ، بأحسن ما يمكن من العبارات.

وأما الفصاحة: فهي مأخوذةٌ من قولهم: أَفصح اللبَنُ إذا أُخِذت عنه الرُّغْوة. وقالوا: لا يسمَّى الفصيح فصيحًا حتى تخلُص لغته عن اللُّكْنة الأعجميّة ولا توجد الفصاحة إلا في العرب. وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحةَ في الألفاظ، والبلاغةَ في المعاني، ويستدلّون بقولهم: لفظ فصيح، ومعنى بليغ. ومن الناس من ٱستعمل الفصاحةَ والبلاغةَ بمعنى واحدٍ في الألفاظ والمعاني والأكثرون عليه.

ذكر صفة البلاغة

قيل لعمرو بن عُبَيد[1]؛ ما البلاغة؟ قال: ما بلّغك الجنّة، وعدَل بك عن النار؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فما بصَّرك مَواقعَ رُشدك وعواقبَ غيّك؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: من لم يُحسنْ أن يسكتَ لم يُحسنْ أن يَسْمَعَ، ومن لم يُحسنْ أن يَسمعَ لم يُحسنْ أن يَسأل، ومن لم يُحسنْ أن يَسألَ لم يُحسنْ أن يقُولَ؛ قال: ليس هذا أريد؛ قال: قال النبي ﷺ: «إنّا معشر النبيّين بِكاءٌ» ـ أي قليلو الكلامِ، وهو جمعَ بكيءٍ ـ وكانوا يكرهون أن يزيدَ منطقُ الرجل على عقله؛ قال السائل: ليس هذا أريد؛ قال: فكأنك تريد تَخيُّرَ اللفظ في حُسن إفهام؛ قال: نعم؛ قال: إنّك إن أردت تقريرَ حجّةِ الله في عقول المتكلمين، وتخفيفَ المؤونة على المستمعين، وتزيينَ المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسَنة رغبةً في سُرعة ٱستجابتهم، ونفِي الشَّواغِل عن قلوبهم بالمواعظ الناطقة عن الكتاب والسُّنة كنتَ قد أُوتيت فصلَ الخطاب.

---

(١) هو عمرو بن عبيد بن باب، المتكلم المعتزلي الزاهد المشهور. تتلمذ على الحسن البصري ثم انفصل عنه مع رفيقه واصل بن عطاء وأسسا مذهب الاعتزال. عرف بسعة علمه وتقاه؛ كان يدخل على المنصور ويعظه ولكنه لا يقبل عطاياه. توفي سنة ١٤٢ هـ فرثاه المنصور. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٣٢).

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفةُ الوصلِ من الفصلِ(١). وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: ألّا يؤتَى القائلُ من سُوء فهم السامع، ولا يؤتَى السامعُ من سوء بيانِ القائِل.

وقيل للخليل بن أحمدَ(٢): ما البلاغة؟ فقال: ما قَرُب طَرَفَاه، وبعُد منتهاه. وقيل لبعض البلغاء: من البليغ؟ قال: الذي إذا قال أسرَع، وإذا أسرَع أبدَع وإذا أبدع حرّك كلَّ نفْس بما أَودَع.

وقالوا: لا يستحقّ الكلامُ اْسمَ البلاغةِ حتى يكونَ معناه إلى قلبك أسبقَ من لفظه إلى سمعك.

وسأل معاويةُ صُحارًا العبدِيَّ(٣): ما هذه البلاغة؟ قال: أن تجيبَ فلا تبطىء وتصيبَ فلا تخطىء.

وقال الفضل: قلت لأعرابيّ: ما البلاغة؟ قال: الإيجازُ في غير عجز والإطنابُ في غير خَطَل.

وقال قُدَامَةُ(٤): البلاغةُ ثلاثةُ مذاهبَ: المساواةُ وهو مطابَقةُ اللفظ المعنى لا زائدًا ولا ناقصًا؛ والإشارةُ وهو أن يكون اللفظ كاللَّمْحَة الدالّة؛ والدليلُ وهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد، ليظهَرَ لمن لم يَفهمْه، ويتأكدَ عند من فهِمه.

قال بعض الشعراء: [من الكامل]

يَكفي قليلَ كلامِه وكثيرَه ... بيتٌ إذا طال النِّضالُ مصيبُ

(١) نسب الجاحظ هذا التحديد للفرس. يقول: قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل». (البيان والتبيين، ج ١، ص ٩١).

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، عبقري مذ وضع أسس عدة علوم عربية هي النحو والمعجم والعروض والموسيقى. أمد سيبويه تلميذه بعلم النحو، وألف معجم «العين»، وكتاب العروض الذي تضمن خمسة عشر بحرًا. ولم يُضَف عليها سوى بحر واحد ابتكره الأخفش هو الخبب. توفي سنة ١٧٥ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٥ - ١٩).

(٣) هو صحار بن عياش العبدي (٤٠ هـ) كان عالمًا بالأنساب وخطيبًا مصقعًا. وقد سبق الجاحظ إلى ذكر رأيه في البلاغة مع شيء من التوسيع. (البيان والتبيين، (ج ١، ص ٩٨).

(٤) هو قدامة بن جعفر، عاش في القرن العاشر الميلادي، ووضع كتبًا في النقد والبلاغة والمنطق أهمها كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وقد طبعا حديثًا، وكتاب جواهر الألفاظ. عاصر المكتفي بالله العباسي، وتوفي في بغداد سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م. (الزركلي، الأعلام).

وقال أحمد بنُ محمد بنِ عبدِ رَبِّهِ صاحب العقد: البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدَّلالة، وكل وجه منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضعٌ لا يجوز فيه غيره، ورُبّ إشارة أبلغ من لفظ[١].

وقال رجل للعَتّابيّ[٢]: ما البلاغة؟ قال: كلُّ ما أبلغك حاجتك، وأفهمك معناه بلا إعادةٍ ولا حُبْسةٍ ولا استعانةٍ فهو بليغ؛ قالوا: قد فهمنا الإعادةَ والحُبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مَقاطع الكلام: اسمع منّي، وافهم عنّي، أو يمسحَ عُثنونه، أو يفتلَ أصابعه، أو يكثِرَ التفاتَه، أو يَسعُلَ من غير سُعلة، أو ينبهرَ في كلامه.

قال بعض الشعراء: [من الطويل]

مـلِيءٌ بِبُـهْـر والـتـفـاتٍ وسُـعـلةٍ　　　ومَسحةِ عُثنونٍ وفتلِ الأصابع

ومن كلام أحمدَ بنِ إسماعيلَ الكاتبِ المعروف بِنطاحةَ[٣]، قال: البليغ من عرف السقيم من المعتلّ، والمقيَّدَ من المطلقِ، والمشتركَ من المفردِ، والمنصوصَ من المتأوَّل، والإيماءَ من الإيحاء، والفصلَ من الوصل، والتلويحَ من التصريح.

ومن أمثالهم في البلاغة قولُهم: يُقِلّ الحزَّ ويطبّق المَفْصِل. وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجِزَ الذي يُقلّ الكلامَ ويصيب نصوصَ المعاني بالجزّار الرفيق الذي يقلُّ حزَّ اللحم ويصيب مفاصله؛ وقولهم: يضع الهِناء مواضع النُّقْبِ، أي لا يتكلّم إلا فيما يجب الكلام فيه. والهِناء: القِطران. والنُّقْب: الجَرب. وقولهم: قَرطس فلان فأصاب الغرّةَ، وأصاب عين القرطاس. كلُّ هذه أمثال للمصيب في كلامه الموجِز في لفظه.

---

(١) جعل الجاحظ أدوات البيان خمسًا أي بإضافة واحدة على التي أوردها النويري هي الحساب. وقد استبدل النويري الدلالة بالنصْبة التي استعملها الجاحظ. (البيان والتبيين، ج ١، الفصل الأول).

(٢) العتابي: هو كلثوم بن عمر، شاعر ومتكلم معتزلي. غضب عليه الرشيد فهرب إلى اليمن. وعاد إلى بغداد في عهد المأمون، وتوفي فيها سنة ٨٢٣ م والنص موجود في كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول.

(٣) هو أبو علي أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخصيب، عرف بابن نطّاحة، واشتهر بالكتابة والأدب. كان كاتب عبد الله بن طاهر، وقتله محمد بن طاهر؛ أهم كتبه «ديوان الرسائل» و«طبقات الكتاب» و«صفة النفس». (الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ٦، بيروت ١٩٨٤).

فصول من البلاغة

قيل: لما قدم قُتَيبةُ بن مسلِم[١] خُراسانَ واليًا عليها، قال: من كان في يده شيء من مال عبد الله بن حازم فلينبِذْه، ومن كان في فيه فليلفِظْه، ومن كان في صدره فلينفِثْه. فعجِب الناس من حُسن ما فصَّل.

وكتب المعتصم إلى ملك الروم جوابًا عن كتاب تهدَّده فيه: الجواب ما ترى لا ما تسمع ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٢].

وقيل لأبي السَّمَّال الأسديّ أيام معاوية: كيف تركت الناس؟ قال: تركتهم بين مظلوم لا ينتصف، وظالم لا ينتهي. وقيل لشبِيب بن شبّةَ عند باب الرشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجيًا، والخارجَ راضيًا.

وقال حسّانُ بن ثابت في عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: [من الطويل]

إذا قال لم يترك مقالًا لقائل بملتقَطات لا ترى بينها فضلا
وكفَى وشفَى ما في النفوس فلم يدع لذي إربة في القول جِدًّا ولا هَزلا

قال سهل بن هارون[٢]: البيان تَرجُمان العقول، وروض القلوب؛ البلاغةُ ما فهمته العامّة، ورضيَتْه الخاصّةُ؛ أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظَه؛ خير الكلام ما قلّ وجلّ، ودلّ ولم يُمَلّ؛ خير الكلام ما كان لفظه فحلًا، ومعناه بِكرًا.

وقال ابن المعتزّ[٣]: البلاغة أن تبلُغ المعنى ولم تُطِل سَفَرَ الكلام؛ خير الكلام ما أسفر عن الحاجة؛ أبلغُ الكلام ما يؤنِس مَسمَعه، ويوئس مضَيِّعُه؛ أبلغ الكلام ما

(١) هو قتيبة بن مسلم الباهلي. ولّاه عبد الملك بن مروان على خراسان، فأقام فيها ثلاث عشرة سنة بعد المهلب بن أبي صفرة. وفتح خوارزم وسمرقند وبخارى. ولما ولي سليمان بن عبد الملك خرج عليه قتيبة فانقلب جنده عليه وقتلوه بفرغانة سنة ٩٦ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣).

(٢) سهل بن هارون (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) كاتب وشاعر فارسي الأصل شعوبي النزعة، عاصر الجاحظ (٢٥٥ هـ) وأورد له رسالة في كتاب البخلاء يمدح فيها البخل. كما ذكره مرارًا في كتاب البيان والتبيين مستشهدًا بأقواله في البيان والبلاغة. وله مؤلف اسمه «تعلة وعفرة» على غرار كتاب كليلة ودمنة ألفه للمأمون الذي قدمه وعينه رئيسًا لخزانة الحكمة. (الزركلي، الأعلام).

(٣) هو عبد الله بن المعتز (٢٤٦ ـ ٢٩٦ هـ/ ٨٦١ ـ ٩٠٨ م). شاعر وناثر وناقد، امتاز شعره بسهولته وسلاسته. بويع بالخلافة فلم يمكث في سدتها سوى يوم واحد إذ قتله القواد الأتراك. أهم كتبه «البديع» و«السرقات» و«طبقات الشعراء». (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠).

حسُن إيجازُه، وقلّ مجازُه، وكثر إعجازُه، وتناسبت صدورُه وأعجازه؛ البلاغة ما إشار إليه البحتريُّ حيث قال: [من الخفيف]

* وركِبن اللّفظَ القريب فأدرَكن به غاية المرادِ البعيدِ *

جُمَل من بلاغات العجم وحِكمها

قال أبْروِيزُ لكاتبه: إذا فكّرت فلا تَعجل، وإذا كتبت فلا تستعِنْ بالفضول فإنها عِلاوةٌ على الكفاية، ولا تقصِّرن عن التحقيق فإنها هُجْنة في المقالة، ولا تُلبِسن كلامًا بكلام، ولا تباعدنّ معنى عن معنى، وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول. ووافق كلامه قولَ ابن المعتزّ: ما رأيت بليغًا إلا رأيت له في المعاني إطالةً وفي الألفاظ تقصيرًا. وهذا حثٌّ على الإيجاز. وقال أبروِيزُ أيضًا لكاتبه: اعلم أن دعائم المقالات أربع إن التُمِس إليها خامسةٌ لم توجد، وإن نقص منها واحدةٌ لم تتمَّ وهي سؤالك الشيءِ، وسؤالُك عن الشيءِ، وأمرك بالشيء، وخَبَرُك عن الشيء؛ فإذا طلبتَ فأنجِح، وإذا سألتَ فأوضح، وإذا أمرتَ فأحكِم، وإذا أخبرتَ فحقق[(١)].

وقال بَهرام جُور: الحُكْم ميزان الله في الأرض. ووافق ذلك قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرَّحمـٰن: الآية ٧] وقال أنوشِروانُ لابنه هُرْمُزَ[(٢)]: لا يكون عندك لعمل البِر غايةٌ في الكثرة، ولا لعمل الإثم غايةٌ في القلّة. ووافق من كلام العرب قولَ الأفْوه[(٣)]: [من البسيط]

والخير تزداد منه ما لقِيتَ به والشر يكفيك منه قلّما زادُ

وقال أرْدَشِير بن بابِكَ: من لم يرض بما قسم الله له طالت مَعتبتُه، وفحُش حِرصُه، ومن فحش حِرصه ذلّت نفسُه، وغَلب عليه الحسد، ومن غَلب عليه الحسدُ لم يزل مغمومًا فيما لا ينفعه، حزينًا على ما لا ينالُه. وقال: من شغل نفسه بالمنى لم يَخْلُ قلبه من الأسى.

وقال بعضهم: الحقوق أربعة: حقٌّ لله، وقضاؤه الرضا بقضائه، والعمل

(١) حقق: فتش عن الحقيقة، وتحرى صحة الأخبار.
(٢) أبرويز وبهرام جور وأنوشروان وهرمز، من سلاطين آل ساسان الفرس قبل الفتح الإسلامي. ذكرهم مؤرخو العرب في كتبهم أمثال الطبري والمسعودي. (تويني، تاريخ البشرية، ج ٢ ص ٤٢ ـ ٤٥).
(٣) هو الأفوه الأودي صلاءة بن عمرو بن مَذحج، ويكنّى أبا ربيعة. (الشعر والشعراء، ص ١٢٩).

بطاعته، وإكرامُ أوليائه؛ وحقٌّ لنفسك، وقضاؤه تعهدُّها بما يُصلحها ويُصحُّها ويَحسِم موادَّ الأذى عنها؛ وحقّ للنّاس، وقضاؤه عمومُهم بالمودّة، ثم تخصيصُ كلِّ ٱمرىء منهم بالتوقير والتفضيل والصِّلة؛ وحقّ للسلطان، وقضاؤه تعريفُه بما خَفِيَ عليه من منفعة رعِيَّةٍ، وجِهَادِ عدوٍّ، وعمارةِ بلد، وسدِّ ثغر. وقال بُزُرْجُمِهْر(١): إلزام الجهول الحجّةَ يسير، وإقراره بها عسير.

صفة الكاتب وما ينبغي أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم بن محمد الشيبانيُّ: من صفة الكاتب ٱعتدالُ القامة، وصغرُ الهامة وخفةُ اللَّهازِم(٢)، وكثافة اللحية، وصدقُ الحسّ، ولطفُ المذهب، وحلاوةُ الشمائل وخطفُ الإشارة، وملاحةُ الزِّيّ. وقال: من كمال آلة الكاتب أن يكون بهيَّ الملبس، نظيفَ المجلس، ظاهرَ المروءة، عَطِرَ الرائحة، دقيقَ الذهن، صادقَ الحِسّ حسَنَ البيان، رقيقَ حواشي اللسان، حلوَ الإشارة، مليحَ الاستعارة، لطيفَ المسلك مُستفْرَهَ المركَب(٣)، ولا يكون مع ذلك فَضْفاضَ الجُثَّةِ، متفاوتَ الأجزاء، طويلَ اللحية عظيمَ الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورةَ لا يليق بصاحبها الذكاءُ والفطنةُ.

قال بعض الشعراء: [من الخفيف]

وشَمول(٤) كأنما ٱعتصروها   من معاني شمائلِ الكُتَّاب

هذا ما قيل في صفة الكاتب.

وأما ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه، فقد قال إبراهيم الشيبانيّ: أوّل ذلك حسنُ الخط الذي هو لسان اليد، وبهجةُ الضمير، وسفيرُ العقول، ووحيُ الفكْر، وسلاحُ المعْرفة، وأُنس الإخوان عند الفُرقة، ومحادَثتهُم(٥) على بُعد المسافة ومستودَعُ السِرّ، وديوانُ الأمور.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: الآية ١]: إنه الخطّ

(١) بزرجمهر: حكيم فارسي، وزر لكسرى ولكن الملك غضب عليه فقتله. ذكره ابن المقفع ونسب إليه بابًا من أبواب كليلة ودمنة يبين فضله في رعاية العلم ونقل الحكمة من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي. ونظم خليل مطران قصيدة رائعة عنوانها «مصرع بزرجمهر».

(٢) اللهازم: جمع لهزمة، أي أصل الحنك.

(٣) مستفْرَهَ المركب: قحم المركب وكريمه.

(٤) شمول: الخمر.

(٥) محادثتهم: يعني بها مراسلتهم.

الحسن.

وقد اختلف الكتّاب في نَقْطِ الخطّ وشكْلهِ، فمنهم من كرِهه.

قال سعيد بن حُمَيْد الكاتب:

لأن يُشْكِلَ الحرفُ على القارىء أحبُّ إليّ من أن يعابَ الكاتب بالشكل.

وعُرِض خطٌّ علَى عبد الله بن طاهر[١] فقال: ما أحسنه لولا أنه أكثر شُونيزُه[٢].

ونظر محمد بن عبّاد إلى أبي عُبَيْدٍ وهو يقيِّد البسملة فقال: لو عَرفتَه ما شكَلْتَه. ومنه مَن حمِده فقال: حَلُّوا عواطلَ الكتب بالتقييد، وحصِّنوها من شبَهِ التصحيف والتحريف.

وقيل: إعجامُ الكتب يَمنع من ٱستعجامها، وشكلُها يصونها عن إشكالها.

قال الشاعر[٣]: [من الكامل]

وكأنّ أحرُفَ خطّه شجرٌ والشكلُ في أغصانه ثمرُه

وأما ما قيل في حسن الخطّ وجودةِ الكتابة ومدح الكُتَّاب والكِتاب.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط الحسَن يزيد الحقَّ وضوحًا.

وقال: حُسن الخطّ إحدى البلاغتين.

وقال عُبيد الله بنُ العباس: الخط لسان اليدِ. وقال جعفر بن يحيىٰ: الخطّ سِمْطُ[٤] الحكمة، به تُفصَّل شذورُها، ويَنتظم منثورُها؛ وقال أبو هلال العسكريُّ[٥]: [من الكامل]

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي. كان سيدًا نبيلًا عالي الهمة شهمًا اعتمد عليه المأمون وولاه الدينور وحارب الخوارج في خراسان، كما تولى الشام مدة ومصر مدة. وكان إلى ذلك أديبًا ظريفًا وجيد الغناء. توفي في نيسابور سنة ٢٣٠ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٧١ ـ ٢٧٥).

(٢) شُونيزُهُ: الحبة السوداء (فارسية).

(٣) الشاعر هو أحمد بن إسماعيل بن نطاحة. وقد مرت ترجمته في هامش الصفحة ٩.

(٤) السِّمْطُ: خيط النظم، الجمع سموط.

(٥) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، أديب وناقد ولغوي، اشهر كتبه «كتاب الصناعتين أي الشعر والنثر. نسبته إلى عسكر مُكْرم في الأهواز، توفي سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م. (الزركلي، الأعلام).

الكَتْبُ عَقْلُ شوارد الكلم　　والخطّ خيْط في يد الحِكَم
والخطّ نظَّم كلَّ منتشر　　منها وفَصَّل كلَّ منتظم
والسيفُ وهو بحيث تعرفه　　فرضٌ عليه عبادةُ القلم

وقد اَختلف الناس في الخطّ واللفظ، فقال بعضهم: الخطّ أفضلُ من اللفظ لأن اللفظ يُفْهِم الحاضرَ، والخطُّ يُفْهِم الحاضرَ والغائبَ.

قالوا: ومن أعاجيب الخطّ كثرةُ اَختلافه والأصلُ فيه واحدٌ، كاختلاف صور الناس مع اَجتماعهم في الصِّبغة. قال الصُّولي[1]: سئل بعض الكتاب عن الخطّ متى يستحقّ أن يوصف بالجودةِ؟ قال: إذا اَعتدلت أقسامُه، وطالت ألفه ولامُه؛ واَستقامت سطورُه، وضاهى صعودَه حدورُه؛ وتفتّحت عيونُه، ولم تشتبه راؤه ونونُه؛ وأشرق قرطاسُه، وأظلمت أنقاسُه[2]، ولم تختلف أجناسُه؛ وأسرع إلى العيون تصوّرُه، وإلى القلوب ثمرُه؛ وقُدّرت فصولُه، واَندمجت وُصولُه، وتناسَبَ دقيقُه وجليلُه؛ وتساوت أطنابُه، واَستدارت أهدابُه؛ وخرج عن نَمَطِ الورّاقين، وبعُد عن تصنُّع المحرّرين؛ وقام لكاتبه مقام النِّسبة والحِلية وكان حينئذ كما قلتُ في صفة الخطّ: [من المتقارب]

إذا ما تَخلَّل قرطاسَه　　وساوره القلمُ الأرقَشُ[3]
تَضمَّن من خطِّه حُلَّةً　　كمثل الدنانير أو أنقَشُ
حروف تكون لعين الكَليلِ　　نشاطًا ويقرؤها الأخفَشُ[4]

وقال اَبن المعتزّ: [من الطويل]

إذا أَخذ القرطاسَ خِلتَ يمينَه　　تُفَتِّح نَوْرا أو تنظِّم جوهرا

وقيل لبعضهم: كيف رأيت إبراهيمَ الصُّوليَّ؟[5] فقال: [من البسيط]

(١) هو أبو بكر محمد بن يحيىٰ بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول. وصول جده الأبعد وإليه ينسب وليس إلى بلدة صول المعروفة. أديب كبير اتصل بالخلفاء ونادمهم ولعب وإياهم الشطرنج كالراضي والمقتدر والمكتفي. أهم تصانيفه «أدب الكاتب»، «أخبار أبي تمام»، «أخبار السيد الحميري»، «أخبار القرامطة». توفي سنة ٣٣٦ هـ بالبصرة. (الأعلام، للزركلي).
(٢) أنقاس: جمع نِقس، وهو المداد.
(٣) الأرقش: الذي فيه نقط سوداء وبيضاء.
(٤) الأخفش: الضعيف البصر.

يـؤلّف الـلُّؤلـؤَ الـمـنـثـورَ مَـنْـطِـقُـه ... ويـنظِم الـدرَّ بـالأقـلام فـي الـكـتـب

وقال آخرُ[1]: [من السريع]

أضـحـكْـتَ قـرطـاسَـك عـن جَـنَّـةٍ ... أشـجـارهـا مـن حـكَـم مـثـمـره

مـسـودَّة سـطـحًـا ومـبـيـضَّـة ... أرضًـا كـمـثـل الـلـيـلة الـمـقـمـره

وقال آخرُ: [من الطويل]

كـتـبـتَ فـلَوْلا أنّ هـذا مُـحـلَّلٌ ... وذاك حرامٌ قستُ خطّك بالسحر

فـوالله مـا أدري أزهـرُ خـمـيـلةٍ ... بِطِرْسِكَ أم درّ يلوح على نحر[2]

فإن كان زهرًا فهو صنع سحابة ... وإن كان درًّا فهو من لُجج البحر

وقال آخرُ: [من السريع]

وكـاتـبٍ يـرقُـم فـي طِـرسِـه ... روضًـا بـه تـرتـع ألـحـاظُـه

فـالـدرّ مـا تـنـظِـم أقـلامُـه ... والـسـحـر مـا تـنـثِـرُ ألـفـاظُـه

وقال آخرُ: [من البسيط]

وشادنٍ من بني الكُتّاب مقتدر ... على البلاغة أحلى الناسِ إنشاءَ

فلا يـجـاريـه فـي مَـيْـدانـه أحـد ... يريك سَحبانَ في الإنشاء إن شاءَ[3]

وقال آخرُ: [من البسيط]

إن هـزّ أقـلامَـه يـومًـا لِـيُـعْـمِـلَـهَـا ... أنـسـاك كـلَّ كـمـيٍّ هـزَّ عـامـلـه[4]

وإن أمـرَّ عـلـى رِقٍّ أنـامـلـه ... أقـرّ بـالـرقّ كـتّـاب الأنـام لـه[5]

---

(١) هو أبو العباس بن محمد بن صول. أحد الشعراء المجيدين. وله نثر بديع. اتصل بالفضل بن سهل، ذي الرئاستين، وتولى الكتابة في الدواوين حتى وفاته بسُر مَن رأى سنة ٢٤٣ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٥ ـ ٢٩).

(٢) هو أحمد بن إسماعيل المعروف بابن نطاحة، كما جاء في أدب الكتاب (مرت ترجمته على هامش الصفحة ٩).

(٣) الطرس: جمع أطراس وطروس، الصحيفة.

(٤) سحبان: هو سحبان وائل، ضرب به المثل في البيان البلاغة والخطابة، ترجم له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين في أماكن عدة، ما ذكره في كتاب الحيوان، المقدمة في مدح الكتب.

(٥) عامل الرمح: وسطه.

(٦) الرق: (١) الصحف يكتب عليها؛ (٢) العبودية.

وقال أبو الفتح كُشاجِمُ(١): [من الخفيف]

وإذا نمنمت بنانُك خطًّا ... مُعْرِبًا عن بلاغة وسَدادِ
عَجِب الناسُ من بياض معانٍ ... تُجتنى من سواد ذاك المِدادِ

وقال الممشوق(٢) الشاميّ شاعر اليتيمة: [من المنسرح]

لا يُخْطِر الفكرَ في كتابته ... كأنّ أقلامَه لها خاطر
القولُ والفعل يجريان معًا ... لا أوّلٌ فيهما ولا آخر

قال أبو عثمانَ عمرو بن بحر الجاحظ: الكتاب نِعم الذُّخر والعُقْدة(٣)، ونِعم الجليس والعمدة، ونِعم النُّشْرة(٤) والنُّزهة، ونِعم المُشْتَغَلُ والحِرفة، ونِعم الأنيس ساعة الوُحدة ونِعم المعرفة ببلاد الغُرْبة، ونِعم القَرين والدَّخيل، والوزيرُ والنَّزيل؛ والكتاب وِعاء مُلِيء علمًا، وظَرْف حُشِيَ ظَرْفًا، وإناء شُحِنَ مُزاحًا وجِدًّا، إن شئتَ كان أبْينَ من سحبانِ وائل، وإن شئتَ كان أعيا من باقِل(٥)، وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره وعجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت أَلْهَتْكَ نوادرُه، وإن شئت شَجَتْك مواعظُه ومَنْ لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجر مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وناطقٍ أخرسَ، وببارد حارّ ومن لك بطبيب أعرابيّ، وبروميّ هنديّ، وفارسيّ يونانيّ، وبقديم مُوَلَّد، وبميت مُمتِع، ومن لك بشيء يجمع لك الأوّلَ والآخرَ، والناقصَ والوافرَ، والشاهدَ والغائبَ والرفيعَ والوضِيع، والغثّ والسمِين، والشكلَ وخلافَه، والجنس وضدّه؛ وبعد: فمتى رأيت بستانًا يُحمَلُ في رُدْن(٦)؟ وروضةً تُقلَّب في حِجر؟ ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومك، ولا ينطق إلّا بما تهوَى، «آمن من الأرض» وأكتمُ للسر من صاحب السرّ، وأضبطُ لحفظ الوديعة من أرباب الوديعة، وأحضر لما أُستحفِظ من الأمّيين، ومن الأعراب المعْرِبين، بل

(١) هو أبو الفتح محمود كُشاجم السندي، عمل طباخًا في بلاط سيف الدولة الحمداني، وتعاطى التنجيم، وتوفي سنة ٩٦١ م. له كتاب «أدب النديم» الذي طبع في القاهرة سنة ١٨٠٣ م. ونسب إليه كتب البزيرة» في الصيد وهو مخطوط في غوط. (المنجد).
(٢) الممشوق أو المشوق الشامي هو عبد المحسن بن محمد الصوري. (اليتيمة، ج ١، ص ٢٣٥، المطبعة الحنفية). لعله عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري، ولد وعاش ومات في صور.
(٣) العقدة: ما يحفظ به الإنسان ويحكم إغلاقه.
(٤) النشرة الرقية التي يعالج بها المريض، سميت نشرة لأنها تنشر الداء وتكشفه وتزيله.
(٥) شخص ضرب به المثل بالعي.
(٦) الردن: أصل الكم، جمعه أردان.

من الصِّبيان قبل اعتراض الأشغال، ومن العُميان قبل التَمَتُّع بتمييز الأشخاص، حِينَ العنايةُ تامة لم تُنتقصْ والأذهانُ فارغة لم تُقتَسَمْ، والإراداتُ وافرة لم تتشعب، والطينةُ لينة فهي أَقْبَلُ ما تكون للطابِعَ، والقضيبُ رَطْب فهو أقرب ما يكون للعُلُوق، حينَ هذه الخصالُ لم يُلبَس جديدُها، ولم تتفرّقْ قواها، وكانت كقول الشاعر: [من الطويل]

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغًا فتمكّنا

وقال ذو الرُمَّة[(١)] لعيسى بن عمَر[(٢)]: أُكتُبْ شعري، فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ لأن الأعرابيّ يَنسَى الكلمةَ قد تعب في طلبها يومًا أو ليلةً، فيضع موضعَها كلمة في وزنها لم يُنشِدْها الناس، والكتابُ لا يَنسى ولا يُبدِّلُ كلامًا بكلام. قال: ولا أعلم جارًا أبرَّ، ولا خليطًا أنصَفَ، ولا رفيقًا أطوعَ، ولا معلّمًا أخضَعَ، ولا صاحبًا أظهَر كفايةً، ولا أقلَّ خيانةً، ولا أقلّ إبرامًا وإملالًا، ولا أقل خلافًا وإجرامًا ولا أقلّ غِيبةً، ولا أكثرَ أُعجوبةً وتصرّفًا، ولا أقلَّ صَلَفًا وتكلُّفًا، ولا أبعدَ من مِراء، ولا أترَكَ لشَغْب، ولا أزهدَ في جدال، ولا أكَفَّ عن قتال من كتاب؛ ولا أعلمُ شجرةً أطولَ عمرًا، ولا أجمعَ أمرًا، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقربَ مُجتَنًى ولا أسرعَ إدراكًا، ولا أوجَدَ في كل إبّانٍ[(٣)] من كتاب؛ ولا أعلمُ نَتاجًا في حداثة سنّه وقربِ ميلاده، وحضورِ ذهنه، وإمكانِ موجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلومِ الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلادِ المتراخية، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب؛ وقد قال الله تبارك اسمه لنبيه ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العَلق: الآيتان ٣، ٤] فوصف نفسه تعالى جَدّه بأن علّم بالقلم، كما وصف نفسَه بالكرم، واعتدّ ذلك من نعمه العظام، وفي أيادِيه الجِسام[(٤)].

---

(١) ذو الرُمة: هو الشاعر غيلان بن عقبة، بدوي تردد على البصرة والكوفة، وأغرم بحب مية وشبب بها، وعاصر جرير أو الفرزدق. وترك ديوان شعر يحوي ثلثي لغة العرب. توفي سنة ١١٧هـ ودفن في البادية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٨٤ ـ ١٨٩).

(٢) عيسى بن عمر: هو أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري. عرف بتقصيره في كلامه واستعمال الغريب فيه، وبقراءته. أخذ عنه سيبويه النحو وقد ألف فيه كتابًا سماه «الجامع» وأخذ عنه الخليل بن أحمد والأصمعي القراءات. توفي سنة ٢٤٩ هـ (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٤).

(٣) الإبان: الوقت والحين.

(٤) هذا النص مستل من كتاب الحيوان للجاحظ مع شيء من التصرف. وقد ورد في الجزء الأول=

ذكر شيء مما قيل في آلات الكتابة

قال إبراهيم بن محمد الشَّيبانيُّ فيما يحتاج إليه الكاتب:

من ذلك أن يصلح الكاتب آلته التي لا بدّ منها، وأداتَه التي لا تتمّ صناعتُه إلا بها، وهي دواته، فليُنعِمْ ريّها وإصلاحها، ثم يتخير من أنابيب القصب أقلّه عُقَدًا وأكثَفَه لحمًا، وأصلَبَه قشرًا، وأعدلَه أستواءًا، ويجعل لقرطاسه سكّينًا حادًّا لتكون عونًا له على بري أقلامه، ويَبريها من جهة نبات القصبة، فإنّ محلّ القلم من الكاتب كمحلّ الرمح من الفارس. وقد خَصَّ الفضلاءُ القلَم بأوصاف كثيرة، ومزايا خطيرة فلنذكر منها طَرَفًا.

ذكر شيء مما قيل في القلم

قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: الآية ١]، وقال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العَلق: الآيتان ٣، ٤].

وقال الحكماء: القلم أحد اللسانين، وهو المخاطِب للعيون بسرّ القلوب. وقالوا: عقول الرجال تحت أسنّة أقلامها. بِنَوْءِ[١] الأقلام يصُوب غيث الحكمة. القلم صائغ الكلام، يُفرِغ ما يجمعه القلب، ويصُوغ ما يسبِكه اللُّبّ.

وقال جعفر بن يحيىٰ: لم أر باكيًا أحسنَ تبسمًا من القلم.

وقال المأمون: لله درّ القلم كيف يَحُوك وَشْي المملكة!.

وقال ثُمامة بن أَشْرَس[٢]: ما أَثَّرته الأقلامُ، لم تطمع في دَرسه الأيام. بالأقلام تُدَبَّرُ الأقاليمُ. كتاب المرء عُنوان عقله، ولسان فضله. عقل الكاتب في قلمه.

وقال ابن المعتزّ: القلم مُجهِّزٌ لجيوش الكلام، يُخدِم الإرادة كأنه يقبِّل بِساط سلطان، أو يفتِّح نُوَّار بستان.

= فيه، وفي المقدمة، وفي الصفحة ٣٢ ـ ٣٥ من طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت الأولى، سنة ١٩٨٦.

(١) النوء: النجم إذا مال للمغيب، جمعه أنواء ونوآن، أو المطر وكانوا يعتقدون أن الأمطار والرياح والبرد تتعلق بحركة الأنواء أو النجوم.

(٢) ثمامة بن أشرس: متكلم معتزلي كبير، اتصل بالمأمون وحظي عنده. وقال بحرية الإنسان، وكان سيىء الظن بالعامة ويكره معاوية كرهًا شديدًا. وكان إلى ذلك بذيء اللسان ميالًا للانتقام من خصومه. استغل حظوته لدى المأمون لنصرة المعتزلة ومذهبهم. (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص ٦٢ ـ ٦٧).

وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلال: منها جَودةُ بري القلم وإطالةُ جِلْفَته[١]، وتحريفُ قطّته، وحُسْن التأتّي لامتطاء الأنامل، وإرسالُ المَدّة بعد إشباع الحروف، والتحرُّز عند فراغها من الكسوف، وتركُ الشكل على الخطإ والإعجام على التصحيف.

وقال العَتَّابيّ: سألني الأَصْمَعِيُّ في دار الرشيد: أيّ الأنابيب للكتابة أصلَحُ وعليها أَصْبَرُ؟ فقلت له: ما نَشِف بالهجير[٢] ماؤه، وستَره من تلويحه غِشاؤه؛ من التِّبْرِيَّة[٣] القشور، الدُّرِّيَّة الظهور، الفضّيّة الكسور؛ قال: فأي نوع من البري أصوبُ وأكتَبُ؟ فقلت: البِرية المستوية القَطّة التي عن يمين سنها برية تؤمن معها المَجَّة عند المدة والمطَّة، للهواء في شقّها فتيق، والريحُ في جوفها خَريقٌ[٤]، والمداد في خُرطومها رقيق. قال العتابيّ: فبقيَ الأصمعيّ شاخصًا إليّ ضاحكًا، لا يُحِير مسألة ولا جوابًا.

وكتب عليّ بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلامًا: أما بعد: فإنا على طول الممارَسة لهذه الكتابة التي غَلبت على الاسم، ولزمت لزومَ الوَسم[٥]؛ فحلّت محل الأنساب، وجرت مَجرى الألقاب؛ وجدنا الأقلام الصُّخريّة[٦] أجرى في الكواغد[٧] وأمرَّ في الجلود، كما أنّ البحريّة منها أسلسُ في القراطيس، وألْيَنُ في المعاطف وأشد لتعريف الخط فيها، ونحن في بلد قليلِ القصب رديئِه، وقد أحببتُ في أن تتقدّم في اختيار أقلام صُخريّة، وتتنوّق[٨] في ٱقتنائها قِبلك، وتطلبَها من مظانّها ومنابتها من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيمّن[٩] بٱختيارك منها الشديدةَ الصُّلبةَ النقيّةَ الجلود، القليلةَ الشحوم، الكثيرةَ اللحوم، الضيقةَ الأجواف، الرزينةَ الْمَحمِل فإنها أبقى على الكتابة، وأبعدُ من الحَفَا، وأن تقصد بٱنتقائك للرِقاق القُضبان المقوّماتِ المتون، الْمُلْسِ المَعَاقد، الصافيةِ القشور، الطويلةِ الأنابيب، البعيدةِ ما بين الكعوب، الكريمةِ الجواهر، المعتدلةِ القوام، المستحكِمةِ يَبَسًا وهي قائمةٌ على أصولها، لم تُعجَل عن إبَّان ينعها، ولم تؤخَّر إلى الأوقات المخُوفة عليها من

(١) جلفة القلم: ما بين مبراه إلى سنة.
(٢) الهجير: شدة الحر.
(٣) التبرية: نسبة إلى التبر أي الذهب.
(٤) الخريق: الذي يتخلله الهواء أو يخرقه.
(٥) الوسم: أثر الكي.
(٦) الصخرية: نسبة إلى الصخرة: وهي أرض وسط الحرة كثيرة الحجارة.
(٧) الكواغد: جمع كاغد أي القرطاس أو الورق.
(٨) تتنوق: تتأنق.
(٩) تتيمن: الأصح تتيمم أي تقصد.

خَصَر[١] الشتاء وعَفَن الأنداء[٢]؛ فإذا اَستجمَعَتْ عندك أمرت بقطعها ذراعًا قَطْعًا رقيقًا، ثم عبأت منها حُزَمًا فيما يصونها من الأوعية، ووجِّهتها مع من يؤدّي الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها وتكتب معها بعدّتها وأصنافها بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

وأهدى ابن الحَرُون[٣] إلى بعض إخوانه أقلامًا وكتب إليه:

إنه لما كانت الكتابة ـ أبقاك الله ـ أعظمَ الأمور، وقِوامَ الخلافة، وعمودَ المملكة أتحفتك من آلتها بما يخف حَمله، وتثقُل قيمتُه، ويعظُم نفعُه، ويجلّ خطرُه، وهي أقلام من القصب النابت في الصحراء الذي نَشِف بحرّ الهجير في قشره ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه؛ فهي كاللآليء المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوبة في السَدَف[٤]؛ تِبريّة القشور، دُرّية الظهور، فضية الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهرًا كالوَشْي المحَبَّر، ورونقًا كالديباج المنيَّر.

ومن كتاب لأبي الخطاب الصابي ـ يصف فيه أقلامًا أهداها في جملة أصناف ـ جاء منه:

وأضفتُ إليها أقلامًا سليمةً من المعايب، مبرّأةً من المثالب؛ جَمّةَ المحاسن بعيدةً عن المطاعن؛ لم يُرَ بها طول ولا قصر، ولم يَنقُصها ضعف ولا خَور؛ ولم يَشِنْهَا لِينٌ ولا رَخاوة، ولم يعبها كَزَازة[٥] ولا قساوة؛ فهذه آخذةٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفيةٌ للممادح بسائر صفاتها؛ صُلْبةُ المعاجم، لَيِّنَةُ المَقَاطع؛ مُوفيةُ القدود والألوان، محمودةُ المَخْبَر والعِيان؛ قد اَستوى في الملاسة خارجُها وداخلُها، وتَناسَب في السلاسة عاليها وسافلُها؛ نبتت بين الشمس والظلّ، واختلف عليها الحرّ والقُر؛ فلفَحها وَقَدَانُ[٦] الهواجر، وسفعتها سمائم شهر ناجر[٧]؛ ووقذها الشَّفَّانُ بصَرْدِه[٨]، وقذفها الغمام بِبَرْده؛ وصابتها الأنواء بصَيِّبِها[٩]، واَستهلّت عليها السحائب

---

(١) خصر الشتاء: برده.

(٢) الأنداء: جمع الندى. قطرات الماء المتكاثفة.

(٣) ابن الحرون: هو محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبغ بن الحرون من أهالي بغداد.

(٤) السدف: ظلمة الليل. (٥) الكزازة: اليبس والانقباض.

(٦) وقدان: حر.

(٧) ناجر: كل شهر فيه حرارة شديدة يدعى ناجرًا لأن الإبل تنجر فيه أي يشتد عطشها.

(٨) وقذها الشفان بصرده: وقذ: ضرب. الشفان: الريح الباردة مع المطر. الصرد: البرد.

(٩) الصيب: المطر.

بشآبيبها[١]؛ فاستمرّت مرائرها[٢] على إحكام، وأستحصد سَحْلُها بالإبرام[٣]؛ جاءت شَتَّى الشِيات[٤]، متغايرَة الهيئات، متباينةَ المحالّ والبُلدان؛ تختلف بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجارها؛ فمن أنابيبَ ناسبت رماحَ الخَطّ في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحرير في لمعانها؛ بطيئةُ الحفا[٥]، مُمَرّة القُوَى؛ لا يُشظيها[٦] القطّ، ولا يُشعّث[٧] بها الخط؛ ومن مصريّةٍ بيض، كأنها قُباطيُّ[٨] مصر نقاء، وغِرْقِيءُ البَيض[٩] صفاء؛ غذاها الصعيد من ثراه بلبّه وسقاها النيل من نمِيره وعذبه؛ فجاءت ملتئمةَ الأجزاء، سليمةً من الالتواء؛ تستقيم شقوقُها في أطوالها، ولا تنكُب عن يمينها ولا شِمالها؛ تقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ[١٠] قُرن بلُجَين[١١]، أو ورقٌ خلط بعَيْن[١٢]؛ تختال في صُفر مَلاحفها، وتميس في مُذهب مَطارفها[١٣]؛ بلون غياب الشمس، وصِبغ ثياب الوَرْس[١٤]، ومن منقوشة تَرُوق العين، وتُونق النّفس؛ ويهدي حسنُها الأرْيَحيّةَ إلى القلوب، ويحُلّ الطرب لها حَبْوَةَ الحكيم اللبيب؛ كأنها أختلافُ الزهر اللامع، وأصنافُ الثمر اليانع؛ ومن بحريَّة مَوْشيَّةِ اللِّيط[١٥] رائقةِ التخليط[١٦]؛ كأنّ داخِلَها قطرةُ دم، أو حاشيةُ رداء مُعَلم، وكأنّ خارجهَا أرْقَم، أو متنُ واد مُفْعم، نَشرت ألوانًا تُزرى بورد الخدود، وأبدت قامات تفضح أوَد[١٧] القُدود. [من الطويل]

وقد أكثر الشعراء القول في وصف القلم، فمن ذلك قول أبي تمّام الطائيّ: [من الطويل]

لـك الـقـلم الأعـلى الـذي بـشَـبـاتـه ... تصاب من الأمر الكُلَى والمفاصلُ

(١) شآبيب: جمع شؤبوب: الدفعة من المطر.
(٢) مرائرها: واحدة مريرة وهي الحبل المفتول، شبه بها القصب.
(٣) السحل: الحبل المفتول على طاقة واحدة. والإبرام: الحبل المفتول على طاقتين.
(٤) شتى الشيات: مختلفة الألوان.
(٥) بطيئة الحفا: لا يبريها أو ينقصها الجري على القرطاس والاحتكاك به. يقال: حفا شاربه أو شعره إذا بالغ في أخذه أو قصه.
(٦) يشظيها: يفتتها إلى شظايا أو قطع صغيرة.
(٧) يشعث: يفرق.
(٨) القباطي: ثوب أبيض رقيق يصنع في مصر.
(٩) غرقىء البيض: بياض البيض.
(١٠) العقيان: الذهب الخالص.
(١١) اللجين: الفضة.
(١٢) ورق خلط بعين: نقود ورقية على شكل دينار (عين).
(١٣) المطارف: الثياب المصنوعة من الخز.
(١٤) الورس: نبات أصفر.
(١٥) الليط: القشر.
(١٦) التخليط: التخطيط.
(١٧) الأود: الانحناء والتثني.

لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُه وأَرْيُ الجَنَى اشتارته أيدٍ عواسل[١]
له ريقةٌ طَلٌّ ولكنّ وَقعَها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقتَه وهو راكب وأعجَمُ إن خاطبتَه وهو راجل
إذا ما امتطى الخمسَ اللِّطافَ وأُفرِغت عليه شِعابُ الفكر وهي حوافل
أطاعته أطرافُ القنا وتقوّضت لنجواه تقويضَ الخِيام الجحافل
إذا استَغزر الذهنَ الجليَّ وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخِنصران وسَدَّدت ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل
رأيت جليلًا شأنُه وهو مرهَف ضنًى وسمينًا خَطبُه وهو ناحل

وقال آخر: [من البسيط]

قوم إذا أخذوا الأقلام من غضب ثم استمدّوا بها ماءَ المنيّات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعُدوا ما لم ينالوا بحدّ المَشْرَفِيَّات[٢]

وقال ابن المعتزّ: [من الخفيف]

قلم ما أراه أم فَلَك يَجري بما شاء قاسم ويَسير
خاشع في يديه يلقِمُ قرطا سًا كما قبَّل البِساط شكور[٣]
ولطيفُ المعنى جليل نحيف وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتفٍ وعيشٍ تَضُم تلك السطور
نَقَشتْ بالدجى نهارًا فما أدرى أخطٌّ فيهن أم تصوير

وقال محمد[٤] بن عليّ: [من البسيط]

في كفهِ صارمٌ لانَتْ مَضاربه يسوسنا رَغَبًا إن شاء أو رَهَبا
السيف والرمح خُدّام له أبدًا لا يَبلغان له جِدًّا ولا لعبا
تجري دماءُ الأعادي بين أسطره ولا يُحَس له صوت إذا ضَربا
فما رأيت مداداً قبل ذاك دمًا ولا رأيت حسامًا قبل ذا قَصبا

---

(١) الأري: عسل النحل. يقصد مداد القلم. (٢) يعني أن الكلام أشد فتكًا من السيوف.
(٣) يشبه جريان القلم على القرطاس بجريان السفينة في البحر.
(٤) الأصح نسبة هذه الأبيات إلى أبي بكر محمد بن يحيىٰ الصولي (سبقت ترجمته) من قصيدة يمدح بها محمد بن علي.

وقال ابن الروميّ: [من المتقارب]

لعمرك ما السيفُ سيفُ الكمّي / بأخوفَ من قلم الكاتب
له شاهد إن تأمّلتَه / ظهرتَ على سره الغائب
أداةُ المنيّة في جانبيه / فمِن مثلِه رهبةُ الراهب
ألم تر في صدره كالسنان / وفي الردِف كالمرهَف القاضب؟

وقال الرفّاء[1]: [من السّريع]

أخرسُ ينبيك بإطراقه / عن كل ما شئتَ من الأمر
يُذري على قرطاسه دمعَه / يُبدي لنا السرّ وما يدري
كعاشق أخفى هواه وقد / نمّت عليه عَبرةٌ تجري
تبصِره في كل أحواله / عُريانَ يكسو الناس أو يُعرِي
يُرَى أسيرًا في دواة وقد / أطلق أقوامًا من الأسْر

وقال آخر: [من السريع]

وذي عفافٍ راكعٍ ساجدٍ / أخو صلاح دمعه جاري
ملازم الخمسِ لأوقاتها / مجتهد في خدمة الباري

وقال ابن الروميّ: [من البسيط]

إن يخدُم القلم السيفُ الذي خضعت / له الرقابُ ودانت خوفَه الأمم
فالموت والموت لا شيءٌ يغالبه / ما زال يَتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيَت / أن السيوف لها مذ أرهِفت خَدم

وقال أبو الطيّب الأزديّ: [من الرّمل]

قلَم قلّم أظفار العدى / وهو كالإصبع مقصوصَ الظُّفُر
أشبه الحيّة حتى أنه / كلما عُمِّر في الأيدي قَصُر

---

(١) الرفاء: هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الموصلي الشاعر المعروف. كان في صباه يرفو ويطرز في دكان الموصل، ولكنه كان مولعًا بالأدب وينظم الشعر. قصد سيف الدولة الحمداني في حلب ومدحه وبعد موته قصد بغداد ومدح الوزير المهلبي. يمتاز شعره بالطبعية والعذوبة وحسن التشبيهات والأوصاف. توفي في بغداد سنة ٣٦٤ هجرية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٠٤ ـ ١٠٦).

وقال أبو الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشميّ: [من الطويل]

وأسمرَ طاوي الكَشحِ أخرسَ ناطق له زَمَلان [١] في بطون المَهارق [٢]

ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الأمور الكلية [٣]

قال شهاب الدين أبو الثناء محمودُ بنُ سليمانَ الحلبيُّ في كتابه «حسن التوسل»: فأوّل ما يبدأ به من ذلك حفظُ كتاب الله تعالى، ومداومةُ قراءته، وملازمةُ درسه وتدبُّرُ معانيه حتى لا يزال مصوّرًا في فكره، دائرًا على لسانه، ممَثلًا في قلبه، ذاكرًا له في كل ما يرِد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويَفتقِر إلى إقامة الأدلّة القاطعة به عليها؛ وكفى بذلك معِينًا له في قصده، ومغْنيًا له عن غيره، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٨].

وقد أُخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم ومخاطَباتهم مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجزِ الإنس والجنّ عن الإتيان بسورة من مثله؛

ومن ذلك أن سائلًا قال لبعض العلماء: أين تجد في كتاب الله تعالى قولَهم: الجار قبل الدار؟ قال: في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التّحريم: الآية ١١] فطلبت الجارَ قبل الدار، ونظائرُ ذلك كثيرة. وأين قول العرب: «القتلُ أنفَى للقتلِ» لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٩]. وأكثر الناس على جواز الاستشهاد بذلك ما لم يحوَّلْ عن لفظه، ولم يغيَّرْ معناه.

فمن ذلك ما رُوِي في عهد أبي بكر رضي الله عنه: هذا ما عهد أبو بكر خليفةُ رسول الله ﷺ آخرَ عهدِه بالدنيا، وأوّلَ عهدِه بالآخرة، إني استخلفت عليكم عمرَ بنَ الخطّاب، فإن برّ وعَدَل فذلك ظنّي به، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردتُ بكم، ولكل امرىء ما اكتسب من الإثم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧].

---

(١) الزملان: مشي الدابة. (٢) المهارق: واحدة مُهرق، وهي الصحف.

(٣) ما هو محصور بين مربعين يعني أنه لم يرد في الأصل. وقد استل من كتاب اسمه «حسن التوسل».

ورُوي أن عليًا رضي الله عنه قال لِلمُغيرة بنِ شُعْبةَ(١) لما أشار عليه بتولية معاوية: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: الآية ٥١].

وكتب في آخر كتاب إلى معاوية: وقد علمتَ مواقع سيوفنا في جدّك وخالك وأخيك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٣].

وقول الحسن بن علي عليه السلام لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١١١]، ورُوِي مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكتب الحسن إلى معاويةَ: أما بعد، فإن الله بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، ورسولًا إلى الناس أجمعين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يسۤ: الآية ٧٠].

وكتب محمد بنُ عبد الله بنِ الحسن بنِ الحسن بنِ علي(٢) إلى المنصور في صدر كتاب لمّا حاربَه: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ١، ٢]، ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القَصَص: الآيات ٣ ـ ٦]. ونَقَضَ عليه المنصور في جوابه عن قوله: «إنه ابنُ رسول الله ﷺ» بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزَاب: الآية ٤٠].

ونُقِل عن الحسن البصريّ(٣) رحمه الله ما يدل على كراهية ذلك، فقال حين بلغه أن الحجاج أنكر على رجل استشهد بآية: أَنسِيَ نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان: بلغني أن أمير المؤمنين عطس فشمَّتَهُ من حضر فَرَدَّ عليهم ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ

---

(١) المغيرة بن شعبة: صحابي ثقفي كوفي، أسلم يوم الخندق، وشهد الحديبية، ولاه عمر بن الخطاب البصرة، شارك في معارك القادسية ونهاوند وذهبت عينه يوم اليرموك. عرف بالدهاء، وحكم الكوفة وأخذ الفتن بين الشيعة والخوارج. توفي بالطاعون سنة ٦٦٦ هـ. (المنجد).

(٢) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي (. ٧٦٢ م). لقب بالنفس الزكية، أمضى حياته يطالب الأمويين والعباسيين بالخلافة بشجاعة وهمة حتى قتل سنة ٧٦٢ م في المدينة. (المنجد).

(٣) الحسن البصري: (٦٤٢ ـ ٧٢٨ م)، ولد في المدينة ونشأ في وادي القرى، واستقر في البصرة حيث توفي. انصرف إلى الوعظ والعبادة في جامع البصرة وعرف بورعه وتقاه وتقشفه. أثبت له الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مجموعة كبيرة من المواعظ والحكم واعتبره أصحاب الفرق الدينية رئيسهم كالمعتزلة والمتصوفة والمرجئة لأنه جمع كل فن في علم وزهد وورع وعبادة، ورفض مبايعة يزيد بن معاوية. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٥٤).

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية ٧٣]؟ وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكارُه على الحجاج لأنه أنكر على غيره ما فعله هو. وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسَه لا يجوز أن يُستشهدَ به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: الآية ١٦]. وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٨٠] ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامةُ الحجة، وقطعُ النزاع، وإرغامُ الخصم كما رُوي أن الحجاج قال لبعض العلماء: أنت تزعم أن الحسين رضي الله عنه من ذرية رسول الله ﷺ، فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله عز وجل، وإلا قتلتك؛ فقرأ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: الآيات ٨٣ - ٨٥] وعيسى هو ابنُ بنته؛ فأسكت الحجاج. وقد تقوم الآيةُ الواحدةُ المستشهد بها في بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطوّلة، والأدلّةُ القاطعةُ؛

وأقرب ما اتفق من ذلك أن صلاح الدين[1] رحمه الله كتب إلى بغداد كتابًا يعدِّد فيه مواقفه في إقامة دعوة بني العباس بمصر، فكُتب جوابُه بهذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحُجرَات: الآية ١٧].

وكتب أمير المسلمين يعقوبُ بنُ عبد المؤمن إلى الأذْفُونش[2] مَلكِ الفرنج جوابًا عن كتابه إليه ـ وكان قد أبرق وأرعد فكتب في أعلاه ـ:

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النّمل: الآية ٣٧].

---

(١) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ هـ = ٥٨٩ هـ/ ١١٣٧ م ـ ١١٩٣ م) هو مؤسس الدولة الأيوبية، ولد في تكريت ونشأ وتوفي في دمشق، وسيطر على بلاد الشام ومصر وحارب الصليبيين وهزمهم في وقعة حطين سنة ١١٨٧ وفتح القدس. عرف بشجاعته وكرمه وقناعته وتواضعه وكان رفيق الناس، ورجل سياسة وحرب. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو ألفونس الثاني ملك البرتغال (١٢١١ ـ ١٢٢٣ م). حارب العرب وغلبهم في عدة مواقع أهمها موقعة «قصر الملح». (المنجد).

ومما جوّزوا الاستشهاد به ما لا يقصد به إلا التلويحُ إلى الآية دون اطّراد الكلام نحو قول القاضي الفاضل[(١)] مما كَتب به إلى الخليفة عن الملك الناصر صلاح الدين في الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى﴾ [المَائدة: الآية ٢٥] وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة. وأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالةُ معنى عما أريدَ به فلا يجوز، وينبغي العدل عنه ما أمكن.

ويتلو ذلك الاستكثارُ من حفظ الأحاديث النبوية ـ صلوات الله وسلامه على قائلها ـ وخصوصًا في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها وفصاحتها وفقهُ ما لا بدّ من معرفته من أحكامها، ليحتج بها في مكان الحجة، ويستدل بموضع الدليل، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص سُلِّم له، والفصاحةُ إذا طُلِبت غايتُها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامعَ الكَلِم. وينبغي أن يراعى في الحَلِّ لفظ الحديث ما أمكن، وإلا فمعناه.

ويتلو ذلك قراءةُ ما يتفق من كتب النحو التي يحصل بها المقصود من معرفته العربيةَ، فإنه لو أتى الكاتب من البلاغة بأتمّ ما يكون ولَحن ذهبت محاسن ما أَتَى به وانهدمت طبقةُ كلامه، وألغِيَ جميعُ ما حسَّنه، ووُقِف به عند ما جهِله.

ويتعلق بذلك قراءة ما يتهيأ من مختصرات اللغة، كالفصيح، وكفاية المتحفظ وغيرِ ذلك من كتب الألفاظ ليتسعَ عليه مجال العبارة، وينفتحَ له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، ويضطر إلى نعته.

ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم، ومخاطباتِهم ومحاوراتِهم ومراجعاتِهم ومكاتباتِهم، وما ادّعاه كلّ منهم لنفسِه أو لقومه، وما نقضه عليه خَصمُه، لما في ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها، وتلقِّي الحوادث بما شاكلها والاقتداءِ بطريقة من فَلَجَ[(٢)] على خصمه، واقتفاءِ[(٣)] آثار من اضطُر إلى عذر، أو إبطال دعوى أو إثباتها، والأجوبَةِ الدامغةِ[(٤)]؛ فتأملْه في موضعه فإنك ستقف منه على ما استغنى به عن ذلك.

---

(١) القاضي الفاضل (١١٣٥ ـ ١٢٠٠) وزير صلاح الدين الأيوبي رافقه في رحلاته وتولى تدبير الدواوين، وبعد وفاته توسط لحل النزاع بين أولاده. (الزركلي، الأعلام).

(٢) فلج: ظفر. (٣) اقتفاء: تتبع.

(٤) الدامغة: المبطلة والماحقة.

ثم النظرُ في أيام العرب ووقائعهم وحروبِهم، وتسميةُ الأيام التي كانت بينهم، ومعرفةُ يوم كل قبيلة على الأخرى، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمنافَسات، لما في ذلك من العلم بما يُستشهَد به من واقعةٍ قديمةٍ، أو يَرِد عليه في مكاتبةِ مَنْ ذَكَرَ يومًا مشهورًا، أو فارسًا معيَّنًا وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في فنّ التاريخ على ما ستقف عليه؛ فإن صاحب هذه الصناعة إذا لم يكن عارفًا بأيام العرب، عالمًا بما جرى فيها لم يدر كيف يجيب عمّا يَرِد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها، وحسبه ذلك نقصًا في صناعته وقصورًا.

ثم النظر في التواريخ ومعرفة أخبارِ الدول، لما في ذلك من الاطلاع على سِيَر الملوك وسياساتهم، وذكر وقائعهم ومكايدهم في حروبهم، وما اتّفق لهم من التجارِب؛ فإن الكاتب قد يُضطرّ إلى السؤال عن أحوال من سلف، أو يَرِد عليه في كتاب ذكرُ واقعة بعينها، أو يُحتج عليه بصورة قديمة فلا يَعرِف حقيقتها من مجازها؛ وقد أوردنا في فن التاريخ ما لا يحتاج الكاتب معه إلى غيره من هذا الفن.

ثم حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها، واستكشافُ غوامضها والتوفُّرُ على ما اختاره العلماء بها منها، كالحماسة[١]، والمُفَضَّليّات[٢]، والأصمعيّات[٣]، وديوانِ الهُذَليِّين، وما أشبه ذلك، لما في ذلك من غزارةِ الموادِّ، وصحّةِ الاستشهاد، والاطلاع على أصول اللّغة، ونوادر العربيّة؛ وقد كان الصدر الأول يعتنون بذلك غاية الاعتناء، وقد حكي أن الإمام الشافعيّ رحمه الله كان يحفظ ديوان هُذَيل؛ فإذا أكثر المترشّح للكتابة من حفظ ذلك وتدبَّر معانيه سهُل عليه حَلّه، وظهرت له مواضع الاستشهاد به، وساقه الكلام إلى إبراز ما في ذخيرةِ حِفظِه منه، ووضعِه في مكانِه ونقلِه في الاستشهاد والتضمين إلى ما كأنه وضِع له، كما اتفق للقاضي أبي بكر[٤] الأرّجانيّ في تضمين أنصاف أبيات العربِ في

---

(١) كتاب للشاعر العباسي أبي تمام الطائي (... ـ ٨٠٤ م)، جمع فيه منتخبات شعرية من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي.

(٢) كتاب للشاعر والنحوي الكوفي المفضل الضبي (... ـ ٧٨٤ م) ضمنه مجموعة كبيرة من الأشعار من الجاهلية إلى العصر العباسي.

(٣) كتاب ألفه الراوية واللغوي الكبير عبد الملك الأصمعي (٧٤٠ ـ ٨٢٨ م) وضمنه مجموعة كبيرة من الأشعار من الجاهلية إلى عصره.

(٤) هو أحمد بن محمد بن الحسين الأرجان نسبة إلى مسقط رأسه في الأهواز. عمل قاضيًا لتستر وعسكر مكرم وله شعر كثير. وكان فقيهًا إلى جانب كونه شاعرًا وقد أشار إلى ذلك بقوله:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع ... في العصر أو أنا أفقه الشعراء

=

بعض قصائده، فقال: [من الوافر]

وأَهدِ إلى الوزيرِ المدح يجعل … لك المِرباعَ(١) منها والصفايا»(٢)
ورافِق رِفقة حلّوا إليه … فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا»(٣)
وقل للراحلين إلى ذراه … ألستم خيرَ من رِكِب المطايا»(٤)
ولا تسلُكْ سوى طرقي فإنّي … «أنا ٱبنُ جلا وطلّاع الثّنايا»(٥)

وقال بديع الزمان الهمذاني:

أنا لِقربِ دار مولاي «كما طرِب النشوان مالت به الخمر» ومن الارتياح إلى لقائه «كما ٱنتفض العصفور بلله القطر» ومن الامتزاجِ بوَلائه «كما ٱلتَقت الصهباء والبارد ٱلعذبُ» ومن الابتهاج بمزَارِه «كما اهتزّ تحت البارحِ الغصْن الرطبُ».

وكما قال ٱبن القرطبيّ وغيرُه في رسائلهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وكذلك حفظُ جانب جيّد من شعر المحدَثِين، كأبي تمّامٍ ومسلِم بن الوليد والبُحتريّ وابنِ الروميّ والمتنبيّ، للطف مَأخذِهم، ودَورانِ الصناعةِ في كلامهم، ودِقّةِ توليد المعاني في أشعارهم، وقربِ أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة.

وكذلك النظرُ في رسائل المتقدّمين دون حِفظها لما في النظر فيها من تنقيحِ القريحةِ، وإرشادِ الخاطرِ، وتسهيلِ الطرقِ، والنسجِ على مِنوال المُجيد، والاقتداءِ بطريقةِ المحسنِ، واستدراكِ ما فات القاصرَ، والاحترازِ مما أظهره النقدُ، وردِّ ما بهرجه السبكُ؛ فأمّا النهي عن حفظ ذلك فلئلا يتّكلَ الخاطرُ على ما في حاصلِه، ويستندَ الفكرُ إلى ما في مودَعه، ويَكتفي بما ليس له، ويتلبّسَ بما لم يُعطَ «كلابس

= عاش بين سنتي (٤٦٠ - ٥٤٤ هـ). (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٣٤ - ١٣٧).

(١) المرباع، ربع الغنيمة، وهي من نصيب الرئيس.

(٢) الصفايا: ما يصطفيه الرئيس من الغنائم.

(٣) هو صدر بيت من قصيدة عمرو بن كلثوم وعجزه:
«وأُبنا بالملوك مصفدينا»

(٤) هو صدر نيت لجرير من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان، وعجزه:
«وأندى العالمين بطون راح»

(٥) هو صدر بيت للشاعر سحيم بن وثيل، تتمته:
«متى أضع العمامة تعرفوني»
استشهد به الحجاج في خطبته الشهيرة عندما ولي على العراق.

ثوبَيْ زور»؛ وأمّا من قصد المحاضرةَ بذلك دون الإنشاءِ فالأحسنُ به حِفظُ ذلك وأمثالِه.

وكذلك النّظرُ في كتبِ الأمثالِ الواردةِ عن العرب نظمًا ونثرًا كأمثال المَيدانيّ[١] والمفَضَّل بنِ سلَمةَ الضبيّ وحمزةَ الأصبِهانيّ وغيرِهم، وأمثالِ المحْدَثين الواردة في أشعارهم، كأبي العتاهيةِ وأبي تمّام والمتنبيّ، وأمثالِ المُوَلَّدين؛ وقد أوردنا من ذلك في باب الأمثال جُملًا.

وكذلك النّظرُ في الأحكامِ السّلطانيّةِ، فإنه قد يأمر بأمر فيعرفُ منها كيف يخلُص قلمه إلى حكم الشريعةِ المطهّرةِ من توليةِ القضاءِ والحِسبةِ وغيرِ ذلك؛ وقد قدّمنا في هذا الكتابِ من ذلك طرَفًا جيّدًا. قال: فهذه أمور كليّة لا بدّ للمترشّح لهذه الصناعةِ من التّصَدي للاطّلاع عليها، والإكبابِ على مطالعتها، والاستكثارِ منها لِينفِق من تلك الموادّ، وليسلُكَ في الوصول إلى صناعته تلك الجوادّ، وإلا فليعلم أنه في وادٍ والكتابةُ في واد.

قال: وأمّا الأمور الخاصّةُ التي تزيد معرفتُها قدرَه، ويزين العلم بها نظمَه ونثْرَه، فإنّها من المكَمّلاتِ لهذا الفنّ وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذِهن الثاقبِ، والطبعِ السليم، والقريحةِ المطاوِعةِ، والفِكرةِ المنقّحةِ، والبديهةِ المُجيبةِ، والرويّةِ المتصرّفةِ، لكنّ العالمَ بها متمكّن من أزِمّة المعاني، يقول عن عِلْم، ويتصرّفُ عن معرفة، وينتقِدُ بحجّة، ويتخيّرُ بدليل، ويستحسِنُ ببرهانٍ، ويصوغُ للكلامَ بترتيبٍ؛ فمن ذلك علم المعاني والبيان والبديع، والكُتبُ المؤلّفةُ في إعجازِ الكتابِ العزيزِ، ككتب الجرْجَانِيِّ[٢] والرُمّانِيِّ[٣] والإمامِ فخرِ الدينِ السكّاكيّ[٤] والخفاجيّ[٥] وابنِ الأثِير[٦]

---

(١) هو كتاب ضخم جمع فيه مؤلفه أحمد النيسابوري الميداني نحو ستة آلاف مثل ونيف ودعاه «مجمع الأمثال». وله كتاب آخر في الشرعيات والعلويات والسفليات عنوانه «السامي في الأسامي» وكان الميداني (... ـ ١١٢٤ م) أديبًا ومؤرخًا. (المنجد).

(٢) أهم مؤلفات عبد القاهر الجرجاني (... ـ ١٠٧٨ م) في البلاغة كتاباه «أسرار البلاغة». و«دلائل الإعجاز».

(٣) أهم كتب علي بن عيسى الرماني (٩٨٠ ـ ٩٩٤ م) «النكت في إعجاز القرآن» و«الأسماء والصفات».

(٤) أهم كتب السكاكي (١١٦٠ ـ ١٢٢٨ م) في البلاغة والبيان والمنطق كتاب «مفتاح العلوم».

(٥) أشهر كتب عبد الله بن محمد الخفاجي الحلبي الشاعر (١٠٣٢ ـ ١٠٧٣ م) «سر الفصاحة».

(٦) أهم كتب ابن الأثير (... ـ ١٢٣٩ م) في البيان والبديع كتابه «المثل السائر» وهو كتاب ضخم يعتبر مرجعًا هامًا في علوم البلاغة.

وغيرِهم؛ وذكر في كتابه جُملًا بهذه المعاني وأورد أيضاً أموراً أخرى تتصلُ بذلك من خصائص الكتابة وهي الاقتباس والاستشهاد والحلّ، وأتى على ذلك بشواهدَ وأمثلة، وسأذكر في هذا الكتاب ملخَّصَ ما أَوْرده في ذلك باختصارٍ وزيادةٍ عليه.

فأمّا علوم المعاني والبيانِ والبديع، فمنها: ذكر الفصاحةِ، والبلاغةِ والحقيقةِ والمجازِ، والتشبيهِ، والاستعارةِ، والكنايةِ، والخبرِ وأحكامِه، والتقديم والتأخيرِ، والفصلِ والوصلِ، والحذفِ والإضمارِ، ومباحثِ إنّ وإنّما، والنظم والتجنيسِ، والطباقِ، والمقابلةِ، والسجعِ، وردّ العجزِ على الصدر، والإعناتِ والمذهبِ الكلاميِّ، وحسنِ التعليلِ، والالتفاتِ، والتمامِ، والاستطرادِ، وتأكيدِ المدحِ بما يشبه الذّم، وتأكيدِ الذّم بما يشبه المدحَ، وتجاهلِ العارِف، والهزلِ الذي يراد به الجِدّ، والكناياتِ، والمبالغةِ، وإعتابِ المرء نفسَه، وحسنِ التضمينِ والتلميحِ، وإرسالِ المثلِ، وإرسالِ مثلين، والكلامِ الجامعِ، واللّفّ والنشرِ والتفسيرِ، والتعديدِ - ويسمّى سياقةَ الأعدادِ - وتنسيقِ الصِفاتِ، والإيهام - ويقال له: التورية - والتخييل، وحسنِ الابتداءات، وبراعةِ التخليص، وبراعةِ الطَلب وبراعةِ المقطعِ، والسؤالِ والجوابِ، وصحةِ الأقسام، والتوشيح، والإيغالِ، والإشارةِ والتذييلِ، والترديدِ، والتفويفِ، والتسهيمِ، والاستخدام، والعكسِ، والتبديلِ والرجوعِ، والتغايرِ، والطاعةِ والعصيانِ، والتسميطِ، والتشطيرِ، والتطريزِ، والتوشيعِ والإغراقِ، والغلوّ، والقسمِ، والاستدراكِ، والمؤتلفةِ والمختلِفةِ، والتفريقِ المفردِ والجمعِ مع التفريقِ، والتقسيم المفْردِ، والجمعِ مع التقسيم، والتزاوجِ، والسّلبِ والإيجابِ والاطّرادِ، والتجريدِ، والتكميلِ، والمناسبةِ، والتفريعِ، ونفي الشيءِ بإيجابِه والإيداعِ، والإدماجِ، وسلامة الاختراعِ، وحسنِ الاتّباعِ، والذّمّ في معرضِ المدحِ والعنوانِ، والإيضاحِ، والتشكيكِ، والقولِ بالموجِبِ، والقلبِ، والتندير، والإسجالِ بعد المغالطةِ، والافتنانِ، والإبهام، وحصرِ الجزئي وإلحاقِه بالكلّي، والمقارنةِ والإبداعِ، والانفصالِ، والتصرّفِ، والاشتراكِ، والتهكّم، والتدبيجِ، والموجّه وتشابهِ الأطرافِ. هذا مجموعُ ما أورده منها، واستشهد عليه بأدلّةٍ، وأورد أمثلة سنشرح منها ما يكتفي به اللّبيب، ويستغني به اللّبيب[1].

وأما الفصاحة والبلاغة، فقد تقدّم الكلام فيهما في أوّل الباب، فلا فائدة في إعادته.

(١) سيعالج النويري هذه الموضوعات في سائر أقسام هذا الجزء من نهاية الأرب.

وأما الحقيقةُ والمجازُ ـ فالحقيقة في اللّغة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، من حقّ الأمر يُحِقُّه بمعنى أثبته، أو من حققتُه إذا كنت منه على يقينٍ. والمجاز من جاز الشيء يجوزه إذا تعدّاه، فإذا عدِل باللّفظ عما يوجبه أصل اللّغةُ وُصف بأنه مجازٌ على أنهم قد جازوا به موضعَه الأصليّ، أو جاز هو مكانَه الذي وُضع فيه أوّلًا، لأنه ليس بموضع أصليّ لهذا اللّفظ ولكنّه مجازه ومتعدّاه يقف فيه كالواقف بمكان غيرِه ثم يتعدّاه إلى مكانِه الأصليّ. ولهما حدود في المفرد والجملة، فحدّهما في المفرد: أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهي حقيقة، كالأسد للحيوانِ المفترِس، واليدِ للجارحةِ ونحوِ ذلك. وإن أريد بها غيرُه لمناسبة بينهما فهي مجاز[1]، كالأسدِ للرّجلِ الشجاعِ واليدِ للنّعمة أو للقوّة، فإن النعمة تُعطَى باليدِ، والقوّةَ تظهر بكمالها في اليد. وحدّهما في الجملة: أن كلّ جملة كان الحكم الذي دلّت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة كقولنا: خلق الله الخلق؛ وكلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه في العقل بضرب من التأويل فهي مجاز، كما إذا أضيف الفعل إلى شيء يضاهي الفاعل، كالمفعول به في قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٢١] و﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطّارق: الآية ٦]؛ أو المصدرِ، كقولهم: شِعرُ شاعر؛ أو الزمانِ، كقول النعمان بن بشِير لمعاوية: [من الطويل]

* ولـيـلُـك عـمّـا نـاب قـومـك نـائـم *

أو المكان، كقولك: طريق سائر؛ أو المسبّبِ، كقولهم: بنى الأمير المدينة؛ أو السببِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: الآية ٢]. فمجاز المفردِ لغويّ، ويسمّى مجازًا في المثبَتِ، ومجاز الجملة عقليّ، ويسمّى مجازًا في الإثبات. قال: فالمجاز قد يكون في الإثبات وحده، وهو أن يُضيف الفعلَ إلى غير الفاعلِ الحقيقيّ كما ذكرناه، وقد يكون في المثبَت وحده، كقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فاطِر: الآية ٩] جعل خُضرة الأرض ونَضرتها حياة، وقد يكون فيهما جميعًا، كقولك: أحيتني رؤيتك، تريد سرّتني، فقد جَعلتَ المسرّة حياة وهو مجاز في المثبَتِ وأسندتَها إلى الرؤية وهو مجاز في الإثبات.

قال: واعلم أنهم تعرّضوا في ٱعتبار كون اللّفظ مجازًا إلى ٱعتبار شيئين:

---

(١) حدد السكاكي الحقيقة بأنها الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له أصلًا. وحدد المجاز بأنه الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق». (مفتاح العلوم، ص ١٦٩ ـ ١٧٠).

الأوّل: أن يكون منقولاً عن معنى وُضِع اللّفظ بإزائه، وبهذا يتميّز عن اللّفظ المشترك.

الثاني: أن يكون هذا النقل لمناسبة بينهما، فلا توصف الأعلام المنقولة بأنّها مجاز إذ ليس نقلها لتعلّق نسبةٍ بين المنقولِ عنه ومن له العلم، وإذا تحقّق الشرطان سمي مجازًا، وذلك مثل تسميةِ النعمةِ والقوّةِ باليدِ، لما بين اليد وبينهما من التعلّق وكما قالوا: رَعينا الغيثَ، يريدون النبت الذي الغيثُ سببه، وصابتنا السّماء، يريدون المطر، وأشباه ذلك ونظائره.

وأما التشبيه - فهو الدّلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء في نفسه[١]، كالشجاعة في الأسد، والنّورِ في الشمس. وهو ركن من أركان البلاغة لإخراجِه الخفيّ إلى الجليّ، وإدنائِه البعيد من القريبِ. وهو حكم إضافيّ لا يوجد إلا بين الشيئين بخلاف الاستعارة.

ثم التّشبيه على أربعة أقسام: تشبيه محسوس بمحسوس، وتشبيه معقول بمعقول، وتشبيه معقول بمحسوس، وتشبيه محسوس بمعقول.

فأما تشبيه محسوس بمحسوس فلاشتراكهما إمّا في المحسوسات الأولى: وهي مدرَكات السمعِ والبصرِ والذّوقِ والشمّ واللّمسِ، كتشبيه الخدّ بالوردِ والوجهِ بالنهارِ، وأطيطِ الرّحلِ بأصواتِ الفراريج والفواكهِ الحلوةِ بالسكّرِ والعسل ورائحةِ بعضِ الرياحينِ بالمسكِ والكافورِ، واللّيّنِ الناعمِ بالحريرِ، والخشِنِ بالمِسحِ[٢]. أو في المحسوسات الثانية: وهي الأشكال المستقيمة والمستديرة، والمقادير، والحركات كتشبيه المستوِي المنتصِبِ بالرّمح، والقدّ اللّطيفِ بالغصنِ، والشّيءِ المستديرِ بالكرةِ والحَلَقةِ، والعظيمِ الجثّةِ بالجبلِ، والذاهبِ على الاستقامة بنفوذ السهمِ. أو في الكيفيّاتِ الجُسمانيّةِ، كالصلابةِ والرخاوة. أو في الكيفيّاتِ النفسانيّة، كالغرائزِ والأخلاقِ. أو في حالةٍ إضافيةٍ، كقولك: هذه حجّة كالشّمس، وألفاظ كالماء في السّلاسة وكالنّسيم في الرّقة، وكالعسل في الحلاوة. وربّما كان التشبيه بوجه عقليّ،

(١) حدد القزويني التشبيه بقوله إنه الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى. والمراد بالتشبيه هٰهنا ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية، ولا الاستعارة بالكناية، ولا التجريد» (الإيضاح في علوم البلاغة، ص ١٨٩، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٩٩١).

(٢) المسح: جمعه أمساح ومسوح، الكساء في الشعر.

كقول فاطمة بنتِ الخُرْشُب الأنماريّةِ حين وصفت بنيها الكملة فقالت: هم كالحلقة المفْرغةِ لا يُدرَى أين طرفاها[١].

وأما تشبيه المعقول بالمعقولِ فهو كتشبيهِ الوجود العاري عن الفوائدِ بالعدمِ، وتشبيهِ الفوائد التي تبقى بعد عدم الشّيء بالوجود، كقول الشاعر: [من الخفيف]

رب حيّ كميّتٍ ليس فيه أمل يرتجى لنفع وضرّ
وعظامٍ تحت الترابِ وفوق الأرضِ منها آثار حمدٍ وشكر

وأمّا تشبيه المعقول بالمحسوس فهو كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ [إبراهيم: الآية ١٨].

وأما تشبيه المحسوسِ بالمعقولِ فهو غير جائز، لأن العلوم العقليّة مستفادةٌ من الحواسّ ومنتهيةٌ إليها، ولذلك قيل: من فقد حِسًّا فقد عِلمًا، فإذا كان المحسوس أصلًا للمعقولِ فتشبيهه به يكون جعلًا للفرع أصلًا والأصلِ فرعًا ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصفِ الشمسِ بالظهور والمِسكِ بالثناءِ فقال: الشمس كالحجّةِ في الظّهور، والمسكُ كالثّناءِ في الطِّيبِ، كان ذلك سَخَفًا من القول.

فأمّا ما جاء في الشعر من تشبيه المحسوس بالمعقول فوجهه أن يقدَّر المعقولُ محسوسًا، ويُجعل كالأصل المحسوس على طريق المبالَغةِ، فيصحّ التشبيه حينئذ وذلك كما قال الشاعر: [من الخفيف]

وكأنّ النجوم بين دجاها سُننٌ لاح بينهنّ ٱبتداع

فإنّه لما شاع وصف السنّةِ بالبياضِ والإشراقِ، وٱشتهرت البدعة وكلّ ما ليس بحقٍّ بالظلمةِ تخيّل الشاعر أن السنن كأنها من الأجناس التي لها إشراق ونور، وأن البِدع نوع من الأنواع الّتي لها ٱختصاص بالسواد والظُّلمة، فصار ذلك كتشبيه محسوسٍ بمحسوسٍ، فجاز له التشبيه، وهو لا يتمّ إلا بتخييل ما ليس بمتلوّنٍ متلوّنًا

---

(١) يقول القزويني في أقسام التشبيه باعتبار طرفيه: «أما طرفاه فهما إما حسيان كما في تشبيه الخد بالورد والقد بالرمح والفيل بالجبل في المبصرات والصوت الضعيف بالهمس في المسموعات، والنكهة بالعنبر في المشمومات، والريق بالخمر في المذوقات، والجلد الناعم بالحرير في الملموسات، وأما عقليان كتشبيه العلم بالحياة. وإما مختلفان، والمعقول هو المشبه كما في تشبيه المنية بالسبع، أو بالعكس كما في تشبيه العطر بالخلق الكريم». (الإيضاح، ص ١٩٣).

ثم يتخيّله أصلًا فيشَبِّه به، وهذا هو الّذي تُؤوِّل في قول أبي طالب الرَّقّيّ: [من الكامل]

ولقد ذكرتك والظلام كأنّه   يومُ النّوى وفؤاد من لم يعشَقِ(١)

فإنّه لمّا كانت الأوقات التي تحدُثُ فيها المكاره توصف بالسواد كما يقال: اسودّت الدنيا في عينه، جعل يومَ النوى كأنّه أشهرُ بالسواد من الظلام، فعرّفه به وشبّهه، ثم عطف عليه فؤادَ من لم يعشَق لأنّ من لم يعشَق عندهم قاسي القلبِ والقلب القاسي يوصَفُ بشدّة السواد، فأقامه أصلًا، فقس على هذا المثال.

قال: واعلم أنّ ما به المشابهة قد يكون مقيّدًا بالانتساب إلى شيء، وذلك إما إلى المفعول به كقولهم: «أخذ القوسَ باريها» وإلى ما يجرِي مجرى المفعول به وهو الجارّ والمجرور كقولهم لمن يفعل ما لا يفيد: «كالراقِم على الماء» وإمّا إلى الحال، كقولهم: «كالحادي وليس له بعير» وإما إلى المفعول والجارّ والمجرور معاً، كقولهم: «هو كمن يجمع السيفين في غمد» و«كمبتغي الصيدِ في عرينة الأسد»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: الآية ٥] فإن التشبيه لم يحصل من مجردِ الحملِ، بل لأمرين آخرين، لأن الغرض توجيهُ الذّم إلى من أتعب نفسه في حمل ما يتضمّن المنافعَ العظيمةَ ثم لا يَنتفع به لجهله، وكقوله لبِيد: [من الطويل]

وما النّاس إلا كالدّيار وأهلِها   بها يوم حلّوها وغَدْوًا بلاقع

فإنّه لم يشبِّه الناس بالديار، وإنّما شبّه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم بحلولِ أهلِ الدّيار فيها، ووَشْكِ رحيلهم منها. قال: وكلّما كانت التقييدات أكثرَ كان التشبيه أوغَل في كونه عقليًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يُونس: الآية ٢٤]. فإن التشبيه منتزَعٌ من مجموعِ هذه الجملِ من غير أن يمكن فصلُ

(١) نسب القزويني هذا البيت للشاعر أبي طالب الرقي وضربه شاهدًا على وجه الشبه التخييلي. وقد نقل النويري تفسيره والتعليق عليه حرفيًا. واستشهد ببيت آخر على هذا النوع في وجه الشبه للشاعر ابن بابك وهو التالي:

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها   وقد كحل الليل السماك فأبصرا

(الإيضاح، ص ١٩٧).

بعضِها عن بعضٍ، فإنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أيّ موضع كان أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه. قال:

ثم ما به المشابهة إن كان مركّبًا فإنّه على قسمين:

الأوّل: ما لا يمكن إفراد أحدِ أجزائه بالذِّكر، كقول القاضي التَنوخيّ: [من السريع]

كأنّما المرّيخُ والمشترِي قدّامَه في شامخ الرِّفعه
منصرف باللّيل من دعوة قد أُسرِجت قدّامه شمعه[(١)]

فإنّك لو ٱقتصرت على قوله: كأنّ المرِّيخ منصرفٌ من دعوة، أو كأن المشترِي شمعةٌ لم يحصل ما قصده الشاعر، فإنّه إنّما قصد الهيئة التي يلبَسُها المِرِّيخ من كون المشترِي أمامه.

الثاني: ما يمكن إفرادُه بالذّكر ويكونُ إذا أزيل منه التركيب صحيحَ التشبيهِ في طرفيهِ إلّا أن المعنى يتغيّر، كقول أبي طالب الرَقّيّ: [من الكامل]

وكأنّ أجرامَ النجوم لوامعا درر نُثِرن على بِساط أزرق[(٢)]

فلو قلت: كأن النجوم دررٌ، وكأن السماء بساط أزرق، وجدتَ التشبيه مقبولًا ولكن المقصود من الهيئة المشبَّه بها قد زال. قال: وربّما كان التشبيه في أمور كثيرة لا يتقيّد بعضها ببعض، وإنّما يكون مضمومًا بعضها إلى بعض وكلّ واحد منها منفرد بنفسه، كقولك: زيد كالأسد بأسًا، والبحرِ جُودًا، والسيفِ مَضاءً والبدرِ بهاءً؛ وله خاصيتان: إحداهما أنه لا يجب فيه الترتيب، والثانية أنّه إذا سقط البعض لم يتغير حكم الباقي.

ومن المتأخّرين من ذكر في التشبيه سبعة أنواع:

الأوّل: التشبيه المطلق، وهو أن يشبّه شيئًا بشيء من غير عكس ولا تبديل كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: الآية ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٢٤]، وقوله

(١) استشهد القزويني بهذين البيتين على التشبيه الذي طرفاه مركبان، ولا يصح تشبيه كل جزء من أحد طرفيه بما يقابله من الطرف الآخر.

(٢) واستشهد القزويني بهذا البيت على التشبيه الذي طرفاه مركبان ويصح تشبيه كل جزء من أجزاء أحد طرفيه بما يقابله من أجزاء الطرف الآخر. (الإيضاح، ص ٢١٣ ـ ٢١٤).

تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: الآية ٧]. وقول النبي ﷺ: «الناس كأسنان المُشْطِ».

الثّاني: التّشبيه المشروط، وهو أن يشبّه شيئًا بشيء لو كان بصفة كذا، ولولا أنّه بصفة كذا، كقوله: أُشَبِّهُ وجهَ مولانا بالعيدِ المقبلِ لو كان العيد تبقَى ميامنه وتدوم محاسنه، وكقوله: وجه هو كالشمسِ لولا كسوفها، والقمرِ لولا خسوفه.

وكقول البديع: [من البسيط]

قد كان يحكيك صَوبُ الغيثِ منسكبًا ... لو كان طَلقَ المحيّا يُمطِر الذهبا

والدهرُ لو لم يخُن والشمسُ لو نَطقت ... والليثُ لو لم يُصَدْ والبحرُ لو عذُبا

وكقول الآخر(١): [من الكامل]

عَـزَمـاتـه مـثـلُ الـنـجـوم ثـواقـبًـا ... لـو لـم يـكـن لـلـثّـاقـبـات أُفـول

الثالث: تشبيه الكناية، وهو أن يشبّه شيئًا بشيء من غير أداة التشبيه، كقول المتنبّي: [من الوافر]

بـدت قـمـرًا ومـاسـت خُـوطَ بـانٍ ... وفـاحـت عـنـبـرًا ورَنَـتْ غـزالا

وقول الوأواء(٢) الدِّمَشقيّ: [من البسيط]

فأمطرت لؤلؤًا من نرجسٍ فسقت ... وَردًا وعَضّت على العُنّاب بالبَرَدِ

الرابع: تشبيه التسوية، وهو أن يأخذ صفة من صفات نفسه، وصفة من الصفات المقصودة، ويشبّههما بشيء واحد، كقوله: [من المجتث]

صُدُغ الـحـبـيـب وحـالـي ... كـلاهـمـا كـالـلّـيـالـي

وثـغـره فـي صَـفـاء ... وأدمُـعـي كـالـلآلـي

---

(١) نسب هذا البيت للشاعر رشيد الدين الوطواط، (٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) اسمه محمد بن محمد بن عبد الجليل البلخي، أديب مترسل شاعر. ولد ببلخ وتوفي في خوارزم. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الوأواء: لقب الشاعر الدمشقي محمد بن أحمد الغساني، وكنيته أبو الفرج. شاعر مطبوع حلو الألفاظ، رقيق المعاني، كان في بادىء أمره مناديًا بدار البطيخ في دمشق. له ديوان شعر مطبوع، توفي سنة ٩٩٥ م. (الأعلام، للزركلي).

الخامس: التشبيه المعكوس، وهو أن تشبِّه شيئين كلَّ واحد منهما بالآخر كقول الشاعر: [من السريع]

الخمر تفاح جرى ذائبًا كذلك التفاح خمر جَمُد
فاشرب على جامدٍ ذَوْبَهُ ولا تَبِعْ لذّة يومٍ بغد

وكقول الصّاحب بن عَبّاد(١): [من الكامل]

رَقَّ الزّجاجُ وراقت الخمر فتشابَها فتشاكَلَ الأمر
فكأنه خمرٌ ولا قدح وكأنه قدحٌ ولا خمر

وكقول بعضهم في النثر: كم من دمٍ أهرقناه في البَرّ، وشخصٍ أغرقناه في البحر؛ فأصبح البرّ بحرًا من دمائهم، والبحر برًّا بأشلائهم.

السادس: تشبيه الإضمار، وهو أن يكون مقصودَه التّشبيهُ بشيء فدلّ ظاهر لفظه أنّ مقصودَه غيرُه، كقول المتنبّي: [من المتقارب]

ومن كنتَ جارًا له يا عليّ لم يقبل الدرّ إلّا كبارا

فيدلّ ظاهرُه على أنّ مقصودَه الدرّ، وإنّما غرضه تشبيهُ الممدوح بالبحر.

السابع: تشبيه التفضيل، وهو أن يشبِّه شيئًا بشيءٍ ثمّ يرجع فيرجّح المشبَّه على المشبَّهِ به، كقوله: [من الوافر]

حسبت جماله بدرًا مضيئًا وأين البدر من ذاك الجمال

وكقول ابن هندو(٢): [من السريع]

مَن قاس جَدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شيئين
أنت إذا جدت ضاحك أبدًا وذاك إن جاد دامع العين

قال: وقد تقدّم تشبيه شيء بشيء.

---

(١) الصاحب بن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ ـ ٩٩٥ م) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزر لمؤيد الدولة بن بويه وأخيه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته إياه في صباه. غلب عليه الأدب فأجاد الرسائل والشعر. وله ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) ابن هندو: ورد هكذا في معجم الأدباء لياقوت الحموي الجزء الخامس، ص ١٦٨ طبع الطبعة الهندية. ولم يرد في معاجم الأعلام.

فأمّا تشبيه شيء بشيئين فكقول اْمرىء القيس: [من الطويل]

وتَعطو برَخْص غيرِ شَثْنٍ كأنّه   أساريعُ رمل أو مساويك إسْحِلِ(١)

وأمّا تشبيه شيء بثلاثة أشياءَ فكقول البحتريّ: [من السريع]

كأنّما يبسِم عن لؤلؤ   منضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح

وأمّا تشبيه شيء بأربعة أشياءَ فكما قال المولى شهاب الدّين أبو الثناء محمود الحلبيُّ الكاتبُ: [من الرجز]

يفتَرُّ طِرسك عن سطور جادَها الـ   ـفكر السليم بصَوبِ مِسكٍ أذفرِ(٢)

فكأنّما هو روضةٌ أو جدول   أو سمْطُ درّ أوَ قلادةُ عنبرِ

وأمّا تشبيه شيء بخمسة أشياءَ فكقول الحريريّ:

يفتَرُّ عن لؤلؤ رطب وعن بَرَد   وعن أقاحٍ وعن طَلْع وعن حَبَبِ(٣)

وأمّا تشبيه شيئين بشيئين فكقول اْمرىء القيس: [من الطويل]

كأنّ قلوب الطّير رَطبًا ويابسًا   لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

وأمّا تشبيه ثلاثة بثلاثة فكقول الآخر: [من المجتث]

ليلٌ وبدرٌ وغصن   شعرٌ ووجهٌ وقدُّ

خمر ودرّ وورد   ريق وثغر وخد

وأمّا تشبيه أربعة بأربعة فكقول اْمرىء القيس: [من الطويل]

له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ   وإرخاءُ سِرحان وتقريبُ تَتْفُلِ(٤)

وكقول أبي نواس: [من السريع]

تبكي فتُذري الدرّ من نرجس   وتلطِم الورد بعُناب

---

(١) تعطو: تتناول. الرخص: الناعم. الشثن: الغليظ. الأساريع: دود أحمر. الأسحل: شجر المساويك.

(٢) الطرس: الورق يكتب عليه.

(٣) يفتر: يبتسم.

(٤) يشبه امرؤ القيس أعضاء حصانه بأعضاء أربع حيوانات هي الظبي والنعامة والذئب والثعلب. الايطل: الخاصرة. الارخاء: شدة العدو. التقريب: وضع الرجلين مكان اليدين في العدو. التتفل: ولد الثعلب.

وأمّا تشبيه خمسة بخمسة فكقول أبي الفرج الوأواء الدِمَشقيّ: [من البسيط]

قالت متى البين يا هذا فقلت لها إمّا غدا زعموا أو لا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤًا من نرجس فسقت وردًا وعضّت على العُنّاب بالبَرد

وشبّه قاضي القضاة نجم الدين بن البارزيّ سبعة أشياءَ بسبعةِ أشياءَ وهي: [من الطويل]

يُقَطِّعُ بالسّكّين بِطّيخةً ضحى على طبقٍ في مجلسٍ لان صاحبه
كشمسٍ ببرق قَدَّ بدرًا أهلّةً لدى هالة في الأفق شتّى كواكبه

قال: والغرض من التشبيه قد يكون بيانَ إمكان وجود الشيء عند ادّعاء ما لا يكون إمكانُه بيّنًا، كقول ابن الرّوميّ: [من البسيط]

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرفٍ كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

وكقول المتنبّي: [من الوافر]

فإن تفُق الأنام وأنت منهم فإنّ المسك بعضُ دم الغزال

أو بيانَ مقداره، كما إذا حاولْت نفي الفائدةِ عن فعل إنسان قلت: هذا كالقابض على الماء، لأن الخلوّ الفعل عن الفائدة مراتبَ مختلفةً في الإفراط والتفريط والوسط، فإذا مُثِّل بالمحسوس عُرِفت مرتبته، ولذلك لو أردت الإشارة إلى تنافي الشيئين فأشرْت إلى ماء ونار فقلت: هذا وذاك هل يجتمعان؟ كان تأثيره زائدًا على قولك: هل يجتمع الماء والنار؟ وكذلك إذا قلت في وصف طول يوم: كأطول ما يُتوهّم، أو لا آخر له، أو أنشدت قوله(١): [من البسيط]

في ليل صُولٍ تناهَى العَرض والطول كأنّما ليله بالليل موصول(٢)

لم تجد فيه من الأنس ما تجده في قوله: [من الطويل]

ويومٍ كظلّ الرمح قصّر طُولَه دمُ الزِقّ عنّا واصطفاقُ المزاهر

وما ذاك إلّا للتشبيه بالمحسوس، وإلّا فالأوّل أبلغ، لأن طول الرمح متناهٍ وفي الأوّل حَكمتَ أنّ ليلَه موصول باللّيل، وكذلك لو قلت في قِصر اليومِ: كأنّه ساعة،

(١) البيت للشاعر حندج بن حندج المري. (٢) صول: مدينة في بلاد الخزر.

أو كلمح البصرِ، لوجدته دون قوله: [من الوافر]

ظـللنـا عـنـد دار أبـي أنـيـسٍ   بـيـوم مـثـل سـالـفـةِ الـذُّبـاب(١)

وقولِه: [من الطويل]

ويـومٍ كـإبـهـام الـقـطـاةِ مُـزيَّـن   إلـيّ صِـبـاه غـالـبٌ لِيَ بـاطـله

قال: وقد يكون غرض التشبيه عائدًا على المشبه به، وذلك أن تقصد على عادة التخييل أن توهِم في الشيء القاصِر عن نظيرِه أنه زائد، فتشبِّهَ الزائد به، كقوله: [من الكامل]

وبـدا الـصـبـاح كـأنّ غـرّتـه   وجه الـخـلـيـفـة حين يُـمْـتَـدَح(٢)

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيهِ الوجه بالصباح، لأن تشبيه الوجه بالصباح أصل متّفق عليه لا يُنكر ولا يُستكثَر، وإنما الذي يستكثر تشبيه الصباح بالوجه. قال: ثم الغرض بالتشبيه إن كان إلحاقَ الناقِص بالزائِد امتنع عكسه مع بقاء هذا الغرض، وإن كان الجمعَ بين شيئين في مطلقِ الصورةِ والشكلِ واللونِ صحّ العكس كتشبيه الصبح بغرّة الفرس الأدهم لا للمبالغة في الضياء، بل لوقوع منيرٍ في مظلم وحصولِ بياضٍ قليلٍ في سوادٍ كثيرٍ.

قال: والتشبيه قد يجيء غريبًا يحتاج في إدراكه إلى دقّة نظر، كقول ٱبن المعتزّ: [من الرّجز]

* والشمس كالمِرآة في كفّ الأشلّ *

والجامع الاستدارة والإشراق مع تواصل الحركة التي تراها للشمس إذا أنعمت التأمّل في ٱضطراب نورِ الشمس، ويقرب منه قول الآخر: [من الطويل]

كأن شعاعَ الشمس في كلّ غُدوة   عـلى ورق الأشـجـار أوّلَ طـالـعِ
دنـانـيـرُ فـي كـفّ الأشـلّ يـضـمّـهـا   لقبض وتهوِي من فروجِ الأصابعِ(٣)

(١) سالفة الذباب: عنقه.
(٢) صاحب هذا البيت هو الشاعر محمد بن وهيب الحميري من قصيدة يمدح بها المأمون.
(٣) يشبه أشعة الشمس على أوراق الأشجار بالدنانير التي في كف الأشلّ في شكلها ولونها واضطرابها.

وكقول المتنبيّ: [من السريع]

الشمس من مشرقها قد بدت مشرقةً ليس لها حاجب
كأنها بُودَقةٌ أُنقِيَتْ يجول فيها ذهب ذائب(١)

ومن لطيف ما جاء في هذا المعنى من التشبيه قول الأخطلِ في مصلوب: [من البسيط]:

أو قائمٌ من نعاس فيه لُوثته مُواصِل لتمطِّيه من الكسل(٢)

شبّهه بالمتمطّي، لأنّ المتمطّي يمدّ يديه وظهرَه ثم يعود إلى حالته الأولى، فزاد فيه أنّه مواصل لذلك، وعلّله بالقيام من النعاس لما في ذلك من اللُّوثة والكسل.

قال: والتشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعاني، وله ألفاظ تدلّ عليه وضعاً فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه، وإنّما هو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له، والذي يقع منه في حيّز عند أهل هذا الفنّ هو الذي يجيء على حدّ الاستعارة، كقولك لمن يتردّد في الأمر بين أن يفعله أو يتركه: «أراك تقدّم رجلًا وتؤخّر أخرى» والأصل فيه أراك في تردّدك كمن يقدّم رجلًا ويؤخر أخرى.

وأما الاستعارة: فهي ادّعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبّه من الشيئين(٣) لفظاً وتقديراً. وإن شئت قلت: هو جعل الشّيءِ الشّيءَ أو جعل الشيءِ للشيءِ لأجل المبالغة في التشبيه.

فالأول: كقولك: لقيت أسداً وأنت تعني الرجل الشجاع.

والثاني: كقول لبِيد: [من الكامل]

* إذا أصبحتْ بيد الشَّمال زمامُها *

أثبت اليد للشَّمال مبالغةً في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه على ما يأتي بيانُ ذلك.

---

(١) البودقة والبوتقة هي القالب الذي يصفى فيه الذهب والفضة عند الصاغة. وهو لفظ مولد معرب في كلمة بوته.

(٢) اللوثة: الاسترخاء. يشبه حركة المصلوب بتمطي المستيقظ من النوم.

(٣) الاستعارة بنظر القزويني مجاز لغوي قائم على التشبيه. (الإيضاح، ص ٢٤١ ـ ٢٤٦).

وحدّ الرمّانيّ الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وُضعت له في أصل اللّغة على سبيل النقل للإبانة.

وقال ابن المعتزّ: هي ٱستعارة الكلمة من شيء قد عُرف بها إلى شيء لم يُعرف بها. وذكر الخفاجيّ كلامَ الرمّانيّ وقال: وتفسير هذه الجملة أن قوله عز وجل: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: الآية ٤] استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب فلما نقِل إليه بأن المعنى لما ٱكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس شيئًا فشيئًا حتى يحيله إلى غير لونه الأوّل كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيلَه إلى غير حالته المتقدّمة؛ فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان، ولا بدّ من أن تكون أوضحَ من الحقيقة لأجل التشبيه العارِض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها، لأنها الأصل، وليس يخفى على المتأمّل أن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أبلغ من كثُر شيبُ الرأس، وهو حقيقة هذا المعنى.

ولا بدّ للاستعارة من حقيقة هي أصلها، وهي مستعار منه، ومستعار ومستعار له[(١)]، فالنار مستعار منها، والاشتعال مستعار، والشيب مستعار له. قال: وأمّا قولنا مع طرح ذكر المشبّهِ[(٢)]، فٱعلم أننا إذا طرحناه كقولنا: رأيت أسدًا، وأردنا الرجل الشجاع فهو استعارة بالاتفاق، وإن ذكرنا معه الصيغةَ الدالّة على المشابَهة كقولنا: زيد كالأسد أو مِثلُه أو شِبهُه فليس باستعارة؛ وإن لم نذكر الصيغة وقلنا: زيد أسد فالمختار أنه ليس بٱستعارة إذ في اللفظ ما يدلّ على أنه ليس بأسد فلم تحصل المبالغة، فإذا قلت: زيد الأسد فهو أبعد عن الاستعارة، فإنّ الأوّلَ خرج بالتنكير عن أن يحسُن فيه كاف التشبيه، فإنّ قولك: زيد كأسد كلامٌ نازل بخلاف الثاني.

قال ضياء الدين بنُ الأثير: وهذا التشبيه المضمر الأداةِ قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرّقوا بينهما، وذلك خطأ محض.

قال: وسأوضح وجه الخطإ فيه وأحقق القول في الفرق بينهما فأقول: أما التشبيه المظهَر الأداة فلا حاجة بنا إلى ذكره لأنّه لا خلاف فيه، ولكن نذكر التشبيه المضمَرَ الأداة فنقول: إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنّه تشبيهٌ مضمر الأداة قيل

(١) المستعار منه هو المشبه به. والمستعار له هو المشبه والمستعار هو وجه الشبه.

(٢) يعني ضرورة حذف المستعار له أو المشبه كقولنا رأيت أسدًا. فإذا أثبتناه وقلنا رأيت زيدًا الأسد لم تكن ثمة استعارة.

فيه: زيد أسد، أي كالأسد، فأداة التشبيه فيه مضمَرة مقدّرة، وإذا أظهرت حسُن ظهورها، ولم تقدح في الكلام الذي أظهِرت فيه، ولم تزُل عنه فصاحته؛ وهذا بخلاف ما إذا ذُكر المنقول إليه دون المنقول فإنه لا يحسُن فيه ظهور أداة التشبيه، وإذا ظهرَت زال عن ذلك الكلام ما كان متّصفًا به من الحسن والفصاحة.

قال: ولنضرب لذلك مثالًا يوضحه فنقول: قد ورد هذا البيت لبعض الشعراء وهو: [من الكامل]

فرعاءُ إن نهضت لحاجتها عجِل ٱلقضيب وأبطأ الدِّعص(١)

وهذا لا يَحسن تقدير أداة التشبيه فيه، فلا يقال: عجل قد كالقضيب وأبطأ رِدف كالدِّعص؛ فالفرق إذن بين التشبيه المضمرِ أداةُ التشبيه فيه وبين الاستعارة أن التشبيهَ المضمر الأداةِ يحسن إظهار أداة التشبيه فيه، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها. والاستعارة أخصّ من المجاز إذ قصد المبالغة شَرطٌ في الاستعارة دون المجاز، وأيضًا فكلّ ٱستعارة من البديع وليس كلّ مجاز منه. والحقّ إن المعنى يعار أوّلًا ثم بواسطته يعار اللّفظ؛ ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان التشبيه مقرَّرًا بينهما ظاهرًا، وإلا فلا بدّ من التصريح بالتشبيه، فلو قلت: رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمنًا إشارة إلى قول النّبي ﷺ: «مثل المؤمن كمثل النخلة» أو «كمثل الخامة» لكنت كالملْغِز التارك لما يُفهم. وكلّما زاد التشبيه خفاء زادت الاستعارة حسنًا بحيث تكون ألطفَ من التصريح بالتشبيه، فإنّك لو رمت أن تظهر التشبيه في قول ٱبن المعتزّ: [من الرمل]

أثمرت أغصان راحتِه لجُناةِ الحسن عُنّابا

ٱحتجت أن تقول: أثمرت أصابع راحتِه التي هي كالأغصان لطالب الحسن شِبهَ العُنّاب من أطرافها المخضوبة، وهذا ممّا لا خفاء بغَثاثته.

وربمّا جُمع بين عدّة ٱستعارات إلحاقًا للشكل بالشكل لإتمام التشبيه فتزيد الاستعارة به حُسنًا، كقول ٱمرىء القَيْس في صفة اللّيل: [من الطويل]

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه وأردف أعجازًا وناءَ بكَلكَل(٢)

---

(١) فرعاء: طويلة الشعر. الدعص: جمع ادعاص ودعصة كثيب الرمل. شبه القد بالقضيب، وشبه الردف بكثيب الرمل.

(٢) يشبه امرؤ القيس، الشاعر الجاهلي، الليل بالجمل. لقد أناخ الليل عليه كما أناخ الجمل على الأرض متباطئًا متثاقلًا. يمدد ظهره أولًا ومؤخره ثانيًا ثم ينوء بصدره على الأرض.

فصل فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

قال: الأعلام لا تدخلها الاستعارة لما تقدّم في المجاز. وأما الفعل فالاستعارة تقع أوّلًا في المصدر، ثم تقع بواسطة ذلك في الفعل، فإذا قلت: نطقت الحال بكذا فهذا إنّما يصحّ لأنّك وجدت الحال مشابِهة للنطق في الدِلالة على الشيء، فلا جَرَمَ أنك آستعرت النطق لتلك الحالة ثم نقلته إلى الفعل. والأسماء المشتقّة في ذلك كالفعل؛ فظهر أنّ الاستعارة إنّما تقع وقوعًا أوّليًا في أسماء الأجناس. ثم الفعل إذا كان مستعارًا فآستعارته إمّا من جهة فاعله، كقوله: نطقت الحال بكذا ولعبت بي الهموم، وقولِ جرير: [من الكامل]

تحيي الروامسُ رَبْعَها فتُجِدّه بَعد البِلى وتميته الأمطار[1]

وقولِ أبي حيّة[2]: [من البسيط]

وليلةٍ مرضت من كل ناحية فما تضيء لها شمس ولا قمر

أو من جهة مفعوله، كقول آبن المعتز: [من الرّمل]

جُمِع الحقّ لنا فِي إمامٍ قتل الجوع وأحيا السَماحا

أو من جِهة مفعوليه، كقول الحريري: [من المتقارب]

وأَقرِي المسامعَ إمّا نطقتُ بيانًا يقُود الحَرُون الشَّموسا

أو من جهة أحد مفعوليه، كقول الشاعر[3]: [من البسيط]

نَقْرِيهمُ لَهذميّاتِ نَقُدّ بها ما كان خاطَ عليهم كلُّ زرّاد

أو من جهة الفاعل والمفعول، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠]. قال: ويتصل بهذا ترشيح الاستعارة وتجريدُها، أما ترشيحها فهو أن يَنظُر

---

(١) الروامس: جمع رمس، وهو الريح. يقول إن الرياح تكشف التراب المغطي لآثار الربع فتظهرها، وعندما يهطل المطر يخفيها من جديد.

(٢) أبو حية: (١٨٣ هـ = ٨٠٠ م)، شاعر مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية اسمه الهيثم بن الربيع بن زرارة النميري شاعر مجيد بصري، مدح خلفاء عصره وكان أهوج به لوثة. (الأعلام، للزركلي).

(٣) هو القطامي: (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)، واسمه عمير بن شييم بن عمرو بن عباد التغلبي، الملقب بالقُطامي. شاعر غزل فحل، لقب بصريع الغواني. له ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

فيها إلى المستعار، ويراعِيَ جانبَه، ويوليَه ما يستدعيه، ويضمَّ إليه ما يقتضيه، كقول كُثيّر: [من الطويل]

رمتني بسهم رِيشُه الهُدب لم يُصِب ... بظاهر جسمي وهو في القلب جارح[١]

وكقول النابغة: [من الطويل]

وصدرٍ أراح الليلُ عازِبَ همِّه ... تَضاعَف فيه الحزن من كلّ جانب

فالمستعار في كل واحد منهما وهو الرمي والإراحة منظور إليهما في لفظ السهم والعازب، وكما أنشد صاحب الكشّاف: [من الوافر]

ينازعني ردائي عند عمرو ... رويدك يا أخا عمرٍو بنِ بكر
لِيَ الشَطر الذي ملكت يميني ... ودونَك فاْعتجر منه بشَطر[٢]

أراد بردائه سيفه، ثم نظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار. وأما تجريدها فهو أن يكون المستعار له منظورًا إليه، كقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: الآية ١١٢] فإن الإذاقة لمّا وقعت عبارة عما يدرَك من أثر الضرر والألم تشبيهًا له بما يدرَك من الطعم المرّ البشع، واللباسَ عبارة عما يَغشى منهما ويلابِس فكأنه قال: فأذاقها الله ما غشيها من ألم الجوع والخوف، وكقول زهير: [من الطويل]

لدى أسدٍ شاكي السلاحِ مقذَّفٍ ... له لِبد أظفاره لم تُقلَّم

فلو نظر إلى المستعار لقال: أسد دامي المخالب أو دامي البراثن، ونظر زهير في آخر البيت إلى المستعار أيضًا، ومنه قول كُثيّرٍ: [من الكامل]

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تبسّم ضاحكًا ... غَلِقت لضحكته رقاب المال

استعار الرِّداء للمعروف لأنه يصون عِرض صاحبه صونَ الرداء لما يُلقَى عليه ووصفَه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصفُ الرداء.

قال: ويقرب من ذلك الاستعارة بالكناية[٣]، وهي أن لا يصرّح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيهًا به عليه، كقولهم: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس.

---

(١) يقول إنها وجهت إليه نظرة كالسهم ريشه أهداب العين، فجرح قلبه دون جسمه.
(٢) اعتجرْ: أُضرب. ويريد بالرداء السيف.
(٣) عرف القزويني الاستعارة المكنية بقوله: «قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح في أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به...» (الإيضاح، ص ٢٦٤).

وكقول أبي ذؤيب: [من الكامل]

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها ألفيتَ كلّ تمِيمة لا تنفع

تنبيهًا على أنّ الشجاع أسد، والمنيّة سبع، والعالِم بحر، وهذا وإن كان يشبه الاستعارة المجرّدة إلّا أنّه أغرب وأعجب، ويقرب منه قول زهير: [من الطويل]

ومَن يعصِ أطراف الزِجاجِ فإنه يطيع العوالي رُكِّبت كلّ لَهذم(١)

أراد أن يقول: من لم يرض بأحكام الصلح رضيَ بأحكام الحرب، وذلك أنهم كانوا إذا طلبوا الصلح قلبوا زِجاج الرماح وجعلوها قدّامها مكانَ الأسنّة، وإذا أرادوا الحرب أشرعوا الأسنّة؛ وقد يسمّى هذا النوع المماثلة أيضًا.

قال: وقد ينزلون الاستعارة منزلة الحقيقة، وذلك أنهم يستعيرون الوصف المحسوس للشيء المعقول ويجعلون كأنّ تلك الصفةَ ثابتةٌ لذلك الشيء في الحقيقة، وأنّ الاستعارة لم توجد أصلًا، مثاله ٱستعارتهم العلوّ لزيادة الرجل على غيره في الفضل والقدر والسلطان ثم وضعُهم الكلام وضعَ من يذكر علوًا مكانيًّا، كقول أبي تمّام: [من المتقارب]

ويَصعَد حتى يظنَّ الحسود بأنّ له حاجةً في السماء

وكقوله أيضًا: [من الطويل]

مكارم لَجّت في علوّ كأنّما تحاول ثأرًا عند بعض الكواكب

ولذلك يستعيرون ٱسم شيء لشيء من نحو شمس أو بدر أو أسد ويَبلُغون إلى حيث يُعتقد أنه ليس هناك ٱستعارة، كقول ٱبن العمِيد: [من الكامل]

قامت تظلّلِني من الشمس نفس أعزّ عليّ من نفسي
قامت تظلّلِني ومن عجبٍ شمس تظللني من الشمس(٢)

وكقول آخر: [من الوافر]

أيا شمعًا يضيء بلا ٱنطفاءٍ ويا بدرًا يلوح بلا مُحاق
فأنت البدر ما معنى ٱنتقاصي؟ وأنت الشمع ما معنى ٱحتراقي؟(٣)

(١) الزجاج: مفرده زج، وهو الحديدة الموضوعة في أسفل الرمح.
(٢) وقفت حبيبته التي تشبه الشمس في جمالها، حيالة فحجبت عنه أشعة الشمس.
(٣) يشبه حبيبته بالشمعة التي تضيء، والبدر الذي يطلع دون غياب أو انتقاص. المحاق: آخر=

فلولا أنه أنسى نفسه أن هٰهنا ٱستعارةً لما كان لهذا التعجب معنى، ومدار هذا النوع على التعجب.

وقد يجيء على عكسه، كقول الشاعر: [من المنسرح]

لا تعجبوا مِن بِلى غلالته قد زرّ أزراره على القمر[١]

فصل في أقسام الاستعارة

قال: وهي على نوعين:

الأوّل: أن تعتمد نفسَ التشبيه، وهو أن يشترك شيئان في وصف وأحدهما أنقص من الآخر، فتعطِي الناقصَ ٱسم الزائِد مبالغةً في تحقّق ذلك الوصف له كقولك: رأيت أسدًا وأنت تعني رجلًا شجاعًا، وعنّت لنا ظبيةٌ وأنت تريد ٱمرأةً.

والثاني: أن تعتمد لوازمه عندما تكون جهة الاشتراك وصفًا، وإنما ثبت كماله في المستعار منه بواسطة شيء آخر فتثبِت ذلك الشيء للمستعار له مبالغة في إثبات المشترك، كقول لبِيد: [من الكامل]

وغداةِ ريح قد كشفتُ وقِرّةٍ إذا أصبحت بيد الشَّمال زمامُها[٢]

وليس هناك مشار إليه يمكن أن يُجرِيَ ٱسمَ اليد عليه كما جرى الأسد على الرجل لكنّه خَيّل إلى نفسه أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعة الإنسان المتصرّف فيما زمامُه ومَقادتُه بيده، لأن تصرف الإنسان إنما يكون باليد في أكثر الأمور فاليد كالآلة التي تَكمُل بها القوّة على التصرف، ولما كان الغرض إثباتَ التصرف ـ وذلك مما لا يَكْمُل إلا عند ثبوت اليد ـ أثبت اليد للشَّمال تحقيقًا للغرض، وحكم الزمام في ٱستعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشَّمال[٣]، وكذلك قول تأبّط شرّا: [من الطويل]

إذا هزّه في عظم قَرن تهلّلت نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحكِ

= الشهر القمري، يختفي فيه القمر ولا يظهر.

(١) إذا كانت غلالته بالية فإن جسمه يشبه القمر في جماله.

(٢) القرة: شدة البرد.

(٣) يقول القزويني في شرح بيت لبيد: وعداه ريح قد كشفت... الخ. لقد جعل للشمال يدًا. وحكم الزمام في استعارته للقرة حكم اليد في استعارتها للشمال، فجعل القرة زمامًا...» (الإيضاح، ص ٢٦٤).

لمّا شبّه المنايا عند هزّه السيف بالمسرور ـ وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذي تتهلّل فيه النواجذ ـ أثبته تحقيقًا للوصف المقصود، وإلّا فليس للمنايا ما يُنقل إليه ٱسمُ النواجذ، وهكذا الكلام في قول الحماسيّ: [من الطويل]

سقاه الردى سيف إذا سُلّ أَومضت   إليه ثنايا الموت من كلّ مَرقَبِ

ومن هذا الباب قولُهم: فلان مُرخَى العِنان، ومُلقَى الزمام.

قال: ويسمّى هذا النوع ٱستعارة تخييليّة، وهو كإثبات الجناح للذلّ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤]. قال: إذا عُرف هذا فالنوع الأوّل على أربعة أقسام:

الأوّل: أن يستعار المحسوس للمحسوس، وذلك إما بأن يشتركا في الذات ويختلفا في الصفات، كاستعارة الطيران لغير ذي جناح في السرعة، فإن الطيران والعدو يشتركان في الحقيقة وهي الحركة الكائنة إلّا أن الطيرانَ أسرعُ. أو بأن يختلفا في الذات ويشتركا في صفة إما محسوسةٍ كقولهم: رأيت شمسًا ويريدون إنسانًا يتهلّل وجهه، وكقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريَم: الآية ٤] فالمستعار منه النارُ، والمستعار له الشيبُ، والجامعُ الانبساطُ، ولكنّه في النار أقوى؛ وإمّا غيرِ محسوسة كقولِه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريَات: الآية ٤١] المستعار له الريحُ، والمستعار منه المرءُ والجامعُ المنعُ من ظهور النتيجة.

الثاني: أن يستعار شيء معقولٌ لشيء معقولٍ لاشتراكهما في وصف عدميّ أو ثبوتيّ وأحدهما أكملُ في ذلك الوصف، فيتنزّل الناقص منزلة الكامل كاستعارة اسم العدم للوجود إذا اشتركا في عدم الفائدة، أو استعارة ٱسمِ الوجود للعدم إذا بقيت آثاره المطلوبة منه، كتشبيه الجهل بالموت لاشتراك الموصوف بهما في عدم الإدراك والعقل، وكقولهم: فلان لَقِي الموت إذا لقي الشدائد، لاشتراكهما في المكروهيّة، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٤] والسكوت والزوال أمران معقولان.

الثالث: أن يستعار المحسوسُ للمعقولِ كاستعارة النور الذي هو محسوس للحجّة، واستعارةِ القِسطاسِ للعدلِ، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٨] فالقذف والدمغ مستعاران، وقولُه تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحِجر: الآية ٩٤] ٱستعارة لبيانه عما أوحي إليه كظهور ما في الزجاجة عند

انْصداعها، وكلُّ خوضٍ في القرآن العزيز فهو مستعار من الخوض في الماء، وقولُه تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: الآية ١١] جعل لهما طاعة وقولًا.

الرابع: أن يستعار اسمُ المعقولِ للمحسوسِ على ما تقدّم ذكره في التشبيه كقوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: الآيتان ٧، ٨] فالشهيق والغيظ مستعاران، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محَمَّد: الآية ٤] والأقوال في الاستعارة كثيرة، وقد أوردنا فيها ما يُستدلُّ به عليها.

وأما الكناية ـ قال: اللفظة إذا أطلِقت وكان الغرض الأصليّ غيرَ معناها فلا يخلو: إما أن يكون معناها مقصودًا أيضًا ليكون دالاً على ذلك الغرضِ الأصليّ وإما أن لا يكون كذلك.

فالأوّل: هو الكناية، ويقال له: الإرداف أيضًا.

والثاني: المجاز.

فالكناية عند علماء البيان أن يريد المتكلّم إثباتَ معنى من المعاني لا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفُه في الوجود فيُومِي به إليه، ويجعله دليلًا عليه(١)، مثال ذلك قولُهم: طويل النِّجادِ وكثير رَمادِ القِدر، يعنون به أنه طويلُ القامةِ، كثيرُ القِرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٠] كنى بنفي قبول التوبة عن الموت على الكفر.

وقول الشاعر(٢): [من الطويل]

بعيدة مَهوَى القُرطِ إما لنَوفلٍ أبوها وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ

---

(١) حد السكاكي الكناية بقوله: «الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول: فلان طويل النجاد لينتقل إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة» (المفتاح، ص ١٨٩).

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي. زعيم مدرسة الغزل الإباحي في العصر الأموي. ولد بمكة في الليلة التي قتل بها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ. ومات سنة ٩٣ هـ باحتراق سفينته بالبحر. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١١١ ـ ١١٣).

أراد يذكر طُولَ جِيدها فأتى بتابعه وهو بُعد مهوى القرط، وكقولِ ليلى الأخيَلِيّة[١]: [من الكامل]

ومخرَّقٍ عنه القميصُ تخاله   وسطَ البيوت من الحياء سقيما

كَنَتْ عن جوده بخَرق القميص من جذب العُفاة له عند ٱزدحامهم لأخذ العطاء، وأمثالِ ذلك. قال:

والكناية تكون في المثبتِ كما ذكرنا، وقد تكون في الإثبات وهي ما إذا حاولوا إثبات معنى من المعاني لشيء فيتركون التصريح بإثباته له، ويثبتونه لما له به تعلُّق، كقولهم: المجدُ بين ثوبيه، والكرم بين برديه، وقولِ الشاعر[٢]: [من الكامل]

إن المروءةَ والسماحةَ والندى   في قُبّةٍ ضُربت على ٱبن الحَشْرَجِ

قال: وٱعلم أن الكناية ليست من المجاز لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصليةَ، وتفيد بمعناها معنى ثانيًا هو المقصود، فتريد بقولك: كثيرُ الرماد حقيقتَه وتجعل ذلك دليلًا على كونه جوادًا، فالكناية ذكر الردِيف وإرادةُ المردوف.

وأما التعريض - فهو تضمين الكلام دَلالةً ليس لها ذكر، كقولك: ما أقبحَ البخلَ! لمن تُعرّض ببخله، وكقولِ محمد بنِ عبد الله بنِ الحسن: لم يُعرِق في أمّهات الأولاد، يعرّض بالمنصور بأنه ٱبن أمةٍ، وأمثالِ ذلك.

وأما التمثيل - فإنما يكون من باب المجاز إذا جاء على حدّ الاستعارة، مثاله قولك للمتحيّرِ: فلان يقدّم رِجلًا ويؤخّر أخرى، فلو قلت: إنه في تحيّره كمن يقدّم رِجلًا ويؤخر أخرى لم يكن من باب المجاز، وكذلك قولُك لمن أخذ في عمل لا يتحصّل منه مقصودٌ: أراد تنفخ في غير ضَرَم، وتخُطّ على الماء.

قال: وأجمعوا على أنّ للكناية مزيّةً على التصريح لأنك إذا أثبتّ كثرة القِرى بإثبات شاهدِها ودليلِها فهو كالدعوى التي معها شاهد ودليل، وذلك أبلغ من إثباتها بنفسها.

---

(١) هي ليلى الأخيلية العقيلية، اشتهرت بمراثيها الحزينة أحبت ثوبة بن العمير ورثته، اتصلت بعبد الملك بن مروان والحجاج. توفيت سنة ٨٠ هـ. ولها ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو زياد الأعجم. وابن الحشرج أمير نيسابور. وهو زياد بن سليم أو سليمان مولى عبد القيس، شاعر أموي جزل الشعر. لقب بالأعجم لعجمة في لسانه عاش في خراسان ومات فيها سنة ١٠٠ هـ مدح هشام بن عبد الملك وعبد الله بن جعفر. (الزركلي، الأعلام).

وأما الخبر وأحكامه ـ فقد قال: الخبر هو القول المقتضِي تصريحُه نِسبةَ معلوم إلى معلوم بالنفي أو الإثبات. وتسمية أحد جزئيه بالخبر مجازِيّة. ثم المقصود من الخبر إن كان هو الإثبات المطلق فيكون بالاسم، كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: الآية ١٨] وإن لم يتمَّ ذلك إلا بإشعار زمانه فيكون بالفعل، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣] فإن المقصود لا يتمّ بكونه معطيًا للرزق بل بكونه معطيًا للرزق في كل حين وأوان، والإخبار بالفعل أخصّ من الإخبار بالاسم، وإذا أنعمت النظر وجدت الاسم موضوعًا على أن تثبِت به المعنى للشيء من غير إشعارٍ بتجدّدِهِ شيئًا فشيئًا، بل جعلِ البسط مثلاً صفة ثابتة ثبوتَ الطول أو القِصر في قولك: زيد طويل أو قصير، بخلاف ما إذا أخبرت بالفعل فإنه يشعِر بالتجدّد وأنه يقع جزءًا فجزءًا، وإذا أردت شاهدًا على ذلك فتأمّل هذا البيت[1]: [من البسيط]

لا يألَف الدرهم المضروب صُرَّتنا ... إلا يمرّ عليها وهو منطلق

فجاء بالاسم، ولو أتى بالفعل لم يَحسن هذا الحسنَ. والفعل المتعدي إلى جميع مفعولاته خبر واحد، حتى إذا قلت: ضرب زيد عمرًا يوم الجمعة خلف المسجد ضربًا شديدًا تأديبًا له كان الخبر شيئًا واحدًا وهو إسناد الضرب المقيَّدِ بهذه القيود إلى زيد، فظهر من ذلك أن قولك: جاءني رجلًا مغايِر لما دلّ عليه قولك: جاءني رجل ظريف، وإنك لست في ذلك إلا كمن يضمّ معنى إلى معنى. وحكم المبتدأ والخبر أيضًا كذلك، فقول بشّار[2]: [من الطويل]

كأن مُثار النَّقعِ فوق رؤوسنا ... وأسيافَنا ليل تَهاوَى كواكبه[3]

خبر واحد. وإذا قلت: الرجل خير من المرأة فاللام فيه قد تكون للعموم أو للخصوص بأن ترجع إلى معهودٍ، أو لتعريف الحقيقة مع قطع النظر عن عمومها وخصوصها. وإذا قلت: زيد المنطلق، أو زيد هو المنطلق أفاد انحصار المخبَرِ به في المخبَرِ عنه، فإن أمكن الحصر تُرِك على حقيقتِه، وإلّا فعلى المبالغة. وإذا قلت:

(١) هذا البيت للنضر بن جؤبة بن النضر.
(٢) هو بشار بن برد العقيلي. شاعر عباسي ضرير بالولادة بصري المولد، قدم بغداد ومدح المهدي، ثم رمي بالزندقة فضرب سبعين سوطًا فمات ودفن في البصرة سنة ١٦٨ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨).
(٣) النقع: الغبار. شبه السيوف بالكواكب، وشبه الغبار بالليل.

المنطلق زيد فهو إخبار عما عُرِف بما لم يُعرَفُ، فكأن المخاطَب عَرَف أن إنسانًا أنطلق ولم يعرف صاحبه، فقلتَ: الذي تعتقد أَنه منطلق زيد.

وأما الذي ـ فهو للإشارة إلى مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة كقولك: ذهب الرجل الذي أبوه منطلق، وهو تحقيق قولهم: إنه يُستعمل لوصف المعارف بالجُمل. والتصديق والتكذيب يتوجهان إلى خبر المبتدأ لا إلى صفته، فإذا كذّبت القائل في قوله: زيد بنُ عَمرٍو كريم، فالتكذيب لم يتوجه إلى كونه ٱبنَ عَمرٍو بل إلى كونه كريمًا.

وأما التقديم والتأخير ـ قال: إذا قُدّم الشيء على غيره فإما أن يكون في نيّة التأخير، كما إذا قدّم الخبر على المبتدإ؛ وإما أن يكون في نية التأخير ولكن ٱنتقل الشيء من حكم إلى آخر، كما إذا جئت إلى ٱسمين جاز أن يكون كلُّ واحد منهما مبتدأ فجعلت أحدهما مبتدأ، كقولك: زيد المنطلق، والمنطلق زيد. قال الجرجانِيّ: قال صاحب الكتاب[(١)]: كأنهم يقدّمون الذي بيانُه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنَى، وإن كانا جميعًا يهمّانِهم ويعنيانهم، مثاله: أن الناس إذا تعلق غرضهم بقتلِ خارجيّ مفسدٍ ولا يبالون مَن صَدَرَ القتل منه، وأراد مريدٌ الإخبار بذلك فإنه يقدّم ذكر الخارجيّ فيقول: قتل الخارجيَّ زيد، ولا يقول: قتل زيد الخارجيَّ لأنه يعلم أن قتل الخارجيِّ هو الذي يَعنيهم، وإن كان قد وقع قتل من رجل يبعُد في ٱعتقاد الناس وقوعُ القتل من مثله قَدّم المخبِرُ ذكرَ الفاعل فيقول: قتل زيد رجلًا لاعتقاد الناس في المذكور خلافَ ذلك. ٱنتهى كلام الجرجانيّ[(٢)].

قال: ولنذكر ثلاثة مواضعَ يُعرف بها ما لم يُذكر:

الأوّل: الاستفهام ـ فإذا أدخلته على الفعل وقلت: أضربت زيدًا؟ كان الشكّ في وجود الفعل، وإذا أدخلته على الاسم وقلت: أأنت ضربت زيدًا؟ كان الفعل محقّقًا والشكّ في تعيين الفاعل. وهكذا حكم النكرة، فإذا قلت: أجاءك رجل؟ كان المقصود: هل وُجد المجيء من رجل؟ فإذا قلت: أرجل جاءك؟ كان ذلك سؤالًا عن

---

(١) يعني بصاحب الكتاب سيبويه لأنه سمى مؤلفه في النحو «الكتاب». ولد في البصرة وتوفي قرب شيراز سنة ٧٧٠ م. واسمه عمرو بن عثمان. وهو إمام البصريين في النحو كما أن الكسائي إمام الكوفيين في هذا العلم. (المنجد).

(٢) هو عبد القاهر الجرجاني وقد تكلم على هذا الموضوع في كتابه أسرار البلاغة في سياق حديثه عن النظم.

جنس من جاء بعد الحكم بوجود المجيء من إنسان؛ وقس عليه الخبر فِي قولك: ضربت زيدًا، وزيدًا ضربت، وجاءني رجل، ورجل جاءني؛ ثم الاستفهام قد يجيء للإنكارِ، فإن كان في الكلام فعل ماضٍ وأدخلت الاستفهام عليه كان لإنكاره، كقوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾ [الصافات: الآية ١٥٣] وإن أدخلته على الاسم فإن لم يكن الفعل مترددًا بينه وبين غيره كان لإنكار أنه الفاعل، ويلزم منه نفيُ ذلك الفعلِ، كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: الآية ٥٩] أي لو كان إذنٌ لكان من الله، فلمّا لم يوجد منه دلّ على أن لا إذْنَ، كما تقول: متى كان هذا، في ليلٍ أم نهارٍ؟ أي لو كان لكان في ليلٍ أو نهارٍ، فلما لم يوجد في واحد منهما لم يوجد أصلًا، وعليه قوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٣]. وإن كان مردَّدًا بينه وبين غيره كان إما للتقرير والتوبيخ، وعليه قوله تعالى حكاية عن قول نُمرُودٍ: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: الآية ٦٢]. وإما لإنكار أنه الفاعلُ مع تحقيق الفعلِ، كقولك لمن انتحل شعرًا: أأنت قلت هذا؟[1]

وإن كان الفعل مضارعًا، فإن أدخلت حرف الاستفهام عليه كان إمّا لانكار وجودِه، كقولِه تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هُود: الآية ٢٨]. أو لإنكار أنه يقدِر على الفعل، كقول امرىء القيس: [من الطويل]

أيقتلني والمشرَفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال

أو لإزالة طمَعٍ من طَمِع في أمر لا يكون، فيُجَهِّلُهُ في طمعه، كقولك: أيرضى عنك فلان وأنت على ما يكره؟. أو لتعنيف من يضيّع الحق، كقول الشاعر: [من الطويل]

أأترك إن قلّت دراهم خالدٍ زيارتَه إنّي إذن للئيم[2]

أو لتنديم الفاعل، كما تقول لمن يركب الخطَرَ: أتخرج في هذا الوقت؟

وإن أدخلتَه على الاسم فهو لإنكار صدور الفعل من ذلك الفاعلِ إما للاستحقار كقولك: أأنت تمنعني؟. أو للتعظيم كقولك: أهو يسأل الناسَ؟. أو للمبالغة إما في

(١) تحدث عبد القاهر الجرجاني على التقديم والتأخير في كتابه أسرار البلاغة، ص ٤٠ وما بعدها. والنويري يتابعه في كلامه هنا على هذا الموضوع.

(٢) البيت للشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير. من قصيدة يمدح فيها خالد بن يزيد بن فريد الشيباني.

كرمه، كقولك: أهو يمنع سائله؟؛ وإما في خساسته، كقولك: أهو يسمح بمثل هذا؟. وقد يكون لبيان ٱستحالة فعلٍ ظُنَّ ممكنًا، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٤٠]، وكذلك إذا أدخلته على المفعول، كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: الآية ١٤]، و﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٤٠]، و﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: الآية ٢٤].

الثاني: في التقديم والتأخير في النفي - إذا أدخلتَ النفيَ على الفعلِ فقلتَ: ما ضربتُ زيدًا فقد نفَيت عن نفسِك ضربًا واقعًا بزيدٍ، وهذا لا يقتضِي كونَ زيدٍ مضروبًا.

وإذا أدخلتَه على الاسم فقلتَ: ما أنت ضربتُ زيدًا ٱقتضى من باب دليل الخطاب كونَ زيدٍ مضروبًا، وعليه قول المتنبي: [من الطويل]

وما أنا وحدي قلت ذا الشعرَ كلَّه ... ولكن لِشعري فيك من نفسه شِعرُ(١)

ولهذا يصح أن تقولَ: ما ضربتُ إلا زيدًا، وما ضربتُ زيدًا ولا ضربه أحد من الناس، ولا يصح أن تقولَ: ما أنا ضربت إلا زيدًا، وما أنا ضربت زيدًا ولا ضربه أحد من الناس.

أما الأول فلأنّ نقضَ النفي بإلّا يقتضي أن تكون ضربته، وتقديمَك ضميرَك وإيلاءه حرفَ النفي يقتضي ألا تكون ضربته فيتدافعان(٢).

وأما الثاني فلأن أوّلَ الكلام يقتضي أن يكون زيدٌ مضروبًا، وآخرَه يقتضي ألا يكونَ مضروبًا فيتناقضان. إذا عُرِف هذا في جانب الفاعل فإنه مثلُه في جانب المفعول، فإذا قلتَ: ما ضربتُ زيدًا لم يَقتضِ أن تكون ضاربًا لغيره، وإذا قلتَ: ما زيدًا ضربتُ اقتضى ذلك، ولهذا صحّ ما ضربتُ زيدًا ولا أحدًا من الناس ولا يصح ما زيدًا ضربت ولا أحدًا من الناس.

وحكمُ الجار والمجرور حكمُ المفعول، فإذا قلتَ: ما أمرتُك بهذا لم يقتض أن تكون قد أمرته بشيء غيرِ هذا، وإذا قلت: ما بهذا أمرتك اقتضاه.

---

(١) يريد أن يقول إنه شعره في ممدوحه ليس من صنعه وحده، وإنما يسهم فيه الممدوح أيضًا.

(٢) بحث عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير في النفي في كتابه دلائل الإعجاز ص ٤٠ وما بعدها. وأتى بآراء مشابهة لآراء النويري.

وإذا قدَّمتَ صِيغةَ العموم على السلب وقلتَ: كلُّ ذا لم أفعلْه، برفع كلّ كان نفيًا عامًّا، ويناقضه الإثباتُ الخاصُّ، فلو فعلتَ بعضه كنتَ كاذبًا.

وإن قدَّمتَ السلب وقلتَ: لم أفعل كلَّ ذا كان نفيًا للعموم ولا ينافي الإثباتَ الخاصَّ، فلو فعلت بعضه لم تكن كاذبًا، ومن هذا ظهر الفرق بين رفعِ كلّ ونصبِه في قول أبي النجْم[1]: [من الرّجز]

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي ... عليّ ذنبًا كلّه لم أصنع

فإن رفعتَه كان النفي عامًّا، واستقام غرضُ الشاعر في تبرئة نفسِه من جملة الذنوب، وإن نصبتَه كان النفي نفيًا للعموم، وهو لا ينافي إتيانَ بعضِ الذنب فلا يتم غرضه.

الثالث: في التقديم والتأخير في الخبر المثبَت ـ ما تَقدّم في الاستفهام والنفي قائم هنا، فإذا قدّمتَ الاسم وقلتَ: زيد فعل وأنا فعلت فالقصد إلى الفاعل، إما لتخصيص ذلك الفعل به، كقولك: أنا شَفعت في شأنه مدّعيًا الانفرادَ بذلك أو لتأكيد إثباتِ الفعل له لا للحصر، كقولك: هو يعطي الجزيل، لتمكّن في نفس السامع أن ذلك دأبُه دون نفيه عن غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان: الآية ٣]، فإنه ليس المراد تخصيصَ المخلوقية بهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ [المَائدة: الآية ٦١].

وكقول دُرْنَى بنتِ عَبْعَبَة: [من الطويل]

هما يَلبَسان المجدَ أحسنَ لِبسةٍ ... شحيحان ما اسْطاعا عليه كِلاهما

وقولِ الآخر: [من الطويل]

همو يفرِشون اللِّبدَ كلَّ طِمِرَّةٍ ... وأجردَ سَبّاح يبُذّ المُغالبا[2]

قال: والسبب في هذا التأكيد أنك إذا قلت مثلًا: زيد، فقد أشعرتَ بأنك تريد الحديثَ عنه فيحصل للسامع تشوّق إلى معرفته، فإذا ذكرته قبِلتْه النفس قبول العاشق

---

(١) أبو النجم (١٣٠ هـ = ٧٤٧ م)، هو الفضل بن قدامة العجلي الوائلي. عاش في العصر الأموي واتصل بعبد الملك بن مروان وولده هشام. من أكابر الرجاز. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الطمرة: الفرس الطويلة القوائم الخفيفة.

معشوقه فيكون ذلك أبلغَ في التحقيق ونفيِ الشكّ والشبهة، ولهذا تقول لمن تَعِدُه: أنا أُعطيك أنا أُكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك إذا كان من شأن من يَسبِقُ له وعدٌ أن يعترضَه الشك في وفائه، ولذلك يقال في المدح: أنت تعطِي الجزيل، أنت تجود حين لا يجود أحد، ومن هٰهنا تعرف الفخامة في الجمل التي فيها ضميرُ الشأن والقصّة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧] وأن فيها ما ليس في قولك: فإن الأبصار لا تَعمَى، وإن الكافرين لا يفلحون؛ وهكذا في الخبر المنفيّ، فإذا قلتَ: أنت لا تُحسِنُ هذا، كان أبلغَ من قولك لا تُحسِن هذا، فالأوّل من هو أشدّ إعجابًا بنفسه وأكثر دعوى بأنه يُحسن.

قال: واعلم أنه قد يكون تقديمُ الاسم كاللازم نحو قوله: [من السريع]

يا عاذلي دعنِيَ من عذلكا   مِثلي لا يقبَل من مثلكا

وقولِ المتنبي: [من السريع]

مِثلُك يَثني الحُزنَ عن صَوبه   ويستردّ الدمعَ عن غَرْبه

وقولِ الناس: مِثلُك يرعى الحق والحرمة، وما أشبه ذلك مما لا يُقصَد فيه إلى إنسان سوى الذي أُضيف إليه وجيء به للمبالغة، وقد عبّر المتنبي عن هذا المعنى فقال: [من السريع]

ولم أقل مِثلُك أعنِي به   سواك يا فردًا بلا مُشبِه[١]

وكذلك حكم «غير» إذا سُلك فيه هذا المسلك، كقول المتنبي: [من البسيط]

غيري بأكثر هذا الناسِ ينخدع   إن قاتلوا جَبنُوا أو حَدّثوا شجعُوا[٢]

أي لستُ ممن ينخدع ويغترّ، ولو لم يقدّم مثلًا وغيرًا في هذه الصور لم يؤدِّ هذا المعنى.

قال: ويقرب من هذا المعنى تقديمُ بعض المفعولات على بعض في نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٠] فإن تقديم شركاءَ على الجن أفاد أنه ما ينبغي لله شركاءُ لا من الجنّ ولا من غيرهم، لأن شركاءَ مفعولٌ ثان لجعلوا،

---

(١) يريد أن يقول إن ممدوحه لا يشبهه أحد فيشبهه به.
(٢) يعني أنه لا يثق بالناس ولا ينخدع بادعاءاتهم فهم شجعان في الكلام جبناء في ساحة الوغى.

ولله متعلّق به والجنّ مفعوله الأوّل، فقد جعل الإنكار على جعل الشريك لله على الإطلاق من غير اختصاص بشيء دون شيء، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّدة عن مَجراها على شيء كان الذي تعلق بها من المنفيّ عامًا في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفةُ، فإذا قلتَ: ما في الدار كريم، كنتَ نفيتَ الكينونةَ في الدار عن كل شيء يكون الكرم صفةً له، وحكم الإنكار أبدًا حكم النفي، فأما إذا أخرتَ شركاءَ فقلت: وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله فيكونُ جَعْلُ الشركاء مخصوصًا غيرَ مطلق فيحتمل أن يكون المقصودَ بالإنكار جعلُ الجنّ شركاء لا جعلُ غيرهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقدّم شركاء نفيًا لهذا الاحتمال.

فصل في مواضع التقديم والتأخير[١]

قال: أما التقديم فيحسن في مواضعَ:

الأول: أن تكون الحاجة إلى ذكره أشدَّ، كقولك: قطع اللِّصَّ الأميرُ.

الثاني: أن يكون ذلك أليق بما قبله من الكلام أو بما بعده، كقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠]، فإنه أشكَلُ بما بعده وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩٩]، وبما قبله وهو: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٩].

الثالث: أن يكون من الحروف التي لها صدر الكلام، كحروف الاستفهام والنفي، فإنّ الاستفهامَ طلبُ فهم الشيء، وهو حالة إضافية فلا تستقلُّ بالمفهومية فيشتدّ اتصاله بما بعده.

الرابع: تقديم الكليّ على جزئياته، فإن الشيء كلما كان أكثرَ عمومًا كان أعرفَ فإن الوجود لما كان أعمَّ الأمور كان أعرفَها عند العقل.

الخامس: تقديم الدليل على المدلول.

وأما التأخير فيحسُن في مواضعَ:

الأوّل: تمام الاسم كالصلة والمضاف إليه.

---

(١) تكلم القزويني على التقديم والتأخير في باب المسند والمسند إليه من كتابه الإيضاح، ص ٩٣ وما بعدها. وكذلك تحدث عن هذا الموضوع السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم، ص ٩٠ وما بعدها.

الثاني: توابع الأسماء.

الثالث: الفاعل.

الرابع: المضمَر، وهو أن يكون متأخرًا لفظًا وتقديرًا، كقولك: ضرب زيدٌ غلامَه أو مؤخّرًا في اللفظ مقدّمًا في المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] أو بالعكس كقولك: ضرب غلامَه زيد؛ وإن تقدّم لفظًا ومعنى لم يجز كقولك: ضرب غلامُه زيدًا.

الخامس: ما يُفضِي إلى اللَّبس، كقولك: ضرب موسى عيسى، أو أكرم هذا هذا، فيجب فيه تقديم الفاعل.

السادس: العامل الذي هو ضعيف عملُه، كالصفة المشبّهة والتمييز وما عمل فيه حرف أو معنى، كقولك: هو حسنٌ وجهًا، وكريم أبا، وتصبب عَرَقا، وخمسة وعشرون درهمًا، وإن زيدًا قائم، وفي الدار سعد جالسًا. ولا يجوز الفصل بين العامل والمعمول بما ليس منه، فلا تقول: كانت زيدًا الحمّى تأخذ إذا رفعتَ الحمّى بكانت للفصل بين العامل وما عَمِل فيه، فإن أضمرت الحمّى في كانت صحت المسألة.

وأما الفصل والوصل ـ فهو العلم بمواضع العطف والاستئناف، والتهدّي إلى كيفيّة إيقاع حروف العطف في مواقعها، وهو من أعظم أركان البلاغة، حتى إن بعضَهم حدّ البلاغَة بأنها معرفة الفصل والوصل(١). وقال عبد القاهر: إنه لا يكمُل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كَمُل لسائر معاني البلاغة.

قال: اعلم أن فائدة العطف التشريكُ بين المعطوف والمعطوف عليه(٢)، ثم من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلا هذا القَدْرَ وهو الواو، ومنها ما يفيد فائدة زائدة كالفاء وثمّ وأو، وغرضنا ههنا متعلق بما لا يفيد إلا الاشتراكَ فنقول: العطف إما أن يكون في المفردات، وهو يقتضي التشريكَ في الإعراب، وإما أن يكون في الجمل، وتلك الجملة إن كانت في قوّة المفرد كقولك: مررت برجل خَلْقه حَسَنٌ وخُلُقه قبيح، فقد

---

(١) لعل أقدم من أشار إلى أهمية الفصل والوصل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، الجزء الأول، باب البلاغة، صفحة ٩١.

(٢) حد القزويني الفصل والوصل بقوله: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه». (الإيضاح، ص ١٤٥).

أشركتَ بينهما في الإعراب والمعنى لاشتراكهما في كون كل واحد منهما تقييدًا للموصوف، ولا يُتصور أن يكون ٱشتراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراكُ فيه، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حالَه الأوّلَ عساه يعرف حاله الثاني، يدلك على ذلك أنك إذا عطفت على الأول شيئًا ليس منه بسبب ولا هو مما يُذكَر بذكره لم يستقم، فلو قلتَ: خرجت اليوم من داري، وأحسنَ الذي يقول بيتَ كذا قلتَ ما يُضحَك منه، ومن هٰهنا عابوا على أبي تمّام قوله: [من الكامل]

لا والذي هو عالم أن النوى صَبِرٌ وأن أبا الحسين كريم

وإن لم تكن في قوّة المفرد فهي على قسمين:

الأوّل: أن يكون معنى إحدى الجملتين لذاته متعلقًا بمعنى الأخرى كما إذا كانت كالتوكيد لها أو كالصفة، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأنّ التوكيد والصفة متعلقان بالمؤكَّد[1] والموصوف لذاتهما، والتعلق الذاتيّ يغني عن لفظ يدل على التعلق، فمثال التوكيد قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآيتان ١، ٢] فلا ريب فيه توكيد لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢] كأنه قال: هو ذلك الكتاب، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞﴾ [البَقَرَة: الآية ٦]، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞﴾ [البَقَرَة: الآية ٧] تأكيد ثان أبلغ من الأوّل، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: الآيتان ٨، ٩] ولم يقل: ويخادعون، لأن المخادعة ليست شيئًا غيرَ قولهم: آمنّا مع أنهم غيرُ مؤمنين، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمَان: الآية ٧] ولم يقل تعالى: وكأن، وأمثال ذلك في القرآن العزيز كثيرة.

القسم الثاني: ألا يكون بين الجملتين تعلق ذاتيّ، فإن لم يكن بينهما مناسَبة فيجب ترك العاطف أيضًا، لأن العطف للتشريك ولا تشريكَ، ومن هٰهنا أيضًا عابوا

(١) اعتبر القزويني التأكيد أحد أنواع الفصل الثلاثة لكمال الاتصال بين الجملتين. أما النوعان الآخران فهما أن تكون الجملة الثانية بدلًا من الأولى، أو أن تكون الجملة الثانية بيانًا للأولى. (الإيضاح، صفحة ١٤٨ ـ ١٥٠).

على أبي تمّام البيتَ المتقدِّمَ، لا والذي هو عالم. . .، إذ لا مناسبة بين مرارة النوى وبين كرم أبي الحسين، ولذلك لم يحسُن جوازُ العاطف.

وإن كان بينهما مناسَبة فيجب ذكر العاطف.

ثم إن كان المحدَّث عنه في الجملتين شيئين فالمناسَبة بينهما إما أن تكون بالذي أخبر بهما، أو بالذي أخبر عنهما، أو بِهِمَا كليهما؛ وهذا الأخير هو المعتبَر في العطف. قال: ونعني بالمناسَبة أن يكونا متشابهين، كقولك: زيد كاتب وعمرو شاعر أو متضادّين تضادًا على الخصوص، كقولك زيد طويل وعمرو قصير، وكقولك: العلم حسن والجهل قبيح، فلو قلت: زيد طويل والخليفة قصير لاختل معنى عند ما لا يكون لزيد تعلق بحديث الخليفة، ولو قلتَ: زيد طويل وعمرو شاعر لاختل لفظًا، إذ لا مناسَبة بين الطويل القامة والشاعر.

وإن كان المحدَّث عنه في الجملتين شيئًا واحدًا، كقولك: فلان يقول ويفعل ويضرّ وينفع، ويأمر وينَهى، ويسيء ويحسِن، فيجب إدخال العاطف فإن الغرض جعلُه فاعلًا لأمرين، فلو قلتَ: يقول يفعل بلا عاطف لتُوهّم أن الثانيَ رجوع عن الأوّل.

وإذا أفاد العاطف الاجتماعَ ازداد الاشتراكُ، كقولك: العجَب من أنك أحسنت وأسأت، والعجَب من أنك تنهى عن شيء وتأتي مثله، وكقوله: [من البسيط]

لا تَطمَعوا أن تُهينونا ونكرمَكم وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

فإن المعنى جعلُ الفعلين في حُكم واحد، أي لا تطمَعوا أن ترَوا إكرامنا إيّاكم يُوجَد مع إهانتكم إيّانا.

قال: وقد يجب إسقاط العاطف في بعض المواضع لاختلال المعنى عند إثباته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآيتان ١١، ١٢]، فقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢] كلام مستأنَفٌ، وهو إخبار من الله تعالى، فلو أتى بالواو لكان إخبارًا عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسَهم بأنهم يُفسِدون فيختل المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣] وأمثالُ ذلك كثيرة؛ وإذا كان كذلك فلا حاجة إلى العاطف بخلاف قولِهِ تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٢]، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٤] فإن كل واحدةٍ من الجملتين خبرٌ من الله تعالى.

قال: ومما يجب ذكره هٰهنا الجملةُ إذا وقعت حالًا[١] فإنها تجيء مع الواو تارة وبدونها أخرى فنقول: الجملة إذا وقعت حالًا فلا بدّ أن تكون خبريّة تَحتمِل الصدقَ والكذبَ، وهو على قسمين:

الأوّل وله أحوال:

الأولى: أن يُجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال، كقولك: جاء زيد ويدُه على غلامه، ولقِيتُ زيدًا وفرسُه سابقُه، وهذه الواوُ تسمّى واوَ الحال.

الثانية: أن تجيء بالضمير من غير واو، كقولك: كلمتُه فوه إلى فيّ، وهو في معنَى مُشَافِهًا، والرابط الضمير، فلو قلتَ: كلّمتُه إلى فيّ فوه، ولقِيتُه عليه جبّةُ وَشْيٍ لم يكن من باب وقوع الجملة حالًا، لأنه يمكننا أن نرفع فُوهُ وجبّةُ بالجارّ والمجرور فيرجع الكلام إلى وقوع المفرد حالًا، والتقدير كلّمتُه كائنًا إلى فيّ فوه، ولقِيتُه مستقرّةً عليه جبّة وشيٍ، وعليه قول يشّار: [من الطويل]

إذا أنكرتني بَلدة أو نكِرتُها غدوت مع البازي عليّ سوادُ

الثالثة: أن تجيء الواو من غير ضمير وهو كثير، كقولك: لقِيتُك والجيشُ قادم وزرتَنا والشتاءُ خارج. ويجوز أن يُجمع بين حالين مفردٍ وجملةٍ إذا أجزنا وقوع حالين كقولك: لقِيتُك راكبًا والجيشُ قادم، فالجملة حال من التاء أو من الكاف، والعامل فيها لَقِيتُ، أو من ضمير «راكبًا» و «راكبًا» هو العامل فيها.

القسم الثاني: الجملة الفعلية، ولا بدّ أن تكون ماضيًا أو مضارعًا أما الماضي فلا بدّ معه من الإتيان بالواو وقد أو بأحدهما، كقولك: تكلمت وقد عجلت، وجاء زيد قد ضرب عمرًا، وجئت وأسرعت في المجيء، قال الله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١١١]، ولم يُجز البصريون خلوّه عنهما، وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النّساء: الآية ٩٠] وفي قول أبي صخر الهُذَليّ: [من الطويل]

وإني لتعروني لذكراكِ هِزّة كما انتَفَض العُصفور بلّله القَطر

---

(١) بحث القزويني حكم الجملة الحالية. وقال إن الجملة التي تقع حالًا ضربان، خالية من ضمير تقع حالًا، وغير خالية. الأولى يجب أن تكون بالواو. أما الثانية فتارة تكون بالواو وتارة يمتنع ذلك، وتارة يترجح أحدهما، وتارة يستوي الأمران. (الإيضاح، ص ١٥٨ - ١٥٩).

إنّ قد مقدَّرةٌ فيهما، فإنّ الشيء إذا عُرف موضعُه جاز حذفه.

وأما المضارع فإن كان موجَبًا فلا يؤتَى معه بالواو، فتقول: جاءني زيد يضحك، ويجيء عمرو يسرع، واَجلس تحدِّثُنا بالرفع أي محدِّثًا لنا، لأنه بتجرّده عما يغير معناه أشبَه اَسمَ الفاعل إذا وقع حالًا.

وإن كان منفيًا جاز حذف الواو مراعاةً لأصل الفعل الذي هو الإيجابُ وجاز إثباتها، لأن الفعلَ ليس هو الحالُ، فإن معنى قولك: جلس زيد ولم يتكلّم جلس زيد غيرَ متكلّم، فجرى مَجرى الجملة الاسمية، فالحذف كقولك: جاء زيد ما يَفُوهُ ببنت شَفة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فَاطِر: الآية ٣٥]، فقوله: لا يمسّنا في موضعِ نصبِ على الحال من ضمير المرفوع في أحلّنا، والإثبات كقولك: جلس زيد ولم يتكلّم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: الآية ٨٩]. قال: وشبهوا به الفعلَ الماضِيَ فقالوا: جاء زيد ما ضرب عمرًا، وجاء زيد وما ضرب عمرًا.

وأما الحذف والإضمار ـ فقد قال: الأفعالُ المتعدّيةُ التي تُرك ذكر مفعولاتها على قسمين:

الأول: ألا يكونَ له مفعول معيَّن فقد يُترك مفعولُه لفظًا وتقديرًا ويُجعل حاله كحال غير المتعدِّي، كقولهم: فلان يَحُلّ ويَعْقِد، ويأمر ويَنهَى، ويضرّ وينفع والمقصود إثباتُ المعنى في نفسه للشيء من غير التعرّض لحديث المفعول، فكأنك قلت: بحيث يكون منه حَلّ وعَقد وأمر ونهي ونفع وضرّ، وعليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩] أي هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن ينص على معلوم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: الآيات ٤٣ ـ ٤٨] وبالجملة فمتى كان الغرض بيانَ حال الفاعل فقط فلا تُعدِّ الفعلَ، فإنّ تعدِيتَه تنقُض الغرض. ألا ترى أنك إذا قلت: فلان يُعطِي الدنانيرَ كان المقصود بيانَ جنس ما يتناوله الإعطاءُ لا بيانَ حالِ كونهِ معطيًا؟.

الثاني: أن يكون له مفعول معلوم إلا أنه يُحذَف في اللفظ لأغراض:

الأول: أن يكون المراد بيانَ حالِ الفاعِل وأنّ ذلك الحالَ دأبه لا بيانَ المفعول كقول طُفَيل[١]: [من الطويل]

جزى الله عنا جعفرًا حين أُزْلِقَتْ بنا نعلُنا في الواطئِين فَزَلَّتِ
أَبَوا أن يَمَلُّونا ولو أنّ أمنا تُلاقِي الّذي لاقَوْه منّا لَمَلَّتِ
هُمُ خلطونا بالنفوس وألجؤوا إلى حُجُرات أدفأت وأظلّت

والأصل أن تقول: لَمَلَّتنا وألجؤونا وأدفأتنا وأظلّتنا، فحذَف المفعولَ المعيَّن من هذه المواضع الأربعة، وكأنه قد أبهم ولم يَقصِد قصدَ شيء يقع عليه، كما تقول: قد ملّ فلان، تريد قد دخل عليه الْمَلَالُ من غير أن تخصّ شيئًا بل لا تزيد على أن تجعل الْمَلَال من صفته، فلذلك الشاعرُ جعل هذه الأوصافَ من دأبهم، ولو أضاف إلى مفعول معيّن لبطَل هذا الغرض، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القَصَص: الآيتان ٢٣، ٢٤] فقد حذف المفعول في أربعة مواضعَ، فإن ذكره ربما يُخلّ بالمقصود، فلو قال تعالى مثلًا: تذودان غنمَهما لَتُوُهِّمَ أنّ الإنكارَ إنما جاء من ذَوْدِهما الْغَنَمَ لا من مطلق الذَّوْد، كقولك: ما لك تمنع أخاك؟ فإنّ الإنكار من منع الأخ لا من مطلق المنع.

الثاني: أن يكون المقصود ذكره إلا أنك لا تذكره إيهامًا بأنك لا تقصد ذكره كقول البحتريّ: [من الخفيف]

شَجْوُ حسّاده وغيظُ عِداه أن يَرى مبصر ويَسمعَ واع

المعنى أن يرى مبصرٌ محاسنَه، أو يَسمَعَ واعٍ أخبارَه، ولكنه تغافل عن ذلك إيذانًا بأن فضائله يكفي فيها أن يقع عليها بصرٌ أو يَعِيَها سمع حتى يُعلَمَ أنه المتفرّد بالفضائل، فليس لحسّاده وعِداه أشجى من عِلم بأن هنا مبصرًا وسامعًا.

الثالث: أن يُحذَف لكونه بيّنًا، كقولهم: أصغَيت إليك، أي أُذني، وأغضَيت عليك، أي جَفني.

---

(١) هو طفيل بن كعب الغنوي، من أوقف الناس للخيل، كان يقال له في الجاهلية «المحبِّر» لحسن شعره، شاعر جاهلي. (الشعر والشعراء، ص ٢٩٥).

فصل في حذف المبتدأ والخبر

قال: قد يحسُن حذف المبتدأ حيث يكون الغرضُ أنه قد بلغ في استحقاق الوصف بما جُعِل وصفًا له إلى حيث يُعلَمُ بالضرورة أن ذلك الوصفَ ليس إلا له سواء كان في نفسه كذلك، أم بحسب دعوى الشاعر على طريق المبالغة، فذِكره يُبطِل هذا الغرضَ، ولهذا قال الإمام عبدُ القاهِر[١]: ما من ٱسم يُحذفُ في الحالة التي ينبغي أن يُحذفَ فيها إلا وحذفُه أحسن مِن ذِكره، فمن حذف المبتدأ قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النُور: الآية ١] أي هذه سورة، وقول الشاعر: [من الكامل]

لا يُبعِد الله التلبُّب والـ ... ـغارات إذ قال الخميس نَعَمَ[٢]

أي هذه نَعَم. قال عبدُ القاهِر: ومن المواضع التي يَطَّرِد فيها حذف المبتدأ بالقطع والاستئناف أنهم يبدؤون بذكر الرجل ويقدّمون بعض أمره، ثم يَدَعون الكلام الأوّلَ ويستأنفون كلامًا آخر وإذا فعلوا ذلك أتَوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدإ، مثال ذلك قوله: [من الكامل]

وعلمت أنّي يوم ذا ... ك مُنَازِلٌ كَعبا ونَهْدا
قوم إذا لبِسوا الحديـ ... ـد تَنمّروا خُلُقا وقِدّا

وقال الحُطَيئة: [من الوافر]

هُمُ حَلُّوا من الشرف المعلّى ... ومن حَسَبِ العشيرة حيث شاؤوا
بُناة مكارم وأُساة كَلْمٍ ... دماؤهم من الكَلَبِ الشفاء[٣]

وأمثلة ذلك كثيرة.

ومن حذف الخبر قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣١] ،أي: لولا أنتم مضلونا وقولُ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: لولا عليٌّ لهلكَ عمر، أي: لولا عليٌّ حاضر أو مُفْتٍ.

---

(١) يعني به عبد القاهر الجرجاني الذي يعتمد عليه النويري كثيرًا ولا سيما كتاباه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز».
(٢) التَّلبب: التهيؤ للحرب.
(٣) كانوا يعتقدون أن المصاب بالكلب يشفى إذا شرب من دم الملوك.

فصل

الإضمار على شريطة التفسير كقولهم: أكرمني وأكرمت عبدَ الله أي: أكرمني عبدُ الله وأكرمت عبدَ الله، ومما يشبه ذلك مفعول المشيئة إذا جاءت بعد لو، فإن كان مفعولها أمرًا عظيمًا أو غريبًا فالأولى ذكرُه، كقوله[1]: [من الطويل]

ولو شئتُ أن أبكي دَمًا لبكَيتُه عليه ولكن ساحةُ الصبر أوسع

فإن بكاءَ الإنسان دمًا عجيبٌ، وإن لم يكن كذلك فالأَولى حذفه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٣٥] والتقدير لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: الآية ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: الآية ٢٤]، و﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٩].

قال: واعلم أنه قد تُترك الكنايةُ إلى التصريح لما فيه من زيادة الفخامة كقول البحتريّ: [من الخفيف]

قد طَلبْنا فلم نَجد لك في السُّو دَدِ والمجد والمكارم مِثلا[2]

المعنى قد طلبنا لك مِثلا، ثم حُذف، لأن هذا المدحَ إنما يتم بنفِي المِثل، فلو قال: قد طلبنا لك مِثلا في السُّودَدِ والمجد فلم نجده لكان قد أوقع نَفْيَ الوجود على ضمير المِثل، فلم يكن فيه من المبالغة ما إذا أوقعه على صريح المِثل، فإن الكناية لا تبلُغ مَبلغ الصريح، ولهذا لو قلت: وبالحق أنزلناه وبه نزل، وقل هو الله أحد وهو الصمد لا تجدُ من الفَخامة ما تجدُه في قولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٥] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: الآيتان ١، ٢] وعلى ذلك قول الشاعر: [من الخفيف]

لا أرى الموتَ يسبِق الموتَ شيءٌ نَغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وأما مباحث إنّ وإنما ـ فإنه قال: أما إنّ فلها فوائد:

---

(١) هذا البيت للشاعر إسحٰق بن حسان الخريمي بالولاء وهو من قصيدة يرثي بها عامر بن عمارة الخُريمي. شاعر مطبوع. ولد في الجزيرة وسكن بغداد. ووصف ما حل ببغداد إبان الفتنة بين الأمين والمأمون، توفي سنة ٢١٢ هـ. (الأعلام، للزركلي).

(٢) يريد البحتري أن يقول إنه لم يجد شبيهًا لممدوحه في المجد والمكارم.

الأولى: أن تربُط الجملةَ الثانيةَ بالأُولى، وبسببها يحصل التأليف بينهما حتى كأن الكلامين أُفرِغا إفراغًا واحدًا، ولو أسقطْتَها كان الثاني نائيًا عن الأوّل، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [الحج: الآية ١]، وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧]، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمْۗ﴾ [التوبة: الآية ١٠٣]، وقد تتكرر في كلام واحد، كقوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف: الآية ٥٣]. ثم متى أسقطْتَ «إنّ» من الجملة التي أدخلتها عليها، فإن كانت الجملةُ الثانيةُ إنما تذكَر لإظهار فائدةِ ما قبلها كما في الآيات المذكورة احتجتَ إلى الفاء، وإلا فلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١﴾ [الدخان: الآيتان ٥٠، ٥١]، فلو قلت: فالمتقون لم يكن كلامًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحج: الآية ١٧] فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: الآية ١٧] في موضع خبر إنّ، فدخول الفاء يوجب عطفَ الخبر على المبتدأ، وهو غير جائز عند أكثر النحويين.

الثانية: أنك ترى لضمير الشأنِ والقصةِ في الجملة الشرطيّة مع «إنّ» من الحسن واللطف ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: الآية ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤].

الثالثة: أنها تهيِّىء النكرة وتُصلحها لأن يحدَّث عنها، كقوله[1]: [من الرجز]

إن شِـواءً ونَـشْـوةً   وخَبَبَ البازلِ الأَمُونِ[2]

(١) البيت: لسلمى بن ربيعة.

(٢) الخبب: نوع من السير، فيه مراوحة بين اليدين والرجلين. الأمون: الناقة المأمونة العثار والإعياء.

فلولا هي لم يكن كلامًا؛ وإن كانت النكرة موصوفةً جاز حذفها ولكن دخولُها أصلَحُ، كقول حسّانَ: [من الخفيف]

إنّ دهـرًا يَـلُفُّ شـمـلي بـجُـمْـلٍ لـزمـان يَـهُـمُّ بـالإحـسـان

الرابعة: أنها قد تُغنِي عن الخبر، كما إذا قيل لك: الناس إِلْبٌ[1] عليكم فهل لكم أحد؟ فقلتَ: إنّ زيدًا وإنّ عمرًا، أي لنا، قال الأعشى[2]: [من المنسرح]

إنّ مَـحَـلّا وإنّ مُـرتـحَـلا وإنّ في السَّفْرِ إذ مضَوا مَهَلا[3]

الخامسة: قال المُبرّد[4]: إذا قلت عبد الله قائم، فهو إخبار عن قيامه، فإذا قلتَ: إنّ عبد الله قائم، فهو جواب عن إنكارِ مُنكِرٍ لقيامه، سواء كان المنكر هو السائل أو الحاضِرين؛ والدليل على أنّ إنّ إنما تذكر لجواب السائل أنهم ألزموها الجملةَ من المبتدأ والخبر، نحو: والله إنّ زيدًا لمنطلق، فالحاجة إنما تدعو إلى «إنّ» إذا كان للسامع ظنّ يخالف ذلك، ولذلك تراها تزداد حسنًا إذا كان الخبر بأمر يَبعُد، كقول أبي نواس: [من الرجز]

عـلـيـك بـالـيـأس مـن الـنـاس إنّ غِـنـى نـفـسِـك فـي الـيـأسِ

ومن لطيف مواقعها أن يُدّعَى على المخاطَب ظنٌّ لم يظنَّه ولكن صدر منه فعل يقتضي ذلك الظنَّ، فيقال له: حالك تقتضي أن تكون قد ظننت ذلك، كقول الشاعر[5]: [من السريع]

جـاء شَـقِـيـقٌ عـارضًـا رمـحَـه إنّ بـنـي عـمّـك فـيـهـم رمـاح

---

(١) الإلب: الجماعة.

(٢) هو الأعشى الأكبر، واسمه ميمون بن قيس بن جندل لأن لقب الأعشى أطلق على اثنين وعشرين شاعرًا أكبرهم هذا أعشى قيس. وهو شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم. ولد في اليمامة وقضى حياته متنقلًا في أنحاء الجزيرة العربية يمدح أصحاب الشأن. لقب الأعشى لضعف بصره، وبأبي بصير لقوة بصيرته، وبصناجة العرب. له ديوان شعر مطبوع. (المنجد).

(٣) السَّفر: أراد بالسفر الذين ماتوا. والمهل: البقاء. أراد القول إن الأموات خالدون.

(٤) المبرد: (٢١٠ ـ ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ ـ ٨٩٩ م) هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام العربية في بغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار ولدي في البصرة وتوفي في بغداد. أهم كتبه «الكامل». (الزركلي، الأعلام).

(٥) حَجْل بن نضلة الباهلي: شاعر جاهلي، قالوا في خبره إنه أسر النوار بنت عمرو بن كلثوم، يوم طلح، وفر بها في الفلاة كي لا يلحق وله فيها شعر. (الأعلام، للزركلي).

أي: مجيئك هذا مُدِلًّا بنفسك مجيءُ من يَعتقِد أنه ليس مع أحد رمحٌ غيرِه. وقد تجيء إذا وُجد أمر كان المتكلّم يظنّ أنه لا يُوجد، كقولك للشيء الذي يراه المخاطَب ويسمعه: إنه كان من الأمر ما تَرى، إنه كان مني إليه إحسان فقابلني بالسوء كأنك تردّ على نفسك ظنّك الذي ظننتَ، وعليه قوله عز وجل حكايةً عن أمّ مريمَ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: الآية ٣٦]، وحكايةً عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١١٧].

وأما إنما ـ فتارة تجيء للحصر بمعنى أنّ هذا الحكم لا يوجد في غير المذكور وهي بمنزلة ليس إلا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعَام: الآية ٣٦]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: الآية ١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النّازعَات: الآية ٤٥].

وتارة تجيء لبيان أن هذا الأمرَ ظاهر عند كلّ حدّ، سواء كان كذلك أم في زعم المتكلّم، ومنه قول الشاعر(١): [من الخفيف]

إنما مُصْعَب شِهاب من اللّـ ـه تجلّت عن وجهه الظّلماء

مدّعيًا أنّ ذلك مما لا يُنكِره أحد من الناس. قال: وأعلم أنه يُستعمل للتخصيص ثلاثُ عبارات:

الأولى: إنما جاء زيد؛

الثانية: جاءني زيد لا عمرو، والفرق أنّ في الأولى يُفهَم إيجابُ الفعل من زيد ونفيهُ عن غيره دَفعة واحدة، ومن الثانية دَفعتين، ثم إنهما كلتيهما يُستعمَلان لإثبات التخصيص لا لنفي التشريك؛ وفيه نظر.

الثالثة: ما جاءني إلا زيد، وهي بأصل الوضع تفيد نفيَ التشريك، ولهذا لا يصحّ ما زيد إلّا قائمٌ لا قاعد، لأنك بقولك: إلا قائم نَفيتَ عنه كلّ صفة تنافي القيامَ، فيندرج فيه نفيُ القعود، فإذا قلتَ بعده: لا قاعد كان تَكرارًا لأن لفظةَ «لا» موضوعةٌ لأن يُنفَى بها ما أَوجب الأوّلُ لا لأن يعاد بها نفيُ ما نُفِيَ أوّلا،

---

(١) الشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات (٨٥ هـ = ٧١٤ م). شاعر قريش في العصر الأموي، أقام في المدينة، وخرج مع عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان؛ وانتقل إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير ثم قصد الشام وبقي فيها حتى وفاته غلب على شعره الغزل وسمي بالرقيات لتشبيهه بثلاث نساء اسمهن رقية. (الأعلام، للزركلي).

ويصح إنما زيد قاعد لا قائم، لأن صيغةَ «إنما» بأصل وضعها تَدُلّ على تخصيص الحكم بالمذكور، وأما نفي الشِّرْكة فهو لازمٌ من لوازمها، فليس له من القوّة مَا لَما يدلّ عليه بوضعه، ولهذا يصحّ: زيد هو الجائي لا عمرو، فثبت أنّ دَلالة الأوّليَّين على التخصيص أقوى، ودلالة الثالثة على نفي الشريك أقوى، لكن الثالثةُ قد تقام مُقامَ الأوّليَّين في إفادة التخصيص، كما إذا ٱدعى واحد أنك قلتَ قولًا ثم قلتَ بخلافه، فقلتَ له: ما قلتُ الآن إلا ما قلتُه قبلُ، وعليه قولُه تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المَائدة: الآية ١١٧] ليس المعنى أني لم أَزِدْ على ما أمرتَني به شيئًا، ولكن المعنى أنّي لم أَدَعْ مما أمرتَني به أن أقولَه شيئًا.

قال: وحكم «غير» حكم «إلّا» فإذا قلتَ: ما جاءني غيرُ زيد ٱحتمل أن يكون المرادُ نفيَ أن يكون جاء معه إنسان آخرُ، وأن يكون المراد تخصيصَ الحكم بالمذكور لا نفيَه عما عداه.

فصــل

إذا دخل ما وإلّا على الجملة المشتمِلة على المنصوب كان المقصود بالذكر ما ٱتصل بإلّا متأخّرًا عنها، فإذا قلتَ: ما ضرب عمرًا إلا زيد، فالمقصود المرفوع، وإذا قلتَ: ما ضرب زيد إلا عمرًا، فالمقصود المنصوب، وإذا قلتَ: ما ضرب إلا زيد عمرًا، فالاختصاص للضارب، وإذا قلتَ: ما ضرب إلا زيدًا عمرو، فالاختصاص للمضروب، فإذا قلتَ: لم أَكْسُ إلا زيدًا جبّةً، فالمعنى تخصيصُ زيد من بين الناس بكِسوة الجبّة، وإن قلتَ: لم أَكْسُ إلا جبَةً زيدًا، فالمعنى تختصّ كِسوةُ الجبّةِ من بين الناس بزيد؛ وكذلك الحكم حيث يكون بدلَ أحد المفعولين جارٌّ ومجرورٌ، كقول السيد الحِمْيَرِيِّ: [من السريع]

لــو خــيِّـرَ الــمِـنـبَـر فُـرسـانُـه   مــا ٱخــتــار إلّا مــنـكُــم فــارسـا

وكذلك حكم المبتدأ والخبر والفعل والفاعل، كقولك: ما زيد إلا قائم، وما قام إلا زيد.

وأما إنما فالاختصاص فيها يقع مع المتأخر، فإذا قلتَ: إنما ضرب زيدًا عمرو فالاختصاص في الضارب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨] فالغرض بيانُ المرفوع وهو أن الخاشِين هم العلماءُ، ولو قُدّم المرفوعُ لصار المقصود بيانَ المخشيّ منه، والأوّل أتمّ، ومنه قول الفرزدق:

[من الطويل]

أنا الذائد الحامي الذِّمارَ وإنما يدافِع عن أحسابكم أنا أو مِثلي

فإن غرضه أن يحصر المدافِعَ بأنه هو لا المدافَعَ عنه، ولو قال: إنما أنا أدافع عن أحسابكم، تَوجّه التخصيص إلى المدافَع عنه؛ وحكم المبتدأ والخبر إذا أدخلتَ عليهما إنما، فإن قدّمت الخبر فالاختصاص للمبتدإ، وإن لم تقدّمه فللخبر، فإذا قلتَ: إنما هذا لك فالاختصاص في «لك»، بدليل أنك بعده تقول: لا لغيرك، فإذا قلتَ إنما لك هذا فالاختصاص في «هذا»، بدليل أنك بعده تقول: لا ذاك، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرّعد: الآية ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ [التوبَة: الآية ٩٣] فالاختصاص في الآية الأولى للبلاغة والحساب، وفي الثانية في الخبر الذي هو على الذين دون المبتدأ الذي هو السبيل.

وإذا وقع بعدها الفعل فالمعنى أن ذلك الفعلَ لا يصح إلا من المذكور، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩]؛ ثم قد يجتمع معه حرف النفي، إما متأخرًا عنه كقولك، إنما يجيء زيد لا عمرو: قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغَاشِيَة: الآيتان ٢١، ٢٢] وقال لَبِيد[1]: [من الرّمل]

فـإذا جـوزيـت قـرضًـا فـأجـزِه إنما يَجزِي الفتى ليس الجَمَل[2]

وإما مقدَّمًا عليه، كقولك: ما جاءني زيد وإنما جاءني عمرو، فهٰهنا لو لم تقل: إنما، وقلت: ما جاءني زيد وجاءني عمرو لكان الكلام مع من ظَنّ أنهما جاءاك جميعًا، وإذا أدخلْتَها فإن الكلام مع من غلِط في الجائي أنه زيد لا عمرو.

قال: واعلم أنّ أقوى ما تكون «إنّما» إذا كان لا يراد بالكلام الذي بعدها نفسُ معناه، ولكن التعريضُ بأمر هو مقتضاه، فإنا نعلم أنه ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: الآية ١٩] أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذُمّ الكفّار ويقالَ لهم: إنهم من فرط العناد في حكم من ليس بذي عقل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: الآية ٤٥] و﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ

---

(١) هو لبيد بن ربيعة، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وحسن إسلامه، فترك الشعر وسكن الكوفة وعمر طويلًا وهو أحد أصحاب المعلقات. عرف بكرمه وسمو أخلاقه. وله ديوان شعر مطبوع. توفي حوالي سنة (٤١ هـ = ٦٦١ م). (الأعلام، للزركلي).

(٢) أراد القول إن عرفان الجميل والمكافأة من عمل الإنسان وليس البهيم.

رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: الآية ١٨] والتقدير إنّ من لم تكن له هذه الخشيةُ، فهو كمن لم تكن له أذنٌ تَسمع وقلبٌ يَعقِل، فالإنذار معه كلا إنذار، وهذا الغرض لا يحصل دون «إنما» لأن من شأنها تضمينُ الكلام معنى النفي بعد الإثبات، فإذا أُسقطتْ لم يبق إلا إثبات الحكم للمذكورِين، فلا يدلّ على نفيه عن غيرهم إلا أن يُذكَرَ في مَعرِض مدح الإنسان بالتيقّظ والكرم وأمثالهما، كما يقال: كذلك يفعل العاقل، هكذا يفعل الكريم.

تنبيه ـ قال: كاد تقرِّب الفعل من الوقوع، فنفيُها يَنفِي القُربَ، فإن لم يكن في الكلام دليل على الوقوع فيفيد نفيَ الوقوع ونفيَ القرب منه، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النُور: الآية ٤٠] أي: لم يَرَهَا ولم يقارب رؤيتها، وكقول ذي الرمّة: [من الطويل]

إذا غَيّر النأيُ المحبِّين لم يَكَدْ رَسيسُ الهوى من حب ميّةَ يَبْرَحُ[١]

المعنى أن بَراح حبّها لم يقارب الكَونَ فضلًا عن أن يكون.

وأما النظم[٢] ـ فهو عبارة عن توخي معاني النحو فيما بين الكَلِم، وذلك أن تضَعَ كلامك الوضعَ الذي يقتضيه علم النحو بأن تنظر في كل باب إلى قوانينه والفروقِ التي بين معاني ٱختلاف صِيَغِه، وتضعَ الحروف مواضعَها وتراعَى شرائط التقديم والتأخير، ومواضعَ الفصل والوصل، ومواضعَ حروف العطف على ٱختلاف معانيها، وتعتبَر الإصابة في طريق التشبيه والتمثيل.

وقد أَطبق العلماء على تعظيم شأن النظْم، وأن لا فضل مع عدمه ولو بلغ الكلام في غرابة معناه إلى ما بلغ، وأنّ سبَب فساده تركُ العمل بقوانين النحو وٱستعمالُ الشيء في غير موضعه.

ثم قال: الجُمَلُ الكثيرة إذا نُظِمت نظمًا واحدًا فهي على قسمين:

الأوّل: أن لا يتعلّقَ البعض بالبعض ولا يحتاج واضعه إلى فكر ورويّة في ٱستخراجه، بل هو كمن عَمَد إلى اللآلىء ينظمها في سلك، ومثاله قول الجاحظ في مصنَّفاته: جَنّبك الله الشُبهةَ، وعصمك من الحيْرةِ، وجَعل بينك وبين المعروف نَسَبًا،

(١) الرسيس: الأثر والبقية، أو الثابت الذي لا يبرح مكانه.
(٢) سبق كل من الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني إلى الكلام على نظم الكلام. وما أتى به النويري دون ما أجادا فيه.

وبين الصدق سببًا، وحَبَّب إليك التثبُّت، وزَيّن في عينك الإنصاف وأذاقك حلاوةَ التقوى، وأشعَر قلبَك عِزّ الحقّ، وأودَع صدرك بَردَ اليقين، وطَرد عنك ذلّ الطمع، وعرّفك ما في الباطل من الذِّلّة، وما في الجهل من القِلّة. وكقول النابغة للنُّعمان وتفضيلِه إياه على ذي فائش يزيدَ[١] بنِ أبي جَفْنةَ، وكقول حسّان بن ثابت للحارث الجَفْنيّ يفضّله على النعمان بن المنذر، وكقول ضِرارِ بنِ ضَمْرةَ لمعاوية في وصف عليّ؛ وقد تقدّم شرح أقوالهم في الباب الأوّل من القسم الثالث من هذا الفن في المدح، وهو في السفْر الثالث فلا حاجة بنا إلى إعادته. وهذا النظْم لا يستحق الفضل إلا بسلامة معناه وسلامة ألفاظه، إذ ليس فيه معنًى دقيقٌ لا يُدرَك إلا بثاقب الفكر.

قال: وربما ظُنّ بالكلام أنه من هذا الجنس ولا يكون منه، كقول الشاعر: [من البسيط]

سالت عليه شِعابُ الحيّ حين دعا أنـصـارَه بـوجـوه كـالـدنـانـيـر

فإن الحسن فيه ليس مُجرّدَ الاستعارة، بل لما في الكلام من التقديم والتأخير، ولهذا لو أزلْتَ ذلك وقلتَ: سالت شِعابُ الحيّ بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، فإنه يذهب بالحسن والحلاوة.

الثاني: أن تكون الجملِ المذكورة يتعلّق بعضها ببعض، وهناك تَظْهَر قوّةُ الطبع، وجَودةُ القريحة، واستقامةُ الذِّهن.

ثم ليس لهذا الباب قانون يُحفَظ، فإنه يجيء على وجوه شتّى:

منها الإيجاز، وهو العبارة عن الغرض بأقلّ ما يمكن من الحروف، وهو على ضربين: إيجاز قَصر، وإيجاز حَذف، وقد تقدّم الكلام على ذلك وذكرُ أمثلته عند ذكر الفصاحة.

ومنها التأكيد ـ وهو تَقوِيَة المعنى وتقريرُه، إما بإظهار البرهان، كقول قابوس[٢]: [من البسيط]

يا ذا الذي بصُروف الدهر عيَّرنا هل عاند الدهرُ إلا من له خَطَرَ

---

(١) فائش: واد في أرض اليمن، كان يسيطر عليها سلامة بن يزيد بن عريب بن تريم بن مرثد، ولذا لقب بذي فائش. وكان النابغة قد اتصل به قبل النعمان أبي قابوس ملك الحيرة. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٣).

(٢) قابوس: هو قابوس بن وشمكير (٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م). الملقب بشمس المعالي، أمير جرجان وطبرستان، نبغ في الأدب والإنشاء والشعر. له كتاب اسمه كمال البلاغة. (الزركلي، الأعلام).

أما ترى البحر تعلو فوقه جيَف وتَستقِرُّ بأقصى قعره الدّرر
وفي السماء نجوم ما لها عَدد وليس يُخسَف إلا الشمس والقمر

وإما بالعزيمة(١)، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: الآية ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة: الآيات ٧٥ - ٧٧] وكقول الأشتر النَّخعيّ(٢): [من الكامل]

بَقَّيتُ وَفْري وٱنحرفتُ عن العلا ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبوس
إن لم أشُنّ على ٱبن حَرب غارةً لم تَخْل يومًا من نهاب نفوس

يريد معاويةَ بنَ أبي سُفيانَ، وكقول أبي نُواس: [من البسيط]

لا فرّج الله عنّي إن مَددت يدي إليه أسأله من حبّك الفرجا

وكقول أبي تمّام: [من الطويل]

حُرِمتُ مُناي منك إن كان ذا الذي تقوَّله الواشون حقًّا كما قالوا

أو بالتَّكرار، كقولهم: الله الله، والأسَد الأسد، وكقول الحادِرةِ(٣): [من الطويل]

أظاعنةٌ وما تودِّعنا هندُ وهند أتى من دونها النأيُ والبعد

وهذا في التنزيل كثير، والعَلَم فيه سورة الرحمٰن(٤).

وأما التجنيس ـ فهو يتشعّب منه شُعب كثيرة:

فمنه المستوفِي التامّ ـ وهو أن يجيء المتكلّم بكلمتين متفقتين لفظًا، مختلفتين معنى، لا تفاوتَ في تركيبهما، ولا ٱختلافَ في حركاتهما، كقول

---

(١) العزيمة: القسم.

(٢) الأشتر النخعي: شاعر وفارس إسلامي، كان من أشد أنصار عليّ بن أبي طالب عداوة لمعاوية بن أبي سفيان. وفي هذين البيتين يقسم أنه سيحاربه ويزهق النفوس وإلا كان منحرفًا عن الكرم والعلا.

(٣) الحادرة: لقب الشاعر قطبة بن أوس التغلبي شاعر جاهلي مقل جمع ديوان محمد بن العباس اليزيدي، وطبع مؤخرًا. (الأعلام، للزركلي).

(٤) «العلم فيه سورة الرحمٰن» يعني أن أشهر شواهد على التكرار ما جاء في سورة الرحمٰن. حيث تتكرر الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ١٣] بعد كل آية.

الغَزِّيّ(١): [من البسيط]

لم يَبقَ غيرُكَ إنسانٌ يلاذُ به فلا بَرِحتَ لعين الدهر إنسانا

وقولِ عبد الله بن طاهر(٢): [من الطويل]

وإنّي للثَّغر المَخوف لكالئٌ وللثغر يَجري ظَلمُه لَرشوف

وكقول البُسْتيّ(٣): [من الوافر]

سما وحَمى بني سامٍ وحامٍ فليس كمثله سام وحامي

وذكر التِّبريزيّ(٤) أن التجنيس المستوفِي كقولِ أبي تمّام: [من الكامل]

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيىٰ بن عبد الله

وقال: وإنما عُدّ من هذا الباب لاختلاف المعنيين، لأن أحدَهما فعل، والآخر اسم.

ومنه المختلف ـ ويسمّى التجنيسَ الناقصَ ـ وهو مِثل الأوّل في اتفاق حروف الكلمتين إلا أنه يخالفه: إما في هيئة الحركة، كقوله ﷺ: «اللّهمّ كما حسّنت خَلْقي فحسّن خُلُقي»؛ وكقول مُعاذ رضي الله عنه: الدِّين يهدم الدَّين؛ وكقولهم: جُبَّة البُرد جُنّة البَرد؛ وكقولهم: الصديق الصدوق أوّل العَقْد وواسطة العِقْد؛ وكقول المعرّي: [من الطويل]

لغيري زكاة من جِمال فإن تكن زكاةُ جَمال فاذكري ٱبنَ سبيل

---

(١) الغزّيّ: (٤٤١ ـ ٥٢٤ هـ = ١٠٤٩ ـ ١١٣٠ م)، هو إبراهيم بن عثمان الكلبي، من أهل غزة. ولد بها وقام برحلة طويلة إلى العراق وخراسان ومدح آل بويه وغيرهم وتوفي بخراسان. له ديوان شعر مخطوط. (الأعلام، للزركلي).

(٢) عبد الله بن طاهر: (١٨٢ ـ ٢٣٠ هـ = ٧٩٨ ـ ٨٤٤ م)، ولي إمرة الشام مدة ونقل إلى مصر ثم ولاه المأمون خراسان وطبرستان والري وبقي حتى وفاته في نيسابور. (الأعلام، للزركلي).

(٣) البستي: (٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م)، علي بن محمد، أبو الفتح، ولد في بست قرب سجستان وإليها انتسب. كتب للأمير سبكتكين. وهو شاعر عصره وكاتبه. له ديوان شعر مطبوع (الزركلي، الأعلام).

(٤) التبريزي: (٤٢١ ـ ٥٠٢ هـ = ١٠٣٠ ـ ١١٠٩ م) هو يحيىٰ بن علي بن محمد الشيباني، أصله من تبريز وإليها ينسب، نشأ في بغداد وقام على خزانة كتب المدرسة النظامية فيها حتى وفاته. له شرح الحماسة لأبي تمام، والمفضليات للضبي، والملخص في إعراب القرآن، وشرح ديوان المتنبي الخ. (الزركلي، الأعلام).

أو بالحركة والسكون، كقولهم: البِدعة شَرَك الشِّرك. أو بالتخفيف والتشديد كقولهم: الجاهل إما مفرِط وإما مفرِّط.

ومنه المذيَّل ـ ويقال له: التجنيس الزائد والناقص أيضًا ـ وهو أن تجيء بكلمتين متجانستَي اللفظ متّفقتَي الحركات، غيرَ أنهما يختلفان بحرف، إما في آخرهما كقولك: فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور، كافٍ كافلٌ لمصالح الجمهور؛ وقولهم: أنا من زماني في زَمانه، ومن إخواني في خيانه؛ وقولهم: فلان سالٍ عن إخوانه، سالم من زمانه؛ ومن النظم قول أبي تمّام: [من الطويل]

يَمُدُّون من أيدٍ عواص عواصمٍ ... تصول بأسياف قواض قواضبِ

وقولُ البحتريّ: [من الطويل]

لئن صَدفتْ عنّا فَرُبَّتَ أنفس ... صَواد إلى تلك النفوس الصوادف

وإما من أوّلهما، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٩، ٣٠] ومن النظم ما أنشده عبد القاهر: [من الطويل]

وكم سَبقتْ منه إليّ عوارفٌ ... ثنائيَ من تلك العوارف وارفُ

وكم غُررٍ من بِرّه ولطائفٍ ... لَشكري على تلك اللطائف طائف

ومنه المركب وهو على ضربين:

الأوّل: ما هو متشابه لفظًا وخطًا، كقولهم: هِمّتك الهِمّة الفاترة، وفي صميم قلبك ألفاترة، ومن النظم قول البُسْتيّ: [من المتقارب]

إذا ملِك لم يكن ذاهِبَهْ ... فدعه فدولته ذاهبه

وقولُ الآخر: [من مجزوء الرمل]

عضّنا الدهر بنابه ... ليا ما حَلّ بنابه

وقولُ طاهر البَصري: [من الخفيف]

ناظِراه فيما جنى ناظِراه ... أودَعاني رهنًا بما أودَعاني

الثاني: ما هو متشابه لفظًا لا خطًا ويسمّى التجنيسَ المفروق، كقوله: كنت أطمع في تجريبك، ومطايا الجهل تجري بك.

ومن النظم قول الشاعر: [من الكامل]

لا تَعرِضنّ على الرواة قصيدة ما لم تكن بالغتَ في تهذيبها
فإذا عرضتَ القَوْلَ غيرَ مهذَّب عَدُّوه منك وساوسًا تهذِي بها

وأمثالُ ذلك كثيرة.

ومن أنواع المركّب المرفوّ، وهو أن تجمع بين كلمتين إحداهما أقصر من الأخرى، فتضمّ إلى القصيرة حرفًا من حروف المعاني أو من حروف الكلمة المجاورة لها حتى يعتدلَ ركنا التجنيس، كقولهم:

يا مغرور أمسِك، وقِس يومك بأمسك.

ويقرُب منه قول الهمذانيّ(١):

إن لم يكن لنا حَظٌّ في دَرَك دَرّك، فخلِّصنا من شَرَك شرّك.

وقول الحرِيريّ:

إن أخلَيتَ منّا مَبارِكَ مبارّك، فخلِّصنا من مَعارِكِ مَعارّك.

ومن النظم قول البُستيّ: [من المتقارب]

فهِمتُ كتابك يا سيّدي فهِمتُ ولا عَجَبٌ أن أهيما

ومنه قول الآخر: [من الكامل]

ذو راحة وكَفَتْ ندًى وكَفتْ ردًى وقضت بِهُلْك عُداته وعِداته
كالغيث في إروائه ورُوائه والليث في وثباته وثباته

ومنه المزدوِج ـ ويقال له التجنيس المردَّد والمكرر أيضًا ـ وهو أن يأتي في أواخر الأسجاع وقوافي الأبيات بلفظتين متجانستين إحداهما نمِيمة الأخرى وبعضُها، كقولهم: الشراب بغير النَّغَم غمّ، وبغير الدَّسم سمّ.

---

(١) هو بديع الزمان الهمذاني: (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م)، أبو الفضل أحمد بن الحسين. ولد في همذان بإيران سنة (٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م). وتتلمذ لأحمد بن فارس العالم اللغوي الكبير. ويعتبر مبتكر في المقامات في الأدب العربي، وخلف منها نحو إحدى وخمسين مقامة، طبعت مرارًا، أحدثها طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت، سنة ١٩٩٣، تقديم د. علي بو ملحم. (الزركلي، الأعلام).

وقول البستيّ: [من الوافر]

أبا العباس لا تَحسَب لشَيني بأنّي من حُلَى الأشعار عاري(١)
فلي طبع كسَلسال مَعين زُلال من ذُرَى الأحجار جاري
إذا ما أكبت الأدوار زَندا فلي زَند على الأدوار واري

ومن أجناس التجنيس المصحَّف ـ ويقال له تجنيس الخط أيضًا وهو أن تأتيَ بكلمتين متشابهتين خطًّا لا لفظًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [الكهف: الآية ١٠٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٧٩، ٨٠]، وقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فإنهنّ أشدُّ حُبًّا وأقلّ خِبًّا»(٢) وقولِ النبيّ ﷺ لعليّ رضي الله عنه: قَصِّر من ثيابك فإنه أبقى وأنقى وأتقى.

وكقول أبي فراس: [من مجزوء الكامل]

من بحر شعرك أغترِف وبفضل عِلمك أعترِف

ومنه المضارع ـ ويسمَّى المطمِّعَ ـ وهو أن يُجاء بالكلمة ويُبدأ بأختها على مِثل أكثر حروفها، فتطمع في أنها مِثلُها، فتخالفها بحرف؛ ويسمى المُطرَّفَ وهو أن تجمع بين كلمتين متجانستين لا تَفاوتَ بينهما إلا بحرف واحد من الحروف المتقارِبة، سواء وقع آخرًا أو حشوًا، كقوله ﷺ: «الخيل معقود بنَواصيها الخير» ومنه قول الحطيئة: [من الطويل]

مَطاعِينُ في الهَيجا مَطاعيمُ في الدّجى بنى لهُم آباؤهم وبنَى الجَدّ

وقولُ البحتريّ: [من المتقارب]

ظلِلتُ أرجّم فيك الظنون أحاجمُه أنت أم حاجبُه؟

وإن كان التفاوت بغير المتقاربة سمّيَ التجنيسَ اللاحقَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ [النساء: الآية ٨٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: الآيتان ٧، ٨] وقولِ البحتريّ: [من الخفيف]

هل لما فات من تَلاقٍ تَلافِي أم لشاك من الصبابة شافِي

---

(١) الشين: العيب. (٢) الخِب: الخداع.

ومنه المشوَّش ـ وهو كل تجنيس يتجاذبه طرَفان من الصنعة فلا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه، كقولهم: فلان مليح البلاغة، صحيح البراعة.

ومنه تجنيس الاشتقاق ـ ويسمّى الاقتضابَ أيضًا، ومنهم من عدّه أصلًا برأسه، ومنهم من عدّه أصلًا في التجنيس ـ وهو أن يجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: الآية ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقَرَة: الآية ٢٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقِعَة: الآية ٨٩]، وقولِ النبي ﷺ: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا» وقولِه: «الظلم ظُلُمات يوم القيامة» ومن النظم قول أبي تمّام: [من الوافر]

عَمَمْتَ الخلق بالنَّعماء حتى ... غدا الثقلان منها مُثْقَلَين

وقولُ المُطرِّزي[1]: [من الطويل]

وإني لأستحيي من المجد أن أُرَى ... حَليفَ غَوانٍ أو أليفَ أغاني

وقولُ الصاحب بنِ عبّاد: [من المتقارب]

وقائلةٍ لِمْ عَرَتْكَ الهمومُ ... وأمرك ممتثَل في الأمم

فقلت ذريتي على غُصّتي ... فإن الهموم بقدْر الهمم

وقولُ آخرَ: [من مجزوء الرّمل]

إن ترى الدنيا أغارت ... ونجومَ السعد غارت

فصُروف الدهر شتّى ... كلّما جارت أجارت

ومما يشبِه المشتقّ ـ ويسمّيه بعضهم المشابِه، وبعضهم المغايِرَ ـ قولُه تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المَائدة: الآية ٣١]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يُونس: الآية ١٠٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النّمل: الآية ٤٤]، ومن النظم قول البحتريّ: [من الخفيف]

وإذا ما رياح جُودك هبت ... صار قول العذّال فيها هباءَ

---

(١) المطرزي: ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي، الفقيه الحنفي، النحوي، الأديب، الخوارزمي. كان معتزلي الاعتقاد، زار بغداد وتباحث مع الفقهاء. توفي سنة ٦١٠ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦).

ومن أجناس التجنيس تجنيس التصريف ـ وهو ما كان كالمصحَّف إلا في ٱتحاد الكتابة، ثم لا يخلو من أن تتقاربَ فيه الحروب بٱعتبار المخارج أو لا تتقارب فإن تقاربت سُمّيَ مضارعًا، وإن لم تتقارب سُمّيَ لاحقًا.

مثال الأوّل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: الآية ٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: الآية ٧٥]، وقولُ قُسِّ بنِ ساعدةَ الإياديّ[١]: «من مات فات».

وقولُ الشاعر: [من الطويل]

فيا لك من حزم وعزم طواهما ... جديدُ البِلى تحت الصفا والصفائح

وهذا البيت يشتمل على المضارع والمتمَّم.

ومثال الثاني قول علي رضي الله عنه: الدنيا دار مَمرّ، والآخرة دار مَقرّ، وقولُ عبد الله بنِ صالح وقد وصف اليمنَ: ليس فيه إلا ناسج بُرد، أو سائس قرد.

ومنها التجنيس المخالِف ـ وهو أن تشتمل كلُّ واحدة من الكلمتين على حروف الأخرى دون ترتيبها، كقول أبي تمّام: [من البسيط]

بِيضُ الصفائح لا سُودُ الصحائف في ... متونهنّ جَلاء الشك والرِيَب[٢]

وقولِ البحتريّ: [من الطويل]

شَواجِرُ أرماح تُقطِّع بينهم ... شواجِرَ أرحام مَلُومٍ قَطوعُها

وقولِ المتنبيّ: [من الوافر]

ممنَّعةٌ منعَّمةٌ رَداحٌ ... يكلِّف لفظُها الطيرَ الوُقوعا

فإن ٱشتملت كل كلمة على حروف الأخرى، وكان بعض هذه قلْبَ حروف هذه خُصّ باسم جناس العكس، كقول النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن يوم القيامة ٱقرأ

(١) قس بن ساعدة الأيادي: (٢٣ هـ = ٦٠٠ م)، أحد حكماء الجاهلية، كان أسقف نجران، يقال إنه أول عربي خطب متوكئًا على عصا أو سيف، وأول من قال في كلامه: أما بعد. وقد وفد على قيصر الروم زائرًا فأكرمه. طالت حياته وأدركه النبي قبل النبوة ورآه في عكاظ. (الزركلي، الأعلام).

(٢) البيت من قصيدة يمدح فيها أبو تمام الخليفة العباسي المعتصم بمناسبة فتحه عمورية على تخوم الروم. ومطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وأرقَ» وقولِ عبد الله بنِ رَواحةَ(١) يمدح النبي ﷺ: [من البسيط]

تَحمِله الناقة الأَدْماءُ معتجِرًا بالبُرد كالبدر جلّى نُورُه الظُّلمَا

ومنها تجنيس المعنى ـ وهو أن تكون إحْدى الكلمتين دالّةً على الجناس بمعناها دون لفظها، وسبب ٱستعمال هذا النوع أن يقصد الشاعر المجانَسةَ لفظًا ولا يوافقه الوزن على الإتيان باللفظ المجانِس فيعدل إلى مُرادِفه، كقول الشاعر يمدح المهلّب ويذكر فعله بقَطَرِيّ بن الفُجاءة(٢)، وكان قَطَرِيّ يُكنَى أبا نَعامةَ: [من الطويل]

حدا بأبي أم الرِّئال فأَجفلتْ نَعامتُه من عارض متهلب

أراد أن يقول: حدا بأبي نَعامَة فأَجفلتْ نعامته أي روحه، فلم يستقم له فقال: بأبي أمّ الرِّئال، وأمّ الرِّئال هي النعامة، وكقول الشّماخ(٣): [من الوافر]

وما أَروَى وإن كَرُمتْ علينا بأدنى من موقَّفة حَرون(٤)

أَرْوَى: ٱسم امرأة. والموقَّفة الحرون من الوحش: أَرْوَى، وبها سميت المرأة فلم يمكنه أن يأتيَ باسمها فأتَى بصفتها، وقد صرح بذلك المَعري في قوله: [من البسيط]

أَرْوَى النِّياق كأَرْوَى النِّيق يَعصِمها ضرب يظلّ له السِّرحان مبهوتا(٥)

وبعضهم لا يُدخل هذا في باب التجنيس. قال: وإنما يحسُن التجنيس إذا قلّ، وأتَى في الكلام عفوًا من غير كَدّ ولا ٱستكراه، ولا بُعد ولا مَيل إلى جانب الرِّكّة ولا

(١) عبد الله بن رواحة: (٨ هـ = ٦٢٩ م)، عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي. صحابي يعد من الأمراء والشعراء الراجزين. شهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية. استشهد في مؤتة. (الزركلي، الأعلام).

(٢) قطري بن الفجاءة: (٧٨ هـ = ٦٩٧ م)، أبو نعامة، جعونة بن مازن بن يزيد الكناني التميمي. من رؤساء الأزارقة وأبطالهم. من أهل قطر. كان خطيبًا فارسًا شجاعًا شاعرًا. استفحل أمره زمن مصعب بن الزبير والحجاج بن يوسف، وسيرت إليه الدولة الجيوش مدة ١٣ سنة وهو ردها.

(٣) الشماخ: (٢٢ هـ = ٦٤٣ م) هو الشماخ بن ضرار بن حرملة المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان أرجز الناس على البديهة، له ديوان شعر مطبوع. قيل إن اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه. (الزركلي، الأعلام).

(٤) موقفة: من الوقف، وهو الخلخال أو السوار من العاج وغيره، وأراد به هنا الأروى التي في رجليها أو يديها بياض تشبيهًا لها بلابسة الخلخال أو السوار.

(٥) النيق: جمعه نياق وأنياق ونيوق. أرفع موضع في الجبل.

يكون كقول الأعشى: [من البسيط]

وقد غدوت إلى الحانوت يَتبعُني شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ[١]

ولا كقول مسلم بن الوليد[٢]: [من الكامل]

سُلَّت وسُلَّت ثم سُلّ سليلُها فأتى سليل سليلِها مسلولا

ولا كقول المتنبّي: [من الطويل]

فقَلْقلْتُ بالهمّ الذي قَلقل الحشا قَلاقلَ عيس كلّهن قَلاقلُ

وأما الطِّباق ـ قال: المطابقة أن تجمع بين ضدّين مختلفَين، كالإيراد والإصدار والليل والنهار، والسواد والبياض؛ قال الأخفش وقد سئل عنه: أجد قومًا يختلفون فيه، فطائفة ـ وهم الأكثر ـ يزعمون أنه الشيءُ وضدُّه، وطائفة تزعم أنه اشتراك المعنيين في لفظ واحد، كقول زِياد الأعجم: [من الطويل]

ونُبِّئْتُهُمْ يَستنصِرون بكاهل ولَلُؤمُ فيهم كاهلٌ وسَنام

الطباق

ثم قال: وهذا هو التجنيس بعينه، ومن ادعى أنه طباق فقد خالف الأصمعيّ والخليل، فقيل له: أوَ كانا يعرفان ذلك؟ فقال: سبحان الله! وهل أعلم منهما بالشعر وتمييز خبيثه من طَيّبه؟. ويسمونه المطابَقة والطِّباقَ والتضادَّ والتكافؤَ وهو أن تَجمَع بين المتضادَّين مع مراعاة التقابل، فلا تجيء باسم مع فعل ولا بفعل مع اسم، مثاله قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: الآية ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: الآية ١٨]، وقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرّعد: الآية ١٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: الآيتان ٢٦، ٢٧]، وقوله ﷺ للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتَقِلّون عند الطمع» ومن النظم قولُ

(١) المشل: المطر والحركات، الشلول: الخفيف الحركات، الشلشل: الخفيف القليل، الشول: الخفيف أيضًا.

(٢) مسلم بن الوليد: (٢٠٨ م = ٨٢٣ م) هو مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء، المعروف بصريع الغواني. شاعر غزل، أكثر من البديع في شعره فكان رائدًا في ذلك. كوفي المنشأ، نزل بغداد ومدح الرشيد وولاه المأمون مظالم جرجان حيث توفي ودفن. (الزركلي، الأعلام).

جرير: [من المنسرح]

وباسط خير فيكُم بيمينه وقابض شرّ عنكُم بشِماليا

وقولُ البحتريّ: [من البسيط]

وأمّة كان قبح الجَور يُسخِطها حِينًا فأصبح حسن العدل يرضيها

وقولُه أيضًا: [من البسيط]

تبسّمٌ وقُطوبٌ في ندًى ووغًى كالبرق والرعد وَسْطَ العارض البرِدِ

وقولُ دِعبِل(١): [من الكامل]

لا تَعجبي يا سَلْم من رجل ضَحكَ المَشِيب برأسه فبكى

وقول ٱبن المعتز: [من الطويل]

مَها الوحشِ إلا أنّ هاتا أوانس قَنا الخَطّ إلا أنّ تلك ذوابل

فإنّ هاتا للحاضر، وتلك للغائب، فكانتا متقابلتين؛ وقد تجيء المطابقة بالنفي والإثبات كقول البحتريّ: [من الطويل]

تُقيِّض لي من حيث لا أعلم النوى ويَسري إليّ الشوق من حيث أعلم

وقال الزكيّ بنُ أبي الإصبَع المصريّ(٢) في الطباق: وهو على ضربين: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بألفاظ المجاز، فما كان بلفظ الحقيقة سمّيَ طباقًا وما كان بلفظ المجاز سمّيَ تكافؤًا، فمثال التكافؤ قول أبي الأشعث العبسيّ من إنشادات قُدامةَ: [من الكامل]

حلو الشمائل وهو مرّ باسل يحمي الذِّمارَ صبِيحة الإرهاق

---

(١) دعبل: (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ ـ ٨٦٠ م)، دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، شاعر هجاء كوفي الأصل، أقام ببغداد. هجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. كان طوالًا ضخمًا أطروشًا. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الزكي بن أبي الإصبع المصري: (٥٩٥ ـ ٦٥٤ هـ = ١١٩٨ ـ ١٢٥٦ م)، هو عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني البغدادي ثم المصري. شاعر، وعالم بالأدب. مولده ووفاته في مصر. له تصانيف حسنة أهمها بديع القرآن، وتحرير التحبير. (الزركلي، الأعلام).

لأن قوله: حلو ومرّ خارج مَخرجَ الاستعارة، إذ ليس الإنسانُ ولا شمائلُه مما يذاق بحاسّة الذوق.

ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رَشِيق: [من الطويل]

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا نجومَ العوالي في سماء عَجاج

وقد جَمع دِعبِل في بيته المتقدّم بين الطباق والتكافؤ، وهو: [من الكامل]

لا تَعجَبي يا سَلْم من رجل ضَحكَ المشيب برأسه فبكى

لأن ضحكَ المشيب مجاز، وبكاءَ الشاعر حقيقة.

قال: هكذا قال ابن أبي الإصبَع، وفيه نظر، لأنه إذا كان الطباق عنده هو التضادّ من حقيقتين، والتكافؤ التضادّ من مجازين، فليس في البيت ما شرَطه.

قال: ومما جَمع بين طباقَي السلب والإيجاب قولُ الفرزدق من إنشادات ابن المعتزّ: [من الكامل]

لعن الإله بني كُليب إنّهم لا يَغدِرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حميرهم وتنام أعينهم عن الأوتار

وذَكر في آخر الباب طباقَ الترديد، وهو أن يردّ آخر الكلام المطابَق إلى أوّله فإن لم يكن الكلام مطابَقًا فهو ردّ الإعجاز على الصدور، ومثاله قول الأعشى: [من البسيط]

لا يَرقع الناس ما أَوهَوا وإن جَهَدوا طُول الحياة ولا يُوهون ما رَقعوا

وأما المقابلة ـ وهي أعم من الطباق، وذكر بعضهم أنها أخص، وذلك أن تضع معانيَ تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة، فتأتي في الموافِق بما وافق، وفي المخالِف بما خالف أو تشرُط شروطًا وتعُدَّ أحوالًا في أحد المعنيين فيجب أن تأتيَ في الثاني بمثل ما شرطتَ وعددتَ في الأوّل، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: الآيات ٥ - ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٥]، ومثاله من النظم قولُ الشاعر: [من الطويل]

فيا عَجبًا كيف اتفقنا فناصح وفيٌّ ومطويٌّ على الغِلّ غادر!

وقولُ آخرَ: [من الطويل]

تَقَاصَرن وٱحْلَوْلَين لي ثم إنه أتت بَعدُ أيامٌ طِوالٌ أمرّتِ

وقولُ زهير بنِ أبي سُلْمى: [من الخفيف]

حُلَماءُ في النادي إذا ما جئتَهم جُهلاءُ يومَ عَجاجةٍ ولقاء

ومن فساد ذلك أن يقابَل الشيءُ بما لا يوافقه ولا يخالفه، كقول أبي عديّ القرشيّ: [الخفيف]

يا ٱبن خير الأخيار من عبد شمس أنت زين الدنيا وغيثٌ لجُود

فليس قوله: غيث لجود موافقًا لقوله: زين الدنيا ولا مخالفًا له.

وكقول الكُميت[1]: [من البسيط]

وقد رأينا بها حورًا منعَّمةً بِيضًا تَكامَل فيها الدَّلّ والشَّنَب[2]

فالشنب لا يشاكل الدَّلّ.

وقولِ آخَر: [من الخفيف]

رُحَماءٌ بذي الصلاح وضرّ ابون قِدمًا لهامة الصِّنديد

قال: وقد ذكر بعض أئمة هذا الفن تفضيلًا في المقابلة فقال:

فمن مقابلة ٱثنين بٱثنين قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبَة: الآية ٨٢]؛ وقولُ النابغة: [من الطويل]

فتًى تمّ فيه ما يَسُرّ صديقه على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا؛

ومن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر: [من البسيط]

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتَمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجل

---

(١) الكميت: هناك ثلاث شعراء يحملون هذا الاسم هم الكميت الأكبر ابن ثعلبة، شاعر مخضرم. والكميت الأوسط ابن معروف بن الكميت بن ثعلبة (٦٠ هـ ـ ٦٨٠ م) مخضرم أيضًا. والكميت الأصغر ابن زيد الأسدي (٦٠ ـ ١٢٠ هـ) شاعر الهاشميين. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الشنب: بياض الأسنان.

وقولُ أبي نُواس: [من الوافر]

أنا ٱستدعَيت عفوك من قريب كما ٱستعفَيت سُخطَك من بعيد؛

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾ [الليل: الآيات ٥ - ١٠] المقابلَ بقوله تعالى: «ٱسْتَغْنَى» قوله تعالى: «وَٱتَّقَى» لأن معناه: زهِد فيما عند الله وٱستغنى بشهوات الدنيا عن نعم الآخرة، وذلك يتضمّن عدَمَ التقوى، ومنه قول النابغة: [من الطويل]

إذا وَطِئا سهلًا أثارا عَجاجةً وإن وَطِئا حَزْنًا تَشَظّى الجنادلُ[1]

ومن مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبّي: [من البسيط]

أزورهم وسواد ٱلليل يَشفَع لي وأنثني وبياض الصبح يُغرِي بي[2]

قابَل أزور بأنثني، وسواد ببياض، والليل بالصبح، ويَشفع بيُغْرِي، ولي بقوله: بي.

السجع

وأما السجع - فهو أن كلماتِ الأسجاع موضوعةٌ على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفًا عليها، لأن الغرض أن يجانِس بين قرائنَ، ويزاوِج بينها، ولا يتمّ ذلك إلا بالوقف، ألا ترى إلى قولهم: «ما أَبعد ما فات، وما أقربَ ما هو آت» فلو ذهبتَ تصل لم يكن بُدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يقتضيه حكم الإعراب، فتختلف أواخرُ القرائن، ويفوت الساجعَ غرضُه، وإذا رأيناهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها للازدواج فيقولون: أتيتك بالغدايا والعشايا، وهنأني الطعام ومَرَأني، وأخذَه ما قدُم وما حدُث، «وٱنصرِفن مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»، يريد الغَدَوات، وأمرأني وحدَث، وموزورات، مع أن فيه ٱرتكابًا لمخالفة اللّغة فما الظن بأواخر الكلم المشبّهة بالقوافي.

قال: والسجع أربعة أنواع: وهي الترصيع والمتوازي والمطرَّف والمتوازن.

(١) وطئا: داسا. العجاجة: الغبار. الحزن: الجبل. الجنادل: الصخور. تشظى: تفتت.

(٢) يريد المتنبي أن يقول: إن زيارته في الليل تخفي أمره فلا يراه أحد. ولكن أوبته عند الصباح تفضح أمره وتدفع الناس إلى التساؤل عن سبب زيارته.

أما الترصيع ـ فهو أن تكون الألفاظ مستويةَ الأوزان متّفقةَ الأعجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: الآيتان ٢٥، ٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤]، وقولِ النبي ﷺ: «اللّهمّ اَقبل توبتي، واَغسل حَوبتي» وقولهم: فلان يَفتخر بالهِمَم العالية، لا بالرمم البالية[١]؛ وقولِهم: عاد تعريضك تصريحًا، وتمريضك تصحيحًا.

ومن النظم قولُ الخنساء: [من البسيط]

حامِي الحقيقة محمودُ الخليقة مهـ ـدي الطريقة نفّاعٌ وضرّار
جوّاب قاصية جزّاز ناصية عقّاد ألوية للخيل جرّار[٢]

وقد يجيء مع التجنيس، كقولهم:

إذا قلّت الأنصار، كَلّت الأبصار؛ وما وراءَ الخَلْق الدّميم، إلا الخُلُق الذميم.

ومن النظم قولُ المطرّزي: [من الوافر]

وزَنْدُ نَدى فواضلِه وريٌّ ورنْد رُبَا فضائلِه نَضير
وذُرّ جلالِه أبدًا ثمينٌ ودَرّ نَوالِه أبدًا غزير

وأما المتوازي ـ فهو أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع اتفاق الحرف الأخِير منهما، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الغاشِيَة: الآيتان ١٣، ١٤].

وقولِ الحرِيريّ: ألجأني حكمُ دهر قاسط، إلى أن أنتجعَ أرضَ واسط[٣].

وقوله: وأَودَى الناطق والصامت، ورثى لنا الحاسد والشامت.

وأما المطرّف ـ فهو أن يراعَى الحرفُ الأخِيرُ في كلمتي قرينتيه من غير مراعاة الوزن، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: الآيتان ١٣، ١٤] وقولِهم: جنابه مَحطّ الرحال، ومُخيّم الآمال.

(١) يعني أنه يفخر بنفسه لا بجدوده.
(٢) الحقيقة: ج حقائق، ما يجب على الإنسان أن يحميه.
(٣) واسط: بلدة في العراق متوسطة بين البصرة والكوفة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي بين سنتي (٨٤ ـ ٨٦ هـ). (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٨١).

وأما المتوازن ـ فهو أن يراعَى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزنُ مع ٱختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝﴾ [الغاشية الآيتان: ١٥، ١٦]، وقولِهم: اصبر على حَرّ القتال، ومَضَض النِّزال، وشدّةِ المِصاع، ومداوَمةِ المِراس؛ فإن راعى الوزنَ في جميع كلمات القرائن أو أكثرِها، وقابَل الكلمة منها بما يعادِلها وزنا كان أحسنَ، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [الصافات: الآيتان ١١٧، ١١٨]، وقولِ الحرِيريّ: اسودّ يومي الأبيض، وٱبيضّ فَوْدي[1] الأسوَد؛ ويسمَّى هذا في الشعر الموازَنَة، كقول البحتريّ: [من الطويل]

فقِف مُسعِدًا فيهنّ إن كنت عاذرًا ... وسِر مُبعِدًا عنهنّ إن كنت عاذلا

قال: ومما هو شرطُ الحسْن في هذا المحافظةُ على التشابه، وهو ٱسم جامع للملاءمة والتناسب.

فالملاءمة: تأليف الألفاظ الموافيةِ بعضُها لبعض على ضرب من الاعتدال كقول لَبيد: [من الطويل]

وما المرء إلا كالشهاب وضَوئِه ... يعود رَمادًا بَعْدُ إذ هو ساطع
وما ٱلمال والأهلون إلا وديعةٌ ... ولا بدّ يومًا أن تُرَدّ الودائع

وبعضهم يَعُدُّ التلفيق من باب الملاءمة، وهو أن تضمّ إلى ذكر الشيء ما يليق به ويجرى مَجراه، أي تَجمع الأمورَ المناسِبة، ويقال له: مُراعاة النظير أيضًا، كقول ٱبنِ سَمعُون[2] للمهلّبيّ[3]:

أنت أيها الوزير إبراهيميّ الجُود، إسماعيليّ الوعد، شعَيبيّ التوفيق، يوسفيّ العفو، محمديّ الخلُق.

---

(١) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام، والشعر الذي عليه.

(٢) ابن سمعون: هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل (ـ ٣٧٨ هـ). اشتهر بوعظه في بغداد.

(٣) المهلبي: هو الحسن بن محمد بن هارون، يتصل بنسبه إلى المهلب بن أبي صفرة. وزر لمعز الدولة البويهي، وتوفي سنة ٣٥٢ هـ. كان كاتبًا مجيدًا وشاعرًا. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٠).

وكقول أبي الفوارس الحَمْدانيّ(١): [من الكامل]

أأخا الفوارس لو رأيتَ مواقفي والخيلُ من تَحت الفوارس تَنحِط(٢)
لقرأتَ منها ما تخُطّ يد الوغى والبيض تَشكُل والأسنّة تَنقُط

وكقول آخَر: [من الطويل]

وكم سائلٍ بالغيب عنك أجبتُه هناك الأيادي الشَّفْعُ والسُّودَدُ الوِتر
عطاءٌ ولا منٌّ وحُكم ولا هوًى وحِلم ولا عجز وعزٌّ ولا كِبرْ

وقولِ ابن حَيُّوس(٣): [من الطويل]

يقينُك والتقوى وجُودُك والغنى ولفظُك والمعنى وسيفُك والنصر

والتناسب: هو ترتيب المعاني المتآخيةُ التي تتلاءم ولا تتنافر، كقول النابغة: [من الكامل]

والرفق يُمْن والأناةُ سعادة فاستأنِ في رزق تنال نجاحا
واليأس عمّا فات يُعقِب راحةً ولَربّ مَطمَعة تعود ذُباحا

ويسمَّى التشابه أيضًا، وقيل: التشابه أن تكون الألفاظ غيرَ متباينة بل متقاربة في الجَزالة والرِّقّة والسَّلاسة، وتكونَ المعاني مناسِبة لألفاظها من غير أن يكسُوَ اللفظَ الشريفَ المعنى السخيفَ، أو على الضدّ، بل يصاغان معًا صياغةً تناسِب وتلائم.

فصل في الفِقَر المسجوعة ومقاديرها

قال: قِصَر الفَقَرات يدلّ على قوّة التمكّن وإحكام الصناعة، وأقلّ ما تكون كلمتان، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

(١) نسب هذان البيتان لأبي العشائر الحمداني ابن عم سيف الدولة الحمداني أمير حلب. كان أميرًا على أنطاكية، وقد اتصل به المتنبي فقدمه لسيف الدولة ولكنه غضب عليه بعد ذلك وعاداه ودبر لاغتياله فنجا من تلك المحاولة.

(٢) تنحط: من النحط وهو صوت الخيل من الإعياء.

(٣) ابن حيوس: هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس وكنيته أبو الفتيان، ولقبه مصطفى الدولة. شاعر الشام في عصره. ولد ونشأ في دمشق وتوفي في حلب (٣٩٤ ـ ٤٧٣ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٨١ م). له ديوان شعر مطبوع يتضمن مدائح في ولاة الفاطميين. (الزركلي، الأعلام).

[المدّثّر: الآيات ١ - ٤] وأمثالُ ذلك في الكتاب العزيز كثيرة، لكن الزائد على ذلك هو الأكثر، وكان بديع الزمان يُكثِر من ذلك في رسائله، كقوله: كُمَيْتٌ نَهْد(١)، كأنّ راكبَه في مَهْد؛ يَلطِم الأرض بزُبَر(٢) وينزل من السماء بخبَر. قالوا: لكن التذاذُ السامع بما زاد على ذلك أكثرُ، لتشوّقه إلى ما يَرِد متزايدًا على سمعه.

فأما الفقَر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيَدَ من الأولى ولكن لا بقدر كثير لئلا يبعد على السامع وجودُ القافية فيقلّ الالتذاذُ بسماعها، فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضرّ تساوي القرينتين الأُولَيَيْن وزيادةُ الثالثة عليهما وإن زادت الثانية عن الأولى يسيرًا، والثالثةُ على الثانية فلا بأسَ، لكن لا يكون أكثرَ من المِثل، ولا بدّ من الزيادة في آخر القرائن، مثاله في القرينتين: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: الآيات ٨٨ - ٩١]، ومثاله في الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: الآيات ١١ - ١٣]، وأقصرُ الطِّوال ما كان من إحدى عشرةَ لفظةً وأكثرُها غيرُ مضبوط، مثاله من إحدى عشرةَ لفظةً: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هود: الآية ٩] والتي بعدها من ثلاثَ عشرةَ كلمةً؛ ومثاله من عشرين لفظةً قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

وأما ردّ العَجُز على الصدْر ـ فهو كل كلام منثور أو منظوم يلاقي آخرُه أوّلَه بوجه من الوجوه، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طٰه: الآية ٦١] وقولِهم: «القتل أنفى للقتل» و «الحيلة تركُ الحيلة» وقولِهم: طَلب مُلكَهم فسَلب ما طَلب، ونَهب ما لَهم فوهب ما نَهب.

---

(١) الكميت من الخيل: ما لونه الكمتة، وهي سواد مشرب حمرة. والنهد من الخيل: الحسن الجسم.

(٢) الزُّبَر: مفردها زبرة، وهي قطعة الحديد الضخمة.

وهو في النَّظم على أربعة أنواع:

الأوّل: أن يَقَعا طَرَفين، إما متفقين صورة ومعنى، كقوله: [من الطويل]

سريع إلى ٱبن العم يشتِم عِرضه ولـيس إلى داعي الـندى بـسـريـع

وقولِه: [من الكامل]

سُكْران سُكرُ هوًى وسُكرُ مُدامة أنّـى يُـفـيـق فـتًـى بـه سُـكـران

أو متفقين صورةً لا معنًى، وهو أحسن من الأوّل، كقول السَّرِيّ: [من الوافر]

يَسارٌ من سجيّتها المنايا ويُمْنى من عطيّتها اليسار

وقولِ الآخَرِ: [من الطويل]

ذَوائبُ سُودٌ كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منّا النفوسُ ذَوائبُ

أو معنًى لا صورة، كقول عمرَ بنِ أبي ربيعةَ: [من الرّمل]

واستَبَدّت مرّة واحدة إنما العاجز من لا يَسْتَبِد

وقولِ السَّرِيّ: [من الوافر]

ضرائبُ أَبْدَعْتَها في السَّمَاح فلسنا نرى لك فيها ضرِيبا

وقولِ الآخَر: [من السريع]

ثَلْبُك أهلَ الفضل قد دلَّني أنك منقوص ومثلوب

أو لا صورةً ولا معنًى ولكن بينهما مشابَهة ٱشتقاق، كقول الحرِيري: [من البسيط]

ولاحَ يَلحَى على جَرْي العِنان إلى مَلهًا فسُحقًا له من لائح لاحِي

الثاني: أن يقعا في حَشو المِصراع الأوّل وعَجُز الثاني، إما متفقين صورةً ومعنًى كقول أبي تمّام: [من الوافر]

ولم يَحفظ مُضاعَ المجد شيءٌ من الأشياء كالمال المُضَاع

وقولُ آخرَ: [من الكامل]

أمّا القبور فإنهن أوانس بِجوار قبرك والديارُ قبور

أو صورةً لا معنًى، كقول الثعالبيّ: [من الكامل]

وإذا البلابل أفصحت بلُغاتها فأنفِ البلابل باحتساءِ بلابِل

فالأوّل جمعُ بُلبُل، والثاني جمعُ بَلبَلة وهي الهمّ والثالث جمعُ بُلبُلَة الإبريق وقولِ الزمخشريّ[1]: [من الطويل]

وأخّرني دَهري وقدّم معشرًا لأنهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أَفلح الجُهّال أعلم أنني أنا الميم والأيام أَفلحُ أعلمُ[2]

أو معنًى لا صورةً، كقول امرىء القيس: [من الطويل]

إذا المرء لم يَخزُن عليه لسانَه فليس على شيء سواه بخزّان

وقولِ أبي تمّام: [من الكامل]

دِمَن أَلَم بها فقال سلام كم حَلّ عُقدةَ صبره الإلمام

وقولُ أبي فِراس: [من الوافر]

وما إن شبتُ من كِبَرِ ولكن لقِيتُ من الأحبّة ما أشابا

أو في الاشتقاق فقط، كقول أبي فِراس: [من الوافر]

مَنحناها الحَرائبَ غيرَ أنّا إذا جُرنا مَنحناها الحِرابا[3]

الثالث: أن يقعا في آخر المِصراع الأوّل وعَجُزِ الثاني، إما متّفقَين صورةً ومعنًى كقول أبي تمّام: [من الطويل]

ومن كان بالبِيض الكواعب مغرمًا فما زِلتَ بالبِيض القواضب مُغرما

---

(١) هو محمود بن عمر الزمخشري، نسبة إلى مسقط رأسه زمخشر حيث ولد سنة (٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م). وحج إلى مكة حيث جاور مدة من الزمن فلقب بجار الله. وكان معتزلي المعتقد، وألف عددًا من الكتب أهم أسرار البلاغة، والكشاف، والمفصل في صنعة الإعراب، توفي سنة ٥٣٨ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٦٨ ـ ١٧٤).

(٢) الأفلح: المشقوق الشفة السفلى. الأعلم: المشقوق الشفة العليا. يشبه الأيام التي تجهل قدره بالأفلح الأعلم الذي لا يستطيع لفظ الميم.

(٣) الحرائب: جمع حريبة. وهي المال الذي يعاش منه أو المال المسلوب. يريد القول إنه رد عليها المال الذي سلب منها لأنه عادل كريم، ولكنه إذا جار استطاع أن يسدد إليها الحراب أو الأسنة.

أو صورةً لا معنًى، كقول الحرِيريّ: [من الوافر]

فمشغوف بآيات المثاني ومفتون برنّات المثاني

أو معنًى لا صورةً، كقول البحتريّ: [من الوافر]

ففعلُك إن سُئلتَ لنا مطيع وقولُك إن سألتَ لنا مطاع

الرابع: أن يقعا في أوّل المِصراع الثاني والعَجُز، إما متّفقَين صورةً ومعنًى كقول الحَماسيّ: [من الطويل]

فإلّا يكُن إلا مُعَلَّلَ ساعةٍ قليلًا فإني نافعٌ لي قليلُها

أو صورةً لا معنًى، كقول أبي دؤاد: [من المتقارب]

عهِدتُ لها مَنزِلًا داثرًا وآلًا على الماء يَحملن آلا

فالأوّل الأتباع، والثاني أعمدة الخِيام، وكقول آخرَ: [من الطويل]

رماكَ زمان السُّوء من حيث لا تَرى فرامَى ولم يَظفَر بما هو راما

أو معنًى لا صورةً، كقول أبي تمّام: [من الطويل]

ثَوَى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمُر صَرفَ الدهر نائلُه الغَمْر
وقد كانت البِيضُ البَوَاترُ في الوغى بَوَاترَ فهي الآن من بَعده بُتْر(١)

قال: ومن نوادر هذا الباب بيتًا الحرِيريّ اللذان سمّاهما المطرَّفَين، وهما: [من السريع]

سِمْ سِمَةً تحسُن آثارُها وأشكر لمن أعطى ولو سِمسِمه
والمَكرُ مهما اسطعتَ لا تأته لتبتغي السُّودَد والمَكرُمَه

قال: فإن لم يقع في العَجُز فليس من هذا الباب، كقوله: [من السريع]

ونُبِّئْتُهم يَستنصِرون بكاهل ولَلُؤْمُ فيهم كاهلٌ وسَنام

وكقول الأَفْوَه الأَوْديّ: [من السريع]

وأَقطَع الهَوْجل مستأنِسًا بِهَوْجل عَيْرانةٍ عَنتَرِيس

---

(١) يعني بالبواتر: السيوف. ويعني ببواتر: قواطع. ويعني ببتر: لا أصل لها ولا نسل.

فالهَوْجَل الأوّل: الفَلاة، والثاني: الناقة السريعة.

وأما الإعنات ـ ويقال له التضييقُ والتشديدُ ولزومُ ما لا يلزم ـ فهو أن يُعْنِت نفسه في ٱلتزام رِدْفٍ أو دَخيل أو حرف مخصوص قَبْلَ حرف الرويّ، أو حركةٍ مخصوصة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: الآيتان ٩، ١٠]، وقولِ النبي ﷺ: «اللّهمّ بك أُحاول، وبك أُصاوِل»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «شرّ ما في المرء شُحٌّ هالع، أو جُبنٌ خالع»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «زُرْ غِبًّا تزدد حُبًّا»، وقولِ عمرَ رضي الله عنه: لا يكن حبُّك كَلَفًا، ولا بُغضُك تَلَفا؛ وقولِ المَعرّي[1]: [من الطويل]

ضحكنا وكان الضِّحك منا سفاهةً وحَقٌّ لسُكّان البسيطة أن يَبْكوا
يُحطِّمنا صَرف الزمان كأننا زُجاج ولكن لا يعادُ لَهُ السَّبك

وقولِ آخرَ: [من الطويل]

يقولون في البستان للعَين لذّة وفي الخمر والماء الذي غيرُ آسن
إذا شئتَ أن تلقَى المحاسن كلَّها ففي وجه من تهوَى جميعُ المحاسن

وقد ٱلتزم ٱبن الروميّ الفتحَ قَبْلَ حرف الرويّ ـ وكان أَولعَ الناس بذلك ـ فقال: [من الطويل]

لِمَا تؤذِن الدنيا به من صُروفها يكون بُكاءُ الطفل ساعةَ يولد
وإلا فما يُبكيه فيها وإنّها لأَوْسَعُ ممّا كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا ٱستَهَلّ كأنه بما سيلاقِي من أذاها يُهَدَّد

وأمثالُ ذلك في الشعر كثيرة.

[المذهب الكلامي]

وأما المذهب الكلاميّ ـ فهو إيراد حُجّةٍ للمطلوب على طريقة أهل الكلام نحو قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢] ومنه قولُ النابغةِ يعتذر إلى النُّعمان: [من الطويل]

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً وليس وراءَ الله للمرء مَذهَب

(١) أكثر أبو العلاء المعري من هذا الضرب في ديوانه «اللزوميات» وقد سمي بهذا الاسم لأنه ألزم نفسه ما لا يلزم من الإعنات والجناس والطباق وسائر الزخارف البديعية.

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّي جناية لَمبلغُك الواشي أغَشّ وأكذَب
ولكنّني كنت امرءًا ليَ جانب من الأرض فيه مُستَراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما مدحتُهم أحكَّم في أموالهم وأقرَّب
كفعلك في قوم أراك ٱصطنعتَهم فلم ترَهُمْ في مدحهم لك أذنبوا

يقول: أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك، وأنا أَحسن إليّ قوم فمدحتُهم، فكما أنّ مدح من أحسنتَ إليه لا يُعَدّ ذنبًا فكذا مدحي لمن أَحسن إليّ لا يُعَدّ ذنبًا. قال ٱبن أبي الإصبع، ومن شواهد هذا الباب قولُ الفرزدق: [من الطويل]

لكلّ ٱمرىء نفسان نفْسٌ كريمةٌ ونفْس يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسُك من نفسَيْك تَشفَع للنَّدى إذا قلَّ من أحرارهنّ شفيعها

يقول: لكلّ إنسان نفْسان: نفس مطمئنةٌ تأمره بالخير، ونفس أمّارة تأمره بالشرّ، والإنسان يعاصي الأمّارة مرّة ويطيعها أخرى، وأنت إذا أمرتْك الأمّارة بترك النّدى شفعت المطمئنّة إليها في النّدى في الحالة التي يَقلّ فيها الشفيع في النّدى من النفوس، فأنت أكرم الناس.

[حسن التعليل]

وأما حسن التعليل - فهو أن يُدَّعَى لوصفٍ عِلّةٌ مناسِبةٌ له بٱعتبارِ لطيف وهو أربعة أضرب: لأنّ الصفة إمّا ثابتةٌ قُصِد بيانُ عِلّتها، أو غيرُ ثابتةٍ أريد إثباتُها.

فالأُولى: إمّا لا يَظهر لها في العادة علّة، كقوله: [من الكامل]

لم يَحكِ نائلَك السحابُ وإنّما حُمّتْ به فصبيبُها الرُّحَضَاء(١)

أو يَظهَر لها علّة، كقوله: [من الرمل]

ما به قَتلُ أعاديه ولكن يَتّقي إخلافَ ما ترجو الذئاب(٢)

فإنّ قتلَ الأعداء في العادة لدفع مضرّتهم لا لما ذَكره.

(١) **الرحضاء**: العرق المتصبب من المصاب بالحمى.
(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي الطيب المتنبي. يريد القول إن سبب قتل أعاديه ليس حب القتل أو الفتك، بل عدم إخلاف رجاء الذئاب التي تأمل أن يقدم لها الغذاء، وهو جثث الأعداء.

والثانية: إما مُمْكنةٌ، كقوله: [من البسيط]

يا واشيًا حسُنت فينا إساءتُه نَجّى حِذارُك إنساني من الغرق

فإن ٱستحسان إساءةِ الواشي ممكن، لكن لمّا خالف الناس فيه عقّبه بما ذكر.

أو غيرُ مُمْكِنة، كقوله: [من البسيط]

لو لم تكن نيّةُ الجوزاء خدمتَه لما أتت وعليها عَقد منتَطِق

قال: وأُلحِقَ به ما بُنِيَ على الشكّ، كقول أبي تمّام: [من الطويل]

رُبّا شَفعت ريح الصَّبا لرياضها إلى المُزْن حتى جادها وهو هامع(١)
كأنّ السحابَ الغُرَّ غَيَّبن تحتها حبيبًا فما تَرقأ لهنّ مدامع(٢)

وقد أحسن ٱبن رشيق في قوله: [من الوافر]

سألتُ الأرض لِمْ كانت مصلًّى ولِمْ كانت لنا طُهرًا وطِيبا
فقالت غيرَ ناطقةٍ لأنّي حوَيتُ لكلّ إنسان حبيبا

وأما الالتفات ـ فقد فسّره قدامة بأن قال: هو أن يكون المتكلّم آخذًا في معنى فيعترضه إما شكٌّ فيه وإما ظنٌّ أنّ رادًا يردّه عليه، أو سائلًا له عن سببه فيَلتفت إليه بعد فراغه منه، فإما أن يُجلّيَ الشكّ، أو يؤكّدَه، أو يَذكرَ سببه، كقول الرمّاح بن مَيّادة: [من الطويل]

فلا صَرمُه يبدو ففي اليأس راحة ولا وصلُه يصفو لنا فنكارمُه

كأنه توهّم أن فلانًا يقول: ما تصنع بصَرمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة. وأما ٱبن المعتزّ فقال: الالتفات ٱنصراف المتكلّم عن الإخبار إلى المخاطَبة، ومثاله في القرآن العزيز الإخبار بأنّ الحمدَ لله رب العالمين، ثم قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]، ومثاله في الشعر قول جرير: [من الوافر]

متى كان الخيامُ بذي طُلوح سُقيتِ الغيث أيّتها الخيام(٣)

---

(١) هامع: سائل.

(٢) ترقأ: تكف عن البكاء. طلب ريح الصبا من السحاب أن يسقي رياض الربا فاستجابت لشفاعته وسقتها المطر الذي لم يتوقف عن الهطول، وكأنها فقدت حبيبها فبكته.

(٣) ذو طُلُوح: موضع في جبل بني يربع بين الكوفة ومَنْد. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ٣٩).

أو ٱنصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: الآية ٢٢] ومثال ذلك في الشعر قول عنترةَ: [من الكامل]

ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه ... منّي بمنزلة المُحَبّ المكرَم

ثم قال مخبِرًا عنها: [من الكامل]

كيف المَزار وقد تربّع أهلها ... بعُنَيزتين وأهلنا بالغَيلم(١)

أو ٱنصراف المتكلّم من الإخبار إلى التكلّم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطِر: الآية ٩].

أو ٱنصراف المتكلّم من التكلّم إلى الإخبار، كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ(٢) وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠]، وقد جمع ٱمرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاثة أبيات متواليات، وهي قوله: [من المتقارب]

تَطاوَل ليلُكَ بالإثمِد ... ونام الخليّ ولم ترقد(٣)

وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد(٤)

وذلك من نبأ جاءني ... وخُبِّرْتُه عن أبي الأَسوَد

يخاطِب في البيت الأوّل، وٱنصرف إلى الإخبار في البيت الثاني، وٱنصرف عن الإخبار إلى التكلّم في البيت الثالث على الترتيب.

وأما التمام ـ وهو الذي سماه الحاتميّ(٥) التتميم، وسماه ٱبن المعتز ٱعتراض كلام في كلام لم يتم معناه، ثم يعود المتكلّم فيتمّمه، وشَرَحَ حدَّه بأنه الكلمة التي إذا طُرحت من الكلام نقَص حُسنُ معناه ومبالغتُه، مع أن لفظه يوهم بأنه تامّ؛ وهو على ضربين: ضرب في المعاني وضرب في الألفاظ، فالذي في المعاني هو تتميم المعنى

(١) عنيزتين والغيلم: اسما مكانين في الجزيرة العربية. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٦٤).
(٢) في القرآن الكريم: إن يشأ يذهبكم.
(٣) الإثمد: اسم مكان. (ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٩٢).
(٤) العائر: ما أعل العين، هو بثر في الجفن الأسفل منها.
(٥) الحاتمي: (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) هو محمد بن الحسن بن المظفَّر، أبو علي أديب نقاد، من أهل بغداد. له الرسالة الحاتمية في نقد المتنبي، وسر الصناعة، (الزركلي، الأعلام).

والذي في الألفاظ هو تتميم الأوزان، والأوّل هو الذي قُدّم حدُّه، ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: الآية ٩٧]، فقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [النّحل: الآية ٩٧] تتميم، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النّحل: الآية ٩٧] تتميم ثان في غاية البلاغة، ومن هذا القسم قول النبي ﷺ: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة إلا ابتنى الله له بيتًا في الجنة» فوقع التتميم في هذا الحديث في ثلاثة مواضعَ: قوله عليه السلام: مسلم، ولله، ومن غير الفريضة، ومن أناشيد قدامة على هذا القسم قولُ الشاعر(١): [من الطويل]

أناسٌ إذا لم يُقبَل الحقّ منهمُ ويعطَوْه عادوا بالسيوف القواضب

وأما الذي في الألفاظ فهو الذي يُؤتى به لإقامة الوزن بحيث لو طُرحت الكلمة استقلّ معنى البيت بدونها؛ وهو على ضربين: أحدهما مجيء الكلمة لا تفيد غير إقامة الوزن فقط، والثاني: مجيئها تفيد مع إقامة الوزن نوعًا من الحسن، فالأوّل من العيوب والثاني من المحاسن؛ قال: والكلام هنا في الثاني، ومثاله قول المتنبيّ: [من الكامل]

وخُفوق قلبٍ لو رأيتِ لهيبه يا جَنّتي لظننتِ فيه جهنّما

فإنه جاء بقوله يا جنتي لإقامة الوزن، وقصَدَ بها دون غيرها مما يسدّ مسدّها أن يكون بينها وبين قافية البيت مطابقةٌ لا تحصل بغيرها.

وأما الاستطراد ـ وهذه التسمية ذكر الحاتميّ في حلية المحاضرة أنه نقلها عن البحتريّ، وقيل: إن البحتريّ نقلها عن أبي تمّام، وسماه ابن المعتز: الخروج من معنى إلى معنى، وفسّره بأن قال: هو أن يكون المتكلّم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار أو غير ذلك إلى معنى آخَرَ يتضمّن مدحًا أو قدحًا أو وصفًا ما، وغالب وقوعه في الهجاء، ولا بد من ذكر المستطرَد به باسمه بشرط أن لا يكون تَقدّم له ذكر.

فمن أوّل ما ورد في ذلك من النظم قولُ السمَوأل بن عادياء(٢): [من الطويل]

وإنّا لَقوم ما نرى القتل سُبّةً إذا ما رأته عامر وسَلول

(١) هو الشاعر نافع بن خليفة الغنوي.

(٢) السموأل بن عادياء: شاعر جاهلي كان يملك الحصن المعروف بالأبلق. ضرب به المثل في الوفاء لأنه فضل قتل ابنه على تسليم أمانة أودعها لديه امرؤ القيس. (المنجد).

ومنه قول حسّان: [من الكامل]

إن كنتَ كاذبة الذي حدّثتِني فنجوتِ مَنجا الحارث بن هشام
تركَ الأحبّة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طِمِرّة ولجام[١]

وقولُ أبي تمّام في وصف حافر الفرس بالصلابة: [من البسيط]

أيقنتَ إن لم تَثبَّت أنّ حافرَه من صخر تَدْمُرَ أو من وجه عثمانِ[٢]

ومن أحسن ما قيل في ذلك قولُ ابنُ الزَّمَكْدَمِ أربعةَ ٱستطرادات متوالية: [من الطويل]

وليلٍ كوجه البَرْقَعِيديِّ[٣] ظُلمةً وبَردِ أغانيه وطولِ قرونه
سرَيت ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ كعقل سليمانَ بن فَهد ودِينه
على أولَق فيه ٱلتفاتٌ كأنه أبو صالح في خبطه وجنونه[٤]
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنا وجهِ قِرْواش وضوءُ جبينه[٥]

وقولُ البحتريّ في الفَرَس أيضًا: [من الكامل]

ما إن يَعَاف قذًى ولو أوردته يومًا خلائقَ حَمدوَيهِ الأحول

ومما جمع المدح والهجاء قول بَكر بن النَّطّاح[٦]: [من الطويل]

فتًى شَقيَتْ أموالُه بنواله كما شَقيَتْ بَكر بأرماح تَغلِب

ومما جاء به على وجه المجون قولُ بعضهم:

اكشفي وجهك الذي أوحلَتني فيه من قَبل كشفه عيناك
غلطي في هواكِ يشبه عندي غلطي في أبي عليّ بن زاكي

---

(١) الطمرة من الأفراس: المستعدة للعدوِ. يشير حسان بن ثابت إلى فرار الحارث بن هشام بن المغيرة يوم بدر.

(٢) تدمر: مدينة قديمة في بلاد الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. عثمان: هو عثمان بن إدريس السامي. (ياقوت، البلدان).

(٣) البرقعيدي: نسبة إلى برقعيد، وهي بلدة بين الموصل ونصيبين.

(٤) الأولق: الجنون، يريد: على فرس ذات جنون.

(٥) قرواش: هو قرواش بن مقلد أمير بني عقيل.

(٦) بكر بن النطاح: (١٩٢ هـ ـ ٨٠٨ م) الحنفي، أبو وائل، شاعر غزل، فارس، من أهل اليمامة. انتقل إلى بغداد زمن الرشيد (الأعلام، للزركلي).

ومما جاء في النسيب على وجه التشبيه قولُ ٱمرىء القيس: [من الكامل]

عُوجا على الطلل المُحِيل لعلّنا نبكي الديار كما بكى ٱبن حمام

وأما تأكيد المدح بما يشبه الذمّ - فهو ضربان: أفضلهما أن يستثنى من صفة ذمّ منفيّة عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها، نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٢٥، ٢٦] فالتأكيد فيه من جهة أنه كدعوى الشيء ببيّنة، وأن الأصل في الاستثناء الاتصال، فذكرُ أداته قَبل ذكرِ ما بعدها يوهم إخراجَ الشيء ممّا قبلها، فإذا وليَها صفةُ مدحٍ جاء التأكيد.

والثاني: أن يُثبت لشيء صفة مدح ويعقّبَ بأداة ٱستثناء تليها صفةُ مدح أخرى له، كقوله ﷺ: «أَنَا أفصح العرب بَيْدَ أنّي من قريش» وأصل الاستثناء في هذا الضرب أيضًا أن يكون منقطعًا، لكنه باق على حاله لم يقدَّر متصلًا فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثاني من الوجهين المذكورين، ولهذا كان الأوّل أفضل.

ومن أمثلة الأوّل قولُ النابغة الذُّبياني: [من الطويل]

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم بهنّ فُلول من قِراع الكتائب[1]

ومن أحسن ما قيل في ذلك قولُ حاتم الطائيّ[2]: [من الطويل]

ولا تشتكيني جارتي غيرَ أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

ومن الثاني قولُ النابغة الجَعْديّ[3]: [من الطويل]

فتًى كَمُلت أخلاقه غيرَ أنه جواد فما يُبقِي من المال باقيا

ومن أحسن ما ورد في هذا الباب قولُ بعضهم: [من الطويل]

ولا عيب فينا غير أنّ سماحَنا أضرَّ بنا والبأسَ من كلّ جانب

فأَفنى الردى أعمارنا غيرَ ظالم وأَفنى الندى أموالَنا غيرَ عاتب

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح فيها النابغة الذبياني ملوك الغساسنة في الشام. إنهم فرسان تثلمت سيوفهم من المعارك التي يخوضونها.

(٢) عرف حاتم الطائي بكرمه وعفته كما عرف بشجاعته وهي أهم القيم الخلقية التي كان يتغنى بها الشعراء الجاهليون. وفي هذا البيت يفخر حاتم بعفته، فهو لا يشتهي امرأة جاره.

(٣) النابغة الجعدي: (٥٠ هـ - ٦٧٠ م) هو قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر مغلق صحابي من المعمرين اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام ووفد على النبي وأسلم وأدرك صفين مع علي، ثم سكن الكوفة. له ديوان شعر مطبوع (الزركلي، الأعلام).

وأما تأكيد الذمّ بما يشبه المدح ـ فهو ضربان:

أحدهما: أن يُستثنَى من صفة مدح منفيّةٍ عن الشيء صفة ذمّ بتقدير دخولها فيها كقولك: فلان لا خير فيه إلّا أنه يسيء إلى من أحسن إليه.

والثاني: أن تُثبت للشيء صفة ذمّ وتعقّب بأداة ٱستثناء تليه صفة ذمّ له أخرى كقولك: فلان فاسق إلّا أنه جاهل، وتحقيق القول فيها على قياس ما تَقدّم.

وأما تجاهل العارف ـ فهو سؤال المتكلّم عما يعلمه حقيقة تجاهلًا منه ليُخرج كلامه مُخْرَج المدح أو الذمّ، أو ليدُلّ على شدّة التدلّه في الحبّ، أو لقصد التعجّب أو التوبيخ أو التقرير؛ وقال السكاكيّ[١]: هو سَوق المعلوم مَساقَ غيره لنكتة كالتوبيخ، كما في قول الخارجيّة وهي ليلى بنت طَرِيف[٢]: [من الطويل]

أيا شجر الخابور مالك مُورقا كأنك لم تَجزَع على ٱبن طَريف[٣]

والمبالغة في المدح، كقول البحتريّ: [من البسيط]

ألمعُ برق سرى أم ضوءُ مصباح أم ٱبتسامتُها بالمَنظَر الضاحي

أو الذمّ، كما قال زُهير: [من الوافر]

وما أدرِي ولست إخال أدرِي أقومٌ آلُ حِصن أم نساء

أو التدلّه في الحبّ، كقوله: [من البسيط]

بالله يا ظَبَياتِ القاع قلن لنا ليلاي منكنّ أم ليلَى من البشر

وقولِ البحتريّ: [من البسيط]

بدا فراع فؤادي حسنُ صُورتِه فقلت هل ملِكٌ ذا الشخصُ أم ملَك

---

(١) يبدو أن النويري ينقل عن السكاكي ولا يبتعد عنه كثيرًا لا في الأحكام ولا في الأمثلة التي يسوقها كشواهد.

(٢) ليلى بنت طريف: (٢٠٠ هـ ـ ٨١٥ م)، هي القارعة أو فاطمة بنت طريف بن الصلت التغلبية الشيبانية، شاعرة فارسية من الخوارج. (الأعلام، للزركلي).

(٣) الخابور: نهر كبير بين رأس العين والفرات من أرض الجزيرة ومن روافده فاضل الهرماس، ومد أو نهر نصيبين. (ياقوت الحموي، معجم البلدان).

وأما الهزل الذي يراد به الجِدّ - فهو أن يقصد المتكلّم ذمَّ إنسان أو مدحَه فيُخرجَ ذلك مُخرَج المجُون، كقول الشاعر(١): [من الطويل]

إذا ما تميميٌّ أتاك مُفاخرًا فقُل عدِّ عن ذا كيف أكلُك للضبّ

وأما الكنايات - فهي أن يُعبِّر المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحسَن وعن الفاحش بالطاهر، وقد تَقدّم الكلام على ذلك في باب الكناية والتعريض وهو الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفنّ، وهو في السِّفر الثالث من كتابنا هذا.

وأما المبالغة - وتسمَّى التبليغَ والإفراطَ في الصفة - فقد حدّها قُدامةُ بأن قال: هي أن يذكر المتكلّم حالًا من الأحوال لو وَقف عندها لأجزأت فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذَكره ما يكون أبلغَ في معنى قصْدِه، كقول عُمَيْر بن كرِيم التغلبيّ(٢): [من الوافر]

ونُكرِم جارنا ما دام فينا ونُتبِعه الكرامة حيث مالا

ومن أمثلة المبالَغة المقبولة قولُ امرىء القيس يصف فَرَسًا: [من الطويل]

فعادَى عِداءً بين ثور ونعجة دِراكًا ولم يُنضح بماء فيُغسَلِ

يقول: إنه أدرك ثورًا وبقرة في مِضْمار واحد ولم يَعرَق.

وقولُ المتنبي: [من الطويل]

وأَصرَع أيَّ الوحش قفَّيتُه به وأَنزِل عنه مِثلَه حين أركَب

ولا يعاب في المبالَغة إلا ما خرج عن حدّ الإمكان، كقوله(٣): [من الكامل]

وأخَفْتَ أهلَ الشرك حتى إنه لتَخافك النُّطَف التي لم تُخلَق

وأما إذا كان كقول قيس بن الخطيم(٤): [من الطويل]

طعنتُ ٱبنَ عبد القيس طعنةَ ثائر لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها
ملكتُ بها كَفِّي فأنهرتُ فتقَها يُرَى قائمًا من دونها ما وراءها

---

(١) الشاعر هو أبو نواس، والبيت من قصيدة يهجو بها تميمًا وأسدًا ويفخر بقحطان.
(٢) هو عمير بن كريم التغلبي «عمير بن الأهتم».
(٣) البيت للشاعر العباسي أبي نواس، وهو من قصيدة يمدح فيها هارون الرشيد.
(٤) قيس بن الخطيم: (٢ ق هـ - ٦٢٠ م)، هو قيس بن عدي الأوسي، شاعر الأوس وأحد فرسانها في الجاهلية. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

فإنّ ذلك من جيّد المبالَغة إذ لم يكن قد خرج مَخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة، ومن أحسنِ ذلك وأبلغه قولُ أحد شعراء الحماسة: [من الطويل]

رَهنتُ يدي بالعجز عن شكر بِرّه ... وما بَعد شكري للشكور مَزيد

ولو كان مما يستطاع ٱستطعتُه ... ولكنّ ما لا يستطاع شديد

وأما عتاب المرء نفسَه ـ فهو من أفراد ٱبن المعتزّ، ولم يُنشِد عليه سوى بيتين ذكر أن الآمديّ أنشدهما عن الجاحظ وهما: [من الطويل]

عصانيَ قومي في الرشاد الذي به ... أَمرتُ ومن يعصِ المجرِّب يندم

فصبرًا بني بَكر على الموت إنني ... أرى عارضًا ينهلّ بالموت والدم

قال: ولا يصلح أن يكون شاهدًا لهذا الباب إلا قولُ أحد شعراء الحماسة: [من الطويل]

أقول لنفسي في الخلاء ألومها ... لكِ الويلُ ما هذا التجلّد والصبر

وقولُ الآخَرِ: [من الطويل]

فَقدتُكِ من نفس شَعاعٍ فإنني ... نَهيتُكِ عن هذا وأنتِ جميع[1]

وما ناسب ذلك من الأمثلة.

وأما حُسن التضمين ـ فهو أن يضمِّن المتكلّم كلامَه كلمةً من آية أو حديث أو مَثلٍ سائر أو بيت شعر؛

ومن إنشادات ٱبن المعتزّ عليه: [من السريع]

عَوَّذَ لما بتّ ضيفًا له ... أقراصَه منّي بياسينِ

فبِتُّ والأرض فراشي وقد ... غَنّت قِفا نَبْكِ مَصاريني

فضَمّن بيتَه الأوّلَ كلمةً من السورة بتوطئة حسَنة، وبيتَه الثانيَ مَطلعَ قصيدة امرىء القيس.

(١) النفس الشَّعَاع: التي تفرقت همومها. جميع: مجتمعة.

ومما ضُمِّن معنى حديث النبيّ ﷺ قولُ الآخرَ: [من الخفيف]

وأخٍ مسّه نزولي بقَرْحِ   مِثلَما مسّني من الجوع قَرْح(١)
بتُّ ضيفًا له كما حكم الدهـ   ـر وفي حكمه على الحرّ قبح
قال لي مذ نزلتُ وهو من السكـ   ـر بالهمّ طافح ليس يصحو
لِمْ تغرّبتَ؟ قلت: قال رسول اللّـ   ـه والقولُ منه نُصحٌ ونُجْح
«سافروا تغنموا» فقال: وقد قـ   ـال تمامَ الحديث: «صوموا تصِحّوا»

ومن تضمين الشعر قولُ بعضهم: [من الطويل]

وقفنا بأنضاء حكَتنا لَواغبِ   «على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعبِ»

وهو مطلع قصيدة لأبي تمام.

ومنه قولُ الغَزّي: [من السريع]

طُولُ حياة ما لها طائل   نَغّص عندي كُلَّ ما يُشتهى
أصبحتُ مثلَ الطفل في ضعفه   تَشابَه المبدأ والمنتهى
فلا تلم سمعي إذا خانني   «إنّ الثمانين وبُلّغتَها»

المراد من التضمين هٰهنا تمامُ البيت:

* قد أحوجَتْ سمعي إلى تُرْجُمان *

وإنما تركَه لأن أوّل البيت يدُلّ عليه لاشتهاره، وهذا قد أكثر المتأخرون من ٱستعماله في أشعارهم، وضمّنوا البيت الكامل بعد التوطئة له.

وأما التلميح ـ وهو من التضمين، وإنما بعضهم أفرده ـ فهو أن يشير في فحوى الكلام إلى مَثَلٍ سائر، أو بيت مشهور، أو قضية معروفة من غير أن يذكُره، كقول الشاعر: [من البسيط]

المستغيثُ بعمرو عند كُربته   كالمستغيث من الرمضاء بالنار

(١) قرح: اسم بلدة. وقرح الثاني نفس الجرح. وقرح البلدة في وادي القرى، كانت من أسواق العرب في الجاهلية. (ياقوت، معجم البلدان).

أشار إلى قضيّة كُليب حين ٱستغاث بعمرو بن الحارث[١]؛ ومنهم من يسمّي ذلك ٱقتباسًا، وإيرادَ المثل كما هو تضمينًا.

وأما إرسال المثَلِ - فهو كقول أبي فِراس: [من الطويل]

تهُون علينا في المعالي نفوسُنا ... ومن يخطب العلياء لم يُغلِه المهر

وكقول المتنبيّ: [من الطويل]

تُبكِّي عليهنّ البطاريقُ في الدجى ... وهنّ لدينا مُلقَيات كَواسد

بذا قضت الأيام ما بين أهلِها ... مصائبُ قوم عند قوم فوائد

وأما إرسال مَثَلين - فهو الجمع بين مَثَلين، كقول لَبيد: [من الطويل]

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل ... وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائل

وأبيات زهير بن أبي سُلمى التي فيها ومَن ومَن، وقد تقدّم ذكر ذلك مستوفًى في باب الأمثال، وهو الباب الأوّل من القسم الثاني من هذا الفنّ، وهو في السِّفر الثالث.

وأما الكلام الجامع - فهو أن يكون البيت كلُّه جاريًا مَجرى مَثل واحد كقول زهير: [من الطويل]

ومن يك ذا فَضْلٍ ويبخَلْ بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَم

ومن لا يصانِع في أمور كثيرة ... يُضرَّس بأنياب ويُوطأ بمَنْسِم[٢]

ومهما تكن عند ٱمرىء من خَليقة ... وإن خالها تَخفى على الناس تُعلَم

وكقول أبي فراس: [من الطويل]

إذا كان غيرُ الله في عُدّة الفتى ... أتته الرزايا من وجوه الفوائد

---

(١) «قضية كليب حين استغاث بعمرو بن الحارث» يعني بها مقتل كليب وائل على يد جساس بن مرة بسبب رعي ناقة البسوس (خالة جساس) حمى كليب. لقد قتل كليب ناقة البسوس لأنها انتهكت حماه فاستغاثت البسوس بابن أخيها جساس فذهب ورمى كليبًا بسهم فسقط على الأرض ينزف دمًا، وشعر بالعطش، فطلب منه شربة ماء فرماه بسهم آخر، فقال هذا البيت الذي ذهب مثلًا. (الزركلي، الأعلام، مادة بسوس).

(٢) المنسم: الخف. يريد زهير أن يقول في هذا البيت الذي ورد في معلقته: من لا يكن لينًا في معاملة الناس ينهش ويداس بالأقدام.

وكقول المتنبيّ: [من الوافر]

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفتُه مِن الفهم السقيم

وقولِه: [من الطويل]

ومن نَكَد الدنيا على الحرّ أن يَرَى عدوًّا له ما من صداقته بدّ

وقوله: [من الكامل]

ومن البليّة عَذلُ من لا يرعوِي عن جهله وخطابُ من لا يَفهمُ

وقولِه: [من البسيط]

إنا لفي زمن تركُ القبيح به مِن أكثرِ الناس إحسانٌ وإجمال

وأما اللّفّ والنشر - فهو أن يذكُر ٱثنين فصاعدًا ثم يأتي بتفسير ذلك جملة مع رعاية الترتيب ثقةً بأن السامع يردّ إلى كل واحد منها ما له، كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ٧٣].

ومن النظم قولُ الشاعر: [من البسيط]

ألستَ أنت الذي من وَرْد نعمته ووِرْد راحته أَجنِي وأغترِف

وقد لا يراعَى فيه الترتيبُ ثقةً بأن السامع يردّ كل شيء إلى موضعه سواء تقدّم أو تأخر، كقول الشاعر: [من الخفيف]

كيف أسلو وأنتَ حِقْف وغصن وغزال لحظًا وقَدًّا ورِدفا[١]

وأما التفسير - وهو قريب منه - فهو أن يذكُر لفظًا ويَتوهَّمَ أنه يحتاج إلى بيانه فيعيده مع التفسير، كقول أبي مُسْهِر[٢]: [من البسيط]

غيثٌ وليثٌ فغيث حين تسأله عُرفًا وليثٌ لدى الهيجاء ضِرغام

ومنه قول الشاعر: [من البسيط]

يُحيِي ويُردِي بجَدواه وصارِمه يُحيي العُفاةَ ويُردِي كلَّ من حَسدا

---

(١) الحقف: كثيب الرمل، يعني بها ردفها.

(٢) أبو مسهر: (١٤٠ - ٢١٨ هـ = ٧٥٧ - ٨٣٣ م)، هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي. كان شيخ الشام وعالمها بالحديث والمغازي والأيام والأنساب. امتحنه الخليفة المأمون بالرقة فامتنع فحبسه ومات في السجن. (الأعلام، للزركلي).

ومن ذلك أن يذكر معانيَ ويأتيَ بأحوالها من غير أن يزيد أو ينقُصَ كقول الفرزدق: [من الطويل]

لقد جئتَ قومًا لو لجأتَ إليهمو طريدَ دم أو حاملًا ثِقْل مَغْرَم
لأَلفَيتَ فيهم معطيًا ومُطاعنا وراءك شَزْرًا بالوشِيج المقوَّم(١)

لكنه لم يراع شرط اللّفّ والنشر.

وقولِ آخر: [من الطويل]

فواحسرتا حتى متى القلبُ مُوجَعٌ بفقد حبيب أو تعذّرِ إفضال
فراقُ حبيب مِثلُه يورث الأَسى وخَلّة حرّ لا يقوم بها مالي

ومنه قول ٱبن شَرَف: [من البسيط]

سل عنه وٱنطق به وٱنظر إليه تَجدْ مِلءَ المسَامع والأفواه والمُقَل

ومن أحسن ما في هذا الباب قول ابن الروميّ: [من الكامل]

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دَجَون نجوم
منها مَعالمُ للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخرَياتُ رُجوم

وفسادُ ذلك أن يأتي بإزاء الشيء بما لا يكون مقابِلًا له، كقول الشاعر: [من الطويل]

فيا أيها الحيران في ظُلَم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغيٌ من العدا
تعالَ إليه تلَق من نور وجهه ضياءً ومن كفّيْه بحرًا من الندى

فأتى بالندى بإزاء بَغْي العدا، وكان يجب أن يأتيَ بإزائه بالنصر أو العصمة أو الوَزَرِ وما جانسه، أو يذكُرَ في موضع البغي الفقْرَ والعُدْمَ وما جانس ذلك.

وأما التعديد ـ ويسمّى سياقةَ الأعداد ـ فهو إيقاع أسماء مفردة على سياق واحد، فإن روعي في ذلك ٱزدواج أو جناس أو تطبيق أو نحو ذلك كان غايةً في الحسْن، كقولهم: وضع في يده زمام الحَلّ والعَقْد، والقبولِ والردّ، والأمرِ والنهي، والبَسْطِ والقبض، والإبرامِ والنقض، والإعطاءِ والمنع؛ ومن النظم قول المتنبيّ: [من البسيط]

الخيلُ والليلُ والبَيْداءُ تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم

(١) الوشيج: الرمح.

وأما تنسيق الصفات ـ فهو أن يذكر الشيء بصفات متوالية، كقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٥]، وقولِ النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأحبِّكم إليّ وأقربِكم منّي مَجالسَ يوم القيامة؟ أحاسنُكم أخلاقًا، الموطَّئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون».

ومن النظم قولُ أبي طالب[1] في النبي ﷺ: [من الطويل]

وأبيضَ يُستَسقَى الغمامُ بوجهه ثِمال اليتامى عِصمةٌ للأرامل[2]

وقولُ المتنبيّ: [من البسيط]

دانٍ بعيدٌ محِبٌّ مبغضٌ بَهِجٌ أغـرُّ حُـلوٌ مُـمِـرٌّ لَيِّـنٌ شـرِس

وأما الإيهام ـ ويقال له التورية والتخييل ـ فهو أن يذكر ألفاظًا لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريبُ، ومرادُ المتكلّم البعيدُ مثاله قول عمرَ بنِ أبي ربيعةَ: [من الخفيف]

أيـهـا الـمـنكِـح الـثريّا سُـهـيـلًا عَـمـرَكَ الله كـيـف يـلـتـقـيـان

هـي شـامـيّـة إذا مـا اَسـتـقَـلّت وسُـهَـيْـلٌ إذا اسـتـقَـلّ يـمـانـي

فذكَر الثريا وسهيلًا ليوهم السامعَ أنه يريد النجمين، ويقول: كيف يجتمعان والثّريا من منازل القمر الشاميّة، وسهيل من النجوم اليمانيّة؟ ومرادُه الثريّا التي كان يَتغزَّل بها لمّا زُوّجت بسهيل؛ ومن ذلك قولُ المعرّي: [من الطويل]

إذا صدق الجَدّ اَفترى العَمّ للفتى مَكارمَ لا تَخفى وإن كَذب الخال

فإنّ وهم السامع يذهب إلى الأقارب، ومراده بالجَدّ: الحظُّ، وبالعَمّ: الجماعةُ من الناس، وبالخال: المَخيلةُ، ومن ذلك قولُ الحريريّ في وصف الإبرة والمِيلِ في المقامة الثامنة.

---

(١) أبو طالب: هو عبد مناف بن عبد المطلب عم النبي ووالد علي تولى أمر النبي وكفله بعد وفاة أمه آمنة وجده عبد المطلب. قيل إنه ولد قبل النبي بخمس وثلاثين سنة وتوفي الثمانين من عمره. كان من سادات قومه. (المنجد).

(٢) ثِمَالُ اليتامى: غياثهم الذي يقوم بأمرهم، فيطعمهم ويسقيهم الخ...

وقولُه أيضًا: [من السريع]

يـا قـوم كـم مـن عـاتـق عـانـسٍ ممـدوحـةِ الأوصـاف فـي الأنـديـه
قـتـلـتُـهـا لا أتّـقـي وارثًـا يَـطـلـب مـنّـي قَـوَدا أو ديـه(١)

يريد بالعاتق العانس: الخمر، وبقتلها: مَزْجَها، كما قال حسّان: [من الكامل]

إن الـتـي عـاطَـيـتَـنِـي فـرددتُـهـا قُـتلتْ قُتلتَ فهاتها لم تُقتَلِ(٢)

وأمثالُ ذلك كثيرة.

وعند علماء البيان: التخييل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: الآية ٦٧] والغرض منه تصوير عَظَمته والتوقيفُ على كُنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهةِ حقيقةٍ أو مجاز(٣)، وكذلك قوله ﷺ: «إنما نحن حَفْنةٌ من حَفَنات ربّنا» قال الزمخشري(٤) ولا يُرَى باب في علم البيان أدقَّ ولا ألطفَ من هذا الباب.

وأما حُسن الابتداءات ـ قال: هذه تسمية ٱبن المعتزّ، وأراد بها ٱبتداءاتِ القصائد، وفرّع المتأخرون من هذه التسمية براعةَ الاستهلال، وهو أن يأتيَ الناظم أو الناثر في ٱبتداء كلامه ببيت أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة أو مُعظَم مراده؛ والكاتب أشدّ ضرورةً إلى ذلك من غيره ليَبتَني كلامه على نَسَق واحد دَلّ عليه من أوّل عِلْم بها مقصده، إما في خُطبة تقليد، أو دعاء كتاب، كما قيل لكاتب: ٱكتب إلى الأمير بأن بقرة ولدت حيوانًا على شكل الإنسان، فكتب: أما بعد حمد الله خالق الإنسان في بطون الأنعام.

وكقول أبي الطيّب في الصلح الذي وقع بين كافور وبين ابن مولاه: [من الخفيف]

حَسَم الصلحُ ما ٱشتهته الأعادي وأذاعـتـه ألـسُـنُ الـحـسّـاد

وأمثال ذلك.

(١) القَوَد: الثأر.
(٢) يقصد بها الخمر، وهو يريدها غير ممزوجة بالماء.
(٣) بل إنه مجاز وليس حقيقة، إذ ليس لله قبضة هي الأرض.
(٤) مرت بنا ترجمة الزمخشري. وقد قلنا إنه بحث هذا الموضوع في الكشاف، وأسرار البلاغة الخ.

قال: وينبغي أن لا يَبتدىءَ بشيء يُتطيَّر منه، كقول ذي الرّمّة: [من البسيط]

* ما بال عينِك منه الماءَ ينسكب *

وقولِ البحتريّ: [من الطويل]

* لكَ الويل من ليل تَقاصَر آخِرُه *

وكقول المتنبيّ: [من الطويل]

كفى بك داءً أن تَرى الموت شافيًا وحسبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

وكقوله: [من الوافر]

مُلِثَّ القَطْر أَعطِشْها رُبوعا وإلّا فاسقِها السّمّ النقِيعا

قال: وينبغي أن يراعَى في الابتداءات ما يقرُب من المعنى إذا لم تتأتّ له براعةُ الاستهلال وتسهيلَ اللفظ وعذوبتَه وسلاسةَ ألفاظِه، وقيل: إن أحسن ابتداء ابتدأت به العرب قولُ النابغة: [من الطويل]

كِليني لهمّ يا أُمَيمة ناصب وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

ومن أحسن ما ابتدأ به مولَّدٌ قول إسحٰقَ بنِ إبراهيم المَوْصِليّ[1]: [من الخفيف]

هل إلى أن تنام عيني سبيل إنّ عهدي بالنوم عهد طويل

ويحسن أن يبتدىء في المديح بمثل قول أَبزُون العُمانيّ: [من الطويل]

على مِنبر العلياء جَدُّك يَخطب ولِلبَلدة العذراء سَيفُك يَخطب

وقولِ المتنبيّ: [من الطويل]

عدوّك مذموم بكلّ لسان وإن كان من أعدائك القمَرَان

---

(١) إسحٰق بن إبراهيم الموصلي: (١٥ ـ ٢٣٥ هـ). كان من ندماء الخلفاء، وكان عالمًا باللغة والأشعار وأخبار الشعراء، وأيام الناس، وكان له يد في الفقه وعلم الكلام ولكنه اشتهر بالغناء. وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه منهم الرشيد والمأمون والمعتصم. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٨٥).

وقولِ التِّيفاشي[1]: [من البسيط]

ما هَزَّ عِطفيه بين البِيض والأَسَل مِثل الخليفة عبدِ المؤمن بنِ علي

وفي التشبيب كقول أبي تمّام: [من الطويل]

على مِثلِها من أربُعٍ وملاعبٍ أُذيلت مصُوناتُ الدموع السواكب

وفي النسيب كقول المتنبيّ: [من الخفيف]

أتراها لكثرة العشّاق تَحسَب الدمعَ خِلْقةً في المآقي

وفي المَرَاثي كقول أبي تمّام: [من الطويل]

كذا فَلْيجِلّ الخطب ولْيَفدَح الأمر وليس لعين لم يَفض ماؤها عذر

وأما براعة التخليص ـ فهو أن يكون التشبيب أو النسيب ممزوجًا بما بعده من مدح وغيرِه غيرَ منفصل عنه، كقول مسلم بن الوليد: [من الطويل]

أجِدَّكِ هل تَدرين أن ربّ ليلةٍ كأنّ دجاها من قرونكِ تُنشَر

نَصبتُ لها حتى تحلّت بغُرّة كغرّة يحيىٰ حين يُذكَر جعفر

وكقول المتنبّي: [من الطويل]

نودّعهم والبين فينا كأنه قَنا ابنِ أبي الهيْجاء في قلب فَيلَق

وأما براعة الطلب ـ قال: وهو أن تكون ألفاظ الطلب مقترنة بتعظيم الممدوح، كقول أميّةَ بنِ أبي الصَّلت[2]: [من الوافر]

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إنّ شميتَك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه مِن تعرّضِه الثناء

(١) التيفاشي: (٥٨٠ ـ ٦٥١ هـ = ١١٨٤ ـ ١٢٥٣) نسبة إلى تيفاش من قرى قفصة في إفريقيا. تعلم في مصر وولي القضاء في مسقط رأسه تتفاشة ثم عاد إلى القاهرة وتوفي فيها. كان عالمًا بالحجارة الكريمة والعلم والأدب. له نزهة الألباب. (الأعلام).

(٢) أمية بن أبي الصلت: (٥ هـ = ٦٢٦ م) هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي. شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف متعبد يلبس المسوح ويحرم على نفسه الخمر والأوثان. شهد للنبي ولم يسلم. (الأعلام، للزركلي).

وكقول المتنبيّ: [من الطويل]

وفي النفس حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطاب

وأما براعة المقطع ـ فهو أن يكون آخرُ الكلام الذي يقف عليه المترسِّل أو الخطيب أو الشاعر مستعذَبًا حَسَنًا، لتبقَى لذّته في الأسماع، كقول أبي تمّام: [من البسيط]

أبقت بني الأصفَر المصفّر كأسهمِ صُفرَ الوجوه وجَلّت أوجهَ العرب

وكقول المتنبيّ: [من الوافر]

وأُعطيتَ الذي لم يُعطَ خَلقٌ عليك صلاة ربّك والسلام

وكقول الغَزّي[1]: [من الطويل]

بقِيتَ بقاءَ الدهر يا كهفَ أهله وهذا دعاء للبريّة شامل

وأما السؤال والجواب ـ فهو كقول أبي فِراس: [من مجزوء الخفيف]

لك جسمي تُعِلّه فدمي لِمْ تَطُلُّه؟

قال إن كنتُ مالكًا فلي الأمر كلُّه

وأمثالِ ذلك. وقد أوردنا منه في باب الغزل ما فيه كفاية.

وأما صحة الأقسام ـ فهو عبارة عن استيفاء أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئًا.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرُّوم: الآية ٢٤]، وليس في رؤية البرق إلا الخوفُ من الصواعق، والطمعُ في المطر.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٩١]، فلم يُبقِ قسمًا من أقسام الهيئات حتى أتى به.

وقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورى: الآيتان ٤٩، ٥٠]، ومن ذلك قولُه ﷺ: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبلَيت، أو تصدّقت فأمضَيت» ولا رابع لهذه الأقسام.

---

(١) الغزي: (مرت ترجمته).

ووقف أعرابيّ على حَلْقة الحسن البَصريّ فقال: رحم الله من تصدّق من فَضل، أو واسى من كَفاف، أو آثر من قوت؛ فقال الحسن: ما ترك الأعرابيّ منكم أحدًا حتى عمّه بالمسألة.

ومن أمثلة هذا الباب في الشعر قولُ بشّار: [من الطويل]

فراح فريق في الإسار ومِثلُه قتيل ومِثلٌ لاذ بالبحر هارِبه

وأصله قول عمرو بن الأهتم: [من الخفيف]

اشربا ما شربتما فهُذَيلٌ من قتيل وهارب وأسير

ومن جيد صحة الأقسام قولُ الحماسيّ: [من الطويل]

وهبْها كشيء لم يكن أو كنازح به الدار أو من غَيّبته المقابر

فاستوفَى جميع أقسام المعدوم.

وقولُ أبي تمّام في الأَفْشِين[1] لمّا احتَرق بالنار: [من الكامل]

صلّى لها حيًّا وكان وَقودَها ميتًا ويَدخلها مع الفجّار

ومن قديم ما في ذلك من الشعر قولُ زهير: [من الطويل]

وأعلم ما في اليوم والأمس قَبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِي

ومن النادر في صحة الأقسام قولُ عمرَ بنِ أبي ربيعة: [من الطويل]

تهيم إلى نُعْم فلا الشَّمل جامعٌ ولا الحبل موصول ولا أنت مُقصِر

ولا قُربُ نُعم إن دنت لك نافعٌ ولا بُعدها يُسلِي ولا أنت تصبر

وأما التوشيح ـ فهو أن يكون معنى الكلام يَدُلّ على لفظِ آخرِه، فيَتنزل المعنى منزلة الوِشاح، ويَتنزّل أوّلُ الكلام وآخرُه منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح.

(١) الأفشين: قائد جيوش المعتصم في حروبه ضد الروم، رمي بالكفر، ومات في السجن جوعًا سنة ٨٤١ م. (المنجد).

وقال قُدامةُ: هو أن يكون في أوّل البيت معنى إذا عُلم عُلمتْ منه قافية البيت بشرط أن يكون المعنى المقدَّمُ بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه، كقول الراعي النُّمَيْرِيّ(١): [من الوافر]

فإن وُزِن الحصى فوزنت قومي وجدت خصي ضريبتهم رزينا(٢)

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وعَرف القافية والرويّ، عَلم آخر البيت؛ ومن أمثلته ما حُكِيَ عن عمَر بنِ أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله ابنَ عباس رضي الله عنهما: [من المتقارب]

* تَشُطّ غدا دار أحبابنا *

فقال له عبد الله:

* ولِلدارُ بعد غد أبعَدُ *

فقال له عمر: هكذا والله قلتُ، فقال له عبد الله: وهكذا يكون.

وأما الإيغال ـ فمعناه أن المتكلّم أو الشاعر إذا انتهى إلى آخر القرينة أو البيت ٱستخرج سجعةً أو قافيةً تفيد معنى زائدًا على معنى الكلام، وأصله من أوغل في السير إذا بلغ غاية قصده بسرعة.

وفسّره قُدامةُ بأن قال: هو أن يَستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتيَ بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها أفاد معنى زائدًا على معنى البيت، كقول ذي الرُّمَّة: [من الطويل]

قِف العِيسَ في آثار ميّةَ واسألِ رسومًا كأخلاق الرداء المسلسَل(٣)

فتَمّم كلامه قبل القافية، فلما ٱحتاج إليها أفاد بها معنى زائدًا، وكذلك صَنع في البيت الثاني فقال: [من الطويل]

أظُنّ الذي يُجدِي عليك سؤالُها دموعًا كتبذير الجمان المفصَّل

---

(١) الراعي النميري: (٩٠ هـ = ٧٠٩ م)، هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري من فحول الشعراء. لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. فصل الفرزدق على جرير فهجاه هجاءً مرًا. (الأعلام، للزركلي).

(٢) ضريبتهم: سجيتهم وطبيعتهم. يصفهم برجاحة الأحلام.

(٣) الرداء المسلسل: الثوب الرديء النسج.

فإنه تَمّم كلامه بقوله: كتبذير الجمان، وٱحتاج إلى القافية، فأتى بها تفيد معنى زائدًا لو لم يؤتَ بها لم يحصل.

وحكي عن الأصمعيّ أنه سئل عن أشعر الناس فقال: الذي يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كثيراً، وينقضي كلامه قَبل القافية، فإن ٱحتاج إليها أفاد بها معنى، فقيل له: نحوُ من؟ فقال: نحوُ الفاتِح لأبواب المعاني ٱمرىء القيس حيث قال: [من الطويل]

كأنّ عيونَ الوحش حول خبائنا ... وأرحُلنا الجَزْعُ الذي لم يثقَّبِ[١]

ونحوُ زُهير حيث يقول: [من الطويل]

كأنّ فُتاتَ العِهن في كلّ منزل ... نزلن به حَبُّ الفَنا لم يحطَّمِ[٢]

ومن أبلغ ما وقع في هذا الباب قولُ الخنساء: [من البسيط]

وإنّ صخرًا لتأتمّ العُفاة به ... كأنه عَلَمٌ في رأسه نار[٣]

ومنه قول ٱبن المعتزّ لابن طَباطَبا العَلَوي: [من المتقارب]

فأنتم بنو بنته دوننا ... ونحن بنو عمّه المسلم

ومن أمثلة ذلك من شعر المتأخّرين قولُ الباخَرْزيّ[٤]: [من الكامل]

أنا في فؤادكَ فارم طرْفكَ نحوَه ... ترني فقلت لها وأين فؤادي

وقولُ آخَر: [من البسيط]

تعجّبتْ من ضنى جسمي فقلت لها ... على هواكِ فقالت عنديَ الخَبَر

وأما الإشارة ـ فهي أن يشتمل اللفظ القليل على معان كثيرة بإيماء إليها، وذكرِ لَمحة تدلّ عليها، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: الآية ١٠]، ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: الآية ٧٨].

(١) الجَزْعُ: الخرز اليماني. (٢) حب الفنا: حب العنب.
(٣) العُفاة: ج عاف، السائل، طالب الفضل أو الرزق.
(٤) الباخرزي: (٤٣٥ هـ ـ ١٠٤٤ م) أحمد بن الحسين، أديب وجيه، وهو من مفاخر باخرز. له شعر رقيق. (الأعلام، للزركلي).

وكقول ٱمرىء القيس: [من الوافر]

فـإن تَـهـلِك شَـنُـوءة أو تُـبَـدَّلْ فسِيري إنّ في غَسّان خالا[١]
بـعـزّهـمـو عَـزَزتِ وإن يَـذِلّوا فـذلّهـمـو أنـالـك مـا أنـالا

وكقوله أيضًا: [من الطويل]

فـظـلّ لـنـا يـوم لـذيـذ بـنَـعْـمـة فقل في نعيم نحسه متغيّب

وأما التذييل ـ وهو ضدّ الإشارة ـ فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكَّد عند مَن فهِمه، كقوله: [من المتقارب]

إذا مـا عـقـدنـا لـه ذمّـةً شددنا العِناج وعقد الكَرَب[٢]

وقول آخرَ: [من الكامل]

ودَعَـوا نَـزالِ فـكـنـتُ أوّل نـازل وعـلام أركـبـه إذا لـم أنـزِلِ

ويقرب منه التكرار، كقول عَبيد: [من مجزوء الكامل]

* هلاّ سألت جمع كِندةَ يوم ولَّوا أين أينا؟ *

وكقول آخر: [من المتقارب]

وكـانـت فـزارةُ تَـصـلـى بـنـا فـأَولـى فَـزَارةُ أولـى فـزارا

وأما الترديد ـ فهو أن تعلّق لفظة في البيت بمعنى، ثم تردَّها فيه بعينها وتعلِّقَها بمعنى آخر، كما قال زهير: [من البسيط]

من يَلقَ يومًا على عِلّاته هَرِما يلقى السماحة منه والندى خُلُقا[٣]

وكقول آخر: [من الطويل]

وأحفظ ما لي في الحقوق وإنه لَجَـمٌّ وإنّ الـدهـر جَـمٌّ عـجـائـبـه

(١) شَنُوءة: يريد أزد شنوءة. وشنوءة. كما يقول ياقوت في معجم البلدان مخلاف باليمن بينها وبين صنعاء اثنان وأربعون فرسخًا، تنسب إليها قبائل في الأزد يقال لهم أزد شنوءة. والنسبة إليهم شنائي وشنوي.
(٢) العِنَاج: حبل يشد في أسفل الدلو ثم يشد في العراقي.
(٣) هو هرم بن سنان، مدحه زهير لأنه سعى في الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان.

وكقول أبي نواس: [من البسيط]

صفراء لا تَنزل الأحزان ساحتَها ... لـو مـسّـهـا حَـجَـر مـسّـتـه سـرّاء

وأما التفويف ـ فهو مشتقّ من الثوب المفوَّف، وهو الذي فيه خطوط بيض، وهو في الصناعة عبارة عن إتيان المتكلم بمعانٍ شتّى من المدح أو الغزل أو غير ذلك من الأغراض، كلُّ فنّ في سجعة منفصلة عن أختها مع تساوي الجمل في الوزنيّة، وتكون في الجمل الطويلة والمتوسّطة والقصيرة.

فمثال ما جاء منه في الجمل الطويلة قولُ النابغة الذُّبيانيّ: [من الطويل]

فـللّه عـيـنَـا مـن رأى أهـلَ قُـبّـةٍ ... أضـرَّ لـمـن عـادى وأكـثـرَ نـافـعـا

وأعـظَـم أحـلامًـا وأكـبـرَ سـيّـدا ... وأفـضَـلَ مـشـفـوعًـا إلـيـه وشـافـعـا

ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة قولُ أبي الوليد بن زيدون[1]: [من البسيط]

تِـهْ أَحـتـمـلْ، واْسـتـطِـلْ أصـبِـرْ. وعِـزَّ أهُـنْ

وولِّ أُقـبِـلْ، وقُـلْ اَسـمَـعْ، ومُـرْ أُطِـعِ

ومثال ما جاء منه بالجمل القصيرة قولُ المتنبيّ: [من البسيط]

أَقِـلْ أَنِـلْ أَقـطِـع أَحْـمِـلْ عَـلِّ سَـلِّ أَعِـدْ

زِدْ هِـشَّ بَـشَّ تَـفَـضَّـلْ أدنِ سُـرَّ صِـلِ

وأما التسهيم ـ فهو مأخوذ من البُرد المسهَّم، وهو المخطَّط الذي لا يتفاوت ولا يختلف، ومنهم من يجعل التسهيم والتوشيح شيئًا واحدًا، ويُشرك بينهما بالتسوية، والفرق بينهما أنّ التوشيح لا يدلّك أوّله إلا على القافية فحَسْب، والتسهيم تارة يدلّ على عَجز البيت، وتارة على ما دون العجز.

وتعريفه أن يتقدّم من الكلام ما يدلّ على ما يتأخر، تارة بالمعنى، وتارة باللفظ، كأبيات جَنوب أختِ عمرو ذي الكلْب[2]، فإن الحذّاق بمعنى الشعر وتأليفه يعلمون

(١) ابن زيدون: (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ = ١٠٠٤ ـ ١٠٧١ م)، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي وزير وكاتب وشاعر من أهل قرطبة. اتصل بالمعتضد صاحب اشبيلية ووزر له وتغزل بولادة بنت المستكفي. (الأعلام، للزركلي).

(٢) جنوب أخت عمرو ذي الكَلْب.

أن معنى قولها: [من المتقارب]

* فأقسم يا عمرو لو نبّهاك *

يقتضي أن يكون تمامه:

* إذن نَبّها منكَ داءً عُضالا *

دون غيره من القوافي، كما لو قالت مكانَ «داء عضالا»: ليثا غَضوبا، أو أفعَى قَتولا، أو سمّا وَحِيّا، أو ما يناسب ذلك، لأن الداء العضال أبلغُ من جميع هذه الأشياء وأشد، إذ كلٌّ منها يمكن مغالبته أو التوقّي منه، والداء العُضال لا دواء له، فهذا مما يُعرَف بالمعنى.

وأما ما يدلّ فيه الأوّل على الثاني دِلالة لفظيّة فهو قولها بعد: [من المتقارب]

إذن نَبّها ليثَ عِرّيسة مُفِيتا مُفيدًا نفوسًا ومالا[1]

فإن الحاذق بصناعة الكلام إذا سمع قولها: «مفيتًا مفيدًا» تَحقّق أن هذا اللفظ يقتضي أن يكون تمامه: «نفوسًا ومالًا»؛ وكذلك قولها: [من المتقارب]

* فكنتَ النهار به شمسه *

يقتضي أن يكون بعده:

* وكنتَ دجى اللّيل فيه الهلالا *

ومن ذلك قولُ البحتريّ: [من الوافر]

* وإذا حاربوا أذلّوا عزيزا *

يحكُم السامع بأن تمامه:

* وإذا سالموا أعزّوا ذليلا *

وكذلك قوله: [من الطويل]

أَحلّت دمي من غير جرم وحَرّمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي

* فليس الذي حلّلتِه بمحلَّل *

---

(١) يعني مفيتًا نفوسًا ومفيدًا مالًا.

يعرف السامع أن تمامه:

* وليس الذي حَرّمتِه بحرام *

وأما الاستخدام ـ فهو أن يأتيَ المتكلّم بلفظة لها معنيان، ثم يأتي بلفظتين يستخدم كلّ لفظة منهما في معنى من معنيي تلك اللفظة المتقدّمة، وربما ٱلتبس الاستخدام بالتورية من كون كل واحد من البابين مفتقرًا إلى لفظة لها معنيان، والفرق بينهما أن التورية ٱستعمالُ أحد المعنَيين من اللفظة، وإهمالُ الآخَر، والاستخدام ٱستعمالهما معًا، ومن أمثلته قولُ البحتريّ: [من الكامل]

فَسقَى الغَضى والسَّاكِنِيه وإن همو شَبُّوه بين جوانح وقلوب

فإن لفظة الغضى محتملةٌ للموضع والشجر، والسُّقيا صالحة لهما، فلمّا قال: «والساكنيه» ٱستعمل أحد معنيي اللفظ، وهو دلالته بالقرينة على الموضع، ولمّا قال: «شَبُّوه» ٱستَعمل المعنى الآخَر، وهو دلالته بالقرينة على الشجر؛ ومن ذلك قولُ الشاعر(١): [من الوافر]

إذا نزل السماء بأرض قوم رَعَيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء الغَيثَ، وبضميره النَّبتَ.

وأما العكس والتبديل ـ فهو أن يقدِّم في الكلام أحدُ جزئيه ثم يؤخَّر؛ ويَقعُ على وجوه:

منها أن يقع بين طرَفي الجملة، كقول بعضهم: عادات السادات، ساداتُ العادات.

ومنها أن يَقع بين متعلَّقَي فعلين في جملتين، كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الرُّوم: الآية ١٩] ومنه بيت الحماسة: [من الوافر]

فرَدّ شعورَهن السود بِيضا ورَدّ وجوهَهن البِيض سُودا

ومنها أن يَقع بين كلمتين في طرَفَي جملتين، كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠].

---

(١) الشاعر هو جرير بن عطية الخطفي. أحد أركان المثلث الأموي أي الأخطل والفرزدق وجرير.

وقولِ أبي الطيّب: [من الطويل]

ولا مجدَ في الدنيا لمن قَلّ ماله ولا مالَ في الدنيا لمن قَلّ مجده

وأما الرجوع ـ فهو أن يعود المتكلّم على كلامه السابق بالنقض لنكتة كقول زهير: [من البسيط]

قف بالديار التي لم يَعفُها القِدَم بَلى وغيّرها الأرواحُ والدِّيَم(١)

كأنه لمّا وقف على الديار عَرته رَوعة ذَهَل بها عن رؤية ما حصل لها من التغيّر فقال: «لم يَعفُها القِدم» ثم ثاب إليه عقله وتحقّق ما هي عليه من الدروس، فقال: بل عَفَتْ وغيّرها الأرواح والدِّيَمُ.

ومنه بيت الحماسة: [من الطويل]

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها إليكِ وكَلًّا ليس منكِ قليل(٢)

وأما التغاير ـ فهو أن يغاير المتكلّم الناسَ فيما عادتهم أن يمدحوه فيذمَّه أو يذمّوه فيمدحَه.

فمن ذلك قولُ أبي تمّام يغاير جميع الناس في تفضيل التكرّم على الكرم: [من الخفيف]

قد بلَونا أبا سَعِيدٍ حديثا وبلَونا أبا سَعِيدٍ قديما

فوردناه سائحًا وقَلِيبًا ورَعَيناه بارِضًا وجَمِيما(٣)

فعلمنا أن ليس إلا بشِقّ النـ ـفس صار الكريم يدعى كريما

وهو مغاير لقوله على العادة المألوفة: [من البسيط]

لا يُتعِب النائل المبذول هِمّتَه وكيف يُتعِب عينَ الناظر النظر

---

(١) الأرواح: مفرده ريح؛ الديم: مفردة ديمة، أي الغيمة الممطرة. عفت الديار: درست وامّحت معالمها.

(٢) هذا البيت ليزيد بن الطثرية (١٢٦ هـ ـ ٧٤٤ م) وهو يزيد بن سلمة بن سمرة. شاعر مطبوع من شعراء بني أمية مقدم عندهم نسب إلى أمه من بني طثر. صاحب غزل وظرف وشجاعة. (الأعلام).

(٣) البارض: أول ما يظهر في النبات؛ والجميم: النبات الكثير، أو النبات المنتشر والناهض منه.

ومنه قول ابن الروميّ في تفضيل القلم على السيف: [من البسيط]

إن يخدُم القلَم السيفُ الذي خَضَعت ... لـه الـرقـابُ ودانـت خـوفَـه الأمـم
فـالـموتُ والـموتُ لا شيءٌ يعـادِلـه ... مـا زال يَـتبَـع مـا يَـجـرِي بـه الـقـلم
كـذا قـضـى الله لـلأقـلام مـذ بُـرِيَـت ... أنّ الـسـيـوف لـهـا مـذ أُرهِـفـت خَـدَم

وغايره المتنبيّ على الطريق المألوف فقال: [من البسيط]

حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بها أبدا قبل الكِتاب بنا ... فإنما نحن للأسياف كالخَدَم

وأما الطاعة والعصيان ـ فإنه قال: هذا النوع اُستنبطه أبو العلاء المَعرّي عند نظره في شعر أبي الطيّب، وسمّاه بهذه التسمية، وقال: هو أن يريد المتكلّم معنى من المعاني التي للبديع فيَستعصِي عليه لتعذّر دخوله في الوزن الذي هو آخذ فيه فيأتي موضعَه بكلامِ غيرِه يتضمّن معنى كلامه، ويقوم به وزنُه، ويحصل به معنى من البديع غير الذي قصَده، كقول المتنبيّ: [من الطويل]

يـرُدّ يـدًا عـن ثـوبـهـا وهـو قـادر ... ويَعصِي الهوى في طَيفها وهو راقد

فإنه أراد أن يقول: يردّ يدًا عن ثوبها وهو مستيقظ، حتى إذا قال: [من الطويل]

* ويَـعـصِـي الـهـوى فـي طَـيـفـهـا وهـو راقـد *

يكون في البيت مطابقة، فلم يطعه الوزن، فأَتى بقادر في مَوضع مستيقظ لتضمّنه معناه، فإن القادر لا يكون إلا مستيقظًا وزيادة، فقد عصاه في البيت الطباق وأطاعه الجناس بين قادر وراقد، وهو جناس العكس.

وأنكر اَبن الإصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان، لأنه كان يمكنه أن يقول عوض قادر: ساهر، وإنما المتنبّي قصد أن يكون في بيته طباقٌ معنويّ، لأن القادر ساهر وزيادة، إذ ليس كلّ ساهر قادرًا، وأن يكون فيه جناس العكس.

وقال: إن شاهد الطاعة والعصيان عنده أن تعصيَه إقامةُ الوزن مع إظهار مراده، فتطيعه لفظة من البديع يتمّم بها المعنى وتزيده حسنًا، كقول عوف بن مُحلِّم[1]:

(١) عوف بن محلم: (٤٥ هـ = ٥٨٠ م)، هو عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان. كان مطاعًا في قومه قويًا في عصبته. أجار رجلًا يطلبه عمرو بن هند، وضربت له قبة في عكاظ.=

[من السّريع]

إن الـثـمـانـيـن وبُـلِّغـتَـهـا قد أَحوجَت سمعي إلى تَرجُمان

فإنه أراد أن يقول: إن الثمانين قد أحوجت سمعي إلى تَرجمان، فعصاه الوزن وأطاعه لفظة من البديع وهي التتميم، فزادته حُسنًا وكَمَّلَتْ مرادَه، وكلّ التتميم من هذا النوع.

وأما التسميط ـ فهو أن يجعل المتكلّم مقاطيعَ أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالِفُ قافيةَ البيت أو آخِرَ القرينة، كقول مروانَ بنِ أبي حفصة: [من الطويل]

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أَعطَوا أطابوا وأَجزلوا

فإن أجزاء البيت مسجَّعة على خلاف قافيته فتكون القافية بمنزلة السمط، والأجزاء المسجَّعة بمنزلة حبّ العقد.

وأما التشطير ـ فهو أن يَقسِم الشاعر بيته شَطرين، ثم يُصرِّع كلّ شَطر من الشطرين، ولكنه يأتي بكلّ شَطر من بيته مخالفًا لقافية الآخر، كقول مسلم بن الوَليد: [من البسيط]

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ كـأنّـه أَجَـلٌ يَـسـعـى إلـى أمـل

وكقول أبي تمّام: [من البسيط]

تـدبـيرُ مـعـتـصِـمٍ بـالله مـنـتـقِـمِ لله مـرتـقِـبٍ فـي الله مـرتـغِـب

وأما التطريز ـ فهو أن يبتدىء الشاعر بذكر جُمَل من الذوات غيرِ مفصَّلة ثم يُخبِر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررةٍ بحسب تَعدادِ جُمَل تلك الذوات تَعدادَ تَكرار واتحاد، لا تَعدادَ تغاير، كقول ابن الروميّ: [من الوافر]

أمـوركـمـو بـنـي خـاقـانَ عـنـدي عُـجابٌ في عُـجابٍ في عُـجابِ
قُـرونٌ فـي رؤوس فـي وجـوه صِـلابٌ في صِـلابٍ فـي صِـلابِ

وكقوله: [من الوافر]

وتَـسـقـيـنـي وتـشـرب مـن رَحـيـقٍ خَـلـيـقٍ أن يُـشـبَّـهَ بـالـخَـلُـوق
كـأنّ الـكـأسَ فـي يـدهـا وفـيـهـا عَـقِـيـقٌ فـي عـقِـيـقٍ فـي عـقـيـق

= (الأعلام، للزركلي).

وأما التوشيع ـ فهو مشتقّ من الوَشِيعة، وهي الطريقة في البُرْد، وكأنّ الشاعر أَهمل البيت كلّه إلا آخره، فأتَى فيه بطريقة تُعدُّ من المحاسن؛ وهو عند أهل هذه الصناعة أن يأتي المتكلّم أو الشاعر بٱسم مثنًى في حَشو العَجُز، ثم يَأتي بعده باسمين مفردين هما عينُ ذلك المثنى، يكون الآخِرُ منهما قافيةَ بيته، أو سجعَة كلامه كأنهما تفسيرٌ لما ثنّاه، كقول النبي ﷺ: «يَشيب ابن آدم وتشِبّ فيه خَصلتان: الحرصُ وطُولُ الأمل».

ومن أمثلة ذلك في النظم قولُ الشاعر: [من البسيط]

أُمسِي وأُصبِح من تَذكاركم وصِبًا ... يَرثِي ليَ المُشفِقان الأهلُ والولد
قد خَدّد الدمعُ خدّي مِن تذكُّركم ... واعتادني المُضنِيان الوجدُ والكَمَد
وغاب عن مقلتِي نومِي لغَيبتكم ... وخانني المُسعِدان الصبرُ والجَلَد
لم يَبقَ غيرُ خفيِّ الرُّوح في جسدي ... فِدًى لك الباقيان الرُّوحُ والجَسَد

قال ٱبن أبي الإصبع: وما بما قلتُه في هذا الباب من بأس، وهو: [من البسيط]

بي مِحنتان مُلامٌ في هَوًى بهما ... رَثى ليَ القاسيان الحُبُّ والحَجَر
لولا الشفيقان من أمنيّة وأسًا ... أودَى بيَ المُردِيان الشوقُ والفِكَر[١]

قال: ويحسن أن يسمّيَ ما في بيتيه مطرَّفَ التوشيع، إذ وقع المثنى في أوّل كلّ بيت وآخرِه.

وأما الإغراق ـ وهو فوق المبالَغة ودون الغُلوّ، ومن أمثلته قولُ ٱبن المعتزّ: [من الطويل]

صَبَبنا عليها ظالمين سِياطَنا ... فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجُل

فموضع الإغراق من البيت قولُه: ظالمين، يعني أنها ٱستفرَغتْ جُهدَها في العَدْو فما ضربناها إلا ظلمًا، فمن أجل ذلك خرجت من الوَحشيّة إلى الطَّيريّة؛ ولو لم يقل: «ظالمين» لما حسُن قوله: «فطارت» ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنها حقيقةٌ، وقد عُدّ من الإغراق لَا المبالَغة قولُ ٱمرىء القيس: [من الطويل]

تنوّرتُها من أذرِعاتٍ وأهلُها ... بيثرِبَ أدنى دارِها نظرٌ عالي[٢]

---

(١) الأس: جمع أسوة، أي القدوة.
(٢) أذرعات: بلد بأرض الشام يجاور البلقاء وعمان في شرقي الأردن، ينسب إليه الخمر.

وأما الغُلوّ ـ فمنهم من يجعلُه هو والإغراقَ شيئًا واحدًا، ومن شواهده قولُ مُهلهِل: [من الوافر]

فلولا الريحُ أَسمَعَ من بَحَجْر ... صَليلُ البَيض تُقرَع بالذُّكور(١)

ومِثلُه قولُ المتنبّي في وصف الأَسَد: [من الكامل]

وَرْدٌ إذا وَرَد البُحَيرة شاربا ... بَلغ الفراتَ زئيرهُ والنِّيلا(٢)

قالوا: ومن أمثلة الغُلوّ قولُ النَّمِر بن تَولَب(٣) في صفة السيف: [من البسيط]

تَظَلّ تَحفِر عنه إن ضَربتَ به ... بُعدَ الذّراعَيْن والساقَيْن والهادي

وأما القسَم ـ فهو أن يريد الشاعر الحِلف على شيء فيأتي في الحلِف بما يكون مدحًا له وما يُكسِبه فخرًا، أو يكون هجاءً لغيره، أو وعيدًا، أو جاريًا مَجرى التغزلّ والترقّق: [من الكامل]

فمثال الأوّل قولُ مالك بن الأَشتر النَّخعيّ

بقّيتُ وَفْري وانحرفتُ عن العُلا

وقد تَقدّم الاستشهاد بهما في النظْم، فإنها تَضمّنت فخرًا له، ووعيدًا لغيره؛ وكقول أبي عليّ البصير يعرّض بعليّ بن الجَهْم(٤): [من الكامل]

أَكذبتُ أَحسنَ ما يَظنّ مؤمّلي ... وعَدمتُ ما شادته لي أسلافي
وعَدمتُ عاداتي التي عُوّدتُها ... قِدْما من الإخلاف والإتلاف
وغَضضتُ من ناري ليَخفَى ضوءها ... وقَريتُ عذرًا كاذبًا أضيافي
إن لم أَشُنَّ على عليٍّ غارةً ... تُضحِي قذًى في أعين الأشراف

---

(١) حَجْر: مدينة اليمامة. (ياقوت، معجم البلدان). البيض: الخوذ. سميت بذلك لأنها تشبه بيض النعامة. الذكور: السيوف. والذكر من الحديد أشده وأقساه.

(٢) الورد: الأسد الذي يشبه لونه لون الورد.

(٣) النمر بن تولب: (١٤ هـ = ٦٣٥ م)، هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي. شاعر مخضرم معمرًا. لم يمدح ولم يهج أحدًا. قابل النبي وحمل كتابًا منه لقومه. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

(٤) علي بن الجهم (٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م). أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر، شاعر رقيق الشعر أديب من أهل بغداد عاصر أبا تمام وخص بالمتوكل العباسي ثم نفاه إلى خراسان، ثم انتقل إلى حلب، وغزا فجرح ومات. له ديوان مطبوع (الزركلي، الأعلام).

وقد يُقسم الشاعر بما يزيد الممدوح مدحًا، كقول القائل: [من الكامل]

إن كـان لـي أمـلٌ سـواك أَعُـدّه فكفرتُ نعمتك التي لا تُكفَر

ومما جاء من القسَم في النسيب قولُ الشاعر: [من الطويل]

فإن لم تكن عندي كعيني ومسمَعي فلا نَظرَتْ عيني ولا سَمِعتْ أُذْني

ومما جاء في الغزل قولُ الآخَر: [من البسيط]

لا والذي سَلّ من جفنيه سيفَ ردًى قُـدّت لـه مـن عـذارَيـه حـمـائـلُه
ما صارمَت مقلتي دمعًا ولا وَصلَت غَـمـضًـا ولا سـالَـمـتْ قـلـبـي بـلابـلُه

وأما الاستدراك ـ فهو على قسمين: قِسم يتقدّم الاستدراكَ فيه تقريرٌ لما أَخبر به المتكلّمُ وتوكيدٌ، وقِسمٌ لا يتقدّمه ذلك؛ فمن أمثلة الأوّل قولُ القائل: [من الوافر]

وإخـوانٍ تـخَـذتُـهـمـو دروعـا فـكـانـوهـا ولـكـن لـلأعـادي
وخِلتـهـمـو سـهـامًـا صـائـبـاتٍ فـكـانـوهـا ولـكـن فـي فـؤادي
وقـالـوا قـد صـفـت مـنّـا قـلـوبٌ لـقـد صـدقـوا ولـكـن من ودادي

وقولُ الأَرَّجانيّ: [من الرّمل]

غالطتني إذ كست جسمِي ضَنًى كُسوةً أعرت من الجلد العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى مِثلَ عيني صدقتْ لكن سَقاما

وأما القسم الثاني الذي لا يتقدّم الاستدراكَ فيه تقرير ولا توكيد فكقول زهير: [من الطويل]

أخو ثِقة لا يُـهـلِكُ الـخـمرُ مالَه ولـكـنـه قـد يُـهـلك الـمـالَ نـائـلُه

وأما المؤتلِفة والمختلفة ـ فهو أن يريد الشاهر التسويةَ بين ممدوحَين فيأتي بمعان مؤتلِفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخر بزيادة لا يَنقُص بها الآخر، فيأتي لأجل الترجيح بمعان تخالف التسوية، كقول الخنساء في أخيها وأبيها ـ وراعت حقّ الوالد بما لم ينقص الولدَ: [من الكامل]

جـارَى أبـاه فـأقـبَـلا وهـمـا يـتـعـاقـبـان مُـلاءةَ الـحَـضْـرِ[1]

(١) الحضر: العدو.

وهُما وقد بَرزا كأنهما صَقران قد حَطّا إلى وَكر
حتى إذا نَزت القلوب وقد لُزّت هناك العُذرُ بالعذر(١)
وعَلا هتافُ الناس: أيُّهما قال المجيب هناك: لا أدري
بَرَقت صحيفة وجهِ والده ومضى على غُلَوائه يجري
أولى فأولى أن يساوِيَه لولا جلالُ السنّ والكبر

وأوّل من سبق إلى هذا المعنى زهير حيث قال: [من البسيط]

هو الجواد فإن يَلحَق بشأوهما على تكاليفه فمِثلُه لَحِقا
أو يسبِقاه على ما كان من مَهَل فمِثلُ ما قَدّما من صالح سَبقا

وتداوله الناس، فقال أبو نواس: [من المنسرح]

ثم جرى الفضلُ فانثنَى قَدَمًا دون مَداه بغير ترهيق
فقيل راشًا سهما تُراد به الـ غايةُ والنَّصْلُ سابقُ الفُوق(٢)

وأما التفريق المفرد ـ فهو كقول الشاعر: [من الخفيف]

ما نَوال الغمام يوم ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فَنوال الأمير بَدرةُ عَين ونَوالُ الغمام قَطرةُ ماء

وأما الجمع مع التفريق ـ فهو أن يشبِّه شيئين بشيء ثم يفرِّق بين وجهَيْ الاشتباه، كقول الشاعر: [من المتقارب]

فوجهُك كالنار في ضوئها وقلبيَ كالنار في حرّها

وأما التقسيم المفرد ـ فهو أن يَذكُرَ قسمة ذات جزأين أو أكثر، ثم يَضمّ إلى كل واحد من الأقسام ما يليق به، كقول رَبيعة الرَّقيّ(٣): [من الطويل]

يَزيدُ سُلَيم سالمُ المال والفتى فتى الأَزْد للأموال غيرُ مسالِم

(١) العذر: جمع عذار، وهو المفرق أو الشعر الذي يحاذي الأذن، ما سال من اللجام على خد الفرس.
(٢) الفُوق: جمعه أفواق، موضع الوتر من السهم.
(٣) ربيعة الرقي: (١٩٨ هـ = ٨١٣ م)، هو ربيعة بن ثابت الأسدي. شاعر غزل مقدم، رغم أنه كان ضريرًا مدح خلفاء بني العباس المهدي والرشيد. ولد ونشأ في الرقة على الفرات وإليها انتسب. (الزركلي، الأعلام).

لَشتّان ما بين اليزيدَين في الندى ... يَـزيـد سُـلَيـم والأَغَـرِّ بـنِ حـاتـم
فـهـمُّ الـفـتـى الأزديّ إتـلافُ مـالـه ... وهمُّ الفتى القيسيّ جمعُ الدراهم
فلا يَحسَب التمتام أنّي هجوته ... ولـكـنـني فَضَّـلت أهـل الـمـكـارم

وكقول ابن حَيُّوس: [من الطويل]

ثـمـانـيـة لـم تـفـترق إذ جـمـعـتَـهـا ... فلا ٱفترقَت ما ذَبّ عن ناظر شَفْر
يقينُك والتقوى، وَجُودك والغنى ... ولفظك والمعنى، وسيفك والنصر

وقولِ آخَر: [من الطويل]

لـمـلـتـمِـسي الـحاجات جمعٌ ببابه ... فـهـذا لـه فـنٌّ وهـذا لـه فـنّ
فللخامل العَليا، ولـلمعدِم الغنى ... ولِلمذنب الرُّحمى، ولِلخائف الأمن

ويجوز أن يُعَدَّ هذا من الجمع مع التقسيم.

وأما الجمع مع التقسيم ـ فهو أن يَجمع أمورًا كثيرة تحت حُكم، ثم يقسِّم بعد ذلك، أو يقسِّمَ ثم يَجمع، مثال الأوّل قولُ المتنبيّ: [من البسيط]

حتى أَقام على أَرباض خَرْشَنة ... تَشقَى به الروم والصُّلبانُ والبِيَعُ
لِلسَّبْيِ ما نَكحوا، والقتلِ ما وَلدوا ... والنهبِ ما جمعوا، والنارِ ما زَرعوا

فجمَع في البيت الأوّل أرض العدوّ وما فيها من معنى الشقاوة، وذكر التقسيم في البيت الثاني.

ومثال الثاني قولُ حسّان: [من البسيط]

قوم إذا حاربوا ضَرّوا عدوّهمو ... أو حاولوا النفْعَ في أشياعهم نَفَعوا
سجيّةٌ تلك منهم غيرُ مُحدَثة ... إنّ الحوادث فاعلم شرُّها البِدَع

وأما التزاوج ـ فهو أن يزاوِج بين معنيَيْن في الشرط والجزاء، كقول البُحتُريّ: [من الطويل]

إذا ما نَهَى الناهي ولَجَّ بيَ الهوى ... أصاخت إلى الواشي فلَجّ بها الهجر

وأما السلب والإيجاب ـ فهو أن يُوقِع الكلام على نفي شيء وإثباته في بيت واحد، كقوله: [من الطويل]

ونُنكِر إن شئنا على الناس قولَهم ... ولا يُنكِرون القولَ حين نقول

وكقول الشّمّاخ(١): [من الطويل]

هَضيم الحشى لا يَملأ الكفَّ خَصرُها ويُمْلأ منها كلُّ حِجْلٍ ودُمْلُج(٢)

وأما الاطّراد - فهو أن يَطرُد الشاعر أسماءَ متتالية يَزيد الممدوحَ بها تعريفًا، لأنها لا تكون إلا أسماءَ آبائه تأتي منسُوقةً غيرَ منقطعة من غير ظهور كُلْفة على النَّظْم كاطّراد الماء وانسجامه، وذلك كقول الأعشى: [من الطويل]

أقيسُ بنَ مسعودِ بنِ قيس بنِ خالدِ وأنت الذي ترجو حِباءَك وائلُ

وكقول دُرَيد(٣): [من الطويل]

قَتلنا بعبد الله خيرَ لِداتِه ذؤابَ بنَ أسماءِ بنِ زيدِ بنِ قارِب

وهذا أحسنُ من الأوّل، لاطّراد الأسماء في عَجُز البيت.

وقال ابن أبي الإصبع: وقد أربَى على هؤلاء بعض القائلين حيث قال: [من الخفيف]

من يكن رام حاجة بعُدت عنـ ـه وأعيتْ عليه كلَّ العياء

فلها أحمدُ المُرجَّى ابنُ يحيىٰ بـ ـنِ مُعاذِ بنِ مُسلِم بنِ رَجاء

لو لم يقعْ فيه الفصلُ بين الأسماء بلفظة المرجَّى.

ومنه ما كتب الشيخ مجدُ الدين بنُ الظَّهِير الحنفيّ على إجازة: [من مجزوء الرّجز]

أجاز ما قد سألوا بشرط أهل السَّنَد

محمد بن أحمدَ بـ ـنِ عمرَ بنِ أحمد

فلم يفصل بين الأسماء في البيت بلفظة أجنبيّة.

وأما التجريد - فهو أن يَنتزع الشاعر أو المتكلّم من أمر ذي صفة أمرًا آخَرَ مِثلَه في تلك الصفة مبالَغةً في كمالها فيه؛ وهو أقسام: منها نحوُ قولهم: لي مِن

(١) الشماخ: (مرت ترجمته).

(٢) الحِجْلُ: الخلخال. الدُمْلج: المعضد من الحلي.

(٣) دريد بن الصمة: (٨ هـ = ٦٣٠ م) دريد بن الصمة الجشمي البكري من هوازن. فارس شجاع وشاعر معمر جاهلي. وأدرك الإسلام ولم يسلم قتل في غزوة حنين. والصمة لقب والده. (الزركلي، الأعلام).

فلان صديقٌ حميم، أي: بَلَغ من الصداقة حدًّا صحّ معه أن يُستخلَص منه صديقٌ آخَرَ.

ومنها نحو قولهم: لئن سألتَ لتَسألَنّ به البحرَ، ومنه قولُ الشاعر: [من الطويل]

وشَوهاءَ تعدو بي إلى صارخ الوغى بمستلئم مِثلِ الفَنِيق المُرحَّل[1]

أي: تعدو بي ومعي من ٱستعدادي للحرب لابِسُ لأمة.

ومنها نحوُ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٨] لأن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ هي دار الخلد، لكن ٱنتزع منها مثلها وجعل فيها مُعَدًّا للكفار تهويلًا لأمرها؛ ومنها نحو قولِ الحماسيّ: [من الكامل]

فلئن بقِيتُ لأرحلنّ بغَزوة نحوَ الغنائم أو يموتَ كريم

وعليه قراءة من قرأ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةٌ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرَّحمٰن: الآية ٣٧] بالرفع، بمعنى فحصَلتْ سماءٌ وَردةٌ، وقيل: تقدير الأوّل أو يموتَ منّي كريم، والثاني: فكانت منها وَردةٌ كالدِّهان، وفيه نظر.

ومنها نحوُ قولِه: [من المنسرح]

يا خيرَ مَن يَركَب المطِيّ ولا يَشرب كأسًا بكفّ مَن بخِلا

ونحوُ قولِ الآخَر: [من البسيط]

إن تَلقَني ـ لا تَرَى غيري يناظره ـ تَنسَ السلاحَ وتَعرِفْ جَبهة الأَسَد

ومنها مخاطَبة الإنسان غيرَه وهو يريد نفسه، كقول الأعشى: [من البسيط]

ودِّع هُرَيرةَ إنّ الرَّكب مرتحِل وهل تُطيق وَداعًا أيها الرجل

وقولِ المتنبّي: [من البسيط]

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالُ فليُسعِد النُّطقُ إن لم تسعد الحالُ

(١) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي ولا يركب لكرامته. مستلئم: لابس اللأمة أي الدرع.

ومنه قول الحَيْصَ بَيْصَ[١]: [من الطويل]

إلام يراكَ المجد في زِيّ شاعر وقد نَحَلَت شوقًا فروع المنابر
كَتَمْتَ بِصيت الشِّعر علمًا وحكمة ببعضها ينقاد صعبُ المَفاخر
أما وأبيك الخير إنك فارس الـ كلام ومُحيي الدّارسات الغوابر

وأما التكميل - فهو أن يأتيَ المتكلّم أو الشاعر بمعنًى من مدح أو غيرِه من فنون الكَلِم وأغراضه، ثم يَرَى مدحَه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غيرَ كامل، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم مثلًا غيرَ كامل أو بالبأس دون الحِلم، ومثال ذلك قولُ كعب بن سعد الغَنَويّ[٢]: [من الطويل]

حَليمٌ إذا ما ٱلحلم زَيَّن أهلَه مع الحِلم في عين العدوّ مَهِيب

قوله: «إذا ما الحِلم زَيّن أهلَه» ٱحتراس لولاه لكان المدح مدخولًا، إذ بعضُ التغاضي قد يكون عن عَجْزٍ، وإنما يزين الحِلمُ أهلَه إذا كان عن قدرة، ثم رأى أن يكون مدحه بالحلم وحدَه غير كامل، لأنه إذا لم يُعرَف منه إلا الحِلمُ طَمِع فيه عدوّه فقال: «في عين العدوّ مَهِيب»؛ ومنه قول السَّموءل بنِ عادياء: [من الطويل]

وما مات منّا سيّد في فراشه ولا طُلّ منّا حيث كان قتيل

لأنّ صدر البيت وإن تَضمّن وصفَهم بالإقدام والصبر ربّما أَوهم العَجْزَ لأن قتلَ الجميع يدلّ على الوَهن والقِلّة فكمله بأخذهم للثأر، وكَمَّلَ حسنَه بقوله: «حيث كان» فإنه أَبلغُ في الشجاعة؛ ومن ذلك في النسيب قولُ كُثَيِّر: [من الكامل]

لو أن عَزّة حاكمت شمسَ الضحى في الحسن عند مُوَفَّق لقَضَى لها

لأن قوله: «عند موفّق» تكميل للمعنى، إذ ليس كلّ من يحاكَم إليه موفّقًا؛ ومنه قولُ المتنبّي: [من الوافر]

أشَدُّ من الرياح الهُوج بطشا وأَسرَعُ في الندى منها هُبوبا

---

(١) الحَيْصُ بَيْصُ: (٥٧٤ هـ = ١١٧٩ م)، هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي. شاعر بغدادي نشأ فقيهًا وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي أمراء البادية ويتقلد سيفًا فلقب بأبي الفوارس. له ديوان مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) كعب بن سعد الغنوي: هو كعب بن ربيعة بن عمرو الغنوي (١٠ ق.هـ = ٦١٢ م) شاعر جاهلي حلو الديباجة أشهر ما له قصيدته في رثاء أخيه الذي قتل بذي قار. مطلعها:

تقول ابنة العبسي قد شبت بعدنا وكل امرىء بعد الشباب يشيب

وأما المناسَبة ـ فهي على ضربين: مناسَبةٍ في المعنى، ومناسَبةٍ في الألفاظ.

فالمعنويّة أن يَبتدىء المتكلّم بمعنًى، ثم يتمِّمَ كلامه بما يناسبه معنًى دون لفظ، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآيتان ٢٦، ٢٧]، فقال تعالى في صدر الآية التي الموعظةُ فيها سمعيّةٌ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٦]، وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ٢٦]، وقال في صدر الآية التي موعظتُها مَرئيَّةٌ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [الرّعد: الآية ٤١] وقال بعد الموعظة: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: الآية ٢٧].

ومن أمثلة المناسَبة المعنويّة قولُ المتنبّي: [من الطويل]

على سابحٍ مَوْجُ المنايا بنحره غَداةَ كأنّ النَّبْلَ في صدره وَبْل

فإنّ بين لفظة السِّباحة ولفظتَي المَوْجِ والوَبْل تناسبًا صار البيت به متلاحمًا؛ وقولُ ٱبنِ رَشِيق: [من الطويل]

أَصَحُّ وأَقوَى ما رويناه في الندى من الخَبَرِ المأثور منذ قديم
أحاديثُ تَرويها السيولُ عن الحيا عن البحر عن جُود الأمير تَميم

فإنه وَفَّى المناسَبَة حقّها في صحة العَنعَنة برواية السيول عن الحيا عن البحر، وجَعَلَ الغاية فيها جُودَ الممدوح.

والمناسَبة اللفظيّة: تَوخّي الإتيان بكلمات متزِنات، وهي على ضربين: تامّة وغير تامّة.

فالتّامة: أن تكون الكلمات مع الاتّزان مقفّاة، فمن شواهد التامّة قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم: الآيات١ - ٣] ومن الحديث النبويّ ـ صلاة الله وسلامه على قائله ـ قولُ النبي ﷺ للحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ: «أعيذُكما بكلمات الله التامّة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة» ولم يقل: «ملمّه» وهي القياس لمكان المناسَبة اللفظيّة التامّةِ.

ومن شواهد الناقصة قولُه ﷺ: «ألا أُخبِركم بأحبِّكم إليّ وأَقربِكم منّي مَجالسَ يوم القيامة؟ أَحاسنكم أخلاقًا، الموطّؤون أكنافًا».

ومما جَمع بين المناسَبتين قولُه ﷺ: «اللَّهُم إني أسألك رحمة تَهدِي بها قلبي، وتَجمع بها أمري، وتَلُمّ بها شَعَثي، وتُصلِح بها غائبي، وتَرفَع بها شاهدي، وتزكّي بها عملي، وتُلهمني بها رُشدي، وتَردُّ بها أُلفتي، وتَعصِمني بها من كلّ سوء، اللَّهمّ إني أسألك العَونَ في القضاء، ونُزُلَ الشهداء، وعَيشَ السعداء، والنصرَ على الأعداء» فناسب ﷺ بين قلبي وأمري، وغايتي وشاهدي مناسبَة غير تامّة، لأنها في الزِّنة دون التقفِيَة، وناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعداء مناسَبة تامّة في الزِّنة والتقفية.

ومن أمثلة المناسَبتين قولُ أبي تمّام: [من الطويل]

مَهَا الوَحشِ إلّا أنّ هاتا أَوانسٌ ... قَنا الخَطِّ إلا أنّ تلك ذوابل[1]

فناسب بين مَهَا وقَنا مناسَبة تامّة، وناسب بين الوحش والخطّ، وأوانس وذوابل مناسَبة غيرَ تامّة.

وأما التفريع ـ فهو أن يُصدِّر المتكلّمُ أو الشاعر كلامَه باسم مَنفيّ بـ «ما» خاصّة، ثم يصف الاسمَ المنفيّ بمُعظَم أوصافه اللائقةِ به في الحسن أو القبح، ثم يجعله أصلًا يُفرِّع منه جملةً من جارٍّ ومجرورٍ متعلّقةً به تعلّقَ مدحٍ أو هجاء أو فخرٍ أو نسيب أو غيرِ ذلك، يُفهِم من ذلك مساواةَ المذكور بالاسم المنفيّ الموصوف كقول الأعشى: [من البسيط]

ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعشِبةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مُسبِلٌ هطِل[2]

يضاحِك الشمس منها كَوكب شَرِقٌ ... مؤزَّرٌ بعَميم النبت مكتهِل[3]

يومًا بأطْيَبَ منها طِيبَ رائحةٍ ... ولا بأَحسَنَ منها إذ دنا الأُصُل

وقول عاتِكة المرّيّة[4]: [من الطويل]

وما طعم ماء أيّ ماء تقوله ... تَحدَّرَ من غُرٍّ طِوال الذوائب

بمنعرَج مِن بطن وادٍ تقابلت ... عليه رياحُ الصيف من كل جانب

---

(١) الخط: يريد به خط عمان، وهو الذي تنسب إليه الرماح الخطية.

(٢) الحَزْن: المرتفع، الجبل. (٣) الكوكب: النَّوْر، لأنه يشبه كوكب السماء.

(٤) عاتكة المرية: عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان أم هاشم بن عبد مناف. أو عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال بن فالج أم وهب بن عبد مناف ابن زهرة إلى آمنة أم النبي. هناك عدة جدات للنبي يحملن هذا الاسم. (الأعلام، للزركلي).

نَفتْ جِرْيَةُ الماء القذى عن مُتونه فليس به عيب تراه لعائب
بأَطْيَبَ ممن يَقصِر الطرفَ دونه تقى الله وٱستحياءُ بعض العواقب

وقد وقع الأصل والفرع لأبي تمّام في بيت واحد، وهو: [من البسيط]

ما رَبع ميّةَ معمورًا يُطيف به غَيْلانُ أبهى ربًا من رَبعها الخَرِب
ولا الخدودُ وإن أُدمِين مِن خَجَل أَشهى إلى ناظري من خدّها الترِب

ومما ورد في النثر رسالةُ ٱبنِ القُمّيّ التي كتبها إلى سبإ بن أحمد صاحبِ صنعاءَ:

وأمّا حال عبده بعد فراقه في الجَلَد، فما أمّ تسعة من الولد؛ ذكور، كأنهم عِقبانُ وُكور؛ اختُرِم منهم ثمانية، فهي على التاسع حانية، فنادى النذير في البادية، يا لَلعادية يا لَلعادية؛ فلما سَمعتْ الداعي، ورأت الخيل سَواعي؛ أقبلت تنادي ولدها: الأَناة الأَناة، وهو يناديها: القَناة القَناة: [من الكامل]

بَطَلٌ كأنّ ثيابه في سَرْحةٍ يُحذَى نعالَ السِّبت ليس بتَوأم[1]

فلما رَمَقتْه يختال في غُضون الزَّرَد المَوْضون[2] أنشأت تقول: [من مجزوء الرّمل]

أَسَد أَضْبَطُ يمشي بين طَرْفَاءَ وغِيل[3]
لِبسُه من نسج داو دَ كضَحْضاح المَسِيل[4]

عَرَضَ له في البادية أَسَدٌ هَصُور، كأنّ ذراعه مَسَدٌ معصور: [من الكامل]

فتَطاعَنا وتواقفتْ خَيْلاهما وكلاهما بَطلُ اللقاء مقنَّع

---

(١) السرحة: واحدة السرح، وهو الشجر العظيم الطويل. يريد عنترة صاحب البيت، إنه ضخم الجسم طويل القامة. نعال السبت: النعال المدبوغة.

(٢) الموضون: المنسوج حلقتين حلقتين، أو المتقارب النسج.

(٣) الطرفاء: نوع من النبات ذو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١-٢]أهداب وليس له خشب. الغيل: الشجر الكثيف الملتف؛ أو القصب والحلفاء المجتمعة.

(٤) الضحضاح: الماء الذي لا غرق فيه، ونسج داود يريد به: الدّروع، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٠].

فلما سمعَت الرَّعِيل، بَرزتْ من الصِّرْم(١) بصبر قد عِيل؛ فسألت عن الواحد فقيل: لَحَدَه اللّاحد: [من الوافر]

فَكَّرتْ تبتغيه فصادفَتْهُ ... على دمِه ومَصرَعِه السباعا

عبَثن به فلم يَترُكن إلا ... أدِيما قد تمزق أو كُراعا

بأشدّ من عبده تأسّفًا، ولا أعظم كمدًا وتلهّفا.

قال: وذكر ٱبن أبي الإصبع في التفريع قسمًا ذَكَره في صدر الباب، وقال: إنه هو الذي ٱستخرجه، وهو أن يبتدىء الشاعر بلفظة هي إما ٱسم أو صفة، ثم يكرّرُها في البيت مضافة إلى أسماء وصفات تتفرع عليها جملةٌ من المعاني في المدح وغيره، كقول المتنبّي: [من المتقارب]

أنا ٱبن اللقاء أنا ٱبن السخاء ... أنا ٱبن الضِّراب أنا ٱبن الطِّعان

أنا ٱبن الفيافي أنا ٱبن القوافي ... أنا ٱبن السُّروج أنا ٱبن الرِّعان(٢)

طَويلُ النِّجاد طَويلُ العماد ... طَويلُ القناة طويل السِّنان

حَديدُ اللِّحاظ حديد الحِفاظ ... حَديدُ الحسام حديد الجَنان

وأما نفي الشيء بإيجابه ـ فهو أن يُثبِت المتكلّم شيئًا في ظاهر كلامه ويَنفيَ ما هو من سببه مَجازًا، والمنفيّ في باطن الكلام حقيقة هو الذي أثبته كقول ٱمرىء القيس: [من الطويل]

على لاحب لا يُهتدَى بمَناره ... إذا سافَهُ العَودُ النَّباطيّ جَرجَرا(٣)

فظاهر هذا الكلام يَقتضِي إثبات مَنار لهذه الطريق، ونفيَ الهدايةِ به مجازًا وباطنه في الحقيقة يقتضِي نَفيَ المَنار جملة، والمعنى أن هذه الطريقَ لو كان لها منار ما ٱهتُدِيَ به، فكيف ولا مَنارَ لها، كما تقول لمن تريد أن تَسلبَه الخير: ما أَقَلّ خيرك! فظاهر كلامك يدلّ على إثبات خير قليل، وباطنه نَفيُ الخير كثيرِه وقليلِه. وقول الزبير بن عبد المطلب يمدح عُمَيلة بنَ عبد الدار ـ وكان نديمًا له ـ:

---

(١) الصِّرم: الجماعة.

(٢) الرعان: رؤوس الجبال أو أنوفها المتقدمة منها.

(٣) سافه: شمّه. العود: الجمل المسن. جرجر: رغا.

[من الطويل]

صَحِبتُ بهم طَلْقا يَراح إلى الندى إذا ما ٱنتشَى لم تَحتضِره مَفاقرُه
ضعيف بحَثّ الكأس قَبضُ بنانِه كَليل على وجه النديم أظافِره

فظاهر هذا أنّ للممدوح مَفاقرَ لم تحتضره إذا انتشى، وأنّ له أظافرَ يَخمِشُ بها وجه نديمه خَمْشًا ضعيفًا، وباطن الكلام في الحقيقة نفيُ المفاقر جملة، والأَظافرِ بَتّة.

وأما الإيداع ـ قال: وأكثرُ الناس يجعلونه من باب التضمين، وهو منه إلّا أنه مخصوص بالنثر، وبأن يكون المُودَع نصفَ بيت، إما صدرًا أو عَجُزًا.

فمنه قول عليّ رضي الله عنه في جواب كتاب لمعاوية:

ثم زَعمتَ أنّي لكلّ الخلفاء حَسَدت، وعلى كلّهم بَغَيت، فإن يكن ذلك كذلك فلم تكن الجناية عليك، حتى تكون المعذِرة إليك، وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها.

وأما الإدماج ـ فهو أن يُدمِج المتكلم غرضًا له في جملةِ معنًى من المعاني قد نحاه ليُوهِم السامعَ أنه لم يقصده، وإنما عَرض في كلامه لتتمّة معناه الذي قصده، كقول عبيد الله بن عبد الله[1] لعبيد الله بن سليمانَ بنِ وهب حين وَزَرَ للمعتضد ـ وكان عُبَيد الله قد ٱختَلّت حاله ـ فكتب إلى ٱبن سليمان: [من الطويل]

أَبى دهرُنا إسعافَنا في نفوسنا وأَسعفنا فيمن نُحِبُّ ونكرِم
فقلتُ له نُعماك فيهم أَتِمَّها ودع أمرَنا إن المهمّ المقدَّم

فأَدمَج شكوى الزمان في ضمن التهنئة، وتَلطّفَ في المسألة مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال.

وأما سلامة الاختراع ـ فهو أن يَخترِع الشاعر معنًى لم يُسبَق إليه ولم يَتبعه أحد فيه، كقول عنترة في الذباب: [من الكامل]

هَزِجا يَحُكُّ ذراعَه بذراعه قَدْحَ المُكِبّ على الزناد الأجذمِ

---

(١) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: ولي الشرطة في بغداد، وكان إلى ذلك مترسلًا وشاعرًا لطيفًا جيد السبك. له كتاب البراعة والفصاحة، وكتاب السياسة الملوكية. توفي سنة ٣٠٠ هـ. (ابن خلكان، الوفيات، ج ٢، ص ٣٠٤).

وكقول عديّ بن الرِّقاع[١] في تشبيه ولد الظبية: [من الكامل]

تُزجِي أَغَنَّ كأن إبرة رَوْقِه قلمٌ أصاب من الدواة مدادَها

وكقول النابغة في وصف النسور: [من الطويل]

تَراهنّ خلف القوم زُورًا عيونها جلوسَ الشيوخ في مُسوك الأرانب[٢]

وكقول أبي تمّام: [من الكامل]

لا تنكري عَطَل الكريم من الغِنى فالسَّيل حربٌ للمكان العالي

وقولِه: [من البسيط]

ليس الحجاب بمُقْصٍ عنكَ لي أملا إنّ السماء تُرجَّى حين تَحتجِب

وقولِ ابن حجّاج[٣]: [من الطويل]

وإنّيَ والمولى الذي أنا عبده طَريفان في أمر له طَرَفان
بعيدًا تراني منه أَقربَ ما تَرَى كأنيَ يومُ العيد في رمضان

وأما حُسن الاتّباع - فهو أن يأتيَ المتكلّم إلى معنًى قد اخترعه غيره فيتّبعه فيه اتباعًا يوجب له استحقاقه، إما باختصار لفظِه، أو قِصَر وزنِه أو عذوبة نَظْمِه، أو سهولة سَبكه، أو إيضاح معناه، أو تتميم نقصِه، أو تحليتِه بما توجبه الصناعة، أو بغير ذلك من وجوه الاستحقاقات؛ كقول شاعر جاهليّ في صفة جَمَل: [من الطويل]

وعَوْدٍ قليلِ الذنْب عاودتُ ضربه إذا هاج شوقي من مَعاهدها ذكر[٤]
وقلت له ذلفاءُ ويحكَ سَبَّبتْ لك الضربَ فاصبر إنّ عادتك الصبر

(١) عدي بن الرقاع: (٩٥ هـ = ٧١٤ م)، هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، من عاملة شاعر كبير من أهل دمشق، كنيته أبو داود. عاصر جريرًا وهاجاه، ومدح بني أمية. مات في دمشق. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الزور: جمع أزور، وهو الناظر بمؤخرة عينه. المسوك: الجلود.

(٣) ابن حجاج: (٣٩١ هـ = ١٠٠١ م) هو حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج البغدادي. شاعر فحل غلب عليه الهزل والفحش، واتسم شعره بالعذوبة والسلامة من التكلف نسب إلى قرية النيل على الفرات بين بغداد والكوفة وتوفي فيها ودفن في بغداد. (الأعلام، للزركلي).

(٤) العود: المسنّ من الجمال.

فأحسن ابن المعتز اتّباعه حيث قال يصف خيلَه: [من الطويل]

وخيلٍ طواها القَوْدُ حتى كأنها أنابيبُ سمرٌ من قنا الخَطّ ذُبَّلُ
صَبَبنا عليها ظالِمين سِياطَنا فطارت بها أيدٍ سِراعٌ وأرجل

واتّبع أبو نُواس جريرًا في قوله: [من الوافر]

إذا غضِبت عليك بنو تميم حسبتَ الناس كلَّهمُو غضابا

فقال أبو نواس ـ ونَقل المعنى من الفخر إلى المدح ـ: [من السّريع]

ليس على الله بمستنكَرٍ أن يَجمعَ العالَم في واحد

وقول النُّمَيريّ في أخت الحجّاج: [من الطويل]

فهنّ اللواتي إن بَرزن قتلنني وإن غِبن قَطّعن الحشى حَسَرات

فاتّبعه ابن الروميّ فقال: [من الكامل]

ويلاه إن نَظَرتْ وإن هي أَعرضتْ وَقْعُ السهام ونزعُهنّ أليم

وأما الذمّ في معرِض المدح ـ فهو أن يقصِد المتكلّم ذمّ إنسان فيأتيَ بألفاظ موجَّهة، ظاهرُها المدح، وباطنها القَدح، فيُوهِم أنه يمدحه وهو يهجوه كقول بعضهم في الشريف بن الشَّجَريّ: [من المنسرح]

يا سيّدي والذي يعيذك من نَظْمِ قريض يَصْدأ به الفكْر
ما فيك من جِدّك النبيِّ سوى أنك لا ينبغي لك الشعر

وأما العُنوان ـ فهو أن يأخذ المتكلّم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو هجاء أو غير ذلك، ثم يأتي لقصد تكميله بألفاظ تَكُون عُنوانًا لأخبار متقدِّمة، وقِصص سالفة؛ كقول أبي نُواس: [من البسيط]

يا هاشم بنَ حُدَيجٍ ليس فخركمو بقتلِ صِهر رسول الله بالسَّدَد
أَدرجتمو في إهاب العَير جُثّتَه لبئس ما قدّمت أيديكمو لغد
إن تقتلوا ابنَ أبي بكر فقد قَتلتْ حُجْرًا بدارة مَلْحُوب بنو أَسَد(١)

---

(١) دارة ملحوب: اسم ماء لأسد بن خزيمة، فيها قتل بنو أسد حجرًا الكندي والد الشاعر الجاهلي امرىء القيس، وكان ملكًا على نجد. (ياقوت، معجم البلدان).

ويوم قلتم لعمرو وهو يقتلكم قتل الكلاب لقد أبرَحتَ من ولَد(١)
وربّ كِنديّة قالت لجارتها والدمع ينهلّ من مَثْنَى ومن وَحَد
أَلهَى أمرأ القيس تشبيبٌ بغانية عن ثأره وصفاتُ النُّؤيِ والوَتَد(٢)

فقد أتى أبو نواس في هذه الأبيات بعِدّة عُنوانات: منها قصة قتلِ محمد بن أبي بكر، وقتل حُجْرِ أبي أمرىء القيس، وقتلِ عمرو بن هندٍ كِنْدَةَ في ضمن هجو من أراد هجوَه، وغَير المهجوّ بما أشار إليه من الأخبار الدالّة على هجاء قبيلته.

ومثل ذلك قولُ أبي تمام في أستعطاف مالك بن طَوق على قومه: [من الكامل]

رفَدوك في يوم الكُلاب وشَقّقوا فيه المَزاد بجَحفل غَلّاب(٣)
وهمو بعَين أُباغَ راشوا للعِدا سَهمَيك عند الحارث الحَرّاب(٤)
وليالِيَ الثَّرثار والحَشّاك قد جَلبوا الجياد لواحقَ الأَقراب(٥)
فمضت كُهُولهمو ودَبّر أمرَهم أحداثُهم تدبيرَ غيرِ صواب

وقال بعد ذلك:

لك في رسول الله أَعظمُ أُسوة وأَجلُّها في سُنّة وكتاب
أَعطى المؤلَّفة القلوبِ رضاهمو كَمَلًا وردَّ أَخائذَ الأحزاب
والجعفريُّون أستَقلَّت ظُعْنُهم عن قومهم وهمو نجوم كلاب
حتى إذا أَخذ الفراقُ بقسطه منهم وشَطَّ بهم عن الأَحباب
ورأوا بلاد الله قد لفَظتهمو أكنافُها رَجعوا إلى جَوّاب
فأَتَوا كريمَ الخِيم مِثلَك صافحًا عن ذكر أحقاد وذكر ضِباب(٦)

(١) يشير إلى فتك ملك الحيرة عمرو بن هند ببني كندة.
(٢) يشير إلى عجز امرىء القيس الكندي عن الثأر من أبي أسد الذين قتلوا والده. ويعزو ذلك لانصرافه إلى الملذات واللهو بالنساء وقرض الشعر.
(٣) يوم الكلاب كلاب الأول وكلاب الثاني: يومان كانا بين ملوك كندة وبني تميم.
(٤) عين أُبَاغ: واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام. يشير إلى معركة وقعت هناك بين الغساسنة واللخمين، قتل فيها المنذر بن المنذر بن امرىء القيس اللخمي ملك الحيرة. (ياقوت، معجم البلدان).
(٥) الثرثار: واد بالجزيرة بين سنجار وتكريت. كانت بكر وائل وتغلب وائل تنزله (ياقوت، معجم البلدان). الحشاك: تل عبدة، جرت فيه وقعة تغلب وقيس. لواحق الأقراب: ضمر الخصور.
(٦) الضِّباب: واحدة ضِب وهو الحقد.

فانظر إلى ما أتى به أبو تمّام في هذه الأبيات من العُنوانات من السيرة النبوية وأيام العرب، وأخبار بني جعفر بن كلاب، ورجوعهم إلى ٱبن عمهم جَوّاب؛ وكقوله أيضًا لأحمد بن أبي دؤاد: [من الوافر]

تَـثـبَّـتْ إنّ قـولًا كـان زُورا أتـى الـنـعـمـانَ قَـبـلَـك عـن زيـاد
وأرَّث بـيـن حـيّ بـنـي جُـلاح لـظـى حـرب وحـيّ بـنـي مَـصـاد
وغـادَرَ في صـدور الـدهـر قـتْـلى بـنـي بـدر عـلى ذات الإصـاد[١]

فأتى بِعُنوان يشير به إلى قصة النابغة حين وُشيَ به إلى النعمان، فجرّ ذلك من الحروب ما تَضمّنتْ أبياته.

وأما الإيضاح ـ وهو أن يذكر المتكلّم كلامًا في ظاهره لَبْسٌ، ثم يوضحه في بقيّة كلامه، كقول الشاعر: [من الطويل]

يـذكّـرنـيـك الـخـيـرُ والـشـرُّ كـلُّه وقِيلُ الخنا والعلمُ والحلمُ والجهلُ

فإن الشاعر لو ٱقتصر على هذا البيت لأشكل مراده على السامع بجمعه بين ألفاظ المدح والهجاء، فلما قال بعد: [من الطويل]

فـألـقـاكَ عـن مـكـروهـهـا مـتـنـزِّهًـا وألقاكَ في محبوبها ولكَ الفضل

أَوضح المعنى المرادَ، وأزال اللَّبس، ورَفع الإشكالَ والشك.

وأما التشكيك ـ فهو أن يأتيَ المتكلّم في كلامه بلفظةٍ تشكِّك المخاطَب هل هي فَضلةٌ أو أصليّة لا غِنى للكلام عنها؟ مِثلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٢] فإن لفظة بِدَينٍ تشكِّك السامعَ هل هي فَضلةٌ أو أصليّة؟ فالضعيف النظر يظنّها فَضلةً لأن لفظةَ تداينتم تغنِي عنها، والناظر في علم البيان يعلم أنها أصليّة لأن لفظة الدَّين لها مَحامل، تقول: داينتُ فلانًا المودّةَ، يعني جازيتُه، ومنه: «كما تَدِين تُدان» ومنه قولُ رُؤبة[٢]: [من الرّجز]

دايـنـتُ أروَى والـدُّيـون تُـقـضَـى فـمـطَـلـتْ بـعـضًـا وأدّت بـعـضـا

(١) الإصاد: اسم مكان في ديار بني عبس وسط هضاب القليب. (ياقوت، معجم البلدان).
(٢) هو رؤبة بن العجاج: (١٤٥ هـ = ٧٦٢ م)، هو رؤبة بن عبد الله بن العجاج التميمي السعدي. راجز من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. أكثر مقامه في البصرة. وعنه أخذ أعيان اللغة واحتجوا بشعره. مات في البادية بعد أن أسن. (الزركلي، الأعلام).

وكلّ هذا هو الدَّين المجازيّ الذي لا يُكتَب ولا يُشهَد عليه، ولمّا كان المراد من الآية تمييزَ الدَّين الماليّ الذي يُكتَب ويُشهَد عليه، وتيسيرَ أحكامه، أَوجبت البلاغة أن يقول: «بدَين» ليُعلَم حُكمُه.

وأما القول بالموجِب ـ فهو ضربان:

أحدهما: أن تقَع صفةٌ في كلام مدّعٍ شيئًا يَعنِي به نفسَه، فتَثبت تلك الصفة لغيره من غير تصريح بثبوتها له، ولا نَفيها عنه، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨] فإنهم كنوا بالأعزّ عن فريقهم، وبالأذلّ عن فريق المؤمنين، فأَثبت الله عزّ وجلّ صفةَ العِزّةِ لله ولرسوله وللمؤمنين من غير تعرّضٍ لثبوت حُكم الإخراج بصفة العزّة ولا لنفيه.

والثاني: حَمْلُ كلام المتكلّم مع تقريره على خلاف مراده مما يَحتملُه بذكر متعلَّقِه كقول الشاعر: [من الخفيف]

قلتُ: ثَقَّلتُ إذ أَتيتُ مِرارًا   قال: ثَقَّلتَ كاهلِي بالأيادي
قلتُ: طَوَّلتُ قال: لي بل تَطوّلتَ   وأَبرَمتُ قال: حبلَ الوداد

ومنه قولُ الأَرَّجانيّ:

* غالطَتْني إذ كست جسمي ضنًى *

البيتين، وقد تَقدّم الاستشهاد بهما في الاستدراك.

وللمولى شهاب الدين محمود الحلبيّ الكاتبِ[1] في ذلك: [من المتقارب]

رَأتني وقد نال منّي النُّحول   وفاضت دموعي على الخدّ فَيضا
فقالت: بعينيّ هذا السَّقام   فقلتُ: صدقتِ، وبالخصر أيضا

وقولُ مَحاسن الشَّوّاء[2]: [من الطويل]

ولَمّا أتاني العاذلون عدمتُهم   وما فيهمو إلا لِلحِمَى قارِض
وقد بُهِتوا لَمّا رأونيَ شاحبًا   وقالوا: به عَينٌ فقلتُ: وعارِض

---

(١) هو محمود بن سليمان، شهاب الدين، كاتب الإنشاء في دمشق ومصر، لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله، له ديوان شعر مات سنة ٧٢٥ هـ. (الأعلام ٧/ ١٧٢).

(٢) محاسن الشَّواء: (١١٦٧ ـ ١٢٣٨ م) كوفي الأصل، ولد وتوفي في حلب، وقبره عند باب أنطاكية غربي المدينة شاعر أتقن علم العروض، وله ديوان شعر. (المنجد).

وأما القلب ـ فهو أن يكون الكلام أو البيتُ كيفما ٱنقلبَتْ حروفه كان بحاله لا يَتغيّر، ومنه في التنزيل قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٣]، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدّثّر: الآية ٣] وقولهم: ساكبُ كاس.

ومنه قولُ العِماد الأَصْفهانيّ للقاضي الفاضل: سِرْ فلا كَبا بك الفَرَس، وجوابُ القاضي الفاضل له: دام عُلا العماد، وهي أوّل قصيدة للأَرَّجانيّ، مَطلَعها: «دام عُلا العماد»، ومن ذلك قولُ الأَرَّجانيّ: [من الوافر]

مَـودّتُـه تـدوم لـكـلّ هَـول ... وهـل كـلٌّ مَـودّتُـه تـدوم

وأما التندير ـ فهو أن يأتيَ المتكلّم بنادرة حلوة، أو نكتة مستظرَفة يُعرّض فيها بمن يريد ذمّه بأمر، وغالب ما يقع في الهَزْل، فمنه قول أبي تمام فيمن[1] سَرق له شِعرًا: [من الخفيف]

مَن بنُو بَحْدَلٍ، مَن ٱبنُ الحُباب ... مَـن بـنُـو تَـغـلِب غَـداة الـكُـلاب
مَن طُفَيلٌ، مَن عامرٌ، أم مَن الحا ... رثُ، أم مَن عُـتَـيبةُ بـن شِـهـاب
إنما الضَّيغم الهَصُور أبو الأشـ ... ـبـال هَـتّـاكُ كـلّ خِـيـس وغـاب
مَن عدت خيلُه على سَرْح شِعري ... وهـو لِلحَـيـن راتـعٌ فـي كـتـاب
يا عَذارى الكلام صِرتنّ من بَعـ ... ـدي سـبـايـا تُـبَـعـن فـي الأعـراب
لـو تَـرى مـنـطِـقـي أسـيـرا لأصـبـحـتَ أسـيـرا ذا عَـبْـرة وٱكـتـئـاب
طـال رَغْـبـي إلـيـك مـمـا أقـاسيـ ... ـه ورُهبي يا ربّ فاحفظ ثيابي

ومن ذلك ما قاله شهاب الدين بنُ الخِيَميّ يُعرِّض بنجم الدين بنِ ٱسرائيلَ لمّا تنازعا في القصيدة المعروفةِ لابن الخِيمي التي أوّلها: [من البسيط]

* يا مطلَبا ليس لي من غيره أَرَب *

فقال من قطعة منها:

هُمُ العُرَيْبُ بنجد مذ عرَفتُهمو ... لم يَبقَ لي معهم مالٌ ولا نَشَب[2]

---

(١) أراد به محمد بن يزيد القرشي بالولاء (١٠١ هـ = ٧٢٠ م). ولاه عبد الملك بن مروان افريقيا وتبعت له الأندلس، وعزله الخليفة عمر بن عبد العزيز، ثم أعيد ثانية إلى منصبه. (الزركلي، الأعلام).

(٢) النشب: المال الأصيل من نقود وماشية.

فـمـا أَلـمُّـوا بـحـيٍّ أو أَلـمّ بـهـم   إلا أغاروا على الأبيات وٱنتَهَبوا
لـم يُبقِ مَنطِقه قولًا يـروق لـنـا   لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب

وأما الإسجال بعد المغالَطة ـ فهو أن يقصِد الشاعر غرضًا من ممدوح فيَشترِط لحصوله شرطًا، ثم يقدِّر وقوعَ ذلك الشرط مغالَطة ليُسجِّل به ٱستحقاقَ مقصوده، كقول بعضهم: [من البسيط]

جاء الـشـتـاء ومـا عـنـدي لـقِـرّتـه   إلا ٱرتعادي وتصفيقي بأسناني
فـإن هَـلَـكـتُ فـمـولانـا يـكـفّـنـني   هَبني هَلَكتُ فهَبني بعض أكفاني

وأما الافتنان ـ فهو أن يأتيَ الشاعر بفنَّين متضادَّين من فنون الشعر في بيت واحد، مِثلِ التشبيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء.

فأما ما جُمِع فيه بين التشبيب والحماسة فكقول عنترة: [من الكامل]

إن تُـغْـدِفي دوني الـقِـنـاع فـإنـني   طَـبٌّ بـأخـذ الـفـارس الـمـسـتـلئـم

وكقول أبي دُلَف ـ ويُروَى لعبد الله بن طاهر ـ: [من الوافر]

أُحـبّـكِ يـا جُـنـان وأنـتِ مـنّـي   مَـحـلَّ الـرُّوح مـن جـسـد الـجـبـان
ولـو أنـي أقـول مَـحـلَّ روحـي   لـخِـفـتُ عـلـيـكِ بـادرةَ الـطِّـعـان

وأما ما جُمِع فيه بين تهنئةٍ وتعزيةٍ فقد تقدّم ذكر ذلك في بابَي التهاني والتعازي ومنها فيما لم نورده هناك ما كتب به المولى شهاب الدين محمود الكاتبُ تهنئة وتعزية لمن رزق ولدًا ذكرًا في يوم ماتت له فيه بنت:

ولا عَتْب على الدهر فيما ٱقتَرَف، فقد أَحسن الخَلَف؛ واعتَذرَ بما وَهَب عما سَلب، فعفا الله عمّا سلف.

وأما الإبهام ـ بباء موحّدة فهو أن يقول المتكلّم كلامًا مبهَمًا يَحتمِل معنيين متضادَّين، كقول بعضهم في الحسن بن سَهل لما تزوّج المأمون ببنته بُوران: [من مجزوء الخفيف]

بـــارك الله لـــلـحـــسَـــن   ولـــبُـــورانَ فـــي الـــخَـــتَـــن[1]
يـــا إمـــام الـــهـــدى ظَـــفِـــر   تَ ولـــكـــن بـــبـــنـــت مَـــن

(١) الختن: الصهر.

فلم يُعرَف مرادُه «ببنت من» هل أراد به الرفعة أو الضعة؟

ومنه قولُ بشّار في خياط أعورَ اسمه عمرو: [من مجزوء الرّمل]

خاط عمرو لي قَباء   ليت عينيه سواء

فأبهم المعنى في الدعاء له بالدعاء عليه.

وأما حصر الجزئيّ وإلحاقه بالكليّ - فهو كقول السَّلاميّ[١]: [من الطويل]

إليك طوى عَرضَ البسِيطة جاعلٌ   قُصارى المطايا أن يلوح لها القَصر
فكنتُ وعزمي في الظلام وصارمي   ثلاثةَ أشباه كما ٱجتَمَع النَّسر
وبَشّرتُ آمالي بمَلْك هو الورى   ودارٍ هي الدنيا، ويومٍ هو الدهر

فأما حَصرُ أقسام الجزئيّ فإن العالَم عبارةٌ عن أجسامٍ وظروفِ زمانٍ وظروفِ مكانٍ، وقد حَصَر ذلك.

وأما جعلُه الجزئيّ كلّيًا فإن الممدوح جزء من الورى، والدار جزء من الدنيا، واليوم جزء من الدهر.

وأما المقارنَة - فهي أن يَقرِن الشاعر الاستعارَة بالتشبيه أو المبالَغةِ أو غير ذلك بوَصل يَخفَى أثره إلّا على مُدْمِن النظر في هذه الصناعة، وأكثرُ ما يقع ذلك بالجُمَل الشرطيّة، كقول بعض[٢] شعراء المَغرِب: [من الطويل]

وكنتَ إذا ٱستُنزِلتَ من جانب الرضى   نزلتَ نزولَ الغيث في البلد المَحْل
وإن هَيّج الأعداء منك حَفِيظةً   وقعتَ وُقوعَ النار في الحطب الجَزل

فإنه لاءم بين الاستعارة والتشبيه المنزوعِ الأداةِ في صدرَيْ بيتَيه وعَجُزيهما.

وأما ما قُرنتْ به الاستعارةُ من المبالَغة فمثاله قولُ النابغة الذُّبيانيّ: [من الطويل]

وأنتَ رَبِيع يُنعِش الناسَ سَيبُه   وسيف أُعِيرتْه المنيّة قاطِع

---

(١) السلامي: (٣٣٦ - ٣٩٣ هـ = ٩٤٨ - ١٠٠٣ م)، هو محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي القرشي، أبو الحسن السلامي، شاعر عراقي ولد في كرخ بغداد ونسب إلى مدينة السلام، اتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهي. له ديوان شعر مطبوع. (الزركلي، الأعلام).

(٢) هو إدريس بن اليمان كما جاء في «تحرير التحبير» لابن أبي الأصبع.

فإن في كلٍّ من صدر البيت وعجزه ٱستعارة ومبالغة، وإنما التي في العجز أبلغ.

ومما ٱقترَن فيه الإرداف بالاستعارة قولُ تَمِيم بن مُقْبِل[١]: [من الطويل]

لــدن غُــدْوة حــتــى نَــزَعــنــا عــشــيّــة
وقد ماتَ شطر الشمس والشَّطرُ مُدْنَفِ[٢]

فإنه عَبّر بموت شَطر الشمس عن الغروب، وٱستعار الدَّنَف للشطر الثاني.

وأما الإبداع ـ فهو أن يأتي في البيت الواحد من الشِّعر، أو القرينةِ الواحدةِ من النثر بعِدّة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جُمَله، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع، ومتى لم تكن كلّ كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع.

قال ٱبن أبي الإصبَع: وما رأيتُ فيما ٱستقرَيتُ من الكلام كآية ٱستخرجْتُ منها أحدًا وعشرين ضربًا من المَحاسن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هُود: الآية ٤٤]: وهي المناسبة التامّة في «ٱبْلَعِي» و«أَقْلِعِي»؛ والمطابَقة بذكر الأرض والسماء؛ والمَجاز في قوله: «يَا سَمَاءُ»، فإن المراد ـ والله أعلم ـ يا مطر السماء؛ والاستعارة في قوله تعالى: «أَقْلِعِي»؛ والإشارة في قوله تعالى: «وَغِيضَ الْمَاءُ» فإنه عَبّر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة؛ والتمثيل في قوله تعالى: «وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ» فإنه عَبّر عن هلاك الهالِكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له؛ والإرداف في قوله: «وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ» فإنه عَبّر عن ٱستقرارها بهذا المكان ٱستقرارًا متمكّنًا بلفظ قريب من لفظ المعنى؛ والتعليل، لأن غَيض الماء علّة الاستواء؛ وصحة التقسيم إذا استوعب الله تعالى أقسامَ أحوال الماء حالةَ نقْصِه، إذ ليس إلا ٱحتباسَ ماء السماء، وٱحتقانَ الماء الذي يَنبَعُ من الأرض، وغَيضَ الماء الحاصل على ظهرها؛ والاحتراسُ في قوله تعالى: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ» إذ الدعاء عليهم يُشعِر أنهم مستحقّو الهلاك ٱحتراسًا من ضعيف العقل يَتوهّم أن العذاب شَمَل من يَستحقّ ومن لا يَستحقّ،

---

(١) تميم بن مقبل: (بعد ٣٧ هـ = بعد ٦٥٧ م) هو تميم بن أبي بن مقبل، من بني العجلان، أبو كعب، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، عمر طويلًا وهاجى النجاشي الشاعر. له ديوان مطبوع. (الأعلام، للزركلي).

(٢) مدنف: دانٍ من الغروب.

فتأكّدَ بالدعاء كونُهم مستحقّين؛ والإيضاح في قوله: «لِلْقَوْمِ» ليبيّن أن القوم الذين سبق ذكرهم في الآية المتقدّمة حيث قال: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هُود: الآية ٣٨] هم الذين وصَفَهم بالظلم ليُعلَم أن لفظة القوم ليست فضلة وأنه يحصل بسقوطها لَبسٌ في الكلام؛ والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناها؛ وحُسنُ النَّسق، لأنه تعالى عطف القضايا بعضَها على بعض بحسن ترتيب؛ وائتلاف اللفظ مع المعنى، لأن كلّ لفظة لا يَصلُح موضعَها غيرُها؛ والإيجاز، لأنه سبحانه وتعالى اْقتصّ القصّة بلفظها مُستوعَبَة بحيث لم يُخِلَّ منها بشيء في أقصر عبارة؛ والتسهيم، لأن أوّل الآية إلى قوله: «أَقْلِعِي» يقتضي آخرها؛ والتهذيب، لأنّ مفرداتِ الألفاظ موصوفةٌ بصفات الحسن، عليها رونق الفصاحة، سليمةٌ من التعقيد والتقديم والتأخير؛ والتمكّن، لأن الفاصلة مستقرّةٌ في قرارها، مطمئنّةٌ في مكانها؛ والانسجام، وهو تحدّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء؛ وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو الذي سُمّيَ به هذا الباب. فهذه سبع عشرة لفظةً تَضمّنتْ أحدًا وعشرين ضربًا من البديع غيرَ ما تَكرر من أنواعه فيها.

وأما الانفصال ـ فهو أن يقول المتكلّم كلامًا يَتوجّه عليه فيه دَخَلٌ لو اْقتَصَر عليه، فيأتي بما يفصله عن ذلك الدَّخَل، كقول أبي فِراس: [من مجزوء الرّمل]

ولـقـد نُـبِّـيـتُ إبـليـ ... ـس إذا راكَ يَـصُـدّ
لـيـس مِـن تـقـوى ولـكـن ... ثِـقَـلٌ فـيـك وبَـرْدُ

والفرقُ بين هذا وبين الاحتراس خلوُّ الاحتراس من الدَّخل عليه من كلّ وجه.

وأما التصرف ـ فهو أن يتصرّف المتكلّم في المعنى الذي يقصِده، فيُبرزه في عِدّة صور: تارة بلفظ الاستعارة، وطَورًا بلفظ التشبيه، وآونة بلفظ الإرداف وحِينًا بلفظ الحقيقة، كقول اْمرىء القيس يصف الليل: [من الطويل]

وليلٍ كموج البحر مُرخ سُدُوله ... عليّ بأنواع الهموم ليَبتلي
فقلتُ له لمّا تَمطّى بصُلْبه ... وأردَف أعجازًا وناءَ بكَلكَلِ

فإنه أبرز المعنى بلفظ الاستعارة، ثم تَصَرّف فيه فأتى بلفظ التشبيه فقال: [من الطويل]

فيا لك من ليل كأنّ نجومَه ... بكلّ مُغار الفتل شُدّت بيَذبُلِ[1]

(١) يذبل: جبل بنجد. كان لباهلة. وهو مضارع ذبل أي استرخى. (ياقوت، معجم البلدان).

ثم تَصَرّف فيه فأخرَجَه بلفظ الإرداف فقال:

ألا أيها الليل الطويل ألا ٱنجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثَل

وأما الاشتراك - فمنه ما ليس بحَسَن ولا قبيح، وهو الاشتراك في الألفاظ مثل ٱشتراك الأُبيرِد[١] وأبي نواس في لفظة الاستعفاء، فإن الأُبَيْرِد قال في مَرثية أخيه: [من الطويل]

وقد كنتُ أَستعفي الإلهَ إذا ٱشتكى من الأجر لي فيه وإن عَظُم الأجر

وقال أبو نواس: [من الطويل]

ترى العين تستعفيك من لمعانها وتَحسِر حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه الحسَن، وهو الاشتراك في المعنى، كقول ٱمرىء القيس: [من الطويل]

كبِكْر المُقَاناة البياضَ بصُفرة غَذاها نَمير الماء غيرُ المُحَلَّل[٢]

وقولِ ذي الرُّمّة: [من البسيط]

كَحلاءُ في برجٍ صفراء في دَعَجٍ كأنها فضّة قد مسّها ذهب[٣]

فَوَقَع الاشتراك بينهما في وصف المرأة بالصُّفرة، غير أنّ الأوّل شبّه الصفرة ببَيضة النعامة، والآخر وَصَفها بالفضّة المُمَوَّهة.

ومن الاشتراك المعنويّ ما ليس بحسَن ولا مَعِيب، كقول كُثَيِّر: [من الطويل]

وأنتِ التي حَبّبتِ كلّ قَصيرة إليّ وما تدري بذاكِ القصائر

عَنَيتُ قَصِيراتِ الحِجال ولم أُرِد قِصَارَ الخُطَا، شرُّ النساء البحاتر[٤]

فإن لفظة قصيرة مشتركة، فلو ٱقتَصَر على البيت الأوّل لكان الاشتراك مَعِيبًا لكنه لما أَتى بالبيت الثاني زال العيب، ولم يَبلُغ رتبة الحسن لِما فيه من التضمين.

(١) الأبيرد: (٦٨ هـ = ٦٨٨ م)، هو الأبيرد بن المعذر بن عبد قيس الرياحي اليربوعي من تميم. شاعر فصيح بدوي لم يكن مكثرًا ولا مداحًا، أدرك بني أمية (الأعلام، للزركلي).

(٢) يقول إن محبوبته ذات لون أبيض ضارب إلى الصفرة كبيضة النعامة تغذت بالماء الصافي العذب الذي لم يكدره الواردون.

(٣) البَرَج: في العين، يعني نقاء بياضها وصفاء سوادها. والدعج يعني شدة سواد العين.

(٤) البحاتر: واحدتها بحترة، وهي المرأة القصيرة.

وأما التهكّم ـ فالفرق بينه وبين الهَزْل الذي يراد به الجِدُّ أن التهكّم ظاهره جِدٌّ وباطنه هَزْل، والهَزْل الذي يراد به الجِدُّ على العكس منه، فمن التهكّم قول الوَجِيه الذرْويّ في ٱبن أبي حصينة من أبيات: [من الخفيف]

لا تَظنَّنّ حَدْبة الظَّهر عيبا   فهي في الحُسن من صفات الهلال
وكذاكَ القِسيّ مُحدَودِباتٌ   وهي أنكَى من الظُّبا والعَوالي
وإذا ما علا السَّنام ففيه   لقُروم الجِمال أيُّ جَمال
وأرَى الانحناء في مِخلَب البا   زي ولم يَعْدُ مِخلَبَ الرئبال
كَوّن الله حَدْبة فيك إن شئـ   ـتَ من الفضل أو من الإفضال
فأتت رَبْوَةً على طَود علم   وأتت مَوْجةً ببحر نوال
ما رأتها النساء إلا تمنّت   أنها حِليةٌ لكلّ الرجال

ثم ختمها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بُدٌّ   فعسى أن تزورنا في الخيال

وكقول ٱبن الروميّ: [من السّريع]

فيا له مِن عمل صالح   يرفعه الله إلى أسفل

وأما التدبيج ـ وهو أن يَذكر الشاعر أو الناثر ألوانًا يَقصِد بها الكنايةَ أو التوريَةَ بذكرها عن أشياءَ من وصف أو مدح أو هجاء أو نَسِيب أو غيرِ ذلك من الفنون، فمن ذلك قولُ الحرِيريّ في بعض مقاماته: فمذ ٱزوَرَّ المحبوبُ الأصفر وٱغبرّ العيش الأخضر، اسودّ يومي الأبيض، وٱبيضّ فَوْدِي الأسودَ، حتى رَثَى لي العدوّ الأزرق، فحبّذا الموتُ الأحمر.

وهذا التدبيج بطريق التورية. وقال بعض المتأخِّرين يصف موقف السلطان الملك الناصر بمَصافّ شَقْحَب[1] الكائن بينه وبين التتار في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائة:

وما زال بوجهه الأبيض، تحت عَلَمه الأصفر، يكابِد الموت الأحمر، تجاه العدوّ الأزرق، إلى أن حال بينهما الليل الأسود، وبَكَّر في غُرّة نهار الأحد الأشعل

(١) شقحب: على وزن جعفر، مكان قرب دمشق. وهو يقع على طرف مرج الصفر (تاريخ أبي الفداء، ج ٤، ص ٥٠، طبعة القسطنطينية).

وٱمتطَى السبيل الأَحوَى إلى أن حَلّ بالأَبلَق. يريد بالأبلق: القصر الظاهريَّ الذي بالمَيْدان الأخضر بظاهر مدينة دِمَشق؛ ومن أمثلة هذا الباب قولُ ابن حَيُّوس الدِّمَشقي: [من الخفيف]

إن تُرد عِلْم حالهم عن يقين — فٱلقَهم يوم نائل أو قتال
تَلقَ بِيضَ الوجوه سُودَ مُثار النَ — قع خُضَر الأكناف حُمَر النِّصال

وأما الموجّه - فهو الذي يَمدح بشيء يَقتضي المدح بشيء آخَرَ، كقول المتنبّي: [من الطويل]

نَهبتَ من الأعمار ما لو حَويتَه — لهنّئت الدنيا بأنك خالد

وكقوله أيضًا: [من البسيط]

عُمْر العدوّ إذا لاقاه في رَهَج — أقلُّ مِن عُمْر ما يَحوي إذا وَهَبا

فأوّل البيتين وصفٌ بفرط الشجاعة، وآخر الأوّل بعلوّ الدرجة، وآخر الثاني بفرط الجود.

وأما تشابه الأطراف - فهو أن يَجعل الشاعر قافيةَ بيته الأوّلِ أوّلَ البيت الثاني، وقافيةَ الثاني أوّلَ الثالث، وهكذا إلى انتهاء كلامه، ومن أحسن ما قيل فيه قولُ ليلى الأَخْيَليّة تمدح الحجّاج: [من الطويل]

إذا نزل الحجّاج أرضًا مريضة — تَتَبَّعَ أقصى دائها فشَفاها
شَفاها مِن الداء العُضال الذي بها — غلام إذا هَزّ القناة سقاها
سقاها فروّاها بشُرب سِجالها — دماءَ رجال يَحلبُون صَراها[1]

هذا ما أَورده في حسن التوسّل من علوم المعاني والبيان والبديع، وقد أَتينا على أكثره بنَصّه لِمَا رأيناه من حسن تأليفه، وبديع ترصيفه، وأنّ اختصاره لا يمكن إلا عند الإخلال بفائدة لا يُستغنَى عنها فلم نحذِف منه إلا ما تَكرّر من الأمثلة والشواهد، لاستغنائنا بما أوردناه عمّا حذفناه، فالنِّسبةُ فيه إلى فضائله وفضله والعُمدةُ على شواهده ونقله؛ فلقد أَحسن التأليف، وأجاد التعريف وٱحتَمَل التوقيف؛ وحَرّر الشواهد، وأَوضَح السبيل حتى صار الغائبُ عن هذه الصناعة إذا طالع كتابه كالشاهد؛ وأَبدَع في صناعة البديع، وبَيَّن علم البيان بحسن الترصيف والترصيع؛ وٱعتَنَى بألفاظ

(١) الصرى: اللبن الفاسد المتغير الطعم.

المعاني فصرّفَ أعنّتَها ببَنانه، وأبان مُشكلَها فأحسَن في بيانه؛ وحَلّ في التعقيد عِقالها الذي عَجز غيرُه عن حَلّه، وسَهَّلَ للأفهام مقالها فأبرزته الألسنة من مُحرَّم اللفظ إلى حِلّه؛ فله المِنّةُ فيما أَلَّف، والفضلُ بما صَنَّف.

وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة ـ فالاقتباس والاستشهاد والحل:

فالاقتباس هو أن يُضمّن الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث، ولا يُنبّه عليه للعِلم به، كما في خُطَب ابن نُباتة[1]، كقوله: فيا أيها الغَفَلةُ المُطْرِقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدِّقون؟ ما لكم لا تُشفقون؟ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٣]. وكقوله أيضًا: يوم يبعث الله العالمين خَلقًا جديدًا، ويَجعلُ الظالمين لجهنّم وَقُودًا، يوم تكونون ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٣]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠].

ومن ذلك ما أَورد المولى شهابُ الدين محمود في تقليد عن الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بالسلطنة، جاء منه: وجمع بك شمل الأمة بعد أن «كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ»، وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دَوْلتك الذين رَضِيَ الله عنهم؛ وخصّك بأنصار دينه الذين نَهَضوا بما أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون، وأظهَرك على الذين ﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٤٨] وأمثال ذلك.

وأما الاستشهاد بالآيات ـ فهو أن ينبّه عليها، كقول الحَريريّ: فقلتَ وأنت أصدق القائلين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ١٠٧] ونحو ذلك.

وفي الأحاديث بالتنبيه عليها أيضًا، كقول المولى شهاب الدين محمود في خُطبة تقليدِ حاكميّ: ونصلي على سيدنا محمد الذي ٱستخرجه الله من عُنصُر أهله وذويه، وشَرَّف قدر جَدّه بقوله فيه: «إن عمّ الرجل صِنْوُ أبيه» وسَرَّه بما أَسَرَّ إليه من أنّ هذا الأمر فُتِح به ويُختَم ببنيه. وأمثالُ ذلك لا تُحصَر.

---

(١) ابن نُبَاتة: (٦٨٦ ـ ٧٦٨ هـ = ١٢٨٧ ـ ١٣٦٦ م)، هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباتة. شاعر وكاتب وعالم بالأدب، ولد ومات في القاهرة، ووفد إلى الشام. له سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» وديوان شعر. الخ. (الأعلام، للزركلي).

وأما الحَلّ ـ وهو باب مُتّسِع المجال، وَمِلاك أمر المتصدّى له أن يكون كثير الحفظ للأحاديث النّبويّة والآثارِ والأمثالِ والأشعار ليُنفِقَ منها وقت الاحتياج إليها.

قال: وكيفيّة الحَلّ أن يَتوخّى هَدمَ البيت المنظوم، وحَلَّ فرائِده من سِلكه، ثم يرتّب تلك الفرائدَ وما شابهها ترتيبَ متمكّن لَم يَحْصُرْه الوزن، ويُبرِزَها في أَحسنِ سلك، وأَجملِ قالِب، وأَصحّ سَبْك، ويكمّلَها بما يناسبها من أنواع البديع إن أمكن ذلك من غير كُلفةٍ ويَتَخيَّرَ لها القرائن، وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة يَغْرَم له من حاصل فِكْره، أو من ذخيرة حفظِه ما يناسبه، وله أن يَنقُل المعنى إذا لم يُفسده إلى ما شاء، فإن كان نَسِيبًا وتأتّى له أن يجعله مديحًا فليفعل، وكذلك غيرُه من الأنواع؛ وإذا أراد الحَلّ بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرة عنها، فمتى قَصُرت عنها ولو بلفظة واحدة فسد ذلك الحلّ وعُدّ مَعيبًا؛ وإذا حَلّ باللفظ فلا يَتصرّف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل إلا مع مُراعاة نظام الفصاحة في ذلك، واجتنابِ ما يَنقُص المعنى ويَحطّ رتبته؛ وهذا الباب لا تنحصِر المقاصد فيه، ولا حَجْرَ على المتصرّف فيه.

قال: ومما وقع التصرّف فيه بزيادة على المعنى قولُ ضياء الدين بنِ الأَثير الجَزَرِيّ في ذكر العصا التي يَتوكّأ عليها الشيخ الكبير: وهذه لمبتدأ ضَعفي خَبَر، ولِقَوس ظهري وَتَر، وإذا كان إلقاؤها دليلًا على الإقامة فإنّ حَمْلَها دليل على السَّفر. والمحلول في ذلك قولُ بعضهم: [من البسيط]

* كأنّني قَوسُ رامٍ وهي لي وَتَرُ *

وقولُ الآخر: [من الطويل]

فألقت عصاها وٱستقَرّت بها النوَى ... كما قَرّ عَينًا بالإياب المسافرُ

وأما ما يحتاج فيه إلى مؤاخاة القرينة المحلولة بمثلِها أو ما يناسبها فكما قال المولى شهاب الدين محمود في تقليد:

فكم مَلّ ضَوءُ الصبح مما يُغيره، وظَلامُ النَّقْع مما يُثيره؛ وحَديد الهند مما يلاطمه والأجَلُ مما يسابقه إلى قَبْض الأرواح ويزاحمه.

والقَرينتان الأولَيان نِصْفا بيتين للمتنبّي، فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها، وهذا مِن أكثر ما يستعمل في الكتابة، ولا يَنبغي للكاتب أن يعتمد في جميع كتابته على الحَلّ، فيتّكِل خاطره على ذلك، ويَذهب رَوْنَقُ الطبع السليم، وتَقلّ مادّة الانسجام بل

يكون ٱستعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفوًا من غير تكلّف ليكون كالشاهد على صحة الكلام، والدالّ على الاطّلاع، وكالرَّقم في الثوب، والشَّذْرة في القِلادة والواسطةِ في العِقد، إذ لا ينبغي للكاتب أن يُخْلِيَ كلامه من نوع من أنواع المحاسن.

ويقرُب من هذا النوع التلميح، وقد تقدّم ذِكره في بعض أبواب البديع، والذي يقع في بعض ٱستعماله في مِثل ذلك مِثلُ قول الحَريريّ: وإنّي والله لطالما لقِيت الشتاء بكافاته، وأَعددتُ الأُهْبةَ له قَبْل مُوافاته. يشير إلى بيتَي ٱبنِ سُكّرة[1]: [من البسيط]

* جاء الشتاء وعندي من حوائجه *

وهي مشهورة.

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم، وأَتى الصناعة من هذه الأبواب تعيَّن عليه أمور أُخَرُ نذكرها الآن.

ذكر ما يتعيّن على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسّك به وما يجوز في الكتابة وما لا يجوز

قال إبراهيم بنُ محمد الشَّيْبَانيّ[2]: فإن ٱحتجتَ إلى مخاطَبة الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والكتابِ والأدباءِ والخطباءِ والشعراءِ وأوساطِ الناس وسُوقتهم، فخاطِبْ كلًّا على قدر أُبّهته وجلالته، وعلوّه وٱرتفاعه، وفطنته وٱنتباهه، ولِكلّ طبقة من هذه الطِّباق معانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إيّاهم في كتبك، وتزنَ كلامك في مخاطَبتهم بميزانه، وتعطيه قِسمته، وتُوفيَه نصيبه، فإنك متى أهملتَ ذلك وأضعتَه لم آمن عليك أن تعدِل بهم عن طريقهم، وتَسلُك بهم غير مَسلكهم، وتُجريَ شعاع بلاغتك في غير مُجراه، وتَنظمَ جوهر كلامِك في غير سلكه، فلا تَعتدَّ بالمعنى الجَزْل ما لم تُلبِسه لفظًا لائقًا بمن كاتبتَه، وملامسًا لمن راسلتَه، فإن إلباسَك المعنى

(١) ابن سكرة: (٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م)، هو محمد بن عبد الله بن محمد الهاشمي، أبو الحسن، المعروف بابن سكرة، شاعر طريف كبير من أهل بغداد. له ديوان شعر في أربعة مجلدات وهو صاحب البيتين: «جاء الشتاء وعندي من حوائجه...». (وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٠، والأعلام، للزركلي).

(٢) إبراهيم بن محمد الشيباني: (٢٢٣ ـ ٢٩٨ هـ = ٨٣٨ ـ ٩١١ م)، أبو اليسر، ويعرف بالرياضي الكاتب: أديب، أصله من بغداد استقر في القيروان فترأس ديوان الإنشاء لبني الأغلب. له كتاب «سر الهدى» و«قطب الأدب». (الأعلام، للزركلي).

ـ وإن صحّ وشَرُف ـ لفظًا مختلِفًا عن قدر المكتوب إليه لم تَجرِ به عادته تهجينٌ للمعنى وإخلالٌ بقدْره، وظلم يلحق المكتوب إليه، ونقْصُ ما يجب له، كما أنّ في اتباع تعارُفِهم، وما انتشَرت به عادتهم، وجرت به سُنّتهم، قَطعًا لعذرهم، وخروجًا من حقوقهم، وبلوغًا إلى غاية مُرادهم، وإسقاطًا لحُجّة أدبهم.

وقال أحمد بنُ محمدِ بنِ عبد ربّه[1]: فامتثلْ هذه المذاهبَ، واجر على هذا القِوام، وتَحفّظْ في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخواتمها، وضَع كل معنى في موضع يليق به، وتخيّرْ لكلّ لفظة معنى يشاكلها، وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى مثل: «نسأل الله دَفْعَ المحذور، وصَرْفَ المكروه» وأشباهِ ذلك؛ وفي موضع ذكرِ المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٦]؛ وفي موضع ذكر النعمة: «الحمد لله خالصًا، والشكر لله واجبًا» وما يشاكل ذلك، فإن هذه المواضع مما يَتعيّن على الكاتب أن يتفقّده ويَتحفّظ منه، فإن الكاتب إنما يصير كاتبًا بأن يضع كل معنى في موضعه، ويعلّقَ كلّ لفظة على طَبَقتها في المعنى.

قال: واعلم أنه لا يجوز في الرسائل استعمال ما أتت به آيُ القرآن من الاختصار والحذف، ومخاطَبةِ الخاصّ بالعامّ والعامِّ بالخاصّ، لأن الله تعالى إنما خاطب بالقرآن قومًا فُصَحاء فَهموا عنه ـ جلّ ثناؤه ـ أمرَه ونهيَه ومرادَه، والرسائل إنما يخاطَب بها قوم دُخَلاءُ على اللغة لا عِلم لهم بلسان العرب؛ وكذلك ينبغي للكاتب أن يتجنّب اللفظ المشترَك، والمعنى الملتبِس، فإنه إن ذهب ليكاتِب على معنى قول الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يُوسُف: الآية ٨٢] وكقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٣] احتاج أن يبيّن أن معناه: اسأل أهلَ القرية، وأهل العِير، وبل مكرُكم بالليل والنهار؛ قال: وكذلك لا يجوز أيضًا في الرسائل والبلاغات المنثورةِ ما يجوز في الأشعار الموزونة، لأن الشاعر مضطرّ، والشعر مقصور مقيَّد بالوزن والقوافي، فلذلك أجازوا لهم صرْفَ ما لا ينصرف من الأسماء، وحذْفَ ما لا يُحذف منها، واغتَفَروا فيه سوء النَّظم، وأجازوا فيه التقديم والتأخير، والإضمار في موضع الإظهار، وذلك كله غيرُ سائغ في الرسائل، ولا جائز في البلاغات.

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربه: (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ = ٨٦٠ ـ ٩٤٠ م)، من أهل قرطبة، شاعر عالم بالأدب. له قصائد ومقطعات في المواعظ والحكم نقض كل ما نظمه في صباه من الغزل. «وله العقد الفريد». (الأعلام، للزركلي).

فمما أجيز في الشعر من الحذف قولُ الشاعر: [من الرجز]

* قَـواطِـنـا مـكّـةَ مـن وُرْقِ الـحَـمَـا *

يريد الحَمَام، وكقول الآخَر: [من الرّجز]

* صِفْـر الـوِشـاحَـيـن صَمُـوت الـخَـلْـخَـلِ *

يريد الخَلْخَال، وكقول الحُطَيئة: [من البسيط]

فيها الرماح وفيها كلُّ سابغة جَدْلاءَ مَسرودةٍ من فِعْلِ سلّامِ

يريد سليمان، وكقول الآخَر: [من الوافر]

وسائلةٍ بثَعلبةَ بنِ سَير وقد عَلِقَت بثعلبةَ العَلُوقُ(١)

يريد ثعلبة بن سَيَّار، وكقول الآخر: [من الطويل]

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه وَلاكِ اسْقني إن كان ماؤكَ ذا فَضْلِ

أراد ولكن قال: وكذلك لا ينبغي في الرسائل أن يُصغَّر الاسمُ في موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزًا، مِثلُ قولهم: دُوَيْهِيَةٌ تصغيرَ داهية، وجُذَيْلٌ وعُذَيْقٌ، تصغيرَ جِذْلٍ وعَذْقٍ(٢). قال لبيد: [من الطويل]

وكلُّ أُناس سوف تَدخُل بينهم دُوَيْهِيَّةٌ تصفرُّ منها الأنامُل

قال: فتَخيَّرْ من الألفاظ أرجحَها وزنًا، وأجزلَها معنى وأشرفَها جوهرًا وأكرمَها حَسَبًا، وأَليَقَها في مكانها، وأَدِرِ الكلام في أماكنه، وقَلِّبْه على جميع وجوهه، ولا تجعل اللفظة قَلِقة في موضعها، نافرةً عن مكانها، فإنك متى فعلت ذلك هَجَّنتَ الموضع الذي حاولتَ تحسينه، وأفسدتَ المكان الذي أردتَ إصلاحَه فإنّ وضعَ الألفاظ في غير أماكنها، والقصدَ بها إلى غير مَظانّها، إنما هو كترقيع الثوب الذي إن لم تتشابهْ رِقاعُه، ولم تتقارَبْ أجزاؤه، خرج عن حدّ الجِدّة، وتَغيَّر حسنه، كما

(١) العَلُوق: المنية.

(٢) الجذل: العود الذي تحك به الإبل الجربى لتشفى. أو هو ما عظم من أصول الشجر. العذق: النخلة بحملها. وفي ذلك إشارة إلى قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة: «إن جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب».

قال الشاعر: [من البسيط]

إنّ الجديدَ إذا ما زيد في خَلَقٍ يَبِين للناس أنّ الثوب مرقوعُ

انتهى ما أورده ٱبنُ عبدِ ربِّه.

وقال المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبيّ: ومما يتعيّن على الكاتب ٱستعمالُه، والمحافَظةُ عليه، والتمسّكُ به، إعطاءُ كلٍّ مَقام حقَّه، فإذا كَتب في أوقات الحروب إلى نُوّاب المَلِك عنه، وإلى مقدَّمِي الجيوش والسَّرايا، فليتَوخَّ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالّةَ على القصد من غير تطويل ولا بَسْط يضيّع المَقصِد، ويَفصلُ الكلام بعضه من بعض، ولا تهويلٍ لأمر العدو يُضْعِف به القلوب، ولا تهوينٍ لِأمر يحصُل به الاغترار، وذكر لذلك أمثلة من إنشائه.

قال: فمن ذلك صُورةُ كِتاب أَنشأتُه إلى مقدَّم سَرِيّةٍ كَشْفٍ ـ ولم أكتُب به ـ وهو:

لا زال أَخَفَّ في مقاصده من وَطْأة ضيف، وأَخفَى في مطالبه من زَوْرة طَيف، وأسرعَ في تنقُّله من سحابة صيف، وأَرْوَغَ للعدا في تَطلُّعه من سَلّة سيف، حتى يَعجَب عدوّ الدِّين في الاطّلاع على عوراته مِن أين دُهِيَ وكَيف؟ ويَعلم أنّ مَن أوّلُ قِسمتِه اللّقاءُ حصل عليه في مقاصده الحَيْف؛ أصدرناها إليه نَحُثُّه على الركوب بطائفة أعجلَ من السَّيل، وأَهوَلَ من الليل، وأَيمنَ من نواصي الخيل؛ وأَقدمَ من النَّمِر، وأَوْقَعَ على المقاصد من الغيث المُنهمِر، وأَرْوَغَ في مُخاتَلة العِدا من الذئب الحَذِر؛ على خيل تَجرى ما وَجدتْ فَلاه، وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعةً أَو أناه؛ تَتَسَنَّم الجبالَ الصُّمَّ كالوَعِل، وإذا جارتها البُروق غدت وراءها : [من البسيط]

* تمشي الهُوَينا كما يمشي الوَجِي الوَجِل[١] *

وليكن كالنجم في سُراه، وبُعدِ ذُراه؛ إن جرى فَكَسَهْم، وإن خَطَر فكوَهْم؛ وإن طَلَب فكالليل الذي هو مُدرِك، وإن طُلِب فكالجنّة التي لا يجد رِيحَها مُشرِك؛ حتى يأتي على عدوّ الدّين من كل شَرَف، ويَرى جَمْعَه من كل طَرَف، ولا يُسرِف في الإقامة عليه إلا إذا عَلم أن الخير في السَّرَف؛ وليُحرز جَمْعَهم، ويَسبِقْ إلى التحرّز منهم بَصرَهم وسَمعَهم؛ ويَنظرْهم بعين منعها الحَزْم أن تَرى العَدد الكثير قليلًا، وصَدَّها العزم أن تَرى العدوَّ الحقيرَ جليلًا؛ بل تَرى الأمر على فَصّه، وتَروِي الخبرَ

(١) الوجِي الوجل: الحافي الخائف.

على نَصّه؛ وإن وَجد مغرّرًا فليأخذ خَبَره، إن قَدَر على الإتيان بعَينه وإلّا فليذهب أَثَره؛ ولا يَهِيج فيما لديه نارَ حرب إلا بعد الثقة بإطفائها، ولا يُوقظ عليه عينَ عدوّ مهما ظهر له أن المصلحة في إغفائها؛ وليَكشِف من أمورهم ما يُبدِي عند المُلتقَى عَورتَهم، ويُخمِدُ في حالة الزَّحْف فورتَهم؛ وليجعل قلبه في ذلك رَبيئةَ طَرْفه، وطَلِيعةَ طِرْفه، وسَرِيّةَ كَشْفِه والله تعالى يُمِدّه بلطفه، ويحفظه بمعقِّبات مِن بين يديه ومِن خَلْفه.

وإذا كَتَبَ عن المَلِك في أوقات حركات العدوّ إلى أهل الثغور يُعلمهم بالحركة للقاء العدوّ، فليبسُط القول في وصف العزائم، وقوّةِ الهِمم، وشدّةِ الحَميّة للدين، وكثرةِ العساكر والجيوش، وسرعة الحركة، وطيِّ المَراحل، ومعالجةِ العدوّ، وتخييلِ أسباب النصر، والوُثوقِ بعوائد الله في الظَّفَر، وتقويةِ القلوب منهم، وبَسْطِ آمالهم، وحَثّهم على التيقظ، وحَضّهم على حفظ ما بأيديهم، وما أشبه ذلك، ويُبرِزه في أمتن كلام وأجلّه وأمكَنِه، وأَقربِه من القوّة والبَسالة، وأَبعدِه من اللِّين والرقّة، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى، وٱستنزالِ نصره وتأييده، والرجوعِ إليه في تثبيت الأقدام، والاعتصامِ به في الصبر، والاستعانةِ به على العدوّ، والرغبةِ إليه في خِذلانهم، وزلزلة أقدامهم، وجعلِ الدائرة عليهم، دون التصريح بسؤال بُطلان حركتهم، ورجاءِ تأخُّرهم، وٱنتظار العَرَضيّات في خُلْفهم، لما في ذلك من إيهام الضَّعف عن لقائهم وٱستشعارِ الوَهْن والخوف منهم، وليسلُك في مثل ذلك كما سَلك المولى شهاب الدين محمود في نحو ما كتب في صدر كتاب سلطانيّ إلى بعض نُوّاب الثغور عند حركة العدوّ، فإنه قال:

أصدرناها ومنادي النَّفِير قد أَعلن: يا خيل ٱلله ٱركبي، ويا ملائكة ٱلرحمن ٱصحَبي ويا وفود الظَّفَر والتأييد ٱقرُبي؛ والعزائم قد رَكَضت على سوابق الرُّعب إلى العِدا والهِممُ قد نَهضت إلى عدوّ الإسلام فلو كان في مَطلَع الشمس لاستَقربتْ ما بينها وبينه من المدى؛ والسيوفُ قد أَنِفت من الغُمود فكان تنفِر من قُربها، والأسنّةُ قد ظَمئت إلى مَوارد القلوب فتشوقت إلى الارتواء من قُلْبها[1]؛ والكُماةُ قد زَأرت كالليوث إذا دنت من فرائسها، والجياد قد مَرِحت لِما عودتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها؛ والجيوشُ قد كاثرت النجومَ أعدادُها، وسايرتْها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام أمدادُها؛ والنفوس قد أَضرمت الحَميّةُ نارَ غضبها،

(١) القلب: بضم القاف: الآبار واحدها القليب.

وعداها حَرُّ الإشفاق على ثغور ٱلمسلمين عن بَرْد الثغور وطِيب شَنَبِها؛ والنصرُ قد أشرقت في الوجود دلائلُه، والتأييدُ قد ظهرت على الوجوه مَخايلُه، وحُسْنُ اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن ٱلمآل أوائلُه؛ والألسنُ باستنزال نصر الله لَهِجه والأرجاءُ بأرواح القبول أَرِجه، والقلوبُ بعوائد لطف ٱلله بهذه الأمّة مبتهِجه والحُماةُ وما منهم إلا من ٱستظهَر بإمكان قوّته وقوّة إمكانه، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَد عدوٍّ بل عن مكانه؛ والنيّات على طلب عدوّ ٱلله حيث كان مجتمعه والخواطرُ مطمئنّةٌ بكونها مع الله بصدقها، ومن كان مع ٱلله كان ٱلله معه؛ وما بقيَ، إلا طيُّ المَراحل، والنزولُ على أطراف الثغور نزولَ الغيث على البلَد ٱلماحل؛ والإحاطةُ بعدوّ الله من كل جانب، وإنزالُ نفوسهم على حكم الأمْرَين الأمَرَّين: مِن عذاب واصب، وهمٍّ ناصب؛ وإحالةُ وُجودهم إلى العَدَم، وإجالةُ السيوف التي إن أنكرتْها أعناقُهم فما بالعهد من قِدَم؛ وٱصطلامُهم على أيدي العصابة المؤيَّدة بنصر الله في حربها، وٱبتلاؤهم من حَمَلاتها بريح عادٍ التي تدمِّر كل شيء بأمر ربها؛ فليكن مرتقِبًا لطُلوع طلائعها عليه، متيقِّنًا من كرم الله ٱستئصالَ عدوِّه الذي إن فرّ أَدركتْه مِن ورائه، وإن ثَبت أخذتْه مِن بين يديه؛ وليجتهد في حفظ ما قِبَله من الأطراف وضَمِّها، وجَمعِ سَوام الرعايا من الأماكن المتخوَّفة ولَمِّهَا، وإصلاحِ ما يُحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها، فإنّ الاحتياط على كل حال مِن آكَدِ المصالح الإسلاميّة وأَهمِّها؛ فكأنه بالعدوّ وقد زال طمَعُه، وزاد ظَلَعُه؛ وذَمَّ عقبى مَسِيرِه، وتحقق سُوءَ منقلَبه ومصيرِه، وتَبرَّأ منه الشيطان الذي دلّاه بغُروره، وأصبح لحمهُ موزَّعًا بين ذئاب الفلا وضباعها، وبين عِقْبانِ الجوّ ونُسورِه؛ ثِقةً من وعد الله الذي تَمسَّكْنا منه باليقين، وتَحقَّقنا أن الله ينصر من ينصره وأن العاقبة للمتقين.

قال: وزيادةُ البسط في ذلك ونقصُها بحسب المكتوب إليه.

وإذا كَتب في التهاني بالفُتوح، فليس إلّا بَسْطُ الكلام، والإطنابُ في شكر نِعَم الله، والتبرُّؤ من الحَول والقُوّة إلّا به، ووصْفُ ما أَعْطَى من النصر، وذِكرُ ما مَنَح من الثَّبات، وتعظيمُ ما يَسَّر من الفتح؛ ثم ما وَصَف بعد ذلك مِن عزمٍ وإقدامٍ وصبرٍ وجَلَد عن المَلِك وعن جيشه حَسُن وصفُه، ولاقَ ذِكرُه، وراقَ التوسيعُ منه، وعَذُب بَسْط الكلام فيه؛ ثم كلّما ٱتسَع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفِها كان أَحسنَ وأَدَلَّ على البلاغة، وأَدعَى لسرور المكتوب إليه، وأَحسن لموقع المِنّة عنده، وأَشهَى إلى سمعه، وأَشفَى لغَليل تَشوُّقِه إلى معرفة الحال على جَليّته، ولا بأس بتهويل أمرِ

العدوّ، ووصفِ جَمْعِه وإقدامه، فإن تصغير أمره تحقيرٌ للظَّفَرَ به؛ وقد ذَكرنا في باب التهاني من ذلك ما تَقدَّم شرحُه، فلنذكر في هذا الموضع من كلامه فيه ما لم نُورده في باب التهاني.

قال: وإن كان المكتوب إليه مَلِكًا صاحبَ مَمْلَكة منفردة تَعيَّن أن يكون البَسْط أكثرَ، والإطنابُ أمدَّ، والتهويلُ أبلَغ، والشرحُ أتمَّ؛ فمن ذلك فصلٌ كتبته في جواب ابن الأحمرِ صاحبِ غَرْناطَةَ من جزيرة الأندلُس، قال:

أما بعد حمد الله الذي أيَّدنا بجنودِهِ، وأنجَزَ لنا مِن نصرِ الأمّة صادقَ وُعودِهِ وخَصّنا من ٱستدامة الفُتوح بمزايا مَزِيدِه، وأيَّدنا بنصره، ونَصرَنا بتأييدِه، والصّلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف رسله، وخاتَم أنبيائه، وأكرمِ عبيدِه، وأعزِّ من دَعا الأمم وقد أَنكرت خالقها إلى الإقرار بتوحيده، وعلى آله وصَحبه الذين أَشرَق أُفُق الدين منهم بكواكب سُعودِه؛ فإنا أصدرناها ونِعَمُ الله تعالى بنا مُطِيفه، ومَواقعُ نصره عندنا لطيفه، وجنودُ تأييده لممالك الأعداء إلى مَمالكنا الشريفة مُضيفه، وثغورُ الإسلام بذَبنا عن دين الله منيره، وبإعلائنا مَنارَ الهدى مُنِيفه؛ ونحن نحمَد الله على ذلك حمدًا نستَدِرّ به أخلافَ الظَّفَر، ونستدِيم به مَوادَّ التأييد على مَن كفر؛ ونَستَمِدّ به عوائد النصر التي كم أَقدَمها علينا إقدام، وأسفَر لنا عنها وجهُ سَفَر؛ ونُهدِي إليه ثناءً تَعبَق بنَشْر الرياض خَمائلُه، وتَنطِق بمَحض الوداد مَخايلُه، وتُشرِق على أُفق مَفاخره غَدواتُه وأَصائلُه؛ يُشافَه مجدُه بمَصُونه، ويُصارَح فخرُه بمكنونه، ويجلو على حضرته العليّة عقائلَ الشَّرَف من أبكار الهَناء وعُونِه؛ ونُبدِي لعلمه الكريم ورودَ كتابه الجليل مُسفرًا عن لوامع صفائه، منبئًا بجوامع وُدّه ووفائه؛ مُشرِقًا بلآلىء فَرائِده، مُحدِقًا برَوض كرمه الذي سَعِد رأيُ رائِده؛ محتويًا على سروره بما بَلَغه من أنباء النُّصْرة التي سارت بها إليه سُرْعانُ الرُّكبان، وذَلّت بعِزّ ما تُلِيَ منها عليه عُبّاد الصلبان؛ وطَبَّق ذِكرُها المشارقَ والمغارب، ومَزَّقتْ مَواكبَ أعداء الله التّتارِ وهم في رأيِ العين أعداد الكواكب، وخَلطَت التراب بدمائهم حتى لم يُبَح بها التيمُّم، ومَزَجتْ بها الفُراتَ حتى ما تَحِلّ لشارب؛ وهي النُّصْرة التي لا يُدرِك الوصف كُنهَهَا، ولا تعرف لها البلاغة مُشبِهًا فتذكُر شِبهَها؛ ولا يَتَّسع نِطاق النطق لِذكرِها، ولا تَنهَض الألسنة على طول الأَبَد بشكرها؛ فإنّ التّتار المخذولين أقبلوا كالرّمال، وٱصطَفُّوا كالجبال؛ وتَدفَّقوا كالبحار الزَّواخر، وتَوالَوا كالأمواج التي لا يُعرَف لها الأوّلُ من الآخِر؛ فصدَمتْهم جيوشنا المنصورةُ صدْمةً بَدَّدتْ شَملهم، وعَلّمت الطيرَ أَكْلَهم؛ وحَصَرتْهم في

الفضاء، وطالبتْ أرواحَهم الكافرةَ بدَين دِينها وأسرفتْ في الاقتضاء؛ وحَصَدتْ منهم سيوفنا المنصورةُ ما يخرج عن وصفِ الواصف، ومَزَّقتْ بقيّتهم في الفلوات فكانوا كرَماد ٱشتَدّت به الرّيحُ في يوم عاصف؛ وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة فلم يَنجُ إلا من لا يُؤبَه له من فريقِهم، وقسمتهم جيوشنا المؤيَّدة من الفَلَوات إلى الفُرات بين القتل والأسر، فلم يخرج عن تلك القسمة غيرُ غريقِهم؛ وأعقبتهم تلك الكسرةُ أن هَلَك طاغيتُهم أسفًا وحسرة، وحزنًا على من قُتِل من تلك المُقاتِلة، وأُسِر من تلك الأَسْرة، وأماته الرُّعبُ من جيوشنا المنصورةِ فُجاءه، وٱستَولَى عليه الوَجَل فجاءه مِن أمر الله ما جاءه؛ وقعد أخوه بعده مكانَه، والخوفُ من عساكرنا يضعضِع أركانَه، والفَرَقُ من جيوشنا يُفرِّق أعوانَه، ويُمزِّق إخوانَه، ويُوهِي سلطانَه ويُبرِّىءُ منه شيطانَه؛ فلاذ بالالتجاء إلى سِلْمنا، وعاذ بأسناد الرجاء من كَفِّنا عنه وَحِلمنا؛ فكرّرَ رُسُلَه ورسائلَه مستعطِفًا، ووالى كُتبَه ووسائلَه مستعفِيًا من حربنا ومستسعِفًا؛ وها هو الآن وجنوده يَتوسّلون بالخضوع إلى مَراحمنا؛ ويَتوصّلون ببَذل الطاعة إلى مَكارمنا؛ ويسألون صَفْح الصِّفاحِ الإسلاميّة عن رقابهم، ويُبدون ما أظهره الله عليهم من الذلّ الذي جعلته تلك النُّصْرة خالدًا في أعقابهم؛ وسيوفُنا تأبَى قَبولَ وسائِلهم، وتُصِرُّ على نَهْر سائِلهم، وتمنع من الكفّ عن مَقاتِلِهم، وتأنَف أن تُغمَد إلّا في قِمَمِ مُحارِبِهم ومُقاتِلِهم؛ ونحن على ما نحن من الأُهْبَة لغَزوِهم في عُقْر دارِهم، وانتزاعِ مَواطن الخلافة وغيرها من ممالك الإسلام من بين نُيوبهم وأظفارِهم؛ مستنصرين بالله على من بقِيَ في خُطّ المَشرِق منهم؛ قائمِين فيهم بفَرض الجهاد الذي لولا دِفاعُ الله به لم يَمتنع خُطّ المَغرِب عنهم؛ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: الآية ٤٠]، ولو عَددنا نعمَ الله علينا حاولنا عَدَّ ما لا نُحصِيه ولا نحصُره.

وإن ٱضطُرّ أن يكتُب بِمثل ذلك إلى مَلِك غيرِ مسلم لكنّه غيرُ مُحارب، فالحُكْم في ذلك أن يَذكُر من أسباب المودّة ما يَقتضِي المشارَكة في المَسارّ، وأنّ أمر هذا العَدد مع كثرته أُخذ بأطراف الأنامل، وآلَ أمرُه إلى ما آل، ويُعظِّم ذِكرَ ما جرَى عليه من القتل والأسر، وتلك عوائدُ نصر الله، وانتقامِه ممّن عادانا؛

فمن ذلك ما أنشأه المُشار إليه لبعض ملوك البحر ـ ولم يكتب به ـ وهو:

صَدرتْ هذه المكاتَبةُ مبشِّرةً له بما منحنا الله من نُصْرة أَجزَل الصفاءُ منها سهمَه، وأَكْمَل الوفاءُ من التهنئة بها قِسْمَه؛ وخصّه الوِدادُ بأجلّ أجزائها، وأَجلسه الاتحادُ على أسِرّة مَسَرّتها إذا أجلس العنادُ غيرَه على بِساط عَزائها؛ عِلمًا بأنه الصديق

الذي تُبهِجه مَسارُّ صديقه، والصاحبُ الذي يَرى مساهَمَة صاحبه في بشرى الظَّفَر بأعدائه أدنى حقوقه؛ وذلك أنه قد عَلم ما كان من أمر هؤلاء التَّتار في حركاتهم الذميمة، وعَزَماتِهم التي ما ٱحتَفَلوا لها إلا وكان أحَدّ سلاحِهم فيها الهَزِيمة، وغاراتِهم التي ما حَشَدوا لها إلّا وقَنِعوا فيها بالإياب من الغَنِيمة؛ وأنهم ما أقدموا علينا إلا وعُدِموا، ولا سَلكوا إلينا إلّا وهَلَكوا؛ حتى إنّ الأرض إلى الآن لم تَجِفَّ من دمائهم، وإنّ الفُرات يكاد يَشِفّ للمتأمّل عن أشلائهم؛ وأن الشيطان بعد ذلك جدّد طَمَعَهم، وسَكّن هَلَعهم؛ وأنساهم مَصارع إخوانهم، وأسلاهم بما زَيّن لهم من بلوغ أوطارهم عن أوطانهم؛ وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس، وتلك الوقائعُ التي أُصِبتم فيها قد لا يَجرِي الأمر فيها على القياس؛ وحَسَّن لهم المُحال وغَرّهم وجرّأهم على قصد البلاد المحروسة، وفي الحقيقة ٱستَجرّهم؛ فحَشدوا جموعهم وجَمعوا حُشودَهم، وٱستَفرَغوا في الاستنفار والاستظهار طاقتهم ومجهودَهم؛ ومالأهم على ذلك من المجاورين من أبطَن شِقاقَه، وكَتم نفاقَه، وأنساه الشيطان ما سلف من تنفيسنا عنه وقد لازم الحَتْفُ خِناقَه؛ ونحن في ذلك نُوسعهم إمهالًا، ونَبسُط لهم في التَّوغُّل آمالًا، ونأْخذ أمرهم بالأَناة ٱستدراجًا لهم لا إهمالًا؛ إلى أن بَعُدوا عن مَواطن الهرَب، وحَصَل من ٱستدراجهم الأَرَب؛ فوثبنا عليهم وُثوبَ الليث إذا ظَفِر بصَيده، ونهَضنا نحوهم نُهوضَ الحازم إذا وقع عدوه في أُحبولة كَيده؛ وصدمتهم جيوشنا المنصورةُ صَدمةً فَلَّلت غَرْبَهم، وأبطلتْ طَعْنهم وضرْبَهم، وصَبَغت بدمائهم تُرْبَهم؛ وحَكَّمت السيوفَ في مقَاتِلِهم، ومَكَّنت الحُتُوف من صاحب رأيهم ومُقاتِلِهم؛ وسَلَّطت العَدَم على وجودِهم، وحطَّتهم عن سُروجهم إلى مَصارعهم أو قُيُودِهم؛ ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١١٩]، وعادُوا على عادتهم خاسئين، ورَجَعُوا على أعقابهم خاسرين؛ وما أغنَى عنهم جمعُهم، وما أفادهم بصرُهم فيما شاهدوه من قبل ولا سمْعُهم؛ فركَن من بَقِي منهم إلى الفِرار، وعاذ ببَرْد الهرَب مِن لَهب تلك السيوف الحِرار وظَنّ من ٱنهزم منهم أنه فات الرماح، فتناولتْه بأرماح من العطش القِفار؛ فولّوا والرعبُ يزلزِل أقدامهم، والذُّعرُ يقلِّل إقدامَهم؛ والصِّفاحُ تَتخطَّفهم من ورائهم والجِراحُ تُطمِع الطَّير في أكلهم حتى تقع على أحيائهم؛ حتى أَصبحوا هَشيمًا تلعب بهم الصَّبا والدَّبور، أو أحياءً يئس منهم أهلهم: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [المُمتَحنَة: الآية ١٣] وصَفَحنا عمّن نافقنا ووافقهم ولولا ذلك لَما نجا، ورجا عواطفَنا في الإبقاء على نفسه، فأجابه حِلْمُنا ـ وعِلْمُنا أنه في القَبضة ـ

إلى ما رَجا؛ فليأخذ المَلِك حظّه من هذه البشرى التي تَسُرُّ قلبَ الوليِّ المُحِبّ بوادرُها، وتَشرح صدر الحَفيِّ المُحِقّ مواردُها ومَصادرُها؛ والله تعالى يُبهِجه عنا بسماع أمثالها، ويديمُ سروره بما جلوناه عليه من مثالها.

قال: فإن كان المكتوب إليه متّهَمًا بمُمالأة العدوّ كتب إليه بما يَدُلّ على التقريع والتهكُّم، وإبراز التهديد في مَعرِض الإخبار، كما كتب المشار إليه عن السلطان إلى متملّك سِيس[1] ـ وكان قد شَهِد الوقعة مع العدوّ ـ قال منه:

بصَّره الله برشده، وأراه مَواقع غَيّه في الإصرار على مخالفَته ونقض عهدِه وأسلاه بسلامة نفْسه عمّن روَّعَته السيوف الإسلاميّة بفقدِه؛ صدرتْ تُعرِّفه أنه قد تَحقّق ما كان من أمر العدوّ الذي دلّاه بغُروره، وحَمَلَه التمسّك بخداعه على مجانبة الصواب في أموره؛ وأنهم ٱستَنجَدوا بكلّ طائفة، وأقدموا على البلاد الإسلاميّة بنفوس طامعة وقلوب خائفة؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يشترون المُخادَعة بالموادَعة، ويُسِرّون المصارَمة في المسالَمة؛ ويُظهرون في الظاهر أمورًا، ويدبِّرون في الباطن أمورًا، ويَعِدون كل طائفة من أعداء الدين مِثلَه ويُمَنُّونهم ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النّساء: الآية ١٢٠]؛ وكنّا بمَكْرهم عالمِين، وعلى معالَجتهم عاملِين؛ وحين تَبيَّن مرادُهم وتَكمَّل ٱحتشادُهم؛ استدرجناهم إلى مَصارعهم، واستجررناهم ليَقرُبوا في القتل مِن مَضاجِعهم، ويَبعُدوا في الهرَب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوّة أشد صدمة لم يكن لهم بها قِبَل، وحَملنا عليهم حَمْلةَ ألجأهم طُوفانُها إلى ذلك الجبل، وهل تَعصِم من أمْر الله جِيَل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المتّسِع، وضايقناهم كما قد رأى ومزَّقناهم كما قد سَمِع، وأنزلناهم على حُكم السيف الذي نَهِل من دمائهم حتى رَوِيَ وأَكَل من لُحومهم حتى شَبِع، وتَبِعتهم جيوشنا المنصورةُ تَتخطَّفُهم رماحُها، وتَتلَقفُهم صِفاحُها، ويبدِّدهم في الفَلَوات رُعبُها، ويفرِّقهم في القِفار طَعنُها المتدارِكُ وضربُها؛ ويَقتُل من فات السيوفَ منهم العطشُ والجوع، ويُخيَّل للحيّ منهم أنّ وطنه كالدنيا التي ليس للميت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى ذلك فوق ما وُصِف عِيانًا، وتَحقّق من كل ما لا يحتاج أن نَزيدَه به علمًا ولا نُقيمَ له عليه برهانًا؛ وقد عَلِم أنّ أمر هذا العدوّ المخذول ما زال معنا على هذه الوَتِيرة، وأنهم ما أقدموا إلا ونَصَرَ الله عليهم في مَواطنَ كثيرة؛ وما ساقتهم الأطماع في وقتٍ إلا إلى حُتوفهم، ولا عادَ منهم قَطُّ في

(١) سيس: أو سيسية، ثغر في بلاد الشام يقع بين أنطاكية وطرطوس على عين زربة. (ياقوت معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٧).

وقعة إلا آحادٌ تُخبِر عن مَصارع ألوفهم؛ ولقد أضاع الحَزْمَ من حيث لم يَستدِم نِعَمَ الله عليه بطاعتنا التي كان في مِهادِ أَمْنِها، ووِهادِ يُمْنها؛ وحِمايةِ عفوها، وبَرْد رأفتها التي كدَّرها بالمخالَفة بَعْدَ صفوِها؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويحمِي أهل مِلّته بالحَذَر من الحركات التي ما نَهَضوا إليها إلا وجرّوا ذيول الخَسار؛ ولقد عرَّض نفسه وأصحابَه لسيوفنا التي كان من سَطَواتِها في أمان، ووَثِق بما ضَمِن له التّتار مِن نصره وقد رأى ما آل إليه أمرُ ذلك الضّمان؛ وجَرّ لنفسه بموالاة التتار عَناءً كان عنه في غِنى، وأوقع رُوحه بمضافرة المغول في حَومة السيوف التي تخطّفت أولياءَه مِن هنا ومِن هنا؛ واقتَحم بنفسه مَواردَ هلاك سَلبت رداء الأمن عن مَنكِبَيه واْغترّ هو وقومُه بما زَيّن لهم الشيطان من غُروره ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]، وما هو والوقوفَ في هذه المَواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسرة وأنّى لِضعاف النُقاد قدرةٌ على الثّبات لوَثَبات الأُسُود الضارية واللُّيوث الكاسرة؛ لقد اْعتَرض بين السهم والهَدَف بنَحره، وتَعرّض للوقوف بين ناب الأَسَد وظُفرِه؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في الوصول إليها؛ ونُجْريه وأهلَ بلاده مُجرَى أهلِ ذمّتنا الذين لا نُؤيِسهم من عفونا مهما اْستقاموا، ونَسلُك بهم حُكمَ من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قَبضتنا نَزَحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقّق أنه ما بقِيَ يَنسى ملازَمَةَ رِبْقةِ الحتف خِناقَه، ولا يَرجِع يُهوِّر نفسه في مَوارد الهلاك، وهل يَرجِع إلى الموت من ذاقه؟ فيَستدرِك بابَ الإنابة قَبل أن يُغلَق دونَه، ويصون نفسه وأهله قَبل أن تَبذُل السيوفُ الإسلاميّة مَصُونَه، ويبادِر إلى الطاعة قبل أن يَبذُلها فلا تُقبَل، ويَتمسَّك بأذيال العفو قبل أن تُرفَع دونه فلا تُسبَل؛ ويُعجِّل بحَمْل أموال القَطِيعة وإلّا كان أهلُه وأولادُه في جملة ما يُحْمَل منها إلينا، ويُسلِّم مَفاتح ما عدا عليه من فُتوحنا، وإلّا فهو يعلم أنها وجميعَ ما تأخّر في بلاده بين يدَينا؛ ويكونُ هو السببَ في تَمزُّق شَمْلِه، وتَفرُّقِ أهلِه، وقَلْع بيته من أصله؛ وهَدم كَنائِسِه، واْبتذالِ نفسِه ونفائِسه؛ واسترقاق حَرَمِه، واْستخدام أُولاده قَبْلَ خَدَمِه؛ واْقتلاع قِلاعِه، وإحراقِ رُبوعه ورِباعِه[1]، وتعجيلِ رؤية ما أُوعِدَ به قبل سماعِه، ومن لقازان بأن يجابَ إلى مثل ذلك، أو يُسمَحَ له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ ليَقْنع بما أبقت جيوشنا المؤيَّدةُ في يده من الخيل والخَول، ويَعيشَ في الأمن ببعض ما نَسمح له به، ومن للعُور بالحَوَل؛ والسيوفُ

(١) الرِباع: جمع رُبَع، وهو الفصيل في أول النتاج، والمراد الماشية.

الآن مُصغيَةٌ إلى جوابه لتُكفَّ إن أبصر سُبل الرشاد، أو تَتعوَّضَ بروؤس حُماتِه وكُماته عن الأغماد إن أَصرّ على العناد، والخير يكون.

وأما التقاليد والمناشير والتواقيع وما يتعلّق بذلك ـ فالأحسن فيها بَسطُ الكلام، وتُعتبَر كثرتُه وقلّتُه بحَسَب الرتَب، ويجب أن يراعَى فيها أمور:

منها بَراعة الاستهلال بذكر الرتبة أو المال، أو قدْرِ النعمة، أو لقبِ صاحب التقليد أو ٱسمِه بحيث لا يكون المَطْلَع أجنبيًا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا منها، ولا مباينًا لها، ثم يَستصحِب ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من أوّل الخطبة إلى آخرها؛ قال: ويَحسُن أن يكون الكلام في التقليد منقسمًا إلى أربعة أقسام متقارِبةِ المقادير، فالرُّبعُ الأوّلُ الخُطبة، والثاني ذِكرُ مَوقع الإنعام في حقّ المقلَّد، وذِكرُ الرتبةِ وتفخيمُ أمرها، والثالث في أوصاف المقلَّد وذِكرِ ما يناسب تلك الرتبةَ ويناسب حاله من عدل وسياسة ومَهابةٍ وبُعدِ صِيت، وسُمْعَةٍ وشجاعةٍ إن كان نائبًا، ووَصفِ العدل والرأي وحسنِ التدبير، والمعرفةِ بوجوه الأموال، وعمارةِ البلاد، وصلاحِ الأحوال، وما يناسب ذلك إن كان وزيرًا؛ وكذلك في كلّ رتبة بحسبها، والرابع في الوصايا؛

ومنها أن يُرَاعِيَ المناسَبة وما تقتضيه الحال، فلا يُعطِي أحدًا فوق حقِّه، ولا يصفه بأكثر مما يراد مِن مِثله، ويراعي أيضًا مقدار النعمة والرتبة، فيكون وصفُ المِنّة على مقدار ذلك.

ومنها أن لا يصف المتولّيَ بما يكون فيه تعريضٌ بالمعزول وتنقُّصٌ له، فإنّ ذلك مما يُوغر الصدور، ويؤرِّث الضغائن في القلوب، ويدُلّ على ضعف الآراء في اختيار الأوّل، وله أن يصف الثانيَ بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأوّل؛

ومنها أن يَتخيّر الكلام والمعاني، فإنه مما يَشِيع ويَذِيع، ولا يُعذَر المقصّرُ في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت، فإنّ مَجال الكلام عليه متّسِع، والبلاغة تَظهَر في القليل والكثير، والأمر الجاري في ذلك على العادة معروف، لكن تقع أشياءُ خارجةٌ عن العادة، نادرةُ الوُقوع، فيَحتاج الكاتب فيها إلى حسن التصرّف على ما تقتضيه الحال؛ فمن ذلك تقليدٌ من إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبيّ كتبه لمتملّك سِيس بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده، وهو:

الحمد لله الذي خَصّ أيامنا الزاهرةَ باصطناع ملوك الملل، وفضّل دولتنا القاهرةَ بإجابة من سأل بعضَ ما أَحرزتْه لها البِيضُ والأَسَل، وجعل من خصائص

ملكنا إطلاقَ الممالك وإعطاءَ الدُّوَل، والمَنَّ بالنفوس التي جعلها النصر لنا من جملة الخَوَل، وأَغرى عواطفنا بتحقيق رجاء من مَدّ إلى عوارفنا كفَّ الأمل، وأفاض بمَواهب نعمائنا على من أناب إلى الطاعة حُلَل الأمن بَعد الوَجَل، وٱنتَزع بآلائنا لمن تمسّك بولائنا أرواحَ رعاياه من قَبضة الأجل، وجعل بَرْد العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجة ما أذاقهم العصيان من حرارة الغضب، إذ ربما صَحّت الأجسام بالعِلل؛ نحمَده على نعمه التي جعلت عفوَنا ممن رجاه قريبًا وكرَمَنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مُجيبًا، وبِرَّنا لمن أَقبل إليه منيبًا بوجه الأمل مُثيبًا، وبأسَنا مصيبًا لمن لم يجعل الله له في التمسّك بمَراحمنا نصيبًا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تَعصِم دم من تَمسَّك بذمامها، وتَحسِم مَوادَّ من عاندها بانتقام حسامها، وتَفصِم عُرى الأعناق ممن أَطمعه الغُرور في ٱنفصال أحكامها وٱنفصامها، وتَقصِم مَن قصد إطفاءَ ما أظهره الله من نورها، وانقطاعَ ما قضاه من دوامها، وتَجعل كلمة حَملَتِها هي العليا، فلا تَزال أعناقُ جاحدِيها في قبضة أوليائها وتحت أقدامها؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله المبعوثُ بالهدى ودين الحق إلى كلّ أمّة، المنعوتُ في الكتب المنزّلة بالرأفة والرحمة، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمس منهنّ الرعبُ الذي كان يتقدّمه إلى مَن قصَده، ويسبِقه مَسِيرةَ شهر إلى من أَمّه، المنصوصُ في الصحف المحكَمة على جهاد أمته، الذي لا حياة لمن لم يَتمسّك من طاعته بذمته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك، وأَوضحوا بشِرْعته إلى الله المسالك، وجلَوا بنور سُنّته عن وجه الزمن كلّ حال حالك، وأَوردوا من كفر بربهم ورسلِه مَوارد المهالك، ووثِقوا بما وعد الله نَبيَّه حين زَوى له مَشارقَ الأرض ومَغاربَها من أنّ مُلكهم سيبلغ ما زوى الله له من ذلك؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مسجدًا، ولا يَبرَح ذكرُها مغِيرًا في الآفاق ومنجِدًا؛ ما ٱستَفتحتْ ألسنةُ الأسِنّة النصر بإقامتها، وأبادت أعداءها باستدامتها، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فإنه لمّا آتانا الله مُلكَ البَسِيطة، وجَعَل دعوتنا بأَعنّة ممالك الأقطار محيطة؛ ومَكّنَ لنا في الآفاق، وأنهَضَنا من الجهاد في سبيله بالسنّة والفرض، وجَعلَ كلَّ يوم تُعرَض فيه جيوشُنا من أمثلة يوم العَرْض؛ وأظلّتنا بوادرُ الفتوح، وأَطَلّت على الأعداء سيوفُنا التي هي على من كفر بالله وكَفر النعمةَ دعوةُ نوح وأيّدنا بالملائكة والرُّوح، على من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً فانتَصر بالأب والابن والرُّوح؛ وألقت إلينا ملوكُ الأقطار السَّلَم، وبَذلتْ كرائمَ بلادها رغبة في الالتجاء من عفونا إلى ظل

أعلى من علم؛ وتَوسّل من كان منهم يُظهِر الغِلظة بالذلّة والخضوع وتَوصّل من كان منهم يُبدي القوّةَ بالإخلاص الذي رأوه لهم أَقوَى الجُنَن وأوقَى الدروع؛ عاهَدْنا الله تعالى ألّا نردّ منهم آمِلًا، ولا نصُدّ عن مَشارع كرمنا ناهلًا؛ ولا نخيِّب من إحساننا راجيًا، ولا نُجْلِي عن ظلّ بِرّنا لاجيًا؛ عِلمًا أنّ ذلك شكرٌ للقدرة التي جعلها الله لنا على ذلك الآمل، ووُثوقًا بأنه حيث كان في قبضتنا كما نشاء نجمع عليه الأنامل؛ اللهمّ إلّا أن يكون ذلك اللّاجىءُ للغِلّ مُسِرًا، وعلى عداوة الإسلام مُصِرًّا؛ فيكون هو الجاني على نفسه، والجاثي(١) على موضع رَمْسه(٢)؛ ولمّا كان من تَقدّم بالمملكة الفلانية قد زَيّن له الشيطان أعماله، وعَقَد بحبال الغرور آمالَه؛ وحَسَّن له التمسُّكَ بالتَّتار الذين هم بمَهابتنا محصورون في ديارهم، مأسورون في حَبائل إدبارهم؛ عاجزون عن حفظ ما لديهم، قاصرون عن ضبط ما استَلبتْه سَرايانا المنصورةُ من يديهم؛ ليس منهم إلا من له عند سيوفنا ثار، ومن يَعلم أنه لا بدّ له عندنا من خُطّتَي خَسف: إما القتلِ أو الإسار؛ وحين تمادى المذكور في غَيّه، وحمله الغُرور على ركوب جواد بغيه؛ أَمرْنا جيوشَنا المنصورةَ فجاست خِلالَ تلك الممالك وداست حوافرُ خيلِها ما هنالك، وساوت في عموم القتل والأسر بين العبدِ والحرّ والمملوكِ والمالك؛ وأَلحقت رَواسيَ جبالهم بالصَّعيد، وجَعلتْ حُماتَهم كزُروع فَلاتِهم منها قائمٌ وحَصيد؛ فأسلَمَهم الشيطان ومَرّ، وترَكهم وفرّ، وماكَرَهم وما كَرّ(٣) وأعلَمَهم أن الساعة موعدهم ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القَمَر: الآية ٤٦] وأَخلَفَهم ما ضَمِن لهم من العَوْن وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨]؛ وكان الملِكُ فلان ممّن يريد طُرُقَ النجاة فلم ير إليها بسوى الطاعة سبيلًا، ويأمُلُ أسبابَ النجاح فلم يجد عليها غيرَ صدق الانتماء دليلًا؛ فأَبصرَ بالحذق موضعَ رُشْده، وأَدرَكَ بسعيه نافرَ سعده؛ وأراه الإقبالُ كيف تثبُت قدمُه في الملك الذي زَلّت عنه قَدمُ مَن سَلَف، وأَظهَر له الإشفاقُ على رعاياه مَصارعَ من أَورَده سوءُ تدبير أخيه مَوارد التَّلَف، وعرَّفه التمسّكُ بإحساننا كيف احتوت يدُه على ما لم يُبْقِ غضبُنا في يد أخيه منه إلا الأسى والأسف؛ وحَسّنت له الثقةُ بكرمنا كيف يَجملُ الطلب، وعَلّمتْه الطاعةُ كيف تُستنزَل عوارفُنا عن بعض ما غَلبتْ عليه سيوفُنا وإنما الدنيا لمن غَلب؛ وانتمَى إلينا فصار مِن خَدَم أيّامنا، وصنائع إنعامنا، وقَطَع علائقَه مِن غيرنا؛ فلجأ منا إلى ركن شديد، وظلٍّ مَديد،

---

(١) الجاثي: الراكع. (٢) الرمس: القبر.
(٣) ماكرهم: خادعهم. ما كرّ: لم يهجم.

ونصرٍ عَتيد؛ وحَزم يأوِي آمِلُه إليه، وكرم تُقِرّ نضارتُه ناظريه، وإحسانٍ يُمتّعه بما أَقَرّه عطاؤنا في يديه، وٱمتنانٍ يَضَع عنه إِصْرَه والأغلالَ التي كانت عليه؛ اقتضى إحسانُنا أن نُغْضِيَ له عن بعض ما حَلّت جيوشُنا ذراه وحَلّت سَطَواتُ عساكرنا عُراه؛ وأَضعفتْ عَزَماتُ سَرايانا قواه، ونَشرتْ طلائعُ جنودنا ما كان سَترَه صَفحُنا عنهم من عَورات بلادهم وطواه؛ وأن نخوّله بعضَ ما وردت خيولُنا مَناهلَه، ووَطِئتْ جيادُنا غارِبَه وكاهلَه؛ وسَلَكت كُماتُنا فملَكتْ دارسَه وآهلَه؛ وأن نُبقِيَ مملكة البيت الذي مضى سَلَفُه في الطاعة عليه، ويستمرّ مُلْكُ الأرمن الذي أَهْملَ السعيُ في مصالحه بيديه؛ ليَتيمَّن رعاياه به، ويَعلموا أنهم أَمِنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه؛ ويَتحقّقوا أنّ أثقالهم بحُسن توصُّله إلى طاعتنا قد خَفّت، وأنّ بوادرَ الأمن بلطف تَوسُّله إلى مَراضينا قد أطافت بهم وحَفّت وأنّ سيوفَنا التي كانت مجرّدة على مَقاتِلهم بجميلِ ٱستعطافِه قد كفتهم بأسَنا وكَفّت وأنّ سَطَواتِنا ٱلحاكمةَ على أرواحهم قد عَفَت[١] عنهم بملاطفته وعَفّت[٢]؛ فرسم أن يُقلَّد كيت وكيت من المملكة الفلانية، ويَستقِرّ بيده ٱستقرارًا لا ينازَع في ٱستحقاقه ولا يُعارَض فيما سَبق من إعطائه وإطلاقِه؛ ولا يطالَب عنه بقَطِيعة[٣]، ولا يُطلَب منه بسببه غيرُ طَويّة مخلِصةٍ ونفسٍ مطيعة؛ ولا يَخشى عليه يدًا جائرة، ولا سَرِيّةً في طلب الغِرّة سائرة؛ ولا يَطرُق كِناسَه[٤] أُسْدُ جيوش مفترِسة، ولا سباعُ نِهابٍ مختلِسة؛ بل تستمرّ بلادُه المذكورةُ في ذمام رعايتنا، وحَصانةِ عنايتنا؛ وكَنَفِ إحسانِنا، ووديعةِ بِرّنا وٱمتنانِنا؛ لا تَطمَح إليها عينُ معانِد، ولا يَمتدّ إليها إلّا ساعدُ مساعِد، وعضدُ مُعاضِد؛ فليقابِل هذه النعمةَ بشكر الله ٱلذي هداه إلى الطاعة وصان بإخلاص وَلائه نفسَه ونفائسَ بلاده من الإضاعة؛ وليَقرن ذلك بإصفاء مَوارد المَودّة، وإضفاءِ مَلابس الطاعة التي لا تَزداد بحُسن الوفاء إلا جِدّه؛ وٱستمرارِ المُناصَحة في السِّرّ والعَلَن، وٱجتنابِ المخادَعة ما ظهر منها وما بَطَن، وأداءِ الأمانةِ فيما ٱستَقرّ معه ٱلحِلْف[٥] عليه، ومبايَنةِ ما يخشى أن يَتوجّه بسببه وجهُ عَتْب إليه؛ وٱستدامةِ هذه النعمة بحفظ أسبابِها، وٱستقامةِ أحوال هذه المِنّة برَفْضِ مُوجبات الكَدَر وٱجتنابها، وإخلاصِ النيّة التي لا تُعتبَرَ ظواهرُ الأحوال الصالحة إلّا بها.

---

(١) عفت: أعطت العفو، أي صفحت.
(٢) عفّت: زالت.
(٣) القطيعة: الضريبة.
(٤) الكناس: بيت الأسد.
(٥) الحلف: العهد.

ومن تقليدٍ كتبه المُشارُ إليه أيضًا لسَلامش بمملكة الروم حين ورد كتابُه يَسأل ذلك قَبل حضوره، أوّله:

الحمد لله الذي أيّدنا بنصرِه، وأَمدّنا من جنود الظَّفَر بما لم يُؤتَ مَلِك في عصرِه، وجعلَ مهابتنا قائمة في جهاد عدوّ الدين، إن قَرُب مَقامُ كَسْرِه، وإن بَعُد مَقامُ حَضْرِه، ونَشَر دعوة مَلِكنا في الأقطار كلِّها إذا ٱقتصرت دعوةُ غيرِنا من ملوك الأمصار على مصرِه، وأَنْجَدَ من نادانا بلسان الإخلاص من جنود الله وجنودنا بالجيش الذي لم تزل أرواحُ العدا بأَسْرِها في أَسْرِه، وعَضَدَ من تَمسَّك بطاعة الله وطاعتنا من إجابة عساكرنا بما هو أَقربُ إلى مَقاتل عدوه من بيضه المرْهَفةِ وسُمْرِه، وأعاد بنا من حقوق الدِّين كلّ ضالّة مُلْكٍ ظَنّ العدوُّ أَنّ أمره غالبٌ عليها والله غالبٌ على أَمرِه؛ فجنودنا إلى نُصْرةِ من دعاها بالإيمان أقربُ مِن رَجْع نَفَسِه إليه، وأَسرعُ مِن رَدِّ الصدى جوابَه عليه؛ وأَسبَقُ إلى عدوّ الدين من مَواقع عِيانِه، وأَقدَرُ على التصرّف في أرواح أهل الشِّرْك مِن تصرّف الكَمِيّ في عِنانِه؛ وأَذَبُّ عن حمى الدين من الجفون عن نواظرها، وأَضْرَى على نفوس المعتدين من أُسُود عَنَت الفَرَائسُ لكواسرها؛ قد عَوّدها النصرُ الإلهيُّ أَلّا تَسلّ ظُباها فتُغْمَد حتى تُستَباحَ مَمالك، وضَمِن لها الوعدُ المحمّديُّ أنها الطائفةُ الذين لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك؛ نحمده على نعمه التي لم نزل نصون بها حمى الدين ونصول، ونقلِّد بيمنها من لجأ إلينا سيفَ نصر يَصدعَ به ليلَ العِدا ولو أن النجوم نُصول، ونُورِد بأسمها من ٱنتصر بنا مَورِدَ عزّ يُحرّمه لمعُ الأسنّة فوقه، فليس لظمآنَ من العِدا إليه وُصول؛ وبعد، فإن أَولى من أَصْغت عزائمُنا الشريفة إلى نداء إخلاصِه، وأجابت مكارمُنا العَميمةُ دعاءَ تَميُّزه بالوَلاء واختصاصِه، وقابلتْ مَراسمُنا ٱنتصارَه في الدين بالنَّفير لإعانته على ما ظَفِر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصِه، وتكفلت له مَهابتُنا بالأمن على مُلك مذ وسمه باسمنا الشريفِ يئس العدوُّ من ٱستخلاصه؛ وأجيبت كُتبُه في الاستنجاد بسَرَعان الكتائب، ولَمَعان القواضب، وتَتابُع أمداد جيوشِنا التي تنوء بحَملها كواهلُ المشارق والمغارب، وتَدفّقِ أمواج عساكرنا التي تُنشِد طلائعُها ملوكَ العِدا: [من الكامل]

* «أيـن الـفِـرار ولا مَـفـرَّ لـهـارب» *

وتَأَلُّقِ بُروقِ النصر مِن خفق ألويتنا الشاهدة بأن قبيلنا: [من الطويل]

* «إذا ما التقى الجمعان أَوّلُ غالب» *

ومـنـه:

وفَوّضتْ إليه مَراسمُنا الحُكمَ في الرعايا بالعدل والإحسان، وقَلّدتْه أوامرُنا من عُقود النظر في تلك الممالك ما تَوَدّ جِباهُ الملوك لو حَلّت بدُرّها مَعاقدَ التيجان، وعَلّقتْ به من الأوامر ما بنا تَنفُذ مَواقعُه، وكذا الأمور المعتبَرَةُ لا تَنفُذ إلا بسلطان؛ من أَلقى اللهُ الإيمانَ في قلبه، وهداه إلى دين الإسلام فأصبح فيه على بيّنة من ربّه، وأراد به خيرًا فنقَله من حِزْب الشيطان إلى حِزْبه، وأَنقَذه بطاعته من مَوارد الهلاك بعد أن كان قد أَذِن بحَرْب من الله ورسوله، ولقد خَسِر الدين والدنيا والآخرةَ من أَذِن من الله بحربه؛ وأَيقَظَه من طاعتنا التي أوجبها على الأمم لما أَبصر به رَشْدَه، ورأى قصدَه، وعَلِم به أن الذي كان فيه كسرابٍ بقِيعة[1] لم يجده شيئًا، وأنّ الذين ٱنتَقَل إليه وجد اللهَ عنده؛ وأنهَضه من مُوالاتنا بما حتّم به النُّهوض على كل من كان مسلمًا، وأخرجه بنور الهُدى من عِداد أعدائه الذين تَرَكهم خوفُنا: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: الآية ٢٧]؛ وأراه الرشدُ ما عَلِم به أن الله تعالى أَورثنا مُلْك الإسلام فبطاعتنا يتمّ الانتماءُ إليه، وأعطانا مَقاليدَ البسيطة فمن ٱغتَصبَ منها شيئًا ٱنتزعه الله لنا بجنوده المسوَّمةِ من يديه؛ فَلَجأ من أبوابنا العالية إلى الظلّ الذي يلجأ إليه كلُّ مِنبَر وسرير، ورجا من كَرمنا الاعتصامَ بجيوشنا التي ما رَمَينا بها عدوًّا إلا ظَنّ أن الرمالَ تَسِيل والجبالَ تَسير؛ وتَحيّزَ منّا إلى فئة الإسلام، وٱنتَصَر بسيوفنا التي هو يعلم كيف تسُلّها على العِدا الأحلام؛ ومَتَّ إلينا بذمّة الإسلام وهي عندنا أبرّ الذمم، وطَلبَ تقليدَه الحكم منا مَن عُرِف بإعاذتِه النظراتِ الصادقةَ أنه كان يَحسَب الشحم فيمن شحمُه وَرَم[2]؛ وعَقَد بنا بناءَ رجائه، وهل لمسلم عن مَلِك الإسلام من مَعْدِل؟ وأنزل بنا ركائبَ آماله، وهل بَعدَ رامةَ لمرَامٍ من مَنزل؟ فتلقّت نِعمُنا كرائمَ قصده بالترحيب، وأَحلّت وِفادةَ ٱنتمائه بالحَرَم الذي شأوُه بعيد ونصرُه قريب؛ وتسارعتْ إلى نُصْرته جنودُنا التي أيّامُها مشهورةٌ في

(١) البقيعة: الأرض المستوية. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: الآية ٣٩].

(٢) هذا حل لبيت المتنبي الوارد في قصيدته الميمية التي يعاتب فيها سيف الدولة ومطلعها:

واحـر قـلـبـاه مـمـن قـلـبـه شـبـم ... ومن بجسمي وحالي عنده سقم

أما البيت الذي حله هنا فهو التالي:

أعـيـذهـا نـظـرات مـنـك صـادقـة ... أن تحسب الشحم في من شحمه ورم

عدوّها، وآثارُها مشكورةٌ في رَواحها وغُدوِّها، وأعلامُها منصورةٌ في ٱنتزاحها ودنوِّها؛ وتتابعتْ يتلو بعضُها بعضًا تَتابُعَ الغمام المتراكم، والموجِ المتلاطم؛ تَقْدَم عليه بالنصر القريب من الأَمَد البعيد، وتُعْلم بوادرُها أنّ طلائعَها عنده وساقتها بالصعِيد؛ ولما كان فلان هو الذي أراد الله به من الخير ما أراد، ووطَّد له بعنايته أركان الرشاد؛ وجعَل له بعد الجهل به عِلْمًا، وتَدارَكه برحمته، فما أمسَى للإسلام عدوًّا حتى أصبح هو ومن معه له سِلْما؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يُونس: الآية ٥٨]، وبكرمه العَميم فليَفْسحوا صدورهم ويشْرحوا، وبإرشاده الجليّ وهدايتِه فليَدّعوا قومهم إلى ذلك ويَنصحوا؛ وحين وَضَحت له هذه الطرقُ أرشدتْه من خدمتنا الشريفة إلى الطاعة، ودلّته على مُوالاةِ مَلِك الإسلام التي من لم يَتمسّك بها فقد فارق الجماعة؛ فإن الله تعالى قَرَن طاعته وطاعة رسوله ﷺ بطاعة أُولي الأمر، وحَثّ على ملازَمة الجماعة في وقت يكون المتمسّك فيه بدِينه كالقابض على الجمر؛ وهذا فِعلُ من أراد الله به خيرًا، وسعيُ من يُحْسِن في دين الله سِيرةً وسَيْرًا؛ ولذلك ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ إمضاءَ عزمه على الجهاد بالإيجاد، وإنفاذَ سهمِه في أهل العناد بالإسعاف والإسعاد؛ وأرسلنا الجيوشَ الإسلاميّة كما تَقدّم شرحُه يَطوُون الصَّحاصِح[1]، ويَستقرِبون المَدى النازح[2]، ويأخذون كلَّ كَمِيٍّ فلو ٱستطاع السِّماكَ لم يتسمّ بالرامح، ويَحتسبون الشُّقّةَ[3] في طلب عدوِّ الإسلام عِلْمًا أنهم لا يُنفِقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون واديًا إلا كُتِب لهم به عملٌ صالح؛ فرُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يَهَبُ الدُّوَل، ويقلِّد أجيادَ العظماء ما تَوَدّ لو تَحلّت ببعض فرائِده تيجانُ الملوك الأُوَل ـ أن تُفوَّض إليه نيابةُ الممالك الفلانيّة تفويضًا يصون به قِلاعَها، ويصُول بمَهابته على من حاول ٱنتزاعَها من يده وٱقتلاعَها؛ ويُجريها على ما أَلِفت ممالكُنا مِن أمْنٍ لا يُروَّع سِرْبُه، ولا يكدَّر شِرْبُه؛ ولا يُوجَد فيه باغ تُخاف السبيلُ بسببه، ولا من يجرِّد سيفَ بغيٍ وإن جَرَّده قُتِل به؛ وليَحْفظْ من الأطراف ما ٱستودعه الله وهذا التقليدُ الشريفُ حِفظَه، وليَعمَل في قتال مُحاربيه من العِدا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبَة: الآية ١٢٣].

---

(١) الصحاصح: مفرده الصحصح، وهو ما استوى من الأرض وكان أجرد.
(٢) المدى النازح: المسافة البعيدة. من نزح أي بعد.
(٣) الشقة: التعب، يحتسبون الشقة: يقدمون المشقة ينوون بها وجه الله.

ومنه: وليَعلم أن جيوشَنا في المَسير إليه متى قَصدتْ عدوًّا سابقت خيولُها خَيالَها، وجارت جِيادُها ظلالَها، وأنِفت سَنابكُها أن تجعل غيرَ جماجم الأعداء نعالَها؛ وها هي قد تقدّمت ونَهضت لإنجاده، فلو سامها أن تخُوض البحار في سبيل الله لخاضت؛ أو تَصْدِم الجبالَ لصَدَمت.

ومنه: والشرعُ الشريفُ مُهِمُّه المقدَّم، وأمرُه السابقُ على كلّ ما تَقدَّم فليُعْلِ مَنارَه، ويَستشِفَّ من أموره أنوارَه؛ ويُنفِّذْ أحكامَه، ويعاضِدْ حكّامَه؛ ومن عَدل عن حُكمِه معاندًا، أو تَرَكَ شيئًا من أحكامه جاحدًا؛ فقد بَرِئت ٱلذمّة من دمِه حتى يَفِيءَ إلى أمر ٱلله، ويَرجِعَ عن عناده ويُنيبَ إلى الله؛ فإن الله يَهدي إليه من أناب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ٢٥].

وأما الرسائل التي تَتضمّن أوصافَ السلاح وآلاتِ الحرب وأوصافَ الخيل والجوارحِ وأنواع الرياضات وما أَشبه ذلك، فالكاتبُ فيه مطلَقُ العِنان، مُخَلًّى بينه وبين فصاحته، موكولٌ إلى ٱطّلاعه وبلاغته؛ وقد تَقدَّم من أوصاف السلاح ما فيه كفايةٌ لمن يريد ذلك.

وأما الخيل والجوارح وما يَلتحِق بذلك من الفهود والضواري فلا غُنْيَةَ للكاتب عن معرفته جِيادَها، والأماراتِ الدالّةَ على فَراهتها، وكلِّ طير من الجارح وأفعالَه وٱستطالَته، وكيفيّةَ فِعلِه، وتمكّنه من الطير والوحش؛ وسنُورد إن شاء الله تعالى فنّ ٱلحيوان الصامتِ ـ وهو ٱلفنّ الثالثُ من هذا ٱلكتاب ـ ما يَقتدِي ٱلكاتب بمقاله، ويَنْسِجُ على منواله.

وأما الرسائل التي تُعمَل رياضةً للخواطر وتَجرِبةً للقرائح، كالمفاخَرات بين الفواكِه والأزهار، ووصفِ الرياحينِ والأنهارِ والغدرانِ والسَّواقي والجداولِ والبحارِ والمراكبِ وأمثالِ ذلك، فقد تَقدَّم منها في الفنّ الأوّل من هذا الكتاب ما وقفتَ أو تقِف عليه، وسنُورد منها إن شاء ٱلله تعالى في ٱلفن ٱلرابع في النبات ما تجدُه هناك.

وأما الرسائل الإخوانيّةُ وما يَتجدّد من الأمور ويَطرَأُ من الحوادث وغير ذلك، فسنُورد إن شاء الله تعالى منها في هذا الباب ما ٱنتخبناه من رسائل الكُتّاب والبُلَغاء المَشارِقةِ والمَغاربةِ على ما تقف عليه؛ ولنبدأ من ذلك بذكر شيء من كلام الصحابة والصدر الأوّل.

ذكر شيء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة رضي الله عنه والتابعين وشيء من كلام الصدر الأوّل وبلاغتهم

قَدَّمْنا أنّ الكاتب يَحتاج في صناعته إلى حفظ مخاطَبات ٱلصحابة رضي الله عنهم، ومحاوَراتهم ومراجَعاتهم، فأَحببنا أن نُورد من ذلك في هذا الموضع ما ستقف إن شاء الله عليه.

فمن ذلك الرسالة المنسوبةُ إلى أبي بكر الصّدّيق إلى عليّ، وما يَتّصِل بها من كلامِ عمرَ بن الخطاب وجوابِ عليٍّ رضي الله عنهم، وهذه ٱلرسالة قد ٱعتنى الناس بها وأوردوها في المجاميع[1]، ومنهم من أفردها في جزء، وقطع بأنها من كلامهم رضي الله عنهم، ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم، وقال: إنها موضوعةٌ[2]، وٱختلف ٱلقائلون بوضعها، فمنهم من زعم أنّ فُضَلاء الشِّيعة وضعوها، وأرادوا بذلك الاستنادَ إلى أن عليًّا بنَ أبي طالب رضي الله عنه إنما بايع أبا بكر الصِّدّيقَ بسبب ما تضمّنته؛ وهذا الاستنادُ ضعيفٌ، وحجّةٌ واهيةٌ، والصحيح أن عليًّا بن أبي طالب رضي الله عنه بايع بَيْعةً رضيَ باطنُه فيها كظاهره، والدليل على ذلك أنه وطِىءَ من السَّبْيِ الذي سُبِيَ في خلافة أبي بكر، وٱستَولد منه محمدَ ابنَ ٱلحنفيّة، ولا جواب لهم عن هذا؛ ومنهم من زعم أن فضلاء السنّة وضعوها، والله أعلم؛ وعلى ٱلجملة فهذه الرسالة لَم نُوردها في هذا الكتاب إثباتًا لها أنها من كلامهم رضي الله عنهم ولا نفيًا، وإنما أَوردناها لما فيها من البلاغة، وٱتّساقِ الكلام، وجُودةِ الألفاظ، وها نحن نُوردها على نص ما وقفنا عليه.

قال أبو حَيّانَ عليّ بنُ محمد التوحيديُّ البغداديُّ[3]:

سَمَرنا ليلة عند القاضي أبي حامد بن بشر الْمَرْوَرُّوذيّ ببغداد، فتَصرّف في الحديث كلَّ متصرَّف ـ وكان غزيرَ الرواية، لطيفَ الدراية ـ فجرى حديث السَّقِيفة، فركب كلَّ مَركَبًا، وقال قولًا، وعَرَّض بشيء، ونَزَع إلى فنّ؛ فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصِّدّيق إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما وجوابَ عليّ

(١) المجاميع: مفرده المجموع، كل مؤلف جمعت فيه أشياء متفرقة من شعر أو رسائل الخ.

(٢) موضوعة: منحولة، نسبت خطأ إلى غير أصحابها.

(٣) أبو حيان التوحيدي: (٩٢٢ ـ ١٠٢٣ م)، أديب ومفكر متفلسف. عاش الجزء الأكبر من حياته في بغداد وكان منبوذًا لم تقدر قيمته، فغير الحال. أهم كتبه «الإمتاع والمؤانسة» و «الهوامل والشوامل» والحج العقلي (المنجد).

عنها، ومبايعتَه إياه عقب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من بنات الحقاق، ومخبَّآتِ الصناديق، ومنه حفظتُها ما رويتُها إلا لأبي محمد المهلَّبيِّ في وِزارته، فكتبها عنّي بيده، وقال: لا أعرف رسالة أعقلَ منها ولا أبْيَن، وإنها لتدُلّ على عِلم وحِلم وفصاحة ونباهة، وبُعدِ غَور، وشدّةِ غَوص؛ فقال له العَبّادانيُّ[1]: أيها القاضي، لو أتممتَ المِنّة علينا بروايتها سمعناها، فنحن أوعى لها عنك من المهلَّبيِّ، وأوجبُ ذمامًا عليك؛ فاندفع وقال: حدّثنا الخُزاعيُّ بمكّةَ، عن أبي مَيسَرَة قال: حدّثَنا محمد بن فُلَيح عن عيسى بن دأب نبأ صالحُ بنُ كَيْسان ويزيدُ بنُ رُومان، قالا: حدَّثنا هِشام بن عُروةَ، نبّأ أبو النفّاح قال: سمعت مولاي أبا عُبَيدةَ يقول: لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والأنصار بعد فتنة كاد الشيطانُ بها، فدفع الله شرَّها، ويَسَّر خيرَها؛ بَلَغ أبا بكر عن عليٍّ تلكّؤٌ وشِماس، وتَهَمُّمٌ[2] ونفاس[3]، فكَرِه أن يتمادى ٱلحالُ فتبدوَ العَورةَ، وتَشتعلَ ٱلجمرة، وتُفرِّقَ ذاتُ البين، فدعاني، فحضرته في خَلوَة، وكان عنده عمرُ بنُ ٱلخطّاب رضي الله عنه وحدَه، فقال: يا أبا عُبيدة، ما أَيمَنَ ناصيتَك، وأَبْيَن ٱلخيرَ بين عينيك، وطَالَما أَعزّ ٱلله بك الإسلام، وأَصلَح شأنَه على يديك، ولقد كنتَ من رسول الله ﷺ بالمكان المَحُوط، وٱلمَحلِّ المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «لكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمّة أبو عُبَيدة» ولَم تَزل للدِّين مُلْتَجا، وللمؤمنين مُرْتَجَى، ولِأَهلِك ركنًا، ولإِخوانِك رِدْءًا؛ قد أردتك لأمر له خطر مَخُوف، وإصلاحُه من أعظم المعروف؛ ولئن لم يَندمِل جُرحُه بمسبارك[4] ورِفقِك، ولم تُجَبَّ حَيّتُه برُقْيتك، فقد وقع ٱليأس، وأَعضلَ البأس؛ وٱحتيج بعد ذلك إلى ما هو أَمرُّ منه وأَعلَق، وأَعسَرُ منه وأَغلَق؛ وٱلله أسأل تمامَه بك، ونظامَه على يديك، فتأَتَّ له يا أبا عُبَيدة، وتَلطَّفَ فيه، وٱنصَحْ لله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ، ولهذه العِصابة غيرَ آلٍ جُهْدًا، ولا قالٍ[5]، حَمْدًا؛ وٱلله كالئك وناصرُك، وهاديك ومبصِّرُك، إن شاء الله؛ اِمضِ إلى عليٍّ وٱخفِض له

---

(١) العباداني: نسبة إلى عبادان. وعبادان بلدة تقع إلى الشرق من مصب دجلة في البحر، في أرض سبخة فيها مشهد لعليّ بن أبي طالب. وعبادان نسبة إلى عباد بن حصين الحبطي لأنه أول من رابط ثمة، بزيادة الألف والنون على طريقة أهل البصرة. (ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٩٨، ط جوتنجن).

(٢) تهمم: طلب. من تهمم فلان الشيء: طلبه؛ والمراد هنا طلب الخلافة.

(٣) نفاس: منافسة.

(٤) المسبار: فتيل يدخل في الجرح ليعرف عمقه، وليداوى به.

(٥) قالٍ: من قلى الشيء: أبغضه.

جَناحَك، وٱغْضُضْ عنده صوتك، وٱعلم أنه سُلالةُ أبي طالب، ومكانُه ممّن فقدناه بالأمس ﷺ مكانُه، وقل له: البحرُ مَغرقَه، والبَرُّ مَفرَقه؛ والجوُّ أَكْلَف[١]، وٱلليلُ أَغْدَف[٢]، والسماءُ جَلْواء، والأرضُ صَلْعاء؛ والصُّعُودُ متعذِّر، والهبوطُ متعسِّر؛ والحقُّ عَطوفٌ رؤوف، والباطلُ عنوف عسوف، والعُجْبُ قَدّاحةُ الشرّ، والضِّغنُ رائد البَوار، والتعريضُ سِجالُ[٣] الفتنة، والقِحَةُ ثَقوبُ[٤] العداوة، وهذا الشيطانُ متّكِىءٌ على شِماله، مُتحبِّل[٥] بيمينه، نافِخٌ حِضْنَيه[٦] لأهله، يَنتظر الشَّتاتَ والفُرقة، ويَدِبّ بين الأمّة بالشَّحناء والعداوة، عنادًا لله عز وجلّ أوّلًا، ولآدمَ ثانيًا، ولنبيّه ﷺ ودِينِه ثالثًا، يُوسوس بالفجور، ويُدْلي بالغُرور، ويُمنِّي أهلَ الشرور، يُوحِي إلى أوليائه زُخرفَ القول غُرورًا بالباطل، دَأْبًا له منذ كان على عهد أبينا آدم صلّى ٱلله عليه، وعادةً له منذ أهانه الله تعالى في سالف الدهر، لا مَنجَى منه إلا بِعَضّ الناجِذ على ٱلحقّ، وغَضّ الطرف عن الباطل، ووطْءِ هامَةِ عدوّ ٱلله بالأشدّ فالأشدّ، والآكَدِ فالآكَد، وإسلامِ النفس لله عزّ وجلّ في ٱبتغاء رضاه؛ ولا بدّ الآن من قول ينفع إذا ضرّ السكوتُ وخِيفَ غِبُّه، ولقد أرشدك من أفاء ضالّتَك، وصافاك مَن أحيا مَودّتَه بعتابك، وأراد لك الخيرَ مَن آثر البقاء معك، ما هذا الذي تُسوِّل لك نفسُك، ويَدْوَى[٧] به قلبُك، ويَلتوِي عليه رأيُك، ويَتخاوص[٨] دونه طَرْفُك، ويستشري فيه ضغنك، ويَترادف معه نَفَسُك، وتكثُر عنده صُعَداؤك، ولا يفيض به لسانُك؟ أعُجمةٌ بَعد إفصاح؟ أتلبيسٌ بَعد إيضاح؟ أدِينٌ غيرُ دينِ ٱلله؟ أخُلقٌ غيرُ خُلقِ القرآن؟ أهديٌ غيرُ هدي النبي ﷺ؟ أمِثلي تَمشي إليه الضَّراءَ وتَدِبّ له الخَمْر[٩]؟ أوَ مِثلُك يُغصّ عليه الفضاءُ ويُكسَف في عينه القمر؟ ما هذه القَعْقَعَةُ بالشِّنان[١٠]؟ وما هذه الوَعوَعةُ باللسان؟ إنك وٱلله جِدُّ عارف باستجابتنا إلى الله عزّ وجلّ ولرسوله ﷺ، وبخروجنا عن أوطانِنا وأموالِنا وأولادِنا وأحبّتِنا لله عزّ وجلّ ولرسوله ونُصْرةً لدِينه، في زمان أنت

---

(١) الأكلف: من الكلف، وهو لون بين السواد والبياض.

(٢) أغدف: من أغدف الليل: أظلم وأرخى سدوله.

(٣) السجال: الدلو.

(٤) ثقوب: مفرده ثقاب، وهو عود الزند.

(٥) متحبل: متصيد بالحبالة.

(٦) نافخ حضنيه: كناية عن التكبر والخيلاء.

(٧) يدوى: يمرض، يصاب بالداء. والدوي مرض باطن في الصدر.

(٨) يتخاوص: من التخاوص، أي غض النظر مع تحديق كمن يقوم سهمًا.

(٩) تمشي إليه الضراء وتدب له الخمر: أي يخاتل ويمكر به. يقال للرجل إذا اختل صاحبه ومكر به. والضراء: الاستخفاء، والخمر: ما وراءك من شيء.

(١٠) القعقعة بالشنان: كناية عن الترويع والتهويل. وأصله تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع.

فيه في كِنَ الصِّبا، وخِدرِ الغَرارة، وعُنفُوانِ الشَّبيبة غافلًا عما يُشِيب ويُريب، لا تَعِي ما يُراد ويُشاد، ولا تُحصِّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى غايتك التي إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رَحلُك، غيرَ مجهولِ القدر، ولا مجحودِ الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالًا تُزيل الرواسي، ونقاسي أهوالًا تُشِيبُ النَّواصي؛ خائِضين غِمارَها، راكبين تَيّارَها؛ نتجرّع صابَها[(١)]، ونُشْرِج عِيابَها[(٢)]؛ ونُحكِم آساسَها، ونُبرِم أمراسَها؛ والعيونُ تحدِّج بالحسد، والأُنوفُ تَعطِسُ بالكِبْر، والصدورُ تَستعِر بالغَيظ، والأعناقُ تَتطاول بالفخر، والشِّفارُ تُشحَذ بالمكر، والأرضُ تَمِيد بالخَوف، لا نَنتظِر عند المَساء صباحًا، ولا عند الصباح مَساء، ولا نَدفع في نحر أمر إلّا بَعد أن نحسوَ الموت دونه، ولا نَبلُغ مُرادًا إلّا بعد جَرْع العذاب معه، ولا نُقيم مَنارًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فادين في جميع ذلك رسولَ الله ﷺ بالأب والأمّ، والخالِ والعمّ، والمالِ والنَّشَب، والسَّبَد واللَّبَد[(٣)]، والهِلَّةِ والبِلَّة[(٤)]، بِطيب أنفُس، وقُرّةِ أعيُن، ورُحْبِ أعطان، وثَباتِ عزائم، وصِحّةِ عقول، وطَلاقةِ أوجُه، وذَلاقةِ أَلْسن؛ هذا مع خفيّاتِ أسرار، ومكنوناتِ أخبار كنتَ عنها غافلًا ولولا حداثة سِنِّك لم تكن عن شيء منها ناكلا؛ كيف وفؤادُك مَشهوم[(٥)]، وعُودُك معجوم! والآن قد بَلَغَ ٱللهُ بك، وأرهص الخيرَ لك، وجَعَلَ مرادَك بين يديك، وعن عِلْم أقول ما تَسمع؛ فٱرتَقبْ زمانَك، وقلِّص أرْدانَك[(٦)]؛ ودع التقعّسَ[(٧)] والتجسّسَ لمَن لا يَظلَع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عَطا؛ فالأمرُ غَضّ، والنفوسُ فيها مَضّ[(٨)] وإنك أَدِيمُ هذه الأمّة فلا تَحلَم[(٩)] لَجاجا، وسيفُها العَضبُ فلا تَنبُ ٱعوجاجًا، وماؤها العَذبُ فلا تَحلْ أُجاجًا؛ واللهِ لقد سألتُ رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فقال لي: «يا أبا بكر، هو لِمن يَرغب عنه لا لِمن يجاحِش[(١٠)] عليه، ولِمن يَتضاءل عنه لا لمن يَنتفِجُ[(١١)]

(١) صابها: مرارتها. والصاب شجر مر أو عصارة ذلك الشجر وربما كان الصبر ذاته. (لسان العرب، مادة صوب).

(٢) اشرج العيبة أو شرجها: شد عراها.

(٣) السبد واللبد: كناية عن القليل والكثير. وأصل السبد: الوبر واللبد: الصوف المتلبد.

(٤) الهلة والبلة: كناية عن كل شيء. يقال: ما أصاب هلة ولا بلة: أي شيئًا. والهلة من الفرح والاستهلال، والبلة من البلل والخير.

(٥) مشهوم: ذكي كالشهم.

(٦) قلص أردانك: شمر ثوبك.

(٧) التقعس: التأخر.

(٨) المض: الألم والحزن.

(٩) حَلَم: أصيب بالحَلَم وهو تآكل الجلد.

(١٠) يجاحش: يدافع.

(١١) ينتفج: يثب.

إليه، هو لمن يقال: هو لك، لا لمن يقول: هو لي» ولقد شاورني رسول الله ﷺ في الصِّهْر، فذَكر فِتيانًا من قريش، فقلتُ: أين أنت من عليّ؟ فقال ﷺ: «إني لأكره لفاطمة مَيْعةَ شَبابِه، وحَداثَة سِنّه، فقلتُ له: متى كنَفتْه يدُك، ورعته عينُك، حَفّت بهما البركة، وأُسبِغَتْ عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبتُه به رغبةً فيك، وما كنتُ عَرَفتُ منك في ذلك حَوْجاءَ ولا لَوْجاء[١]، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرِك، وأَجِد رائحةَ سواك، وكنتُ إذ ذاك خيرًا لك منك الآنَ لي؛ ولئن كان عَرّضَ بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر فلم يكن مُعْرِضًا عن غيرك، وإن كان قال فيك فما سَكت عن سواك، وإن تَلَجلَج في نَفْسك شيءٌ فهلُمَّ فالحكم مَرضيّ، والصوابُ مسموع، والحقُّ مُطاع؛ ولقد نُقل رسول الله ﷺ إلى ما عند الله عزّ وجلّ وهو عن هذه العِصابة راضٍ، وعليها حَدِب، يَسُرّه ما يَسُرّها، ويسوؤه ما يسوؤها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها، أما تَعلم أنه لم يدَع أحدًا من أصحابه وأقاربِه وسُجَرائه[٢] إلا أبانه بفضيلة، وخَصّه بمزيّة، وأَفرده بجلالة؟ أتظنه ﷺ ترك الأمة سدًى بَدَدًا، عَباهِلَ مَباهِل[٣]، طَلاحَى[٤]، مفتونةً بالباطل، مَعنُونةً[٥] عن الحقّ، لا ذائد ولا رائدَ، ولا ضابطَ ولا حائطَ ولا رابط، ولا ساقيَ ولا واقيَ، ولا هاديَ ولا حاديَ؛ كلا، والله ما اشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المَصيرَ إلى رضوانه وقُرْبه إلّا بعد أن ضَرَب المَدَى[٦]، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوى[٧]؛ وأَمَّن المسالكَ والمطارح، وسَهَّل المبارَكَ والمهَايع[٨]، وإلا بعد أن شَدخَ يافُوخَ الشِّرك بإذن الله تعالى، وشَرَم وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَع أنف الفتنة في ذات الله، وتَفَل في عين الشيطان بعَون الله، وصَدَع بِملءِ فيه ويدِه بأمر الله عزّ وجلّ؛ وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصارُ عندك ومعك في بقعة واحدة، ودارٍ جامعة، إن استقالُوني لك، وأشاروا عندي بك، فأنا واضعٌ يدي في يدك، وصائرٌ إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ على

---

(١) الحوجاء: الحاجة، واللوجاء: الحاجة أيضًا. (اللسان مادة لوج).

(٢) سجراء: واحده سجير وهو الصفي.

(٣) العباهل المباهل: المهمل من الإبل أو الناس.

(٤) الطلاحى: الإبل التي تشتكي بطونها من أكل الطلح. أراد هنا القوم الذين لا راعي لهم يصدهم عما يسوؤهم.

(٥) معنونة: من عنت الفرس أي حبستها بالعنان.

(٦) المدى: الغاية. يريد بلغ الغاية.

(٧) الصوى: معالم الطريق.

(٨) المهايع: مفرده مهيع، أي الطريق الواسع البين، أو البلد الواسع.

مَصالحهم، والفاتحَ لمَغالقهم، والمرشدَ لضالّتهم، والرادعَ لغَوايتهم، فقد أمر الله تعالى بالتعاونِ على البِرّ والتقوى، والتناصرِ على الحق، ودعنا نَقض هذه الحياة بصدور بريئةٍ من الغِلّ، سليمةٍ من الضغائن والحِقد، ونَلقَ الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضغْن؛ وبعد، فالناس ثُمامة[1] فارفُق بهم، واْحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تُشْقِ نفسك بنا خاصّةً منهم، واْترك ناجمَ الحقد حَصيدًا، وطائرَ الشرّ واقعًا، وبابَ الفتنة مُغلقًا، فلا قالَ ولا قِيل، ولا لَومَ ولا تعنيف، واللهُ على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عُبَيدة: فلما تأهّبتُ للنهوض قال عمرُ رضي الله عنه: كُنْ لدى الباب هُنَيْهَةً فلي معك ذرءٌ من القول، فوقفتُ وما أدري ما كان بعدي إلّا أنه لحِقني بوجه يندي تَهلّلا، وقال لي: قل لعليّ: الرُّقادُ مَحْلَمَه، والهوى مَقْحَمَه؛ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصَّافات: الآية ١٦٤]، وحقٌّ مُشاعٌ أو مقسوم، ونَبأٌ ظاهرٌ أو مكتوم؛ وإنّ أكيَسَ الكَيْسَى مَن منح الشاردَ تَألُّفًا، وقارَبَ البعيدَ تلطُّفًا؛ ووَزنَ كلّ شيء بميزانه، ولَم يَخلِط خَبَره بعِيانه؛ ولم يجعل فِترَه مكانَ شِبره دِينًا كان أو دنيا، ضلالًا كان أو هُدى، ولا خير في عِلم مستعمَلٍ في جهل، ولا خير في معرفة مَشُوبةٍ بنُكر، ولسنا كجِلدة رُفْغ[2] البعير بين العِجان والذَّنَب، وكلُّ صالٍ فبناره، وكلُّ سيلٍ فإلى قَرارِه؛ وما كان سكوتُ هذه العِصابة إلى هذه الغاية لِعيٍّ وشِيٍّ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رفق، وقد جَدَع الله بمحمد ﷺ أنفَ كلِّ ذي كِبْر، وقَصَم ظهرَ كلِّ جبّار، وقَطَع لسانَ كلِّ كذوب ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يُونس: الآية ٣٢] ما هذه الخُنزوانةُ[3] التي في فَراش[4] رأسِك؟ ما هذا الشجا المعترِضُ في مدارج أنفاسك؟ ما هذه القَذاةُ التي تغشّت ناظرَك؟ وما هذه الوَحَرةُ[5] التي أكلتْ شَراسِيفَك؟ وما هذا الذي لَبِستَ بسببه جلدَ النَّمِر، واشتَملتَ عليه بالشَّحناء والنُّكر، ولسنا في كِسرويّة كسرى، ولا في قَيصَريّة قَيصر، تأمّلْ لإخوان فارسَ وأبناء الأصفر؛ قد جعلهم الله جَزَرًا لسيوفنا، ودَريئةً لرماحنا، ومرعًى لطعاننا، وتَبعًا لسلطاننا؛ بل نحن نُور نبوّة، وضياءُ رسالة، وثمرةُ حِكْمة، وأُثْرةُ رَحْمة، وعِنوانُ نِعْمة، وظلُّ عِصْمة؛ بَيْن أمّة

(١) الثمامة: نبات هش ضعيف تسد به خصاص البيوت. كناية عن ضعف الناس.
(٢) الرُّفْغ: أصول الفخذين من باطن. (٣) الخنزوانة: الكبر.
(٤) الفَراش: عظام دقاق تلي القحف.
(٥) الوحرة: نوع من الحشرات، صغيرة حمراء، إذا شمت طعامًا أو أكلت منه سمته، وربما هلك من أكل منه بعدها. وقد شبهوا العداوة بها لأنها تلزق بالصدر لزوق الوحرة بالأرض.

مَهديّةٍ بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتْق والفتق، لها من الله إباءُ أَبِيّ، وساعدٌ قَوِيّ؛ ويدٌ ناصرة، وعَينٌ ناظرة؛ أتظن ظنًّا يا عليّ أن أبا بكر وَثَب على هذا الأمر مُفْتاتًا على الأمّة، خادعًا لها، أو متسلّطًا عليها؟ أتراه حَلّ عُقودَها وأحال عقولَها؟ أتراه جَعَل نهارَها ليلًا، ووَزْنَها كَيلًا؛ ويَقَظتَها رُقادًا، وصلاحَها فسادًا؟ لا والله، سلا[1] عنها فوَلِهَتْ له، وتطامن[2] لها فلَصِقتْ به، ومالَ عنها فمالت إليه، وٱشمأزّ دونها فاشتَملتْ عليه، حَبوةً حباه الله بها، وعاقبةً بلّغه الله إليها، ونعمةً سَربَلَه جَمالها، ويدًا أوجب عليه شكرَها وأمّةً نظر ٱللهُ به لها، والله تعالى أعلمُ بخَلقه، وأرأفُ بعباده، يَختار ما كان لهم الخِيرَة، وإنك بحيث لا يُجهَل موْضعُك من بيت النبوّة، ومعدِنِ الرسالة، ولا يُجحد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحمك بمَنْكِب أَضخَم من مَنْكِبك، وقُرْبٍ أمَسَّ من قَرابتك، وسنٌّ أعلى من سنّك، وشَيبةٍ أرْوَعَ من شيبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ في الجاهليّة وفرعٌ في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة، ولا تُذكَر فيها في مقدِّمةٍ ولا ساقَة؛ ولا تَضرِب فيها بذراع ولا إِصبَع، ولا تخرُج منها ببازلٍ ولا هُبَع[3]؛ ولم يزل أبو بكر حَبّةَ قلب رسول الله ﷺ، وعَلاقةَ نفسِه وعَيْبةَ سرِّه، ومَفزَعَ رأيِه، وراحةَ كفِّه، ومَرْمَقَ طَرْفِه؛ وذلك كلّه بمَحضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار شهرةً مغنيةً عن الدليل عليه، ولعمري إنك أَقْرَبُ إلى رسول الله ﷺ قَرابة، ولكنه أَقربُ منك قُربة[4]، والقَرابةُ لحمٌ ودم، والقُرْبَةُ نفْسٌ ورُوح، وهذا فرقٌ عَرَفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون؛ ومهما شكَكتَ في ذلك فلا تشُكَّ أن يدَ الله مع ٱلجماعة، ورِضوانه لأهل الطاعة، فٱدخل فيما هو خيرٌ لك ٱليومَ وأنفعُ غدًا، وٱلفِظْ من فيك ما يعلَقَ بلَهاتك، وٱنفُثْ سَخيمةَ صدرِك عن تُقاتِك، فإن يك في الأمَل طُول، وفي الأجل فُسحة، فستأكله مَريئًا أو غيرَ مَريء، وستشربه هَنيئًا أو غيرَ هنيء، حينَ لا رادَّ لقولك إلا من كان منك، ولا تابعَ لك إلّا من كان طامعًا فيك، يَمُصّ إهابَك، ويَعرُك أَديمَك، ويَزري على هَدْيِك، هنالك تَقرَع ٱلسنَّ من نَدَم، وتَجْرَع الماءَ ممزوجًا بدم، وحينئذ تَأسَى على ما مضى من عمرك، ودارج قوّتِك، فتوَدُّ أن لو سُقيتَ بالكأس التي أَبَيتَها، ورُدِدْتَ إلى حالتك ٱلتي استبرأتها، ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالِغُه، وغَيبٌ هو شاهِدُه، وعاقبةٌ هو ٱلمرجوُّ لسَرّائها وضَرّائها، وهو الوليّ ٱلحميد، الغفورُ ٱلودود.

---

(١) سلا: نسي. (٢) تطامن: انخفض، ابتعد عنها.

(٣) البازل: الجمل في التاسع سنيه. الهُبَع: الفصيل في آخر النتاج.

(٤) القربة: الوسيلة.

قال أبو عُبَيدة: فمشيت متزمّلًا[١] أنُوءُ كأنما أَخطُو على رأسي فَرَقًا من الفُرقة، وشَفَقًا على الأمّة، حتى وصلت إلى عليّ رضي ٱلله عنه في خَلاء، فأبثثته بَثّي كلّه، وبَرِئتُ إليه منه، ورَفِقتُ به، فلمّا سمِعها ووعاها، وسَرتْ في مفاصله حُميّاها؛ قال: حَلّتْ مُعْلَوّطة، وولّتْ مُخْرَوّطة[٢]، وأنشأ يقول: [من الرّجز]

إحدى لياليكِ فهِيسِي هِيسِي لا تَنعَمي الليلةَ بالتعريسِ[٣]

نَعم يا أبا عُبَيدة، أكلُّ هذا في أنفُس القوم يُحِسّون به، ويَضطَبِعون[٤] عليه؟ قال أبو عُبَيدة: فقلت: لا جوابَ لك عندي، إنما أنا قاض حقَّ الدِّين، وراتقٌ فَتْقَ المسلِمين، وسادٌّ ثُلْمةَ الأمّة، يعلم الله ذلك من جُلْجلان[٥] قلبي، وقَرارةِ نَفْسي؛ فقال عليٌّ رضي الله عنه: والله ما كان قعودي في كِسْر هذا البيت قصدًا للخلاف، ولا إنكارًا للمعروف، ولا زرايةً على مُسلم، بل لما وقَذني[٦] به رسولُ الله ﷺ مِن فراقِه، وأَودَعني من الحُزن لفقده، وذلك أنني لم أَشهد بَعده مَشهدًا إلا جدَّد عليّ حُزنًا، وذكّرني شجنًا، وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، وقد عَكَفتُ على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق منه رجاءَ ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عَمَلَه، وسَلّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيه؛ على أني ما علمت أن التظاهرَ عليّ واقع، ولي عن الحقّ الذي سَبق لي دافع، وإذ قد أُفعِم الوادي بِي، وحُشِد النادي من أجلي، فلا مَرحَبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّني، وفي النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْد، وسالفُ عهد، لَشَفَيتُ نفسي بخُنْصِري وبِنْصِري، وخُضتُ لُجّته بأَخْمَصي ومَفْرَقي، ولكنني مُلْجَمٌ إلى أن ألقى ربّي، وعنده أحتسِب ما نزل بي، وإني غادٍ إلى جماعتكم، مبايعٌ لصاحبكم، صابرٌ على ما ساءني وسرّكم، ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

قال أبو عُبَيدة: فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقَصَصت القول على غَرّه[٧]، ولم أختزل شيئًا من حُلوه ومُرّه، وبَكّرتُ غُدْوةً إلى المسجد، فلما كان

---

(١) متزملًا: متلففًا بغطاء. يريد أنه خرج مستخفيًا.

(٢) معلوطة: من الاعلواط، وهو ركوب الرأس على الأمور من غير روية. مخروّطة: سريعة.

(٣) هيسي هيسي: مثل يضرب للرجل يأتي الأمر فيحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد والهيس: السير.

(٤) يضطبعون به: ينطوون عليه. من الاضطباع أي جعل الشيء تحت الضبع، أي العضد.

(٥) جلجلان القلب: سويداؤه. (٦) وقذه: تركه عليلًا.

(٧) غره: الكسر المثني في جلد أو ثوب. يقال: اطو الثوب على غروره، أي على مكاسره. ويريد هنا بالغر الأصل.

صباحُ يومئذ إذا عليٌّ يَخترِق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فبايَعه، وقال خيرًا، ووَصَف جميلًا، وجلس زِمِّيتًا(١)، واستأذن للقيام فمضى، وتبِعه عمر مكرِمًا له، مستثيرًا لما عنده، فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما قعدت عن صاحبكم كارهًا له، ولا أتيته فَرَقًا، ولا أقول ما أقول تعلّة، وإني لأعرف منتهى طَرْفي، ومَحَطَّ قَدَمي، ومَنْزَع قوسي، ومَوقِعَ سهمي، ولكن قد أَزَمتُ على فأسي(٢) ثِقةً بربّي في الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضي الله عنهما: «كَفْكِفْ غَرْبَك(٣)، واْستوقِفْ سِرْبَك؛ ودع العصا بلِحائها، والدِّلاءَ على رِشائها(٤)، فإنّا مِن خَلْفِها وورائها؛ إن قَدَحْنا أورَينا، وإن مَتَحْنا أروَينا(٥)، وإن قَرَحْنا أدمَينا، ولقد سمعتُ أماثِيلَك التي لغَّزت فيها عن صدر أُكِل بالجوَى، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما إن سمعتَه ندمتَ على ما قلتَ؛ وزعمتَ أنك قعدتَ في كسر بيتك لِمَا وَقَذك به رسول الله ﷺ مِن فقدِه، فهو وَقَذَك ولم يَقِذْ غيرَك؟ بل مُصابُه أعَمُّ وأعظمُ من ذلك، وإنّ مِن حقِّ مُصابه ألا تَصْدَعَ شَمْلَ الجماعة بفُرقة لا عِصام لها، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان في بقائها، هذه العربُ حَولَنا، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لَم نَلتقِ في مَسائه؛ وزعمتَ أن الشوق إلى اللَّحاق به كاف عن الطمع في غيره، فمن علامة الشوق إليه نُصرةُ دينه، ومؤازَرةُ أوليائه ومعاوَنتُهم؛ وزعمتَ أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفَرّق منه، فمِن العُكوفِ على عهد الله النصيحةُ لعباد الله، والرأفةُ على خلق الله، وبَذْلُ ما يَصلُحون به، ويَرْشُدون عليه؛ وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر وقع عليك، وأيُّ حَقّ لُطَّ(٦) دونَك؟ قد سمعتَ وعلمتَ ما قالت الأنصار بالأمس سرًّا وجهرًا، وتقلّبت عليه بطنًا وظهرًا، فهل ذكرتْك، أو أشارت بك، أو وَجدتَ رضاهم عنك؟ هل قال أحد منهم بلسانه: إنك تصلُح لهذا الأمر، أو أومأ بعينه، أو هَمْهَم في نفْسه؟ أتظنّ أن الناس ضَلّوا من أجلك، وعادوا كفّارًا زهدًا فيك، وباعوا الله تعالى تحامُلًا عليك؟ لا والله، لقد جاءني عَقِيل بن زيادٍ الخزرَجيُّ في نَفَر من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيلُ بن يعقوبَ الخَزرَجي وقالوا: إن عليًا ينتظِر الإمامة، ويزعم أنه أولى بها من غيره، وينكر على

(١) زميتا: وقورًا.
(٢) أزمت على فأسي: كتمت ما في نفسي. وأصله أزم الفرس على فأس اللجام: أي عض وأمسك.
(٣) الغرب: الدموع. (٤) الرشاء: الحبال.
(٥) أن متحنا أروينا: أن استنبطنا الماء سقينا. (٦) لط: جحد، منع.

من يَعقِد الخلافة، فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القول في نحورهم حين قالوا: إنه يَنتظِر الوَحْيَ، ويَتوكَّف[1] مناجاةَ المَلَك، فقلت: ذلك أمرٌ طواه الله تعالى بعد نبيه محمد ﷺ، أكان الأمر معقودًا بأُنشُوطة[2]، أو مشدودًا بأطراف لِيطة[3]؟ كلّا والله، لا عَجْماءَ بحمد الله إلا وقد أفصَحَت، ولا شَوكَاء إلّا وقد تفتّحت؛ ومِن أعجبِ شأنِك قولُك: لولا سالفُ عهد، وسابقُ عَقْد، لشَفَيتُ غيظي، وهل تَرَك الدِّينُ لأهله أن يَشفُوا غيظَهم بيد أو لسان؟ تلك جاهليّةٌ قد استأصل الله شأفتَها، واقتَلَع جرثومَتها؛ وهَوّر[4] ليلَها، وغَوَّر سَيلَها؛ وأبدَل منها الرَّوحَ والرَّيحان، والهدى والبرهان؛ وزعمتَ أنك مُلجَم، ولَعمري إنّ من اتقى الله، وآثَرَ رضاه، وطَلَب ما عنده، أمسك لسانَه، وأَطْبَقَ فاه، وجَعل سعيَه لما وراه.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: مهلًا مهلًا: يا أبا حفص، والله ما بَذلتُ ما بَذلتُ وأنا أريد نَكْثَه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغي حِوَلًا عنه؛ وإن أخسرَ الناس صَفْقةً عند الله من آثَرَ النفاق، واحتَضن الشِّقاق؛ وفي الله سلوةٌ عن كل كارث، وعليه التوكّل في كلّ الحوادث؛ اِرجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب، مَبرودَ الغَليل، فَسيحَ اللَّبان[5]، فَصيحَ اللسان، فليس وراء ما سَمعتَ وقلتُ إلا ما يَشُدُّ الأَزْر، ويَحُطّ الوِزْر، ويَضَع الإصر، ويجمع الأُلفة بمشيئة الله وتوفيقه.

قال أبو عُبَيدة رضي الله عنه: فانصرف عليٌّ وعمرُ رضي الله عنهما، وهذا أصعب ما مرّ عليّ بعد رسول الله ﷺ.

ومن كلام عائشةَ أمِّ المؤمنين بنتِ أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما، وهو مما اتصل إلينا بالرواية الصحيحة، والأسانيد الصريحة، عن محمد بنِ أحمدَ بنِ أبي المُثنَّى، عن جعفر بن عَون، عن هِشام بن عُروةَ، عن أبيه، عن عائشةَ رضي الله عنها: أنه بلغها أنّ أقوامًا يَتناولون أبا بكر رضي الله عنه، فأرسلَتْ إلى أَزْفَلَةٍ من الناس، فلَمّا حضروا أَسدَلتْ أستارَها، وعَلَت وِسادَها، ثم قالت: أبِي وما أَبِيَه! أبِي والله لا تَعْطوه الأَيْدي، ذاك طَوْدٌ مُنِيف، وظلٌّ مَدِيد؛ هيهاتَ، كذبت الظُّنون، أَنْجَحَ إذ أَكْدَيتم، وسَبَقَ إذ ونيتم: [من البسيط]

* سَبْقَ الجَوادِ إذا استَوْلى على الأَمَدِ *

---

(١) يتوكف: ينتظر. يقال: توكف الخبر: انتظره.

(٢) الأنشوطة: عقدة تحل إذا جذب أحد طرفيها. (٣) الليطة: قشر القصب.

(٤) يقال: تهوّر الليلُ: ولّى أكثره وانكسر ظلامُه.

(٥) اللبان: الصدر.

فَتَى قريشٍ ناشئًا، وكَهْفُها كَهلًا، يَفُكّ عانيَها، ويَرِيش مُمْلِقَها، ويَرْأَب شَعْبَها، ويَلُمّ شَعَثَها، حتى حَلِيَته قلوبُها، ثم ٱستَشْرى في دين الله، فما بَرِحت شَكِيمتُه في ذات ٱلله عزّ وجلّ حتى ٱتَّخذ بفِنائه مسجدًا يُحْيي فيه ما أمات المبطلون، وكان رحمه الله غزيرَ الدَّمْعة، وَقِيذَ الجوانح، شجيَّ النَّشِيج[1]، فانعطفتْ إليه نسوانُ مكّة وولدانُها يسخرون منه، ويستهزئون به، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥] فأكبَرتْ ذلك رجالاتُ قريش، فحَنَت قِسيَّها، وفوَّقتْ[2] سهامَها، وامتثَلوه[3] غرَضًا فما فَلّوا له صَفاة[4]، ولا قَصَفوا له قَناة، ومَرّ على سِيسائه[5]، حتى إذا ضَرَب الدِّينُ بجِرانِه[6]، وألقَى بَرْكَه، ورَسَت أوتادُه، ودخل الناسُ فيه أفواجًا، ومن كلّ فِرقة أرسالًا وأشتاتًا، اختار الله لنبيّه ما عنده، فلمّا قبض الله نبيَّه ﷺ نَصَب الشيطان رِواقَه، ومَدّ طُنُبَه، ونَصَب حبائلَه، وأجلبَ بخَيلِه ورَجلِه، واضطرب حبلُ الإسلام، ومَرِج عهدُه، وماج أهلُه، وبُغِيَ الغوائلُ، وظَنّت رجال أن قد أكْثَبَ نَهزُها، ولات حين الذين يَرجُون، وأنّى والصِّدّيقُ بين أظهُرِهم؟ فقام حاسرًا مشمِّرًا، فجمع حاشيتيه، ورَفَع قُطريه، فرَدّ رَسَنَ الإسلام على غَرْبه، ولَمّ شَعَثَه بطبِّه[7]، وأقام أَوَدَه[8] بثِقافه، فابذَعَرّ النفاقُ بوَطئه، وٱنتاش الدِّينَ فَنَعَشه، فلمّا أراح الحقَّ على أهله، وقَرّر الرؤوسَ على كواهلها، وحَقَن الدماء في أُهُبها، أتته منيّته، فسَدّ ثُلْمتَه بنظيره في الرحمة، وشَقيقِه في السِّيرة والمَعدِلة، ذاك ٱبنُ الخطّاب، لله دَرّ أمٍّ حَفَلت له، ودَرّت عليه! لقد أَوحدتْ به، ففَنَّخ الكفرةَ ودَيَّخها، وشَرَّد الشِّركَ شَذَرَ مَذر[9]، وبَعَج الأرضَ وبَخَعها[10]، فقاءت أُكُلَها، ولَفَظَت جَنِينها، تَرْأَمه ويَصدِف عنها، وتَصدَّى له ويأباها، ثم وَزَّعَ فيها فيئَها، ووَدَّعها كما صحبها؛ فأَروني ما ترتابون؟ وأيَّ يومَيْ أبي تَنْقِمون؟ أيومَ إقامتِه إذ عَدَل فيكم، أم يومَ ظَعْنِه وقد نَظَر لكم؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت: أَنشُدكم الله، هل أَنكرتم مما قلتُ شيئًا؟ قالوا: اللهمّ لا.

---

(١) النشيج: البكاء من غير انتحاب.
(٢) فوقت سهامها: جعلت لها فوقًا. والفوق: مشق رأس السهم حيث يقع الوتر. يعني صوبتها.
(٣) امتثلوه غرضًا: جعلوه هدفًا يرمى.
(٤) الصفاة: الصخرة.
(٥) السيساء: منتظم فقار الظهر.
(٦) الجران: باطن عنق الفرس.
(٧) طبّه: مداواته.
(٨) الأود: الاعوجاج.
(٩) شذر مذر: أي فرقوا في كل جهة.
(١٠) بخعها: أذلّها وأتعبها.

ذكر شرح غريب رسالتها رضي الله عنها

الأَزْفَلَة: الجماعةُ. وتَعْطُوه: تَناوَلُه. والطَّوْد: الجبلُ. والمُنِيف: المُشرِفُ، وأَكْدَيْتم: خِبتم ويُئِسَ من خيركم. ووَنَيتم: فَتَرتم وضعفتم. والأَمَد: الغايةُ. ويَرِيش: يُعطِي ويُفْضِل. والمُمْلِق: الفقيرُ. ويَرأَب: يَجمَعُ. والشَّعْبُ: المتفرِّقِ. ويَلُمّ: يَضُمّ. واستَشرَى: جَدَّ وانكمش. والشَّكِيمةُ: الأَنفةُ والحَميّةُ. والوَقِيذُ: العَليلُ. والجوانح: الضلوع القِصارُ التي تقرُب من الفؤاد. والشجيُّ: الحَزينُ. والنَّشيجُ: صوتُ البكاء. وانعطفتْ: اِنثنت. وامتثلوه: مثلوه. والغرض: الذي يُقصَد للرَّمْيِ. وفَلّوا: كَسَروا. والصَّفاةُ: الصخرة الملْساءُ. وقَصَفوا: كَسَروا. وسِيساؤه: شدّته، والسِّيساءُ: عَظْم الظهرِ، والعرب تضربه مَثَلًا لشِدّة الأمر، قال الشاعر(١): [من الطويل]

لقد حَمَلت قيسُ بنُ عَيْلانَ حربَنا على يابِس السِّيساءِ مُحْدَودِبِ الظَّهرِ

والجِرانُ: الصَّدْرُ. ورَسَتْ: ثبتت. ومَرِجَ: اِختَلَط. وماجَ أهلُه: اِضطربوا وتنازعوا. وبُغِيَ الغوائلُ، معناه وطُلِب البلايا. وأَكْثَبَ: قَرُبَ. والنَّهْزُ: اختلاسُ الشيء والظَّفَرُ به مبادَرةً. ولات حين الذي يطلبون، معناه: وليست الساعةُ حينَ ظَفَرِهم. وقولها: فجَمَع حاشيتيه ورَفَع قُطْريه، معناه تحزّمَ للأمر وتأهَّبَ له. والقُطْرُ: الناحيةُ. والطبُّ: الدواء. والأَوَدُ: العِوَجُ. والثِّقافُ: تقويمُ الرماح وغيرِها. وابْذَعَرَّ: تَفرَّق. وانتاش الدِّينَ، أي أزال عنه ما يُخاف عليه. ونَعَشَه: رَفَعَه. وأراح الحقَّ على أهله، أي أعاد الزكاةَ التي مَنعتها العرب فقاتلَ عليها حتى رُدّت إلى حكم رسول الله ﷺ. وقَرَّرَ الرؤوسَ على كواهلها، معناه وقَى المسلمين القتلَ. والكاهلُ: أعلى الظهر وما يتصل به. وحَقَنَ الدماءَ في أُهُبها، معناه أنه حقن دماءَ المسلمين في أجسادهم. والأُهُب: جمعُ إهاب، وأصلُ الإهاب الجِلد، فكَنتْ به عن الجسد. وقولها: لله دَرّ أمٍّ حَفَلت له، أي جمعت له اللبن. وقولها: أوحدتْ به، معناه جاءت به منفردًا لا نظير له. وقولها: ففَنَّخ الكفرةَ، معناه أذلَّها. وديَّخها: صغَّر بها. وبَعَج الأرضَ وبَخَعها، معناه شَقَّها واستقصى غلّتَها. وشَذَرَ مَذَر، معناه تفريقًا، يقال: شَذَرَ مَذَر، وشَغَرَ بغَر، بمعنى واحد. وقولها: حتى قاءت أُكُلَها، معناه أخرجت الخير. وتَرأَمُه: تعطف عليه. وتَصدَّى له: تَعرَّضَ له.

---

(١) الشاعر هو الأخطل، الشاعر الأموي المشهور.

ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كَتَب به إلى معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ جوابًا عن كتابه ـ وهو من محاسن الكتب ـ كتب رضي الله عنه:

أما بعد، فقد أتاني كتابك تذكُرُ فيه اْصطفاءَ الله تعالى محمدًا ﷺ لدِينه، وتأييدَه إيّاه بمن أيّده به من أصحابه، فلقد خَبأَ لنا الدهرُ منك عَجَبا، أفطَفِقت تُخبِرنا بآلاء الله عندنا؟ فكنتَ في ذلك كناقِلِ التمر إلى هَجَرَ، أو داعيَ مِدْرَهِ إلى النِّضال؛ وزعمتَ أنّ أفضلَ الناس في الإسلام فلانٌ وفلانٌ، فذَكَرتَ أمرًا إن تمّ اْعتزلك كُلُّه، وإن نَقَص لم يَلحَقْك قُلُّه؛ وما أنت والفاضلَ والمفضول، والسائلَ والمسؤول؟ وما الطُّلَقاءُ وأبناءُ الطُّلَقاءِ والتميز بين المهاجرين الأوّلِين، وترتيبَ درجاتِهم، وتعريفَ طبقاتِهم؟ هيهاتَ لقد «حَنَّ قِدْحٌ ليس منها»[1]، وطفِق يَحْكُم فيها من عليه الحُكْم لها، ألا تَرْبَعَ على ظَلْعِك[2]، وتَعرِف قُصورَ ذَرْعِك، وتتأخَّر حيث أخّرك القدر، فما عليك غَلَبَةُ المغلوب، ولا لك ظَفَرُ الظافر، وإنك لذَهابٌ في التِّيه، رَوّاغٌ عن الفضل، ألا ترى ـ غيرَ مُخْبِرٍ لك، ولكن بنعمة الله أُحدِّث ـ أن قومًا استُشهِدوا في سبيل الله مِن المهاجرين ـ ولِكلٍّ فضل ـ حتى إذا استُشهِد شَهِيدُنا (هو حمزة) قيل: سَيِّد الشهداء، وخصّه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرةً عند صلاته عليه؛ ألا ترى أن قومًا قُطِّعتْ أيديهم في سبيل الله ـ ولِكلٍّ فضل ـ حتى إذا فُعِل بأحدنا ما فُعِل بواحدهم قيل: الطيّار في الجنة، وذو الجناحين (هو جعفر) ولولا ما نهى الله عنه مِن تزكيةِ المرء نفسَه لَذَكَر ذاكرٌ فضائلَ جَمّة تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمُجّها آذانُ السامعِين، فدع عنك مَن مالت به الدنيّةُ فإنا صنائع ربنا، والناسُ بَعدُ صنائعُ لنا، لَم يمنعنا قديمُ عزِّنا، وعادى طَوْلِنا على قومك أن خلَطناهم بأنفُسنا، فنكحنا وأَنكحنا فِعْلَ الأكْفاء ولستم هناك، وأنَّى يكون ذلك كذلك؟ ومنّا النبيُّ ومنكم المكذِّب[3]، ومنّا أَسَدُ الله، ومنكم أَسَدُ الأحلاف، ومنا سيدا شباب أهل الجنة، ومنكم صِبْيَةُ النار، ومنا خيرُ نساء العالمين، ومنكم حَمّالةُ الحطب؛ فإسلامُنا قد سُمِع، وجاهليّتنا لا تُدْفَع، كتابُ الله يجمع لنا ما شَذّ عنّا وهو قوله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ

(١) حن قِدْحٌ ليس منها: مثل يضرب لمن يفتخر بقبيلة ليس منها.

(٢) الظلع: العيب، والعرج.

(٣) المكذب: أبو جهل، وأسد الله: حمزة بن عبد المطلب. وأسد الأحلاف: أبو سُفيان. وسيدا شباب أهل الجنة: الحسن والحسين ولدا عليّ بن أبي طالب. وصبية النار: أولاد مروان بن الحكم. وخير نساء العالمين فاطمة بنت النبي. وحمالة الحطب: أم جميل بنت حرب عمة معاوية وزوجة أبي لهب.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: الآية ٦٨] فنحن مرّةً أَولَى بالقَرابة، وتارة أَولَى بالطاعة؛ ولما احتَجّ المهاجرون على الأنصار يوم السَّقيفة برسول الله ﷺ فَلَجُوا[1] عليهم، فإن يكن الفُلْجُ به فالحقُّ لنا دونكم، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم؛ وزعمتَ أنّي لكلِّ الخلفاء حَسَدتُ، وعلى كلِّهم بَغيتُ، فإن يكن ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك، فتكون المَعذِرةُ إليك: [من الطويل]

* وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[2] *

وقلتَ: إني كنت أُقادُ كما يقاد الجملُ المخشُوشُ[3] حتى أبايعَ، ولعمر الله لقد أردتَ أن تذُمّ فحمِدتَ، وأن تَفضَح فافتضحت، وما على المسلم من غَضاضةٍ في أن يكون مظلومًا ما لم يكن شاكًّا في دِينه، ولا مرتابًا في يقينه، وهذه حُجّتي إلى غيرك قَصْدُها، ولكني أَطلقتُ لك منها بقدر ما سنح من ذِكْرِها.

ثم ذَكرتَ ما كان من أمري وأمر عثمانَ، فلك أن تجاب عن هذه لِرَحِمِه منك، فأيُّنا كان أَعْدَى له، وأَهْدَى إلى مَقاتله؟ أَمَن بَذَل له نُصرتَه فاستقعده واْستكفّه، أمّن اْستنصره فتراخَى عنه، وبثَّ المَنُونَ إليه، حتى أَتى قَدَرُه عليه؟ كَلّا والله ﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾ [الأحزاب: الآية ١٨] وما كنتُ أَعتذِر من أنّي كنتُ أَنقِم عليه أحداثًا، فإن كان الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له «فرُبَّ مَلُوم لا ذنبَ له»: [من الطويل]

* وقد يستفيد الظِّنّةَ المتنصِّحُ[4] *

وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما اْستطعتُ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [هود: الآية ٨٨]؛ وذكرتَ أنه ليس لي ولأصحابي إلا السيف، فلقد أَضحكتَ بَعْد استعبار، متى أَلفيتَ بني عبد المطَّلب عن الأعداء ناكِلين[5]، وبالسيوف مخوَّفِين؟ «لَبِّثْ قليلًا

---

(١) فلج: فاز.

(٢) ظاهر عنك عارها: لم يعلق بك عارها. وقوله: «وتلك شكاة ظاهر عنك عارها» عجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي وصوره: وعيرها الواشون أني أحبها. (ابن منظور، لسان العرب، مادة ظهر).

(٣) المخشوش: الذي أدخل الخشاش في أنفه. والخشاش بكسر الخاء: خشبة تدخل في أنفس الجمل.

(٤) الظنة: التهمة. وصدر هذا البيت: ولم سقت في آثارهم من نصيحة.

(٥) الناكل: المتراجع والمحجم.

يَلحق الهَيجا حَمَلْ[١] فسيطلُبك من تَطلُب، ويقرُب منك ما تَستبعِد، وأنا مُرْقِلٌ نحوَك في جَحفَل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامُهم، ساطع قَتامُهم، متسربِلينَ سَرابِيلَ الموت، أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربِّهم، قد صَحبتْهم ذرّيّةٌ بَدْريّة، وسيوفٌ هاشميّة، قد عرفت مَواقعَ نِصالِها في أخيك وخالِك وجَدِّك وأهلِك»[٢] ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٣].

ومن كلام الأحنف بن قيس حين وَبّخه معاويةُ بن أبي سفيانَ بتخذيله عائشةَ رضي الله عنها، وأنه شَهِد صِفّين، وقال له: فَعلتَ وفَعلتَ؛ فقال: يا أمير المؤمنين، لِمَ تَرُدُّ الأمورَ على أعقابِها؟ أما والله إنّ القلوبَ التي أَبغضناك بها لَبين جوانِحنا، والسيوفَ التي قاتلناك بها لَعلَى عواتِقِنا، ولئن مَدَدْتَ بشِبرٍ من غَدر، لَنَمُدّنّ باعًا من خَتْر[٣]، ولئن شئتَ لتَستصفِينّ كَدَرَ قلوبِنا بصفوِ حِلمك؛ قال معاوية: أَفعلُ.

وجلس معاويةُ يومًا وعنده وجوهُ الناس، وفيهم الأحنف، فدخل رجلٌ من أهل الشام، فقام خطيبًا، فكان آخِرَ كلامه أن لَعَن عليًّا رضي الله عنه، فأَطرق الناس، وتكلّم الأحنفُ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل آنفًا ما قال لو عَلِم أن رضاك في لعن المرسلين لَلعَنهم، فاتّق الله، ودَع عليًّا فقد لقِيَ الله، وأُفرد في حُفرتِه، وخلا بعمله، وكان والله ـ ما عَلِمنا ـ المبرِّزَ بسبْقِه، الطاهرَ في خُلقه؛ المَيمونَ النَّقيبه، العظيمَ المصيبه. قال معاويةُ: يا أحنفُ، لقد أَغضيتَ العينَ على القَذى، وقلتَ بغير ما تَرى، وأَيم الله لتَصعَدَنّ المنبر فَلَتَلْعَننّه طائعًا أو كارهًا؛ فقال الأحنف: إن تُعْفِني فهو خير، وإن تجبُرني على ذلك فوالله لا تجري بشفتاي؛ فقال معاويةُ؛ قم فاصعَد؛ قال: أما والله لأُنصفنّك في القول والفعل؛ قال معاويةُ: وما أنت قائلٌ إن أنصفتني؟ قال: أَصْعَدُ فأَحمَدُ الله وأُثني عليه وأصلّي على نبيّه، ثم أقول: أيها الناس، إنّ معاويةَ أمرني أن ألعن عليًّا، ألا وإنّ عليًّا ومعاويةَ اختَلفا واقتَتَلا، وادّعَى كلُّ واحد منهما أنه مبغِيٌّ عليه وعلى فِئتِه، فإذا دعوتُ فأَمِّنوا رحمكم الله؛ ثم أقول: اللّهمّ العن أنت وملائكتُك وأنبياؤك ورسُلك وجميعُ خلقك الباغيَ منهما على صاحبه، والفِئةَ الباغية على المبغِيِّ عليها، آمينَ يا رب العالمين؛ فقال معاويةُ: إذَنْ نُعْفيك يا أبا بَحر.

---

(١) لبث قليلًا يلحق الهيجا حمل: مثل يضرب للتهديد بالحرب وحمل هو ابن بدر. (انظر لسان العرب، مادة حمل).

(٢) أخوه: حنظلة. وخاله: الوليد بن عتبة. وجده: عتبة بن ربيعة.

(٣) الختر: القبح.

وأَتَى الأحنفُ مُصْعَبَ بنَ الزبير يكلّمه في قومٍ حبسهم فقال: أصلح الله الأميرَ، إن كانوا حُبِسوا في باطلٍ فالحقُّ يُخرِجهم، وإن كانوا حُبسوا في حقٍّ فالعفوُ يسَعُهم؛ فخلاهم.

ولما قَدِم وفدُ العراق على معاويةَ وفيهم الأحنفُ، خرج الآذنُ فقال: إنّ أمير المؤمنين يعزم عليكم أَلّا يتكلّم أحدٌ إلّا لنفسه، فلما وَصَلوا إليه قال الأحنف: لولا عَزْمةُ أمير المؤمنين لأَخبرتُه أن دافّةَ (أي الجماعةُ) دَفَّت[1]، ونازلةَ نَزَلتْ، ونائبةَ نابت، وكلُّهم بهم الحاجةُ إلى معروف أمير المؤمنين وبِرّه؛ فقال: حسبُك يا أبا بحر، فقد كَفَيتَ الغائبَ والشاهدَ.

ولما خطب زِيادُ ابنُ أَبيه بالبَصْرة قام الأحنف فقال:

لله الأمير! قد قلتَ فأَسمَعتَ، ووَعَظتَ فأَبْلغتَ؛ أيها الأمير، إنما السّيفُ بحَدِّه، والقوسُ بشدِّه، والرجلُ بمجدِه؛ وإنما الثناءُ بعد البلاء، والحمدُ بعد العطاء؛ ولن نُثْنِيَ حتى نَبتلِي، ولا نَحمَد حتّى نُعطَى.

ولما حُكِّم أبو موسى الأشعريُّ أتاه الأحنف فقال له: يا أبا موسى، إنّ هذا مَسِيرٌ له ما بعده مِن عزّ الدنيا أو ذلّها آخِرَ الدهر، اُدعُ القوم إلى طاعة عليٍّ، فإن أبَوْا فادعُهم أن يختار أهلُ الشام مِن قريشِ العراقِ مَن أحبّوا، ويختارَ أهلُ العراقِ مِن قريشِ الشامِ من أحبّوا، وإياك إذا لقِيتَ ابنَ العاص أن تصافحه بنيّة، وأن يُقْعدك على صدر المجلس، فإنها خَديعةٌ، وأن يضُمَّك وإيّاه بيتٌ فيكمن لك فيه الرجال، ودعه فليتكلّم لتكون عليه بالخيار، فالباديءُ مُستغلَقٌ، والمجيبُ ناطقٌ؛ فما عَمِل أبو موسى إلّا بخلاف ما قال الأحنفُ وأشارَ به، فكان من الأمر ما كان؛ فلقيه الأحنف بعد ذلك فقال له: أَدْخَلَ والله قدميك في خُفٍّ واحدةٍ.

وقال بخراسان: يا بني تَميم، تَحابّوا تَجتَمعْ كلمتُكم وتَباذَلوا تَعتدلْ أمورُكم، وابدؤوا بجهادِ بطونِكم وفروجِكم يصلَح دِينُكم، ولا تَغُلّوا[2] يَسلَمْ لكم جهادُكم.

ولمّا قدِمت الوفود على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قام هِلال بنُ بِشر فقال: يا أمير المؤمنين: إنا غُرّةُ[3] مَنْ خَلْفَنا مِن قومنا، وسادةُ مَن وراءنا مِن أهل مصرِنا؛ وإنك إن تَصرِفنا بالزيادة في أعطياتنا، والفرائِض لعيالاتنا، يَزْدَدْ بذلك

(١) دفت: نزلت أو أتت.
(٢) غلّ غلولًا: خان في المغنم.
(٣) غرّة القوم: أشرافهم.

الشريفُ تأميلًا، وتكن لهم أبا وَصُولا؛ وإن تكن مع ما نَمُتّ به من وسائلك، وندلِي به من أسبابك كالجدل[١] لا يَحُلّ ولا يَرتحِل، نَرجِعْ بأُنوفٍ مصلُومة[٢]، وجُدودٍ[٣] عاثِرة، فمِحْنا[٤] وأهالينا بسَجْلٍ مُتْرَعٍ[٥] (أي الدَّلْو الملآنة) من سِجالك المترَعة.

وقام زيد بنُ جَبَلَةَ فقال: يا أمير المؤمنين، سَوِّد الشريفَ، وأكرِم الحسِيبَ، وازرع عندنا من أياديك ما تسدّ به الخَصاصة، وتطرد به الفاقة؛ فإنا بِقُفٍّ[٦] من الأرض يابِس الأكناف، مقشعرِّ الذُّرْوَة، لا مُتّجَرَ ولا زرع، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بِمَرْأًى ومَسْمَع.

فقام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ ٱلخير بيد الله، والحِرص قائدُ الحِرْمان، فٱتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قِيلًا ولا قالا، وٱجعل بينك وبين رعيّتك من العدل والإنصاف سببًا يكفيك وِفادةَ الوُفود، وٱستماحةَ الممتاح[٧]، فإنّ كلَّ ٱمرىء إنما يَجمع في وِعائه الأقلَّ ممن عسى أن تقتحِمَه الأعينُ فلا يُوفد إليك.

ومن كلام أمِّ الخير بنت الحَرِيش البارِقيَّةِ ـ وكانت من الفصحاء ـ

حُكِي أنها لما وَفَدت على معاوية قال لها كيف كان كلامُك يوم قُتِل عَمّار بنُ ياسِر؟ قالت: لم أكن والله زَوَّرتُه[٨] قَبْلُ ولا روَّيته بعد، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثَهن لساني حين الصدمة، فإن شئتَ أن أُحْدِث لك مقالًا غيرَ ذلك فعلتُ، قال: لا أشاء ذلك، ثم ٱلتفت إلى أصحابه فقال: أيّكم حَفِظ كلام أمِّ الخير؟ فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورةَ الحمد، قال: هاته، قال: نَعم، كأنّي بها يا أمير المؤمنين عليها بُرْدٌ زَبِيديّ، كَثيفُ الحاشية، وهي على جَمَل أَرْمَكَ[٩]، وقد أحيطَ حولَها وبيدها سوطٌ منتشرُ الضَّفْر[١٠]، وهي كالفحلَ يهدُر في شِقْشِقَته تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [الحَج: الآية ١] إن الله قد أَوضح الحقّ، وأبان الدليل، ونَوَّر السبيل، ورَفَع العَلَم، فلم يَدَعْكم في عَمْياءَ

---

(١) الجَدْل: العضو.
(٢) مصلومة: مقطوعة، من صلم أي قطع.
(٣) جدود: جمع جد، أي حظ.
(٤) محنا: أعطنا، من المِنْح أي العطاء.
(٥) سجل مترع: دلو ملآن.
(٦) القف: ما ارتفع من الأرض.
(٧) الممتاح: الطالب المستخرج، ومتح الماء: استخرجه.
(٨) زورته: هذبته وثقفته، من قولهم زوَّر الحديث إذا أزال زوره أي اعوجاجه.
(٩) أرمك: من الرمكة، وهي لون التراب.
(١٠) الضَّفْر: الفتل.

مبهَمة، ولا سوداءَ مدلهِمّة؛ فأنّى تريدون رحمكم الله؟ أفِرارًا عن أمير المؤمنين، أم فِرارًا من الزَّحْف، أم رغبةً عن الإسلام، أم ٱرتدادًا عن الحق؟ أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: الآية ٣١] ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهمّ قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وٱنتَشرَت الرغبة، وبيدِك يا رب أزِمّةُ القلوب، فٱجمع الكلمةَ على التقوى، وألِّف القلوبَ على الهدى، ورُدّ الحقَّ إلى أهله؛ هلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والوَصِيّ الوفيّ، والصّدّيقِ الأكبر؛ إنها إحَنٌ بَدْريّة(١) وأحقادٌ جاهلية، وضغائنُ أُحُديّة(٢)، وَثَبَ بها معاويةُ حين الغَفلة ليُدرِك ثاراتِ بني عبد شمس؛ ثم قالت: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢]، صبرًا معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتِلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دِينكم، وكأنّي بك غدًا قد لقِيتم أهلَ الشام كحُمُرٍ مستنفِرة، فرّت من قسورة، لا تَدرِي أين يُسْلك بها من فِجاج الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيا، واشتروا الضَّلالَة بالهدى، وباعوا البصيرةَ بالعمى، و﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٠]، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيَطلبُون الإقالة، إنه والله مَن ضَلّ عن الحقّ وقع في الباطل، ومن لم يَسكُن الجنّة نزل النار؛ أيها الناس، إنّ الأكياس استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، وٱستبطؤوا مُدّةَ الآخرة فسعَوْا لها؛ والله أيها الناس، لولا أن تَبطُل الحقوقُ، وتعطَّل الحدودُ، ويَظهرَ الظالمون، وتَقوى كلمةُ الشيطان، لما ٱخترنا ورود المنايا على خَفض العيش وطِيبه، فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ؟ عن ٱبن عمّ رسول الله ﷺ، وزوج ٱبنتِه، وأبِي ٱبنيه، خلق من طينته، وتفرّع عن نَبْعتِه، وخصّه بسِرّه، وجعلَه بابَ مدينته، وأعلَمَ بحبّه المسلِمين، وأبان ببغضه المنافقِين؛ فلم يزَل كذلك يؤيّده الله بمعُونتِه، ويَمضِي على سَنَن استتّه، لا يعرّج لراحة اللذّات؛ وهو مفلِّقُ الهام، ومكسّر الأصنام؛ إذ صلّى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون؛ فلم يزل كذلك حتى قَتَل مبارِزي بَدْر، وأفنى أهل أُحُد، وفَرّق جَمْعَ هَوازن، فيا لها وقائعَ زرعَتْ في قلوب قوم نفاقًا، ورِدّةً وشِقاقا! وقد ٱجتهدتُ في القول، وبالغتُ في النصيحة، وبالله التوفيق؛ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

(١) إِحَنٌ بدرية: مفرده إحنة، أي الحقد. بدرية نسبة إلى موقعة بدر التي نسبت بين المسلمين والمشركين وانتصر فيها النبي على المشركين.

(٢) ضغائن أحدية: نسبة إلى أحد المعركة التي جرت بين المسلمين والمشركين وانتصر فيها المشركون.

فقال معاويةُ: والله يا أمّ الخير[١] ما أردتِ بهذا إلا قتلِي، والله لو قتلتكِ ما حَرِجتُ في ذلك؛ قالت: والله ما يسُوؤني يا ٱبنَ هند أن يُجريَ الله ذلك على يدَيْ من يُسعِدُني الله بشقائه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفُضول، ما تقولين في عثمان بن عفّان؟ قالت: وما عسَيتُ أن أقول فيه؟ استَخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيهًا[٢] يا أمّ الخير، هذا والله أصلُكِ الذي تَبنِين عليه، قالت: لكن الله يشهد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النّساء: الآية ٧٩] ما أردتُ بعثمانَ نقصًا، ولقد كان سَبّاقًا إلى الخيرات، وإنه لرفيعُ الدّرجات؛ قال: فما تقولين في طَلحةَ بنُ عُبَيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طَلحةَ؟ اِغتِيل مِن مأمنِه، وأُتِيَ من حي لم يَحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنّة؛ قال: فما تقولين في الزُّبير؟ قالت: يا هذا لا تدَعْني كَرجيع الضَّبع يُعْرَكُ في المِرْكَن[٣]؛ قال: حقًا لتقولِنّ ذلك، وقد عَزَمتُ عليكِ؛ قالت: وما عسَيتُ أن أقول في الزُّبير ٱبنِ عمة رسول الله ﷺ وحَواريِّه، وقد شَهد له رسول الله ﷺ بالجنّة، ولقد كان سَبّاقًا إلى كلّ مَكْرُمةٍ في الإسلام؛ وإني أسألك بحق الله يا معاوية ـ فإن قريشًا تحدّث أنك مِن أحلمِها ـ أن تسَعَني بفضل حِلمك، وأن تُعفِيَني من هذه المسائل، وٱمض إلى ما شئتَ من غيرها؛ قال: نَعم وكرامة، قد أعفَيتُكِ، ورَدَّها مكرّمةً إلى بلدها.

وممن ٱشتَهَر بالفصاحة والبلاغة زِياد ٱبن أبِيه، والحجّاجُ بنُ يوسفَ الثّقفيُّ، وسنذكر نُبْذةً من كلامها في التاريخ عند ذكرنا لأخبارهما لمّا وَلِيَ كلٌّ منهما العراقَ، وما خطب الناسَ به، ولنذكُرْ في هذا الموضع من كلام الحجّاج ما لم نُورِدْه هناك.

قيل: لما قَدِم الحجّاجُ البَصرةَ خطب فقال: أيها الناس، مَن أعياه داؤه، فعندي دواؤه؛ ومَن ٱستطال أجَلَه، فعليّ أن أعجّلَه، ومَن ثَقُل عليه رأسُه وَضعتُ عنه ثِقْلَه؛ ومَن استطالَ ماضي عمره قصّرتُ عليه باقيَه؛ إن للشّيطان طَيْفًا، وللسّلطانِ سيفًا؛ فمَن سَقُمت سَريرتُه، صحّت عقوبتُه؛ ومَن وضعه ذَنْبُه، رفعَه صَلْبُه، ومن لم تسعْه العافية، لَم تضق عنه الهَلَكة؛ ومن سبقته بادرةُ فمِه، سبق بدنه بسفك دمِه؛ إني أُنْذِر ثم لا أُنظِر، وأحذِّر ثم لا أعذِر، وأتوعّد ثم لا أعفو، إنما أَفسَدكم ترنيقُ[٤] وُلاتكم،

---

(١) أم الخير بنت الحريش البارقية. (٢) إيهًا: حسبك.

(٣) المركن: الوهاب الذي يغسل فيه، ولعلّها تريد: لا تدعني أدنّس بالذمّ أهل الطهارة، وألصق العيوب بمن لا عيب فيه.

(٤) الترنيق: الضعف في الأمر.

ومن ٱسترخَى لَبَبُه[١] ساء أدبُه، إنّ الحزمَ والعزمَ سلباني سَوطي، وأبدَلاني به سيفي، فقائمُه في يدي، ونِجَادُه في عنقي، وذُبابُه قلادةٌ لمن عصاني، والله لا آمر أحدَكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.

قال مالك بنُ دِينار[٢]: ربّما سمعتُ الحجّاج يذكر ما صنع فيه أهلُ العراق وما صَنَع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسنِ تخليصِه للحجج.

وخطب الحجّاجُ بعد وقعة دَيْر الجماجِم[٣] فقال: يا أهل العراق، إنّ الشيطان قد ٱستبطنكم فخالَطَ اللحمَ والدّمَ والعَصَبَ والمسامعَ والأطراف والأعضاءَ والشَّغافَ، ثم أَفضَى إلى المِخاخِ والأصماخ، ثم ٱرتفع فعَشَّش، ثم باض ففرّخ، فحاشكم نفاقًا وشقاقًا، وأَشعَرَكم خلافًا، وٱتخذتموه دليلًا تتّبعونه، وقائدًا تُطيعونه، ومؤامرًا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجرِبة، أو تعظكم وقعة؛ أو يَحجُزكم إسلام، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز؟ حيث رُمتم المكر، وسَعيتم بالغدر، واستَجمعتم للكفر، وظننتم أنّ الله خَذَل دِينَه وخلافتَه، وأنا أرميكم بطَرْفي، تَتسلّلون لِواذًا، وتنهزمون سِراعًا ثم يوم الزاوية[٤] وما يوم الزاوية! بها كان فَشَلُكم وتَنازُعكم وتَخاذُلكم وبراءةُ الله منكم، ونُكوصُ وليّكم عنكم إذ ولّيتم كالإبل الشواردِ إلى أوطانها النوازعِ إلى أعطانها؛ لا يَسأل المرءُ عن أخيه، ولا يَلوي الشيخ على بَنيه؛ حتى عَظّكم[٥] السلاح، وقصَمَتكم الرماح، ثم دَيرُ الجماجم، وما دَيرُ الجماجم! بها كانت المَعاركُ والمَلاحم؛ بضربٍ يُزيل الهامَ عن مَقيلِه، ويَصرِف الخليلَ عن خليله؛ يا أهل العراق، والكَفَراتِ بعد الفَجرات، والغَدَراتِ بَعد الخَتَراتِ، والنَّزْوةِ بَعد

---

(١) اللبب: ما يشد الرحل أو السرج على صدر الدابة فيمنعه من الاستئخار. يعني أن اللين يفسد الرعية.

(٢) مالك بن دينار: (١٣١ هـ = ٧٤٨ م)، هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيىٰ، من رواة الحديث، كان ورعًا، يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالآجرة، توفي في البصرة. (الأعلام، للزركلي).

(٣) دير الجماجم: بظاهر الكوفة على بعد سبعة فراسخ منها باتجاه البصرة. سمي بذلك لأنه كانت تصنع فيه الجماجم وهي أقداح من الخشب. ووقعة دير الجماجم نشبت بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث. وانهزم فيها ابن الأشعث.

(٤) يوم الزاوية: وقعة أخرى بين الحجاج وابن الأشعث جرت في مكان بالقرب من البصرة اسمه الزاوية.

(٥) عظكم السلاح: عضكم.

الثَّوراتِ؛ إن بعثتُكم إلى ثُغوركم غَللتم[١] وجبُنتم، وإن أَمِنتم أَرجَفتم، وإن خِفتم نافقتم؛ لا تَذكُرون حسنةً، ولا تشكُرون نعمة؛ يا أهل العراق هل ٱستخفّكم ناكثٌ، أو ٱستغواكم غاوٍ، أو ٱستفزّكم عاصٍ، أو استنصركم ظالمٌ، أو ٱستعضدكم خالعٌ، إلا اتّبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكّيتموه؟ يا أهل العراق، قلّما شَغَب شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زَفَر كاذب إلا كنتم أتباعَه وأنصاره؛ يا أهل العراق، ألَم تَنهَكم المواعظ، ولم تزجُركم الوقائع. ثم ٱلتفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام، أنا لكم كالظَّليم الرامح[٢] عن فراخه، يَنفِي عنها المدر، ويباعِدُ عنها الحجر، ويَكُنُّها من المطر؛ ويحميها من الضِّباب، ويحرُسها من الذئاب؛ يا أهل الشام، أنتم الجُنّةُ والرِّداء، وأنتم العُدّة والحِذاء.

ومن مكاتباته إلى المهلَّب بنِ أبي صُفْرةَ وأجوبة المهلَّب له

كتب الحجاج إليه وهو في وجه الخوارج: أما بعد، فإنه بلغني أنك قد أقبَلت على جباية الخَراج، وتَركتَ قتال العدوّ، وإني وَلَّيتك وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المُجاشِعيّ، وعَبّادِ بن حُصَين الحَبَطيّ، وٱخترتك وأنت رجل من الأَزْد، وأنا أُقسم إن لم تَلقَهم في يوم كذا أَشرعتُ إليك صدرَ الرمح. فأجابه المهلّب: ورد عليّ كتابُك تزعمُ أني أقبَلت على جباية الخَراج، وتركتُ قتال العدوّ لعجز؛ وزعمتَ أنك ولّيتني وأنت تَرَى مكانَ عبد الله بن حكيم وعَبّادِ بنِ حُصَين، ولو وَلَّيتَهما لكانا مستحقَّين لذلك في فضلهما وغَنائهما؛ وأنك ٱخترتني وأنا رجل من الأَزْد، ولَعمري إنّ شرّا من الأَزْد لَقبيلةٌ تَنازَعُها ثَلاثُ قبائلَ لم تَستقِرّ في واحدة منهنّ؛ وزعمتَ أنّي إن لم أَلقَهم في يوم كذا أشرَعتَ إليّ صدرَ الرمح، فلو فعلتَ لقَلبتُ إليك ظَهرَ المَجنّ[٣].

ووَجّه إليه الحجّاجُ يستبطئه في مناجَزة القوم، وكَتب إليه: أما بعد، فإنك جَبَيت الخَراج بالعِلل، وتحصّنتَ بالخَنادق، وطاولتَ القوم وأنت أعزُّ ناصرًا وأكثرُ عددًا، وما أظنّ بك مع هذا معصيةً ولا جبنًا، ولكنك ٱتخذتهم أُكُلًا، ولإبقائهم أيسرُ عليك من قتالهم، فناجِزْهم وإلّا أنكرتني، والسلام.

(١) غللتم: من الغلول وهو الخيانة في الغنيمة.
(٢) الظليم الرامح: ذكر النعام الضارب برجله.
(٣) المجن: الترس. وقلب له ظهر المجن، أي عاداه وحاربه.

فقال المهلّب للجرّاح: يا أبا عُقْبة، والله ما تركتُ حِيلةً إلّا احتلتُها، ولا مَكِيدةً إلّا عَمِلْتُها، وليس العَجَبُ من إبطاء النصر، وتَراخِي الظَّفَر، ولكن العَجَب أن يكون الرأيُ لمن يَملِكه دون من يبصره؛ ثم ناهَضَهم ثلاثةَ أيّام يغاديهم، ولا يزالون كذلك إلى العصر حتى قال الجرّاح: قد اعتَذرتَ؛ وكَتَب إلى الحجّاج: أتاني كتابك يستبطىء لقاءَ القوم، على أنك لا تظنّ بي معصيةً ولا جبنًا، وقد عاتبتني معاتَبةَ الجبان، وأوعدتني وعيدَ العاصي، فسَل الجرّاحَ والسلام. فكَتب إليه الحجّاج: أما بعد، فإنك تَتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ويرجعون بعذرك، وذاك أنك تُمسِك حتى تَبرَأ الجِراحُ وتُنسَى القَتْلى، ويَجُمّ الناس، ثم تلقاهم فتَحمِل منهم مِثل ما يَحمِلون منك من وَحْشة القتل وألم الجِراح، ولو كنتَ تلقاهم بذلك الجِدّ لكان الداء قد حُسِم، والقِرْنُ قد قُصِم، ولَعمرِي ما أنت والقومُ سواءٌ، لأنّ من ورائك رجالًا، وأمامك أموالًا، وليس للقوم إلّا ما معهم، ولا يُدرَك الوجِيفُ بالدَّبيبِ[١]، ولا الظَّفَرُ بالتعذير[٢].

فكتب إليه المهلَّب: أمّا بعد، فإني لم أُعطِ رسلَك على قول الحق أجرًا، ولم أَحتجْ منهم مع المشاهَدة إلى تلقين؛ وذكرتَ أنّي أُجِمّ[٣] القوم، ولا بدّ من راحة يستريح فيها الغالبُ ويَحتالُ المغلوبُ؛ وذكرتَ أن في الإجمام ما يُنسِي القَتْلى، ويُبْرِىءُ الجِراحَ، وهيهات أن يُنسَى ما بيننا وبينهم، يأبى ذلك قتلُ مَن لَم يجن، وقُروحُ لَم تَتقرّف[٤]؛ ونحن والقومَ على حالة، وهم يرقُبون حالات، إن طَمِعوا حارَبوا، وإن مَلُّوا وَقفوا، ونَطلُب إذا هَرَبوا، فإن تركْتَني فالداءُ بإذن الله محسوم، وإن أعجلتَني لم أُطِعْكَ ولم أَعْصِ، وجعلتُ وجهي إلى بابك، وأنا أعوذ بالله مِن سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس.

وقال المهلَّب[٥] لبنيه: يا بَنيّ تَباذَلوا تَحابّوا، فإنّ بني الأمّ يختلفون، فكيف بَنِي العَلّاتِ[٦]؛ إنّ البِرَّ يَنسأ في الأجَل، ويزيدُ في العَدد، وإنّ القطيعةَ تُورِث القِلّة،

---

(١) الوجيف: السرعة. (٢) التعذير: التقصير في الأمر.

(٣) أجم الناس: أراحهم. (٤) تتقرف: تبرأ.

(٥) المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري: من أشجع الناس، حمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع مشهورة بالأهواز. وكان سيدًا جليلًا نبيلًا. ولم يُعَبْ بشيء إلا بالكذب. وآخر ما ولي خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي وفيها توفي سنة ٨٣ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٣٢).

(٦) بنو العلّات: الأبناء من أمّهات شتى وأبٍ واحد.

وتعقب النارَ بعد الذِّلّة؛ واتقوا زَلّةَ اللسان، فإن الرجل تَزِلُّ رِجلُه فيَنتعش، ويَزِلُّ لسانُه فيَهلِك؛ وعليكم في الحرب بالمَكِيدة، فإنّها أبلغ من النَّجْدة.

ولمّا استَخلف ٱبنَه المغيرة على حرب الخوارج، وعاد هو إلى عند مُصعَب بن الزُّبير، جَمع الناسَ فقال لهم: إني قد استخلفت عليكم المُغِيرةَ، وهو أبو صغيرِكم رقّةً ورحمة، وابنُ كبيرِكم طاعةً وتبجيلًا وبِرًّا، وأخو مِثلِه مواساةً ومناصَحة، فلتَحسُن له طاعتُكم، وليلِنْ له جانِبُكم، فوالله ما أردتُ صوابًا قطّ إلا سبقني إليه.

وخطب عبد الملك بن مروان، فلما بَلَغ الغِلْظةَ قام إليه رجل من آل صُوحانَ فقال: مهلًا مهلًا يا بني مَرْوان، تَأمُرون ولا تأتمِرون، وتَنهَون ولا تُنهَون، وتَعِظون ولا تَتّعِظون؛ أفنقتدِي بسِيرتكم في أنفُسكم، أم نطيع أمرَكم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اِقتدُوا بسيرتنا، فأنّى وَكَيفَ، وما الحُجّةُ، وما المَصيرُ من الله؟ أنَقتدِي بسِيرة الظَّلَمةِ الفَسَقةِ الجَورةِ الخَونَةِ، الذين ٱتخذوا مالَ الله دُوَلًا، وعَبيدَه خَوَلًا؟ وإن قلتم: اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف يَنصَح لغيره من يَغُشّ نفْسَه؟ أم كيف تَجب الطاعةُ لمن لم تَثبُت عند الله عدالتُه؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، وٱقبَلوا العِظةَ ممّن سمعتموها، فعلام ولّيناكم أمرَنا، وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطَقُ منكم باللغات، وأَفصَحُ بالعِظات؟ فَتخَلّوا عنها، وأَطلِقوا عِقالَها، وخَلُّوا سبيلَها، يَنتدِبْ إليها آلُ رسول الله ﷺ الذين شرّدتموهم في البلاد، ومزّقتموهم في كل واد، بل تَثبُت في أيديكم لانقضاء المدّة، وبلوغِ المُهْلة، وَعِظَم المِحْنَة؛ إنّ لكلِّ قائم قَدرًا لا يَعدُوه، ويَومًا لا يَخطُوه، وكتابًا بَعدَه يتلوه، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧] ثم التُمِس الرجلُ فلم يوجَد.

ومن كلام قَطَرِيِّ بنِ الفُجاءةِ[1] ـ وكان من البلغاء الأبطال، فمن ذلك خطبته المشهورة التي قال فيها:

أما بعد، فإني أُحذِّركم الدنيا فإنها حُلوةٌ خَضِرة، حُفّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتَحبّبَتْ بالعاجلة، وحَلِيَتْ بالآمال، وتزيَّنَتْ بالغُرور؛ لا تَقوم نَضْرَتُها، ولا تُؤمَن فجيعتُها؛ غرّارةٌ ضرّارة، وحائلةٌ زائلة، ونافذةٌ بائدة، أكّالةٌ غوّالة؛ لا تَعْدو إذا

(١) قطري بن الفجاءة: هو جعونة بن مازن المازني الخارجي: خرج في دولة بني أمية وحارب ولاة الأمويين عشرين سنة بشجاعة حتى غلبه وقتله سفيان بن الأبرد الكلبي سنة ٧٨ هـ.

تناهت إلى أُمنيّة أهلِ الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: الآية ٤٥] مع أن أمرءًا لم يكن معها في حَبْرة (أي السرور)، إلا أعقبته بَعدها حسرة، ولم يَلقَ من سَرّائها بطنًا إلا مَنحَتْه من ضَرّائها ظَهرًا، ولم تَصِلْه غَيثةُ رَخاء، إلّا هَطَلتْ عليه مُزْنةُ بلاء؛ وحَرِيَّةٌ إذا أصبحتْ له منتصِرة، أن تُمسيَ له خاذلة متنكِّرة؛ وإنْ جانبٌ منها أعذَوْذَبَ واحلَوْلَى، أَمَرّ عليه منها جانب وأَوبأ[1]، فإن أتت أمرأ من غصونها وَرَقا أرهقَته من نوائبها تَعَبًا، ولم يُمسِ منها أمرؤ في جَناح أمنٍ إلا أصبح منها في قَوادم خوف، غَرّارةٌ غُرورٌ ما فيها، فانيةٌ فانٍ مَن عليها؛ لا خير في شيء مِن زادِها إلا التقوى، مَن أَقَلَّ منها أستكثَر مما يؤمِّنه ومن استكثَر منها استكثَر مما يُوبقه ويطيل حزنَه، ويُبكِي عينَه؛ كم واثقٍ بها قد فجَعَتْه، وذي حُلم تَنبّهَ إليها قد صَرَعتْه، وذي أحتيالٍ فيها قد خَدَعتْه؛ وكم ذي أبّهة فيها قد صيّرتْه حقيرًا، وذي نخوة قد ردّته ذليلًا، ومن ذي تاج قد كَبّته لليدين والفم؛ سلطانُها دُول، وعيشُها رَنِق (أي الماء الكدر): وعَذْبُها أُجاج، وحُلوها صَبِر، وغِذاؤها سِمام، وأسبابُها رِمام[2]، وقِطَافُها سَلَع[3]؛ حيُّها بعَرَض موت، وصحيحُها بعَرَض سُقْم، ومنيعُها بعَرَض أهتضام؛ وملكُها مسلوب، وعزيزُها مغلوب، وسليمُها منكوب وجارُها محروب؛ مع أنّ وراء ذلك سَكَراتِ الموت، وهولَ المُطَّلَع، والوقوفَ بين يدي الحكم العدل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: الآية ٣١] ألستم في مساكن من كان قَبلكم أطوَلَ منكم أعمارًا، وأَوضحَ منكم آثارًا؛ وأعدَّ عديدًا، وأكثَفَ جنودًا، وأشدَّ عُقودًا، تُعُبِّدوا[4] للدنيا أيَّ تَعبُّد، وآثروها أيَّ إيثار، وظَعَنوا بالكَرْه والصَّغار، فهل بلغكم أنّ الدنيا سَمحتْ لهم نفسًا بفِدْية، أو أغنَتْ عنهم فيما قد أهلَكتْهم بخَطْب؟ بل قد أرهقَتْهم بالفَوادح، وضعضَعتْهم بالنوائب، وعَقَرتْهم بالفجائع؛ وقد رأيتم تَنكُّرَها لمن رادَها وآثَرها وأَخْلَدَ إليها، حِينَ ظَعَنوا عنها لفراق الأَبَد، إلى آخر المُسْنَد[5]؛ هل زَوَّدَتْهم إلا السَّغَبَ[6]، وأَحَلَّتهم إلا الضَّنْك، أو نَوَّرتْ لهم إلا الظُّلمة، أو أعقبتْهم إلّا الندامة؟ أفهذه تؤثِرون، أم على هذه تَحرِصون، أم إليها تطمئنُّون؟ يقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

---

(١) أوبأ المكانُ: كثر فيه الوباء أو المرض العام.
(٢) رمام: مفردها رُمّة، وهي قطعة الحبل البالية. يريد القول إن حبالها بالية.
(٣) السلع: ضرب من الصبر.
(٤) تُعُبِّدوا للدنيا: صاروا عبيدًا للدنيا. يقال تعبد فلان فلانًا إذا اتخذه عبدًا.
(٥) المسند: الدهر. (٦) السغب: الجوع.

أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هُود: الآية ١٥] فبئست الدارُ لمن أقام فيها، فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها لا بدّ، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللّهو، وقد قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيات ١٢٨ - ١٣٠].

وذَكَر الذين قالوا: من أشَد منا قوّة ثم قال: حمَلوا إلى قبورهم فلا يُدعَون رُكبانًا، وأُنزِلوا فلا يُرعون ضيفانا، وجعَلَ الله لهم من الضريح أكْنانًا، ومن الوَحْشةِ ألوانًا، ومن الرُّفات جيرانًا؛ وهم في جِيرة لا يجيبون داعيًا، ولا يَمنعون ضَيمًا، إن أَخصبوا لم يَفرحوا، وإن قَحِطُوا[1] لم يَقنَطوا؛ جَمعٌ وهُم آحاد، جِيرة وهم مُتناؤون[2]، لا يزورون ولا يُزارون؛ حُلَماء قد ذَهبتْ أضغانُهم، وجُهَلاء قد ماتت أحقادُهم؛ لا يُرجَى نفعُهم، ولا يُخشَى دفعُهم؛ وكما قال الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٨] فاستبدلوا بظهر الأرض بطنًا، وبالسَّعة ضِيقًا، وبالأهل غُربة، وبالنُّور ظُلمة، ففارَقوها كما دخلوها، حُفاةً عُراةً فُرادى، غيرَ أن ظَعَنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، وإلى خلود الأبد، يقول الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبِيَاء: الآية ١٠٤] فاحذروا ما حذَّركم الله، وانتفِعوا بمواعظه، واْعتصِموا بحبله، عَصَمنا الله وإيّاكم بطاعته، ورزَقنا وإيّاكم أداء حقّه.

ومن كلام أبي مُسلم الخُراسانيّ صاحب الدولة[3]، قيل له: ما كان سببُ خروج الدولة عن بني أميّة؟ فقال: لأنهم أَبعدوا أولياءهم ثِقةً بهم، وأدنَوا أعداءهم تألُّفًا لهم، فلم يَصِر العدوُّ بالدُّنوِّ صديقًا، وصار الصديقُ بالبِعاد عدوًّا.

وقيل له في حَداثته: إنا نراك تَأرَق كثيرًا ولا تنام، كأنك موكَّل برَعْي الكواكب، أو متوقِّعُ الوحيَ في السماء، فقال: والله ما هو ذاك، ولكن لي رأيٌ جوّال، وغَريزةٌ خيِّرة وذهن صافٍ، وهمّةٌ بعيدةٌ، ونفسٌ تتُوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهَمَج والرَّعاع، وحالٍ متناهيةٍ من الاتّضاع، وإني لأرى بعضَ هذا مصيبةً لا تُجبَر بسهر، ولا تُتَلافَى بأَرَق؛ قيل له: فما الذي يَبْرُد غليلَك، ويَشفِي أُحاح[4] صدرِك؟

---

(١) قَحِط: أصيب بالقحط، أي الجدب.
(٢) متناؤون: متباعدون، من نأى أي بعد.
(٣) الأصح صاحب الدعوة كما ورد في البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢ وليس صاحب الدولة.
(٤) الأحاح: شدة العطش.

قال: الظَّفَرُ بالمُلك؛ قيل له: فاطلُب؛ قال: إن الملك لا يدرَك إلا بركوب الأهوال؛ قيل: فاركب الأهوال؛ قال: هيهات، العَقلُ مانعٌ من ركوب الأهوال؛ قيل: فما تصنع وأنت تَبلى حسرةً، وتذوبُ كَمَدًا؟ قال: سأجعل من عقلي بعضه جهلًا، وأحاول به خطرًا، لأنال بالجهل ما لا يُنال إلّا به، وأدبِّرَ بالعقل ما لا يُحفظ إلا بقوّته، وأعيشَ عيشًا يبين مكان حياتي فيه من مكان موتي عليه، فإن الخُمول أخو العَدم، والشهرة أبو الكَون.

وكتب إليه عبد الحميد بن يحيىٰ كتابًا عن مروانَ بنِ محمد، وقال لمروانَ: قد كتبتُ كتابًا إن نَجَعَ فذاك، وإلّا فالهلاك، وكان لِكبر حجمه يُحمَل على جَمل، نَفثَ فيه حواشيَ صدره، وضمّنه غرائب عُجَرِه وبُجَرِه[1]، فلمّا ورد على أبي مسلم دعا بنار فطرحه فيها إلّا قدر ذراع فإنه كتب عليه: [من الطويل]

مَحا السيفُ أسطارَ البلاغة وٱنتَحَى ... ليوث الوغى يقدمن من كلّ جانب
فإن يقدموا نُعْمِلْ سيوفًا شَحيذةً ... يَهُون عليها العتْبُ من كلّ عاتب

وردّه، فأيِس الناسُ من معالجته.

وقيل: إنه شَجَر بينه وبين صاحب مَرْوٍ كلامٌ أَرْبَى فيه صاحبُ مَرْوٍ عليه، فاحتمله أبو مسلم وقال: مَهْ، لسانٌ سَبَق، ووهمٌ أخطأ، والغضب شيطان، وأنا جرّأتُك عليّ باحتمالِك، فإن كنتَ للذنب متعمّدًا فقد شاركتُك فيه، وإن كنتَ مغلوبًا فالعفوُ يَسَعك؛ فقال له صاحب مرو: عِظَمُ ذَنبي يَمنع قلبي من الهدوء؛ فقال أبو مسلم: يا عَجبًا، أقابلك بإحسان وأنت تسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت تُحسِن! فقال صاحب مرو: الآن وثِقتُ بعفوك.

ومن كلام جماعة من أمراء الدولتين

خَطَب يوسف بن عمر[2] فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمِّل أمَلًا لا يَبلُغه، وجامعٍ مالًا لا يأكله، ومانعٍ ما سوف يتركه؛ ولعلّه من باطلٍ جَمَعَه، ومن حقّ

---

(١) عجره وبجره: كل أموره والأصل، إن العجر هي العروق المتعقدة في الجسد. والبحر، العروق المعقدة في البطن خاصة.

(٢) يوسف بن عمر: (٠١٢٧ هـ = ٧٤٥ م) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي، أمير من جبابرة الولاة في العهد الأموي، ولّى اليمن لهشام بن عبد الملك ثم ولّى له العراق وخراسان. (الزركلي، الأعلام).

مَنَعه؛ أصابه حرامًا، وورَّثه عدوًّا؛ واْحتَمَل إصْرَه، وباء بوِزره، ووَرَد على ربّه آسفًا لاهفًا ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: الآية ١١].

وقال خالد بن عبد الله القَسْريُّ(١) على المنبر خطيبًا، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي ﷺ، ثم قال: أيها الناس، نافِسوا في المكارم، وسارِعوا إلى المغانم، واشتروا الحمد بالجُود، ولا تكسِبوا بالمَطل ذمًّا، ولا تَعتدُّوا بالمعروف ما لم تعجّلوه، ومهما يكن لأحدكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلُغ شكرها فالله أحسَنُ لها جزاءً، وأجزل عليها عطاء؛ واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم نعمةٌ من الله عليكم؛ فلا تَملّوا النعم فتُحَوَّل نقمًا؛ واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسب أجرًا، وأورث ذكرًا؛ ولو رأيتم المعروف رجلًا رأيتموه حَسَنًا جميلًا يَسرّ الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلًا رأيتموه مشوَّهًا قبيحًا، تَنفِر منه القلوب، وتُغَضّ عنه الأبصار؛ أيها الناس، إنّ أجوَد الناس مَن أعطَى من لا يرجوه، وأعظَمَ الناس عفوًا من عفا عن قدرة، وأوصَلَ الناس مَن وَصَل مَن قَطَعه، ومن لم يَطِب حَرْثُه لَم يَزكُ نَبتُه؛ والأصولُ عن مَغارسها تنمو، وبأصولها تسمو؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قيل لما ولي أبو بكر بن عبد الله المدينة وطال مكثه عليها كان يبلُغهُ عن قوم من أهلها أنهم يَنالون من أصحاب رسول الله ﷺ، وإسعافٌ من آخرين لهم على ذلك، فأمر أهلَ البيوتات ووجوهَ الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر، فلما فرغ من خطبة الجمعة، قال: أيها الناس، إني قائل قولًا، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه، ومن لم يَعِه فلا يعدو من ذمامها، إن قصرتم عن تفصيله، فلن تَعجِزوا عن تحصيله، فأرعوه أبصارَكم، وأوعوه أسماعَكم، وأشعِروه قلوبَكم؛ فالموعظة حياة، والمؤمنون إخوة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: الآية ٩] ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: الآية ٩] فأتوا الهدى تهتدوا، واجتنبوا الغي ترشُدوا، ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: الآية ٣١] والله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، أمركم بالجماعة ورضيها لكم، ونهاكم عن الفُرقة وسَخِطَها منكم، فـ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: الآيتان ١٠٢، ١٠٣] جعلَنا الله وإيّاكم ممّن تبع رضوانه، وتجنب

---

(١) خالد بن عبد الله القسري: (٦٦ ـ ١٢٦ هـ = ٦٨٦ ـ ٧٤٣ م)، أمير العراقين وأحد خطباء العرب وأجدادهم. من أهل دمشق ولّى مكة للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقين (الكوفة والبصرة) وأقام في الكوفة حتى عزله هشام سنة ١٢٠ هـ. (الزركلي، الأعلام).

سخطَه، فإنما نحن به وله؛ وإنّ الله بعث محمدًا ﷺ بالدِّين، واختاره على العالمين، واختار له أصحابًا على الحقّ، ووزراء دون الخَلْق، إختصّهم به، وأنتخبَهم له، فصدَّقوه ونصروه، وعزَّروه ووقَّروه، فلم يُقدِموا إلّا بأمره، ولم يُحجِموا إلّا عن رأيه، وكانوا أعوانَه بعهدِه، وخُلفاءه مِن بَعده، فوَصَفهم فأحسنَ صِفتَهم، وذَكَرَهم فأثنى عليهم، فقال ـ وقولُه الحق ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] إلى قولِه: ﴿مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: الآية ٢٩] فمن غاظوه كفَر وخاب، وفجر وخَسِر، وقال الله عزّ وجل: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ إلى قولِه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: الآيات ٨ ـ ١٠]، فمن خالف شَريطةَ الله عليه لهم، وأمْرَه إيّاه فيهم، فلا حقَّ له في الفَيء، ولا سهمَ له في الإسلام في آي كثيرة من القرآن؛ فمَرَقتْ مارقةٌ من الدِّين، وفارَقوا المسلمين، وجعلوهم عِضِين[١]؛ وتَشعّبوا أحزابًا، أُشاباتٍ وأَوشابًا[٢]؛ فخالفوا كتاب الله فيهم، وثناءه عليهم، وآذَوا رسول الله ﷺ فيهم؛ فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٥]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمَّد: الآية ١٤]؛ ما لي أرى عيونًا خُزْرًا[٣]، ورِقابًا صُعرًا، وبطونًا بُجْرًا[٤]؟ شجًى لا يُسيغُه الماء، وداءً لا يُشرَب فيه الدواء؛ ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾ [الزخرف: الآية ٥] الهِناء[٥] والطِّلاء حتى يَظهرَ العذرُ، ويَبُوحَ السرُّ، ويَضِحَ الغيب، ويُسوَّسَ[٦] الجُنُب[٧]؛ فإنكم لَم تُخلَقوا عبثًا، ولَم تُترَكوا سدى؛ ويْحَكم، إني لست أتاويًا[٨] أعلَّم، ولا بدَويًا أفهَّم؛ قد حلبتُكم أشطرًا وقلبتكم أبطُنًا وأظهُرًا؛ فعرَفتُ أنحاءكم وأهواءكم، وعلمتُ أنّ قومًا أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأَسَرّوا الكفر في قلوبهم، فضربوا بعضَ أصحاب رسول الله ﷺ ببعض، وولّدوا الرواياتِ فيهم، وضربوا الأمثال، ووَجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانًا يأذنون لهم، ويُصغُون إليهم؛ مهلًا مهلًا قبل وقوع القوارع، وطُولِ الروائع، هذا لهذا ومع هذا[٩]، فلست

(١) عضين: جمع عضة، وهي الفرقة.
(٢) إشابات وأوشابًا: يعني أخلاط الناس.
(٣) خزرًا: جمع أخزر، وهو النظر من طرف عينه.
(٤) البجر: العظيمة.
(٥) الهناء: القطران.
(٦) يسوَّس: يروَّض ويذلل.
(٧) الجُنُب: الصعب الذي لا ينقاد.
(٨) الأتاوي: الغريب عن القوم.
(٩) لعله يريد أن أعد لكل عمل جزاء.

أعتَنِش[١] آئبًا ولا تائبًا، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المَائدة: الآية ٩٥] فأسِروا خيرًا وأظهِروه، وأجهروا به وأخلِصوا، فطالما مشَيتم القهقرى ناكِصين، وليَعلمْ من أدبر وأصَرّ أنها موعظة بين يديْ نِقمة؛ ولستُ أدعوكم إلى أهواء تُتّبَع، ولا إلى رأيٍ يُبتدَع؛ إنما أدعوكم إلى الطريقة المُثلى، التي فيها خيرُ الآخرة والأولى؛ فمن أجاب فإلى رُشدِه، ومن عَميَ فعن قصدِه؛ فهلُمّ إلى الشرائع الجدائع[٢]، ولا تُولّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدِلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٠] إيّاكم وبُنيّاتِ[٣] الطريق، فعندها الترنيقُ والرَّهَق[٤]، وعليكم بالجادة، فهي أسَدُّ وأورَدُ، ودعوا الأمانيّ فقد أردَت من كان قبلكم، وليس للإنسان إلا ما سعى، ولله الآخرة والأولى، و﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طـه: الآيـة ٦١]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨].

هذا ما ٱتفق إيراده من رسائل وخُطب بُلغاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكلامِ التابعين وغيرِهم مما يحتاج الكاتب إلى حفظه.

وأما رسائل المتقدّمين والمعاصِرين التي يحتاج إلى النظر إليها دون حفظها ـ فهي كثيرة جدًا، سنُورد من جيّدها ما تقِف عليه إن شاء الله.

ذكر شيء من رسائل وفصول الكتاب والبلغاء المتقدّمِين والمتأخِّرين والمعاصرين من المشارقة والمغاربة

وهذه الرسائل والفصول كثيرة جدًا، وقد قدّمنا منها فيما مرّ من كتابنا هذا ما حلا ذِكرُه، وفاح نشْرُه؛ وأنِس به سامعُه، وأَيِس من الإتيان بمثله صانعُه، وأوردنا في كل باب وفصلٍ منه ما يناسبه، وسنُورد إن شاء الله في فنّي الحيوان والنبات عند ذكر كلّ حيوان أو نبات يستحقّ الوصف ما سمعناه وطالعناه مِن وصفه نظمًا ونثرًا، مع ما يندرج في فنّ التاريخ من الرسائل والفصول والأجوبة والمحاورات عند ذكر الوقائع، وإنما نُورده ثَمّ وإن كان هذا موضعَه ليكون الكلام فيه سِياقةً، وتَرِدُ الوقائعُ يتلو بعضُها

---

(١) أعتنش: أظلم.

(٢) الأصح الجوامع لا الجدائع.

(٣) بنيات الطريق: يريد بها الطرق الصغيرة المتشعبة من الطريق الرئيسة. ويعني: إياكم وسلوك طريق غير طريق الجماعة.

(٤) الرهق، والترهيق: السفه، أو ركوب الشر.

بعضًا، فلا ينقطع الكلام على ما تقِف إن شاء الله تعالى عليه في مواضعه، فلنُوردْ في هذا الموضع ما هو خارج عن ذلك النّمط من كلامهم، ولنَبدأْ بذكر شيء من المكاتَبات البليغة المُوجزة.

من ذلك ما كتب به عبدُ الحميد بنُ يحيىٰ بالوَصاة بإنسانٍ فقال: حقُّ مُوصل هذا الكتاب عليك كحقّه عليّ إذ رآكَ مَوْضعًا لأمَله، ورآني أهلًا لحاجته، وقد أنجزتُ حاجتَه، فحقِّق أَمَلَه.

ومنه ما حُكي أنّ المأمونَ قال لعمرو بن مَسعَدةَ[1]: اُكتب إلى فلانٍ كتابَ عنايةٍ بفلان في سطر واحد، فكَتب: هذا كتابُ واثقٍ بمن كُتِب إليه، مُعْتَنٍ بمن كُتِبَ له، ولن يضيع بين الثقةِ والعنايةِ حاملُه.

وكتب عمرو بنُ مَسعَدةَ إلى المأمون يستعطفه على الجند: كتابي إلى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلي مِن أجنادِه وقُوّادِه في الطاعة على أفضل ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تَأَخّرت أرزاقُهم، واْختَلّت أحوالُهم. فأَمَرَ بإعطائهم رِزقَ ثمانية أشهر.

وكتب أحمدُ بنُ يوسفَ[2] إلى المأمون يذكّره بمن على بابِه من الوفود فقال: إنّ داعِيَ نَداك، ومنادِيَ جَدْواكَ، جَمعا ببابك الوفود، يرجون نائلَك العَتِيد؛ فمنهم من يَمُتُّ بحُرمة، ومنهم من يُدْلِي[3] بخِدمة؛ وقد أجحَف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يَنعَشَهم بسَيْبِه[4]، ويحتَوِشَ ظُنونَهم بطَولِه فَعَل. فوقّع المأمون في كتابه: الخَيرُ متّبَع، وأبوابُ الملوك مَواطنُ لذوي الحاجات، فأَحصِ أسماءهم، واْجلُ مَوائنَهم، ليصير إلى كلّ اْمرىءٍ منهم قدر اْستحقاقِه، ولا تكدِّر معروفًا بالمَطْل والحجاب، فإنّ الأوّل يقول: [من الوافر]

فإنك لن تَرَى طَرْدًا لحُرٍّ   كإلصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ
ولَم يَجلُب مودّةَ ذي وفاء   كمِثلِ البَذل أو بسطِ اللسانِ

---

(١) عمرو بن مسعدة: (٢١٧ هـ = ٨٣٢ م)، هو عمرو بن مسعدة بن سعد، أبو الفضل الصولي، وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء. اتصف إنشاؤه بالإيجاز والجزالة. (الزركلي، الأعلام).

(٢) أحمد بن يوسف: (٢١٣ ـ هـ = ٨٢٨ م)، هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح العجلي بالولاء المعروف بالكاتب. وزر للمأمون وولي ديوانه. كان فصيحًا قوي البديهة ينظم الشعر. (الزركلي، الأعلام).

(٣) يدلي: يتوسل.

(٤) السيب: العطاء.

وكتب محمدٌ إلى يحيىٰ بن هرمةَ[١] ـ وكان عامِلَه على أَصْفهانَ، وقد تظلّمَ منه أهلُها ـ : يا يحيىٰ، قد كَثُر شاكُوك، وقَلّ شاكروك؛ فإمّا عَدَلتَ، وإمّا ٱعتَزَلتَ.

وكتب أبو بكر الخُوَارَزْميُّ جوابًا عن هديّة: وصلَت التُّحفة، ولَم يكن لها عيب إلّا أنّ باذلَها مسرِفٌ في البِرّ، وقابِلَها مقتصِدٌ في الشكر؛ والسَّرَفُ مذمومٌ إلّا في المجد، والاقتصادُ محمودٌ إلّا في الشكرِ والحمد.

وكتب مَلِكُ الروم إلى المعتصم يتوعّدُه ويتهدّده، فأَمَرَ الكتّاب أن يكتبوا جوابَه، فكَتبوا فلم يعجبه مما كتبوا شيءٌ، فقال لبعضهم: أُكتب: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابَك، وفَهِمتُ خطابَك، والجوابُ ما تَرَى لا ما تَسمَع، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرّعد: الآية ٤٢][٢].

ومن كلام بديعِ الزّمانِ أبي الفضل أحمدَ بنِ الحسين الهَمَذانيِّ ـ قيل: ذُكِر الهَمَذانيُّ في مجلس أبي الحسين بن فارس فقال ما معناه: إنّ البديعَ قد نسِيَ حقَّ تعليمنا إيّاه، وعَقّنا وشمخ بأنفه، عنّا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغيُّرِ نوعِ الإنسان؛ فبلغ ذلك البديع، فكتب إلى أبي الحسين:

نَعم أطال الله بقاءَ الشيخ الإمام، إنه الحَمَأُ المسنُون، وإن ظُنّت الظنون؛ والناسُ لآدم، وإن كان العهدُ قد تَقادَم؛ وٱرتبكت الأضْداد، وٱختَلَطَ الميلاد؛ والشيخ يقول: فَسَد الزمان، أفلا يقول: متى كان صالحًا؟ أفي الدّولة العبّاسيّة وقد رأينا آخرَها وسمعنا أوّلَها؛ أم المدّةِ المَرْوانيّةِ وفي أخبارها: [من السريع]

«لا تَكْسَعِ الشَّولَ بأغبارِها»[٣]

---

(١) لا نعرف بالضبط من هو محمد هذا صاحب التوقيع. ولكن ابن خلكان ينسبه إلى جعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد. (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢).

(٢) هذه قراءة أبي عمرو بن العلاء. أما سائر القراءات فهي ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

(٣) هذا صدر بيت للحارث بن حلزة الشاعر الجاهلي البكري، وتمامه:

«أنك لا تدري من الناتج»

وتفسيره: لا تغزر إبلك تطلب بذلك قوة النسل، واحلبها لأضيافك، فلعل عدوًا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك». لا تكسع: لا تترك حليب الناقة في خلفها. الشول: واحدتها شائل، وهي الناقة التي مضى على حملها سبعة أشهر فقل لبنها أو خف ضرعها. أغبارها: جمع غبر، وهو بقية اللبن في الضرع.

أم السنين الحَرْبيّةِ[١]: [من مجزوء الكامل]

والسيفُ يُعمَل في الطُّلَى[٢] والرُّمْحُ يُركَز في الكُلَى
ومَبيتُ حُجْرٍ[٣] في الفَلا والحَرّتان[٤] وكَرْبَلا[٥]

أم البَيعةِ الهاشميّةِ وعليٌّ يقول: ليت ٱلعشرةَ منكم براس، مِن بَني فِراس؛ أم الأيّامِ الأموية والنَّفيرُ إلى الحجاز، والعيونُ إلى الأعجاز؛ أم الإمارةِ العَدَويةِ[٦] وصاحِبُها يقول: هلمّوا إلى النزول؛ أم الخلافةِ التَّيميّة[٧] وهو يقول: طوبى لمن مات في نَأْنأة[٨] الإسلام؛ أم على عهد الرسالة ويومَ ٱلفتح قيل: أُسكني يا فلانة، فقد ذهبَت الأمانة؛ أم في الجاهليّة ولَبِيدٌ يقول: [من الكامل]

* وبَقِيتُ في خَلْفٍ[٩] كجِلد الأجربِ *

أم قَبل ذلك وأخو عادٍ يقول: [من الطويل]

بلادٌ بها كنا وكنا نحبّها إذ ٱلناس ناسٌ والزمانُ زمانُ

أم قَبل ذلك ويُروَى لآدم عليه السلام: [من الوافر]

تَغيّرت البلاد ومَن عليها فوجهُ الأرض مغبَرٌّ قَبيحُ

أم قَبل ذلك والملائكةُ تقول لبارئها: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠] ما فسَدَ الناس، ولكن ٱطَّرد القياس؛ ولا أَظلمَت الأيام،

---

(١) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد خلافة معاوية وابنه يزيد. (ابن منظور، لسان العرب، مادة لسع).
(٢) الطلى: واحدها طلية، أي العنق.
(٣) حجر: هو حجر بن عدي الكندي، من أهل العراق، قتله معاوية لتشيعه لعلي ولعنه معاوية. (الطبري، التاريخ، حوادث سنة ٥١ هـ).
(٤) الحرتان: إشارة إلى وقعة الحرة بين يزيد بن معاوية وأهل المدينة شرقي المدينة. وقد قتل فيها الكثير من أهل المدينة سنة ٦٣ هـ.
(٥) كربلاء: موقع قرب الكوفة، قتل فيها الحسين بن عليّ على يد جنود يزيد بن معاوية. (ياقوت، معجم البلدان).
(٦) الإمارة العدوية: أي خلافة عمر بن الخطاب الذي ينتسب إلى عدي بن كعب.
(٧) الخلافة التيمية: خلافة أبي بكر نسبة إلى تيم بن مرة رهط أبي بكر.
(٨) نأنأة الإسلام: أول الإسلام.
(٩) الخلف: بفتح الخاء وسكون اللام: الأرديا‌ء الأخساء. وصدر البيت هو:
«ذهب الذين يعاش في أكنافهم»

إنما أمتدّ الإظلام؛ وهل يَفسُد الشيءُ إلّا عن صلاح، ويمسي المرء إلّا عن صباح؟ ولعمري إن كان كرَمُ العهد كتابًا يَرِد، وجوابًا يَصدُر، إنّه لَقريبُ المَنال، وإنّي على توبيخِه لي لَفقيرٌ إلى لقائه، شفيقٌ على بقائه، منتسِبٌ إلى وَلائه، شاكرٌ لآلائه.

وكتب بديع الزمان يستعطفه: إنّي خدمت مولاي، والخِدمةُ رِقٌّ بغير إشهاد، وناصحتُه، والمناصَحةُ للودِّ أوثقُ عِماد؛ ونادمتُه، والمنادَمةُ رَضاعٌ ثان؛ وطاعمته، والمطاعَمةُ نَسَبٌ دان، وسافرتُ معه، والسَّفرُ والأخوة رضيعَا لبان، وقمتُ بين يديه، والقيامُ والصلاةُ شريكَا عِنان[1]؛ وأثنَيتُ عليه، والثناءُ عند الله بمكان؛ وأخلَصتُ له، والإخلاصُ مشكورٌ بكلّ لسان.

ومن كلام أبي الفضل محمد بن الحسين بن العَميد ـ وكان وزيرًا كاتبًا ـ كَتب عن ركن الدّولة بنِ بويه كتابًا لمن عَصى عليه:

كتابي وأنا مترجِّحٌ بين طمع فيك، وإياسٍ منك، وإقبالٍ عليك، وإعراضٍ عنك؛ فإنك تُدْلِي بسابق خِدمة، وتَمُتّ بسالف حُرمة؛ أيسرُها يوجب رِعاية، ويَقتضِي محافَظةً وعناية؛ ثم تَشفَعُهما بحادثِ غُلولٍ وخيانة، وتتبعُها بآنِفِ خلافٍ ومعصية؛ وأدنَى ذلك يُحبِط أعمالَك، ويَمحَق كلَّ ما يُرعَى لك؛ لا جَرَمَ أنّي وقفت بين مَيلٍ إليك، ومَيلٍ عليك؛ أقدِّم رِجلًا لِصَمْدِك، وأؤخِّر أخرى عن قَصدِك؛ وأبسُط يدًا لاصطلامِك[2] واجتياحِك، وأثنِي ثانيةً نحو استبقائك واستصلاحِك؛ وأتوقَّف عن امتثال بعضِ المأمور فيك ضنًا بالنعمة عندك، ومنافَسةً في الصَّنيعة لديك؛ وتأميلًا لَفيئتِك وانصرافِك، ورجاءً لمراجَعتِك وانعطافِك؛ فقد يَعزُب العقل ثم يؤوب، ويَغرُب اللّبُّ ثم يَثُوب، ويذهب العزم ثم يعُود، ويَفسُد الحزم ثم يَصلُح، ويضاع الرأي ثم يستدرَك، ويَسكَر المرء ثم يصحو، ويَكْدَر الماء ثمّ يصفو؛ وكلُّ ضِيقةٍ فإلى رخاء، وكلُّ غمرة فإلى انجلاء؛ وكما أنك أتيتَ من إساءتك ما لم تحتسبْه أولياؤك، فلا تَدَعْ أن تأتيَ من إحسانك ما لم ترتقبْه أعداؤك؛ وكما استمرّت بك الغفلةُ حتى رَكِبتَ ما رَكِبتَ، واخترتَ ما اخترتَ، فلا عجب أن تنتبهَ انتباهةً تبصر فيها قبيحَ ما صنعتَ، وسوءَ ما آثرت؛ وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطَلةِ ما صَلَح، وعلى الاستيناءِ والمطاوَلةِ ما أَمكَن، طمعًا في إنابتك، وتحكيمًا لحُسن الظنّ بك؛ فلستُ أعدم فيما أظاهره من إعذارك، وأُرادفُه من إنذارك،

(١) شريكا عنان: شريكان متساويان، لأن العنان يتألف من طاقين متساويين.

(٢) الاصطلام: البتر والقطع. صلم الأذن: قطعها.

احتجاجًا عليك، واستدراجًا لك؛ وإن يشأ الله يُرشِدْك، ويأخذ بك إلى حظِّك ويسدِّدْك؛ فإنه على كلِّ شيءٍ قدير.

وفي فصل منه: وزعمتَ أنك في طَرَفٍ من الطاعة بعد أن كنت متوسِّطَها، وإن كنتَ كذلك فقد عرفتَ حالتيها، وحلبتَ شَطْريها، فناشدتك الله لَما صدقتَ عما أسألك: كيف وَجدتَ ما زُلتَ عنه، وتجِد ما صرتَ إليه؟ ألم تكن من الأوّلِ في ظلٍّ ظَليل، ونسيمٍ عليل، وريحٍ بَليل؛ وهواءٍ عَذِي، وماءٍ رَويّ، ومِهادٍ وَطِيّ؛ وكِنٍّ كَنين، ومكانٍ مَكين، وحصنٍ حَصين؛ يَقِيك المتالف، ويؤمنك المخاوف؛ ويَكنُفُك من نوائب الزمان، ويَحفظك من طوارق الحِدْثان؛ عَزَزتَ به بعد الذِّلّة، وكثرت بعد القِلّة؛ وارتفعتَ بعد الضَّعة، وأيسرتَ بعد العُسر، وأثْريتَ بعد المَترَبة، واتّسعتَ بعد الضيق، وأطافت بك الوِلايات، وخَفَقت فوقك الرايات؛ ووَطِىء عَقِبَك الرجال، وتعلّقَتْ بك الآمال؛ وصرت تكاثر ويكاثَر بك، وتُشير ويشار إليك؛ ويذكَر على المنابر اسمُك، وفي المَحاضر ذِكرُك؛ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العِوضُ مما ذكَرتُ وعَددت، والخَلَفُ عمّا وَصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجتَ من الطاعة نفسَك، ونفضتَ منها كفَّك، وغمستَ في خلافها يدَك؟ وما الذي أظَلّك بعد انحسار ظلِّها عنْك؟ أَظِلٌّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظَليل ولا يُغنِي من اللَّهب؟ قل: نعم، فذاك والله أكثَفُ ظلَالِك في العاجلة، وأرْوَحُها في الآجلة؛ إن أقمتَ على المُحادّة والعُنود[(١)]، ووقفت على المُشاقّة والجُحود.

ومنه: تأمّل حالَك وقد بلغتَ هذا الفصل مِن كلامي فستُنكِرها، والمُس جسدك فانظر هل يحسّ، واجسُسْ عرقك هل يَنبِض، وفتِّش ما حُنِيَ عليه أضلاعُك هل تجد في عرْضِها قلْبَك؟ وهل حَلِيَ بصدرك أن تظفَرَ بفَوتٍ مُزيح[(٢)] أو موتٍ مُريح؟ ثمّ قِسْ غائبَ أمرِك بشاهدِه، وآخرَ شأنِك بأوّلِه.

وكَتب الصاحب أبو القاسم كافي الكُفاة في وصف كتاب: ومن هو الذي لا يُحبّه وهو عَلَم الفضل، وواسطةُ الدهر؛ وقَرارةُ الأدب والعِلْم، ومَجمَعُ الدّرايةِ والفهم؛ أمّن يرغب عن مكاثَرة مَن يُنسَب الربيعُ إلى خُلقه، ويَكتسِب محاسنَه من طبعِه، ويَتوشّح بأنواره، ويَتوضّح بآثار لسانه ويده؟ وصل كتابُه، فارتَحتُ لِعُنوانه قَبل عِيانِه، حتى إذا فَضضتُ ختامَه أقبلَت الفِقَرُ تَتكاثر، والدُّرَرُ تَتناثر؛ والغررُ تَتراكم،

(١) العنود: من عند الطريق إذا مال. (٢) مُزيح: مُبعد.

والنكتُ تَتزاحم؛ فإذا حَكمتُ للفظة بالسَّبْقِ أتت أختُها تتنافس، وأقبَلتْ لديها تتفاخر؛ حتى استعفَيتُ من الحُكومة، ونفضتُ يدي من غبار الخصومة؛ وأخذت أقول: كلُّكنّ صَوادرُ عن أصلٍ واحدٍ فتسالَمْن، وأرفادٌ عن معدن رافد فتَصالَحن، وقد ولَّيتُ النظرَ بينهما مَن كَمل لِنَسْجِ بُرودِهما، ووَفَّى بنَظْمِ عُقودِهما؛ على أنني يا مولاي أنشأتُ هذه الأحرفَ وحولي أعمالٌ وأشغالٌ لا يسلس معهما فِكْر، ولا يَسلَم بينهما طبع؛ وتناولتُ قلمًا كالابنِ العاقّ، بل العدوّ المُشاقّ؛ إذا أردتُه استقال، وإذا قوّمتُه مال؛ وإذا حَثثتُه وَقَف، وإذا وقفتُه انحرف؛ أحْدَل[1] الشّق، متفاوت البَرْيِ، معدوم الجَرْي؛ محرَّف القَطّ، مثبّج[2] الخطّ؛ ثم رأيتُ العُدول عنه ضربًا من الانقياد لأمرِه، والانخراطِ في سِلكه، فجهَدتُه، على رَغْمِه، وكَدَدتُه على صَغَرِه؛ لا جَرَمَ أنّ جناية اللَّجاج باديةٌ على صفحات الحروف لا تخفى، وعاديةَ المَحْكِ[3] لائحةٌ على وجوه السطور تَتجلّى.

وكتب: واللّهُ يعلم أني أُخبِرتُ بورود كتابه واستفزّني الفرحُ قبل رؤيته، وهَزَّ عِطْفي[4] المَرَح أمام مشاهَدته؛ فما أدري، أسمعتُ بورود كتاب، أم ظَفِرتُ برجوع شباب؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد، وتطلّع إلى وصوله طويلٍ عريض؛ فتأمّلتُه فلم أدر ما تأمّلت، أخطًّا مسطورًا، أم روضًا ممطورًا، أم كلامًا منثورًا، أم وَشْيًا منشورًا؟ ولم أدر ما أبصرتُ في أثنائه، أأبيات شِعر، أم عقودَ دُرّ؟ ولم أدر ما جُملتُه، أغيثٌ حَلّ بِوادي ظمآن، أم غوثٌ سبَقَ إلى لَهْفان؟

وكتب: وصل كتاب القاضي فأعظَمتُ قَدْرَ النعمة في مَطْلعِه، وأجلَلت محلّ الموهبة بمَوقِعِه؛ وفضضتُه عن السحر حلالًا، والماءُ زُلالًا؛ وسرّحتُ الطَّرْفَ منه في رياض رقّت حواشيها، وحُللٍ تَأنّقَ واشيها؛ فلمَ أتجاوزْ فصلًا إلّا إلى أخطَر منه فضلًا، ولم أَتخطَّ سطرًا إلا إلى أحسَنَ منه نَظمًا ونثرًا.

وكتب أيضًا: وصل كتابك فجعَلتُ وُصولَه عيدًا أؤرّخ به أيّامَ بهجتي، وأَفتَتِح به مواقيتَ غِبطتي؛ وعرفتُ من خَبَر سلامتك ما سألتُ الله الكريم أن يصله بالدوام، ويرفعَه على أيدي الأيام.

---

(١) الأحدل: المائل الشق.
(٢) مثبج الخط: خفيه.
(٣) المحك: اللجاج.
(٤) العطف: الجانب.

وكتب أيضًا: وصل كتابُه ـ أيّده الله ـ يَضحَك عن أخلاقه الأَرِجة، ويَتهلّل عن عِشْرته العَطِرة؛ ويُخبِر عن عافية الله لمن رَأيتُ شَمْلَ الحُرّيّة به منتظِمًا، وشَعْبَ المروءة له ملتئمًا؛ ويَحمِلُ من أنواع بِرّه ما أَقصُر عن ذِكرِه، ولا أطمَع في شكرِه؛ ويؤدِّي مِن لطيفِ اعتذارِه في أثناء عَتْبِه، ما تَزداد أسبابُ المودّة تمهيدًا به؛ وفهِمتُه، ورَغِبتُ إلى الله بأَخلَص طَويّة، وأَمحَضِ نيّة.

وقال أبو الفرج البَبْغاء[1] من رسالة إلى عُدّة الدّولة أبي تغلب جاء منها: أَصَحُّ دلائلِ الإقبال، وأصدَقُ براهينِ السعادة ـ أطال الله بقاء سيِّدنا ـ ما شَهِدت العقولُ بصحّتِه، ونَطقت البصائرُ بحقيقتِه، ونعمةُ الله على الدّنيا والدِّين بما أولاهما من اختيار سيّدِنا لحِراستهما بناظِرِ فضلِه، وسترِهما بظلّ عدلِه؛ مُفصِحةٌ بتكامُلِ الإقبال، مُبشِّرةٌ بتصديق الآمال: [من البسيط]

مَحروسةٌ ضَمِن الشكرُ الوفيُّ لها ... على الزيادة نَيلَ السّؤل والدَّرَكِ
تحقَّقَ العصرُ أنّ المُلكَ منذ نشا ... له أبو تغلِبَ اسمٌ غيرُ مشترك
واستَخلَف الفَلَكُ الدوّارُ هِمّتَه ... فلو وَنَى أغنت الدنيا عن الفَلَكِ

مأمونُ الهفوات، متناصِرُ[2] الصفات؛ رِبْعيُّ[3] النَّفاسة، حَمدانيُّ السياسة، ناصريُّ الرياسة؛ عُطارِدي الذَّكاء، موفَّقُ الآراء؛ شمسيُّ التأثير، قَمَريُّ التصوير، فَلَكيُّ التدبير؛ للصّدقِ كلامُه، ولِلعدلِ أحكامُه، ولِلوفاءِ ذِمامُه؛ وللحسامِ غَناؤه، ولِلقَدَرِ مَضاؤه، ولِلسحابِ عطاؤه: [من البسيط]

دعـوتُـه فـأجـابـتـنـي مـكـارمُـه ... ولو دعوتُ سوى نعماه لم تُجِبِ
وجدتُه الغيثَ مشغوفًا بعادته ... والروضُ يحيا بما في عادة السّحُبِ
لوْ فاته النَّسبُ الوَضّاحُ كان له ... من فضلِه نسبٌ يُغني عن النَّسبِ
إذا دعتـه مـلوكُ الأرض سيّـدَهـا ... طرًّا دعته المعالي سيّدَ العَرَبِ

وكتب أبو الحسن عليّ بن القاسم القاشانيّ:

---

(١) أبو الفرج الببغاء: (٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م)، هو عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي، أبو الفرج المعروف بالببغاء. شاعر مشهور، وكان مترسل من أهل نصيبين، اتصل بسيف الدولة. ودخل الموصل وبغداد وقاوم الملوك والأمراء. له ديوان مطبوع. [الزركلي، الأعلام].
(٢) متناصر الصفات: تصدق صفاتها بعضها بعضًا.
(٣) ربعي: نسبة إلى الربيع، على غير قياس.

ما أرتضي نفسي لمخاطبة مولاي إذا كنتُ منفيَّ الشواغل، فارغَ الخواطر، مُخلى الجوارح، مطلقَ الإسار، سليمَ الأفكار، فكيف مع كَلالِ الحِدّة، وانغلاقِ الفهم، واستبهامِ القريحة، واستعجامِ الطبيعة؛ والمعوَّلُ على النيّة، وهي لمولاي بظَهر الغيب مكشوفةَ، والمرجعُ إلى العقِيدة، وهي بالوَلاء المَحْضِ معروفة؛ ولا مجال للعتب على هذه الأحوال، للعذرِ وراء هذه الخِلال.

وقال محمد بن العباس الخُوارزميّ[١]: الحمد لله الذي جعل الشيخ يضرب في المحاسن بالقِدح المُعَلَّى، ويسمو منها إلى الشرف الأعلى، ولَم يَجعل فيه موضعًا لِلَوْلا، ولا مجالًا لإلّا؛ فإن الاستثناء إذا اعتَرض في المدح أنصبّ ماؤه، وكُدّر صفاؤه، وانطلق فيه حسّادُه وأعداؤه؛ ولذلك قالوا: ما أحسنَ الظّبيَ لولا خَنَسُ[٢] أنفِه! وما أحسنَ البدرَ لولا كَلَفُ وجهِه! وما أَطْيَبَ الخمرَ لولا الخُمَار! وما أشرفَ الجُودَ لولا الإقتار! وما أحمَدَ مَغَبّة الصبر لولا فَناءُ العمر! وما أَطْيَبَ الدنيا لو دامت: [من البسيط]

ما أَعلَمَ الناسَ أنّ الجُودَ مَكسَبَةٌ   للحمد لكنّه يأتي على النَّشَبِ

ذكر شيء من رسائل فضلاء المغاربة ووزرائهم وكتابهم ممن ذكرهم ابن بسام[٣] في كتابه المترجم بالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

منهم ذو الوزارتين أبو الوَليد بنُ زَيدون[٤]، فمن كلامه رسالةٌ كتبها على لسان محبوبته وَلّادةَ بنتِ محمد بنِ عبد الرحمٰن الناصريّ إلى إنسان استمالها إلى نفسه عنه، وهي:

---

(١) محمد بن العباس الخوارزمي: (٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ = ٩٣٥ ـ ٩٩٣ م)، أبو بكر الخوارزمي، من أئمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء. له مجموعة رسائل وديوان شعر. (الزركلي، الأعلام).

(٢) الخنس: تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.

(٣) ابن بسام: (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م)، هو علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن، أديب، من الكتاب الوزراء. اشتهر بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ترجم لأعيان الأدب. (الأعلام للزركلي).

(٤) أبو الوليد بن زيدون: (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ = ١٠٠٣ ـ ١٠٧١ م)، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون: أحد مشاهير المترسلين والشعراء المسلمين في الأندلس، وزير أمراء إشبيلية. ولد بقرطبة. نافس الوزير ابن عبدوس على ولادة بنت المستكفي فسجن. (دائرة المعارف الإسلامية).

أما بعد، أيها المصابُ بعقلِه، المورَّطُ بجهلِه؛ البيّنُ سَقَطُه، الفاحشُ غلطُه؛ العاثرُ في ذيل اغترارِه، الأعمى عن شمس نهارِه؛ الساقطُ سقوط الذباب على الشراب، المتهافِتُ تَهافُتَ الفَراش في الشهاب؛ فإنّ العُجْبَ أكْذَب، ومعرفة المرء نفسَه أصْوَب؛ وإنك راسلتني مستهديًا من صِلتي ما صَفِرتْ منه أيدي أمثالِك، متصدّيًا من خُلّتي لما قُرِعتْ فيه أُنوفُ أشكالِك؛ مرسِلًا خليلَتك مُرتادة، مستعمِلًا عشيقتَك قَوّادة؛ كاذبًا نفسَك أنك ستَنزِل عنها إليّ، وتَخلُف بعدها علَيّ: [من المتقارب]

ولَســـتَ بـأوّلِ ذي هِـمّـةٍ دعتـه لـمـا لـيس بـالـنـائـل[1]

ولا شكّ في أنها قَلَتْك[2] إذ لم تَضَنَّ بك، ومَلّتك إذ لم تَغْزُ عليك، فإنها أَعذَرتْ في السِّفارة لك، وما قَصّرتْ في النيابة عنك؛ زاعمةً أنّ المروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانيّةَ اسمٌ أنت جسمُه وهَيولاه؛ قاطعةً أنّك انفردت بالجمال، واستأثَرتَ بالكمال، واستَعلَيتَ في مراتب الجلال، واستَولَيتَ على محاسن الخِلال؛ حتى خَيّلتْ أنّ يوسف عليه السلام حاسَنَك فغَضضتَ منه، وأنّ امرأةَ العزيز رأتك فسَلَت عنه؛ وأنّ قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزت، والنَّطِفَ[3] عَثَر على فضل ما ركزت[4]، وكِسرى حَمَل غاشيتَك[5]، وقيصرَ رعى ماشيتَك؛ والإسكندرَ قَتَلَ دارًا[6] في طاعتِك، وأَرْدَشِيرَ[7] جاهد ملوكَ الطوائف لخروجهم عن جماعتِك؛ والضَّحّاكَ[8] استَدعى

(١) هذا البيت للمتنبي. (٢) قلتك: من قلى أي أبغض.

(٣) النَّطِفُ: هو ابن جبير بن حنظلة اليربوعي التميمي أغار على قافلة تحمل أموالًا لكسرى من اليمن وحصل على الكثير منها فضرب به المثل. وجاء في اللسان لابن منظور (مادة نطف) أن اسمه حِطّان على رأي ابن دريد. بينما الجوهري وابن بري يقولان إن اسمه النطف. (انظر: سرح العيون، ص ٢٥، المطبعة الأميرية).

(٤) ركزت: من الركاز، وهو دفين مال الجاهلية.

(٥) أراد غاشية السرج، وهي غطاؤه.

(٦) دارًا: إشارة إلى مقتل دار الأصفر هذا ابن دارا الأكبر بن أردشير ملك الفرس على يد الإسكندر بن فيليب اليوناني في معركة نصيبين. وقد هزم فيها الفرس. (ابن نباتة، سرح العيون، طبعة بولاق. د.ت. وإليها رجعنا في شرح رسالة ابن زيدون).

(٧) أردشير بن بابك استعاد الملك بعد حكم الإسكندر، وتغلب على ملوك الطوائف الذين عينهم الإسكندر، وتسمى بعد ذلك شاهنشاه الأعظم أي ملك الملوك. (المصدر ذاته).

(٨) ربما كان الضحاك بن قيس الفهري الذي ثار على بني أمية في الشام وقتل في معركة مرج راهط ٦٨٤م (المنجد).

مسالَمَتك، وجَذِيمةَ[١] الأَبرش تمنّى منادَمتَك؛ وشِيرِينَ[٢] نافستْ بُورانَ[٣] فيك؛ وبِلْقِيسَ[٤] غايرت الزَّبّاءَ[٥] عليك؛ وأنّ مالكَ[٦] بن نُوَيرةَ إنما ردف لك؛ وعُروةَ[٧] بن جعفر إنما رحَل إليك؛ وكُلَيب[٨] بنَ رَبيعة إنما حَمى المرعى بعِزّتك؛ وجسّاسًا[٩] إنما قتَلَه بأنَفَتك؛ ومُهَلْهِلًا[١٠] إنما طَلَب ثأرَه بهِمّتك؛ والسموألَ[١١] إنما وَفى عن عهدِك، والأحنَفَ[١٢] إنما احتَبى في بُرْدِك؛ وحاتمًا[١٣] إنما جاد بوَفْرِك، ولَقِيَ الأضيافَ بِبِشرِك؛ وزيدَ[١٤] بنَ مهلهل إنما رَكب بفخذيك، والسُّلَيكَ[١٥] بنَ السُّلكة

---

(١) جذيمة الأبرش: هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخي وقيل الأزدي. أول من قاد العرب وملك على قضاعة في الحيرة والأنبار. (المصدر ذاته).

(٢) شيرين زوجة أبرويز بن هرمز من ولد كسرى أنوشروان. (المصدر ذاته).

(٣) بوران: بنت أبرويز المتقدم، وقد ملكت بعد شهريار. ابن أبرويز. (المصدر ذاته).

(٤) بلقيس: هي ابنة الحرث بن سبأ، ملكة اليمن ورد ذكرها في القرآن (سورة النمل) وكان لها علامة مع سليمان الحكيم. (المصدر ذاته).

(٥) الزباء: ملكة تدمر في بلاد الشام في العهد الروماني. لقبت بالزباء لطول شعرها. اسمها بارعة أو ميسون أو زنوبيا بنت عمرو بن الظرب الذي قتله جذيمة الأبرش وأخذ ملكه، وقامت الزباء بأخذ ثأره. غلبها وأسرها الامبراطور الروماني أوليانوس سنة ٢٧٣ م. (المنجد).

(٦) مالك بن نويرة بن شداد اليربوعي التميمي. فارس شجاع من ذوي الردافة في الجاهلية. أدرك الإسلام وأسلم ولكنه ارتد بعد وفاة النبي فقتله خالد بن الوليد زمن أبي بكر الصديق. (انظر اللسان لابن منظور، مادة ردف).

(٧) عروة بن جعفر بن عامر بن صعصعة. عرف بعروة الرحال لكثرة رحلاته إلى الملوك. اتصف بالعقل والشهامة. (ابن نباتة، السرح).

(٨) هو كليب بن ربيعة بن الحارث الوائلي. ساد قبائل وائل وكان له حمى واسع لا يقربه أحد. قتله جساس بن مرة بسبب ذلك.

(٩) جساس بن مرة البكري الوائلي، قاتل كليب لأن كليبًا رأى ناقة كانت لخالة جساس في حماه فأنكرها ورماها بسهم فعظم ذلك على جساس وخالته فقصده ورماه بسهم قتله.

(١٠) مهلهل: هو أخو كليب، اسمه عدي، ولقب بالمهلهل لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي أرقه.

(١١) السموأل بن عادياء، من يهود يثرب. ضرب به المثل في الوفاء لأنه رفض تسليم دروع امرىء القيس الشاعر لأعدائه وضحى بابنه. وله شعر جميل.

(١٢) الأحنف: هو الضحاك بن قيس بن معاوية السعدي، وكنيته أبو بحر يضرب به المثل في الحلم والسيادة، توفي بالكوفة سنة سبع وستين هـ. (وفيات الأعيان، لابن خلكان).

(١٣) هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، أبو سفانة، وأبو عديّ، ويضرب به المثل في الجود.

(١٤) هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، كان فارسًا مظفرًا أدرك الإسلام وأسلم، وسمّاه الرسول عليه الصلاة والسلام زيد الخير وكان يسمّى قبل ذلك «زيد الخيل» لكثرة خيله.

(١٥) هو السُّليك بن عمرو بن يثربيّ أحد بني مقاعس، شاعر جاهلي كان من صعاليك العرب=

إنّما عدا على رِجليك، وعامرَ[١] بنَ مالك إنما لاعب الأَسِنّةَ بيديك؛ وقيسَ بنَ زُهير[٢] إنما اُستعان بدَهائك، وإياسَ[٣] بنَ معاوية إنما استضاء بمصباحَ ذَكائك؛ وسَحْبانَ[٤] إنما تكلّم بلسانِك، وعمر بن الأهتم[٥] إنما سَحَر ببيانِك؛ وأنّ الصلحَ بين بكر وتغلبَ[٦] تمّ برسالتِك، والحَمالاتِ[٧] في دماء عَبْس وذُبيانَ أُسنِدت إلى كَفالتِك؛ وأنّ اُحتيالَ هَرِمٍ[٨] لعامرٍ[٩] وعلَقمةَ[١٠] حتى رضيا كان عن رأيِك؛ وجوابه لعمرَ وقد سأله عن أيّهما كان ينفِّر[١١] وقع بعد مشُورتِك؛ وأنّ الحجّاج[١٢] تَقلّد وِلايةَ العراق بجَدِّك، وقُتَيبةَ[١٣] فَتَحَ ما وراء النهرِ بسعدِك؛

= ولصوصهم العدّائين.

(١) هو عامر بن مالك بن جعفر بن صعصعة، ملاعب الأسنّة ويكنّى أبا براء، وأمّه أمّ البنين أنجب امرأة في العرب ولقّب بملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه.

يلاعب أطراف الأسنّة عامرٌ فراح له حظّ الكتائب أجمع

(٢) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء، وكان فارسًا داهية.

(٣) هو إياس بن معاوية بن قرّة المزني ولي قضاء البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب الفراسة والأجوبة البديعة ويضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢١ هـ.

(٤) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، كان خطيبًا يضرب به المثل في البيان واللسن، أدرك الإسلام وأسلم مات سنة ٥٤ هـ.

(٥) هو عمر بن سنان الأهتم التميمي المنقري، من سادات العرب وخطبائهم في الجاهلية، وفد على الرسول ﷺ هو والزبرقان بن بدر وأسلما مات سنة ٥٧ هـ.

(٦) بكر وتغلب هما ابني وائل، وأشار بالصّلح إلى حرب البسوس التي وقعت بينهما واستمرّت إلى وقت طويل...

(٧) الحمالات: جمع حمالة وهي ما يتحمّله الرّجل من دية أو غرامة وأشار بهذه العبارة إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان.

(٨) هو هرم بن قطبة بن سيان من بني فزارة، وكان هرم هذا حكمًا من حكام العرب يقضي بين ساداتهم فلا يردّ قضاؤه.

(٩) عامر: هو عامر بن الطفيل بن مالك.

(١٠) علقمة: هو علقمة بن علاثة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة وكان عامر وعلقمة قد تنافرا إلى هرم يحكم بينهما أيّهما أفضل، فسوّى بينهما وقال: أنتما كقائمتي البعير تقومان معًا وتقعدان معًا.

(١١) يقال: نافرته إلى الحكم فنفرني عليه، أي حاكمته فغلبني عليه...

(١٢) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف الثقفي، ولد ونشأ في الطائف سنة ٤١ هـ، وعمل معلمًا في الكتاب، ولاه عبد الملك بن مروان الأموي على العراق فأخمد الفتن بقسوة وأوهى شوكة الخوارج. وتوفي بواسط سنة ٩٥ هـ.

(١٣) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي. ولاه عبد الملك بن مروان على خراسان ففتح بلاد ما وراء=

والمهلَّبَ(١) أَوهى شَوكةَ الأزارقة بأَيدِك، وأفسَد ذات بينهم بكيدِك؛ وأنّ هِرْمِسَ(٢) أعطى بلينوسَ ما أَخذ منك، وأفلاطونَ(٣) أَورد على أَرِسطوطاليسَ(٤) ما حدّث عنك؛ وبطليموسَ(٥) سَوّى الأَسْطُرلابَ بتدبيرِك، وصوَّر الكرَة على تقديرِك؛ وأبُقراطَ(٦) عَلِمَ العلَلَ والأمراض بلطف حسِّك، وجالينُوسَ(٧) عَرَفَ طبائعَ الحشائِش بدقّةِ نظرِك؛ وكلاهما قلّدك في العِلاج، وسألك عن المِزاج؛ واستَوصفك تركيبَ الأعضاء، واستشارك في الداء والدواء؛ وأنت نَهجتَ لأبي مَعشَرٍ(٨) طريقَ القضاء، وأظهرتَ جابر بنَ حيّانَ(٩) على سِرّ الكِيمِياء؛ وأعطَيتَ

= النهر (نهر جيحون في خراسان). وتوفي سنة ٩٦ هـ.

(١) المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري، أمره مصعب بن الزبير على البصرة ثم خراسان، قاتل الخوارج وأضعف شوكتهم وتوفي زمن الحجاج سنة ٨٣ هـ.

(٢) هرمس هو نبي الصائبة المرسل الذي أتى بشرائعهم ويعتقدون أنه إدريس ذاته الذي جاء ذكره في القرآن. أما بلينوس فيزعم الصائبة أنه خلف هرمس وأخذ العلوم عنه. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٣) أفلاطون: (٤٣٠ ـ ٣٤٧ ق.م). فيلسوف يوناني كبير تتلمذ على سقراط وأسس أكاديمية للعلم تخرج منها أرسطو الفيلسوف اليوناني الملقب بالمعلم الأول. خلف نحو ثلاثين كتابًا سميت المحاورات أهمها الجمهورية وتيماوس، والسفسطائي.

(٤) أرسطوطاليس: (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) مؤدب الإسكندر ومؤسس الفلسفة المشائية لأنه أنشأ مدرسة في أثينا كان يلقي فيها دروسه ماشيًا. أشهر كتبه: الأورغانون في المنطق، والأخلاق، والنفس وما بعد الطبيعة. ترجمت إلى العربية في العصر العباسي وتركت أثراً عظيماً في الفكر العربي.

(٥) بطليموس: (... ـ ١٦٧ م)، ولد في صعيد مصر، وتوفي في الإسكندرية. عالم هيئة وتاريخ وجغرافية. أشهر مؤلفاته «المجسطي» و«آثار البلاد». قال إن الأرض ثابتة لا تتحرك وأن الفلك يدور حولها. وقد فند كوبيرنيكوس نظريته وأبطلها. (المنجد).

(٦) أبقراط (Hippocrate): (... ـ ٤٦٠ ق.م)، أشهر أطباء اليونان علل الأمراض باضطراب الأخلاط وجعل لها مصدرين: الهواء والغذاء. أرسل إليه ملك الفرس أرتحتشتا الهدايا ودعاه للمجيء إلى إيران فرفض خدمة أعداء بلاده ورد الهدايا. نقلت بعض كتبه إلى العربية في العصر العباسي أهمها تقدمة المعرفة، وطبعة الإنسان. (المنجد).

(٧) جالينوس Galien: (١٣١ ـ ٢٠١ م)، يعتبر آخر الأطباء الثمانية المشهورين عند اليونان الذين أولهم اسقنبلينوس تجول في البلدان مفتشًا عن الحشائش وجربها، وشرح أعضاء الجسم وله اكتشافات خطيرة في علم التشريح. (المنجد).

(٨) أبو معشر: هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم المشهور. كان من أصحاب الحديث ينتقد الكندي ويحرض عليه العامة فدس له الكندي من حسن له علم الحساب والهندسة فانصرف إليه وإلى علم الفلك وكف عن الكندي. توفي سنة ٢٧٢ هـ. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٩) جابر بن حيّان: (... ـ ٧٧٦ م) من علماء العرب في الكيمياء. عاش في الكوفة، واتصل=

النظّامَ[١] أصلًا أدرك به الحقائق، وجعلتَ للكِنديّ[٢] رسمًا ٱستخرَجَ به الدقائق؛ وأن صناعةَ الألحان ٱختراعُك، وتأليفَ الأوتار توليدُك وٱبتداعُك؛ وأن عبدَ الحميد بنَ يحيىٰ[٣] بارِي أقلامِك، وسهلَ بن هارون[٤] مدوِّنُ كلامِك؛ وعَمرو بنَ بحرٍ مستمليك[٥]، ومالكَ بنَ أَنَسٍ[٦] مستفتيك؛ وأنك الذي أقام البراهين، ووضَعَ القوانين؛ وحَدَّ الماهيّة، وبيَّن الكيفيّةَ والكَميّة؛ وناظَرَ في الجوهر والعَرَض، وبيَّن الصحّةَ من المرض؛ وفكَّ المُعمَّى، وفصل بين الاسم والمسمى؛ وضَرب وقَسَّم، وعَدل وقوَّم؛ وصنَّف الأسماء والأفعال، وبوَّب الظَّرف والحال؛ وبنَى وأعرب، ونفَى وتعجَّب؛ ووَصل وقَطع، وثنَّى وجَمَع؛ وأَظهَرَ وأَضمَر، وٱبتدأ وأَخبَر؛ وأَهمَل وقيَّد،

= بجعفر الصادق. من كتبه «الرحمة» فيه بحث عن طريقة تحول المعادن إلى ذهب. ولكن صاحب سرح العيون يقول إنه لم يجد ترجمة صحيحة له في كتاب يعتمد عليه. (المنجد، وسرح العيون).

(١) النظام: هو إبراهيم بن سيار النظام، أبو إسحٰق، شيخ المعتزلة في عصره وأستاذ الجاحظ. ترجم له ابن المرتضى وذكره الجاحظ كثيرًا في كتبه. وهو القائل بنظرية الطفرة في حركة الأجسام. توفي في بغداد سنة ٢٣٠ هـ.

(٢) الكندي: هو يعقوب بن إسحٰق الكندي. أول فيلسوف عربي، كان جده الأشعث بن قيس من أصحاب النبي وكان أبوه واليًا على الكوفة من قبل المهدي والرشيد. ترجم له ابن أبي أصيبعة والقفطي، وذكره الجاحظ في البخلاء ورماه بالبخل. له عشرات الرسائل في الفلسفة أهمها رسالة في الفلسفة الأولى، طبعها أبو ريدة.

(٣) عبد الحميد بن يحيىٰ بن سعيد العامري، أحد الكتاب المجيدين، كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولما قتل مروان استخفى حتى عثر عليه جنود أبي مسلم الخراساني فسلموه للسفاح الذي قتله سنة ١٣٢ هـ.

(٤) سهل بن هارون بن راهبون، من أهل نيسابور نزل البصرة ثم انتقل إلى بغداد، وعمل كاتباً في بيت الحكمة عند المأمون. له مؤلفات تدل على بلاغته ورجاحة عقله ونسب إليه الجاحظ في البخلاء رسالة يدافع فيها عن البخل. توفي سنة ٢١٠ هـ.

(٥) هو عمرو بن بحر بن محبوب، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، وكني بأبي عثمان. ولد بالبصرة حيث نشأ وتثقف ثقافة موسوعية ونبغ في الأدب وعلم الكلام ثم انتقل إلى بغداد واتصل بخلفاء بني العباس المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وعندما أفل نجم المعتزلة وضيق عليهم المتوكل عاد إلى مسقط رأسه البصرة حيث توفي سنة ٢٥٥ هـ. أهم كتبه الحيوان والبخلاء والبيان والتبيين. وعشرات الرسائل. (ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، وابن خلكان، وفيات الأعيان).

(٦) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي، أبو عبد الله من أصحاب الحديث والفقه، له كتاب الموطأ في الفقه. عاش في المدينة ومات سنة ١٧٩ هـ. (ابن خلكان، وفيات الأعيان).

وأَرسَل وأَسنَد، وبَحَث ونَظر، وتصفّحَ الأديان، ورَجّح بين مذهبي ماني[١] وغَيلان[٢]؛ وأشار بذَبْح الجَعْد[٣]، وقتْلِ بَشار بنِ بُرْد؛ وأنك لو شئتَ خرقتَ العادات، وخالفتَ المعهودات؛ فأحلتَ البخارَ عذبة، وأعدتَ السِّلامَ[٤] رَطْبة؛ ونَقلتَ غدًا فصار أمسًا، وزدتَ في العناصر فكانت خَمسًا؛ وأنك المقولُ فيه: «كلُّ الصيد في جوف الفَرا»[٥]: [من الوافر]

و: ليس على الله بمستنكَرٍ أن يَجمع العالَمَ في واحدِ[٦]

والمعنيُّ بقول أبي تمّام: [من الوافر]

فلو صوَّرتَ نفسَك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباعِ

والمرادُ بقول أبي الطيّب: [من الكامل]

ذُكِر الأنامُ لنا فكان قصيدةً كنتَ البديعَ الفردَ من أبياتها

فـ «كَدَمتَ غيرَ مَكْدَم»[٧] واستسمنت ذا ورم ونَفختَ في غير ضرم؛ ولَم تَجِد لرُمحٍ مَهزًّا، ولا لشَفْرةٍ مَحزًّا؛ بل رضيتَ من الغنيمة بالإياب، وتمنّيتَ الرجوع بخفَّي حنينٍ[٨]، لأني قلتُ لها: [من الطويل]

* «لقد هان من بالت عليه الثعالبُ»[٩] *

---

(١) ماني: صاحب الديانة المانوية، ظهر أيام سابور بن أردشير، وتبعه كثير من المجوس، وقال بإلـهين إله النور وإله الظلمة، أو إله الخير وإله الشر. وقتل زمن بهرام بن سابور سنة ٢٧٦ م.

(٢) غيلان: هو غيلان بن يونس الدمشقي، أول من تكلم في القدر وخلق القرآن، وقتل زمن هشام بن عبد الملك بسبب ذلك.

(٣) الجعد: هو الجعد بن درهم مولى بني الحكم. سكن دمشق وعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. قال بتخلق القرآن، فطلب وهرب ونزل الكوفة فأخذ عنه جهم بن صفوان قوله بخلق القرآن فقبض عليه خالد بن عبد الله القسري والي العراق، وقتله زمن هشام بن عبد الملك.

(٤) السلام: واحده سلمة أي الحجر.

(٥) مثل يضرب للشيء المربي على غيره. والفرا: حمار الوحش.

(٦) البيت لأبي نواس.

(٧) مثل يضرب لمن يطلب شيئًا في غير مطلبه. ومعنى الكدم العض بأدنى الفم. والمكدم: موضع العض. أي عضضت في غير المحل الذي ينبغي عضه.

(٨) رجع بخفي حنين: مثل يضرب لمن يرجع من مسعاه خائبًا.

(٩) هذا عجز بيت للشاعر غاوي بن ظالم السلمي، أو للعباس بن مرداس السلمي. وصدر البيت:
«أرب يبول الثعلبان برأسه»

وأنشَدتُ: [من الطويل]

علـى أنـهـا الأيـامُ قـد صـرن كـلُّـها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ[١]

ونَخَرتُ[٢] وكفرت، وعبَستُ وبَسرت[٣]؛ وأبدأتُ وأعدت، وأبرقتُ وأرعدت و «هَممتُ ولَم أفعل وكدتُ وليتني» ولولا أنّ للجِوارِ ذمّة، ولِلضيافةِ حُرمة؛ لكان ٱلجوابُ في قَذال الدُّمُسْتُق[٤]، ولكنّ النعلَ حاضرةٌ إن عادت العقرب، والعقوبة ممكنةٌ إن أصرّ المذنب؛ وهَبْها لم تلاحظك بعينِ كَلِيلةٍ عن عيوبك، ملؤها حبيبُها، وحَسَنٌ فيها من تَوَدّ، وكانت إنما حلّتك بحُلاك، ووسمتْك بسيماك؛ ولم تُعْرِك شهادة، ولا تكلّفتْ لك زيادة؛ بل صدَقتْك سنَّ بَكرِها[٥] فيما ذكرتْه عنك، ووضعت الهِناءَ[٦] مواضعَ ٱلنُّقْب فيما نسبته إليك؛ ولم تكن (كاذبة فيما أثنت به عليك)، فالمُعَيْديُّ[٧] تسمع به لا أن تراه، هَجينُ[٨] القَذال، أَرعنُ السِّبال؛ طويلُ العنق والعِلاوة[٩]، مُفرِطُ الحُمقِ والغباوة؛ جافي الطبع، سيّىءُ الجابةِ[١٠] والسَّمع؛ بغيضُ الهيئة، سخيفُ الذّهابِ والجَيئة؛ ظاهرُ الوَسواس، منتِنُ الأنفاس؛ كثيرُ المعايب، مشهورُ المثالب؛ كلامُك تمتَمة، وحديثُك غَمغَمة؛ وبيانُك فَهفَهة، وضَحكُك قَهقَهة؛ ومشيُك هروَلة، وغِناك مسألة؛ ودِينك زندقة، وعِلْمُك مَخرَقة: [من الوافر]

مَـسـاوٍ لـو قُـسـمـن عـلـى الـغـواني لـمـا أُمـهـرن إلا بـالـطَّـلاقِ[١١]

(١) البيت لأبي تمام.
(٢) نخرت: من النخير وهو الصوت الخارج من الأنف ومنه سمي المنخار.
(٣) بسرت: من البسر، وهو القطوب.
(٤) قذال الدمستق: إشارة إلى بيت يمدح فيه المتنبي سيف الدولة الحمداني أمير حلب بمناسبة انتصاره على قائد الروم الدمستق الذي ولي منهزمًا. والبيت هو: وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه في قذال الدمستق.
(٥) مثل يضرب لمن يضع الشيء في غير مكانه. والبكر: الفتي من الإبل.
(٦) الهناء: القطران.
(٧) أهل المثل كما جاء في مجمع الأمثال للميداني «تسمع بالمعيدي ولا تراه»، يضرب لمن خبره خير من مرآه. والمقول فيه هو شقة بن ضمرة بن جابر من بني نهشل.
(٨) الهجين: الذي أمه غير عربية. والقذال: مؤخر الرأس. يضرب لمن إذا أدبر عرف لؤم نسبه.
(٩) العلاوة: الرأس. (١٠) الإجابة.
(١١) البيت لأبي تمام.

حتى إنّ باقلا[١] موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبَنّقة[٢] مستحقٌّ لاسم ٱلعقل إذا نُسِب منك، وأبا غَبْشانَ[٣] محمودٌ منه سَدادُ الفعل إذا أضيف إليك، وطُوَيسًا[٤] مأثورٌ عنه يُمْنُ الطائر إذا قيس عليك؛ فوجودُكَ عَدَم، والاغتباطُ بك ندم؛ والخيبةُ منك ظَفَر، والجنّةُ معك سقَر؛ كيف رأيتَ لؤمَك لكرمي كِفاء، وضَعَتَك لشرفي وَفاء؟ وأنّى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيرَ إنّما تقع على أُلّافها؟ وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعُرت أن ناريْ المؤمن والكافر لا يتراءيان، وقلت: الخبيثُ والطيّبُ لا يستويان، وتمثلتَ: [من الخفيف]

أيها المنكِحُ الثريّا سُهيلا عَمرَكَ الله كيف يلتقيان[٥]

وذكرتَ أنّى عِلق لا يباع ممن زاد، وطائرٌ لا يصيده من أراد، وغرضٌ لا يصيبه إلا من أجاد؛ ما أحسَبك إلا كنت قد تهيّأتَ للتهنئة، وترشّحتَ للترفئة؛ أولى لك، لولا أنّ جرحَ العَجْماء جُبار[٦]، للقِيتَ ما لقيَ من الكواعب يَسَار[٧]؛ فما هَمَّ إلا بدون ما هممتَ به، ولا تَعرّض إلا لأيسر ما تعرّضتَ له؛ أين ٱدّعاؤك روايةَ الأشعار، وتعاطيكِ حِفظَ السِّيرَ والأخبار؟: [من الطويل]

بنو دارِمٍ أكفاؤهم آلُ مِسمَع وتُنكح في أكفائها الحَبِطات[٨]

(١) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الأيادي، ذكره الجاحظ مراراً في البيان والتبيين وغيره من كتبه ورسائله لمثل يضرب في البيان والفصاحة.

(٢) هبنقة: هو يزيد بن ثوران بن ثعلبة، لقب بذي الورعات لأنه كان يعلق في عنقه قلادة من ودع مع طول لحيته، فسئل فقال: لئلا أضل. فضرب به المثل في الحمق. ذكره الجاحظ مرارًا في رسائله وكتبه.

(٣) أبو غبشان أو أبو عيشان مضرب المثل في الندم وخسارة الصفقة. لأنه باع من قصي مفاتيح الكعبة التي كان سادنًا لها بزق خمر. اسمه المحترش بن خليل بن سلول بن كعب بن عمرو. (القاموس المحيط).

(٤) طويس: هو مولى بني مخزوم، كنيته أبو نعيم، من سكان المدينة، ماجن طريف كان يغني بالدف. ضرب به المثل في الشؤم، لأنه ولد يوم قبض رسول الله، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم مات عليّ. (القاموس المحيط).

(٥) البيت لعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة. والثريا هي بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر. وسهيل هو ابن عبد العزيز بن مروان. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٦) العجماء: البهيمة؛ الجُبار: الهدر الذي لا قصاص فيه. وهو قول للنبي.

(٧) يسار: عبد أسود، كانت النساء تضحك من قبحه فيظن أنهن يضحكن إعجابًا به. فحاول مرة مغازلة امرأة مولاه فقالت له: إن للحرائر طيبًا أشمك إياه. فقال: هاتيه. فأتت بالطيب وموسى، فأشمته الطيب وجدعت أنفه. وكان يلقب يسار الكواعب. (المصدر عينه).

(٨) البيت للفرزدق.

وهلّا عَشَّيتَ[١] ولم تَغترّ، وما أمّنك أن تكون وافدَ البراجِم[٢]، أو ترجعَ بصحيفة المتلمِّس[٣] أو أفعلَ بك ما فعله عَقِيلُ بن عُلَّفَةَ بالجُهَنيِّ[٤] إذ جاءه خاطبًا فدهن ٱستَه بزيت وأدناه من قَرْية النمل؟ ومتى كثر تَلاقِينا، واتصل تَرائينا؛ فيدعوني إليك ما دعا ابنةَ الخُسِّ[٥] إلى عبدها مِن طُول السواد، وقربِ الوِساد؟ وهل فقدتُ الأَراقمَ فأُنكَح في جَنْب[٦]، أو عَضَلني همّام بنُ مرّة فأقول: زوجٌ من عُود، خيرٌ من قُعود»[٧]؟ ولعمري لو بلغتُ هذا المبلغ لارتفعتُ عن هذه الحِطّة، وما رضيتُ بهذه الخُطّة؛ فـ «النارُ ولا العار» و«المنيّةُ ولا الدَّنية» والحُرّة تجوع ولا تأكل

(١) مثل يضرب للاحتياط أصله «عش ولا تغتر».

(٢) وافد البراجم: إشارة إلى المثل: «إن الشقي وافد البراجم» ووافد البراجم رجل من تميم وأحد أولاد حنظلة بن مالك. والقصة هي أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين من بني تميم لثأر له عندهم وكان قد حلف على حرق مائة منهم. وبينما هو يبحث عن رجل يتمم به المائة مر رجل يسمى عمارًا فشم رائحة القتار فظن أن الملك أولم طعامًا فعدل إليه، فأحرقه. (المصدر نفسه).

(٣) المتلمس: شاعر جاهلي هو خال طرفة بن العبد، وفد مع ابن أخيه على عمرو بن هند ملك الحيرة، فغضب عليهما يومًا لأنهما عرضا به وأراد التخلّص منهما فكتب كتابين لعاملة في البحرين يأمره بقتلهما وقال لهما إنني كتبت بصلة لكما من عاملي في البحرين. فسلماه الرسالتين. فتوجها إلى البحرين، وأثناء الطريق فتح المتلمس صحيفته وعرف ما فيها فألقاها في البحر، ومضى طرفه بصحيفته إلى عامل البحرين فقتله. وضرب المثل بصحيفة المتلمس للرجل يحصل له الضرر من حيث هو يتوقع النفع. (سرح العيون).

(٤) عقيل بن علفة شاعر من شعراء العصر الأموي، اشتهر بهوجه وجفوته وعجرفته، خطب عبد الملك ابنته فأبى، وخطب جار له جهني إحدى بناته فدهن استه بزيت وأدناه من قرية النمل. (المصدر نفسه).

(٥) هي هند بنت الحسن الإيادي، عاشت في العصر الجاهلي، ذكروا أنها زنت بعيدها، فلامها الناس في ذلك، وقالوا ما حملك على الزنى؟ فقالت: قرب الوساد، وطول السواد. والسواد: المسارة. (المصدر نفسه).

(٦) الأراقم: حي من تغلب. وجنب: حي من اليمن. أشار بهذه العبارة إلى بيتين للشاعر الجاهلي امرىء القيس الذي اضطر إلى تزويج ابنته من حي في اليمن بسبب بعده عن قبيلته. والبيتان هما:

اعزز على تغلب بما لقيت ... أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم من ... جنب وكان الحباء من أدم

(٧) همام بن مرة منع بناته الأربع من الزواج، أي عضلهن فقالت إحداهن: زوج من عود خير من قعود». (المصدر نفسه).

بثدييها: [من الطويل]

فكيف وفي أبناء قوميَ منكَحٌ وفتيانِ هَزّانَ الطوالِ الغَرانقة[١]

ما كنتُ لأتخطّى المسكَ إلى الرَّماد، ولا لأمتطيَ الثّورَ بعد الجواد؛ فإنما يتيمّم من لا يجد ماء، ويَرعى الهشيمَ مَن عَدِم الجَميم[٢]، ويَركب الصّعبَ من لا ذَلولَ له؛ ولعلك إنما غرّك من علمتَ صبوتي إليه، وشهدتَ مساعَفتي له، مِن أقمارِ العصر، ورياحينِ المصر؛ الذين هم الكواكبُ علوَّ هِمم، والرياضُ طِيبَ شِيَم: [من البسيط]

من تَلقَ منهم تقل: لاقيتُ سيّدَهم مثل النجوم التي يَسرِي بها الساري[٣]

فَيحِنّ قِدْحٌ ليس منها؛ ما أنت وهُم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلّا واوُ عمرٍو فيهم، وكالوَشِيظة في العَظْم بينهم[٤]؟ وإن كنتَ إنما بلغتَ قعرَ تابوتك[٥]، وتجافيتَ عن بعض قُوتِك؛ وعَطّرتَ أَرْدانَك، وجَررتَ هِمْيانَك؛ واختلتَ في مشيتِك، وحذفتَ فُضولَ لحيتِك؛ وأصلحت شاربَك، ومَططت حاجبَك؛ ودققت خَطَّ عِذارِك، واستأنفت عَقْدَ إزارِك؛ رجاء الاكتتابِ[٦] فيهم، وطمعًا في الاعتدادِ منهم؛ فظننتَ عَجزًا، وأخطأت اَستُك الحُفرة؛ والله لو كساك مُحرِّقٌ[٧] البُردين، وحلّتك ماريَةُ[٨] بالقرطين؛ وقلّدك عمرٌو[٩] الصَّمصامة، وحمَلك الحارثُ[١٠] على

---

(١) البيت للأعشى الأكبر. هزان بطن من العرب. والغرانقة جمع غرنوق وغرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل. (المصدر نفسه).

(٢) الجميم: النبات النامي الذي طال ولم ينضج.

(٣) البيت للعرندس البكري الكلابي يمدح به أحد الغنويين. (ابن نباتة، سرح العيون).

(٤) الوشيظة: قطعة عظم زائدة على العظم الصميم مثل يضرب للدخيل على القوم وليس منهم. (المصدر نفسه).

(٥) يعني لازمت فذلك.

(٦) يريد رجاء أن تعد فيهم وتكتب منهم.

(٧) يريد عمرو بن هند ملك الحيرة. يحكى أن وفود القبائل اجتمعوا عنده فأخرج بردين وقال ليقم أعز العرب وليأخذهما فقام عامر بن أحيمر فأخذهما. فقال عمرو بن هند: أنت أعز العرب قبيلة: فقال: أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة الخ... (المصدر نفسه، مادة برد).

(٨) حلتك مارية بالقرطين: إشارة إلى قرطي مارية ابنة ظالم بن وهب الكندي، زوجة الحارث الأكبر الغساني. وكان في قرطيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك، وقد وصلتا إلى عبد الملك بن مروان فأهداهما إلى ابنته لما زوجها لعمر بن عبد العزيز. ويروى أن مارية أهدتهما إلى الكعبة. (المصدر نفسه).

(٩) عمرو هو عمرو بن معديكرب. والصمصامة اسم سيفه.

(١٠) هو الحارث بن عباد التغلبي. والنعامة اسم فرسه.

النَّعامة؛ ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك؛ ولا سترتَ أباك، ولا كنتَ إلا ذاك؛ وهبك ساميتهم في ذُرْوة المجد والحسَب، وجاريتَهم في غاية الظرف والأدب؛ ألست تأوى إلى بيتٍ قَعيدتُه لَكاع؟ إذ كلُّهم عَزَبٌ خالي الذراع؛ وأين من أنفرد به، ممن لا أَغلِب إلا على الأقلّ الأخسّ منه؟ وكم بين من يعتمدني بالقوّة الظاهرة، والشهوةِ الوافرة؛ والنفسِ المصروفة إليّ، واللذةِ الموقوفةِ عليّ؛ وبين آخر قد نَزَحتْ بيرُه، ونَضَب غديرُه؛ وذهب نشاطُه، ولم يَبقَ إلا ضُراطُه؛ وهل كان يُجمَع لي فيك إلا الحَشَفُ[١] وسُوءُ الكِيلة. ويقترِن عليّ بك إلا الغُدّةُ والموتُ في بيت سَلُوليّة[٢]: [من الوافر]

تـعـالـى الله يـا سَـلْمُ بـنَ عـمـرو أذلّ الـحِـرصُ أعـنـاقَ الـرجـالِ

(وهذا الشعر لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو ويلومه على حرصه، ويتلوه):

هَـب الـدنيا تـصِير إلـيك عـفـوًا ألـيـس مـصـيـرُ ذاك إلـى زوالِ

ما كان أحقَّك بأن تَقْدِر بذَرْعك، وتَربَعَ على ظَلْعِك؛ ولا تكون بَراقشَ[٣] الدالّةَ على أهلِها، وعنزَ السوء المستثيرةَ لحَتْفِها؛ فما أراك إلا قد سَقط العشاءُ بك على السِّرحان[٤]، وبك لا بظبيي أَعْفَر، قد أعذرتُ إن أَغنيتُ شيًا، وأَسمعتُ لو ناديتُ حيًّا؛ وقرعتُ عصا العِتاب، وحَذّرتُ سوءَ العقاب. «إنّ العصا قُرِعتْ لذي الحِلم» «والشيء تَحقِره وقد يَنمِي»[٥]. فإن بادرتَ بالندامة، ورجعتَ على نفسك بالملامة؛ كنتَ قد اشتريتَ العافيةَ لك بالعافية منك؛ وإن قلتَ: «جَعجَعةً ولا طِحْنًا» و «رُبّ صَلَفٍ تحت الراعدة»[٦] وأنشدتَ: [من مجزوء الكامل]

لا يُـؤيِـسـنْـك مـن مـخـبَّـأةٍ قـولٌ تُـغـلّـظـه وإن جَـرَحـا

---

(١) إشارة إلى المثل «احشفاً وسوء الكيلة». والحشف هو الرديء من التمر.

(٢) يشير بهذه العبارة إلى قول عامر بن الطفيل حين ظهرت في رقبته الغدة التي مات بها وكان في بيت امرأة سلولية، فقال: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية» (المصدر نفسه).

(٣) براقش: اسم كلبة نبحت قومًا قصدوا الغارة على قوم وخفي عليهم مكانهم. فلما نبحت عرفوهم وسطوا عليهم. فضربوا بها المثل «جنت على أهلها براقش». (مجمع الأمثال للميداني).

(٤) السرحان: الذئب. مثل يضرب لمن يريد أمرًا. فيقع على المكروه.

(٥) هذان مثلان يضربان في التحذير.

(٦) هذان مثلان يضربان لمن يتوعد ولا يفعل. والجعجعة هي صوت الرحى.

فعُدتَ لما نُهيتَ عنه، وراجعتَ ما استَعفَيت منه؛ بعثتُ من يُزْعجكَ إلى الخضراء دَفْعًا، ويَستحِثُّك نحوها وَكْزًا وصَفْعًا؛ فإذا صِرتَ بها عَبِث أكّاروها بك، وتَسلّط نواطيرُها عليك؛ فمن قَرعةٍ مَعُوجّةٍ تُقومّ في قفاك، وفُجْلةٍ مُنْتِنة يُرمى بها تحت خُصاك؛ لكي تذوق وبال أمرِك، وترى ميزانَ قدرِك: [من المتقارب]

فـمـن جـهـلتْ نـفـسُـه قـدْرَه   رأى غـيـرُه مـنـه مـا لا يـرَى[1]

وقال أيضًا في رُقْعةٍ خاطب بها ابنَ جَهْوَر - وهي من رسائله المشهورة - أوّلها:

يا مولاي وسيّدي الذي ودادي له، واعتدادي به، واعتمادي عليه - أبقاك الله ماضيَ حدِّ العزم، وأرى زَنْدِ الأمل، ثابتَ عهدِ النعمة - إن سلبتَني أعزّك الله لباسَ إنعامِك، وعطّلتَني من حَلْيِ إيناسِك، وغَضَضتَ عني طَرْفَ حمايتِك؛ بعد أن نَظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمُّ ثنائي عليك، وأحسَّ الجمادُ باستنادي إليك؛ فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالماء شارِبُه، ويقتُل الدواءُ المستشفَى به، ويُؤتَى الحَذِرُ من مأمنِه، وتكون منيّةُ المتمنّي في أمنيّته «والحَيْنُ قد يَسبق جَهْدَ الحَريص»[2] وإنّي لأتجلّد، وأُرِي الشامتِين أنّي لا أتضعضع، وأقول: هل أنا إلّا يدٌ أدماها سِوارُها، وجبينٌ عضّه إكليلُه، ومشْرَفيٌّ[3] ألصَقه بالأرض صاقلُه، وسَمهريٌّ[4] عرَضه على النار مثقِّفُه، وعبدٌ ذهب سيّدُه مَذهبَ الذي يقول: [من الكامل]

فقَسا ليَزدجِرُوا ومن يك حازمًا   فليَقسُ أحيانًا على من يَرحمُ[5]

والعَتْبُ محمودٌ عواقبُه، والنَّبْوَةُ غمرةٌ ثم تنجلي، والنكبةُ «سحابةُ صيف عن قريب تَقَشَّعُ» وسيّدي إن أبطأ معذور: [من الطويل]

فإن يكن الفعلُ الذي ساء واحدًا   فـأفـعـالُه الـلاتـي سَـرَرنَ أُلـوفُ[6]

---

(١) البيت للمتنبي. يريد أن يقول إن من جهل قدر نفسه فالناس يعرفون قدره.

(٢) هذا عجز بيت قاله عدي بن زيد. أما صدره فهو:

«قـد يـدرك الـمـبـطـىء مـن حـظـه»

(انظر: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي ص ٤٠ طبعة بغداد وعليها اعتمدنا في الشروحات التالية).

(٣) المشرفي: السيف. (٤) السمهري: الرمح.

(٥) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق.

(٦) البيت للمتنبي من أبيات كتب بها إلى أبي العشائر الحسين بن حمدان يعاتبه على ما جرى من غلمانه.

فليت شعري ما الذنب الذي أذنبتُ ولم يسعْه العفو؟ ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين العدل؟ أو مُسيئًا فأين الفضل؟ وما أراني إلا لو أُمرتُ بالسجود لآدم فأبَيتُ واستكبرت، وقال لي نوح: «اركب معنا»، فقلتُ: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: الآية ٤٣] وتعاطَيتُ فعقَرت، وأَمرتُ ببناء صَرحٍ ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: الآية ٣٨] وعَكفتُ على العِجل، واعتدَيتُ في السَّبْت، وشربتُ من النهر الذي ٱبتُلَى به جنودُ طالوتَ، وقُدتُ الفيلَ لأَبْرهةَ[١]، وعاهدتُ قريشًا على ما في الصحيفة[٢]، وتأوّلتُ في بَيعة العَقَبة[٣]، ونَفَرتُ إلى العِير ببَدْر[٤]، وٱنخذلتُ بثلث الناس يوم أُحُد[٥]، وتَخلّفتُ عن صلاة العصر في بني قُرَيظةَ[٦]، وجئتُ بالإفك على عائشةَ[٧]، وأبيتُ من إمارة أُسامةَ[٨]، وزعمتُ أن خلافة أبي بكر كانت فَلتة[٩]. [من الطويل]

* ورَوَّيتُ رمحي من كَتِيبة خالد[١٠] *

---

(١) يشير في هذه العبارات إلى آيات وردت في القرآن الكريم حول ناقة صالح. واتخاذ بني إسرائيل العجل إلـهًا يعبدونه، واعتدادهم بيوم السبت، وشرب جنود طالوت من النهر، وأصحاب الفيل الذين ساروا إلى الكعبة وأرادوا هدمها يقودهم أبرهة.

(٢) يشير إلى صحيفة قريش التي تعاهدوا فيها على قطع العلاقة مع بني هاشم فلا بيع وشراء ولا زواج.

(٣) يشير إلى بيعة الأنصار لرسول الله بالعقبة.

(٤) إشارة إلى وقعة بدر التي جرت بين النبي وأنصاره ومشركي قريش وانتصر فيها عليهم. وبدر ماء يقع بين المدينة ومكة.

(٥) إشارة إلى وقعة أُحد التي نشبت بين النبي وأنصاره وبين مشركي قريش. وانتصر فيها المشركون بسبب انخذال عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رأس المنافقين بثلث الناس، وتركه لرسول الله وحده مع أصحابه، وسط المعركة. وأحد جبل أجرد أحمر يقع شمالي المدينة على بعد ميل منها.

(٦) يشير إلى غزوة النبي لبني قريظة، وإلى قول النبي لأصحابه: لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة. فلما جاء العصر وهم في الطريق صلاه جماعة منهم تلبية لأمر الرسول على قصد السرعة، وصلاه الباقون في بني قريظة بعد مضي الوقت.

(٧) إشارة إلى حديث الإفك الذي رميت به عائشة زوج النبي.

(٨) أمر رسول الله أسامة وهو شاب صغير على جيش لقتال الروم فاستنكر بعضهم ذلك فغضب النبي.

(٩) إشارة إلى قول الخليفة عمر بن الخطاب عندما سمع بعض الناس يقول: لو مات الخليفة لنبايعنّ فلانًا. فخشي أن يكون في هذا إضعاف لبيعة الناس، فخطب الناس في المدينة وقال: «فلا يفترن امرؤ منكم أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، فإنها كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها، رواه يونس عن الزهري.

(١٠) هذا صدر بيت لأبي شجرة السلمي، قاله في حرب الردة وكان هو يقود المرتدين وخالد بن=

ومَزَّقتُ الأديمَ الذي باركت يدُ الله فيه(١)، وضحَّيتُ بالأَشْمَط الذي عُنوان السجود به(٢)، وكتبت إلى عمرَ بنِ سَعدٍ أن جَعْجِعْ(٣) بالحسين، وبَذَلتُ لقَطامِ: [من الطويل]

ثـلاثـةَ آلافٍ وعـبـدًا وقَـيـنـةً وضَرْبَ عليٍّ بالحسامِ المخذَّمِ(٤)

وتَمثّلتُ عندما بلغني من وقعة الحرّة(٥): [من المديد]

لـيـت أشـيـاخـي بـبـدرٍ شَـهِـدوا جَـزَعَ الـخـزرج مِـن وَقْـعِ الأَسَـلْ
قـد قـتـلنا القَرْنَ من أشـيـاخـهـم وعـدلـنـاه بـبَـدرٍ فـاعـتـدَل(٦)

ورَجمتُ الكعبةَ، وصَلبتُ العائذَ بها على الثنيّة؛ لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يُسمَّى نكالًا، ويدعى ولو على المجاز عِقابًا(٧): [من المتقارب]

وحـسْـبُـك مـن حـادثٍ بـامـرىء يَـرى حـاسـدِيـه لـه راحِـمـيـنـا

= الوليد يقوله المسلمين، وعجزه:
«وإنـي لأرجـو بـعـدهـا أن أعـمـرا»

(١) إشارة إلى بيت قاله أحد الشعراء في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب:
جزى الله خيرًا من إمام وباركت يـد الله فـي ذاك الأديـم الـمـمـزق

(٢) إشارة إلى قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان:
ضحوا بأشمط عنوان السجود به يـقـطـع الـلـيـل تـسـبـيـحًـا وقـرآنـا

(٣) أشار إلى كلام عبيد الله بن زياد إلى قائده عمر بن سعد في كربلاء حيث يحاصر الحسين بن عليّ بن أبي طالب: «جعجع بالحسين...» ومعنى جعجع: ضيق.

(٤) هذا البيت قاله ابن ملجم قاتل عليّ بن أبي طالب، كان يحب امرأة جميلة بالكوفة، وأراد التزوج منها فشرطت عليه أن يكون صداقها ثلاثة آلاف عبدًا وجارية وقتل عليّ، فقبل عبد الرحمن بن ملجم وقتل عليًا. وبعده البيت التالي:
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(٥) هي حرة واقم شرقي المدينة، بها كانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين بين أهل المدينة وبين جيوش بني أمية وانتهت بهزيمة أهل المدينة وأخذ البيعة منهم ليزيد بن معاوية.

(٦) هذا الشعر لعبد الله بن الزبعرى. يشير إلى ثأر قومه لجدوده الذين قضوا في موقعة بدر على يد النبي وأنصاره. والأسل: الرمح. والقرن: السيد.

(٧) إشارة إلى مصرع عبد الله بن الزبير في مكة على يد عامل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان ابن الزبير قد خرج على بني أمية وأعلن نفسه خليفة فحاصره الحجاج في مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق وقتل ابن الزبير بحجر أصابه. فصلبه الحجاج سنة كاملة سنة ٧٣ هـ.

فكيف ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشح، ونبأٌ جاء به فاسق؛ والله ما غَشَشْتُك بعد النصيحة، ولا انحرفتُ عنك بعد الصاغية، ولا نَصَبتُ لك بَعد التشيّع فيك[١]، ففيم عَبث الجفاءُ بأذمّتي، وعاثَ في مودّتي؟ وأنّى غلبني المغلَّب، وفَخَر عليّ الضعيف[٢]، ولَطَمتْني غيرُ ذات سِوار[٣]؟ وما لك لَم تَمنعْ مني قبل أن أُفترس، وتُدركْني ولمّا أُمزَّق[٤]، أم كيف لا تَتضرّم جوانح الأكْفاء حسدًا لي على الخصوص بك، وتَتقطّعُ أنفاسُ النُّظَراء منافَسةً في الكرامة عليك وقد زانني اسمُ خِدمتِك، وزهاني وَسْمُ نعمتِك وأبلَيتُ البلاء الجميل في سِماطِك، وقمتُ المَقام المحمودَ على بساطِك: [من الطويل]

ألست المُوالي فيك نَظْم قصائدٍ هي الأنجُمُ اقتادت مع الليل أنجُما[٥]

وهل لَبِس الصباحُ إلا بُردًا طرّزتُه بمَحامِدِك، وتَقلّدت الجَوزاءُ إلا عقدًا فصّلتُه بمآثرِك، وبَثَّ المسكُ إلا حديثًا أذعتُه بمَفاخرِك: «ما يومُ حَليمةَ بِسرّ»[٦] وحاش لله أن أُعَدَّ من العاملة الناصبة، وأكونَ كالذُّبالة المنصوبة تُضيء للناس وهي تحترِق.

وفي فصل منه: ولَعَمري ما جهلتُ أن الرأيَ في أن أتحوَّلَ إذا بلغتْني الشمسُ، ونبا بي المنزل، وأضربَ عن المطامع التي تَقطع أعناقَ الرجال، ولا أَستوطىء العجْزَ فيُضرَب بي المثل: «خامِري أمَّ عامر»[٧] وإني مع المعرفة بأن

---

(١) النصب: العداء. والتشيع: الموالاة. إشارة إلى فرقتي الناصبة والشيعة. الأولى تعادي عليًا والأخرى تواليه.

(٢) إشارة إلى قول امرىء القيس:

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

(٣) ذات سوار: الحرة. لأن المرأة الحرة كانت تلبس السوار دون الأمة.

(٤) إشارة إلى قول الشاعر:

فإن كنت مأكولًا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أفرق

وقد تمثل به عثمان بن عفان في كتاب بعث به إلى عليّ بن أبي طالب وهو محاصر من قبل الثوار في منزله.

(٥) البيت للبحتري من قصيدة يعاتب فيها الفتح بن خاقان.

(٦) مثل يضرب لكل متعارف مشهور. وحليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني، كان أبوها قد وجه جيشاً إلى المنذر من ماء السماء ملك الحيرة اللخمي، فأخرجت طيبًا فطيبتهم. وسميت المعركة باسمها.

(٧) أم عامر: كنية الضبع. يضرب هذا المثل لمن عرف الدنيا وركن إليها رغم ما فيها من بلاء بعد رخاء، واغتر بها كما تغتر الضبع بقول القائل: «خامري أم عامر» وهي عبارة يقولها من أراد أن يصيدها لتطمئن إليه؛ ومعناها اشتري والجئي إلى أقصى مغارك.

الجَلاء سِباءٌ[١]، والنُّقلَة مُثْلَةٌ، لَعارفٌ أن الأدبَ الوطنُ الذي لا يُخشَى فراقُه، والخَليطُ ٱلذي لا يُتوقّع زوالُه؛ والنَّسبُ الذي لا يُجفَى، والجمالُ الذي لا يَخفَى؛ ثم ما قِرانُ السَّعدِ للكواكب أبهى أثَرًا، ولا أسنَى خَطَرًا، مِن اقترانُ غِنى النفسِ به، وانتظامِها نَسَقا معه؛ فإنّ الحائزَ لهما، الضاربَ بسهمٍ فيهما ـ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ـ أينما تَوجَّه وَرَد مَنهَلَ بِرّ، وحَطَّ في جَناب قَبول، وضُوحِكَ قَبل إنزالِ رَحْلِه، وأُعطِيَ حُكمَ الصبيِّ على أهلِه: [من الطويل]

وقيل لـه: أهلًا وسهلًا ومرحبًا فـهـذا مَـبِـيـتٌ صـالـحٌ وصـديـقُ

غيرَ أنّ المَوطنَ محبوب، والمَنشَأ مألوف؛ واللبيبُ يَحِنّ إلى وطنه، حنينَ النجيبِ إلى عَطَنِه؛ والكريمُ لا يجفو أرضًا فيها قَوابلُه، ولا يَنسى بلدًا فيه مَراضعُه؛ وأنشد قولَ الأوّل: [من الطويل]

أَحَبُّ بـلادِ الله مـا بـيـن مَـنْـعِـجٍ إليّ وسَلْمى أن يصُوب سحابُها[٢]
بـلادٌ بـهـا عَـقَّ الـشّـبـابُ تـمـائـمـي وأوّلُ أرضٍ مَـسّ جِـلـدي تـرابُـهـا

هذا إلى مُغالاتي في تعلّقِ جِوارِك، ومنافَستي في الحظّ من قُربك، وٱعتقادي أن الطمعَ في غيرك طَبَع، والغِنى من سواك عَناء، والبدَلَ منك أعوَر[٣]، والعِوضَ لَفاء[٤]: [من الكامل]

وإذا نـظـرتُ إلـى أمـيـري زادنـي ضـنًـا بـه نـظـري إلـى الأمـراءِ[٥]

«كلُّ الصَّيدِ في جوف الفَرا» و«في كلّ شجرٍ نار، وٱستَمجَد المَرْخُ والعَفار»[٦]؛ فما هذه البراءةُ ممن تولّاك، والمَيلُ عمّن يميل إليك؟ وهلّا كان هواك فيمن هواه

(١) الجلاء: الخروج عن الوطن. والسباء: الأسر.
(٢) منعج: واد يقع بين حفر أبي موسى والنباج، في بطن فلج. (ياقوت معجم البلدان). سلمى: جبل شرقي المدينة (تاج العروس، مادة سلم).
(٣) إشارة إلى قول الناس في قتيبة بن مسلم الباهلي الأعور الذي ولي خراسان مكان يزيد بن المهلب: هذا بدل أعور.
(٤) اللفاء: التراب، أو الشيء القليل، أو ما هو دون الحق.
(٥) نسبه الصفدي في تمام المتون إلى الشاعر عدي بن الرقاع.
(٦) المرخ: نبات يطول حتى يستظل به وليس له ورق ولا شوك ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، والواحد مرخة. والعفار: نبت صغير يشبه الغبيراء، يصلح للزناد. ويضرب بهما المثل في الشرف وعلو المنزلة.

فيك، ورضاك لمن رضاه لك؟: [من البسيط]

يا من يعِزّ علينا أن نفارقهم وِجدانُنا كلَّ شيءٍ بَعدكم عَدَمُ[١]

أُعيذُك ونفسي من أن أَشِيمَ خُلّبا، واستمطِرَ جَهاما[٢]، وأَكدُمَ غيرَ مَكْدَم، وأشكوَ شكوى الجريح إلى العِقبان والرَّخَم؛ وإنما أَبسستُ لك[٣] لتَدِرّ، وحَرّكتُ لك الحُوارَ لتَحِنّ[٤]؛ وسَرَيتُ لك ليُحمَد المَسْرَى[٥] إليك؛ بَعد اليقين من أنك إن شئتَ عَقْدَ أمري تيسّر، ومتى أعذَرتَ في فكّ أَسْرِي لَم يَتعذّر؛ وعِلْمُك يُحيط بأنّ المعروفَ ثمرَةُ النعمة، والشفاعةَ زَكاةُ المروءة، وفَضْلَ الجاه تَعُود به صَدَقَةٌ: [من الكامل]

وإذا امرؤ أَسْدَى إليك صَنيعةً مِن جاهِه فكأنّها مِن مالِه[٦]

لعليّ أُلقِي العصا بذَراك[٧]، وتَستقِرُّ بِيَ النوى في ظلّك، فتستَلذَّ جنَى شكري مِن غَرْسِ عارفتِك، وتَستطِيبَ عَرْفَ ثنائي مِن رَوضِ صَنيعتِك؛ وأستأنفَ التأدّبَ بأدَبِك، والاحتمالَ على مذهبِك؛ فلا أُوجِد للحاسد مجالَ لحظة، ولا أَدَع للقادح مَساغَ لفظة؛ والله ميسِّرك من إطلابي[٨] هذه الطَّلِبة، وإشكائي[٩] من هذه الشكوى لِصَنيعةٍ تصيب بها طريقَ المَصْنَع، ويدٍ تَستودِعُها أَحفظَ مُستودَع؛ حسبما أنت خَليقٌ له، وأنا منك حَرِيٌّ به؛ فذلك بيدِه، وهيّنٌ عليه. وشفعَها بأبيات فقال: [من الخفيف]

الهوى في طُلوعِ تلك النجومِ والمنى في هُبوب ذاك النسيمِ
سَرّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشي لو يدوم السرور لِلمستديمِ
وَطَرٌ ما انقضى إلى أن تَقضّى زمنٌ ما ذِمامُه بالذَّمِيمِ

---

(١) البيت للمتنبي في مدح وعتاب سيف الدولة الحمداني أمير حلب.
(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٣) أبسست: قلت للناقة عند حلبها: بُسْ بُسْ لتدر اللبن.
(٤) الحوار: ولد الناقة، يحرك حولها لتحن عليه وتدر اللبن.
(٥) إشارة إلى المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى»، يضرب للرجل بتحمل المشقة في سبيل الراحة.
(٦) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها إسحٰق بن ربعي كاتب أبي دلف.
(٧) ذراك: ظلك وكنفك.
(٨) الإطلاب: مصدر أطلبه إذا أعطاه ما يطلب.
(٩) الإشكاء: مصدر من أشكيته إذا أزلت شكايته.

زار مستخفيًا وهيهات أن يخـ ـتفي البدرُ في الظلام البَهيمِ
فَوَشَى الحَلْيُ إذ مشى وهفا الطِّيـ ـبُ إلى حيث كاشحٌ بالنَّميم
أيها المُؤذِني بظلم الليالي ليس يَومي بواحدٍ من ظَلومِ(١)
ما تَرَى البدرَ إن تأمّلتَ والشمـ ـسَ هما يُكسَفان دون النجومِ
وهو الدهرُ ليس ينفكُّ ينحو بالمُصاب العظيمِ نحو العظيمِ
بوّأ الله جَهْوَرًا أشرفَ السُّؤ دُدِ في السِّرِّ واللّبابِ الصميمِ
واحدٌ سَلّمَ الجميعُ له الفضـ لَ وكان الخصوصُ وَفْقَ العمومِ
قَلّدَ الغُمْرُ ذا التجارِبِ فيه واكتَفَى جاهلٌ بعلمِ عَليمِ(٢)

ومنها في ذكر اعتقاله:

سَقَمٌ لا أُعَاد منه وفي العـ ـائِد أنسٌ يفي ببُرء السقيمِ
نارُ بغيٍ سَرتْ إلى جَنّة الأر ض بَياتًا فأصبحت كالصريمِ
بأبي أنت إن تشأْ تَكُ بَردًا وسلامًا كنار إبراهيم
لِلشفيعِ الثناء، والحمدُ في صَو بِ الحيا لِلرياحِ لا للغُيومِ(٣)

ثم قال: هاكها أعزّك الله يبسُطها الأمل، ويَقبِضها الخجل؛ لها ذنْبُ التقصير، وحرمةُ الإخلاص، فهَبْ ذنبًا لحُرمة، واشفَعْ نعمةً بنعمة، لتَأتيَ الإحسانَ من جهاته، وتسلُكَ الفضلَ من طرقاته؛ إن شاء الله تعالى.

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن أبي الخِصال من جواب لابن بسّام ـ وكان قد كَتب إليه يسأله إنفاذَ بعضِ رسائله ليضمّنها كتابَه الذي ترجمه بالذخيرة، فكَتب:

وَصل من السيّد المسترِق، والمالك المستحقّ، وَصَل الله أنعُمَه لديه، كما قَصَر الفضلَ عليه ـ كتابُه البليغ، واستدراجُه المريغ(٤)؛ فلولا أن يَصْلِدَ زندُ(٥) اقتداحِه، ويُرَدَّ طرْفُ افتتاحِه؛ وتُقبَضَ يدُ انبساطِه، وتُغبَنَ صفقةُ اغتباطه؛ للزمتُ معه قدْري، وضَنّ بسرّه صدري؛ لكنه بنَفْثة سِحرِه يَستنزِل العُصمَ فتُجْنَب(٦)، ويقتادُ

(١) يريد أن يقول إن اليوم الذي ظلم فيه ليس الوحيد. من دهر ظلوم.
(٢) الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور. (٣) صوب الحيا: أي المطر.
(٤) المريغ: المخادع. (٥) صلد الزند: صوت ولم يخرج نارًا.
(٦) العصم: جمع أعصم وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض يقال: هو يستنزل العصم بلفظه: أي يذلل الصعاب بسحر منطقه وحسن حديثه. تجنب: تنقاد. يقال: جنبت الفرس إذا قدتها إلى=

الصّعبَ فيُصْحِب، ويَستدِرُّ الصخورَ فتُحْلَب؛ ولما جاءني كتاب ٱبتداه، وَقَرَع سمعي نداه؛ فزِعتُ إلى الفِكَر، وخَفَقَ القلبُ بين الأمن والحَذَر؛ فطاردتُ من الفقر أوابدَ قَفْر، وشواردَ عُفْر، تُغْبِرُ[1] في وجه سائقِها، ولا يتوجّه اللّحاق إلى وَجيهها ولاحقِها؛ فعلمت أنها الإهابةُ والمَهابة، والإجابةُ والاسترابة؛ حتى أيأستْني الخواطر، وأخلفتْني المَواطر، إلا زبرجًا[2] يَعقُب جوادًا، وبَهرَجًا لا يَحتمِل انتقادًا؛ وأنى لِمثلي والقريحةُ مُزْجاة[3] والبضاعة مُزْجاة؛ ببراعة الخطاب، ويراعة الكتاب، ولولا دروسُ[4] معَالِم البيان، واستيلاءُ العفاء على هذا اللسان؛ ما فاز لِمثلي فيه قِدْح، ولا تحصّل لي في سوقه رِبْح؛ ولكنه جوٌّ خال، ومِضمارُ جُهّال؛ وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه النُّتَف الأخيرة؛ وأرى أنها قد بلغت مَداها، واستوفت حُلاها؛ وإنما أخشى القدْحَ في اختيارِك، والإخلال بمختارِك؛ وعذرًا إليك ـ أيدك الله ـ فإني خطَّطتُ والنومُ مغازِل، والقُرُّ نازل؛ والريحُ تلعب بالسراج، وتصول عليه صَولةَ الحَجّاج.

ثم أخذ في وصف السراج كما ذكرناه في الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الأوّل في السِّفر الأوّل من هذا الكتاب.

ومن كلام الوزير الفقيه أبي القاسم محمد بن عبد الله بن الجَدّ[5]، من رسالة خاطب بها ذا الوزارتين أبا بكر المعروفَ بابن القَصِيرة ـ وقد قربت بينهما المسافةُ ولم يتفق اجتماعُهما ـ:

لم أزل ـ أعزك الله ـ استنزل قربَك براحة الوهم، عن ساحة النجم؛ وأَنصِبُ لك شَرَكَ المنى، في خُلَس الكرى، وأعلِّل فيه نَفْسَ الأمل، بضرب سابِق المَثل: [من البسيط]

ما أَقدرَ اللهَ أن يُدني على شَحَطٍ   مَن دارُه الحَزْنُ ممن دارُه صُولُ[6]

= جنبك فهي جنيب ومجنوبة.

(١) تغبر: تثير الغبار.

(٢) الزبرج: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

(٣) مرجاة: من الأرجاء: أي التأخير. (٤) الدروس: الزوال والعفاء.

(٥) محمد بن عبد الله بن الجد (٥١٥ هـ = ١١٢١ م) مفتي ليلة بالأندلس. سكن إشبيلية وتقلد وزارة الراضي بن المعتمد بن عباد. له «المغرب في حلى المغرب» قصيدة جيدة. (الأعلام للزركلي).

(٦) الحَزْن: بلاد بني يربوع، وهي منطقة طيبة المرعى. صول: مدينة في بلاد الخزر.

فما ظنُّك به وقد نزل على مسافة يوم وطالما نفر عن حِبالة نوم، ودنا حتى هَمّ بالسلام، وقد كان من خُدَع الأحلام، وناهِيك من ظمئي وقد حُمتُ حَول المَورد الخَصِر، وذَممتُ الرِّشاءَ[1] بالقِصَر، ووقف بي ناهضُ القدَر، وقفةَ العَيْر بين الوِرْد والصَّدَر؛ فهلّا وُصِل ذلك الأملُ بباع، وسمح الزمنُ باجتماع؛ وطُوِيَت بيننا رقعةُ الأميال، كما زُوِيَت مراحلُ أيّام وليال؛ وما كان على الأيّام لو غفلتْ قليلًا، حتى أَشفَى بلقائك غليلًا، وأَتنسّم منَ رَوح مشاهدتك نفَسًا بَليلًا؛ ولئن أقعدَتْني بعوائقها عن لقاءِ حُرّ، وقضاءِ بِرّ؛ وسَفَرٍ قريب، وظفَرٍ غريب؛ فما تَحيّفَتْ[2] ودادي، ولا ارتَشفَتْ مِدادي؛ ولا غاضت كلامي، ولا أَحْفتْ أقلامي؛ وحسبي بلسان النُّبْلِ رسولًا، وكفى بوصوله أملًا وسُولًا؛ ففي الكتاب بُلْغةُ الوَطَر، ويُستَدلّ على العين بالأثَر؛ على أني إنما وحَيتُ وَحْيَ[3] المُشير باليسير، وأَحلتُ فهمَك على المسطور في الضمير؛ وإن فرغتَ للمراجعة ولو بحرف؛ أو لَمحةِ طَرْف؛ وصلتَ صديقًا، وبَلَلتَ رِيقًا؛ وأَسدَيتَ يدًا، وشَفَيتَ صدًى؛ لا زالت أياديك بيضًا، وجاهُك عريضًا؛ ولياليك أسحارًا، ومساعيك أنوارًا.

ومن كلام أبي عبد الله محمد بن الخيّاط من رُقعةٍ طويلةٍ إلى الحاجب المظفّرِ، أوّلها:

حجَب الله عن الحاجب المظفّرِ أعينَ النائبات، وقَبض دونه أيديَ الحادثات.

وجاء منها: وَرَد له كتابٌ كريمٌ جعلتُه عِوضَ يدِه البيضاءِ فَقَبّلتُه، ولمَحتُه بدل غُرّتِه الغرّاءِ فأجللتُه؛ كتاب أَلقَى عليه الْحِبْرُ[4] حِبرَه، وأَهدَى إليه السحرُ فِقَرَه؛ أَنْذَر[5] ببلوغ المنى، وبشّر بحصول الغنى؛ تُخيِّر له البيانُ فَطبّق مَفصِلَه، ورماه البنانُ فصادفَ مَقتَلَه؛ ووصل معه المملوكُ والمملوكةُ اللذان سمّاهما هديّة، وتَنزّه كرمًا أن يقول عطيّة؛ هِمّة تَرجُم السِّماكَين، ونعمةٌ تملأ الأذنَ والعين؛ وما حرّك - أيده الله - بكتابه ساكنًا بحمدِه، ولا نبّه نائمًا عن قصدِه؛ كيف وقد طلعت ٱلشمسُ التي صار بها المَغرِب شرقًا، وهَبّت ٱلريح التي صار بها الحِرمانُ رزقًا؛ صاحبُ لواء الحمد، وفارسُ مَيْدانِ المجد.

وهي رُقعةٌ طويلة قد ذكرنا منها في المديح فصلًا لا فائدة في إعادته.

---

(١) الرشاء: الحبل.
(٢) تحيف: تنقص.
(٣) الوحي: الكتابة أو الإشارة.
(٤) الحبر: العالم.
(٥) أنذر: أي أعلم.

ومن كلام أبي حفص عمر بن برد الأصغر الأندلسي، فمن ذلك أمانٌ كتَبَه لمن عصَى وعاود الطاعةَ:

أما بعد، فإن الغَلَبَةَ لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمِك، دون عهد ولا عَقْدٍ يَمنعان من إراقة دمك؛ ولكنا بما وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرِّياسة، والحفظِ لشرائع السياسة؛ تأمَّلْنا مَن ساس جهتك قبلنا فوجدنا يدَ سياستِه خرقاء، وعينَ حراستِه عَورَاء، وقدَمَ مداراتِه شَلّاء، لأنه غاب عن ترغيبِك فلَم ترجُه، وعن ترهيبِك فلَم تَخشَه؛ فأدّتك حاجتُك إلى طلاب المطامع الدنيّة، وقِلّةُ مَهابتِك إلى التهالك على المعاصي الوبيّة؛ وقد رأينا أن تُظهِرَ فضلَ سيرتنا فيك، وتَعتبِرَ بالنظر في أمرك، فمهّدنا لك الترغيبَ لتَأنَسَ إليه، وظَلّلنا لك الترهيبَ لتَفْرَقَ منه، فإن سوّت ٱلحالتان طبعَك، وداوى الثِّقافُ والنارُ عُودَك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهارِه حُسْنَ السياسة فيك؛ وأمانُ الله تعالى مبسوطٌ منّا، ومواثيقُه بالوفاء معقودةٌ عَلينا؛ وأنت إلى جهتِك مصروف، وبعفونا والعافيةِ منا مكنوف، إلّا أن تَطِيشَ الصَّنيعةُ عندك فتخلَع الرِّبقة، وتمرق من الطاعة، فلسنا بأوّل من بُغيَ عليه، ولستَ بأوّل مَن تراءت لنا مقاتلُه من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبوابُ استئصالِه من أمثالك إن طُلِبت.

ومن كلامه يعاتب بعض إخوانه:

أَظلَم لي جوُّ صفائك، وتوَعَّرتْ عليّ طُرُق إخائك؛ وأراك جَلدَ الضمير على العتاب، غيرَ ناقِع الغُلّة من الجفاء؛ فليت شعري ما الذي أَقصى بهجة ذلك الوُدّ وأَذبَل زهرةَ ذلك العهد؛ عهدي بك وصِلتُنا تَفرَق مِن ٱسم القطيعة، ومودّتُنا تَسأل عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليومَ هي آنسُ بذلك مِن الرضيع بالشدي، والخَليع بالكأس؛ وهذه ثُغْرةٌ إن لم تحرسها المراجعة، وتَذْكُ[1] فيها عيونُ الاستبصار توجّهت منها الحِيلُ على هدمِ ما بَنَينا، ونَقْضِ ما اقتنَينا؛ وتلك نائحةُ الصفاء، والصارخةُ[2] بموتِ الإخاء؛ لا أَستَنِد أعزك الله من الكتاب إليك - وإن رَغَمَ أنفُ القلم، وانزوت أحشاءُ القرطاس، وأُجِرَّ[3] فمُ الفِكْر، فلم يَبقَ في أحدها إسعادٌ لي على مكاتَبتِك،

(١) تذكو: تتوقد، تشتعل. (٢) الصارخة: الناطقة.

(٣) أُجَرُّ: منع من النطق. والأصل من الإجرار، وهو أن يشق لسان الفصيل لئلا يرضع. ومنه قول عمرو بن معديكرب:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

ولا بشاشةٌ عند محاولة مخاطَبتِك - لِقَوارِص عتابِك، وقوارعِ ملامِك التي أَكَلتْ أقلامَك، وأَغَصّت كُتبك، وأضجرتْ رُسلَك، وضميري طاوٍ لم يَطْعَم تجنّيًا عليك، ونفسي وادعةٌ لم تحرّكْ ذنبًا إليك، وعَقْدي مستحكِم لَم يمسَسْه وَهْنٌ فيك؛ وأنا الآن على طَرَف الإخاء معك، فإما أن تبهرني بحُجّة فأتنصّل عندَك، وإما أن تَفيَ بحقيقةِ فأستديم خُلّتَك، وإما أن تأزِمَ عليّ فأسك فأقطع حبلي منك؛ كثيرًا ما يكون عتابُ المتصافِين حِيلةً تُسْبَر المودّةُ بها، وتُستثار دفائنُ الأخوّةِ عنها، كما يُعرَض الذهب على اللَّهَب، ويصفَّى المدامُ بالفِدام[1]، وقد يخلُص الوُدُّ على العَتْب خلوصَ الذهب على السبك، فأما إذا أُعيدَ وأبدَى ورُدّد وتوالى فإنه يُفسد غرسَ الإخاء، كما يفسد الزرعَ تَوالي الماء.

ومن كلام أبي الوليد بن طريف من جواب عن المعتمِد إلى ذي الوزارتين ابنِ يحفور صاحبِ شاطبةَ بسبب أبي بكر بن عَمّار:

وقفتُ على الإشارة الموضوعةِ من قِبَلِك على إخلاصٍ دَلّ على وجوه السلامة، المستنام فيها إلى شرفِ مَحْتِدِك وصفاءِ مُعتَقَدِك أكرَمَ استنامة؛ بالشفاعة فيمن أساء لنفسِه حظَّ الاختيار، وسَبّبَ لها سببَ النكبةِ والعثار؛ بغَمْطِه لعظيم النعمة؛ وقطعِه لعلائِق العصمة؛ وتَخبُّطِه في سَنَنِ غَيِّه واستهدافه، وتجاوُزِه في ارتكاب الجرائم وإسرافِه؛ حتى لم يدعْ للصلح موضعًا، وخرق سِتْرَ الإبقاء بينه وبين مُولي النعمة عنده فلم يَترُكْ فيه مَرْقَعًا؛ وقد كان قَبل ٱستشراءِ رأيِه، وكشفِه لصفحة المعاندة، وإبدائه غَدْرَه في جميع جناياته مقبولًا، وجانبُ الصفحِ له معرَّضًا مبذولًا؛ لكن عَدَتْه جوانبُ الغَواية، عن طُرقِ الهداية؛ فاستمَرّ على ضلالِه، وزاغ عن سَنَنِ ٱعتدالِه؛ وأظهَرَ المناقضة، وتَعرَّض بزعمه إلى المساوَرةِ والمعارَضة؛ فلم يزل يُريغ[2] الغوائل، ويَنصِب الحبائل؛ ويركب في العناد أصعبَ المَراكب، ويذهب منه في أوعر المذاهب؛ حتى عَلِقتْه تلك الأشراكُ التي نصبها، وتَشبَّثتْ به مساوي المقدّمات التي جرّها وسَبّبها؛ فذاق وبالَ فِعلِه، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٤٣] ولم يَحصُل في الأُنشوطةِ التي تَورّطَها، والمحنةِ التي اشتَملتْ عليه وتَوسَّطَها؛ إلا ووجهُ العفوِ له قد أَظلَم، وبابُ الشفاعةِ فيه قد أبهِم؛ ومَن تأمّل أفعاله الذميمة، ومذاهبَه اللئيمة؛ رأى أنّ الصفحَ عنه بعيد، والإبقاءَ عليه داءٌ حاضرٌ عتيد.

(١) الفدام: المصفاة للكوز والإبريق ونحوهما. (٢) يريغ: يطلب ويريد.

وفي فصل منه: ففوّق لمناضَلة الدولة نِباله، وأعمَل في مكايدها جُهْدَه وٱحتيالَه؛ ثم لم يَقتصِر على ذلك بل تَجاوَزه إلى إطلاق لسانه بالذمّ الذي صدَر عن لؤم نِجارِه، والطعنِ الشاهدِ بخبثِ طويّتِه وإضمارِه؛ ومَن فسَد هذا الفسادَ كيف يُرجى ٱستصلاحُه، ومَن ٱستبطَن مِثلَ غِلّه كيف يؤمَّل فلاحُه؛ ومن لك بسلامة الأديم[1] النَّغِل، وصفاءِ القلبِ الدَّغِل؛ وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضتَ به من وجه الشفاعة غيرَ الجميل، ولا أتعدّى فيه حُسنَ التأويل؛ ولو وفَدتْ شفاعتُك في غير هذا الأمر الذي سَبَقَ فيه السيفُ العَذَل، وأَبطَل عاقلُ الأقدار فيه الإلطافَ والحِيَل؛ لَتُلُقِّيَتْ بالإجلال، وقوبلتْ ببالغِ المَبرّةِ والاهتبال[2].

ومن كلام ذي الوزارتين أبي المغِيرة بن حَزْمٍ من رسالة.

لَم أزل أَزجُر للقاء سيّدي السانح، وأستمطر الغَادي والرائح؛ وأروح ٱقتناصَه ولو بشَرَك المنام، وأحاول اختلاسَه ولو بأيدي الأوهام؛ وأعاتب الأيّامَ فيه فلا تُعْتِب، وأقودها إليه فلا تُصْحِب؛ حتى إذا غَلب اليأس، وشمِت الناس[3]؛ وضُرِبت بيَ الأمثال، فقيل: أكثرُ الآمال ضلال؛ تنبّه الدهرُ من رَقدتِه، وحَلّ من عقدته؛ وقَبِل منّي، وأَظهَر الرضى عنّي؛ وقال: دونك ما طَمَح فقد سَمح، وإليك فقد دنا ما قد جَمَح؛ فطرتُ بجَناح الارتياح، وركبتُ إلى الغمام كواهلَ الرِّياح؛ وقلت: فرصةٌ تُغتَنَم، وركنٌ يُستلَم؛ وطرقتُ روضةَ العِلم عَميمةَ الأزهار، فصيحةَ الأطيار؛ رَيَّا الجداول، باردةَ الضحى والأصائل؛ وطفتُ بكعبةِ الفضلِ مصونةَ الْحِبَر[4]، ملثومةَ الحَجَر؛ عزيزةَ المقام، معمورةَ المَشعَرِ الحرام؛ فما شئنا من محاضرة، تَجمع بين الدنيا والآخرة؛ بين يدي نثرٍ يُدنِي الإعجاز، ونَظْمِ ما أَشبهَ الصدورَ بالأعجاز؛ وحديثٍ تُثقِّف العقولُ بآرائه، وتُروَّى بصافي مائِه؛ فحين شَمَخ بالظَّفَر أنفي، وٱهتزَّ لنَيلِ الأملِ عِطفي - والدهر يضحك سِرًّا، ويَتأبّط شرًّا؛ وقد أذهلني الجَذَلُ عن سوء ظَنّي به، وأوهَمَني نُزوعَه عن ذميم مذهبِه - أتت ألوانُه، وفسا ظَربانُه[5]؛ ونادى: لِيقم مَن قَعد، ويَنتبِهْ مَن رقَد؛ إنما فَترتُ تلك الفَتْرة، ليكون ما رأيتَ عليك حسرة؛ وسمحتُ لك مَرّة، لتذوق من الأسف عليها كأسًا مُرّة؛ فرأيتُ وقد غطّى على

(١) الأديم: الجلد. النغل: الفاسد الدباغة. (٢) الاهتبال: الاغتنام، والمراد اغتنام العمل.
(٣) شمِت الناس: استطلعتهم وتبصّرتهم. (٤) الحِبَر: أستار الكعبة.
(٥) فسا ظربانه: فاحت منه رائحة كريهة. والظربان: دويبة كالهرة منتنة الريح.

بصري، وعَقَلْتُ وكنت في عمياءَ من خبري؛ وقلتُ: هو الذي أعهده من لؤمِه، وأعرفه من شؤمِه؛ فما وَهَب، إلا وسَلَب؛ ولا أَعطى، إلا ساعاتٍ كإبهام القَطا؛ فيا له من قادرٍ ما ألأمَ قدرتَه، وذابحٍ ما أَحَدَّ شَفْرتَه! ولو تَسلّط علينا، من يُظهِر شخصَه إلينا، لأَدركتْه رماحُنا، وعصفتْ به رياحُنا؛ لكنه أميرٌ مِن وراء سَجْفٍ، يسعى بلا رِجلٍ ويصول بلا كَفّ.

ومن كلام الوزير الكاتب أبي محمد بن عبد الغفور إلى بعض إخوانه ـ وكان قد وصف له امرأةً ومدَحها وحضّه على زواجها، وكان لذلك الصديق امرأةٌ سوداءُ ـ فأجابه ابنُ عبد الغفور:

بينما كنت ناظرًا من المرآة في شَعرٍ أَحَمّ(١)، ورأسٍ أَجَمّ(٢)، لا أخاف معه الذم؛ إذ تَقدّم رسولُك إليّ، يخطُب بنتَ فلانٍ علَيّ؛ ويُرغِّب منها في سَعةِ مال، وبراعة جمال؛ ويقسِم إنها لَبرَّةٌ بالزوج بَريكة، لا تحوجه عند النوم إلى أَرِيكة؛ ولو يُسّرتُ ـ وعياذًا بالله ـ لهذا النكاح، لرُزِقتُ قَبل الولدِ منها آلةَ النِّطاح؛ ولا حاجة لي بعد الدَّعَة والسكون، إلى حربٍ زبون(٣)، وقِراعٍ بالقُرون(٤)، ولو حَملتْ إليّ تاجَ كسرى وكنوزَ قارون؛ فاطلب لهذه السِّلْعة المباركة مشتريًا غيري، ولا تَسُقها ولو في النوم إلى...؛ وابتَغْها ولو بأرفع الأثمان إلى نفسِك، وأَضِفْ عاجَها النفيسَ إلى آبِنُوس(٥) عِرْسِك؛ ولا عذَر لها في النُّشوزِ والإعراض، فإنما يَحسُن السوادُ الحالكُ بالبياض؛ والله يمدّك بقرنينِ قَبل الحَين(٦)، ويَضَعُ لك صِنْعَين وبِيلين(٧)، فيُسقِطَك بهذا النكاح الثاني للفم كما أُسقِطتَ بالأوّل لليَدين.

كمل السفر السابع من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري
رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء الثامن منه، وأوّله
ذكر نبذة من كلام القاضي الفاضل

---

(١) الأحمّ: الأسود. (٢) الأجمّ: الكثيف الشعر.
(٣) الحرب الزّبون: الشديدة المتدافعة. (٤) القرون: السيوف، والقرن: حدّ السيف.
(٥) الآبنوس: شجر إفريقي خشبه أسود صلب. (٦) الحين: الهلاك.
(٧) الصنعين: تثنية صنع، وهو سفود الشعراء والوبيل: الوخيم العاقبة.

المصـادر والمراجـع

١ ـ **القرآن الكريـم**.

٢ ـ **البيان والتبيين**، للجاحظ، دار الهلال، بيروت.

٣ ـ **تاج العروس**، للزبيدي.

٤ ـ **تاريخ أبي الفداء**، للملك المؤيّد، ط، القسطنطينية.

٥ ـ **تاريخ البشرية**، لتوينبي.

٦ ـ **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون**، للصفدي.

٧ ـ **الحيوان**، للجاحظ، دار الهلال.

٨ ـ **دائرة المعارف الإسلامية**.

٩ ـ **الذخيرة**، لابن بسّام.

١٠ ـ **سرح العيون**، لابن نباتة، ط، بولاق.

١١ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.

١٢ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

١٣ ـ **طبقات المعتزلة**، لابن المرتضى، المطبعة الكاثوليكية.

١٤ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

١٥ ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، لعبد الواحد بن علي التميمي.

١٦ ـ **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي.

١٧ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

١٨ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريـم**، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.

١٩ ـ **معجم الأمثال**، للميداني.

٢٠ ـ **مفتاح البلاغة**، للسكاكي.

٢١ ـ **مفتاح العلوم**، للخوارزمي.

٢٢ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**، للقزويني، دار الهلال.

٢٣ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان.

٢٤ ـ **يتيمة الدهر**، للثعالبي.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

الجزء الثامن

تحقيق

الدكتور علي بوملحم

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر نبذة من كلام القاضي الفاضلِ الأسعدِ محيي الدين[1] أبي عليٍّ عبد الرحيم ابنِ القاضي الأشرفِ أبي المجدِ عليّ بنِ الحسنِ بنِ الحسين بنِ أحمدَ اللَّخْمِيِّ الكاتبِ المعروفِ بالبَيْسانيِّ ـ رحمه الله تعالى ـ

إليه انتهت صناعةُ الإنشاء ووَقفتْ، وبفضله أَقَرّتْ أبناءُ البيان واعتَرفتْ، ومِن بحر عِلمِه رَويَتْ ذوو الفضائل واغترَفتْ؛ وأمامَ فضله ألقت البلاغةُ عصاها، وبين يديه استَقرّت بها نواها[2]؛ فهو كاتبُ الشرقِ والغربِ في زمانه وعصره، وناشرُ ألوية الفضل في مصره وغير مصرِه؛ ورافعُ عَلَم البيان لا مَحَاله، والفاصلُ بين الحق والباطل بغير إطاله؛ وقد أنصف بعضُ الكتَّاب فيه، ونَطقَ مِن تفضيله بِملءِ فيه؛ حيث قال:

كلُّ فاضلٍ بَعدَ الفاضل فضْله، وكلٌّ قد عَرَفَ له فضلَه؛ وستقف إن شاء الله من كلامه على السحر الحلال، فتُرْوِي صداك[3] من ألفاظه بالعذب الزُّلال؛ فمن ذلك قوله: وافَينا قلعةَ نجم[4] وهي نجم في سحاب، وعُقابٌ في عِقاب[5]؛ وهامة[6] لها الغمامةُ عِمامه، وأَنْمَلةٌ إذا خَضَبها الأصيلُ كان الهلال لها قُلامه.

---

(١) القاضي الفاضل: هو عبد الرحمٰن بن عليّ بن السعيد اللخمي، وزير، من أئمة الكتاب، ولد بعسقلان في فلسطين وانتقل إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة وتوفي فيها سنة ٥٩٦ هـ، له رسائل عديدة وديوان شعر. (الأعلام ٣/٣٤٦).

(٢) يشير بهاتين العبارتين إلى قول معقّر بن حمار البارقي، وقيل: الطّرماح بن حكيم:

فألقت عصاها واستقرّت بها النوى كما قرّ عينًا بالإياب المسافرُ

(انظر تاج العروس: مادة «نوى»).

(٣) الصدى: الظّمأ.

(٤) في (وفيات الأعيان ١/٤٠٣): أنّ هذه القلعة يقال: إنّها قلعة كولب.

(٥) العُقاب: بضمّ العين: طائر من الجوارح، قويّ المخالب أعقف المنقار حادّ البصر، ويُطلق على المذكر والمؤنّث، والعِقاب: بكسر العين: المراقي الصعبة من الجبال، مفرده «عقبة» بفتح العين والقاف.

(٦) الهامة: الرأس.

ومن رسائله ما كتب به إلى النظام أمير حلب: ورد كتاب المجلس السامي ـ حرس الله به نظامَ المجد وأطلق فيه لسان الحمد، ودامت مساعيه مصافحةً ليد السعد، وأحسن له التدبيرَ في اليومين: مِن قَبلُ ومِن بَعد ـ فمرحبًا بمَقْدَمِهِ، وأهلاً بمنجمه(١)؛ والشوقُ تختلف وفود صُروفِه، وتتنوّع صنوفُ ضيوفِه؛ فلا بد أن تَتبعّض إذا تبعّضت المسافات، وتَبرُدَ وتَخْمُدَ إذا عُبّدتْ(٢) ودنت الطّرقات؛ ولو بمقدار ما يدنو اللقاءُ على الرسول السائر، بالكتاب الصادر، والخيالِ الزائر، بالحبيب الغادر، والنسيم الخاطر، من رسائل الخواطر؛ وقد وجدتُ عندي أنسًا لا أعهدُه؛ وعَددتُ نقصَ البُعدِ أحدَ اللقاءين، كما كنتُ أعُدّ زيادةَ البعدِ أحدَ النأيين؛ فزاده الله من القلوب حُظوة، ولا أخلاه من بسطِ يدٍ وقدم في حظٍّ وحُظوة(٣)؛ ووقفتُ على هذا الكتاب المشارِ إليه وما وقفتُ عنه لسانًا شاكرًا، ولا صرفتُ عنه طَرْفًا(٤) ناظرًا، وبلغتُ من ذلك جَهدي وإن كان قاصرًا، واستفرغتُ له خاطري وما أَعُدّه اليوم خاطرًا؛ ومما أُسَرّ به أن يكون في الخدمة السلطانية ـ أعلاها الله ورَفَعَها، ووصَلَها ولا قطَعَها، وألّف عليها القلوب وجَمَعها، واستجاب فيها الأدعية وسمعها ـ من يكثّر قليلي، ويَشفِي في تقبيل الأرض غليلي، فإن تقبيلَ سيّدنا كتقبيلي؛ فلو شرب صديقٌ وأنا عطشانُ لأرواني، ولو اَستضاء بلَمعة(٥) في الشرق وأنا في الغرب لأراني؛ كما أنّ الصَّديق إذا مسّتهُ نعمةٌ وجب عنها شكري، وإذا وَصلتْ إليه يدُ منعم وصلْتني وتغلغلت إليّ ولو كنت في قبري.

ومنها: وأعود إلى جواب الكتاب، الأخبارُ لا تزال غامضةً إلى أن يشرحَها، ومقفَلةً إلى أن يفتحَها؛ بخلاف حالي مع الناس، فإن القلوبَ لا تزال سالمةً إلا أن يجرحَها، والهموم خفيفة إلا أن يرجّحَها؛ والحقُّ من جهته ما تحقَّق، وما استَنطَق بشكرِ مَن أَنطَق؛ وفي الخواطر في هذا الوقت موجودٌ يجعلها في العَدَم، ويُخرجُها من الألم إلى اللّمم(٦)، ويعادِي بين الألسنةِ والأسماعِ وبين العيونِ والقلم؛ وكلّما قلّت الحِيلةُ المشكوكُ في نُجحِها، فَتَح اللّهُ باب الحيلة المطموع في فتحِها؛ وهي من فضل الله سبحانه والاستجارةِ بالاستخاره، فتلك تجارةٌ رابحةٌ وكلُّ تجارةٍ لا

(١) نجم النجم: طلع وظهر.

(٢) عُبّدت: ذُلّلت ومُهّدت.

(٣) الحظوة: التفضيل أو الحظّ من الرّزق، والحظوة التي قبلها: المكانة والمنزلة وهنا جناسٌ تام بين الكلمتين.

(٤) الطرف: النظر.

(٥) اللمعة: البريق.

(٦) اللّمم: يريد هنا المقاربة من غير الشّعور به.

تخلو من خسارة؛ والله تعالى يَجمَع كلمةَ المسلمين على يد سلطاننا، ولا يُخلينا منه ومن بنيه حليِّ زمانِنا، وشُنوفِ[١] إيمانِنا، ويُسعدُنا مِن أكابرِهم بتيجان رؤوسِنا، ومِن أصاغرِهم بخواتم أيمانِنا؛ ولو تفرّغت ٱلعزمةُ الفلانيّةُ لهذا الكلبِ العدوِّ فَترجُمَ كلبَه، وتكُفَّ غَرْبَه[٢]؛ وتذيقَه وبالَ أمرِه، وتطفىءَ شرار شرِّه، وتعجّلَ له عاقبةَ خُسرِه؛ فقد غاظ المسلمين وعضّهم، وفَلَّ جموعَهم وفَضّهم؛ وما وجد من يَكفي فيه ويكفُّه، ويَشفي الغليلَ منه بما يُشفُّه[٣]؛ ولو جَعل السلطانُ ـ عزّ نصرُه ـ غزوَ هذا الطاغية مَغْزاه[٤]، وبلادَه مستَقرَّ عسكرِه ومثواه، لأخذ الله الكافر بطَغواه؛ ولأَبقى ذكرًا، وأجرى في الصحيفة أجرًا؛ ولأطفأ الحقدَ الواقد، بالحديد البارد، وغنِمَ المغنم البارد، وسدّد الله ذلك العزمَ الصادرَ والسهمَ الصارد[٥]؛ فلا بدّ أن يُجريَ سَيّدُنا هذا الذكر، ولو لما احتسبه أنا من الأجر؛ وما أورده المجلسُ عن فلانٍ من صفوِ شُربِه، وأمنِ سِربِه؛ واستقرارِه تحت الظلّ الظليلِ السلطاني ـ جعله الله ساكنًا، وأَحلّه منه حَرَمًا آمنًا ـ ومِن مُعافاتِه في نفسه وولدِه وجماعته، وأهلِ وَلائه ووِلايتِهِ، فقد شكرتُ له هذه البشرى، وفرحتُ بما يسّر الله ذلك المولى له من اليسرى؛ غير أني أريد أن أسمع أخبارَه منه لا عنه وبمباشَرتِه لا باستنابتِه، فلا عَرَفتُ مودّتَه مِن المودّات الكُسالى، ولا أقلامَه إلا بلُبسِ السواد ـ على أنها مسرورةٌ سارّةٌ لا ثَكالى؛ وإذا قنِع صديقُه منه بفريضةٍ حَجيّة، لا تُؤدّى إلا في ساعةٍ حَوليّة، فإن يبخَل بها ذلك الكريمُ فقد ٱنتَحل الاسم الآخَر ـ أعاذه الله منه، وصَرَف عنه لفظَه كما صَرَف معناه عنه؛ وللمودّةِ عينٌ لا يَكْحُلها إذا رَمِدتْ إلا إثْمِدُ[٦] مدادِ الصديق، وما في الصبر وُسْعٌ لصحبةِ أيامِ العُقوق بَعد صحبةِ أيامِ العقيق؛ وقد بلغني أنّ ولدَ المذكورِ نَزَع[٧] وترعرَع، ونفع وأينع؛ وخَدَم في المجلس السلطانيّ، فسررت بأن تَجمّعَ في خدمته الأعقابُ والذَّراري؛ والله تعالى يحفظ علينا تلك الخدمةَ جميعًا، ولا يُعدِمنا من يدِها سحابًا ولا من جنابِها ربيعًا؛ وقد فتح سيّدُنا بابًا من الأنس ونَهَجه، وأُوثِرُ

(١) الشّنوف: الزينة.

(٢) الغرب: الأذى، يقال: سهم غرب: أي سهمٌ لا يعرف راميه، ويراد هنا بقوله: وتكفّ غربه: أي تكفّ سهامه التي يرمي بها وينزل الأذى.

(٣) يشفُّه: يحزنه. (٤) المغزى: القصد.

(٥) السّهم الصارد: النافذ من السّهام.

(٦) الإثمد: الكحل، وهو عنصر معدني، قصديريّ اللون.

(٧) نزع: يقال: نزع فلان إلى أبيه: أي ذهب إليه وأشبهه في فعاله، أو هو من قولهم: نزع إلى عرقٍ كريم...

ألّا يُرْتجَه[١]؛ بمكاتباته التي يدُه فيها بيضاء، ويدُ الأيام عندي خضراء؛ بحيث لا يستوفي على الحساب، في كل جواب؛ وأنا في هذه الأحوال أُوثرُ العُزلةَ وأبدأ فيها بلساني وقلمي، وأتوخّى أن أشبّه حالةَ وجودي بعدَمي؛ فإني أرى مَن تحتَها أروَحَ[٢] ممن فوقَها، ومَن خرج منها أحظَى ممن أقام بها؛ وللمودّات مَقرٌّ ما هو إلا الألسنة، والقلوبُ قضاةٌ لا تَحتاج إلى بيِّنه.

وكتب جوابًا أيضًا إلى آخر وهو: وقفتُ على كتاب الحضرة - يَسّر الله مَطالبَها وجمّل عواقبَها، وصَفّى من الأكدارِ مَشاربَها، وحاط مِن غِيَرِ الأيّام جوانبَها، ووسّع في الخيرات سُبلَها ومذاهبَها؛ ووقاها ووقى ولَدَها، وأسعدها وأسعد يومَها وغَدَها؛ وجمع الشملَ بها قريبًا، وأحدث لها في كلّ حادثةٍ صُنعًا غريبًا - من يد الحضرة الفلانيّة - لاعَدمتُ يدَها ومدَّها[٣]، وأدام الله سعدها - وشكرتُ الله على ما دلّ عليه هذا الكتابُ من سلامة حَوزتها[٤]، ودوامِ نعمتِها؛ وسُبوغِ[٥] كفايتِها؛ وسألته سبحانه أن يُصحّ جسمَها، ويُمِيطَ[٦] همّي وهمَّها؛ فهُما همان لا يتعلّقان إلا بخدمة المخدوم - أجارنا الله فيه من كلّ هم، وأجرَى بتخصيصه السعدَ الأعمّ، واللّطفَ الأتمّ - وعرفت ما أنعَمتْ بذكره من المتجدّدات بحضرتهِ، ومن الأمور الدالّة على سعادته وقوّتهِ؛ ولِلأمورِ أوائلُ وأواخر، ومواردُ ومصادر؛ فنسأل الله سبحانه أن يجعل العواقبَ لكم، والمصادرَ إليكم، والنعمةَ عندكم، والنُّصرةَ خاصّةً بسلطانكم، والكفايةَ مكتنَفةً بجماعتكم[٧]؛ وقد قاربت الأمورُ بمشيئة الله أن تُسفِر[٨] وجوهُها، والخواطرُ أن يستروِحَ مشدوهُهَا[٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٣] وفي كلّ أقدارِ الله الخيرة، وفي حكمته أنه جعل الخِيرةَ محجوبةً تحت أستار الأقدار؛ وقد علم الله تقسُّمَ فكري لما هي عليه من المشقّات المحمولةِ بالقلب والجسد، والأمورِ الحاضرةِ في اليوم والمستقبَلةِ في غد؛ وهي في جانب الخير، والخيرُ يعمّ الوكيلَ لصاحبِه، ومَن أصلح جانبَه مع الله كان الله جديرًا بإصلاح جانبِه.

---

(١) رتج الباب: أغلقه.
(٢) أروح: أكثر راحة.
(٣) مدّها: مساعدتها.
(٤) حوزة الرّجل: ما في حيّزه.
(٥) السّبوغ: التمام والكفاية والاتساع.
(٦) أماط الهمّ: أزاله وأبعده.
(٧) مكتنفة بجماعتكم: كذا في الأصول، ولم نقف فيما لدينا من كتب اللغة على أنّ «اكتنف» يتعدّى بالحرف، ولعلّه مضمّنٌ معنى الإحاطة، فعدّاه بالباء، أو لعلّه «مكتنفه لجماعتكم».
(٨) أسفر: وضح وانكشف.
(٩) المشدوه: المدهوش.

ومنه: وعليه السلامُ الطيّبُ الذي لو مرّ بالبهيم[١] لأشرق، أو بالهشيم[٢] لأورق؛ وكتبُها الكريمةُ إن تأخّرتْ فمأمولة، وإن وصلتْ فمقبولة؛ وإن أنبأتْ بسارٍّ فمشهورة وإن أنبأتْ بشرٍّ فمستورة؛ وخادمُها فلانٌ يخدُم مجلسها خدمةَ الخادم لمخدومِه، ويكررُ التسليم على وجهه الكريمِ المحفوفِ مِن كلّ قلب بحبّه، ومن كلّ سلامٍ بتسليمِه.

وكتب أيضًا: وصل كتابُ الحضرة ـ وصل الله أيّامَها بحميد العواقب، وبلوغِ المآرب، وصَحِبتِ الدهرَ على خير ما صَحَبه صاحب وأنهضَنا بواجب طاعته، فإنه بالحقيقة الواجب ـ وكلُّ واجبٍ غيرِه غيرُ واجب ـ مِن يدِ فلانٍ، فرجوتُ أن يكون طليعةً للاقترابِ، ومبشِّرًا بالإياب، ومخبِرًا بعَوْدِها الذي هو كَعَوْدِ الشباب لو يعود الشباب؛ وأعلَمَني من سلامة جسمها، وقلبِها مِن همِّها؛ ما شكرتُ الله عليه، واستدمتُ العادةَ الجميلَة منه، وسألته أن يوزعها[٣] شكرَ النعمةِ فيه، وعرَفتُ الأحوالَ جملةً من كتابِها، وكلُّها تَشهد بتوفيق سلطانِنا، وبأيّامِه التي تعُود بمشيئة الله بإصلاحِ شأنهِ وشأنِنا؛ والذي مدّه ظلًّا، يَمُدّه فضلًا؛ فالفضلُ الذي في يديه، في يد خلقِ الله الذي أحالهم في الرزق عليه؛ فكيفما دعونا له دعونا لأنفُسنا، وكيفما كانت أسنّةُ[٤] رماحِه فهي نجومُ حرسِنا، فلا عدمت أيامه التي هي أيام أعيادِنا، ولا لياليه التي هي ليالي أعراسِنا.

ومن أجوبته: ورد على الخادم ـ أدام الله أيامَ المجلس وصفّاها من الأكدار، وأبقى بها مِن تأثيراتِه أحسنَ الآثار، وأسمَع منه وعنه أطيَبَ الأخبار وجعل التوفيقَ مقيمًا حيث أقام، وسائرًا أينما سار ـ كتابةُ الكريم، الصادرُ عن القلب السليم، والطبعِ الكريم، والباطنِ الذي هو كالظاهرِ كلاهما المستقيم؛ ولا تزال الأخبارُ عنّا محجمة، والأحاديثُ مستعجِمة؛ والظنونُ مترجِّحة[٥]، والأقوالُ مُسقمةٌ ومصحّحة؛ إلى أن يردَ كتابُه فيُحقَّ الحقَّ ويُبطِلَ الباطل، ويَتّضِحَ الحالي[٦] ويَفتضِحَ العاطل[٧]؛ ويُعرَف الفرقُ ما بين تحريرِ قائل، وتحويرِ ناقل؛ فتدعو له الألسنةُ والقلوب وتستغفر بحسناته الأيامُ من الذنوب؛ والشجاعةُ شجاعتان: شجاعةٌ في القلب وشجاعةٌ في اللسان؛ وكلتاهما

---

(١) البهيم: المظلم.
(٢) الهشيم: البالي واليابس من كل شيء.
(٣) يوزعها: يلهمها.
(٤) الأسنة: مفردها: السنان: نصل الرمح.
(٥) المترجحة: المتذبذبة.
(٦) الحالي من الحروف: المنقوط؛ أو المحلّى.
(٧) العاطل من الحروف: غير المنقوط؛ أو الخالي.

لديه مجموع، ومنه وعنه مَرويٌّ ومسموع؛ وذخائرُ الملوك هم الرجال، وآراءُ الحُزَماء هي النصال[١]، ومودّاتُ القلوب هي الأموال، ومجالسُ آرائهم هي المَعركةُ الأولى التي هي ربما أغنتْ عن معارك القتال؛ والله تعالى يمُدّ المسلمين به حالَ تجمّعهِم على جهاد الكفّار، ويُلهمهم أن يَبذِلوا في سبيله النفْسَ والسيفَ والدّرهمَ والدينار؛ ويزيلُ ما في طريق المَصالح من الموانع، ويَفطِمُ السيوفَ عن الدِّماء الإسلاميّة ويحرِّمُ عليها المَراضع؛ ويجعل للمجلس في ذلك اليدَ العُليا، والطريقةَ المُثلىٰ، ويجمع له بين خَيري الآخرةِ والأولى؛ والأحوالُ هٰهنا بمصر مع بعد سلطانِها وتَمادِي غيبتِه عن مباشرة شأنِها؛ على ما لم يُشهَد مِثلُه في أوقات السكوت فكيف في أوقات القلق، على من يَحفَظ الله به من في البلاد من الجموعِ ومن في الطُّرقاتِ مِن الرُّفَق[٢]؛ والأميرُ الولدُ صحيحٌ في جسمِه وعزمِه، متصرّفٌ في مصالحه على عادته ورسمِه؛ جعله الله نعم الخَلَفُ المسعود، وأمتعه بظلّ المجلس الممدود، في العمر الممدود؛ وعرَف الخادمُ أن المجلس ناب عنه مرّةً بَعد مرّةٍ بمجلس فلان ويشكُر على ما سلف من ذلك المنَاب، ويستزيدُ ما يستأنفُه من الخطاب؛ والبيتُ الكريمُ أنا في وَلائه وخدمتِه كما قيل: [من الخفيف]

إنّ قلبي لَكُم لَكالكبِد الحـ ـرَّى وقلبي لِغيرِكم كالقلوبِ[٣]

يسرّني أن يَمُدّ ظلَّهم، وأن يَجمعَ شملَهم؛ كما يسوءني أن تَختلفَ آراؤهم ولا تَنتظِمَ أهواؤهم؛ وهذا المولى يَبلغني أنه سَدّ وساد، وجَدّ وجاد، وخلف مَن سلَفَ مِن كرام هذا البيت من الآباء والأجداد؛ وٱشتهرتْ حسنُ رعايتِه لمن جعله الله من الرعايا وديعه، وحسنُ عنايتِه بمن جعله الله له من الأجنادِ شِيعه؛ وإذ بلغني ذلك سُررتُ له ولابنهِ ولجدّه، وعلمتُ أنه لم يمت من خلّفه لإحياء مجدِه؛ ومن ٱستعمله بحَسَنٍ فقد أراد الله به حَسَنًا، ومن أحسن إلى خلق الله كان الله له محسنًا؛ إن الله أكرمُ الأكرمين، وأعدَلُ العادلين؛ وكُتُبُ المجلس السامي يُنعم بها متى خَفّ أمرُها، وتيسّرَ حملُها، وتَفرّغ وقتُه لها؛ والثقةُ حاصلةٌ بالحاصل من قلبِه، وعاذرة وشاكرةٌ في المبطىء والمسرع من كُتُبِه؛ ورأيُه الموفَّقُ إن شاء الله تعالى.

---

(١) النصال: مفردها: النصل: حديدة الرمح والسهم والسكين.
(٢) الرّفَق: مفردها: الرُّفقة، الرُّفاقة: أي الجماعة المترافقون.
(٣) الكبد الحرّى: العطشى، أو التي يبست من عطش أو حزن، والقلوب: الشحم.

وكتب: ورد كتابُ الحضرة السامية ـ أحسن الله لها المعُونة، ويَسَّرَ لها العواقبَ[١] المأمونة، وأنجدَها على حرب الفئةِ الكافرةِ الملعونة ـ بخبَر خروجِ الخارجِ من قلعة كذا، وما صَرّح به من الخوف الذي ملأ الصدور، والاستحثاثِ في مَسِيرِ العسكر المنصور؛ وكلُّ ضِيقةٍ[٢] وردت على القلوب ففزِعت فيها إلى ربّها فرَجَتْ فَرَجَه وأذكَى لها اليقينُ سُرُجه[٣]؛ ولَم تُشرِكْ معه غيرَه مستعانًا، ولم تَدْعُ معه مِن خَلْقِه إنسانًا؛ فما الضِّيقةُ وإن كانت منذرةً إلا مبشِّرة، والخطةُ[٤] وإن كانت وَعْرةً إلا ميسَّرة؛ لا جرم[٥] أن هذا الكتاب أعقبه وُصولُ خبر نهضة فلان ـ نصَرَ الله نَهضاتِه، وأَدّى عنه مفترَضاتِه ـ فاستَنهَض العساكر، وقوتل العدوُّ الكافر؛ فنفّسَ ذلك الخناق، وتماسكت الأرماق[٦]؛ وما أحسَب أنّ الأمر يتمادى مع القوم، بل أقول: لا كُربَ على الإسلام بعد اليوم؛ تَتوافى بمشيئة الله ولاةُ الأطراف، ويزول من نفْسِ العدوِّ وسمعِه ما اَستشعره بين المسلمين من الخلاف؛ ويجتمعون إن شاء الله على عدوِّهم، ويُذهِب الله بأهلِ دينه ما كان من فساد أعدائه في أرضه وعُلوِّهم؛ وقد شَمِمنا رائحةَ الهدنة بطلب الرسول، وبخبرِ هلاكِ مَلِكِ الألمانِ الذي هو بسيف الله مقتول، والموتُ سيف الله على الرقاب مسلول.

ومنها: فأما ما أشار إليه من القِلاع التي شَحَنها، والحصونِ التي حصّنها؛ والأسلحةِ التي نَقلها إليها، والأقواتِ[٧] التي ملأ بها عيونَ مُقاتِلتِها وأيديها؛ فإن الله يَمُنّ عليه بأن يسرّه لهذه الطاعة، ورَزَقه لها الاستطاعة؛ فكم رزق الله عبدًا رزقًا حَرَمه منه وفتح عليها بابًا من الخير وصَرَفه عنه؛ لا جرم أنه وفَّى قومًا أجرَهم بغير حساب، ووقَفَ قومًا بموقِف مناقشةِ الحساب، الذي المَصرِفُ عنه إلى ما بعده من العذاب؛ الآن واللهِ مُلِّكَ الملَكُ العادلُ مالَه الذي أنفقَه، وأَودعَه لخير مستودَعٍ مِن الذي رزقَه؛ وشتّان بين الهمم: همّةُ ملِكٍ ذخر مالَه في رؤوس القِلاع لتحصينِ الأموال، وهمّةُ ملِكٍ أَودع مالَه في أيدي المُقاتِلةِ لتحصين القلاع: [من الكامل]

يبني الرجالَ وغيرُه يبني القرى   شتّان بين مزارعٍ ورجالِ[٨]

(١) العاقبة: آخر كل شيء أو خاتمته. جمع العواقب.
(٢) الضّيقة: بكسر الضاد: مثل الضِّيق.
(٣) أذكى لها سُرُجه: أي أوقد لها السُّرج، والسُّرُج: مفردها «سراج» وهو ما يوقد به للإنارة.
(٤) الخطّة: الحالة والآمر. (٥) لا جرم: لا بدَّ.
(٦) الأرماق: مفردها «الرّمق» وهو بقية الرّوح.
(٧) الأقوات: جمع «قوت» وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطّعام.
(٨) شتان ما بينهما: بعد وعظم الفرق بينهما.

والحمد لله الذي جعل مالَه له مَسرّة، يوم يَرَى الذين يكنِزون الذهبَ والفضّةَ المالَ عليهم حسرة؛ ما أحسَب أحدًا من هذه الأمّة إن كان عند الله مِن أهلِ الشهاداتِ بين يديه، وإن كان كريمَ الوِفادة لديه؛ إلا تلقّاه شاكرًا لهذا السلطان شاهدًا بما يُولي هذه الأمّةَ من الإحسان، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: الآية ٢٦] سيحصِدُ الزارعون ما زرعوا، والله يزيده توفيقًا إلى توفيقِه، ويلهم كلَّ مسلم القيامَ بمفترَض برِّه ويعيذه من محذورِ عقوقِه؛ وأنا أعلم أنّ الحضرة تُفرِد لي شَطْرًا من زمانها المهمّ، لكتاب تُلقيه إليّ، وخبر سارٍّ توردُه عليّ؛ وأنا أُفرد شطرًا من زماني لِشكرِها، وأسرُّ واللهِ لها بتوفيقِ الله في جميع أمرِها، فإن الذّاكر لها بالخير كثير، فزاد الله طيبَ ذكرِها؛ ورأيه الموفَّقُ في أن يُجريني على كنف العادة، ولا يقطع عني هذه المادّة؛ إن شاء الله تعالى.

وكتب: ورد كتاب المجلس السامي ـ نصر الله عزائمَه، وأمضَى في رؤوس الأعداء صوارمَه[1]، وشدّ به بنيانَ الإسلام ودعائمَه، وٱستردّ به حقوقَ الإسلام من الكفر ومَظالمه، وأخلف نفقاته في سبيل الله ومَغارِمَه[2]، وجعَلَها مَغانمَه ـ وكان العهدُ به قد تطاول، والقلبُ في المطالَبة ما تساهل، ولمحتُ أشغالَه بالطاعة التي هو فيها وما كلُّ من تَشاغَل تَشاغَل؛ فهنّأهُ الله بما رزقَه، وتَقبّلَ في سبيل الله ما أَنْفَقَه وعافى الجسمَ الذي أنضاه في جهاد عدوِّه وأَخلَقَه، وقد وُفّقَ مَن أتعبَ نفسًا في طاعة مَن خلَقَها، وجسمًا في طاعة مَن خلَقَه؛ فهذه الأوقات التي أنتم فيها أعراسُ الأعمار، وهذه النفاتُ التي تُجرَى على أيديكم مهورُ الحُور[3] في دار القرار[4]؛ قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبأ: الآية ٣٩] وأما فلان وما يسّره الله له، وهوّنه عليه، مِن بذلِ نفسِه ومالِه، وصبرِه على المشقّات وٱحتمالِه، وإقدامِه في موقف الحقائق قَبل رجالِه؛ فتلك نعمةُ الله عليه، وتوفيقُه الذي ما كلُّ مَن طلبَه وصل إليه؛ وسوادُ العجاج[5] في تلك المواقف، بياضُ ما سوّدتْه الذنوبُ مِن الصحائف ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النّساء: الآية ٧٣] فما أسعدَ تلك الوقفات، وما

(١) الصوارم: مفردها الصارم، وهو السيف القاطع.
(٢) المغارم: مفردها: المغرم: أي الغرامة: وهي الخسارة، أو ما يلزم إداؤه تعويضًا.
(٣) الحوراء من النساء: البيض، جمع حور.
(٤) دار القرار: أي الدّار الآخرة لأنّ الدّنيا دار ممرّ والآخرة دار مقرّ.
(٥) العجاج: الغُبار.

أعوَدَ بالطُّمَأنينةِ تلك المرجِفات[١]؛ وقد علم الله سبحانه وتعالى منّي ما علم من غيري من المسلمين من الدعاء الصالِح في الليل إذا يَغشَى، ومِن الذكر الجميل لكم في النهار إذا تجلّى[٢]؛ والله تعالى يؤيد بكم إيمانَكم، وينصُركم وينصر سلطانَكم، ويُصلحُكم ويصلح بكم زمانَكم، ويشكرُ هجرتَكم التي لم تؤثروا عليها أهليكم ولا أموالَكم ولا أوطانَكم؛ ويعيدُكم إليها سالِمين سالِبين، غانِمين غالِبين؛ إنه على كل شيء قدير.

وكتب: وصل كتاب الحضرة السامية - أيد الله عزمَها، وَسدّد سهمَها وجعل في الله همَّها، ووفَّر في الخيرات قِسمَها - مبشّرًا بالحركة الميمونةِ السلطانيّة إلى العدوّ خذله الله، ومَسِيرِ المسلمين - نصرهم الله - تحت أعلامه أعلاها الله؛ ومُباشرةِ العدوّ واستبشارِ المسلمين بما أسعدهم الله من الجراءة عليه، ومن إضمارِ العَودِ إليه؛ وهذه مقدّمةٌ لها ما بعدَها، وهي وان كانت نُصرةً من الله فما نَقنَع بها وحدَها فالهِمَّةُ العاليةُ السلطانيّةُ للحربِ التي تَسلُب الأجسامَ رؤوسَها، والسيوفَ حدَّها؛ فإن الجنّة غاليةُ الثَمَن، والخطابُ بالجهاد متوجّهٌ إلى الملِكِ العادل دون ملوك الأرض وإلا فمَن؟ فهذه تُشترَى بالمشقَّات، كما أن الأخرى - أعاذنا الله منها - رخيصةُ الثَمَن وتُشتَرى بالشهوات؛ والحضرةُ الساميةُ نعم القرين ونعم المعين، وفَرْضُ ذي اللّهجة المُبِين، أن يستجيش ذا القوّة المتين، وكلمةٌ واحدةٌ في سبيل الله أَنْمى[٣] من ألوف المُقاتِلةِ والمئين[٤]؛ والله تعالى يوسّع إلى الخيرات طُرقَها، ويُطلق بها منطلِقَها، ويُمتع الأخوان بخُلقها الكريم فما منهم إلا من يشكر خُلقَها؛ ورأيُها الموفّقُ في إجرائي على العادة المشكورة مِن كُتبِها، وإمطاري من خواطرها، لا عدمتُ صَوبَ[٥] سحبِها.

ومن كتاب كتبه إلى القاضي محيي الدين بن الزكيّ: بعد أن أصدرتُ هذه الخدمةَ إلى المجلس - لا عَدِمتُ عواطفَه وعوارفَه، ولطائفَه ومعارفَه؛ وأمتع الله الأمةَ عمومًا بفضائله وفواضلِه، ونَفعَهم بحاضره كما نفعهم بسلفِه الصالِح وأوائلِه، وعادى الله عدوَّه ودَلَّ سهامَه على مَقاتلِه - ورد كتابٌ منه في كذا وما بقِيتُ أذكر

---

(١) المرجفات من الإرجاف، وهو الزلزال، وأرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) يشير في هاتين الجملتين إلى السّورة المباركة «الليل» (القرآن الكريم رقم ٩٢).

(٣) أنمى: أكثر نموًا.

(٤) المئين: مفردها: المائة.

(٥) الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

الإغبابَ[١]، فإن سيّدَنا يقابله بِمثِلِه، ولا العتابَ فإن سيدنا يساجله[٢] بأَفيَض من سَجْلِه؛ ولا أُلقِي عليه من قولي قولًا ثقيلًا، ولا أقابِل به من قوله قولًا جليًا جليلًا؛ فقد شَبّ عمرو عن الطّوق[٣]، وشَرُف البُراقُ[٤] عن السَّوق؛ وذلك العمرو[٥] ما برح محتنَكًا[٦] والطَّوق للصَّبيّ، وذلك البُراقُ حِمى لا يقدَّم إلا للنّبيّ؛ ومع هذا فلا تُقلّص عنّي هذه الوظيفة، وٱعتقِدْها من قُرَب الصحيفة؛ فإنك تسكُن بها قلبًا أنت ساكنُه وتَسرّ بها وجهًا أنت على النوى معاينُه.

وكتب إلى العماد[٧]: كانت كتبُ المجلس ـ لا غيّر الله ما به من نِعَمِه ولا قطع عنه مَوادَّ فضلِه وكرَمِه، ولا عَدِمت الدنيا خَطَّ قلمِه وخطو قدَمِه؛ وأعاذنا الله بنعمة وُجودِه من شِقوةِ عدَمه ـ تأخّرتْ وشقَّ عليّ تأخُرُها، وتغيّرتْ عليّ عوائدُها والله يعيذها مما يغيّرُها؛ ثم جاءت ببيت ابن حجّاج[٨]: [من مجزوء الرمل]

غـــاب مـــا غـــاب ووافـــا نـي عـلى ما كـنـتُ أعـهـدْ

وأجبتُه ببيت الرّضيّ[٩]: [من المديد]

ومـتـى تَـدنُ الـنـوى بـهـمُ يـجـدوا قلبي كـما عَـهِـدوا

---

(١) الإغباب: ساعة استلام الكتاب. (٢) تساجلوا: تباروا وتفاخروا.

(٣) في أساس البلاغة مادة «طوق» «جلّ» والمعنى مستقيم على كلتا الروايتين، وهذا المثل لجذيمة الأبرش في عمرو بن عدي، كما في جمهرة الأمثال.

(٤) البُراق: دابةٌ يركبها الأنبياء عليهم السّلام، مشتقة من البرق، وقيل: البراق: فرس جبريل عليه السلام (اللسان مادة برق).

(٥) العمرو: كذا ورد هذا الاسم في الأصلين مقرونًا بالألف واللّام، وقد جاءا في مغني اللبيب ص ٥٠ ما نصّه: وقيل: «أل» في اليزيد والعمرو للتعريف، وإنهما نكرة ثم أدخلت عليهما «أل» كما ينكّر العلم إذا أضيف.

(٦) محتنكًا: يقال: حنكته السنّ واحتنكته: إذا أحكمته التجارب.

(٧) العماد: هو عماد الدين الكاتب الأصبهاني، محمد بن صفي الدين، أبو عبد الله، مؤرّخ عالم بالأدب، من أكابر الكتاب، استخدمه نور الدين زنكي ثم لحق بصلاح الدين الأيوبي، فكان معه في مكانة وكيل وزارة، إذا انقطع القاضي الفاضل بمصر لمصالح صلاح الدين قام العماد مقامه مات سنة ٥٩٧هـ. (الأعلام، ٧/٢٦).

(٨) ابن حجّاج: هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجّاج، كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولا يبني جلّ قوله على سخف قال عنه صاحب التيمية: إنّه من سحرة الشعر وعجائب العصر. (اليتيمة ٣/٣٥).

(٩) هو الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب، يرجع نسبه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، قال الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل يتحلّى مع محتده الشريف بأدب=

كتابةٌ لا ينبغي مُلكها إلا لخاطرِه السليمانيّ، وفَيضٌ لا يسند إلا عن نُوح قلمِه الطُّوفانيّ، أَوجبت على كل بليغ أن يتلوَ، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٨] وبالجملة فالواجب على كلّ عاقل ألّا يتعاطى ما لم يُعْطَه، وأن يدخل بابَ مجلس سيّدِنا ويقولَ حِطّه[1]؛ فأما ما أفاض فيه من سكون الأحوال بتلك البلاغة فقد كدت أَسكَر لما ٱستخرجتُه من تلك المحاسن التي لو أن الزمان الأصمّ يَسمع لأسمعتْه، ولو أن الحظَّ الأشمّ يخضع لأخضعه؛ وبالجملة فإنه لا يُشنَأُ[2] زمنٌ أَبقَى من سيّدِنا نعمةَ البقيّةِ التي مهما وُجدتْ فالخير كلُّه موجود، والمجدُ بحفيظته مشهود؛ وكما تَيسّرتْ راحةُ جسمِه، فينبغي أن يقتديَ به قلبُه في راحة مِن همِّه؛ وأعراضُ الدنيا متاعُ المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلا فهذه الدنيا وهدةٌ[3] إليها مَصابُ المصائب؛ والحالُ التي هو الآن عليها عاكفٌ إلا مِن عِلم يدرُسُه، وأدبٍ يقتبسُه، وحريم عقائلَ يَذبّ عنه ويحرسه؛ هي خير الأحوال، فالواجب الشكر لواهبِها، والمَسرّةُ بالإفضاء إلى عواقبِها؛ وما يُنقص شيءٌ من المقسوم، وإن زاد عند المجلس فليس من حظِّه، ولكن من حظّ السائل والمحروم؛ فلا يَسمح ٱلمجلسُ بكتابٍ من كتبِه على يدٍ من الأيدي التي لا تؤدّي، ولا يؤمَن أن تكون أناملُها حروفَ التعدّي، وهي إحدى ما تعلّقتْ به الشهواتُ من اللذّات، وهو يُنعم بها على عادته في كفِّ ضراوةِ[4] القلب ودفعِ عاديتِه[5]؛ موفّقًا إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى القاضي محيي الدين بن الزكيّ أيضًا: كان كتابي تَقدّم إلى المجلس السامي ـ أدام الله نفاذَ أمرِه، وعلوَّ قدرِه، وراحةَ سرِّه ونعمةَ يسرِه؛ وأجره على أفضل ما عوّدَه، وأَسعد جَدَّه وأَصعدَه، وأَحضرَه أمثالَ العام المقبل وأَشهدَه؛ ولا زال يلبَس الأيّامَ ويخلعها. ويستقبِل الأهلّة ويودّعها وهو محروس في دنياه ودينِه، مستلئمٌ من نُوَب الدهر بدرعِ يقينِه، كاشفٌ لليل الخطبِ بنور جبينِه، وليوم الجدب بفَيض يمينِه؛ وأعمالُه مقبولة، ودعواتُه على ظهرِ الغمام محمولة؛ والدنيا ترعاه وهي تأتي برغمِها، والآخرةُ تُدّخَر له وهو يسعى لها سعيَها ـ من أيدي عِدّةٍ من المسافرين، ولثقتي بهم ما قَدّرتُ أسماءهم، ولِضيق صدري بتأخير كتب المجلس ما حفظتُها.

= ظاهر وفضل باهر، وحظ من جميع المحاسن وافر على حدّ قول الثعالبي في اليتيمة. (وفيات الأعيان ٤/ ٤١٤).

(١) الحطّة: طلب المغفرة، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٨]، فعله من حطّ الله عنك خطاياك.

(٢) يشنأ: يبغض.

(٣) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٤) الضراوة: الشدّة والقساوة.

(٥) العادية: الظلم والشرّ.

وجاء منها: وما كأنا إلا أن دعونا الله سبحانه دعوةَ الأوّلِين أن يباعد بين أسفارِنا[١]، وأردنا أن يقطع بيننا وبين أخبارِنا؛ فأجيبت الدّعوة، ولا أقول لِسابقِ الشَّقوة[٢]، ولكن لِلاحقِ الحُظوة؛ فإن مكابَدةَ الأشواقِ إلى الأبرار، تَسُوق إلى الجنّة ولا تَسُوق إلى النار، وأُقسم أنني بالاجتماع به في تلك الدار، أَبهجُ مني بالاجتماع به لو أُتِيح في هذه الدار؛ فعليه وعليّ من العمَلِ ما يَجمعَ هنالك سلكَ الشمل ويصلُ جديدَ الحبل؛ فثَمّ لا يُلقِي العصا إلا من أَلقَى هنا[٣] العِصيان، وهناك لا تَقرّ العينُ إلا ممن سهِرتْ منه هٰهنا العينان فلا وجه لجمع اسمى مع اسمه في هذه الوصيّة مع علمي بسوء تقصيري، وخوفي من سوء مَصيري، ولكن لِيزيدَ سيّدُنا من وظائفه وعوارِفه، ـ فكلّ فعلِه تفضُّل من فضلِه ـ ما يخلّصني بإخلاصه فإنني أستحق شفاعته لِشُفعةِ جِوارِ قلبي لقلبِه، وهذا معنى ما بَعث على شُغل الكُتّاب به، مع علمي باستقرار نفسِه النفيسة، إلا أنه ـ أبقاه الله ـ قد أَبعَد عهدي مِن كُتبِه بما يقع التفاوضُ فيه، والمراجَعةُ عنه؛ والخواطرُ في هذا الوقت منقبضة، والشواغلُ لها معترِضة، وأيامُ العُمر في غير ما يُفرَض من الدنيا للآخرة منقرِضة؛ ومتجدِّدُ نوبةِ بَيْروتَ قد غَمّت كلّ قلب، وهاجت المسلمين أشوقًا إلى الملِكِ الناصر، وذكرَى بما ينفعه الله به من كلّ ذاكر، وأَخَذَ الناسُ في الترحّم على أوّلِ هذا البيت والدعاءِ للحاضر والآخر ـ وليس إن شاء الله بآخر؛ فما ادّخر المولى لهذه الحرب مجهودًا، ولا فَلّلتْ[٤] عسكرًا مجرورًا ولا مالًا ممدودًا: [من الطويل]

فإن كان ذنبي أنّ أحسَنَ مطلبي إساةٌ ففي سوء القضاء لِيَ العذرُ

ومنه: وسيّدُنا يستوصي بالدار بدِمَشق فقد خَلتْ، وإنما الناسُ نفوسُ الديار؛ وأنا أعلم أن سيّدَنا في هذا الوقت مشدُوهُ الخاطر عن الوصايا، ومشغولُ اللسان بتنفيذِ ما ينفّذه ممَا هو منتصب له من القضايا؛ فما في وقتِه فضلةٌ[٥] ولكن فضْل، وسيّدُنا يُحسِن في كلّ قضيّة مِن بَعد كما أَحسَن مِن قَبل؛ فهو الذي جعل بيني وبين الشام نَسبًا وأنشأني فيه إلى أن ادّخرتُ عَقارًا ونَشَبًا[٦] فعليه أن يَرعى ما أقناه[٧]، وينفيَ

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [سَبَأ: الآية ١٩].
(٢) الشقوة: من الشقاء.
(٣) في الأصل «هنالك» وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.
(٤) فلّلت: كسرت.
(٥) الفضلة: الزيادة.
(٦) النّشب: المال أو العقار.
(٧) أقناه: يقال: أقنيت فلانًا: إذا أعطيته ما يقتني.

الشَّوكَ عن طريقِ اليدِ إلى جَناه؛ والجارُ إلى هذا التاريخ ما ٱندفع جَورُه، ولا أُدرِكَ غَورُه؛ يَعِدُ لسانُه ما تُخلف يدُه، ويَدّعي يومه ما يكذّبه فيه غدُه؛ وأنا على انتظار عواقب الجائرين، وقد عرف الغيظُ منّي ألفاظًا مجهولةً ما كنت أسمح بأن أعرفها، وكشَفَ مستورًا من أسباب الحَرَج ما يسرّني أن أكشفها ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: الآية ١٤٨] وأَسْوَأُ خُلقًا مِن السيىء الخُلق مَن أَحوَجه إلى سوء الخُلق؛ وما ذكرتُ هذا لِيُذكَر، ولا طويتُ الكتابَ عليه لِيُنشَر، والسرُّ عند سيّدنا ميتٌ وهو يَقضِي حقَّه بأن يُقبَر.

وكتب: أدام الله أيامَ المجلس وخصه مِن لطفِه بأوفر نصيب، ومنحه من السعادة كلّ عجيب وغريب، وأَراه ما يكون عنه بعيدًا مما يؤمّله أقربَ مِن كلِّ قريب ـ الخادمُ يخدُم ويُنهِي وصولَ كتابٍ كريم تفجّرتْ فيه ينابيعُ البلاغة، وتبرّعتْ له بالحكم أيدي البراعة؛ وجادَ منه بسماء مزيَّنةٍ بزينةِ ٱلكواكب، وهطَلَ منها لأوليائه كلُّ صَوبٍ[١] ولأعدائه كلُّ شهابٍ واصب[٢]، وتجلَّى فما الغِيدُ الكواعب[٣]؛ وما العقودُ في التَّرائب[٤]، وتَفرَّق منه جيشُ الهمّ فانظر ما تفعل الكتبُ في الكتائب؛ وما ورَدَ إلا والقلب إلى مَوردِه شديدُ الظما، وما كُحِلَ به إلا ناظرةُ الذي عَشِي عن الهدى وقَرُب من العمى؛ وما نار إبراهيم بأعظَم مِن نورِه، ولا سرورُه ـ ﷺ ـ حين نجا أعظَمَ يومَ وصولِه مِن سرورِه؛ فحيّا الله هذه اليدَ الكريمةَ التي تَنهلّ بالأنواء[٥] وتجزل سوابغَ النعماء؛ وتُعطِي أفضلَ عطاءٍ يسرّها في القيامة، وتحُوز به أفضلَ أنواع الكرامة، فأما شوقُه لعبدِه فالمولى ـ أبقاه الله ـ قد أُوتِيَ فصاحةَ لسان، وسحَبَ ذيلَ العِيِّ[٦] على سَحبان[٧]؛ ولو أنّ للخادم لسانًا مُوات[٨]، وقلبًا يقال له هِي هات[٩]؛ لقال ما عندَه، وأذكرَ عهدَه وودَّه؛ وباح بأشواقِه، وذمّ الزمَن على

(١) الصوب: المطر النافع.
(٢) الواصب: الخالص الدائم.
(٣) الكواعب: مفردها الكاعب: وهي الفتاة التي برز نهداها.
(٤) الترائب: موضع القلادة من الصدر.
(٥) الأنواء: الأمطار والعطاء مفردها «النوء».
(٦) العيّ: ضد الفصاحة.
(٧) سحبان: هو سحبان وائل، من باهلة، خطيب يضرب به المثل في البيان، اشتهر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وأسلم مات سنة ٥٤ هـ. (الأعلام ٣/ ٧٩).
(٨) موات: كان يقتضي إثبات الياء والوقوف عليه بالألف فيقال: «مواتيا» إلّا أنّ السجع اقتضى أن يجري الكاتب المنقوص المنصوب مجرى المرفوع والمجرور في الإعراب، فيسكّن ياءه ويحذفها في الوقف.
(٩) هي هات: يقال عند الاغراء بالشيء «هي هي» فإذا بنوا منه فعلًا قالوا: هيهيت به أي أغريته.

اعتياقِه[١]؛ وأما تفضّلُه بكذا فالخادمُ ما يقوم بشكرِه، ولا يقدِّرُه حقَّ قدرِه؛ وقد أحال مكافأةَ المجلس على مَليءٍ[٢] قادر، ومَسرّة خاطرة عليه يوم تُبلَى السرائر؛ واللّهُ تعالى يصِلُه برزقٍ سنيٍّ يَملأ إناه، ويُوضح هداه؛ ولا يُخلِي المجلسَ مِن جميلِ عوائدِه، ويمنحُه أفضلَ وأجزلَ فوائدِه إن شاء الله تعالى.

ومن مكاتباته يتشوّق إلى إخوانه وأودّائه[٣]، ومحبِّيه وأوليائه ـ كتب إلى بعضهم: [من الطويل]

أأحبابَنا هل تَسمعون على النوى تحيّةَ عانٍ أو شكيّةَ عاتبِ[٤]
ولو حَملتْ ريحُ الشَّمال إليكمُ كلامًا طَلبْنا مِثلَه في الجنائبِ[٥]

أصدر العبد هذه الخدمة وعنده شوقٌ يَغُور به ويُنجد[٦]، ويستغيث من ناره بماء الدمع فيجيب ويُنجِد؛ ويَتعلّل بالنسيم فيُغري نارَه بالإحراق، ويَرفع النواظرَ إلى السُّلوان فيعيدها الوجدُ في قبضة الإطراق؛ أسفًا على زمنٍ تَصرَّم[٧]، ولم يُبقِ إلا وجدًا تَضرَّم، وقلبًا في يد البين المُشتِّ يَتظلّم: [من الوافر]

ليالِيَ نحن في غفلات عيشٍ كأنّ الدّهر عنّا في وَثاقِ

فلا تَنفَّس خادمُه نفسًا إلا وصَلَه بذكره، ولا أَجرَى كلامًا إلا قيَّده بشكرِه، ولا سار في قفرٍ إلا شبَّهه برحيب صدْرِه، ولا أَطلّ على جبل إلا ٱحتقره بعليّ قدرِه، ولا مرّ بروضةٍ إلا خالَها تفتّحت أزهارُها عن كريم خُلقِه ونسيم عطرِه، ولا أَوقد ٱلمصطَلون[٨] نارًا إلا ظنّهم ٱقتبسوها من جمرِه، ولا نزل على نهر إلا كاثَرَ دمْعَه ببحرِه: [من الطويل]

سقى الله تلك الدارَ عَودةَ أَهلِها فذلك أَجدَى من سحاب وقَطْرِه[٩]
لئن جَمَع الشَّملَ المشتَّتُ شَملَه فما بَعدَها ذنبٌ يُعدّ لدهرِه
فكيف تَرَى أشواقه بعد عامه إذا كان هذا شوقُه بَعد شهرِه

---

(١) الاعتياق: من الإعاقة.
(٢) المليء والمليّ بتشديد الياء: الغني القادر، أو هو الحسن القضاء للدين.
(٣) الأوداء: مفردها: الوديد، وهو المحب. (٤) العاني: الذليل الأسير.
(٥) الجنوب: ريح تهب من جهة الجنوب. جمع الجنائب.
(٦) ينجد: يرتفع. (٧) تصرّم: انقضى.
(٨) المصطلون: من اصطلى النار أي استوقد ليستفدىء.
(٩) القطر: المطر.

بـعـيـدٌ قـريـبٌ مـنـكُـم بـضـمـيـره   يَـراكـم إذا لـم تـروه بـفـكْـرِه
تَـرحّـل عـنـكـم جـسـمُـه دون قـلـبِـه   وفـارقـكـم فـي جـهـره دون سـرِّه
إذا ما خلتْ منكم مجالسُ ودِّه   فقد عَمَرَتْ منكم مجالسُ شكرِه
فيا ليل لا تُجلِبْ عليهم بظُلمة   وطـلـعـةُ بـدر الـديـن طـلـعـةُ بـدرِه

ونسأل الله تعالى أن يمنّ بقُربِه ورحابُ الآمال فسائح، وركابُ الهموم طلائح[١] والزمن المناظرُ[٢] بالقرب مسامِح؛ هنالك تُطلَق أعنةُ الآمال الحوابس، ويهتزّ مخضّرًا من السعود عودٌ يابس: [من الطويل]

وما أنا من أن يَجمعَ الله شَملَنا   بـأحـسـنِ مـا كـنـا عـلـيـه بـآيـسِ[٣]

وقد كان الواجب تقديم عَتْبِه، على تأخيرِ كُتْبِه؛ ولكنه خاف أن يجنيَ ذنبًا عظيمًا ويؤلَم قلبًا كريمًا: [من الطويل]

ولـسـتُ بـراضٍ مـن خـلـيـلٍ بـنـائـلٍ   قـلـيـلٍ ولا راضٍ لـه بـقـلـيـلِ[٤]

وحاشى[٥] خِلاله من الإخلال بعهودِ الوفاء، ومن أنحلال عقودِ الصفاء، وما عهدتُ عزمَه القويَّ في حَلْبة الشوق إلا من الضعفاء، وحاشيةَ خُلُقِه إلا أرقَّ مِن مدامعِ غُرَماء الجفاء: [من الكامل]

من لم يَبِتْ والبينُ يصدع قلبَه   لم يدر كيف تَقلقُلُ الأحشاءِ[٦]

وكتب أيضًا في مثل ذلك: كتَبَ مملوكُ المولى الأجل عن شوقٍ قدَحَ الدمعَ من الجفون شرارًا، وأَجرَى من سيل المار نارًا، واستطال واستطار فما تَوارَى أُوارًا[٧]، ووجدٍ على تذكّر الأيام التي عَذُبتْ قِصارًا، والليالي التي طابت فكأنما خُلقتْ جميعُها أسحارًا: [من الطويل]

وبي غَمرةٌ للشوق من بَعد غمرةٍ   أَخوض بها ماء الجفون غِمارا

---

(١) الطلائح: مفردها: الطليح، المهزول والمجهود، أو المعيي.
(٢) المناظر: المجادل.   (٣) الآيس: الذي يئس وانقطع رجاؤه.
(٤) البيت لكُثَيِّر عَزَّة. انظر الأغاني ج ١، ص ١٤٣، طبع دار الكتب المصرية. والخليل: الصاحب، والنائل: العطاء.
(٥) يقال: حاشاك وحاشى لك، والمعنى واحد؛ وحاشى اسم على الصحيح مرادف للبراءة.
(٦) تقلقل: تحرك.
(٧) الأوار: حرّ الشمس والنار: أو الدخان؛ أو اللهب.

وما هي إلا سَكرةٌ بَعد سكرةٍ ... إذا هي زالت لا تزال خُمارا[١]
رحلتم وصبري والشبابَ وموطني ... لقد رحلتْ أحبابُنا تَتبارى[٢]
ومن لم تصافح عينُه نورَ شمسِه ... فليس يرى حتى يُراه نهارا
سقى الله أرض الغُوطتين مدامعي ... وحسبكِ سُحْبًا قد بعثتُ غزارا[٣]
وما خدعتْني مصرُ عن طيبِ دارِها ... ولا عوّضتْني بعد جاريَ جارا
أدارَ الصِّبا لا مِثلَ ربعك مَربَعٌ ... أرى غيرَكِ الربعَ الأنيس قفارا[٤]
فما اْعتضتُ أهلًا بعد أهلِكِ جيرةً ... ولا خلتُ دار المُلك بعدَكِ دارا

وما ضرّ اليدَ الكريمةَ التي أياديها بيض في ظلمات الأيّام، وأفعالها لا يقوم بمدحها إلا أسنة الألسنة والأقلام؛ لو قامت للمودّة بشرطِها، ومحتّ خطَّ الأسى بخطِّها؛ وكَتبتْ ولو شطرَ سطرٍ ففرّغتْ قلبًا من الهمّ مشحونًا، وأطلقتْ صبرًا في يد الكمد[٥] مسجونًا؛ ونَزّهتْ ناظرَ المملوك في رياض منثورةِ الحُلى، وحَلّت عهودَه بمكارمَ مأثورةِ العُلا: [من الطويل]

وما كنت أرضى من علاك بذا الجفا ... ولكنه من غاب غاب نصيبُه[٦]
ولو غيرُكم يَرمِي الفؤادَ بسهمِه ... لَما كان ممن قد أصاب يصيبُه
وما ليَ فيمن فرق الدهر أُسوةٌ ... كأن محبًّا ما نآه حبيبُه[٧]

والمملوكُ مذ حطّت مصر أثقاله، وجهّز الشامُ رحالَه؛ وألقت اْلنوى عصاها وحلّت الأَوبةُ[٨] عُراها؛ يكتب فلا يجاب، ويستكشف[٩] الهمَّ بالجواب فلا ينجاب[١٠]: [من الكامل]

يا غائبًا بلقائه وكتابِه ... هل يُرتَجى من غَيبتيك إيابُ

(١) الخُمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها.
(٢) تتبارى: تتنافس وتتعارض.
(٣) الغوطة: هي الكورة التي منها دمشق، تحيط بها جبال عالية جدًا ومياهها خارجة من تلك الجبال. والمراد الواحد وإن كان قد ثنى.
(٤) الرّبع: الموضع ينزل فيه في زمن الربيع. أو الدار أو المنزل أو الحيّ.
(٥) الكمد: الحزن.
(٦) الجفا: الإعراض والانقطاع، والنّصيب: الحظّ، والسّهم من الرزق.
(٧) نآه: ابتعد عنه.
(٨) الأوبة: من الإياب، أي الرجوع والعودة.
(٩) يستكشف: يقال: استكشف الهمّ: بمعنى طلب أن يزول وينكشف.
(١٠) ينجاب: ينكشف.

ومتى يصفّي الله وردَ الحياة من التكدير، ويَتحقّق بلقائه أحسَنُ التقديرُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشّورى: الآية ٢٩]: [من الكامل]

وزمـانٍ مـضـى فـمـا عُـرِف الأوّلُ إلّا بـمـا جـنـاه الأخِـيـرُ

أيـن أيّـامُـنـا بـظـلّك والـشّـمـلُ جميعٌ والعيشُ غضٌّ نضيرُ

وحوشي المولى أن يكون عَونًا على قلبه، وأن يرحل إثره الرِّيُّ على شربِه[١]، وأن ينسيَه بإغبابِ[٢] الكُتبِ ساعاتِ قربه، وأن يحُوجه إلى إطلاق لسانِه بما يصون السمعَ الكريمَ عنه من عَتْبِه؛ الأخ فلان مخصوصٌ بسلام كما تفتَّحتْ عن الورد كمائمُه[٣]، وكما توضّحتْ عن القَطر غمائمُه: [من الطويل]

إذا سار في تُرْبٍ تَعَرَّفَ تربُها بريّاه والتفّتْ عليها لطائمُه[٤]

وقد تَبع الخلقَ الكريمَ في الإغباب والجفوة، وأعدَتْ عزائمُه قلبَه فاستويا في الغِلظة والقسوة. [من الرجز]

إن كـنـت أنـت مُـفـارقـي من أين لي في الناسِ أُسوة[٥]

وهبْ أن المولى اشتغل ـ لا زال شغلُه بمَسارِّه، وزمنُه مقصورًا على أوطارِه ـ فما الذي شغله عن خليلِه، وأَغفله عن تَدارُك غليلِه؟ هذا وعلائقُه قد تقطّعت وعوائقُه قد ارتفعت؛ وروضةُ هواه قد صارت بعد الغضارة هشَيمًا، وعهودُه قد عادت بعد الغضاضة رمِيمًا[٦]: [من الخفيف]

إنّ عـهـدًا لـو تـعـلـمـان ذمـيـمًـا أن تـنـامـا عـن مـقـلـتـي أو تُـنـيـمـا

وما أَولى المولى أن يواصل بكتبِه عبدَه، ويجعل ذكرَه عقدَه، ولا ينساه ويألَف بُعدَه، ويَستبدل غيرَه بَعدَه.

---

(١) الشَّرب بفتح الشين وسكون الراء: الجماعة يشربون.

(٢) الإغباب: من الغبّ، يقال: زر غبًّا تزدد حبًّا، أي أن تكون الزيارة متقطعة يومًا بعد يوم وليس متواصلة.

(٣) الكمائم: مفردها «الكمامة» وهي غطاء النَّور.

(٤) التّرب: جمع ترباء وهي الأرض ذات التراب، واللطائم: جمع لطيمة، وهي المسك، والرّيّا: الرائحة الطيبة.

(٥) الأسوة: ما يُتعزّى به، أو ما يُقتدى به.

(٦) الغضاضة: النضارة والطرادة، والرّميم: البالي.

وكتب أيضًا: [من مجزوء الخفيف]

أكـذا كـلُّ غـائـبِ غـاب عـمّـن يـحبُّـه
غاب عنه بشخصِه وسـلا عـنـه قـلبُـه

ولو أن لي يدًا تكتب، أو لسانًا يُسْهِب، أو خاطرًا يَستهِلّ، أو فؤادًا يَستدِلّ؛ لوصفتُ إليه شوقًا إن ٱستمسك بالجفون نَثَرَ عِقدَها، أو نزل بالجوانح أَسعَر وقْدَها؛ أو تَنفَّس مشتاقٌ أعان على نَفَسِه، وظنّه ٱستعاره من قَبسه؛ أو ذكَرَ محبٌّ حبيبًا خالَه خطَر في خَلَدِه(١)، وتَفادَى من أن يَخطِر به ذكرُ جَلَدِه: [من البسيط]

حتّى كأنّ حبيبًا قَبل فرقتِه لا عـن أحبّتِه يـنـأى ولا بـلدِه
بالله لا ترحموا قلبي وإن بلغتْ بـه الـهمومُ فـهذا ما جنى بيدِه

ولولا رجاؤه أنّ أوقاتَ الفراق سحابةُ صيف تَقشَعها(٢) الرياح، وزيارةُ طيفٍ يَخلعَها الصباح؛ لاستطار(٣) فؤادُه كمدًا، ولم يجد ليوم مسرّته أمدًا؛ ولكنه يَتعلل بميعاد لقياه، ويدافع ما أَعَلّه بلعلّه أو عساه: [من الطويل]

غِنًى في يد الأحلام لا أستفيدُه ودَيـنٌ عـلى الأيّام لا أتـقـاضـاهُ

ومن غرائبِ هذه الفُرقة، وعوارض هذه الشُقّة؛ أنّ مولاي قد بخِل بكتابه وهو الذي يداوِي به أخوه غليلَ ٱكتئابه، ويستعديه على طارق الهمّ إذا لجّ(٤) في انتيابِه: [من المنسرح]

كـمثـلِ يـعقـوبَ ضـلّ يـوسـفَـه فـاعـتـاض عـنـه بـشـمِّ أثـوابِـه

وهبْ أنّ فلانًا عاقه عن الكتب عائق، وٱختَدَع ناظرَه كمن هو في ناضِر عيشٍ رائق؛ فما الذي عرض لمولانا حتى صار جوهرُ ودّه عرَضًا(٥)، وجَعَل قلبي لسهام إعراضه غَرَضا؟: [من البسيط]

بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت من المكاره أو للبرق ما ومضا(٦)

(١) الخلد: البال والنفس.
(٢) تقشعها الرّياح: تكشفها.
(٣) استطار: انصدع.
(٤) لجّ في انتيابه: لزمه وأبى أن ينصرف عنه.
(٥) العرض: الزّائل الذي لا يدوم ولا يثبت.
(٦) ومض البرق: لمع خفيفًا وظهر، والبيت لأبي العلاء المعرّي «سقط الزّند».

وما عهدتُه ـ أدام الله سعادته ـ إلا وقد ٱستراحت عواذلُه، وعُرِّيَ[١] به أفراسُ الصِّبا ورواحلُه؛ إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللُّجج[٢]، ومرِض قلبه فما على المريض حرَج؛ وأيًّا ما كان ففي فؤادي إليه سريرةُ شوقٍ لا أُذيعها ولا أضيعها، ونفسي أسيرةُ غُلّةٍ[٣] لا أُطيقها بل أُطيعها: [من الطويل]

وإنّي لمشتاقٌ إليك وعاتبٌ　　　عليك ولكن عَتْبةً لا أُذيعُها

والأخ النِّظام ـ أدامَ الله ٱنتظام السعد ببقائه، وأعداني على الوجد بلقائه ـ مخصوصٌ بالتحية إثرَ التحيّة، وَوَالَهْفي على تلك السجيّة السخيّة؛ وردتُ منها البابليَّ[٤] معتَّقًا، وظَلتُ مِن أسرِ الهموم بلقائها معتقًا[٥]: [من الطويل]

خلائق إمّا ماءُ مُزنٍ بشُهْدةٍ　　　أغادَى بها أو ماءُ كرْمٍ مصفَّقا[٦]

وقد ٱجتمعتْ آراء الجماعة على هجراني، ونسُوا كلَّ عهدٍ غيرَ عهد نسياني: [من المتقارب]

وما كنتمُ تعرفون الجفا　　　فبالله ممّن تعلّمتمُ

وكتب أيضًا: إن أَخَذ العبدُ ـ أطال الله بقاء المجلس وثبّت رفعتَه وبسَطَ بسطتَه، ومكّن قدرتَه، وكَبَت حسَدتَه ـ في وصفِ أشواقه إلى الأيام التي كانت قصارًا وأعادت الأيامَ بعدها طوالًا، والليالي التي جَمعتْ من أنوار وجهه شموسًا ومن رغدِ العيش في دارِه ظلالًا: [من الطويل]

وجَدتُ ٱصطباري بعدهنّ سفاهةً　　　وأبصرتُ رشدي بعدهنّ ضلالا

---

(١) لعلّه يشير بهذه العبارة إلى قول زهير بن أبي سُلمى: (ديوانه: ٦٤ دار صادر).
صحا القلب من سلمى وأقصر باطله　　　وعُرِّي أفراس الصِّبا ورواحله
(٢) اللُّجج: مفردها اللجّة: وهي معظم الماء، ومن الأمر: معظمه، ومن الليل: شدته.
(٣) الغلّة: شدّة الظمأ ولباس تحت الثوب يلي شعر الجسد.
(٤) البابلي: يريد: الخمر البابلي «المنسوب إلى بابل».
(٥) المعتق من العتق: وهو التحرّر.
(٦) الشُهدة: العسل، وأغادي بها: من الغداة: أي أصبح بها باكرًا، والمصفّق: من صفقت الشراب: أي حوّلته من إناء إلى إناء ليصفو، وقد نصب مصفّقًا على الحال من ماء.

وإن أَخَذ في ذكرِ ما ينطق به لسانُه من وَلاءٍ صريح، ويَعتقِده جَنانُه[١] من ثناءٍ فصيح[٢]: [من الطويل]

تَعاطَى مَنالًا لا يُنال بعزمه وكلُّ اعتزامٍ عن مداه طليحُ[٣]

ولكنه يعدِل عن هذين إلى الدعاء بأن يبقيَه الله للإسلام صدرًا، وفي سماء الملّة بدرًا، وفي ظلماتِ الحوادث فجرًا؛ وأن يَجمعَ الشَّملَ بمجلِسه وعِراصُ[٤] الآمال مطلولة[٥] وسهامُ القُربِ على نحور البعد مدلولة، وعقودُ النوى بيَدِ اللّقاء محلولة؛ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: الآية ٢٠]: [من الطويل]

فقد يجمع الله الشَّتِيتَين بعدما يظنّان كلّ الظنّ أن لا تَلاقِيا[٦]

وما رمت به النوى مراميَها، ولا سَلكتْ به الغربةُ مواميَها[٧]؛ إلا استَنجَد شوقُه من الجفون هاميًا، واستَدْعَى من الزَّفْرة ما يُعيد مَسلكه من الجوانح داميًا، وصدَرَ[٨] عن مَنهل الماء العذبِ النمير[٩] ظاميًا، وتَعلّل بالأماني في الاجتماع «وآخر ما يبقى الإياس الأمانيا»[١٠] والسلوةُ أن الطريقَ بحمد الله أَسفرتْ[١١] عن فضل اجتهادِه، وفضيلةِ جهادِه؛ ونُصرةِ الإسلام، وإعلاءِ الأعلام؛ وخدمةِ المجلس الفلاني ـ أعزّه الله نصرَه، وأسعَد بها جَدَّه، وبلغ بها قصدَه، وأَمضَى في الكفر حدَّه؛ وأورَى بها للإسلام قَدْحًا، وشَرُفتْ حديثًا وشرحًا، وأَجهَدت الأعداء إثخانًا[١٢]

---

(١) الجنان: القلب والعقل.

(٢) الظاهر أن في هذه الجملة والتي قبلها تقديم وتأخير، ولعلّ صوابه: ما ينطق به لسانه من ثناء فصيح، ويعتقده جنانه من ولاء صريح، فإنّ الثناء محلّه اللسان، والولاء وهو المحبة محلّه القلب.

(٣) الطليح: الضعيف والمعيي.

(٤) العراص: مفردها «العرصة» وهي ساحة الدّار.

(٥) المطلولة: التي نزل بها الطلّ.

(٦) البيت لقيس بن الملوّح، وهو المعروف بالمجنون، والشتيتان: مثنّى الشتيت: أي المتفرّق.

(٧) الموامي: جمع موماة وهي المفازة من الأرض.

(٨) صدر عن الماء: رجع وعاد.

(٩) النمير: العذب.

(١٠) كذا ورد هذا اللفظ منصوبًا، ولم يتضح لنا وجه نصبه، لأنّ القواعد تقتضي رفعه على أنه خبر للمبتدأ وهو قوله: «وآخر».

(١١) أسفرت: تكشّفت، وأسفر الصبح: أضاء إضاءة لا يشك فيه. (اللسان، مادة سفر).

(١٢) الإثخان: المبالغة في القتل.

وجرحًا: [من الطويل]

وأَبقَى بها في جبهة الدّهر أسطرًا إذا ما ٱنمحَى خَطُّ الكواكب لا تُمحَى
إذا جاء نصرُ ٱللّه فالفتحُ بَعدَه وقد جاء نصرُ الله فليَرقب ٱلفتحا

فأما الخادمُ فيودّ ألّا يزالَ لشرف محصِّلًا، ولتلك اليدِ الكريمةِ مقبِّلًا، وللغُرّةِ[١] المتهلّلة[٢] كالصباح مستقبِلًا: [من الطويل]

محيًّا إذا حيّاك منه بنظرةٍ فتحتَ به بابًا من اللطف مُقفَلا

ويرى أن خير أوقاته ما كان فيه بالحاشية الفلانيّة مكاثِرًا، وتحت ظلال ألويتِها سائرًا: [من الطويل]

فثَمَّ ترى معنى السعادة ظاهرًا وثَمّ ترى حزبَ الهداية ظاهرًا

والخادم يؤثر من المجلس المواصَلةَ بالمراسم[٣] التي يعُدّ أيامَها من المواسم، ويقال بها أوجهَ المسَارّ طَلقةَ المباسم؛ ويرتقبها ٱرتقابَ الصُّوّام للأهلّة، والرُّوّادِ لمواقع السحائِب المنهلّة.

وكتب عن الملك الناصر صلاح الدين إلى تقي الدين بن عبد الملك: [من الطويل]

سقى الله أرضَ الغُوطتين وأهلَها فلي بجنوب الغُوطتين جنونُ
وما ذكرتْها النفسُ إلا استفزّني إلى طيبِ ماء النَّيْرَبَيْن حنينُ[٤]
وقد كان شكّي في الفراق مروِّعي فكيف أكونُ اليوم وهو يقينُ

كم جَهْدِ ما تتسلّى القلوب، وتُسرَّى[٥] الكُروب؛ لا سيّما إذا كان الذي فارقتَه أَعلقَ بالأكباد من خِلْبِها[٦]، وأقربَ إلى القلوب من حُجبِها؛ وهل يَستروِح إلا أن يَفُضَّ ختامَ الدمع، ويَخترِقَ حجابَ السمع، ويستغيثَ بسماء العيون ذات الرَّجْع[٧]،

---

(١) الغرّة: من الرجل وجهه. (٢) المتهلّلة: المشرقة.
(٣) المراسم والمراسيم: المكاتيب.
(٤) المراد بالنَّيربين: قرية نيرب، وإنما ذكرها بالتثنية جريًا على عادتهم من ذكر اللفظ المفرد بلفظ المثنّى، وهذه القرية بدمشق على نصف فرسخ وسط البساتين، وذكر ياقوت أنها أنزه موضع رآه، وهذا الشعر لأبي المطاع وجيه الدولة بن حمدان. (انظر معجم البلدان ٥/ ٣٣٠).
(٥) تسرّى: تنكشف. (٦) الخِلب: بكسر الخاء: حجاب الكبد.
(٧) الرَّجع: المطر بعد المطر.

لتجودَ أرضَ الخواطر ذاتَ الصدع[١]؛ وهنالك أَوفَى ما يكون الشوقُ جندًا، وأَورَى ما يُورِي الوجدُ زندًا[٢]: [من الطويل]

إلـى زفـرةٍ أو عَـبـرةٍ مـسـتـبـاحـةٍ لهذي مَراحٌ عنده ولذي مَغدَى[٣]

وقد علم الله أنّي مذ فارقتُه ما دعاني الذكرُ إلا لبّيتُه بجوابٍ من ماء الغليل غيرِ قليل ولا ذكرتُ خُلقَه الجميلَ إلا ورأيت الصبرَ الجميلَ غيرَ جميل: [من الطويل]

وغـيـرُ كـثـيـرٍ فـيـه وجـدُ كُـثـيّـرٍ ولـوعـةُ قيس والـتـيـاحُ جـمـيـلِ[٤]
أهيم برسمٍ فيك للمجدِ واضحٍ وهـامـوا بـرسـمٍ لـلـغرام مُـحـيـلِ[٥]

وقد كتبتُ إليه حتى كاد يشيب له المداد، لو لم يَخلع عليه الناظرُ حلّةَ السواد وحبّةَ الفؤاد[٦]، فما رَدّ، وجارَ عن خُلقِه الكريم فإنّه قطّ ما وَدَّ وصَدّ؛ وأُوثرُ منه ألّا يحكّم الفراقَ عليّ فيَشتطّ[٧]، ولا يمكّنَ اللوعةَ من مهجتي فتَخبِط[٨]: [من الطويل]

فـجُـد لـي بـدرٍّ مـن بـحـارِك إنّـنـي من الدمع في بحرٍ وليس له شطُّ
بـكـفٍّ بـهـا لـلـحـرب والـسـلـم آيـةٌ فيُحيِي لديها الخطُّ أو يَقتُل الخطُّ[٩]

ونسأل الله الرغبة في اجتماع لا يكدر وِردُه، ولا يُنثَر عِقدُه، ولا يعزُب[١٠] عن آفاق الوفاق سعدُه: [من الطويل]

وما كان حُكمي أن أفارقَ أرضَكم ولـكـنّ حُـكـم الله لـسـنـا نـردُّه

---

(١) يشير بهاتين الجملتين إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: الآيتان ١١، ١٢].
(٢) أورى الزّند: أشعله، والزّند: هو العود الأعلى الذي تقدح به النّار.
(٣) المراح: الموضع الذي يروح القوم منه وإليه، والمغدى: مكان الغدوّ.
(٤) الإلتياح في الأصل: العطش، والمراد هنا: شدّة الشّوق والهيام، وهو يشير في هذا البيت إلى شعراء العشق: كثيّر عزّة، وقيس بن الملوّح وجميل بن معمر...
(٥) المُحيل: الذي مضى عليه الحول. (٦) حبّة الفؤاد: مهجته.
(٧) يشتطّ: يسرف في الظلم والهجر.
(٨) تخبط: يقال: هو يخبط في عمياء إذا ركب ما ركب بجهالة...
(٩) الخطّ: الأولى: يريد بها الكتابة، والخطُّ الثانية: يريد بها الرّماح المنسوبة إلى الخطّ، وهي مرفأ في البحرين، وفي الكلام جناس تام...
(١٠) يعزُب: يبتعد.

وكتب عنه أيضًا إلى عز الدين فَرّوخ شاه[١]: [من البسيط]

أحبابَنا لو رُزِقتُ الصبرَ بَعدكُم لَما رضيتُ به عن قربكم عِوَضا
إني لأعجب أنّي بَعد فرقتكم ما صحّ جسميَ إلا زادني مَرَضا
أُنبيكُم عن يقينٍ أنّ قلبيَ لو أضحى مكانَ جناحَيْ طائرٍ نَهَضا
هذا ولو أنّه بالعهد فيك وفى لكان حين قضى الله الفراق قضى[٢]

كتبتُ - أطال الله بقاء المولى الولَدِ - عن قَريحةٍ قَريحة، وإنسانِ[٣] مقلةٍ جَريحٍ في جَريحة، ولوعةٍ صريحة، وذكرةٍ إذا ذُكِر الصبرُ كانت طَريحة: [من المتقارب]

وليلٍ بطيءِ طلوعِ الصَّبا ج شوقًا إلى القَسَماتِ الصَّبيحة[٤]
أَبحتَ فؤادي وأنت المُباحُ وما كان مِن حقِّه أنْ تُبيحَه[٥]
وما أصحبَتْ في قتال العذول أعِنّةُ قلبٍ عليهم جَموحَه[٦]
مُعنًّى بريحِ شمالِ الشآم لقد عذّب الله بالريحِ رُوحَه[٧]
فلا رَوّح الله مِن قربكم فؤادي بخطرة يأسٍ مُريحَه[٨]

ولولا التعلّلُ بأبنية ألمنى الخادعة، والنزولُ بأفنيَةِ الأُسا[٩] الواسعة؛ لتصدّعتْ أكبادٌ وتفطّرتْ، وتجدّلتْ[١٠] أفراسُ دموعٍ وتقطّرتْ[١١]: [من الكامل]

يا صاحبي إنّ الدّموع تنفّستْ
فدَع الدموعَ تبيح ما قد أضمرَتْ

(١) في الأصول: «فرخشاه» والتصويب عن وفيات الأعيان ١/ ١٢٠ ط بولاق.
(٢) قضى الله: أراد في قضائه، وقضى الثانية: أي مات وفي الكلام جناسٌ تام.
(٣) إنسانُ المقلة: ناظرها.
(٤) القسمات: واحدها قسمة بكسر السّين وفتحها وهي «الحسن». أو أعلى الوجه أو ظاهر الخدّين.
(٥) أنت المباح: أي أنت الفؤاد الذي أبحته.
(٦) أصبحت: انقادت، والأعنّة: مفردها «العنان» وهو ما يُقاد به، والجموح: التمرّد.
(٧) المعنّى: المكلّف بما يصعبُ عليه ويشقّ.
(٨) الخطرة: المرّة والحين، وخطر في باله: ورد ولاح.
(٩) الأُسا: بكسر الهمزة وضمّها: جمع إسوة، وهي ما يأتسي به الحزين.
(١٠) تجدّلت: من جدله بتشديد الذّال وتخفيفها: أي صرعه على الجدالة بفتح الجيم، وهي الأرض.
(١١) تقطّرت: من قطره: إذا ألقاه على أحد قطريه، وهما جانباه.

قد كنتُ أكتم عن وشاتي سرَّها
ولقد جرى طِرْفُ الحديث كما جرَتْ(١)
لله ليلاتٌ قَرَنَّ نجومَها
بل بدرَها بوجوهِ عيشٍ أقمرَتْ
أَغلتْ على السُّلوان شَوقكُم فما
باعت كما أمر الغرامُ مَن ٱشترَتْ

ومذ فارقتُ تلك الغرَّة البدريّة، والطلعةَ العزيزةَ العِزّية؛ ما ظفرتُ بشخصِه نومًا ولا بكتابِه يومًا: [من الطويل]

* فواعجبًا حتى ولا الطيفُ طارقًا(٢) *

وأَعجِبْ له في الحرب نثرُ كتائبٍ ... بكفٍّ أبتْ في السِّلم نظْمَ كتابِ(٣)
يحاسبني في لفظةٍ بَعد لفظةٍ ... ومعروفُه يأتي بغير حسابِ

ولو رضيتُ ـ وكَلّا ـ بأن أَحملَ من هذا الجفاء كَلًّا(٤)؛ لما رضِيَ به لخُلُقه الرَّضِيّ، ولأخذ بقول الرَّضِيّ: [من الطويل]

هبونيَ أَرضَى في الإياس بهجركم ... أَترضَى لمن يرجوك ما دون وصلِه(٥)

والرغبةُ مصروفةُ العِنَانِ إلى الله أن يُبيح من اللقاء مَنيعًا، وينتجَ من اللّطفِ صنيعًا: [من مجزوء الكامل]

لو تأخذون بساعةٍ ... من وصلِكم عُمري جميعا
لرغبتُ في أن تشترى ... إن كنتَ تَرضَى أن تبيعا
ومفارِقين مع الصَّبا ... عزمًا فهل أرجو الطلوعا(٦)
أقسمتُ لو رجعوا لأعـ ... ـقبَني الصِّبا معهم رجوعا

---

(١) الطِّرف: الكريم الأصل من الخيل... وقد استعاره للحديث.
(٢) الطيف: الخيال، والطّارق: الزّائر ليلًا.
(٣) نثر الكتائب: تفريقها في الحرب، وقد قابل بين النثر والنظم... يقال: نظم العقد: أي سلكه في سلك واحد.
(٤) الكلّ: التعب والفتور. (٥) الوصل: ضد الهجر.
(٦) الصِّبا: الشوق، أو الصغر والحداثة ولعلّ صواب الشطر الثاني: رغمًا فهل برحوا الظلوعا.

هـبْـكـم مَـنـعـتـم قُـربَـكـم ولـبـسـتُـم بُـعـدًا مَـنـوعـا[١]
أفـتَـمـنـعـون بـكـم ضـلـو عًـا عـاقـد شُـفِـيـن بـكـم وَلُـوعـا
مـا غـايـتـي إلا الـدمـو عُ وأسـتـقِـلّ لـك الـدمـوعـا

وكتب أيضًا رحمه الله تعالى يتشوق: [من الطويل]

فيا ربّ إنّ البين أَنْحتْ صروفُه عليّ وما لي من معينٍ فكن معي[٢]
على قربِ عذّالي وبعدِ أحبّتي وأمواهِ أجفاني ونيرانِ أضلعي

هذه تحيّةُ القلب المعذّب، وسريرةُ الصبرِ المذبذَب، وظلامةُ عزمِ السلوِّ المكذَّب؛ أصدرتُها إلى المجلس وقد وَقدتْ في الحشى نارُها، الزَّفير أُوارُها[٣]، والدموعُ شرارُها، والشوقُ أثارَها وفي الفؤاد ثارُها: [من الرجز]

لـو زارنـي مـنـكـم خـيـالٌ هـاجـرٌ لَـهـدتْـه فـي ظُـلُـمـاتـه أنـوارُهـا

أسفًا على أيّام الاجتماع التي كانت مَواسمَ لسرور الأسرارِ، ومَباسمَ لثغورِ الأوطار؛ وتذكّرًا لأوقاتِ عَذُب مَذاقُها، وعَذّب فراقُها؛ ورَوَّحتْ[٤] بُكَرُها، ورَوَّعتْ ذكَرُها: [من البسيط]

والله مـا نـسـيـتْ نـفـسـي حـلاوتَـهـا فـكـيـف أذكـر أنّـي الـيـوم أذكـرُهـا

ومذ فارقتُ الجنابَ النُّوريّ - لا زال جَنَى جنابِه نضيرًا، وسنا سنائه[٥] مستطيرًا؛ وملكُه في الخافِقَين خافق الأعلام، وعزُّه على الجديدَين جديدَ الأيام؛ لم أقفْ منه على كتاب يَخلُف سوادُ سطورِه ما غَسَل الدموعُ من سواد ناظرِي، وينظم ببيان منظومِه ومنثورِه ما وَزّعه البينُ من شتات خاطرِي: [من الطويل]

ولـم يَبـقَ فـي الأحـشـاء إلّا صُـبـابـةٌ من الصبر تَجرِي في الدموع البوادرِ[٦]

---

(١) المنوع: الذي يمنع غيره. (٢) البيْن: الفراق، وأنحت: أقبلت ومالت.
(٣) الأوار: حرّ الشمس والنار، أو الدخان، أو اللهب.
(٤) روّحت: ذهبت في الرّواح؛ وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى الليل، ويقابله الصباح.
(٥) السناء: الرفعة وعلو المنزلة.
(٦) الصُّبابة: البقية القليلة من الماء ونحوه، والبوادر: المنهلّة.

وأسأله المَناب[١] بشريف الجناب، وأداءَ فرض، تقبيلِ الأرض؛ حيث تَلتقِي وفودُ الدنيا والآخرة، وتَغمُر البيوتَ العامرةَ المننُ[٢] الغامرة؛ ويظَلّ الظلُّ غيرَ منسوخِ بهجيرِه، ويُنشَر المجد بشخص لا تسمح الدنيا بنظيرِه: [من الطويل]

تَظاهَر في الدّنيا بأشرفِ ظاهرِ فلَم يُرَ أنقَى منه غيرَ ضميرِه
كفانيَ عزًّا أن أسمَّى بعبدِه وحسبيَ هَدْيًا أن أسير بنورِه
فأيُّ أميرٍ ليس يشرف قدرُه إذا ما دعاه صادقًا بأميرِه

وإنني في السؤال بكتبه أن يوصلها ليوصل بها لدي تهانيء تَملأ يدِي، ويُودعَ بها عندي مسَرّةً تقتدح في الشكر زنْدِي: [من الطويل]

عهدتُك ذا عهدٍ هو الوَردُ نَضرةً وما هو مِثلُ الورد في قصر العهدِ[٣]

وأنا أرتقِب كتابه ٱرتقابَ الهلال لتفطر عين عن الكرى صائمة، وتَرِدَ نفسٌ على موارد الماء حائمة.

وكتب أيضًا يتشوّق: [من الكامل]

لا عَتْبَ أخشاه لِقطعِ كتابِكم وٱسمعْ فعذري بَعده لا يُعتَبُ
مهما وجدتُك في الضمير ممثَّلا أبدًا تناجيني إلى مَن أكتبُ

كَتَبَ عبدُ حضرة مولاه ـ حرس الله سموَّه، وأدام مزيدَ علائه ونموَّه، وقَرَنَ بالمَسارِّ رواحَه وغدوَّه، وكَبَت[٤] حاسدَه وأَهلَك عدوَّه ـ عن سلامة ما ٱستثنى فيها الدهرُ إلا ألَم فراقِه، وعافيةٍ موصولةٍ بمرضِ قلبٍ لا أرجو موعدَ إفراقِه[٥]: [من الكامل]

لو لم يكن إنسانُ عيني سابحًا لخشيتُ حين بكَيتُ مِن إغراقِه[٦]

وعندي إليه وجدٌ يَكلُمُ[٧] الضلوع، ويتكلّم بألسنة الدموع؛ والنفسُ قريبةُ ٱستعبار، لِذكرِ أوقات السرور القِصار، وأنوارِها التي يكاد سنا برقِها يَخطَف

(١) المناب: مصدر ميمي من النوب، أي أن ينوب عنه.
(٢) المنن: مفردها: المنّة، وهي الإحسان والانعام.
(٣) نضرة الورد: أن يكون ذا رونق وبهجة.
(٤) كبت حاسده: ردّه بغيظه.
(٥) إفراق المريض: برؤه وإقباله.
(٦) إنسان العين: البؤبؤ والناظر.
(٧) يكلمُ الضلوع: يجرحها.

الأبصار: [من الوافر]

شهورٌ ينقضِين وما شَعَرنا بأنصافٍ لهنّ ولا سَرارِ[١]

إذا العيشُ غضٌّ وَرِيق، والمهجُ لم يتقسّمْها التفريق، ولا سار منها إلى بلدٍ فريقٌ وبقيَ في بلدٍ فَرِيق، ولا سقاها كؤوسَ وجدٍ للجفونِ المترَعةِ تُرِيق: [من المجتث]

ثمِلتُ منها وما لي سوى الغرامِ رَحِيق[٢]

وإلى الله الشكوى من شوقٍ في الصَّميم، وصبرٍ راحلٍ وغرامٍ لا يَرِيم[٣]، كأنّه غريم: [من الخفيف]

زعموا أنّ مَن تَباعَد يسلو لا ومُحيي العظامِ وهي رميمُ

ولقد أستَغرَب وُصولَ الرفاقِ بعد أن طال غيابهم وقد صَفِرتْ[٤] من كتابهم الكريمِ عيابُهم، ولو زاره لَعدّه تحفةَ الخصِيصِ[٥] بالتخصيص، وأَدرَك به بُغْيَةَ الحريص، ورأى للدّهرِ المذنب مزيّةَ التمحيص، وَصالَ به على نوائبِ الأيامِ المنتابةِ صولةً لا يجِدُ عنها من محيص[٦]: [من مجزوء الكامل المرفّل]

وحسِبتُني لِوصولِهِ يعقوبَ بُشِّر بالقميص

هنالك يرتع في تلك الرّياض التي غصونُها أسطارُها[٧]، وشكلُها أطيارُها، وألفاظُها نُوّارُها، ومعانيها ثمارُها، وبلاغتُها أنهارُها، وجزالتُها تَيّارُها: [من الكامل]

إن أَظلمتْ للنفسِ فيها ليلةٌ قمرُ المعاني عندنا سمسارُها[٨]

(١) السّرار: بفتح السين وكسرها: الليلة التي يستسرّ فيها الهلال آخر الشهر.
(٢) ثمل: أصابه الثمال وهو السكر، والرّحيق: الشراب والطيب.
(٣) لا يريم: لا يحول عني ولا يفارقني.
(٤) صفرت عيابهم: أي خلت، والعياب: أوعية الثياب.
(٥) المراد بالخصيص: من خصصته بودّك، ولم تردّ هذه الصيغة في كتب اللغة بهذا المعنى، ولكنّها وردت في معجم الأدباء لياقوت الجزء الرابع ص ٥٣ ـ دار الكتب العلمية حين تحدّث عن أبي الفرج الأصفهاني فقال: وكان أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني من ندماء الوزير أبي محمّد الخصيصين به».
(٦) من محيص: من مَحيد.
(٧) الأسطار: واحدها «السّطر» وهو الصفّ من كلّ شيء.
(٨) السمسار: الدّليل والهادي، وهو في الأصل: المتوسّط بين البائع والمشتري أو السّفير بين المحبين.

ويتلقّاه قَبل يدِه بقلبِه، ويكاد يسبق ضميرَه إلى أكلِه وشربِه: [من الكامل]

ويظنّه والطّرفُ معقودٌ به   شخصَ الرقيب بدا لعين محبِّه(١)

وإذا ضنّ(٢) مولاه بمأثورِه، جاد عليه بميسورِه؛ ...: [من الكامل]

فكأنّني أهدَيتُ لِلشمسِ السّنا   وطرحتُ ما بينَ المصاحِف دَفترا(٣)

وعلى كلّ حالٍ فيسأله أن يواصلَه مِن مَراسِمِه بما ينتظره ناظرُه ليجد نورًا، وقلبُه ليستشعر به سرورًا، وخاطرُه ليجعله بينه وبين الهمّ سُورًا؛ وألّا يخلَى رِفقةً من كتابٍ ولو بالقلائد القلائِلْ من دررِ أقلامِه، ودراريِّ كلامِه.

وكتب: لو استعار الخادمُ - أدام الله نعمةَ المجلس - أنفاس البَشَر كلامًا، وأغصانَ الشجر أقلامًا؛ وبياضَ النهار أطراسًا(٤)، وسوادَ الليل أنقاسًا(٥)؛ ما عبّر عن الوجد الذي عبّرت عنه عَبَراتُه، ولا عن الشوق الذي لا يستثير مِثلَه معَبدًا(٦) إذا هَزِجتْ(٧) في الثقيل الأوّل نَبَراتُه(٨)؛ أسفًا على ما عَدِمه في هذه الطريق، من ذلك المحيّا الطَّليق، والخُلُقِ الذي هو بكل مَكرُمَةٍ خليق، والصفاتِ التي يَحسُن بها كلُّ حُسنٍ ويليق، ويُعذَر كلُّ جفنٍ يَسفَح(٩) ذخيرتَه شوقًا إليها ويُريق: [من الطويل]

قِفا أو خذا في العذْل أيَّ طريقِ   فما أنا مِن سكرِ الهوى بمُفيقِ

أما والهوى إنّ الهوى لأليّةٌ   يعظّمُها في الحبِّ كلُّ مَشُوقِ(١٠)

لو أنّ الهوى مما تصحّ هِباتُه   لقاسمتُ منه قلبَ كلِّ صديقِ

وما زار ناظرَ خادِمه الكرى إلا تَمثّل له مولاه طيفًا يَهُمّ أن يتعلّق بأذيالِه، وقَبِلَ تمويهَ ناظرِه على قلبِه في وصالِه: [من البسيط]

وَوَدَّ أنّ سوادَ الليل مُدَّ له   وزاد فيه سوادَ القلبِ والبصرِ

(١) الطّرف: النظر، ولعلّه يريد «شخص الحبيب» بدل «شخص الرقيب».

(٢) ضنّ: بخل. (٣) السّنا: الضوء.

(٤) الطرس: الصحيفة التي يكتب فيها.

(٥) الأنقاس: جمع نقس بكسر النون وهو المداد أو الحبر.

(٦) معبد: هو معبد بن وهب، أبو عبّاد المدني، نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، كان أديبًا فصيحًا، أصواته وأخباره كثيرة مات سنة ١٢٦هـ. (الأعلام ٧/ ٢٦٤).

(٧) هزجت: يقال هزج المغنّي بكسر الزاي: إذا طرّب وترنّم.

(٨) النّبرات: مفردها «النّبرة» وهي رفع الصوت بعد خفضه.

(٩) يسفح: يصبّ الدّمع. (١٠) الأليّة: اليمين.

ولقد وَجَد طعمَ الحياة لِبعدِه مرًّا، وقال بَعدَه للذّتَي ٱلعين والقلب: مُرًّا: [من الطويل]

وها هو يرجو في غدٍ وعدَ يومِه لعلّ غدا يأبى لمنتظرٍ عذرا

وإلى الله سبحانه وتعالى يَرغب أن يجعلَه بالسلامة مكنوفًا، وصَرْفَ الحِدْثان[١] عن ساحتِه مكفوفًا، وعِنانَ الصُّروف عن فِنائه[٢] مصروفًا، ووُفودَ الرجاء على أرجائه عُكوفًا؛ وأن يُمتِع الوجه بوصفه الذي هو أشرفُ مِن كلّ وجهٍ موصوفًا: [من الكامل]

مَن كان يُشرِك في علاك فإنّني وجّهتُ وجهيَ نحوهنّ حنيفا

وقد كان يَنتظر كتابًا يشرّفه ويشنّفه، ويستخدمُه على الأوامر ويصرّفُه؛ ويَجتنِي ثمرَ السرور غضَّ المَكاسِر ويقتطفُه؛ فتأخَّر ولَمْ يُحدِثْ له التأخيرُ ظنًّا، ولا صرَفَه عن أن يَعتقِدَ أنّ مولاه لا تُحدث له الأيامُ بخلًا بفضله ولا ضنًّا: [من الطويل]

ولو تُصرَف السحْبُ الغزارُ عن الثّرى

لَما ٱنصرفتْ عن طبعك الشّيمُ الحُسنى

وهو ينتظرُ مِن الأمرِ والنهيِ ما يكون عملُه بحسبِه، ويثبت له عهد الخدّام بنسَبِه: [من الطويل]

ومِن عَجَبٍ أنّي أحِنّ إليهمُ وأَسألُ عنهم مَن أرى وهمُ معي

وتَطلبُهم عيني وهُم في سوادِها ويشتاقهم قلبي وهُم بين أضلعي

وكتب أيضًا: كتبتُ والعبَراتُ تمحو السطور، ويُوقد ماؤها نارَ الصدور ويَهتِكُ[٣] وجدًا كان تحت السّتور، ويُرسِل من بين أضلعي نَفَسَ المَوْتور[٤]: [من الخفيف]

قد ذَكرْنا عهودَكم بعد ما طا لت ليالٍ مِن بَعدِها وشهورُ

عَجَبًا لِلقلوبِ كيف أطاقتْ بُعدَكم! ما القلوبُ إلّا صخورُ

---

(١) الحدثان: من الدّهر مصائبه. (٢) الفناء: الساحة.

(٣) هتك: يكشف ويفضح، وهتك الستر: أزاله من موضعه.

(٤) الموتور: من الوتر وهو الظلم في العداوة أو الانتقام.

وما وردتُ الماءَ إلّا وَجدتُ له على كبدي وَقْدًا لا بَرْدًا، ولا تعرّضتُ لنفحات النسيم إلا أَهدَى إليّ جَهْدًا، ولا زارني طيفُ الخيال إلا وجدني قد قطعتُ طريقه سُهْدًا، ولا خَطِفَ(١) لي البارقُ الشّامي إلّا باراه قلبي خُفوقًا ووقدًا(٢): [من المتقارب]

وأيسرُ ما نال منّي الغليـ ـلُ ألا أُحِسَّ من الماء بردا

فسقى الله دارَه ما شربتْ [من](٣) الغمام، وأيّامَنا بها وبُدورُ ليالي تلك الأيّامِ تَمَام: [من الكامل]

ذُمَّ اللّيالي بَعد منزلة اللّوى والعيشَ بَعد أولئك الأقوامِ(٤)

وكان قد وصل منه كتابٌ كالطّيفِ أو أَقْصَرُ زَوْرًا، وكالحبِّ أو أَظْهَرُ جَوْرًا، والربيعِ أو أَبْهَرُ نَوْرًا، والنجم أو أعلى طَوْرًا، والماءِ الزلال أو أَبْعَدُ غَوْرًا؛ فنثرتُ عليه قُبَلي، وجعلتُ سطورَه قِبَلي بل قِبَلي(٥)، ووردتُ منه مَوردًا: [من البسيط]

أهلًا به وعلى الإظماءِ أَنشُدُه لو بَلَّ مِن غُللي أبللتُ مِن عِللي(٦)

إلّا أنه - أبقاه الله - ما عزّزه(٧) بثان، ولا آنس غريبه، وإني وإيّاه غريبان: [من الطويل]

وكم ظلّ أو كم بات عندي كتابُه سميرَ ضميرٍ أو جِنانَ جَنانِ(٨)

---

(١) خطف البارق: مرّ سريعًا. (٢) الوقد: الاشتعال.

(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق ولم ترد في الأصل، والكاتب يشير بهذه العبارة إلى قول الشريف الرّضي:

سقى مِنًى وليالي الخيف ما شربت من الغمام وحيّاها وحيّاك

(انظر ديوان الشريف الرّضي).

(٤) البيت لجرير: (انظر ديوانه ص ٤١٦، دار الكتب العلمية)، وقد ورد هنا مع بعض التغيير، فقد ذكره الديوان على الشكل التالي:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللّوى والعيش بعد أولئك الأقدام

(٥) قبلي الأولى: بكسر القاف وفتح الباء: أي تجاهي، ويجوز ضبطها بضمّ القاف وسكون الباء أي قصدي، وقبلي الثانية: هي جمع قِبلة بكسر القاف وفي الكلام جناس تام.

(٦) بلّ غللي: أي روى ظمأه، وأبللت من عللي: أي شفيت من سقامي.

(٧) عزّزه: من التعزيز وهو التقوية والإعانة.

(٨) الجنان بكسر الجيم مفردها «الجنّة» وهي الستر، والجَنان: بفتح الجيم: القلب.

وأَرغبُ إليه ـ لا زالت الرّغبَات إليه ـ، وأسألُه ـ لا خَيّم السؤالُ إلا لديه ـ؛ أن يلاطِفَ بكتابه قلبي، ويمثّلَ بمثالِه أيّامَ قربي: [من الكامل المرقّل]

والله لــــولا أنـــنـــي أرجو اللِّقا لقَضَيتُ نَحْبي
هــذا ومــا فــارقــتُــكــم لــكــنــنــي فــارقــتُ قــلــبــي

وكتب جواب كتاب ورد عليه: [من الطويل]

شكرتُ لدهري جَمعَه الدارَ مرّةً وتلك يدٌ عندي له لا أُضيعُها
وطلعة مولانا يطالِعُ عبدَه وكلُّ رُبوعٍ كان فيها رُبوعُها[١]
فؤادٌ سقاه لا يعودُ غليلُه وعينٌ رأتْه لا تَفيض دموعُها

ورد على الخادم كتابُ المجلس ـ أعلى الله سلطانه وأثبَتَه، وأرْغَم أنفَ عدوه وكَبَتَه، وأصماه[٢] بسهام أسقامه وأصمَتَه؛ ولا أخلَى الدنيا من وجودِه، كما لم يُخلِ أهلَها مِن جودِه، ولا عَطّل سماءَ المجد من صعودِه، كما لم يُعطّل أرضَها من سُعودِه ـ وهو كتابٌ ثانٍ يَثنِي إليه عِنانَ الثناء، ويَصِفُ لي حسنَ العهد على التّناء، ويستنهِضُ الأدعيةَ الصالحةَ في الأطرافِ والآناء[٣]، ويبشِّرُ الخادمَ بأنه وإن كان بعيدَ الدارِ فإنه بمثابة المقيم في ذلك الفِناء، وأن هذه الخدمة التي أنعم الله عليه بها وَثيقةُ الأساس على الدهر شامخةُ البناء؛ فقال له قائمًا على قدمِه، وسَجَد في الطِّرس ممثِّلًا سُجودَ قلمه، وٱسترعى اللهَ العهدَ على أنه تعالى قد رعى ما أَوْدعه في ذمّة كرمِه؛ وصارت له نَجرانُ[٤] علاقةَ خيرٍ صَرَفَ إليها وجهه فكأنها قِبْلة، ودعا بني الآمالِ إلى ٱعتقادِ فضلِ مالكِها فكأنّما يدعوهم إلى ملّة، والله يُوزِعُه شكرَ هذا الافتقادِ[٥] على البِعاد، ولا يُخلِه من هذا الرأي الجميل الذي هو مَلجأُ الاستناد؛ وعَقدُ الاعتقاد؛ والخادم لا ينفكّ متطلّعًا لأخبار المولى فتَرِده مُفْضِلةً ومُجمِلة، ومُفَصَّلةً ومُجْمَلَة؛ ويَعرِف منها ما يَعرِف به مَوْقعَ ٱللطف بالمولى في أحوالِه،

(١) الربوع الأولى: المحلّة أو الدّار، والرّبوع الثانية: المكان الذي ينزل فيه وقت الربيع، أي أنه ربيع حيث أقام وفي الكلام جناس.
(٢) أصماه بالسهم: أي رماه به وأنفذه فيه «قتله».
(٣) الآناء: ساعات الليل، والأطراف: أي أطراف النهار أي المساء والصّباح.
(٤) نجران: محلّة في عدّة مواضع، منها نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة. (انظر معجم البلدان (٥/ ٢٦٦).
(٥) افتقده: طلبه عند غيبته.

ومكانَ النجح في آمالِه؛ وأنّه بحمد الله في نعمةٍ منه ـ لا غَيَّر اللهُ ما به منها، ولا صَرَفَها عنه ولا صَرَفَه عنها ـ فيجدِّد لله الشكرَ والحمد، ويبلِّغه ما يَبلُغه منها المرادَ والقصد؛ ونسأل الله ألّا يخلَي الدولةَ الناصريّةَ منه ناصرًا لسلطانِها، وعينًا لأعيانِها؛ وسيفًا في يدِ الإسلام يناضِل عن حقِّه، وفرعًا[١] شريفًا يَشهد مَرآه بشرف عرقِه؛ والرأي أعلى في إجرائه على ما عُوِّد مِن هذا الإنعام، وزيادته شرفًا بالاستنهاض ـ إن صَلَح له ـ والاستخدام.

ومن جواب آخر: وَرَد كتاب المجلس ـ أدام الله ورادتِ الإقبال على آمالِه، ولا سَلَبت الأيامُ نعمتَي جميلِه وإجمالِه، ولا انحطّ قدرُ بدرِه عن درجتَي تمامِه وكمالِه، وأحسن جزاءه عن ميثاق الفضل الّذي نَهَض باحتمالِه ـ ووقفتُ منه على ما لا يَجِدُ الشكرُ عنه مَحيدًا، وآنستُ[٢] به القلبَ الّذي كان وحيدًا، وعَددتُ يومَ وصوله السعيد عيدًا، ووردتُ منه بئرًا معطَّلةً وحللتُ قصرًا مَشِيدًا[٣]؛ ولا يكلّف الله نفسًا إلّا وُسعَها، وتلك الغايةُ ليست في وُسعي، ولا تَعلم نفسٌ إلا ما طَرَقَ سَمْعَها، وتلك المحاسنُ ما طَرَق مِثلُها سمعي، ولا تتناول يدٌ إلّا ما وِسعه ذَرْعُها، وهذه الأوابدُ[٤] الأباعدُ ما طالها ذراعي ولا ٱستَقَلّ بها ذَرْعي.

ومن آخر: خَلّد الله أيّامَ المجلس، وعضَد الملّةَ الحنيفيّةَ منه بحاميها، والأركانَ الإسلاميّةَ من سيفِه بشائِدها وبانيها، وأَمتَع الدولةَ المحمديّةَ بعزمته التي حسُنتْ الكفايةُ بها، فلا غرو أن تَحسُن الكفايةُ فيها؛ ولا عَدِمت الدنيا نَضرةً بأيّامِه النَّضيرة، والدينُ نُصرةً بأعلامِه النصيرة؛ المملوكُ يقبِّل الترابَ الذي يومًا يَستقِرُّ بحوافر[٥] سَيْلِه، ويومًا يَستقِرّ بحوافر خيلِه ـ فلا زال في يوم السِّلْم جُوده سحابًا صائبًا، ويومِ الحربِ شهابًا ثاقبًا ـ ويُنهِي أنه وردتْ عليه المكاتبةُ التي ٱستيقظتْ بها آماله من وَسَنها[٦]، وأفادته معنًى من الجَنّة فإنها أذهبَتْ ما بالنفوس من حَزَنِها، وتَلقَّى المملوكُ قُبْلَها[٧] بالسجود والتقبيل، وتَحلَّى بعقودِ سطورِها فهيهات بعد هذا

---

(١) الفرع: من كلّ شيءٍ أعلاه، والفرع: الأصل.(٢) آنست: من الأنس.

(٣) البئر المعطّلة: التي لا وارد لها، وقصر مشيد: رفيع بالصّخور والجصّ، «والشيّد» عند العرب: الجصُّ بعينه، وقد ورد ذكر البئر المعطلة والقصر المشيد في القرآن الكريم سورة الحج الآية: ٤٥، ووردت تفاصيلهما في الجزء الثالث عشر من نهاية الأرب في الباب السابع من القسم الأول من الفنّ الخامس فانظرها. . .

(٤) الأوابد: الدواهي مفردها «الآبدة».

(٥) الحوافر: جمع حافرة وهي الأرض المحفورة.

(٦) الوسن: النّعاس والنّوم. (٧) القُبْل: بضمّ القاف وسكون الباء: الوجه.

شكوى التعطيل[١]؛ واكتَحَلَ من داء السهد بإثْمِدِها[٢]، وأدار على الأيّام كأسَ مَرقَدِها[٣]، وأسمعتْه نَغْمَ النِّعم التي هي أعجبُ إلى النفس من نَغَمات مَعْبَدِها، وأطالت الوقوفَ عليها رِكاب طَرْفِه فما وقوفُ ركابِ طَرَفَةَ ببُرْقَةِ[٤] ثَهمَدِها؛ وضَرعَ إلى من يشفِّع وسائلَ المتضرّعين، ويملأ مواقعَ آمالِ المتوقِّعين؛ أن يَغُلَّ[٥] عنه كلَّ يدٍ للخطوب بسيطة، ويفكّ به كلَّ رِبْقةٍ[٦] للأيّام بأعناق بَنيها محيطة.

ومن آخر: رفع الله عمادَ الإسلام ببقاء المجلس، وبَسَط ظلَّه على الخلق، ومَلَّك يدَه الكريمةَ قصَبَ السَّبق، وجَمَعَ بتدبيره بين ناصيتَي الغرب والشرق؛ وألَّف لقدرته طاعَتي الجهرِ والسرّ، وصَرّف بعزمته زمامَي النَّهي والأمر، وأَحْرَزَ لجَدّه مَسَرَّتَي الأجرِ والنصر، وقَطَّ[٧] بفَتكتِه شَوكَتي النفاقِ والكفر - وَردتْ على المملوك مكاتبةٌ كريمةٌ رَفَعها حيث تُرفع العمائم، ومَدَّ اليدَ إليها كما تُمَدّ إلى الغمائم؛ وفَضّها، بعد أن قَضَى باللّثم فرْضَها، واستَمطَرتْ نفسُه سماءها فأرضتْ[٨] أرضها؛ وكاد المملوكُ يَتأمّلها لولا أنّ دمَعَ الناظرِ إلى العين سبَقَه، على أنه دمعٌ قد تَلوّن بتلوُّنِ الأيّام في فراقه، فلو فاض لَعَصْفَرَ[٩] الكتابَ وخَلَّقه[١٠]؛ فلا أعدمه الله المولى حاضرًا وغائبًا، ومُشافِهًا ومُكاتِبًا، وأحلّه[١١] في جانب السعادة ويَعزّ على المملوك أن يَحِلّ من مولاه جانبًا.

---

(١) التعطيل: من العَطَل: يقال جيدٌ عاطل: أي لا حليّ فيه.
(٢) الإثمد: الكحل الأسود.
(٣) يريد أنّه بهذه الرّسالة قد أنام الأيام عن محاربته وأغفلها عن الكيد له.
(٤) البرقة والبرقاء: أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل، وجمعها بُراق وبراق بكسر الباء، وفي معجم البلدان ١/ ٥٧٩ ط جوتنجن أنّ برقه ثهمد لبني دارم وذكر في ج ١/ ٩٤٢ في الكلام على ثهمد أنه جبلٌ أحمر حوله أبارق كثيرة في ديار غني، وقيل: في ديار بني عامر، وقد أشار الكاتب بهذه العبارة إلى قول طرفة بن العبد في معلقته:

لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(انظر ديوان طرفة ص ١٩، دار صادر).
(٥) يُغلّ: يمسك، ويقيّد.
(٦) فك الربقة: فرّج الكربة، والرّبقة من الرّبق: وهو حبلٌ فيه عدّة عُرى.
(٧) القطّ: القطع عامة.
(٨) أرضت أرضها: أمطرتها وأصلحتها وأرض المرعى: كثر عشبه.
(٩) يقال: عصفرت الثوب، أي صبغته بالعصفر، وهو نبات سلافته الجريال، وبذره القرطم، وهو ريفيّ وبريّ، وكلاهما ينبت بأرض العرب.
(١٠) خلّقه: طلاه بالخلوق، وهو طيب يتخذ من الزعفران وغيره.
(١١) وأحلّه: أي وأحلّ المملوك، يريد الدعاء لنفسه بأن ينزله الله في جانب السعادة، أي جانب=

ومن آخر: ورد كتابُه ووقفتُ على ما أودَعه مِن فضلِ خطٍّ وفصلِ خِطاب، وعقائِل[١] عقولِ ما كنا لها من الأكفاء وإن كنا مِن الخُطَّاب، وآثار أقلامٍ تُناضِل عن المِلّة نضالَ النِّصال، وكأنها فضلُ سبقٍ[٢] لما تحُوزه مِن حقِّ السّبقِ وخَصْلِ[٣] الخصال؛ فأُعيذَ الإسلام مِن عَدَمِه، ولا عَدِمَ بَسطةَ قلمِه، وثبوتَ قدمِه؛ فإنه الآن عينُ الآثار، وأثرُ الأعيان وخاطِرُ الحِفظِ إلا أنّ الخطوب تَصحب فيه خواطرَ النِّسيان؛ ولَيِّنٌ ٱهتَصَر الدهرَ[٤] سَطْوًا، وٱختَصر[٥] خطْوًا؛ وإنه سيفٌ يمانٍ إن قَدُم عهدًا، فقد حَسُن فِرِندًا[٦]، وخشن حدًّا؛ وأجرَى نهرًا، وأورَى شررًا؛ وٱخضرّ خميلَه، وقَطَع الأيّامَ جميلَه؛ وضارَب الأيّامَ فأَجفَلتْ[٧] عن مضاربه ضرائبُها[٨]، وشَرَدَتْ عن عزمه غرائبُها[٩]؛ ولبِسَها حتى أنَهجتْ[١٠] بَواليًا، ثم ٱختار منها أيامًا وأبى أن يلبسها لياليًا؛ لا جرم أن صحيفَته البيضاءَ شعارُ شِعرِه، وروضةَ علمه الغنّاء قد جلت أنوارَ نَورِه، وزواهرَ زهرِه؛ فالزمانُ لا يعدو عليه بزَمانةٍ تعدُو، ولا يَتجاوز أوقاتَه إلّا مَوسُومَةً بمحاسنه ولا يعدو؛ حتى يَمُتَّ إليه عدوٌّ يَلتفِت[١١] أمس، ويَروِيَ اليومَ أنّ قرابتَه مِن فضلِه أَمَسّ؛ واللهُ يعلم أنّني لأَرَى له ولا أَرَى فيه، وأَسُدّ عنه كلَّ خَرْقٍ تعجز عنه يدُ رافِيه[١٢]؛ ضنًّا بالصدور أن تخلوَ من صدرٍ كقلبِها، ومحاماةً عن حقوقِ تَقدِمتِه التي أَوجبَها أن تُعارَض بسَلْبِها.

ومن آخر: وصل كتابُ الحضرة فجعَل مستقَرُّه النِّعمةَ في الصدور، وأخرجتْني ظلماتُ خطِّه إلى نور السرور؛ ووقفتُ وكأنّي واقف على طللٍ[١٣] من الأحبّةِ قد بكَى عليه السحابُ بِطَلِّه[١٤]، وٱبتَسَم له الروضُ عن أخبار أهلِه وآثارِ منهلِه؛ فلم أزل

= المكتوب إليه.

(١) العقائل: يريد بها كريم القول ونفيسه، والعقيلة: السيّدة الكريمة المتخدّرة.

(٢) المراد السبق إلى الإسلام الذي كان من مفاخر بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، كعليّ بن أبي طالب وأبي بكر وغيرهما.

(٣) الخصل: الخطر الذي يتراهن عليه في الرمي، والخصال: المراهنة في الرمي.

(٤) اهتصر الدهر: جذبه وأماله وشذبه وسوّاه.

(٥) اختصر خطوًا: كناية عن الوثب، لأن الواثب يقل الخطو إلى غايته.

(٦) فرند السيف: جوهره.

(٧) أجفلت: نفرت وأسرعت في الهرب.

(٨) الضرائب: مفردها: الضريبة.

(٩) الغرائب: مفردها الغريبة.

(١٠) أنهجت: أخذت في البلى.

(١١) يلتفت: ينصرف عنه ويعرض.

(١٢) الرافي: أي الرّقّاء، وهو الذي يصلح خروق الأثواب وغيرها.

(١٣) الطلل: ما يبقى شاخصًا من آثار الديار ونحوها.

(١٤) الطلّ: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

أرشِف مسكَ سطورِه ولَماها[١]، وأنزِّهُ العينَ والقلبَ بين حسنِها وجَناها؛ وأُطلِقُ عِنانَ شوقٍ جَعَلتُ الأقلامَ له لُجُمًا، وحسِبتُ النِّقْسَ ليلًا، والكتابَ طيفًا، والوقوفَ عليه حُلُمًا؛ إلى أن قضت النفوسُ وَطَرًا، وحَمَلتْ الخواطرُ خطرًا، وقرنت بما ظنّه سحابًا ما ظنّه مطرًا؛ هذا على أنه قريبُ العهد بيدِ النَّعماء، فإن هَرَبَ فمن ماءٍ إلى ماء.

ومن آخر: فلمّا وقف على الكتابِ جَدَّدَ العهدَ بلَثمِه ما لَم يصِلْ إلى اليد التي بعثَتْه، وشَفَى القلبَ بضمِّه عوضًا عن الجوانح[٢] التي نفثَتْه: [من المتقارب]

وأيــن الـمـطـامـعُ مِــن وصـلِه ولــكــن أعــلِّلُ قــلـبًـا عـلـيـلا

ومن آخر: وصلَ كتابُه، وكان من لقائه طيفًا إلا أنه أَنِسَ بالضُّحى، وأثار حربَ الشوقِ وكان قطبَ الرّحى[٣]: [من الطويل]

تَخطّى إليّ الهولَ والقفرُ دونه وأخطارُه لا أَصغَرَ اللهُ مَمشاه[٤]

ومن كلامه رحمه الله يصف بلاغة كتابٍ، قال: كتابٌ إلى نحري[٥] ضممتُه، وذَكرتُ به الزمنَ الذي ما ذممتُه، وأَكبَرتُ قدرَه فحين تسلّمتُه ٱستَلمتُه وٱلتَقطتُ زَهْرَهُ فحين لَمَحتُه ٱستملحتُه، وامتَزج بأجزاء نفْسي فحين لحظتُه حفِظتُه؛ وجمعتُ بينه وبين مستَقرِّه مِن صدْري، وٱستطلتُ به مع قِصرِه على حادثات دهري، وجعلتُ سِحره بين سَحْري[٦] ونَحرِي، وٱستضأتُ به ورَشَفتُه فهو نهاري وهو نَهري؛ فإن أردتُ العِطرَ بلا أثرٍ أَمسكتُ مِسكَه بيدي، وإن أردتُ السكرَ بلا إثم أدرتُ كأسَه في خَلَدي[٧]؛ فللّه أناملُ رَقَمْته، ما أَشرفَ آثارَها! وخواطرُ أَمْلَتْه، مّا أَشرقَ أنوارَها! ولم أزل متنقلًا منه بين روضةٍ فيها غدير، وليلةٍ فيها سمير؛ وإمارةٍ لها سرير، ومَسَرّةٍ أنا لها طليقٌ أسير، ونعمةٍ أنا لها عبدٌ بل بها أمير؛ حتى أَدبرتْ عني جيوشُ الأسى مفلولة[٨]، وقَصُرتْ عَنّي يدُ الهمّ مغلولة، ومُلئتْ منّي مسامعُ المكارم حمدًا،

---

(١) اللمى: السمرة، أو السواد.
(٢) الجوانح: مفردها، الجانحة، وهي الضلع القصيرة مما يلي الصدر.
(٣) الرّحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر، ويدار الأعلى على قطب.
(٤) أصغر ممشاه: أي ألحق به الصّغار، وهو الذلّة والخضوع والمهانة.
(٥) النحر: أعلى الصدر.
(٦) السحر: بفتح السين وسكون الحاء المهملة وفتحها: الرئة، أراد ما يحاذيها من الصدر.
(٧) الخلد: بفتح الخاء واللام: البال والنفس. (٨) المفلولة: المنهزمة.

وخواطرُ الصنائع ودًا؛ وحَطَّ الأملُ بربعي رحلَه، وأنبَتَ الربيعُ بفِنائي بَقْلَه، ولبِسْتُ من الإقبال أشرَفَ خلعه، ووردتُ من القبول أَغزَرَ شرْعه، وانتجعتُ[١] من رياض الرجاء أرجى نُجْعه.

وقال أيضًا من آخر: هذا مِن عفوِ الخواطر، فكيف إذا استَدعَى المجلسُ خَطِّيّةً[٢] خَطِّه فجاءت تَعسِل[٣]، وحَشَدَ حُشودَ بلاغته فأتت من كل حَدَبٍ[٤] تَنسِل[٥]!.

ومن آخر: ورَتَعَ في رياض بلاغته التي لم يقتطفهنّ مِن قبلِه غارس ولا جان، وٱجتَلى الحورَ المقصوراتِ في الطروس[٦] التي لم يَطْمِثهنّ[٧] إنسٌ قَبلَه ولا جانّ؛ وغَنِيَ بتلك المحاسن غنًى خيرًا مِن المال، واعتَقَد[٨] فيها كنوزًا إذا شاء أنفق منها الجُمل، وإذا شاء أَمسَكَ منها الجمال.

وقال أيضًا: كتابٌ ٱشتَمَل على بديع المعاني وباهِرها، وزَخَرتْ بحارُ الفضل إلا أنني ما تعبتُ في ٱستخراج جواهِرها؛ بل سبَحتْ حتى تناولتُها، وجَنحتْ إليّ فما حاولتُها؛ وٱقتبستُ مِن محاسنِ أوصافِه، وبدائعِ أصنافِه؛ نكتًا[٩] ٱستقَلّتْ أجسادُها بالأرواح، وزُهِيَتْ جيادُها بما فيها من الغرر والأوضاح؛ فيالله مِن بدائعَ وروائع، ولطائفَ وطرائف! فيها ما تَشتهِي الأنفسُ وتَلَذُّ الأعين، وما يقرّط[١٠] الأسماعَ ويقرّط[١١] الألسُن؛ فكأنه قطر قطر صَوبُه مِدرار، وعَلَمٌ[١٢] عِلْم منصوبٌ في رأسه نار؛ صَحّح السحر وإن كان ظَنّا، وفضح الدّرَّ إذ كان أبرعَ معنى، وأَسنَى حُسنًا،

---

(١) انتجع: ذهب لطلب الكلأ.

(٢) الخطية: رماح تنسب إلى الخطّ، وهو مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه لأنها تحمل إليه من الهند فتباع به.

(٣) عسل الرمح عسلًا: اشتدّ اهتزازه واضطرب.

(٤) الحدب: بفتح الحاء والدال: الغلظ المرتفع من الأرض.

(٥) تنسل: تسرع

(٦) الطروس: مفردها الطرس، وهي الصحيفة.

(٧) يطمثهنّ: يفتضّهنّ.

(٨) اعتقد: أحرز واقتنى.

(٩) نُكَتٌ: مفردها: نكتة، وهي الفكرة اللطيفة المؤثرة بالنفس.

(١٠) يقرط الأسماع: أي يحلي بها الأسماع، كما تتحلى الآذان بالأقراط، وهو جمع قرط، وهو ما يعلق من الحلى في شحمة الأذن.

(١١) يقرط الألسن: من التقريط، وهو التقطيع؛ أو هو من تقريط الفرس، أي إلجامه.

(١٢) العلم: الجبل: يشير إلى قول الخنساء:

وإنّ صخرًا لتأتمُّ الهُداة به ... كأنّه علم في رأسه نار

(انظر ديوان الخنساء ص ٤٩، دار صادر).

وأدنى مجْنى، وأغنَى مَغْنى؛ فما ضره تأخيرِ زمانِه، مع تقدُّمِ بيانِه؛ ولا مَن سبَقَه في عصرِه، مع أنه قد سَبق في شعرِه.

ومن آخر: ولله هو من كتابٍ لَمّا وقفَتْ عليه الغُلّةُ شَفاها، ورأيت وِرْدَها كلَّ ماءٍ غيرِه سَفاها(١)، ووطّأ مضاجعَ أُنسِها بعد أن كان الشوقُ يُقلّب الجنوبَ على سَفاها(٢)؛ فلا عدم ودّها الذي به عن كلّ مودّةٍ سُلوة، ولا برحت كفايةُ ٱلله تُحِلّها في الذُّرا(٣) وتُعلِي قدرَها في الذُّروة، ولا فقد مما يُنعِم به أيَّ نعمة، ولا مما يُنشيه أيَّ نشوة.

ومن آخر: كتابٌ كريمٌ تبَسَّم إليّ ضاحكًا، وظُنَّ مدادُه أنه قد جلا سَطرُه عليّ حالكًا؛ فما هو إلّا سوادُ الحدقة منه ٱنبعثَت الأنوار، وما هو إلا سُويداءُ(٤) ليلة الوصل ٱشتَملتْ على دجًى تحته نهار، فللّه هو مِن كتابٍ ٱستَغفر الدهرُ ذنبَ المشيب بسوادِه، واستَدرك الزمانُ غلطَه بسدادِه.

ومن آخر: كتابٌ تقارعَت(٥) الجوارحُ عليه فكادت تَتَساهم، فقالت اليدُ: أنا أولى به، شَددَتُ على مولاه ومولاي عَقدَ خِنصَرِي، ورفعتُ ٱسمَه فوق منبري: وقبضتُ عليه قبضتي، وبسطتُ في بسطِ راحتِه وقت الدُّعاء راحتي؛ وقالت العين: أنا أولى به، أنا وعاءُ شخصِه، وإليّ يرجع القلبُ في تمثيلِه ونصِّه؛ وأنا سهرتُ بعد رحيلِه وخشَة، وأنا إذا ذَكَا هجيرُ القلبِ عَلَلتُه(٦) رشّةً بعد رشّة؛ فقال القلب: طمعتما في حقّي لأني غائب، وهل أنتِ لي يا يدُ إلّا خادم؟ وهل أنتِ لي يا عينُ إلا حاجب؟ أنا مستقرُّه ومستودَعُه، ومَرتَعُه ومَشْرَعُه، وأنا أذكُرُه وبه أَذكُرُكما، وأُحضِرُه ولخدْمتِه أُحضِرُكما؛ فاليدُ أستخدمُها مَرّةً في الكتابة إليه، ومرّة في شدِّ الخِنصِرِ عليه؛ ومَرّةً في الإشارة إلى فضلِه، ومَرّةً في الدعاءِ بكلِّ صالحٍ هو مِن أهلِه؛ والعينُ ٱستخدمتها في ملاحظةِ وجهه آئبًا(٧)، وفي تَوقُّع لقائه غائبًا؛ وفي السهدِ(٨) شوقًا إلى قربِه، والمطالَعةِ لما يَخرُج أمري بكَتْبِه مِن كُتُبِه؛ فهنالك سَلّمتا وٱستَجرّتا(٩)، وأَلقتا

(١) السفاه: الجهل. (٢) السفا: الشوك.
(٣) الذّرا، يقال: إنه لكريم الذّرا: أي كريم الطبيعة، والذّرا: الملجأ والسّتر.
(٤) السويداء: تصغير السوداء. (٥) تقارعت: تقارع القوم: ضربوا القرعة.
(٦) عللته من العلل، وهو الشرب الثاني. (٧) آئبًا: عائدًا، راجعًا.
(٨) السهد: الأرق.
(٩) استجرتا: انقادتا؛ يريد أنهما وافقتاه على دعواه.

واَستأخرتا؛ وكدتُ أَرشِف نِقسه[١] لأنقلَه إلى سُويداه، لولا أنّ سواد العين قال: أنا أَحْوَج إلى الاستمدادِ من هُداه.

ومن كلامه رحمه الله تعالى ما رُكّب نصف قرائنه على نصف بيت نحو قوله: [من الطويل]

وَصَلَ كـتـابُ مـولاي بـعـدمـا: «أصات[٢] المنادي للصّلاة فأعتما»

فلمّا اَستَقرّ لديّ، «تَجلّى الذي من جانب البدر أَظلَما» فقرأتُه، «بعينٍ إذا استَمطَرتُها أمطرتْ دمًا» وساءلتُه، «فساءلتُ مصروفًا عن النطقِ أَعجَمًا»[٣] ولَم يردَّ جوابًا، «وماذا عليه لو أجاب المتيّما» وردّدتُه قراءة، «فعوجلتُ دون الحلمِ أن أتحلّما» وحفِظتُه، «كما يحفظ الحرُّ الحديثَ المكتَّما» وكرّرتُه، «فمن حيثما واجهتُه قد تبسّما» وقبّلتُه، «فقبّلتُ درًّا في العقود منظّما» وقمتُ له، «فكنتُ بمفروض المحبّة قيّمًا» وأخلصتُ لكاتبِه، «وليس على حكم الحوادث محكِمًا»[٤] ولَم أصدّفْه[٥]، «ولكنّه قد خالط اللحم والدما» وأرّختُ وُصولَه، «فكان لأيام المواسم موسمًا» وداويتُ عليلَ «حَشًا ضَرّما فيه من النار ضُرّما» وشفَيتُ غليلَ «فؤادٍ أُمنّيه وقد بلغ الظما» فأما تلك الأيام التي «حماها من اللوم المُقامُ على الحمى» والليالي العذابُ التي «ملأن نحور الليل بِيضًا[٦] وأنجمًا» [فإنّي لأذكُرها، «بصبرٍ كما قد صُرّمتْ قد تَصَرّما»][٧] وأُرسِل الزفرة «فلو صافحت رَضوَى[٨] لَرُضّ[٩] وهُدّما» وأرسل العبرة، «كما أنشأ الأُفق السحابَ المديّما»[١٠] وأخطب السَلوة، «فأسأل

(١) النقس: بالكسر المداد.

(٢) أصات: نادى وهو من الصّوت.

(٣) الأعجم: الأخرس.

(٤) ارتباط هذا الشّطر الشعري بما قبله من النثر غير ظاهر، ولعلّه يريد: «ولست على حكم الحوادث محكمًا» أي أنّني لا أملك ردّ الحوادث التي تعوقني من أن أكتب إليه بما عندي له من الشوق، فيكون بذلك الارتباط واضحًا...

(٥) لم أصدّفه: أي لم أغشّه بالصَّدَف، كما يُغشّى الدرّ، وفي صبح الأعشى ١/ ٣٢٥ دار الكتب العلمية «ولم أصدّقه».

(٦) البيض: جمع أبيض، ومن معانيه الرّجل النقي العرض، والظاهر أنّ هذا هو المراد، فهو يريد أن يصف خلانه وجلساءه بنقاء أعراضهم من الدّنس والعيب، وأنّهم كالنجوم في علوّ الشرف وبعد المنزلة.

(٧) ما بين قوسين زيادة عن مسالك الأبصار.

(٨) رضوى: جبل بالمدينة. (معجم البلدان ٣/ ٥١).

(٩) رُضّ: من الرّض وهو الدقّ والكسر.

(١٠) أنشأ الأفق السّحاب: أي رفعه، والمديّم: من ديم السّحاب: أي دام مَطره.

معدومًا وأَقفِل[١] معدمًا» فأما الشكرُ فإنما «أفضّ به مسكًا عليك مختّما»[٢] وأقوم منه بفرض «أراني به دون البريّة أَقْوَما» وأوَفّى واجبَ قرض، «وكيف تُوَفّي الأرض قَرْضًا من السما»[٣].

وقال أيضًا: وصل كتابُ الحضرة بعد أن عددتُ الليالي «ليلةً بعد ليلة»[٤] لطلوعِ صَدِيعِه[٥] «وقد عشتُ دهرًا لا أعُدّ الليالي»، وبعد أن انتظرتُ القيظَ[٦] والشتاءَ لِفصلِ ربيعِه «فما للنوى تَرمى بليلي المراميا»! وٱستروحتُ إلى نسيم سَحَرِه، «إذا الصيفُ أَلقَى في الديار المراسيا»[٧] ومددتُ يدي لاقتطاف ثَمَرِه، «فللّه ما أَحلَى وأَحمَى المجانيا!»[٨] ووقفتُ على شكواه مِن زمانِه، «فبتُّ لشكواه من الدهر شاكيًا» وعجبتُ لعمى الحظِّ عن مكانِه «وقد جمع الرحمٰن فيه المعانيا» وتَوقّعتُ له دولةً يعلو بها الفضل «إذا هزّ مِن تلك اليراعِ عَواليا»[٩] ورتبةً يَرتقِي صهوتَها بحكم العدل «فرُبّ مَراق[١٠] يُعتدَدن مَهاويا» وإلى الله أرغب في إطلاع سعودِه، «زواهرَ في أفق المعالي زواهيا» وفي إنهاض عثَراتِ جدودِه، «فقد أعثرتْ بَعدَ النهوض المعاليا».

وقال أيضًا:

وَصلَ من الحضرة: [من الطويل]

كتابٌ به ماءُ الحياةِ ونَقعةُ الـ ـظما فكأنّي إذ ظفِرتُ به الخِضْرُ

ووَقَفَ عبدُها منه على:

عقودٍ هي الدرُّ الذي أنت بحرُه وذلك ما لا يَدَّعِي مِثلَه البحرُ

---

(١) في (صبح الأعشى ١/٣٢٦) (فأسأل معدومًا وآمل معدمًا) وأقفل: من القفول: وهو الرجوع.
(٢) في (صبح الأعشى ١/٣٢٦) «عليه مختما» وأفضّ: من فضّ أي نزع الختام،، والمختّم: الذي غطّي فوهته بطينٍ أو شمع أو غيرهما حتى لا يدخله أو يخرج من شيء.
(٣) في (صبح الأعشى ١/٣٢٦) «فرضًا من السّما».
(٤) (التكملة من صبح الأعشى ١/٣٢٧). (٥) الصّديع: الصبح.
(٦) القيظ: الحرّ وصميم الصّيف.
(٧) المراسي: مفردها المرسى وهو محطّ السفينة بالسّاحل.
(٨) وأحمى المجانيا: وصف مجانيها بالصّيانة وأنّها ممنّعة غير مبتذلة.
(٩) اليراع: القصب، والعوالي: الرّماح، يريد أنّه قد هزّ من اليراع ما هو مستخدمٌ في صناعة الرّماح.
(١٠) المراقي: مفردها المرقاة، وهي ما يرقى به إلى العُلا... فالجود مثلًا مرقاة الشرف.

ورَتَعتُ منه في:

رياضِ يدٍ تُجْنَى وعَينٍ وخاطرٍ تَسابَق فيها النَّورُ والزهرُ والثُّمْرُ[(١)]

وكرَعتُ منه في حياضٍ:

تَسرُّ مَجانيها إذا ما جنى الظما وتُروِي مَجاريها إذا بَخِل القَطرُ[(٢)]

وما زلتُ منه أنشد:

كأنّيَ سارٍ في سَريرة ليلةٍ فلمّا بدا كبّرتُ إذ طلع الفجرُ[(٣)]

ووافَى على ما كنتُ أعهد:

فخلتُ بأنّ العين مِن سُحْبِ كفِّه فمِن ذي ومِن ذي فيه يَنتثِر الدرُّ[(٤)]

وأسترجع فائتَ الدنيا من مَوردِه:

وما كان عندي بعد ذنبِ فراقِه بأنّي أرَى يومًا به يَعِد الدهرُ

ونفّس عن النفسِ بأبيض ثِمادِه[(٥)]، وعن العين بأَسْوَدِ إثْمِدِه:

به لهما سبحٌ طويلٌ فهذه على خاطرٍ بَردٌ وفي خَطَرٍ بدرُ[(٦)]

وجَدَّدَ إليه أشواقًا جديدُها:

يمرّ به ثوب الجديدين دائمًا فيبلى ولا تَبلَى وإن بَلِيَ الدهرُ[(٧)]

وذَكّر أيامًا لا يزال يستعيدها:

وهيهات أن يأتي من الدهر فائتٌ فدع عنك هذا الأمرَ قد قُضِيَ الأمرُ[(٨)]

وكلامُ القاضي الفاضي ـ رحمه الله ـ كثيرٌ، بأيدي الناس منه عدّةُ مجلّدات، أَخبرَني من أثق بقوله من القضاة الحكام الأعيان أنه يزيد على خمسين

(١) الثمر: جمع ثمار بكسر الثاء، وهذا الجمع يجوز فيه كسر عينه وضمّها.

(٢) القطر: المطر.

(٣) السّريرة: التي تسرُّ من الظلمة أي تخفي، والسّرار: حين يكون القمر في المحاق.

(٤) العين: نبعُ الماء، وفي (صبح الأعشى ١/ ٣٢٤)، «فمن ذا ومن ذا فيه...».

(٥) الثماد: الماء القليل.

(٦) السبح: الفراغ والمتسع، والخطر: الأمرُ المخوف.

(٧) الجديدان: الليل والنهار.

(٨) هيهات: اسم فعل بمعنى «بعُد».

مجلّدًا قد جُمِعتْ، أما ما لم يجمعه الناس فكثير جدًا؛ وقد نَقل بعضُ مَن أَرّخ، أنه وجد للقاضي الفاضل مسوَّداتِ كتب صدرتْ[١] عنه وأجْوِبةٍ تزيد إذا جُمِعتْ على مائة مجلّد، ولا يحتمل الحال أن نورد له أكثرَ مما أوردناه، ورسائلُه المختارةُ كثيرةٌ قد يكون فيها أجودُ مما اخترناه ونحوه، وإنما أوردناه له ما حضر في هذا الوقت، إذ لم يمكن البحث عن كلامه والاستقصاء، وإن كان كلُّ رسائله مختارةً رحمه الله.

ذكر شيء من رسائل الشيخ الإمام الفاضل ضياء الدين أبي العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العابد القدوة أبي عبد الله محمدِ بنِ عمرَ بنِ يوسفَ بنِ عمرَ بنِ عبد المنعم الأنصاريِّ القرطبيِّ رحمه الله

ـ وكانت وفاتُه بقِنا[٢] من أعمال قوص[٣] في سنة اثنتين وسبعين وستمائة ـ.

كتب إلى شيخنا الإمام العلّامةِ تقيِّ الدين محمد ابنِ الشيخ الإمام الحَبرِ مجدِ الدين أبي الحسن عليّ بنِ وهب بنِ مطيع القُشيريِّ المعروفِ بابن دقيقِ[٤] العيد رحمهم الله تعالى: تخدِم المجلس العاليَ صفاتٌ يقِف الفضلُ عندَها، ويَقْفُو[٥] الشرفُ مجدَها، وتَلتزِم المعالي حمدَها؛ وسِماتٌ يبتسم ثغرُ الرياسة منها، وتُروَى أحاديثُ السيادة عنها؛ الصدريّ الرئيسيّ المفيديّ؛ معانٍ اَستحقّها بالتمييز، واستَوجبها بالتبريز، وسَبَكتْه الإمامةُ لها فألْفتْه خالصَ الإبريز[٦]؛ ومعالٍ أقرّتْه في سويدائها، وأطلعتْه في سمائها، وألبستْه أَفْضلَ صفاتِها وأَشْرفَ أسمائها؛ العلّاميّ الفاضليّ التقَويّ؛ نسبٌ اَختص به اَختصاصَ التشريف، لا تعريفًا له فالشمس تستغني عن التعريف؛ لا زالت إمامتُه كافلةً بصون الشرائع، واردةً من دين الله وكفالةِ أمّةِ رسول الله

---

(١) صدرت عنه: نشأت.

(٢) قِنا: مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد، وقِنا: كلمة قبطية. (انظر معجم البلدان ٤/ ٣٩٩).

(٣) قوص: كلمة قبطية، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر، وأهلها أرباب ثروة واسعة، شديدة الحرّ، وهي محطّ التجار القادمين من عدن. (معجم البلدان ٤/ ٤١٣).

(٤) ابن دقيق العيد: هو محمد بن عليّ بن وهب بن مطيع، قاضٍ من أكابر العلماء بالأصول نشأ بقوص وتعلّم بالإسكندرية ثم بالقاهرة، ولي قضاء الدّيار المصرية إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٧٠٢هـ له تصانيف كثيرة. (انظر الأعلام ٦/ ٢٨٣).

(٥) يقفو: يتبع.

(٦) الإبريز: الذهب الخالص.

أَشْرفَ الموارد وأَعْذبَ الشرائع[١]، آخذةً بآفاق سماء الشرف فلها قَمَراها والنجومُ الطَّوالع[٢]، قاطعةً أطماع الآمال عن إدراك فضلِه وما زالت تُقطِّع أعناقَ الرجال المطامع[٣]، صارفةً عن جلاله مَكارهَ الأيام صرفًا لا تَعتَوِرُه القواطع، ولا تعترضه الموانع؛ ويُنهِي ورودَ عذرائه التي «لها الشمسُ خِدْنٌ[٤] والنجومُ ولائدُ» وحسنائه التي «لها الدرُّ لفظٌ والدَّراري[٥] قلائدُ» ومشرَّفتِه التي «لها من براهين البيان شواهدُ» وكريمتِه التي «لها الفضلُ وِردٌ والمعالي موائدُ» ووديعتِه التي «لها بين أحشائي وقلبي مَعاهدُ»: [من الطويل]

وآيتِه الكبرى التي دلّ فضلُها ... على أنّ من لَم يشهِد ٱلفضل جاحدُ
وأنّك سيفٌ سلّه الله للهدى ... وليس لسيفٍ سلّه الله غامدُ

فلِمِثلِها يحسُن صَوغُ السوار، ولِفضلِها يقال: «أناةً أيها الفَلَكُ المُدار» وإنها في العِلم أصلُ فرعٍ نابت، والأصل علّةُ النشأة والقرار، وفرعُ أصلٍ ثابت، والفرعُ فيه الورقُ والثمار؛ هذه التي وَقفَتْ قرائحُ الفضلاء على استحسانِها، وأوقفَتْني على قدم التعبُّدِ لإحسانِها، وأيقنتُ أنّ مفترِقَ الفضائل مُجتمِعٌ في إنسانِها، وكنتُ أعلم عِلمَها بالأحكام الشرعية فإذا هي في النثر ٱبنُ مقفَعِها[٦]، وفي القصائد أخو حسّانِها[٧]؛ هذه وأبيك أمُّ الرسائل المبتكَرة، وبنتُ الأفكار التي هذّبتها الآدابُ فهي في سهل الإيجاز البَرْزةُ[٨] وفي صَونِ الإعجاز المخدَّرة، والمليئةُ ببدائع البدائة، فمتى تقاضاها متقاضٍ لَم تقُلْ: «فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ»؛ والبديعةُ التي لم تُوجِّه إليها الآمالُ فكرَها لاستحالةِ غيرِ مسبوقٍ بالشعور، ولَم تسمُ إليها مقلُ الخواطر لعدَمِ الإحاطة بغيبِ الصدور قَبْلَ

---

(١) الشّرائع: مفردها الشّريعة وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، والعرب لا تسمّيها شريعة حتى يكون الماء، عدًّا لا انقطاع له، ويكون ظاهرًا معينًا لا يسقى بالرّشاء.

(٢) إشارة بهذه العبارة إلى قول جرير:

أخذنا بآفاق السّما عليكمو ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

(٣) أشار بهذه العبارة إلى قول البعيث المجاشعي:

طمعت بليلى أن تريع وإنّما ... تقطّع أعناق الرّجال المطامع

(٤) الخدن: الصّديق أو الصّديق في السرّ.

(٥) الدّراري: الكواكب العظام التي لا تعرف أسماؤها.

(٦) أي عبد الله بن المقفع الأديب العباسي صاحب كتاب كليلة ودمنة.

(٧) حسّانها: أي حسّان بن ثابت شاعر الرسول.

(٨) البرزة: البارزة المحاسن.

الصدور، والبديهةُ التي فَصَّل البيانُ كلماتِها تفصيلَ الدرر بالشذور[١]؛ إنّ كَلِمَها لَيمِيس[٢] في صدورها وأَعجازِها، ويختال في طورها وإعجازِها، وتنثال[٣] عليها أغراض المعاني بين إسهابِها وإيجازهها؛ فهي فرائدُ ٱئتلفَتْ من أفكار الوائليّ والإياديّ، وقلائدُ ٱنتظمَتْ ٱنتظامَ الدراريّ، ولطائمُ[٤] فُضّتْ عن العنبر الشِّحْرِيّ[٥] والمسكِ الداريّ[٦]؛ لا جرم أن غوّاصِي الفضائل ظلوا في غمراتها[٧] خائِضين، وفُرسانَ الكلام أضحَوا في حَلَباتها راكِضين، وأبناءَ البيان تُلِيَتْ عليهم آياتُها: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٤]: [من الكامل]

ما إنْ لها في الفضل مِثلٌ كائنٌ ... وبيانُها أحلى البيانِ وأَمثَلُ
فالعجزُ عنها مَعْجِزٌ متيقَّنٌ ... ونبيُّها بالفضل فينا مرسَلُ[٨]
ما ذاك إلا أنّ ما يأتي به ... وحيُ الكلام على البراعة ينزلُ[٩]

بزَغَتْ شمسًا لا تَرضَى غيرَ صدرِه فَلَكًا، وانقادت معانيها طاعةً لا تختار سواه مَلِكًا، وانتَبَذَتْ[١٠] بالعراء فلا تخشى إدراكَ الإنكار ولا تخاف دَرَكًا، ونَدَّت[١١] شواردُها فلا تقتنصها الخواطرُ ولو نصبَتْ هُدْبَ الجفون شَرَكا: [من البسيط]

فلِلأصائلِ في عليائها سَمَرٌ
إن الحديث عن العلياء أَسمارُا[١٢]
وللبصائرِ هادٍ مِن فضائِلِها
يهدي أُولي ٱلفضلِ إن ضلّوا وإن جاروا

(١) الشذور: مفردها: الشذر، خرز يفصل به بين حبات العقد ونحوه.
(٢) يميس: يتبختر ويختال. (٣) تنثال: تتتابع.
(٤) اللطائم: أوعية المسك، واحدتها لطيمة.
(٥) الشحريّ: نسبة إلى الشحر، وهو صقع بساحل بحر الهند من ناحية اليمن، بين عدن وعمان، على حد قول الأصمعي. (معجم البلدان ٣/ ٣٢٧).
(٦) الداريّ: نسبة إلى دارين، وهي فرضة بالبحرين فيها سوق كان يحمل إليها المسك من ناحية الهند. (معجم البلدان ٣/ ٤٣٢).
(٧) الغمرات: مفردها «الغمرة» وهي الشدّة والزّحمة.
(٨) المعجز: مصدر ميمي بمعنى العجز.
(٩) البراعة: واحدة البراع، القلم يتخذ من القصب.
(١٠) انتبذت: تنحت واعتزلت. (١١) ندّت: هامت وشردت.
(١٢) الأسمار: مفردها «سمر» بفتح السين والميم وهو معروف.

بــادِي الإبــانــةِ لا يــخــفــى عــلى أحــد
«كــأنــه عَــلَــمٌ فــي رأســه نــارُ»

أَعْجِب بها من كَلِمٍ جاءت كغمام الظِّلالِ على سماء الأنهار! وسَرتْ كعليل النسيم عن أندِية الأسحار، وجُلِيَتْ محاسنُها كلؤلؤ الطلِّ على خدود الأزهار، وتجلّت كوجنة الحسناء في فَلَك الأزرار، وأهدت نفحةَ الروض متأوِّدَ[١] الغصن بليلَ الإزار، فأحيتنا بذلك النفَسِ المِعطار، وحيّتنا بأحسنَ من كأسَيْ لمًى وعُقار[٢]، وآسَيْ[٣] ريحانٍ وعذار؛ ولؤلؤَى حَبَبٍ وثغر، وعَقِيقَيْ شفةٍ وخمر، وربيعَي زهرٍ ونهر، وبديعَي نظمٍ ونثر؛ ولم أَدْرِ ما هي أثغورُ ولائد؟ أم شذورُ قلائد؛ أم توريدُ خدود، أم هيفُ[٤] قدود؛ أم نهودُ صدور، أم عقودُ نحور؛ أم بدورٌ ائتلفَتْ في أضوائها، أم شموسٌ أشرقت في سمائها؟: [من الطويل]

جَمَعن شتيتَ الحسن مِن كلِّ وجهة   فحَيّرن أفكاري وشَيَّبن مَفرِقي[٥]
وغــازلــهــا قــلــبــي بــودٍّ مــحــقَّــقٍ   وواصلها ذكري بحمدِ مصدَّقِ
ومـا كـنـتُ عَـشّـاقًـا لِذات مـحـاسـنٍ   ولكنّ من يبصرْ جفونك يَعشَقِ
ولـم أدر والألـفـاظُ مـنـهـا شـريـفـةٌ   إلى البدر تسمو أم إلى الشمس ترتقِي

إنما هي جملةُ إحسان يُلْقِي اللهُ الرُّوحَ مِن أمرِه على قلبِها، أو روضةُ بيان «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»؛ أو ذاتُ فضلٍ اشتَمَلتْ على ذواتِ الفضائل، وجنت ثمر العلوم فأَجْنَتْها بالضحى والأصائل[٦]؛ أو نفسٌ زكت في صنيعِها، ونَفَثَ رُوحُ القُدُس في رُوعِها[٧]؛ فسلكَتْ سُبُلَ البيان ذُلُلا، وعدمَتْ مماثِلا فأضحت في أبناء المعالي مَثَلا؛ وسَرَتْ إلى حَوْز الأماني والأنامُ نيام، فوَهب لها واهبُ النعم أشرَفَ الأقسام؛ فجادت في الإنفاق، ولَم تُمسكْ خشيةَ إملاق، وقيّدتْ نفسَها في طَلَق[٨] الطاعة

---

(١) تأود: تعوّج وتثنّى.
(٢) العقار: الخمر، واللّمى: السّمرة المستحبّة في باطن الشّفة السفلى.
(٣) آسَي: مثنّى الآس: وهو نبات ذو ثمار كروية بيضاء وسوداء ورقه عطر، وخضرته دائمة، ويسمّى أيضًا «الرّيحان».
(٤) الهيف: مفردها: أهيف، وهو الدقيق الخصر الضامر البطن.
(٥) المفرق من الرأس: حيث يفرق الشعر، والشتيت: المتباعد المتفرّق.
(٦) الأصائل: مفردها الأصيل.
(٧) الروع: الفزع.
(٨) في طلق الطاعة، أي في قيدها. وأصل الطلق بالتحريك، القيد من جلود.

فجاءها توقيعُ التفضيل على الإطلاق: [من الطويل]

أَبِنْ ليَ مَغزاها أخا الفهم إنّها | إلى الفضل تُعْزَى أم إلى المجد تُنسَبُ
هي الشمسُ إلّا أنّ فكرَك مَشرِقٌ | لإبدائها عندي وصدري مَغرِبُ
وقد أبدعَتْ في فضلها وبديعِها | فجاءت إلينا وهي عنقاءُ مُغْرِبُ(١)
فأعرَب عن كلّ المعاني فصِيحُها | بما عجزَتْ عنه نزارُ ويَعرُبُ
ومذ أشرقَتْ قبل التناهي بأَوْجِها | عفا في سناها بدرُ تمّ وكوكبُ(٢)
تناهت علاءً والشبابُ رداؤها | فما ظنكم بالفضل والرأس أَشيَبُ
لئن كان ثغري بالفصاحة باسمًا | فثغرك بسّام الفصاحة أَشنبُ(٣)
وإن ناسبَتْني بالمجاز بلاغةٌ | فأنت إليها بالحقيقة أَنسَبُ
ومذ وَرَدَتْ سمعي وقلبي فإنها | لتُؤكَل حُسْنًا بالضمير وتُشرَبُ
وإني لأَشدو في الورى بثنائها | كما ناح في الغصن الحمامُ المطرّبُ(٤)
وتشهد أبناء البيان إذا ٱنتدَوا | بأنيَ من قسّ الإياديِّ أَخطَبُ(٥)
وإنّي لَتدنيني إلى المجد عصبةٌ | كرامٌ حوتهم أوّلَ الدهر يَثرِبُ
وإنّي إذا خان الزمان وفاءَه | وفيٌّ على الضراء حرٌّ مجرّبُ
إباءٌ أبت نفسي سواه وشيمةٌ | قضى لي بها في المجد أصلٌ مهذّبُ
ونفسٌ أبت إلا اهتزازًا إلى العلا | كما ٱهتزّ يومَ الرّوع رمحٌ ومِقضَبُ(٦)
ولي نسبٌ في الأكرمِين تَعرّفَتْ | إليه المعالي فهو ريّانُ مخصِبُ(٧)
نَمَتْهُ أصول في العلاء أصيلةٌ | لها المجدُ خِدْنٌ والسيادةُ مَركبُ(٨)
تَلاقَى عليه المطعمون تكرّمًا | إذا ٱحمرّ أفقٌ بالمَجَرّة مجدِبُ(٩)

(١) العنقاء المغرب: أي العنقاء التي أغربت في البلاد ونأت ولم تحس ولم تر. والمراد أنّ هذه الرّسالة غريبة في بلاغتها وحسن بيانها، ولا عهد للكتّاب بأمثالها.

(٢) عفا: امّحى.

(٣) الأشنب: الثغر الذي رقت أسنانه وابيضت.

(٤) الورى: الخلق.

(٥) الإيادي، هو قس بن ساعدة الإيادي، رجل يضرب المثل بفصاحته في الخطابة.

(٦) المقضب: السيف القاطع.

(٧) يريد كثرة ما يعدّ فيه من الكرام وأصحاب المفاخر.

(٨) الخدن: الصديق.

(٩) احمرار الأفق: كناية عن الجدب. والمجرّة: البياض المعترض في السماء، والنسران عن جانبيها.

مـن الـيـمـنيّـين الـذيـن سـمـا بـهـم إلى العزّ بيت في المعالي مطنَّبُ[١]
قرَوا تُبّعا بيضَ المواضي ضَحاءَه وكُومَ عِشارٍ بالعشيّات تُضْهَبُ[٢]
فـرحّلَه الـجـودُ الـعـمـيـم ومـنـصُـلٌ له الغمدُ شرقٌ والذوائبُ مَغرِبُ[٣]
وهـم نَـصَـروا والـديـن عـزّ نـصـيـرُه وآوَوا وقد كادت يدُ الدين تُقضَبُ[٤]
وخاضوا غمار الموت في حومة الوغى فعاد نهارًا بالهدى وهو غيهبُ[٥]
أولـئـك قـومـي حـسـبـيَ الله مـثـنـيـا عـلـيـهـم وآيُ الله تُـتـلىٰ وتُـكـتَـبُ

هذه اليتيمة أيدك الله مِلْحتُها الإحماض[٦]، وتحليتُها الألفاظُ في أبعاض الاعتراض لِتَسرحَ مقلُ الخواطر في مختلفات الأنواع، ويتنوّعَ الواردُ على القلوب والأسماع، وإلا فلا تَماثُل في الأدوات، وإن وقع التماثُل في الذوات، كالجمع بين (التُّوريّة في السراج والشمس، وأشتمال الإنسانيّةِ على القلامة[٧] والنفس، والتوارُدِ الإداركيّ بين كلّيٍّ بالعقل، وجزئيٍّ بالحسّ[٨]؛ وكالعناصر في افتقار الذوات إليها، وإن تميّزت الحرارة عليها؛ وكالمشارَكة الحيوانيّة في البضعة اللسانيّة، واختصاص الناطقيّة بالذات الإنسانيّة؛ فسيّدنا ثمرُ الروض ونسيمُه، وسواه ثراه وهشيمُه، وزهرُه وأنداؤه، وغيرُه شوكُه وغُثاؤه؛ والبدرُ وإشراقُه، وسواه هلاليّتُهُ ومُحاقُه[٩]؛ اشتراكٌ في الأشخاص، وامتياز في الخواصّ، ومشابهَة في الأنواع والأجناس، ومغايَرة في العقول

---

(١) المطنّب: المشدود، والطّنب: الحبل تشدّ به الخيمة إلى الوتد.

(٢) قروا: من القرى أي أطعموا، وتُبّع: قيلٌ من أقيال اليمن، وبيض المواضي: السيوف، والضّحاء: أي وقت ضحائه، والضحاء إذا امتدّ النّهار وارتفعت الشمس، والكوم: النّياق العظيمة الأسنمة واحدتها «كوماء» وتضهب: من قولهم ضهبه بالنار: إذا لوّحه وغيره، ولعلّه من ضهّب اللحم بتشديد الهاء: أي قطعه.

(٣) المنصل: السيف، والذّؤابة: علّاقة السيف. (٤) تقضب: تقطع.

(٥) الغيهب: الشديد الظلمة.

(٦) الإحماض: مصدر أحمضَت الإبل: إذا أكلت الحمض، وهو ما ملح وأمرّ من النّبات، وهو كفاكهة الإبل تأكله عند سآمتها من الخلة فهو يريد أن يصف رسالته إذا نسبت لرسالة ابن دقيق العيد بإحماض الإبل بعد أن تسأم أكل الحلو من النبات.

(٧) القلامة: ما يطرح من الظفر.

(٨) أشار في هذه العبارة إلى ما هو معروف في كتب المعقول من أنّ الماهيّات الكلّيّة إنما تدرك بالعقل دون غيره، وذلك لأنها ليس لها وجود في الخارج وأمّا جزئيات هذه الماهيات وأفرادها فإنّها تدرك بالحسّ لوجودها الخارجي.

(٩) المحاق: آخر الشهر القمري، وثلاث ليالٍ من آخر الشهر القمري، أو ما يرى في القمر من نقص بعد اكتماله.

والحواسّ؛ كالورد والشَّقِيق، والقَهرمانِ[١] والعقيق؛ تماثَلَا في الجواهر والأعراض، وتغايرًا في تمييز الأغراض؛ فسيّدنا من كلّ جنسٍ رئيسُه، ومن كلّ جوهرٍ نفيسُه؛ وأما حسناءُ المملوك على مذهبهم في تسمية القبيحِ بالحَسَنِ، والحَسَنِ بالقبيح، والضريرِ بالبصيرِ والأخرسِ بالفصيح؛ فما صَدّت ولا صَدّت يمني[٢] كاسِها. ولا شذّت في مذهب ولائه عن اطّراد قياسِها، ولا زَوَتْ عن وجه جلالتِه وجهَ إيناسِها، ولا جهلَتْ أنه في العلوم الشرعيَّة ابن أنَسِها، وفي المعاني الأدبيّة أبو نواسِها[٣]؛ ولا خفِيَ عنها أن سيّدنا مجرَى اليمين[٤]، وفي وجه السيادة إنسانُ المقلة وغرّةُ الجبين، والدرّةُ في تاج الجلالة والشَّذْرةُ[٥] في العقد الثمين؛ وأنه الصدرُ الذي يَأرِز[٦] العِلمُ إلى صدرِه، وتُقْتَرَحُ[٧] عقائلُ المعاني مِن فكره، وتأتمّ الهداةُ ببدرِه، وتَنتمِي[٨] الهدايةُ إلى سرِّه، وإنّها في الإيمان بمحمديّته أمُّ عمارة[٩] لا أمُّ عمرِه؛ وانّه غاية فخارِها؛ ونهايةُ إيثارِها، وآيةُ نهارِها ومستَوطَنُ إفادتِها بين شموس فضائله وأقمارِها؛ فكيف تَصُدّ وفيه كلّيةُ أغراضِها، ومنه علّيّةُ جملتِها وأبعاضِها، وفي محلّه قامت حقائقُ جواهرها وأعراضِها؛ لكنّها توارت بالحجاب، ولاذت بالاحتجاب؛ وقُربِ بالمجلس الكماليّ ليكمّل ما بها مِن نقصِ كمالٍ وكمالِ عيب، وتَجمعَ بين حقيقتَي إيمان الشهادة والغيب، وتُعرَضَ على الرأي التقويّ سليمةَ الصدر نقيّةَ الجيب، وأَشهَدُ أنها جاءت تمشي على اَستحياءٍ وليست كبنت شعيب[١٠]؛ هذا ولَم تشاهدْ وجهَ حسنائه، ولا

---

(١) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص لتدبير دخله وخرجه.

(٢) أشار بهذه العبارة إلى قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

صددت الكأس عنا أم عمروٍ ... وكان الكأس مجراها اليمينا

(انظر شرح القصائد المشهورات لأبي جعفر النحاس ٢/ ٩١، دار الكتب العلمية).

(٣) أبو نواس: هو الحسن بن هانيء، أديب شاعر، ولد بالأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد، وأجود شعره خمرياته توفي سنة ١٩٨هـ. (الأعلام ٢/ ٢٢٥).

(٤) أراد بمجرى اليمين: أنّه أولى من سواه بالتقديم.

(٥) الشذرة: واحدة الشّذر، وهي قطع من الذّهب تلتقط من معدنه.

(٦) يأرز: يأوي ويلجأ.

(٧) تقترح: تستنبط وتبتدع من غير سبق مثال.

(٨) تنتمي: تنتسب.

(٩) أمّ عمارة: هي نسيبة بنت كعب إحدى نساء بني مازن، شهدت بيعة العقبة، والثانية: هي أسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة. (انظر سيرة ابن هشام ١/ ١٥٥، ط، بولاق).

(١٠) أشار بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القَصَص: الآية ٢٥] .

(١١) يريد السيدة سكينة بنت الحسين بن عليّ عليهما السّلام، كانت سيدة نساء عصرها، نبيلة شاعرة كريمة، كانت إقامتها ووفاتها بالمدينة سنة ١١٧هـ. (الأعلام ٣/ ١٠٦).

عاينَتْ سُكَينةَ[١] حسينِه وهند[٢] أسمائه، ولا قابلَتْ نيّرَ فضلِه وبدرَ سمائه؛ أقسم لقد كان يصرفها الوجل، ويقيّدها الخجل؛ عالمةً أنّ البحر لا يُساجَل، والشمسَ لا تُماثَل؛ والسيفَ لا يُخاشَن، والبدرَ لا يحاسَن؛ والأسدَ لا يُكْعَم[٣]، والطّودَ[٤] لا يُزْحَم؛ والسحابَ لا يبارَى، والسيلَ لا يُجارَى؛ وأنّى تبلُغُ الفَلَكَ هامةُ المتطاوِل، «وأين الثريّا مِن يدِ المتناوِل»؛ تلك عوارفُ آستولت على المعالي آستيلاءَها على المعالم، وشهدَتْ لها الفضائل بالسيادة شهادةَ النبوّة بسيادة قيس بن عاصم[٥]؛ ولا خفاءَ بواضح هذا الصواب، عند مقابلة البداية بالجواب؛ [من الكامل]:

فالشمسُ أَوْضح مِن ضياء الأنجمِ ... ما البيّنُ الأعلَى كداجٍ مظلمِ
يا مُثريًا مِن كلّ علمٍ نافعٍ ... أيقاس مثرٍ في العلوم بمعدمِ
أَوْكَفْتَ فضلَك في رذاذ غمائمي ... ما للرذاذ يدٌ بنَوْء المِرزَمِ[٦]
وانصبّ بحرُك في ربيع خواطري ... ما للربيع وفَيضَ بحرٍ أعظمِ[٧]
وسَللتَ سيف العلم أبيضَ مِخْذَما ... كالبرق يلمع في غمامٍ مُثْجِمِ[٨]
فلّلتَ حدَّيْ مِعضَدِ في راحتي ... ما للكَهام وحدَّ أبيضَ مِخْذَمِ[٩]
يا سابقًا جُهدي مصلّي عفوه ... ما للسُّكَيت يدٌ بعفو مطهَّمِ[١٠]
بذّ السوابقَ في العلوم وحازها ... بالكسب منه والتراث الأعظمِ[١١]

---

(١) هي هند بنت أسماء بنت خارجة، وكان قد تزوّجها الحجّاج بن يوسف بعد بشر بن مروان، وهي من أجمل نساء عصرها وأظرفهنّ. (انظر الأعلام ٨/٩٦).

(٢) يُكعم: يشدُّ على فيه، وهو من كعم البعير: أي شدّ فاهه عند هياجه لئلا يعضّ أو يأكل.

(٣) الطّود: الجبل العظيم الذّاهب صعدًا في الجو.

(٤) أشار بهذه العبارة إلى قوله ﷺ في قيس بن عاصم المنقري: «هذا سيّد أهل الوبر» وقيس أحد أمراء العرب وعقلائهم الموصوفين بالحلم والشجاعة، كان شاعر اشتهر وساد في الجاهلية نزل البصرة آخر أيّامه وروى أحاديث وتوفي بها نحو سنة ٢٠هـ.

(٥) أوكف: يقال وكفت العين الدمع: أي أسالت، (الأعلام ٥/٢٠٦). والمرزم: من أرزم الرّعد إذا اشتدّ صوته.

(٦) الربيع: النهر الصغير.

(٧) المخذم: القاطع، والمثجم: السّريع المطر.

(٨) فلّلت حدي معضد: أي أصاب حدّ السيف شطب وكسور، والمعضد السيف الذي يمتهن في قطع الأشجار، والكهام: السيف الذي لا يقصع، والمخذم: السيف القاطع.

(٩) المصلي من الخيل: الذي يجيء بعد السّابق، سمّي بذلك لأن رأسه يلي صلا المتقدّم، والصلا: منحدر الوركين، والسكيت: العاشر من خيل السّباق، والمطهم: الحسن التام البارع الجمال...

(١٠) بذّ: تفوق وتقدّم.

العلم علمُ محمد وكفى به وعليٌّ البابُ المبلِّغ فاعلَم
ما كنتُ أوّلَ مُحجِم عن مَوردٍ عذُبتْ مواردُه لقَرْنٍ مُجحِمِ[١]
سابقتُ سُبّاقًا شَأوتُ بيانَهم ببديعِ نثرٍ أو بليغِ منظَّمِ[٢]
وسقيتُ بالكأس الكبيرة منهما لما سقوا بالأصغر المتثلِّمِ[٣]
حتى إذا سابقتُه وهو ابنُ بحـ ـر أو أبو بحرٍ إليه يَنتمِي
طارت فضائله إلى عليائها بجناح فَتْخاء ونسرٍ قَشْعَمِ[٤]
وسما به العلم الأجلُّ محلّه حتى تَوَقَّل في المحلّ الأعظمِ[٥]
ومشى حضارًا فانثنيتُ مقصّرًا أتجول خيلي في مَقَرّ الهَيثمِ[٦]
لا عار إن عضِلت بداءة فكرتي بابن المقفّع أو بنجل الأهتمِ[٧]
يا أعلمَ الفضلاء لستُ مقاوِلًا فُصْحَى بناتِك باللسان الأعجمِ[٨]
لو حاولَتْ فِكَري مساواةَ لها يومًا لجاءت بالغراب الأعصمِ[٩]

أَقتصِرُ فلِلبيان في بحر فضائله سَبحٌ طويل، ولِلسعي في غاياته مُعرَّسٌ[١٠] ومَقِيل، ولِلمَحامد ببُثَينة محاسنه صَبابةُ جميل، وإنّي وإن كنتُ كثيِّرَ عَزَّةِ ودِّه، إلا أنّي في حلبة الفضل لستُ مِن فُرسان ذلك الرَّعيل؛ لا سيّما وقد وردتُ مَشرعَ[١١] ألفاظه التي راقت معانيها، ورقّت حواشيها، وأدنَتْ ثمرات الفضل من يمين جانيها؛ فجاءت

---

(١) القرن: السيد من القوم، والمُجحم: إسم فاعل من الإحجام وهو التقدّم.
(٢) شأوت: غلبت. (٣) المتثلّم: المكسور حرفه.
(٤) الفتخاء: العقاب اللينة الجناح والقشعم: المسنّ من النسور.
(٥) توقّل: أي صعّد بتشديد العين، وأصله من التوقل في الجبل: أي التصعيد فيه.
(٦) الحضار: مصدر حاضرُه: أي سابقهُ في العدو، وهو هنا على الاستعارة يريد المسابقة في الفضل، والهيثم: فرخ النسر.
(٧) عضلت: قويت واشتدت، وابن المقفّع: هو عبد الله بن المقفّع الكاتب العبّاسيّ المشهور، صاحب كتاب كليلة ودمنة ونجل الأهتم: هو عمرو بن سنان المنقري، والأهتم هذا: لقب لقبه به أبوه لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوسه فهتم فاه، وقد وفد عمرو والزبرقان بن بدر على رسول الله ﷺ فقال فيه الرسول: «إنّ من البيان لسحرًا» وبنو الأهتم: أهل البيت بلاغة في الجاهلية والإسلام. (انظر زهر الآداب ١/ ٥ ـ ٦ ط، الرحمانية).
(٨) أراد بيناته: أي رسائله.
(٩) الأعصم: الذي في جناحيه ريشة بيضاء، ويقال هذا للشيء الذي يعزُّ وجوده.
(١٠) المعرّس: من التعريس وهو النزول آخر الليل للرّاحة.
(١١) المشرع: مكان ورود الماء للإستقاء.

كالنسيم العليلِ، والشذا من نفحة الأصيل، والشرابِ الباردُ والظلّ الظليل: [من الكامل]

طـبـعٌ تَـدفَّـق رقّـةً وسـلاسـةً ... كالماء عن متن الصفاة يسيلُ[1]
كالمقلة الحسناءِ زان جفونَها ... كَحَلٌ وأخرى زانـهـا التكحيلُ
والروضة الغناء يَحسُن عَرْفُها ... وتزاد حُسنًا والنسيمُ عليلُ[2]
والخاطرُ التقويُّ كَمَّل ذاته ... عِلمًا وليس لكامل تكميلُ[3]

والله تعالى يبقيه جامعًا للعلوم جمع الراحة بنانَها، رافعًا له رفع القناة سنانَها، حافظًا له حفظ العقائد أديانَها، والقلوبِ إيمانَها:

ليُضحِي نديمًا للمعالي كأنّه ... نديما صفاء مالكٌ وعَقِيلُ[4]
ويصبح ظلُّ الفضل من فَيْءِ ظلِّه ... على كَنَف الإسلام وهو ظليلُ
وينشأ أبناءُ العلوم وكلُّهم ... بحسنائه في العاشقِين جميلُ
دَلالته في الفضل من ذات نفسِه ... وليس على شمس النهار دليلُ

وكتب ـ رحمه الله تعالى ـ رسالةً إلى الصاحب شرف الدين الفائزيِّ[5] عندما ورد عليه كتابٌ يذكر أن رسول الخليفة وصَل يلتمس إجابةَ المَلِك المعزّ[6] أوّلِ ملوك الترك إلى صلح المَلِك الناصِر صلاحِ الدين يوسف[7] ـ وقد كان الناس يذكرون أن الملك الناصر يريد أن يَهجُم بعساكره على الديار المصرية، وأنه لا يجيب إلى

---

(١) الصفاة: الحجر العريض الأملس. (٢) العَرف: الرائحة الطيبة.
(٣) التقويّ: يريد تقي الدين ابن دقيق العيد.
(٤) مالك وعقيل: هما نديما جذيمة بن الأبرش، وكان يضرب بهما المثل في طول الاجتماع، وهما اللّذان عناهما متمّم بن نويرة بقوله في رثاء أخيه مالك:
وكنّا كندماني جذيمة حقبةً ... من الدّهر حتى قيل لن يتصدّعا
(انظر زهر الآداب (٣/ ١٦٠).
(٥) شرف الدين الفائزي: هو هبة الله بن صاعد، من وزراء دولة المماليك البحرية، كان في صباه نصرانيًا يلقب بالأسعد، وأسلم وخدم الملك الفائز إبراهيم بن بكر ونسب إليه مات سنة ٦٥٥هـ. (الأعلام ٨/ ٧٢).
(٦) المعزّ: هو عزّ الدين بن أيبك الجاشنكير الصالحي، تولى السلطنة بالديار المصرية سنة ٦٤٨هـ وقتل سنة ٦٥٥هـ. (انظر تاريخ أبي الفداء ٣/ ١٩١ ـ ٢٠٠ ط، الأستانة).
(٧) هو الملك الناصر يوسف، صاحب حلب، قتله هولاكو سنة ٦٥٩هـ. (انظر تاريخ أبي الفدا ٣/ ٢٢٠، ٢٢١).

الصلح، فلما جاء الرسول بذلك ظهر للناس خلافُ ما ظنّوه ـ: [من الطويل]

لأمـرِكَ أمـرُ الله بـالـنـجـح عـاضـدُ ... فَصُلْ آمِرًا فـالـدهـر سيفٌ وساعـدُ
وقُلْ ما ٱقتضت علياك فالعزّ قائمٌ ... بـأمـرِك والـمـجـد الـمـؤثَّـل قـاعـدُ[1]
وَنَـمْ وداعًـا فـالـجَـدُّ يـقـظـانُ حـارس ... لـمـجـدك والـعـادِي لـبـأسك راقدُ[2]
فـمـا تُـبـرِمِ الأيّـامُ مـا ٱلله نـاقـضٌ ... ولا تـنـقـض الأيّـامُ مـا ٱلله عـاقـدُ
وقـد بَـرزتْ بـكـر الـمـكـارم والـعـلا ... وفـي جـيـدهـا مـن راحـتـيـك قـلائـدُ
فـحَـفَّـت بـهـا الأمـلاكُ وهـي مـواهـب ... وسـارت بـهـا الرّكـبـان وهـي مـحـامـدُ
وزُفَّـتْ لـهـا الـنـعـمـاءُ وهـي مـصـادرٌ ... رفـعـنـا لـهـا الأمـداح وهـي مـواردُ[3]
فـنـثَّـرهـا الإحـسـانُ وهـي لآلـيءٌ ... ونـظَّـمـهـا الإفـضـالُ وهـي فـرائـدُ
فلا زلتَ محروس العلا يا ابن صاعدٍ ... وجَـدُّك فـي أفـق الـسـيـادة صـاعـدُ
تُـسَـرّ بـك الـدنـيـا ويَـبـتـهـجُ الـورى ... وتُستوكَف النُّعمى وتُحوَى المقاصدُ[4]

وَرَد كتابٌ كريم، ونبأٌ عظيم؛ لَم تُجرِ يَنبوعَه جياد الأقلام، ولَم تجُدْ بنوئه عهاد الأيام، ولم تَظفَر بمثله أعياد الإسلام؛ فتُلِيَ على عذبات[5] المنابر، وجُلِيَ على آماق الأبصار وأحداق البصائر؛ وكانت بشراه البِكرَ العَوان[6]، لِما ٱبتَدَأتْ به من البشائر، ولِما تَلِدُه من البشائر، وطليعةَ المَسارِّ التي واجهَت الآمالَ ووجهُ السعد سافر، ومقدّمةَ الأمن التي لا يُسَرّ بها إلا مؤمن ولا يساء بها إلّا كافر؛ وتحيّةَ ٱلله التي أحيت قلوب العباد، ومنةَ الله التي سكنتْ لها السيوفُ في الأغماد، ونعمةَ الله التي عَمّتْ كلّ حاضر وباد؛ ورحمةَ ٱلله التي رحم بها هذه الأمّةَ وما زال بالمؤمنين رحيمًا، وفضْلَ الله على هذه الملّة وكان فضل الله عليها عظيمًا؛ وسعادةً سارت بها الأيام إلى المقام المعزّيّ بين الخَبَب والتقريب[7]، ومَركبَ عزٍّ قدّمتُه عناية ٱلله تقدمةَ الجَنِيب، وكتابًا عنايتُه[8] هذا عطاء الله، وعِنوانُه «نَصْرٌ مِنَ ٱللهِ وفَتْحٌ قريب»، وسِلْمٌ جلَّل وجه الإسلام

(١) المؤثّل: المتأصّل الثابت. (٢) العادي: العدو المعتدي، وراقد: غافل.
(٣) الأمداح: من المدح، وهذا الجمع لم يرد في كتب اللغة.
(٤) تستوكف النعمى: تستقطر وتجري في أيدي النّاس.
(٥) العذبات: العذبة من كلّ شيء طرفه، وعذبة الغصن: طرفها الأعلى ويريد بعذبات المنابر: أعاليها.
(٦) العوان: أراد بهذه العبارة: أنا بكر لأنها لم تسبق بمثلها وعوان: لأنها تلد البشائر.
(٧) الخبب: الإسراع، والتقريب: الجري. (٨) عنايته: مقصده.

بُردَ لباسِه القشيب[١]، وسلامةٌ جَنتْ يمين الإيمان ثمرَ غصنها الرطيب، وعزٌّ ألبس المُلكَ خِلَعَ شبابه بعد ما خَلَع غبارُ الوقائع عليه رداءَ المَشيب، وشمسُ سعادةٍ منذ طلعَتْ في أفقها لَم تجنح للمغيب، ولطفٌ خفيّ قعد له كلُّ حمدٍ وقام به كلُّ خطيب، ومَملكة تُسمِعُها الأيّامُ: قِفا نَضحكْ بمَسارِّ الإنعام لا قِفا نَبكِ من ذكرى حبيب[٢]، وغنيمة باردة حازتها يدُ المُلك ولسانُ السنان غيرُ ناطق وكفُّ السيف غيرُ خضيب: [من الطويل]

بتسديد رأيٍ لو رأته أميّةٌ لمَا ٱحتَفَلتْ يومًا بقتل شَبيبِ[٣]

إلى غير ذلك من فكرةٍ صاحبيّةٍ شَرَفيّةٍ سَكَن المُلكُ تحت ظلالها ونام، وقعد بأمرها وقام؛ وتحرّكَتْ لها العزائم، وسكنَتْ لها الصوارم، وٱستُنزِلت العُصْم[٤] وذُعِرَتْ العواصم، وهمم إذا سمَتْ سامت ٱلسماء وإذا هَمَّتْ أهمت ٱلغمائم، وعزٌّ تحت ظلِّ طلاله الشرفُ مقيم وفي خدمته المجدُ قائم، وعزمٍ ٱستيقظ له جفن النصر والسيفُ في جفنه نائم، وسيفِ حزم على عاتق المُلك منه نِجادٌ وفي يد جبّار السمٰوات منه قائم؛ وآراءٍ ٱستفتح عقائلها فأَنجبَتْ، ورَمَى غرض إصابتها فأَكثبَتْ، أي أصابت وأَعمَل رائدَها فاستيقظت له ٱلهمم والأنام نيام، وجلس في صدور رِياستها والعالمون قيام، وتدبير أُحكِم بإبرام[٥] النقض ونقض الإبرام، وذُعِر به رابضُ الأُسد وأُنِسَ به نافرُ الآرام[٦]؛ وأجال به خيله في مَسارِي الأرقم[٧]، ومَقَرِّ الهَيثم[٨]، وأمضاه في مَضايق خطْبِه فأغناه عن سنّ السِّنان وشفة اللّهذم[٩]؛ هٰذا

---

(١) القشيب: الجديد الزّاهي.

(٢) أشار بهذه العبارة إلى قول امرىء القيس:

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(ديوان امرىء القيس ص ١١٠، دار الكتب العلمية).

(٣) شبيب: هو شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني الخارجي أبو الضّحّاك، خرج في زمن الحجّاج، وهو أحد الأبطال الثائرين على بني أميّة مات غرقًا في نهر دجيل سنة ٧٧ ـ. (الأعلام ٣/ ١٥٦).

(٤) العُصم: مفردها أعصم، وهو من الحيوان ما كان في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر.

(٥) الإبرام: العقد.

(٦) الآرام: حجارة تنصب في الصحارى علمًا يُهتدى به.

(٧) الأرقم: ذكر الحيّات أو أخبثها. (٨) الهيثم: فرخ النسر.

(٩) اللهذم: القاطع من السيف والسّنان والنّاب.

ولما صَدقتْ عزائمُ المملكة التي نظم الله قلادةَ مُلكِها فليس لها انتثار، ولمعَتْ كواكب أَسَلِها[١] في ليل الرَّهج[٢] وسماءِ الغبار، وبَنتْ حوافر خيلِها سورًا من متراكم النَّقع[٣] المُثار، وحصَّنَتْها[٤] يد الله بما أظهرَتْه مِن كامنِ الغيب وأَخفتْه من طلائعِ الأقدار، وحضَّنَتْها[٥] رعاية الله وله مِن القدر أعوانٌ ومِن الملائكة أنصار: [من الطويل]

فعمّت عمومَ اللّيلِ واللّيلُ مظلمٌ وجاءت مجيءَ الصبح والصبحُ مُشرقُ
ومَدّت غمامًا من سنابك خيلها بَسلِّ المَواضي المَشرَفيّات يَبرُقُ[٦]

في كتائبَ إذا سارت سوابقُها ملأَتْ عَرْض الغبراء[٧]، وإذا نُشرَتْ خوافقها[٨] سترَتْ وجهَ الخضراء؛ وكادت تُذْعَر الآسادُ بمَواضي حتوفِها، وتسكن المنايا تحت ظلال سيوفِها؛ لا سيما إذا أنجمَتْ[٩] أنجُمُ عواليها، ولمعَتْ بروقُ مَواضيها؛ وجاءت خيلُها كالصخر الأصمِّ والطود الأشمِّ أعجازُها وهَواديها؛ من كلّ كُمَيْتٍ[١٠] حلوٍ في الإزار، بين الشُّقرة والاحمرار، كأنه وَرْديّةُ العُقار: [من البسيط]

يُحِسّ وقعَ الرزايا وهي نازلةٌ فيُنهِب الجريَ نفْسَ الحادث المَكِرِ[١١]

وكلِّ أشقرَ[١٢] كأنما قُدَّ أدِيمُهُ مِن لهبَ النار، مُعارِ رداءَ الحُسن، وأَحَقُّ الخيلِ بالركضِ المُعار[١٣]، لا تَعلَق به المَذاكِي[١٤] يوم رِهان ولا تَشُقّ له الحوادثُ وجهَ

---

(١) الأسل: الرماح، سمّيت أسلًا تشبيهًا له بنبات الأسل الذي يخرج قضبانًا دقاقًا ليس لها ورق ولا شوك، وشبّهت الرّماح لطولها واعتدالها ودقتها.
(٢) الرّهج: الشعب والفتنة، والغبار. . .
(٣) النّقع: الغبار.
(٤) حصّنتها: وقتها.
(٥) حضنتها: أي حفظتها وكفلتها.
(٦) السّنابك: مفردها «السّنبك» وهو طرف الحافر.
(٧) الغبراء: الأرض.
(٨) الخوافق: مفردها «الخافق» وهو العَلَم.
(٩) أنجمت: ظهرت.
(١٠) الكميت: من الخيل ما كان لونه الكمتة، وهي حمرة يداخلها سواد.
(١١) هذا البيت لأبي العلاء المعريّ. «انظر سقط الزّند».
(١٢) الأشقر من الدواب: الأحمر، وفي الإنسان: الحمرة تعلو بياضًا.
(١٣) المعار: المسمّن، يقال: أعرت الفرس: أي أسمنته.
(١٤) المذكي من الخيل: التي تمّ سنّها وكملت قوّتها.

غبار كأنما لبس ثوبًا من خالص النُّضار: [من الوافر]

عِتاقٌ لو جرت والريحَ شأوًا ... لفاتته وأوثقه إسارُ[١]

غَدت ولها حُجول من لُجَينٍ ... وراحت وهي من عَلَقٍ نُضارُ

وكلِّ أدهمَ كريمَ النِّجار، غَذيِّ اللِّبانِ[٢] الغِزار، كأنما فُصّلتْ ثيابه من سواد الليل وصِيغتْ من بياض النهار: [من الكامل]

بأَغَرَّ يَبتسم الصباح بوجهه ... حُسنًا ويَسفِر عن مُحيًّا مُسفرِ

خَلَعَ الظلامُ عليه فضلَ ردائه ... وثنى من التحجيل ثوبَ مقصَّر

وكلِّ أشهبَ أُفرِغ في قالَب الكمال، وَجِيهيَ[٣] الأب أعوَجي[٤] الخال، إن مشى ضاق بزهْوِه فَسيحُ المجال، وإن سعى رأيتَ البرقَ ملجَمًا بالثريّا مسرَجًا بالهلال، كأنّما ٱنتَعَلَ خدَّ الجنوب وٱشتَمل بثوب الشَّمال: [من البسيط]

مِن الجياد التي لَم تَبْدُ في رَهَجٍ ... إلّا أَرَتْكَ بياضَ الصبح في غَسَقِ[٥]

ولا جَرين مع النَّكْباء في طَلَقٍ ... إلّا ٱحتَقَرتَ ٱلتماعَ البرق في الأفقِ[٦]

وكلِّ مطهَّم إن رَكض قَلِق السِّماطُ[٧] لرَكضِه، وخِلت بعضَه منفصلًا عن بعضِه وإن مشى رأيتَ الطودَ في سمائه والرياحَ في أرضه؛ وإن خطا ظننتَه يَرْتَع في روض المَجَرّة ويَكرَع في حوض الغمام، وخلته الأَشَمَّ مِن ٱبنَيْ شَمام[٨]، همُّه جهة الإمام

---

(١) الرّيح: الهواء، أعاد عليها ضمير المذكر في قوله «لفاتته» مع أنّ التأنيث هو الأكثر فيها، وإنّما آثر التذكير منعًا للالتباس الذي يحصل من «العتاق».

(٢) اللّبان: ذوات اللبن.

(٣) الوجيهيّ: نسبة إلى الوجيه، وهو اسم فرس من خيل العرب نجيب تنسب إليه كرام الخيل.

(٤) الأعوجي: هو اسم فرس سابق ركب صغيرًا فاعوجّت قوائمه، وإليه تنسب كرام الخيل أيضًا.

(٥) الرّهج: الغبار المتصاعد في الحرب.

(٦) النّكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين، أو بين الصّبا والشمال، والطلق: الشوط الواحد في جري الخيل.

(٧) كذا بالأصل؛ ولعل الصواب «السّماك» وهو كوكب مشهور، وهما سماكان.

(٨) شمّام: اسم جبل لباهلة، مشتق من الشمم، وهو العلو، وقيل: هو جبل بالعالية له رأسان يقال لهما: ابنا شمّام، قال لبيد:

فهل نبئت عن أخوين داما ... على الأحداث إلّا ابني شمام

(انظر معجم البلدان لياقوت ٣/ ٣٦٠، وديوان لبيد ص ٢٠٣، دار صادر).

وصوتُه حركةُ اللجام، كأنه قطعةٌ من سماءٍ أو ظُلّةٌ من غمام: [من الوافر]

جَرى والريحَ في طَلَقَي رِهانٍ فقامت دونه ومضى أَماما
ومَدّ من السنابِك ثوبَ غَيمٍ ولَم أرَ قَبلها ثوبًا غماما

عليها كلُّ كمّيٍّ[١] لابَسَ[٢] الحربَ ولابَسَتْه، ومارسها ومارسَتْه؛ وكَتَبَتْ عليه المواضي في صدره كتابًا أعجمَتْه أطرافُ الأَسَل، وجَنَى ثَمرِ الحديدِ أحلى عنده من العسل وسار إلى مهج الأبطال كسيف القضاء وحَثِّ[٣] الأجل؛ له حُنْكَةُ الأَشيَب ونجدةُ الغلام، وصنعةُ الضرب الفَذِّ[٤] والطعنِ التُّؤَام[٥]، والفَتكاتُ التي تُطلِع صبح الصوارم في ليل القَتام[٦]، والفَعَلَاتُ التي لها فَتَكاتُ الأَوْرق[٧] في النَّقَد[٨] وصَولاتُ الأسد في السَّوام: [من البسيط]

يمشي إلى الموت عالي الكعب معتقِلًا
أَظمَى الكعوب كمشي الكاعب الفُضُلِ[٩]

يُحسِنُ في بحار الدروع سَبْحَ الفوارس[١٠]، بين بدور اليَلَب[١١] ونجومِ القَوَانس[١٢]؛ من كلِّ سابغة[١٣] لا تصل إليها ألسنةُ الحداد، كأنها أثواب الأراقم خِيطت بأعين الجراد؛ كفيلة بحماية الأنفس وصيانةِ المهَج، تُنير مسالكَ لابِسِها في

---

(١) الكميّ: لابس السّلاح، أو الشجاع المقدام الجريء.
(٢) لابس الحرب: خالطها. (٣) الحثّ: الإعجال، والأجل: الموت.
(٤) الفذّ: الفرد.
(٥) التؤام: المولود مع غيره في بطن واحد، يريد الطعنة تلو الطعنة.
(٦) القتام: الغبار الأسود.
(٧) الأورق: هو الذّئب، فإنه لونه الورقة، ويقال للذئبة: الورقاء «وجاء في اللسان مادة ورق» وكذلك شبهت العرب لون الذئب بلون دخان الرمث لأن الذئب أورق...
(٨) النّقد: صغار الغنم، واحدته نقدة.
(٩) الأظمى من الرماح أو الكعوب: هو الأسمر، والكاعب: الفتاة التي نهد ثدياها، والفُضل: المختالة التي تفضل من ديلها. (اللسان، مادة فضل).
(١٠) سبح الفوارس: جريها وعدوها.
(١١) اليلب: الترسة، أو هي جلود يحرز بعضها إلى بعض تلبس على الرؤوس خاصة.
(١٢) القوانس: جمع قونس وهي أعلى بيضة الحديد التي تلبس على الرأس.
(١٣) السابغة: الدرع الفضفاضة.

دياجِي الرَّهَج، إنما هي البحر ولا حرج[١]: [من البسيط]

إذا ما مشَوا في السابغات حسِبتَهم سيولًا وقد سالت بهنّ الأباطحُ[٢]

وكلّ أبيضَ هنديّ تألّفتْ من المِلح أبعاضُه، البَرَدُ جسمُه والبرْقُ إياضهُ؛ المَفارقُ مغاربُه والأجفانُ مَطالعُه، والأنفُس مواردُه والمنايا منابعُه؛ لو أُثمِر لأنبت رءوسًا ولو تفجّر لسال نفوسًا، ولو تَكشَّف صافي حديدِه لرأيتَ فيه عُبوسًا: [من الوافر]

سَليلُ النار دَقّ ورَقّ حتى كأنّ أباه أورَثه السُّلالا[٣]
ودَبّت فوقه حمرُ المنايا ولكن بعد ما مُسِختْ نِمالا

وكل أَسمَرَ[٤] إذا انتحى فهو صاحٍ وإذا انثنى فهو نشوان، وإذا ورد دمَ القلبِ فهو ظمآنُ القناةِ ريّانُ السنان؛ إذا خطَب النواصيَ وَخَط[٥]، وإذا كَتبت المواضي نَقَط؛ وإذا قَصُرت يدُ القِرْنِ طال، وإذا صَلِيَتْ نار الحرب العوالي صال: [من الوافر]

تَوَهّم كلّ سابغةٍ غديرًا فرَنَّق يشرب الحِلَق الدّخالا[٦]

وكلّ صفراءَ رَقشاءِ[٧] الأديم، كأنها أرقَمُ الصَّريم[٨]؛ لها فَلَكٌ بالرزيَّة دائر، وسهمٌ بالمنيّة طائر، إن رَكِب فهو مقيم وإن نزل فهو سائر؛ مع عزائمَ بَنتْ على الدولة سورًا، وجَعلَتْ بينها وبين الذين لا يؤمنون بالدولة المعزّيّة حجابًا مستورًا؛ على أنها غنيمةٌ لَم تَحتج إلى الإيجاف[٩] والإيضاع، وطَلِبَةٌ ألفاها على طرف

---

(١) أشار بهذه العبارة إلى قولهم: «حدّث عن البحر ولا حرج» والمراد أنه لا لوم على من يطيل في وصف هذه الدروع لشبهها بالبحر في بريقها والمراد متنها.

(٢) الأباطح: مفردها الأبطح، وهو المكان المتسع يمرّ به السّيل فيترك فيه الرّمل والتّراب والحصى.

(٣) سليل النّار: يريد أنّ هذا السيف قد ولدته النّار لأنه أخرج بها من معدنه وطبع سيفًا بواسطتها، والشعر لأبي العلاء المعرّي. (انظر شرح التنوير على سقط الزّند ١/٢٧، ٢٨ ط، بولاق).

(٤) الأسمر: يراد به الرمح.

(٥) خطّ: طعن طعنًا نافذًا.

(٦) رنّق الطائر: إذا حام حول الماء ليشرب، والغدير: ماءٌ متجمّع والدّخال: المتداخل بعضه في بعض.

(٧) الرّقشاء: المنقوشة، يريد القوس الرقشاء.

(٨) الأرقم: الأفعى السّامة، والصّريم: القطعة من معظم الرّمل.

(٩) الإيجاف: التحريك والإسراع.

الشمام[١] وحبلِ الذراع[٢]؛ وعنايةٌ جاءت على ٱختيار المراد ومرادِ الاختيار، ونعمةٌ كَرّتْ هي والتوفيق في قَرَنٍ[٣] وجَرَتْ والسعادةَ في مضمار، ومنحةٌ رَكضَتْ بها إلى المقام المعزّى سوابقُ الأقدار ومعنًى خفيٌّ من نعم الله لم تَلِجه عقائل الأفكار؛ وإذا سبَقت عناية الله فليس لأمر حتمه الله رافع، وإذا لحظَتْ السعادة أمراً وقفَتْ دونه آمال المطالب وتقطّعَتْ خلفه أعناق المطامع، وٱستولت يمينه على آفاق سماء[٤] الشرف فلها قمراها والنجوم الطوالع، وهذه مواهبُ لا تدركها دقائقُ الأَسْطُرْلاب[٥] ولا دَرَج الشمس ولا رَصَدُ الطوالع: [من الطويل]

لعمرك ما تدري الضَّواربُ بالحصا ولا زاجراتُ الطيرِ ما ٱلله صانعُ[٦]

«ويُنهِي[٧] أنّ حاملها مَن عَقدَتْ عليه الملوك خناصرَها، وٱختَصَّ منها بالصحبة ناصرَها؛ وله فضلٌ لا يذاد عن مَنهل العلم سَوامُه، ولا تُجهَل في مسالك الشرف أعلامُه؛ وله نفسٌ سَمَت حتى أخذَتْ سماء السيادة بيمينِها، وهمّةٌ إذا رأيتَ ذاتها الكريمة تَوسَّمتَ الرّياسةَ في جبينِها، وأبوّةٌ لا تتّجر من المعالي إلّا في ثمينِها؛ وقد أكلَتْه السنة بل السنوات، وترادفت عليه الملمّات[٨] بل المؤلمات؛ وقد صيَّر الجناب الزينيَّ لما يحاوله ذَرِيعه، ووَرَد المنهَل الرَّحْبَ وإنه لعذبُ الشريعة، وقد أصاب به مولانا طريقَ المَصنع فألبَسه ثياب الصنيعة؛ ومولانا أَولى مَن أَولاه شرَف جلاله ونظر إليه بعينٍ كريمةٍ يقابِل بها ما يقابِله من كرم خلالِه؛ فالإبريزُ[٩] قد يَشتبِه إلّا على نُقّادِه، والغيثُ قد يُخْلِف إلا على رُوّادِه، والماء قد يأْجِن[١٠] إلا على وُرّاده؛ وسيّدنا

---

(١) يقال: هو له على طرف الثمام: إذا كان هيّن المتناول.
(٢) يقال: هو على حبل الذراع: إذا كان ممكنًا مستطاعًا.
(٣) القرن: أي في حبلٍ واحد...
(٤) يشير بهذه العبارة إلى قول جرير:

أخذنا بآفاق السماء عليكمو لنا قمراها والنجوم الطّوالع

(٥) الأسطرلاب: ميزان الشمس، وبه يعرف مقدار السّاعات وأخذ الأرصاد ومطالع الكواكب.
(٦) البيت للبيد بن ربيعة. (انظر ديوانه ص ٩٠، دار صادر).
(٧) الظاهر أن هذا الكلام من قوله: «وينهي إلى قوله فيما سيأتي «من أفقها صبحًا» ليس من تتمة الرّسالة السابقة، وإنّما هو بعض رسالة أخرى سقط أوّلها من الأصل الذي بين أيدينا، ويدلّ على ذلك أن الرسالة السابقة موجهة للصاحب شرف الدّين الفائزي وهذه موجّهة إلى «الجناب الزينيّ» وهو زين الدين يعقوب بن الزبير وزير الملك المنصور نور الدين عليّ بن الملك المعزّ أيبك.
(٨) ترادفت الملمّات: تتابعت مصائب الدّهر. (٩) الإبريز: الذهب الخالص.
(١٠) يأجن: يصبح آجنًا أي آسنًا فيتغيّر طعمه ولونه ورائحته.

مصعبيُّ[(١)] الهممِ وهذا ٱبن قيس[(٢)] رقيّاته، ومهلبيُّ الشِّيم وهذا حبيب أبنائه[(٣)]، وواثقيُّ الإحسان وهذا في الجلالة ٱبنُ أبي دُوادِه[(٤)] وفي الأدب ٱبنُ زيّاتِه[(٥)]؛ فليضعْه

---

(١) مصعبي الهمم: يشير إلى مصعب بن الزبير الأسدي، أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، وكان عضد أخيه عبد الله الذي ولاه البصرة قتل سنة ٧١هـ. (الأعلام ٧/ ٢٤٧).

(٢) ابن قيس الرّقيات: هو عبد الله بن قيس الرّقيات، شاعرُ من بني عامر، لقّب بالرقيات لأنّه شبّب بثلاث نسوة سمّين جميعًا رقية، وكان منقطعًا إلى آل الزبير، وهو القائل في مدح مصعب:

إنّـما مـصـعـبٌ شـهـابٌ تجلّت عن وجهه الظلماء

(انظر الأغاني ٤/ ١٥٥، ط بولاق)

(٣) قال معجم المطبوع: قوله: «وهذا حبيب أبنائه» في الأصل «حبيب أبياته» وهو تصحيف فإن الذي وقفنا عليه أن حبيبًا هذا من أبناء المهلب لا من شعرائه الذين مدحوه اهـ. ولكن اهتمام أولئك الكتّاب بمراعاة السجع وتفريطهم بالمعنى لأجله أحيانًا ـ أمر معروف: «فرقيّاته» و «زياته» يكون بينهما «أبنائه» ـ بعيد عن طبيعة إنشاء ذلك العصر. فلا مندوحة عن القول بصحة «أبياته» الواردة في الأصل. ويكون المراد بحبيب أبياته هو أبو تمام حبيب الطائي لا حبيب بن المهلب ولا سيما أن المؤلف قال مهلبي ولم يقل مهلب وبينهما فرق؛ فالمهلبي أحد أبناء المهلب المنسوبين إليه وهم كثيرون ولم يمدح أبو تمام أحدًا منهم وأشهرهم الوزير أبو محمد المهلبي وكان بعد أبي تمام بنحو مئة سنة. فلا بد أن تكون كلمة مهلبي محرفة عن اسم آخر من ممدوحي أبي تمام. ولأن نقول بوقوع التحريف في مهلبي خير من أن نقول بوقوعه في الكلمة التي تنتهي بها السجعة ومنزلة السجعة في نفوس القوم منزلتها. أما ممدوحو حبيب الطائي فكثيرون ومن أشهرهم الحسن بن وهب وأخوه سليمان بن وهب وله في الحسن ثلاث عشرة قصيدة فقوله: «ومهلبي الشيم» صوابه إذن «ووهبي الشيم وهذا حبيب أبياته» وبهذه الصورة تتناسق السجعات. وتبقى كلمات «أبيات» على حالها كما وردت في الأصل. و«آل وهب» ليسوا بأقل من «آل المهلب» منزلة في تاريخ الإسلام والخلفاء: فقد كان آباؤهم كتابًا من عهد الأُمويين وكان الحسن بن وهب ممدوح أبي تمام متوليًا له ديوان الرسائل وكتَب لابن الزيات. وأخوه سليمان ولي الوزارة للمهتدي ثم للمعتمد. وأرى أن الذي جعل الكاتب يقول: «وهبيّ الشيم» ثم يقول: «حبيب أبياته» فيجعل أبا تمام ذا أبيات يضرب بها المثل في كل وهبي ـ هو قول حبيب في الوهبيين:

كـلِ شعـبٍ كـنـتـم بـه آل وهـب فـهـو شعـبي وشعـب كـل أديب
إن قـلبي لـكـم لـكـالـكـبـد الـحـرّ ى وقـلـبي لـغـيـركـم كـالـقـلـوب

وقد سمع هذا بعض الصالحين فقال لو كانت هذه الأبيات في آل رسول الله ﷺ كان أليق إذ لا يستحق هذا القول إلّا هم رضي الله عنهم.

(٤) ابن أبي دوادة: هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد الإيادي تولى القضاء في زمن المعتصم والواثق العباسيين مات سنة ٢٤٠هـ. (الأعلام ١/ ١٢٤).

(٥) ابن الزّيات: هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر من أهل الأدب والفضل، كان عالمًا بالنحو واللغة، وكاتبًا وشاعرًا، وقد استوزره المعتصم مات سنة ٢٣٣هـ. (الأعلام ٦/ ٢٤٨).

حيث وضعَتْه السيادة صدرًا، وليُطلِعْه كما أطلعَتْه الفضائل بدرًا؛ وليَصرِف إليه عناية تَعلّق بها الحمدُ عَلاقةَ غَيلانَ[١] بمَيّة، والحَكَم[٢] بأميّة؛ وهو يعلم ـ أدام الله أيامه ـ أن المناصبَ عرائس، والصنائع قلائدُها، والولاياتِ مَآدب، والمكارم موائدُها، والليالي ـ كما علمت ـ حَبالى، والسّيئات والحسنات ولائدُها؛ وخيرُ مَن لَبِس ثوبَ نعمة كاهلُ هذا الإمام، وإن الحسنة إليه لأشرفُ مواهب الأيام، فاْغتنمْها فإنّها غاية الاغتنام؛ وأعيذ مولانا بالله أن يَجعل نظرَه إليه لمحًا، أو يَضرب عنه الذكر صفحًا، أو يكون مولانا روضةً ثم لا يجِدُ هذا الصدرُ منها نفحًا، ومَطلَعَ آفاق الشرف ثم لا يَستَوضِح هذا الملتمِسُ مِن أفقها صبحًا».

ومثل صدر هذه الرسالة لبعض الكتاب المتقدّمين:

الحمد لله مقلّب القلوب، وعالِم الغيوب؛ الجاعِل بعد عسرٍ يسرًا، وبعد عداوةٍ ودًّا، وبعد تحاربٍ اْجتماعًا، وبعد تباينٍ[٣] اْقترابًا؛ رأفةً منه بعباده ولطفًا، وتحنّنًا عليهم وعطفًا؛ لئلا يَستتِمّهم التتايُع[٤]، في التدابر والتقاطُع؛ وليكونوا بَررةً إخوانًا، وعلى الحقّ أعوانًا؛ لا يتنكّبون منهجًا، ولا يركبون من الشبهة ثَبَجًا[٥]؛ بغير دليلٍ يهديهم قصد المسالك، ولا مرشدٍ يذودهم عن دَرْك المهالك؛ أحمده على نعمه التي لا يحصي الواصفون إحصاءها، ومننِه اْلتي لا تَحمل الخَلقُ أعباءها؛ حمدًا يتجدّد على مَمرّ الأزمان والدهور، ويزيد على فناء الأحقاب والعصور؛ وإنّ أحقَّ ما اْستعمله العاملون ولَحِق به التالون، وآثره اْلمؤمنون، وتَعاطَى بينهم المسلمون؛ فيما ساء وسَرّ، ونفع وضَرّ؛ ما أصبح به الشَّمْل ملتئمًا، والأمرُ منتظمًا؛ والفتقُ مرتتِقًا[٦]؛ والسيفُ مغمودًا ورواقُ[٧] الأمن ممدودًا؛ فحُقنَتْ به الدماء، وسكنَتْ معه الدهماء، واْنقَمَع به الأعداء؛ واْتصل به السرور، وأُمنَتْ معه الشرور؛ وليس بذلك أَولى، وإلى إحرازِ الثواب به أدنى من الصلح الذي أمر الله تبارك وتعالى به، وخَصّ وعَمَّ ورغَّب.

---

(١) غيلان: يريد غيلان بن عقبة بن نهيس، المعروف بذي الرُّمة وهو أحد عشاق العرب المشهورين، وصاحبته ميّة بنت فلان بن طلبة بن قيس بن عاصم بن سنان، ويكنّى أبا الحارث. مات سنة ١١٧هـ. (الشعر والشعراء ص ٣٥٠).

(٢) الحكم: يريد الحكم بن أبي العاص، والد مروان ثالث خلفاء بني أميّة.

(٣) التباين: التغاير والمخالفة. (٤) التتايع: التهافت، أو اللجاجة.

(٥) الثبج: وسط الشيء تجمّع وبرز، ومنه: ثبج البحر، وثبج الأكمة.

(٦) رتق الفتق: أصلح شأنه وضمّ بعضه إلى بعض.

(٧) الرواق: بيت كالفسطاط، يحمل على عمود واحد طويل...

ولنعد إلى كلام الشيخ ضياء الدين بن القرطبي.

فمن ذلك ما كتب به أيضًا إلى الصاحب شرف الدين الفائزيّ جوابًا عن كتاب شفاعة يوصي على أخيه نجم الدين، فأجابه الشيخ: يخدِم الجنابَ الشرفيّ ـ رفع الله قدره بين أوليائه، وأطاب ذكره في مقام عليائه؛ وأطال عمره مقترنًا بعزِّه، وأقرّه في كنف سلامته وكهف حرزِه ـ وردَتْ الأوامر المطاعة، المقابَلَةُ بالسمع والطاعة؛ في حق أخي المملوك مولانا نجمِ الدين، فتَلقَّى راية طاعتها بيمينِه، وأقرّها من تعظيمه في أسرّة جبينِه، وأَحَلَّها من شرف الامتثال في مستودَع دينِه؛ وقابل حاملَها بأَوْفر ترحيبِه، وأقربِ تقريبِه؛ وواجَهه بإجلال الأخوّة، وخلال البنوّة؛ وأحَلَّه كنَف[1] قلبِه، وَأَوْدعه بين شغاف[2] القلب وخِلْبِه[3]، وأعاده إلى معهود ولائه وحبه؛ وقَرّر له في كلّ شهر عشرة دنانير وهي نهاية قدرتِه، وأعلَمَه أنّها أعْوَد نفعًا من ولايتِه وأقربُ عونًا مِن إمرَتِه؛ وعاهد الله ألا يتعرّض لجنديّةٍ أبدًا، ولا يمَدَّ لطلب ولايةٍ يدًا؛ ولا يَقِفَ بين يدَي الأمراء بعدَها، ولا يتجاوزَ بجلالة أبوَيه حدَّها، ولا يهمل شرف نسبته التي لَم تُصاعِرْ[4] [لها][5] الأيّامُ خدَّها؛ وأخذ عليه عهود الله والمملوك في الوفاء مهما عهِدَها؛ وقد تَوجَّه إلى المَشارع الصاحبيّة التي استَعذَب وِرْدَها والمكارمِ الشرفيّة التي أَلِف حمْدَها، والصنائع الإحسانيّة التي وَجد في مرارة الفقر حلوَها وفي حرارة الغربة بَرْدَها؛ وعاوَدَ عشَّ الفضل الذي منه دَرَج، وبيتَ الكرم الذي إليه دَخَل ومنه خَرَج[6]، وسماءَ الإحسان التي أَطلعَتْ نجمَ إمامتِه فَعَرَّج عليها وإليها عَرَج، وبحرَ المعروف الذي إذا أطنب[7] لسانُ ثنائه قالت شواهد بيانه: «حدِّثْ عن البحر ولا حَرَج»؛ ومولانا يضعُه تحت كنَفِه، ويرفعُه لله ولسلَفِه، ويقابله الجنابُ الشرفيُّ بما عَرَفه من شرَفِه؛ ويُعِينُه على جارِيه الذي هو مادّةُ رفقِه، وأوّلُ ما أجراه الله على يد مولانا من رزقِه؛ بكتاب يُجزل له العَزَمات ويُنْمِيها، ويُسكن رُوحَ الحياة في جسد فاقته ويُبقيها؛ فهو ذو ضرّاءَ لا تسدّها إلا القناعة، وذو فاقةٍ لا ترفعها إلا السَّعةُ التي تمدّ باعَه؛ والله يجعل مولانا وقايةً لمن لجأ إليه، وإعانةً لمن اُعتمد عليه؛ إن شاء الله تعالى.

---

(١) الكنف: جانب الشيء.
(٢) الشغاف: غشاء القلب وغلافه.
(٣) الخلب: حجاب الكبد.
(٤) صاعر خدّه وصعّره: أماله كبرًا.
(٥) هذه الكلمة ليست في الأصول، والسّياق يقتضيها.
(٦) في الأصول: الذي منه دخل وإليه خرج والصواب كما أثبتنا. . .
(٧) أطنب: مضى في المدح وبالغ. . .

وكتب إليه أيضًا شفاعةً في بعض الأعيان فقال:

ويُنهِي أنّ الله تعالى متولّي سرائرَ عبادِه، ومُجازيهم على مخالفَةِ أمره وإن كان على وَفْق مرادِه؛ أَعَدّ دارَيْ ثوابِه وعقابِه، وحذّر أُولي الحُوبَة(١) مِن أليم عذابِه؛ ثم عمّت رحمته فشَفَّع في العصاة، وعفا عن الجناة؛ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: الآية ٢٥]، ثم بُذِلت عوارفُ الإحسان، وعواطفُ الحَنان؛ حتى شَفَع إلى خَلقِه، في العفو عن حقِّهم وحقِّه؛ صفة كرم رحمانيّة، وصِلة عفوٍ إحسانيّة، وصنائع أَلطافٍ ربانيّة، فشفع إلى الصدّيقِ في مِسْطَح، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النُّور: الآية ٢٢]، فقدّم مُوجباتِ العطف بما قدّم من القرابة والمسكنة والمهاجَرة، ثم تلقّاها مِن أجرِ الآخرة بكرم المُجازاة وربح المعاملة، وحُسنِ جزاء المنعم، تعريفًا بمواقع الإحسان، وتكريمًا لنوع الإنسان؛ ومملوكُ مولانا فلان ٱلذي أنزل حاجتَه بعبدِك، وقَصَده قَبل قصدِك؛ وأسكَنَ حريمَه مجاورًا لحريمِه وتَشفّع به إلى صدر الزمن وكريمِه، واستَوهَبه الذنب وإن كان معترفًا بعظيمه؛ والصنعُ الجميل ثمرةُ الأيام، والفضلُ أثبتَتْه ألسن الأقلام؛ ولله لحظاتٌ تَلحظ عبادَه ويرحم الراحمين، ويجزى المتصدّقِين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ وإن مولانا عِقالُ الشرف(٢) وذو الفضل الأُنُف(٣)، والعارفُ في صنائع الإحسان كيف تُؤكَل الكَتِف؛ وقد أَحلتُه على مَلاءةِ(٤) أياديك، وألبستُه مُلاءَةَ معاليك، وأحللتُه بضَمان الله كَنَفَ ناديك؛ وأنت الكريم أخلاقًا ونسبًا، والطَّيّبُ أعراقًا وأبًا، والصَّدرُ الذي إذا سامته(٥) الأيّام خُطَّةَ(٦) ضيم أبى، وإذا أَوطأَتْه مَهانةً وخسفًا نَبا(٧)؛ وأحقُّ مَن قَبِل هذه الشفاعَة كرمُك وأولى من رعاها شيمُك، والمعالي جنودُ الشرف وأحقُّ عَلَم رُفِع عليها عَلَمُك؛ والله تعالى يبقيه للأنام ملاذًا، وللأمل مَعاذًا، ويَهب عزمَه مَضاء وقلمَه نفاذًا؛ إن شاء الله تعالى.

(١) في الأصل «العقوبة» والصواب «الحُوبة» وهي الإثم.
(٢) عقال الشرف: يريد أن الشرف محتبس عليه لا يفارقه، وهو مستعار من عقال البعير، وهو الحبل الذي يعقل به عن النهوض.
(٣) الفضل الأنف: أي الذي لم يسبق إليه، وهو استعارة من قولهم «روضة أنف» أي أنها لم ترع، وكأس أنف: أي أنها لم يشرب بها قبل ذلك. . .
(٤) الملاءة: القدرة والغنى. (٥) سامته: أذلته.
(٦) الخطّة: الأمر والحالة.
(٧) نبا: لم يصب، ونبا السيف عن المضروب: لم يصبه.

وكتب إلى قاضي القضاة تاج الدين بن خلف:

يخدُم ٱلجنابَ التاجيَّ - أدام الله شرف الملّة ببقائه، وأعلى كلمةَ الأمّة بعلائه وأجرَى ألسنةَ الأقلام بثنائه، ورَفع ألوِيةَ أوليائه بولائه - ويُنهِي ورودَ مشرِّفته ٱلّتي تَجلّت في سماء السيادة حُسنًا، وسهلَتْ لفظًا وجَزُلَتْ معنى، وغدا لسان الإحسان عليها يُثنِي، وعِنانُ الفضائل إليها يُثنَى؛ وقد أخذَتْ برقاب المعانِي، وأطربَتْ إطراب المثاني[1]، وبعثَتْ روحَ الحياة إلى روح الأماني، وثنت إلى فضلها الأوّلِ عِنانَ الثاني:

فَحَيَّ هَلا بالمكرُمات وبالعلا ... وحَيَّ هَلا بالفضل والسُّؤدَد المحضِ[2]

لا جَرَم[3] أنّ المملوك سجد لله ثم لجلالة ذلك الاستغفار، وقبولِ كلماتِ الاعتذار؛ وعَلِم أنّ مولانا لبس حلَةَ التواضع لتمام شرف الاصطناع، وليحُوزَ أقسام السيادة بالصدرِ الرَّحبِ والخُلُقِ الوَساع[4]: [من الطويل]

سجيّة نفسٍ شَرّف ٱلله مجدَها ... بما شاء من فضلٍ لديها ومن حلمِ
وسُؤدُدِ آباء وكسبِ سيادة ... تَضُمّ إلى عزّ العلا شرفَ العلمِ

هذا مع إساءتنا التي تُسوِّد وجوهَ الأمل، ويَقضِي كفرُها - لولا إيمان مولانا بإحباط العمل، على أنه مُلازَمةُ المعلولات[5] للعلل: [من الطويل]

وما كنتُ جاني فتنةٍ غير أنّها ... إذا وقعَتْ أردَتْ مسيئًا ومحسنا
ولو رشقَتْني مُصْميات سهامِها ... لألفَتْ لها حُكمًا من الله بيِّنا[6]
وإن جلال الله يشهد أنني ... بَذلتُ مِن الوُسع ٱلذي كان ممكنا
وحَذّرتُ حتى لم أجِد متحرِّزًا ... وأسمَعتُ لكن لم أجِد ثَمّ أُذُنا[7]
وكانت صعابٌ تقتضيها مشيئةٌ ... وهل لقضاء الله ردٌّ إذا دنا

---

(١) المثاني: الآيات تتلى وتكرّر.

(٢) يقال: حيّ هلا بكذا بلا تنوين: أي عليك به، ويقال: أيضًا حيّ هلا بالتنوين، وحيَّ هل بفتح الجزأين كخمسة عشر: ولكنها بمعنى الحثّ، والسؤدد: السيادة، والمحض: الخالص الصّريح.

(٣) لا جرم: لا بدّ. (٤) الوَساع بفتح الواو: الواسع.

(٥) المعلولات والعلل: أي الأسباب والمسبّبات.

(٦) المصميات: أصمى السّهم: قتل.

(٧) المتحرّز: المتوقّي، والحذر، والأُذُن: بضمّ الهمز، وتشديد الذّال: جمع آذن وهو المستمع، يقال: أذنت إليه وله: إذا استمعت إليه معجبًا.

وأما إشارة مولانا إلى الحاجب الذي هو لمولانا أشرفُ مِن حاجب بنِ زُرارة[١] بما أَودَعه أثناءَ تلك الكلم مِن لطيف الإشارة وشريف العبارة؛ فجزاءُ موانا على الله في جبره لقلب المملوك المنصدع، وصِلةِ أمله المنقطع.

وكتب إلى الصاحب قاضي القضاة بدر الدين السنجاري ـ وهو يوم ذلك متولي الحكم والوزارة بالديار المصرية:

لا زال الإسلام يستضيء ببدرِه، والإيمانُ يَأرِز[٢] إلى صدرِه، والشرفُ يَتضاءل عند قدر جلالته وجلالةِ قدرِه، والآمالُ والآجالُ مصرَّفةٌ بين بسطةِ نعمته وسطوةِ قهرِه، هذه على ذكرِه وهذه على شكرِه، والمكارمُ والمحامدُ تَتعلّق وتَتألّق هذه بنشْرِه وهذه ببشْرِه، والعزمُ والرأيُ إذا فُلَّ أو فالَ[٣] ٱستغاث وٱستضاء هذا بنصرِه وهذا بفكرِه: [من الطويل]

ولا غرو أن تَثنِي الوِزارة جيدَها | إلى ناظمٍ في جيدها عِقدَ فخرِه[٤]
إلى أَحوَذيِّ الرأي إن ناب معضِلٌ | أراكَ جليَّ الأمرِ إيحاءُ سرِّه[٥]
إذا ٱستَغزَر الذهنَ الذكيَّ تضاءلَتْ | له فكرتا قيسِ ٱلذكاءِ وعَمرِه[٦]
فيُطلِع رأيًا واضحًا من سداده | كما ٱنشقَّ بُردُ الليل عن ضوء فجرِه
إلى سؤدُد أَجرَتْ معاليه خيلَه | سوابقَ غُرًّا في بَهيمات دهرِه[٧]
وكم سابقٍ أجرى إلى غاية العلا | ولكن طوى سبْقًا مُلاءةَ حُضرِه

---

(١) هو حاجب بن زرارة بن عدس الدّارمي التميمي، من سادات العرب في الجاهلية، وهو الذي رهن قوسه عند كسرى على مالٍ عظيم ووفى به، أدرك الإسلام وأسلم وبعثه النبيّ ﷺ على صدقات بني تميم فلم يلبث أن مات سنة ٣ هـ. (الأعلام ٢/ ١٥٣).

(٢) يأرز: يأوي ويلجأ.

(٣) فال الرأي يفيل: أي ضعف وأخطأ.

(٤) الجيد: العنق.

(٥) الأحوذي: هو الذي يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها، وناب: حلّ.

(٦) يريد قيس بن زهير بن جذيمة العبسي، صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس وغبراء، وكان فارسًا شاعرًا داهية، يضرب به المثل، يقال: أدهى من قيس مات سنة ١٠هـ. (الأعلام ٥/ ٢٠٦). وعمرو: هو عمرو بن العاص، ويكنّى أبا عبد الله، أمير فاتح، ولاه عمر رضي الله عنه فلسطين، ووّجهه إلى مصر ففتحها مات سنة ٤٣هـ. (انظر طبقات ابن سعد القسم الثاني من الجزء السابع ص ١٨٨، ط، ليدن).

(٧) الغرّ: مفردها (أغر) وهو من الخيل ما ابيضت غرثته، والسّوابق: الخيل، والبهيمات: الليالي السّود.

بحلم تجلّى في أسرّة وجهه وجودٍ تجلّى من طلاقة بشرِه
يمينًا لقد أضحت جلالةُ قدرها على شرف ٱلمقدار من دون قدرِه

سطّرها المملوك بعد ما لبست الوِزارةُ حلّة فخرِها، وسحبتْ ذيل ٱفتخارِها، وبدا معصم شرفها في حلية سِوارِها، وتجلت معانيها بين شموس فضلها وأقمارِها، وجَنينا ٱلغض من زهرِها، والطيّب من ثمرِها، وحَمِدنا جميل تأثيرها وحميدَ آثارِها: [من الطويل]

وحيّتْ على بعد المدى نفَثاتُها بأطيَبَ من رَنْد الرُّبا وعَرارِها[١]

وٱجتلَى المملوك حسناء إحسانِها فما ضارعتْها البدورُ مذ فارقتْ سَرارَها[٢]، ولا الأنجمُ ولو نظم الفَلَكُ أنوارَها، ولا الروضةُ وقد عقدت الغمائمُ[٣] إزارَها، ولا أطلال ميّةَ وقد دَبّجت يدُ الأنواء[٤] أزهارَها، ولا أَرْدانُ عَزَّةَ[٥] «وقد أُوقدتْ بالمَندَل الرطب[٦] نارَها»؛ صلة جاءت كبُرد الشباب[٧]، وبرد الشراب؛ اقتضابًا قبل السؤال، وابتداء الآمال؛ والمملوكُ يحضر عقيبها ليجتلي وجه المنعم قريبًا، ويجتني غصنَ النِّعَم رطيبًا: [من الخفيف]

ومتى لم أَقُم بشكرك للنا س خطيبًا فلا وُقيتُ الخطوبا

وكتب إلى الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حِناء[٨]:

---

(١) الرّند: هو عود يتبخّر به، طيّب الرائحة، أو شجر من أشجار البادية طيّب الرائحة، يستاك به، والعرار: النرجس البرّي.
(٢) السّرار: آخر ليلة من الشهر القمري يكون القمر فيها محتجبًا.
(٣) يريد تشبيه النبت والأزهار حول الروضة بإزار عقدته الغمائم عليها.
(٤) الأنواء: مفردها النّوء: المطر.
(٥) هي عَزَّة صاحبة كُثَيِّر الشاعر المعروف بكُثَيِّر عَزَّة.
(٦) المندل: عود يتبخر به وقد أشار بهذه العبارة إلى قول كثيّر:
بأطيب من أردان عَزَّة موهنًا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها
(انظر الأغاني ١٤/ ٥٩).
(٧) بُرد الشباب: نشاطه وزهوه، والبُرد: كساء مخطّط.
(٨) ابن حنّاء: هو محمد بن محمد بن عليّ بن الصاحب بهاء الدين بن حنّاء المصري وزير الدّيار المصرية، وكان مولده سنة ٦٤٢هـ وتفقه وبرع ونظم ونثر وحدّث بمصر ودمشق توفي سنة ٧٠٧ هـ.

رفع الله قدر الجناب الصاحبيّ التاجيّ في شرف الأقدار، وأجرَى بإرادته وسعادته سوابقَ الأقدار، وألبَسَه حلية الشرف التي هي على رأس رياسته تاجٌ وفي مِعصم سيادته سِوار، وحلّةَ النعم التي ينكمش[١] لأجلها رُدْن[٢] المساءة وينسحب بِمثلها ذيل المَسار، وأمضَى عزائم آرائه التي إذا سَطت يوم البأس نفذتْ نفوذ السهم ومضت مضاء الغِرار[٣]، وإذا سرت في ليل الخطب هدت هدايةَ النجم ووضَحت وضوح النهار، وأمْضَى همّته التي إذا همَّت أغنت عن الأبيض المرهَف والأسمرِ الخطّار، وإذا أمَّت شَأَتْ[٤] ناصيةَ الْحَنْفاء[٥] وبَذَّت قاصيةَ[٦] الخطّار[٧]؛ وأرهف أقلامه التي إذا أجراها أثبتَتْ خَال النِّقس[٨]، في وجنة الطرس، وطَرَّزت بالظلماء أرديةَ الشمس؛ وإذا هزّها أنْستْ هزَّ العوامل، وأصابت مِن الأمر الكُلَى والمفاصل، وإذا أمضاها لنعمة أو لنقمة فللجاني لعابُ الأفاعي القواتل، وللعافي أرْيُ[٩] الجنيَ أشتارته[١٠] أيدٍ عواسل؛ ولا زال ربعه مَربعًا للجلال ومَصِيفًا، ومَرتَعًا لسَوام الآمال وخريفًا، ومَشرَعًا وارف الظلال ورِيفًا؛ وحرمًا آمنًا تُجبَى إليه ثمرات الحمد وتُجْنَى منه ثمرات الرِّفْد، وتقف المعالي عليه «وقوف مطايا الشوق بالعَلَم الفرد[١١]»؛ فإنه الربع الذي وقفَتْ به الآمال وقوفَ غِيلان[١٢] بدار ميّة، وعكفَتْ عليه[١٣] المحامد عكوف تَوبَة[١٤] على حبّ الأخيَليّة[١٥]؛ والجنابُ [الذي][١٦] فاءت ظلالُه وفاضت مواهبُه

---

(١) ينكمش: يتقلّص. (انظر المنهل الصافي نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣).

(٢) الرُّدن: الكمّ من الثوب. (٣) الغرار: حدّ السيف والرّمح.

(٤) شأت: سبقت. (٥) الحنفاء: اسم فرس لحذيفة بن بدر الفزاري.

(٦) القاصية: يراد بها الغاية التي ينتهي إليها الفرس في جريه.

(٧) الخطّار: فرس لحذيفة بن بدر الفزاري.

(٨) خال النقس: النقس: الحبر، والخال: بثرة بارزة في الوجه والجسد أراد ما يتركه الحبر من نقط سوداء تشبه الخال.

(٩) الأريّ: عسل النحل. (١٠) اشتارته: استخرجته.

(١١) العلم الفرد: جبل شرقي الحاجر يقال له: أبان، فيه عيون ونخيل ومياه والعلم: الجبل.

(١٢) غيلان: هو ذو الرّمة تقدّمت ترجمته.

(١٣) ما بين قوسين لم ترد في الأصل والسّياق يقتضيها. . .

(١٤) توبة: هو توبة بن الحُميِّر العامري، أبو حرب، شاعر من عشاق العرب المشهورين، كان يهوى ليلى الأخيلية مات سنة ٨٥هـ. (الأعلام ٢/ ٨٩).

(١٥) هي ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرّحال، وهي من النّساء المتقدمات في الشعر، من شعراء الإسلام، وكان يهواها توبة. (انظر الأغاني ١٠/ ٦٧).

(١٦) لم ترد هذه الكلمة في الأصل والسياق يقتضيها.

ومارت مَذانبه[١]، وجادت سحائبُه، وجلّت شيمه وتجلّت غياهبُه[٢]؛ في روض المعالي الذي فاحت نسائمُه، وناحت حمائمُه، ومَنشإ المجد حيث شاب فأُرخِيَتْ ذوائبه وشبّ فقُطِّعت تمائمُه[٣]، وبيتِ الرياسة الذي إذا دنوتَ حباك بإكرامه وإذا نأيت حيّتك مكارمُه، وصدر السيادة الذي خضعت له الأعناق هيبة «لأَبلجَ[٤] لا تيجانَ إلّا عمائمُه»: [من الطويل]

ولا زال بدرًا في سماء سيادةٍ يشار إليه في الورى بالأناملِ
بسيط مساعي المجد يركب نجدَه من الشرف الأعلى وبذلِ الفواضلِ
إذا سيل أغنى السامعِين جوابُه وإن قال لم يترك مقالًا لقائلِ
محدّد أيّامِ الحياة فكلُّها لطالبِ علم أو لقاصدِ نائلِ

ويُنهِي ولاء مخبوءًا بسويداء قلبِه، موضوعًا بين شَغافه وخِلْبِه؛ وثناءً مسموعًا في محافل الأنام، معلَنًا في صحائف الحمد بألسنة الأقلام، جديدًا على ذهاب الليالي واختلاف الأيام؛ ودعاءً سابَقَ أراعيلَ[٥] الرياح، ووَضحَتْ أنوار إجابته وضوح الصباح، وطار إلى ملإ القبول بقادمة[٦] كقادمة الجناح؛ وتحية إذا واجهتْ وجه الجهام[٧] أمطر، وإذا هزّتْ أعطاف الكَهام[٨] أثّر؛ أرقّ من النسيم السَّحَري، وأعطر من العنبر الشِّحريّ؛ وأصفَى من ماء المَناقع[٩]، وأحلى من «جنَى النحل ممزوجًا بماء الوقائع»[١٠] يرى ذلك في شرع المروءة واضحًا واجبًا...؛ تحيّةَ من أُولي النعمة فشكرَها وعرف العارفةَ وما أنكَرها، وآمن بيده البيضاءِ من غير سوء ومذ آمن بها ما كفرها؛ كيف لا وقد ٱمتزج بحبها لحمُه ودمُه، وسبّح بحمدها قلمُه وفمُه، وجرت شِيَمُ حمده على أعرَق جيادها والخيِّرُ من سبقتْ به إلى شكر المنعم شِيمَهُ؛ لا سيّما

(١) المذانب: مسايل الماء إلى الأرض، أو الجداول تسيل عن الروضة إلى غيرها لتسقيها.
(٢) الغياهب: الظلمات، مفردها «الغيهب».
(٣) التمائم: مفردها تميمة، وهي ما تعلّق في عنق الطفل لدفع العين.
(٤) الأبلج: الذي بعد ما بين حاجبيه من النّاس.
(٥) أراعيل الرياح: أوائلها.
(٦) القادمة: ريش مقدّمة الجناح، جمعها القوادم.
(٧) الجهام: السّحاب لا مطر فيه.
(٨) الكهام: الكليل الحدّ من السيوف، أي الذي لا يقطع.
(٩) المناقع: مجامع الماء.
(١٠) الوقائع: جمع وقيعة، وهي مكان صلب يُمسك الماء.

وقد جنى الطيّبَ من ثمارِها، ووَرد العذب من أنهارِها؛ فلا أعدم الله مولانا صنائعَ الإحسان الذي انعقدتْ عليه كلمةُ الإجماع، وأَنشَده لسانُ المحامد عن شرف الاصطناع: [من الوافر]

فلو صوّرتَ نفسك لم تزدها على ما فيك مِن كرم الطباع[1]

ولا زال اللطف صدَى صوتِه إذا دعا، والنجحُ قرينَ مساعيه أنّى سعى، وحاكمُ الفضل يصدِّق دعواه حَوْزَ كلّ فضيلة كيف ادَّعى؛ حضر المملوك مهنّئًا نفسَه بهنائه، ساعيًا في خدمته سعي الأَجْدل[2] في هوائه، والنجم في سمائه؛ من ملازمة وجهه الذي ألقى الله عليه محبّةً منه فاستنار، واكتَسَى حلّة الحياء فألبسته حلّة الوقار؛ واجتلته المقل فرأت رونق الخفر عليه باديًا، وائتمّتْ به الهداة فألفته نجمًا في سماء السيادة هديًا؛ وقالت الأماني في ظلّه فأنشأ جودُه قائلًا: [من الطويل]

* نزلتُ على آل المهلّب شاتيا[3] *

ورأيتُه والناس موجسون من ليث عليه مهابة فكانوا الكِرْوانَ[4] أَبصَرن بازيًا[5]؛ أبهة الجلالة، وجلالةُ الأصالة؛ وأَصالة الشرف، وشرفُ الفضل الأنف، ورِياسةٌ ورّثها خيرُ سلفٍ لخير خلف، وشيمٌ علّمته في المعالي كيف توَكّل الكتف؛ فصادف ركابَه العاليَ قد استقلّ، وحلّ من دارة العزّ حيث حلّ؛ فأقام رجاءَ أن يعاين أسرّةَ جبينِه، ويقبّلَه كتقبيل الندى في يمينِه؛ وحين جنحت[6] الشمس إلى مستقرّ الأنوار وطوى الفَلَكُ بيدِ القدرة رداء النهار، وأَشرَفَ اليومُ من خشية طيّه على شفا جُرُف[7]

---

(١) الطباع: السّجايا والأخلاق، والبيت لأبي تمام الطائي. (انظر ديوانه: ص ١٧٢، دار صعب).

(٢) الأجدل: الصقر.

(٣) تمام البيت:

نزلت على آل المهلّب شاتيا غريبًا عن الأوطان في زمن المحل

(انظر الأمالي لأبي عليّ القالي ١/ ٤٢، دار الكتب العلمية).

(٤) الكروان: بكسر الكاف وسكون الرّاء: جمع كروان، وهو طائر طويل الرّجلين أغبر دون الدّجاجة في الخلق، وله صوتٌ حسن، يكون بمصر.

(٥) يشير بهذه العبارة إلى قول ذي الرّمة في بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري:

من آل أبي موسى ترى الناس حوله كأنّهم الكروان عاينّ بازيًا

والبازيّ: ضربٌ من الصقور.

(٦) جنحت: مالت.

(٧) الجُرف: شقّ الوادي إذا حفر الماء في أسفله، والشّفا: حدُّه الأعلى.

هار؛ وثَوَّب(١) داعي العصر وحيْعَل(٢)، وعاين نيِّرَ الفلكَ في وجه السماء كعين الأَقْبَل(٣)؛ ثَنَى عِنانَه إلى مَثْوَى قرارِه، وٱنثنى يسابق أدهمَ ليلِه بأشهب نهارِه؛ وعلى الرغم أَخفق مسعاه، ولم يَقْلِ(٤) قلبُه الشوقَ الذي دعاه؛ لكن سار وأقام خالص ولَائه وعاد بعد ما أودع الحفَظَةَ مرفوعَ دعائه؛ فعرّف ٱللهُ مولانا بركاتِ هذا الشهر الذي سارت به إلى إحسانه مطايا أيّامِه، وجعلَه مثبِتًا لحسناته ممحيًا(٥) لآثامِه، وحلّاه بالمقبول من صيامه والمشهورِ من قيامِه؛ وأراه صدرَ برِّه أَثْلَج، ووجهَ بدرِه أَبلَج، وثغرَ ٱبتسامِه عن رضوان القبول أَفلَج(٦)؛ ورقّاه درَجَ تَضاعُفِ حسناتِه، ولقّاه من كرم الله مذخورَ إحسانه وموعودَ هباتِه؛ وأراده الأملَ في بَنِيه، وأرانا فيهم ما رأينا فيه؛ فهو باغُ(٧) العلم وهم أغصانه وشجرُه، ومُطَهَّمُ(٨) السابقين وهم حُجولُه(٩) وغُررُه(١٠)؛ وإني لألمح من مَخايل شرفهم وشرف مَخايِلِهم، وشمائِل شيمهم وشيمِ شمائِلهم؛ نجابةً تضعُهم من الرِّياسة في أنفِها، ومن السيادة بمكان شَنفِها؛ فهم جذوة فضلٍ مُبرِقة، ودوحةُ عِلم مُورِقة ونَبعةُ سيادةٍ مُعرِقة، وشموس معالٍ في أفق كلّ شرف مُشرِقة؛ سمت بهم أَصالة النسب، وفضيلةُ الأدب المكتسَب، وجمعوا بين شرف العمومة والخؤولة في كرم المنتسَب؛ فلِلعلا ألسنٌ تثني محامدها على الحميد من فعلهم وشيمهم، وللندى مواهبُ عُزِيَتْ(١١) مذاهبها إلى العليَّين من كرمهم وهممِهم؛ لا زالت محاسنهم قلائدَ الأجياد وأيَّامُهم مواسمَ الأعياد، وحرمهم المخصب بالمكارم سواء العاكفُ فيه والباد(١٢)؛ إن شاء الله تعالى.

وكتب إلى القاضي شمس الدين الأصفهاني الحاكم ـ وكان بالأعمال القوصيّة ـ رحمهما الله تعالى ـ:

---

(١) ثوّب: ردّد الصّوت، من التثويب. (٢) حيعل: قال: حيّ على الصلاة مثلًا.
(٣) الأقبل: من القبل بفتحتين: وهو في العين: إقبال سوادها على الأنف، أو هو مثل الحول...
(٤) قلى: أبغض وهجر. (٥) ممحيًا: من محاه تمحية أي بالغ في محوه.
(٦) الأفلج: من الفلج وهو تباعد ما بين الأسنان.
(٧) الباغُ: البستان؛ فارسيّ معرب.
(٨) المطهّم: الكريم الحسب، أو المتناهي في الحسن.
(٩) الحجول: البياض في قوائم الفرس.
(١٠) الغرر: مفردها «الغرّة» وهي بياض جبهة الفرس.
(١١) عُزيت: نُميت.
(١٢) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: الآية ٢٥].

أَوْضح الله صنائعَ المجلس في بهيم الآمال غررًا، ونظم أياديَه في أجياد الأيّام دررًا، وصفّى مشارعَ أمانيِّه إن كان مَشرَعُ الأمانيِّ كدِرًا[١]، ولا زال الإسلام يشدو بحمده مفتخرًا، والأيّامُ تتلو مجدَه سُورًا، والشرعُ المحمديُّ يكون بمضائه في ذات الله منتصرًا: [من الطويل]

فـقـد نـشـرت يـمـنـاك أرديـةَ الـعـلا
تُـحـلِّي بـلادَ الله بـالـديـن والـعـلمِ[٢]
وأمـضـيـتَ أمـر الله فـي شـرع أحـمـد
وقَـيّـدتَ شـكـر الله فـي مـطـلق الـحُـكـمِ
وتُرضِي كلا الخصمين في السّخْط والرضا
كـأنـك تُـعطِـي ٱلـخصـم مـا كـان لـلـخصـم

إلى غير ذلك من محاسنَ وضحت وضوح النجم في الليل البهيم[٣]، وسرت إلى الحمد سُرى المُجِدِّ إلى الشرف الصميم، وحدَّثتْ عن مساعيه فجاءت بالنثر البديع والدرّ النظيم، وأَثنتْ عليه ثناءَ وارِف الروض على واكِف[٤] الوَبل بألسنة النسيم: [من الطويل]

وهـزّت جـنـاحَـي فـضـلـه وجـلالـه إلى دَرَك الـعـليـاء من غـاية الـمـجدِ[٥]
وقـالـت مـعـالـيـه لـيَ الـمـجـد كـلُّه فما ٱبنةُ ذي البردين والفرسِ الوَردِ[٦]

(١) المشرع: مورد الماء، والكدر: غير الصافي.
(٢) الأردية: مفردها «رداء» وهو ما يلبس فوق الثّياب كالجبّة والعباءة.
(٣) البهيم: الأسود المظلم. (٤) واكف الوبل: هاطل المطر.
(٥) درك العلياء: إدراكها، ودرك: إسم المصدر من الإدراك.
(٦) ذو البردين: عامر بن أحيمر بن بهدلة، لقّب بذلك يوم اجتمعت العرب عند المنذر بن ماء السماء، وأخرج المنذر بردين يبلو الوفود، وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما واتزر بأحدهما وارتدى الآخر، فقال له المنذر: أأنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: العزّ والعدد في معدّ ثمّ في نزار ثمّ في مضر ثم في خندق ثمّ في تميم ثم في سعد ثمّ في كعب ثم في بهدلة فمن أنكر هذا فلينافرني أي يفاخرني فسكت الناس، فقال المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت في أهل بيتك وفي نفسك؟ فقال: أنا أبو عشرة وخال عشرة وعمّ عشرة، وأما في نفسي فشاهد العزّ شاهدي» ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل، فلم يقم أحدٌ من الحاضرين ففاز بالبردين. (انظر ديوان حاتم الطائي ص ٣٥، دار الهلال) والشّعر لحاتم. . .

فلا عدمه الإسلام إمامًا فاضلًا، وحَكَمًا فاصلًا، وساعيًا إلى غايات الفضائل واصلًا، وفاعلَ حسناتٍ صيَّر الحاصل من ثنائه باقيًا والباقيَ من عملِه الصالح حاصلًا؛ المجلس - أدام الله أيامه - يعلم أن الأيام مسّتني بحدّ شَباتِها[١]، ورمتني عن قوس أذاتِها، وجنتني الحنظلَ[٢] من شَجَراتِها، والمرَّ من ثمراتها، وأَضرمتْ من نار ألمي ما لم تُطفئه مقلتي بفيض عبراتِها: [من الطويل]

كأني لم أَطلُع بأفق سمائها ... ولَم أتقلّب في ثياب سماتِها

ولم أكُ منها في سويداء قلبها ... مَخايلَ من هدى العلا وهداتِها

- أستغفر الله - فإنها اُسترجعتْ ما لم يكن مستحَقًّا، وأبقت إن شاء الله لمجلسه السامي ما كان حقًّا، وأسكنَتْه - أدام الله نعمته - وفَلَكَ السعادة شرقًا ومَطلَع الشمس أفقًا، وأحلَّته من كَنَف السيادة قلبًا ومن رأس الرِّياسة فَرْقًا[٣]: [من الطويل]

وتُطلِعه الآمال خيرَ غمامةٍ ... فتُلمِعُه بَرقًا وتُوكِفُه وَدْقا[٤]

وتبقيه للدين الحنيفيِّ عصمةً ... وللهَدْي والإضلال إن أبهَما فَرْقا[٥]

وتُبرِزُه في صدر كلّ فضيلة ... كما بَذَّ شأوَ الفاضلين بها سَبْقا[٦]

حضر مملوكُ مولانا الولَدُ وقد[٧] رَفع من المحامد الشمسيّة لواء، والتَزَم العبوديّةَ والإخلاصَ وَلاء، وعَمَر الأفنيَةَ ودادًا والأنديةَ ثناء؛ وقال: أحسن مولانا حين أساءت الأيام، وأَولى نعمةً حاتميّةً وإنها أشرفُ الإنعام: [من الطويل]

وما ليَ لا أُثنِي عليه بصالحٍ ... وأشكره والشكرُ بعضُ حقوقِه

وأملأ من حسن الثنا كلَّ مَسمَعٍ ... وإنّي لأَخشى بَعدُ إثمَ عقوقِه[٨]

---

(١) الشَّباة: من السّيف والعقرب. حدّه وطرفه.

(٢) الحنظل: نبات ثمرته في حجم البرتقالة ولونها؛ فيها لبٌّ شديد المرورة.

(٣) الفرق: الزيادة والتمييز، والفرق: الزيادة والتمييز، والفرق: الخطّ الفاصل بين صفّين من شعر الرأس.

(٤) الودق: المطر شديده وهيّنه.

(٥) الفرق: ما يميّز أمرًا عن أمر.

(٦) بذّ: غلب وسبق وتفوّق.

(٧) لم ترد هذه الكلمة التي بين قوسين، والسّياق يقتضيها.

(٨) الثنا: الإطراء والمديح، والعقوق: نكران الجميل والمعروف ومعصية الوالدين.

ثم سار وقلبي يتبَعُه، ودمعي يشيّعُه، ولساني يستحفِظه ٱللهَ ويستودِعُه؛ وعليه من الديون ما أحاط به إحاطة الجفون بمقلِها، والأغمادِ بمُنصلِها[١]؛ لتَوالِي هذه المغارمِ التي طَمّ جُداها[٢]، والمظالِم التي عَمّ رداها، والمحنةِ التي مَلَكَتْني يداها؛ من خراج طَمى بحرُ ظلمِه، وزاد على حدّ الجور رسمُه وخُصِصتُ من بين هذا العالم بوَسمه[٣]؛ للزوم قام بوصفي فتبعه لازمُه، ومعنًى وجب لذاتي فاستحال عَدمُه؛ وقد كان المملوك وولدُه فيما سلف يجودان بما يَجِدان لقانع ومُعترّ[٤] وغنيّ ومضطرّ؛ صيانةً للأعراض مِن أعراضِ اللّوم، ورغبةً في صِلة حمدِ الأمس بفائد[٥] اليوم؛ وسجيّةَ نفس تأنف من عَلاقة الذم؛ وإن كان هذا فيما لا يجب فالقياسُ فيما يجب انبعاثُ النفس إليه مِن حَتْم المروءة أَمضَى، والدّينُ بأداء الواجب أقضى؛ لأنه مؤيَّد بإبرام الشرع، وقد صحّ هذا القياس بجامعيّة الأصل والفرع؛ لكن ضاقت يد القدرة عن نفاذِها، واعتاضت من وابل[٦] الثروة برذاذِها[٧]؛ وإذا توافرت القرائن أفادت فوق ما تفيد غلباتُ الظنون من مَدار الشرعيّات عليها، وانتهاءِ غالب الأحكام إليها؛ وقد كان المملوك حرّك عزائم سيّدنا قاضي القضاة ـ شرّف الله قدرَه، وأدام على الإسلام أمرَه ـ إلى تَحرّيها العلومَ الكريمةَ بما هي عالمة، وحُكمها بما هي حاكمة؛ ليكون[٨] له مستنَد يدفع أقوال المتعرّضِين، ويصرف ٱعتراضَ المعترِضين؛ ولئلّا يقفَ له واقف فيجرِيَ قلمه الشريف بأمرٍ حازمٍ يجب الوقوفُ على مثالِه، والمسارعَةُ إلى ٱمتثاله؛ فيعزّ ٱستدراكِ الأمر بعد إحكامِه، ويكون السعيُ في معارضته كالنقض لأحكامِه؛ فكتَبَ بما يقف مولانا عليه، وتشير مروءتُه وديانتُه إليه؛ ويقرِّر مع نائبه ما يقف عنده، ولا يتجاوز حدَّه؛ غير ذاكرٍ عن مولانا منعًا ينفِر عنه الرُّواة، ولا مشنِّع بكتّاب سيّدنا قاضي القضاة؛ بل يكون كالشافع، إذا صمّم الخصمُ ٱعتذر بما هو لهذه المصالح

---

(١) المنصل: السّيف.

(٢) طمّ جداها: الجداء: بضمّ الجيم: مبلغ حساب الضرب كقولك: ثلاثة في ثلاثة جداؤها تسعة، وطمّ: زاد، يريد: زاد مبلغ حساب هذه المغارم.

(٣) الوسم: أثر الكيّ.

(٤) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: الآية ٣٦]، والقانع: هو الذي يقنع بما أعطي، والمعترّ: هو يتعرّض لك ولا يسألك...

(٥) الفائد: المستفاد يقال: فادت لفلان فائدة: أي حصلت.

(٦) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر.

(٧) الرّذاذ: المطر الضعيف، أو السّاكن الدائم الصغير القطر كأنّه الغبار.

(٨) ليكون: أي ليحصل ويثبت.

كالجامع؛ ليكون المملَّكَ في إرضائه بحسب الإمكان ويَرَى الخصمُ ما أخذه بعد اليأس نوعًا من الإحسان؛ فالنفوس إذا مُنِعتْ كلَّ المنع طَلبَتْ كلَّ الطلب، وتعلّقَتْ في دَرَك أغراضها بكل سبب؛ وإذا أُخذتْ بالكَلام البيّن، وعوملَتْ بالسهل الليّن؛ بَعْد دَرءِ[1] سَورتها[2] بالمنع، ودفعِ شهوتِها بالدفع؛ اتَّسَق حُكم الأشياء وانتظم، وانشعب صَدعُ هذا الجرح والتأم؛ وجرَى الأمرُ على سداد بحفظ النظام وحفظِ الحرمة والحفظ للشارع، ولذلك قال: «أقيلوا[3] ذوي الهيئات عثَراتِهم» لا سيما مع شهادات ضروراتِهم؛ بَسَط الله يمينَ سيدنا في المعالي كما بسط لسانَه في المعالم، وقيَّد عليه لسان المحامد كما أطلق يدَه بالمكارم؛ وعليه تحية الله التي تُوالي عليه نفحاتِها، وتُهدِي إلى آماله العاليَ [من][4] مقترحاتِها.

وكتب إلى شهاب الدين محمود متولي سَمهودَ[5] من عمل قوصَ ـ وكان بينهما مودّة، فاستدعاه للسلام عليه ـ فكتب: [من الطويل]

إلينا فإنا قد حللنا بأرضكم ... على فرط شوقٍ لابن عثمان دائم

وزرناك محمودًا كما زار أحنفٌ ... لنَيل الأماني ربعَ قيس بن عاصمِ[6]

ولسنا بغاةً للندى والتماسه ... وإن كنتَ معروف الندى والمكارِم

ولكن وفاءً بالإخاء لمن وفَى ... وقد خان حتى حدُّ سيفي وقائمِي

وجدتك ذخري والزمانُ محاربي ... كما كنتَ عَوني والزمانُ مسالمِي

فلا غرو أن أثني إليك أعنّتي ... كما قد ثنت يمنايَ خِنصَرَ خاتَمِي

يُهدى إلى المجلس السامي الشرفيّ تحيّةَ الله التي تحملها أنفاس النسيم معطّرةً بعَرْف الرياض، مكلَّلةً بأندية الكرم الفيّاض؛ تغاديه في السحر والمَقِيل، وتُراوحه في

(١) الدرء: الدَّفع بشدة. (٢) السّورة: الحدّة.

(٣) أقيلوا عثرتهم: يقال: أقال عثرة فلان: أي أنهضه من سقوط وصفح عنه.

(٤) ما بين قوسين زيادة على الأصول فالسّياق يقتضيها.

(٥) سمهود: يقال: سمهوط، قرية كبيرة على شاطىء غربي النّيل بالصعيد دون فرشوط. (معجم البلدان ٣/ ٢٥٥).

(٦) محمود: هو الشّهاب محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الدمشقي، أديبٌ كبير وشاعر، ولد بحلب وولي الإنشاء بدمشق وانتقل إلى مصر فكتب بها في الديوان له تصانيف كثيرة مات سنة ٧٢٥ هـ. (الأعلام ٧/ ١٧٢). والأحنف: هو الضحّاك بن قيس، ويكنى أبا بحر، يضرب به المثل في الحلم، شهد صفين مع عليّ عليه السلام. مات بالكوفة سنة ٧٢ هـ. (الأعلام ١/ ٢٧٦). وقيس بن عاصم: هو قيس بن عاصم المنقري سيّد أهل الوبر تقدّم ذكره.

الطَّفَل[١] والأصيل، وتشاهد محاسنَه المقل أَحسَنَ من محاسن بثينة في وجه جميل؛ وأثنيتَه[٢] التي تنتظم في الأجياد ٱنتظامَ القلائد، وتَرِد على الأسماع ورود الهِيم[٣] على عِذاب المَوارد؛ ويوليه من حبِّه مزيّةَ الاختصاص، ومن مُوالاته السوانحَ[٤] التي لا تمتد إليها يد الاقتناص؛ فهو نسيم الأنس، ومسرّةُ النفس، وذخرُ اليوم والأمس؛ مصعبيُّ الهمم، مهلّبيُّ الشيم، حاتميُّ الكرم؛ فاق أخلاقًا، وراق أعراقًا؛ وسما نفسًا، وطلع في سماء الشرف شمسًا: [من الطويل]

وأَلـفـيـتُـه فـي نـفـسِـه وولائـه   وحسنِ معانيه كما ٱنتظم الدر
وضـاع شـذا أنـفـاسـه فـانـتـشـقـتُـه   على النأي منه مثلَما ٱبتسم الزهرُ[٥]
ولاحـت مـعـالـيـه بـآفـاق مـجـدِه   كما لاح في ليل التِّمام لنا بدرُ

لا حُرِم إتياني إليه، وإيثارَ تسليمي عليه؛ مع أني كنت أعهد له خلوةً حلوةً مع الله ووقفةً على بابِه، والتجاءة في جنح الليل إلى جنابِه، ودمعةً يرسلها إذا ٱسترسل في محرابِه؛ وضراعةً يتابعها خشوعُه، وزفرةً يشتمل عليها قلبه وتفرّق عنها ضلوعُه: [من الطويل]

فيا ليت شعري هل أقامت بثينةٌ   على عهدها أم قد ثنتها الشواغلُ
وهـل ذلك الـودّ الـذي كـان بيننا   بوادي الخزامى مثلُ ما كان أوّلُ[٦]

وكتب إليه - رحمهما الله - يستدعي منه ثلاث أسهم ومليات[٧] - وقد أوردنا بعض هذه الرسالة في الفن الأوّل - في السواقي، ونُوردها في هذا الموضع بجملتها

---

(١) الطّفل: إقبال الليل على النّهار بظلمته، أو الوقت قبيل الغروب...
(٢) الأثنية: جمع ثناء. (٣) الهيم: الإبل العطاش.
(٤) السّوانح: مفردها «السّانح» وهو من الطير ما يمرّ من يسار الرّائي إلى يمينه.
(٥) ضاع: انتشر، وضاع الشذا: عبق وانتشر.
(٦) لم يلتزم الشاعر هنا ألف التأسيس، وهي التي يكون بينها وبين الرويّ حرف متحرك، ويجب على الشاعر التزامها اتفاقًا. (انظر الحاشية الكبرى للدمنهوري على متن الكافي ص ١١٧، ط، بولاق).
والخزامى: جنس نبات من الفصيلة الشفوية، أنواعه عطرة، من أطيب الأفاويه.
(٧) المليّات: يريد بها الكاتب: أوانٍ من خزف يستخرج بها الماء من السّواقي وتسمّى هذه الأواني: القواديس. (انظر مستدرك التاج، مادة قدس).

لتكون متتابعة يتلو بعضُها بعضًا: [من الكامل]

والسيفُ يُندَب في الوغى فيهزّه نَدْبُ الكميِّ إلى مضاء غِرارِهِ[١]

والحرُّ أَولى بانتداب خلالِه لمؤمِّلٍ فيه قضا أوطارِهِ[٢]

فلذلك حرّكتُ العزائمَ العاليةَ المولويّةَ الشرفيّةَ - أدام الله علاها، ورفع لواها وأودع أسماعَ الأنام ثناها؛ ولا زالت مرفَّهةَ السرائر، منوَّرةَ الضمائر، سائرةً في قطب المعالي سير الفَلَك الدائر، آخذةً بحظها من شرف المفاخر، جامعةً بين دَرَك إحسان الله في اليوم الأوّل واليوم الآخر - تحريكَ الطَّسْميّة[٣] عزائمَ الأسوَد بنِ عَفار[٤] وبعثتُها إلى إنالة الأمل انبعاثَ الهمم العربيّة يومَ ذي قار[٥]، واستَجشتُ[٦] عزائمها استجاشةَ رسول الله ﷺ عزائمَ الأنصار، واستنجدتُها استنجادَ العثمانيّة بالهاشميّة يوم الدار[٧]، واستحثثتُها سرعةَ الإجابة استحثاثَ أَدهمِ[٨] الليل أشهبَ[٩] النهار؛ فإنها للتي ثَنَيتُ عليها خِنصَرَ الاعتماد، وصرفتُ إليها عَقيدةَ الاعتداد، وجعلتُها من القلب في سويدائه ومن المقلة في السواد، واعتمدتُ عليها اعتمادَ بكرٍ على الحارث بن عُبَاد[١٠]؛ لا

(١) يندب: يوجّه، وندبُ الكمي: توجيهه، والغرار: الحدّ.

(٢) الأوطار: الحاجات...

(٣) الطسميّة: لعلّه يريد «الجديسيّة» لأن الذي حرّك الأسود بن عفار للذود عن شرفه وشرف قومه هي عفيرة أخته، وهما من جديس لا من طسم... وطسم: قبيلة من العرب البائدة...

(٤) الأسود بن عفار من جديس، وهو الذي خطب في قومه وائتمروا بطسم وملكهم الذي كان يفتضّ كلّ فتاة قبل زوجها، فصنعوا طعامًا ودعوا إليه ملك طسم وقومه ودفنوا سيوفهم في الرمل، فلمّا حضروا وجلسوا إلى الطعام أخذتهم سيوف جديس فلم تبقِ منهم أحدًا. (انظر تفصيل هذه القصة في الكامل لابن الأثير ١/ ٢٥٢، ٢٥٣، ط، ليدن).

(٥) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، به كانت الوقعة المشهودة بين بكر بن وائل والفرس، وهو أوّل يوم انتصف فيه العرب من العجم. (معجم البلدان ٤/ ٢٩٤).

(٦) استجاش: استنفر.

(٧) يوم الدّار: يريد دار عثمان بن عفّان رضي الله عنه حين حوصر فيها وقتله الثوار وذلك سنة ٣٥ هـ.

(٨) الأدهم: الأسود.

(٩) الأشهب: ما كان لونه الشهبة وهي بياض يغلب على السّواد.

(١٠) هو الحارث بن عبّاد أحد فرسان بني بكر بن وائل المعدودين، وكان قد اعتزل الحروب التي وقعت بين بكر وتغلب، وهي المسمّاة بحرب البسوس ثم شهدها بعد ذلك لما قتل مهلهل بن ربيعة ابن أخيه بجيرًا وقال حين قتله: بؤ بشسع نعل كليب» فغضب الحارث عند ذلك وقال:

قربا مربط النعامة منّي إن قتل الكريم بالشّسع غال

(انظر تاريخ ابن الأثير ١/ ٣٩٤ - ٣٩٥).

جرم أنها والحمد لله تعالى ساعيةٌ لآمالي متى استَسعَيتُها، وصدَى صوتي متى دعوتُها وفاتحةُ كتابِ المحامد متى تلوتُها؛ وأعيذها بالله أن تَنكُب عن قضائها، أو تقفَ دون غاية انقضائها؛ وإنها لأورقُ[1] فرعًا من أفنان السَّلَمة[2]، وأرْشَقُ أصلًا في الوفاء من أصل السَّلِمة[3]، وأرْشَقُ سهمًا في كنانة سَلِمة[4]، وأوْثَقُ في حفاظ المودّة من ابن شُبْرُمة[5]؛ يقينٌ أحطتُ بأنبائه، إحاطةَ رسول ابن داود[6] يوم إنبائه؛ فلا أشكّ في شرف نفسِها وسموِّ نجمها ووضوحِ شمسِها، وزيادةِ يومها في الوفاء على أمسِها، كما لا تشكّ الإياديّة في فصاحة قُسِّها[7]، ولا العامريّةُ[8] في عَلاقة قيسِها؛ وقد تَوجَّه إليه حاملُها لحمل السهام التي أَسهمتْ له مِن الموالاة[9] أوفرَ أقسامِها، ونَشرتْ رداءَ ذكرِه على أفئدة قلوبها وألسنة أقلامِها؛ عند اشتداد الحاجة إليها، وجَرِّ ثِقلِ السواقي عليها؛ وحركةِ الحرّ التي حلّت شمسُهُ بُرجَ حَمَلِها[10]، وتوالت جيوشُ جنودِه بين صدور ظُباها وأطرافِ أَسَلِها[11]؛ تجفِّف أنداءَ الثرى، وتُعيد عنبرَ الأرض عِثْيَرا[12]، وتُشيب مَفارِقَ نَباتِها، وتُذيق المماتَ أكباد حَبّاتِها؛ فاستَنصَر العزائمَ العاليةَ المولويّةَ الشرفيَّةَ في إطفاءِ لهبِهِ واقتَضينا إعانته قَبل انتضاء قُضُبِه، وبعثْنا لمحلّ الهمة الشرفيّة قبل سطوتِه على قَضْبِه[13] وقَصَبِه؛ لتجري جداولُها على صفحة الثرى مستفيضة، وتُجنَى ثمراتُ رياضها من أنداء همّته أَريضة[14]؛ وتغازِل مقلُ النفوس لحظاتِ أزهارِها، وتفتِن أفنانُ[15]

---

(١) أورق: من ورق الشجر يرق، والأكثر في هذا الفعل «أورق».

(٢) السَّلَمة: شجرة ذات شوك يدبغ بورقها وقشرها، وورقها يسمّى القرظ ولها زهرة صفراء فيها حبّة خضراء طيّبة الرّيح تؤكل في الشتاء وتحضر في الصيف.

(٣) السَّلِمة: بكسر اللام: الصخرة، يريد أنه ثابت العهد على الأيام ثبوت الصخر.

(٤) سلِمة: بطن من الأنصار.

(٥) ابن شبرمة: لعل المراد بابن شبرمة: سعيد بن النضر بن شبرمة الحارثي الكوفي، من المحدّثين. (انظر مستدرك التاج).

(٦) أراد برسول ابن داود: الهدهد، وقصته مع نبيّ الله سليمان بن داود صلّى الله عليهما وسلّم مشهورة. (انظر القرآن الكريم سورة سبأ).

(٧) يريد قسّ بن ساعدة الإيادي، الخطيب المشهور.

(٨) العامرية: يريد ليلى العامرية التي أحبها قيس وعرف بها.

(٩) الموالاة: يقال: والى فلانٌ فلانًا: إذا أحبّه وصادقه.

(١٠) الحمل: من بروج السّماء، وهو أوّل البروج. . .

(١١) الأسل: الرّماح.

(١٢) العثير: الغبار.

(١٣) القضب: كل نبات يقتضب فيؤكل طريًا غضًّا.

(١٤) الأريضة: المعجبة للعين.

(١٥) الأفنان: الغصون.

فنونها بنَوح بلبلها وهَزارِها[١]، ويبوح شذا الروض عن سرِّها وآثارِها؛ هذا مع أنّها خَطبتْ حُسنَ إحسانه، وتقلّدتْ جميلَ برّه وجزيلَ ٱمتنانِه؛ والربيع منَمنَم العذار، مُوشَّى الإزار؛ قد لبس رداء شبابِه، وماسَ في خَضِرِ ترابِه وخَضِلِ رَبابِه[٢]؛ يهزّ أعطاف سَنائه، ويَخطِر في بُرد هوائه وبَرد مائه فكَلل وجناتِ نَوْرِه بَبَرد أندائه؛ والثرى عنبريُّ الأديم[٣]، سَحريُّ النسيم، رَنْديُّ الشميم؛ موشّحٌ بقلائد غدرانِه، مغازِلٌ بعيون نرجسِه بسّامٍ بثغر أُقحُوانِه؛ لا يغرّد ذبابُه ولا يطرِّب، ولا يَصِرّ[٤] بسُحُراته الجُندُب؛ تطلُع شمسه محتجبةً في ضبابِها، مقنَّعةً مِن سحابِها؛ جاريةً في أثناء حُبُكِها[٥]، جائلةً في أدنى فَلَكِها؛ تسعى فتُسرِع، وتكاد أن تغرب حين تَطلعُ؛ والجوّ معقود الأزرار، فاختيُّ[٦] الإزار؛ غَيمُه منسكب، ونُورُه منسحب؛ وليلُه يضمّ أطراف نهاره، ويلفّ وجهَه في حاشية إزارِه؛ يَنفِي القذاةَ عن مائِه، ويَجمع الحواسَّ على جَلْوائه، ويُعشِي المقل من ضوء سَنائه: [من الطويل]

فلو أنّ ليلى زارني طيفُ أنسها ... وماءُ شبابي قاطرٌ في ذوائبي
ضَممتُ عليها البرد ضمّةَ آلفٍ ... وألصقتُ أحشائي بها وترائبي[٧]
ولكن أتتني بعد ما شاب مَفرِقِي ... ووَدّعتُ أحبابي له وحبائبي

والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثة أسهم، كأنها هَقْعةُ[٨] الأنجُم؛ ممتدّة ٱمتداد الرمح، مقوَّمة تقويم القِدْح؛ غير مُشعَّثةِ الأطراف، ولا معقَّدةِ الأعطاف، ولا مسوَّسةِ الأجواف؛ تُحاسِن الغصون بقوامِها، والقدودَ بتمامِها؛ وتُخالِف هيفَها بامتلاء خصورِها، وتُساوِي بين هَواديها وصدورِها؛ معتدلة القدود، ناعمة الخدود؛ مع مليات[٩] أخذت النار فيها مَأخذَها فاسودّتْ، وتطاولت عليها مدّةُ الجفاف فاشتدّتْ؛

(١) الهزار: طائر حسن الصوت «فارسي معرّب» يقال له: هزاردستان لأنّه يغنّي ألحانًا كثيرة.
(٢) الرّباب: السّحاب. (٣) الأديم: الجلد.
(٤) الصرّ والصرير: صوت الجندُب. (٥) حبك الشمس: طرائقها، الواحد حبيكة.
(٦) الفاختي: نسبة إلى الفاختة، وهي ضربٌ من الحمام المطوّق لأن لونها يشبه الفخت، وهو ضوء القمر. . .
(٧) ترائب: مفردها «تريبة» وهي موضع القلادة من الصدر.
(٨) هقعة الأنجم: ثلاثة كواكب فوق منكبي الجوزاء كالأثافي، إذا طلعت مع الفجر اشتدّ حرّ الصيف.
(٩) المليّات: يريد بها الكاتب أوان من خزف يستخرج بها الماء من السّواقي، وتسمّى بالقواديس».

وترامت بها مدّة القِدَم، كأنها في حيّز العدم؛ صِلاب المَكاسر، غِلاظ المَآزر؛ تشبه أخلاقَه في هيجاء السِّلم، وتَحكِي صلابة آرائه في نفاذ الرأي ومَضاء العزم؛ تَكظِم[1] على الماء بقَبضها، فتجود على الأرض بفَيضِها؛ تمدّ يَد أيدِها[2] في ٱقتضاء إرادتها، وتَطلُع طلوعَ الأنجم في فَلَكِ إدارتِها؛ وتُعانِق أخواتها معانَقَةَ التشييع[3]، فآخرُ التسليم أوّلُ التوديع؛ على أنها تؤذِن بحقائق الاعتبار، وتَجرِي جَرْيَ الفَلَك المُدار في فَناء الأعمار: [من الطويل]

تَمرّ كأنفاس الفتى في حياته ... وتسعى كسعي المرء أثناء عمرِه
يفارق خلٌّ خلَّه وهو سائرٌ ... على مِثل حال الخَلّ في إثر سيرِه
ويُعلِمه التَّداورُ لو يعقل الفتى ... بأن مرور العمر فيه كمَرِّه
فمن أدركتْ أفكارُه سرَّ أمرها ... فقد أدركت أفكارُه سرَّ أمرِه
ومن فاته الإدراك أدركه الردى ... إذا جُرِّعتْ أنفاسه كأسَ مُرِّه

هذه آخر خَطَوات القلم، ومنتهى خَطَرات[4] الكَلِم؛ فقُم في سرعة وصولِها وتعجيلِ رسولِها: [من الطويل]

بعزمٍ غدا يُنسِي لمروانَ عَزْمَه ... براهِطَ إذا جاشت عليه القبائلُ[5]

غيرَ معتمد عليه، ولا مفوِّض أمرًا إليه؛ فلَم أعتمد عليه ٱعتماد الصُّوفة[6]، وإنما هو العِماد عند أهل الكوفة[7]؛ وإنما هو حمار سَير، وذَنَب طَير؛ يَحمِل ورقة مطويّةً عن عِلمِه، مزويّةً عن فهمِه؛ «كما يحمل الزَّندُ[8] الشرارَ إلى العَظْم» والله تعالى يُحلّه من السعادة أشرفَ آفاقِها، ويحرسه في طَفل[9] الشمس وإشراقِها:

---

(1) تكظم: تحبس.
(2) الأيد: القوّة.
(3) التشييع: التوديع.
(4) الخطرات: ما يخطر على الفكر والبال.
(5) مروان: هو مروان بن الحكم أحدُ خلفاء بني أميّة، وراهط: موضع في الغوطة من دمشق. (معجم البلدان ٣/ ٢١) ومنع من الصّرف للعلميّة، يريد معركة مرج راهط المشهورة بين مروان بن الحكم، وأتباع عبد الله بن الزبير، وكان النصر فيها لجيش مروان.
(6) لعله يريد اعتماد أهل الصّوفة: أي أهل التصوّف الذين يعتمدون في الأمور التي تفوّض إليهم على خالقهم ويسلّمون له في كلّ أمر، ويقال: إن الصوفيّة منسوبة إلى الصّوف.
(7) العماد عند أهل الكوفة: هو المسمّى بضمير الفصل عند البصريين مثل «هو» في زيد هو قائم، وتسميته عماد لأنّه يحفظ ما بعده حتى لا يسقط عن الخبريّة كالعماد في البيت الحافظ للسقف من السقوط، وأهل الكوفة: أهل المذهب الكوفي في النّحو...
(8) الزّند: العود الأعلى الذي تقدح به النّار.
(9) طفل الشمس: الوقت قبل غروبها.

[من الطويل]

ويُجريه من ألطافه نحو غاية تُبلّغه الألطافِ حلوَ مَذاقِها
ويُلبِسه فخرَ السيادة والعلا كما لبسَتْ أسماءُ فخرَ نطاقِها(١)

إن شاء الله تعالى.

ذكر شيء من إنشاء المولى القاضي الفاضل البارع الأصيل الأجلّ محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر(٢) رحمه الله تعالى

كان رحمه الله من أجلّ كتاب العصر، وفضلاءِ المصر؛ وأكابرِ أعيان الدُّوَل والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأُوَل؛ له من النظمِ الفائق ما راق صناعةً وحُسنًا، ومن النثرِ الرائق ما فاق بلاغةً ومعنى؛ فقصائدُه مدوَّنةٌ مشهورة، ورسائلُه بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة؛ وكلامُه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجّة، وطريقُه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضحُ مَحَجّة؛ وهو رحمه الله ممن عاصرتُه ولسوء الحظ لم أشاهدْ محيّاه الوسيم، ولم أفُز بالنظر إلى طلاقة وجهه الكريم؛ والذي أُورده من كلامه هو ممّا نقلتُه من خطِّه، وتَلقَّيتُه ممّن سمعه مِن لفظِه؛ فمن كلامه - رحمة الله عليه - ما كتبه عن السلطان الملكِ الظاهِر ركنِ الدين بيبرس الصالحيّ - رحمه الله - إلى ملك الغرب، كتب:

تحيّاتُ الله التي تَتابَع وفودها وتَتوالَى، وتشرق نجومُها وتَتلالا، وتنفق إسرافًا ولا تخاف من ذي العرش إقلالًا؛ تخصّ ٱلحضرةَ السنيّةَ السَّريّة، العالمِيّةَ العادليّةَ المستنصريّة؛ ذخيرةَ أميرِ المؤمنين، وعصمة ٱلدنيا والدين، وعُدّة الموحّدين؛ لا زالت سماؤها بالعدل مُغدِقةَ الأنواء مُشرِقةَ الأنوار، ورياضُها بالفضل مُورِقةَ الأغصان مُونقةَ الثّمار؛ ولا برحتْ ضَوالُّ الأماني في أبوابها تُنشَد، وقصائدُ

---

(١) أسماء: هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت تلقب بذات النّطاقين، لأنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل الطعام في الآخر إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر الصّديق في الغار وقيل: إن النبيّ عليه السّلام لمّا خرج وأبو بكر مهاجرين قطعت أسماء من نطاقها وأوكت به الجراب فسمّيت لذلك ذات النطاقين. (انظر طبقات ابن سعد ٨/١٨٦).

(٢) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي السّعدي، أبو الفضل، قاضٍ أديب مؤرّخ من أهل مصر مولدًا ووفاة كان كاتبًا للإنشاء في الدّيار المصرية، له كتب منها «الرّوضة البهية الزاهرة في خطط المعزّيّة القاهرة» مات سنة ٦٩٢هـ. (الأعلام ٤/٩٨).

القُصُود[١] في اتصافها تُنشد؛ وسُري الآمال عند صباح أمرها يُحمد، وأحاديثُ الكرم عن جودها تُرسَل وإلى وجودها تُسنَد؛ وسلامُه الذي يكاثر نسيمَ الروض الأنيق، ويفاخِر جديدُه عتيقَ[٢] المسك وأين الجديد من العتيق؛ يغادِيان تلك الأنداءَ[٣] المباركةَ مُغاداةَ[٤] الغوادي من وابل المطر، ويراوحانِها مُراوَحةَ الرِّقّة للأُصُل والبُكَر؛ حيث العزّة القعساءُ[٥] يمتدّ رواقُها، والنعمةُ الغرّاءُ تُخصَف[٦] أوراقُها، والدِّيمةُ الوَطفاءُ[٧] يَتوالى إغداقُها، ويتَتالى إغراقُها؛ وحيث العدل منشور الجناح، والحقُّ مشهور السلاح، والإنصافُ مبرورُ الأقسام لِطالِبه باقٍ لا يزاح؛ سجيّةٌ تتوارث تَوارُثَ الفخار، ومزيّة تَستأثِر بالهداية ٱستئثارَ النجوم بالأنوار، وشِيم تُستصحَب ٱستصحابَ الأهلّة للإبدار؛ فلذلك يَتلفّت الأمل إليها تلفُّت الساري إلى تبلُّج الصباح، ويرتاح إلى تَلقِّي إحسانها ٱرتياحَ الظامىء إلى ارتشاف الماء القَراح، ويَحتمِي بها في المطالب ٱحتماءَ الليث بالغابة، ويَستمِدّ إسعافَها ٱستمدادَ الحديقة من السحابة؛ ويهزّ عَدلها كما هَزّ الكميُّ المُرْهَف، وينبِّه فضلَها تنبيهَ النسيم جفن الزهر الأَوْطَف[٨]؛ فيناجِي بالجُؤور[٩]، ويَلتمِسُ لها حسنَ الصنع الذي لا يزال مبتسمَ الثغور؛ فما قَصَّ عليه من مناجاتِه، وطَوَى عليه طَويّةَ مفاوضاتِه؛ أنّ القاضيَ زينَ الدين بنَ حَباسةَ من بيتٍ أَسلَف سلفُه جميلًا، وغدا هو على مكارمه دليلًا؛ وكان له غلام قد سيَّر معه جملةً... والاحتفالُ الحفيُّ[١٠] مسؤولٌ في تقدّمِ يجيب النجاحُ داعِيَه، ويغدو الفلاحُ مُراوِحَه ومُغاديَه؛ وٱعتناءٍ يستخلص حقَّه ممنْ عليه ٱعتَدَى، ويَرَى مِن قبسِه نورًا يجد به هدى[١١]؛ فببارقةٍ يضيء لديه

(١) القصود: جمع قصد، وجمع القصد موقوف على السّماع.
(٢) عتيق المسك: قديمه.
(٣) الأنداء: جمع النادي، وهو القوم المجتمعون.
(٤) المغاداة: من غادى، وغادى المكان: أتاه باكرًا.
(٥) القعساء: الممتنعة الثابتة.
(٦) تخصف أوراقها: أي تتصل أجزاؤها اتصالًا لا انقطاع له، وخصف الورق والنعل: أوصل أجزاءهما بعضها ببعض.
(٧) الوطفاء: المسترخية، أو الدائمة السحّ للقطر.
(٨) الأوطف: المسترخي، يريد تشبيه الزّهر في سكونه بالجفن الذي غشيته سِنةٌ من الكرى.
(٩) الجؤور: جمع جأر، مصدر جأر يجأر: إذا دعا وتضرّع.
(١٠) الحفيّ: المبالغ في البرّ والإكرام...
(١١) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [طه: الآية ١٠].

الحالك، وبلمحةٍ يَهتدِي «بحيث ٱهتدت أمُّ النجوم الشوابك»[١]؛ وما هو إلا رسمٌ يرسم به وقد قرب البعيد، وآب الشريد؛ وخاف الخائف، وكَفَّ الجانف[٢]؛ وجُمِعت الضَّوالّ، وضاق على المختزِل[٣] واسعُ المَجال؛ مَهابة قد سكنت القلوب، وسياسة قَوِيَ الطالبُ بها وضعف المطلوب، وعزّة لا يزال الرجاء يُنيب إليها فيما ينوب؛ وأيُّ مطلب تُناجَى فيه الآلاءُ المباركةُ فلا يُصحِب قيادُه، ويُستسقَى له مُزْنٌ ولا تُعاهَد عِهادُه[٤]؛ وأيُّ ذاهبٍ لا يُسترجَع به ولو أنه عشيّاتُ الحمى[٥]، وأيُّ فائتٍ لا يُرَدّ ولو أنه زمن الشبيبة المعسولُ اللَّمى؛ وحسبُ العاني أن يحطّ برحابها رحالَه، أو أن يوفد إلى أبوابها آمالَه؛ وقد تبادرتْ إليه المَناجحُ متسابقة، وٱنتظمتْ لديه ٱلمصالح متناسقة؛ فحينئذ يُفعَم إناءُ تأميلِه، ويَستوعِب الإحسان لجملة قصده وتفصيلِه؛ ويناديه السعد من تلك البقعة المباركة، فيوافيه التوفيقُ بصحائف القبول تحملُها الملائكة، أمتع الله ببركاتها التي ٱمتدّ رواقُها، وأنار ٱلحالكَ إشراقُها؛ ولا زالت يراوحها تسليمٌ عَطِرُ النفحة، وتصافحها تحيّاتٌ جميلة الصفحة؛ بمنّه وكرمه.

وكتب رسالة صَيديّة عن السلطان الملِك الظاهرِ[٦] إلى الأمير عز الدين الحلّيّ[٧] نائِب السلطنة بالقلعة

هذه المكاتَبة إلى المجلس لا توارت شُموسُ أنسه، ولا أُذبِلتْ ثمار غرسِه ولا برح غدُه في السعد مُرْبيًا على يومه ويومُه على أمسِه؛ تتضمّن إعلامَه بأنا خرجنا إلى

(١) الشّوابك: من شبكت النّجوم: إذا دخل بعضها في بعض واختلطت.
(٢) الجانف: من الجنف: وهو الميل والجور.
(٣) المختزل: الخائن، يقال: اختزل الوديعة: إذا خان فيها.
(٤) العِهاد: وهو المطر بعد المطر، أو هو أوّل مطر الوسميّ.
(٥) يشير بهذه العبارة إلى قول الصمّة بن عبد الله بن طفيل القشيري:

وليست عشيّات الحمى برواجع ... عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

والمعنى: إن أفرطت في الجزع فإن أوقات المواصلة بالحمى مع أحبابك لا تكاد وتعود ولكن أدم البكاء لها مع التوجّع في أثرها تجد فيه راحة. (انظر ديوان الحماسة ج ٢، ص ٦٠، دار القلم).
(٦) هو الملك الظاهر بيبرس الجاشنكير المنصوري، من سلاطين المماليك بمصر والشّام، ولقّب بالمظفر، وهو من خيار المماليك سيرة مات سنة ٧٠٩ هـ. (الأعلام ٢/ ٧٩).
(٧) هو عزّ الدين أيدمر بن عبد الله الحلّي الصالحي النجمي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك، ثمّ عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستنيبه في غيبته. مات سنة ٦٦٧ هـ. (انظر تاريخ العيني نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤).

الصيد المبارك بجنود تملأ السهل والجبل، وتستحيي الشمس منها فتستتر في سحابها من كثرة الخجل؛ تَسِير على الأرض منها جبال، وتَأوِي الرمال منها إلى أَورَف ظلال؛ وَتوجّهنا إلى جهة الطّرّانة(١) وإذا بحشود(٢) الوحوش قد توافدتْ، وعلى مناهل المناهج قد تواردتْ؛ والأجلُ يسوقُهم، والبِيدُ تعقّهم(٣)، والمنايا تَعُوقُهم؛ ولم تزل أيدي الخيل تجمعهم في صعيد، وتَطوي بهم سطورًا في طروس البِيد؛ حتى أحاطت بهم إحاطةَ الفَلَك بالنجوم الزواهر، والأجفانِ بالعيون النواظر؛ وجُرّدَتْ السيوف فظنَنْتها غُدُرًا(٤)، ورُميتْ النبال فحسِبَتْها شَرَرًا؛ وعُزلتْ(٥) الرماحُ بالسهام وحيّتها السِّلام(٦) بالسَّلام، وسَكنتْ نهارًا من العَجاج في ظلام؛ وضاقت عليها الأرض بما رَحُبتْ، وأَدركتْ المنيّةُ منها ما طَلبتْ، وراسلتْها المنايا، وأهدت إليها رياحينَ تَحايا؛ فمن صريع وصديع وطريح وطريد، وجريح ومقبلٍ وشريد، وقائم وحصيد؛ ولم تسلم في هٰذه اليوم غيرُ غزالة السماء فإنها استترت بالغيوم، وخافت أن يكون الهلال قد نُصِب فخًّا لصيدها وصيد غيرها من النجوم؛ والموتُ أَسَرَ كلَّ مَهاةٍ مهابة، ونال الحتف من كل طَلًا(٧) طِلابَه؛ وفتكت الظُّبا بالظِّبي، وقالت السهام لِأجيادها: مَرحبًا؛ وثَنَينا الأعنّة والشفار قد أُنهِلتْ، والظهورُ قد أُثقِلتْ؛ والكُنُسُ(٨) خاوية على عروشِها(٩)، والبِيدُ قد أَوحشتْ من وحوشها؛ وما نشتمل عليه من محبة المجلس وإيثارِه، ونَجِده من الوحشة له مع دنوِّ دارِه؛ وسرورُه بما عساه لنا يتجدّد، وحبورُه بما يَرِد من جهتنا وهذا لا نشكّ فيه ولا نتردّد؛ أَوجب أن نخصّه به ونُتحِفَه، ونصِفَه له على جليّته إذ كنّا بالتخصيص به لن ننصفَه؛ وقد بعثْنا إليه منه قِسمًا، ولم نَنسَ عند ذكرِنا أنفسَنا له اَسمًا.

---

(١) الطرّانة: اسم لوادي هبيب، وهي كورة من حوف رمسيس، وتعرف ببرّية شهاب، وبريّة الأسقط، وميزان القلوب، وبها قبر أبي معاذ الكبير. (مستدرك التاج).

(٢) الحشود: الجموع، وهو جمع حَشْد. (٣) تعقّهم: تنبو بهم، وتتجافى عنهم.

(٤) الغدر: جمع غدير، وهو الماء المجتمع، وقد شبّه لمعان السيوف عند تجريدها بلمعان الماء في الغدر عند وقوع نور الشمس عليها.

(٥) عُزلت الرّماح. . . : لعلّه أراد أن العمل في الصّيد كان بالسّهام دون الرّماح فشبّه ترك العمل بها بالعزل.

(٦) السِّلام: الحجارة، واحده سِلمة بكسر اللّام.

(٧) الطّلا: من أوراد الوحش من حين يولد إلى أن يتشرّد، والطّلا: ولد الغزال.

(٨) الكنس: جمع كُناس، وهو مولج الوحش من الظباء والبقر تكتنّ فيه من الحرّ.

(٩) يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٩].

وكتب عن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون إلى صاحب اليمن جوابَ كتابِ عزَّى فيه السلطانَ عن ولدِه الملكِ الصالِح[١] علاءِ الدِّين عليّ

ـ وكان الكتابُ الذي ورد في ورق أزرق، وسيَّره في كيسِ أطلسَ أزرق، والعادةُ أن يكون في كيسِ أطلسَ أصفر ـ:

أعزّ الله نُصرتَه وأحسن بتسليته الصبرَ على كل فادح، والأجرَ على كلّ مصاب قَرَح القرائح، وجرح الجوارح، وأوفَد مِن تعازيه كلَّ مسكِّنٍ طاحت[٢] به من تلقاءِ صنعاء اليمن الطوائح[٣]، وكتب له جزاءَ المصبِّر عن جارٍ من دمع طافح، على جارٍ لسويداء القلب[٤] صالح[٥]؛ المملوك يخدُم خدمة لا يذُود المواصَلَةَ بها حادث، ولا يؤخّرها عن وقتها أمرٌ كارث، ولا تَنقُصها عن تحسينِها وترتيبِها بواعثُ الاختلاف ولا اختلافُ البواعث؛ ويُطلِع العِلمَ الكريمَ على ورود مثالٍ كريم لولا زرقةُ طرسه[٦]؛ وزرقةُ لبسِه، لقال: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: الآية ٨٤]؛ يتضمّن ما كان حدث من رزءٍ تلافاه ٱلله بتنَاسيه، وتَوافَى هو والصبر فتَولَّى التسليمُ تبيينَ عاسِيه[٧] وتمرينَ قاسِيه؛ فشكرنا الله على ما أعطى وحمِدناه على ما أخذ، وما قلنا: هذا جَزعٌ قد ٱنتَبه إلا وقلنا: هذا تَثبُّتٌ قد ٱنتبَذ[٨]، ولا توهمنا أن فِلْذة كبدٍ قد ٱختُطِفتْ إلّا وشاهَدْنا حولنا مِن ذرّيّتنا ـ والحمد لله ـ فِلَذ؛ وأحسنّا الاحتساب، ودخلت الملائكة علينا مِن كلّ باب، ووفّانا ٱلله أجر الصابرين بغير حساب؛ ولنا ـ والشكرُ لله ـ صبرٌ جميلٌ لا نأسف معه على فائت ولا نأسَى على مفقود، وإذا علم الله حُسنَ الاستنامة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه عوّض كلَّ يوم ما يقول

---

(١) كانت وفاة الملك الصالح هذا في سنة ٦٨٧هـ بعد أن مرض بالدوسنطارية الكبدية، وكان أبوه قد عهد إليه في الأمر من بعده، وخطب له على المنابر معه، فلما مات جعل أبوه الولاية من بعده إلى ابنه الملك الأشرف خليل. (انظر تاريخ العيني، دار الكتب المصريّة نسخة مصوّرة رقم ١٥٨٤).

(٢) طاحت به: أي أسرعت به.

(٣) الطّوائح: القواذف، وطاح به الفرس: إذا أسرع به كالسّهم.

(٤) سويداء القلب: حبّته ومهجته.

(٥) في الأصول: صائح، والتصويب عن (صبح الأعشى ٧/ ٣٨٣، دار الكتب العلمية).

(٦) الطرس: الصحيفة.

(٧) العاسي: الشديد الظلمة، واللّيل إذا عسعس.

(٨) انتبذ: أي ترك الحزن والجزع.

المبشِّر به: هذا مولًى مولود؛ وليست الإبل بأغلظَ أكبادًا ممن له قلبٌ لا يبالي بالصدمات كثرتْ أو قلّتْ، ولا بالتباريح[١] حَقُرتْ أو جلّتْ، ولا بالأزَمات إن هي توالت أو تولّتْ، ولا بالجفون إن ألقت ما فيها من الدّموع والهجوع وتخلّتْ؛ ويَخاف من الدهر من لم يَحلُب أشطُرَه، ويأسف على الفائت من لا تنتابه الخطوب الخطِرَة؛ على أن الفادح بموت الولدِ الملكِ الصالح ـ رضي الله عنه ـ وإن كان مُنْكيًا[٢] والناتحَ بشجوه وإن كان مُبكيًا، والنائجَ[٣] بذلك الأسف وإن كان لنار الأسى مُذكيًا؛ فإن وراء ذلك من تثبيت الله ما ينسفه نسفًا، ومن إلهامه الصبرَ ما يجدّد لتمزيق القلوب أحسن ما به يُرفا؛ وبكتاب الله وبسنة نبيّه ﷺ عندنا حُسنُ اقتداءٍ نَضرب به عن كلّ رثاءٍ صفحًا، وما كنّا مع الله ـ والمنّة لله ـ نُعطِي لمن يؤنّب ويؤبّن[٤] أذنًا ولا نُعيرها لمن يَلحَى؛ إذ الولد الذاهب مَرّ في رضوان الله تعالى سالكًا طريقًا لا عِوَجَ فيها ولا أمْتًا[٥]، وانتقل سارًّا بارًّا صالحًا وما هكذا كلُّ الموتى نعيًا ولا نعتًا؛ وإن كان نَفَعنا في الدنيا فها نحن بالصدقات والترحُّم عليه ننفعُه، وإن كان الولدُ عملَ أبيه ـ وقد رَفَع الله روحَ ولدنا في أعلى علّيّين تَحقّق أنه العملُ الصالح ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠]؛ وفيما نحن بصدده من اشتغال بالحروب، ما يُهوّن ما يَهُول من الكروب[٦]؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وبين قلبه يَحُول، ومُلهٍ عن تَخيّلِ أسف في الخاطر يَجُول: [من الوافر]

إذا اعتاد الفتى خَوضَ المنايا فأهْون ما يمرّ به الوُحولُ[٧]

ولنا بحمد الله ذرّيّةٌ دَرّيّة[٨]، وعقودٌ والشكر لله كلُّها دُرّيّة[٩]: [من الطويل]

إذا سيّدٌ منهم خلا قام سيّدٌ قؤولٌ لما قال الكرام فعولُ[١٠]

---

(١) التباريح: الشدّائد، وتباريح الشُوق: توهُجه.

(٢) منكيًا: من نكأ الجرح: أي قرفه وقشره. (٣) النائج: من نأج ينأج: إذا صاح.

(٤) أبّنه: أثنى عليه بعد موته.

(٥) الأمت: ما ارتفع من الأرض، وقوله: لا عوج فيها ولا أمتًا» أشار به إلى الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٧] وهو يريد: أي لا انخفاض فيها ولا ارتفاع.

(٦) الكروب: مفردها «الكرب» وهو الحزن والغمّ يأخذ بالنفس.

(٧) الوحول: جمع وحل بسكون الحاء، وهو الطين يكون لزجًا.

(٨) دَرّيّة: نسبة إلى الدَّرّ: وهو اللبن.

(٩) دُريّة: نسبة إلى الدُّرّ، وهو اللؤلؤ وفي الكلام جناس تام.

(١٠) البيت للسموءَل بن عادياء، من قصيدته المشهورة، وفي بيت السّموءل: «إذا سيّد منّا» فغيّر=

ما منهم إلا من نَظَرَ سعدَه وَمن سعدُه يُنتظَر، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن تسدَّ حالُه بكَفالتِه وكِفايتِه مَسَدَّ[١] البحر «والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّب القمر» لا سيّما مَن الدينُ به إذ هو صلاحُه أعرَف، ومَن إذا قيل لبناء ملكٍ هذا عليُّه قد وَهَى[٢] قيل: هذا خيرٌ منه مِن أعلى بناءِ سعدٍ أَشرَف[٣]؛ وعلى كلِّ حال لا عُدِم إحسانُ المولى الذي يَتنوّع في بِرِّه، ويعاجِل قضاءَ الحقوق فتساعِف مرسومه في توصيله طاعةُ بحرِه وبَرِّه؛ وله الشكرُ على مساهمة المولى في القرح والترح، ومشاركتِه في الهناء إذا سَنَح، وفي الدمع إذا سَفَح؛ وما مِثلُ مكارم المولى من يَعزُب مِثلُ ذلك عن علمِها، ولا يُعزَى إلى غير حُكمها وحلمِها؛ وهو ـ أعزه الله ـ ذو التجارب التي مَخَضتْ له من هذه وهذه الزُّبدة، وعَرَضتْ عليه منهما الهَضْبةَ والوَهدة؛ والرغبةُ إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتِمة وكما لم يجعلها للظهور قاصمة فلا يجعلها لعرا الشكر فاصمة[٤]، وان يجعلها بعد حَمل هذا الهمّ وفِصالِه على عليِّه فاطمة؛ وأن يحبِّب إلينا كلَّ ما يلهي عن الأموال والأولاد من غزوٍ وجهاد، وأن يجعلنا ليس يُحِدّ لدينا على مفقود تأدّبًا مع الله غيرُ السيوف فإنها تُعرَف بالحِداد، وألّا تُقصَفَ رماحُنا إلا في فَودٍ أو في فؤاد، ولا تُحوَّلَ سروجُ خيلنا مِن ظهر جوادٍ في السَّرايا إلّا إلى ظهر جواد، وألا تُشَقَّ لدينا إلا أكباد أكناد[٥]، ولا تُجزّ غيرُ شعور ملوك التتار تُتوَّج بها رؤوسُ الرماح ويُصعَد بها على قِمَمِ الصِّعاد[٦]؛ والله يشكر للمولى سعيَ مَراثيه التي لولا لطف الله بما صبَّرنا به لأقامت الجنائز، واَستَخفّت النحائز[٧]، ولهَوَتْ بالنفوس في اَستعمال الجائز من الأسف وغيرِ الجائز، ولا شغل الله لبَّ المولى

= الكاتب وقال: «منهم» تبعًا لسياق الكلام. (انظر ديوان السموءل ص ٩١، دار صادر).

(١) يشير بهذه العبارة إلى ما ذكره النّحاة من وجوب حذف الخبر وسدّ الحال مسدّه، وذلك إذا ما كان المبتدأ مصدرًا بعده حال لا تصلح أن تكون خبرًا كقولك: «ضربي العبد مسيئًا».

(٢) وهى: تشقّق وهمّ بالسقوط.

(٣) أشرف على الشيء: أي أطلّ عليه، وفي هذا اللفظ تورية عن الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وهو الثامن من ملوك الترك على الديار المصرية جلس على الملك سنة ٦٨٩هـ بعد وفاة أبيه قلاوون. (تاريخ ابن إياس ١/١١٩ ـ ١١٢).

(٤) الفاصمة: من فصم الشيء عن الشيء: أبعده وفرّقه.

(٥) الأكناد: الجاحِدين، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: الآية ٦].

(٦) الصعاد: جمع صعدة وهي القناة التي تنبت مستوية «يريد الرّماح».

(٧) النحائز: جمع نحيزة وهي الطبيعة.

بفادحة، ولا خاطِرَه بسانحة من الحزن ولا بارحة ولا أَسمَعه بغير المَسرّات من هواتف الإبهاج صادحة[١]؛ بمنّه وكرمه.

ومن إنشائه رحمه الله تقليدُ السلطان الملِك الأشرِف صلاحِ الدين خليل بولاية عهد السلطنة من أبيه السلطان الملكِ المنصور ـ سقى الله عهدهما صوب[٢] الرحمة ـ وهو:

الحمد لله الذي لم يزل له السمعُ والطاعةُ فيما أمر، والرضا والشكرُ فيما هَدَم من الأعمار وما عَمَر، والتفويضُ في التعويضِ إن غابت الشمس وبقي القمر نحمده على أن جعل سلطاننا ثابتَ الأركان، نابتَ الأغصان، كلّ روضة من رياضه ذات أفنان؛ لا تُزعزعه ريحٌ عقيم[٣]، ولا يُخرجه رزءٌ عظيم عن الرضا والتسليم، ولا يُعتَبَط[٤] من جملته كريم إلا ويَغتَبِط من أُسرتِه بكريم؛ ونشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة تزيد قائلَها لله تفويضًا، وتُجزِل له تعويضًا وتُحسِن له على الصبر الجميل في كل خطبٍ[٥] جليلٍ تحريضًا؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه الذي أنزل في التسلية به: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عِمران: الآية ١٤٤] والنبيُّ الذي أوضح الله به المناهج وبيَّن السُّبُل؛ صلّى الله عليه وعلى آله ما تجاوبت المحابرُ والمنابرُ في البُكَر والأُصُل؛ وما بُدِّدتْ عقود ونُظِّمتْ، ونُسِخَتْ آياتٌ وأُحكمتْ ونُقِضتْ أمور وأُبرِمتْ، وما عَزَمتْ آراءٌ فتوكّلتْ وتوكلت فعَزَمتَ؛ ورضي الله عن أصحابه الذين منهم من كان للخليقة نعم الخليفة، ومنهم من لم يُدرِك أحدٌ في تسويد النفس الحَصِيفة[٦] ولا في تبييض الصحيفة مُدَّه ولا نَصِيفَه[٧]، ومنهم من يسرّه الله لتجهيز جيش العُسْرة[٨] فعرف الله ورسولُه معروفَه، ومنهم من عمل صالحًا أرضى ربه فأصلح في ذريّته الشريفة؛ وبعد، فإن من الطاف الله بعبادِه،

(١) الصادح: الذي رفع صوته فأطرب. (٢) الصّوب: المطر.
(٣) الرّيح العقيم: هي ريح الإهلاك التي لا تبقي ولا تذر.
(٤) يعتبط: يقال: اعتبط الموت فلانًا: أخذه شابًا صحيحًا من غير علّة.
(٥) الخطب: المصاب، والحال والشأن والأمر الشديد.
(٦) الحصيفة: العاقلة ذات الرأي المحكم.
(٧) يشير بهذه العبارة إلى قوله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي فإنّ أحدكم لو أنفق ما في الأرض جميعًا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»، والنّصيف: نصف الشيء، كالعشير والثمين في العشر والثمن.
(٨) جيش العُسرة: هو الجيش الذي سار به رسول الله ﷺ إلى تبوك قال ابن عرفة: سمّي بذلك لأنهم ندبوا إليها في حمّارة القيظ فعسر عليهم ذلك وغلظ، . . .

وٱكتنافِ عواطفِه ببلادِه؛ أن جعلنا كلَّما وَهَى[١] للملك ركنٌ شديدٌ شيّدنا ركنًا عِوضَه، وكلَّما ٱعتَرَضت للمقادير جلمةٌ بَدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ وتناسَينا تجلُّدا تلك الجملَةَ المعترِضة؛ فلَم نُحوِج اليومَ لأمسِه وإن كان حميدًا، ولا الغارسَ لغرسِه وإن كان ثمره يانعا وظلُّه مديدًا؛ فأطلعْنا في أفق السلطنة كوكبَ سعدٍ كان لحُسن الاستخلاف مُعَدّا، ومَن لِقبيل المسلمين خيرٌ ثوابًا وخيرٌ مَرَدّا، ومَن يبشِّر الله به الأولياءَ المتقين ويُنذِر به من الأعداء قومًا لُدًّا[٢]، ومن لَم يَبقَ [إلّا به][٣] أنسنا بَعد ذهاب الذين نحبّهم [وبقِي][٤] كالسيف فَرْدا، والذي ما أَمضَى حَدَّه [في][٥] ضَريبة[٦] إلا قَدّ البيضَ[٧] والأبدانَ قَدّا، ولا جَهَّز رايةَ كَتيبةٍ إلا: [من مجزور الكامل المرفّل]

أغـنَـى غَـنـاءَ الـذاهـبِـيـن وعُـــدّ لِلأعـــداء عَـــدّا[٨]

ولا بَعَثَه جزعٌ فقال: «كم من أخٍ لي صالح» إلا لقِيَه وَرعٌ فقال: «وخُلِقْتُ يوم خُلِقْت جَلدًا»[٩]؛ وهو الذي بقواعد السلطنة الأدرَى وقوانينِها الأعرَف، وعلى الأولياء الأعطَفُ وبالرعايا الأرأف، والذي ما قيل لِبناءِ مُلكٍ: هذا عليُّه قد وَهَى إلا وقيل: هذا بناءٌ مِثلُه منه أسمى مُلْكًا وأَشرَف، والذي ما برح النصرُ يُتنسّم مِن مَهابٌ تأميلِه والفلاح، ويتبسّم ثغرُه فتَتوسّم الثغور من تبسُّمِه النجاح، وينقسم نُورُه على البسيطة فلا مصرَ من الأمصار إلا وهو يَشرَئبّ إلى ملاحظة جبينِ عهده الوضّاح ويتّفق ٱشتقاقُ النعوتِ فيقول التسلّي للتملّي سواءٌ الصالح والصلاح؛ والذي ما بَرِح لِشعار السلطنة

---

(١) وَهَى: سقط. (٢) اللدّ: من اللّدادة وهي شدّة الخصومة.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧١، دار الكتب العلمية).

(٤) هذه العبارة ساقطة من الأصول ومن صبح الأعشى، والسّياق يقتضي زيادتها، وهو يشير إلى قول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ذهـب الـذيـن نـحـبّـهـم وبـقـيـت مـثـل الـسـيـف فـردا

وقد نصب فردًا على الحال. (انظر ديوان الحماسة ١/ ٥٢، شرح التبريزي، دار القلم).

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصول وصبح الأعشى والسّياق يقتضي إثباتها.

(٦) الضريبة: ما ضربته بالسّيف.

(٧) البيض: جمع بيضة، وهي خوذة من الحديد تلبس على الرأس.

(٨) البيت لعمرو بن معديكرب. (ديوان الحماسة ٥/ ٥٢).

(٩) الجلد: القويّ الشّديد، وهذان الشطران (١/ ٥٠ ـ ٥٢).

تمامهما:

كـم مـن أخٍ لـي صـالـحٍ بـوّأتـه بـيـديّ لـحـدا

ألـبـسـتـه أثـوابـه وخـلـقـت يـوم خـلـقـت جـلـدا

(الحماسة ١/ ٥١، ٥٢).

إلى تَوَقُّله[١] وتَنَقُّله أَتَمُّ حنين، وكأنّما كوشفت الإمامةُ العبّاسيّةُ بشرف مسماه فيما تَقدّم مِن زمن مَن سَلَف مِن حِين، فسمّتْ ووَسمَتْ بأَسمِهِ أكابرَ الملوك وأَخايرَ[٢] السلاطين فخوطب كلٌّ منهم مجازًا لا كهذه الحقيقة بـ «خليل» أمير المؤمنين؛ والذي كم جلا بهاءُ جبينه مِن بهيم، وكم غدا المُلكُ بحُسن رأيه[٣] ويمِن آرائه يَهيم وكم أبرأَ مَوردُه العذبُ هيَم[٤] عِطاشٍ ولا يُنكَر الخليل إذا قيل عنه: إنه إبراهيم؛ ومن تَشخص الأبصارُ لِكماله يوم ركوبه حَسِيرة، وتُلقِي البنانُ سلاحَها ذَهْلًا وهي لا تدرِي لكثرة الإيماء إلى جلاله إذا يبدو مَسِيرَه؛ والذي ألهم الله الأمّةَ بجودِه ووجودِه صبرًا جميلًا، وآتاهم من نَفاسة كرمه وحراسةِ سيفِه وقلمِه تأمينًا وتأميلًا، وعَظُم في القلوب والعيون، بما مِن بِرّه سيكون، فسمّتْه الأُبوّة الشريفة ولدًا[٥] وسمّاه الله: خليلًا؛ ولَمّا تَحتَّم من تفويض أمرِ المُلكِ إليه ما كان إلى وقته المعلوم قد تأخّر، وتُحُيِّنَ[٦] حِينُه فكَمَل بزيادة كزيادة الهلال حين بادر تمامه فأبدر؛ اقتَضى حُسنُ المناسبة لنصائح الجمهور، والمُراقَبةِ لمصالح الأمور، والمُصاقَبةِ[٧] لمَناجح البلاد والثغور[٨]، والمقارَبة[٩] من فواتح كل أمرٍ ميسور؛ أن نفوِّض إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظَّمة، المكرّمة المفخَّمة المنظَّمة؛ وأن تُبسَط يدُه المنيفةُ لمصافحتها بالعهود، وتحكيمِها في العساكر والجنود، وفي البحور والثغور وفي التَّهائم[١٠] والنجود[١١]؛ وأن يُعْقَدَ بسيفها وقلمها كلُّ قطع ووصْل، وكلُّ فرعٍ وأصل وكلُّ نصر ونصْل وكلُّ ما يَحمي سرحًا، ويَهمِي مَنحًا، وفي المُثيرات في الإِعداء[١٢] على الأَعداء نَقْعًا وفي المُغِيرات صبحًا؛ وفي المنع والإطلاق، وفي الإِرفاد[١٣] والإِرفاق

(١) التوقّل: يقال: توقّل فلان في مصاعد الشرف: إذا صعّد فيها.

(٢) لم ترد العبارة في الأصول، والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢) والأخاير: جمع أخير، وهذه لغة بني عامر، يقولون: هذا أخير من هذا. . . (المصباح).

(٣) الرأي هنا: بمعنى المرأى والمنظر.

(٤) الهيم: العطاش، وهناك جناس بين «أبرأ هيم» و«إبراهيم».

(٥) في الأصول: «أبا» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢).

(٦) التحيّن: الانتظار والطّلب، وفي الأصول «وتحرّر» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢).

(٧) المصاقبة: المقاربة والمواجهة.

(٨) الثغور: مفردها الثّغر، وهو الموضع على الحدود يخاف هجوم العدوّ منه.

(٩) في الأصل: «المقارنة» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٢).

(١٠) التهائم: الأرض ذات الغور.

(١١) النجود: ما ارتفع من الأرض وصلُب.

(١٢) الإعداء: الجريّ.

(١٣) الإرفاد: الإعطاء من «الرّفد».

وفي الخمِيس[١] إذا ساق[٢]، وفي الخُمُس[٣] إذا ٱنساق، وفي السيوف: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٦، ٢٧] وفي الرماح إذا ٱلتفت ٱلساقُ منها بالساق[٤]؛ وفي المعاهَدات والهُدَن وفي الفداء بما عُرِض مِن عَرَضٍ وبالبَدَن لِلبَدَن[٥]، وفيما ظهر من أمور المُلك وما بَطن، وفي جميع ما تستدعيه بواعثُه في السرّ والعَلَن، وتسترعيه[٦] نوافثُه مِن كَبْتٍ وكَتْبٍ متفرّقين أو في قَرَن؛ عهدًا مبارَكةً عُوَذُه[٧] وتمائمُه، وفواتحُه وخواتمُه، ومَناسمُه[٨] ومَواسمُه، وشروطُه ولوازمُه: [من الطويل]

[على عاتق المَلْك الأغَرّ نِجادُهُ وفي يد جبّار السمٰوات قائمُه][٩]

لا رادّ لحكمِه، ولا ناقضَ لبَرْمِه[١٠]، ولا داخضَ لما أثبتَتْه الأقلام من مكنون علمِه: [من الكامل]

ويــزيــده مَــرُّ الــليــالــي جِــدّةً وتَقَادُمُ الأيام حُسنَ شبابِ[١١]

وتَلزَم السنون والأحقاب، استيداعَه حتى الذَّراريّ[١٢] والأعقاب؛ فلا سلطانَ ذا قَدْرٍ وقدرة، وذا أمرٍ وإمْرَة؛ ولا نائبَ في مملكة قربَتْ أو بعدَتْ، ولا مقدّم جيوشٍ أتهمَتْ أو أنجدت؛ ولا راعيَ ولا رعيّة، ولا ذا حكمٍ في الأمور الشرعيّة؛ ولا قلم

---

(١) الخميس: الجيش من خمس فرق. (٢) ساق: أي إذا ساقه.

(٣) الخُمُس: أراد خمس ما يغنمه الجيش في الحرب، وهو من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(٤) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: الآية ٢٩].

(٥) وبالبدن للبدن: أي أنّه متحكم في الفداء بالأسير لأسيرٍ مثله، كما كانت تلك عادتهم في تبادل الأسرى.

(٦) تسترعيه: تستحفظه، والنّوافث: الحوافظ، والكبت: من كبت عدوّه: أي ردّه بغيظه.

(٧) العوذ: جمع عوذة: وهي الرقية يرقى بها الإنسان من فزعٍ أو مسّ لأنّه يعاذ بها، وهي التي تكتب وتعلّق أيضًا على الإنسان من العين.

(٨) المناسم: وهو هنا بمعنى الأثر والعلامة.

(٩) هذا البيت لم يرد في الأصول، وقد أثبتناه عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٣). وهو من قصيدة لأبي الطيّب المتنبي يمدح بها سيف الدّولة. والعاتق: المنكب. (انظر ديوان المتنبي ٢/ ٧، دار الكتب العلميّة).

(١٠) البرم والإبرام: الإحكام.

(١١) البيت لأبي تمّام الطائي، ورواية البيت «ويزيدها» بضمير المؤنّث مرادًا بها القصيدة. (انظر ديوان أبي تمام ص ٢٥، دار صعب).

(١٢) الذّراري: مفردها الذّريّة وهي النّسل، والأعقاب: من العقِب: أي ما يتركه المرء من ذريّة.

إنشاءٍ ولا قلمَ حساب، ولا ذوي أنسابٍ ولا ذوي أسباب؛ إلا وكلٌّ داخلٌ في قبول عَقْد هذا العهد الميمون، ومتمسِّك بمحكَم آيات كتابه المكنون[1] والتسليم لنصِّه الذي شهدتْه من الملائكةِ الكرامُ الكاتبون؛ وأمست بَيعتُه بالرضوان محفوفة، والأعداءُ يدْعُونها تضرّعًا وخِيفة، فليشكروا الصنعَ الذي بعد أن كانت الخلفاء تُسلطِن الملوكَ قد صار سلطانُهم يقيم لهم من وُلاة العهد خليفةً بَعد خليفة؛ وأمّا الوصايا فأنت يا ولدَنا الملِكَ الأشرفَ - أعزّك الله - بها الدَّرب ولِسماعِ شدوِها وحدوِها[2] الطَّرِب، الذي لِلّغو لا يضطرب؛ فعليك بتقوى الله فإنها مِلاكُ سدادِك، وهَلاكُ أضدادِك؛ وبها يُراش[3] جناحُ نجاحِك، ويَحسُن اقتداءُ اقتداحِك؛ فاجعلها دفينَ جوانح تأمّلِك ووعيك، ونُصْبَ عينَيْ أمرِك ونهيِك؛ والشرعِ الشريفِ فهو قانون الحقّ المتّبَع، وناموسُ[4] الأمر المستَمَع؛ وعليه مَدارُ إيعاءِ كلّ إيعاز[5]، وبه يَتمسّك من أشار وأمتاز[6]، وهو جنّة والباطلُ نار ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٥]؛ فلا تخرج في كلّ حال عن لوازمه وشروطِه ولا تَنْكب[7] عن معلَّقِه ومَنُوطِه؛ والعدل، فهو مُثمِّر غروس الأموال، ومُعمر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكو[8] الأعمار والأعمال؛ فاجعله جامعَ أطرافِ مَراسِمِك، وأفضلَ أيّام مواسمِك؛ وسِمْ به فعلَك، وسَمِّ به فرضَك ونفلَك؛ ولا تُفرِد به فلانًا دون فلان ولا مكانًا دون مكان، واَقرُنه بالفضل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: الآية ٩٠]؛ وأَحسِن التخويل، وأَجمِل[9] التنويل، وكثِّر لمن حولك التموينَ والتمويل؛ وضاعِف الخير في كلّ مُضافِ لمَقامِك، ومستضيفِ[10] بإنعامِك، حتى لا تَعدَم في كلّ مكان وكلّ زمان من النعماء ضيافةَ الخليل[11]؛ والثغور، فهي للممالك مباسمُها فاجعل نواجذَها تَفتر عن أحسن ثنايا الصَّون، ومَراشفَها شنِبةَ[12] الشِّفاهِ بحُسن العَون؛ ومُنْها

(١) المكتون: المحفوظ والمصان. (٢) الحدو: الغناء يحدى به.
(٣) يُراش: من راش: إذا قوّى وأعان وأصلح. (٤) الناموس: الوحيّ.
(٥) الإيعاز: من أوعز إليه في الشيء: أي تقدّم إليه فيه وأشار به.
(٦) في الأصل «امتار وامتار» وهو تحريف والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٤).
(٧) تنكبُ: تميل وتعدل. (٨) تزكو: تنمو وتزداد.
(٩) أجمل: أي أحسن الصنيع. (١٠) المستضيف: المستغيث.
(١١) يشير بهذه العبارة إلى قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السّلام مع ضيوفه الملائكة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: الآية ٢٤] الآيات.
(١٢) الشنبة: من الشّنب وهو برد الأسنان.

بما يحمي السَّرْحَ[١] مِنها، وأعِنها بما يدفع المَكارهَ عنها؛ فإنها للنصر مَقاعد، وبها حفظ البلاد من كلّ مارٍّ[٢] من الأعداء مارد؛ وأمراء الجيوش، فهم السُّور الواقي بين يدَيْ كلِّ سور، وما منهم إلّا بطلٌ بالنصر مشهورٌ كما سيفه مشهور؛ وهم ذخائر الملوك وجواهرُ السلوك، وأخايرُ الأكابر الذين خَلَصوا من الشكوك؛ وما منهم إلا من له حُرُماتُ سلفتْ، وحقوقٌ عُرفتْ، ومَواتُّ على ٱستلزام الرعاية للعهود وُقفَتْ؛ فكن لجنودِهم متحبّبًا، ولمَرابِعهم مُخْصِبًا، ولمصالِحِهم مرتِّبًا، ولآرائهم مستصوبًا وللاعتضادِ بهم مستصحِبًا، وفي حمدهِم مُطنِبًا، وفي شكرهم مُسهِبًا؛ والأولياءِ المنصوريِّين الذين هم كالأولاد، ولهم سوابقُ أَمَتُّ من سوابق الإِيجاد[٣]؛ وهم مَن علمتَ ٱستكانةً[٤] من[٥] قربِنا، ومكانةً من قلبِنا، وهم المساهِمون فيما ناب، وما برحوا للدولة الظفرَ والناب؛ فأَسهِم لكلِّ منهم من ٱحترامك نصيبًا، وأَدِمْ لهم ٱرتياحَك، وأَلِنْ جماحَك[٦] وقوِّبهم سلاحَك، تَجِدْ منهم ضُروبًا، وتَرَ كُلًّا منهم في أعدائك ضَروبًا؛ وكما أنّا نوصيك بجيوش الإسلام، كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشآتُ[٧] في البحر كالأعلام[٨]؛ فهو جيش الأَمْواه والأمواج، المضافُ إلى الأفواج من جيش الفِجاج[٩]؛ وهو الجيش السّليمانيُّ في إسراع السَّير، وما سُمّيَتْ شَوَانيه[١٠] غِربانًا إلا ليُجمَع بها لنا ما ٱجتمع لسليمان ﷺ من تسخيرِ الريحِ والطير؛ وهي من ٱلديار المصريّة على ثَبَجِ[١١] البحر الأسوار، فإن قَذفَتْ قَذفَت الرعبَ في قلوب الأعداء وإن أَقلعَتْ[١٢] قَلعتْ منهم الآثار؛ فلا تُخلِه من تجهيز جيشِه، وسكِّن طيشَ البحر بطيشِه؛ فيُصبحَ لك جيشان كلٌّ منهما ذو كرٍّ وفرّ، هذا في بَرٍّ بحرٌ وهذا ببحرٍ بَرّ؛ وبيوتِ العبادات فهي التي إلى مصلَّى سميك خليلِ الله تنتهي محاريبُها، وبها لنا

---

(١) السّرح: الماشية، ولا يسمّى سرحًا إلّا ما يغدى به ويراح.

(٢) المارّ: الجاحد. (٣) الإيجاد: الولادة.

(٤) الاستكانة: هنا بمعنى السكون والاطمئنان. (٥) لعلّه إلى قربنا، كما تقتضيه تعدية استكان.

(٦) الجماح: اتباع الهوى، وجمح جماحًا: ركب هواه فلا يمكن ردّه.

(٧) المنشآت: السفن.

(٨) الأعلام: الجبال، وهو يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٤].

(٩) الفجاج: مفردها «فجّ» وهو الطريق الواسع البعيد.

(١٠) الشّواني: مفردها «شونة» وهي مركب يعد للجهاد في البحر.

(١١) الثبج: وسط الشيء تجمع وبرز. (١٢) أقلعت: أي سارت إلى الأعداء.

ولك وللمسلمين سُرَى الدعوات وتأويبُها[١]؛ فوفِّها نصيبَها المفروضَ غيرَ منقوص، ومُرْ برفعها وذكرِ ٱسم الله فيها حسب الأمر المنصوص؛ وأخواتِها من بيوت الأموال الواجداتِ[٢] الواجبات من حيث أنها كلَّها بيوتٌ لله هذه للصَّلاة وهذه للصلات؛ وهذه كهذه في رفع المنار، وجَمْعِ المبارّ، وإذا كانت تلك مما أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُه، فهذه تُرفَع ويُذكَرُ فيها ٱسمه حتى على الدرهم والدينار؛ فاصرف اليها ٱجتهادَك فيما يعود عليها بالتثمير، كما يعود على تلك بالتنوير؛ وعلى هذه بإشحانها[٣] بأنواع الصروف، كإشحان تلك باستواء الصفوف؛ فإنها إذا أصبحت مصونَة، احتمَلَتْ بحمد الله المعونَة وكَفَلَتْ بالمؤونَة وبالزيادة على المؤونَة، فتُكمِّل هذه لكلّ وليّ دنياه كما كَمَّلت تلك لكل وليّ دِينَه؛ وحدود الله، فلا يتعدّاها أحد، ولا يَرأَف فيها ولدٌ بوالد ولا والدٌ بولد؛ فأَقْمها وقُم في أمرها حتى تنضبط أتم الضبط، ولا تجعل يد القتل مغلولةً إلى عنقها ولا تبسُطها كلَّ البسط، فلكلٍّ من الجنايات والقصاص شرطٌ شرطه الله وحدٌّ حَدَّه فلا يتجاوز أحدٌ ذلك الحدَّ ولا يخرج عن ذلك الشرط؛ والجهاد فهو الدَّيْدَنُ[٤] المألوفُ من حين نشأتنا ونشأتك في بطون الأرض وعلى ظهور الخيل فمِلْ على الأعداء كل الْمَيْل، وصبِّحهم من فَتَكاتك بالويل بعد الويل، وارمِهم بكلّ شَمَّرِيٍّ[٥] قد شَمّر من يدِه عن الساعد ومن رمحِه عن الساق ومن جوادِه الذَّيل[٦]؛ وٱذهب بهم في ذلك كلَّ مذهب، وأَبِنْ بنجوم الخِرْصان[٧] كلّ غيٍّ وغَيهب وتَكثُّر[٨] في غزوهم من الليل بكلِّ أدهم[٩] ومن الشَّفَق بكلِّ أحمرَ وأشقرَ [ومن الأَصِيل بكلِّ أصفرَ][١٠] ومن الصبح بكلِّ أشهب[١١]، وٱنتهِبْ[١٢] أعمارهم وٱجعلها آخرَ ما يُسلَب وأوَّلَ ما يُنهَب؛ ونرجو أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما

---

(١) التأويب: السير بالنهار، وعكسه الإسآد والسرى: وهما السير عامة الليل.

(٢) الواجدات: الغنيات.

(٣) الإشحان: الملك، كالشحن، وأشحن المدينة بالخيل: أي ملأها.

(٤) الديدن: العادة والدأب.

(٥) الشمري: الرجل الماضي في الأمور.

(٦) المراد المضاء والجد في السير، وفي الأصول «على الذّيل» والتصويب عن (صبح الأعشى ١٠/ ١٧٦).

(٧) الخرصان: أسنة الرماح.

(٨) التكثّر: طلب الكثرة.

(٩) الأدهم: الذي اشتد سواده.

(١٠) لم ترد هذه العبارة في الأصول والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/١٧٦).

(١١) الأشهب: الذي خالط بياض لونه سواد.

(١٢) في الأصل وصبح الأعشى «واستنهب» ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة، فأثبتنا الصّواب.

يستنجزها لك صادقُ وعدِه، وأن ينصر بك جيوش الإسلام في كلّ إنجاد وإتهام وما النصر إلا من عندِه؛ وبيت الله المحجوج من كلّ فَجّ[١]، المقصود من كل نَهج؛ يَسِّرْ سبيلَه، ووَسِّع الخير وأَحسِن تسبيلَه[٢]، وأَوصِل من بِرِّك لكلٍّ من الحرمَين ما هُو له، لتصبح ربوعُه بذلك مأهولَةً؛ واْحمِه ممّن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم، وطهِّره من كلِّ مَكْسٍ[٣] وغرم؛ ليعود نفعُك على البادي والعاكف، ويصبحَ واديه وناديه مستغنيَين بذلك عن السحاب الواكف[٤]؛ والرَّعايا، فهم للعدل زُروع، وللاستثمار فروع، ولاستلزام العمارة شُروع[٥]؛ فمتى جادهم غيثٌ[٦] أَعجَب الزُّرّاعَ نَباتُهم، ونَمَتْ بالصلاح أقواتُهم، وصَلَحتْ بالنَّماء أوقاتُهم، وكثرت للجنود مستغَلّاتُهم، وتوافرتْ زكَواتُهم، وتَنوّرتْ مشكاتُهم[٧] ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١]؛ هذا عهدُنا للسيّدِ الأجلِّ الولدِ الملكِ الأشرفِ صلاحِ الدنيا والدِّين، فخرِ الملوك والسلاطين، خليلِ أميرِ المؤمنين - أعزّنا الله ببقائه - فليكن بعروته متمسّكًا، وبنفحه متمسّكًا[٨]؛ وليتقلَّدْ سيفَ هذا التقليد، ويفتح مُغلَقَ كلِّ فتحٍ منه بخير إقليد[٩]؛ وها نحن قد كثَّرْنا لديه جواهرَه فدونه ما يشاء تحليتَه: من تتويج مَفرَقٍ وتختيم أناملَ وتسويرِ زَندٍ وتطويقِ جِيد[١٠]، ففي كلّ ذلك تبجيلٌ وتمجيد؛ والله تعالى يجعل آستخلافه للمتقين إمامًا، وللدين قوامًا، وللمجاهدين آعتصامًا، وللمعتدين آنقصامًا[١١]، ويطفىء بمياه سيوفه نارَ كلِّ خطب حتى تُصبحَ كما أصبحَتْ نارُ سميِّه ﷺ بردًا وسلامًا؛ إن شاء الله تعالى.

وكلامه رحمه الله كثير ورسائله مشهورة، وبيدِ الناس من إنشائه ما لو آستقصيناه لطال وانبسط، وقد قدّمنا في كتابنا هذا من كلامه في باب التهاني بالفتوح ما تجده في موضعه.

(١) الفجّ: الطريق الواسع البعيد، وهو يشير بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَج: الآية ٢٧].
(٢) التسبيل: أن تجعل الشيء في سبيل الخير قربة إلى الله.
(٣) المكس: ما يأخذه أعوان السلطان عنوة وظلمًا عند البيع والشّراء.
(٤) الواكف: الهاطل بالمطر.
(٥) الشروع: مصدر شرع في الأمر إذا أخذ فيه.
(٦) الغيث: المطر، وهو يشير بهذه العبارة، إلى الآية الكريمة: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحَديد: الآية ٢٠].
(٧) المشكاة: المصباح.
(٨) المتمسّك: المتطيّب بالمسك.
(٩) الإقليد: المفتاح، وهي لغة يمانيّة، وقيل: معرّب.
(١٠) الجيد: العنق.
(١١) الانقصام: الهلاك.

ونختم كلامه بشيء من أدعية الملوك، وهي:

ومَكّن الله له في الأرض، وجعل طاعتَه واجبةً وجوبَ الرفض، وأيّد آراءه بالملائكة في الحَلّ والعَقد والإبرامِ والنقض.

آخر: وأَنجزَ له من النصر صادقَ وعدِه، وجعل الملوكَ من عبيده والملائكةَ من جندِه، ومتّعه بما وهبه من المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بَعدِه.

آخر: وحَفِظه بمعقّبات من أمرِه، وحَمى حِمى الدين بقِصار بِيضه وطوالِ سُمْرِه، وجعل قدرَ مملكته في الدهر كليالي قدرِه، وأَلبَس أولياءه من طاعته ما يجرّون أذيالَ فخرِه.

آخر: ولا زالت الدنيا بعدله مخضرّةَ الوهاد[١] والرُبا، والآمال بفضله قائلًا لها النجحُ: مرحبًا، والأقدارُ لنصره مسدّدةَ السهام مرهفةَ الظُّبا[٢]، والأيّامُ لا تَعدَم من جميل أثره وجليلِ تأثيره فعلًا مطربًا، ووصفًا مطيّبًا. وجَعلتْ مُلكَه موصولًا بحبل لا يُحلّ عَقدُه، وحَرَمَه محروسًا بسيف التوفيق لا يُفلّ[٣] حدُّه. ولا زالت راياته ألسنةً تنذر أعداءه بالفرار، وتُبشّر أولياءه بالقرار، وآراؤه أعلامًا عاليةَ المَنار واضحةَ الأنوار. وأنجز له عِداتِه في عُداتِه، وجعل النصر والتوفيق مصاحبَين لآرائه وراياتِه. وأناله النصرَ الذي يغنيه عن الحيلة والحول، وعَقَد السعدَ بُعرا ما يُمضيه من الفعل والقول، وبوّأ أولياءه جُنّةً من النصر ما فيها غائلة[٤] وجَنّةً من العزّ ما فيها غَول[٥]. وقصم بمهابته كلَّ جبّار عنيد، وعصم كلَّ من يَأوي من رجائه إلى ركن شديد. وآتاه من التأييد سلطانًا نصيرًا، وجعل جيشه أكثَر قوّى وأقوَى نفيرًا. ولا زالت الآمال بسحابه مخضرّةَ الرُبا والوهاد، والتأييدُ بتمكينه مناديًا في كلّ ناد، والدنيا بمُلكه مسرورةَ الأسرار[٦] حاليةَ الأجياد، والأقدارُ لأمره متكفّلةً بالنَفاد[٧]. وطرّز بأيامه ملابس السِّيَر، وأحلّ أمره أعلى هَضَباتِ النصر والظَّفَر، وحلّى أجياد الممالك من عدلِه وبذلِه بأشرف

(١) الوهاد: مفردها الوهدة وهي الأرض المنخفضة.
(٢) الظّبا: مفردها «الظبَة» وهي حدّ السيف والسّنان والسكّين.
(٣) يُفلّ: يُثلم ويكسر. (٤) الغائلة: الداهية والشرّ.
(٥) الغول: السكر الناتج عن الشّراب، أو الصُّداع وهو يشير بهذه العبارة إلى الآية الكريمة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصّافات: الآية ٤٧].
(٦) الأسرار: هنا خطوط الوجه والجبهة، وأسند السّرور إليها لظهور إماراته فيها.
(٧) النّفاد: الجواز والمضي، ونفدني بصره: إذا بلغني وجاوزني. (اللسان، مادة نفد).

الدُّرَر، ولا برح القدر يوافق قُصُودَه(١) فيقول للقدر: لَقَدْ ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طه: الآية ٤٠]. وأَتَمَّ نعمته عليه كما أَتَمَّها(٢)، وعَمَر بعدله الآفاقَ وعَمَّها، وأَوضح مَناهجَ كرمه لمن قَصَدها وأَمَّها، وأنجز عِداتِه في عُداتِه فأصماها وأَصمّها. وأَتَمَّ نعمتَه عليه كما أتمها على أبويه مِن قَبلِه، وحَمى حِمى الدين بنصرِه وفضلِه، وكسا الدنيا بمُلكه حلّةَ فخار مُعلَمةً(٣) بإحسانه وعدلِه، وجعل أقاليمَ الأرض معمورةً بسلطانه مغمورةً بعطائه وبذله.

ذكر شيء من إنشاء المولى الماجد

السالك من طريقيَ الفضل والفضائل أَوضحَ الطرق وأَنهجَ المَسالك، المفصِح بلسان براعته والمُوضِح بأنوار بلاغته ما أَبهَم واَستبهم من ليل العِيِّ الحالك، المتصرِّف بقلمِه وكَلِمه لوثوق ملوك الإسلام بديانتِه وأمانتِه وأصالتِه ونزاهتِه في الأقاليم والثغور والحصون والممالك، العامرِ بفضله وفضائله والغامرِ بجوده ونائله باطنَ وظاهرَ من أمّله وأَمَّ له من زائرٍ وقاطنٍ ومارٍّ وسالك؛ فينفصل هذا عن بابه وهو بجوده مغمور، وهذا عن مجلسه وقلبُه بوَلائه لِما أَولاه من إحسانه معمور؛ وهذا وهو يُنفق الجملَ من ماله، وذاك وهو يجود على المُعدم مِن فضلِ نوالِه؛ والآخرُ وقد امتلأ صدره سرورًا، وأشرق وجهُه بهجةً ونورًا؛ واَنطلق لسانُه من عِقاله بعد تقييدِه، واَنبسط أملُه لطلب الفضائل لَمّا ظفر بمعدنها بعد تعقيدِه؛ فتَجِده وقد اَعتَلَق(٤) منه جملًا واَعتَنق جمالًا، وأنفق الدّرر بعد ضنّه(٥) بالأصداف فهو لا يخشى عُدْمًا ولا يخاف إقلالًا؛ والمولى المعنيُّ بهذه المعالي التي اَبتسمت ثغورُها، وتحلّت نحورُها؛ والمكارمِ التي جادت سحائبُها وامتدّت مَذانبُها(٦)، وترادفَتْ مواهبُها، واتّسعَتْ مذاهبُها؛ والفضائِل التي لجنابِهِ الكريم تُعزَى ولفضلِه العميم تَنتسب، والسيادةِ التي شادها لنفسِه لاستغنائه عمّا مهدته له آباؤه النُّجُب(٧)، والمرادُ

(١) القصود: جمع قصد.

(٢) متعلّق هذا الفعل محذوف للعلم به وهو قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسُف: الآية ٦].

(٣) المعلمة: من العلامة.

(٤) اعتلق: هنا بمعنى حفظ، واعتلق: أحبّ، وأراد الكاتب المجانسة بين «اعتلق» و «اعتنق».

(٥) ضنّه: حفظه.

(٦) المذانب: مسايل الماء، واحده مذنب.

(٧) النجب: واحدها النجيب، وهو الفاضل على مثله النفيس.

بهذه الأوصاف التي: [من المديد]

خُـلِّـيَـتْ والـحُـسْـنَ تـأخـذه تَـنـتـقِـي مـنـه وتَـنـتـخـبُ(١)

هو لسانُ الدولة ويمينُها، وسفير المملكة وأمينُها؛ وجامعُ أشتات الفضائل، وناظمُ أخبارِ الأواخر وسِيَرِ الأوائل؛ وسيّدُ الرؤساء وجليسُ الملوك، ومؤلِّفُ كتابِ نظمِ السلوك؛ المولى المالكُ علاءُ الدين عليّ بن المولى المرحوم فتح الدين محمد بن المولى المرحوم محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، ذو الفضائل والمآثر، والنسبِ العريق والأصلِ الطاهر، والسببِ الوثيقِ والفضل الباهر؛ فهذه نبذة من أوصافه أثبتناها، ولُمعة من محاسنه أوردناها، أسام لم تزَده معرفةً وإنما لذّةً ذكرناها؛ وله ـ أعزّه الله وأوفر نعمه لديه، وأَتَمَّ نعمته عليه كما أتمها على أبويه؛ وأرانا في نجله الكريم ما رأيناه في سلفه وفيه، وأَنطَق الواصفَ لمحاسنهم بمِلءِ فيه ـ من الرسائل البليغةَ، والتَّقاليدِ البديعة؛ والعهودِ التي عاهدَتْها البلاغةُ ألا تتعدّاها فوفت بعهدِها، وأقسمت معانيها أنها لم تَقصِدْ سواه مِن قَبل لعلمِها أنّ غيرَه لا يوفّيها حقَّ قصدِها؛ وسنورد إن شاء الله من كلامه ما هو بالنسبة إلى مجموعه نبذةٌ يسيرة، ونرصّع في كتابنا هذا من فضائله لُمعةً خطيرة؛ ونفرع بما نضعه فيه من كلامه قدرَ هذا التصنيف، ونطرّز به أَرْدانَ هذا التأليف، ولا نحتاج إلى التعريف بمكانه وتمكُّنه من هذه الصناعة فالشمس تستغني عن التعريف؛ ونحن الآن نعتذر من التقصير في الانتهاء إلى وصف محاسنِه، ونعترف بالعجز عن إدراك كنه مناقبه الشريفة ومَيامِنه؛ ونأخذُ في ذكر كلامه لنمحوَ ذنبَ التقصير بحسن الإخبار(٢)، ونسأل الصفح عن ٱختصارنا واجبَ حقّه ونرجو قبول كلماتِ الاعتذار.

فمن إنشائه ما كتبه عن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ـ جمَّل الله به الدين، وأيّد ببقائه الإسلامَ والمسلمين ـ للسلطان الملكِ المظفَّر ركن الدين بيبرس المنصوريّ في شوّال سنة ثمان وسبعمائة، ابتداه بأن قال:

هذا عَقدٌ شريف ٱنتظمتْ به عقودُ مصالِح الممالك، وٱبتَسمتْ ثغورُ الثغورِ ببيعته التي شهِدَتْ بصحّتها الكرامُ الملائك؛ وتمسّكت النفوسُ بمحكَم عَقده النَّضيد(٣)

(١) البيت لأبي النواس.

(٢) لعلّه يريد بالإخبار: أن ذكر شيء من كلامه إخبار عن فضله وتمكّنه من ناحية البلاغة، أو لعلّ صوابه (الاختيار).

(٣) النّضيد: الذي ضمّ بعضه إلى بعض.

ومبرَم عهدِه النظيم، ووثقت الآمالُ ببركة مِيثاقه فتقرأه الألسنة مستفتِحةً فيه بقول الله الكريم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: الآية ٣٠] الحمد لله الذي جعل الملّة الإسلاميّةَ تأوِي من سلطانها إلى ركنٍ شديد، وتَحوِي من مبايعة مظفَّرِها كلَّ ما كانت ترومه[(١)] من تأبيد التأييد، وتَروِي أحاديثَ النصر عن مَلِكٍ لا يَملّ من نُصرة الدِّين الحنيفيّ وإن مَلّ الحديدُ من الحديد؛ مُؤتى مُلكَه من يشاء من عبادِه ومُلْقِي مقاليدِه للوليّ الْمَليّ[(٢)] بقَمْع أهل عناده؛ ومانِحِه من لم يزل بعزائمه ومكارمه مرهوبًا مرغوبًا، ومُوليه [ومولّيه][(٣)] من غدا مَحبوًّا من الأنام بواجب الطاعة محبوبًا وباسِط أيدي الرغبات لمن حَكَم له كمالُ وصفِه ووصفُ كمالِه بأن يكون مسئولًا مخطوبًا ومفوِّضِ أمرِه ونهيِه إلى من طالما صَرَف خَطِّيُّه عن حمى الدين أخطارًا وخطوبًا؛ والحمد لله مُجرِي الأقدار برفع الأقدار، ومُظهِر سرِّ الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسيّة بحسن الاختيار من المصطَفينَ الأخيار، جامعِ أشتات الفخار، ورافعِ لواءِ الاستظهار[(٤)]، ودافعِ لأواءِ[(٥)] الأضرار، بجميلِ الالتجاءِ إلى ركنٍ أمسى بقوّة الله تعالى عاليَ المَنار وافيَ المَبارّ، باديَ الآثار الجميلة في الإيثار؛ والحمد لله على أن قلّد أمورَ السلطنة الشريفة لكافِلها وكافيها، وأَسنَد عَقدَها وحَلَّها لمن يدرك بكريم فطنتِه وسليم فطرتِه عواقبَ[(٦)] الأمور مِن مباديها، وأيّد الكتائبَ الإيمانيَّةَ بمن لم تزل عواليه تبلِّغها من ذُرا الأمانيّ معاليها؛ يحمده أمير المؤمنين على إعلاءِ كلمة الإيمان بأعيان أعوانِها، وإعزازِ نصرها بأركانِ تشييدِها وتشييدِ أركانِها؛ ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تبرح الألسنُ تَرويها، والقلوبُ تَنويها، والمواهبُ تُجزِل لقائلها تنويلًا وتنويهًا؛ ويشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله أكملُ نبيٍّ وأفضلُ مبعوث، وأشرفُ مُورِّثٍ لأجلِّ موروث؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تنمو بركاتُها وتَنُمّ[(٧)]، وتَخُصّ حسناتُها وتَعُمّ؛ ورضي الله عن عمِّه العباسِ بنِ عبد المطلب جدِّ أمير المؤمنين، وعن أبنائه الأئمّةِ المهدِّيين؛ الذين ورِثوا الخلافةَ كابرًا عن كابر، وسَمَتْ ووُسِمَتْ بأسمائهم ونعوتهم ذُرا المنابر؛ أما بعد، فإن الله تعالى لمّا عَدَق[(٨)] لمولانا أميرِ المؤمنين مصالحَ الجمهور وعَقَد له البَيعةَ في أعناق

---

(١) ترومه: تطلبه.

(٢) يقال: هو مليء بهذا الأمر: أي مضطلع به (الأساس).

(٣) لم ترد هذه الكلمة في الأصل، والزّيادة عن (صبح الأعشى ١٠/٦٩).

(٤) الاستظهار: العلوّ والغلبة.

(٥) اللأواء: الشدّة والمحنة.

(٦) عواقب الأمور: خواتيمها وأواخرها.

(٧) تنمّ: من نمّ المسك: إذا سطعت رائحته.

(٨) عدق: أي جمع.

أهل الإيمان فزادتهم نورًا على نور؛ وأورثه عن أسلافه الطاهرين إمامةَ خيرِ أمَّة، وكَشَف بمُصابرته من بأس العدا غمامَ كلِّ غُمَّة؛ وأَنزَل عليه السكينةَ في مواطن النصر والفتح المبين، وثبَّته عند تَزلزل الأقدام وثَبَّت به قلوب المؤمنين؛ وأفاض عليه من مَهابة الخلافة ومواهبِها ما هو من أهلِه، وأَتَمّ نعمتَه عليه كما أَتَمَّها على أبويه مِن قبلِه؛ بايع ٱلله تعالى على أن يختار للتمليك على البرايا[١]، والتحكيم في الممالك والرَّعايا؛ من أَسَّس بنيانَه على التقوى، وتمسَّكَ من خشية الله سبحانه بالسبب الأقوى؛ ووَقَف عند أوامر الشرع الشريف في قضائه وحُكمِه، ونهض لأداء فرضِ الجهاد بمعالي عزمِه وحزمِه؛ وكان المقامُ الأشرفُ العالي المَوْلويُّ السلطانيُّ المَلكيُّ المظفَّريُّ الركنيّ، سلطانُ الإسلام والمسلمين، سيّدُ الملوك والسلاطين؛ ناصرُ الملّة المحمّديّة، محيي الدولة العباسيّة (أبو الفتح بيبرس) قسيم أميرِ المؤمنين ـ أعزّ الله تعالى ببقائه حمى الخلافة وقد فَعَل، وبلغ في دوام دولته الأمل ـ هو المَلِك الذي ٱنعقد الإجماعُ على تفضيلِه، وشَهدتْ مناقبُه[٢] الطاهرة باستحقاقه لتحويل المُلْك [إليه][٣] وتخويلِه؛ وحَكَم التوفيقُ والاتفاقُ بتَرقّيه إلى كرسيِّ السلطنة وصعودِه، وقضت الأقدار بأن يُلقِيَ إليه أميرُ المؤمنين أزمّة[٤] عهودِه؛ والذي كم خَفَقت قلوبُ الأعادي عند رؤية رايات نصرِه، ونطقت ألسنةُ الأقدار بأن سيكون مليكَ عصرِه وعزيزَ مصرِه؛ وٱهتَزّتْ أعطاف المنابر شوقًا للافتخار باسمِه، واعتَزّتْ الممالك بمن زاده الله بسطةً في عِلمِه وجسمِه؛ وهو الذي ما برح مذ نشأ يجاهد في الله حقَّ جهادِه، ويساعِد في كل معركة بمرهَفات سيوفه ومتلِفاتِ صِعادِه، ويُبدِي في الهيجاء[٥] صفحتَه للصِّفاح فيَقيه ٱلله ويبقيه ليجعله ظلَّه في الأرض على عباده وبلاده، فيُردِي الأعداءَ في مواقف تأييده فكم عَفَّر[٦] من خدٍّ لملوك الكفر تحت سنابك جيادِه؛ ويشفِي بصدور سيوفه صدورَ قوم مؤمنين، ويسقي ظِماءَ أسنّته فيرويها من مَورد ورُود[٧] المشركين؛ ويُطلِع في سماء الملك من غُرَرِ رأيه نيّراتٍ لا تَأفُل ولا تَغُور، ويُظهِرُ من مواهبه ومَهابته ما تُحسَّن به الممالكُ وتُحصَّن به الثغور؛ فما من حصنٍ أغلقه الكفرُ إلا وسيفُه

(١) البرايا: الخلق.
(٢) المناقب: السجايا والأفعال الكريمة.
(٣) لم ترد هذه الكلمة في الأصل والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ٧١).
(٤) الأزمّة: مفردها الزّمام، والمراد هنا التفويض إليه.
(٥) الهيجاء: الحرب.
(٦) عفّر الخدّ: مترغه في العفر وهو التراب.
(٧) الورود: جمع وريد، وهو عرق في العنق، ويقال: حبل الوريد، والظاهر أنه أراد هنا بالورود: العروق التي فيها الدمّ، لا جمع وريد. . .

مفتاحُه، ولا ليل خطبٍ دَجا[1] إلا وغرّتهُ الميمونةُ صباحُه، ولا عزّ أملٌ لأهل الإسلام إلّا وكان في رأيه المسدَّدِ نجاحُه، ولا حصل خللٌ في قطرٍ من الممالك إلّا وكان بمشيئة الله تعالى وبسَداد تدبيره صلاحُه؛ ولا ٱتّفق مشهدُ غزوٍ إلا وٱلملائكةُ بمضافرته فيه أعدلُ شهود، ولا تَجدَّد فتوحٌ للإسلام إلا جاد فيه بنفسه وأجاد، «والجُودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود» كم أسلف في غزوِ الأعداء من يوم أَغَرَّ محجَّل[2]، وأنفق مالَه ٱبتغاءَ مرضات الله فحاز النصرَ المعجَّل والأجرَ المؤجَّل؛ وأحيا من معالم العلوم ودوارِس[3] المدارس كلَّ داثر، وحثّه إيمانُه على عمارة بيوت الله تعالى الجامعةِ لكلّ تالٍ وذاكر، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [التوبَة: الآية ١٨]؛ وهو الذي ما زالت الأولياء تَتخيّل مخايلَ السلطنة في أعطافه معنًى وصوره، والأعداءُ يرومون إطفاءَ ما أفاضه الله عليه من أشعَّة أنوارِه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبَة: الآية ٣٢]؛ طالما تطاولتْ إليه أعناقُ ٱلممالك فأَعرض عنها جانبًا، وتطفّلتْ[4] عليه فغدا لها رعايةً لذمّة الوفاء مجانبًا؛ حتى أَذِن الله سبحانه لكلمة سلطانه أن تُرفَع وحكم له بالصعود في دَرَج المُلك إلى المحلّ الأعلى وٱلمكان الأرفع، وأَدَّى له من المواهب ما هو على ٱسمه في ذخائر الغيوب مستودَع؛ فعند ذلك ٱستخار ٱللهُ تعالى سيّدُنا ومولانا أميرُ المؤمنين (المستكفي بالله) ـ جعل الله الخلافةَ كلمةً[5] باقيةً في عَقِبه، وأَمتع الإسلامَ وٱلمسلمين بشريفَيْ حسبِه ونسبِه ـ وعَهِد إلى المقام العالي السلطانيّ بكلّ ما وراء سرير خلافتِه، وقلَّده جميعَ ما هو متقلِّدُه من أحكام إمامته؛ وبَسَط يَده في السلطنة المعظَّمة، وجعل أوامرَه هي النافذَة وأحكامَه هي المحكَّمة؛ وذلك بالدِّيار المصريّة والممالكِ الشاميّة، والفراتيّة والحلبيّة والساحليّة، والقلاعِ والثغور المحروسةِ والبلاد الحجازيّة واليمانيّة؛ وكلّ مَا هو من الممالك الإسلاميّة إلى خلافة أمير المؤمنين منسوب، وفي أقطار إمامتِه محسوب؛ وأَلقَى إلى أوامره أزِمَّةَ البسط والقبض والإبرامِ والنقض، والرفعِ والخفض، وما جعله الله في يده من حُكم الأرض، ومن إقامةِ سنّةٍ وفرض؛ وفي كلّ هِبةٍ وتمليك، وتصرّفٍ في ولاية أمير المؤمنين من غير شريك؛ وفي تولية القضاة والحكام، وفصلِ القضايا والأحكام؛ وفي سائر التّحكّم

(١) دجا الخطب: أظلم واشتدّ. (٢) المحجل: الذي فيه بياض.
(٣) الدوارس: مفردها «الدّرس» وهو الذي عفا وذهب أثره.
(٤) في الأصول: تطلّعت (والتصويب عن صبح الأعشى ١٠/ ٧٢) لأنّ السّياق يقتضي ذلك.
(٥) لم ترد هذه الكلمة في الأصل، والزيادة عن (صبح الأعشى ١٠/ ٧٢).

في الوجود، وعقدِ الألوية والبنود، وتجنيدِ الكتائب والجنود، وتجيهزِ الجيوش الإسلامية في التأييد لكلّ مقامٍ محمود؛ وفي قهرِ الأعداء ٱلذين نرجو بقوّة الله تعالى أن يمكنه من نواصيهم، ويحكّم قواضبَه في ٱستنزالهم من صَياصيهم[١]، واستئصالِ شأفة عاصيهم؛ حتى يمحوَ الله بمصابيح سيوفه سوادَ خطوب الشِّرك المدْلهِمّة[٢]، وتغدو سَراياه في ٱقتلاع قلاعِ الكفر مستهِمّة[٣]؛ وتُرهِبهم خيلُ بعوثه وخيالُها في ٱليقظة والمنام، ويَدخُل في أيّامه أهلُ الإسلام مدينةَ السلام بسلام؛ تفويضًا تامًّا عامًّا منضَّدًا منظَّمًا، مُحْكمًا مُحكَّمًا؛ أقامه مولانا أميرُ المؤمنين في ذلك مُقامَ نفسه الشريفة، وٱستَشهَد الكرامَ الكاتبين في ثبوت هذه البَيعة المنيفة[٤]؛ فليَتقلّد المقامُ الأشرفُ السلطانيُّ ـ أعزّه الله نصرَه ـ عِقدَ هذا العهد الذي لا تطمح لمثله الآمال، وليَستمسِكْ منه بالعروة الوثقى التي لا ٱنفصامَ لها ولا ٱنفصال؛ فقد عوّل أميرُ المؤمنين على يمن أرائك التي ما برحت الأمّةُ بها في المعضلات تَستشفِي، وٱستَكفَى بكفايتِك وكفالتِك في حياطة المُلك فأضحى وهو بذلك (المستكفِي)؛ وهو يقصّ عليك من أنباء الوصايا أحسنَ القَصَص[٥]، وينصّ لديك ما أنت آخذٌ منه بالعزائم إذا أَخَذ غيرُك فيه بالرُّخص؛ فإن نُبِّهتَ على التقوى فطالما تمسّكتَ منها بأَوثَق عروة، وإن هُديتَ إلى سبيل الرشاد فما زلتَ ترقى منه أشرفَ ذُروة؛ وإن ٱستَرهفْنا[٦] عزمَك الماضيَ الغِرار، وٱستَدعَينا حزمَك الذي أضاء به دهرُك وأنار وٱستنار؛ في إقامة مَنار الشرع الشريف، والوقوفِ عند أمرِه ونهيِه في كل حكم وتصريف؛ فما زِلتَ ـ خلّد الله سلطانَك ـ قائمًا بسننِه وفرضِه، دائبًا في رضى الله تعالى بإصلاحِ عقائدِ عبادِه في أرضِه؛ وما برح سيفُك المظفَّرُ للأحكام الشرعيّة خادمًا، ولموادِّ الباطل حاسمًا، ولأُنوفِ ذوي الزَّيغ والبِدَع[٧] مُرغِمًا؛ وكلُّ ما نوصيك به من الخير فقد جُبلتْ عليه طباعُك، ولم يزل مشتدًّا فيه ساعدُك ممتدًّا إليه باعُك؛ غيرَ أننا نُورد لمعةً اقتضاها أمر الله تعالى في الاقتداء بالتذكرة في كتابه المبين، وأوجبَها نصُّ قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات:

(١) الصياصي: الحصون، واحدها «الصيصية». (٢) المدلهمّة: الكثيرة السّواد.
(٣) المستهمّة: أي المهتمّة، ويجوز أن تقرأ: مستهمة بتخفيف الميم أي مقتسمة.
(٤) المنيفة: التامة العزيزة.
(٥) يشير بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: الآية ٣].
(٦) استرهفه: أي أرهفه: رققه وأحده.
(٧) البدع: مفردها البدعة: وهي ما استحدث في الدّين وغيره.

الآية ٥٥]، ويندرج تحت أصولها فروعٌ يَستغنِي بدقيق ذهنه الشريفِ عن نصِّها، وبفكره الثاقبِ عن قصِّها؛ فأعظمُها للملّة نفعًا، وأكثرُها للباطل دفعًا؛ الشرعَ الشريف، فليكن ـ أعزّ الله نصرَه ـ عاملًا على تشييد قواعد أحكامِه، وتنفيذِ أوامر حكّامِه؛ فالسعيدُ من قرن أمرَه بأمرِه، ورضي فيه بحلو الحق ومُرِّه؛ والعدلُ، فلينشرْ لواءه حتى يأوِيَ إليه الخائف وينكفَّ بردْعه حَيفُ[1] كلِّ حائف؛ ويَتساوى في ظلّه الغنيُّ والفقير، والمأمورُ والأمير؛ ويمسيَ الظلمُ في أيامك وقد خَمدتْ نارُه، وعفَتْ آثارُه؛ وأهمُّ ما احتفَلتْ به العزائم، واشتملتْ عليه هممُ الملوك العظائم، وأُشرِعتْ له الأسنّةُ وأُرْهِفتْ من أجله الصوارم؛ أمرُ الجهاد الذي جعله الله سبحانه حصنًا للإسلام وجُنّة[2]، واشتَرَى فيه من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجَنّة؛ فجَنِّد له الجنودَ وجَمِّع له الكتائب واقضِ في مواقفه على الأعداء من بأسِك بالقَواضي القَواضب[3]؛ واغزُهم في عقر الدار، وأرهِفْ سيفَك البتّار، لتأخذَ منهم للمسلمين بالثار؛ والثغور والحصون، فهي سرُّ المُلك المصون، وهي معاقلُ النفوس «إذا دارت رحى الحرب الزَّبون»[4]؛ فلتقلِّدْ أمرَها لكُفاتِها، وتحصِّن حِماها بحُماتِها، وتضاعِف لمن بها أسبابَ قوّتها ومادةَ أقواتِها؛ وأمراء الإسلام، وجنود الإيمان، فهم أولياء نصرِك، وحَفَظةُ شامِك ومصرِك؛ وحزبُك الغالب، وفريقُك الذي تَفْرَق[5] منه قلوبُ العدوّ في المشارق والمغارب؛ فليكن المقام العالي السلطانيُّ ـ نصره لله تعالى ـ لأحوالهم متفقِّدًا وببسطِ وجهه لهم متوِّددًا؛ حتى تتأكّدَ لمقامه العالي طاعتُهم، وتتجدّدَ لسلطانه العزيز ضراعتُهم؛ وأما غير ذلك من المصالح فما برح تدبيرُه الجميلُ لها ينفِّذ ورأيُه الأصيلُ بها يشير، ولا يحتاج مع علمه بغوامضها إلى إيضاحها «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» والله تعالى يخصّ دولتَه من العدل والإحسان بأوفر نصيب، ويمنح سلطانَه ما يرجوه من النصر المعجَّل والفتح القريب؛ بمنّه وكرمه.

وكتب تقليدًا مظفَّريًا للأمير سيف الدين سَلّار المنصوريّ بنيابة السلطنة الشريفة في سنة ثمان وسبعمائة، وهو:

---

(١) الحيف: الظلم.
(٢) الجنة: الدّرع.
(٣) القواضب: القواطع.
(٤) الزّبون: من الزَّبْن بفتح وسكون: وهو الدفع، ومنه قيل: حرب زبون لأنها تدفع الأبطال عن الإقدام خوف الموت.
(٥) تفرق: تجزع ويشتدّ خوفها.

الحمد لله الذي شيّد ركنَ الإسلام بسيفه المنتضَى، وجدَّد للمُلك مزيدَ التأييد بكافلِه الذي ما برح وفاؤه للملوكِ الأواخر والأوائل مرتضَى، وأَنجزَ مِن وعودِه الاتفاقُ والتوفيقُ ما كان من ذمّة الدهر مُقتضَى، جامعِ شملِ الأوامر والنواهي بتفويضها إلى مَن تبيت العدا مِن مهابته على جمر الغَضَى[1]، ومُنِيل المنى بمواهبه التي تحوز موادَّ الاختيار وتجوز أمَدَ الرضا، ومُلقِي مقاليدِ التدبير إلى من أضحى جميلَ التأثير إذا تصرّف في الرفع والخفض حكمُ القضا، ومصرِّفِ أزمّةِ الأمور في يد من غدا ثابتَ العزَمات في الأزَمات، فما أَظلمَ خطبٌ إلا أنجلى بمصابيح آرائه وأضا؛ نحمده على أن عضّد دولَتنا بالكامل الكافي ٱلذي اختاره الله لنا على عِلم، ومنح أيّامَنا موالاةَ الوليّ ٱلذي جُمِعت فيه خَلّتان يحبهما اللهُ ورسولُه: وهما الأناةُ والحِلم؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مشرقَة الأنوار، مغدقةً سحبُها بأنواء[2] المنَنِ الغزار؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بعثه ٱلله لإقامة شعائر الإيمان، وخصّ ملّته في ٱلدنيا والآخرة باليمن والأمان؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ٱلذين منهم من أضحى بفضل السَّبْق للإيمان به صِدّيقَه وصَديقَه، وأمسى لفرط الأُلفة أنيسَه في الغار ورفيقَه؛ ومنهم من ضافَرَه في إظهار النبوّة ووازَرَه[3]، وظاهَرَه على إقامة منارها بإطفاء كل ثائرة وإخمادِ كلّ نائرة[4]؛ ومنهم من ساعد وساعف في تجهيز جيش العُسْرة[5]، وأَحسَن وحسَّن مع إخوانه المؤمنين الصحبةَ والعشرة؛ ومنهم من كان سيفَه الماضيَ الحدّ، ومهنّدَه الذي كم فَلّ بين يديه الجموع فما اعترَض إلا قطّ[6] ولا ٱعتَلى إلا قَدّ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا؛ أما بعد، فإن الله تعالى لما هنّأ لنا مواهبَ الظَّفَر، وهَيّأ لنا من الملك مَوادَّ إدراكِ المنى وبلوغ الوَطَر، وأيدنا من أنصارنا بكلِّ ذي فعلٍ أبَرَّ ووجهٍ أغَرّ؛ وشدَّ أزْرَنا بمضافرة سيف يُزهَى المُلكُ بتقليدِه، وأَمَدّنا بمؤازرٍ تَتصرّف المنى وٱلمنون بين وعدِه ووعيدِه؛ وجب علينا أن نحوط دولتنا بمن لم تزل حقوقُ مودّته بحسن الثناء حقيقَة، وعهودُ محبّته في ذمام الوفاء متمكّنةً وثيقَة، وطريقتُه المثلى

---

(١) الغضى: شجرٌ من الأثل، خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانًا طويلًا لا ينطفىء، واحده: غضاة.

(٢) الأنواء: مفردها النّوء وهو المطر.

(٣) وازره: أعانه وقوّاه، والأصل آزره، والمؤازرة بالهمز أفصح وبالواو شاذ.

(٤) النائرة: اسم فاعل من نارت الفتنة تنور: إذا وقعت وانتشرت.

(٥) جيش العسرة: هو الجيش الذي سار به النبي ﷺ إلى تبوك.

(٦) قطّ: قطع.

في المحاسن والإحسان مشهورةً ولا نرى مثلًا لتلك الطريقة؛ ونقلّد كفالةَ ممالِكنا للوليِّ الذي ما برح يتلقى أمورَنا بفسيح صدرِه، ويتوَقّى حدوثَ كلِّ ما نكرهه فينهض في دفعه بصائب رأيه وثاقبِ فكرِه؛ وكان الجنابُ الكريمُ العالي الأميريُّ الكبيريُّ العالميُّ العادليُّ الكافليُّ المؤيّديُّ الزعيميُّ الغياثيُّ[١] المُسنديُّ الممهِّديُّ المثاغِريُّ[٢] المظفَّريُّ المنصوريُّ السَّيفيُّ، معزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ أمراء العالمين؛ سندُ الممالك، مدبِّرُ الدُّوَل، مقدِّمُ العساكر، أميرُ الجيوش، كهفُ الله، حصنُ الأمّة، نُصرةُ الملوك والسلاطين، (سَلَارُ المنصوريُّ) نائبُ السلطنة المعظمة، وكافلُ الممالك الإسلامية، ـ أعز الله نصره ـ هو واسطةَ عِقد الأولياء، وسيفَ الدولة الفاتكَ بالأعداء، والذي أَسلف في نُصرة الإسلام حقوقًا غدت مرقومةً في صحف الفخار، واستَأنَف في مصالح الأمّة المحمّديّة تدبيراتٍ أَظهَر بها أسباب التأييد على الأعداء والاستظهار؛ كم أصلح بيمن سياسته ذاتَ البَين[٣]، وكم أبهج ببركة تَأتّيه[٤] وتَأنّيه كلَّ قلب وأَقرَّ كلَّ عين؛ وكم ساس من مُلك فأضحى ثابتَ الأساس، وجعل شعارَه دفعًا للباس ونفعًا للناس؛ ما عوهد إلا وأوفَى، ولا عوند إلا وَعفَّ وعفا، ولا استُشفِيَ في طبِّ معضلة إلا وشَفَى، ولا ٱستَدرَك تدبيرُ فارطَ[٥] أمرٍ كان على شفا[٦]؛ فما يومُه في الفضل بواحد، ولا أحد لمِثل محاسنه الجميلة بواجد؛ لِعزماتِه في مواقف الجهاد السوابقُ الغُرُّ المحجَّلة، ولِتدبيراتِه في مصالح العباد والبلاد المنافعُ المعجَّلةُ والمؤجَّلة؛ وهو الذي خافت مَهابَته الكتائب، وأُمِّلَت مواهبُه الرغائب[٧]، ولعبتْ[٨] سَطَواتُه للعدا خيالًا في المراقِد وخيلًا في المَراقب، وٱمتَطَى من الشهامة كاهلَها[٩] فأَحجَم عنه لمّا أقدم كلُّ مُحارِب، وصدق مَن نَعَتَه بالسيف، فلو لم يُنعَت به لقيل: هذا سيف يفتِكِ

(١) الغياثي: من الغيث. (٢) المثاغري: من الثغور.
(٣) ذات البين: ما بين القوم من القرابة والصلة والمودّة أو غير ذلك من العداوة.
(٤) التأتّي للأمر: الترفّق والتلطف فيه.
(٥) الفارط: الفائت: يريد أنه يتوقّى الخلل بتدبيره قبل حصوله.
(٦) على شفا: أي شفا جرف هارٍ. يشير بهذه العبارة إلى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٩]. والشفا: الحدّ الأعلى من الوادي وغيره.
(٧) الرّغائب: النفائس المرغوب فيها، واحدها «رغيبة».
(٨) لعبت سطواته: يريد أن سطواته في تشكّلها للأعداء في النوم بالخيال وفي اليقظة بالخيل تشبه فعل اللّاعب حين يتشكّل للناظر بأشكال مختلفة، ولعلّها «لعّبت» بتشديد العين: أي أثارت في خيال أولئك القوم الظنون وأصناف الفكر من شدّة سطوته وكثرة إثارته للخيل زحفًا وحربًا.
(٩) الكاهل من الإنسان: مقدّم أعلى الظّهر مما يلي العنق.

بالضَّريبة ولا تُفَلّ له مَضارب؛ وكم لقيَ بصدره الألوفَ من التتار - خذلهم الله - والمنايا قد بلغتْ من النفوس المنى، وأَمضَى سيفَه في الحروب وما شكا الضنى؛ وحمل حملة فرّق بها كلّ شَملٍ للكفّار ٱجتمع، وقطع أعناق العدافي رضي الله تعالى ولا يُنكَر السيفُ إذا قطع؛ ووصل من العلياء إلى غايةٍ تُزاحِم الكواكبَ بالمناكب، وتَفرَّد بأمر الجيوش فأضحى بدرَ الكتائب وصدرَ المواكب؛ إذا جاش الجيشُ ثبت عند مشتجر الرماح(١)، وإذا أظلم ليلُ النَّقْع(٢) وَضَحت أساريرُ جبينِه وضوحَ الصباح، وإذا أقدم في كتيبة «رأيتَ البرَّ بحرًا من سلاح» وإذا رُفِعت راياتُه يوم الوغى كبّرَتْ بالظَّفَر على ألسنة الرماح، وإذا كان في جحفلٍ كانت عزائمُه للقلب قلبًا وصوارمُه جناحًا للجناح(٣)، وإذا قَدَر في السَلم عفا لكنه في الحرب قليلُ الصفح بيِّنُ الصِّفاح؛ وهو الذي ما برحت أيدي ٱنتقامه تهدم من أهل الشركِ العمائرَ والأعمار، وبروقُ سيوفه تَذهَب بالنفوس لا بالأبصار، ويمنُ يمينه وصبحُ جبينه هذا يَستهِلّ بالأنواء وذا بالأنوار؛ اقتضَى حسنُ الرأي الشريف أن نوفيَ حقوقَ مودّته التي أسلفها لنا في كل نُعمى وبُوسى، وأن نضاعفَ علوَّ مكانه من أخوّتِنا ليكون منا كهارون من موسى؛ فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولَويّ السلطانيّ الملكيّ المظفَّريّ الركني - لا برح يوفي بعُهود الأولياء ويفي، ويَمنح من أخلص النيّةَ في ولائه البرَّ الخفيَّ والفضلَ الحَفِي - أن تكون كلمةُ الجناب الكريم العالي الأميريّ السيفيّ المشارِ إليه - أعزه الله نصره - نافذةً في كفالة الممالك الإسلاميّة، متحكّمةً في نيابة السلطنة المعظَّمة، وأوامرُه المطاعةَ في إمرة الجيوش وحياطة الثغور التي غدت بدوام كفالته متبسّمة؛ على أجمل عوائدِه(٤)، وأكمل قواعدِه؛ نيابةً ثابتةَ الأساس، ناميةَ الغراس؛ لا يضاهَى فيها ولا يشارَك، ولا يَخرُج شيءٌ من أحوالها عن رأيه المبارك؛ فليبسُط نهيَه وأمرَه في التدبير والإحكام، وليَضبِط الممالكَ حتى لا تسامَى ولا تُسام؛ وليُطلع من آرائه في سماء الملك نجومًا بها في المصالح يُهتدَى، وليَرفع من قواعده ما يخفض به قدرَ العدا؛ وليُضاعِف ما أَلفته الأمّةُ من عدلِه، وليَجرِ على أكرم عاداته مِن نشرِ إنصافه وشمولِ فضلِه، وليعضُد(٥) جانب الشرع المطهَّرِ في عَقِده وحَلِّه، وتحريمه وحِلِّه؛ ولينفذ كلمتَه على ما هو من ديانته

---

(١) اشتجرت الرّماح: تشابكت وتداخلت. (٢) النقع: الغبار المتصاعد في الحرب.
(٣) القلب والجناح: فرقتان من فرق الجيش الخمسة...
(٤) العوائد: جمع عادة. (٥) عضَد: أعان ونصر.

مألوف، وليَستكثِر من الاقتداء بأحكامه في النهي عن المنكر والأمرِ بالمعروف؛ وأمراء الإسلام وجنوده، فهم ودائعُ سرِّه، وصنائعُ شكره، وطلائعُ نصرِه، وما منهم إلا من غُذِيَ بلبان[١] دَرِّه، وغدا [من][٢] ثناء عصره متقلدًا لعقود دُرِّه؛ فليستدم حُنوَّه عليه وإشفاقَه، وليوال إليهم بِرَّه وإرفادَه[٣] وإرفاقَه[٤]؛ والوصايا كثيرةٌ لكنها منه تُستملى، والتنبيهاتُ على المصالح منه تستفاد نقلًا وعقلًا، وما زلنا نستضيء في المهمّات بيمن آرائه التي جَمعتْ للمصالح شملًا؛ فمِثلُه لا يُدَلّ على صواب وهو المتفرِّد بالسداد، والخبيرُ بتفريج كُرَب الخطوب والسيوفُ غامضةُ الجفون في الأغماد؛ والله تعالى يمتعنا من بركة كفالته بالخلِّ المُوافِي[٥] والأخ المواسِي، ويشدّ أزرَ سلطاننا من مضافرته بمن أمسى جبل الحلُوم[٦] الرواسي؛ إن شاء الله تعالى.

ومن إنشائه أيضًا أعزه الله تعالى مقامة عملها في سنة اثنتين وسبعمائة، على لسان من التمسها منه، فقال:

حَكَى أليفُ الغرام، وخليفُ السَّقام؛ وقتيلُ العيون، وصريعُ الجفون؛ وفريسةُ الأسود، والمصابُ بنبال الحَدَق[٧] السود؛ عن قصّتهِ في هواه، وقضيّتِه التي كان في أوّلها غِناه، وفي آخرها عَناه؛ قال: لم أزل في مدّة العمر أترقّب حبيبًا أتلذّذ بحبِّه، وأتنعّم بقربِه؛ وأحيا بانعطافِه، وأسكر من ريقه بسلافِه[٨]؛ وأستعذب العذاب فيه، وأرشُف خمر الرضاب مِن فيه، وأقتطِف ورد السرور من وجنتيه وأجتنيه؛ وأكتسِي به لطفًا وأكتسِب بمصاحبته ظَرْفًا؛ حتى ظفِرتْ يداي بمن رقّ وراق، ولطُفَتْ حدائقُ معانيه حتى كادت تَخفى عن الأحداق: [من الكامل]

لطُفَتْ معانيه فهبّ مع الصَّبا ورقيبُه بهبوبه لا يعرِفُ

قد جمع أوصاف المحاسن والمعاني، وفاق كلَّ مليح فليس له في الحسن ثاني؛ أما قوامُه، فقد ملك الفؤاد فأضحى مَلِكًا عادلًا، واستباح النفوسَ من اعتدالِه

(١) اللِّبان: بالكسر أي الرضاع، يقال: هو أخوه بلبان أمّه ولا يقال بلبن أمّه.
(٢) ما بين قوسين زيادة لم ترد في الأصول والسّياق يقتضيها.
(٣) الإرفاد: الإعطاء، من الرّفد.
(٤) الإرفاق: من الرّفق أي حسن المعاملة والنفع.
(٥) الخلّ الموافي: أي الصديق والصاحب الوفيّ الذي يفي بالعهد.
(٦) الحلوم: جمع «حِلم» وهو الأناة وعدم الخفّة، والرواسي: صفة للحلوم.
(٧) الحدق: العيون، مفردها حدقة وهي السّواد المستدير وسط العين.
(٨) السُّلاف: أفضل الخمر وأخلصها.

فلا غرو إن أضحى لها قاتلًا: [من الكامل]

عَجَبًا لقدّك ما تَرنَّحَ مائلا   إلا وقد سلب الغصونَ شمائلا[١]

وأما لحاظُه فقد غَنيتْ عن الكُحْل بالكَحَل، وأذابت حبّاتِ القلوب في حُبّ تلك المُقَل: [من الكامل]

وإذا رأيتَ الطرف يعمل في الحشا   عملَ الأسنّة فالقوامُ مثقَّفُ[٢]

إلى غير ذلك من وجه كالبدر في تمامِه، يعوه من شعرِه ما يصير به كالبدر تحت غمامِه: [من الكامل]

قمرٌ تَبلَّج وجهُه في حندسٍ   من شعره فأضاء منه الحندسُ[٣]

ومقبَّلٍ أشهى من الراح، وأعطرَ من زهر الربا تفتّحت أكمامُه عند الصباح: [من مجزوء الكامل]

ومقبلٍ عذبٍ كأنْ   نَ رضابَه بَرَدٌ وراح

وخدٍّ أمسى شقيقَ الشَّقيق[٤]، ومَبسِمٍ يُرشَف مِن شفاهِه العقيقِ الرحيق:

شفةٌ كمحمّرِ العقيـ   ـق ومَبسِمٌ مِثلُ الأقاح[٥]

وصُدْغٍ سال على خدّه القاني، وامتدّ كدمع محبّه الأسيرِ العاني: [من الكامل]

صبٌّ له دمعٌ كصُدغك سائلٌ   فعساك يا مُثْرِي الجمال تُواسِي[٦]

وخصرٍ لَطُف ودَقّ، وعلاه كَثيبُ ردفٍ فأثقله حتى ضَنِيَ ورَقّ: [من السريع]

يا ردفَه رفقًا على خصرِه   بينكما حرمةُ جيرانِ

---

(١) ترنّح: تمايل غنجًا، والشمائل: الصفات.

(٢) الحشا: ما انضمّت عليه الضلوع، والأسنة: الرماح، والمثقّف: المستوي والمعتدل.

(٣) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٤) الشقيق: يريد بالشقيق شقائق النعمان، وهو زهر أحمر، وإنما أضيف إلى النعمان لأنّ النعمان بن المنذر حمى أرضًا فكثر هذا النبت، وقيل: النعمان: اسم للدّم، وشقائقه: قطعه.

(٥) الأقاح: جمع أقحوان، وهو من نبات الربيع، له نورٌ أبيض كأنه ثغر جاريةٍ حديثة السنّ.

(٦) الصّدغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن.

إلى غير ذلك من أنواع حسنٍ قصر عن وصفها قلمي، وعجز عن حصرها كَلِمي؛ وأشفقتُ من شرحها خوفًا أن أَنُمّ عليه، أو أذكر ما تفرّد به من الحسن فأكون قد أشرتُ إليه؛ وأنا قد تدرّعتُ ثوبَ الكتمان، وتسترّتُ حتى غاض مني الدمعُ وأَغضَى الطرفُ وسكت اللسان: [من الطويل]

يقولون من هذا الذي مُتَّ في الهوى   به كَلَفًا يا ربِّ لا علموا الذي[١]

غيرَ أنّي قد متعت بذكر ملاحته فؤادي، ولا بدّ أن أُوردَها مجمَلةً لأُكْمِد بلفظها[٢] المُعادي: [من الطويل]

حكاه من الغصن الرطيبِ وَرِيقُه   وما الخمرُ إلّا وجنتاه ورِيقُه
هلالٌ ولكن أفْقُ قلبي محلُّه   غزالٌ ولكن سفحُ عيني عقيقُه[٣]
بديعُ التثنّي راح قلبي أسيرَه   على أن دمعي في الغرام طَليقُه
أَقَرَّ له من كل حسن جليلُه   ووافقه من كل معنًى دقيقُه
من التُّرك لا يصبيه وجدٌ إلى الحِمى   ولا ذكرُ باناتِ الغُوَير يشُوقُه[٤]
ولا حلَّ في حيٍّ تلوح قبابُه   ولا ساق في ركبٍ يساق وسيقُه[٥]
ولا بات صبًّا للفُرَيق وأهلِه   ولكن إلى خاقانَ يُعزَى فَرِيقُه[٦]
يهدِّد منه الطرفُ من ليس خصمَه   ويُسكِر منه الريقُ من لا يذوقُه
على خدّه جمر من الحسن مضرَمٌ   يُشَبّ ولكن في فؤادي حريقُه
له مَبسِمٌ يُنسِي المدامَ بِريقِه   ويُخْجِل نُوّارَ الأَقاحي بَريقُه

(١) الكلف: الحبّ الشديد.
(٢) بلفظها: أي بذكرها فالمراد من اللفظ المصدر، أي التلفّظ.
(٣) سفحُ العين: دموعها المذروفة، والعقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص قال: إنّه يبكي دمًا.
(٤) يصبيه: من أصبى أي استمال، والبانات: مفردها بانة وهي شجرة ليّنة ورقها طويل، وزهر أبيض، والغوير: ماء لكلب بأرض السماوة بين العراق والشام، وقيل: إنّه ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة.
(٥) الوسيق: الموسوق أي الذي حمل عليه الوسق وهو الحمل، وفي القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ [الانشقاق: الآية ١٧].
(٦) الفريق بالتصغير: اسم موضع بتهامة. (معجم البلدان ٤/ ٢٦٠).

قال الراوي: فأعلمتُه ما خامر قلبي[١] من هواه، وبذلت نفسي ٱبتغاءَ لرضاه: [من الكامل]

بثَثتُ له سرّي ونحن بروضةٍ   فمالت لتُصغِي للحديث غصونُ

فتَلقَّى ضراعتي بالرُّحْب والإقبال، وسَفَر عن وجه الرضا فبشّرتُ نفسي ببلوغ الآمال؛ وقلت: [من الطويل]

تذلّلتُ في الشكوى إليه فرقّ لي   حُنوًا لدمعي في الهوى وتذلُّلي
غزالٌ لبستُ السُّقمَ خلعةَ جفنه   على أنني فيه خلعتُ تجمُّلي[٢]
تَعَلَّلَ بالأعذار حتى خدعتُه   بسِحر الرُّقى أفديه مِن متعلِّلِ
فراقَبَ إغفاءَ الرقيب وهَجعَةَ السَّـ   ـمير وراعَى حينَ غفلةِ عُذّلي[٣]
ووافى أخا الأشواق حلفَ صبابةٍ   أسيرَ هوًى مِن وجدِه في تَملمُلِ[٤]
فلم أر روضًا كان أحسنَ بهجةً   ـ لعمر الهوى ـ من وجهه المتهلّلِ
فأعظمتُ مَسراه وقبّلتُ خاضعًا   ثرى خَطوِه شكرًا لفضل التطوّلِ[٥]

وٱنعطف عليّ ٱنعطافَ الغصن الرطيب، وتمازجتْ قلوبُنا حتى أشكل عليّ أينا الحبيب؛ وفزتُ منه ببديع جمال تلذّ به النفوس، ورَشَفتُ من رضابه أحلى ما تَرشُفُه الأفواهُ من شفاهِ الكؤوس: [من المتقارب]

تَعلّقتُه صائدًا للقلوب   بألحاظه سالبًا للنُّهى
بديعَ الجمال إذا ما بدا   ترى فيه للعين مستنزَها[٦]
فكم فيه للعين من روضةٍ   وكم فيه للنفس من مشتهى

يا حسنَه لمّا أتى بوعد وعلى غير وعد، ويا لذاذةَ قربِه ويا حرارةَ ما ذقناه بعدها من هجرٍ وصدّ[٧]؛ فلم نزل على ذلك مدّةً أغفَى الدهرُ عنّا فيها، أُقضّي حياةً طابت تلذُّذًا وتَرْفِيهًا: [من الطويل]

رعى الله محبوبًا نعمتُ بوصلِه   وقد بعدتْ عنّا الغداةَ عيونُ

---

(١) خامر القلب: خالطه ولازمه.
(٢) التجمُّل: الاعتدال والصبر.
(٣) الهجعة: النومة الخفيفة من أوّل الليل.
(٤) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
(٥) التطوّل: التفضّل.
(٦) المستنزه: من الاستنزاه بمعنى التنزّه.
(٧) الصدّ: الإعراض.

حتى شعُر بنا الدهرُ الخؤون، ورماني بسهم فرقةٍ أبعدت ٱلمنى وجلبت ٱلمنون؛ وعلم بما كتمناه الرقيب، وعجَز عن داء قلبي ٱلطبيب: [من الكامل]

لو كان للعشاق حظٌّ في الهوى   ما كان يُخلَق في الزمان فراقُ

فتجرّعتُ بعد الشُّهد علقمًا، ولَم أستطع أفتحُ[١] من الحزن فمًا؛ وهمتُ في ساحة الشوق والالتياح[٢]، وفضحتني الأدمعُ التي طال بها على المحبِّين الافتضاح: [من الخفيف]

لا جرى اللهُ دمَع عينيَّ خيرًا   وجرى اللهُ كلَّ خيرٍ لساني
نَمّ دمعي فليس يكتم شيئًا   ووجدتُ اللسانَ ذا كتمانِ[٣]
كنتُ مِثلَ الكتاب أخفاه طيٌّ   فٱستدَلُّوا عليه بالعُنوانِ

فإذا هو مُرُّ المَذاق، وأمنع الدمعَ فيقول: وهل خبأتَني لأعظمَ من يوم الفراق: [من الطويل]

أبَى الوجدُ أن يُخفيه قلبٌ متيّمٌ   يكابده والدمعُ يبُديه والضَّنى[٤]

وكم ذاب القلبُ حسرة، وتَفتّتت ٱلكبدُ في تلك الفَترة؛ على خَلوة أبُثّ فيها حَزَني، وأَفسَح فيها المجالَ الذي ضاق به عَطَني[٥]؛ فلم أظفَر بخَلوة في لمحة بصر، ولا فزتُ بذكر كلمة أفرّج بها ما عرض مِن حَصَر: [من الطويل]

تعرّضتُ من شوقٍ إليه فأَعرضا   ولولا الهوى لم أَمنح ٱلحبَّ مُبغِضا
وبُحتُ إليه أنّ عندي رياضةً   عليه وما تلك الرِّياضةُ عن رضا[٦]
قَضى حبُّه أنّي إذا عزّ في الهوى   أَذِلّ وإني قد رضِيتُ بما قضَى
لقلبيَ من عينيه سُقْمٌ وصحّةٌ   فكم مرّة في الحبّ داوَى وأَمرَضا
مضى لي به عيشٌ بكَيتُ لفقده   وهيهات أن يرتدَّ عيشٌ إذا مضى

(١) يريد: أن أفتح، فإن في هذه العبارة محذوفة وقد أجاز اللغويون حذفها مع رفع الفعل بعدها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزُمَر: الآية ٦٤] والتقدير أن أعبد.

(٢) الالتياح: في الأصل شدّة العطش من اللوح، والمراد هنا الهيام والعشق لشبههما بالعطش في شدّة الغليل.

(٣) نمّ: أظهر ووشى بما عنده من الشوق.

(٤) يكابد: يعاني.

(٥) العطن: الصبر والحيلة عند الشدائد.

(٦) الرّياضة: أراد بها هنا ملازمة المحبوب والإعراض عن كلّ ما سواه.

وبُليتُ برقيب قد سلب ٱلله من قلبه الإيمان، وسلّطه عليّ بغلظ الطباع وفظاظة اللسان؛ كأنه شيطان لا بل هو بعينه، لكنّه أزبى[١] عليه في بهتانه ومَينه[٢]؛ يُحاقُّ[٣] على الكلمة الواحدة، ولا يسمح بأن طرفي يمتدّ إلى تلك ٱلمحاسن التي غدت القلوبُ بها واجدة؛ يوَدّ لو غُطِّيَ على بصري، ويبدلني مَغِيبي من مَحضَري؛ لا يَفتِر عن اللَّوم والعَذَل، ولا يرى أن يقضيَ ساعاتِه إلّا في بذل الحيَل؛ يرغب في شتات شملي، وانقطاعِ وصلي؛ وليس لي في دفعه حيلة، ولا في الانتقام منه وسيلة؛ وما زال حتى أحال الحبيب عن ودادِه، وكدر ما صفا من حسن ظنّه وٱعتقادِه؛ وأنا أَرُوض نفسًا كادت تذوب، وأتلّى بأيّام وصاله وأقول: لعلها ترجع وتؤوب: [من الطويل]

لئن ذقتُ مرَّ الصبر أو ملحَ أدمعي لقد أَعذبتْ تلك المَذاقاتُ مَنهلي[٤]

فلم يقنع ٱلدهرُ لي بذلك، ولا رضي بالصدّ والعذل والهجر الذي هو أعظمُ المهالك؛ حتى قضى بالفرقة والبِعاد، ورمتني النوى بسهم فلم يخطىء ٱلفؤاد؛ وكنتُ أتعلّل بالنظر، وأقول: مشاهدة هذا الوجه القمريِّ عندي أكبرُ وطر[٥]؛ حتى مُنِعتُ الوصالَ والمشاهدة، ونَدَبتُ قلبي القريحَ بأدمع عيني ٱلجامدة: [من البسيط]

أحبابَ قلبي لقد قاسَيتُ بَعدكمُ نوائبًا صيّرتْني في الهوى مَثلا
وقد تعجّبتُ أنّي بعد فرقتكم أحيا وأيسرُ ما لاقَيتُ ما قَتَلا[٦]

وٱنقطعتْ عنّي الرسائل، وذهبت لذاذةُ ما ٱعتدتُه من تلك الوسائل: [من الكامل]

هل مُخْبِرٌ عنكم يعيش بقوله ميتُ الرجا والصبرِ بعد إياسِ
أحبابَنا قسمًا بساعة وصلنا لَم أَكتحِل من بَعدكم بنعاس
غبتم فعندي بالفراق مآتمٌ فمتى تعود بعَودكم أعراسي

---

(١) أربى: زاد. (٢) المين: الكذب.
(٣) يحاق: من المحاقَّة بتشديد القاف، وهي المخاصمة والمنازعة.
(٤) المنهل: المشرب، أو موضع الشرب. (٥) الوطر: الحاجة.
(٦) الشطر الثاني من البيت هو صدر البيت الأول لقصيدة قالها المتنبي في مدح سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي، وتمام البيت:
أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جارٍ على ضعفي وما عدلا
(ديوان المتنبي ١/٥٩، دار الكتب العلمية).

وذَوَى غصنُ السرور بعد أن كان رطيبًا، وفقدت لنداء ألمي مجيبًا؛ وأغلقتُ بابَ الدَّعة، وأسبلتُ هواطلَ أدمعي قائلًا للأجفان: لا تخشَيْ منفقة من سَعة؛ ولولا التعلّلُ بالذكرى، والتأمّلُ في حسنه الذي تَشكّل(١) في مرآة القلب فسَرَّ سِرًّا؛ لقلت: [من الوافر]

كأنّك قد خَتمتَ على ضميري ... فغيرُك لا يمر على لساني
ولي عينٌ تراك وأنت تَنآى ... كما ترنو إليك وأنت داني
وأقربُ ما يكون هواك منّي ... إذا ما غاب شخصُك عن عِياني
شَغلتَ عن الورى بصري وسمعي ... كأنهما بِحبّك مفرَدان
فها أنا لا أعاين ما بدا لي ... سواك ولا أُصِيخ لمن دعاني(٢)

ثم إنّي فارقتُ الحياة، وبذلتُها راغبًا في هواه؛ ولم أزل كذلك إلى أن ظهرت آثار قربِه، وسَرَى النسيمُ عِطرًا فعلمتُ قربَ ركبِه: [من الطويل]

وأذكرني ذاك الصَّبا زمنَ الصِّبا ... وما الشوقُ إلا ما تَجدَّدَ بالذكرِ(٣)

فكاد قلبي يطير للقائه، ولولا تستُّرهُ بحُجب الفؤاد لخرج من قوّة بُرَحائه؛ وتذكرتُ كيف يكون اللقاءُ والاجتماع، والرقباءُ قد أزمعوا على المنع والدِّفاع، وقلتُ: فارقَني على غير رضا، وجفاني من غير ذنب، ونآى عنّي من غير وداع؛ وهأنا في غيابه وحضورِه، وسخطه وسرورِه؛ لا أَحُول عن ودِّه، ولا أَرى إلا الوفاء بعهدِه: [من الكامل]

هيهات ما وجدي عليك بزائل ... فإلام يُطنِب في الملامة عاذلي
ناشدتك العهدَ القديمَ ويومَنا ... بِلوى الصَّريم وبانِه المتمايلِ(٤)
هل تعلمنّ سوى هواك وسيلةً ... تدني رضاك وقد جهلتُ وسائلي
أدنيتَني حتى إذا تيمتَني ... بمحاسنٍ ومعاطفٍ وشمائلِ(٥)

---

(١) تشكّل: من المشاكلة وهي المشابهة، ويريد بتشكّل: تصوّر وتمثّل.
(٢) أصيخ: استمع وأصغي.
(٣) الصَّبا بالفتح: ريحٌ مهبّها من مطلع الثريّا إلى بنات نعش، والصِّبا: الشباب وفي الكلام جناس تام.
(٤) اللّوى: ما التوى وانعطف ومال من الرّمل، والقرين: القطعة المحدودبة من الرّمل، والبان: شجر لين ورقه طويل وزهره أبيض، والتمايل: المنثني.
(٥) المعاطف: أراد بها مواضع الانثناء من الجسد كالخاصرتين والجيد.

وبحسنِ وجهٍ لو تَجَلّى في الدجى سجد الصباحُ لضوئه المتكاملِ[١]
ونواظرٍ سحّارةٍ لجفونِها فضلُ الصناعة لا لساكنِ بابلِ[٢]
ووقعتَ من قلبي بودٍّ قد جرى مَجرَى دمي بجوانحي ومفاصلي[٣]
قاطعتني وسمعتَ قول حواسدي وصرمتَ من بعد الوصال حبائلي[٤]
ولربَّ ليلٍ بتُّ فيه مسهّدًا فردًا أسامر لوعتي وبلابلي[٥]
أطوي على حرّ الغرام أضالعًا يُطوَين فيه على قداح النابل[٦]

وها أنا أترقّب وصلَه، وأتوقّع عدلَه: [من الكامل]

أتراه من جَور الصبابة ينصفُ ويرقّ للعاني عليه ويَعطفُ
صبٌّ يرى السُّلوانَ عنه محرَّما فله إليه تولّهٌ وتلهُّفُ[٧]
يا أهل كاظمةٍ وحقِّ هواكمُ قسمًا بكم وبغيركم لا يُحلَفُ[٨]
مشتاقُكم ألِفَ الصبابة فيكمُ فكأنه لسواكمُ لا يَعرفُ
فعِدوه منكم بالوصال تَعلّةً ولكُمْ بأن تعِدوا الوصال ولا تفوا
وحياتَكم يرعاكمُ في بُعدكم ولقربِكم في بُعدكم يَتشوّفُ[٩]

---

(١) الدّجى: الظّلماء.

(٢) المراد بالصناعة: صناعة السّحر، وبابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلّة ينسب إليها السّحر والخمر، وهو يشير هنا إلى الآية الكريمة: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢].

(٣) في الأصول: حوى، والصّواب ما أثبتناه لأن السّياق يقتضيه والجوانح: ما انضمّت عليه الضلوع.

(٤) الحبائل: الأسباب والعهود واحده حبال جمع حبل.

(٥) البلابل: مفردها البلبال وهو شدّة الهمّ والوسواس.

(٦) القداح هنا: السّهام على طريق التجوّز في استعمال اللفظ، والقداح: هي السِّهام قبل أن تراش وتركّب فيها النصال، والنّابل: الرّامي بالنّبل.

(٧) الصّبّ: الذي رقّ واشتاق، والتولّه: التعلّق.

(٨) كاظمة: جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. (معجم البلدان ٤/ ٤٣١).

(٩) وحياتكم: نصب هذا اللفظ على الظرفيّة أي أنّه يرعاكم ويتشوّف لقربكم ما حييتم، ولا يجوز الإعراب بالكسر على القسم لأن الفعل بعده لا يصلح أن يجعل جوابًا له لعدم تأكيده باللام والنّوم، ويتشوّف: تزيّن وطمح.

وليس لي ما أمُتّ به إلا صِدقُ الغرام، والإقدامُ في حبه على ارتكاب[١] الحِمام[٢]: [من الكامل]

جـدِّدْ عـهـودَ تـواصُـلٍ وتَـلاقِ ... واستبقِ لي رمقًا فليس بباقِ[٣]
واشفَع إلى ما رقّ من تَرف الصِّبا ... من وجنتيك برقّة الأخلاقِ[٤]
ما حقُّ ذي قلبٍ صفا لك وُدُّه ... تـقـطـيـعـه بـقـطـيـعـةٍ وفـراقِ
مع ذا وذا كيف استَهَنتَ فكن أنا الـ ... ـموثوقَ بي مولاي في الميثاقِ[٥]

قال الراوي: فسمع شكواي وما أَشكَى[٦]، وقابل رقّتي بجفوة بها القلبَ أَنكَى[٧] والطرفَ أَبكَى؛ ولفق أعذارًا، وأقسمتُ عليه أن يزُور فلم ير لقسمي إبرارًا.

هذا ما اتّفق إيرادُه من كلامه ـ أدام الله علوَّه ـ في هذا الموضع، وسنورد إن شاء الله من كلامه أيضًا ما تقف عليه في آخر فن الحيوان في السفر الذي يليه إن شاء الله تعالى.

ذكر شيء من إنشاء المولى الفاضل
الصدرِ الكبيرِ الكامل؛ البارعِ الأصيل، الأوحدِ النبيل؛
تاجِ الدين عبد الباقي بنِ عبد المجيد اليماني

هو الذي أتقن صناعة الأدب في غرّة شبابه، وبرَّز[٨] على من اكتهل في طلبها وشابَ في الترقّي إلى رتبها، فما ظنُّك بأترابه؛ وجارَى ذوي الفضل في الأقطار اليمنيّة فطلع مُجلِّيَ[٩] الحَلْبة، وبارَى نجباءَ الأفاضل بالمملكة التَّعزِّيّة[١٠] وكان المؤمَّلُ[١١] منهم بالنسبة إليه أرفعَهم رتبة؛ وسما إلى سماء البلاغة فكان نجمَها الزاهر، وارتقى

(١) يقال ركبه وارتكبه كلاهما بمعنى واحد. (٢) الحمام: قضاء الموت وقدره.
(٣) الرمق: بقية الروح. (٤) الصِّبا: الحداثة في السنّ.
(٥) أي أنات الموثوق بي منك، وقوله: أنا الموثوق بي: خبر لقوله (كن).
(٦) يقال: أشكى فلان فلانًا، إذا أزال شكواه. (٧) يقال: نكأ القرحة، إذا قشرها بعد البرء.
(٨) برّز الرجل: فاق أصحابه فضلًا. (٩) المجلّي من الخيل: السابق في الحلبة.
(١٠) التعزية: نسبة إلى تعز بفتح التاء وكسر العين وتشديد الزاي، وهي قاعدة اليمن. وقيل: إنها مدينة عظيمة ذات أسوار وقصور، كانت دار ملك بني أيوب ثم بني رسول من بعدهم. (انظر صبح الأعشى ٥/ ٧، دار الكتب العلمية).
(١١) المؤمل: الثامن من خيل الحلبة.

إلى أفلاك البراعة فكان نيِّرَها الباهر، ورام مَن سواه الارتقاءَ إلى محلّه والمناوأة[١] لفضله فغدا وهو في ذيول حَيرته عاثر؛ فعند ذلك علموا عجزَهم عن إدراك غاياتِه، واعترفوا بالتقصير عن مجاراته ومباراتِه؛ وحين لم يجد لفضله مُجاريًا، ولا عاين لفضائله مُباريًا؛ صار بها كالغريب وإن كان في أهله ووطنِه، والفريد مع كثرة أبنائه وإخوان زمنِه؛ فسمت به نفسُه إلى طلب العلوم من مَظانِّها[٢]، والاحتواء عليها في إبّانِها؛ والّلحاقِ بأعيان أهلِها، والاختلاطِ بمن ارتدى بأردية فضلِها؛ ورؤيةِ من توشّح بقلائدِها، وترشَّح[٣] لبذلِ فوائدِها ونظمِ فرائدِها؛ ففارق الأقطارَ اليمنيّةَ وهي تسأله التأنّي، وتَبذُل لرضاه الرغبةَ والتمنّي؛ وهو لا يجيب مناديَها ولا يعرِّج على ناديها، ولا يميل إلى حاضرها ولا ينظر إلى باديها؛ وصَرف وجهَه عنها، ونفض يدَه منها؛ والتَحق[٤] بالديار المصريّة، وانبتّ[٥] في طلب العلوم بأجمل سريرةٍ وأحسنِ سيرةٍ وأخلصِ نيّة؛ فبلغ فيها مناه، وأدرك بها ما تمنّاه، وغدا وثغرُ فصاحته بالعلوم أشنَب[٦]، وبُردُ بلاغته بالآداب مُذْهَب: [من الطويل]

تَـنـاهَـى عـلاءً والـشـبـابُ رداؤه　　　فما ظنُّكم بالفضل والرأسُ أشيَبُ

ولما عاينه أعيانُ أهلِ هذا الوادي، وشاهدوه يُبكّر في طلب العلوم ويُغَادِي[٧]؛ تلقَّوه بالإكرام والترحيب، وقابلوه بالتبجيل والتقريب، وأنزلوه بالمحلّ الأرفع والفِناءِ الخصيب؛ وعاملوه بمحض الوداد، وساواه شبابُهم بالإخْوةِ ومشايخُهم بالأولاد؛ وخلطوه بالنفس والمال، وظهر له في ابتداء أمرِه بقرائن الأحوال حسنُ المآل؛ فأصبح من عُدول المصر، وأمسى وهو من أعيان العصر؛ فشكر عاقبةَ مَسيرِه وحَمِد صباحَ سُراه، وأجابه لسانُ الفضائل بالتَّلبيةِ لَمّا دعاه؛ ثم ارتحل إلى الشأم فجعل دِمَشقَ مَقرَّ وطنِه، وموطنَ سَكنهِ؛ ومحلَّ استفادته وإفادتِه، ونهايةَ رحلته وغاية إرادتِه، فعامله أهلُها بفوق[٨] ما في نفسِه، فحمد يومَه بها على أمسِه؛ وغدا لأهل المصرين شاكرًا،

(١) المناوأة: المفاخرة والمعارضة.
(٢) المظانّ: المراجع التي ينشد فيها الباحث طلبته.
(٣) ترشّح: تهيأ وتأهل.　(٤) التحق به بمعنى لحق، كلمة مولدة.
(٥) إنبتّ: انقطع، أي انقطع عن الشواغل في طلب العلوم.
(٦) الأشنب: الثغر الذي رقّت أسنانه وابيضّت.　(٧) يغادي: يذهب باكرًا.
(٨) كذا ورد هذا اللفظ مجرورًا بالباء، والذي في كتب اللغة: أن «فوق» و «تحت» من الظروف غير المنصرفة، فجّرهما بالباء غير سائغ، وأجاز بعض اللغويين تصرّفهما في نحو «فوقك»: رأسك، وتحتك: رجلاك برفع فوق وتحت على الابتداء...

ولمناقبِهم تاليًا ولمحاسنِهم ذاكرًا؛ وله من النظم ما رقَّت حواشيه[١]، وراقت معانيه؛ ومن النثر ما عَذُب وصَفا، وكَمَلُ بلاغةً ولطفًا؛ وحسُن إعجازًا، وتَناسَب صدورًا وأَعجازًا؛ وقد قدّمنا من كلامه في هذا الكتاب ما بأسمه ترجمناه، ولفضائلِه نسبناه؛ مما تقف عليه في مواضعِه، وتغتذي بلِبان مَراضعِه؛ فلنورد له في هذا الباب غيرَ ما تَقدَّم إيرادُه وما تأخَّر، ونأخذ لتصنيفنا من بلاغته بالنصيب الأوفَى والحظِّ الأوفَر.

فمن إنشائه كتاب عن الخليفة المستكفي بالله أميرِ المؤمنين أبي الربيع سليمان لِمَلك[٢] اليمن - عمِلَه تجربةً لخاطره عند ما رُسم بمكاتَبته، ابتدأه بأن قال:

أما بعد حمد الله مانِح القلوبِ السليمةِ هداها، ومرشِد العقولِ إلى أمر معادها ومبتداها؛ وموفِّقِ من آختاره إلى مَحَجّة صوابٍ لا يضلّ سالكُها، ولا تُظلم عند اختلاف الأمور العظام مسالكُها؛ وملهِمِ من أصطفاه أقتفاءَ آثارِ السنن النبويّة، والعملَ بموجب القواعد الشرعيّة؛ والانتظامَ في سلك من طوّقَته الخلافةُ عقودَها، وأفاضت على سُدّته[٣] الجليلةِ بُرودَها؛ وملّكَته أقاصيَ البلاد، وناطت[٤] بأحكامه السديدةِ أمورَ العباد؛ وسارت تحت خوافق أعلامه أعلامُ الملوك الأكاسرة، وسَرتْ بأحكامه النيّرةِ مناجحُ الدنيا ومصالحُ الآخرة؛ وتَبختَر كلُّ منبر من ذكرِه في ثوبٍ من السيادة مُعْلَم، وتهلّلت من ألقابه الشريفةِ أساريرُ كلِّ دينار ودرهم؛ يحمده أميرُ المؤمنين على أن جعل أمورَ الخلافة ببني العباس مَنُوطة، وجَعَلَها كَلِمَةً بَاقِيَةً في عَقِبِهِ إلى يوم القيامة مَحُوطة؛ ويصلّي على آبن عمه محمدٍ آلذي أَخمد الله بمبعثه ما ثار من الفتن، وأَطفأ برسالته ما آضطَرم من نار الإحَن[٥]؛ صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حَموا حِمى الخلافة فذادوا عن مواردِها، وتجهَّزوا[٦] لتشييد المعالم الدينيّة فأقاموها على قواعدِها؛ صلاةً دائمةَ الغدوِّ والرواح، متصلًا أوّلُها بطرّة[٧] الليل وآخرُها بجبين

---

(١) الحواشي: مفردها الحاشية وهي ما كتب على الكتاب من الشروح والتعليقات ويريد بالحواشي هنا: الأبيات، وحاشية الثوب: جانباه وعيشٌ رقيق الحواشي: أي ناعم في دعة وحشو البيت من الشعر: أجزاؤه غير عروضه وضربه.

(٢) في (صبح الأعشى ٦/ ٤١٠) أن المكتوب إليه بهذه الرسالة هو الملك المؤيّد هزبر الدّين داود بن الملك المظفّر صلاح الدين يوسف بن رسول...

(٣) السدّة: ما يجلس عليه أو ما يصعد عليه كالمنبر والسّرير.

(٤) ناطت بأحكامه: علقت بها.

(٥) الإحن: واحدتها الإحنة، وهي الحقد والضغينة.

(٦) تجهّزوا: تهيّأوا.

(٧) طرّة الليل: طرفه الذي يبتدىء فيه.

الصباح؛ هذا وإن الدين الذي فرض الله على الكافّة الانضمامَ إلى شعبِه، وأطلع فيه شموسَ هداية تشرق من مشرقه ولا تغرُب في غربِه؛ جعل الله حُكمَه بأمرنا مَنُوطًا، وفي سلك أحكامنا مخروطًا[١]؛ وقلّدَنا من أمر الخلافة سيفًا طال نجادُه، وكثُرَ أعوانُه وأنجادُه[٢]؛ وفوَّض إلينا أمرَ الممالك الإسلاميّة فإلى حرمِنا تُجْبَىٰ ثمراتُها، ويُرفَع إلى ديواننا العزيز نفيها وإثباتُها؛ يخلّف الأسدُ إن مضى في غابه شبلَه، ويُلفى في الخُبْر والخَبَرِ مِثلَه؛ ولما أفاض الله علينا حلّةَ الخلافة، وجعل حرمَنا الشريفَ محلَّ الرحمة والرأفة؛ وأقعَدَنا على سُدّة خلافة طالما أشرقَتْ بالخلائف من آبائنا، وٱبتَهجتْ بالسادة الغطاريف[٣] من أسلافِنا؛ وألبسَنا خلعةً هي من سواد السؤدُد مصبوغة، ومن سوادِ العيون وسُوَيداواتِ القلوب مَصُوغة؛ وأمضَينا على سُدّتنا أمورَ الخاصِّ والعامّ، وقلّدْنا أربابَ الكفاية كلَّ إقليم من عملنا ممن تَصلُح سياستُه على الدوام؛ وٱستكفَينا بالكُفاة من عمّالنا على أعمالنا، واتخذنا مصرَ دارَ مُقامنا، وبها سُدّة مقامنا لما كانت في هذا العصر قبّةَ الإسلام، وفَيئةَ الأنام، وثانيةَ دارِ السلام؛ تَعَيّن علينا أن نتصفّح جرائد عمّالِنا، ونتأمّل نظامَ أعمالِنا؛ مكانًا فمكانًا، وزمانًا فزمانًا؛ فتصفّحناها فوجدنا قطرَ اليمن، خاليًا من ولايتنا في هذا الزمن، والعادةُ مستمرّةٌ بأن لم تزل نوّابُنا في بلاد اليمن؛ عَرّفَنا هذا الأمرَ مَن اتخذناه للممالك الإسلاميّة عينًا وقلبًا، وصدرًا ولبًّا[٤]؛ وفوّضنا إليه أمرَ الممالك الإسلامية فقام فيها قيامًا أقعد الأضداد، وأحسَن في ترتيب ممالكنا نهايةَ الإصدار وغايةَ الإيراد؛ وهو السلطان الأجلُّ السيّدُ الملكُ الناصر، لا زالت أسبابُ المصالح على يديه جارية، وسحائبُ الإحسان من أُفق راحته[٥] سارية، فلم يُعِدَّ جوابًا لما رسمناه، ولا عذرًا عما ذكرناه؛ إلا تجهيزَ شِرْذِمَةٍ من جحافله المنصورة، وتعيينَ أناس من فوارسه المذكورة؛ يقتحمون الأهوال، ولا يَعبأون بتغيّرات الأحوال؛ يَرون الموتَ مغنمًا إن صادفوه، وشَبا[٦] المُرهَف مكسبًا إن صافحوه؛ لا يشربون سوى الدماء مدامَة، ولا يلبسون غيرَ التَّرائِك[٧] عمامة؛ ولا

(١) مخروطًا: استعمل الناس كثيرًا الانخراط بمعنى الانتظام والدخول، وقالوا: خرطت الجواهر: جمعتها في الخريطة، فتجوّزوا بذلك عن جعلها في العقد. . .
(٢) الأنجاد: الشجعان الماضون فيما يُعجز غيرهم، واحده «نجِد».
(٣) الغطاريف: من الناس أشرافهم وسراتهم. (٤) اللبّ: العقل.
(٥) الراحة: باطن الكفّ الذي لا ينبت فيه الشعر.
(٦) الشبا: الشباة: حدّ السيف أو طرفه.
(٧) الترائك: جمع تريكة، وهي بيضة الحديد التي تلبس على الرأس في الحرب.

يَعرِفون طربًا إلا ما أصدَرَه صَليلُ[١] الحسام من غِنا، ولا ينزلون قفرًا إلا وأنبَت ساعةَ نزولهم عن صَهوات خيلهم قَنا؛ ولما وثقنا منه بإنفاذهم راجَعْنا رأيَنا الشريفَ فاقتَضى أن نكاتب مَن بَسَط يدَه في ممالِكِها، ومَلَك جميعَ مسالِكها؛ واتخذ أهلَها خَوَلًا[٢]، وأَبدى في خلال ديارها مِن عدم سياسته خَلَلًا؛ فبرز مرسومُنا الشريفُ النبويُّ أن نكاتب من قعد على تخت مملكتِها، وتصرَّف في جميع أمور دولتِها؛ فطُولع بأنه ولدُ السلطان الملكِ المظفَّرِ يوسفَ بنِ عمر الذي له شُبهةُ تمسُّكٍ بأذيال المواقف المستعصميّة[٣]، وهو مستصحِبُ الحالِ على زعمِه، أو ما علم الفرقَ بين الأحياء والأموات؟ أو ما تَحقَّق الحالَ بين النفي والإثبات؟ أصدرناها إلى الرِّحاب التَّعِزيّة[٤]، والمعالِم اليمنيّة؛ تُشعِر من تَولَّى فيها فاستبدّ، وتَولَّى كبرَه فلم يعرِّج على أحد؛ أنّ أمر اليمن ما برحتْ حكّامُنا ونوّابُنا تحكم فيه بالولاية الصحيحة، والتفويضاتِ التي هي غيرُ جريحة؛ وما زالت تَحمِل إلى بيت المال المعمورِ ما تمشي به الجمالُ وئيدًا[٥]، وتَقذِفه بطونُ الجواري[٦] إلى ظهور اليَعْمَلات[٧] وليدًا؛ وتُطالعُنا بأمر مصالحه ومفاسِده، وبحال معاهده ومقاصدِه؛ ولك إِسوةٌ بوالدك السلطان الملكِ المظفَّر، هلّا اقتَفَيتَ ما سنّه من آثارِه، ونقلتَ ما دوّنته أيدي الزمن من أخبارِه؛ واتصل بمواقفنا الشريفة أمورٌ صدرت منك: منها - وهي العظمى التي تَرتَّب عليها ما تَرتَّب - قطعُ الميرة[٨] عن البيت الحرام، وقد علمتَ أنه وادٍ غيرُ ذي زرع، ولا يحلّ لأحدٍ أن يَتطرّق إليه بمنع؛ وكفتك الآيةُ[٩] دليلًا على ما صنعت، وبرهانًا على ما فعلت؛ ومنها انْصبابُك[١٠] على تفريغ مال بيت المال في شراءِ لهوِ الحديث، ونقضُ العهود القديمة

---

(١) الصليل: صوت الرنّ من مقارعة السيوف.

(٢) الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الاتباع والحشم.

(٣) المستعصميّة: نسبة إلى المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، وهو الذي قتله هولاكو ملك التتار.

(٤) التعزية: نسبة إلى تعز وهي قاعدة اليمن.

(٥) يقال: مشى مشيًا وئيدًا، أي على تؤدة وتأن؛ المراد أن ثقل ما تحمله هذه الجمال قلل من خطوها.

(٦) الجواري: المراد بها السفن.

(٧) اليعملات: جمع يعملة، وهي الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل.

(٨) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٩) المراد بالآية قوله تعالى: حكاية عن سيدنا إبراهيم الخليل صلوات الله تعالى عليه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧].

(١٠) يقال: انصب البازيّ على الصيد، إذا انقضّ عليه.

بما تبديه من حديث؛ ومنها تعطيلُ أجياد المنابر من عقود اَسمِنا، وخلوُّ تلك الأماكن من أمرِ عقَدِنا وحَلّنا؛ ولو أوضحنا لك ما اتصل بنا من أمرك لطال، ولا اتّسعتْ فيه دائرة المقال؛ رسمنا بها والسيفُ يَوَدّ لو سبق العلم حدُّه، والعلَمُ المنصور يحب لو فات القلمَ واهتزَّ بتلك الروابي قدُّه[١]؛ والكتائبُ المنصورةُ تَختار لو بَدَرت[٢] عُنوانَ الكتاب و[أهلُ][٣] العزم والحزم يَوَدّون إليك إعمالَ الرِّكاب؛ والجواري المنشآتُ قد تكوّنت من ليلٍ ونهار، وبَرزت كصور الفِيَلة[٤] لكنها على وجه الماء كالأطيار، وما عَمدْنا إلى مكاتبتك إلا للإنذار، وما جنَحْنا[٥] لمخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقلِعْ عما أنت بصدده من الخيلاء[٦] والإعجاب، وانتظِم في سلك من استخلفناه على أعمالنا فأخذ بيمينه ما أُعطِيَ من كتاب؛ وصُن بالطاعة نفوس من زعمتَ أنهم مقيمون تحت لواء علمِك، ومنتظمون في سلك أوامر كَلِمك، وداخلون تحت طاعة قلمِك؛ فلسنا نَشُنّ الغارات على من نطق بالشهادتين لسانه وقلبُه، وامتثل أوامرَ الله المطاعةَ عقله ولبُّه؛ ودان[٧] الله بما يجب من الدِّيانة، وتقلّدَ عقود الصلاح والتحف بمطارف[٨] الأمانة؛ ولسنا ممن يأمر بتجريد سيف إلا على من علمنا أنه خرج عن طاعتِنا، ورفض كتابَ الله ونزَعَ عن مبايعتِنا؛ [فأصدرنا][٩] مرسومنا هذا إليه يَقصّ عليه من أنباء حلمنا ما أطال مدّة دولتِه، وشيَّد قواعدَ صولتِه؛ ويَستدعِي منه رسولًا إلى مواقفنا الشريفة، ورحابِ ممالكنا المنيفة[١٠]؛ لينوب عنه في قبول الولاية مَنابَ نفسِه، وليجني بعد ذلك ثمارَ شفقاتنا إن غرس شجرَ طاعتنا ومن سعادة المرء أن يجني ثمارَ غرسِه؛ بعد أن يُصحِبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمةً وخفَّ حملًا، وتَغالى[١١] في القيمة رتبةً وحسُن مِثلًا؛ واشرُط

(١) القدّ: القامة أو القوام.
(٢) يقال: بدرت فلانًا إلى الأمر: إذا سابقته إليه.
(٣) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ٦/ ٤١٤).
(٤) في الأصل وصبح الأعشى «الأفيلة» ولم نجد هذا الجمع في كتب اللغة فأثبتنا الصواب.
(٥) جَنح: مال.
(٦) الخيلاء: التكبُّر والعجب.
(٧) دان الله: أطاعه وخضع وانقاد...
(٨) المطارف: في الأصل وصبح الأعشى ٦/ ٤١٤) «مطارف» بإسقاط الباء، واللّغة تقتضي زيادتها، والمطارف: مفردها «المطرف» وهو رداء أو ثوب من خزٍّ مربّع ذو أعلام.
(٩) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ٦/ ٤١٤).
(١٠) المنيفة: المشرفة.
(١١) تغالى: ارتفع، قيل: كل ما ارتفع فقد غلا وتغالى. (انظر تاج العروس).

على نفسك في كل سنة قطيعةً[١] ترفعها إلى بيت المال، وإيّاك ثم إيّاك أن تكون عن هذا الأمر ممن مال؛ ورتِّب جيشًا مقيمًا تحت لواء علم السلطان الأجلّ الملكِ الناصرِ للقاء العدوّ ٱلمخذول التتار، ألحق الله أوّلهم بالهلاك وآخرهم بالبوار[٢]؛ وقد علمتَ تفاصيل أحوالهم المشهورة، وتواريخَ سِيَرهم المذكورة؛ وٱحترِصْ[٣] على أن يخصك من هذا ٱلمشرب السائغِ أوفى نصيب، و[أن تكون][٤] ممن جهّز جيشًا في سبيل الله فرمَى بسهم فله أجرٌ كان مصيبًا أو غيرَ مصيب؛ ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدِها وتشاريفِها حاملًا أهلّةَ أعلامنا المنصورة، شاكرًا برَّ مواقفنا المبرورة؛ وإن أبى حالُك[٥] إلا أن ٱستمررتَ على غيِّك، وٱستمرأتَ مرعى بَغيِك؛ فقد منعناك التصرّف في البلاد، والنظرَ في أحكام العباد؛ حتى تطأ خيلنا العتاقُ مشمخرّاتِ[٦] حصونِك، وتعجّل حينئذ ساعة منونك؛ وتُمسِي لهَوادي[٧] قِلاعِك عقودًا، ولعرائِس حصونك نهودًا[٨]؛ وما علّمناك غير ما علمه قلبُك، ولا فهّمناك غير ما حَدَسَه[٩] لبُّك؛ فلا تكن كالصغير تزيده كثرةُ التحريك نومًا، ولا ممن غرّه الإمهالُ يومًا فيومًا؛ وقد أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه، موفّقًا إن شاء الله تعالى؛ والحمد لله وحده.

ومن إنشائه تقليد السلطان الملك الناصر لما ترك ٱلديار المصرية وأقام بالكَرَك[١٠] ـ وكُتِب له بذلك من ديوان الإنشاء عن الملك المظفَّر ركنِ الدين، فلم يمكن الكاتب الإطناب، ولا وَسِعَه غيرُ الاختصار، فلم يُرضه الكتاب، وعَمِلَ جماعةٌ منهم في ذلك تجربةً لخواطرهم ولم يُكتَب بشيء منها فعمِلَ هو ـ:

الحمد لله مدبّرِ الأمر على ما يشاء في عبادِه، ومنقِّلِ الحالِ على حكم ٱختياره ووَفِق مرادِه، ومُجرِي أسبابِ الممالك على يد من ٱختاره من عباده لإصدارِ الأمر

---

(١) القطيعة: الضريبة والوطيفة. (٢) البوار: الهلاك.
(٣) يقال: احترص واحرص، من الحرص، وهو الحذر والاحتراس.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن (صبح الأعشى ٦/ ٤١٤).
(٥) الحال: تذكّر وتؤنّث. (٦) المشمخّرات: التي اشتدّ ارتفاعها.
(٧) الهوادي: الأعناق مفردها «الهادية». (٨) النّهود: مفردها «النّهد» وهو الثدي.
(٩) الحدس هنا: اليقين، وحَدَس: ظنّ ظنًّا مؤكّدًا.
(١٠) الكرك: اسم لقلعة حصينة جدًّا في طرف الشام من نواحي البلقاء، في جبالها بين أيلة وبحر القلزم والبيت المقدّس، وهي على سنّ جبلٍ عال، تحيط به أودية إلّا من جهة الرّبض. (معجم البلدان ٤/ ٤٥٣).

وإيرادِه، ومجيبِ من أصبح قاصدًا بابَه الشريفَ والزهادةُ فيما حوله مِن ٱعتقادِه، ومعزٍّ من أضحى له من حِقونا(١) ركنٌ ٱستَنَد إليه الدهرُ في ٱستنادِه، يلبّي دعوةَ مرامه(٢) حيث كان من بلادِه؛ ويجيب داعيَ نِداه وإن بعد فيكون أقربَ من سرِّه إلى فؤادِه؛ يَذُبّ(٣) عن حَوزة نسائه ببِيض مرهَفاته وسمرِ صِعادِه(٤)، ويحمي بيضة جاهه(٥) بالغُلْب من أشياعِه والجُرْدِ(٦) من جِيادِه؛ نحمده على أن جعل مُوالاتَنا لهذا البيت الشريف المنصوريّ تستديم عهودَه، وتَلتحف من المحافظة على مَراضيه الشريفة في كلِّ حالٍ بُرودَه؛ وتَرِد من القيام بواجب حقِّه أَعذبَ منهل شَرَعه الصفاءُ وسَنّه، وأَكّد مُوالاتَه ٱلوفاءُ وحسنُ ٱلوفاء من شعار أهل السُّنّة؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تَرفع أعلامَ الهدى بكَلِمها، وتُخمِد نارَ الشرك بنور هداية عِلْمها وعَلَمِها، وتطهِّر أديمَ البسيطة من أرجاس(٧) الكفرة بالحدّين من غَرْبَيْ(٨) صَمصامها(٩) وقلمِها، وتُروِي كلَّ قُطر أصبح ماحلًا من قَطرَيْ عدلها ونعمِها؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي كانت الزهادة مِلاكَ أمره و[الملوك](١٠) تحت وطأة أقدامِه، والملائكةُ يحفُّونه(١١) مِن حوله(١٢) ومن أمامه، ومعادنُ الذهب تُعرَض عليه فيساوِي لديه لزهادته بين نُضارِه ورَغامه(١٣)؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تُحاكِي أرجَ الصَّبا وقد سرَى عن خزامِه(١٤)، وتُضاهِي فَتيقَ المسك(١٥) وقد تنفّس عن ختامِه، مشفوعةً إلى يوم القيامة برضوانه وسلامِه؛ وبعد، فإنه لما كان المقامُ العالي الملكيُّ الفلانيُّ هو الذي ربّته الممالكُ في حجرها وليدًا، وخوّلته السلطنةُ الشريفةُ من نفائس ذخائرها طارفًا وتليدًا؛ وبوّأته من مراتب

(١) الحقو هنا: الجناب الذي يستجار به ويلتجأ إليه، وهو مجاز.
(٢) المرام: المطلب. (٣) يذبّ: يدافع.
(٤) الصعاد: مفردها الصعدة وهي القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تقويم.
(٥) بيضة جاهه: يريد دياره وحماه.
(٦) الجرد: الخيل، مفرد «أجرد» وهو من الخيل ما كان شعره قصيرًا رقيقًا.
(٧) الأرجاس: مفردها الرّجس، وهو الشيء القذر، واللّعين.
(٨) الغرب: الحدّ، وغرب السيف: حدّه. (٩) الصمصام: السّيف.
(١٠) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق. (١١) يحفّونه: يحيطون به ويحدقون.
(١٢) لعله يريد من «خلفه» لأنه قال بعد ذلك «ومن أمامه».
(١٣) الرّغام: التراب.
(١٤) الخزامى: عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق زهرها أحمر، طيّبة الرّيح لها نورٌ كنور البنفسج.
(١٥) فتيق المسك: ما استخرجت رائحته بشيء آخر تدخله عليه.

العز أقصى غاية لا ترام، وأبادت بمرهفه البتّار جمعَ التتار الطَّغام(١)؛ وٱستخدمتْ لطاعته جيشَين: جيشَ نهارٍ بَكّر فيه مواليه على أعدائه بسابِق خيلِه ومرهَفِ حسامِه، وجيشَ ليلٍ تَبسُط أولياءُ دولته أكُفَّهم للدعاء ببقائه في جنح ظلامِه؛ طالما هزّت المنابرُ أعطافَها طربًا عند ذكر ٱسمِه، وٱزدادت وسامةُ الدّينارِ حُسنًا لمّا شرّفها بحسن وسْمِه ورسْمِه؛ وتلت أوصافَ بأسه ألسنةُ خرصانِه(٢)، ورجعتْ سوابقُ الهمم عن التطاوُل للمطاوَلة في مَيدانِه، وقالت فوارس الحروب لمّا رأت كرّه: هذا سِباق لسنا من رهانِه؛ كم فرّق بجيشه اللُّهامِ(٣) جيشًا أرمَدَ جفنَ الشمس بقتامِه، ونصرَ الأحزابَ يوم الكريهة بالعاديات من خيله والمرسَلاتِ من سهامِه، فالدهرُ يشكر مواقفَ إقدامِه، والعدلُ ينشر منشور فضله وسديد أحكامِه؛ والممالكُ تُثنِي على عليائه بالسَداد، والمسالكُ تُهدي لسالكها ما خصّها به مِن أمنها المعتاد؛ والناسُ في ظلّ عدلٍ لياليه [خُلِقَتْ](٤) كما شاءوا أسحارًا، والوحشُ والغنمُ كلٌّ منهما قد جعل صاحبَه جارًا؛ ومواطنُ العلوم أمست تطرّز بمحاسن أوصافِه، وحُكّام الشرع الجليل أضحت تَمِيس في حلل عدله وإنصافِه؛ والأماكنُ التي تُشَدّ لها الرحالُ يفترّ ثغرها عن عدلِه، والمشاعرُ المعظَّمةُ قد حمى حَوزتها بالسهم من نصلِه والشهم من رَجْلِه(٥)؛ تَنقّل في مراتب الملك صغيرًا إلى أن ٱشتدّ بالعزم القويّ كاهلُه، وٱستوطن ربعَ العزّ مذ كان يَجتلِي بدورَه وتجتليه عقائلُه؛ فلم تَبقَ له مَأْرُبةٌ إلا قضاها، ولا حالةٌ إلا ابتلاها، ولا غمّةٌ إلا جلاها، ولا آيةُ شكر إلا تلاها؛ إلى أن قمع بحدّ سيفه كلَّ مُجتري، وقال للسحابة كما قيل: ٱمطِري(٦)؛ رأى أن المواردَ الدنيويّة لا بدّ لها من مصادر، وأن أوائلَ الأمور تَستدعِي الأواخر، وأن للزهادة في الدنيا وإن عظُم قدرُها الشأنَ الكبير، وأن الانقطاعَ إلى الله تعالى مَنهلُ

(١) الطغام: أرذال الناس وأوغادهم.

(٢) الخرصان: جمع خرص بكسر الخاء وضمّها وهو سنان الرمح.

(٣) اللُّهام: الجيش الكثير، لأنّه يلتهم كلّ شيء.

(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق كما تقتضيها اللغة والسجع، وقد استنسبنا زيادة هذا اللفظ اعتمادًا على بعض رسائل القاضي الفاضل التي وردت في هذا السفر ص ٢٠ السطر السابع ط. دار الكتب إذ قال: والليالي التي طابت فكأنّما خلقت جميعها أسحارًا...

(٥) الرّجل: الجيش والجند.

(٦) يشير بهذه العبارة إلى قول بعض الخلفاء، ويعزى إلى هارون الرشيد الذي رأى سحابة تسير في الأفق ملأى بالمطر فقال: امطري حيث شئت فإن ما تنبتينه سيجيء إلينا... يريد أنّ مملكته واسعة الأطراف...

صفو لا يَقبل شوائبَ[١] التكدير؛ وقويَ عزمُه في الرّحلة عن مَقرّ ملكه إلى أعزّ حصونه المنيعة، بل إلى أجلّ معاقله الشامخة الرفيعة؛ قاصدًا بها الانفراد، عالمًا بأن الله يطلع على خفيّات الفؤاد؛ فرحل ركابُه العالي ونظامُ المملكة من حُسن الهيئة قائم على ساق، وقلوب كفّال الممالك الشريفة متّفقةٌ على الاتفاق؛ واثقًا بأن للمُلك من أولياء بيته الشريف كلّ وليّ عهدٍ لا تُخفَر لديه الذمم، وكلّ سلطانِ أُفُقٍ[٢] تَضؤل دون عزمه الهمم؛ يَحمِي بيضةَ خدره من كلّ متطاولٍ إليها، ويقصِّر أسبابَ الحرص من كلّ شانٍ[٣] عليها؛ واَختار الانفراد، وتَيقّن أنّا لا نعدل عمّا أراد؛ ونصَبَ عُمُدَ خيامه الشريفة على سفح روضِ الكَرَك[٤] النَّضِر، وحَلّ منه رأسَ شاهقةٍ نبتُها خَضِر؛ ورغب في الزهادة وشعارِها، واَستوت عنده الدنيا في حالتَيْ إقبالها وإدبارِها؛ فاقتَضَى اَعتناؤنا الشريفُ أن نبلّغه من مآربه الشريفة أقصى المرام، وأن نساعده في كلّ أمر يعرف منه الموافقة منّا على الدوام؛ وأن ننظِم الأمرَ في سلك الإرادة على مُرادِه، وأن نبادر إلى راحة سرّه الشريف وفؤادِه؛ ولسوف نعامل مقامَه العاليَ بكلّ اَحترامٍ يصل إليه تفصيلًا وإجمالًا، ونراعي معه أدبَ أسلافه الكرامِ حالًا فحالًا، وإنّا لا نخلّيه من تجهيز مثالٍ يتضمّن من محاسنه سِيَرًا وأمثالًا، ولولا عرفُ السلطنة ونظامُ المملكة يقتضيان ذلك ما جهّزنا إلى بابه الشريف مثالًا، فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ بكذا وكذا.

هذا ما اَتفق إيرادُه في هذا الفصل من رسائل الكتّاب، وكتّاب العصر - أعزّهم الله تعالى - كثير، وكلامُهم مشهور، ومدوَّنٌ بأيدي الناس ومحفوظٌ في صدورهم، ولَم نشترِطْ أن نورد لجميعهم فنلتزم الشرط، ولو فعلنا ذلك لطال الكتابُ وخرج عن شرطه، وإنما خصصنا هؤلاء بالذكر لتعلُّقِنا بهم، واَتصال سببنا[٥] في الوداد بسببِهم.

(١) الشوائب: مفردها الشّائب، والمراد هنا ما يخالطه من التكدير.
(٢) المراد بالأفق: هنا: الناحية من الأرض.
(٣) الشانّ: اسم فاعل من شنّ الغارة على القوم: إذا صبّها عليهم من كلّ وجه.
(٤) الكرك: حصن منيع جدًا في طرف الشام «تقدم ذكره».
(٥) السّبب: الحبل والقرابة.

ذكر شيء من الأبيات الداخلة في هذا الباب[١]

فمن ذلك قول بعض الشعراء: [من مجزوء الكامل المرفّل]

إنـي لِعُـظْـمِ تـشـوُّقـي وشـديدِ وجدي واكتئابي[٢]
أصبحتُ أحسِدُ من يفو ز بقربكم حتى كتابي

وقال آخر: [من البسيط]

وما تأخُّرُ كُتْبي عنك من مللٍ طُوبى لوُدّك يأبن السادة النُّجبِ[٣]
لكن حسدتُ كتابي أن يراك وما أراك فاخترتُ إمساكي عن الكتُبِ

وقال آخر: [من الكامل]

عفتُ الرسائل طامعًا أن نلتقي فأبَى الزمانُ يُتِيح لي ما أطلبُ
وتأخّرتْ كُتْبي فقلتُ أعاتبٌ في ذاك أنت عليّ أم متعتِّبُ[٤]
فإذا وجدتك في الضمير ممثّلًا أبدًا تناجيني إلى مَن أكتبُ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

الكُتْبُ تُكتب للبعيـ ـد وأنت من قلبي قريبُ
فإذا وجدتك في الفؤا دِ فمَن أكاتِبُ أو أجيبُ

وقال آخر: [من البسيط]

لو أنّ كُتْبِي بقدر الشوق واصلةٌ كانت إليك مع الأنفاس تتّصِلُ
لكنّني والذي يبقيك لي أبدًا على جميل ٱعتقادي فيك أتّكِلُ

وقال آخر: [من الطويل]

وفي الكُتْب نجوى من يَعِزّ لقاؤه وتقريبُ من لم يدنُ منه مَزارُ[٥]
فلِمْ تُخلِني منها وتعلمُ أنّها لعيني وقلبي قُرّةٌ وقَرارُ

---

(١) المراد بالباب هنا: باب الرسائل الإخوانية.
(٢) الاكتئاب: تغير النفس وانكسارها من شدّة الهمّ والحزن.
(٣) طوبى: من الطيب، وهي الغبطة والسعادة، كأنّ أصلها طيبي بضم الطاء فقلبوا الياء واوًا للضمّة قبلها...
(٤) التعتّب: التجنّي، يقال: تعتّب عليه وتجنّى كلاهما بمعنى واحد.
(٥) النّجوى: إسرار الحديث.

وقال آخر: [من الطويل]

سألتك عوِّذْني بكُتْبك إنّ لي شياطينَ شوقٍ لا تفارِق مَضْجَعِي[١]
إذا آسترقتْ أسرارَ فكري تمرُّدًا بعثتُ إليها في الدجى شُهْبَ أدمعي

وقال آخر: [من الطويل]

أتبخَل بالقرطاس والخطّ عن أخٍ وكفّاك أندَى بالعطايا من المزنِ[٢]
لَعمري لقد قوّى جفاؤك ظِنّتي وأوهن تأميلي وما كان ذا وَهْنِ

وقال آخر: [من المتقارب]

أظنّ القراطيسَ في مصركُم تَخوّنها ريبُ دهرٍ خؤون[٣]
فلو أنّها صفحاتُ الخدو د يُكتَب فيها بماء الجفون
لما أعوَزتْك ولكن جفَوت فألقَيتَ شأني خلالَ الشؤون

وقال المتنبيّ في جواب كتاب وَرَدَ عليه: [من المتقارب]

بكُتْب الأنام كتابٌ ورد فَدَتْ يدَ كاتبه كلُّ يد[٤]
يعبِّر عما له عندنا ويذكر من شوقه ما نَجِد

وقال أبو الفتح البُسْتيّ[٥]: [من البسيط]

لمّا أتاني كتابٌ منك مبتسمٌ عن كلّ فضلٍ وبرٍّ غيرِ محدودِ
حَكَتْ معانيه في أثناء أسطره آثارَك البِيضَ في أحواليَ السودِ

وقال آخر: [من الخفيف]

طلع الفجر من كتابك عندي فمتى باللقاء يبدو الصباحُ

---

(١) عوّذني: أي اجعل كتبك عوذة ورُقية لي أتقي بها مسّ الشياطين.
(٢) القرطاس: الصحيفة، والمزن: المطر. (٣) ريبُ الدّهر: صروفه وأحداثه.
(٤) كتابٌ: بالرّفع على الابتداء أي كتابٌ ورد مفديٌّ بكتب...
(٥) أبو الفتح البستي: هو علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز الكاتب الشاعر، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس. (وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦).

وقال آخر: [من الطويل]

ولمّا أتاني بعد هجرٍ كتابُكم وفيه شفاءُ الوالهِ الدنفِ المُضْنى(١)
سُرِرتُ به حتى توهّمتُ أنه كتابي وقد أُعطِيتُه بيدي اليمنَى(٢)

وقال آخر: [من الكامل]

نفسي الفداءُ لغائبٍ عن ناظري ومحلُّه في القلب دون حجابِه
لولا تمتُّع مقلتي بلقائه لوهبتُها لمبشِّري بكتابِه

وقال آخر: : [من مجزوء الكامل]

ورد الكتابُ مبشِّرًا نفسي بأوقات السرور
وفضَضتُه فوجدتُه ليلًا على صَفَحات نور(٣)
مِثلَ السوالِف والخدو د البيضِ زينَتْ بالشعور
أنزلتُه منّي بمـ ـنزلة القلوبُ من الصدور

وقال آخر في كتاب عدِم فلم يصل إليه: [من المجتث]

نُبّئتُ أن كتابًا أرسلتَه مع رسولِ
ملأتَه منك طيبًا فضاع قبل الوصولِ

ومما يتصل بهذا الباب ويلتحق به، ويحتاج الكاتبُ إلى معرفته والإطلاعِ عليه الحجّةُ البالغةُ والأجوبةُ الدامغة(٤).

فمن ذلك في التنزيل قوله عزّ وجل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: الآيتان ٧٨، ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآيات ٣٦ - ٤٠].

---

(١) الواله: المتحيّر من شدّة الحبّ، والدّنف: المريض الذي لزمه المرض الشديد.
(٢) يشير بهذا البيت إلى الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحَاقَّة: الآية ١٩].
(٣) فضّ خاتم الكتاب: فكّه وفتحه.
(٤) الدامغة: يقال: دمغ فلانًا: أي غلبه وعلاه، ودمغ الحقّ الباطل: إذا محاه.

وقولُه تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: الآية ٨١].

وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٤٢].

وقولُه تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٩١].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحجّ: الآية ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقَرة: الآية ٢٣].

وقوله تعالى في الدّلالة على إثبات نبوّة رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٨، ٦٩]، فإنه ﷺ كان يُعرَف في قريش بالصادقِ الأمين.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: الآية ١٦].

ولمّا بُعِثَ رسولُ الله ﷺ قال: «يا معشر قريش لو قلتُ لكم إنّ خيلًا تَطلُع عليكم من هذا الجبل كنتم تصدّقوني؟ قالوا: نعم؛ قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يدَيْ عذابٍ شديد» فلمّا أقرّوا بصدقه خاطبهم بالإنذار، ودعاهم إلى الإسلام. فهذه حججٌ من الكتاب والسنّة لا جواب عنها.

ولمّا انتهى إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يومَ السَّقيفة أنّ الأنصارَ قالت: منّا أميرٌ ومنكم أمير؛ قال عليّ: فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسولَ الله ﷺ أوصى بأن يُحْسَن إلى مُحسِنهم، ويُتجاوَزَ عن مُسِيئهم؛ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ قال: لو كانت الإمارةُ فيهم لم تكن الوصيّةُ بهم.

ولمّا قال الحُبابُ بنُ المنذر في يوم السَّقيفة أيضًا: أنا جُذَيْلُها[١] المُحكَّك وعُذَيْقُها[٢] المُرجَّب[٣]، إن شئتم كررناها جَذَعة[٤]، منّا أميرٌ ومنكم أمير، فإن عمل المهاجريّ شيئًا في الأنصاريِّ ردَّه عليه الأنصاريّ، وإن عمل الأنصاري شيئًا في المهاجريِّ ردّه عليه المهاجريّ؛ أراد عمر الكلام، فقال أبو بكر رضي الله عنه: على رِسْلِك[٥]، نحن المهاجرين أوّلُ الناس إسلامًا وأوسطُهم دارًا، وأكرمُ الناس حسبًا، وأحسنُهم وجوهًا، وأكثر الناس ولادةً[٦] في العرب، وأمسُّهم رحمًا بالرسول ﷺ، أسلمنا قَبلَكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، وأنتم إخواننا في الدِّين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارُنا[٧] على العدوّ، آويتم وواسَيتم، فجزاكم الله خيرًا، نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تَدِين العرب إلا لهذا الحيّ من قريش. قالوا: قد رضِينا وسلّمنا.

قال بعض اليهود لعليٍّ رضي الله عنه: ما دفنتم نبيَّكم حتى ٱختلفتم؛ فقال: إنما ٱختلفنا عليه[٨] لا فيه، ولكنكم ما جفّت أرجلُكم من البحر حتى قلتم لنبيِّكم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨].

وقال حاطِب بن أبي بَلْتَعة[٩]: لما بعثني النبيُّ ﷺ إلى المقَوقِس مَلكِ الإسكندريّة بكتابه، أتيتُه وأبلغته الرسالة، فضحك ثم قال: كتب إليّ صاحبك يسألني أن أَتبعَه على دينه، فما يمنعه إن كان نبيًا أن يدعوَ الله فيسلِّط عليّ البحرَ فيغرقَني فيكتفيَ مُؤنتي[١٠]، ويأخذَ مُلْكي؟ قلتُ: ما مَنعَ عيسى عليه السلام إذ أخذتْه اليهودُ فربطوه في حبل، وحلقوا وسطَ رأسه، وجعلوا عليه إكليلًا من شوك، وحَمَلوا خشبتَه

---

(١) الجذيل: تصغير جذل بكسر الجيم، وعنى به هنا الأصل من الشجرة تحتكّ به الإبل فتشتفي به، أي قد جربتني الأمور، ولي رأي وعلم يشتفى بهما...
(٢) العذيق: تصغير تعظيم للعذق بالفتح وهو النخلة.
(٣) المرجّب: المعظّم، والترجيب: هو أن تدعم النخلة من جانب ليمنعها ذلك من السقوط.
(٤) الجذعة: جاء في اللسان مادة «جزع» إذا أطفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جذعة أي أوّل ما يبتدأ بها.
(٥) على رسلك: على مهلك أي اتئد.
(٦) يريد بهذه العبارة أنهم أكثر عددًا وأغزر نسلًا.
(٧) في الأصل «في» والتصويب عن (عيون الأخبار ٢/ ٢٣٤).
(٨) عليه: أي على الأولوية به ومن أحقّ بخلافته، قرابته أم غيرهم، لا فيه أي لا في صدق رسالته.
(٩) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، صحابيٌّ شهد الوقائع كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان من أشدّ الرّماة في الصحابة، بعثه النبيّ ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية مات في المدينة سنة ٣٠ هـ وكان أحد الفرسان الشعراء. (الأعلام ٢/ ١٥٩).
(١٠) المؤنة: الكفاية من القوت.

التي صلبوه عليها على عاتقه[١]، ثم أخرجوه وهو يبكي حتى نصبوه على الخشبة ثم طعنوه حيًّا بحربة حتى مات ـ على زعمِكم ـ فما مَنَعه أن يدعوَ الله فينجيَه ويهلكَهم، ويكتفي مُؤْنتهم، ويَظهَرَ هو وأصحابه عليهم؟ وما مَنَعَ يحيىٰ بن زكريّا حين سألت ٱمرأةُ المَلِكِ المَلِكَ أن يقتله فقتله وبعث برأسه إليها حتى وُضِع بين يديها أن يسأل الله أن يحميَه ويهلكَهم؟ فأَقبَل على جلسائه وقال: والله إنه لحكيم، وما تخرج الحِكَم إلّا مِن عند الحكماء.

وخطب معاويةُ بنُ أبي سفيان ذات يوم وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: الآية ٢١] فما نلام نحن؛ فقال إليه الأحنفُ بنُ قيس[٢] فقال له: يا معاوية، إنا والله ما نلومك على ما في خزائن الله، وإنّما نلومك على ما آثَرَك الله [به][٣] علينا[٤] من خزائنه فأَغلقتَ بابَك دونَه.

وقال معاويةُ لرجل من اليمن: ما كان أحمقَ قومَك حين مَلّكوا عليهم امرأة! قال: قومُك أشدُّ حماقةً إذ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] أفلا قالوا: اهدِنا له.

وقيل: مرّت ٱمرأةٌ من العرب بمجلسٍ من مجالس بني نُمير، فرماها جماعةٌ منهم بأبصارهم، فوقفت ثم قالت: يا بني نُمير، لا أمرَ ٱلله تعالى أطعتم، ولا قولَ الشاعر سمعتم، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النّور: الآية ٣٠].

وقال الشاعر: [من الوافر]

فغُضَّ الطرفَ إنَّك من نُميرٍ فلا كعبًا بَلغتَ ولا كلابا[٥]

فما ٱجتمع منهم بعد ذلك ٱثنان في مجلس.

---

(١) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

(٢) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المنقري التميمي، أبو بحر، سيّد تميم وأحد العظماء الدّهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم ولد في البصرة وأدرك النبيّ ﷺ ولم يره مات سنة ٧٢ هـ. (الأعلام ١/٢٧٦).

(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضي السّياق إثباتها. (٤) في الأصل ـ عليك، وهو تحريف صحّحناه.

(٥) البيت لجرير بن عطيّة الخطفي من قصيدة يهجو بها الراعي النميري وقومه. (انظر الديوان ص ٦١، دار الكتب العلمية).

وقيل: استعمل عُتبةُ بنُ أبي سفيان[١] رجلًا من أهله على الطائف، فظَلَم رجلًا من أَزْدِ شَنُوءة، فأتى الأزديُّ عُتبةَ فقال: [من البسيط]

أمرتَ مَن كان مظلومًا ليأتيَكم فقد أتاكم غريبُ الدار مظلومُ

ثم ذَكر ظلامتَه، فقال عُتبة: إنّي أرى أعرابيًا جافيًا، والله ما أحسَبك تَدرِي كم تصلّي في اليوم والليلة؛ فقال: إن أنبأتُك ذلك تجعلُ لي عليك مسألة؟ قال: نعم؛ فقال الأعرابيّ: [من الرجز]

إنّ الصلاةَ أربعٌ وأربعُ ثم ثلاثٌ بعدهنّ أربعُ

* ثم صلاةُ الفجر لا تُضيَّعُ *

قال: صدقتَ فاْسألْ؛ فقال: كم فَقارُ ظهرِك؟ فقال: لا أدري؛ قال: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك؟ فأمر بردّ ظلامتِه[٢] عليه.

وقال الحجّاج بن يوسف ليحيىٰ بن سعيد بن العاصي[٣]: بلغني أنّك تشبِه إبليس في قبح وجهِك؛ قال: وما ينكِر الأميرُ مِن أن يكون سيّدُ الإنس يشبه سيّدَ الجنّ؟.

وقال لسعيد بن جُبير[٤]: اختر لنفسك أيَّ قِتْلة شئت؛ قال: اختر أنت فإنّ القصاص أمامَك.

وحكَى أن حُويطِب[٥] بنَ عبد العُزّى بلغ عشرين ومائةَ سنة، ستين في الجاهليّة وستين في الإسلام، فلما ولي مروانُ بن الحكم المدينةَ دخل عليه حُويطِب، فقال له مروان: لقد تأخّر إسلامُك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث[٦]؛

(١) هو عتبة بن أبي سفيان، أمير مصر، وليها من قبل أخيه معاوية، توفي في الإسكندرية سنة ٤٤ هـ، وهو من الخطباء المعدودين. (الأعلام ٤/ ٢٠٠).

(٢) الظّلامة: ما يطلبه المظلوم من إنصافٍ في حقٍّ من حقوقه.

(٣) هو سعيد بن العاصي الأموي القرشيّ، صحابيّ من الأمراء الفاتحين، رُبّي في حجر عمر بن الخطاب، وولّاه عثمان الكوفة، وكان سخيًا فصيحًا مات سنة ٥٩ هـ. (الأعلام ٣/ ٩٦).

(٤) هو سعيد بن جبير الأسدي، أبو عبد الله، تابعي، حبشيّ الأصل، كان أعلم التابعين على الإطلاق، قتله الحجّاج سنة ٩٥ هـ. (الأعلام ٣/ ٩٣».

(٥) هو حويطب بن عبد العزّى بن أبي قيس بن عبد ودّ، ويكنى أبا محمد، أسلم يوم فتح مكّة وتوفي سنة ٥٤ هـ. (الطبقات ٥/ ٣٣٥).

(٦) الأحداث: أي من هم أصغر منك سنًا، وفي سنّ الحداثة والصّبا.

فقال: والله لقد[١] هممتُ بالإسلام غيرَ مرّة كلُّ ذلك يَعُوقني أبوك عنه وينهاني، ويقول: أتَدَع دين آبائك [للدينِ مُحدَث][٢]؟! أما أخبرك عثمانُ ما كان قد لَقِيَ من أبيك حين أسلم.

وقيل: لمّا ظفِر الحجّاج بابن الأشعث[٣] وأصحابِه أَمرَ بضرب أعناقهم، حتى أَتى على رجلٍ من تميم، فقال التميميّ: أيها الأمير، والله لئن أسأنا في الذنب ما أحسنتَ في العقوبة؛ فقال الحجاج: وكيف ذاك؟ قال: لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: الآية ٤] فوالله ما مَننتَ ولا فاديت[٤]؛ فقال الحجّاج: أفٍّ[٥] لهذه الجِيَف، أما كان منهم من يُحسِن مِثلَ هذا؟ وأَمَر بإطلاق من بقيَ وعفا عنهم.

وحُكيَ أن الرشيد سأل موسى بنَ جعفرٍ فقال: لِم قلتم إنّا ذرّيّةُ رسول الله ﷺ، وجوَّزتم للناس أن ينسِبُوكم إليه ويقولوا: يا [بني][٦] نبيّ الله وأنتم بنو عليّ، وإنما يُنسَب الرجلُ إلى أبيه دون جدِّه؛ فقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: الآيتان ٨٤، ٨٥] وليس لعيسى أب، وإنما لحق بذرّيّة الأنبياء مِن قِبَلِ أمّه؛ وكذلك أُلحِقنا بذرّيّة الرسول ﷺ مِن قِبَلِ أُمّنا فاطمةَ ـ عليها السلام ـ وأزيدك يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٦١] ولَم يدْعُ ﷺ في مباهلة[٧] النصارى غيرَ فاطمة والحسن والحسين، وهما الأبناء[٨].

---

(١) هذه الكلمة مطموسة في الأصل، وقد أثبتناها عن (العقد الفريد ٢/١١٧، المطبعة الشرقية، مصر).

(٢) ما بين قوسين زيادة عن (العقد الفريد ٢/١١٧).

(٣) ابن الأشعث: هو محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أبو القاسم، قائد، من أصحاب مصعب بن الزبير. قتل سنة ٦٧ هـ. (الأعلام ٦/٣٩).

(٤) فاديت: أي أطلقت لقاء الفدية.

(٥) أفّ: اسم فعل يدلُّ على التكرُّه والحزن والتضجُّر.

(٦) ما بين قوسين زيادة يقتضي السّياق إثباتها.

(٧) المباهلة: أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظالم منّا.

(٨) وهما الأبناء: أي وهما المقصودان بلفظ الأبناء في الآية الكريمة.

قيل: لما وُلّيَ يحيى بنُ أكثمَ[١] قضاءَ البَصرة ٱستصغر الناسُ سنَّه، فقال له رجل: كم سنُّ القاضي ـ أعزّه الله ـ؟ فقال: سنُّ عتّابِ بن أَسِيد[٢] حين ولّاه رسولُ الله ﷺ قضاءَ مكّة. فجعل جوابَه ٱحتجاجًا.

قال يزيد بن عروة: لمّا مات كُثيّرٌ[٣] لَم تتخلّف بالمدينة ٱمرأةٌ ولا رجلٌ عن جِنازته، وغَلَب النساءُ عليها، وجعلن يبكِينه ويذكُرن عَزّةَ في ندبهنّ له؛ فقال أبو جعفر محمدُ بن عليّ الباقر: أفرِجوا لي عن جِنازة كُثَيّر لأرفعها، فجعلنا ندفع النساء عنها ومحمدُ بنُ عليّ يقول: تَنحّين يا صُوَيحبات يوسف[٤]؛ فانتَدَبتْ له ٱمرأةٌ منهن فقالت: يا بن رسول الله، لقد صدقتَ، إنّا لصُوَيحباته، ولقد كنّا له خيرًا منكم له؛ فقال أبو جعفر [لبعض مواليه][٥]: احتفِظْ بها حتى تجيئني بها إذا ٱنصرفتُ؛ قال: فلما ٱنصرف أُتِيَ بها وكأنّها شَرَرَةُ النار؛ فقال لها محمد بنُ عليّ: إيهِ[٦]، أنتِ القائلة: إنّكنّ ليوسفَ خيرٌ منّا؟ قالت: نعم، تُؤمّنني غضبَكم يا بنَ رسول الله؟ فقال: أنتِ آمنةٌ من غضبي فأنبئيني؛ فقالت: نحن دعوناه إلى اللّذّات من المطعم والمشرب والتمتّع والتنعّم، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجبّ[٧] وبعتموه بأبخس[٨] الأثمان، وحبستموه في السجن؛ فأيُّنا كان عليه أَحنى، وبه أرأف؟ فقال محمد: لله درُّكِ! لَن تُغالَب ٱمرأةٌ إلّا غَلَبتْ؛ ثم قال لها: ألك بعلٌ؟ فقالت: لي من الرجال من أنا بعلُه؛ فقال أبو جعفر: ما أصدقكِ! مثلُك من تَملِك الرجلَ ولا يملِكها؛ فلمّا ٱنصرفتْ قال رجل من القوم: هذه فلانة بنت معقب[٩].

---

(١) هو يحيىٰ بن أكثم التميمي الأسيدي المروزي، أبو محمد، قاضٍ رفيع القدر، عالي الشهرة يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب ولد بمرو واتصل بالمأمون فقرّبه مات في الرّبذة سنة ٢٤٢ هـ. (الأعلام ٨/ ١٣٨).

(٢) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص، أسلم يوم فتح مكة، استعمله الرسول ﷺ على مكة يوم خرج إلى حنين فصلّى بالنّاس، وقبض الرسول ﷺ وعتاب عامله عليها. (الطبقات ٥/ ٣٣٠).

(٣) كُثيّر: هو كُثَيّر بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة، من خزاعة، أبو صخر، شاعر متيّم مشهور، من أهل المدينة، وصاحبته عَزّة التي عرف بها له ديوان شعر، مات سنة ١٠٥ هـ. (الأعلام ٥/ ٢١٩).

(٤) يشير بهذه العبارة إلى ما ذكره القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السّلام عن مكر النّساء «الآية ٣٠ ـ ٣١».

(٥) ما بين قوسين زيادة عن (الأغاني ٨/ ٤٣، ط، بولاق).

(٦) إيه: كلمة استزادة واستنطاق.

(٧) الجبّ: البئر.

(٨) أبخس الأثمان: أنقصها وأقلّها.

(٩) كذا في الأصل بلا تعيين لاسمها، وذكر أبو الفرج أنّها زينب. (الأغاني ٨/ ٤٣).

وقال المأمون ليحيىٰ بن أكثم: من الذي يقول: [من المنسرح]

قاضٍ يَرَى الحدَّ في الزّناءِ ولا   يَرَى على من يلوط من باسِ(١)

فقال: يا أمير المؤمنين، هو الذي يقول:

شاهدُنا يَرتشِي وحاكمُنا   يلوط والراسُ شرُّ ما راسِ(٢)

لا أحسَب الجورَ ينقضي وعلى الأمّة والٍ من آل عبّاسِ(٣)

قال ومن هو؟ قال: أحمد بن أبي نُعيم(٤)؛ فأمَر بنفيه إلى السِّند(٥).

وحُكِي أنّ أهل الكوفة تظلّموا إلى المأمون من عاملٍ ولّاه عليهم؛ فقال: ما علمتُ في عَددِ عمّالي أعدلَ ولا أقوَمَ بأمر الرعيّة ولا أعودَ بالرفق عليهم منه؛ فقام رجل من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، ما أحدٌ أولى بالعدل والإنصاف منك، فإذا كان الأمر على هذه الصفة فينبغي أن تعدِل في ولايته بين أهل البُلدان، وتُسوّي بنا أهلَ الأمصار، حتى يَلحَقَ أهلَ كلِّ بلد مِن عدلِه وإنصافِه مِثلُ الذي لحقنا، فإذا فعل أميرُ المؤمنين ذلك فلا يخصُّنا منه أكثر من ثلاثِ سنين؛ فضحك المأمون وعزَلَ العاملَ عنهم.

ولنصِل هذا الفصل بذكر هفوات الأمجاد(٦) وكبوات الجِياد ـ وقد رأيتُ بعضَ أهل الأدب ممن يستحِقّ الأدب تَعرّض في هذا الفصل إلى ذكر قصص الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ كآدمَ ويوسفَ وداودَ وسليمانَ فكرهتُ ذلك منه، ونزّهتُ كتابي عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾ [آل عِمران: الآية ١٥٥] فكانت هذه هفوةً من المسلمين غفرها الله وعفا عنها.

---

(١) الحدّ: العقاب في تجاوز الحدود التي فرضها الله، واللّواط عمل قوم لوط وهو إتيان الرّجال دون النّساء شهوةً.

(٢) في (وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٦) «أميرُنا يرتشي».

(٣) الجور: الظلم.

(٤) في الأصل أحمد بن نعيم والتصويب عن (وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٦، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/ ١٢٥، مطبعة المعارف).

(٥) السّند: بلاد بين الهند وكرمان وسجستان، فتحت أيّام الحجّاج. (معجم البلدان ٣/ ٢٦٧).

(٦) الهفوات: من زلات الإنسان، والكبوات من زلّات الخيل.

وقال الأحنف بن قيس: الشريفُ من عُدّتْ سَقطاتُه[١].

وقال النابغة: [من الطويل]

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ[٢]

وقالوا: كلُّ صارمٍ ينبو، وكلُّ جوادٍ يكبو.

وكان الأحنف بن قيس حليمًا سيّدًا يضرب به المثل، وقد عُدّت له سقطات فمن ذلك أنه نظر إلى خيلٍ لبني مازن فقال: هذه خيل ما أَدركَتْ بالثار، ولا نَقَصت الأوتار[٣]؛ فقال له سعيد بن القاسم المازنيّ: أمّا يومَ قتلَتْ أباك فقد أدركتْ بثارها؛ فقال الأحنف: لشيءٍ ما قيل: «دَع الكلام حذرَ الجواب» - وكانت بنو مازن قتلت [أبا][٤] الأحنف في الجاهليّة.

ومنها أنه لمّا خرج مع مُصعَب بنِ الزبير أَرسَل إليه مائةَ ألف درهم، ولم يرسِل إلى زَبْراء جاريتِه بشيء، فجاءت حتى وقفت بين يدي الأحنف، ثم أرسلَت عينيها[٥]؛ فقال لها: ما يُبكيك؟ فقالت: ما لي لا أبكي عليك إذ لم تبك على نفسك، أَقعدْتَها وتذر مَرْوَ الرُّوذِ[٦] تَجمَع بين غارَين[٧] من ٱلمسلمين؛ فقال: نصحتِني وٱلله في ديني إذ لم أتنبّه لذلك؛ ثم أَمَر بفُسطاطه[٨] فقُوِّض، فبلغ ذلك مُصعبًا فقال: ويْحكم، مَن دهاني في الأحنف؟ فقيل: زَبْراء، فبعث إليها بثلاثين ألف درهم، فجاءت حتى أرخت عينيها بين يديه؛ فقال: ما لك يا زَبْراء؟ قالت: عجبتُ لأحوالك في أهل البَصرة، تزُفّهم كما تُزَفّ العروس، حتى إذا ضربتَ بهم في نحور أعدائهم أردتَ أن تَفُتّ في أعضادهم؛ قال: صدقتِ والله، يا غلام دَع الفساطيط؛ فٱضطرب العسكر بمجيء زَبْراء مَرّتين.

---

(١) السقطات: الزلّات، أو الوقوع في الخطأ.

(٢) لا تلمّه على شعث: أي لا تحتمله على ما فيه من زلل فتلمه وتصلحه وتجمّع ما تشعّث من أمره «اللسان مادة شعث». (انظر الديوان: ص ١٨، دار صادر).

(٣) الأوتار: جمع وتر بكسر الواو، وهو الزحل أي الثأر.

(٤) الكلمة زيادة يقتضي السّياق إثباتها. (٥) أرسلت عينيها: أي بكت.

(٦) مرو الروذ: مدينة بخراسان بين بلخ ومرو، افتتحها الأحنف بن قيس في خلافة عثمان رضي الله عنه، وهي على نهر عظيم، والرّوذ بالفارسية: النّهر. (معجم البلدان ٥/ ١١٢).

(٧) بين غارين: بين جيشين، والغار: الجيش الكثير، والجيشان هنا هما: جيش الخوارج، وجيش المهلّب بن أبي صفرة.

(٨) الفسطاط: بيتٌ يتخذ من الشعر.

ومن سقطاته التي عُدّت عليه أن عمرو بن الأهتم[١] دسّ إليه رجلًا ليسفّهه، فقال له: يا أبا بحر، من كان أبوك في قومه؟ قال: كان من أوسطِهم، لم يسدهم ولم يتخلّف عنهم؛ فرجع إليه ثانية، ففطن الأحنف إلى أنه مِن قِبَل عمرو، فقال: ما كان مال أبيك؟ قال: كانت له صِرْمة[٢] يَمنَح منها ويَقرِي[٣]، ولم يكن أهتَم[٤] سَلّاحًا[٥].

وقيل: إن الحسن[٦] سئل عن قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: الآية ٢٤]، فقال: إنْ كان لَسَريًّا، وإنْ كان لَكريمًا؛ فقيل له: من هو؟ قال: المسيح؛ فقال له حُمَيد[٧] بن عبد الرحمٰن: أَعِدْ نظرًا، إنما السريُّ: الجَدول؛ فأَنعَمَ[٨] له، وقال: يا حُمَيد، غَلَبنا عليك الأمراء.

ومات ولدٌ طفلٌ لسليمان[٩] بن عليّ، فأتاه الناس بالبَصرة يعزّونه وفيهم شَبِيبُ بنُ شَيبَة[١٠] وبكرُ بنُ حبيب السَّهمِيّ[١١]؛ فقال شبيب: أليس يقال: إنّ الطفل لا يزال محبنظئًا بباب الجنّة حتى يدخُل أبواه؟ فجاء بظاء معجمة؛ فقال له بكرُ بنُ حبيب: محبنطِئًا[١٢]، بطاء مهملة؛ فقال شَبِيب: إلّا أنّ مَن بين لابتَيها[١٣] يَعلم أنّ القول كما أقول؛ فقال بكر: وخطأٌ ثانٍ، ما للبَصرة لابَتان، أذهبتَ إليه بالمدينة؟. (مَن بين لابتَيها: أي حَرّتَيها).

---

(١) الأهتم: لَقَب لُقِّب به أبوه، لأن قيس بن عاصم المنقري ضربه بقوس فهتم فاه «تقدّم تعريفه».
(٢) الصّرمة: القطعة من الإبل نحو الثلاثين. (٣) يقري: يطعم الأضياف.
(٤) الأهتم: الذي كسرت أسنانه أو أنفه. (٥) السلّاح: من سلح أي تغوّط.
(٦) الحسن: هو الحسن بن يسار البصري، من سادات التابعين، جمع كلّ فنٍّ من علم وزهد وورع وعبادة، قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري مات بالبصرة سنة ١١٠ هـ. (وفيات الأعيان ١/ ١٨٠).
(٧) هو حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف، كان ثقة عالمًا كثير الحديث توفي بالمدينة سنة ٩٥هـ. (الطبقات ٥/ ١١٤).
(٨) أنعم له: أي قال نعم.
(٩) هو سليمان بن علي بن عباس، أمير عبّاسي من الأجواد الممدوحين ولاه ابن أخيه السّفاح إمارة البصرة مات سنة ١٤٢ هـ. (الأعلام ٣/ ١٣٠).
(١٠) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقري، أبو معمّر، أديب الملوك وجليس الفقراء، من أهل البصرة، كان يقال له الخطيب، وكان شريفًا من الدّهاة مات نحو سنة ١٧٠ هـ. (الأعلام ٣/ ١٥٦).
(١١) لم يرد هذا الاسم في رواية (العقد الفريد ١/ ٢٩٦، ط، بولاق).
(١٢) المحبنطىء: المتغضّب المستبطىء للشيء.
(١٣) اللّابة: الأرض الصعبة ذات الحجارة النّخرة السّوداء.

قيل: جلس محمدُ بنُ عبد الملك[١] يومًا للمظالم، وحضر في جملة الناس رجلٌ زيُّه زيُّ الكُتّاب، فجلس بإزاء محمد، ومحمد ينقُد الأمور وهو لا يتكلّم، ومحمدٌ يتأمّله؛ فلما خفّ المجلسُ قال له: ما حاجتك؟ قال: جئتُك ـ أصلحك الله ـ متظلّمًا؛ قال: ممّن؟ قال: منك، ضيعةٌ لي في يدِ وكيلِك يَحمِل إليك غلّتَها، ويَحُول بيني وبينها؛ قال: فما تريد؟ قال: تكتب بتسليمها إليّ؛ قال: هذا يُحتاج فيه إلى شهودٍ وبيّنة[٢] وأشياءَ كثيرة؛ فقال له الرجل: الشهودُ هم البيّنة، وأشياء كثيرة عِيٌّ منك؛ فخجل محمدٌ وهاب الرجلَ، وكتب له بما أراد.

ووُصِف ذو الرُّمّةِ[٣] لعبد الملك بن مروان بالذكاء وحسنِ الشعر، فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه أنشده قصيدةً ٱفتتحها بقوله: «ما بال عينِك منها الماءُ ينسكبُ» وكانت عينا عبد ٱلملك تَدْمَعان دائمًا، فظَنّ أنه عَرّض[٤] به، فغضب وقال: ما لك ولهذا السؤال يٱبن ٱللَّخناء[٥]؟ وقطع إنشادَه، وأمر بإخراجه.

ودخل أبو النجم[٦] على هشام بن عبد ٱلملك وأنشده أُرجوزتَه التي أوّلُها: «الحمد لله الوهوبِ ٱلمُجزلِ» حتى ٱنتهى إلى قوله يصف الشمسَ عند الغروب: «وهي على الأُفْق كعين الأحوَلِ»، وٱستَدرَك سقطةَ لسانِه، وقطع إنشادَه، وعَلِم أنها زلّة، لأن هشامًا كان أحوَل، فقال له هشام كَمِّلْ إنشادَك ويلك وأَتْمم البيت، وأمر بوجء[٧] عنقه وإخراجه من الرُّصافة[٨].

---

(١) هو محمّد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزّيات، وكان من أهل الأدب والفضل، عالمًا بالنحو واللغة، كاتبًا شاعرًا مات سنة ٢٣٣ هـ. (انظر الأعلام ٦/٢٤٨).

(٢) البيّنة: الحجّة الواضحة.

(٣) ذو الرُّمّة: هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن نهيس صاحب ميّ أحد الشعراء العشاق. مات سنة ١١٧ هـ. (تقدّم تعريفه).

(٤) عرّض به: قال فيه قولًا يعيبه.

(٥) اللّخناء: التي انتنت أرفاغها، والرّفغ كل موضع يجتمع فيه الوسخ من البدن، وابن اللخناء: يقال في السّبّ.

(٦) أبو النّجم: هو المفضل، وقيل الفضل بن قدامة بن الحارث بن عبدة العجلي، وهو من رجّاز الإسلام الفحول توفي في آخر دولة بني أمية. (انظر الأغاني ٩/٧٧).

(٧) الوجء: اللّكز.

(٨) الرّصافة: يريد رصافة هشام بن عبد الملك وهي في غربي الرّقة، بناها هشام لمّا وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف. (معجم البلدان ٣/٤٧).

قال المدائنيّ[١]: كان رجل من وَلَد عبدِ الرحمٰن بن سَمُرةَ[٢] أراد الوثوب[٣] بالشام في زمن المهديّ، فأُخِذ وحُمِل إليه، فلمّا مَثَل بين يديه ٱعتذر، فرأى منه المهديّ نُبلًا وفضلًا، فعفا عنه وخلطه بجلسائه؛ ثم قال له يومًا: أنشِدْني شيئًا من شعر زهير[٤]، فأَنشَده قصيدتَه التي أوّلُها: «لِمَن ٱلديارُ بقُنّة الحِجْرِ»[٥] حتى أتَى على آخرها؛ فقال المهديّ: مضى من يقول مِثلَ هذا؛ فقال السَّمُريّ: وذهب والله من يقال فيه مِثلُه؛ فٱستشاط[٦] المهديُّ غضبًا، وأَمَر أن يُجَرّ برِجله، وألّا يُؤذَنَ له بعدها.

ولنختم ما ذكرناه من أمر كتابة الإنشاء بشيء من الحِكَم.

ذكر شيء من الحكم

قال رسول الله ﷺ: «الحِكمةُ ضالّةُ المؤمن».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لكلِّ جوادٍ كبوة، ولكلِّ حكيمٍ هفوة؛ ولكلِّ نفسٍ مَلّة[٧]، فاطلبوا لها طرائفَ ٱلحكمة.

ومن الحديث النبويّ ـ صلواتُ الله تعالى وسلامةُ على قائله ـ ممّا يدخل في هذا الفصل قولُه ﷺ: «كرمُ الرجل دِينُه، ومروءتُه عقلُه، وحسَبُه عملُه». «خيرُ الأمور أوسطُها». «كلٌّ ميسَّرٌ لِما خُلِق له». «زُرْ غِبًّا[٨] تَزْدَدْ حبًّا». «الوُحدةُ خيرٌ من قرين[٩] السوء». «البركةُ في الحركة». «صِلوا أرحامَكم ولو بالسلام». «من كَثَّر سوادَ قوم فهو منهم». «ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى». «ليس الغِنى عن كثرة العَرَض[١٠]، إنّما الغِنى غِنى النفس».

---

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، أبو الحسن، مؤرّخ إخباري راوية للشعر ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن توفي سنة ٢٢٥ هـ. (الأعلام ٤/٣٢٣).

(٢) هو عبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب القرشي، صحابي، من القادة الولاة أسلم يوم الفتح مات بالبصرة سنة ٥٠ هـ. (الأعلام ٣/٣٠٧).

(٣) الوثوب: الاستيلاء.

(٤) يريد زهير بن أبي سُلمى.

(٥) قنة الحجر: جبل ليس بالشامخ بحذاء الحجر، والحجر: قرية بحذائها قرية يقال لها الرّحضية للأنصار وبني سليم من نجد. (معجم البلدان ٤/٤٠٩). وتمام البيت:

لمن الدّيار بقنّة الحجر ... أقوين من حججٍ ومن شهر

(الديوان ص ٢٧، دار صادر).

(٦) استشاط: التهب.

(٧) الملّة: من الملل.

(٨) زر غبًّا: أي يومًا بعد يوم.

(٩) القرين: الصاحب.

(١٠) العرض: الزّائل الذي لا يدوم من مالٍ وغيره.

وقال أبو بكر الصِّدّيقُ ـ رضي الله عنه ـ: صنائعُ المعروف تَقِي مَصارعَ السوء.

وقال عليّ بن أبي طالب: اِستغنِ عمّن شئتَ فأنت نظيرُه[١]، واْحتجْ إلى من شئتَ فأنتَ أسيرُه، وأَفْضِل على من شئتَ فأنت أميرُه.

قال بعض الشعراء: [من الخفيف]

وإذا ما الرجاء أُسْقِطَ بين النـ ـاس فالناسُ كلُّهم أكْفاءُ

وقال لقمان[٢] لابنه: ثلاثةٌ لا يُعرَفون إلّا في ثلاثة مواضعَ: لا يُعرَف الحليم إلّا وقت الغضب، ولا الشجاعُ إلا في اْلحرب إذا لاقى الأقران، ولا أخوك إلا عند حاجتك.

وقال عمر بن اْلخطّاب رضي الله تعالى عنه: أَحَبُّكم إلينا قَبل أن نختبرَكم أحسَنُكم صمتًا، فإذا تكلّم فأَبْيَنُكم منطقًا، فإذا اْختبرناكم فأَحْسَنُكم فعلًا.

وفي رواية: أَحَبُّكم إلينا أَحْسَنُكم اْسمًا، فإذا رأيناكم فأَجْملُكم مَنظَرًا، فإذا اْختبرناكم فأَحْسَنُكم مَخبرًا.

وخطب عليّ رضي الله عنه يومًا فقال في خطبته: وأَعْجَبُ ما في الإنسان قلْبه، له أمدادٌ[٣] من اْلحكمة، وأضدادٌ من خلافها، فإذا سَنَح له الرجاءُ هاج به الطمع، وإن هاج به الطمعُ أَهلَكه اْلحرص، وإن مَلَكه اليأسُ قتله الأسف، وإن عَرَض له الغضبُ اْشتدّ به الغيظ، وإن أُسعِد بالرضا نَسيَ اْلتحفُّظ، وإن ناله الخوفُ شغله اْلحزن، وإن أصابته مصيبةٌ قصمه اْلجزع، وإن أفاد مالًا أطغاه الغِنى، وإن عضّته فاقةٌ شغله البلاء، وإن جَهَده الجوعُ أقعده الضعف، فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرّ، وكلُّ إفراطٍ له مفسِد.

ومن كلامه ـ رضي الله عنه ـ: فَرَضَ الله تعالى الإيمانَ تطهيرًا من الشِّرك، والصَّلاةَ تنزيهًا عن الكِبر[٤]، والزكاةَ سببًا للرزق، والصيامَ اْبتلاء لإخلاص اْلخلق، واْلحجَّ تقويةً للبَدَن، والجهادَ عزًّا للإسلام، والأمرَ بالمعروف مصلحةً للعوام[٥]،

---

(١) المشهور في رواية الحديث: تكُن نظيره: المثيل.

(٢) هو لقمان الحكيم الذي ورد ذكرهُ في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: الآية ١٣].

(٣) الأمداد: الأعوان، واحد «مَدَد». (٤) الكبر: العظمة والتجبر.

(٥) العوام: جمع عامة «كدواب ودابّة».

والنهيَ عن المنكر رَدْعًا للسفهاء، وصِلةَ الرحم منماةً للعَدد، والقِصاصَ حَقْنًا للدماء، وإقامةَ الحدود إعظامًا للمَحارم، وتَرْكَ شربِ الخمر تحصينًا للعقل، ومجانَبَةَ السرقة إيجادًا للعفّة، وتَرْكَ الزنى تصحيحًا للنَّسب، وتَرْكَ اللواط تكثيرًا للنسل، والشهاداتِ أستظهارًا[١] على المجاحَدات[٢]، وتَرْكَ الكذبِ تشريفًا للصدق، والسلامَ أمانًا من المخاوف، والإمامةَ نظامًا للأمّة، والطاعةَ تعظيمًا للإمامة.

وقال فَرفُوريوس[٣]: لو تَميزت الأشياء بأشكالها لكان الكذبُ مع ٱلجبن، والصدقُ مع الشجاعة، والراحةُ مع اليأس، والتعبُ مع الطمع، والحرمانُ مع الحرص، والعزُّ مع القناعة، والأمنُ مع العفاف، والسلامةُ مع الوُحدة.

وقال آخر: الشكرُ محتاجٌ إلى القبول، والحسبُ محتاجٌ إلى الأدب، والسرورُ محتاج إلى الأمن، والقرابةُ محتاجة إلى المودّة، والمعرفةُ محتاجة إلى التجارِب، والشرفُ محتاج إلى التواضع، والنَّجدةُ[٤] محتاجة إلى ٱلجِدّ.

وقال حكيم يونانيّ: السعاداتُ كلُّها في سبعة أشياء: حُسنُ الصورة، وصحّةُ ٱلجسم، وطولُ العمر، وكثرةُ العِلم، وسَعَةُ ذات اليد، وطِيبُ الذكر، والتمكّنُ من الصديق والعدوّ.

وقال بعض الأدباء ـ وقد سئل عن العيش ـ فقال: في الغِنى فإني رأيتُ الفقير لا يلتذّ بعيش أبدًا؛ فقال له السائل: زِدْني، قال: في الصحّة، فإني رأيت المريض لا يلتذّ بعيشٍ أبدًا؛ فقال له: زِدْني، قال: في الأمن، فإني رأيت الخائف لا يلتذّ بعيشٍ أبدًا؛ قال: زِدْني؛ قال: لا أجد مَزيدًا. وهذا الكلام مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«من أصبح آمنًا في سِرْبِهِ[٥]، مُعافًى في بَدَنه، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها».

وقال فيلسوف: كثيرٌ من الأمور لا تَصلُح إلّا بقُرَنائها[٦]: لا ينفع العِلمُ بغير ورع[٧]، ولا الحفظُ بغير عقل، ولا ٱلجمالُ بغير حلاوة، ولا

---

(١) الاستظهار: الإستقواء والاستعانة. (٢) المجاحدات: المنكرات.

(٣) هو فرفوريوس الصوري، من أهل مدينة صور على الساحل الشامي، وكان بعد جالينوس، وله النباهة في علم الفلسفة والتقدّم في تفسير كتب أرسطو. (إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٥٦، ط بيسك).

(٤) النّجدة: الشجاعة وسرعة الإغاثة. (٥) السرب بكسر السين: النفس.

(٦) القرناء: مفردها «القرين» وهو الصاحب. (٧) الورع: التحرّج عن المحارم والتقوى.

ٱلحسبُ بغير أدب، ولا السرورُ بغير أمن، ولا الغِنى بغير كفاية، ولا الاجتهادُ بغير توفيق.

وقالوا: المنظرُ يحتاج إلى القبول، والحسبُ إلى الأدب، والسرورُ إلى الأمن، والقُرْبى إلى ٱلمودّة، والمعرفةُ إلى التجارِب، والشرفُ إلى التواضع، والنجدةُ إلى ٱلجِدّ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: يَغلِب المقدار على التقدير، حتى تكون الآفةُ(١) في التدبير.

أخَذَه ٱبنُ الروميّ فقال: [من الكامل]

غَلِطَ الطبيبُ عليَّ غلطةَ مُورِدٍ ... عَجَزتْ مَوارِدُه عن الإصدارِ(٢)
والناس يلحون الطبيبَ وإنّما ... غَلَطُ الطبيبِ إصابَةُ ٱلمقدارِ(٣)

وقال: إذا ٱنقضت ٱلمدّة، كان ٱلهلاك في العُدّة.

وقال القدماء: لا خيرَ في القول إلّا مع الفعل، ولا في المَنظَرِ إلّا مع المَخبَر، ولا في المال إلّا مع ٱلجود، ولا في الصديق إلّا مع الوفاء، ولا في الفقهِ إلّا مع الورع، ولا في الصدقةِ إلّا مع حسن النيّة، ولا في ٱلحياةِ إلّا مع الصحّة، ولا في السرورِ إلّا مع الأمن.

قال بعض بني تميم: حضرتُ مجلسَ الأحنف بنِ قيس وعنده قوم مجتمعون، فحمِد ٱللّه وأثنى عليه، ثم قال: إن الكرمَ، مَنعُ الحُرَم؛ ما أَقرَبَ النِّقمة من أهل البغي! لا خيرَ في لذّة تُعقِب ندمًا؛ لن يَهلِكَ مَن قَصَد، ولن يفتقرَ مَن زَهَد؛ ربّ هزل قد عاد جِدًّا؛ من أَمِن الزمانَ خانَه، ومن تَعظَّم عليه أهانه؛ دَعوا ٱلمزاح فإنه يؤرِّث(٤) الضغائن؛ وخيرُ القول ما صدّقه الفعل؛ احتملوا مَن أَدلَّ(٥) عليكم، وٱقبلوا عذرَ من ٱعتذر إليكم؛ أطع أخاك وإن عصاك، وصِلْه وإن جفاك؛ أَنصِفْ مِن نفسِك قبل أن يُنتصَف منك؛ وإيّاكم ومشاورةَ النساء؛ وٱعلم أنّ كفر النعمة لؤم، وصحبةَ

(١) الآفة: كل ما يصيب شيئًا فيفسدُه، من عاهة أو غيرها.
(٢) في الأصل: «مجانيه» بدل «موارده» وهو تحريف والتصويب عن (وفيات الأعيان ١/ ٥٠٠)، والموارد: ما يرده الإنسان للاستقاء أي موارد الماء، والإصدار الرجوع عن المصادر بعد الإرتواء.
(٣) يلحون: يلومون ويخاصمون.
(٤) يورّث: أرّث النار تأريثًا: إذا أوقدها.
(٥) أدلّ عليه: إذا وثق بمحبته فأفرط عليه.

ٱلجاهل شؤم؛ ومِن الكرم، الوفاء بالذمم؛ ما أقبحَ القطيعةَ بعد الصِّلة؛ والجفاء بعد اللُّطْف، والعداوةَ بعد الوُدّ! لا تكونَنّ على الإساءة أقوَى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أَسرَعَ منك إلى البذل؛ وٱعلم أنّ لك من دنياك، ما أصلحتَ به مَثواك، فأَنفِق في حقٍّ ولا تكونَنّ خازنًا لغيرك؛ وإذا كان الغدرُ موجودًا في الناس فالثقةُ بكلّ أحد عجْز؛ اعرِف ٱلحقَّ لمن عرَفه لك؛ وٱعلم أنّ قطيعةَ الجاهل، تعدل صِلةَ العاقل. قال: فما رأيتُ كلامًا أبلغَ منه، فقمتُ وقد حفظتُه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن كلام عليٍّ رضي الله عنه: من أَبْصَر عيبَ نفسه شُغِل عن عيب غيره؛ ومن سَلّ سيف البغي قُتِل به؛ ومن حفر لأخيه بئرًا وقع فيها؛ ومن هَتَك حجابَ أخيه ٱنهتكتْ عوراتُ بيتِه؛ ومن نسَي خطيئته ٱستَعظَم خطيئةَ غيره، ومن تَكبّر على الناس ذَلّ؛ ومن سَفُه على الناس شُتِم؛ ومن خالط العلماءَ وُقِّر، ومن خالط الأنذالَ حُقِّر؛ ومن أكثر من شيءٍ عُرِف به؛ والسعيدُ من وُعِظ بغيره؛ وليس مع قطيعة الرحم تُقى، ولا مع الفجور غِنى؛ رأسُ العلم الرفق، وآفتُه الخُرْق[1]؛ كثرةُ الزيارة تورث ٱلملالة.

وقال موسى بنُ جعفر: ما تَسابّ ٱثنان إلّا ٱنحطّ الأعلى إلى مرتبة الأسفل.

وقال آخر: ما تَسابّ ٱثنان إلا غَلَب ألأمُهما.

وقال ٱلحسن بن عليّ بن موسى الرِّضا: اعلم أن للحِباء[2] مقدارًا فإن زاد عليه فهو سَرَف[3]، وللحزم مقدارًا فإن زاد عليه فهو جبن، وللاقتصاد مقدارًا فإن زاد عليه فهو بخل.

قال مهديُّ بن أبان: قلتُ لوَلّادةَ العَبَديّةِ[4] وكانت من أعقل النساء ـ: إنّي أريد ٱلحج فأوصيني، قالت: أُوجِزُ فأبلغ، أم أطيلُ فأُحْكِم؟ فقلت: ما شئتِ؛ فقالت: جُدْ تَسُدْ، وٱصبر تفُز؛ قلت: أيضًا؛ قالت: لا يُبعِد غضبُك حلمَك، ولا هواك عِلمَك؛ وقِ دينَك بدنياك، وقِ عِرْضَك بعَرَضِك[5]؛ وتَفَضَّلْ تُخدَم، وٱحلمْ تُقدَّم؛ قلت: فبمن

(١) الخرق: الأحمق.
(٢) الحباء بكسر الحاء: العطاء.
(٣) السرف: التبذير.
(٤) ولادة العبدية: لعلّها ولّادة بنت المستكفي، شاعرة أندلسية اشتهرت بأخبارها مع الوزيرين ابن زيدون وابن عبدون، وكانا يهويانها وهي تحبّ الأول وتكره الثاني ماتت سنة ٤٨٤ هـ. (الأعلام ١١٨/٨).
(٥) العرض: الشيء الزّائل.

أستعين؟ قالت: بالله؛ قلت: من الناس؛ قالت: الجَلْد[١] النشيط، والصالح الأمين؛ قلت: فمن أستشير؟ قالت: المجرِّبَ الكَيِّس[٢]، أو الأديبَ الأريب؛ قلت: فمن استصحب؟ قالت: الصديقَ المسلِّم، أو المؤاخِي المتكرِّم؛ ثم قالت: يأبناه، إنك تَفِد إلى مَلِك الملوك فأنظر كيف يكون مقامُك بين يديه.

وقال حكيم: مَن الذي بلغ جسيمًا فلَم يَبطَر[٣]، وأتبع الهوى فلَم يَعطَب[٤]؛ وجاوَر النساء فلَم يَفتتن، وطَلب إلى اللئام فلَم يُهَنْ، وواصَل الأشرارَ فلَم يندم، وصَحِب السلطانَ فدامت سلامتُه.

وقال: الاعتبارُ يفيدك الرشاد، وكفاك أدبًا لنفسك ما كرهتَ من غيرك.

وكان يقال: عليكم بالأدب فإنه صاحبٌ في السَّفر، ومُؤنسٌ في الوُحدة، وجمالٌ في المَحْفِل، وسببٌ إلى طلب الحاجة.

وقال بعضهم: إحذر كلَّ الحذر من أن يخدَعَك الشيطان فيمثِّلَ لك التوانيَ[٥] في صورة التوكّل، ويُورثَك الهُوَينَى[٦] بالإحالة على القَدَر، فإن الله تعالى أمر بالتوكّل عند انقطاع الحيَل، وبالتسليم للقضاء بعد الإعذار، فقال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ٧١]، ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥].

وقال آخر: لا تجاهد الطلبَ جهادَ الغالب، ولا تتّكل على القدر اتّكالَ المستسلِم، فإنّ ابتغاءَ الفضل من السُّنّة[٧]، والإجمال[٨] في الطلب من العفّة، وليست العفّةُ بدافعة رزقًا، ولا الحرصُ بجالب فضلًا.

وقالوا: عشرُ خصالٍ في عشر أصناف أقبحُ منها في غيرهم: الضيقُ في الملوك، والغدرُ في الأشراف، والكذبُ في القضاة، والخديعةُ في العلماء، والغضبُ في الأبرار، والحرصُ في الأغنياء، والسَّفَهُ في الشيوخ، والمرضُ في الأطبّاء، والزَّهوُ في الفقراء، والفجورُ في القُرّاء[٩].

وقالوا: ثمانيةٌ إذا أهينوا فلا يلوموا إلّا أنفسَهم: الآتي طعامًا لم يُدْعَ إليه، والمتأمِّرُ على ربّ البيت في بيته، وطالبُ المعروف من غير أهله، وراجِ

(١) الجلد: القوي الصابر على المكروه.
(٢) الكيّس: العاقل الفطين.
(٣) يبطر: يكفر بالنعمة.
(٤) يعطب: يفسد وينكسر.
(٥) التواني: التقصير.
(٦) الهوينى: الخفض والدّعة.
(٧) السنّة: الشريعة والطريقة المحمّديّة.
(٨) الإجمال: الاعتدال والتأنّي.
(٩) المراد بالقرّاء: أي حفظة القرآن والتالون له.

مِنَن[١] الفضلِ من ٱللئام، والداخلُ بين ٱثنين لَم يُدخِلاه، والمستخفُّ بالسلطان، والجالسُ مجلسًا ليس له بأهل، والمقبِلُ بحديثه على مَن لا يسمعه.

ومن الأبيات المناسبة لهذا الفصل قولُ الأضبَط بن قُرَيع[٢]: [من المنسرح]

لِكلّ ضِيقٍ من ٱلهموم سَعَة ... والمُسْيُ والصبح لا بقاءَ مَعَه
فصِلْ حبالَ البعيد إن وصل الـ ... ـحبلَ وأقص القريبَ إن قطعَه[٣]
وخذ من الدهر ما أتاك به ... من قَرَّ عينًا بعيشِه نفَعَه
لا تَحْقِرنّ الفقيرَ علَّك أن ... تَركَع يومًا والدهرُ قد رفَعَه[٤]
قد يَجمع ٱلمالَ غيرُ آكِله ... ويأكل المالَ غيرُ مَن جَمَعَه

وقال أُحَيحَة[٥]: [من الوافر]

فما يدري الفقيرُ متى غِناه ... ولا يدري الغنيُّ متى يَعِيلُ[٦]
ولا تدري إذا أَزمَعتَ أمرًا ... بأيّ الأرض يأتيك ٱلمَقِيلُ[٧]

وقال الصَّلَتان العبديّ[٨]: [من المتقارب]

أشاب الصّغيرَ وأفنَى الكبيـ ... ـرَ كَرُّ الغداة ومَرُّ العَشِي[٩]
إذا ليلةٌ هَرّمتْ يومَها ... أَتَى بعد ذلك يومٌ فَتِي[١٠]

---

(١) المنن: مفردها «المنّة» وهي الإحسان والإنعام.

(٢) هو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي، شاعرٌ جاهليّ قديم أساء قومه إليه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأوّلين فقال: «بكلّ وادٍ بنو سعد» يعني قومه. (الأعلام ١/ ٣٣٤).

(٣) أقص القريب: أي ابتعد عنه واهجره. (٤) تركع يومًا: أي تفتقر بعد غنى أو تنحط.

(٥) أحيحة: هو أحيحة بن الجلاح، كان سيّد الأوس في الجاهلية وكانت سلمى أمّ عبد المطلب بن هاشم تحته، وهي كانت لا تنكح الرّجال إلّا وأمرها بيدها فتركته، فتزوّجها هاشم فولدت له عبد المطلب، وكان أحيحة كثير المال شحيحًا عليه، ويبيع بيع الرّبا، وكان له تسع وتسعون بئرًا مات نحو سنة ١٣٠ ق هـ، (الأعلام ١/ ٢٧٧).

(٦) يعيل: يفتقر.

(٧) أزمعت: عزمت وصممت، والمقيل: الرّقود، ولعلّه يريد الموت.

(٨) الصّلتان العبدي: هو قثم بن خبيئة من عبد القيس واجتمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجرير، ففضّل شعر جرير وقوم الفرزدق مات نحو سنة ٨٠هـ. (الأعلام ٥/ ١٩٠).

(٩) كرُّ الغداة: تواليها. (١٠) يومٌ فتي: أي يوم جديد بعد يوم منصرم.

نـروح ونـغـدو لـحـاجـاتـنـا وحـاجـةُ مـن عـاش لا تـنـقـضِـي
تـمـوت مـع ٱلـمـرء حـاجـاتُـه وتَـبـقَـى لـه حـاجـةٌ مـا بَـقِـي

وقال المتنبّي: [من البسيط]

ذكرُ الفتى عُمرُه الثاني وحاجتُه ما قاته وفضولُ العيش أشغالُ

وقد جُمِعَ من شعر أبي الطيّب في ذلك ما وافق كلام أَرِسْطوطاليسَ في الحكمة؛ فمن ذلك قول أَرِسْطوطاليس: إذا كانت الشهوةُ فوق القدرة كان هلاكُ ٱلجسم دون بلوغ الشهوة.

قال المتنبّي: [من الخفيف]

وإذا كـانـت الـنـفـوس كـبـارًا تَـعِـبـتْ فـي مُـرادهـا الأجـسـامُ

وقال أَرِسْطوطاليس: قد يفسد العضو لصلاح أعضاء، كالكيّ والفصد[١] اللّذين يُفسِدان الأعضاءَ لصلاحِ غيرِها. نقله المتنبّي إلى شعره فقال: [من البسيط]

لـعـلّ عَـتْـبَـك مـحـمـودٌ عـواقـبُـه فربّما صحّت الأجسادُ بالعِللِ[٢]

وقال أَرِسْطوطاليس: الظلم من طبع النفوس، وإنما يصدّها عن ذلك إحدى علّتين: إمّا علّة دينيّة خوف مَعاد[٣]، أو علّة سياسيّة خوف سيف.

قال المتنبّي: [من الكامل]

والظلمُ من شِيَم النفوس فإن تَجِدْ ذا عـفّـةٍ فـلـعـلّـةٍ لا يَـظـلِـمُ

هذا ما ٱتفق إيرادُه في هذا الباب من أمر كتابة الإنشاء، وكلام الصحابة وٱلخلفاء، وذوي الفصاحة من الأمراء، وبلاغاتِ ٱلخطباء والفصحاء، ورسائلِ الفضلاء والبلغاء، وفِقَرِ الكتّاب والأدباء، وحِكَمِ أوائل ٱلحكماء؛ وهو ممّا يُضطرّ الكاتبُ إليه، ويَعتمِد في الاطلاع على ما خفي من أمر هذه الصناعة عليه؛ وهي إشاراتٌ إلى مجموعِها، ورشفاتٌ من يَنبوعِها؛ وبابٌ يتوصّل منه إلى رحابِها، وسلّمٌ يرتقي عليه إلى هضابِها، ومَسِيلٌ عذبٌ يتّصل بعبابِها[٤]؛ فقد وَضَح لك أيّها الطالبُ السبيل، وظهر لك أيّها الراغبُ قيام الدليل؛ وفيما أوردناه كفايةٌ لمن تَمسّك بهذه الصناعة

(١) الفصد: إخراجُ مقدارٍ من دم الوريد بقصد العلاج.
(٢) العِلل: الأمراض، والعلّة: السّبب. (٣) المعاد: الحياة الآخرة، والبعث بعد الموت.
(٤) العباب: السّيل.

ورغب فيها، وغُنيةٌ لمن تأمَّل مقاصدها وتدبَّر معانيها؛ فلنذكر كتابةَ الديوان والتصرّف.

ذكر كتابة الديوان وقلم التصرف وما يتصل بذلك

قد ذكرنا في أوّل هذا الباب في السفر السابع من هذا الكتاب ٱشتقاقَ الكتابة، ولم سُمّيتْ بذلك، وذكرنا أيضًا أصلَها وشرفَها وفوائدَها، فلا حاجة إلى إعادته في هذا ٱلموضع، فلنذكر الآن ما يتعلّق بقلم الديوان والتصرّف وٱلحساب؛ وإن كنا قدّمنا ذكرَ كتّابِ الإنشاء لِما هم بصدده من الصدارة والوجاهة، والنبالة والنباهة؛ والفصاحةِ والصباحة، والنزاهةِ والسماحة؛ والأمانةِ والديانة، والسيادة والصيانة؛ ولِما تصدَّوا له مِن كتمِ أسرار الدُّوَل، وتردَّوا به من محاسِن الأواخرِ ومَآثِرِ الأُوَل، وٱلتَحفوا به من مَطارف الفضائل والمكارم، وتحلّوا به من صفات الأفاضل والأكارم؛ إلى غير ذلك من مناقبهم الجمّة[1]، وأياديهم ٱلتي وَضَحتْ غررًا في ليالي ٱلخطوب المدلهمّة[2]؛ فكتّابُ ٱلحساب أكثرُ تحقيقًا، وأقربُ إلى ضبط الأموال طريقًا، وأدَلُّ برهانًا، وأوضحُ بيانًا، قال ٱلله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ١٢] وذهب بعض ٱلمفسرين لكتاب الله تعالى في قوله تعالى إخبارًا عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: الآية ٥٥] أي كاتبٌ حاسب.

وروى البخاريّ عن أبي حُمَيد الساعديّ[3] قال: «استعمل رسولُ الله ﷺ رجلًا من الأَسْد[4] على صدقات بني سَليم يُدعَى ٱبنَ اللُّتْبية[5] فلمّا جاء حاسَبَه» فقد صحّ أنّ رسول الله ﷺ حاسَبَ؛ وبكتّاب ٱلحساب تُحفَظ الأموال وتُضبَط الغلال؛ وتُحدُّ قوانينُ البلاد؛ وتُميَّز الطوارفُ من التِّلاد؛ لَم يفخَر كُتّاب الإنشاء بمَنقَبة إلا فَخَروا بمناقب، ولا سَمَوا إلى مرتبة إلّا وقد رَقُوا إلى مراتب؛ ولا تَميَّزوا برسالة إلّا ولهؤلاء

(١) الجمّة: الكثيرة. (٢) المدلهمة: الشديدة السواد.

(٣) أبو حميد الساعدي: قيل عبد الرحمٰن، وقيل منذر، له صحبة، محدّث بقي إلى حدود سنة ٦٠ هـ. (الكاشف ٣/ ٢٨٩).

(٤) الأَسْد: بالسّين وهو أفصح، ويقال: الأزْد بالزاي، وهو أبو حيّ من اليمن، ومن أولاده الأنصار كلّهم.

(٥) ابن اللُّتبية: هو عبد الله، واللّتبية أمّه، نسبة إلى بني لُتب، وهم حيّ من الأزد. (انظر صحيح البخاري ١/ ٣٨٢. ط، ليدن).

فيها القِدْحُ[١] المعَلّى، ولا نُسِبوا إلى نباهة إلّا ومحلُّهم فيها المحلُّ الأرفعُ ومقامُهم ٱلمقامُ الأعلى؛ ولا ٱتصفوا بكتمان سرٍّ إلّا ٱتصف هؤلاء بمِثْلِه، ولا شُهِروا ببذل برٍّ إلا وهؤلاء هم أعيان أهلِه؛ ثم ٱختصّ كُتّابُ التصرف بأمورٍ مُنِع أولئك منها، وأُطلِقتْ أقلامُهم في أقلام[٢] حُبِستْ أقلامُ أولئك عنها؛ وٱرتقَوا إلى قُلَل مراتبَ كَبَتْ جِيادُهم[٣] عن إدراك غايتِها، وتَسنّموا ذرا مناصبَ لا تمتدّ الآمالُ إلى أكثرَ من نهايتِها؛ ولسنا نقيمهم في محلّ المناظرة، ولا نوقفهم في موقف المكاثرة والمفاخرة؛ بل لكلٍّ طائفة فضلٌ لا ينكَر، وفضائلُ هي أشهرُ من أن تملى وتسطَّر؛ ولمّا ٱنتهيتُ في كتابي هذا إلى باب الكتابة، أردت أن أضرب عن ذكر كتابة التصرّف صفحًا، ولا أُعيرها من النظر لمحًا، وأقتصر على كتابة الإنشاء جريًا على عادة من صنّف، وقاعدةِ من ألّف؛ فسألني بعض إخواني أن أضع في ذلك ملخَّصًا يَعلم منه المباشِرُ كيف المباشَرة، ويستضيء به فيما يسترفعُه[٤] أو يرفعه[٥] من ضريبةٍ ومُوافرة؛ فأوردتُ هذه النُّبذة إزالةً لسؤالِه، وتحقيقًا لآمالِه؛ وذكرتُ من صناعة الكتابة ما هو بالنسبة إلى مجموعها قطرةٌ من بحرِها، وشَذْرةٌ[٦] من عقود درّها؛ ممّا لا بدّ للمبتدي من الإحاطة بعِلمِه، والوقوفِ عند رسمه؛ وحين وضعتُ ما وضعتُ من هذه الصناعة لم أَقِفْ قبل ذلك على كتاب في فنّها مصنَّف، ولا ٱنتهيتُ إلى فصل مترجَم[٧] بها أو مؤلَّف؛ ولا لمحتُ في ذلك إشارة، ولا سمعتُ من لخّص فيها عبارة؛ ولا من تفوّه فيها ببنت شفةٍ ولسان، ولا من صرَّف ببنانِ بلاغتِه في ميادينها ٱلعِنان؛ حتى أقتدي بمثالِه، وأَنسُجَ على منوالِه؛ وأسلك طريقه في الإجادة، وأحذوَ حذوَه في الإفادة؛ بل وجدْتُها مقفَلةَ ٱلباب، مسبَلَةَ[٨] الحجاب؛ قد ٱكتفَى كلُّ كاتب فيها بعلمِهِ، وٱقتصر على حسب فهمِه؛ فراجعتُ فيها الفكرة، وعطفتُ بالكرّة بعد الفرّة[٩]؛ ثم قرعتُ بابها ففُتِح بعد غَلْقِه[١٠]، ورفعتُ حجابَها ففُتِق بعد رَتْقِه؛ وٱمتَطيتُ صهوتَها فلانت بعد جماحِها[١١]، وٱرتقيتُ ذُروتها فظهر للفكرة طريقُ نجاحِها؛ فشرعتُ عند ذلك في تأليف ما وضعتُه،

---

(١) القدح: السّهم في القمار، والمعلّى: السابع من أسهم القمار.
(٢) الأقلام: المراد بها هنا أنواع كتابة الديوان كما هو المصطلح عليه عند كتّاب الدواوين.
(٣) كبت الجياد: انكبّت على وجوهها وقصّرت.
(٤) يسترفعه: أي يطلب من غيره أن يرفعه إليه.
(٥) يرفعه: أي يرفعه هو إلى غيره.
(٦) الشذرة: اللؤلؤة الصغيرة.
(٧) المترجم بفتح الجيم: المسمّى.
(٨) المسبلة: التي أرخت الحجاب وأسبلته.
(٩) الكرّة بعد الفرّة: أي الإقبال بعد الإحجام.
(١٠) الغلق: مصدر غلقت الباب، وهي لغة قليلة.
(١١) الجماح: الشرود والنّفور.

وترصيفِ[١] ما صنّفتُه؛ وبدأتُ بٱشتقاق تسمية الديوان، ولِم سُمِّيَ ديوانًا، ثم ذكرت ما تفرّع من كتابة الديوان من أنواع الكتابات، وأوّلَ ديوان وُضِع في الإسلام، وسببَ وضعِه، ثم ذكرت ما يحتاج إليه كلُّ مباشر من كيفيّة المباشَرة وأوضاعها، وما ٱستقرّتْ عليه ٱلقواعد العرفيّة[٢]، والقوانينُ الاصطلاحيّة[٣]، وما يرفعه كلُّ مباشر ويسترفعه[٤]، والأوضاع ٱلحسابية، على ما ستقف إن شاء الله تعالى عليه، وترجع فيما أَشكَل من أمورها إليها.

ذكر ٱشتقاق تسمية الديوان
ولِمَ سُمِّي ديوانًا ومن سمّاه بذلك

قد ٱختُلِف في تسمية الديوان ديوانًا على وجهين: أحدهما أنّ كسرى[٥] ٱطّلع ذات يوم على كتّاب ديوانه، فرآهم يحسبُون مع أنفسهم، فقال: دِيوانه: أي مجانين؛ فسُمِّيَ موضعُهم بهذا الاسم، ثم حُذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفًا للاسم، فقيل: ديوان. والثاني أن الديوان بالفارسيّة ٱسمٌ للشياطين، فسُمِّيَ الكتّابُ بٱسمهم لحِذقهم بالأمور، ووقوفِهم على الجليّ[٦] والخفيّ، وجمعِهم لما شذّ وتَفرّق، وٱطّلاعِهم على ما قُرب وبُعد، ثم سُمِّيَ مكانُ جلوسهم بٱسمهم، فقيل: ديوان. هذا ما قيل في تسميته على ما حكاه ٱلماورديُّ في الأحكام السلطانيّة؛ والله أعلم.

ذكر ما تَفرّع عن كتابة الديوان من أنواع الكتابات

هذه الكتابة تنقسم إلى أقسام ووظائفَ: أصولٍ وفروع، وهي: مباشَرةُ الجيوش[٧]، ومباشَرةُ الخِزانة، وبيت المال، وأهراءِ[٨] الغلال، ومباشَرةُ البيوت،

---

(١) الترصيف: التجميع والتنضيد.
(٢) العرفيّة: من العرف: يريد القواعد التي تعارف عليها الناس في عاداتهم وتقاليدهم وتصرّفاتهم.
(٣) الاصطلاحية: ما اصطلح عليه الجماعة واتفقوا.
(٤) يسترفعه: أي يطلب من غيره أن يرفعه إليه.
(٥) كسرى: هو كسرى أنوشروان، أشهر ملوك الفرس وأحسنهم سيرة وأخبارًا، وفي أيّامه ولد رسول الله ﷺ، وقال: ولدت في زمن الملك العادل. (انظر إعجام الأعلام: ٦٨، دار الكتب العلمية).
(٦) الجليّ: الواضح.
(٧) مباشرة الجيوش: أي الكتابة المتعلّقة بالجيش.
(٨) الأهراء: جمع «هُرِيّ» وهو بيت كبير تجمع فيه الغلال التي للسلطان.

ومباشَرةُ الهِلاليّ[(١)]، ومباشَرةُ الجوَالِي[(٢)]، ومباشَرةُ ٱلخراجيّ، ومباشَرةُ الأقصاب[(٣)] وٱلمعاصِر ومطابخِ السكّر؛ ويحتاج مباشرُ كلٍّ وظيفة من هذه الوظائف إلى معرفة قواعدَ يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى؛ ولنبدأ بذكر مباشرة ٱلجيوش.

ذكر مباشرة ديوان ٱلجيش وسبب وضع الدواوين وأول من وضعها في الإسلام

وديوانُ ٱلجيش هو أوّلُ ديوان وُضِع في الإسلام[(٤)]، وضعه عمرُ بنُ ٱلخطّاب ـ رضي الله عنه ـ في خلافته؛ وقيل: بل وُضِع في عهد النبيّ ﷺ، ويدلّ على ذلك أن البخاريَّ ـ رحمه الله ـ تَرجَم على هذا بقوله: باب كتابة الإمام الناسَ، قال: حدَّثنا محمدُ بن يوسف، قال: حدَّثنا سفيانُ عن الأعمش عن أبي وائلٍ عن حُذَيفةَ: قال النبي ﷺ: «اكتبوا لي من تَلفَّظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفًا وخَمسمائة رجل» وقد روى البخاريُّ أيضًا بسنده عن ٱبن عبّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي ٱكتُتبتُ[(٥)] في غزوة كذا وكذا، وٱمرأتي حاجّة؛ قال: ارجع فٱحجُج مع ٱمرأتك».

وٱختلف الناس في سبب وضعه في أيّام عمر، قال قوم: سببُه أنّ أبا هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قَدِم بمال من البحرين، فقال له عمر رضي الله عنه: ماذا جئتَ به؟ قال خَمسمائة ألفِ درهم، فٱستكثَرَه عمرُ وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات؛ فقال عمر: أطَيِّبٌ[(٦)] هو؟ فقال: لا أدري؛ فصَعِد عمرُ رضي الله عنه ٱلمنبَر، فحمِد ٱلله وأثنَى عليه، ثم قال: أيّها الناس، قد جاءنا مالٌ كثير، فإن شئتم كِلنا لكم كيلًا، وإن شئتم عَددنا [لكم عدًّا][(٧)]؛ فقام إليه رجل

---

(١) الهلالي: عبارة عمّا تستأدى أجوره مشاجرة، كأجر الأملاك المسقَّفة والحوانيت والحمّامات وغيرها.
(٢) الجوالي: جمع جالية وهي الجزية التي تؤخذ من أهل الذّمة.
(٣) الأقصاب: مفردها القصب، وقد يكون المراد هنا القصبة التي تعني المدينة والحصن، أو منبت القصب ومراكز تصنيعه واستخراج السّكر منه.
(٤) في (صبح الأعشى ١/ ١٢٥، دار الكتب العلمية) أن ديوان الإنشاء هو أوّل ديوان وضع في الإسلام، وذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصّحابة ويكاتبونه، وكتب إلى من قرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام. . . وهذه المكتوبات متعلّقها ديوان الإنشاء.
(٥) اكتُتبت: أي سُجّلت في عداد الجيش. (٦) الطيّب: الحلال، وهو ضد الخبيث.
(٧) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية ص ٣٤٤ ـ ط، المنيا.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيتُ الأعاجم يدوِّنون ديوانًا لهم، فدوِّن أنت [لنا][(١)] ديوانًا.

وقال آخرون: بل سببُه أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ بعث بعثًا وعنده الهُرْمُزانُ[(٢)]، فقال لعمر: هذا بعثٌ قد أعطيتَ أهلَه الأموال، فإن تخلّفَ رجلٌ منهم وأَخَلّ بمكانه فمن أين يَعلَم صاحبُك[(٣)]؟ فأَثبِتْ لهم ديوانًا؛ فسأله عن الديوان حتى فسّره له.

ورَوَى عابد بن يحيىٰ عن [الحارث][(٤)] بن نُفَيل أن عمر رضي الله عنه استشار ٱلمسلمين في تدوين الدواوين، فقال عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: تَقسِم في كلّ سنة ما ٱجتمع إليك من ٱلمال ولا تُمسِك[(٥)] منه شيئًا؛ وقال عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: أرى مالًا كثيرًا يسَع الناسَ، وإن لم يُحصوا حتى يُعرَفَ من أَخَذَ ممن لم يأخذْ خشِيتُ أن ينتشر الأمر؛ فقال خالد بنُ الوليد: قد كنتُ بالشأم فرأيتُ ملوكها دَوّنوا ديوانًا، وجَنّدوا جنودًا، [فدَوِّن ديوانًا، وجَنِّد جنودًا][(٦)] فأَخَذ بقوله، ودعا عَقيلَ بنَ أبي طالب ومَخْرَمةَ بنَ نوفل وجُبَيرَ بنَ مطعم ـ وكانوا من كتّاب قريش ـ فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فبدءوا ببني هاشم فكتبوهم، ثم أتبعوهم قومَ أبي بكر، ثم عمرَ وقومَه، وكتبوا القبائل ووضعوها على ٱلخلافة[(٧)]، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضي الله عنه، فلمّا نظر فيه قال: لا، [ما][(٨)] وَدِدتُ أنّه كان هكذا، ولكن ٱبدءوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه ٱلله؛ فشكره العباس رضي الله عنه على ذلك؛ وكان ذلك في ٱلمحرّم سنة عشرين من ٱلهجرة، وقيل في

(١) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية...
(٢) الهرمزان: بضمّ أوله وسكون ثانية وضمّ ثالثه: وهو الكبير من ملوك العجم. والمرزبان: هو الرئيس من الفرس... (انظر صبح الأعشى ١٣/ ١١٣).
(٣) يريد بقوله: صاحبك: أي أمير الجيش.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية للماوردي، ولعلّه يقصد الحارث بن نوفل الهاشمي القرشي، وهو صحابي ولّاه النبي ﷺ بعض أعمال مكّة، وأقرّه أبو بكر وعمر وعثمان مات في البصرة نحو سنة ٣٥ هـ. (الأعلام ٢/ ١٥٨).
(٥) تمسك: تخزُن.
(٦) ما بين قوسين تكملة عن الأحكام السلطانية ص ٣٤٥.
(٧) لعلّه يريد بقوله: ووضعوها على الخلافة: أنهم جعلوا ترتيب القبائل في الديوان على حسب قربهم في النسب من القبيلة التي فيها الخلافة.
(٨) ما بين قوسين زيادة عن الأحكام السلطانية.

سنة خمس عشرة، ـ والله أعلم ـ؛ فلما ٱستقَرّ ترتيب الناس في الدواوين على قَدر النسب ٱلمتصلِ برسول الله ﷺ فَضّل بينهم في العطاء على قدر السابقة في الإسلام. وسنذكر إن شاء ٱلله في خلافة عمر رضي الله عنه ما فرضه من العطاء لكلّ طائفة على ما ستقف عليه ـ إن شاء ٱلله تعالى ـ في موضعه من فنّ ٱلتاريخ؛ وهو في السفر السابع عشر من كتابنا هذا؛ فهذا كان سببَ وضعِ ديوانِ ٱلجيش.

وأما دواوين الأموال ـ فإنها كانت بعد ظهور الإسلام بالشأم والعراق على ما كانت عليه قبل الإسلام، فكان ديوان الشأم بالروميّة لأنه كان من ممالك الروم؛ وكان ديوان ٱلعراق بالفارسيّة لأنه كان من ممالك الفُرس؛ فلم يزل أمرهما جاريًا على ذلك إلى زمن عبد الملك بن مروان، فنقل ديوان الشأم إلى العربيّة في سنة إحدى وثمانين من الهجرة؛ وكان سبب نقلِه ـ على ما حكاه المدائنيّ[(١)] ـ أن بعض كتّاب ٱلروم في ديوانه أراد ماءً لدواته، فبال في الدواة، فبلغه ذلك فأدّبه، وأمر سليمانَ بنَ سعد أن ينقل الديوانَ إلى العربيّة، فسأله أن يُعِينه بخراج الأُردنّ[(٢)] سنةً، ففعل وولّاه الأُرْدُن، وكان خراجُه مائةَ ألف وثمانين ألف دينار، فلم تنقِض السنةُ حتى فرغ من الديوان ونَقَلَه، وأَتَى به عبدَ الملك فدعى سرجونَ[(٣)] كاتبَه فعرضه عليه فغمّه وخرج كئيبًا، فلقِيَه قوم من كتّاب الروم، فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه ٱلصناعة فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوان العراق ـ فكان سبب نقلِه إلى العربيّة أنّ كاتب الحجّاج بنِ يوسف كان زاذان فَرُّوخ[(٤)]، وكان معه صالح بنُ عبد الرحمٰن يكتب بين يديه بالعربيّة والفارسيّة، فأوصله زاذان فَرُّوخ إلى الحّجاج، فخفّ على قلبِه، فقال صالحٌ لزاذان فرّوخ إنّ ٱلحّجاج قد قرّبني ولا آمن أن يقدّمني عليك؛ فقال: لا تظنَّ ذلك فهو إليّ أحوَجُ منّي إليه، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري؛ فقال له صالح: والله لو شئتُ أن أحوّل ٱلحساب إلى العربيّة لفعلت؛ فقال: فحوِّلْ منه ورقة أو سطرًا حتى أرى، ففعَل؛ ثم قُتِل زاذان فَرُّوخ في حرب عبد الرحمٰن بن الأشعث، فٱستَخْلَف ٱلحجّاج

---

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، أبو الحسن، مؤرّخ إخباري راوية للشعر توفي سنة ٢٢٥ هـ. (تقدّم ذكره).

(٢) الأردن: بضمّ الهمزة وتشديد النون: كورة واسعة، منها الغور وطبريّة وعكا وصور وما بين ذلك. . .

(٣) في الأصل «سرحون» والتصويب عن (الطبري ٢/ ٨٣٧، ط، ليدن).

(٤) في الأصل «زاذا بقروخ» والتصويب عن (مقدّمة ابن خلدون، ص ١١٩، ط، بولاق).

صالحًا مكانَه، فذَكَر له ما جرى بينه وبين زاذان فَرُّوخ فأمره أن ينقله، فأجابه إلى ذلك وأجّلَه فيه أجلًا[١] حتى نقله إلى العربيّة، فلمّا عرف مَرْدانشاه بن زاذان فَرُّوخ ذلك بذَل له مائةَ ألف درهم ليُظهِر للحجّاج العجزَ عنه، فلم يفعل؛ فقال له: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل ٱلفارسيّة.

وكان عبدُ الحميد بنُ يحيىٰ كاتبُ مروان يقول: لله دَرُّ صالح ما أعظم مِنّته[٢] على الكتّاب!

هذا ما حُكِي في ٱبتداءِ نقلِ الدواوين، فلنرجع إلى الجيش وما يحتاج إليه مباشرُه.

ذكر ما يحتاج إليه كاتب الجيش على ما استقر في زماننا هذا من المصطلح

يحتاج كاتب الجيش إلى أن يرصِّعَ[٣] أسماءَ أرباب الإقطاعات والنقودِ والمَكِيلات من الأمراء على ٱختلاف طبقتهم، والمماليك السلطانيّة، وأجنادِ الْحَلْقة[٤]، وأمراءِ التُّركمان والعربان؛ ويَضَعَ لذلك جريدة مُقفّاةً على حروف المُعجم يُثبِت فيها أسماءهم، ويذكر الاسمَ وٱبتداءَ إمرته أو جنديّته في أي سنة كانت من السنين الهلاليّة لاستقبال ما يكتب من مُغَلّ السنة الخراجيّة، وعمن ٱنتقل إليه الإقطاع؛ ويَرمُز قُبالَة كلّ ٱسم إلى عِبْرة[٥] إقطاعه رمزًا لا تصريحًا، ويشير في جنديّ الْحَلْقة إلى مقدَّمه، ويعيِّن في ٱسم التُّركمانيّ أو البدويّ ما قدّمه إلى الإصطبلات السلطانيّة والمُناخات من الخيل والجمال، وفي عربان مصر ٱلمقرَّرَ عليهم في مقابلة الإقطاعات من التَّقادِم[٦]، وإقامةِ خيل البريد في المراكز، وغيرِ ذلك من نقلِ الغلال، وما هو مقرَّرٌ عليهم في ٱبتداء أمرهم عند خروج الإقطاعات بأسمائهم، وغير ذلك على جاري العادة، فإن ٱنتقل أحدٌ منهم من إقطاع إلى غيره في ذلك العمل بعينه وَضَع تحت إقطاعه الأوّل ما صورتُه: ثم ٱنتقل إلى غيره بمقتضَى منشورٍ تاريخُه كذا عن فلان ٱلمنتقِل إلى غيره، أو

(١) الأجل: المدّة. (٢) المنة: الإحسان والانعام.
(٣) يرصّع: من الترصيع: وهو التنظيم، ورصّع العقد: نظمه وضمّ بعضه إلى بعض.
(٤) أجناد الحلقة: يريد الجند الذين يحملون السّلاح.
(٥) العبرة: الظاهر أن المراد بها ما يقدّر على الإقطاعات أخذًا من سياق الكلام، وسمّيت بذلك لأنهم كانوا يعبرون المتحصّلة من البلد أي يقومونها بدنانير حبشية.
(٦) التقادم: الهدايا، وهو جمع تقدمة.

المتوفَّى، أو المفارِقِ، أو غير ذلك؛ فإن كان على سياقته في إقطاعه الأوّل قال: على سياقته؛ وضَبَط تاريخَ الأوّل، وإن كان لاستقبال مُغَلٍّ[1] أو شيءٍ من مُغَلٍّ ميَّزه، وٱحتاج إلى محاسبة ربّ الإقطاع على إقطاعه الأوّل؛ والمحاسَباتُ غالبًا إنما تقع بعد وفاة الأمير أو الجنديّ، أو ٱنفصالِه بوجه من وجوه الانفصالات، وأما ما دام في الخدمة فهي يتلو بعضُها بعضًا؛ وصورة المحاسبة أن يُقيم تاريخَ منشوره إلى تاريخ ٱنفصاله أو نقلته، ويَعقِدَ على ذلك جملةً، ويوجبَ له عن نظير خدمته استحقاقًا، وينظر إلى ما قبضه من المغلات فيجمعها، فإن كان قبضه نظير خدمته فلا شيء له ولا عليه، وإن زاد قبضُه على مدّة خدمته ٱستعاد منه ما زاد بنسبته، وإن كانت خدمتُه أكثرَ من قبضه أَفرَج له عن نظير ما فَضَل له؛ ومن العادة في غالب الأوقات أن يُسقط من ٱستحقاق أرباب الإقطاعات في كل سنة أحد عشر يومًا وربع يوم، وهي التفاوتُ بين ٱلسنة الشمسيّة والقمريّة، ويُبرِزَ له ما بقيَ ويُعطيَه المِثل من نسبة البارز، وقد سومح بذلك في بعض الأوقات دون بعض؛ وهذه ٱلجريدة تسمّى ٱلجريدةَ ٱلجيشيّة.

ويَحتاج إلى بسطِ جريدة[2] إقطاع صورتها: أنه يرصّع الأعمال كلَّ عمل وبلاده وضياعه وكفوره[3] وقراه وجزائره وجروفه[4] وجهات الهلاليّ والجوَالِي، وغير ذلك من معالمه وحدوده والجهات المستظهر بها والبذول[5]، وسائرِ ما هو متعلّق بذلك المكان؛ ويَذكُر عِبرةَ البلد الجيشيّة، وما ٱستقرّ عليه حال متحصِّلها أخيرًا، وإن كان بالشأم ذَكَر العِبرةَ ٱلجيشيّة ومتحصِّلَ البلد لثلاث سنين: مقبلة ومتوسّطةٍ ومجدبة، ثم يشطب[6] قبالةَ كلِّ جهة أسماءَ مُقطَعِيها، وما هو باسم كلِّ واحد منهم، ليَتحرّر له بذلك هل ٱستَوعب الإقطاعُ جملةَ النواحي والجهات، ويتميّز له ما بقيَ من المحلولات؛ وإن ٱنتقل ربُّ إقطاع من إقطاع إلى غيره بادَرَ بشطبه لوقته في موضعه لئلا يدخُل عليه الوَهَمُ[7] والاختلاف.

---

(١) المغلّ: الذي يعطي غلّة كالضياع والإقطاعات.

(٢) الجريدة: هي كشوف تتضمّن تنظيم الأعمال وجداول دخلها وخرجها إلى غير ذلك من الحسابات...

(٣) الكفور: مفردها الكفر، وهي القرية الصغيرة.

(٤) الجروف: الأموال الكثيرة من النقود والمواشي.

(٥) البذول: لعلّها من بذل أي المدفوعات التي تدفع في سبيل الإصلاحات والتحصيلات.

(٦) يشطب: يظهر أن الشطب هنا بمعنى التقييد والنقل من المستندات إلى الدفاتر.

(٧) الوهم: الغلط.

ويحتاج إلى أن يتعاهد مباشري ٱلمعاملات والبرور[١] بطلب الكشوف الجيشيّة في كل ثلاث سنين ويشطبها على ما عنده لتتحرّر عنده العِبَر، ويتميَز له ما تعَيَّن من الزيادة والنقص.

ويحتاج أيضًا إلى بسط جريدةٍ ثالثةٍ بأسماء أرباب النقود والمَكِيلات خاصّة، لأنه يحتاج أن يفرِج لكلّ منهم في كلّ سنة عن نقده ومَكِيله بمقتضى ما شَهِد به منشورُه، وعادةُ قبضِه وجِهتِه، أو ممّا تعيّن بقلم الاستيفاء إن كان، فإذا أَفرج لكلّ منهم شطب[٢] تاريخَ إفراجه قُبالة ٱسمه لتنضبط له بذلك تواريخُ قبوضهم ويَأمَنَ من التّكرار والغلط؛ وهذه ٱلجريدة ٱلجيشيّة، فإنها يبسطها منها.

ويحتاج في أجناد الحَلْقة السلطانيّة إلى أن يُضيف كل جماعة منهم إلى مقدّمٍ مشهور من أعيانهم ممن هو متميّز الإقطاع، ويقيمَ عليهم نقيبًا يَعرِف مساكنَهم ومظانَّهم[٣]، فإذا طُلِبوا جَمَعهم، أو طُلِب أحدٌ منهم أحضَرَه، ويُسمَّى هذا المقدَّمُ: مقدَّمَ ٱلحَلْقة؛ ويضيف كلّ جماعة من أمراء الطَّبْلخاناه[٤] وأمراءِ العَشَرات، ومقدَّمِي ٱلحَلْقَة، ومضافِيهم إلى مقدَّم كبير من أمراء ٱلمائة، ويسمَّى هذا الأميرُ: مقدَّمَ الألف؛ ويحتاج إلى أن يضع لهاتين ٱلطائفتين[٥] جريدةَ عِدّة، يضع فيها ٱسمَ مقدَّم الألف وعِدّتَه من غير تفصيل لأسمائهم وقبالة اسمه عبرة إقطاعه، ما هو لخاصّه، وما هو لأصحابه، ثم أمراء الطبلخاناه كل أمير وعدّته، وعِبْرة إقطاعه، على ما تَقدَّم في مقدَّم الألف ويرتّبهم في التقديم والتأخير على مراتبهم؛ ثم أمراء العَشَرات كذلك؛ ثم يذكر مقدَّمِي ٱلحَلْقة فيعيِّن ٱسمَ ٱلمقدَّم ونسبتَه وأتباعِه إن كان له أتباع، وعِبْرَةَ إقطاعه، ثم يذكر مضافِيه[٦] من ٱلحَلْقة على هذا ٱلحكم، ويرتّبهم بحسب مراتبهم، يبدأ في كلّ تَقدِمةٍ بٱسم المقدَّم، ويختمُ باسم النقيب، ليسهل عليه طلبُ كلّ جنديٍّ من مقدَّمه، ويطلبه مقدَّمه مِن نقيبه؛ وإن ٱنتقل أميرٌ أو جنديٌّ من مقدَّم ألف أو مقدَّم حَلْقة وٱنضاف إلى مقدَّم آخَرَ نقَلَه لوقته لئلّا يضطربَ[٧] عليه حالهُم، ويلتبسَ أمرُهم؛ وكذلك أيضًا يَفعل في ٱلمماليك السلطانيّة من إضافة كلّ جماعة منهم إلى مقدَّم من أعيانهم، ويميِّز أربابَ

(١) البرور: لعلها من البرّ، ويريد بها الحبوب أو الغلّة.
(٢) الشطب: التقييد.
(٣) المظانّ: المصادر والمراجع التي ينشد فيها الباحث طلبته.
(٤) الطّبلخاناه: أي بيت الطب، وخاناه: لفظ فارسي معناه البيت إلّا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه على عادة العجم في ذلك.
(٥) المراد بالطائفتين: الأمراء وأخيار الحلقة. (٦) مضافيه: أي الذين أضيفوا إلى المقدّم.
(٧) يضطرب: يختل، أو يختلف.

الوظائف منهم: من السلاحداريّة[١] والحَرْبداريّة والرُّمحداريّة والجُمَقْدَاريّة[٢] والزَّرَدَكاشيّة[٣] والبُنْدقداريّة[٤] ومن السُّقاة[٥] والجَمَداريّة[٦] والخِزَنداريّة[٧] والحُرّاس والبَشْمَقداريّة[٨] وغيرِهم؛ ويضيف كلَّ جماعة من كلّ طائفة منهم إلى متعيِّن من جملتهم، ويجمع عِدّة كلِّ طائفة ويقدِّم عليهم أمثلَهم؛ وأمّا المماليك الكتابيّة[٩] أربابُ الجامكيّات[١٠] فيَنسِبُ كلَّ جماعة منهم إلى طبقةٍ مُقدَّمُها من الطواشيّة، ويَنسِب المماليكَ البُرْجيّةَ[١١] إلى مساكنهم ومقدَّمِهم، والبحريَّةَ[١٢] إلى مراكزهم ومقدَّمِهم، والأوشاقيّةَ الّذين إقامتُهم بالإسطبل إلى المقدَّم عليهم من الطواشيّة[١٣]، ويرجِع سائرَ المماليك السلطانيّة إلى مقدَّمهم الكبير، ولا يكون في الغالب إلّا من الطواشيّة الأمراء.

ويحتاج أيضًا إلى أوراقٍ أخر تتضمّن أسماءَ أمراء الميمنة وأمراء الميسرة، والجالس - وهو المقدَّم - أمامَ قلبِ الجيش، وهذه الأوراق تكون جُمليّة يُستغنَى فيها بذكر مقدَّمِي الألوف دون مضافِيهم.

ويتلو هذه الأوراقَ أوراقٌ أخرُ - تتضمّن أسماءَ الأمراء الذين جرت عادتهم بصحبة ركاب السلطان في الصَّيد والركوبِ للمُتنزَّهات وفي الميادين للّعب بالكرة، وفي غير ذلك؛ هذا ما يحتاج إليه في الأمراء والمماليك السلطانيّةِ ورجالِ الحَلْقة.

---

(١) السلاحدارية: أي ممسك السلاح، ودار لفظة فارسية معناها: ممسك.

(٢) الجمقدارية: نسبة إلى الجمقدار، وهو الذي يكون دائمًا حامل الدبوس.

(٣) الزدكاشية: هم لابسو الدروع، وكش باللغة الفارسية معناه لابس.

(٤) البندق: الذي يرمى به، والبندقارية هم الذين يحملون هذا البندق خلف السلطان أو الأمير.

(٥) السقاة: جمع ساق، وهو لقب على الذي يتولى مدّ السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب بعد رفع السماط ونحو ذلك.

(٦) الجمدار: الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وجاما لفظة فارسية معناها الثوب، ودار معناها ممسك كما أسلفنا.

(٧) الخزندار: لقب على الذي يتحدث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرها.

(٨) البشمقدار: الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير، والبشمق معناها باللغة التركية النعل.

(٩) الكتابية: أي الذين يشتغلون بالكتابة. (١٠) الجامكيات: الرواتب والأجور.

(١١) سميت هذه الطائفة بهذا الاسم نسبة إلى الأبراج التي كانوا يسكنونها في القلعة، ومنهم كانت دولة المماليك الثانية التي حكمت الديار المصرية.

(١٢) البحرية: هم طائفة المماليك البحرية يبيتون بالقلعة حول دهاليز السلطان كالحرس وأوّل من رتبهم وسمّاهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. (انظر صبح الأعشى ٤/ ١٦).

(١٣) الطواشيّة: هم الأستاذون المعروفون بالخدام، وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة، ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة. (صبح الأعشى ٣/ ٥٥١).

وأما أجناد الأمراء فإنّ مباشرَ ٱلجيش يَسترفِع من دواوينهم أوراقًا بعِدّة أجناد كلّ أمير منهم، يُصْدِرُها كاتبُ عِدّة الأمير على عِدّة نُسخ بحسب المباشِرين للجيش، ويقول في صدرها ما مثاله: عَرضٌ رَفَعَه ٱلمملوكُ فلان الفلانيُّ على ما ٱستقرّ عليه ٱلحال إلى آخر كذا، والعِدّةِ خاصّته، وكذا كذا طواشيّا؛ ويشرح أسماء ٱلجند، وما أُقطِع بٱسم كلّ منهم من إقطاع ونقد ومكيل، مبتدئًا برأس المدرّج ومن يليه في ٱلجند، ثم مماليكِ الأمير وألزامِه، ويختمهم بالنقيب، ثم يعيِّن في آخر المدرّج ما بقي لخاصّ الأمير من النواحي والجهات، وما عليه منه لأصحابه من نقد ومكيل إن كان؛ ويَلزَمه عملُ مَسِير على نواحي الإقاع يَشطُب[1] كلَّ جهة بأسماء من أقطِعتْ لهم، وما بَقِيَ منها للخاصّ إن كان؛ فإن كان منشور الأمير قد عُيِّن فيه ما هو لخاصّه وما هو لأصحابه فليس له أن يَقتطِع من المعيَّن لجنده ما يضيفه لخاصّه، ولا يُمنَع أن يقطع من خاصّه زيادةً لأصحابه؛ وهذه القاعدة لاحقة بقواعد الفقه، فإنّ له التصرّفَ في ماله دون مال غيره، وله أن يميِّز بعضهم على بعض بحسب أحوالهم ومراتبهم؛ فإذا رُفِعتْ إليه هذه الأوراقُ عَرَضَ جندَ كلّ أمير في مجلس وليّ الأمر بمشهد من الأمراء وغيرِهم، فمن أجاز وليُّ الأمر عَرْضَه حَلَّاه[2] قُبالَة ٱسمه، ويعيِّن في حُلاه سِنَّه ولونَه وقامتَه، ثم يذكُر حِلية وجهه، ويصف ما يتميّز به عن غيره من أثرٍ في وجهه أو غيرِ ذلك؛ ومَن ردَّه وليُّ الأمر من العَرْض طولب الأمير بإقامة غيره، فإذا أقامه وعَرَضَه وأجاز وليّ الأمر عَرضَه حَلّاه عند ذلك، وعيَّن تاريخ عَرْضِه إن كان عَرَضَه بعد يوم العَرْض الشامل؛ ويَرْقُم المباشر بقلمه على رأس أوراق العَرْض تاريخَ عَرْض ٱلجند؛ وتَستحِقّ هؤلاء ٱلجندُ الإقطاعاتِ والنقودَ والهلاليَّ من تاريخ عرضِهم وتدوينِهم في الديوان، والأمير من تاريخ منشوره؛ فإن مات جنديٌّ منهم أو فارق الخدمة أقام الأميرُ عوضَه، وعَرَضَه على وليّ الأمر، وأثبت ٱسمه بالديوان؛ وإن قطعه[3] الأمير فلا يخلو قطعُه: إمّا أن يكون لسبب كالعجز ونحوه فله ذلك، وإما أن يكون بغير سبب فلا يخلو: إما أن يكون قَطْعُه له في قرب زمن إدراك المُغَلّ فلوليّ الأمر منعُه من ذلك، أو في غير وقت المُغَلّ، فإن عَرَضَ من هو أكْفَىٰ منه وأقدرُ على ٱلجنديّة أُجيزَ، وإن عَرَض من هو دونه مُنِع أميرُه من ذلك، وأُزِم بٱستمرار الكافي أو إقامة من يماثله في الكفاية والقدرة؛ وإذا عرض الأمير أصحابه في السنة الثانية جَدَّد كاتبُه أوراقًا بالعرض نظير

(١) يشطب: أي يقيّد.

(٢) حلّاه: أي وصفه، والحلية الهيئة والصّفة.

(٣) قطعه الأمير: أي ملّكه أرضًا.

الأولى، وشطب كاتبُ الجيش حُلَى ٱلجند من ٱلعَرْض الأوّل، ثم يقابلها بالصورة الجديدة في وقت العَرْض الثاني، فإن وافقتْ وطابقتْ أجازه، وإن ٱختلفت ٱلحُلَى وتباينت ردَّه وطالع ولي الأمر به ليقع الإنكارُ على من تجاسر على فعل ذلك لما فيه من التلبيس[1]؛ فهذه هي القواعد التي ٱستقرّت في زماننا والله أعلم.

ويحتاج الكاتب إلى تحرير شواهده وحفظِها، فإن كان بين يدي السلطان ورَسَم له بإقطاع أمير أو جنديٍّ كتب مثالًا بالإقطاع، وكَتب السلطانُ أو نائبُه بقلمه أعلى المثال ما مثالُه: يُكتَب؛ وعَيَّن ناظرُ ٱلجيش بقلمه تحت خطّ السلطان أو نائبِه ما مثالُه: رُسم أن يُكتَب بٱسم فلان لاستقبال مُغَلِّ سنةِ كذا، ولاستقبال كذا من مُغَلِّ سنةِ كذا؛ وخَلَّد[2] الكاتب هذا الشاهدَ عنده، وكتب مثالًا ثانيًا مربَّعًا بما مثالُه؛ رُسِم بالأمر الشريف العالي المولويِّ السلطانيِّ المَلكيِّ الفلانيِّ ـ ويدعو للسلطان ـ أن يُقطَع ويقرَّر بٱسم فلان الفلانيّ ـ ويَنعتَه بما يستحقّ ـ ما رُسِم له به الآن من الإقطاعِ والنقدِ والمَكيلِ إن كان فيه نقدٌ أو مَكيلٌ في السنة، خارجًا عن الجَوالِي[3] والمواريثِ الحَشْريّة[4] والرِّزَقِ[5] الإحباسيَّة[6]، إن كان الإقطاع بالديار المصريّة؛ وإن كان بالشام قال: خارجًا عن ٱلمِلْك والوقف، ثم يقول: خُبْز فلان الفلانيّ، إن كان عن أحد؛ وإن كان من ٱلخاصّ أو مستجَدًّا أو مستظهَرًا به عَيَّنَه، ويَذكُر خاصّتَه وعِدّتَه وأتباعَه، أو بمفرده، ثم يعيِّن جهاتِ إقطاعه، ويُثبِت هذا المثال الثانيَ في الديوان، وتَشمَله علامةُ السلطان ونائبِه، ثم يُخلَّد بديوان الإنشاء، وهو شاهِدُ الموقِّع، ويُكتَب منشورُه بمقتضى ذلك ٱلمثال، وتَشمَله علامةُ السلطان وخطُّ نائبه ووزيره بالامتثال، ويُثبَت بديوان ٱلجيش ثُم بالدواوين؛ وإن كان الكاتب في جهة خارجة عن باب الملك من الممالك الشاميّة وأَمَره النائب بإقطاع أحد كتب مثالًا بالإقطاع، وكتب النائبُ بأعلاه: يُكتَب، ثم يَكتَب، ثم يَكتُب عليه الناظر نحوَ ما تقدّم، وهو شاهِدُ الكاتب، ثم يكتب المثال الثاني في ورقة مربَّعة بما مثالُه: رُسِم بالأمر الشريف العالي المولويّ السلطانيّ

(١) التلبيس: الاشتباه والاختلاط. (٢) خلّد: أبقى.
(٣) الجوالي: جمع جالية وهي الجزية التي تؤخذ من أهل الذّمّة.
(٤) المواريث الحشرية: هي مال من يموت وليس له من وارث خاص بقرابة أو غيرها، أو الباقي بعض الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا غاصب له.
(٥) الرّزق: جمع رزقة بكسر الرّاء: وهي الجراية، يقال: كم رزقتك في الشهر: أي جرايتك.
(٦) الإحباسية: من الإحباس وهو مصدر أحبست المال: إذا وقفته.

المَلكيّ الفلانيّ أن يُقطَعَ ويُقرَّرَ بٱسم فلان ما رُسِم له به الآن من الاقطاع، ويُعيِّن خُبْز من كان وسببَ حَلِّه عنه، إما بوفاة، أو بمفارقة، أو بٱنتقال إلى غيره، أو غَيره ذلك من الأسباب الموجبة لإخراج الإقطاع عنه، ويَكتُب نائب السلطنة عليه بالتَّرجمة، ويترجِم عليه الناظر بقلمه تحت خطّ النائب بما مثالُه: المملوك فلان يقبِّل الأرض ويُنهِي أن هذا مثالٌ كريمٌ بٱسم فلان ٱلمرسوم إثباته في جملة الأمراء والمماليكِ السلطانيّة، أو البحريّة، أو رجالِ ٱلْحَلْقة ٱلمنصورة، أو رجالِ التُّركمانِ، أو العربان، أو الجبليّة بالمملكة الفلانيّة، أو بالجهة الفلانيّة بما رُسِم له به الآن من الإقطاع عن فلان، والعِدّة خاصّته، وكذا كذا طواشيًّا، أو بحسب ما يكون لاستقبال ما عُيِّن فيه على ما شُرِح باطِنَه، والأمرُ في ذلك معذوق[١] بإمضائه أو بما يؤمَر به من الأبواب. ثم يُثبَت بديوان ٱلجيش، ويُجهَّز إلى باب السلطان، فإذا وصل إلى الباب كَتب عليه الناظر ومن معه من الرِّفاق بالمقابَلة، وقوبل به، ثم تَشمَله علامةُ السلطان أو نائبِه بالكتابة، ويخلِّده كاتب الجيش بالباب عنده، ويكتب مثالًا من جهته على ما تقدم، فإذا خرج المنشور الشريف ووصل إلى تلك المملكة شَمل خطَّ نائبها بالامتثال، وكتب عليه ناظر ٱلجيش ورُفقتُه بالثبوت تحت خط ناظر ٱلجيش بالباب ورِفاقِه، ثم يُثبَت بالدواوين، ويفرج لربِّ الإقطاع على حُكمه، ويُثبَت إفراجُه، ويُسلَّم إليه إقطاعُه؛ فهذه شواهد المناشير والأمثلة.

وأما غيرها من شواهد الكشوف فعلى حسب الوقائع؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ويحتاج إلى ضبط أسماء من تَوجُّه بدُستور[٢] إلى جهة من ٱلجهات، ويراعِي ٱنقضاءَ مدّة الدُّستور، ثم يكشِف عنه، ويطالِب مقدَّمَه به، وكذلك من تَوجَّه إلى ٱلحجاز وغيره، وكذلك من تَخلَّف عن العَوْد مع ٱلجيش المجرَّد في ٱلمهمّات، فيراعِي ذلك حَسَب الطاقة والإمكان، وإن تعذّرت عليه معرفة من تأخَّر بعينه يَستعلِم أخبارهم مجملَة من مقدَّمِيهم ونقبائهم.

ويحتاج إلى أنه مهما ٱنحلّ من الإقطاعات، أو تَعَيَّنَ مِن تَفاوُت المُدَد عَمّن دَرج[٣] وفارق[٤] وانتقل[٥]، أو ما تَعيَّنَ في خلال المُدَد بين منفصل ومتّصل يحرِّر

(١) المعذوق: أي المنوط والمرتبط كما يناط العذق وهو القنو بالنخلة.
(٢) الدستور: المراد به الإذن، وإطلاقه على هذا المعنى إطلاقًا عاميّ.
(٣) درج: أي مات.
(٤) المراد بالمفارقة، مفارقة الخدمة.
(٥) أي الانتقال من إقطاع إلى إقطاع آخر.

ذلك، ويَكتُب به حَوطةً[١] جيشيّة يضمنها ٱسمَ ربّ الإقطاع ٱلمتّصل ونواحيَ إقطاعِه ونقدَه ومَكِيلَه إن كان، ويعيِّن ٱستقبالَ ٱلحَوْطة، ويميِّز ما ٱستحقّه الديوان من المُغَلّ، وتُصدَر إلى ديوان التصرّف بعد شمولها بالعلامة وثبوتها، ويطالِب المستوفِيَ[٢] بكتابة رُجْعة بوصول ذلك إليه ليَبْرأ من عُهدته، ويُلزِمَ المثبِتون التعريفَ بذلك وإضافةَ ما يَتحصّل منه، فإن أخّر كاتب الجيش إصدارَ ٱلحَوطات إلى ديوان التصرّف حتى يفوت الزمن الذي يمكن فيه تحصيلُ ما فيها، كان تحت دَرَكه[٣] وتَبِعتِه؛ والله أعلم.

ويحتاج مباشر ٱلجيش إلى مراجعة جرائده: الجيشيّةِ والإقطاعيّةِ وأوراقِ العِدّة في كل وقت من غير ٱحتياج إلى كشف، لتكون على خاطره أسماءُ ٱلجند ونواحي إقطاعهم، فإنه بصدد أن يُسأَل عن شيء من ذلك بين يدَيْ مَلِك أو نائب، فإن أَخّرَ ٱلجواب بالجملة إلى أن يَكشف عنه ربّما يُنسَب إلى عجز فيتعيّن أن يكون على خاطره من جلّيات الأحوال ما يجيب به في المجلس على الفور، ولا يَتأتّى له ذلك إلا بمراجعة حسابه ومداومة النظر فيه، والناظرُ إلى ذلك أحوجُ من غيره من ٱلمباشرين، لأنه ٱلمسؤول والمخاطَب في غالب الأوقات؛ والله أعلم بالصواب.

ويحتاج أيضًا إلى معرفة ٱلحِلَى[٤] وٱختلافِها على ما نذكره في فصل الوراقة[٥]، ولا بدّ له من معرفة الأوضاع التي ٱصطلح عليها كُتّاب ٱلجيوش في كتابة الحِلَى من الاختصار؛ فهذه أمورٌ كليّةٌ لا بدّ لمباشر ٱلجيش من معرفتها وإتقانها.

ويتجنّب مباشر ٱلجيش أن يرقُم بقلمه عِدّةَ جيش تصريحًا، لما يتعيّن من إخفاءِ عِدّتِه وذِكرِ تكثيره، فإنه إن وَضع ذلك بقلمه لا يأمن من الاطّلاع عليه فيَشِيع ويَذِيع، وقد يتّصل بالعدوّ والمعانِد والمُناوِىء[٦] فيترتّب عليه من الفساد ما يترتّب وهذا بابٌ

---

(١) الحوطة: اسم من الاحتياط، وهو الأخذ بالحزم والثقة، والحوط: الحفظ؛ ويظهر أن المراد هنا ما يسميه كتاب الدواوين في زماننا بالحافظة.

(٢) المستوفي: هو الذي يضبط الديوان، وينبه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك.

(٣) الدرك بالتحريك أي التبعة.

(٤) الحلى: جمع حلية، وهي الصفة أو الهيئة.

(٥) الوراقة: حرفة من يورق ويكتب؛ وقد يراد هنا القواعد التي اصطلح عليها الكتاب فيما يكتبونه من الأوراق.

(٦) المناوىء: المعادي.

يجب على كاتب الجيش الاحتفال به[١]، والاحترازُ من الوقوع فيه، وكتمانُه عن سائر الناس؛ وإن دعته الضرورة إلى تسطير ذلك خشيةَ[٢] أن يسأله وليُّ الأمر عن شيء منه، فليكن وضعه لذلك رمزًا خفيًّا يصطلح عليه مع نفسه لا يعرفه إلا هو، أو من له دُرْبةٌ[٣] بمباشَرة ٱلجيش.

ويتجنّب أن يكشف عِبْرَةَ[٤] إقطاع أو متحصِّلَه، أو يذكرَ ذلك لأحد إلا بمرسوم وليّ الأمر، ثم يذكره باللفظ دون ٱلخط، ووجوهُ الاحتراز كثيرة، وهي بحَسَب الوقائع، فيتعيّن على مباشر ٱلجيش ملاحظةُ ذلك والاحترازُ من الوقوع فيما يُنتَقد عليه، أو يصلُ سببُ ضررٍ منه إليه.

هذا ما أمكن إيراده مما يحتاج مباشر ٱلجيش إلى ٱعتماده؛ والله أعلم.

وأما مباشرة الخزانة ـ فالعُمدة فيها على العدالة والأمانة، لأن خزائن الملوك في هذا العصر لسَعتها، وكثرةِ حواصلها، وعظمِ ذخائرها لا تنضبط بسِياقة[٥]، فإنه لو طولب كاتبُ ٱلخِزانة بعمل سِياقة لحواصلها عن سنةٍ ٱحتاج إلى أن ينتصب لكتابتها سنةً كاملةً لا يشتغل فيها بغيرها، فإذا تحرّرت سِياقة السنة في آخر السنة الثانية وكشفها مباشر الأصل وحرّرها في مدّة أخرى من السنة الثالثة فاتت المصلحة المستقبَلة، وتَعطّل على المباشر ما بعد تلك السنة، لاشتغاله بنظر تلك السِّياقة، فإذا تقرَّرَ عجزُ الكاتب عن عمل السِّياقة بهذه المقدِّمة فقد تعيَّن أنّ العمدة في مباشرتها على الأمانة والعدالة؛ ومع ذلك فيحتاج كاتبها إلى أمور:

منها ضبطُ ما يصل إليه من حمول الأموال والأصناف، ويقابِل ما يصل منها على رسائِله، ويحرّره بالوزن والذَّرع والعَدَد والأحمال على ٱختلاف أجناسه وأنواعه وأوصافه، ويميِّزُ ما يصل إليه من الأقاليم والثغور والأعمال والممالك، وما يصل من ٱلهدايا والتَّقادِم[٦] على اختلافها، فيضيف كلَّ نوع إلى نوعه، وصنفٍ إلى صنفه؛ وكذلك يحرِّر ما يبتاعه من الأصناف التي تدعو الضرورة إليها وجرت العادة بٱبتياعها.

---

(١) الاحتفال به: أي الاهتمام.
(٢) الخشية: الخوف.
(٣) الدّربة: الخبرة والعادة.
(٤) العبرة: يراد بها ما يقدّر من الاقطاعات.
(٥) السّياقة: تسجيل المعلومات بالترتيب والتتابع.
(٦) التقادم: جمع تقدمة وهي الهدية.

ومنها معرفة عوائد[١] أرباب الصِّلات والإنعام، ومصاريفِ أرباب المناصب عند ولاياتهم، وما جرت عليه عوائدهم[٢] من الإنعام[٣] في خلال مباشراتهم بالأسباب الموجِبة لذلك وغيرِ الأسباب، وعوائد أرباب التَّقادِم والصنّاع وغيرِهم.

ومنها ضبطُ ما يصل إلى ٱلخِزانة من تَقادِم ٱلملوك والنوّاب، ويقابل ما يصل منها في الوقت الحاضر على ما تَقدَّم، ويحرِّر زيادتَه من نقصِه، ويكون ذلك على خاطره، فإن سأله وليُّ الأمر عنه أجابه، وإلّا فلا يبدؤه؛ ويَضبِط عاداتِ مُهاداةِ الملوك وما جُهِّز إلى كلٍّ منهم في السنين الخالية[٤]، وما كان قد وصل من هداياهم، وما جرت عليه عاداتُ رسلِهم وقُصّادِهم من التشاريف[٥] والإنعام.

ومنها ضبطُ ما جرت به العادة من كُسا أرباب العوائد[٦] المقرَّرة في كلٍّ سنة على ٱختلاف طبقاتهم من أرباب الرتب والمناصب والمماليك السلطانيّة وغيرِهم، وتواريخِ صرف الكسوة إليهم.

ومنها تجهيزُ ما جرت ٱلعادة بأن يُجهَّز في خزائن الصحبة عند ٱستقلال ركاب السلطان من مَقرّ مُلكه، إما إلى الصيد والنزهة، وإما لكشف ممالكه عند ٱنتقاله من مملكة إلى أخرى، أو في حروبه عند ملاقاة الأعداء، فيجهِّزُ ما جرت به العادة في ذلك، ولا يزيد عليه إلا بمرسوم وليّ الأمر، ولا يَستكثر من ٱستصحاب صنف من الأصناف عند تَوجُّهه إلى مَعدِن ذلك الصنف ومَظِنّته، ولا إلى الخِزانة منه بحَمْلِه[٧]، بل يستصحِب منه ما يكون معه ذخيرة واحتياطًا، إذ لو طلب المَلِكُ ذلك الصنفَ في مَسِيره قَبْل وصوله إلى معدن ذلك الصنف كان معه منه ما يَسُدّ به الضرورة، ولا يَعتذِر بأنه ما ٱستصحبه معه بحُكم تَوجُّهه إلى مَعدِنه، وأنه فعل ذلك للمصلحة الظاهرة، فإن ٱلملوك لا تحتمل مثل ذلك، ولا تصبر على أن يُفقَد من ذخائرها ما تطلبه؛ ويَستكثِر من ٱستصحاب الصنف المعدوم في ذلك الوجه الذي يتوجّه إليه، ويحمل منه ما يعلم أنه يكفيه في مَسِيره وعَودِه؛ والله أعلم.

---

(١) العوائد: المراد بها الصلات مفردها عائدة. (٢) العوائد: مفردها «العادة».
(٣) الإنعام: العطية والهبة. (٤) السنين الخالية: الماضية.
(٥) التشاريف: التكريم، يقال تشرّف بكذا إذا عدّه شرفًا.
(٦) العوائد: الصلات.
(٧) أي أنه لا يستكثر من حمل ذلك الصنف إلى الخزانة بل يحمل منه إليها ما تدعو الحاجة إلى حمله.

ومنها ضبطُ ما يتسلّمه الصُّنّاع من مُزركش وخيّاط وفرّاء ونَجّاد[١] وسَرّاج وخَرْدَفُوشِي[٢] وغيرهم بالوزن والذَّرع والعَدد، ويُحرِزه عند ٱستعادته من صانعه.

ومنها تحريرُ ما يصل إليه من الأقمشة من دار الأعمال وما جرت به العادة أن يُحمَل منها في كلّ مُدّة ليطالِبَ به إن تأخّر عن وقته؛ وإن قلّ صنف من الأصناف عنده يبادِر بمطالَعة وزير ٱلمملكة أو مدبِّرِها بذلك ليَخلُصَ من عُهدته، وعلى وزير المملكة ومدبِّرِها طلبُ ذلك الصنف من مظانّه وحَملُه إلى الخِزانة.

وأما ملبوس الملكِ المختصُّ بنفسه وعادتُه في التفصيل والحبس[٣] والطُّولِ والسَّعة فهو أمر متعلّق برأس نَوبة ٱلجَمَداريّة[٤]، وهو المقدَّمُ عليهم، فعليه أن يَحضُر إلى الخزانة ويختار من الأقمشة ما يعلم أنه ملائم لخاطر السلطان وموافقٌ لغرضه، فيفصِّل منه ما يراه على ما يراه من أنواع التفصيل، وعلى معلِّم الخيّاطين الدَّرَكُ في طوله وسعتِهِ وهِندامِه؛ ولا يَستغنِي ٱلمباشرُ عن معرفة ذلك، ولا يستغني أيضًا عن معرفة قِيمَ الأشياء على اختلافها وعادةِ التفصيل والتَّرفِئةِ[٥] والجَنْدرةِ[٦] والحَشْوِ ليشارِكَ ربَّ كل صنعة في صناعته بنظره ولسانه، ولا يكون في ذلك مقلِّدًا جملة، بل يشاركهم فيما هم فيه، وعليهم الدَّرَكُ دونه فيما لعلّه يعرض في ذلك من خللٍ إن وقع، لأن هذه الصناعاتِ زائدةٌ على وظيفته ولازمةٌ لأولئك؛ فأيُّما رجل ٱجتمعت فيه هذه الأوصافُ تَعيَّن على وليّ الأمر ندبُه لمباشرة ٱلخِزانة؛ وقرَّر له كفايتَه، وألزمه إن ٱمتنع.

وأما مباشر بيت المال ـ فعُمدتُه على ضبط ما يدخُل إليه وما يخرُج منه، ويحتاج في ضبط ما يصل إليه من الأموال إلى أن يُقيم لكلِّ عمل من الأعمال وجهةٍ من الجهات أوراقًا مترجمَةً بٱسم العمل أو ٱلجهة، ووجوهِ أموالها، فإذا وصل إليه المال وضع الرسالةَ الواصلةَ قريبةً من ذلك العمل[٧]، ثم شطَبها[٨] بما يصحّ عنده من

(١) النجّاد: بتشديد الجيم وهو من يعالج الفرش والوسائد ويخيطها.
(٢) الخردفوشي: كلمة يقولها أهل الحرمين لصانعي السّروج ونحوها.
(٣) الحبس: لعلّه يريد الضيّق من الثياب.
(٤) الجمداريّة: مفردها الجمدار: وهو الذي يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه.
(٥) الترفئة: مصدر رفأ الثياب: أي أصلح خروقها.
(٦) الجندرة: من جندرت الثوب إذا أعدت وشيه بعد ذهابه.
(٧) أي من أوراق ذلك العمل.
(٨) الشطبّ: بمعنى النقل من المستندات إلى الدفاتر.

ٱلواصل إليه، وذلك بعد وضعِه في تعليق المياوَمة، فإن صحّ الواصلُ صحبةَ الرسالة كَتَب لمباشر ذلك العمل رُجْعةً بصحّته، وإن نقص ضَمَّن رُجْعتَه: من جملة كذا؛ وٱستثنى بالعجز والردّ، وبرز بما صحّ، وأعاد الردّ على مباشر ذلك العمل وأثبَت في بيت المال ما صحّ فيه، فإن كان العجز عن ٱختلاف الصِّنَج[1] عَيَّنه في رُجْعته ولا شيء على مباشر العمل، وإن كان مع ٱتفاقها فلا يعتدّ لمباشر العمل أو ٱلجهة إلا بما صحّ في بيت المال.

ويحتاج كاتب بيت المال إذا عمل جامعةً لسنةٍ إلى أن يضمّ كلَّ مال وصل إليه إلى ما هو مِثلُه، من الخراج والجَوالِي والأخماس وغيرِ ذلك بحَسَب ما يصل إليه، ويفصِّل جملةَ كلّ مالٍ بنواحيه التي وصل منها، ويَستشهِد فيه برسائل ٱلحمول، ويضيف إلى جملة ما ٱنعقد عليه صدرُ ٱلجامعة من الأموال ما ٱنساق عنده من الحاصل إلى آخر السنة التي قبلها، ويُفذلِك[2] بعد ذلِك ويعرف ما لعلّه صرَفَه من نقدٍ بنقدٍ في تواريخه، ويستقرّ بالجملة بعد ذلك؛ ثم يشرع في الخصم[3]، فيبدأ منه بما حمله إلى المقام على يد من حمل على يده وتَسلُّمه، من الخزَنْداريّة[4] والجَمَداريّة[5] وغيرهِم إن كان، ثم يذكر ما نقله إلى الخِزانة ويستشهد فيه برُجْعاته، وما نقله إلى ٱلحوائج خاناه والبيوتِ والعمائر وغيرِها بمقتضَى ٱستدعاءاتِ هذه الجهات ووُصولاتِ مباشرِيها، وفي أرباب الجامكيّات[6] والرواتبِ والصِّلاتِ بمقتضَى الاستئمارات والتواقيع السلطانيّة؛ فإذا تكامل الحَملُ والمصروفُ عقد عليهما جملةً وساق ما بقيَ إلى ٱلحاصل؛ والله أعلم.

وطريقُ مباشر بيت المال في ضبط المصروف أن يبسط جَريدةً على ما يصل إليه من الاستدعاءات والوُصولات من الجهات، وأسماءِ أرباب الاستحقاقات والجامِكيّات والرواتب والصِّلات، وما هو مقرَّر لكلّ منهم في كلّ شهر بمقتضَى تواقيعهم أو ما شَهِدتْ به الاستئمارات القديمةُ المخلَّدة في بيت المال، ويشطب

---

(١) الصّنج: جمع صنجة، وهو ما يوزن به «المصباح مادة صنج».

(٢) الفذلكة: خلاصة ما فصّل أولاً من حساب وغيره.

(٣) الخصم: الحطيطة وهي ما يحطّ من جملة الحساب فينقص منه.

(٤) الخزندارية: مفردها الخزندار: وهو لقبٌ على الذي يتحدّث على خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما، وهو مركّب من لفظين «خزانة» عربي و «دار» فارسي بمعنى ممسك. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٥).

(٥) الجمدارية: مفردها الجمدار وهو الذي يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير.

(٦) الجامكيات: الرواتب والأجور.

قُبالةَ كل ٱسم ما صرفه له على مقتضى عادته إما نقدًا من بيت ٱلمال، أو حَوالة تُفرَّع على جهة تكون مقرَّرة له في توقيعه، ويوصل إلى تلك الجهة ما فرّعه عليها، وكذلك إذا أحال ربُّ ٱستحقاق غيرِ ثمن مَبيع أو غيرِه على جهةٍ عادتُها تَحمِل إلى بيت المال سَوَّغ ذلك المال في بيت المال، وأوصله إلى تلك ٱلجهة، والتسويغُ[١] في بيت المال هو نظير المجرى؛ وإذا وصل إليه ٱستدعاءٌ من جهة من الجهات أو وُصولٌ وَضَعه في جريدته، وخصمه بما يُقبضه لربّه، ويُشهِد عليه بما يقبضه، ويُورد جميعَ ذلك في تعليق المياوَمة.

وأما مباشر أهراء[٢] الغلال ـ فمبنيٌّ أمرُه أيضًا على ضبط ما يصل إليه، وما يُصرَف من حاصله؛ ويحتاج في مبدأ مباشرته إلى تحرير ما ٱنساق من حواصل الغلال بأصنافها، وإن أمكنه تمييزُ ذلك بيّنه، ويكون أتقَن لعمله؛ ثم يبسط جريدة يرصِّع[٣] فيها أسماء نواحي ٱلخاصِّ السلطانيّ التي تصل الغلال منها إلى الأهراء فإذا جاءته رسالة من جهة من تلك الجهات وضعها تحت ٱسم الجهة وعَبَر[٤] ما وَصل قرينَها، فإن صحّ صحّتَها كتب لتلك الجهة رُجْعةً بالصحّة، وإن نقص فلا يخلو: إما أن يكون المَركَب أو الظهر[٥] الذي حَمل ذلك الصنف قد سُفِّر[٦] من ديوان الأصل، أو سَفَّره مباشر العمل مِن جهته، فإن كان قد سُفّر من ديوان التسفيرات طالب مباشرُ الأهراء مقدَّمَ رجال المَركَب والأمينِ المسفَّرَ عليه بالعجز، وألزمهما بحمَله، فإن كان قد سُفِّر من الأعمال كان دَرَكُ ذلك على مَن سفّره، ومباشرُ الأهراء بالخيار بين أن يطالِب محضِرَ الغلّة بالعجز، أو يرجعَ على مباشِر العمل به، ويكون مباشرُ العمل هو ٱلمطالبَ لمَن سفَّرَه، والأولى طلبُ محضِرِ الغلّة، فإنه إذا أطلقه ورجع إلى المباشر الذي سفّره فقد يعود إلى العمل وقد لا يعود، فإن لم يَعُد كان مباشرُ الأهراء قد أَضَرّ بمباشر العمل، لأنه ألزمه الغُرْم[٧] مع قدرته وتمكُنِه من ٱسترجاعه ممن عدا عليه، ويكون هو أيضًا ممن شارك في التفريط؛ وإن وصلتْ إليه الغلّة متغيّرةً تغيّرًا ظهر له منها أنها خُلِطت بغيرها، إما بوصول عينِ تلك الغلّة إليه، أو بقرينة الحال التي يعلم

(١) التسويغ: التجويز، يقال: سوّغه له: أي جوّزه، والمراد به هنا الإذن في تناول الاستحقاق من جهة معينة تيسيرًا وتسهيلًا على الأخذ.

(٢) الأهراء: بيت كبير تجمع فيه الغلال التي للسلطان.

(٣) يرصّع: ينظّم ويضمّ الأشياء بعضها إلى بعض.

(٤) عبَر: يقال عبرت الشيء إذا نظرت كم هو كيلًا أو وزنًا.

(٥) الظهر: يريد الدّابة التي تحمل الأثقال. (٦) سُفِّر: أي كتب.

(٧) الغرم: ما ينوب الإنسان من ضرر في ماله بغير جناية منه أو خيانة.

منها أن تلك الغلة لا يوجد مثلُها من فلّاح، ولا يُعتدّ بها من خراج السلطنة لظهور غَلَثها[١]، أو وصلت إليه الغلّة مبلولةً بللًا ظاهرًا لتزيد عند الكيل وتتميَّز[٢] نظيرَ ما أُخِذ منها، فله أن يعمل لذلك معدّلًا، وهو أن يَكِيل منها جزءًا معلومًا ويغربله حتى يصير مِثلَ العين التي عنده، أو بتجفيف ذلك حتى يعود إلى حالته الأولى، ويحرِّر العجزَ على هذا الحكم، ويطالِب به مُحضِرَ الغلّة؛ وينبغي له أن يبدأ بصرف ما وصل إليه من الغلالة المبلولة ولا يخلطها بغيرها، فإنها بعد بللها لا تحمل طولَ البقاء؛ هذا ما يعتمده في القبض.

وأما في المصروف، فإن كان لِصاحب جراية[٣] أو صِلةٍ أو إنعام أو تَقا[٤] لفلّاح صرف ذلك من عرض حاصلِه، ويراعِي في صرف التَّقاوي أن تكون مَن أَطيَب الغلال وأَفضَلِها، لأنه يجني ثمرة ذلك عند ٱستيفاء الخراج؛ وإن كان ما يصرفه مما ينقله إلى الطواحين برسم المَخابز، أو للإسطبلات والمُناخات برسم العليق غربَلَه[٥]، وحرَّر نقْصَه، وأورده في جامعته من الفَذْلَكة[٦] وٱستقرارِ الجملة؛ ومباشرةُ الأهراء مناسِبةٌ في أوضاعها لمباشَرة بيت المال.

ذكر مباشرة البيوت السلطانية

وهي الحوائج خاناه[٧]، والشراب خاناه، والطشت خاناه، والفِراش خاناه والسلاح خاناه؛ وأمر البيوت معذوق[٨] بأستاذ الدار.

فيحتاج مباشر الحوائج خاناه إلى أمور: منها ما يُحتاج إليه من راتب السِّماط[٩] العام والطارىء ـ وهو الطعامُ الثاني الذي يُمَدّ بعد قيام السلطان من المجلس العامّ، ويأكله خواصّ المَلك ومن يَحضُره بين يدي السلطان، وهو أخصُّ من السِّماط الأوّل ـ وطارىءِ الطارىءِ وهو الطعام الثالثُ الذي يُمَدّ بعد رفع الطارىء، ومنه يأكل المَلك وخواصّه، وقد يأكل السلطان من الطارىء الذي قبله؛ فيحرّر ما يُحتاج إليه من لحوم

(١) الغلث: اسم لما تخلط به الحنطة، يقال: غلثت الحنطة بالشعير.
(٢) تتميّز: أي ترتفع، وهو من الميزة أي الرفعة.
(٣) الجراية: الوكالة أو الجاري من الرواتب.
(٤) التقا: جمعها التقاوي: وهي ما يعزل من الحبوب للبذار، وهي عاميّة.
(٥) غربله: نقّاه بالغربال من الشّوائب. (٦) الفذلكة: حاصل الحساب.
(٧) خاناه: لفظة فارسية معناها البيت.
(٨) المعذوق: أي المنوط والمرتبط، كما يناط العذق وهو القنو بالنخلة.
(٩) السِّماط: ما يمدّ ليوضع عليه الطعام في المآدب.

وتوابلَ وخَضْراواتٍ وأبازيرَ[١] وتَحالٍ وقلوبٍ[٢] وطِيبٍ وبَخور وأحطاب وغير ذلك؛ ولذلك عندهم معدَّلٌ قد عرفوه فلا يتجاوزه، فإنه إن صرف زيادةً عنه بغير سبب ظاهر خرج عنه[٣] وكان تحت دَرَكِه.

ومنها معرفة مقاديرِ الأسمطة في أوقات المهمّات والأعياد ليجريَ الأمر فيها على العادة، ولا يتجاوزها إلا بمرسوم.

ومنها تَعاهُد أشياء الحوائج خاناه، فيَستدعِي ما يراه قد قلّ عنده منها قَبْلَ نفاده بوقت يمكن فيه تحصيلُه، فإن أَخَّر طلبَ ذلك إلى أن يَنفَد، أو طلبه في وقت ولم يَبقَ عنده منه ما يكفيه إلى أن يأتيَه ذلك الصنف من بلد آخر كان المباشر تحت دَرَك إهماله، ومتى طَلَبَ ذلك في وقته وطالع وليَّ الأمر به فقد خَلَص من عُهْدته.

ويحتاج إلى بسط أسماء مَن يُعامِل[٤] بالحوائج خاناه من قصّاب وحَيَوانيٍّ وطيوريٍّ وغيرهم، ويَحصُر لكلٍّ منهم ما أحضره في كلّ يوم، فإذا ٱجتمع له من ذلك ما يقتضي محاسبتَه جَرَّد له محاسبةً ضَمَّ فيها كلَّ صنف إلى صنفه وثَمَّنه، إما بتعريف ٱلحِسْبة، أو بعادة ٱستقرّت له، وأحاله بمبلَغِ ما وجب له على بيت المال، أو ٱستَدعى من بيت المال ما يُنفِق منه وأَشهَد عليه بقبض ذلك.

ويحتاج أيضًا إلى بسط أسماء أرباب الرواتب السلطانيّة وأرباب الصِّلات[٥]، وما لكلٍّ منهم في كلّ يوم، وخصْمِه بقبوضهم مياومة أو مشاهرة، صنفًا أو حَوالة؛ ويراعِي حالَ مَن مَرِض من المماليك السلطانيّة ونُقِل من ٱللَّحم إلى المَزَاوِير[٦] أو المَساليق[٧] فيَقطع مُرتَّبَه من اللحم في مدّة مرضه، ونظيرَ ذلك من التوابل[٨] في مدّة مرضه.

---

(١) الأبازير: جمع أبزار وهو جمع بزر.
(٢) القلوب: يريد هنا لبّ اللوز والبندق والفستق وغيرها ممّا يؤكل قلبه.
(٣) خرج عنه: أي خرج عن المعدّل.
(٤) من يعامل: أي من يعاملهم، وهم الذين يشتري منهم الأصناف المطلوبة للحوائج خاناه.
(٥) الصّلات: العطايا.
(٦) المزاوير: لعلّه يريد جمع مِزْوَره، وهي مرقة يطعمها المريض، وهي مولدّة.
(٧) المساليق: جمع مسلوق، وهو من سلقت البقل أو اللّحم إذا غليته بالنار.
(٨) التوابل: مفردها (التابل) وهي الأفاويه.

ويحتاج إلى معرفة عادات الرُّسُل الوارِدين، والأضيافِ المتردِّدِين، ومرتَّبِ الصدقة في شهر رمضان، وعاداتِ الأضَاحِي[1] والصَّلات في عيد النحر، فيجرِي الأمرَ على حكم العادة؛ ويَضْبِط جميعَ ما يَصله إليه من ديوان المتجَر ومطابِخ السكّر وغيرِها، ويكتب لهم بما يحملونه إليه من الأصناف؛ ويَضْبِط أيضًا ما ٱستَقرّ في كلّ ليلة من الوَقود من شَمَع وزيت، ويَصرِف على ما ٱستقرّ عنده، وإذا سَلَّمَ شَمَعَ ٱلوَقود إلى الطُّشْتداريّة وَزَنه عليهم، وعَبَره[2] عند إعادته في بُكرة النهار ليتميّز له النقص؛ ويَضْبِط غيرَ ذلك مما يصل إليه وينزل عنده من عادات مَن قَنِع[3] وتَبتَّل، وغير ذلك من جميع ما يَرِد وما يُرتَّب ويزاد ويُقطَع.

وأما الشراب خاناه - وهي بيت يشتمل على أنواع المشروب من المياه على اختلافها، والسكّرِ والأشربة والدِّرياقات[4] والسَّفوفات[5] والمعاجين والأقراصِ والأَقْسِما[6] والفُقّاعِ[7] والبلحِ والأَبقالِ والحَلْويّات والجُوارِشات[8] والفواكه، وما يَجرِي هذا المَجرَى؛ وأمر هذا البيت الخاص معذوق[9] بأمير مجلس، والعامّ بأستاذ الدار؛ فيحتاج مباشر هذه الوظيفة إلى ضبط ما يصل إليه من جميع هذه الأصناف، وما يستعمله من ذلك في عَقد الأشربة والحَلْويّات، وما يَعقِده للمشروب وما يَصرِفه من ذلك، ومعرفةِ عادات الأسمِطة والطَّوارىء والرواتبِ المقرَّرة في كلّ يوم، فيُجرِي الأمرَ فيها على العادة المستقِرّة، وما يستدعيه السلطان على حَسَب الاتفاق، وما يصرف للمرضى من المماليك السلطانيّة من أنواع الأشربةِ والمعاجينِ وغيرِها بمقتضَى أوراق الأطبّاء؛ هذا ما يَعتمِد عليه مباشرُها والله أعلم.

---

(١) الأضاحي: مفردها الأضحية وهي ما يذبح في عيد الأضحى.
(٢) عبره: نظر كم وزنه.
(٣) المراد هنا: الرواتب التي جعلت للزّهاد والمنقطعين إلى العبادة من أجل الطعام والشراب.
(٤) الدّرياقات والترياقات: ما يستعمل من الأدوية لدفع السم، فارسي معرّب.
(٥) السّفوفات: ما يسفّ من دواء أو نحوه.
(٦) الأقسما: شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون، ويطرح في ذلك يسير من السّذاب، وهو شراب جيّد للهضم، وقيل: هو نقيع الزّبيب.
(٧) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير، وسمّي بذلك لما يرتفع في رأسه ويعلوه من الزّبد.
(٨) الجوارشات: أنواع من الحلواء تصنع من دقيق وعسل أو سكر.
(٩) معذوق: منوط ومرتبط.

وأما الطَّشْت[١] خاناه ـ فهي بيت تكون فيه آلةُ الغسل والوضوء، وقماشُ[٢] السلطان البياضُ[٣] الذي لا بدّ له من الغسل، وآلةُ الحمّام، وآلاتُ الوَقود؛ فيكون في هذا البيت من الآلات: الطُّشوتُ والأباريقُ والسخّاناتُ والطاساتُ والكراسيُّ والستائرُ واللَّبابيدُ[٤] المختصّةُ بالحمّامات والسَّجّاداتُ والنُّمْرُقاتُ[٥] والمَناشفُ وفُوَطُ ٱلخدمة ومقاعدُ ٱلجلوس من الجَوخ والبُسُط، وغير ذلك، والمباخرُ وأنواعُ البَخُورات والطِّيب والغوالي[٦] وماءُ الورد والمُمسَّكُ، وغيرُ ذلك من الأصناف التي تلائم هذا البيت؛ ويُستدعَى ما يُحتاج إليه برَسْم هذا البيت من الحوائج خاناه والخِزانة؛ والله أعلم.

وأما الفِراش خاناه ـ فيكون فيها أنواعُ الفُرُش والخِيامِ والخَرْكاهات[٧] والتُّخوت وقُصور الخشب التي تُنصَب في الدهاليز، وحمّامات الخشب التي تُنقَل على الظَّهر في الأسفار، وما يتعلّق بذلك من اللَّبابيدِ وشلائتِ[٨] النوم وغيرِ ذلك؛ وهو بيتٌ متّسِعٌ فيه حواصلُ كثيرةٌ لها قِيَمٌ جليلةٌ تحتاج إلى ضبط ومعرفة، فإن مباشر هذا البيت يحتاج إلى معرفة ما يحتاج إلى ٱستصحابه في أسفار السلطان لخاصّتِه ولمماليكِه على ٱختلاف طبقاتهم ووظائفهم، وما يُنصَب برسم آدُر[٩] السلطان ومَن يتبعها من الخُدّام وما يُنصَب برسم البيوت السلطانيّة الخزائنِ فما دونها، وما يُنصَب لأرباب الوظائف من المباشِرين الذين يكونون في صحبة الرِّكاب السلطانيّ، ومِن غير المباشِرين حتى الكِلابِ السلطانيّة والكلابزيّةِ[١٠] والجواري؛ ويميّز بين خِيام الصيد والنُّزَهِ والأسفارِ والحروب، وغيرِ ذلك من الحركات التي يحتاج فيها إلى ٱستصحاب ٱلخيام ولكلِّ حركة منها ما جرت به العادة من خيام ٱلْمُقام والسَّفَر؛ ويَعرِض ما يسلِّمه للفرّاشِين عليهم، ويَضبِط صفاتِه عند السَّفَر، ويستعيده منهم عند العَود بعَرْضٍ ثانٍ، وكذلك ما

(١) الطشت: لغة في الطّست.
(٢) القماش: الثياب، وإطلاقها بهذا المعنى عاميّ.
(٣) البياض: أي ذو البياض.
(٤) اللبابيد: المراد بها اللّبود، وهي البُسط من الصوف الملبّد.
(٥) النمرقات: الوسائد.
(٦) الغوالي: جمع غالية وهي ضربٌ من الطيب، وهي أخلاط تغلى على النار مع بعضها...
(٧) الخركاهات: جمع خركاه، وأصله بالفارسية «خرجاه» ومعناها القبّة.
(٨) الشلائت: لفظ يستعمله العامة ويريدون به الفرش المحشوّة.
(٩) آدُر: جمع دار.
(١٠) الكلابزيّة: هم الذين يكلّفون بخدمة الكلاب السلطانية والقيام عليها.

يسلِّمه لأربابِ الوظائف؛ ويَضبِط أيضًا ما يتسلّمه الصُّنّاعُ الذين يفصّلون ٱلخامَ الجديدَ وغيرَه من آلات الفِراش خاناه: من قُماشٍ بياضٍ ومصبوغ وغَزْلٍ وجلودٍ ومُشمَّعاتٍ وشعرٍ وأخشاب، وغيرِ ذلك، ويَعرِف عوائدَهم[1] في الأَجْر، ويحاسبهم على ما يستحقّونه من الأجر بحسب أعمالهم فيُحِيلهم بمَبلَغِه.

وأما السلاح خاناه ـ فهي من أعظم البيوت وأهمِّها، وأمرُها راجعٌ إلى أميرِ سلاح؛ وعلى المباشِر لها حفظُ ما يدخُل إليها، وضبطُ ما يخرُج منها مما يتسلّمه السلاح داريّة والزَّرَدْكَشيّة[2] والحَرْب داريّة والرُّمْح داريّة من أنواع السلاح وأصنافِه إذا ركب السلطان أو جلس في المجلس العامّ، وٱستعادتُه منهم، وإعادتُه لهم، والاعتدادُ لهم بما أنعَم به السلطان وذهَّبه مما كان بأيديهم؛ ويوصِلُ ما يَصِل إلى السلاح خاناه من خزائن السلاح وغيرِها، وما يَصِل إليه من سيوف الأمراء الذين يُرسَم[3] بٱعتقالهم، وما يُحمَل إليه من سلاح من تُوُفِّيَ من الأمراء على جاري العادة. ويميِّز ذلك من غيره وعليه أن ينبِّه أميرَ سلاح على ما عنده من العُدَد التي يُخشى عليها التلف بتطاول المدّة ليَأمُر بكشفها وإصلاحها: من مسحٍ ودهانٍ وصَقْلٍ[4] وجِلاءٍ وشَحْذٍ[5] وتثقيفٍ[6] وخَرْزٍ، وغير ذلك.

وجميعُ ما قدّمنا ذكرَه من البيوت ليس بشيء من صناعة الكتابة العلميّة، بل العمليّةِ خاصّة، فإن علوم الكتابة إنما تظهر في نُظم الحُسبانات، ولا نُظُم فيما قدّمناه؛ والعمدةُ في صناعة الكتابة على مباشَرة الهلاليّ والخراجيّ على ما يأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ذكر جهات أموال الهلاليّ ووجوهها[7] وما يحتاج إليه مباشرها

الهلاليُّ عبارةٌ عمّا تُستأدَى أجورُه مشاهرةً، كأجر الأملاك المسقَّفة من الآدُرِ[8] والحوانيتِ والحمّاماتِ والأفرانِ وأَرْحِيَةِ[9] الطواحين الدّائرةِ

(١) عوائدهم: أي عاداتهم جمع «عادة».
(٢) الزردكشيّة: هم لابسو الدّروع، وكش باللغة الفارسية معناه لابس.
(٣) يرسم باعتقالهم: أي يصدر قرار بذلك.
(٤) الصقل: الجلي.
(٥) الشحذ: السّن.
(٦) التثقيف: التقويم والتهذيب، وهو أن يسوّى المعوج من الرّماح وما شابهها.
(٧) وجوهها: المراد هنا طرق الكتاب واصطلاحاتهم في كتابة هذه الأموال.
(٨) الآدر: جمع «دار».
(٩) الأرحية: جمع رحى، وهي أحجار الطّواحين.

بِالعوامل[١]، والراكبةِ على المياه المستمرّةِ ٱلجَرَيان، لا الطواحينِ التي تدور بالمياه الشَّتْويّة في بعض نواحي الشام، فإنها تَجرِي مَجرى الخراجيّ، وسنذكر ذلك إن شاء الله في موضعه؛ ومما نورد في أبواب الهلاليّ عدادُ الأغنام والمواشي، ومن الهوائيّ[٢] الجهاتُ الهلاليّةُ المضمونة والمحلولة؛ والذي يَعتمِد عليه مباشرُه أن يَتخيّر لكلّ جهةٍ من يستأجرها بقيمتها، وما لعلّه يتعيّن من ٱلحَيْطة[٣]، ويُلزِم المستأجِرَ بكتابة إجارةٍ شرعيّةٍ لمدّةٍ معلومةٍ بأجرة معيَّنة؛ ويخلِّدُها في ديوانه؛ وإن كانت الجهة هوائيّةً أَلزَم ضامنَها بكتابة حُجّة[٤] بمبلغ الضَّمان، وطالَبه بمن يكفُله من الضُّمّان الأَمْلئاءِ[٥] القادِرين بالمال في الذمّة، فإن تَعذَّر فبِالوَجه[٦]؛ فإذا خُلِّدت[٧] ٱلحجّةُ عنده كَتب له من ديوانه تقريرًا عيَّن له فيه استقبالَ مدّةِ ضَمانه، ومبلَغَ الضمان وأقساطَه مبسوطةً[٨] أو منجّمة[٩]، ويذكر فيه ما يَستأديه من رسوم تلك ٱلجهة على ما تشهد به الضرائبُ المخلَّدةُ في الدِّيوان، وسُلِّمَ إليه؛ فإذا تكاملت عنده إجاراتُ الأملاك وحُجَجُ الضّمان بسط على ذلك جريدةً يَشرَح فيها الجهةِ، وٱسمَ مستأجِرها أو ضامِنها، وٱستقبالَ مدة إيجارِه[١٠] أو ضمانِه، ومبلَغَ الأُجرة أو الضّمان في السنة والشهر واليوم؛ وإنما ذكرنا اليوم لما يتَحصّل من أقساط أيّام سُلوخِ الشهورِ[١١] الناقصة، ولِمَا كانت العادةُ جاريةً به من ٱستخراج قسطِ يومِ التعديل من سائر ضُمّان ٱلجهات الهوائيّة، وهو قسطُ يومٍ واحدٍ في سَلخ ثلاثِ سنين يُؤخَذ من الضُّمّان خالصًا للديوان زيادةً على الأقساط، وهذا يُستأدَى في بعض أقاليم الشأم؛ وإنما أوردناه خشيةَ الإخلال به؛ ويكون بَسْطُه لذلك في يَمْنة القائمة إلى الشطر المكسور المعتاد الذي يتخلّله خيط ٱلجريدة؛ فإن ٱتّفق في جهةٍ زيادةٌ في أثناء السنة قرّرها في تعليق المُياوَمة، ووضعها في الجريدة بما صورته: ثم ٱستقرّت بٱسم فلانٍ لاستقبال التاريخ الفلانيّ بكذا وكذا، العِبْرَةُ[١٢] كذا، والزيادةُ كذا؛ ويحاسِب المستأجِرَ أو الضامنَ[١٣] المنفصلَ عمّا ٱستُحِقّ عليه إلى حين

---

(١) العوامل: البقر.
(٢) المراد بالهوائي: ما ليس له سقف.
(٣) الحيطة: أي الاحتياط والحذر.
(٤) الحجّة: الصك.
(٥) الأملئاء: جمع مليء، وهو الثقة الغني.
(٦) الوجه: هنا الجاه.
(٧) خلّدت: سجّلت.
(٨) المبسوطة: المدفوعة مرّة واحدة.
(٩) المنجّمة: هي التي قدّر عطاؤها في أوقات معلومة متتابعة.
(١٠) إيجارها: من الإيجار وهو مصدر أجر، يقال: أجرت زيدًا الدار إذا أكريتها.
(١١) سلوخ الشّهور: يقال: سلخ الشهر إذا مضى، وهنا يريد الأيام التي مضت عن موعد الاستحقاق المعيّن.
(١٢) العبرة: المراد بها ما يقدّر على الإقطاعات.
(١٣) الضامن: الملتزم.

ٱنفصاله، ويُلزِمه بالقيام به، وذلك بعد أن يَعرِضَ على الضامن ٱلمستقرّ ما زاد عليه؛ فإن ٱختار قبولَ الزيادة على نفسه قَبِل ذلك منه، وكان ذلك له، فإن زِيدت عليه في الوقت زيادةٌ ثانيةٌ لم يكن له الاستمرارُ في الجهة إلا بزيادةٍ على تلك الزيادة الثانية؛ وإذا انقضت مدّة مستأجِرٍ أو ضامنٍ وأراد الخروج من تلك الجهة، فإن كان قد غَلّق[١] ما عليه من الأجرة أو الضَّمان لم يكن للمباشِر إلزامُه بالاستمرارِ بها، وإن انطرد[٢] عليه باقٍ كثيرًا كان أو قليلًا لزمه ٱستئنافُ عَقدٍ جديدٍ نظيرِ العَقد الأوّل؛ هذا ٱصطلاحهُم في الديوان، ولهم ٱصطلاحات أيضًا نحن نذكر ما تيسّر منها، إذ لا تمكن الإحاطةُ بجميعها لاختلاف أحوال المباشَرات، ولو ٱستقصينا ذلك لطال فمن ٱصطلاحاتهم أن المباشِر يسلّم للمستأجِر الطاحونَ عند أذان المغرب من اليوم الذي حصل فيه الإيجارُ أو الزيادةُ لاستقبال اليوم الثاني، ويسلّم الحمّامَ من وقت التسبيح[٣]، ويسلّم بقيّةَ ٱلجهات لاستقبال غُرّة النهار[٤]؛ وإذا دخل ضامنُ نيلةَ قَوّم للمنفصل ما له بالخَوابِي[٥] من مياه الأصباغ المختلفةِ بالقيمة العادلة، ولا يُمَكّن مِن أخْذِ ذلك من المصبغة لما فيه من الإضرار بهما، أما ضررُ ٱلمنفصل فلفساد المياه، وأما ضررُ ٱلمتصل فلأنه يَتعطّل مدّةً إلى أن تَختمِر له مياهٌ غيرُها، ولا يُمَكّن ضامنُ المصبغة المنفصل مِن أخذِ خابية وإن كانت ملكَه، بل القيمة عنها؛ هذا ٱصطلاحهم؛ وليَحترز[٦] مباشرُ ٱلجهات الهلاليّة من قبول زيادةٍ بسطًا في جهة منجّمةٍ قد مضت أقساطُها الخفيفةُ وبقيَت الأقساطُ الكبار، لِما يحصُل في ذلك من التّفاوت والنقصِ على الدّيوان مع وجود الزيادة الظاهرة، مثال ذلك أن تكون جهةٌ مضمونةً في كلّ سنة بأربعة آلاف درهم منجّمة، قسطُ ستة شهور ألفُ درهم، وقسطُ الستة شهور الثانيةِ ثلاثةُ آلاف، فٱنقضت الستّةُ الأُوَل، وحَصَلتْ زيادةٌ في الجهة في أوّل الستّةِ الثانيةِ مَبْلغ خَمسِمائة درهم في السنة على أن تكون قسطين، فيصير بمقتضى البسط قسطُ الستّةِ شهور الثانيةِ ألفين ومائتين وخمسين درهمًا، وهي على الضامن المنفصل بثلاثة

(١) غلّق ما عليه: سدّد ودفع ما عليه.

(٢) انطرد: في المصباح وغيره من المعاجم: أنّه لا يقال انطرد إلّا في لغة رديئة، وهي هنا بمعنى بقي عليه حسابٌ لم يستطع تسديده.

(٣) وقت التسبيح: لعلّه يريد قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: الآية ١٧].

(٤) غرّة النهار: أوّله.

(٥) الخوابي: مفردها الخابية، وهي وعاء يحفظ فيه الماء وغيره من السّوائل.

(٦) يحترز: يتوقّى.

آلاف، فتكون هذه الزيادة على هذا ٱلحُكم نقصًا؛ فيراعى ٱلمباشرُ ذلك، فإنه متى وقع فيه خرج عليه وكان مخرجًا لازمًا؛ ومهما ٱستخرجه المباشرُ من مستأجِرٍ أو ضامنٍ أو أجراه بوُصولٍ(١) لربِّ ٱستحقاقٍ أو ثمنِ صنف، أو غيرِ ذلك من وجوه المصارف أَورَدَه في تعليق المياوَمة، وصورةُ وضعِهِ لذلك أن يرصّع(٢) المُحضَر أو المُجرَى عن يَمنة القائمة، ويخصمَ عن يَسْرتها قُبالةَ المُجرَى، فيقول في يَمْنتها: من جهة فلان كذا، وفي مقابَلتِهِ: ينصرف في كذا؛ ثم يَشطُب(٣) المُحضَرَ والمُجرَى من تلك الجهة في يَسْرة قائمةِ ٱلجريدةِ التي بَسَطَها قُبالَة كلّ ٱسم ٱستَخرج منه أو أَجرَى عليه، يَفعل ذلك في مدّة السنة، ويَرمِزُ على تعليقه إشارةَ ٱلخدمة على الجريدة، وصورتُه [له](٤)؛ وكذلك إذا كتب وُصولًا رَمَزَ عليه إشارةَ الكتابة، وصورتُه له؛ فإذا ٱنقضت السَّنة عَمِلَ محاسَبةَ كلّ جهةٍ بما ٱستخرجه من مستأجرها أو ضامِنها وأجراه عليه، وعقَدَ على ذلك جملةً، فإن كان المستخرَجِ والمُجرَى نظيرَ الأجرة أو الضَّمان فقد تغلّقت(٥) تلك ٱلجهة عن تلك السنة، وإن زاد المستخرَجُ على الأجرة أَوْرَدَه في حسابه مضافًا، ويسمّيه: زائدَ مستخرَجٍ، على ما يأتي بيانُه في كيفيّة الأوضاع الحسابيّة، وٱعتَدَّ له(٦) بذلك في السنة المستقبلَة؛ وإن تَعيّن للضامنِ أو المستأجِرِ ٱعتدادٌ بما يجب الاعتدادُ به كَبِطالة الحمّامات من ٱنقطاع المياه عنها أو وقوفها فيها، وإصلاحِ القدور، وعُطْلِ العمائر، وبَطالةِ الطواحين لانقطاعِ المياه وٱنكسارِ الأحجار أو السهامِ أو العُددِ، أو حصولِ جائحةٍ(٧) أرضيّةٍ أو سمائيّة كٱنقطاع الأجلاب(٨) عن الجهات الهوائيّة بسبب مداوَمَةِ الأمطار، أو سقوطِ الثلوج، أو طُروقِ عدوٍّ(٩) للبلاد، أو حادثةٍ عُطِّلت تلك الجهةُ بسببها ٱعتَدّ له بقسط تلك المدّة محسوبًا «هذا إذا شرط ذلك في تقريره»(١٠) على ما يأتي شرح ذلك؛ هذا ما يعتمِد عليه المباشرُ للجهات الهلاليّة في أصولها.

---

(١) الوصول: هو المعروف الآن بين الناس في معاملاتهم بالإيصال.

(٢) يرصّع المحضَر: ينظّمه. (٣) يشطب: يقيّد وينقل.

(٤) ما بين قوسين تكملة يقتضي السّياق إثباتها. (٥) تغلّقت: سدّدت واستكملت.

(٦) اعتدّ له: يقال: اعتددت بالشيء أي أدخلته في العدّ والحساب.

(٧) الجائحة: الآفة والكارثة. (٨) الأجلاب: جمع جَلَب، وهو المجلوب.

(٩) طروق عدو: مداهمته للبلاد وغزوه لها.

(١٠) وردت هذه الجملة في الأصل قبل الجملة السابقة أي قبل قوله: «إذا اعتدّ» والسّياق يقتضي تأخيرها كما أثبتنا.

وأما مضافاتُها فلا فرق بينها وبين سائرِ الأموال، وسيَرِد الكلام إن شاء الله على ذلك مفصَّلًا؛ وقد ٱصطَلَح بعضُ مباشِري ٱلجهات على إيراد أَحكارِ البيوت[١] والحوانيت، ورَيع[٢] البساتين التي تُستخرَج أجورُها مشاهرةً، ومَصايدِ السمك، ومَعاصِر الشَّيْرَج[٣] والزيت في مال الهلاليّ؛ ومنهم من يوردها في أبواب ٱلخراجيّ، وهو الأليق، وإنما نَبَّهْنا عليه لبيان الاختلاف فيه، ولا أرى في إيراد رَيْع البساتين في مال الهلاليّ وجهًا، بل يتعيَّن ألّا يَرِدَ إلا في أبواب الخراجيّ؛ وإن قال قائل منهم: قد يكون في أرض البستان مَسكَنٌ يستحقّ أجرة، قلنا: إن أمكن إفرادُ ذلك المَسكَن بأجرةٍ معيَّنَةٍ تُقَيَّدُ أموالُه في أموال الهلاليّ دون البستان، وإن تعذَّر إفرادُه وأُوجِرا بعقدٍ واحد فالمَسكَن هنا فرعُ البستان، والفرعُ يتبع الأصلَ ولا ينعكس.

هذا ما لخّصناه من حال مالِ الهلاليّ[٤]، فلنذكر ٱلجَوالِي[٥].

ذكر الجزية الواجبة على أهل الذمّة وما ورد فيها من الأحكام الشرعية وأوّلِ مَن ضربَها[٦] وقرّرها على الرؤوس وما اصطلح عليه كتّابُ التصرّف في زماننا من استخراجِها وموضعِ إيرادها في الحساب ونسبتِها في الإقطاعات الجيشيّة وما يلزم مباشرَها من الأعمال وما يحتاج إليه والله أعلم

أما الأحكام الشرعيّة فالأصل في وجوبها قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٩] وقد ورد في هذه الآية تأويلاتٌ ذكرَها أقضى القضاة أبو الحسن عليُّ بنُ محمد بنِ حَبيب ٱلماورديّ ـ رحمه الله ـ في الأحكام السلطانيّة، نحن نذكرها على ما أُورَده، قال: أما قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فأهلُ الكتاب [وإن][٧] كانوا معترِفين بأن

(١) أحكار البيوت: مفردها الحكر، وهو العقار المحبوس.
(٢) الرّيع: الغلّة، أو الجزء الذي يؤدّيه المستأجر إلى المالك.
(٣) الشّيرج: السّمسم.
(٤) الهلالي: عبارة عمّا تستأدى أجوره مشاهرة في بداية كلّ شهر. . .
(٥) الجوالي: جمع جالية، وهي الجزية التي تؤخذ من أهل الذمّة.
(٦) ضرب: قرّر وضرب الأحكام: فرضها.
(٧) هذه الكلمة لم ترد في الأصل وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٤٦، =

الله سبحانه واحد، فيَحتمِل [نفيُ][1] هذا الإيمانِ بالله تأويلين، أحدهما: لا يؤمنون بكتاب الله سبحانه وهو القرآن، والثاني: لا يؤمنون برسوله محمد ﷺ، لأن تصديقَ الرُّسُل إيمانٌ بالمرسِل؛ وقولُه: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] يَحتمِل تأويلين، أحدهما: لا يخافون وعيدَ اليوم الآخرِ وإن كانوا معترفين بالثواب والعقاب، والثاني: لا يصدِّقون بما وصفه الله تعالى من أنواع العذاب؛ وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] يَحتمِل تأويلين، أحدهما: ما أَمَرَ الله بنَسْخِه[2] من شرائِعِهم، والثاني: ما أَحَلّه لهم وحَرَّمَه عليهم؛ ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] فيه تأويلان، أحدهما: ما في التوراة والإنجيل من اتّباع الرسول ـ وهو قول الكلبي[3]، والثاني: الدخولُ في دين الإسلام ـ وهو قول الجمهور ـ، وقولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] فيه تأويلان، أحدهما: من أَتْباع الذين أوتوا الكتابَ، والثاني: مِن الذين ملّتُهم الكتابُ، لأنهم في اتّباعِه كإيتائه؛ وقولُه: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] فيه تأويلان، أحدهما: حتى يدفعوا ٱلجزية، والثاني حتى يَضمَنوها، لأنه بضمانها يجب الكفُّ عنهم؛ وفي الجزية تأويلان، أحدهما: أنها من الأسماء الْمُجْمَلة التي لا يُعرَف منها ما أُريد بها إلا أن يَرِدَ بيان، والثاني: أنها من الأسماء العامّة التي يجب إجراؤها على عمومها إلا ما خصصه دليل؛ واْسمُها مشتقٌّ من ٱلجزاء، وهو إما جزاءٌ على كفرِهم، أو جزاءٌ على أمانِنا لهم؛ وفي قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] [تأويلان، أحدهما: عن غِنًى وقُدرة، والثاني: أن يَعتقِدوا أن لنا في أخذها منهم يدًا وقُدرةً عليهم؛ وفي قوله][4]: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٢٩] تأويلان، أحدهما: أَذِلّاءُ مساكينُ، والثاني: أن تُجْرَى عليهم أحكامُ الإسلام. وقال غيرُه: الصَّغار أن يُضرَب على فَكِّ الذمّيِّ برءوس الأنامل عند قيامه بالجزية ضربًا لطيفًا غيرَ مؤلم. وقال الماورديّ: فيجب على وليِّ الأمر أن يضرِبَ ٱلجزيةَ على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب ليقرّوا بها في دار الإسلام؛ ويَلتزِم لهم ببذلها حقّين: أحدهما الكفُّ عنهم، والثاني: ٱلحمايةُ لهم، ليكونوا بالكفِّ آمنِين،

= ط. ألمانيا.

(١) هذه الكلمة لم ترد في الأصل وقد أثبتناها عن الأحكام السلطانية إذ بها يستقيم الكلام.

(٢) النّسخ: إزالة الحكم.

(٣) الكلبي: هو محمد بن السّائب الكلبي، أبو النضر، نسابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيّام العرب من أهل الكوفة مات سنة ١٤٦ هـ. (الأعلام ٦/١٣٣).

(٤) ما بين قوسين تكملة عن (الأحكام السلطانية ص ٢٤٧).

وبالحماية محروسِين؛ روى نافعٌ[(١)] عن ٱبن عمر رضي الله عنهم قال: آخرُ ما تكلّم به النبيُّ ﷺ: «احفظوني في ذِمّتي»[(٢)] قال الماورديّ: ولا تؤخَذ من مُرتدٍّ[(٣)] ولا دَهْريّ[(٤)] ولا عابِد وَثَن، وأخَذَها أبو حنيفة من عَبَدة الأوثان من العجم، ولَم يأخذْها منهم إذا كانوا عربًا؛ وأهلُ الكتاب هم اليهود والنصارى، وكتابُهم التوارةُ والإنجيل، وتَجري ٱلمجوسُ مَجراهم في أخذ الجزية منهم؛ وتؤخَذ من الصابئِين[(٥)] والسامِرَة[(٦)] إذا وافقوا اليهودَ والنصارى في أصل معتقَدِهم وإن خالفوهم في فروعه، ولا تؤخَذ منهم إن خالفوا اليهودَ والنصارى في أصل معتقَدِهم؛ ومن جُهِلتْ حالُه أُخِذتْ جزيتُه، ولا تؤكَل ذبيحتُه.

والجزية تجب على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على صبيٍّ ولا ٱمرأةٍ ولا مجنونٍ ولا عبدٍ، لأنهم أَتْباعٌ وذَراريّ؛ ولو تَفرّدت ٱمرأةٌ منهم [عن][(٧)] أن تكون تبعًا لزوجٍ أو نسيبٍ لَم تؤخَذْ منها ٱلجزية، لأنها تبعٌ لرجال قومها وإن كانوا أجانب منها؛ ولو تَفرّدت ٱمرأةٌ في دار الحرب فبَذَلت ٱلجزيةَ للمُقام في دار الإسلام لم يلزمها ما بذلتْه، وكان ذلك منها كالهِبَةِ لا يؤخَذ منها إن ٱمتنعتْ؛ ولا تؤخذ الجزية من خنثى[(٨)] مُشكِل، فإن زال إشكالُه وبان رجلًا أُخِذتْ منه في مستقبَل أمرِه وماضيه.

واختلف الفقهاء في قدر ٱلجزية، فذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثةَ أصناف: أغنياءُ يؤخَذ منهم ثمانية وأربعون درهمًا، وأَوساطٌ يؤخَذ منهم أربعة وعشرون درهمًا وضَرْبٌ يؤخذ منه ٱثنا عشر درهمًا، [فجَعَلَها مقدَّرة الأقلِّ والأكثر][(٩)] ومَنَع من ٱجتهاد الولاة فيها.

---

(١) هو نافع بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي، من رجال الحديث الثقات روى عن عبد الله بن عمر. (الكاشف ٣/ ١٧٣).

(٢) أراد في أهل ذمتي.

(٣) المرتدّ: الذي كفر بعد إسلامه.

(٤) الدهريّ: الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة، ويقول ببقاء الدّهر.

(٥) الصابئون: قوم يشبه دينهم دين النّصارى إلّا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب، يزعمون أنّهم على دين نوح. (تاج العروس).

(٦) السّامرة: قوم من اليهود يخالفونهم ـ أي اليهود ـ في بعض أحكامهم كإنكارهم نبوة من جاء بعد موسى عليهم السلام وقولهم: «لا مساس» وزعمهم أنّ نابلس هي بيت المقدس، وإليهم نسب السّامري الذي عبد العجل. (تاج العروس).

(٧) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والسّياق يقتضيها، وفي الأحكام السلطانية «على».

(٨) الخنثى: الفرد تتكوّن فيه أمشاج الذّكر وأمشاج الأنثى.

(٩) ما بين قوسين لم يرد في الأصل والتكملة عن الأحكام السلطانية.

وقال مالك: لا يقدَّر أقلُّها ولا أكثرُها، وهي موكولةٌ إلى ٱجتهاد الإمام في الطرفين.

وذهب الشافعيّ إلى أنها مقدَّرةُ الأقّل بدينارٍ لا يجوز الاقتصار على أقلَّ منه، وعنده أنها غيرُ مقدَّرةِ الأكثر، يُرجَع فيه إلى ٱجتهاد الولاة، ويجتهد رأيَه في التسوية بين جميعهم، أو التفضيلِ بحسب أحوالهم، فإذا ٱجتهد رأيَه في عقد الجزية معهم على مُراضاة أُولي الأمر منهم صارت لازمة لجميعهم ولأعقابهم[١] قرنًا بعد قرن، ولا يجوز لوالٍ بعده أن يغيّره[٢] إلى زيادة عليه أو نقصانٍ منه.

ويُشتَرط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحَقٌّ ومستحَبّ، أما المستحَقّ فستة أشياءَ: أحدها: ألّا يذكُروا كتابَ الله تعالى بطعنٍ[٣] فيه ولا تحريفٍ له، والثاني: ألّا يذكُروا رسول الله ﷺ بتكذيبٍ له ولا ازدراءٍ[٤] به، والثالث: ألّا يذكُروا دينَ الإسلام بذمٍّ له ولا قدحٍ فيه، والرابع: ألّا يُصِيبوا مسلمةً بزنًى ولا بٱسم نكاح، والخامس: ألّا يفتِنوا[٥] مسلمًا عن دينه ولا يتعرّضوا لماله ولا دمِه، والسادس: ألّا يُعِينوا أهلَ الحرب ولا يؤوُوا أغنياءَهم؛ فهذه الستةُ حقوقٌ ملتَزمةٌ بغير شرط، وإنما تُشتَرط إشعارًا لهم، وتأكيدًا لتغليظ العهد عليهم، فيكون ٱنتهاكُها بعد الشرط نقضًا لعهدهم.

وأما المستَحَبّ فستة أشياءَ: أحدها: تغيير هيآتهم بلُبس الغِيار[٦] وشدّ الزُّنّار[٧]، والثاني: ألّا يَعْلُوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوِين لهم، والثالث: ألّا يُسمِعوهم أصواتَ نواقيسهم[٨]، ولا تلاوةَ كتبهم، ولا قولَهم في عُزَير والمسيح، والرابع: ألّا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم، والخامس: أن يُخْفوا دفنَ موتاهم ولا يَجهَروا بندبٍ[٩] عليهم ولا نياحة، والسادس:

(١) الأعقاب: مفردها العاقبة وهي الذّريّة والنّسل.
(٢) أن يغيّره: أي أن يغيّر عقد الجزية. (٣) الطعن: الذمّ والإعابة.
(٤) الازدراء: التحقير. (٥) فتنه عن دينه: صرفه.
(٦) الغيار: علامة أهل الذمّة كالزنّار، وقيل: الغيار أن يخيطوا على ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونه لونها، وتكون الخياطة على الكتف دون الذّيل.
(٧) الزّنّار: ما يلبسه الذمّي يشدّه على وسطه.
(٨) النواقيس: واحده الناقوس، وهو مضراب النصارى الذي يضربون به إيذانًا بحلول وقت الصلاة. . .
(٩) النّدب: بكاء الميت وتعديد محاسنه.

أن يُمنَعوا من ركوب الخَيل عِتاقًا وهُجْنًا[١]، ولا يُمنَعوا من ركوب البغال والحمير؛ قال: فهذه الستة المستحَبّة لا تَلزم بعقد الذِّمّة حتى تُشترَطَ فتصيرَ بالشرط ملتَزمة، ولا يكون ارتكابُها بعد الشرط نقضًا للعهد، لكن يؤخَذون بها إجبارًا، ويؤدَّبون عليها زجرًا، ولا يؤدَّبون إن لم يُشترَط ذلك عليهم، ويُحتاط[٢] به.

[وتجب الجزية عليهم][٣] في كل سنة مرّةً واحدةً بعد انقضائها بالشهور الهلاليّة، ومن مات منهم في أثناء السنة أُخِذ من تَركتِهِ بقدر ما مضى منها، ومن أسلم كان ما لَزِم من جزيته دَينًا في ذمّته يؤخَذ منه؛ وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته؛ ومَن بَلَغ من صغارِهِم، أو أفاق من مجانينِهم استُقبِل به حولٌ [ثم أخِذ][٤] بالجزية ويُؤخَذ الفقيرُ بها إذا أَيْسَر، ويُنتَظر بها إذا أَعْسَر؛ ولا تسقط عن شيخٍ ولا زَمِن، وقيل: تسقط عنهما وعن الفقير؛ ولِأهل العهد إذا دخلوا دارَ الإسلام الأمانُ على نفوسهم وأموالهم، ولهم أن يقيموا فيها أربعةَ أشهر بغير جزية، ولا يقيموا سنةً إلا بجزية، وفيما بين الزمانَين خِلاف؛ ويَلزَم الكفُّ عنهم كأهل الذمّة، ولا يَلزمَ الدفعُ عنهم؛ وإذا أَمَّن بالغٌ عاقلٌ من المسلمين حربيًّا لَزِمَ أمانُه كافّةَ المسلمين، والمرأةُ في بذل الأمان كالرجل، والعبدُ فيه كالحرّ؛ وقال أبو حنيفة: لا يصحّ أمانُ العبد إلا أن يكون مأذونًا له في القتال؛ وإذا تَظاهَر أهلُ الذمّة والعهدِ[٥] بقتال المسلمين كانوا حربًا لوقتِهم، يُقتَل مُقاتِلُهم، ويُعتَبَرُ حالُ مَن عدا المُقاتِلة منهم بالرضا بفعلِهم والإنكارِ له؛ وإذا امتنع أهلُ الذمّة من أداء الجزية كان نقضًا لعهدِهم؛ وقال أبو حنيفة: لا يَنتقِض به عهدُهم إلّا أن يلحَقوا بدار الحرب، وتُؤخَذ منهم جَبْرًا كالدُّيون؛ وإذا نَقَض أهلُ الذمّة عهدَهم لم يُستَبَح بذلك قتلُهم، ولا غَنْمُ أموالهم[٦]، ولا سَبْيُ ذراريِّهم ما لَم يقاتِلوا، ووجب إخراجُهم من بلاد المسلمين آمنِين حتى يَلحَقوا مَأمَنَهم من أدنى بلاد الشِّرك، فإن لم يَخرُجوا طوعًا أُخرِجوا كَرْهًا؛ فهذه هي الأحكام الشرعيّة في أمر الجزية.

---

(١) العتاق من الخيل: الكريمة الأصل، والهجان: ما تلده برذونة من حصان عربي.

(٢) يحتاط به: المراد أنه ينبغي للإمام أن يحتاط باشتراط ذلك عليهم ليعاملهم بمقتضاه.

(٣) ما بين قوسين زيادة يقتضي السّياق إثباتها، وعبارة الأحكام السلطانية ص ٢٥١ «ولا تجب الجزية عليهم في السّنة إلّا مرّة واحدة».

(٤) التكملة عن الأحكام السلطانية ص ٢٥٢.

(٥) أهل العهد: من كان بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاق.

(٦) غُنْمُ أموالهم: الفوز بها.

وأوّلُ ما ضُربت ٱلجزية وجُعِلتْ على الرؤوس في خلافة[١] عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ وكانت قبل ذلك تُحمَل قطائعَ[٢]؛ وٱختُلِف: هل ٱستأداها سَلفًا أو عند ٱنقضاء الحَوْل.

وأما ما اصطلح عليه كُتّاب التصرّف في زماننا هذا من ٱستخراجها وموضع إيرادها في حُسباناتهم، فهُم يستخرجونها سَلفًا وتعجيلًا في غُرّة[٣] السنة، وفي بعض الأقاليم تُستَخرَج قبل دخول السنة بشهر أو شهرين؛ وتُورَد في الحُسبانات قلمًا مستقِلًا بذاته، بعد الهلاليّ وقبل الخراجيّ، وسببُ تأخيرها عن الهلاليّ أنها تُستأدَى مُسانَهةً[٤]، وسببُ تَقدُّمها على الخراجيِّ ما ورد من وجوبها مشاهَرةً على الأشهر من أقوال الفقهاء؛ وقد تقدَّم ذكرُ الحُكم فيمن أسلم أو مات في أثناء الحَوْل، وأنه لا يَلزَمه منها إلا بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته، فلذلك وردتْ بين الهلاليّ والخراجيّ.

وأما نسبتُها في الإقطاعات الجيشيّة عند خروج إقطاعٍ ودخولِ آخر فإنها تَجرِي مَجرى المال الهلاليّ، لأنها تُستخرَج على حكم شهور السَنة الهلاليّة دون الشمسيّة؛ فإن تَعجَّلها مُقطَعٌ في غُرّة السنة على العادة وخرج الإقطاعُ عنه في أثنائها بوفاةٍ أو نقلة إلى غيره استَحقّ منها نظيرَ ما مضى من شهور السنة إلى حين ٱنتقاله، لا على حُكم ما ٱستَحَقّ من المُغَلّ ويَستحِقّ ٱلمتّصلُ من ٱستقبال تاريخ منشوره كعادة النقود؛ وإن تَخلَّل بين المنفصل والمتّصل مدّةٌ كان قسطُها للديوان، يَرِد في جملة ٱلمحلولات من الإقطعات.

وأما ما يَلزَم مباشِرَ الجوالي وما يَحتاج إلى عمله، فالذي يلزمه أن يبسُط جريدةً على أسماء الذمّة[٥] بمقتضَى الضريبة المرفوعةِ إليه، أو الكشفِ الذي كشَفَه إن كان العملُ[٦] مفتوحًا[٧] أو مستجدًا، يبدأ فيها بذكر أسماء اليهود، ويثنّي بالسامِرة[٨] لأنّهم

(١) في كتب الفقه أن الجزية كانت على الرؤوس في عهد النبي ﷺ، فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ ﷺ أمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب من كلّ حالم دينارًا ولم يفضل، (انظر كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٧٢، المطبعة السلفية).

(٢) القطائع: مفردها القطيعة وهي الضريبة، أو ما يقطع من الشيء.

(٣) غرّة السّنة: أولها.

(٤) المسانهة: أي المعاملة بالسنة.

(٥) أي أسماء هل الذمة.

(٦) المراد بالعمل: البلد.

(٧) مفتوحًا، أي مما فتحه المسلمون من دار الحرب.

(٨) السامرة: قوم من اليهود يخالفون غيرهم من اليهود في بعض أحكامهم، منهم السامري عابد العجل.

شَعْبٌ منهم، ويثلِّث بالنصارى، وإن كان في عمله طائفةٌ من الصابئة والمجوس ذَكَرهم بعد النصارى؛ وفي بعض بلاد الشأم تؤخذ الجزية من طائفة تُعرف بالشَّمسيّة، يوحّدون الله تعالى وينكِرون نبوّةَ النبيّ ﷺ، ومنهم من يقول بنبوّة عيسى عليه السلام وأن لا نبيَّ بعده؛ ويكون بَسْطُ الكاتب لهذه الجريدة على التقفية[١] إذا كانت الأسماء كثيرة، ليسهل عليه بذلك الكشفُ والشطب، وإذا ٱستَخرَج جاليةَ أَوْرَدها في تعليق المياوَمة؛ وكَتَبَ له بها وُصولًا[٢]، وشَطَبَها عن ٱسم من ٱستُخرِجتْ منه في جريدته، ويَرمُز في تعليقه إشارةَ الكتابة والخدمة على ما تَقدَّم بيانه في الهلاليّ.

ويَحتاج مباشر الجوالي في كلّ سنة إلى إلزام رئيس اليهود ورئيسِ السامِرة وقِسِّيسِ النصارى أو أُسْقُفِهم[٣] بكتابة أوراق يسمّونها: الرِّقاعَ بمن عند كلّ منهم من الرواتب[٤]، وما لعلّه ٱستَجَدّ من الطَّوارىء[٥] والنَّوابت[٦]، ويعيّن في آخر الرِّقاع من ٱهتدى بالإسلام، ومَن هلك بالموت، ومَن تَسَحّب[٧] من العمل، وإلى أيِّ جهة توجّه، ويَجعل تلك الرِّقاعَ شاهدًا عنده بعد الإشهاد فيها على الصادرةِ عنه بأنه لم يُخلَّ بشيء من الأسماء، ويُلزِمه بكَتْبِ مَشاريحَ[٨] بمن ضَمَّنَ رِقاعَه أنه ٱهتدى أو هلك أو تَسحَّب كلّ اسم بمشروح، ويخلِّد المشاريحَ عنده ويشطُبُها[٩] على جريدته؛ والكتّاب في إيراد من ٱهتَدَى ونَزَح وهَلَك مختلفون: فمنهم من يُوصِل العِدّةَ المستقِرّةَ عنده عن يَمْنة العمل[١٠]، ويَستثنِي بالتعديَةِ عمّن ٱهتَدَى وهَلَكَ وتَسَحّب، كلّ ٱسم بمقتضَى مشروحه المشهودِ فيه، ويبرز بما تَحرَّر بعد ذلك؛ ومنهم من يُوصِل الجميعَ على ما ٱستقرّتْ عليه الحالُ إلى آخر السنة الماضية، ويَستخرِج ممّن ٱستخرج منه، ويَعتدّ بما[١١] يجب على ٱلمهتدى والهالكِ والمتسحِّبِ محسوبًا في باب المحسوب

---

(١) على التقفية: أي حسب القافية. (٢) الوصول: أي الايصال.
(٣) الأسقف: فوق القسيس ودون المطران.
(٤) الرواتب: المراد بها المقيمين، وهو من رتب رتبًا إذا أقام بالبلد.
(٥) الطوارىء: الذين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه.
(٦) النوابت: جمع نابتة، أي النشء الصغار، والمراد بهم هنا من دون البلوغ.
(٧) تسحّب: أي نزح من بلد إلى بلد آخر، يظهر أنها عامية.
(٨) المشاريح، المراد بها الشروحات.
(٩) يشطبها: أي ينقلها من المستندات إلى الدفاتر.
(١٠) المراد بالعمل هنا: ما يسميه الكاتب بالقائمة.
(١١) يقال: اعتددت بالشيء: أي أدخلته في العدّ والحساب.

قَبْل فَذْلكة الواصل في الرِّقاع ـ على ما نبيّنه إن شاء الله في الأوضاع الحسابيّة ـ ويكون ما على النازحين موقوفًا إلى أن يتحرَّى أمرهم؛ فإن عاد أحدٌ منهم إلى ذلك الإقليم ولم يكن قد قام بالجزية في بلد آخر ٱستُخرِجتْ منه، ووَرَدتْ في باب المضاف في حساب السنة، وإن كان قد قام بالجزية في بلد آخرَ وأحضَر وُصولَ مباشِر تلك الجهة بما ٱعتَدّ له به عن تلك السنة، نَقَل مَبلغَ الوُصول على تلك الجهة التي حَضَر وُصولُها قربت أو بعدت، وٱستَشهَد في حسابه بمقتضى الوُصول؛ وكلتا الطريقتين سائغةٌ[1] عند الكُتّاب؛

وأما النَّوابت[2] والطَّوارىء فإنها تَرِد في باب المضاف باتفاق الكُتّاب في أوّل سنة، وتستقِرّ أَصْلًا في السنة التي تليها وما بعدها؛ ويحتاج المباشر إلى تفقُّد أحوال النوابت في كلّ مدّة لاِحتمال بلوغ صبيٍّ في أثناء ٱلحَوْل[3]، واختبار ذلك بأمور شرعيّة واصطلاحيّة: أما الشرعية فبإنبات[4] الشَّعر الخَشِنِ، أو بكمال خمسَ عشرةَ سنة؛ وأما الاصطلاحيّة فبانفراق رأسِ الأنف، وغَلَظ الصوت، وبظهور شيء على حَلمَة الثّدْيِ من باطنه كالتُرمُسة[5]، وبأن يُدارَ خَيطٌ على عنق الصبيِّ مرّتين تحريرًا، ثم يوضَع طرفُ الخيط بين أسنانه وتُدخَل أُنْشُوطةٌ[6] في رأسه، فإن دخلت دلّ ذلك على بلوغه، وإلا فلا؛ وٱصطَلَح بعضُ مباشِري الجوالي في بعض الأقاليم على إلزام عُرَفاء الذمّة[7] بالمطالَعةِ بكل صبيٍّ يُولَد لوقتِه، وبمن هلك منهم، ويرضّع أسماءهم في جريدة مفرَدةٍ بهم، فمن بلغ عمره ثلاثَ عشرةَ سنةً استَخرَج منه ٱلجزيةَ سواء ظهرت أماراتُ بلوغه أم لا، ويلازم المباشرُ الكشفَ والتنقيبَ عمّن لعلّه أُخفِيَ من الرواتب، أو ٱستجدّ من الطَّوارىء والنَّوابت ولم يُرِد الدفع، فمن ظهر له أمرُه ٱستَخرَج الجاليةَ منه لاستقبال وجوبها عليه، ويقابل من أخفاه بالإهانة والنكال؛ والمباشَرةُ تُظهِر ما لا تحيط به الكُتُب؛ هذا ما يتعلّق بالجوالي، فلنذكر الخراجيّ ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(١) السائغة: الجائزة.
(٢) النوابت: جمع نابتة أي النشء الصغار.
(٣) الحول: السنة.
(٤) يقال: أنبت الغلام، إذا نبت شعر عانته، وهو معتبر لبلوغ صبيان أهل الذمة لأنه لا يمكن الوقوف على سنهم لاتهام أقوالهم.
(٥) الترمسة: ثمرة الترمس، وهو حبّ مضلع محزز.
(٦) الأنشوطة: ربطة دون العقدة، إذا شدّت من أحد طرفيها انحلت.
(٧) المراد بالذمّة: أهل الذمة.

ذكر جهات الخراجيّ وأنواعه وما يحتاج إليه مباشره

والخراجيُّ عبارةٌ عما يُستأدَى مسانَهةً مما هو مقرَّرٌ على الأراضي المُرصَدة للزراعة والنخلِ والبساتينِ والكروم والطواحينِ السنويّةِ التي تدور أحجارُها بمياه السيول في ٱلجهات الشاميّة، وما يُستأدَى من خدم الفلّاحين، ويسمَّى ذلك بمصر: الضِّيافة، وبالشأم: رَسْمَ الأعياد والخميس، وهو أغنامٌ ودَجاجٌ وكَشْكٌ وبَيض ـ على ما ٱستقرّ على كلِّ جهة ـ وهو إنما يكون على النواحي الإقطاعيّة غالبًا، وأما في نواحي الخاصّ فلا يُستأدَى، لِما هو مقرر على الأراضي بمصر من الحقوق التي تُستخرَج دراهمَ، وبالشأم من التَّضْييف[1] المقرَّر عليهم في أيّام الفَتْح[2] عن مدّة ثلاثة أيّام؛ ومن أبواب الخراجيّ ما يُستأدَى بالشأم في خدمة رؤساء الضِّيَاع في مقابَلة ما لهم من المُطلَقِ والوُلاةِ والوكلاءِ والنُّقباءِ والصَّيارِفةِ والكيّالين والضَّوئيّة[3] في مقابلَة ما يستأدونه من الرسوم، وذلك يَرِد في أبواب المضاف؛ والخراجيُّ تختلف أحكامه وقواعده بمصر والشام؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

أما الديار المصريّة وأوضاعها وقوانينها وما جرت عليه قواعدها على ما ٱستَقَرّ في زماننا هذا وتَداوَله الكُتّاب، فقانون الديار المصريّة مبنيٌّ على ما يَشمَله الرِّيُّ من أراضيها ويعلوه النيل؛ وقد ذكرنا في باب الأنهار في الفن الأوّل من كتابنا هذا نِيلَ مصر، ومَبدأَه، والاختلافَ فيه، وما يَمُرُّ عليه من البلاد، وكيفيّةَ الانتفاعِ به مِن حفْرِ التُّرَع[4]، وضبْطِ ٱلجُسور، وتصريفِ المياه عن الأراضي بعد رَيِّها؛ ونِيلُ مصر هو من أعاجيب الدنيا، وقد رُوِيَ عن ذي القرنين أنه كتب كتابًا عمّا شاهده من عجائب الوجود فذَكَر فيه كلَّ عجيبة، ثم قال في آخره: وذلك ليس بعَجَب، ولكن العَجَب نِيلُ مصر، ولولا ما جعل الله تعالى فيه من حِكمة هذه الزيادةِ في زمن الصيف على التدريج حتى يَتكامَل رِيُّ البلاد، وهبوطِ الماء عنها عند بَدْءِ وقتِ الزراعة لفسد أمرُ هذا الإقليم، وتَعذَّرتْ سكناه، إذ ليس به أمطارٌ كافية ولا عيونٌ سارحةٌ[5] تعمّ

(١) التضييف: من الضيافة.
(٢) المراد بهذا القول صلح عمر رضي الله عنه لنصارى الشام على ضيافة من يمرُّ بهم من المسلمين ثلاثة أيّام ممّا يأكلون من غير أن يكلّفوا ذبح شاةٍ ولا دجاجة، وتبييت دوابهم من غير شعير، وجعل ذلك على أهل السّواد دون المدن. (الأحكام السلطانية، ١٣٨، ط، مصر).
(٣) الضّوئيّة: نسبة إلى الضوء، والمراد بهم الذين يحملون المصابيح ويمشون بها ليلًا.
(٤) الترع: مفردها: الترعة، وهي القناة الواسعة للسقي أو الملاحة.
(٥) السارحة: الجارية.

أراضيَه، وليس ذلك إلا في بعض إقليم الفيّوم[١]؛ فسبحان من بيده الخلقُ والأمرُ القادِرِ على كلّ شيء، والمدبِّرِ لكلّ شيء، سبحانه وتعالى لا إله إلّا هو.

والذي يحتاج إليه مباشرُ الخراج بمصر ويَعتمِد عليه في مباشَرته أنه إذا شَمِل الرِّيُّ أرضَ الجهة التي يباشرها أن يبدأ بإلزام خوَلَة[٢] البلاد برَفع قوانين الرِّيّ، وصورتُها أن يكتب في صدر القانون ما مثالُه: قانونٌ رَفَعه كلُّ واحدٍ من فلان وفلان الخَوَلَةِ والمشايخ بالناحية الفلانيّة، بما شَمِله الرِّيُّ وعلاه النِّيلُ المبارك من أراضي الناحية لسنة كذا وكذا ٱلخراجيّة، وهو من الفُدُن[٣]؛ ويذكُرون جملةَ قانون البلد، ويُفَصِّلونه بالرِّيِّ والشَّراقِي، فالرِّيُّ: ما شَمِله النيل. والشراقِي: ما لم يشمله؛ وللرِّيِّ تفصيل: منه ما هو نَقاء[٤]، ومنه ما هو مزروعٌ، وخِرْسٌ[٥]، وغالب، ومستبحِر؛ ويُفصَّل بقبائله[٦]، ويُشرَح في كل قَبالة هذا التفصيل؛ والنقاء: هو الطينُ السوادُ[٧] الذي يَصلُح للزراعة ويَنبُت فيه إذا لم يُزرَع ٱلكلأُ الصالحُ للرَّعْي، ويسمَّى نباتُه بصعيد مصر: الكُتَّيْح، وهو نباتٌ تَستغنِي به ٱلخيلُ والدوابُّ والماشيةُ عن البِرسيم[٨]. وأما المزروع: فهو ما عادتُه أن يُزرَع في كلّ سنة. وأما الخِرْس: فهو الأرض التي تَنبُت فيها الحَلْفاء[٩]، فلا تُزرَع إلا بعد قلعها منها وتنظيفِها، وقَطِيعتُه[١٠] دون قطيعة النَّقاء. وأما الغالب: فهو ما غَلَبتْ على أرضه الحَلْفاء وتكاثفتْ فلا تُقلَع إلّا بكُلْفة، وقَطِيعتُه دون قطيعة ٱلْخِرس، وقلّما يُزرَع، وأكثرُ ما يكون ٱلخِرْس والغالبُ ببلاد الصعيد الأعلى لسعتها، وكثرةِ أرضها، وتعطيلِها من

---

(١) الفيّوم: ولاية بمصر بينها وبين الفسطاط أربعة أيام وهي في منخفض الأرض كالدّارة، ويقال: إنّ النيل أعلى منها، وأن يوسف الصديق عليه السلام حفر نهرًا عظيمًا إليها في سنوات الجدب. (انظر معجم البلدان ٤/ ٢٨٦).

(٢) خولة البلاد: مفرده خولى وهو الذي يقيس الأرض بقصب المساحة.

(٣) الفُدُن: جمع فدّان قيل: الفدان: نبطي معرّب، وهو مقدار معلوم من الأرض...

(٤) النقاء: الأرض النقية ممّا يعوق الزارعين عن زراعتها.

(٥) الخرس: الأرض التي تنبت فيها الحلفاء، ولا تزرع إلّا بعد قلعها منها وتنظيفها.

(٦) القبائل: جمع قبالة بفتح القاف، وهي الأرض التي يقبلها أصحابها أي يضمنونها بمبلغ من المال يؤدّونه عنها في كلّ سنة.

(٧) السّواد: أي ذوا السّواد، وهذه التسمية لا تزال مستعملة بين العامة حتى اليوم.

(٨) البرسيم: عشب حولي يزرع في مصر، ويستعمل في العلف رطبًا ويابسًا.

(٩) الحلفاء: نبت من الأغلاث، وقلّما تنبت الحلفاء إلّا قريبًا من ماء أو بطن واد، وتأكل منها الإبل والغنم أكلًا قليلًا، وهي أحبّ شجرة إلى البقر.

(١٠) القطيعة: الضريبة.

الزراعة سنةً بعد أخرى. وأما المستبحِر: فهو أراضي الخلجان المشتَغِلة التي تستمِرّ المياه فيها إلى أن يَفُوت زمنُ الزراعة، فمنها ما يُبوَّر، ومنها ما يُزرَع مَقاثىء[١]، وقَطِيعتُه متوسّطة، وتكون غالبًا بالدراهم دون الغلّة. وعندهم أيضًا الترطيب[٢]: وهو الذي تَخلّلت المياه باطنَ أرضه شبه النزّ[٣] ولم تَعلُها، ولا تَصلُح لغير المقاثىء؛ فإذا رُفِع إلى المباشر قانونُ الرّي أشهدَ فيه على رافعِيه بأن الأمر على ما تَضمَّنه؛ ثم ينظُر المباشرُ إلى سنة يكون نيلها نظيرَ نيل تلك السنة، ويبرز الكشوف، ويُحضّر[٤] البلد على الفلّاحين القَراريّة نظيرَ ما حضّروه في السنة الموافق نِيلُها لنِيل تلك السنة الحاضرة، ويُشهِد على كلّ مزارعٍ بما يُسجِّله من أراضي كلّ قَبالة[٥] وقَطيعتِها المستقرّة، ويعيِّن منها ما هو بحقوق وما هو بغير حقوق، والحقوقُ: دراهمُ يَقُوم بها المزارع عن كلّ فدّان غير الغلّة، وتكون من أربعة دراهمَ إلى درهمين، والغلّةُ بحَسَب قَطيعة الأرض وعادتِها، وأكثرُ ما عُرِف من الخراج عن كلّ فدّان ـ وهو أربعُمائة قصَبة بالقصَبة[٦] الحاكميّة، والقصَبةُ ستة أذرعٍ وثلثا ذراع بذراع القماش ـ ثلاثة أرادبّ[٧]، وهذه الأرض جزيرةٌ بالأَقْصُر من أعمال قوص، وأقلّ ما علمناه من القطيعة عن كل فدان سدسُ إردبّ، وهي في الأراضي التي غَلَبت عليها الأخراسُ وقلّ الانتفاع بها، فهي تُسَجَّل بهذه القطيعة عليها، وتنصلح في المستقبل؛ وأما الأراضي التي تُسَجَّل بالدراهم فأكثرُ ما علمناه بأراضي الجِيزيّة[٨] قُبالَة فُسطاط[٩] مصر عن كلّ فدّان مائتان وخمسون درهمًا، وهو كثير في أراضيها وسُجّل في بعض السنين ثلاثةُ أفدنة بألف درهم، ولَم تستقِرّ هذه القَطيعة، وهذه الأراضي تُزرَع غالبًا كَتّانًا؛ فإذا تكامل تحضير البلدِ على

(١) المقاثىء: أنواع القثاء.

(٢) الترطيب: المراد بها الأرض الرّطبة.

(٣) النزّ: ما يتحلّب من الأرض من ماء.

(٤) يحضّر: من التحضير وهو التسجيل، وهو من المحضر بمعنى السّجل.

(٥) القبالة: الأرض التي يقبلها أصحابها أي يضمنونها بمبلغ من المال يؤدّونه عنها في كلّ سنة.

(٦) القصبة الحاكمية: كأنها حرّرت في زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي فنسبت إليه وطولها ستة أذرع بالهاشمي، وخمسة أذرع بالنجاري، وثمانية أذرع بذراع اليد. (انظر صبح الأعشى ٣/ ٥١٢، دار الكتب العلمية).

(٧) الأرادب: مفردها «الإردب»: وهو مكيال يسع أربع وعشرين صاعًا أو ست ويبات.

(٨) الجيزية: نسبة إلى الجيزة وهي بليدة في غرب الفسطاط، ولها كورة واسعة، وهي من أفضل كور مصر. (معجم البلدان ٢/ ٢٠٠).

(٩) الفسطاط: مدينة مصر العتيقة التي بناها عمرو بن العاص في موضع فسطاطه وهو بيت يتخذ من شعر. (انظر معجم البلدان ٤/ ٢٦٢).

المزارعين القَراريّة والطَّوارىء نظم المباشرُ أوراقًا بجملة ما ٱشتمل عليه التحضيرُ مفصَّلةً بالأسماء والقبائلِ والجزائر والجُروف، وتَكتُب عليها الشهودُ الذين حُضِّرَ البلد بحضورهم، ثم يَصْرِف لكلِّ مزارع ما جرت العادة به من التَّقاوِي[١] بحَسَب ما يُسَجِّله، ويكون ما يَصرِفه من التقاوي من أَطْيَب الغلال وأَفْضَلِها وأَنْصَعها، ثم يَبسُط جريدةً على أوراق السجّلات يَشرَح فيها ٱسمَ كلّ فلّاح وما يُسَجّله من الفُدُن، ويفصِّل ذلك بقبائله وجهاتِه وقطائِعِه؛ فإذا نبت الزرعُ وٱستوى على سُوقه نَدَب[٢] عند ذلك من يباشر مساحة الأراضي: من شادٍّ وعُدولٍ ذوِي خِبْرة بعلم المساحة، وكاتبٍ عارفٍ خبيرٍ أمين، وقصّابين: وهم الذين يقيسون الأراضيَ بالأحكام الحاكميّة المحرَّرة؛ فيمسحون الأراضيَ المزروعةَ بأسماء أربابها وقبائِلها، ويعيِّنون أصنافَ المزروعات بها، ويكون مباشرو المساحة قد بسطوا أيضًا سِجلّات التحضير، فإذا تكاملت المساحة نظم مباشروها أوراقًا يسمّونها: المكلّفة، يترجَم صدرُها بما مثاله مكلّفةُ تأريج[٣] فُنْداقِ مساحةِ الأراضي بالناحية الفلانيّة لمُغَل سنةِ كذا وكذا الخراجيّة. والتأريجُ: هو الأوراق التي يبسُطها مباشرُ المساحة بما في السِّجلّات ويختِمها بما انتهت إليه المساحة. والفُنْداق: هو عبارة عن التعليق، وهو الذي تُكتَب فيه المساحاتُ حالَ قياسها. فإذا انتهت ترجمةُ صدرِ المكلّفة عَقَد جملةَ فُدُنها[٤] في صدرها وفصَّلها بأصناف المزروعات وأسماء المزارِعين، فإن طابقت المساحةُ السِّجلّات من غير زيادة ولا نقص قال: وذلك بمقتضَى السِّجلّات، وإن تميّزتْ قال: ما تضمّنتْه السِّجلّات كذا، زائدُ ٱلمساحة كذا، وإن نَقصتْ ذَكرَ ما صحّ بمقتَضى مساحته، وكمَّلَه بالقلم تَتِمّة؛ وإن نَقَص مزارعٌ عن سجلّه في قَبالةٍ وزاد على سِجلّه في قَبالةٍ أخرى كَمَّلَ عليه[٥] ما نقص بمقتضَى سِجلّه، وأورد ما زاد في القَبالة الأخرى زيادة، ولا يَنقُل الزائدَ إلى الناقص، ويُلزِمه المباشرُ بالقيام بخراج ما نقص من تلك القبالة وما زاد في الأخرى؛ هذا مصطلَحُهم، وليس هو منافيًا للشرع، إلا أنّني أرى في هذا النقص تفصيلًا هو

(١) التّقاوي: ما يعزل من الحبوب للزرع، وهي عاميّة.
(٢) ندب: وجّه وكلّف.
(٣) التأريج: من أرّج والأوارجة: من كتب أصحاب الدواوين في الخراج ونحوه، ويقال: هذا كتاب التأريج.
(٤) الفُدُن: جمع فدّان.
(٥) كمّل عليه: أي كتب ذلك عليه كاملًا، وإن لم يكن كاملًا عند المساحة.

طريقُ العدل والحقّ، وهو إن كان النقص مع وجود أرض بائرة[١] بتلك القَبالة لَزمه القيامُ بخراج النقص، لأنه عطّلها مع قدرته على الانتفاع بها وزراعتِها؛ ويسلّم إليه من الأراضي البائرة التي شَملها الرِّيُّ بتلك القَبالة نظيرَ ما نَقَص عنده لينتفع بما لعلّه نبت في تلك الأرض من الكَلإ؛ وإن كان النقص مع تغليق[٢] أرضِ تلك القَبالةِ بالزراعة فلا شيء عليه لأنه لم يتسلّم ما بسِجلّه، ويعتدّ له بما لعلّه زاد على تسجيل غيره بتلك القَبالة، فإنه يعلم بالضرورة القطعيّة أن الذي زُرِع بها أكثَرُ مما بسجلّه أُخِذ من جملة سجلّ غيره؛ وإن صحّت تلك القَبالة في جميع[٣] المزارعين بمقتضى سجلّاتهم بغير زيادة، ونَقَص عند واحد بعينه جميعِ ما ٱشتملت عليه المساحة بها، فإن وافق جملةَ قانونها تَعيَّن أن الخلل إنما جاء من قِبل المباشر، لأنه سَجَّل في قَبالة أكثرَ من قانونها، فلا يُلزَم المزارعُ بالنقص؛ هذا هو العدل والإنصاف، فمن خرج عنه فقد ظلم وحاف[٤]؛ فإذا تَكمَّلتْ تكملة المساحة وضع المباشرُ زائدَ مساحةِ كلِّ ٱسم تحت ٱسمِه، وضمّه إلى سجلّه، ورَفَع[٥] الجملَة بالعَين والغلّة، وأضاف [إلى][٦] كلِّ ٱسم ما لعلّه قد تَسلَّمه من تَقاوٍ وقُروض، وما عليه من عُشْرٍ ووفرٍ ورسوم، وما لعلّه ٱنساق من الباقي إلى آخر السنة الماضية إن كان؛ وهم يُضِيفون عُشْرَ التقاوي، وهو حرام لا شُبْهَةَ في أخذِه، وهو الرِّبا بعينه، فإنه يُقرض الرجلَ عشرة فيأخذها أحدَ عشَر؛ ويُضِيفون أيضًا في بعض البلاد عُشرَ العُشر فيَقبِضُ كلَّ مائة إردبٍّ مائةَ إردبٍّ وأحدَ عشرَ إردبًّا؛ وإنما ٱشتدّت هذه المظالم وأُحدِثت من قِبَل أرباب البذور الذين يَقترِفون المظالم ولا يجدون من يردعهم ويُردّهم عنها فتستمرّ، وهي من السنن السيئة التي عليهم وزرُها ووزرُ مَن عَملَ بها إلى يوم القيامة.

ثم يَعقِد المباشر على جميع ذلك جملةً ويشطُبها بما يستخرجه منه ويحصّله، والذي تنعقد عليه الجملة هو ما تَعيَّن عليه للديوان أَنجَب زرعُه أو لم يُنْجِب؛ ومهما ٱستخرجه منه وحصّله وأحال به كَتَب به وُصولًا؛ فإذا غَلَّق كلُّ ٱسمٍ ما عليه أجاز عليه

(١) البائرة: الأرض التي لم تعمر، أو التي تركت سنة لتزرع من قابل.
(٢) التغليق: التكميل والتتميم.
(٣) في جميع: أي في مساحات جميع.
(٤) حاف عليه: ظلمه وجار.
(٥) يقال: رفع الحاسب حسابه: إذا عدّده ثم أجمله، ويقال لجملته وفذلكته: مرفوع، وهذا اصطلاح للحساب والكتاب مشهور في كتبهم ورسائلهم.
(٦) ما بين قوسين تكملة يقتضي السّياق إثباتها.

إشارةَ التغليق، وإن بقِيَ عليه شيء ممّا تَعيَّن عليه طَرْدَه للباقي؛ هذا حكم الأرض التي تُسجَّل بالغلّة.

وأما ما يُسجَّل بالنقد فإنه تَتَساوَى عليه ثلاثةُ أقساط أو قسطان: قسطٌ من ثمن البِرسيم الأخضر عند إدراكه وبيعه لربيع الخيل، وقسطٌ من الكَتّان عند قلعه إن كان، وقسطٌ عند إدراك المُغَلّ والمَقاثىء، ومنهم من يسجِّل بالنقد الحاضر جملةً واحدةً في وقت السجلّ؛ هذا حكم خراج الزراعة.

وأما الخراج الراتب، فهو لا يكون إلا بالنقد عَينًا[١] أو فضّة؛ وهو خراج السواقي والبساتين والنَّخيل؛ وذلك أن أربابه يقاطعون[٢] الديوانَ على فُدُن معيَّنةٍ بمبلغ معيَّنٍ عن كلّ فدان في كلّ سنة يقومون به في أوقات معلومة، رَوِيَت الأرضُ أو شَرَّقتْ[٣]؛ وهم يَحفِرون في تلك الأراضي آبارًا بقدر ما يعلمون أن المياه التي تطلع منها تُروِي تلك الأراضيَ، ويركّبون على أفواه الآبار السواقِيَ المتّخذة من أخشاب السنط[٤] وما ناسبه، ٱلمشهورةَ بالخرير[٥] التي تُعِين على رفع الماء ويسمّونها بديار مصر: المَحال[٦]، وبحماةَ: النواعير، إلا أن النواعير تَدُور بالماء، وهذه تدور بالأبقار؛ ويزرعون عليها بتلك الأراضي ما أحبّوه وٱختاروه من أصناف المزروعات والغُروس لا يطالَبون عليها بغير الخراج المقرَّر، إلا أن يَنْصِبوا[٧] القصبَ فلا يُقتصَر منهم عند ذلك على الخراج، بل للديوان على الأقصاب مقرَّرٌ يستأديه عن كلّ فدّان؛ ويُستأدَى خراجُ الراتب على أقساط في زمن الثمار والأعناب والفواكه وعند ضَرْبِ الوَسْمة[٨] ـ وهي النِّيل الذي يُصبَغ به اللونُ الأزرق ـ وخراج الراتب يستأدَى ممن هو

(١) العين: ما ضرب من الدنانير.
(٢) يقاطعون: من القطيعة، وهي الضريبة.
(٣) شُرِّقت: مصدره التشريف ولعلّه يريد قطّعت أو فلحت أو هي بتخفيف الراء: امتلأت وامتنعت أن يجري الماء فيها. . .
(٤) السنط: شجر من الفصيلة القرنية ثمره القرظ، يعيش في الأقاليم الحارة ويكثر بمصر، واحدته سنطة.
(٥) الخرير: صوت الماء.
(٦) المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي يُستقى بها سمّيت بذلك لأنها تدور فتنتقل من حالة إلى حالة.
(٧) نصب القصب: هي أنّهم إذا هيأوا الأرض لزرعه يلقونه فيها قطعتين، قطعة مثناة، وقطعة مفردة، بعد أن تجعل الأرض أحواضًا وتفرز لها جداول يصل الماء منها إلى الأحواض، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاث أنابيب كوامل وبعض أنبوبة من أعلى القطعة، وبعض أخرى من أسفلها. (خطط المقريزي ١/ ١٠٢، ط، بولاق).
(٨) ضَرْب الوسمة: هو أن يضربوا شجرها بعد جفافه لينحتّ عنه الورق ويسقط.

عليه، زَرَع أرضَه أو عَطّلها، وهو لا يبطل بوفاة ٱلمُقاطَع[١] على الأرض، بل ينتقل على ورثته، ويطالَبون به أبدًا ما تعاقبوا وتناسلوا، ولا يوضع عنهم إلا إن ٱبتلع البحرُ الأرض المُقاطَع عليها بعد أن يعملوا بذلك مشاريحَ تُثبت عند حاكم البلد أن البحر ٱبتَلَع تلك الأراضيَ بكمالها أو بعضها، ولا يَنهض مباشرُ الناحية أو ناظرُ العمل بوضعه مع وجود المَحضَر[٢] الثابت، بل يحضر المقاطع على الأرض أو من انتَقَلتْ إليه بالإرث أو الابتياع إلى باب السلطان، ويرفع قصّةً إلى الوزير بصورة الحال، ويوَقّع عليها بقلمه أن يُوضَع عنه من خراج الراتِبِ بقدر ما ٱبتلعه البحرُ بمقتضى المَحضَر، ويستمرّ حكمُ ما بقيَ، ويكتب على ظهر قصّته: توقيعٌ شريفٌ سلطانيّ؛ ويُثبَت بدواوين الباب السلطانيّ، ثم يُثبَت بديوان العمل ٱلجامع، ثم ينزل في ديوان البلد التي بها تلك الأرض، ويُوضَع عند ذلك من الضريبة الديوانية؛ هذا حُكمُ الخراج بالديار المصريّة وقاعدتُه والعادة فيه.

وأما جهات الخراجيّ بالشام وكيفيّتها وما يعتمد عليه مباشروها ـ فإن قانون البلاد الشاميّة مبنيٌ على نزول الغيث، ووقوع الأمطار في إبّانها[٣] وأوقاتِ الاحتياج إليها، فمن ذلك المطرُ المسمّى: الوَسميّ[٤]، وهو الذي يقع في فصل الخريف، وعند وقوع هذا المطر يُخَدُّ[٥] شَقُّ الأراضي المكروبةِ[٦] بالسِّكك[٧]، ثم يُبذَر الحبّ فيها، ويعاد شقُّ الأرض عليه ليَخفَى عن الطير خشيةَ ٱلتقاطه، فإذا نزل عليه المطر الثاني بعد ذلك نَبت وبَرَز إلى وجه الأرض، وهو عند ذلك يسمّى: الأَحْوَى[٨]، ثم لا تزال الأمطار تسقيه والأنواءُ[٩] تغذيه حتى يصير غُثاء[١٠]، ثم يقع عليه بعد ذلك المطر المُسمّى بالمطر الفاطم، وهو غالبًا يكون في شهر نَيسانَ، ثم يعقد فيه الحبُّ بعد ذلك، وينتهي على عادة الزرع؛ هذا حكمُ ما يُزرع على الوَسميّ.

(١) المقاطع: هو الذي جعلت عليه قطيعة أي ضريبة.
(٢) المحضر: خطّ يكتب في واقعة خطوط الشهور في آخره بصحة ما تضمّنه صدره، وهو اصطلاح حادث.
(٣) إبّانها: أوانها.
(٤) الوسميّ: مطر الربيع الأول، ولعلّه يريد أوّل مطر يسقط بعد انتهاء فصل الصيف. . .
(٥) يخدّ: يشقّ.
(٦) المكروبة: المحروثة وكرب الأرض: قلبها وهيّأها للزرع.
(٧) السّكك: مفردها سكّة وهي حديدة المحراث.
(٨) الأحوى من النّبات: ما يضرب إلى السّواد من شدّة خضرته، وهو أنعم ما يكون منه.
(٩) الأنواء: الأمطار.
(١٠) الغثاء: ما يحمله السيل من رغوة ومن فتاة الأشياء التي على وجه الأرض.

ومن أراضي الشأم [نواحٍ][١] يُغِبّها[٢] الوَسميُّ فيَزرَع سُكّانُها الحبَّ عَفِيرًا[٣]، ومعنى ذلك أنهم يزرعون في الأرض الحبَّ قَبل إبّان الزرع ويَنتظِرون وقوعَ الأمطار عليه؛ ومن غريب ما اتّفق في بعض السنين أنهم أودَعوا الحبَّ الأرضَ على عادتهم فلم تَسقط عليه الأمطارُ في تلك السنة، فاستمرّ في الأرض إلى العام القابل[٤]، وأيس أهلُ البلاد منه، وزرعوا في السنة الثانية شطرَ الأراضي التي كانت كِرابًا غيرَ مزروعة - فإن عادتهم بسائر بلاد الشأم أن كلَّ فلّاحٍ يَقسِم الأراضيَ التي بيدِه شطرين، فيزرع شطرًا، ويُريح شطرًا، ويتعاهده بالحرث لتَقْرَع[٥] الشمسُ باطنَ الأرض، ثم يزرعه في القابل ويُرِيح الشطرَ الذي كان به الزرع؛ هذا دأبهم، خلافًا لأراضي الديار المصريّة، فإنها تُزرَع في كلّ سنة - فلما وقعت الأمطار نَبَت الشطران معًا، وأَقبَلت الزراعاتُ في تلك السنة، فتَضاعَف المُغَلّ، وهذا غريبٌ نادر الوقوع.

ومن أراضي الشأم ما يسقَى بالمياه السارحة[٦] من الأنهار والعيون، وتكون مقاسمةُ أرضه أوفرَ من مقاسمة ما يسقَى بالأمطار، وقيمةُ الأملاك بها أرفع وأغلَى من تلك، ويكون غالبًا في الأراضي المسْتَفِلة[٧]؛ والله تعالى أعلم.

والذي يعتمِده مباشر الخراج ببلاد الشأم أنه يبدأ بإلزام رؤساء البلاد بتغليق أراضيها بالزراعة والكِراب[٨]؛ ومصطلَحُهم في ذلك أن يقولوا: أحمرَ وأخضَر، يَعنُون بالأحمر: الكِراب، وبالأخضر: الزرع شَتويًا أو صيفيًا، ويَعنُون بالشَّتويّ: القمحَ والشعيرَ والشُوفانَ[٩] والفولَ والحِمَّصَ والعدسَ والكِرْسِنّة[١٠] والجُلبّان[١١]

(١) ما بين قوسين تكملة يقتضي السياق إثباتها. (٢) يغبّها: أي يتأخّر عنها.
(٣) زرع العفير: أي بذر الحبوب في الأرض قبل سقيها.
(٤) القابل: المقبل والقادم.
(٥) قرعت الشمس باطن الأرض: أصابته بحرارتها ونورها.
(٦) السّارحة: الجارية.
(٧) المراد بالمستفلة: أي ما اطمأنّ من السّهل وسفُل.
(٨) الكراب: الحرث.
(٩) الشّوفان: نبات من الفصيلة النجيلية، وسيقانه تعلو من قدمين إلى ثلاثة، وهو أنواع كثيرة، أشهرها الشوفان المستنبت وهو أهم علف للخيل، وتعلفه أيضًا الماشية والطيور، ويصنع الفقراء خبزًا من دقيقه، لكنه رديء، وهو ضرب من الشعير ينجرد من قشره...
(١٠) الكرسنّة: شجرة صغيرة لها ثمر في غلف. وتستخدم علفًا للدّواب.
(١١) الجلبان: هو من القطانيّ بتشديد الياء أي الحبوب التي تطبخ. (انظر مفردات ابن البيطار ١/ ٦٤).

والبسْتِيلية[١] وهي التي تسمَّى بمصر: البِسِلَّى، وبالساحل الطرابلُسي: الحالبة؛ ويعنون بالصيفيّ: الذُرَةَ والدُخْنَ[٢] والسِّمسِمَ والأَرُزَّ والحبَّةَ السوداءَ والكُسْبَرَةَ والمقَاثىء[٣] والوَسِمةَ[٤] والقِرْطِمَ[٥] والقطنَ والقُنَّب[٦]؛ ويَكتُب عليهم بذلك مشاريح أنهم لا يبوِّرون شيئًا من الأراضي ومن بَوَّر شيئًا منها كان عليه القيامُ بريْع الغامر[٧] من نسبة العامر؛ فإذا زُرعت الأراضي وبدا صلاحُ الزرع، وأخذ الفول في العقد خرج الوكلاء على الزراعة إلى النواحي يحفظون الزراعة من التَّطرُّق إلى شيء منها، ويلازمونها إلى أن تُحصَد وتُنقَل إلى البيادر[٨]؛ فعند ذلك يخرج الأمر بحفظ ما يصِل إلى البيادر، ويأخذون في الدِّراس[٩]؛ فإذا تكامَل وطابت البيادر ولم يَبقَ إلا التّذريَةُ أَخرَج مذرّيًا ـ ووظيفة المذرِّي أنه يلزمهم بتخليص الغلال من الأقصال[١٠] وتنظيفِها؛ فإذا فعلوا ذلك وخَلَصت الغلال من الأتبان[١١] والأقصار وصارت بيادرَ صافيةً خرج والي العمل ومباشروه إلى تلك الجهة، وتقدّموا[١٢] بتوزيع بيادرها على ضريبةِ الناحية وعادتها في المقاسَمة، مناصَفةً ـ وذلك في أراضي السَّقْي ـ، ومثالَثةً ومرابَعةً ـ وهو في غالب البلاد ـ، ومخامسَةً ومسادَسةً ـ وذلك في المزارع والنواحي الخالية من السكّان التي يزرعها المُسْتَكْرَوْن[١٣] ـ، ومسابَعةً ومثامَنةً ـ وذلك في النواحي المجاورةِ لسواحل البحر والمتاخِمةِ لأطراف بلاد العدوّ؛ فإذا فرغ توزيعها أخذ المباشرون ما يخصّ الديوانَ من التوازيع، ثم يُحزَر[١٤] ما لعلّه تأخّر من الغلال في عَرَصات[١٥] البيادر

(١) البستيلية: أو البسلي، يقل زراعي حولي من القرنيات الفراشية ضروبه كثيرة، وتطبخ قرونه وبزوره.
(٢) الدُخن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس كحب السمسم، ينبت بريًا ومزورعًا.
(٣) المقاثىء: المراد به القثاء نفسه. (٤) الوسمة: ورق النيل الذي يصبغ به.
(٥) القرطم: حبّ العصفر.
(٦) القنّب: ضرب من الكتان، وهو الغليظ الذي تتخذ منها الحبال وما أشبهها.
(٧) المراد بالغامر: الذي لا نبات فيه.
(٨) البيادر: المواضع التي يداس فيها الفول والحنطة ونحوها.
(٩) الدِّراس: الدوس على الحبوب بخشبة مستطيلة يبلغ طولها مترين وعرضها نصف طولها تسمى «المورج» يجرها ثور أو نحوه، يدور بها فوق الحب ويقف الدارس عليها.
(١٠) الأقصال: مفردها القصيل، وهو ما اقتطع من الزرع أخضر لعلف الدواب.
(١١) الأتبان: مفردها: التبن، وهي ما تهشم من سيقان القمح والشعير بعد درسه، تعلفه الماشية.
(١٢) يقال: تقدم إليه بالشيء، أي أمره به. (١٣) المُستكرَون: من استكرى أي استأجر.
(١٤) يحزر: أي يقدّر بالظنّ والحدس.
(١٥) العرصات: مفردها العرصة، وهي البقعة الواسعة.

والأقصالِ[١] وأعقاب التّبّانات والعفائر[٢]، ويؤخَذ منه ما يخصّ الديوانَ من نسبة المقاسَمة، ويكمَّل على الفلّاح على حُكم ضريبة ذلك العمل؛ وفي بعض النواحي يكون من المواسطة، فتُفرَد لها توزيعة بمفردها، ثم يؤخَذ من حاصل الفلّاح بعد الرسوم عشرُ ما بقي له؛ وهذا غيرُ مطّرِد[٣] في جميع البلاد، فإنّ في جهات الأوقاف والبِرّ وما يناسبها لا يؤخَذ العشرُ إلا من النصاب الشرعيّ؛ وفي نواحي الخواصّ والإقطاعات يؤخَذ ممّا بقيَ للفلّاح من كلّ عشرة أجزاءٍ جزءًا ممّا قلّ أو كَثُر بحسابه؛ وفي بعض الأقاليم لا يُؤخَذ العشر من المزارعين الذِّمّيّة؛ وأما النواحي الإقطاعيّةُ والأملاكُ التي أعشارُها ديوانيّةٌ فمنها ما عليه ضريبةٌ مقرَّرةٌ تؤخذ في كلّ سنةٍ زاد المُغَلّ أو نَقَص، ومنها ما يُندَب له من يقف على النواحي ويَحزُرُ ما بها من الغلال ويقدِّر العشرَ عنها، ويكون هذا الحَزْرُ والزرعُ قائمٌ أو حصيدٌ قبل دِراسه، ثم يستعاد بعد ذلك من الفلّاحين ما لعلّه عليهم من التقاوِي[٤] والقُروض، وتكون بمفردها مرصَدةً لتَقاوِي ٱلسنة الآتية؛ ثم يُعتبَر ما يَتحصّل من الغلال على ٱختلاف أصنافها بالكيل المتعامَلِ به في ذلك الإقليم، وتُعمَل بذلك مخازيمُ[٥] على العادة مفصَّلة بالأسماء وأصلِ المقاسَمة والرسومِ والعشرِ وما لعلّه ٱستعيد من التقاوِي والقُروض؛ وعند تكامُل قَسْمِ نواحي كلّ عملٍ يُنْظَم على المخازيم عَمَلٌ[٦] بالمتحصَّل على ما نشرحه إن شاء الله تعالى في الأوضاع الحسابيّة؛ هذا ما يعتمده في الغلال.

وأما الخرّوبُ والزيتونُ والقطنُ والسُّمّاقُ[٧] والفستقُ والجوز واللّوز والأَرُزّ فإنّ الوكلاء تستمرّ على حفظ ذلك إلى أن يصير في بيادره، ويُقسَم على حُكم الضريبة ويحصَّل ويُورَد على المتحصّل.

وفي بعض الأعمال الشاميّة نواحٍ مفصولةٌ ومضمَّنةٌ على أربابها بشيء معلوم يؤخَذ منهم عند إدراك المُغَلّ من غيرِ توكيل ولا مقاسمة، وهي نظيرُ المتأجَرات

(١) الأقصال: مفردها القصلة، وهي الطائفة المتقطعة من الزرع.
(٢) العفائر: لعلّها من العفر، وهو وجه الأرض.
(٣) المطّرد: الذي يجرى مجرىً واحدًا منسّقًا.
(٤) التقاوي: من الحبوب ما يُعزل لأجل البذر.
(٥) المخازيم: مفردها المخزومة: وهي نوع من الدفاتر يخرق.
(٦) المراد بالعمل: نوعٌ من القوائم يعمله كتاب الدواوين.
(٧) السُّمّاق: من شجر القفاف والحبال، وله ثمر حامض عناقيد فيها حبّ صغار.

بالديار المصريّة؛ ولفظُ الفصل[١] بالشأم كلّه كلمة فَرَنجيّة، وٱستمرّ ٱستعمالها في البلاد الساحليّة التي ٱرتجِعت من أيدي الفَرَنْج جريًا على عادتهم.

وأما خراج العين[٢] فهو مقرَّر على البساتين والشجريّات والكروم والمقاثىء ويُستخرَج على حكم الضريبة عند إدراك كلّ صنف.

ومن أبواب الخراجيّ الخِدَمُ التي تقدّم ذكرُها، ومقرَّرُ القصب[٣] والبرود[٤] والبُسطِ، وعُشْرُ العَرَق[٥]، وغيرُ ذلك مما يطول شرحه، إلّا أن جميعَ ما يُستخرَج من الأراضي منسوبٌ إلى الخراج.

ومن أبواب الخراجيّ الأحكارُ على ما فيها من الاختلاف؛ ومهما ٱستخرجه المباشر وحصّله من ذلك يَعتمِد في إيراده نحوَ ما شرحناه في الهلاليّ: من إيراده في تعليق المياوَمة، وشَطْبِه على الجريدة المبسوطة على أبوابه؛ هذا حكم الهلاليّ والجوالي والخراجيّ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما ما يشترك فيه الهلاليُّ والخراجيُّ ويختلف باختلاف أحواله فجهاتٌ، وهي المراعي والمصايدُ والأحكار[٦].

أما المراعي ـ فالذي يَرِد منها في أبواب الهلاليّ ما ٱستقرّ حُكمه بجهة، وتَقرَّر في كل سنة، وصار ضريبةً مقرَّرة؛ فمن المباشرين من يَقبضه على شهور السنة، ويستخرجه أقساطًا، ويورده في جملة أبواب الهلاليّ؛ والذي يَرِد منه في أبواب الخراجيّ هو ما يُستخرَج من أرباب المواشي في كلّ سنة عند هبوط نيل مصر ونباتِ الكلإِ، في مقابلة ما رعته مواشيهم من نبات الأرض، وهو يزيد وينقُص بحسب كثرة المواشي وقلّتها؛ وعادتُهم فيه أن يُندَب لمباشَرة ذلك مشدٌّ[٧] وشَهود وكاتب، ويعدّوا الأغنام وغيرَها، ويَستخرِجوا من أربابها عن كلّ رأسٍ شيئًا معلومًا بحسب ضريبة تلك

---

(١) الفصل: لعلّ أصل هذه الكلمة في اللغة الفرنسية «Vassal» ومعناه التابع الذي أعطاه متبوعه إقطاعًا نظير واجبات يؤدّيها، ولعل أهل الشام اشتقوا منه الفسل وأرادوا به المعنى المصدري: أي التبعية، ثم حرّفته ألسنتهم إلى «الفصل».

(٢) العين: في الأصل ما ضرب من الدّنانير. (٣) القصب: ثياب رقاق ناعمة من كتان.

(٤) البرود: مفردها البُرد وهو ثوب مخطط يلتحف به.

(٥) العرق: دبس التمر أي عسله.

(٦) الأحكار: مفردها الحكر، وهي العقار المحبوس.

(٧) المشدّ: المتولّي.

ٱلجهة وعادتِها؛ وهو على هذا الوجه لا ينبغِي إيراده إلا في أبواب الخراجيّ؛ ومن الكتّاب من يُورِده في أبواب الهلاليّ، وهو غلط.

وأما المصايد[(١)] ـ فمنها أيضًا ما يورَد في أبواب الهلاليّ كالنواحي التي تصاد بها الأسماك على الدوام، مِثل ثغر دِمْياطَ والبُرُلُّس[(٢)] وجنادل[(٣)] ثغر أُسوانَ وأشباهِ ذلك بالديار المصريّة، وبالشأم مثل نهر العاصي[(٤)] وبُحَيرةِ طَبَرِيَّة، وغيرِهما من الأنهار والبِرَك؛ ومنها ما يَرِد في أبواب الخراجيّ، وهو ما يصاد من الأسماك عند هبوطِ نيلِ مصر ورجوعِ الماء من المزارع إلى بحر النيل؛ والعادة في ذلك إذا انتهت زيادة النيل وشرع الماء في مبادىء النقص سَكَروا[(٥)] أفواهَ التُّرَع، وسَدّوا أبوابَ القناطر التي عليها حتى يرجع الماء (ويتكاثف ممّا يلي المزارع) ثم ينصبون الشِّباكَ، ويصرفون المياه، فيأتِي السمكُ وقد ٱندفع مع الماء الجاري، فيجِد الشباكَ تَحُول بينه وبين الانحدار مع الماء، فيجتمع فيها، ثم يُخْرَج منها إلى البَرّ، فيوضع على نخاخ[(٦)] ويملَّح ويودَع في الأمطار، وأكثرُ ما يكون ذلك في طول الإصبَع ونحوه؛ وله أَسماء: منها البُلْطيُّ[(٧)] والرَّايُ والبُنِّيُّ وغيرُ ذلك، وما يؤكَل منه طريًا بعد قَلْيه يسمّونه الإبسارية؛ ومنها ما يكون بقدر الفِتْر[(٨)]، ويسمّى الشال[(٩)]، وهو يُملَّح أيضًا؛ فهذا الذي يتعيّن إيرادُه في أقلام الخراجيّ، ومنهم من يورده في الهلاليّ، ومن الكُتّاب من يورد المصايدَ والمراعيَ قلمًا مستقلّا بعد الجوالي وقبل الخراجيّ.

وأما الأحكار ـ فقد تقدّم الكلامُ عليها عند ذكرنا للهلاليّ.

---

(١) المصايد: أماكن الصيد، وأوّل من قرّر مالًا في مصر على المصايد أحمد بن محمد بن مدبّر لما ولي خراجها، وقد احتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب في الديوان: خراج مضارب الأوتاد ومغارس الشّباك. (خطط المقريزي ٢/ ٨١ ـ ٩٥).

(٢) البُرُلّس: بلدة بسواحل مصر من جهة الإسكندرية. (شرح القاموس).

(٣) الجنادل: موضع فوق أسوان بثلاثة أميال في أقصى صعيد مصر قرب بلاد النوبة. (معجم البلدان ٢/ ١٦٦).

(٤) نهر العاصي: هو اسم لنهر حماة وحمص، ويعرف بالميماس، مخرجه من بحيرة قدس، ومصبه في البحر قرب أنطاكية.

(٥) سكروا: أي سدّوا.

(٦) النخاخ: جمع نخّ: وهو بساط طويل، وقد شاع في مصر إطلاقه على الحصير الذي يتخذ من البردى ونحوه.

(٧) البلطيّ: إنه من أطيب الأسماك، ويشهبون به المترعرع في الشباب والنعمة.

(٨) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتهما.

(٩) ما تقدّم من الأسماء فهي أسماءٌ لأنواع من الأسماك.

وهذه الاختلافات بين الكُتّاب هي بحسب آرائهم وعاداتِ النواحي وما استقرّت عليه قواعدها؛ وإنما أوردنا ذلك على سبيل التنبيه عليه، وذكرِ مصطلَح الكُتّاب فيه.

وأما أقصاب السكّر ومعاصرها ـ فهي تختلف بحسب الأماكنِ والبقاعِ والنواحي والديارِ المصريّة والشأم، وتختلف أيضًا في الديار المصريّة بحسب الأعمالَ والنواحي والأراضي؛ وقاعدتُها الكليّةُ التي لا تكاد تختلف في الديار المصريّة أن تُختارَ لها الأراضي الجيّدةُ الدَّمِثةُ[(١)] التي شمِلها الرِّيُّ وعلاها النيل، ويُقلَع ما بها من الحَلْفاء[(٢)] وتُنظَّف؛ ثم تُبْرَش بالمقلقِلات ـ وهي محاريثُ كبار ـ ستةَ وجوه، وتجرَّف[(٣)] حتى تُمَهَّدَ، ثم تُبْرَش ستةَ وجوهٍ أخرى وتجرَّف ـ ومعنى البَرْش الحرث ـ؛ فإذا صَلَحتْ وطابتْ ونَعُمتْ وصارت ترابًا ناعمًا وتساوت بالتجريف تُشَقّ عند ذلك بالمقلقِلات، ويُرمَى القصبُ فيها قطعتين: [قطعةً][(٤)] مثنّاةً، وقطعةً مفردة؛ وذلك بعد أن تُجعلَ أحواضًا وتُفرَزَ لها جداولُ يصل الماء منها إلى تلك الأحواض، ويكون طول كلّ قطعة منها ثلاثةَ أنابيبَ كواملَ وبعضَ أُنبوبة من أعلى القطعة وبعضَ أخرى من أسفلها؛ ويُختار برسم النَّصْب من الأقصاب ما قصرتْ أنابيبُها، وكثُرت عيونُها؛ فإذا تكامل النَّصْبُ أعيد الترابُ عليه؛ وصورة النصب أن تكون القطعة ملقاةً لا قائمة؛ ثم يُسقَى من حال نصبه في أوّل فصل الربيع في كلّ أسبوعٍ مرّة؛ فإذا نبت القصب وصار أوراقًا ظاهرةً على وجه الأرض نبتتْ معه الحَلْفاءُ والبقلةُ[(٥)] الحَمْقاء، فعند ذلك تُعْزَق أرضُه ـ ومعنى العَزْق أن تُنْكَش الأرضُ وينظَّف ما نبت مع القصب ـ ويُتعاهد[(٦)] بذلك مرّةً بعد أخرى إلى أن يَغْزُر القصب ويقوَى ويَتكاثف، فلا يتمكّن العُزّاقُ من الأرض، فيقال فيه عند ذلك: طَرَدَ القصبُ عُزّاقَه، وذلك عند بروز الأُنْبُوب منه؛ ومجموعُ ما يُسقَى بالقادوس[(٧)] ثمانيةٌ وعشرون ماءً.

---

(١) الدمثة: السهلة اللينة.

(٢) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.

(٣) تجرّف: تسوّى تربتها.

(٤) لم ترد هذه الكلمة في الأصل والزيادة عن (خطط المقريزي ١/ ١٠٢).

(٥) البقلة الحمقاء: هي المعروفة في مصر بالرجلة، وإنّما سمّيت بذلك لأنها تنبت على مجاري المياه، يمنع عنها الماء فيقتلعها ثم تعود فتنبت أيضًا.

(٦) في كتب اللغة «يُتعهّد» أفصح من أن «يتعاهد، لأنّ التعاهد يكون بين اثنين.

(٧) القادوس: وعاء خزفي كالجرّة، تنتظم منه ومن أمثاله سلسلة تديرها الناعورة فتغرف الماء من البئر إلى المزرعة...

والعادةُ أن الذي يُنصَب من الأقصاب على كلّ محالٍ[١] بَحْرانيٍّ - أي مجاور للبحر - إذا كان مُزاحَ العِلّة بالأبقار[٢] الجياد مع قُرْبِ أرْشِيَة[٣] الآبار ثمانيةُ أفدنة؛ ويحتاج إلى ثمانية أرؤسٍ بقرًا؛ فإذا كانت الآبارُ بعيدةً عن مَجرَى النيل لا يَقُوم المَحال بأكثرَ من ستة أفدنة إلى أربعة أفدنة؛ فإذا طلع النيلُ وارتفع سُقِيَ القصب عند ذلك ماءَ الراحة؛ وصفةُ ذلك أنه يُقْطَع عليه من جانب جسرٍ يكون قد أدير عليه ليقيَه من الغرق عند ارتفاع الماء بالزيادة، فيَدخُل الماء من تلك الثُّلْمة التي فُرِضتْ من الجسر، ويعلو على وجه أرضه نحوًا من شبر، فتُسَدّ عند ذلك، ويُمنَع الماء من الوصول إليه، ويُترَك ذلك الماءُ عليه مقدارَ ساعتين أو ثلاثٍ إلى أن يَسخُن، ثم يُصرَف عنه من جانبٍ آخرَ إلى أن يَنضُب، ثم يجدَّد عليه الماءُ مرّةً أخرى؛ يُتعاهد بذلك مرارًا في أيّام متفرّقة بقدر معلوم، ثم يفطَم بعد ذلك؛ هذا هو القصب الذي يوفَّى حقّه في حرثِهِ ونَصْبِه وسَقْيِه وعَزْقِه[٤] وغيرِ ذلك؛ فما نَقَص من ذلك كان المباشرُ قد أَخَلَّ به إلا النصبَ على الرِّيّ وسقَى ماء الراحة فإنه أمرٌ ربّانيٌّ لا قدرة للمباشر على استجلابه.

ولا غُنْيَةَ للقصب عن القَطْران[٥] قبل أن يحلوَ، فإنه يمنع السوسَ من الوصول إليه؛ وصفةُ ذلك أنهم يجعلون القَطْران في قادوسٍ[٦] مبخوشٍ[٧] من أسفله، ويُسَدّ ذلك البُخْشُ بشيء من الحَلْفاء، ويُعلَّق القادوسُ على جَدْوَل الماء، ويُمزَج القَطْران بالماء فيَقطُر من خلال ذلك البُخْش المسدود، ويمتزج قَطْرُه بالماء الذي يصل إلى القصب، ويحصل به المقصود.

وإن خشِيَ المباشر على القصب من فساد الفأر أدار حوله حيطانًا رقيقة مقلوبةَ الرأس إلى خارج أرض القصب تُسمَّى حيطانَ الفأر، وتُصنَع من الطين المخلوط بالتبن

(١) المراد بالمحال: آلة الريّ التي تسمّى الساقية، والمحال والمحالة: البكرة العظيمة التي يستقى بها.
(٢) بالأبقار: أي يدار بالأبقار.
(٣) الأرشية: مفردها الرّشاء: وهو الحبل، أو حبل الدّلو.
(٤) العزق: شقّ الأرض.
(٥) القطران: عصارة شجر الصنوبر والأرز ونحوهما، تطبخ وتستعمل في بعض الحاجات، أو هو هنا: سائل لزج أسود إلى سمرة يستخرج من الخشب والفحم بالتقطير.
(٦) القادوس: وعاء خزفي كالجرّة. (تقدّم ذكره).
(٧) مبخوش: مثقوب.

فتمنع الفأرَ من الوصول إلى القصب، فإنه إذا تَسلَّق في الحائط وانتهى إلى آخرها منعتْه تلك الحافَةُ المقلوبةُ وأصابت رأسه فيسقُط إلى الأرض.

هذا ما يلزم المبَاشِرَ الاحتفالُ به واعتمادُه في أمر القصب.

فإذا كان في أوّل كيهك[١] من شهور القبط كُسِرت الأقصابُ وقُشِرتْ، ونُقِلتْ إلى المعاصر؛ وإذا كان في أوان نصب القصب من السنة الثانية حُرقتْ آثار الأقصاب وسُقِيتْ وعُزِقتْ كما تقدّم، فتُنبِت أرضُها القصبَ؛ ويسمُّونه بمصر: الخِلْفَة، ويسمّون الأوّل: الرأس؛ وقنود[٢] الخلفة في الغالب أجوَدُ من قنود الرأس.

ذكر كيفية الاعتصار والطبخ وتقدير المتحصّل

الذي جرت عليه العادة بالديار المصرية أن الأقصاب إذا نُقِلت من المَكْسِر إلى المعصرة على ظهور الجمال أو الحمير وُضِعت في مكان برسمِها يسمَّى دارَ القصب، بها وَتَراتٌ[٣] وحطبٌ ورجالٌ مُرْصَدون لإصلاح القصب بالسكاكين الكبار التي مقدارُ حديدِها ثلثا ذراع، في عَرْض سدس ذراع في سَمْك إبهام، فينظّفون عيدانَ القصب، ويقطعون من أعلاه ما ليس فيه حلاوة، ويسمّونه اللّكلوك[٤]، وينظّفون أسفلَ العود ممّا لعلّه به من عروق وطين؛ ويسمَّى هذا الإصلاحُ التطهيرَ؛ ثم يُنقَل من تلك الوَتَرات إلى وَتَرات أُخَر مؤبَّدةٍ[٥] بأعلى حائطٍ عريضٍ مرتفع عن الأرض، أحدُ جانبي الحائط مما يلي دار القصب، والوجهُ الآخرُ إلى بيتٍ آخر يسمَّى بيتَ النُّوب[٦]؛ وعلى ذلك الحائط رجالٌ جالسون في مقاعدَ أُعدّتْ لهم، وبأيديهم السكاكين التي ينظِّف بها القصب، والوَتَراتُ المؤبَّدةُ أمامَهم، فيَجمَع الرجل منهم عدّةَ عيدان من القصب، ويضعها على الوَتَرة، ويَقطِّعها قِطعًا صغارًا فتسقط في بيت النُّوَب؛ ثم تُنقَل من بيت النُّوَب إلى الحَجَر في أفرادٍ[٧] تسمَّى العِيارات متساويةِ المقادير؛ فيوضع ذلك القصبُ المقطَّع تحت الحَجَر؛ ويَدَوِّرُ

---

(١) كيهك: الشهر الرابع من الشهور القبطية.

(٢) القنود: جمع قند، وهو عسل القصب إذا جمد «وهو معرب كند».

(٣) الوترات: مفردها الوترة وهي ما يوتّر بالأعمدة من البيت.

(٤) اللّكلوك: من ألفاظ العامة، ويسمّى أيضًا «الزعزوع».

(٥) المؤبّدة: المحبوسة أو المنوطة المربوطة.

(٦) النوب: مفردها النوبة وهو المكان الذي يغسل فيه القصب قبل عصره.

(٧) الأفراد: أوعية تتخذ من خوص.

الحَجَرَ عليه الأبقارُ الجِياد فيعصِرُه؛ ويَنزل ما يخرج منه من الماء في أبخاشٍ في القاعدة التي تحت الحَجَر إلى مكانٍ ضَنْكٍ[١] مُعَدٍّ له؛ فإذا انتهى ذلك القصب من العَصْر تحت الحَجَر نُقِل إلى مكانٍ آخر، ثم يجعل في قفاف[٢] مُتخذةٍ من الحَلْفاء مشبَّكة الأسافِل والجوانب، ويُلقَى تحت دولاب التَّخْت[٣]، ويَدُور الدولاب عليه بالأعواد حتى يأخذ حدَّه، ويخرج ما بقي فيه من الماء؛ ويجتمع ما تحصّل من ماء القصب من الحَجَر والتَّخْت في مكان واحد؛ ثم يُنقَل ذلك الماء فيصفَّى من مُنْخُلٍ موضوعٍ في قفص مُعَدٍّ له، وينزل ما يخرج إلى مكانٍ متصلٍ يسمّونه بالبَهْوَ[٤]، له عِيارٌ معلومٌ محرَّر؛ فإذا امتلأ من ذلك الماء المصفَّى نُقِل إلى المطبخ، وصفِّيَ تصفية ثانية في قِدْرٍ كبيرةٍ يسمّونها الخابيةُ يُصَبّ فيها بعد التصفية جميعُ ما كان في البَهْو، وهو ستون مَطَرًا[٥] من ماء القصب ضريبةُ كلِّ مَطَر نصفُ قنطار باللّيثيّ على التحرير ـ والرطل اللّيثيّ مائتا درهم ـ فيكون ما في الخابية ثلاثةَ آلاف رطل وهو ما كان في البَهْو؛ ثم يوقَد عليها من خارج المعصرة إلى أن يغلَى الماء غليانًا كثيرًا، وينقُص نقصًا معلومًا، فعند ذلك يبطل الوقيد[٦] عنها؛ فإذا سكن غليانُها نُقِل ما فيها من الماء المسلوق في يقاطِينَ[٧] كبار، في كلّ قرعة[٨] منها خشبةٌ منجورةٌ طويلةٌ كالساعد نافذةٌ في جانبي القرعة، ويُصَبّ في أكسية[٩] من الصوف تحتها دِنَانٌ[١٠] كبار فيصفَّى الماء منها تصفية ثالثة، ويستقرّ في تلك الدِّنان؛ ثم يُنقَل من الدنَانِ في دُسوت[١١] إلى القُدور، فيُطبَخ فيها إلى أن يأخذ حدَّه من الطبخ؛ ويحتاج كلُّ حَجرٍ إلى خابية وثماني قدور لطبخ ما يُعتصَر تحت الحَجَر والتَّخْت؛ ثم يُنقَل بعد طبخه

---

(١) ضنك: يريد به ضيّق.
(٢) القفاف: مفردها القفّة، وهو الزبيل أو المقطف الكبير.
(٣) التخت: يظهر أنه لفظ اصطلاحي معروف عند أصحاب المعاصر، وهو وعاء تصان فيه الثياب. (فارسي معرّب).
(٤) البهو: حوض مبني ينزل فيه ما يصفى من العصير.
(٥) المطر: وعاء معروف عند أهل مصر.
(٦) الوقيد: مصدر كالوقود بضمّ الواو. (اللسان مادة وقد).
(٧) اليقاطين: ما لا ساق له من النبات، وغلب على القرع.
(٨) القرعة: ثمرة القرع، وهو جنس نباتات من الفصيلة القرعية فيه أنواع تزرع لثمارها، وأصناف تزرع للزينة...
(٩) أكسية: مفردها «كساء».
(١٠) الدّنان: مفردها الدنّ: وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها.
(١١) الدسوت: القدور المتخذة من النّحاس.

في دُسوت من النُّحاس، لكلِّ دَسْتٍ منها قبضتان من الخشب مسمورتان في أعلاه يقبض الرجل عليهما ليقياه حرارةَ الدَّسْت؛ ويُصَبُّ ذلك المطبوخ ـ ويسمَّى إذ ذاك المَخْلب ـ في أباليج[١] من الفَخّار ضيّقةِ الأسافل، متسعَةِ الأعالي، مبخوش في أسفل كلّ أُبلوجة منها ثلاثةُ أبخاش مسدودةٌ بقَشّ القصب، وهذه الأباليجُ موضوعةٌ في مكان يسمَّى بيتَ الصبّ، فيه مصاطبُ[٢] مبنيّةٌ مستطيلة تشبه المذاود[٣]، ويُجعل تحت كلّ أُبلوجة من تلك الأباليج قادوس يقطُر فيه ما يتخلّص من رقيق ذلك المَخْلب ـ وهو العسل القَطْر ـ ثم يَخْدُمها الرجال بالكرانيب[٤] مرّة بعد أخرى حتى تمتلىء تلك الأباليج، وهي تختلف، فمنها ما يسع أكثرَ من قنطار[٥]، وأقلَّ منه؛ فإذا امتلأتْ وتكاملتْ خدمتها وأخذت في الجفاف نُقِلت من بيت الصبّ إلى بيت الدفن[٦]؛ فتعلّق فيه على قواديسَ يَقْطُر فيها ما بقِيَ من أعسالها.

وأما أوساخ الأقصاب التي تنظَّف منها في دار القصب فإنها تُعتَصَر على ٱنفرادها، وتُطبَخ بمفردها، وتسمَّى الخابية، وهي أردأ من عسل القصب.

ولِما يتحصّل من الاعتصار أسماءٌ وعِبَر[٧]: منها الضريبة، ومنها الوضعة، ومنها اليد؛ فالضريبة عبارة عن ثماني أيادٍ؛ واليدُ ملءُ خابية؛ والخابيةُ ثلاثة آلاف رطل من عصير القصب بالرطل اللَّيثيّ كما تقدّم؛ فتكون الضريبة أربعةً وعشرين ألف رطل من الماء، يَجمُد منها مع جَودة القصبِ وصلاحُه من القَنْد[٨] خمسةٌ وعشرون قنطارًا إلى خمسةَ عشرَ قنطارًا، ومن الأعسال ٱثنا عشر قنطارًا إلى ثمانية قناطيرَ؛ ونهايةُ ما يتحصّل من الفدان القصب ثلاثُ ضرائب: منها قَنْدٌ وقَطْرٌ ضريبتان ونصف وعسلُ خابيةٍ نصفُ ضريبةٍ مقدارها أربعة وعشرون قنطارًا بالمصريّ؛ ومن الأقصاب ما يفسد فلا يَجمُد طبيخُ مائه ولا يصير قَنْدًا، فيُطبَخ عسلًا، ويسمّونه المُرْسَل.

(١) الأباليج: المفهوم من السّياق أنها أنواع من الأواني الفخاريّة التي تحفظ بها السّوائل.
(٢) المصاطب: مفردها المصطبة، وهي بناء غير مرتفع يجلس عليه.
(٣) المذاود: معالف الدّواب.
(٤) الكرانيب: المغارف، واحد، كرنيب، والكرنبة: المغرفة.
(٥) القنطار: وزن يبلغ مئة رطل.
(٦) بيت الدّفن: لعلّ الوجه في التسمية هنا: أنّ الأباليج تستر فيه وتوارى مدّة حتى يقطر منها ما بقي من أعسالها.
(٧) العبرة: المراد بها المقادير.
(٨) القند: عسل القصب إذا جمد.

وهذا الذي ذكرناه من الوَضْع[١] والمتحصِّل والتسميةِ ٱصطلاحُ بلاد قوصَ من الصعيد الأعلى بالديار المصريّة، وهو وإن ٱختلف في غيرها من البلاد فلا يبعد من هذا الترتيب.

وأما أقصاب الشأم ـ فهي تختلف أوضاعها بحَسَب البقاع والنواحي والأعمال، فمنها ما هو بالسواحل الطَّرابُلسيّة والبَيْروتيّة والعكّاريّة؛ ولهم ٱصطلاحٌ في نصب الأقصاب وٱعتصارها: فمنها ما يُعتصَر بحجارة الماء، ومنها ما يُعتصَر بالأبقار، ومنها ما يُعتصَر بالسِّهام[٢]؛ وليس ذكرُها وبسطُ القول فيها من المهمّات التي تقتضي الانصباب[٣] إليها؛ والذي قدّمنا ذكرَه أيضًا من أمر أقصاب مصر هو على الحقيقة فلاحةٌ ودَوْلَبَة[٤]، وليس هو كتابة، وهو للمباشر زيادةٌ على صناعته، على أنه لا يَستغنِي عن معرفته والاطلاع عليه.

وعمدةُ المباشر في الاعتصار ضبطُ ما يتحصّل، وحراستُه من السارق والخائن والمفرِّط[٥]؛ ويلزم مباشرَ الاعتصار أن يَنظِم في كلّ يوم وليلة مخزومةً[٦] بما ٱعتُصر وبما تَحصَّل؛ فإذا انتهى الاعتصار نَظَمَ عملًا[٧] شاملًا لجميعه على ما نشرحه في الأوضاع الحسابيّة.

والقَنْد إذا جَفَّ وأخذ حدَّه من البياض نُقِل إلى مطابخ السكّر، فيُحَلّ بالماء وشيء من اللبن الحليب، ويُطبَخ فيصير منه السّكر البياضُ[٨] والقُطارة؛ ويَتحصّل من كلّ قنطار من القَنْد ربُعه وسدسُه سكّرًا، وثلثُه وربعُه قُطارة؛ ومنه ما يُكرَّر ثانيًا فيصير في غاية البياض والنقاء، وقُطارتُه تقارب قَطرَ النبات؛ ومنه أيضًا ما يُطبَخ نباتًا.

وهذه أمور جمليّة يُستدَلّ منها على المقاصد، والمباشَرةُ تشمَل ما لا يمكن إيرادُه في كتاب، وتُظهِر ما لا يكاد ينحصر بخطاب، فلنذكر الأوضاع الحسابيّة.

---

(١) الوضع: المراد بالوضع هنا المصطلح. (٢) السّهام: الأعواد من الخشب.
(٣) الانصباب: لعله يريد الاهتمام أو الانصراف.
(٤) الدّولبة: العمل بالدّولاب. (٥) المفرّط: المسرف والمبذر والمتهاون.
(٦) المخزومة: نوعٌ من الدفاتر يخرق.
(٧) العمل: نوع من القوائم يعمله كتّاب الدواوين.
(٨) البياض: أي ذو البياض، فوجه الوصف به ظاهر.

ذكر أوضاع ٱلحساب وما يسلكه ٱلمباشر ويعتمده فيها

أوّل ما يحتاج إليه كلُّ مباشر أن يضع له تعليقًا ليوميّته، يذكُر فيه تاريخَ اليوم والشهر من السنة الهلاليّة، ويذكُر فيه جميعَ ما يتجدّد ويقع في ذلك اليوم في ديوانه: من مُحْضَرٍ ومستخرَجٍ ومُجرَى ومُبتاعٍ[١] ومُباعٍ ومَبِيعٍ ومصروف، وما يتجدّد من زيادات في الأُجَر والضمانات، وعطَلٍ، وتقريرِ أجائر[٢]، وترتيبِ أرباب[٣] استحقاقات على جهات، وتنزيلٍ[٤] من يستخدمه، وصرْف من يصرفه من أرباب الخِدَم، وغير ذلك بحيث لا يُخِلّ بشيء مما وقع له في مباشَرته قلّ أو جلّ؛ وهذا التعليق هو أصل المباشَرة، فمَن ضَبَطَ اليومَ ٱنضبط ما بعده؛ وكلُّ المباشرين في وضعه سواء، يضع الشاهدُ[٥] فيه ما يضعه العامل[٦]، فإذا كان في آخر النهار قوبل على مجموعه بين المباشِرين، ويُساق ما يُحتاج إلى سياقته من العين[٧] والغلّة والأصناف.

ثم يكتب العاملُ مخزومةً يورِد فيها المستخرَجَ والمُحضَرَ والمُجرَى والمصروف، ويرفعها على عدّة نُسَخ بحَسَب المسترفِعين؛ وإن شاحّه[٨] المسترفِعُ لَزِمه أن يوردها فيما أورده في مياوَمته من سائر المتجدِّدات والأحوال، فيصير بها المسترفِعُ الغائبُ كالمباشر الحاضر، وتَشمَل المخزومةُ خطَّ مَن هو مباشرٌ: مِن ناظرِ مباشَرةٍ فمَن دونَه؛ وقد قدّمنا ذكرَ بسطِ الجرائد على الأموال والغلال، وكيفيّة خِدمتها في الأصول؛ ونظيرُ ذلك أن يبسُط أسماءَ أرباب الاستحقاقات وأربابِ المصاريف تِلوَ أصول الأموال ومضافاتِها، ويضعَ لكلِّ ٱسم ما يستحقّه مشاهرةً[٩] ومسانهةً[١٠] عينًا وغلّة، أو ثمنَ صنفٍ أو غيرَ ذلك؛ ثم يشطب قُبالَةَ كلّ ٱسم ما قبضه مفصَّلًا بتواريخه من جهة قبضه، لتَسهُل عليه بذلك محاسبةُ كلِّ نَفَرٍ[١١] عند الاحتياج إلى محاسبته كما

---

(١) المبتاع: المشترى بفتح الرّاء. (٢) أجائر: جمع أُجُر، فهي جمع الجمع.
(٣) الأرباب: القيّمون.
(٤) التنزيل: كلمة شاع استعمالها بين العامة في مصر وهي بمعنى التولية والتنصيب.
(٥) الشاهد: هو الذي يشهد بمتعلّقات الديوان نفيًا أو إثباتًا. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٧).
(٦) العامل: هو الذي ينظم الحسابات ويكتبها. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٨).
(٧) العين: المال، وما يضرب من الدّنانير.
(٨) شاحّه: ناقشه، ومنه قولهم: «لا مشاحّة في الاصطلاح» أي لا مناقشة ولا منازعة ولا خصومة.
(٩) المشاهرة: أي المعاملة بالشهر. (١٠) المسانهة: أي المعاملة بالسنة.
(١١) النفر: الجماعة من الرّجال من ثلاثة إلى عشرة، وإطلاق النفر على الواحد كما هو المراد هنا إطلاق شائع بين عامّة مصر.

شرحناه في الأصول؛ ولا بدّ لكلّ مباشر من جريدة على هذه الصفة تشتمل على الأصل والخصم؛ والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر ما ينتج عن التعليق من الحسبانات بعد المخازيم(١)

وهي الخِتَمُ والتَّوالي والأعمالُ والسياقاتُ التي تلك كلّها شواهد الارتفاع:

فأما الخِتَم ـ فتختصّ بجهات العَين من سائر الأموال؛ وكيفيّتها أنه إذا مضت على المباشر مدّةٌ لا تتجاوز أحد عشر شهرًا فما دون الشهر إلى عشرة أيام ـ وما دون الشهر لا يقع إلا عند ٱنفصال كاتب في أثناء الشهر أو ٱقتراح مقترِح ـ نَظَمَ حسابًا سَمّاه الكُتّاب في مصالحهم: الخَتْمة، يَشرح في صدرها ما مثالُه بعد البسملة: خَتْمة بمبلغ المستخرَج والمُجرَى من أموال الجهات، أو المعاملةِ الفلانيّة لاستقبال كذا، وإلى آخر كذا؛ ويَذكُر أسماءَ المباشرين فيقول: بولايةِ فلان، ونظرِ فلان، ومشارَفةِ فلان، وكتابةِ فلان؛ ويَعقِد في صدرها جملةً على ما ٱستخرجه في تلك المدّة وأجراه من أصول الأموال، يفصِّل ذلك بسنيه، ويشرحه بجهاتِهِ وأسماء أربابه وتواريخِ مُحضَره ومُجراه، إلى نهاية ذلك؛ ثم يقول: وأضيف إلى ذلك ما وجبت إضافتهَ؛ يَبدأ بالحاصل المساق إلى آخر المدّة التي قبلها، ثم يذكُر ما لعلّه ٱستخرجه من الجهات التي تَرِد في باب المضاف، وما ورد من أثمان المبيعات والمصالحات والخدم، وما لعلّه ٱقترضه، وما لعلّه حصّل من المواريث الحَشْريّة(٢) والمجتذبات والتأديبات، وما لعله ٱعتَدّ به لمعامَلةِ أخرى ونُقِل عليه(٣)، إلى غير ذلك من أبواب المضاف على اختلافها. مما يطول شرحه لو ٱستُقصِي؛ ثم يفذلِك(٤) على الأصل والإضافة؛ وإن صرف نقدًا بنقدٍ ذَكَرَه بعد الفذلَكة(٥)، وٱستَقرّ بالجملة بعده وإلّا فالفذلَكة بمفردها؛ ثم يخصم تلك ٱلجملةَ بما لعلّه حَمَله أو نَقَله على معاملة أخرى أو صَرَفَه، ويذكُر ٱلحملَ بتواريخه ورسائلِه، وٱسم من حُمِل على يده، والمنقولَ كذلك والمصروف بأسماء أربابه وتواريخِه، ثم يسوق إلى التحصيل إن انطرد(٦) له حاصل وإلّا فيقول في آخرها: ولم يَبقَ حاصلٌ فنذكرَه.

---

(١) المخازيم: مفردها المخزومة وهي نوع من الدّفاتر يخرّق.

(٢) المواريث الحشريّة: أي أموال من يموت وليس له وارث خاصّ.

(٣) نقل عليه: أي نقل محسوبًا عليه.

(٤) يفذلك: يقال فذلك الحساب: إذا أنهاه وأجمله.

(٥) الفذلكة: جملة الحساب.

(٦) انطرد: في المصباح وغيره لا يقال انطرد إلّا في لغة رديئة وهي هنا بقي عليه حساب لم=

وقد ٱقتُرِح في بعض الممالك الشاميّة في بعض السنين على المباشرين أن يضمِّنوا خِتَمهم ما يوردونه في الأصل من جهات الأصول ـ كلّ جهة من المستخرَج والمُجرَى ـ الأصلَ مختومًا والخصمَ مفصَّلًا بجهاته؛ مثال ذلك أن يقول في الأصل: الجهةُ الفلانيّة في التاريخ الفلانيّ كذا وكذا درهمًا؛ ويذكُرَ تحت ذلك التاريخ خصمَ تلك الجملة؛ وفي الخصم إذا ذَكَرَ ٱسمَ ربّ ٱستحقاق وما وَصَل إليه في كل تاريخ يقول: التاريخ الفلانيّ؛ ويعيِّن جهاتِه؛ ويشطب المسترفِعُ الأصلَ على الخصم؛ وفي هذا تضييق كثير على المباشر، ولَم يستقِرّ ذلك، وعادت الأوضاعُ على ما بيّنّاه؛ هذا مصطلَحُهم في الخَتم؛ والله أعلم.

وأما التوالي ـ فهي إذا أُطلِقتْ أُريدَ بها تَوالي الغلال؛ وكيفيتها أنه إذا مضت مدّة على ما قدّمناه في شرح الخِتَم نظَم كاتب ٱلجهة حسابًا للغلّة ٱسمه التالي يَشرح في صدره بعد البسملة: تالٍ بما انساق حاصلًا من الغلال بالجهة الفلانيّة إلى آخر المدّة الفلانيّة، مضافًا مخصومًا إلى آخر كذا؛ ويذكُر أسماء المباشرين على ما تقدّم، ثم يوصل في صدره ما ٱنساق إلى آخر ٱلمدّة التي قبلها من الغلال على ٱختلافها، ويفسرُ[1] الغلالَ بسنيها، ويضيف إليه ما لعلّه ٱنضاف من متحصِّلٍ ومبتاعٍ وقرضٍ وغيرِ ذلك؛ ثم يفذلِك عليه، ويذكُر بعد الفذلكة ما لعله وقع من تبديل صنفٍ بصنفٍ لوجود ذلك الصنف وعدمِ غيرِه، إما فيما قَبَضه أو فيما صَرَفَه، وما لعلّه أُبيع وثُمِّن، وما لعلّه يُنقل من كيل إلَى كيل؛ ويستقِرّ بالجملة بعد ذلك على ثمن ما أُبيعَ وما ٱستقرّ من الغلال بعد التبديل والتنقيل، ويَستخرِج ثمنَ البيع بمقتضَى خَتْمة تلك المدّة، وهي شاهده؛ ويخصمُ بالمحمول والمنقول والمصروف على ٱختلافه؛ ويفصِّل ذلك بتواريخه على ما شرحناه في ٱلخَتْمة، ويسوق الحاصلَ من الغلّة إن كان؛ هذا مصطلَحُهم في توالي الغلال.

ولهم أيضًا توالٍ يسمّونها توالي[2] الارتفاع ـ تشتمل على العين والغلّة والأصناف، ولا تُعمَل إلّا عند اقتراحها؛ وصورتها أن يُوصِل في صدر تالي الارتفاع ما ٱنساق آخر الارتفاع الذي قَبله من الحاصل والباقي عينًا وغلّة؛ ويفصّله بسنيه؛ ثم يضيف إليه ما ٱستُحِقّ في تلك السنة أصلًا مضافًا، ويخصم بالخصم السائغِ المقبول، ويطرده بعد ذلك إلى حاصلٍ وباقٍ.

= يستطع تسديده.

(١) يفسّر: أي يوضح ويبين.

(٢) التوالي: التتابع.

ولهم أيضًا توالي الاعتصار ـ وصورتها أن يُوصِل ما انساق حاصلًا آخِرَ [المدّة][١] على الاعتصار أو تاليَه، ويضيفَ ما لعلّه تحصّل من قَطْرٍ وغيرِه، ويفذلِكَ عليه، ويكرِّر منه ويبيع، ويستقرّ بالجملة، ويخصم، ويسوق إلى الخاصل.

وأما الأعمال ـ وهي تختلف ـ فمنها أعمال متحصِّل الغلال والتقاوي، وأعمالُ الاعتصار، وأعمالُ المَبيع، وأعمالُ المبتاع، وأعمالُ الجَوالِي، وأعمالُ الخدم والتأديبات والجنايات.

فأما أعمال الغلال والتقاوي ـ فكيفيّتها أن يَشرح في صدر العمل بعد البسملة ما مثالُه: عَمَلٌ بما تحصّل من الغلال بالناحية الفلانيّة لمُغَلّ سنة كذا وكذا ٱلخراجيّة، المدرِكِ في شهور سنة كذا وكذا الهلالية، مضافًا إلى ذلك ما وجبت إضافته، ويُوصِل في صدره ما تحصّل من الغلال على ٱختلافها وأكيالها مفصَّلًا بأسماء الفلّاحين؛ ويضيف إليه ما لعلّه ٱستعاده من التقاوِي والقروض أو حصّله من رسوم أو غير ذلك؛ ويفذلِك عليه؛ فمن الكُتّاب من يسوقه بجملته حاصلًا، ويخصم بمقتضى التالي؛ ومنهم من يخصم بما حَمَلَه وصرَفَه في مدّة تحصيله للمُغَلّ، ويسوق ما بقي إلى ٱلحاصل، ويَستغنِي بذلك عن تالٍ لتلك ٱلمدّة.

وأما عمل الاعتصار ـ فصورته أن يترجم في صدره بعد البسملة بما مثالُه: عَمَلٌ بما تحصّل من ٱعتصار الأقصاب بالجهة الفلانيّة لاعتصار أقصابِ سنةٍ كذا وكذا الخراجيّة؛ ويقول في يَمْنة[٢] العمل: عن كذا وكذا فدانًا أو مَنظَرةً[٣] إن كان بالأغوار، أو قسمًا إن كان بالسواحل؛ ويفصِّل الفُدُن بما فيها رأسًا[٤] وما فيها خِلْفَةً إن كان بمصر، ومقنطَرًا[٥] أو قائمًا[٦] إن كان بالشأم، ويبرز عن يَسرته بكميّة ما تَحصَّل فيقول: من أصناف الحُلو كذا وكذا قنطارًا، ويفصِّل ذلك بالقَنْد والأعسال على ٱختلافها: من المرسَلِ والقَطْر والحُرِّ والأسطروس والمردودة؛ والمرسَلُ هو من

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق لتوضح المعنى.
(٢) اليمنة: يقال: أخذ يمنةً ويمنًا ويسرةً ويسرًا أي ناحية يمين ويسار. (اللسان، مادة يمن).
(٣) المنظرة: في الأصل: المرقبة أي الموضع المشرف الذي يكون فيه الرقيب. والمراد هنا مقدار من الأرض يمكن للحارس الذي يجلس في المنظرة أن يراه ويحرس ما فيه من المزروعات.
(٤) الرأس والخلفة: تقدّم الكلام على الرأس والخلفة عند الكلام على أقصاب السكر. فالرأس: أوّل نبات للقصب، والخلفة: ما ينبت بعد قطعه.
(٥) المقنطر: الملقى على جانبه أو قطره، لفظ عاميّ.
(٦) القائم: المراد به القصب الذي ينبت تاليًا للقصب الأوّل، وهو الخلفة، وسمّي قائمًا لأنه ينبت من الجذور القائمة في الأرض بعد قطع القصب الأول.

القصب الذي لا يجمُد ولا يصير قَنْدًا. والقَطْرُ هو ما يتحصّل من قَطْر أباليج القَنْد. والحُرُّ هو ما يتحصّل من أطراف الأقصاب، وهذه الأطراف يسمّونها بالشأم: العيكون[١]، ولا يعتصرونها ألبتّة، بل تُرْصَد للنّصْب، فإنّهم يستغنون بها عن العيدان، ومنهم من يسمّى الحرُّ المردودة. وأما الأسطروش[٢]: فهو ما يُعمل من جُرادة[٣] وجوه الأباليج حالَ الطبخ، وما يتأخّر على البَواريّ[٤] عند خلعه بالشأم. وأما الخابية[٥] فهي ما يتحصّل من الأوساخ والرَّيْم[٦]. والمرسَلُ والحُرُّ والخابيةُ لا تُعرَف بالشأم ألبتّة، وإنما يعرفون القَطْرَ والأسطروش؛ ثم يذكُر بعد ذلك تفصيلَ المتحصّل بجهاته إن كان بمصر - يفصِّل كلَّ ساقية وفُدُنها وما يُحصَّل منها من الضرائب - وتفصيلَ الأقصاب الرأسِ والخِلفة، ويذكُر اسمَ الطبّاخ؛ ثم يبيع من عرض ذلك ويُثمِّن، ويستقِرُّ بالجملة، ويَحمِل ويَصرِف ويسوق إلى الحاصل.

وأما عمل المَبيع - فصورته أن يقول في صدره بعد البسملة: [عَمَلٌ][٧] بما بِيعَ من الغلال والأصناف بالجهة الفلانيّة لمدّة كذا وكذا؛ ويَعقِد على الثمن جملة، ثم يفصّلها بأصنافها، يذكر عن يَمْنة القائمة الصنفَ، وفي الوسط السعرَ إن كان سعرًا واحدًا، وإلّا فيقول مكانه: بأسعارٍ تُذكَر، وفي اليَسْرة الثمنَ، ثم يفصّله بأسماء مبتاعِيه؛ فإذا كمّل ذلك أضاف ما انساق له آخرَ العمل الذي قَبله من أثمان المبيعات؛ ويفصِّل ذلك بأسماء من تأخّر عليه منها شيءٌ إن كان؛ ثم يفذلِك على الجملة، ويستخرِج من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويسوق إلى الباقي دون الحاصل.

وأما عمل المبتاع - فيقول في صدره: عَمَلٌ بالمبتاع بالجهة الفلانيّة من الأصناف التي تُذكَر لمدّة كذا وكذا؛ ويَعقِد على ثمن المبتاع جملة يجعلها عن يَمْنة نصف القائمة، ويبرز بالأصناف المبتاعة إن أمكن، وإلّا فيقول: ما يُذكَر؛ ويَشرِح ما ابتاعه صنفًا صنفًا بتواريخه، وأسماءِ من ابتاع منهم، وأسعارِه، ويضيفُ إلى جملة الثمن ما

---

(١) العيكون: لعلّها «العثكول» تشبيهًا لها بعثكول النخلة وهو قنوها. أو هي من الاصطلاحات العاميّة.

(٢) الأسطروش، والأسطروس: وهو من أنواع العسل.

(٣) الجرادة: ما قسر من الشيء. (٤) البواري: الحصر المنسوجة من القصب.

(٥) الخابية: لم يذكر الخابية في أصناف العسل التي سردها فيما سبق ولعلّها المرادة بالمردودة السابق ذكرها ضمن أنواعه.

(٦) الرَّيم: فضول الشيء وزوائده التي لا يعتنى بها لخسّتها.

(٧) هذه الكلمة لم ترد في الأصل، والسياق يقتضي إثباتها.

لعلّه تأخّر عليه من ثمن ما ٱبتاعه في العمل الذي قَبله، ويفصّله بأسماء أربابه؛ ويفذلِك على ذلك، ويخصم بما صرفه من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويسوق إلى متأخِرٍ أو فائضٍ[١] إن كان قد سلَفَ عليه [شيء][٢].

وأما عمل الجوالي ـ فيقول في صدره ما مثالُه بعد البسملة: عَمَلٌ بما وجب من مال الجوَالِي بالمعامَلة الفلانيّة لسنة كذا وكذا الهلاليّة مخصومًا مساقًا إلى آخر المدّة؛ ويُوصِل ما كان قد ٱستقرّ من الأنفار[٣] على ما تقدّم؛ ويضيف النوابتَ[٤] والطوارىءَ[٥] بأسمائها ومِلَلِها، وما لعلّه ٱنساق باقيًا إن كان، وقلّما يكون، ويفذلِك على ذلك؛ ثم يذكر بعد الفذلكة من ٱهتدى بالإسلام، أو هلك بالموت، أو تَسحّب[٦] إلى عملٍ آخر على ما قدّمناه من الاختلاف في إيراد ذلك في هذا الموضع، والاستثناءِ به في الصدر بالتعدية[٧] أو إيرادِه في باب المحسوب؛ وكلُّ ذلك سائغ في الوضع؛ ثم يستقِرّ بالجملة بعد ذلك، ويستخرج بمقتضى الختَم، ويسوق ما لعلّه ٱنساق إلى الباقي؛ وإن عاد إليه متسحّبٌ أو نازحٌ[٨] وبيَدِه وُصولٌ[٩] من مباشِر عَمَلٍ آخَرَ اعتدّ له به، وأَورَدَه في باب المحسوب، وفذلكه على الجملة.

وأما عمل الخدم والجنايات والتأديبات ـ فصورته أن يُوصِل في صدر العمل بعد الترجمة عليه ما تعيّن من أموال الخدم أو ما تَقرّر من الجنايات والتأديبات، يَذكُر فيه الأسماء والجرائم؛ ويضيف إلى ذلك ما لعلّه ٱنساق قبل تقرير هذا المال آخِرَ العمل الذي قبله؛ ويفذلك عليه؛ ويَستخرِج من عرضه بمقتضى ختم المدّة، ويَعتدّ بما لعلّه رُسِم بالمسامحة به مما كان قُرّر، ويسوق ما ينطرد بعد ذلك إلى الباقي؛ فهذه هي الأعمال.

---

(١) الفائض: الزّائد، وهو من قولهم: فاض الماء: إذا كثر حتى سال. . .
(٢) ما بين قوسين بياض في الأصل يسع كلمة، والسياق يقتضي إثباتها أو إثبات ما يفيد المعنى.
(٣) الأنفار: أي الأشخاص، وهي جمع لقولهم النّفر الذي يطلقونه على الشخص الواحد إطلاقًا عاميًا.
(٤) النوابت: جع نابتة وهم النشء الصغار.
(٥) الطوارىء: الذين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه.
(٦) تسحّب: أي هرب أخذًا من السّياق.
(٧) التعدية: يقال اعتددت بالشيء: أي أدخلته في العدّ والحساب.
(٨) النازح: الذي ابتعد عن الموطن وهجره. (٩) الوصول: الإيصال.

وأما السياقات ـ فهي مختلِفة: فمنها سِياقة الأَسْرَى والمعتقَلين، وسِياقة الكُراع[١]، وسِياقة العُلوفات، وسِياقات الأصناف والعُدَد.

فأما سِياقة الأَسْرَى والمعتَقَلين ـ فصورتها أن يُوصِل في صدرها عِدّةَ من ٱنساق عنده إلى آخر المدّة التي قبلها، ويفصّلَها بالمعتقَلين وأسمائهم وجرائِمهم، والأَسْرَى ومِللِهِم وأجناسِهم؛ ويضيفَ إليها ما لعلّه تَجدَّد عنده من معتقَلٍ أو أسير، ويفذلِكَ عليها، ثم يذكُر من أُفرِج عنه: إما بمقتضى المراسيم «فيذكُر تواريخَها وأسماءَ من حضرتْ على يده، ومن تسلَّم المعتقَل» وإما بالهداية إلى دين الإسلام من الأَسْرَى «فيذكُر ٱسمَ ٱلمهتدي وجنسَه، ومن أيّ ٱلملل كان، وتاريخَ إسلامه والإفراج عنه، أو من فُودِيَ[٢] به، أو من تسحَّب، أو من هلك بالموت بعد ٱعتبار ما يجب ٱعتباره في الهالك؛ ويستقِرّ بالجملة بعد ذلك؛ وٱستقرار ٱلجملة هو ٱلحاصل.

وأما سِياقة الكُراع[٣] ـ فهي سياقةٌ تشتمل على الخيل والجمال والدوابِّ والأبقارِ والأغنام؛ وصورتها أن يوصِل الكاتبُ ما انساق عنده حاصلًا آخِرَ السياقة التي قبلها؛ ويضيفَ إلى ذلك ما لعلّه ٱبتاعه بتواريخه وأسماء من ٱبتيع منهم، وما لعلّه نُتِج، وما لعلّه ٱجتُذِب؛ ويفذلِك على ذلك؛ ثم يذكر بعد ذلك ما باعه من عرض الجملة وما نَفَقَ[٤] وتُنُبِّل[٥] وذُكِّيَ[٦]؛ ويستقِرّ بالجملة على ما ٱستقرّ من حيوانٍ وجلود وثَمَن، ويَصرِف ويَنقُل ما لعلّه صَرَفَه أو نَقَلَه، ويسوق إلى ٱلحاصل.

ويحتاج المباشر لذلك إلى ملاحظة أحوال الأغنام، ومعرفةِ أوقات نِتاجِها وما يكون منها توأمًا، واستقبالِ النِّتاج لينضبط له نِتاجُ النِّتاج.

وأما سياقة العُلوفات[٧] ـ [فصورتها][٨] أن يوصل في صدرها ما صرفه على الكُراع في المدّة التي نَظم لها السِّياقة، ثم يفصِّل ذلك كلَّ صنفٍ من الكُراع وعددَه في الزيادة والنقص، وما صرفه على ذلك النوع في كلّ مدّة، في اليوم كذا في المدّة كذا، والزيادة والنقص على حَسَب الاتفاق، ويراعِي في ذلك ما تضمّنتْه سياقةُ

---

(١) الكراع: يريد الدّواب.
(٢) فودي به: أي استنقذ بمالٍ أو غيره وخلّص مما كان فيه.
(٣) الكراع: اسم يجمع الخيل، وإطلاقه على الدّواب عامة إصطلاح استخدمه الكتاب.
(٤) نفق: مات.
(٥) تنبل بالبناء للمجهول: أي اختير.
(٦) ذُكّي: ذبح.
(٧) العلوفات: مفردها العلوفة، وهي طعام الحيوانات.
(٨) ما بين قوسين تكملة يقتضي السياق إثباتها...

الكُراع؛ وإن صَرَف عُلوفةً لطارئٍ لا يستقرّ عنده ميَّزَه في التفصيل من المستقرّ فيقول: المستقرُّ كذا، والطارئُ كذا إضافةً إلى هذه السياقة؛ ولا فذلكة، ويَتجنَّب أن يصرف عُلوفةً عن أيّام نقصِ الشهور الهلاليّة، وهي ستةُ أيام في السنة فإن ذلك من المُخرَّج اللازم، وكذلك أيّامُ الربيع.

وأما سياقات الأصناف والزَّرَدخاناه[١] والعُدَدِ والآلاتِ والخزائنِ والبِيمارِستانات[٢] - فإنه لا يمكن استيعابُها لمؤلّف كتاب، وقلّما عُمِلتْ فيما كَثُر، وإنما تعمل فيما قلّ من الأصناف؛ وصفتُها إذا أمكن عَملُها أن يوصِل ما عنده من الأصناف مفصَّلة، ويضيفَ إليها ما ٱبتاعه أو ما وَصَل إليه، ويفذلِكَ على ذلك ثم يذكر بين الفذلكة وٱستقرارِ الجملة ما يَرِد من الأبواب: من المنتقلِ والمستهلَكِ وغيرِ ذلك على كثرته؛ وإذا ٱستُقصِيَ ما يَرِد بين الفذلكة واستقرارِ الجملة زاد على مائة باب لا يعرفها إلا أفاضلُ الكُتّاب ومن له حِذقٌ[٣] بهذه الصناعة، واختلفت مباشَراتُه وتكررتْ؛ فإذا ذَكَر ما وقع عنده ٱستقرّ حينئذ بالجملة على ما قام عليه ميزان عمله؛ ثم يخصم بما يَسُوغُ الخصمُ به، ويسوق إلى حاصله.

فهذه هي الخِتَمُ والتَّوالِي والأعمالُ والسياقات، وهي شواهد الارتفاع.

وأما الارتفاع - فهو العملُ ٱلجامعُ الشاملُ لكلّ عمل؛ وصورة وضعه أن يشرح الكاتب في صدره بعد البسملة ما مثالُه: عملٌ بما اشتمل عليه ٱرتفاعُ المعامَلة[٤] الفلانيّة لمدّة سنة كاملة، أوّلُها المحرّمُ سنةَ كذا وكذا، وآخرُها سَلْخُ ذي الحجّة منها، ممّا ٱعتُمِد في إيراد ذلك الهلاليُّ والجَوالِي للسنة المذكورة، والخراجيُّ والأقصابُ لسنة كذا وكذا الخراجيّة، مضافًا إلى ذلك ما وجبت إضافته، مفذلكًا عليه، وما ٱستقرّت عليه الجملة، مخصومًا مساقًا إلى حاصل، وما ٱعتُدّ به محسوبًا إن كان، وما ٱشتملتْ عليه فذلكةُ الواصل، وما ٱنساق إلى الباقي والموقوف في المدّة؛ ويذكر أسماءَ المباشرين كما قدّمناه في الخَتْمة[٥]؛ وإن ٱنفصل أحدٌ من المباشرِين في أثناء تلك السنة وباشرَ آخَرُ بعدَه قال: بمباشرة فلانٍ إلى آخر المدّة الفلانيّة وفلانٍ بعده إلى

(١) الزّردخاناه: أي بيت الزرد، وهي الدروع، وفي صبح الأعشى أن هذا اللفظ ربما يطلق على «السّلاح خانه» وهو بيت السّلاح. (انظر صبح الأعشى ٤/ ١١).
(٢) البيمارستانات: مفردها البيمارستان، لفظ فارسي معرّب، مؤلّف من كلمتين «بيمار» ومعناه المريض، و «ستان» ومعناه الموضع.
(٣) الحذق: المهارة. (٤) المعاملة: المراد بها الناحية والجهة.
(٥) الختمة: أخر النصّ حيث يوقّع على صحّته. . .

آخر المدّة؛ ويقول في صدره عن يَسْرة نصف القائمة: ما مبلغُه من الذهب كذا، ومن الدراهم كذا، ومن الغلات كذا، ومن الأقصاب كذا، ومن الأصناف كذا، ومن الكُراع كذا؛ يفصِّل ذلك بسنيه، ثم يأخذ في تفصيل كلِّ مال بجهاته، فيبدأ بمال الهلاليّ، يَذكُر كلَّ جهة، وٱسمَ مستأجِرِها أو ضامنها، وٱستقبالَ عَقدِ إجارته أو تقريره، ويوجِب عليه في الشهر وفي السنة، إلى أن يستوعب أبوابَ الهلاليّ، ويشطب في مسوّدته التي ينظمها لنفسه قُبَالَة كلِّ جهةٍ ما ٱستخرجه بمقتضى خَتَمات المستخرَج ليقوم له ميزانُ كلّ جهة في الباقي والفائض؛ ولا يلزمه هذا العملُ في ٱلحساب المرفوع منه؛ فإذا ٱنتهت أبواب الهلاليّ ذكر الجَوالِي وٱعتَمَد فيها كذلك؛ ثم يذكر الخراجيّ، ويفصّله بأقلامه وجهاته مستقصًى واضحًا جليًّا، ويَعتمِد من الشطب قُبالَةَ كلِّ جهةٍ ما تقدّم شرحُه؛ فإذا تحرّرتْ له جهاتُ الأصول قال: وأضيف إلى ذلك ما وجبت إضافته؛ ويعقِد على المضاف جملة، ويذكر أبوابه يبدأ فيها بالحاصل والباقي المُساقَيْن آخِرَ العمل الذي قَبْله، ويعقِد عليهما جملة، ثم يقول: الحاصلُ كذا، والباقي كذا؛ ويفصِّل ما أمكن تفصيلُه من الحاصل بسنيه ويفصِّل الباقيَ بجهاته وأسماءِ أربابِه وسنيه وأسماءِ مباشرِيه إن أمكن، ويشطب في مسوَّدته قُبالةَ كلِّ ٱسم ما لعلّه ٱستخرجه من عرض ما هو عليه كما تقدّم؛ ثم يذكر جهاتِ مضافِ السنة الحاضرة، يبدأ بما هو مستقرّ من الأموال التي تَرِد في جهات المضاف، ويشطب قُبالةَ كلّ ٱسم ما تقدّم بيانه؛ ثم يذكر بعد ذلك ما لعلّه وَصلَ إليه أو ٱعتَدّ به: من الأموال والغلال على ٱختلافها، وأثمانِ المبيعات والمواريثِ[1] الحَشْرِيّة والمجتذَباتِ والجناياتِ والتأديباتِ والقروضِ والأصنافِ المبتاعة، يستقصِي أبوابَ المضاف على حسب ما ورد عنده منها في طول السنة بمقتضى ما ورد في الشواهد التي ذكرناها بحيث لا يخلّ منها بشيء.

ومن أبواب المضاف ما يضاف بالقلم ـ ولا أصل له، بل يكمّله الكاتب على نفسه في حسابه لينطرد نظيرُه إلى الباقي، ويقومَ به الميزان، وهو نظير التقاوي[2] والقروض؛ وكُتّاب الشأم يفعلون ذلك دون كُتّاب الديار المصريّة، وهم على الصواب في إيراده، لأن الكاتب إذا أوردَ نظيرَ التقاوي والقروض ٱنطرد له إلى الباقي نظيرُ ذلك، وصحّ ميزان العمل، فإنه لا يمكن أن ينطرد إلى الباقي إلا بإضافة نظيره، فإذا

(١) المواريث: هي مال من يموت وليس له وارث خاص.

(٢) التقاوي: ما يعزل من الحبوب لأجل البذر.

انطرد إلى الباقي وجب إيراده في المضاف في السنة الثانية وما بعدها إلى أن يُستخرَج ويحصَّل؛ وكُتّاب مصر يقتصرون في ذلك على أعمال التقاوي والقروض؛ والتحريرُ ما يورد كُتّابُ الشأم في ذلك.

ومن وجوه المضاف الغريبةِ: ٱلمستعادُ نظيرَ المُعاد، مثال ذلك أن يكون المباشر أحال ربَّ ٱستحقاقٍ على ضامنِ جهةٍ بمبلغٍ بمقتضى وُصولِ أجراه وٱعتَدّ به لضامن تلك ٱلجهة، واعتَدَّ على ربّ الاستحقاق بمبلغه، وقَطَع الباقيَ والمتأخِّرَ بعده، وصدر حسابه بذلك، فأعِيدَ عليه وُصولُه في أثناء السنة الثانية فمِثْلُ هذا تجب إضافتُه وإضافةُ نظيرِه، فيكون خصمُ إضافته الأولى المُعادَ على الضامن، وخصمُ الثانية الباقيَ المُساق، ويكمّل لربّ الاستحقاق نظير ذلك المبلغ في محاسبته ـ على ما يأتي بيانه في المحاسبات؛ فإذا ٱستوعب ما ورد عنده من أبواب المضاف فَذْلَك على ذلك فيقول: فَذْلك الأصل وما أُضيفَ إليه؛ ويَعقِد على الفذلكة جملةً، ومعناها أن يضمّ ما عَقَد عليه الجملةَ في صدر الارتفاع إلى ما عَقَد عليه جملةَ المصاريف، فتشتمل الفذلَكة على الجملتين، ويفصِّل ذلك عينًا وغلة وأصنافًا وكُراعًا على ما تَقدّم، ويفصِّل ما هو متميّز بسنيه؛ وما لم يتميّز كالحواصل من العين والكُراع وغيرِ ذلك يقول فيه: ما لم يتميّز بسنة؛ ويشرحه؛ ثم يذكر الأبواب التي تَرِد بين الفذلكة وٱستقرارِ الجملة على ٱختلافها بحَسَب ما وقع عنده منها، يبدأ بالصرف من نَقْدٍ إلى نَقْد، والمبدَّلِ من صنفٍ إلى صنف، والمنتقِلِ من سنة إلى سنة، ومن كيلٍ إلى كيل ومن وزنٍ إلى وزن، ومن عَدَدٍ إلى وزن، ومن وزنٍ إلى عَدَد، ومن صفةٍ إلى صفة وما وقع من مَبيع ومُثمَّنٍ ونافقٍ[1] ومستهلَك، وغير ذلك؛ وقد جَمعَ بعض فضلاء الكُتّاب جميعَ ذلك وٱختصره في لفظتين فقال: هو عبارة عن منقول ومعدوم؛ وإذا نظرت إلى حقيقة هاتين اللفظتين وجدت جميع هذه الأبواب وإن كثرت مندرجة فيها، كما أن جميع الكلام لا يتعدّى أن يكون ٱسمًا أو فعلًا أو حرفًا؛ فإذا ٱنتهت هذه الأبواب قال: واستقرّت الجملة بعد ذلك على... ويذكر ما ٱستقرّت عليه ٱلجملة بمقتضى قيام ميزانه، ويفصّله بسنيه، ثم يقول: ٱستُخرِج من ذلك وتحَصَّل... ويذكر المستخرَج بمقتضى الخِتَم، فيشرح ما ٱستقرّت عليه جملةُ الخَتْمة الأولى، وما ٱشتملتْ عليه فذلكتُها بعد وضع ٱلحاصل من الجهة الثانية وما بعدها لئلا يتكرّر عليه؛ ويحصِّل بمقتضى الأعمال والتَّوالِي

(١) النافق: ما يموت من الماشية.

والسِّياقات على هذا الحكم؛ ويفصِّل ٱلمستخرَجَ والمتحصّل بسنيه، ثم يخصم ما ٱستخرجه وحصّله، فيبدأ في الخصم بالحَمْل من الأموال، والحمولِ من الغلال والأصناف، والمُساقِ من الكُراع؛ ويتلوه ما لعلّه نَقَلَه على معاملة أخرى مفصَّلًا بأبوابه ومعقودِ ٱلجملة على كل باب فيها؛ فإذا تكامل له الخصم في العين والغلّة والمواشي والأصناف ساق ما تأخّر من جملة ما ٱستخرجه وحصّله إلى حاصل، ويفصّله بالعينِ والغلّةِ والصنفِ وغيرِه، فيكون ما حمله ونَقَلَه وصَرَفَه وساقه إلى الحاصل خَصْمَ ما ٱستخرجه وحصّله؛ ثم يذكر بعد سياقة الحاصل ما لعلّه ورد عنده من المحسوب على ٱختلافه: من عُطْلة، ويذكر أسبابها، وما لعلّه ثبت من الجوائح الأرضيّة والسمائية بمقتضى المحَاضر الشرعيّة إذا بَرَزت المراسيمُ بالحَمْل على حكمها؛ فيذكر كلَّ جهة وٱسمَ مستأجِرِها أو ضامنها، وتاريخَ مَحضَر الجائحة، وتاريخَ ٱلمرسوم بحمل الأمر على حكمه، وجملةَ ٱلمبلغ المتروكِ بسبب ذلك، وما لعلّه سومح به من البواقي المُساقة، وغير ذلك ممّا هو داخل في باب المحسوب؛ وسائرُ المسامحات تَرِد بعد سياقة الحاصل، وتَرِد في أماكن نذكرها بعد إن شاء الله تعالى؛ فإذا ٱستوعب الكاتب جملة ما عنده من المحسوب في بابه قال بعد ذلك: فتلك جملةُ ٱلمستخرَج والمتحصّل والمحسوب؛ ويعقِد عليه جملة يفصّلها بسنيها وأقلامها؛ ويسمّون هذه الفذلكةَ فذلكةَ الواصل؛ وما بقيَ بعد ذلك مما ٱستقرّت عليه ٱلجملةُ بعد هذه الفذلكة تعيّنتْ سياقتُه إلى الباقي والموقوف، فيطرده باقيًا وموقوفًا، أو باقيًا بغير موقوف، معوقدَ ٱلجملة، مفصَّلًا بالسنينَ والجهات والأسماء والمباشرات، ويميِّز ما يُرجَى ٱستخلاصُه وتحصيلُه منه وما لا يرجَى؛ وما ٱنعقد عليه الباقي والموقوفُ وٱستملتْ عليه فذلكةُ الواصل هو خَصْمُ ما ٱستقرّت عليه جملة الارتفاع.

وأما الحواصل المعدومة المُساقة بالأقلام ـ ولا حقيقة لوجودها، وإنما يُورِدُها الكُتّابُ حفظًا لذكرها، كالحواصل ٱلمسروقة وٱلمنهوبة ـ فإنه إذا رُسِم بالمسامحة بها فقد اختلفت آراء الكُتّاب في إيرادها على وجوه كثيرة: منها ما يَسُوغ، ومنها ما لا يجوز فعله، ونحن نذكر أقوالَهم وطرقَهم في ذلك. ونوضح ما يجوز منها وما لا يجوز، ونذكر ما ينبغي أن يُسْلَك فيها: فمن الكُتّاب من يرى أن ينقُل هذا الحاصلَ بين الفذلكة واستقرارِ ٱلجملة من الحاصل إلى الباقي، ولا يورده في باب ٱلمستخرَج، ويطرده إلى الباقي، ويورده في باب المسموح بعد سياقته الحاصلَ؛ وهذا لا يجوز، وفي إيراده على هذا الوجه غلطٌ وسوءُ صناعة، لأن ٱلحاصل لا يجوز نقله إلى

الباقي، والباقي أيضًا، فلا بدّ أن يكون بٱسم إنسان أو أُناس، فإن ساقه باقيًا باسم مباشرِه فقد أتى بغير الواقع، وعَرّض المباشرَ إلى الغرامة، ولا يفيده، إذ مرسومُ المسامحة يتضمّن المسامحةَ بحاصل معدوم، وقد ٱنتقل هذا من تسمية الحاصل إلى الباقي.

ومن الكُتّاب من يرى ٱستثناءه من جملة ٱلمستخرَج، ثم يورده أيضًا في باب المسموح؛ وفي هذا أيضًا ما فيه مِن نقلِه من الحاصل إلى غيره تسميةً، فإنه لا عِبرة عند ذلك بتسميته ولا بنسبته إلى الباقي والموقوف؛ وإن نُقِلَ فلا يجوز، لأن الحواصل لا يجوز نقلُها إلى تسمية أخرى ألبتّة؛ فهذه الوجوه لا تجوز في صناعة الكتابة.

وأما الذي يجوز في هذا فوجوه[1]: منها أن يكمّله الكاتب في باب المستخرَج من ذلك، ويخصمَ إلى نهاية المصروف، ويقولَ قبل سياقه الحاصل: ما نُقِل رُسِم بالمسامحة به عن الحاصل المعدومِ المُساقِ بالقلم حفظًا لذكره، بمقتضى مرسوم تاريخُه كذا؛ ويشرح مقاصدَ المرسوم، وسببَ عدم الحاصل، وجملتَه؛ ويَكتفِي بذلك عن إيراده في باب المسموح؛ ويَعقِد جملةَ الخصم على الحَمل والمصروفِ والمسموحِ به.

ومنها أنه إذا ساق الحاصلَ بعد الحَمْل والمصروف يقول: من جملة كذا بعد مَأمَنه ما سومح به عن الحاصل المعدومِ والمُساقِ بالقلم؛ ويَشرح ما تقدّم، ويبرز بالحاصل بعد ذلك.

ومنها أن يستثنيَه عند ذكر المضاف، فيقول عند إضافة الحاصل ما صورتُه: الحاصلُ المُساقُ إلى آخر السنة الحاليّة من جملة كذا بعد مَأمَنه ما عُدِم في تاريخ كذا ووَرَد في سياقات الحاصل حفظًا لذكرِه، ورُسم بالمسامحة به بمقتضى مرسومٍ شريفٍ تاريخُه كذا؛ ويعيِّن جملةَ المسموح به، وهي جملةُ المعدوم، ويبرز بما بقي، ويستثنيه أيضًا من المستخرَج عندما يَستشهِد بالخِتَم والتَّوالي والأعمال.

فهذه صورة نَظْم الارتفاع وشواهدِه التي قدّمناها قَبله؛ والارتفاعُ هو جُلُّ العمل، وقاعدةُ الكتابة، والجامعُ لسائر ما يَرِد في ٱلمعاملة.

---

(١) الوجوه: مفردها «الوجه» وهو: الجة، أو القصد والنيّة في الاستعمال.

وإن انفصل الكاتب أثناء السنة لزمه أن ينظِم لما مضى من السنة في مباشرته حسابًا يسمّونه بالشأم الملخَّصَ، وبمصر التاليَ، وهو نظيرُ الارتفاع في نَظْمه، إلا أنه يكون لما دون السنة، والملخَّصُ عند المصريّين هو الارتفاع، ويَلزَم الكاتبَ المباشرَ بعده عملُ ملخَّصٍ أو تالٍ يتلوه لما بقيَ من المدّة، ثم يعمل جامعةً على الملخَّصَين أو التاليَين، وهما شاهداها؛ ويستغني الكاتبُ في إيراد ٱلمستخرَج والمتحصِّل والمصروفِ عن الاستشهاد بالخِتَم والتَّوالي والأعمال، ويَستشهِد بهذين الملخَّصين فيقول: ما تضمّنه ملخَّصُ مدّة كذا وكذا [كذا][1] وما تضمّنه ملخَّصُ مدّة كذا وكذا كذا؛ وقد تكون الملخصات أكثرَ من اثنين بحسب الاستبدال بالأعمال[2].

ومما يَلزَم الكاتبَ رفعُه المحاسَبات ـ وتختلف:

فمنها محاسبة أرباب النقود الجيشيّة والمَكيلات والجامِكيّات[3] وٱلجرايات، وأربابِ الوظائف والرواتبِ والصِّلات عما هو مستقرّ مشاهرةً أو مسانهة؛ وهذه المحاسبة تنظم من ٱلجريدة المبسوطة على أسمائهم، المشتملةِ على كميّة ٱستحقاقاتهم، المشطوبة بقُبوضهم؛ وصورةُ عملِها أن يقول الكاتب: محاسَبةٌ لأرباب النقد والمَكِيل والقرارات[4] والجامِكيّات[3] والرواتبِ والصِّلات بالمعاملة الفلانيّة لاستقبال مدّة كذا، وإلى آخر كذا؛ ويَعقِد جملَة صدرها على ما يُستحَقّ لهم في تلك المدّة المعيَّنة من عينٍ وغلّة وأصناف، ويضيف إلى تلك الجملة ما تأخّر لهم إلى آخر المدّة التي قبلها، ويفذلك على ذلك، ويُقبِضهم ما صَرَفَه لهم بمقتضى خِتَم المدّة وأعمالِها وتَواليها، ويعتدّ عليهم بما لعلّه ٱنساق فائضًا على مَنْ قَبضَ منهم زيادةً على ٱستحقاقه في المدّة التي قبلها، ثم يطرد ما انساق لهم إلى متأخّر، وما ٱنساق عليهم إلى فائض، ثم يفصِّل ذلك بالأسماء، فيضع الاسمَ ويذكره وٱستحقاقَه في الشهر وعن المدّة، ويضيف إليه ما لعلّه تأخّر له إن كان، ويفذلِك عليه، ويخصم بقبضه، ويسوق إلى متأخّرٍ إن بقِيَ له، أو فائضٍ إن زاد قبضُه على استحقاقه؛ ومن كان منهم قد تعجَّل قَبلَ تلك المدّة زيادةً على ٱستحقاقه استُحِقّ له ما وجب له في المدّة، واعتدّ

(١) ما بين قوسين لم يرد في الأصل والسّياق يقتضي إثباتها، تبعًا لما يلي من سياقٍ يؤيّد ذلك.

(٢) الظاهر أن الباء هنا «بالاستبدال» بمعنى في الظرفية أي بحسب استبدال العمال بعضهم ببعض في الأعمال.

(٣) القرارات: يريد بها الاستحقاقات.

(٤) الجامكيات: الرواتب والأجور، واحدها «جامكية».

عليه بما انساق فائضًا؛ وما لعلّه صرفه له في تلك المدّة يسوقه إلى متأخّر أو فائض، يفعل ذلك في جميع الأسماء.

وهذه المحاسبة إذا كان الكاتب مستمرَّ المباشرة عَمِلَها لسنة، وإن ٱنفصل قبل ٱستكمال السنة أو ٱقترحها مقترِحٌ عليه لزمه عملُها؛ والله أعلم.

ومنها محاسبات أرباب الأُجَر والاستعمالات(١)، ويعتمِد الكاتب فيها نظيرَ تلك، إلا أنه لا يُستحَقّ لكلّ نَفَرٍ إلّا بمقدار عملِه، ويضيف إليه ما لعلّه تأخّر له ويفذلِك عليه، ويخصمه بالقبض والاعتدادِ بالمُسْلَف إن كان؛ وهذه المحاسبة على منوال تلك، إلا أنها تُعمل بمفردها.

ومما يلزم الكاتبَ رفعُه ضريبةُ أصول الأموال ومضافاتِها عن كلّ سنة كاملة، يَذكرُ فيها كلَّ جهةٍ من جهات الهلاليّ، وٱسمَ مستأجِرها أو ضامنِها، ومبلغَ إجارتها أو تقرير ضمانها مشاهرةً ومسانهة، واستقبالَ العقد، وتاريخَ الحجّة المكتَتَبةِ به، ويشطب قُبالتَها أسماءَ كُفلاءِ ضامنِ الجهة؛ ويذكرُ الجواليَ ويفصّلها بالأسماء والمِلل، ويفصِّل الخراجيَّ بجهاته وأقلامِه، والأحكارَ بأسماء أربابها؛ وإن كان بتلك المعاملة شيء من نواحي الخاصّ ذَكَرَ كلَّ ناحية، واسمَ رئيسها، وحدودَها وعدّةَ فُدُنِها الرومية(٢) والكادية(٣) والعاطلة، وأسماءَ من بها من الفلّاحين القَرارية(٤)، وما يُبذَرُه كلّ فدان من الشَّتْويّ والصيفيّ، ورَيْعه في الثلاث سنين المقبِلةِ(٥) والمتوسّطةِ والمجدبة، وشروطَ المقاسَمة، وما على كلّ فدان من الحقوق والرسوم، وما بها من المطلَق، وما فيها من جهات العين وما عليها من الخِدم(٦) والضيافات، وغير ذلك من معالمها بحيث لا يخلّ بشيء من جميع أحوال القرية، بل يوضحها إيضاحًا شافيًا كافيًا حتى يَعلمَ الغائبُ عنها جليّةَ أمرها كالحاضر فيها.

---

(١) لعلّ صوابه «والعمالات» بضمّ العين كما يقتضيه عطفه على الأجر، والعُمالة: ما يأخذه العامل من الأجر على عمله.

(٢) الرومية: لم نجد لها معنًى يناسب السّياق، ولعلّه يريد الرّدميّة، أي الأرض التي فيها الرّدم، وهو تراب يكون من الطين الذي يأتي به النّيل عند فيضانه في كل سنة، وهو مخصّب للأرض ومصلح لزرعها واستعمال هذا اللفظ شائع بين العامة في مصر.

(٣) الكاديّة: الأرض التي يبطىء نباتها. (٤) القرارية: أي المقيمون نسبة إلى القرار.

(٥) المراد بالسنة بالمقبلة: أي التي تقبل بالنبات أي تجيء به على أحسن وجه.

(٦) الخدم: هنا بمعنى الضّيافة.

فإذا تكامل ذكرُ جهات الأصل في هذه الضريبة ذَكَرَ جهاتِ المضاف الراتبة كالخِدَم وما يناسبها، وذَكَرَ في آخرها ما تتعيّن إضافتُه من المتوفّر من العين والغلّة على ٱختلاف ضرائبه؛ وهذه القواعد تكون في ضِياع الشأم.

ويلزمه رفعُ المؤامَرات ـ وتُسمّى ضرائبَ المستقرِّ إطلاقُه ـ وهي تشتمل على أسماء من هو مرتَّبٌ على تلك المعاملة: من ربّ نقدٍ ومَكيلٍ ومقرَّرٍ وصدقة، يذكر ٱسمَ كلّ واحد وٱستحقاقَه مشاهرةً ومسانَهة، ويعقد على ذلك جملةً في صدر المؤامَرة مشاهرةً ومسانَهة؛ فإن كان في حصن ذكر في صدر الأوراق عدّةَ أرباب الاستحقاقات، ثم يفصّلهم بوظائفهم وأسمائهم من الخَرْجيّة[1] والأَقْجيّة[2] وغيرِهم.

ويلزمه رفعُ ضريبة ما يُستأَدى من ٱلحقوق، يذكر فيها ما يستأديه ضامنُ كلّ جهة من رسومها وحقوقها، وما لعلّه يُستأدَى بالدُّروب من الخَفْر[3]، وغير ذلك من سائر ما يُستأدَى من حقوق تلك المعاملة، وما لعلّه يُقتَطع من أرباب النقود والمَكِيلات وغيرِهم من الوفر والمقتطَع على ٱختلاف الضرائب، بحيث لا يخلّ بشيء منها، لتُعلَم بذلك أحوالُ تلك الجهة، فلا يمكن للضُّمّان أن يستأدوا زيادة على ذلك، لما فيه من تجديد الحوادث على الرعيّة.

ومما يلزمه رفعُه في كلّ سنة تقديرُ الارتفاع ـ وهو الارتفاع بعينه إلا أنه لا يضيف فيه حاصلًا ولا باقيًا، ولا يفصّل فيه الجواليَ بالأسماء، بل يعقد الجملةَ في صدره على ما يُستحَقّ بتلك المعاملة من جهات الأصول والمضاف، ويخصم بالمرتَّب عليها عن سنة كاملة، ويسوقه إلى خالص أو فائض، ليَظهَر بذلك ميزانُ تلك الجهة.

هذا ما يَلزَم المباشرَ رفعُه مشاهرةً ومسانَهة.

ويلزمه في كل ثلاث سنين رفعُ الكشوف الجيشيّة، يذكر فيها أسماء النواحي العامرة[4] والغامرة[5]، والفُدُنَ الكادية والعاطلةَ وما تقدّم شرحه في الضريبة: مِن ذكرِ

(١) الخرجيّة: المستفاد من السياق هو أن المراد بهذه الكلمة الذين يقبضون استحقاقاتهم حنطة ولحمًا ونحو ذلك من المأكولات.
(٢) الأقجية: الذين يقبضون استحقاقاتهم نقودًا، وهو نسبة إلى الأقجة، لفظ تركي يراد به نوع من النقود...
(٣) الخفر: الحراسة.
(٤) العامرة: الأرض المعمورة.
(٥) الغامرة: الأرض الخراب.

البِذَار والرَّيعِ والشروطِ والمطلَقِ وغيرِه؛ ثم يذكر المتحصّل منها في ثلاث سنين لثلاث مُغَلّات، يعقد على ذلك جملة، ويفصّله بسنيه وأقلامه، ولا يخلّ بشيء مما بكلّ ناحية من الحقوق الديوانيّة والإقطاعيّة، ويعقد في صدر الكشف جملة على عدّة النواحي وعدّة الفُدُن، وجملة جهات العين والغلّة، مفصّلًا بالمعاملات؛ هذه هي الحسابات اللازمة.

وأما المقترَحات ـ فلا يمكن ضبطها، إلا أنه مهما اُقتُرِح مما يكون سائغَ الاقتراح مُمكَن العملِ لَزِمَ الكاتبَ عَملُه.

وحيث انتهينا إلى هذه الغاية فلنذكر أرباب الوظائف.

ذكر أرباب الوظائف وما يلزم كلًّا منهم مع حضور رفقته ومع غيبتهم وما يسترفعه كل مباشر عند مباشرته وما يلزمه عمله

أما المشدّ أو المتوليّ ـ فالذي يَحتاج إلى استرفاعه عند مباشرته ضرائبُ أصول الأموال والمرتَّبُ عليها ليَعلَم حالَ المعامَلة، وما بها من الخالص، أو عليها من الفائض؛ ويسترفع أوراقًا بالحاصلِ والباقي والفائِض والمتأخّر، ليَعلمَ أحوالَ الناس ومحاسباتهم، ويعلَم ممّن يَطلُب وإلى من يَصرِف.

والذي يلزمه عمارةُ البلاد، واَستجلابُ من نزح منها، وإقامةُ السطوة[١]، وإظهارِ المَهابة والحرمة، وتسهيلُ السُّبل، وإقامةُ الخُفَراء عليها، وتشييدُ مَنار الشرع الشريف، والتسويةُ بين القويّ والضعيف.

ويلزمه استخراجُ الأموال من سائر جهاتِها ووجوهِها المستحَقّةِ[٢] في مباشرته، والبواقي التي رُفِعتْ إليه بعد تحقيقها بحيث لا ينطرد إلى الباقي الدرهمْ الفرد؛ ومتى اُنساق في مباشرته شيءٌ لَزِمَه.

ويلزمه تقريرُ الجنايات والتأديبات على أرباب الجرائم لتنحسم بذلك مَوادُّ المفسدين.

(١) إقامة السّطوة: أي إحلال الأمان بين الناس وحفظ الأمن.
(٢) المستحقة: المراد بها هنا المطلوبة منها الحقوق، يقال: استحقّه: إذا طلب منه حقه. (اللسان، مادة حقق).

وأما الناظر على ذلك - فيحتاج عند مباشرته إلى ٱسترفاعِ ضرائبِ أصول الأموال ومضافاتِها، والمستأدَى من الحقوق، وضرائبَ بما ٱستقرّ إطلاقُه، وأوراق الحاصل والباقي، وأوراقِ الفائض والمتأخّر، وتقديرِ الارتفاع، والكشوفِ الجيشيّة، ويطالب بمخازيم المياوَمَة لاستقبال مباشَرته، والخِتَمِ والتَّوالي عند مضيّ المدّة، والأعمالِ وسائرِ الحُسبانات المتقدّم ذكرُها في أوقاتها، وما لعلّه يقترحه مما يَسُوغ ٱقتراحُه ويمكن عملُه؛

والذي يلزمه الاجتهاد في عمارة نواحي ٱلخاصّ، وتمييز ٱلجهات ونموّها، والنظر في أحوال المعاملات، وإزاحةُ أعذارها، وتقرير قواعدها، وٱختبار من بها من المباشرين، والكشف عن أحوالهم، وكَتْبِ كلٍّ واحد منهم بما يلزمه مباشرةً وعملًا، ويَتصفّح ما يَرِد عليه من الحُسبانات الصادرة عنهم؛ وينظرِ فيما يتجدّد من أحوال المعاملاتِ وما يطرأ من الحوادث على ٱختلافَها مما لا يحصره ضبط، بل هو بحسَب ما يقع؛ وإنما جعلنا هذه الإشاراتِ أُنْمُوذَجًا يُستدَلّ بها على ما بعدها؛

ويقيِّد بخطّه الاستدعاءاتِ والإفراجاتِ والمراسيمَ والتواقيعَ وغيرَ ذلك مما جرت به العادة: من الكتابة بالمقابلةِ والثبوتِ والتَّمحِيَةِ والاعتماد وغيرِ ذلك.

وأما صاحب الديوان - فإنه يسترفع ما يسترفعه الناظر من المعالم خاصّة، وليس له أن يسترفع الارتفاعاتِ ولا شواهدَها؛ فإن ٱسترفعها لزمه من دَرَكها[١] ما يلزم المستوفِي[٢]؛ وهو يَكتُب على ما يكتب عليه الناظر[٣]، وله زيادةٌ على ذلك: وهي الترجمة على التذاكر والاستدعاءات، والكتابةُ على تواقيع المباشرين بأخذ خطوطهم عند ٱستخدامهم، والكتابةُ على محرَّراتهم بالتخليد، والكتابةُ على تذاكر المخرَّج والمردود الصادرةِ عن مستوفِي العمل بأن يجيب المباشرون عنها بما يَسُوغ

---

(١) الدرك: التّبعة.

(٢) المستوفي: هو الذي يضبط الديوان وينبّه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك. (صبح الأعشى، ٥/٤٣٧، ٤٣٨).

(٣) النّاظر: وهو من ينظر في الأموال وينفّذ تصرُّفاتها ويُرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمّله، فيُمضي ما يمضي، ويردّ ما يردّ. (صبح الأعشى، ٥/٤٣٧).

قبولُه، والكتابةُ بقبول الجواب عند عَوده إن كان سائغًا، والكتابةُ على الحساب الصادِرِ عن المباشِرين بتخليده في ديوان الاستيفاء بعد أن يتصفّحَه وتَظهَرَ له سياقة أوضاعه؛ وكلُّ عمل لا يكون له صاحبُ ديوانٍ قام الناظر بهذه الوظيفة إلّا الكتابةَ بقبول الحساب.

وأما مقابِل الاستيفاء ـ وهو بمنزلة الشاهد في ديوان الأصول ـ فله أن يسترفع المعالمَ لنفسه في كلّ سنة، ويسترفِعَ نتيجةَ الحُسبانات اللازمة التي تصدّر إلى الديوان العالي بالباب الشريف، ويضبِطَ مياومة المجلس، ويكتبَ على ما يكتب عليه المستوفِي، ويكتبَ على حُسبانات الواصلة من جهة المباشرين بتاريخ حضورها إلى الديوان قبل تخليدها[١] في ديوان الاستيفاء، ويَسُدَّ[٢] بقلمه تواريخَ التذاكر والمراسيم، ويتصفّحَ ما يصدر عن المستوفى من المخرَّج والمردود ويطالِب بحَمْل ما ثبت منه، ويطالِب أربابَ الخطوط والبُذول[٣] بما يُستحَقّ عليهم ويُنِيب[٤] شادَّ[٥] الدواوين عنه، ويكتُب في كلّ يوم بما يطالب به؛ وإذا لم يكن للديوان مقابل قام المستوفى بوظيفته.

وأما المستوفِي ـ فله أن يسترفعَ سائرَ الحُسبانات اللازمة، وما تدعو إليه حاجته من المقترَحات في المُدد الماضية والحاضرة ممّا يمكن عمله، فإذا صار الحساب إليه مشمولًا بخطّ صاحب الديوان بتخليده ومؤرَّخًا حضورُه بخطّ المقابِل تصفَّحه وأستَوفَى تفاصيلَه على جُمَلِه أصلًا وخصمًا[٦]، وشَطَبَ ما يحتاج إلى شطبه ـ كلَّ عملٍ على شواهده ـ وخرَّج ورَدّ ما يتعيّن تخريجه ورَدُّه، وكتب بذلك مطالَعةً تُعرَض على

(١) تخليدها: تسجيلها.
(٢) يسدّ: لعلّها بمعنى يؤكّد ويعاين.
(٣) أرباب الخطوط والبذول: لعلّ المراد بهم الذين يكتب لهم من السلطان ببذل شيء من الإقطاعات ونحوها.
(٤) ينيب: يقيمه مقامه.
(٥) شادّ الدواوين: هو شخص يكون رفيقًا للوزير متحدّثًا في استخلاص الأموال وما في معنى ذلك أو العادة أن يكون أمير عشرة. (انظر صبح الأعشى ٤/ ٢٣).
(٦) الخصم: «في علم الحساب» الحطيطة، وهي ما يحط من جملة الحساب فينقص منه.

المقابِل، فإذا وافقه عليها عُرِضت على صاحب الديوان وكَتَب بالإجابة عنها، ثم يطالِب المباشَر بالإجابة عمّا تجب الإجابة عنه، وإضافة ما تجب إضافتُه [إلى][(١)] حساب المدّة التالية لتلك المدّة، وحَمْلِ ما يجب حملُه؛ وتكون إضافتُه في الحساب منسوبةً إلى قلم مستدرَكهِ؛ فإن أَخَّر اْستيفاءَ الحُسبانات وشطْبَها وتخريجَ ما يَلُوح فيها ومضت عليها مدّة يمكن فيها العملُ، كان ما يتعيّن فيها لازمًا له إذا عُنِّتَ[(٢)]، وإلا فتلزمه إعادةُ ما تَناوَله من الجامِكِيّة[(٣)] عن تلك المدّة، ويطالَب مَن صدر عنه الحسابُ بما يلزمه.

ويتعيّن على المستوفي أنه إذا رُفِع إليه حسابُ معاملة تأمّل[(٤)] خطوطَ المباشرين على عاداتهم، [و][(٥)]نظر فيه بعد ذلك، فإن تغيّرت عن العادة، فإن كان بزيادة تأكيد فلا بأس، وإن كان بإخلال مثلَ أن يكتُب الشاهدُ على الحساب بالمقابلة، وعادتُه أن يكتُب: «الأمرُ على ما شُرِح» يَلزمه الكشفُ عن موجِب ذلك.

ويَلزَم المستوفِي ضبطُ مياوَمة المَجلس، وكتابةُ الكشوف بخطّه والتذاكر ونُسَخِ المحرَّرات، وتعيينُ الجهات لأربابها بعد كتابة الناظر بتعيين الجهة، وعليه نَظْمُ جوامعِ التقدير بعد عمل موازينها وتحريرها وشطْبها على التقادير الصادرة عن المباشرين وجوامعِ الحواصل: من العَين[(٦)] والغلالِ والكُراع[(٧)] والأصناف المعدودة والموزونة والمذروعة[(٨)] والسلاح خاناه والعُدَدِ والآلات وغيرِ ذلك، يَسُدّ على ما أمكن سدُّه جملة، وما لا يمكن نَثْرَه أقلامًا يستشهد فيها بما رُفِع إليه من جهة المباشرين؛ وكذلك يَعتمِد في جامعة البواقي، يَعقِد عليها جملة، ويفصّلها بمعاملاتِها وجهاتِها

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السّياق.

(٢) عُنِّت: بالبناء للمجهول: أي شدّد عليه وأريد به العنت وهو المشقة.

(٣) الجامكيّة: الرّاتب والأجر.

(٤) تأمّل خطوط المباشرين على عاداتهم: أي نظر فيها مطابقًا لها على عاداتهم في الكتابة حرصًا من التزوير.

(٥) ما بين قوسين تكملة يقتضي السياق إثباتها، ونظر فيه: أي نظر في الحساب السابق ذكره.

(٦) العين: الأموال.

(٧) الكراع: الدّواب.

(٨) المذروعة أي المقيسة بالذراع.

وسنيها وأسماءِ مباشريها، وما يُرجَى منها وما لا يُرجَى بمقتضى أوراق المباشرين؛ وكذلك يَعتمِد في جامعة الفائض والمتأخّر وغيرِ ذلك من الجوامع.

وعليه عملُ ما يُطلَب من الأبواب من المقترَحات والمطاوَلات.

ويَلزمه عملُ المقايَسات وفوائدِ المتأخّر، وغير ذلك من لوازم قلمِ الاستيفاء؛ ويَلزَمه محاسباتُ أرباب النَّقْدِ والكيلِ المرتّبين على ما تَعيَّن بقلم الاستيفاء، فيحاسبهم على ٱستحقاقاتهم، ويَعتدّ عليهم بما ثبت مما عيّنه لهم بقلمه.

ويلزَمه التنبيهُ على خوالص المعامَلات وطلبها: حَمْلًا إلى بيت المال، أو حَوالةً على ما يعيّنه بقلمه.

ويلزمه تخريجِ تَفاوُت[١] المُدد[٢] والمحلولات[٣] وغيرِ ذلك.

ويلزمه التفريعُ[٤] بما يصل إليه من الحَوْطات[٥] الجيشيّة لِوقتِه على ما جرت به العادة.

ووظيفة الاستيفاء كبيرة، كثيرةُ الأعمال، لا تنحصر لوازمها في كتاب، وإنما هي بحسب الوقائع.

فإذا ٱنفصل المستوفى من المباشرة فليس له أن يأخذ ورقةً من حسابه الذي ٱسترفعه أو وضعه بقلمه، ويتلقّاه المباشرُ بعده.

وأما المُشارِف ـ فله أن يسترفع عند مباشرته مَعالمَ الجهة ليستعين بها على

(١) تفاوت المدد: أي ما توفر من الأموال عمّا فات من المدد.
(٢) المُدد: مفردها المدة، وهي مقدار من الزّمان يقع على القليل والكثير.
(٣) المحلولات: المراد بها الاقطاعات التي انحلت عن أصحابها ولم تقطع الآخرين.
(٤) لعلّ صوابه «التعريف».
(٥) الحوطات: مفردها الحوطة، وهي الاحتياط، ولعلّ المراد هنا الحوط، وهو ما تكمّل به الدّراهم إذا أنقصت في الفرائض أو نحوها...

المباشرة: من ضرائبَ وتقاديرَ[١] وحاصلٍ وباقٍ وفائضٍ ومتأخّرٍ وغيرِ ذلك؛ وهو مطلوب بتحقيق الحواصل، وله الخَتْمُ عليها؛ وهو مطلوب بنَظْم سائر الحُسبانات اللازمة والمقتَرحة إن تَسحّب[٢] العامل أو مات، ومع وجود العامل إن كان قد ٱلتَزم عند مباشرته العملَ؛ وتلزمه المقابَلةُ مع العامل على الحساب الصادر عنهما، وسِياقةُ التعليق معه، والكتابةُ على الوُصولات والحُسبانات؛ وهو مطلوب بجميع ما يُطلَب به العاملُ من المخرَّج وغيرِه.

وأما الشاهد[٣] ـ فيلزمه ضبطُ تعليق المياوَمة، والكتابةُ على الوُصولات والحُسبانات؛ ومتى فُقِدَ العاملُ والمُشارِفُ لَزِمه رفعُ ٱلحساب اللازم دون المقترَحات؛ ولا بدّ له من جريدة مبسوطة على الأصل والخصم.

وأما العامل[٤] ـ فقد قدّمنا ذكرَ ما يحتاج إليه كلُّ مباشر مِن ضبطِ تعليق المياوَمة وبسْطِ الجريدة وخدمتِها في الأصل والخصم أوّلًا فأوّلًا، والتيقُّظِ لذلك وأنّ من أهمله فقد قصّر في مباشرته وأخَلّ بوظيفته؛ والعاملُ أَحْرَى بجميع ذلك ممن سواه من سائر المستخدَمين، لما هو مطلوب به من نَظْمِ الحُسبانات ومَوقِعِه مِن عملِ المقترَحات والأجوبةِ عن المخرج والمردود، وأنه هو الملتزِمُ لذلك دون غيره وأنه لا يَلزم من سواه شيءٌ من الأعمال مع وجوده.

وقد ذكرنا تلخيصَ قواعد هذه الكتابة والمباشِرين وأوضاعِهم ولوازِمِهم والأوضاع الحسابيّة وغير ذلك من مَعالم المباشَرات، مجمَلًا غيرَ مفصَّل، وبعضًا من كلّ، وقليلًا من كثير، إذ لو ٱستقصينا ذلك لطال ولتَعَذَّر لاختلاف المباشَرات والوقائع والأوضاع والآراء؛ ولقد حصل الاجتماعُ لجماعة من مشايخ أهلِ هذه الصناعة ممّن ٱتّخذها حرفة من مبادىء عمره إلى أن طَعَنَ في سنّه[٥]، وما منهم إلا من يُخبِر أنه يَستجِدّ له في كلّ وقت من أحوال المباشَرات ما لم يسمع به قبل، ولا طرأ له[٦] فيما

---

(١) التقادير: يريد هنا تقادير الارتفاعات. (تقدّم الكلام عنه في هذا الباب).

(٢) تسحّب: هرب.

(٣) الشاهد: هو الذي يشهد بمتعلّقات الديوان نفيًا وإثباتًا. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٧).

(٤) العامل: هو الذي ينظم الحسابات ويكتبها. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٨).

(٥) طعن في سنه: تقدّم به العمر وشاخ.

(٦) طرأ له: في كتب اللغة «طرأ عليه»، ولعلّه: طرأ بمعنى وقع فعدّاه بـ «اللّام» مكان «على».

سلف من عمره؛ فكيف يمكن حصرُ ما هو بهذه السبيل؟! وفيما نبّهنا عليه مَقْنَعٌ لطالب هذه الصناعة، والعمدةُ فيها على الدُّرْبة والمباشرة، وقد قيل:

ولا بدّ من شيخ يريك شخوصَها إلّا فَنَصُّ العلم عندك ضائعُ[1]

كمل الجزء الثامن من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري
ـ رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء التاسع وأوّله:
ذكر كتابة الحكم والشروط

(١) يريك شخوصها: طلوعها، وشخص النجم: طلع.

المصادر والمراجع

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين.

٣ ـ **أساس البلاغة**، للزمخشري.

٤ ـ **الأغاني**، للأصفهاني، ط. بولاق.

٥ ـ **الأمالي**، لأبي علي القالي، دار الكتب العلمية.

٦ ـ **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، للقفطي، ط. أوروبا.

٧ ـ **الأحكام السلطانية**، للماوردي، ط. المنيا، مصر.

٨ ـ **أعجام الأعلام**، لمحمود مصطفى، دار الكتب العلمية.

٩ ـ **تاج العروس**، للزبيدي.

١٠ ـ **تاريخ أبي الفداء**، للملك المؤيد. ط. القسطنطينية.

١١ ـ **تاريخ ابن الأثير**، الكامل، ط. ليدن.

١٢ ـ **تاريخ الأمم والملوك**، للطبري، ط. أوروبا.

١٣ ـ **الخراج**، ليحيىٰ بن آدم القرشي، المطبعة السلفية.

١٤ ـ **ديوان السموأل**، دار صادر.

١٥ ـ **ديوان امرىء القيس**، دار الكتب العلمية.

١٦ ـ **ديوان جرير**، دار الكتب العلمية.

١٧ ـ **ديوان المتنبي**، دار الكتب العلمية.

١٨ ـ **ديوان الخنساء**، دار صادر.

١٩ ـ **ديوان لبيد بن ربيعة**، دار صادر.

٢٠ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، دار صادر.

٢١ ـ **ديوان طرفة بن العبد**، دار صادر.

٢٢ ـ **ديوان زهير بن أبي سلمة**، دار صادر.

٢٣ ـ **ديوان أبي تمام**، دار صعب.

٢٤ ـ **ديوان الحماسة**، لأبي تمام، شرح التبريزي، دار القلم.

٢٥ ـ **زهر الآداب**، للحصري القيرواني، ط. الرحمانية.

٢٦ ـ **شرح القصائد المشهورات «المعلقات»**، لأبي جعفر النّحاس، دار الكتب العلمية.

٢٧ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.

٢٨ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

٢٩ ـ **صحيح البخاري**، ط. ليدن.

٣٠ ـ **الطبقات الكبرى**، ابن سعد، ط. ليدن.

٣١ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربّه، المطبعة الشرقية.

٣٢ ـ **القاموس المحيط**، للفيروزأبادي.

٣٣ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

٣٤ ـ **مقدّمة ابن خلدون**، ط. بولاق.

٣٦ ـ **المنهل الصافي**، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية.

٣٧ ـ **المواعظ والأخبار في ذكر الخطط والآثار**، خطط المقريزي، ط. بولاق.

٣٨ ـ **المصباح المنير**، للفيومي.

٣٩ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

٤٠ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ط. بولاق.

٤١ ـ **يتيمة الدّهر**، للثعالبي، دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٩-١٠-١١

تحقيق

الدكتور محمد رضا مروة — الدكتور يوسف الطويل — الدكتور يحيى الشامي

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية

الطبعـة الأولى
٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9 782745 138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر كتابة الحُكْم والشروط وما يتّصف به الكاتبَ ويحتاج إليه

ينبغي أن يكون كاتبُ الحُكْم[1] والشروط[2] عَدْلًا، دَيّنًا، أمينًا، طَلْقَ العبارة فصيحَ اللسان، حَسَنَ الخطِّ؛ ويحتاج مع ذلك إلى معرفة علوم وقواعدَ تُعِينه على هذه الصناعة، لا بدّ له منها، ولا غُنْيَة له عنها: وهي أن يكون عارفًا العربيّةَ والفقه مُتْقِنًا علمَ الحساب، محرِّرًا القِسَمَ والفرائض، دَرِبًا بالوقائع، خبيرًا بما يَصدُر عنه من المكاتبات الشرعيّة، والإسجالاتِ الحُكْمِيّة على اختلاف أوضاعها، وأن يكون قد أَتقن صناعة الوِراقةِ[3] وعَلِمَ قواعدَها، وعَرَف كيفيّةَ ما يكتب في كلّ واقعة وحادثة: من الدّيون على اختلافها، والحَوالات، والشّرِكات، والقِراض، والعارية، والهبةِ والنِّحْلة، والصدقةِ والرجوع، والتمليك، والبيوع، والردِّ بالعيب والفسخ، والشُّفْعة والسَّلَم، والمقايلة[4]، والقِسْمةِ والمناصَفة، والأجائر على اختلافها، والمُساقاة، والوصايا والشهادةِ على الكَوافل بالقُبوض[5]، والعتق[6]، والتدبير، وتعليق العتق، والكتابة[7]، والنكاحِ وما يتعلّق به، وإقرارِ الزّوجين بالزوجيّة عند

---

(١) الحكم: ج: أحكام، وتعني القضاء. (٢) الشروط: إلزام الشيء والتزامه.

(٣) الوراقة: مصطلح الكتاب في مكاتيبهم. وفي كتب اللغة أن الوراقة حرفة الورّاق وهو الذي يورق ويكتب. (اللسان).

(٤) يريد بالمقايلة الحاصلة في السَّلم. يقال: تقايل البيعان تقايلًا: تفاسخا. (اللسان).

(٥) القبوض: جمع قبض، وإنما جاز جمع المصدر في هذا الموضع لإرادة الوحدات فإن النحاة يمنعون جمعه، فإذا أريد به الوحدات أو الأنواع جاز ذلك.

(٦) العتق: عَتَقَ؛ عَتْقًا وعِتقًا وعَتُقَ عُتاقةً الشيء: صلُح وكرُم. أعتقَ ما له: أي أصلحه. العِتْق (مص): خلوص الأصل. العتيق: ج عتقاء وعُتُق: الكريم، الخيار من كل شيء. فرس عتيق: ج عِتاق: رائع.

(٧) إطلاق الكتابة على مكاتبة السيد لعبده، إطلاق مجازي فيه تسامح واتساع؛ قال في المصباح ما نصه: «قيل للمكاتبة كتابة تسمية باسم المكتوب مجازًا أو اتساعًا لأنه يكتب في الغالب للعبد على مولاه كتاب بالعتق عند أداء النجوم، ثم كثر الاستعمال حتى قال الفقهاء للمكاتبة كتابة وإن لم يكتب شيء»؛ ثم قال: «وشذّ الزمخشري فجعل المكاتبة والكتابة بمعنى واحد؛ ولا يكاد=

عدم كتاب الصَّدَّاق[١]، واعترافِ الزوج بمبْلَغ الصَّداق، والطلاق، وتعليقِ الطلاق، وفسخِ النكاح، ونفي ولدِ الجارية والإقرارِ باستيلاد الأَمَة، والوَكالات، والمَحاضر، والإسجالات، والكُتُبِ الحُكْميّة والتقاليد، والأوقاف، وغيرِ ذلك، على ما نوضّحه ونبيّنه إن شاء الله تعالى، فنقول وبالله التوفيق:

أمّا اشتراط العدالة والديانة والأمانة ـ فلأنّه يَتصرّف بشهادته في الأموال والدّماء والفروج، فإذا لم يكن فيه من الدّيانةِ والعدالةِ والأمانةِ ما يستمسِك به، ويقِفُ عند أوامرِ الشرع الشريف ونواهِيه بسببه؛ تَولّاه ـ والعياذ بالله تعالى ـ الشيطانُ بالغُرور، وأَوقَعه في محظورٍ يُتوقَّع في الدار الآخرة منه وقوعُ المحذور؛ وربّما انكشفت في الدّنيا عورتُه، وبَدَتْ سريرتُه؛ وإذن هو المَعْنيُّ والمُشارُ إليه بقولهم: «شاهدُ الزور قَتَل ثلاثة: نفسَه والمشهودَ له والمشهودَ عليه» فلم يَفُزْ ممّا ارتكبه بطائل، بل جَمَع لنفسه بين نكالٍ[٢] عاجلٍ وعقابٍ آجل، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحَجّ: الآية ١١].

وأمّا طلاقة[٣] العبارة وذلاقة اللسان ـ فلأنه يَجلِس بين يدي الحاكم في مجلسه العامّ، ويَحضُره من يَحضُره: من العلماء والفقهاء، وذوي المناصب، وأصحابِ الضرورات، وخصومِ المحاكَمات على اختلاف طبقاتهم وأديانهم؛ وهو المتصدّي لقراءة ما يَحضُر في المجلس: من إسجالات حُكْميّة، ومَكاتيبَ شرعيّة؛ وكُتُبِ مبايَعات، ووثائِق إقرارات؛ وقصصٍ وفَتاوَى، وغير ذلك مما يتّفق في المجلس؛ فمتى لم يكن الكاتب طَلْقَ العبارة فصيحَ اللّسان، جيّدَ القراءة حَسَنَ البيان؛ تعذّرتْ قراءة ذلك عليه وَلَكِنَ في المجلس، فرمقَتْه العيون شَزْرًا، وتَلَمّظتْ[٤] به الألسُن سِرًّا؛ ونظر بعضُ القوم بسببه بعضًا، وكان عندهم في الرتبة سماءً فغدَا أرضًا؛ ثم تتعدّى هذه المفسدةُ إلى إفساد المكتوب، والتباسِ المعنى المرادِ والأمرِ المطلوب؛ وذلك

= يوجد لغيره ذلك». الخ. (اللسان).

(١) الصَّداق: المهر.

(٢) نكال: من نكل، نكولًا عن كذا أو من كذا: نكص وجبن. يقال: «نكل عن العدو وعن اليمين وعن الجواب». والنكال: ما نكلت به غيرك كائنًا ما كان، وهو اسم ما يُجعل عبرةً للغير.

(٣) المراد هنا: «الطلوقة» أي الفصاحة، مصدر (طَلُق) بفتح أوله وضم ثانيه لا «الطلاقة». والذلاقة: البلاغة والحدة في اللّسان.

(٤) «تلمظت به الألسن» أي تحركت بالذم له والصيب فيه؛ وأصل التلمظ تحريك اللسان في الفم بعد الأكل، كأنه يتتبع بقية من الطعام بين أسنانه.

لأنّه إذا تَوقَّف في القراءة احتاج إلى إعادة اللّفظة وتكرِيرِها، وترديدِ الكلمة وتدويرِها؛ فتُشكِل قراءتُه على سامعه ومستكتِبِه، ويكون قد أَخَلّ برتبته ومَنصِبِه.

وأمّا حسن الخطّ ـ فلأنه مندوب إليه في مثل ذلك، وله من الفوائد ما لا يحصَى، ولأنّ المكتوبَ إذا كان حَسَنَ الخطّ قَبِلَته النفوس، وانشرحتْ له ومالتْ إليه؛ وإذا كان على خلاف ذلك كرِهَتْه وملّتْه وسئِمَتْه[١]؛ وقد ذكرْنا ما قيل في حُسن الخطّ وما وُصِفتْ به الكتابة عند ذكرنا لكتابة الإنشاء[٢]، فلا فائدة في إعادته هنا.

وأما معرفة العربيّة ـ فلأنّه إنّما يَكتُب عن حاكم المسلمين في الأمور الشرعيّة، فلا يجوز أن يَصدُرَ عنه لحن بلفظه، فكيف إذا سطّره بقلمه؟ فإن وقع ذلك كان من أقبح العيوب وأَشْنَعِها، وربّما أَخَلّ بالمقصود، وحَرَّف المعنى المراد وأَخرَجه عن وضعه، ونَقَله إلى غير ما أريدَ به، سِيَّما[٣] في شروط الأوقاف.

وأما معرفة الفقه ـ فلأنه يجلس بين يدي حاكم عالم، لا يكاد يخلو مجلسه غالبًا من الفقهاء والعلماء، فيُوردون[٤] المسائل أو تُورَد عليهم، فيحصُل البحث فيها فيتكلّم كلٌّ من القوم[٥] بما علمه بقدر اشتغاله ونقْلِه[٦]، فإذا كان الكاتب عاريًا من الفقه والمدارسة ومطالعة كتبِ العلوم الشرعيّة اقتضَى ذلك عدمَ مشارَكتِه لهم فيما هم فيه فيَصِير بمثَابة الأجنبيّ من المجلس، وهو في ذلك بين أمرين: إمّا أن يسكت، فلا فرق بينه وبين جماد شُغِلتْ به تلك البقعةُ التي جلس فيها؛ أو يتكَلَّمَ بما لا يعلم، فيُرَدَّ عليه قولُه، فيَحصُلَ له الخجلُ في ذلك المجلس الحَفْل، ويستزريَه القوم؛ هذا

---

(١) سئم: من سأم؛ سَئِمَ سأمة وسأمًا وسأمة وسَأْمًا وسآمة الشيء ومنه: ملّه، فهو سؤوم، وأسأم إسآمًا: أي سبب له سأمًا. (اللسان).

(٢) يشير بذلك إلى ما تقدم ذكره في الجزء السابع ص ١٤ من هذا الكتاب.

(٣) «سيما» أي لا سيما، فحذف «ولا» للعلم بها وهي مرادة، لكن هذا الحذف قليل.

(٤) فيوردون: من وَرَدَ، ويقال ورد يرد ورودًا الماء: خلاف صدر عنه، فهو وارد؛ والماء وغيره: صار إليه أي واناه وبلغه. والاسم الوِرْد؛ ومن المجاز «وردتُ البلدَ» و«ورد عليَّ كتابٌ». ورد عليه: اتفق معه على معنًى واحدٍ يورد بلفظ واحد من غير أخذ ولا سماع، ويوردون هنا: يطرحون.

(٥) القوم: الجماعة؛ وهي من قام؛ يقوم قومًا وقومة وقيامًا وقامةً بالأمر: تولاه. يقال: «قام بي وقعد» أي نشر عني أخبار السوء. وقام الحق: أي ظهر وثبت.

(٦) نقله: من نقل؛ ونقل نقلًا الشيء: حوله من موضع إلى موضع. ونقل الكلام عن قائله: رواه عنه؛ ونقل الكتاب: نسخه وترجمه.

من هذا الوجه؛ ثم هو فيما يكتبه عن الحاكم أو في أصل[١] المكتوب بين أمرين: إمّا أن يُجيدَ ويُبرِزَ المكتوبَ وهو محرَّر على مقتضَى قواعد الفقه، فلا بدّ له فيه من الاستعانة بالغير وتقليده، بحيث إنه لو سئل عن معنًى أجاد فيه وأَحسَنَ لعَجَز عن الجواب؛ وإمّا أن يَستقِلَّ بنفسه فيكتُبَ غيرَ الواجب، فيكونَ قد أفسد المكتوب على أهل ولَزِمه غُرْمُ[٢] ما أفسد من القراطيس والرُّقوق[٣]، وكلتاهما خُطَّةُ خَسْفٍ ما فيهما حظٌّ[٤] لمختار؛ وربّما اغترّ جاهل ممن تَلبَّس بالكتابة لوُثوقِه من نفسه بمعرفة مُصطلَح الوِراقة دون الفقه، فيَظنُّ أنه استغنَى بذلك عنه، وهذا غلطٌ وجهل، لأنه قد يقع له من الوقائع ما لم يعلمْه، فلا يخلِّصه منه إلا تصريفُه على القواعد الشرعيّة؛ ولا يعتمد الكاتب على اطّراد قاعدة الأشباه والنظائر، فيَقِيس الشيء على ما يظنّ أنّه شِبْهُه أو نظيرُه، وقد لا يكون كذلك، فإنّ الفقه أمرٌ نقليٌّ لا عقليّ، فلا بدّ للكاتب من معرفته؛ والله أعلم.

وأما علم الحساب والفرائض ـ فلأنه لو وقع في المجلس قِسْمةٌ شرعيّةٌ بين وَرَثة أو شركةٍ[٥]، ولم تكن له معرفةٌ[٦] بهذا العلم، كان ذلك عَجْزًا منه وتقصيرًا ونقصًا في صناعته؛ ويَقْبُح[٧] به أن يَعتمِد على غيره فيه ويقلّدَه، ويَرجِعَ إليه في المجلس

---

(١) يريد بأصل المكتوب: ما يكون أصلًا لما يكتب عن القاضي؛ ككتب المبايعات والإقرارات وغيرها. فإنها أصل لما يكتب عن القاضي من الإسجالات ونحوها.

(٢) غُرْمُ: من غَرِمَ، غَرْمًا وغُرْمًا وغَرامةً ومَغْرَمًا الدَّيْنَ: أدّاه، وغرم في التجارة: خسر. ويقال: تغرَّمَ: تحمل وتكلف الغرامة. والغرم: الضرر والمشقة.

(٣) الرُّقوق: جمع رق بفتح الراء وتكسر، وهو الصحيفة التي يكتب فيها.

(٤) يشير بهذه الجملة إلى ما ورد في شعر الأعشى يمدح السموأل بن عادياء، ويستجير بابنه شريح وهو:

كن كالسموأل إذا طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرّار
إذ سامه خطتي خسف فقال له ... قل ما تشاء فإني سامع حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار

(الأغاني ج ١٩/ ص ١، ط بولاق).

(٥) يريد بالشراكة هنا: الشركاء، وهي تسمية بالمصدر، ولهذا ضبطناها بالكسر عطفًا على قوله «ورثة» وقد ورد هذا اللفظ في شعر عروة بن الورد مرادًا به الشركاء كما هنا، قال:

إنـي امرؤ عـافـي إنـائـي شـركـة ... وأنـت امرؤ عـافـى إنـائـك واحـد

(ديوان عروة بن الورد ص ٨٨ ـ ط المطبعة الوهبية).

(٦) ضمّن المعرفة معنى العلم فعدّاها بالباء.

(٧) يقبح: من قَبَحَ، قبحًا وقبوحًا «هُ» الله عن الخير: نَحّاه عنه، فهو مقبوح. ويقال «قَبَحْتُ له وجهه» أي قلت له «قبحه الله». قَبُحَ ـ قَبْحًا وقُبْحًا وقَباحَة وقُباحًا وقُبُوحًا وقُبوحَةً: ضدّ حَسُن.

الذي هو ممّن يشار إليه فيه، فيصيرَ في ذلك المجلس تابعًا بعد أن كان متبوعًا، ومقلِّدًا لغيره، ومسطِّرًا بقلمه ما لم يعرفْه وما هو أجنبيٌّ عنه؛ هذا إنِ اتّفق أن يَحضُرَ المجلس من له معرفةٌ بهذا العلم؛ فأمّا إن خلا المجلس ممن يعلم ذلك جملةً كان أشَدَّ لتوقيف[١] الأمر وتعطيلِه، ودَفعِه من وقت إلى آخر، وفي هذا من النقص والتقصير والإخلال برتبتِه، وعدمِ الاتصافِ بالكمال في صناعتِهِ، ما لا يَخفَى على متأمِّل.

وأما معرفة صناعة الوِراقة في الأمور التي ذكرناها - فلذلك من الفوائد ما لا يَخفى على ذي لُبّ، لأنّ الكاتب إذا أخرج المكتوبَ من يده بعد إتقانه وتحريرِ ألفاظه على ما استقرّ عليه الاصطلاح: من التقديم والتأخير ومتابَعةِ الكلام وسِياقتِه، وترصيعِه وترصيفِه[٢]، حَسُنَ مَوقعُه، وعَذُبتْ ألفاظُه، واشرأبّتْ له النفوس، ولو بلغ الكاتب في الفقه والعربيّة واللغة ما عساه أن يَبلُغَ ولم يَدْرِ المصطَلح، وخرج الكتابُ من يده وقد حرّره على قواعد الفقه والعربيّة من غير أن يسلك فيه طريقَ الكتّاب واصطلاحَهم، مَجّتْه[٣] الأسماعُ، ولم تقبلْهُ النفوسُ كلَّ القبول، وثَقُل على قارئه وسامعِه؛ والله أعلم.

ذكر صورة ما اصطلح عليه الكتّاب من أوضاع الوراقة

فهذه لُمْعةٌ كافيةٌ من فوائد ما قدّمناه ممّا يحتاج الكاتب الشُروطيُّ إلى معرفته؛ فلنذكر الآن صورةَ ما اصطَلَح عليه الكتّابُ من أوضاع الوِراقة في الأمور التي قدّمنا ذكرَها على ما استقرَّ عليه الحال في زماننا هذا، ممّا يضطرّ إليه المبتدِىء، ولا يكاد يَستغني عنه المنتهي؛ فنقول:

أوّلُ ما ينبغي أن يبدأ به الكاتبُ فيما يَصدُر عنه من جميع المكاتيب الشرعيّة حين ابتدائه بكتابة شيء منها أنْ يَكْتُبَ:

---

(١) التوقيف: مصدر «وقفته» بتشديد القاف. ونقل صاحب التاج عن شيخه أن «وقفته» بالتشديد «وأوقفته» قد أنكرهما الجماهير وقالوا: غير مسموعين؛ وقيل: غير فصيحين.

(٢) رصف: رصف رصفًا الحجارة: ضم بعضها إلى بعض؛ ورصف المصلي قدميه أو بين قدميه: قربهما أو ضمَّ إحداهما إلى الأخرى؛ ورصف السهم: شدّه بالرِّصاف ويقال: «هذا الأمر لا يرصف بك». أي لا يليق. ورَصُف رَصَافَةً العملُ: أُحْكِمَ وثبت.

(٣) مجّ مجًا الشراب أو الشيء وبه من فمه: رمى به. ويقال على الاستعارة «هذا الكلام تمجُّهُ الأسماع» أي تقذفه وتستكرهه.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾[(١)] ثم يصلّي على النبيّ ﷺ، ثم يَكتُب لقبَ المشهود عليه وكُنْيته واسمَه، ولقبَ أبيه وجَدّه وكنيتَيْهما واسمَيهما، إن كانوا ممّن يُلقَّبون ويُكنَّون، وإلّا فأسماؤهم كافية؛ ويَنسُب المشهودَ عليه إلى قبيلته، أو صناعته وحرفته أو مجموع ذلك؛ وذلك بحَسَب ما تقتضيه رتبتُه وحالُه في علوّ القدر والرفعة؛ فإن كان من ذوي الأقدار المشهورين ذَكَرَ ألقابه وكُناه، ونَسَبه إلى قبيلته وحرفته، إن كانت ممّا تزيده رفعةً وتعريفًا؛ وإن كان غيرَ مشهورٍ برتبة أو مَنصِب لكنه ممّن يعرفه الشهودُ بالحِلْية والنَّسَب قال: «وشهودُ هذا المكتوب به عارفون» واستغنَى بذلكَ عن وصف حِلْيته[(٢)]؛ وإن كان ممّن عَرَفه بعضُهم ولم يَعرِفه البعض قال: «وبعضُ شهوده به عارفون» وذَكَرَ حِلْيتَه، وإن كان ممّن لا يَعرِفه الشهود جملةً ذَكَرَ حُلاه وضَبَطَها على ما نشرحه عند ذكرنا للحُلَى؛ ثم يَذكُر المشهودَ له ويَسلك في ألقابِه ونعوتِه وكُناه وتعريفِه نحوَ ما تَقدَّم في المشهود عليه بحَسَب ما تقتضيه حالُه أيضًا ويَذكُر بعد ذلك ما اتفقا عليه. فإذا انتهى إلى آخر الكلام فيه أرَّخ المكتوبَ باليوم من الشهر، وبما مضى من سنين الهجرة النبوية[(٣)]؛ ولا بأس بأن يؤرّخه بالساعة من اليوم، لاِحتمالِ تَعارُضِ مكتوبٍ آخَرَ في ذلك اليوم يناقِض هذا المكتوب، مثال ذلك أنّ امرأةً طُلِّقتْ في يومٍ قَبل دخول الزوج المطلِّق بها، فتَزوّجتْ في يومها، وتمادَى الأمرُ على ذلك، ثم ادَّعَى مُدَّعٍ أنها تزوّجتْ قبل وقوع الطلاق ولم يكن في الكتاب ما يَمنع دعواه؛ فإنه يحتاج في مِثل هذا ونحوِه إلى تحديد الطلاق والزواج بالساعات، فإنّ فيه إزالةً للشكّ، وحَسْمًا لمادّة الالتباس[(٤)].

فإذا كملتْ كتابة المكتوب استوْعَبَه الكاتب قراءة، فإن كان على السَّداد[(٥)] والتحرير أَشهَدَ في ذيله عليهما بما اتّفقا عليه، أو على المُقِرّ بما أَقَرَّ به، وذلك بحَسَب ما تقتضيه الحال.

---

(١) كل سور القرآن الكريم تبتدىء بذلك عدا سورة «التوبة»، ومن شروط كتابة الكتاتيب الشرعية هو البدء بـ «بسم الله الرحمٰن الرحيم». والحمدلة، والصلاة والسلام على نبي الرحمة «محمد» ﷺ وآله وأصحابه أجمعين.

(٢) حليته: الحِلية: الصنعة والهيئة.

(٣) المقصود بالهجرة النبوية الشريفة، هو بدء التاريخ الهجري، عندما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

(٤) الالتباس: الغموض.

(٥) السَّداد: استيفاء الدّين.

وإنِ احتاج المكتوب إلى إصلاح: من كَشْطٍ أو ضربٍ[١] أو إلحاقٍ حَرَّره، واعتَذَر في ذيل المكتوب تِلْوَ التاريخ قَبْل وضعِ رسم الشهادة عمّا أَصلَحه فيقول فيه: «مُصْلَحٌ[٢] على كَشْطِ كذا وكذا، وفيه ضَرْبٌ ما بين كلمة كذا إلى كلمة كذا» إن كان الضرب قد أخفَى ما كان تحته؛ وإن كانت الأحرف المضروبُ عليها ظاهرةً قال: «فيه ضربٌ على كذا وكذا، وفيه ملحَقٌ بين سطورِه أو بهامِشه كذا وكذا» ويَشرح ذلك، ثم يقول: «وهو صحيح في موضعه، معمولٌ به، معتذَرٌ عنه بخطّ كاتبِه».

وإن كان المكتوب في دَرْجٍ[٣] موصونٍ بالإلصاق، أو رَقٍّ[٤] مخروزِ الأوصال أشار على فواصل الأوصال بقلمه إشارةً له يعرفها وتُعرَف عنه: إمّا علامتَه أو اسمَه؛ ويكتُب في آخر أسطره عددَ أوصال المكتوب، وعدّة أسطره؛ وقد أهمل الكُتّابُ ذلك في غالب مكاتيبهم، وهو زيادةٌ حسنةٌ في التحرير؛ والله أعلم.

إن كان المكتوب نُسَخًا متعدّدةً ككتب الأوقاف[٥] كتَبَ عند رسم شهادته في كلّ نسخة عددَ النُسَخ؛ والقاعدةُ عندهم في هذه الصناعة أنّ الكاتب كلّما زادها عرفانًا[٦] زادته بيانًا؛ فيكون هذا دأبَه في كلّ ما يكتبه أو غالبِه؛ والله أعلم بالصواب.

ولنذكر كيفيّة ما يصنعه الكاتب في كلّ واقعة على معنى ما أَورَده «أبو عبد الله محمدُ بنُ عبد الرحمٰن المخزوميّ[٧]، المعروفُ بابن الصَّيْرَفيّ في مختصره الذي

---

(١) كَشَط يكشط كشطًا: رفع شيئًا عن شيء قد غشاه ونحاه. والضرب هو إيقاع شيء على شيء.

(٢) الظاهر أن «على» في هذا الموضع بمعنى «مع» أي إن هذا المكتوب مصلح مع كشط كذا وكذا. ومن مجيء «على» بمعنى «مع» قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: الآية ٦].

(٣) الدرج: بفتح فسكون وتفتح الراء أيضًا: ما يكتب فيه.

(٤) الرق هنا: هو الجلد الرقيق الذي يكتب فيه.

(٥) الأوقاف: من وقف الأرض وأوقفها: جعلها وقفًا في سبيل الله أو الإحسان.

(٦) عرفانًا: علمًا؛ العرفان: العلم. قال ابن سيده: وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا الشأن، عَرَفَه يَعْرفُه عِرْفة وعِرْفانًا وعِرِفّانًا ومعرفة واعترافة؛ ورجل عروف وعُروفة: عارِف يَعْرِفُ الأمور ولا ينكر أحدًا رآه مرة. والهاء في عَروفة للمبالغة.

(٧) كذا ورد هذا الاسم في الأصل، ولعل صوابه أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بالصيرفي ويدل على ذلك أمور: أولها أننا راجعنا ترجمة محمد بن عبد الرحمٰن المخزومي فيما لدينا من كتب التراجم فلم نجد أنه يعرف بابن الصيرفي ولا أنه يكنى بأبي عبد الله. بل كنيته أبو عمر. وثانيها: أننا لم نجد في ترجمته ما يفيد أنه ألف كتبًا في الشروط والوثائق انظر ترجمته في=

ترجمه «بمختصر المكاتبات البديعة فيما يُكتَب من أمور الشريعة» الذي قال فيه إنه اختصره من كتابه المترجَم «بجامع العقود في علم المواثيق والعهود».

أما الإقرارات وما يتصل بها من الرهن[١] والضمان ـ فسبيل الكاتب فيها أنّه إذا أقرّ رجلٌ لرجل بِدَيْنٍ كَتَب: أَقرّ فلانٌ عند شهوده طوعًا إقرارًا صحيحًا شرعيًّا بأنَّ في ذمته بحقٍّ صحيح شرعيٍّ لفلان من الذهب المسكوك[٢]، أو من الدراهم النقرةِ[٣] المتعامَلِ بها يومئذٍ كذا وكذا، إنْ كان نقدًا.

وإن كان غلّةً «أو صِنفًا من الأصناف الموزونة أو المعدودةِ أو غير ذلك» قال: من الغلال الطيّبةِ النقيّةِ السالمةِ من العيوب والغَلَث[٤]؛ ويُعَيِّن الغلّة، ويَنْسُبها إلى جهتها فيقول: إن كان بالدّيار المصريّة: الصعيديّة، أو البحْريَّة، أو الفيّوميّة؛ وإن كان بالشام أو بغيره نسبها إلى جهتها فيقول: البَلْقَاويّة[٥]، أو «الحَوْرانية»[٦] أو السّواديّة[٧]، أو الجَبَلية[٨]، أو المَرْجية[٩]، أو غير ذلك من النواحي؛ يعيِّنها بناحيتها وبأصنافها، وبأكيالها؛ ويَذْكُر الجملةَ وينصّفها فيقول: «النصفُ من ذلك تحقيقًا لأصله

= تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٠٢ ط. مصر. وكتاب الأنساب للسمعاني. ثالثًا: أن صاحب كشف الظنون ذكر أسماء المؤلفين في الشروط والسجلات وأورد منهم محمد بن عبد الله المعروف بالصيرفي، ولم يذكر محمد بن عبد الرحمٰن المخزومي. رابعًا: قول أبي بكر القفال عن محمد بن عبد الله الصيرفي: «أنه أول من انتدب من أصحابنا للشروع في علم الشروط، وصنف فيه كتبًا أحسن فيه كل الإحسان». (وفيات ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٤...).

(١) الرهن: مصروف. قال ابن سيده: الرّهْنُ ما وضع عند الإنسان مما ينوب مناب ما أخذ منه. والجمع رهون ورهان ورُهُنٌ. (لسان العرب ص ٣٤٨).

(٢) المسكوك: المضروب بالسكة، وهي الحديدة المنقوشة التي تطبع بها الدراهم والدنانير.

(٣) النقرة: المراد بالنقرة: ما سبك من دراهم الفضة التي يتعامل بها؛ وأصل النقرة ما سبك من الفضة والذهب مطلقًا سواء كان دراهم أو غيرها.

(٤) الغلث: (بالتحريك) ما تخلط به الحنطة مما ليس منها، كالشعير والمدر ونحوهما.

(٥) البلقاوية: نسبة إلى البلقاء، وهي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى.

(٦) الحورانية: نسبة إلى حوران بالفتح؛ وهي كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار.

(٧) السوادية: نسبة إلى سواد الطرق؛ وهو رستاقها وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٨) الجبلية: نسبة إلى بلاد الجبل، وهي مدن بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وفارس وبلاد الديلم، كما في القاموس.

(٩) المرجية: نسبة إلى المرج، وهو يطلق على عدة مناطق ومواضع، ذكرت في القاموس وشرحه ومعجم البلدان لياقوت.

وتصحيحًا لجملته كذا وكذا»؛ ثم يقول: «يقوم له بذلك على حُكْم الحلول وسبيلِه، أو التنجيم[١]»؛ أو يقول: «على ما يأتي ذِكرُه وبيانُه، فمن ذلك ما يقوم به على حُكْم الحلول كذا، وما يقوم به في التاريخ الفلانيّ كذا» على حَسَب ما يقع عليه الاتّفاق؛ ثم يقول: «وأَقَرّ المُقِرُّ المذكور بأنه مَليءٌ بالدَّين المعيَّن، قادرٌ عليه وأنّه قَبض العوضَ عنه»؛ فإن كان ذلك على حُكم الحلول اكتَفَى فيه بالشهادة على المُقِرّ دون المُقَرّ له؛ وإن كان لأَجَلٍ فلا غُنْيَة عن الشهادة على المُقَرّ له بأنّه صدّقه على ذلك فإنه لو ادَّعَى الحلولَ فيما وقعت الشهادة فيه على المقِرّ بمفرده بأنّه إلى أجل، كان القول قوله مع يمينه[٢]؛ وكذلك في الشهادة بالغلّة أو الصنف، هل ذلك محمولٌ إلى منزل المقَرّ له، أو هو موضوعٌ بمكان آخر، فإنّ في الشهادة عليهما معاً قطعًا للنزاع والاختلاف؛ والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولا يجوز أن يُشهَد في الإقرار إلا على حُرّ بالغ عاقل، أو مريضٍ مع حضور حِسّه وفهمِه، ويجوز أنْ يُكتَب على العبد البالغ وتُتبَعَ به ذمّتُه بعد عتْقِه.

وإن كان الدَّين المُقَرُّ به ثمنَ مَبيعٍ كَتَبَ في آخر المكتوب: وهذا الدَّين هو ثمن ما ابتاعه المُقِرُّ من المُقَرّ له، وتَسلَّمَه، وهو جميع الشيء الفلانيّ، أو جميع الحصّة التي مَبلغها كذا وكذا، الجاري ذلك في يد البائع ومِلْكِه وتَصرُّفِه على ما ذَكَرا[٣] - ويَذكُر المَبيعَ ويصفه - وذلك بعد النظر والمعرفة، والمعاقَدةِ الشرعيّة، والتفرّقِ بالأبدان عن تراضٍ، وضمانِ الدَّرَك[٤] في صحّة البيع حيث يجب شرعًا. ويؤرِّخ المكتُوب، ويُشهِد عليهما معًا.

---

(١) تنجيم الدين: هو أن يقدر عطاؤه في أوقات معلومة متتابعة؛ وأصله أن العرب كانت تجعل منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها وغيرها؛ فتقول: إذا طلع النجم حل عليك مالي، أي الثريا وكذلك باقي المنازل.

(٢) وفي هذه المسألة التي ذكرها المؤلف خلاف أورده الإمام الرافعي في فتح العزيز (جـ ١١ ص ١٦٩) وذكر، أن الظاهر قبول قول المقر في دعوى الأجل - عكس ما كنا - وبه قال أحمد. وإذا قلنا لا يقبل فالقول قول المقرّ له مع يمينه في نفي الأجل وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، وهذا هو الموافق لما ذكره المؤلف هنا.

(٣) ذكرا: أي المقر والمقرُّ له.

(٤) الدَّرك: العهدة والتبعة. وفي مستدرك التاج مادة (ضمن) أن ضمان الدرك هو رد الثمن للمشتري عند استحقاق المبيع. وفي كتب الفقه ما يفيد أن ضمان الدرك قد يكون ضمان الثمن للمشتري أو ضمان المبيع للبائع إن خرج مقابله مستحقًا أو معيبًا. (شرح المنهج باب الضمان).

وإن كان الدَّين لرجلٍ واحدٍ أو اثنين أو جماعة على اثنين أو على جماعةٍ قال: أَقَرَّ كلُّ واحد من فلان وفلان وفلان إقرارًا صحيحًا شرعيًا بأن في ذمّتهم بحقٍّ صحيح شرعيٍّ بالسويّة بينهم أو على مقتضى ما وجب عليهم، لكلّ واحد من فلان وفلان؛ ويعيِّن المُقَرَّ به نقدًا كان أو صِنفًا على حكمه في الحلول والأجَل والمُدَد، ويعيِّن لكلِّ واحد من المُقَرِّ لهم ما يخصّه، إن كان بينهم تَفاوُت، أو بالسويّة بينهم؛ ويُشهِد على من أقَرَّ بالمَلاءة[1] وقَبْضِ العوض على ما تقدّم.

وإن تَضامنوا[2] وتَكافلوا[3] قال: وكلُّ واحد منهم ضامنٌ في ذمّته ما في ذمّة الآخر من ذلك للمُقَرِّ لهم بإذن كلِّ واحدٍ منهم للآخَر في الضمانِ والأداءِ والرجوع؛ وأقرّوا بأنهم مَليئون بما ضمنوه؛ ويؤرِّخ.

وإن كان كلُّ واحد من المُقِرِّين يقوم بما عليه من الدَّين من غير ضمان ولا كَفالة لغيره فلا بأس بأن يبرهن الكاتب على ذلك بأن يقول: «من غير ضمَانٍ ولا كفالة».

فصـــل

وإن حضر من يَضمن في الذمّة كَتَب بعد تمام الإقرار: «وحضر بحضور المُقِرِّ المذكورِ فلان، وأَشهَدَ عليه طوعًا منه أنّه ضَمِن ما في ذمّة المُقِرِّ المذكورِ من الدَّين المعيَّن للمُقَرِّ له على حُكْمِه».

وإن كان الدَّين على حُكْم الحلول فحضر من يضمنه في ذمّته إلى أجل، عيَّنه في حقّ الضامن إلى الأجَل، وأشهَدَ عليه بالمَلاءة بما ضَمِنه؛ فإن كان بإذْن المضمون قال: «بإذنه له في الضمان والأداء والرجوع عليه»، وإنْ تبرَّع الضامن بالضمان صحّ

(١) الملاءة بفتح الميم: الغنى والاقتدار. وقد مَلُؤَ الرجل يَمْلأُ مَلاءَة فهو مليءٌ: صار مليئًا أي ثقة، فهو غني مَليء بيِّن المَلاءِ والمَلاءةِ ممدودان. المليء، بالهمز: الثقة الغني. وفي حديث علي كرم الله وجهه: لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه.

(٢) تضامَنوا: تكافلوا. ضمن: الضمين: الكفيل. ضمن الشيء وبه ضمنًا وضمانًا: كَفَلَ به. وفي الحديث: من مات في سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنة، أي ذو ضمان على الله. وهذا مذهب [الخليل وسيبويه] لقوله عزّ وجل: ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله. (لسان العرب ص ٨٩).

(٣) تكافلوا؛ من كفل، والكافل: العائل، كفله يكفله وكَفَّله وإياه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: الآية ٣٧]. وتكافلوا هنا: تضامنوا. كفيل وكافل وضمين وضامن بمعنى واحد حسب قول ابن الأعرابي. (اللسان ص ١٢٩).

ضمانه، ويقول الكاتب: «إنّه ضَمِن الدَّينَ المعيَّنَ تبرُّعًا واختيارًا، من غير إذنٍ صادرٍ من المضمون، وليس للضامن أن يَرجِعَ على ذمّة المضمون بما يَقُوم به عنه».

وإنْ حضر من يضمن الوجْهَ والبَدَنَ دون المال فلا يجوز إلّا بإذن المضمون؛ ومثالُ ما يَكتُب في ذلك أن يقول: وحضر بحضوره فلان، وضَمِن وكَفَل إحضارَ وجهِ وبدَنِ المُقِرّ المذكور للمُقَرّ له المذكور، متى التَمَس إحضارَه منه في ليل أو نهار، أو في مدّة معلومة أَحضَره له؛ وذلك بإذنه له في ذلك.

وينحلّ هذا الضمان عن الضامن بموت المضمون دون سفره وغَيبته؛ والله أعلم.

وإن رَهَن المُقِرُّ عند المُقَرّ له رهنًا على دَينه كَتَب ما مثالُه: وبعد تمام ذلك ولزومِه رَهَن المقِرُّ المذكورُ عند المُقَرّ له توثِقةً[1] على الدَّين المذكور، وعلى كلّ جزء منه ما ذَكَر أنّه في يدِه ومِلكِه وتصرُّفِه، وهو جميعُ الشيءِ الفلانيّ ـ ويُوصَف ويُحَدد إن كان له حدود ـ رهنًا صحيحًا، شرعيًّا، مقبوضًا، مسلَّمًا لِيَد المُقَرّ له من المُقِرّ الراهن بإذنه له في ذلك، بعد النّظر والمعرفة، والمعاقَدةِ الشرعيّة، والإيجابِ والقَبولِ الشرعيَّين، والتسليم والتَّسلُّم.

فإذا استعار الرهنَ بعد ذلك كَتَب ما مثالُه: ثمّ بعد ذلك استعار الراهنُ من المرتهِن المذكورِ الرهنَ المذكورَ لينتفِع به، مع بقاء حُكْم الرّهن، استعارةً شرعيّة، من غير فَسْخِ شيءٍ من أحكامِه، وصار ذلك بِيَدِ الراهن المذكور وقَبْضِه وحَوْزِه.

فإنِ استقرَّ الرهنُ تحت يد المرتهِن كَتَب: واعتَرَف المرتهِنُ بأنَّ الرهنَ المذكورَ باقٍ تحت يدِه وحَوْزِه، وعليه إحضارُه عند وفاء الدَّين؛ ويؤرِّخ.

فصــــل

وإن حضر من أعار المُقِرَّ شيئًا ليَرهَنه على ما في ذمّته كَتَب في ذيل المسطور: وحضر بحضور المُقِرّ المذكورِ فلان، وأَشهَدَ عليه طائعًا مختارًا أنّه أعار المُقِرَّ المذكورَ جميعَ الشيءِ الفلانيّ ـ ويُوصَف ويُحدَّد إن كان له حدود ـ ليَرهَن ذلك عند المُقَرّ له على ما في ذمّته له من الدَّين المُعيَّن أعلاه؛ ويُعيده بسؤاله في ذلك، عاريةً صحيحةً

(١) لم نجد «التوثقة» مصدر «وثق» بتشديد التاء فيما راجعناه من كتب اللغة كما أننا لم نجد في كتب القواعد ما يفيد المراد هذه الصيغة في مصدر هذا الفعل؛ ولعله من الألفاظ المصطلح على استعمالها بين كتاب الشروط والوثائق أو لعله «توثيقًا».

شرعيّةً مسلّمةً مقبوضة، وذلك بعد النظر، والمعاقَدةِ الشرعيّة، والإيجابِ والقَبول؛ وأَذِن المُعيرُ للمستعيرِ أن يَرهَن ذلك عند المُقَرِّ له على الدَّين المذكور، ويُسلِّمَه له التسليمَ الشرعيّ، ثم يستعيد ذلك منه ليُعِيدَه إلى المُعِير المالك ليَنتفِع به، مع بقاءِ عَينِهِ على حُكْم الرهن.

وإن كان المستعيرُ الراهنُ ينتفع بالرهن كَتَب: وأنْ يستعيدَ المستعيرُ الرهنَ ليَنتفِع به دون المُعِير، مع بقائه على حُكْم الرهن.

وإنْ كان الرهنُ تحت يد المرتهِن كَتَب: وهذا الرهنُ المذكورُ تحت يد المرتهِن حفظًا لِمالِه، وصيانةً لدَيْنِهِ، وعليه أن يُعِيدَه عند وفاء الدَّين للمستعيرِ ليسلّمَه للمُعِير.

فإنْ وَكَّل الراهنُ وكيلًا في بيع الرهن عند استحقاق الدَّين ووفاءِ ما عليه كَتَب: ثمّ بعد تمام ذلك ولزومِه وَكَّل المُقِرُّ المذكورُ فلانَ بنَ فلان في قبض الرهن المذكور ممّن هو تحت يده برضا المرتهِن، وبيعِه ممّن يَرغب في ابتياعِه بما يَراه من الأثمان وقَبْضِ الثمن، وتسليم المَبيعِ لمُبتاعِه؛ وكَتْب ما يجب اكتتابُه، وقضاءِ ما عليه من الدَّين المعيَّن فيه للمُقَرِّ له وأَخْذِ الحُجّةِ منه، والإشهادِ على المُقَرِّ له بقبْضِ الدَّين المذكور منه(١) على(٢) المُقِرّ؛ وَكالةً صحيحةً شرعيَّة، قَبِلَها منه قبولًا سائغًا، أقامه في ذلك مُقامَ نفْسِه، وَرَضِيَه واختاره.

وإن أراد المرتهِنُ أن يَنزِل عن الرهن كَتَب خَلْفَ المسطور: أَقَرَّ فلان وهو المُقَرُّ له بالدَّين باطنَه(٣)، إقرارًا صحيحًا شرعيًّا بأنّه نزل عن رهنيّة العين المعيَّنةِ باطنَه، المرتهَنةِ عنده على دَينهِ المعيَّن باطنَه، نزولًا صحيحًا شرعيًّا، وأَبطَل حقَّه في وثيقة الرهن المذكور، وسَلَّم الرهنَ للراهن المذكور وهو على صفته الأُولى فتَسلَّمه منه بغير حادث غيَّرَه عن صفته؛ وذلك بعد النظر(٤) والمعرفة، والإحاطةِ بذلك علمًا وخِبْرة.

---

(١) منه: أي من الوكيل.

(٢) لعله (عن): أي أن القبض من الوكيل نيابة عن المقر.

(٣) باطنه: خلاف الظاهر. وقيل: الباطن هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم، وقيل: هو العالمُ بكلِّ ما في بطن. (لسان العرب ص ٤٣٤).

(٤) النظر: تأمل الشيء بالعين. (الجوهري).

فصـــل

إذا أَقرَّ ربُّ الدَّيْن أنّ الدَّين المُقَرَّ له به كان من مال غيره كَتَب: أَقَرَّ فلان وهو المُقَرُّ له باطنه، عند شهوده طوعًا إقرارًا صحيحًا شرعيًّا بأنّه لمّا داين فلانًا المقِرّ المذكورَ باطنه بالدَّين المعيَّن باطنَه ـ وهو كذا وكذا ـ كان ذلك من مال فلانٍ دون مالِه، وأنّ اسمَ المُقَرّ له باطنَه كان على سبيل النيابة والوَكالة وأنّه كان أَذن له في معاملة المُقِرّ المذكورِ باطنه بالدَّين المذكور على حُكْمه، ومدايَنتِه؛ وصدّقه المُقَرُّ له[١] على ذلك تصديقًا شرعيًّا؛ وبمقتضَى ذلك وجبتْ له مطالَبةُ المُقِرّ باطنه بالدَّين المعيَّنِ فيه واستخلاصُ حقِّه منه، وقبضُه على الوجه الشرعيّ.

فصـــل

فإنْ أقَرَّ المُقَرُّ له بأنَّ الدَّين أو ما بقيَ منه صار لغيره كَتَب على ظهر المكتوب: أَقَرَّ فلان ـ وهو المُقَرُّ له باطنَه ـ إقرارًا صحيحًا شرعيًّا بأنّ الدَّيْنَ المعيَّنَ باطنَه، أو أنّ الذي بقيَ من الدَّين المعيَّن باطنه ـ وهو كذا وكذا ـ صار ووجب من وجهٍ صحيح شرعي لا شبهة فيه لفلان، وصدَّقه على ذلك، وقَبِل منه هذا الإقرار لنفسه قَبولًا سائغًا؛ وبحُكْم ذلك وجَبَتْ له مطالَبةُ المُقِرّ باطنه بالدَّين المعيَّنِ على الوجه الشرعيّ.

وأما الحَوالة ـ فسبيل الكاتب فيما يَكتب فيها أنه إذا كان لرجل دَينٌ على آخَر وأحال به كَتَبَ على ظهر مسطور الدَّين ما مثالُه: أَقَرَّ فلان ـ وهو المُقَرُّ له باطنَه ـ عند شهوده إقرارًا صحيحًا شرعيًّا بأنّه أحال فلانًا على ذمّة فلانٍ المقِرِّ المذكورِ باطنَه بما لَه في ذمّته من الدَّين المعيَّنِ باطنَه، وهو كذا وكذا، على الحُكْم المشروح باطنَه، وذلك نظيرُ ما لفلانٍ المُحالِ في ذمّة فلانٍ المُحِيلِ من الدَّين الذي اعترَف به عند شهوده، وهو نظيرُ المُبْلغِ المُحالِ به في القَدْرِ والجنسِ والصفةِ والاستحقاق حَوالةً صحيحةً شرعيّة، قَبِلها منه قبولًا سائغًا، ورضيَ ذِمّة المُحالِ عليه؛ تَعاقَدَا على ذلك معاقَدةً صحيحةً شرعيّة وافترَقَا عن تراضٍ؛ وبحُكْم ذلك بَرِئَتْ ذمّةُ المُحِيل المُبْدإ[٢] بذكره من الدَّين الذي كان في ذمّته، براءةً صحيحةً شرعيّة، وقَبِل كلٌّ منهما ذلك من الآخَر لنفسه قبولًا شرعيًّا، وبه شُهِد عليهما؛ ويؤرِّخ.

---

(١) يريد بالمقر له هنا: الدائن الأصلي الذي أقرّ له رب الدين بأن الدين من ماله.

(٢) المبدأ: من «بدأت» بالألف في أوله، وهي لغة في «بدأت» يقال: أبدأت بالأمر أي ابتدأت به.

فصـــل[١]

وأمّا الشَّرِكة - فهي تصحّ في الذّهب والفضّة؛ وسبيل الكاتب فيها أنّه إذا اتّفق اثنان على الشَّرِكة، فأَخرَج كلٌّ واحد منهما مالًا وخلطاه، وأرادا المكاتَبةَ بينهما كَتَب ما مثالُه: أَقَرَّ كلٌّ واحد من فلان وفلان عند شهوده[٢] إقرارًا صحيحًا شرعيًا بأنّهما اشتَرَكا على تقوى الله تعالى، وإيثارِ طاعتِه، وخوفِه ومراقبتِه، والنصيحةِ من كلٍّ منهما لصاحبه، والعملِ بما يُرضِي الله تعالى في الأخذ والعطاء؛ وهو[٣] أنّ كلّا منهما أَخرجَ من مالِه كذا وكذا، وخَلَطا ذلك حتى صار شيئًا واحدًا، لا يتميّز بعضُه من بعض وجملتُه كذا وكذا، ووَضعا أيديَهما عليه، وتَراضَيا على أنّهما يبتاعان به من المكان الفلانيّ أو المدينة الفلانيَّةِ ما أَحَبَّا واختارا من أصناف البضائع وأنواع المتَاجر ويَجلِسان به في حانوت بالبلد الفلانيّ، إنْ كان اتّفاقُهما على ذلك؛ وإن كانا يسافران به كَتَب: ويسافران به إلى البلاد الفلانيَّةِ» في البرِّ والبحرِ العذب والمِلح أو أحدِهما دون الآخر على حَسَب اتّفاقِهما، ويتولّيان معًا ذلك بأنفسهما ومن يختارانِه من وُكَلائهما ونُوّابهما، على ما يَرَيان في ذلك من الحظّ والمصلحة ويبيعان ذلك بالنَّقْد دون النَّسيئة[٤]، ويسلّمان المَبيع، ويَتعوّضان بالثمن ما أَحَبّا واختارا، ويدِيران هذا المالَ في أيديهما على ذلك حالًا بعد حال، وفِعْلًا بعد فِعل، ومهما فتح الله في ذلك من رُبْح وفائدةٍ بعد إخراج رأس المال والمُؤَنِ والكُلَفِ وحقّ الله تعالى إنْ وجب، كان الربح بينهما مقسومًا نصفين بالسويّة؛ تَعاقَدَا على ذلك معاقَدةً صحيحةً شرعيّةً شِفاهًا بالإيجاب والقبول؛ وأَذِن كلٌّ واحد منهما لصاحبه في البيع والشراء، والأَخْذِ والعطاء، في غَيبة صاحبه وحضورِه، إذْنًا شرعيًا؛ وعلى كلٍّ منهما أداء الأمانة، وتَجنُّبُ الخيانة، وتقوى الله في السرّ والعلانية والنصيحةُ لصاحبه ومعاملةُ شريكه بالمعروف والإنصاف.

---

(١) لم تجر عادة المؤلف في جميع هذا الكتاب أن يترجم بكلمة «فصل» للأبواب التي يبتدئها بقوله: «وأما كذا» فلعل هذه الكلمة زيادة من الناسخ في هذا الموضع. أو لعلها مؤخرة عن موضعها الذي كان ينبغي أن توضع فيه فقد كان الأولى أن يترجم بها للرهن.

(٢) شهوده: أي شهود المكتوب. والشاهد: العالم الذي يُبيِّنُ ما عَلِمَهُ وشهد فلان على فلان بحق، فهو شاهد وشهيد، واستشهد فلان فهو شهيد والمشاهدة: المعاينة. وشَهِدَه شُهودًا: أي حضره، فهو شاهد، وقوم شهود: أي حضور. (لسان العرب ص ٢٢٣).

(٣) الضمير هنا ضمير الشأن والحال؛ أي والشأن أن كلا منهما الخ.

(٤) النسيئة في البيع: تأخير الثمن.

وإن تَسلَّم أحدُهما المالَ دون الآخَر كَتَب بعد ذكر جملتِه: تَسلَّمه جميعَه فلانٌ، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ليَبتاع به ما أراد من البلاد الفلانيّةِ من أصناف البضائع، وأنواعِ المتَاجر، ويَجلِسَ به في حانوت أو يسافرَ به؛ ويُكَمِّلُه على ما تقدَّم.

وأما القِراض[1] - فإذا دَفَع رجلٌ لرجل مالًا يعمل فيه، أو لجماعةٍ من الناس كَتَب ما مثالُه: أَقَرَّ فلان عند شهوده إقرارًا صحيحًا شرعيًا بأنّه قَبَضَ وتَسلَّم من فلان من الذهب العَيْن كذا وكذا، أو من الدراهم الجيّدةِ المُتعامَلِ بها كذا وكذا - ولا يجوز في الدراهم المغشوشة - وصار ذلك نقْدَه وقبْضَه وحَوْزَه، على سبيل القِراض الشرعيِّ الجائزِ بين المسلمين؛ وأَذِن ربُّ المال له أنْ يشترِيَ بذلك ما أَحَبَّه واختاره من المدينة الفلانيَّة من أصناف البضائع، وأنواعِ المَتاجر على اختلافها، وتَبايُنِ أجناسها ويسافرَ به أين شاء من بلاد المسلمين في الطُّرُق المأمونة، أو في البحر العذبِ والمِلح ويبيع ذلك بالنَّقْد دون النسيئة، ويَتعوّض بقيمته ما أراد من أنواع المَتاجر، ويعود به إلى البلد الفلانيّ، ويبيعه بالنَّقْد دون النسيئة، ويدِير هذا المال في يده على ذلك حالًا بعد حال، وفِعلًا بعد فعل، ومهما أطلعه الله في ذلك من ربح وفائدةٍ بعد إخراج رأس المال والوَزْنِ[2] والكُلَفِ وحقِّ الله تعالى إنْ وجب، كان الربح مقسومًا بينهما نصفين، أو أثلاثًا: لربِّ المال الثلثان، وللعامل بحقّ عمله الثلث؛ تَعاقَدَا على ذلك معاقَدةً صحيحةً شرعيَّةً بالإيجاب والقبول؛ والتفرُّق بالأبدان عن تراض وقَبِل كلٌّ منهما ذلك لنفسه قبولًا شرعيًا، وعلى هذا العامل المذكورِ الأمانة وتجنُّبُ الخيانة، وتقوى الله في السرّ والعلانية في بيعِه وابتياعِه وجميعِ أفعاله، وحِفْظُه هذا المال على عادةِ مِثلِه، وإيصالُه عند وجوب ردِّه؛ ويؤرِّخ.

وإن كان القِراض بِيَدِ جماعة فلا يصحّ أن يتكافلوا في الذمّة ويصحّ ضمانُ الوجه.

---

(١) القِراض: هو توكيل مالك يجعل ماله بيد آخر ليتجر فيه. والربح مشترك بينهما، كما عرفه الفقهاء بذلك ويقال له (المضاربة) أيضًا، والقرْض والقِرض: ما يتجازى به الناس بينهم ويتقاضونه، وجمعه قروض، وهو ما أسلفه من إحسان ومن إساءة. قال تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: الآية ١٨]. ويقال: أقرضت فلانًا وهو ما تعطيه ليقضيَكَه. وكل أمر يتجازى به الناس فيما بينهم، فهو من القروض. وقال الجوهري: والقرضُ ما يعطيه من المال لِيُقضاه. وقال أبو إسحٰق النحوي: القرض: يعني والبلاء الحسن.

(٢) يراد بالوزن هنا: أجرة الوزن.

وأما العارية ـ فإنَّ الرجل إذا أعار لابنته شَوْرةً[١] تَتجمَّل بها، أو أعار لرجل دارًا أو عبدًا أو غيرَ ذلك كَتَب الكاتب ما مثالُه: أقرّ فلان بأنه أعار لابنته لصُلْبِه فلانةَ البكرِ البالغ، التي اعتَرَف برشدها عند شهوده، ما ذَكَر أنه له وفي مِلكه ويدِه وتصرّفِه، وصدّقَتْه على ذلك، وهو جميعُ الشَّوْرة الآتي ذِكرُها فيه، وهي كذا وكذا ـ وتوصَف وتُذكَر الأوزانُ والقِيَم، وإنْ كان المُعارُ دارًا حَدَّها ووصَفَها ـ عاريةً صحيحةً شرعيَّةً مسلَّمةً مقبوضةً بيَدِ المستعيرة من المُعير، بإذنه لها في ذلك وذلك بعد النظر والمعرفة والمعاقَدة الشرعيَّة، وعلى هذه المستعيرة حِفظُ ذلك والانتفاعُ به في منزلها بالموضع الفلانيّ، والتجمُّلُ به، وألّا تُخرجَ ذلك من يدها إلى أنْ تعيدَه إلى المُعير على الصفة المذكورة، وعَلِمتْ مقدارَ العارية وما يلزم فيها؛ ويؤرِّخ.

وأما الهِبة والنِّحْلة[٢] ـ فإنَّ الرجل إذا وهب لأجنبيّ دارًا أو غيرَ ذلك أو وَهَب لولده لصُلبه الرجلِ الرشيدِ مالًا أو غيرَه كتب الكاتب: أقرّ فلان بأنّه وهب لولده لصُلبه فلانِ الرجلِ الرشيد، الذي اعتَرَفَ بأنّه لا حَجْرَ[٣] له عليه ما ذَكَر أنّه له وفي مِلكِه ويدِه وتصرّفِه، وهو جميعُ الدّار التي بالموضع الفلانيّ ـ وتوصَف وتُحدَّد ـ هِبةً صحيحةً شرعيَّةً جائزةً ماضية، بغير عوض عنها ولا قيمة قَبِلها منه قبولًا شرعيًّا، وتَسلَّم الموهوبُ له من الواهب ما وَهَب له فيه[٤] التسلّم الشرعيّ، وصار بِيَدِه وقبضه وحَوْزِه، فبحكم ذلك وجب له التصرّف فيها تصرُّفَ المُلّاك في أملاكهم، وذوي الحقوق في حقوقهم، وأقرَّا بأنهما عارفان بذلك المعرفةَ الشرعيَّةَ النافذة[٥].

فإنْ وهب الرجل دارًا لولده الطفلِ أو لولده البالغِ الذي هو تحت حَجره كَتَب موضعَ القبول ما مثالُه: قَبِل الواهب ذلك من نفسه لولده المذكور، بحكم أنّه تحت

---

(١) يريد بالشورة: الجهاز، واللباس والزينة، فلعل تفسيرها بالجهاز تفسير بالمعنى العرفي. (جواهر العقود/ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١٣٩ فقه شافعي).

(٢) النِّحلة: الهبة والعطية.

(٣) الحَجْر: ساكن، مصدر حَجَرَ عليه القاضي يَحْجُرُ حَجْرًا إذا منعه من التصرف في ماله، وفي حديث عائشة وابن الزبير: لقد هممتُ أن أحجر عليها؛ وهو من الحجر المنع. ومنه حجر القاضي على الصغير والسفيه إذا منعهما من التصرف في مالهما. (لسان العرب ص ٥٧).

(٤) فيه: أي المكتوب.

(٥) نفذ؛ النَّفاذ: الجواز، وفي الحكم: جواز الشيء والخلوص منه تقول: نَفَذْت أي جُزْت، وقد نفذ يَنْفُذُ نفاذًا ونفوذًا. ورجل نافذة في أمره، ونفوذٌ ونفّاذٌ: ماضٍ في جميع أمره، وأمره نافذ أي مطاع. (لسان العرب ص ٢٢٩). والنافذة؛ هنا المقبولة المعمول بها؛ على أن عادة المؤلف في المكاتيب الآتية أن يقول: «المعرفة الشرعية النافية للجهالة».

حَجْره وَوِلاية نظره قبولًا صحيحًا شرعيًا، وتَسلَّم من نفسه لولده المذكورِ ما وَهَب فيه التسلُّمَ الشرعيّ، ورَفَع عنه يد مِلكيّته، ووَضَع عليه يدَ نظرِه وَوِلايتِه، وأَقَرّ بأنه عارف بذلك المعرفةَ الشرعيّة.

فإنْ نَحَلَ الرجلُ ولدَه الطفلَ مالًا أو غيرَ ذلك كَتَب ما مثالُه: أقرَّ فلان بأنه نَحَلَ لولدِه لصلبه فلانٍ الطفلِ، أو المراهِق، الذي تحت حَجْره وَوِلاية نظره ما ذَكَر أنّه له وفي يدِه ومِلكه وتصرُّفِه، وهو جميعُ الشيءِ الفلانيّ - ويوصَف بما يليق به - نِحْلةً صحيحةً شرعيّة، جائزةً مرضيّة، قَبِلها له من نفسه، وصار ذلك بِيَدِه مِلكًا لولده المذكور، وأقَرّ بأنّه عارف بما نَحَله.

وإن نَحَل ولدَه البالغَ أو الأجنبيَّ كَتَب نحوَ ما تَقدَّم إلّا القبولَ والتسلُّم فإنه يقول: قَبِل ذلك لنفسه قبولًا صحيحًا شرعيًا، وتَسلَّم منه ما نَحَله إيّاه فيه بإذنه وصار بِيَدِه وقبضه وحَوْزِه، ومالًا من جملة أموالِه، وأقرّا بأنهما عارفان بذلك المعرفةَ الصحيحةَ الشرعيَّةَ اليافيةَ لجهالة.

وأمّا الصدقة[١] والرجوع[٢] - فإنّ الرجل إذا تَصدّق على ولده الطفلِ أو البالغ[٣] أو على أجنبيٍّ[٤]، كَتَب ما مثالُه: أقرَّ فلان بأنه تصدَّق على ولده الطفلِ الذي تحت حَجْره ووِلاية نظره فلان؛ وإن كان بالغًا كَتَب: «البالغ الرشيدِ باعتراف والده» بِرًّا به، وحُنُوًّا عليه، وابتغاءَ بذلك وجهَ الله الكريم، وطلبًا لثوابِه الجسيم بما ذَكَر أنه له وفي يده وتصرُّفِه، وهو جميعُ الدار الفلانيّة التي بالموضع الفلانيّ - وتوصَف وتُحدَّد - صدقةً صحيحةً شرعيَّةً جائزةً ماضيةً نافذةً، قَبِلها من نفسِه لولدِه، أو قَبِلها الولدُ البالغُ الرشيدُ لنفسِه، على نحو ما تَقدَّم في الهبة والنِّحْلة من القبول والتسلّم.

وإذا أراد الأبُ أو الجَدُّ وإن علا، والأمّ والجَدّة وإن عَلَت، الرجوعَ عن الصدقة والهبةِ والتمليكِ إذا كان بغير عِوَض، كتب الكاتب على ظهر المكتوب ما مثالُه: أشهَدَ

(١) الصدقة؛ الصِّدْق ج. صُدْق وصُدُق وصَدْقون م صدقة ج صدقات. وهي: الكامل من كل شيء، والصدقة: ما يعطى تقرّبًا من الله ورجاء ثوابه.
(٢) الرّجوع: العودة عن الصدقة.
(٣) البالغ: من بلغ، بلوغًا الثمر: نضج، والظلام: أدرك. البالغ: المدرك يقال: «غلام بالغ» و«جارية بالغ وبالغة».
(٤) الأجنبي: الغريب. وهي من - جنب - جنبًا: دفعه ونحّاه وأبعده. الجار الجُنُب: الجار من غير قومك أو البعيد.

فلان على نفسه طائعًا مختارًا أنّه رَجَع في الدّار المذكورةِ الموصوفة المحدودة باطنَه، التي كان تَصدَّق بها على ولده المذكورِ باطنَه فلان، رجوعًا صحيحًا شرعيًا، وأعادها إلى مِلكه ويدِه وتصرُّفه، وأبطَل حُكمَها، ونَقَض شرطَها، وتَسلّمها تسلُّمَ مثلِه لمثلِها، وأقرّ بأنّه عارف بها المعرفةَ الشرعيّة؛ ويؤرِّخ.

وأمّا التمليك[١] - فمنه ما هو بعوض، وما هو بغير عوض، فأمّا ما كان بعوض فيَكتُب فيه[٢] ما مثالُه: مَلَّك فلانٌ لفلان جميعَ الدار الفلانيّةِ الجاريةِ في يده ومِلكه وتصرُّفِه التي بالموضع الفلانيّ - وتوصَف وتُحدَّد - تمليكًا صحيحًا شرعيًا، بثمن مبلَغه كذا وكذا؛ قَبَض الفقيرُ المُمَلَّكُ ذلك من المملِّكِ له بإذنه، وصار بِيَدِه وحَوْزِه ومالًا من جملة أموالِه، عوضًا عما مَلَّكه فيه فتَسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر والمعرفة، والمُعاقَدةِ الشرعيّة، والتفرّق بالأبدان عن تراضٍ، وضمانِ الدَّرَك في ذلك.

وأما ما كان بغير عوض، فيَكتُب فيه: مَلَّك فلانٌ لفلانٍ جميعَ الدار - وتوصَف وتُحدَّد نحوَ ما تَقدّم - تمليكًا صحيحًا شرعيًا، جائزًا نافذًا مَرْضِيًا، بغير عوض عن ذلك ولا قيمة، قَبِلها منه قبولًا صحيحًا شرعيًا، وسَلَّم هذا المملِّكُ لفلانٍ المملَّكِ ما ملَّكه إيّاه، فتَسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وحَوْزِه، مِلكًا من جملة أملاكِه؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بها المعرفةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة، وأنّهما نظراها وأحاطا بها علمًا وخِبْرة، تَعاقَدَا على ذلك معاقَدةً شرعيّةً بالإيجاب والقبول، ثم تَفرَّقا بالأبدان[٣] عن تراضٍ؛ ويؤرِّخ.

وإذا أقرّ رجلٌ بأنّ دارَه مِلكٌ لغيره كَتَب: أقرّ فلان عند شهوده طوعًا إقرارًا صحيحًا شرعيًا بأنّ جميعَ الدّارِ التي بِيَدِه وتصرُّفِه - وتوصَف وتُحدَّد - مِلكُ فلانٍ مِلكًا صحيحًا شرعيًا دونه ودون كلّ أحد بسببه[٤] وأنّ مِلكه لهذه الدّار سابقٌ على هذا الإقرار ومقدَّمٌ عليه؛ وصدَّقه المُقَرُّ له على ذلك تصديقًا شرعيًا وقَبِل منه هذا الإقرارَ لنفسِه قبولًا شرعيًا، وأقرّا بأنّهما عارفان بذلك المعرفةَ الشرعيّةَ النافيةَ للجهالة، وسَلَّم المقِرُّ المذكورُ للمُقَرّ له جميعَ الدار المذكورة، فتسلَّمها منه وصارت بِيَدِه وقبضِه

(١) مَلَكَ، مَلْكًا ومِلْكًا وملكةَ الشيء: احتواه قادرًا على التصرف والاستبداد به. وملك على القوم: استولى عليهم. والتمليك: الاستيلاء على الشيء واحتواءه والقدرة على التصرف والاستبداد به.

(٢) الهاء هي الضمير العائد على الموصول السابق في قوله: «ما كان».

(٣) هذه العبارة خاصة بعملية الشراء والمبيع، والمعنى تفرقًا جسديًا.

(٤) بسببه، أي كل أحد متصل به.

وحَوْزِه، وأقرّ المقِرُّ المذكُور بأنّه لا حقّ له في هذه الدار ولا طلبَ بسبب ولا ملك ولا استحقاق منفعة بوجه من الوجوه الشرعيّة كلّها على اختلافها، وتَصادَقَا على ذلك.

وأما البيوع ـ فإنّه إذا ابتاع رجلٌ دارًا أو حصّةً من دار أو غيرَ ذلك كتب الكتاب ما مثالُه: هذا ما اشتَرَى فلان بمالِه لنفسه من فلان جميعَ الدّار الكاملة أرضًا وبناءً، الآتي ذكرها ووصفُها وتحديدُها فيه، التي ذكَر البائع أنّها له وفي مِلكه ويدِه وتصرُّفِه؛ وإن كان عَمَرَها كتب: «ومعروفة بإنشائه وعمارته».

وإنْ كان المَبيع حصّةً من دارٍ كَتَبَ: جميعُ الحصّة التي مبلغُها كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا غيرَ مقسوم من جميع الدار التي ذَكَر البائع أنَّ هذه الحصّة المذكورةَ له وفي يده ومِلكه وتصرُّفِه بجميع حقوقها ومَرافِقها وما يُعرَف بها ويُنسَب إليها.

فإنِ استَثنَى البائعُ مكانًا منها غيرَ داخلٍ في البيع كَتَب بعد ذلك: خلا الموضعَ الفلانيّ، فإنّه خارجٌ عن هذا العَقْد، غيرُ داخلٍ في هذا البيع، وعَلِم به المشترِي ورضِيَ به. ثم يقول: شراءً صحيحًا شرعيًا قاطعًا ماضيًا جائزًا نافذًا، بثمن مبلغُه كذا وكذا؛ تَقَابَضَا وتَفرَّقَا بالأبدان عن تراض، بعد النظر والمعرفةِ والمعاقَدةِ الشرعيّة، وضمانِ الدَّرَك في المَبيع حيث يجب شرعًا.

وإن أراد الكاتب تحسينَ ألفاظه وتنميقَها وتكثيرَها فيما لا يضرّ بالعَقد ولا يُفسِد البيعَ كَتَب بعد تنصيف الثمن: دَفَعه المشتري المذكورُ للبائع المذكورِ من خالِص مالِه وصُلب[1] حالِه، تامًّا وافيًا، وأَقبَضه له بعد وزنِه ونقْدِه، فقبَضَه البائع المذكورُ منه وتَسلّمه بتمامِه وكمالِه موزونًا منتقَدًا، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه مالًا من جملة أموالِه؛ وبحكم ذلك بَرئتْ ذمّةُ المشترِي المقبوضِ منه من الثمن المذكور براءةً صحيحةً شرعيّةً براءةَ قبضٍ واستيفاء؛ وسَلّم البائع المذكورُ للمشتري المذكورِ ما باعه إيّاه، فتَسلّمه منه خاليًا لا شاغلَ له، ولا مانعَ له منه، ولا دافعَ له عنه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، مِلكًا من أملاكه، يَتصرّف فيه تصرُّفَ المُلّاك في أملاكهم، وذوي الحقوق في حقوقهم من غير مانع ولا معترِض، ولا رافع ليد بوجه ولا سبب، وذلك بعد نظرهما لجميع ذلك، ومعرفتِهما إيّاه، وإحاطتِهما به علمًا وخِبْرة نافيَين للجهالة،

(١) الصُلْبُ والصُلَبُ: عظم من لدن الكاهل إلى العجب، والجمع أصلاب، والصلب هنا بمعنى القوّة والقدرة على التحمُّل.

وتعاقُدِهما على ذلك كلِّه المُعاقَدة الصحيحةَ الشرعيَّةَ المعتبرَةَ شِفاهًا بالإيجاب والقبول، ثمّ تَفرَّقَا بالأبدان من مجلس العَقد التفرّق الشرعيَّ عن تراضٍ منهما، وضمانِ الدَّرَك في صحّة البيع حيث يوجبه الشرع الشريفُ وتقتضيه أحكامُه.

وإنِ اشتَرَط أحدهما الخيارَ لنفسه ثلاثةَ أيّام كَتَب بعد قوله: «عن تراضٍ»: وانقضاءِ مدّةِ الخيار الشرعيِّ الذي اشترطه البائعُ لنفسه خاصّة، أو المشترِي، أو الذي اشترطاه لأنفسهما، وهو ثلاثة أيّام من تاريخ العَقْد.

وإن كانا لم يتفرّقا من مجلس العَقْد كَتَب عوض التفرّق بعد الإيجاب والقبول: واختار كلٌّ من المتعاقدَين المذكورَين إمضاءَ البيع المذكورِ بينهما في المَبيع المعيَّنِ وإلزامَه وإبرامَه وتمامَ إحكامه ونفوذَه على الوجه الشرعيّ، والقانونِ المَرضيّ، وضمانَ الدَّرَك على ما تَقدَّم.

وإنْ أَحضَر البائعُ من يدِه كتابًا يَشهَد له بصحّة مِلكه للمَبيع كَتَب: وأَحضَر هذا البائع من يده كتابًا يتضمّن ابتياعَه الدّارَ المذكورة، وأصولاً[1] له، وسَطَّر عليها فصولاً بهذه المبايَعة وتَسلَّم المشترِي ذلك توثقةً[2] له، وحُجّةً لليوم ولِما بَعده.

وإن كان البائع قد استعاد الحُكْمَ[3] على ما بقيَ على ملكه منها أو من غيرِها كَتَب عوض «وتَسلَّم المشترِي ذلك»: ثم بعد ذلك استعادها البائعُ بحكم ما بقِيَ على ملكه منها أو من غيرها».

وإن كان في ملك المشترِي حصّةٌ متقدِّمةٌ ثم ابتاع حصّةً أخرى كَتَب: وقد كَمُل للمشترِي المذكورِ بما في ملكه متقدِّمًا وبهذه المبايَعة ملكُ جميعِ كذا وكذا سهمًا أو ملكُ جميعِ الدار المذكورة، وصدّقه البائع على ذلك.

وإن كان في المَبيع عيْب[4] واشترطه البائعُ كَتَب بعد تمام العَقد ولزومه: أَعْلَم البائعُ المشترِيَ أنَّ الدّارَ المَبيعةَ واقعةُ الجدران، مختلّةُ البنيان، سَبِخةُ الأرض

(١) يريد بالأصول: الحجج والعقود التي كانت لمن ملك البيع قبل بيعه.
(٢) لم نجد التوثقة فيما راجعناه من كتب اللغة. كما أنه ليس مصدرًا قياسيًا «لوثّق» بتشديد الثاء. وقد تقدم الكلام في ذلك.
(٣) لعلّ صواب هذه العبارة: «وقد استعادها بحكم ما بقي». أي إذا استعاد البائع من المشتري هذه الأصول التي تشهد له بصحة ملكه للبيع بحكم ما يفي الخ...
(٤) عيب: العَابُ والعَيْبُ والعيبةُ: الوصحة. وقال سيبويه: أمالوا العابَ تشبيهًا له بألف رمى، لأنها منقلبة عن ياء؛ وهو نادر.

والحيطان مائلةُ الجُدُر والزُّروب[١]، مكسورةُ القوائم والأعراق[٢]، مسوَّسةُ الأخشاب؛ إلى غير ذلك ممّا لعلّه يكون فيها مِنْ عيْب؛ ورضِيَ المشترِي بذلك.

وإن كان وكيلًا في الشراء كَتَب: وعَلِم المشترِي أنَّ الدار المذكورةَ مَعيبة ـ أو على ما يصفُها به من العيوب ـ وقال: إنه أَعْلَمَ مُوكِّلَه بذلك ورضِيَ به.

وإن كان البيع بناءً دون الأرض كَتَب: جميعُ البناءِ القائمِ على الأرض المحتكَرة[٣] دارًا أو طاحونة أو غيرَ ذلك، الجاري هذا البناءُ في يد البائع ومِلكهِ وتصرّفِه على ما ذَكَر؛ ويكمِّل المبايَعةَ على ما تَقدَّم شرْحه وبيانُه؛ ويَكتُب في آخرها: وعَلِم المشترِي المذكورُ أنَّ الأرض الحاملةَ لهذا البناء المذكورِ محتكَرة، ومبلغُ الحِكْر[٤] عنها في كلّ سنة أو في كلّ شهر كذا وكذا، ورضِيَ بذلك.

وإن كان المشترِي وكيلًا كَتَب: وقال: إنّه أَعْلَمَ موكِّلَه بذلك، ورضِي به.

وإن كان المَبيع أرضًا دون البناء أو أرضًا كَشْفًا[٥] كَتَب: جميعُ قطعة الأرض الحاملةِ لبناء البائع؛ أو جميعُ الساحة الكَشْفِ التي لا بناءَ عليها، الجاريةِ في يد البائع ومِلكِه وتصرّفِه؛ ويَذْرَع ويحدِّد، ويكمِّل المبايَعةَ على ما تقدّم.

فصــــل

وإن كان المبيع بئْرًا كَتَبَ: جميعُ بناء البئر المَعِينةِ[٦] ومكانها من الأرض، المبنيّةِ بالطوب الآجُرّ والطين والجير.

وإن كانت نَقْرًا كَتَب: جميعُ البئر المنقورة للماء المَعين.

---

(١) الزُّروب: من الزَّرْب؛ وهو المدخل. واحده زَرْبٌ بفتح فسكون.
(٢) الأعراق: يريد بالأعراق قطعًا من الخشب تسقف بها الدور واحده عِرْق بكسر فسكون. واستعمال هذا اللفظ في ذلك المعنى استعمال شائع في مصر. ولم نجده فيما بين أيدينا من كتب اللغة.
(٣) المحتكَرة: أي المحتسبة بفتح الباء.
(٤) الحكر بالكسر: ما يجعل من الأجور على العقارات ويحبس، وهي مولدة. (تاج العروس).
(٥) الكشف: أي المكشوفة؛ فالمراد بالمصدر اسم المفعول وهو مجاز عقلي.
(٦) المعينة: وصف للماء؛ أي الجاري الظاهر على الأرض.

وإن كان[١] صهريجًا كَتَب: جميعُ الصّهريج المبنيّ بالطوب الآجرّ والطين والجير المُتَلَّصِ[٢] المُبَيَّضِ بالخَافقيّ[٣] الذي برسم خَزْن الماء العذْب.

وإن كان بئرًا همَّاليّةً[٤] كَتَب: جميعُ بناء الهمّاليّة ومكانها من الأرض، المبنيّةِ بالطوب الآجرّ والطين والجير، الجاري ذلك في يد البائع وملكِه وتصرّفِه، وهي في الموضع الفلانيّ؛ ويَذْرَع ويحدِّد ذلك، إن أَمكن ذلك.

وإن كان المَبيع نَخْلًا دون الأرض كَتَب: جميعُ النخل القائمِ في الأرض الوقْفِ على الشيءِ الفلانيّ، الخارجةِ عن هذا البيع، ومكانُ[٥] كلِّ نخلة من الأرض، الجاري النخلُ المذكورُ في يد البائع وملكِه وتصرّفِه على ما ذَكَر، الذي ذلك في الموضع الفلانيّ؛ ويَذكُر عددَها.

وإن كانت الأرض مملوكةً للبائع وأراد أن يبيع النخل بمغَارسها[٦] كَتَب: جميعُ النخل النابتِ في الأرض الآتي ذكرُها فيه، وجميعُ أماكنها من الأرض، الجاري النخلُ والأرضُ بكمالهما في يد البائع المذكور وملكه وتصرّفِه على ما ذَكَر، باع من ذلك النخلَ المذكورَ ومواضعَ مَغارسها، وتَبقَّى على ملكه بقيّةُ الأرض فإنها غيرُ داخلة في هذا البيع؛ وهذه الأرض بالموضع الفلانيّ؛ وعدّةُ النخل كذا وكذا. ويحدِّد الأرضَ، ويكمِّل المبايَعةَ؛ ويَكتُب في آخر المكتوب: ولهذا المشترِي العبورُ في الأرض المذكورة والاستطراقُ[٧] فيها إلى النخل المذكورِ بحقٍّ شرعيّ.

وإنْ كان المَبيع ثمرًا ونخْلًا كَتَب: جميعُ ثمر النخل الجاري ذلك في ملكه ويدِه وتصرُّفِه على ما ذَكَر، الذي ذلك بالموضع الفلانيّ؛ وعِدّتُها كذا كذا نخلة، إنْ

(١) أي المبيع.
(٢) المُتَلَّص: من تلصت الشيء، إذا ملسته ولينته، والمراد هنا: المطلية حيطانه وأرضه بالجير والرمل ونحوهما حتى صارت ملساء.
(٣) يريد بالخافقي أخلاطًا من الجص والجير وغيرها تطلى بها أرض الصهاريج ونحوها لئلا تتشرب الأرض ماءها.
(٤) يريد بالهمالية: البئر التي فيها فيض.
(٥) «مكان» معطوف على الخارجة. أي الخارجة هي ومكان كل نخلة من الأرض. لأن مكان كل نخلة خارج عن هذا البيع أيضًا.
(٦) أنث الضمير العائد على النخل هنا، وأورده مذكرًا في مواضع أخرى، جريًا في التأنيث على لغة أهل الحجاز، وفي التذكير على لغة أهل نجد وتميم، وقد جاء القرآن الكريم بكلتا اللغتين.
(٧) الاستطراق: سلوك الطريق: يقال: استطرقتُ الباب، إذا سلكت طريقًا إليه.

أمكن؛ ويحدِّد الأرض، ثم يقول: التي بدا صلاحُها، وطاب أُكُلُها، واحمرّتْ واصفرّتْ، وجاز بيعُها بشرط القطع.

وإنْ شَرَط التَّبْقِيَةَ كَتب: بشرط التَّبقِيَة إلى أوان الجِذَاذ[١]، شراء صحيحًا شرعيًّا؛ ويكمّل المبايَعة.

فصـــل

وإن كان المَبيع مَرْكَبًا كَتَب: جميعُ المَرْكَب العِشاريّ[٢] أو الخضاريّ[٣]، أو الدَّرَمُونة[٤]، أو النارِيّة[٥]، أو الشَّخْتُور[٦]، أو الحَرّاقة[٧] أو الشلودةِ[٨]، أو الدلاج[٩]، أو الكبكة[١٠]، أو غيرِ ذلك، وجميعُ عُدّتها المتَّخذةِ برسمها، الآتي ذِكرُ ذلك ووصفُه، الجاري ذلك في يد البائع وملكه وتصرُّفِه على ما ذُكِر؛ وصِفةُ المَرْكَب أنها طولُ كذا كذا ذراعًا بالذراع[١١] النَّجّاريّ[١٢]، ومَحْمَلُها كذا وكذا إردبًا بالكيل المصريّ؛ وصِفةُ العُدّة أنها صارٍ قطعةٌ واحدة، وبرأسه جامور[١٣]،

(١) الجذاذ بفتح الجيم وكسرها: من جذذت النخل، إذا صرمته.

(٢) العشاري: مركب نيلي، ويعبر عنه في بعض الكتب بالعشيري.

(٣) لم نجد وصف هذا النوع من المراكب فيما راجعناه من المظان، كما أننا لم نقف على ضبطه.

(٤) يؤخذ من كلام المقريزي في المخطط أنها من سفن الروم البنادقة. . وورد في تكملة القواميس العربية (لدوزى) فقد ذكر أن الدرمونة ضرب من السفن وهو يوناني.

(٥) لا فائدة من ذكر النارية هنا مع ذكره للحرافة بعد، فكلتاهما بمعنى واحد ولعل صوابه «النهرية» أي السفن التي تسير في النهر.

(٦) الشختور: سفينة صغيرة بصار واحد في الوسط، وهو من اصطلاح النوتيه (محيط المحيط). . . ولم نجد هذا النوع من السفن في غير هذا الكتاب. بل إن مادة لفظه لم ترد في غيره من كتب اللغة التي بين أيدينا.

(٧) الحراقة: سفينة خفيفة المرّ (أساس البلاغة) وفي غيره من كتب اللغة أن الحراقة سفينة فيها مرامي بنزين يرمي بها العدو في البحر.

(٨) لعل صوابه: «الشلندي» بالنون إذ لم نجد «الشلودة» فيما راجعناه من المظان. والشلندي: مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره، وجذافون يجذفون تحتهم. (خطط المقريزي).

(٩) لم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من المظان التي بين أيدينا.

(١٠) الكبكة: سفينة عريضة السفل والعلو مقدمها ومؤخرها حادان، ذات طبقات: الطبقة السفلى منها للحديد والأثقال، والثانية للحريم والجواري والرقيق؛ والعليا للرجال، ويشتمل علوها على صار أو اثنين، وعلى مرساة أو اثنتين وصهريج يرسم الماء الحلو. . .

(١١) الذراع البخاري: ذراع بذراع اليد وستة أعشار.

(١٢) النجاري: بتذكير الوصف لغة قليلة، فإن الأكثر في لغة العرب تأنيث الذراع.

(١٣) الجامور: الخشبة المثقوبة في رأس السفينة المركبة فيه. (مستدرك التاج).

وقَرِيّةٌ[١] ثلاثُ قِطَع وقوسان، وقِلعٌ مزوًّى[٢] من قماش القطن، أو المُلْحَم[٣]، أو غيره، عِدّتُه كذا وكذا بيلمانًا[٤] أو قِلْعٌ ستارةٌ مكمَّلة حبال القُنَّبِ[٥] أو القطن، ورجلٌ[٦] طويلةٌ قطعةٌ أو قطعتان، وفِراش[٧]، وكذا وكذا مِجْذافًا[٨]، وإسْقالةٌ[٩] برٌّ أو أكثرُ من ذلك ومِذْراةٌ[١٠] أو أكثر، وعُرُوس[١١]، وقُلُوس[١٢]، وقَرايا[١٣]، وغيرُ ذلك من آلات المَرْكَب وعُدده؛ فما زاد عن ذلك ذَكَره، وما نقص وصَفَه؛ ثم يقول: «وهذا المَرْكَب مَدْسُور[١٤] السُّفْل والعِلْو، مسدودُ الشوبين[١٥]، مغطَّى الخِنَّين[١٦]»؛ وإن كان له مِرْساةٌ[١٧] من حديد وصَفَها وذكَر زِنَتَها؛ ويكمِّل المبايَعة.

---

(١) القَرِيّة: بفتح القاف، وتشديد الياء، عود الشراع الذي يكون في عرضه من أعلاه، والعامة ينطقونه بتخفيف الياء.

(٢) المزوى: بتشديد الواو المفتوحة؛ الذي له ثلاثة أطراف، قال أبو الهيثم: كل شيء تام فهو مربع، كالبيت والبساط له حدود أربع، فإذا نقصت منها ناحية فهو أزور مزوى.

(٣) المراد بالملحم هنا: ما كان من سداه من القطن ولحمته من غيره.

(٤) المراد هنا الشقة من قماش القلع.

(٥) القنب: نبات يؤخذ محاؤه وتفتل منه حبال. وله حب يسمى الشهدانج. وقيل: هو فارسي قد جرى في كلام العرب.

(٦) لم نجده فيما راجعناه من المظان. كما أننا لم نجد من يعرف هذا اللفظ من الملاحين وأصحاب السفن.

(٧) يريد بفراش المركب: ألواحًا غير مسمورة تفرش فيه ليجلس عليها الركاب. وتوضع عليها البضائع. وهي التي تعرف الآن عند الملاحين في مصر (بالدوامس).

(٨) المجذاف: بالذال المعجمة أو الدال المهملة: كلتاهما لغتان فصيحتان؛ خشبة في رأسها لوح عريض يدفع بها الملاح السفينة. (تاج العروس).

(٩) الإسقالة: كلمة عامية يراد بها الألواح العريضة التي تمد على جانب السفينة ليعبر بها إلى البر.

(١٠) يريد بالمذراة: خشبة طويلة يدفع بها الملاح السفينة ورأسها في الأرض (مبادىء اللغة ص ١٩) - «مرد»، المردي: هو المجذاف. (تاج العروس).

(١١) العروس (بضم العين): الحبال، واحده عَرْس بفتح فسكون.

(١٢) القُلُوس (بضم القاف): جمع قَلْس بفتح فسكون، وهو حبل غليظ من حبال السفينة؛ ولعله هو المعروف عند الملاحين (باللبان) بكسر اللام، وهو الحبل الطويل الذي تجر به السفينة.

(١٣) القرية: تقدم تفسيرها في هذا الجزء ص ٣٢.

(١٤) المدسور: الذي أصلح بالدسر (بضمتين وتسكن السين أيضًا) وهي خيوط من ليف تشد بها ألواح السفينة، أو هي المسامير، واحده دسار، بكسر الدال.

(١٥) لم نجد هذا اللفظ فيما لدينا من المظان والمعاجم.

(١٦) الخنان: (تثنية خن): لفظ تطلقه العامة على موضع فارغ في بطن السفينة يضع فيه النوتي متاعه. (تاج العروس).

(١٧) المِرْساة: أنجر السفينة التي ترسى بها، وهو أنجر ضخم يشد بالحبال ويرسل في الماء فيمسك=

وإن كان المَبيع بالغًا عبدًا أو أَمَةً «أو كانا غيرَ بالغَين[١]» كَتَب: جميعُ العبد، أو الغلام، أو الوَصِيف، أو المملوك، أو الجارية، أو الأَمَة، أو الوَصِيفة[٢]، الجاري، أو الجاريةِ في يد البائع ومِلكِه، المقِرِّ له[٣] بالرِّقّ والعبوديّة، المدعوّ فلانًا؛ ويَذكُر جنسَه ودِينَه، ثم يقول: وحِلْيتُه: . . . . . . ويَذكُرها.

وإن كان[٤] دون البلوغ كَتَب: جميعُ الغلام الذي بِيَدِه وملكه وتصرُّفِه على ما ذَكَر، المُراهِق، أو المُعْصِر[٥]، إن كانت جارية؛ ويعيِّن البَكارة إن كانت؛ ثم يقول: «شراءً صحيحًا شرعيًّا بثمن مبلغه كذا وكذا»؛ ويكمِّل المبايعَة.

وإن كان بالمَبيع عيبٌ ذكَرَه، فيَكتُب: وعَلِمَ المشتري أنَّ به أو بها المرضَ الفلانيَّ ـ ويعيِّنُه، ويعدِّد الأمراضَ والعيوبَ وآثارَ الكيّ وغيرَ ذلك إن كان ـ ورضِيَ به، ودَخَل[٦] عليه.

وإن كان المَبيع عبدًا بجارية أو العكسَ كَتَب: جميعُ العبد الذي بِيَد البائع ـ على نحو ما تقدّم ـ بجميع الجارية الفلانيّة الجنس، المسلمة؛ تَقَابَضَا[٧] وتفرّقا بالأبدان، بعد النظر والمعرفة، والمعاقَدة الشرعيّة، وضمانه الدَّرَك في ذلك حيث يجب شرعًا؛ وإن كان في أحدهما عيبٌ ذكَرَه.

فصل

وإن كانت الدار المَبيعة في بلدٍ والمتبايعان في بلدٍ آخَرَ كَتَب التخليةَ عِوضَ التسليم، فيقول: وخَلَّى البائع المذكورُ بين المشترِي وبين ما باعه إيّاه فيه[٨] تخليةً شرعيّة، ووجب له بذلك قبضُ المَبيع وتسلُّمُه بمقتضى هذا الابتياع الشرعيّ؛ وأقرّا

= السفينة ويرسيها حتى لا تسير. وتسمية المرساة بالأنجر تسمية عراقية. (المخصص ج ١٠ ص ٢٧).

(١) هي زيادة في الكلام تتنافى مع قوله: «المقر له بالرق والعبودية». ولأن المؤلف سيذكر بعد ذلك مكتوبًا آخر يخص بيع الرقيق الذي هو دون البلوغ.

(٢) الوصيف والوصيفة: الصبد والأمة.

(٣) «المقر له» أي البائع.

(٤) «وإن كان» أي وإن كان المبيع.

(٥) يراد بالمعصر هنا: الجارية التي قاربت الحيض؛ والإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. (تاج العروس).

(٦) «ودخل عليه»: أي أن المشتري دخل في عقد البيع على هذا العيب أي على علمه به.

(٧) «تقابضا» أي البائع والمشتري.

(٨) «فيه»، أي في المكتوب.

أنهما[١] عارفان بذلك المعرفةَ الشرعية قبل تاريخه، ونظراه النظرَ الشرعيّ، تعاقَدَا هذه المبايَعةَ بينهما معاقدةً شرعيّةً مشافَهةً بالإيجاب والقبول.

وإذا دَفَع المشتري للبائع من الثمن جوهرةً، أو سيفًا، أو خاتِمًا بفصٍّ ثمين، أو غيرَ ذلك ممّا تُجهَل قيمتُه، كَتَب: شراء صحيحًا شرعيًا، بثمنٍ مَبلغُه من الذهب، أو من الدراهم كذا وكذا، وبجوهرةٍ نفيسة، أو لؤلؤةٍ نقيّة، مجهولةِ القيمة، مَرْئيّةٍ حالَ العَقد؛ تَقابَضا وافترقا؛ ويكمِّل المبايَعة.

وإنْ حضر من يَضمَن دَرَكَ البائع فيما باعه وقبَضَ ثمنَه كَتَب: وحضر بحضور البائع المذكورِ فلان، وضَمِن في ذمّته دَرَكَ البائع فيما باعه وقبَضَ الثمنَ بسببِه، ضمانًا شرعيًّا في مالِه، بإذنه له في ذلك، وأقَرّ أنه مليء[٢] بما في ضمانه.

فصــــل

وإن أبرأ البائعُ ذمّةَ المشتري من الثمن كَتَب: بثمنٍ مَبلغُه كذا وكذا، أَبرَأَ البائعُ المذكورُ ذِمّةَ المشترِي منه براءةً صحيحةً شرعيّة، براءةَ إسقاط، قَبِلها منه قبولًا شرعيًّا، ولم تَبْقَ للبائع المذكور قِبَل المشترِي المذكور مطالبةٌ بسبب الثمن ولا شيءٍ منه، ولا عوضٍ عنه ولا عن شيءٍ منه، وسلَّم البائع المذكورُ للمشتري المذكور ما باعه إيّاه، فتَسلَّمه بعد النظر والرضا والمعرفة والمُعاقدة[٣] الشرعيّة.

وإن كان البيعُ بثمن مؤجَّلٍ أو منجَّم[٤] كَتَب: بثمن مبلغُه كذا وكذا يقوم له بذلك جملةً واحدةً في التاريخ الفلانيّ، أو في كلّ شهر يمضي كذا وكذا، على حَسَب ما يقع عليه الاتّفاق.

فصــــل

وإنِ اشترى رجلٌ من رجلٍ دارًا بما لَهُ في ذمّته من الدَّين كَتَب ما مثالُه: شراءً صحيحًا شرعيًا، بما للمشترِي في ذمّة البائع من الدَّين الحالّ الذي اعتَرَف به البائعُ

---

(١) أصل القول: وأمر بأنهما ولكن قد يحذف حرف الجر قياسيًا.

(٢) المليء: المقتدر الغني، وقد مَلُؤَ الرجل يملؤُ مَلاءَةً فهو مليء: صار مليئًا أي ثقة، فهو غني مليء بين الملاء والملاءة. (لسان العرب).

(٣) العَقد: نقيض الحَلّ.

(٤) المنجم من الديون: هو الذي يقدّر أداؤه في أوقات معلومة متتابعة، مشاهرة أو مساناة. وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها، فيقولون «وإذا طلع النجم حلّ عليك ما لي».

عند شهوده، وهو كذا وكذا، وصدّقه المشترِي على ذلك، وسلَّم البائعُ للمشتري ما باعه إيّاه، فتسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر والرضا والمعرفة والمعاقَدة الشرعيَّة، والتفرُّقِ بالأبدان عن تراضٍ، وضمانِ الدَّرَك في ذلك وبحكم ذلك بَرِئَتْ ذمّة البائع من الدَّين الذي كان قِبَله للمشترِي، ولم تَبْقَ للمشتري عنده مطالَبةٌ بسبب ذلك، وتَصادَقا على ذلك.

فصـــل

وإن كان لرجلٍ على رجلٍ دَينٌ فباعه داراً بثمنٍ معلوم، ثم قاصّه[1] بما لَهُ في ذمّته من الدَّين، أو امرأةٌ اشترتْ من زوجها دارًا بثمن حالٍّ وقاصَّتْه بصداقها[2]، كَتَب ما مثالُه: اشترى فلانُ بن فلانٍ من فلانٍ جميعَ الدار الفلانيّة - كما تقدّم شرحُه - شراء صحيحًا شرعيًا، بثمنٍ مَبلغُه كذا وكذا حالٌّ[3]، وسلَّم البائعُ للمشترِي ما باعه إيّاه فتسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، [ومالًا][4] من جملة أموالِه، وذلك بعد النظر والمعرفة، والمُعاقَدة الشرعيَّة، والتفرُّقِ بالأبدان عن تراضٍ؛ وضمانِ الدَّرَك في ذلك؛ ثم بعد تمام ذلك ولزومِه قاصَّ المشترِي المذكورُ البائعَ المذكورَ الثمنَ المذكورَ بما لَهُ في ذمّة البائع من الدَّين الذي اعترَف به عند شهوده، وهو نظيرُ الثمن المذكورِ في القَدْر والجنس والصفة والاستحقاق، مُقاصَّةً صحيحةً شرعيَّة، قَبِل كلٌّ منهما ذلك لنفسه قبولًا شرعيًّا، ولم تَبْقَ لكلٍّ منهما مطالَبةٌ قِبَل الآخَر بسبب ثمن، ولا مثمَّن ولا دَين، ولا غيرِه، ولا حجّة، ولا مسطور، ولا ذهب، ولا فضّة ولا حقٌّ من الحقوق الشرعيَّة على اختلافها لِما مضى من الزمان وإلى يوم تاريخِه، وتَصادَقا على ذلك.

وإذا اشترى جماعةٌ من جماعةٍ دارًا ورِثوها كَتَب ما مثالُه: هذا ما اشترى فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ بمالِهم لأنفسهم بالسويّة بينهم أثلاثًا.

وإن كانوا متفاوتِين في الابتياع كَتَب: «فمن ذلك ما اشتراه فلانٌ المُبْدَأُ[5] بذكره بمالِه لنفسه كذا».

---

(١) قاصّه، من المقاصة، وهي أن يكون لرجل دين على آخر مِثْلَ ما للآخر عليه، فيجعل كل منهما ما له عند صاحبه في مقابلة ما عليه.

(٢) الصداق: مهر المرأة، قيل: والكسر أوضح. (٣) حال بكسر اللام: صفة الثمن.

(٤) لم ترد هذه الكلمة التي بين مربعين في الأصل، وقد أثبتناها جريًا على طريقة المؤلف في التعبير بذلك في عدة مواضع من هذا الباب.

(٥) المبدأ: أبدأت بالألف في أوله، وهي لغة في بدأت؛ وقد تقدم التنبيه على ذلك أيضًا في هذا الجزء.

وإن كان منهم من اشترى حصَّة لموكِّله قال: «وما اشتراه فلانٌ لموكّله بإذنه وأمره وتوكيلِه ومالِه كذا حَسَبَ مَا وكّله في ابتياع ما يُذكَر فيه[1]، وفي التسليم والتسلّم اللَّذين يُشرحان فيه، على ما يَشهد به مَنْ يعيّنه في رسم شهادته آخرَه، أو على ما ذَكَر الوكيلُ المشترِي» من فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ الإخوةِ الأشقّاء، أو لأبٍ، أولادِ فلانِ بن فلانٍ الفلانيّ، جميع الدار الكاملةِ الجاريةِ في أيدي البائِعين وملكِهِم وتَصرُّفهم بالسويّة بينهم أثلاثًا، المنتقلةِ إليهم بالإرث الشرعيّ عن والدهم فلان المذكور، بحكم أنه تُوفِّيَ إلى رحمة الله تعالى قَبْل تاريخه، وخَلَّف من الورثة المستحقِّين لميراثه المستوعِبين جميعَه شرعًا أولادَه لِصُلْبِهِ الإخوةَ الأشقّاء، وهم البائعون المذكورون أعلاه الذين رُزِقهم من زوجته التي كانت في عِصْمته وعَقْدِ نكاحه فلانة، بغير شريك لهم في ميراثه، ولا حاجب يحجُبهم عن استكماله بوجه ولا سبب، وتَرَكَ من جملة ما خلّفه هذه الدار المذكورة، قُسمتْ بينهم بالفريضة الشرعيَّة أثلاثًا بالسويّة بينهم.

وإن كانت وفاةُ والدهم ثابتةً عند حاكمٍ ذَكَرَها، ثم يقول: وهذه الدار بالبلد الفلانيّ، بالحارة الفلانيّة، بالخُطّ[2] الفلانيّ ـ وتُوصَف وتُحدَّد ـ شراءً صحيحًا شرعيًّا بثمن مَبلغُه من الذهب أو من الدراهم كذا وكذا بين البائِعين[3] بالسويّة، من مال المشترين المذكورِين على قدر ما ابتاعه كلٌّ منهم فيه[4]، تَقابَضوا، وتَفرَّقوا بالأبدان، بعد النظر والمعرفة والمُعاقَدة الشرعيَّة، وضمانِ الدَّرَك في ذلك.

وإنْ ضَمِن كلٌّ من البائِعين دَرَكَ الآخَر كَتَب: «وكُلُّ واحد من البائِعين ضامنٌ في مالِه وذمّتِه دَرَكَ الآخَرَيْن المذكُورَيْن فيما باعاه وقبضا الثمن بسببه ضمانًا شرعيًّا في ماله وذمّته، بإذن كلٍّ منهم للآخَرَيْن في الضمان والأداء والرجوع، وأقرّ كلُّ واحد منهم أنّه مَليءٌ بما ضَمِنَهُ، وقادرٌ عليه».

وإنْ صَدَّق كلٌّ منهم الآخَرَ على صحّة ملكِه لما باعه كَتَب: «وصَدَّق كلُّ واحد منهم الآخَرَ على صحّة ملكِه لما باعه فيه وقَبَض الثمن بسببه تصديقًا شرعيًّا».

وإن حضر من يَضمَن في الذمّة كَتَب: «وحضر بحضورهم فلان، أوْ كلُّ واحد من فلانٍ وفلان، وضَمِن كلٌّ منهم وكَفَل في ذمّته دَرَكَ البائِعين المذكورِين فيما باعوه

(١) «فيه»، أي في المكتوب.
(٢) الخُطّ: الطريق والشارع وموضع الحيّ.
(٣) «بين البائعين»، أي بثمن مقسوم بين البائعين.
(٤) أي في المكتوب.

وقبضوا الثمن بسببه، ضمانًا شرعيًا، بإذن كلٍّ منهم للآخَر في ذلك، وأقرّ كلٌّ منهم أنّه مَليءٌ بما ضَمِنه قادرٌ عليه».

وإذا ابتاع رجلٌ لموكّله حَجَرَ طاحون[1] أو غيرِها[2] كَتَب ما مثالُه: هذا ما اشترى فلانٌ لموكّله فلانٍ بمالِه وإذنِه وتوكيلِه إيّاه في ابتياع ما يُذكَر فيه، وفي التسليم والتسلُّم اللّذَين يُشرَحان فيه[3]، بشهادة مَنْ يعيّنه في رسم شهادته آخِرَه؛ أو يقول: «على مَا ذُكر»؛ وإن كان بيده وكالة كتب: «حَسَبَ ما تَشهَد به الوَكالةُ التي بِيَدِه، الثابتةُ بمجلس الحُكْم العزيز بالمكان الفلانيّ»، من فلان، جميع حَجَر الطاحون الفارسيّ وعُدّتِها[4]، الداخل ذلك في عَقْد هذا البيع، الجاري ذلك في يد البائع المذكور وملكه وتَصرُّفه على ما ذُكَر، وهي بالمكان الفلانيّ؛ ويَصف الطاحون والعُدّةَ التي بها، وهي التوابيتُ[5] والحجارةُ النجديّةُ وقواعدُ الصَّوّان، ويصف جميعَ العُدّة، ويحدِّد الطاحون، ويَذكُر الثمن، ويَكتُب: دفعَه المشتري المذكورُ من مال موكّله للبائع المذكور، فتَسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وبحُكم ذلك بَرِئَتْ ذمّة المشتري المذكورِ والمشترَى له فيه من الثمن المذكورِ ومِن وزنِه ونقدِه، براءةً صحيحةً شرعيّة براءةَ قبضٍ واستيفاء، وسلَّم البائعُ للمشتري ما باعه إيّاه، فتَسلَّمه منه لموكّله المذكور، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه ملكًا لموكّله، وذلك بعد النظر والمعرفة الشرعيّة والمعاقَدة والتفرُّقِ بالأبدان عن تراضٍ، وضمانِ الدَّرَك حيث يوجبه الشرع الشريف.

فصل

إذا باع الوكيل عن موكّله حمّامًا كَتَب: هذا ما اشترى فلانٌ بمالِه لنفسه من فلانٍ القائمِ في بيع ما يُذكَر فيه بالثمن الذي تَعيّنَ فيه، وقَبْضِ الثمن، وتسليم المَبيع لمبتاعه، عن موكّله فلان، حَسَب ما يَشهد على موكّله بذلك من يعيّنه في رسم شهادته آخرَه؛ وإن كان بِيَدِه وَكالةٌ كَتَب: «حَسَبَ مَا يَشهد بذلك كتابُ الوَكالة الذي

---

(١) ورد هذا اللفظ في شعر ابن هانىء الأندلسي.

تبارك الله ما أمضى أسنته ... كأنما كلُّ فكٌ منه طاحون

وهذه الكلمة مؤنثة في كتب اللغة «طاحونة». وليست «طاحون».

(٢) «أو غيرها» الضمير يعود على الطاحون، أي أو حجر غير الطاحون، كحجر المعصرة ونحوها.

(٣) «فيه» أي في المكتوب.

(٤) الضمير في «وعدتها» يعود على الطاحون.

(٥) التوابيت: يعني بها الصناديق المعدة للدقيق بعد الطحن. (جواهر العقود).

بِيَدِه، الثابتُ حُكمه بمجلس الحُكْم العزيز بالمكان الفلانيّ»؛ ويَشرح مَقاصدَ الثُّبوت، ثم يَكتُب: جميع الحمّام المعروفةِ[1] بدخول الرجال والنساء، وقدورِها الرّصاص الأربع، ومَيازيبِها[2] النُّحاس والرّصاص، ومستوقَدِها، وبيتِ نارِها، الآتي ذِكرُ جميعِ ذلك فيه، الجاري جميعُ ذلك في يد البائع ملكًا لموكّله المَبيعِ عنه، على ما ذَكَر الوكيلُ البائع، وذلك بالبلد الفلانيّ، بالموضع الفلانيّ - ويوصَف ويحدَّد - شراءً صحيحًا شرعيًا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، ودَفَع المشتري الثمنَ من مالِه للبائع المذكور، فتسلّمه منه لموكّله المذكور وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزه، وسلَّم البائعُ المذكورُ للمشتري ما باعه إيّاه عن موكّله فتسلّمه منه، وصار بِيَدِه وملكِه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر...؛ ويكمِّل على ما تَقدَّم.

وإذا ابتاع الأخرسُ الأصمُّ دارًا، كَتَب: اشترى فلان الأخرسُ اللسان، الأصمُّ الأذنين، الصحيحُ البصر والعقل والبدن، العارفُ بما يَلزمه شرعًا الخبيرُ بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، كلُّ ذلك بالإشارة المفهومة عنه، المعلومةِ عند البائع وعند شهود هذا المكتوب، القائمةِ مَقامَ النطق، التي لا تُجهَل ولا تُنكَر من فلان الفلانيّ جميعَ الدار الفلانيّة...؛ ويكمل نحو ما تَقدَّم.

وإذا ابتاع رجلٌ من آخَرَ دارًا بثمن معيَّنٍ مقبوضٍ وكُتب بينهما مكتوبٌ على ما تَقدَّم، ثم حضر المشتري وادَّعى أنه كان ابتاع الدارَ لموكّله كتَب على ظهر المكتوب: أقرّ فلان - وهو المشترِي المذكورُ باطنَه - أنه لَمّا ابتاع الدارَ الموصوفةَ الحدود في باطنِه في التاريخ الفلانيّ من فلانٍ بالثمن المعيَّن وهو كذا وكذا، كان وكيلًا في ابتياعها عن فلانٍ بإذنِه وأمرِه وتوكيلِه إيّاه في ذلك وأنّ اسمَه على سبيل النيابة والوَكالة، وأنّ الثمن المعيَّنَ باطنَه من مال هذا المُقَرّ له فيه[3] وصلْبِ حالِه، وصَدَّقه على ذلك تصديقًا شرعيًا، وقَبِل منه هذا الإقرار لنفسه وسلَّم له الدارَ المذكورة، فتَسلَّمها منه وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ملكًا له وأَقرَّ المُقَرُّ له أنه كان قد أَذِن له في

---

(١) أنّث الوصف هنا جريًا على لغة من يؤنث الحمام؛ فقد ذكر في المصباح أن تأنيثه أغلب، فيقال: هي الحمام، ويذكّر، فيقال: هو الحمام؛ والذي في القاموس أنه مذكر؛ وذكر شارحه أن الشهاب نقل عن ابن الخباز تأنيثه، وغلطوه، وقالوا: التأنيث غير مسموع.

(٢) الميازيب: المراد بالميازيب هنا: المزاريب التي تكون على أحواض الحمامات تصب فيها الماء الحار والبارد، واحده ميزاب، ويقال فيه أيضًا (مئزاب) بالهمز، وهو من أزب الماء ووزب، إذا جرى وقيل: إن الميزاب فارسي معرّب.

(٣) «فيه» أي في المكتوب.

ذلك ووكّله في ابتياعِها الوَكالةَ الشرعيَّة، وصَدَّقه المُقِرّ، وأقرّا أنّهما عارفان بالدار المذكورةِ المعرفةَ الشرعيَّةَ النافيةَ للجهالة، وبحُكم هذا الإقرار صارت هذه الدارُ المذكورةُ ملكًا للمُقَرِّ له دون المقِرّ، ودون كلِّ أحدٍ بسببِه[١] ولم يَبْقَ للمقرّ فيها حقٌّ ولا طلب، وتَصادقَا على ذلك تَصادُقًا شرعيًّا، ويؤرِّخ.

وإذا ابتاع رجلٌ من آخَرَ دارًا، ومات البائع ولم يكن بينهما مكاتبة فأراد ورثتُه مكاتبةً ببراءة ذمّة مورِّثهم والإشهادَ له بذلك كَتَب ما مثالُه: أقرّ كلُّ واحد من فلان وفلان وفلانٍ الإخوةِ الأشقّاء، أو غيرِ الأشقّاء، أولادِ فلان عند شهودِه[٢] طوعًا إقرارًا شرعيًّا، أنّ والدَهم المذكورَ تُوفِّيَ إلى رحمة الله تعالى في التاريخ الفلانيّ، وأنه كان قَبل تاريخ وفاته في تاريخ كذا وكذا باع لفلان جميعَ الدار الفلانيّة، الجاريةِ في يدِه وملكِه وتَصرُّفِه ـ وتوصَف وتحدَّد ـ بما مَبلغُه كذا وكذا، بيعًا صحيحًا شرعيًّا قاطعًا ماضيًا جائزًا نافذًا، وأنَّ المشتريَ المذكورَ دَفَع إليه جميعَ الثمن من ماله، وصلْبِ حالِه، بتمامه وكماله، وسلَّم والدُهم البائعُ هذا المشتريَ المذكورَ الدارَ المذكورة، فتسلَّمها منه، وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزه وذلك بعد النظر والمعرفة، والمعاقَدة الشرعيَّة، والتفرّقِ بالأبدان عن تراضٍ وصدَّقهم المشتري المُقَرُّ له على ذلك، واعتَرَف كلٌّ من المُقِرِّين والمشتري أنهم عارفون بالدار المذكورة المعرفةَ الشرعيَّةَ النافيةَ للجهالة، وأقرّوا أنّ البائع المذكورَ كان عارفًا بها، وتصادقوا على ذلك، واعتَرَف المشترِي المذكورُ أنَّ الدار المذكورةَ بِيَدِه وتصرُّفه، وجاريةٌ في ملكه، وأنَّه سأل الورثةَ المذكورِين الإشهادَ على أنفسهم بذلك، فأجابوا سؤالَه، وأشهدوا على أنفسهم براءة لذمّة أبيهم، ومُراعاةً لحقه عليهم وأَقَرّ المقِرّون أنّهم لا يَستحِقّون في هذه الدار ملكًا، ولا يدًا ولا إرثًا، ولا موروثًا ولا حقًّا من الحقوق الشرعيَّة وأنّ المشتريَ المذكورَ المُقَرَّ له مالكٌ لهذه الدار دونهم ودون كلِّ أحد بسببهم وتصادَقوا على ذلك، وقَبِل منهم المشترِي هذا الإقرارَ قبولًا شرعيًّا؛ ويؤرِّخ.

إذا ابتاع رجلٌ من بائع قد ثبت رشدُه بعد الحَجْر عليه كَتَب ما مثالُه: هذا ما اشترى فلانٌ من فلانٍ البالغِ الرشيد، الثابتِ رشدُه في مجلس الحُكم العزيز بالبلد الفلانيّ، عند القاضي فلان..........[٣].

---

(١) «بسببه» أي كل أحد متصل به. (٢) شهوده: أي شهود المكتوب.

(٣) يبدو أن بقية المكتوب ساقطة من الأصل ولم نقف عليها في أي من المصادر والمراجع.

. . . .(١) من نفقةٍ ومَؤونةٍ وكُسوةٍ ولوازمَ شرعيَّة، ولكونه ليس له موجودٌ غير ما يُذكَر فيه(٢)، وأنّ والدَه لا تَلزمه نفقتُه بحُكم مالَهُ من هذا الموجود، اشتَرَى من نفسه بقضيّة ذلك وحُكمِه جميعَ الحصّة التي مبلغها كذا وكذا سهمًا من أربعةٍ وعشرين سهمًا شائعًا في جميع الدار الفلانيَّة التي بالمكان الفلانيّ، أو الدار الكاملة ـ وتوصَف وتحدَّد ـ شراءً صحيحًا شرعيًّا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، وقبَضَه المشتري من نفسه لولده المذكورِ المَبيعِ عليه(٣)، من مال أخيه فلانٍ الطفلِ المشتَرَى له فيه، الذي تحت يده وحَوْطه، وصار ذلك في حَوْزه لولده فلان المَبيعِ عليه وتَسلَّم من نفسه الدارَ المذكورةَ لولده المشتَرى له، وذلك بعد مشاهَدتِه لها ونظرِه إيّاها، ومعرفتِه بها المعرفةَ الشرعيَّة، كلُّ ذلك بالمعاقَدة الشرعيَّة الجائزة باع على ولده فلان المثنَّى باسمِه المذكور، واشترَى لولده فلان المُبْدَإ(٤) باسمه فيه من نفسه على ما شُرِح أعلاه، واعتَرَف أنّ الثمن المذكورَ هو ثمنُ المِثلِ يومئذٍ لا حَيفَ فيه ولا شَطَط، ولا غَبينةَ(٥) ولا فَرْطَ(٦) ولا بَخْسَ ولا وَكْس، ولا تَفاوُتَ فيه(٧) بوجه ولا سبب، وقَبِل ذلك من نفسه لولده المشتَرى له فيه قبولًا صحيحًا شرعيًّا وضَمِن الدَّرَكَ حيث يوجبه الشرع الشريف.

إذا ابتاع رجلٌ دارًا من نفسه(٨) لنفسه ـ وهو أن يكون له ولد تحت حَجْره، ولولدِه دار، فأراد أن يشتريَها لنفسه من ولدِه ـ كَتَب ما مثالُه: اشترى فلانٌ من مالِه لنفسه من نفسه جميعَ الدار الكاملة، الجاريةِ في يده ملكًا لولدِه لصلبِه فلانٍ الطفلِ الذي تحت حَجْره وكَفالتِه ووَلاية نظرِه، لِما رأى له في ذلك من الحظّ والمصلحة، والغِبطةِ(٩) الزائدةِ على ثمن المِثل، أو لمصلحة اقتضت ذلك، وهذه الدارُ بالبلد

---

(١) يظهر أن المكتوب ساقط من الأصل كآخر المكتوب الذي قبله ويفهم من السياق أنه كان لرجل ولدان طفلان، وكان لأحدهما دار، فأراد الوالد أن يبيع حصة منها، أو أن يبيعها كلها لولده الآخر بحكم ولايته عليهما.

(٢) «فيه» أي في المكتوب.

(٣) يقال: باع عليه، أي من غير رضاه.

(٤) المبدأ: من أبدأت، وهي لغة بمعنى بدأت؛ وقد تقدم ذلك.

(٥) الغبينة: اسم من الغبن.

(٦) الفَرْط بفتح فسكون: اسم من الإفراط، وهو مجاوزة الحد؛ ويجوز أن يقرأ بضم الفاء والراء ومعناه الظلم.

(٧) الظاهر أن معنى عدم التفاوت في الثمن: أنه لا يختلف باختلاف المتمنين ـ بكسر الميم المشددة ـ ولا يتجاوز هذا القدر بزيادة ولا نقص.

(٨) من نفسه: أي من ولده.

(٩) صور الفقهاء هذه الغبطة بأن يرغب في المبيع بأكثر من ثمن مثله، وهو ـ أي البائع ـ في مثله=

الفلانيّ، بالخُطّ الفلانيّ - وتوصَف وتحدَّد - شراءً صحيحًا شرعيًا بثمن مَبلغُه كذا وكذا، قَبَضَ الثمنَ من نفسِه لولدِه عن دارِه التي ابتاعها منه لنفسه وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ويصرفه في مصالح ولده المذكور، وتسلَّم من نفسِه لنفسِه الدارَ المذكورة، وصارت بِيَدِه ملكًا له، ورَفَعَ عنها يَدَ نظرِه ووَلايته، ووَضَع عليها يَدَ ملكه وحيازته، وأَقَرَّ أنه عارفٌ بالدار المذكورة، وأنَّه نظرها النظرَ الشرعيّ وأحاط بها علمًا وخِبرةً نافيةً للجهالة؛ ويؤَرِّخ.

إذا أراد أمين الحُكم - وهو الناظر على الأيتام من قِبَل الحاكم - أن يبيع دارًا على(١) يتيم محجور عليه كَتَب مَحضَرًا بالقيمة، وأَثْبتَه عند الحاكم بشهادة شهود القيمة والمهندسِين، وأَشهَرَ الدارَ بحضرة عَدْلَين؛ وصفةُ المحْضَر في فصل المَحاضر؛ فإذا ثبت المحْضَرُ وأراد البيعَ وكَتْبَ كتابِ المبايَعة، فسبيل الكاتب أن يكتُب: هذا ما اشترى فلانٌ من القاضي فلانِ أمينِ الحُكم العزيزِ بالبلد الفلانيّ، القائِم في بيعِ ما يُذكَر فيه على فلان بنِ فلان المحجورِ عليه من قِبَل الحُكم العزيز، لِما دعت حاجتُه إليه: من نفقةٍ ومَؤونةٍ وكُسوةٍ ولوازمَ شرعيَّة وذلك بإذن سيّدنا قاضي القضاة فلان الحاكم المُشارِ إليه في بيع الدار التي تُذكَر فيه، بالثمن الذي تَعيَّنَ فيه وقَبْضِه، وفي تسليم الدار لمبتاعها، الإذنَ الشرعيّ، يَشهَد عليه بذلك من يعيّنه في رسم شهادتِه آخِرَ هذا المكتوب؛ اشترَى منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدار الفلانيّةِ الجاريةِ في يده ملكًا لفلان المحجورِ عليه - وتُعَيَّنُ فيه - وله بيعُها، وقبضُ ثمنِها وتسليمُها لمبتاعها بطريق شرعيّ؛ وإنْ صَدَّقه المشترِي قال: «وصدَّقه المشتري على ذلك تصديقًا شرعيًا» وهي الدارُ التي بالبلد الفلانيّ، بالخُطّ الفلاني - وتوصَف وتحدَّد - شراءً صحيحًا شرعيًا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، دفَعَه المشتري من مالِه لأمين الحُكم العزيز، فتسلَّمه منه وصار بِيَدِه وقبضِه لفلان المذكورِ المحجورِ عليه، وسلَّم أمينُ الحُكم العزيز المذكورُ للمشتري المذكور ما باعه إيّاه، فتسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وقبضِه وملكه وحَوْزِه وتَصرُّفِه، وذلك بعد النظر والرضا والمعرفة والمعاقَدة الشرعيَّة والتفرّقِ بالأبدان عن تراضٍ.

= - أي مثل المبيع - ببعض ذلك الثمن أو خيرًا منه بكلّه. انظر (اللسان - باب الحجر).

(١) باع الدار على فلان: أي باعها من غير رضاه.

وإنْ شرَطَ أمينُ الحُكم الخيارَ كَتَب: «وانقضاءِ مدّة الخيار الشرعيّ الذي اشترطه أمينُ الحُكم البائعُ لنفسه ثلاثةَ أيّام»، والسببُ في هذه المبايَعة احتياجُ المَبيعِ عليه إلى نفقةٍ ومَؤونةٍ وكُسوةٍ ولوازمَ شرعيَّة، وثبوتُ ذلك عند الحاكم المذكور وثَبتَ عنده أيضًا ـ أيّد الله أحكامَه ـ أنّ قيمة الدّار المذكورةِ كذا وكذا وهو الثمن المعيَّنُ أعلاه ثبوتًا صحيحًا شرعيًا، بشهادة ذَوَيْ عدل: هما فلانٌ وفلانٌ ومهندسَيْن: هما فلانٌ وفلان؛ فحينئذٍ تَقدَّم إذنُ الحاكم المذكورِ بالنِّداء على الدّار المذكورة، وإشهارِها[1] بصُقْعها وغيرِه في مَظَانّ الرغبة فيها مدّةَ ثلاثةِ أيّام، آخرُها اليومُ الفلانيّ، فلم يسمَعا[2] مَنْ بَذَلَ زيادةً على ذلك، وقد أقام كلٌّ من شاهِدَي القيمة والمهندسَيْن وشاهدَي النّداء شهادتَه بما يَشهَد به فيه عند الحاكم المذكور، وأَعْلَمَ تحت رسم شهادتهم علامةَ الأداء على الرسم المعهود حَسَب ما تَضمَّنه المَحْضَرُ الشرعيّ المؤرَّخ بكذا وكذا، وبأعلاه علامةُ الثّبوت، ومثالُها كذا وكذا، فلمّا تَكامَل ذلك عند الحاكم المذكور، وسأله من جازت مسألتُه، وسَوَّغت الشريعةُ المطهَّرَةُ إجابتَه الإذنَ لأمين الحُكم المذكورِ في بيع الدار المذكورةِ بالثمن المذكور؛ والإشهادَ عليه بما ثَبتَ عنده فأجاب الحاكم المذكورُ سؤالَه، وأَشهَدَ عليه بثبوت ذلك عنده على الوجه الشرعيّ وَأَذِنَ لأمين الحُكم في بيع ذلك على ما شُرِح أعلاه، فشَهِد على الحاكم المذكورِ بذلك مَن يعيّنه في رسم شهادته آخرَه، فامتَثَل أمينُ الحُكم ذلك، وعاقَدَ المشتريَ المذكورَ على ذلك كذلك على ما شُرِح أعلاه، وبمضمونه شُهِد على المتعاقدَيْن بتاريخ كذا وكذا.

إذا مات رجلٌ وتَرَك دارًا وفى ذمّته لزوجته صداقٌ وأثبتتْه، واشترت الدارَ من أمين الحُكم بمبلغ صداقها، فالذي يُفعل في ذلك أنَّ الزوجة تُحضِر عَدْلَيْن يَشْهَدان بشخصه وهو مَيْت، ويَكتُبان لها في ذيل صداقِها أنّهما عايناه ميتًا؛ وإن كانا شاهدَي الصداق كان ذلك أَجْوَد، وإن لم يكونا عايناه شَهِدا بالاستفاضة؛ ثم يؤدِّي[3] شهودُ العَقد والتشخيص عند الحاكم، ثم تُحلَّف الزوجة، ويُكتَب الحَلِفُ، وصورةُ ما يُكتَب: أُحْلِفَت المشهودُ لها أعلاه، أو باطنَه، فلانةُ المرأةُ الكاملةُ ابنةُ فلان بالله الّذي لا إلـه إلّا هو، يمينًا شرعيَّة، مؤكَّدةً مستوفاةً جامعةً لمعاني الحَلف، إنّها مستحِقَّةٌ في تَرِكة المُصْدِق المسمَّى باطِنَه فلانٍ مبلغَ صداقها عليه وإنّ الشاهدَيْن بذلك صادقان فيما شَهِدا لها به من ذلك، وإنّ ذمّتَه لم تبرأ من الصداق المذكور ولا من شيءٍ منه، وإنّها

---

(١) تقدم تفسيرها في هذا الجزء. (٢) «فلم يسمعا»: أي الشاهدان بالنداء.

(٣) «يؤدي شهود العقد» أي يؤدون شهادتهم، فالمفعول محذوف للعلم به.

ما قبضَتْه ولا شيئًا منه ولا تَعوَّضَتْ عنه، ولا عن شيءٍ منه، ولا أبرأتْه منه ولا من شيءٍ منه، ولا أحالت به ولا بشيءٍ منه، ولا اختَلَعت[١] به ولا بشيءٍ منه، ولا بَرِيء إليها منه، ولا من شيءٍ منه بقولٍ ولا فِعل، وإنّها تَستحِقّ قبضَ ذلك من تَركته حالَ حَلفِها، وإنّ من يَشهَد لها به صادقٌ فيما يَشهَد لها به من ذلك، فَحَلفَتْ كما أُحْلِفتْ بالتماسها لذلك، وحضورِ من يُعتَبر حضورُه على الأوضاع الشرعيّة، بعد تَقدُّم الدّعوى المسموعة وما تَرتَّب عليها بتاريخ كذا وكذا. ويَشهَد شهودُ الحَلِف في آخرِه بما صورتُه: «حضرْتُ الحَلِف المذكورَ وشَهدْتُ به».

وإن كان صداقُها لم يَثبُت إلا بشهادة عدلٍ واحدٍ أُحلِفَتْ على ذلك، ويُكتَب حَلِفُها، وهو: أُحلِفَتِ الزوجةُ، المشهودُ لها فيه، فلانةُ المشخَّصةُ لمستحلِفِها بالله الّذي لا إلـه إلّا هو يَمينَيْن شرعيّتين مؤكَّدتين مستوفاتين جامعتين لمعاني الحَلِف معتَبرتين شرعًا: إحداهما أنّها مُحِقّةٌ فيما ادّعت به على زوجها المُصْدِق المذكورِ فلان، وهو مَبلَغ صداقِها عليه، الشاهد به كتابُها، وهو كذا وكذا، وأنّ شاهِدَها بذلك صادقٌ فيما شَهِد لها به من ذلك، واليمينُ الثانيةُ أنّها تَستحِقّ قبضَ المَبلغ المذكورِ من تَركته، وأنّها ما قَبَضتْ ذلك ولا شيئًا منه، كما تَقدّم ذكرُه في الحَلِفِ الأوّلِ إلى التاريخ. ثم يكتب بعد ذلك إسجال الحاكم، ومثالُه: هذا ما أَشهَدَ عليه سيّدنا ومولانا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضي القضاة، أو أقضَى القضاة فلان، الحاكمُ بالمكان الفلانيّ، من[٢] حَضَر مجلسَ حُكمه ومَحلَّ قضائه وولايتِه، في اليوم الفلانيّ مِن الشهر الفلانيّ، مِن السَّنة الفلانيّة[٣]. . . بعد صدور دعوى محرَّرة، مقابَلَةٍ بالإنكار[٤] على الوجه المعتبَر[٥] الشرعيّ، بشهادة العُدول الذين أُعلِم تَحت رسم شهادتهم بالأداء

(١) اختلعت المرأة: أي طلقت من زوجها ببذل منها له، والاسم الخُلْع بضم الخاء وعلة هذه التسمية أن الله تعالى جعل النساء لباسًا للرجال، والرجال لباسًا لهن فقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٧] فإذا افتدت المرأة بمال تعطيه لزوجها ليبينها منه فأجابها إلى ذلك فقد بانت منه، وخلع كل واحد منهما لباس صاحبه.

(٢) «من» مفعول به لفعل أشهد.

(٣) الظاهر أن في موضع هذه النقط كلامًا ساقطًا من الأصل. فقد ورد بعد ذكر التاريخ في أكثر الإسجالات التي ذكرها المؤلف في هذا الجزء قوله: «إنه ثبت عنده وصح لديه ـ أحسن الله إليه ـ في المجلس المذكور» الخ. وقد ورد في إسجالات أخرى قوله: «إنه ثبت عنده في مجلس حكمه ومحل نيابته في اليوم الفلاني». (جواهر العقود) (والكوكب المشرق).

(٤) الإنكار: الجحود.

(٥) المعتبر، من عبر: وعبر الرؤيا يعبرها عبرًا وعبارة وعبَّرها: فسرها وأخبر بما يؤول إليه أمرها. (لسان العرب ص ١٦).

في باطنِه، ويمينِ المشهودِ لها فيه[١] فلانَةَ على استحقاقها في ذمّة المُصدِق المسمّى باطنَه فلان مَبلغَ صداقِها عليه، وهو كذا وكذا، على ما تَضمَّنه الصداقُ باطنَه، أو على ما تَضمَّنه فصلُ الاسترجاع[٢] المسطَّرُ باطنَه، المؤرَّخُ بكذا، وقال كلٌّ منهم: إنّه عارفٌ بالمُصدِق والزوجةِ المذكورَيْن، وما عَلِمَ مغيِّرًا لشهادتِه إلى أن أقامها عنده بشروط الأداء المعتبَرةِ شرعًا، وشَخَّص له الشهودُ المشهودَ لها تشخيصًا معتبَرًا، وقبل ذلك منهم القبولَ السائغَ فيه، وسَطَّر ما جرت العادةُ به مِن علامة الأداء والتشخيص على الرسم المعهودِ في مِثله، وذلك بعد ثبوتِ وفاةِ المُصدِقِ المذكورِ الثّبوتَ الشرعيّ وأُحْلِفت الزوجةُ المشهودُ لها المذكورةُ على استحقاقها ذلك بالله العظيم الّذي لا إلٰه إلّا هو، اليمينَ الثابتةَ الشرعيَّةَ المسطَّرةَ[٣] في فصل الحَلِف[٤] باطنَه على ما نُصَّ وشُرِح فيه، فحَلفَتْ كما أُحلِفتْ بالتماسها لذلك، وحضورِ من يُعتبَر حضورُه على الأوضاع الشرعيَّةِ في تاريخ الحَلِف المذكور؛ ولمَّا تَكامَل ذلك كلُّه عنده وصحَّ لديه ـ أحسن الله إليه ـ سأله مَن جاز سؤالُه الإشهادَ على نفسه بثبوت ذلك عنده، فأجابه إلى سؤاله، وتَقدَّم بكتابة هذا الإسجال، فكُتِب عن إذنه الكريم، وأَشهَدَ على نفسه بثبوت ذلك لديه، وأَبقَى كلَّ ذي حجّةٍ معتبَرةٍ على حجّته إن كانت. وهو في ذلك نافذُ القضاء والحُكْم ماضيهما، بعد تَقدُّم الدّعوى الموصوفة[٥] وما تَرتَّب عليها، وحضر سماعَ الدّعوى وإقامةَ البيّنةِ القاضي فلانٌ أمينُ الحُكم العزيز، واعتَرَف بأنّه لا مَطْعَن[٦] له في ذلك، فحينئذٍ أَذِنَ الحاكمُ في إيصال الحقّ لمستحِقّه شرعًا، ووقع الإشهادُ فيه بتاريخ كذا وكذا.

ثم يكتب ابتياعها من أمين الحكم في ذيل الإسجال، وهو: هذا ما اشترت فلانةُ المرأةُ الكاملةُ ابنةُ فلان ـ وهي المشهودُ لها باطنَه المستحلَفةُ فيه ـ لنفسِها من القاضي فلانٍ أمين الحُكم العزيز بالجهة الفلانيّة، القائم في بيع ما يُذكَر فيه على

(١) «فيه» أي في المكتوب.
(٢) الاسترجاع: أي مراجعة الرجل زوجته المطلقة طلاقًا غير بائن إلى النكاح من غير استئناف عقد جديد؛ ولم نجد في كتب اللغة أنه يقال: استرجع الرجل مطلقته، والذي وجدناه أنه يقال: ارتجعها وراجعها.
(٣) المسطرة من سطر: السَّطْرُ والسَّطَرُ: الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها. والمسطرة: المؤلفة. ويقال: هو يسطر ما لا أصل له أي يؤلف. (اللسان ص ٢٥٧).
(٤) الحلف: اليمين والقسم.
(٥) الموصوفة: أي التي تقدّم ذكرها، ولعلّه يريد المسموعة.
(٦) المطعن: الاعتراض.

المُصدِق المسمَّى المحلَّى[١] باطنَه فلان، فيما ثبت[٢] عليه من صداق زوجته المشتريةِ المذكورةِ بمجلس الحُكم العزيز بالجهة الفلانيّة، وهو كذا وكذا، وفي المُقاصَّة[٣] الشرعيَّةِ على الأوضاع الشرعيَّة المعتبَرة، بإذنٍ صحيحٍ شرعيٍّ مِن يدِ قاضي القضاة فلانٍ الحاكِم بالجهة الفلانيَّة لأمين الحُكم المذكورِ في ذلك، اشترتْ منه بقضيّة ذلك وحُكمِه جميعَ الدّار الكاملة الجاريةِ في يدِه وتصرُّفه منسوبةً لملك فلانٍ المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى، وهي بالمكان الفلانيّ - وتوصَف وتحدَّد - شراءً صحيحًا شرعيًّا بثمن مَبلغُه كذا وكذا حالٍّ[٤]، وسَلَّم البائعُ أمينُ الحُكم المذكورُ للمشتريةِ المذكورةِ ما ابتاعتْه منه فيه فتسلَّمتْه منه، وصار بيَدِها وقبضِها وملكِها وحَوْزِها، ومالًا من جملة أموالها، وذلك بعد النظر والرّضا والمعرفةِ والتفرُّقِ بالأبدان عن تراضٍ وأقرّت المشتريةُ المذكورةُ أنّ الدّارَ المذكورةَ جاريةٌ في ملك زوجها المذكور، ثمّ بعد تمام ذلك ولزومِه قاصّ القاضي فلانٌ أمينُ الحكم العزيز البائعُ المذكورُ المشتريةَ بما في ذمّتها مِن الثمن المذكور ما ثبت لها على المَبيع عليه من الصداق المذكور، وهو كذا وكذا، وهو قدرُ الثمن المذكور وصفتُه وجنسُه وحلولُه[٥]، مُقاصَّةً شرعيَّةً برَّأتْ ذمّة المَبيع عليه من الصداق، وبرَّأتْ ذمّة المشتريةِ من الثمن براءةً صحيحة شرعيَّة، براءةَ إسقاط[٦]، وذلك بعد أن ثبت عند سيّدنا قاضي القضاة فلان بشهادة من يضع خطَّه آخرَه، من العدول والمهندسِين المندوبين لتقويم الأملاك أهلِ الخِبرة بذلك، أنّ قيمةَ الدّار المذكورة جميعُ الثمن المذكور، وأنّه قيمةُ المِثل يومئذٍ، لا حَيْف فيه ولا شَطَط، ولا غَبينة ولا فَرْط[٧]، وأنّ الحظَّ والمصلحةَ في البيع بذلك؛ ويؤرّخ. ثم يَكتُب شهودُ القيمة والمهندسين خطوطَهم أنَّ الثمن المذكورَ هو ثمن المِثل يومئذٍ، ويؤدون[٨] عند الحاكم، ويُعلم

(١) المحلّى: أي الموصوف.
(٢) فيما ثبت: أي أن البيع فيما ثبت، أي بسبب ما ثبت. فالفاء هنا سببية.
(٣) «في المقاصة» معطوف على قوله: «في بيع». والمعنى أن أمين الحكم قائم في البيع وفي المقاصة. والمقاصة هي أن يكون لرجل دين على آخر مثل ما للآخر عليه فيجعل كل منهما ما له عند صاحبه في مقابلة ما عليه.
(٤) «حال» بكسر اللام المشددة: صفة «لثمن».
(٥) «حلوله» أي حلول الصداق واستحقاق دفعه كحلول الثمن واستحقاق دفعه.
(٦) سقط: السَّقْطَةُ: الوقعة الشديدة. والإسقاط هنا: الخطأ والتراجع.
(٧) الفرط: مجاوزة الحد. ويجوز أن يقرأ بضم الفاء والراء. ومعناه الظلم.
(٨) ويؤدون عند الحاكم، أي يؤدون شهادتهم، فالمفصول محذوف من هذه الجملة للعلم به.

تحت رسم شهادتِهم، ثم يَكتب شهودُ المعاقَدةِ الشهادةَ عليهما[١] بالابتياع وأنّه قد تمّ ذلك.

وإن كانت الزوجة لم تَشترِ بل اشتَرى غيرُها لنفسه كتب ما مثالُه: هذا ما اشتَرى فلانٌ من القاضي فلانٍ أمينِ الحُكم العزيز، القائِم في بيع ما يُذكر فيه على فلانٍ المُصدقِ فيما ثبت[٢] عليه من صداق زوجته فلانةَ بمجلس الحكم العزيز - وهو كذا وكذا - وفي وفاء[٣] الصّداق المذكورِ للزّوجة المذكورة، وذلك بإذنٍ صحيح شرعيٍّ من سيّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالى قاضي القضاة فلان الحاكِم بالجهة الفلانيّة وشَهِد عليه بذلك مَنْ يعيّنه في رسم شهادته آخرَه؛ اشتَرَى منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الكاملةِ الجاريةِ في يدِه وتصرُّفه ملكًا لفلان المتوفَّى المَبيعِ عليه. وتوصَف وتحدَّد، ويُذكَر الثمن، ويقال: قَبَضَه أمينُ الحُكم من المشتري المذكور، وصار بِيَدِه وحَوْزِه، وسَلَّم البائعُ للمشتري المذكورِ ما باعه إيّاه، فتَسلَّمه منه وصار بِيَدِه وقبضِه ومالًا من جملة أمواله، بعد النظر والمعرفة والمعاقَدةِ الشرعيَّة، والتفرّق بالأبدان عن تراضٍ؛ والسببُ في هذه المبايعة أنَّ فلانةَ زوجةَ فلان المتوفَّى المذكورِ أَثبَتت صداقَها في مَجلس الحُكم العزيز عند الحاكم المذكور على زوجها المذكور، بشهادة العُدول المشارِ إليهم في الإسجال المذكور، الذين أُعلِمَ تحت رسم شهادتهم علامة الأداء آخرَه، وقال كلٌّ منهم: إنّه عارفٌ بالمُصدِق والزوجةِ المذكورَين، وما عَلِمَ مغيِّرًا لشهادته إلى أن أقامها عنده بشروط الأداء. وشَخَّص الزوجةَ المذكورة وقَبِله[٤] في ذلك، وأعلم تحت رسم شهادته علامة الأداء والتعريف بالتشخيص[٥] على الرسم المعهودِ في مِثله وأَحلَف الزوجةَ المذكورةَ بالله الذي لا إلـه إلّا هو اليمينين[٦] الشرعيّتين الجامعتين لمعاني الحلف، المشروحتين في مسطور الحلف بكذا وكذا، وذلك بحضور من يُعتبَر حضورُه؛ فلما تكامل ذلك عند الحاكم المذكورِ سألتِ

---

(١) «عليهما» أي على المتعاقدين.

(٢) «فيما ثبت»: بسبب ما ثبت من البيع.

(٣) إن قوله «في وفاء» معطوف على قوله: «في بيع» والمعنى أن أمين الحكم قائم في البيت وفي وفاء الصداق.

(٤) «قبله في ذلك» أي أن القاضي قد قبل الشاهد في شهادته.

(٥) التشخيص: التعيين والتمييز.

(٦) قوله «اليمينين» بلفظ المثنى غير ظاهر، فقد ورد في هذا الجزء ما يفيد أن الزوجة إنما تحلف يمينين إذا لم يثبت صداقها إلّا بشهادة عدل واحد وهذا ما يناقض ذلك لأن الزوجة في هذه الصفحة أثبتت صداقها بشهادة عدول لا عدل واحد، وبذلك تكون الزوجة غير ملزمة لأن تحلف يمينين.

الزوجةُ الحاكمَ المذكورَ إيصال مبلغ صداقها المشهودِ لها به من موجود زوجها المذكور إليها، فَأَذِن الحاكمُ لأمين الحُكم العزيز في بيع ذلك، وقبض ثمنِه، وإيصالِ ما ثبت للزوجةِ المذكورةِ في ذمّة زوجها من الصّداق المذكور إليها والإشهادِ عليها بقبض ذلك، إذنًا شرعيًا فشَهِد عليه بذلك من يضع خطّه آخرَه، وذلك بعد أن ثبت عند الحاكم المذكورِ أنّ هذه القيمةَ المَبيع بها قيمةُ المِثل يومئذٍ، وأنّ الحظّ والمصلحةَ في البيع بذلك، يَشهَد به المَحضرُ المؤرَّخُ بكذا وكذا، وفيه خطُّ جماعةٍ من العُدول والمهندسين أربابِ الخِبرة بالعقار وتقويمِه وذلك بعد أن شَهِد أمينُ الحُكم المذكورُ أنَّ الدار المذكورةَ أقامت بِيَدِ الدّلّالين على العقار ليشهروها[١] في الشوارع والأسواق الجاريةِ بها العادةُ أيّامًا متواليةً بحضرة عدلين: هما فلانٌ وفلان، فكان الّذي انتهى إليه البذلُ فيها من هذا المشتري كذا وكذا، وهو الثمن المذكور؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه وقع الإشهادُ على الحاكم المذكور وأمين الحُكم والمشترِي بما نُسِب[٢] إلى كلٍّ منهم فيه بتاريخ كذا وكذا.

ثم يكتب خلفَ الصداق قبْضَ الزوجة، ومثالُ ذلك: أقرّت فلانةُ المرأةُ الكاملةُ عند شهوده طوعًا أنّها قبضتْ وتسلّمتْ من القاضي فلان أمينِ الحُكم العزيز جميعَ مبلغ صداقها الذي في ذمّة زوجها فلان المتوفّى المذكور، وهو كذا وكذا، وصار بِيَدِها وقبضِها وحَوْزِها، وهو ثمنُ الدّار التي باعها أمينُ الحُكم العزيز على زوجها[٣] فلان لأجل وفاء صداقها المذكور، فبحكم ذلك بَرِئتْ ذمّةُ المُصدِق من الصداق المذكورِ براءةً صحيحة شرعيّة، براءةَ قبضٍ واستيفاء؛ ويؤرّخ.

إذا باع الوصيُّ دارًا بالغبطة[٤] الزائدةِ على ثمن المِثل بغير حاجة لمن هو تحت الحَجْر فالطريق في ذلك أن يَكتُب محضرًا بالقيمة يَشهَد فيه شهودُ القيمة والمهندسون ويُنادَى عليها بحضرة عَدْلَيْن، ويُثبتَ ذلك عند الحاكم؛ وصورةُ المَحضَر في باب المحاضر؛ ثم يَكتُب المبايعة، وصورةُ ما يكتب: هذا ما اشترى فلانٌ لنفسه من فلانٍ القائم في بيع ما يُذكَر فيه على فلان بن فلان الذي هو تحت وَلاية نظره بمقتضَى الوصيّة المفوَّضة إليه من والدِه، الثابتةِ بمجلس الحُكم العزيزِ

(١) يشهروها: من الشهرة وهي وضوح الأمر، ويشهرونها هنا: ينادون عليها.
(٢) نَسبَ: النَّسَبُ: نسبُ القرابات، وهو واحد الأنساب. أي القرابة والنسبة، مصدر الانتساب وهي الاسم. ويكون إلى البلاد، ويكون في الصناعة. ونُسب إليه: نمي وعُزي.
(٣) باع الدار على زوجها، أي باعها من غير رضاه.
(٤) الغبطة: تقدم تفسيرها في هذا الجزء.

وعدالته، ونُسختُها... وأَرْخُها(١)... وأسماءُ شهودِها... والحاكم الّذي ثبتت عنده... وصورةُ علامتِه... - وإن اختَصَر ولم يَذكُر نسختَها فذلك كافٍ - لِما رأى له في ذلك من الحظّ والمصلحة، وحسن النظر، والغبطةِ الزائدةِ على ثمن المِثل، حَسَب ما يَشهَد بذلك محضرُ القيمة والغبطة المشروحُ آخرَه، الثابتُ بمجلس الحُكم العزيز الثبوتَ الشرعيّ يَشهَد على الحاكم بذلك من يعيّنه في رسم شهادته آخرَه؛ اشتَرى منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الفلانيّة - وتوصَف وتحدَّد - شراءً صحيحًا شرعيًّا بثمن مَبلغُه كذا وكذا، تَقابضا وتَفرَّقا بالأبدان عن تراضٍ، بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيَّة؛ والسببُ في هذه المبايعة أنَّ الوصيَّ البائعَ المذكورَ نَجَز(٢) مَحضَرًا يتضمَّن مَسِيرَ أرباب الخِبرة بالعقار وتقويمه والعدولِ والمهندسِين المندوبِين من مجلس الحُكم العزيز لذلك - وهم فلانٌ وفلانٌ شاهِدا القِيمة، وفلانٌ وفلانٌ المهندسان - إلى الدّار(٣) المذكورة، وشاهَدوها، وأحاطوا بها علمًا وخِبرة، وذَكَروا أنَّ القِيمة عنها كذا وكذا، وأنّها قِيمةُ المِثل يومئذٍ، لا حَيْفَ فيها ولا شَطَط، ولا غبِينة(٤) ولا فَرْط(٥)، وأنّ الحظَّ والمصلحةَ في بيع الدار المذكورةِ بزيادةِ كذا وكذا لتتمّةِ كذا وكذا، وهو الثمن المعاقَدُ عليه، وأقام كلٌّ منهم شهادتَه عند القاضي فلانٍ بذلك، وأعلَمَ تحت شهادتهم ما جرت العادةُ به من علامة الأداء والقبول، ثم أُشهِرت(٦) الدارُ المذكورةُ بحضرة عَدْلَين: هما فلانٌ وفلان، في صُقْعها وغيرِه من الأصقاع ومَظانِّ الرّغبة مدّةَ ثلاثة أيّام فلم يحضر مَنْ بَذَلَ زيادةً على ذلك، وقد أقام كلٌّ من شاهِدَي النداء شهادتَه عند الحاكم المذكور بذلك وأعلم تحت رسم شهادته علامة الأداء حَسَب ما تَضمَّنه المَحضرُ المذكورُ المؤرَّخُ بكذا وكذا، الذي بأعلاه علامةُ الثبوت، ومثالُها كذا وكذا وشَهِد على الحاكم بثبوت ذلك عنده من يعيّنه في رسم شهادته آخرَ هذا المكتوب؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه وقع الإشهادُ على الوصيِّ البائعِ والمشترِي بما نُسِب إلى كلٍّ منهما بعاليه بتاريخ كذا وكذا.

---

(١) الأرخ: التاريخ، يقال: أرخت الكتاب بتخفيف الراء أرخًا إذا جعلت له تاريخًا.

(٢) نجز: نجز الوعد ينجزُ نجزًا: حضر، وقضى حاجته، وأنجز الحاجة: قضاها. وقال سيبويه: وقالوا أبيعكه الساعة ناجزًا بناجز أي معجلًا. والناجز: الحاضر.

(٣) إلى الدار، أي سير أرباب الخبرة إلى الدار المذكورة.

(٤) غبن: الغبن، بالتسكين، في البيع، والغَبَنُ بالتحريك، في الرأي وغَبِنْتَ رأيك: أي نسيته وضيعته. غَبِنَ الشيء، وغَبِنَ فيه غَبْنًا وغَبَنًا: نسيه وأغفله وجهله. والغبن: النسيان.

(٥) فرط: أي لا تجاوز وظلم.

(٦) أُشهرت الدار: تقدم تفسيرها.

وإن كان الوصيّ باع بإذن الحاكم كتب ذلك كما تَقدّم في حقّ أمين الحُكم؛ ويجوز أن يبيع الوصيُّ بغير مَحضَر، وإنّما المحْضَر أقطعُ[١] للتنازع، وأدفعُ للطاعن.

إذا باع الوصيّ دارًا على[٢] يتيم للحاجة من غير أن يُثبِت الحاجة ولا القِيمةَ فذلك جائز، وإنّما يُخاف من التنازع؛ فإذا أراد ذلك كَتَب ما مثالُه: هذا ما اشترى فلانٌ بمالِه لنفسه من فلانٍ وصيِّ فلان بن فلان على ولدِه لصلبه فلانِ الطفلِ الّذي هو تحت حَجْره ووَلاية نظره، متصرِّفًا فيما لَه وعليه بمقتضى الوصيَّة التي بِيَدِه، الثابتةِ في مجلس الحكم العزيز بالجهة الفلانيّة، القائِم في بيع ما يُذكَر فيه على فلان الطفل الذي تحت حَجْره ووَلاية نظره، لِما دعت إليه الحاجة من نفقتِه وكُسوتِه[٣] ولوازِمه الشرعيَّة، وأنّه ليس له موجود غير هذه الدار المذكورة، وليس منها أجرةٌ تكفيه، ولما رأى له في ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النظر؛ اشتَرَى منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الفلانيَّة، الجاريةِ في يدِه وتصرُّفه ملكًا لفلان المَبيع عليه ـ وتوصَف وتحدَّد ـ شراءً صحيحًا شرعيًّا، بثمن مَبلغُه كذا وكذا، دفَعَه المشتري المذكورُ من مالِه للبائع المذكور، فقبضه منه وتَسلَّمه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزه[٤] لفلان المَبيعِ عليه، وسَلَّم الوصيُّ البائعُ المذكورُ للمشتري المذكورِ ما باعه إيّاه فَتسلَّمه وصار بِيَدِه وملكِه وحَوْزِه، ومالًا من أمواله، وذلك بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيَّة، والتفرّق بالأبدان عن تراضٍ، وضمانِ الدَّرَك في صحّة البيع، وبعد أن اعترف الوصيُّ البائعُ أنَّ الثمن المذكورَ هو قيمةُ المِثل يومئذٍ، لا حَيْفَ فيه ولا شَطَط ولا غَبينة فيه ولا فَرْط، وصدَّقه المشتري على ذلك؛ ويؤرّخ.

إذا ابتاع الوصيُّ دارًا ليتيم على يدِه كَتَب ما مثالُه:

هذا ما اشتَرَى فلانٌ لفلان بنِ فلان الطفلِ الذي في حَجْره وكَفالته ووَلاية نظرِه، بمالِه الذي تحت يدِه، المنتقلِ إليه بالإرث عن والده المذكور، الذي كان في حال حياته وصّاه عليه، وجعَلَه ناظرًا في مصلحته[٥]، وذلك بمقتضَى الوصيّة التي بِيَده،

(١) أقطع للتنازع: أي هو الذي يفصل في الأمر عند حدوث التنازع، ويكون الحجّة البيّنة.
(٢) يقال: باع الدار عليه: أي باعها من غير رضاه.
(٣) كسا: الكِسْوة والكُسْوةُ: اللباس، واحدة الكُسا. قال الليث: ولها معان مختلفة. يقال: كَسَوْتُ فلانًا أكسوه كِسوة إذا ألبسته ثوبًا أو ثيابًا فاكتسى. (اللسان ص ٩٦).
(٤) الحوز: الجمع، وكل من ضمّ شيئًا إلى نفسه من مال أو غير ذلك، فقد حازه حوزًا وحِيازة وحازه إليه واحتازه إليه.
(٥) مصلحته: من صلح، والصلاح: ضد الفساد. (اللسان).

الثابتةِ بمجلس الحُكم الشريف وعدالتِه، لِما رأى له في ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النظر؛ اشترَى له بقضيّة ذلك وحُكمِه من فلانٍ جميعَ الدار الفلانيّة - وتوصَف وتحدَّد، ويكمِّل المبايعةَ على ما تَقدَّم - وذلك بعد أنِ اعترَف الوصيُّ بأن الثمن المذكورَ هو ثمنُ المِثل، لا حَيْفَ فيه ولا شَطَط، وصدّقه البائع على ذلك؛ ويؤرّخ.

إذا عَوَّض الرجلُ ابنته الطفلةَ دارًا بِدارٍ لها كتب ما مثاله:

حضر إلى شهودِه في يومِ تاريخِه فلان، وأَشهَد على نفسه طوعًا أنه عَوَّض ابنتَه لصلبه فلانةَ الطفلة، التي تحت حَجْره وكَفالتِه ووَلاية نظره - لِما رأى لها في ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النظر - جميعَ الدّار التي بِيَدِه وملكِه وتصرُّفِه - على ما ذَكَر - بجميع الدّار الّتي بِيَدِه وتصرُّفِه ملكًا لابنته المذكورة - وتوصَف وتحدَّد - لِما رأى لها في ذلك من الحظّ والمصلحة والغِبطة، ولعلمِه أنَّ الدّار الّتي عَوَّض ابنته بها - وهي المبتدَأُ بذكرها - أجوَدُ من الدّار الّتي تَعوَّضتْ منها وأَعْمَر، وأَكثَرُ أجرةً وقيمة، معاوَضةً صحيحةً جائزة، قَبِلها من نفسه لابنته، وسلّمها من نفسه لنفسه لابنته المذكورة، ورَفَع عنها يدَ ملكِه، ووَضَع عليها يدَ وَلايته ونظرِه، وأَخرَجَ الدّار الفلانيّةَ المثنّى بذكرها من ملك ابنته المذكورةِ إلى ملكِه، وسلَّمَها من نفسه لنفسه وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ومالًا من جملة أمواله، ورَفَع عنها يد نظرِه ووَلايته ووَضَع عليها يدَ ملكِه، كلُّ ذلك بحقِّ هذا التعويض، وبحكم ذلك صارت الدّار المبتدَأُ بذكرها ملكًا لابنته المذكورةِ دونه ودون كلِّ أحد بسببه[١]، وصارت الدّار المثنّى بذكرها ملكًا له دون ابنته المذكورةِ، ودون كلِّ أحدٍ بسببها، وأقرّ بأنه عارفٌ بذلك المعرفة الشرعيّة النافيةَ للجهالة، وأنّه رآها الرؤيةَ المعتبرَة وأحاط بها علمًا وخِبرة؛ ويؤرّخ.

إذا اعترف رجل بأنه كان من مدّة باع لرجل دارًا كتب ما مثالُه: أقرّ فلانٌ بأنه كان بتاريخ كذا وكذا باع لفلانٍ جميعَ الدّار الكاملة، الّتي كانت يوم تَعاقُدِهما عليها في يدِه وملكه وتصرُّفِه، على ما ذَكَر - وتوصَف وتحدَّد - بيعًا صحيحًا شرعيًّا، بثمن مبلغُه كذا وكذا، وأنّه قبَضَ الثمنَ منه لنفسه، وتَسلَّمه وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وأنه[٢] من التاريخ المذكورِ اشتراها منه بالثمن المعيَّنِ أعلاه وسلَّمه له، وتَسلَّم منه الدارَ المذكورةَ أعلاه، وصارت بِيَدِه وقبضِه[٣] وحَوْزِه، ومالًا من جملة أمواله؛ وأقرّا

(١) أي دون كل أحد متصل به.
(٢) «وأنه» أي أن المشتري المقر له.
(٣) قبض: خلاف البسط. وقبض الطائر جناحه: أي جمعه. والله يقبض ويبسط أي يضيق على قوم=

بأنّهما كانا تَعاقَدا على ذلك كذلك من التاريخ المذكورِ مُعاقَدةً صحيحة شرعيَّةً شِفاهًا بينهما بالإيجاب والقبول، ثم تَفرَّقا عن تراضٍ؛ وأقرَّا بأنّهما عارفان بها، وأنّهما نظراها قَبل ذلك، وأحاطا بها علمًا وخبرةً نافيةً للجهالة، وضَمِن البائعُ المذكورُ دَرَكَ ما باعه فيه وقَبَضَ ثمنَه بسببه ضمانًا شرعيًا، ولم تَبْقَ لكلٍّ منهما مطالَبةٌ قِبَل الآخَرِ بسببٍ من الأسباب، ولا حقّ من الحقوق الشرعيَّة، وأنّ الدّار صارت ووجبت بطريق الابتياع المذكور ملكًا لفلان المُقَرِّ له[١] ملكًا صحيحًا شرعيًا دون البائع ودون كلّ أحدٍ بسببه؛ ويؤرّخ.

إذا كان البائع هو السلطان[٢] كتب ما مثالُه: هذا كتابُ مبايعةٍ شرعيَّة، جائزةٍ مَرضيّة؛ أَمَرَ بكَتْبِه وتسطيرِه، وإنشائه وتحريرِه؛ واستيفاءِ مقاصدِه، واستكمال معانيه وفوائدِه، المولى السيّدُ الأجلُّ السلطانُ المالكُ الملِكُ الفلانيُّ أبو فلان ـ وتُذكَر ألقابُه ونعوتُه الملوكيَّةُ وسلطتُه على العادة، ويُدعَى له بما يُدعَى للملوك من النصر والاقتدار وغيرِ ذلك ـ وأَشهَدَ على نفسه الشريفة مَن حضر مقامَه الشريفَ من العدول الواضعِي خطوطِهم آخرَه أنه باع لفلان جميع كذا؛ ويكمِّل المبايعة.

إذا اشترى للسلطان وكيلُه قدّم اسم السلطان، وهو أن يكتب: هذا ما اشتَرَى للمولى السيّدِ الأجلّ السّلطانِ المالكِ الملكِ الفلانيّ، وكيلُه فلان، بمالِهِ المبارك النّامي، وتوكيلِه إيّاه في ابتياع ما يُذكَر فيه بالثمن الّذي تَعيَّن فيه، والتسليم والتسلُّم اللَّذين يُشْرحان فيه، يَشهَد عليه ـ خلَّد الله ملكَه ـ بذلك من يعيّنه في رسم شهادتِه آخرَه، من فلان[٣] جميعَ الشيء الفلانيّ؛ ويكمّل.

وإن كان البائع وكيلَ بيت المال كُتِب مشروحٌ على العادة بالشهادة على بعض المهندسين، مثالُه: مشروح رَفَعَه كلُّ واحدٍ من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار بالبلد الفلانيّ، بقضيّة حالِ الدّار الكاملة، الجاريةِ في ديوان المواريث الحَشريَّة[٤] التي

= ويوسع على قوم والقبض هنا: أي صار في قبضة يده فهو يملكه.

(١) «المقر له» أي المشتري.

(٢) السلطان: من سلط: السلاطة: القهر، وقد سلطه الله فتسلط عليهم والاسم سُلطة، بالضم. والسلطان: الحجة والبرهان، وسمي كذلك لأنه حجة الله في أرضه.

(٣) «من فلان» متعلق بفعل «اشترى».

(٤) المواريث الحشرية: هي مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء؛ أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال، ولا عاصب له. (صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤). وقال المقريزي: «إنها هي التي يستحقها بيت المال عند=

بالمكان الفلانيّ - وتوصَف وتحدَّد - شاهَدَا[1] الدارَ المذكورةَ على الصفة المشروحةِ أعلاه، وأحاطا بها علمًا وخِبرة، وكُتِب هذا المشروحُ ليثبت علمُه بالديوان المعمور؛ ويؤرّخ.

ثم يُكتَب مكتوبٌ على المهندسَيْن، ويَشهَد في آخره شهودُ القيمة، مثالُه: يقول كلُّ واحدٍ من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار بالبلد الفلانيّ: إنّهما سارا صحبةَ فلانٍ وكيلِ بيت المال المعمور إلى حيث الدار الآتي ذكرُها ووصفُها وتحديدُها فيه، الجاريةُ في ديوان المواريث الحَشْريَّة، وهي بالمكان الفلانيّ - وتوصَف وتحدَّد - وأحاطا بها علمًا وخِبرة، وقوّماها بما مبلغه كذا وكذا، وقالا: إنّ ذلك قيمةُ المِثل التي لا حَيْفَ فيها ولا شَطَط، ولا غَبِينةَ ولا فَرْط، وأنَّ الحظَّ والمصلحةَ في البيع بذلك؛ ويؤرّخ.

وتُكتَب على ظهره حُجَّةٌ على سماسرة العَقار، صورتُها: يقول كلُّ واحدٍ من فلانٍ وفلانٍ المناديَيْن على العَقار: إنّهما أشهَرا[2] ما ذُكِر باطنه[3] في مَظانّ الرَّغَبات، ومواطن الطلبات، في صُقْعها وغيرِه من الأصقاع[4] دَفعاتٍ متفرّقةٍ، وأوقاتٍ متعدّدة، فلم يَسمَعَا مَن بَذَل زيادةً على ما قُوِّم باطنه؛ ويؤرّخ، ويُشهَد عليهما فيه. ثم تُكتَب قصَّةٌ باسم المشترِي للمقام الشريف السلطانيّ، ويَكتُب عليها صاحبُ الدّيوان ويجاوِب وكيلُ بيت المال المعمور، ويُخرِج الحالَ على ظهرِها، ثم يوقِّع صاحبُ الدّيوان بحَمل المَبلَغ إلى بيت المال المعمور، فإذا حُمِل وقَّع صاحبُ الدّيوان وتُلصَق الحجّةُ على القصّة، فإذا كَمُلَ ذلك عاقَدَ[5] وكيلُ بيت المال، وصورةُ المكاتَبة: هذا ما اشترى فلانٌ بمالِه لنفسه من القاضي فلان، وكيلِ بيت المال المعمور والقائِم في بيع ما يُذكَر فيه بأحكام الوَكالة الّتي بِيَدِه، المفوَّضةِ إليه من المقام الشريف السلطانيّ الملكيّ الفلانيّ الذي جَعَل له فيها بَيْعَ ما هو جارٍ في أملاك بيت المال المعمور، وغيرَ ذلك على ما نُصّ وشُرِح فيها وما مآلُه إلى بيت المال المعمورِ بالقضايا الشرعيَّة، الثابتةِ وَكالتُه في مجلس الحُكم العزيز الثبوتَ الشرعيّ، المتوَّجة بالعلامة

= عدم الوارث».

(١) شاهدَا: الضمير يعود على المهندسين والاثنين السابق ذكرهما.

(٢) أشهرَا: أي شهرا.

(٣) بطن: البطن من الإنسان وسائر الحيوان: معروف خلاف الظهر أي الشيء غير الظاهر، المستتر.

(٤) الصُّقْعُ: ناحية الأرض والبيت. والجمع: أصقاع، وهي النواحي.

(٥) المفعول به لفعل «عاقد» محذوف وهو المشتري.

الشريفة، ومثالُها كذا وكذا؛ اشتَرَى منه بقضيّةِ ذلك وحكمِه جميعَ الدّار الفلانيَّة، الجاريةِ في رباع المواريث الحَشْريّة الموروثةِ عن فلان المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى، أو الّتي أظهرها الكَشْف ـ وتوصَف وتحدَّد ـ شراءً صحيحًا شرعيًّا بثمن مبلغُه كذا وكذا دينارًا أو درهمًا حالةً، وذلك محمولٌ إلى بيت المال المعمورِ على ما شَهِد به وُصُولُ[١] بيت المال المعمور المشروحُ في آخره؛ وتَسلَّم المشتري المذكورُ ما ابتاعه بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعيَّة، والتفرّقِ بالأبدان عن تراضٍ، وانقضاءِ أمد الخيار الشرعيّ الَّذي اشترطه البائعُ على المشتري المذكور، وهو ثلاثةُ أيّام؛ وأقرّ المشتري المذكورُ أنَّ ذلك صائرٌ في أملاك بيت المال المعمور؛ والسببُ في هذه المبايعة أنّ المشتريَ المذكورَ رَفَعَ قصّةً باسمه أَنْهَى فيها: ... ـ وتُنقَل إلى آخرها ـ فَوُقِّع على ظهرها من جهة متولِّي الدّيوان المعمور ما مثاله: «لِيُذكَرْ ما بُذل عليه[٢] للدّيوان المعمور»؛ ...[٣] ومثاله: .... ـ ويُنقَل إلى عندِ[٤] الصفات المحدودة، ويُكتَب تاريخُه ـ ثمّ تلاه توقيعٌ كريم، ومثالُه: لِيتقدّم المجلس... ـ ويُنقَل جميعُ ما فيه ـ ثم تلاه جوابُ متولِّي الوَكالة الشريفةِ بما مثالُه: «المملوكُ فلان الوكيل»... ـ ويُنقَل ـ ثم نَجَز المشتري المذكورُ وُصولًا من بيت المال المعمور شاهدًا له بحَمْل الثمن المذكور، ونُسختُه بعد البسملة... ـ ويُنقَل ما فيه ـ ثم تلاه توقيعٌ كريم، إذا كان ـ ويُنْقَل جميعُ ما فيه ـ وذلك كلُّه بعد أنْ أُخِذت الحجّةُ الملصَقةُ بأعلى التوقيع الدّيوانيّ، المتضمِّنةُ الإشهادَ على كلٍّ واحدٍ من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار أنَّ القيمة المعيَّنةَ فيها ـ وهي كذا وكذا ـ قيمةُ المِثل يومئذٍ ـ وتُشرَح إلى آخر التاريخ ـ بشهادة فلان وفلان سماسرة العَقار، بأنهما أَشهَرا ذلك على ما تضمَّنَتْه[٥]؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه وُقِّع الإشهادُ على القاضي فلانٍ وكيلِ بيت المال المعمور والمشترِي بما نُسِب إلى كلٍّ منهما؛ ويؤرخ.

وإن باع وكيلُ بيت المال بغير توكيل بيع بل بحجّة قيمة كتب: هذا ما اشترى فلانٌ من فلانٍ وكيلِ بيت المال المعمور ـ كما تَقدَّم ـ جميعَ قطعة الأرض الحاملةِ لبناء المشترِي، الآتي ذكرُها وذَرْعُها[٦] وتحديدُها فيه، الجاريةِ في أملاك بيت المال

---

(١) المراد بالوصول: البطاقة التي تعطى للمشتري بأنه حمل الثمن إلى بيت المال.

(٢) «عليه» أي على المبيع.

(٣) الظاهر أن هنا كلامًا قد سقط من الأصل. والمراد بقوله «ومثاله» مثال المكتوب بالقيمة.

(٤) جرّ عند بإلى وهذا لحن.

(٥) «على ما تضمنته» أي على ما تضمنته الحجة السابقة الذكر.

(٦) الذرع: القياس بالذراع، والذراع ما يعادل ٦٦,٥٠ سنتم.

المعمور، مضافةً إلى ديوان المواريث الحَشْريَّة، أو ديوان الأحكار، وهي بالمكان الفلانيّ ـ وتُذْرَع وتُحدَّد ـ شراءً صحيحًا شرعيًّا، بثمن مبلغُه كذا وكذا الجميعُ حالٌّ محمولٌ إلى بيت المال المعمور، على ما شَهِد به وُصُول بيت المال المعمور المشروحُ في آخره، وتَسلَّم المشتري المذكورُ ما ابتاعه بعد النّظر والرّضا والمعرفة والمعاقدة الشرعيَّة، والتفرّقِ بالأبدان عن تراضٍ، وانقضاءِ أمد الخيار الذي اشترطه البائعُ على المشتري، وهو ثلاثةُ أيّام، وأقرّ المشتري المذكورُ أنَّ الأرض المذكورةَ جاريةٌ في ديوان المواريث؛ وذلك بعد اكتتاب حجّةٍ تتضمّن الإشهادَ على كلّ واحدٍ من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار ـ وتُشرَح كما تَقدَّم ـ والشهادةَ على السماسرة؛ فحينئذٍ استَظهرَ[1] القاضي فلانٌ البائعُ على المشتري بكذا وكذا، فتكون جملةُ ما تَقرَّر من القيمة والاستظهار ورسمِ الوَكالة جميعَ الثمن المذكور أعلاه؛ ثم بعد ذلك حضر وُصولٌ من بيت المال المعمور شاهدٌ له بحَمْل الثمن المذكور، نُسختُه كذا وكذا، وعلى ظهره توقيعٌ كريم، مثالُه كذا وكذا...؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه وُقِّع الإشهاد؛ ويؤرّخ.

وإن كان المشتري أُجرِيَ باسمه الثمنُ من بيت المال وأنعِمَ عليه به كتب ما مثالُه: هذا ما اشتَرى فلان بنُ فلان؛ ويذكر الثمن، ويقول: «وهو مُجْرًى من بيت المال المعمور»؛ ويكمِّل المبايعةَ نحوَ ما تَقدَّم، ويكتب: «ثم أَحضَر المشتري توقيعًا شريفًا سلطانيًا بالإنعام عليه بالثّمن»؛ ويُنقَل إلى آخره؛ والله أعلم بالصواب.

إذا اشترتِ امرأةٌ من وكيل بيت المال دارًا جاريةً في رباع المواريث الحَشْريَّة بما لَها في ذمّته، ثم قاصَت[2] بما لَها في رباع ديوان المواريث، يكتب: هذا ما اشتَرَت فلانةُ من وكيل بيت المال ـ كما تَقدَّم ـ جميعَ الدار الكاملة الجارية في ديوان المواريث الحَشْريَّة ـ على ما ذَكَرَتِ المشتريةُ ـ المقبوضةِ عن فلان المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى، وهي بالمكان الفلانيّ ـ وتُوصَف وتحدَّد ـ شراءً صحيحًا شرعيًا بثمن مبلغه من الدراهم كذا وكذا، الجميعُ حالَ، وتسلّمت المشتريةُ ما ابتاعته بعد النظر والرّضا والمعرفة والمعاقدة ـ نحوَ ما تَقدَّم ـ ثم بعد ذلك قاصّ القاضي فلانٌ المشتريةَ المذكورةَ بالذي تَوجَّه على الديوان المعمور إيفاؤه من تَرِكة زوج

---

(١) استظهر: من الاستظهار وهو التحري والاحتياط. والمراد أن القاضي زاد مبلغًا على الثمن الذي قوم به المبيع للاحتياط والوثوق بأن هذا الثمن هو ثمن المثل. وأن في هذا البيع غبطة ومصلحة.

(٢) تقدم تفسير المقاصة.

المشتريةِ المذكورةِ فلان وهو مبلغُ صداقها عليه، الثابت لها بمجلس الحُكم العزيز، ومبلغُه كذا وكذا، وهو نظيرُ الثمن المذكورِ في قدره وجنسه وحلولِه، مقاصّةً صحيحةً شرعيَّة، بَرِئَتْ بها ذمّةُ المشترية من الثمن، وذمّةُ زوجها من نظير ذلك الصداق؛ والسببُ في هذه المبايعة والمقاصّة أنَّ المشترية المذكورةَ أثبتت صداقَها على زوجها فلانٍ في مجلس الحكم العزيز، ومبلُغه كذا وكذا، المؤرَّخ الصداقُ بكذا وكذا، وأسجل لها الحاكمُ على نفسه ـ وهو القاضي فلان ـ بثبوت ذلك عنده، والحُكم به، وأَشهَدَ لها على نفسه بذلك، وذلك بعد استحلافها اليمينَ الشرعيَّة، المؤرَّخ الحَلِفُ بكذا وكذا؛ ثم بعد ذلك رفعت المشتريةُ قصّةً مترجَمةً باسمها، مثالُها: المملوكة...؛ ويشرح ما فيها وما تضمّنه التوقيعُ كما تقدّم، ويشرح مسطور القِيمة نحو ما تقدّم.

هذا ما اتّفق إيرادُه في البيوع على اختلاف الوقائع؛ والله أعلم.

وأما الردّ بالعيب والفسخُ ـ فإنه إذا اشترى رجلٌ من آخَرَ دارًا أو عبدًا أو أَمَةً أو دابّة، واطّلع على عيب يوجب الردَّ بالعيب، وأراد الإشهاد بذلك، كتب ما مثالُه: حضر إلى شهوده في يوم تاريخِه فلان، وأَشهَدَ عليه أنه ابتاع قبل تاريخه من فلانٍ جميعَ الشيء الفلانيّ، وأَنّه اطّلع في يومِ تاريخِه على أنَّ به عَيْبًا قديمًا مُزْمِنًا يوجب الردّ، وهو الشيءُ الفلانيّ ـ ويذكر العيب ـ وأنه حين اطّلاعِه على العيب حضر إلى شهودِه على الفور، واختار فسخَ البيعِ وردَّ المَبيعِ على بائعه بالعيب المذكور، وأنّه باقٍ على طلب الردّ، واستعادةِ الثمن الذي أقبَضَه له، ورَفَع يدَه عن التصرّف في الشيء الفلانيّ رفعًا تامًّا؛ ويؤرّخ.

في مقايلةٍ تُكتَب على ظهر المبايَعة، ومثالُها: أَقرّ كلُّ واحدٍ من فلان ـ وهو المشترِي باطنَه ـ وفلانٍ ـ وهو البائعُ باطنَه ـ بأنّهما تَقابَلا أحكامَ المبايَعة المشروحةِ باطنَه، وهي في جميع الدّار الموصوفة المحدودة، الّتي كان فلان المُبدَأُ باسمه ابتاعها من فلان المثنّى باسمه بالثمن المعيَّن في باطنِه، وهو كذا وكذا مقايَلةً صحيحةً شرعيَّة؛ ودَفَع البائع المذكورُ للمشتري المذكورِ جميعَ الثمن بتمامه وكمالِه فقبَضَه منه، وتَسلَّمه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ورَفَع المشتري يدَه عن الدّار المذكورة، وسلّمها للبائع على صفتها الأولى، فتسلَّمها منه، وذلك بعد النظر والمعرفة والتفرّق بالأبدان عن تراض.

وأما الشُّفْعة(١) - فالذي يُكتَب فيها أنّه إذا اشترى رجل حصّةً من دار وحضَرَ مالكُ بقيَّةِ الدار فطلَبَ الحصَّةَ بالشُّفعة، وصدّقَه المشتري على ذلك، كتب ما مثالُه: حضر إلى شهوده في يومِ تاريخِه كلُّ واحدٍ من فلان بنِ فلان، وفلان بنِ فلان - وهو المشتري المذكورُ باطنَه - وأَعلَمَ فلانٌ المبتدَأُ بذكره فلانا المشتري باطنَه - أنَّ في ملكه من الدّار الموصوفة المحدودة باطنَه كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا في جميع الدّار المذكورة، وأنّه يَستحِقّ أَخْذَ الحصّة التي ابتاعها منها بالشُّفعة الشرعيَّة، وأنّه قام على الفور(٢) عند سماعِه بابتياع الحصّة المذكورة باطنَه من غير إمهال، واجتَمَع بالمشتري المذكور، وأَعلَمَه بما ذُكِر؛ فحينئذٍ صدَّقه المشتري على صحّة ذلك جميعِه تصديقًا شرعيًّا، والتَمَس منه القيامَ له بنظير الثمن الّذي دفعه المشتري المذكورُ باطنَه عن الحصّة المذكورة باطنَه؛ فأحضَرَه إليه بكماله، وهو كذا وكذا، وأقبضه له، فقبضه منه وتسلّمه، وصار بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ وسلَّم المشتري المذكورُ باطنَه لفلان المبتدَإِ بذكره المستشفِع(٣) المذكورِ الحصَّةَ المذكورة، ومبلغُها كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا في جميع الدّار الموصوفةِ المحدودةِ باطنَه، فتسلّمها منه، وصارت بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه عن هذه الشُّفعة(٤)؛ وأقرَّا بأنَّهما عارفان بها المعرفةَ الشرعيَّة، وبحكم ذلك كمل لفلان المستشفِع بما في ملكِه متقدّمًا وبهذه الحصَّة مِلكُ جميعِ الدّار المذكورةِ بالشُّفعة المذكورة، ولَم يَبقَ لفلان المشتري المذكورِ باطنَه في الدّار المذكورة حقٌّ ولا طلبٌ بسبب ملك، ولا يد، ولا ابتياع، ولا حقٌّ من الحقوق الشرعيَّة؛ وبمضمونه شُهِد؛ ويؤرّخ.

إذا ادَّعى رجلٌ على رجلٍ أنَّ الحصّة التي ابتاعها من شريكه يستحقُّها بالشُّفعة ولم يصدّقْه على ذلك، وكلَّفَهُ إثباتَ الملك وَقبولِ(٥) القسمة - فالذي يُفْعل في ذلك

(١) عرّف الفقهاء الشفعة بأنها حق تملك قهري يثبت للشريك القديم على الحادث فيما ملك بعوض. وفي اللسان أنها مشتقة من الشفعة بمعنى الزيادة، وهو أن يشفعك فيما تطلب حتى تضمه إلى ما عندك فتزيده وتشفعه به.

(٢) إنما قيد القيام بأنه على الفور وبأنه من غير إمهال لأن طلب الشفعة يجب أن يكون على الفور على القول الراجح من مذهب الشافعي. وكذلك عند أبي حنيفة؛ فمن أخر المطالبة بالشفعة مع الإمكان سقط حقه كخيار الرد، وللشافعي قول آخر؛ وهو أنه يبقى ثلاثة أيام.

(٣) يريد بالمستشفع هنا: طالب الشفعة. والذي وجدناه فيما لدينا من كتب اللغة أن المستشفع هو طالب الشفعة، لا طالب الشفاعة. وأما طالب الشفعة فيقال له: شفيع. ولعلّ ما هنا من استعمالات الفقهاء.

(٤) «عن هذه الشفعة» أي أن هذا التسليم والتسلم ناشئان عن هذه الشفعة.

(٥) قبول - بكسر اللام - أي وإثبات قبول القسمة، وإنما يكلف طالب الشفعة بإثبات قبول القسمة=

أنْ يُثبِتَ المدّعِي ابتياعَه عند الحاكم ثم يُثبِتَ مَحضرًا بقبول القسمة؛ فإن لم يكن معه كتابُ ابتياعٍ كَتَب مَحضرًا بأنّه مالكٌ لحصّته من الدّار، وصيغةُ المَحضَر: شَهِد الشهودُ الواضعون خطوطَهم آخرَه - وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ[١] فيما شهدوا به فيه[٢] - أنّهم يعرفون فلانًا معرفةً صحيحةً شرعيّة، ويشهدون أنّه مالكٌ لجميع الحصّة التي مبلغُها كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا غيرَ مقسوم من جميع الدّار الفلانيّة، الّتي بالمكان الفلانيّ - وتوصَف وتُحدَّد - ملكًا صحيحًا شرعيًا، من وجهٍ صحيحٍ شرعيّ، وأنّه متصرّفٌ في الحصّة المذكورةِ بالسكن والإسكان والإجارة والعمارة، وأنّها باقيةٌ في ملكِه ويدِه وتصرّفه إلى الآن، ولم تَخرُجْ عنه بتمليك[٣]، ولا بيع، ولا هِبة، ولا إقرار، ولا صدقة، ولا غيرِها ولا بوجهٍ من وجوه الانتقالات كلِّها وهم بالدّار في مكانها عارفون، وأنَّ تلك الحصّةَ الّتي مبلغُها كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا في الدّار المذكورةِ ابتاعها فلان بنُ فلانٍ من فلان بنِ فلان شريكِ فلانٍ متنجِّز[٤] هذا المَحضَر، وأنّ متنجِّزه قام في طلب الحصّة المَبيعةِ وأَخْذِها من المشتري المذكورِ بالشُّفعة الشرعيّة بحكم أنّه مالكٌ للحصّة المشهودِ بها ملكًا شرعيًا متقدّمًا على ابتياع المشتري المدَّعَى عليه وأنّه قام على الفَوْر في طلب الحصّة المَبيعةِ من المشتري من غيرِ تأخيرٍ، ولا عاقة[٥]؛ يعلمون ذلك ويَشْهَدون به بسؤال من جازت مسألتهُ، وسَوَّغت الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه؛ ويؤرّخ؛ ثم يشهد فيه الشهود عند الحاكم. ثم يكتب تحته مَحضَرًا بأنّ الدّارَ المذكورةَ قابلةٌ للقسمة، وصيغتُه: شهد الشهودُ الواضعون خطوطَهم آخرَه - وهم من أهل الخِبرةِ بالعَقَار وتقويمِه وقسمتِه - أنّهم ساروا بإذنٍ صحيحٍ شرعيٍّ من القاضي فلان الحاكِم بالجهة الفلانيّةِ إلى حيث الدّارُ الآتي ذكرها فيه، الجاريةُ منها حصّةٌ مبلغُها كذا وكذا سهمًا في ملك فلانٍ متنجِّزِ المَحضَرِ الأوّل المستشفِعِ فيه، وحصّةٌ

= لأن مذهب الشافعي أنه لا شفعة فيما لا ينقسم، كالطاحونة والحمام وبئر الماء. وغير ذلك مما لا يقبل القسمة إلّا بإبطال منفعته المقصودة منه. وعلة ذلك دفع ضرر مؤونة القسمة والحاجة إلى إفراد الحصة الصائرة للشريك بالمرافق كما هو مبين في كتب الفقه.

(١) الخبرة الباطنة: أي الناشئة عن معرفة واطلاع على ما خفي ودق من الأمور ولم يقتصر فيها على الظاهر.

(٢) «فيه» أي في المحضر.

(٣) إن خروج الشيء وانتقاله من يد مالكه إلى يد آخر إنما يكون بالتمليك.

(٤) «متنجز هذا المحضر» أي الذي طلب إنجازه؛ يقال: «تنجز الحاجة» إذا سأل إنجازها.

(٥) عاقة: إطلاق العاقة على ما يعوق عن الحاجة، وإنه إطلاق عامي شائع الاستعمال بين العامة حتى اليوم. وربما تكون تحريفًا صوابه «عائقة».

مبلغُها كذا وكذا سهمًا في ملك المشتري المدَّعى عليه الشفيعِ[١] المذكور، منتقلةً إليه بالابتياع الشرعيّ من شريك المستشفِعِ المذكور، لكشف حالها ومعرفةِ جملتها وتفصيلها، وسببِ طلب الشُّفعة من متنجِّز هذا المَحضَر فيها[٢]، بحكم ابتياع المشتري الشفيعِ لحصّته فيها ودخولِه على المستشفِع، وأنّها هل تتهيأ فيها قسمةُ التعديل بالأجزاءِ المقتضيةُ[٣] لخير الشّريك؟ فألْفَوها في البلد الفلانيّ ـ وتوصَف وتُحدَّد ـ وتأمّلوها وأحاطوا بها علمًا وخِبرة، فوجودها قابلةً لقسمة التعديل الموجبةِ لخير الشَّريك وشهدوا أنّها تمكن قسمتُها جزأين، أو تمكن قسمتُها ثلاثةَ أجزاء، ومهما كان، على قدر ملك كلٍّ واحد من الشركاء، كلُّ جزءٍ مساوٍ للجزء الآخَرِ في القيمة والانتفاع به؛ شهدوا بذلك بسؤال من جاز سؤالُه، وسَوَّغت[٤] الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه؛ ويؤرّخ، ويُشْهَد فيه عند الحاكم.

ثم يكتب إسجال الحاكم، وصورتُه: هذا ما أَشهَد على نفسه سيّدُنا ومولانا قاضي القضاة فلانٌ مَن حضر مجلسَ حُكمِه ومحلَّ ولايته ـ وهو يومئذٍ نافذُ[٥] القضايا والأحكام، ماضي النقض والإبرام ـ أنّه ثبت عنده وصحّ لديه بمَحضَرٍ من متكلّم جائزِ كلامُه، مسموعةٍ دعواه على الوجه الشرعيّ، مضمونُ المَحضَرين المسطَّرَين باطنَه: أحدُهما ـ وهو الأوّل ـ مضمونُه: أنّ فلانَ بنَ فلان المستشفِعَ المُدَّعي مالكٌ لجميع الحصّة التي مبلغُها كذا وكذا سهمًا شائعًا، غيرَ مقسوم، في جميع الدّار الموصوفة المحدودة ملكًا صحيحًا شرعيًا، من وجهٍ صحيح شرعيّ، وأنه متصرّفٌ في الحصّة المذكورةِ بالسكن والإسكان والإجارة والعمارة، وأنّها باقيةٌ على ملكِه وفي يده وتصرّفِه إلى الآن، لم تَخرُجْ عنه بتمليك، ولا بيع، ولا هِبة، ولا إقرار، ولا صدقة ولا بوجه من وجوه الانتقالات كلِّها، وأنّ الشهودَ الواضِعِي رسمَ شهادتِهم آخرَ المَحضَر المذكور بالدّار المذكورة عارفون في صُقْعها[٦] ومكانِها، وأنّ ملكَه للحصّة

(١) ورد هذا اللفظ في عدة مواضع من هذا الباب مرادًا به الشخص المطلوبة منه الشفعة؛ والذي وجدناه في كتب اللغة أن الشفيع هو طالب الشفعة، لا المطلوبة منه.

(٢) «فيها» هاء الضمير عائدة إلى الشفعة.

(٣) المقتضية بالرفع: صفة لقسمة.

(٤) سوغ: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا وسواغًا؛ أي سهل مدخله في الحلق. وساغ له ما فعل: أي جاز له ذلك؛ وأنا سوغته أي جوزته [ابن بزرج].

(٥) نافذ: نفذ: النّفاذ: الجواز، وفي المحكم: جواز الشيء والخلوص منه. تقول: نفذت، أي جزت. ورجل نافذ في أمره، أي ماضٍ في جميع أمره، وأمره نافذ أي مطاع. (اللسان ص ٢٢٩).

(٦) الصُّقْعُ: ناحية الأرض والبيت، والجمع أصقاع.

سابقٌ على ابتياع فلان المدّعَى عليه الشراءُ المذكورُ للحصّة التي ابتاعها من شريك فلانٍ المستشفِعِ المشروحِ في المَحضَر الأوّل، وأنّ متنجِّزَ المَحضَرِ قام في طلب الحصّة المَبيعةِ وأَخْذِها من المشتري بالشُّفعة على الفَوْر، بحكم أنّه مالكٌ للحصّة المشهودِ له بها، وأنّ ملكَه متقدّمٌ على ابتياع الشفيعِ المشتري؛ وقد أقام كلٌّ من الشهود شهادتَه بذلك عند الحاكم المذكور، على ما تَضمّنه المَحضَرُ الأوّلُ المؤرَّخُ بكذا وكذا، وقَبِل ذلك منه القبولَ السائغ، وأَعلَمَ تحت رسم شهادته علامةَ الأداء والقبول على الرسم المعهود؛ والمحضَرُ الثاني يتضمّن أنّ الدّار المذكورةَ قابلةٌ للقسمة الموجبةِ لخير الشريك وأنّ القسمةَ تتهيّأ فيها على ما شُرِح في المَحضَر الثاني؛ وأقام كلٌّ من الشهود شهادته بذلك عند الحاكم المذكور، على ما تَضمّنه المَحضَرُ الثاني المؤرَّخُ بكذا وكذا، وقَبِل ذلك منه القبولَ السائغَ الشرعيّ، وسَطَّر ما جرت العادةُ به تحت رسم شهادته من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهودِ في مثله؛ فلمّا تكامل ذلك عنده وصحّ لديه ـ أحسن الله إليه ـ أَشهَد عليه بثبوت المَحضَرَيْن المذكُورَيْن لديه على الوجه الشرعيّ؛ وحينئذٍ سأل فلانٌ متنجِّزُ المَحضَرَيْن المدَّعِي الحاكم المذكورَ الحُكمَ بمقتَضى ما ثبت عنده، فأجابه إلى سؤالِه، وأَوجَبَ الشُّفعةَ المذكورة، وأَلزَم الحاكمُ المشارُ إليه المدَّعِيَ بالقيام للمشتري المدّعَى عليه بالثمن الذي ابتاع به الحصّةَ من شريك المدّعي المذكور، وهو كذا وكذا، وحَكَم على فلان المشتري المدّعَى عليه بتسليم الحصّة التي ابتاعها من شريك المستشفِع ـ وهي كذا وكذا سهمًا ـ لفلان المدّعي متنجّز المَحضَرَيْن المذكورَين، بحُكم ثبوتهما عنده؛ فحينئذٍ أَشهدَ فلانٌ المشتري الشفيع عليه أنّه قبض من المستشفِع نظيرَ الثمن الذي قام به للبائع ـ وهو كذا وكذا ـ عن الحصّة التي ابتاعها، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، وسَلَّم للمدّعي المستشفِعِ المذكورِ الحصّة الثابتَ أخذُها منه بالشُّفعة ـ وهي كذا وكذا سهمًا ـ فتَسلَّمها منه، وصارت بِيَدِه وملكِه وحَوْزِه، ملكًا من جملة أملاكِه، ومالًا من جملة أموالِه، وأضافها إلى ما يملكه من الدّار المذكورةِ من الحصّة المشهودِ له بها، فقد كمل له جميعُ الدّار المذكورة؛ وأقرّا بأنّهما عارفان بها المعرفةَ الشرعيّة؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه سأله مَن جاز سؤالُه الإشهادَ على نفسه بذلك. . . . . .[1] وأَبقَى كلَّ ذي حجّة على حجّته، وهو في ذلك كلِّه نافذُ القضاء والحُكم ماضيهما، بعد تَقدُّم الدعوى المسموعةِ وما

(١) موضع هذه النقط يفيد أن القاضي أجاب السائل إلى ذلك وأشهد على نفسه بثبوت ذلك لديه، ويفهم ذلك من السياق.

تَرتَّبَ عليها، وتَقدَّم[1] ـ أدام الله أيّامه ـ بكتابة هذا الإسجال، فكُتِب عن إذنه متضمّنًا لذلك، وذلك بعد قراءة ما تَضمَّنه باطنًا وظاهرًا، وأَشهَد الشفيعُ والمستشفِعُ عليهما بما نُسِب إلى كلٍّ منهما فيه، وذلك بتاريخِ كذا وكذا.

وإنْ كان بعض الثمن عُروضًا[2]، والمشترِي يعترِف بأنّ المستشفِعَ له حصّةٌ في الدّار، وأنّ الدّار قابلةٌ للقسمة، ولم يَعترِف بقيمة العُروض، وطَلَب منه الثّمنَ وتحليفَه على ذلك، فرَدّ عليه الثّمن وأَخَذ الحصّة بالشُّفعة بعد التّرافع إلى الحاكم ـ فسبيل الكاتب أن يكتب ما مثالُه: حضر إلى شهودِه في يومِ تاريخهِ مَن ذَكَر أنّه حضر إلى مجلس الحُكم العزيز بالجهة الفلانيّة عند سيّدنا القاضي فلان الحاكم بها، كلٌّ[3] واحد من فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وهو المشتري باطنَه، وذَكَر فلان المبتدَأُ بذكره أنه يَستحِقّ أخذَ الحصّةِ المَبيعةِ بما طَلَب باطنَه ـ ومَبلغُها كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا في جميع الدّار الموصوفة المحدودة باطنه، الّتي ابتاعها المثنّى بذكرِه من شريك المبتَدإِ بذكره فلان البائعِ باطنَه ـ بحُكم ما يَجري في ملكِه من الدّار المذكورة؛ وأنّه حين عَلِمَ بابتياع المشتري للحصّة المعيَّنة قام على الفَوْر في طلب الشُّفعة، وأَحضَر المشتريَ المذكورَ للحاكم المذكور، وادَّعَى عليه هذه الدّعوى وأنَّ الدّار قابلةٌ للقسمة، وأنَّ قيمة العُروض التي أخذها البائعُ باطنَه كذا وكذا درهمًا وأنّه لَم يكتم[4] قيمتَها إلّا تحيّلًا منه في إقصاء[5] حقّه عن الشُّفعة، وسأل سؤالَه عن ذلك؛ فسأله الحاكم عن ذلك، فصَدَّق المدّعِيَ في صحّة ما ادّعاه، وفي كلّ العُروض الّتي سلّمها للبائع المذكورِ باطنَه، وأنّه ما يعلم قيمتَها؛ فطَلَب يمينَه على ذلك، فأبى أن يحلف، ورَدّ عليه اليمين، فأَحلَف الحاكمُ المدّعِيَ على قيمة العُروض، فحلف أنَّ قيمتَها كذا وكذا درهمًا، اليمينَ الشرعيّةَ المستوفاة، بمَحضَر مِن خصمِه المذكور، وسأل المدّعِي الحاكمَ المذكورَ الحُكمَ له على خصمه بما يوجبه الشرع الشريف، فأجابه إلى سؤاله وحَكَم له بوجوب الشُّفعة على خصمه حُكمًا صحيحًا شرعيًّا،

---

(١) يقال: «تقدم بكذا»؛ أي أمر به.

(٢) العُرُوض: الأمتعة التي لا يدخلها كيل أو وزن، ولا تكون حيوانًا ولا عقارًا. وقالوا: الدراهم والدنانير عين، وما سواهما عرض، بفتح فسكون.

(٣) «كل» بدل من «من» السابقة في قوله: «من ذكر».

(٤) كتم: الكتمان: نقيض الإعلان، كتم الشيء يكتمه كتمًا وكِتمانًا وكَتّمه. ورجل كاتم للسر وكتوم. (اللسان ص ٣٠).

(٥) إقصاء: إبعاد.

وأوجب عليه القيامَ بنظير الثّمن، وهو كذا وكذا، وقيمةِ العُروض، وهي كذا وكذا وأوجب على المشترِي تسليمَ الحصّة؛ فحينئذٍ أشهَد المشتري المذكورُ على نفسه أنّه تَسلَّم نظيرَ الثّمن، وهو كذا وكذا......[١] وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ وأشهَد المدّعِي المستشفِعُ أنّه تَسلَّم من المشتري الشفيعِ جميعَ الحصّة المعيَّنة باطنَه تسلُّمًا شرعيًّا، وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه وملكِه، وذلك بعد النظر والمعرفة؛ فقد كَمُل للمدّعِي المستشفِعِ بما في ملكِه متقدِّمًا وبهذه الحصّة مِلكُ جميع الدّار المذكورة؛ ويؤرّخ.

في استشفاع الأب لابنه المحجور عليه، وكذلك الوصيُّ وأمينُ الحُكم، مع تصديق المشترِي له على دعواه، يكتب ما مثالُه: أقَرّ كلُّ واحد من فلان ـ وهو كافلُ ولدِه فلان المراهق، أو الطفلِ الذي تحت حَجْرِه وكَفالتِه ووَلاية نظره ـ، وفلان ـ وهو المشتري المذكورُ باطنَه ـ عند شهوده طوعًا بأنّ فلانًا المبتدأَ بذكره كافلَ ولده المذكور اجتمع بفلان المثنّى بذكره، وأعلَمَه بأنّ في ملك ولدِه لصلبِه فلان المذكورِ جميعَ الحصّة التي مَبلغُها كذا وكذا سهمًا من أربعة وعشرين سهمًا شائعًا في جميع الدّار المذكورة...[٢] بحُكم تقدُّم ملكِ ولدِه للحصّة المذكورةِ الّتي في يد والده المذكور، وبحُكم أنّ الدّارَ قابلةٌ للقسمة وأنّ الثّمن الذي قام به المشتري المذكور للبائع هو ثمنُ المثل يومئذٍ، وقيمةُ العدل، وأنّه قام في طلبها على الفور لِما رأى لولدِه في ذلك من الحظّ والمصلحة وأنّ المشتريَ صدّقه على جميع ذلك تصديقًا شرعيًّا، والتَمَس منه القيامَ بنظير ما كان دفَعَه ثمنًا عن الحصّة، وهو كذا وكذا وأنّه أجابه إلى ذلك، وسَلَّم له من مال ولدِه فلان نظيرَ الثّمن المذكور، وهو كذا وكذا، فقَبَض ذلك منه، وتَسلَّمه، وسَلَّم المشتري المذكورُ له الحصّةَ المذكورةَ بحقّ الاستشفاع[٣]، فتَسلَّمها منه، وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ملكًا لولدِه فلان، وأضافها إلى ما في يده من الحصّة الجاريةِ في ملك ولدِه؛ وبحُكم ذلك كَمُلَ لولدِه المذكورِ جميعُ الدّار المذكورةِ باطنَه؛ وأَقَرّا بأنّهما عارفان بها المعرفة الشرعيّة؛ ويؤرّخ.

---

(١) يظهر أن موضع هذه النقط عبارة محذوفة مقدرة بـ: «وقيمة العروض، وهي كذا وكذا».

(٢) يلوح لنا أن موضع هذه النقط جملة تفيد أن الوالد طلب من المشتري أخذ الحصة لولده بالشفعة، ويفهم ذلك من سياق الكلام.

(٣) الاستشفاع: في الأصل تعني طلب الشفاعة، ولكن المراد هنا طلب الشفعة وهو استعمال بعض الفقهاء.

وأما السَّلَم[١] والمقايَلة فيه ـ فإذا أَسلَم رجلٌ لرجلٍ ثمنًا في قمح أو حبوب[٢] أو غير ذلك كتب ما مثالُه: أقرّ فلانٌ عند شهوده بأنّه أَسلَمَ إلى فلان من الدراهم كذا وكذا، وسلّمها له، فتَسلَّمها منه في مجلس العَقد، وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه على حُكم السَّلَم الشرعيّ في كذا وكذا ـ ويعيِّن ذلك ويصفه ـ يقوم له بذلك في التاريخ الفلانيّ، محمولًا إلى المكان الفلانيّ، أو موضوعًا بالمكان الفلانيّ؛ تَعاقَدا أحكامَ هذا السَّلَم بينهما معاقدةً صحيحةً شرعيَّةً بالإيجاب والقبول، ثم تفرّقا من مجلس العَقد بالأبدان عن تراض؛ ويؤرّخ.

فإن تقايلا في السَّلَم كتب ما مثالُه: أَقرّ كلُّ واحد من فلانٍ المُسْلِم[٣] وفلانٍ المسْلَم إليه بأنهما تَقايَلَا أحكامَ السَّلَم الذي كانا تَعاقَدا عليه بينهما باطنَه مقايلةً صحيحةً شرعيَّة، وفسخا أحكامَه فسخًا[٤] شرعيًا، وسَلَّم فلانٌ المسْلَمُ إليه لفلانِ المسْلِمِ المبلغَ المذكورَ باطنَه، وهو كذا وكذا، فتَسلَّمه منه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، ولم يَبْقَ لكلٍّ منهما قِبَل الآخر حقٌّ من الحقوق الشرعيّة بسبب السَّلَم المذكور، ولا بسبب شيءٍ منه، وتَصادَقَا على ذلك؛ ويؤرّخ.

وأما القسمة والمناصفة ـ فإذا كان بين شريكين دار، وحصل الاتّفاق بينهما على قسمتها، فالذي يكتب في ذلك: أَقرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ بأنّ لهما وفي ملكهما وتصرّفهما بالسوية بينهما ـ لا مزيّة لأحدهما على الآخر ـ جميعَ الدّار الفلانيّة ـ وتوصَف وتُحدَّد ـ ملكًا صحيحًا شرعيًا؛ وأنّ ملكَهما لذلك سابقٌ لهذا الإقرار ومتقدّمٌ عليه؛ وأنهما عارفان بها المعرفة الشرعيّة، وأنّ يديهما فيها متصرِّفتان تصرُّفَ المُلّاكِ في أملاكهم، وذوي الحقوق في حقوقهم، من غير مانع ولا معترِض، ولا رافعِ لِيَدٍ بسبب من الأسباب، وتَصادَقا على ذلك كلّه تصادُقًا شرعيًا؛ وأنّهما في يومِ تاريخِه اتّفقا وتَراضَيا على قسمة ذلك جزأين: قِبْليًا، وبحْريًا، صفةُ القِبْليّ كذا ـ ويحدَّد ـ وصفةُ البحْريّ كذا ـ ويحدَّد ـ؛ ثم بعد تمام ذلك اشتَرَى فلانٌ من شريكه فلانٍ جميعَ

---

(١) عرّف الفقهاء السَّلَم بأنه بيع شيء موصوف في ذمة. ويقال له: السلف أيضًا، وتسميته بالسَّلَم هي الكثيرة المتعارفة بين الفقهاء، وسمي هذا العقد بالسَّلم لتسليم رأس المال في المجلس، وسمي بالسلف لتقديمه.

(٢) في كتب اللغة ما يفيد أن الحبوب تعم القمح وغيره، فعطفها عليه هنا من عطف العام على الخاص.

(٣) المُسْلم: الذي أسلم المال.

(٤) فسخَ: فسخ الشيء يفسخُه فسخًا فانفسخ: نقضه فانتقض وتفاسخت الأقاويل: تناقضت. (اللسان ص ٢٦٠).

النّصف الشائع في جميع الجزء القِبْليّ، وكَمَّل لفلان جميعَ الجزء البحْريّ؛ وتصادقا على ذلك تصادُقًا شرعيًا؛ ويؤرّخ.

وإن كانا أحضرا رجلين من المهندسين كتب في ذيل المكاتبة: وذلك كلُّه بعد أن أحضرا رجلين من أهل الهندسة والخِبْرة بمساحة الأراضي وذَرْعِها وقسمتها، والآدُر[(١)] وقيمتِها ـ وهما فلان وفلان ـ إلى الموضع المذكور وشاهداه، وأحاطا به علمًا وخِبْرة، وقسماه بينهما جزأين، لا مزيّة لأحدهما على الآخر؛ وأنّهما اتّفقا وتراضيا على ذلك، ورضيا قولَهما، وأمضَيا فعلَهما.

وإن كان بينهما قُرْعةٌ[(٢)] كتب ما مثالُه: وذلك كلُّه بعد قُرْعةٍ شرعيّةٍ رضيا بها وحصل الاتّفاق على ما ذكِر أعلاه.

وإن كان بينهما حوانيت واقتسماها بالتعديل على القُرْعة كتب ما مثالُه: أقَرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ بأنّ لهما بالسويّة بينهما جميعَ الحوانيت ـ ويذكر عددَها وصفتَها وتحديدَها نحوَ ما تقدّم ـ وأنّهما في يوم تاريخِه رغبا في قسمتها بينهما بالتعديل والقُرْعة الشرعيّة، وأَحضرا رجلين من أهل الهندسة والخِبْرة بالأراضي وذَرْعِها وقيمةِ العَقار وقسمتِه ـ وهما فلانٌ وفلان ـ إلى الحوانيت المذكورة، وشاهَداها، وأحاطا بها علمًا وخِبْرة، وقسماها بينهما قسمةً عادلةً شرعيَّةً بالذَّرع[(٣)] والقيمة والمنفعة، وأقرَعا بينهما في ذلك قُرْعةً شرعيَّة، جائزةً مرضيَّة؛ فكان الذي حصل لفلان المبتدَإ بذكره جميع الحوانيت ـ وتُعَدُّ وتوصَفُ وتُحدَّد ـ التي قيمتُها كذا وكذا، الجميعُ حقُّه وحصّتُه من جملة الحوانيت المذكورة؛ والذي حصل لفلان المثنّى بذكره جميع الحوانيت ـ ويَذكُر فيها ما تَقدَّم ـ؛ وسَلَّم كلُّ واحد منهما للآخر ما وجب عليه تسليمُه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ وأقرَّا بأنّهما عارفان بذلك المعرفةَ الشرعيّة؛ تَعاقَدا[(٤)] أحكامَ هذه القسمة بينهما معاقَدةً صحيحةً شرعيّةً شِفاها بالإيجاب والقبول، ثم تَفرّقا بالأبدان عن تراضٍ؛ وأقرّ كلُّ واحد منهما بأنّه لا حقَّ له ولا طلبَ فيما صار لصاحبه مما ذُكِر أعلاه بوجه من الوجوه الشرعيّة على اختلافها؛ وتصادقا على ذلك، ورضِيَ كلٌّ منهما

---

(١) الآدُر: جمع دار.

(٢) القُرعة: السُهمةُ. والمقارعة: المساهمة. وقد اقترع القوم وتقارعوا وقارع بينهم، وأقرع أعلى، وأقرعت بين الشركاء في شيء يقتسمونه. (اللسان ص ١٢١).

(٣) ذرع: الذِّرْع: ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى.

(٤) عادة المؤلف في مواضع كثيرة من هذا الباب أن يعدي هذا الفعل «بعلى». فيقول: «تعاقدا على كذا». وقد ورد في أساس البلاغة مادة «قبل» ما يفيد صحة تعديته بنفسه أيضًا كما هنا.

بهذه القسمة واعترفا بأنّ الذي قُوّم به كلُّ موضع قيمةُ المثل يومئذٍ لا حَيْفَ فيها ولا شَطَط.

في صفة ميراث[1] ـ يكتب ما مثالُه: أقرّ كلُّ واحد من فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ الإخوةِ أولادِ فلانٍ بأنّ والدَهم المذكورَ تُوُفّيَ ولم يُخلّف من الورثة سواهم، وأنهم مستحقّون لميراثِه، مستوعبون لجميعه، بغير شريكٍ لهم في ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبهم عنه بوجه ولا سبب، وتَرَكَ لهم موروثًا عنه جميعَ الدّار الفلانيّة ـ وتوصَفُ وتُحدَّد ـ فلمّا كان في يومِ تاريخِه تداعَوْا إلى قسمة ذلك، فقُسِم بينهم على الوجه الشرعيّ، فتمَيَّز لكلِّ واحدٍ منهم الثلثُ شائعًا[2] فيها، ووضع كلُّ واحد منهم يَدَه على ما تَميَّز له منها بهذا الإرث وضعا تامًّا، وعرَفَه وعرَف مقدارَه، وصار بِيَدِه وتصرُّفِه وملكِه وحَوْزِه بالإرث الشرعيِّ المشروحِ أعلاه، يتصرّف كلٌّ منهم فيما صار إليه تصرُّفَ المُلّاك في أملاكهم، وذَوِي الحقوق في حقوقهم، من غير مانع، ولا دافع، ولا رافع لِيَد، ولا معترِضٍ بوجهٍ ولا سبب؛ وأقرّوا بأنّهم عارفون بالدّار المذكورةِ المعرفةَ الشرعيّة، ونظروها، وأحاطوا بها علمًا وخِبْرة، وتصادقوا على ذلك كلِّه، وقَبِل كلٌّ منهم هذا الإقرار لنفسه من الآخَر قبولًا شرعيًّا؛ والله مع المتّقين.

وأما الأجائر ـ فإذا استأجر رجلٌ من رجلٍ دارًا كتب ما مثالُه: استأجر فلانٌ من فلانٍ جميعَ الدّار الجاريةِ في يَدِه وملكِه وتصرُّفِه، على ما ذَكَر وصدّقه المستأجر على ذلك، إنْ صدّقه.

وإن كانت الدّار وقفًا عليه كتب: الجارية في يَدِه وتصرُّفِه وقفًا عليه تناهت[3] منافعُها إليه.

وإن كانت في عَقد إجارته نبّه على ذلك، فيكتب: الجاريةِ في يَدِه وتصرُّفِه وعَقْدِ إجارته بالإيجار الشرعيِّ من فلان.

وإن كان يؤْجِر عن موكّله كَتَب: الجاريةِ في يَدِه وتصرُّفِه ملكًا لموكّله فلان، وله إيجارُها، وقبضُ أجرتها عنه بطريق الوَكالة الشرعيَّة التي بِيَدِه.

وإن كانت حصّةً من دار كتب: جميعَ الحصّة التي مَبلغُها كذا وكذا من جميع الدّار وهي بالمكان الفلانيّ ـ وتوصَف وتُحدَّد ـ لَينتفِع بها في السكن والإسكان،

---

(١) «في صفة ميراث» أي في صفة قسمة ميراث.

(٢) الشائع: المنتشر المعروف.

(٣) تناهت: انتهت.

ووُقودِ النيران ـ إنْ أَذِن له في ذلك ـ لمدّةٍ كذا وكذا، أوّلُ ذلك يومُ تاريخِه، أو اليومُ الفلانيُّ من الأشهر الماضية[١]، بأجرة مَبلغُها في كلِّ شهر من شهورها كذا وكذا قسطُ كلِّ شهر في سلخه، أو مستهَلّه؛ وتَسلَّم ما استأجره بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية، والتفرّقِ بالأبدان عن تراضٍ؛ ويؤرِّخ.

وإنِ استأجر مدّةَ كلَّ يوم بعضَ النهار بأجرة حالَّةٍ مقبوضةٍ أو أبرأه منها كتب ما مثالُه: استأجر فلانٌ من فلانٍ جميعَ الحانوت ـ ويوصَف ويحدَّد كما تقدّم ـ لمدّة سنةٍ كاملة، أو أقلَّ أو أكثر، ليَنتفِع بذلك في السكن والإسكان طولَ المدّة في كلّ يوم من أوّل النهار إلى الوقت الفلانيِّ منه، خلا بقيَّةَ النّهار واللّيل، فإنَّ منفعتَه باقيةٌ في يد الآجرِ وتصرُّفِه، ينتفِعُ بذلك كيفما شاء، بأجرةٍ مَبلغُها عن جميع هذه المدّة كذا وكذا حالّة، قبَضَها الآجرُ من المستأجِر، وتَسلَّمها.

وإنْ كان أبرأه منها كَتَب: حالّة، أبرأه الآجِرُ منها براءةً صحيحةً شرعيَّة، براءةَ إسقاط قَبِلها منه؛ وتَسلم ما استأجره بَعد النّظرِ والرّضا والمعرفة والمعاقدةِ الشرعيَّة.

إنِ استأجر من رجل بما لَهُ في ذمّته من الدّين كتب: ...... لمدّةِ سنةٍ كاملة، أوّلُها يومُ تاريخه، بما للمستأجِر في ذمّة الآجرِ من الدَّين الحالُّ الذي اعتَرَف به عند شهوده، وهو كذا وكذا؛ وتَسلَّم ما استأجره؛ ويُكمّل.

فصــل

وإنِ استأجر من رجل دارًا لمدّة، ثم استأجر مدّة ثانية قبل انقضاء المدّة الأولى كتب: ...... لمدّةِ سنةٍ كاملةٍ مستأنفَةٍ على مدّته[٢] الأولى، أوّلُها اليومُ الفلانيُّ من الشهر الفلانيّ، بحُكمِ أنَّ الدّار مستأجرةٌ معه على مدّةٍ معلومة آخرُها اليومُ الفلانيّ، وقد استؤنِفَتْ هذه المَدّةُ الثانيةُ زيادةً على تلك المدّة الأولى إجارةً صحيحةً شرعيَّة، بأجرة مَبلغُها كذا وكذا، تَعاقَدا على ذلك معاقدةً شرعيَّةً شِفاهًا بالإيجاب والقبول؛ واعتَرَف المستأجِرُ بأنَّ الدّار المذكورةَ في يَدِه وتصرُّفه وأنّه عارفٌ بها المعرفةَ الشرعيَّة.

---

(١) إنما خص الأشهر الماضية ولم يقل بعدها: «أو المستقبلة» لأن مذهب الشافعي لا يجوز إجارة العين على المنفعة المستقبلة، كإجارة الدار للسنة القابلة.

(٢) «على مدة» أي في مدة، «فعلى» هنا بمعنى في؛ وهذا كما قال أبو كبير الهذلي: [الكامل]

ولـقـد سـريْـتُ عـلـى الـظـلام بـمـغْـشَـمِ

أي في الظلام. (اللسان).

فصـــل

وإنِ استأجر بأجرة حالّة ثم قاصّه المستأجِرُ بما لَهُ في ذمّته كتب: ......
بأجرةٍ مَبلغُها عن جميع المدّة كذا وكذا حالّة - ويُكمِّل الإجارة -؛ ثمّ بعد ذلك قاصَّ المستأجِرُ المذكورُ الآجرَ المذكورَ بما لَهُ في ذمّته من الدَّين الذي اعتَرَف به عند شهوده - وهو نظيرُ الأجرة المذكورة في القدر والجنس والصّفة والحلول - مقاصّةً شرعيَّة، قَبِل كلٌّ منهما ذلك لنفسه قبولًا شرعيًّا؛ ولم تَبْقَ لكلٍّ منهما مطالَبةٌ قِبَل الآخَرِ بسبب دَينٍ ولا أجرةٍ ولا حقٍّ من الحقوق الشرعيَّة كلِّها.

وإنِ استأجر جماعة من رجل أرضًا لبناء وغيره كتب ما مثالُه: استأجر فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ من فلانٍ جميعَ قطعة الأرض الطين السواد، الجاريةِ في يَدِ المؤجِر[1] وملكِه، وهي بالمكان الفلانيّ، ومساحتُها كذا وكذا قصبةً بالقصبة الحاكميَّة[2]، وذَرْعُها كذا وكذا ذراعًا بذراع العمل[3]، ليبنوا عليها ما أرادوا بناءَه، ويَحفِروا فيها ما أرادوا حفرَه: من الآبار المَعِينةِ[4] وآبارِ السّراب[5] والقُنِيِّ[6] والمجَارِي، ويُعَلُّوا ما أرادوا تعليتَه، ويزرَعوا ويغرِسوا ما أحبّوا زراعتَه وغرسَه، وينتفعوا بها كيف شاؤوا على الوجه الشرعيّ، لمدّةِ ثلاثين سنةً كوامل، أوّلُها يومُ تاريخِه؛ ويُكمل.

وإنْ كان كلٌّ منهم يقوم بما عليه بَرْهَنَ على ذلك، وكذلك إنْ تَضامَنوا.

وإنِ استأجر وكيل دارًا لموكله من جماعة كَتَب: استأجر فلانٌ لموكِّله فلانٍ بإذنه وتوكيله إيّاه في استئجار ما يُذكَر فيه بالأجرة الّتي تُعيَّن فيه للمدّة الّتي تُذكَر فيه، وفي تَسلُّم ما استأجره له، التوكيلَ الشرعيّ، على ما ذُكَر، أو على ما تشهد به الوَكالة الّتي بِيَدِه؛ من فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ جميعَ الدّار الكاملة، الجاريةِ في ملكِهم ويَدهم وتصرُّفِهم

---

(١) المؤجر اسم فاعل من أجرت.

(٢) عند الكلام على القصبة الحاكمية ذكر في صبح الأعشى: كأنها حررت في زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي، فنسبت إليه؛ وطولها ستة أذرع بالهاشمي وخمسة أذرع بالنجاري، وثمانية أذرع بذراع اليد؛ وقد تقدر القصبة بباعين من رجل معتدل. (صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦).

(٣) ذراع العمل: هو ذراع اصطلح على أن تقاس به أرض البنيان وطوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل. (اللسان).

(٤) الآبار المعينة: الآبار التي لها مادة من الماء. والمعين وصف للماء، أي الجاري الظاهر على الأرض.

(٥) السراب: من سرب سروبًا، وذلك لانسرابه في جوف الأرض.

(٦) القُنِي: جمع قناة.

بالسويّة، أو بقدر حصصهم - وتوصَف وتُحدَّد وتُذكَر المدّةُ والأجرة - ما هو لفلانٍ عن أجرة حصّته كذا، وما هو لفلانٍ كذا، وما هو لفلانٍ كذا؛ وتَسلَّم ما استأجره لموكِّله بَعد النظرِ والمعرفةِ والمعاقدةِ الشرعيّة.

وإنْ آجر رجل دارًا عن موكّله كتب: استأجر فلانٌ من فلانٍ القائمِ في إيجار ما يُذكَر فيه عن موكِّله فلان، بالأجرة الّتي تُعيَّن فيه، للمدّة التي تُذكَر فيه؛ وفي تسليم ما يؤجِر لمستأجِره، حَسَبَ ما تشهد به الوَكالة الّتي بِيَدِه؛ استأجر منه بقضيّةِ ذلكَ وحُكمِه جميعَ[1]... ويُكمِّل؛ والله أعلم بالصواب.

فصل في معاقدة حَمولة[2]

عاقد فلانُ بنُ فلان السَّيْرَوَان[3] فلانًا على حَملِه وحَملِ محارمه وزادِه - وهو كذا وكذا رطلًا - من البلد الفلانيّ إلى البلد الفلانيّ، على ظهر جماله الّتي بِيَدِه وتصرُّفِه، بما مبلغُه كذا وكذا، قبَضَه منه؛ تَعاقَدا معاقدةً شرعيَّةً بعد النظر والمعرفة والإحاطة بذلك علمًا وخِبرة، وعليه الشروع في ذلك من يوم كذا وكذا.

فصـــل

وإنِ استأجر دارًا بدار كَتَب: استأجر فلانٌ من فلانٍ جميعَ الدار الفلانيّةِ الجاريةِ في يَدِ الآجر، لمدّةٍ كذا وكذا، بجميع الدّار الجاريةِ في يد المستأجِر - ويحدِّد كلًّا منهما - وتَسلَّم كلٌّ منهما ما وجب له تَسلُّمُه من الآخَر تسلّمًا شرعيًّا وصار بِيَدِه، وذلك بَعد النظر والمعرفةِ والمعاقدةِ الشرعيَّة؛ ويؤرّخ.

فصـــل

وإنِ استأجر مركَبًا كَتَب طولَها ومَحمَلَها وعُدّتَها...[4] ليَنتفِعَ بها في حَمل الغلال والرُّكبان، في البحر الفلانيّ.

وإن كان في بحر النيل قال: «مُصعِدًا ومُنحدِرًا»، ويُكمّل كما تَقدّم.

---

(١) أي جميع الدار.

(٢) معاقدة حمولة: أي معاقدة صاحب حمولة. وتطلق الحمولة على الواحد فما فوقه. ويحتمل أن يراد بالحمولة هنا: الأحمال نفسها، وإذن فمعنى قوله: «معاقدة حمولة»: معاقدة على حمولة، أي على حمل أحمل.

(٣) السَّيْرَوان: كلمة فارسية معناها الجمال - بتشديد الميم -. (اللسان).

(٤) اعتاد المؤلف أن يضع هذه النقط كتعبير عن اختصار للعلم به من السياق.

فصل

وإنِ استأجر بَغْلًا أو حمارًا كتب: ...[١] جميعَ[٢] الحمار، ليَنتفِعَ به في حَمله وحَمل قماشه[٣] من المكان الفلانيّ إلى المكان الفلانيّ، أو في حَمل ما يختاره من القماش والأثاث، ونقلِ الحواصل على ظهره على قدر طاقته، لمدّةِ كذا وكذا؛ ويُكمّل.

فصل

إذا أَجَرَ رجل عبده أو ولده كتب: أَجَرَ فلانٌ ولدَه لصلبه فلانًا المراهِقَ الّذي تحت حَجْره ووَلاية نظره، لفلان، ليَعمَل عنده في صناعة كذا في حانوته بالمكان الفلانيّ، لمدّة كذا، بأجرة مبلغُها في كلّ يومٍ كذا مِن استقبالِ تاريخِه؛ تَعاقَدا على ذلك معاقدةً شرعيّةً بالإيجاب والقبول والتسليم الشرعيّ.

وإنْ أَجَرَ نفسه كتب: أَجَرَ فلانٌ نفسَه لفلان، ليَعمَل عنده في صناعةِ كذا؛ ويُكمّل.

فصل

وإنْ أَجَرَتِ امرأةٌ نفسَها لمطلّقها كتب: أَجَرَتْ فلانةٌ نفسَها لمطلِّقها الطلقةَ الأولى ـ أو مهما كان من عدد الطلاق ـ فلان، في رضاع[٤] ابنِها منه وحَضانتِه وغسلِ خِرَقه، وتسريحِ رأسه، والقيام بمصالحه في منزلها بالمكان الفلانيّ لمدّةِ كذا؛ ويُكمّل؛ والله أعلم بالصواب.

وإذا أَجَرَ رجل دارًا على ولده الطفل أو أَجَرَ الوصيُّ أو أمينُ الحُكم كتب: استأجر فلان من فلان القائِم في إيجار ما يُذكَر فيه على ولده لصلبه فلان الطفلِ الّذي هو تحت حَجْره[٥] وكَفالتِه، لِما رأى له في ذلك من الحظّ والمصلحة.

---

(١) موضع هذه النقط محذوف للعلم به من المكاتيب السابقة، وهو قوله في أول العقد: «استأجر فلان من فلان».

(٢) ضبط هذا اللفظ بالفتح لأنه مفعول لقوله: «واستأجر» المحذوف للعلم به من العقود السابقة.

(٣) إطلاق القماش على الثياب كما هنا إطلاق عامي.

(٤) «في رضاع»، أي «لرضاع» الفاء هنا بمعنى اللام؛ على أنه من المحتمل أيضًا أن يكون قد سقط من الأصل جملة أخرى قبل قوله: «في رضاع» وهي قوله: «لينتفع بها».

(٥) الحَجْرُ: أي المنع من التصرف بالمال. والحجر: المنع. ومنه حجر القاضي على الصغير والسفيه إذا منعهما من التصرف في مالهما.

وإنْ كان الآجر الوصيّ كتب: القائِم في إيجار ذلك على فلان المحجورِ عليه بطريق الوصيّة الشرعية الّتي بِيَدِه، وقَبْضِ الأجرة وتسليم ما يَأجُره لمستأجره.

وإن كان أمين الحكم هو الآجر كتب: القائِم في إيجار ما يُذكَر فيه على فلان المحجورِ عليه من قِبَل الحُكم العزيز.

فإن كان الحاكم أَذِنَ كتب: «وذلك بإذْنِ من سيّدنا القاضي فلانِ الدّين له في ذلك»؛ جميعَ[1] الدّار؛ ويُكمّل.

وإن شُهِد بقيمة الأجرة شَرَحَه[2] في ذيل الإجارة.

فصل

وإنِ استأجر رجل لولده دارًا أو الوصِيُّ أو أمينُ الحُكم كتب ما مثالُه: استأجر فلانٌ لولده الّذي تحت حَجْره ووَلاية نظره، لِما رأى له في ذلك من الحظّ والمصلحة.

وإن كان الوصيّ فكما تقدّم؛ أو أمين الحُكم فنحوه؛ ويذكر إذن الحاكم؛ والله أعلم.

إذا استأجر الوصيّ مَنْ يحجّ[3] عن الميّت كتب ما مثالُه: أقرّ فلان بن فلان بأنّه أَجَر نفسَه لفلانٍ وصيٍّ فلانٍ المتوفّى إلى رحمة الله تعالى، القائِم في معاقدته بالوصيّة الشرعيّة التي بِيَدِه، الثابتةِ بمجلس الحُكم العزيز، لِأن يَحُجَّ بنفسه عن فلان الموصِي المذكورِ حِجَّةَ الإسلام الواجبةَ عليه.

وإن كانت غيرَ واجبة كَتَب: «لِأن يَحُجَّ عنه حِجّة تطوُّع» على أن يتوجّه من المكان الفلانِيّ في عام تاريخِه قاصدًا[4] لأداء حِجّة الإسلام وعُمرتِه في البحرين العذبِ والمِلح، أو في البحر المِلح، أو في البرّ، ويُحْرِمَ من الميقات[5] الذي يجب

---

(١) «جميع» مفعول به لفعل مقدر هو «استأجر». (٢) «شرحه» أي شرح المشهود به.

(٣) الحج: من حجج وهو القصد. حجَّ إلينا فلان أي قَدِمَ؛ وحجه يحجه حجًا: قصده. وحججت البيت: أحجّه حجًّا إذا قصدته والحجُّ في الإسلام: فريضة لها شروطها وأحكامُها. (اللسان).

(٤) القصد: استقامة الطريق. والقصد: إتيان الشيء.

(٥) ميقات الإحرام بالحج نوعان: ميقات زماني، وميقات مكاني. فالميقات الزماني من أول شهر شوال إلى فجر يوم النحر. والميقات المكاني يختلف باختلاف المواطن. فمن كان بمكة، فميقاته مكة نفسها، ومن توجه إلى المدينة فميقاته «ذو الحليفة»، وهو مكان على نحو عشر مراحل من مكة وستة أميال من المدينة. وذو الحليفة: من مياه جشم. (ياقوت في المعجم).

على مثله، فينويَ حِجّةً مفرَدةً كاملة، أو يدخلَ إلى الحرم الشريف بمكّة ـ شرّفها الله تعالى ـ فينويَ عنه الحِجّة المذكورةَ كاملةً بأركانها وواجباتها وشروطها وسننِها ثم يَعتمِرَ عنه عُمرةً من ميقاتها مكمَّلةً فروضُها على الأوضاع الشرعيّة؛ وهو بالخيار إن شاء أَفرَدَ، وإن شاء أَقرَنَ[١]؛ وينوي في جميع أفعاله وُقُوع ذلك عن المتوفَّى الموصِي المذكور، وأجر ثوابِه[٢] له؛ ومتى وقع منه إخلال يَلزَمه فيه فداء، أو وجب عليه دم كان ذلك متعلّقًا به وبمالِه، دون مال الموصِي المتوفَّى؛ المشروحُ جميعُ ذلك في كتاب الوصيّة المذكورة؛ عاقده على ذلك معاقدةً صحيحةً شرعيَّةً بالأجرة المعيَّنة فيه[٣] وهي كذا وكذا، قَبَضَها منه وتَسلَّمها، وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، من مال الموصِي المذكور الّذي فرَضَه في ذلك، وأَذِنَ في تسليمه؛ وذلك بعد أنْ تَبيَّن أنَّ الآجرَ المذكورَ حجّ عن نفسه الحِجّةَ الواجبةَ عليه؛ ويؤرّخ.

إذا استأجر رجل من وكيلِ بيتِ المال أرضًا ليبنيَ عليها أو جُدُرًا يَعمِد عليها أو سَطْحًا أو غيرَ ذلك، كتب مشروحًا، وأَخذَ فيه خطَّ شهود القيمة والمهندسِين، ثم يكتب الإجارة، ويَشرح في ذيلها المشروح؛ وإن كانت بتوقيع مِثْلَ توقيع المبايَعة كَتَب في آخر الإجارة مثلَ ما يَكتُب في المبايَعة وهو أن يقول: والسببُ في هذه الإجارة أنّ المستأجِرَ المذكورَ رفَعَ قصّة... وتُشرَح.

وصيغةُ المشروح: مشروحٌ رفَعَه كلُّ واحد من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار بقضيّة حالِ قطعةِ الأرض الآتي ذكرها وذَرْعُها وتحديدُها فيه، الجاريةِ في ديوان المواريث[٤] الحشريّة ـ وتُذْرَع وتُحدَّد ـ تأمّلاها بالنظر، وأحاطا بها علمًا وخِبرة؛ وقالا: إنّ الأجرة عنها لمن يَرغب في استئجارها ليَنتفِعَ بها كيفما شاء وأحبّ واختار على الوجه الشرعيّ، ويَبنيَ عليها ما أَحبَّ بناءَه، ويعلّيَ ما أراد تعليته ويَحفِرَ الآبارَ المَعِينةَ وآبارَ السراب والقُنِيّ، ويَشُقَّ الأساسات[٥]، ويُخرجَ الرّواشنَ[٦].

---

(١) أقرن: وهو أن يجمع بين الحج والعمرة بنية واحدة، وتلبية واحدة، وإحرام واحد، وطواف واحد، وسعي واحد. (انظر شرح القاموس).

(٢) إضافة الأجر إلى الثواب من إضافة الشيء إلى نفسه. وهي جائزة في مذهب الفراء. فإنه يجيز إضافة الشيء إلى ما هو بمعناه لاختلاف اللفظين. (شرح الأشموني ج ٢ ص ٢١٦).

(٣) «فيه» أي في المكتوب.

(٤) تقدم تفسيرها.

(٥) يشق الأساسات: أي يشق مواضعها من الأرض.

(٦) الرواشن: الرفوف، وهي توضع عليها طرائف البيت.

وإن كان المؤجَر سطوحًا أو جُدُرًا أو عقودًا[١] كَتَب زِنةَ ما يبنيه، وهو أن يقول: «فتكون زنةُ ما يبنيه ويعلّيه عليها كذا وكذا قنطارًا» لمدّةِ ثلاثين سنةً كواملَ ما مبلغه[٢] كذا وكذا، الحالّ من ذلك كذا، وباقي ذلك ـ وهو كذا ـ يقوم به منجّمًا في سلخ كلِّ سنة تَمضِي من تاريخه كذا؛ وقالا: إنّ ذلك أجرة المثل يومئذٍ، لا حَيْفَ فيها ولا شطط، ولا غَبينةَ ولا فَرْط، وإنّ الحظَّ والمصلحة في إيجار ذلك بهذه الأجرة، ويؤرّخ.

ومن الكتّاب من يَكتُب أوّلَ المشروح ما صورتُه: لمّا رسِم بعمل مشروحٍ بقضيّة حال الموضع الآتي ذكرُه فيه، الجاري في ديوان المواريث الحشرية، امتَثلَ المرسومَ كلُّ واحد من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار، وسارا إلى الموضع المذكور، فألفَياه بالمكان الفلانيّ؛ ويوصَف ويحدَّد؛ ويُكمّل المشروح نحوَ ما تقدّم.

ثم يكتب الإجارة، وصيغتُها: استأجر فلان من القاضي فلان وكيلِ بيت المال المعمور، القائمِ في إيجار ما يُذكَر فيه بأحكام الوَكالة التي بيَدِه، المفوَّضةِ إليه من المقام الشريف، الّتي جعل له فيها إيجار ما هو جارٍ في أملاك بيت المال المعمور وغير ذلك، على ما نُصّ وشُرِح فيها، وما مآلُه إلى بيت المال المعمور بالقضايا الشرعيّة، الثابتةِ وَكالتُه بمجلس الحُكم، المتوَّجَةِ وَكالتُه بالعلامة الشريفة، ومثالُها كذا وكذا؛ استأجر منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ قطعة الأرض الّتي لا بناءَ بها، أو الحاملةِ لبناء المستأجر، الآتي ذكرُها وذَرْعُها وتحديدُها فيه، الجاريةِ في ديوان المواريث الحشريّة؛ أو جميعَ السَّطح، أو الجُدُر، ليبنيَ على ذلك ما أَحبَّ وأراد بالطوب والطين والجير والجبس وآلة العمارة ما زِنتُه كذا وكذا قنطارًا ـ هذا يكون في السَّطح أو في الجدار؛ وأمّا الأرض فلا ـ لمدّة كذا وكذا سنةً، أوّلُها يومُ تاريخه، بأجرة مبلغها عن جميع هذه المدّة كذا وكذا، الحالُّ من ذلك كذا وكذا بما فيه من المستظهَر به[٣] وباقي ذلك ـ وهو كذا وكذا ـ يقوم به منجّمًا، في سلخ كلِّ سنة من استقبالِ تاريخِه كذا وكذا؛ وتَسلَّم ما استأجره بَعد النظر والمعرفة والمعاقدة

(١) العقود في الأبنية معروفة، واحدها عقد بفتح أوله.

(٢) أي أن الأجرة عن قطعة الأرض المتحدث عنها آنفًا هي ما مبلغه كذا وكذا.

(٣) «المستظهر به»؛ أي المحتاط به. والاستظهار: الاحتياط والتحري؛ والمراد به المبلغ الذي زاده القاضي على الأجرة الأصلية للاحتياط في أن يكون ذلك أجرة المثل، وأن يكون في الإيجار بهذه الأجرة غبطة ومصلحة لبيت المال.

الشرعيَّة؛ وأقرّ المستأجِرُ بأنَّ الأرض جاريةٌ في ديوان المواريث الحشريّة؛ وذلك بعد أن تَنجَّز[(١)] المستأجِرُ المذكورُ مشروحًا يتضمّن الإشهادَ على كلّ واحد من فلان وفلان المهندسَيْن على العَقار بأنهما سارا إلى ما ذُكِر أعلاه، وذَكَرا من الذَّرْع والتحديد ما وافق أعلاه، وقالا: «إنّ الأجرة في ذلك عن كلّ سنة كذا وكذا»؛ ويَذكُر ما تَضمّنه المشروح، ورَسْمَ شهادةِ العدل فلانٍ والعدلِ فلانٍ بأنَّ الأجرة المعيَّنةَ فيه أجرةُ المثل يومئذٍ؛ ثم بعد تمام ذلك أحضر المستأجِرُ من يدِه وُصولات[(٢)] بيت المال شاهدةً له بحَمل المال المذكور ونُسخُها كذا وكذا؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه وَقَعَ الإشهادُ على القاضي فلانٍ الآجرِ والمستأجرِ بما نُسِب إلى كلّ واحد منهما فيه؛ ويؤرّخ.

وإن أَجَرَ نائبُ وكيل بيت المال المعمور أرضًا في ديوان الأحباس كتب ما مثالُه: استأجر فلان من القاضي فلان النائبِ عن القاضي فلان وكيلِ بيت المال المعمور، القائمِ في إيجار ما يُذكَر فيه عن مستنيبه المذكورِ بأحكام الوَكالة الّتي بِيَدِ مستنيبه، المفوَّضة إليه من المقام الشريف، الّتي لمستنيبه فيها إيجارُ ما هو جارٍ في أملاك بيت المال المعمور وأوقافِ الأحباس المعمورة، وغيرُ ذلك، على ما نُصّ وشُرِح فيها، وما مآلُه إلى بيت المال المعمور بالقضايا الشرعيّة، وأنْ يستنيب عنه في ذلك من يراه، الثابتة وَكالتُه في مجلس الحُكم العزيز الثبوتَ الصحيحَ الشرعيّ؛ ويَشهَد على وكيل بيت المال المعمور بالإذن لنائبه المذكور في ذلك من يعيّنه في رسم شهادته آخرَه؛ إستأجر منه بقضيّة ذلك وحكمِه جميعَ قطعة الأرض الآتي ذكرُها وذَرْعُها وتحديدُها فيه، الجاريةِ في ديوان الأحباس المعمور، الّذي صاحبُ الدّيوان[(٣)] به يومئذٍ فلان، ومشارِفُ[(٤)] الأحكار به فلان، الأذنُ كلٌّ منهما للآجر في الإيجار المذكور، يَشهَد عليهما بذلك شهودُه؛ وهي بالمكان الفلانيّ؛ وتوصَف وتُحدَّد ويُكمِّل الإجارَة كما تقدّم.

---

(١) «تنجز مشروحًا»؛ أي طلب إنجازه؛ يقال: تنجز الحاجة إذا سأل إنجازها.

(٢) الوصولات: جمع وصول، وهو البطاقة المعروفة اليوم بالإيصال.

(٣) صاحب الديوان: كانوا في البداية يعبرون عنه بمتولي الديوان، وهو ثاني رتبة الناظر في المراجعة، وله أمور تخصه.. وقيل: «إن صاحب الديوان يكتب على ما يكتب عليه الناظر وله زيادة على ذلك، وهي الترجمة على التذاكر والاستدعاءات والكتابة على تواقيع المباشرين بأخذ خطوطهم عند استخدامهم». (صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦).

(٤) المشارف: ومهمته أن يكتب على الوصولات وعلى الحساب، ويكون له تعليق يخدمه، ويقابل به المستخدمين معه ولا يلزمه عمل حساب كما لم يلزم الناظر.

إذا كان بستانًا فأَجَرَ الأرض وساقَى[١] على الأنشاب[٢] كتب ما مثالُه: استأجر فلان من فلان جميعَ قطعة الأرض السواد، المتخلِّلةِ بالأنشاب الآتي ذكرُها فيه، ومساحتُها كذا وكذا فدانًا بالقصبة الحاكمية؛ الجاريةِ الأرضُ المذكورةُ في يدِه وعَقد إجارتِه، أو في ملكِه، وجميعَ بناء البئر المَعِينة والساقية المركَّبةِ على فُوَّهتها، المكمَّلةِ العُدّة والآلة، الذي ذلك بالموضع الفلانيّ؛ وصفةُ الأنشاب أنّها النخل والكَرْم والتين والزيتون والرمّان، وغيرُ ذلك، بحدود ذلك وحقوقه، خلا الأنشابَ ومواضع مَغارسها، فإنّها خارجةٌ عن عَقد هذه الإجارة، لمدّة...؛ ويُكمّل كما تقدّم.

وأما المساقاة ـ فإنّه إن كتبها في ذيل الإجارة كتب ما مثالُه: ثم بعد ذلك ساقَى الآجرُ المستأجِرَ... ... ويُكمّل.

وإن لم يكتبها في ذيلها كتب ما مثالُه: ساقَى فلان مالكُ الأنشابِ الآتي ذكرها فيه فلانَ بنَ فلان على الأنشاب قائمة في الأرض الآتي ذكرها فيه، الجاري ذلك في يد فلان المبتدإ بذكره، وهي الأرض الّتي بالموضع الفلانيّ، ومساحتُها كذا وكذا فدانًا بالقصبة الحاكميّة؛ وصفةُ الأنشاب المُساقَى عليها أنّها النخل والكرم وكذا وكذا، بحَسَب ما يكون؛ ويحيط بذلك حدود أربعة ـ وتُذكَر ـ مساقاةً صحيحةً شرعيَّةً جائزةً نافذة، لمدّة سنة كاملة، أوّلُها يومُ تاريخِه، على أن يتولّى سقْيَ ذلك وتنظيفَه وتأبيره[٣] وغرْسَه وإصلاحَه بنفسه، وبمن يستعين به؛ ومهما أطلعه الله تعالى من ثمر كان مقسومًا بينهما على ألف جزء، جزءٌ واحدٌ لفلان[٤] المبتدإ بذكره مالكِ الأنشاب، وباقي «الأجزاء» لفلان المثنّى بذكره المُساقَى؛ وذلك بعد إخراجِ المؤن والكُلَف وحقِّ الله تعالى إنْ وجب؛ تَعاقدا على ذلك معاقدةً شرعيّة، وسَلَّم فلان المالكُ لفلان المُساقَى جميعَ الأنشاب المذكورة، فتَسلّمها منه للعمل عليها، وصارت بِيَدِه وحَوْزِه، وذلك بعد النظر والمعرفة، والإحاطة بجميع ذلك علمًا وخِبرة.

(١) عرف الفقهاء المساقاة بأنها معاملة الشخص غيره على شجر ليتعهده بسقي وغيره والثمرة لهما.
(٢) الأنشاب: بمعنى المال. شجرًا كان أو غيره فيكون إطلاقه على الأشجار خاصة من إطلاق العام على الخاص.
(٣) التأبير: الإصلاح؛ ويكون للنخيل.
(٤) لم يظهر لنا وجه لأن يكون للمالك جزء واحد من ألف جزء وللعامل بقية الأجزاء ومن المحتمل أن يريد أن المالك والعامل مهما اتفقا على شيء في قسمة الثمار فاتفاقهما جائز نافذ، حتى لو اتفقا على أن يكون للمالك جزء واحد من ألف جزء، وللعامل بقية الأجزاء.

وفي المساقاة على اللّيف والسَّعف والكِرْناف[١] خلاف: فإن كان يُعَدّ من الثمرة جاز[٢]، وإن لم يُعَدَّ منها لم يجز.

وأما الوصايا والشهادةُ على الكوافل بالقبوض[٣] وما يَلْحق بذلك - فإذا أوصى رجل رجلًا كتب ما مثالُه: هذا كتابُ وصيّة اكتتبه فلان، حذرًا من هجوم الموت عليه، وعملًا بالسنّة النبويّة، وامتثالًا لأمر[٤] رسول الله ﷺ في الندب إلى الوصيّة؛ وأشهد على نفسه في حال عقله، وتوَعُّكِ جسمه، وحضورِ حسِّه، وثبوت فهمِه، وجوازِ أمرِه؛ وهو عالم بأركان الإسلام، عارف بالحلال والحرام؛ متمسّك بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ؛ عالم بالموت وحقيقتِه والقبرِ ومسألتِه؛ متيقِّنٌ بالبعث والنشور[٥]، والصّراطِ والعبور[٦]؛ والجنّة والنّار، والخلودِ والاستقرار، غيرُ محتاج إلى تعليم ولا تكرار؛ أنَّ الذين له من الورثة المستحقِّين لميراثه المستوعِبين لجميعه: زوجتُه فلانةُ ابنةُ فلان، الّتي لم تزل في عصمته وعَقدِ نكاحِه إلى الآن؛ وأولادُه منها، وهم فلان وفلان وفلان، بغير شريكٍ لهم في ميراثه ولا حاجبٍ يحجبهم عن استكماله؛ وأَشهَد على نفسه أنَّ الّذي عليه لزوجته كذا وكذا ولفلان كذا وكذا، وأنَّ ذلك باقٍ في ذمّته إلى الآن؛ وأنّ الذي له من الدَّيْن على فلان كذا وكذا، وعلى فلان كذا وكذا، وأنَّ ذلك باقٍ في ذمّتهما إلى الآن، وأنّ الجاري في ملكِه كذا وكذا - ويعيِّن مالَهُ إنْ كان -؛ وأَشهَد على نفسه أنه دَبَّر[٧] مملوكَه فلانًا تدبيرًا صحيحًا شرعيًا، وقال له: «أنت حرّ بعد موتي، تخرج من ثلث مالي المفسوحِ لي في إخراجه»؛ وأشهد على نفسه أنّه أَوصَى فلانَ بنَ فلان، وجَعَل له أنه إذا نزل به حادث الموت الذي كتبه الله على خلقِه، وساوَى فيه بين بريّته، يحتاطُ على جميع موجوده، ويَقبِضه ويُحرِزه[٨]

---

(١) الكِرناف: بكسر الكاف وضمها: أصول السلف الغلاظ العرض التي إذا يبست صارت أمثال الأكتاف؛ أو هي أصول الكرب التي تبقى في الجذع بعد قطف السعف.

(٢) «جاز» أي جاز عقد المساقاة عليه.

(٣) القبوض: جمع قبض، وصح جمع المصدر هنا باعتبار عدد مراته.

(٤) يريد بهذا قوله ﷺ: «ما حقُّ امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلّا ووصيته مكتوبة عنده». (شرح المنهج).

(٥) نشر الله الميت ينشره نشرًا ونشورًا، أحياه. وفي التنزيل العزيز ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٥٩]. أي كيف نحييها. (اللسان ص ١٤٠).

(٦) العبور؛ من عَبَرَ. ويقال: عَبَرَ فلان إذا مات فهو عابر، كأنه عَبَرَ سبيل الحياة. (اللسان ص ١٩).

(٧) التدبير: عتق العبد عن دبر، أي تعليق عتقه بموت سيده.

(٨) يقال: أحرزت الشيء أُحْرِزُهُ إحرازًا إذا حفظته وضممته إليك وصنته عن الأخذ. (اللسان=

تحت يده، ثم يَبدأ من ثلث مالِه بتجهيزه وتغسيله وتكفينه ومواراته في قبره بمن يراه أهلًا لذلك على الأوضاع الشرعيّة، والسنّة النبويّة؛ ثم يسارعُ إلى قضاء ديونه الواجبة عليه، وإبراءِ ذمّته؛ ثم يُفرِز من ثلث مالِه كذا وكذا، ليَستأجرَ به رجلًا مشهورًا بالخير والصلاح، عارفًا بأداء الحجّ، ممن حجّ عن نفسه، ليَحُجَّ عنه، على أن ينشىء السفر من البلد الفلانيّ في البرّ والبحر على ما يراه، بِنِيَّة الحَجّ عن هذا الموصِي المذكور، فيُحْرِم من الميقات[1] الواجب عليه في طريقه، ويؤدّي عنه حِجّةَ الإسلام وعُمرتَه الواجبتين عليه شرعًا، مكمَّلتين بأركانهما وشروطهما وواجباتهما وسننهما على الأوضاع الشرعيّة، والسُّنن المرضيّة، وينوي في جميع أفعاله وقوعَ ذلك عن الموصِي المذكور؛ وللوصيِّ الناظرِ أنّ يسلِّم إليه المبلغَ المذكورَ في ابتداء سفره، ليكون عونًا له على هذه العبادة؛ وعلى المؤجَر أن يُشهِد على نفسه بأداء ذلك عن الموصِي ليثبت علمه عند الوصيّ المذكور؛ كلُّ ذلك من رأس مالِه؛ ثم يبيع ما يَرى بيعَه، ويَقبِض ثمنَه، ويَستخلِص ما لَه من دَين على أربابه[2]، ويحرِّر جميع ذلك؛ ثم يعود فيفرِّق من ثلث مالِه المفسوحِ له في إخراجه، فيقوِّم العبدَ المذكورَ ويُخرِج قيمتَه من ثلث ماله ويُثبِت عِتقَه.

وإن تَصدّق بشيء يذكره في هذا الموضع، وهو أن يقول: «ثم يُخرج لفلان كذا، ولفلان كذا، ويَقِف عنه الموضعَ الفلانيّ» ـ كلُّ ذلك على ما يعينه[3] ـ؛ ثم يقسم ثلثي المال وما يَفضُل من الثلث المفسوح[4] له في إخراجه على ورثته بالفريضة[5] الشرعيّة، فيسلِّم البالغَ الرشيدَ حصّتَه، ويُبقِي تحت يدِه للمحجور عليهم ما يتعيّن لهم من نقدٍ وعُروض[6] وعَقار وغيرِ ذلك، فيصرف لهم وعليهم على النظر والاحتياط إلى حين بلوغِهم وإيناس رشدِهم، ويُنفق عليهم بالمعروف، ويصرف عليهم ما تدعو الحاجة إلى صرفه؛ فمن بلغ منهم أشدَّه، وآنس الناظرُ عليه مِنه صلاحَه ورشدَه، سلَّم إليه ما عساه يَبقَى له تحت يده من ذلك، ويُشهِد عليه بقبضه؛ أَوصَى بجميع ذلك وصيّةً صحيحةً شرعيَّةً ثابتةً في حياته، معمولًا بها بعد وفاته، أقامه فيها مُقام نفسه، لعلمه بدِينه وعدالته وأمانته، وله أن يستنيب عنه في ذلك من يراه؛

= ص ١٢١).

(١) تقدم ذكر مواقيت الأحرام الزمانية والمكانية. (٢) أربابه: مفردها رب وهو الصديق.

(٣) «على ما يعيّنه» أي على الجهات التي يعينها. (٤) المفسوح: المباح له.

(٥) الفريضة، من فرض، وفرضت الشيء أفرِضُه فرضًا: أوجبته. ويقال: فريضة لأنها فرضتْ أي أُوجبت. (اللسان ص ٢٣٠).

(٦) العروض: الأمتعة التي لا يدخلها كيل ولا وزن ولا تكون حيوانًا ولا عقارًا.

فإنْ تعذّر تصرُّفُ فلانٍ الوصيِّ كان الوصيُّ في ذلك فلانًا، فإنْ تعذّر كان لحاكم[١] المسلمين بالمكان الفلانيّ.

إذا عَزَل الموصِي وصيَّه بغيره كتب: هذا ما أَشهَد عليه فلانٌ أنَّه عَزَل وصيَّه فلانًا عن وصيّته التي كان وصّاه بها عزلًا شرعيًّا، ورجع عنها؛ وأَشهَد عليه أنّه أسند وصيّتَه إلى فلان، وجعله وصيًّا، وأقامه مُقام نفسه؛ ويؤرّخ.

فصـــــل

إذا كلّف الحاكم الوصيَّ بإثبات أهليّته كتب على ظهر الوصيّة ما مثالُه: شهد الشهود الواضعو خطوطِهم آخرَ هذا المَحضر - وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ[٢] بما شهدوا به - أنّهم يعرفون فلانًا الوصيَّ المذكورَ باطنَه معرفةً صحيحةً شرعيّة؛ ويشهدون أنّه أهل لما فوّضه إليه فلان الموصِي باطنَه المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى من الوصيّة المشروحة باطنَه، وأنّه كافٍ للتصرّف، عدلٌ لهم وعليهم؛ يعلمون ذلك ويشهدون به بسؤال من جاز سؤالُه.

فصل في إسجال الوصيّة ومحضر الوصي

يكتب على ظهر الوصيّة: هذا ما أشهَد عليه سيّدُنا القاضي فلانُ الحاكمُ بالعمل[٣] الفلانيّ على نفسه الكريمة من حضر مجلسَ حُكمه وقضائه أنه ثبت عنده وصحّ لديه بعد صدور دعوى محرَّرة، مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع الشرعيّ، بشهادة من أَعلَم تحت رسم شهادته علامةَ الأداء، مضمون الوصيّة - ويذكر تاريخها - وبآخرها رسم شهادة العَدْلَيْن المذكورَيْن؛ وقال كلٌّ واحد من هذين العدلين: إنه شهد على الموصِي والوصيِّ بما نُسِب إلى كلٍّ منهما فيه، وهو بهما عارف، وإنَّ الموصِيَ تُوفِّيَ إلى رحمة الله تعالى في اليوم الفلانيّ، وما عَلِم مغيِّرًا لشهادته إلى أن أقامها عند الحاكم بشروط الأداء المعتبرة؛ وأَعلَم تحت رسم شهادة كل منهما علامةَ الأداء والتعريف على الرسم المعهود بما رأى معه قبولَ شهادتهما؛ وأشهَد عليه أيضًا أنّه ثبت عنده وصحّ لديه، بعد صدور دعوى محرَّرة، مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع المعتبَر الشرعيّ بشهادة عَدْلَيْن، هما فلان وفلان - عَرَفَهما فقَبِل شهادتَهما بما رأى

---

(١) «كان لحاكم» أي كان التصرف لحاكم المسلمين بالمكان الفلاني.
(٢) «الخبرة الباطنة» أي العلم بما خفي ودق من الأمور ولم يقتصر فيه على الظواهر.
(٣) المراد بالعمل: الجهة والناحية، والجمع أعمال.

معه قبولَها ـ جميعُ ما تَضمّنه المحضرُ المكتتَبُ في ذيل هذه الوصيّة ـ ويذكر مضمونه وتاريخه ـ وبآخره رسمُ شهادة الشاهدَيْن المذكورَيْن؛ وقال كلٌّ منهما: إنه بما شهد عالم وبفلان الوصيِّ المذكورِ عارف، وما عَلِم مغيِّرًا لشهادته إلى أنْ أقامها بشروط الأداء؛ وأعلَمَ تحت رسم شهادة كلٍّ منهما علامة الأداء والتعريف على الرسم المعهود في مثله؛ فلمّا تكامل ذلك كلُّه سأله مَنْ جازت مسألتُه، وسَوَّغَت[1] الشريعةُ إجابتَه الإشهادَ على نفسه الكريمة بثبوت ذلك لديه، والحُكمَ به، فأجابه إلى سؤاله، وأشهَد عليه بثبوت ذلك عنده على الوجه الشرعيّ، وأطلق يدَ الوصيِّ في تنفيذ الوصيّة المذكورة باطنه على الوجه المشروح فيها، وحَكَم بذلك وأمضاه، ونفَّذه وارتضاه وهو في ذلك كلِّه نافذُ القضاء والحكم ماضيهما، وأبقى كلَّ ذي حُجّة معتبرَة فيه على حجّته، وذلك بعد تقدّم الدعوى المسموعة وما ترتّب عليها بتاريخ كذا وكذا.

فصــــل

إذا قبضت الكافلة[2] نفقة ولدها كتب: أقرّت فلانة المرأة الكاملة ابنةُ فلان، كافلةُ ولدها فلان بنِ فلان الطفل، عند شهوده، بأنها قبضت وتسلّمت من فلان وصيِّ زوجِها فلانِ المذكورِ والدِ ولدها كذا وكذا، وذلك عوضًا[3] عن نفقة ولدها لبطنها المذكور، لمدّة كذا وكذا شهرًا، آخرُها يومُ تاريخِه؛ وصار ذلك بِيَدِها وقبضِها وحَوْزِها، من مال الموصِي المذكور؛ ويؤرّخ.

فصــــل

إذا خلف الموصِي زوجة مشتملة على حمل، فوضعت وأراد الوصيّ إثبات ذلك كتب: شهد من أثبت اسمَه آخرَه من الرجال الأحرار المسلمين، شهدوا شهادة لا يشكّون فيها ولا يرتابون، أنَّ فلانةً وضعت الحَمْل الّذي كانت مشتملة عليه من زوجها فلانِ المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى ولدًا ذَكرًا ـ واسمُه فلان ـ في اليوم الفلانيّ، وهو في قَيْد الحياة إلى الآن، وهم بها وبولدها عارفون؛ ولمّا سألهم من جاز سؤالُه أجابوا سؤالَه.

---

(١) سوّغ: جوّز.
(٢) الكافلة: مؤنث الكافل، وهي التي تعول إنسانًا وتنفق عليه.
(٣) عوضًا: بدلًا.

وأما العِتْق والتدبير وتعليق العتْق ـ فإذا أعتق السيّد عبدَه كتب: هذا ما أَشهَد عليه فلان أنّه أَعتق في يوم تاريخِه أو قَبْل تاريخِه مملوكَه فلانًا المقِرَّ له بالرّق والعبودية، المدعوَّ فلانًا[١]، الفلانيَّ الجنس، المسلم.

وإن كان دون البلوغ كتب: «مملوكَه المراهِق، الماسكَ بِيَدِه عند شهوده المدعوَّ فلانًا» ـ ويَذكُر حُلاه ـ عتقًا صحيحًا شرعيًا منجَّزًا، لوجه الله الكريم وطلب ثوابِه العميم، يوم يجزي الله المتصدّقين، ولا يضيع أجرَ المحسنين، ولقول النبي ﷺ: «من أَعتق رقبةً[٢] مؤمنةً أَعتق الله بكلِّ عضو منها عضوًا منه[٣] حتى الفرج بالفرج» صار به فلان حُرًّا من أحرار المسلمين، لا سبيل لأحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعيّ، فإنه لِمُعْتِقِه، ولِمَنْ يستحقُّه من بعده.

فإن أَعتَق نصف عبد وهو مُوسِرٌ كتب: أَعتَق جميعَ النصف من جميع العبد المقِرّ له بالرّق والعبوديّة؛ ويُكمّل العِتْق، ثم يكتب: «وأقرّ المُعْتِقُ بأنه في يومِ تاريخِه موسرٌ بقيمة النصف الثاني»؛ ويؤرّخ.

ثم يكتب خلفَ العتق تقويمَ حصّة الشريك وتكملةَ العتِقُ، ومثال ما يكتب: أقرّ فلان بأن شريكَه فلانًا أَعتق ما يملكه من العبد المذكور باطنَه، وهو النصف وهو موسر، وأنهما أحضرا رجلين خبيريْن بقيمة الرقيق، وهما فلان وفلان، وقَوَّما النصف من العبد المذكور يوم العتق بكذا وكذا، وأنهما رضيا قولهما، وعَلِما أنّها قيمةُ المثل يوم ذاك، وأنَّ فلانًا المُعْتِقَ دفع ذلك لشريكه، فقبَضَه منه وتَسلَّمه؛ وبحكُم ذلك عَتَقَ النصفُ الثاني من العبد على فلان عتْقًا شرعيًا، وصار العبد بكماله حرًّا من أحرار المسلمين، لا سبيل لأحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعيّ.

فصل

إذا علّق رجلٌ عِتْقَ عبده على موته ليخرج من رأس ماله كتب: أَقرَّ فلانٌ بأنّه علّق عِتقَ عبده فلانٍ على موته في آخر يوم من أيام حياته المتقدّمِ على وفاته، لاستكمال عِتْقِ عبده المذكورِ من رأس ماله؛ تَلفَّظ بذلك بتاريخ كذا.

---

(١) «المدعو فلانًا» ذكر ذلك بعد قوله فيما سبق «مملوكًا فلانًا» لأن العبد قد يكون مسمى باسم، ويدعى باسم آخر مشهور به. حيث جرت العادة أن يسموا مماليكهم بأسماء غير أسمائهم للتفاؤل ونحوه.

(٢) «رقبة» مجاز مرسل علاقته الجزئية. فذكر الجزء وأراد الكل، أي أراد الإنسان المملوك ذكرًا كان أو أنثى.

(٣) في رواية اللسان مادة «قسم»: وقى الله عزّ وجل بكل عضو منه عضوًا من النار.

فصــــل

إذا دبّر[١] رجل عبدَه كتب ما مثاله: دَبَّر فلان مملوكَه فلانًا، الفلانيَّ الجنس، المُقِرَّ له بالرّق والعبوديّة، تدبيرًا صحيحًا شرعيًا، وقال له: «متى مِتُّ فأنت حرّ بعد موتي، تخرج من ثلث مالي المفسوحِ لي في إخراجه»؛ فبحكم ذلك صار حكمه حكمَ المدبَّر؛ ويؤرّخ.

فإنْ أقرَّ الورثةُ بخروج المدبَّر من ثلث المال الموروث، أو أقرّ الوصيُّ بذلك كتب ما مثالُه: أقرّ فلان وفلان وفلان أولادُ فلان بأنَّ العبد المسمَّى باطنَه الّذي كان والدهم دبّره تدبيرًا شرعيًا، قوّمَه أهلُ الخبرة والمعرفة بقيمة الرقيق، فكانت قيمته كذا وكذا، وأنّها قيمة عادلة يكمل خروجها من ثلث مال متوفّاهم؛ وبحكم ذلك صار العبد حرًّا من أحرار المسلمين، لا سبيل لأحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعيُّ؛ ويؤرّخ.

وأما الكتابة[٢] ـ فإذا كاتب رجل عبده كتب ما مثالُه: كاتب فلانٌ مملوكَه الّذي بيَدِه وملكه، المُقِرَّ له بالرّق، المدعوَّ فلانًا، الفلانيَّ الجنس، المسلم لِمَا عَلِمَ فيه من الخير والديانة، والعفّة والأمانة؛ ولقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النّور: الآية ٣٣]، على مالٍ جملتُه كذا وكذا، يقوم به منجَّمًا، في سلخ كلِّ شهرٍ كذا وكذا من استقبال تاريخِه، وأَسقط عنه السيّدُ من ذلك قسطَ النّجم[٣] الأخير، وهو كذا وكذا وأبرأه منه، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: الآية ٣٣]؛ مكاتَبةً صحيحةً شرعيّة؛ وأَذِن له سيّدُه في التكسُّب والبيع والشراء؛ فمتى أَوفَى ذلك كان حرًّا من أحرار المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، لا سبيل لأحد عليه إلّا سبيل الولاء الشرعيّ؛ ومتى ما عَجَز ولو عن الدرهم الفرد كان باقيًا على حُكم العبوديّة، لقوله ﷺ: «المكاتَبُ قِنٌّ[٤] ما بَقِيَ عليه درهم»؛ وبمضمونه شُهِد بتاريخِ كذا وكذا.

---

(١) التدبير: تعليق العتق من المالك بموته.

(٢) إطلاق الكتابة على مكاتبة السيد لعبده كما هنا، إطلاق مجازي فيه تسامح واتساع، لأنه يكتب في الغالب للعبد على مولاه كتاب بالعتق عند أداء النجوم، ثم كثر الاستعمال حتى قال الفقهاء للكاتبة كتابة وإن لم يكتب شيئًا.

(٣) النجم: الوقت الذي فيه الأداء، وهو مجاز. (٤) القنّ: العبد.

فإنْ وفَّى العبد مال الكتابة كتب ما مثالُه: أقرَّ فلانٌ بأنّه قبض وتَسلَّم من مملوكه فلانٍ المسمَّى باطنَه جميعَ المبلغ المعيَّن باطنَه، وهو كذا وكذا، على حكم التنجيم باطنَه، وصار ذلك بيَدِه وقبضِه وحَوْزِه، فبحكم ذلك صار فلانٌ حرًّا من أحرار المسلمين، على ما تقدّم؛ ويؤرّخ.

فصـــل

وإنْ عجز[١] المكاتَب عن أداء ما كوتب عليه كتب ما مثالُه: حضر إلى شهوده في يوم تاريخِه فلان، وأشهدهم على نفسه أنه كان كاتب عبدَه المذكورَ باطنَه المكاتَبةَ المشروحةَ باطنَه إلى المدّة المعيَّنة باطنه، وزادت مدّةٌ ثانية، واستحقّ عليه كذا وكذا عن قسط كذا وكذا شهرًا، ولم يَقُم له بها، وصدّقه العبدُ على ذلك واعتَرَف بأنّه عاجز عن القيام بما حصل عليه، وأنّه سأله بعد الاستحقاق الصبرَ عليه إلى يوم تاريخِه ليسعى في تحصيل ما بقيَ عليه......[٢] لقوله ﷺ: «المكاتَبُ قِنٌّ ما بقِيَ عليه درهم»؛ وتَصادَقا على ذلك؛ ويؤرّخ.

وإنْ كانا تَحاكَما عند حاكم كتب ما مثالُه: حضر إلى شهوده في يومِ تاريخِه مَن ذَكَرَ أنّه حضر إلى مجلس الحُكم عند سيّدنا الفقيرِ إلى الله تعالى فلان الحَاكِم بالعمل الفلانيّ، كلٌّ[٣] واحد من فلان بن فلان ومملوكِه، وادَّعى فلان المبتدأُ باسمه على مملوكه عند الحاكم المذكور أنّه كاتبه على مالٍ جملتُه كذا وكذا؛ فمتى أَوفَى ذلك كان حرًّا من أحرار المسلمين؛ ومتى عجز عن أدائه ووفائه ولو عن درهم واحد كان قِنًّا باقيًا على العبوديّة، وأنّ المدّة المذكورة[٤] انقضت، فاستحقّ عليه كذا وكذا درهمًا، ولم يَقُم له بها؛ وأنه صَبَر عليه مدّة ثانية، آخرُها يومُ تاريخِه، ولم يَقم له بشيء منها؛ فسأل الحاكمُ المملوكَ عن ذلك، فصدّق سيّدَه في دعواه، واعتَرَف بأنه عاجز عن الوفاء، وأنّه لم يقدر على تحصيل ما بقِيَ؛ فحينئذٍ سألا الحاكم المذكورَ الحكمَ لهما بما يوجبه الشرع الشريف، فأَذِنَ له[٥] الحاكم المذكورُ في فسخ المكاتَبة

---

(١) عجز: العجز: نقيض الحزم، وهو الضعف. (اللسان ص ٥٨).

(٢) موضع هذه النقط كلام ساقط في الأصل يفيد أن السيد صبر على العبد وأمهله إلى الآن فلم يقدر على تحصيل ما بقي عليه وعجز عن ذلك، فيحكم ما بقي عليه فسخ السيد المكاتبة فسخًا شرعيًا؛ وإن هذا الكلام هو مقتضى الاستدلال بالحديث الآتي بعد كما لا يخفى.

(٣) «كل» بدل من «من» السابقة في قوله «من ذَكَرَ».

(٤) لم نذكر المدة قبل ذلك في هذا المكتوب؛ فلعله يريد أنها مذكورة في عقد المكاتبة.

(٥) له: أي للسيد.

المذكورة، لقول النبيّ ﷺ: «المكاتَبُ قِنٌّ ما بَقِيَ عليه درهم»؛ فحينئذٍ فسخ السيّدُ المكاتَبةَ المذكورةَ فسخًا شرعيًا، وأَبطَل حكمها، وأُشهِد عليهما بذلك بتاريخِ كذا وكذا.

وأما النكاح وما يتعلّق به ـ فإذا زوّج الوالد ابنتَه بإذنها أو زوّجها وهي غير بالغ كتب ما مثالُه: هذا ما أصدَق فلانٌ فلانةَ البِكْرَ البالغَ ابنةَ فلان، صداقًا تزوّجها به، على بركة الله تعالى وعونه، وحسنِ توفيقه ومنّه مَلَك به عِصمتَها[١]، واستدام به ـ إنْ شاء الله ـ صُحْبَتَها؛ مَبلغُه كذا وكذا، الحالُ من ذلك كذا وكذا، قبضته الزوجة وتسلَّمَتْه، أو قبَضَه والدُ الزوجة لها بإذنها ـ وإن كانت تحت حَجْره كَتَب: «قَبضَه للزوجة والدُها، ليصرفه في مصالحها» ـ وباقي ذلك ـ وهو كذا وكذا ـ يقوم به منجَّمًا، في سلخ[٢] كلِّ سنةٍ من استقبال تاريخِه كذا وكذا ـ وإن كان الصداق بكماله على حُكْم الحلول كَتَب: «عَجَّل لها الزوجُ من ذلك كذا وكذا، وباقي ذلك في ذمّته على حُكْم الحلول» ـ وَوَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك والدُها المذكور ـ ويحلّى[٣] في هذا الموضع إن كان ممّن لا يُعرَف ـ بحقِّ وَلايته عليها شرعًا، وبإذنها له في ذلك ورضاها، بشهادة مَنْ يعيِّنُه في رسم شهادته، أو على ما ذَكَر ـ وإن كانت دون البلوغ كَتَب: «بحقِّ وَلايته عليها شرعًا، لِما رأى لها في ذلك من الحظّ والمصلحة وحُسنِ النّظر» ـ بعد أن وَضَح للقاضي فلانٍ عاقدِ الأنكحة بالمكان الفلانيّ بالتولية الشرعيّة عن القاضي فلانٍ أن الزوجةَ المذكورةَ بِكرٌ بالغ، خاليةٌ من موانع النّكاح الشرعيّة، وأنّها ممّن يجوز العَقْدُ عليها شرعًا، وأنَّ أباها المذكورَ مستحِقُّ الوَلايةِ عليها شرعًا بشهادة جماعةٍ[٤] من المسلمين وهم فلانٌ وفلان؛ فتَقدّم[٥] حينئذٍ بكتابته، وزوّجها والدُها المذكورُ من الزوج المذكورِ على الصّداق المعيَّن، وقَبِله الزوج لنفسه ورضِيَه؛ والله تعالى مع المتّقين؛ ويؤرّخ.

وإنِ اعتَرَف الأبُ برشدها كَتَب: واعترف والدُ الزوجة المذكورةِ بأنَّ ابنتَه رشيدة، جائزةُ التصرّف، لا حَجْرَ عليها.

---

(١) عصم: العصمة في كلام العرب: المنع. وعِصْمَةُ الله عبدَهُ: أي يعصمه مما يوبقه. العصمة: التمسك. (اللسان ص ٢٤٦).

(٢) انسلخ النهار من الليل: خرج منه خروجًا لا يبقى معه شيء من ضوئه لأن النهار مُكوَّر على الليل. والسلخ: الخروج.

(٣) يحلّى: يوسف؛ والحلية: الصفة والهيئة.

(٤) يريد بالجماعة هنا ما فوق الواحد، إذا لم يذكر بعد اثنين.

(٥) يقال: «تقدم بكذا» أي أمر به.

وإنْ كان العَقْد لم يَحضُرْه كاشفُ[١] حاكم كتَب إلى عند[٢] «وبإذنها له في ذلك ورضاها» وباشَرَ والدُها المذكورُ عقدَ النكاح بنفسه، وزوَّجها من خاطبها المُصْدِق على الصداق المذكور، وقَبِله الزوجُ لنفسه: ويؤرّخ.

وإنْ زوَّجها العاقد بإذنها وإذن أبيها، أو بإذنها خاصّةً إذا لم يكن لها وليٌّ كَتَب: ووَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك القاضي فلان عاقدُ الأنكحة الشرعيّة بالتولية الشرعيّة عن فلان[٣]، بإذنها وإذن والدِها له في ذلك ورضاهما، بعد أن وَضَح عند فلانٍ العاقدِ أنّها بِكرٌ بالغ، كما تقدّم.

وإن كان الزوج ممّن مسه[٤] الرّقُّ[٥] وعَتَقَ كتب: وعَلِمَتِ الزوجةُ المذكورةُ ووالدُها أنّ الزوج المذكورَ مسّه الرقُّ وعَتَقَ، ورضيا بذلك.

وإنْ كانت الزوجة بِكْرًا وزوَّجها من له الوَلايةُ عليها شرعًا، كالأبِ أو الجدِّ الأعلى، أو الأخِ، أو ابنِ الأخ، أو العمّ، أو ابنِ العمّ، أو المُعْتِق، أوِ ابنِه أو وليِّه، كَتَب: ووَلِيَ تزويجَها بذلك فلان ـ ويَذكُر نسبتَه منها[٦] ـ بحقِّ وَلايته عليها شرعًا، وبإذنها له في ذلك ورضاها.

وإن كانوا جماعةً إخوةً كتب اسمَ أَمْثِلهم[٧]، بإذنها له، وإذْنِ بقيّة إخوتها الأشقاء ـ وهم فلانٌ وفلان ـ له، وإذْنِها لإخوتها في هذا الإذن.

وإنْ زوَّجها الحاكمُ بإذنِها وإذْنِ أوليائها أو أحدِهم ذُكِرَ[٨]، بشهادة من يعيِّنه في رسم شهادته آخرَه.

وإنْ كانت الزوجة ثيِّبًا كتب كما تقدّم، ويكتب: بعد أن حضر إلى العاقد المذكورِ من عرَّفها عنده، وهما فلانٌ وفلان، شهِدا أنّهما يعرفان هذه الزوجةَ معرفةً شرعيّة، وأنّها خاليةٌ من جميع موانع النكاح الشرعيّة، ومنذ طلّقها زوجُها فلانٌ الذي

---

(١) سياق الكلام يدل على أن المراد بكاشف الحاكم هنا: متولي عقد الأنكحة من قبل الحاكم؛ ولم يذكره القلقشندي في صبح الأعشى ضمن أرباب الوظائف الذين ذكرهم في كتابه؛ ولعل هذه التسمية مأخوذة من الكشف بمعنى الإظهار، لأنه بمباشرته عقود الأنكحة يظهر صحتها أو فسادها من جهة الشرح.

(٢) في كتب القواعد أن جرّ «عِند» «بإلى» ـ كما هنا ـ لحن؛ لأن «عند» من الظروف التي تخرج عن الظرفية إلّا إلى الجرّ «بمن».

(٣) عن فلان: أي عن القاضي فلان.

(٤) مسّه: لزمه وأصابه ولحق به.

(٥) الرق: العبودية.

(٦) «نسبته منها» أي قرابته منها.

(٧) الأمثل: الأفضل.

(٨) ذُكِرَ: بالبناء للمجهول، أي ذكر هذا الإذن.

دخل بها وأصابها، الطلقةَ الأولى الخُلع[١]، أو الثانية، أو الثلاث، أو الرجعيَّةَ الّتي انقضت عدّتُها ولم يراجعها، المسطَّرةَ على ظهر صداقها أو حاشيتِه، المؤرَّخةَ بكذا وكذا، لم تتّصلْ بزوجٍ غيرِه إلى يومِ تاريخِه.

وإنْ طلّقها قبل الدخول والإصابة كُتِب ونُبِّه عليه.

وإنْ كان زوجها تُوُفِّيَ عنها كتب: ومنذ تُوُفِّيَ عنها زوجها فلانٌ من مدّة تزيد على أربعة أشهر وعشرة أيام لم تتّصلْ بعده بزوجٍ إلى الآن.

وإنْ طلَّقها ومات عنها وهي حامل ووضعت كتب: وإنَّ زوجَها طلّقها، وتُوُفِّيَ عنها، وهي مشتمِلةٌ منه على حَمل، ووضعَتْه، وانقضت عدّتُها بحُكْم وضعِها.

وإنْ كان عن فسخ[٢] كتب: ومنذ فَسَخَ الحاكمُ فلانٌ نكاحَها من زوجها فلانٍ في التاريخ الفلانيِّ انقضت عدّتُها، لم تتّصلْ بزوجٍ إلى يومِ تاريخِه.

وإنْ راجع رجل امرأته من طلقة أو طلقتين كتب: هذا ما أصدَق فلانٌ مطلَّقتَه الطلقةَ الأولى الخُلْعَ، أو الثانية، المؤرَّخةَ قَرِينته[٣] أو باطنَه، أو المكتتَبةَ في براءة محرَّرةٍ تاريخُها كذا وكذا.

وإنْ زوَّجها الحاكم عند غيبة وليّها نبّه عليها[٤] بأن يكتب: ووَلِيَ تزويجَها إيّاه فلان[٥]، بعد أن وَضَح عنده بشهادة فلانٍ وفلانٍ خُلُوُّها من الموانع الشرعيّة؛ وأنّه لا وليّ لها حاضرٌ سوى الحاكم العزيز، بحكم غيبة وليِّها فلان - ويعيِّن نسبته منها[٦] - في مسافة تُقصَر فيها الصلاة، وأنَّ هذا الزوجَ كفْءٌ لها الكفاءةَ الرعيَّةَ في الدِّين والنَّسب والحرّيّة؛ فحينئذٍ زوَّجها الحاكمُ المذكورُ من الزوج المذكورِ على الصداق المعيَّن، وقَبِله الزوج لنفسه وَرَضِيَه؛ ويؤرّخ.

وإنْ زَوَّج الحاكمُ امرأةً عَضَلها[٧] وليُّها وقد دُعيَتْ إلى كفءٍ كتب: ووَلِيَ تزويجَها إياه بذلك القاضي فلان، بإذنها له في ذلك ورضاها وبحكم أنَّ والدَها

(١) «الطلقة الأولى الخُلْع» أي الحاصلة بالخلع؛ والخَلْع طلاق بائن عند أبي حنيفة ومالك. (انظر اللسان).

(٢) «وإن كان عن فسخ» أي وإن كان الفراق عن فسخ.

(٣) «قرينته»: أي مقارنة لكتاب الصداق.

(٤) «عليها» أي على الغيبة.

(٥) «فلان» أي القاضي فلان.

(٦) نسبته منها: أي قرابته منها.

(٧) عضلها: (بفتح أولها وثانيها وثالثها) منعها من التزويج ظلمًا.

المذكورَ حضر إلى القاضي فلان، وسألته ابنتُه المذكورةُ أنْ يزوّجها من الزوج المذكورِ لَمَّا ثبتت كفاءتُه عند الحاكم، فامتنع، فوعظه القاضي فلان وأعلمه بما لَهُ من الأجْر في تزويجها، وما عليه من الإثم في المنع، فلم يرجع إلى عظته وأصرّ على الامتناع، وعَضَلَها العضْلَ الشرعيّ؛ وقال بمحضر من شهوده: «عضلتُها فلا أزوّجها»؛ وبعد أن حضر إلى الحاكم المذكور كلُّ واحد من فلانٍ وفلان وشهدا عنده أنَّ الزوجةَ المذكورةَ خاليةٌ من جميع موانع النكاح الشرعيّة، وأنَّ أباها المذكورَ عَضَلَها العَضْلَ الشرعيّ، وأنَّ هذا كفءٌ لها الكفاءةَ الشرعيَّةَ في النَّسب والدِّين والصناعة[1] والحرّيّة؛ فلمَّا وَضَح له ذلك من أمرها أذِنَ بكَتْبِه فكُتِب وزوّجها من الزوج المذكورِ على الصداق المعيَّن، وقَبِله الزوج لنفسه ورضِيَه.

فصــل

إذا زُوّج الصغيرُ أو المراهِقُ للصغيرة أو المعصِرةِ[2] كتب ما مثالُه: هذا ما أصدَق فلانٌ عن ولده لصلبه فلان - ويَذكُر سنَّه - الّذي تحت حَجْره وكَفالته ووَلاية نظرِه، لِما رأى له في ذلك من الحظِّ والمصلحة في دينه ودنياه فلانةَ البِكر - ويعيِّن سنَّها - ابنةَ فلانٍ التي تحت حَجْر والدها المذكورِ وكَفالته ووَلاية نظرِه، لِما رأى لها في ذلك من الحظِّ والمصلحة، صداقًا مَبلُغه كذا وكذا عَجَّل لها من ذلك من مالِه عن ولده المذكورِ كذا وكذا، قبَضَه منه والدُها لابنتِه المذكورةِ ليصرفه في مصالحها - وإن كان من مال ولده كتب: «من مالِ ولدِه المذكورِ الّذي تحت يده وحَوْطِه[3]» - وباقي ذلك - وهو كذا وكذا - يقوم به الوليُّ من مالِه عن ولده، في سلخ كلِّ سنةٍ من استقبال العقد بينهما كذا وكذا؛ أو من مالِ ولده المذكورِ الّذي تحت يده وحَوْزِه؛ ووَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك والدُها المذكور، بحقِّ وَلايته عليها شرعًا، بعد أن وَضَح للقاضي فلانٍ أنّها بِكرٌ مُعصِر لم يُعقَد عليها عَقْدٌ إلى يوم تاريخِه؛ أو يكتب: «خاليةٌ من جميع موانع النكاح الشرعية»؛ وأنَّ أباها مستحِقُّ الوَلاية عليها شرعًا، بشهادة فلانٍ وفلان؛ فلمّا وَضَح ذلك عنده أذِنَ بكَتْبه فكُتِب، وزوّجها والدُها من الزوج المذكورِ على الصداق المعيَّن، وقَبِله والد الزوج لولده قبولًا شرعيًّا.

(١) المراد بالصناعة: الحرفة.
(٢) المعصرة: هي التي قاربت الحيض، لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الظلام.
(٣) الحوط: الحفظ.

وإنْ كان من مالِ الصغير كتب في آخر الكتاب: «وشهِدَتِ البيّنةُ أنَّ المهر المذكورَ مَهْرُ مثلها على مثله، لا حَيْفَ في ذلك ولا شطط» ويؤرّخ.

فصل في صِداق[١] المحجور عليه من قِبَل الحاكم

يكتب ما مثالُه: هذا ما أَصْدَق فلان المحجورُ عليه من قِبَل الحُكم العزيز عندما دعت حاجتُه إلى النكاح، وتاقت نفسُه إليه، وذَكَرَ ذلك للقاضي فلانِ أمينِ الحكم بمحضرٍ من شهوده، وسأله الإذنَ له في ذلك، فأَذِنَ له فيه بالصِّداق الآتي ذكرُه الإذنَ الصحيحَ الشرعيّ، فلانةَ[٢] ابنَةَ فلان، وتَزَوَّجَها به[٣]؛ أَصْدَقها على بركة الله تعالى صِداقًا مبلغُه كذا وكذا، الحالُّ من ذلك كذا وكذا، قَبَضَتْهُ الزوجةُ المذكورةُ من القاضي فلانِ أمينِ الحكم العزيز، من مالِ هذا الزوج الذي له تحت يدِه وصار بِيَدِها وقَبْضِها وحَوْزِها، وباقي الصِّداق ـ وهو كذا وكذا ـ مقسَّط في سلخِ كلِّ سنةٍ كذا وكذا، ووَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك...... ويُكمّل؛ ويكتب في آخره: وشهدتِ البيّنةُ أنَّ الصِّداق المذكورَ مَهْرُ مِثْلها على مِثْله.

وإنْ تزوّج رجل امرأة محجورًا عليها[٤] كتب في القبض: «بِيَدِ الوصيِّ أو أمينِ الحكم، ليصرفه في مصالحها». ويكتب في آخره: «وشهدتِ البيّنة أنَّ هذا المَهْرَ مَهْرُ المثل[٥]».

فصـــل

إذا أَصدَق رجلٌ عن موكِّله كتب ما مثالُه: هذا ما أَصدَق فلانٌ عن موكِّله فلانٍ بإذنه له في ذلك وتوكيله ـ ويشرح الوَكالةَ إن كانت مفوّضةً أو مقيّدةً على الزوجة بعينها ـ يشهد بذلك على الموكِّل من يعيِّنه في رسم شهادته من شهود هذا العَقْد، فلانةَ البِكرَ البالغ؛ أو المرأةَ الكاملة؛ ويُكمّل. ويكتب في القبول: «وقَبِل هذا الوكيلُ المذكورُ عَقْدَ هذا النكاح لموكِّله فلانٍ على الصِّداق المعيَّن قبولًا شرعيًّا» ويؤرّخ.

---

(١) الصداق: مهر المرأة.
(٢) «فلانة» بالنصب: مفعول لقوله: «أصدق» السابق.
(٣) «به» أي بالصداق.
(٤) محجورًا عليها: أي ممنوعة من التصرف بمالها.
(٥) مهر المثل شرعًا مهر امرأة مثلها.

فصـــل

إذا تزوّج الحرُّ أَمَةً كتب: هذا ما أَصْدَق فلانٌ فلانةَ مملوكةَ فلان المقِرَّة لسيّدها بالرقّ والعبوديّة، عندما خشِيَ على نفسه العَنت[١]، وخاف الوقوعَ في المحظور لعدم الطَّول، وأنّه ليس في عصمته[٢] زوجة، ولا يقدر على صِداق حرّة على ما شَهِد له به مَنْ يُعَيِّنُه في رسم شهادته، صِداقًا تَزوَّجها به، مَبلغُه كذا وكذا ووَلِيَ تزويجَها إيّاه بذلك سيّدُها المذكورُ بحقّ وَلايته عليها شرعًا - ولا يُفتقَر إلى إذنها - ويُكمّل الصِداق. ويكتب: «وشهدتِ البيّنةُ أنّ الزوجَ المذكورَ فقير ليس له موجودٌ ظاهر[٣]، ولا مالٌ باطن[٤]، ولا له قدرةٌ على نكاح حرّة، ولا في عصمته زوجة، وأنّه عادمٌ للطَّوْلِ[٥]».

وإنْ تزوّج العبدُ[٦] حرّةً كتب: هذا ما أَصدَق فلانٌ مملوكُ فلان، المُقِرُّ لسيّدِه بالرقّ والعبوديّة، بسؤال منه لسيّده، وإذْنِ سيّدِه له في ذلك الإذنَ الصحيحَ الشرعيّ، وشَهِد عليه بذلك شهودُ هذا الكتاب، فلانةَ ابنةَ فلان، صِداقًا تَزوَّجها به، جملتُه كذا وكذا، الحالُّ من ذلك كذا وكذا، قبضتْهُ الزوجة من مالِ سيّدِه الّذي بِيَدِه بإذْن سيّدِه له في ذلك، وباقي ذلك - وهو كذا وكذا - يقوم به سيّدُه لها عن عبده من مالِه، في سلخ كلّ سنةٍ تمضِي من تاريخ العقد كذا وكذا - وإن كان من مالِ العبد من كسبِه[٧] ذَكَرَه - وأَذِنَ له سيّدُه في السعي والتكسّب والبيعِ والشراء، والأخذِ والعطاء، ووَلِيَ تزويجَها...... ويُكمّل.

ويكتب في آخره: «وعلمتِ الزوجةُ المذكورةُ أنّ الزوج مملوك، ورضيَتْ بذلك». وإن كان لهما أولياءُ كُتِب رضاهم.

---

(١) العنت: الفجور والزنا.

(٢) عصم: العصمة في كلام العرب: المنع. والعصمة: الحفظ.

(٣) ظاهر: بائن وواضح.

(٤) باطن: مستتر.

(٥) الطّول: العطاء والغنى والسعة.

(٦) عبد: العبد: الإنسان، حرّا كان أو رقيقًا، أي أنه عبد الله. والعبد هنا، هو الخاضع والذليل. (اللسان).

(٧) كسب: الكسْبُ: طلب الرزق. قال سيبويه: كَسَبَ: أصاب واكتسب: تصرف واجتهد. (التاج).

فصــل

وإنْ زوَّج السيّدُ جاريتَه لعبده كتب ما مثالُه: هذا كتاب تزويج اكتتبه فلانٌ لعبده فلانٍ مِن أمَتِه فلانةَ، المُقِرُّ له كلٌّ منهما بالرقّ والعبوديّة، وهو أنّه أَشهَدَ على نفسه أنّه زوَّج عبدَه المذكورَ لأَمتِه المذكورةِ تزويجًا صحيحًا شرعيًّا بسؤال كلٍّ منهما لسيّدِه المذكورِ في ذلك، وقَبِل الزوج المذكورُ من سيّده عَقْدَ هذا النكاح لنفسه قبولًا شرعيًّا. ولا يعيّن الصّداق؛ ولا اعتبارَ بإذنها؛ وإنْ كشفه[١] عاقدٌ كتب كما تقدّم.

فصــل

وإنْ تزوّج رجلٌ أخرسُ بامرأةٍ ناطقةٍ كتب: هذا ما أَصْدَق فلانٌ الأخرسُ اللّسان، الأصمُّ الآذان[٢]، العاقل، الذي يَفهم ما يجب عليه شرعًا، كلُّ ذلك بالإشارة المفهومة عنه، يعلمها منه شهودُه، ولا ينكرها منه من يعلمها عنه فلانةَ ابنةَ فلان، ويُكمّل على ما تقدّم.

ويكتب عند القبول: «وقَبِل الزوجُ لنفسه هذا العَقْدَ بالإشارة المفهومةِ عنه».

وإنْ كانا أخْرَسَيْن كتب: هذا ما أَصْدَق فلانٌ فلانةَ، وكلٌّ منهما أخرس لا ينطق بلسانه، أصمُّ لا يَسمع بآذانه، صحيح العقل والبصر، عالمٌ بما يجب عليه شرعًا، كلُّ ذلك بالإشارة المفهومةِ عنه، يفهمها مِن كلٍّ منهما شهودُ هذا العقد صِداقًا تزوَّجها به؛ ويُكمّل كما تقدّم.

وإنْ كان الزوج مجبوبًا[٣] كتب في آخر الكتاب: «وعلمتِ الزوجةُ أنَّ الزوج مجبوبٌ، لا قدرةَ له على النكاح، ورضيَتْ به».

وأمّا إقرارُ الزوجين بالزوجيّة واعترافُ الزوج بمبلغ الصّداق وما يتصل بذلك من فرض الزوجة والإشهادِ عليها بقبض الكسوة فيحتاج في إقرار الزوجين بالزوجيّة إلى تسطير[٤] محضر بأنّهما زوجان متناكحان ويشهد فيه جماعة من المسلمين الذين

---

(١) «كشفه عاقد» أي حضره متولي عقد الأنكحة من قبل الحاكم ليكشف عن صحة العقد أو فساده من جهة الشرع، كما هو الظاهر من هذه العبارة.

(٢) الآذان: جمع أُذن، والمراد بقوله: الأصم الأذنين، ولكن العرب أكثروا استعمال الجمع في النثر والشعر معًا.

(٣) المجبوب: من لا قدرة له على النكاح.

(٤) تسطير: كتابة، وسطر: كتب، وسطرها: ألفها.

يعلمون ذلك، ثم يكتب كتاب الإقرار وصورتُه: أَقرَّ فلانٌ وفلانةُ بأنّهما زوجان متناكحان بنكاح صحيح شرعيّ، وأنَّ الزوج منهما دخل بالزوجة وأصابها، وأولدها[1] على فراشه ولدًا ذَكَرًا يسمَّى فلانًا ـ إن كان ـ وأنَّ الزوجة المذكورةَ لم تَبِنْ من الزوج المذكورِ بطلاقٍ بائنٍ ولا رجعيٍّ ولا فَسْخ ولا غيرِه؛ ومنذ تزوَّجها إلى الآن أحكامُ الزوجيّة قائمةٌ بينهما، وتَصادَقا على ذلك، واعترف الزوج بأنَّ في ذمّته مبلغَ صِداقِها عليه الذي عُدِم[2]، وهو كذا وكذا.

وإنْ كشفه عاقدٌ كتب: وذلك بعد أنْ وَضَح للعاقد فلانٍ بشهادة فلانٍ وفلانٍ مضمونُ ما أقرّا به فيه؛ فحينئذٍ أَذِنَ في كَتْبِه؛ ويؤرِّخ.

فصل في فرض زوجة

إنْ فرض الرجل على نفسه كتب: فرضٌ قرّره على نفسه فلانٌ لزوجته فلانةَ التي دخل بها وأصابها، واستولدها على فراشه ـ إن كان ذلك ـ لِما تحتاج إليه من طعامٍ وإدام وماءٍ وزيتٍ وصابونِ حمّام، في غرّة كلِّ يومٍ كذا وكذا حَسَب ما اتّفقا على ذلك وتراضَيا عليه، وذلك خارجٌ عمّا يوجبه الشرع الشريف لها.

وإنْ قرّره حاكمٌ كتب: هذا ما أَشهَدَ على نفسه القاضي فلانٌ أنه فَرَضَ على فلانٍ لزوجته فلانةَ لِما تحتاج إليه من نفقةٍ ومؤونةٍ وماءِ زيتٍ وصابونِ حمّام في كلِّ يومٍ كذا وكذا، وذلك خارجٌ عما يلزمه لها من اللوازم الشرعيَّة غير ذلك؛ قرّر ذلك الحاكمُ عليه، وأوجبه في مالِه، ورضيت الزوجةُ به.

فصـــل

وإنْ قبضتِ المرأةُ كسوتَها[3] كتب: أقرّتْ فلانةُ بأنّها قبضت وتسلّمت من زوجها فلانٍ كُسوتَها الواجبةَ عليه شرعًا، وهي ثوبٌ وسراويلُ ومِقْنَعة[4]، وذلك عن فصل واحد، أوّله يومُ تاريخِه، وصار ذلك بِيَدِها وقبضِها وحَوْزِها. وكذلك إنْ قبضتْ كُسوةَ ولدِها الطفل.

وأما الطلاق وما يتصل به من الفروض الواجبة ـ فإذا طلّق الرجل زوجته قبل الدخول كتب: طلّق الزوجُ المسمَّى باطنَه فلانٌ زوجتَه المسمّاةَ باطنَه فلانةَ قبل الدخول

(١) المراد بقوله أولدها أي استولدها. (٢) عُدِم: أي عدم كتابة الشاهد به.
(٣) الكسوة: ما يكسى به الجسم، أي اللباس.
(٤) المقنعة: بكسر الميم: ما تقنع به المرأة رأسها ومحاسنها.

بها والإصابة، طلقةً واحدة بانت منه بذلك، بحكم أنّه لم يدخل بها ولم يصِبْها، وبحكم ذلك شُطِّرَ[١] الصِداقُ المعقودُ عليه باطنَه نصفين سقط عنه النصف، وبقِيَ النصف الثاني.

فإنْ طلّق الزوجُ الزوجةَ قبل الدخول بها على ما يَتشطَّر لها من الصّداق كتب ما مثالُه: سألتِ الزوجةُ المسمّاةُ باطنَه فلانةُ زوجَها فلانًا الذي لم يدخل بها ولم يصِبْها ـ وتَصادَقا على ذلك ـ أن يخلعها من عصمته وعقدِ نكاحِه على ما يتشطر من الصّداق باطنَه، أو على ما يتّفقان عليه، فأجابها إلى سؤالها وقَبِل منها العوضَ المذكور، وطلّقها عليه الطلقةَ المسؤولة، بانت منه بذلك وملكت نفسَها عليه، وبحكم ذلك شُطِّرَ الصّداقُ المعقودُ عليه باطنَه نصفين سقط عنه النصف، وبرئت ذمّتُه من النصف الثاني بحكم هذا.

وإن سأل الأب[٢] أو غيرُه الزوجَ أنْ يطلّق زوجَتَهُ على نظير[٣] ما بذله له في ذمّته[٤]، ثم أحال المطلّقُ مطلَّقتَه بذلك كتب: سأل فلانٌ فلانًا ـ وهو الزوج المسمّى باطنَه ـ أنْ يخلع زوجتَه فلانةَ المسمّاةَ باطنَه التي لم يدخل بها ولم يصبْها؛ أو التي دخل بها وأصابها، بطلقة واحدة: أولى أو ثانية، أو ثالثة، على ما بذله[٥] في ذمّته، وهو كذا وكذا، من ذلك ما هو حالٌّ كذا وكذا، وما هو مؤجَّلٌ كذا وكذا؛ فأجابه إلى سؤاله، وقَبِل منه العوضَ المذكور وطلّق زوجته طلقةً واحدةً أولى خلعًا بانت بها منه، وملكت نفسَها عليه، وبحكم هذا الطلاق شُطِّرَ الصّداق المذكورُ نصفين، سقط عنه النصف، وبقِيَ في ذمّته النصف الثاني، وأقرّ المطلّقُ بأنّه قبض من السائل مبلغَ الحالِّ الذي اختلَعَ له به واعترف أيضًا بأنّه قبض نِصفَ المعجَّلِ باطنه، وصار بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ ثم بعد تمام ذلك ولزومه أحال المطلّقُ المذكورُ مطلَّقتَه المذكورةَ على أبيها بالمبلغ المؤجَّل وهو نظيرُ نِصْفِ مؤخَّرِ الصّداق المعيَّنِ باطنَه في قدرِه وجنسه وصفته واستحقاقه حَوالةً شرعيّة، قَبِلها منه لها والدُها، بحكم أنّها تحت حَجْره ووَلايةِ نظرِه، قبولًا شرعيًا، وبحكم ذلك وجبت لها مطالَبَة أبيها.

(١) شُطِّرَ: قُسِّمَ.
(٢) الأب: أي أب الزوجة.
(٣) نظير: شبيه.
(٤) «وما بذله له في ذمته»، أي ما سماه الزوج من الصداق لأبي الزوجة ولم يدفعه.
(٥) «على ما بذله» أي على نظير ما بذله.

فإنْ طلّقَ طلقةً رجعيّة بعد الدخول كتب: طلّق الزوجُ المسمّى باطنَه فلانٌ زوجتَه المسمّاةَ باطنَه فلانة، التي دخل بها وأصابها، طلقةً واحدة أو ثانيةً رجعيّة، يملك بها رجعتَها ما لم تنقض عدّتُها، فإذا انقضتْ فلا سبيل له عليها ولا رَجْعَةَ إلّا بأمرها ورضاها وعقدٍ جديدٍ لها عليه، على ما يوجبه الشرع الشريف.

وإنِ استرجعها منها[١] كتب: ثم بعد ذلك استرجع المطلّقُ المذكورُ مطلّقتَه؛ أو أقرّ بأنه استرجع مطلّقته من الطلقة الأولى، أو الثانية، استرجاعًا شرعيًا، وردَّها، وأمسكها، وصار حكمها حكمَ الزوجات؛ ويؤرّخ.

فإنْ طلّقها ثلاثًا كتب: طلّق فلانٌ زوجتَه فلانةَ الّتي دخل بها وأصابها طلاقًا ثلاثًا، حُرِّمت عليه بذلك، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٠].

فإن اختلعت المرأة من زوجها على أن يطلّقها كتب: سألت فلانةُ زوجَها فلانًا الذي دخل بها وأصابها أن يخلعها[٢] من عصمته وعقدِ نكاحِه على مؤخَّر صِداقِها عليه، الشاهدِ به كِتابُه[٣] المتعذِّرِ حضورُه، وهو كذا وكذا، فأجابها إلى سؤالها، وقَبِل منها العوضَ المذكور، وطلّقها عليه طلقةً واحدةً أولى خُلْعًا، أو ثانيةً خُلْعًا، أو ثالثة، بانت منه بذلك، وملكت نفسَها عليه، وأقرّت بأنّها لا تستحِقّ عليه صِداقًا، ولا بقيّةً من صِداق، ولا نفقةً ولا كُسْوةً ولا حقًّا من حقوق الزوجيّة كلِّها.

والعبد لا يملِك إلّا طلقتين. وإذا طلّق المجبوبُ لا يُكتَب في طلاقه إصابة.

وإنْ وكّل رجلًا أنْ يطلّق عنه كتب: سألتْ فلانةُ فلانَ بنَ فلان الوكيلَ عن زوجها فلان، القائمَ عنه في طلاقها بالوَكالة الّتي جعل له فيها أن يطلّق عنه زوجتَه المذكورةَ طلقةً واحدةً أولى خُلْعًا[٤] على مؤخَّر صِداقِها عليه، وهو كذا وكذا، المشروح ذلك في الوَكالة المؤرَّخةِ بكذا وكذا، أنْ يطلّقها عن موكِّله فلان المذكورِ بطلقة واحدة أولى خُلْعًا على جميع مؤخَّر صِداقها، وهو كذا وكذا؛ فأجابها إلى سؤالها، وقَبِل منها العوضَ المذكور، وطلّقها عن موكِّله طلقةً واحدةً أولى خُلْعًا،

(١) «منها» أي من المطلقة.

(٢) خلع: خلعًا الشيء: نزعه. وخلعت المرأة من زوجها: بذلت له مالًا ليطلقها فإذا فعل فذلك الخُلْع.

(٣) كتابه: أي كتاب الصداق.

(٤) الخلع من خلع الرجل زوجته: إذا طلقها ببذل منها أو من غيرها.

بانتْ منه بها، وملكتْ نفسَها عليه، فلا تحلّ له إلّا بعد عقد جديد وأقرّتْ بأنّها لا تستحِقُّ عليه صِداقًا، كما تقدّم.

فصل في فرض(١) امرأة مطلّقة ظهرت حاملًا

يكتب ما مثالُه: فرضٌ قرّره على نفسه فلانٌ لمطلّقته الطلقةَ الأولى أو الثانية، أو الثلاث، فلانةَ المرأةِ الكاملة، المشتملة منه على حَمل، وتَصادَقا على ذلك، عوضًا عما تحتاج إليه من طعامٍ وإدامٍ وماء، في كلِّ يوم من الأيّام كذا وكذا قسطُ كلِّ يوم في أوّله من استقبال تاريخِه، حَسَب ما اتّفقا على ذلك وتراضَيا عليه وذلك خارج عمّا يوجبه الشرع الشريف لها، وأَذِنَ لها أن تقترِض على ذمّته بقدر ما قَرَّر لها عند تعذّر وصول ذلك إليها، وتنفقَه عليها، وترجعَ به عليه، إذنًا شرعيًّا قبلتْه منه.

فإن قرَّر على نفسه لولده كتب: فرضٌ قرّره على نفسه فلانٌ لولده الطفل، الذي في كَفالة والدته مطلّقتِه فلانة، لِما يحتاج إليه من طعامٍ وإدامٍ وماءٍ وزيتٍ وصابونِ حمّام، في كلِّ يوم من الأيّام كذا وكذا من استقبال تاريخِه، حَسَب ما اتّفقا وتراضَيا عليه، وذلك خارج عمّا يوجبه الشرع الشريف، وأَذِنَ لها أن تقترِض على ذمّته، وتُنْفِقَ على ولدها، وترجعَ به عليه، إذنًا شرعيًّا.

فإنْ قرّر لوالده أو والدته كتب ما مثالُه: فرضٌ قرّره على نفسه فلانٌ لوالدته(٢) فلانة، بحكم عجزها وفقرها وحاجتها، لِما تحتاج إليه من طعام وإدامٍ وزيتٍ وصابون، في كلِّ يوم كذا وكذا؛ ويُكمّل.

فصـــل

إذا قرّر القاضي للمحجور عليه من مالِهِ له ولزوجته كتب: هذا ما أَشهَدَ على نفسه القاضي فلانُ الفارضُ أنّه قرّر لفلان المحجورِ عليه بِيَدِ الحُكم العزيز ولزوجته فيما لَه من أجرة العَقار المنسوبِ إليه، الّذي تحت نظر الحُكم العزيز، لِما يحتاجان إليه من طعامٍ وإدامٍ وماءٍ وزيت، في كلِّ يومٍ كذا وكذا من استقبال تاريخِه، قسطُ كلِّ

(١) فرض فرضًا الخشبة: أي حزها. وفرض فرضًا الأمر: عيّنه وفرض لفلان كذا: أي جعل له فريضة. وفرض الله الأحكام على عباده: سنها وأوجبها.

(٢) اقتصر في هذا المكتوب على ذكر الوالدة دون الوالد للعلم بما يكتب في نفقته مما ذكره في نفقة الوالدة.

يوم في أوّله، وقرّر له ولزوجته وللخادم عوضًا عن كِسْوتهم لفصل الصيف كذا وكذا ولفصل الشتاء كذا وكذا؛ وبذلك شُهِد عليه؛ ويؤرّخ.

وأما تعليق الطلاق وفسخ النكاح ـ فإذا علّق الزوج طلاقَ زوجته على سَفَرِهِ، أو أنّه يسافر[١] بها، كتب على ظهر كتابه ما مثالُه: قال الزوج المسمَّى باطنَه فلانٌ لزوجته فلانة، الّتي دخل بها وأصابها: «متى سافرْتُ عنكِ من البلد الفلانيّ، واستمرّت غيبتي عنكِ شهرًا واحدًا ابتداؤه من حين سفري، أو متى سفَّرْتِكِ إلى بلد من البلاد بنفسي أو وكيلي، أو متى تسرَّيْتُ عليكِ بأَمَةٍ فأنت طالقٌ ثلاثًا»؛ تلفَّظ بذلك عند شهوده؛ ويؤرّخ.

فصــل

إذا سافر الزوج عن زوجته وتركها بغير نفقة ولا كُسوة، وأرادت فسخَ نكاحها منه، كُتِب محضرٌ بالغَيبة، مثالُه: شَهِد الشهود الواضعون خطوطَهم آخرَ هذا المحضر ـ وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ[٢] فيما شهِدوا به فيه[٣] ـ أنّهم يعرفون كلَّ واحد من فلانٍ وفلانةَ معرفةً صحيحةً شرعيّة، ويشهدون أنّهما زوجان متناكحان بنكاح صحيح شرعيّ دخل الزوج منهما بالزوجة، وأولدها على فراشه ولدًا ذَكَرًا، أو أولادًا ـ إن كان ذلك؛ وإن كان لم يدخل بها كتب: «وإنَّ الزوج لم يدخل بها، ولم يصِبْها، وأنّها عرضت نفسَها عليه ليدخل بها فامتنع من ذلك، وأخّره إلى وقتٍ آخر» ـ وأنّه سافر عنها بعد ذلك من البلد الفلانيّ، وتوجّه إلى البلاد الفلانيّة، من مدّة تزيد على أشهُرِ سنةٍ تتقدّم على تاريخه، وهي مطاوعة له؛ وأنّه تركها مُعْوِزةً عاجزةً عن الوصول إلى ما يجب لها عليه، من النفقة والكُسوة واللّوازم الشرعيّة، بحكم أنّه ليس له موجودٌ حاضر، ولا مالٌ متعيّن، وقد تضرّرت[٤] بسبب غَيبته عنها وتعذُّر وصولُ ما يجب لها عليه شرعًا من جهته ومن جهة أحدٍ بسببه[٥]، وأنّها لم تجد من يُقرضها على ذمّته، ولا من يتبرّع بالإنفاق عليها عنه، وأنّه مستمرُّ الغَيبة عنها إلى الآن، وأنها مستمرّةٌ على الطاعة له؛ يعلمون ذلك ويشهدون به بسؤال من جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعة المطهَّرة إجابتَه؛ ويؤرّخ.

(١) «أو أنه يسافر بها» أي أو علّق طلاقها على أنه يسافر بها.
(٢) الخبرة الباطنة: فقدم تفسيرها. (٣) «فيه» أي في المحضر.
(٤) لم نجد في كتب اللغة أنه يقال: «تضرر» إلّا في كتاب «أقرب الموارد».
(٥) بسببه: صفة لأحد، أي أحد متصل به.

فإذا وضع الشهود رسم شهادته، وأدّوْا[١] عند الحاكم، كتب على ظهره الحلفَ بعد حلفِها[٢]، وصورتُه: أُحلِفَتْ المشهودُ لها باطنه فلانةُ بالله العظيم الّذي لا إلـٰه إلّا هو، اليمينَ الشرعيّة المستوفاة، الجامعةَ لمعاني الحلف، المعتبرَةَ شرعًا، أنَّ الزوج المذكورَ معها باطنَه فلانًا سافر عنها من البلد الفلانيّ، متوجّهًا إلى البلد الفلانيّ من مدّة تزيد على سنة كاملة تتقدّم على تاريخه، وهي مطاوعة له، وأنّه تركها مُعْوِزةً عاجزةً عن الوصول إلى ما يجب لها عليه، من النفقة والكُسوة واللوازم الشرعيّة، بحكم أنّه ليس له موجود ـ ويصِفُ كلَّ ما في المَحضر إلى عند[٣] «وأنّها مستمرّةٌ على الطاعة له» ـ وأنَّ مَنْ شَهِد لها باطنَه صادقٌ فيما شَهِد لها به؛ فحلفَتْ كما أُحْلِفَتْ، بالتماسها لذلك على الأوضاع الشرعيّة، وبحضور من يُعتبَر حضورُه شرعًا، بعد تقدّم الدّعوى وما تَرتَّب عليها؛ ويؤرّخ.

ثم يكتب الإسجال قرينَ الحلِف أو تحته، وهو: هذا ما أَشهد على نفسه الكريمةِ سيّدُنا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى فلانٌ الحاكم، مَن حَضَرَ مجلسَه من العدول الواضِعِي خطوطَهُم آخرَه، أنّه ثبت عنده وصحّ لديه في اليوم الفلانيّ، بعد دعوى محرَّرةٍ مقابَلةٍ بالإنكار على الوجه الشرعيّ، بشهادة[٤] من أَعْلَمَ تحت رسم شهادتِه باطنَه وزُكّيَ لديه التزكيةَ الشرعيّةَ على الوجه المعتبرَ الشرعيّ، مضمونُ[٥] المَحضر المسطَّرِ باطنَه «على ما نُصّ وشُرِح فيه بكذا وكذا[٦]» ثبوتًا صحيحًا شرعيًّا؛ وقد أقام كلٌّ من الشهود به[٧] شهادتَه عنده بذلك، وأَعْلَمَ تحت رسم شهادة كلٍّ منهم ما جرتْ به العادة، وأُحلِفتْ الزوجةُ المذكورةُ الحلفَ المشروحَ فيه؛ فلمّا تكامل ذلك عنده وصحّ لديه وَعَظَها وأعلَمَها بما لها من الأجر في الصبر على البقاء في عصمة زوجها المذكور، فأبت الصبر، وذكرتْ أنَّ ضرورتَها تمنعها من ذلك، وسألت الحاكمَ المذكورَ الإِذْنَ لها في فسخ نكاحها من زوجها المذكور؛ فحين زالت الأعذار من

(١) «أدوا عند الحاكم» أي أدوا شهادتهم، فالمفعول محذوف للعلم به.
(٢) «بعد حلفها» أي بعد أن تحلف.
(٣) في كتب القواعد أن جرّ «عند» بـ «إلى» كما هنا، لحن. فإن «عند» من الظروف التي لا تخرج عن الظرفية إلّا إلى الجر بـ «من».
(٤) «بشهادة» متعلق بقوله: «ثبت» السابق ذكره.
(٥) «مضمون» فاعل لقوله: «ثبت» السابق الذكر.
(٦) لعلّ الصواب: «المسطر باطنه بكذا وكذا على ما نُصَّ وشُرح فيه».
(٧) «به» أي بمضمون المحضر.

إجابتها[١] أَذِن لها الحاكمُ المذكورُ في فسخ نكاحها من زوجها المذكور؛ وأشهدتْ على نفسها شهودَ هذا الإسجال أنها فسخت نكاحها من زوجها المذكور، واختارت فراقه - وإن كان الحاكم هو الفاسخَ كتب: «فحينئذٍ سألتْ بِرَّ الحاكم فَسْخَ نكاحِهَا من زوجها المذكور، وأصرَّتْ على ذلك؛ فحين زالت الأعذار من إجابتها قدَّم خِيرةَ الله تعالى، وأجابها إلى ما التَمَسَتْه، وفسْخَ نكاحَها من زوجها المذكورِ الفسخَ الصحيحَ الشرعيّ، وفرّق بينهما» - فلمّا تكامل ذلك كلُّه سأله من جازت مسألتُه وسوَّغت الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه، التقدّمَ بكتابة هذا الإسجال، والإشهادَ عليه بذلك، فأجابه إلى سؤاله، وتقدّم بكتابته[٢]، فكُتِب عن إذنه، وأشهد على نفسه بذلك في مجلس حكمه وقضائه - وهو في ذلك كلِّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما - وأَبقى كلَّ ذي حجّة معتبرَةٍ فيه على حجّته إن كانت، وذلك بعد تقدّم الدعوى الموصوفة وما تَرتَّب عليها. ويُشهد على الزوجة أيضًا بما نُسِب[٣] إليها.

وأما نفيُ ولدِ الجاريةِ والإقرارُ باستيلاد الأَمَة - فإنّه إذا أراد السيّد نفيَ ولدِ جاريته بعد الوَطْء والاستبراءِ[٤] على قول من قال به[٥] كتب ما مثالُه: أقرّ فلانٌ بأنّه كان قبل تاريخِه وطىء مملوكتَه فلانة - ويذكر جنسها - المسلمةَ المقِرّةَ له بالرق والعبوديّة، ثم استبرأها بعد الوطء استبراءً صحيحًا شرعيًّا، وأنّه لم يطأْها بعد الاستبراء، وأنّها بعد ذلك أتت بولد، وسمّته فلانًا، وأنّه الآن في قَيْد الحياة، وأنّ هذا الولد ليس منه ولا من صلبه، ولا نسبُ بينه وبينه؛ وحلف على ذلك بالله العظيم اليمين الشرعيّة، وأشهد عليه بحضورها بتاريخ كذا وكذا.

وإنْ أقرّ[٦] بأنّه استولد جاريته كتب: أقرّ فلانٌ بأنّه كان قبل تاريخِه وطىء مملوكتَه التي بِيَدِه وملكه، المُقِرّةَ له بالرقّ والعبوديّة، المدعوّةَ فلانة، الفلانيّةَ الجنس؛ الوَطْء[٧] الصحيحَ الشرعيّ، في حال مَمْلَكَته[٨] لها على فراشه، واستولدها عليه ولدًا

(١) زالت الأعذار من إجابتها: أي لم يبق لدى القاضي من الأعذار ما يمنعه من أن يجيبها إلى ما طلبت.
(٢) «تقدم بكتابته» أي أمر بها.
(٣) نَسَبَ، نسبًا ونسبةً: وصف وذكر نسبه. والنسب: القرابة.
(٤) استبرأ: طلب الإبراء - أي الخلاص - من الدَّين والذنب.
(٥) «من قال به»: أي من قال بأن نسب مُلك اليمين ينتفي بدعوى الاستبراء.
(٦) أقرَّ: اعترف.
(٧) الوطء: مفعول لقوله: «وطىء» السابق ذكره.
(٨) المملكة، بضم اللام وفتحها: بمعنى المُلك.

ذَكَرًا يسمَّى فلانًا، الطفلَ يومئذٍ، وهو الآن في قَيد الحياة، وأنه من صلبه ونسله، ونسبُه لاحقٌ بنسَبِهِ، وصدَّقَتْه على ذلك.

وأما الوَكالات - فإذا وكّل رجل رجلًا وَكالةً مطلقة كتب: وكّل فلانٌ فلانًا في المطالبة بحقوقه كلِّها، ودُيُونِهِ بأَسْرها، من غُرَمائه وخصومه قبل مَنْ كانت وحيث تكون والمحاكمةِ بسببها عند القضاة والحكام وخلفائهم وولاة أمور الإسلام، والدّعوى على غُرَمائه وخصومه، واستماعِ الدّعوى عليه وردِّ الأجوبة عنها بما يسوغ شرعًا، والحَبْسِ[1] والإطلاقِ والترسيمِ[2] والملازَمةِ والإفراج[3]، وأخْذِ الكُفَلاء والضُّمَناء بالوجه والمال، وقبولِ الحَوالات على الأملئاء[4] وإثباتِ حججه ومساطيرِه، وإقامةِ بيّناته، وقبضِ كلّ حقٍّ متوجِّهٍ له قبضُه بكلّ طريق شرعيّ، والإشهادِ على الحكّام والقضاةِ بما يَثْبُت له شرعًا، وطلبِ الحكم من الحكّام، وفي إيجار ما يجرِي في ملكه من العَقار الكامل[5] والمُشاع لمن يرغب في استئجاره بما يراه من الأُجَر: حالِّها ومنجَّمِها ومؤجَّلِها ومعجَّلِها، لِما يراه من المُدد: قليلِها وكثيرِها، وقبضِ الأجرة، واكتتابِ ما يجب اكتتابُه في ذلك، وتسليمِ ما يؤجره - ومهما وكّله فيه كَتَبه وعيّنه بما يليق تعيينه[6] -؛ وكّله في ذلك كلِّه وَكالة شرعيَّةً قَبِلها منه قبولًا شرعيًّا، وأَذِنَ له أن يوكِّل عنه في ذلك كلِّه وفيما شاء منه من شاء، ويعزِلَه متى شاء، ويعيدَه متى أراد.

فإنْ وكّله وأراد ألّا يعزِله كتب في ذيل الوَكالة: ثم بعد تمام ذلك ولزومه قال الموكِّل لوكيله: «متى عزلْتُكَ فأنت وكيلٌ متصرّفٌ لا منصرف».

فإذا أراد عزله كتب على ظهر الوَكالة: قال الموكِّل لوكيله: «متى عذتَ وكيلي فأنت معزول»؛ وبحكم ذلك العزل بطل تصرّفُه في الوَكالة المشروحةِ باطنَه؛ ويؤرّخ.

---

(١) يراد بالحبس والإطلاق: حبس من امتنع عن الأداء وإطلاقه منه.
(٢) المراد بالترسيم: اعتقال الغريم.
(٣) الإفراج: الفتح والكشف. فَرَجَ الله الغمَّ عنه: أي كشفه وأذهبه.
(٤) الأملئاء: الأغنياء القادرون، واحده مليء.
(٥) «يريد بالعقار الكامل»: المملوك له بأكمله، وليس مشاعًا في ملك غيره.
(٦) «بما يليق تعينه» أي بما يليق تعينه به، فالعائد هنا محذوف: وهذا من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد.

وإذا وَكَّلَ ذمّيٌّ مسلمًا قدَّم اسم الوكيل، فيكتب: هذا كتاب وَكالة اكتتبه لفلانٍ فلانٌ الذّمّيّ، وأَشهَد على نفسه أنه وكّله في كيت وكيت؛ ويُكمّل كما تقدّم.

وأما المحاضر على اختلافها فسنذكرها، إذا أراد أمين الحكم أن يبيع على يتيم للحاجة كتب محضرًا بالقيمة، مثالُه: شهد الشهود الواضعون خطوطَهم آخرَه ـ وهم من أهل الخِبرة بالعَقار وتقويمه ـ أنهم ساروا بإذنٍ شرعيٍّ إلى حيث الدّارُ الكاملةُ الآتي ذكرُها ووصفُها وتحديدُها فيه، المُقوَّمَةُ بكمالها، أو المقوَّمُ منها حصّةٌ مَبلغُها كذا وكذا سهمًا، ملك فلان المحجورِ عليه، لتباع عليه في نفقته ومؤونته ولوازمه الشرعيّة، وهي بالمكان الفلانيّ ـ وتُوصَفُ وتُحدَّد ـ وتأمّلوا ذلك بالنظر، وأحاطوا به علمًا وخِبرة، وقوّموا الحصّة المذكورةَ بما مَبلغُه كذا وكذا وقالوا: «إنّ ذلك قيمة المِثْل يومئذٍ، لا حَيْفَ فيها ولا شَطَطَ، ولا غَبينةَ ولا فرط وإنّ الحظَّ والمصلحةَ في البيع بذلك».

فإن كان بالغبطة على القيمة[1] كتب كما تقدّم إلى قوله: «لتُباعَ عليه» لِما لَه في ذلك من الحظّ والمصلحةِ والغبطةِ[2] الزائدةِ على قيمة المِثْل، وهي الدّارُ الّتي بالموضع الفلانيّ ـ وتُوصَف وتُحدَّد ـ وتأمّلوا ذلك بالنظر، وأحاطوا به علمًا وخِبرة، وقوّموا الحصّة بكذا وكذا درهمًا، وقالوا: «إنّ ذلك قيمةُ المِثْل ـ نحو ما تقدّم ـ وإنّ الحظَّ والمصلحةَ والغبطةَ في بيع الحصّة المذكورةِ بزيادة كذا وكذا»؛ وبذلك وضعوا خطوطَهم؛ ويؤرّخ.

فإن قُوِّمَتْ لتُباعَ فيما ثبت على المتوفَّى من صِداق[3] زوجته، أو من دَيْن، كُتِب أوّلُ المحضر كما تقدّم، وقيل: المنسوبة لفلان المتوفَّى إلى رحمة الله تعالى، لتُباعَ عليه فيما ثبت في ذمّته من صِداق زوجته فلانة، الثبوتَ الصحيحَ الشرعيّ؛ أو فيما ثبت عليه من دَيْن شرعيٍّ لفلان، حَسَب ما يَشهَد بذلك مسطورُه الّذي بِيَدِه، الذي ثبت بمجلس الحكم العزيز؛ ويُكمّل كما تقدّم.

---

(١) الغبطة على القيمة: الزائدة على القيمة.

(٢) صور الفقهاء الغبطة بأن يرغب في شراء العقار بأكثر من ثمن مثله. والبائع يجد مثله ببعض ذلك الثمن أو خيرًا منه بكلّه.

(٣) صداق الزوجة (بفتح الهاء وكسرها): مهرها.

فصل في محضر وفاةٍ وحَصْرِ[١] ورثة

يكتب: شهد الشهود الواضعون خطوطَهم آخرَ هذا المحضر ـ وهم من أهل الخِبرة الباطنةِ فيما شَهدوا به ـ أنّهم يعرفون فلانَ بن فلان، وورثتَه الآتيَ ذكرهم فيه، معرفةً صحيحةً شرعيّة؛ ويَشهدون أنّه تُوفِّيَ إلى رحمة الله تعالى بالبلد الفلانيّ من مدّةِ كذا وكذا، وخلّف من الورثة المستحقّين لميراثه المستوعِبين لجميعه زوجتَه فلانةَ الّتي لم تزل في عصمته وعَقْدِ نكاحِه إلى حين وفاته، وأولادَه منها أو من غيرها ـ ويذكُر أبويه إن كانا أو أحدَهما ـ بغير شريك لهم في ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبهم عنه بوجه ولا سبب؛ يعلمون ذلك ويشهدون به بسؤال من جازت[٢] مسألتُه وسوّغت[٣] الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه؛ ويؤرّخ.

فصــل

إذا مات رجل وخلف[٤] أبوين وأخوين كتب ما مثالُه: شهد الشهود أنهم يعرفون فلانًا ووالديه الآتيَ ذكرُهما فيه، ويشهدون بالخِبرة الباطنة أنّه خلّف وارثَيه: والدَه فلانًا، ووالدتَه فلانة، بغير شريك لهما في ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبهما حجْبَ حرمانٍ عن استكماله؛ ويشهدون أنّ المتوفّى له أَخوان، وهما فلانٌ وفلان؛ وبحكم ذلك يكون للأب من ميراثه النصفُ والثلث، وللأمّ السدس، بحكم أنَّ الأخوين حجباها عن الثلث إلى السدس حجْبَ تنقيصٍ[٥] للفريضة الشرعيّة، لا حَجْبَ حرمان؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

وإن مات رجل في بلد بعيدة واستفاض[٦] موته وشُهِد به بالاستفاضة كتب كما تقدّم، وأنّهم يعرفون فلانًا، ويشهدون بالاستفاضة الشرعيّةِ بالشائع الذائع، والنقلِ الصحيح المتواتر، أنّه مات إلى رحمة الله تعالى من مدّةٍ كذا وكذا بالمدينة الفلانيّة؛ ويشهدون أنّه خلّف من الورثة...... ويُكمّل.

---

(١) حَصر الورثة: معرفتهم وإحصاؤهم. وحصر الشيء: استوعبه.
(٢) جاز: نفذ وجازت مسألته: أي استحق أن يكون أهلًا للسؤال.
(٣) سوّغت: أباحت واستحسنت.
(٤) خلّف: ترك.
(٥) في كتب اللغة أن نقّصته ـ بتشديد القاف ـ تنقيصًا، لغة ضعيفة، ولم تأت في كلام فصيح.
(٦) استفاض: من فاض فيضًا وفيوضًا: أي مات؛ وفاضت نفسه: أي خرجت. والفيض: الموت. يقال: «ذهبنا إلى فيض فلان» أي في جنازته.

فصـــل

إذا مات قوم[(١)] بعد قوم يكتب: ....[(٢)] أنهم يعرفون فلانَ بنَ فلان ورثَته الآتيَ ذكرُهم، ومن تُوُفِّيَ منهم على الترتيب الآتي ذكرُه فيه، معرفةً صحيحة شرعيّة؛ ويشهدون أنّ فلانًا المبتدأ بذكره تُوُفِّيَ إلى رحمة الله تعالى بالبلد الفلانيّ، وخلّف من الورثة المستحقّين لميراثه المستوعِبين لجميعه زوجتَه فلانةَ الّتي لم تزل في عصمته وعَقْدِ نكاحِه إلى حين وفاته، وأولاده[(٣)] منها، وهم فلان وفلان، ثم توفّيت الزوجةُ بعدَه في تاريخ كذا وكذا، وخلّفتْ من الورثة المستحقّين لميراثه أولادَه لصلبه، وهم - ويسمّيهم - يعلمون ذلك ويشهدون به؛ ويُكمّل، ويؤرّخ. وهذا مثالٌ فقِسْ[(٤)] عليه.

فصـــل

إذا مات العبد وخلّف سيّدَه كتب: شهد من أثبتوا أسماءهم آخرَه - وهم من أهل الخبرة الباطنةِ فيما شهدوا به - أنّهم يعرفون كلَّ واحد من فلان ومملوكِه فلان، الفلانيِّ الجنس، المسلم، ويشهدون أنّ فلانًا المثنّى باسمه تُوُفِّيَ إلى رحمة الله تعالى، وخلّف سيّدَه المذكور، الذي لم يزل في ملكه إلى حين موته؛ وأنّه مستحِقٌّ لجميع ما يخلّفه بغير شريك له في ميراثه، ولا حاجبٍ يحجبه عنه.

وإن كان قد أعتقه ومات كتب كما تقدّم[(٥)]، وأنّهم يعرفون فلانَ بنَ فلان، وعتيقه فلانَ بنَ فلان، معرفةً صحيحةً شرعيّة، ويشهدون أنّه مات إلى رحمة الله تعالى، وأنه كان مملوكًا لفلان، وأنّه أعتقه عتقًا منجَزًا قبل موته، ولم يخلِّف من الورثة سواه، بغير شريك له في ميراثه؛ ويُكمّل.

---

(١) القوم: الشيعة والعشيرة. وروي عن أبي العباس: النفر والقوم والرهط هؤلاء معناه الجمع لا واحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء. والقوم في الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء. (اللسان).

(٢) حذف المؤلف صدر هذا المحضر كما حذف بعض المحاضر الآتية، وهو قوله: «شهد الشهود الواضعون خطوطهم».

(٣) أراد بالجمع هنا ما فوق الواحد، علمًا أنه لم يذكر بعد غير اثنين.

(٤) في الأصل: «من أشهد»؛ وفيها زيادة من الناسخ لا يستقيم بها الكلام، والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(٥) يشير بقوله: «كما تقدم» من قوله: «شهد من أثبتوا أسماءهم آخره وهم من أهل الخبرة الباطنة فيما شهدوا به».

فصـــل

إذا أراد إثبات ملكه لدار كتب ما مثالُه:.......(١) أنّهم يعرفون فلانَ بنَ فلان، ويشهدون أنّه مالك لجميع الدّار الفلانيّة ـ وتوصَف وتُحدَّد ـ ملكًا صحيحًا شرعيًا، وأنّه متصرّفٌ فيها بالسكن والإسكان والإجارة والعمارة وقَبْضِ الأجرة، وأنّها باقيةٌ في يدِه وملكِه وتصرُّفِه إلى الآن، لم تخرج عنه بتمليك ولا بيع ولا إقرارٍ ولا صدقة، ولا بوجه من الوجوه الشرعيّة كلِّها على اختلافها، وأنّها باقيةٌ على ملكه وتصرُّفِه وحيازتِه إلى يومِ تاريخِه؛ وهم بالدّار المذكورةِ في مكانها عارفون؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

فصــل

إذا أثبت رجلٌ أنّه باع بالإجبار والإكراه(٢) كتب: .... أنّهم يعرفون كلَّ واحد من فلانٍ وفلان، ويشهدون أنَّ فلانًا المبتدأَ باسمه جَبَرَ فلانًا المثنّى باسمه وخوّفه واعتقله وضربه وأوجعه، وطَلَب منه بيعَ داره التي بالموضع الفلانيّ ـ وتوصَفُ وتُحَدَّد ـ بغير ثمن، وأنْ يُشهِدَ عليه بالبيع وقَبْضِ الثمن، وأنّه امتنع من ذلك، فأعاد عليه الضرب، وهدّده بالقتل، وسَجَنَه، ولم يزل على ذلك حتى جَبَرَه وأكرهه، وابتاعها منه بكذا وكذا، واعتَرَف بقبضها، وأنّه وضع يدَه عليها، وتَسلَّمها من مدّةٍ كذا وكذا، وهم بالدّار عارفون؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

وإن كان جَبَره حتّى باعه بدون القيمة كتب صدر المحضر كما تقدّم؛ وطَلَب منه بيعَ الدّار بكذا وكذا، وأنَّ قيمتَها أزيدُ من ذلك، وأنّه امتنع من ذلك، فضربه وسجنه، وأعاد عليه العقوبة، وأكرهه وجَبَره إلى أنْ باعه الدّار المذكورةَ بالثمن المذكور، وقبَضَه منه، وأنّه دون قيمتها، وأنَّ قيمتَها أضعافُ ذلك، وأنه وضع يدَه عليها، وتَسلَّمها من مدّة كذا وكذا؛ يعلمون ذلك...

فصل فيما يكتب بعيب(٣) في جارية

شهد الشهود المسمَّوْن آخرَه ـ وهم من أهل الخبرة الباطنةِ(٤) بالرقيق وعيبه ـ أنّهم نظروا الجاريةَ المدعوَّةَ فلانة، الفلانيّةَ الجنس، التي بِيَدِ فلانٍ متنجِّزِ هذا

---

(١) حذف المؤلف الجملة الآتية: «شهد الشهود الواضعون خطوطهم».

(٢) الإكراه: القوة والإجبار.

(٣) عيب: ابن سيده: العَابُ والعيب والعيبة: الوصمة. (اللسان ص ٤٩٠).

(٤) الخبرة الباطنة: العلم بما خفي ودق من الأمور ولم يقتصر فيها على الظواهر.

المحضر[١]، الذي ذَكَر أنّه ابتاعها من فلان، نظرَ مثلهم لمثلِها، بمحضر من الخَصْمَيْن المذكورَيْن، فوجدوا بها من العيوب المرضَ الفلانيّ، وأنَّ ذلك مرضٌ مُزْمِنٌ متقدّمٌ على تاريخ العُهْدَة[٢] الّتي أظهرها المشتري من يدِه، المؤرَّخةِ بكذا وكذا؛ وأنَّ ذلك عيبٌ منقِصٌ[٣] للثمن؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

فصــل

إذا شُهِد لإنسان أنه من أهل الخير كتب: ......[٤] ويشهدون أنّه من أهل الخير والصلاح، والعِفَّةِ والفلاح؛ والصِّيانة والأمانة، والثِّقةِ والدّيانة؛ محافظٌ على صلاته، أهلٌ لأن يَجلس بين أظهر المسلمين، وأنه محقٌّ في جميع أفعاله، صادق في جميع أقواله؛ يعلمون ذلك....

فصــل

إذا شُهِد بِرُشْد إنسانٍ كتب: ...... ويشهدون أنّه رشيد، صالح في دِينِه، مصلِحٌ لِمالِه، مستحِقٌّ لفكّ الحَجْر عنه، غيرُ مبذّرٍ ولا مفرِّط، حَسَنُ التصرّف؛ يعلمون ذلك....

فصل في نسب رجل شريف

...... ويشهدون بالاستفاضة الشرعية، بالشائع[٥] الذائع، والنقلِ الصحيح المتواتر، أنّه شريفُ النَّسب، صحيحُ الحَسَب، من ذُرِّيَّة الحسين بنِ عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ من أولاد الصُّلْب، أبًا عن أب، إلى أن يرجع نَسَبُه إليه، ويُدْلي بأصله إلى أصل الحسين؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

---

(١) «متنجز هذا المحضر»: الذي طلب إنجازه. يقال: تنجَّزُ الحاجة إذا سأل إنجازها.
(٢) العُهْدَة: وثيقة البيع؛ وأصله من قولهم: «في الأمر عهدة» أي مرجع للإصلاح؛ وسميت وثيقة البيع بذلك لأنه يرجع إليها عند الالتباس.
(٣) في كتب اللغة أن «أنقصه» «ونقَّصه» ـ بتشديد القاف ـ لغتان ضعيفتان؛ ولم يأتيا في كلام فصيح.
(٤) تقدير الكلام المحذوف هنا مكان النقط هو التالي: «إنهم يعرفون ثلاثًا ويشهدون أنه من أهل الخير».
(٥) شاع الخبر في الناس يشيعُ شَيْعًا، فهو شائع: انتشر وافترق وذاع وظهر. (اللسان ص ٢٦٠).

فصل في عدالة رجل

...... ويشهدون شهادةً علموا صحّتَها، وتيقّنوا معرفتَها، لا يشكّون فيها ولا يرتابون، أنه من أهل الصدق والوفاء، والعفّةِ والصّفاء؛ صادقٌ في أقواله، مُحِقٌّ في أفعاله؛ حَسَنُ السيرة، طاهرُ السريرة؛ متيقّظٌ في أموره، سالكٌ شروطَ العدالة وأفعالَها، صالحٌ لأن يكون من العدول المبرَّرين[1]، والأعيانِ المعتبَرين، مستحِقٌّ أن يضع خطَّه في مساطير المسلمين، عَدْلٌ رضيٌّ لهم وعليهم؛ يعلمون ذلك ويشهدون به.

فصل في إعسار رجل

...... ويشهدون أنّه فقيرٌ لا مالَ له، مُعْمِرٌ لا حالَ له، عاجزٌ عن وفاء ما عليه من الدّيون، أو عن شيء منها؛ يعلمون ذلك....

فصل في إسلام ذمّيّ

يكتب: حضر إلى شهوده في يومِ تاريخِه مَن ذَكَر أنّه حضر إلى مجلس فلانٍ - أدام الله أيّامَه - فلانُ[2] بنُ فلان الفلانيّ، وأشهدهم على نفسه أنّه تلفَّظ بالشهادتين المعظَّمتين، وهما شهادة أنْ لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ، أرسله بالهُدَى ودِينِ الحقّ ليظهره على الدِّين كلّه ولو كَرِهَ المشركون، وأنَّ عيسى عبدُ الله ونبيُّه، ومريمَ أَمَةُ الله، وأنَّ محمدًا ﷺ خاتمُ النبيِّين، وأفضلُ المرسلين، وأنَّ شريعتَه أفضلُ الشرائع وملّتَه أفضلُ الملل، وأنَّ ما جاء به عن الله حقّ؛ وقال: «أنا بَرِئْتُ من كلِّ دِين يخالف دِيْنَ الإسلام»، ودخل في ذلك طالبًا مختارًا؛ وأشهد عليه بذلك، وتلفّظ به بتاريخِ كذا وكذا.

فإن أسلم يهوديّ كتب موضع عيسى: وأنَّ موسى عبدُ الله ونبيُّه، وأنّ محمدًا ﷺ أفضلُ الأنبياء، وشريعتَه أفضلُ الشرائع، وأنَّ شريعة محمد ﷺ نسخت شريعة موسى وجميعَ الشرائع؛ وقال: «أنا مسلم بَرِئْتُ من كلِّ دِين يخالف دين الإسلام، ومن كلِّ ملّةَ تخالف ملّةَ محمد ﷺ»؛ وأشهد على نفسه بتاريخ[3]....

(١) المبررون: اسم مفعول من برّره، أي زكاه.
(٢) فلان بالرفع بدل من «مَنْ» السابق في قوله: «من ذكر».
(٣) أي بتاريخ كذا وكذا.

وأما الإسجالات - فهي بحَسَب الوقائع، وقد ذكرنا منها في أثناء ما قدّمناه ما هو وارد في مواضعه، فلنذكر ما لم توردْه هناك؛ فمن ذلك إسجال بثبوت العدالة.

قدِ استقرّت القاعدة بين الناس في إسجالات العدالة أنْ يبتدىء الكاتب بخطبة يذكر فيها شرفَ العدالة وعلوَّها، وارتفاعَ رتبتها وسموَّها؛ ويصف المعدَّلَ بأوصاف تليق به بحَسَب حاله ورتبتِه، وأصالته وأبوّتِه؛ ولا حَجْرَ على الكاتب فيما يأتي به من القرائن والفِقَر والكلام المسجوع ما لم يَتَعَدَّ به حقَّ المنعوت، أو يخرجْ به عن طوره ورتبته، ويراعِي مع ذلك قيودَ الشرع وضوابطَه؛ والكاتبُ فيها بحَسَب[1] قدرته وتصرّفِه في أساليب الكلام وبراعة الاستهلال واختيار المعاني؛ فإذا انتهى إلى آخر الخطبة وذِكْرِ أوصافِ المعدَّل قال: فلذلك استخار الله تعالى سيّدُنا ومولانا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضي القضاة، حاكمُ الحكّام؛ وينعته بنعوته، ويذكر مذهبه ووَلايتَه للدّولة القاهرةِ السلطانيّةِ الملكيّةِ الفلانيّة، بالوَلاية الصحيحة الشرعيّة، المتّصلةِ بالمواقف الشريفة النبويّة، الإماميّة العبّاسيّة، (المستكفِي) أميرِ المؤمنين - أعزّ الله به الدِّين، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين - وأَشهَدَ على نفسه مَن حضر مجلسَ حكمِه وقضائه، وهو يومئذٍ نافذُ القضايا والأحكام ماضي النقض والإبرام، وذلك في اليوم المبارك؛ ويكتب الحاكم التاريخ بخَطّه؛ ثم يكتب الكاتب: أنّه ثبت عنده وصحّ لديه بالبيّنة العادلة المرضيّة، التي ثبتت بمثلها الحقوقُ الشرعيّة، عدالةُ فلان - وينعته بما يستحقّه - ثبوتًا ماضيًا شرعيًا معتبرًا تامًّا مَرضيًا؛ وحَكَم بعدالتِه، وقبولِ قوله في شهادتِه؛ وأجاز ذلك وأمضاه واختاره وارتضاه، وألزَمَ ما اقتضاه مُقتضاه؛ وأَذِنَ سيّدُنا قاضي القضاة فلانٌ لفلان المحكومِ بعدالته في تحمّل الشهادات وأدائها، لتُحفظَ الحقوقُ على أربابها[2] وأوليائها؛ وسمع شهادتَه فَقَبِلها وأجازها، وأمره أنْ يرقُم على حُلل الطروس[3] طرازَها؛ وبسَطَ قلمَه بسطًا كليًا، ونصبَه بين الناس عدلًا مبرزًا[4] مَرضيًا، وأجراه مُجرَى أمثالِه من العدول المبرِّزين، وسَلَك به مسلكَ الشهداء المتميّزين؛ وتقدّم - أدام الله تعالى أيّامَه - بكتابة هذا الإسجال، فكُتِب عن إذنه الكريم في التاريخ المقدَّم ذكرُه أعلاه المكتتَبِ بخطّه الكريم، شرّفه الله تعالى. والكاتب في ذلك بحَسَب ما تُوصله إليه عباراتُه.

---

(١) بحسب: أي يكتب فيها بحسب.

(٢) أربابها: أصحابها.

(٣) الطروس: ج طرس وهي الصحيفة.

(٤) مبرزًا: مزكى.

فصل في ثبوت إقرار متبايِعَيْن

يكتب: هذا ما أشهد على نفسه الكريمة سيّدنا ومولانا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضي القضاة، حاكمُ الحكّام فلان ـ وتُسْتَوْفَى ألقابهُ ونعوتُه ووَلايتُه، ويُدعَى له ـ مَن حضر مجلسَ حكمِه وقضائه، وهو نافذُ القضاء والحكم ماضيهما، أنه ثبت عنده وصحّ لديه ـ أحسن الله إليه ـ في المجلس المذكور، بمحْضَرٍ من متكلّمٍ جائزٍ كلامُه، مسموعةٍ دعواه على الوجه المعتبرَ الشرعيّ، بشهادة العدول الثلاثة ـ أو بحَسَب ما يكونون ـ الّذين أَعْلَمَ تحت رسم شهادتهم بالأداء في باطنه، إقرارُ[1] فلانٍ وفلانٍ بما نُسِب إلى كلٍّ منهما في كتاب الإقرار باطنه على ما شُرِح فيه، وهو مؤرَّخٌ بكذا وكذا، وبآخره رسمُ شهادتهم، وقد أرّخ شاهدان منهم شهادتَهما بتاريخ الكتاب، والثالث أرّخ شهادتَه بكذا وكذا وجميع[2] ما تضمّنه كتاب الابتياع المشروحُ باطنَه ـ ويذكر جميعَ ما فيه ـ وقد أقاموها بذلك عند سيّدنا قاضي القضاة فلان الحاكم المذكورِ بشروط الأداء المعتبَرة فيما عيّنه كلٌّ منهم في خطّه باطنَه في التاريخ المذكور، وقَبِل ذلك منهم القبولَ السائغَ فيه، وأَعلَمَ تحت رسم شهادتهم في باطنه علامةَ الأداء والقبول على الرسم المعهود في مِثله، وثبت ذلك عنده ثبوتًا شرعيًّا؛ فلمّا تكامل ذلك عند سيّدنا قاضي القضاة فلانٍ الحاكمِ المذكور سأله مَنْ جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعةُ المطهَّرةُ إجابتَه، الإشهادَ على نفسه بثبوت ذلك عنده، والحكمَ بِمُوجَبِه على الوجه المشروح فيه، . . . . . .[3] وأبقَى كلَّ ذي حجّة على حجّته، وهو في ذلك كلِّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما، بعد تقدُّم الدعوى المسموعة وما تَرتّب عليها، وتَقدّم ـ أدام الله أيّامَه، وأعزّ أحكامَه ـ بكتابة هذا الإسجال، فَكُتِبَ عن إذنه متضمنًا لذلك وذلك بعد قراءة ما يحتاج إلى قراءته في كتاب الإقرار، ووقع الإشهادُ بذلك بتاريخِ كذا وكذا.

---

(١) إقرار بالرفع؛ فاعل لقوله: «ثبت» السابق ذكره.

(٢) جميع بالرفع، معطوف على إقرار، أي وثبت عنده أيضًا جميع ما تضمنه. . الخ.

(٣) موضع هذه النقط يفيد أن القاضي أجاب السائل إلى سؤاله وأشهد على نفسه بثبوت ذلك عنده؛ وحكم بموجبه على الوجه المشروع فيه.

مثال إسجال بثبوت مبايعة بشهود[١] الأصل وشهود الفرع[٢] على نائب الحكم

هذا ما أشهد على نفسه العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى أقضى القضاة فلان، خليفةُ الحكم العزيز بالمكان الفلانيّ عن سيّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالى قاضي[٣] القضاة فلان، مَن حضره من العدول، أنه ثبت عنده في مجلس حكمه ومحلِّ نيابته في اليوم الفلانيّ، بعد صدور دعوى محرَّرةٍ مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع الشرعيّ بشهادة عدول الأصل الثلاثة، وهم ـ ويسمّيهم ـ وشاهِدَيْ الفرع، وهما فلانٌ وفلان، وهم الذين أَعلَمَ الحاكمُ المذكورُ تحت رسم شهادتهم بالأداء آخرَ الابتياع المذكورِ باطنَه، إقرارُ المتبايعَيْن المسمَّيَيْن باطنَه بما نُسِب إليهما فيه، على ما نُصّ وشُرِح فيه، المؤرَّخُ بكذا وكذا، وبآخره رسمُ شهادة العدول الثلاثةِ المشارِ إليهم؛ وقد أقام شهود الأصل شهادتَهم بذلك عند الحاكم المذكورِ بشروط الأداء وقَبِل ذلك منهم القبولَ السائغَ فيه؛ وقد أقام شاهدا الفرع المذكوران شهادتَهما على أصلهما العدلِ فلانٍ بما تحمّلاه عنه، وهو أنه شَهِد على المتعاقدَيْن المذكورَيْن باطنَه بما نُسِب إلى كلٍّ منهما فيه، وأنّه ذَكَر لهما ذلك، وأشهدهما على شهادته به، على ما تضمّنه رسمُ شهادتهما آخرَ الابتياع باطنَه، في حال سَوْغ سماع شهادة الفرع على أصله، عند سيّدنا القاضي فلان الحاكِم المذكور، وقَبِلَها منهما القبولَ السائغَ فيه وسَطَّر تحت رسم شهادة كلٍّ منهما ما جرت العادةُ به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود في مثله؛ وأنّه ثبت عنده ـ أعزّ الله أحكامَه ـ في المجلس المذكور على الوضع الشرعيّ، بشهادة عَدْلَيْن من العدول الثلاثة الأصول، وهما فلانٌ وفلان أنَّ البائع[٤] المذكورَ لم تزل يده متصرِّفة فيما باعه إلى حين انتقاله من يده إلى يد هذا المشتري المسمَّى باطنَه؛ وقد أقام كلٌّ منهما شهادتَه بذلك عنده، وقبلها منه القبولَ السائغَ فيه، وسَطّر ما جرت العادة به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود

(١) يريد بشهود الأصل: الشهود الأصليين، أي الذين حضروا مجلس العقد وشهدوا به عن رؤية لا عن سماع من غيرهم.

(٢) شهود الفرع: هم الذين يشهدون بما سمعوا من شهود الأصل ولم يحضروا مجلس العقد.

(٣) كان المناسب أن تكون صيغة التفضيل للثاني دون الأول، فيقول عن خليفة الحكم: «قاضي القضاة» وعن الآخر: «أقضى القضاة» إلّا أننا وجدنا مثل ذلك أيضًا في جواهر العقود، فلعله اصطلاح لكتاب الوثائق تفاؤلًا لخليفة الحكم بأن تعلو رتبته ويصير أقضى القضاة.

(٤) «أن البائع»، متعلق بقوله «وأنه ثبت عنده» السابق ذكره.

في مثله ـ وإن كانت المبايعة ثبتت بعدلين وشُهد أنَّ البائع مالكٌ لما باعه كتب: «أنّه ثبت عنده في المجلس المذكور بمحضر من متكلّم جائزِ كلامُه، مسموعةٍ دعواه على الوضع الشرعيّ المعتَبر، بشهادة عَدْلَيْن، هما فلانٌ وفلان، إقرارُ المتبايعَيْن باطنَه، وهو أنَّ فلانًا اشترى من فلان جميعَ كذا وكذا ـ ويشرح ما في المبايعة ـ وبآخرها رسمُ شهادتهما، وقد أقاماها عند الحاكم على المشتريَ والبائع بما نُسِب إلى كلٍّ منهما باطنَه وأنَّ البائعِ المذكورَ مالكٌ لما باعه فيه، وشخّصاه له، فقَبِل ذلك منهما القبولَ السائغَ فيه، وسَطَّر ما جرت العادة به من علامة الأداء والتشخيص على الرسم المعهود» ـ فلمّا تكامل ذلك عنده وصحّ لديه سأله من جاز سؤالُه التقدّمَ بكتابة هذا الفصل وتضمينَه الإشهادَ عليه بثبوت ذلك لديه، والحكمَ على المتبايعَيْن المذكورَيْن بما نُسِب إليهما بأعاليه، وتضمينَه ملكَ البائع المذكور لِما باعه فيه[1]؛ فأعذَر ـ أعزّ الله أحكامَه ـ إلى البائع المذكور: هل له مَطْعَنٌ فيما شُهِد به عليه فيه، أو في من شَهِد؟ فأقرّ في المجلس المذكور بأنّه لا مَطعَنَ له في ذلك ولا في شيء منه؛ فعند ذلك أجاب السائلَ إلى سؤاله، فكُتِب عن إذنه، وحَكَم على المتبايعَيْن المذكورَين بما نُسب إليهما بأعاليه، وبصحّة ملكِ البائع المذكورِ لِما باعه بعد قراءة ما تَضمّنه باطنَه[2] على شهود هذا الإسجال، وأَبقَى كلَّ ذي حجّة معتبَرةٍ فيه على حجّته، وهو في ذلك كلِّه نافذُ القضاء والحكم ماضيهما، وذلك بعد تقدّم الدعوى المحرَّرة وما ترتّب عليها؛ ووقع الإشهاد بذلك بتاريخِ كذا وكذا.

فصل في ثبوت إسجال حاكم على حاكم

هذا ما أشهد عليه سيّدُنا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضي القضاة فلانُ مَنْ حضره من العدول، أنّه ثبت عنده وصحّ لديه في مجلس حكمه ومحلّ ولايته، بعد صدور دعوى محرَّرة مقابَلةٍ بالإنكار على الوضع الشرعيّ، بشهادة العدول الذين أَعْلَم تحت رسم شهادة كلٍّ منهم بالأداء في باطنه، إشهاد قاضي القضاة فلانِ الحاكمِ بالعمل الفلانيّ بما نُسِب إليه في إسجاله المسطَّر أعلاه، على ما نُصّ وشُرِح فيه، وهو مؤرَّخ بكذا وكذا؛ وقد أقام كلٌّ من الشهود شهادتَه بذلك عند القاضي فلان الحاكمِ المبتدإ باسمه بشروط الأداء على الرسم المعهود عنده في مثله؛ فلمّا تكامل

(١) «فيه» أي في المكتوب.
(٢) «باطنه»، يحتمل الرفع على أنه فاعل لقوله: «تضمنه»، أي ما تضمنه باطل الإسجال، ولا يحتمل النصب على الظرفية، أي ما تضمنه الإسجال في باطنه.

ذلك عنده وصحّ لديه - أحسن الله إليه - سأله من جاز سؤالُه الإشهادَ على نفسه بثبوت ذلك لديه، وتنفيذَه وإمضاءَه والحكمَ به، فأجابه إلى سؤاله، وتقدّم بكتابته فكُتِب عن إذنه الكريم، وأَشهَد على نفسه بثبوت ذلك لديه، وتنفيذِه[١] وإمضائه وأنّه حكم به وارتضاه، وأبقَى كلَّ ذي حجّة معتبرَة فيه على حجّته، وهو في ذلك نافذ الحكم والقضاء ماضيهما، بعد تقدّم الدّعوى المسموعة وما ترتّب عليها - وإنْ حضر من أشهد عليه أنّه لا مَطْعَنَ له في ذلك كتب: «وحضر إقامةَ البيّنة فلان، واعترف بأنّه لا مَطْعَنَ له في ذلك ولا في من شَهِد به» - ووقع الإشهاد به بتاريخ....

فهذه أمثلة ذكرناها؛ والكاتب المُجيد المتصرّفُ يكتب بقدر الوقائع، ويتصرّف في الألفاظ، ما لم يخلّ بالمقاصد[٢]، ولا يُدخِل عليها من الألفاظ ما يفسدها.

وأما الكتب الحُكميّة - فإذا ثبت عند حاكم[٣] من الحكّام أمرٌ وسأله المحكوم له كتابًا حُكميًا لجميع القضاة كتب ما مثاله بعد البسملة: هذه المكاتبَةُ الحُكميّةُ إلى كلّ من تصل إليه من قضاة المسلمين وحكامهم - ويدعو لهم - من مجلس الحكم العزيز بالعمل الفلانيّ عن سيّدنا قاضي القضاة فلان، الحاكِم بالعمل الفلانيّ - ويدعي له - أنّه ثبت عنده وصحّ لديه في مجلس حكمه وقضائه بمحضرِ مِنْ متكلّم جائزِ كلامُه، مسموعةٍ دعواه على الوضع الشرعيّ، بشهادة عَدْلَيْن، وهما فلانٌ وفلانٌ، جميع[٤] ما تَضمّنه مسطورُ الدَّيْن المتّصلُ أوّلُه بآخر كتابي هذا، الذي مضمونُه - ويُنقَل إلى آخره - وبآخره رسمُ شهادة العدلين المشارِ إليهما؛ وقد أقام كلٌّ منهما شهادتَه عنده أنّه بالمُقِرّ المذكور عارفٌ؛ وقبِل ذلك منهما القبولَ السائغَ، وسَطّر تحت رسم شهادتهما ما جرت العادة به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود في مثله، وذلك بعد أنْ ثَبَتَتْ عنده على الوضع الشرعيّ بشهادة عدلين - هما فلانٌ وفلان الواضِعا رسم شهادتِهما في مسطور الدَّيْن المذكور - الغَيبةُ الشرعيّة وأقام كلٌّ منهما شهادتَه عنده بغَيبة المُقِرّ المذكور، وقالا: «إنهما به عارفان»، وقبل ذلك منهما القبولَ الشرعيّ، وسَطّر تحت رسم شهادتهما ما جرت العادة به من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود في مثله، وأَحلَف المُقَرَّ له بالله العظيم، اليمينَ الشرعيَّةَ المتوجِّهةَ عليه، المؤرَّخةَ في مسطور الحلف المكتتَبِ على ظهر المسطور أو الملصَقِ بذيل مسطور الدين، بالتماسه

(١) نفذ: النفاذ: الجواز. أي جواز الشيء والخلوص منه. (اللسان ص ٢٢٩).
(٢) المقاصد: الأهداف.
(٣) الحاكم: منفذ الحُكم، والجمع حُكّام.
(٤) «جميع» بالرفع، فاعل لقوله «ثبت».

لذلك على الأوضاع الشرعيّة، ثبوتًا[١] شرعيًا معتبرًا؛ وأنّه حكم بذلك وأمضاه، وألزَم بمقتضاه، على الوجه الشرعيّ، مع إبقاء كلّ ذي حجّة معتبرَة على حجّته، وهو في ذلك كلّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما بعد تقدّم الدعوى المسموعة وما ترتّب عليها؛ ولمّا تكامل ذلك كلُّه عنده وصحّ لديه ـ أحسن الله إليه ـ سأله مَنْ جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعةُ المطهَّرةُ أجابته، المكاتَبةَ عنه بذلك، فأجابه إلى سؤاله، وتقدّم بكتابة هذا الكتاب الحُكميّ فكُتِب عن إذنه؛ فمن وقف عليه من قضاة المسلمين وحكّامهم واعتمد تنفيذَه وإمضاءه حاز الأجر والثواب، والرضا وحُسنَ المآب؛ وفّقه الله وإيّانا لِما يحبّه ويرضاه؛ وكُتِب عن مجلس الحكم العزيز بالعمل الفلانيّ في اليوم الفلانيّ ـ ويؤرّخ ـ مثالُ العلامة بعد البسملة كذا وكذا، وعددُ أوصاله كذا وكذا؛ ويختم الكتاب.

ثم يكتب عنوانه، ومثال ما يكتب: «من فلانِ بنِ فلان الحاكم بالعمل الفلانيّ» ويُشهِد عليه بثبوت ذلك عنده.

ويكتب أيضًا في مثل ذلك ـ وهو أبلغ ـ ما صورتُه: هذا كتاب حُكميّ محرَّرٌ مرضيّ؛ تقدّم بكتابته وتسطيرِه، وتنجيزه وتحريرِه، العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى قاضي القضاة فلان ـ ويدعَى له ـ الحاكمُ بالدّيار المصريّة، أو غيرِها، للدّولة الفلانيّة، بالوَلاية المتّصلة بالمواقف الشريفة ـ نحو ما تقدّم في إسجال العدالة ـ إلى كلّ من يصل إليه من قضاة المسلمين وحكّامهم وَنُوَّابهم وخلفائهم ـ ويدعو لهم ـ متضمّنًا[٢] أنّه ثبت عنده وصحّ لديه؛ ويُكمّل كما تقدّم.

فصـــل

إذا ورد مثل هذا الكتاب من قاضٍ إلى قاضٍ ـ مثالُه من قاضي القضاة بدِمَشْقَ إلى قاضي القضاة بمصر ـ كتب على ظهره ما مثالُه: هذا ما أشهد على نفسه سيّدُنا ومولانا قاضي القضاة فلان، الحاكمُ بالقاهرة ومصرَ المحروستين وسائرِ الدّيار المصريّة ـ ويدعي له ـ أنّه ورد عليه الكتاب الحُكميُّ الصادرُ عن مُصدره قاضي القضاة فلان الحاكِم بدِمَشق ـ وهو الكتاب المشروحُ باطنَه ـ ورودًا صحيحًا شرعيًا، موثوقًا به، مسكونًا إليه؛ وشهد بوروده عن مُصدره قاضي القضاة فلانٍ الحاكِم بدِمَشْقَ المحروسةِ

(١) «ثبوتًا» مفعول لقوله: «ثبت» السابق ذكره.

(٢) «متضمنًا» حال من الضمير في قوله: «بكتابته» السابق ذكره.

كلُّ واحد من العدول المستورِين، أو المزكِّين وهم - ويسمّيهم - عند سيّدنا قاضي القضاة فلان، وقالا: «إنَّ الحاكم المذكورَ أشهدهما على نفسه بما تَضمّنه الكتابُ الحُكميُّ المسطَّرُ باطنَه، بعد قراءته على مُصدره بحضرتهما وحضور من يُعتبَر حضورُه» وإنَّ قاضيَ القضاة فلانًا سمع شهادتهما فقَبِلها القبولَ السائغ؛ ولمّا تكامل ذلك كلّه سأله من جازت مسألتُه، وسوّغت الشريعة المطهَّرة إجابتَه، الإشهادَ على نفسه بثبوت ذلك لديه، وأنّه قَبِله قبولَ أمثاله من الكتب الحُكمية قبولًا شرعيًا، وحكم به وأمضاه، وأَلزَم بمقتضاه؛ فأجاب السائل إلى سؤاله، وأشهد على نفسه بذلك، وذلك كلّه بعد تقدّم الدعوى المسموعة في ذلك وما ترتّب عليها، وأَبقَى كلَّ ذي حجّة معتبرَة فيه على حجّته، وهو في ذلك كلّه نافذ القضاء والحكم ماضيهما؛ وذلك بتاريخ...

وأما التقاليد الحُكميّة - فيبتدىء الكاتب في صدرها بعد البسملة بخطبة يورد فيها ما تؤدّيه إليه عبارتُه، وتُبلّغه إيّاه فصاحته وبلاغتُه؛ ثم يكتب: ولمّا كنتَ أيّها القاضي فلان - وينعته بما يستحقّه - ممّن اتَّصف بكذا وكذا واشتغل بكذا وكذا، واستحقّ كذا وكذا، استخرتُ الله تعالى، واستنبتُك عنّي في القضاء والحكم في العمل الفلانيّ، في جميع أعماله وبلاده وسائر أقطاره؛ فتولَّ ما ولّيتُك، وباشرْ ما عذقْته[1] بك، وصُنْ أموال الناس عن الضّياع، وزوِّجْ من لا وليّ له عند الشروط[2] المعتبرَة الأوضاع؛ واضبِط الأحكامَ بشهادة الثّقات العدول وميِّزْ بين المردود منهم والمقبول؛ وراعِ أحوالَ النوّاب[3] في البلاد، وأرهِمْ يقظةً تردع بها المفسدَ عن الفساد - ويَذكر غيرَ ذلك من الوصايا، ويوصيه في آخرها بتقوى الله تعالى - وكُتب عن مجلس الحكم العزيز بالعمل الفلانيّ؛ ويؤرّخ.

وأمّا تقاليد قضاة القضاة فتتعلّق بكتّاب الإنشاء؛ وهذا مثال، والكاتب يتصرّف بحَسَب نباهته ومعرفته وعلمه.

---

(١) «عذقته بك» علقته وجعلتُ أمره منوطًا بك كما يناط العِذق. - بكسر العين - وهو القنو بالنخلة.

(٢) «عند الشروط» أي عند تحقيق الشروط.

(٣) نابَ عني فلان ينوب نوبًا ومنابًا أي قام مقامي. (اللسان).

وأما الأوقاف[١] والتحبيسات ـ فهي بحسب آراء أربابها فيما يوقفونه ويحبسونه على أبواب القُرُبات، وأنواعِ الأُجَرِ والمَثُوبات؛ وسنذكر منها قواعد يقاس عليها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

فمن ذلك ما إذا كان لرجل دارٌ وأراد أن يوقفها عليه وعلى أولاده من بعده ونسلهم وعقبِهم، فسبيله في ذلك أن يملِّك الدّارَ لغيره[٢]، ويكتب التمليك على ما تقدّم[٣]؛ ثم يقول: وبعد تمام ذلك ولزومه أشهد عليه فلان المقَرّ له[٤] فيه شهودَ هذا المكتوب طوعًا منه واختيارًا، أنّه وقَفَ وحبّس وسبّل وحرم[٥] وأبّد، وتصدّق بما هو له وفي يدِه وملكِه وتصرّفِه، ورآه وعرفه، وأحاط به علمًا وخِبرة؛ وهو جميع الدّار الموصوفةِ المحدودةِ أعلاه، على فلانِ بنِ فلان المقِرِّ المملِّكِ المذكور أعلاه أيّامَ حياته، ثمّ من بعدِه على أولادِه، وأولادِ أولادِه، وأولادِ أولادِ أولادِه أبدًا ما تناسلوا دائمًا، وما تَعاقبوا، للذَّكَر مثلُ حظِّ الأنثيين، يتناقلونه بينهم كذلك إلى حين انقراضهم، يَحجُب الآباءُ منهم والأمّهاتُ أولادَهم وأولادَ أولادِهم وإن سَفُلوا[٦]؛ فمن لم يكن له[٧] ولدٌ ولا ولدُ ولدٍ ولا أسفلُ من ذلك، كان نصيبُه لإخوته الموجودِين حين موته، للذَّكَر مثلُ حظِّ الأنثيين، يَحجُب الآباءُ منهم والأمّهاتُ أولادَهم وأولادَ أولادِهم؛ فإن لم يوجد من أولاد الموقوف عليه وأولادِ أولادِه أحدٌ كان ذلك وقفًا مصروفًا رَيعُه على مصالح المسجد الذي بالموضع الفلانيّ ـ ويوصَف ويُحدَّد ـ برسم عمارته ومَرَمّتِه وفرشِه ووقود مصابيحِه وشراءِ ما يحتاج إليه من الزّجاج والنّحاس والحديد، ومن يقوم بخدمتِه والأذانِ فيه، ومن يؤمّ فيه بالمسلمين في الصلوات الخمسِ المكتوبةِ المفروضةِ على سائر المسلمين، على ما يراه الناظر في ذلك؛ فإن تعذَّر الصرفُ عليه بوجه من الوجوه كان ذلك وقفًا على الفقراء والمساكينِ أينما كانوا وحيثما وُجِدوا من الديار المصريّة أو الشامِ، أو عملٍ من الأعمال، أو بلدٍ من البلاد، على ما يراه الناظرُ في ذلك من مساواةٍ وتفضيل، وإعطاءٍ وحرمان؛ ومتى أمكن

(١) في المصباح أن قولهم «أوقفت الدار» بالألف لغة تميم، وأنكرها الأصمعي، وقال: الكلام «وقفت» بدون الألف.
(٢) أن يملك الدار لغيره: أي أن يملك الواقف ما يريد وقفه لشخص آخر، ثم يقفه هذا الشخص المملك (بتشديد اللام المفتوحة) على المملك (بتشديد اللام المكسورة).
(٣) على ما تقدم: أي ما تقدم ذكر التمليك. (٤) المقر له: أي المشتري.
(٥) «وحرّم» منع من التصرف في الموقوف وجعله حرامًا.
(٦) سفلوا: انقرضوا.
(٧) له: أي لأحد المستحقين من الأولاد وأولاد الأولاد. . الخ.

الصرفُ إلى ما ذُكِر من مصالح المسجد كان الوقفُ عليها والصرفُ إليها، يَجرِي الحالُ في ذلك كذلك إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها وهو خير الوارثين؛ على أنَّ للنّاظر في هذا الوقف والمتولّي عليه أن يؤجِره لمن شاء ما شاء من المُدَد: طوالِها وقصارِها، بما يراه من الأُجَر: المعجَّلةِ أو المؤجَّلةِ أو المنجَّمة[١]؛ أو يكتب: «وعلى الناظر في هذا الوقف أن يُؤجِره لسنةٍ كاملةٍ فما دونها، بأجرة المِثل فما فوقها» ولا يتعجّلْ أجرة، ولا يُدخِلْ عقدًا على عقد إلّا أن يجد في مخالفة ذلك مصلحةً ظاهرة، أو غبطةً ظاهرة[٢]، فيؤجِره لمدّةٍ كذا وكذا ولمن شاء، ويَستغِلّ أَجْرَه بوجوه الاستغلال الشرعيّة، فما حصل من رَيْعِه بدأ منه بعمارتِه ومَرَمّتِه وإصلاحِه وما فيه بقاءُ عينِه ودوامُ منفعته، ثم ما فَضَلَ بَعْدُ صَرَفَه لمستحقِّه على ما شُرِح أعلاه؛ وجَعَلَ الواقفُ النّظرَ في هذا الوقف والوَلايةَ عليه لفلان الموقوفِ عليه أوّلًا، ثم من بعدِه لأولادِه وأولادِ أولادِه، يُنظِّر كلٌّ منهم على حصّته في حالِ استحقاقِه وعلى حصّةِ من تَعذَّر نظرُه من المستحقِّين لصغرٍ أو سفهٍ أو غيبةٍ أو عدمِ أهليّة، أو سببٍ من الأسباب، إلى حين تمكُّنِه من النظر، فيعود حُكمُه حُكمَ باقي المستحقِّين في النظر على حصّته وحصّةِ غيرِه؛ فإن تَعذّر النظرُ من أحدِهم أو من جميعِهم بسببٍ من الأسباب، أو انقرضوا ولم يُوجد منهم أحد، كان النظرُ في ذلك لحاكِم المسلمين؛ وإن عاد إمكانُ النظر إلى مستحقِّي الوقفِ أو إلى أحدٍ منهم قُدِّم في النظر على غيره؛ ومن عُدِمت[٣] منهم أهليّتُه وكان له وليٌّ ينظرُ في مالِه كان النظرُ له على حصّته في هذا الوقف دون غيرِه من المستحقّين ومن الحاكم؛ يَجري الحالُ في ذلك كذلك وجودًا وعدمًا، إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين؛ ولكلِّ ناظر في هذا الوقف أن يستنيب عنه في ذلك من هو أهلٌ له؛ وعلى كلِّ ناظر في هذا الوقف أن يتعهّد إثباتَه عند الحاكم بحفظِه بتواتُرِ الشّهادات واتّصال الأحكام، وله أن يصرف في كُلفة إثباتِه ما جرت العادةُ به من رَيع هذا الوقف؛ وَقَفَ فلانٌ المبتدأُ باسمِه جميعَ ذلك على الجهات المعيَّنة، بالشروطِ المبيَّنة، على ما شُرِح أعلاه؛ وقفًا صحيحًا شرعيًّا مؤبَّدًا، وحبسًا دائمًا سرمدًا[٤]، وصدقةً موقوفة، لا تُباع ولا تُوهب، ولا تُملَّك، ولا تُرْهَن، ولا تُتلَف بوجهِ تلف، قائمةً على أصولها محفوظةً على شروطها،

(١) المنجمة: من نجّم الدّين ينجّم: أي أدّاه أقساطًا في أوقاتٍ معيّنة.

(٢) المراد بالغبطة الظاهرة، أن الكاتب مخيّر بين أن يقول «مصلحة ظاهرة» أو يقول: «غبطة ظاهرة، وليس المراد أن يجمع الكاتب بينهما في مكتوب واحد».

(٣) عدم: أي فقد الشيء وذهب عنه.

(٤) السرمد: الدائم الأبدي.

إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين؛ وقَبِل هذا الموقوفُ عليه ذلك لنفسه قبولًا شرعيًا، وتَسلّم الموقوفُ عليه الدّارَ المذكورة وصارت بِيَدِه وقبضِه وحَوْزِه؛ وذلك بعد النظر والمعرفة، والإحاطة به علمًا وخِبْرة؛ فلا يَحِلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر إخراجُه عن أهله، وحرامٌ على من غيّره أو بدّله ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨١].

فصـــل

إذا وقف رجل دارًا على أولاده وعلى من يُحدثه[١] الله من الأولاد، ثمّ على المسجونين ثمّ على فكِّ الأسرى، ثمَّ على الفقراء والمساكين، كتب ما مثالُه: هذا كتابُ وقفٍ صحيحٍ شرعيّ، وحبسٍ صريح مرضيّ، تَقرَّب به واقفُه إلى الله تعالى رغبةً فيما لديه وذخيرةً له يوم العرض عليه يوم يجزي الله المتصدّقين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ اكتتبه فلان، وأشهد على نفسه أنّه وَقَف وحبّس وسبَّل وحرَّم وأبّد وتصدّق بـمـا هـو لـه وفـي يـدِه ومـلكـهِ وتَـصـرّفِـه، وَعَـرَفـه ورآه، وأحـاط بـه عـلمًـا وخبـرة. . . . .

. . . . [٢]

عَقّار بالعين والقاف والراء: عَقّارُ بنُ المُغيرةَ بنِ شُعْبة، وغيرُه؛ وغفار، هو أبو غفار، عن أبي تَمِيمة[٣]، وأبو غِفار غالبٌ التّمار.

(وعُبَيْس) (وعَنْبَس).

عُبَيْس، هو ابنُ ميمونٍ أبو عُبَيدة، وأمُّ عُبَيْس، امرأةٌ[٤] كانت تعذَّب في الله أعتقها أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه وعَنْبَس، هو ابنُ عُقْبة، وعَنْبَسُ بنُ إسماعيلَ القزّاز، وغيرُهما.

---

(١) حدث: الحديث نقيض القديم. والحدوث: كون شيء لم يكن.

(٢) هنا عدة صفحات ساقطة من الأصل تشمل بقية كتاب الوقف الذي نحن بصدده، وعلى أول كتابة النسخ وشيء من المؤتلف والمختلف من أسماء نقلة الحديث من أول حرف الألف إلى الكلام على عقار بن المغيرة بن شعبة في حرف العين.

(٣) عن «أبي تميمة» أي يروي عن أبي تميمة.

(٤) قال الزبير بن بكار في قصة أم عبيس هذه: «أنها كانت أمة لبني تميم بن مرة فأسلمت أول الإسلام، وكانت ممن استضعفه المشركون يعذبونها، فاشتراها أبو بكر فأعتقها. وذكر البلاذري: «أنها كانت أمة لبني زهرة، وكان الأسود بن يغوث يعذبها؛ (الإصابة في تمييز الصحابة ج ٨، ص ٢٥٨).

(وعَبّاد) (وعُباد) (وعِياذ) (وعِباد).

فأمّا عَبّاد، فَكَثِيرٌ؛ وعُباد بضمّ العين، هو قيسُ بنُ عُباد، تابعيٌّ كبير؛ وعِياذ بكسر العين وياء مثنّاة وذال معجمة، هو عِياذ بنُ عمرو، له صحبة، وأُهْبانُ بنُ عِياذ مُكلِّمُ الذئب[1]، وعِياذُ بنُ أبي العَيْذ، وعِياذُ بنُ مَغْراء؛ وعِباد بكسر العين وباء موحّدة: ربيعةُ بنُ عباد، له صحبة، وعِباد العَبْديّ.

(وعُمارة) (وعِمارة).

عُمارة بالضم، كثير؛ وبكسر العين: واحد، هو أبيُّ بنُ عِمارة، له صحبة.

(وعابس) (وعائش).

عابس، كثير؛ وعائش، هو ابنُ أَنَس، وعبدُ الرحمٰن بنُ عائش الحَضْرَميّ.

(وعُذْثان) (وعَذْنان).

أمّا عُذْثان، فهو في نسب[2] غافق بنِ العَتِيك بنِ عَكّ بن عُذْثان؛ وعَذْنان، هو عَذْنانُ بنُ أحمدَ بنِ طُولون.

(وعَليّ) (وعُلَيّ).

......[3] عُلَيّ بضم العين وتشديد الياء، هو عُلَيُّ بنُ رَباح، والأَصْبغُ بنُ عَلقمةَ بنِ عُلَيّ.

(وعَيْشُون) (وعَيْسُون) (وعَبْسُون).

---

(١) مكلم الذئب هو أهبان بن أوس الأسلمي، وذلك أنه كان يسكن (يين) وهي بلاد أسلم. فبينما هو يرعى غنمًا له بحرّة الوبرة عدا الذئب على شاة منها، فأخذها أهبان منه، فتنحى الذئب فأقعى على ذنبه. وقال لأهبان: «ويحك لم تمنع مني رزقًا رزقنيه الله»؟ فجعل أهبان الأسلمي يصفق بيديه ويقول: «تالله ما رأيت أعجب من هذا». فقال الذئب: «إنّ أعجب من هذا رسول الله ﷺ بين هذه النخلات» وأومأ إلى المدينة؛ فحدَّد أهبان غنمه إلى المدينة وأتى رسول الله ﷺ فحدثه القصة وأسلم. (كتاب الطبقات الكبرى/ ابن سعد / ج ٤ ق ٢ ص ٤١).

(٢) الذي وجدناه في كتب اللغة أن غافقًا ليس ابن العتيك كما هنا؛ وإنما هو ابن الشاهد. وقيل: ابن الحارث بن عك بن عدثان. (مستدرك التاج).

(٣) لم يرد في الأصل كلام عن «علي» بفتح العين، فلعل المؤلف تركه لشهرته وكثرة من سمي به دون ما بعده لندرته واحتياجه إلى التوضيح. وقد كثر هذا الحذف في مواضع كثيرة من هذا الباب.

أمّا عَيْشُون، فهو عبدُ الله بنُ عَيْشُون[١] الحَرّانيّ، ومحمدُ بنُ عَيْشُون؛ وأمّا عَيْسُون، فهو عبدُ الحميد بنُ أحمدَ بنِ عيسى، هذا يُعرَف بعَيْسُون، ومحمّدُ بنُ عَيْسُون الأَنْماطيّ؛ وأمّا عَبْسُون، فهو محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عَبْسُون البغداديّ.

(وعَتِيق) (وعُتَيْق).

الأوّلُ بالفتح، كثير؛ وعُتَيْق بالضم، هو عُتَيْق بنُ محمّد.

(وعُتْبة) (وعِنَبة) (وغَنِيّة) (وعُبَيّة).

أَمّا عُتْبة بضم العين، فكثير؛ وأمّا عِنَبة بكسر العين وبعدها نون، فهو أبو عِنَبَةَ الخَوْلانيّ، أدرك الجاهليّة والإسلام، والحارثُ بنُ عِنَبَةَ الكوفيّ؛ وأمّا غَنِيّة بالغين المعجمة ونون وياء، فعبدُ الملك بنُ حُمَيْدِ بنِ أبي غَنِيَّةَ والدُ يحيىٰ؛ وأمّا عُبَيّة، فاسمٌ مشهور[٢].

(وعبّاس) (وعيّاش) (وعيّاس) (وعَنّاس).

فأمّا عبّاس، فكثير؛ وأمّا عيّاش، فجماعة، منهم عيّاشُ بنُ أبي رَبِيعة؛ وأمّا عيّاس بالياء المثنّاة من تحت والسين المهملة، فهو أبو العَيّاس، يَروِي عن سعيد بن المُسيِّب؛ وأمّا عنّاس بالنون والسين المهملة، فهو عنّاسُ بنُ خليفة.

(وعَبْدان) (وعَيْدان) (وعِيدان).

فعَبْدان، اسمٌ مشهور؛ وعَيْدان بفتح العين، هو رَبيعةُ بنُ عَيْدان[٣]؛ وأمّا عِيدان بكسر العين، فهو واحد من المحدِّثين.

(وعَقِيل) (وعُقَيل) اسمان مشهوران.

(وعتّاب) (وغِياث) كذلك.

(وعُلَيْم) (وعَلْثَم).

أمّا عُلَيْم، فهو الّذي يَروِي عن سَلْمانَ الفارسيّ؛ وأمّا عَلْثَم، فهو والدُ عَمّارِ بنِ عَلْثَم.

---

(١) عيشون هذا هو جد عبد الله، وأما أبوه فهو محمد بن عيشون. (المؤتلف والمختلف ٨٩).

(٢) قول المؤلف عن هذا الاسم إنه مشهور يوهم أنّ المسمين به كثيرون، ولم نجد فيما لدينا من الكتب من سمي بعبية غير عبية بنت هلال العبدية. وقيل: بنت إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة، كما جاء في «القاموس».

(٣) قيل فيه أيضًا: «إنه ابن عِبدان بكسر العين وبعدها باء موحدة.

(وعيسى) (وعَبْسيّ).

أمّا الأوّلُ، فاسمٌ مشهورٌ معروف؛ والثاني بفتح العين وتسكين الباء الموحّدة وكسر السين، فهو عَبْسيٌّ[١] بنُ قاشِيّ، اجتمع بأحمدَ بن حنبل.

(وعُثَيْم) (وغُنَيْم).

الأوّلُ: اسمُ جماعة، منهم عُثَيْمُ بنُ نِسْطاس، رَوى عن سعيد المَقْبُرِيّ؛ وغُنَيْم بالغين المعجمة والنون: غُنَيْمُ بنُ قَيْس، أبو العنبر، أدرك النّبيّ ﷺ ورآه.

(وعُتَيْبة) (وعُيَيْنة).

الأوّلُ: الحَكَمُ بنُ عُتَيْبة، وعُتَيْبة عن بُرَيْد بنِ أَصْرَم عن عليّ؛ وأمّا عُيَيْنة، فكثير.

(وعُدَيْس) (وعَدَبَّس).

عبدُ الرحمـٰن[٢] بنُ عُدَيْس، له صحبة؛ وعَدَبَّس بالباء المُوحّدة، هو جدُّ عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ وُهَيْب بنِ عَدَبَّس، وأبو العَدَبَّس مَنِيعُ بنُ سليمان.

(وعُفَيْر) (وغُفَيْر).

الأوّلُ بالعين المهملة: جماعة؛ والثاني بالإعجام، هو الحسنُ بنُ غُفَيْر.

(وعَدِيّ) (وعُدَيّ).

الأوّلُ بالفتح، كثير؛ والثاني بالضم، هو زيادُ بنُ عُدَيّ.

(وعايذ) (وعابد).

الأوّلُ بالياء المثنّاة من تحت والذال المعجمة، كثير؛ والثاني بالباء الموحّدة والدال المهملة: حبِيس بنُ عابد، وعابدُ بنُ عمر بنِ مخزوم[٣].

(وغَزْوان) (وعَزْوان).

---

(١) «عبسي»: لقب له، أما اسمه فهو عيسى، أبو العباس. (المؤتلف والمختلف ص ٩٥).

(٢) يريد المؤلف أن يقول: أما الأول فهو عبد الرحمـٰن. أو يقول: أما عديس فهو عبد الرحمـٰن، وهنا يخالف طريقته التي اعتاد عليها سابقًا.

(٣) كذا في كتاب المؤتلف والمختلف وشرح القاموس مادة «عبد» قيل قوله «ابن عمر» قوله: «ابن عبد الله» والذي في الأصل «ابن عمران» وهو تحريف.

الأوّلُ بالإعجام، كثير؛ والثاني بالعين المهملة، هو عَزْوانُ بن زيد[١] الرَّقاشي. رَوَى[٢] عن الحسن البَصْريّ.

(وغَنّام) (وعَثّام).

الأوّلُ: غَنّام، بَدْريّ، وتُسمَّى به غيرُه؛ والثاني: عثّام بنُ عليّ.

(وغُرَيْر) (وعُزَيْز) (وعَزِيز) (وعُزَيْر).

الأوّلُ بالغين معجمة وراء مهملة مكرّرة، هو غُرَيْرُ بنُ حُمَيْدِ بنِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ عوف؛ والثاني عُزَيْز بالعين المهملة مضمومة وزاي مكررة معجمة، هو محمّدُ بنُ عُزَيْز الأَيْليّ، ومحمّدُ بنُ عُزَيْز[٣] السِّجِسْتانيُّ صاحبُ غريب القرآن؛ والثالث عَزِيز بفتح العين المهملة وكسر الزاي الأولي المعجمة، هو والدُ خَيْثَمة؛ قال خَيْثَمةُ بنُ عبدِ الرحمٰن: «كان اسمُ أبي في الجاهليّة عَزِيزًا، فسمّاه النبيُّ ﷺ عبدَ الرحمٰن». والرابع عُزَيْر بالزاي والياء المثنّاة[٤] تحت: أحمدُ بنُ عُبَيد الله حمارُ العُزَيْر.

(وغَرُّون) (وعَزُّون).

الأوّلُ: من شيوخ المَوْصِل؛ والثاني: بالعين المهملة، هو جدُّ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عَزُّون.

(وغَنِيّ) (وعُتَيّ).

الأوّلُ: عطيّةُ بنُ غَنِيّ؛ والثاني: عُتَيُّ بنُ ضَمْرة، عن أُبيّ بنِ كعب[٥].

(وفُضَيْل) (وفَصِيل).

الأوّلُ، كثير؛ والثاني بالفاء والصاد المهملة مكسورة: الحَكَمُ بنُ فَصِيل يَروِي عن خالد الحذّاء، عن نافع، عن ابنِ عمر.

(وفَرِيس) (وقُرَيش).

---

(١) كذا في الأصل وكتاب المؤتلف والمختلف، ومستدرك التاج مادة «عزا» وكذلك في اللسان.

(٢) كذا في مستدرك التاج مادة «عزا».

(٣) أورد الذهبي هذا الاسم في المشتبه (ص ٣٦١) بالراء المهملة في آخره مكان الزاي المعجمة.

(٤) من الأنسب أن يزيد بعد ذكر الياء المثناة الراء المهملة أيضًا كما ذكرها صاحب كتاب المؤتلف والمختلف ص ٩٨. فإن ذكر الراء المهملة في تعيين هذا الاسم ألزم من ذكر الحرفين اللذين قبلهما.

(٥) أي أنه روى عن أُبَيّ بن كعب.

الأوّلُ بفاء مفتوحة وسين مهملة، هو فَرِيسُ بنُ صَعْصَعة؛ والثاني، كثير.

(وفَرَج) (وفَرَح) (وفَرْخ).

الأوّلُ بالجيم: جماعة؛ والثاني بالحاء المهملة: قليل، منهم فَرَحُ بنُ رَواحة؛ والثالث بالخاء المعجمة والراء الساكنة، هو جدُّ عبدِ الله بنِ محمّدِ بنِ فرخ[(١)] الواسطيّ.

(وفَتْح) (وفَنَّج).

الأوّلُ اسمٌ مشهور؛ والثاني بالفاء والنون والجيم: واحد، روى عبدُ الله بنُ وهبِ بنِ منبِّهٍ عن أبيه، قال: «حدَّثني فَنَّج».....[(٢)].

(وقَهْم) (وفَهْم).

الأوّلُ بالقاف، هو النَّهّاسُ بنُ القَهْم[(٣)]؛ والثاني بالفاء، هو فَهْمُ بنُ عبدِ الرحمٰن، وغيرُه.

(وكَثِير) (وكَنِيز) (وكُثَيِّر)[(٤)] (وكَبِير) (وكُنَيْز)[(٥)].

الأوّلُ بالفتح والثاء المثلّثة: اسمٌ مشهور؛ والثاني بالفتح والنون والزاي معجمة، هو بحرُ بنُ كَنِيز السّقّاء؛ والثالث كُثَيِّر، بضم الكاف وتشديد الياء، هو كُثَيِّرُ بنُ عبدِ الرحمٰن؛ والرابع كَبير، بالفتح والباء الموحّدة والياء الساكنة، هو أبو أُمَيَّة كَبير والدُ جُنادةَ الأَزديّ؛ والخامس كُنَيْز بضم الكاف وفتح النون، هو كُنَيْز الخادم، كان يحدِّث بمصر.

(وكَبْشة) (وكَيِّسة).

الأوّلُ كثير؛ والثاني بالياء والسين، هو أبو كَيِّسةَ[(٦)] البَراءُ بنُ قيس، وكَيِّسةُ[(٧)] بنتُ أبي بَكْرَة الثَّقفيّ.

---

(١) في المؤتلف والمختلف، وكذلك في الأعلام «ابن الفرخ» زيادة «أل».

(٢) لم يورد المؤلف حديث فنج لوهب بن منبه. تاركًا الحديث للقارىء ومكتفيًا بالمقصود في هذا الموضع، وهو تعيين الاسم الذي هو بصدد تعيينه دون ما عداه، كما هو دأبه في جميع أبواب هذا الكتاب. (وقد ورد الحديث في المؤتلف والمختلف).

(٣) في المؤتلف والمختلف وغيره من الكتب التي بين أيدينا «ابن فهم» بغير «أل».

(٤) كان الأنسب أن يذكر هذا الاسم تاليًا «لكثير» بفتح الكاف، وذلك لاتفاقهما في المادة.

(٥) كان الأنسب أن يذكر هذا الاسم تاليًا «لكنيز» بفتح الكاف وذلك لاتفاقهما في المادة.

(٦) إنه أبو كبشة بالباء الموحدة والشين المعجمة.

(٧) كذا في القاموس مادة «كيس» والمصباح مادة «بكر» و«أبو بكرة». وهو نفيع بن مسروج. وكني=

(ومُسْلِم) (ومُسَلَّم)..... [١].

(ومَخْلَد) (ومُخَلَّد).

الأوّلُ بتسكين الخاء، كثير؛ والثاني بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام: مَسْلَمةُ بنُ مُخَلَّد، له صحبة، والحارثُ بنُ مُخَلَّد، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(ومُعاوية) (ومُغْوِية).

الأوّلُ، معروف؛ والثاني بالغين المعجمة، هو أبو راشد الأَزْديّ، وَفَدَ على النّبيّ ﷺ، فقال له: «ما اسمُك»؟ فقال: «عبدُ العُزَّى»، قال: «أبو مَنْ»؟ قال: «أبو مُغْوِية»، قال رسول الله ﷺ: «كَلّا، ولكنّك عبدُ الرحمٰن أبو راشد».

(ومُبَشِّر) (ومُيَسِّر).

الأوّلُ اسمٌ مشهور؛ والثاني، هو مُيَسِّرُ بنُ عمرانَ بنِ عُمَيْر، مولى عبد الله بن مسعود، وعليُّ بنُ مُيَسِّر، كوفيّ.

(ومَعْمَر) (ومُعَمَّر) اسمان مشهوران.

(ومَعْبَد) (ومُعَيْد).

الأوّلُ، كثير؛ والثاني، هو أبو مُعَيْدٍ حَفْصُ بنُ غَيْلان.

(ومِسْوَر) (ومُسَوَّر).

الأوّلُ بكسر الميم وتسكين السين المهملة، كثير؛ والثاني، هو بضم الميم وفتح السين وتشديد الواو، وهو مُسَوَّرُ بنُ يزيد المالكيُّ الكاهليّ، له صحبة.

(ومَرْثد) (ومَزْيَد) (ومُرَيْد) (ومُزَبِّد).

الأوّلُ بفتح الميم وسكون الراء المهملة والثاء المثلّثة، كثير؛ والثاني مَزْيَد بالزاي والياء، هو الوليدُ بنُ مَزْيَد صاحبُ الأَوْزَاعيّ، ومَزْيَدُ بنُ هلال، ووالدُ يزيدَ بن مَزْيَد، ومَزْيَدُ بنُ عبدِ الله؛ والثالث مُرَيْد بضم الميم والراء المهملة والياء المثنّاة من تحت،

= أبا بكرة لأن رسول الله ﷺ لما حاصر أهل الطائف قال: «أيما حرّ نزل إلينا فهو آمن وأيما عبد نزل إلينا فهو حرّ». فنزل إليهم عدة عبيد من أهل الطائف وفيهم أبو بكرة هذا؛ وقد تدلى إليهم في بكرة، فكني بذلك. (ابن سعد الطبقات الكبرى ج ٧ ـ ص ٨ و٩).

(١) لم يرد تفصيل لهذين الاسمين، وقد تكرر مثل هذا الحذف في مواضع كثيرة من هذا الباب.

هو مُرَيْد، روى عن أيوب السِّخْتِيانيّ؛ والرابع مُزَبِّد، هو صاحب النوادر، بالزاي والباء المعجمة بواحدة.

(ومُحْرِز) (ومُحَرَّر) (ومُجَزِّز).

الأوّلُ: مُحْرِزُ بنُ زُهير، له صحبة؛ والثاني مُحَرَّر بالحاء والراءين المهملتين هو مُحَرَّرُ بنُ أبي هريرة، ومُحَرَّرُ بنُ قَعْنَب؛ والثالث مُجَزِّز بالجيم وزايين معجمتين هو مُجَزِّز المُدْلِجيُّ القائف، وهو في الصحابة.

(ومُغِيث) (ومُعَتِّب) (ومُعْتِب).

الأوّلُ: مُغِيثُ بنُ بُدَيل، ومُغِيثُ بنُ أبي بُرْدة، ومُغِيثٌ[1] زوجُ بَرِيرة، له صحبة وغيرهم؛ والثاني مُعَتِّب، هو ابنُ قُشَيْر، ومُعَتِّبُ بنُ أبي مُعَتِّب، وغيرُهما؛ والثالث مُعْتِب، تَسمَّى به جماعة[2].

(ومُزاحِم) (ومُراجِم).

الأوّلُ، مشهور؛ والثاني مُراجِم بالراء المهملة والجيم: عَوّامُ بنُ مُراجِم.

(ومُسْهِر) (ومُشَهَّر).

الأوّلُ، فيه جماعة؛ والثاني وَبَرُ بنُ مُشَهَّر[3]، له صحبة.

(ومُشْكان) (ومُسكان).....[4].

(ومِشْرح) (ومُسَرَّح).....[5].

---

(١) قيل في زوج بريرة: «معتِّب» بالتاء المشددة المكسورة. (انظر اللسان وشرح القاموس).

(٢) المسمون «مُعْتِبًا» بتخفيف التاء هم المسمون «مُعَتِّبًا» بتشديد التاء. وقد ورد هذا في المؤتلف والمختلف وبالشكلين.

(٣) اختلف في ضبط هذا الاسم، فضبطه الذهبي في المشتبه بسكون الشين المعجمة وفتح الهاء اسم مفعول، ثم ذكر أن بعضهم يثقل الهاء. وذكر ابن حجر في التبصير أن التثقيل هو المعتمد وبه جزم الجمهور.

(٤) لم يرد في الأصل تفصيل لهذين الاسمين؛ وقد تكرر مثل هذا الحذف في مواضع كثيرة من هذا الباب.

(٥) لم يرد في الأصل تفصيل لهذين الاسمين كسابقهما؛ وقد أورد عبد الغني في كتابه المؤتلف والمختلف (ص ١٢١) ما نصه: «مشرح» بالشين المعجمة وكسر الميم: مِشْرح، له صحبة، روت عنه ابنته واسمها ميل.

(ومُسَبِّح) (ومُسَيْح) (ومَسِيح) (ومُشَنَّج).

الأوّلُ، هو مُسَبِّحُ بنُ حاتم العُكْليّ، وغيرُه؛ والثاني مُسَيْح بفتح السين المهملة وسكون الياء، هو تميمُ بنُ مُسَيْح؛ وبكسر السين المهملة، هو عبدُ العزيز بنُ مَسِيح؛ والرابع مُشَنَّج بالشين المعجمة والنون والجيم، هو سِمْعانُ بنُ مُشَنَّج، روى عن سَمُرةَ بنِ جُنْدَب.

(ومُثَنَّى) (ومَيْثاء).

الأوّلُ، مشهورٌ كثير؛ والثاني مَيْثاء بالياء المثنّاة من تحت والثاء المثلّثة، هو أبو المَيْثاء المستظِلُّ بنُ حُصَين، وأبو المَيْثاء أيّوبُ بنُ قسطنطين، مصريّ وأبو المَيْثاء، عن أبي ذَرّ.

(ومُنَبِّه) (ومُنْية).

الأوّل، كثير؛ والثاني، قليل، منهم يَعْلَى بنُ مُنْية، وهو ابنُ أُميّة، ومنْيةُ بنتُ عُبيدِ بنِ أبي برزة.

(ونافع) (ويافع).

الأوّلُ بالنون، كثير؛ والثاني بالياء، هو يافعُ بنُ عامر.

(ونَصْر) (ونَضْر) اسمان معروفان.

(ونُميْل) (وثُمَيْل).

الأوّلُ بالنون: إسماعيلُ بنُ نُمَيْل؛ والثاني بالثاء المثلّثة: ثُمَيْل الأشعريّ، عن أبي الدَّرْداء.

(ونُعَيْم) (ويَغْنَم).

الأوّلُ بالنون، كثير؛ والثاني بالياء وغين معجمة، هو يَغْنَمُ بنُ سالِم بنِ قَنْبَر ضعيفٌ جدًّا.

(ونزار) (وبَراز).

الأوّلُ بالنون، جماعة؛ والثاني بالباء، هو أَشْعَثُ بنُ بَراز، من أهل البَصْرة، له مناكير.

(ونُصَيْر) (ونُضَيْر) (ونَصِير) (وبَصِير).

الأوّلُ: نُصَيْرُ بنُ الفَرج، وغيرُه؛ والثاني: نُضَيْر بنون مضمومة وضاد معجمة هو نُضَيْر بنُ زياد؛ والثالث نَضِير بنون مفتوحة وضاد معجمة مكسورة، هو نَضِيرُ بنُ قيس؛ والرابع: أبو بَصِير[1]، روى عنه أبو إسحـٰق السَّبِيعيّ، وأبو بَصِير عُتْبةُ بنُ أَسِيد.

(والنَّجّار) (والنَّحّاز).

الأوّلُ بالجيم والراء: أيّوبُ بنُ النَّجّار، والنَّجّارُ جدُّ الأنصار؛ والثاني النَّحّاز بالحاء والزاي، هو النَّحّازُ بنُ جُدَيّ.

(ونَجَبة) (وتِحْيَة).

الأوّلُ بالنون والجيم والباء، هو نَجَبةُ بنُ صَبِيغ، عن أبي هريرة، والمُسيّبُ بنُ نَجَبة؛ والثاني تِحْيَة بالتاء والحاء والياء، هو الحَكَمُ بنُ أبي تِحْيَة.

(ونائل) (ونابِل) (وناتِل).

الأوّلُ بالياء: نائلُ بنُ نَجِيح، ونائلُ بنُ مُطَرِّف؛ والثاني بالباء الموحّدة هو نابِلٌ صاحبُ العَباء، عن ابن عمر، وأَيْمَنُ بنُ نابِل؛ والثالث ناتِل بالتاء المثنّاة هو ناتِل الشاميّ، وهو ناتِلُ بنُ قيس، عن أبي هريرة.

(ونَجِيب) (وبُخَيْت).

الأوّلُ بالنون والجيم، هو أبو النَّجِيب، عن أبي سعيد الخُدْريّ - رضي الله عنه - واسمهُ ظَلِيم، والنَّجِيبُ بنُ السَّريّ؛ والثاني بُخَيْت، هو أبو بكر بنُ بُخَيْت البغداديُّ الدّقّاق.

(وواقد) (ووافد).

الأوّلُ بالقاف، كثير؛ والثاني وافد بالفاء، قليل، منهم وافدُ بنُ سلامة، ووافدُ بنُ موسى.

(ووِقاء) (ووفاء).

فأمّا وِقاء بالقاف، فهو وِقاءُ بنُ إياس؛ وأمّا وفاء بالفاء، فهو ابنُ شُرَيْح، ووفاءُ بنُ سُهَيل.

(وهُذْبة) (وهَديّة).

---

(١) هو عبد الله بن أبي بصير.

هُذْبة بالباء الموحّدة، هو ابنُ المِنْهال، وهُذْبةُ بنُ خالد أخو أميّة؛ وأمّا هَدِيّة بالياء المثنّاة، فهو هَدِيّةُ بنُ عبد الوهّاب، ومحمدُ بنُ هَدِيّةَ الصَّدَفيّ، ويقال: «ابن هُدَيّة»، ويزيدُ بنُ هَدِيّة.

(ويَسَرة) (وبُسْرة).

الأوّلُ: يَسَرة بنُ صفوان؛ والثاني بُسْرة بالباء الموحّدة، هو أبو بُسْرة، عن البَرَاء، وبُسْرةُ بنتُ صَفْوان، لها صحبة.

(وياسِر) (وباشِر) (وناشِر).

الأوّلُ ياسِر، كثير؛ وباشِر، هو أبو حازمٍ[1] باشِر؛ وناشِر بالنون، هو والدُ أبي ثعلبة الخُشَنيّ جُرْثوم؛ وقيل فيه: «ناشِب».

هذا ما اتفق إيراده من مؤتلِف الأسماء ومختلِفها على سبيل الاختصار ممّا ألّفه الشيخُ عبدُ الغنيّ بنُ سعيدِ بنِ عليِّ بنِ سعيدِ بنِ بشرِ بنِ مروانَ الأَزْديّ، الحافظُ المصريّ ـ رحمه الله تعالى ـ؛ وقد ألّف أيضًا كتابًا آخرَ في المنسوب من رجال الحديث إلى قبيلة أو بلدة أو صنعة، ممّا يأتلف في صورة الخطّ ويختلف في المعنى، لا بأس أن نورد منه نُبْذة.

فمن ذلك الأُبُلّيّ: نسبة إلى الأُبُلّة[2]؛ وإليها يُنسَب نهرُ الأُبُلّة الّذي هو أحدُ متنزَّهات الدنيا الأربعة[3]. والأَيْليّ: نسبةٌ إلى أَيْلة، وأَيْلَة على شاطىء[4] البحر، يمرّ عليها الحاجُ المصريُّ في مسيرِه إلى مكّةَ وعَوده، وإليها تُنسَب العَقَبة، وهي على عشر مراحلَ من القاهرة. ولهم[5] أيضًا (الأبليّ)[6]: نسبة إلى (أبلة) بالأندلس.

---

(١) قيل في هذا الاسم أيضًا «بشر بن حازم». (المؤتلف والمختلف ١٣٥).

(٢) الأبلة: بضم الهمزة والباء واللام المشددة المفتوحة وبعدها هاء ساكنة بلدة قديمة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ويبعد عنها أربعة فراسخ، وهي من جنات الدنيا. (معجم البلدان لياقوت).

(٣) هذه المتنزهات الأربعة هي: غوطة دمشق، وصغد سمرقند، نهر الأبلة، شعب بوّان.. (معجم البلدان لياقوت).

(٤) يريد شاطىء بحر الروم.

(٥) «لهم» أي لرجال الحديث من النسب.

(٦) لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من الكتب المؤلفة في النسب والأسماء، ولذلك لم نضبطها. كما أننا لم نجد اسم هذا البلد الذي ذكره ضمن بلاد الأندلس فيما راجعناه من الكتب.

ومنه[١] (الأَسِيديّ) (والأُسَيِّديّ).

فالأولى بالفتح: نِسبةٌ إلى آل أَسِيد بن أبي العِيص؛ والأُسَيِّديُّ بالضم وتشديد الياء: نسبة إلى بطنٍ من تميم، منهم حنظلةُ بنُ الرَّبيع، وأخوه رِياح، لهما صحبة.

ومنه (البَصْريّ) (والنَّصْريّ)..... [٢].

(والبَكْريّ) (والنُكريّ).

فالبَكْريّ: نسبة إلى أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، وإلى بَكْر؛ والنُكْريّ بالنون، يقال: إنهم[٣] من عبد القيس، منهم عمرُو بنُ مالك.

(والبَحْرانيّ) (والنَّجْرانيّ)..... [٤].

(والبَشيريّ) (والتُّسْتَريّ)..... [٥].

(والبُسْتيّ) (والبُشْتيّ).

الأوّلُ: نسبة إلى بُسْت، من سِجِسْتان؛ والثاني: إلى بُشْت، قريةٌ من قرى نَيْسابور.

(والبَلْخيّ) (والثَّلْجيّ).

البَلْخيّ: نسبة إلى بَلْخ[٦]؛ والثَّلْجيّ: محمّدُ بنُ شُجاع الثَّلْجيّ.

(والبزّاز) (والبزّار)..... [٧].

---

(١) «منه» أي من المنسوب من رجال الحديث إلى قبيلة أو بلدة أو صنعة؛ مما يأتلف في صورة الخط ويختلف في اللفظ والمعنى.

(٢) لم يرد في الأصل تفصيل لهاتين النسبتين؛ وقد تكرر حذف هذا التفصيل في مواضع كثيرة من هذا الباب.

(٣) «إنهم» أي من تطلق عليهم هذه النسبة.

(٤) لم يرد في الأصل تفصيل لهاتين النسبتين. والبحراني: نسبة إلى البحرين وهو إقليم بين البصرة وعُمان. والنجراني: نسبة إلى نجران؛ وهي ناحية بين اليمن وهجر. (لب الألباب ص ١٦٠).

(٥) كذلك لم يرد في الأصل تفصيل لهاتين النسبتين كاللتين قبلهما. وقد نسبهما التستري إلى تُستر... والبشيري: نسبة إلى قلعة بشير بنواحي الزوزان من بلاد الأكراد.

(٦) بلخ: مدينة بخراسان مشهورة.

(٧) لم يرد في الأصل تفصيل لهاتين النسبتين؛ وقد أورد الحافظ عبد الغني في مشتبه النسبة تفصيل ذلك، فقال في النسبة الأولى ما نصه: «فأما البزاز بالزايين فهم كثير. والتصحيف فيه أقل من التصحيف في البزار. وذكر في النسبة الثانية من الأسماء دينارًا أبا عمرو البزّار وبشر بن=

(والتَّيْميّ) (والتَّيَميّ).

فالتَّيْميّ بتسكين الياء: نسبة إلى تيم[١] بنِ مُرّةَ بنِ كعب، وتَيْم الرّباب؛ وأمّا التَّيَميّ بتحريك الياء، فهم[٢] بطنٌ من بني غافق.

(والثّاتيّ) (والباني) (والبابيّ).

أمّا الثّاتيّ، فهو إبراهيمُ بنُ يزيدَ أبو خُزيمةَ الثّاتيُّ قاضي مصر، وثاتُ: قبيلةٌ من حِمْير؛ وأمّا الباني، فهو محمّدُ بنُ إسحٰق؛ وأمّا البابيّ، فمنهم زُهَيرُ بنُ نُعَيْم البابيّ وغيرُه، ولعلّها نِسبةٌ إلى الباب: قرية[٣] من قرى حلب.

(والثَّوْريّ) (والتَّوَّزيّ) (والبُوريّ) (والنُوريّ)[٤].

فالثَّوْريّ: نسبة إلى ثَوْرِ بنِ عبدِ مَناةَ بنِ أُدّ بنِ طابخة؛ وأمّا التَّوَّزِيّ بالزاي بعد تاء معجمةٍ من فوقها بنقطتين، فأبو يَعْلَى محمّدُ بنُ الصَّلْت التَّوَّزيّ؛ وأمّا البُوريّ بالباء المعجمة بواحدة، فمحمّدُ بنُ عمرَ بنِ حفص البُوريُّ البَصْريُّ العَنزيّ، كان بمصر. . . ؛ وأمّا النُوريّ، فأبو الحَسَنِ النُوريُّ الصوفيُّ البغداديّ.

(والجُرَيْريّ) (والحَريريّ) (والجَريريّ) (والحِزْيَزيّ).

أمّا الجُرَيْريّ[٥] بالجيم مضمومة، فجماعة، منهم سعيدُ بنُ إياس، وأَبانُ بنُ تَغْلِب وعبَّاسُ بنُ فَرّوخ؛ وأمّا الحَريريّ بالحاء المهملة، فكثير؛ وأمّا الجَريريّ بالجيم المفتوحة، فجماعةٌ يُنسَبون إلى جَريرِ بنِ عبدِ الله البَجَليّ؛ وأما الحِزْيَزيّ بالحاء المهملة وزايين، فنسبة إلى قرية اسمُها حِزْيَز[٦].

(والجُنْدَعيّ) (والخِبْذَعيّ).

= ثابت البزّار».

(١) تيم بن مرة: رهط أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) «فهم» أي ينسبون إلى تميم بفتح أوله وثانيه.

(٣) يخالف المؤلف ما جاء في أنساب السمعاني من أن هذه النسبة هي إلى باب الأبواب، وهي مدينة دربند؛ وقد ورد في معجم ياقوت أن هذه المدينة على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر؛ وذكر أيضًا أن ممن ينتسبون إليها زهير بن نعيم المذكور هنا.

(٤) التّوزي: نسبة إلى توز، وهو موضع عند بحر الهند مما يلي فارس. والبوري: نسبة إلى بُورة، وهي مدينة قرب دمياط. أما «النوري» بالنون فهي نسبة إلى «نور» بلد بين بخارى وسمرقند.

(٥) الجريري: بضم الجيم: نسبة إلى جرير بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة.

(٦) هذه القرية من قرى اليمن، بينها وبين صنعاء نصف يوم.

فالجُنْدَعيّ: نسبة إلى جُنْدَع، من لَيْث، وليث من مضر بن نِزار؛ وأمّا الخِبْذَعيّ فهم بطنٌ من هَمْدان.

(والجُبَيْريّ) (والحَبْتَريّ) (والخَيْبَري).

فالجُبَيْريّ جماعة، منهم سعيدُ بنُ عبدِ الله بنِ زيادِ بنِ جُبَيْر، وغيرُه؛ وأمّا الحَبْتَري، فنسبة إلى حَبْتَر، وحَبْتَر من كعب، ثم من خُزاعة؛ وأمّا الخَيْبَريّ، فأظنّها نِسبةً إلى خَيْبَر[١].

(والحناط) (والخيّاط) (والخبّاط) جماعة من المحدِّثين.

(والحِبَريّ)[٢] (والحِيريّ) (والجِيزيّ) (والخَبْريّ) (والحُتْريّ).

فأمّا الحِبَريّ، فهو الحسينُ بنُ الحَكَم الحِبَريّ؛ وأمّا الحِيريّ، فنسبة إلى الحِيرة مَحَلّة بنَيْسابور؛ وأمّا الجِيزيّ، فنسبة إلى جِيزةِ فُسْطاطِ مصر؛ وأما الخَبْريّ، فنسبة إلى قرية من قرى شيراز، منها الفضلُ بنُ حمّاد الخَبْريّ؛ وأمّا الحُتْريّ، فهو أبو عبدِ الله الحُتْريّ.

(والحَرّانيّ) (والحِرابيّ).

فالحَرّانيّ: نسبة إلى حَرّانَ، من مُدُن الجزيرة[٣]؛ والحِرابيّ، هو أحمدُ بنُ محمّد شيخُ البغداديّين.

(والحِنائيّ) (والجَبَائيّ) (والجُبّائيّ) (والجَنّابيّ).

أمّا الحِنّائيّ بالحاء المهملة والنون، فإبراهيمُ بنُ عليّ الحِنّائيّ؛ وأمّا الجَبَائيّ بالجيم والباء، فهو شعيب الجَبَائيّ، منسوبٌ إلى جبل[٤] باليمن؛ وأمّا الجُبّائيّ بالجيم المضمومة والباء الموحّدة، فهو أبو عليّ الجُبّائيّ[٥]

(١) «خيبر»: ناحية على ثمانية يرد من المدينة لمن يريد الشام، والبريد فرسخان؛ وقيل أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. (القاموس معجم البلدان).
(٢) الحبري: بكسر أوله وفتح ثانيه: نسبة إلى الحبرة، بفتح الباء، وهي ثياب من اليمن.
(٣) يريد بالجزيرة: الجزيرة التي بين دجلة والفرات، وتشمل على ديار مضر وديار بكر وحران هذه في ديار مضر، وهي قصبتها. (معجم البلدان لياقوت).
(٤) هذا الجبل يقال له: «جبأ» بالتحريك والهمز في آخره؛ وقيل: إنه اسم بلدة باليمن قريبة من الجند. (تاج العروس ومعجم البلدان).
(٥) «الجبائي» نسبة إلى «جباء». وهي كورة بخوزستان من نواحي الأهواز بين فارس وواسط والبصرة. (تاج العروس مادة جبأ، ومعجم البلدان).

المتكلّم؛ وأمّا الجَنابيّ بالجيم والنون والباء الموحّدة، فهو محمّدُ بنُ عليٍّ بنِ عمرانَ الجَنّابيّ[١].

(والخَزّاز) (والخَرّاز) (والجَرّار) (والجَزّار).

أمّا الخَزّاز بالخاء والزايين المعجمات، فعددٌ كثير، منهم النَّضْرُ بنُ عبدِ الرحمٰن وأحمدُ بنُ عليّ، وغيرُهما؛ وأمّا الخَرّاز بالخاء والراء والزاي، فجماعة، منهم عبدُ الله بنُ عَون الخَرّاز، وغيرُه؛ وأما الجَرّار بالجيم والراء المكرّرة المهملة، فعبدُ الأعلَى بنُ أبي المُساوِر الجَرّار، وعيسى بنُ يونس الرَّمْليّ الجَرّار، وهو الفاخوريّ؛ وأما الجَزّار فنسبة إلى صنعة الجزارة.

(والخِضْرِميّ) (والحَضْرَميّ).

فأمّا الخِضْرِميّ بالخاء المعجمة المجرورة، فهم عدّة يسكنون بأرض الجَزيرة[٢]؛ وأمّا الحَضْرَميّ بالحاء المهملة، فخَلقٌ كثير؛ يرجعون إلى حَضْرَمَوْت[٣].

(والحِمْصيّ) (والحِمَّصيّ).

فالحِمْصيّ: منسوبٌ إلى حِمْص[٤]؛ والحِمَّصيّ قليل، وهو إبراهيمُ بنُ الحجّاج بنِ منير الحِمَّصيّ، كان يَقْلي الحِمَّص.

(والخُضْريّ) (والحُضْريّ) (والخِضْريّ)[٥].

فأمّا الخُضْريّ بالخاء والضاد، فأبو شَيْبَةَ الخُضْريّ[٦]؛ وأمّا الحُضْريّ فسعيدُ بنُ محمّد الحُضْريّ، وغيرُه؛ وأمّا الخِضْريّ، فهو فقيهُ أهلِ مَرْوَ أبو عبدِ الله محمدُ بنُ أحمد.

---

(١) نسبة إلى جَنّابة بالتشديد، وهي بلدة صغيرة بساحل بحر فارس منها أبو سعيد الحسن الجنابي القرمطي الذي أظهر مذهب القرامطة. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) إنّ المقيمين بأرض الجزيرة إنما هم قوم من الخضارمة يقال لهم: الجراجمة، لا جميع طوائفهم؛ وعبارته: «الخضارمة قوم من العجم خرجوا في بدء الإسلام فتفرقوا في بلاد العرب، فمن أقام منهم بالبصرة فهم الأساودة، ومن أقام منهم بالكوفة فهم الأحامرة، ومن أقام منهم بالشام فهم الخضارمة، ومن أقام منهم بالجزيرة فهم الجراجمة، ومن أقام منهم باليمن فهم الأبناء، ومن أقام منهم بالموصل فهم الجرامقة». (لسان العرب؛ تاج العروس مادة ـ خضرم).

(٣) حضرموت: ناحية واسعة في ناحية عدن، بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. (معجم البلدان لياقوت).

(٤) «حمص»: بلد مشهور بين دمشق وحلب في وسط الطريق.

(٥) كان الأنسب تقديم الخضري، بكسر الخاء على الذي قبله، أي جعله تاليًا للخضريّ (بالضم) للاتفاق بينهما في جميع الحروف.

(٦) الخضريّ: نسبة إلى الخُضر (بضم الخاء) وهي قبيلة من قيس عيلان.

(والخُوزيّ) (والجُوريّ) (والجَوْزيّ)......[١].

(والحَسَنيّ) (والخُشَنيّ) (والحَبَشيّ) (والخَيْشيّ)......[٢].

(والخُتَّليّ) (والجَبُّليّ) (والحُبُليّ) (والخُتُلّيّ) (والجَبَليّ).

فأمّا الخُتَّليّ بضم الخاء وتشديد التاء المثنّاة، فنسبة إلى خُتَّل «من بلادِ[٣] الدّيلم وإليها تُنسَب الدّولةُ الدَّيلميّةُ الخُتَّليّة»؛ وأمّا الجَبُّليّ بالجيم المفتوحة[٤] والباء الموحّدة المشدَّدة[٥]، فنسبة إلى جَبُّل: قريةٌ بين بغداد وواسط؛ وأمّا الحُبُليّ بالحاء المهملة والباء الموحّدة، فهو أبو عبدِ الرحمـٰن عبدُ الله بنُ يزيدَ الحُبُليّ، صاحبُ عبدِ الله بن عمرو[٦]، رضي الله عنهما؛ وأمّا الخُتُلّيّ «بضم الخاء وضم التاء المثنّاة وتشديد اللام» فنسبة إلى خُتُلّ[٧]؛ وأمّا الجَبَليّ، فنسبة إلى جَبَلَة[٨] الشأم.

(والخَصِيبيّ) (والحُصَيْنيّ)......

(والخِرَقيّ) (والحُرَقيّ).

...... الثاني: نسبة إلى الحُرَقةِ بنتِ النُّعمان.

(والدُّهْنيّ) (والذَّهَبيّ).

الدُّهْنيّ بضم الدال المهملة وكسر النون: نسبة إلى حيٍّ[٩] من بَجِيلة......

(والرَّهاويّ) (والرُّهاويّ).

---

(١) لم يرد في الأصل تفصيل لهذه النسب الثلاث... فالخوزي: نسبة إلى شعب الخوز بمكة؛ والجوري: نسبة إلى جور وهي مدينة بفارس؛ والجوزيّ: نسبة إلى الجوز وبيعه. (أنساب السمعاني).

(٢) لم يرد في الأصل تفصيل لهذه النسب الأربع كالنسب الثلاث التي قبلها؛ وبه النسبة في الحسني والحبشي ظاهر. أما الخشني بضم الخاء، فهي نسبة إلى خشين (بضم الخاء) وهو بطن من قضاعة؛ والخيشيّ: نسبة إلى الخيش، وهو ضرب من الكتان الغليظ. (الأنساب للسمعاني).

(٣) خُتَّل ليست من بلاد الديلم، ولا تنسب إليها الدولة الديلمية كما يقول المؤلف، وإنما هي كورة واسعة خلف نهر جيحون على تخوم السند. (تقويم البلدان ص ٤٢٦).

(٤) في الأصل: «المضمومة»؛ وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه عن معجم البلدان لياقوت.

(٥) في الأصل «الساكنة»؛ وهو خطأ، وصوابه ما أثبتناه عن معجم البلدان لياقوت.

(٦) يريد عبد الله بن عمرو بن العاص كما في أنساب السمعاني.

(٧) «خُتُلّ» بضم أوله وثانيه وتشديد اللام: قرية على طريق خراسان. (لب الألباب ص ٨٨).

(٨) «جبلة» قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. (معجم البلدان لياقوت).

(٩) يريد بالحي: بني دهن من معاوية.

بالفتح: منسوبٌ إلى قبيلة[١]، منهم مالكُ بنُ مُرارةَ الرَّهاويّ، له صحبة؛ وبالضم: نسبة إلى بلد الرُّها، من أرض الجزيرة.

(والرِّياحيّ) (والرَّباحيّ).

فالرِّياحيّ بكسر الراء المهملة وفتح الياء المثنّاة من تحت: إلى بطنٍ[٢] من تميم بنِ مُرّة؛ والرَّباحيّ بفتح الراء والباء الموحَّدة: منسوبٌ إلى قلعةِ رَباح بالأندلس.

(والرَّبَذيّ) (والزَّيْديّ).

فالرَّبَذيّ بالراء المهملة والباء الموحَّدة المفتوحة والذال المعجمة: نسبة إلى الرَّبَذة[٣]؛ والزَّيْديّ بالزاي المعجمة: نسبة إلى زيد العلوي، وإلى مذهبه.

(والرِّفاعيّ) (والرّقاعيّ)[٤]......

(والزِّمّانيّ)[٥] (والرُّمّانيّ)[٦].

فالزِّمانيّ بكسر الزاي المعجمة: عبدُ الله بنُ مَعْبَد؛ والرُّمّانيّ بالراء المهملة: جماعة، منهم عليُّ بنُ عيسى النحويُّ المتكلّم، وغيرُه.

(والزَّينبيّ) (والزَّبيبيّ)......

(والزُّبَيْديّ) (والزَّبيديّ).

بالضم: نسبةٌ إلى قبيلة[٧]، منهم عمرُو بنُ مَعْدِيكرِب؛ وبالفتح: نسبة إلى زَبيد؛ من أرض اليمن.

(والزَّباديّ) (والزِّياديّ).

---

(١) يريد بالقبيلة: بني الرهاء بن يزيد، وهم بطن من مذحج. (تاج العروس؛ اللسان).
(٢) يريد بهذا البطن: بني رياح بن يربوع بن حنظلة. (تاج العروس. اللسان).
(٣) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال، قريبة من ذات عرق. (معجم البلدان).
(٤) نسبة إلى علي بن سليمان الرقاعي، ويعرف بابن الرقاع من أهل أخميم.
(٥) الزِّمّاني: نسبة إلى زمان بن مالك بن صعب، وينتهي نسبه إلى بكر بن وائل.
(٦) الرماني: نسبة إلى قصر الرمان بواسط. (اللسان).
(٧) يريد بالقبيلة: بني زبيد بضم أوله، من مذحج، واسم زبيد هذا منبه الأكبر بن صعب بن سعد العشيرة. وإليه ترجع قبائل زبيد. (أنساب السمعاني).

فالزَّباديّ بفتح الزاي المعجمة، جماعة، منهم خالدُ بنُ عامر الزَّباديّ[١]؛ والزِّياديّ بكسر الزاي المعجمة: نسبة إلى زياد.

(والسُّلَميّ) (والسَّلَميّ) بضم السين المهملة وفتحها......

(والسَّذابيّ)[٢] (والشَّذائيّ)[٣].

فالسَّذابيّ بالسين المهملة، هو عمرُ بنُ محمّد السَّذابيّ؛ وبالشين المعجمة والياء المثنّاة من تحت، هو أبو الطَّيّب الشَّذائيُّ الكاتب، واسمُه محمدُ بنُ أحمد.

(والسَّبَائيّ) (والشَّنَائيّ) (والسَّنائيّ).

فأمّا السَّبَائي بالسين المهملة والباء الموحّدة، فنسبة ترجع إلى سَبَإِ بنِ يَشْجُبَ بن يَعْرُبَ بنِ قَحْطان؛ وأمّا الشَّنائيّ بالشين المعجمة والنون، فنسبة إلى أَزدِشَنُوءة؛ وأمّا السَّنائي، فرجلٌ نعرفه، كان يلقَّب عزَّ الدّين السَّنائيّ؛ وقد أورد[٤] في هذا الموضع النَّسائيّ بتقديم النون على السين، نسبة إلى نسا[٥] من خُراسان؛ والأفصح فيها النَّسَويّ.

(والسامَرِّيّ) (والسامِريّ).

الأوّل: نسبة إلى سامَرّا[٦]؛ والثاني: نسبة معروفةٌ إلى السامِرِيّ وفي المحدِّثين إبراهيمُ بنُ أبي العبّاس السّامِريّ.

(والسَّبْيِيّ) (والشَّيبيّ) (والسِّيبيّ) (والسَّبَنيّ) (والسِّينيّ) (والسِّبْتيّ).

أمّا السَّبْيِيّ بالسين المهملة والباء الموحَّدة والياء باثنتين من تحتها، فهو أبو طالب السَّبْيِيّ، يُنسَب إلى قرية من قرى الرّملة، تسمّى سَبْية؛ وأمّا الشَّيبيّ، فنسبة إلى

---

(١) الزَّبادي: نسبة إلى زباد، وهم بطن من ولد كعب بن حجر بن الأسود بن الكلاع. (مشتبه النسبة ص ٣٥).

(٢) السَّذابي: نسبة إلى السذاب، وهو نوع من البقول. (اللسان).

(٣) الشذائي: نسبة إلى شذا، وهي قرية بالبصرة؛ وهذه النسبة هنا على غير القياس، إذ مقتضى القواعد أن تكون النسبة إليها «شذوي» بقلب الألف واوًا. (معجم البلدان).

(٤) أورد، أي الحافظ عبد الغني صاحب مشتبه النسبة.

(٥) إن اسم هذا البلد نسأ بالهمز بعد السين؛ كما يستفاد من معجم البلدان لياقوت.

(٦) سامرا: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة، وفيها لغات، وهي سامراء، وسامرا، وسرَّ مَن رأى، وسرّ من را. (معجم البلدان لياقوت).

شَيْبةَ بنِ عثمان، من بني عبد الدّار بنِ قُصَيّ، من سَدَنةِ[١] الكعبة؛ وأمّا السِّيبيّ[٢] بالسين مهملة، تليها ياء مثنّاة من تحتها، بعدها ياء موحّدة، فهو صبّاحُ بنُ هارون أبو مروان؛ وأمّا السَّبَنيّ، بالسين المهملة والنون بعد الباء الموحّدة فهو أحمدُ بنُ إسماعيل السَّبَنيّ[٣]؛ وأمّا السِّينيّ، فقَبيلٌ من الأكراد يُعرَفون بالسِّينيّة؛ وأمّا السَّبْتيّ، فشيخٌ صالحٌ متأخّر، مدفونٌ بقرافة مصر؛ والسِّينيّ والسَّبْتيّ لم يذكرهما عبد الغنيّ[٤].

(والشّاميّ) (والسّاميّ).

فالشّاميّ بالشين المعجمة: نسبة إلى الشأم؛ والسّاميّ بالسين المهملة: قوم يُنسَبون إلى سامةَ بنِ لؤيِّ بنِ غالب، منهم إبراهيمُ بنُ الحجّاج صاحبُ الحمّادَين: حَمّادِ بنِ سَلَمة وحَمّادِ بنِ زيد؛ وعليُّ بنُ الحَسَن السّاميّ، وعمرُ بنُ موسى السّاميّ ومحمّدُ بنُ عبد الرحمٰن السّاميُّ الهَرَويّ، ويحيىٰ بنُ حجر، وبِشْرُ بنُ حجر.

(والسَّجْزيّ) (والسِّحْريّ) (والشَّجَريّ).

فأمّا السَّجْزيّ[٥] بفتح السين المهملة، وبالجيم والزاي المعجمة، فعدد كبير يُنسَبون إلى سِجِسْتان[٦]؛ وأمّا السِّحْريّ بكسر السين، وبالحاء والراء المهملات، فهو عبدُ الله بنُ محمّد السِّحْريّ؛ وأمّا الشَّجَريّ بالشين المعجمة والجيم والراء المهملة فإبراهيمُ بنُ يحيىٰ الشَّجَريّ[٧].

(والشَّيْبانيّ) (والسَّيْبانيّ) (والسِّينانيّ).

أمّا الشَّيْبانيّ، فنسبٌ معروف؛ وأمّا السَّيْبانيّ بالسين المهملة، تليها ياء مثنّاة من تحتها وباء موحّدة، فهو يحيىٰ بنُ أبي عمرو السَّيْبانيّ[٨]، وأيّوبُ بنُ سُوَيد الرّمليّ؛

---

(١) السدنة: جمع سادن، وهو من يخدم الكعبة ويتولى أمرها بفتح بابها، وبغلقه.
(٢) السِّيبي: نسبة إلى بلد «السِّيب» وهو على الفرات بقرب الحلة. وذكر ياقوت أن السيب كورة من سواد الكوفة.
(٣) السَّبني: نسبة إلى «سبنة» وهي بلدة من قواعد بلاد المغرب على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس. (معجم البلدان لياقوت).
(٤) هو عبد الغني بن سعيد المصري صاحب كتابي المؤتلف والمختلف والمشتبه.
(٥) في القاموس ماد «سجز» أنه بفتح السين وكسرها.
(٦) سجستان: موضع جنوبي هراة، بينه وبين هراة عشرة أيام. (معجم البلدان لياقوت).
(٧) الشجري: نسبة إلى الشجرة. وهي الشجرة التي ولدت عندها أسماء بنت أبي بكر بذي الحليفة. (معجم البلدان لياقوت).
(٨) السيباني: نسبة إلى سيبان، وهو بطن من حمير.

وأمّا السِّينانيّ بكسر السين المهملة، تليها ياء مثنّاة من تحتها ونون، فهو الفضلُ بنُ موسى السِّينانيّ، يُنسَب إلى قرية من قرى مَرْوَ.

(والسَّبَخيّ) (والسِّنْجيّ) (والسُّبَحيّ) (والشَّيْخيّ).

أمّا السَّبَخيّ بالباء الموحّدة والخاء المعجمة، فهو فَرْقَدُ بنُ يعقوبَ السَّبَخيُّ[1] العابد؛ وأمّا السِّنْجيّ بالنون والجيم، فهو أبو داودَ سليمانُ بنُ مَعْبَد السِّنْجيّ[2]، خُراسانيّ؛ وأمّا السُّبَحيّ بضم السين المهملة، وبالحاء المهملة، قبلها باء موحّدة، فهو أبو بكر السُّبَحيُّ[3]؛ وأمّا الشَّيْخيّ، فجماعة نعرفهم من الأمراء يقال لهم: الشَّيخيّة؛ ويصلح أن يضاف إلى هذه الترجمة السَّيْحيّ[4] والشِّيحيّ[5].

(والشَّعْبيّ) (والشُّعْبيّ) (والشَّغْبيّ).

فالشَّعْبيّ بفتح الشين المعجمة، هو عامرُ بنُ شَرَاحِيل الشَّعْبيّ[6]؛ وأمّا الشُّعبيّ[7] بضمّها، فهو معاويةُ بنُ حفص الشُّعْبيّ؛ وأمّا الشَّغْبيّ بالشين والغين المعجمة فهو زكريّا بنُ عيسى الشَّغْبيّ؛ منسوب إلى شَغْب: مَنْهَلٌ[8] بين طريق مصر والشأم.

(والشُّعَيْثيّ) (والشُّعَيْبيّ).

فالشُّعَيْثيّ: نسبة إلى شُعَيْثِ بَلْعَنْبر[9] من بني تميم؛ وأمّا الشُّعَيْبيّ، فنسبة إلى مَنِ اسمُه شعيب.

(والشَّنّيّ) (والشَّبّيّ) (والسُّنّيّ) (والبَسّيّ).

فأمّا الشَّنّيّ بالشين المعجمة والنون، فعِدّة، منهم عُقْبةُ بنُ خالد الشَّنّيُّ البَصْريّ، عن الحَسَن البَصْريّ، رَوى عنه مُسْلِمُ بنُ إبراهيم؛ والعبّاسُ بنُ جعفرِ بنِ زيدِ بنِ طَلْق

---

(١) السَّبخي: نسبة إلى السَّبخة، موضع بالبصرة.

(٢) السِّنجي: نسبة إلى سنج، وهي قرية بمرو. (٣) السّبحي: نسبة إلى السّبح التي يسبح بها.

(٤) السّيحي: نسبة إلى سيح، وهو ماء بأقصى اليمامة.

(٥) الشّيحي: نسبة إلى شيحة، وهي قرية من قرى حلب.

(٦) الشَّعبي: نسبة إلى شعب، وهو بطن من حمدان.

(٧) الشُّعبي: نسبة إلى شُعب، وهو اسم لأحد أجداده.

(٨) منهل: ضيعة خلف وادي القرى كانت للزهريّ، وبها قبره.

(٩) الإضافة في هذه العبارة بمعنى «من» أي شعيث بن بلعنبر، بمعنى أنه بطن من هذه القبيلة. (أنساب العرب).

العَبْديُّ الشَّنّيّ؛ وأمّا الشَّبّيّ، فهو محمّدُ بنُ هلالِ بنِ بلال الشَّبّيّ[١]؛ وأمّا السُّنّيّ بالنون، فهو الحافظُ ابنُ السُّنيّ الدِّينَوَريّ؛ وأمّا البَسّيّ، فهو أبو مِحْجَن تَوْبَةُ بنُ نَمِر قاضي مصر، بطنٌ[٢] من حِمْير يقال لهم: «البَسّيّون».

(والضَّبّيّ) (والضِّنّيّ).

فالضَّبّيّ: نسبة إلى «ضَبّة»[٣]؛ وأمّا الضِّنّيّ بالنون وكسر الضاد، فهو أبو يزيدَ الضِّنّيّ[٤]، يَروِي عن ميمونةَ مولاةِ النبيّ ﷺ.

(والصِّراريّ) (والضِّراريّ) (والصَّرّاريّ).

فأمّا الصِّراريّ، فهو محمدُ بنُ عبد الله الصِّراريّ[٥]، يَروِي عن عطاء بنِ أبي رَباح؛ وأمّا الضِّراريّ بكسر الضاد المعجمة، فهو محمدُ بنُ إسماعيلَ الضِّراريّ[٦]؛ وأمّا الصَّرّاريّ بفتح الصاد المهملة والراء المهملة المشدّدة، فأبو القاسم بكرُ بنُ الفضل بنِ موسى النّعاليُّ الصَّرّاريّ: نسبة إلى صنعة النّعال الصَّرّارة[٧].

والصّائغ: (والضّائع).

فالصائغ: نسبة إلى صنعة الصِّياغة؛ والضّائع، هو عثمانُ بن بَلْج الضّائع.

(والصَّعْديّ) (والصُّغْديّ).

فالصَّعْديّ[٨]، هو محمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ مُسْلِم الصَّعْديّ؛ وأمّا الصُّغْديّ بضم الصاد المهملة وتسكين الغين المعجمة، فهو أيّوبُ بنُ سليمانَ الصُّغْديّ، وإسحٰقُ بنُ إبراهيمَ بن منصور الصُّغْديّ؛ أراها نِسبةً إلى الصُّغْد[٩] بسَمَرْقَنْد، وهو أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة.

---

(١) الشَّبّي: نسبة إلى الشَّبّ المعروف الذي يدبغ به الجلد. (اللسان).
(٢) «بطن» بالرفع لأنه خبر لمبتدأ محذوف معلوم من السياق، أي المنسوب إليهم بطن الخ...
(٣) «ضَبّة» هو ابن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر (جمهرة أنساب العرب).
(٤) الضِّنيّ: نسبة إلى بني ضِنّة، وهم خمس قبائل: في قضاعة، وفي عذرة، وفي هذيل، وفي أسد، وفي الأزد. (جمهرة أنساب العرب).
(٥) الصِّراري: نسبة إلى صرار ـ بكسر الصاد ـ وهو موضع بالمدينة. (معجم البلدان).
(٦) الضِّراري: نسبة إلى جد من أجداده يسمى ضرارًا. (جمهرة أنساب العرب).
(٧) الصَّرارة: أي التي لها صرير وصوت عند المشي.
(٨) الصَّعدي: نسبة إلى صعدة، وهي بليدة باليمن. (المشتبه ص ٣١٤).
(٩) الصُّغد: كورة قصبتها سمرقند؛ وهي قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى. (معجم البلدان لياقوت).

(والصُّبَاحيّ) (والصَّبّاحيّ).

فالصُّبَاحيّ بضمّ الصاد، هو أبو خَيْرَةَ الصُّبَاحيّ[١]، له صحبة؛ وأمّا الصَّبّاحيّ بفتح الصاد وتشديد الباء الموحّدة، فهو يزيدُ بنُ سعيد الصَّبّاحيّ[٢]، يروي عن مالكِ بنِ أَنَس حديثين.

(والطِّيبيّ) (والطِّينيّ) (والطُّبْنيّ) (والطَّيّبيّ).

فالطِّيبيّ بالطاء والياء المعجمة باثنتين من تحتها وباء موحّدة، هو أحمدُ بنُ إسحٰقَ بن نِيخاب الطِّيبيّ[٣]؛ وأمّا الطِّينيّ بالياء المثنّاة من أسفل والنون، فهو عبد الله بنُ الهَيْثَم الطِّينيّ[٤]؛ وأمّا الطُّبْنيّ بالباء الموحّدة والنون، فنسبة إلى مدينة[٥] بالمغرب منها عليُّ بنُ منصور الطُّبْنيّ، وغيرُه؛ وأمّا الطَّيّبيّ، فنسبة إلى الطَّيّبَة: بلد بإقليم الغربيّة بمصر، وبلد بالشرقية[٦]، وقرية بالسوداء[٧] من الشأم تُسمَّى «طيّبة الاسم» وهذه النسبة إلى الطّيّبة لم يذكرها عبدُ الغنيّ.

(والعابديّ) (والعائديّ) (والعائذيّ).

فالعابديّ بالباء الموحّدة والدال المهملة: نسبة إلى عابد بنِ عمرَ بنِ مخزوم منهم عبدُ الله بنُ المسيّب القرشيُّ العابديّ، وعبدُ الله بنُ عمرانَ العابديُّ صاحبُ سفيانَ بنِ عُيَيْنة؛ «وأمّا العائديّ، فهم من ولد عائد بنِ عمرو بنِ مخزوم، فقد اجتمع في مخزوم عابد وعائد»؛ وأمّا العائذيُّون بالذال المعجمة، فهم من ولد عمرانَ بنِ مخزوم أيضًا.

(والقَيْنيّ) (والقُتَبيّ).

فأمّا القَيْنيّ بالياء المثنّاة من تحتها والنون، فجماعة، منهم عبدُ الله بنُ نُعَيْم القَيْنيّ[٨] وغيرُه؛ وأمّا القُتَبيّ بضم القاف وفتح التاء المثنّاة من فوقها وبالباء الموحّدة،

(١) الصُّباحي: نسبة إلى بني صباح بن لكيز، وهو بطن من عبد القيس. (اللسان والجمهرة).
(٢) الصَّباحي: نسبة إلى الصباح، وهو بطن من سهم. (جمهرة أنساب العرب).
(٣) الطّيبي: نسبة إلى طيب، وهي بلدة بين واسط، وكور الأهواز. (معجم البلدان).
(٤) الطّيني: نسبة إلى بيع الطين المالح الذي يؤكل، وإلى بلدة بين الفرما وتنيس من أرض مصر يقال لها «طينة». (معجم البلدان).
(٥) هي مدينة طُبنة، وهي كما في معجم البلدان، بلدة في طرف إفريقيا، مما يلي المغرب على ضفة الزاب.
(٦) هذا البلد هو المعروف اليوم «بأم رماد». (٧) من كور حمص. (معجم البلدان لياقوت).
(٨) القينيّ: نسبة إلى قين، وهي قبيلة من قضاعة.

فهلالُ بنُ العَلاء، وعبدُ الله بنُ مُسْلم بنِ قُتَيْبة؛ وأضاف عبدُ الغنيّ إلى هذه الترجمة العُتْبيّ، وهو محمدُ بنُ عُبَيد الله العُتْبِيُّ الأخباريّ.

(والعَوَقيّ) (والعَوْفيّ).

أمّا بالقاف، فهو أبو نَضْرةَ منذرُ بنُ مالك العَوَقيّ[١] صاحب أبي سعيد الخُدْريّ، ومحمدُ بنُ سِنان العَوَقيّ؛ وأمّا العَوْفيّ[٢] بالفاء، فهو عطيّةُ العَوْفيّ، وأحمدُ بنُ إبراهيمَ العَوْفيّ.

(والعُتَقيّ) (والغَيْفيّ).

فالعُتَقيّ[٣] بضم العين المهملة وفتح التاء المثنّاة من فوقها وبالقاف، هو الحارثُ بنُ سعيد العُتَقيّ، وأبو عبد الرحمٰن محمد بنُ عبد الله العُتَقيُّ المقرىء، له تاريخ في المغاربة؛ وأما الغَيْفيّ بالغين المعجمة والياء المثنّاة من تحتها والفاء، فالنسبة فيها إلى (غَيْفة): قرية من قرى مصر بقرب بُلْبَيْسَ مدينةِ الشرقيّة، منها الحسينُ بنُ إدريسَ بنِ عبد الكبير الغَيْفيّ.

(والعُوديّ) (والعَوْذيّ)......

(والعُمَريّ) (والعَمْريّ) (والغَمْريّ)[٤]......

(والعِباديّ) (والعُباديّ) (والعَبّاديّ)......

(والعَبْديّ) (والعَيْذيّ)......

(والعَبْسيّ) (والعَنْسيّ) (والعَيْشيّ).

فأمّا العَبْسيّ، فنسبة إلى عَبْس، منهم جماعة من الصحابة؛ وأمّا العَنْسي[٥] بالنون فجماعة، منهم عمّارُ بنُ ياسِر؛ وأمّا العَيْشيّ[٦]، فجماعة كثيرة، منهم أُميّةُ بنُ بِسْطام وحمّادُ بنُ عيسى.

---

(١) العَوَقيّ: نسبة إلى العَوَقة بالتحريك، وهي بطن من عبد القيس.

(٢) نسبة إلى عبد الرحمٰن بن عوف، وقبل ينسب إلى عوف، وهو بطن من قيس عيلان. (جمهرة أنساب العرب).

(٣) العُتَقيّ: نسبة إلى العُتَقاء، وهم جماع فيهم من حجر حمير ومن سعد العشيرة ومن كنانة مضر ومن غيرهم.

(٤) الغمري: (بفتح الغين المعجمة وسكون الميم، نسبة إلى بطن من غافق).

(٥) العنسيّ: نسبة إلى عَنْس، وهو حي من مذحج.

(٦) نسبة إلى عائش بن مالك، وهو بطن من تيم الله بن ثعلبة؛ ويقال فيه «العائشيّ». (انظر المشتبه في أسماء الرجال للذهبي ص ٣٤٠).

(والقَيْسيّ) (والفِيشيّ).

فالقَيْسيّ: نسبة إلى قَيْس[١]؛ والفِيشيّ بالفاء والشين: نسبة إلى قرية من قرى مصر يقال لها: فِيشة.

(والعَرَفيّ) (والعِرْقيّ) (والعَرْقيّ).

فالعَرَفيّ، هو أبو عبد الله العَرَفيُّ[٢] الحجازيّ؛ والعِرْفيّ، هو عروةُ بنُ مروان الرَّقيُّ العِرْقيّ «والعِرْقيّ: نسبة إلى (عِرْقة)، من عمل طَرابُلُسِ الشأم، لم يذكرها عبد الغنيّ».

(والغُبَريّ) (والعَنَزيّ) (والعِتْري) (والعَنْزي).

فأمّا الغُبَريّ بالغين المعجمة المضمومة والباء المفتوحة بواحدة والراء المهملة فهم كثير، من بني غُبَر[٣]، منهم عَبّادُ بنُ شُرَحْبِيل، وعَبّادُ بنُ قَبِيصة؛ وأمّا العَنَزيّ بالعين المهملة والنون والزاي، فنسبة إلى عَنَزَة: حيٌّ من رَبيعة؛ وأمّا العِتْريّ[٤] فجماعة، منهم بكّار بنُ سلام العِتْريّ؛ وأمّا العَنْزيّ بفتح العين وسكون النون وكسر الزاي، فمنهم عامرُ بنُ رَبيعةَ العَنْزي؛ وعَنْز من ربيعةَ بنِ نزار.

(والفَزاريّ) (والقَراريّ).

فالفَزاريّ: نسبة إلى بني فَزارة؛ والقَراريّ بالقاف والراء المهملة المكرّرة، قليل منهم أبو الأَسَد سَهْل القَراريّ؛ وقَرار: قبيلة[٥].

(والفَلّاس) (والقَلّاس).

فالفَلّاس بالفاء، هو أبو حفص عمرُو بنُ عليّ الصيرفيُّ الفَلّاس؛ والقَلّاس بالقاف والسين المهملة، هو أبو بكر محمدُ بنُ هارون القَلّاس.

---

(١) يريد بقيس: قيس عيلان؛ أو قيس: بطن من بكر بن وائل، أو بطن من النخع. (جمهرة أنساب العرب).

(٢) العرفيّ: نسبة إلى عَرَفة بالتحريك، لأن أبا عبد الله المذكور، واسمه «زنفل» كان ينزلها. (معجم البلدان لياقوت».

(٣) بنو غُبر: هم بطن من يشكر.

(٤) العتريّ: نسبة إلى عِتْر، وقيل إلى عترة بن الحارث من هذيل أو إلى عتر بن معاذ من هوازن.. (جمهرة أنساب العرب).

(٥) في الجمهرة أنّ هذه القبيلة من بكر.

(والقِتْبانيّ) (والفِتْيانيّ).

فالقِتْبانيّ بالقاف: جماعة، منهم عيّاشُ بنُ عبّاس القِتْبانيّ[١]، وأبو معاويةَ المفضَّلُ بنُ فَضالة بن عُبَيْد القِتْبانيّ قاضي مصر؛ وأما الفِتْيانيّ بالفاء، فبطن[٢] من بَجيلةِ الكوفة، منهم رِفاعةُ بنُ عاصم.

(والقُبائيّ) (والقُنّائيّ) (والقِيانيّ) (والقَبّانيّ) (والقِنائيّ) (والقَبّانيّ)[٣].

فالقُبائيّ بضم القاف: نسبة لمن سكن قُباء[٤]؛ وأمّا القُنّائيّ بضم القاف أيضًا وبالنون، فهو أبو إسحٰق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بنِ عليّ القُنّائيُّ الكاتب؛ وأمّا القِيانيّ بكسر القاف وبالياء المثنّاة من تحتها والنون، فهو عَبْدُوسُ بنُ المُعَلّى القِيانيّ والقِيانة، بطنٌ من غافق؛ وأمّا القَبّانيّ[٥] بفتح القاف وبالباء الموحّدة والنون، فهو عليُّ بنُ الحسين القَبّانيّ؛ وأمّا القِنائيّ، فنسبة لمن يكون من قِنى من أعمال الدّيار المصريّة، على مرحلة من مدينة قُوص؛ وأمّا القَبّانيّ، فنسبة لمن يزِن بالقَبّان، والقِنائيّ والقَبّانيّ لم يذكرهما عبد الغنيّ رحمه الله.

(والفِرْيابيّ) (والقَرْنانيّ).

فأمّا الفِرْيابيّ، فنسبة إلى فِرياب[٦] من خراسان؛ وأمّا القَرْنانيّ بالقاف والنونين فهو شَريكُ بنُ سُوَيد التُّجيبيُّ ثمّ القَرْنانيّ، من بني القَرْنان[٧].

(والقَرَنيّ) (والقِربيّ).

فأمّا القَرَنيّ، فنسبة إلى بطن من مراد، منهم أُوَيس القَرَنيّ؛ وأمّا القِربيّ فالحَكَمُ بنُ سنان.

---

(١) القتباني: نسبة إلى قتبان (بكسر القاف) ابن درمان، وهو بطن من ذي رعين.

(٢) «فبطن» أي فالمنسوب إليهم بطن.. الخ. فحذف المبتدأ للعلم به من سياق الكلام. واسم هذا البطن «فِتيان» وهم بنو فتيان بن معاوية بن زيد بن الغوث.

(٣) الصواب: إسقاط هذه النسبة لتكررها مع النسبة الرابعة، كما هو ظاهر، وقد سرى ذلك إلى المؤلف من توهمه أن النسبة الرابعة إنما هي بكسر القاف، وهذه بفتحها. وهو خلاف الصواب.

(٤) قُباء: بالمد والقصر: قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة. (معجم البلدان لياقوت).

(٥) في الأصل بكسر القاف، وهو خلاف في الصواب، إذ لم نجد «القباني» بكسر القاف فيما لدينا من الكتب المؤلفة في النسبة والأسماء. وبذلك تكون هذه النسبة مكررة مع النسبة السادسة.

(٦) يقال فيه فرياب، كما هنا، وفارياب، وفيرياب. (اللسان والجمهرة).

(٧) قرنان: بطن من تجيب، كما في مستدرك التاج مادة «قرن» وجمهرة أنساب العرب.

(والغَزّيّ) (والغرّيّ).

فالغَزّيّ[١]: نسبة إلى مدينة غَزّةَ بالشأم؛ «والغرّيّ: طائفة من الأكراد يسمّون الغرّية»، لم يذكرهم عبد الغنيّ.

(والقَرَويّ) (والفَرْويّ).

فالقَرَويّ بالقاف: نسبة إلى القَيْروان من المغرب؛ والفَرْويّ بالفاء: هم رهطُ أبي عَلْقَمة عبدِ الله بنِ محمد الفَرْويّ[٢].

(والقَبّاب) (والقَتّات).

فالقَبّاب بباءين موحّدتين، هو عبدُ الله بنُ محمد بنِ محمد بنِ فُورَك القَبّاب الأصبَهانيّ، وقيل فيه: «القَتّات»؛ والقَتّات بتاءين مثنّاتين من فوقهما، هو أبو يحيىٰ زاذان روى عن مجاهد، وأبو عمرو محمدُ بنُ جعفر القَتّات.

(والقِطْريّ)[٣] (والفِطْريّ)[٤].

فالقِطْريّ بالقاف، هو محمدُ بنُ عَبدِ الحَكَم؛ والفِطْريّ بالفاء، هو محمدُ بنُ موسى، روى عن سعيد المَقْبُريّ.

(والقُوصيّ) (والقَوَصيّ).

فالقُوصيّ بضم القاف وتسكين الواو: نسبة لمن يكون من أهل مدينة (قُوصَ) من الدّيار المصريّة؛ والقَوَصيّ بفتح القاف والواو: نسبة لمن يكون من قرية (القَوَصة) من إقليم مصر، من مَرْج بني هُمَيْم، لم يذكرهما عبد الغنيّ رحمه الله.

(والكِسائيّ) (والكُشانيّ).

الأوّلُ بكسر الكاف وفتح السين المهملة، هو عليُّ بنُ حمزةَ الكِسائيُّ النحويّ أحدُ القرّاء السبعة؛ وأمّا الكُشانيّ بضم الكاف وبالشين المعجمة والنون، فهو محمدُ بنُ حاتم الكُشانيّ[٥] النحويّ.

---

(١) الغزي: طائفة من الأتراك يسمون الغزية.
(٢) ذكر السمعاني في الأنساب، أن هذه النسبة إلى الجد الأعلى.
(٣) هذه النسبة إما أن تكون إلى القطر بمعنى النحاس، أو إلى القطر بمعنى نوع من البرود.
(٤) الفطريّ: نسبة إلى الفطريين، وهم موالي بني مخزوم.
(٥) الكشانيّ: نسبة إلى (كشانية) بضم الكاف، وهي قلعة بصغد سمرقند على يومين من بخارى. (معجم البلدان).

(والكُلَيْبيّ) (والكُلِينيّ).

الأوّلُ: نسبة معروفة إلى كُلَيْب؛ والكُلِينيّ بالنون، هو محمدُ بنُ يعقوبَ الكُلِينيّ[(١)]؛ من الشِّيعة.

(والكنانيّ) (والكَتّانيّ).

فالأوّلُ: نسبة إلى كِنانة[(٢)]؛ والثاني بالتاء المشدّدة، هو محمدُ بنُ الحسين الكَتّانيّ وأحمدُ بنُ عبد الواحد الكَتّانيّ، وغيرُهما.

(والكَرَجيّ) (والكَرْخيّ) (والكُرْجيّ).

فالكَرَجيّ: نسبة إلى الكَرَج[(٣)]؛ والكَرْخيّ: نسبة إلى الكَرْخ[(٤)] مَحَلّة ببغداد؛ والكُرْجيّ: إلى الكُرْج، طائفة من الأكراد أتراك.

(واللَّهَبيّ) (واللِّهْبيّ).

فاللَّهَبيّ بفتح اللام: نسبة إلى أبي لَهَب؛ وأمّا اللِّهْبيّ بكسر اللام وسكون الهاء فنسبة إلى قبيلة من الأَزْد.

(والمازِنيّ) (والمَأْرِبيّ).

فالمازِنيّ: نسبة إلى مازِنٍ أخي سُلَيم بن منصور بنِ عِكْرِمةَ بن خَصَفة بنِ قيس عَيْلان بنِ مضر، وغيرِه؛ وأمّا المَأْرِبيّ بالراء المهملة والباء الموحّدة، فهم جماعة من مَأْرِب باليمن، إليها يُنسَب سَدُّ مَأْرِب الّذي كان بُنيَ بسبب سَيل العَرِم، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

(والنَّجّاريّ) (والبخاريّ).

فالنَّجّاري: نسبة إلى بني النَّجّار من الأنصار؛ والبخاريّ: نسبة إلى مدينة بُخَارى بما وراء النّهر.

---

(١) الكليني: نسبة إلى (كلين)، وهي قرية من قرى العراق، وذكر ياقوت أن كلين هذه هي المرحلة الأولى من الرّمي لمن يريد (خوار) على طريق الحاج.

(٢) هو كنانة بن خزيمة بن مدركة، وكنانة أيضًا بطن من كليب. (جمهرة أنساب العرب).

(٣) الكرج: بفتحتين: مدينة بالجبل بين أصبهان وهمدان، وهي بلدة بالدينور أيضًا. (معجم البلدان لياقوت).

(٤) الكرخ: محلة ببغداد كانت مسوقًا لبغداد، وموضعها بين الصراة ونهر عيسى. (معجم البلدان لياقوت).

(والنّاجيّ) (والباجيّ) (والتّاجيّ).

فالنّاجيّ بالنون: نسبة إلى بني ناجية من سامةَ بنِ لُؤَيّ؛ وأمّا الباجيّ بالباء الموحّدة، فنسبة إلى (باجة)[١] من مدن المغرب؛ وأمّا التّاجيّ، فجماعة من الأتراك يُنسَبون إلى مواليهم ممّن لقبه تاجُ الدّين.

(والنّحّاس) (والنّخّاس).

فالنّحّاس بالحاء: الذي يصنع أوانيَ النّحاس؛ والنّخّاس بالخاء، هو دلّال[٢] الرقيق.

(والبَجَليّ) (والبَجْليّ) (والنَّخْليّ).

فالبَجَليّ بالجيم المفتوحة: من بَجِيلة؛ وأمّا البَجْليّ بسكون الجيم، فهم رهط من سُلَيم بن منصور، يقال لهم: بنو بَجْلة، نُسِبوا إلى أمّهم بَجْلَةَ بنتِ هَنْأَةَ بن مالك بنِ فَهْم الأَزْديّ؛ وأمّا النَّخْليّ بالخاء المعجمة والنون قبلها، فعمرانُ النَّخْليّ[٣] روى عنه شَريكُ بنُ عبد الله القاضي، وإبراهيم بنُ محمد أبو عبد الله النَّخْليُّ صاحب التاريخ.

(والهَمْدانيّ) (والهَمَذانيّ).

فالأوّلُ: منسوب إلى هَمْدان، قبيلة مشهورة من اليمن؛ والثاني: نسبة إلى مدينة هَمَذان[٤].

(واليَزَنيّ) (والبِرْتيّ).

فأمّا اليَزَنيّ، فنسبة إلى سَيف بنِ ذي يَزَن الحِمْيَريّ؛ وأمّا البِرْتيّ بالباء الموحّدة والراء المهملة والتاء المثنّاة من فوقها، فمنهم أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عيسى البِرْتيّ[٥]. وذَكَر عبد الغنيّ في هذا الموضع (البَزّيّ) (والبُرّيّ) (والبَرّيّ) فقال: أمّا البَزّيّ بالباء المعجمة بواحدة والزاي المعجمة، فهو أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبد الله بنِ القاسمِ بنِ أبي

(١) باجه: مدينة بالأندلس، أو قرية بإفريقية، أو قرية بأصبهان. (معجم ياقوت).

(٢) الدلال: كما في القاموس: بياع الدواب والرقيق.

(٣) النّخلي: بفتح النون: نسبة إلى النخلة، وهي قرية عند مكة؛ وقيل بضم النون، وهي قرية على ستة فراسخ من مكة.

(٤) همذان: بلد من كور الجبل، بينه وبين الدينور أربع مراحل.

(٥) البرتيّ: بكسر الباء، نسبة إلى (برت) وهي قرية بنواحي بغداد.

بَزّة، صاحبُ القراءة، يروي عن ابن كَثِير؛ وأمّا البُرِّيّ بالباء المضمومة الموحّدة والراء المهملة، فمنهم عثمانُ بنُ مِقْسَم البُرِّيّ(١) أبو سلمة؛ وأمّا البَرِّيّ بباء مفتوحة موحّدة فهو عليُّ بنُ بَحْرِ بن بَرّيّ.

هذا مختصرُ ما ألّفه عبد الغنيّ ـ رحمه الله تعالى ـ وفيه زيادةٌ في مواضعَ نبّهنا عليها؛ ولم يكن الغرضُ بإيراد ما أوردناه من «المؤتلِف والمختلِف» استيعابَه وحصرَه وإنّما كان الغرضُ التنبيهَ على ذلك، وأنّ الناسخَ يحتاج إلى ضبط ما يَرِدُ عليه من هذه الأسماء وأمثالِها، وتقييدِها والإشارةِ عليها؛ وقد أخذ هذا الفصل حقَّه، فلنذكرْ غيرَ ذلك من شروط الناسخ وما يحتاج إلى معرفته.

وأمّا من ينسخ العلوم، كالفقهِ واللّغةِ العربيّة والأصولِ وغيرِ ذلك، فالأولى له والأشبهُ به ألّا يتقدّمَ إلى كتابة شيءٍ منها إلّا بعد اطّلاعِه على ذلك الفنّ وقراءته وتَكرارِه، ليَسلمَ من الغلط والتحريف، والتبديل والتصحيف؛ ويَعلمَ مكان الانتقال من بابٍ إلى باب، ومن سؤالٍ إلى جواب؛ ومن فصلٍ إلى فصل، وأصلٍ إلى فرعٍ أو فرعٍ إلى أصل؛ ومن تنبيهٍ إلى فائدة، واستطرادٍ لم يجْرِ الأمرُ فيه على قاعدة؛ ومن قولِ قائل، وسؤالِ سائل؛ ومعارضةِ معارِض، ومناقضةِ مناقِض؛ فيَعلمَ آخرَ كلامِه، ومنتهى مرامِه؛ فيَفصِلَ بين كلّ كلامٍ وكلامٍ بفاصلة تدلّ على إنجازِه، ويُبرِزَ قولَ الآخرِ بإشارةٍ يُستدَلّ بها على إبرازِه؛ وإلّا فهو حاطبُ ليلٍ لا يدري أين يفجَأه الصباح، وراكبُ سيلٍ لا يعرف الغدوَّ من الرّواح.

وأمّا من ينسخ التاريخ ـ فإنه يحتاج إلى معرفة أسماء الملوك وألقابِهم ونعوتِهم وكُناهم، خصوصًا ملوك العجم والتّرك والخُوَارَزْميّة والتّتار فإنّ غالبَ أسمائهم أعجميّةٌ لا تُفهَم إلّا بالنقل، ويحتاج الناسخ إذا كتبها إلى تقييدها بضوابطَ وإشاراتٍ وتنبيهاتٍ تدُلّ عليها؛ وكذلك أسماءُ المدنِ والبلادِ والقرى والقلاع والرّساتيق(٢) والكُوَرِ والأقاليم، فينبّه على ما تَشابَهَ منها خطًّا واختلف لفظًا، وما تَشابَه خطًّا ولفظًا واختلف نِسبة، نحو (مَرْو)، (ومَرْو)؛ إحداهما (مَرْو الرّوذ)(٣)، والأخرى (مرو

(١) البريّ: نسبة إلى بيع البرّ.

(٢) الرساتيق: جمع رستاق (بضم الراء)؛ وهو السواد، أي الريف أو الناحية التي هي في طرف الإقليم، وهو فارسي معرب. (اللسان).

(٣) مرو الرّوذ: مدينة بخراسان، سميت بهذا الاسم لأن المروذ بالفارسية معناه النهر، وهذه المدينة على نهر عظيم. (معجم البلدان لياقوت).

الشّاهِجان)[١]؛ (والقاهرة)، (والقاهرة)؛ إحداهما (القاهرة المُعِزِّيَّة)[٢]؛ والأخرى (القلعةُ القاهرة) الّتي هي (بزَوْزَن)[٣] الّتي أنشأها مؤيّد المُلْك صاحبُ (كَرْمان)[٤]، فإنّ الناسخَ متى أطلق اسمَ القاهرة ولم يميّز هذه بمكانِها ونسبتِها تَبادَرَ ذهنُ السامع إلى القاهرة المُعِزّيةِ لشهرتها دون غيرها.

وأمّا في أسماء الرجال، فمِثلُ عُبَيْدِ الله بنِ زِياد، وعُبَيْدِ الله بنِ زِياد، فالأوّلُ عُبَيْدُ الله بنُ زِيادِ ابنِ أَبيه، وزِيادٌ هذا، هو ابنُ سُمَيَّةَ الّذي ألحقه معاويةُ بنُ أبي سفيانَ بأبيه، واعترَف بأخوّته، وكان عُبَيْدُ الله هذا يتولّى أمرَ العراق بعد أبيه إلى أيّام مروانَ بنِ الحَكَم؛ والثاني عُبَيْدُ الله بنُ زِيادِ بنِ ظَبْيانَ؛ وخبرُهما يشبه مسائلَ الدَّوْر، فإنّ عُبَيْدَ الله بنَ زيادِ بنِ أَبيه قتلَه المختارُ بنُ أبي عُبَيْد الثَّقَفيّ والمختار بن أبي عُبَيْدٍ قتلَه مُصْعَبُ بنُ الزُّبير، ومُصْعَب بن الزُّبير قتلَه عُبَيْدُ الله بنُ زِيادِ بنِ ظَبْيان؛ فإذا لم يميِّز كلَّ واحدٍ منهما بجَدِّه ونَسبِه أَشكَل ذلك على السامع وأَنكَره ما لم تكن له معرفةٌ بالوقائع، واطّلاعٌ على الأخبار؛ فأمثالُ ذلك وما شاكله يتعيّن على الناسخ تبيينُه؛ وكذلك أسماءُ أيّام العرب، نحو أيّامِ الكُلاب[٥] بضمّ الكاف، وأيّامِ الفِجار[٦] بكسر الفاء وبالجيم، وغيرِ ذلك، فينبِّه على ذلك كلِّه، ويشير إليه بما يدلّ عليه.

وأمّا من ينسخ الشِّعر ـ فإنّه لا يَستغنِي عن معرفة أوزانه، فإنّ ذلك يُعِينه على وضعه على أصله الذي وُضِع عليه؛ ويحتاج إلى معرفة العربيّة والعَروض ليُقيمَ وزنَ البيت إذا أَشكَل عليه بالتفعيل، فيَعلَم هل هو على أصلِه وصفتِه أو حصل فيه

---

(١) مرو الشاهجان: هي أشهر مدن خراسان، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخًا، ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخًا؛ والنسبة إليها مروزي على غير قياس. (معجم ياقوت).

(٢) المعزية: نسبة إلى المعز لدين الله؛ وهو الذي أنشأ القاهرة وعمرها. (اللسان).

(٣) زوزن: بفتح أوله: كورة واسعة بين نيسابور وهراة، كما ذكرها ياقوت في معجمه.

(٤) كرمان: بفتح الكاف، وربما كسرت، والفتح أشهر بالصحة: وهي ولاية كبيرة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. (معجم البلدان لياقوت).

(٥) الكلاب: ماء بين الكوفة والبصرة. وقيل: هو ماء بين جبلة وشمام على سبع ليال من اليمامة، وفيه كان الكلاب الأول والكلاب الثاني من أيام العرب المشهورة.

(٦) الفجار: أربعة أفجرة، وكلها بسوق عكاظ: أما الفجار الأول فكان بين كنانة وهوازن، ولم يقع بين الحيين قتال في هذا اليوم، وأما الفجار الثاني فقد كان بين قريش وهوازن ووقع بين القوم فيه قتال ودماء يسيرة وأما الفجار الثالث فقد كان بين كنانة وهوازن، ولم يقع بين القبيلتين قتال في هذا اليوم؛ وأما الفجار الرابع فقد كان بين قريش وكنانة كلها وهوازن، وهذا الأخير هو الذي كانت فيه الوقعة العظمى. (العقد الفريد ج ٣ ص ٨٦).

زِحافٌ[١] من نقصٍ به، أو زيادة[٢]، فيثبتَه بعد تحريرِه، ويضعَ الضبط في مواضعه، فإنّ تغييرَه يُخلّ بالمعنى ويفسده، ويحيله عن صفته المقصودة؛ فإذا عَرَف الناسخ هذه الفوائدَ وأتقنَها، وحرَّر هذه القواعد وفَنَّنها[٣]، وأوضح هذه الأسماءَ وبيَّنَها، وسَلْسَل هذه الأنسابَ وَعَنْعَنَها؛ . . . . . .[٤] والمرغوب في علمه وكتابته، فليبسُطْ قلمَه عند ذلك في العلوم، ويضعْ به المنثورَ والمنظوم؛ ولنذكرْ كتابةَ التعليم.

ذكر كتابة التعليم وما يحتاج مَن تصدّى لها إلى معرفته

وكتابة التعليم تنقسم إلى قسمين: تعليمِ ابتداء، وتعليمِ انتهاء.

فأمّا تعليم الابتداء ـ فهو ما يعلِّمُه الصبيانُ في ابتداء أمرِهم؛ وأوّلُ ما يَبدأ به المؤدِّب من تعليم الصبيّ أن يُكتِّبَه حروفَ المعجَم المفردات؛ فإذا عَلِمَها الصبيُّ وعَرَف كيف يضعُها، وميَّز بين المعجَمِ والمهملِ منها امتحنه المؤدِّبُ بتقطيعها وسؤالِه عنها على غير وضعِها، مثل أن يسأله عن النون، ثمّ الجيم، والضاد ونحوِ ذلك؛ فإذا أجابه عمّا فرّقه وعَكَسه عليه عَلِم من ذلك أنّه أتقن هذه الحروف فيهجِّيه الحروف بعد ذلك حرفًا حرفًا، كلَّ حرف وهجاءه في المنصوبِ والمجرورِ والمرفوعِ والمجزوم، فإذا عَرَف هجاء هذه الحروف وأتقنه، وامتحنه نحوَ ما تقدّم جَمَع له بعد ذلك كلَّ حرف إلى آخر كتابةً، من الباء والجيم والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين والفاء والكاف واللام والميم، يَبدأ بالباء مع الألف وما بعدها ثم يُكتِّبه البسملة، ويأخذ في تدريجه في الكتابة، وتدريبِه في استخراج الحروف بالهجاء وما يتولّد منها إذا اجتمعت، إلى أن يَقْوَى فيها لسانُه ويدُه، ويَقرأَ ما يُكتَبُ له، ويَكتُبَ ما يُقترَح عليه من غير منبِّهٍ له ولا مساعد؛ فهذه كتابةُ الابتداء؛ ولا ينبغي أن يتصدّى لها إلّا من اشتهرت ديانتُه وحُسْنُ اعتقادِه والتزامُه طريقَ السنّة، ومن كان بخلاف ذلك، أو ممّن طُعِن فيه بوجه من وجوه المطاعن وجب على ناظر الحِسْبة[٥] منعُه.

(١) الزحاف: تغير مختص بتوالي الأسباب الثقيلة والخفيفة بلا لزوم.
(٢) «زيادة»: معطوف على قوله: «زحاف» لا على قوله: «نقص» إذ لو عطف عليه لاقتضى ذلك، أن يكون الزحاف نقصًا أو زيادة.
(٣) فنّنها: أي أخذ في جميع فنونها وأنواعها وأحاط بها.
(٤) موضع هذه النقط كلام ساقط في الأصل.
(٥) الحسبة: وظيفة موضوعها التحدث في الأمر والنهي، والتحدث على المعايش والصنائع، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته. (صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧).

وأمّا تعليم الانتهاء ـ فهو كتابة التجويد، وهي أصلُ جميع ما قدّمناه من الكتابات، ويحتاج من تصدّى لها إلى إتقان أقلامِ الكتابة، ومعرفةِ أوضاعِها على ما وضعه الوزير أبو عليّ بنُ مُقْلة[١] حين عرّب الخطَّ ونقَلَه من الكوفية[٢] إلى التوليد، ثم عمدتُه على طريق عليِّ بنِ هلال الكاتب المعروفِ بابن البوّاب[٣] وما وضعه من أقلام الكتابة، ومعرفةِ الأقلام الأصولِ الخمسة، وهي قلم المحقّق، وقلمُ النَّسْخ وقلمُ الرّقاع، وقلمُ التّواقيع، وقلَمُ الثُّلُث؛ فهذه الأقلام الخمسةُ هي الأصول؛ ثم تتفرّع عنها أقلامٌ أُخَرُ نذكرها بعدُ إن شاء الله تعالى؛ وقد ذُكِر لهذه التسمية أسباب واشتقاقات، فقالوا: إنّ قلمَ المحقّق إنّما سُمّيَ بذلك لأنّه أصل الكتابة، وهو يحتاج إلى التحقيق في وضع الحروف وتركيبها؛ وقلمَ النَّسْخ؛ لأنه تُنسَخ به الكتب ولذلك وُضِع بحيث إنّ الكُتبَ لا تَحسُن كتابتُها بغيره، لاعتدالِ أسطره، ودقّةِ حروفه والتئامِ أجزائه؛ وقلمَ الرّقاع لأنه وُضِع لكتابة الرّقاع المرفوعةِ في الحوائج؛ ألا ترى ما على الرّقاع به[٤] مِن البهجة؟ ولو كُتِبتْ بغيره ما حَسُن مَوقعُها من النّفوس؛ وقلمَ التواقيع لأنّه وُضِع لتُكتَبَ به التواقيعُ الصادرةُ عن الخلفاء والملوك؛ وقلمَ الثُّلُث لكتابة المناشير التي تُكتَب في قطع الثُّلث[٥]؛ هذا ما قيل في سبب تسمية هذه الأقلام بهذه الأسماء.

وأمّا ما يتفرّع عن هذه الأقلام الخمسة التي ذكرناها ـ فلكلٍّ قلم منها غليظٌ وخفيفٌ ومتوسّط، فقلمُ المحقّق يتفرّع عنه خفيفُه، ويتفرّع عنه أيضًا قَلَمُ الرّيحان؛ وقلمُ النَّسْخ يتفرّع عنه قلمُ المَتْن، وهو غليظُه، وقلمُ الحواشي وهو خفيفُه، وقلمُ

---

(١) ابن مقلة: هو الوزير محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور. كان في أول أمره يتولى أعمال فارس، ثم استوزره المقتدر بالله الخليفة العباسي، وبعده استوزره القاهر بالله... ثم الراضي بالله، ثم جرى عليه بعد ذلك كثير من المكاره والنكبات حتى قطعت يده ثم قطع لسانه. (وفيات الأعيان؛ ٢: ٦١).

(٢) المراد بقوله: «من الكوفية» أي من الصور الكوفية.

(٣) قيل له: «ابن البواب» لأن أباه كان بوابًا. (٤) «به» أي بسببه.

(٥) الذي وجدناه فيما لدينا في الكتب أن قلم الثلث يكتب به في قطع الثلثين، لا في قطع الثلث كما هنا، والذي يكتب به في قطع الثلث إنما هو قلم التوقيع؛ وأما تسمية قلم الثلث بهذا الاسم فقد اختلف الكتاب في وجه ذلك على وجهين: أحدهما أن للخط الكوفي أصلين من أربعة عشرة طريقة هما لها كالحاشيتين، ومما قلم الطومار، وقلم غيار الحلة. فالأقلام كلها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسبًا مختلفة، فإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلث، سمي قلم الثلث، وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثلثان سمي قلم الثلثين.. (صبح الأعشى ٣: ٥١).

المنثور، وهو الذي يفصل بين كلّ كلمةٍ وكلمةٍ ببياض؛ وقلمُ الرِّقاع يتفرّع عنه قلمُ الغُبار[١]، وهو خفيفُه، وينزل منه بمنزلة الحواشي من النَّسْخ، وهو الذي تُكتَب به المُلَطَّفات[٢] والبطائق[٣]، ويتفرّع عنه أيضًا قلمُ المقترِن، وهو ما يُكتَبُ سطرين مزدوِجَين، وقد يُكتب بغير قلم الرِّقاع، لكنْ لم تَجْرِ عليه هذه التسمية، وفي الرِّقاع مسلسَل؛ وقلمُ التّواقيع منه ما هو مسلسَل، وهو ما يتّصل بعضُ حروفه ببعض بتَشْعيراتٍ رقيقةٍ تلتفّ على الحروف؛ وقلمُ الثُّلُث يتفرّع عنه وعن المحقّق جميعًا قلمٌ يسمَّى قلمَ الأشعار[٤]؛ ولهم أيضًا قلمُ الذّهب[٥]، وهو قد يكون تارةً ثُلُثًا وتارةً تواقيع إلّا أنه يكون خاليًا من التشعير بسبب ترميكِه باللّون المغايِر للونِ الذّهب، والترميك هو أن يُحبَس الحرفُ بلونٍ غيرِ لونه بقلمٍ رقيقٍ جدًّا؛ ولهم أيضًا قلمُ الطُّومار[٦] ومنه كاملٌ وغيرُ كامل، فالكاملُ: الذي إذا جُمِعت الأقلامُ كلُّها كانت في غلظه وهو الّذي يُكتَب به على رؤوس الدُّروج؛ وغيرُ الكامل، هو الطُّومار للمعتاد؛ فهذه هي الأصول وما يتفرّع عنها. ولهم أيضًا أسماءٌ أُخَر، منها قلمُ الطور[٧] وقلمُ المَنهَج، وقلمُ الطَّمْغاوات، وأسماءٌ غيرُ هذه اصطَلَح عليها الكتّاب؛ فإذا أتقن الكاتب ما ذكرناه من هذه الأقلام وحرّرها، وعَرَف أوضاعَها وقواعدَها، وكيفيّةَ وضع الحروف، وموضعَ ترقيقِها وتغليظِها، والمكانَ الذي تُكتَب فيه بسنّ القلم وبصدرِه، وأين يضع الحرفَ الآخَرَ منه، إلى غير ذلك من شروطِها وقواعِدها، واتّصفَ بما قدّمناه في المؤدِّب من الدّيانةِ والخيرِ والعفّةِ وحُسْنِ الطريقة وصحّةِ الاعتقاد والتزام السّنّة، فقد استحقّ أن يتصدّى للتعليم والإفادة، ويتعيّن على الطالب الرجوعُ إليه، والاقتداءُ بطريقته، والكتابةُ على خطّه والتزامُ توقيفِه.

---

(١) سمي هذا القلم قلم الغبار، لدقته، كأن النظر يضعف لضآلة حروفه كما يضعف عند رؤية الشيء عند ثوران الغبار وتغطيته له.

(٢) الملطفات: جمع ملطّفة، وهي مكتوب صغير بعتاب أو شفاعة.

(٣) يريد بالبطائق: بطائق الحمام التي تحمل هذه البطائق على أجنحتها، وبعضهم يسمي هذا القلم قلم الجنائح لذلك...

(٤) لعل قلم الأشعار هذا هو المعروف بالمدور الصغير، وهو قلم جامع يكتب به في الدفاتر، ويكتب به الحديث والأشعار.

(٥) سمي قلم الذهب، لأن كتابته بماء الذهب.

(٦) المراد بالطومار: الكامل من مقادير قطع الورق، أي الورقة الكاملة التي يعبر عنها الكتاب الآن (بالفرخ).. (صبح الأعشى ٣: ٥٣).

(٧) لم نجد هذا اللفظ فيما راجعناه من الكتب التي بين أيدينا، ولعلّ صوابه: (الأسطور)، وهو المعبر عنه بقلم أسطورمار الكبير. (كشف الظنون ١: ٣٥٧).

الفنُّ الثالث
في الحيوان الصامت

قد جَمعْتُ في هذا الفنّ ـ أعزّك الله تعالى ـ من أجناس الحيوان بين الكاسِر والكاشر[١]، والنافرِ[٢] والطائر؛ والصائدِ والصائل، والناهقِ والصاهل؛ والحاملِ والحالب، واللّادغ[٣] واللّاسب[٤]؛ والكانِس[٥] والسانح[٦]، والراسخ[٧] والسائح؛ فمن أسدٍ انفرد عظمًا بنفسِه، وتَرفَّع عن الإلمام بما سواه من جنسه؛ إنّ وطىء أرضًا مالت الوحوش عن آثارِه، أو قصد جهةً نفرتْ من جِوارِه؛ وإن فَغَرَ فاه[٨] أبرز المُدَى وإن مَدّ خُطاه قرَّب المَدَى؛ ونَمِرٍ حديدِ النّاب، مُوَشَّى الإهاب؛ وفَهْدٍ سريعِ الوُثوبِ والاختطاف، وكلبٍ إنْ طَفِئَت النّيرانُ فهو الجالب للأضياف؛ وضَبُعٍ إنْ رأتْ قتيلًا طافت به ومالت إليه، وذئبٍ ما رأى بصاحبه دمًا إلّا أغارَ عليه؛ إلى غير ذلك من أنواع الوحوشِ والآرام، والخيلِ والبغالِ والأنعام؛ وذوات السُّموم القواتلِ منها وغيرِ القواتل، وأصنافِ الطّير الّتي تكون تارة محمولةٍ وتارة حوامل؛ وآونةً تَختطِف من

(١) الكاشر، من قولهم: كشر السبع عن نابه، إذا هرّ أو أهرّ للحراش.
(٢) النافر: أي الذي ينفر من الظباء ونحوها من أصناف الوحوش.
(٣) المراد باللادغ: ما يعض من الحيات. (٤) المراد باللاسب: ما يلسع من العقارب.
(٥) الكانس: الذي يدخل الكناس، وهو موضع في الشجر يكنن فيه الوحش ويستتر.
(٦) السانح: المراد به ما يظهر من الحيوانات للمارة ولد يستتر في الأكنسة.
(٧) الراسخ: ما يثبت من الحيوان في مكان ولا ينتقل منه؛ والسائح: الذاهب في الأرض متنقلًا من مكان إلى مكان.
(٨) فغر فاه: فتحه.

الهواء، وحالةَ تقتنِص الوحشَ من البَيْداء؛ وما شاكل منها الكلب والبهيمة، وما حُبِس لسماع صوته فَعَلَتْ قيمتُه كلَّ قيمة؛ وما ينوح ويغرِّد، وما يتلو ويردِّد؛ وميّزتُ كلَّ حيوانٍ منها بمحاسنه ومناقِبه، ونَبذْتُه بمعايبِه ومثالبِه؛ ولولا خشيةُ الإطالة، لوصفْتُ كلَّ حيوان منها برسالة؛ لكنّي استغنيْتُ بما ألّفْتُه من منقولي، عمّا أصنِّفه من مَقُولي؛ وعلمْتُ أنّني أَقْصُر عن حقّ هذه الرتبة فأَحجمْتُ وأَقِفُ دون بلوغ هذه الحَلْبة فأَمسكْت؛ وقد تقدّمني مَن بالغ في هذا وأَطنَب وَوَجَدَ المقالَ فبَسَطَ القولَ وأَسهَب، وحاز المعانيَ فما ترك لسواه مذهب[1]؛ فاختصرْتُ عند ذلك المقال، واقتصرْتُ على هذه النُّبْذة الّتي أشبهتْ طيفَ الخيال؛ ووضعتُه على أحسن ترتيب، ورتَّبْتُه على أجمل تقسيم وتبويب؛ وهو يشتمل على خمسة أقسام.

(١) مقتضى اللغة الفصحى أن يقول: «مذهبا» كما هي قاعدة الوقف على المنصوب المنون، إلّا أن المؤلف لما التزم السجع في الكلام اضطره ذلك إلى أن يقف عليه بالسكون متبعًا بذلك لغة ربيعة.

القسم الأوّل
من هذا الفنّ في السِّباع
وما يتّصل بها من جنسها

وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل
في الأسد والبَبْر والنَّمِر

ولنبدأْ بذكر أسماء الأسد، ثم نذكر ما قيل في أصنافِ الآساد وأجناسِها وعاداتِها في افتراسها، وما فيها من الجراءة والجبن، وما وُصِف به الأسدُ نظمًا ونثرًا ثم نذكر ما سواه، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ:

أمّا أسماء الأسد ـ فقد بسط الناسُ فيها القولَ وزادوا، فمنهم من عدّ له ألفَ اسمٍ فما دون ذلك، وقد اقتصرنا منها على أشهرِها.

فمن أسمائه: الأَسَد، والأنثى أَسَدَةٌ ولَبُؤة؛ والشِّبْل والحَفْصُ: جِرْوُه؛ والشِّبْلَةُ والحَفْصةُ[1]: الأنثى؛ وكُناه: أبو الأشبال، وأبو الحارث؛ ومن أسمائه الأعلام: بَيْهَس، وأُسامة، وهَرْثَمة، وكَهْمَس؛ ومن صفاته: الصَّمّ، والصَّمّة، والمصَدَّر والصَّمْصامة[2]، والهِزَبْر، والقَسْوَرة، والدِّلَهْمَس، والضَّيْغَم، والغَضَنْفَر، والهُمام والدَّوْكَس، والدَّوْسَك، والعَلَنْدَس، والعُنابِس، والسِّيد، والدِّرْباس، والفُرافِر والقُصاقِص، والقُضاقِض، والرِّئْبال، والضَّيْثَم؛ والخُنابِس، وعَثَمْثَم، والخُنابِش[3]: اللَّبُؤة إذا استبان حملُها، وكذلك الآفِل؛ والهَرِس: الشديد المراس.

---

(١) الحفصة: وردت في كتب اللغة بعدة معان ليس منها هذا المعنى المذكور هنا.

(٢) الصمصامة: لم نقف في الكتب التي بين أيدينا على أن الصمصامة من صفات الأسد، ولا من أسمائه، وإنما يقال هذا اللفظ للرجل والفرس والسيف والذي وجدناه من صفات الأسد في هذه المادة «الصَّمصم» (بضم أوله وفتح ثانيه). «والصمصام» بضم أوله أيضًا.

(٣) راجعنا اللسان، والقاموس والمخصص والصحاح وغيرها فلم نعثر على أن الخنابش من صفات الأسد أو من أسمائه، والذي وجدناه بالمعنى المذكور هنا: «خنابسة» بالخاء المضمومة والسين المهملة والتاء.

وأمّا أصناف الآساد وأجناسُها ـ فالذي يعرفها الناس منها صنفان: أحدُهما مستديرُ الجُثّة، والآخَرُ طويلُها، كثيرُ الشّعر؛ وعَدَّ أرِسْطُو من هذا النوع ضروبًا كثيرة، حَكَى عن بعض من تكلم في طبائع الحيوان قَبله أنّ في أرض الهند سَبُعًا ـ سمّاه باليونانيّة ـ في عِظَم الأسد وخلقتِه، ما خلا وجهَه فإنّه شبيهٌ بوجه الإنسان ولونُه شديدُ الحمرة، وذَنَبُه شبيهٌ بذَنب العقرب، وفي طَرَفه حُمَّة[١]، وله صوتٌ يُشبِه صوتَ الزّمّارة وهو قويّ، ويأكل الناس؛ وذَكَر أنّ من السباع ما يكون في عِظَم الثور وفي خلقته، له قرونٌ سود، طويلُها، في قدر الشّبر، إلّا أنّه لا يحرّك الفكَّ الأعلى كما يحرّكه[٢] الثّور، ولرجليه أَظْلافٌ مشقوقة، وهو قصيرُ الذَّنَب بالنسبة إلى نوعه، ويَحفِر الأرضَ بخُرطومه، ويَستفّ التراب، وإذا جُرِح هَرَب، فإن طُلِب رَمَحَ[٣] برجليه، ورَمَى برجيعِه على بعد.

وأما عاداتها في حملها ووضعِها وحَضانتِها ـ فقد قال صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر[٤]: إنّ أصحابَ الكلام في طبائع الحيوان يقولون: إن اللَّبُؤَةَ لا تضع إلّا جَرْوًا واحدًا، وتضعُه بَضْعة[٥] لحم ليس فيها حِسٌّ ولا حركة، فتحرُسُه من غيرِ حَضانة ثلاثةَ أيّام، ثم يأتي أبوه بعد ذلك فينفُخ في تلك البَضْعة المرّةَ بعد المرّةِ حتّى تتحرّك وتتنفّسَ وتنفرجَ الأعضاءُ وتتشكّلَ الصورة، ثم تأتيه أمُّه فترضِعه ولا يفتح عينيه إلّا بعد سبعة أيّام من تخليقه؛ واللَّبُؤةُ ما دامت تُرضِع لا يَقْرَبها الذَّكر ألبتّة؛ فإذا مضى على الجَرْو ستّةُ أشهرٍ كُلِّفَ الاكتساب لنفسه بالتعليم والتدريج وطارد الذَّكرُ الأنثى، فإن كانت صارفًا[٦] أمكنتْه من نفسها، وإن لم تكن كذلك منعتْه ودفعتْه عن نفسها، وبقيتْ مع جَرْوها بقيَّةَ الحول وستّةَ أشهرٍ من الثاني، وحينئذٍ تألَف الذَّكَرَ وتُمكّنه من نفسها؛ والله أعلم.

وأمّا عادتها في وثباتِها وأفعالِها وصبرها وسرعةِ مشيِها وأكلِها ـ فإنّ للأسَدِ مِن بُعْدِ الوَثْبة، واللّصوقِ بالأرض، والإسراعِ في الحُضْر إذا هَرَب، والصبرِ على الجوع، وقلّة الحاجة إلى الماء، ما ليس لغيرِه من السّباع، قالوا: وربّما سار في طلب القوت ثلاثين فرسخًا، وهو لا يأكل فريسةَ غيرِه من السباع، وإذا شبع من فريسته تَرَكَها، ولم

(١) الحمة: الإبرة التي تضرب بها العقرب.
(٢) من المعلوم أن الثور لا يحرك فكه الأعلى، ومن المشهور أنه لا يحرك فكه الأعلى من الحيوانات غير التمساح. (يمكن العودة إلى كتاب الحيوان ج ١: ص ١٢٩).
(٣) رمح: رفس.
(٤) هو لجمال الدين الورّاق.
(٥) البضعة: القطعة.
(٦) الصارف: التي اشتهت الفحل.

يَعُدْ إليها ولو جَهَده الجوع، وإذا أكل أكْلةً يقيم يومين وليلتين بلا طعام لكثرة امتلائه، ويلقيه بعد ذلك شيئًا يابسًا مثل جَعْرِ[١] الكلب، وإذا بال رفع إحدى رِجليه كالكلب، وإذا فَقَد أكلَه صَعُب خُلقُه. وإذا امتلأ بالطعام فهو وادع، وأكلُ الجِيَفِ أحبُّ إليه من أكل اللّحم الغَريضِ الغَضّ، وهو لا يفترِس الإنسانَ للعداوة ولكن للطُّعْم، فإنّه لو مرّ به وهو شبعانُ لم يتعرّض له، وهو يَنْهَس[٢] ولا يَمضَغ، ويوصف بالبخر[٣]، ولحمُ الكلب أحبُّ اللُّحمان إليه، ويقال: إنّ ذلك لِحَنقِه عليه، فإنه إذا أراد التَّطوافَ في جَنَبات القرى ألَحّ الكلبُ في النُّباحِ عليه والإنذارِ به، فينهَضُ الناسُ ويتحرّزون منه، فيرجع بالخيبة، فهو إذا أراد ذلك بدأ بالكلب ليأمنَ إنذارَه؛ ومن شأنه أنّه إذا أكثر من أكل اللّحم وحَسْوِ الدَّمِ وحَلَتْ نفسُه منهما، طَلَبَ المِلْح ولو كان بينه[٤] وبين عِرِّيستِه[٥] خمسون مِيلًا.

وأمّا ما في الآساد من الجراءة والجبن ـ فجراءتُه معروفةٌ مشهورة، غيرُ منكورة، فمنها أنّه يُقْبِل على الجمع الكثيرِ من غير فزع ولا اكتراثٍ بأحد ولا مَهابةٍ له، وقد شاهدتُ أنا ذلك عيانًا، وهو أنّني ركبتُ ليلةً في شوّال سنة اثنتين وسبعمِائة من بَيْسانِ[٦] الغَوْر إلى قَراوَى[٧] في نحو خمسةَ عشرَ فارسًا وجماعةٍ من الرجال بالقسيّ والتَّراكِيش[٨] ـ وكانت ليلةً مقمرة ـ فعارَضَنا أسد، ثمّ بارانا وسايَرَنا على يَمْنةِ طريقِنا عن غير بعد، بل أقربَ من رَشْقةِ حَجَر، لا أقول: مِن كفٍّ قويّ فكان كذلك مقدارَ ربعِ ليلة، فلمّا أَيِس من الظَّفَر بأحدٍ منّا لتيقُّظنا قصَّر عنّا، ثم تركنا إلى جهة أخرى. قالوا: والأسدُ الأسْوَدُ أكثرُ جراءةً وجهالةً وكَلَبًا على الناس؛ قالوا: وإن أُلجِىء الأسدُ إلى الهربِ أو أحسَّ بالصيّادين تولّى وهو يمشي مشيًا رفيقًا، وهو مع ذلك مُتَلفِّتٌ يُظهِر عدمَ الاكتراث، فإن تمكّن منه الخوفُ هرب عَجِلًا حتى يبلغَ مكانًا يأمن فيه، فإذا عَلم أنّه أَمِن مشى متّئدًا، وإن كان في سهلٍ وأُلجِىء إلى الهرب جرى جريًا شديدًا كالكلب، وإن رماه أحدٌ ولم يصبْه شدَّ عليه، فإن أخذه لم يضرَّه، وإنّما

(١) الجعر: ما يبس من العذرة في المجعر أي الدبر.
(٢) النهس: (بسكون الهاء وفتحها): الأخذ بمقدم الأسنان.
(٣) البخر: نتن الفم.
(٤) «بينه» أي بين الملح، كما هو واضح، وتذكير الملح كما هنا لغة قليلة ولكن يغلب تأنيثه.
(٥) العريسة: مأوى الأسد.
(٦) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين.
(٧) قراوى: قرية بالغور من أرض الأرض.
(٨) التراكيش: واحدها تركش (بفتح التاء والكاف وسكون الراء)، وهو مقر السهام.

يخدِشه ثم يخلّيه، كأنّه مَنَّ عليه بعد الظَّفَر به وهو إذا شَمّ أَثَر الصيّادِين عفا أثَره بذَنَبِه.

وأمّا جبنُه ـ فمنه أنّه يُذْعَر من صوت الدّيك، ومِن نقرِ الطَّسْت وجِسّ الطُّنبور[١]، ويفزع من رؤية الحبلِ الأسودِ والديكِ الأبيضِ والسِّنَّوْرِ والفَأْرة، ويَدْهَش لضوء النار، ويعتريه ما يَعتري الظِّباءَ والوحوشَ من الحَيْرة عند رؤيتها وإدمانِ النظر إليها والتعجّبِ منها، حتى يَشغَله ذلك عن التحفّظِ والتيقّظ. قالوا: والأسد لا يألَف شيئًا من السّباع، لأنّه لا يرى له فيها كفؤًا فيَصحَبَه، ولا يطأ شيء منها على أثر مشيه، ومتى وُضِع جلدُ الأسد مع سائر جلودها تساقطتْ شعورُها؛ والأسدُ لا يدنو من المرأة الطامث[٢]، وهو إذا مَسّ بقوائمه شجرَ البَلُّوط خَدِر[٣] ولم يتحرّك من مكانه، وإذا غمره الماء ضعف وبَطَلتْ قُواه، فربّما ركب الصبيُّ على ظهرِه وقبض على أذنيه ولا يستطيع عن نفسه دفاعًا؛ وأخبرني بعضُ من سكن غَوْرَ الشام[٤] أنّ بعض الغَوارنةِ[٥] رأى أسدًا في بعض الأيام وهو رابضٌ على حافةِ نهرِ الأُرْدُنّ، وظهرُه إلى الماء، وذَنَبُه فيه، وهو يرُشّ على ظهره وجنبيه بذنَبه وكان الغَوْريُّ من جانب الشَّريعة[٦] الآخَر فبادَرَ بعبور الماء، وعدَّى إلى جهة الأسد برفقٍ وسكونٍ حتّى صار وراءه، ثم قبض الغَوْريّ، على مَرَقَّيْ فَخِذَي الأسد وجذَبه إلى الماء، فهمّ الأسدُ بالوثوب وضرب الأرضَ بيديه، فانسَحَل[٧] الرملُ من تحتهما، ولم يستطع إثباتَهما عليه، فانحدر إلى الماء، وركبه الغَوْريّ، وقبض على أذنيه، وضربه بسكّين معه فقتله؛ والغَوارنةُ تتحيّل على قتل السباع بأمورٍ كثيرةٍ مواجَهةً، والّذي وقع لهذا الرجل نادرُ الوقوع لم أسمع أنّه وقع لغيرِه، وهو أمرٌ مستفاضٌ[٨] عند الغَوارنة.

---

(١) الطنبور: (بضم الطاء) من آلات الطرب، ذو عنق طويل وستة أوتار من نحاس، وهو فارسي معرب.

(٢) الطامث: الحائض.

(٣) خدر: أي استرخت أعضاؤه وثقلت فلا يمكنها أن تتحرك.

(٤) غور الشام: بين البيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس، ولذلك سمي الغور.

(٥) الغوارنة: جمع غوراني، نسبة إلى الغور؛ كما يبدو من سياق الكلام.

(٦) الشريعة: اسم لنهر الأردن، وهي أيضًا مورد الشاربة من الماء. (صبح الأعشى ٤ : ٨١).

(٧) انسحل الرمل: انجرف.

(٨) يقال في كتب اللغة: «حديث مستفاض فيه» و«مستفيض» ولا يقال «مستفاض» كما هنا، فإنه لحن.

قالوا: والأسدُ لا تفارقه الحمّى، ولذلك الأطبّاءُ يسمّونها داءَ الأسد، وعظامُه عاسيةٌ[١] جدًّا، وإن دُلك بعضُها ببعضٍ خرجت منها النّارُ كما تخرج من الحجارة وكذلك في جلدِه من القوّة والصّلابة ما لا يَعمَل فيه السلاحُ إلّا من مَراقّ بطنِه[٢]؛ والأسدُ طويلُ العمر؛ وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: إنّ شحم الأسد يحلّل الأورامَ الصُّلْبة.

ذكر شيء مما وُصِف به الأسد نثرًا ونظمًا

قال أبو زُبَيْد الطائيُّ[٣] يصفه لعثمانَ بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ وكان قد لقيه: أَقبَلَ يَتضالع[٤] من بعد، ولصدره نَحيط[٥]، ولبَلاعيمه غَطيط[٦]؛ ولطَرْفه وَمِيض ولأرساغِه نَقيض[٧]؛ كأنّما يَخبِط هشيمًا، أو يطأُ صَريمًا[٨]؛ وإذا هامةٌ كالمِجنّ[٩] وخدٌّ كالمِسَنّ؛ وعينان سَجْراوان[١٠]، كأنّهما سراجان؛ وقَصَرةٌ[١١] رَبِله، ولِهْزِمةٌ[١٢] رَهِله[١٣]؛ وساعدٌ مجدول، وعضدٌ مفتول؛ وكفٌّ شَثْنةٌ[١٤] البراثن، ومخالبُ كالمَحاجن[١٥]؛ وفمٌ أشدَق[١٦] كالغار الأخرق[١٧]؛ يفترّ عن معاولَ مصقولة، غيرِ مفلولة؛ فهَجْهَجْنا[١٨] به ففَرْفَر[١٩] وبَرْبَر[٢٠]، ثم زأر فَجَرْجَر؛ ثم لَحَظَ فخلْتُ البرْقَ يتطاير من جفونِه، عن شِمالِه ويمينِه؛ فأُرعِشَت الأيدي، واصطَكّت الأرجل؛ وجَحَظَت العيون[٢١]، وساءت الظنون، ولَحِقت الظهورُ بالبطون.

---

(١) العاسية: الصلبة اليابسة.

(٢) مراق البطن: أسفله وما حوله مما استرق منه ولا واحد لها.

(٣) أبو زبيد الطائي: هو المنذر بن حرملة من طيىء، كان جاهليًا وأدرك الإسلام إلّا أنه لم يسلم ومات نصرانيًا. (الشعر والشعراء: ١٨٥).

(٤) يتضالع: أي يتمايل.

(٥) النحيط: الزمير.

(٦) الغطيط: تردد النفس صاعدًا إلى الحلق حتى يسمعه من حوله.

(٧) النقيض: صوت المفاصل.

(٨) يراد بالصريم: ما جذّ وقطع من الشجر.

(٩) المجن: الترس.

(١٠) السجراوان: تثنية سجراء، وهي العين التي يخالط بياضها حمرة.

(١١) القصرة: (بفتح القاف والصاد): أصل العنق.

(١٢) اللهزمة: مضيغة في أصل الحنك.

(١٣) الرّهلة: المسترخية.

(١٤) الشثنة: الخشنة الغليظة.

(١٥) المحاجن: جمع محجن (بكسر الميم) وهي العصا المعقفة الرأس كالصولجان.

(١٦) الأشدق: الواسع الشدقين.

(١٧) الأخرق: يراد به هنا الواسع.

(١٨) هجهج بالسبع: أي صاح به وزجره ليكف.

(١٩) فرفر: أي صاح به.

(٢٠) بربر: أي صوّت وصاح مع غضب.

(٢١) جحظت العيون: ويراد به شخصت، وهو تفسير مجازي. (اللسان والقاموس).

ووصَفَه بعضُ الأعراب فقال: له عينان حمراوان مثلُ وَهَج الشَّرَر، كأنّما نُقِرتا بالمناقير في عُرْض حَجَر؛ لونُه وَرْد، وزئيرُه رعد؛ هامتُه عظيمة، وجَبهتُه شَتِيمة[١]؛ نابُه شديد، وشره عتيد[٢]؛ إذا استقبلْتَه قلْتَ: أقرع، وإذا استدبرْتَه قلتَ: أفرع[٣]؛ لا يَهاب إذا اللَّيلُ عَسْعَس[٤]، ولا يجبُن إذا الصبحُ تنفّس؛ ثم أنشد: [من الطويل]

عَبوسٌ شَموسٌ مُصْلَخِدٌّ مُكابِرٌ … جريءٌ على الأقران للقِرْن قاهرُ[٥]
براثنُه شُثْنٌ وعيناه في الدُّجى … كجمر الغَضَى في وجهه الشَّرُّ طائرُ[٦]
يُدِلُّ بأنيابٍ حِدادٍ كأنّها … إذا قَلَّص الأشداقَ عنها خناجرُ

ومن التهويلات في وصف الأسد قولُ الشاعر: [من الكامل]

إيّاك لا تَستَوْش ليثًا مُخْدَرًا … للهولِ في غسق الدُّجى دوّاسا[٧]
مَرِسا كأمراس القَليب جُدَوْلُه … لا يستطيع له الأنامُ مِراسا[٨]
شُثْنَ البراثنِ كالمَحاجنِ عُطِّفَتْ … أظفارُه فتخالُها أقواسا
لان الحديدُ لجِلْدِه فإهابُه … يكفيه من دون الحديد لباسا
مصطكّة أرساغُه بعظامِه … فكأنّ بين فصولها أجراسا[٩]
وإذا نظرْتَ إلى وميض جفونِه … أبصرْتَ بين شُفورِها مقباسا[١٠]

وقال آخر: [من الوافر]

توقَّ - وقاكَ ربُّ الناس - ليثًا … حديدَ النّابِ والأظفارِ وَرْدا

---

(١) الشتيمة: الكريهة المنظر.
(٢) العتيد: الحاضر المهيأ؛ والمراد أنّ شرّه لا تأخر فيه ولا انتظار.
(٣) الأفرع: الكثير الشعر؛ والمراد لبدة الأسد. (٤) عسعس الليل: أقبل بظلامه.
(٥) المصلخد: المنتصب؛ والمراد أنه متهيىء للشعر مستعد له.
(٦) الشُّثْن: الغليظة الخشنة.
(٧) لا تستوش ليثًا: أي لا تستخرج ما عنده من البأس والقوة، وهو من الاستيشاء بمعنى الاستخراج. يقال: «استوشى فلان فرسه» إذا استخرج ما عنده من الجري. المخدر: من أخدر الأسد، إذا لزم الأجمة واتخذها خدرًا.
(٨) المَرِسُ: بفتح فكسر: الشديد المراس. والأمراس: الحبال، وهو جمع الجمع، فإن الواحد «مَرَسه» بفتح أوله وثانيه وجمعها «مَرَس» وجمع الجمع «أمراس».
(٩) الفصول: المفاصل والأرساغ.
(١٠) الشفور: المراد بها الأشفار، والذي في كتب اللغة أن شفر العين لا يجمع على غير أشفار كما قال سيبويه.

كـأنّ بِـمُـلـتـقـى الـلَّـحْـيَـيـن مـنـه مـذرَّبـةَ الأسـنّـةِ أو أَحَـدّا[١]
وتَـحـسَـب لَمْـحَ عـيـنـيـه هُـدوءًا ورَجْـعَ زئـيـرِه بـرقًـا ورعـدا[٢]
تَـهـاب الأُسْـدُ حـيـن تـراه مـنـه إذا لاقَـيْـنَـه فـي الـغـاب فَـرْدا
تـصُـدّ عـن الـفـرائـسِ حـين يـبـدو وكـانـت قـبـلُ تـأنَـف أنْ تـصُـدّا

وقال أبو الطّيّب المتنبيّ ـ رحمه الله ـ: [من الكامل]

وَرْدٌ إذا ورد الـبُـحَـيـرة واردا وَرَدَ الـفـراتَ زئـيـرُه والـنِّـيـلا[٣]
مـتـخـضّـب بـدمِ الـفـوارسِ لابسٌ فـي غِـيـلِه مـن لِبْـدَتَـيْـه غِـيـلا[٤]
فـي وُحْـدةِ الـرُّهـبـان إلّا أنّـه لا يـعـرِف الـتـحـريـمَ والتّـحـلـيـلا
وقـعـتْ عـلى الأُرْدُنّ مـنـه بـليّـةٌ نُظِمَتْ بها هامُ الرفاقِ تُلولا[٥]
يطـأ الـبَـرَى مـتـرفّـقًا مِن تِيـهِـهِ فـكـأنّـه آسٍ يَـجُـسّ عـلـيـلا[٦]
ويَـرُدّ غُـفْـرتَـه إلـى يـافـوخِـه حـتّـى تَـصـيـرَ لـرأسـه إكـلـيـلا[٧]
قَـصَرتْ مخـافـتُه الخُـطا فـكـأنّـما رَكِـبَ الـكَـمِـيُّ جـوادَه مـشـكـولا

وقال عبد الجبّار بنُ حمدِيس[٨]: [من الطويل]

ولـيـثٍ مـقـيـم فـي غـيـاضٍ مـنـيـعـةٍ أميرٍ على الوحش المقيمةِ في القفرِ
يـوسِّـد شِـبْـلَـيْـه لـحـومَ فـرائـسٍ ويقطع كاللّصّ السبيلَ على السَّفْرِ[٩]
هِـزَبْـرٌ لـه فـي فـيـه نـارٌ وشَـفْـرةٌ فما يَشتوِي لحمَ القتيل على الجمرِ[١٠]
سـراجـاه عـيـنـاه إذا أظـلـم الـدّجـى فإن بات يَسْرِي باتت الوَحْشُ لا تَسرِي

---

(١) المُذَرَّبة: المحددة.
(٢) هدوءًا: أي في وقت هدوء الليل وسكونه، وذلك لأن هذا الوقت أشد لظهور البريق واللمعان.
(٣) يريد بالبحيرة: بحيرة طبرية.
(٤) الغِيل: الأجمة، وهي الشجر الكثير الملتف الذي يستتر الأسد فيه.
(٥) الأردن: كورة بالشام واسعة، منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك. (معجم البلدان).
(٦) البرى: التراب.
(٧) الغُفْرة: هي الشعر اجتمع على قفاه، أي هي ما يغطى به الشيء. والمراد بهذا البيت وصف شعر منكبيه بالعظم والطول حتى أنه يرد ذلك الشعر فيجتمع على هامته ويصير كالإكليل.
(٨) هو عبد الجبار بن حمديس الأزدي الصقلي، أبو محمد، شاعر مبدع، رحل إلى الأندلس ومدح المعتمد بن عباد مات سنة ٥٢٧ هـ. (الأعلام ٣/ ٢٧٤).
(٩) شبليه: الشبل هو ابن الأسد. (١٠) هزبر: الأسد.

له جَبْهةٌ مثلُ المِجَنّ ومَغْطِسٌ كأنّ على أرجائه صِبْغةَ الحِبْرِ
يصلصِل رعدٌ من عظيم زئيرِه ويَلمَع برقٌ من حماليقِه الحُمْرِ[١]
له ذنَبٌ مستنبَطٌ منه سَوْطُه ترَى الأرضَ منه وهي مضروبة الظهرِ
ويَضرِب جنبيه به فكأنما له فيهما طبلٌ يَحُضّ على الكَرّ
ويُضحِك في التّعبيس فكّيْه عن مُدَى نُيوبٍ صِلابٍ ليس تَهتم بالفِهْرِ[٢]
يصول بكفٍّ عَرْضُ شبرين عَرْضُها خناجرُها أمْضَى من القُضُبِ البُتْرِ
يجرِّد منها كلَّ ظُفْرٍ كأنّه هلالٌ بدا للعين في أوّل الشهرِ

وقال بشرُ بنُ عَوانةَ الفَقْعسيُّ يصف ملاقاتَه الأسدَ وما كان بينهما: [من الوافر]

أفاطمُ، لو شهدتِ ببطن خَبْتٍ وقد لاقَى الهِزَبْرُ أخاكِ بِشْرا[٣]
إذًا لرأيتِ لَيْثًا رام ليثًا هِزَبْرًا أغلبًا لاقَى هِزَبْرا[٤]
تَبهنَسَ إذ تَقاعَسَ عنه مُهري محاذَرةً فقلتُ: عُقِرْتَ مُهرا[٥]
أنِلْ قدميَّ ظهرَ الأرضِ إنّي وجدْتُ الأرضَ أثبتَ منك ظهرا
وقلتُ له وقد أبدَى نِصالًا مذرَّبةً ووجهًا مكفهِرّا[٦]
يُدِلّ بمِخلَبٍ وبحدِّ نابٍ وباللَّحَظات تحسَبهنّ جمرا[٧]
وفي يمناي ماضي الحدِّ أبْقَى بِمَضْرَبه قِراعُ الموت أُثْرا[٨]
ألم يَبلُغْك ما فعلتْ ظُباهُ بكاظمةٍ غداةَ لقيتُ عَمْرا[٩]
وقلبي مثلُ قلبكَ لست أخشى مصاوَلةً ولست أخاف ذُعْرا[١٠]

---

(١) الصلصلة: ترجيع الصوت ـ الحماليق: جمع حملوق، وهو باطن الجفن الأحمر الذي إذا قلب للكحل رأيت حمرته.
(٢) الفِهْر: الحجر، وهو مؤنث.
(٣) بشر: هو بشر بن عوانة.
(٤) الليث: الأسد.
(٥) تبهنس الأسد: تبختر. تقاعس: تأخر ورجع إلى الخلف.
(٦) المذربة: المحددة.
(٧) اللحظات: النظرات.
(٨) الأُثر: بضم الهمزة: أثر الجراح، وقد استعارها هنا للندوب والثلوم التي تكون في السيف من مقارعة الأبطال.
(٩) الكاظمة: أي منخفض من الأرض، على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة، وقد أكثر الشعراء من ذكره. (معجم البلدان).
(١٠) مصاولة: منازلة.

وأنـت تـروم لـلأشـبـال قـوتًـا ... وأطلب لابنـةِ الأعـمـام مـهْـرا[١]
فـفـيـم تـروم مـثـلي أن يـولّى ... ويتركَ في يديك النفسَ قَسْرا؟[٢]
نَصَحْتُك فالتمس يا ليثُ غيري ... طـعـامًـا إنَّ لـحـمـي كـان مُـرّا
ولـمّـا ظـنّ أنّ الـغـشَّ نـصـحـي ... وخـالـفـني كـأنّي قلت هُجْرا[٣]
دنـا ودنـوت مـن أسـديـن رامـا ... مـرامًـا كـان إذ طـلـبـاه وَعْـرا[٤]
يـكـفـكِـف غِـيـلةً إحدى يـديـه ... ويَـبـسـط لـلوثـوب عـليّ أخـرى
هـزرت لـه الـحسامَ فخِلت أنّي ... شققت به من الظلماء فجرا[٥]
حسـامًـا لـو رَمَـيْـتُ بـه الـمـنـايـا ... لـجـاءت نـحـوَه تـعـطـيـه عـذرا[٦]
وَجُـدْتُ لـه بـجـائـفـةٍ رآهـا ... بـمـن كـذَبَـتْـهُ ما مَـنّـتْـه غَـدْرا[٧]
بـضـربـةِ فَـيْـصَـلٍ تَـرَكَـتْـهُ شَـفْـعًـا ... وكـان كـأنّـه الـجُـلـمُـودُ وَتْـرا
فـخـرّ مـضـرَّجًـا بـدمٍ كـأنّـي ... هـدمْـتُ بـه بـنـاءً مُـشْـمَـخِـرّا[٨]
وقـلـت لـه: يَـعَـزّ عـليّ أنّـي ... قَـتـلـت مـنـاسـبـي جَـلْدا وقَـهْـرا
ولـكـن رمـتَ شـيـئًـا لـم يَـرُمْـه ... سواك فلم أُطِقْ يا لَيْثُ صبرا[٩]
تـحـاول أن تـعـلّـمـني فِـرارًا ... لـعـمـر أبـيـك قـد حـاولْـتَ نُـكْـرا
فـلا تَـبْـعَـدْ لـقـد لاقـاك حـرٌّ ... يـحـاذِر أن يـعـابَ فـمِـتَّ حُـرّا

وأمّا البَبْرُ وما قيل فيه ـ فهو سَبُعٌ هنديّ، ويقال: حبشيّ؛ وهو في صورة أسدٍ كبير، أزبُّ[١٠] ملمَّعٌ بِصُفرة وسواد، ويقال: إنّه متولّدٌ بين الزّبرقان[١١] واللَّبُؤة؛ وفي طبعِه أنّه يسالم النَّمِرَ وغيرَه من السباع ما لم يَستكلِب، فإذا استَكلَب خافه كلُّ شيء كان يسالمه، وهو والأسد متواذّان أبدًا، ومودّتُه معه كمودّة الخنافس والعقارب والحيّات والوَزَغ؛ ويقال: إنّ الأنثى منه تَلْقَح بالريح، ولهذا يقال: إنّ عَدْوَه يشبه الرّيحَ سرعة، ولا يقدر أحدٌ على صيده؛ وإنّما تُسرَق جِراؤه فتُحمَل في مثل القوارير

(١) رام: طلب.
(٢) القَسْر: القهر.
(٣) هجرًا: كذبًا.
(٤) «من أسدين» أي هو والأسد.
(٥) الحسام: السيف.
(٦) المنايا: جمع منية وهي الموت.
(٧) الجائفة: الطعنة التي تخالط الجوف.
(٨) مشمخر: مرتفع.
(٩) رمت: أردت.
(١٠) الأزب: من الزبب (بالتحريك) وهو كثرة الشعر وطوله.
(١١) الزبرقان: سبع هندي أصغر من الفهد أحمر ذو زغب وعينين براقتين سريع الوثبة... (مروج الذهب ج ١ ـ ص ١٨٤).

من زجاج، ويُرْكَض بها على الخيول السوابق، فإن أدركهم أبوها رُمِيَ إليه بقارورة منها، فيشتغل بالنظر إليها والفكرة في إخراج جَرْوِه منها، فيَفُوتُه الآخذُ لها؛ وزعم قومٌ أنه إذا استَكلَب ورآه الأسد رقد له حتّى يبولَ في أذنه خوفًا منه ورهبةً له؛ هكذا نَقَلَ صاحبُ مباهج الفكر ومناهج العبر، ولم أقف على شعرٍ في وصف البَبْر ولا رسالةٍ فأُوردَها.

ذكر ما قيل في النَّمِر

والنَّمِر له أسماء، منها السَّبَنْدَى والسَّبَنْتَى، والطرحُ[١]: وَلَدُه، وجمعُه طُروح؛ والتلوة والخَتْعةُ: الأنثى.

وزعم أهلُ البحثِ عن طبائع الحيوان والاطّلاع على أسرارِه أنّ النَّمِرةَ لا تضع ولدَها إلّا وهو مطوَّقٌ بأفعى، وهي تنفث[٢] وتنهِش[٣] إلّا أنّها لا تَقتُل؛ وفي طبعِ النَّمِر وعادتِه أنّه يشبع لثلاثة أيّام، ويقطعها بالنوم، ثم يخرج في اليوم الرابع، ومتى لم يَصِدْ لم يأكل، ولا يأكل من صيد غيرِه كالأسد، وينزّه نفسَه عن أكل الجِيَف ولو مات جوعًا؛ وهو لا يأكل لحومَ الناس إلّا للتداوي من داءٍ يصيبُه؛ وفيه زَعارّةُ[٤] خُلق، وحِدّةُ نفْس، وتجهّم وجه، وشدّةُ غيظ، ولهذا يقال في الرجل إذا اشتدّ غضبُه وكثر غيظُه على عدوّه: «لَبِسَ له جِلْدَ النَّمِر»، أي تَخلَّق بأخلاقه؛ والنَّمِرُ بعيدُ الوثبة، وربّما وثب أربعين ذراعًا صُعودًا إلى مَجثَمِه الذي يأوِي إليه، وقد شوهد وهو يَثِبُ في اللّيل فيصير في داخلِ زَريبة الغنم فيأخذ الشاةَ فيحذفُها إلى خارج الزَّريبة، ثمّ يثبُ فيسبِقُها إلى الأرض، ويتناولُها من الهواء قبل أن تسقُطَ على الأرض؛ ومن خصائصه الغريبة أنّ المعضوض منه يطلبه الفأرُ حيث كان، ويقصده ليبول عليه، فإن ظَفِر به وبال عليه مات؛ والناس يحترِزون على من يجرحه النَّمِرُ غايةَ الاحتراز، والفأرُ يطلُب المجروحَ كلَّ الطلب، ومن أعجب ما سمعتُ أنّ إنسانًا جرحه النَّمِرُ فاحتَرَز على نفسه من الفأر، فرَكب في مَرْكَب، ووقف به في الماء وقد وَثِق بذلك، وظَنّ أنّ الفأر لا يصل إليه، فاتّفق لنفوذ القضاء المقدَّر الذي لا حيلةَ في دفعِه أنّ حِدَأَة اختَطَفتْ فأرًا من الأرض، وطارت فحاذت المجروح فلمّا سامَتَه الفأرُ بال عليه فمات. وقد وُجد

---

(١) كذا ورد لفظ «الطرح» ولم نجد معنى لهذه الكلمة فيما لدينا من كتب اللغة.

(٢) في الأصل «تعيش» والصواب كما أثبتنا.

(٣) تنهش: من النهش، وهو تناول الشيء بالفم ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه.

(٤) الزعارّة: بتشديد الراء وتخفيفها: الشراسة وسوء الخلق.

في بعض الكتب القديمة: أنّ النَّمِر إذا عضّ إنسانًا أُخِذَ زهرُ السُّمّاقِ[١] ودُلِكَ به الجُرح، فإنَّ الفأرَ لا يقاربُه، ويكون في ذلك شفاؤه؛ وأخبرني من عاين ذلك عند التَّجْرِبة؛ والنَّمِرُ يحبّ شربَ الخمر، وبها يصاد، فإنه إذا سَكِر نام؛ وزعموا أنّه يتولّد بينه وبين اللّبُؤة سبُعٌ يسمَّى الذراع[٢] على قَدْرِ الذئب العظيم، كثير الجراءة، لا يأوي معه شيءٌ من السباع والوحوش.

ووَصَفَ كُشاجِم[٣] النَّمِر من طَرَديّة[٤] فقال: [من الرجز]

وكالحِ كالمُغْضَبِ المَهيجِ ... جَهْمِ المُحيّا ظاهِرِ النَّشيجِ[٥]

يَكشِرُ عن مِثلِ مُدَى العُلوجِ ... أو كشَبَا أسنَّةِ الوَشِيجِ[٦]

مدبَّجِ الجِلْدِ بلا تدبيجِ ... كأنّه من نَمَطٍ منسوجِ[٧]

تريك فيه لُمَعُ التدريجِ ... كواكبًا لم تكُ في بروجِ

ولم أقِفْ في وصف النَّمِرِ على غير ذلك فأذكره.

الباب الثاني
من القسم الأوّل من الفنّ الثالث
فيما قيل في الفهد والكلب والذئب والضَّبُع والنِّمْس

ذكر ما قيل في الفهد

يقال للذَّكَر: الفَهْد، وللأنثى: فَهْدة «وهما البَنَّة، ولذلك يُكنَّى أبابَنَّة»[٨]، وجِرْوُه الهَوْبَر، والأنثى هُبَيْرة[٩]؛ قال أرِسْطو: إنّ الفَهْدَ متولِّدٌ بين أسدٍ ونَمرة، أو

(١) السُّماق: بتشديد الميم: من شجر القفاف والجبال، وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار يطبخ. وهو شديد الحمرة. وينبت بأرض الشام كما قال أبو حنيفة.
(٢) كذا بالأصل والصواب «النارع» بالألف قبل الراء وهو الكلب.
(٣) كشاجم: هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهين، أبو الفتح الرملي، شاعرٌ فنان أديب من شعراء سيف الدولة الحمداني مات سنة ٣٦٠ هـ. (الأعلام ٧/ ١٦٧).
(٤) الطرديّة: أي أرجوزة طردية، نسبة إلى الطرد (بالتحريك) وهو مزاولة الصيد.
(٥) النشيج: هو ترديد الصوت في الصدر دون إخراجه.
(٦) العلوج: كفار العجم. (٧) النمط: ضرب من البسط.
(٨) المراد أن الذكر والأنثى من الفهود يطلق على كل منهما لفظ «البنّة» ولم نجد «البنّة» ولا «أبا بنّة» بهذا المعنى فيما لدينا من كتب اللغة الجامعة، كاللسان والتاج والصحاح والمخصص وغيرها.
(٩) لم نجد الهبيرة بهذا المعنى المذكور هنا في كتب اللغة الجامعة الأخرى التي بين أيدينا. والذي=

لَبُؤةٍ ونَمِرٍ؛ ويقال: إنّ الفَهْدةَ إذا حَمَلتْ وثَقُلَ حَمْلُها حَنا عليها كلُّ ذَكَرٍ يراها من الفهود، ويواسيها من صيدِه، فإذا أرادت الولادةَ هَرَبتْ إلى موضعٍ قد أعدّته لنفسِها، حتى إذا علّمت أولادَها الصيدَ تركتْها؛ وبالفَهْد يُضرَب المثلُ في شدّة النوم؛ قال بعضُ الشعراء: [من خفيف]

رَقدتْ مقلتي وقلبيَ يَقْظَا نُ يُحِسّ الأمورَ حِسًّا شديدا
يُحْمَد النّومُ في الجواد كمالاً يَمنع الفَهْدَ نومُه أن يَصيدا

وقال الجاحظ: قال صاحبُ[1] المنطق: والفَهْد إذا اعتراه الداء الّذي يقال له: (خانقةِ الفهود) أَكَل العَذِرةَ فبَرأ منه؛ قال: والسباعُ تَشتهِي رائحةَ الفهود، والفَهْد يتغيّب عنها، وربّما قَرُب بعضُها من بعضٍ فيُطمِع الفَهْدَ في نفسه، فإذا أراده الفَهْد وَثَب عليه السبُعُ فأكَلَه؛ قالوا: وليس شيء في الحيوان في جِرْم الفَهْد إلّا والفَهْدُ أثقَلُ منه وأحطَمُ لظهر الدابّة؛ والإناثُ أصعبُ خُلقًا وأكثرُ جراءةً وإقدامًا من الذكور؛ ومن خُلُقِ الفهد الحياء، وذلك أنّ الرجلَ يمرّ بِيَدِه على سائر جسدِه فَيسكُن لذلك، فإذا وصلتْ يدُه إلى مكان الثَّفر[2] قَلِقَ حينئذٍ وغضب؛ ويقال: أوّلُ من صاد بالفهد كُلَيْبُ وائلَ، وقيل: هَمَّامُ بنُ مُرّةَ، وكان صاحبَ لهوٍ وطرب؛ وأوّلُ من حمله على الخيل يزيدُ بنُ معاويةَ بنِ أبي سفيان، وأكثرُ من اشتهَرَ باللّعب بها أبو مسلم الخُراسانيُّ صاحبُ الدّعوة العبّاسيّة، وأوّلُ من استسنّ حَلْقةَ الصيد المعتَضدُ بالله؛ والمواضعُ الّتي توجَد فيها الفهودُ ما يلي بلادَ الحِجاز إلى اليمن، وما يلي الحِجازَ إلى العراق، وما يلي بلادَ الهند إلى تُبَّت[3]، وتوجد أيضًا في بَرّيّة عَيْذاب من أعمال قُوصَ من الدّيار المصريّة.

وقد وَلِع الشعراء والفضلاء بوصف الفهود نظمًا ونثرًا؛ فمن ذلك قول أبي إسحٰقَ الصابي في رسالةٍ طَرَديةٍ[4] جاء منها: ومعنا فهودٌ أخطَفُ من البروق، وأسرَعُ

= وجدناه أن الهبيرة: الضبع مطلقًا، وقيل للضبع الصغيرة. ويقال لأنثى الضفادع: أم هبيرة، وللذكر: أبو هبيرة كما في تاج العروس ولسان العرب.

(١) يريد بصاحب المنطق: أرسطوطاليس.

(٢) الثفر، (بفتح الثاء وضمها) للسباع ولذوات المخالب: كالحياء للناقة.

(٣) تبت: بلد بأرض الترك.. وقيل: تبت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند، ومن جهة المشرق لأرض الهياطلة، ومن جهة المغرب لأرض الترك.

(٤) طردية: أي صيدية، نسبة إلى الطرد (بالتحريك) وهو مزاولة الصيد.

من السهم حين المُروق؛ وأثقَفُ[١] من اللُّيوث، وأجرَى من الغُيوث؛ وأمكَرُ من الثعالب وأدَبُّ من العقارب؛ خُمْصُ الخصور قُبُّ البطون[٢]، رُقْشُ المتون[٣]؛ حمرُ الآماق خُزْر[٤] الأحداق، هُرْتُ[٥] الأشداق؛ عِراضُ الجِباهِ غُلْبُ الرِّقاب[٦]، كاشرةٌ عن أنيابٍ كالحِراب؛ تَلحَظ الظِّباءَ مِن أبعد غاياتِها، وتعرف حِسَّها من أقصى نهاياتِها؛ تَتبَع مَرابِضَها وآثارَها، وتَشُمّ روائحَها وأنشارها.

ومن رسالة طَرَديّةٍ لضياء الدِّين نصرِ الله بنِ الأثير الجَزريّ يصف فَهْدًا بعد أنْ ذَكَر ظَبْيًا، قال: فأرسلنا عليه فَهْدًا سَلِسَ الضَّريبة[٧]، ميمونَ النقيبة، منتسبًا إلى نجيبٍ من الفهود ونجيبه؛ كأنما ينظر من جمره، ويسمع من صخره، ويطأ من كلّ بُرتنٍ على شَفْره؛ وله إهابٌ قد جُبِل[٨] من ضدّين: بياضٍ وسواد، وصُوِّر على أشكال العيون فتطلَّعتْ إلى انتزاعِ الأرواح من الأجساد؛ وهو يَبلغ المَدَى الأقصى في أدنى وثَباتِه، ويَسبِق الفريسةَ ولاَ يقبِضها إلّا عند التفاتِه.

وقال أحمدُ بنُ زِياد بنِ أبي كَريمةَ يصفُها بعد أن وصف الكلبَ من أبيات[٩]:
[من الطويل]

بذلك أبغي الصيدَ طورًا وتارةً ... بمُخْطَفةِ الأكفال رُحْبِ التَّرائبِ[١٠]
مرقّقةِ الأذنابِ نُمَر ظهورها ... مخطّطةِ الآذان غُلْبِ الغواربِ[١١]
مدنَّرةٍ وُرْقٍ كأنّ عيونَها ... حواجلُ تستوعِي متونَ الرَّواكبِ[١٢]

---

(١) يريد بقوله: «أثقف» أي أنها أشد إدراكًا وأخذًا للصيد من الليوث.
(٢) «قبّ البطون»؛ أي ضوامرها.
(٣) «رقش المتون»: أي أن في متونها نقط سواد وبياض، واحده أرقش.
(٤) الخُزْرُ: بضم فسكون: جمع أخزر، من الخَزَر بالتحريك، وقد اختلف اللغويون في معناه: فقيل: هو النظر الذي كأنه في أحد الشقين؛ وقيل: هو إقبال الحدقتين إلى الأنف؛ وقيل: هو النظر كأنه يكون بمؤخر العين؛ والمعنى يستقيم على كل من هذه التفسيرات.
(٥) «هُرْت الأشداق»، أي واسعتها، الواحد أهرت.
(٦) «غُلْب الرقاب»، أي غليظتها.
(٧) الضَّريبة: الطبيعة والسجية.
(٨) جُبل: أي خُلق.
(٩) وردت هذه الأبيات في كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٢ ص ١٣٤).
(١٠) مخطفة الأكفال: أي أنها ضامرة الأعجاز صغيرتها.
(١١) «نمر ظهورها» أي أن في ظهورها نُمَر - بضم ففتح - أي نكت بيضاء وسوداء وغلب الغوارب: أي غليظة الأعناق عظيمتها.
(١٢) المدنرة: التي في لونها سواد تخالطه شهبة. وقال أبو عبيدة: المدنر: الذي فيه نكت فوق=

إذا قلّبتها في الحِجَاجِ حَسِبْتَها ... سَنَا ضَرَمٍ في ظلمة الليلِ ثاقبِ[١]
مولَّعة فُطْس الأنوف عوابس ... تخال على أشداقِها خطّ كاتبِ[٢]
نواصب للآذان حتّى كأنّها ... مَداهنُ، للإجراس من كلِّ جانبِ[٣]
ذوات أَشافٍ رُكِّبَتْ في أكُفِّها ... نوافذَ في صُمّ الصخور نواشبِ[٤]
ذِرابٍ بلا ترهيف قَيْنٍ كأنّها ... تَعقرُبُ أصداغِ الملاحِ الكَواعبِ[٥]
فوارس ما لم تَلْقَ حربًا، ورِجْلة ... إذا آنستْ بالبِيدِ شُهْبَ الكتائبِ[٦]
تَروٌ وتَسكينٌ يكون دَريئةً ... لهنّ «بذي الأسراب» في كلِّ لاحبِ[٧]
تَضاءلُ حتّى ما تكاد تُبينُها ... عيونٌ لدى الضَّبْرات غيرُ كواذبِ[٨]
حِراص يَفوت البرقَ أمكَثُ جَرْيِها ... ضِراء مِتلّات بطول التّجارِبِ[٩]
تُوسِّدُ أجيادَ الفرائِس أذرعًا ... مرمَّلةً تَحكِي عناقَ الحبائبِ[١٠]

وقال ابنُ المعتزّ: [من المتقارب]

ولا صيدَ إلّا بوثّابةٍ ... تطير على أربعٍ كالعَذَبْ[١١]

= البرش. الورق: جمع أورق، وهو الذي في لونه سواد وبياض كدخان الرمث. الحواجل: القوارير الواسعة الرؤوس. تستوعي: أي تستوعب.

(١) الحجاج: بكسر الحاء وفتحها: العظم المستدير حول العين.

(٢) المولعة: من التوليع، وهو التلميع من البرص وغيره. الفَطْس: جمع أفطس، من الفَطَس ـ بفتحتين ـ وهو انفراش الأنف في الوجه.

(٣) الإجراس: استماع الصوت. يقال: أجرسني السبع، أي سمع صوتي والمعنى أن هذه الفهود ناصبة أذانها لأجل الأجراس.

(٤) الأشافي: جمع إشْفَى «بكسر الهمزة وفتح الفاء» وهي مثقب الإسكاف ومخيطه، استعارها لبراثن الفهود.

(٥) القين: الحداد.

(٦) الرّجلة: بفتح الراء وكسرها: الشاة ـ وشهب الكتائب: يراد بها أسراب الوحش التي تتصيدها الفهود من البيداء لأن في لونها شهبة.

(٧) اللاحب: الطريق الواضح.

(٨) الضبرات: الوثبات. يقال: «ضبر الفرس ضبرًا». إذا جمع قوائمه ووثب.

(٩) الضّراء: المعتادة الصيد. المتلات: الغالبات.

(١٠) المرمّلة: الملطخة بالدم.

(١١) العَذَب: الخيوط التي ترفع بها الموازين، واحدها عذبة. شبه بها أرجل الفهدة في الدقة والنحول.

مـلـمّـعـةٍ مـن نِـتـاجِ الـرّيـاح تُريكَ على الأرض شيئًا عجبْ(١)
تـضـمّ الـطـريـدَ إلى نـحـرِهـا كـضـمّ الـمُـحِـبّـةِ مَـنْ لا يُـحِـبْ
إذا مـا رأى عَـدْوَهـا خـلـفَـه تـنـاجـت ضـمـائـرُه بـالـعَـطَـبْ
لـهـا مجلسٌ في مكـان الرَّديف كـتـركـيّـةٍ قـد سَـبَـتْـهـا الـعـربْ
ومُـقْـلَـتُـهـا سـائـلٌ كُـحْـلُـهـا وقـد حُـلِّـيَـتْ سُـبَـحًـا مـن ذهـبْ
مـتـى أُطـلـقـتْ مـن قـلاداتـهـا وطـار الـغـبـارُ وجـدّ الـطـلـبْ
غـدتْ وهـي واثـقـةٌ أنّـهـا تـقـوم بـزاد الـخـمـيـس الـلَّـجِـبْ

وقال محمدُ بن أحمدَ السَّرّاجُ يصفه: [من البسيط]

وأَهْرَتِ الشِّدْق في فيه وفي يدِه ما في الصوارمِ والخَطّيّةِ الذُّبُلِ(٢)
تساهَمَ اللّيلِ فيه والنهارُ معًا فَقَمّصاه بجلبابٍ من المُقَلِ(٣)
والشمسُ مذ لقبوها بالغزالة لم تَـطـلُعْ لـنـاظـرِه إلّا عـلى وَجَـلِ

وقال آخر: [من البسيط]

وأَهْرَتِ الشِّدْقِ بادي السُّخط مطَّرِحِ الـ حياء جَهْمِ المحيّا سيىءِ الخُلُق
والشمسُ مذ لقبوها بالغزالة أَعْـ طَتْهُ الرِّشاءَ جَدًّا من ثوبها اليَقَقِ(٤)
ونَـقَّـطَـتْـه حِـبـاءَ كـي يـسـالـمـهـا على المنايا نِعاجُ الرَّمْلِ بالحَدَقِ(٥)

وقال آخر: [من البسيط]

تَـغـايَـرَ الـلّـيـلُ فـيـه والـنـهـارُ مـعًـا فـحـلّـيـاه بـجـلـبـابٍ مـن الـحَـدَقِ
والشمسُ مذ لقبوها بالغزالة لم تَطلُعْ على وجهه من شدّة الحنقِ

ذكر ما قيل في الكلاب

يقال: إن بين الكلب والضّبُع عداوةً شديدة، وذلك أنه إذا كان في مكانٍ مرتفعٍ ووَطئت الضّبعةُ ظِلّه في القمر رمى نفسَه إليها مخذولًا فأكلتْه؛ ويقال: إنّ

(١) ملمعة: أي ذات لمع من ألوان مختلفة.
(٢) الأهرت: الواسع ـ الصوارم: السيوف ـ الحظية: أي الرماح الحظية نسبة إلى الحظ، وهو موضع في البحرين.
(٣) قمصه: أي ألبسه القميص.
(٤) اليقق: الشديد البياض.
(٥) الحباء: العطاء ـ يسالمها على المنايا: أي على ألّا يرفع بها المنايا.

الإنسان متى حَمَل لسانَ ضبُع لم يَنبحْ عليه كلب؛ ومتى دُهِن كلبٌ بشحمها جُنّ؛ وفي طبع الكلب أنه يحمِي ربَّه، ويَحمِي حريمَه شاهدًا وغائبًا، ونائمًا ويقظانَ؛ والكلبُ أيقظُ الحيوان عينًا في وقت حاجته[1] إلى النوم، وأنومُها نهارًا عند استغنائهم عن حِراسته؛ ومن عجيب أمره أنه يكرِم الجِلّةَ من الناس وأهلَ الوجاهة؛ فلا يَنبح على أحد منهم، وربّما حاد عن طريقهم ويَنبح على الأسْوَد والوَسِخ الثوب والزَّريّ الحال والصغير.

وأمّا ما في الكلب من المنافع الطبّية ـ فقد قال الشيخُ الرئيسُ أبو عليٍّ بنُ سينا: إنّ بول الكلب يُستعمل على الثآليل[2]، ودمَ الكلب لنُهوشِه[3] ولسَمِّ السهام الأَرْمَنِيّة[4]؛ وقال إبراهيمُ بنُ هَرْمة[5] ـ رحمة الله تعالى عليه ـ: [من المنسرح]

أُوصِيكَ خيرًا به فإنّ له ... سجيّةً لا أزال أحمَدُها
يَدُلّ ضيفي عليّ في غَسَقِ الـ ... ـليلُ إذا النارُ نام مُوقِدُها

وقال أيضًا: [من الطويل]

يكاد إذا ما أبصر الضيْفَ مقبلًا ... يكلّمه من حبّه وهو أعجَمُ

فصل

قال أبو عثمانَ عمرو بنُ بحر الجاحظُ في كتاب الحيوان: وزعموا أنّ ولد الذئب من الكلبة يقال له: الدَّيْسَم، ورُويَ لبشّار بن بُرد في دَيْسَم العَنَزيّ أنه قال: [من الطويل]

أدَيْسَمُ، يا ابن الذئبِ من نسل زارعٍ ... أتَروِي هجائي سادرًا غيرَ مقصِرِ؟

قال: وزارع، اسمُ الكلب، يقال للكلاب: أولاد زارع؛ قال: وزعم صاحب المنطق[6] أنّ أصنافًا أُخَرَ من السباع المتزاوجاتِ المتلاقحاتِ مع اختلاف الجنس

---

(١) حاجته: أي حاجة ربه، كما يتضح ذلك من السياق.
(٢) الثآليل: جمع ثؤلول، وهو بثر، أي خراج. وهو بأشكال متعددة ومختلفة.
(٣) نهوشه: أي عضاته.
(٤) الأرمنية: نسبة إلى أرمينيا، وهي بلاد معروفة، وهذه النسبة على خلاف القياس وكان القياس «الأرمينية».
(٥) هو إبراهيم بن علي الكناني القرشي أبو إسحٰق، شاعر غزل، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بأشعارهم، من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية. (الأعلام ١/ ٥٠).
(٦) صاحب المنطق: هو أرسطوطاليس.

والصورة معروفةُ النّتاج مثل الذئاب التي تَسفِد الكلابَ في أرضِ رُومِية؛ قال: وتتولّد أيضًا كلابٌ سَلُوقِيّةٌ بين ثعالبَ وكلاب؛ قال: وبين الحيوان الذي يسمّى باليونانيّة «طاغريس» والكلبِ تحدث هذه الكلاب الهنديّة؛ قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى؛ هذا ما حكاه الجاحظ عن صاحب المنطق. وحكَى الجاحظ عن بعض البصريّين عن بعض أصحابه، قال: وزعموا أنّ النّتاج الأوّلَ يخرج صعبًا وحشيًّا لا يلقَّن ولا يؤلَّف؛ وزعم لي بعضُهم عن رجلٍ من أهل الكوفة من بني تميم أنّ الكلبةَ تَعرِض لهذا السبع حتى تَلْقَح، ثم تَعرِض لمثله مرارًا حتى يكون جِرْوُ البطن الثالث قليلَ الصعوبة يَقبَل التلقين، وأنّهم يأخذون إناثَ الكلاب ويربطونها في تلك البراريّ، فتجيء هذه السباع فتَسفِدها، قال: وليس في الأرض أنثى يُجتَمَع على حبّ سِفادِها، ولا ذَكَرٌ يَجتمِع له من النّزاع[١] إلى سِفاد الأجناس المختلفة أكثر في ذلك من الكلب والكلبة؛ وقال: إذا ربطوا هذه الكلابَ الإناثَ في تلك البراريّ، فإن كانت هذه السباع هائجة سَفِدَتْها، وإن لم تكن السباع هائجةً فالكلبةُ مأكولة؛ قال الجاحظ: ولو تمّ للكلب معنى السَّبُع وطباعُه ما أَلِف الإنسانَ واستَوحَشَ[٢] من السَّبُع، وكَرِه الغِياض، وأَلِف الدُّورَ، واستَوحَشَ من البراريّ وجانَبَ القفار، وأَلِف المجالسَ والدّيار؛ ولو تمّ له معنى البهيميّة في الطبع والخُلق والغذاء ما أكل الحيوانَ، وكَلِب[٣] على الناس، نَعَمْ حتّى ربّما وثب على صاحبِه؛ وذَكَرَ من معايب الكلب وذمِّه، فقال: إنّه حارسٌ محترَسٌ منه، ومؤنِسٌ شديدُ الإيحاش من نفسِه، وأليفٌ كثيرُ الجناية على إلفِه، وإنما قَبِلوه حين قَبِلوه على أن ينذرهم بموضع السارق، وتركوا طَرْدَه لينبِّههم على مكان المبيت[٤]، وهو أسرَقُ من كلّ سارق، وأَدْوَمُ جنايةً من ذلك المبيِّت، فهو سرّاقٌ وصاحبُ بيَات، وأكّالٌ للحوم الناس إلّا أنّه يَجمَع سرقةَ الليلِ مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبدًا يمشي في خزانةٍ[٥] أو مَطبخٍ أو في عَرْصةِ دارٍ أو في طريقٍ أو براريّ، أو على ظهرِ جبلٍ أو في بطن وادٍ إلّا وخَطْمه[٦] أبدًا في الأرض يشمّم

(١) النزاع: الاشتياق، كالنزوع.
(٢) «واستوحش» الخ: أي وما استوحش، فالنفي السابق مسلط على هذا الفعل وما بعده من الأفعال أيضًا، كما لا يخفى وبهذا يستقيم الكلام.
(٣) «وكلب» أي وما كلب، فالنفي السابق مسلط عليه.
(٤) المبيت: المغير على القوم الموقع بهم ليلًا.
(٥) يريد بالخزانة: حجرة في البيت يخزن فيها الطعام ونحوه.
(٦) الخَطْمُ: مقدم الأنف والفم.

ويَستروِح؛ وإن كانت الأرضُ بيضاءَ خَصّاء[١]، أو دَوِّيّة[٢] مَلساء، أو صخرةً خَلْقاء[٣]، حِرْصًا وجَشَعًا، وشرَهًا وطمعًا، نَعَمْ حتّى تجده أيضًا لا يرى كلبًا إلّا شمّ استَه، ولا يَشَمّ غيرَها منه، ولا تراه يُرمَى بحَجَرٍ أبدًا إلّا رجع إليه فعَضّ عليه، لأنه لمّا كان لا يكاد يأكل إلّا شيئًا رَموا به إليه صار يَنسَى لفَرْطِ شَرَهِه وغلبةِ الجَشَعِ على طبعِه أنّ الراميَ إنّما أراد عقرَه أو قتْلَه، فيَظنّ لذلك أنه إنّما أراد إطعامَه والإحسانَ إليه، كذلك يخيِّل إليه فرطُ النَّهَم، وتُوهِمُه غلبةُ الشَّرَه، ولكنّه رَمَى بنفسه على الناس عجزًا ولؤمًا، وفُسُولة[٤] ونقصًا، وخاف السباع واستَوحَش من الصّحارِي؛ وسمعوا بعضَ المفسّرين يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: الآيتان ٢٤، ٢٥]: إنّ المحرومَ هو الكلب؛ وسمعوا في المثل: «اصنع المعروف ولو إلى كلب»، فلذلك عَطفوا عليه، واتّخذوه في الدُّور، على أنّ ذلك لا يكون إلّا من سَفِلتهم وأغبيائهم، ومن قلّ تَقَزُّزه[٥]، وكثر جهلُه، وردَّ الآثار إمّا جهلًا وإمّا معانَدة؛ ووَصَف في ذمّه ومعايبِه ما ذكره صاحبُ الدّيك من ذمّ الكلاب، وتَعدادِ أصناف معايبِها ومثالبِها، مِن لؤمِها وخبثِها وضعفِها وشَرَهِها وغَدرِها وبَذائِها وجهلِها وتَسرُّعِها ونَتْنِها وقذَرِها، وما جاء في الآثار من النَّهي عن اتّخاذِها وإمساكِها، ومن الأمر بقتلِها وإطرادِها[٦]، ومن كثرة جناياتها وقلّةِ وُدِّها، وضرْبِ المثلِ بلؤمِها ونَذالتِها وقبحِها وسماجةِ نُباحِها وكثرةِ أذاها وتَقَذُّرِ المسلمين من دنوِّها، وأنّها تأكل لحومَ الناس، وأنّها مطايا الجنّ، ونوعٌ من المَسْخ، وأنّها تنبُش القبور، وتأكل الموتى، وأنّها يعتريها الكَلَبُ من أكلِ لحوم الناس، إلى غير ذلك من مَساويها، ثم ذَكَرَ قولَ من عدّد محاسنَها وصنّفَ مناقبَها وأَخَذ في ذكرِ أسمائها وأنسابِها وأعراقِها وتَفْدِيةِ الرجالِ لها، وذِكرِ كسبِها وحِراستِها ووفائها وإِلْفِها وجميعِ منافعِها، والمرافقِ الّتي فيها، وما أُودعتْ من المعرفة الصحيحة والفِطْنةِ العجيبة، والحِسّ اللّطيف، والأدبِ المحمود، وصدقِ الاسترواح، وجَودةِ الشَّمّ، وذِكرِ حفظِها

---

(١) الخَصّاء: الجرداء التي لا نبات فيها.
(٢) الدّويّة: الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف.
(٣) الخلقاء من الصخور: المصمتة الملساء التي لا يؤثر فيها شيء.
(٤) الفسولة: النذالة والخسة.
(٥) التقزز: التباعد من الدنس، وتقزّز من الشيء: كرهه وتباعد عنه.
(٦) إطرادها: أي جعلها طريدة.

وإتقانِها واهتدائها، وإثباتِها لصُوَرِ أربابِها وجيرانِها، ومعرفتِها بحقوق الكرام، وإهانتِها اللّئام، وصبرِها على الجفاء، واحتمالِها للجوع، وشدّة مُنَّتِها[1] وكثرةِ يَقَظتها، وعدمِ غفلتِها، وبُعدِ أصواتِها، وكثرةِ نسلِها، وسرعةِ قبولِها ولَقاحِها مع اختلاف طبائعِ ذُكورتها والذُّكورةِ[2] من غير جنسِها، وكثرة أعمامِها وأخوالها وتَردُّدِها في أصناف السّباع، وسلامتِها من أعراق البهائم، وغيرِ ذلك من محاسنها؛ وأَوْرَدَ ذلك بألفاظٍ طويلة، وأدلّةٍ كثيرة، واستطراداتٍ يطول الشرحُ في ذكرِها فأضربنا عن ذلك رغبةً في الاختصار؛ فلنذكرْ ما يحتاج الكاتبُ إلى الاطّلاع عليه ويَدُور في ألفاظ الكتّاب من وصفِ كلاب الصّيد، الّتي لا بدّ للكاتب من معرفة جيّدِها وأفعالها، ليضمِّنَه ما يَصدُر عنه من الرسائل الطَّرَديّة، فنقول: دلائلُ النّجابة والفَراهة[3] فيها تُعرَف من خِلقتِها وألوانِها ومولِدها.

أمّا في الخِلقة ـ فقد قالوا: طولُ ما بين اليدين والرجلين، وقِصَرُ الظّهر وصِغَرُ الرأس، وطولُ العنق، وغَضَفُ[4] الأذنين، وبعدُ ما بينهما، وزرقةُ العينين ونتوءُ الجبهة وعِرَضُها، وقِصَرُ اليدين.

وأمّا في الألوان، فإنه يقال: السُّودُ أقلُّ صبرًا على الحرّ والبرد، والبيضُ أَفْرَهُ[5] إذا كنّ سودَ العيون؛ وقد قال قوم: إنّ السّودَ أصبرُ على البرد وأقوى.

وأمّا في ولادتها ـ فإنه يقال: إذا ولدت الكلبة جَرْوًا واحدًا كان أفرَهَ من أبويه، وإن ولدتْ ذكرًا وأنثى كان الذكرُ أفرَهَ، وإن ولدتْ ثلاثةً فيها أنثى شِبْهُ الأمّ كانت أَفْرَهَ الثلاثة، وإن كان في الثلاثة ذكرٌ واحدٌ فهو أَفْرَه.

ذكر شيء ممّا وصفت به كلاب الصيد نثرًا ونظمًا

قال أبو إسحٰقَ الصّابي[6] يصفها من رسالة طَرَديّة: ومعنا كلُّ كلبٍ عريقِ المناسب، نَجيحِ المَكاسب؛ حلو الشمائل، نجيبِ المخايلِ؛ حديدِ الناظرَيْن، أَغْضَفِ

(1) المنّة (بالضم): القوة.
(2) الذكورة: جمع ذكر بالتحريك، كالذكور.
(3) الفراهة: النشاط والخفة والحذق.
(4) الغضف: (بفتح أوله وثانيه): استرخاء في الأذن على محارتِها من سعتها وطولها.
(5) أفره: أي أنشط وأخف وأحذق.
(6) أبو إسحٰق الصابىء: هو إبراهيم بن هلال الحرّاني، نابغة كتاب جيلة، كان على دين الصابئة، له ديوان شعر مات سنة ٣٨٤ هـ. (الأعلام ١/ ٧٨).

الأذنين، أسيلِ الخدّين، مُخْطَفِ[1] الجنبين؛ عريض الزَّوْر[2]، متينِ الظّهر؛ أبيٍّ النفس، مُلهِبِ الشدّ؛ لا يَمسّ الأرضَ إلّا تحليلًا[3] وإيماء، ولا يطؤها إلّا إشارة وإيحاء.

وقال بعض الشعراء: [من الرجز]

أَبْعَثُ كلبًا يكسِر اليَحْمُورا ... مجرَّبًا مدرَّبًا صبورا[4]
يأنف أن يشاكل الصُّقورا ... منفردًا بصيدِه مُغِيرا
ذا شِيَةٍ تحسبَها حريرًا ... قد حُبّرتْ نقوشُها تحبيرا
إذا جرى حَسِبْتَه المقدورا ... يكاد للسرعة أن يطيرا
حَتْفًا لما عَنّ له مُبِيرًا ... أَعجزُ أن أرى له نظيرا[5]

وقال أبو نُواس: [من الرجز]

هِجْنا بكلبٍ طالما هِجْنا به ... يَنتسِف المِقْوَدَ مِن جِذابِه[6]
كأنّ متنيه لدى انسلابه ... مَتْنَا شُجاعٍ لَجّ في انسيابِه[7]
كأنّما الأُظفورُ في قِنابِه ... موسَى صَناعٍ رُدَّ في نِصابِه[8]
تَراه في الحُضْر إذا هاهى بِه ... يكاد أن يخرُجَ من إهابِه[9]
تَرى سَوامَ الوحش إذ تُحْوَى به ... يَرُحْن أَسْرَى ظُفْرِه ونابِه

وقال أيضًا: [من الرجز]

كأنّ لَحيَيه لدى افترارِه ... شَكُّ مساميرِ على طَوارِه[10]

---

(١) مخطف الجنبين: أي ضامرهما.
(٢) الزَّوْر: بفتح الزاي وسكون الواو: الصدر. أو هو: وسطه.
(٣) «إلّا تحليلًا»: أي إلّا مسًا خفيفًا لا مبالغة فيه، وذلك لسرعته وخفته.
(٤) اليحمور: حمار الوحش. (٥) المبير: المهلك.
(٦) من جذابه: أي بسبب مجاذبته المقود.
(٧) الانسلاب: الإسراع في السير جدًا. والشجاع: الحية، وقيل الذكر منها.
(٨) القناب: الغطاء الذي يستر به مخلبه من كفه. (اللسان). والنصاب الموسى: مقبضه الذي نصب فيه.
(٩) الحضر: شدة الجري ـ وهاهى به: أي زجره.
(١٠) اللَّحيان: حائطا الفم، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم. الافترار: انكشاف الأسنان؛ والشك: النظم. على طواره: أي على طول فمه.

سِـمْـعٌ إذا استَـروَح لـم تُـمـارِه إلّا بـأن يُـطـلَقَ مـن عِـذارِه[١]
فانصاع كالكوكب في انحدارِه لَفْتَ المُشِير مُوهِنًا بنارِه[٢]
شَدًّا إذا أَخصَفَ في إحضارِه خَرّق أذنيه شَبا أظفارِه[٣]

وقال بعضُ الأندلسيّين[٤]: [من الطويل]

وأَغضَفَ تَلقَى أنفَه فكأنّما يقود به نورٌ من الصبح أنوَرُ[٥]
إذا أَلْهَبَتْهُ شهوةُ الصّيد طامعًا رأيتَ عقيمَ الرّيح عنه تقصِّرُ

وقال أبو إسحٰقَ إبراهيمُ بنُ خفاجة[٦]: [من الكامل]

ومُورَّس السربال يُخلَع قِدُّه عن نجمِ رَجْمٍ في سماء غبارِ[٧]
يستنّ في سَنَن الطريق وقد عفا قِدَمًا فيَقرأ أحرفَ الآثار
عَطَفَ الضُّمورُ سَراتَه فكأنّه والنَّقْعُ يحجُبه هلالُ سَرارِ[٨]
يَفترّ عن مثلِ النِّصال وإنّما يمشي على مثل القَنا الخطّار

وقال آخر: [من الكامل]

ومؤدَّب الإيساد يُمسِك صيدَه متوقِّفًا عن أكله كالصائمِ[٩]
صبٌّ إذا ما صاد عانَق صيْدَه طرَبَ المقيمِ إلى لقاء القادمِ[١٠]

---

(١) السِّمْع: بكسر السين؛ ولد الذئب من الضبع. وفي المثل: «أسمع من سمِع» وهذا الحيوان أخبث الحيوانات وأسرعها. ـ استروح: أي تشم رائحة الصيد.

(٢) انصاع: أي ذهب مسرعًا. ـ الموهن لمحسن: وهو نحو نصف الليل.

(٣) أخصف: أي اشتد في عدوه وأسرع. (اللسان).

(٤) هو ابن هذيل الأندلسي.

(٥) الأغضف: من الغضف (بالتحريك) وهو استرخاء أعلى الأذن على المحارة من اتساعها وعظمها، وهو محمود في الكلاب.

(٦) ابن خفاجة: هو إبراهيم بن أبي الفتح الهواري الأندلسي، شاعر غزل، من الكتاب البلغاء غلب على شعره وصف الرّياض ومناظر الطبيعة مات سنة ٥٣٣ هـ. (الأعلام ١/ ٥٧).

(٧) المورّس: المصبوغ بالورس، وهو صبغ أصفر مثل اللطخ، يخرج على الرمث بين آخر الصيف وأول الشتاء، إذا أصاب الثوب لونه؛ ـ القد: سير يقدّ من جلد.

(٨) السراة من كل شيء: أعلاه، والمراد هنا ظهره ـ السّرار: الليلة التي يستتر فيها القمر آخر الشهر، وربما كان ليلة، وربما كان ليلتين. (اللسان).

(٩) الإيساد: مصدر آسَدَ الصياد الكلب إذا أغراه بالصيد وأشلاه عليه فهو عند الإغراء يعرف كيف يقدم ويجحم ويختل ويمسك عن أكل الصيد، متوقفًا: نصب على الحال.

(١٠) الصب: الكثير الاشتياق، المحب.

وقال آخر: [من الطويل]

وما الظّبيُ منه في حُشاشة نفسِه ... ولكنّه كالطفل في حِجْر أمِّه[1]
يلازمه دون اخترامٍ كأنّما ... تَعلّقَ خَصْمٌ عند قاضٍ بخَصمِه[2]

وقال ابن المرغريّ النصرانيُّ الأندلسيُّ منشدًا: [من مخلع البسيط]

لم أر مَلهًى لذي اقتناصٍ ... ومَكْسَبًا مُقنِعَ الحَريصِ
كمِثلِ خَطْلاءَ ذاتِ جيدٍ ... أَتْلَعَ مصفرّةِ القميصِ[3]
كالقوس في شكلها ولكن ... تَنفُذ كالسهم للقَنيصِ
لو أنّها تستثير بَرْقًا ... لم يَجِدِ البرقُ من مَحيصِ
مَجْبُولة الظهر لم يَخُنْه ... لحوقُ بطنٍ به خميصِ[4]
إتّخذتْ أنفَها دليلًا ... قاد إلى الكانِس العَويصِ

[من الرجز]

وكلبةٍ تاهت على الكلابِ ... بجلدةٍ صفراءَ كالزِّريابِ[5]
تنساب مثلَ الحيّة المُنْسابِ ... كأنّها تنظر من شهابِ[6]

وقال أحمدُ بنُ زيادِ بنِ أبي كَريمةَ يصف كلبَ صَيْدٍ من قصيدة طويلة، أوّلُها: [من الطويل]

وغِبٍّ غمامٍ مَزَّقتْ عن سمائه
شآمِيةٌ حَصّاءُ جُونَ السحائبِ[7]

---

(١) الحشاشة: (بضم الحاء) بقية الروح في الجريح والمريض. يريد أن هذا الظبي ليس في آخر رمق من حياته من هذا الكلب حينما يتصيده، فلا يودي بحياته بل يبقى عليه ويرفق به، كما ترفق الأم بطفلها.

(٢) الاخترام: الإهلاك والاستئصال.

(٣) الخطلاء من الكلاب: المسترخية الأذن لسعتها وطولها. ـ الأتلع: الطويل.

(٤) المجبولة: يريد وصف ظهورها بالقوة والاجتماع. يقال «ذو رجل مجبول» أي مجتمع الخلق. (اللسان).

(٥) الزرياب: الذهب أو ماؤه، وهو معرب.

(٦) تذكير الوصف هنا لأن الحية لا تختص بالأنثى؛ وإنما تطلق على الذكر أيضًا.

(٧) شآمية حصاء: صفتان للريح؛ والمراد بها ريح الشمال؛ وتزعم العرب أنها هي التي تمزق السحاب ـ الحصاء من الرياح: الصافية بلا غبار. ـ الجون: الأسود المشرب حمرة.

مُـــواجِـــهِ طَـــلْقٍ لـــم يُـــردِّدْ جَـــهـــامَـــهُ
تَـــذاؤبُ أرواحِ الـــصَّـــبـــا والـــجـــنـــائـــبِ[١]
بَـــعـــثْـــتُ وأثـــوابُ الـــدُّجَـــى قـــد تـــقـــلّـــصـــتْ
بـــغـــرّة مـــشـــهـــورٍ مـــن الـــصـــبـــح ثـــاقـــبِ
وقـــد لاح نـــاعـــي الـــلـــيـــل حـــتَّـــى كـــأنّـــه
لِساري الـدجـى فـي الـفـجـر قـنـديـلُ راهـب
بَـــهـــا لـــيـــلَ لا يَـــثـــنـــيـــهُـــمُ عـــن عـــزيـــمـــةٍ
وإن كـــان جَـــمَّ الـــرُّشـــدِ لـــومُ الأقـــاربِ[٢]
لـــتـــجـــنـــيـــب غُـــضْـــفٍ كـــالـــقِـــداحِ لـــطـــيـــفـــةٍ
مـــشـــرَّطـــةٍ آذانُـــهـــا بـــالـــمَـــخـــالـــبِ[٣]
تَـــخـــال ســـيـــاطًـــا فـــي صَـــلاهـــا مـــنـــوطـــةً
طـــوال الـــهَـــوادي كـــالـــقـــداح الـــشـــوازِبِ[٤]
إذا افـــتَـــرشَـــتْ خَـــبْـــتًـــا أثـــارت بـــمـــتـــنـــه
عَـــجـــاجًـــا وبـــالـــكَـــذّانِ نـــارَ الـــحُـــبـــاحـــبِ[٥]
تـــفـــوت خُـــطـــاهـــا الـــطَّـــرْفَ ســـبـــقًـــا كـــأنّـــهـــا
ســـهـــامُ مُـــغـــالٍ أو رجـــومُ الـــكـــواكـــبِ[٦]

---

(١) مواجه طلق: صفة للغمام السابق ذكره في البيت الأول، أي أنّ هذا الغمام يواجه في سيره جوًا طلقًا، أي سهلًا لينًا لا حرّ فيه ولا برد ولا ريح ولا شيء يعوقه عن السير.
(٢) البهاليل: الأعزاء الكرماء.
(٣) الغضف: جمع الأغضف، وهو (من الكلاب) ما استرخى أعلى أذنه على المحارة من اتساعها وعظمها. ومشرطة آذانها: يريد وصف هذه الكلاب بالسرعة وشدة العدو هي أنها تقطع آذانها بمخالبها حين ترفع قوائمها في العدو.
(٤) الهوادي: الأعناق. الشوازب: الضوامر.
(٥) الخبت: المطمئن من الأرض فيه رمل، وقيل: هو سهل في الحرّة. الكذان: حجارة كأنها المدر ليست بصلبة. نار الحباحب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة، وقيل: الحباحب: (بضم الحاء): هو ذباب يطير بالليل كأنه نار، له شعاع كالسراج...
(٦) المغالي بالسهم: الرافع به يده يريد به أقصى الغاية.

طرادُ الهوادي لاحها كلَّ شتوة
بطامسة الأرجاء مَرْتِ المسارب(١)

تكاد من الأَحْراج تنسلّ كلّما
رأت شَبَحًا لولا اعتراض المناكب(٢)

تَسُوفُ وتُوفي كلَّ نَشْزٍ وفَدْفَدٍ
مَرابضَ أبناءِ النِّفاق الأرانبِ(٣)

كأنّ بها ذُعْرًا يُطير قلوبَها
أنينُ المَكاكِي أو صريرُ الجنادبِ(٤)

تُدير عيونًا رُكِّبتْ في بَراطِلٍ
كجمر الغَضَى خُزْرًا، ذِرابُ الأنايبِ(٥)

إذا ما استُحِثَّتْ لم يُجِنَّ طريدَها
لهنّ ضَراءٌ أو مَجارِي المَذانبِ(٦)

وإن باصَها صَلْتًا مدى الطَّرف أمسكتْ
عليه بدون الجُهْدِ سُبلَ المذاهبِ(٧)

---

(١) هوادي الوحش وهادياتها: أوائلها. لاحها: أي غيرها وأضمرها. المرت: القفر الذي لا نبات فيه.
(٢) الأحراج: قلائد الكلاب.
(٣) تسوف: أي تشم. وتوفي كل نشز: أي تأتي كل مرتفع من الأرض وتشرف عليه. الفدفد: الفلاة التي لا شيء بها. مرابض: (بالنصب): مفعول لقوله «تسوف». أبناء النفاق: أي الأرانب لأنها تنافق أي تدخل النافقاء؛ والنافقاء: الجحر الذي تستر فيه.
(٤) المكاكي: جمع مكاء، وهو طائر في ضرب القبرة، إلّا أن في جناحيه بلقًا. سمي بذلك لأنه يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيرًا حسنًا.
(٥) البراطلُ: حجارة مستطيلة صلبة تنقر بها الأرجاء. واحدها برطيل، بكسر الباء وقد شبه العظم المستدير حول العين الذي ينبت عليه الحاجب بهذه الحجارة في الصلابة. الخزر: من الخزر (بالتحريك) وهو النظر كأنه في أحد الشقين، وقيل: هو ضيق العين وصغرها. ذراب الأنابيب: أي حداد الأنياب، والأنايب: جمع: نياب وهو جمع جمع.
(٦) لم يُجِنَّ: أي لم يستر. الضَّراء: (بفتح الضاد): الشجر الملتف في الوادي الذي يستتر فيه الصياد. المذانب: مسايل الماء.
(٧) باصها: أي فاتها وسبقها. الصلت: الركض.

تكاد تُفرّي الأُهُبَ عنها إذا انتحتْ
لِنَبْأةِ شَخْتِ الجِرْم عارِي الرواجبِ(١)

كأنّ غصونَ الخَيْزُران متونُها
إذا هي جالت في طِراد الثَّعالبِ

كواشر عن أنيابهنّ كوالح
مذلَّقة الآذان شُوس الحواجبِ(٢)

كأنّ بنات القفر حين تفرّقتْ
غَدَوْنَ عليها بالمنايا الشواعبِ(٣)

ذكر ما قيل في الذئب

والذئب له أسماءٌ نطقت بها العرب، ذَكَرُه ذئب، والأنثى ذئبة وسِلْقة وسِيدانة(٤)، ويُكنّى أبا جَعْدة، ومن أسمائه: نَهْشَل، وأُوَيْس، وذُؤالة، وأُشْبَة، ونُشْبَة، وكَساب، وكُسَيْب، والعَسْعاس، والعَسّاس، والخَيْعل، والعَمَلَّس، والطِّمِلّ، والشَّيْذُمَان، والشَّيْمُذان، والخَيْتَعُور، والقِلَّيب، والعِلَّوْش، ورِئبال، والسِّرحان ومصدِّر، والعَسُول، والنَّسُول، والخاطف، والأزَلّ، والأرسَح: القليلُ لحم الوركين، والعَمَرَّد. ويقال لولد الذئب: جُرْمُوز، والأنثى: جَعْدة(٥).

ويقال: إن الذئب إذا لم يجد ما يأكله استعان بإدخال النسيم في فيه، فيَقتات به؛ وجوفُه يذيب العَظْم، ولا يذيب نوى التمر؛ وقال بعض من اعتَنى بسرّ طبائع الحيوان: إنه لا يَلتحم عند السِّفاد إلا الذئبُ والكلب، وهو يَسفِد مضطجعًا على

---

(١) تُفري الأُهَبَ: أي تشقق الجلود؛ النبأة: الصوت الخفي. الشَّخْت: الضامر الدقيق لا من هزال، ويريد به صاحب الكلاب المتصيد بها. الرواجب: مفاصل أصول الأصابع.

(٢) مذلقة الآذان: أي محددتها. الشُوس: جمع أشوس، مشتق من الشَّوَس (بالتحريك) وهو أن ينظر بإحدى عينيه ويميل بوجهه في شق العين التي ينظر بها، يكون ذلك خلقة، ويكون من الكبر والتيه والغضب وإسناد الشوس إلى الحواجب في هذا البيت إسناد مجازي.

(٣) يريد ببَنات القفر: الوحوش.

(٤) في كتب اللغة ما يفيد أن بعض اللغويين يطلق السيدانة على الذكر والأنثى من الذئاب (القاموس).

(٥) الذي في اللسان مادة «جعد» أنه ليس للذئب بنت تسمى «جعدة»، فقد جاء فيه أن الذئب يكنى (أبا جعدة)، وليس له بنت تسمى بذلك..

الأرض، وَذَكَرُه عَظْم؛ والذئبُ موصوفٌ بالانفراد والوَحْدة وشدّةِ التوحّش؛ وإذا خفيَ عليه موضع الغنم عَوَى ليؤذنهم بمكانه، ويُعلِمَهم بقربه، فإذا حضرت الكلابُ إلى الناحية التي هو فيها راغ عنها إلى جهة الغنم التي ليس فيها كلب؛ وهو لا يعود إلى فريسةٍ بعد أن يشبع منها؛ وهو ينام بإحدى عينيه ويفتح الأخرى، فإذا اكتفت النائمةُ وأخذتْ حقَّها من النوم فتحها ونام بالأخرى؛ فهذا أبدا دأبُه في نومه؛ وهو قويُّ حاسّةِ الشّمّ، قيل: إنّه يَشُمّ من فرسخ؛ وأكثرُ ما يَعترِض الغنمَ وقت الصبح عند توقُّعِه فَتْرةَ الكلاب ونومَها؛ ومن عادة الذئاب أنّه إذا افترس ذئبان شاةً قسماها على شطرين بينهما بالسويّة؛ والذئبُ إذا وطىء ورقَ العُنْصُل[١] مات لوقتِه؛ وبينه وبين الغنم معاداةٌ عظيمة، فمنها أنّه إذا جُمِع بين وَتَرِ عُمِل من أمعاءِ ذئب وبين أوتارِ عُمِلتْ من أمعاء الغنم وضُرِب بها لا يُسمع لها صوت؛ وإذا اجتمع جلدُ شاةٍ مع جلد ذئب تَمَعَّطَ[٢] جلدُ الشاة؛ والذئب إذا كدّه الجوعُ عَوَى، فتجتمع له الذئاب، ويقف بعضها إلى بعض، فمن ولّى منها وثب الباقون عليه فأكلوه، وهو إذا تعرّض لإنسان وخاف العجزَ عنه عَوَى، فيسمعه غيرُه من الذئاب، فتُقبِل على الإنسان، فإذا أدمَى الإنسانُ منها واحدًا وثب الباقون على المُدْمَى فمزّقوه وتركوا الإنسان، ولذلك قال بعض الشعراء[٣] يعاتب صديقًا له أعان عليه في مصيبة نزلت به: [من الطويل]

وكنتَ كذئب السوء لمّا رأى دمًا ... بصاحبه يومًا أحال على الدّمِ

والذئبُ لا يواجه الإنسان، وإنما يأتيه من ورائه، فإن وجد الإنسانُ ما يُسنِد ظهرَه إليه عجز الذئبُ عن افتراسه.

وقد وصف الشعراء الذئبَ بما ذكرناه من عادته وطبعه، فقال حُمَيْد بنُ ثَوْر: [من الطويل]

ونمتُ كنوم الذئبِ عن ذي حفيظةٍ ... أكلْتُ طعامًا دونه وهو جائعُ
تَرَى طَرَفيه يَعسِلان كِلَيْهما ... كما اهتزّ عُودُ النَّبْعةِ المتتابعُ[٤]
ينام بإحدى مُقْلَتَيْه ويَتَّقِي ... بأخرى المنايا فهو يقظانُ هاجعُ

---

(١) العنصل: البصل البري؛ وقيل: العنصل ورق مثل الكراث يظهر منبسطًا سبطًا.. وقيل: العنصل: شجرة تنبت في مواضع الماء والندى نبات الموزة ولها نور كنور السوسن الأبيض.
(٢) تمعط الجلد: تساقط الشعر عنه. (٣) هو الفرزدق، كما في الحيوان ج ٦ ص ٩٧.
(٤) يعسلان: يضطربان ويهتزان؛ يقال: عسل الذئب عسلًا وعسلانًا؛ أي مضى مسرعًا واضطرب في عدوه وهزَّ رأسه.

وقال إبراهيمُ بنُ خفاجة: [من الرجز]

ولَربّ روّاغٍ هـنـالـك أنـبـطٍ ذلِقِ المسامعِ أطلسِ الأطمارِ(١)
يجري على حذرٍ فيَجمَع بَسْطَه يَهوِي فينعطف انعطافَ سُوارِ(٢)

والعربُ تقول في أمثالها: «أحمقُ من جَهيزة»(٣) قالوا: وجَهيزة عِرْسُ الذئب، لأنّها تدع ولدَها وترضع ولدَ الضَّبُع، وهو معنى قولِ ابنِ جِذْل الطِّعان: [من الطويل]

كمرضِعةٍ أولادَ أخرى وضَيَّعَتْ بنيها ولم تَرقَع بذلك مَرْقَعا

وقولِ الآخر: [من الكامل]

كانوا كتاركةٍ بنيها جانبًا سفهًا وغيرَهُمُ تَرُبّ وتُرضِعُ

ويقولون: إنّ الضَّبُع إذا قُتِلتْ أو صيدتْ فإنّ الذئب يأتي أولادَها باللّحمِ وأنشدوا قولَ الكُمَيْت: [من الطويل]

كما خامَرَتْ في حِضْنِها أمُّ عامرٍ لَدَى الحَبْل حتى عال أوسٌ عيالَها(٤)

وأَوْس، هو الذئب كما تقدّم في أسمائه.

ذكر ما قيل في الضَّبُع

يقال: إنّ الضَّبُعَ كالأرنب، تكون مرّةً ذكرًا ومرّةً أنثى، وهم يسمّون الذكر والأنثى: الضَّبُعَ والذَيخ(٥)، ومن أسمائها: حَضاجِر، وجَيْأل، وجَعارِ، وقَثَامِ،

(١) الأنبط: من النَّبط (بالتحريك) وهو البياض الذي يكون تحت الإبط والبطن وربما عرض حتى يغشى البطن والصدر. وقيل: الأنبط: هو الذي في بطنه بياض ما كان وإن كان منه؛ ـ الذَّلِقُ: من الذلاقة وهي الحدة. ـ الأطلس: هو الذي في لونه غبرة إلى السواد.
(٢) يجمع بسطه: أي أنه ينقبض ويجمع ما انبسط منه لحذره.
(٣) «أحمق من جهيزة»؛ قيل في تعليله إن جهيزة اسم امرأة رعناء بحمق، وهي أم شبيب الخارجي، وكان أبوه من مهاجرة الكوفة، واشترى جهيزة هذه من السبي وكانت حمراء طويلة جميلة، فأدارها على الإسلام فأبت، فواقعها فحملت، فتحرك الولد في بطنها فقالت: «في بطني شيء ينقز» فقيل: «أحمق من جهيزة».
(٤) الحِضْنُ: وجار الضبع. (اللسان)؛ ـ لدى الحبل: أي عند الحبل الذي تصاد به؛ (اللسان).
(٥) لم نجد فيمًا لدينا من كتب اللغة أن الذيخ يطلق على الذكر والأنثى من الضباع، كما تفيد عبارته. والذي وجدناه أن الذيخ إنما هو الذكر منها، ولا يطلق على الأنثى. (اللسان).

ونَقاثِ، والعَرْفاء، لطول عُرْفِها، والعَثْواء لنُفُولِ[1] شعرِها، والعَرْجاء، والخامعَة، وأمُّ عامر وأمُّ هِنْبِر[2]، وأمُّ خَنُّور؛ وولدُها الفُرْعل؛ وجُحرُها الوِجَار. والضبعةُ مولَعةٌ بنبش القبور، وإنّما ذلك لشهوتها في لحوم الناس؛ ومن عاداتها إذا كان القتيلُ بالعراء ووَرِم وانتَفَخ ذَكَرُه تأتيه فتركبه وتقضي حاجتَها منه، ثم تأكله؛ وهي متى رأت إنسانًا نائمًا حفرتْ تحت رأسِه، فإذا مال رأسُه وظهر حَلْقُه ذبحتْه بأسنانها، وشَربتْ دمه؛ وهي فاسقة، لا يمرّ بها حيوانٌ من نوعها إلّا تعرّضتْ له حتّى يعلوَها؛ والعربُ تضرب المثلَ بها في الفساد، فإنّها إذا وقعتْ في الغنم عاثت، ولم تكتفِ بما يكتفي به الذئب؛ وإذا اجتمع الذئبُ والضَّبُع في الغنم سَلِمتْ، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما يمنع صاحبه، ولذلك تقول العرب في دعائها للغنم: «اللَّهمّ ضبعًا وذئبًا»؛ والضبعُ إذا وطئتْ ظِلَّ الكلبِ في القمر وهو على سَطح وقع فتأكله؛ وإذا دخل الرجُل وِجارَها[3] ولم يسُدَّ منافذَ الضوء، ثمّ صار إليها من الضياء ولو بقدر سَمِّ الخِياط، وثبتْ إليه فقتلْته؛ وإن أخذ معه حَنظَلًا أَمِنَ سطوتَها؛ وتوصف بالحُمْق والمُوق[4]، وذلك لأنّ من يريدون صيدَها يقفون على باب وِجارِها ويقولون: «أطرقي أمَّ طريق[5]، خامِري أمَّ عامر»[6] فإذا سمعت كلامَهم انقبضتْ، فيقولون: «أبشري بكَمَرِ[7] الرِّجال، أبشري بشاءٍ هَزْلَى وجرادٍ عَظْلَى[8]» وهم مع ذلك يشدّون يديها ورجليها وهي ساكنةٌ لا تتحرّك، ولو شاءت لأجهزت عليهم وقتلتهم وخلّصت نفسَها؛ وهذا القول فيما أظنّ من خُرافات العرب؛ والضُّبْع تَلِد من الذئب جَرْوًا يسمَّى العِسْبارَ، ويكون منفردًا بنفسه، لا يألف السِّباع، ويثب على الناس والدوابّ؛ وهي توصف بالعرج، وفيها يقول

---

(١) لم نجد فيما لدينا من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا، وهو الزيادة والكثرة، والذي ورد بهذا المعنى إنما هو النفل لا النفول.

(٢) في اللسان مادة «هنبر». و«أم هِنْبر» بزيادة «أل» والهنبر: ولدها.

(٣) وجار الضبع: بيته.

(٤) الموق: الحمق في غباوة.

(٥) أم طريق: من كنى الضبع.

(٦) خامري: أي استتري؛ ـ أم عامر من كنى الضبع.

(٧) الكَمَرُ: جمع كمرة، وهي رأس الذكر، يزعمون أن الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ جردانه ـ أي قضيبه ـ ألقته على قفاه ثم ركبته وقضت حاجتها منه. (مجمع الأمثال ج ١ ص ٢١٠).

(٨) الجراد العَظْلى: هي التي ركب بعضها بعضًا كثرة، وأصل معناه لزوم بعضها بعضًا في الفساد. (مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٠٠).

بعض الأعراب[١]: [من الطويل]

من العُثْو لا يُدْرَى أَرِجْلُ شِمالِها بها الظَّلْعُ لمّا هرولَتْ أَمْ يمينُها[٢]

ذكر ما قيل في النِّمس

والعربُ تسمِّي النِّمَس الظَّرِبان، وسمّاه أبو عُبَيْد[٣] الظَّرِباءَ[٤]؛ وهو على قدر الهِرّ، وفي قدر الكلب القَلَطِيّ[٥]؛ وهو منتنُ الرّيح ظاهرًا وباطنًا، ولونُه إلى الشُّهبة، طويلُ الخطم[٦] جدًّا، وليس له أذنان إلّا صِماخان، قصيرُ اليدين، وفيهما براثنُ حِداد، طويلُ الذَّنَب، ليس لظهره فَقَار، ولا فيه مَفْصِل، بل عَظْمٌ واحدٌ من مَفْصِل الرأس إلى مَفْصِل الذَّنَب، وربّما ضربه من ظفر به من الناس بالسيف فلا يعمل فيه حتى يصيبَ طرف أنفه، لأنّ جلده في قوّته كالقِدّ؛ ولفسوِه ريحٌ كريهةٌ حتّى إنّه يصيبُ الثوبَ فلا تذهب رائحتُه منه حتّى يَبْلَى، وهو يَفسو في الهَجْمة[٧] من الإبل فتتفرّق ولا تجتمع لراعيها إلّا بعد تعب؛ والعربُ تضرب المثلَ في تفريق الجماعات به، فيقولون: «فسا بينهم الظَّربان»؛ وهو لأهل مصرَ كالقنافذِ لأهل سِجِسْتانَ في قتلِه الثعابين؛ قالوا: ولولاه لأكلتْهم؛ ومن عادتِه أنّه إذا رأى الثعبانَ دنا منه ووثب عليه، فإذا أخذه تضاءلَ في الطول حتّى يبقى شبيهًا بقطعة حبل، فينطوي الثعبانُ عليه، فإذا انطوى نفخ الظَّرِبانُ بطنَه ثم زَفَر زَفْرةً فيتقطّع الثعبانُ قِطَعًا؛ قال الجاحظ: وفَسْوُ الظَّرِبان أحدُ أسلحتِه، لأنّه يدخل على الضَّبّ في جحرِه وفيه حُسولُه[٨] وبَيضُه، فيأتي أضيقَ موضع في الجحر فيسُدّه بِيَدِه، ويحوّل دُبُرَه فلا يفسو ثلاثَ فَسَوات حتّى يَخِرَّ الضّبُّ سكرانَ مغشيًّا عليه، فيأكلَه؛ وله جراءة على تسلُّق الحيطان في طلبِ الطير، فإن هو سقط نفخ بطنَه حتّى يمتلىء جِلدُه، فلا يضرُّه السقوط؛ قالوا: وهو يشبه السَّمُّورَ[٩]، وذهب بعضهم إلى أنّه هو، وإنّما البقعةُ التي هو فيها غيّرتْ وَبَرَه.

---

(١) هو مدرك بن حصن، كما في التاج مادة (ظلع) وكذلك في اللسان.

(٢) العثو: جمع عثواء وهي الضبع سميت بذلك لكثرة شعرها؛ ـ والضلع: العرج والغمز في المشي.

(٣) أبو عبيدة هذا هو القاسم بن سلام صاحب الغريب المصنف. (الأعلام).

(٤) نقل عن أبي الهيثم أنه الظربا بالقصر، والظرباء بالمد لحن. (اللسان).

(٥) القلطيّ: القصير جدًا، المجتمع. (٦) الخطم: مقدم الأنف والفم.

(٧) الهجمة من الإبل: الجماعة منها، أولها أربعون إلى ما زاد، وقيل: هي ما بين السبعين إلى المائة.

(٨) الحسول: أولاد الضب حين تخرج من البيض، واحده حِسْل بكسر أوله وسكون ثانيه.

(٩) السَّمُّور: دابة ببلاد الروس، تشبه النمس، منها أسود لامع وأشقر يتخذ جلدها فراء غالية الأثمان.

الباب الثالث
من القسم الأوّل من الفنّ الثالث
فيما قيل في السِّنجاب والثعلب والدُّبّ والهرّ والخِنزير

فأمّا السِّنجاب ـ فهو حيوانٌ معروفٌ، حَسنُ الوَبَر، ظهرُه أزرقُ اللّون، وبطنُه أبيضُ، ومنه ما يكون ظهرُه أحمرَ، وهو رديءُ الجنس؛ مبخوسُ الثّمن؛ وهذا الحيوان سريعُ الحركة، فإذا أبصر الإنسانَ صَعِد الشجرةَ العالية، وهي مأواه؛ وهو كثير ببلاد الصَّقالبة والخَزَر، «ومِزاجُه باردٌ رَطب، وقيل: حارٌّ رَطبٌ لسرعة حركته».

قال أبو الفرج البَبْغاء[(١)]: [من خفيف]

قد بلونا الذّكاءَ في كلِّ نابِ ... فوجدناه صنعةَ السِّنجاب[(٢)]
حركاتٌ تأبى السكونَ وألحا ... ظٌ جِدادٌ كالنار في الالتهابِ
خفَّ جدًّا على النفوس فلو شا ... ء ترامَى مجاورًا للتصابي[(٣)]
واشتهت قربَه العيونُ إلى أن ... خِلتُه عندها أخًا للشبابِ
لابسٌ جلدةً إذا لاح خلنا ... ه بها في مُزَرَّةٍ من سحابِ[(٤)]
لو غدا كلُّ ذي ذكاءٍ نَطوقًا ... رَدّ في ساعة الخطاب جوابي

ذكرُ مَا قِيلَ في الثَّعْلَبِ

هو ذو مَكْرٍ وخديعةٍ وتحيُّلٍ في طلب الرزق، فمن تحيُّلِه أنّه يتماوت وينفخ بطنَه ويرفع قوائمه، حتّى يُظَنَّ به أنه قد مات، فإذا قرب منه حيوانٌ وثب عليه فصاده؛ ومنه أنه إذا دخل بُرْجَ الحمام وكان شبعانَ قتَلَها ورمَى بها، فإذا جاع عاد إليها فأكلها، وكذلك يفعل مع الدّجاج؛ وهو أيضًا من الحيوان الذي سِلاحُه سُلاحُه، وهو

---

(١) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، من أهل نصيبين، نجم الآفاق، وشمامة الشام والعراق وظرف الظرف وينبوع اللطف وأحد أفراد الدهر في النظم والنثر. (اليتيمة ١/ ٢٩٣).

(٢) يراد بقوله: في كل ناب: أي في كل ذي ناب.

(٣) لو قال: «تراءى» لكان أدق في المعنى.

(٤) المزرّة: اسم مفعول من أزّره، أي جعل له أزرارًا، المراد جبة ذات أزرار.

أنتنُ من سُلاح الحُبارَى(١)، فإذا تعرّض للقُنفُذ لقيه القُنفُذ بشوكِه واستدار كالكُرة، فيَسلَح الثعلبُ عليه، فلا يتمالكُ القُنفُذ أن يَنسَدخ(٢)، فيقبِض الثعلبُ على مَراقِّ(٣) بطنِه؛ ومن ظريف ما يُحكَى عنه أنّ البراغيث إذا كثرتْ في فروتِه تناول صوفةً بفمه، ثم يدخل النهرَ برفقٍ وتدريج، والبراغيثُ تَصعَد إذا قاربَها الماءُ حتّى تَجتمعَ في تلك الصوفة التي في فيه، فعند ذلك يلقيها في الماء ويخرجُ منه؛ والذئبُ يطلب أولادَ الثعلب، فإذا وُلِد له وَضَع ورقَ العُنصُل(٤) على باب وِجارِه فلا يصل الذئبُ إليه، لأنّه متى وطىء العُنصُل مات لوقته؛ ويقال: إنّ قضيب الثعلب في خلقة الأُنبوب، وأحد شطريه عَظْم، والآخر عصبٌ ولحم؛ وربّما يَسفِد الثعلب الكلبةَ فتأتي منه بولدٍ في خلقة السَّلُوقيّ الذي لا يُقدَر على مِثله؛ وفروُ الثعلب من أجودِ الأوبارِ وأفضلِها، ومنه الأسودُ والأبيضُ والخَلَنجيّ(٥)، وأدوَنُه الأعرابيّ لقلّة وَبَرِه، وما كان منه ببلاد الترك يسمَّى البُرْطاسيّ(٦) لكثافة وَبَرِه وحُسنِ لونِه، ووَبَرُه أنواع، منها السارسينا والبُرْطاسيّ والغيب والنيفق(٧)؛ قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: والثعلب فيه تحليل، وفراؤه أسخَنُ الفراء، تنفع المرطوبين لتحليلها آلاتِ المفاصل؛ قال: وإذا طُبِخ الثعلب في الماء وطليتْ به المفاصلُ الوَجِعَةُ نفع نفعًا جيّدًا، وكذلك الزيتُ الّذي يُطبَخ فيه حيًّا أو مذبوحًا فإنّه يحلّل ما في المفاصل، وشحمُه يُسكّن وجعَ الأذن إذا قُطر فيها؛ ورئتُه المجفَّفةُ نافعةٌ لصاحب الرّبو جدًّا، والشَّربةُ منها وزنُ درهمين والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

---

(١) الحبارى: طائر طويل العنق، رمادي اللون، في منقاره طول، وعلى شكل الأوزة ومن شأنها أنها تصاد ولا تصيد؛ ويضرب بها المثل في السلح فيقال: «أسلح من حبارى» و«أذرق من الحبارى». قال الشاعر:

وهـم تـركـوه أسـلح مـن حـبـارى ... رأى صـقـر وأشـرد مـن نـعـام

(٢) الانسداخ: الانبساط على وجه الأرض، كالانسلاح بالحاء المهملة.

(٣) مراق البطن: أسفله وما حوله مما استرق منه، ولا واحد له.

(٤) العنصل: البصل البري.

(٥) الخلنجي: نسبة إلى خشب الخلنج، وهو خشب ذو طرائق وأساريع موشاة، وهذا الخشب تتخذ منه الأواني، وهو فارسي معرب.

(٦) البرطاسي: نسبة إلى برطاس (بضم الباء) وهو اسم لأمة ذات ولاية واسعة تعرف بهم، تنسب إليها الفراء البرطاسية، وهم متاخمون للخزر ولأهل برطاس لسان منفرد ليس بتركي ولا خزري ولا بلغاري، وهم مسلمون. وبين (إتل) مدينة الخزر وبين برطاس مسيرة عشرين يومًا. (ياقوت).

(٧) السارسينا، والغيب والنيفق: كذا ورد في الأصل، ولم تقف على هذه الألفاظ الثلاثة فيما راجعناه من كتب اللغة.

قال أبو الفرج الببغاء يصفه: [من البسيط]

وأعفرِ المَسْك تلقاه فتحسَبه ... من أَدْكَنِ الخَزِّ مخبوءٍ بخَيْفانِ(١)

كأنّ أذْنيه في حسن انتصابِهما ... إذا هما انتصبا للحِسّ زُجّانِ(٢)

يَسْري ويتبعه من خلفه ذنَبٌ ... كأنّه حين يبدو ثعلبٌ ثاني

فلا يشُكّ الّذي بالبعد يبصره ... فردا بأنّهما في الخلقة اثنانِ

وقال آخر: [من الرجز]

جاؤوا بصيدٍ عَجبٍ من العَجَبْ ... أُزَيرِق العينين طُوّالِ الذّنَبْ(٣)

* تبرُق عيناه إلى ضوء الشُّهُبْ *

ذكر ما قيل في الدُّبّ

والدُّبُّ مختلفُ الطبائع، يأكل ما تأكله السّباع، ويَرعَى ما ترعاه الدوابّ، ويتناول ما يأكله الناس؛ وفي طبعه أنّه إذا كان أوانُ السِّفاد خلا كلُّ ذكرٍ بأنثاه، والذكرُ يَسفَد أنثاه مضطجعةً على الأرض، وهي تضعُ جَروَها فِدْرَة لحم غيرَ مميَّزِ الجوارح، فتهرُب به من موضعٍ إلى آخرَ خوفًا عليه من النّمل، وهي مع ذلك تلحَسه حتى تنفرجَ أعضاؤه ويتنفّس، وفي ولادتها صعوبة، فيزعم بعضُ مَن فَحصَ عن طبائع الحيوان أنّ الدُّبَّةَ تَلِدُ مِن فيها، وأنّها إنّما تَلِدُه ناقصَ الخَلق شوقًا إلى الذَّكَر وحرصًا على السِّفاد، وهي لشدّة شهوتِها تدعو الآدميَّ إلى وطئها؛ وفيما حُكِي لي أنّ إنسانًا كان سائرًا في بعض الغِياض لمقصده، فصادف دُبَّة، فأخذتْه وأومأتْ إليه بالإشارة أن يواقعَها، ففَهِم عنها وفعل، فلمّا فرغ عَمَدتْ إلى أقدامِه فَلَحَستْ مَواطئَها حتى نَعُمت، ولم تزل تكرّر لحسَها وتمرّ بلسانها عليها حتى بقيَ الرجلُ يَعجِز عن الوطء بها على الأرض، فعند ذلك أَمِنتْ هَرَبه وتركتْه، فكانت تغدو وتتكسّب وترجع إليه بما يأكله وهو يواقعها،

---

(١) الأدكن من الخز وغيره هو الذي يضرب لونه إلى الغبرة بين الحمرة والسواد. الخيفان: حشيش ينبت في الجبل وليس له ورق، وهو يطول حتى يكون أطول من ذراع صعدًا. يريد أن الثعلب مختبىء في هذا الحشيش.

(٢) الحس: الصوت الخفي، أو هو الإحساس، يقال: حسب بالشيء حسًا بفتح الحاء وكسرها بمعنى أحس به.

(٣) الطوال: (بضم الطاء وتشديد الواو): الزائد في الطول.

وهي تتعاهد لحسَ رجليه، فلم يزل كذلك حتّى مرّ عليه جماعةٌ من السَّفْر، فناداهم، فأتَوه وحملوه على دوابّهم وساروا به. قالوا: والأنثى إذا هَرَبتْ من الصيّادين جعلتْ جِراءَها بين يديها، فإذا اشتدّ خوفها عليهم بأن أدركها من يطلبها صَعِدتْ بأولادها إلى الأشجار؛ وفي الدُّبّ من القوّة والشدّة ما يقطع العُودَ الضخمَ من الشجرة العاديّة[1] التي لا تقطعها الفأسُ إلّا بعد تعب، ثم يأخذه بيديه، ويقف على قدميه كالإنسان، ويشُدّ به على الفارس، فلا يصيب شيئًا إلا أهلكه؛ وفي طبع هذا الحيوان من الفطنة العجيبة لقبول التأديب والتعليم ما هو مشاهَدٌ لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، هذا مع عظم جثّتِه، وثِقَل جسمِه، لكن لا يطيع معلّمَه إلّا بعُنْفٍ وضربٍ شديد وتعميةٍ لذُكورِه؛ وقال الشيخُ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا: إنّ دمَ الدُّبّ يُنضِج الأورامَ الحارّةَ سريعًا؛ والله أعلم بالصواب.

ذكرُ مَا قيلَ في الهِرِّ

والهرّ ضربان: وحشيّ وأهليّ، وهو يشبه الأسدَ في الصورة والأعضاء والوثوبِ والافتراس والعدوِ، إلّا أنّه أقلُّ جراءةً من الأسد وأكثرُها من سائر الحيوان؛ وهو يناسب الإنسانَ في أحوال، منها: أنّه يَعطِس ويتثاءب ويتمطّى، ويتناول الشيءَ بِيَدِه، ويغسل وجهَه وعينيه بلعابه؛ وفيه[2] أنّ الأنثى تَحدُث لها قوّةٌ وشجاعةٌ عند السِّفاد، ولهذا فإنّ الذكرَ يَهرُب منها عند فراغِه، وتكون هذه الشجاعةُ في الذَّكر قبل السِّفاد، فإذا سَفِد انتقلتْ إلى الأنثى، والذَّكرُ إذا هاج صرخ صُراخًا منكرًا يؤذي به من يسمعه لبَشاعته؛ والأنثى تَحمِل في السنة مرتين، ومدّةُ حَملِها خمسون يومًا، وفي أخلاقِ بعضِها أنها إذا وَلدتْ تأكل أولادَها، ويقال: إنّها إنّما تأكلهم لفرط حبّها لهم؛ وقيل: بل من جنونٍ يَعرِض لها عند الولادة وجوع؛ والله أعلم؛ وفي هذا الحيوان من الأخلاق الحميدةِ أنّه يَرعى حقَّ التربية والإحسانِ إليه، ويَقبَلُ التأديب، وربّما رُبِّيَ في حانوت السَّمّان والجزّار وفي الدُّور بين الدَّجاج والحمام وغيرِ ذلك من المطاعم الّتي يحبّها الهرّ ويأكلها فلا يتعرّض لها بفساد، ولا يأكل منها ما لم يُطعَمْه، وربّما حفظها من غيره، وقاتل دونها، مع ما فيه من الافتراس والاختلاس؛ وفي طبع الهرّ وعادتِه أنّه إذا أُطعِم شيئًا أكَلَه في موضعه ولم يهرُب، وإذا خطِفه أو سرَقه هرَب به، ولا يقف إلّا أن يأمن على نفسه؛ وفي بعضها من الجراءة ما يقتل الثعبانَ والعقربَ؛ وإذا

(١) العادية: أي القديمة.

(٢) وفيه: أي في طبعه، أو عادته، أو نحو ذلك مما يفيد هذا المعنى.

أرادت الهرّةُ ما يريد صاحبُ الغائط أتت موضعَ ترابٍ في زاويةٍ من زوايا الدّار، فتبحث حتّى تجعلَ لها حفرة، ثم تدفن فيها ما تلقيه، وتغطّيه من ذلك التراب، ثم تَشُمّ أعلى التراب، فإن وجدتْ رائحةً زادت عليه ترابًا حتى تعلَمَ أنّها أخفت المرئيَّ والمشموم، فإذا لم تجد ترابًا خَمَشتْ وجهَ الأرض، وزعم بعض الأطبّاء أنّ سَترَ الهرّةِ لذلك لحدّة رائحتِه، فإنّ الفأرة إذا شمّته نفرتْ منه إلى منقطَع تلك الرائحة؛ وهو يقبل التعليمَ ويؤدَّب حتى يألَف الفأرَ مع ما بينهما من شدّة العداوة، فيحصل بينهما من المؤالَفة الظاهرةِ والملاءمةِ ما إنّ الفأرَ يصعَد على ظهر الهرّ، وربّما عَضّ أذنَه، فيصرُخ الهرُّ ولا يأكله، ولا يخدِشه لخوفِه من مؤدِّبه، فإذا أشار إليه مؤدِّبُه بأكلِه وثب عليه على عادته وأكَلَه، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ غيرُ منكور يفعله الطُّرُقيّة[1] ويفرِّجون[2] الناسَ عليه؛ وفي طبع الهرّ أنّه لا يأكل السُّخْنَ ولا الحامضَ، ومتى دُهن أنفُه بدهن الورد مات سريعًا؛ وهو إذا قاتل الثعبانَ يضع يدَه على أنفه، ويقاتل بِيَدِه الأخرى، وإنّما يفعل ذلك حذرًا على نفسه، فإنّ الثعبان متى ضربه في أنفِه مات، ويضربه في سائر جسده فلا يضرّه ذلك، بل يلحَس مكانَ نَهْشِ الثّعبانِ بلسانه وهو يقاتله. وقد وصفه الشعراء والأدباء برسائلَ وأبيات.

فمن ذلك رسالةٌ أنشأها أبو جعفر عمرَ الأوسيُّ الأندلسيُّ المعروفُ بابن صاحب الصَّلاة ـ ونُسبتْ هذه الرسالةُ لأبي نصر الفتحِ بنِ خاقانَ[3] صاحبِ قلائد العقيان ـ يخاطب بها بعضَ إخوانه ويوصيه على كُتُبه، وهي: وفي علمك ـ أعزّكَ الله ـ ما استودعتُه ديانتَك، واستحفظتُه أمانتَك؛ من كُتبي الّتي هي أنفسُ ذخائري وأَسْراها[4]، وأحقُّها بالصيانة وأحراها؛ وما كنتُ أرتضي فيها بالتّغريب، لولا التّرجّي لمعاوَدة الطلبِ عن قريب؛ ولا شكّ أنّها منك ببال، وبمكان تهمُّمٍ[5] واهتبال؛ لكن ربّما

(١) الطرقية: نسبة إلى الطرق. يريد الذين يلعبون في الطرق ويأتون بأمور غريبة تعجب الناس فيجتمعون عليهم.

(٢) استعمال التفريج بمعنى اجتماع الناس على اللاعب ومشاهدة ما يأتي به من الأمور العجيبة، كما هنا استعمال شائع في كلام العامة. ولم نجده فيما لدينا من كتب اللغة. ولم نجده في الكتب المؤلفة في الألفاظ الدخيلة. ولعله أخذ من تفريج الهم، فإن في مشاهدة ذلك تفريجًا للهم وتسلية للنفس.

(٣) هو الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي، أبو نصر، كاتب مؤرّخ من أهل إشبيلية، كان كثير الأسفار، له تصانيف عديدة مات سنة ٥٣٨ هـ. (الأعلام ٥/ ١٣٤).

(٤) أسراها: أي أشرفها.

(٥) التهمم: التطلب والتحسس؛ ـ الاهتبال: الاغتنام.

طرَقَها من مَرَدَة الفِئرَةِ طارق، وعاث فيها كما يَعيث الفاسق المارق؛ فينزِلَ فيها قرْضًا، ويفسدها طولًا وعَرْضًا؛ إلّا أن يطوفَ عليها هرٌّ نبيل، يَنتمِي من القِطاط إلى أنجَبِ قَبيل؛ له رأسٌ كَجمع[1] الكفّ، وأُذنان قد قامتا على صفّ؛ ذواتا لطافةٍ ودقّة، وسَباطة ورِقّة؛ يقيمهما عند التشوّف، ويُضجعهما عند التخوّف؛ ومقلةٌ مقتطَعةٌ من الزجاج المجزَّع[2]، وكأنّ ناظرَها من العيون البابليّة منتزَع؛ قد استطال الشعرُ حول أشداقِه، وفوقَ آماقِه؛ كإبَرٍ مغروزةٍ على العيون، كما أحكمتْ بَرْدَ أطرافِها القُيون[3]؛ له نابٌ كحَدِّ المِطْرَد[4]، ولسانٌ كظهرِ المِبْرَد؛ وأنفٌ أخْنَسُ وعنقٌ أوقَص[5]، وخَلْقٌ سويٌّ غيرُ منتقَص، أهْرَتُ[6] الشِّدْقَين، موشًّى الساعدين والساقين مُلَملَمُ[7] اليدين والرجلين؛ يرجِّل بها وَبَرَه ترجيلَ ذوي الهِمم، لِما شَعِث من اللِّمَم؛ فينفض ما لَصِق به من الغبار، وعَلِق من الأوبار، ثم يجلوه بلسانه جِلاءَ الصَّيقَلِ للحسام، والحمّام للأجسام؛ فيَنفي قذاه، ويوارِي أذاه؛ ويُقعِي إقعاءَ الأسد إذا جلس، ويَثب وثبةَ النَّمِر إذا اختَلَس؛ له ظهرٌ شديد، وذنَبٌ مديد؛ يَهُزّه هزَّ السَّمهريِّ المثقَّف، وتارةً يلويه ليَّ الصّولج المعقَّف؛ تجول يداه في الخشب والأرائك، كما تجول في الكُسا يدُ حائك؛ يُكِبّ على الماء حين يَلِغُه، ويُدني منه فاه ولا يبلُغُه؛ ويتّخذ من لسانه رِشاءً ودَلوًا، ويعلم به إن كان الماء مِلحًا أو حُلوًا؛ فتَسمع للماء خَضخَضةً من قَرْعِه، وتَرى للّسان نَضنَضةً[8] من جَرْعِه؛ يَحمِي دارَه حمايةَ النَّقيب، ويحرسها حراسةَ الرقيب؛ فإن رأى فيها كلبًا، صار عليه إِلْبًا[9]؛ وصعَّر خدَّه وعَظَّم قَدَّه، حتّى يَصيرَ نِدّه؛ أنَفةً من جنانه أن يُطرَق، وغَيرةً على حجابِه أن يُخرَق؛ وإن رأى فيها هِرًّا، وَجَفَ[10] إليه مكفهِرًّا؛ فدافَعَه بالساعد الأشَدّ، ونازَعَه منازعةَ الخصم الألَدّ؛ فإذا أطال مفاوَضتَه، وأدام مراوَضتَه؛ أبرز بُرثُنَه لمبادَرتِه، وجَوشنه[11] لمصادَرته؛ ثم تَسلَّل إليه لِواذًا، واستَحوَذ عليه استحواذًا؛ وشَدَّ عليه شَدَّه، وضمّه

(١) جمع الكف (بضم الجيم)، وهو حين تقبضها.
(٢) يراد بالمجزع: المختلف الألوان.
(٣) القيون: الحدادون، واحده قين (بفتح فسكون).
(٤) المطرد: رمح قصير تطعن به حمر الوحش.
(٥) الأوقص: من الوقص (بالتحريك) وهو قصر العنق.
(٦) أهرت الشدقين: أي واسعهما.
(٧) الململم: المجتمع.
(٨) النضنضة: تحريك اللسان.
(٩) الإلب (بالفتح والكسر) العدوّ.
(١٠) وجف: أي أسرع.
(١١) الجوشن: الصدر.
(١٢) العصل: جمع أعصل، وهو المعوج في صلابه.

من غير مودّه؛ فأنسَل وَبَرَه إنسالًا، وأرسَل دمَه إرسالًا؛ بأنيابِ عُصْل[١]، أمضَى من نَصْل؛ ومِخْلَبٍ كمِنقارِ[٢] الصَّخر، دَرِبٍ بالاقتناصِ والعَقْر؛ فيُصَيِّر قِرْنَه ممزَّقَ الإهاب، مستبصِرًا[٣] في الذَّهاب، قد أُفلَت من بين أظفارٍ وأنياب، ورضيَ من الغنيمة بالإياب؛ هذا وهو يخاتله دون جُنّة، ويقاتله بلا سيوفٍ ولا أسنّة؛ وإنّما جُنَّتُه، مُنتهُ[٤]؛ وشِفارُه، أظفارُه؛ وسِنانُه، أسنانُه؛ إذا سَمعت الفِئَرَةُ منه مُغاء[٥]، لم تستطع له إصغاء؛ وتصدّعتْ قلوبُها من الحَذَر، وتفرّقتْ جموعُها شَذَرَ مَذَر؛ تَهجَع العيونُ وهو ساهر، وتَستتر الشخوصُ وهو ظاهر؛ يَسرِي من عينيه بنيِّرَين وضّاحَين، تخالهما في الظلام مصباحين؛ يسوف[٦] الأركان، ويطوف بكلِّ مكان؛ ويَحكي في ضِجْعته السِّوارَ تَحنّيًا، وقضيبَ الخَيْزُران تَثنّيًا؛ ثم يَغِطّ إذا نام، ويتمطّى إذا قام؛ ولا يكون بالنار مستدفئًا، ولا للقِدْر مُكفئًا؛ ولا في الرَّماد مضطجِعًا، ولا للجارِ منتجِعًا؛ بل يدبِّر بكيدِه، ويَنتصر على صيدِه؛ قد تَمرّن على قتلِ الخِشاش[٧]، وافترَس الطيرَ في المسارح والأعشاش؛ يستقبِل الرياحَ بشَمِّه، ويجعل الاستدلالَ أكبرَ همِّه؛ ثم يكمُن للفَأر حيث يَسمع لها خَبيبًا[٨]، أو يَلمَح من شيطانها دَبيبًا؛ فيَلصَق بالأرض، وينطوي بعضُه في بعض، حتى يستوي منه الطُّولُ والعَرْض؛ فإذا تَشوَّفتْ الفَأْرةُ من جحرِها، وأَشرَفتْ بصدرِها ونحرِها؛ دَبّ إليها دبيبَ الصِّلّ وامتدّ إليها امتدادَ الظِّلّ؛ ثم وَثب في الحِين عليها وَجلَب الحَيْنَ إليها؛ فأثخنها جراحًا، ولم يعطِها بَراحًا؛ فصاحت من شدّة أسِره، وقوّةِ كسِره؛ وكلّما كانتْ صيحتُها أمدّ، كانت قبضتُه عليها أشَدّ، حتّى يستأصِلَ أوداجَها فَرْيًا، وعظامَها بَرْيًا، ثم يدعُها مُخرِجةَ الذَّماء[٩]، مضرَّجةً بالدّماء؛ وإن كان جُرَذًا مُسِنًّا، لم يضع عليه سِنًّا؛ وإن كان دِرْصًا[١٠] صغيرًا فَغَرَ عليه فاه، وقَبَض مترفِّقًا على قفاه؛ ليزدادَ منه تشهّيًا وبه تلهّيًا؛ ثم تلاعَبَ به تلاعبَ الفُرسانِ بالأعنّة، والأبطالِ بالأسنّة؛ فإذا أَوجَعه عضًّا، وأَوعَبه[١١] رَضًّا؛ أجهَز في الفَورِ عليه، وعَمَد بالأكل إليه؛ فازدَرد منه أطيبَ

(١) يراد بمنقار الصخر: الحديدة التي ينقر بها، وهي حديدة كالفأس لها خلف يقطع به الحجارة والأرض الصلبة.

(٢) مستبصرًا في الذهاب: أي مستوضحًا أي طريق يفر منها.

(٣) المنة: (بضم الميم وتشديد النون): القوّة. (٤) المغاء: صياح الهر.

(٥) يسوفُ: أي يشم.

(٦) الخشاش (بالكسر، وقد يفتح): الهوام والحشرات وما أشبهها.

(٧) الخبيب: المشي السريع. (٨) الذماء (بالفتح): بقية الروح.

(٩) الدرص (بالكسر): ولد الفأر. (١٠) أوعبه: أي عمّه واستقصاه.

طُعْمَه، واعتدّه أهنأَ نعمَه؛ ثم أظهَرَ بالالتعاق شكرَه، وأعمَلَ في غيره فكرَه؛ فرجع إلى حيث أثارَه، ويتبع فيه آثارَه؛ راجيًا أن يجدَ في رِباعِه، ثانيًا من أتباعِه، فيُلحِقَه بصاحبه في الرّدَى، حتّى يفنيَ جميع العُدى؛ وربّما انحرف عن هذه العوائد، والتقط فُتاتَ الموائد، بِلاغًا[1] في الاحتماء، وبِرًّا بالنّعماء، فما لَه على خصالِه ثمن، ولا جاء بمثالِه زمن؛ وقد أوردتُ ـ أعزّكَ الله ـ من وصفِه فصلًا مُغرِبًا، وهَزْلًا مُطرِبًا؛ إخلاصًا من الطويّة واسترسالًا، وتسريحًا للسجيّة وإرسالًا، على أنّي لو استعرت في وصفه لسانَ أبي عُبَيْد[2]، وأظهرتُ في نعته بيانَ أبي زُبَيْد[3]؛ ما انتهيتُ في النطق إلى خطابِك، ولا احتويتُ في السّبقِ على أقصابِك؛ والله يبقيك لثمر النُّبْل جانيًا، ولدَرَجِ الفضل بانيًا.

وقال ابن طَباطَبا[4] يصف هرّة بلقاء: [من الخفيف]

فـتـنـتـنـي بـظـلـمـةٍ وضـيـاءِ ... إذ تـبـدّت بـالـعـاج والآبـنـوسِ

تَـتـلقّـى الـظـلامَ مـن مـقـلتـيـهـا ... بشعاعٍ يَحكِي شعاعَ الشُّموسِ

ذاتُ دَلٍّ قـصـيـرةٌ كـلّـمـا قـا ... مت تهادت، طويلةٌ في الجلوسِ

لـم تـزل تُـسبِغ الـوضـوءَ وتُـنْقِـي ... كـلَّ عـضـوٍ لـهـا مـن الـتـنـجـيـس

دأبُـهـا سـاعـةَ الـطـهـارة دفـنُ الـ ... ـعنبر الرَّطبِ في الحَنوط اليَبيسِ[5]

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَريُّ[6] من أبيات ـ وذَكَرَ الجُرْذان ـ: [من الخفيف]

---

(١) البِلاغ (بكسر الباء) مصدر «بالغ في الأمر» إذا اجتهد فيه ولم يقصر.

(٢) لعلّ المراد بأبي عبيد هنا: القاسم بن سلام اللغوي المعروف، وقد اشتغل أبو عبيد هذا بالحديث والأدب، له كتاب (الغريب المصنف) و(الأمثال) و(معاني الشعر) وغير ذلك من الكتب النافعة. (الأغاني ١٤: ٧٦).

(٣) هو أبو زبيد الطائي، حرملة بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة، وهو شاعر معروف من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وكان نصرانيًا ومات على دينه. وكان من المعمّرين قيل إنّه عاش مائة وخمسين سنة. (الشعر والشعراء: ١٨٥).

(٤) هو أحمد بن إسماعيل بن القاسم الرّسّي العلوي، شاعر زهد وغزل مات سنة ٣٤٥ هـ. (الأعلام ١/ ٢٠٨).

(٥) المراد بهذا البيت: إنها تدفن رجيعها في التراب إخفاءً لرائحته.

(٦) أبو بكر الصنوبري: هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبّي الحلبي الأنطاكي، شاعرٌ اقتصر على وصف الرياض والأزهار، وكان يحضر مجلس سيف الدولة الحمداني مات سنة ٣٣٤ هـ. (الأعلام ١/ ٢٠٧).

(٧) بهنّ: أي بالجرذان ـ أزرق: المراد أن ذلك الهر أزرق العينين كما هو لون عين الهر في الغالب=

ذاد هــمّــي بــهــنّ أَوْرقُ تُــ ـركيُّ السّبالَين أنمَرُ الجِلبابِ[١]
ليثُ غابٍ خَلْقًا وخُلْقًا فمن عا يَـنَـه قـال: إنّـه لـيـثُ غـابِ
قـنـفُـذٌ فـي ازبـراره وهـو ذئـبٌ في اغترارٍ وحيّةٌ في انسيابِ[٢]
نـاصـب طـرفَـه إزاءَ الـزّوايـا وإزاء الـسّـقـوفِ والأبـوابِ
يَنتضِي الظُّفرَ حين يَظفَر في الحر ب وإلّا فـظُـفْـرُه فـي قِـرابِ
يسحب الصّيدَ في أقلَّ من اللّمـ ـح ولو كان صيدُه في السحابِ

ومنها: [من الخفيف]

قــرّطُــوه وقــلّدوه وغــلو ه أخـيـرًا وأوّلًا بـالـخِـضـابِ[٣]
فـهـو طـورًا يـبـدو بـنـحـر عـروس وهـو طـورًا يـمـشـي عـلى عُـنّـابِ
حبّذا ذاك صاحبًا فهو في الصحـ ـة أوفَـى مِـن سـائـر الأحـبـابِ

وقال أبو بكرِ بنُ العلّاف[٤] يرثي هرًّا ـ، وقد قيل: إنما رثى بها ابنَه، لأنّه تعرّض إلى حريم بعض الأكابر فاغتالوه وقتلوه؛ وقيل: بل رثى بها عبدَ الله بنَ المعتزّ، وورَّى بهِرٍّ خوفًا من المقتدر بالله، فقال: [من المنسرح]

يـا هـرُّ فـارقـتـنـا ولـم تَـعُـدِ وكـنـتَ مـنّـا بـمـنـزل الـولـدِ
وكـيـف نـنـفـكّ عـن هـواك وقـد كـنـتَ لـنـا عُـدّةً مـن الـعُـدَدِ
تـمـنـع عـنّـا الأذى وتـحـرسُـنـا بالغَيب من خُنفَس ومن جُردِ[٥]
وتـخـرج الـفـأرَ مـن مـكـامـنـهـا ما بين مفتوحِها إلى السُّدُدِ[٦]

= ويؤيده قوله بعده «تركي السبالين» فإن الأتراك يوصفون بزرقة العيون غالبًا. ـ وتركي السبالين: أي أبيضهما، والسبالان: تثنية سبال، والسبال: جمع سبلة بالتحريك، وهو ما على الشارب من الشعر أو هي طرفه. ـ والأنمر: الذي في لونه نمر، أي نكت من ألوان مختلفة.

(١) المراد بالإزبرار: الازبئرار: وإنما حذفت الهمزة هنا لضرورة الوزن. والازبئرار: هو انتفاش الشعر حتى تظهر أصوله. ـ والاغترار: الإتيان على غرّة، أي غفلة.

(٢) قرّطوه: أي ألبسوه القرط، وهو معروف.

(٣) ابن العلّاف: هو الحسن بن علي بن أحمد النهرواني، أبو بكر، شاعر عاش في بغداد، ونادم الخلفاء مات سنة ٣١٨ هـ. (الأعلام ٢/ ٢٠١).

(٤) المراد بالجرد: الجرذ بالذال المعجمة، وهو الذكر من الفئران، فأبدل أحد الحرفين من الآخر لضرورة القافية، ولم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة نصًا على هذا الإبدال في هذه الكلمة.

(٥) إلى السّدد: أي إلى المكامن ذوات السّدد، والسّدد (بضمتين): جمع سداد (بكسر السين) وهو ما يسد به الشيء.

يلقاك في البيت منهمُ عَددٌ وأنت تلقاهمُ بلا عَددِ
وكان يَجري - ولا سَدادَ لهم - أمرُك في بيتنا على سَدَدِ
حتى اعتقدتَ الأذى لجيرتِنا ولم تكن للأذى بمعتقِدِ
وحُمْتَ حول الرّدى بظلمهمُ ومن يَحُمْ حول حوضِه يَرِدِ
وكان قلبي عليك مرتعدًا وأنت تنساب غيرَ مرتعِدِ
تدخُل بُرجَ الحمام متئدًا وتُخرِج الفرخَ غيرَ متّئدِ
وتطرح الرِّيشَ في الطريق لهم وتبلعُ اللّحمَ بلعَ مُزدرِدِ
أطعمك الغيُّ لحمَها فرأى فتلكَ أربابُها من الرَّشَدِ
كادُوك دهرًا فما وقعتَ وكمْ أفلَتَّ من كيدهم ولم تُكَدِ[1]
حتى إذا خاتلوك واجتهدوا وساعدَ النفسَ كيدُ مجتهِدِ
صادوك غيظًا عليك وانتقموا منك وزادوا ومن يَصِدْ يُصَدِ
ثم شفَوا بالحديد أنفسهم منك ولم يَرْبَعوا على أحدِ[2]
لم يَرحموا صوتَك الضعيفَ كما لم تَرِث منها لصوتها الغَرِدِ
فحين كاشفتَ وانتَهكتَ وجا هرتَ وأسرَفتَ غيرَ مقتصِدِ[3]
أذاقك الموتَ من أذاق كما أذقتَ أطيارَه يدًا بِيَدِ
كأنّهم يقتلون طاغيةً كان لطاغُوتِه من العُبُدِ[4]
فلو أكبّوا على القَرامِطِ أو مالوا على زكرويه لم يَزِدِ[5]
يا من لذيذُ الفراخ أوقعَه ويحك هلّا قنعتَ بالغِدَدِ[6]
ما كان أغناك عن تَسوُّرِك الـ بُرجَ ولو كان جنّةَ الخُلْدِ
لا بارك الله في الطعام إذا كان هلاك النّفوس في المِعَدِ
كم أُكلةٍ داخلتْ حَشا شَرِهٍ فأَخرجتْ روحَه من الجسدِ

(١) لم تكد: أي لم تكد تفلت.
(٢) لم يربعوا: أي لم ينتظروا ولم يتمهلوا.
(٣) كاشفت: أي كاشفتهم بالعداوة.
(٤) العبد: (بضمتين): جمع عبد.
(٥) القرامط والقرامطة: طائفة مشهورة من الزنادقة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك وماني..
(٦) يراد بالغدد كل قطعة لحم صلبة تحدث عن داءٍ بين الجلد واللحم وهي لا تصلح لطعام الإنسان فترمى للكلاب والقطط فتأكلها.

أردت أن تـأكـل الـفـراخ ولا ... يـأكلك الـدهـر أكلَ مـضـطـهِـدِ
هـذا بـعـيـدٌ مـن الـقـيـاس ومـا ... أعـزَّه فـي الـدّنُـوّ والـبُـعُـدِ[١]
ولـم تـكـن لـي بـمـن دهـاك يـدٌ ... تَـقـوَى عـلى دفـعـه يـدَ الأبـدِ[٢]
ولا تَـبـيَّـنَ حَـشْـوُ جِـلدِك عِـنـ ... ـد الـذَّبـح مـن طـاقـةٍ ومِـن جَـلَدِ
كـأنّ حـبـلًا حَـوَى ـ بـحَـوْزَتـه ـ ... جِـيـدَك لـلـذَّبـحِ كـان مـن مَـسَـدِ
كـأنّ عـيـنـي تـراك مـضـطـربًـا ... فـيـه وفـي فـيـك رَغْـوةُ الـزَّبَـدِ
وقـد طـلبـتَ الـخـلاصَ مـنه فـلم ... تـقـدرْ عـلى حـيـلةٍ ولـم تَـجِـدِ
فـجُـدتَ بـالـنـفـسِ والـبـخـيـلَ بـهـا ... كـنـتَ ومـن لـم يَـجُـدْ بـهـا يَـجُـدِ
عـشـتَ حـريـصًـا يـقـوده طـمـعٌ ... ومِـتَّ ذا قـاتـلٍ بـلا قَـوَدِ[٣]
فـمـا سـمـعـنـا بِـمـثـلِ مـوتِـك إذ ... مِـتَّ ولا مِـثـلِ عـيـشِـك الـنَّـكِـدِ
عـشـنـا بـخـيـر وكـنـتَ تـكـلَؤنـا ... ومـات جـيـرانُـنـا مـن الـحـسـدِ
ثـمّ تـقـلّـبـتَ فـي فـراخـهـمُ ... وانـقـلب الـحـاسـدون بـالـكـمـدِ[٤]
قـد انـفـردنـا بـمـأتـمٍ ولـهـم ... بـعـدك بـالـعُـرْسِ أيُّ مـنـفـرَدِ
قـد كـنـتَ فـي نَـعـمـةٍ وفـي سَـعـةٍ ... مـن الـمـلـيـكِ الـمـهـيـمـنِ الـصّـمـدِ
تـأكـل مـن فـأر بـيـتـنـا رغـدًا ... وأيـن بـالـشـاكـريـن لـلـرغـدِ[٥]
قـد كـنـتَ بـدّدتَ شَـمـلَـهـم زمـنًـا ... فـاجـتـمـعـوا بـعـد ذلـك الـبَـدَدِ
وفـتّـتـوا الـخـبـزَ فـي الـسّـلالِ فـكـمْ ... تـفـتّـتـتْ لـلـعـيـال مـن كـبِـدِ
فـلـم يـبـقُّـوا لـنـا عـلى سَـبَـدِ ... فـي جـوف أبـيـاتـنـا ولا لَـبَـدِ
وفـرّغـوا قـعـرَهـا ومـا تَـركـوا ... مـا عـلّـقـتـه يـدٌ عـلى وَتِـدِ
ومـزّقـوا مـن ثـيـابِـنـا جُـدُدًا ... فـكـلُّـنـا فـي مـصـائـبٍ جـددِ
فـاذهـب مـن الـبـيـت خـيـرَ مـفـتـقَـدٍ ... واذهـب مـن الـبُـرجِ شـرَّ مـفـتـقِـدِ
ألـم تَـخَـفْ وثـبـةَ الـزمـانِ وقـد ... وثـبـتَ فـي الـبُـرج وثـبـةَ الأسـدِ؟
أخـنَـى عـلى الـدار فـيـه بـالأمـسِ ... ومـن قـبـلـهـا عـلى لُـبَـدِ[٦]

---

(١) أعزّه: يراد بها ما أقل حصوله.
(٢) يد الأبد: أي الدهر كله.
(٣) القود: القصاص.
(٤) الكمد: الحزن الشديد.
(٥) يراد بقوله: «وذين بالشاكرين» أي أين نعثر بالشاكرين.
(٦) لبد: نسر من نسور لقمان، وهي سبعة، ولبد هذا آخرها، وكان كل نسر منها يعيش ثمانين سنة، وعاش لقمان مقدار أعمار هذه النسور جميعها.

ولـم يـدعْ فـي عِـراصِـهـا أحـدًا ... مـا بـيـن عَـليائـهـا إلـى الـسَّـنَـدِ[١]
عـاقـبـةُ الـبـغِـي لا تَـنـام وإن ... تـأخّـرتْ مـدَّةً مـن الـمُـدَدِ
مـن لـم يـمُـت يـومَـه يـمُـتْ غـدَه ... أو لا يـمُـتْ فـي غـدٍ فـبـعـدَ غـدِ
والـحـمـد لله لا شـريـك لـه ... فـكـلُّ شـيءٍ يُـرَى إلـى أمـدِ

وفيه أيضًا: [من السريع]

يـا هـرُّ بـعـتَ الـحـقَّ بـالـبـاطـلِ ... وصـرتَ لا تُـصـغِـي إلـى عـاذلِ
إذا أتـيـتَ الـبـرجَ مـن خـارجٍ ... طـارت قـلـوبُ الـطّـيـر مـن داخـلِ
علـمًا بـمـا تَـصـنـع فـي بُـرجِـهـا ... فـهـي عـلـى خـوفٍ مـن الـفـاعـلِ
قـد كـنـت لا تَـغْـفُـل عـن أكـلِـهـا ... ولـم يـكـن ربُّـك بـالـغـافـلِ
فـانـظـر إلـى مـا صـنَـعـتْ بـعـد ذا ... عـقـوبـةُ الـمـأكـول بـالآكـلِ
مـا زلـتَ يـا مـسـكـيـنُ مـسـتـقـتـلًا ... حـتّـى لـقـد مُـنّـيـتَ لـلـقـاتـلِ[٢]
قـد كـنـتَ لـلـرحـمـة مـسـتـأهِـلًا ... إذ لـم أكـن مـنـك بـمـسـتـأهِـلِ

وقال أيضًا: [من مجزوء الكامل]

يـا رُبَّ بـيـتٍ ربُّـه ... فـيـه تَـضـايَـق مـسـتـقَـرُّه
لـمّـا تَـكـاثَـرَ فـأرُه ... وجـفـاه بـعـد الـوصـل هِـرُّه
وسَـعـى إلـى بُـرجِ امـرىءٍ ... فـيـه الـفـراخُ كـمـا يـسـرُّه
ظَـنَّ الـمـنـافـعَ أكـلـهـا ... فـإذا مـنـافـعـهـا تـضـرُّه

ذكرُ مَا قيلَ في الخِنْزِير

والخِنزيرُ مشتَركٌ بين السّبُعيّة والبهيميّة، فالذي فيه من السّبُعيّة الناب، وأكلُ الجِيَف؛ والذي فيه من البهيميّة الظِّلْف، وأكلُه العشب والعَلَف؛ والخِنزيرُ موصوفٌ بالشَّبَق وكثرةِ السِّفاد، حتى إنّ الأنثى يركبها الذّكر وهي تُرْجِع[٣]، فربّما قطعتْ أميالًا وهو على ظهرِها، ويَرَى الرائي أثرَ ستّةِ أرجلٍ ممّن لا يَعرِف ذلك، فيَظُنّ أنّ في الدّوابّ ما له ستّةُ أرجل؛ والخِنزيرةُ تضع عشرين خِنَّوْصًا، وتَحمِل من ماء واحد،

(١) العلياء والسند: موضعان. والسند: ماء لبني سعد، ولم يرد في معجم البلدان لياقوت تعيين لموقع العلياء.
(٢) منيت للقاتل: أي حصل قتلك أمنية له. (٣) ترجع: أي تروث.

وتضع لمضيّ ستّةِ أشهرٍ من حَمْلِها؛ وقال الجاحظ: إنّها تضع في أربعة أشهر؛ والخِنزيرُ ينزو إذا تمّت له ثمانيةُ أشهر، والخِنزيرةُ إذا تمّت لها ستّةُ أشهرٍ اشتهت السِّفاد، ولكن لا تجيءُ أولادُها كما يريدون[١]؛ وأجودُ النزوِ أن يكون ذلك منه وهو ابنُ عشرة أشهرٍ إلى ثلاثِ سنين؛ وإذا كانت الخِنزيرةُ بِكرًا وَلدتْ جِراءً ضعافًا وكذلك البِكرُ من كلّ شيء، وإذا بلغت الخِنزيرةُ خمسةَ عشرَ سنةً لا تلد بعدها، وهي أنسلُ الحيوان، والذّكرُ أقوى الفحول على السِّفاد، وأطولُها مكثًا فيه؛ ويقال: إنه ليس شيء من ذوات الأنياب ما للخِنزيرِ من القوّة في نابِه، وربّما طال ناباه حتّى يلتقيا، فيموتَ عند ذلك جوعًا، لأنّهما يمنعانه من الأكل، وهو متى عضّ كلبًا سقط شعرُ الكلب، وإذا أراد محاربةَ الأَسَدِ جرّب نفسَه قبل الإقدام عليه بأن يضرب شجرةً بنابِه، فإن قطعها حارب الأسدَ، وإلّا هرب منه ولم يقاتلْه؛ وأخبرني من رآه وقد جرّب نفسَه في شجرةٍ وضربها بأنيابه، فتمكّنتْ أنيابُه منها وثبتتْ فيها، فأراد الخلاص فعجَز، فجاء الأسدُ إليه وهو على تلك الحالة فافترسه؛ قالوا: ويَعترِي ذكورَه داءُ الحُلاق[٢] واللِّواط، فربّما يُرَى الخِنزيرُ وقد ألجأه أكثرُ من عشرين خِنزيرًا إلى مضِيق، ثم ينزو عليه الأمثلُ فالأمثل، إلى أن يبلغَ آخرهم؛ والخِنزيرُ إذا قُلعتْ إحدى عينيه هلك عاجلًا؛ ويقول الأطبّاء: إنه متى فسد من عظام الإنسان عظمٌ ووُضِع في مكانه عظمٌ من عظام الخِنزير قبلتْه الطبيعةُ ونبت عليه اللّحم؛ وحَكى أرِسطو أنّ عُمرَ الخِنزيرِ من خمسة عشر سنةً إلى عشرين سنة؛ وقلّما ذَكَر الفضلاءُ والشعراءُ الخِنزيرَ في رسائلهم وأشعارِهم، وسأثبت في هذا الموضعِ ما وقفتُ عليه في هذا المعنى.

فمن ذلك ما كتب به عطاء بنُ يعقوبَ الغَزْنويُّ يعرِّض فيها بقاض، قال منها: وما مَثلُ فلانٍ في استنابته[٣] إلا كَمثلِ رجلٍ رأى في المنام أنّه يضاجع خِنزيرًا فبَكَر إلى المعبِّر ليعبِّر منامَه تعبيرًا؛ فقال المعبِّر: يا برذعة الحَمير، ما غرّك بالخنزير؟ أَلِينُ مَلْمَسه، أم حسنُ مَعْطِسِه؛ أم شَكلُه الرّشيق، أم طَرْفُه العشيق[٤]؛ أم لقاؤه البَهِج، أم قِباعُه[٥] الغَنِج؛ أم شعرُه الرَّجِل، أم ثغرُه الرَّتِل[٦]؟.

(١) «كما يريدون» أي كما يريد أصحابها.
(٢) الحلاق: صفة سوء يدل سياق الكلام الآتي على المراد بها.
(٣) استنابه: أي جعله نائبًا في القضاء. (٤) يراد بالعشيق: العشوق.
(٥) القباع (بكسر القاف) نخير الخنزير.
(٦) الرتل (بفتح التاء وكسرها) من الثغور: الحسن التنضد، الشديد البياض الكثير الماء، المستوي نبات الأسنان.

وقال القاضي محيي الدّين بنُ عبد الظاهر(١) في الخِنزير: [من الوافر]

وخــنــزيــرٍ لــه نــابٌ تــراه إذا عَــنّ افـتـراسٌ غـيـرَ نـابِـي
كـمـثـلِ الكلبِ لا بلْ منه أجرا ويـحـقـر أن يـشـبَّـه بـالـكـلابِ
فـذاك لـنَـخـوةٍ يُـعـزَى وهـذا يـقـلِّل نَـخـوةَ الـرجـلِ الـمُـهَـابِ
بـنَـصٍّ لـلـكـتـاب غـدا حـرامًـا وحَـلَّل أكـلَه أهـلُ الـكـتـابِ

---

(١) هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجدامي السعدي، أبو الفضل، قاضٍ أديب مؤرّخ وله شعر حسن مات سنة ٦٩٢ هـ. (الأعلام ٤/٩٨).

القِسْمُ الثَّانِي
مِنَ الفَنِّ الثَّالثِ في الوُحُوشِ وَالظِّبَاءِ وَمَا يتَّصِلُ بهَا مِنْ جِنْسِهَا

وَفيهِ ثَلاثةُ أبوابٍ:

البَابُ الأوَّل
مـن هَـذا القِسـم
فِيمَا قيلَ في الفيلِ والكَرْكَدَّنِ والزَّرافةِ والمَها والأُيَّل

ذكرُ ما قيل في الفيلِ

يقال: إنّ الفيلَ مولَّدٌ بين الجاموس والخِنزير، ولذلك يزعم بعضُ من بحث عن طبائع الحيوان أنّ الفِيَلةَ مائيّةُ الطباع بالجاموسيّة والخِنزيريّة اللّتين فيها، وبعضُها يسكن الماء، وبعضُها لا يسكنه؛ ويقال: إنّ الفِيَلةَ صنفان: فيل، وزَنْدَبِيل، وهما كالبُخْت والعِراب، والبقرِ والجاموس، والخيلِ والبَراذين، والفَأْر والجُرْذان، والنملِ والذَّرّ؛ وبعضُهم يقول: إنّ الفيلَ الذّكَر، والزَّنْدَبِيلَ الأنثى؛ وقال بعضهم: إنّ الزَّنْدَبِيلَ هو عظيم الفِيَلةِ والمقدَّمُ عليها في الحرب، وفيه يقول بعض الشعراء: [من مخلع البسيط]

ذاك الـذي مِـشـفَـرُه طـويـلُ   وهـو مـن الأفـيـال زَنْـدَبِـيـلُ

وقال آخر:

* وفـيـلُـه كـالـطَّـودِ زَنْـدَبِـيـلُ *

وقال آخر:

* مـن بـيـن أفـيـالٍ وزَنْـدَبِـيـلِ *

وخُرطومُ الفيل أنفُه، وبه يوصل الطعامَ والشرابَ إلى فيه، وبه يقاتِل وبه يَصيح، وليس صوتُ الفيل على مقدارِ جثّتِه؛ ولسانُه مقلوب، طَرَفُه إلى داخل فيه، وأصلُه خارج، وهو على العكس من سائر الحيوانات؛ والهندُ تزعم أنّه لولا ذلك

لتكلّم، وهم يعظّمون الفِيَلَة ويشرّفونها على سائر الحيوانات؛ والفيلُ يتولّد في أرض الهندِ والسِّند والزِّنج، وبجزيرة سَرَنديبَ[١]؛ وهو أعظمُها خَلْقًا، وينتهي في عِظم الخَلْق إلى أن يبلغ في الارتفاع عشرة أذرع؛ وفي ألوانها الأسودُ والأبيضُ والأبلقُ والأزرق؛ وهو إذا اغتَلم أشبه الجمل في ترك الماء والعَلَف حتى ينضمّ أيطلاه، ويَتورّمَ رأسُه، وربّما استَوحَش لذلك بعد استئناسِه، والفيل ينزو إذا مضى له من العمر خمسُ سنين، والأنثى تَحمِل سنتين، وإذا حَمَلت لا يَقرَبها الذَّكَر، ولا ينزو عليها إذا وَضعت إلّا بعد ثلاث سنين، ولا ينزو إلّا على فيلةٍ واحدة، وله عليها غَيْرةٌ شديدة؛ وإذا أرادت الفيلةُ أن تضع دخلت النهرَ فتضع ولدَها في الماء، لأنّها تلد قائمة؛ والذكرُ يحرسها ويحرس ولدَها من الحيّات، وذلك لعداوة بينهما؛ قالوا: وأنثيا الفيل داخلَ بدنه قريبًا من كُلْيتيه، ولذلك هو يَسفِد سريعًا كالطير، لأنهما قريبتان من القلب فتَنضَحان المنيَّ بسرعة؛ ويقال: إنّ الفيلَ يَحقِد كالجمل؛ والهند يجعلون نابَي الفيل قَرْنيه، وفيها الأعقفُ والمستقيم؛ قال المسعوديُّ في مروج الذهب: وربّما بلغ النابُ الواحدُ منها خمسين ومائةَ مَنّ[٢]؛ ورأيت أنا من أنياب الفِيَلة ما طولُه يزيد على أربعةِ أذرع ونصف، وهو معقَّف، شاهدتُ ذلك بمدينة قُوصَ في سنة سبع وتسعين وسِتّمائة، ورأيتُ فيها نابين أظنّهما أخوين بهذه الصفة، وهما معقَّفان، وغلظُهما مناسبٌ لطولهما؛ والفيلُ يَحمل بنابيه على الجدارِ الوثيقِ فيهدِمُه؛ ولم تزل ملوكُ غَزْنَة[٣] إلى سُبُكْتِكِينَ ومن بعدهم من الملوك الغَزْنويّة تفتتح بالفِيَلة المُدُن، ونَهدِم بصَدَماتها الحصون، وأشهرُهم بذلك يمينُ الدّولة محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين، على ما ستقف - إن شاء الله تعالى - عليه في تاريخ الدّولة الغَزْنويّة؛ والفيلُ سريعُ الاستئناس بالناس؛ وفي طبعه أنّه إذا سمع صوتَ الخِنزير ارتاع ونفر واعتراه الفزع؛ وقال المسعوديّ: إنّه لا يثبُت للهرّ، وإذا رآه فرّ منه؛ وقال: إنّ رجلًا كان بالمُولْتان[٤] من أرض الهند يُدعَى هارونَ بنَ موسى مولى الأَزْد، وكان شاعرًا شجاعًا ذا رِياسةٍ في قومه ومَنَعة بأرض السِّنْد مما يلي بلادَ المُولْتان وكان في حصن له هناك، فالتقى مع بعضِ ملوكِ الهند، وقد قدّمت الهندُ أمامَها الفِيَلة، فبرز هارونُ أمامَ الصفّ وقَصَدَ

(١) سرنديب: جزيرة عظيمة في بحر هركند، بأقصى بلاد الهند. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قيل في المنّ: إنه رطلان.

(٣) غزنة: قصبة زابلستان، وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند.

(٤) المولتان: مدينة من نواحي الهند على سمت غزنة، ويسمى مرج بيت الذهب. (معجم البلدان لياقوت).

عظيمَ الفِيَلة، وقد خبأ سِنَّوْرًا تحتَ ثيابه؛ فلمّا دنا في حَملتِه من الفيل أبرز الهِرَّ له، فانهزم الفيلُ وولَّى عند مشاهدتِه للهِرّ، فانهزم الجيش وقُتِل الملكُ الهنديّ، ولهارونَ بنِ موسى قصيدةٌ في ذلك نذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ عند ذكر وصف الفيل.

والفيلُ إذا ورد الماء الصافيَ كدّره قبل أن يشربه كعادة الخيل، وهو قليل الاحتمالِ للبَرْد، وإذا عام في الماء استتر كلُّه إلّا خُرطومَه؛ ويقال: إنّه يصاد باللّهوِ والطربِ والزّينةِ وروائحِ الطِّيب؛ والزُّنوجُ تصيده بحيلةٍ غيرِ ذلك، وهي أنّهم يَعمِدون إلى نوعٍ من الأشجار، فيأخذون ورقَه ولِحاءَه ويجعلونه في الماء الذي تشربه الفِيَلة، فإذا وردَتْه وشربتْ منه سكِرتْ، فتسقط إلى الأرض، ولا تستطيع القيام، فتقتلها الزُّنوجُ بالحِراب، ويأخذون أنيابَها ويحملونها إلى بلادِ عُمَانَ، وتُنقَل منها إلى البلاد؛ وأمّا أهل النُّوبة فإنّهم إذا أرادوا صيدَها للبَقاء عَمَدوا إلى طُرقِها الّتي تَرِد الماء منها، فيَحفِرون هناك أخاديدَ ويُسقِّفونها بالخشب الضعيف، ويسترونها بالنبات والتراب، فإذا مرّ الفيلُ عليها انكسرت به تلك الأخشاب الضعيفة، فيسقط في الأُخدُود، فعند ذلك يَتبادر إليه جماعةٌ من الرجال بأيديهم العِصيُّ الرِّقاق، فيضربونه الضربَ الوجيع، فإذا بلغ به الألمُ خرج إليهم رجلٌ منهم مغايرٌ للباسِهم، فيضربهم، ويصرفهم عنه، فينصرفون، ويقف هو بالقرب من الفيل ساعة، ثم ينصرف، فإذا أبعَد وغاب عن الفيل رجع أولٰئك القومُ وعاوَدوا ضربَه حتى يؤلموه، فيعودَ ذلك الرجلُ فيريَه أنّه ضربهم، فيتفرّقوا عنه، يفعلون ذلك به أيامًا والرجلُ يؤانس الفيل، ويأتيه بالمأكل والماء حتّى يألَفَه ويقرُبَ منه، فيقال: إنّه ينام بالقرب منه، ويخرج أولٰئك، فإذا رآهم الفيل قد أقبلوا أيقظه بخُرطومِه برِفق، وأشار إليه أن يردّهم عنه، فيفعل على عادته، فإذا عُلِم أنّ الفيل استأنس وزال استيحاشُه وأَلِف ذلك الرجلَ، حفَروا أمامه بتدريج وتوطئة، فيَطلعَ وقد سَلِسَ قيادُه، وزال عنادُه، ثم يحملونه في المَركَب إلى الديار المصريّة في جملة التَّقادم[1] الموظَّفةِ عليهم.

وبأرض الهند فِيَلةٌ غيرُ وحشيّة تَستأنس إلى الناس، وتتناتج بينهم، ويقاتلون عليها في حروبهم، فيجتمع للمَلكِ الواحد من ملوك الهند منها عِدّةٌ كثيرة، وأكثرُها يأوِي المُروجَ والغِياضَ كالبقرِ والجاموس في بلادِنا؛ قال المسعوديّ: وهي تهرُب من المكان الّذي فيه الكَرْكَدَّن، فلا تَرعى في موضعٍ تَشَمّ فيه رائحتَه؛ وللفِيَلةِ بأرض الهند

(١) يريد بالتقادم: الضرائب التي يقدمونها إلى السلطان في كل سنة.

آفةٌ عظيمةٌ من الحيوان، وهو الّذي يُعرَف بالزبرق أصغرُ من الفَهْد، أحمرُ اللّون برّاقُ العينين، سريعُ الوثبة، يبلُغ في وثبتِه إلى خمسين ذراعًا وأكثر، فإذا أشرَف على الفِيَلةِ رَشّ عليها ببولِه، فيُحرِقها، وربّما لحِق الإنسان فمات؛ وهذا الوحشُ إذا أشرَف على أحد من أهل الهند التجأ إلى أكبرِ شجرِ السّاج، وارتَقَى إلى أعلاها، فيأتي هذا الوحشُ إليها ويَثِب، فإن أدركه رَشَّ عليه ببولِه، فأحرقه وإن عجز عنه وضع رأسه بالأرض وصاح صياحًا عجيبًا، فتخرج من فمِه قطع من الدّم، ويموت من ساعته، ويَحترِق من الشجرة ما يقع بولُه عليه؛ قالوا: وللهندِ طِيبٌ يجمعونه من جباه الفِيَلة ورؤوسِها، فإنّها إذا اغتَلَمتْ عَرُفتْ هذه الأماكنُ منها عَرفًا كالمسك، فهم يستعملونه لظهور الشَّبَق في الرجال والنساء، وهو يقوّي النَّفْس، ويشجّع القلب؛ قالوا: والفيل يَشِبّ إلى تمام ستّين سنة، وَيُعمَّر مائتي سنة؛ وأكثرَ؛ وحَكَى أَرِسطو أنّ فيلًا ظهر عُمرُه أربعُمائةِ سنة؛ وحَكَى بعضُ المؤرّخين أنّ فيلًا سجد لأَبْرَويز، ثـم سجد للمعتضِد، وبينهما الزمانُ الّذي ذكره أَرِسطو واعتُبِر ذلك بالوَسْم؛ ووقفتُ على حكايةٍ تُناسب ما نحن فيه، أحببتُ أن أثبتها في هذا الباب، وهي: حَكَى الإمام الحافظ أبو نُعَيم أحمدُ بنُ عبد الله الأصفَهانيُّ في كتابه الموسوم (بحلية الأولياء)، قال: حدّثنا محمدُ بنُ الحسن، قال: حدّثنا عبدُ الوارث بنُ بُكَيْر: أنّ أبا عبدِ الله القَلانسيَّ ركب البحر، فعَصَفتْ عليهم الرّيحُ في مَرْكَبهم، فدعا أهلُ المَركَب وتضرّعوا، ونذَروا النُّذور، فقالوا: أَيْ عبدَالله؛ كلُّنا قد عاهد الله ونذَر نَذْرًا إن أنجانا الله، فانْذُر أنت نذرًا، وعاهِدْه عهدًا؛ فقلت: أنا مجرَّدٌ من الدنيا، ما لي وللنّذْر؛ فألحّوا عليّ فيه؛ فقلت: للهِ عليّ إن خلّصني ممّا أنا فيه لا آكل لحمَ الفيل؛ فقالوا: ما هذا النّذر؟ وهل يأكل لحمع الفيل أحد؟ فقلت: كذا وقع في سرّي، وأجراه الله على لساني؛ فانكسرت السفينة، ووقعتُ في جماعةٍ من أهلها إلى الساحل، فبقينا أيّامًا لم نذقْ ذَواقًا، فبينا نحن قعودٌ إذا نحن بولدِ فيل، فأخذوه فذبحوه وأكلوا من لحمِه، وعرضوا عليّ أكلَه، فقلت: أنا نذرت وعاهدت الله أن لا آكلَ لحمَ الفيل، فاعتلّوا عليّ بأنّي مضطر، ولي فسخُ العهد لاضطراري، فأبَيتُ عليهم، وثبتُّ على العهد، فأكلوا وامتلأوا وناموا، فبينما هم نيامٌ إذ جاءت الفيلةُ تطلب ولدَها، وتتبع أثره، فلم تزل تَشُمّ الرائحةَ حتّى انتهت إلى عظام ولدِها، فشمّتها، ثم جاءت وأنا أنظر إليها، فلم تزل تَشُمّ واحدًا واحدًا، فكلّما شمّت من واحدٍ رائحةَ اللّحم داسته برجلها أو بِيَدِها فقتلتْه، حتّى قتلَتهم كلَّهم، ثم أقبلت إليّ، فلم تزل تشمّني فلم تجد منّي رائحةَ اللّحم، فأدارت مؤخَّرَها وأومأت إليّ بخرطومِها أن اركبْ؛ فلم أقف على ما أومأتْ

به، فرفعتْ ذنَبَها ورجلَها، فعلمتُ أنّها تريد منّي ركوبَها، فركبتها واستويت عليها، وأومأتْ إليّ أن استوِ، فاستويت على شيءٍ وطيء، فسارت سيرًا عنيفًا إلى أن جاءت بي في ليلتي إلى موضع زرعٍ وسواد[1]، فأومأتْ إليّ أن انزلْ، وبركتْ برجلِها حتّى نزلتُ عنها، فسارت سيرًا أشدَّ من سيرِها بي، فلمّا أصبحت رأيت زرعًا وسَوادًا وناسًا، فحملوني إلى مَلِكِهم، وسألني تُرجُمانُه، فأخبرته بالقصّة وبما جرى على القوم، فقال لي: أتدري كم المَسيرُ الّذي سارت بك اللّيلة؟ فقلت: لا، فقال: مَسيرةَ ثمانيةَ أيّام سارت بك في ليلة، فلبِثتُ عندهم إلى أن حُمِلتُ ورجعتُ؛ والله أعلم بالصواب.

ذكرُ شيءٍ ممَّا وُصفَ بهِ الفيلُ نَظْمًا

من ذلك ما قاله الأَرَّجانيُّ[2] من أبياتٍ وصف فيها مجلسَ ممدوحِه، فقال: [من الكامل]

والفيلُ في ذيل السِّماط له ... زَجَلٌ يُهال له الفتى ذُعْرا[3]
في موقف الحُجّاب يؤمَر أو ... يُنهَى فيُمضِي النهيَ والأمرا
أُذنان كالتُّرسين تحتهما ... نابان كالرّمحين إن كَرّا
يعلو له فيّالُهُ ظَهَرًا ... فيَظَلّ مِثلَ من اعتلى قَصْرَا[4]

وقال عبد الكريم النّهشليُّ[5] يصفه: [من الطويل]

وأضخم هِنديّ النِّجارِ تُعِدّه ... ملوكُ بني ساسانَ إن نابها دهرُ
يجيء كطودٍ جائلٍ فوق أربَعٍ ... مضبَّرةٍ لُمّتْ كما لُمّت الصّخرُ[6]
له فخذان كالكَثِيبَين لُبِّدَا ... وصدرٌ كما أَوفَى من الهَضْبةِ الصدرُ
ووجه به أنفٌ كراووقِ خمرةٍ ... يَنال به ما تدرِك الأنمُلُ العشرُ[7]
وجُبّان لا يُرْوِي القَليبُ صداهما ... ولو أنّه بالقاع مُنْهَرِتٌ حَفْرُ[8]

(١) يريد بالسّواد: الرّيف.
(٢) الأرّجاني: هو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر، شاعرٌ في شعره رقة وحكمة ولي القضاء بتستر مات سنة ٥٤٤ هـ. (الأعلام ١/ ٢١٥).
(٣) الزّجل: الصوت العالي والجلبة.
(٤) القصر: يراد به العنق.
(٥) النهشلي: هو عبد الكريم.
(٦) المضبرة: المجتمعة الموثقة.
(٧) الراووق: الإناء الذي يروّق فيه الشراب.
(٨) يريد بالجبين: خرطومه وفمه. المنهرت: الواسع. الحفر: البئر الموسعة فوق قدرها.

وأُذْنٌ كنصف البُرْدِ تُسمعه النِّدا ... خفيًا وطَرْفٌ ينفض العيبَ مُزْوَرُّ
ونابان شُقًّا لا يُريد سواهما ... قناتَين سمراوَين طعنُهما بَتْرُ
له لونُ ما بين الصباح وليلِه ... إذا نطق العصفورُ أو صوّت الصقرُ

وقال ابنُ طَبَاطَبَا: [من الرجز]

أَعْجِبْ بفيلٍ آنسٍ وحشيِّ ... بهيمةٍ في فطنة الإنسيِّ
يَفهمُ عن سائسه الهِنْديِّ ... غيبَ معاني رمزِه الخفيِّ
مثل السدى الموثَّقِ المبنيِّ ... منزَّهٍ في خُلْقِه السَّوِيِّ
عن لينِ مشي رُكُبِ المطيِّ ... ذي ذنَبٍ مطوَّلٍ ثَوْرِيِّ
في مِثلِ رِدْفِ الجملِ البُخْتيِّ ... منخفِض الصوتِ طويل العِيِّ(١)
يَطُوف كالمزدجِر المَنهيِّ ... يرنو بطرْفٍ منه شادِنيِّ(٢)
في قبحِ وجهٍ منه خِنزيريِّ ... خُرطُومُه كجَعْبةِ التّركيِّ
حَكَى فمًا من سمكٍ بَحْريِّ ... تُبصِرُه في فيه ذا هُوِيِّ
كالدَّلو إذ تهوى إلى القَرِيِّ ... يَصُبّ في مصهرَجٍ مطوِيِّ(٣)
نابله في هولهما المخشيِّ ... كمِثل قرنَيْ ناطحٍ طُورِيِّ(٤)
أُذْناه في صِبْغِهما الفضّيِّ ... كطَيلسانَيْ ولَدَيْ ذِمّيِّ
سائسُه عليه ذو رُقيِّ ... منتصبٌ منه على كرسيِّ
يطيعه في أمرِه المأبيِّ ... كطاعة القُرقُورِ للنُّوتيِّ(٥)

وقال آخرُ منشدًا: [من الرجز]

من يَركَب الفيلَ فهذا الفيلُ ... إنّ الّذي يحمله محمولُ
على تهاويلَ لها تهويلُ ... كالطَّود إلّا أنّه يجولُ

وقال ابن الروميّ: [من الطويل]

يقلِّب جُثمانًا عظيمًا موثَّقًا ... يَهُدّ بركنيه الجبالَ إذا زَحَمْ

---

(١) الجمل البختيّ: هو الخراساني، وهذه الجمال تنتج ما بين عربية وفالج وهي طوال الأعناق.
(٢) الشادنيّ: نسبة إلى الشادن، وهو من أولاد الظباء الذي قد قوي وترعرع وطلع قرناه واستغنى عن أمه.
(٣) القريّ: سيل الماء من التلاع.
(٤) الطوريّ (بضم الطاء): الوحشي.
(٥) القرقور: السفينة العظيمة.

ويسطو بخُرطوم يطاوعُ أمرَه ومشتبِهات ما أصاب بها غنِمْ[(١)]
ولستَ تَرَى بأسًا يقوم لبأسِه إذا أَعمَل النابَين في البأس أو صَدَمْ

وقال هارون بنُ موسى[(٢)] مولى الأَزْد يصفه ويذكر خوفَه من الهِرّ: [من المتقارب]

أليس عجيبًا بأن خِلقةً لها فِطَنُ الإنسِ في جِرمِ فِيلْ
وأظرفُ من مشيه زَوْلُه بحِلمٍ يَجِلّ عن الخَنْشَليلْ[(٣)]
وأَوقَصُ مختلفٌ خَلْقُه طويلُ النُيوب قصيرُ النَّصِيلْ[(٤)]
ويلقى العدوَّ بنابٍ عظيم وجوفٍ رحيبٍ وصوتٍ ضئيلْ
وأشبهُ شيءٍ إذا قستَه بخِنزيرِ برٍّ وجاموسِ غِيلْ
ينازعه كلُّ ذي أربَعٍ فما في الأنام له من عديلْ
ويَعصِف بالبَبْرِ بعد النُمور كما تَعصِف الريحُ بالعَنْدَبِيلْ[(٥)]
وشخصٌ تُرَى يدُه أنفَه فإن وصفوه فسيفٌ صَقيلْ
وأَقبلَ كالطَّود هادي الخَميس بهَولٍ شديدٍ أمامَ الرَّعيلْ
ومَرّ يسيل كسيْلِ الأتيِّ بوطءٍ خفيفٍ وجسمٍ ثقيلْ
فإن شِمتَه زاد في هوله بشاعةُ أُذْنين في رأسِ غُولْ
وقد كنتُ أعددتُ هِرًّا له قليلَ التهيّبِ للزَّنْدَبِيلْ[(٦)]
فلمّا أَحسّ به في العَجاج أتانا الإلهُ بفَتحٍ جليلْ[(٧)]
فسبحان خالِقه وحده إلٰهِ الأنام وربِّ الفُيولْ

(١) يريد بالمشتبهات: أنيابه.
(٢) هو هارون بن موسى أبو عبد الله المنبوذ «بالأعور» كان يهوديًا وأسلم، وكان من المعتزلة، مات نحو سنة ١٧٠ هـ. (الأعلام ٨/ ٦٣).
(٣) الزّول: الحركة. الخنشليل: المسنّ الهرم.
(٤) الأوقص: القصير العنق. ـ النصيل: مفصل ما بين العنق والرأس من باطن، أي تحت اللحيين.
(٥) العندبيل: طائر صغير جدًا، والريح تعصف به لصغره، فهو يعرف ذلك من نفسه، فإذا قويت الريح دخل حجره. (الحيوان ٧: ٣٥).
(٦) الزندبيل: عظيم الفيلة والمقدم عليها.
(٧) العجاج: الغبار.

وقال أبو الحسن الجوهريُّ يصف الفيلَ من قصيدته التي أوّلُها: [من مجزوء الكامل]

قُـل لـلـوزيـرِ وقـد تَـبـدَّى يَستعرِض الكرمَ المُعَدّا(١)
أَفـنـيـتَ أسـبـابَ الـعُـلا حتّى أبت أن تُستَجَدّا
لـو مَـسّ راحـتُـك الـسـحـا بَ لأمطرتْ كرمًا ومجدا
لـم تَـرضَ بـالـخـيـل الّتي شَدّت إلى العلياء شدّا
وصـرائـمِ الـرأيِ الّـتـي كانت على الأعداء جندا
حـتّـى دعـوتَ إلـى الـعُـدى ما لا يُلام إذا تَعدّى
مـتـقـمِّـصًـا تِـيـهَ الـعُـلو جِ وفطنةً أعيتْ مَعدّا
مـتـعـسّـفًـا طُـرُق الـعـوا لي حين لا يُستاق قصدا(٢)
فـيـلًا كـرَضْـوى حـيـن يَـلـ بَس من رِقاقِ الغَيْم بُردا(٣)
مـثـلَ الـغـمـامـة مُـلِّـئـتْ أكنافُها برقًا ورعدا
رأسٌ كـقُـلّـةِ شـاهـقٍ كُسيتْ من الخُيَلاء جِلدا
فـتـراه مـن فـرطِ الـدّلا ل مصعِّرًا في الناس خدّا
يُـزهَـى بـخُـرطـوم كـمِـثـ لِ الصَّولَجان يُرَدُّ ردّا
مـتـمـدّدٍ كـالأُفـعُـوا ن تَمُدُّه الرَّمضاء مَدّا
أو كُـمِّ راقـصـةٍ تـشـيـ ربه إلى النُّدمان وجدا(٤)
أو كـالـمـصـلَّـب شُـدّ جـنـ باه إلى جِذعين شَدّا
وكـأنّـه بُـوقٌ يـحـرّ كه ليَنفُخَ فيه جِدّا
يـسـطـو بـساريـتَـيْ لُـجَـيـ نٍ يَحطِمان الصّخرَ هدّا
أُذنـاه مِـروَحـتـان أُسـ نِدتا إلى الفَوْدين عقدا
عـيـنـاه غـائـرتـان ضُـيّـ قتا لِجمع الضوء عَمدا
فـكٌّ كـفُـوَّهـة الـخـلـيـ ج يلوك طولَ الدهرِ حقدا

(١) يريد بالوزير: الصاحب بن عبّاد.
(٢) طرق العوالي: أي طرق القنا والرماح في القتال.
(٣) رضوى: جبل بالمدينة على سبع مراحل منها، وعلى يوم من ينبع.
(٤) الندمان: جمع نديم، وهو الرفيق على الشراب.

تلقاه من بعد فتحـ ... ـسَبه غمامًا قد تَبدَّى
مَتنًا كبنيان الخَوَرْ ... نَقِ ما يلاقِي الدّهرَ كَدّا[(١)]
رِدْفًا كدَكّة عنبرٍ ... متمايلَ الأوراك نَهْدا
ذَنَبا كمثلِ السوطِ يَضـ ... ـرِب حولَه ساقًا وزَندا
يخطو على أمثال أعـ ... ـمدةِ الخباء إذا تصدَّى
أو مثلِ أميالٍ نُضِـد ... ن من الصخورِ الصُمّ نَضْدا[(٢)]
متورّدٌ حوضَ المنيّـ ... ـة حين لا يُشتاق وِرْدا
متملّقٌ فكأنّه ... متطلّبٌ ما لن يُوَدّا[(٣)]
متلفّعٌ بالكبريا ... ء كأنّه ملكٌ مفدَّى
أدنى إلى الشيء البعيـ ... ـد يراد من وَهْم وأَهدَى
أذكَى من الإنسان حتـ ... ـى لو رأى خَللًا لَسَدّا
لو أنّه ذو لهجةٍ ... وَفَّى كتابَ الله سَرْدا
عقّته أرضُ الهند حـ ... ـتى حَلّ من زهوٍ هَرَنْدا[(٤)]
قلْ للوزيرِ: عُبِدتَ حتـ ... ـى قد أتاك الفيلُ عبدا
سبحان من جمع المحا ... سنَ عنده قربًا وبُعدا

ذكرُ ما قيلَ في الكَرْكَدَّن

والكَرْكَدَّنُ من الحيوان الشديدِ القوّة، القليلِ العَدد؛ وهو شبيه بالجاموس إلا أنه أغلظ وأعتى وأنبَلُ[(٥)] منه، وله قرنٌ غليظٌ غيرُ طويلٍ في جبهته، وقرنٌ آخرُ ألطفُ منه؛ وقد ذكره صاحبُ المنطق في كتاب الحيوان وسمّاه الحمارَ الهنديّ؛ وقال الجاحظ في كتاب الحيوان: وإنّما قلّ عدد هذا الجنس لأنّ الأنثى منه منها ما تكون نَزُورًا[(٦)]، وأيّامُ حَمْلِها ليست أقلَّ من أيّام حَملِ الفيلة؛ وهذا الحيوان يكون بأرض الهند وبلادِ الحبشة؛ وتزعم الهندُ أنّه إذا كان ببلادٍ لم يَرْعَ شيءٌ من الحيوان شيئًا في أكناف تلك البلاد هيبة له وخضوعًا وهربًا منه، وليس هو ببلاد الحبشة كذلك، بل

(١) متنًا (بالنصب): بدل من الهاء في قوله: «تلقاه». ـ الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة.
(٢) الأميال: المنارات، أي الأعلام التي تبنى في أنشاز الأرض لهداية المسافرين.
(٣) «ما لن يودّ»: أي ما ليس يوده المطلوب منه ولا يرغب فيه.
(٤) هرند: مدينة من نواحي أصبهان بينهما نحو ثلاثة أيام.
(٥) أنبل: أي أجسم وأضخم.
(٦) النزور: القليلة الولد.

يختلط به غيرُه من الحيوان؛ قال الجاحظ: وقد قالوا في ولدِها وهو في بطنها قولًا لولا أنّه ظاهرٌ على ألسنة الهند لكان أكثرُ الناس بل كثيرٌ من العلماء يُدخلونه في الخُرافة، وذلك أنّهم يزعمون أنّ أيّام حَملِها إذا كادت أن تتَمّ ونَضِجت[١] وسَخُنَتْ وجاء وقت الولادة فربّما أخرج الولدُ رأسَه من ظَبْيَتِها[٢] فأكل من أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسَه، حتى إذا تمّت أيّامُه، وضاق به مكانُه، وأنكرتْه الرحم، وضعتْه مطيقًا قويًا على الكسب والحُضر، لا يَعرِض له شيء من السباع؛ وهذا القولُ أيضًا ذكره المسعوديّ؛ قال: وإذا اغتَلَمَ الفيلُ في بلاد الهند لا يقوم له شيءٌ من الوحوش إلّا الكَرْكَدن، فإنه يقتحِم عليه، فيُحجِم عنه ويَذهب عنه سكرُ الاغتلام؛ وقيل: إنّه يطعن الفيلَ بقرنه فيموتا جميعًا، فمنهم من يقول: إنّه يَثقُل عليه فلا يستطيع أن يُخرِج قرنَه من جوفِه، فيكون ذلك سببَ حتفِهما؛ ومنهم من يقول: إن قرنَه من السّموم الّتي تقتل الفيلَ، ودمَ الفيلِ من السّمومِ الّتي إذا وقعتْ على قرنِ الكَرْكَدَّنِ مات؛ وحَكَى لي من يُرجَع إلى قوله، ويُعتمَد على نقلِه من الحُبوش أنّ الْكَرْكَدَّنَ ببلاد الحبشة إذا رأى الرجل قصده ليقتلَه، فيعمِد الرجلُ إلى شجرةٍ فيتعلّق بها، فيحاوله الْكَرْكَدَّن، فربّما كسر تلك الشجرةَ وأهلكه، فإن بال الرجلُ على أذن الْكَرْكَدَّن هَرَب وأسرع الحُضْرَ فلا يقف ولا يعود إليه، فيَسلَم منه؛ والله أعلم بالصواب.

ذكرُ ما قيلَ في الزَّرَافَةِ

والزَّرافةُ في كلام العرب: الجماعة، وإنّما سُمّيت الزَّرافةُ زرافةً لاجتماع صفات عِدّةٍ من الحيوان فيها، وهي عنقُ الجمل، وجلدُ النّمِر، وقرنُ الظّبي، وأسنانُ البقر، ورأسُ الإِيَّل[٣]؛ وزعم بعضُ من تكلّم في طبائع الحيوان أنّها متولّدةٌ من حيوانات، ويقال: إنّ السببَ في ذلك اجتماعُ الوحوشِ والدوابّ في القيظ في شرائع[٤] المياه، فتتسافد، فيَلقَح منها ما يَلقَح، ويمتنع ما يمتنع، فربّما سَفَد الأنثى من الحيوان ذكورٌ كثرة، فتختلط مياهها، فيجيء فيها خَلْقٌ مختلفُ الصّورِ والألوانِ والأشكال؛ والفُرْسُ تسمّي الزّرافة (أُشْتُرْكَاوْپَلَنْك) وتفسير (أُشْتُرْ): بعير؛ وتفسير (كَاوْ)[٥]: بقرة؛ وتفسير

(١) نضجت: أي جاوزت وقت الولادة، وهو أقوى للولد وأحكم له.
(٢) الظبية: الفرج. (٣) الأيل: صنف من البقر الوحشي.
(٤) الشرائع: جمع شريعة، وهو مورد الشاربة.
(٥) عبارة الأصل: وتفسيرها: «بقرة». وهو خطأ؛ والصواب ما أثبتناه نقلًا عن تاج العروس مادة (زرف).

(پَلَنْك): الضبْع؛ وهذا موافق لما ذهبت إليه العربُ من كونها مركَّبةَ الخلَقْ من حيوانات شتّى؛ والجاحظ ينكر هذا القول، ويقول: هو جهل شديد، لا يصدُر عمّن لديه تحصيل، لأنّ الله عزّ وجلّ يخلق ما يشاء على ما يشاء، وهو نوعٌ من الحيوان قائمٌ بنفسه كقيام الخيل والحُمُر، وما يحقِّق ذلك أنه يلد مثلَه؛ وهذا غيرُ منكور، فإنّا نحن رأينا زرافةً بالقاهرة ولدتْ زَرافةً أخرى شبهَها، وعاشت إلى الآن؛ وصفةُ الزَّرافة أنّها طويلةُ اليدين والعنق جدًّا، منها ما يزيد طوله على عشرة أذرع، قصيرةُ الرجلين جدًّا، وليس لرجليها رُكَب، وإنّما الرُّكَب ليديها كسائر البهائم؛ وهي تَجْتَرّ وتَبعَر، وفي طبع هذا الحيوان التودُّدُ للناس والتألُّفُ بهم.

ذكر ما وصفت به الزرافة

وقد وصفها الشعراء وشبّهوها في أشعارهم، فمن ذلك ما قاله عبد الجبّار بنُ حَمْدِيس الصِّقِلّيّ: [من الطويل]

ونُوبيّةٍ في الخَلْق فيها خلائقٌ ... متى ما تَرَقَّ العينُ فيها تَسَفَّلِ
إذا ما اسمُها ألقاه في السمع ذاكرٌ ... رأى الطَّرْفُ منها ما عناه بمِقْوَلِ[١]
لها فخذَا قَرْمٍ وأظلافُ قَرْهَبٍ ... وناظرتا رِئمٍ وهامَةُ أيَّلِ[٢]
كأنّ الخطوطَ البيضَ والصفرَ أشبهتْ ... على جسمِها ترصيعَ عاجٍ بصندلِ
ودائمة الإقعاء في أصل خَلقِها ... إذا قابلت أدبارُها عينَ مقبلِ
تلفَّتُ أحيانًا بعينٍ كحيلةٍ ... وجيدٍ على طول اللّواء المظلَّلِ
وتَنفُض رأسًا في الزّمام كأنّما ... تريك له في الجوّ نِفْضةَ أجدَلِ[٣]
إذا طلع النَّطْحُ استجادت نطاحَه ... برأسٍ له هادٍ على السُّحبِ معتلي[٤]
وعُرْفٌ رقيقُ الشعر تحسَب نبتَه ... إذا الريحُ هزّته ذوائبَ سنبلِ
وتحسَبها من مشيها إن تبخترتْ ... تُزَفّ إلى بعلٍ عروسًا وتنجلي
فكم منشدٍ قولَ امرىء القيس عندها ... (أفاطمُ مهلًا بعضَ هذا التدلُّلِ)

---

(١) يريد بقوله: «رأى الطرف منها..» أي أنّ العين ترى من الزرافة معنى اسمها في اللغة، وهو الجماعة، فإن في الزرافة عدة أصناف من أنواع شتى الحيوان.
(٢) القرم: الفحل من الجمال. ـ القرهب: الثور الكبير الضخم. الايل: صنف من البقر الوحشي.
(٣) الأجدل: الصقر.
(٤) النطح: الشرطان، وهما نجمان من برج الحمل، وهما قرناه. الهادي: العنق.

وقال عُمارةُ اليمنيّ[١] ـ وقد وصف تصاويرَ دارٍ منها زَرافة ـ: [من الكامل]

وبـهـا زَرافـاتٌ كـأنّ رقـابَـهـا ... في الطول ألويةٌ تَؤمّ العسكرا
نُوبيّةُ المَنْشَا تريك مِن المَها ... رَوْقًا ومن بُزْل المَهارِي مِشْفَرا
جُبِلتْ على الإقعاء من إعجابِها ... فتخالُها للتِّيهِ تمشي القهقرَى

وقال أبو عليّ بنُ رَشيق[٢] منشدًا: [من المتقارب]

ومجنونةٍ أبدًا لم تكن ... مذلَّلةَ الظهر للراكبِ
قد اتصل الجيدُ من ظهرها ... بمثلِ السَّنام بلا غاربِ
ملمّعةٍ مثلما لُمِّعتْ ... بحِنّاء وشى يدُ الكاعبِ
كأنّ الجواريَ كَنّفنَها ... تَخلَّجُ من كلِّ ما جانبِ[٣]

وقال أيضًا: [من الكامل]

وأتتك من كَسْبِ الملوك زَرافةٌ ... شتّى الصفاتِ للونِها أثناءُ[٤]
جَمعتْ محاسنَ ما حكت فتناسبت ... في خُلْقِها وتنافت الأعضاءُ
تحتثُّها بين الخوافق مِشيَةٌ ... بادٍ عليها الكبرُ والخُيَلاءُ
وتَمدّ جيدًا في الهواء يَزينها ... فكأنّه تحت اللّواء لواءُ
حُطّت مآخرُها وأَشرفَ صدرُها ... حتّى كأنّ وقوفَها إقعاءُ
وكأن فِهْرَ الطِّيبِ ما رَجمتْ به ... وجهَ الثرى لو لُمّت الأجزاءُ[٥]
وتَخَيرتْ دون الملابس حُلّةً ... عَيّتْ بصنعة مثلِها صَنْعاءُ
لونًا كلونِ الذَّبْل إلّا أنّه ... حَلّى وجَزَّع بعضَه الجَلّاءُ[٦]
أو كالسحابِ المكفهِرّة خَطَّطتْ ... فيها البروقُ وميضُها إيماءُ

---

(١) هو عمارة اليمني: هو عمارة بن علي بن زيدان المذحجي اليمني، أبو محمد مؤرّخ وشاعر فقيه مات سنة ٥٦٩ هـ. (الأعلام ٥/ ٣٧).
(٢) هو الحسن بن رشيق القيرواني، أديب نقّاد، شاعر صاحب كتاب العمدة مات سنة ٤٦٣ هـ. (الأعلام ٢/ ١٩١).
(٣) تخلج: أي تتمايل يمينًا وشمالًا. (٤) وأتتك؛ يخاطب الشاعر ملك المغرب.
(٥) فهر الطيب: أي الحجر الذي يدق به الطيب، يريد تشبيه حوافرها به في الصلابة والقوّة.
(٦) الذبل: جلد السلحفاة البحرية، أو عظام ظهر دابة بحرية تتخذ منها الأسورة والأمشاط.

أو مثلَما صَدئتْ صفائحُ جَوْشَنٍ ... وجرى على حافاتهنّ جِلاءُ[١]
نعم التجافيفُ الّتي قد دُرّعتْ ... من جِلدِها لو كان فيه وِقاءُ[٢]

وقال محمدُ بنُ شرف القَيْرَوانيّ[٣]: [من الطويل]

غريبةُ أشكالٍ غريبةُ دارِ ... لها لونُ خَطَّيْ فضّةٍ ونُضارِ
فلونٌ لها لون البياض وصفرةٍ ... كما مُزجتْ بالماء كأسُ عُقارِ[٤]
وآخَرُ ما بين اسودادٍ وحمرةٍ ... كما احمرّ مسودُّ الدخان بنارِ
أعيرت شخوصًا وهي في شخص واحد ... تحيّر في نَشْزٍ لها وقِفارِ[٥]
تَقُوم على ما بين ظِلفٍ وحافرٍ ... له جسمُ جُلمودٍ وصِبغةُ قارِ
وأربعةٍ تَحكِي سبائكَ عسجدٍ ... تطير بها في الأرض كلَّ مَطارِ
لها عنقٌ قد خالط الجوَّ تحتَه ... طوالٌ لها تخطو أمام قصارِ
وذات قَرًى وَغرِ الركوبِ وإنّما ... أُجِلَّتْ بذا عن ذِلّةٍ وصَغارِ
لها عِجْبةُ التَّيّاهِ عُجْبًا بنفسِها ... ولكنّ ذاك العُجْب تحت وقارِ[٦]

ذكرُ مَا قيلَ في البَقرِ الوحْشِيَّةِ - وهي المَهَا - والإيَّل

ولنبدأ بذكرِ ترتيبِ سنّها، ثم نذكر ما قيل فيها.

أمّا سنُّها - فقد قالت العرب: ولدُ البقرة الوحشيّةِ ما دام يَرضَع فهو فَزٌّ وفَرْقَدٌ وفَرِير؛ فإذا ارتفع عن ذلك فهو يَعْفُورٌ وجُؤْذَرٌ، وبَحْزَج؛ فإذا شبّ فهو مَهاة فإذا أسنّ فهو قَرْهَب؛ هذا ما قيل في سنّها.

وأمّا ما قيل في المَهَا - فذَكر من بحث عن طبائع الحيوان أنّ من طباعِها الشبَقُ والشهوة؛ وأنّ الأنثى إذا حَملتْ هَرَبتْ من الذّكر خوفًا من عبثِهِ بها في الحمل؛

---

(١) الجوشن: الصدر.
(٢) التجافيف: جمع تجفاف، وهو آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس وقد يلبسه الإنسان للوقاية من الحرب.
(٣) هو محمد بن سعيد بن أحمد الجذامي القيرواني، أبو عبد الله، كاتب شاعرٌ أديب مات سنة ٤٦٠ هـ. (الأعلام ٦/١٣٨).
(٤) العقار: الخمر.
(٥) النشز: المرتفع من الأرض.
(٦) عجبة التّيّاه: أي هيئة عجبه.

والذكر لفرط شهوته يركب الذكر؛ وإذا رُكب واحدٌ منها شمّ الباقي روائحَ الماء منه، فيَثِبْنَ عليه، ولا يَمنع ما يثب عليه بعد ذلك؛ ولم أقفْ من أحوالِه على غير هذا الذي أوردته، فلنذكرْ ما وُصِف به.

فمن ذلك ما قاله كاتبٌ أندلسيٌّ من رسالةٍ طَرَدِيّةٍ، جاء منها: وعَنّ لها سِرْبُ نعاجٍ يمشين رَهْوًا[١] كمشي العذارى، ويتثنّين زَهْوًا تثنّيَ السُّكارى؛ كأنّما تُجَلَّلُ بالكافور جلودُها، وتُضمَّخُ بالمسك قوائمُها وخدودُها[٢]؛ وكأنّما لبسن الدِّمَقْسَ سِربالًا، واتّخذت السّندسَ سِروالًا. [من الرجز]

من كلِّ مهضَمةِ الحَشا وحشيّةٍ تَحمِي مَداريها دماءَ جلودِها[٣]
وكـأنّـمـا أقـلامُ حـبـرٍ كَـتَـبـتْ بمدادِ عينيها طُروسَ خدودِها

فأرسلنا أُولَى الخيل على أخراها[٤]، وخلّيناها وإيّاها؛ فمضت مُضيَّ السِّهام، وهوتْ هُوِيَّ السّمام[٥]؛ فجالت في أسرابِها يمينًا وشِمالًا؛ فكأنّما أهدتْ لآجالِها[٦] آجالًا؛ فمن متّقٍ برَوْقِه[٧]، وكابٍ أتاه حتفُه من فوقِه.

وقال الأخطل يصف ثورًا: [من البسيط]

فـمـا بـه غـيـرُ مَـوشـيٍّ أَكـارعُـه إذا أَحسّ بشخصٍ ماثلٍ مَثُلا[٨]
كـأنّ عـطّـارةً بـاتـت تُـطـيـفُ بـه حتّى تَسربلَ ماءَ الوَرْسِ وانتَعَلا
كـأنّـه سـاجـدٌ مـن نَـضْـحِ دِيـمـتِـه مقدّسٌ قام تحت اللّيلِ فابتَهَلا
يَـنْـفِـي الـتـرابَ بـروْقـيـه وكَـلـكَـلِه كما استماز رئيسُ المِقْنَب النَّفَلا[٩]

(١) الرهو: السير السهل.
(٢) يريد أن في خدودها نقطًا سوداء تشبه المسك.
(٣) مداريها: أي قرونها. (٤) أخراها: أي أخرى النعاج.
(٥) السّمام: ضرب من الطير دون القطا في الخلقة، واحدته سمامة.
(٦) الآجال: جمع أجل، وهو القطيع من بقر الوحش.
(٧) الروق: القرن.
(٨) «فما به» أي بالطلل الذي ذكره في أول القصيدة.
(٩) المقنب: جماعة الخيل والفرسان ـ والنفل (بالتحريك): الغنيمة.

وقال عَدِيُّ بنُ الرِّقاع[1] يصف ثورين يعدوان: [من الكامل]

يَتعاوران من الغبارِ مُلاءةً بيضاءَ محكَمةً هما نسجاها
تُطوَى إذا وردا مكانًا جاسيًا وإذا السنابكُ أَسهَلَتْ نشراها[2]

وقال الطِّرِمّاح يصف عدوَه بسرعة: [من الكامل]

يبدو وتُضمِره البلاد كأنّه سيفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغمَدُ

وأما ما قيل في الإِيَّل - فهو من أصناف البقر الوحشيّة، وهذا الحيوان يَسمَن كثيرًا، وإذا سَمِن اختَفى خوفًا أن يصادَ لسِمَنِه؛ وهو مولَعٌ بأكل الحيّات، يطلبها في كلِّ موضع، فإن انجحرت أخذ الماءَ بفمِه، ونفخه في الحُجر، فتُخرِج له ذنَبَها فيأكلها، حتّى إذا انتهى إلى رأسِها تركه خوفًا من السّم، وربّما لسَعتْه فتسيل دموعُه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه تَدخُل في كلٍّ واحدة منهما الإصبع، فتَجمُد تلك الدموع فتصير كالشَّمَع، تُتخذ دِرْياقًا لسمّ الحيّات، وهو البازَهْرُ[3] الحيوانيّ؛ قالوا: وإذا لسَعتْه الحيّات أكل السَّراطين[4] فيبرأ ويبرئه أكلُ التفّاح أيضًا وورقُ شجره؛ وهو لا تَنبُت له قرونٌ إلّا بعد أن تمضيَ له سنتان من عمره، فإذا نبتَ قرناه نبتًا مستقيمين كالوتدين، وفي الثالثة يتشعّبان، ولا يزال التشعّبُ في زيادةٍ إلى تمام ستّ سنين، وحينئذٍ يكونان كالشجرتين على رأسِه، ثم بعد ذلك يُلقي قرونَه في كلِّ سنة، ثم تنبت، وإذا نبتا عرّضهما للشمس حتى يَصلُبا، وهما إذا كَبُرا على رأسِه منعاه من الجري؛ ولا يكاد يُفلِت إذا طلبته الخيل؛ وإذا ألقى قرونَه علم أنّه ألقى سلاحه، فهو لا يَظهر؛ قال الجاحظ: قال صاحب المنطق[5]: إنّ أنثى الإيَّل إذا وضعتْ ولدًا أكلت مَشِيمَتَها فتظنّ أنّه شيءٌ تتداوى به من علّة النّفاس؛ وزعم أرِسطو أنّ هذا النوعَ يصاد بالصفيرِ والغِناء، وهو لا ينام ما دام يسمع ذلك، ومن أراد صيدَه من الصيّادين شَغَله بعضُهم بالتّطريب، ويأتيه البعضُ مِن خلفِه، فإذا رأوه مسترخيةً أذناه وثبوا عليه؛ وإذا

---

(١) هو عدي بن زيد بن الرّقاع، من عاملة، شاعر كبير من أهل دمشق يكنّى أبا داود، كان معاصرًا لجرير مات نحو سنة ٩٥ هـ. (الأعلام ٤/ ٢٢١).
(٢) يريد بالجاسي، ما صلب من الأرض.
(٣) إن هذا اللفظ معرّب بادزهر، وإنه مولد (شفاء الغليل).
(٤) السراطين (جمع سرطان بالتحريك): وهو حيوان من خلف الماء، ويسمى: عقرب الماء أيضًا، وهو يعيش في البر أيضًا، وهو جيد المشي سريع العدو ذو مخالب وأظفار حداد.
(٥) يريد بصاحب المنطق: أرسطوطاليس.

اشتدّ عليه العطشُ من أكل الحيّات أتى غديرَ الماء واشتمَّه، ثم انصرف عنه، يفعل ذلك أربعةَ أيّام، ثم يشرب في اليوم الخامس، وإنّما يمتنع من شرب الماء خوفًا على نفسِه من سَرَيان السّمّ في جسده مع الماء؛ والله أعلم.

قال بعض الشعراء: [من الوافر]

هجرتك لا قِلًى منّي ولكن ... رأيتُ بقاءَ وُدِّك في الصّدودِ
كهجرِ الظامئات الماءَ لمّا ... تيقّنّ المنايا في الورودِ
تذوب نفوسُها ظمأً وتَخشى ... هلاكًا فهي تنظر من بعيدِ

وقال آخر في مثل ذلك: [من الطويل]

وما ظامئاتٌ طال في القيظ ظِمئُها ... فجاءت وفي الأحشاء غَلْيُ المَراجلِ[١]
فلمّا رأين الماء عذبًا وقد أتت ... إليه رأين الموتَ دون المناهلِ
فولّت ولم تَشف صداها وقد طوت ... حشاها على وَخْزِ الأفاعي القواتلِ
بأعظمَ من شوقي إليكِ وحسرتي ... عليكِ ولم ألتذَّ منكِ بطائلِ

البابُ الثاني
منَ القسم الثَّاني منَ الفَنِّ الثَّالِثِ
فيمَا قِيلَ في الحُمُر الوحشيّةِ والوَعْلِ واللّمط

ذكرُ ما قيلَ في الحُمُر الوَحْشِيَّةِ

والحمارُ الوحشيُّ يسمَّى العَيْرَ والفَرَأ؛ وبه ضَرَب رسول الله ﷺ المثل، فقال: «كلُّ الصّيدِ في جوف الفَرَإِ»؛ ويقال: إنّه ينزو إذا بلغ ثلاثين شهرًا من عمره؛ وهو يوصف بشدّة الغَيرة؛ ويقال: إنّ الأنثى إذا وَلدت جحشًا كَدَمَ[٢] الذكرُ قضيبَه، فالإناث تُعمِل الحيلةَ في إبقائه، فتهرُب به من أبيه، وتكسِر رجلَه ليستقرَّ بذلك المكان، وهي تتعهده وتُرضِعه، فإذا انجبرت رجلُه وقويت وصحّت، وأمكنه المشي عليها، يكون قد حصل فيه من القوّة والجري ما يدفع به عن نفسه، ويَهرُب إذا أبوه أو من هو أقوى منه أراد خِصاءه؛ ويقال: إنّ الحمارَ الوحشيَّ يُعمَّر مائتي سنة وأكثرَ

(١) الظمىء: ما بين الشربين.

(٢) الكدم: العض بأدنى الفم.

من ذلك، وكلّما بلغ مائة سنة صارت له مبولة[١] ثانية؛ قالوا: وشوهد منها ما له ثلاثُ مباولَ وأربع؛ ومعادنُه بلاد النُّوبةِ وزُغاوة، ويوجد منه ما تكون شِيَتُه معمَّدةً ببياض وسوادٍ في الطول من أعضائه المستطيلة، ومستديرةً فيما استدار منها بأصحّ قسمة؛ ومنها صِنفٌ يسمَّى الأَخْدَرِيّ وهو أطولُها أعمارًا.

وقد وصفها أبو الفرج البَبْغاءُ من رسالةٍ ذكر فيها أتانا معمَّدةً ببياض وسواد كانت قد أُهديتْ لعزّ الدولة بَخْتِيار بنِ بُوَيْه من جهة صاحب اليمن، قال: وأما الأتان، الناطقةُ في كمال الصنعة بأفصح لسان؛ فإنّ الزمانَ لاطف مولانا - أيّده الله - منها بأنفسِ مَذْخور، وأحسنِ منظور؛ وأعجبِ مرئيّ، وأغربِ مَوْشيّ؛ وأفخرِ مركوب، وأشرفِ مجنوب؛ وأعزّ موجود، وأبهى مخدود[٢]؛ كأنّما وسَمَها الكمالُ بنهايتِه، أو لحظَها الفَلَكُ بعنايتِه؛ فصاغها من ليلِه ونهارِه، وحلّاها بنجومِه وأقمارِه، ونقشها ببدائع آثارِه؛ ورمقها بنواظرِ سعودِه، وجعَلَها أحد جدودِه[٣]؛ ذات إهابٍ مسيَّر[٤]، وقرْبٍ[٥] محبَّر، وذنَبٍ مشجَّر، وشَوًى[٦] مسوَّر[٧]؛ ووجهٍ مزجَّج[٨]، ورأسٍ متوَّج؛ تكنُفه أذنان، كأنهما زُجّان[٩]؛ سُبْجِيّة[١٠] الأنصاف، بَلُّوريّة الأطراف، جامعة شِيَتها بالترتيب، بين زمنَي الشبيبةِ والمشيب؛ فهي قَيدُ الأبصار، وأمدُ الأفكار، ونهايةُ الاعتبار؛ غنيٌّ عن الحَلْي عَطَلُها، مُزرِيةٌ بالزَّهرِ حللُها؛ واحدةُ جنسِها، وعالَمُ نفسِها صنعةُ المنشىء الحكيم، وتقديرُ العزيز العليم.

وقال ابن المعتزّ: [من الخفيف]

شغلتْه لواقحٌ ملأتْه ... غَيرةً فهو خلفَهنّ حَميّ
قابِضٌ جَمْعَها إليه كما يَجـ ... ـمَع أيتامَه إليه الوصيُّ

---

(١) يريد بالمبولة: المكان الذي يبول منه. ولم نجد المبولة فيما راجعناه من كتب اللغة. والذي وجدناه بهذا المعنى «مبال». والمبال: الفرج. (مستدرك التاج).
(٢) المخدود: الموسوم في الخد. واسم ذلك الميسم الخداد (بكسر الخاء).
(٣) «جعلها أحد جدوده» أي جعل هذه الأتان حظًا من حظوظه السعيدة لمن يملكها.
(٤) مسير: أي أن مشيته مستطيلة تشبه السيور.
(٥) القرب (بضم وبضمتين): الخاصرة؛ وقيل: هو من لدن الشاكلة إلى مراق البطن.
(٦) الشوى: اليدان والرجلان. (٧) مسور: أي محاط بمثل السور من النقش.
(٨) المزجج: الذي تشبه شيته الزجاج (بكسر الزاي) وهي نصل السهام.
(٩) الزجان: تثنية زج، وهو الحديدة التي تركب في أسفل الرمح يركز بها في الأرض.
(١٠) السبجية: نسبة إلى السبجة (بضم فسكون) وهي بردة من صوف فيها سواد وبياض.

كـلّمـا شَـمّ لاقـحًـا شُـمَّ مـنـهـا ... رأسُ فـحـلٍ بـرجـلِهـا مَـفْـلـيُّ[١]
خـارجٌ مـن ظـلالِ نَـقْـعٍ كـمـا فَـ ... ـرّق جـلـبـابَـه الـخـلـيـعُ الـغَـوِيُّ
قد طواها التسويقُ والشدُّ حتّى ... هـي قُـبٌّ كـأنّـهـنّ الـقِـسِـيُّ[٢]
هـرَبـتْ مـن رؤوسـهـنّ عـيـونٌ ... غـائـراتٌ كـأنّـهـنّ الـرُّكِـيُّ

ذكرُ ما قيلَ في الوِعْلِ

الوِعْلُ، هو التيس الجبليّ، والأنثى تسمّى أُروِية[٣]؛ وهي شاةُ الوحش؛ وفي طباع هذا الحيوان أنّه يأوي الأماكنَ الوَعْرةَ والخشنةَ من الجبال؛ ولا يزال مجتمعًا، فإذا كان في وقت الولادة تفرّق؛ وإذا اجتمع في ضَرْع الأنثى لبنٌ امتصّته؛ والذكرُ إذا ضعف عن النَّزوِ أكل البَلُّوط فتقوَى شهوتُه، ومتى فقد الأنثى انتَزَع منيَّه بفيه بالامتصاص، وذلك لشدّة الشَّبَق؛ وهو إذا جُرح عَمَد إلى الخَضِرة الّتي تكون على الحجارة، فيمضَغها ويجعلها على الجرح فيبرأ؛ وإذا أَحَسَّ بقنّاصٍ وهو في مكانه المرتفع استلقى على ظهره، ثم يُزجّ بنفسِه فينحدر من أعلى الجبل إلى أسفلِه، وقَرناه يقيانه ألَمَ الحجارة، ويُسرعان هبوطَه لملاستهما فإنّهما من رأسِه إلى عَجُزِه؛ وفي طبع هذا الحيوان الحنوُّ على ولده والبرُّ بوالديه؛ أمّا حنوُّه على ولدِه فإنّه إذا صيد منها شيءٌ تبعته أمّه واختارت أن تكون معه في الشّرك؛ وأمّا برُّه بوالديه، فإنّهما إذا عجزا عن الكسب لأنفسهما أتاهما بما يأكلانه، وواساهما من كسبه، فإن عجزا عن الأكل مَضَغ لهما وأطعمهما؛ ويقال: إنّ في قرنيه ثَقْبين يتنفس منهما، فمتى سُدّا جميعًا هلك.

ذكر ما وصف به الوعل

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك ما قاله الصاحب بنُ عبّاد: [من الطويل]

وأَعْـيَـنَ كـالـذّرّيّ فـي سَـفِـلاتـه ... سوادٌ وأعلى ظاهرِ اللّونِ واضحُ[٤]
مـوقَّـف أنـصـافِ الـيـديـن كـأنّـه ... إذا راح يجري بالصريمةِ رامحُ[٥]

---

(١) مفلي: أي محوك.
(٢) التسويق: السوق. القبّ: الضوامر، واحده قباء.
(٣) أُروية: أنثى الوعل.
(٤) الأعين: هو عظيم سواد العين في سعة. الذريّ: السيف الكثير الماء. قال في التاج: كأنه نسبة إلى الذرّ، وهو النمل.
(٥) موقف: أي كأنه ألبس الوقف، وهو سوار من عاج. والصريمة: القطعة الضخمة من معظم الرمل. الرامح: أي صاحب الرمح.

وقال أبو الطيّب المتنبيّ: [من الرجز]

وأَوفَت الفُدْرُ من الأوعالِ مرتدياتٍ بقِسيّ الضَّال(١)

نواخسَ الأطراف للأكفالِ يكدن يَنفُذن من الآطال(٢)

لها لَحى سودٌ بلا سِبالِ يَصلُحن للإضحاك لا الإجلالِ

كلُّ أَثيثٍ نَبتُه مِتفالِ لم يُغذَ بالمِسكِ ولا الغوالي(٣)

* يَرضَى من الأدهانِ بالأبوالِ *

ذكر ما قيل في اللّمط

واللّمطُ حيوانٌ وحشيٌّ يكون ببلاد الغَرْب الجَوّانيّ(٤)، في قدرِ المُهر اللّطيف، له قرونٌ غيرُ متشعّبة، ولا مفاصلَ لرُكبِه، فهو لا يستطيع النومَ إلّا مستندًا إلى شجرةٍ أو جدار، فإذا أريد صيدُه عَمَدَ من يريد ذلك إلى تلك الشجرة التي هي في محلّ مظانّ نومه، فينشُر أكثرها، ويترك منها يسيرًا لا يحمله، فإذا استند إليها سقطتْ وسقط بسقوطها، فيؤخذ ويُذبح وتُتّخذ من جلده دَرَقٌ تباع بالأثمان الغالية، تردّ طعنةَ الرّمح ورشقةَ السّهم، ومهما أصابها من الحديد انطوى، فإن تمكَّن منها ونُزِع وبقِيَ أثره التَحم في اليوم الثاني وخَفِيَ أثرُه؛ أخبرني بذلك من أثق بقوله.

---

(١) أوفت: أي أشرفت؛ ـ الفدر: الوعول المسنّة الضخمة. الضال: هو شجر السدر البريّ، تعمل منه القسي.

(٢) نواخس الأطراف: أي أنّ أطراف قرونها تنخُس أكفالها من طولها. ـ الآطال: الخواصر، واحدها إطل.

(٣) الأثيث من الشعر: الكثير الملتف؛ المتفال: المتغير الريح النتن. ـ لم يغذ: أي شعر لحاها.

(٤) الجوّاني: نسبة إلى الجو، وهو من كل شيء داخله وباطنه. والظاهر أن الأرض التي يوجد فيها هذا الحيوان هي أرض (لمطة) بفتح اللام وسكون الميم. وقد ذكر ياقوت في معجمه «أن هذه الأرض هي أرض لقبيلة البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم، وإليهم تنسب الدرق اللمطية التي إذا ضربت بالسيف نبا عنها.. الخ ويتخذ من جلود هذا الحيوان درق تباع بالأثمان الغالية ترد طعنة الرمح ورشقة السهم.

البَابُ الثَّالِثِ
مِنَ القِسْمِ الثَّانِي مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
فِي الظَّبيِ وَالأرنَبِ وَالقِردِ وَالنَّعَامِ

ذكرُ مَا قيلَ في الظَّبي

للظِّباء أسماءٌ نطقت بها العرب، واحدُها ظَبْي، والأنثى ظَبْية، وولدُها طَلا وغَزَال؛ فإذا تحرّك ومشى فهو رَشَأ؛ فإذا نبت قرناه فهو شادِنٌ وخِشْف؛ فإذا قَوِيَ فهو شَصَر، والأنثى شَصَرة، ثم هو جَذَع، ثم ثَنيّ، ولا يزال ثَنِيًّا حتّى يموت. والظِّباءُ أنواعٌ تختلف بحسب مواضعها؛ فصِنفٌ منها يسمَّى الآرام، وهي الخالصةُ البياض، ومساكنُها الرمل، وهي أشدُّها حُضْرًا؛ وصِنفٌ يسمَّى العُفْر، وألوانُها بيضٌ تعلوها حمرة؛ وصِنفٌ يسمَّى الأُدْم، وألوانُها أيضًا كذلك، ومساكنُها الجبال؛ ومن طبع هذا الحيوان أنّه إذا فقد الماءَ استنشَق النسيمَ فاعتاض به عنه؛ وهو إذا طُلِب لم يَجهَد نفسَه في الحُضْر لأوّلِ وهلة، ولكنّه يَرفقُ بنفسه، فإذا رأى طالبَه قد قَرُب منه زاد في حُضْرِه حتّى يفوتَ الطالب؛ وهو يَخْضم[1] الحنظلَ حتّى يُرَى ماؤه يسيل من شِدْقيه؛ ويَرِدُ الماءَ الملحَ الأُجاجَ فيَغمِس لحيتَه فيه كما تفعل الشّاةُ في الماء العذب، يطلب النَّوى المُنْقَعَ فيه؛ وهو لا يَدخل كناسَه إلّا مستدبِرًا، يستقبِل بعينيه ما يخافه على نفسِه؛ وله نَومَتان في مَكْنِسين: مَكْنِسِ الضُّحى، ومَكْنِسِ العشيّ؛ وهو يصاد بالنّار، فإنّه إذا رآها ذَهِل لها ودُهِش، سيّما إذا أضيف إلى إشعالِ النارِ تحريكُ الجَرَس، فإنّه ينخذل ولا يَبقَى به حِراكٌ ألبتّة؛ وبين الظَّبي والحَجَلِ ألفةٌ ومحبّة؛ وهو يوصف بحدّة النظر.

فَصْــــلٌ

ومما يَلتحق بهذا النوع غزالُ المِسْك، ولونُه أسود، وله نابان خفيفان أبيضان خارجان من فيه في فكّه الأسفل، قائمان في وجهه كنابَي الخنزير، كلُّ واحدٍ منهما دون الفِتْر، على هيئة ناب الفيل؛ ويكون هذا الغزالُ ببلاد التُّبَّت[2] وبالهند؛ ويقال إنه

---

(١) يخضم: أي يأكل.

(٢) التبّت: مملكة متاخمة لمملكة الصين، ومتاخمة لإحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة، ومن جهة المغرب لبلاد الترك. (معجم البلدان لياقوت).

يسافر من التُّبَّت إلى الهند بعد أن يَرْعى من حشيش التُّبَّت ـ وهو غيرُ طيّب ـ فيُلقِي ذلك المِسْكَ بالهند، فيكون رديئًا لأنه يَحْصل عن ذلك المَرعَى، ثمّ يَرعَى حشيشَ الهندِ الطّيّبَ ويعقِد منه مِسكًا، ويأتي بلادَ التُّبَّت فيلقيه فيها، فيكون أجودَ ممّا يلقيه في بلاد الهند؛ وسنذكر إن شاء الله تعالى خبرَ المِسْك في بابه في آخرِ فنّ النبات في القسم المذيَّلِ به مستوفًى، فلا فائدةَ في تَكراره؛ فلنذكرْ ما وُصف به الغزالُ من الشعر.

قال ذو الرُّمَّة[1] ـ وذَكَر محبوبتَه ـ: [من الطويل]

ذكـرتُـكِ أن مـرّتْ بـنـا أمُّ شـادِنٍ ... أمامَ الـمـطـايـا تَـشرئـبّ وتَـسنَـحُ
من الـمؤلِفاتِ الرمل أَدْماءُ حُرّةٌ ... شعاعُ الضُّحى في متنِها يَتوضّحُ
هي الشِّبْهُ أعطافًا وجِيدًا ومقلةً ... ومَـيّـةُ أَبـهـى بـعـدُ مـنـهـا وأمـلَـحُ

وقال آخر: [من الطويل]

وحـالـيـةٍ بـالـحسـن والـجِيدُ عـاطلٌ ... ومكحولة العينين لم تَكتحِلْ قطّ
على رأسِـهـا من قرنِها الـجَعْدِ وَفرةٌ ... وفي خدّها من صُدْغِها شاهدٌ سَبْطُ[2]
وقـد أُدمجتْ بـالشّـحـم حتّى كـأنّـمـا ... مُلاءتُها من فرطِ ما اندمجتْ قُمْطُ[3]

ذكرُ ما قيلَ في الأرنَبِ

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنّ قضيبَ الأرنب كَذكَر الثعلب، أحدُ شطريه عَظْم، والآخَرُ عَصَب؛ وربّما رَكبت الأنثى الذكرَ حين السِّفاد لما فيها من الشَّبَق، وتُسفَد وهي حبلى؛ وهي قليلةُ الإدرار على ولدِها؛ ويزعمون أنّه يكون شهرين ذكرًا، وشهرين أنثى؛ وحَكى ابنُ الأثير في تاريخه (الكاملِ) في حوادث سنةِ ثلاث وعشرين وستِّمائة، قال: وفيها اصطاد صديقٌ لنا أرنبًا، فرآها لها أنثيان وذكرٌ وفرجُ أنثى، فلما شقُّوا بطنَها رأوا فيه خُرَيْقين[4]. والأرنبُ تنام مفتوحةَ العينين،

(١) ذو الرُّمَّة: هو غيلان بن عقبة، يكنى أبا الحارث، وهو صاحب مي، شاعر أسدي. (الشعر والشعراء: ص ٣٥٠).
(٢) يريد بقرنها: شعرها، بدليل وصفه بعد بالجعودة والوفرة.
(٣) القمط: جمع قماط بكسر القاف، وهو الخرقة العريضة التي تلف على الصبيّ إذا قمط. يريد: أن هذه الظبية مشدودة في جلدها لفرط سمنها كما يشد الصبي في القماط ويلف فيه.
(٤) خريقين: أي خرقين صغيرين.

وسببُ ذلك أنّ حِجَاجَيْ[1] عينيها لا يلتقيان؛ ويقال: إنّ الأرنبَ إذا رأت البحرَ ماتت، ولذلك لا توجد بالسواحل؛ وتزعم العرب أنّ الجنّ تهربُ منها إذا حاضت؛ ويقال: إنّها تحيض كالمرأة، وتأكل اللّحم وغيرَه، وتَجْتَرّ وتَبعَر، وفي باطن أشداقها شعر، وكذلك تحت رجليها، وليس شيءٌ قصيرُ اليدين أسرعَ منها حُضْرًا، ولقصرهما يَخفّ عليهما الصعود؛ وهي تطأ الأرضَ على مؤخّرِ قوائِمها تعميةً لأثرِها حتّى لَا يعرفه الطالبُ لها، وإذا قرُبتْ من المكان الذي تريد أن تَجثِم فيه وثبتْ إليه.

وفي الأرنب منافعُ طبّيةٌ ذكَرها الشيخُ الرئيسُ أبو عليّ بنْ سينا، قال: إنّ إِنْفَحةَ الأرنبِ حارّةٌ يابسةٌ ناريّة، تحلّل كلّ جامدٍ من دم ولبنٍ متجبّنٍ وخِلْطٍ غليظ، وتجمِّد كلّ ذائب، وتَمنع كلّ سيلانٍ ونَزْفٍ من النساء؛ قال: ولا شكّ أنّها مع ذلك مجفِّفة، وإذا شُرِبتْ مَنَعتْ من الصَّرْع، وكذلك سائرُ الأنافح، وهي رديئة للمعدة وإذا حُملتْ بعد الطُّهر ثلاثةَ أيّام بالخَلّ مَنَعت الحبلَ ونفت الرّطوبةَ السائلةَ من الرَّحِم، وتنفع من اختناق الرَّحِم؛ قال: ودمُ الأرنبِ يَنفِي الكَلَف[2]؛ ورمادُ رأسِه جيّدٌ لداء الثعلب؛ وإذا أُخذ بطنُ الأرنبِ كما هو بأحشائه وأُحرِق قَلْيًا على مِقْلًى كان دواءً منبِتًا للشعر إذا سُحق واستُعمل بدهن الورد؛ ودماغُه مشويًا ينفع من الرِّعشة الحادثةِ عقيبَ المرض؛ وإذا حُلّ دِماغُ الأرنبِ بسمنٍ أو زبدٍ أو عسلٍ أَسرَعَ إنباتَ الأسنان، وسهل بغيرِ وجع؛ ودمُ الأرنبِ مقلوًا ينفع من السَّحْج[3] وورمِ الأمعاء والإسهالِ المزمِن، وينفع من السّهام الأَرْمَنِيّة؛ هذا ما قاله الشيخُ الرئيسُ في الأرنب.

وقد وصف بعضُ كتّاب الأندلس عدّةً من الأرانب، فقال: أفرادٌ إخوان كأنّهنّ أولادُ غِزلان؛ بين رَوّاغ ينعطف انعطافَ البُرَه[4]، ووثّابٍ يجتمع اجتماعَ الكُره؛ حاك القَصَب إزارَه، وصاغَ التبر طوقَه وسُوارَه؛ قد غُلِّل بالعنبر بطنُه، وجُلِّل بالكافورِ متنُه؛ كأنّما تَضَمَّخَ بعَبِير، وتلفَّعَ في حرير؛ ينام بعينَيْ ساهر، ويَفُوت بجناحَيْ طائر؛ قصير اليدين، طويل السّاقين؛ هاتان في الصعود تُنجدانه، وتانِكَ عند الوثوب تؤيّدانِه؛ والله أعلم.

(١) حجاجي العين: العظمان اللذان ينبت عليهما شعر الحاجب.
(٢) الكلف: شيء يعلو الوجه كالسمسم.
(٣) السّحج: هو انقشار ظاهر الجلد من شيء يصيبه.
(٤) البره: الخلخال.

ذكرُ ما قيلَ في القِرْدِ

القردُ عند المتكلّمين في الطبائع مركّبٌ من إنسانٍ وبهيمة؛ وهو إذا سقط في الماء غَرِق مثلَ الإنسان الّذي لا يُحسِن السِّباحة؛ وهو يأخذ نفسَه بالزواجِ والغَيرةِ على الأنثى؛ وهو يَقْمَل، وإذا قَمِل تَفَلَّى، ويأكل ما ينتزعه من بدنه من القمل؛ وهو كثيرُ الشَّبَق، وإذا اشتدّ به الشَّبَقُ استَمنَى بفيه؛ والأنثى تلد عدّةً نحوَ العشرة وأكثر، كما تلد الخِنزيرة؛ وهي تَحمِل بعضَ أولادها كما تحمِل المرأة؛ ويقال: إن الطائفةَ[١] من القرود إذا أرادت النومَ ينام الواحدُ في جنب الآخَرِ حتى يكونوا سطرًا واحدًا، فإذا تمكّن النومُ منها نهض أوّلُها من الطَّرَف الأيمن، فيمشي وراء ظهورِها حتى يقعدَ من وراء الأقصى من الطَّرَف الأيسر، فإذا قعد صاح؛ فيَنهَض الذي يليه، ويفعل مثلَ فعلِه؛ فهذا دأبُهم طولَ اللّيل؛ فهم يبيتون في أرضٍ ويُصبِحون في أخرى؛ وفي القرد من قبول التأديب والتعليم ما لا خفاء به عن أحد حتى إنه دُرِّب قردٌ ليزيدَ بنِ معاوية على ركوبِ الحمير والمسابقةِ عليها؛ وحَكى المسعوديُّ في كتابه المترجَم بمروج الذهب: أن القرَدَة في أماكنَ كثيرةٍ من المعمور، منها (وادي نخلة) بين (الجَنَد)[٢] وبلاد (زَبِيد)، وهو بين جبلين، وفي كلّ جبلٍ منهما طائفةٌ من القرود يسوقها هزر، وهو القردُ العظيمُ المقدَّمُ فيها؛ قال: ولها مجالسُ يجتمع فيها خلقٌ كثير منها؛ فيُسمَع لها حديث والإناثُ بمَعزِلٍ عن الذكور، والرئيسُ متميِّزٌ عن المرؤوس؛ وباليمن قرودٌ كثيرةٌ في نواحٍ متعدِّدة؛ منها في ذَمارٍ[٣] من بلاد صنعاء في بَراريّ وجبالٍ كأنّها السحب؛ وتكون القرود أيضًا بأرض النُّوبة وأعلى بلادِ الحبشة، وهذا الصِّنفُ من القرود حسنُ الصورة، خفيفُ الروح، مدوَّرُ الوجه، مستطيلُ الذَّنَب، سريعُ الفهم، ويسمّونه النَّسناس؛ ومنها أيضًا بخُلجان الرّانج[٤] في بحرِ الصين وبلادِ المهراج[٥] وفي ناحية الشّمال نحو أرض الصَّقالبة ضرب من القرود منتصبُ القامات، مستديرُ الوجوه، والأغلبُ عليهم صورُ الناس وأشكالُهم، ولهم شعور، وربّما صيد منها القردُ

---

(١) الطائفة: الجماعة.

(٢) الجند: بلد باليمن بين عدن وتعز وبين الجند وصنعاء ثمانية وخمسين فرسخًا. (معجم البلدان لياقوت).

(٣) ذمار: بلد على مرحلتين من صنعاء. (معجم البلدان لياقوت).

(٤) الرّانج: جزيرة في أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند في حدود الصين. (معجم البلدان لياقوت).

(٥) المهراج: هي جزيرة سريرة، قيل إنها من أعمال الصين.

في النادرِ بالحيلة، فيكون في نهاية الفهم والدِّراية، إلّا أنّه لا لسانَ له يعبِّر به عمّا في نفسِه، لكنّه يفهم كلَّ ما يخاطَب به بالإشارة؛ ومن النَّواحي الّتي بها القرود جبلُ موسى، وهو الجبل المُطِلُّ على مدينة سَبْتة[١] من بلاد المَغرب، والقرودُ الّتي فيها قباحُ الصور جدًّا، عظامُ الجثث، تشبه وجوهُها وجوهَ الكلاب، لها خُرطوم، وليس لها أذناب، وأخلاقُها صعبةٌ لا يكاد ينطبع فيها تعليمٌ إلّا بعد جَهْد؛ وحَكى لي بعضُ المغاربة أنهم إذا أرادوا صيدَ هذه القرود يتحيّلون عليها بأن يصنعوا لها زَرابِين[٢] بقدرِ أرجلِها، ويلطِّخوا نعالَها بالصابون، ويأتوا إلى مكانِ هذه القرودِ فيقعدوا حيث تراهم، ويَلبَسوا زَرابينهم ويمشوا بها، ويتركوا تلك الزَّرابينَ الصغار، فتأتي القرودُ وتَلبَس الزَّرابين، فتخرج عليها الرجال، فتعدو القرودُ بتلك الزّرابين، فلا تثبت أرجلُها على الأرض، وتَزلَق، فتدركُها الرجالُ ويأخذوها. ولم أقف على شعرٍ يتعلّق بوصف القرد فأثبتَه؛ والله أعلم.

ذكرُ مَا قيلَ في النَّعَامِ

والنعامة تسمّى بالفارسية: أُشْتُرْ مُرْغ، ومعنى أُشْتُرْ: جَمَل، ومُرْغ: طائر، فكأنّهم قالوا: جملٌ طائر؛ ومن أعاجيبها أنّها تضع بيضَها عند الحِضان، وتعطي كلَّ بيضةٍ منها نصيبَها من الحَضْن، لأنّ بدنَها لا يشمل جميعَ ما تَحضُنه، فإنّها تَحضُن أربعين بيضةً أو ثلاثين، وتَخرُج لطلب الطُّعم، فتمرّ في طريقها ببيضِ نعامةٍ أخرى فتَحضُنه وتَنسَى بيضَها؛ قال ابنُ هَرْمَةَ: [من المتقارب]

وإنّي وتركي ندى الأكرمين ... وقَدْحي بكفّيَّ زَنْدا شَحاحا[٣]
كتاركةٍ بيضَها بالعَراء ... وملبِسةٍ بيضَ أخرى جَناحا

ويقال: إنها تقسم بيضها أثلاثًا، منه ما تَحضُنه، ومنه ما تجعل صفاره[٤] غِذاء، ومنه ما تفتحه وتتركه في الهواء حتى يَعْفَن، وتتولّد من عُفونتِه دواب[٥]،

(١) سبتة: بلدة مشهورة من بلاد المغرب، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس، على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البرّ والجزيرة.
(٢) الزرابين: النعال التي تلبس في الأرجل، واحده زربون.
(٣) الزند الشحاح: الذي لا يورى كأنه يشح بالنار.
(٤) لم نجد الصفار فيما راجعناه من كتب اللغة بالمعنى المراد هنا، وهو مح البيض، أي الصفرة التي تكون فيه. والظاهر أنه استعمال عامي.
(٥) دواب: يعني حشرات.

فتُغذى بها فراخَها إذا خرجتْ؛ وكلُّ ذي رجلين إذا انكسرت إحداهما استعان في نهوضِه وحركتِه بالثانية إلّا النّعامة، فإنّها تَبقَى في مكانِها جاثمةً حتى تَهلِك جوعًا؛ قال الشاعر: [من الطويل]

إذا انكسرتْ رجلُ النّعامة لم تجِد ... على أختِها نهضًا ولا بأستِها حَبْوًا

والعربُ تزعم أنّ الظّليمَ أصلم(١)، وأنّه عُوِّض عن السّمعِ بالشّمّ، فهو يَعرِف بأنفِه ما لا يحتاج معه إلى سَمع، والعربُ تقول في أمثالها: «أحمقُ من نَعامة»، قالوا: لأنّها إذا أدركها القانصُ أدخلتْ رأسَها في كَثيبِ رملٍ وتقدِّر في نفسها أنّها قد استخفت منه؛ والنّعامُ قويُّ الصبر على العطش، شديدُ العَدْو، وأشدّ ما يكون عَدْوُه إذا استَقبَل الريح، وهو في عَدْوِه يضع عنقَه على ظهرِه، ثم يخترِق الريح؛ والنّعامةُ تُبتلِع العظمَ والحجرَ والحديدَ فيصير في جوفها كالماء، وتبتلِع الجمر؛ وهو يصاد بالنارِ كسائر الوحش، فإنه إذا رأى النارَ دُهِش ووقف فيتمكّن منه الصائد.

وقد وصفها إبراهيمُ بنُ خفاجةَ الأندلسيُّ فقال: [من الكامل]

ولربَّ طيّارٍ خفيفٍ قد جرى ... فشلا بجارٍ خلفَه طيّارِ(٢)

من كلِّ فاجرةِ الخُطا مختالةٍ ... مشيَ الفتاةِ تَجُرّ فضلَ إزارِ(٣)

مخضوبةِ المِنقار تحسَب أنّها ... كَرَعتْ على ظمإٍ بكاسِ عُقارِ(٤)

لا تَستقرّ بِها الأداحي خشيةً ... من ليلِ ويلٍ أو نهارِ بَوارِ(٥)

وقال الجِمّاني: [من البسيط]

قد ألبَس الليلَ حتى ينثني خَلَقًا ... وأركَب الهول بالغرِّ الغرانيقِ(٦)

وأنتحِي لنعام الدّو مُلْهِبَةً ... كأنّها بعضُ أحجارِ المَجانيقِ(٧)

تُسدِي الرياحُ بها ثوبًا وتُلحِمُه ... كما تلبَّسُ مِن نسج الخَداريقِ(٨)

---

(١) الأصلم: الذي استؤصل أذناه، والعرب تصف النعام بذلك لأنها لا آذان لها ظاهرة.

(٢) شلا: أي رفع؛ ويريد بالجار الذي خلفه: الجناح.

(٣) فاجرة الخطا: أي أنها تتمايل في مشيها. (٤) العقار: الخمر.

(٥) الأداحي: المواضع التي يبيض فيها النعام ويفرخ، واحده أدحي وأدحية.

(٦) الغرانيق: جمع غرنوق، وهو الشاب الناعم الأبيض الجميل.

(٧) الدوّ: الفلاة المستوية الواسعة. ـ الملهبة: الشديدة الجري المثيرة للغبار في عدوها.

(٨) الخداريق: جمع خدرنق، وهو العنكبوت.

كـأنّـمـا ريـشُـهـا والـريـحُ تَـفـرِقُـه   أسـمـالُ راهـبـةٍ شـيـبـتْ بـتـشـقـيـقِ
كـأنّـهـا حـيـن مَـدَّتْ رُؤْسَـهَـا فَـرَقًـا   سُـودُ الـرجـالِ تَـعـادَى بـالـمَـزاريـقِ[1]
كـأنّ أعـنـاقَـهـا وَهْـنًـا إذا خَـفـقـتْ   بـهـا الـبـلاقـعُ أَدْقـالُ الـزواريـقِ[2]
فـمـا اسـتـلـذّ بـلـحـظِ الـعـيـنِ نـاظـرهـا   حـتّـى تَـغـصَّـصَ أعـلاهـنّ بـالـرّيـقِ

(١) الرؤس: جمع رأس وهو معروف ـ وتتعادى وتعادي من العدو: وهو الجري.
(٢) الأدقال: جمع دقل (بالتحريك) وهو خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع.

القسم الثالث
من الفن الثالث
في الدوابّ والأنعام

وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل من هذا القسم
في الخيل

وابتداء خَلقِها، وأوّل من ذلّلها وركبها، وما ورد في فضلها وبركتها من الآثار الصحيحة، والأحاديث النبويّةِ الثابتةِ الصريحة، وما ورد في فضل الإنفاق عليها، وما جاء في التماس نَسلِها، والنهيِ عن خصائها والرّخصةِ فيه؛ وما قيل في أكل لحومِها من الكراهة، وما ورد من النهي عن عَسْبِ[١] الفرس وبيعِ ماء الفحل، وما نُدِب إليه من إكرامِ الخيل ومنعِ إذالتِها[٢]، والأمرِ بارتباطها، وما يُستحَبّ من ألوانِها وشِياتِها[٣] وذكورِها وإناثِها، وما ورد في شؤم الفرسِ، وما يُذَمّ من عصمِه[٤] ورَجَلِه[٥]، وما جاء في سباق الخيل، وما يحلّ منه وما يحرم، وكيفيّةِ التّضميرِ[٦] عند السّباق، وأسماءِ السوابق في الحَلْبة، وما يُقسَم لصاحب الفرس من سهام الغنيمة، والفرقِ في ذلك بين العِرابِ والهُجُنِ والبَراذين، والعفوِ عن سقوط الزّكاةِ في الخيل، وما وَصَفت العربُ به الخيلَ من ترتيبها في السنّ، وتسميةِ أعضائِها وأبعاضِها[٧] وألوانِها وشِياتها، والمحمودِ من صفاتِها ومحاسنِها، وعدِّ عيوبِها الّتي تكون في خلقتها وجريها، والعيوبِ الّتي تَطرأ عليها وتحدُث فيها، وذكرِ خيلِ رسول الله ﷺ، وعِدّتِها وأسمائِها،

---

(١) عسب الفرس: كراؤه للضّراب، وقيل: العسب: ماء الخيل.
(٢) إذالتها: أي إهانتها. (٣) الشيات: جمع شية، وهي الصنعة.
(٤) العَصَم: البياض الذي يكون في يدي الفرس.
(٥) الرجل: (بفتح الراء والجيم وكسر اللام) البياض الذي يكون في إحدى رجليه.
(٦) تضمير الخيل: تقليل علفها مدة وإدخالها بيتًا كنينًا وتجليلها فيه لتعرف ويجف عرقها فيصلب لحمها ويخف، وتقوى على الجري؛ يقال: ضمّرت الفرس وأضمرته. (اللسان).
(٧) أبعاضها: أجزاؤها.

وكرام الخيلِ المشهورةِ عند العرب، وما وُصِفت به الخيلُ في أشعار الشعراء ورسائلِ الفضلاء الّتي تتضمّن مدحَ جيّدِها وذمَّ رديئِها، وغيرِ ذلك على ما نوضحه ـ إن شاء الله تعالى ـ ونبيّنه، ونأتي به على الترتيب والتحقيق، فنقول وبالله التوفيق، وإليه المآب.

ذكر ما ورد في ابتداء خَلْقِ(١) الخيل وأوّلِ من ذلّلها وركبها

قال أبو إسحٰق أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ النَّيسابوريُّ المعروف بالثّعلبيِّ في تفسيره: أخبرنا أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ محمّدِ بنِ أحمدَ بنِ عَقيل الأنصاريّ، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ عبدِ الله الحافظ، قالا: أخبرنا أبو منصورٍ محمدُ بنُ القاسم العتكيّ، قال: حدّثنا محمدُ بنُ الأَشْرَس، قال: حدّثنا أبو جعفر المَدِينيّ، قال: حدّثنا القاسمُ بنُ الحسنِ بنِ زيدٍ، عن أبيه، عن الحسينِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا أراد الله أن يخلق الخيلَ قال للريح الجَنوب: إنّي خالقٌ منكِ خَلْقًا فأجعلُه عزًّا لأوليائي، ومَذَلّةً على أعدائي، وجَمالًا لأهلِ طاعتي؛ فقالت الريح: اخلُقْ، فقبَض منها قبضةً فخَلَق فرسًا، فقال له: خلقتُك عربيًّا وجعلتُ الخير معقودًا بناصيتِك، والغنائمَ مجموعةً على ظهرِك، وعَطَفْتُ عليك صاحبَك، وجعلتُك تطير بلا جناح، فأنت للطّلب، وأنت للهرب، وسأجعل على ظهرك رجالًا يسبّحوني ويَحْمَدوني ويهلّلوني(٢)، تُسَبِّحْنَ إذا سبّحوا، وتهلِّلن إذا هلّلوا، وتكبِّرن(٣) إذا كبّروا؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما من تسبيحة وتحميدةٍ وتكبيرةٍ يكبِّرها صاحبُها فتَسمَعه إلّا فتجيبه بمثلها، ثم قال: لمّا سمعتِ الملائكةُ صفةَ الفرسِ وعاينتْ خَلْقَها، قالت: ربِّ، نحن ملائكتَك نسبّحك ونَحمَدك، فماذا لنا؟ فخلق الله لها خيلًا بُلْقًا، أعناقُها كأعناق البُخت(٤)، فلمّا أرسل اللهُ الفرسَ إلى الأرض، واستوت قدماه على الأرض صَهَلَ، فقيل: بوركتِ من دابّة، أذِلُّ بصهيلِك المشركين، أُذِلُّ به أعناقَهم، وأَملأُ به آذانَهم، وأُرْعِبُ به قلوبَهم؛ فلمّا عرض الله على آدمَ من كلِّ شيء قال له:

(١) «انظر العمدة» حين يتحدث ابن رشيق عن الخيل.

(٢) حذفت نون الرفع من هذه الأمثال الثلاثة (يسبحوني ـ يحمدوني ـ يهللوني) تخفيفًا. والحذف في مثل هذا الوضع جائز بكثرة، كما يجوز أن نقرأ هذه الأمثال بتشديد النون إدغامًا لإحدى النونين في الأخرى.

(٣) «تسبحن وتهللن وتكبرن»: خطاب لجماعة الأفراس.

(٤) البخت: الإبل الخرسانية تنتج بين عربي وفالج، وهي طوال الأعناق.

اخترْ من خَلْقي ما شئْتَ، فاختار الفرس، فقال له: اخترْتَ عزَّك وعزَّ ولدِك خالدًا ما خَلَدوا، وباقيًا ما بقُوا، بَرَكتي عليك وعليهم، ما خلقْتُ خَلْقًا أَحَبَّ إليّ منك ومنهم».

ورَوى المسعوديُّ في كتابه المترجَم بمروج الذهب بسندِه إلى ابن عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لمّا أراد أن يخلق الخيلَ أوحى إلى الرِّيح الجَنوب أنّي خالقٌ منكِ خَلْقًا فاجتمعي، فاجتمعتْ، فأَمَر جبريلَ عليه السلامُ فأَخَذ منها قبضة، قال: ثمّ خلق الله تعالى منها فرسًا كُمَيْتًا[1]، ثم قال الله تعالى: خلقتُكَ فرسًا، وجعلتُك عربيًا، وفضّلتُكَ على سائرِ ما خلقْتُ من البهائم بسَعةِ الرزق، والغنائمُ تقاد على ظهرِك، والخيرُ معقودٌ بناصيتِك؛ ثم أرسله فصهَلَ، فقال له: باركت فيك، فصهيلُك أُرعِب به المشركين وأملئ مسامعهم، وزلزِل أقدامَهم؛ ثم وَسَمَه بغُرّةٍ وتحجيل، فلمّا خلق الله تعالى آدم، قال: يا آدم، أَخبرني أيَّ الدّابّتين أحببْت؟ ـ يعني الفرسَ والبُراق، قال[2]: وصورةُ البُراق على صورةِ البغلِ لا ذكرٌ ولا أنثى ـ فقال آدم: يا ربِّ، اخترتُ أحسنَهما وجهًا، فاختار الفرس، فقال الله له: يا آدم، اخترت أحسنهما، اخترْتَ عزَّك وعزَّ ولدِك باقيًا ما بقُوا، وخالدًا ما خلَدوا». هذا ما ورد في ابتداء خَلْق الفرس؛ والله أعلم بالصواب؛ وإليه المرجع والمآب.

وأما أوّلُ من ذلّل الخيلَ وركبها ـ فإسماعيل بنُ إبراهيمَ عليهما السلام، ودليلُ ذلك ما رواه الزُّبَيرُ بنُ بَكّارٍ[3] في أوّلِ كتابِه في أنسابِ قريشٍ من حديث داودَ بنِ الحُصَين[4]، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت الخيلُ وحوشًا لا تُركَب، فأوّلُ من ركبها إسماعيل، فلذلك سُمّيتْ العِراب. وما رواه أحمدُ بنُ سليمانَ النَّجّادُ في بعض فوائده من حديث ابنِ جُرَيج، عن ابنِ أبي مُلَيْكةَ، عن ابنِ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت الخيلُ وحشًا كسائرِ الوحوش، فلمّا أَذن اللهُ عزّ وجلّ لإبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلامُ برفع القواعدِ من البيت، قال الله عزّ وجلّ: (إني معطيكما كنزًا ذخرته لكما)؛ ثم أوحى الله تعالى إلى إسماعيلَ أن

---

(١) الكميت: الذي لونه بين السواد والحمرة، والكميت يستوي فيه المذكر والمؤنث.
(٢) «قال»: أي قال ابن عباس.
(٣) هو الزبير بن بكار، أبو عبد الله، قاضي مكة، علامة محدّث صدوق مات سنة ٢٥٦ هـ. (الكاشف ١/ ٢٤٨).
(٤) هو داود بن الحصين، محدّث مات سنة ١٣٥. (الكاشف ١/ ٢٢٠).

اخرجْ فادْعُ بذلك الكنز، فخرج إسماعيلُ إلى (أجْيَادَ)[١] ـ وكان مَوطِنًا له ـ وما يَدرِي ما الدّعاء ولا الكنز، فألهمه الله عزّ وجلّ الدعاء، فلم تبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلّا أجابتْه، فأمكنتْه من نواصيها، وذلّلها له؛ فاركبوها واعتقِدوها، فإنّها ميامين، وإنّها ميراثٌ عن أبيكم إسماعيلَ عليه السلام. والله أعلم.

ذكر ما ورد في فضل الخيلِ وبَرَكتِها وفضلِ الإنفاق عليها

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٧٤]، قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «نزلتْ في عَلَفِ الدّوابّ». ورُوِيَ عن أبي أُمامةَ الباهليُّ أنّه قال: «هي النّفقةُ على الخيلِ في سبيل الله»، قال الواحديّ[٢]: «هذا قولُ أبي الدّرداءِ ومكحولٍ والأوْزاعيّ»؛ ومن فضل الخيلِ وشرفِها أنّ الله أقسم بها في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: الآيات ١ ـ ٦]؛ وسمّاها الله تعالى الخيرَ في قوله عزّ وجلّ إخبارًا عن سليمانَ عليه السلام: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [صٓ: الآيتان ٣١، ٣٢]؛ وفي الحديث الصحيح عن مالكِ بنِ أنس، عن نافع، عن عبدِ الله بنِ عمرَ ـ رضي الله عنهم ـ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «الخيلُ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة» رواه البخاريّ؛ وفي لفظٍ آخر: «معقودٌ في نواصيها[٣] الخيرُ إلى يوم القيامة»؛ ومن طريقٍ آخَرَ عن الشَّعْبيّ، عن عُروةَ ـ هو ابنُ أبي الجَعْدِ الأزديُّ البارقيّ ـ قيل: يا رسولَ الله، وما ذلك الخير؟ قال: «الأجرُ والغنيمة» رواه مسلم.

وعن عُروةَ رضي الله عنه، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ أتى فرسًا أَشْقَرَ في سوق المدينة مع أعرابيّ، فَلوى ناصيتَها بإصبعيه وقال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة».

---

(١) أجياد: موضع بمكة يلي الصفا، ويقال فيه أيضًا: (جياد) بكسر الجيم.
(٢) الواحدي: هو علي بن أحمد، أبو الحسن، مفسّر، عالم بالأدب، إمام العلماء، له مؤلّفات عدّة في التفسير مات سنة ٤٦٨ هـ. (الأعلام ٤/٢٥٥).
(٣) النواصي: جمع ناصية، وهي الشعر المسترسل على الجبهة وقد يكنّى بها عن النفس.

وعن جَرير بنِ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيتُ النّبيّ ﷺ يَلوِي ناصيةَ فرسِه بإصبعه ويقول: «الخيرُ معقودٌ بنواصي الخيلِ إلى يوم القيامة»؛ رواه مسلمٌ والنّسائيّ؛ وفي لفظ النّسائيّ: «يَفتِل ناصيةَ فرسٍ بين إصبعيه»؛ وفي حديثٍ آخَرَ موضعَ «معقود»: «معقوص»، وهو بمعناه، أي ملويٌّ بها ومضفورٌ فيها، والعِقْصةُ: الضّفيرة.

وفي حديثٍ آخَرَ عن نُعَيم بنِ زِيادٍ، عن أبي كَبْشةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، وأهلُها مُعانُون عليها، والمتفقُ عليها كالباسطِ يدَه بالصدقة»؛ وفي لفظٍ آخَرَ: «فامسحوا نواصيَها، وادعوا لها بالبركة».

وعن أسماءَ بنتِ يزيدَ ـ رضي الله عنها ـ أنّ رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ في نواصيها الخيرُ معقودٌ أبدًا إلى يوم القيامة، فَمن ربطَها عُدّةً في سبيل الله فإنّ شِبعَها وجوعَها ورِيَّها وظمأَها وأَرواثَها وأبوالَها فلاحٌ في موازينِه يوم القيامة»؛ رواه الإمامُ أحمدُ في مُسندِه.

وعن جابر[1] ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة وأهلُها مُعانُون عليها، فخذوا بنواصيها، وادعوا بالبركة، وقلِّدوها ولا تقلِّدوها الأوتار»؛ وفي لفظ: «في نواصيها الخيرُ والنَّيْل»؛ وكانوا يقلِّدون الخيلَ أوتارَ القِسِيّ لئلّا تصيبَها العين، فنهاهم ﷺ عن ذلك، وأعلَمَهم أنَّ الأوتارَ لا تَرُدّ من قضاء الله تعالى شيئًا؛ وقيل: نهاهم عن ذلك خوفًا على الخيلِ من الاختناق بها؛ وقيل: المراد بالأوتار الذُّحولُ الّتي وُتِرْتُمْ بها في الجاهلية؛ وقد اختلف الناس في تقليدِ الدوابِّ والإنسانِ أيضًا ما ليس بتعاويذَ قرآنيّةٍ مخافةَ العين؛ فمنهم من نَهَى عنه ومَنَعَه قبلَ الحاجةِ إليه، وأجازه بعد الحاجةِ إليه، لدفعِ ما أصابه من ضررِ العينِ وشبهِه؛ ومنهم من أجازه قبلَ الحاجةِ وبعدَها، كما يجوزُ الاستظهارُ[2] بالتّداوي قبلَ حلولِ المرض؛ وقَصَرَ بعضُهم النهيَ على الوَتَرِ خاصّة، وأجازه بغير الوَتَرِ؛ وقال بعضُهم فيمن قلّد فرسَه شيئًا ملوَّنًا فيه خرز: إن كان للجَمالِ فلا بأس به.

وعن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «الخيلُ لثلاثة: لرجلٍ أَجْرٌ، ولرجلٍ سِتْرٌ، وعلى رجلٍ وِزْرٌ، فأمّا الّذي هي له أجرٌ فرجلٌ ربطها في سبيل

---

(١) هو جابر بن عبد الله السّلمي، محدّث ثقة، عَقَبيّ. مات سنة ٧٨ هـ. (الكاشف ١/ ١٢٢).
(٢) الاستظهار: الاحتياط.

الله فأطال لها في مَرْجٍ أو روضةٍ، فما أصابت في طِيَلِها[١] ذلك من المَرْجِ أو الروضةِ كانت له حسنات، ولو أنّها قَطعتْ طِيَلَها فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفين كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنّها مرّت بنَهْرٍ فشربت منه ولم يُرِد[٢] أن يسقيها كان ذلك حسناتٍ له، فهي لذلك أجر؛ ورجلٌ ربطها تَغنيًا[٣] وتَعفُّفًا، ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في رقابها ولا ظهورها، فهي لذلك سِتْر؛ ورجلٌ ربطها فخرًا ورِياءً ونِواءً لأهلِ[٤] الإسلام، فهي على ذلك وِزْر».

وفي حديث آخر: «الخيلُ لثلاثة، هي لرجل أَجْر، ولرجلٍ سِتْر، وعلى رجلٍ وِزْر؛ فأمّا الّذي هي له أجرٌ فالّذي يتّخذها في سبيل الله ويُعِدّها له، فلا تُغَيِّب شيئًا في بطونها إلّا كُتِب له به أَجْر، ولو رعاها في مَرْجٍ فما أكلتْ شيئًا إلا كُتِب له به أجر؛ ولو سقاها من نهرٍ كان له بكلّ قطرةٍ تُغيّبُها في بطونها[٥] ـ حتّى ذَكرَ الأجْرَ في أبوالِها وأرواثِها ـ ولو استنّتْ شَرَفًا[٦] أو شَرَفين كُتِب له بكلّ خطوةٍ تخطوها أجر؛ وأمّا الذي هي له سِتْرٌ فالّذي يتّخذها تعففًا وتكرّمًا وتجمُّلًا، ولم يَنْسَ حقَّ ظهورها وبطونِها في عسرِها ويسرِها؛ وأمّا الّذي هي عليه وِزْرٌ فالّذي يتّخذها أَشَرًا وبَطَرًا وبَذَخًا[٧] ورِئَاء الناس، فذلك الّذي هي عليه وِزْر».

شرح غريب هذين الحديثين

الطِّوَلُ والطِّيَلُ بالواو والياء: الحَبْل، وكذلك الطِّويلة. وقوله: «استنّتْ»، أي عَدَتْ لَمَرِحها ونشاطِها ولا راكبَ عليها. والشَّرَفُ: ما يعلو من الأرض، وقيل: الطَّلَق، فكأنّه ﷺ يقول: جَرَتْ طَلَقًا أو طَلَقين، بمعنى شَوْطٍ أو شَوْطين. والأَشَرُ والبَطَرُ: شدّةُ المَرَح. والبَذَخُ بفتح الذال وبالخاء المعجمتين: الكِبْر. ونِواءً لأهلِ الإسلام: معاداةً لهم، مِن ناوأه نِواءً ومناوأة، وأصلُه من ناءَ إليكَ ونُؤْتَ إليه، أي نَهضتَ.

---

(١) الطيل: الحبل.
(٢) لم يرد أن يسقيها: أي أنها شربت بغير قصد من صاحبها.
(٣) «تغنيًا»: أي استغناء بها عن الطلب من الناس. (اللسان).
(٤) نواء لأهل الإسلام: أي معادلة لهم.
(٥) حذف المؤلف هنا اسم كان، وهو أجر أو حسنة، أو نحو ذلك للعلم به في سياق الكلام.
(٦) استنّتْ: أي عدت لمرحها ونشاطها ولا راكب عليها.
الشُّرف: ما يعلو من الأرض.
(٧) الأشر والبطر: شدة المرح؛ ـ البذخ: (بفتح الباء والذال): الكبر.

وعن زِيادِ بنِ مُسلم الغِفاريّ ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «الخيلُ ثلاثة، فمن ارتبطها في سبيلِ اللهِ وجهادِ عدوِّه كان شبعُها وجوعُها ورِيُّها وعطشُها وجريُها وعَرَقُها وأرواثُها وأبوالُها أجرًا في ميزانه يومَ القيامة؛ ومن ارتبطها للجمَالِ فليس له إلّا ذاك؛ ومن ارتبطها فخرًا ورِياءً كان مِثْلَ ما قُصَّ في الأوّلِ وِزْرًا في ميزانه يومَ القيامة».

وعن حُبابٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيلُ ثلاثة: فَرسٌ للرّحمٰن، وفَرسٌ للإنسان، وفَرسٌ للشيطان؛ فأمّا فرسُ الرحمٰن فما أُعدَّ في سبيل الله، وقوتل عليه أعداءُ الله؛ وأمّا فَرسُ الإنسان فما استُبطِن وتُجمِّل عليه، وأما فَرسُ الشيطان فما قومر عليه»؛ رواه الآجُرّيُّ في (النصيحة). والقِمارُ في السِّباق: أن يكون الرِّهانُ بين فرسين لا محلِّلَ[1] معهما. والاستبطانُ: طلب ما في البطن والنِّتاج.

وعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ، قال: «الخيلُ ثلاثة، فَفَرسٌ للرحمٰن، وفَرسٌ للإنسان، وفَرسٌ للشيطان؛ فأمّا فَرسُ الرحمٰن فالّذي يُرتَبط في سبيل الله، فعَلَفُه ورَوْثُه وبولُه ـ وذَكَرَ ما شاء الله ـ؛ وأمّا فَرسُ الشيطان فالذي يقامَر ويراهَن عليه؛ وأمّا فَرسُ الإنسان فالفَرسُ يرتبطها الإنسانُ يَلتمِس بطنَها، فهي سِتْرٌ من فقر» رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَده.

ورَوَى ابنُ أبي شيبةَ في مُسنَدِه أنَّ النّبيّ ﷺ قال: «الخيلُ ثلاثة: فَرسٌ يرتبطه الرجلُ في سبيل الله، فثمَنُه أجْرٌ، وركوبُه أجر، ورِعايتُه أجر، وعلَفُه أجر؛ وفَرسٌ يغالق[2] عليه الرجلُ ويراهِن عليه، فثمَنُه وِزْر، وعلَفُه وركوبُه وِزْر؛ وفَرسٌ للبِطنةِ فعسى أن يكون سِدادًا من فقرٍ إن شاء الله».

وعن أَنِس بنِ مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «البركةُ في نواصي الخيل[3]» رواه البخاريُّ ومسلمٌ والنَّسائيّ. والناصيةُ: الشعر المسترسِل على الجبهة، وقد يُكنَّى بها عن النَّفْس، نحو قولهِم: «فلانٌ مبارَكُ النّاصية»، أي النَّفْس: قال شيخنا الشيخُ الإمامُ المحدِّثُ النّسّابةُ القدوةُ شرفُ الدّين أبو محمّدٍ عبدُ المؤمن بنُ خَلَف الدِّمياطيُّ في كتاب الخيل: قال أبو الفضل: وإذا كان الخيرُ والبركةُ في نواصيها

(١) المحلل من الخيل: الفرس الثالث من خيل الرهان.
(٢) يغالق: أي يراهن.
(٣) نواصي الخيل: هو الشعر المسترسل على جبهتها.

فبعيدٌ أن يكون فيها شؤمٌ على ما جاء في الحديث؛ وقد تأوّلَ العلماء ذلك أنّ معناه على اعتقادِ الناسِ في ذلك، لا أنّه خبرٌ من النبيّ ﷺ، عن إثبات الشّؤم.

وعن مكحول[١]، قال: قيل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: إنّ أبا هريرةَ يقول: قال رسول الله ﷺ: «الشؤمُ في ثلاثة: في الدّار والمرأة والفرس»؛ فقالت: لم يَحفَظ أبو هريرة، لأنّه دخل ورسولُ الله ﷺ يقول: «قاتل اللهُ اليهودَ، يقولون: الشؤمُ في ثلاثة: في الدّار والمرأة والفَرَس»؛ فسَمِع آخِرَ الحديثِ ولمْ يَسمَع أوّلَه. وسنذكر الحديثَ والكلامَ عليه ـ إن شاء الله تعالى ـ في موضعِه.

وعن أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: لم يكنْ شيءٌ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ بعدَ النّساء من الخيل.

وعن مَعْقِل بنِ يسارٍ[٢] ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان شيءٌ أحبَّ إلى رسولِ الله ﷺ من الخيل، ثمّ قال: اللّهمّ غَفْرًا إلّا النّساء.

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من حبّس فرسًا في سبيل الله كان سِتْرَه من النّار».

وعن محمدِ بنِ عُقْبَةَ، عن أبيه، عن جَدّه، قال: أَتينا تَمِيمًا الدّاريَّ وهو يعالج عَليقَ[٣] فرسه بِيَدِه، فقلنا له: يا أبا رُقَيّةَ، أما لك من يكفيك؟ قال: بلى، ولكنّني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من ارتبط فرسًا في سبيل الله فعالج عَليفَه بِيَدِه كان له بكلِّ حبّةٍ حسنة».

وَرُوِيَ أنّ رَوْحَ بنَ زِنْباع الجُذاميَّ زار تميمًا الداريّ فوجده ينقّي لفرسه شعيرًا، ثم يَعلِفه عليه وحولَه أهلُه؛ فقال له رَوْح: أما كان لك مِن هؤلاء من يكفيك؟ قال تميم: بلى، ولكنّني سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من امرىءٍ مسلم ينقّي لفرسه شعيرًا ثم يَعلِفه عليه إلّا كتب اللهُ له بكلِّ حبّةٍ حسنة» رواه الإمام أحمدُ في مُسنَدِه.

ورُوِيَ أنّ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ قال لابن الحَنْظَليّة: حدِّثْنا حديثًا سمعْتَه من رسولِ الله ﷺ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، يقول: «من ارتبط فرسًا في سبيل الله

---

(١) مكحول: فقيه الشام، محدّث ثقة توفي سنة ١١٣ هـ. (الكاشف ٣/ ١٥٢).

(٢) هو معقل بن يسار المزني، شهد الحديبيّة محدّث بقي إلى آخر عهد معاوية. (الكاشف ٣/ ١٤٤).

(٣) عليق: علف الفرس.

كانت النفقةُ عليه كالمادِّ يدَه بصدقةٍ لا يقطعها»؛ وفي حديثٍ آخر عنه: «لا يَقبضها»[١].

ذكر ما جاء في فضل الطَّرْق

رُوِيَ عن أبي عامر الهَوْزَنيّ، عن أبي كَبْشَةَ الأنماريّ[٢]، أنه أتى رجلًا فقال: أطرِقني مِن فرسِك، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من أطرق مسلمًا فرسًا فأَعقَب له الفرسُ كتب الله له أجرَ سبعين فرسًا يُحمَل عليها في سبيل الله، وإن لم يُعْقِبْ كان له كأجرِ فرسٍ حُمِل عليه في سبيل الله عزّ وجلّ» رواه الطَّبَرانيُّ في المعجم الكبير.

وعن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما تَعاطَى الناسُ بينهم شيئًا قطُّ أفضلَ من الطَّرْق[٣]، يُطرِق الرجلُ فرسه فيُجرَى له أجرُه، ويُطرِق الرجلُ فحلَه فيُجرَى له أجرُه، ويُطرِق الرجلُ كبشَه فيُجرَى له أجرُه. والله الموفِّق للصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله وكفى.

ذكر ما جاء من دعاء الفرس لصاحبه

حَكَى الأَبِيورديُّ[٤] في رسالته، قال: حكى عبدُ الرحمٰن بنُ زيادٍ أنه لمّا نزل المسلمون مصرَ كانت لهم مَراغةٌ للخيل، فمرّ حُدَيْجُ بنُ صَوْمى بأبي ذَرّ ـ رضي الله عنه ـ وهو يُمرِّغ فرسَه الأَجْدَل؛ فقال: ما هذا الفرسُ يا أبا ذَرّ؟ قال: هذا فرسٌ لي، لا أراه إلّا مستجابًا، قال: وهل تدعو الخيلُ فتجاب؟ قال: نعم، ما من ليلةٍ إلّا والفرسُ يدعو فيها ربّه يقول: اللّهم إنّك سخّرتني لابن آدم، وجعلْتَ رزقي بِيَدِه، فاجعلني أحبَّ إليه من أهلِه ومالِه، اللّهمّ ارزقه منّي، وارزقني على يدِه. ورُوِيَ أن هذا الخبَر عن معاويةَ بنِ حُدَيْج، عن أبي ذَرّ، وكلاهما رَوَى عن عبدِ الله بنِ عمرو؛ ومعاويةُ هذا يُعَدّ من الصحابة الّذين سكنوا مصرَ؛ وفي حديثه عن أبي ذَرّ «أحبَّ إليه من أهلِه وولدِه» الحديث، وزاد فيه: «فمنها المستجاب، ومنها غيرُ المستجاب، ولا أَرى فرسي هذا إلّا مستجابًا». ورواه النَّسائيّ في كتاب الخيل من سُننِه؛ ولفظُه: قال

---

(١) لا يقبضها: لا ينفقها، ولا يقطعها.

(٢) أبو كبشة الأنماري، قيل اسمه، سعد، وقيل: عمرو، صحابي، محدّث. (الكاشف ٣/ ٣٢٧).

(٣) أطرق: زَوّج.

(٤) الأبيوردي: هو محمد بن محمد الكوفي، زين الدّين، محدّث حافظ، من الشافعية مات سنة ٦٦٧ هـ. (الأعلام ٧/ ٢٩).

رسولُ الله ﷺ: «ما من فرسٍ عربيٍّ إلا يؤذَن له عند كلِّ سَحَر ـ وفي رواية: عند كلِّ فجر ـ بدعوتين: اللّهمّ خوّلْتَني من خوّلتني من بني آدم، وجعلْتَني له، فاجعلني أحبَّ أهلِه ومالِه؛ أو من أحبِّ أهلِه ومالِه إليه»؛ والله أعلم.

ذكر ما ورد من أنّ الشيطان لا يَخْبِـل[1] من في دارِه فرسٌ عَتِيق ولا يدخلِ دارًا فيها فرسٌ عَتِيق

عن عبدِ الله بنِ عَرِيب المُلَيْكيّ، عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «لن يُخْبُلَ الشيطانُ أحدًا في داره فرسٌ عَتيق». وفي لفظٍ آخَر: «الجنُّ لا تَخبِل أحدًا في بيته عَتِيقٌ من الخيل». ورواه ابنُ قانع أيضًا في معجمه من حديث عَرِيب المُلَيْكيّ، عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفَال: الآية ٦٠] قال: «الجنّ»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الشيطانَ لا يَخْبِل أحدًا في دارٍ فيها فرسٌ عَتِيق» وقيل: المرادُ أنّ الشيطان لا يدخُل دارًا فيها فرسٌ عَتِيق.

ورُوِيَ أنّ رجلًا أَتَى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّي أُرجَم باللّيل، فقال النّبيّ ﷺ: «ارتَبط فرسًا عتيقًا» قال: فلم يُرجَم بعد ذلك؛ رواه محمدُ بنُ يعقوبَ الخَيْليّ في (كتاب الفروسيّة وعلاجات الدوابّ).

ذكر ما جاء في التماس نسلِ الخيل والنهي عن خِصائها والرخصةِ فيه والنهيِ عن هَلْبِها[2] وجَزِّ أعرافِها ونواصيها

رُوِيَ عن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: أصاب رسولُ الله ﷺ، فرسًا من جَدَس[3]، (حيٍّ باليمن)، فأعطاه رجلًا من الأنصار، وقال: «إذا نزلتَ فانزل قريبًا منّي فإني أتسارُّ[4] إلى صهيله» ففقده ليلة، فسأل عنه، فقال: يا رسول الله، إنا خصيناه، فقال: «مَثَلْتَ به»، يقولها ثلاثًا، «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، أعرافُها أدفاؤها، وأذنابُها مَذابُّها، التمِسوا نسلَها، وباهوا بصهيلها المشركين».

(١) لا يخبل: (بكسر الباء وضمها) أي لا يفسد.
(٢) الهلب: استئصال الأذناب بالجز والقطع.
(٣) جدس: بطن من لخم، وهو جدس بن أريش بن إراش السكوني.
(٤) أتسار إلى صهيله: أي استلذه.

وعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: نَهَى رسولُ الله ﷺ، عن جَزِّ أذناب الخيل وأعرافِها ونواصيها، وقال: «أمّا أذنابُها فمَذابُها، وأمّا أعرافها فأدفاؤها، وأمّا نواصيها ففيها الخير».

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تَهلُبوا[1] أذنابَ الخيل، ولا تجزّوا أعرافَها ونواصيها، فإنّ البركة في نواصيها، ودَفاؤها في أعرافِها، وأذنابُها مَذابُها».

وعن عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: نَهَى رسولُ الله ﷺ، عن خِصاء الخيل. عن عبدِ الله بنِ عمرَ قال: نَهَى رسولُ الله ﷺ، عن خصاء الخيل والإبل والغنم؛ قال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «فيها نشأةُ الخَلْق، ولا تصلُح الإناثُ إلّا بالذكور».

ورَوَى عِكْرِمَةُ[2] عن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهم ـ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا خِصاء في الإسلام ولا بنْيان كنيسة».

وكتب عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ إلى سعدِ بنِ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ يَنهى عن حذفِ أذناب الخيلِ وأعرافِها وخِصائها. ومن العلماء من رأى الخِصاء، وذَكَر أنّ عروةَ بنَ الزُّبيرِ خصَى بغلًا له؛ وأنّ عمرَ بنَ عبدِ العزيز خصَى بغلًا له في زمن خلافته، وأنّ الحسنَ[3] سئل عن الخِصاء فقال: «لا بأس به»، وأنّ ابنَ سيرينَ[4] قال: «لا بأس بخِصاء الخيل، لو تُركت الفحولُ لأكل بعضُها بعضًا»، وأن عطاء[5] قال: «ما خِيفَ عِضاضُه وسوءُ خُلقِه فلا بأس». قال البيهقيّ[6]: ومتابَعةُ قولِ ابنِ عمرَ وابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهم ـ مع ما فيه من السنّة المرويّة أولى، ويُحتمَل جوازُ ذلك إذا اتّصل به غرضٌ صحيح.

(١) لا تهلبوا أذناب الخيل: لا تستأصلوها بالجز والقطع.
(٢) هو عكرمة بن خالد المخزومي، محدّث من الثقات مات بعد عطاء بمكة. (الكاشف ٢/ ٢٤٠).
(٣) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، إمام أهل البصرة، وخير الأمة مات سنة ١١٠ هـ. (الأعلام ٢/ ٢٢٦).
(٤) هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري، أبو بكر، إمام زمانه في علوم الدين بالبصرة مات سنة ١١٠ هـ. (الأعلام ٦/ ١٥٤).
(٥) لعلّه عطاء بن أبي رباح أسلم، أبو محمّد القرشي، أحد المحدّثين الأعلام، مات سنة ١١٤ هـ. (الكاشف ٢/ ٢٣١).
(٦) البيهقي: هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر من أئمة الحديث، له مؤلّفات عدّة منها السّنن الكبرى، والسّنن الصغرى مات سنة ٤٥٨ هـ. (الأعلام ١/ ١١٦).

ذكر ما قيل في أكل لحوم الخيل من الإباحة والكراهة

قد أباح أكلَها جماعة، منهم شُرَيحٌ والحسنُ وعطاءٌ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ وحمّادُ بنُ أبي سليمانَ والثَّوْرِيُّ وأبو يوسفَ ومحمدُ بنُ الحسن وابنُ المباركِ والشافعيُّ وأحمدُ وإسحٰقُ وأبو ثَوْرٍ في جماعة من السَّلف؛ ودليلُهم على ذلك ما اتفق عليه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أسماءَ بنتِ أبي بكر الصدّيق وجابرِ بنِ عبد الله - رضي الله عنهم -؛ فأمّا حديث أسماءَ فقالت: «نحرْنا فرسًا على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه». وأمّا حديث جابرٍ - رضي الله عنه - فقال: «نَهَى رسولُ الله ﷺ يومَ خَيْبَرَ عن لحوم الحُمُرِ، ورَخَّص - أو أَذِن - في لحوم الخيل».

وذهب مالكٌ وأبو حنيفةَ والأَوْزَاعيُّ إلى أنّها مكروهة، إلّا أنّ كراهيتَها عند مالكٍ كراهيةُ تنزيه، لا تحريم في إحدى الروايتين عنه؛ ودليلُهم ما رواه أبو داودَ والنَّسائيُّ وابنُ ماجةَ من حديث بَقيَّةَ بنِ الوليد الحِمْصيّ[1]، عن ثورِ بنِ يزيد[2]، عن صالحِ بنِ يحيىٰ بنِ المقدام بنِ مَعْدِيكَرِبَ، عن أبيه، عن جدّه عن خالدِ بنِ الوليد - رضي الله عنه - أنّ رسولَ الله ﷺ نَهَى عن أكل لحوم الخيلِ والبغالِ والحمير. وما تضمّنته الآيةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النّحل: الآية ٨]. قال صاحب الهداية الحنفيّ: خَرَجتْ - أي الآية - مَخرَجَ الامتنان، والأكلُ من أعلى منافِعها، والحكيمُ لا يَترك الامتنانَ بأعلى النِّعم ويَمتنُّ بأدناها؛ ولأنّها آلةُ إرهابِ العدوّ، فيُكرَه أكلُه احترامًا له، ولهذا يُضرَب له بسهم في الغنيمة؛ ولأنّ في إباحتِه تقليلَ آلة الجهاد، وحديثُ جابرٍ معارَضٌ بحديث خالد بنِ الوليد، والترجيحُ للمحرِّم؛ ثم قيل: الكراهيةُ عنده كراهيةُ تحريم؛ وقيل: كراهيةُ تنزيه؛ والأوّلُ أصحّ.

وأمّا لبنُه - فقد قيل: لا بأس به، إذ ليس في شربِه تقليلُ آلة الجهاد؛ انتهى كلامُ صاحب الهداية.

وقد عورض في أدلّته بأقوال؛ أمّا الآية، فقد قيل: الغالبُ في الانتفاع بهذه الدوابِّ ما أشار الله تعالى إليه فيها من الركوب والزينة، فأمّا أكلُها فنادر، فَخَرَجت

---

(١) هو بقية بن الوليد أبو محمد الكلاعي، الحافظ، محدّث ثقة مات سنة ١٩٧ هـ. (الكاشف ١/ ١٠٦).

(٢) هو ثور بن يزيد الحمصي الحافظ، محدث ثقة، قدريّ توفي سنة ١٥٣ هـ. (الكاشف ١/ ١٢٠).

الآيةُ مَخرَجَ الغالب؛ وقالوا: ألا تَرَى أنّ الأنعامَ لمّا كانت متقارِبَة الحال عند العرب في الانتفاع بها أكلًا وتجمّلًا ورُكوبًا وتحميلًا، مَنَّ الله عليهم بتفصيل أحوالِها المألوفةِ والمعتادةِ عندهم المعروفةِ في الآية قبلَها، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: الآيات ٥ - ٧]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: الآيات ٧١ - ٧٣]؛ وأما حديثُ خالد فإنّه، وإن كان أحوَطَ من حديثِ جابرٍ وأسماءَ فإنّ حديثَ جابرٍ وأسماءَ أسندُ وأصحّ؛ وحديثُ خالدٍ لا يُعرَف إلّا من رواية بَقيّةَ بنِ الوليد الحِمْصيّ، وفيه مقال، حتّى إنّ بعضَهم قال: «إنّ أحاديثَ بقيّةَ غيرُ نقيّة، فكن منها على تَقيّة»؛ وصالحُ بنُ يحيىٰ بنِ المقدامِ بنِ مَعْدِيكَرِبَ الكِنْديّ الحِمْصيّ، قال البخاريّ: «فيه نظر»؛ وقال موسى بنُ هارون: «لا يُعرَف صالحٌ ولا أبوه إلّا بجدّه»؛ وقال أبو داودَ في سُننِه: «وحديثُ خالدٍ هذا منسوخ، قد أكله[1] جماعةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ»؛ وهذا الاعتراضُ على الحنفيّة أورده شيخُنا الشيخ شرفُ الدّين الدِّمياطيُّ عليهم في (كتاب الخيل)[2] له؛ هذا ما قيل في أكل لحومِها.

ذكر ما جاء في النّهي عن عَسْب[3] الفحلِ وبيعِ مائه

رُوِيَ عن عبدِ الله بنِ عمر - رضي الله عنهما - قال: «نَهى رسولُ الله ﷺ، عن عَسْب الفحل». وعن أَنَسِ بنِ مالك - رضي الله عنه - أنّ رجلًا من كلابٍ سأل النبيَّ ﷺ عن عَسْب الفحل، فنهاه، فقال: يا رسول الله، إنّا نُطرِق الفحلَ فنُكرم، فرَخَّص له في الكرامة؛ رواه الترمذيّ، وقال: «حَسَنٌ غريب». والعَسْبُ: الضِّراب؛ والنهيُ عنه، أي عن كِرائه؛ وقيل: العَسْب، ماء الفحل.

(١) أكله: أي أكل لحم الخيل.
(٢) هو كتاب «فضل الخيل» للحافظ شرف الدين الدمياطي.
(٣) العَسْب: النّسل، وعسْب الفحل: ماؤه.

ذكر ما جاء في إكرام الخيل ومنع إذالتها

رَوَى أبو داودَ في المَراسيل، عن نُعَيم بنِ أبي هندٍ[١] ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ، أُتيَ بفَرس، فقام إليه يمسح وجهَه وعينيه ومَنخِريه بكُمِّ قميصِه، فقيل: يا رسول الله، تمسح بكُمِّ قميصِك؟ فقال: «إنّ جبريلَ عاتبني في الخيل». وفي حديثٍ آخَرَ: أنَّ رسولَ الله مسح بطَرَف ردائه وجهَ فرسه، وقال: «إنّي عُوتِبْتُ اللّيلةَ في إذالة الخيل». وعن الوَضِين بنِ عطاءٍ[٢] ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تقودوا الخيلَ بنواصيها فتُذلّوها». وعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا الخيلَ وجلّلوها». وعن مجاهدٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: «أبصرَ رسولُ الله ﷺ، إنسانًا ضرب وجهَ فرسِه ولَعَنه، فقال: «هذه مع تلك؟ لتَمَسّنّك النارُ إلّا أن تُقاتِل عليه في سبيل الله»»، فجعَل الرجلُ يقاتِل عليه إلى أنْ كَبِر وضَعُف، وجعل يقول: اشهدوا اشهدوا. وعن زيدِ بنِ ثابت ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قضَى في عين الفرس ربعَ ثمنِه. وعن عروةَ البارقيِّ قال: كانت لي أفراسٌ فيها فحلٌ شراؤه عشرون ألفَ درهمٍ، ففقأ عينَه دُهْقان[٣]، فأتيْت عمرَ ـ رضي الله عنه ـ فكَتَب إلى سعدِ بنِ أبي وقّاص أنْ خَيِّر الدُّهْقانَ بين أن يعطيَه عشرين ألفًا ويأخذَ الفَرس، وبين أن يَغْرَم ربعَ الثمن؛ فقال الدُّهْقان: ما أصنعُ بالفَرس؟ فغُرِّم ربعَ الثمن. وعن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: ما من ليلةٍ إلّا يَنزِل مَلَكٌ من السماء يَحُسّ عن دوابّ[٤] الغُزاة الكَلالَ إلّا دابّة في عنقها جَرَس.

ذكر ما ورد من الأمر بارتباط الخيل وما يُستَحبّ من ألوانِها وشِياتِها وذكورِها وإناثِها

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠]؛ قال الزمخشري[٥] في تفسيره: اصبروا على الدِّين وتكاليفِه؛ وصابروا أعداءَ

---

(١) هو نُعيم بن أبي هند الأشجعي، له صحبة، محدّث ثقة توفي سنة ١١٠ هـ. (الكاشف ٣/ ١٨٤).

(٢) هو الوضين بن عطاء الخزاعي الدمشقي، محدّث ثقة مات سنة ١٤٩ هـ. (الكاشف ٣/ ٢٠٧).

(٣) الدهقان: زعيم فلاحي العجم.

(٤) يحس عن دواب: أي يذهب عنها التعب بحسها، وهو نفض التراب وإسقاطه عنها. (اللسان مادة حسّ).

(٥) الزمخشري: هو محمود بن عمر الخوارزمي، جار الله، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين=

الله في الجهاد، أي غالِبوهم في الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقلّ صبرًا منهم وثباتًا؛ ورابِطوا: أقيموا في الثغور رابطين خيلَكم مترصّدين مستعدّين للغزو. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠].

وعن قيس بنِ باباه؛ قال: سمعتُ سلمانَ(١) ـ رضي الله عنه ـ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من رجلٍ مسلمٍ إلّا حقّ عليه أن يَرتبِط فرسًا إذا أطاق ذلك».

وعن أبي وَهب الجُشَميّ(٢) ـ وكانت له صحبة، رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تسمَّوْا بأسماء الأنبياء، وأحبُّ الأسماء إلى الله، عزّ وجلّ، عبدُ الله وعبدُ الرحمٰن، وارتبِطوا الخيل، وامسحوا بنواصيها وأكفالِها وقلّدوها ولا تقلّدوها الأوتارَ، وعليكم بكلّ كُمَيْتٍ أغرَّ محجَّل، أو أشقَرَ أغرَّ محجَّل، أو أدهَمَ أغرَّ محجَّل». هكذا ساقه النَّسائيُّ في سُنَنِه.

وعن عُقْبةَ بنِ عامرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أردْتَ أن تغزوَ فاشترِ فرسًا أدهَمَ محجَّلًا مطلَقَ اليمنى فإنّك تغنمَ وتَسلَم» رواه الدِّمياطيُّ بسندِه في (كتاب الخيل) له.

وعن ابنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ عن النّبيّ ﷺ، قال: «يُمْنُ الخيلِ في شُقْرِها». واليُمْنُ: البَرَكة. رواه أبو داودَ والترمذيّ؛ ولفظُ الترمذيّ: «يُمْنُ الخيلِ في الشُّقْر».

ورَوَى الواقديُّ(٣)، عن سعيدِ بنِ خالد، عن داودَ بنِ عليٍّ بنِ عبدِ الله بنِ عبّاس عن أبيه، عن جدّه ـ رضي الله عنهم ـ عن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ الخيلِ الشُّقْر».

وعن عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خيرُ الخيلِ الشُّقْر وإلّا فأدهمُ أغرُّ محجَّلُ ثلاث، مُطلَقُ اليُمْنَى».

= والتفسير واللغة والأدب مات سنة ٥٣٨ هـ. (الأعلام ٧/ ١٧٨).

(١) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، من كبار الصحابة، مات بالمدائن سنة ٣٦ هـ. (الكاشف ١/ ٣٠٤).

(٢) هو أبو وهب الجشمي، صحابي، محدّث. (الكاشف ٣/ ٣٤٤).

(٣) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد السهمي، أبو عبد الله، من أقدم مؤرّخي الإسلام مات سنة ٢٠٧ هـ. (الأعلام ٦/ ٣١١).

وذَكَر سليمانُ بنُ بَنِينَ النحويُّ المصريُّ في كتاب (آلات الجهاد، وأدوات الصافنات الجِياد)، عن ابنِ عبّاس - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ بطريق تَبُوكَ، وقد قلّ الماء، فبعث الخيلَ في كلّ وجه يطلبون الماء، فكان أوّلَ من طلع بالماء صاحبُ فرسٍ أشقَرَ، والثاني صاحبُ أشقَرَ، وكذلك الثالث، فقال ﷺ: «اللّهمّ بارك للشُّقْر».

وعن عمرو بنِ الحارث الأنصاريّ، عن أشياخِ أهلِ مصرَ، قالوا: قال النبيّ ﷺ: «لو أنّ خيلَ العرب جُمِعتْ في صعيدٍ واحدٍ ما سبقها إلّا أشقرُ». وكان ﷺ يحبّ الشُّقْر.

وعن أبي قَتادةَ الأنصاريّ - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ، قال: «خيرُ الخيلِ الأدهَمُ الأقرَحُ[1] الأرثَمُ[2]، ثمّ الأقرَحُ المحجَّل طَلْقُ اليمين[3]، فإن لم يكن أدهَمَ فَكُمَيْتٌ على هذه الشِّيَة» هكذا ساقه الترمذيّ؛ ورواه أيضًا ابنُ ماجة، ولفظُه: «خيرُ الخيلِ الأدهَمُ الأقرَحُ الأرثَمُ المحجَّلُ طَلْق اليدِ اليمنى، فإن لم يكن أدهَمَ فكُمَيْتٌ على هذه الشِّيَة». وفي بعض ألفاظِه عن يزيدَ بنِ أبي حَبِيب[4]، قال: قال النبيّ ﷺ: «الخيرُ في الأدهَم الأقرَح الأرثَم محجَّلِ ثلاث، طَلْقِ اليمنى ثم أغرَّ بهيم - وفي لفظٍ: الأدهَمِ البهيم، أو أغرَّ بهيم - ويَسلَمُ[5] إن شاء الله، فإن لم يكن أدهمَ فكُمَيْتٌ في هذه الشِّيَة» ورَوَى أبو عُبَيدةَ من حديثِ ابنِ شُبْرُمةَ، قال: حدَّثني الشَّعبيُّ في حديثٍ رفعَه، أنه قال: «التمسوا الحوائجَ على الفرسِ الكُمَيْتِ الأدهَمِ المحجَّلِ الثلاث، المُطْلَقِ اليدِ اليمنى». وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أردتَ أن تغزوَ فاشترِ فرسًا أغرَّ محجَّلًا مُطلَقَ اليمنى، فإنك تَسلَم وتَغنَم». وعن موسى بنِ عليّ بنِ رَباح عن أبيه - رضي الله عنهما - قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنّي أريد أن أبتاعَ فرسًا، أو أُفَنِّدَ[6]

---

(١) الأقرح من الخيل: هو ما كان في جبهته قرحة (بضم القاف) وهي بياض قليل في وجه الفرس دون الغرة.

(٢) الأرثم: هو الذي أنفه أبيض وكذلك شفته العليا.

(٣) طلق اليمين: أي لا تحجيل في اليد اليمنى.

(٤) هو يزيد بن أبي حبيب الأزدي، أبو رجاء، عالم مصر، وكان حبشيًا ثقة من العلماء الحكماء، مات سنة ١٢٨ هـ. (الكاشف ٣/ ٢٤١).

(٥) «ويسلم»: أي يسلم صاحبه.

(٦) أفند فرسًا: أرتبطه وأتخذه حصنًا ألجأ إليه وملاذًا إذا دهمني عدوّ، مأخوذ من فند الحبل (بكسر الفاء وسكون النون)، وهو الشمراخ العظيم منه.

فرسًا؛ فقال له رسولُ الله ﷺ: «عليك به كُمَيْتًا أو أدهَمَ أقرَحَ أرثَمَ محجَّلَ ثلاث، طَلْقَ اليمنى».

وعن عطاء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ خيرَ الخيلِ الحُوّ». الحُوُّ: جمع أحوَى[١]. وسيأتي شرحُ لونِه في ذكرِ الألوان والشِّيات.

وعن نافِع بنِ جُبَير[٢]، عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «اليُمْنُ في الخيلِ في كلِّ أحوَى أحَمَّ».

ذكر ترجيح إناثِ الخيلِ على فحولِها وترجيحِ فحولِها على إناثها وما جاء في ذلك

عن يحيىٰ بنِ كثير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بإناث الخيل، فإنّ ظهورَها عزّ، وبطونَها كنز». وفي لفظ: «ظهورها حِرْز».

ورُوِيَ أنّ خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ كان لا يقاتِل إلّا على أنثى، لأنّها تَدفع البولَ وهي تَجرِي، والفحل يَحبِس البولَ في جوفِه حتّى ينفتق، ولأن الأنثى أقل صهيلًا.

ورُوِيَ عن عُبادةَ بنِ نُسَيّ، أو ابنِ محيريز[٣] أنّهم كانوا يستحبّون إناثَ الخيلِ في الغارات والبَيات[٤] ولِما خَفيَ من أمور الحرب، وكانوا يَستحبّون فحولَ الخيلِ في الصُّفوفِ والحُصونه والسَّيرِ والعسكر ولِما ظهر من أمور الحرب، وكانوا يَستحِبّون خِصيانَ الخيل في الكَمينِ والطلائع، لأنّها أصبَرُ وأبقَى في الجَهْد.

وعن أَنَسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان السلفُ يَستحبّون الفُحولةَ من الخيل، ويقولون: هي أجسرُ وأجرأ. وحكاه البخاريُّ في جامعِه عن راشدِ بنِ سعد قال: كان السلفُ يَستحِبّون الفحولَ من الخيل، لأنّها أجرأُ وأجسر.

---

(١) الأحوى: الكميت الذي يعلوه سواد، والكميت: الذي لونه بين السواد والحمرة؛ وقيل: هو أصفى من الأحمّ، وأهون سوادًا من الجون.

(٢) هو نافع بن جبير بن مطعم، محدّث، شريف، مفتٍ، مات سنة ٩٩ هـ. (الكاشف ٣/ ١٧٣).

(٣) هو عبد الله، وهو تابعي كما في التاج (مادة حرز).

(٤) البيات: الإغارة على العدوّ ليلًا.

ذكر ما ورد في شؤم الفرس
وما يُذَمّ من عَصَمِها[١] ورَجَلِها[٢]

رُوِيَ عن عبدِ الله بنِ عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الشؤمُ في الدّارِ والمرأةِ والفرس». وفي لفظٍ عنه ﷺ: «الشؤمُ في ثلاثة: في الفرسِ والمرأةِ والدّار». وقد قيل في هذا الحديث: إنّ المرادَ بالشؤم: شؤمُ المرأة إذا كانت غيرَ وَلود، وشؤمُ الفَرسِ إذا لم يُغزَ عليها وشؤمُ الدارِ جارُ السوء؛ قاله مَعْمَر.

وقد صحّ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «البركةُ في ثلاث: في الفَرسِ والمرأةِ والدّار». وسئل سالمُ بنُ عبدِ الله[٣] ـ وهو راوي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ ـ ما معناه؟ فقال: قال النبي ﷺ: «إذا كان الفَرسُ ضَروبًا فهو مشؤوم، وإذا كانت المرأةُ قد عَرَفتْ زوجًا قبلَ زوجِها فحنّت إلى الزوج الأوّلِ فهي مشؤومة، وإذا كانت الدارُ بعيدةً من المسجد يُسمَع منها الأذانُ والإقامةُ فهي مشؤومة، وإذا كنّ بغير هذا الوصف فهنّ مبارَكات».

وعن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيّ ﷺ، يَكرَه الشِّكالَ من الخيل. والشِّكال: أن يكون للفرسِ في رجلِه اليمنى بياضٌ وفي يدِه اليسرى، أو في يدِه اليمنى وفي رجلِه اليسرى؛ قال أبو داودَ: أي مخالف؛ رواه مسلمٌ وأبو داودَ وابنُ ماجة؛ ورواه الترمذيُّ والنَّسائيّ، ولفظُهما: أنّه كان يَكرَه الشِّكالَ في الخيل؛ وزاد النَّسائيّ: والشِّكالُ من الخيل: أن تكون ثلاثُ قوائمَ محجَّلةً وواحدةٌ مطلَقة، أو تكون الثلاثُ مطلَقةً وواحدةٌ محجَّلة. وقال شيخُنا شرفُ الدِّين الدِّمياطيُّ ـ رحمه الله ـ: وليس يكون الشِّكالُ إلّا في الرِّجل، ولا يكون في اليد. وهذا الذي زاده النَّسائيُّ هو قولُ أبي عُبَيدة. وقال ابنُ دُرَيد[٤]: الشِّكال: أن يكون الحِجْل[٥] في يدٍ ورجلٍ من شِقٍّ واحد، فإن كان مخالفًا قيل: شِكالٌ مخالف. وقال أبو عمرَ المطرِّز[٦]: وقيل،

(١) العصم: هو البياض الذي يكون في يدي الفرس.
(٢) الرّجل: البياض الذي يكون في إحدى رجلي الفرس.
(٣) هو سالم بن عبد الله بن عمر، أحد فقهاء التابعين، محدّث زاهد فاضل، مات سنة ١٠٦هـ. (الكاشف ١/ ٢٧١).
(٤) ابن دريد: هو محمد بن الحسن الأزدي، أبو بكر، من أئمة اللغة والأدب والشعر، له مؤلّفات عديدة، مات سنة ٣٢١ هـ. (الأعلام ٦/ ٨٠).
(٥) الحجل: بياض التحجيل.
(٦) هو محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزّاهد المطرّز الباوردي المعروف بغلام=

الشِّكالُ: بياضُ الرِّجل اليمنى واليدِ اليمنى؛ وقيل: بياضُ اليدِ اليسرى والرِّجلِ اليسرى؛ وقيل: بياضُ الرِّجْلَيْن ويدٍ واحدة. قال الشيخ: والصحيحُ من صفة الشِّكالِ ما ذكره أبو عُبَيدةَ مَعْمَر بنُ المثنَّى وغيرُه: أنه البياضُ الّذي يكون بِيَدٍ ورِجْلٍ من خلافٍ قلّ أو كثر، وهو الّذي ورد في صحيح مسلم وسُنن أبي داودَ؛ قال الشيخ: وكراهتُه تَحتمِل وجهين: إما تفاؤلًا، لشَبَهِه المشكولَ المقيَّدَ الّذي لا نهوضَ فيه، وإمّا لجواز أن يكون هذا النوعُ قد جُرّب فلم توجد فيه نجابة؛ وقيل: إذا كان مع ذلك أغرَّ زالت الكراهةُ لزوال شَبَهِه الشِّكال. والرَّجَلُ: إذا كان البياضُ بإحدى رجليه فهو أرجَل، ويُكرَه إلّا أن يكون به وضحٌ غيرُه؛ وقيل: لا يُكرَه إلا إذا كان البياضُ في رجلِه اليسرى خاصّة؛ وقيل: الأرجل، هو الّذي لا يكون فيه بياضٌ سوى قطعةٍ في رجلِه غيرِ دائرةٍ حوالى الإكليل[1]؛ يقال: رَجِلَ الفرسُ، إذا ابيضّت إحدى رجليه؛ وسيأتي بيانُ التحجيل والعَصَمِ وغيرِهما عند ذكرنا للشِّيَات؛ والله أعلم.

ذكر ما جاء في سِباق الخيل وما يَحِلّ منه وما يَحرُم وكيفيّةِ[2] التضميرِ عند السِّباق وأسماءِ السّوابق في الحَلْبة

رُوِيَ عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا سَبَقَ[3] إلّا في خُفٍّ أو حافرٍ أو نَصْل» رواه أبو داودَ والترمذيُّ والنَّسائيّ.

وفي رواية أخرى للنَّسائيّ: «لا يَحِلّ سَبَقٌ إلّا على خُفٍّ أو حافرٍ»، وسئل[4] ابنُ عمرَ[5] ـ رضي الله عنهما ـ أكنتم تُراهِنون على عهد رسولِ الله ﷺ؟ فقال: لقد راهن رسولُ الله ﷺ على فَرسٍ له.

= ثعلب، أحد أئمة اللغة المكثرين من التصنيف، توفي ببغداد سنة ٣٤٥ هـ. (الأعلام ٦/ ٢٥٤).

(١) الإكليل: هو ما أحاط بالظفر من اللحم.

(٢) كان الأولى في هذه الترجمة تأخير كيفية التضمير عن أسماء السوابق ليوافق الترتيب الآتي عند الكلام عليهما.

(٣) السَّبق: ما يجعل من المال رهنًا على المسابقة.

(٤) السائل: هو موسى بن عبيدة. (كتاب الخيل ص ٧٥).

(٥) ابن عمر: هو عبد الله بن عمر أبو عبد الرحمٰن العدوي، شهد الأحزاب والحديبية، محدّث زاهد قال فيه الرسول ﷺ إن عبد الله رجل صالح. (الكاشف ٢/ ١٠٠).

وعنه[١] ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسولَ الله ﷺ سابقَ بين الخيل التي قد ضُمِّرتْ[٢] من (الحَفْيَاء)[٣]، وكان أَمَدُها (ثَنِيَّة الوَدَاع)[٤]، وسابَقَ بين الخيلِ التي لم تُضمَّر مِن (الثَّنيَّةِ) إلى (مسجد بني زُرَيْق[٥])، وأنّ ابنَ عمرَ كان ممّن سابق بها. قال سفيانُ الثَّوْريّ: بين الحَفْيَاءِ إلى (ثَنِيَّةِ الوَداع) خمسةُ أميالٍ أو ستّة، ومن (الثَّنيّة) إلى (مسجد بني زُرَيْق) مِيل. وقال موسى بنُ عُقْبة: بين (الحَفياءِ) (وثَنِيَّةِ الوَداع) ستّةُ أميالٍ أو سبعة، وبين (الثَّنيّةِ) (والمسجد) مِيل أو نحوه؛ رواه البخاريُّ وغيرُه. وفي لفظٍ آخَر، عن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسولَ الله ﷺ، سَبَّق بين الخيل، فجعل غاية المضمَّرة من (الحَفْياء) إلى (ثَنِيَّةِ الوَداع)، وما لم يضمّر من (ثنيّة الوَداع) إلى (مسجد بني زُرَيْق)، قال ابنُ عمر: فجئتُ سابقًا فطفَر بي الفَرسُ المسجدَ.

وذَكَر ابنُ بَنِينَ في كتابه أنّ رسولَ الله ﷺ سابَقَ بين الخيل على حُللٍ أتته من اليمن، فأَعطى السابقَ ثلاثَ حُلَل، والمصلِّيَ حُلّتين، والثالثَ حلّة، والرابعَ دينارًا، والخامسَ درهمًا، والسادسَ قصبة، وقال: «بارك الله فيك وفي كلِّكم وفي السابقِ والفِسْكِل[٦]». وروى البَلاذُريُّ[٧] عن ابنِ سعدٍ عن الواقديّ، عن سليمانَ بنِ الحارث، عن عبدِ المهيمن بنِ عبّاس بنِ سهل بنِ سعد عن أبيه عن جدّه، قال: أَجرَى رسولُ الله ﷺ الخَيلَ، فسَبقْتُ على فرسِ رسولِ الله ﷺ (الظَّرِبِ)[٨]، فكساني بُردًا يمانيًا.

وعن الواقديّ، عن سليمانَ بنِ الحارث، عن الزبيرِ بنِ المنذرِ بنِ أبي أُسَيْد، قال: سَبَق أبو أُسَيْدٍ الساعديُّ على فَرسِ رسولِ الله ﷺ (لِزَاز)[٩]، فأعطاه حُلَّةً يمانيّة.

---

(١) «وعنه»، أي عن أبي هريرة.

(٢) سيأتي بيان المراد بالتضمير في الكلام على كيفية تضمير الخيل في هذا الجزء.

(٣) الحفياء: بالمد، موضع بالمدينة، ورواه بعضهم بالقصر.

(٤) تبعد ثنية الوداع عن الحفياء خمسة أميال أو ستة، كما تبعد عن مسجد بني زريق ميل واحد.

(٥) زريق: هو أخو بياضة، وكلاهما ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم. (الأعلام).

(٦) الفسكل: (بكسر الفاء والكاف وبضمهما): الفرس الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة.

(٧) هو أحمد بن يحيىٰ بن جابر بن داود البلاذري، مؤرّخ جغرافي نسّابة له شعر، من أهل بغداد، توفي سنة ٢٧٩ هـ. (الأعلام ١/ ٢٦٧).

(٨) الظرب: (بفتح فكسر)، وروي بفتح فسكون: اسم فرس لرسول الله ﷺ وهو من أشهر خيله ﷺ وأعرفها.

(٩) لزاز: (بكسر اللام): اسم فرس النبي ﷺ، سمي بذلك لشدة تلززه واجتماع خلقه.

وعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: طلعت الخيلُ وقد تقدّمها فَرسٌ للنبي ﷺ، فَبَرك على رُكبتيه، وأطلع رأسَه من الصفّ، وقال: «كأنّه بحر». وفي لفظٍ عن مكحولٍ: فجاء فرسٌ له أدهَمُ سابقًا، وأَشرَف على الناس، فقالوا: الأدهمُ الأدهم، وجثا رسولُ الله ﷺ، على رُكبتيه ومرَّ به وقد انتشر ذنَبُه وكان معقودًا، فقال رسولُ الله ﷺ: «البحر».

وأوّلُ مسابَقةٍ كانت في الإسلام سنةَ ستٍّ من الهجرة، سابَقَ رسولُ الله ﷺ بين الخيل، فسَبَق فَرسٌ لأبي بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ فأَخَذ السَّبَق[1]. والمسابَقةُ ممّا كان في الجاهليّة فأقرّه الإسلام؛ وليس هو من باب تعذيب البهائم، بل من تدريبِها بالجرِي وإعدادِها لحاجتِها للطّلب والكرّ؛ واختُلف فيه، هل هو من باب المُباح، أو من باب المرغَّبِ فيه والسُّنن.

وعن سعيدِ بنِ المسيّب[2] أنه قال: ليس بِرِهان الخيل بأسٌ إذا أَدخَلوا فيها محلِّلًا ليس دونها، إن سَبَق أَخَذ السَّبَق، وإن سُبق لم يكن عليه شيء.

وعن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النّبيّ ﷺ، قال: «من أدخل فرسًا بين فرسين ـ يعني وهو لا يؤمَن أن يَسبِق ـ فليس بقِمار، ومن أدخل فرسًا بين فرسين وقد أُمِن أن يَسبِق فهو قِمار»؛ رواه أبو داودَ في الجهاد في باب المحلِّل، ورواه ابنُ ماجة.

قال الشيخ شرفُ الدّين الدّمياطيُّ[3] ـ رحمه الله تعالى ـ قولُه: «من أدخل فرسًا»، هو فَرسُ المحلِّل إذا كان كفؤًا يخافان أن يسبقهما فيُحرِزَ السَّبَق، فهو جائز؛ وإن كان بليدًا مأمونًا أن يَسبِق فيُحرِزَ السَّبَق لم يحصل به معنى التحليل، وصار إدخالُه بينهما لغوًا لا معنى له، وحَصَل الأمرُ على رِهانٍ من فرسين لا محلِّل بينهما وهو عينُ القِمار. وقال القاضي أبو الفضل: لا خلافَ في جواز المراهَنةِ فيها ـ يعني المسابَقة ـ وأنّها خارجةٌ من باب القِمار، لكن لذلك صور: إحداها متّفَقٌ على جوازها، والثانيةُ متّفَقٌ على منعِها، وفي الوجوه الأُخَرِ خلاف؛ فأمّا المتَّفَقُ على جوازه فأنْ يُخرِج

(١) السبق: (بالتحريك): ما يجعل من المال رهنًا على المسابقة.

(٢) هو سعيد بن المسيَّب بن حزن الإمام أبو محمد المخزومي، أحد الأعلام وسيّد التابعين محدّث ثقة فقيه، رفيع الذّكر، رأسٌ في العلم والعمل مات سنة ٩٤ هـ. (الكاشف ١/٢٩٦).

(٣) هو عبد المؤمن بن خلف الدّمياطي، أبو محمد شرف الدّين، حافظٌ للحديث من أكابر الشافعية توفي فجأة في القاهرة سنة ٧٠٥ هـ، له مصنّفات كثيرة. (الأعلام ٤/١٦٩).

الوالي سَبَقًا يجعلُه للسابق من المتسابقين ولا فرسَ له في الحَلْبة، فمن سَبَق فهو له؛ وكذلك لو أَخرَج أسباقًا أحدُها للسابق، والثاني للمصلّي، والثالثُ للثالث، وهكذا، فهو جائز، ويأخذونه على شروطهم؛ وكذلك لو فَعَل متطوّعًا رجلٌ من الناس ممّن لا فرسَ له في الحَلْبة، لأنّ هذا قد خرج من معنى القِمار إلى باب المكارَمة والتفضّلِ على السابق، وقد أخرجه عن يدِه بكلّ حال؛ وأمّا المتَّفَقُ على منعِه فأن يُخرِج كلُّ واحدٍ من المتسابقَين سَبَقًا، فمن سَبَق منهما أَخذ سَبَق صاحبِه وأمسَك متاعَه، فهذا قمار عند مالكٍ والشافعيِّ وجميعِ العلماء ما لم يكن بينهما محلِّل، فإن كان بينهما محلِّلٌ فجعلا له السَّبَقَ إن سَبَق ولا شيءَ عليه إن سُبِق فأجازه ابنُ المسيِّب، وقاله مالكٌ مَرّة، والمشهور عنه أنّه لا يجوز؛ وقال الشافعيُّ مثلَ قول ابنِ المسيِّب؛ فإن سَبَق أحدُ المتسابقَين أحرزَ سَبَقه وسَبَق صاحبِه، وإن تساويَا كان لكلّ واحد منهما ما أخرَج، وإن سَبَق المحلِّلُ حاز السَّبَقين، وإن سَبَق أحدهما مع المحلِّل أحرَزا سَبَق المتأخِّر؛ وسُمّي المحلِّلُ محلِّلًا لتحليله السَّبَق بدخوله، لأنّه عُلِم أنّ المقصِدَ بدخولِه السَّبْقُ لا المال، وإن لم يكن بينهما محلِّلٌ فمقصِدُهما المالُ والمخاطَرةُ فيه؛ وقال محمدُ بنُ الحسن نحوَه والأَوْزاعيُّ وأحمدُ وإسحٰق؛ ومن الوجوه المختلَفِ فيها أن يكون الوالي أو غيرُه ممّن أَخرَج السَّبَقَ له فرسٌ في الحَلْبة، فيُخرِج سَبَقًا على أنّه إن سَبَق هو حَبَس سبقَه، وإن سُبق أَخَذه السابق، فأكثر العلماء يجيزون هذا الشرط، وهو أحدُ أقوال مالك وبعضِ أصحابِه، وهو قولُ الشافعيِّ واللَّيثِ[1] والثَّوْرِيِّ وأبي حنيفة قالوا: «الأسباقُ على مِلك أربابِها، وهم فيها على شروطهم»؛ وأبى ذلك مالكٌ في الرواية الأخرى وبعضُ أصحابِه ورَبيعةُ[2] والأَوْزاعيّ، وقالوا: «لا يَرجِع إليه سَبَقُه»؛ قال مالك: وإنما يأكله من حضر إن سَبَق مُخرِجُه إنْ لم يكن مع المتسابقَين ثالث، فإن كان معهما ثالثٌ فللّذي يلي مُخرِجَه إن سَبَق، فإن سَبَق غيرُه فهو له بغير خلاف، فخرج هذا عندهم عن معنى القِمار جملة؛ ولَحِق بالأوّل، لأن صاحبَه قد أخرجه عن ملكِه جملة، وتَفضَّل بدفعِه؛ وفي الوجوه الأُخَر معنًى من القِمار والخَطَر، لأنها مرّةً تَرجِع الأسباقَ لمُخرجِ أحدِها، ومرّةً تخرج عنه إلى غيرِه.

---

(١) هو اللّيث بن سعد، أبو الحارث، إمام أهل مصر في عصره حديثًا وفقهًا مات سنة ١٧٥ هـ. (الأعلام ٥/٢٤٨).

(٢) هو ربيعة الرأي ابن فرّوخ التيمي، أبو عثمان، إمام حافظ فقيه مجتهد، كان صاحب الفتوى بالمدينة، توفي سنة ١٣٦ هـ قال ابن الماجشون: «ما رأيت أحدًا أحفظ لسنّةٍ من ربيعة». (الأعلام ٣/١٧).

ومِن شرط وضع الرِّهان في المسابَقةِ أن تكون الخيلُ متقاربةَ الحال في سَبْق بعضِها بعضًا، فمتى تَحَقَّق حالُ أحدِها في السَّبْق كان الرِّهان في ذلك قِمارًا لا يجوز، وإدخالُ المحلِّلِ لغوًا لا معنى له؛ وكذلك إن كانت متقاربةَ الحال ممّا يُقطَع غالبًا بِسَبْق جنسِها، كالمضمَّرة مع غيرِ المضمَّرة، والعِرابِ مع غيرِها، فلا تجوز المراهَنةُ في مثلِ هذا؛ وقد ميَّز النَّبيُّ ﷺ ما ضُمِّرَ في السِّبَاق، وأفرده عن ما لم يضمَّر، وتجوز فيها المسابَقةُ بغير رِهان، وإنّما يَدخُل التحليلُ والتحريمُ مع الرِّهان.

ومِن شرطِها أيضًا الأَمَدُ لِسباقِها؛ وحَكى عبدُ الله بنُ المبارَك عن سفيانَ قال: إذا سَبَق الفَرسُ بأُذُنِه فهو سابق، هذا إذا تساوت أعناقُ الخيل في الطُّول، فإن اختلفتْ أعناقُها بالطُّول والقِصَرِ كان السَّبْقُ بالكاهل.

وأمّا أسماء السوابق في الحَلْبة ـ فالسوابق عند أبي عُبَيدة عشرة: أوّلُها السابق، ثم المصلِّي، ثم الثالثُ والرابع كذلك إلى التاسع، والعاشر السُّكَيْت، ويقال بالتشديد. وقال ابنُ قُتَيبة: «فما جاء بعد ذلك لم يُعتدَّ به»؛ والفِسْكِل: الذي يجيء في الحَلْبة آخِرَ الخيل. وأمّا الأصمَعيُّ فإنّه يقول: أوّلُها المجلِّي، وهو المقصِّب، أي محرِزٌ قَصَبَ السَّبْق، ثم المصلِّي، ثم المسلِّي، ثم التالي، ثم المؤمَّل، ثم المرتاح، ثم العاطف، ثم الحَظِيّ، ثم اللَّطيم، ثم السُّكَيْت. وقال ابنُ الأنباريِّ[1] في (الزاهر): الأوّلُ المجلِّي، الثاني المصلِّي، الثالثُ المسلِّي، الرابعُ التالي، الخامسُ المرتاح، السادسُ العاطف، السابعُ الحَظِيّ، الثامنُ المؤمَّل، التاسعُ اللَّطيم، العاشرُ السُّكَيْت، والكاف منه تخفَّف وتشدَّد، قال الشاعر: [من الكامل]

جاء المجلِّي والمصلِّي بعدَه ... ثمّ المسلِّي بعدَه والتالي
نَسَقا وقاد حَظِيُّها مرتاحُها ... من قَبل عاطفها بلا إشكالِ

وقال أبو الغوث: أوّلُها المجلِّي، وهو السابق، ثم المصلِّي، ثم المسلِّي، ثم التّالي، ثم العاطف، ثم المرتاح، ثم المؤمَّل، ثم الحَظِيّ، ثم اللَّطيم، ثم السُّكَيْت؛ وأنشدَ بعضُهم في العشرة: [من الطويل]

أتانا المجلِّي والمصلِّيَ بعدَه ... مُسلٍّ وتالٍ بعدَه عاطفٌ يَجري
ومرتاحُها ثمّ الحَظِيُّ ومُؤمَّلٌ ... وجاء اللَّطيمُ والسُّكَيْتُ له يَبري[2]

---

(١) هو محمد بن القاسم، أبو بكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة والشعر ولد في الأنبار، وتوفي ببغداد سنة ٣٢٨ هـ. (الأعلام ٦/ ٣٣٤).

(٢) يبري: أي ينبري له ويعرض.

وقال الجاحظ: كانت العربُ تَعُدّ السوابقَ ثمانية، ولا تجعل لما جاوزها حظًّا، فأوّلُها السابق، ثم المصلّي، ثم المقفِّي، ثم التالي، ثم العاطف، ثم المذمَّر، ثم البارع[١]، ثم اللَّطيم؛ وكانت العربُ تَلطِم وجهَ الآخِرِ وإن كان له حظّ. وقال ابنُ الأَجْدابيّ: المحفوظُ عن العرب السابق والمصلّي والسُّكَيْت الّذي هو العاشر، وأمّا باقي الأسماء فأراها محدَثة، والفِسْكِل: الّذي يأتي آخِرَ الخيلِ في الحَلْبَة. وقال غيرُه: وما يجيء بعد هذه - يعني العشرة - فهو المقَرْدِح؛ وأنشد على ذلك: [من الرجز]

قد سبقَ الخيلَ الهِجانُ الأقرح   وأقبلتْ من بعده تُقردِحُ[٢]

والفِسْكِل: الذي يجيء في أخريات الخيل، والذي يجيء بعده القاشور، وما جاء بعد ذلك لا حظّ له ولا اعتداد به؛ وقيل: السُّكَيْتُ والفِسْكِلُ والقاشورُ بمعنًى واحد.

وممّا يتّصل بهذا الفصل ترتيبُ عَدْوِ الفرس - وأوّلُه الخَبَب، ثم التقريب، ثم الإمجاج، ثم الإحضار، ثم الإرخاء، ثم الإهذاب، ثم الإهماج.

كيفية تضمير الخيل

قد حَكَى ابنُ بَنِينَ[٣] أنّ رسولَ الله ﷺ كان يأمر بإضمار خيلِه بالحشيش اليابس شيئًا بعد شيء، وطيًّا بعد طيّ، ويقول: «أرووها من الماء، واسقوها غُدوةً وعشيًّا، وألزموها الجِلالَ[٤]... فتصفوَ ألوانُها، وتتّسعَ جلودُها». وأمَر ﷺ أن يقودوها في كلِّ يومٍ مرّتين، ويؤخذَ منها من الجري الشَّوْطُ والشَّوْطان، ولا تُركَض حتّى تنطوي. قال الشيخ - رحمه الله -: والتضميرُ: تقليلُ علفِها مدّة، وإدخالُها بيتًا كَنينًا، وتَجليلُها

---

(١) لم نجده فيما لدينا من كتب اللغة مادة (برع). بمعنى السابع من قبل السياق كما هنا، والذي وجدناه أن البارع بمعنى الفائق، وهو ينافي معناه هنا؛ لعله سمي البارع تهكمًا.

(٢) الأقرح من الخيل: هو ما كان في جبهته قرحة بضم القاف، وهي بياض قليل في وجه الفرس دون الغرة. وقيل: الأقرح: هو الذي غرته مثل الدرهم أو أقل بين عينيه أو فوقهما من الهامة.

(٣) ابن بنين: هو سليمان بن بنين بن خلف.. تقيُّ الدين الدقيقي عالم بالأدب، له مصنّفات منها: آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد، توفي بالقاهرة سنة ٦١٣ هـ. (الأعلام ٣/ ١٢٢).

(٤) الجلال: جمع جُل (بضم الجيم وفتحها) وهو ما يلبسه الفرس وغيره من الدواب ليصان به.

فيه لتَعْرَقَ ويَجِفَّ عَرَقُها، فيصلُبَ لحمُها ويخِفّ، وتقوَى على الجري؛ يقال: «ضمّرتُ الفرَسَ وأضمرْتُه».

ذكر ما يُقسَم لصاحب الفرسِ من سهام الغنيمة والفرقِ في ذلك بين العِرابِ والهُجُن والبراذين

عن عبدِ الله بنِ عمر - رضي الله عنهما - أنّ رسولَ الله ﷺ جعل للفرس سهمين، ولصاحبه سهمًا. وفي لفظٍ: قَسَم رسولُ الله ﷺ يوم خَيبَرَ للفَرَسِ سهمين، وللرجلِ سهمًا؛ رواه البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داودَ والترمذيُّ وابنُ ماجة. وفي لفظ أبي داودَ: أنّ رسولَ الله ﷺ أسهم لرجلٍ ولفرسِه ثلاثة أسهم: سهمًا له، وسهمين لفَرَسِه؛ ولفظُ ابن ماجة: أنّ النّبيَّ ﷺ أسهَم يومَ خَيبَرَ للفارس ثلاثةَ أسهم: للفَرَس سهمان، وللرّجلِ سهم.

وعن مكحول - رضي الله عنه - أنّ رسولَ الله ﷺ هَجَّن الهجينَ يومَ خَيبَرَ، وعَرَّب العُرب، للعربيِّ سهمان، وللهجين سهم. وعن خالدِ بنِ مَعْدَان[1] - رضي الله عنه - قال: أَسْهَم رسولُ الله ﷺ للعربيِّ سهمين، وللهجين سهمًا.

وعن أبي موسى أنّه كَتَب إلى عمرَ بنِ الخطّاب - رضي الله عنهما - «إنا وجدْنا بالعراق خيلًا عِراضًا دُكًّا[2]، فما يرى أميرُ المؤمنين في سهامها»؟ فكَتَب: «تلك البراذين، فما قارب العِتاقَ فاجعل له سهمًا واحدًا، وألغِ ما سوى ذلك».

وعن أبي الأقمر قال: أغارت الخيل على الشام، فأدرَكت العِرابُ من يومِها، وأدركت الكوادنُ[3] ضحى الغد، وعلى الخيلِ رجلٌ من هَمْدانَ يقال له المنذرُ بنُ أبي حَمْضة، فقال: «لا أجعل الّتي أدرَكَتْ من يومِها مثلَ الّتي لم تُدرِك»، ففضَّل الخيل، فكَتَب في ذلك إلى عمرَ بنِ الخطّاب - رضي الله عنه - فقال: «هَبِلَتْ الوادعيَّ[4] أمُّه، لقد أذكرني أمرًا كنتُ أُنسِيتُه، أُمضوها على ما قال». والكوادن: جمع كَوْدَن، وهو البِرْذَوْن؛ ومذهبُ مالكٍ والشافعيِّ وأبي حنيفةَ التسويةُ بين العربيِّ وغيرِه، إلّا أنّهم

---

(١) هو خالد بن معدان الكلاعي، فقيه كبير ثبت مهيب مخلص، كثير التسبيح مات سنة ١٠٤ هـ. (الكاشف ١/٢٠٨).

(٢) الدُّكّ: جمع أدك، وهو العريض الظهر القصير.

(٣) الكوادن: جمع كودن، وهو البرذون.

(٤) الوادعي: نسبة إلى وادعة، وهو بطن من همدان، وهو وادعة بن عمرو بن عامر بن ناسج بن رافع بن مالك بن ذي بارق بن مالك بن جشم إلى آخر النسب. (الأنساب للسمعاني).

جعلوا[١] لكلِّ واحدٍ منهما سهمًا واحدًا؛ قال مالك: ولا أرى البراذين والهُجُن إلّا من الخيل لأنّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: الآية ٨]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] قال: «فأنا أرى البراذين والهُجُنَ من الخيل إذا أجازها الوالي». قال ابنُ حبيب: البراذينُ هي العظام، يريد الجافية الخِلْقة، العظيمةَ الأعضاء، وليست العِرابُ كذلك، فإنّها أضمَرُ وأرقُّ أعضاءً وأعلى خِلْقةً؛ وأمّا الهُجُنُ فهي الّتي أبوها عربيٌّ وأمّها من البراذين. قال الشيخ[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ: ومذهبُ جمهور العلماء أنه يُقسَم للفرس سهمان، ولصاحبِه سهمٌ على ما فرضه النّبيّ ﷺ، لأنّ مؤونة الفرس أكثرُ من مؤونة فارسِه، وغَناءَه أكثرُ من غَناء الفارس، فاستَحَقّ الزيادةَ في القَسْم من أجل ذلك؛ قال: وذهب أبو حنيفةَ إلى أنّه يُقسَم للفرس كما يُقسَم للرجل؛ وقال: «لا يكون أعظمَ منه حرمة»؛ ولم يتابعْه أحدٌ على ذلك إلّا شيءٌ يُرْوَى عن عليٍّ وأبي موسى[٣]؛ وذهب مالكٌ وأبو حنيفةَ ومحمدُ بنُ الحسنِ والشافعيُّ إلى أنه لا يُقسَم إلّا لفرسٍ واحد، ودليلُهم ما رواه ابنُ سعدٍ في طبقاتِه: أنّ النّبيّ ﷺ أمر زيدَ بنَ ثابتٍ يومَ حُنين بإحصاء الناس والغنائم فكان السَّبيُ ستّةَ آلافِ رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفَ بعير، والغنمُ أكثرَ من أربعين ألفَ شاة، وأربعة آلافِ أوقيّةٍ فضّة، فأَخَذ من ذلك الخمُس، ثم فضّ الباقيَ على الناس، فكانت سهامُهم لكلِّ رجلٍ أربعٌ من الإبل وأربعون شاة، وإن كان فارسًا أَخَذ اثنَيْ عشر من الإبل وعشرين ومائةَ شاة، وإن كان معه أكثرُ من فرسٍ لم يُسهَم له. وذهب الأَوْزاعيُّ والثَّوْريُّ واللَّيثُ بنُ سعدٍ وأبو يوسفَ وأحمدُ بنُ حنبل ـ رحمهم الله ـ إلى أنه يُسهَم لفرسين، ورُوِيَ مثلُه عن مكحولٍ ويحيىٰ بنِ سعيدٍ[٤]

---

(١) تفيد هذه العبارة أن مالكًا والشافعي وأبا حنيفة متفقون على أن لكل واحد من الخيل الهجن سهمًا واحدًا في الغنيمة، ولكن عبارة الحافظ الدمياطي في كتاب فضل الخيل الذي ينقل عنه المؤلف هذا الكلام، تفيد خلاف ما ذكر؛ وهو أن مالكًا والشافعي يجعلان لكل واحد من الخيل والهجن سهمين، وأن أبا حنيفة وحده يجعل لكل واحد منهما سهمًا واحدًا، وأن الاتفاق بينهم إنما هو التسوية بين العربي وغيره لا في المقدار.

(٢) يريد بالشيخ هنا شرف الدين الدمياطي صاحب كتاب «فضل الخيل».

(٣) أبو موسى: هو أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، من بني الأشعر، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين، له أحاديث عدّة مات في الكوفة سنة ٤٤ هـ بعد أن خدعه عمرو بن العاص في التحكيم أثناء معركة صفين. (الأعلام ٤/ ١١٤).

(٤) هو يحيىٰ بن سعيد بن قيس بن عمرو الإمام أبو سعيد الأنصاري، قاضي السّفاح حافظٌ فقيه حجّة مات سنة ١٤٣ هـ. (الكاشف ٣/ ٢٢٥).

وابنِ وهبٍ[١] ومحمدِ بنِ الجَهْمِ من المالكيّة، وحكاه محمدُ بنُ جَرِير الطبريُّ في تاريخه، فقال: «ولم يكن يُسهَم للخيل إذا كانت مع الرجل إلّا لفرسين» ودليلُهم ما ذكره ابنُ مَنْدَة[٢] في ترجمة البراءِ بنِ أَوْسِ بنِ خالد أنّه قاد مع النّبيّ ﷺ فرسين، فضَرَب له النّبيّ ﷺ خمسةَ أسهم؛ ولم يقل أحدٌ إنه يُسهَم لأكثرَ من فرسين إلّا شيئًا يُروَى عن سليمانَ بنِ موسى[٣] أنه يُسهَم لمن غزا بأفراسٍ لكلِّ فرسٍ سهمان؛ واختلفوا في الإسهام للفرس المريض الذي يُرجَى برؤه على قولين، أحدُهما: يُسهَم له نظرًا إلى الجنس؛ والثاني: لا يُسهَم له، لأنه لا غَناءَ فيه كالبغل والحمار؛ والله الموفِّق للصواب.

ذكر سقوط الزكاة في الخيل

رُوِيَ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس على المرء المسلمِ في فرسِهِ ولا مملوكهِ صدقة» متَّفَقٌ عليه. وفي لفظٍ عنه: «ليس على المسلم في عبدِهِ ولا في فرسِهِ صدقة». وفي لفظ: «ليس في الخيل والرَّقيق زكاةٌ إلّا زكَاةُ الفطر في الرَّقيق». وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله وضع الصدقات فليس على الخيلِ صدقة، وليس على الحُمُر صدقة، وليس على البغالِ صدقة، وليس على الإبل التي يُسقَى عليها الماءُ للنّواضح صدقة».

وعن أبي عمرو عبدِ الله بنِ يزيدَ الحَرّانيّ، قال: حدّثني سليمانُ بنُ أرقَمَ[٤]، عن الحسن[٥]، عن عبدِ الرحمٰن بنِ سَمُرَةَ[٦] أنّ النّبيَّ ﷺ قال: «لا صدقةَ في الكُسْعة والجَبْهة والنَّخّة»؛ فسّره أبو عمرو، الكُسْعة: الحمير. والجَبْهة: الخيل.

---

(١) ابن وهب: هو ابن وهب بن منبّه، محدّث روى عن أبيه، وروى عنه أبو بكر بن عياش، وبنو وهب المعروفون: عبد الله، وعبد الرحمٰن وأيوب. (الكاشف ٣/ ٣٧٩).

(٢) ابن مندة: هو محمد بن يحيىٰ بن منده، العبدي، أبو عبد الله، مؤرّخ من حفاظ الحديث الثقات، من أهل أصبهان مات سنة ٣٠١ هـ. (الأعلام ٧/ ١٣٥).

(٣) لعلّه سليمان بن موسى الأموي الدمشقي الأشدق، أحد الأئمة محدّث توفي سنة ١١٩ هـ. (الكاشف ١/ ٣٢٠).

(٤) هو سليمان بن أرقم، أبو معاذ البصري، محدّث حدّث عن الحسن وعطاء، وعنه الزّهري. (انظر الكاشف ١/ ٣١١).

(٥) الحسن: يريد الحسن بن يسار البصري.

(٦) هو عبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس بن أميّة، من الطلقاء، تأمّر وافتتح سجستان وكابل، محدّث أخذ عنه الحسن وابن سيرين مات سنة ٥٠ هـ. (الكاشف ١/ ١٤٩).

والنَّخة: العبيد. ويقال: النَّخة، البقر العوامل؛ قال ثعلب: هذا هو الصواب، لأنّه من النَّخ، وهو السَّوْقُ الشديد؛ وقال الكسائيّ: إنما هو النُّخّةُ بالضمّ، قال: وهو البقرُ العوامل؛ وقال الفرّاء: النَّخّةُ بالفتح، أن يأخذ المصدِّقُ دينارًا لنفسِه بعد فراغه من أخذ الصدقة، وأنشد: [من البسيط]

عمِّي الّذي مَنعَ الدّينارَ صاحبَه ... دينارَ نَخّةِ كلبٍ وهو مشهودُ

وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النّبيّ ﷺ: «عفوْتُ لكم عن الخيلِ والرَّقيق». وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قد عفوْتُ لكم عن الخيلِ والرَّقيقِ فهاتوا صدقةَ الرِّقّةِ من كلِّ أربعين درهمًا درهمًا، وليس في تسعين ومائةٍ شيء، فإذَا بلغتْ مائتين ففيها خمسةُ دراهم». وفي لفظٍ آخَرَ عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «فإذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحَوْل، ففيها خمسةُ دراهمُ، وليس عليك شيء ـ يعني في الذهب ـ حتّى يكونَ لك عشرون دينارًا وحال عليها الحَوْل، ففيها نصفُ دينار، فما زاد فبحساب ذلك». قال الجوهريّ: الوَرِق، الدراهمُ المضروبة، وكذلك الرِّقَة، والهاء عِوضٌ من الواو؛ وفي الوَرِق ثلاثُ لغاتٍ حكاهنّ الفرّاء: وَرِق، ووِرْق، ووَرْق.

وعن جابر بنِ عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ تَجوَّز لكم عن صدقة الخيل والرَّقيق».

وعن عبدِ الله بنِ دينار[1] قال: سألتُ سعيدَ بنَ المسيِّب، فقلت: أفي البراذين صدقة؟ فقال: أفي الخيل صدقة؟. وعن حارثةَ بنِ مضرِّب قال: جاء ناسٌ من أهل الشام إلى عمرَ فقالوا: إنا قد أصبنا أموالًا خيلًا ورقيقًا نحبُّ أن يكون لنا فيها زكاةٌ وطَهور؛ فقال: ما فعله صاحباي فأفعلَه، فاستشار أصحابَ محمّدٍ ﷺ وفيهم عليّ ـ رضي الله عنه ـ فقال عليّ: «هو حسنٌ إن لم تكن جزيةً يؤخَذون بها بعدك».

وعن مالكِ بنِ أَنَس، عن ابنِ شهاب، عن سليمانَ بنِ يسار[2] أنّ أهلَ الشام قالوا لأبي عُبَيْدَة[3]: خذ من خيلِنا ورقيقِنا صدقة، فأبَى، ثمّ كتب إلى عمرَ بنِ

(١) لعلّه عبد الله بن دينار المدني محدّث من الثقات مات سنة ١٢٧ هـ. (الكاشف ٢/ ٧٥).

(٢) هو سليمان بن يسار الهلالي، مولى ميمونة أمّ المؤمنين، كان من فقهاء المدينة، محدّث مأمون ثقة عابد فاضل، مات سنة ١٠٧ هـ. (الكاشف ١/ ٣٢١).

(٣) هو أبو عبيدة بن الجرّاح القائد الفاتح.

الخطّاب، فأبَى، فكلَّموه أيضًا، فكتب إلى عمر، فكتب إليه أيضًا عمر: إن أحبّوا فخذها منهم وارددها، يعني في فقرائهم.

فدلّت هذه الأحاديثُ والأخبارُ على أنْ لا صدقةَ في الخيلِ السائمةِ ولا في الرَّقيق إذا كانوا للخدمة، إلّا أن يكونوا للتجارة، فإن كانوا للتجارة ففي أثمانهم أو قِيَمِهم الزكاةُ إذا حال عليها الحَوْل، وعلى هذا مذهبُ الجمهور؛ وذهب أبو حنيفةَ ـ رحمه الله ـ دون صاحبَيْه إلى وجوب الزّكاةِ في الخيلِ السائمةِ إذا كانت إناثًا، أو إناثًا وذكورًا، وقال: هو مخيَّر بين أن تُقَوَّمَ وتؤخَذَ الزكاةُ من القيمة، وبين أن يُخرِجَ عن كلِّ فرسٍ دينارًا؛ واحتجّوا له بقوله عليه السلام: «ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في رقابِها وظهورِها»؛ قال المخالِف لهم: وليس فيه دليلٌ من وجهين: أحدُهما أنّه ﷺ لمّا ذَكَرَ الإبل السائمةَ وقال: «فيها حقّ» سئل عن ذلك الحقِّ ما هو؟ فقال: «إطراقُ فحلِها، وإعارةُ دَلوِها، ومِنحةُ لبنِها أو سمنِها، وحَلبُها على الماء، وحَمْلٌ عليها في سبيل الله»؛ فلمّا كانت الإبلُ فيها حقٌّ سوى الزكاة احتُمِل أن يكون في الخيل أيضًا حقٌّ سوى الزكاة؛ وقد روى التِّرمذيُّ وابنُ ماجةَ حديثَ فاطمةَ بنتِ قيس، قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ في المال حقًّا سوى الزّكاة» وتلا هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] الخ الآية؛ فيجوز أن يُحمَل الحقُّ في رقابِها وظهورِها على هذا الوجه. الثاني أن يُحمَل الحقُّ فيها على التأكيد لا على الوجوب، كقولِه ﷺ في حديث مُعاذ(١): «وحقُّ العباد على اللهِ عزّ وجلّ أن لا يعذّبَهم إذا فعلوا ذلك»، فهذا مَحْمَلُ قولِه عليه السلام: «ثمّ لم يَنْسَ حقَّ الله في رقابِها» وتأويلُه. قال شيخنا شرفُ الدّين عبدُ المؤمن بنُ خلف الدِّمياطيُّ ـ رحمه الله ـ: ولنا أن نقول فيه أيضًا: هو مُجمَل، والأحاديثُ المتقدِّمةُ مفسِّرةٌ تقضي(٢) عليه، وظواهرُها حججٌ متضافرةٌ على ترك الزكاة في الخيل؛ قال: فهذا وجهُه من طريق السنّة والأثر؛ وأمّا وجهُه من طريق النظر فمن وجهين: أحدُهما أن السَّوْمَ في الخيلِ نادرٌ عند العرب، فلا زكاة فيها كالبغال والحمير، الثاني أنّ الزكاة لو وجبت في الخيل لتعدَّى ذلك إلى ذكورِها قياسًا على المواشي من الإبل والبقر والغنم. وقال الطَّبريّ

(١) معاذ: لعلّه معاذ بن الحارث بن رفاعة، أنصاري، بدري، وهو وأخوه بنو عفراء، فاستشهدوا ببدر، وبقي هو إلى أيام صفين. (الكاشف ٣/ ١٣٥).

(٢) تقضي عليه: أي أن الأحاديث الواردة بإسقاط الزكاة من الخيل تحكم على هذا المجمل وتخصّص الحقّ الوارد في الحديث السّابق ببعض ما يحتمله من المعاني، وهو ما عدا الزّكاة فيها.

والطَّحاويّ[١]: والنظرُ أنّ الخيلَ في معنى البغال والحمير الّتي قد أجمع الجميعُ على أن لا صدقَةَ فيها، وردُّ المختلَفِ فيه إلى المتَّفقِ عليه إذا اتّفقا في المعنى أولى. وقال أبو عُبَيد: وكان بعضُ الكوفيّين يَرَى في الخَيل صدقةً إذا كانت سائمةً يُبتغَى منها النسل، فقال: إن شاء أدّى عن كلِّ فرسٍ دينارًا، وإن شاء قوّمَها ثم زكّاها؛ قال: وإن كانت للتجارة كانت كسائر أموال التجارة يزكّيها؛ قال أبو عُبَيد[٢]: أمّا قولُه في التّجارة فعلى ما قال؛ وأمّا إيجابُه الصدقةَ في السائمةِ فليس هذا على اتباع السنّة، ولا على طريق النظر، لأنّ رسولَ الله ﷺ قد عفا عن صدقتها، ولم يَستثنِ سائمةً ولا غيرَها؛ وأمّا في النظر، فكان يَلزَمه إذا رأى فيها صدقةً أن يجعلَها كالماشية تشبيهًا بها، لأنّها سائمةٌ مثلُها، فلم يَصِرْ إلى واحدٍ من الأمرين؛ وقد جاء عن غيرِ واحدٍ من التابعين إسقاطُ الزكاة من سائمتها، فرُوِيَ عن الحسن أنّه قال: «ليس في الخيلِ السائمةِ صدقة»؛ وعن عمرَ بن عبدِ العزيز قال: «ليس في الخيلِ السائمةِ زكاة»؛ وقال أبو عبيد: وقد قال مع هذا بعضُ من يقول بالحديث ويَذهب إليه: إنه لا صدقة في سائمتِها ولا فيما كان منها للتجارة أيضًا؛ يَذهَب إلى أنّ رسول الله ﷺ قال: «قد عفوْنا لكم عن صدقة الخيلِ والرَّقيق»؛ فجعَلَه عامًّا، فلا زكاةَ في شيءٍ منها؛ قال أبو عُبَيد: فأَوجَب ذلك الأوّلُ الصدقةَ عليها في الحالين جميعًا، وأسقطها هذا منهما كلتيهما؛ وأحد القولين عندي غلوّ، والآخَرُ تقصير، والقصدُ فيما بينهما هو أن تجبَ الصدقةُ فيما كان منها للتجارة، وتَسقُطَ مِن السائمة؛ على هذا وجدنا مذهبَ العلماء، وهم أعلمُ بتأويل حديثِ رسولِ الله ﷺ، وهو قول سفيانَ بنِ سعيد ومالكٍ وأهلِ العراق وأهلِ الحِجاز والشأم، لا أعلم بينهم في هذا اختلافًا؛ والله أعلم بالصواب.

كمل الجزء التاسع من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويريّ
ـ رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء العاشر، وأوّله:
ذكر ما وصفتْ به العربُ الخيلَ من ترتيبها في السنّ
وتسمية أعضائها وأبعاضها وألوانها وشياتها... الخ
والحمد لله ربّ العالمين

---

(١) الطحّاوي: هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطّحاوي، أبو جعفر، فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في «طحا» من صعيد مصر، له تصانيف كثيرة في الحديث والفقه والتاريخ مات سنة ٣٢١ هـ. (الأعلام ١/٢٠٦).

(٢) أبو عُبيد: هو القاسم بن سلّام الهروي الأزدي الخزاعي، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، له تصانيف عديدة، قال الجاحظ: لم يكتب الناس أصحّ من كتبه ولا أكثر فائدة مات سنة ٢٢٤ هـ. (الأعلام ٥/١٧٦).

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، المطبعة الشرقية ـ مصر.

٢ ـ **الأعلام**، **للزركلي**، دار العلم للملايين ـ بيروت.

٣ ـ **الأغاني**، لأبي الفرج الأصبهاني، ط بولاق.

٤ ـ **الأنساب**، للسمعاني.

٥ ـ **تاج العروس**، للزبيدي.

٦ ـ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، ط. مصر.

٧ ـ **جمهرة أنساب العرب**.

٨ ـ **الحيوان**، للجاحظ، مطبعة السعادة ـ مصر.

٩ ـ **حياة الحيوان**، للدميري، المطبعة الخيرية ـ مصر.

١٠ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٢ ـ **الطبقات الكبرى**، لابن سعد.

١٣ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربه.

١٤ ـ **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، لابن رشيق القيرواني.

١٥ ـ **فتح العزيز**، للإمام الرافعي، مطبعة التضامن.

١٦ ـ **الكاشف**، للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية.

١٧ ـ **كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون**، لحاجي خليفة.

١٨ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

١٩ ـ **مجمع الأمثال**، للميداني.

٢٠ ـ **المخصّص**، لابن سيده.

٢١ ـ **مروج الذهب**، للمسعودي، ط. بولاق.

٢٢ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

٢٣ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.

٢٤ ـ **المؤتلف والمختلف**، للآمدي، دار الكتب العلمية.

٢٥ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلّكان.

فهرس المحتويات

الفنُّ الثالث
في الحيوان الصامت

القسم الأوّل
من هذا الفنّ في السِّباع
وما يتّصل بها من جنسها

القِسْمُ الثَّانِي
مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ في الوُحُوشِ وَالظِّبَاءِ
وَمَا يتَّصِلُ بهَا مِنْ جِنْسِهَا

القسم الثالث
من الفن الثالث
في الدوابّ والأنعام

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء العاشر

تحقيق

الدكتور يوسف الطويل

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

ذِكْرُ مَا وَصَفَتْ بِهِ العربُ الخيْلَ

مِنْ ترتيبِهَا في السنّ، وتَسْمِيَةِ أَعضائِها، وأبعاضِها، وألوانِها، وشيَاتِها، وغُرَرِهَا، وحُجُولِها، وعُصَمِها، ودوائرِها، وما قيل في طبائِعِها وعاداتها، والمحمودِ مِنْ صفاتِها ومحاسِنِها، والعلاماتِ الدالّةِ على جَوْدتِها ونَجَابَتِها، وَعَدِّ عُيوبِها التي تكونَ في خَلْقها وجريها، والعيوب التي تطرَأُ عليها وتَحدُث فيها.

أَمَّا ترتيبُها في السنّ ـ فالعربُ تقولُ: سِنُّ الفرسِ إذا وضعتْهُ أُمُّهُ فهو «مُهْرٌ». ثم هو «فُلُوٌّ». فإذا أستكملَ سنةً فهو «حَوْلِيٌّ». ثم هو في الثانية «جَذَعٌ». ثم في الثالثة «ثنِيٌّ». ثم في الرابعة «رَبَاعٌ»، ثم في الخامسة «قارحٌ». ثم هو إلى نهاية عمره «مُذَّكٍّ».

وأما ما قيل في تسميتِها، وتسميةِ أعضائِها وأبعاضِها ـ فقد قالوا: الخيلُ مؤنّثةٌ، ولا واحدَ لها من جنسِها، وجمعُها خيولٌ. ويقال في صفاتها: «أُذُنٌ مُؤَلَّلَةٌ» و«مُرْهَفَةٌ»، أي محدّدة الطرَف. قال عَديّ بنُ الرِّقَاعِ[1]: [من البسيط]

تَخُوضُ في فُرُجاتِ النَّقْعِ دامِيَةً ... كَأَنَّ آذانَها أطرافُ أقلامِ[2]

و«حَشْرَةٌ»، صغيرة مُستَديرةٌ، و«مَقْدُودةٌ»، مُدَوَّرةٌ، وأُذُنٌ «غَضَنْفَرَةٌ»، أي غليظةٌ، و«زِبَعْرَاةٌ» أي غليظةٌ شَعْرَاءُ، و«خُذَاوِيَّةٌ»، أي خفيفةُ السمعِ. قال عَدِيّ بن زيد[3]:

لَهُ أُذُنَانِ خُذَاوِيَّتَا ... نِ والعينُ تُبْصِرُ ما في الظُّلَمْ

ثم «الناصية»، وهي الشعرُ السائلُ على الجبهة، يقال: «واردَةٌ» وهي الطويلة. و«جَثْلة» وهي الكثيرةُ الملتفَّةُ، و«الفاشِغة» و«الغَمَّاء»، وهي الكثيرةُ المنتشِرَةُ، و«السَّفْوَاءُ»، وهي القليلة، و«عُصفُورها»، أصلُ مَنْبِتِ شَعْرِها. و«قَوْنَسُها»: العَظْمُ الناتىءُ بين الأُذُنين.

---

(١) هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي. ونسبه الناس إلى «الرقاع» وهو جدّ جده لشهرته، وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية، خاصاً بالوليد بن عبد الملك. . وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد. (الأغاني ٨: ١٧٢ ـ ١٧٧).

(٢) النقع: الماء المجتمع في الغدير؛ أو هو الأرض الحرة الطين المستوية ليس فيها حزونة.

(٣) هو عدي بن زيد بن حماد بن أيوب بن زيد مناة بن تميم وكان يسكن بالحيرة، ويدخل الأرياف مثقل لسانه، واحتمل عنه شيء كثير جداً. . (الشعر والشعراء ص ٩٧).

وأما الوجهُ وما فيه مما لم يُذكر في خَلْق الإنسان ـ «النَّواهِقُ»، وهما عَظْمان شاخِصَان في وجهه من الجَبْهَة إلى المَنْخرَيْن، و«اللِّهْزِمَتَان»: ما ٱجْتَمَعَ من اللحم في مُعظَم الجَبِين، و«عَيْنٌ مُغْرَبَةٌ» أي بيضاءُ الحَمَالِيق[1] وما حَوْلها. و«خَيْفاءُ»، إذا كانت إحداهما سوداءَ والأخرى زرقاء، و«المُحَمْلِقَةُ»، التي حَوْلَ مُقْلَتيها بياضٌ لم يُخالِفِ السَّوَادَ.

و«أنفٌ مُصَفَّحٌ» أي مُعتدِلُ القَصَبة. و«السَّمُّ»: ثَقْبَهُ، قال:

* ومَـنْـخِـراً واسِـعـةً سُـمـومُـه *

وقال مُزَاحِم بن طُفَيل الغَنَويّ[2] وقيل: العباس بنِ مرْداس السُّلَميّ[3]:

مِـلْءُ الـحِـزَامَـيْـن ومِـلء الـعـيْـن يـنـفُـش عـنـد الـرَّبْـوِ مَـنْـخَـريـن[4]

* كَـنـفْـشِ كـيـرَيْـن بِـكَـفَّـي قَـيْـنِ[5] *

و«الجَحْفَلَةُ»: الشَّفَة، و«الفَيْد»: الشَّعر النابت عليها. و«الشُّدْقَان»: مَشَقّ الفَم إلى حدّ اللجام.

وأما العُنُق وما فيه ـ «فالمَعْرَفة»: موضع العُرف. و«العُرْفُ»: شعر أعلى العُنُق. و«العُذْرَةُ»: ما على المِنْسَج يَقبِضُ عليه الفارسُ إذا ركب، و«العُرْشَانِ»: اللحمان من جانبَي العُرْف، و«الجِرَانُ»: جِلْدُ أسفلِ العنق. و«الدَّسِيعُ»: مُرَكَّب العُنُق في الكاهل. قال سَلامَةُ بن جَنْدَل[6]:

يَـرْقَـى الـدَّسِـيـعُ إلـى هـادٍ لـه بَـتِـعٍ في جُؤجِؤٍ كَمَداكِ الطِّيبِ مَخْضُوبِ[7]

و«اللَّبَان: ما جرى عليه اللَّبَبُ. ويقال: «عُنُقٌ قَوْدَاء» أي طويلةٌ. و«سَطْعَاء»، أي طويلةٌ منتصبةٌ غليظةٌ. و«تَلْعاء»: منتصبةٌ غليظةُ الأصل مَجْدُولةُ الأعلى. و«دَنّاء» أي

---

(١) حملاق الصين، وحملقها، وحملوقها: ما يسوّده الكحل في باطن أجفانها. جمع حماليق.

(٢) هو مزاحم بن طفيل بن كعب الغنوي كان والده من أوصف الناس للخيل وكان يقال له في الجاهلية المحبر لحسن شعره.

(٣) هو العباس بن مرداس السلمي، وكان يهاجي خفاف ابن ندبة السلمي ثم تمادى الأمر بينهما إلى أن احتربا وكثرت القتلى بينهما، وقد أسلم العباس قبل فتح مكة، وحضر مع النبي ﷺ يوم الفتح... (طبقات الشعراء ص ٣٨٤).

(٤) الربو: البهر وانتفاخ الجوف.

(٥) القين: الحداد.

(٦) هو من بني عامر بن عبيد بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم جاهلي قديم وهو من فرسان تميم المعدودين.. (الشعر والشعراء ص ١٢٢).

(٧) البتع: شدة العنق وإشرافها ـ والجؤجؤ: الصدر ـ والمداك: حجر يسحق عليه الطيب.

مطمئنةٌ من أصلها. و«هَنعاءُ»: مُطْمَئِنَةٌ من وَسَطها، و«وَقْصاءُ»: قصيرةٌ، و«مُرْهَفَةٌ»: رَقيقةٌ.

وأما الظهر وما اتصل به من الوَركين ـ فمنه: «المَتْنان» وهما لحمان يَكتنِفان الظهرَ من مُرَكَّب العُنُق إلى عُلْو: ظَهْر الذَّنَب. و«الحارِك»: عَظْمٌ مشرفٌ من بين فَرْعَي الكَتِفَيْن. و«القَرْدُودةُ»: حدّ الفَقَار. و«الفقَار»: المنتظمة في الصُّلْب. و«الصَّهْوةُ»: مَقْعَدُ الفارس. و«القَطَاة»: مَقْعَدُ الرِّدْفِ خَلْفَه. و«المَعَدَّانِ»: موضع السَّرْج من جَنْبَيْه. قال شاعرٌ[1]:

فــإمَّــا زالَ سَــرْجِـي عــن مَــعَــدٌّ وأَجْــدِر بــالــحــوادث أن تَــكُــونــا

و«الصُّرَد»: بياضٌ على الظهر. و«الغُرَابانِ»: مُلْتَقَى أعالي الوَرِكَينِ في ناحية الصُّلْب. و«الصَّلَوَانِ»: ما أَسْهَلَ من جانبي الوَرِكَيْن. و«العَجْبُ»؛ ما ارتفع من أصل الذَّنَب. و«العُلْوَةُ»: أصله، و«العَسيبُ»: عَظْمُ الذَّنَب. والأعوجُ العَسِيبِ: «أعزَلُ».

وأما الصدرُ وما اتصلَ به من البطنِ ـ فمنه: «الكَلْكَلُ»: ما مسّ الأرضَ من فَهْدَتَيْه. و«الفَهدَتان»: اللَّحمتان الناتئتانِ في الصدر، و«المَحْزِمُ»: ما شُدَّ عليه الحِزَامُ، و«الناحِرَان»: عِرْقَان يُودَجُ[2] منهما.

وأما الذِّراعانِ وما دونهما ـ «المِرْفَقَانِ»: مَآخيرُ رؤوسِ الذِّراع. و«الخَصِيلة»: لحمة الذراع مع العَصَب. و«الصَّافِنُ»: عِرْقُ الذراع، و«الحِبَالُ»: عَصَبُها. و«الرَّقْمتانِ»: لحمتان في باطنهما لا تُنبِتَانِ شَعْراً، و«الرُّكبةُ»: مَوْصِلُ ما بينَ الذِّراع والوَظِيف. و«الوَظيفانِ»: العظمانِ تحت الركبتين والعُرقُوبَينِ، و«الرَّضْفَتانِ»: عَظمان مُستديرانِ على الرُّكبة، و«السُّنبُكُ»: طَرَفُ مُقَدَّم الحافِرِ. و«النَّسْرُ»: ما يَتَطَايَرُ من أسفله كالنَّوَى. و«المَنقَلُ»: مُجتمَعُ الحافِرِ من باطنِهِ، و«أَلْية الحافر»: مُؤَخَّره. ويقاتل: حافِرٌ أَرَحُ: مُنبَطِحُ السَّنابِك. و«فرْشاخٌ» أي مُنبَطِحٌ. و«وَأْبٌ»[3]، مُقعَّبٌ. و«مَصْرُورٌ»: مَضمُومٌ صغيرٌ، و«مُكَنَّبٌ» أي كثيفٌ. والله أعلم بالصواب.

وأما ألوانُها وشِيَاتُها وغُرَرُها وحُجُولها وعُصَمُها وما فيها من الدوائر ـ من أَلْوانِها: «البَهِيمُ والمُصْمَتُ»: كلُّ ذي لَونٍ واحدٍ لا شِيةَ فيه، إلا الأشهَب فإنه لا يقال له بَهِيمٌ. يقال: فرسٌ مُصْمَتٌ، والأنثى مُصمَتَةٌ، والجمع مَصَامِتُ. وكذلك يُقال في

---

(١) هو عمرو بن أحمر بن فراص بن معن بن أعصر وكان أعور رماه رجل يقال له مخشي بسهم فذهب عينه. (الشعر والشعراء ص ١٦٨).

(٢) يقال: ودج الذبيحة أي قطع ودجها.

(٣) الوأب: انضمام السنابك.

قوائم الفرس إذا لم يكن بهنّ تَحجيلٌ. قال أبو حاتم[١]:

* مُـبـهـمَـةٌ مُـصْـمَـتـةُ الـقـوائـمِ *

ومن ألوانِ الخيل: «الدُّهْمُ»، وهي ستة: «أدهَمُ غيهَبٌ» وهو أشدّها سواداً، والأنثى غَيهبةٌ. والغَيْهَبُ: الظلمةُ، والجمع غَياهِبُ. وكذلك «الغِرْبِيبُ»، و«الحالِكُ»، و«أدهَمُ دَجُوجِيٌّ»: صافي السَّوَادِ؛ وقيل: هو مأخوذ من الدُّجَّة، وهي شِدَّة السوادِ والظّلمةِ. وَ«أدهَمُ يَحْمُومٌ وأدهم أَحَمُّ»، وهو الذي أشرِبَتْ سَرَاتُه[٢] وحُجْزَتُه حُمرةً. قال أبو تمام[٣]:

أو أدهـم فـيـه كـمـتـةٌ أَمَـمٌ   كـأنـه قِـطـعـةٌ مـن الـغَـلَـسِ[٤]

ثم «أَدهَمُ أكْهَبُ»، وهو إلى الكدرة.

ثم «أَحْوَى» والجمع حُوٌّ؛ وهو أهونُ سواداً من الجَوْنِ، ومَنَاخِرُهُ مُحْمرَّةٌ، وشاكِلَتُهُ مُصفَرَّةٌ. والأحوَى أربعةُ ألوانٍ: «أَحوَى أَحمُّ»، وهو المُشَاكِلُ للدُّهْمَةِ والخضرة؛ ولا فرق بينه وبين الأخضرِ الأحمرِ إلا بٱحمرار مناخِره وٱصفِرار شاكِلته. و«أحوى أَصْبَحُ» وهو الذي تَقِلُّ حمرةُ مناخره فتصيرُ إلى السواد ويكون البياضُ فيه غالباً على أطراف المِنخَرَين. و«أَحْوَى أطحَلُ»، وهو الذي تَعتَرِيهِ صُفرةٌ وخضرةٌ مُخالطتان لكُدرةٍ، وَ«أَحْوَى أكْهَبُ»، والكَهَبُ: قِلَّةُ ماء اللَّونِ وكُدرتَهُ في موضع المنخرين في حمرتهما وفي سواد السَّرَاةِ في بياض الأَقْراب.

ومنها الخُضر ـ وهي أربعةٌ: «أخضرُ أحَمُّ»، وهو أدناها إلى الدُّهمة، قال الشاعر:

* خَـضـراءُ حَـمَّـاءُ كَـلَـونِ الـعَـوْهَـقِ[٥] *

وهو الّلازَوَرْدُ[٦]. و«أخضرُ أدغَمُ» وهو الأخطبُ لونِ وجهه وأذنيهِ ومَنَاخِره،

---

(١) هو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني النحوي اللغوي المقرىء، نزيل البصرة وعالمها، كان إماماً في علوم الآداب، وعنه أخذ علماء عصره كأبي بكر محمد بن دريد والمبرد وغيرهما. (وفيات الأعيان ٢: ٤٣٠).

(٢) سراة الفرس: أعلى متنه.

(٣) هو حبيب بن أوس.

(٤) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(٥) العوهق: لون الرماد. والعوهق: شجر، وقيل: العوهق من شجر النبع الذي تتخذ منه القسيّ أجوده. (اللسان مادة عهق).

(٦) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان، وأمريكا، يستعمل للزينة.

وهذا اللَّونُ يُسمَّى بالفارسيَّة «دِيزَجاً»، و«أخضرُ أطحَلُ» وهو الذي تعلو خُضرتَه صُفرةٌ، و«أخضرُ أورَقُ»، وهو الذي كلون الرَّماد.

ومنها الكُمَيْتُ ـ والجمع كُمْتٌ، والذكر والأنثى فيه كُميتٌ، وهي تسعةٌ، قالوا: وكُميتٌ من الأسماء المصغَّرة المرخَّمة التي لا تَكبيرَ لها، من أكمتَ بمنزلة حُميدٍ من أحمدَ، غير أن أكمتَ لم يُستعمَل. والكميتُ بين الأحوَى والأصدأ، وهو أقربُ من الشُّقْر والوِرَادِ إلى السواد وأشدّ منها حمرةً، والفرقُ ما بين الكُميت والأشقَر بالعُرف والذَّنَب، فإن كانا أحمَريْنِ فهو أشقرُ، وإن كانا أسودين فهو كُميتٌ، والوَرْدُ بينهما. والكُميتُ أحبُّ الألوانِ إلى العرَب. ومن ألوانه: «كُميتٌ أحمُّ» وهو الذي يُشاكل الأحْوَى، غيرَ أنه تَفصِلُ بينهما حُمْرةُ أَقرَابِهِ ومَرَاقِّه ومُرَيْطَائِهِ، والمُرَيْطَاءُ: الجلدةُ التي بين العانَة والسُّرَّةِ، والأقرابُ: من الشاكلة التي هي الخاصرةُ إلى مَرَاقِّ[1] البطن، واحدها: قُرْبٌ وقُرُبٌ. قال الأصمعيّ: أشدّ الخيل جُلوداً وحوافرَ الكُمْتُ الحُمُّ. و«كُميتٌ أصْحَمُ»، وهو الأسودُ الذي يضرب إلى الصُّفرة. و«كُميتٌ أطخَمُ»، والطُّخْمَةُ: سَوادٌ في مُقدم الأنف. و«كُميتٌ مُدَمًّى»، وهو الشديد الحمرةِ وكلَّما انحدر إلى مَرَاقِّ البطن يزدادُ صفاءً. و«كميتٌ أحمرُ» وهو أشدُّ حمرةً من المدَمَّى، وهو أحسنُ الكُمْتِ. و«كُميتٌ مُذْهَبٌ»، وهو الذي تعلو حمرتَه صُفرةٌ. و«كُميتٌ مُحْلِفٌ»، وهو أدنى الكُمت إلى الشُّقرة وطاهِرُ شَعر ذنبِه وعُرفِه كلون جسدِه وباطنُه أسودُ، والأنثى مُحلِفَةٌ. وأنشدوا[2]:

كُـمَـيـتٌ غـيـرُ مُـحْـلِـفَـةٍ ولـكـن   كَـلَـوْنِ الـصِّـرفِ عُـلَّ بـه الأَديـمُ[3]

قال أبو خَيرةَ: المُحلفُ بين الأصهب والأحمر، وهو من الإبل الأصحَرُ. و«كُميتٌ أكلَفُ» وهو الذي لم تَصفُ حُمرتُه ويُرَى في أطرافِ شَعره سوادٌ. و«كُميتٌ أصدَأُ» وهو الذي فيه صُدْأَةٌ أي كُدرةٌ بصفرةٍ قليلة، شُبِّهَتْ بلونِ صدأ الحديد.

ومنها الوِرَادُ ـ وهي جمع وَرْدٍ وهي ثلاثةٌ ـ والوَرْدُ هو الذي تَعْلُوه حمرةٌ إلى الشُّقرة الخَلُوقِيَّة[4] وجِلدُه وأُصولُ شَعْرِهِ سُودٌ. وقيل: الوُرْدَة: حمرةٌ تضرِبُ إلى الصُّفرة. وتحقيقه أنه بين الكُميتِ الأحمرِ وبين الأشقرِ ـ منها: «وَرْدٌ خالصٌ»، و«وَرْدٌ مُصَامِص» وهو الخالص أيضاً، والأنثى مُصَامِصَةٌ. و«وَرْدٌ أَغْبَسُ» تَدعوه العجمُ «السَّمَنْدَ» وهو الذي لَونُه كلون الرّماد.

---

(١) مراق البطن: مارق منه ولا في أسافله ونحوها.

(٢) هذا البيت لابن كلحبة اليربوعي بن عبد مناف وكلحبة أمه. (اللسان مادة حلف).

(٣) المحلفة: الخالصة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك. (اللسان مادة حلف).

(٤) الخلوق: ضرب من الطيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب. والخلوقية نسبة إليه.

ومنها الشُّقْر ـ وهي تسعةٌ ـ والأشقَرُ: أشدُّ حُمرةً من الوَرْدِ ـ يقال: «أشقَرُ أدْبَسُ» وهو الذي لونُه بين السوادِ والحمرة. و«أشقرُ خَلُوقي»، و«أشقَر أصْبَحُ»، وهو قريبٌ من الأصهَب. والصُّهبَةُ: الشُّقرةُ في شَعْر الرأس. و«أشقَرُ سِلَّغْدٌ» وهو الذي خَلَصَتْ شُقْرتُه، والأنثى سِلَّغْدَةٌ، والجمعِ سلَّغْدَاتٌ، قال شاعرٌ:

أَشْقَرُ سِلَّغْدٌ وأَحْوَى أدعَجُ أَصَكُّ أَظْمَى وحِيَفْسٌ أفْلَجُ[١]

و«أشْقَرُ قَرِفٌ» والأنثى قَرِفَةٌ، والجمع قُروفٌ وقِرَافٌ وأقرافٌ وهو كالسَّلَّغْد. و«أشقَرُ مُدَمًّى»، وهو الشديدُ الحمرة. و«أشقَرُ أَقْهَبُ». والقُهبة غُبرةٌ إلى سوادٍ. وقال ابن الأعرابيّ[٢]: الأَقْهَبُ: الذي فيه حُمرةٌ فيها غُبرةٌ. و«أشْقَرُ أمغَرُ»، وهو الذي تعلو شُقْرَتَه مُغْرةٌ، أي كَدرةٌ، و«أشقَرُ أفضَحُ»: بيّن الفُضْحَة، وهي البياض ليس بالشديد.

ومنها الصُّفرُ ـ وهي أربعةٌ: «أصفَرُ فاقعٌ». و«أصفَرُ أعفَرُ» وهو بياضٌ تَعلُوه حمرةٌ. و«أصفَرُ ناصِعٌ». و«أصفَرُ ذَهَبِيٌّ» وهو الذي يَضْرِبُ إلى البياض، وهو السَّوْسَنِيُّ[٣].

ومنها الشُّهبُ ـ وهي خمسةٌ. والأشهَبُ: كلُّ فرس تكونُ شَعْرتُه على لونين ثم تفترق شعراتُه فلا تَجمع واحداً من اللّونين شعراتٌ تَخلُصُ بلون كقَدرِ النُّكتة[٤] فما فوقها. وقيل: الأشهَبُ الأبيضُ الشَّعْرَةِ ليس بالبياض الصَّافِي القِرطَاسِيّ وجلدُه أسودُ يقال له «أشهبُ أبيضُ»، والشُّهبةُ في الألوان: البياضُ الذي يَغلب على السَّوَاد. ويقال للأشهب أيضاً: أضحَى، والأنثى ضحياء. وأسماء ألوانه: «أشهبُ ناصِعٌ»، و«أشهبُ أحمُّ» وهو أسودُ تَنفُذُه شَعَراتٌ بيضٌ. و«أشهبُ زُرْزُوريّ»، وهو الذي اعتدل فيه السواد والبياض. و«أشهبُ مُفَلَّسٌ» وهو الذي خالط بياضَه سوادٌ أو حُمرة. و«أشهبُ سامِري»، وهو الذي شُهْبته بسواد أَوْرَق.

ومنها الجَوْن ـ وهو اختلاط بياض بحُمْرة الأشقر أو الكُمَيت.

ومنها الصِّنَابِيّ ـ وهو دُهْمَة فيها شُهْبة، أو كُمْتة فيها شُهْبة أقلّ من بياض الأشهب. نُسِبَ إلى الصِّنَابِ وهو الخَرْدَل بالزبيب.

---

(١) الأظمى: الذي ليس به رهل ـ والحيفس: القصير الغليظ.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة، وهو من موالي بني هاشم... وكان أبوه زياد عبداً سندياً، وقيل إنه من موالي بني شيبان.. وكان أحول، راوية لأشعار القبائل ناسباً. (وفيات الأعيان ٤: ٣٠٦).

(٣) السوسنيّ: نسبة إلى السوسن، وهو نبات طيب الرائحة وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض.

(٤) النكتة: النقطة في الشيء تخالف لونه.

ومنها الأغبرُ ـ وهو أشقرُ شَمِلَت شُقرتَه شُهبةٌ.

ومنها الأبرشُ ـ وهو الذي فيه لُمَع بياض كالرُّقْط[١]، وقيل: وهو الذي يكون في شَعْره نُكَتٌ صِغارٌ تُخَالفُ سائر لَوْنه، وإنما يكون ذلك في الدُّهْم والشُّقْر خاصّةً، وربما أصابها ذلك من شدّة العطش. فإذا عَظُمَت النُّكَت فهو «مُدَنَّر». وإذا كان في جسده بقعٌ متفرقةٌ مخالفةٌ للونه فهو «مُلَمَّعٌ» و«أبقَعُ»، و«أشيمُ». وقيل: الأَشيَمُ: أن تكون فيه شامةٌ بيضاءُ؛ وقيل: قد تكون الشَّامةُ غيرَ بَيْضاء. وإذا كان في الشامة ٱستطالةٌ فهو «مُوَلَّعٌ»، وقال ٱبن بنين[٢]: إذا كان في الدابّة عدّةُ ألوان من غير بَلَقٍ فذلك التوليعُ، يقال: بِرْذَوْنٌ مُوَلَّعٌ، وإذا كانت الشامة في مُؤَخّره أو شِقِّه الأيمن كُرِهَت.

ومنها العِرْسيّ ـ وهو الذي يشبه لَوْنَ ٱبنِ عِرْس.

ومنها الأنمرُ ـ وهو الذي يكون فيه بقعةٌ بيضاءُ وبقعةٌ أخرى من أيّ لَوْن كان.

ومنها الأبلقُ ـ وهو ما يكون نصفُ لَوْنِهِ أو ما قارب النصفَ أبيضَ، والنصفُ الآخر أسودَ أو أحمرَ.

ومنها الأغشَى (بالغين المعجمة) ـ وهو ما ٱبيضَ رأسُه دون جسده مثل الأرخم[٣].

ومنها الأبيضُ ـ وهو الذي ٱبيضَّ شعرُه بياضاً مثلَ بياض الأوضاح أشدّ ما يكون من البياض وأصفاه لا يخالطه شيءٌ من الألوان فيقال: فيه: أبيض قرطاسيّ. وربما كان أزرقَ العين أو أسودَ أو أكحلَ. ويدعى بما في عينيه من زُرْقة وسَوَاد وكَحَلٍ؛ ولا يكون أكحلَ حتى تسودَّ أشفارُ عينيه وجفونُه.

قال الشيخ[٤] رحمه الله تعالى في كتابه «فضل الخيل»: «وألوانُ الخيل أدهمُ، وأخضرُ، وأَحْوَى، وكُمَيت، وأشقرُ، وأصفرُ، وأشهبُ، وأبرشُ، ومُلَمَّع، ومُوَلَّع، وأشيمُ». هذا قول أبي عُبيدة[٥]. وقال الأَبِيَوَرْدِيّ[٦] في رسالته: الدُّهمةُ، ثم الحُوَّةُ،

---

(١) الرقط: جمع أرقط، والرقطة: سواد يشوبه نقط بياض أو بياض يشوبه نقط سواد.

(٢) هو سليمان بن بنين بن خلف النحوي المصري. كانت وفاته سنة ٦١٤هـ.

(٣) الأرخم: الذي ابيض رأسه واسود سائره.

(٤) هو الحافظ الدمياطي.

(٥) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، التيمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة... (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٦) هو أبو المظفر بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العباس أحمد بن إسحاق بن أبي العباس الإمام محمد بن إسحاق... قرشي أموي، نسابة شاعر ظريف..، كان من أخبر الناس بعلم الأنساب، نقل عنه الحفاظ الأثبات الثبات... (وفيات الأعيان ٤: ٤٤٤).

ثم الصُدْأَةُ، ثم الخُضْرَةُ، ثم الكُمْتَةُ، ثم الوُرْدَةُ، ثم الشُّقْرَةُ، ثم الصُّفْرةُ، ثم العُفْرةُ، ثم الشُّهْبَة. هذا ما وقفنا عليه من ألوانها. والله أعلم.

وأما الشِّيَة وجمعها شيَات ـ فقالوا: كلّ لَوْن يُخالفُ مُعظَمَ لَوْنِ الفَرَس فهو «شيةٌ». فإذا لم يكن فيه شِية فهو «أصمّ»، و«بَهيمٌ» من أيّ الألوان كان، والأنثى أيضاً بهِيم. وكذلك فرسٌ «مُصْمَتٌ» بمنزلة البهِيم من أيّ لون كان، والأنثى مُصْمَتة، والجمع مَصامِتُ. وقد تقدّم ذكر ذلك. فلنذكر الشِّيَات.

من الشّية ـ: الغُرَّةُ، والقُرْحةُ، والرُّثْمةُ، والتَّحجِيلُ، والسَّعَفُ، والنَّبَطُ، والصَّبَغ، والشَّعَلُ، واللَّمَظُ، واليعسوبُ، والتعميمُ، والبَلَق.

فالغُرَّةُ ـ: البياضُ في الوجه؛ وهي أنواع: لَطِيمٌ، وشادخةٌ، وسائلةٌ، وشِمراخ، ومُتَقَطِّعة، وشَهْباء.

فـ «اللَّطِيمُ»: الذي يُصيب البياضُ عينيه أو إحداهما أو خدّيه أو أحدهما، والأنثى أيضاً لَطِيم. فإذا فَشَت في الوجه ولم تُصب العينَ فهي «شادِخةٌ». فإذا اعتدلت على قَصَبة الأنف وإن عَرُضت في الجَبْهة فهي «سائلَةٌ». وإذا دَقَّت وسالت في الجبهة وعلى قَصَبة الأنف ولم تَبْلُغ الجحفلةَ فهي «شِمْراخٌ»، وكلّ بياض في جبهة الفرس فَشا أو قلّ ينحدر حتى يبلُغَ المَرْسِن[1] ثم ينقطع فهي غُرَّة «مُتَقَطعةٌ»، وإذا كان البياضُ في مَنخَرَيه ثم ارتفع مُصعِداً حتى يبلُغَ بين عَيْنيه ما لم يَبلُغ جَبْهته فهي أيضاً غرَّة متقطعة.

وإذا كان في الغرّة شعر يخالف البياضَ فهي غُرَّة «شهباء». وقال ابن قتيبة[2]: «إن سالت غُرّته ودَقَّت فلم تُجاوز العينين فهي «العُصفُورُ»، وإن أَخَذَتْ جميعَ وجهه غير أنه يَنظُر في سوادٍ فهي «المبرقِعةُ»، فإن فَشَتْ حتى تأخذ العينين فتبيضّ أشفارُهما فهو «مُغْرَبٌ». فإن كانت إحدى عَيْنيه زرقاء والأخرى كحلاء فهو «أَخْيَفُ».

وأما القُرْحةُ ـ وهي دُون الغُرَّة؛ فقال ابن قتيبة: الغُرَّة: ما فوق الدِّرهم، والقُرْحة: قدرُ الدرهم فما دونه. قالوا: والقَرَح: كلّ بياض كان في جَبْهة الفرس ثم انقطع قبلَ أن يبلُغَ المَرْسِن. وتُنْسَبُ القُرْحَة إلى خِلْقَتها في الاستدارة والتثليث والتربيع والاستطالة والقلّة؛ فإذا قَلّتْ قيل: «خَفِيّة». وإذا كان في القُرْحة شَعر يخالفُ البياضَ فهي «قُرحةٌ شهباء».

---

(١) المرسن: موضع الرسن من أنف الفرس.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي، النحوي، اللغوي صاحب كتاب «أدب الكاتب» و«المعارف»: كان ثقة فاضلاً، سكن بغداد، وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وغيره. . . (وفيات الأعيان ٣: ٤٢).

وأما الرُّثْمة (بالثاء المثلثة) ـ فكلُّ بياض أصاب الجَحْفَلة[١] العُلْيا قَلَّ أو كَثُر فهو «رَثَمٌ» إلى أن يبلُغ المَرْسِن، وتُنسَب الرُّثْمة إذا هي فَشَت إلى الشُّدُوخ. وإذا لم تُجاوز المَنْخَرين نُسِبت إلى الاعتدال. وإذا قَلَّت واشتدّ بياضُها نُسِبت إلى الاستنارة. وإذا لم يظهر بياضُها للناظر حتى يدنو نُسبت إلى الخِفْية.

واللُّمْظَة ـ كلّ بياض أصابَ الجَحفَلة السُّفْلى قَلّ أو كثر فهو «لَمَظٌ» والفرس ألمظ.

واليعسوب ـ: كلّ بياض يكون على قَصَبة الأنف قَلَّ أو كَثُر ما لم يبلغُ العينين. وإذا شاب الناصيةَ بياضٌ فهو «أسعَفُ». فإذا خَلَص البياضُ في الناصية فهو «أصبغ»، فإذا انحدر البياضُ إلى مَنبِت الناصية فهو «المعَمَّم». وإذا كان في عرْض الذَّنَب بياضٌ فهو «أشعل». والعرب تكره شُغْلة الذَّنَب. وإذا كان في قَمَعة[٢] الذَّنَب، وهي طَرَفه، بياض فهو «أصبَغُ». وإذا ارتفع البياضُ حتى يبلغُ البطنَ فهو «أَنبط». وإذا ظهر البياضُ وزاد فهو «أبلَقُ». وقال ابن قُتَيبةَ وابن الأجدابي[٣]: إذا كان الفرس أبيضَ الظَّهْر فهو «أَرْحَلُ»، وإن كان أبيضَ البطن فهو «أَنْبَط». وقال غيرهما: «الأدرَع» من الخيل والشاء: الذي اسودّ رأسُه ولونُ سائره أبيضُ، والأنثى «دَرْعَاءُ»، من الدُّرْعة[٤]. و«الأَخْصَفُ» من الخيل والغنم: الأبيضُ الخاصرتين الذي ارتفَع البَلَقُ من بطنه إلى جنبيه، ولونَهُ كلون الرّماد فيه سوادٌ وبياضٌ. وقيل: كلُّ ذي لَونينِ مجتمعين فهو خصيفٌ وأخصفُ؛ وأكثر ذلك السوادُ والبياضُ. ويقال: فرسٌ «آزرُ» إذا كان أبيضَ العَجُز.

ومن الشِّية التحجِيلُ ـ وهو البياضُ في قوائم الفرس الأربع، أو في ثلاث منها، أو في رجليه قلّ أو كثُر إذا استدار حتى يُطِيفَ بها. وأصل الحُجْلة من الحجْلِ (بفتح الحاء وكسرها) وهو القيدُ والخلخالُ. قال ابنُ الأجدابيّ: فإن كانت قوائمُه الأربعُ بيضاءَ لا يبلغُ البياضُ منها الركبتين فهو «مُحَجَّلٌ»، وطَليقُ اليدِ وطلق اليدِ (بفتح الطاء وإسكان اللام وبضمهما أيضاً): إذا كانت على لون البدن ولم يكن بها بياضٌ. فإذا أصاب البياضُ القوائمَ كلها فهو «مُحَجَّلُ أربع». وإن كان في ثلاثِ قوائمَ فهو «مُحجَّلُ ثَلاثٍ»، مُطلقُ يدٍ أو رجلٍ يُمنى أو يُسرى. وكلّ قائمة بها بياضٌ فهي «مُمَسكَةٌ». وكل قائمة ليس بها وضحٌ فهي «مُطلَقَةٌ». فإن كان البياض في الرجلين جميعاً فهو «مُحجَّلُ

---

(١) الجحفلة لذوات الحافر من الخيل والبغال والحمير، كالشفة للإنسان.
(٢) قمعة الذنب: طرفه.
(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الله المعروف بابن الأجدابي الطرابلسي.
(٤) الدرعة: هو سواد مقدم الفرس أو الشاة وبياض سائرها.

الرجلين»، وإن كان في إحداهما فهو «الأَرْجَلُ»؛ وقد ذكرناه.

ولا يكون التَّحجِيلُ واقعاً بيدٍ ما لم يكن معها رجلٌ أو رِجلانِ، ولا بيدَين ما لم يكن معهما رِجلٌ أو رجلان أو وَضَحٌ بالوجه. فإن كان التحجيلُ في يد ورجل من شِقٍّ واحدٍ فهو مُمَسكُ الأيامن مُطلَقُ الأياسر، أو مُمسَكُ الأياسرِ مُطلَقُ الأيامِن، ويقال: الأيمَنينِ والأيسَرينِ، وإن كان من خلافٍ قلَّ أو كثر فهو «مَشكُولٌ»؛ وهو مكروه في الحديث. وقد تقدّم ذكره.

ومنها العَصَمُ ـ وهو إذا كان البياض بإحدى يديه قلَّ أو كثُر فهو «أعْصَمُ» اليمنى أو اليسرى. وٱسم العُصمةِ مأخوذٌ من المِعْصَم وهو مَوضِعُ السِّوار من الساعد. فإن كان البياضُ في يده اليسرى قيل: «مَنكُوسٌ»؛ وهو مكروه. وإن كان البياضُ بيديه جميعاً فهو أعصمُ اليدينِ، إلا أن يكون بوجهه وَضَحٌ فهو «مُحجَّلٌ» ذهب عنه العَصَمُ. فإن كان بوجهه وضحٌ وبإحدى يديه بياضٌ فهو أعصَمُ، لا يُوقِعُ عليه وَضَحُ الوجه ٱسمَ التّحجيل إذا كان البياضُ بيد واحدة.

وَوَضَحُ القوائم: الخاتمُ، والإنعالُ، والتَّخدِيمُ، والصَّبَغُ، والتَّجبيبُ، والمُسَرْوَلُ والأَخْرَجُ، والتَّسريحُ. فأقلُّ وَضَحِ القوائم «الخاتَمُ» وهو شَعَرَاتٌ بيضٌ. فإذا جاوز ذلك حتى يكون البياضُ واضحاً فهو «إنْعَالٌ» ما دام في مؤخّر رُسْغِهِ مما يلي الحافرَ. فإذا جاوز الأرساغَ فهو «تَخْدِيمٌ». وإذا ٱبيضَّتِ الثُّنَّة[١] كلُّها ولم يَتَّصِلْ بياضُها ببياض التحجيل فهو «أصبَغُ»، وإذا ارتفعَ البياضُ في القوائم إلى الجُبَبِ[٢] فما فوق ذلك ما لم يَبلُغِ الركبتينِ والعُرقوبَينِ فهو «التّجبيبُ»، فإذا بلغ التجبيبُ الركبتين والعرقوبين فهو «مُسَرْوَلٌ» حتى يَخرُجَ من الذراعين والسّاقينِ. فإذا خرج من الذراعين والساقين فهو «أخرَجُ». وكلّ بياضٍ في التحجيلُ مستطيلٍ فهو «تَسْرِيحٌ»، والله أعلم.

وأما ما في الفرس من الدوائر ـ فمنها: «دَائِرةُ المحيا» وهي الّلاصقة بأسفلِ الناصية. و«دائرةُ اللَّطْمَةِ» في وسَط الجبهة، فإن كانت دائرتان في الجبهة قيل: فَرسٌ نَطيحٌ. و«دائرةُ الّلاهِزِ»: التي تكون في اللُّهْزِمَةِ[٣]. و«دائرةُ العَمُودِ» وتُسَمَّى المعوَّذَ أيضاً وهي في موضع القلادة. و«دائرةُ السَّمَامة» في وسَط العنق. و«دائرتا البَنيقَينْ» وهما الّلتان في نَحر الفرس. و«دائرةُ النَّاحِرِ»[٤]: التي في الجران[٥] إلى أسفل من

---

(١) الثنة: الشعرات التي في مؤخر رسغ الدابة.

(٢) الجبب واحدتها الجبة، وهي مغرز الوظيف في الحافر.

(٣) اللهزمة: عظم ناتىء في اللحى تحت الحنك.

(٤) الناحر: عرق في صدر الفرس.

(٥) الجران: باطن العنق.

ذلك. و«دائرةُ القالِع»: التي تكون تحت اللِّبْد. و«دائرةُ الهَقْعَة» في الشَّقَّيْن، وتُدعى النافذَة أيضاً، وقيل: هي التي تكون في عُرْض زَوْرِه. و«دائرةُ النَافِذة» وهي دائرة الحِزام. و«دائرتا الصَّقْرين» في الحَجَبَتَيْن والقُصْرَيَيْن - والحَجَبَةُ: رأس الوَرِك. والقُصْرَى: الضِّلَع التي تلي الشاكلة - و«دائرةُ الخَرَب» تكون تحت الصَّقْرين. و«دائرةُ الناخِس» تكون تحت الجَاعِرتين إلى الفَائلَين. وهما عِرْقان في الفَخِذ. والجاعرتان: حَرْفا الوَرِكين المُشرفان على الفخِذَيْن، وهما مَضْرِبُ الفرس بذنبه على فخِذيه، وهما موضع الرَّقْمتين من ٱسْتِ الحمار.

وكانت العرب تَستَحِبّ من هذه الدوائر: المُعَوِّذ، والسَّمَامةَ، والهَقْعةَ. وقيل: ٱستحبّوا الهقعةَ ثم كرهِوها. يقال: إن المهقوع لا يَسْبِق أبداً. وكانوا يكرهون النَّطيحَ واللاَّهِزَ، والقالِعَ، وقيل: الناخس أيضاً. وما سوى هذه الدوائر فغير مكروه.

وقال ٱبن قُتَيْبة: «والدوائر ثمانيَ عشرةَ دائرةً، تُكره منها «الهقعة» وهي التي تكون في عُرْض زوره، ويقال: إنّ أبقى الخيل المهقوع. و«دائرة القَالِع» هي التي تكون تحت اللّبد. و«دائرة النَاخِس» هي التي تكون تحت الجَاعِرتين إلى الفائلين. و«دائرة اللَّطَاة»، في وسط الجَبهة، وليست تُكره إذا كانت واحدةً؛ فإذا كانت هناك دائرتان قالوا: فرس نَطِيحٌ؛ وذلك مكروه. وما سوى هذه الدوائر غير مكروهة».

ومن الدوائر التي ذكرتها الهند في البركة والشؤم - قالوا: إذا كان في موضع حَكَمَته[١] دائرةٌ أو على جَحْفَلته[٢] العُليا دائرةٌ كان ممّا يُرْتَبط. وما كان منها ليس في وجهه ولا في صدره دارةٌ[٣] فمكروه ٱرتباطُه. وما كان في صدره دارةٌ إلى التّربيع، أو كان في رأسه دَارَتَان، أو على خاصِرته أو على مَذْبَحه دارة، أو في عنقه أو على خَطْمه[٤] أو على أُذُنه شَعَرٌ نابت كزهرة النبات، كان ذلك مما يُرتبط وتُقضى عليه الحوائجُ، ويكون صاحبُه مظفَّراً في الحروب ولا يرَى في أموره إلاّ خيراً.

وذكروا أيضاً: أنه لا ينبغي أن يُرتبطَ من الدَّوابّ ما كان منها في مُقَدّم يده دارةٌ، وما كان أسفل من عينيه دارة، أو في أصل أُذنيه من الجانبين دَارَتان، أو على مَأْبِضِه[٥] دارة، أو على مَحْجِره[٦] دارة، أو في خدّه أو في جَحفَلته السُّفلى أو على ملتقى لَحْييه

---

(١) الحكمة: حكم اللجام: حديدته التي تكون في فم الفرس ويتصل بها العذاران.
(٢) الجحفلة: لذوات الحافر كالشفة للإنسان.
(٣) المراد بالدارة: الدائرة.
(٤) الخطم: الأنف أو مقدمه.
(٥) المأبض: باطن الركبة.
(٦) محجر العين: ما يبدو من النقاب.

دارة، أو في بطنه شعر منتشرٌ، أو على سُرّته دارة، أو كانت أسنانه طالعةً على جحفلته، أو له سنّان ناتئان بمنزلة أنياب الخنزير، أو في لسانه خُطَط سُودٌ لا خُضر، وما كان منها أدْبَس[١] أو أبيض أو أصفر أو أشهب تعلوه حمرةٌ وداخل جَحَافِله ولَهَواته[٢] وخارج لَحْيَيه سواد. وما كان منها أدهم وداخل جحافله أبيض، أو في لهواته وداخِل شِدْقه نُقَطٌ سُود وجَحْفَلَتُه خارجُها مُنَقّط كحبّ السمسم، أو على مِنْسَجِه دارَتان، أو على خُصْيَيْه وَبَرٌ أسودُ مخالِفٌ للونه، أو كان في جَبْهتِه شَعَراتٌ مُخَالفةٌ للوْنه، أو ما كان منها حين يُنتَج يُرى خُصْياه ظاهرين - فهذه العلامات زعم حنّة الهنديّ أنه لا ينبغي لأحد أن يرتبط دابّةً بها شيءٌ منها. وزَعم أنه يُستحبّ أن يُرتبطَ ما كان في صدره أربعُ نُقَطٍ في أربعة مواضع، أو شَعَر ملتفّ عَرْضاً وطولاً، أو شعر ملتوٍ.

وأما ما قيل في طبائعها، وعاداتها، والمحمودِ من صفاتها، ومحاسنها، والعلاماتِ الدالّة على جَوْدة الفرس ونجابته

قالت العرب: والخيل نوعان: عتيقٌ وهو المسمى فرساً، وهجين وهو المسمّى بِرذوناً، والفرق بينهما أنّ عَظْم البرذون أغلظُ من عظم الفرس؛ وعظم الفرس أصلب وأثقلُ من عظم البرذون، والبرذون أحملُ من الفرس، والفرس أسرعُ من البرذون؛ والعتيق بمنزلة الغزال، والبرذون بمنزلة الشاة.

وفي طبع الفرس: الزَّهْو، والخُيَلاء، والعُجْب، والسرورُ بنفسه، والمحبّةُ لصاحبه. وفي طبعه: أنه لا يشرب الماءَ إلا كَدِراً؛ حتى إنه يرد الماءَ وهو صافٍ فيضرب بيده فيه حتى يُكَدِّره ويعكّره. وربما ورد الماءَ الصافي وهو عطشان فيرى خيالَه فيه فيتحاماه ويأباه، وذلك لفزعه من الخيال الذي يراه في الماء. وهو يُوصف بحدّة البصر. وفي طبعه: أنه متى وطِىء أثر الذنبَ خَدِرت قوائمُه حتى لا يكاد يتحرَّك، ويخرج الدُّخانُ من جلده؛ وإذا وطِئَتْه الأُنثى وهي حامل أزْلَقَتْ[٣]. والأُنثى من الخيل تحمِل سنةً كاملةً؛ هذا هو المعروف من عادتها. وأخبرني بعضُ من أثق إلى قوله إنه كان يملك حِجْراً[٤] تحمل ثلاثةَ عشر شهراً. وسمعتُ أن عند التَّتَر جنساً من خيلها تحمل الفرسُ منها تسعةَ أشهر وتَضَعُ. وقال لي الناقلُ: إنّ هذا أمر مشهور عندهم معروف مألوف لا ينكرونه ولا يتعجبون.

---

(١) الدبسة: حمرة مشربة سواداً.
(٢) اللهوات واحدتها اللهاة، وهي لحمة حمراء معلقة على عكدة اللسان.
(٣) يقال: أزلقت الفرس: إذا أسقطت حملها لغير تمامه.
(٤) الحجر: الأنثى من الخيل.

فصل ـ والعلامات الجامعة لنجابة الفرس الدالّة على جَوْدته، ما ذكره أيّوب ابن القِرِّيّة[١] وقد سأله الحجّاجُ عن صفة الجَوَاد من الخيل فقال: القصيرُ الثلاث، الطويلُ الثلاث، الرَّحْب الثلاث، الصافي الثلاث. فقال: صِفْهنّ؛ فقال: أمّا الثّلاث الطِّوال فألأُذن والعُنُقُ والذِّراع. وأما الثلاث القصار فألظَّهْر والسّاق والعَسيب[٢]. وأما الثلاث الرَّحبة فألجَبْهة والمنخر والجوف. وأما الثلاث الصافية فالأديمُ والعَيْنان والحافر. وقد جمع بعضُ الشعراء ذلك في بيت واحد فقال: [من المتقارب]

وقد أغتدي قبل ضوء الصّباح ... ووِرْد القَطَا في الغَطَاط الحثَّاث[٣]

بصافي الثّلاث عريض الثلاث ... قصيرِ الثلاث طويلِ الثلاث

وهذه الحكاية أيضاً نُقِلت عن صَعْصَعَةَ بن صُوحَان وقد سأله معاوية: أيّ الخيل أفضل؟ فقال: الطويلُ الثلاث، العريضُ الثلاث، القصيرُ الثلاث، الصافي الثلاث. قال معاوية: فسِّرْ لنا؛ قال: أما الطويل الثلاث فالأذن والعنق والحِزَام. وأما القصير الثلاث فالصُّلب والعسيب والقضيب. وأما العريض الثلاث فالجبهة والمِنْخَر والوَرِك. وأما الصافي الثلاث فالأديم والعين والحافر.

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لعمرو بن مَعْدِ يَكرِب: كيف معرفتُك بعِرَاب الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسهِ وأهلِه وولده؛ فأمَر بأفراسٍ فعُرِضَتْ عليه؛ فقال: قدِّموا إليها الماء في التِّراس[٤]، فمن شرب ولم يَكْتِفْ[٥] فهو من العراب، وما ثَنَى سُنْبُكَه فليس منها.

وقيل: أهدى عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان ثلاثين فرساً من خيل مصر؛ فعُرِضَتْ عليه وعنده عُتْبة بن سفيان بن يزيد الحارثي؛ فقال له معاوية: كيف ترى هذه يا أبا سفيان؟ فإن عمراً قد أطنب في وصفها؛ فقال: أراها يا أمير المؤمنين كما وَصَف؛ وإنها لساميةُ العيون، لاحقةُ البطون؛ مُصْغِيةُ الآذان، قَبَّاء[٦] الأسنان؛ ضِخَامُ الرُّكبات، مُشْرِفات الحَجَبات؛ رِحابُ المناخر، صِلابُ الحوافر؛ وضعُها تحليل، ورفعُها تقليل؛ فهي إن طُلِبَتْ سَبَقَتْ، وإن طَلَبت لَحقتْ. فقال معاوية:

---

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس والقريّة أمه، وكان خطيباً، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي لاتهامه بالميل لابن الأشعث.

(٢) العسيب: عسيب الذنب: عظمه، أو منبت الشعر منه.

(٣) الغطاط: واحدتها غطاطة، وهي ضرب من القطا.

(٤) التراس: جمع ترس، وهو معروف.

(٥) يقال: كتفت الخيل: إذا ارتفعت فروع أكتافها.

(٦) يقال: قبت نابه: إذا صوتت وقعقعت.

اصْرِفها إلى دارك، فإن بنا عنها غنًى، وبفتيانك إليها حاجة.

وقال أبو عبيدة: يُستدلّ على عِتق الفرس برقّة جحافله وأرْنَبَته، وسَعَةِ مِنْخَرَيْه، وعُرْيِ نواهقه، ودِقّة حَقْويه وما ظهر من أعالي أُذُنيه، ورقّة سالفتيه وأديمه، ولِين شعره؛ وأبينُ من ذلك كلّه لِينُ شَكِير[١] ناصيته وعُرْفه.

وكانوا يقولون: إذا اشتدّ نَفَسُه، ورَحُب مُتَنَفَّسُه، وطال عنقه، واشتدّ حِقْوه، وانْهَرَتَ[٢] شِدْقُه، وعظُمَتْ فَخذَاه، وانشنجَتْ[٣] أنساؤه[٤]، وعَظُمت فصوصُه، وصَلُبت حوافره ووقَحتْ[٥]، لحِق بجياد الخيل، والله أعلم.

ومما يستحبّ من أوصافها في الخَلْق ـ الأُذُن المؤلَّلة، والناصية المعتدلة التي ليست بسَفْواء ولا غَمّاء، والجبهةُ الواسعة، والعين الطامحة السامية، والخدّ الأسيل، ورُحْب المَنْخرين، وهَرَت الشّدقين ـ قال الشاعر[٦]:

هَـرِيـتٌ قـصـيـرُ عِـذَارِ الـلِّـجـام أسـيـلٌ طـويـلُ عِـذَارِ الـرَّسَـنْ[٧]

قوله: «قصير عِذار اللجام»: لم يُرِد به قِصَرَ خدّه، وإنما أراد طولَ شَقّ الفَمِ. ويدلُّ على ذلك قولُه في البيت:

* أسـيـلٌ طـويـلُ عِـذَارِ الـرَّسَـنْ *

يريد طولَ خدّه ـ وَقَوَدُ العنق (لينها حتى لا تكون جاسئة)[٨]، ورِقّة الجَحْفَلَتَيْن، وارتفاع الكَتِفين والحارك والكاهل.

قالوا: ويستحبّ أن يشتدّ مُرَكَّبُ عنقه في كاهله لأنه يتساند إليه إذا أَحْضَر[٩] وعِرَضُ الصدر، وضيق الزَّوْر، وارتفاع اللسان، وأن يشتدّ حَقْوه لأنه مُعَلَّق وَرِكَيْه ورجليه في صُلْبه، وعِظَمُ جوفه وجنبيه، وانطواء كَشْحه، وإشراف القَطَاه، وقصر العَسِيب، وطول الذنب، وشَنَج النَّسا، واستواء الكَفَل حتى لا يكون أقرنَ، وملاسَةُ

---

(١) الشكير: ما أطاف بالناصية من قصير الشعر، وهو ما يستدل به على العتق.
(٢) انهرت: وسعت.
(٣) انشنجت: تقلصت.
(٤) الأنساء: جمع نسء، وهو اللبن الرقيق الكثير الماء.
(٥) وقحت: صلبت.
(٦) هو تميم بن أبيّ بن مقبل، أحد شعراء الجاهلية، مخضرم.
(٧) الهريت: الواسع الشدقين الطويل شق الفم.
(٨) الجاسئة: الصلبة الخشنة.
(٩) أحضر الفرس: أي وثب في عدوه.

الكَفَل، وقصر الساقين، وطول الفَخِذَيْن، وتوتير الرِّجلين حتى لا يكون أقسطَ، وتأنِيف[١] العرقوبين حتى لا يكون أقمعَ، وغلظَ الرُّسْغ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خُضراً.

وحكي أن هارون الرشيد ركِب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى المَيدان لشهود الحَلْبة، قال الأصمعيّ: فدخلت الميدانَ لشهودها، فجاء فرسٌ أدهمُ لهارون الرشيد سابقاً يقال له «الزّبد»؛ فُسّر به الرشيد وٱبتهج وقال: عليّ بالأصمعي، فنُودِيتُ من كل جانب، فأقبلتُ سريعاً حتى مَثَلْتُ بين يديه، فقال: يا أصمعيّ، خذ بناصيةِ «الزّبد» ثم صِفْه من قَوْنَسِه إلى سُنْبُكه، فإنه يقال: إن فيه عشرين ٱسماً من أسماء الطير؛ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأُنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبي حَزْرَة[٢]؛ قال: فأنشدنا لله أبوك؛ فأنشدته:

وأقبّ كالسِّرْحان تَمّ له ... ما بين هامته إلى النَّسْر[٣]

الهامَةُ: أعلى الرأس. والنّسر: ما ٱرتفع من بطن الحافر من أعلاه. وهما من أسماء الطير.

رَحُبَتْ نَعامتُه وَوُفِّرَ فَرخُه ... وتمكّن الصُّرَدَانِ في النَّحرِ[٤]

النعامة: جلدة الرأس التي تُغَطِّي الدِّماغَ. والفرخ: الدِّماغ، والصُّرَدَان: عِرْقان في أصل اللسان، ويقال: إنهما عرقان يكتنفان باطنَ اللسان. وفي الظهر أيضاً صُرَد يكون في موضع السَّرج من أثر الدَّبَر. والنعامة والفرخ والصُّرَدان من أسماء الطير:

وأناف بالعصفور في سَعَفٍ ... هام أشمّ موثّق الجِذْر[٥]

العصفور: أصلُ مَنبِت شعر الناصية، وهو أيضاً عظْم ناتىء في كل جبين، وهو أيضاً من الغُرَر. والسَّعَف: يقال: فرس أسعف إذا سالت ناصيتُه. وهام أي سائل. والشَّمَمُ: ارتفاع قصبة الأنف. وموثق الجذر أي شديد. والجذر: الأصل من كل شيء.

وأزدان بالدِّيكَيْن صَلْصَلُهُ ... ونَبَتْ دَجَاجتُه عن الصَّدْر

الديكان: واحدهما ديك وهو العظم الناتىء خلف الأذن، وهو الذي يقال له

---

(١) تأنيف العرقوبين: تحديد طرفيهما.
(٢) أبو حزرة: هي كنية جرير بن عطية الخطفي الشاعر المشهور.
(٣) الأقب: الضامر ـ والسرحان: الذئب.
(٤) رحب: اتسع ـ ووفر: تم وكمل.
(٥) أناف: أشرف.

الخُشّاء والخُشَشَاءُ. والصلْصل: بياض في طرَف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدَّجاجة: اللّحمُ الذي على زَوْره بين يديه. والدِّيكُ والصّلصلُ والدّجاجةُ من الطير.

والنَّاهِضَان أُمِرّ جَلْزُهما فكأنما عُثِما على كَسْر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين، ويقال: هو اللحم الذي يلي العَضُدَين من أعلاهما. والناهض: فرخ العُقَاب. وقوله: «أُمِرّ جَلْزهما» أي فُتل وأُحْكِم، يقال: أمررتُ الحبل أي فتلتُه. والجَلْز: الشدّ. وقوله:

* فكأنما عُثِما على كسر *

أي كأنهما كُسِرا ثم جُبِرا. والعَثْم: الجبر على عُقْدة وعَوَج.

مُسْحَنْفِر الجنبين مُلتئم ما بين شيمته إلى الغُرّ

قوله: «مسحنفر الجنبين» أي منتفخهما. ملتئم أي معتدل. والشيمة: من قولك: فرس أشيم: بيّن الشامَة. والغرّ في الطير الأغلب الذي يسمّى الرَّخَمة. وهي من الفرس عَضَلةُ السّاق.

وصَفَتْ سُمَاناه وحافِرُه وأديمُه ومنابتُ الشعر

السُّمَانَى: طائر وهو موضع من الفرس ربما أراد به السَّمَامَة، وهي دائرة تكون في سالِفة الفرس. والسَّمَامة أيضاً من الطير. وأدِيمهُ: جِلدُه.

وسما الغرابُ لموْقعيْه معاً فأُبِينَ بينهما على قَدْر

الغراب: رأس الوَرِك، ويقال للصَّلَويْن الغرابان، وهما مُكْتَنِفَا عَجْم[1] الذنب، ويقال: هما ملتقى أعلى الوَرِكين. والموقعان: ما في أعالي الخاصرتَيْن. وقوله:

* فأُبين بينهما على قدر *

أي فُرّق بينما على ٱستواء وٱعتدال.

وٱكتنّ دون قَبِيحِه خُطّافه ونأت سَمَامتُه على الصَّقر

قوله: واكتنّ أي ٱستتر. والقبيحُ: ملتقى الساقين، ويقال: إنه مُرَكّب الذراعين في العَضُدَيْن. والخطّاف: هو حيث أدركتْ عَقِبُ[2] الفارِس إذا حَرّك رجليه؛ ويقال لهذين الموضعين من الفرس المَرْكَلاَن. ونأت أي بَعُدَت. والسَّمامةُ: دائرة تكون في عنق الفرس. والصقر: دائرة في الرأس. والخُطّاف والسّمامة والصقر من أسماء الطير.

---

(١) عجم الذنب: أصله، أي العصعص.
(٢) العقب: مؤخر القدم.

وتـقـدّمَـت عـنـه الـقَـطـاةُ لـه ... فـنـأت بـمـوْقِـعـهـا عـن الـحُـرّ

القَطاة: مَقْعَدُ الردف. والحُرّ: سوادٌ في ظاهر أذني الفرس. وهما من الطير. يقال: إن الحُرّ ذَكَر الحمام.

وسـمـا عـلـى نِـقْـويـه دون جِـداتـه ... خَـرِبـانِ بـيـنـهـمـا مَـدَى الـشِّـبْـر

النِّقْوان: واحدهما نِقْو والجمع أنْقاء، وهو عظم ذو مُخّ. وعَنَى هنا عظامَ الوَرِكين، لأن الخَرَب هو الذي تراه مثل المُدْهُن[1] في ورِك الفرس. وهو من الطير ذكَر الحُبَارى. والجِدَأةُ: سالفة الفرس. وهي من الطير.

يـدع الـرَّضِـيـمَ إذا جَـرى فِـلَـقـاً ... بـتَـوائـم كـمـواسـم سُـمْـرِ

الرّضيم: الحجارة، يَفْلِقها بتَوائم أي بحوافره. والمواسم: جمع مِيسَم الحديد؛ أي أنها كمواسم الحديد في صلابتها. وقول: سُمُر أي لون الحافر. والحافر الأسمر هو الصُّلْب.

رُكِّـبْـن فـي مَـحْـضِ الـشَّـوَى سَـبِـط ... كَـفْـتِ الـوثـوب مُـشَـدَّدِ الأَسْـر

الشوى ها هنا: القوائم، يقال: فرس مَحْضُ الشَّوى إذا كانت قوائمه معصوبة. سبِط: سهل. كَفْت الوثوب أي مُجْتَمِعٌ. مشدّد الأسْر أي الخَلْق.

قال الأصمعيّ: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

فهذه جُمَلٌ من أوصاف محاسنها. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما وصفها به الشعراء في أشعارها والفضلاءُ في رسائلها، على ما تقف على ذلك في موضعه. فلنذكر عيوب الخيل:

وأما عيوبها التي تكون في خِلْقتها، وفي جَرْيها، والتي تطرَأ عليها وتَحدُث فيها - فهي مائة نذكرها:

فأما التي في خِلْقتها - فهي أن يكون الفرس «أخْذَى» وهو المُستَرْخي أصول الأذُنين. و«أَمْعَر»، وهو الذي ذهب شعر ناصيته. و«أسْفَى» وهو الخفيف الناصية، وهو محمود في البغال. و«أغَمّ» وهو الذي غَطّتْ ناصيتُه عينيه. و«أَسْعَف» وهو الذي في ناصيته بياض. و«أحْوَلَ» وهو الذي ٱبيضّ مُؤخّر عينه وغار السوادُ من قِبَل مآقِيه. و«أزْرَق» وهو الذي في إحدى عينيْه بياضٌ أو زُرْقة. و«أقْنَى» وهو الذي في أنفه ٱحدِيدَابٌ. و«مُغْرَباً» وهو الذي أشفارُ عينيه بِيضٌ مع زُرْقتها. و«أدَنّ» وهو الذي ٱطْمأن عُنُقه من أصله. و«أَهْنَعَ» وهو الذي ٱطمأنت عنقه من وسطها. و«أوْقَص» وهو الذي في

(١) المدهن: ما يجعل فيه الدهن.

عنقه قِصَرٌ ويُبْسٌ مَعْطَف. و«أَكْتَفَ» وهو الذي في أعالي كتفيْه أنفراج. و«أَزْوَرَ» وهو الذي تدخل إحدى فَهْدَتَيْ صدره وتخرج الأخرى. و«أَقْعَصَ»، وهو المطمئن الصُّلْبِ من الصهوة المرتفعُ القَطَاةِ. و«مُخْطَفاً» وهو الذي لَحِق ما خَلْف مَخزمه من بطنه. و«أَهْضَمَ» وهو المستقيم الضلوع الذي دخلت أعاليه. و«صَقِلاً» وهو الطويل الصُّقْلةِ[(١)]. و«أَنْجَلَ» وهو الذي خرجت خاصِرته ورقّ صِفَاقُه[(٢)]. و«أَفْرَقَ» وهو الذي قد أشرفت إحدى ورِكَيْه على الأُخرى. و«أَرْسَحَ»، وهو قليل لحم الصَّلاَ[(٣)]. و«أَعْزَلَ» وهو المُلْتَوِي عسيب الذَّنَب حتى يبرُزَ بعضُ باطنه. و«أَكْشَفَ» وهو الذي ٱلتوى عسيبُ ذنبه. و«أَصْبَغَ» وهو المُبَيَّض الذَّنَب. و«أَشْعَلَ» وهو الذي في عُرْض ذنبه بياض. و«أَشْرَجَ» وهو الذي ببَيْضة واحدة. و«أَفْحَجَ»، وهو الذي تَبَاعَد كَعْباه. و«أَبَدَّ» وهو الذي تباعدت يَداه. و«أَصَكَّ» وهو الذي تَصَكُّ كَعْباه إذا مشى. و«أَحَلَّ» وهو مُتَمَسِّحُ[(٤)] النَّسا رِخْوُ الكَعْب. و«أَقْفَدَ» وهو المُنْتَصِبُ الرُّسْغ المُقْبل على الحافر ويكون في الرِّجل خاصَّةً. و«أَصْدَفَ» وهو الذي تداني ذِرَاعاه وتباعد حافِراه. و«مُوَجَّهاً» وهو الذي به صَدَفٌ يسير. و«أَقْسَطَ» وهو الذي رجلاه منتصبتان غير منحنيتين. و«أَمْدَشَ» وهو المُصْطَكّ بواطن الرُّسغين. و«أَحْنَفَ» وهو المُلتوي الحافرين يُقْبِل كلٌّ منهما على صاحبه. و«مُتَلَفِّقاً»، وهو الذي يَخْبِط بيده. و«أَرْجَزَ» وهو المضطرب الرِّجل والكَفَل فإذا قام أضطربت فَخِذُه. و«شَخْتاً» وهو القليل اللحم الحَميش[(٥)] العظام. و«رَطِلاً» وهو الضعيف الخفيف. و«مَكْبُوناً» وهو القصير الدّوارج[(٦)] القريب من الأرض الرحيب الجوف. و«عَشًّا» وهو الضاحي[(٧)] العظام لقلّة لحمه. و«سَغِلاً»، وهو الصغير الجِرْم. قال الواسانيّ[(٨)] رحمه الله:

لــيــس بــأسْــفَــى ولا أَحَــقّ ولا   أهضَمَ طاوي الحَشا ولا سَغِلِ[(٩)]

---

(١) الصقلة: الخاصرة.

(٢) الصفاق: جلد البطن.

(٣) الصّلا: جانب الذنب عن يمينه وشماله: أو الفرجة بين الجاعرة والذنب؛ أو وسط الظهر من الإنسان والدواب.

(٤) متمسح النسا: ضعيف النسا.

(٥) الحميش العظام: دقيقها.

(٦) دوارج الدابة: قوائمها.

(٧) الضاحي العظام: الذي برزت عظامه.

(٨) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد المعروف بالواساني، وهو أحد الفضلاء المجيدين في الهجاء، وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه... (يتيمة الدهر للثعالبي).

(٩) الأحق: الذي يصنع حافر رجله موضع يده.

و«جَأْباً»، وهو القصير الغليظ. و«مِلْواحاً»، وهو السريعُ العَطَش. و«صَلُوداً» وهو البطيء العَرَق. و«ضَاوِيّاً» وهو الذي أضواه[١] أبواه. و«مُقْرِفاً» وهو الذي أُمُّه عتيقة وأبوه غير عتيق. و«هَجِيناً» وهو الذي أبوه عتيق وأمه بِرْذَوْنَة. و«مُحْمِقاً» وهو الذي لا يُنْتَج منه إلا أحمق. و«كُوسِيّاً» وهو الذي إذا جرى نَكَس كالحمار. و«جَاسِئاً» وهو الذي تُرى معاقِدُه وفَقَارُ ظهره وعنقُه جاسِئةً غيرَ لَيِّنَةٍ. والله أعلم.

وأما العيوب التي في جريها ـ فمنها: «الطَّمُوحُ» وهو السامي ببصره صُعُداً. و«المُنَكِّسُ» وهو الذي يُطأطىء رأسَه إذا جرى. و«المُعْتَزِمُ» وهو الذي يَجْمَحُ أحياناً. و«الجَمُوح»: الصُّلْبُ الرأس. و«الغَرْبُ»: المدّاد المَرَامي. و«الشَّمُوس»: الذي يمنع السرجَ والمسَّ. و«الحَرُون»: الذي إذا أُدرّ جَرْيُه قام لا عن كلال[٢]. و«البَالِحُ» إذا قطَع جَرْيه ضَعْفاً. و«الضَّغِنُ» هو الذي يَتَلكأ في الحُضْر ويَقْصُر عن الجِرَان. و«الحَفّاش»، هو الذي يَشِبّ حُضْراً ثم يرجع القَهْقَرى. و«الرَّوَّاغُ» هو الذي يَحيد في حُضْره يميناً وشمالاً. و«الفَيُوش» هو الذي يُظَنّ به الجريُ وليس عنده شيء منه. و«الحَيُوص» وهو الذي يَعْدِل يميناً وشمالاً في أستقامة حُضْره. و«المُشْتَقّ» هو الذي يدَع طريقَه ويعدِل ثم يمضي على عُدوله لا يَروغُ. و«الشَّبُوبُ»: الذي يقوم على رجليه ويرفع يديه. و«العاجِر»، و«المُعَاجِر»: الذي يَعجِرُ[٣] برجليْه كقُماصُ[٤] الحمار. و«العَدُومُ»، و«العَضُوضُ»: الذي يَعَضُّ ما سَايَره. و«الشَّادِخُ»: يَعدِل عن طريقه ولا يُبالي ما رَكِب. و«الجَرُور»: البَطِيءُ. و«المُنْعَثِلُ»: الذي يفرّق بين قوائمه، فإذا رفَعها فكأنما يَنزِعها من وَحَل يَخْفق برأسه ولا تتبعه رِجْلاه. و«المُجَرْبِذُ»: الذي يُقارِب الخطوَ يقرّب سنابكه من الأرض ولا يرفعها رفعاً شديداً. و«المُسَاعِرُ»: الذي يُطيح قوائمَه جميعاً متفرّقة ولا ضَبْر[٥] له. و«المتراد»: الذي ينقص حُضْرُه من ابتداء جريه. و«الفاتِرُ» إذا فتَر في حُضْره ولم تساعده قوائمُه على ما تطالبه به نفسُه. و«المُواكِلُ»: الذي لا يسير إلا بسير غيره. و«الخَرُوطُ»: الذي يَخرِط[٦] رَسَنَه عن رأسه. و«الرَّمُوحُ»: الذي يَرْمَح[٧] بإحدى رجليه. و«الضَّروحُ»: الذي يَرْمح بكلتيهما. قال: وهذه الزيادة على الأربعة

(١) ضوي: ضعف وهزل، وأضواه أبواه: أي أتيا به ضاوٍ.

(٢) المراد بقوله قام: أي وقف ـ والكلال: التعب والإعياء. أي أنه إذا طلب منه الجري وقف عصياناً لا إعياء.

(٣) عجر الفرس: مرّ سريعاً من خوف أو غيره.

(٤) قمصت الدابة: أي نفرت وضربت برجليها.

(٥) الضبر: الوثب مع جمع القوائم.

(٦) خرطت الدابة: جمعت وجذبت رسنها من يد ممسكها ثم مضت.

(٧) يرمح بإحدى رجليه: يضرب بها.

والعشرين إنما هي من سوء العادة وفساد الرياضة.

وأما العيوبُ التي تَطْرَأ عليها وتحدُث فيها ـ فمنها: «الانتِشارُ» وهو انتفاع العَصَب. و«الشَّظَى»: تحرّك العظم اللاّصق بالرُّكبة. و«الفُتُوق»: انفتاق من العصب على الأَرْضفة[1]. و«الدَّخَسُ»: ورم في أُطْرة[2] الحافر. و«الزوائد»: أطراف عصب تَفَرّق عند العُجّاية[3] وتنقطع عندها وتَلْصَق بها. و«العَرَنُ»: جُسُوءٌ[4] في رُسْغ الرِّجل خاصّة لشُقاقٍ أو مشقة. و«الشُّقَاق»: يصيبه في أرساغه وربما ارتفع إلى أوظفته، وهو تشقق يصيبها، وتسمى الحلامة. و«الجَرَدُ»، ما حدّث في عُرْض عُرْقُوبَيْه ظاهراً وباطناً من تزيّد وانتفاخ عَصَبٍ ويكون مع المِفْصل طولاً كالمَوْزة. و«المَلَحُ»: انفتاقٌ من العَصَب أسفلَ العُرقوب لمادّة تَنصَبّ إليه كالبَلّوطة[5]. و«القَمَع» هو عِظَم قَمَعة العُرقوب. و«المَشَشُ»: كلّ ما شخص في الوظيف وله حَجْمٌ وليست له صلابةُ العظم. و«الارْتهاشُ»: أن يَصُكّ بعُرض حافره عُرْضَ عُجايته من اليَدِ الأخرى. و«الرَّهْصةُ»[6]: ما يَصير في الحافر. و«الوَجَا»: ما يُصيب الحافرَ من الخشونة. و«الرَّقَقُ»: ضَعْفٌ ورِقّة في الحافر. و«النَّمْلَة»: شقّ في الحافر من الأَشْعَر[7] إلى طرف السُّنْبُك. و«السَّرَطان»: داءٌ يأخذ في الرُّسغ فيُيَبِّسَ عروقَه حتى يقلب حافرَه. و«العَزَل»: أن يعزِل ذنبَه في شقٍّ عادةً. و«الخِفَاق»: صوت من ظبية[8] الأنثى. و«البَجَر»: أن تكون الرُّهَابة[9] غيرَ مُلْتَئِمةٍ فيعظم ما والاها من جلد السُّرَّة.

وحيث ذكرنا العيوبَ فلنَذْكُر الخيلَ النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسّلام.

ذكر أسماء خيل رسول الله ﷺ

أوّلُ فرس مَلكه رسولُ الله ﷺ، فرسٌ ابتاعه بالمدينة من رجل من بني فَزَارة بعشر أواقٍ، وكان اسمُه عند الأعرابيّ «الضَّرِسَ»، فسمّاه النبيّ ﷺ «السَّكْبَ». فكان أوّل ما غزَا عليه أُحُداً، ليس مع المسلمين فرسٌ غيرُه وفرس لأبي بُرْدة بن نِيَار يقال له

(١) الأرضفة: جمع رضف أو رضاف، وهو عظم يموج فوق رأس الركبة.
(٢) أطرة الحافر: ما أحاط بها من اللحم.
(٣) العجاية: عصبة باطن الوظيف من الدابة.
(٤) جسأ جسوءاً: يبس وصلب وخشن.
(٥) البلوط: ثمر شجر يؤكل ويدبغ بقشره.
(٦) الرهصة: أنه يصيب باطن حافر الدابة شيء يوهنه أو ينزل فيه الماء من الإعياء.
(٧) أشعر الفرس: ما بين حافره إلى منتهى شعر أرساغه.
(٨) الظبية: الحياء من المرأة وغيرها.
(٩) الرهابة: غضروف كاللسان معلق في أسفل الصدر مشرف على البطن.

مُلاوح. وكان السَّكْبُ كُمَيْتاً أغَرَّ مُحجَّلاً مُطْلَق اليمنى، وقيل: إنه أدهم. رواه الطَّبَراني[(١)] في المعجم الكبير.

وعن عُمَارة بن خُزَيْمة الأنصاريّ أن عمّه حدّثه ـ وهو من أصحاب النبيّ ﷺ ـ: أن النبيّ ﷺ ٱبتاع فرساً من أعرابيّ، فٱستتبعه النبيُّ ﷺ ليُقْبِضَه ثمنَ فرسه، فأسرع النبيّ ﷺ المَشْيَ وأبطأ الأعرابيُّ؛ فطفِق رجالٌ يعترضون الأعرابيَّ فيُساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبيّ ﷺ ٱبتاعه، حتى زاد بعضُهم الأعرابيَّ في السَّوْم على ثمن الفرس الذي ٱبتاعه به النبيّ ﷺ؛ فنادَى الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ فقال: إن كنتَ مبتاعاً هذا الفرسَ فٱبتعه وإلا بعتُه؛ فقال النبيّ ﷺ: «بَلَى قد ٱبتعتُه»؛ فطفِق الناسُ يَلُوذون بالنبيّ ﷺ وبالأعرابيّ، وهما يَتَرَاجَعان[(٢)]، وطفِق الأعرابيُّ يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أني قد بايعتُك. فمن جاء من الناس قال للأعرابيّ: ويلك! إن النبيّ ﷺ لم يكن ليقول إلا حقّاً! حتى جاء خُزَيْمةُ بن ثابت فٱستَمع لمُرَاجَعَة النبيّ ﷺ ومراجعةِ الأعرابيّ؛ فطفِق الأعرابيُّ يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أني قد بايعتُك؛ فقال خُزَيمةُ بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعتَه. فأقبل النبيّ ﷺ على خزيمة فقال: «بِمَ تَشْهَدُ»؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبيّ ﷺ يقول: «شهادةُ خزيمة بن ثابت بشهادةِ رجلين». وفي لفظٍ: فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنه قد باعك الفرسَ يا رسول الله؛ فقال النبيّ ﷺ: «وهل حَضَرْتنا يا خزيمة»؟ فقال: لا؛ فقال: «فكيف شهدت بذلك»؟؛ فقال خزيمة: بأبي أنت وأمّي! يا رسول الله، أصَدِّقك على أخبار السماء وما يكون في غَدٍ ولا أصدّقك في ٱبتياعك هذا الفرس!. فقال النبيّ ﷺ: «إنك لذو الشهادَتَيْن يا خزيمة».

وقد ٱخْتُلِف في ٱسم هذا الفرس، فقال محمد بن يحيى بن سَهْل بن أبي حَثْمَةَ: هو «المُرْتَجِزُ»؛ وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما أنه المُرْتَجِزُ. قال ٱبنُ الأثير[(٣)]: وكان أبيضَ. وقال ٱبنُ قتيبة في المعارف: المرتجز، وفي أخرى: «الطِّرْف»، وفي أخرى: «النّجيب».

ومنها «البحر»، وهو الذي سبقَ الخيلَ لمّا سابَق به رسولُ الله ﷺ؛ فسمّاه البحرَ

---

(١) هو الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني الحافظ، كان ثقة صدوقاً واسع الحفظ بصير بالعلل، كانت وفاته سنة ٣٦٠هـ.

(٢) يتراجعان: أي يتحاوران.

(٣) هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين كان مولده بجزيرة ابني عمر ونشأ بها... حصل العلوم وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان... (وفيات الأعيان ٥: ٣٨٩).

في ذلك اليوم. وكان النبيّ ﷺ قد اشتراه من تَجْرٍ قدموا من اليمن، فسبَق عليه مرّات. قال ابنُ الأثير: وكان كُمَيْتاً، وقيل: كان أدهمَ.

ومنها «سَبْحَة»، ذكرها ابن بنين فقال: وكانت فرساً شقراءَ ابتاعها النبيّ ﷺ من أعرابيّ من جُهينة بعشر من الإبل، وسابَق عليها يوم خميسٍ ومدّ الحبلَ بيده ثم خلّى عنها وسُبِحَ عليها؛ فأقبلت الشقراءُ حتى أخذ صاحبُها العلَمَ وهي تغبر[١] في وجوه الخيل؛ فسمِّيت سبحةَ. وسبحة من قولهم: فرس سابح إذا كان حسَن مَدّ اليدين في الجري. وسَبْحُ الفرس: جَرْيُه.

ومنها «ذو اللِّمَّة»، ذكره ابنُ حبيب في أفراس النبيّ ﷺ.

ومنها «ذو العُقَّال»، قال بعضُ العلماء: كان للنبيّ ﷺ فرس يقال له ذو العُقَّال. وكان له ﷺ فرس يقال له: «اللَّحِيف» وقيل: «اللَّخيف» بالخاء، وقيل فيه: «النّحيف». أهداه له فَرْوَةُ بن عمرو من أرض البَلْقاء، وقيل: أهداه له ابن أبي البَرَاء[٢]، وكان ﷺ يركبه في مَذَاهبه. وسمّي اللّحيفَ لطول ذَنَبِه.

وروى ابنُ مَنْدَه من حديث عبد المهيمن بن عباس بن سهل عن أبيه عن جدّه قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاثة أفراس يسميهنّ: «اللِّزاز» و«اللَّحيف» و«الظَّرِب». فأمّا لزَاز فأهداه له المُقَوْقِس. وأما اللَّحيف فأهداه له رَبيعة بن أبي البَرَاء، فأثابه عليه فرائضَ[٣] من نَعَم بني كلب. وأما الظَّرِبُ فأهداه له فَرْوة بن عمرو بن النافرة الجُذَاميّ. الظَّرِبُ واحد الظِّراب وهي الرَّوابي الصغار. سمّي به لكبره وسِمَنه، وقيل: لقوّته وصلابة حافره.

وأهدى تميمٌ الدَّاريّ لرسول الله ﷺ فرساً يقال له «الوَرْدُ»؛ فأعطاه عمَر، فحمَل عليه عمرُ رضي الله عنه في سبيل الله.

وذكر عليّ بن محمد بن حُنين بن عَبْدُوس الكوفيّ في أسماء خيل النبيّ ﷺ قال: وكانت له أربعة أفراس: أحدُها يقال له «السَّكْبُ» و«المُرْتَجِزُ» و«السِّجْل» و«البحرُ». وقال ابن الأثير: وكان له أفراس: «المرتجز» وذو العُقَّال و«السَّكْب» و«اللَّحيف»، و«اللِّزَاز»، و«الظَّرِب» و«سَبْحَة» و«البحرُ» و«الشَّحَاء» (بالشين المعجمة والحاء المهملة).

(١) تغبر في وجوه الخيل: تسبقها.

(٢) أبو البراء: كنية ملاعب الأسنة عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب.

(٣) فرائض: جمع فريضة، وهي ما فرض في السائمة من الصدقة.

وحكى أبنُ بَنين عن أبن خالويه[١] قال: كان للنبيّ ﷺ من الخيل: «سَبْحَة» و«اللَّحيف» و«لِزاز» و«الظَّرِب»، و«السَّكْب» و«ذو اللِّمَّة» و«السِّرْحان» و«المُرْتجِل» و«الأَدْهَم»، و«المُرْتَجز». وذكر في موضع آخر: و«مُلاوِح» و«الورد» و«اليَعْسوب».

وذكر قاسم بن ثابت[٢] في كتاب الدلائل: «اليعسوب»، و«اليَعْبوب» فرسين لرسول الله ﷺ. وذكر أبن سعد في وفادات العرب عن محمد بن عمر قال: حدّثني أُسامة بن زيد عن زيد بن طَلْحة التَّيْميّ قال: قدِم خمسة عشر رجلاً من الرُّهَاويين (وهم حيّ من مَذْحِج) على رسول الله ﷺ، فنزلوا دارَ رَمْلَةَ بنت الحارث؛ فأتاهم رسولُ الله ﷺ فتحدّث عندهم طويلاً؛ فأهدَوْا لرسول الله ﷺ هدايا، منها فرس يقال له: «المِرْواح»؛ فأمر به فشُوِّر[٣] بين يديه فأعجبه؛ فأسلموا وتعلّموا القرآن والفرائضَ؛ وأجازهم كما يُجيز الوفد: أرفعَهم ثنتي عشرة أوقيّة ونَشّاً[٤] وأخفضَهم خمسَ أواق.

فقد ظهر من مجموع هذه الروايات أن خيل رسول الله ﷺ كانت تسعةَ عشرَ فرساً، وهي: «السَّكْب» و«المرتجز» و«البحر» و«سَبْحة» و«ذو اللِّمَّة»، و«ذو العُقّال» و«اللَّحيف» ـ وقيل فيه بالخاء المعجمة، وقيل: «النحيف» بالنون ـ و«اللِّزاز» و«الظَّرِب» و«الوَرْد» و«السَّجْل» و«الشَّحَاء» و«السِّرْحان» و«المُرْتجِل» و«الأدهم» و«مُلاوِح» و«اليَعْسوب» و«اليَعْبوب»، و«المِرْواح». وقد يكون الأدهم هو السكب أو البحر، فتكون ثمانية عشر فرساً. والله عز وجل أعلم.

ذكرُ أسماء كرام الخيلِ المشهورةِ عندَ العربِ

من أقدم خيل العرب: «زادُ الرَّاكب»؛ وكان من خيل سليمان بن داود عليهما السلام. حكى محمد بن السائب الكلبيّ[٥]: أن الصافِنات الجِياد المعروضة على

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي؛ أصله من همذان ولكنه دخل بغداد وأدرك جلة العلماء بها مثل أبي بكر بن الأنباري وابن مجاهد المقرىء وأبي عمر الزاهد وابن دريد؛ وقرأ على أبي سعيد السيرافي. . . (وفيات الأعيان ٢: ١٧٨).

(٢) هو قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمٰن بن مطرف سليمان بن يحيى العوفي السرقسطي (أبو محمد) محدث، لغوي، نحوي، رحل من الأندلس إلى مصر، فقدم مصر ومكة وسمع بهما. . . وكانت وفاته سنة ٣٠٢هـ. . . (معجم المؤلفين ٨: ٩٦).

(٣) شوّر الدابة: أي عرضها أو أجراها ليعرف قوتها.

(٤) النشّ: نصف أوقية، والأوقية أربعون درهماً.

(٥) هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي، صاحب التفسير وعلم النسب، كان إماماً في هذين العلمين. . . وكان الكلبي من أصحاب عبد الله بن سبأ الذي يقول: إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لم يمت وإنه رجع إلى الدنيا. . . (الوفيات ٤: ٣٠٩).

سليمان بن داود ﷺ كانت ألف فرس ورِثها عن أبيه؛ فلما عُرِضَت عليه ألْهَتْه عن صلاة العصر حتى توارت الشمسُ بالحجاب، فردّها وعَرْقَبها إلاّ أفراساً لم تُعرَض عليه؛ فوفَد عليه قوم من الأَزْدِ، وكانوا أصهارَه، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبيّ الله، إنّ أرضنا شاسعة فزوِّدنا زاداً يبلِّغنا؛ فأعطاهُم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فٱحملوا عليه غلاماً وٱحتطبوا، فإنكم لا تُورُون نارَكم حتى يأتيكم بطعام؛ فساروا بالفرس، فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا ركِبه أحدُهم للقَنْص، فلا يُفلِت شيءٌ تقع عينُه عليه من ظبي أو بقرة أو حمار، إلى أن قدِموا بلادَهم؛ فقالوا: ما لفرسنا هذا ٱسم إلا «زاد الراكب» فسمّوْه به. فأصلُ فحول العرب من نتاجه. ويقال: إن «أعوج» منها. قال ٱمرؤ القيس[١]:

إذا ما ركِبنا قال وِلْدانُ أهلنا   تعالَوْا إلى أن يأتيَ الصيدُ نَحْطِبُ

وقال عُمارة:

وأرى الوحشَ عن يميني إذا ما   كان يوماً عِنانُه في شمالي

ومن خيل العرب المشهورة ما حكاه أبو عليّ الحسن بن رَشيق الأَزْدِيّ في كتابه المترجم بالعمدة عن ٱبن حَبيب عن أبي عُبيدة قال: «الغُرَاب» و«الوَجيه» و«لاحِق» و«المُذْهَب» و«مكتوم» كانت كلّها لغَنِيّ.

وقال أحمد بن سعد[٢] الكاتب: كان «أعوجُ» أوّلاً لكِنْدَةَ، ثم أخذتْه سُلَيْم، وصار لبني عامر ثم لبني هلال. قال ٱبن حَبيب: رِكُبَ رَطْباً فٱعوجّت قوائمُه، وكان من أجود خيل العرب. وأمّه «سَبَل» لغَنِيّ. وأمّ سبل «سَوَادة»، وأم سوادة «القَسَامة»، وكانت لجَعْدة.

وحكى أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب العقد في كتابه: أنه لما أنتجتْه أُمُّه ببعض بيوت الحيّ نظروا إلى طِرْف يضع جَحْفَلَته على كاذَتها (على الفَخِذ مما يلي الحَيَاء) فقالوا: أدركوا ذلك الفرس لا يَنزو فرسَكم؛ لعظم «أعوج» وطول قوائمه؛ فقاموا إليه فإذا هم بالمهر؛ فَسمّوه «أعوج». ولهم أيضاً «الفيّاض».

قال ٱبن سعد: «الوجيه» و«لاحق» لبني أسد، «وقَيْد» و«حَلاّب» لبني تغلِب. و«الصَّريح» لبني نَهْشَل ـ وزعم غيره أنه كان لآل المنذر ـ و«جَلْوَى» لبني ثَعْلبة بن

---

(١) هو امرىء القيس بن حجر بن عمرو الكندي، وهو من أهل نجد من الطبقة الأولى وهذه الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد. . . شاعر جاهلي مشهور (طبقات الشعراء ص ٣٦).

(٢) هو أحمد بن سعد الكاتب الأصبهاني (أبو الحسين) أديب. له من الكتب كتاب الأخبار عن الرسائل، كتاب آخر في الرسائل، سماه فقر البلغاء، كتاب الحلي والثياب، كتاب المنطق، كتاب الهجاء، وله شعر. . . كانت وفاته حوالي سنة ٣٥٠هـ. (معجم المؤلفين ١ : ٢٣٢).

يَرْبوع[١]، و«ذو العُقّال» لبني رِياح بن يَرْبوع، وهو أبو «داحِس». وكان «داحِسٌ»، و«الغَبْراء» لبني زُهَير. والغبراء خالة داحس وأخته من أبيه. و«ذو العُقّال» و«قُرْزُل» و«الخَطّار» و«الحَنْفاء» لحُذَيْفَة بن بَدْر. والحَنْفَاء هي أخت داحِس من أبيه وأمه. و«قُرْزُل» آخَرُ للطُّفَيْل بن مالك. و«حَذْفَة» لخالد بن جعفر بن كِلَاب. و«حَذْفَة» أيضاً لصَخْر بن عمرو بن الشَّريد[٢]. و«الشَّقْرَاء» لزُهَيْر بن جَذِيمة العَبْسِيّ. و«الزَّعْفَران» لبِسْطَام[٣] بنِ قَيْس. و«الوَرِيعةُ»، و«نِصاب» و«ذو الخِمَار» لمالك بن نُوَيْرَة[٤]. و«الشَّقْرَاء» أخرى لأَسِيدِ بنِ حِنَّاءة. و«الشَّيِّط» لأنيف بن جَبلة الضَّبّيّ. و«الوُحَيف» لعامر بن الطُّفَيْل[٥]. و«الكَلْب» و«المَزْنُوق» و«الوَرْد» له أيضاً. و«خُنْثَى» لعمرو بن عمرو بن عُدَس. و«الهَدَّاج» فرس[٦] الرَّيْب اْبن شَرِيق السَّعْدي و«وَجْزَة» فرس يزيد بنِ سنان المُرِّي فارس غَطَفان. و«النَّعَامة» للحارث بن عُبَاد[٧]. و«اْبن النَّعَامَة» لعَنْتَرَة. و«النَّحّام»، فرسٌ للسُّلَيْك بن السُّلَكة السَّعْدي[٨]. و«العَصَا» فرس جَذِيمة بنِ[٩] مالك الأَزْدِيّ. و«الهِراوة» لعبد القَيْس بن أَفْصَى. و«اليَحْمُوم» فرس النُّعْمَان بن المنذر. و«كامِل» فرس زَيْد الخيل[١٠]. و«الزَّبِد» فرس الحَوْفَزَان وهو أبو «الزَّعْفَران» فرس

(١) بنو ثعلبة بن يربوع: منهم بنو الكباس. وبنو الحمرة، وبنو جعفر... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) هو أخو الخنساء، وإخوته عمرو ومعاوية وكلهم فرسان شعراء أشراف... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) هو فارس من فرسان بني شيبان قتلته بنو ضبَّة ورثاه عبد الله بن عثمة الشاعر... (الاشتقاق).

(٤) مالك ومتمم ابنا نويرة: هما من ثعلبة بن يربوع، وكان مالك فارس ذي الخمار، وذو الخمار فرسه، قتله خالد بن الوليد في الردة، وتزوج امرأته... (طبقات الشعراء ص ١٥٧).

(٥) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ وهو ابن عم لبيد الشاعر، فارس قيس، وكان أعور عقيماً لا يولد له ولم يعقب... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٥).

(٦) هو فارس بني دارم في الجاهلية.

(٧) وفي النعامة يقول الحارث:

قربا مربط النعامة مني   وائل أصبحت على بلبال

والحارث بن عباد هو الذي قتل من قتل من بني تغلب بابن أخيه، بجير بن عباد وكان الحارث فارساً في الجاهلية... (الاشتقاق لابن دريد).

(٨) هو منسوب إلى أمه سلكة وكانت سوداء واسم أبيه عمرو بن يثربي، وهو من بني كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم، وكان له بأس ونجدة، وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدواً على رجليه... (طبقات الشعراء ١٧٣).

(٩) هو جذيمة بن مالك الأبرش الملك، الذي قتلته الزباء، وكان أبرص فتهيبت العرب أن تقول أبرص فقال: أبرش، ووضاح... (الاشتقاق).

(١٠) هو زيد الخيل بن مهلهل من طيىء، جاهلي وأدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ في وفد طيىء وأسلم وسماه زيد الخير... (طبقات الشعراء ١٢٩).

بِسْطام. و«الحِمَالة»، فرس الكَلْحَبة اليَرْبُوعي. هذا ما أورده أحمد بن سعد.

وقال ابن دُرَيد[١]: «القَطِيب» و«البَطِين»، فرسان كانا للعرب. و«اللَّعَّاب»، و«العَبَاية» فرساً حَرِّيّ بن ضَمْرة. و«المِذْعاس» فرس النَّوّاس بن عامر المُجَاشِعيّ، و«صُهْبَى» فرس النَّمِر بن تَوْلَب[٢]. و«حافل» فرس مشهور. و«العَسْجَدِي» لبني أسد. و«الشَّمُوس» فرس يزيد بن خَذَاق العَبْدي[٣]. و«الضَّيْف» لبني تَغْلب. و«هِرَاوة العُزَّاب» فرس الرَّيّان بن حُوَيْص العَبْدِيّ، يقال إنها جاءت سابقةً طولَ أربعَ عشرةَ سنة، فتصدّق بها على العُزّاب يتكسّبون عليها في السِّباق والغارات. و«الحَرُون» فرس تنسب إليه الخيلُ، وكان لمسلم بن عمرو بن أسد الباهليّ. و«الزائد» فرس مشهور وهو من نسل الحرون. و«مُنَاهِب» فرس تُنسب إليه الخيل أيضاً، قال الشَّمَردل[٤]:

تَلْقَى الجِيَادَ المُقْرَبَاتِ فينا لأَفْحُلٍ ثلاثةٍ يَنْتَمِينا[٥]

* «مُناهبا» و«الضَّيْفَ» و«الحَرُونا» *

و«العَلْهَان» فرس أبي مُلَيْلٍ عبد الله بن الحارث اليَرْبُوعي.

هذا ما ٱتفق إيرادُه من أسماءِ كرام الخيل ومشهورها. فلنذكر ما ورد في أوصافها وتشبيهها.

ذكر ما قيل في أوصاف الخيل وتشبيهها نظماً ونثراً

أوّلُ من شبّه الفرسَ بالظبي والسِّرْحان والنَّعَامة، ثم ٱتّبعه الشعراء وحَذَوْا مثالَه وٱقتَدَوْا به، هو ٱمرؤ القيس بن حُجْر حيث قال: [من الطويل]

لـه أيْطَلا ظَبْـيٍ وسـاقـا نـعـامـةٍ وإرْخَاءُ سِرْحَانٍ وتـقريبُ تَتْفُلِ[٦]

---

(١) هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن خيثم بن حمامي بن جرو بن واسع بن وهب. . . يعود في نسبه إلى يعرب بن قحطان، فهو من الأزد الذين كان مسكنهم في مأرب في أرض اليمن. .

(٢) هو من عكل وكان شاعراً جواداً ويسمى الكيّس لحسن شعره وهو جاهلي وأدرك الإسلام فأسلم. . . (طبقات الشعراء ١٤١).

(٣) هو أخو سويد، وكلاهما شاعر معروف وهما من بني ربيعة بن نزار.

(٤) هو الشمردل بن شريك يربوعي وكان يقال له ابن الخريطة، وذلك أنه جعل وهو صبي في خريطة. (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٥) المقربات من الخيل: التي ضمرت للركوب.

(٦) الأيطل: الخاصرة، وهي ما بين الأضلاع إلى الورك ـ والإرخاء: السير دون الخصر الشديد ـ والسرحان: الذئب ـ والتقريب: ضرب من العدو ـ والتنفل: ولد الثعلب.

كأن على المَتْنَيْن منه إذا انتحى ... مَدَاكَ عَرُوسٍ أو صَرَايَةَ حَنْظَلِ(١)
مِكَرٌّ مفَرٌّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلِ
دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ أمَرّه ... تَقَلُّبُ كَفَّيْه بخَيطٍ مُوَصَّلِ(٢)
كُمَيْتٍ يَزِلّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِه ... كما زلَّت الصَّفواءُ بالمُتَنَزِّلِ(٣)

وقال أيضاً: [من المتقارب]

وَأَرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفَانَةً ... كَسَا وجهَها سَعَفٌ مُنْتَشِرْ(٤)
لها حافِرٌ مثلُ قَعْبِ الوليـ ... ـدِ رُكِّبَ فيه وَظِيفٌ عَجِرْ(٥)
لها عَجُزٌ كصَفَاةِ المَسِيـ ... ـلِ أَبْرَزَ عنها جُحَافٌ مُضِرْ(٦)
لها ذَنَبٌ مثلُ ذيلِ العرو ... سِ تَسُدُّ به فرجَها من دُبُرْ
لها جَبْهةٌ كسَرَاةِ المِجَنّ ... حَذَّفَه الصانعُ المُقْتَدِرْ(٧)
إذا أقبلتْ قلتَ دُبّاءَةٌ ... من الخُضْرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ(٨)
وإذا أعْرَضَتْ قلتَ سُرْعُوفَةٌ ... لها ذَنَبٌ خلفَها مُسْبَطِرْ(٩)
وإن أدبرتْ قلتَ أُثْفِيّةٌ ... مُلَمْلَمَةٌ ليس فيها أُثُرْ(١٠)

وقال أبو دُوَاد الإيَادي(١١) يصف فرساً:

---

(١) المتنان: ما اكتنفا فقار الظهر ـ والانتحاء: الاعتماد والقصد ـ والمداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب ـ والصراية: الحنظلة الخضراء البراقة.
(٢) الدرير: الفرس السريع العدو ـ والخذروف: لعبة يلعب بها الأولاد وتسمى «البلبل» وأمره: قلبه ثم أداره بين كفيه.
(٣) الحال: وسط الظهر ـ والصفواء: الصخرة الملساء التي لا ينبت فيها شيء ـ والمتنزل: الذي ينزل عليها فينزلق عنها.
(٤) الخيفانة: الجرادة ـ والسعف: يراد به الناصية.
(٥) القعب: القدح ـ والوظيف: عظم الساق والرجل ـ والعجر: الصلب الشديد.
(٦) صفاة المسيل: الحجارة التي تكون في الماء وهي أصلب من غيرها ـ وأبرز: كشف. والجحاف: السيل الذي لا يمر بشيء إلا حمله ونشره.
(٧) السراة: الظهر ـ والمجن: الترس ـ وجذفه: أي هيأه وصنعه.
(٨) الدباءة: واحدة الدباء: وهو القرع ـ مغموسة في الغدر: أي أنها ريا.
(٩) السرعوفة: الجرادة ـ والمسبطر: الطويل.
(١٠) الأثفية: الحجر المدور الصلب الذي يوضع عليه القدر ـ والململمة: المستديرة الصلبة ـ والأثر: أي أثر الجرح.
(١١) هو شاعر من رجالات بني كعب.

لــه ســاقــا ظَــلــيــم خَــا ضِــبٍ فُــوجِــيءَ بــالــرُّغْــبِ[١]
حــديــدُ الــطَّــرْف والــمَــنْــكِــ ــب والــعُــرْقــوب والــقــلــب

وقال آخر:

لـه صدرُ طـاوُسٍ وفَـخْـذُ نـعـامـةٍ ووَثْـبـةُ نـمـرٍ وٱلـتـفـاتُ غـزالِ
وأعـجـب مـن ذا كـلـمـا حَـطّ حـافـراً يَـخُـطُّ هـلالاً مـن وراء هـلال

وقال البُحتريّ وكان وَصّافاً للخيل: [من الكامل]

وأغـرَّ فـي الـزمـن الـبَـهـيـم مُـحَـجَّـلِ قـد رُحْـتُ منه عـلـى أَغَـرَّ مُـحَـجَّـلِ
كـالـهَـيْـكِـل الـمَـبْـنِـيّ إلا أنـه في الحسن جاء كصورة في هيكلِ
ذَنَـبٌ كـمـا سُـحِـبَ الـرِّدَاءُ يَـذُبّ عـن عُـرفٍ وعُـرْفٌ كـالـقِـنـاع الـمُـسْـبَـلِ
جَـذْلانَ يَـنْـفُـضُ عُـذْرةً فـي غُـرّةٍ يَـقَـقٍ تَـسيـل حُجُولُها في جَنْدَلِ[٢]
كـالـرائـح الـنَّـشْـوانِ أكـثـرُ مَـشْـيـه عرضاً على السَّنَن البعيد الأطولِ[٣]
تَـتـوهّـمُ الـجـوزاءَ فـي أَرْسَـاغـه والـبـدرَ غُـرَّةَ وجـهـه الـمُـتـهـلِّـلِ
صـافـي الأَديـم كـأنـمـا عُـنِـيَـتْ بـه لـصَـفـاء نُـقْـبَـتِـه مَـدَاوِسُ صَـيْـقَـلِ[٤]
وكـأنـمـا نـفَـضـتْ عـلـيـه صِـبْـغَـهـا صَـهْـبَـاءُ لـلـبَـرَدانِ أو قُـطْـرَبُـلُّ[٥]
وتَـخَـالـه كُـسِـيَ الـخـدودَ نـواعـمـاً مـهـمـا تـواصِـلْـهـا بـلَـحْـظٍ تَـخْـجَـلِ
وتـراه يَـسْـطَـع فـي الـغُـبـار لـهـيـبُـه لـونـاً وشَـدًا كـالـحـريـق الـمُـشْـعَـلِ[٦]
هَـزِجُ الـصَّـهـيـلِ كـأن فـي نَـغَـمـاتِـه نـبـرات مَـعْـبَـد في الـثَّـقـيـل الأوّلِ[٧]
مـلَـكَ الـعـيـونَ فـإن بـدا أعـطـيْـنَـه نَـظَـرَ المحبّ إلى الحبيب المُقبِلِ

وكتب إلى محمد بن حُمَيْد بن عبد الحميد الطُّوسِيّ يَستهديه فرساً، ووصف له أنواعاً من الخيل؛ فقال من أبيات: [من الكامل]

---

(١) الخاضب: الظليم الذي اختلم فاحمرت ساقاه.
(٢) العذرة: عرف الفرس وناصيته ـ واليقق: المتناحي في البياض.
(٣) العرض: (بضم أوله): السير في جانب، و(بفتح أوله): هو أن يعدو عارضاً صدره ورأسه مائلاً من النخوة والنشاط.
(٤) النقبة: اللون ـ والمدوس: المصقلة ـ والصيقل: شحاذ السيوف وجلاؤها.
(٥) البردان: قرية من قرى بغداد ـ وقطربل: قرية بين بغداد وعكبرا تنسب إليها الخمر.
(٦) يقال: شدت النار: أي ارتفعت.
(٧) معبد: اسم مغن عاش في العصر العباسي.

فأَعِنْ على غزو العدوّ بِمُنْطَوِ ... أحشاؤه طَيَّ الرِّداءِ المُدْرَجِ
إمّا بِأشقرَ ساطع أغشَى الوَغَى ... منه بمثل الكوكب المُتَأجِّج[(١)]
مُتَسربِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَه ... بِدَمٍ فما تلقاه غيرَ مُضرَّج
أو أدهمٍ صافي الأديم كأنه ... تحتَ الكَمِيّ مُظَهَّرٌ بِيَرَنْدَج[(٢)]
ضَرِمٍ يَهيج السّوطُ من شُؤْبُوبه ... هَيْجَ الجَنَائِب من حَريقِ العَرْفَج[(٣)]
خَفّتْ مَواقِعُ وطْئِه فَلَوَ أنّه ... يَجْري بِرَمْلَةِ عالج لم يُرْهِج[(٤)]
أو أشْهَبٍ يَقَقٍ يُضيء وراءَه ... مَتْنٌ كَمَتْن اللُّجَّةِ المُتَرَجْرِجِ
تَخْفَى الحُجُولُ ولو بَلَغْن لَبَانَه ... في أبيضٍ مُتَألِّق كالدُّمْلُج[(٥)]
أوْفَى بِعُرْفٍ أسودٍ متفردٍ ... فيما يَلِيه وحافرٍ فَيْرُوزَجي
أو أبلقٍ ملأ العيونَ إذا بدا ... من كلّ لونٍ مُعْجِب بنَمُوذَج
جَذْلاَن تحسُده الجيادُ إذا مشى ... عَنقاً بأحسن حُلَّةٍ لم تُنْسَج[(٦)]
وعريض أعْلَى المَتْن لو علَّيته ... بالزِّئْبَق المُنْهال لَمْ يَتَدَحْرَج
خاضتْ قوائمُه الوَثيقُ بناؤُها ... أمواجَ تَحنِيب بهنّ مُدَرَّج[(٧)]
ولأنْتَ أبعدُ في السماحةِ هِمّةً ... من أن تَضِنّ بمُلْجَمٍ أو مُسْرَجِ[(٨)]

وقال أيضاً يصف فرساً أدهم:

بأدهمَ كالظلام أغرَّ يَجْلُو ... بغُرَّته دَيَاجيرَ الظلام
ترى أحْجَالَه يَصْعَدن فيه ... صعودَ البرق في جَوْن الغمامِ[(٩)]

---

(١) المتأجج: الملتهب.
(٢) اليرندج: السواد يسود به الخف أو هو الزاج يسوّد به.
(٣) الشؤبوب: شدة العدو ـ الخبائب: جميع الجنوب، وهي الريح التي تهب من الجنوب ـ والعرفج: ضرب من النبات سهل طيب الريح.
(٤) عالج: رمال بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيىء ـ ولم يرجح: أي لم يثر الغبار من خفة وطئه.
(٥) اللبان: الصدر ـ والدملج: حلي يلبس في المعصم.
(٦) العنق: (بفتح أوله وثانيه) ضرب من السير فسيح سريع.
(٧) التحنيب: احديداب في وظيفي يدي الفرس.
(٨) الموكف: ما وضع عليه الوكاف، وهو البرذعة.
(٩) الجون: الأسود.

وقال أيضاً في أدهم: [من الكامل]

أمّا الجَوَادُ فقد بَلَوْنا يومَه ... وكفى بيومٍ مخبِراً عن عامِهِ
جارَى الجيادَ فطار عن أوهامها ... سَبْقاً وكاد يطيرُ عن أوهامِه
جذلان تَلْطِمه جوانبُ غُرّةٍ ... جاءتْ مَجيء البدرِ عند تَمَامِه[١]
وأسودّ ثم صَفَتْ لعَيْنَيْ ناظرٍ ... جَنَباتُهُ فأضاء في إظلامِهِ
مالتْ نواحي عُرْفِه فكأنّها ... عَذَباتُ أَثْلٍ مال تحتَ حَمامِهِ[٢]
ومقدّم الأُذُنَيْن تحسَب أنّه ... بهما يرى الشخصَ الذي لأمامِه
وكأنّ فارسَه وراء قَذالِه ... رِدْفٌ فلستَ تراه من قُدّامِه
لانَتْ معاطِفُه فخيّل أنه ... للخَيْزُران مَنَاسِبٌ لعِظامه
في شُعْلَةٍ كالشَّيْب مرّ بمفرِقَيْ ... غَزِلٍ لها عن شَيْبه بغرامِه[٣]
وكأن صَهْلتَه إذا ٱستعلَى بها ... رَعْدٌ يُقَعْقِع في ٱزدحام غَمَامِه[٤]
مثل الغراب غَدا يُباري صَحْبَه ... بسوادِ صِبْغته وحسنِ قَوامِهِ
والطِّرْفُ أجلبُ زائرٍ لمؤونةٍ ... ما لم تُزِرْه بسرجه ولِجامه

وقال عليّ بن الجَهْم[٥]:

فوق طِرْفٍ كالطَّرْف في سرعة الطَّرْ ... فِ وكالقلب قلبُه في الذكاءِ[٦]
لا تراه العيونُ إلاّ خيالاً ... وهو مثل الخيالِ في الانطواءِ

وقال العباس بن مِرْداس[٧]:

جاء كلمع البرق سام ناظرُهُ ... تَسْبَح أولاه ويَطْفو آخِرُهْ

(١) لطمت الغرة الفرس: سالت في أحد شقي وجهه فهو لطيم.
(٢) الأثل: شجر من الفصيلة الطرفاوية طويل مستقيم يعمر. جيد الخشب، كثير الأغصان متعقدها.
(٣) لها: من اللهو.
(٤) قعقع: أحدث صوتاً عند التحريك أو التحرك.
(٥) علي بن الجهم: هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرار بن كعب بن جابر... يعود نسبه إلى لؤي بن غالب القرشي السامي الشاعر؛ أحد الشعراء المجيدين... (وفيات الأعيان ٣: ٣٥٥).
(٦) الطّرف: (بكسر أوله): الكريم العتيق من الخيل.
(٧) المرداس: الحصاة التي يرمى بها في البئر ليظهر هل فيها ماء أو لا... (طبقات الشعراء ص ١٣٦).

* فـمـا يَـمَـسّ الأرضَ مـنـه حـافِـرُهُ *

وقال أبو الطيّب المتنبّي: [من الطويل]

وجُـرْداً مَـدَدْنـا بـيـن آذانِـهـا الـقَـنَـا ... فـبِـتْـنَ خِـفـافـاً يَـتَّـبِـعـن الـعَـوَالِـيَـا[١]
تَـمَـاشَـى بـأيْـدٍ كـلّـمـا وافـتِ الـصَّـفَـا ... نَـقَـشْـنَ بـه صـدرَ الـبُـزَاةِ حـوافِـيَـا[٢]
ويَـنْظُرن من سُودٍ صوادقَ في الدُّجى ... يَرَيْن بعيداتِ الشُّخوصِ كما هيا[٣]
وتَـنْـصِـبُ لـلـجَـرْس الـخـفـيّ سـوامِـعـاً ... يَـخَـلْـنَ مُـنـاجـاةَ الـضـمـيـرِ تَـنَـادِيـا[٤]
تُـجـاذِبُ فُـرْسـانَ الـصّـبـاح أعـنّـةً ... كـأن عـلـى الأعـنـاق مـنـهـا أفـاعـيـا[٥]

وقال أيضاً:

وجِـيَـادٍ يَـدْخـلـن فـي الـحـرب أَعْـرا ... ويَـخْـرجـن فـي دمٍ فـي جِـلَالِ[٦]
واسـتـعـار الـحـديـدُ لـونـاً وألْـقَـى ... لـونَـه فـي ذوائـب الأطـفـالِ[٧]

وقال أبو الطيّب أيضاً: [من الطويل]

ويـومٍ كـلـيـلِ الـعـاشـقـيـن كَـمَـنْـتُـه ... أُراقِـبُ فـيـه الـشـمـسَ أيّـانَ تـغـرُبُ
وعَـيْـنـي عـلـى أُذُنَـيْ أغـرَّ كـأنـه ... من الـلـيـل بـاقٍ بـيـن عـيـنيه كـوكـبُ
لـه فـضـلـةٌ عـن جـسـمـه في إهـابِـه ... تَجيء على صدرٍ رَحيبٍ وتذهبُ[٨]
شَـقَـقْـتُ بـه الـظَّـلْـمـاءَ أدْنـى عِـنـانَـه ... فـيَـطْـغَـى وأُرْخِـيـه مِـراراً فـيـلـعـبُ[٩]
وأَصْـرَعُ أيَّ الـوحـش قَـفّـيْـتُـه بـه ... وأَنْـزِل عـنـه مـثـلَـه حـيـن أركـبُ[١٠]

وقال أيضاً يصف فرساً:

---

(١) الجرد من الخيل: القصار الشعر ـ والقنا: الرماح ـ والعوالي: جمع عالية، وهي صدر الرمح مما يلي السنان.
(٢) الصفا: الصخر ـ والبزاة: جمع باز.
(٣) المراد بقوله: من سواد: أي من أعين سود.
(٤) الجرس: الصوت أو الخفي منه، والسوامع: الآذان.
(٥) يراد بالصباح: القارة، والأعنة: سيور اللجم.
(٦) الجلال: ما يوضع على الدابة من غطاء.
(٧) المراد: أنهم يشيبون من شدة ما ينالهم من الفزع.
(٨) الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.
(٩) يطغى: أي ينشط ويمرح.
(١٠) قفيته: أتبعته.

إن أدبرتْ قلتَ لا تَليلَ لها ... أو أقبلتْ قلتَ ما لها كَفَلُ[١]

وقال أبو الفَرَج البَبَّغاء[٢]: [من الكامل]

إن لاحَ قلتَ أَدُمْيَةٌ أم هيكلُ ... أو عَن قلتَ أسابح أم أَجْدَلُ[٣]
تتخاذل الألحاظُ في إدراكه ... ويَحَار فيه الناظرُ المتأمِّلُ
فكأنه في اللطف فَهْمٌ ثاقِبٌ ... وكأنه في الحسن حظٌّ مُقْبِلُ

وقال أيضاً من أبيات: [من الطويل]

رماهم بألحاظ الجِيَادِ ولم تكن ... لِيَنْأى عليها المَنْزِلُ المتباعِدُ
من الَّلاءِ يَهْجُرن المياهَ لدى السُّرَى ... ويَغْتَضْن شَمَّ الجوّ والجوُّ راكدُ
مَرَنَّ على لَذْعِ القَنا فكأنما ... عليهن من صبغ الدّماء مَجَاسِدُ[٤]
نَسَجْنَ مُلاَءَ النَّقْعِ ثم خَرَقْنَه ... بكَرٌ لها منه إلى النصر قائدُ[٥]
عليهنّ مِن نَسْج الغُبار غلائلٌ ... رِقاقٌ ومن نَضْح الدماء قلائدُ

وقال أبو الفَتْح كُشَاجِم[٦]: [من الكامل]

ماءٌ تَدَفَّق طاعةً وسَلاسةً ... فإذا اَسْتُدِرّ الحُضْرُ منه فنارُ
وإذا عَطَفْتَ به على نَاوَرْدِه ... لتُدِيرَه فكأنه بِرْكَارُ[٧]
قَصُرَتْ قلادةُ نحره وعذاره ... والرُّسْغُ، وهي من العَتيقِ قصارُ
يَرِدُ الضَّحاضِحَ غيرَ ثانٍ سُنْبُكاً ... ويَرُودُ طرفُك خَلْفَه فيَحارُ[٨]
لو لم تكن للخيل نسبةُ خَلْقِه ... خالَتْه من أشكالها الأطيارُ

---

(١) التليل: العنق.

(٢) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نضر بن محمد المخزومي الشاعر المعروف بالببغاء؛ ذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر» وقال: هو من أهل نصيبين، وبالغ في الثناء عليه... (وفيات الأعيان ٣: ١٩٩).

(٣) الأجدل: الصقر.

(٤) المجاسد: الثياب المصبوغة بالزعفران.

(٥) النقع: الأرض الحرة الطين المستوية ليس فيها حزونة.

(٦) هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم (أبو الفتح، أبو النصر). أديب شاعر، منجم من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل... كانت وفاته سنة ٣٦٠ هـ (معجم المؤلفين ١٢ : ٥٩).

(٧) بركار: آلة ذات ساقين، ترسم بها الدوائر.

(٨) الضحاضح: جمع ضحضح وهو الماء القليل يكون في الغدير وغيره، والسنبك: طرف الحافر وجانباه من قدم.

وقال آخر: [من الكامل]

وأقَبَّ تحمله رياحٌ أربعٌ ... لولا اللِّجَامُ لطار في المَيْدان(١)
من جُمْلة العِقْبان إلاّ أنّه ... من حُسْنه في طلعة الغِزْلانِ
يمشي إلى مَيْدانه متبختراً ... من تِيهه كَتَبَخْتُر النَّشْوانِ

وقال ٱبنُ المعتز:

وخَيلٍ طواها القَوْدُ حتى كأنّها ... أنابيبُ سُمْرٌ مِن قَنَا الخَطّ ذُبّلُ(٢)
صَببْنا عليها ظالمينِ سِياطَنا ... فطارتْ بها أيْدٍ سِراعٌ وأرجُلُ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ(٣): [من الرجز]

طِرْفٌ نأتْ سماؤه عن أرضه ... وما نأى كاهلُه عن الكَفَلْ(٤)
ذو أربعٍ من أربعٍ من القَبُو ... لِ والدَّبُور والجَنُوبِ والشَّمَلْ
وهْو إذا أعملها ألفَى لها ... فوق الذي يطلبه من العملْ
كالبرقِ إن أوْمضَ أو كالرّعد إن ... أجلبَ أو صوبِ الحَيَا إذا ٱحتَملْ(٥)

وقال آخر:

يَجْرِي فَيبْعُدُ من مَدًى متقارِبٍ ... أبداً ويدنو من مدًى مُتَباعِدِ
إن سار فهو غديرُ ماءٍ مائجٍ ... أو قام فهو غديرُ ماءٍ جامدِ(٦)

وقال أبو الفضل المِيكَالي(٧):

خيرُ ما ٱستطرفَ الفوارسُ طِرفٌ ... كلُّ طَرْف بحسنه مبهوتُ
هو فوق الجِبَال وَعْلٌ وفي السهـ ... ـلِ نَعامٌ وفي المَعَابر حُوتُ

---

(١) الأقب من الخيل: الدقيق الخصر الضامر البطن.
(٢) القود: نقيض السوق ـ والأنابيب: الرماح ـ والخط: موضع باليمامة تنسب إليه الرماح الخطية ـ وذبل: دقاق.
(٣) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي، الحلبي، الإنطاكي، المعروف بالصنوبري (أبو بكر) شاعر. سكن حلب ودمشق وتوفي في رجب سنة ٣٣٤هـ... (معجم المؤلفين ٢: ٩١).
(٤) الطرف من الخيل: الكريم العتيق.
(٥) الحيا: المطر. (٦) قام: أي وقف.
(٧) هو عبيد الله بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال الميكالي (أبو الفضل) أديب، شاعر، أمير، من أهل نيسابور. من آثاره: ديوان شعر، ومخزن البلاغة وغيرهما... كانت وفاته سنة ٤٣٦هـ. (معجم المؤلفين ٦: ٢٣٨).

وقال آخر: [من المتقارب]

وطِـرْفٍ إذا مـا جـرى خـلَـتـه   عُـقَـابـاً مـن الـوَكْـر يَـبْـغِـي الـمـزَارا
تـرى فـي الـجَـبـيـن لـه سَـوْسـنـاً   وتَـلْـمَـح فـي لـونـه الـجُـلَّـنَـارا[1]
ويـمـشـي عـلـى الـمـاء مـن خِـفّـةٍ   ويَـقْـدَح فـي الـجَـلْـمَـد الـصـخـر نـارا
فـلـو كـان يَـبْـغِـي بـه راكـبٌ   إلـى مـطـلـع الـشـمـس سَـيْـراً لـطـارا

وقال عبد الجبّار بن حَمْدِيس[2]: [من الكامل]

ومُـجَـرِّرٍ فـي الأرض ذيـلَ عـسِـيـبِـه   حَـمـل الـزبـرجَـد مـنـه جـسمُ عَـقـيـقِ
يَـجـري ولَـمْـعُ الـبـرق فـي آثـاره   مـن كـثـرة الـكَـبَـوات غـيـرُ مُـفـيـق
ويـكـاد يَـخْـرُجُ سُـرْعـةً مـن ظِـلّـه   لـو كـان يـرغـب فـي فِـراقِ رفـيـق

وقال ابن طَبَاطَبا[3]: [من الكامل]

عـجـبـاً لـشـمـسٍ أشـرقـتْ فـي وجـهـه   لـم تَـمْـحُ مـنـه دُجَـى الـظـلام الـمُـطْـبِـقِ
وإذا تـمـطَّـر فـي الـرِّهَـان رأيـتَـه   يَـجْـرِي أمـام الـريـحِ مـثـلَ مُـطَـرِّقِ[4]

وقال تاج الملوك بن أيّوب[5]:

وخـيـل كـأمـثـالِ الـسَّـعَـالِـي شَـوازِب   تـكـاد بـنـا قـبـل الـمَـجَـال تَـجُـولُ[6]
سـوابـق تَـكْـبـو الـريـحُ قـبـل لَـحَـاقِـهـا   لـهـا مَـرَحٌ مـن تـحـتـنـا وصَـهِـيـلُ[7]

وقال إبراهيم بن خَفَاجة[8] يصف فرساً أشهبَ: [من الخفيف]

---

(١) السوسن: نبات طيب الرائحة ـ والجلنار: زهر الرمان.
(٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي، السرقوسي (أبو محمد) شاعر، مؤرخ ولد حوالي ٤٧٧هـ، وكانت وفاته سنة ٥٣٧هـ. (معجم المؤلفين ٥: ٧٩).
(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا (أبو الحسن) عالم، أديب، شاعر... (معجم المؤلفين ٨: ٣١٢).
(٤) تمطرت الخيل: ذهبت مسرعة ـ والمطرق: الذي يمهد الطريق ليسلك.
(٥) هو عيسى بن أبي بكر بن أيوب بن شادي الأيوبي (الملك المعظم شرف الدين أبو الغنائم) فقيه، أديب، نحوي، لغوي، شاعر... كانت وفاته سنة ٦٢٤هـ (معجم المؤلفين ٨: ٢٢).
(٦) السعالي: الغيلان أو سحرة الجن ـ والشوازب: الضوامر من الخيل.
(٧) المرح: التبختر والاختيال.
(٨) هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي (أبو إسحاق) شاعر. ولد وتوفي بجزيرة سقر من أعمال بلنسية. له ديوان شعر، ومصنفات لغوية.. كانت وفاته سنة ٥٣٣هـ.. (معجم المؤلفين ١: ٧٤).

رُبَّ طِرْفٍ كالطَّرْف ساعةَ عَدْوٍ ... ليس يَسْري سُرَاه طيفُ الخيالِ
إن سَرى في الدُّجَى فبعضُ الدَّرَاري ... أو سَعَى في الفَلاَ فإحدى السَّعَالِي
لستُ أَدْري إن قِيدَ ليلة أَسْري ... أو تَمَطَّيتُه غداةَ قِتالِ
أجَنوبٌ تُقتادُ لي أم جَنِيبٌ ... أم شَمالٌ عِنانُها بشِمالي[1]
أشهبُ اللّون أثقلته حُلِيٌّ ... خَبّ فيهن وهو مُلْقَى الجِلالِ[2]
فبدا الصبحُ مُلْجَماً بالثُّرَيَّا ... وجَرى البرقُ مُسْرَجاً بالهلال

وقال أيضاً في أشهب: [من الكامل]

وظلام ليلٍ لا شِهابَ بأُفْقِه ... إلاّ لنَصْلِ مُهَنَّدٍ أو لَهْذَم[3]
لاطَمتُ لُجّتَه بموجَةِ أشهبٍ ... يَرمي بها بحرَ الظلام فيَرْتَمِي
قد سال في وجه الدُّجُنَّةِ غُرَّةً ... فالليلُ في شِبْهِ الأَغرّ الأَدْهَم
أطلعتُ منه ومن سِنانٍ أزرقٍ ... ومهنَّد عَضْبٍ ثلاثةَ أَنْجُمِ

وقال أبو الصَّلْتِ[4] يصف فرساً أشهب: [من مخلّع البسيط]

وأشهبٍ كالشّهاب أضحى ... يَجُول في مُذْهَبِ الجِلالِ
قال حسودي وقد رآه ... يُجْنَبُ خَلْفي إلى القتال
من أَلْجَم الصبحَ بالثريّا ... وأسرجَ البرقَ بالهلالِ

وقال ابن خَفَاجة وقد أهدى مُهراً بهيماً: [من المنسرح]

تَقَبّلِ المُهْرَ من أخي ثقةٍ ... أرسل ريحاً به إلى المَطَرِ
مُشْتَمِلاً بالظلام من شِيَةٍ ... لم يَشْتمل ليلُها على سَحَرِ
مُنتسِباً لونُه وغُرّتُه ... إلى سوادِ الفؤاد والبصر
تَخْسِبَه من عُلاكَ مُسترِقاً ... بهجةَ مَرْأى وحسنَ مُخْتَبَرِ
حَنّ إلى راحةٍ تَفِيضُ ندًى ... فمالَ ظَلٌّ به على نَهَرِ
ترى به والنشاطُ يَخْفِزُه ... ما شِئتَ من فَخْمةٍ ومن شَرَرِ

---

(١) الجنيب: الفرس الذي قاد إلى جنب الراكب.
(٢) الجلال: ما تلبسه الدابة لتصان به.
(٣) اللهزم: كل شيء قاطع، من سنان، أو سيف أو ناب.
(٤) هو أبو الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة بن قسي، وقسيّ هو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان...

لو حمَل الليلُ حسنُ دُهْمتِهِ أمْتع طَرْفَ المحِبِّ بالسَّهَرِ
أحمى من النجم يومَ مَعْرَكَةٍ ظَهْراً وأَجْرَى به من القَدَر
اسْوَدَّ، وابْيضّ فعلُه كَرَماً فالْتفتَ الحسنُ فيه عن حَوَرِ
فازْدَدْ سَنَا بهجةٍ بدُهْمتِه فالليلُ أذْكَى لِغُرْةِ القمرِ
ومثلُ شكري على تَقَبُّلِه يجمع بين النسيم والزَّهَرِ

وقال في فرس أَشْقَر: [من الكامل]

ومُطَهَّم شَرِقِ الأديم كأنما أَلِفتْ مَعَاطِفُه النّجيعَ خِضَابا[1]
طَرِبٌ إذا غنَّى الحُسَامُ، مُمَزِّقٌ ثوْبَ العَجَاجةِ جَيئةً وذَهابا[2]
قَدَحتْ يد الهيجاءِ منه بارقاً متلهِّباً يُزْجِي القَتامِ سحَابا
ورمى الحِفَاظُ به شياطينَ العِدَا فانقضّ في ليل الغُبارِ شهابا
بَسَّامُ ثغرِ الحَلْيِ تحسب أنه كأسٌ أثار بها المِزاجُ حَبَابا

وقال في أدهمَ أغرَّ محجَّل: [من الكامل]

وكأنما لَطَم الصباحُ جَبِينَه فاقتصّ منه فخاض في أحشائِه

وقال ابن نُبَاتَة السَّعْديّ[3] في أدهم:

وأدهمَ يستمِدّ الليلُ منه وتطلعُ بين عينيه الثريّا
سَرى خلفَ الصباحِ يطير مشيا ويَطْوِي خَلْفَه الأفلاكَ طَيّا
فلمّا خاف وَشْكَ الفَوْتِ منه تَعَلَّق بالقوائم والمُحَيَّا

وقال في فرس أدهم أغرّ محجّل أُهدِي له: [من الوافر]

قد جاءنا الطِّرْفُ الذي أهديتَه هادِيهِ يَعقِد أرضَه بسمائهِ
أوِلايةً ولّيتنا فبعثتَه رُمْحاً سَبِيبُ العُرْفِ عقدُ لوائه[4]
تختال منه على أغرَّ محجَّل ماء الدَّياجي قطرةٌ من مائه

---

(١) النجيع: الدم.
(٢) العجاجة: الغبار.
(٣) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نباتة بن الحجاج بن مطر بن خالد... التيمي السعدي، كان شاعراً مجيداً، جمع بين حسن السبك وجودة المعنى، وله في سيف الدولة بن حمدان غرر القصائد ونخب المدائح... (وفيات الأعيان ٣: ١٩٠).
(٤) العرف: شعر عنق الفرس.

وكأنما لَطَم الصباحُ جبينَه فأقتصّ منه فخاض في أحشائِهِ
مُتَمَهِّلاً والبرقُ من أسمائه مُتَبرقِعاً والحسنُ من أكفائه[١]
ما كانت النيران يكمُن حرُّها لو أن للنيران بعضَ ذكائِه
لا تَعْلَق الألحاظُ في أعطافه إلا إذا كفكفتَ من غُلَوائِه

وقال محمد بن الحسين[٢] الفارسيّ النحويّ أحد شعراء اليتيمة في فرس أدهمَ أغرّ: [من الكامل]

ومطّهم ما كنت أحسِب قبله أنّ السروجَ على البوارقِ تُوضَعُ
وكأنما الجوزاءُ حين تَصَوّبتْ لَبَبٌ عليه والثريّا بُرقُعُ

طرائفُ في ذمِّ الخيلِ بالهُزالِ والعجزِ عن الحركةِ

كتب بعضهم إلى صديق له: [من السريع]

ما فعلتْ حِجْرُك تلك التي أفضلُ من فارسها الرّاجِلُ[٣]
عَهْدِي بها تبكي وتشكو الضنَى لِما أحتشاه البدن الناحِلُ[٤]
وهو تغنّيني غِنا صَبّةٍ غايتُها وِجْدانُ ما تَاكُلُ
يا ربِّ لا أقوَى على كلّ ذا موتٌ وإلاّ فَرَجٌ عاجِلُ

وقال آخر: [من البسيط]

يا نصر حجْرُك أبلَى الجوعُ جِدّتَها وأصبحتْ شبحاً تشكو تَجافِيكا
إذا رأتْ تِبنةً قالت مُجاهرةً يا تِبْنُ لي حسرةٌ ما تنقضي فيكا
ترجوه طَوْراً وتبكي منه آيسة حتّى إذا عرَضتْ باتت تغنّيكا
هذي ـ فديتُك ـ حالي قد علمتَ بها فلِمْ يكون الجفا أَفْديك أَفْديكا

وقال آخر: [من السريع]

أعطيتَنِي شَهْبَاء مَهْلُوبةً تُذْكِرُ نُمْرُوذَ بنَ كَنْعانِ[٥]

---

(١) تبرقع: غطى وجهه بالبرقع، والبرقع: قناع النساء والدواب.
(٢) هو أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي؛ كان إماماً في النحو بعد خاله أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ومنه أخذ وعليه درس... (معجم الأدباء لياقوت ج ٧: ٣).
(٣) الحجر: الأنثى من الخيل.
(٤) الناحل: الضعيف الضامر.
(٥) فرس مهلوب: أي مستأصل شعر الذنب ـ ونمروذ: اسم ملك من الجبابرة.

سفينةُ الحَشْر إلى عَدْوِهَا أَسْبَقُ من أَشْقَرِ مَرْوانِ[١]
كأنني منها على زَوْرَقٍ بلا مَجاديفَ وسُكّانِ[٢]
فأنظر إلى حِجْرِي ترى شهرةً أخبارُها جامعُ سُفْيانِ[٣]

وقال آخر: [من المنسرح]

حملَتني فوق مُقْرِفٍ زَمِنٍ ليس لذي رَحْلة بنَفّاعِ
جِلْدٌ على أعظُم محلَّلةٍ فليس يمشي إلاّ بدَفّاعِ
كأنني إذ علوتُ صَهْوَتَه ركبتُ منه سريرَ فُقّاعِ[٤]

وكتب زُهَير بن محمد[٥] الكاتب: [من مجزوء الرجز]

وفرسٍ على المَسَا وِي كلُّها مُختَوِيَهْ
راكبُها في خَجْلة كأنه في مُخْزِيَهْ
مُسْتَقبِحاً ركوبَها مثلَ ركوبِ المَعْصِيَهْ
فما مَسَاوِيها لِمَنْ عدّدها مستوِيَهْ
يا قُبْحَها مُقْبِلَةً وقبحَها مولِّيَهْ

وقال برهان الدين ابن الفقيه نصر: [من السريع]

لصاحبِ الديوانِ بِرْذَوْنةٌ بعيدةُ العهدِ من القُرْطِ[٦]
إذا رأت خيلاً على مَرْبَطٍ تقول سُبْحانَك يا مُعْطِي
تمشِي إلى خَلْف إذا ما مشت كأنها تكتب بالقِبْطِي

هذا ما ٱتّفق إيرادُه مما قيل في أوصاف الخيل من النظم. فلنذكرْ ما وُصِفتْ به في الرسائل المنثورة، والفِقَر المسجوعة، والألفاظ المزدوجة؛ مع ما يتصل بذلك من الأبيات في ضمنها.

فمن ذلك ما حُكي أن المهديّ سأل مَطَرَ بن دَرّاج عن أيّ الخيل أفضل؛ فقال:

---

(١) أشقر مروان: فرس مشهور كان لمروان بن محمد آخر ملوك بني مروان.
(٢) السكان: ذنب السفينة الذي به تعدل.
(٣) جامع سفيان: يراد به كتاب في الفقه لسفيان الثوري.
(٤) الفقاع: نبات يابس.
(٥) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي الملقب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً. . . (وفيات الأعيان ١ : ٢٧٢).
(٦) القرط: نبات تألفه الدواب، وهو شبيه بالرطبة، إلا أنه أعظم ورقاً.

الذي إذا استقبلتَه قلتَ: نافِر، وإذا ٱستدبرتَه قلتَ: زاخِر، وإذا ٱستعرضتَه قلتَ: زافر. قال: فأيّ هذه أفضل؟ قال: الذي طَرْفه أمامُه، وسَوْطُه عِنانُه. ومن هذا أخَذ المتنبي وعليّ بن جَبلة[١] والعسكري[٢]. فقال المتنبي:

* إن أدْبـرتْ قـلـتَ لا تَـلِـيـلَ لـهـا *

وقد تقدّم.

وقال عليّ بن جَبَلة:

تـحـسَـبُـه أُقْـعِـد فـي ٱسـتـقـبـالِـهِ   حـتـى إذا ٱسـتـدبـرتَـه قـلـتَ أكَـبّ

وقال أبو هلال العسكريّ:

طِـرْفٌ إذا ٱسـتـقـبـلـتَـه قـلـتَ حَـبَـا   حـتـى إذا ٱسـتـدبـرتَـه قـلـتَ كَـبَـا

ووصف أعرابيّ فرساً أُجْرِيَ في حَلْبة فقال: لما أُرْسِلت الخيلُ: جاؤوا بشيطان، في أَشْطان[٣]؛ فأرسلوه فلمَع لَمْعَ البرق، وٱستَهَلّ ٱستهلالَ الوَدْق[٤]؛ فكان أقربُ الخيلِ إليه، تقع عينُه من بُعْدٍ عليه.

ووصف محمد بن الحسين بن الحَرُون فرساً فقال: هو حَسَن القميص، جيّد الفُصوصِ[٥]؛ وَثِيقُ القَصَب، نقيّ العَصَب، يبصر بأذنيه، ويتبوّع[٦] بيديه، ويداخل رجليه.

ووصف آخرُ فرساً فقال: الريح أَسيرةُ يديه، والظَّلِيم[٧] فَريسة رجليه، إن حَرّ ٱستعَرَ في ٱلتهابه، وإن جَدّ مَرق من إهَابه.

وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون مع فرس أهداه إليه: قد بعثت إلى أمير المؤمنين فرساً يَلْحَق الأرنبَ في الصَّعْداء، ويُجَاوِز الظباءَ في الاستواء، ويَسْبِق في الحدُور جَرْيَ الماء؛ إن عُطِف حار، وإن أُرْسِل طار؛ وإن حُبِس صَفَن[٨]، وإن

---

(١) كان علي بن جبلة ضريراً وكان يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى. . . وكان يمدح حميد بن عبد الحميد. . . أورد له ابن قتيبة شعراً كثيراً. . . (الشعر والشعراء ٤٥٠).

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (أبو هلال) لغوي، أديب، شاعر، مفسر. . كانت وفاته سنة ٣٩٥هـ (معجم المؤلفين ٣: ٢٤٠).

(٣) أشطان: جمع شطن، وهو الحبل الطويل الشديد الفتل، يستقى به.

(٤) الودق: المطر كله، شديده وهينه.

(٥) الفصوص من الفرس: مفاصل ركبتيه وأرساغه.

(٦) تبوع الفرس في جريه: أبعد الخطو بيديه.

(٧) الظليم: الذكر من النعام.

(٨) صفن الفرس: قلب أحد حوافره وقام على ثلاث قوائم.

اَستوقِفَ فَطِن؛ فهو كما قال تأبّطَ شرّاً[١]:

ويَسْبِق وَفْدَ الريح من حيث يَنْتَحِي ... بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّه المتتابِع

ووصف آخر فرساً فقال: كأنه إذا علا دعاء، وإذا هبَط قضاء. كأنه محلولٌ من قول الشاعر في صفة فرس:

مِثلُ دعاءِ مُستجابٍ إن علا ... أو كقضاءٍ نازلٍ إذا هبَطْ

ووصف أيّوب ابن القِرِيَّة فرساً فقال: أَسِيل الخدّ، حَسَن القَدّ، يَسْبِق الطَّرْف، ويَسْتَغرِق الوصف.

وقال محمد بن عبد الملك لصديق له: ابْغِ لي فرساً بِرْذَوْناً، وَثِيق اليدين، قائم الأذنين، ذَكَر العينين، يأنَف من تحريك الرجلين.

ومن الكلام الجيِّد في وصف الخيل ما أنشأه الشيخ ضياء الدين بن القُرْطُبيّ من رسالته التي كتبها إلى الصاحب الوزير شرف الدين الفائِزِيّ، وقد تقدّم ذكرها في باب الكتاب في الرسائل، فلا فائدة في إعادتها؛ وإنما أوردنا ذكرَ الخيلَ هناك لأن الرسالة تشتمل على أوصاف الخيل والعساكر والسلاح وغير ذلك، فأردنا بإيرادها بجملتها ثمّ أن يكون الكلام فيها سياقُه يتلو بعضُه بعضًا. وهذه الرسالة في السِّفْر السابع من هذه النسخة.

ومن إنشاء المولى الفاضل العالم الأديب البليغ شهاب الدين أبي الثَّناء محمود[٢] بن سليمان الحَلَبي الكاتب رسالةً في الخيل عمِلها تجربةً، ورياضةً لخاطره، ولم يكتب بها؛ سمعتُها من لفظه، ونقلتُها من خطّه؛ وهي:

أدام الله إحسان الجناب الفلاني، ولا زالت الآمال في أمواله مُحَكَّمة، والأماني كالمحامِدِ في أبوابه مخيِّمة، والمعالي كالعوالي إليه دون غيره مسلَّمة، والمكارم تُغريه في الندى حتى يبذُل ما حُبِّبَ إليه من الخيل المسوَّمة. المملوك يقبّل اليد التي ما زالت بَسْطتُها في الكرم عَلِيّه، وقَبْضَتُها بتصريف أعِنَّة الزمن مَلِيّة؛ ومواهبُها تتنوع في النَّدى، ومذاهبُها في الكرم تَهَب الأولياء ما تهابه العِدا. ويُنْهي وصولَ ما أَنْعَم به من الخيل التي وُجِد الخيرُ في نَوَاصيها، وادُّخِرتْ صَهَواتُها حصوناً يعتَصَم في الوَغَى بَصَياصِيها[٣]:

---

(١) هو ثابت بن عمسل، وهو من فهم، وفهم وعدوان، أخوان، وكان شاعراً بئيساً يغزو على رجليه، وكانت تؤخذ بوله إذا غزا، فأخذت بوله وقد قتل بحي، فعرفت أنه قد قتل. . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٢) هو محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، ثم الدمشقي، الحنبلي، (أبو الثناء شهاب الدين) أديب، لغوي، كاتب، ناظم، شاعر. . . كانت وفاته سنة ٧٢٥هـ. (معجم المؤلفين ١٢: ١٦٧).

(٣) الصياصي: قرون البقرة ونحوها.

فمن أشهبَ غطّاه النهار بحُلّته وأوطأه الليلُ على أهِلّته كأنّ أذنه جِلْفَة[١] قَلَم، أو شَقّهُ جَلَم، يُدْرِك بها الوَهْم، ويحقِّق في الليل البَهيم مواقعَ السهم؛ يتموّج أدِيمُه رِيّا[٢]؛ ويتأرّج رَيّا، ويقول مَن آستقبله في حَلْي لجامه: هذا الفجر قد طلعَ بالثريّا؛ إن آلتفت المَضايِقُ آنسابَ آنسِيابَ الأيْم، وإن آنفرجت المسالِكُ مَرّ مرورَ الغَيْم؛ كم أبصر فارسُه يوماً أبيض بطلعتِه، وكم عاين طَرْفُ السِّنان مقاتِلَ العِدا في ظلام النَّقْع بنور أشِعَّتِه؛ لا يَسْتَنُّ داحِسٌ في مضماره، ولا تطمَع الغَبْراءُ في شَقّ غُباره، ولا يظفَر لاحِقٌ[٣] من لَحاقه بِسوى آثارِه، تُسابِق يداه مَراميَ طَرْفِهِ، ويُدرك شَوارِدَ البروق ثانياً من عِطفِه.

ومن أدهمَ حالي الشَّكِيم، حالِكِ الأَدِيم، له مقلةُ غانِيةٍ وسالفهُ رِيم، قد ألبسه الليلُ بُرْدَه، وأطلع بين عينيه سعدَه، يظنّ مَنْ نظر إلى سواد طُرّتِه، وبياضِ حُجوله وغُرّته؛ أنه توهّم النهارَ نهراً فخاضه، وألقى بين عينه نقطةً من رَشَاش تلك المَخَاضَة؛ ليّن الأعطاف؛ سريع الانعطاف؛ يُقْبِل كالليل، ويَكُرّ كجُلْمود صخرٍ حَطّه السَّيْل؛ يكاد يَسبِق ظِلَّه، وإذا جارَى السهمَ إلى غَرَضٍ بلغَه قبله.

ومن أشقرَ غَشّاه البرقُ بلَهَبِه، ووشّاه الأصيلُ بذَهَبِه؛ يتوجّس ما لديه بَرقَيقَتَين، وينفُضُ وَفْرَتيه عن عَقيقتين، ويُنزل عذارَ لجامه من سالِفَتَيْه على شَقيقتين؛ له من الرّاح لونُها، ومن الرياح لِينُها؛ إن جرى فَبرْقٌ خَفَق، وإن أسرع فَهِلالٌ على شَفَق؛ لو أدركَ أوائلَ حرب آبنيْ وائلٍ لم يكن للنَّعامَة نباهه[٤]، ولا للوَجِيهِ وجَاهه، ولكن تركُ إعارة سَكَابِ[٥] لؤماً وتحريمُ بيعها سَفاهه؛ يركُض ما وجد أرضاً، ولو آعترض به راكبُه بحراً وثَبه عَرْضاً.

ومن كُمَيْتٍ نَهْد، كأنّ راكبَه في مَهْد؛ عَنْدَمِيّ[٦] الإهاب، شَمَاليّ الذَّهاب؛ «يَزِلّ الغلامُ الخفُّ عن صَهَواتِه»[٧]، وكأن نَغَمَ الغَرِيضِ ومَعْبَدٍ في لَهَواتِه؛ قصير المَطَا[٨]،

---

(١) الجلفة من العلم: من مبراه إلى سنه.
(٢) الريا: الريح الطيبة.
(٣) لاحق: اسم فرس.
(٤) النعامة: فرس الحارث بن عباد.
(٥) سكاب: فرس عبيدة بين ربيعة.
(٦) العندم: دم الأخوين، وقيل: هو صبغ الداربرنيان، وقيل: العندم: شجر أحمر، وقيل: هو دم الغزال... وقيل: هو صبغ زعم أهل البحرين أن جواريهم يختضبن به.
(٧) إشارة إلى بيت من معلقة امرىء القيس.
(٨) المطا: الظهر.

فَسيح الخُطَا؛ إن رُكِب لصَيْدٍ قَيَّدَ الأوابِد، وأعجَلَ عن الوثوب الوَحْشَ اللّوابِد؛ وإن جُنِبَ إلى حربٍ لم يَزْوَرَّ من وَقْع القَنَا بلَبَانِه[١]، ولم يَشْكُ لو عُلِّم الكلامَ بلسانه[٢]، ولم يُر دون بُلوغ الغاية ـ وهي ظَفَرُ راكِبِه ـ ثانياً من عِنَانِه؛ وإن سار في سَهْلٍ ٱختال براكبِه كالثَّمِل، وإن أَصْعَدَ في جبل طار في عقَابِه كالعُقَاب وٱنحطّ في مجارِيه كالوَعِل؛ متى ما تَرَقّ العينُ فيه تَسَهّل، ومتى أراد البرقُ مجاراتَه قال له الوقوفُ عند قَدْرِه: ما أنت هناك فَتَمهّل.

ومن حبشِيّ أصفرَ يروقُ العَيْن، ويَشُوق القلبَ بمشابهته العَيْن[٣]؛ كأنَّ الشمس ألقتْ عليه من أشِعَّتِها جِلَالاً، وكأنه نَفَر من الدُّجَى فٱعتنقَ منه عُرْفاً وٱعتلق أحْجالاً؛ ذي كَفَلٍ يزين سَرْجَه، وذَيْلٍ يَسُدّ إذا ٱستدبرتَه منه فَرْجَه؛ قد أطلعْته الرياضةُ على مُرَاد فارِسِه، وأغناه نُضَارُ لونِه ونَضَارتُه عن ترصيعِ قَلَائِدِه وتوشِيعِ مَلابسه؛ له من البَرْق خِفَّةُ وطْئه وخَطْفُه؛ ومن النسيم لِينُ طُرُوقه ولُطْفُه، ومن الريح هَزِيزُها[٤] إذا ما جرى شأوَين وٱبتَلّ عِطْفُه؛ يطير بالغَمْز، ويُدْرِك بالرِّياضة مَواقِعَ الرَّمْز، ويغدو كألِف الوصل في ٱستغنائه مِثْلَها عن الهمْز.

ومن أخضَرَ له من الروضِ تَفْوِيفُه، ومن الوَشْي تقسيمُه وتأليفُه؛ قد كساه الليلُ والنهارُ حُلّتَيْ وَقَارٍ وسَنَا، وٱجتمع فيه من البياض والسواد ضِدّانِ لمّا ٱستَجْمَعَا حَسُنَا، ومَنَحه البازِي حُلّةَ وَشْيِه، وأعطته نُفُوحُ الرياحِ ونَسَماتُها قوّةَ رَكْضِه وخِفَّةَ مَشْيِه، يُعطِيكَ أفانينَ الجرْيِ قبل سُؤاله، ولمّا لم يُسَابِقْه شيء من الخيل أغراه حبُّ الظَّفَر بمسابقة خَيالِه؛ كأنه تفاريقُ شيب في سَوادِ عِذَار، أو طلائِعُ فجرٍ خالط بياضُه الدُّجَى، فما سَجَى[٥] ومازج ظلامُه النهار، فما أنار، يختال لمشاركة ٱسم الجري بينه وبين الماءِ في شدّة السَيْر كالسيل، ويَدُلّ بسَبْقه على المعنى المشترك بين البروق اللّوامِعِ وبين البَرْقِيةِ من الخيل، ويُكَذِّب المَانَوِيَّة[٦] لتَوَلّد اليُمْنِ فيه بين إضاءةِ النهارِ وظُلْمةَ الليل.

ومن أبلَقَ ظَهْرُهُ حَرَم، وجَرْيُه ضَرَم[٧]؛ إن قَصَد غايةً فوجودُ القضاء بينه وبينها

---

(١) اللبان: الصدر.
(٢) إشارة إلى بيت من معلقة عنترة بن شداد العبسي.
(٣) العين: الذهب المضروب.
(٤) هزيز الريح: ودويها عند هزها الشجر.
(٥) سجى: سكن.
(٦) المانوية: قوم ينسبون إلى ماني، وهو من الثنويين الذين يقولون بالنور والظلمة. . .
(٧) ضرم: جدّ في سيره وأسرع.

عَدَم، وإن صُرِّف في حربٍ فَعَملُه ما يشاء البَنانُ والعِنانُ وفِعلُه ما تريد الكَفُّ والقَدَم؛ قد طابَقَ الحسنُ البدِيعُ بين ضِدّي لونِه، ودلّت على اجتماع النَّقِيضَيْنِ عِلّةُ كَوْنِهِ؛ وأشبَهَ زَمَنَ الرَّبيع باعتدال الليلِ فيه والنهار، وأخذَ وَصْفَ حُلَّتي الدُّجَى في حالَتَي الإبدارِ[١] والسِّرار[٢]؛ لا تَكِلُّ مَنَاكِبُه، ولا يَضِلّ في حَجَرات[٣] الجيوش راكِبُه، ولا يحتاج لَيلُه المشرِقُ بمجاورة نهارِه إلى أن تُستَرشَدَ فيه كواكِبُه؛ ولا يُجارِيه الخيال فضلاً عن الخيل، ولا يَمَلّ السُّرَى إلاّ إذا ملّ مُشبِهاه: النهارُ والليل، ولا تَتَمَسَّك البروق اللوامع من لَحاقِه بسوى الأثرِ فإنْ جهدتْ فبالذَّيل، فهو الأبْلَق الفَرْد، والجواد الذي لمُجاريه العكسُ وله الطَّرْد؛ قد أغنته شُهْرَةُ نَوْعِهِ في جِنْسه عن الأوصاف، وعَدَل بالرياح عن مباراته سلوكُها له في الاعتِراف جادّةَ الإنصاف.

فترَقّى المملوكُ إلى رُتَب العِزّ من ظهورها، وأعدّها لخِطْبة الجنان إذ الجِهادُ على مثلها من أنفَس مُهُورِها، وكَلِفَ بركوبها فكلما أكمله عاد، وكلمّا أمّله شَرِهَ إليه فلو أنه زَيْدُ الخيلِ لمَا زاد؛ ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل، وعَلم أنها ليومَيْ سِلْمه وحَرْبِه حَنيّة[٤] الصائد وجُنّةُ[٥] الصائل؛ وقابلَ إحسانَ مُهْدِيها بثنائه ودُعائِه، وأعدّها في الجهاد لمقارعة أعداء الله تعالى عليها وأعدائه؛ والله تعالى يشكر بِرَّه الذي أفرده في الندى بمَذَاهِبِه، وجعل الصّافِنَاتِ الجِيَادَ من بعض مواهبِه، والله أعلم بالصواب.

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقي[٦] بن عبد المجيد اليماني رسالةٌ في مثل ذلك أنشأها في سنة ستٍّ أو خمسٍ وسبعمائة. وسمعتُها من لفظه، ونقلتها من إملائه؛ وهي:

يقبِّل اليد العاليةَ الفلانيّة، لا زالت تُرْسِل إلى الأولياء سحائبَ كرمها، وتقلِّد الأَوِدّاءَ قلائدَ نَعِمِها، ولا بَرِحَ المُرْهَفانِ طِرازَيّ حاشِيتها وخَدَمِها، حتى يَنُوبَ القلمُ عن صَلِيل مُرْهَفِها والصَّمْصَامُ عن صَرِير قَلمِها، لتتساوى في الإنفاذ مواقِعُ كَلْمها ومَرَاسِمُ كَلِمِها؛ ولا فتيء ظاهِرُها قِبْلَةَ القُبَل وغايةَ الآمال، وباطنُهَا مَوْرِد الكرمِ ومصدَر الأموال.

---

(١) الابدار: امتلاء القمر وكماله.

(٢) السرار: الليلة التي يستتر فيها القمر، أي يغيب.

(٣) الحجرة: الناحية.

(٤) الحنية: القوس.

(٥) الجنة: كل ما وقى من سلاح وغيره.

(٦) هو تاج الدين أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله، ولد بمكة المشرفة سنة ٦٨٠هـ، وكان إماماً فاضلاً أديباً بليغاً...

ويُنْهي أنه لما كانت العزائم الفلانيّة طامحةً إلى أَسْنَى المَعَالي، مُطْلِعةً من مناقبها أهلّةً تُخجِل بدورَ الليالي؛ متيَّمةً باكتساب المَفاخر، عميدةً بتشييد المآثر، مائلةً إلى ما يزيِّن المَقَانِب[١]، ويطرِّز الكتائب، مُصْغِيةً إلى ما يرد جنابها من جنايتها لا غير، وكيف لا تكون كذلك وحبُّ الخيل من الخير؛ ناظرةً إلى ما يصل من كرائمها، مهتديةً بنجوم غُرَرها مشغوفةً بتحجيل قوائمها؛ عاشقةً لاتساع صدورها، ورِقَّة نحورها.

خدَم المملوكُ الرِّكابَ العالي بإنفاذ خيلٍ اتّحدتْ في الصفات، وتباينت في الشِّيات؛ وصدَرتْ كروضةٍ تفتَّحتْ أزهارُها، وزها نُوَّارُها، وأشرقتْ أنوارُها؛ بل كعرائسَ تَخْتالُ في بُرُودِها[٢]، أو كجواهرَ تنافستْ في عقودِها؛ ملكتْها يمينُ المملوك فكانت كعدد أصابعها، وأحرزتْها همّتُه فنزعتْ في الحزم إلى مَنَازِعها؛ لها من الظباء أعناقُها، ومن النعام أسواقُها[٣]؛ ومن البأس قوةُ جَنَانِها، ومن الظفر مَثْنَى عِنَانِها، ومن الإقبال غُرَر نَوَاصِيها، ومن إدراك الغرض جُلُّ أمانيها، ذَوَاتُ ضَبْح[٤]، ومُورياتُ[٥] قَدْح؛ تَكْبُو الريحُ في غاياتها، ويُقِرّ البرقُ بمُعْجِزاتِها، مداخَلةُ الخَلْق رَحْبة اللَّبَان[٦]، مستغنيةٌ عن الهَمْز بتحريك العِنان، تَقَارُب ما بين قَطَاها[٧] ومَطَاها[٨]، وتَبَاعَد ما بين قَذَالِها[٩] وصَلَاها[١٠]؛ سما عنقُها وأطرق جبينها، وتنزَّهَتْ عن المعايب فلا صَكَكَ[١١] يَشِينُها؛ يا حَبَّذا أَشْهَبُها، وقد تجلَّلَتْ بالشُّهُب ذاتُه، وادّرَعتْ أَشْهَبَ الصبح شِيَاتُه؛ زَبَرْجَدِيّ الحافر لؤلؤيّ الأدِيم، له أَيْطَلا ظبي وساقا ظَليم؛ كغمامةٍ بارِقُها قَدْحُ سَنَابِكِه، أو كَسَيْلٍ طَمَّ مُفْعِمُه واسِعَ مسالِكِه؛ استغنى بجَوْهرِ شِيَاتِهِ عن كل مُذْهَب، فما لمُذْهَب في الانتساب عنه مَذْهب؛ إن امْتطَى الفارسُ قَطَاتَه طار بنَسْر حافِرِه، وإن أشار إلى غَرَضٍ أدركه بمجرّد الوَهْم لا بِالنظر إلى ناظره؛ أميالُ البَيْداءِ كمِيلٍ بين عينيه، وترادُفُ رمالِها كذَرُورٍ بين جفنيهِ؛ استولَى على السَّبَق[١٢] وأَحْرزَ خَصْلَة، وكيف لا وقد حاز اثنتيْ عشرةَ خَصْلة.

يتلوها أشقرُها وقد نُجِّد عَقِيقاً، أو ٱلتحَف شَقِيقاً[١٣]؛ أو كوَجْنة قد احمرّتْ من

(١) المقانب: جمع مقنب، وهو من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.
(٢) البرود: واحدتها البرد، وهو كساء مخطط يلتحف به.
(٣) أسواق النعام: سيقانها.
(٤) الضبح: صوت الفرس.
(٥) الموريات: التي تخرج النار، والقدح: الضرب.
(٦) اللبان: الصدر.
(٧) القطا: العجز.
(٨) المطا: الظهر.
(٩) القذال: جماع مؤخر الرأس.
(١٠) الصلا: وسط الظهر.
(١١) الصكك: اضطراب الركبتين والعرقوبين.
(١٢) السبق: هو ما يتراهن عليه أهل السباق.
(١٣) الشقيق: نور أحمر.

الخجل، أو كوردة ناظرْت بخَفَرِها نَرْجِسَ المُقَل، تناسبتْ أجزاؤه في المَلاَحة، وتساوت مراتبُه في الصَّبَاحة؛ وجاهةُ الوجيه ناطقة من المُحَيّا، ومَسيلُ غُرّته كتصويب الثريّا، وحُجِّل بالجَوْزَاء وأُسْرِج بالهِلال، وأُلْجِمَ بالمَجَرّة فما لابن ذُكَاء[١] في الإشراق عليه مَجَال؛ إن أُطْلِق والريحَ في سَنَن مَيْدان، رأيتَ الريحَ ككُمَيْتٍ خَلّفْته الجيادُ يومَ الرِّهان؛ تَنْهَب الفَلاَة حوافره، وتُحْرِز قَصَبَ السبقِ بَوادِرُه. يَتْبعه كُمَيت كقطعة جمر، أو ككأس خمر، اسودَّ ذَنَبُه وعُرْفُه، وٱختال كالنَّشْوان فكأنما أسكره وصفُه، حَكَتْ أُذُناه قادمَتَيْ حَمَامَة، أو المحرَّفَ من أقلام قُدَامَة؛ قصرتْ عن سعيه الخيول فسابَق الظِّلال، ونشأ مع النَّعَام فلا يألَف غيرَ الرِّئال[٢]؛ كأنّ الصَّبا ألقتْ إليه عِنَانَها قَسْراً، فتَخُبّ بسَرْجه مرّةً وتُناقِل أُخْرى. مقروناً بأصفرَ كالدِّينار، قد أُفْرِغتْ عليه حُلَّةُ نُورٍ لا نار؛ طال منه الذيلُ واتّسع اللَّبَان، فكأنما هو نارٌ على يَفَاع[٣] شُبّت للضِّيفان؛ جلَّلته الشمس بأنوارها، وأهدتْ إليه الرِّياضُ ٱصفرارَ أزهارها؛ تُشهدك عند رؤيته يومَ العَرْض، فروجُ قوائمه سماءً على أرض؛ إن هَمْلَجَ[٤] لاذتِ الريحُ بالشّجر، وإن عدا قَصُر عن إدراكه رؤيةُ البصر، نَجَاشِيّ النِّجَار[٥]، وحَليف الوِجَار[٦]؛ كأنما خُلق من الحَزْم شطرُه، ومن العِزّ ظهرُه؛ ومن الإقبال غُرّتُه، ومن كنوزِ المفَاخِر سُرَّتُه؛ يُقِرّ أعوَجُ بني هِلالٍ بفضله، ويَقْفو حَرُونُ[٧] مُسْلم أثَر ظِلّه. مختوماً بأدهم كَصَخْرةِ سَيْل، أو كقِطْعةِ ليل؛ خاض في أحشاء الصَّباح فلطَم جَبِينَه، وسابَقَ الفلكَ فقيّد بالجَوْزاء رِجْليْه ويسارَه وأطلقَ يمينَه؛ عَرِيضُ الكَفَلَ والمَنْخَرَيْن، دقيقُ القَوائم والساقَيْن؛ كأنما أُشْرِب لونُه سوادَ القلب والبصر، وكأنما النصرُ قَيْسٌ وهو ليلي[٨] يخضُره حيث حضَر؛ لو كُتِب ٱسمُه على رايةٍ لم تَزَلْ تَقْدُم فتوحاً، أو لمَعَتْ بوارقُ سَنَابِكه رأيتَ زِنْجيّاً جَريحاً؛ طابقتْ أخبارُه لمَخْبَره، وسبقتْ رِجلاه في العدْوِ مَوَاقِعَ نَظَره؛ لا يَعْلَق غُرَابٌ[٩] بغباره، ولا تستنّ النَّعَامة[١٠] في مضماره.

(١) ابن ذكاء: يراد به الصبح.
(٢) الرئال: جمع الرأل، وهو فرخ النعام.
(٣) اليفاع: المرتفع من كل شيء، يكون في المشرف من الأرض والجبل والرمل وغيرها.
(٤) هملجت الدابة: إذا سارت سيراً حسناً في سرعة.
(٥) النجار: اللون، ويطلق على الأصل والحسب.
(٦) الوجار: الجحر للضبع والأسد ونحوهما من الوحوش.
(٧) حرون: هو فرس مسلم بن عمرو الباهلي.
(٨) هي ليلى صاحبة قيس بن الملوح.
(٩) غراب: اسم فرس لغني.
(١٠) تستن النعامة في مضماره: أي تجري في نشاط.

ولنختم هذا الباب بذكر فائدة، وهي دواء للخُلْد[١]: يؤخذ خمسون طائراً من ٱلذَّراريحُ تُسحَق بحجر ولا تُمَسّ باليد، وتجعل في قِدْر صغيرة جديدة، ويُصَبّ عليها من الماء والزيت ما يغمرُه، ويُغْلَى عليه حتى ينعقد، ويُضاف إليه يسيرٌ من القَطِران الأسود، ويوضع على النار، فإذا فتَر فتُلَفّ مُشَاقةٌ[٢] على عُود ويُدْهَن به أمّ الخُلْد قبل قطعه بالنار، ثم يدهن بعد ثلاثة أيام بالشَّيْرَج[٣] والصَّيْلَقون وماء الورد؛ فإنه مجرّب.

البابُ الثاني
من القسم الثالثِ منَ الفنِّ الثالثِ
فيَ البغَالِ وَالحَميرِ

ذكرُ ما قيلَ في البغالِ

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: إنّ البغل لا يعيش له ولد، وليس بعَقِيم؛ ولا يبقى للبغلة ولد، وليست بعاقِر، وهو أطول عمراً من أبويه وأصبر. ويقال: إنّ أوّل من نَتَج البغالَ «قارون»، وقيل: «أفرِيدُون»[٤] أحد ملوك الفرس الأُوَل. والبغلُ يوصفُ برداءة الأخلاقِ والتلوّن. ومن أخلاقِ البغالِ الإلْف لكلِّ دابّة. ويقال: إنّ أبوال الإناث تنقية لأجسادها. والإناثُ أجملُ من الذكورِ. قال بعض الشعراء: [من الرجز]

عليكَ بالبغلةِ دون البَغْلِ ... فإنها جامعةٌ للشَّمْلِ
مَرْكبُ قاضٍ وإمامِ عدلِ ... وعالمٍ وسيِّدٍ وكَهْلِ
* تصلُح للرَّحْل وغيرِ الرحلِ *

والبغال من مراكب الرؤساء، والسادة النجباء، والقضاة والعلماء. وهم يُرَجِّحون إناثَها على ذكورها؛ حتى إن المغاربة لا يركبون البغال الذكور ألبتة وإنَّما يجعلونها برسم حمل الزِّبْل. أخبرني قاضي القضاة جمال الدين أبو محمد بن سليمان بذلك، وقال: وإذا طلب وليّ الأمر البغل لأحدٍ كان ذلك دلالةً على إشهاره[٥]. وتجريسه[٦] عليه. قال: فلا يركب البغلَ الذكرَ عندنا إلا زبّالٌ أو مُجَرَّس. وأعظم ما تُفضّل به إناث

(١) الخلد: داء في الفرس بمنزلة الجذام في الإنسان.
(٢) المشاقة: ما سقط من الشعر ونحوهما عند المشط.
(٣) الشيرج: زيت السمسم.
(٤) هو سادس ملوك الطبقة الأولى من الفرس.
(٥) إشهاره: إعلانه وإذاعته.
(٦) التجريس بالقوم: التسميع بهم والتشهير.

البغال على ذكورها أنّ رسول الله ﷺ ركبها وملكها؛ وما ورد أنه ملك بغلاً ولا ركِبه.

ولنذكرْ بَغَلاتِ رسول الله ﷺ تفضيلاً لهذا الحيوان وتشريفاً؛ وتنويهاً بذكره وتعريفاً؛ والله أعلم.

ذكر بَغَلات رسولِ الله ﷺ

كان لرسول الله ﷺ بغلةٌ شَهْباء يقال لها «دُلْدل»، أهداها له المُقَوْقِس. ذكر ذلك ابن قُتَيْبة وابن سعد[١]؛ فقال ابن سعد ما هذا نصه: «وبعث رسول الله ﷺ حاطبَ بن أبي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِي، وهو أحد الستة، إلى المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة عظيم القِبط يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه وقال له خيراً؛ وأخذ الكتابَ فجعله في حُقٍّ[٢] من عاج وختمَ عليه ودفَعه إلى جاريته؛ وكتب إلى النبيّ ﷺ: قد علمتُ أن نبيّاً قد بَقِيَ، وكنتُ أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القِبْط عظيم، وقد أهديت إليك كُسْوة وبغلة تركبها». ولم يَزِدْ على هذا ولم يُسْلِم. فقبِل رسول الله ﷺ هديَّتَه، وأخذ الجاريتَيْن: ماريَةَ أمَّ إبراهيمَ ابنَ رسول الله ﷺ، وأختَها سِيرينَ. وبغلةً بيضاءَ لم يكن في العرب يومئذٍ غيرُها وهي «دُلْدُل». وقال رسول الله ﷺ: «ضَنّ الخبيثُ بمُلْكه ولا بقاءَ لمُلْكِه».

وذكر ابن سعد أيضاً قال: «دُلْدُل» بغلةُ رسول الله ﷺ أوّلَ بغلة رُئِيَتْ في الإسلام، أهداها له المُقَوْقِس وأَهْدى معها حماراً يقال له: «عُفَير»؛ فكانت البغلة قد بقيت حتى كان زمنُ معاوية. وفي لفظ: وكانت شهباءَ، وكانت بيَنْبُع حتى ماتت ثَمَّ. وفي لفظ: وكانت قد كَبِرَتْ حتى زالت أسنانها، وكان يُجَشّ[٣] لها الشعير.

وروى ابن سعد أيضاً عن محمد بن عمر الأَسْلَمِيّ قال: حدّثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة عن زامِل بن عمرو قال: أَهْدى فَرْوة بن عمرو إلى النبيّ ﷺ بغلة يقال لها: «فِضّة» فوهبها لأبي بكر. وكذلك قال البَلاَذُرِيّ[٤]. وقد يقال: إن «دُلْدُل» من هديّة فَرْوة، وإن «فِضّة»، من هدية المُقَوْقِس.

(١) هو محمد بن سعد كاتب الواقدي وصاحب الطبقات.

(٢) الحقّ: وعاء صغير ذو عطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

(٣) جشّ الحب: جرشه.

(٤) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري، أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد. سمع بدمشق وبإنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية... كانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية... (معجم المؤلفين ٢: ٢٠١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُهْدِي للنبيّ ﷺ بغلة أهداها له كِسْرَى؛ فركبها بجُلٍّ(١) من شعر ثم أَرْدَفنِي خَلْفَه. رواه الثَّعَالِبِي. في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن الدِّمياطي رحمه الله: قوله: «أهداها له كسرى» بعيدٌ؛ لأنه مزّق كتاب النبيّ ﷺ وأمر عاملَه باليمن بقتله وبعثِ رأسِه إليه؛ فأهلكه الله بكفره وطغيانه.

وروى مسلم بن الحَجّاج(٢) رحمه الله من حديث أبي حُمَيد الساعِديّ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ تَبُوكَ؛ فذكر الحديثَ؛ وقال فيه: وجاء رسول ابن العَلْماء صاحب أَيْلَةَ إلى رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ وأهدى له بُرْداً. رواه البخاريّ في كتاب الجِزْية والمُوَادعةِ بعد الجهاد؛ ورواه أبو نُعَيم في المستخرج. ولفظهما: «وأَهْدَى مَلِكُ أَيْلة إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء فكساه بُرْداً»؛ وقال أبو نعيم: بُرْدَةً.

وقال ابن سعد: وبعث صاحب(٣) دُومةِ الجَنْدَلِ(٤) لرسول الله ﷺ ببغلة وجُبة من سُنْدُس.

وروى إبراهيم(٥) الحَرْبيّ في كتاب الهدايا عن عليّ رضي الله عنه قال: وأَهْدَى يُحَنَّةُ بنُ رُوبَةَ إلى رسول الله ﷺ بغلته البيضاء.

وروى يوسف بن صُهَيب عن ابن بُرَيدة(٦) عن أبيه قال: انكشف الناسُ عن النبيّ ﷺ يومَ حُنَين ورسول الله ﷺ على بغلته الشَّهْباء التي أهداها له النَّجَاشِيّ وزيدٌ آخذٌ بِركاب بغلته، وذكر عليّ بن محمد بن حُنَيْن بن عَبْدُوس الكُوفيّ في أسماء خيله وسلاحه وأَثَاثه: وكان اسم بغلته «دُلْدُل» أهداها إليه المُقَوْقِس صاحب الإسكندريّة وكانت شَهْباء؛ وهي التي قال لها يوم حنين: «ارْبِضِي» فربَضتْ. ويقال: إن عليّاً رِكبها بعد النبيّ ﷺ ثم ركبها الحسن ثم ركبها الحسين ثم ركبها محمد ابن الحنفيّة رضي الله عنهم، ثم كبِرتْ وعَميتْ، فوقعتْ في مَبْطَخة(٧) لبعض بني مُدْلج فخبَطت

---

(١) الجلّ: ما تلبسه الدابة لتصان به.

(٢) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح (الوفيات ٥: ١٩٤).

(٣) هو أكيدر بن عبد الملك.

(٤) موضع على سبع مراحل من دمشق، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبنيّ بالجندل.

(٥) هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله الحربي (أبو إسحاق)، محدث، فقيه، أديب، أصله من مرو، ومات ببغداد، لتسع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٥هـ. . . (معجم المؤلفين ١: ١٢).

(٦) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي.

(٧) المبطخة: منبت البطيخ.

فيها[١]، فرماها بسهم فقتلها.

وكانت له بغلة يقال لها: «الأَيْلِيّة»؛ أهداها إليه ملكُ أَيْلَة، وكانت طويلة مُخَنْدِفَةً[٢] كأنما تقوم على رِمال حسنةَ السير، فأعجبتْه ووقعتْ منه. وهي التي قال له فيها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين خرج عليها: كأنّ هذه البغلة قد أعجبتْك يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: لو شئنا لكان لك مثلُها؛ قال: «وكيف»؛ قال: هذه أمّها فرس عربيّة وأبوها حمار، ولو أَنْزَيْنا حماراً على فرس لجاءت بمثل هذه؛ فقال: «إنما يَفعل ذلك الذين لا يعلمون».

وعن دِحْية بن خَليفة[٣] الكَلْبيّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا أَحْمِل لك حماراً على فرس فتُنْتَج لك بغلة؟ فقال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعقلون». رواه ابن مَنْده في كتاب الصحابة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ عبداً مأموراً، ما اختصَّنا دونَ الناسِ بشيء إلا بثلاث: أَمَرَنا أن نُسْبغ الوُضوء، وألاّ نأكل الصَّدَقة، وألا نُنْزِيَ حماراً على فرس. رواه التِّرمِذيّ في الجهاد. وفي لفظ آخر عنه رضي الله عنه: كان عبداً مأموراً بَلَّغ ما أُرْسل به، وما اختصَّنا دون الناس بشيء إلا بثلاث خصال: أمرَنا أن نُسْبغ الوضوء، وألاّ نأكلَ الصَّدَقة، وإلا نُنْزِيَ الحمارَ على الفرس. وهذا على هذين الحديثين يختصّ بآل النبي ﷺ دون غيرهم.

والذي يظهر من مجموع هذه الأحاديث المَرْوِيّة التي أوردناها أن بَغَلاتِ رسول الله ﷺ كانت سبعاً، وهي: «الدُّلْدُل» التي أهداها له المُقَوْقِس، و«فِضّة» التي أهداها له فَرْوة بن عمرو، وبغلة أهداها له كسْرَى، وبغلته الأَيْلِيّة التي أهداها له ابن العَلْماء صاحب أيلة، وبغلة بعثها له صاحب دومة الجَنْدَل، وبغلة أهداها له يُحَنَّةُ بن رُوبَةَ، وبغلة أهداها له النَّجَاشِيّ صاحب الحَبَشة. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكرُ شيء ممّا وُصفتْ بهِ البغالُ

قد ألّف الجاحظ كتاباً في البغال مفرداً عن كتاب الحيوان، قال فيه ما نصه: «نبدأ إن شاء الله بما وَصف الأشرافُ من شأن البغلة في حسن سِيرتها، وتمامُ خِلقتها، والأمورِ الدّالة على السرّ في جوهرها، وعلى وجوه الارتِفاق بها، وعلى تصرّفها في

(١) خبطت الدابة: أي مشت على غير هدى.

(٢) الخندفة: مشي كالهرولة.

(٣) هو صحابي مشهور شهد أحد والخندق واليرموك وكان رجلاً جميلاً . . . وعاش إلى خلافة معاوية. وقد جاء جبريل على صورته في غزوة بني قريظة . . .

منافعها، وعلى خِفّة مؤونتها في التنقُّل في أمكنتها وأزمنتها، ولِمَ كَلِفَ الأشرافُ بآرتباطها مع كثرة ما يزعمُون من عيوبها، ولِمَ آثَرُوها على ما هو أدومُ طهارةَ خَلْقٍ منها، وكيف ظهر فضلها مع النقص الذي هو فيها، وكيف آغتفروا مكروهَ ما فيها لِمَا وجَدوا من خصال المحبوبِ فيها».

قال: ولقد كَلِفَ بآرتباطها الأشرافُ حتى لُقِّب بعضهم من أجل آشتهاره بها بـ «رَوّاض البِغال»، ولقّبوا آخر بـ «عاشِق البغل». فبسَط القول في الترجمة ثم لم يأتِ من أخبار البغال بطائلٍ، بل آقتصر على حكاياتٍ وآستطرد منها إلى غيرها، على عادته في مصنَّفاته. فكان مما حكاه من ذلك:

قال مَسْلَمَةُ بن عبد الملك: ما رِكِب الناسُ مثلَ بغلةٍ طويلةِ العِنَان، قصيرةِ العِذَار، سَفْواءِ[1] العُرْف، حَصّاءِ[2] الذَّنَب.

قال: وكتب رَوْحُ بن عبد الملك إلى وكيل له: ابْغِني بغلةً حَصّاءَ الذنَب، عظيمةَ المَحْزِم، طويلةَ العُنُق، سَوْطُها عِنانُها، وهواها إمامُها.

قال: وعاتب صَفْوان بن عبد الله بن الأَهْتَم عبدَ الرحمٰن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب في ركوب البغال، وكان رَكّاباً للبغلة، فقال له: ما لك ولهذا المَرْكَب الذي لا يُدرَك عليه الثار، ولا يُنَجّيك يومَ الفِرار؟! فقال: إنها نَزلتْ عن خُيَلاء الخيل، وارتفعتْ عن ذِلَّة العَيْر، وخيرُ الأمور أوساطُها. فقال صَفْوان: إنا نعلّمكم، فإذا عَلِمْتُم تعلّمنا منكم. وهو الذي يلقَّب «رَوَّاضَ البَغال»، لحِذْقِه بركوبها، ولشَغَفِه بها، وحُسْن قيامه عليها. وكان يقول: أُريدها واسعة الجُفْرة[3]، مُنْدَحّةَ[4] السُّرَّة، شديدة الغَلْوة[5] بعيدةَ الخَطْوة، ليِّنةَ الظهر، مَلْوِيَّةَ الرُّسْغ، سَفْوَاء جَرْداء عَنْقاء، طويلةَ الأنقاء[6].

قال: وقال ابن كُنَاسَة: سمعتُ رجلاً يقول: إذا آشتَريتَ بغلةً، فاشْتَرِها طويلةَ العُنُق، تجده في نجائها، مُشْرِفَةَ الهادِي، تجده في طباعها؛ ضَخْمة الجوف، تجده في صَبْرِها.

قال: ولما خرج قَطَريّ بن الفُجَاءة[7] أحبَّ أن يجمع إلى رأيه رأيَ غيره؛ فدَسّ

---

(١) السفواء: الخفيفة شهر الناصية.
(٢) حصّاء الذنب: قليلة شعره.
(٣) الجفرة: وسط الفرس.
(٤) مندحة: متسعة.
(٥) الغلوة: أمد جري الفرس وشوطه.
(٦) الأنقاء: العظام ذوات المخ.
(٧) قطري بن الفجاءة من رجالات بني كابية، كان رئيساً للأزارقة، ودعي أمير المؤمنين عشرين سنة وقتل بالريّ في آخر أيام الحجاج. . . (الاشتقاق).

إلى الأَحْنَفَ بن قَيْس[١] رجلاً يُجْرِي ذكرَه في مجلسه ويحفظ عنه ما يقول؛ فلمّا قعد قال الأحنف: أمَا إنهم إن جنبوا بَناتِ الصَّهَّال[٢]، وركِبوا بناتِ النَّهَّاق[٣]، وأمسَوْا بأرضٍ وأصبحوا بأرض، طال أمرُهم.

قال الجاحظ: فلا ترى صاحبَ الحربِ يَسْتغني عن البغال، كما لا ترى صاحبَ السّلْم يستغني عنها، وترى صاحبَ السفر كصاحب الحَضَر. انتهى كلام الجاحظ.

وحُكي أنّ عبد الحميد الكاتب سايَر مَرْوانَ بن محمد الجَعْديّ على بغلة؛ فقال له: لقد طالت صحبةُ هذه الدابّة لك!؛ فقال: يا أمير المؤمنين، من بركة الدابّة طولُ صحبتها. فقال: صِفْها؛ فقال: همُّها إمامُها، وسَوْطُها زِمامُها، وما ضُرِبتْ قطُّ إلاّ ظلماً.

وقال بعضُ الكتّاب من رسالة: «قد ٱخترتُ لسيّدي بغلةً وَثيقة الخَلْق، لَطيفة الخَرْط[٤]، رَشيقة القدّ، موصوفة السير، ميمونة الطير، مُشْرِفةَ العُنُق، كريمةَ النِّجار، حميدةَ الآثار.

إن أَدْبرتْ قلتَ لا تَليلَ لها أو أقبلتْ قلتَ ما لها كَفَلُ[٥]

قد جمعتْ إلى حسن القميص، سلامةَ الفُصُوص[٦]؛ فسُمِّيَتْ قَيْدَ الأَوَابِد، وقرّةَ عين الساهدِ؛ تُزْرِي في ٱنطلاقها، بالبروق في ٱئتلافها».

قال البُحْتُريّ يصف بغلاً:

وأقبَّ نَهْدٍ للصَّواهِل شَطْرُه يومَ الفَخَار وشطرُه للشُّحَّجِ[٧]
خَرِق يَتِيهُ على أبيه ويدَّعي عصبِيّةً لبني الضُّبَيْب وأَعْوَجِ[٨]
مثل المُذَرَّع جاء بين عُمُومةٍ في غَافِقٍ وخُؤولة للخَزرَجِ[٩]

---

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن زيد مناة بن تميم التميمي المعروف بالأحنف، وقيل: اسمه صخر، وهو الذي يضرب به المثل في الحلم. . . (الوفيات ٢: ٤٩٩).

(٢) ثبات الصهال: الخيل.

(٣) ثبات النهاق: الحمير.

(٤) خرطت الدابة: سلحت.

(٥) التليل: العنق.

(٦) الفصوص في الفرس: مفاصيل ركبتيه وأرساغه.

(٧) الصواهل: الخيل ـ والشحج، أو نبات الشحاج: البغال.

(٨) الضبيب: فرس حسان بن حنظلة الطائي.

(٩) المذرع: الذي أمه أشرف من أبيه ـ وغافق: قبيلة من الأزد.

وقال أبو الفرج الوَأْوَاء من قصيدة يشكر بعضَ أصحابه وقد أَهْدى له بغلةً: [من البسيط]

قد جاءت البغلةُ السَّفْواء يَجْنُبُها ... للبرق غيثٌ بدا ينهلُّ ماطِرُهُ

عَرِيقةٌ ناسبتْ أخوالَها فلها ... بالعتْق من أكرم الجنسين فاخرُهُ

ملءُ الحِزامِ وملء العينِ مُسْفِرةٌ ... يُرِيك غائبَها في الحسن حاضِرُهُ

أَهْدَى لها الرَّوْضُ من أوصافه شِيَةً ... خَضْراء ناضرةً إن زال ناضرُهُ

ليست بأوّل حُمْلانٍ شَرَيْتَ به ... حمدي ولا هي يا ذا الجودِ آخِرُهُ[1]

كما قد تقدَّمها من سابح بيدِي ... عِنانُه وعلى الجَوْزا حوافِرُهُ

وقال أبو المَكَارِم بن عبد السّلام: [من البسيط]

كأنها النارُ في الحَلْفاء إن رَكضتْ ... كأنها السيلُ إن وافتْكَ من جبلِ

كأنها الأرضُ إن قامت لمُعْتَلفٍ ... كأنها الريح إن مرّتْ على القُلَلِ

ما يعرِف الفكرُ منها منتهَى حُضُرٍ ... ما صوَّر الوهمُ فيها وصْمةَ الكَسَلِ

إذا اقتعدتَ مَطَاها وهي ماشيةٌ ... ثَهْلانُ تُبْصِره في زِيّ مُنْتقِلِ

هذا ما اتّفق إيراده من صفات البغال التي تقتضي المدح.

فأمّا ما جاء في ذمها فالمثل المضروب في بغلة أبي دُلاَمة. وقال أبو دلامة[2] في بغلته: [من الوافر]

أبعدَ الخَيْلِ أركبُها وِراداً ... وشُقْراً في الرَّعِيل إلى القتالِ[3]

رُزِقتُ بُغَيْلةً فيها وَكَالٌ ... وخيرُ خِصالِها فَرْطُ الوَكَالِ[4]

رأيتُ عيوبها كثُرتْ وعالتْ ... ولو أَفْنيتُ مجتهِداً مقالِي

تقوم فما تَرِيم إذا اسْتُحِثَّتْ ... وتَرْمَحُ باليمين والشِّمالِ[5]

رياضة جاهلٍ وعُلَيجِ سَوْءٍ ... من الأكْراد أَحْبَنَ ذي سُعَالِ[6]

---

(١) الحملان: ما يحمل على الدواب في الهبة خاصة.

(٢) أبو دلامة: هو زيد بن الجون مولى بني أسد، وكان منقطعاً إلى أبي العباس السفاح... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٠).

(٣) الرعيل: القطعة المتقدمة من الخيل.

(٤) الوكال: البطء والبلادة.

(٥) فما تريم: أي فما تبرح مكانها.

(٦) الأحبن: العظيم البطن.

شَتِيمِ الوجهِ هِلْبَاجٍ هِدَانٍ نَعُوسٍ يومَ حِلٍّ وٱرْتحالِ(١)
فأدّبَها بأخلاقٍ سِمَاجٍ جزاه الله شرّاً عن عِيَالِي
فلمّا هَدّني ونفَى رُقَادي وطال لذاك همّي واشتغالي
أتيتُ بها الكُنَاسةَ مستغيثاً أفكّر دائباً كيف ٱحتِيَالي(٢)
بعُهْدةِ سِلْعةٍ رُدّتْ قديماً أَطُمُّ بها على الداء العُضَالِ(٣)
فبينما فِكْرتي في القوم تُسْدَى إذا ما سُمْتُ أُرْخِصُ أم أُغَالي
أتاني خائبٌ حَمِقٌ شقيٌّ قديمٌ في الخَسَارة والضَّلَالِ
وراوَغَني ليَخْلُوَ بي خِدَاعاً ولا يَدْرِي الشَّقِيُّ بمن يُخَالي
فقلتُ بأربعين فقال أحسِن فإن البيع مرتخَصٌ وغالي
فلما ٱبتاعها منّي وبُتَّتْ له في البيع غير المستقالِ
أخذتُ بثوبه وبَرِئتُ مما أَعُدُّ عليك من شَنِعِ الخِصَالِ
بَرِئتُ إليكَ من مَشَشٍ قديم ومن جَرَدٍ وتخريقِ الجِلَالِ(٤)
ومن فَرْط الحِرَانِ ومن جِمَاحٍ ومن ضعفِ الأسافلِ والأعالي(٥)
ومن عَقْرِ اللسان ومن بياضٍ بناظرها ومن حلِّ الحِبَالِ
وعُقَّالٍ يُلازِمُها شديدٍ ومن هَدْمِ المَعَالِفِ والرِّكَالِ(٦)
تُقَطِّع جِلْدَها جَرَباً وحَكّاً إذا هُزِلَتْ وفي غير الهُزَالِ
ومن شَدِّ العِضَاض ومن شِبَابٍ إذا ما هَمَّ صَحْبُك بالرِّقَالِ(٧)
وأَقْطَفُ من دَبِيبِ الذَّرّ مَشياً وتَنْحَطُّ من مُتابعةِ السُّعَالِ(٨)

---

(١) الهلباج: الوخم الأكول الشروب ـ والهدان: الوخم الثقيل في الحرب.
(٢) الكناسة: اسم موضع بالكوفة.
(٣) العهدة: الرجعة.
(٤) المشش: ورم يأخذ في مقدم عظم الوظيف أو باطن الساق في أنسيه ـ والجرد في الدواب: ورم في مؤخرة عرقوب الفرس.
(٥) الحران: وقوف الدابة حين يطلب جريها ورجوعها القهقرى.
(٦) العقال: داء يأخذ في قوائم الدابة ـ والركال: أن يضرب برجله الأرض.
(٧) الشباب: رفع الفرس يديه جميعاً من الأرض.
(٨) القطوف من الدواب: البطيء السير ـ وتنحط: تصوّت من الثقل والإعياء.

وتكسر سرجها أبداً شِمَاساً … وتسقط في الوُحول وفي الرمالِ(١)
ويَهْزِلُها الجَمَام إذا خَصِبْنا … ويُدْبِرُ ظهرَها مَسُّ الجِلاَلِ(٢)
تَظَلُّ لرَكْبةٍ منها وَقيذاً … يُخاف عليك من وَرَمِ الطِّحَالِ(٣)
وتَضْرِط أربعين إذا وَقَفنا … على أهلِ المجالس للسؤال
فتُخْرِس منطقي وتَحُول بيني … وبين كلامهم ممّا تُوالِي
وقد أعيتْ سياستُها المُكَارِي … وبَيْطَاراً يُعَقِّل بالشِّكَالِ(٤)
حُرونٌ حين تركبُها لحُضْرٍ … جَمُوحٌ حين تَعْزِم للنِّزَالِ
وذئبٌ حين تُدْنِيها لسَرْجٍ … ولَيْثٌ عند خَشْخَشَةِ المَخَالِي
وفِيلٌ إن أردتَ بها بُكُوراً … خَذُولٌ عند حاجاتِ الرِّجَالِ
وألفُ عصاً وسَوْطٍ أَصْبَحِيٍّ … ألذُّ لها من الشُّرْبِ الزُّلاَلِ(٥)
وتُصْعَقُ من صِيَاحِ الدِّيك شهراً … وتُذْعَر للصَّفير وللخَيَالِ
إذا اسْتَعْجَلْتَها راثتْ وبالتْ … وقامت ساعةً عند المَبَالِ
ومِشْفَارٌ تقدِّمُ كلَّ سَرْجٍ … تصيِّر دَفَّتَيْه على القَذَالِ(٦)
وتَخْفَى في الوقوف إذا أقَمْنَا … كما تَخْفَى البغال من الكَلاَل
ولو جَمَّعْتَ من هَنّا وهَنّا … ومن الأَتْبَان أمثالَ الجبالِ
فإنك لستَ عالِفَها ثلاثاً … وعندك منه عُودٌ للخِلاَلِ
وكانت قارحاً أيّام كِسْرَى … وتذكر تُبَّعاً قبلَ الفِصَالِ(٧)
وقد قَرَحتْ ولُقْمَان فَطِيمٌ … وذو الأَكْتَافِ في الحِجَجِ الخَوَالِي(٨)
وقد أُبْلِي بها قَرْنٌ وقَرْنٌ … وآخِرُ يومِها لِهَلاَكِ مالِي
فأَبْدِلْني بها يا رَبِّ بَغْلاً … يَزِين جَمَالُ مَرْكَبِه جَمَالِي

---

(١) شماس الدابة: شرودها وجماحها.
(٢) الجمام: الراحة.
(٣) الوقيذ: الشديد المرض.
(٤) الشكال: القيد.
(٥) السوط الأصبحي: نسبة إلى ذي أصبح، ملك من ملوك حمير.
(٦) المثفار: الدابة ترمي بسرجها إلى الوراء والقذال: جماع مؤخر الرأس.
(٧) القارح: الذي شق نابه وطلع. والفصال: الفطام من الرضاع.
(٨) ذو الأكتاف: ملك من ملوك فارس واسمه سابور بن هرمز.

كـريـمٌ حـيـن يُـنْـسَـب والـداه إلـى كَـرَم الـمَـنَـاسِـب فـي الـبِـغـالِ

وقال القاضي بهاء الدين[١] زهير الكاتب: [من مجزوء الكامل]

لـك يـا صـديـقـي بـغـلـةٌ لـيـسـت تُـسـاوِي خَـرْدَلَـهْ
مـقـدار خُـطْـوتـهـا الـطـويـ لـة حـيـن تُـسْـرِع أَنْـمُـلَـهْ
وتُـخـال مُـدْبِـرةً إذا مـا أقـبـلـتْ مـسـتـعـجِـلَـهْ
تـمـشـي فـتـحـسَـبـهـا الـعـيـو نُ عـلـى الـطـريـق مـشـكَّـلَـهْ
تـهـتـزُّ وهـي مـكـانَـهـا فـكـأنـمـا هـي زَلْـزَلَـهْ

ذكر ما قيل في الحمر الأهلية

قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنّ الحمار لا يولد له قبل أن تتمّ له ثلاثُ سنين ونصف. قالوا: والحمار إذا شمّ رائحةَ الأسد رمى بنفسه عليه لشدّة خوفه منه. ولذلك قال أبو تمّام يخاطب عبد الصمد بن المعذِّل[٢] وقد هجاه:

أقدمتَ ويلكَ من هَجْوِي على خَطَرٍ والعَيْرُ يُقْدِمُ من خوفٍ على الأَسَدِ

والحمار يُوصف بحدّة حاسّة السمع. وهو إذا نَهَق أضرّ بالكلب؛ قالوا: حتى إنّه يُحدِث له مَغْساً؛ فلذلك يطول نُباحه. والبرد يضرّ الحمارَ ويُؤذيه؛ ولهذا لا يوجد في بلاد الصَّقَالبة. وقال الجاحظ: وحلف أحمد بن عبد العزيز أن الحمار ما ينام. فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأنّي أجدُ صِيَاحَه ليس بِصياح من نام وٱنتبه في تلك الساعة، ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد ٱنقضاء صياحه.

وأجود الحمير المصريّةُ، وأهلُ مصر يعتنون بتربيتها، ويحتفلون بأمرها ويُسابقون عليها، ويسمّون مكانَ سِبَاقها «الطابق»، والجيِّد منها يُباع بالثمن الكثير. نقل صاحب كتاب مَبَاهج الفِكَر ومناهج العِبَر في كتابه قال: لقد بيع منها حمارٌ بمائة دينار وعشرة دنانير. وأمّا الذي رأيناه نحن منها فأُبيع بألف درهم، وربما زاد بعضها على ألف. وكثيرٌ من أهل مصر يركبونها ويتركون الخيل والبغال. فَمَن ركِبها من الأعيان مع وجود

(١) هو أبو الفضل، زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكيّ المقلب بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكبرهم مروءة... (وفيات الأعيان ٢: ٣٣٢).

(٢) هو عبد الصمد بن المعدل، من شعراء الدولة العباسية. ولد بالبصرة ونشأ بها. له شعر المائة وخمسين ورقة. ذكره ابن شاكر في التواريخ، وابن النديم في الفهرست... كانت وفاته سنة ٢٤٠ هجرية... (معجم المؤلفين ٥: ٢٣٧).

القدرة والإمكان على ركوب الخيل والبغال، يَقصِد بذلك التواضعَ وعدم الكبرياء، ومَنْ ركبها من ذوي الأموال وترك الخيلَ والبغالَ ربما يفعل ذلك توفيراً لماله وضِنَّةً به. ومَنْ ركبها من الشباب والسُّوقة يقصِد بذلك التنزّه عليها لفَراهَتها وسرعة مشيتها.

وقد كان لرسول الله ﷺ حمارٌ من حمير مصر اسمه «يَعْفُور» وقيل: «عُفَير»؛ أهداه له المُقَوْقِس صاحب الإسكندرية مع ما أهدى. وقد ورد أيضاً في الحديث أنه كان لرسول الله ﷺ حماران: «يَعْفُور» و«عُفَيْر». فأما «عُفَيْر» فأهداه له المقوقس. وأمّا «يَعْفُور» فأهداه له فَرْوة بن عمرو الجُذَاميّ. ويقال: إنّ حمار المقوقس «يَعْفُور» وحمار فَرْوة «عُفَيْر».

قال الواقديّ[١]: مات «يعفور» عند مُنْصَرف النبيّ ﷺ من حِجَّة الوَدَاع. وذكر السُّهَيْلِيّ[٢]: أن «يعفوراً» طرح نفسه في بئرٍ يوم مات النبي ﷺ فمات. وذكر ابن فُورَك[٣] في كتاب الفصول أنه كان في مَغَانم خَيْبَر، وأنه كلّم النبيَّ ﷺ وقال: يا رسول الله، أنا زِياد بن شِهاب، وقد كان في آبائي ستّون حماراً كلُّهم ركِبهم نبيٌّ، فأركَبْني أنت. وزاد الجُوَيْنِيّ[٤] في كتاب الشامل: أن النبيّ ﷺ كان إذا أراد أحداً من أصحابه أرسل هذا الحمارَ إليه، فذهب حتى يضرِب برأسه الباب؛ فيخرج ذلك الرجل، فيعلم أنه أرسل إليه، فيأتي النبيّ ﷺ.

وفي الحمار منافعُ طبّية ذكرها الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا، قال: رمادُ كَبِدِ الحمال بالزّيت ينفع من الخنازير[٥]، قال: ويُبرىءُ من الجُذَام. وهذا دواءٌ رخيص إن صحّ. قال: وكَبِدُه مَشْوِيّةً على الرّيق تنفع من عِلّة الصَّرْع. قال: والمَكْروز[٦] من اليُبُوسة يجلس في مرقة لحمه. وقيل: إنّ بوله نافع من وَجَع الكُلَى. قال: وبول الحمار الوحشِيّ يُفَتّت الحصاةَ في المَثَانَة.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم، كان إماماً عالماً له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة»... (الوفيات ٤: ٣٤٨).

(٢) هو أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الخطيب الخثعمي السهيلي.

(٣) هو الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن فورك المتكلم الأصلي النحوي الواعظ الأصبهاني، كانت وفاته سنة ٤٠٦هـ...

(٤) هو محمد بن المؤيد بن محمد بن حمويه الحموي الجويني (سعد الدين) صوفي. سكن سفح قاسيون بدمشق، وعاد إلى خراسان وتوفي بها سنة ٥٦٠ هجرية... (معجم المؤلفين ١٢: ٧٠).

(٥) الخنازير: علة معروفة، وهي قروح صلبة تحدث في الرقبة.

(٦) المكزوز: الذي أصابه الكزاز، وهو تشنج يصيب الإنسان من البرد الشديد أو من خروج دم كثير.

ذكرُ ما يتمثلُ بهِ ممّا فيهِ ذكرُ الحمارِ

تقول العرب: «العَيْرُ أوقَى لدَمِهِ»(١). وقالوا: «نَجّى عَيْراً سَمِنُه»(٢). وقالوا: «الجحشَ إذا فاتك الأعْيَارُ»(٣)، وقالوا: «أصَحّ من عَيْرِ أبي سَيّارة»(٤)؛ لأنه كان دفع بأهل المَوْسِم على ذلك العَيْر أربعين عاماً. وقالوا: «إنْ ذهبَ عَيْرٌ فعَيْرٌ في الرِّبَاط»(٥). وقالوا: «العَيْرُ يَضْرِط والمِكْوَاةُ في النار»، وقالوا: «حمارٌ يحمل سِفْراً».

ومن أنصاف الأبيات:

* وقد حِيل بين العَيْر والنَّزَوان *(٦)

ذكرُ شيء ممّا وُصفتْ بهِ الحميرُ علَى طريقي المُدحِ والذّمِّ

قال أبو العَيْناء(٧) لبعض سماسرة الحمير: اشْتَرِ لي حماراً لا بالطويل اللاّحق، ولا بالقَصِير اللاصِق، إنْ خَلاَ الطريقُ تَدَفَّق، وإن كثُر الزِّحامُ تَرَفَّق؛ لا يُصادِم بي السَّوَاري، ولا يدخل تحت البَوَاري(٨)، إن كثّرتُ علفَه شَكَر، وإن قلّلْتُه صَبَر، وإنْ ركبْتُه هام، وإن رِكبه غيري قام(٩). فقال له السمسار: إنْ مَسَخَ الله بعضَ قُضَاتِنا حِمَاراً أصبتُ حاجتك، وإلاّ فليستْ موجودة.

قيل للفَضْل الرَّقَاشِيّ(١٠): إنك لَتُؤْثِر الحمير على جميع الدوابّ؛ قال: لأنها أرفق وأوفق؛ قيل: ولِم ذاك؟ قال: لأنها لا تَسْتَبدِل بالمكان، على طول الزمان؛ ثم قال: هي أقلُّ داءً، وأيسرُ دواءً، وأخفضُ مَهْوًى، وأسْلَم صَرْعاً؛ وأقلُّ جِمَاعاً، وأشهرُ فَرَهاً، وأقلُّ بَطَراً، يُزْهَى راكبُه وقد تَوَاضَعَ بركوبه، ويُعَدّ مقتصداً وقد أسرف في ثمنه.

---

(١) هذا المثل يضرب للموصوف بالحذر.
(٢) مثل يضرب لمن خلصه ماله من مكروه.
(٣) مثل يضرب في قناعة الرجل ببعض حاجته دون بعض.
(٤) أبو سيارة: هو رجل من بني عدوان.
(٥) الرباط: يراد بها حبالة الصائد.
(٦) عجز بيت من قصيدة لصخر بن عمرو وأخو الخنساء.
(٧) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد الضرير مولى أبي جعفر المنصور. كان ظريفاً ماجناً... (الوفيات ١: ٧١٩).
(٨) البواري: جمع بارية؛ وهي الحصير المنسوج من القصب.
(٩) قام: أي وقف.
(١٠) هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشي، وهو شاعر أديب، وليس من الرقاشيين بل من مواليهم... (الأغاني ١٥: ٣٤).

وقال أحمد بن طاهر[1] يصف حماراً: [من الكامل]

شِيَةٌ كأنّ الشمسَ فيها أشرقتْ ... وأضاء فيها البدرُ عند تَمَامِهِ
وكأنّه من تحت راكبه إذا ... ما لاحَ بَرْقٌ لاحَ تحت غَمَامِهِ
ظَهْرٌ كَجزْيِ الماءِ لِينُ ركُوبِهِ ... في حالَتيْ إتعابِه وجَمَامِهِ
سَفِهَتْ يداه على الثَّرى فتلاعبتْ ... في جَرْيِهِ بسُهُولِهِ وإكامِهِ
عن حافِرٍ كالصَّخْرِ إلاّ أنّه ... أقوى وأصلَبُ منه في ٱستحكامِهِ
ما الخَيْزُرَانُ إذا ٱنثنتْ أعطافُه ... في لِينِ مَعْطِفِهِ ولِينِ عظامِهِ
عُنُقٌ يطولُ بها فضولَ عِنَانِهِ ... ومُحَزَّمٌ يَغْتالُ فضلَ حِزَامِهِ
وكأنّه بالرِّيح مُنْتَعِلٌ، وما ... جَرْيُ الرياحِ كجَرْيِهِ ودَوَامِهِ
أخذ المَحَاسِنَ آمِناً من عَيْبِهِ ... وحوَى الكمالَ مُبَرّاً من ذَامِهِ[2]

وقال آخر: [من الكامل]

لا تَنْظُرنّ هُزَال حماري ... وٱنظُرْ إلى مَجْراهُ في الأَخْطارِ[3]
مُتَوَقِّدٌ جعل الذكاء إمامَه ... فكأنما هو شُعْلَةٌ من نارِ
عادتْ عليه الريحُ عند هُبُوبها ... فكأنه رِيحَ الدَّبُورِ يُبَارِي[4]

هذا ما ورد في مدحها.

وأما مَا جَاءَ فيهَا علَى سبيلِ الذمِّ ـ فمن ذلك قولهم: «أَضَلُّ من حمارِ أهلِه». وقولهم: أخزَى الله الحمارَ مالاً، لا يُزَكَّى ولا يُذَكَّى. ومنه قول جَرير بن عبد الله: لا تَرَكَبْ حماراً، فإن إن كان حديداً أتعب يَدَيْك، وإن كان بليداً أتعب رِجْلَيْك.

والمثلُ مضروبٌ في الحمير المهزولة بحمار طَيّاب[5]، كما يُضْرَبَ المثلُ ببغلة أبي دُلاَمة.

قال شاعر: [من الخفيف]

وحمارٍ بكتْ عليه الحَمِيرُ ... دَقّ حتى به الرياحُ تَطِيرُ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن الطاهر الأزدي المراكشي...
(٢) الذام: العيب والذم.
(٣) الأخطار: جمع خطر، وهو ما يتراهن عليه.
(٤) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصَّبا.
(٥) هو الشاعر طياب السقاء.

كـانَ فيـمـا مَضَـى يَسِيرُ بضعفٍ   وَهُـوَ الـيـومَ واقِـفٌ لا يَـسِـيـرُ
كـيـف يـمـشـي ولـيـس شـيءٌ يـراه   وهـو شيـخٌ مـن الـحـمـيـر كـبـيرُ
لَـمَـح الـقَـتَّ مـرّةً فَـتَـغَـنَّـى   بـحَـنِـيـنٍ وفـي الـفـؤادِ زَفِـيـرُ(١)
لـيـس لـي مـنـك يـا ظلـومُ نـصيبٌ   أنـا عـبـدُ الـهـوى وأنـت أمـيـرُ

وقال خالد الكاتب(٢): [من السريع]

وقـائـلٍ إنّ حـمـارِي غَـدَا   يـمـشِـي إذا صَوَّبَ أو أَصْـعَـدا
فـقـلـتُ لـكـنْ حـمـاري إذا   أَحْـثَـثْـتُـه لا يَـلْـحَـق الـمُـقْـعَـدا
يَـسـتـعـذِبُ الـضـربَ فـإنْ زدْتُـه   كـاد مـن الـلَّـذَّةِ أنْ يَـرْقُـدا

وقال أبو الحُسَين الجَزّار(٣):

هـذا حِـمَـارِي فـي الـحَـمـيـر حـمـارُ   فـي كـلّ خَـطْـوٍ كَـبْـوةٌ وعِـثـارُ
قـنـطـارُ تِـبْـنٍ فـي حَـشَـاه شَـعِـيـرةٌ   وشَـعِـيـرةٌ فـي ظَـهْـرِه قِـنْـطَـارُ

ولمّا مات حمار هذا الشاعر داعبه شعراءُ عصره بمراثٍ وهَزْليّات؛ فقال بعضهم:

مـات حـمـارُ الأديـبِ قـلـتُ قَـضَـى   وفـات مـن أمـره الـذي فـاتـا
مـات وقـد خَـلَّـف الأديـبَ ومَـنْ   خَـلَّـف مـثـلَ الأديـبِ مـا مـاتـا

ونحو هذين البيتين قولُ الآخر:

قـال حـمـارُ الـحـكـيـم تُـومَـا   لـو أَنْـصَـفـونـي لـكـنـتُ أَركَـبْ
لأنّـنـي جـاهـلٌ بـسـيـطٌ   وصـاحـبـي جـاهـلٌ مُـرَكَّـبْ

وكتب أبو الحسن بن نَصْر الكاتب إلى صديق له آشترى حماراً، يُداعبه. قال من رسالة: «قد عرفتَ ـ أبقاك الله ـ حين وجدت من سَكْرة الأيّام إفاقة، وآنستَ من وجهها العَبُوسِ طَلَاقة كيف أجبتَ داعِيَ همّتك، وأطعتَ أمرَ مُرُوءتك؛ فسُرِرْتَ بكُمُونِ هذه المَنْقَبةِ التي أضمرها الإعدام، ونَمّ على كريم سِرِّها الإمكان؛ وآستدللتُ منها على خَبَايا فَضْل، وتَنَبَّهْتُ منها على مَزَايا نُبْل؛ كانت مأسورةً في قَبْضة الإِعسار، وكاسِفةً

(١) القت: علف الدواب.
(٢) هو خالد بن يزيد ويكنى أبا الهيثم، من أهل بغداد، وأصله من خراسان، وكان أحد كتاب الجيش. ووسوس في آخر عمره... (الأغاني ٢١: ٤٥).
(٣) هو أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار المصري، ختمت به دولة شعراء الفسطاط. كان في أول أمره قصاباً مثل أبيه وقومه، ثم اشتغل بالأدب والشعر ففاق أهل عصره...

عن سُدْفة[١] الأقتار؛ وقلت: أيّ قَدَم أحقُّ بولوج الرِّكْب من قَدَمَيْهِ، وحاذٍ[٢] أولَى ببطُون القُبّ[٣] من حاذَيه؛ وأيُّ أناملَ أبهَى من أنامله إذا تَصرّفتْ في الأعِنَّةِ يسراها، وتحتّمتْ بالمَخاصر يُمْناها؛ وكيف يكون ذلك الخلق العظيم، والوجهُ الوسيم، وقد بهرَ جالساً، إذا طلعَ فارساً! ثم اتّهمت آمالي بالغلوّ فيك، وأستبعدتُ مناقضةَ الزمان بإنصاف معاليك؛ فقبضتُ ما أنبسط من عنانها، وأخمدتُ ما أشتعل من نيرانها؛ حتى وقفتُ على صحيحة الشك. أرجو عُلوَّ همّتك بحسن أختيارِك، وأخشَى منافسةَ الأيّام في دَرْك أوطارك؛ فإنها كالظّانّة في ولدها، والمجاذَبَةِ بالسُّوء في واحدها، يُدني الأملُ مَسَارَّها، ويُرجىء القَلَقُ حِذَارَها؛ حتى أتتنا الأنباءُ تَنْعَى رأيَك الفائل[٤]، وتَفُلّ عَزْمَكَ الآفِل، بوقوع أختيارك على فاضِح صاحِبِه، ومُسْلِم راكِبِه؛ الجامِد في حَلْبة الجِياد، والحاذِقِ بالحِران[٥] والكِياد[٦]؛ السَّوْم دينُه ودأبه، والبلادة طبيعته وشأنه؛ لا يُصلحه التأديب، ولا تُقْرَع له الظّنابيب[٧]؛ إن لَحظَ عَيْراً نَهَقَ، أو لَمَح أتاناً شَبِق، أو وجدَ رَوْثاً شمّ وأنتشق؛ فكم هَشَم سِنّاً لصاحبه، وكم سَعط أنفَ راكبِه؛ وكم أستردّه خائفاً فلم يَرْدُدْه، وكم رامَه خاطباً فلم يُسْعِدْه؛ يعجَل إن أحبَّ الأناةَ والإبطاء، ويرسَخ[٨] إن حاول الحثَّ والنَّجاء، مطبوعٌ على الكَيْد والخلاف، موضوع للضَّعَة والاستخفاف، عزيزٌ حتى تُهِينَه السِّياط، كسولٌ ولو أبطره النَّشاط؛ ما عرَف في النّجابة أباً، ولا أفاد من الوَعْي أدَباً، الطالبُ به محصور، والهارِبُ عليه مأسور؛ والممتطِي له راجِل، والمستعلي بِذروتِه نازِل؛ له من الأخلاق أسوؤها، ومن الأسماء أشنؤها[٩]، ومن الأذهان أصدؤها، ومن القُدود أحقرُها؛ تجحَده المَراكِب، وتجهله المَواكب؛ وتعرفه ظهورُ السوابك، وتألفه سُبَاطات[١٠] المَبارك. والله الموفّق».

---

(١) السدفة: الظلمة (في لغة تميم)؛ وفي لغة قيس: الضوء، والمعنى الأول هو المراد.

(٢) الحاذ: لحمة في ظاهر الفخذ تكون في الإنسان وغيره.

(٣) الأقب: هو الدقيق الخصر الضامر البطن من الخيل.

(٤) الرأي القائل: الرأي الضعيف.

(٥) الحران: المصدر من حرنت الدابة.

(٦) الكياد: المكر والخبث.

(٧) الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف الساق من قدم.

(٨) رسخ: ثبت في موضعه متمكناً.

(٩) أشنؤها: أبغضها.

(١٠) السباطات: واحدتها السباطة، وهي الموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكنس من المنازل.

البابُ الثالثُ
منَ القُسم الثالثِ منَ الفنّ الثالثِ
في الإبلِ والبقرِ والغنمِ

ذكرُ ما قيلَ في الإبلِ

الإبل جمع لا واحدَ لها من لفظها. والذَّكَر منها جَمَل، والأنثى ناقة. والبعير يقع عليهما. ودليل ذلك قول بعض الشعراء:

لا نَشْتَهِي لَبنَ البعيرِ وعندنا عَرَقُ الزُّجاجة واكفُ المِعصار(١)

والإبل من منن الله الجسيمة على خلقه، ومما منحهم به من إرفاقه ورزقه. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: ٥ ـ ٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

ولنذكر ما جاء من لغة العرب في الإبل من تسميتها من حين تُولد إلى أن تتناهى سِنُّها، وأسماء ما يُرْكَب منها ويُحمل عليه، وما ٱختصت به النوقُ من الأسماء والصِّفات؛ ونذكر ألوان الإبل وما قالوه في ترتيب سَيْرها، وفي المَسير عليها والنزول؛ ثم نذكر بعد ذلك أصناف الإبل وما قيل في عاداتها وطبائعها. فإذا أوردنا ذلك، ذكرنا ما ملكه رسول الله ﷺ منها، وما جاء في أوصاف الإبل من الشعر؛ فنقول وبالله التوفيق.

أمّا تسمِيتُها من حين تُولَد إلى أن تتناهى سنُها ـ فقد قالت العرب: ولدُها حين يُسَلّ من أُمّه «سَلِيلٌ» ثم «سَقْب»، و«حُوَار» إلى سنة، وجمعه أحْوِرة وحِيران. وهو «فصيل» إذا فُصِل عن أمّه. وهو في السنة الثانية «ٱبنُ مَخاضٍ» ـ لأن أمّه تَلْقَح فتَلْحق بالمَخاض وهي الحوامل، وواحدتها من غير لفظها «خَلِفَة» ـ والأنثى «بنت مخاض». فإذا دخل في الثالثة فهو «ٱبنُ لَبُون»، والأنثى «بنتُ لَبُون»؛ لأنّ أُمّه صارت ذاتَ لبنٍ. وهو في الرابعة «حِقٌّ»؛ لأنه ٱستحق أن يُحمل عليه. وهو في السنة الخامسة «جَذَعٌ». وفي السادسة «ثَنِيٌّ» لأنّه يُلقي ثَنِيَّته؛ والأنثى «ثَنِيَّة»، وهو في السابعة «رَبَاعٌ». وفي

(١) عرق الزجاجة: ما نتج من الشراب وغيره مما فيها، والمراد هنا الخمر.

السنة الثامنة «سَدِيس» و«سَدَس» للذكر والأنثى. وهو في التاسعة «بازلٌ» إذا فَطَر نابه، أي طلعَ. قال الشاعر[(١)]:

وأبنُ اللّبون إذا ما لُزّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولةَ البُزْل القَناعِيس[(٢)]

ثم هو بعدها بسنة «مُخْلِفُ عام»، و«بازلُ عامٍ»، ثم «مُخْلِفُ عامين»، و«بازلُ عامين»؛ ثم يُعَوِّد، أي يصير عَوْدا وهَرِماً وماجّاً[(٣)].

قالوا: والقَلُوص[(٤)] منها كالجارية من الناس، والقَعُود كالغلام، والجمع قلائصُ وقعْدانٌ. والبَكْر: الفَتِيُّ، والبِكَارَةُ جمع، والأنثى بَكْرَةٌ. ويقال: جملٌ رَاشٌ وناقة راشَةٌ إذا كثُر الشّعر في آذانهما.

وأمّا أسماءُ ما يُرْكَبُ منها ويُحمل عليه ـ فقد قالوا: المطيّةُ اسمٌ جامع لكل ما يُمْتَطَى من الإبل. فإذا اختارها الرجلُ لمَرْكبه لتمامِ خِلْقتها ونجابتها فهي راحلة.

وفي الحديث النبويّ صلوات الله تعالى وسلامه على قائله: «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا يكاد يوجد فيها راحلة»، فإذا أستَظْهر[(٥)] صاحبُها بها وحَمَل عليها فهي «زاملة» ـ والناس يقولون في الرجل العاقل الثابت في أموره: رجل زاملةٌ، يريدون بذلك مدحه. ووصف ابنَ بشير رجل فقال: ليس ذلك من الرّواحل إنما هو من الزَّوَامِل ـ فإذا وجّهها مع قوم ليَمْتَاروا[(٦)] عليها فهي «عَلِيقةٌ».

وأمّا ما أختُصّت به النوقُ من الأسماء والصّفات ـ فإنهم يقولون فيها: «كَهَاةٌ»، و«جُلاَلَةٌ» وهي العظيمة، و«عُطْمُوس» و«دِعْبِلة» وهي الحسنة الخلقة التامّة الجسم، و«كَوْمَاء» وهي الطويلة السّنام، «وَجْنَاء» وهي الشديدة القويّةُ اللحم. وأشتقاقُه من الوَجِين، وهي الحجارة: فإن أزدادت شدّتُها فهي «عِزْمِسٌ» و«عَيْرَانةٌ». فإذا كانت شديدةً كثيرةَ اللحم فهي «عَنْتَرِيسٌ» و«عَرَنْدَسٌ» و«مُتَلاحِكَةٌ». فإذا كانت ضخمة شديدةً فهي «دَوْسَرَةٌ» و«عُذَافِرَةٌ»، فإذا كانت حسنةً جميلةً فهي «شَمَرْدَلَةٌ». فإذا كانت عظيمة الجوف فهي «مُجْفِرةٌ»، فإذا كانت قليلة اللَّحم فهي «حُرْجُوجٌ» و«حَرْفٌ» و«رَهْبٌ».

ومن أوصافها في السَّيْر ـ إذا كانت ليّنَة اليدين في سيرها فهي «خَنُوفٌ»، فإذا كان

---

(١) هو جرير بن عطية الخطفي الشاعر الإسلامي المشهور.

(٢) لزّ: قرن وشُد ـ والقرن: الحبل يجمع بين البعيران ـ والقنعاس: الناقة العظيمة الطويلة السنمة.

(٣) الماج: الذي سال لعابه من الكبر.

(٤) القلوص: أول ما يركب من إناث الإبل إلى أن تثنى.

(٥) استظهر: استعان.

(٦) امتار: جمع الميرة.

بها هَوَجٌ من سرعتها فهي «هوجاء» و«هَوْجَلٌ». فإذا كانت تُقارِبُ الخَطْو فهي «حاتِكةٌ». فإذا كانت تَمشي وكأنها مقيّدةُ الرِّجل وهي تضرب بيديها فهي «راتِكةٌ»، فإذا كانت سريعة فهي «عَصُوفٌ» و«مُشْمَعِلّةٌ» و«عَيْهَلٌ» و«شِمْلالٌ» و«يَعْمَلَة»، و«هَمَرْجَلَة»، و«شَمْذَر» و«شِمِلّة»، و«شَمَرْدَلَةٌ». فإذا كانت تجرّ رِجليْها في المشي فهي «مِزْحافٌ» و«زَحُوفٌ»، فإذا كانت لا تقصِد في سيرها من نشاطها فهي «عَجْرَفيّة». قال الأعشى:

وفيها إذا ما هَجَّرتْ عَجرفيةٌ إذا خِلْتَ حِرْبَاءَ الظَّهيرة أصْيَدَا[1]

وأمّا ألوانُ الإبلِ ـ فإنهم قالوا: إذا لم يُخالط حمرةَ البعير شيءٌ فهو «أحمرُ». فإن خالطَها السوادُ فهو «أرْمَكُ»، فإذا كان أسودَ يخالِط سوادَه بياضٌ كدُخانِ الرِّمْثِ[2] فهو «أَوْرَقَ». فإذا ٱشتدّ سوادُه فهو «جَوْنٌ». فإن كان أبيضَ فهو «آدَمُ»، فإن خالطَ بياضَه حمرةٌ فهو «أَصْهَبُ». فإن خالطته شُقْرةٌ فهو «أَعْيَسُ». فإن خالطت خُضْرته صفرةٌ وسوادٌ فهو «أَحْوَى». فإذا كان أحمرَ يخالِطِ حمرتَه سوادٌ فهو «أَكْلَفُ».

وأمّا ترتيبُ سَيْرها ـ «فالعَنَقُ» وهو السير المُسْبَطِرّ[3]. فإذا ٱرتفع عنه قليلاً فهو «التَّزيّدُ». فإذا ٱرتفع عن ذلك فهو «الذَّمِيلُ». فإذا ٱرتفع فهو «الرَّسيمُ»، فإذا دارَك المشيَ وفيه قَرْمَطَةٌ[4] فهو «الحَفْدُ»، فإذا ٱرتفع عن ذلك وضرب بقوائمه كلِّها فذاك «الارْتِباعُ» و«الالْتِبَاطُ». فإذا لم يَدَعْ جُهْداً فذاك «الاذْرِنْفَاقُ».

وأمّا ما قيلَ في المسيرِ عَلَيها والنزولِ للرّاحَةِ والإراحَةِ ـ فقد قالوا: إذا سار القومُ نهاراً ونزلوا ليلاً فذاك «التَّأوِيبُ». فإذا ساروا ليلاً ونهاراً فذاك «الإسْآدُ»، فإذا ساروا من أوّل الليل فهو «الإدْلاَجُ»، فإذا ساروا من آخر الليل فهو «الإدِّلاَجُ»، فإذا ساروا مع الصبح فهو «التَّغْلِيسُ». فإذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار فهو «التَّغويرُ». فإذا نزلوا في نصف الليل فهو «التَّعْرِيسُ».

ذكرُ أَصنافِ الإبلِ وَعَادَاتها وَمَا قيلَ في طَبَائِعِهَا

والإبلُ ثلاثةُ أصنافٍ: يَمانيٌّ، وعرابيٌّ، وبُخْتِيٌّ[5]. فاليمانيُّ هو النَّجيبُ، ويُنَزَّل

---

(١) هجرت: سارت في الهاجرة ـ والعجرفية: لفظ يطلق على الناقة التي لا تقصد في سيرها من نشاطها ـ والحرباء: دويبة أكبر من العظاءة شيئاً، ويتلون ألواناً بحر الشمس والأصيد: الذي لا يستطيع الالتفات.

(٢) الرمث: شجر بشبه الغضن لا يطول ولكنه ينبسط ورقه، وله هدب طوال دقاق، وله خشب وحطب، وينتفع بدخانه من الزكام.

(٣) المسبطر: السريع؛ واسبطرت: إذا أسرعت.

(٤) القرامطة: مقاربة الخطو.

(٥) البختي: واحد البخت، وهي الإبل الخراسانية.

بمنزلة العتيق من الخيل. والعِرَابِيُّ كالبِرْذونَ. والبُخْتِيُّ كالبغل. ويقال: البُخْتُ ضأنُ الإبلِ. وهي متولِّدةٌ عن فساد منيّ العِراب. وحكى الجاحظُ أنّ منهم من يزعمُ أنّ في الإبلِ ما هو وَحْشِيٌّ وأنها تسكن أرضَ وَبَارٍ[1]، وهي غير مسكونة بالناس. وقالوا: ربما نَدّ الجملُ منها في الهِياجِ[2] فيحمِلُه ما يَعْرِض له منه على أن يأتي أرض عُمانَ، فَيَضْرِبَ في أدنى هَجْمةٍ[3] من الإبل، فالإبل المَهْرِيّةُ من ذلك النّتاج. وتُسمّى الإبلُ الوحشيّةُ «الحُوشَ»، ويقولون: إنها بقايا إبلِ عادٍ وثمود ومَنْ أهلكَه اللّهُ من العرب. والمَهْرِيّةُ منسوبة إلى مَهْرَة (قبيلة باليمن)، وهي سريعة العَدْو، ويعلِفونها من قَديد سمكٍ يُصاد من بحر عُمَان.

وأمّا البُخْتُ ـ فمنها ما يُرَهْوِكُ[4] مثلَ البَراذِين، ومنها ما يَجْمِزُ[5] جَمْزاً ويُرْقِلُ[6] إرْقالاً. وفي البُخت ما له سَنامانِ في طول ظهره كالسَّرْج، ولبعضها سَنامان في العَرْض عن اليمين وعن الشمال، وتسمَّى «الخُراسانيةَ».

قالوا: والجملُ لا يَنْزو إلاّ مرّةً واحدةً يُقيم فيها النهار أجمع ويُنْزِل فيها مِراراً كثيرة، فيجيء منها ولدٌ واحدٌ. وهو يخلو في البراري حالةَ النَّزْو، ولا يدنو منه أحدٌ من الناس إلا راعِيه المُلازِم له. وذَكَرهُ صُلْبٌ جدّاً؛ لأنه من عَصَبٍ. والأنثى تحمل سنة كاملة؛ وتَلْقَح لِمُضِيّ ثلاثِ سنين، وكذلك الذكر يَنْزو في هذه المدّة، ولا ينزو عليها إلا بعد سنةٍ من يوم وضْعها. وفيه من كرم الطِّباع أنه لا ينزو على أمّهاته ولا أخواته. ومتى حُمِل على أن يَفعل حقَد على من أَلزَمه؛ وربما قتله. وليس في الحيوان من يحقِد حِقدَه. وقد قالوا: إنّ العرب إنما اكتسبت الأحقادَ لأكلها لحوم الجمال ومداومتها.

وفي طبع الجمل الاهتِداءُ بالنَّجم، ومعرفةُ الطُّرُقِ، والغَيْرَةُ، والصولةُ، والصبرُ على الحِمْل الثقيل وعلى العطش. والإبلُ تَميل إلى شُرب المياه الكَدِرة الغليظةِ؛ وهي إذا وردت ماءَ الأنهار حرّكته بأرجُلِها حتى يتكدّر. وهي من عشّاق الشمس. وهي تتعرّف النباتَ المسمومَ بالشّمّ من مرّة واحدةٍ فتتجنّبه عند رَعْيه ولا تَغْلَط إلا في اليَبِيس[7] خاصّةً. وزعم أرسطو: أنها تعِيش ثلاثين سنة في الغالب. وقال صاحبُ

---

(١) وبار: أرض ما بين الشحر إلى صنعاء.

(٢) يقال: هاج الفحل: إذا هدر وأراد الضراب.

(٣) الهجمة من الإبل: أولها أربعون ما زادت.

(٤) الرهوكة: مشي الذي كأنه يموج في مشيته.

(٥) يحجز: يعدو ويسرع.

(٦) يرقل: يسرع.

(٧) اليبيس: ما يبس من العشب.

كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر ينقل عن غيره: وقد رُئي منها ما عاش مائة سنةٍ. وكان للعرب عوائدُ في إبلها أنها إذا أصاب إبلَهم العرّ[١] كَوَوُا السليمَ ليذهبَ العرُّ عن السقيم. وكانوا إذا كثُرت إبلهم فبلغتِ الألف فَقؤوا عين الفحل؛ فإذا زادت على الألف فقؤوا عينه الأخرى. وقد ذكرنا ذلك في أوابد العرب، وهو في الباب الثاني من الفن الثاني من هذا الكتاب في السفر الثالث من هذه النسخة. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ مَا ملكَهُ رسُولُ اللّهِ ﷺ مِنَ الإبلِ

كانت ناقةُ رسول الله ﷺ يقال لها: «القَصْواءُ». ذكر ابن سعد عن محمد بن عمر قال: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم التَّيْميّ عن أبيه قال: كانت القصواء من نَعَم بني الحَريش، ابتاعها أبو بكر رضي الله عنه وأخرى معها بثمانمائة درهم فأخذها رسول الله ﷺ بأربعمائة؛ فكانت عنده حتى نَفَقَتْ[٢]. وهي التي هاجر عليها ﷺ. وكانت حين قدِم المدينةِ رَبَاعيةً، وكان اسمها «القَصْواء» و«الجَدْعاء»، و«العَضْباء»، وكان في طَرَف أُذُنها جَدْع[٣]، وكانت لا تُسبَق كلما دُفِعَتْ في سِباق. فلما كان في سنة ستٍّ من الهجرة سابقَ رسولُ الله ﷺ بين الرّواحل، فسبق قَعُودٌ لأعرابيّ «القَصْواءَ»، ولم تكن تُسْبَق قبلها؛ فشَقّ ذلك على المسلمين؛ فقال رسول الله ﷺ: «حقٌّ على الله ألاّ يرفعَ شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه». وعن قُدامة بن عبد الله قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في حِجّته يرمي على ناقةَ صَهْباء. وعن سَلَمة بن نُبَيْط عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ في حِجَّته بعرفةَ على جمل أحمرَ. وذكر أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثَّعْلبيّ في تفسيره: أنّ النبيّ ﷺ بعث يوم الحدَيْبيَةِ خِرَاشُ بنُ أُمَيَّة الخُزَاعِيّ قَبْل عثمانَ إلى قريش بمكة، وحمَله على جمل له يقال له «الثَّعْلَب»؛ ليبلِّغ أشرافَهم عنه ما جاء له؛ فعَقَروا جملَ رسول الله ﷺ وأرادوا قتلَه؛ فمنعته الأَحَابيشُ[٤]، فخَلَّوْا سبيلَه. وكان للنبيّ ﷺ عشرون لَقْحَة[٥] بالغابة (وهي على بَريد من المدينة من طريق الشام) وكان فيها أبو ذَرٍّ وكان فيها لقائحُ غُزْرٌ[٦]: «الحَنَّاء» و«السَّمْراءُ» و«العُرَيِّس» و«السَّعْدِيّةُ» و«البَغُوم» و«اليُسَيْرَةُ» و«الرَّيَّا». وكان رسول الله ﷺ فرّقها على نسائه؛ فكانت «السَّمْراء» لقحةَ

(١) العر: الجرب.
(٢) نفقت: هلكت.
(٣) الجدع: القطع البائن في الأنف أو الأذن أو الشفة أو اليد.
(٤) الأحابيش: هم بنو الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة.
(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٦) الغزر: وهي الكثيرة الدر من الإبل وغيرها من ذوات اللبن.

غزيرة لعائشة؛ وكانت العُرَيْس لأمّ «سَلَمَة»؛ فأغار عليها عُيَيْنَةُ بنُ حِصْن في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا ابنَ أبي ذَرّ، ثم ركِب رسولُ الله ﷺ وأصحابُه حتى انتهَوْا إلى ذي قَرَد[١] فاستنقذوا منها عَشْراً وأفْلت القومُ بما بقي، وقيل: بل استنقذها كلَّها منهم سَلَمَةُ بن الأكْوَع[٢] حين يقول: ما خلَق اللّهُ شيئاً من ظَهْر[٣] النبيّ ﷺ إلا خلّفتُه وراء ظهري، واستنقذتُه منهم؛ وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ستّ.

وكانت لِقاحُه ﷺ، التي كان يرعاها يَسارٌ مولاه بذي الجَذْر ناحيةَ قُبَاءَ قريباً من عَيْر على ستة أميال من المدينة، خمسَ عَشْرَةَ لَقْحةً غِزَاراً استاقها العُرَنِيّون[٤] وقتلوا يَساراً وقطعوا يَدَه ورِجْله وغرزُوا الشوكَ في لسانه وعينيه حتى مات. فبعث رسولُ الله ﷺ في إثْرهم كُرْزَ بن جابر الفِهْريّ في عشرين فارساً؛ فأدركوهم وربطوهم وأرْدَفوهم على الخيل حتى قدِموا بهم المدينةَ، فقُطِّعت أيديهم وأرجلهم وسُمِلَت أعينُهم وصُلِبوا. وفيهم نَزل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية؛ وذلك في شوّال سنةَ ستّ. وفقَد النبيُّ ﷺ منها لِقْحةً تُدْعى «الحَنّاء»؛ فسأل عنها فقيل: نحروها.

وقيل: كانت لرسول الله ﷺ سبع لقائحَ تكون بذي الجَذْر؛ وتكون بالجَمّاء[٥]: لِقْحةٌ تدعى «مُهْرَة» وكان غزيرةً، أرسل بها سعدُ بن عُبادَةَ من نَعَم بني عُقَيل، ولِقْحة تدعى «بُرْدَة» تُحلَب كما تُحلَب لِقْحتان غزيرتان، أهداها له الضحّاك بن سُفْيان الكِلابيّ، «والشَّقْراء»، و«الرَّيّا» و«السَّمْراء» و«العُرَيْس» و«اليُسَيرة» و«الحَنّاء» يُحْلَبن ويُراح إليه بلبنهنّ كلَّ ليلة.

وفي غَزَاة بدر غَنِم رسول الله ﷺ جَمَلَ أبي جَهْل وكان مَهْرِيّاً يغزو عليه ويضرب في لِقاحه. ذكره الطبريّ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ أهدى عام الحُدَيْبية في هداياه جملاً[٦] لأبي جهل في رأسه بُرَةٌ[٧] من فضّة؛ ليغيظَ بذلك المشركين. ذكره ابن إسحاق.

---

(١) ذو قرد: ماء على ليلتين من المدينة، بينها وبين خيبر.
(٢) هو سلمة بن عمرو، والأكوع لقب جده واسمه سنان.
(٣) الظهر: الإبل والغنم.
(٤) العرنيون: قوم ارتدوا، ينسبون إلى عرنية، قبيلة من العرب في بجيلة.
(٥) الجماء: اسم لمواضع كثيرة بجوار المدينة.
(٦) الهدايا: يراد بها ما يقدم إلى البيت الحرام من النعم لتنحر.
(٧) البرة: حلقة تكون في أنف البعير.

وقيل: كانت للنبي ﷺ لِقْحة اسمها «مَرْوَة».

وقال ٱبن الكلبيّ: إن عِيَاض بن حَمّاد أهدى لرسول الله ﷺ نَجيبة، وكان صديقاً له إذا قدِم عليه مكةَ لا يطوف إلا في ثيابه، فقال: له: «أَسْلَمْتَ»؟ قال: لا؛ قال: «إن الله نهاني عن زَبْد[1] المشركين». فأسلم؛ فقبِلها.

ذكرُ شيءٍ ممّا وُصِفَتْ بِهِ الإبلُ نَظْماً ونَثْراً

قال بعض من عظّم شأنَ الإبل: إن الله تعالى لم يخلق نَعَماً خيراً من الإبل؛ إن حَملت أَثْقَلَتْ، وإن سارت أَبْعَدَتْ، وإن حُلِبت أرْوَتْ، وإن نُحِرَتْ أشبعتْ. وقال بَشَامَةُ[2] يصف ناقةً:

كأن يديها إذا أرْقَلَتْ ... وقد حرْنَ ثم ٱهتَدَيْنَ السَّبيلا[3]
يَدا سابحٍ خَرّ في غَمْرةٍ ... وقد شارَف الموت إلا قليلا
إذا أقبلتْ قلتَ مشحونةٌ ... أطاعت لها الرّيحُ قِلْعاً جَفُولا
وإنْ أدبَرتْ قلتَ مذعورةٌ ... من الرُّبْد تَتْبَعُ هَيْقاً ذَمُولا[4]

وقال أبو تَمّام:

وبدّلها السُّرَى بالجهلِ حِلْماً ... وقَدّ أديمَها قدَّ الأديم
بدَتْ كالبدر في ليلٍ بهيمٍ ... وآبَتْ مثلَ عُرْجُونٍ قديم[5]

وقال الخَطِيمُ الخَزْرَجِيُّ:

وقد ضَمُرتْ حتى كأن وَضِينَها ... وِشاحُ عَروسٍ جالَ منها على خَصْرِ[6]

وقال ٱبن دُرَيْد:

خُوصٌ كأشباح الحَنَايا ضُمَّرٌ ... يَرْعُفْنَ بالأَمْشَاجِ من جَذْبِ البُرَى[7]

---

(١) الزبد: أي الرفد والعطاء.
(٢) هو بشامة بن القدير.
(٣) ارقل في سيره: أسرع.
(٤) الربد: النعام ـ والهيق: الظليم، وهو ذكر النعام ـ والذمول: السريع.
(٥) العرجون: أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ.
(٦) الوضين: بطان عريض منسوج من شعر، وهو بمنزلة الحزام للسرج.
(٧) الخوصاء: التي غارت عيناها ـ والحنايا: جمع حنية، وهي القوس ـ ويرعفن: أي ينبعث الدم من الأنف ـ والأمشاج: ما يسيل من أنوفها من المخاط المتغير اللون ـ والبرى: جمع برة، وهي حلقة تكون في أنف البعير.

يَرْسُبْن في بحر الدُّجَى، وفي الضُّحَى   يَطْفونَ في الآلِ إذا الآلُ طفا[١]

وقال عبد الجبّار بن حَمْدِيس[٢]: [من المتقارب]

ومِن سُفُنِ البَرِّ سَبّاحةٌ   من الآل بحراً إذا ما اعترضْ
لها شِرَّةٌ لا تُبالي بها   أطالَ بها سَبْسَبٌ أم عَرُضْ[٣]
إذا خفَق البُرْدُ بي خِلْتَني   على كُورِها طائراً يَنْتفِضْ
وإن يَعْرِضِ البعضُ من سَيرِها   تَرى العِيسَ من خلفها تَنْقَرِضْ
هي القوسُ إنّي لَسَهْمٌ لها   أُصِيبُ بكل فلاة غَرَضْ

وقال الشريف البَياضِيّ[٤]: [من مجزوء الكامل]

نُوقٌ تَراها كالسَّفِيـ   ـن إذا رأيتَ الآلَ بَحْرا
كَتَبَ الوَجَا بدمائها   في مُهْرِق البَيْداء سَطْرا[٥]
لا تَستَكِينُ من اللُّغو   ب إذاً ولا يَعْرِفْن زَجْرا[٦]
وكأن أرْجُلَهن تطـ   ـلب عند أيديهنّ وِتْرا

وقال أبو عُبَادة البُحْتريّ: [من الخفيف]

وخَدانَ القِلَاصِ حُولاً إذا قا   بَلْنَ حُولاً من أَنْجُمِ الأَسْحارِ[٧]
يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّراب وقد خُضْـ   ـنَ غِماراً من السَّراب الجَارِي
كالقِسِيّ المُعَطَّفَات بل الأسْـ   ـهُمِ مَبْرِيَّةً بل الأوتارِ

وقال ذو الرُّمَّة[٨] يصف ناقةً:

---

(١) الآل: السراب.
(٢) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي، السرقوسي، (أبو محمد).. كانت وفاته سنة ٥٣٧ هجرية. (معجم المؤلفين ٥: ٧٩).
(٣) السبسب: القفر والمفازة.
(٤) هو مسعود بن عبد العزيز بن المحسن الهاشمي، العباسي (أبو جعفر) شاعر. توفي في بغداد سنة ٤٦٨ هجرية... من آثاره ديوان شعر صغير. (معجم المؤلفين ١٢: ٢٢٧).
(٥) الوجا: هو أن يشتكي البعير باطن خفه ـ والمهرق: الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٦) اللغوب: الضعيف الأحمق.
(٧) وخد البغير: أسرع ووسع الخطو.
(٨) هو غيلان بن عقبة بن بهيش ويكنى أبا الحارث وهو من بني صعب بن ملكان بن عدي بن عبد مناة... (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٦٥).

رَجيعةُ أسفارٍ كأن زِمامَها شُجاعٌ على يُسرى الذِّراعين مُطْرِقُ[١]

ومنه أخذ المتنبي فقال:

* كأنّ على الأعناق منها الأفاعِيَا *

وقال أبو نُوَاس يصفها بالسرعة:

وتَجَشَّمتْ بي هولَ كل تَّنُوفَةٍ هوجاءُ فيها جُرْأَةَ إقْدامُ[٢]

تَذَرُ المَطِيّ وراءَها وكأنها صفٌّ تَقَدَّمُهُنَّ وهي إمامُ

وقال الفرزدقُ منشداً:

تَنْفي يَدَاها الحَصَى في كلّ هاجرة نَفْيَ الدَّراهيم تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ[٣]

وقال آخر:

تطيرُ مَنَاسِمُها بالحَصَى كما نَقَد الدرهمَ الصَّيْرَفُ

وقال الغَطَمَّشُ[٤]:

كأن يَدَيْهَا حين جَدّ نَجاؤها يَدا سابح في غَمرة يَتَبوّعُ[٥]

وقال آخر في نُوقٍ:

خُوصٌ نَواجٍ إذا حثّ الحُداةُ بها حَسِبتَ أرْجُلَها قُدّامَ أيدِيها

وقال القَطاميُّ[٦]:

يَمْشِين رَهْواً فلا الأعجازُ خاذلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[٧]

فهنّ مُعْتَرِضَاتٌ والحصى رَمِضٌ والرّيحُ ساكِنةٌ والظِّلّ مُعْتَدِلُ[٨]

وقال أبو نُوَاس:

ولقد تَجوب بيَ الفلاةَ إذا صام النهارُ وقالَتِ العُفْرُ[٩]

---

(١) رجيعة أسفار: معاودة أسفار.

(٢) التنوفة: الأرض القفر، وقيل: البعيدة الماء.

(٣) الصياريف: الصيارفة، وقد جيء بهذا الجمع للضرورة الشعرية.

(٤) هو الغطمش بن عمرو بن عطية من بني شقرة بن كعب بن ثعلبة بن سعد بن ضبة.

(٥) يتبوّع: يمد باعه.

(٦) هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه.

(٧) الرهو: السير السهل المستقيم.

(٨) الاعتراض: الأرن والنشاط ـ والرمض: حر الحجارة من شدة حر الشمس.

(٩) صام النهار: اعتدل وقام قائم الظهيرة، وقالت: سكنت ـ والعفر من الظباء: ما يعلو بياضها حمرة.

شَـدَنِـيّـةٌ رَعَـتِ الـحِـمـى فـأتَـتْ مـثـلَ الـجـبـال كـأنـهـا قـصـرُ[١]

وقال الأحمر:

حمراءُ من نَسل المهارِيِّ نَسْلُها إذا تـرامَـت يَـدُهـا ورجـلُـهـا

حسبتَها غَيْرَى أستُفِزّ عقلُها أتى التي كانت تخاف بعلَها

ذكرُ ما قيلَ في البَقَرِ الأَهْليّةِ

عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «بينا رجل يسوق بقرةً إذ ركِبها فضربَها فقالت: إنّا لم نخلق لهذا إنما خُلِقْنا للحرث»؛ فقال الناس: سبحان الله بقرةٌ تَكَلَّم! قال: «فإني أُومِن بهذا أنا وأبو بكر وعمر»، وما هما ثَمّ[٢].

وقال أصحابُ الكلام في طبائع الحيوان: إنّ الفحل من البقر ينزو إذا تمّت له سنةٌ من عمره، وقد ينزو لعشرة أشهرٍ. والبقرة إذا ولَدت تَحَدَّر لبنُها من يومها، ولا يوجد لها لبنٌ قبل أن تضع. وهي تحمل تسعةَ أشهر وتَضَعُ في العاشر؛ فإن وضعت قبل ذلك لا يعيش ولدها. وربما وضعت اثنين، وهو نادر. وهم يتشاءمون بها إذا وضعت اثنين. وإذا مات ولدها أو ذُبح لا يَسكُن خُوارُها ولا يدرّ لبنُها؛ ولذلك الرِّعاءُ يسلخون جلدَ ولَدِها ويحشونه لتدِرّ له وتسكُنَ، ويسمونه «البَوّ». والبقرُ يحبّ الماء الصافيَ، بضدّ الخيل والجمال. وقال المسعوديّ في كتابه المترجم بمروج الذهب: رأيت بالرّيّ نوعاً من البقر تَبْرُك كما تبرُك الإبلُ وتحمل فتثور بحملها، والغالب عليها حمرةُ الحَدَقِ. وحكى أُسَامةُ بن مُنْقِذ[٣] في كتابه أن في بعض البلدان بقراً لها أعرافٌ كالخيل. ولعلّها الأبقار التي توجد فيها البَراجِم. والبَراجم في أطراف أذنابها وفي أكتافها. ويقال: إنّ أبقار البراجم تخرج من بحر الصّين وهي تَلد وتُرْضِع؛ ولذلك يقال البراجم البحريّة. وبأرض مصر بناحيتي دمْياط وتنّيس[٤] بقر تُسمى بقر الخَيس، ضخامٌ حسانُ الصُّوَر والشِّيات، ولها قرون كالأَهِلَّة، وفيها نفورٌ وتوحّشٌ، لا ينتفع بها في العمل وإنما يُنتفع بألبانها. وهي لا تُعْلَف الحَبَّ، ومأواها حيث يكون العُشْبُ والماءُ الدائمُ؛ ولها أسماء يدعونها بها إذا أرادوا حَلْبها، فتتقدّم إليهم.

وقد وصف الشعراءُ البقرَ في أشعارها؛ فمن ذلك قولُ أحمد بن عَلّوية

---

(١) الشدنية: نوق تنسب إلى شدن، وشدن: موضع باليمن.

(٢) المراد بقوله: وما همائم، أي: أنهما لم يكونا حاضرين هناك.

(٣) هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، كان من مشهوري الكتاب والشعراء.. وكان وفاته سنة ٥٨٤ هجرية في دمشق.

(٤) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط.. (معجم البلدان).

الأَصْبَهانِيّ[١]: [من المنسرح]

يـا حـبَّـذا مَـحْـضُـهـا ورائِـبُـهـا وحبّذا في الرّجال صاحِبُها[٢]
عـجُّـوْلـةٌ سَـمْـحـةٌ مـبـارَكـةٌ ميمونةٌ طُفَّحٌ محالِبُها[٣]
تُقبِل للحَلْب كلما دُعِيَتْ ورامَها للحِلاب حالِبُها
فـتـيّـةٌ سِـنُّـهـا، مـهـذَّبـةٌ مُعَنَّفٌ في النَّدِي عائِبُها
كـأنـهـا لُـعْـبَـةٌ مُـزَيَّـنـةٌ يَطِير عُجْباً بها مُلاعِبُها
كـأنّ ألـبـانَـهـا جَـنَـى عَـسَـلِ يَلَذُّها في الإناء شارِبُها
عَـرُوس بـاقُـورةٍ إذا بَـرَزَتْ من بين أحبالها ترائِبُها[٤]
كـأنـهـا هَـضْـبَـةٌ إذا انـتـسـبـت أو بَكْرةٌ قد أناف غارِبُها[٥]
تُـزْهَـى بـرَوْقَـيْـن كـالـلُّـجَـيْـن إذا مسَّهما بالبنان طالِبُها
لـو أنـهـا مُـهْـرَةٌ لـمـا عَـدِمـت من أن يَضُمّ السرورَ راكِبُها

وأنشدني شمس الدين بن دانيال[٦] لنفسه: [من المجتث]

لـلّـهِ عِـجْـلـةُ خَـيْـسٍ صفراءُ ذاتُ دِلال
تُـريـك عَـيْـنَـي مَـهـاةٍ من تحت قَرْنَيْ غزال
قـد سُـرْبِـلَـتْ بـأصـيـلٍ وتُوِّجت بهلال

وقال شاعر يصف صوت الحَلْب: [من الرجز]

كـأنّ صـوت شَـخْـبِـهـا الـمُـرْفَـضِّ كَشِيشُ أَفْعَى أَجْمَعتْ لعَضِّ[٧]
* وهي تَحُكّ بعضَها ببعض *

وقال:

كـأنّ صـوت شَـخْـبِـهـا غُـدَيَّـه هفيفُ ريح أو كَشيشُ حيّه

---

(١) كان من شعراء أصبهان في القرن الثالث للهجرة، وكان يقول الشعر الجيد..
(٢) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة.
(٣) العجولة: أنثى العجول، وهو ولد البقرة.
(٤) الباقورة: جماعة البقر.
(٥) أناف: ارتفع وأشرف.
(٦) هو محمد بن دانيال بن يوسف الموصلي (شمس الدين، أبو عبد الله)، حكيم، كحال، أديب، شاعر ولد بالموصل وأقام بالقاهرة. كانت وفاته سنة ٧١٠ هجرية. (معجم المؤلفين ٩: ٢٩٥).
(٧) الشخب: ما يخرج من الضرع من اللبن إذا احتلب ـ واللشيش: صوت جلد الأفعى.

ذكر ما قيل في الجاموس

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

والجواميسُ هي ضأنُ البقرِ. والجاموسُ أجزعُ الحيوان من البعوض وأشدُّها هَرباً منه إلى الماء؛ وهو يمشي إلى الأسد رَخِيَّ البال، رابطَ الجأش، ثابتَ الجنَان. وقد حُكي عن المعتصم بالله العباسيّ أنه أبرز للأسد جاموستيْن فَغَلَبتاه، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولدُها فغَلَبتْه وحَمتْ ولدَها، ثم أبرز له جاموساً مفرداً فواثبه ثم أدبر عنه. هذا على ما في الأسد من القوّة في فمه وكَفِّه والجرأةِ العظيمة والوَثْبة وشدّة البطش والصبرِ والحُضْرِ والطَّلَب والهَرَب؛ وليس ذلك في الجاموس، ولا يَستطيل بغير قرنه، وليس في قرنه حِدّةُ قرنِ بقرِ الوحش؛ فإذا قوِي الجاموسُ مع ذلك حتى يقاوم الأسدَ دَلّ على قوّة عظيمة. ولذلك قدَّم الجاحظُ الجاموسَ على الأسد، وعلَّل تقديمَه عليه بهذه العِلّة. وليس ما حُكِي عن المعتصم في أمر الجاموس وغَلَبته للأسد بعجيب؛ فإنّ الجواميس بالأَغْوَار تُقاتِلُ الأسدَ وتُمانِعه وتَدْفَعُه فلا يقدِر على قهرها. وأصحابُ الجواميس هناك منهم مَنْ يُغلّف قُرونَها بالنُّحاس ويحُدِّدون أطرافَه، يقصدون بذلك إعانَته على حرب الأسد وقتالِه.

والجاموسُ عندنا بالديار المصرية يقاتل التِّمساحَ الذي هو أسد البَحر ويتمكّن منه ويَقْهَره في الماء؛ فهو قد جمع بين قِتال أسد البَرّ وأسد البحر. وله قُدرةٌ عظيمة على طول المُكث في قعر البحر. والتماسيحُ لا تَكاد تأوِي مواردَ الجواميس من بحر النيل وتَتجنّبُ أماكنَها.

والجواميسُ في أرض الشأم من الأغوار والسواحل والأماكن الحارّة الكثيرة المياهُ يُنْتَفع بها في الحرث والحُمُولة وجَرِّ العَجَل وحَلْب ألبانها. وأمّا في الدّيار المصرية فلا يستعملونها ألبَتّةَ ولا يَنتفعون بها إلا بما يَتَحَصَّل من ألبانها ونِتاجها.

وفُحولُ الجواميس يكون بينها قتالٌ شديدٌ ومحاربةٌ، فأيُّما فحلٍ غُلب وقهَره خَصْمُه، لا يأوِي ذلك المُراحَ، بل ينفرد بنفسه في الجزائر الكثيرة العُشْب شهوراً وهو يأكل من تلك الأعشاب ويشرب من ماء النيل، وينفرد خصمُه بالإناث؛ فإذا علم الهاربُ من نفسه القوّةَ والجَلَدَ، رجع إلى المُراح وقد توحّش وٱستطال، ويكون خَصمُه قد ضَعُفَتْ قواه فلا يقوم بمحاربته؛ ولكنه لا يُوَلِّي عنه إلا بعد محاربته، فإذا قَهَره ترك الآخرُ المُراحَ وتوجّه إلى جزيرة وفعَل كما فعل الأوّلُ وعاد إلى خَصْمه.

ولبنُ الجاموس من أَلَذّ الألبان وأَدْسَمِها. والرِّعاءُ يُسمُّون كلَّ جاموسة بٱسم تعرفه إذا دُعَيت به إلى الحَلْب، فتُجِيب وتأتيه وتقِف حتى يَحْلُبَها.

ذكرُ ما قيلَ في الغَنَم الضَّأْنِ والمَعَزْ

رُوِيَ عن أَنَس بن مالك وعَطَاء رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال: «الغَنَمُ بَرَكةٌ موضوعةٌ». وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِك أن يكون خيرُ مالِ المُسلم غنماً يتبع بها شَعَفَ[١] الجبال ومواقِعَ القَطْر يَفِرّ بدينه من الفِتَن». وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «رأسُ الكفر نحو المشرقِ والفخرُ والخُيَلاءُ في أهل الخيلِ والإبلِ والفَدَّادِين[٢] أهل الوبر والسكينةُ في أهل الغَنَم».

ومن فضل الغنم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أَنّ النبيّ ﷺ قال: «ما بعث اللّهُ نبياً إلا وَرَعَى الغَنَم». فقال له أصحابه: وأنت يا رسول اللّهِ؟ قال: «نعم كنت أرْعاها على قَرَارِيطَ لأهل مكة». وكان لرسول الله ﷺ من الغنم مائةُ شاةٍ لا يريد أن تزيدَ كلّما وَلّد الراعي بهمةً ذبح مكانها شاةً. وقال ابن الأثير في تاريخه: وكان له شاةٌ تُسمى «غَوْثَة»، وقيل: «غَيْثَة»، وعنزٌ تسمى «اليَمَن». وذكر بعض المتأخِّرين من أهل الحديث أنّ مكحولاً سُئل عن جِلد المَيْتة، فقال: كانت لرسول الله ﷺ شاة تسمى «قَمَر»؛ ففقَدَها فقال: «ما فعلتْ قمرُ»؟ فقالوا: ماتت يا رسول الله؛ قال: «ما فعلتم بإهابها»[٣]؟ قالوا: مَيْتَة؛ قال: «دِباغُها طُهُورُها».

قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي رحمه الله تعالى في كتاب فضل الخيل: وكانت منائح رسول الله ﷺ من الغنم سَبْعاً: «عَجْرَة» و«زَمْزَم» و«سُقْيا» و«بَرَكَة» و«وَرْشَة» و«أَطْلَال» و«أطرافَ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت لرسول الله ﷺ سبعُ أَعْنُز مَنائح ترعاهُنّ أُمُّ أَيمن. قال: والمَنِيحةُ: الناقةُ والشاةُ تُعطيها غيرَك فيحْلُبها ثم يردّها عليك. قال أبو عُبَيدٍ: للعرب أربعةُ أسماء تَضَعُها مواضعَ العاريةِ، وهي: المَنيحةُ، والعَرِيَّةُ، والإفقارُ[٤]، والإخْبَال[٥].

ذِكرُ ترتيبِ سِنّ الغَنَمُ

ولَدُ الشاةِ حين تَضَعُه ذكراً كان أو أنثى «سَخْلَةٌ» و«بَهْمَةٌ». فإذا فُصِل عن أمّه فهو

(١) شعف الجبال: رؤوسها.
(٢) الفدادون: أصحاب الوبر لغلظ أصواتهم وجفائهم؛ وأصحاب الوبر: هم أهل البادية.
(٣) الإهاب: الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ.
(٤) الإفقار: هو أن يعير الرجل بعيره غيره للحمل أو للركوب حتى إذا ما انتهى منه رده.
(٥) الإخبال: أن تعطي الرجل البعير أو الناقة ليركبها ويجتز وبرها ثم يردها.

«حَمَلٌ» و«خَرُوفٌ». فإذا أكل واْجتَرّ فهو «بَذَجٌ» و«فُرْفُورٌ». فإذا بلغ النَّزْوَ فهو «عُمْروسٌ»، وكلّ أولاد الضأن والمعز في السنة الثانية «جَذَعٌ»؛ وفي الثالثة «ثَنِيٌّ»؛ وفي الرابعة «رَبَاع»؛ وفي الخامسة «سَدِيسٌ»؛ وفي السادسة «سالِغٌ». وليس له بعد هذا اْسم. ويقال لولد المعز: «جَفْر» ثم «عَرِيضٌ» و«عَتُود» و«عَنَاقٌ»، والغنم، الضأن والمَعَز، تضع حملَها في خمسة أشهر. وتلِد النعجةُ رأساً إلى ثلاثة، والعنز من الرأس إلى أربعة. وينزو الذكرُ بعد مضيّ ستة شهور من ميلاده. وتحمل الأنثى بعد مضيّ خمسة أشهر من يوم وُلِدَت. ويُجَزّ صوف الضأن عنها في كل سنة. ولحومُ الضأن من أطيب اللُّحمانِ؛ وكَذلك ألبانُها. وقد أطنب الجاحظُ في المفاخرة بين الضأن والمعز وأطال وأتى بالغثّ والسّمين.

وكتب أبو الخَطّاب الصابِي إلى الحسين بن صَبْرة جواباً عن رقعة أرسلها إليه في وصف حَمَلٍ أهداه إليه، جاء منها:

«وصلَتْ رقعتُك؛ ففضضتُها عن خَطٍّ مشرق، ولفظٍ مُؤنق؛ وعبارة مُصِيبة، ومعانٍ غريبة، واْتساع في البلاغة يَعجِزُ عنه عبد الحميد في كتابته، وسَحْبانُ في خَطابته. وذكرتَ فيها حَمَلا، جعلَته بصفتك جَمَلا؛ وكان كالمُعَيْديّ أسمع به ولا أراه. وحضر، فرأيتُ كبشاً مُتَقادِمَ المِيلاد، من نِتاج قوم عاد؛ قد أفنَتْه الدهور، وتعاقبت عليه العصور؛ فظننتُه أحَدَ الزوجينِ اللذين حملهما نوح في سفينته، وحِفظ بهما جنسَ الغنم لذريّته. صَغُرَ عن الكبر، ولَطُف في القدر، فبانَت دَمَامتُه، وتقاصرت قامتُه؛ وعاد نحيفاً ضئيلاً، بالياً هزيلاً؛ بادِيَ السَّقام، عارِيَ العِظام؛ جامعاً للمعايب، مُشتمِلاً على المثالب، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الروح فيه، لأنه عظم مُجَلّد، وصوفٌ مُلَبّد، لا تَجد فوق عظامه سَلَبا[1]، ولا تَلْقَى اليدُ منه إلا خَشَبَا؛ لو أُلْقِيَ للسَّبُع لأباه، أو طُرِح للذئب لعافه وقَلاه؛ وقد طال للكلأ فَقْدُه، وبَعدُ بالمرعى عَهْدُه؛ لم يَرَ القَتّ[2] إلا نائماً، ولا الشعيرَ إلا حالماً. وقد خيّرتني بين أن أقْتَنِيَه فيكون فيه غِنَى الدهر، أو أذبحَه فيكون فيه خِصْب الشَّهرِ؛ فمِلْتُ إلى اْستبقائه؛ لِمَا تعلَمه من محبّتي في التوفير، ورغبتي في التَّثْمِير؛ وجَمْعِي للولد، وادِّخاري لغَد؛ فلم أجد فيه مُسْتَمْتَعاً للبقاء، ولا مَدْفَعاً للفناء؛ لأنه ليس بأنثى فَيَحْمِل، ولا بِفَتِيٍّ فيَنْسُل، ولا بصحيحٍ فيَرْعَى، ولا بسليم فيَبْقى، فملتُ إلى الثاني من رأيك، وعملت بالآخر من قوليكَ؛ وقلتُ: أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأُقيمه رَطْباً مُقَامَ قديدِ الغزال؛ فأنشدني وقد أضرمت النار وحُدِّدتِ الشِّفار، وشمَّر الجزّار:

(١) السلب: ما على الرجل من اللباس، ويراد به هنا اللحم لأنه يكسو العظم ويستره.
(٢) القت: نبات رطب تعلفه الدواب.

أعِيذُها نظراتٍ منك صادقةً ... أن تَحْسَبَ الشَّحمَ فيمن شحمُه وَرَمُ

وما الفائدة لك في ذبحي! وإنما أنا كما قيل:

لم يَبْقَ إلاّ نَفَسٌ خافِتُ ... ومُقلةٌ إنسانُها باهِتُ[١]

ليس لي لحم يَصلح للأكل، فإنّ الدهرَ أكلَ لحمي؛ ولا جلْدٌ يصلحُ للدَّبْغ، فإن الأيام مزّقَتْ أديمي، ولا صوفٌ يصلُح للغَزْل، فإن الحوادثَ حَصَّت[٢] وبَري. وإن أردتني للوَقُود فكَفُّ بَعَر أذفأ من ناري، ولم تَفِ حرارةُ جَمْري برائحة قُتَاري[٣] ولم يَبْق إلاّ أنّ تُطالبني بذَحْل[٤] أو بيني وبينك دَم. فوجدْته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مشورته. ولم أعلم من أيِّ أموره أعْجَب: أمِن مُماطَلَته الدّهرَ على البقاء، أم من صبره على الضُّر والبلاء، أم مِن قُدْرتِك عليه مع عَوَزِ مثله، أم من أتحافك الصديقَ به على خَسَاسة قَدْره. ويا ليت شعري إذا كنتَ واليَ سوق الأغنام، وأمْرُك ينفُذُ في المَعَز والضأن؛ وكلُّ حَمَلٍ سمِين، وكَبْش بطين؛ مجلوبٌ إليك، وموقوفٌ عليك، تقول فيه فلا تُرَدّ، وتُريد فلا تُصَدّ؛ وكانت هديّتُك هذا الذي كأنه انْشر من القبور، أو أُقيم عند النَّفخ في الصُّور؛ فما كنتَ مُهْدِياً لو أنك رجل من عُرْض الكُتَّاب، كأبي عليّ وأبي الخطّاب! ما تُهدي إلاّ كلباً أجرب، أو قرداً أحْدَب.

وقال شاعرٌ في هذا المعنى: [من الخفيف]

ليت شِعْري عن الخروفِ الهَزيلِ ... ألَكَ الذَّنْبُ فيه أم للوَكِيلِ

لم أجِدْ فيه غيرَ جِلْدٍ وعَظْمٍ ... وذُنَيْبٍ له دَقِيقٍ طويلِ

ما أراني أراه يَصلحُ إذ أصـ ... ـبَح رَسْماً على رسوم الطُّلولِ

لا لِشَيٍّ ولا لِطَبْخ ولا بيـ ... ـع ولا بِرِّ صاحب وخليلِ

أعجفٌ لو مُطَفِّلٌ نال منه ... لغدا تائباً عن التَّطْفِيلِ[٥]

وقال شرفُ الدّين بن عَيْن وقد أهدى له بعضُ أصدقائه خروفاً بعد ما مَطَلَه به: [من الطويل]

أتاني خروفٌ ما شكَكت أنّه ... حليفُ جَوًى قد شَفَّه الهجرُ والمَطْلُ

(١) إنسان العين: ناظرها.
(٢) حصت وبري: حلقته وأذهبته.
(٣) القتار: الدخان من المطبوخ.
(٤) الذحل: الثأر.
(٥) الأعجف: المهزول ـ والتطفيل: التطفّل.

إذا قام في شمس الظهيرةِ خلتَه   خيالاً سَرَى في ظُلْمَةٍ ما له ظلُّ
فَناشدته: ما تَشتهي؟ قال: قَتَّةً   وقاسمتُه: ما شفُّه؟ قال لي: الأكْلُ[(١)]
فأحضرتُها خَضْراء مَجَّاجَةَ الثرى   مُنَعَّمةً ما خَصّ أطرافَها فَتْلُ
وظَلّ يُراعيها بعينٍ ضعيفةٍ   ويُنْشدها والدّمعُ في الخَدّ مُنْهَلُّ
«أتَت وحِياضُ الموت بيني وبينها   وجادت بوصلٍ حين لا ينفع الوصلُ»

وقال الحمْدونيّ في المِعْزَى: [من البسيط]

أبا سعيدٍ لنا في شَاتِك العِبَر   جاءت وما إن بها بَوْلٌ ولا بَعَرُ
وكيف تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مَكَثتْ   طَعامُها الأبيضان: الشمسُ والقمرُ
لو أنّها أبصرتْ في نومها عَلَفاً   غنّت له ودموعُ العين تَنْحدِرُ
«يا مانعي لذَّةَ الدنيا بما رَحُبَتْ   إني ليُقْنِعُني من وجهك النظرُ»

وقال أيضاً:

ما أُرَى إنْ ذبحتُ شاةَ سعيدٍ   حاصِلاً في يَدَيّ غيرُ الإهاب
ليس إلاّ عظامها، لو تَراها   قلتَ هذي أرازِنٌ في جِراب[(٢)]

وقال فيها: [من مجزوء الخفيف]

لِسَعيدٍ شُوَيْهَةٌ   سَلَّها الضُّرُّ والعَجَفْ
قد تغنّتْ وأبصرتْ   رجلاً حامِلاً عَلَفْ
بأبي مَنْ بكفّه   بُرْءُ دائي من الدَّنَفْ[(٣)]
فأتاها مُطَمِّعاً   فأتتْهُ لتَعْتَلِفْ
فتولّى وأقبلتْ   تَتَغَنَّى من الأسَفْ
ليتَه لم يكن وقَفْ   عذّب القلبَ وانصرفْ

---

(١) قاسمته: أحلفته.
(٢) الأرزان: شجر صلب تتخذ منه عصي صلبة.
(٣) الدنف: المريض الذي لزمه المرض الشديد.

القسمُ الرابعُ

منَ الفَنِّ الثَالِثِ
في ذواتِ السّمُومِ

وفِيه بابانِ

البَابُ الأوّلُ

من هذا القسم في ذوات السموم القَوَاتل. ويَشتمل هذا البابُ على ما قيل في الحيّات والعقارِبِ.

ذكرُ ما قيلَ في الحَيّاتِ

الحيّاتُ مختلفاتُ الجهاتِ جِدّاً. وهي من الأمم التي يكثُر ٱختلافُ أجناسها في الصُورِ والشِّيَم، والصِّغَرِ والعظَم، وفي التعرّض للناس وفي الهرب منهم. فمنها ما لا يُؤذي إلا أن تَطَأَهَا. ومنها ما يؤذي إذا وُطِئَتْ في حِماها. ومنها ما لا يؤذي في تلك الحال إلا أن تكون على بَيْضها أو فراخِها. ومنها ما لا يؤذي إلاّ أن يكون الناسُ قد آذَوْها مرّة. فأمّا «الأسودُ» فإنه يَحقِدُ ويُطالِب ويَكمُن في المتاع حتى يُدركَ؛ وله زمانٌ يقتلُ فيه كلَّ شيء نَهَشه. وأما «الأفعى» فليس ذلك عندها، ولكنها تظهر في الصيف مع أوائل الليل إذا سكنَ وَهَجُ الرّمل أو ظاهرُ الأرض، فتأتي قارعةَ الطريق حتى تَستديرَ كالرَّحى[1] وتُشْخِصَ رأسَها؛ فمَنْ وَطِىء عليها أو مسَّها نَهَشَتْه. وهي من الحيّات التي تَرصُد؛ وهي تقتُل في كل زمان وعلى كل حال. و«الشُّجاع» يُواثِب ويقوم على ذَنَبه. والحيّاتُ أصنافٌ كثيرة سنذكر ما أمكن ذكره منها إن شاء الله.

والعرب تضرب المثلَ في الظلم بالحيّة فيقولون: «أَظْلَمُ من حَيَّةٍ»، لأنها لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكل بيت قَصدتْ نحوَه هرب أهلهُ منه وأخلَوْه لها.

---

(١) الرحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

والحيّةُ مشقوقةُ اللسان، ولسانُها أسودُ، وزعم بعض المفسرين لكتاب الله عز وجل أن الله تعالى عاقَب الحيّة، حين أدخلتْ إبليسَ في فمها حتى خاطب آدمَ وحواءَ وخدعهما، بعشرة أشياء: منها شَقُّ لسانها؛ فلذلك تَرى الحيَّةَ إذا ضُرِبَتْ لِتُقْتَلَ كيف تُخرِج لسانَها لتُرِيَ الضاربَ لها عقوبةَ الله تعالى، كأنها تَستَرحِمُ. ويقال: إن من خصائص الحَيّة أنّ عينها إذا قُلِعَتْ عادت، وكذلك نابُها إذا قُلِعَ أو قُطِع بالكاز[١] عاد بعد ثلاث ليالٍ؛ وكذلك ذنَبُها إذا قُطع عاد. وفي طباعها أنها تهرب من الرجل العُريان، وتَفرَح بالنار وتطلبُها وتُعجَب بها، وباللبن والبطيخ واللُّفّاح[٢] والخَرْدل. وهي لا تَضبِط نفسَها عن الشّراب إذا شمّته، وإذا وجدَتْهُ شربت منه حتى تسكَرَ؛ فربما كان السُّكر سببَ حتفها؛ لأنها إذا سَكِرتْ خَدِرتْ، وتَكرهُ ريحَ السَّذاب[٣] ولا تملِكُ نفسَها معه، وربما اُصْطِيدَتْ به؛ وتَكرهُ ريحَ الشِّيح[٤]. والحيّةُ تُذبَح حتى تُفْرَى أوداجُها فتبقى أياماً لا تموت. ومتى ضُربت بالقَصَب الفارسيّ ماتت، وإن ضُرِبت بسوط قد مسّه عَرَقُ الخيل ماتت. ويقال: إنها لا تموت حَتْفَ أنفها إلا أن تُقْتَل.

ومن أعجب ما شاهدتُه أنا من الأفاعي أنها قطِّعت بحضوري بالبِيمَارِستان[٥] المنصوري بالقاهرة المُعِزّيّة في شهور سنة ستٍّ وسبعمائةٍ بسبب عمل الدِّرْياق[٦] الفَاروق وقُطِع من رأسها وذنبها ما جرتِ العادةُ بقطعه، وسُلِختْ وشُقَّ بطنُها ونُظِّفَتْ وهي تختلج، ثم سُلِقَتْ وجُرّد لحمُها عن العظم، فنظرتُ إليه فإذا هو يختلج، فعَجِبتُ لذلك؛ وذكرته لرئيس الأطبّاء عَلَم الدِّين المعروف[٧] بابن أبي حُلَيْقَة وهو حاضر في المجلس، فقال: ليس هذا بأعجبَ مما تراه الآن، وقال لي: استَدْعِ أقراص الأفاعي التي عُمِلت من أكثرَ من سنة؛ فاستدعيتُها، فأحضرها الخازنُ وهي في العسل وقد دُقَّ

---

(١) الكاز: المقص (فارسي معرب).
(٢) اللفاح: خو المعروف في مصر بالشمام.
(٣) السذاب: وهو نوعان: بري وبستاني، فالبستاني يفرع فروعاً تطلع من ساق له قصيرة تتشعب عليه مثل الأغصان ويحمل أطراف أغصانه رؤوساً تتفتح عن ورد صغار الورق أصفر، وإذا انتشر سقط منه الحب، وأما البري فهو أصغر ورقاً.
(٤) الشيح: أنواعه كثيرة، أهمها النوع الأصفر وهو يحكي السذاب في ورقه وهو الأرمني وأحمر عريض الورق وهو التركي وكل طيب الرائحة إلى ثقل وحدة، لا يختص وجوده بزمن... (تذكرة داود الأنطاكي ص ٢٢٠).
(٥) البيمارسان: المستشفى.
(٦) الدرياق: أي الترياق.
(٧) هو علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي حليفة... كان بارعاً في الطب محفوظاً عند الملوك والأمراء.. كانت وفاته سنة ٧٠٨ هجرية.

لحم الأفاعي بعد سَلْقه وعُجِنَ بالسَّمِيذ وجُعل أقراصاً ووُضع في العسل من أكثر من سنة؛ فقال لي: تأمّل الأقراصَ، فتأملتُها فإذا هي تضطرب أضطراباً خفيفاً.

وقال الجاحظ: وزعم صاحب المَنْطِق أنّ الحيّات تَنسلخ عن جلودها في كل عام في أوّل الربيع أو الخريف؛ وتبتدىء بالسَّلْخ من عيونها ويتمّ سَلْخُها في يوم وليلة، ويصير داخلُ الجلد هو الخارج. وإذا هَرِمت وعَجَزت عن السلخ وأرتخى جسمُها أدجلت جسمَها بين عودين أو في صَدْعٍ ضيقٍ حتى تنسلخ، ثم تأتي إلى عين ماء فتنغمس فيها فيشتدّ لحمُها ويعود إلى قوّته وشدّته.

قال الجاحظ: وليس في الأرض مثل جسم الحيّة إلا والحيّة أقوى بدناً منه أضعافاً. ومن قوّتها أنها إذا أدخلتْ صدرَها في حُجْر أو صَدْع لم يستطع أقوى الناسِ وقد قبض على ذَنَبها بكلتا يديه أن يخرجها، لشدّة أعتمادِها وتعاون أجزائها؛ وربما أنقطعت في يد الجاذب لها. فإذا أراد أن يُخرجها أرسلها بعضَ إرسالٍ ثم يجذِبها كالمُخْتَطِف لها. قال: ومن أصناف الحيّات ما هو أزْعَر[١]، وما هو أزَبّ (ذو شعر) ومنها ذواتُ قرون. ومنها ما يسمى الأسود وهو ما إذا كان مع الأفاعي في جُونةٍ[٢] وجاع أبتلَعها من قِبَلِ رؤوسها، ومتى رام ذلك من غير جِهة الرأس عضّته فقتلته. ومن أصنافها ما يسمى «الأَصَلَة»، وهو ثعبان عظيم جدّاً، وله وجه كوجه الإنسان؛ ويقال: إنه يصير كذلك إذا مرّت عليه ألوف من السنين. وهو يقتل بالنظر وبالنفخ. ومنهم من يسمّي هذا النوعَ الصِّلّ، ويقول: إنّ أصل خِلْقته على هذه الصفة. قال: وفي البادية حيّة يقال لها «الحُفّاث» تأكل الفأرَ وأشباهَه. وهي عظيمةٌ، ولها وعيدٌ مُنْكَر ونفخٌ وإظهار للصولة، وليس وراء ذلك شيء؛ والجاهل ربما مات من الفزع منها.

قالوا: والثعبان والأفعى فإنه يقتل بما يُحدثه من الفزع؛ لأن الرجل إذا فَزِع تفتّحت مَسَامُه ومنافِسُه، فيتوغّل السمُّ في موضع الصميم[٣] وأعماق البدن. فإن نهشَت النائمَ والمُغْمَى عليه والمجنونَ والطفلَ الصغير لم تقتله ألبتّة. وزعم صاحبُ المنطق أنّ بالحبشة حيّاتٍ لها أجنحةٌ. وأخبرني المولى شرفُ الدين أحمد بن البَزْدِيّ قال: كنت بمدينة الرَّمْلة[٤] في شهور سنة أثنتين وسبعمائة صحبةَ الصاحب شرف الدين بن الخليل ومعه القاضي الحاكم وجماعةٌ كثيرة من الناس وفيهم عَدَوْلَى[٥] وغيرهم؛ فنظرنا نحو

(١) الأزعر: الذي ساء خلقه وقلّ خيره.
(٢) الجونة: سليلة مستديرة مغشاة أدماً.
(٣) الصميم: العظم الذي به قوام العضو.
(٤) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين.
(٥) العدوليّ: الملاح.

السماء فإذا نحن بحيّتين عظيمتين طائرتين في الهواء قاصدتين صوبَ البحر، كلّ منهما في غَلِظ الثنيانة[١]، وإن إحداهما مستقيمة في طيرانها والأخرى تَتَعوّج من قِبَل رأسها ووسَطِها وذَنَبها، وكانتا من الأرض بحيث لا يبلغهما السهم، قال: فسطّرنا بذلك محضراً على عدّة نسخ.

وحكى بعضُ المؤرّخين: أنه وُجِد في خزائن المستنصر بالله[٢] العُبَيْدي أحدِ خلفاء مصر بَيْضَةٌ محلاّةٌ بالذّهب ظنّوا أنها بيضةُ نعامة، فجعل الناس يتعجّبون من تَحْليتها بالذّهب؛ فذكروا ذلك للمُستكفي، فقال: إنها بيضةُ حيّة كان بعض الملوك أهداها لجَدّي القائم بأمر الله.

ومن كتاب نَشْوار المحاضرة قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن الورّاق قال: حدّثني عمي أبو الحسين: أن الحُصَيْنيّ حدّثه عن أبي العبّاس بن الفُرات قال: حدّثني أبي قال: قال لي جعفر الخَيّاط[٣]: أمرني المأمون ونحن بالروم أن أقْتَصّ[٤] الطريقَ لئلا يكون به جواسيس للعدوّ؛ فأخذتُ معي جماعةً من أصحابي فُرساناً ورَجّالةً وسلكتُ الطريقَ، فعَنّ لي شِعْب فقصدتُه لئلا يكون فيه كمينٌ من الجواسيس، وتقدّمني الرَّجالة فرأيتهم قد وقفوا؛ فأسرعت إليهم وسألتُهم عن خبرهم، فقالوا: انظر، فنظرتُ فإذا رجلٌ من الرجّالة قد قعد لقضاء حاجته، ومشى أصحابُه، فقصدتْه حيّةٌ من وراء ظهره فابتلعته من رجليه إلى صدره وهو يستغيث ويصيح، فلم يكن لنا فيه حيلةٌ وخفتُ أن آمُرَ الرجَالةَ برمي الحيّة بالنُّشّاب فيصيب الرجلَ فأكون أنا قتلتُه. فبسَط الرجلُ يديه وأنتهى بَلْعُ الحيّة إلى إبْطَيْه، فرأيتُها وقد أنضمّت على ما أبتلعته منه ضمّةً سمعنا تكسيرَ عظامه في جوفها، فمات وسقطت يداه فابتلعته حينئذٍ بأسْرِه. فقلت: الآن أَقْصِدوها بالنُّشّاب؛ فرشقْناها جميعاً فأثْبَتْناها في موضعها حتى قتلناها، فأمرتُ بشَق بطنها لأُعايِنَ جسمَ الرّجل، فلم نجد في بطنها من جِلْد ولا عَظْمٍ ولا غيرهما إلا شيئاً كالخيط الأسود، فإذا هي قد أحرقته في لحظةٍ واحدةٍ.

ويقال: إن بجزائر الصين حياتٍ تبتلع الإبلَ والبقرَ وشبهها.

قال الجاحظ: حدّثني أبو جعفر المكفوف النحويّ العَنْبريّ وأخوه رَوْح الكاتب

---

(١) الثنياية: يراد بها عقال البعير ونحوه من كل حبل مثنى.

(٢) هو أبو تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله... كانت وفاته سنة ٤٨٧ هجرية بعد أن بويع له بالخلافة وأقام فيها ستين سنة وأشهراً... (الوفيات ٢: ١٥١).

(٣) هو جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط، كان من كبار القواد في عصر المأمون وابنه المعتصم.. وكان مع الأفشين في حرب بابك الخرمي وأبلى معه بلاء حسناً.

(٤) الاقتصاص: تتبع الأثر.

ورجالٌ من بَني العنبر: أنّ عندهم في رمال بَلْعَنْبَر[١] حيّةً تصيد العصافيرَ وصغارَ الطير بأعجب حيلةٍ؛ وزعموا أنها إذا ٱنتصفَ النهارُ وٱشتدّ الحرُّ في رمال بَلْعَنْبَر وٱمتنعت الأرضُ على الحافي والمُنْتَعِل، غمست هذه الحيّةُ ذَنَبها في الأرض ثم ٱنتصبت كأنها عُودٌ مركوزٌ، أو عود نابت، فَيَجيء الطائرُ الصغيرُ والجرادةُ، فإذا رأى عوداً قائماً وكرِه الوقوع على الرّمل لشدّة حرّه وقع على رأس الحيّة على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قَبَضَتْ عليه. فإذا كان جرادةً أو جُعَلاً[٢] أو بعضَ ما لا يُشبعها ٱبتلعتْه وبقيتْ على ٱنتصابها؛ وإن كان طائراً يُشبِعُها أكلتْه وٱنصرفتْ؛ وإن ذلك دأبُها ما منع الرملُ جانبَه في الصيف والقيظ.

قال: وزعم لي رجالٌ من الصَّقَالبة خِصْيانٌ وفحولٌ أنّ الحيّةَ في بلادهم تأتي البقرة المُحَفَّلة[٣] فتَنْطوِي على فَخِذَيها وركبتيها إلى عَراقِيبها ثم تُشخِصُ صدرَها نحو أخلافِ ضَرْعها حتى تلتقمَ الخِلْفَ، فلا تستطيع البقرةُ مع قوّتها أن تترمرمَ[٤]؛ فلا تزال الحيّةُ تَمُصّ اللبَن، وكلما مصّت ٱسترخَتْ؛ فإذا كادت تَتْلَف أرساتها. وزعموا أنّ تلك البقرةَ إمّا أن تَتْلَف، وإما أن يُصيبها داءٌ في ضرعها وفسادٌ شديد يعسُر دواؤه.

وهذا الباب طويل؛ وقد أوردنا منه ما فيه غُنْيَةٌ. فلنذكر ما قيل في أصناف الحيّات وأوصافها.

ذِكرُ أسماء الحيّات وأوصافها ـ يقال: «الجانّ» و«الشيطان» هي الحيّة الخبيثة. و«الحَنَش»: ما يصاد من الحيّات. و«الحَيُوتُ»: الذكر منها. و«الحُفَّاثُ» و«الحِضْبُ»: الضخم منها. و«الأسود»: العظيم وفيه سواد؛ ويقال: الأسود هو الداهية؛ وله خُصْيتان كخُصْيتي الجَدْي، وشعر أسود وعُرفٌ طويل، وصُنانٌ كصُنَانِ[٥] التَّيْس، و«الشُّجاعُ»: أسود أملسُ يضرِب إلى البياض، خبيث؛ ويقال: إنه دقيق لطيف. و«الأُعَيْرِج»: حيّةٌ صَمَّاءُ لا تَقْبَلُ الرُّقَى وتَطْفِر كما تَطفِر الأفعى. ويقال: الأُعَيْرِجُ: حيّةٌ أُرَيْقِط[٦] نحوٌ من ذراع، وهو أخبثُ من الأسود. وقال ٱبن الأعرابيّ: الأعيرجُ أخبثُ الحيّات، يقفِز على الفارس حتى يصيرَ معه في سَرْجه. وقال الليث عن الخليل:

---

(١) بلعنبر: ويقال لهم بنو العنبر، وهم من تميم من العدنانية.
(٢) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية.
(٣) المحفلة: المثلثة الضرع التي تركت أياماً من غير حلب ليتجمع لبنها.
(٤) ترمرم: تتحرك.
(٥) الصنان: النتن، أو الريح الكريهة.
(٦) الأريقط: تصغير الأرقط، وهو ما كان لونه الرقطة من الحيوان، والرقطة: لون مؤلف من بياض وسواد، أو من حمرة وصفرة وغيرهما.

الأفعى التي لا تنفع معها رُقْيَةٌ ولا دِرْياقٌ، وهي دقيقة العنق عريضة الرأس. وقال غيره: هي التي إذا مشت مُنْثَنِيةً جَرَشَتْ[١] بعضَ أسنانها ببعض. وقال غيره: هي التي لها رأس عريضٌ ولها قَرْنَانِ. و«الأُفْعُوانُ»: الذكر من الأفاعي. و«العِرْبَدُّ» و«العِسْوَدُّ» حية تَنْفُخ ولا تُؤذي. و«الأَرْقَم»: الذي فيه سواد وبياض، و«الأرقش»، نحوه. و«ذو الطُّفْيَتَيْن»: الذي له خَطَّان أسودان. و«الأَبْتَرُ»: القصير الذنب. و«الخَشْخَاشُ»: الحية الخفيفة. و«الثعبان»: العظيم منها، وكذلك «الأَيْمُ» و«الأَيْنُ»، و«آبن قِتْرة»: حيَّة شبيهة بالقضيب من الفضّة في قَدْر الشِّبْر والفِتْرِ، وهي أخبثُ الحيّات، فإذا قَرُبَ من الإنسان تَراءَى في الهواء فوقَع عليه من أعلاه. و«آبنُ طَبَق»: حيَّةٌ صفراءُ، ومن طبعها أن تَنام ستةَ أيام ثم تنتبه في اليوم السابع. ولا تَنْفُخُ شيئاً إلا أهلكتْه قبل أن يتحرّك. وربما مرّ بها الرجلُ وهي نائمة فيأخذها كأنها سِوار من ذهب، فإن آستيقظت وهي في كفِّه خرّ ميتاً. ومن أمثال العرب «أصابته إحدى بنات طَبَق». قال الليث: «السِّفُّ»: الحيّةُ التي تطير في الهواء، وأنشد:

وحتى لَوَ أنَّ السِّفَّ ذا الريشِ عَضَّني لما ضرَّني من فِيه نابٌ ولا ثَغرُ[٢]

و«النَّضْنَاضُ»: الذي لا يسكن في مكان.

ومن أسمائها «القُزَة»، و«الهِلال» و«الرَّعَاصَةُ».

ذكرُ مَا في لحُوم الحيّاتِ مِنَ المَنافِع وَالأَدْوِيَةِ

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: والحيّة يُستعمَل مطبوخُها بالماء والملح والشِّبْث[٣]، وقد يُزاد عليها الزّيْت. قال: وأجودُ لحمه لحمُ الأُنثى؛ وأجودُ سِلْخِه سلخُ[٤] الذَّكَر. وطبع الحيّة إلى التجفيف في لحمها قويّ؛ وأما التسخين فليس بشديد؛ وسِلْخُه شديد التجفيف أيضاً. وخاصيّةُ لحمه أنه يُنْفِذ الفضولَ إلى الجِلْد، سيّما إذا كان الإنسانُ غيرَ نَقِيّ، قال: ولحمه إذا آستُعْمِل أطال العمرَ، وقوّى القوّة، وحفظ الحواس والشباب ـ أمّا قولُه: «أطال العمر» فيَرُدّ هذا القولَ ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فرغ ربُّك من أربَع خَلْقٍ وخُلُقٍ ورزقٍ وأجل». وأما ما عدا ذلك فغيرُ مردودٍ عليه ـ. قال وأكْلُه ينفع من الجُذَام نفعاً عظيماً، وإذا آستُعمل على داء الثعلب[٥] نفع نفعاً عظيماً. ولحمها ومرقُها بعد إسقاط طرفها

(١) جرجش الشيء: حكّه.
(٢) الثغر: السم.
(٣) الشبث: نوع من العناكب يسميه العامة أبو شبث.
(٤) السلخ: الجلد.
(٥) داء الثعلب: علة معروفة يتناثر منها الشعر. وسمي داء الثعلب لأن الثعلب يتساقط شعره كل سنة. (تذكرة دواد الأنطاكي).

يمنع تزيُّدَ الخنازير(١)، وكذلك سِلخها. ومرقتها إذا تُحُسِّيت وأُكِل لحمها نفع من أوجاع العصب، وكذلك سِلخها. قال: وسِلخُها إذا طُبِخ في شراب وقُطِّر منه في الأُذُن سكَن وجعُها؛ ويُتَمَضْمَضُ بخلٍّ طُبِخ فيه السِّلْخ لوجَع السِّن. قال: وزعم جالِينوس أنه إذا أُخِذت خيوط كثيرة، وخصوصاً المصبوغة بالأُرْجُوان، وخُنِقَ بها أفعى ولُفَّ واحدٌ منها على عنق صاحب أورام اللَّهاة والحَلْق ظهر نفْعٌ عجيبٌ، ومرقتُه ولحمُه يقوِّيان البصرَ. قال: واتفقوا على أنّ شحم الأفعى يمنع نزول الماء إلى العين، ولكنّ الإنسان لا يجسُر على ذلك. وإذا شُقّت الحيّةُ ووُضِعت على نهش الأفاعي سكَن الوجعُ.

ذكرُ شَيء مِمَّا وُصِفَتْ بِهِ الأَفَاعِي

قال بعضُ الشعراء يصِف حيَّةً: [من البسيط]

لا يَنْبُتُ العُشْبُ في وادٍ تكون به ... ولا يُجاوِرُها وَحْشٌ ولا شَجَرُ
جَرْدَاءُ شابِكَةُ الأنيابِ ذابِلَةٌ ... ينبو من اليُبْس عن يافُوخِها الحجَرُ(٢)
لو شُرِّحَتْ بالمُدَى ما مَسَّها بَلَلٌ ... ولو تَكتَنفها الحاوُون ما قَدَروا(٣)
قد جاهدوها فما قام الرُّقاةُ لها ... وخاتَلوها فما نالوا ولا ظَفِروا(٤)
يكبو لها الوَرَل العادي إذا نَفَخَتْ ... جُبْناً ويهربُ منها الحيّة الذَّكر(٥)

وقال خَلَفٌ الأحمر(٦):

وكأنَّما لَبِسَتْ بأعلَى جِسْمِها ... بُرْداً من الأثواب أَنْهَجَه البِلى(٧)
في عينها قَبَلٌ وفي خَيْشُومِها ... فَطَسٌ وفي أنيابها مثلُ المُدَى(٨)

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أرْقَمُ كالذِّرع فيه وَشْمٌ ... مُنَمْنَمُ الظَّهْرِ واللَّبَانِ(٩)

---

(١) الخنازير: قروح صلبة تحدث في الرقبة وأكثر ما تصيب الخنازير.
(٢) اليافوخ: الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل.
(٣) الحاوون: جمع الحاوي، وهو الذي يرقي الحيات ويجمعها.
(٤) الرقاة: جمع الرقي، وهو الذي يرقي الحيات.
(٥) الورل: دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه.
(٦) هو خلف بن حيان أبو محرز وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار، كثير الشعر جيده ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه. . . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٠٨).
(٧) أنهجه: أخلقه وأبلاه.
(٨) القبل في العين: إقبال السواد على الأنف؛ وقيل: هو إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى.
(٩) اللبان: الصدر.

يَـزْحَـفُ كـالـسَّـيْـلِ مـن تِـلاعِ … كـأن عـيـنـيـه كـوكـبـانِ
يَـهـشِـم مـا مـسَّ مـن نَـبَـاتِ … ويَـجـذِبُ الـنّـفـسَ بـالـعِـنـانِ

وقال ٱبن المعتزّ:

أَنْعَتُ رَقْشَاءَ لا تَحْيا لَدِيغتُها … لو قَدّها السيفُ لم يَعْلَقْ به بَلَلُ
تُلْقِي إذا ٱنسلختْ في الأرض جلدتَها … كأنها كُمُّ دِرْعٍ قدّه بطلُ

وقال الظاهر البصريّ(١) شاعر اليتيمة: [من الرجز]

سِرْتُ وصَحْبي وسط قاعٍ صَفْصَفِ … إذ أَشْرَفَتْ من فوق طَوْدٍ مُشْرِفِ
رَقْشَاءُ تَرْنو من قَلِيبٍ أجْوفِ … تُومي برأس مثلِ رأسِ المِجْرَفِ(٢)
وذَنَبٍ مُنْدَمِجٍ مُعَقَّفِ … حتى إذا أبصرتُها لا تَنْكَفِي(٣)
علوتُها بحدّ سيفٍ مُرْهَفِ … فظلّ يَجري دَمُها كالقَرْقِفِ(٤)

* أتلفتُها لما أرادتْ تَلَفي *

وقال خَلَفٌ الأَحْمر:

له عُنُقٌ مخضرّةٌ مدّ ظهرِه … وُشُومٌ كتحبير اليَماني المُرَقَّمِ(٥)
إلى هامةٍ مثلِ الرَّحَى مستديرةٍ … بها نُقَطٌ سُودٌ وعينانِ كالدَّمِ

وقال آخر:

وَحَنَشٍ كَحَلْقَةِ السِّوارِ … غايتُه شِبْرٌ من الأَشْبارِ
كأنه قضيبُ ماءٍ جارِي … يَفْتَرّ عن مِثْلِ تَلَظّي النّارِ

وقال خلف الأحمر:

صَلٌّ صَفاً لا تَنْطَوي من القِصَرْ … طويلةُ الأطْرافِ من غير خَسَرْ
داهيةٌ قد صَغُرَتْ من الكِبَرْ … مَهْروتَةُ الشِّدْقَيْن حولاءُ النَّظَرْ(٦)

* تَفْتَرّ عن عُوجٍ حِدادٍ كالإبَرْ *

---

(١) هو الظاهر البصري المكنى بأبي الحسين كما في يتيمة الدهر للثعالبي، ص ٣٦٩.
(٢) ترنو: تديم النظر في سكون طرف.
(٣) لا تنكفي: لا ترجع.
(٤) القرقف: الخمر.
(٥) رقم الكتاب: كتبه.
(٦) مهروتة الشدقين: التي اتسع شدقاها.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الكامل]

وخفيفة الحركات تَفْتَرِعُ الرُّبَى ... كالبرق يلمَعُ في الغمام الرّائح
منقُوطةٌ تَحكي صدورَ صحائفٍ ... إبَّانَ تبدو من بطون صفائِح
تَرضى من الدنيا بَظلّ صُخَيرةٍ ... ومن المعيشة بٱشتمامِ روائح

وقال ٱبن المعتز:

كأنني ساورَتْنِي يوم بَيْنهمُ ... رقشاءُ مجدولةٌ في لونها برقُ
كأنها حين تبدو من مكامنها ... غصن تفتح فيه النَّوْرُ والورق
ينسلّ منها لسان تستغيثُ به ... كما تعوّذ بالسبّابة الفَرِقُ(١)

وقال الهذليّ(٢) في مَزَاحِف الحَيّات:

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ وَهْناً ... قُبيلَ الصبح آثارُ السِّياط(٣)

وقال آخرُ:

كأنّ مزاحِفَه أنْسُعٌ ... جُرِرنَ فُرَادَى ومنها ثُنَى(٤)

ذكرُ مَا قيلَ في العَقَارِبِ

قال الجاحظ: والعقاربُ أصنافٌ: منها الجرّارة، والطيَّارةُ، وما له ذَنبٌ كالحربة، وما له ذنب معقَّفٌ، وفيها السُّودُ، والخُضر، والصُّفْر. وهي من ذوات الذَّرْو(٥). ويقال: إنّ الأنثى من هذا النوع إذا حَملتْ يكون حتفُها في ولادتها؛ لأن أولادَها إذا ٱستوى خَلْقُها أكلَتْ بطونَ الأمّهات حتى تَنقُبَها، وتكون الولادة من ذلك النَّقب، فتخرجُ والأمهاتُ ميتةٌ. وفي ذلك يقول الشاعرُ:

وحامِلةٍ لا تحمِل الدَّهرَ حملَها ... تموت ويحيا حمْلها حين تَعطَبُ

وقال أيضاً: إنها تَلِدُ من فيها مرّتين، وتحمل أولادَها على ظهرها وهي في قَدْرِ

---

(١) الفرق: الفزع، وقد يراد بها المصلي الخاشع.
(٢) هو المتنخل، واسمه مالك بن عويمر بن عثمان بن سويد بن حنيس بن ضباعة بن غادية بن صعصعة بن كعب بن طابخة بن لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر. وقد ورد هذا البيت في الصفحة ١٢٧٣ من شرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري م ٣.
(٣) الوهن: جزء من الليل.
(٤) الأنسع: جمع نسع، وهو سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره.
(٥) الذرو: أي الذرية، أو هي بعدد الذرية.

القملِ كثيرة العدد. قال: والعقرب شرُّ ما تكون إذا كانت حبلى؛ ولها ثمانُ أرجلٍ لها أظلافٌ مثل أظلافِ الثور، وعيناها في ظهرها، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرِبُ الميتَ ولا المغشِيَّ عليه ولا النائمَ، إلا أن يَتحركَ شيء من بدنه؛ فإنها عند ذلكَ تَضرِبه؛ وضربُها له إنما هو من خوفها منه. وهي تأوِي إلى الخنافس وتُسالمِها، وتُصادِق من الحيّات كلَّ أسودَ سالخٍ. وربما لسَعتِ الأفعى فتموت. وفيها ما يلسع بعضُه بعضاً فيموتُ الملسوعُ. ويقال: إنها تُستَخرجُ من بيوتها بالجراد؛ لأنها تحرِص على أكله. ومتى أُدخِلَ الكُرَّاثُ[1] في جُحْرها وأخرِج تبَعته وما معها من نوعها. وهي إذا خرجت من جُحرها تضرِب كلَّ ما لقِيتْه من حيوانٍ أو نباتٍ أو جمادٍ.

وقيل لبعض الأطبّاء: إنّ فلاناً يقول: إنما أنا مثلُ العقربِ أضرُّ ولا أنفعُ؛ فقال: ما أقلّ علمه بها إنها تنفع إذا شُقَّ بطنُها ووُضِعَتْ على مكان اللَّسعة. وقد تُجعَلُ في جوفِ فَخّارٍ مسدودِ الرأس مطيَّنِ الجوانب، ثم توضع الفَخّارة في تَنُّورٍ، فإذا صارت العقربُ رماداً سُقي من ذلك الرمَادِ من به حصاةٌ نصفَ دانِقٍ[2] فَتُفَتِّتُها من غير أن تَضُرَّ شيئاً من الأعضاء. وقد تلسَعُ مَنْ به حُمَّى عتيقةٌ فتُقلِعُ عنه. وقد تلسع المفلوجَ فيذهبُ عنه الفالجُ. وقد تُلقَى العقربُ في الدُّهْنِ وتترك فيه حتى يأخذَ منها ويَجتَذِبَ قُواها، فيكون ذلك الدُّهن مُصَرِّفاً للأورام الغليظة. وقال الشيخ الرئيس: زَيتُ العقارب نافعٌ من أوجاع الأذن. فهذه منافعها.

وقال الجاحظ: ومن أعاجيب العقرب أنها لا تسبَحُ ولا تتحرّكُ إذا أُلقيت في الماء، كان الماء جارياً أو ساكناً. قال: وهي تطلُب الإنسان وتَقصِده؛ فإذا قصدها فرّتْ منه. وهي إذا ضربتِ الإنسانَ هَربتْ هَرَبَ مَنْ قد أساء. قال: ومن أعاجيب ما في العقرب أنا وجدنا عقارب القاطول[3] يموت بعضُها من لَسْع بعضٍ، ثم لا يموتُ عن لسعتها شيء غير العقارب، ونجدُ العقربَ تلسعُ إنساناً فيموتُ وتَلسعُ آخرَ فتموتُ هي؛ فدلّ ذلك على أنها كما تعطُي تأخُذ. ويقال: إن الذي تموت هي إذا لَسعَتْه تكون أُمّه قد لُسِعَتْ وهي حامِلٌ به. قال: ومن أعاجيبها أنها تَضرِبُ الطَّسْتَ والقُمْقُمَ النّحاسَ فتَخرِقُه، وربما ضربتْه فثبتَتْ إبرتُها فيه. قال: والعقاربُ القاتلةُ تكون في موضعين: بشَهْرَزُور[4] من

(١) الكراث: عشب معمر من الفصيلة الزنبقية، ذو بصلة أرضية، تخرج منها أوراق مفلطحة ليست جوفاء، وفي وسطها شمراخ يحمل أزهاراً كثيرة، وله رائحة قوية.

(٢) الدانق: سدس الدرهم.

(٣) القاطول: اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة.

(٤) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل همذان أحدثها زور بن الضحاك (معجم البلدان لياقوت).

بلاد الجبل، وعَسْكَرِ مُكْرَم[١] من بلاد الأهواز، وهي جرَّاراتٌ؛ وإذا لَسَعَت قتلَت؛ وربما تناثر لحمُ من لسعته أو تعفَّن ويسترخي حتى لا يدنو منه أحدٌ إلا وهو يُمسِكُ أنفه مخافة إعدائه. وهي في غاية الصغر؛ فإن أكبرَ ما يُوجد منها تكون زِنته دانِقاً واحداً؛ والذي يوجد منها كبيراً تكون زِنته ثلاثَ حبّاتِ أرزٍ؛ فإن وُزِنَت بشعيرةٍ رَجَحَت الشعيرةُ عنها. وهي مع نزارتها تقتل الفيلَ والبعيرَ بلسعتها. قال: وبِنَصِيبِينَ[٢] عقاربُ قتّالةٌ يقال: إن أصلَها من شَهْرَزُورَ، وإن بعضَ الملوك حاصر نَصِيبِينَ فأتى بالعقارب من شهرزور ورمى بها في كيزانٍ بالمجانيق إلى البلد، فأعطى القومُ بأيديهم[٣].

وقد وصف الشعراء العقرب وشبّهوها في أشعارهم، فمِن ذلك قولُ السَّرِيّ الرفَّاء[٤]:

سـاريـةٌ فـي الـظَّـلامُ مُـهـدِيـةٌ — إلـى الـنـفـوس الـرَّدَى بـلا حَـرَجِ
شـائـلَـةٌ، فـي ذُنَـيْـبِـهـا حُـمَـةٌ — كـأنـهـا سَـبْـجَـةٌ مـن الـسَّـبَـجِ[٥]

وقال آخر: [من الرجز]

ونِـضـوةٍ تُـعـرَفُ بـاْسـم ولَـقَـبْ — ما بين عينيها هِلالٌ مُنتَصِبْ[٦]
مـوجـودةٌ مـعـدومـةٌ عـنـد الـطـلـبْ — تَـطـعَـنُ مـن لاقـته مـن غـيـر سـبَـبْ
بِـخَـنْـجَـرٍ تَـسُـلُّـه عـنـد الـغـضـبْ — كـأنـه شُـعـلـةُ نـارٍ تَـلـتـهِـبْ

وقال آخر:

تـحـملُ رمحاً ذات كُعوبٍ مُشْتَهِرْ — فـيـه سِـنَـانٌ بـالـحـريـق مُـسـتَـعِـرْ
أُنِـفَ تـأنـيـفـاً عـلـى حـيـنَ قُـدِرْ — تأنيفَ أنِف القوسِ شُدَّتْ بالوَتْرْ[٧]

---

(١) عسكر مكرم: بلد مشهور بنواحي خوزستان.

(٢) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها أربعون ألف بستان. (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أعطى القوم بأيديهم: أي ذلوا وخفضوا.

(٤) هو السري بن أحمد بن السري الكندي، الموصلي، المعروف بالسريّ الرفاء (أبو الحسن) شاعر، أديب، مدح سيف الدولة ثم المهلبي، وتوفي ببغداد سنة ٣١٢ هجرية. (معجم المؤلفين ٤ : ٢٠٨).

(٥) السبج: خرز أسود ـ وشائلة: رافعة ذنبها.

(٦) نضوة: مهزولة ضعيفة.

(٧) أنف: حدد وسوى؛ وأنف القوس حدها الذي في باطن سيتها.

وقال عبد الصمد بن المعذَّل(١): يدعو بها على عدوٍّ له: [من الرجز]

يـا رُبَّ ذي إفـكٍ كـثـيـر خُـدَعُـهْ مُستجهَلِ الحِلم خبيثٍ مَرتَعُهْ
يَسْرِي إلى عِرْض الصديق قَذَعه صُبَّتْ عليه حين جَمَّتْ بِدَعُه
ذاتُ ذُنَابَى مُتْلِفٍ مَنْ يَلسعه تَخفِضُه طوراً وطوراً ترفَعُه
أسوَدُ كالسَّبْجة فيهِ مِبضَعُهْ يَنطُفِ منه سُمُّه وسَلْمَعُهْ(٢)
تُسرِعُ فيه الحتفَ حين تشرَعه يَبرُزُ كالقَرْنين حين تُطلِعُه
في مثل صدر السِّبت حين تَقطعُه لا تَصنعَ الرقشاءُ ما قد تصنَعُه(٣)

وقال ٱبن حَمْدِيس: [من الطويل]

ومُشرِعَةً بالموت للطعن صَعْدَةً فلا قِرنَ إن نادتْه يوماً يجيبها(٤)
تُذِيقُك حرَّ السّمّ من وَخْزِ إبرةٍ إذا لَسَبتْ ماذا يلاقي لسيبُها(٥)
إذا لم يكن لونَ البَهارَةِ لونُها فمن يَرَقانٍ دَبَّ فيها شُحوبُها
لها سَوْرةٌ خُصَّتْ بمُنكَرِ صورةٍ ترى العينُ فيها كلَّ شيء يَريبُها
لها طَعنةٌ لا تَستبِينُ لناظرٍ ولا يرسِلُ المِسْبار فيها طبيبُها(٦)
نَسِيتُ بها قَيْساً وذكرَى طَعِينِه وقد دقّ معناها وجلّ نُدوبُها(٧)
تجيء كأمِّ الشِّبْلِ غَضْبَى تَوَقَّدتْ وقد تَوَّجَ اليأفوخَ منها عَسيبُها(٨)
عدوٌّ مع الإنسان يعمرُ بيتَه فكيف يُوالي رقدةً يَستطِيبها
ولولا دِفاعُ الله عنّا بلُطفه لصُبّتْ من الدنيا علينا خطوبُها

---

(١) تقدمت ترجمة ابن المعذل.
(٢) السلمع: ضرب من السم.
(٣) السبت: الجلد المدبوغ.
(٤) الصعدة: الرمح.
(٥) لسبت: لدغت.
(٦) المسبار: ما يسبر به الجرح.
(٧) الندوب: آثار الجرح.
(٨) العسيب: عظم الذنب، وقيل: هو منبت الشعر منه.

البَابُ الثَّاني
مِنَ القِسْمِ الرَّابع مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
فيمَا هوَ ليسَ قَاتلاً بفعلِه مِنْ دَوَابِّ السّمُومِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في الخنافس، والوزَغ، والضبّ، وابن عِرْس، والحِرْباء، والقَنَافذ، والفئران، والقُرَاد، والنمل، والذرّ، والقَمْل، والصُّؤاب.

فأمّا الخنافس وما قيل فيها - قالوا: والخنافس تتولّد من عفونة الأرض. وهي أصناف، منها الخُنْفُس المعروف؛ ومنها «الجُعَل» ويسمّى «الكَبَرْتَل». وهو يتولّد من أَخْثَاء[1] البقر، وهو يموت إذا شمّ رائحة الطِّيبِ، وإذا دُفِنَ في الورد مات، وإذا أُخرج منه ودُفِن في الرَّوْث عاش. والغالبُ أنه لا يموت حقيقةً وإنما يَخْدَر وتبطُل حركته؛ فإذا عُولج بما نشأ منه قَوِي. والله أعلم. وله سِتُّ أرجلٍ، وسَنامٌ مرتفع. وهو لا يصير كَبَرْتَلاً حتى يصير له جناحان. وجناحاه يظهران إذا أراد الطيران ويَخفَيان إذا مشى. ومن عادة الجُعَل أن يحرُسَ النِّيام؛ فمن قام منهم لقضاء الحاجةِ تَبِعه طمعاً أنه إنما يُريد الغائط، والغائطُ قوت الجُعَل.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر: وزعم الأعراب أنّ بين ذُكور الخنافِسِ وإناثِ الجِعْلان تَسَافُداً، وأنهما يُنتجان خَلْقاً يَنزع إليهما جميعاً. قال: وأنشد سيبويه لبعض الأعراب يهجو عدّواً له:

عَادَيتنا يا خُنْفُسا أمّ الجُعَلْ ... عداوةَ الأوعالِ حَيّات الجَبَلْ

ويقال: إنّ الجُعَل يظلّ دهراً لا جَناحَ له، ثم ينبُت له جناحان، والعرب تقول في أمثالها: «أَلَجّ من خنفساء» و«أفحش من فاسِيةٍ» وهي الخنفساء. وفي لجاجةِ الخنفساء يقول الأحمر:

لنا صاحبٌ مُولَعٌ بالخِلافِ ... كثيرُ الخَطَاءِ قليل الصوابِ
ألجُّ لَجَاجاً من الخنفساءِ ... وأزهَى إذا ما مشى من غُرابِ

ومن أصناف الخَنَافِس صنفٌ يقال له: «حمَارٌ قَبَّان». وهو يتولّد في الأماكن النديّة على ظهره شبْهُ المِجَنّ[2]. ومنها صنفٌ يسمَّى «بنَاتِ وَرْدَان»، وهي أيضاً تتولّد

---

(١) أخثاء البقر: واحدتها الخثي: وهو من البقر مارس بذي بطنه. وخص به أبو عبيد الثور وحده دون البقر. وخثي البقر: روثها. (اللسان مادة خثا).

(٢) المجن: الترس.

في الأماكن الندية، وأكثر ما تكون في الحَمّامات والسِّقَايات. وفيها من الألوان الأسودُ، والأصهب، والأبيض. قال بعض الشعراء يصف بناتِ وَرْدان:

بناتُ وَرْدَانَ جنسٌ ليس يَنْعَتَه خَلْقٌ كنعتِي في وصفي وتشبيهي
كمثل أنصافِ بُسْرٍ أحمرٍ تُرِكتْ من بعد تشقيقِه أقماعُه فِيهِ[١]

ومنها «الصَّرَاصِر والجَنَادِب». ولها صوتٌ لا يفترُ بالليل، فإذا طلعَ الفجر فُقِدَ. وفيه من الألوان الأسودُ وهو جُنْدَب الجبال والآكام السُّود؛ والأبرق وهو جندب الطلح[٢] والسَّمُر والغضا؛ والأبيض وهو جندب الصحارَى، قال السّرِيّ الرّفّاء يصف جُنْدَبةً:

وجُنْدَبةٍ تمشي بساقٍ كأنها على فَخْذٍ كالعُود مِنشارُ عَرْعَرِ[٣]
مُمَسَّكةٌ تجلو الجَناحَ كأنها عَرُوسٌ تَجَلّتْ في عِطَافِ مُعَنْبَرِ[٤]

وأمّا الوَزَغ وما قيل فيه ـ والوَزَغ يسمّى «سامَّ أَبْرَصَ». وزعموا أنه أصمُّ، وأنّ السبب في صَمَمِه وبَرَصِه أن الدوابَّ كلَّها حين أُلقِي إبراهيمُ عليه السلام في نار النُّمْرود كانت تُطْفِيءُ عنه، وأنّ هذا كان يُنفخ عليه، فصَمَّ وبَرِص. ورُوي عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها أنّها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي يدي عُكّاز فيه زُجٌّ[٥] فقال: «يا عائشةُ ما تصنعين بهذا»؟ قلتُ: أقتل به الوَزَغَ في بيتي قال: «إن تَفْعَلي فإنّ الدوابَّ كلَّها حين أُلقِي إبراهيمُ في النار كانت تُطفِيءُ عنه وإنّ هذا كان ينفُخ عليه فصَمَّ وبَرِصَ». وفي حديث آخر عنها رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ قال للوَزَغ الفُوَيْسِقَ.

قالوا: وفي طبع الوَزَغ أنه لا يدخل إلى بيتٍ فيه زَعْفران. والحيّات تألف الوزغَ، كما تألف العقاربُ الخنافِسَ. وهو يُطاعِم الحيّاتِ ويُزَاقُّها. وهو يَقْبَل اللِّقَاح بفيه، ويبيض كما تبيض الحيّة، وقيل: إنّ نصيبه من السمّ نصيبٌ متوسّط، لا يكمُل أن يقتل، ومتى دَبر جاء[٦] منه سمٌّ قاتل. ومتى قُتل ووُضع على جُحْر حيّة هَرَبت منه، وهو يُقيم في جُحْره أربعةَ أشهر الشتاء.

---

(١) البسر: تمر النخل قبل أن يرطب.
(٢) الطلح: شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل. والطلح: الموز.
(٣) العرعر: جنس أشجار وجنبات من الصنوبريات، فيه أنواع تصلح للأحراج والتزيين.
(٤) الممسكة: المطيبة بالمسك.
(٥) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.
(٦) دبر: شاخ وولى.

وقال الشيخ الرئيس: إذا ضُمِد به على الشوك والسُّلاّء[(١)] جذَبه، وعلى الثآلِيل[(٢)] يقلَعها. قال: وقيل: إنّ المجفَّف منه إذا خُلط بالزيت أنبت الشعرَ على القَرَع. وبولُه ودمه عجيب النّفع من فَتْقِ الصِّبيانِ إذا جلسوا في طبيخه. وقد يُجعل في بولَه أو دمه شيء من المسك ويُجعل في إحْلِيل الصبيّ فيكون بالغَ النفع في الفتق. وقيل إنّ كبِده تُسَكِّن وجعَ الضِّرْس، وتُشَقّ وتوضع على لَسْعِ العقرب فيسكُن.

وأمّا الضبّ وما قيل فيه ـ قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنّ من أعاجيب الضبّ أنّ له أيرين وللضبّةِ حِرَيْن؛ قال: وهذا شيء لا يُعرف إلاّ لهما. هذا قول الأعراب في تخصيصهما بذلك. وقالت الحكماء: إنّ السَّقَنْقُور[(٣)] له أَيْرانِ، والحِرْذَوْن[(٤)] كذلك. قال: وقال جالينوس: الضب الذي له لسانان يصلحُ لحمه لكذا وكذا. ومما يستدلّ به على أنّ للضبّ أيرين قولُ الفَزَاريّ:

سِبَحْلٌ له نزْكانِ كانا فَضِيلةً ... على كل حافٍ في البلاد وناعلِ[(٥)]

واسم أير الضبّ: النِّزْكُ. وسئل أبو حَيَّة النُّمَيْرِيّ[(٦)] عن ذلك، فزعم أن أير الضبّ كلسان الحيّة، الأصلُ واحد والفرع اثنان. وللأنثى مَدْخَلان. وعلى ذلك أنشد الكِسائيّ[(٧)] رحمه الله تعالى:

تَفَرَّقتُم لا زِلتُم قِرْنَ واحدٍ ... تَفرُّقَ أير الضبِّ والأصلُ واحدُ

ويقال: إنّ الضبّة إذا أرادت أن تبيض حفَرتْ في الأرض حفرةً ثم رمتْ بالبيض فيها وطمّته بالتراب، وتتعاهده كل يوم حتى يخرج، وذلك في أربعين يوماً. وهي تبيض سبعين بيضةً وأكثر. وبيضها يُشبه بيضَ الحمام. ويخرجُ الحِسْلُ وهو مُطِيقٌ للكسب.

قالوا: والضبّ يخرج من جُحْره كَلِيلَ البصر، فيجلوه بالتحدُّق في الشمس. وهو يغتذي بالنسيم، ويعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهَرَم.

قال الجاحظ: وزعم عمرو بن مُسَافِر: أنّ الضبّة تبيض ستين بيضةً وتَسُدّ عليهنّ

(١) السلاء: شوك النخل.

(٢) الثآليل: واحدتها ثؤلول، وهو خراج يكون بجسم الإنسان ناتىء صلب.

(٣) السقنقور: حيوان في الماء شديد الشبه بالورل وهو مما يسعى في البر ويدخل في الماء.

(٤) الحرذون: دويبة تشبه الضب.

(٥) السجل: الضخم من الضب والبعير والسقاء.

(٦) هو الهيثم بن الربيع وكان يروي عن الفرزدق وكان كذاباً. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٩٩).

(٧) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي، المعروف بالكسائي (أبو الحسن) مقرىء، مجود، نحوي. شاعر، توفي سنة ١٨٠ هجرية (معجم المؤلفين ٧: ٨٤).

باب الجُحْر ثم تَدَعهنّ أربعين يوماً، فيتفقص[1] البيضُ ويظهر ما فيه، فتَحْفِر عنهن عند ذلك. فإذا كشفتْ عنهن أَحْضَرنَ وأَحْضَرتْ[2] في أثَرهنّ، فتأكل ما أدركتْ منهنّ. ويحفِر المُنفلِتُ منها لنفسه جُحْراً، ويرعَى من البَقْل فلذلك توصف بالعقوق. ويُضرب به المثلُ في أكل حُسُولِه. وفي ذلك يقول الشاعر:

أكلت بَنِيك أكْلَ الضبّ حتى ... تركت بَنيك ليس لهم عَدِيدُ

قالوا: في ذَنَب الضبّ من القوّة ما يَضرِب به الحيّةَ فربما قطعها. والضبّ طويل العمر. وفي طبعه أنه يَرجِع في قَيْئه. وهو شديد الإعجاب بالتمر. ويقال: إنه يمكث ليلةً بعد الذَّبْح ثم يُقَرَّب إلى النار فيتحرّك.

قال الجاحظ: وزعمت العرب أنّ الضبّ يُعِدّ العقربَ في جُحْره؛ فإذا سمع صوتَ الحَرْش[3] اْستثفرَها[4] فألزقها بأصل عَجْب[5] ذنبه وضمّه عليها، فإذا أدخل الحارش يدَه ليقبض على أصل ذنبه لسعتْه. وقيل: بل العقارب تألَف الضِّبَاب وتُسالمها وتأوِي إليها. قال التَّميميّ:

أتأنس بي ونَجْرُكَ غيرُ نَجْرِي ... كما أَنِسَ العَقَاربُ والضِّبابُ[6]

والضبّ من الحيوان المأكول، إلاّ أنّ العرب تعيِّر بني تميم بأكل لحم الضبّ. والدليل على إباحته ما جاء في الحديث الصحيح: أنّ رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة رضي الله عنها، فَقُدِّمتْ له مائدةٌ وعليها ضبٌّ مَشْوِيّ، فأَهْوَى بيده ليأكل منه؛ فقيل له: يا رسول الله، إنه ضبّ؛ فرفع يده. فقال له خالد بن الوليد: يا رسول الله، أحرامٌ هو؟ قال: «لا ولكنه ليس في بلاد قومي فأنا لا آكله»؛ فأكله خالد بن الوليد بحضرة رسول الله ﷺ فلم يَنْهَه؛ ولو كان حراماً لنهاه ﷺ عن أكله ولأخبر بتحريمه لمّا سُئِلَ عنه.

وقال أبو نُوَاس يعيِّر بأكل الضبّ:

إذا ما تميميٌّ أتاك مُفَاخِراً ... فقُلْ عَدِّ عن ذا كيف أكلُكَ للضَّبِّ

---

(١) يقال: تفقصت البيضة عن الفرخ: إذا انفلقت عنه.
(٢) أحضرت: عدت.
(٣) حرش الضب: صيده.
(٤) ألزقه بالشيء: جعله يلزق به ـ وألزقها: اتصل بها دون أن يترك بينهما فجوة.
(٥) العجب: أصل الذنب وعظمه، وهو العصعص.
(٦) النجر: الأصل.

وقال عمرو بن الأَهْتم[١] من أبياتٍ:

وَرَدْنـاهـمُ إلـى حَـرَّتـيـهـم حيث لا يأكلون غيرَ الضِّبابِ[٢]

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: زِبْلُ الضبِّ نافع لبياض العين، وينفع من نزول الماء.

وقد وصفه الحِمَّانيّ فقال وذكر أرضاً: [من المتقارب]

تـرى ضَـبَّـهَـا مُـطْـلِـعـاً رأسَـه كـمـا مـدّ سـاعِـدَه الأقـطـعُ
لـه ظـاهـرٌ مـثـلُ بُـرْدَ مُـوَشَّـى وبـطـنٌ كـمـا حَـسَـر الأصـلـعُ
هـو الـضـبّ مـا مـدّ سُـكَّـانَـه وإن ضـمَّـه فـهـو الـضِّـفْـدِعُ[٣]

وأما الحِرْبَاءُ وما قيلَ فيهَا ـ والحِرْباء لها أصابع، وأظنها لنبش التراب. ولونها أسود وأصفر ومختلط الألوان كالفهد. وهذه التسمية تقع على ذكورها وإناثها. والحرباء إذا كان في الشمس كان كثير التلوّن، فإذا انتقل إلى الظل كان أقل تلوّناً. وإذا قارب الموت أو مات اصفرّ. وهو أبداً يطلبُ الشمس، فإذا طلعتْ وجَّه وجهَه نحوَها. فمتى غاب عنه جِرْمُها فلا يراها أصابه نوع من الجنون. وإذا غابت الشمس ذهب ليطلب معاشَه ليلَه كلَّه حتى يُصبح. ولسانه طويل جدّاً، يقال: إنه مِقدار ذراع، فهو يبلغُ به ما بَعُد عنه من الذُّباب. والأنثى منه تُكنى أمّ حُبَيْنٍ. وهو يُوصف بالحَزْم لأنه حيث ينظر إلى الشمس يَقْبِض بيده على خُوطٍ[٤]، فإذا تقلّب نحوَ الشمس حيث ما مالت لا يُرسل ذلك الخُوط من يده حتى يَقْبِض بيده الأخرى خُوطاً آخر. وفيه يقول الشاعر:

أَنَّـى أُتِـيـحَ لـه حِـرْبـاءُ تَـنْـضُـبَـةٍ لا يُرسِلُ السّاقَ إلا مُمْسِكاً ساقا[٥]

وكتب بعض الفضلاء إلى بعض أصدقائه يلومه على مُقامه بوطنه حين نبا[٦] به؛ فقال من رسالة:

«أعَجَزْتَ في الإباء، عن خُلق الحِرْبَاء؛ أَدْلَى لساناً كالرِّشَاء، يبلغ به ما يشاء؛

---

(١) هو عمرو بن سنان بن سمي من بني هاشم. وهو جاهلي إسلامي، وكان في الجاهلية يدعى المكحل لجماله. (الشعر والشعراء ص ٣١٨).
(٢) الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار.
(٣) السكان: الذنب.
(٤) الخوط: الغصن الناعم.
(٥) التنضب: شجر له شوك قصار.
(٦) نبا: لم يستوفي في مكانه المناسب له.

وناطَ همّته بالشمس، مع بُعدها عن اللمس، وأَنِف من ضِيق الوِجَار، ففَرَّخ في الأشجار؛ وسئم العيشَ المسخوط، فاستبدل خُوطاً بخُوط؛ فهو كالخطيب، على الغصن الرَّطِيب».

وإنّ صوابَ الرَّأي والحَزْمِ لامرىءٍ إذا بلغته الشمسُ أن يَتحوّلا

وقال ذو الرُّمّة:

كأنّ يَدَي حِرْبائِها مُتَشَمِّساً يَدَا مُذْنبٍ يَستغفِرُ اللّهَ تائِبِ

وقال فيه أيضاً:

وقد جعل الحِرْبَاءُ يصفرّ لونُه وتَخْضَرّ من لَفْحِ الهَجير غَبَاغِبُه(١)

ويَشْبَح بالكَفَّيْن شَبْحاً كأنه أخو فَجرةٍ عَالَى به الجِذْعَ صالِبُهْ(٢)

وقال فيه أيضاً:

يُصَلِّي بها الحرباءُ للشمس ماثِلاً على الجِذْع إلاّ أنّه لا يُكبِّرُ

إذا حوّل الظِّلُّ العشِيَّ رأيتَه حَنيفاً وفي وقت الضُّحَى يَتنصَّرُ(٣)

وأمّا ابنُ عِرسٍ وما قيلَ فيهِ ـ وابنِ عِرْس من حيوان البيوت، وهو حديد النفْس شجيعٌ قَطِنٌ. وأكثرُ ما يكون بمصر في المنازل، وله صوت قويٌّ يُدلّ على شجاعته. وقيل: إنه الحيوان المسمَّى «بالدَّلَق»، وإنما يختلف وَبَرُه ولونُه بحَسَب البلاد. وفي طبعه أنه يَسرِق ما يظفَر به من الذَّهب والفِضّة، وإنه متى وجد حبوباً متفرقةً خَلطها، وهو عدوّ الفأرَ يَصيده ويقتله، والفأرُ يخافه.

وقال الجاحظ: وابنُ عِرْسٍ يُقاتل الحيّة؛ وإذا قاتَلها بدأ بأكل السَّذَاب؛ لأنّ الحَيّة تؤلمها رائحةُ السَّذَاب؛ كما قدّمنا. وابنُ عِرس يفعل في الطير ما يفعل الذئبُ في الغنم في الذَّبح. وهو إذا عَجز عن الوصول إليها استدارَ بعجُزه وفسا إلى جهتها، فربما قتل الفراريجَ رائحةُ فُسائِه.

ومن ذكائه وفِطنته ما حُكِي: أنّ رجلاً صاد فرخاً منها فجعله في قفص؛ فرأته أُمُّه فذهبتْ وعادتْ بدينار في فمِها فألقتْه بين يَدَي الرجل كأنها تريد فِدَاء ولدِها منه به، فتركه ولم يَتناوله، فذهبت وأتت بدينارٍ آخرَ فلم يأخذه، فلم تزل تذهب وتعود في كل

(١) الغباغب: جمع غبغب، وهو ما تغضن من جلد منبت العثنون الأسفل. والعثنون: الذقن.

(٢) تشبح الحرباء على العود: امتد.

(٣) أي يتوجه الحرباء للقبلة عند العشي فهو خفيف، ويتوجه للشرق أول النهار، والنصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق.

مرّة بدينار إلى خمسة دنانير وهو لا يُمسك الذهبَ، فذهبتْ وعادت بُصّر فارغةٍ وألقتها بين يديه كأنها تقول: إنه لم يبق شيء؛ فلم يُطلق ولدَها ولا ضَمّ الدنانيرَ. فلمّا رأته على ذلك عَمدتْ إلى دينار منها فأخذته وعادت به إلى جحرها؛ فخشِي أن تفعل ذلك ببقيّة الدنانير، فأخذها وأطلق فرخَها؛ فأعادت إليه الدينار.

وقالت الحكماءُ: لحمُ ٱبن عرس نافعٌ من الصَّرْع. والله أعلم.

وأمّا القَنافِذُ وما قيلَ فيهَا ـ وواحدُها قُنفذٌ. وهي صِنفان: قنفذٌ ودُلْدُلٌ. فالقنفذ يكون بأرض مصر في قَدْر الفأر. والدلدل يكون بالشأم والعراق وخُراسان في قَدْر الكلب القَلَطِيّ[1]. ويقال: إنه يَسْفِدَ قائماً وبطنُ الأنثى لاصِقٌ ببطن الذكر. والأنثى تَبيض خمسَ بيضاتٍ؛ وليس هو كالبيض الذي له قِشر يابسٌ بل هو شبيه باللّحم. وتَصَرُّفُ القنافذِ بالليل أكثرُ من تصرفها بالنهار. قال أيْمَنُ بن خُرَيم[2]:

كقُنفُذِ الرَّملِ لا تَخفَى مَدَارِجُه حتى إذا نام عنه الناسُ لم يَنم

والقُنفذُ يَستأنِس في البيوت، ويختفي أياماً ثم يظهر. وهو إذا جاع صعِد إلى الكروم وقطعَ العناقيدَ ورَمى بها ثم ينزل فيأكل منها ما أطاق؛ فإن كان له فراخ تمرّغ على ما بَقي فيشتَبِك في شوكه، وذلك بعد تفريطِه من عُمْشُوشِه[3]، ويذهب به إلى فراخه، وهو مولَعٌ بأكل الأفاعي، ولا يُبالي قَبَض على رأسها أو غيره من بَدَنها، فإنه إن قبض على رأسها أكلَها بغير كُلْفة عليه ولا مَشَقَةٍ؛ وإن قبض على وسطها أو ذنبها ٱستدار وتَجمع ونفَخ بدَنه، فمتى ضربتْه أصابها شوكُه، فهي تهربُ منه؛ وطلبُه لها بقدْرِ هَرَبها منه.

والدُّلْدُل إذا رأى ما يكرهه ٱنقبضَ فيخرج منه شوكٌ كالمَدَاري في طول الشِّبْر، فيجرَح ما يُصيبه من الحيوان. ويقال: إن شوكَه شَعَرٌ، وإنما لمّا غَلُظ وغلَب عليه اليُبْس صار شَوكاً.

وقال ٱبن سينا: في رماد القُنفُذِ جِلاءٌ وتَحليلٌ. ومِلْحه ينفع من داءِ الفِيل[4] ولحمُه ينفع من الجُذام؛ لشدة تحليله وتجفيفه. ولحمُه المُملّح ينفع من الفالج والتَّشنُّج وأمراض العَصَب كلِّها وداءِ الفيل، وينفع من السّلّ ومن سوءِ المِزاج. ومملوحُه مع

(١) القلطي: القصير.

(٢) هو أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد وكان قد صحب النبي ﷺ وروى عنه الحديث وكان به برص وكان أثيراً عند عبد العزيز بن مروان (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٣).

(٣) العمشوش: العنقود يؤكل ما عليه ويترك بعضه.

(٤) داء الفيل: وقد سمي بذلك لاعترائه الفيل أو يشبه الرجل فيه برجله وحقيقته انصباب أحد الباردين في الرجل متغلظ في مجاريها من لدن الركبة إلى نهايتها. (تذكرة داود الأنطاكي ص ٩٣).

السَّكْبِينَج[١] جيِّدٌ للاسْتِسْقَاء ووجَع الكُلَى، وينفع مَنْ يبول من الصبيان في الفراش؛ حتى إنّ إدمانَ أكلِه ربما عسَّر البولَ. ولحمُه ينفع من الحُمِّيَات المزمنة ومن نهش الهوامّ. والله أعلم.

وقد وصفَهُ البلغاءُ والشعراءُ في رسائلَها وأشعارِهَا ـ فمن ذلك ما قاله الأميرُ شمس[٢] المعَالي من رسالة كتَبها إلى بعض أصدقائه وقد أهدى له دُلْدُلاً: «قد أتحفتُك يا سيِّدي بِعلْقٍ نفيس، وتُحْفةِ رئيس؛ يتعجّب المتأمِّلُ من أحواله، ويَحَار الناعتُ في أوصافه وأعماله؛ ويتبلّد المُعتَبِر في آياته، ويكِلّ الناظر في معجزاتِه؛ فما يَدري ببديهة النظر والفؤاد، أمِن الحيوانِ هو أم من الجَماد؛ حتى إذا أعطى مُتَدَبِّرُه النَظرَ أوْفَى حقوقِه، والفحصَ أكمل شروطه علِم أنه كميٌّ[٣] سلاحُه في حِضْنِه، ورام سهامُه في ضِمْنه؛ ومُقاتِلٌ رِماحُه على ظهره، ومخاتِلٌ سِرُّه خلافُ جَهْره، ومحاربٌ حُصنُه من نفسه، يَلقاك بأخشنَ من حدّ السيف، ويستتِر بألْيَن من وبَر الخَيْف[٤]، متى جمّع أطرافَه، وضمّ إليه أطرافه؛ حسبتَه رابيةً ناتيَة، أو تَلْعةً باديَة، وهو أمضَى من الأجَل، وأَرْمَى من بني ثعل[٥]. إن رأتْه الأَراقمُ رأتْ حتفَ نفسها، أو عاينته الأساودُ أيقنَتْ بفناء جنسها؛ صعلوكُ ليلٍ لا يُحجم عن دَامِسِه، وفارسُ ظلام لا يخَاف من حنادِسِه[٦]؛ فيه من الضَّبّ مثْل، ومن الفأر شَكْل؛ ومن الوَرَل نَسَبٌ، ومن الدُّلْدُل سَبَب، ومن أوابده أنه يَسودّ إذا هَرِم وشاب، ويصير كأكبر ما يكون من الكلاب».

وقال أبو محمد[٧] اليزيديّ يذكر قنفذاً رآه، فأطعمه وسقاه: [من الطويل]

وطارِق ليلٍ جاءنا بعد هَجْعَةٍ ... من الليل إلاّ ما تحدّث سامرُ

قَرَيْناه صَفْوَ الزاد حين رأيتُه ... وقد جاء خَفّاق الحَشَى وهو سادِرُ[٨]

جميلُ المُحَيّا في الرِّضا فإذا أبى ... حَمَتْه من الضَّيْمِ الرِّماحُ الشَّواجِرُ[٩]

---

(١) السكبينج: صمغ شجرة بفارس لا نفع فيها سوى هذا الصمغ ويخرج منها في حزيران عند الورق وقيل بالشرط وأجوده الأبيض الطاهر الأحمر الباطن. (تذكرة داود الأنطاكي ص ١٩٥).

(٢) هو الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي ظاهر بن ورداه شاه الجبلي.

(٣) الكميّ: الفارس.

(٤) الخيف: جلد الضرع.

(٥) بنو ثعل: حي من طيىء.

(٦) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٧) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة أبو محمد مولى بني عدي بن عبد مناة. وكان من أكابر القراء وأديباً شاعراً مجيداً. (الوفيات ٢: ٣٤١).

(٨) السادر: المتحير.

(٩) رماح شواجر: مختلفة متداخلة.

ولستَ تراه واضِعاً لسلاحِه مَدَى الدّهر موتوراً ولا هو واترُ

وقال آخر من أبيات يرثيه فيها ويصفَه:

عجبتُ له من شَيْهَمٍ مُتَحَصِّنٍ بنَبْلٍ من السَّرْد المُضَاعَفِ تَبْرُق[1]

وأنّى أهتَدى سهمُ المنيّةِ نحوَه وفي كلّ عُضْوٍ منه سَهْمٌ مُفَوَّقُ

ولو كان كفُّ الدهر تَسْتَخشِن الرّدَى لكان بكفّ الدّهر لا يتعلّق

وقال أبو بكر الخُوَارَزْمِيّ[2] يصفه:

ومُدَجّج وسلاحُه من نفسه شاكي الدَّوابِرِ أعْزَل الأقْبَالِ

يُمسِي ويُصبِح لم يُفَارِقْ بيتَه ولقد سَرى عدداً من الأميالِ

وتراه يكمنُ بعضُه في بعضه فتَطِيش عنه أسهمُ الأهوالِ

عيناه مثل النقطتين وخَطْمُه يَحكِي ثُدِيَّ رِضَاعةِ الأطفالِ[3]

وكأنّ أقلاماً غُرِزْنَ بظهره مَسّ المِدَادُ رُؤوسَها بِبِلالِ

تَتهاربُ الحيّاتُ حين يَرَيْنَه هَرَبَ اللصوصِ رأتْ سوادَ الوالي

وكأنّه الخنزيرُ إلاّ جلْدَه وصياحَه وتقارُبَ الأوصال

وأمّا الفِئرانُ وما قيلَ فيهَا ـ قد سمّاها رسول الله ﷺ الفُوَيْسَقَة. والفأر ضروب تقع على جميعها هذه التّسمِيةُ وهي «الجُرَذ» و«الفأر» معروفان ـ وهما كالجواميس والبقر ـ و«الزَّبَاب»، و«الخُلْد» و«اليَرْبوع» و«فأرة البِيشِ»[4] و«فأرة المِسْك» و«فأرة الإبل».

فأمّا الجُرَذُ والفأرُ ـ وهما من حيوان البيوت والبرّ. قال المتكلمون في طبائع الحيوان: إنّ الفأرَ مما جُمِع له بين حاسّة السمع والبصر. وليس في الحيوان أفسدُ منه. ومن فساده أنه يجد قارورةَ الدُّهن وهي ضيّقة الفَم فيُدخِل ذَنَبه فيها ويَمْتصُّه، فإن قَصُر ذنبُه عن بلوغ الدُّهْن عَمَد إلى النَّوَى والأحجار الصِّغار فيُلقيهما فيها، فيطفو ما فيها فيمتصُّهُ بذَنَبه، ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يَنْفَد جميعُ ما فيها. وهو إذا سرق البيضَ يَعْجِز عن كَسْره بسِنّه، فيُدحرج البيضةَ إلى أن تسقُطَ من مكان مرتفع إلى مُسْتَفِلٍ

(١) الشيهم: ذكر القنفذ.

(٢) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي أحد العشراء المجيدين، كتب في اللغة والنحو والشعر، ويتكلم بكل نادرة.

(٣) الخطم: الأنف.

(٤) البيش: نبات سام.

فتنكسر؛ فإن عجَّزه ذلك استعان بفأر آخر فيدفعها أحدُهما بيديه ورجليه وينقلِب على قفاه؛ ويَقْبِض الآخرُ على ذَنبه ويتسلق به في حائط؛ فإذا ارتفع به عن الأرض ألقاها الحاملُ لها فتنكسِر فيأكلانها جميعاً. أخبرني بذلك من شاهَدَه. والمثل يُضرب به في الفساد والسَّرِقة والنسيان والحذَر. وفي طبع الجُرَذ البَرِّيّ وعادته أنه لا يحفِر بيتَه على قارعة الطريق خوفاً من الحافر أن يهدِم عليه بيته. ويقال: إنه يُخْلَق من الطِّين، وإنه يتولّد بأرض مِصر إذا نَضب ماءُ النيل عنها. وقال صاحب كتاب مباهج الفِكر: إنه رأى ذلك عِياناً في سَفْط[١] مَيْدُومَ من جِيزة مصر.

وقال الجاحظ: لعمري إن جرْذانَ إنطاكِيّة لتُساجِل[٢] السَّنَانِيرَ في الحرب، ولا تقوم لها ولا تَقْوَى عليها إلا الواحدَ بعد الواحد. قال: وهي بخُراسان قويةٌ جدّاً، وربما قطعت أُذُن النائِم. قال: ومن الفأر ما إذا عضّ قتل. قال: ومن الأعاجيب في قرض الفأر أنّ قوماً من أهلِ الفِراسة ينظرون إلى قَرْضه ويتفرّسون منه أحوالاً. ويزعمون أنّ أبا جعفر المنصور نزل في بعض القُرَى فقرَض الفأرُ مِسْحاً[٣] له كان يجلس عليه، فبعث بِه ليُرفأ[٤]؛ فقال لهم الرَّفّاء: إنّ ها هنا أهلَ بيت يَعْرِفون بقرض الفأر ما ينال صاحبَ المتاع من خير وشرّ، فما عليكم أن تعرِضوه عليهم قبل إصلاحه؟ فبعث المنصور إلى شيخهم؛ فلما نظر إلى موضع القَرْض وثبَ قائماً ثم قال: من صاحبُ هذا المِسْح؟ فقال المنصور: أنا؛ فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ والله لَتَلِيَنّ الخلافةَ أو أكون جاهلاً أو كذّاباً.

وفي الفأر منافعُ ذكرها الشيخ الرئيس ٱبن سينا؛ فقال: دَمُ الفأر يقلع الثآلِيلَ، وزبلُه نافع على داء الثعلب وخصوصاً لَطْخاً بالعسل، وخصوصاً المُحْرَق. قال: وإذا شُوِي الفأرُ وجفّف وأُطعِم الصبيّ ٱنقطع سَيَلانُ اللُّعابِ من فمه. قال: وٱتّفق الناسُ أنّ الفأر إذا شُقّ ووضع على لَدْغ العقرب نفع. والله أعلم.

وقد وصف الشعراء الفأر وشبّهوه في أشعارهم وذكروا سوءَ فعله. فمن ذلك قولُ أعرابيّ، وقد دخل البصرةَ فٱشترى خبزاً فأكله الفأر: [من الرجز]

عَجَّلَ ربُّ النـاسِ بالعِقـابِ ... لعـامِرَاتِ البيـتِ بالخـرابِ

(١) سفط ميدوم: قرية من مديرية بني سويف بقسم الزواية، واقعة غربي النيل بالقرب من الجبل الغربي.

(٢) تساجل: تباري وتفاخر.

(٣) المسح: الكساء من شعر.

(٤) رفأ الثوب: لأم خرقة بالخياطة وضم بعضه إلى بعض وأصلح ما يلي منه.

حتى يُعَجِّلْن إلى التَّبَاب ... كُحْلَ العيون وُقْصَ الرِّقابِ[(١)]
مُجَرِّراتٍ فُضُلَ الأذنابِ ... مثل مَدارِي الطَّفْلةِ الكَعَابِ[(٢)]
كيف لها بأَنْمَرٍ وَثَّاب ... مُنْهَرِتِ الشِّدْق حَدِيدِ النَّابِ
كأنما يَكْشِر عن جِرابِ ... يَفْرِسُها كالأسد الوَثَّابِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ: [من الخفيف]

بالحُدْبِ الظُّهورِ قُعْسِ الرِّقابِ ... لدِقَاقِ الخُرْطومِ والأذنابِ[(٣)]
لِلِطافٍ آذانُها والخراطيـ ... ـمُ حِدَادِ الأظفارِ والأنيابِ
خُلِقتْ للفساد مُذْ خُلِق الخَلْـ ... ـقُ ولِلْعَيْثِ والأذى والخراب
ناقباتٍ في الأرض والسقفِ والحا ... ئِط نَقْباً أعيا على النُّقَّابِ
آكلاتٍ كلَّ المآكل لا تَسْـ ... ـأَمُها شارباتٍ كلَّ الشَّرَاب
آلفاتٍ قرضَ الثياب وقد يَعْـ ... ـدِل قرضَ القلوب قرضُ الثياب

وقال في فأرة بيضاء:

وفأرةٍ بيضاءَ لم تُبْتَذَلْ ... يوماً لإطعام السَّنانير
إذ فأرةُ المسك سمِعنا بها ... وهذه فأرةُ كافورِ

وأمّا الزَّبَابُ - فإنه فأرٌ أصمُّ، يكون في الرمل، والعرب تضرب به المثلَ في السرقة. يقولون: «أسرقُ من زَبَابة».

وأمّا الخُلْد - فهو أعمى لا يُدرِك شيئاً إلاّ بالشَّمِّ، إلا أن عينيه كاملتان، لكن الجفن مُلْتَحِمٌ على الناظر لا يَنْشَقّ. وهو تُرابِيٌّ مستقِرٌّ في باطن الأرض؛ وهي له كالماء للسمك. وليس له على ظهر الأرض قوةٌ ولا نشاط، بل يَبْقَى مطروحاً كالميّت فتخطفَه الجوارحُ أو يموت، وهو حديدُ حاسّةِ الشمّ. ومتى شمّ رائحةً طيّبةً هَرَب. وهو يحبّ رائحةَ الكُرّاث والبصل، وربما صِيد بهما. ومن دأبه طولُ الكَدّ ودوامُ الحَفْر. وفي تركيبه أنه لا يُفرِط في الطّلب ولا يقصِّر عنه. وله وقت يظهر فيه لا يُخْطئه ولا يَغْلَط في المقدار. ويُضرب به المثلُ في حدّة السمع؛ فيقال: «أسمع من خُلْدٍ».

وأمّا اليَرْبُوع - فهو حيوان طويلُ الرِّجْلين، قصيرُ اليدين جدّاً. وله ذَنَبٌ كذنب

---

(١) الوقص: قصر العنق.
(٢) المداري: جمع مدراة، وهي شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه، يسرح به الشعر المتلبد.
(٣) قعس الرقاب: مائلتها نحو الظهر.

الجُرَذ، يرفعه صُعُداً، في طَرَفِه شبهُ النُّوّارة[١]. ولونُه لونُ الغزال. ويقال لولده: «دِرْصٌ»، والجمع أَدْراص. قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: كلُّ دابة حشاها الله خُبْثاً فهي قصيرةُ اليدين. وهو يسكنَ بطنَ الأرض لتقوم رطوبتُها له مقامَ الماء. وهو يُؤْثر النسيمَ ويكره البخار. وهو يَتّخذ جُحْره على نَشَزٍ[٢] من الأرض ويحفِره، ويفتح له أبواباً على مَهَبّ الرياح وتُسمَّى «النَّافِقَاء»، و«القَاصِعَاء» و«الدَّامَّاء»، و«الرَّاهِطَاء». فإذا طُلِب من أحد هذه الأبواب خرج من الآخر. وهو يَجْتَرّ ويَبْعَر. وله كَرِشٌ وأسنان وأضراس. وهو من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيس منه. والرئيسُ منها إذا كان فيها يرتفع عنها فيكون في مكان مُشْرِفٍ أو على صخرة ينظر منه إلى الطريق، فإن رأى ما يَخافه عليها صَرّ بأسنانه وصوّتَ، فتسمَعه فتنصرف إلى جِحرَتَها؛ وإن أغفل ذلك ورأتْ ما تخافه قبل أن يراه قتلتْه، لتضييعِه الحزمَ وغَفلته، ونصبت غيرَه لرياستها. وإذا أرادتِ اليرابيعُ الخروجَ من جِحرَتها لطلب المعاش خرج الرئيسُ قبلها وأشرف؛ فإذا لم ير ما يخافُه عليها صَرّ لها وصوّت فتخرج. قالوا: ويتولّد من اليربوع والفأرة ولدٌ يسمى «القَرْنَبَ».

وأما فأرةُ المسك ـ فقال الجاحظ: إنها دُوَيْبَّةٌ تكون في بلاد تُبَّت[٣] تصاد لِنَوَافِجها[٤] وسُرَرِها. فإذا ٱصْطِيدَتْ عُصِبَتْ سُرّتُها بِعصابٍ وهي مُدَلاّة فيجتمع فيها دَمُها؛ فإذا ٱجتمع ذُبِحتْ، ثم تُقَوّر السُّرَّة المعصوبةُ وتدفنَ في الشَّعير حيناً فيستحيلُ ذلك الدَّمُ المختنقُ الجامد مِسْكاً ذكِيّاً بعد أن كان مُنْتِناً. ويقال: إن هذه الفأرَةُ تُوجد في بلاد الزَّابج[٥] وتحمَل إلى السِّند، وإن المسك يَخرج من خُصْيَتَيْ ذكورها بالعصر، ومن ضُروع إناثِها بالحَلْب. ويقال: إن الفأرَ الفارسيّ أطيبُ رِيحاً من كل طِيبٍ، وربما ضاهَى ريحَ المسك. وهو أجْرَدُ أشقرُ، شَعَرُه إلى الصُّفْرة، شديدُ كَحَل العينين، طويلُ الأذنين، قصيرُ الذَّنَب.

وأمّا فأرةُ الإبلِ ـ فليست بحيوان، وإنما هي رائحةٌ تسطعَ من الإبل عند صدورها من الورْدِ يُنتجِها طيبُ الرّعْي. قال الشاعر:

لــهـا فــأرةٌ ذَفْــراء كــلَّ عَــشِـيَّـةٍ ... كما فَتَقَ الكافورَ بالمسك فاتِقُهْ[٦]

---

(١) النوّارة: جمع النوار، أي الزهر، ونوّر الشجر: أزهر.
(٢) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.
(٣) ثبت: إقليم ضمن الجمهورية الصينية متاخم للهند. وهي هضبة تخترقها الجبال تعتبر أعلى صقع في العالم.
(٤) النوافج: جمع النافجة، وهو وعاء المسك في جسم الحيوان.
(٥) الزابج: جزيرة في أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند في حدود الصين.
(٦) ذفر الشيء: ظهرت رائحته واشتدت، طيبة كانت أو خبيثة.

وأمّا القُراد وما قيل فيه ـ فقد قالوا: أو ل ما يكون «قَمْقَامَة» وهو الذي لا يكادُ يُرَى من صِغَرِه، ثم يصير «حَمْنَانَة»، ثم يصير «قُراداً»، ثم يصير «حَلَماً»، ويقال للقراد: «العَلُّ» و«الطلح» و«القَتين» و«البُرَام» و«القِرْشَامُ».

والقراد يُخْلَق من عَرَقِ البعيرِ ومن الوَسخ والتَّلَطّخ بالثَّلْط[١] والأبْوَال، كما يُخلق القمل من عَرَق الإنسان. وفي طبع القُراد أنه يسمع رُغَاءَ الإبل من فراسخ فيقصِدُها؛ حتى إنّ أصحاب الإبل يبعثون إلى الماء من يُصْلح لإبلهم الأرْشِيةَ[٢] وآلاتِ السَّقي، فتَبِيتُ الرجالُ عند البئر تنتظر مجيءَ الإبلِ، فيعرفونَ قربَها من القُوَاد بأنبعاثِه في جوف الليل وسُرعة حركته ومرورِه، فإذا رأَوْا ذلك منه تهيّؤوا للعمل.

ويقول من اعتنى بالحيوان وتكلّم في طبائعه: إنّ لكل حيوانٍ قُراداً يناسب مِزَاجَه.

وهم يَضرِبون المثل بالقراد في أشياء فيقولون: «أسمعُ من قُرَادٍ»، و«ألزقُ من قرادٍ»، وما هو إلا قراد ثُفْرٍ. وأنشد الجاحظُ لبعض الشعراء في القراد[٣]:

ألاَ يـا عـبـادَ الله هـل لـقـبـيـلـةٍ إذا ظـهـرتْ فـي الأرض مُـغـيـرُهـا
فـلا الـدِّينُ ينـهَـاها ولا هي تَـنْـتَـهِي ولا ذو سـلاحِ مـن مَـعَـدٍّ يَـضِـيـرُهـا

وأمّا النّملُ والذَّرُّ وما قيلَ فيهمَا ـ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٨]. وجاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ نزل منزلاً فانطلق لحاجةٍ فجاء من حاجته وقد أوقَد رجلٌ على قريةِ نملٍ إما في شجرةٍ، وإمّا في الأرض؛ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَعَل هذا أطْفِئْها أطفئها». وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ فعضّته نملةٌ فقام إلى نملٍ كثيرٍ تحت الشجرةِ فقتلهنّ فقيل له: أفَلاَ نملةً واحدةً». وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرةٍ فقَرَصَتْه نملةٌ فأمر بجَهازه فأُخْرِجَ من تحتها ثم أمر بقرية النّمل فأُحْرِقَت فأوحى الله إليه أنْ قَرَصَتْك نملةٌ أهلكتَ أُمَّةً من الأمم يُسبِّحن الله فهلاّ نملةً واحدةً. وجاء في الأثر: أنّ سليمان بن دود عليهما السلام خرج يَسْتَسْقِي، فرأى نملةً مُستَلْقِيةً على ظهرها رافعةً قوائمَها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنّا خَلْقٌ من خَلْقك،

(١) الثلط: الرقيق من الرجيع.
(٢) الأرشية: واحدتها رشاء، وهو حبل الدلو.
(٣) القراد: دويبة متطفلة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور.

ليس لنا غِنًى على سَقْيك؛ فإما أن تَسْقِنَا وترزُقَنا، وإما أن تُمِتَنَا وتُهْلِكنا. فقال للناس: ارجِعوا، فقد سُقِيتم بدُعاء غيركم.

وقال الجاحظ: وكان ثُمَامَةُ يزعمُ أنّ النمل ضأنُ[1] الذَّرّ. قال: والذي عندي أن النمل والذَّر مثلُ الفأر والجُرَذ، والبقرِ والجواميسِ. قال: والذّرّ أجودُ فَهْماً وأصغرُ جثةً.

وزعم ابن أبي الأشعث أنّ النملَ لا يَتَزاوجُ ولا يتوالَد ولا يتلاقَح، وإنما يسقط منه شيءٌ حقير في الأرض فينمو حتى يصير بَيْظاً[2] فيتكوّن منه.

والنمل من الحيوان المحتال في طلب المعاش يتفرّق لذلك؛ فإذا وجد شيئاً أنذر الباقين فيأتِين إليه ويأخذن منه. وكلّ واحد مجتهد في إصلاح شأن العامّة غيرُ مختلسٍ لشيء من الرزق دون صحبه. ويقال: إنما يفعل ذلك منها رؤساؤها ومن تحيّله في طلب الرزق أنه ربما وُضِع بينه وبين ما يُخاف عليه منه ما يمنعه من الوصول إليه من ماءٍ أو شَعْرٍ، فيتسَلّق في الحائط ويمشي على جِذْع من السَّقف حتى يُسامِتَ[3] ما حُفِظَ منه ثم يُلقِي نفسه عليه. وفي طبعه وعادته أن يحتكرَ في زمن الصيف لزمنِ الشتاءِ، وهو إذا خاف على ما يدَّخِره من الحبوب من العَفَن والسُّوس أو التَّنَدّي من مجاورِه بطن الأرض، أخرجها إلى ظاهر الأرض حتى تَيْبَس ثم يُعيدها، وإن خاف على الحبّ أن يَنْبُتَ من نَداوةِ الأرض نقَر في موضِع القِطْمير من وسَط الحبّة (وهو الموضع الذي يبتدىء منه النَّباتُ)؛ ويَفْلِقُ جميعَ الحبِّ أنصافاً؛ فإن كان من حبّ الكُزْبَرَةُ فَلَقه أرْباعاً، لأن أنصاف حب الكُزْبَرَة تَنْبُت، فالنملُ من هذا الوجه في غاية الحزم. فسبحان المُلهِمِ لا إله غيرُه.

وليس شيءٌ من الحيوان يَقْوَى عَلى حمْل ما يكون ضِعْفَ وزْنه مراراً غير النملة. والنّملُ يَشمّ ما ليس له ريحٌ ممّا لو وضعه الإنسانُ عند أنفه لما وجد له ريحاً. ومن أسباب هلاك النملة نباتُ الأجنحةِ لها؛ فإذا صار النمل كذلك صادتْه العصافيرُ وأكلتْه. وفي ذلك يقول أبو العَتَاهِيَةِ[4]:

وإذا آستَوَت للنَّمْل أجنحةٌ ... حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

---

(١) الضأن: ذو الصوف من الغنم.

(٢) البيظ: (بالظاء): بيض النمل.

(٣) يسامت: يقابل ويوازي ويواجه.

(٤) هو إسماعيل بن القاسم مولى لعنزة، ويكنى أبا إسحاق، وأبو العتاهية لقب، وكان جراراً ويرمى بالزندقة. (طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٩).

ومن أصناف النّمل صِنْفٌ يسمّى «نمل الأسد»؛ سمّي بذلك لأن مُقَدَّمَ النملة يُشبه وجهَ الأسد ومؤخّرها كالنّمل. وزعم بعضُ من تكلّم في طبائع الحيوان أنه متولِّد، وأن أباه أكل لحماً، وأمَّه أكلت نباتاً، فَنُتج بينهما على هذه الصفة.

وقد وصَفه الشعراءُ، فمن ذلك قول شاعر: [من الطويل]

غُزَاةٌ يولّي الليثُ عنهنّ هارباً ... وليست لها نَبْلٌ حدادٌ ولا عَمَدْ
قِصَارُ الخُطَا حُمْشُ القوائم ضُمَّرٌ ... مُشَمَّرَةٌ لا تَشْتَكِي الأيْنَ والحَرَدْ[1]
وتعدو على الأقران في حَوْمة الوَغَى ... نِشاطاً كما يعدو على صَيْده الأَسَدْ
إذا ذَكَرتْ طِيبَ الهِياجِ تنفّسَتْ ... تَنَفُّسَ ثَكْلَى قد أُصِيبَ لها وَلَدْ
كأكرادِ زَنْجانٍ تريد قضاضةً ... وتلك الصَّعَاليك الغرائب في البلدْ[2]
وفيهنّ أجناسٌ تَشابَهْنَ صورةً ... وبايَنَّ في الهِمَّاتِ واللون والجسدْ
فمِنهنّ كُمْتٌ كالعَناكيب أرْجُلاً ... وسَاعُ الخُطا قد زان أجيادَها الغَيَدْ
إذا انْتُهِرت طارتْ وإنْ هِي خَلَّدتْ ... رأت وِرْدَ أحواضِ المنايا من الرَّشَدْ
وسودٌ خِفَافُ الجسم ولو عَضْتِ الصَّفَا ... رأيتَ الصَّفا من وقع أسنانها قِدَدْ[3]
يَفِدْنَ علينا مُفْسِدَاتِ جِفانَنا ... وأزوادَنا أبغضْ إلينا بما وَفَدْ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

وحيٌّ أناخوا في المنازِل باللِّوَى ... فصاروا به بعد القَطِين قَطِينا[4]
إذا اختلفوا في الدار ظَلّت كأنها ... تُبَدَّد فيها الريحُ بِزْرَ قَطُونا[5]
إذا طرقوا قِدْرِي مع الليل أصبحتْ ... بواطنُها مثلَ الظواهر جُونا
لهم نظرةٌ يُسْرَى ويُمْنَى إذا مَشَوْا ... كما مرّ مرعوبٌ يَخاف كَمِينا
ويَمشون صفّاً في الديار كأنما ... يَجُرّون خيطاً في التراب مَنِينا[6]
وفي كل بيتٍ من بيوتيَ قَرْيةٌ ... تَضُمّ صنوفاً منهم وفنونا

---

(١) حمش القوائم: دقاقها ـ والحرد: داء يصيب عصب يدي الدابة.
(٢) زنجان: بلد كبير قريب من أبهر وقزوين.
(٣) القدد: جمع قدرة، وهي القطعة من الشيء.
(٤) القطين: الخدم والأتباع ـ وقطين الدار: أهلها.
(٥) القطون: قد يراد بها القطن.
(٦) المنين: الضعيف من الحبال.

فيا مَنْ رأى بيتاً يَضيق بخمسةٍ　　وفيه قُرَيَّاتٌ يَسَعْن مِئينا

وأمّا القَمْلُ والصُّؤابُ ومَا قيلَ فيهمَا ـ قال الجاحظ: ذكروا عن إياس بن معاوية أنه يزعمُ أنّ الصِّئبان ذُكُورةُ القمل، وأن القمل من الشكل الذي تكون إناثُه أعظمَ من ذُكُورته.

قال الجاحظ: والقملُ يَعْتَري من العرَق والوَسَخ إذا علاهما ثوبٌ أو ريشٌ أو شعَر، حتى يكون لذلك المكانِ عَفَنٌ وخُمُوم. والقملةُ يكون لونُها بحسب لون الشعر في السَّوَادِ والبياض والشَّمَط[1] وفي لون الخِضاب، ويَنْصُل إذا نَصَل. قال: والقمل يَعْرِض لثياب كل إنسانٍ إذا عرَض لها الوسخُ أو العرقُ أو الخُمُومُ، إلا ثيابَ المُجذَّمين فإنهم لا يَقْمَلُون. وإذا قَمِل إنسانٌ وأفرط عليه القملُ زَأْبَق[2] رأسَه فيتناثر القملُ. قال: وربما كان الإنسانُ قَمِلَ الطِّباع، وإن تنظّف وتعطّر وبدّل أثوابه، كما عَرض لعبد الرحمٰن بن عوف والزُّبير بن العَوّام رضي الله عنهما، حتى ٱستأذنا رسولَ الله ﷺ في لِباس الحرير، فأذِن لهما فيه لهذه الضرورةِ ولدَفْع هذا الضرر.

وقد وصف الشعراءُ القملَ في أشعارهم، فمن ذلك قولُ بعضِ العُقَيلِيِّين وقد مرّ بأبي العَلاَء العُقَيْلِيّ وهو يَتَفَلَّى، فقال:

وإذا مررتَ به مررتَ بقانِص　　مُتَصَيِّدٍ في شَرْقَةٍ مَقْرورِ[3]

للقمل حولَ أبي العَلاَءِ مَصارعٌ　　ما بين مقتولٍ وبين عَقِيرِ[4]

فكأنهنّ إذا عَلَوْنَ قميصَه　　فَذٌّ وتَوْأَمُ سِمْسِمٍ مَقْشُورِ

ضَرَجَ الأناملَ من دماء قَتِيلِها　　حَنِقٌ على أخرى بِعَدْوِ مُغير

وقال الحسن بن هانىء[5] في رجل ٱسمه أيّوب: [من مجزوء الكامل]

مَنْ يَنْأ عنه مَصَادُه　　فمَصَادُ أيّوب ثيابُهْ

يكفيه منها نظرةٌ　　فتُعَلّ من عَلَقٍ حِرابُهْ[6]

يا رُبّ محترزٍ بجَيـ　　ـبِ الرُّدْنِ تَكْنُفُه صُؤابُهْ

فاشِي النِّكاية غير معـ　　ـلومٍ إذا دَبّ ٱنسيابُهْ

---

(١) الشمط: اختلاط بياض الشعر بسواده.

(٢) زأبق الشيء: طلاه بالزئبق.

(٣) الشرقة: الشمس ـ والمقرور: من أصابه القر، وهو البرد.

(٤) العقير: الذي بقي مكانه لم يتقدم، أو يتأخر، لفزع أصابه.

(٥) هو مولى الحكم بن سعد العشيرة في اليمن وعرف بأبي نواس.

(٦) العلق: الدم.

أو طــــامِـــريٌ واثِـــــبِ لــم يُـنْـجِـه عـنـه وثـابُـهْ[١]
أهــوى لــه بــمُــزَلَّــق الْـــ ـعِـرْنِـيـنِ إصـبـعـه نِـصـابُـه[٢]
لله درّك مــــــن أخــــــي قَــنَـصِ أصـابِـعُـه كـلابُـه

(١) طاهر بن طاهر: هو البرغوث.
(٢) مزلق محدد: والعرنين: الأنف وعرنين كل شيء أوله. والنصاب: المقبض.

الْقِسْمُ الخَامِسُ

مِنَ الفَنِّ الثَالِثِ
في أجناسَ الطَّيرِ وأَنواعِ السَّمَكِ

وفيه سبعة أبواب: ستة منها في الطير، وباب في السمك، وذَيّلتُ عليه بباب ثامنٍ أوردتُ فيه ذكرَ شيء مما قيل في آلات صيد البرّ والبحر.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان: إنّ الحيوان على أربعة أقسام: شيءٌ يطير، وشيء يعوم، وشيء يَنْساح[١]، وشيء يمشِي، إلاّ أنّ كل طائرٍ يمشي، وليس كلّ شيء، يمشِي طائراً. قال: واسم طائر يقع على ثلاثةِ أشياء: صورةٍ، وطبيعةٍ، وجَناحٍ؛ وليس بالرِّيش والقَوادم والأَبَاهِر[٢] والخَوَافِي يسمى طائراً ولا بِعَدَمِهِ يسقُط ذلك عنه. أَلاَ تَرى أنّ الخُفّاشَ والوَطْواط من الطير وإن كانا أمْرَطَيْن لس لهما ريشٌ ولا زَغَب ولا شَكِير.

قال: والطيرُ كلُه سَبُعٌ وبَهيمةٌ وَهَمجٌ[٣]. والسِّباع من الطير على ضربين: فمنها العتاقُ، والأحرارُ والجوارحُ. ومنها البُغاث، وهو كلّ ما عَظُم من الطير سَبُعاً كان أو بهيمة إذا لم يكن من ذوات السِّلاح والمخالب المُعقَّفة كالنّسور والرَّخَم والغِرْبَانِ وما أشبهها من لئام السّباع، ثم الخِشَاشُ وهو ما لَطُف جِرْمُه وصغُر شخصُه وكان عديمَ السلاح.

وقال: إذا باض الطائرُ بيضاً لم تخرج البيضةُ من حدّ التحديد والتلطيف بل يكون الجانبُ الذي يبدأ بالخروج الجانبَ الأعظَمَ. وما كان من البيض مستطيلاً محدّدَ الأطراف فهو للإناث، وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذكور. والبيضةُ عند خروجها تكون ليِّنَةَ القشر غير جاسئةٍ[٤] ولا يابسةٍ ولا جامدةٍ. قال: والبيض الذي

---

(١) انساح: سار في الأرض وبطنه تدنو منها لسمنه.
(٢) الأباهر: ما يلي الكلى من ريش الطائر. والكلى. آخر ما ينبت من الريش.
(٣) الهمج: ذباب صغير كالبعوض يقع على وجوه والحمير.
(٤) الجاسئة: الخشنة الصلبة.

يتولّد من الريح والتراب أصغرُ وألطفُ، وهو في الطِّيب دون الآخر، ويكون بيضُ الريح من الدّجاج والقَبج[١] والحمام والطاوس والإوَزّ. قال: وحَضْنُ الطائر وجُثومه على البيض يكون صلاحاً لبدن الطائر كما يكون صلاحاً لبدن البيض. قال: وزعم ناسٌ أنّ بيض الرِّيح إنما يكون عن سِفادٍ مُتقَدِّم. وذلك خطأ من وجهين: أمّا أحدُهما، فإن ذلك قد عُرِف من فراريج لم ترَ ديكاً قطّ. والآخرُ أن بيض الرِّيح لم يكن منه فُرُوخٌ قطّ. وبيضُ الصَّيْفِ المحضونُ أسرعُ خروجاً منه في الشتاء.

فهذه جملٌ من أحوال الطير فرّقها الجاحظ في كتابه في عدة مواضع جمعناها وألّفنا بعضَها إلى بعض. فلنذكر كلَّ جنسٍ من الطير، ونشرح ما يخصّه من الكلام وما قيل فيه. وغيرُ الجاحظ قَسّم الطيرَ إلى أقسام، فجعل منها سِباعاً، وكلاباً، وبهائمَ، وبُغاثاً، ولَيْلِيّاً، وهَمَجاً؛ وعلى ذلك بوّبنا هذا القسم؛ على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

البَابُ الأَوّلُ
مِنَ القُسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثّالِثِ
في سِبَاعِ الطَّيرِ

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل في العُقاب والبُزَاة والصقور والشَّواهين، وأصناف ذلك، وما يتّصف به كلُّ طير منها وما فيه من الطبائع والعادة، وما يَصيد، وما فيه من الأمارات الدّالّة على نجابته وفَراهته، وغير ذلك مما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ذكرُ ما قيلَ في العُقَابِ

يقال: إنّ العُقَاب جميعَه أنثى وليس فيه ذكر. ويُسمى عند أهل اللغة «العَنْقَاء». وهي «عُقَابٌ» و«زُمَّجٌ». فأما العُقاب فيقال: إنّ ذكورها من طيرٍ آخر لطيفِ الجِرْم. وهي تبيض في الغالب ثلاث بيضاتٍ فيخرج لها فرخان. قال الجاحظ: ثم ٱختلفوا، فقال بعضهم: لأنها لا تحضُن إلاّ بيضتين؛ وقال آخرون: قد تحضُن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمي بالواحد ٱستثقالاً للتكليف على ثلاثة؛ وقال آخرون: ليس ذلك إلاّ لما يعتريها من الضعف عند الصيد، كما يعتري النُّفَساءَ[٢] من الوَهْن والضعف. وهي

(١) القبج: طائر كالحجل يغير أصواته بأنواع شتى، ويعمر خمس عشرة سنة.
(٢) النفساء: المرأة التي ولدت. جمع نفساوات ونفاس.

تحضُن ثلاثين يوماً. وما عداها من الجوارح تبيض بيضتين في كل سنة وتحضُن عشرين يوماً.

قالوا: وفي طبع الذكر أنه يمتحن أُنْثاه هل هي محافظة له أو مؤاتية لغيره من غير جنسه، بأن يصوّب نظر فرخيه إلى شُعَاع الشمس، فإن ثبت عليه تحقّق أنها فراخه وأمسكها، وإن نبا بصرُه عن شعاع الشمس ضرب الأنثى كما يضرب الرجلُ المرأةَ الزانيةَ وطردها من وكره ورمى بالفرخين.

والعُقاب خفيفة الجناح، سريعةُ الطيران، فهي إن شاءت اْرتفعت على كل شيء وإن شاءت كانت بقربه. يقال: إنها تتغذّى بالعراق وتتعشّى باليمن. وربما صادت حُمُرَ الوحش، وذلك أنها إذا نظرت الحمارَ رمتْ نفسها في الماء حتى يبتلّ جناحاها، ثم تتمرّغ في التراب وتطير حتى تقع على هامة الحمار، ثم تصفّق على عينيه بجناحيها فتملؤها تراباً، فلا يرى الحمارُ أن يذهب فيؤخذ. وهي مُولَعَة بصيد الحيّات. وفي طبعها قبل أن تتدرب أنها لا تراوغُ صيداً ولا تَعْنَى في طلبه، ولا تزال مُوفِيَةً على شَرَف عالٍ؛ فإذا رأت سِباعَ الطير قد صادت شيئاً اْنقضّتْ عليه، فتتركه لها وتنجو بنفسها. ومتى جاعت لم يمتنع عليها الذئبُ. وهي شديدة الخوف من الإنسان. ويقال: إنها إذا هَرِمت وثَقُل جَناحُها وأظلم بصرُها التمستْ غديراً، فإذا وجدتْه حَلَّقت طائرةً في الهواء ثم تقع من حالِقٍ[1] في ذلك الغدير فتَنْغَمِس فيه مراراً، فيَصِحّ جسمُها ويَقْوَى بصرُها ويعود ريشُها ناشِئاً إلى حالته الأولى. وهي متى ثَقُلت عن النهوض أو عَمِيتْ حملتْها الفِراخُ على ظهورها ونقلتْها من مكان إلى آخر لطلب الصيد وتعولها إلى أن تموتَ. ومن عجيب ما أُلهِمتْ أنها إذا اْشتكت كَبِدَها رفعت الأرانبَ والثعالبَ في الهواء وأكلت أكبادَها فتبرأ. وهي تأكل الحيّاتِ إلاّ رُؤوسَها، والطيرَ إلا قلوبَها. قال اْمرؤ القيس:

كأنّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابِساً لَدَى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالِي[2]

ومَنسِرُها[3] الأعلى يعظمُ ويتعقّفُ حتى يكون ذلك سببَ هلاكها؛ لأنها لا تنال به الطُّعْم إذا كان كذلك. وأوّلُ مَنْ صاد بها أهلُ المَغْرِب، وحُكي أنّ قيصر أهدَى إلى كِسْرى عُقَاباً، وكتب إليه: علِّمها فإنها تعمَلُ عَمَلاً أكثر من الصقور التي أعجبتْك. فأمر

---

(١) الحالق: المكان المرتفع المنيف.
(٢) الحشف من التمر: أردؤه، وهو الذي يجف ويصلب ويتقبض قبل نضجه فلا يكون له نوى ولا حلاوة ولا لحم.
(٣) المنسر: هو للطائر كالمنقار لغير الجارح.

بها فأُرسِلتْ على ظَبْيٍ عَرض لها فَقَدَّته، فأعجبه ما رأى منها؛ ثم جوّعها لِيَصِيدَ بها، فوثَبتْ على صبيّ من حاشيته فقتلتْه؛ فقال كسرى: غَزَانَا قيصر في بلادنا بغير جيش. ثم أهدي له نَمِراً وكتب إليه: قد بعثتُ إليك بما تقتل به الظِّبَاءَ وما قَرُبَ منها من الوحشِ؛ وكتَم عنه ما صنعتِ العقابُ. فأُعْجِبَ به قيصرُ. فغَفَل عنه يوماً فٱفترس بعضَ فِتْيانِه؛ فقال: صادنا كِسرى؛ فإن كنّا صِدناه فلا بأس. فلمّا ٱتّصل ذلك بكسرى قال: أنا أبو سَاسَان.

وأجودُ العُقاب ما جُلِب من سُرْت[1] وبلادِ المغرب.

وقد وصفها الشعراءُ فمن ذلك ما قاله أبو الفَرَج البَبَّغاء[2]: [من الرجز]

مـا كـلُّ ذاتِ مـخْـلـبٍ ونـابِ ... مـن سـائـرِ الـجـارحِ والـكـلابِ
بـمُـدْرِكٍ فـي الـجِـدّ والـطِّـلاَبِ ... أيـسـرَ مـا يُـدْرَك بـالـعُـقـابِ
شـريـفـةُ الـصِّـبـغـةِ والأنـسـابِ ... تـطـيـر مـن جَـنـاحـهـا فـي غـابِ
وتـسـتُـر الأرضَ عـن الـسَّـحَـابِ ... وتـحـجُـبُ الـشـمـسَ بـلا حِـجَـاب
يَـظـلُّ مـنـهـا الـجـوُّ فـي ٱغـتِـرابِ ... مُـسْـتَـوْحِـشـاً لِـلـطـيـر كـالـمُـرْتـابِ
ذكِـيَّـةٌ تـنـظـر مـن شِـهـاب ... ذاتُ جِـرانٍ واسـع الـجِـلْـبـابِ[3]
ومَـنْـكِـبٍ ضَـخْـمٍ أَثِـيـثٍ رابِـي ... ومَـنْـسِـرٍ مُـوَثَّـقِ الـنِّـصـابِ[4]
وراحَـتَـيْ لـيـثِ شَـرًى غَـلاّبِ ... نَـيـطـتْ إلـى بَـرَاثِـنٍ صِـلاَبِ
مُـزْهِـقَـةٍ أمـضـى مـن الـحِـرابِ ... وكـلُّ مـا حـلَّـق فـي الـضَّـبـاب

* لِـمُـلْـكِـهـا خـاضـعـةُ الـرِّقـاب *

وأمّا الزُّمَّج ـ فهو الصِّنف الثاني من العُقَاب، ويُعدّ من خِفَاف الجوارح. وهو سريعُ الحركةِ شديدُ الوَثْبة. ويُوصف بالغدر. ومن عادته أنه يتلقّف الطائرَ كما يتلقّفه البازي، ويَصيد على وجه الأرض كما تصيد العقابُ، ويُحمد من خَلْقه أن يكون أحمرَ اللون ولا يُحمد ما قُرْنِص[5] منه وَحْشِيّاً.

(١) سرت: مدينة على ساحل بحر الروم.
(٢) هو عبد الواحد بن نصر بن محمد الببغاء المخزومي الشامي (أبو الفرج) شاعر، ناثر، تنقل في البلاد ومدح سيف الدولة والكبار. كانت وفاته سنة ٣٩٨ هجرية (معجم المؤلفين ٦: ٢١٤).
(٣) الجران: باطن العنق، أو مقدمه.
(٤) الأثيث: الكثير والعظيم من كل شيء.
(٥) المقرنص: المقتنى للاصطياد.

وقد وصفه أبو الفَرَج البَبَّغاء فقال: [من الرجز]

يـا ربَّ سـرْبٍ آمِـن لـم يُـزْعَـجِ ... غـاديتُـه قـبـلَ الـصَّـبـاح الأَبْـلَـجِ
بـزُمَّـجٍ أذلَـقَ حُـوشٍ أَهْـوَجِ ... مُضَبَّرِ المَنْكِبِ صُلْب المَنْسِجِ[١]
ذي قَـصَـبٍ عَـبْـلٍ أصـمَّ مُـدْمَـجِ ... وجُـؤْجُـؤٍ كـالـجَـوْشَـنِ الـمُـدَرَّجِ[٢]
وعُـنُـقٍ سـامٍ طـويـلٍ أعـوجِ ... ومَـنْـسِـرٍ أقْـنـى فَـسيـح مُـشْـرَجِ[٣]
مُنْخَرِق الـمَـدْخَـلِ رَحْب الـمَـخْـرج ... ومـقـلـةٍ تَـشِـفُ عـن فَـيْـرُوزَجِ
نـاظـرةٍ مـن لَـهَـبٍ مـؤجَّـجِ ... وهـامـةٍ كـالـحـجـر الـمُـدَمْـلَـجِ

* ومِـخْـلَـبٍ كـالـمِـعْـوَل الـمُـعَـوَّجِ *

ذكرُ مَا قِيلَ في البَازِيّ

قالوا: والبازي خمسة أصناف، وهي البازي، والزُّرَّقُ والباشَقُ، والعَفْصِيُّ، والبَيْدَقُ.

فأمّا البازي ـ فهو الثاني من الجوارح، وهو أحرّ هذه الأصناف الخمسة مِزاجاً، لأنه قليلُ الصبر على العطش. ومأواه مَساقِطُ الشجر العادِيّة الملتفّة والظلُّ الظَّليل ومُطَّرَدُ المياه. وهو لا يتخذ وَكْراً إلا في شجرة لها شَوْك. وإذا أراد أن يُفَرِّخ بَنَى لنفسه بيتاً وسقفه تسقيفاً جيّداً يقِيه من المطر ويدفع عنه وَهَجَ الحرّ. وسبيله في البرد أن يُدْفأ بالنار ويُجعَل تحت كَفَّيْه وبرُ الثعالب واللُّبودُ[٤]؛ وفي الصيف أن يُجعل في بيت كَنِينٍ باردِ النَّسيم ويُفرشَ له الرَّيْحانُ والخَلافُ[٥]. وهو خفيف الجَناح، سريع الطيران، يَلُفُّ طيرانَه كالْتفافِ الفَوَاخِتِ[٦]؛ ويَسهُل عليه أن يَزُجَّ بنفسه صاعداً وهابطاً وينقلبَ على ظهره حتى يلتَقِفَ فريستَه. والإناثُ منه أجرأ على عِظام الطير من الذُّكور. ويقال: إن الإناث إذا كان وقتُ سِفَادِها يغشاها جميعُ أنواع الضَّوَاري: الزُّرّق والشاهين والصَّقْر،

(١) الدلق: خروج الشيء من مخرجه سريعاً ـ الحوش: القويّ ـ والمضبر: الذي اكتنز لحمه ـ ومنسج الدابة: ما بين العرف وموضع اللبد.
(٢) الجؤجؤ: الصدر ـ والجوشن: الدرع.
(٣) المنسر: هو للطائر كالمنقار لغير الجارح.
(٤) اللبود: جمع اللبد، وهو كل شعر أو صوف متلبد؛ أو هو ما يوضع تحت السرج؛ أو هو ضرب من البسط.
(٥) الخلاف: صنف من شجر الصفصاف.
(٦) الفواخت: جمع فاختة، وهي من ذوات الأطواق.

وإنها تبيض من كل طائر يغشاها؛ ولهذا تجيء مختلفةَ الأخلاقِ. والبازي يصيد ما بين العصفور والكُرْكِيّ[١]. ومن عادته أنه إذا أخطأ صيدَه وفاتَه وكان في بَرِّيَّةٍ لا شجر فيها ولّى مُمْعِناً حتى يجدَ كهفاً أو جِداراً يأوِي إليه؛ ولهذا عُلِّقَ عليه الجرسُ ليَدُلَّ على مكانه إذا خَفِي.

وصفةُ الجيّد منه المحمودِ في فعله أن يكون قليلَ الريش، أحمرَ العينيْن حادَّهما وأن تكونا مُقْبِلتين على مِنْسَره وحِجاجَاهما[٢] مُطِلَّين عليهما، ولا يكون وضعهما في جنبيْ رأسه كوضع عيني الحمام. والأزرقُ منه دون الأحمر العينِ؛ والأصفرُ دونهما. وسَعَةُ أشداقه تدلُ على قوّة الافتراس. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويلَ العنق، عريضَ الصدر، بعيدَ ما بين المَنْكِبين، شديدَ الانخراط إلى ذَنَبه، وأن تكون فخِذاه طويلَتين مُسَرْوَلَتين بريش، وذراعاه قصيرتَين غليظتَين، وأشاجِع[٣] كَفّيْه عاريةً، وأصابعُه متفرقةً، ولا تكون مجتمعةً ككفِّ الغراب، ومخلَبُه أسود، ويكون طويل المِنْسَر دقيقه. وأفخرُ ألوانهُ الأبيضُ ثم الأشهبُ، وهما لونان يدُلاّن على الفراهة والكرم. وأما الأسود الظهرِ المُنَقَّش الصدرِ بالبياض والسواد فهو يدلّ على الشدّة والصَّلابة. وإن اتّفقَ أن يكون هذا أحمرَ العين كان نِهايةً. وهذا اللونُ في البُزاة كالكُمَيْت في الخيل. والأحمرُ في البُزَاة أخبَثُها وبعضُ الناس يقول: أشرفُ البُزاة الطُّغْرُل، ثم البَازي التامُّ وهو الذي وصفناه آنِفاً. والطُّغْرُل: طائرٌ عزيزٌ نادرُ الوقوع لا يعرفه غيرُ التُّركِ، لأنه يكون في بلاد الخَزَر وما والاها وما بين خُوارَزْم إلى أَرْمِينِيَة، وهو يَجمع صيدَ البازي والشاهين. وقيل: إنه لا يَعْقِر شيئاً بمخْلَبه إلاّ سمّه.

وأوّلُ من صاد البازي «لُذَرِيقُ» أحدُ ملوك الروم الأُوَل؛ وذلك أنه رأى بازياً إذا علا كَتَف[٤] وإذا سفَل خَفَق[٥]، وإذا أراد أن يسموَ دَرَق[٦]؛ فاتّبعه حتى اقتحم شجرةً ملتفةً كثيرةَ الدَّغَل؛ فأعجبته صورتُه، فقال: هذا طائر له سلاحٌ تتزيّن بمثله الملوك؛ فأمر بجمع عدّة من البُزاة فجُمِعت وجُعِلت في مجلسه. فعرَض لبعضها أَيْم[٧] فوثَب عليه؛ فقال: مَلِكٌ يغضَب كما تغضب الملوكُ. ثم أمرَ به فنُصِب على كُنْدُرةٍ[٨] بين

---

(١) الكركيّ: طائر يقرب من الوز أبتر الذنب رماديّ اللون.
(٢) الحجاج: العظم المستدير حول العين.
(٣) الأشاجع: رؤوس الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف.
(٤) الكتف: ضرب من الطيران.
(٥) خفق الطائر: طار. (٦) درق: أسرع.
(٧) الأيم: الحية.
(٨) كندرة البازيّ: مجثمه الذي يهيأ له من خشب أو مدر.

يديه، وكان هناك ثعلبٌ فمرّ به مجتازاً، فوثَب عليه فما أفلتَ منه إلاّ جريحاً؛ فقال لُذَرِيق: هذا جَبَّارٌ يمنع حِمَاه. ثم أَمر به فضُرِّيَ[1] على الصيد؛ وٱتخذته الملوكُ بعده.

وقد وصفته الشعراءُ والأدباء، فمن ذلك قولُ الناشِيء: [من الرجز]

لما تَعَرَّى الليْلُ عن أَنْسَاجِه وٱرتاح ضوءُ الصبح لانبلَاجِهِ
غَدَوْتُ أبغي الصيدَ من مِنْهاجِه بأقْمَرٍ أُبْدِع في نِتاجِه
أَلبَسه الخالقُ من دِيباجِه ثوباً كفى الصانعَ من نِسَاجِه
حالٍ من الساق إلى أوْدَاجِه وَشْياً يَحار الطَّرْفُ في ٱندِرَاجِه
في نَسَقٍ منه وفي ٱنعراجِه وزانَ فَوْدَيْه إلى حِجَاجِه[2]
بزينةٍ كَفَتْه عِزَّ تاجِه مَنْسِرُه يُثني على خِلَاجِه
وظُفْره يُخبر عن عِلاجِه لو ٱستضاء المرء في إدلاجِه
* بعينه كفته عن سِرَاجِه *

وقال ٱبنُ المعتزّ يصف عينَ البازي:

ومقلة تَصْدُقُه إذا رَمَقْ كأنها نَرْجَسةٌ بلا وَرَقْ

وقال أيضاً فيه:

وفتيانٍ غَدَوْا والليلُ داجٍ وضوءُ الصبح مُتَّهَمُ الطلوعِ
كأن بُزَاتَهم أمراءُ جيشٍ على أكتافها صدأُ الدُّروعِ

وقال أيضاً: [من الرجز]

ومَنْسِرٍ عَضْبِ الشباةِ دامي كعَقْدِك الخمسين بالإبهام[3]
وخافقٍ للصّيد ذي ٱصْطِلام ينشرُه للنَّهْض والإقدام[4]
* كَنَشْرِكَ البُرْدَ على المُسْتَامِ *

ووصفه أبو إسحاق إبراهيم بن خَفَاجة الأندلسيّ فقال من رسالة:

«طائرٌ يُستدلّ بظاهرِ صفاته، على كرم ذاته؛ طوراً ينظر نظرَ الخُيَلاء في عِطْفِه كأنمّا يُزْهَى جبّار، وتارةً يَرمِي نحوَ السماء بِطَرْفه كأنما له هناك ٱعتبار. وأخلِقْ به أن

---

(١) ضري على الصيد: أكره وعوّد عليه.
(٢) الحجاج: العظم المستدير حول العين.
(٣) طريقة حسابية كانت معهودة عند العرب وتعرف بحساب عقود الأصابع.
(٤) نشر: بسط.

ينقضّ على قَنِيصِه شِهاباً، ويَلْوِي به ذَهاباً، ويُحْرِقه تَوَقّداً والْتهاباً. وقد أقيم له سابغُ الذُّنَابى والجَناح، كَفِيلَيْن في مطالبه بالنّجاح. جيّد العين والأَثَر حديدُ السمع والبصر. يكاد يُحسّ بما يجري ببال، ويَسْرِي من خيال. قد جمع بين عزّة مليك، وطاعةِ مملوك، فهو بما يَشتمل عليه من علوّ الهمة، ويَرجع إليه بمقتضى الخدمة؛ مُؤَهَّل لإحراز ما تقتضيه شمائلُه، وإنجازِ ما تَعِدُ به مَخَايلُه. وخليق بمُحْكَم تأديبه، وجَوْدَةِ تركيبه؛ أن لو مَثَلَ له النجمُ قَنَصا، أو جرى بذكره البرقُ قَصَصا؛ لاختطفه أسرعَ من لَحْظه، وأطوعَ من لَفْظه؛ وانْتسفَه[1] أمضى من سهم، وأجرى من وَهْم. وقد أقسم بشرف جوهره، وكريم عُنصره، لا يُوجَّه مُسَفَّراً، إلا غادر قَنِيصَه مُعَفَّرا[2]، وآبَ إلى يد من أرسله مُظَفَّراً؛ مُورَّد المِخْلب والمِنقار، كأنما اخْتَضَب بحنّاء أو كَرَعِ في عُقَار»[3].

وله من أبيات يمدح بها: [من الكامل]

طَرَدَ القَنيصَ بكلّ قَيْدِ طَريدةٍ ... زَجِلَ الجَناح مورَّدَ الأظفارِ[4]

مُلْتَفَّةً أعطافُه بحَبِيرةٍ ... مكحولة أجفانُه بنُضَارِ[5]

يَرمي به الأمدَ البعيدَ فَيَنْثني ... مخضوبَ راءِ الظُّفْر والمنقارِ

وأمّا الزُّرَّقُ - وهو الصِّنف الثاني من البازي، هو باز لطيفٌ، إلا أن مِزَاجَه أحرُّ وأَيْبَس، وهو لذلك أشدُّ جَناحاً وأسرعُ طَيَراناً وأقوى إقداماً. وفيه خَتْلٌ وخُبْثٌ؛ وذلك أنه إذا أُرسِل على طائر طار في غير مَطَاره ثم عطفَ عليه وأظهر الشدّةَ بعد اللين. وخيرُ ألوانه الأسودُ الظهرِ الأبيضُ الصدرِ الأحمرُ العين. ووصفُه المحمود منه أن يكون أعدلَها خَلقاً، وأقلَّها رِيشاً، وأثقلَها مَحْمِلاً، وأملأَها فَخذاً، وأرحبَها شِدْقاً، وأوسَعها عيْناً، وأصغَرها رأساً وأصفاها حَدَقَةً، وأطولَها عُنُقاً، وأقصَرها خافِيةً، وأشدَّها لَحْماً، وأن يكون أخضرَ الرجلين، وسيعَ المخالب، مُتَعَرِّياً من اللحم. والله أعلم.

وأمّا الباشقَ - وهو الصنف الثالث من البازي. وهو أحرّ وأيْبَسُ من الزُّرّق، وهو هَلِعٌ قَلِقٌ ذَعِر، يأنَس وقتاً ويَستوحِش وقتاً. ونفْسُه قويّة جافيةٌ. فإذا أُنِس منه الصغيرُ بُلِغ منه كلُّ المراد. وأجودُ البَاشق ما أخِذ فرخاً لم يُلْقِ من قوادِمِه رِيشة. وهو متى تمّ

(١) انتسف الطائر الشيء عن وجه الأرض: قلعه.
(٢) المعفر: الذي مسح بالتراب.
(٣) العقار: الخمر.
(٤) الزجل: رفع الصوت والجلبة.
(٥) الحبر في البرود: الموشى المخطط.

تأنيسُه وُجِد منه بازٍ خفيفُ المَحْمَلِ ظريفُ الشمائل.

ومن صفاته المحمودةِ أن يكون صغيرَ المَنْظَرِ، ثقيلَ المَحْمَلِ، طويلَ الساقينِ والفخِذين، عظيمَ السِّلاح بالنسبة إلى جسمه.

وقال بعضُ الشعراء يصفه: [من المتقارب]

إذا بـارك الـلَّـهُ فـي طـائـرٍ ... فَـخـص مـن الـطـيـر اسْـبَـهْـرَقِـي
لـه هـامـةٌ كُـلِّـلَـت بـالـلُّـجَـيْـنِ ... فـسـال الـلُّـجَـيْـنُ عـلـى الـمَـفْـرِقِ
يُـقَـلِّـب عـيـنـيـن فـي رأسـه ... كـأنـهـمـا نـقـطـتـا زِئْـبَـقِ
واشْـرَبَ لـونـاً لـه مُـذْهَـبـاً ... كـلـون الـغَـزَالـة فـي الـمَـشْـرِق
حِـمـامُ الـحَـمـامِ وحَـتْـفُ الـقَـطـا ... وصـاعِـقَـةُ الـقَـبْـجِ والـعَـقْـعَـقِ[(١)]
وأحـنـى عـلـيـك إلـى أن يـعـود ... إلـيـك مـن الـوالـد الـمُـشْـفِـقِ
فـأكْـرِمْ بـه وبـكـفِّ الأمـيـر ... وبـالـدَّسْـتَـبَـانِ إذا يَـلْـتَـقِـي[(٢)]

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الطويل]

يسمو فيَخْفَى في الهواء ويَنْكَفِي ... عَجِلاً فينقضُّ انْقضاضَ الطارق
وكـأن جُـؤْجُـؤَه وريـش جـنـاحِـه ... خُضِبا بنَقْش يدِ الفتاةِ العاتِقِ[(٣)]
وكـأنـمـا سـكَـن الـهـوى أعـضـاءَه ... فـأعـارهـنّ نـحـولَ جسـمِ الـعـاشـقِ
ذا مـقـلـةٍ ذهـبـيّـةٍ فـي هـامـةٍ ... مـحـفـوفـةٍ مـن ريـشـهـا بـحـدائـقِ
ومـخـالـبٍ مـثـلِ الأهِـلَّـةِ طـالـمـا ... أدْمَـيْـنَ كـفَّ الـبَـازيـارِ الـحـاذِقِ
وإذا انْـبَـرى نـحـوَ الـطـريـدةِ خِلْـتَـه ... كـالـرِّيـح فـي الأسـمـاع أو كـالـبـارق
وإذا دعـاه الـبَـازيـار رأيـتَـه ... أَدْنَـى وأطـوعَ مـن مـحـبٌّ وامـقِ[(٤)]
وإذا الـقَـطـاةُ تـخـلّـفـتْ مـن خـوفـه ... لـم يَـعْـدُ أن يـهـوي بـهـا مـن حـالِـقِ

ومن رسالة لبعض فضلاء الأندلس، جاء منها:

«كأنما اكتحَلَ بلَهَب، أو انتعل بذهب. ملتفٌ في سِبْرِه، وملتحفٌ بِجَبْرِه. من سيوفه مِنقارُه، ومن رماحه أظفارُه. ومن اللواتي تتَنافس الملوكُ فيها، تُمسكها عُجْباً بها

(١) القبج: الحجل، وهو جنس طيور تصاد.
(٢) الدستبان: الضارب بالدستان، وهي النغمة بالفارسية.
(٣) العاتق: الجارية أول ما أدركت والتي لم تتزوج.
(٤) الوامق: المحب.

وتِيهاً. فهي على أيديها آيةٌ بادية. ونعمةٌ من الله نامية، تَبذُل لك الجهدَ صُراحاً، وتُعيرك في نَيْل بُغْيتك جَناحاً. وتَتّفق معك في طلب الأرزاق، وتأتَلِف بك على اختِلاف الخَلْق والأخلاق. ثم تلوذ بك لِياذَ من يَرْجوك، وتفي لك وفاءً لا يلتزمه لك ابنُك ولا أخوك». ثم ذكرَ حمامةً صادها، فقال: «اختطفَها أسرعَ من اللّحظ، ولا مَحِيدَ لها عنه، وانحدر بها أعجلُ من اللّفظ، وكأنها هي منه؛ ثم جعل يتناولها بعَقْد السبعين، ويُدْخلها في أضيقَ من التسعين. وكان لها موتاً عاجلاً، وكانت له قُوتاً حاصِلاً». والله الهادي للصواب.

وأمّا العَفْصِيُّ - وهو الصنف الرابع من البازي. وهو من الباشَق كالزُّرّق من البازي، إلا أنّه أصغرُ الجوارح نَفْساً، وأضعفُها حِيلةً، وأشدُّها ذُعراً، وأَيْبَسها مِزاجاً. وربما صاد العصفورَ وتركه لخوفه وحَذَره. ومن عادته أنّه يَرْصُد الطيرَ أيام حِضَانِه، فإذا طار عن وَكْرِه خلَفَه فيه وكسَر بيضَه ورماه وباض مكانَه وطار عنه فيحضُنه صاحبُ الوكر؛ فهو أبداً لا يحضُن ولا يُرَبِّي.

وأمّا البَيْدَق - وهو الصنف الخامس من البازي، وهو لا يصيد غيرَ العصافير. وقد وصفه كُشَاجِمُ فقال: [من الرجز]

حَسْبي من البُزاةِ والزَّرَارِقِ ... بِبَيْدَقٍ يصيد صيدَ الباشَقِ
مُؤَدَّبٍ مُدَرَّبِ الخَلائِق ... أَصْيَد من معشوقةٍ لعاشِقِ
يَسْبِق في السُّرْعة كلَّ سابقِ ... ليس له عن صيده من عائقِ
رَبَّيْتُه وكنتُ عينَ الواثِق ... أن الفَرَازِينَ من البَيَادق[1]

ذكرُ ما قِيلَ في الصَّقْرِ

والصقرُ ثلاثةُ أصنافٍ، وهي صقرٌ، وكَوْنَجٌ، ويُؤْيُؤٌ.

فأمّا الصقر - هو النوع الثالث من الجوارح. والعرب تُسمّي كل طائرٍ يصيد صقراً، ما خلا النّسر والعُقَاب، وتسمّيه «الأكدرَ» و«الأجدل». وهو من الجوارح بمنزلة البغال من الدّوابّ، لأنه أصبر على الشدّة وأشدُّ إقداماً على جلّة الطير كالكَرَاكيّ والحَبَارِج[2]. قالوا: ومِزاجُه أبردُ من سائر ما تقدم ذِكرُهُ من الجوارح وأرطب. وهو يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنها تفوتُه. وفعلُه في صيده

(١) الفرازين: جمع فرزان، وهو الملكة بالفارسية.
(٢) الحبارج: واحدتها حبرج (بضم أوله)، وهو من طير الماء.

الانْقِضاض والصَّدْمُ. وهو غير صافٍّ[١] بجناحه ولا خافقٍ به. ومتى خفقَ بجناحه كانت حركتُه بطيئةً بخلاف البازي. ويقال: إنه أَهْدأُ نفساً من البازي، وأسرع أُنساً بالناس، وأكثر رِضاً وقناعةً، وهو يَغْتَذِي بلحوم ذواتِ الأَرْبَع. وهو يَعاف المياهَ ولا يَقْرَبُها، وذلك لبَرْد مِزاجِه. وفي طبعه أنه لا يركب الأشجارَ ولا الشوامخَ من الجبال، ولا يأوي إلاّ المقابرَ والكهوفَ وصدوعَ الجبال. وهو يَنْقَى بالتَّمَعّك[٢] في الرّمل والتراب.

ومن صفاته المحمودة الدّالّة على نجابتِه وفراهتِه: أن يكون أحمرَ اللّون، عظيمَ الهامة، واسعَ العينين، تامَّ المنسر، طويلَ العنق والجناحين، رَحْبَ الصدر، ممتلىء الزَّوْر، عريضَ الوسط، جليلَ الفخذين، قصيرَ الساقَين والذَّنَب، قريبَ القَفْدَة[٣] من الفَقَار، سَبْطَ الكفّ، غليظَ الأصابع فَيْرُوزجَها، أسودَ اللسان، والله الموفّق.

وأوّلُ مَنْ صاد بالصقر وضَرَّاه الحارثُ بن معاوية بن ثَوْر بن كِنْدة. وسببُ ذلك أنه وقف في بعض الأيام على صيّاد قد نَصب شبكةً للعصافير، فٱنقضّ أَكْدَرُ على عصفور قد عَلِق في الشبكة فجعل يأكله وقد علِق الأكدر وٱندقّ جناحاه، والحارثُ ينظر إليه ويَعْجَبُ من فعله، فأمر به فَحُمِلَ فرُمِيَ به في كِسْرِ بيتٍ ووُكِّل به من يُطْعمه؛ وأنِس الصقرُ بالموكَّل به، حتى صار إذا جاءه باللحم ودعاه أجاب؛ ثم صار يُطْعِمه على يده وصار يحمله. فبينما هو يوماً حامِلُه إذ رأى حمامةً، فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها، فأمر الحارث عند ذلك بٱتّخاذها وتَدْرِيبها والتصيّد بها. فبينا هو يسير يوماً إذ لاحت أَرْنبٌ فطار الصقرُ إليها وأخذها؛ فلما رآه يصيد الطيرَ ويأكله ٱزداد به إعجاباً وٱغتباطاً، وٱتخذتْه العرب بعده.

ووصفه الشعراء؛ فمن ذلك ما قاله كُشَاجِم يصفه: [من الطويل]

غَدَوْنَا وطَرْفُ النجمِ وَسْنَانُ غائِرُ ... وقد نزل الإصباحُ والليل سائرُ
بأجْدَلَ من حُمْرِ الصقور مؤدَّبٍ ... وأكرمُ ما قَرَّبْتَ منها الأحامرُ[٤]
جريءٌ على قتل الظِّباء وإنّني ... ليُعْجِبني أن يَكْسِر الوحشَ طائرُ
قصيرُ الذُّنَابَى والقُدَامَى كأنّها ... قَوادِمُ نَسْرٍ أو سيوفٌ بواترُ[٥]

---

(١) صفّ الطائر جناحيه. بسطهما ولم يحركهما.
(٢) التمعك: التمرغ.
(٣) القفد: جزء من جانب الرأس الخلفي.
(٤) الأحامر: واحدتها أحمر.
(٥) القدام: ما يوضع على الفم سداداً له.

ورُقِّشَ منه جُؤجُؤٌ فكأنّه أعارته إعجامَ الحروف الدّفاترُ
فما زلتُ بالإضمارِ حتى صنعتُه وليس يحوز السبقَ إلاّ الضَّوامرُ
وتحمله منّا أكفٌّ كريمةٌ كما زُهيت بالخاطِبين المنابرُ
وعَنّ لنا من جانب السَّفْح رَبْرَبٌ على سَنَنٍ تَسْتَنّ منه الجآذِرُ[1]
فجلّى وحُلّت عُقْدةُ السير فأنتحى لأوّلها إذ أمكنته الأواخرُ[2]
يَحُثّ جناحيه على حُرّ وجهها كما فُصِّلَتْ فوق الخدود المَعَاجِرُ[3]
وما تَمّ رَجْعُ الطَّرْف حتى رأيتُها مُصَرَّعَةً تَهْوِي إليها الخَنَاجِرُ

وقال عبد الله بن المعتز: [من الرجز]

وأجدلٍ يفهم نُطْقَ الناطقِ مُلَمْلِم الهامةِ فَخْم العاتِقِ[4]
أفنى المَخَالِبِ طلوبٍ مارِق كأنها نُونَاتُ كفٍّ ماشِق
ذي جُؤجُؤٍ لابِس وَشْيٍ رائقِ كَمُبْتَدا اللاّمات في المَهَارِق[5]
أو كأمتدادِ الكحل في الحَمَالِق ونَجَّمَتْ باللّحظ عينُ الرامِق
عَشْراً من الإوَزِّ في غَلافِقِ فمرّ كالرِّيحَ بعَزْمٍ صادِق[6]
حتى دنا منهنّ مثلَ السارِق ثم علاها بجَناح خافِقِ
* فطَفِقَتْ من هالكٍ أو فائِقِ[7] *

وقال أيضاً: [من الرجز]

وأجدلٍ لم يَخْلُ من تأديبِ يَرى بعيد الشيء كالقريبِ
يَهْوي هُوِيَّ الدَّلْوِ في القَلِيبِ بناظرٍ مُسْتَغْجَم مقلوب
كناظِرِ الأقبَل ذي التَّقْطِيبِ رأى إوَزّاً في ثَرَى رَطِيبِ[8]
فطار كالمُسْتَوْهِلِ المرعوبِ ينفُذ في الشمال والجَنوبِ

(١) الربرب: القطيع من الظباء ومن البقر الوحشي والأنسي.
(٢) انتحى: قصد، أو مال إلى ناحية.
(٣) المعاجر: واحدتها المعجر، وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها.
(٤) الململم: المجمع المدور المضموم.
(٥) المهارق: واحدتها المهرق، وهو الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٦) الغلافق: واحدتها غلفق، وهو الطحلب.
(٧) يقال: فاق الرجل: إذا كانت نفسه على الخروج.
(٨) الأقبل: الذي أقبلت حدقتاه على أنفه.

وأمّا الكَوْنَجُ ـ وهو الصنف الثاني من الصقر. ويُسمَّى بمصر والشأم السّقاوية. ونسبتُه من الصقر كنسبة الزُّرَّقِ من البازي، إلا أنه احَرُّ منه؛ ولذلك هو أخفُّ منه جَناحاً. وهو يصيد الأرنبَ، ويعجز عن الغزال لصغره؛ ويصيد أشياء من طيرِ الماء. وشدّةُ نَفْسه أقلُّ من شدّة بدنه؛ ولأجل ذلك أطول في البيوت لُبْثاً، وأصبرُ على مقاصاة الشقاء من الصقر. وفي وصفه يقول بعضُ الشعراء: [من الرجز]

إن لم يكن صقرٌ فعندي كَوْنَجْ   كأنّ نَقْشَ ريشه المُدَرَّجْ
بُرْدٌ من المَوْشِيّ أو مُدَبَّجْ   فكم به للطير قلبٌ مُزْعَجْ
ممزَّقٌ بدَمِه مُضَرَّجْ   بمثله عنّا الهموم تُفْرَجْ

وأمّا اليُؤْيُؤ ـ وهو الصِّنف الثالث من الصقر. ويسمّيه أهل مصر والشأم «الجَلَم» لخفّة جناحَيه وسرعتهما. وهو طائر قصير الذَّنَب. ومِزاجُه بالإضافة إلى الباشَق باردٌ رَطْبٌ، لأنه أصبر منه نَفْساً وأثقلُ حركةً. ويشرب الماءَ شرباً ضروريّاً كما يشربه الباشَقُ. ومِزاجُه بالنسبة إلى الصقر حارٌّ يابس، ولذلك هو أشجع منه، لأنه يتعلّق بما يفترسه، ويصيد ما هو أجلّ منه كالدُّرَّاج. ويقال: إنّ أوّل من صاد به واتَّخَذَه لِلَّعب بَهْرام جُور؛ وذلك أنه شاهد يُؤْيؤاً يُطارد قُبَّرةً ويُرَاوِغها ويرتفع معها إلى أن صادها؛ فأعجبه واتّخذه وصاد به.

وقال عبد الله النّاشىء يصفه:

ويُؤيؤٍ مهذَّبٍ رشيقِ   كأنّ عينيه على التحقيق
* فَصّانِ مخروطانِ من عَقِيقِ *

وقال أبو نُوَاس: [من الرجز]

قَدْ أغتدِي والصبحُ في دجاه   كطُرّة البُرْد على مَتْناهُ[1]
بيؤيؤٍ يُعْجِب من رآه   ما في اليآيي يؤيؤٌ شَرْواه[2]
أزرقُ لا تكذِبه عيناه   فلو يرى القانصُ ما يراه
* فَدَّاه بالأُمّ وقد فَدّاه *

وقال أبو إسحاق الصّابي[3] يصفه من رسالة:

---

(١) الطرّة: الجبهة.
(٢) شروى الشيء: نظيرة.
(٣) هو إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الصابىء، الحراني (أبو إسحاق)، عالم بأنواع الحكمة، والغالب عليه علم الهندسة، وله مصنفات كثيرة. كانت وفاته سنة ٣٣٥ هجرية. (معجم المؤلفين ١ : ٣٦).

«وكم من قُبَّرٍ أطلقنا عليه يؤيؤاً لنا فعَرَج إلى السماء عُروجاً، ولجّجَ في أثَرِه تلجيجاً؛ فكان ذلك يعتصم منه بالخَلّاق، وهذا يَستطعِمُه من الرّزّاق؛ حتى غابا عن النُّظّار، واْحتجبا عن الأبصار؛ وصارا كالغَيْب المُرَجَّم، والظنْ المتوهَّم؛ ثم خِطفه ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد؛ فأعجَبنا أمرُهما، وأطربَنا منظرُهما».

ذكرُ مَا قِيلَ في الشَّاهِينِ

والشاهينُ ثلاثة أصناف، وهي شاهين، وأَنِيقي، وقَطَامِيّ.

فأما الشاهين ـ واْسمه بالفارسية شَوْذَانه، فعرّبته العربُ على ألفاظ شَتَّى منها: شُوذانِق وشَوْذَق وشَوْذَنيق وشَيْذَنوق. ويقال: إنه من جنس الصقر إلا أنه أبردُ منه وأيبس؛ ولذلك تكون حركتُه من العُلْو إلى السُّفْل شديدةً، وليس يحلّق في طلب الصّيد على خطّ مستقيم إنما يحوم لثِقَل جَناحه، حتى إذا سامتَ الفريسةَ اْنقضّ عليها هاوياً من عُلْوٍ فضربها وفارقها صاعداً؛ فإن سقطتْ على الأرض أخذها، وإن لم تسقُط أعاد ضربَها لتسقط؛ وذلك دليلٌ على جُبْنه وفتورِ نَفْسه وبَرْد مِزاجِ قلبه. ومع ذلك كلِّه فهو أسرعُ الجوارح وأخفُّها وأشدُّها ضَرَاوةً على الصيد. إلاّ أنهم عابوه بالإبَاق[١] وبما يعتريه من الحِرْص؛ حتى إنه ربما ضرب بنفسه الأرضَ فمات. ويزعمون أنّ عظامَه أصلبُ من عظام سائر الجوارح؛ ولذلك هو يضرِب بصدره ويعلَق بكفِّه.

وقال بعضُ من تكلّم في هذا النوع: الشاهين كاْسمه. يريد شاهي[٢] الميزان لأنه لا يحتمل أدنى حال من الشِّبَع ولا أيسَر حالٍ من الجوع.

والمحمودُ من صفاته: أن يكون عظيمَ الهامَة، واسعَ العينين حادَّهما، تامَّ المِنْسَر، طويلَ العنق، رَحْبَ الصدر ممتلىء الزَّوْر، عريضَ الوسط، جليلَ الفخِذين، قصيرَ الساقين، قريبَ القَفْدة من الظهر، قليلَ الرِّيش ليِّنَه، تامَّ الخوافي، دقيقَ الذَّنَب، إذا صَلَّب عليه جناحيه لم يفضُل عنهما شيءٌ منه. فإذا كان كذلك فهو يقتل الكُرْكِيَّ ولا يفوته، وزعم بعضُهم أنّ السُّودَ من الشواهين هي المحمودة، وأن السواد أصل لونها، وإنما أحالته التُّرْبة، ويكون في الشواهين المُلَمَّع. والله أعلم.

وأوّلُ من صاد بالشَّوَاهِين قسطنطين ملك عَمُّورِيَّة[٣]. حُكِي أنه خرج يوماً يتصيَّد، حتى إذا أتى إلى مَرْج فَسيح نظر إلى شاهين يَنْكَفِئُ على طير الماء؛ فأعجبه ما

(١) الإباق: الهروب.
(٢) شاهين الميزان: لسانه.
(٣) عمورية: بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم في سنة ٢٢٣ هجرية.

رأى من سرعته وضَرَاوته وإلحاحِه على صيده، فأخذه وضَرّاه؛ ثم رِيضتْ له الشَّوَاهين بعد ذلك وعُلِّمت أن تَحُوم على رأسه إذا ركِب فتُظِلّه من الشمس؛ فكانت تنحدِر مرْة وترتَفِع أخرى، فإذا نزل وقعتْ حولَه.

وقد وصف الشعراءُ الشواهينَ وشبّهوها، فمن ذلك قولُ النَّاشيء: [من الرجز]

هـل لـك يـا قَـنَّـاصُ فـي شـاهـيـنِ ... شُـــوذَانِـــقٍ مـــؤدَّبٍ أمـــيـــنِ
جـاء بـه الـسـائـسُ مـن رَزِيـنِ ... ضَرّاه بـالـتَّـخـشـيـن والـتَّـلْـيِـين
حـتـى لأَغْـنَـاه عـن الـتـلـقـيـنِ ... يـكـاد لـلـتـثـقـيـفِ والـتَّـمْـرِيـنِ
يَعرف مـعـنـى الـوَحْـي بـالـجـفـونِ ... يَـظَـلُّ مـن جَـنـاحِـهِ الـمَـزيـنِ
فـي قُـرْطَـقٍ مـن خَـزِّه الـثـمـيـنِ ... يُـشـبـه مـن طِـرَازِه الـمَـصُـونِ[1]
بُـرْدَ أَنُـو شِـرْوانَ أو شـيـرِيـنَ ... أحْوَى مَجارِي الدَّمعِ والشؤون[2]
ذي مِـنْـسَـرٍ مُـؤلَّـلٍ مَـسْـنـون ... وافٍ كـشَـطْـر الـحـاجـب الـمَـقْـرونِ
مُـنْـعَـطِـفٍ مـثـلَ انـعـطـافِ الـنـون ... يُـبـدي اسـمُـه مـعـنـاه لـلـعـيـون

وقال أبو الفتح كُشَاجم وبدأ بالكُرْكِيّ: [من الرجز]

يـا ربَّ أسـراب مـن الـكَـرَاكِـي ... مُـطْـمِـعـة الـسـكـون فـي الـحَـرَاكِ
بـعـيـدةِ الـمَـنَـالِ والإدْراكِ ... كُـدْرٍ وبِـيضِ الـلّـون كـالأفْـنَـاكِ[3]
تَـقْـصُـر عـنـهـا أسـهـمُ الأتـراكِ ... ذُعِـرْنَ قـبـل لَـغَـطِ الـمَـكَـاكِـي[4]
وقـبـلَ تـغـريـد الـحـمـامِ الـبـاكـي ... بـفـاتـكٍ يُـرْبِـي عـلـى الـفُـتّـاكِ
مـؤدَّبِ الإطـلاق والإمْـسـاكِ ... مُـلَـمْـلَـمِ الـهـامّـة كـالـمَـداك[5]
مثل الكَمِيّ في السّلاح الشّاكي ... ذي مِـنْـسَـرٍ ضـخـمَ لـه شَـكَّـاكِ
ومِـخْـلَـبٍ بـحـدّه بَـتَّـاكِ ... لـلـحُـجْـبِ عـن قـلـوبـهـا هَـتَّـاكِ[6]
حـتـى إذا قـلـتُ لـه دَرَاكِ ... وحَـلَّـقـتْ تـسـمـو إلـى الأفـلاكِ

(١) القرطق: قباء ذو طاق واحد.
(٢) شيرين: اسم حظية كسرى أبرويز.
(٣) الأفناك: واحدتها فنك، وهو دويبة يؤخذ منه الفرو.
(٤) المكاكي: واحدتها مكاء، وهو طائر في ضرب القبرة، إلا أنه في جناحيه بلقاً؛ وسمي بذلك لأنه يمكو، أي يصفر.
(٥) المداك: حجر يسحق عليه الطيب.
(٦) تباك: قطاع.

مُـمْـتَـدَّةَ الأعـنـاق والأوْراكِ مُـوقِـنـةً بـعـاجـلِ الـهَـلاكِ
غـادرهـا تـهـوِي عـلـى الـدِّكَـاكِ أسْـرَى بـكـفَّـيْـه بـلا فَـكَـاكِ[1]
يـا غـدوات الـصـيـد مـا أحـلاك ومُـنْـيَـةَ الـشـاهـيـن مـا أقـواكِ
لـم تَـكْـذِبـي فِـرَاسَـةَ الأمـلاكِ إيّـاك أعـنـي مـادحـاً إيّـاكِ

وأمّا الأنِيقيّ ـ وهو الصِّنف الثاني من الشاهين. وتسميه أهلُ العراق الكرّك. وهو دون الشاهين في القوّة، إلا أنّ فيه سرعة. وهو يصيد العصافير. وفيه يقول الشاعر: [من الوافر]

غَـنِـيـتُ عـن الـجَـوَارح بـالأنِـيـقـي بـمـثـل الـرِّيـح أو لـمـعِ الـبُـروقِ
أَصُـبُّ بـه عـلـى الـعُـصـفـور حَـتْـفـاً فـأرْمـيـه بـصـخـرة مَـنْـجَـنِـيـقِ

وأمّا القُطَامِيّ ـ وهو الصِّنف الثالث من الشاهين، وتسميه أهل العراق «البَهْرَجَة». يقال: إنه في طبع الشاهين، والعرب تُخالف ذلك، وتسمّي بعضَ الصقور القُطَامِيّ؛ والمُعْتَنُون بالجوارح يخالفونهم في ذلك.

فَصْلٌ

وممّا ناسبَ الجوارحَ في الافتراس وأكل اللحم الحيّ «الصُّرَدُ»، ويُسَمَّى «الشَّقَّراق» و«الأَخْطَب»، و«الأخْيَل»، وقيل: إنّ من أسمائه «الواق» وبعضُهم يسمّيه «بازي العصافير». وهو طائر مُوَلَّعٌ بسواد وبياضٍ، ضخمُ المِنقار. وفي طبعه شَرَهٌ وشراسة وسرقةٌ لفراخ غيره ونفورٌ من الناس. وهو يصيد الحيّات ويغتذِي باللَّحم، ويأوِي الأشجارَ ذواتِ الشَّوْك وفي رؤوس التِّلاع، حَذَراً على نفسه ممن يَصيده. وهو يتحيّل في صيد ما دونه من الطير كالعصفور.

هذا ما ظَفِرت به في أثناء المطالعة من سِباع الطير ممّا تكلّم عليه أربابُ هذا الفن. وقد أهملوا أصنافاً، منها ما هو أجلُّ من جميع ما ذكرناه، وهو «السُّنقر».

والسّنقر ـ طائر شريف، حسنُ الشَّكْل، أبيضُ اللّون بنقط سود. والملوك تَتَغالى فيه وتَشْتَريه بالثمن الكثير. وكان فيما مضى من السنين القريبة يُشْتَرى من التّجار بألف دينار؛ ثم تناقَصَ ثمنُه حتى آستقرّ الآن بخمسةِ آلافِ درهم. ولهم عادةٌ. أنّ التّجار إذا حملوه وأَتَوْا به من بلادِ الفِرنجْ فمات منهم في الطريق قبل وصولهم أحضروا ريشَه إلى أبواب الملوك، فيُعْطَوْن نصفَ ثمنه إذا أَتَوْا به حيّاً؛ كل ذلك ترغيباً لهم في حملها

(١) الدكاك: واحدتها الدكة، وهي ما استوى من الرمال وسهل.

ونقلها إلى الديار المصريّة. وهذا الطيرُ لا يشتريه غير السلطان ولا يلعَب به غيرُه من الأمراء إلا من أنعم السلطان عليه به. والله أعلم.

وممّا أهملوا الكلام فيه «الكوهيّة» و«الصيفيّة» و«الزغزغي» وهو يُعَدّ من أصناف الصقر. ولم أجد مَنْ أثق بنقله وعلمه بهذه الأصناف فأنقل عنه أخلاقَها وطبائعها وعاداتها.

وقال أبو إسحاق الصابي في وصف الجَوارح من رسالة طَرْدِيّة جاء منها:

«وعلى أيدينا جوارحُ مؤلَّلةُ المخالب والمَناسر، مُذَرَّبة(١) النِّصال والخناجر، طامحةُ الألحاظ والمناظر؛ بعيدةُ المَرامي والمطارح؛ ذكيّة القلوب والنفوس، قليلة القُطُوب والعُبُوس؛ سابغةُ الأذناب، كريمةُ الأنساب؛ صُلْبَةُ الأعواد، قويّة الأوصال؛ تزيد إذا أُلحِمَتْ(٢) شرهاً وقَرَماً(٣)، وتَتَضاعَف إذا أُشْبِعَتْ كَلَباً ونَهَماً. ثم خرج إلى وصف الحمام فقال: فلما أوفينا عليها، أرسلنا الجوارحَ إليها؛ كأنها رسلُ المنايا؛ أو سِهام القضايا؛ فلم نَسْمَع إلا مُسَمِّياً، ولم نَر إلا مُذَكِّياً».

البَابُ الثَّانِي
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ منَ الفَنِّ الثَّالِثِ
في كِلابِ الطَّيْرِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في النَّسر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغراب. وإنما سمّيت هذه الأصناف بالكلاب لأنها تأكل المَيْتَة والجِيَفَ وتقصِدها وتقع عليها، فهي في ذلك شبيهة بالكلاب.

ذكر ما قيل في النّسْر

والنَّسر ذو مِنْسَر وليس بذي مَخْلب، وإنما له أظفار حِدادٌ، كالمخَالب، وهو يَسْفِد كما يسفِدَ الديكُ. وزعم من تكلّم في طبائع الحيوان أنّ الأنثى من هذا النوع تَبيضُ من نظر الذَّكَر إليها، وأنها لا تحضُن بيضَها، وإنما تبيضُ في الأماكن العالية التي يَقرَعُها حرُّ الشمس وهَجِيرُها، فيقوم ذلك للبيض مقامَ الحَضْن.

---

(١) ذرب السيف ونحوه: أحدّه.

(٢) ألحمت: أطعمت اللحم.

(٣) القرم: اشتداد الشهوة إلى اللحم.

والنَّسر يُوصف بحدّة حاسَّة البصر، حتى إنه يقال: إنه يرى الجِيفَةَ عن مسافة أربعمائةِ فرسخ، وكذلك حاسَّة الشَّمّ؛ إلا أنّه إذا شمّ الطِّيبَ مات. وهو أشدُّ الطيرِ طَيراناً وأقواها جَناحاً؛ حتى زعموا أنه يطير ما بين المَشرق والمَغرب في يوم واحد. وهذا القولُ أراه من التَّغالِي فيه. وسائرُ الجوارح تخافُه. وهو شَرِهٌ نَهِمٌ رَغِيبٌ؛ إذا سقط على الجِيفة وٱمتلأ منها لم يَستطع عند ذلك الطيرانَ حتى يَثِبَ عِدّةَ وَثَباتٍ يرفع فيها نفسَه في الهواء طبقةً بعد طبقةٍ حتى تدخل تحته الرِّيحُ. ومَنْ أصابه بعد ٱمتلائه وأعجلَه عن الوثوب أمكنه ضربهُ إن شاء بعصا وإن شاء بغيرها. قالوا: والأنثى تخاف على بيضها وفراخها من الخُفّاش فتَفْرُش في وَكْرها وَرَقَ الدُّلْب[1] لِيَفِرَّ منه. والنّسرُ أشدُّ الطير حُزْناً على فِراق إلْفِه؛ يقال: إن الأنثى إذا فقدتِ الذَّكرَ ٱمتنعت عن الطُّعْم أياماً ولَزِمتِ الوكر؛ وربما قتلها الحزنُ. وهو طويل العمر؛ يقال: إنّهُ يُعَمَّر ألف سنة. وفيه ألوان: منها الأسودُ البهيم، والأَرْبَد وهو لون الرَّماد. والأكْدر مثله. وهو يتبع الجيوشَ طمَعاً في الوقوع على جِيف القَتْلى والدَّوابّ.

ذكرُ ما قيلَ في الرّخَم

يقال: إنّ لئام الطير ثلاثة: الغِربانِ والبُومُ والرَّخَمُ.

والرخمةُ تلتمس لبيضها المواضعَ البعيدةَ والأماكنَ الوحشيّةَ والجِبال الشامخةَ وصُدُوعَ الصخرِ؛ ولذلك يُضرب المثل ببيْض الأنُوق. قال الشاعر:

طَـلَـبَ الأَبْـلَـقَ الـعَـقُـوق فـلـمّـا ... لـم يَـنَـلْـهُ أرادَ بَـيْـضَ الأَنُـوقِ[2]

والرَّخَمَ من أحبّ الحيوان في العَذِرة، لا شيءَ يحبّها كحبّه إلاّ الجُعَل. وقال المفضَّل لمحمد بن سَهْل: إنّا لا نعرف طائراً ألأمَ لؤماً ولا أقذرَ طُعْمَةً ولا أظهرَ مُوقاً من الرَّخمة. فقال محمد بن سهل: وما حُمْقُها وهي تحضُن بيضَها، وتَحْمي فراخَها، وتُحِبّ ولَدَها، ولا تمكِّن إلاّ زَوجَها، وتقطع في أوّل القَوَاطِع[3]، وتَرجِع في أوّل الرَّواجع، ولا تطير في التَّحسير[4]، ولا تغترّ بالشَّكِيرِ[5]، ولا تَرِب[6] بالوُكُور، ولا تسقط على الجَفِير!

---

(١) الدّلب: شجر الصنار، وهو عريض الورق واسعه شبيه بورق الكرم.

(٢) الأنوق: الرخم. والعقوق: الحامل، والذكر لا يكون حاملاً.

(٣) القواطع من الطير: التي تجيء من بلد إلى بلد في وقت حر أو برد.

(٤) التحسير: سقوط الريش.

(٥) الشكير: الزغب، أو الشعر الخفيف الرقيق.

(٦) تربّ بالمكان: تلزمه وتقيم فيه.

قال الجاحظ: أمّا قوله: «تقطع في أوّل القواطع وتَرجِع في أوّل الرَّواجع»، فإنّ الرُّماةَ وأصحابَ الحبائل والقُنّاصَ إنما يطلبون الطيرَ بعد أن يعلموا أنّ القواطعَ قد قطعت، فبقَطْع الرخمة يستدلّون، فلا بدّ للرّخمة من أن تنجو سالمةً إذ كانت أوّل طالع عليهم. وأمّا قولُه: «ولا تطير في التّحسير ولا تغترّ بالشَّكير»؛ فإنها تدعُ الطيرانَ أيامَ التحسير، فإذا نَبَتَ الشّكيرُ وهو أوّل ما ينبت من الريش فإنها لا تنهض حتى يصير الشكيرُ قَصَباً، وأما قوله: «ولا تُربّ بالوكور» فإن الوكور لا تكون إلا في عُرْض الجبل، وهي لا ترضى إلا بأعالي الهضاب ثم بمواضع الصُّدوع وخِلالِ الصخور حيث يَمتنِع على جميع الخَلْق المصيرُ إلى أفراخها؛ ولذلك قال الكُمَيْت[١]:

ولا تـجـعـلـوني فـي رجـائـي وَدِّكـم كرَاجٍ على بَيْض الأنُوق أحتبالها[٢]

وأمّا قولُه: «ولا تسقط على الجَفِير»، فإنما يعني جَعْبَةَ السهام. يقول: إذا رأتْه علمتْ أنّ هناك سهاماً فلا تسقُط في موضع تخاف فيه وقْعَ السّهام.

قال: والرَّخَمُ من الطير التي تتبع الجيوشَ والحُجَّاجَ لِمَا يسقُط من كَسْرَى[٣] الدّوابّ. وإذا فقدت المَيْتَةَ عَمَدت إلى العَظْم فحِمَلته وارتفعتْ به في الهواء ثم تُلْقِيه فيقع على الصخور فينكسر فتأكل ما فيه. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ ما قيلَ في الحِدَأةِ

قالوا: والحِدَأةُ تَبيض بيضتين، وربما باضت ثلاثاً وخرج منها ثلاثةُ أفرخ. وهي تحضُن عشرين يوماً. ومن ألوانها الأسودُ والأَرْبَدُ. ويقال: إنها لا تَصِيد وإنما تخطَف. وهي تَقِف في الطيران، وليس ذلك لغيرها من الكواسر. وزعم ابنُ وحشيّة: أنّ العُقَاب والحِدَأة يتَبدّلان، فتصير الحِدَأةُ عُقاباً والعقابُ حِدأةً. وهذا أراه من الخُرافَات. ويقال: إنّ الحِدَأة من جوارح سليمان عليه السلام وإنها امتنعت من أن تُؤلَّف أو تُمْلَك لغيره، لأنها من المِلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده. وهي لا تَخْتطِف إلا من يمين مَنْ تختطِف منه دون شماله. وليس فيها لحمٌ، وإنما عظامٌ وَعَصَبٌ وجِلْدٌ وريشٌ. ولم أقف على شعر فيها فأضعه.

---

(١) هو الكميت بن زيد من بني أسد ويكنى أبا المستهل وكان معلماً. وكان أصم أصلخ لا يسمع شيئاً، وكان بينه وبين الطرماح من المودة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين على تباعد ما بينهما في الدين والرأي. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٠).

(٢) احتبل الصيد: أخذه بالحبالة.

(٣) كسر الدواب: واحدتها كسير.

ذكرُ ما قيلَ في الغُرابِ

قالوا: والغراب أصنافٌ وهي «الغُدَافُ» و«الزَّاغُ الأكحل» و«الزاغ الأورق». والغراب يَحْكِي جميعَ ما يسمعه، وهو في ذلك أعجبُ من البَبَّغاء. ويقال: إنّ متولّي ثغر الإسكندريّة أهدى إلى السلطان الملك الظاهر رُكْن الدين بِيبَرس غُراباً أبيض؛ وهو غريبٌ نادر الوقوع. ويقال في صوت الغراب: نَغَقَ يَنْغِقَ نَغِيقاً، ونَعب يَنْعَبِ نَعِيباً. فإذا مرّت عليه السنون الكثيرة وغَلُظ صوتُه قيل فيه: شَحَجَ يَشْحَج شَحِيجاً. وفي طبعه الاستِتارُ عند السِّفاد وهو يَسْفِد مُوَاجَهةً، ولا يعود إلى الأُنْثى إذا سفَدها أبداً، وذلك لقلّة وفائه.

قال الجاحظ: وإذا خرج الفرخُ حضَنته الأنثى دون الذكر، ويأتيها الذَّكَر بالطُّعم. قال: والغراب من لِئام الطير وليس من كِرامها، ومن بُغَاثِها وليس من أحرارها، ومن ذوات المخالب المَقَّفَة والأظفار الجارحةِ، ومن ذوات المناقيرِ وليس من ذوات المَنَاسِر؛ وهو مع ذلك قويُّ البدن، لا يتَعاطى الصيدَ، وربما راوغَ العُصفورَ. ولا يصيد الجرادةَ إلا أن يلقاها في سُدٍّ[(١)] من جراد. وهو إن أصاب جِيفةً نال منها وإلا مات هُزَالاً. ويتَقمَّم كما تَتَقَمَّم[(٢)] بهائمُ الطير وضِعافُها. وليس ببهيمة لمكان أكلِه الجِيَف، وليس بسبُع لعجزه عن الصيد.

قال: وهو إمّا أن يكون حالكَ السواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزَّنْجُ لأنهم شِرار الناس وأرْدأُ الخَلْق تركِيباً ومِزاجاً، فلا تكون له معرفة ولا جمال؛ وإما أن يكون أبقعَ فيكون ٱختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائه دليلاً على فساد أمره. والبُقْعُ ألأمُ من السُّود وأضعف.

قال: ومن الغِربان غرابُ الليل، وهو الذي ترك أخلاقَ الغِرْبان وتشبّه بأخلاق البوم. وقد رأيتُ أنا ببُلُنْياس[(٣)] ـ وهي على ساحل البحر الروميّ ـ غِرباناً كثيرة جدّاً، فإذا كان وقتُ الفجر صاحب كلّها صِياحاً عظيماً مُزْعِجاً، فهم يعرفون طلوعَ الفجر بصياحها.

قال: ومنها غراب البَيْن؛ وهو نوعان: أحدُهما غِربان صغار معروفةٌ بالضَّعْف واللؤم، والآخرُ إنما لزِمه هذا الاسم لأنّ الغُرَابَ إذا بان أهلُ الدار للنّجْعةِ[(٤)] وقع في

(١) السدّ: القطعة من الجراد تسدّ الأفق.
(٢) تقمم: تتبع القمامات.
(٣) بلنياس: مدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر.
(٤) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلأ.

مواضع بيوتهم يتلمّس ويَتَقَمَّم، فتشاءموا به وتَطَيَّروا منه، إذ كان لا يُلِمّ بمنازلهم إلا إذا بانوا منها؛ فسمَّوْه غرابَ البين. ثم كَرِهوا إطلاقَ ذلك الاسم مخافةَ الزَّجْر والطِّيَرة، وعلموا أنّه نافذُ البصر صافي العين، فسمَّوْه الأعورَ؛ من أسماء الأضداد. قال: والغِدْفانُ جِنسٌ من الغِربان، وهي لئام جداً. ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اَشتَقّوا من اسمه الغُرْبة والاغْتراب والغريبَ. والعرب يتعايَرُون بأكل لحوم الغِربان. وفي ذلك يقول وَعْلَةُ الجَرْمِيّ[1]:

فـمـا بـالـعـار مـا عـيَّـرتـمُـونـا شِوَاءُ النَّاهِضَاتِ من الخَـبيـصِ[2]
فـمـا لـحـمُ الـغـرابِ لـنـا بـزادٍ ولا سَـرَطـان أنـهـار الـبَـرِيـصِ[3]

والغربانُ من الأجناس التي تُقتَل في الحِلّ والحَرَم، وسُمِّيت بالفسقِ.

قال الجاحظ: وبالبصرة من شأن الغِربان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات كان عندهم من أجود الطُّلَّمْسَات؛ وذلك أنّ الغربان تَقْطَع إلينا في الخريف فترى النخيلَ وبعضُها مصرومٌ وعلى كل نخلة عددٌ كثير من الغربان، وليس فيها شيء يقرَب نخلةً واحدةً من النخيل التي لم تُصْرَم ولو لم يبق عليها إلا عِذْق[4] واحد. قال: فلو أنّ الله تعالى أذِن للغراب أن يسقُط على النخلة وعليها التمرُ لذهب جميعُه. فإذا صرَموا ما على النخلة تسابقَ الغِربانُ إلى ما سقَط من التمر في جوف القُلْب[5] وأصول الكَرَبِ[6] تستخرجه وتأكله.

ومما يُتمثّل به في الغراب: يقولون: «أحْذَرُ من غراب». و«أصحُ من غراب». و«أصفى نظراً من غراب». و«أسودُ من غراب».

ومما وُصِفَتْ به الغِربانُ ـ فمن ذلك قولُ عنترة:

حَـرِقُ الـجَـنـاح كـأن لَـحْـيَـيْ رأسِـه جَـلَـمـان بـالأخـبـار هَـشٌ مُـولَـعُ[7]

وقال الطِّرِمَّاح بن حَكِيم[8]:

---

(١) هو وعلة بن عبد الله الجرمي الشاعر، أحد فرسان قضاعة.
(٢) الناهضة: أنثى فرخ العقاب ـ والخبيص: ضرب من الحلواء.
(٣) السرطان: حيوان من خلق الماء ذو فكين ومخالب وأظفار حداد ـ والبريص: نهر دمشق.
(٤) العذق: القنو من النخل.
(٥) القلب من النخلة: الخوص الذي يلي أعلاها.
(٦) الكرب: أصول السعف الغلاظ العراض التي تقطع منها.
(٧) حرق الجناح: أنحص ريشه ونسل.
(٨) هو الطرماح بن حكيم من طيىء ويكنى أبا نفر وكان جده قيس بن جحدر أسره ملك من ملوك جفنة فاستوهبه حاتم طيىء. (طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٢٩٢).

وجرى ببينِهِمُ غَدَاةَ تحمّلوا ... من ذي الأثارِب شاحِجٌ يتعبّدُ[١]
شَنِجُ النَّسا أذفى الجَناح كأنه ... في الدار إثْرَ الظاعنين مُقَيَّدُ[٢]

وقال أبو يوسف بن هارون الرمادي الأندلسيّ[٣]: [من الطويل]

أبا حاتم ما أنت حاتمُ طيِّئٍ ... وما أنتَ إلا حاتِمُ الحَدَثانِ
خطَبتَ ففرّقتَ الجميعَ بلُكْنةٍ ... فما الظنُّ لو تُعْطَى بيانَ لِسانِ
كأنّهمُ من سُرعةِ البين أودِعوا ... جَناحَيْك واسْتُحثثتَ للطيرانِ

وقال أحمد بن فرج الجُبّائي:

أمّا الغرابُ فمؤذِنٌ بتَغرُّب ... وَشْكاً فصدِّقْ بالنَّوى أو كذِّبِ[٤]
داجي القِناع كأن في إظلامه ... إظلامَ يوم تفرّقٍ وتغرّبِ

البَابُ الثّالِثُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنّ الثَّالِثِ
في بَهَائِمِ الطَّيرِ

ويَشتمل هذا الباب على ما قيل في «الدُّرَّاج» و«الحُبَارَى» و«الطاوُس» و«الدِّيك»، و«الدَّجاج» و«الحَجَل» و«الكُرْكِيّ» و«الإوَزّ» و«البَطّ» و«النُّحام»[٥] و«الأَنيس» و«القَاوَنْد» و«الخُطّاف» و«القِيق» و«الزُّرْزُور» و«السُّمَانَى» و«الهُدْهُد» و«العَقْعَق»، و«العَصَافِير».

قال الجاحظ: والبهيمةُ من الطير ما أكل الحبَّ خالصاً.

فأمّا الدُّرّاج وما قيل فيه - قال الجاحظ: إنه يبيض بين العُشْب، ولا سيما فيما طال منه والتوى.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: لحمُ الدُّرّاج أفضلُ من الفواخِت وأعدلُ

---

(١) الأثارب: قلعة بين حلب وإنطاكية، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها.
(٢) الشنج: تقبض الجلد والأصابع وغيرهما - والنسا: عرق من الورك إلى الكعب - وأدفى الجناح: طويله.
(٣) هو يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي (أبو عمر) شاعر. أصله من رمادة، وولد بقرطبة ومدح المنصور بن أبي عامر. ومدح بعض الملوك. توفي سنة ٤٠٣ هجرية. (معجم المؤلفين ١٣: ٣٤٠).
(٤) وشك الغراب: سرعته.
(٥) النحام: طائر أحمر على خلقة الأوز.

وألطفُ وأيبس. قال: وهو يزيد في الدِّماغ والفهم، ويزيد في المَنِيّ.

وقال أبو طالب المأمونيّ[١]:

قد بعثنا بذاتِ حُسْنٍ بَديعِ كَنَباتِ الرَّبيعِ بل هي أحسنْ
في رِدَاءٍ من جُلَّنَارٍ وآسٍ وقميصٍ من ياسَمِينٍ وسَوْسَنْ

وقال آخر: [من الطويل]

صدورٌ من الدُّرَّاج نُمِّق وَشْيُها وُصِلْنَ بأطراف اللُّجَيْنِ السَّواذِجِ[٢]
وأحداقُ تِبْرٍ في خدود شقائِقٍ تَلألأ حُسناً كاشتعال المَسارِجِ
وأذنابُ طَلْعٍ في ظهورِ مَلاعِقٍ مجزَّعة الأعطاف صُهْب الدَّمَالِجِ[٣]
فإن فَخَر الطاوُس يوماً بحسنه فلا حُسْنَ إلاّ دون حسن الدَّرَارِجِ

وأمّا الحُبَارَى وما قيل فيه ـ وتسمِّيه أهلُ مصر الحُبْرُج.

قال الجاحظ: والحُبَارَى أشدُّ الطير طَيَراناً وأبعدُها سقطاً[٤] وأطولها شوطاً وأقلُّها عَرْجةً[٥]؛ وذلك أنه يُصاد بالبصرة فيُشَقّ عن حَوْصَلَته بعد الذَّبح فتُوجَد فيها الحبّة الخضراء لم تتغيّر ولم تَفْسد؛ والحبّةُ الخضراءُ من شجر البُطْم[٦] ومنابتُها جبال الثغور الشاميّة. والحُبَارى له خِزَانة بين دُبُرِه وأمعائه، لا يزال فيها سَلْحٌ رقيق لَزِجٌ، فمتى ألَحّ عليه جارحٌ ذَرَق عليه فتمعّط[٧] رِيشُه. ولذلك يقال: الحُبَارى سِلاحُه سُلاحُه.

قال الشاعر:

وهم تركوك أسْلَح من حُبَارَى رأى صَقْراً وأشْرَدَ من نَعَامِ

وهو يغتذِي بِسَلْحه إذا جاع. ويقال: الحُبَارى دجاجةُ البَرّ تأكل كل ما دَبّ حتى الخنافس؛ فلذلك يُعاف أكلُه.

ووصف أبو نُوَاس الحُبَارَيات فقال:

---

(١) هو عبد السلام بن حسن المأموني (أبو طالب) فاضل. له كنز الرؤيا في التعبير. كانت وفاته سنة ٣٨٣ هجرية. (معجم المؤلفين ٥: ٢٢٣).

(٢) السواذج: جمع الساذج: وهو الخالص غير المشوب وغير المنقوش ـ واللجين: الفضة.

(٣) الدمالج: واحدتها الدملج، وهو سوار يحيط بالعضد.

(٤) السقط: (بكسر أوله): الجناح.

(٥) العرجة: المقام.

(٦) البطم: شجر كالفستق جرماً سبط الأوراق وله حب مفرطح في عناقيد كالفلفل.

(٧) تمعط: تساقط.

يَـخْـطِـرن فـي بَـرانِـسٍ قُـشُـوبِ   من حِبَرٍ طُوهِرْنَ بـالـتَّـذْهـيـبِ(١)

* فـهـنّ أمـثـالُ الـنّـصـارى الـشِّـيـبِ *

وأما الطاوُس وما قيل فيه ـ فهو ألوان منها الأخضرُ، والأرقطُ، والأبيضُ، ويوجد في كلها الخيَلاء. ولا تُعْرَف هذه الألوان إلا في بلاد الزَّابج. وفي طبع الطاوُس الخيلاء والإعجاب بريشه. والأنثى تبيض بعد أن يمضي من عمرها ثلاث سنين. ولا يحصلُ التلونُ في ريش الذّكر إلا بعد مضيّ هذه المدّة. وتبيض الأنثى مرتين في السنة، في كل مرّة اثنتي عشرة بيضة.

وقال الجاحظ: أوّلُ ما تبيضُ ثماني بيضات، وتبيض أيضاً بيضَ الرِّيح. ويَسْفِدَ الذّكرُ في أوان الربيع. ويُلْقِي ريشَه في فصل الخريف، كما يُلْقِي الشجرُ ورَقه فيه؛ فإذا بدأتِ الأشجارُ تَكْتَسِي الأوراقَ بدأ الطاوس فاكتسى ريشاً. والذكرُ كثير العَبَث بالأنثى. والفرخُ يخرج من البيضة كاسياً كاسباً.

وزعم أرسطو أن الطاوس يُعمَّر خمساً وعشرين سنة. وقال أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز الأندلسيّ يصفه: [من السريع]

أبـدى لـنـا الـطـاوُسُ عـن مَـنْـظَـرٍ   لـم تَـرَ عَـيْـنِـي مـثـلَـه مَـنْـظَـرا

مـتـوَّجُ الـمَـفْـرِق إلاّ يـكـن   كِسْرَى بنَ ساسان يكن قيصرا

فـي كـل عُـضْـو ذَهَـبٌ مُـفْـرَغٌ   فـي سُـنْـدُسٍ مـن ريشـه أخـضـرا

نُـزهـةُ مـن أبـصـر، فـي طَـيِّـهـا   عِـبْـرةُ مـن فـكّـر واسـتـبـصـرا

تـبـارك الـخـالـقُ فـي كـلِّ مـا   أبـدعـه مـنـه ومـا صَـوَّرا

وقال فيه أيضاً: [من الرجز]

أهـلاً بـه لـمّـا بـدا فـي مَـشْـيِـهِ   يَـخْـتـالُ فـي حُـلَـلٍ مـن الـخُـيَـلاءِ

كـالـرَّوضـةِ الـغـنّـاء أشـرف فـوقـه   ذَنَـبٌ لـه كـالـدَّوْحـةِ الـغَـنَّـاءِ

نـاديـتُـه لـو كـان يـفـهـم مَـنْـطِـقي   أو يـسـتـطـيـع إجـابـةً لِـنِـدَائِـي

يـا رافـعـاً قـوسَ الـسـمـاء ولابِـسـاً   لـلـحـسـن روضَ الحَزْن غِبّ سماءِ

أيـقـنـتُ أنـك فـي الـطـيـور مـمـلَّـك   لـمّـا رأيـتُـك مـنـه تـحـت لِـوَاءِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم من قصيدة ذكر فيها طاوساً: [من المنسرح]

وأيّ عُـذْر لـمُـقْـلَـة بَـعُـدَ الـطَّـ   ـاوُس عـنـهـا إن لـم تَـفِـض بـدَمِ

---

(١) القشب: الجديد.

رُزِئْتُــه روضــةً تــروق ولــم أَسْمَعْ بِرَوْضٍ سَعى على قَدَمِ
مُتَوَّجاً خِلْعةً حباه بها ذو الفِطَر المعجزاتِ والحِكَمِ
كأنه يَزْدَجِرْدُ مُنْتَصِباً يبْنِي فيُغْلي مآثرَ العجم
يُطْبِق أجفانَه ويحسِرُ عن فَصَّيْن يُستصحبان في الظُّلَم(١)
أدلّ بالحسن فاستذال له ذيلاً من الكبر غير محتَشِم
ثم مشى مِشيةَ العروسِ فَمِن مستظرفٍ مُعْجَبٍ ومُبْتَسِم

وأمّا الدِّيكُ والدَّجَاجُ ومَا قيلَ فيهمَا ـ قالوا: والدَّجاجُ ثلاثة أصناف: «نَبَطيّ»، وهو ما يُتّخذ في القُرى والبيوت، و«هِنْديّ» وهو عظيم الخَلْق يُتّخذ لحسن شكله، و«حَبَشِيّ» وهو نوعٌ بديع الحسن أرقط: نقطةٌ سوداء ونقطةٌ بيضاء، وله قُرطانِ أخضرانِ.

قالوا: والدَّجاجة تجمع البيضَ بعد السّفاد في أحدَ عَشَرَ يوماً؛ وهي تبيض في السنة كلها ما خلا شهرين شتويين. والذي عرَفناه نحن بديار مصر أنّ البيض لا ينقطع أبداً في الفصول الأربعة، فيدلّ على أنها تبيض دائماً. ومن الدَّجاج ما يبيض في اليوم مرّتين. والبيضةُ تكون عند خروجها ليِّنةَ القِشْر جدّاً، فإذا أصابها الهواء يَبِسَتْ. وربما وُجِدَ في البيضة مُحّانِ. وقال أرسطو: باضت دجاجةٌ فيما مضى ثمانيَ عَشْرَةَ بيضةً لكل بيضة مُحّان، ثم حضنتِ البيضَ فخرج من كل بيضة فرخان، أحدُهما أعظمُ جثةً من الآخر.

والدّجاجةُ تحضُن عشرين يوماً. وخَلْق الفَرُّوج يتبيّن إذا مضت عليه ثلاثةُ أيام، ويُعْرَف الذَّكرُ من الأُنثى بأن يُعَلَّق الفَرّوجُ برأسه فإن تحرّك فذَكَرٌ، وإن سكَن فأُنْثى.

قال الجاحظ: والفرخُ يُخْلَق من البياض ويَغْتَذِي بالصُّفْرة ويتمّ خلقُه لعشرة أيام، والرأس وحدَه يكون أكبرَ من سائر جسده. والدّجاجةُ إذا هَرِمَتْ لم يكن لبيضها مُحّ، وإذا لم يكن له مُحّ لا يُخلق منه فرّوجٌ.

والدّجاجةُ تَخشى ابنَ آوى دون سائر السِّباع، وذلك أنه يمرّ عليها في القُرى ما يمرّ من السباع وغيرِها فلا تَخْشاه؛ فإذا مرّ عليها ابنُ آوى وهي عى سطح نالَها من الفَزَع منه ما تُلقِي به نفسها إليه. وهي إذا قابلتِ الدِّيكَ تشهَّتْه ورامتِ السِّفادَ. والدَّجاجةُ تُوصف بقلّة النوم. والفَرُّوجُ يخرج من البيضة كاسِياً كاسِباً، سريعَ الحركةِ، يُدْعَى فيُجيب ويَتبع من يُطْعِمه؛ ثم هو كلّما كَبِر ماق وحَمُقَ وزال كَيْسُه. وهو مشترَكُ

---

(١) يستصبحان: يستضاء بهما.

الطبيعة: يأكل اللّحمَ، ويَحْسو الدَّمَ، ويصيد الذُّبَابَ، وذلك من طباع الجوارح، ويَلْقُط الحبوبَ، ويأكل البقولَ، وذلك من طباع بهائم الطير. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ مَا جَاءَ في الدِّيكَةِ مِنَ الأَحَادِيثِ

ومَا عُدّ مِنْ فَضَائِلِهَا وَعَادَاتِهَا ومَنَافِعِهَا

جاء في الحديث عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة: أنّ ديكاً صرَخ عند النبيّ ﷺ، فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال: «لا تَسُبَّه فإنّه يدعو إلى الصلاة». وعن زيد بن خالد الجُعَفِيّ: أنّ النبيّ ﷺ نَهى عن سبِّ الدّيك وقال: «إنّه يؤذِّن للصلاة». وعن سالم بن أبي الجَعْد يرفعه: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ ممّا خَلَق اللّهُ لَدِيكاً عُرْفُه تحت العرش وبَرائِنُه في الأرض السُّفْلَى وجَناحاه في الهواء فإذا ذهب ثُلُثا الليل وبقي ثُلُثٌ ضَرب بجناحيه ثم قال: سبّحوا الملكَ القُدُّوس سُبُّوح قُدُّوس لا شريك له فعند ذلك تضرب الطيرُ بأجنحتها وتَصيح الدِّيكَة»، وعن كعب: «إنّ لله دِيكاً عُنُقُه تحت العرش وبراثنُه في أسفل الأرض فإذا صاح صاحت الدِّيكَةُ يقول: سبحان القُدُّوس الملك الرحمٰن لا إلٰه غيره»، ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ الدِّيك الأبيض صديقي وعدوُّ عدوّ الله يحرسُ دارَ صاحبه وسبَع دور». وكان النبيّ ﷺ يبيّته معه في البيت. ورُوي أنّ أصحاب النبيّ ﷺ كانوا يسافرون بالدِّيكَة.

قال الجاحظ: وزعم أصحابُ التَّجْرِبة أن كثيراً ما يَرَوْن الرجلَ إذا ذَبَح الدّيكَ الأبيض الأفرَق[1] إنه لا يزال يُنكَب في أهله وماله.

وقال في كتاب الحيوان في المناظرة بين الدِّيك والكلب: وفي الديك الشّجاعة والصبرُ والجَوَلانُ والثّقافة والتّسديدُ؛ وذلك أنه يقدِّر إيقاعَ صِيصِيتِه[2] بعين الديك الآخر أو مَذْبَحه فلا يُخطىء. قال: ثم مَعْرِفَتُه بالليل وساعاتِه وارْتِفاقُ بني آدم بمعرفته وصوتِه، يتعرَّف آناءَ الليل وعَدَدَ الساعات ومقاديرَ الأوقات ثم يقسِّط أصواتَه على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يُغادر منه شيئاً. فليعلم الحكماءُ أنه فوق الإسْطِرْلاب وفوق مقدار الجَزْر والمَدّ على مَنازِل القمرِ، حتى كأنّ طَبْعَه فَلَكٌ على حِدَته.

ومن عجيب أحوال الدِّيكة أنها إذا كانت في مكان ثم دخل عليها ديكٌ غريب سَفَدتْه جميعاً. والدِّيك يُضرب به المثل في السخاء، وذلك أنه ينقُر الحبَّ ويحمله بطرَفَيْ مِنقاره إلى الدّجاج، فإذا ظَفِر بشيء من الحبّ والدَّجاجُ غَيَبٌ دعاهنّ إليه وقنِع

(١) الأفرق: ذو العرفين لانفراق ما بينهما.
(٢) الصيصة: شوكة الديك.

منه بدون حاجته توفيراً عليهنّ. قالوا: والدِّيَكَةُ تعظُم بدَبِيل[١] السِّنْد حتى تكون مثلَ النّعام.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: إنّ مَرَقَة الديوك العُتُق لها خاصِّيَّات، سنذكرها. قال: والوَجْهُ الذي ذكره جالِينُوس في طبخها أن تُذْبَح بعد عَلْفِها وبعد إعدائها إلى أن تَنْبَتّ[٢] فتسقُط فتُذبح، ثم يُخرَج ما في بطنها ويُملأ بطنُها مِلْحاً ويُخاط ويُطبخ بعشرين قسطاً ماءً حتى ينتهي إلى الثُّلُث ويُشرب. قال: ثم يُزاد في ذلك ما نذكره. قال: وأجودُ الدِّيَكة ما لم يَصْقَع[٣] بعدُ. وأجودُ الدّجاج ما لم يَبِض، والعتيقُ رديءٌ. قال: ولحمُ الفراريج أحرُّ من لحم الدَّجاج الكبير. وخَصِيُّ الدُّيوك محمودٌ سريعُ الهَضْم. ومرقةُ الدّيوك المذكورة تُوافِق الرَّعشةَ ووجعَ المفاصل. ولحمُ الدّجاج الفتيّ يزيد في العقل، ودماغُها يمنعه النَّزْفَ الرُّعافيّ العارضَ من حُجُب الدِّماغ. ومرقةُ الدُّيوك المذكورة نافعةٌ من الرَّبْو. ولحمُ الدَّجاجُ يُصفِّي الصوت. ومرقةُ الدِّيك الهَرِم المعمولة بالقُرْطُم[٤] والشِّبِتْ تنفع من جميع ذلك. ومرقةُ الديوك نافعة لوجع المَعِدة من الرِّيح، وتنفع القُولَنْج[٥] جدّاً. ولحمُ الدَّجاج الفتيّ يزيد في المَنِيّ؛ والمَرَقةُ المذكورة مع البسفايج[٦] تُسهِّل السَّوْداءَ، ومن القرطم تسهِّل البَلْغم. وقد تُطبخ بالأدوية القابِضة للسَّحَج[٧]، وباللّبن لقروح المثانة. والمرقةُ نافعةٌ من الحُمِّيات المزمنة. قال: والدَّجاجُ المشقوقُ عن قلبه أو الديك يوضع على نَهْش الهوامّ ويُبَدّل كلَّ ساعة فيمنع من فُشُوِّ السمّ. وفي السموم المشروبة يُتحسَّى طبيخُه بالشِّبْث والملح ويُتَقَيَّأ.

ومن الحكايات التي تُعَدّ من خرافات العرب ما حكاه بعضُهم عن الرِّياشيّ قال: كنّا عند الأصمعيّ، فوقف عليه أعرابي فقال: أنت الأصمعي؟ قال: نعم؛ قال: أنت أعلم أهل الحَضَر بكلام العرب؟ قال: يزعمون؛ قال: ما معنى قول أميَّة بن أبي الصَّلْت[٨]:

---

(١) دبيل: مدينة من مدن السند.

(٢) تنبّت: تنقطع إعياء وتعباً.

(٣) يقال: صقع الديك: إذا صاح.

(٤) القرطم: نبات زراعي صبغي من الفصيلة، يستعمل زهره تابلاً وملوناً للطعام، ويستخرج منه صبغ أحمر.

(٥) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

(٦) البسفايج: نبات ينبت بين الصخور التي عليها الخضرة وفي سوق شجر البلوط العتيقة.

(٧) السحج: قشر الجلد من شيء يصيبه.

(٨) هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة بن قسيّ. وكان قد قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عزّ وجلّ وعزّ ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد أظل زمانه ويؤمل أن يكون ذلك النبيّ. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٧).

وما ذاك إلاّ الدِّيكُ شارب خمرةٍ … نديم غراب لا يَمَلّ الحَوَانيا[1]
فلما اَستقلّ الصبح نادى بصوته … ألاَ يا غرابُ هل رَددتَ ردائيا

فقال الأصمعيّ: إنّ العرب كانت تزعمُ أنّ الدّيك كان ذا جَناح يطير به في الجوّ وأنّ الغراب كان ذا جَناح كجناح الدِّيك لا يطير به وأنهما تنادَما ليلَةً في حانة يشربِان فنفِد شرابُهما؛ فقال الغراب للدِّيك: لو أعَرْتَنِي جناحَك لأتيتُك بشرابٍ؛ فأعاره جناحَه، فطار ولم يرجع إليه؛ فزعموا أنّ الدّيك إنما يصيح عند الفجر اَستدعاءً لجناحه من الغراب؛ فضحك الأعرابيُّ وقال: ما أنت إلا شيطان. وهذه الحكاية ذكرها الجاحظُ في كتاب الحيوان بنحو ما حُكِي عن الأصمعيّ، وساق أبياتَ أُمَيّة بن أبي الصَّلْت، وهي: [من الطويل]

ولا غَرْوَ إلاّ الديكُ مُدْمِن خمرةٍ … نديم غرابٍ لا يمَلّ الحوانيا
ومرهنه عند الغراب جبينه … فأوفيت مرهوناً وخان مسابيا
أدلّ عليّ الدِّيكُ أنّي كما تَرى … فأقْبِلْ على شأني وهاكَ رِدَائيا
أمنتك لا تَلْبَث من الدهر ساعةً … ولا نصفَها حتى تؤوبَ مآبِيا
ولا تُدْرِكَنْك الشمسُ عند طلوعها … فأغْلَق فيهم أو يطول ثَوَائِيا[2]
فردّ الغرابُ والرداءُ يحوزه … إلى الديك وعداً كاذباً وأمانيا
بأيّة ذنبٍ أو بأيّة حُجّةٍ … أدَعْك فلا تدعو عليّ ولا لِيَا
فإني نذرتُ حِجَّةً لن أعوقها … فلا تدعُوَنّي دعوةً من ورائيا
تطيّرتُ منها والدّعاءُ يعوقني … وأزمعتُ حَجّاً أن أطيرَ أماميا
فلا تَيْأَسَنْ إني مع الصبح باكراً … أُوافِي غداً نحوَ الحجيج الغَوَاديا
كحب اَمرئٍ فاكهته قبل حجّتي … وآثرت عمداً شأنه قبل شانيا
هنالك ظنّ الدِّيك أن زال زَوْله … وطال عليه الليل أَنْ لا مُفَادِيا
فلما أضاء الصبحُ طرَّب صرخةً … ألاَ يا غراب هل سمِعتَ ندائيا
على وُدّه لو كان ثَمّ يجيبُه … وكان له نَدْمانَ صِدْقٍ مُوَاتيا
وأمسى الغرابُ يضرب الأرضَ كلّها … عتيقاً وأضحى الدّيك في القِدّ عانيا[3]

(١) الحواني: الحانات.
(٢) يقال: غلق الرهن: إذا لم يفك واستحقه المرتهن.
(٣) العتاق من الطير: الجوارح.

فذلك مما أسْهَتِ الخمرُ لُبَّه ونادمَ نَدْماناً من الطير عادِيا

ومن الحكايات التي لا بأس بإيرادها في هذا الموضع ما حكاه الجاحظُ قال: قال أبو الحسن: حدّثني أعرابيٌّ كان نزل البصرةَ قال: قدِم عليّ أعرابيٌّ من البادية فأنزلتُه، وكان عندي دَجاجٌ كثير ولي أمرأةٌ وأبنان وأبنتان منها؛ فقلتُ لأمرأتي: بادِري وأشوِي لنا دجاجةً وقدِّميها إلينا نتغدّاها. فلما حضر الغَداءُ جلسنا جميعاً أنا وأمرأتي وأبناي وأبنتاي والأعرابيُّ. قال: فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا له: إقسمها بيننا، نريد بذلك أن نَضْحك منه؛ فقال: لا أُحسِن القسمةَ، فإن رَضيتم بقسمتي قسمتُها بينكم؛ قلنا: فإنّا نَرضى. فأخذ رأسَ الدجاجةِ فقَطَعه وناوَلَنيه وقال: الرأسُ للرئيس، وقطَعَ الجناحيْن وقال: الجناحان للأبنَيْن، ثم قطع الساقيْن وقال: الساقان للأبنتَيْن، ثم قطع الزِّمِكَّي[١] وقال: العَجُز للعجوز، وقال: الزَّوْر[٢] للزائر؛ قال: فأخذ الدجاجةَ بأسْرها وسخر بنا. قال: فلمّا كان من الغَد قلت لأمرأتي: أشْوي لنا خَمسَ دجاجات، فلما حضر الغَداءُ قلنا له: أقسِم بيننا، فقال: إني أظن أنكم وجَدْتم[٣] في أنفسكم؛ قلنا: لم نَجِدْ فأقْسِم بيننا؛ قال: أقسِمُ شَفْعاً أو وِتْراً؟ قلنا: اقسم وِتراً، قال: أنت وأمرأتُك ودجاجة ثلاثة، ثم رمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: وأبناك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدَجاجة؛ ثم قال: وأبنتاك ودجاجة ثلاثة، ورمى إليهما بدجاجة؛ ثم قال: وأنا دجاجتان ثلاثة وأخذ دجاجتين وسخِر بنا. فرآنا ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما تنظرون! لعلّكم كَرِهتم قِسْمتي! الوِترُ لا يجيء إلاّ هكذا، فهل لكم في قسمة الشَّفْع؟ قلنا: نعم؛ فضمّهنّ إليه ثم قال: أنتَ وأبناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة؛ ثم قال: والعجوزُ وأبنتاها ودجاجة أربعة، ورمى إليهنّ بدجاجةٍ؛ ثم قال: وأنا وثلاثُ دَجاجات أربعة وضمّ إليه الثلاث، ورفع يَدَيه إلى السماء فقال: اللهمّ لك الحمد، أنت فهَّمْتَنِيها. هكذا ساقها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وحكى غيره هذه الحكاية عن الأصمعيّ وفيها زيادةٌ قال: حكى الأصمعيّ: بينا أنا في البادية إذا أنا بأعرابيّ على ناقةٍ وهي ترقُص به في الآل[٤]؛ فلما دنا منّي سلّم عليّ، فسلّمتُ عليه وقلت: يا أخا العرب.

قوم يخَفّان عَهِدناهُمُ سقاهم الله من النَّوْ[٥]

ما النّو؟ فقال:

---

(١) الزمكى: أصل ذنب الطائر.

(٢) الزّور: وسط الصدر.

(٣) وجد عليه: غضب.

(٤) الآل: السراب.

(٥) خفان: موضع قرب الكوفة تكثر فيه الأسود - والنوء: النجم إذا مال للغروب.

نَـوْءُ الـسِّـمـاكـيْـن وريَّـاهُـمـا   نُـورٌ تـلألأَ بـعـد إيـمـاضـه ضَـوْ

فقلت: ما الضَّو يا أخا العرب؟ فقال:

ضـوءٌ تـلالا فـي دُجَـى لـيـلـةٍ   مُـقْـمِـرةٍ مُـسـفِـرة لَـوْ

فقلت: لو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

لـوْ مـرّ فـيـهـا سـائـرٌ راكـبٌ   عـلـى نـجـيـب الأرض مُـنْـطَـوْ

فقلت: منطو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

مُنْطَوي الكَشْح هضيمُ الحَشَى   كـالـبـازِ يَـنْـقَـضّ مـن الـجَـوّ

فقلت: ما الجوّ يا أخا العرب؟ فقال:

جَـوّ الـسـمـا والـريـحُ تـعـلـو بـه   فـاْشـتـمَّ ريـحَ الأرض فـاْعْـلَـوّ

فقلت: فاْعلو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

فـاْعـلـو لِـمـا قـد فـات مـن صـيـده   لا بـدّ أن تُـلْـقـي ويُـلْـقَـوْا

فقلت: ماذا يلقوا يا أخا العرب؟ فقال:

يُـلْـقَـوْا بـأسـيـافٍ يَـمَـانِـيّـةٍ   وعـن قـلـيـلٍ سـوف يَـفْـنَـوْا

فقلت: ما يَفْنَوْا يا أخا العرب؟ فقال:

إن كـنـتَ تُـنـكـر مـا قُـلـتـه   فـأنـتَ عـنـدي رجـلٌ بَـوْ

فقلت: وما البوّ يا أخا العرب؟ فقال:

الـبَـوُّ مـن يُـفْـقَـد عـن أمّـه   يـا أحـمـق الـنـاس فَـرُخٌ أوْ

قلت: أو إيش؟ فقال:

تَـنْـدَفِـعُ الـكـفُّ بـصَـفْـع الـقـفـا   تَـسـمـع مـا بـيـنـهـمـا قَـوّ

فقلت: يا أخا العرب، هل لك في الضيافة؟ فقال: لا يأبى الكرامةَ إلاّ لئيم؛ فأتيتُ به منزلي. ثم ساق الحكايةَ بنحو ما تقدّم، إلا أنه قال: فأتيتُه في اليوم الثاني بثلاث دَجاجات، وقلت: ونحن كما علمتَ، اقْسِمها بيننا أزواجاً؛ فقال: أنت واْبناك ودجاجة زوج، واْمرأتُك واْبنتاها ودجاجة زوج، وأنا ودجاجة زوج. وساق خبر الخمسة في اليوم الثالث كما تقدّم.

ذكرُ شيء ممّا وَصَفَتْ به الشّعراءُ البيضةَ والدَّجاجةَ والدِّيكَ

فمن ذلك ما وصفوا به البيضةَ. قال أبو الفرج الأصبهانيّ من أبيات: [من الكامل]

فيها بدائعُ صَنْعةٍ ولطائفٌ أُلِّفْنَ بالتَّقدير والتلفيقِ
خلْطان مائِيّان ما ٱختلطا على شكل ومختلف المِزاج رقيق
فبياضُها وَرِقٌ وزِئْبَق مُحُّها في حُقّ عاج بُطِّنَتْ بِدَبِيقي(١)

وقال شاعر:

وصفراءَ في بيضاءَ رَقّتْ غِلالةٌ لها وصفَا ما فوقها من ثيابها
جمادٌ ولكن بعد عشرين ليلة ترى نَفسها معمورةً من خرابها

وقال كُشَاجِم من أبيات يذكر فيها جُونةً أُهْدِيت إليه وفيها بيض مسلوقٌ مصبوغٌ أحمر: [من الرجز]

وجاءنا فيها ببيض أحمرِ كأنه العقيقُ ما لم يُقْشَرِ
حتى إذا قدّمه مُقَشَّراً أبرز من تحت عقيقٍ دُرَرَا
حتى إذا ما قطَّع البيضَ فِلَقْ رأيتَ منه ذهباً تحت وَرَقْ
يَخَال أنّ الشطرَ منه مَنْ لَمَحْ أعاره تلوينَه قَوْسُ قُزَحْ

وممّا قيلَ في الدّجاجَةِ وَالدِّيكِ

قال الشاعر: [من الوافر]

غدوتُ بشَرْبةٍ من ذَاتِ عِرْقٍ أبا الدَّهْناء من حَلَبِ العَصِيرِ(٢)
وأخرى بالعَقَنْقَلِ ثم رُحْنا نرى العصفورَ أعظَمَ من بعيرِ(٣)
كأن الديك ديكَ بني نُمَيْر أميرُ المؤمنين على السَّرير
كأن دَجاجهم في الدار رُقْطاً وفودُ الروم في قُمُص الحريرِ
فبتّ أرى الكواكبَ دانياتٍ يَنَلْنَ أناملَ الرجل القصيرِ
أُدافِعهنّ بالكَفّيْن عنّي وأمسح جانب القمرِ المنيرِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ من أبيات يصف ديكاً:

مُغرّد الليل ما يألُوك تغريداً ملّ الكَرَى فهو يدعو الصبح مَجْهودا
لما تطرَّب هَزَّ العِطفَ من طَرَبٍ ومدّ للصوت لمّا مَدّه الجِيدا
كلابِسٍ مُطْرَفاً مُرْخٍ جوانِبَه تُضاحِك البيضُ من أطرافه السُّودا

---

(١) الدبيقي: نسبة إلى دبيق وهي بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر.
(٢) ذات عرق: جبل بطريق مكة.
(٣) العقنقل: كثيب ببدر.

حالي المُقَلَّد لو قِيست قِلادتُه ... بالوَرْد قصّر عنها الورْدُ توريدا
رَانٍ بفَصَّيْ عَقيقٍ يُذركانِ له ... من جِدّةٍ فيهما ما ليس مَخْدودا[١]
تقول هذا عقيدُ الملك منتسِبا ... في آل كسرى عليه التاجُ معقودا[٢]
أو فارسٌ شَدّ مِهْمَازَيْه حين رأى ... لواء قائده للحرب معقودا

وقال أبو هلال العسكريّ: [من المجتث]

متوَّجٌ بعقيق ... مُقَرَّطٌ بِلُجَيْنِ
عليه قُرطَقُ وَشْي ... مشمّر الكُمَّيْنِ[٣]
قد زَيّنَ النّحْرَ منه ... ثِنْتان كالوردتيْن
حتى إذا الصبحُ يبدو ... مطرَّز الطُّرّتين
دعا فاسمَع منّا ... من كان ذا أُذُنَيْنِ
يُزْهَى بطوقٍ وتاجٍ ... كأنه ذو رُعَيْن[٤]

وقال الأسعد بن بِلّيْطة: [من الطويل]

وقام لنا يَنْعَى الدُّجَى ذو شَقيقةٍ ... يُدير لنا من بين أجفانه سَقْطا[٥]
إذا صاح أصغى سمعُه لِندائِه ... وبادَرَ ضَرْباً من قوادمه الإبْطا
ومهما اطمأنت نفسُه قام صارخاً ... على خيزران نِيطَ من ظُفره خَرْطا
كأنّ أنُو شِرْوانَ أعلاه تاجَه ... وناطت عليه كفُّ مارية القُرْطا[٦]
سَبى حُلَّة الطاوس حسنَ لباسها ... ولم يَكْفِه حتى سبَى المِشْيَةَ البَطّا

وقال أبو عبد الله المالكيّ:

رَعَى اللَّهُ ذَا صوتٍ أنِسْنا بصوته ... وقد بان في وجه الظلام شُحُوبُ
دعا من بعيدٍ صاحباً فأجابه ... يُخَبِّرُنا أنّ الصباحَ قريبُ

وقال ابن المعتزّ: [من المنسرح]

---

(١) رنا: أدام النظر في سكون طرف، فهو ران.
(٢) العقيد: الحليف.
(٣) القرطق: القباء.
(٤) ذو رعين: من ألقاب ملوك اليمن.
(٥) المراد بالشقيقة هنا: عرف الديك. وسقط الزند: ما يقع من النار عند القدح.
(٦) مارية: امرأة قيل كان في قرطيها درتان كبيضتي حمامة.

بَشَّر بالصبح هاتِفٌ هتفا صاح من الليل بعدما انتصفا
مُذَكِّرٌ بالصَّبُوح صاح لنا كأنه فوقَ مِنْبَرٍ وقَفَا
صَفَّقَ إمّا ارتِيَاحةً لِسَنَا الـ فَجْرِ وإمّا على الدُّجى أسَفَا

وقال أيضاً فيه:

وقام فوقَ الجِدار مُشْتَرِفٌ كمثلِ طِرْفٍ علاه أُسْوارُ(١)
رافعُ رأسٍ طوراً وخافِضُه كأنما العُرْف منه مِنْشارُ

وقال السّريّ الرَّفَاء: [من الكامل]

كشف الصباحُ قِناعَه فتألَّقا وسطَا على اللّيل البهيم وأبْرَقا
وعَلا فلاحَ على الجِدار مُوَشَّحٌ بالوَشْي تُوِّج بالعَقِيق وَطُوِّقا
مُرْخٍ فضولَ التاج من لَبَّاتِه ومُشَمِّرٌ وَشْياً عليه مُنَمَّقا

وقال أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ يرثي ديكاً ويصفه: [من الكامل]

أبُنَيَّ منزلنا ونَشْوَ مَحَلِّنا وغَذِيَّ أيدينا نِدَاءَ مَشُوقِ
لَهْفِي عليك أبا النَّذير لَوْ أنّه دفعَ المنايا عنك لهفُ شَفيقِ(٢)
وعلى شمائلك اللّواتي ما نَمَتْ حتى ذَوَتْ من بعد حسنِ سُمُوقِ(٣)
لما بَقِعْتَ وصِرْتَ عِلْقَ مَضَنَّةٍ ونَشأتَ نَشْوَ المُقْبِلِ المَوْمُوقِ(٤)
وتكامَلَت جُمْلُ الجَمال بأسرها لك من جَلِيلِ خالصٍ ودَقيقِ
وكُسِيتَ كالطاوُس رِيشاً لامعاً مُتلألِئاً ذا رَوْنَقٍ وبَريقِ
من صُفْرةٍ مَعْ خُضْرةٍ في حُمرةٍ تَخْيِيلُها يخفَى على التَّحقيق
عَرَضٌ يَجلّ عن القياس وجوهرٌ لُطفتْ معانيه عن التَّدقيقِ
وكأنّ سالِفَتَيْك تِبْرٌ سائلٌ وعلى المَفَارِقِ منك تاج عَقيقِ
وكأنّ مَجرى الصوت منك، إذا نَبَتْ وجَفَتْ عن الأسماع بُحٌ حُلُوقِ(٥)
نايٌ رقيقٌ ناعمٌ قُرِنَتْ به نَغَمٌ مؤلَّفةٌ من المُوسِيقى

---

(١) الأسوار: الرامي بالنبال، أو هو قائد الفرس.
(٢) أبو النذر: كنية الديك.
(٣) السموق من النبات: ما ارتفع وعلا وطال.
(٤) بقع الطير: اختلف لونه. وعلق مضنة: يقال للشيء النفيس الذي يضن به ويحرص عليه.
(٥) بح: جمع أبح من البحة، وهي خشونة وغلظ في الصوت.

تَزْقُو وتَصْفِق بالجَنَاح كَمُنْتَشٍ ... وصلت يداه الصوتَ بالتَّصفيقِ
وخطَرتَ مُلتحفاً بمرْطٍ حَبَّرتْ ... فيه بديعَ الوَشي كفٌّ أنيقِ[١]
كالجُلَّنَارَة أو ضياءِ عقيقةٍ ... أو لَمْعِ نارٍ أو وميضِ بُروقِ
أو قهوةٍ تختالُ في بِلَّوْرَةٍ ... بِتألُقِ اللَّمَعَان والتَّزْوِيقِ[٢]
وكأنما الجادِيُّ جادَ بِصبْغِهِ ... لك أو غَدَوْتَ مُضمَّخاً بخَلُوقِ[٣]

وقال شاعر أندَلُسيّ: [من المتقارب]

وكائِنْ نَفى النومَ من عين فانٍ ... بديعُ الملاحةِ حلوُ المعاني
بأجفان عَيْنيه ياقوتَتانِ ... كأنّ وَميضهما جَمْرتانِ
على رأسه التاجُ مُستشرِفاً ... كتاج ابن هُرْمُزَ في المِهْرَجَانِ
وقُرطانِ من جوهر أحْمَرٍ ... يَزينانه زَيْنَ قُرْطِ الحَصَانِ[٤]
له عُنُقٌ حولها رَوْنَقٌ ... كما حوتِ الخمرَ إحدى القَنَانِي
ودار بُرَائِلُه حولَها ... لها ثوبُ شَعْرٍ من الزعفران[٥]
ودارتْ بجُؤجئه حُلَّةٌ ... تَروقُ كما راقكَ الخُسْرَوَانِي
وقام له ذَنَبٌ مُعْجِبٌ ... كباقةِ زَهْرٍ بدَتْ من بَنَانِ
وقاس جناحاً على ساقه ... كما قِيس سِتْرٌ على خَيْزرَانِ
وصفَّق تَصفيقَ مستَهتِرٍ ... بمُجْمَرَةٍ من بَنَاتِ الدِّنانِ
وغرَّد تغريدَ ذي لَوْعَةٍ ... يبوحُ بأشواقه للغَواني

وقال أبو عليّ بن رَشيق[٦] حيث مزّق عنه جِلبابَ الممادح، وتركه من شمل الذمّ في الرأي الفاضح: [من السريع]

قام بلا عقلٍ ولا دينٍ ... يَخلطُ تصفيقاً بتأذينِ

---

(١) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان، يؤتزر به وتتلفع به المرأة.
(٢) القهوة: المراد بها الخمر.
(٣) الخلوق: ضرب من الطيب.
(٤) الحصان: المرأة العفيفة.
(٥) البرائل: ما استدر من ريش الطائر حول عنقه.
(٦) هو الحسن بن رشيق المعروف بالقيروان (أبو علي) شاعر، أديب، نحوي، لغوي، مؤرخ، عروضي، ناقد. توفي سنة ٤٦٣ هجرية. (معجم المؤلفين ٣: ٢٢٥).

فنبَّه الأحبابَ من نومهم ... ليخرجُوا من غير ما حين
بصرخةٍ تبعثُ موتَى الكَرَى ... قد أذكرت نَفْخَ سَرَافِينِ[(١)]
كأنّها في حَلْقه غُصَّةٌ ... أغصَّه الله بسكِّينِ

وأمّا الحَجَلُ ومَا قيلَ فيهِ ـ والحَجَلُ طائرٌ يسمّى: «دَجَاجَ البَرّ» وهو صنفان: نَجْدِيّ، وتِهَاميّ. فالنجديّ أخضر أحمرُ الرجلين. والتِّهامِيّ فيه بياضٌ وخضرةٌ. وسمّي الذكر «يعقوب»، والفرخ الذَّكر «السُّلَك»، والأنثى «السُّلَكة»، وهو من الطير الذي يخرج فرخُه كاسياً كاسباً. ويقال: إنّ الحجلةَ لم تَلْقَح تمرّغت في التراب ورشَّته على أصول ريشها فتلقح. ويقال: إنها تبيض بسَماعِ صوتِ الذَّكر وبريحِ تَهُبّ من ناحيته.

قال أبو عثمان الجاحظ: وإذا باضت الحَجَلةُ ميّز الذكرُ الذكورَ منها فيحضُنُها وميّزت الأُنثى الإناثَ فتحضُنُها، وكذلك هما في التربية. قال: وكلّ واحد منهما يعيش خمساً وعشرين سنةً. ولا تَلْقَح الأنثى بالبيض، ولا يُلْقِح الذكر إلاّ بعد مُضِيّ ثلاث سنين. والذكرُ شديد الغَيْرَةِ على الأنثى. فإذا اجتمع ذكرانِ اقتتلا، فأيُّهما غلَب ذَلّ له الآخرُ؛ وذهبت الأنثى مع الغالب. والأنثى إذا أُصيبت بيضُها قصدَت عُشَّ أُخرى وغَلبتها على بيضها. وقد وصف أبو عليّ بن رَشيق القَيْرَوانيّ الحَجَل فقال: [من مجزوء الكامل]

ما أغْرَبَتْ في زِيّها ... إلاّ يَعَاقِيبُ الحَجِلْ[(٢)]
جاءتك مُثْقَلةَ التَّرا ... ئِبِ بالحُلِيِّ وبالحُلَلْ[(٣)]
صُفْرَ الجفون كأنما ... باتَتْ بتِبْرٍ تَكْتَحِلْ
مشقوقةٌ شقَّ الزُّجا ... جِ لمن أمَّل أو عَقَلْ
وَصَلَتْ مذابحُها الرؤو ... سَ بحُمْرة فيها شُغَلْ
لولا اختلافُ الجنس والتـ ... ـركيب جاءتْ في المَثَلْ
كَلِحَى الثمانين التي ... خُضِبت ومنها ما نَصَلْ
أو كاللِّثام أزالَهُ ... فَرْطُ التَّلَفُّتِ والعَجَلْ
وتَخالُهنّ جَوَارِياً ... لا يُزْدَرَيْن من العَطَلْ

---

(١) سرافين: جمع سراف، وهو الملك.
(٢) اليعاقيب: جمع اليعقوب، وهو ذو العقب.
(٣) الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين. أو هو موضع القلادة.

رَمَتْ الثِّيابَ إلى وَرَا ... ءَ عن المناكب تَنْجَدِلْ[١]
وبدَتْ سراويلاتُها ... يَسْحَبْنَ وَشْياً من قُبُلْ
حُمْرٌ من الرُّكْبَات في ... لون الشقائق أو أَجَلْ
عَقَّدْنَها فوق الصدو ... ر مُخَالساتٍ لِلْقُبَلْ
وشَدَدْنَ بالأَعْضَادِ من ... حَذَرٍ عليها أن تُحَلْ
وكأنما باتتْ أصا ... بِعُها بِحِنَّاءٍ تُعَلْ[٢]
مَنْ يَسْتَحِلّ لصيدها ... فأنا أمرؤٌ لا أسْتَحِلْ

وأمّا الكُرْكيّ وما قيل فيه ـ ويقال: إنّه «الغِرْنيق»؛ ويقال: إن الغرنيقَ صِنف منه. وهو طائر أخضرُ طويلُ المِنْقار والرجلين. وسِفادُه في السُّرعة كالعصفور. وله مَشَاتٍ ومَصَايف. وفي طبعه التَّناصُر؛ ولهذا أنّه لا يطيرُ متقطّعاً ولا مُتباعِدا بل صَفّاً واحداً، يُقدمها واحدٌ منها كالرئيس لها المقدَّم عليها وهي تتبعه، يكون كذلك حيناً، ثم يخلفه آخَرُ منها. وفي طبع الكُركِيّ وعادته أنّ أبَوَيْه إذا كَبِرا عالَهما.

وقال أرسطو: إن الغرانيقَ من الطير القواطِع وليست من الأوابد، وإنها إذا أحسَّت بتغيّر الزمان أعتزمَتْ على الرجوع إلى بلادها. وكلّ منها ينام على إحدى رجليه قائماً. ويقال: إن الكَرَاكيّ إذا كَبِرت أسودَّ ريشها وهو في شيبتها رَمادِيٌّ. وقد ظهر بالديار المصريّة في شهور سنة خمسَ عشرةَ وسبعمائة صِنْفٌ من الكَرَاكِيّ أبيضُ اللون ناصعُ البياض حَسَنُ الصورة، وهو أكبرُ جُثَّةً من الكراكي المعتاد. وقال النّاشِي في وصف الكراكيّ: [من الرجز]

ومَوْرِدٍ يُجْذِل قلبَ الوامِق ... مُنَظَّم بالغُرّ والغرانِق[٣]
وكلّ طيرٍ صافرٍ أو ناعِق ... مكتهلٍ وبالغٍ ولاحق
مَوْشِيّةِ الصدورِ والعواتِقِ ... بكل وَشْي فاخرٍ وفائق
تختالُ في أجنحةٍ خَوَافِق ... كأنما تختالُ في قَرَاطِقِ[٤]
يَرْفُلْن في قُمْصٍ وفي يَلامِقِ ... كأنهن زَهَرُ الحدائق[٥]

---

(١) انجدل: انصرع.
(٢) تعلّ بحناء: تخضب مرة بعد أخرى.
(٣) الغرانق: نبات شجيري معمر من الفصيلة الجارونية.
(٤) يقال: خفق الطير إذا طار، وهو خافق.
(٥) يلامق: جمع يلمق، وهو القباء المحشو.

حُمْرِ الحِداق كُحُلِ الحَمالِقِ كأنما يَجُلْن في مَخانِق[١]

وأمّا الإِوَزّ وما قيل فيه - والإوزّ ثلاث أصناف: بَطائحيّ وهو الطويل الأسود بزُرقة وتركيّ وهو المُدوَّر المائل إلى البياض، وخبيّ وهو الضخم الكبير منها. ويقال: إنّ الإوز إذا فرغ من السِّفاد وسَبح في الماء فإنما يفعل ذلك لتَمام اللّذة. والأُنثى تحضُن بيضَها ثلاثين يوماً. والذكور تَحنُو على الفراخ. ولكلّ منها قَضِيبٌ يَسفِدُ به كالبَطّ، والإوَزّ البطائحيّ، وهو المعروف بمصر بالعِراقيّ يخالف الخبيَّ في الصياح؛ لأنّ الخبي تصيح ذكورها ولا تصيح إناثُها، والبطائحي بخلاف ذلك. والخبيّ من الطير الأوابدِ التي لا تَبرح من الأماكن التي تُرَبَّى فيها لثِقَل أجسامها، وإذا نَهضت فلا ترتفع من الأرض إلاّ يسيراً. والعراقياتُ من الطير القَوَاطع التي تنتقلُ من مكان إلى آخر، وتُرى في وقت دون وقتٍ.

وقال ٱبن رَشيق يصِف فحلَ إوَزٍّ: [من الطويل]

نظرتُ إلى فحل الإوزّ فخِلتُه من الثِّقْل في وَحْلٍ وما هو في وَحْلِ

يُنقِّلُ رجليه على حين فَتْرةٍ كمُنْتَعلٍ ولا يُحسِن المشيَ في النَّعْلِ

له عُنُقٌ كالصَّوْلَجانِ ومَخْطِمٌ حكى طَرَفَ العُرجون من يانِعِ النَّخْل[٢]

يُداخِله زَهْوٌ فيلحظ من علٍ جوانِبَه ألحاظَ مُتَّهَمِ العقل

يَضُمّ جناحيه إليه كما ٱرتدى رداءً جديداً من بَني البَدْوِ ذو جهلِ

وأمّا البطُّ ومَا قِيلَ فِيهِ - وهو أصناف: منها الوَحْشِيّ، والأهليّ، ومن الوحشِيّ «اللَّقْلَق»[٣]؛ ومن الأهليّ «الصِّينيُّ»، وفراخُه تَخرُج كاسيةً كاسبةً. وقيل: إن بالزَّابجَ بطّاً بيضاً وحمراً ورُقْطاً طوالَ الأعناق قِصارَ الأرجلُ. والبطّ يطير على وجه الماء، وليس من طير الماء، لأنه لا يَأوِيهِ دائماً ولا يَغتَذِي بالسمك، وهو يأكل النباتَ والبُذور، وله قضيبٌ يخرج من دُبُره كذكر الكلب عظيمٌ جدّاً بالنسبة إليه؛ في رأسه زِرٌّ كالفَلْكَة[٤]؛ فإذا سَفِدَ لم يُخرِجْه حتى ينقلبَ لجنبِه، ويحصُل له عند السِّفادِ من الالتحام ما يحصُل للكلب.

وقال أبو عليّ بن سينا: وطبع البطِّ حارٌ أسخن من جميع الطيور الأهلية. قال:

---

(١) المخانق: القلائد.

(٢) العرجون من النخل كالعنقود من العنب.

(٣) القلق: طائر أعجمي طويل العنق.

(٤) فلكة المغزل: رأسه.

قال بعضهم: وهو يسخّن المبرودَ ويُورث المحرور حمّى. قال: وشحمه عظيم في تسكين الوجع وتسكين اللذع من عمق البدن؛ وهو أفضلُ شُحوم الطيرِ. ولحمه يُكثِر الرِّياحَ، وقانِصتُه كثيرةُ الغِذَاءِ؛ ولحمه يُسَمِّنُ، وهو بَطِيءٌ في المعدَة ثقيلٌ. وإذا انهضم كان أغذى من جميع لحوم الطير؛ وهو يزيد في الباه[1] ويكثر المَنِيَّ.

وأمّا النُّحَام[2] ومَا قيلَ فيهِ ـ قالوا: والنُّحام يكون أفراداً وأزواجاً. وإذا أراد المبيتَ اجتمع رُفُوفاً[3] فنام ذُكوره ولا تنام إناثُه. وتُعِدّ لها مَباتَاتٍ، إذا ذُعِرتْ في واحد منها طارت إلى آخَر. ويقال: إنه لا يَسْفِدَ ولا يُخرج فراخه بالحَضْن وإنما تبيض الأنثى من زَقّ الذكر. وإذا باضت تغرّبَت وبقي الذّكرُ عند البيض يذرُق عليه ليس إلاّ، فيقوم ذَرْقُه مقامَ الحَضْن. فإذا تمّت مدّةُ ذلك خرجت الفراخُ لا حَرَاكَ بها؛ فتجيء الأنثى فَتَنْفُخُ في مناقيرها حتى يُجري ذلك النفخُ فيها رُوحاً، ثم يتعاون الذّكرُ والأُنثى جميعاً على التربية، وإذا قَوِيَت الفراخُ على الطُّعْم وأمكنها التكسُّبُ لنفسها طردها الذّكَر.

وأمّا الأنيسُ ومَا قيلَ فِيهِ ـ فقال أرسطو: إنّه حادُّ البصر، وصوته يُشبه صوتَ الجَمل ويُحاكيه. ومأواه في قرب الأنهار في الأماكن الكثيرة المياه الملتفّة الشجر. وله لونٌ حسنٌ وتدبيرٌ في معاشه. والناسَ يتغَالَون به إذا وقع لهم ويجعلونه في بيوتهم.

وأمّا القَاوَنْدُ ومَا قيلَ فيهِ ـ قال صاحبُ كتاب مباهج الفكر ومناهج العِبرَ في كتابه: كنتُ أسمع بشَخْم القاوَنْد ولم أدرِ ما هو: حيوانٌ هوائيّ أم مائيّ أم أرْضِيّ، حتى وقفتُ على كتابٍ موضوعٍ في طبائع الحيوان وخواصّه ليس عليه اسم المُصنِّف، فرأيته قد قال: «القاوند طائر يتّخذ وكره على ساحل البحر ويحضُن بيضَه سبعةَ أيّام، وفي اليوم السابع يُخرج فِراخَه ثم يَزُقّها سبعةَ أيام. والمسافرون في البحر يتيمّنون بهذه الأيام ويُوقنون بِطيبِ الرِّيح وحلول أيام السفر».

وأمّا الخُطَّافُ ومَا قيلَ فيهِ ـ والخُطّافُ يسمّى «زَوّارَ الهند»، وهو من الطيور القواطع التي تَقطع البلاد البعيدة إلى الناس رغبةً في القرب منهم والإلف بهم، وهو مع ذلك لا يَبْنِي بيتَه إلاّ في أبعد المواضع حيث لا تناله أيديهم. ومن عجيب حاله أنّ عينَه تُقْلَع فترجِع؛ وهو لا يُرَى أبداً يقف على شيءٍ يأكله، ولا يُرى يُسافِدُ ولا يجتمع بأُنثاه، والأنثى تبيض مرّةً واحدةً في السنة، وقيل: مرتين؛ وكلاهما قاله الجاحظ.

---

(١) الباه: النكاح.

(٢) النحام: طائر أحمر كالأوز.

(٣) الرفوف: جمع رف، وهو القطيع من الطير.

والخُفّاش عدوُّ الخُطّاف؛ فهو إذا فرَّخ وضع في أعشاشه قُضْبان الكَرَفْسِ[١]، فلا يُؤذِي فراخَه إذا شمَّ رائحة الكَرَفْس. وهو لا يُفَرِّخ في عِشٍّ عتيقٍ حتى يُطِيِّنه بطينٍ جديدٍ. وهو يَبني عُشّة بالطين والتِّبْن. فإذا لم يجد طينا مُهَيَّأً ألقى نفسه في الماء ثم تمرّغ في التّراب حتى يمتلئَ جَناحاه ثم يجمعه بمِنقاره. وهو يُسوِّي في الطُّعْم بين فراخه. ولا يترك في عُشّه زِبْلاً بل يُلقيه خارجاً. وأصحابُ اليَرَقان يُلَطِّخون فِراخَ الخُطّاف بالزعفران، فإذا رآها صُفراً ظنّ أنّ اليَرَقانَ أصابَها من شدّة الحرّ، فيذهبُ ويأتيها بحَجَر اليَرَقان فيَطْرحُه على الفِراخ، وهو حَجرٌ أصفَرُ، فيأخذه المُحتالُ فيعلّقه على نفسه أو يَحُكُّه ويشربَ من مائه يسيراً فيبرأ. والخطّاف متى سمع صوتَ الرّعد مات.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: قال ديسقوريدس: إنّ أوّل بطن للخُطّاف إذا شُقّ وُجد فيه حَصاتان، إحداهما ذاتُ لونٍ واحد والأخرى ذاتُ ألوانٍ كثيرة، إذا جُعلتا في جِلد عجلٍ قبل أن يصيبه ترابٌ ورُبِط على عَضُد المصروع ورقبته انتفع به، قال: وقد جرَّبت ذلك وأبرأ المصروعَ. قال: وأكلُ الخُطّاف يُحِدّ البصرَ، وقد يُخَفَّفُ ويُسْقَى. والشربةُ منه مثقالٌ. وقيل: إنّ دماغه بعسل نافعٌ من ابتداء الماء، وكذلك دماغُ الخُفّاش. قال: وإن مُلِّح الخُطّاف وجُفِّف وشُرب منه درهمانِ نفَع من الخُنَاق. قال بعضُ الأطباء: المشهور عند الأطباء أن عُشّ الخَطَاطيف إذا حُلّ في ماء وصُفِّيَ وشُرِب سهّل الولادة.

وقد ألمّ الشعراءُ في أشعارهم بوصف الخُطّاف؛ فمن ذلك ما قاله أبو إسحاق الصّابي: [من الطويل]

وهنديّة الأوطان زَنْجيّة الخَلْق   مُسَوَّدة الأثواب مُحْمَرَّة الحَدَقْ
كأنّ بها حُزْناً وقد لَبِستْ له   حِداداً وأذْرَت من مدامعها العَلَقْ[٢]
إذا صَرْصَرَتْ صَرّت بآخر صوتِها   كما صَرّ مَلْوَى العود بالوتَر الحَزَقْ[٣]
تَصِيفُ لدينا ثم تشتو بأرضِها   ففي كلّ عامٍ نَلْتقي ثم نَفْتَرِقْ

وقال السَّريّ الرّفّاء يصفها من أبيات ويذكر غرفةً: [من الطويل]

وغرفتُنا بين السحائب تَلْتَقي   لهنّ عليها كِلّةٌ ورِوَاقُ
تَقَسَّم زُوّارٌ من الهند سَقْفَها   خِفافٌ على قلب النديم رِشاقُ

---

(١) الكرفس: عشب ثنائي الحول من الفصيلة الخيمية، له جذر وتدي مغزليّ، وساق جوفاء قائمة.
(٢) العلق: الدم الشديد الحمرة.
(٣) الحزق: اسم من حزق الشيء يحزقه إذا شدّه وضغطه.

أعـاجِـمُ تَـلْـتَـدُّ الـخِـصَـامَ كـأنـهـا   كـواعِـبُ زَنْـج راعَـهـنّ طَـلاَقُ
أَنِسْـنَ بـنـا أُنْـسَ الإمـاء تـحـبّـبـتْ   وشـيـمـتُـهـا غَـدْرٌ بـنـا وإبـاقُ
مُـواصِـلَـةٌ والـوَرْدُ فـي شَـجَـراتـه   مُـفـارِقَـةٌ إن حـان مـنـه فِـراقُ

وقال أيضاً: [من الطويل]

وغرفتُنا الحسناء قد زاد حسنُها   بـزائـرةٍ فـي كـلّ عـام تَـزُورُهـا
مُبَيّضَةِ الأحشاءِ حُمر بطونُها   مُزَبْرَجَة الأذناب سود ظهورُها
لـهـنّ لُـغَـاتٌ مُـعْـجَـمَـاتٌ كـأنـهـا   صَرِيرُ نِعال السِّبْتِ عالٍ صَرِيرُها(١)

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

وزائـرةٍ فـي كـلّ عـام تـزورُنـا   فـيخبر عن طِيبِ الزمان مَزَارُها
تُـخَـبِّـر أنّ الـجـوّ رَق قـمـيـصُـه   وأنّ رِيـاضـاً قـد تـوشّـى إزارُهـا
وأنّ وجـوهَ الـغُـدْرِ رَاقَ بـيـاضُـهـا   وأنّ مُـتـونَ الأرض رَاعَ اْخـضـرارُهـا
تَـحِـنّ إلـيـنـا وهـي مـن غـيـر شَـكْـلـنـا   فتدنو على بُعْدٍ من الشكل دَارُها
ويُعْجِبنا وسْطَ العِراصِ وُقوعُها   ويـؤنِـسُـنَـا بـيـن الـدّيـار مَـطـارُهـا(٢)
أغار على ضَوْء الصباح قميصُها   وفـاز بـألـوانِ الـلـيـالـي خِـمـارُهـا
تَـصِـيـح كـمـا صَـرّت نِـعـالُ عـرائـسٍ   تـمـشـت إلـيـنـا هِـنْـدُهـا ونَـوَارُهـا

وقال آخَرُ:

أهـلاً بـخُـطّـافٍ أتـانـا زائـراً   غَـرِداً يُـذَكِّـر بـالـزمـان الـبَـاسِـمِ
لَـبِـسـتْ سـرابـيـلَ الـصـبـاحِ بـطـونُـه   وظـهـورُه ثـوبَ الـظـلام الـعـاتِـمِ

وقال أبو نُوَاس:

كـأن أصـواتَـهـا فـي الـجـوّ طـائـرةً   صوتُ الجِلامِ إذا ما قَصّتِ الشَّعَرا(٣)

وأمّا القِيقُ والزُّرْزُورُ ومَا قيلَ فيهمَا ـ والقِيقُ: طائر في قَدْر الحَمَام اللّطيف؛ وأهلُ الشأم يُسمّونه «أبا زُرَيْق». وفي طبعه كثرةُ الإلْف بالنّاس، وقبولُ التعليم، وسرعةُ الإدراك لما يُلَقّن من الكلام مُبيّنا حتى لا يشك سامعه إذا لم يَره أنه إنسانٌ؛ وربما زاد على البَبَّغَاء. وله حكاياتٌ وأخبارٌ في الذكاء والفِطْنة يطول شرحها، وهو طائر مشهور بذلك.

(١) نعال السبت: نعال تتخذ من جلود البقر المدبوغة بالقرظ.
(٢) العراص: واحدتها عرصة، وهي البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.
(٣) الجلام: واحدتها جلم، وهو المقص.

وأمّا الزُّرْزُورُ - فيقال: إنه ضَرْبٌ من الغراب يسمّى «الغُدَاف»؛ ويقال: إنه «الزّاغ». وهو يقبل التعليم، ولا يُرى إلاّ في أيام الربيع. ولونه أرقطُ لكن السواد أغلب. وقد يوجد في لونه الأبيض، وهو قليل جداً.

وقال بعض شعراء الأندلس: [من الكامل]

يـا رُبّ أعـجـمَ صـامـتٍ لـقّـنـتُـه ... طُرَفَ الحديثِ فصار أفصحَ ناطقِ
جَـوْن الإهـابِ أعـيـرَ قـوّةَ صُـفْـرةٍ ... كـالـلّـيـل طـرّزه وَمِـيـضُ الـبـارقِ
حِكَمٌ من التّدبير أعجزت الورى ... ورأى بها المخلوقُ لُطفَ الخالِقِ

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

أمِـــنْـــبَـــرٌ ذاكَ أم قَـــضِـــيـــبُ ... يَـقْـرَعُـه مِـصْـقَـعٌ خـطـيـبُ
يَـخـتـالُ فـي بُـرْدَتَـيْ شَـبـاب ... لـم يـتَـوَضَّـحْ بـهـا مَـشـيـبُ
أخـرسُ لـكـنّـه فـصـيـحٌ ... أبـلَـهُ لـكـنّـه لـبِـيـبُ

وقال الوزير أبو القاسم بنُ الجدّ الأندلسيّ من رسالة كتبها إلى الوزير أبي الحسن بن سِراج جواباً عن رُقْعةٍ وصلتْ منه إليه، يشفعُ لرجل يُرعف بالزُّرَيْزِيرِ، ابتدأها بأن قال:

حسُنتْ لك أبا الحسن ضرائبُ الأيام، وتشوفَتْ نحوكَ غرائبُ الكلام، واْهتزْت لمكاتبتك أعطافُ الأقلام، وجادت على مَحْلك ألطافُ الغَمَام، وأشادت بفضلك ونُبلك أصنافُ الأنام. فإن كان روض العهد أعزّك الله لم يُصِبْه من تَعَهُّدنا طلٌّ[(١)] ولا وابل[(٢)]، ولا سَجَعَتْ على أَيْكِهِ وُرْقٌ ولا بَلابِل؛ فإن أزهارَه على شِرْب الصّفاء نابته، وأشجارَه في تُرْب الوفاء راسخةٌ ثابتة، وقد آن الآن لعُقم شجره أن تُطلِع من الثمر ألواناً، ولعُجْم طيره أن تَسجَعَ من النَّغَم ألحاناً، بما سقط لديّ ووقع عليّ من طائرٍ شِهيّ الصفِير، مبنيّ الاسم على التصغير؛ فإنه رَجَّع بأسمك حِيناً، واْبتدع في نوبة شكرك تَلْحِيناً، وحرَّك من شوقي إليك سكوناً، ودمَّث[(٣)] في قلبي لوُدّك وُكوناً، ثم اسمعني أثناء ترنّمه كلاماً وصف به نفسَه، لو تغنّت به الوَرْقاء، لأَذِنَتْ له[(٤)] العنقاء، أو ناح بمثله الحمام؛ لبكى لشَجْوِه الغَمَام، أو سَمِعه قيسُ بن عاصم في ناديه، وبين

---

(١) الطل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.
(٢) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر.
(٣) دمث: هيأ وسهل.
(٤) أذنت: أصغت واستمعت.

أعاديه، لحَلّ الزَّمع[١] حُبَاه، وٱستردَّ الطَّرَبُ صِباه:

كـلامـاً لـوْ أن الـبَـقْـلَ يُـزْهَـى بـمـثـلـه   زها البقل وٱخضرّ الغضا بِمَصيف

فتلقّيتُ فضل صاحبه بالتّسليم، وٱعتَرفتْ بسِبْقه ٱعتراف الخبير العليم.

وبعدُ، فإني أعود إلى ذكر ذلك الحيوان الغرِّيد، والشيطان المريد؛ فأقول: لئن سُمِّي بالزُّرَيْزِير، لقد صُغِّر للتكبير؛ كما قيل: حُرَيْقِيصٌ وسَقْطُه يُحرِق الحَرَج، ودُوَيْهِيَةٌ وهي تلتهم الأرواحَ والمُهَج. ومعلومٌ أنّ هذا الطائرَ الصافر يفوق جميعَ الطيور في فَهْم التلقين، وحسن اليقين، فإذا عُلِّم الكلامَ لهِج بالتسبيح، ولم يَنْطِق لسانُه بالقبيح، وتراه يقُوم كالنصيح، ويدعو للخير بلسانٍ فصيح. فمن أحبَّ الاتّعاظ، لقي منه قُسَّ إيَادٍ بعُكَاظٍ؛ أو مال إلى سماع البسيط والنشيد، وجَد عنده نُخَبَ المَوْصِليّ للرشيد. فطوراً يُبكيك بأشجى من مراثي أرْبَد، وحيناً يُسَلِّيك بأحلى من أغاني مَعْبَد. فسبحان من جعله هادِياً خطيباً، وشادياً مُطْرِباً مُطِيباً. ولما طار ببلاد الغرب ووقع، ورَقِيَ في أكنافها وصقعَ وعاين ما ٱتّفَقَ فيها في هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون والمتون؛ أزمع عنها فِراراً، ولم يجد بها قراراً؛ لأن هذا الثمر بهذا الأفُق هو قِوامُ معاشه، وملاكُ ٱنتعاشه؛ إليه يَقْطَع، وعليه يقع؛ كما يقع على العسل الذُّبَاب، وتقطع إلى العَرَادِ الضِّباب، فاستخَفَّه هائج التذكار، نحو تلك الأوكار، حيث يَكْتَسِي ريشُه حريراً، ويَخْتَشِي جَوفُه بَرِيراً[٢]، ويحتسي قُرَاحاً نميراً، ويَغتدِي على رَهْطِه أميرا. فخذه إليك، نازلاً لديك، ماثلاً بين يديك، يترنّم بالثّناء، ترنُّم الذبابِ في الرّوضة الغَنّاء، وقد هَزّ قَوادِمَ الجناح، لعادة الاستمناح؛ وخَبَّر من لُمَع الأَسْجَاع، وما يصلُح للانتجاع، واثقاً بأن ذلك القُطْر الناضر سَتَنْفَحه حدائقُه، ولا تَلْفَحه ودَائِقُه[٣]؛ لا سيما وفضلُك دليله إلى تُرَع رياضِه، وفُرَض حياضه؛ مع أنه لا يَعْدَم في جنابكَ حَبّاً نثيراً، وخِصباً كثيراً، وعُشّاً وثيراً.

فـــإذا مـــا أراد كُـــنـــتَ رِشَـــاءَ   وإذا مـــا أراد كُـــنـــتَ قَـــلِـــيـــبَـــا[٤]

والله تعالى يَكْفيه فيما ينوبه شرّ الجوارح، ويقيه شؤم السانح والبارح، بمَنّه وكرمه.

وأمّا السُّمَانَى ومَا قيلَ فيهِ ـ يقال: إنّ السُّمَانَى هو السَّلوَى، وهو من الطيور

(١) الزمع: الخفة والطيش.
(٢) البرير: أول ما يظهر من ثمر الأراك وهو جلد.
(٣) الوديقة: حر نصف النهار.
(٤) القليب: البئر.

القواطِعَ التي لا يُعْلَم من أين تأتي، ويقال: إنه يخرج من البحر المالح؛ فإنه يُرى وهو يَطير عليه أوانَ ظهوره وأحدُ جَناحيه منغمسٌ في الماء، والآخرُ منتشرٌ كالقِلْع. وأكثرُ من يعتني بتربيته أهلُ مصر ويتغالَوْن في ثمنه ويحتفلون بأمره، حتى ينتهي ثمن جَيّده إلى ألف درهم بعد أن يباع كلُّ عشرة منها بدرهم وأرخص. وهو صِنْفان: رَبيعيّ وطِرْمَاهِيٌّ، فالرَّبِيعيّ القادم الراحل. والطِّرماهيّ القاطن في الأرض والبلاد الخصيبة، وَيَبِيض ويُفَرِّخُ فيها كالحَجَل. وسببُ مُغالاتهم في أثمانها لأجل كثرة صِيَاحِها وعددِ أصواتها. وقد وُجد فيها ما صاح في الليلة الواحدة إلى الثانية من النهار أربعة آلاف وستمائة صوت. والصوتُ عندهم أن يُفْصَلَ بينه وبين الصوت الثاني بسَكْتة. وهم في تربيته يبدؤون بإطعامه دُقاق القَمح (وهو القمح الصغير الذي لا يُمسكه الغِرْبال لِصِغَرِه) مدّةَ شهر؛ وتكون ذلك الوقت مجتمعةً في قَفَص كبير يسمّونه «المرح»؛ ثم يُفْرَدُ بعد ذلك كلُّ سُمَانَى بمفرده في قفص ويُطْعَمُ الدُّخْنَ[1] والشَّادَانِقَ[2]. ويَصيح في مبتدأ أمره مقدارَ شهر ثمّ يسكت مدّة شهرين. ويُنقَلُ إلى أقفاصٍ أُخَر يعتنون بجودتها ويرفعونها على البَرَاريد (والبراريدُ عِصِيٌّ تُعَلَّق عليها الأقفاص) فيصيح بعد تلك السكتة أربعةَ أشهر. فإذا دخل فصل الخريف وهبطَ الماءُ سكت مدّةَ شهرين وتَقَرْنَصَ[3]، ثم يصيح أحياناً ويسكت أحياناً. وهو لا يطولُ عمره أكثر من سنة ونصف. وأوّل ما يصيح قبل أن يتفصّح بالوَعْوَعَة، وحكاية صوته: «وَعْ وَعْ»؛ ثم يصيح بعد ذلك: «شَقْشَلَق».

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في كتاب الأدوية المفردة: إنه يُخاف من أكل لحوم السُّمَانَى من التمدّد والتَّشنّج.

وأمّا الهُدْهُدُ وما قيلَ فيهِ ـ والهدهدُ طائرٌ معروف. وقال الجاحظ فيه: والعرب كانوا يزعمون أن القُنْزُعَةَ[4] التي على رأسه ثوابٌ من الله عزّ وجلّ على ما كان من بِرّه لأمّه، لمّا ماتت جعل قبرها في رأسه؛ فهذه القُنْزُعَةُ عِوَضٌ عن تلك الوَهْدة. وهو طائر مُنْتِنُ البَدَنِ من جوهره وذاته. والأعراب يجعلون ذلك النَّتْنَ شيئاً خامرَه بسبب تلك الجِيفَةِ التي كانت على رأسه. ويستدلّون على ذلك بقول أُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْت حيث يقول من أبيات: [من الكامل]

---

(١) الدّخن: نبات عشبي من النجيليات، حبه صغير أملس كحب السمسم.

(٢) الشادانق: بزر العنب.

(٣) الباز المقرنص: المقتنى للاصطياد، أو ما ربط من الطير ليسقط ريشه، وقرنس الديك (باب السين): أي هرب من ديك آخر.

(٤) القنزعة: الريش المجتمع في رأس الديك.

غـيْـمٌ وظَـلْـمـاء وغـيـثُ سَـحَـابـةٍ أزمـانَ كَـفَّـنَ وٱسـتـراد الـهُـدْهُـدُ
يَـبْـغِـي الـفـرارَ لأُمِّـه لـيُـجِـنَّـهـا فـبـنـى عـلـيـهـا فـي قـفـاه يَـمْـهَـدُ
مَـهْـداً وطـيـئـاً فـاسـتـقـلَّ بـحـمـلـه فـي الـطـيـر يَـحْـمِـلُـهـا ولا يـتـأوّدُ
مـن أُمِّـه فَـجُـزِي بـصـالـح حـمـلِـهـا وَلَـداً وكَـلَّـف ظـهـرَه مـا يَـعْـقِـدُ
فـتـراه يُـدْلِـج مـاشـيـاً بـجـنـازةٍ بقفاه ما ٱختلف الجديدُ المُسْنَدُ

وزعم صاحبُ الفِراسَة: أن سبَبَ نَتْنِه أنّه يطلب الزِّبْلَ؛ فإذا وجده نقل منه وٱبتنى بيتاً منه؛ فإذا طال مُكثه في ذلك البيت، وفي مثله وُلِد، ٱختلَط ريشُه وبدنُه بتلك الرائحة فورِث ٱبنُه النَّتْنَ، كما ورِثه هو من أبيه، وكما وَرِثه أبوه من جَدّه. قال شاعرٌ:

وأنْـتَـن مـن هُـدْهُـد مَـيِّـت أُصِـيـبَ فَـكُـفِّـنَ فـي جَـوْرَب

ويقال عنه: إنه يَرى الماءَ في باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزُّجاج. وزعموا: أنه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء ولذلك تَفَقَّده، على أحد أقوال المفسرين لكتاب الله تعالى.

وقال الجاحظ فيه: إنه وَفِيٌّ حَفُوظٌ؛ وذلك أن الذكر إذا غابت عنه أُنْثاه لم يأكل ولم يشرب، ولا يزال يصيحُ حتى تَعودَ إليه، فإن لم تَعُدْ لا يَسْفَد بعدها أُنثى أبداً، ولا يزال يصيحُ عليها ما عاش، ولم يَنَلْ بعدها من طُعْم بل ينال منه ما يُمْسك رَمَقَه.

ووصفه أبو الشِّيصِ[١] فقال: [من البسيط]

لا تَـأْمَـنَـنّ عـلـى سـرِّي وسِـرِّكُـمُ غـيـري وغـيـرَك أو طَـيِّ الـقـراطـيِـس
أو طَـائـرٍ سـأُجَـلِّـيـه وأَنْـعَـتُـه مـا زال صـاحـبَ تـنـقـيـر وتَـدْسِـيـسِ
سُـودٍ بَـرَائِـنُـه مِـيـلٍ ذَوائِـبُـه صُفْرٍ حَمَالِقُه في الحسن مغموسِ
قـد كـان هـمَّ سـلـيـمـانٌ لِـيَـذْبَـحَـهُ لـولا سِـعـايـتُـه فـي مُـلْـك بِـلْـقِـيـس

وقال آخر من أبيات: [من البسيط]

كـأنّـه إذ أتـاه مـن قُـرَى سَـبَـإٍ مُـبَـشِّـراً قـد كـسـاه تـاجَ بِـلْـقِـيـسِ
يبـدو لـه فـوق ظـهـرِ الأرض بـاطـنُـهـا كما تَبدّت لنا الأقذاءُ في الكُوس[٢]

وأمّا العَقْعَقُ وَمَا قيلَ فِيهِ ـ ويسمّى العقعق أيضاً «كُنْدُشاً»، وهو طائرٌ لا يأوِي

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن رزين وهو ابن عم دعبل بن علي بن رزين الشاعر، وكان في زمن الرشيد: وقد رثاه بعد موته. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٣٧).
(٢) المراد بقوله: «الكوس» الكؤوس، واحدتها كأس.

تحت سَقْفٍ ولا يَستظِل به، بل يُهَيِّىء وَكْرَه في المواضع المشرفة الفسيحة. وفي طبعه الزِّنا والخيانةُ والسرقةُ والخُبْث؛ والعرب تَضرِبُ به المثلَ في ذلك كلّه. وإذا باضت الأنثى أخْفَت بيضَها بورق الدُّلْب خوفاً عليه من الخُفَّاش، فإنه متى قَرُبَ منه مَذِرَ[١] وفَسَد وتغيّر من ساعته. وتقول العرب في أمثالها: «أمْوَقُ من عَقْعَق». وهو شديدُ الاستلاب والاختطاف لما يراه من الحَلْي الثمين. قال إبراهيم الموصليّ فيه: [من المتقارب]

إذا بــارك الــلَّــهُ فــي طــائــرٍ فــلا بــارك الــلَّــهُ فــي الــعَــقْــعَــقِ
قـصـيـرُ الـذُّنَـابَـى طـويـلُ الـجـنـاح مـتـى مـا يَـجِـدْ غـفْـلـةً يَـسْـرِق
يُـقَـلِّـبُ عَـيْـنـيـنِ فـي رأسـه كـأنـهـمـا قَـطْـرَتَـا زِئْـبَـقِ

وكان سببُ قوله لهذا الشعرِ فيه ما حكاه إسحاق بن إبراهيم قال: كان لي عَقْعَقٌ وأنا صبيٌّ قد ربَّيتُه، وكان يتكلّم بكلّ شيءٍ يسمعه؛ فسُرِقَ خاتم ياقوتٍ كان أبي قد نَزعه من إصْبَعِه ودخل الخَلاَء ثم خرج فلم يجده، فضرب الغلام الذي كان واقفاً، فلم يَقِفْ له على خبر. فبينا أنا ذات يوم في دارنا إذ أبصرت العَقْعَق قد نَبَش تُراباً وأخرج الخاتمَ منه، فلَعِب به طويلاً ثم دفَنه؛ فأخذتُه وجئتُ به إلى أبي، فَسُرَّ به وقال هذا الشعر.

وأمّا العَصَافِيرُ ومَا قِيلَ فيهَا ـ والعصافير ضروبٌ كثيرةٌ: منها «العصفور البُيوتِي» و«عصفور الشَّوْك»، و«عصفور النَّوْفَر»، ومن ضروبها «القُبَّرة» و«حَسُّونُ» و«البُلْبُل».

فأمّا العصفور البُيوتِيّ ـ ففي طباعه ٱختلافٌ: ففيه من طبائع سِباع الطير أنه يُلْقِم فِراخَه ولا يَزُقُّها، ويَصيدُ أجناساً من الحيوان كالنَّمْل إذا طار والجرادِ، ويأكل اللّحمَ. والذي فيه من طباع بهائم الطير أنه ليس بذي مِخْلَبٍ ولا مِنْسَرٍ؛ وهو إذا سقط على عُودٍ قَدم أصابعه الثلاثَ وآخَر الدّابِرَةَ؛ وسباعُ الطيرِ تُقدِّم أصبعين وتُؤخِّر إصبعين؛ ويأكل الحبَّ والبقولَ. وَيَتَمَيَّزُ الذكرُ منها من الأُنْثى بِلِحْيةٍ سوداء. وهو لا يعرِف المشيَ وإنما يرفع رجليه ويَثِبُ. وهو كثيرُ السِّفاد، وربما سَفِد في الساعة الواحدة خمسين مرّةً، ولذلك عمره قصيرٌ فإنّه لا يُعَمَّر غالباً أكثرَ من سنةٍ؛ وإناثُها تُعمَّر أكثر من ذكورها. والمثل يُضرب في التحقير والتصغير بأحلام العصافير.

قال دُرَيْد بن الصِّمّة:

يـا آلَ سـفـيـانَ مـا بـالـي وبـالُـكُـمُ أنـتـم كـبـيـرٌ وفـي الأحـلام عـصـفـورُ

---

(١) مذر البيض: فسد وتغير.

وقال حسّان بن ثابت:

لا بأسَ بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ   جِسمُ البغال وأحلامُ العصافير

وأما عصفور الشَّوْك ـ فزعم أرسطو أنّ بينه وبين الحمار عداوةً، لأن الحمارَ إذا كان به دَبَرٌ حكَّه بالشَّوْك الذي يأوِي إليه هذا العصفورُ فيقتله؛ وربما نَهَق الحمارُ فتسقط فراخهُ أو بيضه خوفاً منه؛ فلذلك هذا العصفور إذا رأى الحمار رَفْرَف فوق رأسه وعلى عنقه وآذاه ونقَره في عَقْره أنّى كان.

وأما عصفور النَّيْلَوْفَر ـ وهو لا يوجد غالباً إلا بثَغْر دِمْياط[1]، وشأنُه غريب؛ وذلك أنه عصفورٌ صغير جداً، فإذا كان قبل غروب الشمس جاء إلى بِرَك النَّوْفَر فيجد النَّوْفَرةَ وهي طافحةٌ على وجه الماءِ مفتوحة فيقعد في وسطها، فإذا حصَل فيها انطبقتْ عليه وانغمست في الماء طوال الليل؛ فإذا طلعت الشمسُ طفَت النَّوْفَرةُ على وجه الماء وانفتحت، فيخرج منها ويطير إلى غروب الشمس، فيأتي ويفعل كفعله.

وأما القُبَّرة ـ فقد عَدُّوها من أنواع العصافير. وهي غَبْراءُ كبيرة المِنْقار على رأسها قُبَّرةٌ. وهذا الضرب قاسي القلب. وفي طبعه أنّه لا يَهُولُه صوت صائحٍ به، ورُبّما رُمِي بالحجر فاستخفَّ بالرامي ولَطِيءَ إلى الأرض حتى يتجاوزَه الحجرُ، وهو يَضَع وَكْره على الجَادَّةِ رغبةً في الأُنس بالناس.

وأمّا حَسُّونٌ ـ وتُسميه أهل الأندلس «أم الحسن» والمصريون «السقاية» لأنه إذا كان في القفص استقَى الماءَ من إناء بآلةٍ لطيفةٍ يُوضع له فيها خيطٌ، فتراه يَرفعُ الخيطَ بإحدى رجليه ويضعه تحت رجله الأُخرى حتى يصل إليه ذلك الإناء اللطيف فيشرب منه. وهو ذو ألوان حسنة التركيب والتأليف من الحمرةِ والصفرةِ والسوادِ والبياضِ والخضرةِ والزُّرقةِ. وله صوتٌ حسنٌ مُطْربٌ. ووصفه أبو هلال العسكريّ فقال:

ومُفْتَنَّةِ الألوانِ بِيضٍ وجوهها   ونُمْرٍ تَرَاقِيها وصفرٍ جُنُوبُها[2]

كأنّ دَرَارِيعاً عليها قصيرةً   مُرَقَّعَةً أعطافُها وجُيوبُها[3]

وأما البُلْبُل ـ وهو «العَنْدَلِيب»، وتُسَميه أهلُ المدينة «النُّغَر». وهو طائرٌ أغبرُ الرأس لطيف القَدِّ، مأواه الشجرُ.

قال الجاحظ: البلبل موصوفٌ بحسن الصوتِ والحنجرةِ، ومن شأنه إذا كان غيرَ

---

(١) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهي ثغر من ثغور الإسلام. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجنوب: واحدتها الجنب، وهي الناحية، أو الشق من كل شيء.

(٣) الدراريع: واحدتها دراعة، وهي جبة مشقوقة المقدم.

حاذقٍ أن يطارِحه إنسان بشكل صوتِه، فيتدرّب ويتعلّم ويحسنُ صوتُه. وقد وَصف أبو هلال العسكريّ البلابلَ فقال: [من الطويل]

مررتُ بدُكْنِ القُمْصِ سُودِ العمائم ... تُغَنّي على أطراف غِيدٍ نواعمِ[1]
زُهِينَ بأصداغ تَرُوق كأنّها ... نجومٌ على أعضاد أسودَ فاحِم
تَرى ذهباً منهنّ تحت مآخِرٍ ... لها ولُجَيْناً نُطْنَه بالقَوَادِمِ

وقال آخر: [من الخفيف]

كيف أُلحَى وقد خَلَعتُ على اللهـ ... ـو عِذاري وقد هَتَكْتُ قِناعي
وتعشّقتُ بلبلاً أنا منه ... في ٱنزعاج إلى الصِّبا والْتِياع[2]
أنا من ريشه المدبَّج في زَهْـ ... ـرٍ من شَجْو صوته في سماع

ومن رسالة ذكرها العِماد الأصفهانيّ الكاتب في الخريدة، وهي لبعض فضلاء أصبهان، ذكر فيها وصفَ الرّياض ومفاخرةَ الرَّياحين، وفضّل فيها الورد، وٱنتهى بعد ذكر الورد إلى وصف البلابل، فقال:

«فلما ٱرتفع صدرُ النَّهار، وٱنقطعَ جدالُ الأزهار؛ سُمع من خَلَل الحديقة زَقْزَقَةُ[3] عَنْدَلِيب، قد ٱتّخذ وَكْراً على حاشية قَليب[4]؛ كان يستتر به عن الجمع، ويجعله دريئةً لاستراق السّمع. وحين أتقن ما وعاه، وأوْدَعَه سمعَه وأَرْعاهُ؛ انتحَى غُصْناً رطيباً، فأوفَى عليه خَطيباً، ثم قال: يا فتنة الخَليقة، لقد جئتِ بالشَّنْعاء الفَليقه[5]؛ وربّ بَسْم ٱستحال ٱحتداماً، ولن تَعْدَم الحسناءُ ذاما. إلامَ ترفُل في دَلاَل زَهْوك، وتغفُل عن رذائل سهوك! وحَتّامَ تَتيه على الأكفاء والأقران، كأنّك أنت صاحب القرآن! ألستَ من عُجَبك بنفسك، وٱسترابتك بأبناء جِنسك؛ لا تزال مشتملاً شَوْك الغصون، معتصماً منها بأشباه المعاقل والحصون! لكنك متى ٱنقضى مَهَبُّ الشَّمال، وعَدَل عن اليمين إلى الشِّمال؛ خِيف عليك نَفْحُ الإحراق، وتعرَّيتَ من حُلَل الأوراق؛ وأصبحتَ للأرض فِراشاً، وتلّعب بك الهواء فعُدت فَراشَا. ثم ما قدرُ جَوْرتك حتى تجور! وهل ينتج حضوره إلا الفجور! هذا إذا كنتم على الأصل الثابت، وعُرفتم في

(١) الدكن: جمع دكناء، وهي ما يميل إلى السواد، أو إلى اغبرار اللون.
(٢) التاع الفؤاد: احترق من الشوق أو الهم.
(٣) الزقزقة: صدح الطائر عند الصبح.
(٤) القليب: البئر.
(٥) الفليقة: الأمر العجب والداهية.
(٦) النهبوري، نسبة إلى النهبور: جمع النهابير، وهي جبال ورمال مشرفة.

أكرم المغارس والمنابت؛ فكيف وأنتم بين رَمْلِيّ وجَبَلِيّ، ونَهْبُوريّ[١] أو تَيْهوريّ[٢]. وهَبْ أنك ورَهْطَك تفرّدْتم بمُمَايَلة القُدود، وتَوَحَّدْتم بمشابهة الخدود؛ وصِرْتم درر البحور، وعُلِّقتم على الجِبَاه والنّحور، وتَحوّلتم جُمَاناً ومَرْجاناً، وحُلِّيتُم مناطق وتيجاناً؛ أقَدَرْتم على مباراة الشحَارِير، ومجاراةِ القَمَارِي النَّحَارِير! أم ملكتم تَهييجَ البلابل[٣]، قبل أصوات البلابل! أم وجدتم سبيلاً إلى ولوج القلوب والأسماع، واتّخاذ الطَّربَ والسَّماع؟! هيهات هيهات، بُعد عنكم ما فات! بل نحن ذوات الأطواق، وبنات الغُصون والأوراق؛ إنما يُكمِل صِيتُكم بنَغَمات أصواتنا، ويزهو غناؤكم بصحة غنائنا؛ ويحسُن تمايُلُ دَوْحِكم بترنّمنا ونَوْحنا، ويَرُوق غديرُكم بهديرنا، ويَشُوق تهديلكم بهديلنا. لم تزالوا حَمَلَةَ أثقالنا، ومُهُودَ أطفالنا؛ وجِيادَ شُجْعاننا، ومنابرَ خطبائنا. فُروعُكم مَحَطُّ أَرْحُلنا، ورؤوسكم مساقِطُ أرجلنا. إذا أوفى مُطْرِبُنا على عُوده، وعبِث بمَلْوَى عُوده؛ وشدّ المثالث والمثاني، شدَّ الثَّقيلين الأوّل والثاني؛ فقد أحيا باللحن الأَيْكيّ، وبَذّ يحيى المَكيّ[٤]؛ وأعاد إبراهيم[٥]، كحاطِب الليل البَهيم، وخرق له أثواب مُخَارق[٦] طَرَباً وحسداً؛ ولم يسلَمْ منه سُلَيم[٧] غيظاً وكَمَداً؛ وأخذ قلبَ[٨] ابن جامع بمجامعه، وطوّقه من الإقرار غُلّاً بمجامعه؛ حتى كأنّه بصحّة ضربه وإتقان أوتاره، يطلب عندهم قديمَ أحقاده وأوتاره: [من الخفيف]

فهي تُصَبي الأبصارَ لوناً قريباً ... وتَسُرّ الأسماع ضَرْباً بعيدَا
خضَبَ الكفّ من دم القلب وأبْتَزْ سُـ ... ـوَيداءَه فطوّقَ جيدَا
أعجميُّ اللّسان مُستعرِبُ اللحـ ... ـن يُعيدُ الخَلِيَّ صَبّاً عَميدا
كلَّ وقتٍ تراه من فَرْط شَجْوٍ ... مُظْهِراً في الغِناءِ لحناً جديدَا
تارةً يجعل النَّشِيدَ بَسيطاً ... ويُعيد البسيطَ طوراً نَشِيدا

(١) التيهوري، نسبة إلى تيهور: وهو من الرمل ما له جرف.
(٢) البلابل: الأشجان.
(٣) يحيى المكي: هو يحيى بن مرزوق مولى بني أمية، وكان يكتم ذلك لخدمته الخلفاء من بني العباس خوفاً من أن يجتنبوه. (الأغاني ٦: ١٦).
(٤) هو إبراهيم الموصلي، المغني المشهور. (الأغاني ٥: ١٥٤).
(٥) هو مخارق بن يحيى الجزار، المغني، كان أبوه جزاراً مملوكاً لعاتكة بنت شهدة، وهي من المغنيات المحسنات المتقدمات في الضرب. (الأغاني ٢١: ٢٢٠).
(٦) هو سليم بن سلام الكوفي، يكنى أبا عبد الله، وكان حسن الوجه حسن الصوت. (الأغاني ٦: ١٢).
(٧) هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع، وهو من قريش.

مَـغْـبَـدٌ لـو رآه أصـبـح عـبـداً وَلَـبِـيـدٌ أمـسـى لـديـه بـلـيـدا
ضـلّ عـن إلْـفـه وأَقْـلَـقـه الـوَجْـ ـدُ فـأمـسـى بـكـاؤه تـغـريـدا

لو عارض الخليل[١] في عروضه لبكّته، أو ناظر ابنَ السِّكِّيت[٢] في إصلاحه لسكّته؛ أو جادل الفارسيّ[٣] لَفَرَسه وجَدَله، أو نازل الكُوفِيَّ لأكْفأه عن رُتْبته وأنزله».

البَابُ الرَّابعُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثالِثِ
في بُغَاثِ الطَّيرِ

ويشتمل هذا الباب على ما قيل في القُمْريّ، والدُّبْسِيّ، والوَرَشَان، والفَوَاخِت والشُّفْنين، واليعتبط، والنَّوَّاح، والقَطَا واليَمَام وأصنافه، والبَبَّغاء. وهذه الأصناف قد عدّها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أو أكثرَها في الحمام، فقال: الحمام وَحْشِيّ، وأهلِيّ، وبُيُوتِيّ، وطُورَانِيّ، وكلّ طائر يُعرف بالنُّوَاح وحسنِ الصَّوت والدّعاء والتَّرجيع، فهو حَمام وإن خالف بعضُه بعضاً في الصُّورة واللون وفي بعض النَّوْح ولَحْن الهَديل.

قال: وزعم أفليمون[٤] صاحبُ الفِراسة أنّ الحمام يُتّخذ لضروب، منها ما يُتّخذ للأُنْس والنّساء والبيوت، ومنها ما يُتّخذ للفِراخ، ومنها ما يتخذ للزِّجَال والسِّبَاق. والزِّجال: إرسال الحَمام الهَوَادِي. ثم ذكر من أوصاف الحمام وما فيه من ضروب المعرفة والمنافع ما نُورِدُه عند ذكرنا للحمام المشتهرِ بهذه التَّسميةِ، وهو الذي أشار الجاحظ إليه. فلنذكر تفصيلَ ما قدّمناه من هذه الأصناف، فنقول وبالله التوفيق:

أمّا القُمْرِيّ وما قيل فيه ـ فقد قالوا: إنما سُمِّي القمريُّ بهذه التسمية لبياضه، والأقمر: الأبيض. وحكاية صوته تشبه ضحك الإنسان. وهو شديد المودّة والرحمة. أما مودّته فإنه يُفَرِّخ على فَنَنٍ[٥] من أفنان شجرةٍ عليها أعشاش لأبناء جنسه، فيُصَابِحها

---

(١) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم.
(٢) هو يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت. كان عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر وله تصانيف كثيرة.
(٣) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علي الفارسي، واحد زمانه في علم العربية، كان أستاذاً لابن جني وكانت وفاته سنة ٣٧٧ هجرية.
(٤) أفليمون: كان فاضلاً كبيراً عالماً في فن من فنون الطبيعة وكان معاصراً لبقراط.
(٥) الفنن: الغصن المستقيم من الشجرة.

في كلّ يوم. وأمّا رحمته فإنه يربّي ولدَه ويَعِفّ عن أُنثاه ما دام ولدُه صغيراً. ومن عادته أنه يعمل عُشَّه في طرَف فَنَنٍ دائمِ الاهتزاز، احترازاً على فرخه لئلا يسعى إليه من الحيوان الماشي ما يقتله.

وقال أبو الفتح كُشَاجِم يصفه من أبيات رثاه بها أوّلها:

ومطوَّقٍ من حسن صَنْعة ربه ... طوقين خِلتُهما من النُّوّارِ

منها:

لَهفِي على القُمْرِيّ لَهفاً دائماً ... يَكْوِي الحَشَا بجَوًى كلَذْعِ النار

لونُ الغمامةِ لونُه ومُناسِبٌ ... في خَلْقِهِ الأقلامَ بالمنقار

وأمّا الدُّبْسِيّ وما قيل فيه ـ وإنما سمّي الدُّبسِيّ بذلك للونه، لأنّ الدُّبْسَةَ حمرةٌ في سواد. قالوا: والدُّبْسِيّ أصناف، منها المصريّ، والحجازيّ والعِراقيّ. وأفخر هذه الأصناف المصريّ ولونه الدكنة. وهو لا يُرى ساقطاً على وجه الأرض، بل له في الشتاءِ مَشْتًى، وفي الصيف مَصِيفٌ. ولا يُعرف له وكر.

وأمّا الوَرَشَانُ وما قيل فيه ـ والورشان أصناف منها النُّوبِيّ وهو ورشان أسود؛ ومنها الحِجازيّ. والنوبِيّ أشجاها صوتاً. وهذا الطائر يوصف بالحُنُو على أولاده، حتى إنه ربما قتل نفسَه إذا رآها في يد القانص.

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ فيه: [من الخفيف]

أنا في نزهتين من بستاني ... حين أخلو به ومِن ورَشَانِ

طائرٌ قلبُ مَنْ يغنّيه أوْلى ... منهُ عند الغِناء بالطَّيرانِ

مُسْمِع يُودِع المسامعَ ما شا ... ءت وما لم تشأْ من الألحانِ

في رداءٍ من سَوْسَنٍ وقميصٍ ... زرَّرْته عليه تشْرينانِ

قد تَغَشّى لونُ السماء قَرَاه ... وتراءى في جيده الفَرْقَدانِ(١)

وأمّا الفواخِتُ وما قِيل فيها ـ والفواختُ عراقيةٌ ليست حجازيّة. وفيها فصاحةٌ وحسنُ صوت. وفي طبعها أنها تأْنَس بالناس، وتُعَشِّشُ في الدُّور. والعرب تضرِب بها في الكذب المثلَ، فيقولون: «أكذبُ من فاختةٍ»؛ فإنّ حكاية صوتِها عندهم: «هذا أوانُ الرُّطَبِ». قال شاعرٌ:

أكذبُ من فاختةٍ ... تقول وسطَ الكَرَبِ

(١) القرا: الظهر.

والـطَّـلْـعُ لـم يَـبْـدُ لـنـا هـذا أوانُ الـرُّطَـبِ

وهو يُعمَّر. وحكى أرسطو أن منه ما عاش أربعين سنة.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

مَرَرتُ بِمطْرابِ الغَداةِ كأنها تُعَلّ من الإشراق راحاً مُفَلْفَلا[١]
مُنَمَّرةٍ كَدْراء تحسَب أنها تُجَلّل من جِلد السَّحاب مُفَصّلا
بَدَت تجتلي للعين طوقاً ممسَّكاً وطرْفاً كما ترنو الغزالةُ أَكْحَلا
لها ذَنَب وافي الجوانبِ مثلما تُقشِّر طَلْعاً أو تجرِّد مُنْصُلا
إذا حلَّقَتْ في الجوّ خِلْتَ جناحَها يَرُدّ صفيراً أو يحرِّك جُلْجُلا[٢]

وأمّا الشُّفْنِين وما قيل فيه ـ والشفنين من الطير التي تترنّم؛ وصوتُه في ترنّمه يُشبِه صوتَ الرَّبَاب[٣]. وفي طبعه أنه إذا فقد أُنْثاه لم يزَل أعْزَبَ، يأوِي إلى بعض فراخه حتى يموت؛ وكذلك الأنثى إذا فَقدت الذّكَر. وهو متى سمن سقَط ريشُه وآمتنع من السِّفاد؛ فهو لذلك لا يَشْبَع. وهو طائر يؤثِر العُزْلَة.

وأمّا اليعتبط وما قيل فيه ـ وإنما سمّي اليعتبط بهذه التسمية لصوته، وهو شريف في طيور الحجاز. وحاله حال القُمْريّ، ولكنه أحرّ منه مِزاجاً وأعلى صوتاً. قال كُشَاجم:

وناطقٍ لم يَخْشَ في النطق غَلَطْ ما قال شيئاً قطُّ إلا يعتبطْ

وأمّا النَّوّاح وما قيل فيه ـ والنوّاح: طائر كالقُمْريّ، وحالُه كحاله؛ إلاّ أنّه أحرّ منه مِزاجاً وأرطبُ وأدمثُ وأشرفُ. قالوا: يكاد النّوّاح يكون للأطيارِ الدَّمِثَةِ مَلِكاً، وهو يَهيجها إلى التّصويت لأنه أشجاها صوتاً؛ وجميعُها تَهوى آستماع صوته، وهو أيضاً يَسُرُّه آستماعُ صوتِ نفسه. والله أعلم بالصواب.

وأمّا القَطَا وما قيل فيه ـ والقطا نوعان: «كُدْرَيّ» و«جُونيّ»، والكُدْريّة غُبْرُ الألوان، رُقْشُ الظهور والبطونِ، صُفْرُ الحُلوقِ، قِصارُ الأذنابِ؛ وهي ألطف من الجونُ. والجونيّةُ سُود بطونِ الأجْنِحَةِ والقوادِمِ بِيضُ اللَّبَان[٤] وفيه طوقان أسودُ

(١) الراح: الخمر.
(٢) الجلجل: الجرس الصغير.
(٣) الرباب: آلة وترية شعبية ذات وتر واحد.
(٤) اللبان: الصدر.
(٥) الغتمة: العجمة في المنطق.

وأصفرُ؛ وظهورُها غُبْرٌ رُقْطٌ تعلوها صفرةٌ. وتسمّى الجُونِيَّة غُتْماً[١]؛ لأنها لا تُفصِح بصوتها إذا صوّتت إنما تُغَرْغِر بصوتٍ في حَلْقها. والكُدْرِيّةُ فصيحةٌ تنادي بٱسمها تقول: قَطَا قَطَا؛ ولهذا يُضرب بها المثلُ في الصدق. وتُوصف القطا بحسن المشي لِتقارُب خُطاها. والعرب تشبّه مشيَ النّساء الخَفِرات بمشيها إذا أرادوا مدحَهنّ. قال شاعر يصف القطاةَ ـ وٱخْتُلِف في الشاعر من هو، فقيل: هو أَوْس بن غَلْفاء الهُجَيْميّ، وقيل: مُزَاحِم العُقَيْلِيّ، وقيل العباس بن يَزيد بن الأسود الكِنْدِيّ، وقيل: العُجَيْر السَّلُوليّ، وقيل: عمرو بن عقيل بن الحجّاج الهُجَيْمِيّ؛ قال أبو الفرج الأصفهانيّ: وهو أصحّ الأقوال ـ: [من البسيط]

أمّا القَطَاةُ فإنّي سوف أنْعَتُها ... نَعْتاً يوافق نعتي بعضَ ما فيها
سَكّاءُ مخطوبةٌ في ريشها طَرَقٌ ... سُودٌ قوادمُها صُهْبٌ خَوافِيها[٢]
مِنْقارُها كَنَواة القَسْب قلْمها ... بِمبْرَدٍ حاذِقُ الكَفَّينِ بارِيها[٣]
تمشِي كمشي فتاةِ الحيّ مُسرَعةً ... حِذَارَ قومٍ إلى سترٍ يُواريها
تَسقِي الفراخَ بأفواهٍ مرقّقةٍ ... مثلِ القَواريرِ سُدّت من أعاليها
كأن هَيْدَبة من فوق جُؤْجُئِها ... أو جِرْوَ حنظلةٍ لم يَعْدُ راميها[٤]

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ: [من الكامل]

ولرُبّ طيّارٍ خفيفٍ قد جَرَى ... فَشَلا بجارٍ خلفَه طيّارِ
من كلّ قاصرةِ الخُطا مُخْتالةٍ ... مَشْيَ الفتاةِ تجرُّ فضلَ إزارِ
مخضوبةِ المِنْقارِ تحسِب أنها ... كَرَعَتْ على ظَمَإٍ بكأسِ عُقَارِ
لا تستقرّ بها الأيادي خشيةً ... من ليلٍ وَيْلٍ أو نهارٍ بَوارِ

وقال المَرّار أو العكبُ التغلَبيّ ـ وهي أجود قصيدةٍ قِيلتْ في القطا: [من الطويل]

بلادُ مَرَوْرَاةٍ يَحَارُ بها القطا ... ترى الفرخَ في حافاتها يَتحرّق[٥]
يَظَلُّ بها فرخُ القطاة كأنّه ... يَتيمٌ جفا عنه مَواليه مُطْرِقُ

(١) السكك: صغر الأذن ولصوقها بالرأس. والمخطوبة: التي لونها يضرب إلى الكدرة مشرب حمرة في صفرة ـ وطرق الريش: أي أن يغطي الريش الأعلى منه الأسفل.
(٢) القسب: التمر اليابس الصلب النواة.
(٣) الهيدب: خمل الثياب وهدبه ـ والجرو: الصغير من الحنظل.
(٤) المروراة: المفازة التي لا شيء فيها.
(٥) الديمومة: المفازة الدائمة البعد.

بِدَيْمُومةٍ قد بات فيها وعينُه ... على مَرَهٍ تُغْضي مراراً وترمُق[١]

شبيهٌ بلا شيءٍ هنالك شخصُه ... يُواريه قَيْضٌ حولَه مُتفلِّق[٢]

له مَحْجرٌ نابٍ وعينٌ مريضةٌ ... وشِدْقٌ بمثل الزعفران مُخَلَّقُ[٣]

تُعَاجِيه كَحْلاءُ المَدَامِعِ حُرَّةٌ ... لها ذَنَبٌ ساجٍ وجيدٌ مُطوَّق[٤]

سِمَاكيّةٌ كُدْرِيّةٌ عَرْعَرِيَّةٌ ... سُكَاكِيّةٌ عَفْرَاءُ سَمْراءُ عَسْلَق[٥]

إذا غادَرَتْه تبتغي ما يُعِيشُه ... كفاها رَذَاياهَا الرَّقِيعُ الهَبَنَّقُ[٦]

غدتْ تَسْتَقي من مَنْهَلٍ ليس دونَه ... مسيرة شهرٍ للقَطا مُتَعَلّق

لأَزْغَبَ مطروحٍ بجَوْز تَنُوفةٍ ... تَلَظّى سَمُوماً قَيْظُه فهو أوْرَق[٧]

تَراه إذا أمسى وقد كاد جِلْدُه ... من الحرّ عن أوصاله يتمزَّق

غدت فاستقلَّتْ ثم ولَّت مُغِيرةً ... بها حين يَزْهاها الجناحان أوْلَقُ[٨]

تَيَمَّمُ ضَحْضَاحاً من الماء قد بَدَتْ ... دَعَامِيصُه فالماءُ أَطْحَلُ أَطْرَقُ[٩]

فلما أتتْه مُقْدَحِرّاً تغوّثَتْ ... تغوُّثَ مخنوقٍ فتطفو وتَغْرَق[١٠]

تَجرّ وتُلْقِي في سِقَاءٍ كأنّه ... من الحَنْظَل العَامِيّ جِرْوٌ مُعَلَّقُ

فلمّا ارتوتْ من مائها لم يكن لها ... أَنَاةٌ وقد كادت من الرّيّ تَبصُقُ

طَمَتْ طَمْوةً صُعْداً ومَدَّتْ جِرانَها ... وطارت كما طار الشِّهَابُ المُحلِّق[١١]

---

(١) المره: مرض في العين لترك الكحل ـ والقبض: قشرة البيضة العليا اليابسة.

(٢) محجر العين: ما دار بها.

(٣) معاجاة الفصيل: هو أن يرضع بغير لبن أمه إذا كان لا لبن لها أو ماتت.

(٤) سماكية: نسبة إلى السماك، والسماكان: كوكبان نيران ـ عرعرية: منسوبة إلى العرعر، وهو شجر السرو ـ السكاكية: منسوبة إلى السكاكة. والسكاكة: الصغير الأذن ـ والعسلق: الخفيف أو الطويل العنق.

(٥) قيل: الرقيع: هو الكروان، وهو يوصف بالحمق لتركه بيضه واحتضانه بيض غيره.

(٦) الأورق: الذي فيه سواد في غبرة.

(٧) الأولق: الجنون.

(٨) الدعاميص: واحدتها دعموص، وهو دويبة، سوداء تكون في الغدران إذا نشّت. الطحلة: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد ـ والطرق: التراكب.

(٩) المقدحرّ: المتهيىء للسباب والشر تراه الدهر منتفخاً شبه الغضبان.

(١٠) طمت: ارتفعت.

ذكرُ شيءٍ منَ الأَوْصَافِ وَالتَّشبيهَاتِ والشِّعْرِيّةِ الجَامِعَةِ لمجموعِ هذا النوعِ الذي ذكرناهُ

ومن ذلك قول بعض الشعراء: [من الكامل]

وقبليَ أبْكَى كلَّ من كان ذا هوًى هَتوفُ البَوَاكِي والدِّيارُ البلاقعُ
وهنّ على الأفْلاق من كلِّ جانب نوائحُ ما تَخْضَلُّ منها المدامعُ[(١)]
مُزَبْرَجَة الأعناقِ نُمْرٌ ظهورُها مُخَطَّمةٌ بالدُّرّ خُضْرٌ روائع
تَرى طُرراً بين الخَوَافِي كأنها حَوَاشِي بُرودٍ زيّنتها الوشائعُ
ومن قِطَعِ الياقوت صِيغتْ عيونُها خواضبُ بالحِنّاء منها الأصابعُ

وقال أبو الأسود الدؤليّ من أبيات: [من البسيط]

وساجع في فروع الأَيْك هيّجني لم أدرِ لِمْ ناح ممّا بي ولِمْ سَجَعَا
أباكياً إلْفَه من بعد فُرْقَتِه أم جازعاً للنَّوَى من قبل أن تَقَعا
يدعو حمامتَه والطيرُ هاجعةٌ فما هَجَعتُ له ليلاً ولا هَجَعا[(٢)]
موشّح سُنْدُساً خُضر مناكبُه تَرَى من المسك في أذياله لُمعَا
له من الآس طَوْقٌ فوقَ لَبّته من البَنَفْسَج والخَيْريّ قد جُمِعا[(٣)]
كأنما عَبّ في مُسْوَدّ غاليةٍ وحَلّ من تحته الكافورُ فانْتُقِعا
كأنّ عينيه من حسن اصفرارهما فَصّانِ من حَجَر الياقوت قد قُطِعا
كأنّ رجليه من حسن احمرارهما ما رَقّ من شُعَبِ المَرْجان فاتّسعا
شكا النَّوَى فبكى خوفَ الأَسَى فرمَى بين الجوانح من أوجاعه وجعا
والريحُ تَخْفِضُه طوراً وترفَعه طوراً فمنخَفِضاً يدعو ومرتفِعا
كأنه راهبٌ في رأس صومعةٍ يتلو الزَّبُورَ ونجمُ الصبح قد طلعا

وقال ابنُ اللّبانة الأندلسيّ[(٤)]: [من الرجز]

وعلى فروع الأَيْكُ شادٍ يَحْتَوِي طَرْفَي لآخر تحتويه الأَضْلُعُ

(١) الأفلاق: واحدتها الفلق، وهو المطمئن من الأرض بين ربوتين.
(٢) هجع: نام.
(٣) الخيريّ: نور.
(٤) هو الوزير الأديب أبو بكر بن اللبانة الداني أحد شعراء دولة المعتمد في الأندلس.

يَنْدَى لـه رَطْبُ الـهـواء فـيـغـتَـدي ... ويُـظِـلّـهُ وَرَقُ الـغـصـون فـيـهـجَـعُ
تَـخِـذَ الأَرَاكَ أريـكـةً لـمـنـامِـه ... فـلـه إلـى الأسـحـار فـيـهـا موضِعُ
حـتـى إذا مـا هـزَّه نَـفَـسُ الـصَّـبَـا ... والـصـبـح، هَـزَّكَ مـنـه شَـدْوٌ مُـبْـدَعُ
فـكـأنـمـا تـلـك الأَرَاكـةُ مِـنْـبَـرٌ ... وكـأنـه فـيـهـا خَـطـيـب مِـصْـقَـعُ

وقال بعضُ الأعراب يصف مُطَوَّقَة: [من الطويل]

دعَـتْ فـوق سـاقٍ دعـوةً لـو تـنـاولـتْ ... بها الصَّخْرَ من أعلى أَبَانَ تَحَدَّرا(١)
تُـبَـكّي بـعـيـن لـيـس تُـذْرِي دموعَـهـا ... ولـكـنّـهـا تـذْرِي الـدمـوعَ تـذكُّـرا
محلاَّةً طَوْقٍ ليس تَخْشَى انفصامَه ... إذا هـمّ أن يَـبْـلَـى تُـجَـدِّدُ آخَـرَا
لـهـا وُشُـحٌ دون الـتَّـرَاقِـي وفـوقَـهـا ... وصَدرٌ كمقطوف البَنَفْسَج أخضرا
تَـنَـازعُـهـا الألـوانُ شـتّـى صِـقـالُـهـا ... بـدا لـتَـلاَلِـي الـشـمـس فـيـه تـحـيـرا

وقال شاعر أندلسيّ: [من الطويل]

ومـا شـاقـنـي إلا ابـنُ وَرْقـاء هـاتِـفٌ ... عـلـى فَـنَـن بـيـن الـجـزيـرة والـجـسرِ
مُـفَـتَّـقُ طـوْقٍ لازورديُّ كَـلْـكَـلٍ ... موشَّى الطُّلَى أَحْوَى القوادِمِ والظهرِ(٢)
أدار عـلـى الـيـاقـوت أجـفـانَ لـؤلـؤٍ ... وصاغ على الأجفان طوقاً من التِّبرِ
حـديـدُ شَـبَـا الـمِـنْـقـارِ داجٍ كـأنـه ... شَبَا قلمٍ من فِضَّةٍ مُدّ مِن حِبْرِ(٣)
تـوسّـد مـن فـرع الأراك أريـكـةً ... ومال على طيّ الجناح مع النّحرِ
ولـمّـا رأى دمـعـي مُـراقـاً أرابـه ... بكائيَ فاستولى على الغُصُن النَّضْرِ
وحـثّ جـنـاحـيـه وصـفّـق طـائـراً ... فطار بقلبي حيث طار وما يَدري

وقال آخر:

كـأنّ بـنـحـرهـا والـجـيـدِ مـنـهـا ... إذا مـا أمـكـنـتْ لـلـنّـاظِـريـنـا
مَـخَـطّـاً كـان مـن قـلـمٍ لـطـيـفٍ ... فـخـطّ بـجـيـدهـا والـنـحـرِ نُـونـا

وقال ابنُ الرّومي:

مُـطـوَّقَـةٌ تـبـكـي ولـم أر بـاكـيـاً ... بدا ما بدا من شجوها لم يُسَلِّبِ(٤)

---

(١) أبان: اسم جبل.
(٢) الأحوى: أسود من شدة النضارة.
(٣) شبا القلم: طرفه.
(٤) يقال: سلّبت المرأة: إذا لبست ثوب الحداد.

وقد أوردنا في باب الغزل والنَّسيب من هذا المعنى فيما قيل على لسان الورقاء ما يُستغنَى عن تكرَاره.

وأمّا اليَمامُ وأصنَافُهُ ومَا وُصفَ بهِ ومَا قيلَ فيهِ ـ فالعَرَبُ تقولُ: إن هذه التسمية واقعةٌ على النوع التي تسمّيه عامّةُ الناس الحمامَ؛ وهو أصنافٌ مختلفةُ الأشكالِ والألوانِ والأفعال، منها «الرّواعبُ» و«المَراعِيشُ» و«العَدّاد» و«المِيساقُ» و«الشّدّادُ» و«القَلاّب» و«الشَّقّاق»، و«المَنسوب».

فأمّا الرّواعبُ ـ وهو ألوان كثيرةٌ. وزعم الجاحظُ أنه تولّد بين وَرَشانٍ ذكرٍ وحمامٍ أنثى، فأخذ من الأب الجُثّة ومن الأمّ الصوتَ، وفاتَه سرعةُ الطيران فلم يشبههما فيه؛ وله من عِظَم البدنِ وكثرة الفراخِ والهَدِيلِ والقَرْقَرة[1] ما ليس لأبويه، حتى صار ذلك سبباً للزيادة في ثمنه والحرصِ على اتّخاذه.

وأمّا المَراعيشُ ـ وهي تَطير مرتفعةً حتى تغيبَ عن النظر فترى في الجوّ كالنّجم.

وأمّا العَدّاد ـ فهو طير ضخم، قليل الطيران كثير الفراخِ.

وأمّا المِيساق ـ وهو أضخم من العَدّاد وأنبل، ثقيل الجسم لا يستطيع الطيرانَ إلاّ قليلاً.

وأمّا الشدَّادُ ـ فهو لا يَلْزم الطيرانَ في الجوّ، وله قوّة في جَناحه حتى يقال إنّه ربما يكسِر الجَوْز به، ولا يأتي من الغاية لِبَلَهِ فيه. وأصحابُ الرَّغَبات في تربية هذا الصِّنْف يُلْقونه على البَصْريّات فيخرج من بينهما حمامٌ يُسمَّى «المضرّب» يجتمع فيه هدايةُ البصريّ وشدّةُ الشَّدّادِ. والشدّادُ يطير صُعُداً حتى يُرى كالنّجم. وفي ذنبه إحدى وثلاثون ريشة.

وأمّا القَلاّب ـ فتسميّه العراقيون «المَلاّح»؛ وسمّي بذلك لتقلّبه في طيرانه. والشَّقّاق ـ وطيرانُه تَحْويمٌ.

وأمّا المنسوب ـ ويسمِّيه العراقيون «الهوَادي»، والمصريون يسمونه «البَصَارِي»، يعنون البصرية، وهو بالنسبة إلى ما تقدّم ذكرهُ كالعِتَاقِ من الخيل، وما عداه فيها كالبراذين. وفيها «العلويّ» وهو ألطفُ جِرْماً وأسرعُ طيراناً؛ وهو يطلب وكرَه ولو أرسل من مسافةِ ألف فرسخ، ويحمِلُ البطائقَ ويأتي بها من المسافة البعيدة في المدّة القريبة. قالوا: وفيه ما يقطعُ ثلاثةَ آلافِ فرسخ في يوم واحد. وسباعُ الطير تطلبُه أشدَّ طلبٍ. وخوفُه من الشاهين أشدّ من خوفه من غيره. وهو أطير منه ومن سباع الطير

(١) القرقرة: الهدير.

كلّها؛ لكنه يُذْعَر فيجهل بابَ المَخْلَص.

والمحمودُ منه ما وصفَه الجاحظُ عن أفليمون صاحبِ الفِراسةِ أنه قال:

جميعُ الفراسة لا تخرجُ عن أربعة أوجه: أوّلها التقطيعُ، والثاني المجسّة، والثالث الشمائل، والرابع الحركة.

فأمّا التقطيع - فأنتصابُ العُنق والخِلْقَةِ، وأستدارةُ الرأس من غير عِظَم ولا صِغَر، وعِظَمُ القِرْطِمَتيْن(١) ونَقَاؤهما، وأتّساعُ المِنخَرَيْن، وأنهراتُ الشِّدْقين، وَسَعَةُ الجوف. ثم حسنُ خِلْقةِ العينين مع توقدهما، وقِصَرُ المِنْقارِ في غير دِقّةٍ، ثمّ أتّساعُ الصدر، وأمتلاءُ الجُؤْجُؤ، وطولُ العُنُق، وإشرافُ المَنْكبين، وأنكماشُ الجناحين، وطولُ القوادم في غير إفراطٍ، ولُحُوق بعض الخوافي ببعض، وصَلاَبَةُ القَصَبِ في غير أنتفاخ ولا يُبْسٍ، وأجتماعُ الخَلْق في غير الجُعُودة والكَزَازة(٢)، وعِظَمُ الفَخِذَين، وقصَرُ السّاقين والوَظِيفَين، وأفتراقُ الأصابع، وقِصَرُ الذّنب، وخفّتُه من غير تَفْنِينٍ(٣) وتفريق، ثم تَوقّدُ الحدقَتين وصفَاءُ اللّون. فهذه علامة الفِراسَةِ في التقطيع.

وأمّا علامة المَجسّة - فَوَثَاقَةُ الخَلْق، وشدّةُ اللّحم، ومَتانةُ العَصَب، وصلابةُ القَصَب، ولينُ الرِّيش في غيرِ رَقّةٍ، وصلابةُ المِنقار في غير دِقّةٍ.

وأمّا علامة الشمائل - فقلّة الاختيال، وصفاءُ البصر، وثباتُ النظر، وشِدّة الحَذَر، وحسنُ التَّلَفُّتِ، وقِلَّةُ الرِّعْدَة عند الفزع، وخفّةُ النهوض إذا طار، وتركُ المبادرةِ إذا لَقَط.

وأمّا علامة الحركة - فالطيران في عُلُوّ، ومدُّ العُنُق في سُموّ، وقلّةُ الاضطرابِ في جوّ السماء، وضمُّ الجناحين في الهواء، وتتابُعُ الرَّكْض في غير أختلاطٍ، وحسنُ القصد في غير دَوَرانٍ، وشدّةُ المدّ في الطيران، فإذا أصبتَه جامعاً لهذه الصفات فهو الطائر الكامل.

وقد وصف الجاحظُ الحمامَ في كتاب الحيوانِ وبسط فيه القولَ ووسَّعَ المجالَ. ونحن الآنَ نُوردُ ملخَّصَ ما قاله فيه، قال:

ومن مناقب الحمام حبّهُ للناس وأنسُ الناس به، وهو من الطير المَيَامين، وهو إذا عَلِمَ الذكرُ منه أنه قد أودَعَ رَحِم الأنثى ما يكون منه الولدُ، تقدَّما في إعْداد العُشّ،

(١) القرطمتان: نقطتان على أصل منقار الحمام.

(٢) الكزازة: يبس الشيء وانقباضه.

(٣) من غير تفنين: أي من غير اختلاط.

ونقْلِ القَصَبِ وشِقَق الخُوص، وأشباه ذلك من العِيدان الخَوّارة(١) الدِّقاق، حتى يَعملا أُفْحُوصةً(٢) ويَنْسِجاها نسجاً متداخِلاً في الموضع الذي اتّخذاه واْصطنَعاهُ عشّاً بِقدر جُثْمانِ الحمامة؛ ثم أَشخصا لتلك الأُفْحُوصةِ حروفاً غيرَ مُرتفعةٍ لتحفظَ البيضَ وتَمنَعَه من التّدحرُج، ولتَلْزَمَ كَتِفَي الجُؤْجُؤ، ولتكونَ رِفْداً لصاحب الحَضْن، وسنداً للبيض، ثم يَتَعاوَرَان ذلك المكانَ ويتعاقبان تلك الأُفْحُوصَة يُسَخِّنانِها ويُدَفِّئانِها ويُطَيِّبانها وينَفِيان عنها طباعَها الأوَل ويُحْدِثانِ طبيعةً أُخرى مُشْتَقَّةً من طبائعهما ومُستخْرَجةً من رائحة أبدانهما وقُوَاهما، لكي تقعَ البيضةُ إذا وقعت في موضع يكون أشبهَ المواضعِ طِباعاً بأرحام الحمام مع الحضانة والوَثَارة(٣)، كي لا تنكسرَ البيضةُ بِيُبْس الموضع، ولئلا تُنكِرَ طباعُها طباعَ المكان، وليكونَ على مقدارٍ من البَرْد والسُّخُونَة والرَّخاوَةِ والصَّلاَبَةِ. ثم إنْ ضربَها المَخَاضُ وطَرَّقَتْ ببيضها، بَدَرَت إلى الموضع الذي قد أعدّته وتحامَلَت إليه، إلاّ أن يَقرَعَها رَعْدٌ قاصفٌ أو ريحٌ عاصفٌ فإنها ربما رَمت بها دون الأُفْحُوصة. والرَّعد ربّما أفسد البيضَ. فإذا وضعتِ البيض في ذلك المكانِ الذي أعدّاه لا يزالان يتعاقبان الحَضْنَ ويتعاورانه حتى تنتهي أيّامُه ويَتمَّ مِيقاتُه؛ فعند ذلك يَنصدعُ البيضُ عن الفرخ، فيخرج عاريَ الجلد صغيرَ الجَناح مُسْتَدَّ الحُلْقُوم؛ فيعلَمانِ أنّه لا يَتّسع حَلْقُه وحوْصَلتُه للغِذَاء، فلا يكون لهما همٌّ إلاّ أن يَنفُخَا في حَلْق الفَرْخ الرّيحَ لتَتّسع الحوصلةُ بعد اْلتحامها، ثم يعلمانِ أنه وإن اتّسعت الحوصلةُ لا يَحْمِلُ في أوّل اْغتذائه أن يُزَقّ بالطُّعْم، فيُزَقّ باللُّعَاب المختلطِ بقُواهما وقُوَى الطُّعْم. ثم يَعلمان أنّ الحوصلةَ تضعُف عن اْستمراء الغِذاء، وهضم الطُّعْم فيأكلان من شُرُوج(٤) أصول الحيطان - وهو شيء من المِلح المَحْض والتراب الخالِص، وهذا هو السَّبَخ - فَيُزَقّانه به. حتى إذا علما أنه قد اْندبغ واشتدّ زَقّاه بالحَبّ الذي قد غَبَّ في حواصلهما؛ ثم يَزُقّانه بعد ذلك بالحَبّ والماء. حتى إذا علما أنه قد أطاق اللَّقْطَ منعاه بعضَ المنع ليَحتاج إلى اللّقط فيتعوّده. فإذا علما أنّ إرادتَه قد تمّت وأنه قد قَوِي على اللَّقْط وبلغ بنفسه مُنتهى حاجته، ضَرَبَاه إذا سألهما الكفاية، ونَفَياه متى رجع إليهما، وتُنْتَزَعُ تلك الرحمةُ العجيبةُ منهما ويَنْسِيانِ ذلك التعطّفَ. ثم يبتدئان العمل ثانياً على ذلك النظام وتلك المُقَدِّمات. فسبحان الهادي الملهم.

قال: ثمّ يَبتدىء الذّكَرُ بالدُّعاء والطِّراد؛ وتبتدىء الأُنثى بالتّأتّي والاستدعاء، ثم

(١) الخوّارة: الضعيفة الرخوة.

(٢) الأفحوصة: حفرة تحفرها القطاة، أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٣) الوثارة: كثرة الشحم، أو الفراش، أو. . (اللسان وثر).

(٤) الشروج: الشقوق والصدوع.

تَزِيفُ[١] وتَشْكل[٢]، وتُمَكِّن وتَمْنَع، وتُجِيبُ وتَصْدف بوجهها؛ ثمّ يَتَعاشقان ويَتطاوَعان ويكون بينهما قُبَلٌ وارتشافٌ وإدخالُ فَمِها في فمه؛ وذلك هو التَّطَاعُم والمُطَاعَمَةُ. قال الشاعر:

لم أَعْطُها بيدي إذ بِتُّ أرشُفُها ... إلاّ تَطَاوُلَ غُصْنِ الجيدِ بالجيدِ[٣]

كما تَطَاعَمَ في خَضْراء ناعمةٍ ... مُطَوَّقانِ أصاخَا بعد تَغْريدِ[٤]

قال أبو عثمان: ومما أشبه فيه الحمامُ الناسَ أن ساعاتِ الحَضْن على البيض أكثرُها على الأُنثى، وإنما يحضُن الذكرُ حَضْناً يسيراً. والأنثى كالمرأة في كفالة الصبيّ، حتى إذا ذهب الحَضْنُ وصار البيضُ فِراخاً كالأطفال في البيت يحتاجون إلى الطعام والشَّراب صار أكثرُ ساعات الزّقّ على الذكر.

وقال: قال مُثَنَّى بن زُهَير ـ وهو إمام الناس في البصرة بالحمام ـ: لم أر شيئاً قطّ في رجلٍ ولا امرأةٍ إلاّ قد رأيتُ مثله في الذكر والأنثى من الحمام. رأيت حمامةً لا تُريد إلاّ ذكرَها، كالمرأة لا تُريدُ إلاّ زوجها أو سيّدها. ورأيتُ حمامةً لا تَمنعُ شيئاً من الذُّكُورة؛ ورأيت امرأةً لا تمنع يَدَ لامسٍ. ورأيتُ حمامةً لا تَزِيفُ إلاّ بعد طِرادٍ شديدٍ وشدّةِ طلبٍ، ورأيتها تزيف لأول ذكر يريدها، ورأيت من النساء كذلك. ورأيتُ حمامةً لها زوج وهي تُمكّن ذكراً آخر لا تَعدُوه، ورأيت مثل ذلك في النساء. ورأيتها تَزِيف لغير ذكرها وذكرُها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلاّ وذكرُها يطيرُ أو يحضنُ. ورأيتُ الحمامةَ تَقْمُطُ[٥] الحمامة، ورأيتُ الحمامَ الذكرَ يَقْمِطُ الذكر. ورأيتُ أُنثى كانت لا تَقْمِطُ إلاّ الإناث، ورأيت أخرى تَقْمِطُ الإناث فقط ولا تَدَعُ أنثى تَقمِطُها، ورأيت ذكراً يَقْمُطها ويَدَعُها حتى تَقْمِطُه. ورأيتُ ذكراً يَقْمُطُ الذكورَ وتَقْمِطُهُ؛ ورأيت ذكراً يَقْمُطُ الذكورَ ولا يَدَعُها تَقْمِطُه؛ ورأيت أنثى تَزِيف للذكور ولا تدع شيئاً منها يقمِطُها ورأيت هذه الأصناف كلّها في السَّحاقات واللاَّطَة. قال: وامتنعت عليّ خَصْلةٌ فوالله لقد رأيتها؛ لأني رأيتُ من النساء من تَزْني أبداً وتُسَاحِقُ أبداً ولا تتزوج؛ ومن الرجال مَنْ يَلُوط أبداً ويزني أبداً ولا يتزوج، ورأيت حماماً ذكراً يَقْمط ما لَقِي ولا يُزاوِج، ورأيت حمامةً تُمكّن كلَّ حمام أرادها من ذكر أو أنثى وتقمِط الذكورةَ والإناثَ ولا تُزاوِجُ، ورأيتها تُزاوِج ولا تبيضُ، وتبيض فيفسدُ بيضُها، كالمرأة. قال: ورأيت ذكراً له أُنْثَيَان

---

(١) يقال: زافت الحمامة، إذا مشت مدلة متبخترة بين يدي الحمام الذكر.
(٢) شكلت المرأة: إذا كانت ذات شكل، أي غنج ودلال وغزل.
(٣) عطا فلان الشيء: أخذه وتناوله.
(٤) أصاخ: استمع.
(٥) قمط الشيء: أي شد عليه وضيق حتى يلتصق بالجسم.

وقد باضَتا منه، وهو يحضُن مع هذه ومع تلك ويَزُقُّ مع هذه ومع تلك، ورأيت أنثى تبيض بيضةً، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاث بَيْضات. قال: ورأيت حمامةً تُزَاوِج هذا الحمامَ ثم تتحول منه إلى آخر، ورأيت ذكراً فعل مثل ذلك في الإناث، ورأيت الذكر كثيرَ النَّسْل قوياً على القَمْط.

قال الجاحظ: والحمام يبيضُ عشرةَ أشهر من السنة؛ فإذا صانوه وحفظوه وأقاموا له الكفايةَ وأحسنوا تعهُّده باض في جميع السنة. والفواخت والأَطْرُغُلَّاتُ[1] والحمام البَرّيّ تَبيضُ مرّتين في السنة. قال: ويَتمُ خلْقُ الحمام في أقلّ من عشرةِ أيام. والحمامةُ في أكثر أمرها يكون أحدُ فرخيها ذكراً والآخر أنثى؛ وهي تَبيضُ أوّلاً البيضَة التي فيها الذكر ثم تُقيم يوماً وليلةً وتبيض الأخرى، وتحضن ما بين السبعةَ عَشَرَ يوماً إلى العشرينَ. والأنثى أبرُّ بالبيض، والذكرُ أبرُّ بالفراخ. ولقد أطنب أبو عثمان الجاحظ وأوْغَل وبسَط القول في ذكرْ الحمام وأوصافه ومناقبه والمغالاة في ثمنه والحرص على اقتنائه، حتى إنه قال: وللحمام من الفضيلة والفخر أنّ الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار؛ ولم يبلغ ذلك باز ولا شاهين، ولا عُقابٌ. قال: وأنت إذا أردت أن تتعرّف مبلغ ثَمن الحمام الذي جاء من الغاية ثم دخلتَ بغدادَ والبصرة، وجَدتُ ذلك بلا معاناة، وهذا يدلّ على أنّ قوله فيه كان مشهوراً عندهم في وقته. ثم قال: والحمامُ إذا جاء من الغاية بيع الذَّكرُ من فراخه بعشرين ديناراً وأكثر، وبيعت الأنثى بعشرة دنانير وأكثر وبِيعتِ البيضةُ بخمسة دنانير؛ فيقوم الزوجُ منها من الغَلّة مقام ضَيْعةٍ، حتى ينهضَ بمؤونة العيال، وبقضاء الدَّيْن، وتُبْنَى من غَلّاته وأثمان رِقابِه الدُّورُ والجِنانُ وتُبتاع الحوانيتُ. ثم وصف حُجَرَ الحمام ومقاصيرَها المبنيّة في ذلك الزمان وما يُعانيه أهلُها من حديثها والاحتفال بها في المسابقة وغيرها. وأطال في ذلك. وقال: وللحمام من حُسْن الاهتداءِ، وجَوْدَةِ الاستدلالِ، وثباتِ الحفظ والذُّكر، وقوةِ النزاع إلى أربابه، والإِلْفِ لِوَطَنه، أن يكون طائراً من بهائم الطير يجيء من مسافة كذا إلى مسافة كذا. قال: ولن ترى جماعةَ طيرٍ أكثرَ طيراناً إذا كثُرنَ من الحمام؛ فإنّهنّ كلما اْلتففن وضاق موضعُهنّ كان أشدَّ لطيرانهنّ قال النابغة[2]: [من البسيط]

وٱحكُم كحُكْم فتاةِ الحيّ إذْ نظرَتْ ... إلـى حَـمـامِ شِـرَاعٍ وارِدِ الـثَّـمَـدِ[3]

(١) الأطرغلات: هي الدباسي والقماري والصلاصل ذات الأطواق.
(٢) هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة ويقال: أبا ثمامة، وأهل الحجاز يفضلون النابغة وزهيراً. (الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦١).
(٣) الشراع: مجتمعة. والثمد: الماء القليل الذي يكون في الشتاء ويجف في الصيف.

يَحُفُّهُ جانِبَا نِيقٍ وتُتْبِعُه ... مثلَ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمِدِ(١)
قالت ألاَ لَيتَما هذا الحمامَ لنا ... إلى حمامتنا ونصفُهُ فَقَدِ
فَحَسَبُوه فَألْفَوهُ كما حَسَبَتْ ... تسعاً وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ
فأكملَتْ مائةً فيها حَمامَتُها ... وأسرعَتْ حِسْبةً في ذلك العَدَدِ

قال الأصمعيّ: لما أراد أن يمدح الحاسِبَ وسُرعةَ إصابته شدَّد الأمرَ وضيّقه عليه ليكون أحمدَ له: إذا أصاب؛ فجعله حَزَرَ طيراً والطيرُ أخفّ من غيره؛ ثم جعله حماماً والحمامُ أسرعُ الطير وأكثر ٱجتهاداً في السرعة إذا كَثُرَ عددهنّ. وذلك أنه يشتدّ طيرانُهُ عند المسابقة والمنافسة. وقال: «يحفّه جانباً نِيقٍ وتُتبعه»، فأراد أن الحمام إذا كان في مَضيق من الهواء كان أسرع من أن يتسع عليه الفضاءُ. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ ما قيلَ في طَوقِ ٱلحَمَامَةِ

يقال: إنّ نوحاً ﷺ لمّا كان في السفينة بعث الغرابَ ليَكْشِف له هل ظَهَر من الأرض موضعٌ، فوقع على جِيفة فلم يرجِع إليه؛ فبعث بالحمامة، فٱستَجْعَلَتْ على نوح الطَّوْقَ الذي في عُنُقها فجعل لها ذلك جُعْلاً. وفي ذلك يقول أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت: [من الوافر]

وأُرسِلَتِ الحمامةُ بعد سَبْعٍ ... تَدُلُّ على المهالك لا تَهَابُ
تَلَمَّسُ هل ترَى في الأرض عيناً ... وعاينه من الماء العباب(٢)
فجاءت بعدما ركضَتْ بِقِطْفٍ ... عليه الثَّأْطُ والطِّينُ الكُبَابُ(٣)
فلمّا فَرَّسُوا الآياتِ صاغوا ... لها طَوْقاً كما عُقد السِّخَابُ(٤)
إذا ماتت تُوَرِّثُه بَنِيها ... وإن تُقتَل فليس لها ٱستِلابُ

وقال أيضاً فيها: [من الخفيف]

سَمِعَ اللّهُ لابنِ آدمَ نوحٍ ... رَبُّنا ذو الجلال والإفضالِ
حين أَوْفَى بذي الحمامةِ والنا ... سُ جميعاً في فُلْكِهِ كالعِيَالِ
حابِساً خوفه عليه رسولاً ... من خِفاف الحَمَامِ كالتِّمثالِ

---

(١) يحفه: يحيط به ـ والنيق: الجبل.
(٢) الماء العباب: الكثير.
(٣) الكباب: الثرى والتراب والطين اللازب.
(٤) السخاب: قلادة تتخذ من قرنفل.

فَرَشَاهـا عـلـى الـرّسـالـة طَـوقـاً وخِـضـابـاً عـلامـةً غـيـرَ بـالِ
فـأتـتـه بـالـصّـدق لـمّـا رشـاهـا وبِـقـطْـفِ لـمّـا بـدا عِـثْـكـالِ[1]

قوله: «فرشاها» أي جَعل لها جُعلاً.

وقال فيها: [من الطويل]

وما كان أصحابُ الحمامة خِيفةً غداةَ غَدَت منهم تَضُمُّ الخوافيَا
رسـولاً لـهـم والله يُـحـكـم أمـرَه يُبِين لهم هل برنس التُّرْب بادِيَا
فـجـاءت بِـقَـطْـفِ آيـةً مـسـتـبـيـنـةً فأصبح منها موضعُ الطينِ جادِيا[2]
على خَطْمِها واْستوهبتْ ثَمّ طوقها وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا
ولا ذَهَـبـاً إنـي أخـاف نِـبَـالـهـم يَخالونه مالي وليس بماليا
وزِدْني على طوقي من الحَلْي زينةً تُصِيب إذا أتبعت طوقي خِضَابِيا[3]
وزدني لِطرق الطين منك بنعمةٍ ووَرِّث إذا ما مِتُّ طوقي حمامِيَا
يـكـون لأولادي جـمـالاً وزيـنـةً وعـنـوانَ زَيْـنـي زِيـنـةً مـن تُـرابِـيـا

ذكرُ شيء ممَّا وُصِفَ بِهِ هَذَا النَّوعُ نَظْماً وَنَثراً

قال عبد الواحد بن فتوح الأندلسيّ يصف حماماً بسرعة الطيران والسَّبْق: [من الكامل]

يـجـتـابُ أودِيَـةَ الـسّـحـاب بـخـافـقِ كالبرق أَوْمَضَ في السّحاب فَأَبْرَقَا
لـو سـابَـقَ الـريـحَ الـجـنـوبَ لـغـايَـةٍ يـومـاً لـجـاءك مـثـلَـهـا أو أسْـبَـقَـا
يَستقرِبُ الأرضَ البسيطةَ مَذْهَباً والأُفْقَ ذا السُّقُفِ الرفيعةِ مُرْتَقَى
ويـظـلّ يَـسـتـرقـي الـسـمـاءَ بـخـافـقٍ في الجو تَحسبه الشُّهابَ المخرِقَا
يَبْدُو فـيُـعْـجِـبَ مَـن رآه لـحُـسْـنِـهِ وتـكـاد آيـةُ عُـنْـقِـهِ أن تَـنْـطِـقَـا
مُـتَـرقـرقـاً مـن حـيـثُ دُرتَ كـأنـمـا لـبِـسَ الـزجـاجـة أو تَـجَـلْـبَـبَ زِئْـبَـقـا

وقال أبو هلال العسكريّ في حمام أبلق: [من الطويل]

---

(١) العثكال: العذق.
(٢) الجادي: الزعفران.
(٣) الخضاب: ما يخضب به من حنّاء ونحوه.

ومُتَّفِقَاتِ الشكلِ مُختلِفَاتُه لَبِسنَ ظلاماً بالصباحِ مُرقَّعا
أَخَذْنَ من الكافورِ أنفاً ومَنسِراً وخَضَّبْنَ بالحِنَّاءِ كفّاً وإصبَعَا[١]
وترنو بأبصارٍ إذا ما أَدَرْنَها جَلَوْنَ عقيقاً للعيون مُرصَّعَا
تطيرُ بأمثالِ الجِلَامِ كأنّها جنادِلُ تَدحوها ثلاثاً وأربعَا[٢]
تَبُوعُ بها في الجوّ من غيرِ فَترةٍ كأنّ مجاديفاً تَبُوعُ بها مَعَا[٣]
إذا هي عَبَّت في الغديرِ حَسِبتَها تَزُقُّ فراخاً في المغاور جُوَّعَا

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم البَيْسانيّ من رسالة يصف طائراً جاء من غاية: «وكان هذا الطائر أحدَ الرسل المُسَيَّرة بل المُبَشِّرة، والجنود المجرّدة بل المسخّرة؛ فإنها لا تزال أجنحتُها تحمِل من البطائق أجنحة، وتُجَهِّز من جيوش المقاصد والأقلام أسلحة؛ وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر، وتَطْوِي الأرضَ إذا نَشَرتِ الجناحَ الطائر؛ وتُزْوَى لها حتى تَرَى ما سَيَبْلُغُه مُلْك هذه الأُمَّة، وتَقْرُب بها السماءُ حتى ترى ما لا يَبْلُغُه وَهْم ولا هِمّه؛ وتكون مراكبَ للأغراض لمّا كانت الأجنحة قُلوعا، وتركب الجَوّ بحراً يُصفِّق فيه هبوبُ الرياح مَوْجاً مرفوعاً؛ وتُعلَّقُ الحاجاتُ على أعجازها، فلا تَعْرِفُ الإراداتُ غير إنجازها، ومن بلاغات البطائق استعارت ما هي به مشهورة من السَّجْع، ومن رياض كتبها أَلِفتِ الرياضَ فهي إليها دائمة الرَّجْع. وقد سكنت البروج فهي أنجم، وأُعِدَّت في كنائنها فهي للحاجات أسهمُ. وقد كادت تكون ملائكةً فإذا نِيطت بالرِّقاع، صارت أُولِي أجنحةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع. وقد باعدَ اللّهُ بين أسفارها وقرَّبها، وجعلها طَيْفَ اليَقَظَة الذي صدَق العينَ وما كذَبَها. وقد أخذت عهودَ الأمانة فهي في أعناقها أطواقاً، فأدّتها من أذنابها أوراقاً؛ فصارت خَوَافِيَ وراء الخَوَافِي، وغَطَّت سِرّها المُودَع بكتمانٍ سحبت عليه ذيولَ ريشها الضوافي[٤]؛ تُرغم النَّوَى بتقريب العهود وتكاد العيون تَلَاحظها تَلَاحُظَ أنجمِ السعود؛ فهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على منابرِ الأغصان مَقامَ الخطباء». والله أعلم بالصواب.

وأمَّا البَبَّغاءُ وَمَا قِيلَ فِيهَا ـ والبَبَّغاء طائرٌ هنديّ، وحبشيّ، حَسَنُ الخَلْق، دَمِثُ الخُلُق، ثاقب الفهم، له قوّةٌ على حكاية الأصوات بالتلقين والتعليم؛ تتخذه الملوكُ

---

(١) المنسر: منقار الطائر.
(٢) الجلام: ما جزّ من شعر وصوف.
(٣) تبوع بها: أي تبسطها في الجو.
(٤) الضوافي: السابغة الكثيرة.

وأكابرُ الناس في منازلهم. وفي لونه الأخضرُ والأغبرُ والأسودُ والأحمرُ والأصفرْ والأبيضُ. وهذه الألوان كلّها قليلة نادرة الوجود إلاّ الأخضر والأغبر. وقد شاهدتُ أنا بالقاهرة المُعِزِّيَّة دُرّة(١) بيضاء. وحكي أنه أُهْدِي إلى معزّ الدولة بنُ بُوَيه ببغداد هديّةٌ من اليمن كان فيها بَبَّغاءُ بيضاء، سوداء المنقار والرجلين، وعلى رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّة. وهذا الطائر يتناول الطُّعْمَ برجله. وله منقار مُعَقَّف قصير يكسر به ما صَلُب ويَنْقُب به ما تعسَّر نَقْبه. وهو في مأكله ومشربه كالإنسان التَّرِفِ الظريفِ. والناس يحتالُون على تلقينه بأن ينصبوا تجاهه مرآةً يرى خَيَالُه فيها ويتكلَّم الإنسان من ورائها، فيتوهَّم الطائر أنّ خياله في المرآة هو المتكلِّم فيأخُذ نفسه بحكاية ما يسمعه من ذلك الصوت.

وقال المولى تاج الدين عبد الباقي اليمانيّ(٢) رحمه الله فيها مُلغِزاً: [من الرجز]

يا سيِّداً أبدعَ في المقالِ ويا رئيساً فاق في المعالي
ما حيوانٌ مشبهُ الإنسانِ مُرَتِّلُ الآياتِ في القرآنِ
ذو مَبْسِمٍ صيغَ من النُّضَار ومُقْلَةٍ قد رُكِّبتْ من قارِ
ومِخْلَبٍ يُكَسِّر الصَّلِيبَا ومَنْطِقٍ يُفَاخِر الخطيبا
ذو حُلَّةٍ بَنْدِيّةِ البرود منسوجةٍ من أخضر البنود
كروضةٍ قد أينَعَتْ أزهارُها وأدهشتْنا بألْغنَا أطيارُها
قد جُمعت في ذاته ألوانُ كأنّه في خِلْقه بُستانُ
فذَاتُه من ناصع الزَّبَرْجَدِ ونَوْرُه مُركَّبٌ من عَسْجَدِ
وتارة يُبصرُ من أقاحي خِلْقَتَه في سائر النواحي
وعُرْفُه من خالص المِدادِ ونُطقُهُ مُستحكِم الإيراد
يأكل بالكفّ خلافَ الطير ويَغْتَدِي وهو قديرُ السَّيْر
إن لَقَطَ الحَبَّ لدى تفريقه رأيتَ دُرّاً جال في عَقِيقِهِ
يحفظ بيتَ المرء في المغيبِ ويغتدي كالحارس المرهوب
سميُّه في أسفل البحار مُستودعٌ في آخر التَّيار

(١) الدرّة: الببغاء.

(٢) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليمني المخزومي، المكي، الشافعي (تاج الدين أبو المحاسن) أديب، ناثر، ناظم، لغوي، مؤرخ، كانت وفاته بمكة سنة ٧٤٤ هجرية. (معجم المؤلفين ٥ : ٧٣).

إلـيـه يُـعـزَى الـشـاعـرُ الـمَـجـيـدُ والـكـاتـبُ الـنِّـحـريـرُ والـمُـجـيـدُ
فـاكـشـف مُـعمَّـى مـا لـغزتُ يـا إمـامْ وأسـلـم عـلـى مرِّ الـدهـور فـي الـدّوامْ

البَابُ الخَامِسُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
فِي الطَّيرِ اللَّيْلِيِّ

ويشتمل هذا الباب على ذكر ما قيل في الخُفَّاش، والكَرَوان، والبُوم، والصَّدَى.

فأمّا الخُفّاش وما قيل فيه ـ فالخُفَّاش ليس من الطير في شيء، فإنه ذو أذنين ظاهرتين وأسنان وخَطْم وخُصيتين بارزتين، ويبول كما تبول ذواتُ الأَرْبع، ويَحيض، ويَلِد، ويُرضِع، ولا رِيش له. قال بعض المفسّرين لكتاب الله عزّ وجلّ: إنّ الخُفّاش هو الطائر الذي خلقه عيسى ابن مريم عليه السلام بإذن الله تعالى؛ ولذلك هو مباين لصنعة الخالق؛ ولهذا سائرُ الطير تَقهره وتُبغضه؛ فما كان منها يأكل اللحمَ أكله، وما لا يأكل اللحم قتلَه؛ فلذلك لا يطير إلاّ ليلاً. وطعامُه البعوضُ والفَراشُ يصيدهما وقتَ طَيَرانه، ولا يبلغ ذلك إلا بما فيه من سرعة الاختطاف وشِدّة الطيران ولِينِ الأعطاف. وهو مع ذلك ليس بذي رِيشٍ، وإنما هو لحم مُغَشًّى بجِلْد صُلبٍ كأنّه جِلدِ ضِفْدَع، وهو يطير بغير ريشٍ؛ وهذا من العَجَب. وهو لا يطير في ضوءٍ ولا ظلمةٍ، وسببُ ذلك أنه ضعيف حاسّةِ البصر، قليلُ شُعاع العين؛ فالشمس تُضعِف بصرَه عن التحديق في شعاعها، والظلمة تغمرُ ضياءَ بصره؛ فهو يجعل طيرانَه لطلبِ قُوتِه، وقتَ غروب الشمس وظهور الشّفق. وذلك وقتَ هَيج البعوض وانتشاره. ومنازله تكون في الجبال وصُدوعِ الصخور وبسيطِ الفَيَافِي وجزائرِ البحر والأماكنِ الخَرِبة المهجورة. وهو يَطلب قُرب النّاس؛ فإذا كان في بيوتهم قصد أرفعَ مكانٍ وأحْصَنه فيكون فيه. ويُذكر بطول العُمر، ويكبُر حتى يكون في قدر الحِدَأة وأكبر. وهو يلد ما بين الثلاثة إلى التسعة. ويَسفِدَ غالباً وهو طائر في الهواء. وهو يحمل ولده تحت جناحه، وربما قبض عليه بفِيهِ لإشفاقه عليه. وربّما أرضعتِ الأنثى ولدَها وهي طائرة. أخبرني مَن شاهد ذلك ممن يُعتمد على نقله، وهو متى أصابه شجر الدُّلْب[1] خَدِر.

قال الجاحظ: والخُفّاش يأتي الرُّمانة وهي على شجرتها فينقُب عنها ويأكل جميع ما فيها حتى لا يَدَعَ إلا القشرَ وَحْده. قال: ولحوم الخفافيش موافقةٌ للشواهين

(١) الدلب: جنس شجر للتزيين، من الفصيلة الدلبية، وهو من الزهريات، يحب الماء.

والصُّقور والبَوَازِي ولكثير من جوارح الطير، وهي تَسْمَن عنها وتصِحّ أبدانها عليها، ولها في ذلك عملٌ محمود ناجع عظيم النفع بيّن الأثر.

وقال بعض الشعراء في الخُفّاش مُلْغِزاً: [من الرجز]

وطائرٍ جَناحُه في رِجْلِهِ أبعد شيءٍ فَصُّه من وُصِلِه[1]
لم يُوصَف اللَّهُ بخلقٍ مِثْلِه وهو على تآلُفٍ في شكلِه
* لو بِيع في سُوقٍ له لم أُغْلِه *

وقال آخر:

أبَى علماءُ الناس أن يُخبرونِني وقد ذهبوا في العلم في كلّ مذهبِ
بجلدةِ إنسانٍ وصورةِ طائرٍ وأظفارِ يَرْبُوعٍ وأنيابِ ثَعْلبِ

وأمّا الكَرَوانُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ والكروان طائرٌ من طبعه وعادته الطيرانُ في الليل، والإدْلاجُ والصِّيَاح بالأسحار، والإشراف على مواضع العساكر، ويوصف بالحُمْق؛ ومن حمقه أنه يقال له: أَطْرِق كَرَا، فيَلْصَق بالأرض حتى يُرْمَى. وتقول العرب: «أَطْرِق كَرَا أطرق إنّ النَّعامَةَ في القُرَى»[2].

وأمّا البُومُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ ويقال: إنه الصَّدَى، ويقال: بل الصَّدَى ذَكَرُ البوم، وللبوم ذكر له منه. ويقال: إنه خمسة أصناف: منه ما يصيد الأرنبَ. ومنه صِنْف له لونان يأوِي الأكامَ والبَرِّيّةَ. ومنه المدبَّج بالصُّفْرة، وله حواجبُ وقرونٌ من ريش، ويسكن الجُدْرانَ. ومنه الهَامِ ويسمّى «الغبشية»، ومنه «القن» وهو يصيح كالهامِ لكنّ صوته أدقّ. وكل هذه الأصناف تحب الخَلْوَةَ بنفسها. وهي تُبغض الغربان، وسائرُ أصناف الطير تُبغِضها، فإنّ الطيور إذا رأينها يَطِرْنَ حولَها ويَنْتِفْنَ ريشَها، فلذلك صيّادو الطيور يجعلونها في مصايدهم؛ لأن الطيور إذا رأوْها اجتمعوا عليها، فتُصاد عند ذلك.

وأمّا الصَّدَى وما قيل فيه ـ العرب تزعم أن الإنسان إذا مات أو قُتِل تتصوّر نفسُه في صورةِ طائرٍ تصرخُ على قبره مستوحِشةً لجسدها. وفي ذلك يقول تَوْبة[3]:

ولو أنّ ليلَى الأخْيَلِيّةَ سَلَّمَتْ عليّ ودُوني جَنْدَلٌ وصفائحُ
لسَلَّمْتُ تسليمَ البَشَاشَةِ أو زَقَا إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

ويحكون على ذلك حكايةً. وتقول العرب: إن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر

---

(١) الوصل (بكسر أوله): كل عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره.
(٢) هذا المثل يضرب للرجل الحقير إذا تكلم الذي لا يشبهه وأمثاله الكلام فيه.
(٣) هو توبة بن الحمير.

حتى يصيرَ في قَدْر البُوم، ويسمُّونه الهامَ، واحدُه هامَةٌ، وهو يتوحَّش ويصيح ويوجد في الدّيار المعطَّلة والنَّواويس[1] وحيثُ مَصَارعُ القَتْلَى وأجداثُ الأموات. ويقولون: إنه لا يزال عند وَلدِ الميّت ومُخْلَفِيه ليعلم ما يكون بعده فيخبره. وهذا كلُّه أراه من خُرافات العربِ وأكاذِيبِها. وما زالوا على ذلك حتى جاء الإسلام فنهى رسولُ الله ﷺ عنه فقال: «لا عَدْوَى ولا طِيرَةَ ولا هامَةَ»، الحديثَ. والله أعلم.

البَابُ السَّادِسُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ
في الهَمَجِ

وقد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فيه: إنه ليس من الطير، ولكنّه مما يطير كالحشرات مما يمشي. والذي أُطلق عليه اسمُ الهَمَج هو مما يَشتمل عليه هذا الباب، وهو النّحل، والزُّنبور، والعنكبوت، والجَرادُ، ودودُ القَزّ، والذُّباب، والبَعُوض، والبراغيثُ، والحُرْقُوص.

فأمّا النحلُ وما قيلَ فيهِ ـ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩]. وعن أبي سَعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه: أن رجُلاً أتى النّبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنَه يا رسول الله؛ فقال النبيّ ﷺ: «اسقِهِ عَسَلاً»، ثم أتاه فقال: قد فعلْتُ؛ فقال: «اسقِهِ عسلا». ثم أتاه فقال: قد فعلت؛ فقال: «اسقِهِ عسلا»، ثم أتاه في الرابعة؛ فقال: «صَدَقَ اللّهُ وكذَب بطنُ أخيكِ اسقِه عسلاً»؛ فسقاه فبَرِىء الرجل.

وقال أرسطو: النحل تسعة أصنافٍ: ستّةٌ منها يأوي بعضُها إلى بعضٍ، وذكر أسماءهما باليونانيّة. وغذاءُ النحلِ من الفضول الحُلْوةِ والرُّطُوباتِ، والنحلُ لا تقعُد على أزهارٍ مختلفةٍ بل على زهر واحدٍ؛ وإن قَعدت على زهرٍ آخر فإنما تقعُد عليه بعد أن تنصرف إلى الخليّة، وبيوتُها من أعجب المباني؛ لأنها مبنيّة على الشكل الذي لا يُنتَهك ولا يَنْخَرِق، كأنه حُرِّر بآلةٍ وقياسٍ هندسيّ. وإذا هلك شيء من النحل في باطن الخلايا أخرجَتْه الأحياء إلى خارجِها. وهو يعمل في فصل الربيع والخريفِ. والرَّبيعِيّ

(١) النواويس: مفرده ناووس، وهو صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت، أو هو مقبرة النصارى.

أجود من الخَرِيفيّ. والصغير منه أعمَلُ من الكبير. وهو يشرب من الماء النقيّ العذبِ الصّافي، ويطلبه حيث كان. وهو يَسْلُخ جلدَه كالحيّات. وتوافقه الأصوات المُطِربة. ويجتمع للتصفيق بالأيدي والرَّقص. والسوسُ يضرُّه. ودواؤه أن يُطرَح في كل خليَّةٍ كفٌّ من الملح، وأن تُفتَح في كلّ شهر مرّةً وتُدَخَّنَ بأَخْثَاءِ البقرِ.

وقد وصف الشعراءُ الشُّهد والعسلَ في أشعارها؛ فمن ذلك قولُ إبراهيم بن خَفَاجة الأندلسيّ يصف شُهْدَةً بعث بها إليه بعضُ أصدقائه: [من المجتث]

لِـلَّـهِ ريـقـةُ نـحـلٍ رعَـى الـرُّبَـى والـشِّـعَـابـا
وجـاب أرضـاً فـأرضـا يَـغْـشَـى مَـصـابـا مَـصـابـا[1]
حـتّـى ارتـوى مـن شِـفـاءٍ يَـمُـجّ مـنـه رُضَـابـا
إن شـئـتَ كـان طـعـامـاً أو شـئـتَ كـان شـرابـا

وكتب مع هذه الأبيات رسالة، جاء منها: «وكفَى النّحلةَ فضيلةَ ذات، وجَلالَةَ صفات؛ أنّها أُوحِيَ إليها، وأُثنِيَ في الكتاب عليها؛ تعلم مساقِطَ الأَنْداء، وراء البَيْداء[2]؛ فتقع هناك على نُوّارةَ عَبِقه، وبَهَارةٍ أنِقه[3]؛ ثُمّ تصدُر عنها بما تَطبعه شمعَه، وتُبدعه صنعَة وتَرتَشف منها ما تَحفَظه رُضاباً[4]، وتَلفِظه شَراباً؛ وتتجافى بعدُ منه عن أكرم مُجتَنى، وأحكم مُبْتَنى».

وأمّا الزُّنبُور ومَا قيلَ فيهِ - والزنبور يُسمّى «الدَّبْرَ». وهو جَبَلِيّ وسُهْلِيّ. فالجبليّ يأوِي الجبالَ والأماكنِ الخشِنةَ، وقد يُعَشِّش على الشّجر، ولونه إلى السواد. والسُّهليّ أحمرُ اللونِ ويَتَّخِذ عُشّه تحت الأرض ويُخرج الترابَ منه كما يفعل النّملُ، وهو يختفي في الشتاء فلا يظهر، وأكثرُه يهلِك. ومن السُّهْلِيّ صِنف مختلفُ الألوانِ مستطيلٌ؛ وفي طبعه الشَّرَه يطلب المطابخَ ويأكل اللحم، ويطير مفرداً ويسكن بطنَ الأرض.

وصنف الزنبور جميعه مقسومٌ في وسطه؛ وهو لذلك لا يتنفّس من جوفه ألبتة. ومتى غُمِس في الدُّهنِ سكنت حركاته وذلك لضِيقِ منافِذِه.

وقد وصفه الشعراءُ، فمن ذلك قولُ السُّلاميّ[5]: [من الطويل]

---

(١) المصاب: موقع الغيث.
(٢) البيداء: الفلاة.
(٣) البهار: نبت طيب الريح جعد له فقاحة صفراء ينبت وقت الربيع.
(٤) الرضاب: رغوة العسل.
(٥) قد يكون عبد الله بن موسى بن الحسن بن إبراهيم السلامي (أبو الحسن)، محدث، أديب، شاعر، مؤرخ.

ولابِس لونٍ واحدٍ وهو طائرٌ ... ملوّنة أبرادُه وهو واقِعُ
أغرّ تردّى طَيْلَسانا مُدَبَّجاً ... وسودُ المنايا في حشاه ودائِع
إذا حكّ أعلى رأسِه فكأنما ... بسالِفتيه من يديه جوامِع[(١)]
يُخاف إذا ولّي ويُؤمَنُ مُقبِلاً ... ويُخفِي عن الأقران ما هو صانِع
بدا فارسيّ الزّي يَعقِد خَصْرَه ... عليه قَباءٌ زيَّنته الوشائِع[(٢)]
فمِعْجَرُه الوَرْدِيُّ أحمر ناصِعٌ ... ومِئْزَرُه التِّبْرِيّ أصفر فاقِعُ[(٣)]
يرجّع ألحانَ الغريض ومَعْبَدٍ ... ويَسْقِي كؤوساً مِلؤها السمّ ناقِع

وقال السَّريُّ الرّفّاء يصفه: [من المنسرح]

ومُخْطَفِ الخَصْرِ بُرده حَبِرُ ... نَحذَرُه وهو خائِف حذِرُ[(٤)]
مُجنَّح طار في مُجَنَّحةٍ ... تصعدَ طوراً به وتنحدر
كأنها والرياح تنشرُها ... غرائبُ الزَّهرِ حين تُنْتَثر
لها حُمَاتٌ كأنها شعر ... تَظْهَر مسودّة وتستتِر
قد أُذهبتْ في الجبين غُرّتُه ... إذ فُضِّضتْ في جيادنا الغرر
سِلاحُه الدّهرَ في مؤخّره ... يطعَنُ طوراً به وينتصِر
كأنّ شطر الذي يُجرّده ... من بين فكّيه حيّة ذكر

وأمّا العنكبُوتُ ومَا قيلَ فيهِ ـ قد ضرب اللّهُ عزّ وجلّ المثلَ في الوَهْن[(٥)] بالعنكبوت؛ فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]. والعنكبوتُ أصنافٌ: منها صِنفٌ يُسمّى «الرُّتَيْلا» من ذوات السموم القواتل، وهو عنكبوتٌ صغير. ومنه صنفٌ طويل الأرجل. ومنه يُسمّى «اللَّيْثَ» يصيد الذّباب، وله ست عيون وثماني أرْجُلٍ. وقال الجاحظ: ولَدُ العنكبوت يَقْوَى على النَّسْج ساعة يُولد، وذلك من غير تلقين ولا تعليم. وأوّل ما يولد دوداً صغاراً، ثم يتغيّر ويصير

(١) الجوامع: جمع الجامعة، وهي الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.
(٢) الوشائع: جمع وشيعة، وهي الطريقة في البُرد.
(٣) العجر: ثوب تلقه المرأة على استدارة رأسها.
(٤) مخطف الخصر: ضامره.
(٥) الوهن: الضعيف.

عنكبوتاً. وهو يُطاوِلُ في السِّفَاد. ومنه ما هو كبيرٌ ونسجُه رديءٌ، ومنه ما هو دقيق. وهو في نَسْجه يَمُدّ السَّدَى[١] ثم يعملَ اللُّحمَة[٢]، ويبتدىء من الوسط؛ ويُهَيِّىءُ موضعاً لِمَا يصيده يكون له كالخِزانة. والأنثى منه هي التي تَنْسِجُ، والذكر يَحُلُّ ويَنقُضُ. والتي تَنسِجُه لا تُخرِجه من جوفها بل من خارج جسدها، وفَمُ العنكبوت مشقوقٌ بالطول. وهو إذا صاد الذُّبَابَ يَثِبُ عليه وُثُوبَ الفَهْد.

وقال الشيخ الرئيس أو عليّ بن سينا: إنّ نَسْجَ العنكبوت يَقْطَعُ نَزْف الدَّم إذا جُعِلَ على الجِراحة، وإذا وُضع نَسْجُه على القروح مَنَعها أن تَرِم وعلى الجراحات. وإذا طُبِخَ العنكبوتُ الذي هو غليظ النَّسْج أبيضُه بدُهن الوَرْد وقُطِّر في الأُذن سَكَّن وجعَها. قال: وقال بعضُهم: إنّ نسِج العنكبوت إذا خُلِط ببعض المراهم ووُضع على الجَبْهة والصُّدْغين أبرأ حُمَّى الغِب[٣]. قال: وزعم بعضهم أنّ نسج الصِّنف الذي يكون نسجُه كثيفاً أبيضَ إذا شُدّ في خيط وعُلِّق على العنق والعَضُد أبرأ حُمَّى الغُبّ.

وقال ابن الروميّ يَصِف فهد العنكبوت: [من منهوك المنسرح]

أَعْـجَـبُ مُـسْـتَـفَـادِ ... أفـادنـي زمـانـي
مـن الـفـهـود فَـهْـدٌ ... فـي الاسـمِ والـعِـيـانِ
تـلـك ذواتُ أربـعِ ... وذاك ذو ثـمـانِ
كـأنـمـا أرْجُـلُـه ... مَـخَـالِـبُ الـنِّـغْـرَانِ[٤]
سَـيْـفـاه سَـيْـفـا بَـطَـلٍ ... والـدرعُ درعُ جـانِ
مـسـتـأنـسٌ مـا إنْ بَـنَـى ... والإنْـسَ فـي مـكـان
وصـائـدٌ وهْـو مـن الـ ... ـمَـصِـيـد فـي أمـان
ذُبَـابُـه فـي كَـفِّـه الـ ... ـطـائـرُ مـثـل الـعـانـي
ولـيـس يـبـغـي بـدلاً ... بـطـائـر الـخِـوَان
إذا دَنَـا فـلـم يـكـن ... بـيـنـهـمـا عـقـدان
عـانـقَـه أسْـرَعَ مـن ... تـعـانُـقُ الأجـفـان

(١) السَّدى: خلاف اللحمة، وهو ما يمد طولاً في النسيج.
(٢) اللحمة: الخيوط.
(٣) حمى الغب: التي تنوب يوماً بعد يوم.
(٤) النغران: جمع نغر، وهي أفراخ العصافير.

بـخـفَّـة الـوثـوب بـل ... بـجُـرأة الـجَـنَـان
فـهـو عـزيـزٌ عـزّةً ... فـي غـايـة الـهَـوان

وقال خَلَف الأحمر في الرُّتَيْلاءِ: [من الرجز]

ابـعـث لـه يـا ربِّ ذاتَ أرْجُـلِ ... فِي فَمِها أحْجَنُ مثلُ المِنْجَلِ[١]
دَهْمَاءَ مثلَ العنكبوت المُخْوِلِ ... تَأخذُه مِن تحتِه ومِن علِ

وأمّا الجَرَادُ ومَا قِيلَ فيهِ - فالجراد أحد جُنْد الله الذي عذّب اللَّهُ به قومَ فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. والعرب تقول: سَرَأَت الجرادةُ إذا باضت. فإذا خرج من بيضه فهو «دَبَى»، ويخرج دوداً أصهبَ إلى البياض. فإذا تلوّنت فيه خطوطٌ صُفْرٌ وسُودٌ وبِيضٌ فهو «المُسَيَّحُ»، فإذا ضمّ جناحيْه فذاك «الكُتْفَانُ»؛ لأنه حينئذٍ يَكْتِفُ في المشي. فإذا ظهرت أجنحتُه وصار أحمرَ الغُبْرة فهو «الغَوْغَاءُ»، والواحدة غَوْغاءة؛ وذلك حين يستقلّ فيمرج بعضُه في بعض ولا يتوجّه إلى جهة. فإذا بدت في لونه الحمرةُ والصفرةُ واختلف في ألوانه فهو «الخَيْفَان». وإذا اصفرّت الذكور واسودّت الإناث سُمِّي حينئذٍ «جَرَاداً».

وهو إذا أراد أن يبيض التمس لبيضه المواضعَ الصَّلْدة[٢] والصخور الصُّلْبة التي لا تعمل فيها المعاول فيضربها بذنبه فتنفرج له، ثم يلقي بيضه في ذلك الصَّدع فيكون له كالأُفْحُوص ويكون حاضناً له ومربياً.

والجرادة لها سِتُّ أرْجُل: يَدان في صدرها، وقائمتان في وسطها، ورجلان في مؤخّر جسدها، وطرفا رجليها مِنشاران. والجرادُ من الحيوان الذي ينقاد إلى رئيس يجتمع إليه كالعسكر، إن ظَعَن أوّله تتابع كلّه ظاعناً؛ وإذا نزل أوّله نزل جميعُه. ولُعابُه سمّ على الأشجار، لا يقع على شيء منها إلا أَهْلَكه. والجرادة فيها شَبَهٌ من عشرة من جَبَابِرة الحيوان، وهي: وجهُ فرس، وعينا فِيل، وعُنُقُ ثور، وقرْنا إيَّل، وصدرُ أسدٍ وبطنُ عَقْرب، وجناحَا نَسْر، وفَخِذا جَمَل، ورِجْلا نَعَامة، وذنبُ حيّة. قال شاعر: [من الطويل]

لـهـا فَـخِـذَا بَـكْـرٍ وسـاقـا نَـعـامـةٍ ... وقـادِمَـتَـا نَـسْـرٍ وجُـؤْجـؤُ ضَـيْـغَـمِ[٣]
حَبَتْها أفاعي الرمل بطناً وأنعمت ... عليها جيادُ الخيل بالرأس والفَم

(١) الأحجن: المعوج ويعني به السّن.
(٢) الصلدة: الصلبة الملساء الشديدة.
(٣) الضيغم: الأسد الواسع الشدق.

وقال أبو عليّ بن سِينا: أجودُ الجراد السمينُ الذي لا جَناح له؛ وأرجلُ الجراد تَقْلَع الثآليلَ فيما يقال. قال: يؤخَذ من مُسْتَدِيراتها اثنتا عشَرة وتُنْزع رؤوسُها وأطرافُها ويُجعل معها قليلُ آسٍ يابسٍ وتُشرب للاستسقاء كما هي. قال: والجراد نافع لتقطير البول؛ وإذا تُبُخِّر به نفع عسرَه وخصوصاً في النساء. ويُتَبَخَّر به من البواسير. والذي لا أجنحةَ له يُشْوَى ويُؤكل لِلسْع العقرب.

وقال بعضُ الأعراب وذكر فساده: «بَاكَرنا وسَمِيّ[١]، ثم خَلَفه وَلِيّ[٢]؛ حتى كأنّ الأرض وَشْيٌ منشور، عليه لؤلؤٌ منثور؛ ثم أتتنا غيومُ جراد، بِمَنَاجِلَ حداد، فأخْربَت البلاد وأهلكت العباد. فسبحان من يُهلِكُ القويَّ الأكول، بالضعيف المأكول».

وقال العسكريّ يصف جرادةً: [من مجزوء الرجز]

أجــنــحــةٌ كــأنّــهــا ... أردِيَــةٌ مــن قَــصَــبِ

لــكــنّــهــا مــنــقــوطــة ... مــثــل صــدور الــكُــتُــبِ

بــأرجــلٍ كــأنّــهــا ... مــنــاشِــرٌ مــن ذَهَــبِ

وقال أيضاً: [من الوافر]

وأعــرابــيّــة تَــرْتــاد زادا ... فَــتَــمْــرُق مــن بــلاد فــي بــلادِ

غَــدَتْ تــمــشِــي بــمِــنْــشــارٍ كــلــيــلِ ... تَــبــوع بــه قَــرارَة كــلّ وادِ[٣]

وتَــنْــشُــرُ فــي الــهــواء رِداء شَــرْيٍ ... عــلــى أطــرافــه نُــقَــطُ الــمِــدَادِ[٤]

وقال يَعْلَى بن إبراهيم الأندلسيّ:

وخيفانةٍ صفراءَ مسودّةِ القَرَا ... أتتكَ بلَوْنٍ أسودٍ فوقَ أصفرِ[٥]

وأجنحة قد ألحقتها لرؤيةٍ ... تقاصَرُ عن أثناء بُرْدٍ مُحَبَّرِ

وقال آخر: [من المنسرح]

جرادةٌ حَنَّتِ القلوبُ لها ... حين أشارت بناظِرَيّ رَبْرَب

---

(١) الوسمي: أول المطر.

(٢) الوليّ: المطر بعده.

(٣) يبوع الشيء: يدرك غايته.

(٤) الشرى: الحنظل.

(٥) القرا: الظهر.

صـفـراءُ جـسـيـم يَـشُـوبُـهـا رَقَـطٌ   فـي نُـقَـطٍ مـن عَـبـيـرهـا الأشـهـبْ[١]
كـأنـهـا والـجَـنـاحُ حُـلَّـتُـهـا   راقـصـةٌ فـي مُـمَـسَّـكٍ مُـذْهَـبْ

ووقفتُ على حكاية عجيبة في أمر الجراد، نقلها أبنُ حلب راغب في تاريخه في حوادث سنة أثنتين وتسعين وخمسمائة، قال: قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البَيْسانيّ: حدّثنا القاضي بهاء الدّين بن شَدّاد قاضي حلب في يوم الثلاثاء من عشر شهر رَبيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وقدِم علينا في صفر منها، قال: كان الجراد بالشأم قد زاد أمرُه وعظُم خَطْبه وأمحلت السّنةُ بعد السّنة ولم يسلم من الزرع إلا أقله؛ فأعلم الملِك الظاهر غازي صاحب حلب عن طائر يسمى «السَّمَنْدَل»، إذا ظهر الجرادُ ببلادَ أحْضِر إليها ماءٌ من مكان مخصوص فتبعه ذلك الطائرُ ووقع على الجراد فأتلفه وأستخرج بيضَه من التراب ونَظَّفَ البلادَ منه. قال: فندب ثلاثة نفرٍ من العجم ذوي قوّة في أبدانهم وصَبْرٍ على مشقّةِ المَشْي في أسفارهم، وأزاح عِلّتهم بنفقة وسَّعَها عليهم، وساروا على خُوزِسْتان[٢]، واستدلّوا على الضَّيْعة التي هي من عملها وفيها هذا الماءُ، فوصلوا إليها وحملوا من الماء، ووجدوا هذه العين على وجه الأرض لا تبلغ إلى أن تَفيضَ فتسيح ولا إلى أن تَغِيضَ فتُسْتَقَى. ومن تدبير هذا الماء إلى أن يتمّ به المرادُ أن يحمِله الماشي ولا يركب، وإذا نَزل بمنزلة علّقه ولا يضعه على الأرض؛ وكان الملك الظاهر قد سيّر معهم دوابَّ يركبُها من لم يحمل الماء بالنّوبة ويمشي من يحمله؛ ومن عادة من يحمله ألاّ ينفردَ بنفسه وألاّ يسيرَ إلاّ في قافلةٍ وأن يُعلم أهلَها بما معه ويُشهِدَهم أنه ما ركِب ظهرَ دابّةٍ في حال حمله، وأنه مشى والماءُ في إنائه في يده، وكلّما وصلَتْ قافلةٌ إلى بلد أدّى شهود القافلة ما شَهِدوا به عند الحاكم؛ ويَتَبَخّرُ حاملُ الماء كتباً حُكْمّيةً من قُضاة البلاد في أمر الماء بصحّة نسبه وكيفيّة حَملِه. قال: ولم يزالوا على ذلك إلى أن وصلوا إلى حلب، فعُلّق ذلك الماء ووصل ذلك الطائرُ في جمع كجَمع الجَراد وأكثر، وهو يشبه السُّمَانَى في قَدْره ولونه، ووقَع على الجراد فأتلفه وأستأصله. قيل: إنّه كان يأكل الجرادةَ والثنتين والثلاث والأربع في دَفْعَة ويرميها في الحال في بطنه، وإنه يتتبّع مكانَ بيضه في الأرض فيبحث عنه بمناقيره وأخرجه، حتى صارت الأرض كالغِرْبال من أثر نقره، وإنّ الجراد أرتفع من الشأم وكُشِفَتْ به البلوى. قال: وأمرُ هذا الماء مشهور معلوم مستفيض.

---

(١) الرقط: جمع الرقطة، وهو لون مؤلف من بياض وسواد؛ أو من حمرة وصفرة وغيرهما.
(٢) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز المذكورة. وقيل ليس بخوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتاخم نواحي تستر وجنديسابور. (معجم البلدان لياقوت).

وأمّا دُودُ القَزِّ وَمَا قِيلَ فيهِ ـ ودود القَزّ وإن لم يكن من الهَمَج الذي له جَناح، فمآلُ أمرِه أن يصير له جناحٌ؛ ولذلك أوردناه في هذا الباب وألحقناه بهذا النّوع.

ودُودُ القَزّ أوّلُ ما يكون بِزْراً في قَدْر حبّ التين، وهو البيض الذي يتكوّن فيه الدُّودُ. ويكون خروجُه منه في أوّل فصل الربيع. ويخرجُ أصغَر من الذَّرّ، وفي لونه. وإذا تأخّر خروجُه وضَعه النساء تحت ثُدِيِّهنّ في صرر. فإذا خرج غُذِّيَ بورق التوت. ويأخذ في النموّ إلى أن تصير الدودة منه في قَدْرِ الإصْبَع وينتقل من السواد إلى البياض أوّلاً فأوّلا، وذلك في مدّة ستين يوماً فما دونها. وله في غضون هذه المدّة نَوْماتٌ لا يأكل فيها شيئاً ألبَتَّة، كلُّ نومةٍ يومان؛ فإذا آستيقظ أكل أضعاف ما كان يأكل قبل النوم. فإذا أكمل المدَّةَ آمتلأ حريراً فلا يبقى فيه مَساغٌ لمأكل، فيقطع الأكلَ عند ذلك ويَهيج للنَّسْج؛ فأيّ شيء تعلّق به نَسج عليه. وهو يَنْسِجُ على نفسه بما يُخرِجه من فيه إلى أن يُخْرِجَ ما في جوفه، وهو أَرَقّ من العنكبوت، ويُكمل عليه ما يبنيه، فيكون كهيئة اللَّوْزة. ويبقى محبوساً في غَزْله قريباً من عشرين يوماً، ثم يَنقُب عن نفسه ويخرج فَراشاً أبيض ذا جناحين لا يَسكُنان عن الاضطراب وقرنين وعينين. وهو إذا نقَب عن نفسه وخرج لا يُنتفع من نسجه بحرير لأنه يقطع طاقاته. وعند خروجه يهيج للسفاد فيُلْصِق الذكرُ ذنبه بذنب الأنثى ويلتحمانِ ساعة زمانيّة ثم يفترقان، وتنثر الأنثى البِزر على الصفة التي ذكرناها على خِرَقٍ بِيضٍ تكون قد فُرِشَت له. فإذا نفِد ما فيهما من السفاد والبِزر ماتا. هذا إذا أُريد من الدود البِزرُ. وإذا أُريد منه الحرير تُرِك ذلك النسج في الشمس بعض يومٍ فيموت.

وقد جعله بعض الشعراء مثلاً للحريص على جمع المال، فقال:

يُفْنِي الحريصُ لجمع المال مُدتَهُ ... وللحوادث والوُرّاث ما يَدَعُ

كدودة القَزّ ما تَبْنيه يُهْلِكُها ... وغيرُها بالذي تَبنيه ينتفعُ

وهو كثيرُ العوارض. وأكثر ما يَعْرِض له الفسادُ إذا أطعِم وَرَق التُّوت الحامض. ويَهْلِكُ من صوت الرعد وضرب الطَّسْت والهَاوُنِ، ومن رائحة الخَلّ والدُّخان. وكثرة الحرّ تهلكه وتُذيبه؛ وكذلك البردُ الشديدُ فإنه يبطىء به. ويُؤذيه مَسُّ الجُنُب والحائض، ويُخشَى عليه من الفأر والعصفور والنمل والوَزَغ[1].

وأمّا الذُّبَابُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ فقد ضرب الله عزّ وجلّ به المثلَ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

(١) الوزغ: جمع الوزغة، وهو سام أبرص (للذكر والأنثى).

[الحج: ٧٣]. فهذا مَثَلٌ ضربَه اللَّهُ تعالى لضَعْف الناس وعجزِهم عن الإتيان بمخلوقٍ. وجاء في الحديث: «إذا سَقَطَ الذُّبابُ في طعام أحدكم أو شرابِه فليَغْمِسْه فإنّ في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاءً». ويقال: إنه يَغْمِس جناحَ الداء ويَرفعُ جناحَ الشفاء، فلهذا نُدب إلى غَمْسه. والعرب تجعل النحلَ والفَرَاش والدَّبْر من الذّباب.

قال الجاحظ: «والذبابُ ضروبٌ سوى ما ذكروا من الفَرَاش والنحل والزَّنَابِير»؛ فمنها الشَّعْراء. قال الراجز:

* ذبـابُ شَـعْـرَاء ونـبـتٌ مـائـل *

وللكلاب ذبابُ على حِدة يتخلّق منها فلا يريد سواها. ومنها ذباب الكَلأ والرِّياض؛ وكلُّ نوع منها يألف ما خُلِق منه.

ومنها الذّباب الذي يقتل الإبل وهو أزرق. والذّبابُ الذي يسقط على الدّوابّ وهو أصفر. ويقال: إنّ الذّباب يكثر إذا هاجت ريحُ الجَنوب، وإنّه يُخْلق في تلك الساعة؛ وإذا هبّت ريحُ الشمال خَفّ وتلاشَى. وهو من ذوات الخراطيم، وكذلك البعوض. ويقال: إن الذّباب لا يُعَمَّر أكثر من أربعين يوماً.

قال الجاحظ: «وليس بعدَ أرض الهند أكثرُ ذُباباً من واسِط[١]، وربّما رأيت الحائطَ وكأنّ عليه مِسْحاً شديدَ السواد من كثرة ما عليه من الذباب».

ويقال: إن اللَّبَن إذا ضُرِبَ بالكُنْدُس[٢] ونُضِح به بيتٌ لم يدخله ذُبابٌ. ومن عجيب أمر الذباب أنّه يلْقِي رجيعَه على الشيءِ الأبيضِ أسودَ وعلى الأسودِ أبيضَ. ويقال: إنه لا يظهر إلاّ في مواضِع العُفُونات والقاذُوراتِ، ومُبْتَدَأ خلقه منها، ثم يكون من السِّفاد.

قال الجاحظ: ويقال: إنّ الذّباب لا يَقْرَب قِدْراً فيه كَمْأَةٌ[٣].

والذّباب بطيء في سِفاده، وربّما بقِي الذّكرُ على ظهر الأنثى عامَّةَ النّهار؛ فهو يتجاوز في ذلك البعيرَ والخنزيرَ. وهو من الحيوان الشَّمسيّ لأنه يخفى في الشتاء ويظهرُ في الصيف. وللذّباب يدان زائدتان في مُقَدَّم يديه يتّقي بهما الأذى عن عينيه فإنهما بغير أجفان.

والعرب تضرب به المثلَ في الزَّهْو فتقول: «أَزْهَى من ذُبَابٍ». قالوا: لأنّه يسقط

---

(١) واسط: بلد متوسط بين البصرة والكوفة. (معجم البلدان).
(٢) الكندس: الخرشف البستاني، وهو عروق نبات داخله أصفر وخارجه أسود.
(٣) الكمأة: واحدتها الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية.

على أنف الملك الجبّار وعلى مُوقِ عينيه ويطرُدُه فلا ينطرد. ويُضرب به المثلُ في القَذَر وٱستطابةِ النَّتْنِ. فإذا عَجز الذُّبابُ عن شمّ شيء فلا شيء أنتن منه.

وقال ٱبن عَبْدَل في محمد بن حَسّان بن سعد ورماه بالبَخَر:

وما يدنو إلى فيه ذُبابٌ ... ولو طُلِيَتْ مَشافِرُه بقَنْدِ[1]
يَرَيْنَ حَلاوةً ويَخَفْنَ موتاً ... ذُعافاً إن هَمَمْنَ له بوِرْدِ

ويقال لكلّ أبخر: أبو ذِبّان؛ وكانت من كُنَى عبد الملك بن مروان. وقد وصف الشعراءُ الذّبابَ؛ فمن ذلك قولُ عنترة: [من الكامل]

جادتْ عليها كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ ... فتَرَكْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرهمِ
فترى الذّبابَ بها يُغنّي وحدَه ... هَزِجاً كفعل الشارب المُتَرَنِّمِ
غَرِداً يَحُكُّ ذراعَه بذراعه ... فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجْذَمِ

وقال العسكريّ، وجمعَ بيْنَ البراغيث والبَعُوض والذُّباب: [من الكامل]

وبدا فغنّاني البعوضُ تَطَرُّباً ... فهَرَقْتُ كأسَ النوم إذ غنّاني
ثمّ ٱنبرى البرغُوث ينقُط أضْلُعي ... نقط المعلِّم مُشْكِلَ القرآنِ
حتى إذا كَشَفَ الصباحُ قِناعَه ... قَرأَتْ لِيَ الذِّبّانُ بالألحانِ

وأمّا البَعوضُ وَمَا قيلَ فيهِ ـ والبعوضُ صِنفان: صنفٌ يُشْبِه القُرَاد، لكن أرجُله خفيّةٌ ورطوبته ظاهرة، يُسمَّى بالعراق والشأم «الجِرْجِس» و«الفُسَافِس» وبمصر «البَقّ». ويَشمُّ رائحةَ الإنسان ويتعلّق به. وله لَسْعٌ شديد. ولدمِه إذا قُتل رائحةٌ كريهة. ويقال: إنّه يتولّد من النَّفَس الحارّ ولشدّة رغبته في الإنسان لا يتمالك إذا شمّ رائحته، فإذا كان في السقف رمى بنفسه عليه فلا يخطئه، وهذا الصنف ليس من الطير. والصنف الثاني طائر ويُسمّيه أهلُ العراق «البَقّ» و«البَعُوضَ»، ويسمّيه أهلُ مصر «الناموسَ». وهو يتولّد من الماء الراكد، فإذا صار الماءُ رَقْراقاً ٱستحال دَعَاميصَ[2]، ثمّ تستحيل الدعاميصُ فَرَاشاً. والبَعُوض في خِلْقة الفيل إلاّ أنّه أكثرُ منه أعضاءً، فإنّ للفيل أربَعَ أرْجُلٍ وخُرطوماً وذَنَباً، وله مع هذه الأعضاءِ يدانِ زائدتانِ وأربعةُ أجنحة. وخُرطومُ البعوض أجوف نافذُ الخَرْق، فإذا طَعَن به جلدَ الإنسان ٱستقى به الدَّمَ وقذف به إلى جوْفه. وفيه من الشَّرَه أن يمتصّ من دم الإنسان إلى أن ينشقَّ ويموتَ، أو يمتصّ إلى أن يَعجِزَ عن الطيران. ومن عجيب أمره أنه ربّما قتل البعيرَ وغيرَه من ذوات الأربع، فيبقى طريحاً

(١) القند: عسل قصب السكر.
(٢) الدعاميص: واحده دعموص، وهو دويبة، أو دودة سوداء تكون في الغدران إذا نشّت.

في الصحراء فيجتمع حوله السّباعُ والطيرُ التي تأكل الجِيفَ، فمن أكل منها منه مات لوقته في موضعه. ويقال: إنّ بعضَ جبابرة الوُلاة بالعراق كان يقتلُ بالبعوض، فيأمر بمَنْ يريد قتلَه أن يُجَرَّدَ من ثيابه ويُرْبَط ويُخْرَجَ إلى بعض الآجام التي بالبطائح[١] فيوجد في أسرعِ وقتٍ عظاماً عاريةً من جلدٍ ولحم.

وقال الجاحظ: بَعوضُ البطائح كَجرَّارات[٢] الأهواز وعقاربِ شَهْرَزُور. وربمّا ظَفِرَ بالسكران النائم فلا يُبقي فيه إلاّ العِظامَ العارية.

وقد أكثر الشعراء في وصف البَعوض؛ فمن ذلك قولُ فرج بن خَلَف الأندلسيّ:

بـعـوضٌ جَـعَـلْـنَ دمـي قـهـوةً وغـنَّـيْـنَـنـي بـصـنـوف الأغـانْ
كـأنّ عُـرُوقِـي أوتـارُهـنّ وجـسـمـي الـرَّبـابُ وهـنّ الـقِـيَـانْ

وقال آخر: [من الرجز]

إذا الـبَـعُـوض زَجِـلَـتْ أصـواتُـهـا وأخَـذ الـلّـحـنَ مُـغـنِّـيـاتُـهـا
لـم تُـطْـرِب الـسـامـعَ خـافِـضـاتُـهـا وأرّق الـعـيـنـيـن رافِـعـاتُـهـا
صـغـيـرةٌ كـبـيـرة أذَاتُـهـا تـنـفَـضُّ عـن بُـغـيـتـهـا بُـغَـاتُـهـا
ولا يُـصـيـب أبـداً رُمـاتُـهـا رامـحـةٌ خُـرطـومُـهـا قَـنـاتُـهـا

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الهزج]

غِـنـاءٌ يُـسْـخِـن الـعـيـنَ ويَـنـفِـي فَـرَحَ الـقـلـبِ
ولا يـأتـي عـلـى الـزَّمْـرِ ولا يَـجـري مـع الـضـربِ
غِـنـاءُ الـبَـقّ بـالـلّـيـل يُـنـافِـي طَـرَب الـشَّـرْبِ
إذا مـا طَـرَقَ الـمَـرْءَ جـرى فـي طَـلَـقِ الـكـربِ
إذا مـا نَـقَـب الـجِـلـدَ ةَ أَخْـفَـى أثَـرَ الـنَّـقْـبِ
سـوى حُـمْـرٍ خَـفِـيَّـاتٍ تُـحـاكـي نُـقَـطَ الـكُـتْـبِ

وأمّا البراغيثُ وَمَا قِيلَ فِيهَا ـ والبُرْغوث أسودُ أحدبُ. وهو من الحيوان الذي لا يَمْشي؛ وإنما أوردناه مع ذي الجَناح لأنه ذو وَثْبٍ لا يَقْصُر عن الطيران؛ ومنه أيضاً ما يمشي ولا يَثِبُ. وقالوا: إنه يُطيل السِّفادَ، ويبيض ويُفَرِّخ. وأصلُه متولّد من التراب في المواضع المظلمة. وهو يكثرُ ويستطِيل ويؤذي في أواخر الشتاء وفصلِ الربيع. وإذا

---

(١) البطائح: واحدتها البطيحة، وهي المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى.
(٢) الجرارات: واحدتها الجرارة: عقيرب صفراء على شكل التينة، تجر ذنبها.

اشتدّ عليه الحرُّ هلك.

ومن جِناس الكلام فيه قولهم: أذى البراغِيث إذا ٱلْبَرى غِيث. يَعنُونَ بالبَرَى التراب إذا نزل عليه المطر.

والبرغوث يكمُن بالنهار ويظهر بالليل، ويتشدّ أذاه للإنسان إذا أخذَ مَضْجَعَه. وهو يطول لُبْثُه بمصر؛ ولا يُوجد في البلاد الحارّة مثل صعيد مصر ولا في البلاد الشديدة البرد.

وقد أكثر الشعراءُ في وصف البراغيث وأفعالها؛ فمن ذلك قولُ أبي الرَّمَّاح الأسديّ وكان قد سكن مصر: [من الطويل]

تَطاول بالفُسْطاطِ ليلِي ولم أكن ... بِحِنْوِ الغَضَى ليلي عليّ يطولُ(١)
يؤرّقني حُدْبٌ صغارٌ أذِلّةٌ ... وإنّ الذي يُوقِظْنه لذليلُ
إذا ما قتلناهنّ أضْعِفْنَ كثرةً ... علينا ولا يُنْعَى لهنّ قتيلُ
ألاَ ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... وليس لبرغوث إليّ سبيلُ

وقال العسكريّ من أبيات:

ومن براغيثَ تَنْفِي النومَ عن بصري ... كأنّ جَفْنيَّ عن عيني قصيرانِ
يَطْلُبن منّيَ ثأراً لستُ أعرفه ... إلاّ عداوة سودان لبيضانِ

وقال أبو الحسن أحمد بن أيّوب البصري المعروف بالناهي: [من المنسرح]

لا أعذُلُ الليلَ في تطاوُله ... لو كان يَدري ما نحن فيه نَقَصْ
لي في البراغيث والبعوض إذا ... يُلْحِفُنا حِنْدِسُ الظلام قَصَصْ(٢)
إذا تَغَنّى بَعُوضُه طَرَباً ... ساعد برغوثه الغِنا فَرَقَصْ

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانيّ:

بات البراغيثُ في الفراش معي ... تَقْسِمُني قسمةَ المواريث
أكلني بعد ما شَرِبن دمي ... فَمَنْ مُغِيثي من البراغيثِ

وقال أيضاً فيها: [من السريع]

إنّ البراغيثَ إذا ساوَرت ... من كِنّها ترقُص أو تَقْرُصُ
وكلّما غَنّت بَعُوضٌ لها ... فهي على شُرْب دمي أحرصُ

---

(١) الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفىء.
(٢) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

تَـقْـفِـزُ مـن ثَـمّ إلـى هـا هـنـا ... كـأنـهـا زِنـجـيّـة تَـرْقـصُ

وقال عبد الله بن عبد الرحمٰن الدِّيَنوريّ:

وحُـمْـش الـقـوائم حُـدْب الـظـهـورِ ... طـرَقْـن فِـراشِـي عـلـى غِـرَّةِ

ويـنْـقُـطْـنَـنـي بـخـراطـيـمـهـنّ ... كـنَـقْـط الـمـصـاحـف بـالـحُـمْـرة

وقال ٱبن المعتزّ:

وبـراغـيـثَ إن ظَـفِـرْنَ بـجـسـمـي ... خِـلْـتَ فـي كـلّ مـوضـع مـنـه خـالا

وأمّا الحُرْقُوصُ ومَا قِيلَ فيهِ ـ فقد ذكره الجاحظ في كتاب الحيوان فقال: وزعموا أنه دُوَيْبّة أكبرُ من البرغوث؛ وأكثرُ ما يَنْبُت لها جَناحانِ بعد حين. وعَضّةُ الحُرْقوص أشدُّ من عَضّةِ البرغوث. قالوا: والحرقوصُ يُسمَّى النُّهَيْكَ. وأكثرُ ما يَعَضّ أَحْرَاحَ[1] النساء وخُصَى الرجال. قال أعرابي وقد عَضّ الحرقوصُ خصيتيه:

لـقـد مـنـعَ الـحَـرَاقِـيـصُ الـقَـرَارا ... فـلا لـيـلاً نَـقِـرّ ولا نـهـارا

يُـغـالِـبْـن الـرجـالَ عـلـى خُـصـاهُـمْ ... وفـي الأَحْـراحِ دَسّـاً وٱنـجِـحـارا

وقالت امرأة تشير إلى زوجها:

يَغَار من الحُرْقوص إن عَضّ عَضّةً ... بـفَـخْـذَيَّ مـنـهـا مـا يـجـذّ غَـيُـورُ

لقـد وقَـع الـحـرقـوصُ مِـنّـي مـوقِـعاً ... أرى لَـذّةَ الـدّنـيـا إلـيـه تَـصـيـر

البَابُ السَّابعُ
مِنَ القِسْمِ الخَامِسِ مِنَ الفَنِّ الثالثِ
فَي أنواعِ الأسماكِ

قال ٱبن أبي الأَشْعث: السمكُ يَستَنْشِقُ الماءَ بأصداغه فيقوم له مقَامَ الهواء للإنسان. والسمكُ كلُه شَرِهٌ كثيرُ الأكل، وحاسّةُ السمعِ والشمّ فيه أقوى منها في الإنسان. وٱستدل على ذلك بأدلّة يطول شرحها. وحاسّةُ البصر فيه ليست كالسمع والشمّ وإنما أضعف. ولسانُه غليظ قصير شبيه باللسان وليس لساناً. وله أضراس ليست للمضغ عليها وإنما لقتل ما يفترسه من حيوان الماء ويفرغ فيه سُمّاً يكون سبباً لقتله. وصَغار السمكِ تحترز من كباره بأن تطلب الماءَ القليل الذي لا يحمِل الكبارَ.

وٱختلف الناس في سِفاد السمك، فالأكثرُ على أنه يسفِدَ مثلَ الحيّة. وقال

(١) أحراح: واحدتها حرح، وهو الحر، أي حر المرأة (اللسان مادة حرح).

الجاحظ: وفي السمك القواطعُ والأوابدُ كالطير. ومن أصناف السمك ما هو في شكل الحيّات. قال: وهي إما أن تكون كانت بَرِّيَّة أو جَبَليّة فاكتسحتها السيولُ وألقتها في الماء الدائم فتوالَدَتْ فيه؛ وإما أن تكون أمهاتها وآباؤها من دوابّ الماء.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا في الأدوية المفردة: أفضلُ السمك في جثّته ما كان ليس بكبير جدّاً ولا صُلْب اللحم ولا يابسه، ولا دُسُومة فيه كأنه يتفتّت، والذي لا مُخَاطيّة ولا سُهُوكة فيه وطعمُه لذيذ، فإن اللذيذَ مناسبٌ، وما هو دَسِمٌ دسومةً غيرَ مُفرطةٍ ولا غليظةٍ ولا شحميَّةٍ ولا حِرِّيفَة، والذي لا يُسْرِع إليه النَّتْن إذا فُصل عن الماء. ويُختار من السمك الصُّلْبِ اللحم ما هو أصغر، ومن الرَّخْص اللحم ما هو أكبرُ إلى حدٍّ مّا. وصُلْبُ اللحم مملوحاً خيرٌ منه طَرِيّاً. وأمّا في الأجناس فالشَّبَابِيطُ أفضلُها، ثم البِنِّيّ، والبِياح البحريُّ لا بأس به. وأما في مأواه فالذي يأوِي الأماكنَ الصخريّةَ ثم الرمليّةَ والمياه العَذْبَة الجاريةَ التي لا قَذَر فيها ولا حَمْأة وليست بِطَيحيّة[١] ولا نَزِّيَّةً ولا من البحيرات الصغار التي لا تَسقيها الأنهارُ ولا فيها عيونٌ. قال: والسمكُ البحريّ محمودٌ لطيف، وأفضلُ أصنافه الذي لا يكون إلا في البحر واللُّجة. والذي يأوِي ماءً مشكوفاً ترفرفُ الرّياحُ عليه أجودُ من الذي بخلافه. والذي يأوِي ماءً كثير الاضطراب والتموّج أجودُ من الذي يأوِي الماءَ الراكدَ. والسمكُ البحريّ لطيف اللحم لا سيما إذا كان مأواه في الشطوط صخراً أو رملاً، والذي يصير من البحر إلى أنهارٍ عذبةٍ يعارض جِريَةَ الماء بالطبع لطيفٌ كثيرُ الرّياضة.

وأمّا غِذاؤه، فالذي يغتذي بالحشيش وأصولِ النبات خيرٌ من الذي يغتذي الأقذارَ التي تُطرح من البلاد إلى المستنقعات. وأفضلُ ما يُؤكل السمك اسفيدباجا[٢] ثم المشويّ على الطّابَق. وأما المَقلِيّ فيصلُح لأصحاب المِعَدِ القويّة ومعه الأبازير[٣]. والمشويُّ أغذَى وأبطأ نزولاً، والمطبوخُ بالضدّ. وأفضلُ طبيخه أن يُطبَخ الماء حتى يَغْلي ثم يُلقَى فيه.

وأمّا المالحُ، فخيرهُ ما كان طريّاً قريبَ العهد بالتمليح. وأحمَدُهُ المَمْقُور[٤] بالخلّ والتَّوَابِل.

وأمّا طبعُه، فجميعُ السمك باردٌ رطبٌ، لكن بعضه أسخنُ بالقياس إلى مِزاج

(١) البطيحية: نسبة إلى البطيحة، وقد تقدم تفسيرها.
(٢) الأسفيدباج: نوع من طعام السمك.
(٣) الأبازير: التوابل التي منها الكسبرة والمصطكا والفلفل وغيرها.
(٤) الممقور: المنقوع.

السمك مثل الكَوْسَج(١) والمارماهيج(٢).

وأمّا أفعالُه وخواصُّه، فالطَّريّ منه يولِّد البلغَمَ المائيَّ مُرْخٍ للأعصاب، غيرُ موافقٍ إلا لِلمَعِدَة الحارّة جدّاً. قال: وجِلدُ السمك المعروف «بسيفَيانوس» في ناحية بيت المقدس إن ذُرّ رمادُ جلده في عيون المواشي أذهبَ بياضَها. والمالحُ من أصناف السمك يُخرج السّلاءَ(٣) من المنَاشب(٤). قال: ورأس «سماريس» مُحْرَقاً يَقْلَعُ اللحمَ الزائدَ في القروح ويمنع سَعَتَها ويَقلَع الثآليلَ والْيوث. وماء السمك المالح ينفع من القروح العَفِنَةِ ويغسِلها. قال: وإذا احتُقِن بِسُلاقة المالح مراراً نفَع من وجه الورِك. والسمكُ الصغار الذي تسمّيه أهلُ الشام ومصر «الصِّيرَ» إذا تمضمض صاحبُ القُلاَع(٥) الخبيثِ بالمُرّيّ الذي يُتّخذ منه نفعه، و«الرّعّاد» الحيّ إذا قُرِّب من رأس المصدوع أخدَره عن الحسّ بالصداع. قال: وجلد «سيفيانوس» تُحَكّ به الأجفانِ الجربةُ فينفع، وجلدُه المحرَقُ أيضاً يدخل في أوديةِ العين؛ ويُذهِب الاكتحال به مع الملح الظُّفَرَةَ(٦) وأكلهُ مَقلِيّاً يورث غِشاوَة العين بل جميعُ السمك؛ ورؤوسُ السَّمَكَات المملوحة المجفَّفة تنفع اللَّهَاةَ(٧) الوارمةَ، وعلاجٌ جيّدٌ من شُقَاقِ المقعدة. وغِراءُ السمك يُلْقَى في الأَحْسَاءِ فينفَع نَفْثَ الدّمِ. قال: وحَوْصَلةُ سيفيانوس تُلَيّن البطن مع صعوبة انهضامها. قال: ورأس المالح من سماريس مُحْرَقاً يُجعل على عضّة الكلبِ الكلبِ ولسعةِ العقرب فينفع ذلك، وكذلك كلّ سمكةٍ، ومرقةُ كلِّ سمكٍ تنفع من السموم المشروبة والنُّهُوش. قال: والسمك ينفع من عُسْر النَّفس والرَّبْو واليَرَقَان ويسهِّل البلغَمَ وينفع من خُنَاق الرَّحِم.

وقد وصف الشعراء السمكَ في أشعارها؛ فمن ذلك قول ابنِ الرُّومي يخاطب رئيساً ويستدعي منه سمكاً: [من الكامل]

عَسُرَتْ علينا دعوةُ السَّمَكِ ... أنّى وجُودك ضامِنُ الدَّرَكِ
اعلم وُقِيتَ الجهلَ أنك في ... قَصْرٍ تَلَتْه مطارحُ الشَّبَك

(١) الكوسج: نوع من السمك له خرطوم كالمنشار.
(٢) المارماهيج: هو حوت طويل.
(٣) السلاء: شوك النخل، الواحدة سلاءة.
(٤) المناشب: جمع منشب، وهو اسم مكان من النشوب.
(٥) القلاع: قرحة تكون في جلدة الفم واللسان مع انتشار واتساع.
(٦) الظفرة: جلدة تنبت عند المآقي وقد تمتد إلى السواد، متغشية.
(٧) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق.

وبنات دِجْلَةَ في فِنائكم مأسورةٌ في كلِّ مُعْتَرَك[١]
بِيضٌ كأمثال السبائك بل مشحونةٌ بالشحم كالعُكَكِ[٢]
حَسُنَتْ مناظرُها وساعَدَها طعم كَحل مَعَاقِدِ التِّكَكِ[٣]
فليَضطَدِ الصيّادُ حاجَتنا يَضطَدْ مودَّتَنا بلا شَرَكِ

وقال أبو الفتح كُشَاجم: [من الطويل]

ومحجوبةٍ بالماء عن كل ناظرٍ ولكنها في حَجْبها تُتَخَطَّفُ
أخذنا عليهنّ السبيل بأعيُنٍ رواصِدَ إلاّ أنّها ليس تَطْرِف
فجئنا بها بِيضَ المتونِ كأنّها خَنَاجِرُ في أيْمانِنا تَتَعطَّف

وقال أبو عُبَادة البُحْتُرِيّ وذكر بركةً:

لا يبلغُ السمكُ المقصورُ غايتَها لِبُعدِ ما بين قاصِيها ودانِيها
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مجنَّحَةٍ كالطير تنفُضُ في جَوٍّ خَوَافِيها

وقال أبو طالب المأمونيّ في المَقْلِيّ منه: [من السريع]

ماوِيّةٌ فِضّيّةٌ لحمُها ألذُّ ما يأكُلُه الآكِلُ
يضمّها من جلدها جَوْشَنٌ مُذَيَّلٌ فهو لها شامِلُ[٤]
لَوّنتُ من فِضّتها عسجداً بالقَلْي لما ضافني نازِل

وقال أيضاً:

مائيّة في النار مَصْلِيّةٌ يُصْبَغُ من فِضّتها عَسْجَدُ
كأنّما جلدتُها جَوْشَنٌ مُزَرْفَنُ الصَّنْعةِ أو مِبْرَدُ[٥]

وقال عطاءُ بن يعقوب يصِف سمكةً من رسالة يَستدعي بها صديقاً، جاء منها: «قد أهدى لنا صديق سمكة، قد لبِست من جلدها شبكة؛ تُشبِه حَمَلا شَكْلاً وقَدّاً، أو جِراباً قد امتلأ زُبْداً؛ كأنها أرادت أن تحارِبَ نجمَ السِّماك، أو حُوتَ الأفلاك؛ فلبِست من جلدها جَوْشناً مزرَّداً. وسَلّت من ذنَبها سيفاً مجرّداً».

(١) قد يراد بـ«نبات دجلة»: السمك.
(٢) العكك: جمع عكة، وهي وعاء من الجلد للسمن.
(٣) التكك: واحدتها تكة، وهي رباط السراويل.
(٤) الجوشن: الدرع.
(٥) الزرفين: حلقة الباب.

وقال خالد بن صفوان ليزيدَ بن المهلَّب يصف سمكاً: «أتيتُ ببناتِ بيضِ البطون، زُرْقِ العيون، سُودِ المتون، حُدْبِ الظهور، مُعَقَّفَاتِ الأذناب، صِغارِ الرؤوس، غِلاظ القَصَر[١]، عِراضِ السُّرَر».

هذا ما ٱتفق إيرَادُه في السمك المُطْلَقِ. فلنذكر أصنافاً من أنواع الأسماك.

ذكرُ شيءٍ مِنْ أَنواعِ الأَسْمَاكِ

وأنواعُ الأسماكِ كثيرةٌ جدّاً، منها ما يعرِفه الناسُ، ومنها ما لم يعرفوه، ومنها ما يكون في أماكنَ من البحار دون غيرها. وقد ذهب بعضُهم أنّ كلّ حيوان في البرّ يكون مثلُه في البحر. فلْنُورِد في هذا الفصل ما أمكن إيراده، وهو الدُّلْفِين، والرَّعاد، والتِّمساح، والسَّقَنْقُور، والسُّلَحْفَاة، واللَّجاَةُ، والفرس النهريّ، والجندبيدستر والقُنْدُس، والقَاقُم، والضَّفَادِع، والسَّرَطانُ، وشيءٌ من عجائب الحيوان المائيّ، على حكم الاختصار حيث تعذّر الاستيعاب.

فأمّا الدُّلْفِين ـ وهو كالزِّقّ المنفوخ، وله رأس صغير جدّاً، وهو يُوجد في بحر النيل يَقذِفه البحرُ المِلْحُ إليه. ويقال: ليس في دوابّ البحر ما له رئةٌ غيرُه، فلذلك يُسمع له التنفُّس والنَّفخُ، وهو إذا ظفِر بالغريق كان أقوى الأسباب في نجاته؛ فإنه لا يزال يدفعه إلى البرّ حتى ينجيه. وهو من أقوى الدوابّ المائيّة. ولا يؤذِي ولا يأكل غيرَ السمكِ. وربما ظهر على وجه الماء وهو نائم كالمَيّت. وهو يَلِد ويُرضِع. وأولاده تتبعه حيث ذهب؛ ولا يَلِد إلاّ في الصيف. وفي طبعِه الأُنْسُ بالناسِ وخصوصاً الصبيان. وإذا صِيد جاءت الدّلاَفين لقتال صائده، فإذا أطلقه لها ٱنصرفت. وأهلُ المراكب في البحر الفارسيّ إذا رأوه ٱستبشروا به وأيقنوا ببلوغ الأرب سيّما الغُزاة.

وأمّا الرَّعَادُ ـ ويكون في نِيل مصر، ولم أسمع به في غيره. وفيه من الخاصيّة لأنه لا يستطيع أحدٌ من الناس أن يمَسّه. ومتى وضعَ الإنسانُ يدَه عليه نزعها بحركته وصاح صيحةً مُنْكَرَةً، ربما دَهِش الإنسان لها؛ ويجد الرجلُ في فؤاده خَفَقَاناً من ذلك. وهو متى وقع في شبكة الصيّاد ٱرتعدت يداه عند إخراج الشبكة من الماء أو جذب الحبل، فيعلم أنه قد وقع له السمك الرَّعّاد.

وأمّا التِّمساحُ ـ وهو أيضاً لا يكون إلا في نيل مصر؛ وزعم قوم أنه يوجد في مِهران السِّند[٢]، لِزعمهم أنه من النيل. وهو شديدُ البطش في الماء، وهو يعظُم إلى أن

---

(١) القصر: جمع قصرة، وهي أصل العنق.

(٢) مهران السند: نهر عظيم بالسند تجري فيه السفن ويسقي بلاداً كثيرة ويصب في البحر عند الديبل.

ينتهي في الطول إلى عشرين ذراعاً في عرض ذراعين. ويفترِس الفرسَ والإنسانَ. ولا يَقْوَى على قتاله من الحيوان إلاّ الجاموس. وله يدان ورجلان وذَنَب طويل يضرِب به ويَلُفّ. وهو لا يُصاد إلاّ أن يُضرب في إبطيه، ومنهما مقتلُه، ويقال: إنه إذا أراد السِّفَاد، خرج هو والأنثى إلى البَرّ فيقلِبها على ظهرها ويستبطِنها، فإذا فرَغ قلَبها لأنها لا تتمكن من الانقلاب لِقِصَر يديها ورِجليها ويُبْس ظهرها. وهي تبيض في البرّ، فما وقَع في الماء صار تمساحاً وما بقِي في البرّ صار سَقَنْقُوراً. والتِّمساحُ يحرّك فكّه الأعلى دون الأسفلِ، ولسانُه معلّقٌ به. ويقال: إنه ليس له مَخرَجٌ، وإنّ جوفَه إذا آمتلأ خرج إلى البرّ وفتح فَمه فيجيء طائرٌ صغير أَرْقَطُ فينقُر بمنقاره ما في جوفه ويُخرجه، وذلك غِذاء الطائر وراحةٌ للتمساح وفي رأس هذا الطائر شوكةٌ فإذا غلّق التمساحُ فَمه عليه نَخَسه بها فيفتحه. ويقال: إن للتمساح ستين سنّاً وستين عِرْقاً، ويسفِدَ ستين مرّةً، ويَبِيض ستين بيضةً. ويُوجد في جلْده ممّا يلي بطنَه سِلْعة[1] كالبيضة فيها رطوبةٌ لها رائحةٌ كالمسك، وتنقطع رائحتُها بعد أشهر.

ووصَفه شاعرٌ فقال: [من الطويل]

وذِي هامةٍ كالتُّرْس يَفْغَر عن فَمِ يُضَمّ على مثلِ الحُسَامِ المثلَّم
ويَفْتَرُّ عن مثل المَنَاشِير رُكِّبت على مِشْفَرٍ مثلِ القَلِيبِ المُهَدَّمِ
مَشى في شَوَاةٍ من فَقَارة غَيْلَمٍ وسَقَّفَ لحياً عن مناكب شَيْهَمِ[2]

وأمّا السَّقَنْقُور ـ ويمسى الحِرْذَوْنَ البحريّ. ويقال: إنه ورَلٌ مَائيٌّ. ومنه ما هو مصريّ، وما هو هنديّ، وما يتولّد في بحر القُلْزُم وببلادِ الحبشة، وهو يغتذِي في الماء بالسمك وفي البرّ بالقَطَا. وأنْثاه تبيض عشرين بيضةً وتدفِنها في الرَّمل، فيكون ذلك حضنَها. وجِلدُه خَشِنٌ مُدَبَّج بالسواد والصفرةِ. وهو إذا عضّ إنساناً وسَبَقه الإنسان إلى الماء فاغتسل منه مات السقنقورُ؛ وإذا سبَق السقنقورُ الإنسانَ إلى الماء مات الإنسانُ. وبين السقنقورِ وبين الحيّة عداوةٌ عظيمةٌ، متى ظفِر أحدهما بصاحبه قتله.

وقال الشيخ الرئيس: أجودُ السقنقور ما صِيد في الرَّبيع وقتَ هيجانِه. وأجودُ أعضائه السُّرّة، وهو ينفع من العلل الباردة في العَصَب. ومِلحُه يَهِيج الباهَ فكيف لحمُه، وخصوصاً لحمُ سُرَّتِه وما يلي كُلْيَتَيْه وخصوصاً شحمها.

وأمّا السُّلَحْفَاةُ واللَّجَاةُ ـ يقال: إن اللَّجَاة تبيض في البرّ، فما أقام به سُمّي

(١) السلعة: زيادة تحدث في الجسد كالغدة.
(٢) الغيلم: السلحفاة الذكر ـ والشيهم: ذكر القنافذ أو ما عظم شوكه من ذكورها.

سُلَحْفَاةً، وما وقع في البحر سُمِّي لَجَأَةً. فأمّا ما يبقى في البرّ فإنه يعظُم حتى لا يكاد الرجلُ الشديد يحمِله. وقد رأيتُ في سنة سبع وسبعمائة بالقاهرة المُعِزِّيَّة سُلَحْفَاةً تَحمِل الرجلَ وتمشِي به وهو قائم على ظهرها. وما ينزِل البحرَ يعظُم حتى لا يكاد الحمار يحمِله، وربما وُجِد منها ما زِنتُه أربعُمائةِ رِطلٍ. وتبيض أُنْثاه أربعمائةِ بيضة. وهي تحضُن بيضها بالنظر إليه والرَّصْدِ له لا غيرُ. وللذّكَر نِزْكانِ وللأنثى فرجانِ. والذكرُ يطيل المُكْثَ في السِّفاد. والعرب تَكنِيها «أمَّ طَبَقٍ». ويزعمون أنها تبيض تِسعاً وتسعين بيضةً، وتَبيضُ تمامَ المائةِ بيضةً يخرج منها أسود (أي ثعبان). وهو مولَعٌ بأكل الحيّات؛ وإذا أكل الأفعى أكلَ صَعْترا جَبَلِيّاً؛ فإذا أكثر من أكل الحيّات والصَّعْتَرِ هلَك. وله تحيُّلٌ فيما يصيده من الطائر، وهو أنه يصعَد من الماء ويتمرّغ في التراب ويأتي موضِعاً قد سقط الطيرُ عليه ليشربَ، فيَخْفَى على الطير بكُدْرةِ لونِه التي اكتسبها من الماء والتراب، فيصيد منها ما يكون له قوتاً ويدخل به الماءَ فيموت الطائرُ فيأكله.

ووصفها شاعر فقال: [من مجزوء الرجز]

وسُلْحفاة تَمِج ... سكونُها والحَرَكَهْ
شَبّهتُها بِدَيْلَمِيٍّ ... ساقِطٍ في معركهْ
مُستَتِرٍ بتُرْسِه ... عمّن عسى أن يُهلِكهْ

وقال أبو بكر الخُوَارَزْمِيّ يصف لَجأةً: [من الخفيف]

بِنْتُ ماءٍ بَدتْ لنا من بعيدٍ ... مثل ما قد طوى البحاريّ سفرهْ
رأسُها رأسُ حيّة وقَرَاها ... ظهرُ تُرس وجِلدُها جِلدُ صَخْرهْ[(١)]
مثلُ فِهْر العَطّارِ دُقّ به العَطـ ... ـرُ فحَلّت طرائقُ الطِّيب ظهرَهْ[(٢)]
يقطع الخوفُ رأسها فإذا ما ... أمِنَتْه فرأسُها مستَقَرّه

وقال آخر: [من المتقارب]

لحى الله ذاتَ فمٍ أخرسٍ ... تُطيل من العِيّ وسْواسَها
تَكُبّ على ظهرها تُرسَها ... وتُظهِر من جِلْدها فاسَها[(٣)]
إذا الحِذْرُ أقلق أحشاءَها ... وضيّق بالخوف أنفاسَها
تَضُمّ إلى نَحْرها كفّها ... وتُدْخِل في جوفها رأسَها

---

(١) القرا: الظهر.
(٢) الفهر: الحجر الرقيق الذي تسحق به الأدوية.
(٣) الفأس: طرف مؤخر الرأس المشرف على القفا.

وأمّا الفرسُ النَّهْرِيُّ ـ وهو عظيم الجثة، وخَلْقه خلقُ الفرسِ؛ إلا أنّ وجهه أوسعُ؛ وله أظلافٌ كالبقرة؛ وذنبُه مثلُ ذنبِ الخِنزير؛ وصوتُه يُشبه صوتَ الفرس، وهو لا يوجد إلاّ في نيل مصر. وهو يخرج من الماء إلى البرّ، ويرعَى الزرعَ، وإذا قصد الزرع لا يبتدىء من أوّله، ولكنه يجوز منه قطعةً بقدر ما يأكل ويبتدىء منها بحيث يكون وجهُه إلى البحر، وهو يقتل التمساحَ ويَقْهَره. وأهلُ الديار المصريّةِ إذا رأَوا أثَرَ حافره في البرّ تباشروا بزيادة النيل وكثرةِ الخِصْب. وفي سنة اثنتين وسبعمائةِ طَلع الفرسُ النهريُّ إلى البرّ بالجيزة وأَبعد عن البحر، فتُحيِّل عليه وقُتِل. وأهلُ النُّوبةِ يَصيدونه كثيراً، ويتّخذون من جلده سِياطاً يسوقون بها الإبل.

وأمّا الجندبيدستر ـ وهو السَّمُّور، ويسمى «كلبَ الماء». ولا يُوجد إلا ببلاد القفجاق[١] وما يليها. وهو على هيئةِ الثعلبِ، أحمر اللّون، لا يدانِ له، وله رِجلانِ وذنَبٌ طويل، ورأسُه كرأس الإنسان، ووجهُه مستديرٌ. وهو يمشي متّكئاً على صدره كأنه يمشي على أربع، وله أربعُ خُصًى: ثِنتان ظاهرتانِ وثِنتان باطنتانِ. وهو إذا رأى الصيّادين يَجِدّون في طلبه لأجل الجندبيدستر، وهو خُصْيَتَاه الظاهرتانِ، قطعهما بفيه ورمى بهما إليهم؛ إذ لا حاجة لهم إلا بهما. فإن لم يرهما الصيّادون وداموا في الجِدّ في طلبه اَستلقى على ظهره ليُريَهم الدَّم، فيعلمون أنه قطعهما فينصرفون عنه، وهو إذا قطع الظاهرتيْن ظهر الباطِنتانِ وعوِّض عنهما غيرهما. وفي داخل الخصية شِبهُ الدَّم أو العسلِ زهِم الرائحة سريعُ التفرُّك إذا جفّ. ويقال: إنه يُوَكِّرُ[٢] على الأرض، ويُولِد عليها ويَرعى فيها، ويهرُب إلى الماء ويعتصم به؛ ويُمكنه أن يَلْبَثَ في قعره حابساً لنفسه زماناً ثم يخرج إلى الهواء.

وأمّا حيوانُ القُنْدُس والقَاقُم ـ فالقُنْدُس يغتذِي بالسمك والنّبات. ويقال: إنّ فيه سادةً وعبيداً، وإنه يتّخذ مساكنَ مرتَّبةً على ترتيبِ مساكنِ الناسِ. والسادةُ يتّخذون في بيوتهم صُفَفاً[٣] مرتفعةً يكونون عليها، وفي أسفلها مواضعَ للعبيد، ولبيوتِهم أنْفاقاً إلى البَرّ وأبواباً إلى النهر. وبعضُ هذا الحيوان يُغِير على بعض. والسادةُ لا تتكسّب وإنما يتكسّب لها العبيدُ، ويُعرف جِلْدُ السيّد من جِلْد العبد بحسن لونه وبَصِيصه[٤]. وأهلُ تلك البلاد يسلخُون خراطيمَ القُنْدُس والسَّمُّور ويتعاملون بها كما يُتَعَامَلُ بالدّنانيرِ

(١) القفجاق: قوم كانوا يعرفون بالخفشاخ إلى بلاد القسطنطينية، وكان لهم ملوك كثيرة في بلاد المغرب. (تقويم البلدان ص ٢٠٦).
(٢) يوكّر: أي يتخذ وكراً.
(٣) الصفّة من البنيان: شبه البهو الواسع.
(٤) البصيص: البريق واللمعان.

والدراهم بحيث يكون عليها خَتْمُ الملك. وجِلْدُ هذا الحيوان هو الذي يُعْمَل شَرابِيشَ[١] الأمَراء وأطواقَ التَّشاريف ودوائرها.

والقَاقُم: حيوان يُشبه السِّنْجابَ إلاّ أنه أبردُ منه وأرطبُ؛ ولهذا هو أبيضُ يَقَقٌ. وهو يُجلَب من بحر الخَزَر. وجلدُه يُشبه جلدَ الفَنَك[٢].

وَأَمّا الضَّفَادِعُ ـ وهي أصناف كثيرة، تكون من سِفادٍ وغيرِ سِفادٍ. وهي تبيض في البرّ وتعيش في الماء. والذي من غير سِفادٍ يتولّد من المياه الضعيفةِ، ومن العُفُونات، وغِبِّ الأمطار الغزيرةِ، حتى يتوهّمَ المتوهِّم أنه يسقط من السَّحَاب لكثرةِ ما يُرى منه على الأسطِحةِ عَقِيبَ المطرِ. ويقال: إنه يُخلق في تلك الساعة.

والضِّفْدع من الحيوان الذي لا عظمَ له. وفيه ما يَنِقُّ وما ليس يَنِق. وليس صوتُ ما يَنِقُّ من فِيه ولكنه من جلودٍ رِقَاقٍ تكون إلى جانبِ أُذُنيه؛ فإذا أراد النقيق ٱنفتحت فيخرُج الصوتُ منها. وهي تَنْطَبِق في زمن الشتاء فلا تَنْفَتِح حتى يعتدلَ الجوّ.

قال الجاحظ: والضِّفْدَعُ لا يَصيح ولا يُمكِنه الصياحُ حتى يُدخِلَ حَنَكَه الأسفلَ الماءَ، فإذا صار في فِيه بعضُ الماء صاح؛ ولذلك لا تَسمع للضفادع نَقِيقاً إذا كنّ خارجاتٍ من الماء. قال: والضفادع تَنِقُّ، فإذا أبصرت النار أمسكتْ، وتُوصف بحدّة السمع إذا كانت خارجَ الماء. ويُضرب بها المثلُ في السمع والحذر، فيقال: «أحذَرُ من ضِفْدَعٍ» و«أسمعُ من ضِفْدَعٍ». وقال شاعر يصف الضفادعَ:

وَمُقْعَداتٍ زانَهنّ أرْجُلُ ... كقِعْدةِ الناكحِ حين يُنْزِل
* يُكْسَيْن وَشْياً وعيونٌ تُكْحَلُ *

وقال آخرُ: [من المنسرح]

دَعَتْك في فاضَةٍ مُدَنَّرةٍ ... ليس لها طُرَّةٌ ولا هُدُبُ[٣]
قد نُسِجَتْ من زَبَرْجدٍ فجَرَى ... بين تَضَاعِيفِ نَسْجِها الذّهَبُ
يظَلّ صَمْتاً نهارَه فإذا ... أدركه الليلُ باتَ يَصْطَخِبُ
وهو وإن لم يُغطّ مقلَته ... جفنٌ ولا ٱمتدّ خَلْفَه ذنَبُ
يُعجِبُني ما أراه منه فَفِي ... خِلْقَتِه وٱختلافِها عَجَبُ

وأمّا السَّرَطَانُ وَمَا قِيلَ فِيهِ ـ وهو ذو فَكَّيْن وَمَخَالِبَ وأظفارٍ حِدادٍ، كثيرُ الأسنانِ،

---

(١) الشرابيش: جمع شربش، وهو هدب الثوب.

(٢) الفنك: دابة يؤخذ منها الفرو.

(٣) الفاضة: القميص الواسع البراق ـ ومدنره: أي يشبه وشيها الدنانير.

صُلْبُ الظَّهر، سريع العَدْو، وعيناه على كَتِفيه، وفَمُه في صدره، وفكّاه مشقوقانِ من جانبَين. وله ثَماني أرْجُلٍ. وهو يمشي على جانبٍ واحدٍ؛ ويَستنشق الماءَ والهواءَ معاً. وهو يسلُخ جلْده في السنة ستَّ مراتٍ، ويتّخذ بجُحْره بابين، أحدُهما إلى الماء والثاني إلى البرّ. فإذا سلخ جلده سدّ عليه ما يلي الماءَ خوفاً من السمك وترك ما يلِي البرَّ مفتوحاً؛ فإذا جفَّتْ رطوبتُه وٱشتدَّ، فتح ما يلي الماءَ وطلب مَعاشَه.

قال شاعر يصفه: [من السريع]

فـي سَـرَطَـانِ الـمـاءِ أُعـجـوبـةٌ ظـاهـرةٌ لـلـخَـلْـق لا تـخْـفَـى

مُـسْـتَـضْـعَـفُ الـمُـنَّـةِ لـكـنّـه أبـطَـشُ مـن حـاربـتَـه كَـفّـا

يُـسْـفِـر لـلـنـاظـر عـن جـمـلـة مـتـى مـشـى قـدّرهـا نِـصْـفـا

وقال أبو عُبَيْد البَكْرِيّ[1] في كتابه المترجم بالمسالك والممالك: إنّ ببحر الصين سَرَطَاناتٍ تخرج كالذراع والشبر؛ فإذا صارت إلى البرّ عادت حجارةً وٱنقلبت عن الحيوانيَّة؛ والأطباء يتخذون منها كحْلاً يجلو البياضَ.

ذكرُ شيءٍ من عَجَائِبِ الحَيَوانِ المَائِيِّ

وعجائبُ البحر كثيرةٌ لا يُستغرب ما نذكر منها؛ ولذلك قيل: «حدِّث عن البحر ولا حَرَج». وقد حكى صاحبُ كتاب مَبَاهِجِ الفِكرِ وَمَنَاهِج العِبَرِ في كتابه، قال: رأيتُ في بعض المجاميع المجهولةِ أنّ في بعض البحار شاةً شَعْراءَ تكون في البرّ مع البهائم حين الرَّعْي؛ فإذا فرغت من رَعْيها عادت إلى الماء، وتأكل السمك. قال: وذكر لها خواصّ. قال: وذكر بعضُهم دابّة سمّاها «خَزّ الماء»، ولم يُسَمّ المكانَ الذي تكون فيه، وقال: إنها مثال ٱبنِ عِرْسٍ أو أكبرُ قليلاً، سِباحتُها في الماء كجَرْيها في البرّ، لها وبَرٌ ناعمٌ تُعمل منه ثِيابُ الخَزّ، وهذا الوَبَرُ موجودٌ تأتي به التّجّار من البحر الروميّ يُباع بالقاهرة، ويُسمُّونه صوفَ السمك؛ وهو أخضرُ اللّون؛ ويقال: إنه إذا طلع من البحر يكون أبيضَ يَقَقاً، فإذا صار إلى البرّ وأصابه النسيمُ ٱنقلب إلى الخُضْرة. وهم يَغزلونه ويُلْحِمُون به الثيابَ المُسَداةَ بالحرير، وقيمتُه لا تقصرُ عن قيمة الحرير وربما يزيد عليه. وأرخصُ ما ٱبتعتُه أنا حساباً عن وزن كلّ مائة درهم أربعين درهماً. وبه تُخْنَق الأفاعي بمصر، تُفتل منه خيوطٌ تُسمَّى إذا خُنِق بها الأفاعي حبالَ الخُنَاق، لها نفعٌ في تحليل مرض الخُنَاق.

---

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية، وكان مولده سنة ٤٣٢ هجرية. (كتاب التنبيه على أوهام أبي على القالي في أماليه).

ويقال: إن ببحر الرّوم ـ وربما بغيره أيضاً ـ حيواناً يُسمُّونه «بناتِ الماء» يُشْبِهْنَ النساءَ، لهنّ شعورٌ سِبَاط، ألوانهنّ إلى السُّمرة، ذوات فروجٍ عظامٍ وثُدَيٍّ، ولهنّ قهقهة وضَحِكٌ وكلامٌ لا يُفهم، وربما يَقَعْنَ لأصحاب المراكب وغيرهم فينكحونهنّ فيجدون لنكاحهنّ لذّةً عظيمة ثم يعيدونهنّ إلى البحر. وفي البحر أيضاً أمثالُ الرجال، يقال: إنهم يظهرون بالإسكندرية وبالبُرُلُس ورَشِيد[1] في صورة الإنسان بجلودٍ لَزِجَةٍ لهم بكاءٌ وعويل إذا وقعوا في أيدي الناس؛ وذلك أنهم ربما بَرَزوا عن البحر إلى البرّ يتشمّسون فيقع بهم الصّيادون؛ فإذا سمع الناس بكاءَهم أطلقوهم رحمةً لهم.

البَابُ الثَّامِنُ
وَهُوَ الذَّيْلُ عَلَى القِسْمِ الخَامِسِ
مِنَ الفَنِّ الثَّالِثِ

ويشتمل هذا الباب على ذكر شيء مما وُصفت به آلاتُ الصيد في البرّ والبحر ووصفِ رُماةِ البندق، وما يَجري هذا المَجرى.

ذكرُ شيءٍ ممَّا قيلَ في رُماةِ البُندقِ ـ ومما وُصفت به الجُلاهِقُ[2] وهو قِسِيّ البندق. من ذلك ما كَتب به أبو إسحاق الصّابي من رسالة إلى أبي الفرج محمد بن العباس بن فُسَابَخْش، جاء منها: «أقبلت رُفْقَةُ الرُّماةِ قد بَرزت قبلَ الذُّرُور[3] والشروق، وشمَّرتْ عن الأذْرع والسُّوق، مقلَّدين خرائطَ شاكلت السيوفَ بحمائلها ونِياطَاتِها[4]، وناسَبَتها في آثارها ونِكاياتها؛ تحمل من البُنْدُق المَلْمُوم، ما هو في الصحّة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم؛ كأنما خُرط بالجَهْر[5]، فجاء كبنات الفِهْر[6]؛ قد اُختِيرَ طينُه، ومُلِك عجينُه[7]؛ فهو كالكافور[8] المُصَّاعِد في اللّمس والمَنْظَرِ، وكالعنبرِ الأذْفَر في الشمّ والمَخْبَر؛ مأخوذٌ من خير مواطنه، مجلوبٌ من أطيب معادنه؛ كافلٌ

(١) رشيد: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية. (معجم البلدان لياقوت).
(٢) الجلاهق: قوس تتخذ من القنا، ويلف عليها الحرير وتغرّى. وفي وسط وترها قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي.
(٣) الذرور: ظهور الشمس أول شروقها.
(٤) النياط: الذي هو معلق القوس.
(٥) قد يراد بالجهر: الرابية الغليظة.
(٦) نبات الفهر: الحجارة الصغيرة.
(٧) ملك العجين: عجنه فأنعم عجنه وأجاده.
(٨) الكافور: صمغ شجر ولونه أحمر ملمع أو أسمر؛ وخشبه أبيض رخو يضرب إلى السواد.

بمطاعم حامِلِيه، مُحَقِّقٌ لآمال آمِلِيه؛ ضامنٌ لحِمام الحَمام، مُتَنَاوِلٌ لها من أبعد مَرَام، يعرُج إليها وهو سمٌّ ناقع، ويهبِط بها وهي رزقٌ نافع».

ومنها في وصف القسيّ: «وبأيديهم قِسِيٌّ مكسوةٌ بأغْشية السُّندس، مشتملة منها بأحسن مَلْبَس؛ مثل الكُمَاة في جَوَاشِنها ودُروعها، والجيادِ في جِلاَلها وقُطُوعها[١]؛ حتى إذا جُرِّدت من تلك المطارق، وٱنْتُضِيَتْ من تلك المَلاحف؛ رأيت منها قُدوداً مُخْطَفَة[٢] رشيقة، وألواناً مُعْجِبة أنيقة؛ صُلْبَةَ المَكَاسِر[٣] والمَعَاجم، نجيبةَ المنابت والمَنَاجِم؛ خَطِّيَةَ الأسماء والمناسب، سَمْهَرِيَّةَ الأعراقِ والمَنَاصب؛ رُكِّبت من شظايا الرّماح الداعسة، وقرون الأوعال الناخسة[٤]؛ فحازت الشرفَ من طَرَفَيْها، وٱستولت عليه بِكلْتا يديها؛ قد ٱنحنت ٱنحناءَ المَشْيخةِ النُّسَّاك، وصالت صِيالَ الفتية الفُتّاك؛ وٱستبدلت من قديمها في عزّ الفوارس، بحديثها من نفيس الملابس؛ وٱنتقلت من جِدّها في طِراد المَغارات[٥] إلى هَزْلِها في طَرْد المُسْهِرات[٦]؛ ظواهرُها صفرٌ وارِسه[٧]، ودواخِلُها سودٌ دامُسه؛ كأنّ شمسَ أصيلٍ طلعت على مُتونِها، أو جنحَ ليل ٱعتكر في بطونها؛ أو زعفراناً جرى فوق مناكبها أو غاليةً جَمَدت على ترائبها؛ أو قضبانَ فضة أُذْهِب شَطْرُها وأُحرِق شطر، أو حَبَّاتِ رَمْل ٱعتنق السودَ منها صفر».

وجاء منها في وصف الوتر:

«فلمّا توسّطوا تلك الروضة، وٱنتشروا في أكتاف تلك الغَيْضَة؛ وثَبَتَتْ للرّمي أقدامُهم، وشَخَصت للطير أبصارهم؛ وتَرُوها[٨] بكل وَتَرٍ فُوق[٩] سهمِه منه، وهو مفارقٌ للسهم وخارجٌ عنه؛ مُضَاعَفٌ عليها من وَتَرَيْن، كأنّه شخص ذو جسدين، أو عِناقُ ضمّ ضجيعين في وسطه عينٌ كشَرْجة كيسٍ مختوم، أو سُرّة بطنٍ خَميص مهضوم؛ تروعُ قلب الطير بالإنْبَاض، وتُصيب منها مواقعَ الأغراض».

---

(١) القطوع: جمع قطع، وهو ضرب من الثياب الموشاة.
(٢) المخطفة: الضامرة قليلة لحم الجنب.
(٣) يقال: فلان صلب المكسر والمعجم: إذا كان قوياً شديداً عند المختبر.
(٤) الوعل الناخس: الذي نخس قرناه استه من طولهما.
(٥) المغارات: جمع مغارة، وهي مصدر بمعنى الغارة.
(٦) الطرد: الصيد ـ والمسهرات: طيور يلتذ بها كل من يسمها ويسهر عليها ولا يشتهي النوم من لذة سماعها.
(٧) الوارس: الأصفر.
(٨) وتره: أي أدركه بمكروه وأصابه.
(٩) فوق السهم: إذا وضع في الوتر ليرمى به.

وقال ضياءُ الدين بن الأثيرِ الجَزَريّ من رسالة في وصف القسِيّ. وذكر الرُّماة، جاء منها:

«وإذا تناولوها بأيديهم قلتَ: أهلّةٌ طالعةٌ في أكُفّ أقمار، وإذا مُثّل غَنَاؤها وغَنَاؤهم قلتَ: منا يا مسوقةٌ في أيدي أقدار، وتلك قِسِيٌّ وُضِعت لِلَّعب لا للنِّضال، ولِرَدَى الطير لا لردى الرجال. فإذا نعتها ناعتٌ قال: إنها جَمَعَتْ بين وصْفَي اللين والصلابة، وصيغَتْ من نوعين غريبين فحازت معنى الغرابة؛ فهي مركّبةٌ من حيوان ونبات، مؤلّفةٌ منهما على بُعْد الشَّتَات؛ هذا من سكان البحر وسواحله، وهذا من سكان البرّ ومجاهله، ومن صفاتها أنها لا تَتَمكّن من البطش إلا حين يُشتَدّ، ولا تنطلِق في شأنها إلا حين تُعْطَف وتردّ. ولها بناتٌ أُحكم تصويرُها، وصُحّح تدويرُها؛ فهي في لونها صَنْدليّة الإهاب، وكأنها صِيغت لقوّتها من حجر لا من تراب؛ فإذا حَذَفها نحو الأطيار أحد، قيل: وتصعَد من الأرض من جبال فيها من بَرَد، فلا ترى حينئذٍ إلا قتيلاً بالمَقْتَل الذي لا يجب في مثله من قَوَد[1]؛ فهي كافلةٌ من تلك الأطيار بقبض نفوسها، ومُنزِلةٌ لها من السماء على أُمّ رؤوسها».

ومن إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الكاتب ـ أمتع الله ببقائه، وزاد في علوّه وارتقائه ـ رسالةٌ في رمي البندق، وصفَ فيها الرّماةَ، ومواضعَ الرَّمْي ووقتَه، والقِسيَّ، وأفعالَ الرُّماة، وجميعَ طير الواجب[2]، لم أقف فيما طالعتُه لمتقدِّم ولا متأخِّر على أجمعَ لهذا الفن منها؛ وهي مما يستعين بها الكاتبُ على إنشاء ما يقصِده من قِدم البندق في أي نوع أراد من طير الواجب. وقد أوردتُها بجملتها؛ لحسن ٱلتئامها، وٱتساق نظامِها؛ وجودة ترتيبها، وبديع تهذيبها. وهي:

«الرّياضة ـ أطال اللّهُ بقاء الجناب الفلانيّ، وجعل حُبَّه كقلب عدوّه واجباً، وسعدَه كوصف عبدِه للمسارّ جالباً وللمضارّ حاجباً ـ تبعث النفسَ على مجانبة الدَّعَة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الرُّكون إلى الوكون[3]؛ وتحضُّها على أخذ حظّها من كل فنّ حسن وتحثّها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللَّسَن؛ وتأخذ بها طوراً في الجِدّ وطوراً في اللَّعِبْ، وتُصَرِّفها في مَلاَذِّ السموّ في المَشاقّ التي يستروِح إليها التَّعِب؛ فتارةً تحمل الأكابر والعظماء في طلب الصيد على مواصلة

---

(١) القود: القصاص.

(٢) طيور الواجب: أربعة عشر طائراً وهي على ضربين: الضرب الأول طيور الشتاء.. والضرب الثاني طيور الصيف، أي التي يكثر وجودها فيه.

(٣) الوكون: جمع وكن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار.

السُّرَى، ومقاطعةِ الكَرَى؛ ومهاجرةِ الأوطار، ومهاجمةِ الأخطار، ومكابدةِ الهواجِر[١]، ومبادرة الأوابد التي لا تُدرَك حتى تبلغُ القلوبُ الحناجر، وذلك من محاسن أوصافهم التي يُذَمّ المُعْرِض عنها، وإذا كان المقصودُ من مثلهم جدَّ الحرب فهذه صورةُ لِعَب يُخرَج إليها منها؛ وتارةً تدعوهم إلى البروز إلى المَلَق[٢]، وتحدوهم في سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازَمة الصدق ومجانبةِ المَلَق؛ فيَعْتَسفون إليها الدُّجى، إذا سَجَى؛ ويقتحمون في بلوغها حُرَقَ النهار إذا أنهار، ويتنعّمون بوعثاء السفر، في بلوغ الظَّفَر؛ ويستصغِرون ركوبَ الخَطَر، في إدراك الوَطَر؛ ويُؤْثِرون السهر على النوم، والليلةَ على اليوم، البندقَ على السهام، والوَحْدَةَ على الالتئام».

ولمّا عُدنا من الصيد الذي اتّصل بعلمه حديثُه، وشُرح له قديمُ أمره وحديثُه؛ تُقْنا إلى أن نَشفَع صيدَ السَّوانح برَمْي الصوادح، وأن نفعل في الطير الجوانح بأهلّةِ القِسِيّ ما تفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الارتحال، على الإقامة في الرِّحال[٣]؛ وأخذاً بقولهم:

لا يُصلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَبَّرةً إلاّ التَّنَقُّلُ من حالٍ إلى حالِ

فبرزنا وشمسُ الأصيلِ تجود بنَفْسها، وتَسيرُ من الأُفُقِ الغربيّ إلى جانب رَمْسِها؛ وتُغازِلُ عيونَ النُّوّار بمُقلة أرْمَدَ، وتنظر إلى صفحات الوردِ نظرَ المريض إلى وجوه العُوّد؛ فكأنها كئيبٌ أضحى من الفِراق على فَرَق[٤]، أو عليلٌ يقضي بين صَحْبه بقايا مدّةِ الرَّمَق؛ وقد أخضلّت عيونُ النَّوْر لوَداعها، وهمّ الروض بخلع حلّته المُموّهة بذهب شُعَاعِها: [من البسيط]

والطلُّ في أعينِ النُّوَّار تحسَبه دمعاً تحيَّر لم يَرْقَأْ ولم يَكِفِ
كلُؤلؤٍ ظَلّ عِطْفُ الغصن مُتَّشِحاً بعِقْده وتَبَدّى منه في شَنَفِ[٥]
يُضَمّ من سندس الأوراق في صرَرٍ خُضْرٍ ويُخْبَا من الأزهار في صَدَف
والشمسُ في طَفَل الإمساء تنظر من طَرْفٍ غدا وهو من خوف الفِراق خَفِي[٦]

(١) الهواجر: جمع هاجرة، وهي نصف النهار في القيظ خاصة عند زوال الشمس مع الظهر، أو من زوالها إلى العصر، لأن الناس يسكنون في بيوتهم كأنهم قد تهاجروا.
(٢) الملق: الصفوح اللينة الملتزمة من الجبل، وقيل: هي الآكام المفترشة.
(٣) الرحال: جمع رحل، وهو المنزل والمأوى.
(٤) الفرق: الخوف.
(٥) الشنف: الذي يبس في أعلى الأذن، والذين في أسفلها يقال لها قرط.
(٦) الطفل: يقال: طفلت الشمس: أي مالت للغروب.

كعاشقٍ سار عن أحبابه وهَفَا به الهوى فَتَراءَاهم على شَرَف

إلى أن نضا المغربُ عن الأفُقِ ذهبَ قلائدها، وعوّضه عنها من النجوم بخَدَمها وولائدها[١]؛ فلبثْنا بعد أداء الفرض لُبْثَ الأهِلّة، ومنعنا جفونَنا أن تَرِدَ النوم إلاّ تَحِلّه؛ ونهضنا وبُرْدُ الليل مُوَشَّع[٢]، وعِقدُه مرصَّع؛ وإكليلُه مُجَوْهَر، وأديمُه مُعَنْبَر؛ وبدرُه في خِدْر سِراره مُسْتَكِنّ، وفجرُه في حَشَى مطالعه مُسْتَجِنّ؛ كأنّ امتزاج لونه بشفق الكواكب خليطَا مِسْكٍ وصَنْدَل، وكأنّ ثُرَيّاه لامتداده مُعَلَّقةٌ بأمراس كَتّانٍ إلى صُمّ جَنْدل: [من الطويل]

ولاحتْ نجومُ الليل زُهْراً كأنها عقودٌ على خَوْدٍ من الزَّنْج تُنْظَمُ[٣]
مُحَلِّقةً في الجوّ تحسَب أنها طيورٌ على نهر المَجَرّة حُوَّمُ
إذا لاح بازي الصبح وَلَّتْ يؤمّها إلى الغرب خوفاً منه نَسْرٌ ومِرْزَمُ

إلى حدائقَ ملتفّة، وجداولَ مُحتفّة؛ إذا جَمّش النسيمُ غصونَها اعتنقت اعتناقَ الأحباب، وإذا فَرَكَ من المياه متونَها انسابت في الجداول انسياب الحُبّاب[٤]، ورقَصتْ في المناهل رقصَ الحِباب؛ وإنْ لَثِمَ ثغور نَوْرها حيّته بأنفاس المعشوق، وإن أيقظ نواعسَ وُرْقِها غنّته بألحان المشوق؛ فنسيمُها وان، وشميمُها لعَرْف الجنان عُنوان، ورَدُها من سَهَر نَرْجِسها غَيْرَان، وطَلُّها في خدود الورد مُنْبَثٌّ وفي طُرَرِ الريحان حَيران، وطائرُها غَرِد، وماؤها مُطَّرِد؛ وغصنُها تارةً يَعْطِفُه النسيمُ إليه فَيَنْعَطِف، وتارةً تحت وَرْقائه فتحسب أنها همزةٌ على ألِف، مع ما في تلك الرياض من تَوافُق المحاسن وتبايُن الترتيب؛ إذ كلّما اعتلّ النسيم صحَّ الأرج وكلّما خرّ الماء شمخَ القضيب: [من الكامل]

فكأنّما تلك الغصونُ إذا ثَنَتْ أعطافَها رسلُ الصَّبا أحبابُ
فلها إذا افترقت من استعطافها صُلْحٌ ومن سَجْع الحَمام عِتابُ
وكأنّها حولَ العيون مَوائساً شَرْبٌ وهاتيك المياهُ شَرابُ
فغديرُها كأسٌ وعَذْبُ نِطافِها راحٌ وأضواءُ النجوم حَبابُ[٥]

تُحيط بمَلَقِ نِطافُها صَاف، وظِلال دوحها ضَاف، وحصاها لصفاء مائها في نفس

(١) الولائد: جمع وليدة، وهي الصبية والأمة.
(٢) الموشع من الثياب: المعلم.
(٣) الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة.
(٤) الحباب (بضم الحاء): الحية ـ والحباب (بكسر الحاء): القرط من جهة واحدة.
(٥) النطاف: جمع نطفة، وهي القليل من الماء.

الأمر راكد وفي رأس العين طاف؛ إذا دغدغها[١] النسيمُ حسبت ماءها بتمايلُ الظّلال فيه يتبرّج ويميل؛ وإذا اطّردتْ عليه أنفاسُ الصَّبا ظننت أفياءَ تلك الغصون فيه تارة تتموّج وتارة تسيل؛ فكأنّه محبٌّ هام بالغصون هوًى فمثّلها في قلبه، وكأنّ النسيم كَلِفٌ بها غار من دُنوّها إليه فميّلها عن قربه: [من مجزوء الكامل]

والسَّرْو مثلُ عرائسٍ ... لُفقتْ عليهنّ المُلاءْ
شَمّرنَ فَضلَ الأُزْر عن ... سُوقٍ خلاخِلُهنّ ماءْ
والنهرُ كالمرآة تُبْـ ... ـصر وجهَها فيه السماءْ

وكأنّ صَوَافَ[٢] الطير المُبيضة بتلك المَلَقِ خيام، أو ظباءٌ بأعلى الرَّقْمَتين قيام، أو أباريقُ فضّة رؤوسُها لها فدَام[٣]، ومناقيرُها المحمّرة أوائلُ ما انسكب من المُدام؛ وكأنّ رقابها رماحٌ أسِنّتُها من ذَهَب، أو شموعٌ أسودُ رؤوسها ما انطفأ وأحمره ما التهب. وكنّا كالطير الجليل عِدَّه، وكطِرَاز العُمْر الأوّل جدّه.

من كلّ أَبْلَجَ كالنَّسيم لَطَافةً ... عَفُّ الضّمير مُهَذَّبِ الأَخْلاقِ
مثلُ البدورِ مَلاحةً وكعُمْرِها ... عَدَداً ومثلُ الشّمس في الإشراقِ

ومعهم قِسِيّ كالغُصون في لطافتها ولِينها، والأهِلّة في نَحَافَتها وتكوينها، والأزاهِر في تَرَافتها وتَلْوينها؛ بطونها مُدَبَّجة، ومتونها مُدَرَّجة؛ كأنّها الشَّوْلة[٤] في انعطافها، أو أرْواقُ الظِّباء في التفافها؛ لأوتارها عند القوادم أوتار[٥]، ولبنادقها في الحواصل أوكار؛ إذا انتصبتْ لطيرٍ ذهب من الحياة نصيبُه، وإنْ انبضَتْ[٦] لرمي بدا لها أنها أحَقُّ به ممّن يُصيبه، ولعلّ ذاك الصّوت زجرٌ لبندقها أن يُبْطِىء في سيره، أو يتخطّى الغَرَض إلى غيره؛ أو وَحْشَةٌ لمفارقة أفلاذ كَبِدها، أو أسَفٌ على خروج بنيها عن يدها؛ على أنها طالما نبذتْ بَنيها بالعَرَاء، وشفعت لخَصْمِها التحذيرَ بالإغراء: [من البسيط]

مثلُ العقاربِ أذناباً مُعَقَّدةً ... لمن تأمّلها أو حقّق النّظرا
إنْ مدّها قمرٌ منهم وعايَنَه ... مُسَافِرُ الطير فيها أو نوى سفرا

(١) دغدغها النسيم: جمشها وزغزغها.
(٢) الصواف من الطير: هي التي تصف أجنحتها فلا تحركها.
(٣) الفدام: المصفاة تجعل على فم الإبريق ليصفى به ما فيه.
(٤) الشولة: إحدى منازل القمر في برج العقرب.
(٥) الأوتار: واحدتها الوتر، وهو الذحل أو الظلم فيه.
(٦) انبض الرمي القوس: جذب وتره لتصوت.

فهو المسيءُ ٱختياراً إذ نوى سفراً وقد رأى طالعاً في العقرب القمرا

ومن البنادق كُرَاتٌ متفقة السَّرْد، متّحدة العَكْس والطَّرْد، كأنّما خُرِطتْ من المَنْدَل[١] الرَّطْب أو عُجِنتْ من العنبر الوَرْد؛ تَسرِي كالشُّهُب في الظلام، وتَسبِق إلى مَقَاتِل الطير مُسَدَّداتِ السِّهام: [من البسيط]

مثلُ النجوم إذا ما سِرْنَ في أُفُقٍ عن الأهِلَّةِ لكن نونُها راءُ
ما فاتَها من نجوم اللّيل إنْ رُمِقَتْ إلاّ ثَباتٌ يُرَى فيها وأضواءُ
تَسْرِي ولا يشعرُ الليلُ البهيم بها كأنّها في جفون الليلِ إغفاء
وتسمَع الطيرَ إذ تَهْفو قوادمُه خَوَافِقاً في الدَّياجِي وهي صَمّاء

تَصُونها جراوَةٌ[٢] كأنّها جُرْح دُرَر[٣]، أو دُرْجُ غُرَر، أو كِمَامة ثَمَر؛ أو كِنَانةُ نَبْل، أو غَمَامة وَبْل، حالكة الأديم، كأنّما رُقِمَتْ بالشَّفَق حُلَّةُ ليلها البهيم: [من السريع]

كأنّها في وصفها مَشْرِقٌ تَنْبَثُّ منه في الدُّجَى الأنجمُ
أو ديمةٌ قد أطلعتْ قَوْسَها مُلَوَّناً وٱنبثقتْ تَسْجُمُ

فاتّهذ كلٌّ له مركزاً، وتقاضى من الإصابة وَعْداً مُنْجَزاً، وضَمن له السعدُ أن يُصبح لمُراده مُحْرِزاً.

كأنّهمْ في يُمْنِ أفعالهم في نظرِ المُنْصِفِ والجاحِدِ
قد وُلِدوا في طالعٍ واحدٍ وأشرقوا في مطلعٍ واحدِ

فَسَرَتْ علينا من الطير عِصَابه[٤]، أظلّتنا من أجنحتها سَحَابه؛ من كلّ طائر أقلع يرتاد مَرْتَعاً، فوجد ولكنْ مَصْرَعاً، وأَسَفّ[٥] يبغِي ماءَ جُمَاما فورد ولكن السمَّ مُنْقَعاً، وحلّق في الفضاء يبتغي ملعباً فبات هو وأشياعُه سُجَّداً للقِسِيّ ورُكّعا؛ فتبركْنا بذلك الوجه الجميل، وتداركْنا أوائلَ ذلك القَبِيل.

فٱستقبل أوَّلَنا «تَمّا»[٦] تَمّ بَدْرُه، وعَظُم في نوعه قدرُه؛ كأنّه بَرْقٌ كَرَع في غَسَق؛

---

(١) المندل: العود، وقيل: أجوده.

(٢) الجراوة: آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن الجلاهق. والجلاهق: قد تقدم تفسيرها.

(٣) الجرج: وعاء من أوعية النساء.

(٤) عصابة الطير: الجماعة من الطير.

(٥) أسفّ الطائر من الأرض: دنا منها في طيرانه حتى كادت رجلاه تصيبانها.

(٦) التم: طائر في قدر الأوز أبيض اللون طويل العنق أحمر المنقار.

أو صبحٌ عُطِفَ على بقيّة الدُّجى عَطْفَ النَّسَق؛ تحسَبه في أَسْداف المُنَى غُرَّةَ نُجْح، وتخاله تحت أذيال الدُّجَى طُرَّةَ صُبْح؛ عليه من البياض حُلَّةُ وَقَار، وله كُرَةٌ من عَنْبَرٍ فوق مِنْقارٍ من قار. له عنقُ ظَليم، وٱلتفاتةُ رِيم، وسُرَى غَيْم يُصَرِّفه نسيم.

كَلَوْنِ المَشِيبِ وعَصْرِ الشَّبابِ ووقتُ ٱلوِصَالِ ويومِ الظَّفَرْ
كأنّ الدُّجَى غارَ من لونه فأَمْسَكَ مِنْقارَه ثمّ فَرّ

فأرسل إليه عن الهلال نجماً، فسقَط منه ما كبُر بما صغُر حَجْماً، فٱستبشر بنجاحه، وكبَّر عند صياحه، وحصَّله من وسَط الماء بجَنَاحِه.

وتلاه «كُيٌّ»[١] نَقِيّ اللّباس، مُشْتَعِلُ شَيْب الرأس، كأنّه في عَرَانينِ شَيْبه لا وَبْلِه كبير أُنَاس؛ إن أَسَفّ في طيرانه فغَمَام، وإن خفقَ بجناحه فقِلْعٌ له بيد النّسيم زِمَام؛ ذو غَبَبَةٍ[٢] كالجِرَاب ومِنْقَارٍ كالحِرَاب، ولونٍ يَغُرّ في الدُّجَى كالنَّجْم ويَخْدَعُ في الضُّحَى كالسَّرَاب؛ ظاهرُ الهَرَم، كأنّما يُخبر عن عادٍ ويُحَدِّثُ عن إرَم: [من الكامل]

إن عامَ في زَرَقِ الغديرِ حَسِبتَه مُبْيَضَّ غَيْمٍ في أديمِ سَمَاءِ
أوطار في أُفُقِ السماءِ ظننتَه في الجوّ شيخاً عائماً في ماءِ
مُتناقِضُ الأوصافِ فيه خِفَّةُ ٱلْـ ـجُهَّالِ تحت رَزَانَةِ العلماءِ

فثنَى الثاني إليه عِنانَ بُنْدُقِه، وتوخّاه فيما بين رأسه وعُنُقِه، فخرّ كمارِدٍ ٱنقضّ عليه نجمٌ من أُفُقِه؛ فتلقّاه الكبيرُ بالتكبير، وٱختطفه قبل مصافحته الماءَ من وجه الغَدير.

وقارنته «إوَزّةٌ» حُلّتها دَكْناء، وحِلْيتُها حَسْناء؛ لها في الفضاء مَجَال، وعلى طَيَرانها خِفّةُ ذواتِ التبرُّج وخَفَرُ رَبّاتِ الحِجال؛ كأنّما عَبّتْ في ذهَب، أو خاضَتْ في لَهَب، تَخْتَالُ في مِشْيتها كالكاعب[٣] وتتأنّى في خَطْوِها كاللاغب[٤]؛ وتَعْطُو بجِيدها كالظَّبْي الغَرير، وتَتدافعُ في سَيْرها مَشْيَ القَطَاة إلى الغَدير: [من الطويل]

إذا أقبلتْ تَمْشي فَخَطْرَةُ كاعبٍ رَدَاحٍ وإن صاحت فَصَوْلَةُ حازمِ[٥]
وإن أقلعت قالتْ لها الريح ليت لي خفَا ذي الخَوَافِي أو قُوَى ذي القَوَادِمِ

---

(١) الكيّ (بضم القاف): من الطيور التي تظهر في الصيف، وهو طير أغبر اللون إلى البياض أحمر المنقار والحوصلة رجلاه تضربان إلى السواد.
(٢) الغبة: اللحم المتدلي تحت الحنك من الديك والبقر.
(٣) الكاعب: الفتاة التي نهد ثدياها.
(٤) اللاغب: الذي أعيا من التعب فيتأنى في خطوه تعباً.
(٥) الرداح: المرأة الثقيلة الأوراك.

فأنْعِم بها في البُعد زادَ مُسافرٍ وأحْسِن بها في القُرْب تُحْفةَ قادِمِ

فلَوى الثالثُ جِيدَه إليها، وعطَف بوجه قوسه عليها؛ فلجَّت في تَرَفُّعها مُمْتَنِعة، ثمّ نزلت على حُكمه مُذْعِنَة؛ فأعجلها عن ٱستكمال الهبوط، وٱستولى عليها بعد ٱستمرار القُنُوط.

وحاذتها «لَغْلَغَةٌ» تَحْكِي لونَ وَشيها، وتَصِفُ حُسْن مَشْيها؛ وتُرْبِي عليها بغُرّتها، وتُنافسها في المحاسن كضَرّتها؛ كأنّها مُدامةٌ قُطِبَتْ[1] بمائها، أو غمامةٌ شَفَّتْ عن بعض نجوم سمائها.

بِــغُــرَّةٍ بَــيْــضَــاء مَــيْــمُــونَــةٍ تُشْرِقُ في ٱللَّيل كبدر التَّمام

وإن تبدَّت في الضُّحى خِلْتَها في الحُلَّة ٱلدَّكْناءِ بَرْقَ الغمام

فنهض الرابعُ لاستقبالها، ورماها عن فَلَك سعدِهِ بنجم وبالها، فَجدّتْ في العُلُوِّ مُغِذّة[2]، وتطاردَتْ أمامَ بُندقِهِ ولولا طِرَادُ الصَّيْد لم تَكُ لَذّة؛ وانقضّ عليها من يده شِهابُ حَتْفها، وأدركها الأجلُ لخِفة طيرانها من خَلْفِها، فوقعَتْ من الأُفُق في كفِّه، ونَفر ما في بقايا صفِّها عن صفِّه.

وأتت في أثرها «أنيسةٌ»، آنِسة، كأنّها العَذْراء العَانِسة، أو الأَدْماء الكَانِسة[3]؛ عليها خَفَرُ الأبكار، وخِفَّةُ ذَوَاتِ الأوكار، وحلاوةُ المعاني التي تُجْلَى على الأفكار؛ ولها أُنسُ الرَّبِيب[4]، وإدلالُ الحبيب، وتَلفُّتُ الزائر المُرِيب، من خوف الرَّقيب؛ ذاتُ عُنُقٍ كالإبريق، أو الغُصْنِ الوَرِيق، قد جمّع صُفْرَةَ البَهار إلى حُمْرة الشَّقِيق؛ وصدرٍ بَهِيِّ الملبوس، شهِيٍّ إلى النُّفوس، كأنّما رُقم فيه النَّهارُ باللَّيل أو نُقِشَ فيه العاجُ بالآبنوس[5]؛ وجَناحٍ يُنْجيها من العَطَب، يحكي لونُه المَنْدَل الرَّطْبَ إلاّ أنّه حَطَب.

مُـدَبَّـجـة الـصـدرِ تَـفْـويـفُـه أضاف إلى اللّيل ضوء النهار

لـهـا عُـنُـقٌ خـالَـه مَـنْ رآه شقائقَ قد سُيِّجتْ بالبَهار

فوثب الخامسُ منها إلى الغَنيمة ونظمَ في سلك رميه تلك الدُّرَّةَ اليَتيمة؛ وحصل بتحصيلها بين الرُّمَة على الرّتبة الجسيمَة.

---

(١) قطبت: فرجت.

(٢) المغذة: المسرعة.

(٣) العانسة: التي دخلت في كناسها.

(٤) الربيب: المعاهد.

(٥) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب، ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

وأتى على صَوْتها «حُبْرُجٌ» تسبق همّتُه جناحَه، ويغلب خَفْقُ قوادمه صياحَه؛ مدبّج المَطَا، كأنما خَلَع حُلَّةَ مَنْكِبيْه على القطا؛ يَنظُرُ من لَهَب، ويخطو على رجلَينِ من ذَهَب.

يَزورُ الرّياضَ ويَجفُو الحياض ... ويُشبِهُ في اللّونِ كُدْرَ ٱلقَطَا
ويهوَى الزُّروع ويَلهُو بها ... ولا يَرِدُ الماءَ إلا خَطَا

فبدَره السادسُ قبل ارتفاعِه، وأعا قوسَه بٱمتدادِ باعِه، فخَرّ على الألاَءةِ[1] كبِسْطامِ بن قَيْس، وٱنقضّ عليه راميه فخَصَله[2] بحِذقٍ وحَمَلَه بكَيْس.

وتعذَّر على السابع مَرَامُه، ونَبَا به عن بلوغ الأرَب مقامُه؛ فصَعِد هو وتِربٌ له إلى جبل، وثبت في موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قِبَل. فعنّ له «نَسرٌ» ذو قَوَادِمَ شِدَاد، ومَنَاسِرَ حدَاد، كأنه من نسور لُقْمان بن عاد؛ تحسَبه في السماء ثالِثَ أخويْه، وتخالُه في الفَضَاءِ قبّتَه المنسوبةَ إليه؛ قد حلَق كالفُقراء رأسَه، وجعل ممّا قَصُر من الدُّلُوق الدُّكْن لِباسَه؛ وٱشتمل من الرِّيّاش العَسَليّ إزاراً، وٱختار العزلةَ فلا يجد له إلاّ في قُنَنِ الجبال الشواهِقِ مَزَاراً، قد شابت نواصي الليالي وهو لم يَشِب، ومضت الدهورُ وهو من الحوادث في مَعْقِلٍ أشِب.

مَلِيكُ طيورِ الأرضِ شرقاً ومغرِباً ... وفي الأُفُقِ الأعلى له أَخَوانِ
له حالُ فَتّاكٍ وحِلْيةُ ناسِكٍ ... وإسراعُ مِقْدام وفَتْرةُ وَان

فدنا من مَطاره، وتوخّى ببُنْدُقِه عنقَه فوقَع في مِنْقاره؛ فكأنما هَدَّ منه صخراً، أو هدَم بِناءً مشمخِرّا؛ ونظر إلى رَفيقه، مبشراً له بما ٱمتاز به عن فريقه.

وإذا به قد أظلّته «عُقَابٌ» كاسر، كأنما أَضَلَّتْ صيداً أَفْلَتَ من المَنَاسِر، إن حَطّتْ فسَحَبٌ ٱنكشف، وإن قامت فكأنّ قلوب الطير رَطْباً ويابساً لَدَى وَكْرِها العُنّاب والحَشَف، بعيدةُ ما بين المناكب، إذا أَقْلَعتْ لَجّتْ في عُلُوٍّ كأنما تحاوِل ثأراً عند بعضِ الكواكِب.

تَرَى الطيرَ والوحشَ في كفِّها ... ومِنْقارِها ذا عِظامٍ مُزَالَهْ
فلو أمكن الشمسَ من خوفها ... إذا طلعتْ ما تَسمّتْ غَزَالَهْ

فوثَبَ إليها الثامنُ وَثْبَة ليث قد وَثِق من حركاته بنجاحها، ورماها بأوّلِ بُنْدُقةٍ فما

---

(١) الألاء: شجر ورقه وحمله دباغ، يمد ويقصر، وهو حسن المنظر مرّ الطعم.
(٢) خصله: أصابه.

أخطأ قادمةَ جناحِها؛ فأَهْوَتْ كعَوْدٍ صُرع، أو طَود[١] صُدِع؛ قد ذهب بأسُها، وتذهّب بدمها لباسُها؛ وكذلك القَدَر يُخَادِع الجوَّ عن عُقابه، ويَستنْزل الأعصم من عِقابه؛ فحمَلَها بجناحها المَهِيض[٢]، ورفعها بعد الترفّع في أَوْج جَوّها من الحَضيض؛ ونزلا إلى الرُّفقة، جَذِلَيْن بربح الصَّفَقَة.

فوجدا التاسعَ قد مرّ به «كُرْكيٌّ» طويلُ السِّفَار، سريع النِّفَار، شَهِيّ الفراق، كثيرُ الاغتراب يَشْتو بمصر ويَصِيف بالعراقِ، لقَوَادمه في الجَوّ هَفيف[٣]، ولأديمِهِ لونُ سماءٍ طَرَأَ عليها غيمٌ خفيف، تَحِنّ إلى صوته الجَوَارح، وتَعْجَب من قوّته الرِّياح البوارح؛ له أَثَرُ حمرةٍ في رأسه كوَميض جمرٍ تحت رماد، أو بقيّة جُرْح تحت ضِمَاد؛ أو فَصِّ عقيقٍ شَفَّت عنه بقايا ثِماد؛ ذو مِنْقارٍ كسنَان، وعُنُقٍ كعنان؛ كأنّما يَنُوس[٤]، على عودين من آبنوس.

إذا بَــدا فـــي أُفُــقٍ مُــقْــلِــعــاً والــجــوُّ كــالــمــاء تَــفَــاويــفُــهُ
حَــسِــبْــتَــه فــي لُــجَّــةٍ مَــرْكَــبــاً رجــلاه فــي الأُفْــق مــجــادِيــفُــهُ

فصبرَ له حتى جازه مُجَلّيا، وعطَفَ عليه مُصَلّيا؛ فخرّ مُضَرَّجاً بدمه، وسقَط مُشْرِفاً على عَدَمه. وطالما أَفْلَت لَدَى الكواسِرِ من أظفار المَنُون، وأصابه القدرُ بحبةٍ من حمأٍ مسنون، فكثُر التكبير من أجله، وحمله راميه من على وجهِ الأرض برِجْلِه.

وحاذاه «غِرْنَوْق» حكاه في زِيّه وقَدْره، وآمتاز عنه بسواد رأسِه وصَدْرِه؛ له ريشتان ممدوتان من رأسه إلى خَلْفِه، معقودتان من أُذُنَيْه مكان شَنْفِه.

لــه مــن الــكُــرْكِــيّ أوصــافُــه سِــوَى سَــوَادِ الــصــدرِ والــرّأسِ
إن شــال رِجــلاً وأنــبــرى قــائــمــاً ألــفــيــتَــه هــيــئــةَ بِــرْجَــاسِ

فأصغَى العاشر له مُنْصِتاً، ورماه ملتفتاً؛ فخرّ كأنّه صريعُ الألحان، أو نَزِيفُ[٥] بنت الحان؛ فأهوَى إلى رِجله بيده وأَيْدِه[٦]، وآنْقضّ عليه آنقضاضَ الكاسر على صيده.

---

(١) الطود: الجبل.
(٢) المهيض: المكسور.
(٣) الهفيف: صوت هبوب الريح.
(٤) ينوس: يتذبذب ويتحرك.
(٥) النزيف: السكران الذي ذهب عقله.
(٦) الأيد: القوة.

وتَبِعه في المَطَار «صُوغ»[١]، كأنّه من النُّضَار مَصُوغ؛ تحسبه عاشِقاً قد مدّ صَفْحته، أو بارِقاً قد بثَّ لَفْحته.

طـويـلـةٌ رِجـلاه مـسـودّةٌ كـأنـمـا مِـنـقـارُه خَـنـجَـرُ
مِـثـلُ عـجـوزٍ رأسُـهـا أشـمـطٌ جـاءت وفـي قـمَّـتِـهـا مِـعْـجَـرُ[٢]

فاستقبله الحادِي عَشَرَ ووثَب، ورماه حين حاذاه من كثب؛ فسقط كفارسٍ تقطَّر عن جَوَادِه، أو وامِقٍ أُصِيبتْ حَبّةُ فؤادِه؛ فحمَله بساقه، وعدَل به إلى رِفاقه.

واقترن به «مُرزَمٌ» له في السماء سَمِيٌّ معروف، ذو مِنقارٍ كصُدْغٍ[٣] معطوف؛ كأنّ رياشَه فَلَق[٤] اتّصل به شَفَق، أو ماءٌ صافٍ عَلِق بأطرافه عَلَق.

لـه جـسـمٌ مـن الـثَّـلْـج عـلـى رِجْـلَـيـنِ مـن نـارِ
إذا أقـلـع لـيـلاً قـلـتَ بـرقٌ فـي الـدُّجَـى سـارِي

فانتحاه الثاني عشَر مُمَيِّما، ورماه مصمِّماً؛ فأصابه في زَوْرِه، وحصَّله من فَوْره، وحصل له من السرور ما خرج به عن طَوْره.

والتحق به «شُبَيطِر»[٥] كأنه مُدْيةُ مُبَيْطِر[٦]؛ ينحطُّ كالسيل ويَكُرّ على الكواسر كالخيل، ويجمع من لونه بين ضِدّين يُقْبِل منهما بالنهار ويُدْبِر بالليل؛ يتلوّى في مِنقاره الأيم، تلوِّيَ التِّنّين في الغَيْم.

تـراه فـي الـجـوّ مـمـتـدًّا وفـي فـمـه مـن الأفـاعـي شُـجـاعٌ أرقـمٌ ذكـر
كـأنـه قـوسُ رَامٍ عُـنْـقُـه يَـدُهـا ورأسُـه رأسُـهـا والـحـيّـةُ الـوَتَـرُ

فصوّب الثالثَ عشرَ إليه ببندُقه، فقطَع لَحْيَه[٧] وعُنُقَه؛ فوقع كالصَّرْح الممرَّد، أو الطِّرَاف[٨] الممدَّد.

واتّبعه «عُنَّاز»[٩] أصبح في اللّون ضِدّه، وفي الشكل نِدَّه؛ كأنه ليلٌ ضمّ الصبحَ

---

(١) الصوغ: طائر مختلط اللون من البياض والسواد أحمر الصدر، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.
(٢) المعجر: ثوب تعتجر به المرأة وتشده على رأسها.
(٣) الصدغ: الشعر المتدلي على ما بين العين والأذن.
(٤) الفلق: الصبح، وقيل: الفجر.
(٥) الشبيطر: هو طائر أبيض، أسود طرفي الجناحين ورجلاه ومنقاره حمر وهو يأكل الحيات ويوصف بالفطنة والذكاء.
(٦) المبيطر: معالج الدواب.
(٧) الأيم: الحية.
(٨) الطراف: بيت من أدم.
(٩) الفناز: طائر أسود اللون أبيض الصدر أحمر الرجلين والمنقار.

إلى صدره، أو انطوى على هالة بدره.

تراه في الجوّ عند الصبح حين بدا مُسْـوَدَّ أجنـحـةٍ مـبـيَّـض حَـيْـزوم
كـأسـودٍ حـبـشـيٍّ عـام فـي نَـهَـرٍ وضَـمّ فـي صـدره طـفـلاً مـن الـرُّوم

فنهض تمامُ القوم إلى التَّتِمَّة، وأسفرت عن نُجح الجماعة تلك الليلة المُدْلهِمَّة؛ وغدا ذلك الطير الواجِبُ واجِباً[1]، وكَمُل العددُ به قبل أن تُطْلِعَ الشمسُ عيناً أو تُبْرِزَ حاجِباً؛ فيا لَها ليلةً حَصَرْنا بها الصوادحَ في الفضاء المتَّسِع، ولقِيت فيها الطير ما طارت به من قبل على كلّ شَمْلٍ مجتمِع؛ وأضحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائدَ خانها النِّظام، أو شَرْبٍ كأنّ رقابَهم من اللِّين لم يُخْلق لهنّ عِظام؛ وأصبحنا مُثْنِينَ على مَقامنا، مُنْثَنِين بالظَّفَر إلى مستقرِّنا ومُقَامنا؛ داعين للمولى جَهْدَنا، مُذْعِنين له قَبِلَنا أو رَدَّنا؛ حامِلين ما صرعْنا إلى بين يديه، عامِلين على التشرّف بخدمته والانتماء إليه.

فأنـت الـذي لـم يُـلـفَ مـن لا يَـوَدُّه ويـدعـو لـه فـي الـسـرِّ أو يَـدَّعِـي لَـهُ
فـإن كـان رَمْـيٌّ أنـت تُـوضِـح طُـرْقَـه وإن كان جيشٌ أنت تَحْمِي رَعِيلَه[2]

والله تعالى يجعل الآمالَ مَنُوطةً به وقد فعل، ويجعلُه كَهْفاً للأولياء وقد جعل.

ومن إنشاء المولى عَلاَء الدِّين عليّ بن عبد الظاهر[3] في قِدْمة بندق.

ابتدأها بأن قال: «الحمد لله مُهَيِّيء أسباب الارتياح، ومُهَنِّيء أوقاتِ الانشراح، ومُطْلِق الأيدي في الاقتناص فليس عليها في صيد ذوات الجَناح جُناح؛ ومزيِّن السماء بمصابيح أنوارِها، ومُوَشِّي الأرض برَوْضها ونُوَّارها؛ ومنوِّر الأيام بشموسها والليالي أقمارِها، ومَطرِّز مطارِفِ الآفاق بمَطَار أطيارها. والصلاةُ والسلام على سيِّدنا محمد وآلِه وصَحْبه الذين أنجدهم الله من ملائكته بأُولِي أجنحة، وأَهْوَى بَصَرائعهم وأَوْهَى قُوَى مُمَانِعهم بعزائمهم المُنْجِحة.

وبعد، فإنّ القنصَ شُغِفَتْ به قلوبُ ذوِي العزائم، وصيّرته عُنواناً للحرب إذ حَمام الحِمام فيه على الفرائس حوائم؛ تلتذّ نفوسُهم بالمطاردة فيه وترتاح، وتهواه فلو تمكنت لركبت إليه أعناقَ الرّياح، تَرِد منه موردَ الظَّفَر، وتتمتّع فيه بنَزَهٍ نقسّم الحسنُ فيهن بين السمع والبصر، وتتملّى عند السرور إليه برياضٍ دبَّجها صَوْبٌ من المطر لا

---

(١) الواجب: الميت.

(٢) الرعيل: مقدمة الجيش والخيل.

(٣) هو علاء الدين علي بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر رئيس الكتاب وسيد الرؤساء، وجليس الملوك.

صوب من الفِكَر، ويَطْوِي من الأرض ما نشرت أيدي السماء به بروداً أَبْهَى من الحِبر[١]؛ فتارةً تستنزِل من العواصم الظِباءَ العَوَاصِي، وآونةً تقتنِص الطيرَ وقد تحصّنتْ من بروج السُّحُب في الصَّيَاصِي[٢] ببُعوثِها الدّانِيةِ من كلّ قاصي. وأحسَنُ أنواعه الذي جَمع لمُعَايِنِه بين رَوْضةٍ ورياضة، وغُدُرٍ مُفَاضة؛ ومغازلة عيون النَّوْر وهي تدمَع حين طَرَفها بذيله نسيمُ الصباح، ومباكرة اللّذات من قبل أن ترشُف شمسُ الضحى ريقَ الغوادي من ثغور الأقَاح؛ رمي البندق الذي هو عُقْلة المستوفِز[٣]، وانتهازُ غَفْلة الطائر المتحرِّز؛ ونزهةُ القلوب التي إن طالت لا تُمَلّ؛ وإن اجتاز المتنزّه بموطنها لم يؤجر. أحلى من صيد الظباء، وأشهى من لَمْح مُلَح الحسناء؛ لا يحتاج إلى رَكْض جَواد، ولا يحتاج فيه خَفْضَ العيش جُوَاد[٤]، ولا يُهاجر متعاطيه إلى الهواجر، ولا يحجُر على نفسه في الإفضاء إلى المَحَاجر[٥]؛ أربابُه يرتاضون في الروضة الغَنّاء، ويسمعون من نَغَمات الأوتار وشذْو الأطيار مختلِفَ الألحان والغِناء؛ ويَمْتَطُون الليلَ طِرْفا، ويستنيرون من النجوم شُمُوعاً لا تقُطّ ولا تُطْفا؛ قد اتّخذ كل منهم مُقاماً أكرِم به من مُقام، وهام باللذة فترك كرائمَ كَرَاه وكذا عادةُ المُسْتَهام؛ وسبَح في لُجَج الليل وكَرع في نهر النهار، وتجلّى في حُلَل الصدق وتخلّى عن خَلَل العار. يَهْوَوْن لَذّةَ القَنْص في الليل إذا عَسْعَس، والصبح إذا تنفّس، ويرسلون رُسُل المَنَايا إلى صرائعهم فما تتنفّس. إذا بَرزوا عند الغروب توارتْ شمسُ الأَصِيل حياء، وذهبتْ في حُلّتها الذهبيّة حين بَهروها سَنًا وسَنَاء؛ تراهم كالزُّهر أو الأزهار، أو عِقْدٍ نُظم باللُّجَين والزُّمرّد والنُّضَار؛ أوجُهُهم في أفلاك قِسِيّهم أقمار، كوِلْدان جِنان، وأعطاف أغْصان؛ قد طاف بهم سِيَاجُ المَسَرّة وأَحْدق، وحُلّوا بثياب سُنْدِس خُضْر واسْتَبْرَق؛ كأنّ الأرض ضاهت بهم السماء، فصيّرتْ قَسِيّهم أفلاكَها، وغُرَرَهم نجومَها، وعزائمَهم صواعقَها وبنادقَهم رُجُومها؛ يَخْفق منهم قلبُ كلّ خافِقه، وتقدمُ بعوثُهم على ذوات القَوَادم فبينا هي مترافقة إذا بها متفارِقة، وكأن صَوَافَّ الطير لديهم في جوّ السماء، سطورٌ في صفيحةٍ زَرْقاء؛ أو كأنّها في التئامها، عقودُ دُرٍّ في نظامِها؛ يَفْرُطون سلكَها، ويقرّبون هُلْكها، ويَغْدِرون بها في الغُدُر، ويَجْسُرون عليها في الجسور، وتُقَايِضُ بنادقُهم صرائعَهم فيصير وَكْر الطير الجراوة وجراوةُ البنادق حواصلَ الطيور. وإذا أسْفَروا وجهَ صباح،

---

(١) الحبر: ضرب من البرود اليمانية مخطط.

(٢) الصياصي: الحصون وكل شيء امتنع وتحصن به.

(٣) المستوفز: المهيىء للوثوب.

(٤) الجواد (بضم الجيم): جهد العطش.

(٥) المحاجر: واحدها المحجر، وهو الحديقة، أو الموضع الذي فيه رعي كثير وماء.

سمعتَ للطير صياحاً والطربُ كلُّه في ذلك الصياح؛ وإن عشَوْا مقاماتِهم وجهَ عِشَاء رأيت الطيرَ وهي لَدَى مَحَاريب قسيِّهم وهي سُجُود ورُكّع طرائحَ من بِيضٍ وسُودٍ كأنَّ أديمَ الأرض منهنّ أَبْقع. وإن تعلّقوا بأذيال الليل وسَجْفه؛ وباتوا في عِطْفه؛ احتمى منهم بشُهُبِه، وتستَّر في حُجُبِه؛ وتوارى عنهم البدرُ بذَيْل الغمام، وهال هالتَه أن تبدوَ لقسيِّهم الموتَّرة بالحِمَام. إلى غير ذلك مما ٱلتزموه من محاسِن أوصاف وأوصافِ محاسن، ووردوه من مناهل مصافاةٍ ماؤها غيرُ آسِن، ووجَدوه من طيب عَيْش ما لانوا معه ولا ٱستكانوا إلى المساكن؛ وحفظوه من صناعتهم من شروطٍ وأَوْضاع، ووقفوا في مقاماتهم من مُطِيع ومُطَاع؛ يَرْعوْن قدرَ كبيرهم، ولا يُراع بينهم قلبُ صغيرهم؛ ويتناصفون في أحكامهم، فالحكم واحد على آمِرهم ومأمورهم، إن تفرّقوا فهم على قلب رجل واحد، وإن ٱخْتلفتْ منهم المقاعد فقد ٱتّفقتْ منهم المقاصد. ما خلا جوُّهم من واجب الطاعة، ولا علا بينَهم كبيرٌ إلاّ بذَلوا في خدمته جُهْدَ الاستطاعة؛ وأضحوا وأمرُهم عليهم محتوم، وأمسَوْا وما فيهم إلا من له مَقَامٌ معلوم؛ بأيديهم قِسِيٌّ قاسِية، قُضبانُها قاضِية؛ منعطفةٌ جافية، بعوثها في الخَوَافِي خافِية، تَمثّلُها الأفكار في ساحة الفضاء، كَزَوَارِقَ مبثوثةٍ في لُجّة الماء. وكيف لا! وهي تَحْمل المنايا إلى الطير، وإن لم تكن سائرةً فلها بُعوثٌ سريعةُ السير؛ كأنّ صانعها قصَد وَضْعها كالأهلّة واقترح، أو حَكَى بمدبّج أثوابها قوسَ قُزَح، وكأن ظهرها وقد تنوّعت به من الغروز مَدَارجُه، مَدَرُ سَحِيق وَرْسٍ دَبّ عليه من النمل دَارِجُه؛ إذا حُطّت عنها أوتارُها كانت عصاً لربّها فيها مآربُ ومغانم، يُوجِسُ الطيرُ في نفسه منها خِيفةً وكيف لا! وهي في شكل الأَرَاقِم؛ متضادّة تَجْفو وتَلِين، موتورةٌ وغيرها حَزِين؛ تضمّها أناملُ من يُسراهم هي أيْمَنُ من يَمين عَرَابة بن أَوْس[1]، ويَطْلُع كلٌّ منهم في فَلَكها والطّالعُ القمرُ في القوس؛ لا تعتصِم منها الطّرائدُ بالخِبَاء في وَكْر الدّجُنّة، ولا يُخْفيها ٱتّخاذُها الظّلماءَ جُنَّة؛ ولا يُوَقّيها نَزَقُها، ولا ينقيها مَلَقُها ولا تَنْجح بخفْق الجَناح، ولا تَسْتَروح بمساعدة الرياح؛ لها بنادق كأنها حبات القلوب لوناً، وأشكال العقود كوناً؛ كأنّما صُبِغتْ من ليل وصِيغتْ من شُهُب، أو صُنعت من أديم للسُّحُب؛ تُفْرِد من الطير التُّؤَام، وتجمع بين رُوحها والحِمام؛ قد تحاماها النَّسْران فاتخذا السماء وكْراً، واتفقا أن يصبحا شفعاً ويُمْسِيَا وَتْراً؛ تَقْبِض منها الأيدي عند إطلاقِها رائحةً رابحة، جارحةً

---

(١) هو عرابة بن أوس بن قيظي الأنصاري. والإشارة هنا إلى مدح الشماخ بن ضرار المري لعرابة في قصيدة يقول فيها:

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

من الطير كلَّ جارحة، لا ترى صادحةً إلا صيّرَتْها صائحة. قلبُ كلِّ طير منها طائر، وكيف لا وهي للسِّهام ضرائر؛ تُضْرَم النار لإشْواء الطَّريدة قبل مفارقتها للأوتار، وتَقْتَنص من الجوارح كلَّ مُسْتَخْفٍ بالليل وساربٍ بالنَّهار؛ تَهيج كامنَ الغنيمة وتَسْتَثير، وتبدو كأنما عُجنت من صَنْدَل وعَبير.

ولمّا كان مَنْ هو واسطة عِقْدِ هذه الأوصاف، والرافلُ في بُرُودها المَوْشِيَّة للأطراف؛ والمُبْدِع في فَنِّه، والجامع بين فضيلة الرمي وحُسْنه؛ والمستنطِق لسانَ قومه بالإحسان؛ والحافظُ شروطَه في طهارة العِرْض وصِدْق اللسان؛ والرامي الذي بلغ بهمّته غاية المرام، وضاهَى ببُنْدُقِه السِّهام؛ وكان يوم كذا وكذا خرج إلى بَرْزَته المبارَكة وصرَع طيْرين في وجه واحد، وأبان عن حُسْن الرمي وسَدَاد الساعد؛ وأضْحَى بينهما كثيراً بين قومه، وجَعَلهما لهم وليمةً في يومه؛ وهما «تَمٌّ» كأنما صيغ من فضّة، أو تَدَرَّع من النهار حُلَّةً مبيَّضة؛ أو غاير بياضُه الليلَ فلطَم وجهَه بيد ظَلْمائه، فاقتصّ منه وخاض في أحشائه؛ لجناحه هَفِيفٌ[1] في المَطَار، تسمَع منه نغمة الأوتار. و«لَغْلَغَةٌ» كأنها كُوّنت من شَقِيق وغَمَام، أو مُزِج لونُها بماءٍ ومُدَام؛ لها غُرَّةٌ لو بَدَت في الليل خِلْتَها بَدْراً، وإن أسفرتْ عند الصباح حَسِبْتَها فَجْراً، وحملها فلان وفلان، وقطع شبَقَه فلان وأُدُّعِي لفلان؛ وعاد الرامي قَرِيرَ العين، مملوءَ اليَدين، إذا فَجر غيرُه بواحدة فخر بأثنتين؛ مُعظَّماً بين أترابه، مُكرَّماً لَدى أحبابه؛ ألبسه الله من السرور أزهى أثوابه. بمنِّه وكرمه.

وَمِمَّا وَرَدَ في وَصْفِ الجُلاَهقِ نَظْماً ـ قال أبو الفرج البَبَّغاء يصفها: [من الوافر]

ومِـرْنـانٍ مُـعـبِّـسـةٍ ضَـحُـوك … مُـهـذَّبـةِ الـطـبـائـع والـكَـيـانِ[2]
مُـغـالِـبـةٍ ولـيـس بـهـا حَـرَاكٌ … وبـاطـشـةٍ ولـيـس لـهـا يَـدانِ
لـهـا في الـجـارح الـنَّـسبُ الـمعلَّى … وإن هـي خـالـفـتْـه فـي الـمـعـانـي
تـطـيـر مـع الـبُـزَاة بـلا جَـنَـاح … فَـتـسْـبِـقُـهـا إلـى قَـصَـب الـرِّهـانِ
وتُـدرِك مـا تـشـاء بـغـيـر رِجْـلٍ … ولا بـاعٍ يَـطُـولُ ولا بَـنَـانِ
وتـلـحَـظ مـا يَـكِـلّ الـطـرفُ عـنـه … بـلا نَـظَـرٍ يَـصِـحّ ولا عِـيَـانِ
لـهـا عُـضْـوانِ مـن عَـصَـب ولَـحْـم … وسـائـرُ جـسـمـهـا مـن خَـيْـزُرانِ
يُـخـاطَـبُ فـي الـهـواء الـطـيـرُ مـنـهـا … بـلـفـظٍ لـيـس يـصـدُر عـن لـسـانِ

---

(١) الهفيف: صوت الريح.
(٢) المرنان: القوس وصف في رنّ إذا صوّت.

فإن لم تُضغِ أَرْدَتْها بطَعْنٍ ... يَنُوبُ الطينُ فيه عن السِّنانِ
مُقَرْطَقة ممنطقة خَلُوب ... مُهَفْهَفَة مخفَّفة الجِرَانِ
مذكَّرة مؤنَّثة تَهَادَى ... من الأصباغ في حُلَل القِيَانِ
مُعمَّرة تَزَايدُ كلَّ يوم ... شَبِيبتُها على مَرِّ الزمانِ
كأنّ الله ضمّنها فبانت ... لنا في الرِّزق عن أوفى ضَمانِ
أعزّ على العيون من المآقي ... وأحلى في النفوس من الأماني
إذا ما ٱستوطَنَتْ يوماً مكاناً ... تولّى الجَذْبُ عن ذاك المكانِ

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الرجز]

وثيقةٌ مُدْمَجةُ الأوصالِ ... مَخْنِيَّةٌ عَوْجاءُ كالهِلالِ
تعود إن شئتَ إلى ٱعتدال ... باطنُها لِعَاقل الأوعالِ
والظهر منها لقَنَا الأبطال ... يجمعها أَسْمَرُ ذو ٱنفتالِ
في وَسْطِه من صنعة المحتال ... مثالُ عينٍ غيرِ ذي ٱحْوِلالِ
تَقْذِي بِصَذَفات من الصَّلْصال ... أمضى من السِّهام والنِّبَالِ(١)
قَذَى يُقِرّ أعيُنَ الآمالِ ... فاقعةُ الصُّفرة كالجِرْيالِ(٢)
رَخِيصةٌ تَغْنَم كلَّ غالِ ... تُؤمَن منها وَنْيَةُ الكَلالِ
تَغُول في الجدب وفي الإمْحالِ ... وقد يكون الصَّقْر كالعِيالِ
مطِيُّها عَوَاتِق الرجالِ ... في غُلُفٍ ممدودةٍ طِوَالِ
كم أَفْضَلَتْ على ذوي إفضال ... وكم أنالتْ من أخي نَوَالِ

* وقرَّبت للطَّيْر من آجالِ *

وقال أيضاً فيها من أبيات: [من البسيط]

وفي يَسَارِي من الخَطِّيِّ مُحْكَمةٌ ... متى طَلَبتُ بها أدركتُ مطلوبي
للوَعْلِ باطنُ شَطْرَيها ومُعْظَمُها ... من عُودِ شَجْراءَ ظَمْياءِ الأنابِيبِ
تأنّقَ القَيْنُ في تزيينها فَغَدَتْ ... تُومِي بأحسن تفضيضٍ وتذهيبِ(٣)

---

(١) يقال: قذت العين تقذي: إذا قذفت ما فيها من قذى.
(٢) الجريال: الخمر أو لونها.
(٣) القين: الحداد.

في وسْطها مُقْلةٌ منها تُبيِّن ما ... يُرمى فما مَقْتَلٌ عنها بمحجوبِ
فقمتُ والطيرُ قد حُمَّ الحِمامُ لها ... على سبيليَ في عادِي وتجويبي
حتى إذا اكتَحلَتْ بالطين مُقْلَتُها ... صَبَّتْ عليهنّ حتفاً جِدّ مَضبوب
فرُحتُ جَذْلانَ لم تكدُرِ مشارِبُ ... لَذّاتي ولم تُلْقَ آمالي بتخييبِ

ذكرُ شيءٍ ممّا قيلَ في سَبَطَانة[(١)]

قال أبو الفرج البَبَّغاء: [من المتقارب]

وجَوْفاءَ حامِلةٍ تهتدِي ... إلى كل قلبٍ بمَقْروحِهِ
مُقَوَّمةِ القَدِّ ممشوقَةٍ ... مُهَفْهَفَةِ الجسمِ ممسوحِهِ[(٢)]
مُثَقَّفةٍ فمُها عينُها ... تُبشِّر قلبي بتصحيحه
فإن هي والجارح استُنهِضَا ... إلى الصَّيد عاقته عن رِيحه
إذا المرء أودَعَها سِرَّه ... لتُخْفِيهِ باحتْ بتصريحِه
مَواتٌ تعيشُ إذا ما أعاد ... لها النافِخُ الرُّوح من روحه
هي السَّبَطانة في شكلها ... ففي القلب جِدُّ تَبارِيحِه[(٣)]
تحُطّ أبا الفَرْخ عن وَكْرِه ... وتستنزِلُ الطيرَ من لُوحِه[(٤)]

وقال أبو طالب المأمونيّ: [من الطويل]

مُثَقَّفَة جَوْفاء تُحسَبُ زَانةً ... ولكنها لازُجٌّ فيها ولا نَصْلُ
تُسدَّد نحوَ الطير وهو محلِّق ... فينفُذُ عنها للردَى نحوَه الرُّسْلُ
يطير إلى الطير الرَّدَى في ضميرها ... فيَجْرِي كما يَجْرِي ويعلو كما يعلو
فيَعْقِل ما تنجو به فكأنما ... يُمَدّ إليه من بنادقها حَبْلُ

ذكرُ شيءٍ ممّا قِيلَ فِي عِيدَانِ الدِّبْقِ[(٥)]

قال عبد الله بن المعتز فيها مُلْغِزاً: [من الرجز]

(١) السبطانة: آلة من آلات الصيد تتخذ من خشب، مستطيلة كالرمح مجوّفة الداخل يجعل الصائد بندقه من طين صغيرة في فيه، وينفخ بها فتخرج منها بحدة فتصيب الطير فترميه، وهي كثيرة الإصابة.
(٢) الهفهفة: الضامرة البطن، الدقيقة الخصر.
(٣) تباريح الشوق: توهجه.
(٤) اللوح: الفضاء بين السماء والأرض.
(٥) الدّبق: شيء يلزق كالغراء يصاد به الطير.

ومـا رِمـاحٌ غـيـرُ جـارحـاتِ ولَـسْـنَ فـي الـدِّمَـاء والِـغـاتِ
ولَـسْـنَ لـلـطِّـرَاد والـغـاراتِ يُـخْـضَـبْـن لا مـن عَـلَـقِ الـكُـمـاةِ
بـريـق حـتـف مـنـجـز الـعِـدات مـتـمـكـن لـيـس بـذي إفـلات
يَـنْـشَـب فـي الـصـدور والـلَّـبّـات فِـغـلَ إسـار فُـلَـقِ الـسِّـيَـات[1]
عـلـى عَـوَالـيـهـا مُـرَكَّـبَـاتِ أَسِـنَّـةٌ لَـسْـنَ مُـوَقَّـعَـاتِ[2]
مـن قَـصَـب الـريـش مـجـرَّداتِ يُـخَـسَّـبْـن فـي الـهـواء شـائِـلاتِ

* أذنـابَ جِـرْذانٍ مُـنَـكَّـسـاتِ *

وقال أبو الفتح كُشَاجُم: [من الرجز]

وآسِـراتٍ مـثـلِ مـأسُـوراتِ مُـمَـكَّـنـاتٍ غـيـرِ مُـمْـكَـنـاتِ
مـؤمَّـلاتٍ غـيـرِ مُـكْـذِبـات صـوادِقِ الـتـعـجـيـلِ لـلـعِـداتِ
نـواظـر الأشـكـالِ ذاهـبـاتِ كـواسِـرِ ولَـسْـنَ ضـارِيـاتِ
ولا بـمـا يَـصِـدْن عـالـمـاتِ بـمـثـل رِيـقِ الـنـحـلِ مَـطْـلِـيّـاتِ
أقـتَـلُ مـن سـمـائـم الـحَـيّـاتِ لـو صـلـحـت شـيـئـاً مـن الآلاتِ
ووُصِـلَـت بـالـزُّجِّ والـشَّـبـاةِ كـانـت مـكـانَ الـنَّـبْـل لـلـرُّمـاةِ
حـوامـلٍ لـلـطـيـر مُـمـسِـكـاتِ تَـعَـلُّـقَ الأحـبـاب بـالـحِـبّـاتِ
كـأنـهـا فـي الـنـعـت والـصـفـاتِ أذنـابُ مـا دَقَّ مـن الـحَـيَّـاتِ
أغـدرُ بـالـوُرْقِ الـمـغـرِّداتِ فـيـهـا مـن الـفـتـيـان بـالـقَـيْـنـاتِ
فـهـنَّ مـن قَـتْـلـى ومـن عُـنَـاةِ بـلا فَـكَـاكٍ وبـلا دِيـاتِ

ذكرُ شَيءٍ ممّا قِيلَ في الشِّبَاكِ

قال السَّريّ الرَّفّاء يصف شَبَكة: [من الرجز]

وجـدولٍ بـيـن حـديـقـتـيْـنِ مُـطَّـرِدٍ مـثـلِ حُـسَـام الـقَـيْـنِ[3]
كَـسَـوْتُـه واسـعـةَ الـقُـطْـرَيْـنِ تـنـظـر فـي الـمـاء بـألـفِ عَـيْـنِ
راصِـدةً كـلَّ قـريـبِ الـحَـيْـنِ تُـبْـرِزُه مُـجَـنَّـح الـجـنـبَـيْـنِ

(١) الإسار: ما شد به وهو الرباط ـ وسية القوس: ما عطف من طرفيها.
(٢) موقعات: محددات.
(٣) القين: الحداد.

كَمُدْيَةٍ مصقُولةِ المَتْنَيْنِ   كأنما صِيغَ من اللُّجَيْنِ[(١)]

وقال أبو الفرج البَبَّغاء يصف شبكة العصافير: [من المنسرح]

رَقْراقةٌ في السَّرَابِ تحسَبُها   على الثَّرَى حُلَّةً من الزَّرَدِ

كالدِّرع لكنها مُعَوَّضَةٌ   عن المسامير كثرةَ العُقَدِ

سائرها أعينٌ مُفَتَّحةٌ   لا تَرْتَضِي نسبةً إلى جسدِ

ذكرُ مَا قِيلَ في الشُّصِّ، وهو الصَّنَانِير - قال كاتب أندلسيّ يصفه من رسالة: «صَنَانِير، كأظفار السَّنَانِير؛ قد عَطَفها القَيْن كالراء، وصيّرها الصَّقْل كالماء؛ فجاءت أحدَّ من الإبَر، وأرقّ من الشَّعَر؛ كأنها مخْلَبُ صُرَد[(٢)]، أو نصفُ حَلْقةٍ من زَرَد».

وقال أبو الفتح كُشَاجِم: [من الرجز]

من كان يَحْوِي صيدَه الفضاءُ   وللبُزَاةِ عنده ثَوَاءُ

وطال بالكلب له العَنَاءُ   فإن صَيْدِي ما حواه الماءُ

بمِخْلَبٍ ساعِدُه رِشَاءُ   يَظَلّ والماءُ له غِطَاءُ

كما طوتْ هِلالَها السماءُ   كأنه من الحروف راءُ

فهو ونصفُ خاتَم سواء   يحمل سمًّا اسمُه غِذاءُ

وعَطَباً فيه لنا إحياءُ   تَدْمَى به القلوبُ والأحشاءُ

عادٍ إذا ساعده القضاءُ   أمتعنا القَرِيسُ والشُّوَاءُ[(٣)]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كمل الجزء العاشر من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للشيخ العلامة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب البَكْري التَّيْمِيّ القرشيّ نسباً المعروف بالنُّوَيريّ رحمه الله. ويليه الجزء الحادي عشر.

---

(١) اللجين: الفضة.

(٢) الصرد: طائر أبقع اللون أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار.

(٣) القريس: سمك يطبخ ويتخذ له صباغ ويترك فيه حتى يجمد.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

الجزء الحادي عشر

تحقيق

الدكتور يحيى الشامي

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه التوفيق والإعانة
وصلّى الله على سيّدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا

الفنّ الرابع
في النّبات

وهذا الفنُّ وإن جلَّ مقدارُه، وحسنت آثارُه، وأشرقتْ أنوارُه، وزها نُوّاره[١]، وتفيّأتْ خامات[٢] زروعه، ونبتت أصولُه تحت فروعه، وتدبّجت خمائلُه[٣]؛ وتأرّجت[٤] بُكَرُه[٥] وطابت أصائلُه[٦]، وابتهج إغريضُه[٧]، واتّسق نضيدُه[٨]، وتسلسلت غُدرانُ مائه وزهت أرضُه على سمائه، وتعدّدت منافعُه، وعذُبتْ منابعُه؛ وكان منه ما هو للنفس قوتًا، وما حكت ألوانُه زمرّدًا وياقوتًا، وما أشبه اللُّجَيْن[٩] والعِقْيان[١٠]، وما غازل بعيونه مُقَلَ[١١]

(١) زها نوّاره: تاه وتعاظم زهره، وواحدة النوّار نُوّارة.
(٢) خامات الزروع: الطاقات الفضّة منها واللينة.
(٣) تدبّجت خمائله: تزيّنت، والخمائل، واحدتها خميلة، وهي الشجر الكثير الملتفّ.
(٤) تأرّجت: فاحت.
(٥) البكر، جمع بكرة، وهي أول النهار إلى طلوع الشمس.
(٦) الأصائل والآصال، جمع أصيل، وهو الوقت الذي تصفرّ فيه الشمس لمغربها.
(٧) الإغريض: ما ينشقّ عنه الطّلع في النّبت.
(٨) نضيده: منضوده، وهو ما اتّسق وائتلف من طلع النخل وغيره.
(٩) اللجين: الفضّة. (١٠) العقيان: الذهب الخالص.
(١١) المقل: العيون كلّها، جمع مقلة.

الحِسان، وما نُسِبَتْ إليه الوَجَناتُ في احمرارِها، وألوانُ العشّاق في اصفرارِها؛ وأشبهتْه القدودُ عند تمامِها، والثغورُ في انتظامِها، والنّهودُ في بروزِها وارتفاعِها والخصورُ في هَيْفِها[١] والسُّرَر[٢] في اتّساعِها، وما اختلفتْ ألوانُه وطعومُ ثمارِه وإن ائتلفَتْ أراضي مَغارِسه ومجاري أنهارِه، وما تَضَوَّعَ عَرْفُه[٣] وفاح نشرُه[٤]، وحَسُنَ وصفُه ولاح بِشرُه، وبقيتْ آثارُه بعد ذُبوله أحسنَ منها يوم رِفافِه، وحصل الانتفاع به في حالتَي غَضاضتِه[٥] وجَفافِه، ووصفَه الطبيبُ في دوائه وعلاجِه، ونَصَّ عليه الحكيمُ في أقْراباذِينِه[٦] ومنهاجِه؛ وكان هذا الفنّ أحدَ شطرَي النّامِي، وقَسيمَ النوعِ الحيواني؛ فإنّا لم نقصدْ بإيرادِه استيعابَ نوعِه، واستكمالَ جنسِه، واستيفاءَ منافعِه والإحاطةَ بمجموعِه، ولا تصدّينا لذلك، ولا تعرّضنا لخوض هذه اللّجج[٧] وطُروقِ هذه المهالك، لأمور: منها تعذُّرُ الإمكان، وضيقُ الزمان؛ ولأنّ هذا الفنّ عجز عن حصرِه فلاسفةُ الحكماء، ومشاهيرُ الأطباء، وسكّانُ البوادي، ومن جمعتْهم الرّحابُ وضمّتْهم النّوادي، ومن لازموا النبات من حين استهلّت عليه الأنواءُ[٨] وباكرتْه الغَوادي[٩]، فاطّلَعَ كلُّ منهم على ما لم يطّلع الآخَرُ عليه، وشاهَدَ ما لم تنته فكرةُ غيرِه إليه؛ وعَلِم التُّرْكُماني[١٠] منه

(١) هيف الخصور: دقّتها.
(٢) السّرر: جمع سرّة، وهي النّقرة في البطن.
(٣) تضوّع عرفه: فاح نشره ورائحته.
(٤) فاح نشره: انتشرت رائحته الطيّبة.
(٥) الغضاضة: الطراوة والنّضرة.
(٦) الأقراباذين: لفظة فارسية، وهي تعني علم الصيدلة، وتركيب الأدوية.
(٧) اللجج: جمع لجّة، وهي معظم الماء.
(٨) الأنواء: وعدّتها ثمانية وعشرون نوءًا، وهي المنازل التي ينزل بها القمر والشمس. والنوء، لغةً، النجم الطالع صباحًا، وقيل: هو النازل مساءً، وكانوا يعتقدون أن الأمطار إنما هي بفعل تأثير تلك الأنواء.
(٩) الغوادي، جمع غادية، وهي السحابة الممطرة في الغداة، أي صبحًا.
(١٠) التركماني، نسبة إلى التركمان، الشعب المعروف بهذا الاسم، وهو خلاف العربي.

ما لم يعلمه البَدَويّ، وعَرَف الجبليُّ ما لم يعرفه النَّبَطيُّ[١]؛ وصنّف فيه الحكماءُ الكتبَ المطوَّلة، وأظهروا من منافعِه ومضارِّه كلَّ فائدة خفيّةٍ وخاصيّةٍ مهمَلة، وتعدّدتْ فيه تصانيفُهم، وتواردتْ واشتهَرتْ تآليفُهم، ومع ذلك فما قَدَروا على حصرِه، ولعلّهم لم يقفوا إلّا على جزءٍ يسيرٍ من شطرِه، بل قصدْنا بإيرادِه أن نذكرَ منه ما عليه وصفٌ للشّعراء، ورسائلُ للبلغاء والفضلاء؛ لأنّ ذلك ممّا لا يستغني عنه المُحاضِر، ويُضطرُّ إليه الجليسُ والمُسامِر[٢]؛ وينتفع به الكاتبُ في كتابتِه، ويتّسع به على المنشىء مجالُ بلاغتِه، فأوردنا منه ما هو بهذه السبيل، واستقصَينا ما هو من هذا القَبيل؛ وإن كنّا زدنا في بعضِه على هذا الشّرط، وخرجنا عن هذا الخطّ، وتعدَّينا من وصفِه إلى ذكر منافعِه ومضارِّه، وانتهينا إلى إيراد باردِه وحارِّه، ورطَبِه ومعتدِلِه ومحرِقِه وقابِضه وملّيِنه ومطلِقِه، ونبّهنا على توليدِه وأصلِه، وخساستِه وفضلِه؛ فهذه الزيادةُ إنما وردت على سبيل الاستطراد، لا على حُكْم الالتزامِ والاستعداد، وهي مما تزيد هذا الفنّ إلى حُسْنِه حُسْنًا، وتبدو بها فضائلُه فُرادَى ومَثْنَى، ووصلْنا فنّ النباتِ بالصُّموغ والأمنان[٣]، لأنّهما من توابِعه وفروعِه، وحلبْنا ألبانَ التكملة له بهما من ضُروعِه، وألحَقْنا ذلك بقسم يشتمل على أصنافِ الطِّيبِ والبَخُورات، والغوالي[٤] والمستقطَرات، فختمْنا الفنَّ منه بمِسك، ونظمناه معه في سلك، وحصرنا هذا الفنَّ وما يتعلّق به في خمسة أقسامٍ تندرج تحتها أبواب، ولخّصناه من أكرمِ أصولٍ وأعرقِ أنسابٍ وأوثقِ أسباب.

---

(١) النبطي، نسبة إلى النبط، الشعب المعروف بهذا الاسم.

(٢) المسامر: رفيق السمر، وهو الحديث ليلًا.

(٣) الأمنان: جمع منّ، وهو ضرب من الصّمغ قيل إنه ينعقد بفعل تأثير السماء.

(٤) الغوالي: جمع غالية، وهي ضرب من أخلاط الطيب كالمسك والعنبر وغيرهما.

القسم الأول
من هذا الفنّ في أصل النبات
وما تختصّ به أرضٌ دون أرض
وتتّصل به الأقوات والخَضْراوات والبُقولات

وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل
من هذا القسم من هذا الفنّ
في أصل النّبات وترتيبه

قال المسعوديُّ في كتابه المترجَم (بمروج الذهب ومعادن الجوهر): إن آدمَ عليه السلامُ لمّا أهبطه الله تعالى إلى الأرض خرج من الجنّة ومعه ثلاثون قضيبًا مودَعةً أصنافَ الثمرة، منها عشرةٌ لها قشر، وهي الجَوْز واللَّوْزُ والجِلَّوْزُ(١) والفُسْتُقُ والبَلُّوطُ والشَّاهبَلُّوطُ(٢) والصَّنَوْبَرُ والنَارَنْجُ(٣) والرُّمّانُ والخَشْخَاش(٤).

ومنها عشرةٌ لثمرها نوًى(٥)، وهي الزّيتون والرُّطَبُ والمِشْمِشُ والخَوْخُ والإجّاصُ والغُبَيْرَاءُ(٦) والنَّبِقُ(٧) والعُنّابُ(٨) والمُخَيَّطُ(٩) والزُّعْرُور(١٠)؛ ومنها عشرةٌ

---

(١) الجلّوز: البندق. (٢) الشاهبلوط: الكستناء.

(٣) النارنج: ضرب من الشجر المثمر من الفصيلة السذّابية، دائمة الخضرة، رائحتها عطرية، يتّخذ من أزهارها العطرية ماء الزهر، ومن ثمرها يصنع المربّى.

(٤) الخشخاش: نبات حوليّ من الفصيلة الخشخاشية يستخرج الأفيون من ثماره.

(٥) النوى: جمع نواة، وهي الحبّة في الثمرة، وتسمّى البذرة أو اللّب.

(٦) الغبيراء: ضرب من الشجر من فصيلة الورديّات، ثماره صغيرة ذات بزرات تؤكل أحيانًا.

(٧) النّبق: ضرب من الشجر من الفصيلة السّدريّة، أغصانها ملس بيض اللّون، وأزهارها صغيرة متجمّعة إبطيّة، ويؤكل ثمرها.

(٨) العنّاب: شجر شائك من الفصيلة السّدرية، ثمره أحمر لذيذ الطعم على شكل ثمرة النّبق.

(٩) المخيط: أو المخاطة، وهو ضرب من الشجر الدّبق.

(١٠) الزعرور: شجر مثمر من فصيلة الورديات، ثمره أحمر أو أصفر، وله نوى صلب مستدير يملأ=

ليس لها قِشرٌ ولا نوى وهي التُّفَاحُ والسَّفَرْجَلُ والكُمَّثْرَى[١] والعنبُ والتِّينُ والأُتْرُجُّ[٢] والخُرْنُوبُ والتُّوتُ والقِثَّاءُ والبِطِّيخُ؛ وقال أبو عبيد البكريُّ في كتابه المترجَم (بالمسالك والممالك): إنّ إسحٰق بنَ العبّاس بنِ محمّد الهاشميّ حَكَى عن أبيه أنّه تصيَّد يومًا بناحية (صَنْعاء) فأصابه السماء فمال إلى أَخْوِيةٍ[٣] أعرابٍ فمكث عندهم يومًا وليلةً والغيثُ منسجِم، لا ينحسم، فلمّا أصبح قال: لقد أنزل اللهُ الليلةَ خيرًا كثيرًا؛ فقام ربُّ البيت إلى كِساءٍ كان قد نصبه بين أربعَ أخشابٍ يصيبه المطر، فلمسه بيَدِه، فقال: ما أنزل اللهُ الليلةَ خيرًا، ثمّ ليلةٌ أخرى كذلك، وليلةٌ أخرى؛ فلمّا كان في اليوم الثالثِ قال: نعمْ قد أنزل الله خيرًا في هذه اللّيلة؛ فسأله العبّاسُ بنُ محمّد عن ذلك، فأتاه بكَفٍّ من البُزور تَنَاوَلَها من جوف ذلك الكساء، وقال: إنّ حَبَّ البَقْلِ والعُشْبِ والكلإِ إنّما ينزل من السماء، هذا ما ورد في أصل النّبات.

وأمّا ترتيبُه من ابتدائه إلى انتهائه؛ فقد حكى الثَّعالبيُّ[٤] في (فقه اللغة)[٥] قال: أوّلُ ما يبدأ النّبتُ فهو بارِض، فإذا تحرّك قليلًا فهو جَمِيم، [فإذا عمّ الأرضَ فهو عَميم] فإذا اهتزّ وأمكن أن يُقبَض عليه قيل: «اجثألّ»، فإذا اصفرّ ويبِس فهو هائج، فإذا كان الرَّطْبُ تحت اليابس فهو غَمِيم، فإذا كان بعضُه هائجًا وبعضُه أخضرَ فهو شَميط، فإذا تهشّم وتحطّم فهو هَشِيم وحَطِيم[٦]، فإذا اسودّ من القِدَم فهو الدِّنْدِن فإذا يَبِس ثم أصابه المطرُ فاْخضرّ فذاك النَّشْر.

وقيل في مثله: إذا طلع أوّل النَّبْت قيل: «أَوْشَمَ، وطَرّ»، فإذا زاد قليلًا قيل: «طَفَّرَ» فإذا غطّى الأرضَ قيل: «استَحلَسَ»؛ وإذا صار بعضُه أطولَ من بعضٍ قيل:

= أكثر جوفه فيكون لبّه قليلًا.

(١) الكمثرى: ضرب من الشجر المثمر، من الفصيلة الورديّة، أصنافه كثيرة، ويسمّى الإنجاص في بلاد الشام.

(٢) الأترج: ضرب من الشجر العالي، ناعم الأغصان والورق والثمر، يشبه ثمره الليمون الكبير، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، وعصيره حامض.

(٣) أحوية: الأحوية، جمع حواء، وهو بيت البدوي ومضربه وخيمته.

(٤) الثعالبي: هو أبو منصور الثعالبي، الأديب واللغوي والمؤرخ العباسي من أهل نيسابور، له «يتيمة الدهر في شعراء أهل مصر» و«لطائف المعارف» و«كتاب الأمثال» و«فقه اللغة». مات سنة ١٠٣٨ م.

(٥) «فقه اللغة» هو الكتاب الذي وضعه الثعالبي في المعجمات، معجمات المعاني خاصةً. وانظر ما قاله في النّبت وكلّياته وترتيب طلوعه في: فقه اللغة، للثعالبي ص ١٩ و٣١٠ و٣١١ و٣٥٩ و٣٦٥، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٠.

(٦) الهشيم والحطيم: بمعنى واحد تقريبًا، وهو الشيء المهشم والمحطّم، أي المكسّر.

«تَناتَل»، فإذا تهيّأ لليُبْس قيل: «اقطارَّ» فإذا يَبِس وانشقَّ قيل: «تَصوَّح»، فإذا تمّ يُبْسُه قيل: هاجت الأرضُ هِياجًا، والله أعلم بالصواب.

فصل في ترتيب أحوال الزرع

هو ما دام في البَذْر فهو الحَبُّ، فإذا انشقَّ الحَبُّ عن الورقة فهو الفَرْخُ والشَّطْء، فإذا طلع رأسُه فهو الحَقْل، فإذا صار أربعَ ورقاتٍ أو خمسًا قيل: كَوَّثَ تكويثًا، فإذا طال وغلظ قيل: «استأسَدَ»، فإذا ظهرت قصبتُه قيل: «قَصَّبَ»، فإذا ظهرتْ فيه السُّنبلةُ قيل: «سَنْبَل» ثم اكتهَلَ. وأحسنُ من جميع ذلك وأبلغُ قولُه عزّ وجلّ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: الآية ٢٩]. قال الزّجّاج[١]: «آزَرَ الصّغارُ الكبارَ حتى استوى بعضُه ببعض». وقال غيرُه: «فساوى الفِراخُ الطِّوالَ فاستوى طولُهما». وقال ابنُ الأعرابي[٢]: أشطأ الزرعُ، إذا فرّخَ و﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فراخه، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانه، والله أعلم.

الباب الثاني
من القسم الأول من الفن الرابع
فيما تختصّ به أرضٌ دون أرض وما يَستأصِل شأفةَ[٣] النّباتِ الشاغلِ للأرض عن الزراعة

أمّا ما تختصّ به أرضٌ دون أرض ـ فقد حَكى أبو بكر بنُ وحشيّةَ[٤] أنواعًا من النّبات توجد في أرضٍ ولا توجد في غيرِها، فقال: إنّ في بلاد سِجِلْماسَة[٥] شجرةَ

(١) الزّجاج: هو أبو إسحٰق الزّجاج، العالم بالنحو واللغة، من أهل بغداد، تتلمذ للمبرّد، من مؤلفاته «معاني القرآن»، وكتاب «فعلت وأفعلت» و«الاشتقاق» و«الفرق» و«القوافي والعروض»، مات سنة ٣١٠ هـ. انظر: الفهرست، لابن النديم ص ٩٠، ٩١، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

(٢) ابن الأعرابي: هو أبو عبد الله محمد بن الأعرابي، الإمام في اللغة، من أهل الكوفة، تتلمذ للكسائي والمفضّل الضّبي وأبي معاوية الضرير، ومن تلامذته ثعلب وابن السكّيت. له عدة مصنفات منها «كتاب النوادر» و«الخيل»، مات سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م. انظر: الفهرست، ص ١٠٢.

(٣) الشأفة: الأصل.

(٤) ابن وحشيّة: وكنيته أبو بكر، واسمه أحمد، عالم من النبط، عاش في القرن الثالث الهجري، اشتهر بكتابه «الفلاحة النّبطية».

(٥) سجلماسة: مدينة قديمة في جنوب المغرب، كانت قاعدة قافيلالت، وفيها تأسّست دولة=

ترتفع نصفَ قامةٍ أو أرجح، ورقُها كورق الغار[١]، إذا عُمِل منها إكليلٌ ولبسه الرجلُ على رأسه ومشى أو عدا أو عمل عملًا لم يَنَمْ ما دام ذلك الإكليلُ على رأسِه، ولا ينالُه من ضرر السهرِ وضعفِ القوّة ما ينال من سهرٍ وعمل؛ وقال: وفي بلاد الإفْرَنْجَة شجرةٌ إذا قعد إنسانٌ تحتها نصفَ ساعةٍ من النّهار مات، وإن مسّها ماسٌّ أو قطع منها غصنًا أو ورقةً أو هزَّها مات؛ وفي جزيرةٍ من جزائر الصَّقالبة[٢] نباتٌ في قدر البَقْل، ورقُه يشبه ورقَ السَّذاب[٣]، إذا أُلقيَ الأصلُ منه بورقه وأغصانِه بعد غسلِه من التراب الذي فيه، وجُعِل في الماء البارد، وتُرِك فيه ساعةً من نهار، سَخُنَ ذلك الماء كسُخونتِه إذا أُوقِدتْ تحته النار، وكلّما دام فيه اشتدّت حرارتُه حتى لا يمكن أن يُمَسّ، وإذا خرج من الماء بَرَدَ الماء لوقتِه، وقال: في بلاد رُومِيَة شجرةٌ لطيفةٌ تنبُت على شاطىء نهرٍ هناك، ورقُها كورق الحِمَّص طولُها ذراعان، إذا جُمِعَ شيءٌ من ورقِها وأغصانِها ودُقَّ واعتُصِرَ ماؤه، وجُفِّفتْ العُصارة، فإن شرب منها رجلٌ مقدارَ دانِقٍ[٤] ونصفِ خمرٍ أنعَظ[٥] إنعاظًا شديدًا ويجامع ما شاء من غير كَلالٍ ولا ضُعف، فإذا أحبّ أن يزول ذلك الإنعاظُ عنه قام في ماءٍ باردٍ إلى نصفِ صدرِه ساعة، فإنّ ذلك يزول عنه، ويرجع إلى حالتِه الأولى؛ قال: وفي بلدٍ من بلاد الرّوم يقال له: (سفانطس) نباتٌ يرتفع عن الأرض نحوَ الذراع له ورقٌ كورق السِّلْق[٦]، الورقةُ نحو ذراع، وليس له ساقٌ يقوم عليها، إذا أُخِذ أصلُ هذا النّبات ـ وهو أصلٌ كبيرٌ مستديرٌ إلى الطُّول ـ وقُشِر وطُبِخ، وأَكَلَهُ الذي يُحَمّ زالت عنه الحمّى بعد أكلةٍ أو أكلتين أيّ حمّى كانت، وكذلك إن بُخّر بورقِه بعد

= الأشراف العلويّين، يمر بها نهر زيز، تمتاز بشهرة تمورها وغزل صوفها الذي يصنعون منه كل عجيب. انظر: معجم البلدان، لياقوت ٣/١٩٢، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٨٤.

(١) الغار: ضرب من الشجر ينبت في سواحل الشام والغور والجبال الساحلية، دائم الخضرة، يصلح للتزيين، ويصنع من زيته صابون زكي الرائحة، ومنه كانت تُصنَع أكاليل النصر والمجد.

(٢) الصقالبة: مجموعة من الشعوب تنتشر في أوروبا الشرقية والوسطى، والمقصود بهم هنا تلك الشعوب التي سكنت في صقلية بالبحر المتوسّط، وما يتبعها من جزر صغار. وقد وفد الصقالبة على بلاد المشرق والمغرب والأندلس وانخرط قسم منهم في الحياة العامة العربية.

(٣) السّذاب: جنس من النباتات الطّبّية، من الفصيلة السذّابية.

(٤) الدانق: وحدة وزن صغيرة قديمة. (٥) أنعظ: اشتدّت غلمته، وقوي ذكره وصلب.

(٦) السّلق: ضرب من البقل من فصيلة السّرمقيّات، أوراقه كبيرة غليظة، تؤكل وتطبخ.

تجفيفِه مرّةً أو مرّتين؛ قال: وببلاد الهند نباتٌ لا تُحْرِقه النار، وفيها شجرةٌ إذا قُطِع شيءٌ مِن أغصانها وأُلقيَ على الأرض تحرّك، وربّما سَعى كما تسعى الحيّات ودَبّ؛ وفيما يلي مَهبَّ الشّمال شجرةٌ تُسمَع منها في فصلَي الربيع والخريف همهمةُ إنسان يريد أن يتكلّم وربّما نطقت بلغة الهند كلمةً بعد كلمة، وتسمَّى هذه الشجرةُ شجرةَ الشَّمس، وصورتُها على صورة الإنسان؛ وفي بلاد التّاكِيَان[١] شجرةٌ تضيء باللّيل كالسِّراج، بحيث إنّ النّاسَ إذا سلكوا بقربها باللّيل استغنَوا بضوئها عن مصباح، ويسمّونها شجرةَ القمر. ومن الشجر والنّبات المشهور الّذي لا يوجد إلّا ببقاع مخصوصة: البَلَسان[٢]، وهو في أرض المطريّةِ على ساعةٍ من القاهرةِ المعزّية[٣]، في بقعةٍ مخصوصة معروفة، تُسقَى من بئرٍ مخصوصٍ هناك؛ والفُلْفُل، يقال: إنه لا يَنْبُت إلّا بالمَنِيبارات من بلاد الهند والمراد بالنّبات هنا: كمالُه وتحصيلُ مُغَلِّه، وإلّا فقد رأيتُه أنا وقد زُرع ببستانٍ بأرض (أُشْمُوم طَنَاح) من الدّيار المصريّة في سنة أربعٍ وتسعين وستّمائة، ونَبَت وصار نباتُه بقدر الذّراع، وكاد يَعْقِد الحَبّ، وأخْبَرَني من اختبره في غير هذه السنة المذكورة أنّه لا يَتِمّ عَقدُ حَبِّه ولا يتكوّن، وأنّهم يستعملون فروعَه في الطّعام فتقوم مَقامَ الفُلْفُل؛ وشجرُ الكافور[٤] لا يَنْبُت إلّا في بقاعٍ مخصوصةٍ يأتي ذكرُها إن شاء الله في موضعها من هذا الكتاب في هذا الجزء، وكذلك اليَبْرُوح[٥] الصَّنَميُّ لا يوجد إلّا في بلدٍ بعينه، والبابُ في هذا متّسع، وليس في استقصائه فائدةٌ توجب البحثَ عنه أو إيرادَه.

وممّا يناسب هذا الفصل ما حُكِي عن أبي بكر بنِ وحشيّةَ أيضًا أنّه إذا خُلِط بِزْرُ الكُرُنْبِ[٦] ببِزرِ السَّلْجَم - والسَّلْجَم، هو اللّفت - وتُرِكا ثلاثةَ أشهرٍ ثمّ زُرِعا خرج البِزْرُ كلُّه سَلْجما، فإذا أُخِذ من بِزْرِ هذا السَّلْجَم وزُرع خرج كُرُنْبا.

---

(١) التاكيان: اسم بلد في بلاد السّند.

(٢) البلسان: شجر زهره أبيض صغير كهيئة العناقيد. يستخرج من بعض أنواعه العطر.

(٣) المعزّية: نسبة إلى المعزّ لدين الله، معدّ بن المنصور، رابع الخلفاء الفاطميين والذي في عهده أسس قائده جوهر القاهرة التي غدت عاصمة الفاطميين.

(٤) الكافور: شجر من الفصيلة الغاريّة، يتخذ منه مادّة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مرّ، وهو أصناف كثيرة.

(٥) اليبروح: ضرب من الشجر غريب الشكل، كالصّنم. ثمره أحمر وهو طيّب الرائحة.

(٦) الكرنب: نبات ثنائي الحول من الفصيلة الصليبية، له ساق قصيرة غليظة وبرعم في الرأس، يلتفّ ورقه على بعضه البعض، وقد يسمّى في بلاد الشام بالملفوف.

وحُكِي عنه أيضًا أنّه إذا أُحرِق النُّعْنُعُ والجِرْجِيرُ[١] في موضعٍ ندٍّ[٢] بقرب شجرةٍ أو زَرْعٍ، وخُلِط الرَّمادُ بالتُّراب، وأُضيف إليهما قِشرُ بَيض الحمام، ودُفِن ذلك في الأرض على مقدارٍ دونَ الشِّبر، وصُبَّ عليه الماءُ أربعَة أيّام، ثمّ يُسقَى على عادة النُّعْنُع والجِرْجِير، أخرَج شجرَ الدُّلْب[٣]، فإذا نبت فليحوَّلْ ويُغْرَس في موضع آخَر، فإنّه يَثْبُت، وزعم أنّ ذلك لا يَتمّ إلّا أن يكون في نَيسانَ إذا قارب القمرُ الشّمسَ في بُرج الحَمَل أو الثَّور، والله أعلم.

وأمّا ما يستأصل النّباتَ الشاغلَ للأرض عن الغِراسةِ والزّراعة - فقد ذكر أبو بكر بنُ وحشيَّةَ من ذلك أشياءَ كثيرة، ثم قال: وأجوَدُ ذلك أن يُزْرَع البَنْج[٤] في الأرض الّتي تَنبُت فيها هذه الحشائش، ويُسقَى الماءَ، فإذا كَبُر وأزْهَرَ يُقْلَع، ويؤخذ التُّرْمُسُ[٥] وورقُ الخِلاف[٦] فيُلْقَيان على البَنجِ وهو رَطْب، ويُدَقّ الجميعُ جملةً حتّى يَختلط، ويُنثَر منه في تلك الأرض، فإنه يُحْرِق الثّيل[٧] والشَّوكَ وجميعَ الحشائش التي هي أعداء الزّرع؛ قال: أو يُسحَق التُّرْمُسُ وثمرُ الطَّرْفاءِ[٨] وورقُ الخِلافِ مع أغصانه سحقًا ناعمًا، ويُعتصَر ماءُ البَنْج الرَّطْبِ وماءُ ورقِ الآس[٩] ويُخْلَط الماءان، ويُبَلُّ بهما المسحوقُ يومًا وليلة، ثمّ يُصَبّ على الثّيلِ وعلى أصولِ الشَّوْك وغيرِ ذلك من الحشائش الدَّغِلة[١٠]، فإنّه يأكلها ويجفِّفها؛ قال: أو يُعْمَل مِعْوَلٌ من نحاس، ويُحْمَى بالنّار حتى يصيرَ كالجمر، ثم يُغْمَس في دم تيسٍ كما يُسقَى الحديد، يُصنع به

(١) الجرجير: بقل من الفصيلة الصليبية، حوليّ، ينبت في المناطق المعتدلة، في طعمه حرافة.
(٢) ندٌّ: فيه ندى ورطوبة.
(٣) الدلب: شجر كبير من فصيلة الدلبيات يعيش على ضفاف الأنهار ومجاري الماء.
(٤) البنج: نبات سام من فصيلة الباذنجانيات، أوراقه كبيرة لزجة، وزهره أبيض أو أصفر، أو منمّق بالبنفسجي يستعمل في الطبّ للتخدير.
(٥) الترمس: جنس نبات من فصيلة القطانيات، ساقه مستقيمة، وزهره بنفسجي، وقرونه عريضة كثيفة تضمّ حبّات مرّة الطعم بعد معالجتها بالنقع بالماء.
(٦) الخلاف: ضرب من النبات الضعيف السّاق يحمله السّيل فينبت خلافًا لأصله.
(٧) الثيل: نبات قضبانه طويلة فيها عقد كثيرة تمتدّ على الأرض، وقد يطلق عليه اسم النّجيل.
(٨) الطرفاء: جنس من النبات منه أشجار وجنبات من الفصيلة الطرفاويّة، ومنه الأثل.
(٩) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضيّ الورق، زهره ورديّ أو أبيض، وهو عطريّ الرائحة، ثماره سود تؤكل غضّة، وتجفّف فتكون من التوابل.
(١٠) الدّغلة: الملتفّة على بعضها البعض.

ذلك مرارًا، ثمّ يُقْطَع به الثِّيلُ والشَّوكُ والعَوْسجُ(١) والقصبُ وغير ذلك من الحشائش الكبارِ الغلاظِ المُضِرّة بالزرع؛ فإنّ كلَّ نباتٍ قُطِع به لا يَنْبُت بعد ذلك أبدًا، لكنّه متى أصاب المِعْوَلُ شيئًا من كرم أو نباتٍ فإنّه يؤذيه؛ قال: أو تُقلعُ أصولُ النّبات المُضِرّةُ بالزِّراعة والغِراسة، ويؤخذ الماءُ العَذْبُ فيُغْلَى في قِدْر نحاسٍ غليانًا جيّد مرارًا، يوقَد عليه بخشب الصَّنَوْبَر، ويُدَقّ الحِلْتِيتُ(٢) والخَرْدَلُ(٣) والخَرْبَق(٤) دقًّا ناعمًا، وتضاف إلى الماء، ويُصَبُّ منه وهو حارٌّ في الأصول التي قُلِعَت، فإنّ نباتَها لا يعود أبدًا؛ أو يُلقَى الزِّفتُ والخمرُ في ماءٍ عذبٍ، ويُغْلَى في قِدر نحاسٍ حتى يذوبَ الزّفت، ويُصَبُّ وهو حارٌّ في تلك الأصول المقلوعة، ومقدارُ ما يُصَبُّ منه في كلِّ أصلٍ ربعُ رِطْل؛ قال: وأمّا ما يَقْلَع الحَلْفاءَ(٥) فهو أن يُزْرَع التُّرْمُسُ والخَرْبَقُ في الأرض التي تظهر فيها، فإذا انتهيا في بلوغ غايتهما يُقْلَعان بأصولهما، ويُلْقَيان على الأرض، ويُضْرَبان بالخشب حتى يتهرّأ، ويُجْرَى عليهما الماء، ويُتْرَكان حتى يعفَنا، فإنّهما يأكلان أصولَ الحَلْفاء وما عداها من الحشائِش المضرّة؛ قال: ومن أراد قلعَ شجرةٍ عظيمةٍ لا يمكن الأكَرَة(٦) قلعُها، فليَحفِر حول أصلِها، فإذا انكشف صَبّ فيه خَلًّا قد أُغْلِيَ فيه الزِّفت، ثم يُطمَر بالتُّراب فإنه يُهرّىء ذلك الأصلَ ويفتّته وييبّسه، وإن كان يابسًا سقط بنفسه، والله أعلم.

الباب الثالث
من القسم الأوّل من الفنّ الرابع
في الأقوات والخَضْراوات

ويشتمل هذا البابُ على الحِنْطةِ والشّعيرِ والحِمّص والباقِلّى(٧) والأَرُزّ، وما قيل

---

(١) العوسج: جنس نبات شائك من الفصيلة الباذنجانية، له ثمر مدوّر يشبه خرز العقيق.
(٢) الحلتيت: ضرب من الصّموغ الراتنجيّة، يعرف باسم أبي كبير، ويستعمل في الطّب.
(٣) الخردل: نبات عشبي حرّيف من الفصيلة الصليبية، تستعمل بزوره في الطبّ، ومنه بزور يتبّل بها الطعام.
(٤) الخربق: نبات ورقه طويل ودقيق، زهره يميل إلى الحمرة.
(٥) الحلفاء: نبت ذو أطراف محدّدة تشبه أطراف سعف النخل، وهو ينبت في مفايض الماء.
(٦) الأكرة: جماعة الفلاحين أو الحراثين الذين يعملون في الأرض، والمفرد أكّار.
(٧) الباقلّى والباقلّا: نبات عشبيّ حوليّ، تؤكل قرونه مطبوخة، وكذلك بذوره، مثل الفول واللّوبياء، وقد يطلق على الفول نفسه.

في الخَشْخَاشِ[١] والكَتّانِ والشَّهْدانِجِ[٢] والبِطِّيخِ والقِثّاءِ والخيارِ والقَرْعِ[٣] والباذِنْجَان والسِّلْقِ والقُنَّبِيط والكُرُنْبِ والسَّلْجَمِ والفُجْلِ والجَزَرِ والبصلِ والثُّوم والكُرّاثِ والرّيباسِ[٤] والهَلْيُون[٥] والهَنْدَبا[٦] والنُّعْنَعِ والجِرْجِيرِ والسَّذابِ والطَّرْخُونِ[٧] والإسْفاناخِ والبقلةِ الحَمْقاءِ والحُمّاضِ والرازِيَانَجِ والكَرَفْسِ[٨].

فأمّا الحِنطةُ وما قيل فيها - فقد حَكَى الشيخُ أبو الحسن الكسائيّ[٩] - رحمه الله - في بدء الدنيا، أنّ الحَبّةَ أوّلَ ما خرجتْ من الجنّة كانت قدرَ بَيض النّعامَ، ألْيَنَ من الزُّبْد، وأحلى من العسل، ولم تزل زاكيةً زمَن آدمَ وشيثَ[١٠] - عليهما السلام - إلى زمن إدريس[١١] عليه السلام فلمّا كثر الناسُ نَقَص الحَبُّ عن مقدارِه إلى أصغرَ منه، ثمّ كان كذلك إلى أيام فرعونَ، فنَقَص عن مقدارِه إلى أيام إلياسَ[١٢] عليه السلام، ثم نَقَصَ حتى صار قدرَ بَيض الدَّجاج إلى أيّام عيسى ابن مريم عليه السلام، فنَقَص في زمنه حتى صار مِثلَ بَيض الحمام، إلى أن قُتِل يحيىٰ بن زكريّا عليهما السلام، فصار قدرَ البُنْدُق، فكان كذلك إلى أيّام

(١) الخشخاش: ضرب من النّبت المخدّر.
(٢) الشهدانج: لفظ فارسي معرّب، قد يكون التنوّم، بالعربية.
(٣) القرع: جنس نبات زراعي من الفصيلة القرعية، يزرع لثماره التي تؤكل، وتطبخ، وللتزيين كذلك، والواحدة منه قرعة.
(٤) الريباس: نبات يشبه السلق، طعمه حامض في حلاوة.
(٥) الهليون: جنس نبات من الفصيلة الزنبقية، فيه نوع زراعي مشهور، يُزرع لأكله ومنه نوع يستخدم للزينة، وثالث للبقل.
(٦) الهندبا: بقل زراعي حوليّ، من الفصيلة المركّبة، ورقه يطبخ، وقد يجعل منه «سلطة».
(٧) الطرخون: بقل زراعي معمّر من الفصيلة الأنبوبية، أوراقه تصلح للتوابل.
(٨) الكرفس: بقل من فصيلة الخيميّات، منه ما هو للزراعة الغذائية، ومنه ما هو طبّيّ بحت. وثمة نوع منه تؤكل جذوره، واللفظة سريانية، غير عربية.
(٩) الكسائي: أبو الحسن، نحوي مشهور، وأحد القرّاء السبعة، أدّب الأمين والمأمون ولدي الرشيد، من كتبه كتاب «ما تلحن فيه العامّة». مات سنة ١٧٩ هـ. انظر: الفهرست، ص ٤٤.
(١٠) شيث: هو ثالث أبناء آدم وحوّاء.
(١١) إدريس: هو النبيّ الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، من نسل شيث بن آدم، إليه تنسب العلوم العلويّة والسرّيّة، وعلوم الحكمة والنجوم. انظر: القفطي في: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣، دار الآثار، بيروت.
(١٢) إلياس: اسم نبيّ من الصدّيقين ورد ذكره في القرآن الكريم.

عُزَيْر[١]، فلمّا قالت اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبَة: الآية ٣٠]، نَقَصَ إلى ما ترى، وقيل: بل صار قدرَ الحِمّص، ثمّ صار إلى هذه الغاية.

وقال وهبُ بنُ منبِّه[٢]: وكان الزرعُ في زمن آدمَ عليه السلام على طول النخل.

وقال الشيخُ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا[٣]: أجوَدُ الحِنْطةِ المتوسّطةُ في الصّلابة العظيمةُ السَّمينةُ المَلْساء، التي بين الحمراء والبيضاء، والحِنْطةُ السوداءُ رديئةُ الغِذاء، وطبعُ الحِنطةِ حارٌّ معتدلٌ في الرّطوبة واليُبوسة، وسَوِيقُها[٤] إلى اليُبْس، وهو بطيءُ الانحدار، كثيرُ النَّفْخ، لا بدّ من حلاوةٍ تَحْدُره بسرعة، وغسلٍ بالماء الحارِّ حتى يُزيل نَفْخَة؛ وقال في الأفعال والخواصّ: الحِنطةُ الكبيرةُ والحمراءُ أكثرُ غذاء، والحِنطةُ المسلوقةُ بطيئةُ الهضم نَفّاخة، لكنّ غِذاءَها إذا استُمْرِئتْ[٥] كثير؛ والحُوّارى[٦] قريبٌ من النَّشا، لكنّه أسخَن؛ والنَّشا باردٌ رَطْبٌ لَزِج، قال: والحِنْطةُ تنقّي الوجه، ودقيقُها والنّشا خاصةً بالزّعفران دواءٌ للكَلَف[٧]؛ قال: والحِنْطةُ النِّيئةُ والمطبوخةُ المسلوقةُ من غير طَحْنٍ ولا تهرئةٍ كالهَريسة، والهَرِيسةُ إن أُكِلَتْ وَلّدتْ الدّود، قال: والحِنطةُ مدقوقةً مذرورةً على عضّةِ الكَلْب الكَلِب نافعة.

وأمّا الشَّعير، فقد قال الشيخُ الرئيس: طبعُ الشَّعير باردٌ يابسٌ في الأُولى وهو جِلاء، وغِذاؤه أقلُّ من غِذاء الحِنطة، وماءُ الشَّعير أغْذَى من سَوِيقِه، وكلاهما يَكْسِر حِدّةَ الأخلاط، وهو نافخ، قال: وإذا طُبِخَ بخَلٍّ ثَقِيفٍ[٨] ووُضِع ضِمادًا[٩] على

---

(١) عزير: كاهن يهودي، وشريف من أشرافهم، يعرف باسم عزرا، تشفّع لدى قورش ملك الفرس، للشعب اليهودي، ينسب إليه سفر يعرف بسفر عزرا، وضع في القرن الخامس قبل الميلاد.

(٢) وهب بن منبّه: أحد المؤرخين القدامى، اشتهر بتتبعه أخبار الأنبياء الأقدمين، ولد ومات بصنعاء سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م، له كتاب «التيجان في ملوك حمير».

(٣) ابن سينا: كنيته أبو علي، أحد كبار الفلاسفة والأطباء والعلماء في الإسلام، عرف بالشيخ الرئيس، ولد في أفشنة قرب بخارى وتوفي بهمذان سنة ١٠٣٧ م، له في الحكمة والتصوف والفلسفة والطبّ العديد من الكتب، أهمّها: القانون، والشفاء، والنجاة، والإشارات والتنبيهات، والحدود.

(٤) السويق: الناعم من دقيق الحنطة أو الشعير. (٥) استمرئت: استطيبت وكانت شهيّة مريئة.

(٦) الحوّارى: الدقيق الأبيض، وكل ما حورّ به وبُيّض.

(٧) الكلف: تغير في بشرة الوجه، حيث تميل إلى الكدرة والسواد والصفرة والحمرة.

(٨) الثقيف: الحامض. (٩) الضماد: ما يضمّد به الجرح ويعالج.

الجرب المتقرّح أبرأه، ويُضْمَد به مع السَّفَرْجَل والخَلّ على النِّقْرِس[١]؛ ويَمنع سيلانَ الفُضول إلى المفاصل، قال: وماؤه ينفع من أمراض الصدر؛ وإذا شُرِب ببِزْر الرازِيانج أغزَر اللّبن؛ ويُضْمَد بدقيقِه[٢] وإكليلِ المَلِكِ[٣] وقِشر الخَشْخَاشِ لوجع الجنب[٤]، قال: وماؤه رديءُ للمعدة، وسَوِيقُه يُمْسِك البطنَ، وماؤه مبرِّدٌ يُرطِّب الحُمِّيات: أمّا للحارّة فساذِجًا[٥]، وأمّا للباردة فمع الكَرَفْس والرّازِيانَج، والله أعلم.

وأمّا ما وَصَف به الشعراءُ الزّرعَ وشبّهوه به ـ فمنه قولُ القاضي عِياض[٦]: [من السريع]

أُنظُرْ إلى الزرعِ وخاماتِه ... تَحكِي وقد مالت أمامَ الرّياحْ
كتائبًا تَجفِلُ مهزومةً ... شقائقُ النُّعمانِ[٧] فيها جِراحْ

وقال ظافر الحدّادُ الإسكندَري: [من المتقارب]

كأنّ سنابلَ حَبِّ الحَصيد ... وقد شارفتْ وقتَ إبّانِها
مَكانسُ مضفورةٌ[٨] رُبِّعت ... وأرخِيَ فاضلُ خيطانِها

وقال ابنُ رافع: [من المنسرح]

أُنظرْ إلى سُنبلِ الزُّروعِ وقد ... مرّتْ عليه الجَنُوبُ والشَّمَلُ[٩]
كأنّه البحرُ في تموّجِه ... يعلو مرارًا به ويَستفِلُ

---

(١) النقرس: مرض مؤلم يصيب مفاصل القدم، الإبهام خاصة، وكان يعرف بداء الملوك.
(٢) الدقيق: الطحين.
(٣) إكليل الملك، ضرب من الحشائش البرّية، زهرها أصفر، وطعمها مرّ، أمّا الرائحة فهي عطريّة ذكيّة.
(٤) الجنب: الشّق، والجنب، والخباب، وذات الجنب، التهاب رئوي يحدث سعالًا حادًا ينخس الجنب عند التنفس.
(٥) ساذجًا: لوحده.
(٦) عياض: هو عياض المعروف بالقاضي، من علماء المغرب بالحديث والأدب والتاريخ. تولّى قطاء غرناظة وسبتة. ومن مصنّفاته «مشارق الأنوار» و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى». مات سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م.
(٧) شقائق النعمان: جنس نبات عشبي من فصيلة الحوذانيات أو الشقيقيات، لونه أحمر، وينسب إلى النعمان بن المنذر، ملك الحيرة، فهو أوّل من عمل على استنباته في البساتين.
(٨) مضفورة: مفتولة.
(٩) الشمل، والشمال، واحد، وهي الرّيح التي تهب من الشمال، بخلاف ريح الجنوب.

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

يا حبّذا سُنبلةٌ   تبدو لعين المبصرِ
كأنّها سِلْسِلةٌ   مضفورةٌ من عنبرِ[١]

وأمّا الحِمَّص - فقال الشيخ الرئيس أبو عليٍّ بنُ سينا في (كتاب الأدوية المفردة): الحِمَّصُ أبيضُ وأحمرُ وأسودُ وكِرْسنّيّ[٢]؛ ومن الأصناف بستانيٌّ وبَرّيّ والبَرّيُّ أحدُّ وأمرُّ وأشدُّ تسخينًا، ويَفعَل أفعالَ البستانيِّ في القوّة، ولكنّ غِذاءَ البستانيِّ أجوَدُ من غِذاء البَرّيّ، وقال في طبعه: الأبيضُ حارٌّ يابسٌ في الأُولى، والأسوَدُ أقوى؛ وقال في خواصّه: كلاهما مفتِّح مليِّن، وفيه تقطيع، ولا شيءَ في أشكالِه أغذَى منه للرِّئة، ورَطْبُه أكثرُ توليدًا للفُضول من يابِسِه؛ قال: والحِمَّصُ يجلو النَّمَش[٣]، ويحسِّن اللَّون طِلاءً وأكلًا، وينفع من الأورام الحارّةِ والصُّلْبةِ وسائِر الأورامِ وما كان منها في الغُدَد، ودُهنُه ينفع من القُوباء[٤]، ودقيقُه للقروح الخبيثةِ والسَّرَطانيَّة والحِكّة؛ قال: وينفع من وجع الظهر، ومن البُثُورِ[٥] الرَّطْبةِ في الرأس؛ ونَقيعُه ينفع من وجع الضِّرس وأورام اللِّثة الحارّةِ والصُّلْبة، والأورام الّتي تحت الأذنين؛ قال: وهو يصفِّي الصّوت؛ قال: وطبيخُه نافعٌ للاستسقاء[٦] واليَرَقان[٧] ويفتِّح سُدُدَ الكَبِد والطِّحال، خصوصًا الكِرْسِنّيَّ والأسوَدَ، قال: ويجب ألّا يؤكَلَ الحِمَّص في أوّل الطعام ولا في آخره، بل في وسطِه؛ قال: وطبيخُ الأسودِ يفتّت الحَصاةَ في المَثانةِ والكُلَى بدُهن اللّوزِ والفُجْلِ والكَرَفْسِ، وجميعُ أصناف الحِمَّصِ تُخْرِج الجَنِين، وهو رديءٌ لقروحِ المَثانة؛ ويزيد في الباه[٨] جدًّا، ونَقيعُه إذا شُرِب

(١) العنبر: مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلّا إذا سحقت أو أحرقت، وهذه المادة يفرزها حيوان بحري ثديي يحمل الاسم نفسه.
(٢) الكرسني والكرسنّة: نبات عشبي من فصيلة القطانيات، له حبّ في غُلُف تعلفه الحيوانات، ولا سيما البقر والضّأن.
(٣) النمش: نقط بيض أو سود أو بُقع تقع في الجلد، ولا سيّما في جلد الوجه، وهي تخالف لون الجلد نفسه.
(٤) القوباء: داء يصيب الجلد فيتقشّر، ويعرف بالخزاز.
(٥) البثور: الخراجات الصغيرة، والقروح.
(٦) الاستسقاء: داء يصيب الجسم، وهو عبارة عن تجمّع سوائل مصلّية في تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد وخلاياه.
(٧) اليرقان: مرض يصيب الإنسان وهو عبارة عن امتناع بلوغ الصفراء المعى بسهولة، فتختلط بالدم فتصفرّ بسبب الأنسجة.
(٨) الباه: منيّ الرّجل.

على الرّيق أنْعَظ بقوّة، وكلُّه مليّنٌ للبطنِ؛ وقال بعضهم: إنّه إن نُقِع في الخَلِّ وأُكِل منه على الرّيق، وصُبِر عليه نصف يومٍ قَتَل الدّود.

وأمّا الباقِلّى ـ فقد قال فيه الشيخ الرئيس: منه مصريّ، ومنه نَبطيّ والنَّبَطيّ أشدُّ قبضًا، والمصريُّ أرطَبُ وأقلُّ غِذاء، والرَّطْبُ أكثرُ فُضولًا؛ قال: ولولا بطءُ هضمِه وكثرةُ نفخِه ما قَصَر في التغذيةِ عن كَشْكِ[١] الشَّعير، بل دمُه أغلظُ وأقوَى؛ قال: وأجوَدُه السَّمينُ الأبيضُ السالمُ من السُّوس، وأردأه الطريُّ، وإصلاحُه إطالةُ نَقعِه وإجادةُ طبخِه وأكلُه بالفُلْفُل والملحِ والحِلْتِيتِ والصَّعْتَر وطبعُه قريبٌ من الاعتدال، ومَيْله إلى البَرْدِ واليُبْسِ أكثر؛ وفيه رطوبةٌ فَضْليّة خصوصًا في الرَّطْب منه؛ قال: والقومُ الّذين يجعلون بَرْدَ الباقِلّى في الدرجة الثانيةِ يُفْرِطون.

وأمّا أفعالُه وخواصُّه ـ فإنّه يجلو قليلًا، وينفخ، والمقليُّ منه قليل النَّفْخ، ولكنّه أبطأ انهضامًا، والمطبوخُ في قِشرِه كثيرُ النّفخ، والنَّبَطيُّ أشدُّ قبضًا ولا يجلو؛ قال: والباقِلّى يولِّد أخلاطًا غليظة، وقد قَضَى أبُقْراطُ[٢] بجُودةِ غِذائه وإذا قُشِر وشُقَّ نصفين ووُضع على نَزْفٍ[٣] قطعَه، ومن خواصِّه أنّه يقْطَع بَيْضَ الدَّجاج إذا عُلِفتْ منه، وأنّه يُرِي أحلامًا مشوَّشة، وأنّه يُحدِث الحِكّة، خصوصًا طريُّه، ومن خواصِّه أنّه إذا ضُمدت به عانةُ[٤] الصَّبيّ مَنَع نباتَ الشَّعر، وكذلك إذا كُرِّر على الموضع المحلوق، ويجلو البَهَق[٥] من الوجه والكَلَف والنَّمَش، ويحسِّن اللّون لا سيّما مع قشورِه، وإذا ضُمِد به بالسذاب على الخُصْية نَفَع ورمها، وينفع من تشنّج المَفصِل، ويُضْمَد بمطبوخِه النِّقْرِس مع شحم الخِنزير، وإن خُلِط مع عسلٍ ودقيقِ الحُلبةِ نَفَع من أورام الحَلْق؛ وضِمادُه جيّدٌ لورم الثّدي وتجبُّن اللّبن فيه؛ والمطبوخُ منه بخَلّ وماءٍ ينفع من الإسهالِ المُزمِن، وخصوصًا إذا كان بقشرِه، وينفع من السَّحج[٦]، ولا سيّما النّبَطيّ، وسَويقُه أيضًا ينفع من ذلك حَسْوًا وضِمادًا هذا ما قاله فيه.

(١) الكشك: ماء الشعير، واللفظة فارسية.

(٢) أبقراط: أحد ألمع أطباء اليونان الكبار في القديم، عرف عنه استقامته وأخلاقه الرفيعة في علاج المرضى، والقَسَم الذي يؤدّيه الأطبّاء اليوم غبّ تخرّجهم من الجامعات يعرف بقسم أبقراط عينه. توفي نحو ٣٧٧ ق.م.

(٣) النزف: سيلان الدم وعدم انقطاعه.

(٤) العانة: منبت الشعر في أسفل البطن، وفوق الفرج وحواليه.

(٥) البهاق والبهق: داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بقع بيض مشوّهة.

(٦) السحج: ضرب من الأمراض في الأمعاء.

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه به ـ فمن ذلك قولُ الصَّنَوْبَرِيّ[١]: [من الوافر]

فـصـوصُ زمـرّدٍ فـي غُـلْفِ دُرٍّ   بـأقـمـاعٍ حـكـتْ تـقـليـمَ ظُـفْـرِ
وقـد خـاط الـرّبـيـعُ لـهـا ثـيـابًا   بـديـعَ اللّون مـن خُـضْـرٍ وصُـفْـرِ

وقال أيضًا فيه: [من الكامل]

ونبـاتِ بـاقـلّاء يُـشـبِـه نَـوْرُهـا[٢]   بُلْقَ الـحـمـامِ[٣] مُـشـيـلةً أذنـابَـهـا

وقال العسكريّ[٤]: [من الهزج]

ويُـــزْهَـــى وَردُ بـــاقـــلّى   كـأطـواق الـشَّـفـانِـيـنِ[٥]

وقال أبو الفتح كُشاجِم[٦]: [من الرجز]

وبـــاقـــلَاءَ حَـــسَـــن الـــمـــجـــرَّدِ   مِسْكِ الثَّرَى شَهْدِ الجَنَى[٧] غَضٍّ نَدِي
كـالـعِـقْـدِ إلّا أنّـه لـم يُـعْـقَـدِ   أو الـفـصـوصِ[٨] فـي أكـفِّ الـخُـرَّدِ[٩]
أو كـبـنـاتِ الـلّؤلـؤ الـمـنـضّـدِ   فـي طـيِّ أصـدافٍ مـن الزّبـرجـدِ[١٠]

(١) الصنوبري: واسمه أحمد، من شعراء البلاط الحمداني في حلب. مدح سيف الدولة الحمداني، وأشهر أشعاره تلك التي يصف فيها مفاتن الطبيعة، والزهور، والرياض والجنائن، وتعرف بالروضيات. مات سنة ٩٤٦ م.
(٢) نورها: زهرها.
(٣) بلق الحمام: الحمائم التي في ألوانها سواد وبياض.
(٤) العسكري: هو أبو هلال الحسن، الأديب والشاعر، وصاحب المصنّفات الكثيرة، وأهمها: كتاب الصناعتين، وجمهرة الأمثال، والفروق في اللغة، له ديوان شعر مطبوع، مات سنة ١٠٠٥ م.
(٥) الشفانين: ضرب من الحمام البرّي.
(٦) كشاجم: أبو الفتح محمود، الشاعر والأديب والمنشىء، فارسي الأصل، أقام في حلب ومدح الحمدانيين، من كتبه أدب النديم، وله ديوان شعر مطبوع، مات سنة ٩٦٠ م.
(٧) شهد الجنى: العسل الصافي.
(٨) الفصوص: جمع فصّ، وهو ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة.
(٩) الخرّد: جمع خريدة، وهي الفتاة البكر، والحيّة الطويلة.
(١٠) الزبرجد: ضرب من الحجارة الكريمة تشبه الزمرّد، وأشهره ما كان أخضر اللّون.

وقال فيه أيضًا: [من الكامل]

وكـأنّ وَردَ الـبـاقـلّاءِ دراهـمٌ   قد ضُمِّختْ[(١)] أوساطُها بالعنبرِ
وكـأنّه من فوقِ مَتْنه غصونِه   يرنو بمقلةِ أقبَلٍ[(٢)] أو أحورِ[(٣)]

وقال أيضًا: [من الرجز]

ولاحَ وَردُ الـبـاقـلّاءِ نـاظـرًا   عن مقلةٍ تفتح جفنًا عن حَوَرْ

وقال أبو طالب المأمونيّ: [من مجزوء الرجز]

وبـاقـلاءَ أزهَـرِ[(٤)]   مِثلِ سُموطِ[(٥)] الجوهرِ
تـضـمُّـه أوعـيـةٌ   مِثلُ الحرير الأخضر
أوساطُه مُخطَفةٌ[(٦)]   مِثل خُصورٍ ضُمَّرِ
أطـرافُـه مـذروبـةٌ[(٧)]   مسروقةٌ من أنسُرِ
فـطـرَفٌ كـمِـخْـلَبٍ[(٨)]   وطَرَفٌ كـمِـنْـسَـرِ[(٩)]

وقال ابنُ وكيع التِّنّيسيّ[(١٠)]: [من الرجز]

كـأنّ وَردَ الـبـاقِـلاءِ إذ بـدا   لـنـاظـرِيه أعـينٌ فـيـهـا حَـوَرْ
كمِثلِ ألحاظ اليَعافِيرِ[(١١)] إذا   روَّعَها مِن قانصٍ فرطُ الحَذَرْ
كـأنّـه مَـداهـنٌ مـن فـضّـةٍ   أوساطُها بها من المِسك أثَرْ

---

(١) ضمّخت: خلطت.
(٢) الأقبل: من فيه قبل، وهو إقبال سواد عينه على أنفه، أو هو إقبال نظر كلّ من العينين على الأخرى.
(٣) الأحور: من فيه حور، وهو شدّة سواد العين وبياضها معًا، وهو كناية عن الحبيب.
(٤) الأزهر: الأبيض.   (٥) سموط الجوهر: عقودها.
(٦) مخطفة: ضامرة.   (٧) مذروبة: محدّدة.
(٨) المخلب: الظفر، لكلّ سبُع.
(٩) المنسر: هو للطير الجارح، كالنسر وغيره، كالمنقار للطير غير الجارح.
(١٠) ابن وكيع: واسمه الحسن، من شعراء مصر، له ديوان شعري، وله كتاب «المنصف» وهو يتناول سرقات المتنبّي. مات سنة ١٠٠٣ م.
(١١) اليعافير: جمع يعفور، وهو الظبي الذي لونه كلون العفر، أي التّراب.

وقال أيضًا فيه: [من المجتثّ]

كـــــأنّ أوراقَ وَرْدٍ لـلـبـاقِـلاءِ بـهـيّـهْ
خـواتـمٌ مـن لُجَـيْـنٍ فـصـوصُـهـا حبشيّهْ

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

لـي نـحـوَ وَردِ الـبـاقِـلا إدمـانُ لـهـوٍ ولَهَـجْ[١]
كـأنّـمـا مُـبـيـضُّـه يـلوح مـن ذاك الـدَّعَـجْ[٢]
خـواتـمٌ مـن فـضّـةٍ فيها فُصوصٌ من سَبَجْ[٣]

وأما الأرُزّ ـ قال الشيخ: هو حارٌّ يابس، ويُبسُه أظهرُ من حرِّه، وقالوا: إنّه أحرُّ من الحِنطة، وهو يغذو غذاءً صالِحًا، وإذا طُبِخَ باللّبن ودُهِن اللّوز كان غِذاؤه أكثرَ وأجوَدَ، وسَقَط تجفيفُه وعَقْله[٤]، وخصوصًا إذا نُقِع ليلةً في ماء النُّخالة، قال: وفيه جِلاء، ومطبوخُه بالماء يَعْقِل، والمطبوخُ باللّبن يزيد في الباه ولا يَعْقِل، ولم أقف على شيءٍ من الشّعر فيه فأُورِدَه.

وأمّا الخَشخاشُ وما يُنتَج عنه مِن عُصارته ـ فقال الشيخ الرئيس: وعُصارةُ الخَشخاش المصريِّ الأسوَدِ هي الأفيون، قال: والمختارُ منه الرّزينُ الحادُّ الرائحةِ الهَشُّ السَّهلُ الانحلالِ في الماء، لا ينعقد في الذَّوْب وينحلُّ في الشّمس، والأصفرُ منه الصّافي اللّون الضعيفُ الرائحة مغشوش، وغِشُّه بالمامِيثا[٥]، وهو يُغَشّ بلبن الخَسّ البَرّيّ، ويُغَشّ بالصَّمْغ فيكون برّاقًا صافيًا جدًّا، وطبعُه باردٌ يابسٌ في الرابعة، وأفعالُه وخواصُّه، هو مخدِّرٌ مسكِّنٌ لكلّ وجع سواءٌ شُرِبَ أم طُلِيَ به، والشَّرْبةُ منه مقدارُ عَدَسةٍ كبيرة، ولا تُزاد شربتُه على دانِقين، ويَمنع الأورامَ الحارّة، وفيه تجفيفٌ للقُروح، «وإذا طُلِيَ به باللّبن سكّن وجعَ النِّقْرِس»؛ قال: وأمّا أفعالُه في الرأس، فهو منوِّم، وإذا أُذيب بدُهنِ الوَرْدِ وقُطِر منه في الأذن سكّن وجعَها إذا أضيف إليه المرّ[٦] والزّعفران[٧]، ويسكّن

(١) اللّهج: الولع بالشيء، واعتياده والمثابرة عليه.
(٢) الدعج: ويكون في العينين، وهو شدّة سوادهما مع اتّساعهما.
(٣) السبج: الخرز الأسود. (٤) عقله: فعل العقل منه، أي إمساكه.
(٥) الماميثا: ضرب من النبت يشبه الخشخاش، زهره أزرق، وفيه رطوبة ولزوجة.
(٦) المرّ: صمغ شجر يتّخذ دواء.
(٧) الزعفران: نبات بصليّ معمّر من فصيلة السوسنيّات، منه أنواع برّيّة، ونوع صبغيّ يستخدم في=

الصُّداع[١] المزمن، ويسكِّن السُّعالَ المبرِّح[٢]، وهو يحبس الإسهال، وينفع من السَّحْج وقروحِ الأمعاء، وإذا عُدِم كان بدلَه ثلاثةُ أضعافِه من بِزْرِ البَنْج وضِعفُه من بِزْرِ اللُّفّاح[٣].

وأمّا ما وُصِفَ به من الشِّعر ـ فمن ذلك قولُ الشِّمْشاطيّ[٤]: [من الطويل]

وخضراءَ قد نِيطَتْ[٥] على حُسْنِ حالِها
بإكليلِها لمّا استطالت قَناتُها
مضمَّنةً حَبّاتِ دُرٍّ كأنّها
لهم خيرُ ما أمٍّ وهنّ بناتُها

وقال الحَصْكَفِيّ[٦]: [من البسيط]

وغادةٍ زاد فيها اللّحظُ تكريرَا ... قَدْ يُضيف إلى التأنيث تذكيرَا
لها على الرأس إكليلٌ يحيط به ... أو جُمَّةٌ[٧] قُصَّ أعلاها شَوابيرَا[٨]
كأنّها قُبَّةٌ من فوقِها شُرَفٌ ... جَوفاءُ قسّمها الباني مَقاصيرَا[٩]
حُبلَى بعدّة أولادٍ وما افترِعَتْ[١٠] ... عَذْراءُ تَحْكِي لنا العَذْراءَ تطهيرَا

= الطب، ولونه بين الحمرة والصفرة.

(١) الصّداع: وجع الرأس.

(٢) المبرّح: الشديد والمؤلم.

(٣) اللفاح: نبات من فصيلة الشفويات، أوراقه كثيرة، وتظهر منه في أواخر الشتاء عنبيّات صفر طيّبة الرائحة.

(٤) الشماشطي: نسبة إلى شميشاط أو سميساط، المدينة السورية القديمة على نهر الفرات إلى الجنوب من تركيا، كانت مزدهرة في العهد الروماني، ونبغ منها كثيرون. انظر: معجم البلدان، لياقوت ٣/ ٣٦٢.

(٥) نيطت: علّقت وربطت.

(٦) الحصكفي، علاء الدين محمد: من الفقهاء الحنفيين الدمشقيين، له أشعار وعدة شروحات ومؤلّفات أهمها: «إفاضة الأنوار على أصول المنار» و«الدرّ المختار في شرح تنوير الأبصار». مات سنة ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧ م.

(٧) الجمّة: مجتمع شعر النّاصية.

(٨) شوابيرا: ربما كانت اللفظة فارسية، وقد تكون هذه القصّة للشعر مثالًا احتذوه من سابور، ملك الفرس في القديم، وعلى هذا تكون شوابير، جمع شابور أو سابور.

(٩) المقاصير: جمع مقصورة، وهي الحجرة الخاصة المفصولة عن الغرف المجاورة فوق الطبقة الأرضيّة.

(١٠) افترعت: افتضّت بكارتها.

تَـضُـمّ شَـمـلَ أُطَـيـفـالٍ إذا دَرَجُـوا ... رأيـتَ شَـمْـلَـهـم الـمـنـظـومَ مـنـثـورَا
عهدي بها فوق ساقٍ تَرجحنَّ[1] بها ... زمـرّدًا[2] ثـم عـادت بـعـدُ كـافـورَا

وقال ابنُ وَكيع: [من الوافر]

وخَـشـخـاشٍ كـأنَّـا مـنـه نَـفْـرِي[3] ... قـمـيـصَ زبـرجـدٍ عـن جـسـمِ دُرِّ
كـأقـداحٍ مـن الـبَـلُّـورِ صِـيـنـت ... بـأغـشـيـةٍ مـن الـدِّيـبـاج[4] خُـضْـرِ

وأمّا الكَتّانُ وما قيل في بِزْرِهِ وتشبيهِه ـ فقال الشيخ الرئيس: بِزْرُ الكتّان حارٌّ في الأُولى، معتدلٌ في الرّطوبة واليُبوسة، وإنّه مع النَّطْرون[5] والتِّينِ ضِمادٌ للكَلَف والبُثُور اللَّبَنيّة، وينفع من تَشنُّج الأظفار وتَشقُّقها وتَقَشُّرِها إذا خُلِط بشَمَع وعسل، ودخانُه ينفع من الزُّكام، وكذلك دُخانُ الكتّان، وينفَع من السُّعال البَلْغَميّ، وخصوصًا المحمَّصَ منه، وهو رديءٌ للمعدة، عَسِرُ الهَضْم، ومقليُّه يَعْقِلُ البطن؛ وإذا طُبِخَ وجُلِس فيه نَفَع من لذعٍ يكون في الرَّحِم وأورام؛ وكذلك الأمعاء، وينفع من قُروح المَثانة والكُلْية، قال: وطبيخُ بِزْرِ الكَتّان إذا حُقِن به مع دُهِن الوَردِ عظمتْ منفعتُه في قُروح الأمعاء.

«ونباتُ الكَتّان في غاية ما يكون من البهجةِ والنَّضارةِ وحُسْنِ الألوان».

وقد وصفه الشعراءُ بأوصافٍ وشبَّهوه بأشياءَ، فمن ذلك قولُ ابنِ الرّوميّ[6]: [من الطويل]

وجِلْسٍ[7] من الكتّان أخضرَ ناضرٍ ... يـبـاكـره دانـي الـرَّبـابِ[8] مَـطـيـرُ
إذا دَرَجـتْ فـيـه الـرّيـاحُ تـتـابـعـت ... ذوائـبُـه[9] حـتّـى يـقـالَ غَـديـرُ

---

(١) ترجحن: تتمايل.
(٢) الزمرّد: حجر كريم أخضر اللون شفّاف، وأشدّه جودة أشدّه خضرة وأصفاه جوهرًا.
(٣) نفري: نفتّت ونشقّق.
(٤) الديباج: ضرب من الثياب، سداه ولحمته من الحرير.
(٥) النطرون: البورق، وهي لفظة يونانية.
(٦) ابن الرومي: هو أبو الحسن عليّ بن العباس بن جريج، من شعراء العصر العباسي الثاني، ولد في بغداد سنة ٢٢١ هـ/ ٨٣٦ م، ولم يفارقها إلّا قليلًا. رزىء بفقد أولاده وزوجته، وظهرت عليه ملامح الطيرة والتشاؤم، ولطالما حبس نفسه في بيته فلا يخرج منه لتطيّره وتشاؤمه. انظر: زهر الآداب، للحصري ٢/٩٦. (هامش العقد الفريد)، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.
(٧) الحلس: ما يبسط في البيت من حصير أو كتّان ونحوه، تحت كريم المتاع.
(٨) الرباب: السحاب الأبيض.
(٩) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلى الشيء، وشعر مقدّم الرأس.

وقال أبو الفتح كُشاجِم: [من الوافر]

كـأنّـمـا الـكَـتّـان فـيـه إذ عَـقَـدْ ونَشَر الأوراقَ زرقًا في الجددْ[١]

* آثارُ قَرْصٍ من مـحبٍّ في جسدْ *

وقال ابنُ وَكِيع: [من الطويل]

ذوائبُ كَتّانٍ تَمَايَلُ في الضحى على خضرِ أغصانٍ من الرِّيِّ[٢] مُيَّدِ[٣]

كأنّ اصفرارَ الزَّهر فوق اخضرارِها مَداهنُ تِبرٍ رُكِّبتْ في زبرجدِ[٤]

وقال آخَرُ في الأزرق: [من المجتثّ]

كـأنّـه حـيـن يـبـدو مَـداهـنُ الـلّازوَردِ[٥]

إذا الـسـمـاء رأتـه تـقـول هـذا فِـرِنـدِي[٦]

وأمّا الشَّهْدانِج ـ ويقال فيه: الشاهْدانِق ـ فورقُه الحشيش، وهو بِزْرُ شجرة القُنَّب؛ قال الشيخ الرئيس: ومن الشَّهْدانِج بستاني معروف، ومنه برّيّ، قال حُنَيْن[٧]: إن البَرّيَّ شجرة تخرج في القِفار على قدرِ ذراع، ورقُها يَغْلِب عليه البياض، وثمرُها كالفُلْفُلِ، ويُشبِه حَبُّها حبَّ السُّمْنة، وهو حَبٌّ ينعصر منه الدُّهن؛ قال: وطبعُه حارٌّ يابسٌ في الثالثة، وهو يَطرُد الرّياح، ويجفِّف، وهو عَسِرُ الانهضام، رديءُ الخِلْط، قويُّ الإسخان، ومقلوُّه أقلُّ ضررًا، قال: وإذا طُبِخَتْ أصولُ القُنَّب البَرّيّ وضُمِدت بها الأورامُ الحارّةُ في المواضع الصُّلْبة التي فيها كَيْمُوساتٌ[٨]

(١) الجدد: ما استوى من الأرض.
(٢) الرّيّ: النعمة والرونق، والشبع من سقاية الماء.
(٣) ميّد: متمايلة، متثنيّة.
(٤) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرّد، وهو ذو ألوان متعدّدة، أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصيّ.
(٥) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي، يستعمل للزينة.
(٦) الفرند: السّيف.
(٧) حنين: هو حنين بن إسحٰق العبادي، يكنى أبا زيد، من نصارى الحيرة، طبيب وفصيح باللغة اليونانية والسريانية والعربية، مات سنة ٢٦٠ هـ. له من الكتب كتاب «المسائل» في الطب، وكتاب «الأغذية» وكتاب «الباه» و«الألوان» و«الترياق» و«الأدوية». انظر: الفهرست، لابن النديم، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٨) الكيموسات: جمع كيموس، وهو الخلط أو الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة فيه. واللفظة يونانية.

لاحجةٌ[١] سكّنت الحارّةَ وحَلّلت الصُّلبة، وهو مصدِّعٌ[٢] بحرارته، وعُصارتُه تُقطَر لوجع الأُذن السُّدديّ[٣]، ولرطوبة الأُذن، وكذلك ورقُه ودُهنُه قَلّاعٌ للحَزاز[٤] في الرأس وهو يُظلِم البصرَ، ويُضعِف المعدة، ويجفّف المنيّ، ولبنُ الشَّهْدانِج البَرّيّ يُسْهِل برفق، ونصفُ رِطلٍ من عصيرِه يَحُلّ الاعتقال، ويُطلِق البَلْغَم والصّفراء، ويَذهبُ مذهبَ القُرْطُم[٥]، هذا ما قاله فيه.

وقال بعضُ الشّعراء في ورقِه: [من السريع]

عاطيتُ من أهوى وقد زارني ... كالبدر وافَى ليلةَ البدرِ
والنّهرُ قد مَدَّ على متنِه ... شعاعُه جسرًا من التِّبرِ[٦]
خضراءَ كافوريّةً[٧] رَنّحتْ ... أعطافَه من شدّة السُّكْرِ
يَفعل منها دِرهمٌ فوق ما ... تَفعل أرطالٌ من الخمرِ
فراح نشوانَ بها غافلًا ... لا يَعرف الحلوَ من المُرِّ
قال وقد لان بها أمرُه ... فبات مردودًا إلى أمري
قتلْتَني قلتُ: نعم سيّدي ... قتلين بالسُّكْرِ وبالنَّجْرِ[٨]

وقال آخر: [من السريع]

يا ساقيَ القومِ أدرْ بينهم ... خضراءَ تغنيهم عن الخمرِ
حشيشةً تجعل كلَّ امرئٍ ... منهم حشيشيًّا ولا يدري

وقال آخر: [من الخفيف]

رُبّ ليلٍ قطعتُه ونديمي[٩] ... شاهدي وهو مُسمِعي وسميري[١٠]

---

(١) اللاحجة: المستقرّة اللازمة.
(٢) مصدّع: يبعث على الصّداع.
(٣) السّددي: المانع من السّماع.
(٤) الحزاز: داء يظهر في الجسد فيتقشّر ويتّسع، وهو القوباء نفسها.
(٥) القرطم: نبات زراعي صبغيّ من الفصيلة المركبة، زهره يستعمل تابلًا وملوّنًا للطعام، ويستخرج منه صباغ أحمر.
(٦) التبر: فتات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا.
(٧) كافورية: نسبة إلى الكافور، وهو نبت من الفصيلة الفاريّة، يتخذ منه مادّة شفّافة بلّورية بيضاء.
(٨) النّجر: العطش والحرّ، واللّون أيضًا.
(٩) نديمي: رفيقي وصاحبي على الشراب.
(١٠) سميري: صاحب سمري، والسمر: حديث الليل.

مَجلسي مسجدٌ وشربيَ من خضـ ـراءَ تُزهَى حسنًا بلونٍ نضيرِ
قال لي صاحبي وقد لاح منها نَشرُها مزريًا[١] بنَشْر العبيرِ
أمن المِسكِ؟ قلت: ليست من المِسـ ـكِ ولكنها من الكافورِ

وأمّا البُطّيخُ وما قيل فيه - فقال الثعالبيُّ في فقه اللغة: أوّل ما يخرج البِطّيخُ يكون قَعْسَرًا، ثمّ خَضَفًا، وهو أكبرُ من ذلك، ثم يكون قُحًّا، ثم يكون بِطّيخًا.

وهو نوعان: بَرّيٌّ وبستانيّ، فالبَرّيّ، هو الحنظل، ومنه ذكرٌ ومنه أنثى؛ فالذكرُ لِيفيّ، والأنثى رَخْوٌ أبيضُ سَلِس، والمختار منه الأبيضُ الشديدُ البياض اللّيّن، فإنّ الأسوَدَ منه رديء، والصُّلبَ رديء؛ وذَكَر فيه الشيخ الرئيس خواصَّ ومنافعَ يطول شرحها، قال: وطبعُه حارٌّ في الثالثة، زعَمَ الكِنْدِيّ[٢] أنه باردٌ رَطْب، قال: وقد بَعُد عن الحقّ بعدًا شديدًا.

وأما البستانيّ - فهو ثلاثةِ أصناف: هنديٌّ وصِينيٌّ وخُراسانيّ، فالهنديُّ هو الذي يسمّى بمصرَ: الأخضر، وبالمغرب: الدُّلّاع، وبالحجاز: الحَبْحَب، وبالشام: الزَّبَش، والصِّينيُّ هو الّذي يسمّى بمصرَ والشام: الأصفر، والجيّدُ منه الثقيلُ الخشنُ الأصفر، وفيه يقول بعضُ الشّعراء: [من الوافر]

ثلاثٌ هنّ في البِطّيخ زينٌ وفي الإنسان مَنقَصةٌ وذِلّهْ
خشونةُ جسمِه والثِّقْلُ فيه وصفرةُ لونِه من غير علّهْ
إذا شقّقتَه يومًا تراه بدورًا أشرقت منها أهلّهْ[٣]

والخُراسانيّ هو الّذي له رقبةٌ مستطيلةٌ معوجّة، ويسمّى بمصرَ: العَبْدَليّ نسبةً إلى عبد الله بن طاهر، فإنّه الذي نقله من خُراسانَ إليها، وقد عَدّ بعضُ الأطبّاء في البِطّيخِ صنفًا آخَر، وهو لطيفُ الشّكل، عَطِرُ الرائحة، منقوشٌ بالحمرةِ والصفرةِ والسّواد، منه ما يكون بقَدْر الكفّ، وأكبرَ من ذلك، ومنه المستطيل،

---

(١) مزريًا: معيبًا، منقصًا منه.
(٢) الكندي: هو أبو يوسف يعقوب، الفيلسوف العربي، والعالم بالرياضيات والعلوم الطبيعية والموسيقى والفلك. له حوالي ستين رسالة وكتابًا في مختلف المعارف، وأهمها: «إيضاح تناهي جرم العالم» و«مختصر الموسيقى» و«العقل» و«كتب أرسطاطاليس» و«المدخل المنطقي». مات سنة ٨٧٣ م. انظر: الفهرست، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.
(٣) الأهلّة: جمع هلال، وهو القمر في أوائل لياليه وأواخرها.

ويسمّى بالعراق: الدَّسْتَنْبُويّ، واحدته دَسْتَنْبُوَيه، وفي الشام: الشمّام، واحدتُه شَمّامة؛ وفي الصّعيد الأعلى يسمّونه: اللُّفّاح، وهو خطأ، لأنّ اللُّفّاح صِنفٌ آخَر، ولهم في بعض بلاد الصّعيد الأعلى من الدّيار المصريّة صِنفٌ آخَرُ من أصناف البِطّيخِ الأصفرِ يسمّونه: الشَّتْويّ، وهو مستطيل الشّكل، غيرُ جافّ، يُشْبِه القِثّاء، رقيقُ الجلد حدًّا، وهم غالبًا لا يقطعونه بالسّكّين، وإنّما يمتصّون البِطّيخَة فيَخرجُ ما فيها، ويَبْقَى جلدُها شبهَ الظّرف، وأكثر ما رأيت هذا الصنف بإسْنَى[١] من عمل مدينة قُوَص[٢].

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا في البِطّيخ؛ ولم يميّزه بأصنافِه، بل أطلَق اسمَ البِطّيخ، فقال: طبعُه باردٌ في أوّل الثانية، رَطْبٌ في آخرِها، وإذا جُفِّف بِزْرُه لم يكن مرطِّبًا، بل يجفِّف في الأولى، وأصلُه مجفّف، وقال في أفعالِه وخواصّه: النَّضيجُ منه لطيف، والنيِّءُ كثيف، وغيرُ النَّضيجِ في طبع القِثّاء، وفيه تفتيحٌ كيفما كان، قال: والنَّضيجُ منه وغيرُ النّضيج جاليان، وبِزْرُه أقوى جِلاء، ويستحيل إلى أيِّ خِلْطٍ وافق في المعدة، وهو إلى البَلْغَم أشدُّ ميلًا منه إلى الصّفراء، فكيف إلى السوداء! وهو ينقّي الجلد، وينفع من الكَلَفِ والبَهَقِ والحَزاز، وخصوصًا إذا عُجِن جوفُه كما هو بدقيق الحِنطة وجُفِّف في الشمس، وإذا ألصِقَ قِشرُه بالجبهة مَنَع من النوازل إلى العين؛ قال: وإذا أُكِلَ وجب أن يُتْبَع طعامًا آخَر، فإنه إذا لم يُتْبَع شيئًا آخَرَ غَثّى[٣] وقيّأ[٤]، وليشرب عليه المحرورُ[٥] سكَنْجَبِينًا[٦]، والمرطوب كُنْدُرًا[٧] أو زنجبيلًا[٨]: مربًّى أو شرابًا، قال: وهو يُدِرُّ البولَ نَضيجُه ونيئُه، وينفع من الحَصاة في الكُلْيَة، قال: وإذا فسد البِطّيخُ في المعدة استحال إلى طبيعة سمّية، فيجب إخراجُه بسرعةٍ إذا ثَقُل؛ هذا ما قاله الشيخ.

(١) إسنى: مدينة مصرية على النّيل، فيها آثار يونانية ورومانية.
(٢) قوص: مدينة مصرية على النيل في محافظة قنا، ازدهرت في عهد المماليك، فيها أطلال هياكل من عهد البطالسة.
(٣) غثّى: بعث على الغثيان، وهو اضطراب النفس حتى تكاد تتقيأ.
(٤) قيّأ: بعث على القيء، وهو إلقاء الطعام أو الشراب من المعدة عن طريق الفم.
(٥) المحرور: من في جسمه حرارة وحمّى.
(٦) السكنجبين: خليط العسل والخلّ، وخليط كل شيء سواهما، واللفظة فارسية.
(٧) الكندر: صمغ شجرة شائكة ورقها كالآس، واللفظة يونانية.
(٨) الزنجبيل: نبات عشبي هندي الأصل، عروقه تسري في الأرض، ويتولّد منها عقد حرّيفة الطعم، واللفظة فارسية.

وأمّا ما جاء في وصفِه وتشبيهه ـ فقد وصفه الشعراء وشبّهوه، فمن ذلك ما قيل في الأخضر منه، قال أبو طالب المأمونيّ: [من الطويل]

ومبيضَّةٍ فيها طرائقُ خُضْرةٍ
كما اخضرّ مَجْرَى السيل من صيّبِ المُزْنِ[1]
كحُقّةِ[2] عاجٍ ضُبّبتْ[3] بزبرجدٍ
حوتْ قِطعَ الياقوت في عُطَبِ القطنِ

وقال آخر: [من السريع]

رأيتُها في كفّ جلّابها ... وقد بدت في غاية الحُسْنِ
كسَلّةٍ خضراءَ مختومةٍ ... على الفصوص الحمر في القطنِ

وقال محمدُ بنُ شرف القَيْرُوانيّ: [من مجزوء الكامل]

ما أطفأتْ جمرَ الوَقِيـ ... ـدِ لمشتكٍ وَقْدًا ووَهْجَا
كإداوةٍ[4] أُكَريّةٍ[5] ... مملوءةٍ ماءً وثلجا
رَتْقاءَ[6] لم يَسلُك بها ... غَرْزُ الأشافي[7] قطُّ نَهْجَا[8]
تزهو بلونَيْ خُضْرةٍ ... هذا انتهى وأخوه لَجّا
كزمرّدٍ وزبرجدٍ ... رصّعن للكافور دُرْجَا[9]
أو وجهِ ذي خجلٍ تَبَرقعَ[10] بالمصبّغ أو تَسجّى[11]

وقال آخَر: [من الطويل]

ومال إلى بِطيخةٍ ثمّ شقّها ... وفرّقها ما بين كلّ صديقِ
صفائح بَلُّورٍ بدت في زبرجدٍ ... مرصّعة فيها فصوصُ عَقيقِ[12]

(١) صيّب المزن: المطر الشديد.
(٢) الحقّة: الوعاء الصغير.
(٣) ضبّبت: شدّت به.
(٤) الإداوة: الوعاء من الجلد يحتفظ فيه بالماء.
(٥) أكرية: إما أن تكون مأخوذة من الأكّار، وهو الفلاح والحراث، وأما أنها تفيد كروية الشكل.
(٦) رتقاء: ملتحمة الجوانب والأجزاء.
(٧) الأشافي: الإبر الكبيرة.
(٨) نهجًا: خطًا.
(٩) الدرج: ما يدرج ويضمّ، ويطوى.
(١٠) تبرقع: لبس البرقع، وهو غطاء الوجه.
(١١) تسجّى: تخفّى واحتمى وراء البرقع.
(١٢) العقيق: خرز أحمر، ومن الأحجار الكريمة.

ومنه ما قيل في الأصفر ـ قال أبو طالب المأمونيّ: [من الطويل]

وبِطّيخةٍ مِسكيَّةٍ[١] عسليّةٍ[٢]
لها ثوبُ دِيباجٍ[٣] وعَرْفُ مُدامِ[٤]
محقّقةٍ مِلءِ الأكفّ كأنّها
من الجَزْعِ[٥] كُبْرَى لم تُرَضْ بنظامِ[٦]
لها حُلّةٌ من جُلّنارٍ[٧] وسَوْسَنٍ[٨]
معمَّدةٌ بالآسِ[٩] غِبَّ غمامِ[١٠]
تَمازَجَ فيها لونُ حِبٍّ وعاشقٍ
كساه الهوى والبينُ لونَ سَقامِ
وأبدَى لنا التحزيزُ تخضيبَ كاعبٍ[١١]
غلاميّةٍ ذاتِ اعتدالِ قَوامِ
إذا فُصِّلَتْ للأكل كانت أهلّةً
وإن لم تُفصَّلْ فهي بدرُ تَمامِ

وقال آخَر: [من المتقارب]

أتانا الغلامُ ببِطّيخَةٍ وسكّينةٍ جمَّلوها صِقالَا
فَقطَّع بالبرق شمسَ الضُّحَى وناوَلَ كلَّ هلالٍ هلالَا

(١) مسكيّة: منسوبة إلى المسك، وطعمها طعم المسك، أو لها لونه.
(٢) عسلية: منسوبة إلى العسل، أو لها طعم العسل أو لونه.
(٣) الديباج: ضرب من الوشي أو الثياب لحمته وسداه من الحرير.
(٤) عرف مدام: رائحة خمرة.
(٥) الجزع: حجر كريم يتّخذ منه حبّ وخرز يسلك في العقود.
(٦) نظام: سلك.
(٧) الجلّنار: ضرب من الزهر، وهو أيضًا زهر الرمّان.
(٨) السوسن: جنس زهر مشهور من فصيلة السوسنيّات، أزهاره كبيرة ولامعة اللون.
(٩) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضيّ الورق، أبيض الزهر أوورديّه، ثماره عطرية تستخدم تابلًا في الطعام.
(١٠) غبّ غمام: عقب غمام.
(١١) الكاعب: التي نهد ثدياها من النساء.

وقال آخَر: [من الكامل]

خلناه لمّا حَزَّز البِطّيخ في ... أطباقِه بصَقيلةِ الصَّفَحاتِ
بدرًا يَقُدّ[١] من الشموس أهلّةً ... بالبرق بين الشُّهْبِ في هالاتِ[٢]

وقال قاضي القضاة نجمُ الدّين بنُ البارزيّ: [من الطويل]

يقطِّع بالسّكّين بِطّيخةً ضُحًى ... على طبقٍ في مجلسٍ لان صاحبُه
كشمسٍ ببرقٍ قدَّ بدرًا أهلّةً ... لدى هالةٍ في الأفق شتّى كواكبُه[٣]

وقد تقدّم إيرادُهما في تشبيهِ سبعةِ أشياءَ بسبعةِ أشياء.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الوافر]

وجامعةٍ لأصناف المعاني ... صَلَحْنَ لوقتِ إكثارٍ وقِلّهْ
فإحداهنّ تَبْرُز في عَباءٍ[٤] ... وأخراهنّ في حِبَرٍ وحُلّهْ[٥]
ومنها ما تشبّهه بدورًا ... فإن قطّعتَها رجعتْ أهلّهْ

وقال أيضًا: [من الهزج]

ولونٍ واحدٍ يُلْقَى ... فيأتينا بألوانِ
بسُمرانٍ وسُودانٍ ... وحُمْرانٍ وصُفْرانِ
كوشيٍ[٦] في يدَيْ واشٍ ... وشُهْدٍ[٧] في يدَيْ جانِي[٨]
فمِن أُدْمٍ[٩] ومِن بَقْلٍ[١٠] ... ورَيْحانٍ وأُشْنانِ[١١]

---

(١) يقدّ: يقطع وينشيء.
(٢) هالات: جمع هالة، وهي دارة القمر، أو الدائرة من الضوء تحيط بأحد أجرام السماء.
(٣) شتى كواكبه: متفرقة ومختلفة.
(٤) العباء، والعباءة: كساء مشقوق واسع، يلبس أو تلبس فوق الثياب.
(٥) الحبر: جمع حبرة، وهي الثوب من القطن أو الكتان المخطّط. والحلّة: الثوب الجديد.
(٦) الوشي: نقش الثوب أو الكساء.
(٧) الشهد: عسل النحل ما دام لم يعصر من شمعه.
(٨) جاني الشهد: قاطفه وعاصره. (٩) الأدم: جمع إدام، وهو ما يؤكل مع الخبز.
(١٠) البقل: نبات عشبي يغتذى به الإنسان، كالفجل والجرجير وغيرهما.
(١١) الأشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية، يستعمل في غسل الثياب والجسم وغير ذلك.

وقال آخَر: [من السّريع]

بِطّيخةٌ تعطيك مِن لونها حظّين من ريحٍ ومن طَعمِ
كأنّها في ذوقها شَهدةٌ أو جُونةُ[١] العطّار في الشَّمِّ

وقال أبو الفتح كُشاجِم: [من الرجز]

وزائرٍ زار وقد تعطّرا أَسَرَّ شُهدًا وأذاع عَنبرا[٢]
وأُودعتْ منه اللَّهاةُ[٣] سكّرا يَنْفِثُ في الأنوف مِسكًا أذفرا[٤]
ملتحفًا للحَرِّ ثوبًا أصفرا معمَّدًا من الحرير أخضرا
يظنّه الناظرُ إن تَصوَّرا دَبَّ الدَّبى[٥] بمتنِه فأثَّرا

وقال أيضًا فيه: [من السريع]

يا جانيَ البِطّيخِ مِن غَرْسِه جَنيتَ منه ثمرَ الحمدِ
لم يأتنا حتّى أتتنا له روائحٌ أذكَى من النَّدِّ[٦]
بظاهرٍ أخشنَ من قُنفُذٍ[٧] وباطنٍ أنعمَ من زُبْدِ[٨]
كأنّما تكشِف منه المُدَى[٩] عن زعفرانٍ شيبَ[١٠] بالشُّهْدِ

ومنه ما قيل في الدَّسْتَنْبُويه ـ فمن ذلك ما قاله مؤيّد الدّين الطُّغْرائيّ[١١]: [من السريع]

كُراتُ دَسْتَنْبُويَةٍ نُضِّدَتْ مختلفاتُ الشُّكل والمَنْظَرِ
فمستديرُ الشّكلِ ذو سُمرة كأنّه جُمْجُمةُ العنبرِ

(١) الجونة: سلة صغيرة مستديرة مغشّاة بالجلد يحفظ العطّار فيها الطّيب.
(٢) العنبر: مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلّا إذا سحقت أو أحرقت.
(٣) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.
(٤) أذفر: شديد الرائحة.
(٥) الدّبى: الجراد قبل أن يطير.
(٦) النّدّ: ضرب من النبات يتبخّر بعوده.
(٧) القنفذ: دويبة من الثدييات ذات شوك حاد يلتفّ فيصير كالكرة.
(٨) الزّبد: ما يستخرج من اللبن بالمخض.
(٩) المدى: جمع مدية، وهي الآلة الجارحة، والسكّين.
(١٠) شيب: خلط.
(١١) شاعر من الوزراء، من أصبهان، ولي الوزارة للسلطان مسعود السلجوقي، مات غيلةً سنة ١١٢٠ م، وهو صاحب اللامية المعروفة.

ولابسٌ لـلنّـور ذو نُـمْـرةٍ[١] والحُسنُ كلُّ الحُسْنِ في الأنمَرِ
وعسجديٌّ[٢] اللّونِ ذو صفرةٍ ضُـمَّ إلـى تِـرْبٍ[٣] لـه أحـمـرِ
كـأنّـه الـمِـرِّيـخُ[٤] فـي لـونِـهِ قارنه في برجِه المشترِي[٥]

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

يـا حـبّـذا تـحـيّـةٌ رحتُ بـهـا مـسـرورا
مَـخـزَنـةٌ[٦] مـن ذهـبٍ قـد مُـلـئـت كـافـورا

وقال السريّ[٧]: [من مجزوء الكامل]

وأغـنَّ[٨] كـالـرَّشـأ[٩] الـرَّبـيـ ـب[١٠] نشا خلالَ الرَّبْرَبِ[١١]
فـي خـدِّه وَردٌ حَـمـا ه مـن الـقِـطـاف بـعـقـربِ
حـيَّـا بـدَسْـتَـنـبـويـةٍ مِـثـلِ الـسِّـنـانِ الـمُـذْهَـبِ

وقال فيها: [من الكامل]

صفراءُ ما عَنّتْ[١٢] لعينيْ ناظرٍ إلّا تـوهّـمـهـا سِـنـانًـا مُـذْهَـبـا

وأمّا القِثّاءُ والخِيارُ وما قيل فيهما ـ فقد قال الشيخ الرئيس: طبعُ القِثّاء باردٌ رَطْبٌ في الثانية، وهو يسكّن الحرارَة والصّفراء، ولكنّ كَيْمُوسَه رديءٌ مستعدٌّ للعفونة، ومهيِّجٌ لحُميَّاتٍ صعبة، وبِزْرُه خيرٌ من بِزْرِ الخِيار، قال: وإذا وُضِع ورقُه مع العسل على الشَّرَى البَلْغَمي نفع منه، وإذا شمَّه صاحبُ الغشيّ[١٣] الحارِّ انتفع به وانتَعَش،

(١) النمرة: اختلاف الألوان، كأن تكون بقعة بيضاء، والأخرى من أي لون كان.
(٢) عسجدي: منسوب إلى العسجد، أي الذهب.
(٣) الترب: المماثل والنظير والشبيه.
(٤) المريخ: كوكب من الكواكب السيارة، لونه يميل إلى الحمرة.
(٥) المشتري: من الكواكب السيّارة المشهورة وأكبرها حجمًا.
(٦) مخزنة: مكان الخزن.
(٧) السري: هو السرّي الرفّاء، شاعر من الموصل، مدح سيف الدولة الحمداني، ثم انتقل إلى بغداد فتكسب بمدحه. شعره عذب اللفظ، برع في الوصف والتشبيه، مات سنة ٩٧٦ م.
(٨) الأغنّ: فيه غنّة، وهي البحّة في الصوت.
(٩) الرشأ: الظبي.
(١٠) الربيب: الضرير.
(١١) الربرب: قطيع الظباء.
(١٢) عنّت: بانت وظهرت.
(١٣) الغشي، والغشيان: واحد، وهو اضطراب النفس حتى الغيبوبة.

وهو مسكّنٌ للعطش، جيّدٌ للمعدة، وفيه إدرارٌ وتليين، وينفع من أوجاع المذاكير[١]، وهو يوافق المَثانة، قال: وورقُه ينفع من عضّة الكلبِ الكَلِبِ.

وأمّا ما جاء في وصفِهما وتشبيهِهما من الشِّعر ـ فمن ذلك ما قيل في القِثّاء، قال عبد الرّحيم بنُ رافع القَيْروانيّ: [من مجزوء الكامل]

أخْــبِــبْ بــقِــثّــاءٍ أتــا نــا فــوق أطــبــاقٍ مــنــضَّــدْ
كــمَــضــاربِ[٢] قــد حُــدِّدتْ أجــرامُــهــنّ[٣] مــن الــزَّبَــرْجَــدْ
نــعــم الــدّواءُ إذا الــهــوا ءُ مــن الــهــواجــر[٤] قــد تَــوقَّــدْ

وقال السَّريُّ الرّفّاء: [من المتقارب]

وعَــقْــفــاءَ مِــثــلِ هــلال الــســمــاء ولــكــنّــهــا لــبِــسَــتْ سُــنــدســا[٥]
عــراقــيّــة لــم يَــذُبْ جــســمُــهــا هُــزالًا ولــم تَــجْــسُ[٦] فــيــمــا جَــسَــا
زبــرجــدة حَــسُــنــتْ مَــنْــظَــرا وكــافــورة بَــرُدَتْ مَــلْــمَــســا
عــلــى رأســهــا زهــرةٌ غَــضّــةٌ كــنــجــم الــظــلام إذا عَــسْــعَــسَــا[٧]
حــبــانــا بــهــا مَــغْــرِسٌ طــيّــبٌ مــن الأرض أكــرِمْ بــه مَــغْــرِســا
لــهــا أخــواتٌ لــطــافُ الــقُــدود إذا مــا تَــبــرّجــنَ خُــضــرُ الــكُــسَــا
مــحــجَّــبــةٌ عــن شــمــوس الــنــهــار وبــارزةٌ لــنــســيــمِ الــمَــســا
تُــقــوَّسُ فــي حــيــن مــيــلادهــا ولَــمْ أرَ ذا صِــغَــرٍ قُــوِّســا
يــطــول الــلّــســانُ بــإطــرائــهــا[٨] ويُــصــبِــح عــن ذمّــهــا أخــرســا

وقال أبو بكر الخُوارَزْميّ[٩]: [من الرجز]

يــا رُبَّ قِــثّــاءٍ قــريــبِ الــمَــورِدِ دُرِّ الــحَــشــا زُمــرّدِ الــمــجــرَّدِ

---

(١) المذاكير: كناية عن متاع الرجل.
(٢) مضارب: جمع مضرب، وهو صفة للسيف يضرب به.
(٣) أجرامهنّ: جشومهنّ.
(٤) الهواجر: جمع هاجرة، وهي شدّة الحرّ عند الظهيرة.
(٥) السندس: ضرب من رقيق الديباج. (٦) تجس: تصلب.
(٧) عسعس: خيّم واشتدّ سواده. (٨) إطرائها: مدحها، والثناء عليها.
(٩) هو أبو بكر الخوارزمي، الكاتب والعالم والشاعر واللغوي، ولد في خوارزم، واستقرّ في نيسابور، من أشهر مؤلّفاته «الرسائل»، وله ديوان شعر مشهور، مات سنة ٩٩٣ م.

شَخْتُ[١] الرُّؤوسِ أصوَرٍ[٢] المقلَّدِ مِثلِ ذُنابَى[٣] ريشِ ديكٍ أعقَدِ
قد التوى فوق الثَّرَى الرَّطْبِ النَّدِي كما يلوذ أسوَدٌ[٤] بأسوَدِ
ذي زَغَبٍ وفيه لِينُ الأجردِ كالخدّ بين الملتحِي والأمْرَدِ[٥]
كأنّه في اللّونِ والتأوُّدِ[٦] صوالجٌ[٧] رُكّبنَ من زبرجدِ
يكاد للّين وللتقصّدِ[٨] تجنيه ألحاظُ الفتى قبل اليد
لمّا حصدناه قريبَ المَحْصِدِ هَشًّا[٩] وجدنا منه ما لم يوجدِ
ماءٌ كطَعْمِ السُّكّرِ الطَّبَرْزَدِ[١٠] وذَوْبَ شُهْدٍ سائلًا في جَمَدِ

وقال شاعر في الخِيار: [من الكامل]

أُنظرْ إلى عَرْفِ الخِيارِ ولونِهِ كروائح الرَّيحان للمخمورِ
فكأنّ ظاهرَه زَبَرْجَدُ أخضرٌ وكأنّ باطنَه من البَلّورِ

وقال آخر: [من الوافر]

خيارٌ حين تنسِبُه خِيارُ وريحانُ السرور به اخضرارُ
كأنّ نسميَه أنفاسُ حِبٍّ[١١] فليس لمُغرَمٍ عنه اصطبارُ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الطويل]

زبرجدةٌ فيها قُراضةُ[١٢] فضّةٍ فإن رَجعتْ تِبْرًا فقد خَسَّ أمرُها
تُلِمُّ بنا طَورين في كلّ حِجّةٍ فيَكثرُ فينا خيرُها ثمّ شرُّها
فعند المَصِيف ليس يُفقَد نفعُها وعند الخريف ليس يُعْدَم ضَرُّها

وأمّا القرع وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس: القرعُ باردٌ رَطْبٌ في الثانية، والمسلوقُ منه يغذو غِذاءً يسيرًا، وهو سريعُ الانحدار، وإن لم يفسُد قَبْل الهضمِ

(١) شخت: ضعيف، هزيل. (٢) أصور: مائل.
(٣) الذنابى: الذنب. (٤) الأسود: الحيّة.
(٥) الأمرد: خلاف الملتحي، من لا لحية له. (٦) التأوّد: التثنّي والتمايل.
(٧) صوالج: جمع صولجان، وهو عصا معقوف يضرب الفارس بها الكرة. والصولجان: عصا الملك، وهي ترمز لسلطانه.
(٨) التقصّد: الانكسار، والتلوّي. (٩) هشًّا: ليّنا، سريع الانكسار.
(١٠) الطبرزد: ضرب من الشراب يدخل فيه العسل.
(١١) الحبّ، بكسر الحاء: المحبّ العاشق. (١٢) قراضة: ما يتفتت من الفضة عند صوغها.

بسببٍ لم يتولّد منه خِلْطٌ رديء، ويَفسُد في المعدة بمخالطة خِلْطٍ رديء أو إبطاءِ مُقام كسائر الفواكه، والخِلْط الّذي يتولّد منه تَفِهٌ إلّا أن يَغلِبَ عليه شيءٌ يخالطه؛ وإن خُلِطَ بالسّفرجل كان خِلْطُه محمودًا للصّفراويّين(١)؛ وكذلك ماءُ الحِصْرِم وماءُ الرُّمّان، لكن ضررُه بالقُولُون(٢) يتضاعف، قال: ومن خاصّيّته أنّه يتولّد منه غِذاءٌ مجانِسٌ لما يَصحَبه، فإذا أُكِل بالخردلِ(٣) تَولَّد منه خِلْط حِرِّيف(٤)، أو بالملح تولَّد منه خِلْطٌ مالح، أو مع القابض تَولَّدَ منه خِلْطٌ قابض، وهو بالجملة ضارٌّ لأصحاب السّوداء والبَلْغَم، جيّدٌ للصّفراويّين، قال: والمُرَبَّى منه لا يَدخُل في الأدوية، ولا يؤثّر شيئًا من تَبريدٍ ولا تسخين، ولكن يُستعمَل للذّة، وعُصارتُه تسكّن وجعَ الأُذُن الحارّ، وخصوصًا مع دُهن الوَرد، وينفع الأورامَ الدّماغيّةَ والسِّرْسام، وهو نافع لوجع الحَلْق، قال: وسَويقُ القرعِ(٥) مانعٌ من السُّعال ووجعِ الصّدر الكائنَين من حرارة، وطبيخُه ينفع من الفُضول الحَارّةِ في المعدة ويُزلِقها، وكذلك شرابٌ صُبَّ في تجويفِه ثمّ استُعمِل، ويُسْعَط(٦) بعُصارتِه لوجع الأسنان، وهو ممّا يُولِّد بِلّةَ المعدة جدًّا، ويقطع العطش، والنيِّءُ منه ضارٌّ بالمعدة جدًّا حتّى للصّبيان والفِتْيان، وإذا طُبِخ ماؤه بالعسل وجُعِل فيه نَطْرونٌ لَيَّن البطن، فهو ينفع من الحُمِّيَات، ولم أقفْ على شيءٍ من الشِّعر فأُورِدَه.

وأما الباذِنجان وما قيل فيه ـ فقد قال ابنُ وحشيّةَ في كتاب (أسرار القمر) في توليده: وإن أردتم الباذنجانَ فخذوا خُصيتَي التَيْسِ(٧) وعروقًا من عروق الباذنجان فألقُوها على الخُصيتين بعد أن تجعلوا الخُصيتين في الأرض، وخذوا إحدى كُلْيتيه واجعلوها فوق العروق، واطمِروا ذلك في الأرض، فإنّه بعد أربعةِ أسابيعَ تَنْبُت منه شجرةُ الباذِنجان، فإذا نبتتْ فحوِّلوها إلى موضعٍ آخَر فإنّها تنمو، هذا ما قيل في توليده، والله أعلم بالصّواب.

---

(١) الصفراويين: أصحاب الطبيعة الصفراوية، ويقال لها الصفراء.
(٢) القولون: أحد الأمعاء، وهو المعى الغليظ.
(٣) الخردل: نبات عشبي من فصيلة الصليبيات، بذوره تستعمل في الطّب، ومنها بزور يتبّل بها الطعام.
(٤) حرّيف: لاذع.
(٥) سويق القرع: شراب يتّخذ من القرع، البقل المعروف.
(٦) يسعط: تتخذ عصارته سعاطًا وسعوطًا، أي نشوقًا يتنشق به من الأنف.
(٧) التيس: الذكر من المعز أو الظباء أو الوعول إذا أتى عليه حول. وخصيتاه: بيضتاه من أعضاء التناسل.

وقال الشيخ الرئيس: إنّ العَتيقَ منه رديء، والحديثَ أسلم؛ كأنّه أراد بالعتيق: الّذي طال مُكثُه في الأرض، والحديث: الذي قَرُب عهدُه بالغِراسة. وقال في طبعه: الصحيحُ أنّ قوّتَه الغالبةَ عليه الحرارةُ واليُبوسة. ورَدّ بهذا القول على من زعم أنّه بارد، وقال في أفعالِه وخواصِّه: إنّه يولِّد السّوداء، ويولِّد السُّدُد[1]، وإنّه يُفسِد اللّونَ ويصفِّرُه، ويسوّد البَشرة، ويورِث الكَلَف، ويولِّد السَّرَطاناتِ والصّلاباتِ والجُذامِ والصُّداع في الرأس، ويُنتِّن الفم، ويولِّد سُدُدَ الكبدِ والطِّحال، إلّا المطبوخَ منه بالخَلّ فإنّه ربّما فتّح سُدُدَ الكبد؛ قال: والباذِنجانُ يولِّد البواسير، لكنّ سحيقَ أقماعِه المجفَّفةِ في الظّلّ طلاءٌ نافعٌ للبواسير، قال: وليس للباذِنجان نسبةٌ إلى عقلٍ[2] أو إطلاق[3]، ولكنّها إذا طُبِختْ في الدُّهن أطلَقتْ، أو في الخَلّ حَبَستْ؛ هذا ما قاله الشيخ فيه.

وأمّا ما وُصِف به من الشِّعر ـ فقال بعض الشعراء يصف المدوَّرَ منه: [من المنسرح]

أهدتْ لنا الأرضُ من عجائبِها ... ما سوف يزهو بمثلِه وقتي
إذا أجاد الّذي يشبِّهه ... وأحكَمَ الوصفَ منه في النّعتِ
قال: كُراتُ الأَديمِ[4] قد حُشِيتْ ... بسمسمٍ قُمِّعت بكيمُخْتِ[5]

وقال آخَر: [من الطويل]

وابذَنْجِ بستانٍ أنيقٍ رأيتُه ... على طبقٍ يَحْكِي لمقلة رامقِ[6]
قلوب ظباءٍ أُفْرِدتْ عن جُسومِها ... على كلّ قلبٍ منهُم كفُّ باشَقِ[7]

وقال آخَر: [من الطويل]

ومستحسَنٍ عند الطّعامِ مدحرَجٍ ... غَذاهُ نَميرُ الماءِ[8] في كلّ بستانِ
تَطلَّعَ من أقماعِه فكأنّه ... قلوبُ نِعاجٍ في مَخالبِ عِقْبانِ[9]

---

(١) السدد: بياض بؤبؤ العين، وانسداده. والسدد: الانحباس في أي عضو من أعضاء الجسد.
(٢) عقل: إمساك.
(٣) إطلاق: إسهال.
(٤) الأديم: الجلد.
(٥) لفظة فارسية، تفيد الجلد المدبوغ.
(٦) رامق: ناظر بإشفاق.
(٧) باشق: طائر من الطيور الجوارح.
(٨) غير الماء: أصفاه وأرقّه.
(٩) عقبان: جمع عقاب، وهو طير جارح يشبه النسر.

وقال آخر: [من الكامل]

وكأنّما الابذَنْجُ سودُ حمائمٍ أوكارُها[١] روضُ الرّبيعِ المُبكِرِ
لَقطتْ مَناقرُها الزبرجدُ سمسمًا فاستودعته حواصلًا من عنبرِ

وأمّا ما قيل في السِّلْق ـ فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ في توليدِه: وإن أردتم السِّلْقَ فخذوا من ورق الخَسِّ وورقِ الخَطْمِيِّ فدُقّوهما حتى يختلطا، ولْيكونا رَطبين، ثمّ خذوا عروقًا من عروق التِّيس فألبسوها ذلك المخلوط، ثمّ اطمِروها في الأرض، فإنّه يَخرُج من ذلك السِّلْق.

قال الشيخ الرّئيس: والسِّلْقُ صنفان: أسوَدُ لشدّةِ الخُضْرة، وهو المعروف، وأبيض؛ وطبعُه عند بعضهم حارٌّ يابسٌ في الأُولى، وفي الحقيقة أنه مركَّبُ القوّة، وعند بعضهم هو بارد، قال: ولا شكّ أنّ في أصله رطوبة، قال: وفيه بُورَقيّةٌ[٢] مُلطِّفة، وفيه تحليلٌ وتجفيفٌ وتليين، وفي الأسوَدِ قَبْض، وخاصّةً مع العَدَس، قال: وجميع السِّلْقِ رديءُ الكَيْمُوس، وجميعُه قليلُ الغذاءِ كسائرِ البُقول، وعُصارتُه وطبيخُ ورقِه ينفعان من شُقاق البَرْد، ومن داء الثُّعْلب، ومن الكَلَف إذا استُعْمِل ورقُه ضِمادًا بعد غَسل الموضع بنَطْرون، ويَقلَع الثّآليل، وعَصيرُه يقتل القَمْل، وتُضْمَد[٣] به الأورامُ مسلوقًا فيحلِّلُها ويُنْضِجُها، وينفع من التُوثِ[٤] ضِمادًا يحلِّلها، وورقُه جيّدٌ مطبوخًا لحَرْق النّار، وينفع من القَوابِي[٥] طِلاءً بالعسل، ويُسعَط ماؤه مع مرارة الكُركيِّ[٦] فيُذهِب اللَّقْوة[٧]، وينفع من قُروح الأنف، وماؤه فاترًا يُقطَر في الأُذُن فيسكِّن الوجع، ويُغسَل بمائه الرأسُ فيُذهِب النُّخالة، وأصلُه رديءٌ للمعدة، مُغْثٍ[٨]، وأكثرُ ذلك لبُورقيّته، قال: وتفتيحُه لسُدُدِ الكبدِ أشدُّ من تفتيح المُلُوخيّا[٩]، خاصّةً مع الخردل والخَلّ، وكذلك الطِّحال، ويجب أن يؤكل بالمُرِّيِّ والتّوابل، قال: وجميعُه

(١) أوكارها: بيوتها وأعشاشها.
(٢) بورقية: شيء من البورق، المادة المعروفة تشبه الملح.
(٣) تضمّد: يتّخذ منها ضمادًا.
(٤) التوت: القروح والبثور في البشرة والوجه خاصةً.
(٥) القوابي: جمع قوبياء، المرض المعروف، وهو تقشّر الجلد وانجراده من الشعر.
(٦) الكركي: طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب، يأوي إلى الماء أحيانًا.
(٧) اللقوة: داء يعرض للوجه يعوجّ منه الشّدق.
(٨) مغث: يبعث على الغثيان، وهو اضطراب النفس وميلها إلى التقيؤ.
(٩) الملوخيا: ضرب من البقول تشتهر به مصر خاصة، ويؤكل مسلوقًا مطبوخًا.

يولِّد النَّفخَ والقَراقر(١) ويُمْغِص، وهو جيّدٌ للقُولَنْج(٢) إذا أُخذ بالتّوابل والمُرِّيّ. ولم أقف على شيءٍ من الشّعر فيه فأُورِدَه.

وأمّا القُنَّبِيط والكُرْنُب(٣) ـ فقال ابنُ وحشيّة: وإن أردتم توليدَ القُنَّبِيطِ فخذوا منه رأسًا بعد موته، فاغمِسوه في عَكِرِ الخَلِّ غمستين بينهما ساعة، ثمّ اتركوه في الأرض، ودُقّوا كفًّا من جُبْنٍ عتيق، واجعلوه فوقه، واطمِروه بالتراب، فإنّه بعد أربعةِ أسابيعَ يخرج القُنَّبِيط. ومن خصائص هذا النبات أنّه إذا وقع عليه خلُّ العنب قبل طبخِه لم يَنْضَج، وكذلك إذا سُلِق وعُمِل عليه الخلّ فإنّه يصلُب، ومتى زُرِع تحت كَرْم فسد الكَرْم، ويقال: إنّ بِزره إذا قَدُم على أربع سنينَ وزُرِع بعد ذلك تحوّل سَلْجَما(٤)، فإن زُرِعَ ذلك السَّلْجَمُ تَحوّل كُرْنُبا.

وقال في توليد الكُرْنُب: وإن أردتم الكُرْنُبَ فخذوا أظلاف(٥) التّيس الأربعة فانقَعوها في السّمن ثلاثًا، ثم اجعلوها في الأرض، وغطّوها بشعر لحية التّيس ثمّ اطمروا ذلك في رمل، واطرحوا فوقه التراب، فإنه ينبت منه الكُرْنُب.

وقال الشيخ الرئيس في طبع الكُرْنُب: الأصلُ أرطَبُ من الورق، والبَرّيُّ أسخنُ وأيبس، وجملتُه حارٌّ في الأولى، يابسٌ في الثانية، قال: والكُرْنُب منه بستانيّ «ومنه بحريّ»، ومنه بَرّيّ، ومنه كُرْنُبُ الماء، والبَرّيُّ أمَرُّ وأحَدُّ وأبعدُ من أن يكون غذاء، وطبيخُ أصلِ الكُرْنُبِ بماء الرُّمّان طَيّب، والقُنَّبِيطُ غليظُ الغِذاء، مغلِّظٌ للدّم إذا لم يَنحلَّ رَسَخَ إلى نواحي الثُّنْدُوَةِ(٦) والجَنبِ وأَوْجَعَ، ولا يكون منتقِلًا كالرِّيحيّ، قال: وأمّا أفعالُه وخواصُّه، فهو مُنضِجٌ مليِّنٌ مُجفِّف، خصوصًا إذا طُبِخَ وصُبّ عنه الماءُ الأوّل، ورَمادُ قُضبانِه قويُّ التجفيف، وله خاصّيّةٌ في تسكين الأوجاع، وغِذاؤه يسير، ودمُه رديء، وإذا طُبِخَ بلحم سمينٍ أو دجاجٍ جاد قليلًا؛ قال: والبَرّيُّ والبحريُّ والبستانيُّ يُنضِج الفَلْغَمونيات(٧)، وهو يَدْمُل(٨)، ويَمنع سعيَ الخبيثة ويُجعَل ببياض البَيض على الحَرْق؛ قال: وهو ينفع من الرّعْشة، ومع الحُلْبة قد يُجعَل على النِّقْرِس، قال: وطبيخُه وبِزرُه يبطئ بالسُّكْر، وإذا استُعِطَتْ عُصارتُه نقَّى الرّأس، ومن خواصّه تجفيفُ اللّسان، وهو منوِّم، وهو مظلِمٌ للبصر مع أنّه يقع في الأكحال، قال:

---

(١) القراقر: الأصوات التي تحدث في الأمعاء نتيجة لفساد الهضم.
(٢) القولنج: انسداد الريح في الأمعاء، وعدم خروج البراز منها.
(٣) الكرنب: الملفوف.
(٤) السلجم: اللفت.
(٥) أظلاف التيس: أظفاره.
(٦) الثندؤة: هي للرجل بمنزلة الثدي من المرأة.
(٧) الفلغمونيات: الأورام.
(٨) يدمل: يشفي ويبرئ.

ويُتغرغَرُ[١] بِعصيرِه أو طبيخِه مع دُهن الخَلِّ من الخَوانق[٢]، وأكلُه يصفِّي الصّوت، وهو رديءٌ للمعدة، وعَصيرُه بالنّبيذ نافعٌ من الطِّحال واليَرَقان[٣]، وبَيضُه بطيءُ الهضم، وهو يُدِرُّ البولَ والطَّمْث[٤]: «وإذا احتُمِل هو أو عُصارتُه مع دقيق الشَّيْلم»[٥] أو زَهْرُه قَتَل الجنين، وإذا احتُمِل بِزرُه بعد الجماعِ[٦] أفسَد المنيّ، قال: ورَمادُ أصلِه يفتّت الحَصاة، وعُصارتُه مع الشَّراب للنُّهوش[٧]، وهو نافعٌ من عضّة الكَلْب الكَلِب.

ولم أقف على شعرٍ فيهما فأذكره، والله الموفّق.

وأمّا السَّلْجَم - وهو اللّفت - فقال ابنُ وحشيّةَ في توليده: وإن أردتم السَّلْجَم فخذوا عِرقَ الشّوك المعقَّدِ فحُزّوا من عُقَدِه ثلاثًا كبارًا، ثم خذوا رأسَ عَنْزٍ بعد موتها فأدْخِلُوا الثلاثَ عُقَدٍ فيه، ثمّ اطمِروه في الأرض، واجعلوا فوقه كَيْلَة من الماء، فإنّه بعد أربعين يومًا ينبت الورق ظاهرًا، ويعمل الأصل بعد ذلك وأكثِروا من سقيه الماءَ فإنّه يَنْمِي...

وقال شاعرٌ يصفه: [من السريع]

كأنّما السَّلْجَمُ لمّا بدا ... في حسنهِ الرائقِ من غيرِ مَيْن[٨]
قطائعُ الكافورُ ملمومةً ... لمبصريها أو كُراتُ اللُّجَيْن[٩]

وقال آخَر: [من السريع]

يا حبّذا السَّلْجَم من مأكلٍ ... بنفعِه فاق جميعَ البُقول
كم فيه من منفعةٍ جَمّةٍ ... إحصاؤها من غير مَيْنٍ يطول

وأمّا ما قيل في الفُجْل - فقال ابنُ وحشيّةَ في توليده: وإن أردتم الفُجْل فخذوا من قرون المَعْز قرنين فانقعوهما في بول النّاس سبعةَ أيّام، ثم اغرِسوهما في الأرض،

---

(١) يتغرغر: أي يجعل عصيره في الحلق ويردّ عدة مرات.
(٢) الخوانق: كل ما يبعث على الخناق وضيق النفس.
(٣) اليرقان: حالة مرضية تمنع الصفراء من بلوغ المعى بسهولة، فتختلط بالدم فتصفرّ بذلك الأنسجة.
(٤) الطمث: دم الحيض.
(٥) الشيلم: حبّ أسود يخالط الحنطة فيكسبها رداءة.
(٦) الجماع: إتيان المرأة وغشيانها.
(٧) النهوش: أي لسع الهوام والدوابّ على اختلافها، وعضّها.
(٨) مين: كذب.
(٩) اللجين: الفضّة.

وذُرّوا عليهما شيئًا يسيرًا من حِلْتِيت[١]، واسقوهما ماءَ المطر يومًا بعد يوم، فإنّ ذلك يُنْبِت لكم الفُجْل بعد أحد وعشرين يومًا.

وقال الشيخ الرئيس: أقوى ما في الفُجْل بِزْرُه، ثمّ قِشْرُه، ثمّ ورقُه، ثمّ لحمُه، ودُهنُه في قوّة دُهْن الخِرْوَع، إلّا أنه أشدُّ حرارةً منه. وقال في طبعه: الرَّطْبُ منه حارٌّ في الأولى، وبِزرُه حارٌّ في الثالثة، وهو يولّد الرّياح، لكنّ بِزْرَه يحلّلها، وفيه تلطيف، وغِذاؤه بَلغميّ، وهو قليلٌ مع ذلك، وفيه جوهرٌ سريعٌ إلى التّعفُّن؛ قال: وإن خُلِط معه دقيقُ الشَّيْلَم أنبت الشعرَ في داء الثعلب[٢]؛ وإذا ضُمِد به مع عسلٍ قلعَ الآثارَ العارضةَ تحت العَين والقروحَ الخبيثةَ واللَّبَنيّة، وبِزرُه مع الخَلّ يَقلَع قَرْحة غَنْغرانًا قلعًا تامًّا، وكذلك على القُوباء، وبِزرُه ينفع من النَّمْش الكائِن في الأعضاء وسائرِ الألوان الغريبة وآثارِ الضّرب والكَلَف، وهو مع الكُنْدُس[٣] بخَلّ طِلاءً يُذهِب البَهَق الأسود، وخصوصًا في الحمّام، وهو يُكثِر القملَ في الجسد، قال: وبِزرُه يدفع الضَّربانَ[٤] الّذي في المفاصل، وهو جيّدٌ لوجع المفاصل جدًّا، وهو يضرّ الرأس والأسنانَ والحَنَك، وعُصارتُه ودُهنُه نافعان من الرّيح في الأُذُن جدًّا، وهو ضارٌّ بالعين؛ إلّا أنّه يجلو إذا قُطِر ماؤه فيها، ويُذهِب الآثارَ الّتي تحت المأق[٥]، وقال ابن ماسَوَيه[٦]: إنّ ورقَه يُحِدّ[٧] البصر، قال: والمطبوخُ منه صالحٌ للسُّعال العتيقِ والكَيْمُوس الغليظِ المتولّد في الصَّدر، قال: وإن طُبِخ بسِكَنْجَبِين[٨] وتُغُرْغِر به نَفَع من الخُنَاق[٩]، وفيه مع ذلك مَضَرّةٌ بالحَلْق، قال: وهو رديءٌ للمعدة مُجَشّىء[١٠]، وبعد الطعام مليّنٌ للبطنِ، مُنفِذٌ للغِذاء، وقبل الطعام يُطْفي الطّعامَ ولا يدَعُه يستقرّ، وهو يسهّل القَيْء، وخصوصًا قِشرَه بالسَّكَنْجَبِين، ويوافق الجَنْبَ والطِّحالَ ضِمادًا، وبِزرُه بالخلّ يقيّء

---

(١) الحلتيت: ضرب من الصموغ تستخدم في الطب والطعام.
(٢) داء الثعلب: داء يصيب الجلد فينزع عنه الشعر.
(٣) الكندس: ضرب من النبت، تستخدم عروقه في الطب.
(٤) الضربان: الارتجاف. (٥) المائق: أي المؤق، العيون.
(٦) ابن ماسويه: هو يوحنا بن ماسويه، الطبيب السرياني الذي خدم الرشيد ومن جاء بعده من الخلفاء حتى المتوكّل. أوكل إليه الخلفاء العباسيون ترجمة الكتب الطبية، ومن أشهر مؤلفاته «النوادر الطبية» و«الأزمنة» و«الحمية». مات سنة ٨٥٧ م.
(٧) يحدّ: يجلي ويقوّي، أي يجعله حديدًا بصيرًا.
(٨) سكنجبين: ضرب من شراب العسل والخل.
(٩) الخناق: ضيق النفس.
(١٠) مجشّيء: يبعث على التجشؤ، أي الميل إلى الهياج واضطراب النفس.

جدًا، ويحلِّل ورمَ الطِّحال، قال ابنُ ماسَوَيه: وإن أُكل بعد الطعام هَضَم، وخاصّة ورقه، وماءُ ورقِه يفتّح سُدُدَ الكبد، ويزيد اليَرَقان، وقال بعضُهم: ورقُه يَهضِم، وبزرُه وجِرمُه محلِّلان للنَّفخ في البطن، ويسهّلان خروجَ الطّعام، ويشهّيان، ويُذهِبان وجعَ الكبد، وماؤه جيّدٌ للاستسقاء[1]، قال: وهو ينفع من نَهْشِ الأفاعي، وبالشراب من لسعِ العقرب، وبزرُه ينفع من السُّموم والهَوامّ[2]، وإن وُضِعَت شَدْخَةٌ[3] منه على العقرب ماتت، وجُرّب ماؤه في ذلك فكان أقوى، وإن لَدَغت العقربُ من أكل فُجلًا لم تضرَّه، هذا ما ورد من منافِعه ومضارِّه.

وقال بعضُ الشعراء صفه: [من السريع]

احببْ بفُجْلٍ قد أتتني به ... عند مَسائي ذاتُ أوقارِ[4]
كأنّه في يدِها إذ بدا ... مقشَّرًا في وقت إفطاري
قُضبانُ بَلُّورٍ وإلّا فما ... يَجمُد من قَطْرِ النّدى الجاري

وقال آخَر: [من السريع]

احببْ بفُجْلٍ قد أتانا به ... طبّاخُنا من بعد تقشيرِ
منضَّدٍ في طبقٍ خلتُه ... من حسنِه قُضبانَ بَلُّورِ

وأمّا الجَزَر وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّة في توليده: إن أخذتم نابَي الخِنزير فدهنتموهما بالزّيت، وجعلتم في كلِّ جانبٍ من جانبي النابَين الحادَّين بَعرةَ جمل، وطَمَرتموهما في الأرض خرج عن ذلك الجَزَرُ الحلوُ الجيّد، وإن طَمَرتُم قرنين من كبشين من كلِّ واحدٍ قرنًا مدهونًا بالزّيت خرج من ذلك الجَزَر. وقال أيضًا: وإن أردتم الجَزَر فخذوا أصلَ السَّلْجَم فشقّوه نصفين، واجعلوا في جوفِه من البصل في كلِّ رأسٍ بصلتين، واحدة في أعلاه، وأخرى في أسفله، ولْيكونا أصلين، ثمّ ادهنُوهُما بالزّيت، واطمِرُوهما بالتراب، فإنّ ذلك يَعْمَل أصلًا هو الجَزَر، ويَظهَر ورقُه على وجه الأرض.

---

(١) الاستسقاء: تجمّع سوائل مصلية في تجويف الجسد وخلاياه.
(٢) الهوام: ما كان له سمّ، كالحيّة مثلًا، أو ما ليس له سمّ، كالقمل مثلًا، جمع هامة.
(٣) شدخة: قطعه.
(٤) أوقار: أحمال.

وقال الشيخ الرئيس: قال دِيسْقُورِيدُوس[١]: من الجَزَر صِنفٌ ورقُه أصغرُ من ورق الرّازِيانج[٢] وفي صورته، وساقُه إلى شبر، وفُقّاحُه[٣] أصفر، وله كصَوْمَعَة الكُزْبُرة والشِّبْث، وله ثمرٌ أبيضُ حادٌّ طيّبُ الرائحة والمضغ؛ والثاني يشبه الكَرَفْس والرّوميّ حِرِّيفٌ مُحرِقٌ طيّبُ الرّائحة؛ والثالثُ ورقُه كورق الكُزْبُرة، أبيَضُ الفُقّاح، شِبْثيُّ الصَّوْمَعةِ والثمرة، وله كأقماع الجوز محشوّة بزرًا كَمّونيًا في هيئتِه وحِدّتِه، قال: وطبعُ الجَزَرِ حارٌّ في آخِر الثانية، رَطبٌ في الأولى، وينفع بِزرُه، وورقُه إذا دُقّ وجُعِل على القروح المتآكلةِ نفع منها، والجَزَر ينفع من ذات الجَنب[٤]، ومن السُّعال المُزْمِن، وهو عَسِرُ الهضم، والمُربَّى أسهلُ هضمًا، وينفع من الاستسقاء، ويسكّن المَغْصَ، ويُدِرّ، خصوصًا البَرّيَّ، وخصوصًا بِزرَه، وكذلك ورقُه، ويهيّج البَاه[٥]، وخاصّةً البستانيّ، فإنه أشدُّ نفخًا، وليس يَفعل ذلك بِزرُ البَرّيّ.

وأمّا الشَّقاقل ـ وهو الجَزَرُ البَرّيُّ إن عُدّ في الجَزَر ـ فهو أهْيَجُ للباه من البستانيّ، ويُدِرُّ الطَّمْثَ والبول. ورأيتُ على حاشية (كتاب الأدوية المفردة) للشيخ الرئيس في النسخة التي نَقَلتُ منها بخطٍّ من لعلّه استدرَك على الشيخ ما صورتُه: الجَزَرُ نوعان: بستانيٌّ وبَرّيّ، والمحلّى عند دِيسْقُورِيدُوس ها هنا هو (دُوقو)، وله ثلاثة أصناف، وليس هو من الجَزَر، ولمّا خَلَط الشيخُ في الماهيّة خَلَط في المنافع. ودُوقو، هو الجَزَرُ البرّيّ؛ هذا ما رأيتُه في الجَزَر.

وقال شاعرٌ يصفُه ويشبّهه: [من مجزوء الكامل]

أُنـظُـرْ إلـى الـجَـزَرِ الّذي يَحْكِي لنا لَهبَ الحريقْ
كـمُـدَيّـةٍ[٦] مـن سـنـدسٍ فـيـهـا نِصابٌ من عقيقْ

---

(١) ديسقوريدوس: ويطلق عليه اسم ديسقوريدوس السايح، وذلك لأنه كان يسيح في البلاد، سعيًا وراء اقتباس علم الأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار، فيبين منافعها وأفاعيلها. وهو من عين زربة. له كتاب «الحشائش» و«خمس مقالات» و«الدواب» و«السموم». انظر: الفهرست ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٢) الرازيانج: ضرب من الشجر تدخل مادته وصمغه في الطب.

(٣) فقاحه: زهره.

(٤) ذات الجنب: الحمّى.

(٥) الباه: المنيّ.

(٦) المديّة: تصغير مدية، وهي السكّين.

وقال ابنُ رافع: [من الكامل]

أُنـظرْ إلـى الـجَـزَر الـبـديـع كـأنّـه   في حسنِه قُضُبٌ من المَرجانِ[١]
أوراقُـه كـزبـرجـدٍ فـي لـونِـهـا   وقلوبُه صيغتْ من العِقيانِ[٢]

وأمّا البصل وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس أبو عليٍّ بنُ سينا: إنّه حارٌّ في الثالثة، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة، وأمّا أفعالُه، فهو ملطِّفٌ مقطِّع، وفيه مع قبضِه جِلاءٌ وتفتيحٌ قويّ، وفيه نفخٌ وجذبٌ للدّم إلى خارج، ولا يتولّد من غير المطبوخ منه غِذاءٌ يُعتدُّ به، وغِذاءُ الذي طُبِخ أيضًا خِلْطٌ غليظ؛ قال: وللبصلِ المأكولِ خاصيّة، ينفعُ من ضرر المياه، وهو يحمرّ الوجه، وبِزرُه يُذهِب البَهَق ويُدْلك به حولَ موضع داء الثُّعلب فينفع جدًّا، وهو بالملح يَقلع الثّآليل، وماؤه ينفع القروحَ الوَسِخَة، وينفع مع شحم الدَّجاج لسَحْج[٣] الخفّ[٤]، وإذا سُعِط ماؤه نقّى الرأس؛ ويُقطَر في الأذن لِثقل الرأسِ والطّنينِ والقيحِ في الأُذنين، والإكثارُ منه يُسْبِت[٥]؛ وهو ممّا يضرّ العقلَ لتوليده الخِلْطَ الرّديء، وهو يُكثِر اللّعاب، وعُصارتُه تنفع من الماء النازِل في العين، وتجلو البصر، ويُكتَحَل ببزرِه بالعسل لبياض العين؛ وماؤه مع العسل ينفع من الخُناق، قال: والبصلُ يفتِّح أفواهَ البواسير[٦]؛ وجميعُ أنواع البصل تهيِّج الباه، وماؤه مُدِرٌّ للبول ومليِّنٌ للطّبيعة، وينفع من عضّةِ الكلب الكَلِب إذا نُطِل[٧] عليها ماؤه بملحٍ وسَذاب؛ قال: والبصلُ المأكولُ يدفع ضرر السَّموم؛ قال بعضُهم: لأنّه يولِّد في المعدة خِلْطًا رَطْبًا كثيرًا يَكْسِر عاديَةَ السَّموم.

قال شاعرٌ يصفه: [من الكامل]

يُكْثِرن من لُبْس الثّياب تستُّرًا   كتم الحسود ليطمئنّ الحارسُ
فإذا نظرتَ إلى الثّياب وجدتَها   أثوابَ زورٍ[٨] ليس فيها لابسُ

---

(١) المرجان: من فصيلة القاتيّات، أوراقها مستطيلة بيضويّة، خشبها ضارب إلى الاصفرار. والمرجان، أيضًا، وهو المعني هنا، عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف.
(٢) العقيان: الذهب.
(٣) سحج: قشر.
(٤) الخفّ: ما يلبس بالرجل.
(٥) يسبت: يبعث على السبات، أي النوم.
(٦) البواسير: علّة في المقعدة يسبّبها تحدّد العروق ويحدث فيها نزف.
(٧) نطل: صبّ عليها النطول، وهو عصارة الدواء فاترًا.
(٨) زور: أعلى وسط الصدر.

وقال ابنُ وكيع يصفه من أرجوزة: [من الرجز]

فاْعمِد إلى مدوَّرٍ من البصلْ ... فإنّه أكثرُ أعوانِ العملْ
يَحْكِي لعينيك احمرارُ قشرِه ... إذا رماه ناظرٌ بفكرِه
غلائلًا[١] حمرًا على جسومِ ... بيضٍ رطابٍ من جسومِ الرّومِ

وأمّا الثُّوم وما قيل فيه ـ فقال الشيخ: منه البستانيُّ المعروف، ومنه الثُّوم الكُرّاثيّ، والثُّوم البَرّيّ، وفي البَرّيّ مرارةٌ وقبض، وهو المسمّى ثُومَ الحيّة، والكُرّاثيُّ مركَّبُ القوّة من الثُّوم والكُرّاث، مسخِّنٌ ومجفِّفٌ في الثالثة إلى الرابعة، والبَرّيُّ أكثرُ من ذلك؛ والثُّومُ مليّنٌ يَحُلّ النفخَ جدًّا، مقرّحٌ للجلد، ينفع من تغيُّر البلاد، وإذا شُرِب بطبيخ الفُوتَنْج الجبليّ قتل القَمْلَ والصِّئبان[٢]؛ ورَمادُه إذا طُلِيَ بالعسل على البَهَق نَفَع؛ وينفع من داء الثعلب الكائنِ من الموادّ العَفِنة؛ والثُّومُ البَرّيُّ يُلْصِق الجراحاتِ الخبيثةِ إذا وُضِع عليها طريًّا، وإذا احتُقِن بالثُّوم نَفَع من عِرْق النَّسا[٣]؛ لأنّه يُسْهِل دمًا وأخلاطًا، قال: والثُّومُ مصدِّع للرأس، وطبيخُه ومشويُّه يُسكِّن وجعَ الأسنان، وكذلك المضمضةُ بطبيخِه، وخصوصًا إذا خُلِط بالكُنْدُر؛ قال: والثُّوم مضعِفٌ للبصر، ويَجْلِبُ بُثُورًا في العين، ويصفّي الحَلْقَ مطبوخًا، وينفع من السُّعال المُزْمِن، ومن أوجاع الصّدر من البَرْد، ويُخْرِج العَلَق[٤] من الحَلْق؛ وإذا جُلِس في طبيخ ورقِ الثُّوم وساقِه أدَرَّ البولَ والطَّمْثَ وأخرَج المَشِيمَة[٥]، وكذلك إذا احتُمِل أو شُرِب، وإذا دُقَّ منه مقدارُ دِرْهَمَيْن مع ماء العسل أخرج البَلْغَم، وهو يُخْرِج الدُّود، وفيه إطلاقٌ للطّبع؛ وأمّا فعلُه في الباه فإنّه لشدّة تجفيفِه وتحليلِه قد يضرّ، فإن طُبِخ في الماء حتّى انحلّت فيه حدّتُه لم يَبْعُد أن يكون ما يَبْقَى منه في مسلوقِه قليلَ الحرارة لا يجفِّف، وتتولّد منه مادّةُ المَنيّ؛ قال: والثُّومُ نافعٌ لِلَسع الهَوَامِّ ونَهْشِ الحيّاتِ إذا سُقِيَ بشراب؛ قال: وقد جرّبنا ذلك، وكذلك من عضّة الكلب الكَلِب، وإذا ضُمِد بالثُّوم وبورَقِ التّينِ وبالكمّونِ على عضّة موغالِي[٦] نَفَعَ؛ هذا ما أورده الشيخُ فيه.

---

(١) غلائلًا: جمع غلالة، وهي شعار يلبس تحت الثوب.
(٢) الصّئبان: صغار القمل، لونها أبيض. (٣) عرق النسا: وجع يصيب الفخذ والقدم.
(٤) العلق: جمع علقة، وهي دويبة سوداء تمتص الدم، وتعلق بأقصى الحلق.
(٥) المشيمة: غشاء الولد يخرج معه عند الولادة.
(٦) موغالي: ضرب من الحيوانات يشبه ابن عرس.

وقال شاعرٌ يصفه: [من البسيط]

يا حبّذا ثُومةٌ في كفِّ طاهيةٍ ... بديعة الحُسنِ تَسبي كلَّ من نَظرا
أبصرتُها وهي من عُجْبٍ تُقلِّبها ... كصُرّةٍ من دَبِيقيٍّ[1] حَوَتْ دُررا

وقال آخَر: [من الكامل]

الثُّومُ مِثلُ اللّوزُ إنْ قشّرتَهُ ... لولا روائحُهُ وطَعْمُ مَذاقِهِ
كالنّذْلِ[2] غرّكَ مَنْظَرًا فإذا آدّعَى ... لفضيلةٍ يُنْمَى إلى أعراقِه[3]

وأمّا الكُرّاث وما قيل فيه ـ فمنه الشّاميُّ والنَّبَطيّ، ولكلّ منهما توليدٌ ذكره أبو بكرِ بنُ وحشيّةَ في كتاب (أسرار القمر)، فقال: وإن أردتم الكُرّاثَ الشّاميَّ فخذوا مُقْلةً واحدةً فاغمِسُوها في سَكْبِينَجٍ محلولٍ ببولٍ أيِّ بولٍ اتّفق، ثمّ اطمِروها في التراب، واسقوها الماء، فإنها تنبت بعد ثلاثين يومًا، وتَعْمَل أصولًا جِيادًا.

وإن أردتم الكُرّاثَ النَّبَطيَّ فخذوا قِشرَ الجَوزِ فألقُوه على قِيرٍ[4] مَغليّ، واتركوه قليلًا بقدر ما يَعلَق به من القِيرِ شيءٌ يسيرٌ على أطرافِه وجوانِبِه، وما لم يَعْلَق به شيءٌ فردّوه إلى أن يَعلَق، ثمّ أجمعوا ذلك القشرَ وادفنوه في التّراب، وألقُوا عليه قبل التراب شيئًا من خردلٍ مسحوق، ثمّ اسقوه الماء، فإنّه يُنبِت في أحد وعشرين يومًا كُرّاثًا نَبطيًّا.

قال الشيخ الرّئيس: الكُرّاثُ منه شاميّ، ومنه نَبطيّ، ومنه الذي يقال له: كُرّاثٌ بَرّيّ، وهو بين الكُرّاثِ والثُّوم، وهو أشبهُ بالدّواء منه بالطّعام، والنَّبَطيّ أدخَلُ في المعالجات من الشّاميّ، وطبعُ النَّبَطيّ حارٌّ في الثالثة، يابسٌ في الثانية؛ والبَرّيُّ أحرُّ وأيْبَس، ولذلك هو أردأ، والشّاميُّ مع السُّمّاق[5] للثّآليل، ويُذهِب الشَّرَى[6] ومع المِلْح للقُروح الخبيثة؛ والبَرّيُّ لقَرْح الثّدي، قال: وهو يقطَع الرُّعاف[7]. وقال غيرُه: ماء الكُرّاثِ النَّبطيّ يَقطَع الرُّعافَ وسيلانَ الدّمِ إذا خُلِط به شيءٌ من كُنْدُرٍ مسحوق.

---

(١) دبيقي: منسوب إلى دبيق، في مصر تشتهر بثيابها.
(٢) النذل: الساقط والخسيس والمحتقر. (٣) أعراقه: أصوله الأولى، جمع عرق.
(٤) القير: القطران أو الزفت.
(٥) السمّاق: ضرب نبت من فصيل البطحيّات، تستعمل بزوره تابلًا، وأوراقه للدّباغة.
(٦) الشرى: ضرب من البثور الجلدية تحدث حكاكًا.
(٧) الرعاف: نزف الدم من الأنف.

قال الشيخ: ويُبخَّر ببِزرِه مع القَطِران للسِّنّ التي فيها دود؛ وأكلُه مصدِّع، يخيِّل أحلامًا رديئة؛ ورَمادُه مع دُهن وَرِدٍ وخلّ خمرٍ لوجع الأُذن وطنينِها، وهو ممّا يُفْسِد اللِّثَةَ والأسنان، وخصوصًا الشاميّ، وهو يضرّ البصر، وهو مع ماء الشّعير للزّبو الكائنِ من مادّةٍ غليظة، وخصوصًا النَّبَطِيّ، وخصوصًا مع العسل، وينفع من أورام الرِّئةِ ويُنْضِجها، ويُعطِي من بِزْرِه درهمان مع مِثْلِه حَبِّ الآسِ لنَفْث الدّم، والبَرّيُّ منه رديءٌ للمعدة، أردأ من الشّاميّ؛ والكُرّاثُ كلُّه نَفّاخ؛ وقال رُوفُس: إنّه يَقطَع الجُشاء[1] الحامض؛ قال الشيخ: وهو بالجملة بطيءُ الهضم، وهو يُدِرُّ البولَ والطَّمْث، لا سيّما النَّبَطيّ والبَرّيّ؛ ويُضرّان المثانةَ والكُلْية؛ ومسلوقُه ينفع البواسيرَ مأكولًا وضمادًا، ويحرّك الباه، وكذلك بِزرُه مقلوًّا؛ قال: وبِزرُه مقلوًّا مع حَبِّ الآسِ للزَّحِير[2] ودمِ المقعدة[3]؛ ويُجلَس في طبيخ ورقِه بماء؛ وهو نافعٌ من انضمام الرَّحِم والصَّلابةِ فيها؛ وطبيخُ أصولِه إسْفِيذْباجَةً بدُهن القِرْطِم[4] أو دُهن اللّوز أو شَيْرج[5] نافعٌ للقُولَنج؛ ولم أقفْ فيه على شعرٍ فأُورِدَه.

وأمّا الرِّيباس وما قيل فيه ـ فقال الشيخ: الرِّيباسُ له قوّةُ حُمَّاضِ الأُتْرُجِّ[6] والحِصْرِم؛ وهو باردٌ يابسٌ في الثانية، وهو مطفىء، قاطعٌ للدم، يسكِّن الحرارة، وينفع من الطاعون[7]، ويُحِدُّ البصرَ إذا اكتُحِل بعُصارتِه، وينفع من الإسهالِ الصّفراويّ؛ وينفع من الحَصْبة[8] والجُدَريّ[9] والوباء.

قال أبو بكر الخُوارَزْميُّ يصفه: [من الطويل]

ولُعْبةِ عاجٍ في قميصٍ مورَّدٍ ... أسافلُه خضرٌ وأزرارُه حمرُ
كأنّ يديها والأناملَ خُضِّبتْ ... وشُدّتْ على أطرافِها خِرَقٌ خُضْرُ

---

(١) الجشاء: سائل حامض يأتي نتيجة لجيشان النفس واضطرابها.
(٢) الزحير، والزحار: ضرب من البراز وفيه دم، وتقيّح.
(٣) المقعدة: المؤخرة والعجيزة.
(٤) القرطم: أو العصفر، نبت زراعي صبغي من فصيلة الأنبوبيّات، مغليّ زهره يدرّ البول.
(٥) شيرج: الشيرج هو المادة السائلة المستخرجة من حبّ السمسم.
(٦) الأترج: شجر من جنس الليمون، تسمّيه العامة الكبّاد.
(٧) الطاعون: الوباء المعروف، تسبّبه الجرذان.
(٨) الحصبة: مرض معدٍ يخرج بثورًا في الجلد ويسبّب حمّى وبحّة في الصوت.
(٩) الجدري: مرض يسبّب بثورًا حمرًا بيض الرؤوس تتقيّح سريعًا، وهو شديد العدوى.

وقال آخَر: [من الخفيف]

ونباتٍ لم يَكتَسِ الورقَ الخُضْـرَ ولم يَغذُه نسيمُ الهواءِ
لا ولا كان في الثّرى فتغذّيـه بتسكابِها يدُ الأنواءِ[1]
جاء مِثلَ السِّياط[2] أو كالمساويـكِ[3] وبعضٌ يَحْكِي عصيَّ الرِّعاءِ[4]
لَذَّ طعمًا وعَمَّ نفعًا فأيَّ النَّقلِ منه نَلْقَى وأيَّ الدّواءِ

قوله: «لا ولا كان في الثّرى»، يشير إلى أنّه لا يَنبُت إلّا في الثّلج.

وقال آخر: [من المتقارب]

ومكنونةٍ[5] من بناتِ الثَّرَى تَجمَّعَ بالباب خُطّابُها
تمدّ يدًا أُبرِزَتْ كفُّها يجرّ الزّمرّدَ عُنّابُها[6]

وأمّا الهِلْيَوْن[7] وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّةَ في توليدِه: متى دُفِنتْ أطرافُ قرونِ الكِباشِ مع ورق السِّلْق، وسُقِيا بالماء، نبتَ من ذلك الهِلْيَوْن؛ قال: وإن أُخِذَ من الهِلْيَوْن قضيبٌ واحدٌ وطُلِيَ بالعسل، ومُرِّغَ[8] في رَماد البَلُّوط وأُلبِس طينًا، وطُمِر في الأرض، خرجتْ منه عدّةُ عيدانٍ كثيرة القضبان، بيضٍ في غاية البياض، وربّما كان في بعضها حمرةٌ حولها صفرة، وربّما خالطها خضرةٌ وتوريد.

وقال الشيخ الرئيس فيه: طبعُه معتدلٌ عند جالينُوس[9]؛ قال: إنّه ليس فيه إسخانٌ ولا تبريد إلّا الصَّخْرِيّ؛ قال الشيخ: أقول: لا يَبعُد عن الحرارة، وكلّما أخذ يَصلُب اشتدّ حرُّه؛ وقال في أفعالِه وخواصّه: قوّتُه جالية، تُفتّح سُدَدَ الأحشاء كلِّها،

---

(١) الأنواء: وهي ثمانية وعشرون نوءًا على مدار السنة، زعموا أن النجوم المنسوبة إليها تتسبّب بهبوب الرياح ونزول الأمطار.

(٢) السياط: جمع سوط، وهو الكرباج، وما يضرب به من جلد أو غير جلد.

(٣) المساويك: جمع مسواك، وهو الذي تساك به الأسنان، يتخذ من شجر الأراك وغيره.

(٤) عصيّ الرعاء: عصيّ الرعيان، جمع راعٍ، وثمة ضرب من الأزهار يطلق عليه اسم عصاة الراعي.

(٥) مكنونة: مستورة.

(٦) العنّاب: جنس شجر من النبقيّات شائك، حبّه يشبه حبّ الزيتون وأجوده الأحمر الحلو.

(٧) الهليون: نبات معمّر من فصيلة الزنبقيات، تؤكل سومة مسلوقة.

(٨) مرّغ: جبل، وخلط.

(٩) جالينوس: طبيب يوناني مشهور، اشتهر باكتشافه علم التشريح، أخذ عنه الأطباء العرب، وكان المرجع الذي يرجعون إليه، مات حوالي سنة ٢٠٠ م. انظر: الفهرست، ص ٤٠٢.

خصوصًا الكبدَ والكُلْيَة؛ وفيه تحليل، خصوصًا الصَّخْرِيّ؛ قال: ويُشْرَب طبيخُه لوجع الظّهر وعِرْق النَّسا، وإذا طُبِخَ أصلُه بالخَلّ وكذلك بِزْرُه فهو جيّدٌ لوجع الضِّرْس؛ وينفع من اليَرَقان؛ قال: والأغْلبُ يقولون فيه: إنّه ينفع من القُولَنْج البَلْغَميّ، وطبيخُ أصولِه يُدِرُّ البولَ وينفع عُسْرَه، ويزيد في الباه، وبِزْرُه إذا احتُمِلَ أدَرَّ الطَّمْث، ويُفتِّح سُدَدَ الكُلَى؛ قال: وإذا طُبِخَ بالشّراب نَفع من نَهْشة الرُّتَيْلاء[١]؛ وطبيخُه يَقْتل ـ فيما يقال ـ الكلاب.

وقال شاعرٌ يصفه: [من الطويل]

وباقةِ هِلْيَوْنٍ أتت وهي غضّةٌ[٢] فشبّهتُها تشبيهَ ذي اللُّبّ[٣] والفضلِ
برَشقِ نِبالٍ جُمّعَتْ من زبرجدٍ مشنَّفةٍ[٤] الأعلى مفضَّضةِ الأصلِ

وقال أبو الفتح كُشاجِم: [من الرجز]

لنا رماحٌ في أعاليها أَوَدْ[٥] مثقَّفاتٌ[٦] الجسمِ فُتْلٌ كالمَسَدْ[٧]
منتصباتٌ في انفراجٍ كالعَمَدْ مكسوّةٌ من صِبْغةِ الفرد الصّمدْ[٨]
ثوبًا من السّندسِ من فوقِ جسدْ قد أُشرِبتْ حُمرةَ لونٍ تتّقِدْ

وأمّا الهِنْدَبا[٩] وما قيل فيها ـ فقال ابنُ وحشيّة: إن أردتم الهِنْدَبا فخدوا من أصول الأُشْنان[١٠] فدُقُّوه واخلِطوا به ورقَ الهِنْدَبا مدقوقًا، وصُبّوا عليه اليسيرَ من الزّيت، وخمِّروه في إناءٍ ثلاثةَ أيّام، ثم اجعلوه في الأرض، واطمِروه بالتراب فإنّه يُخرِج بعدَ أربعةَ عشرَ يومًا هِنْدَبا؛ قال: وإن أردتموه أيضًا فخذوا رجلَ ديكٍ فانقعوها في خَلٍّ ممزوجٍ بماءٍ يومًا وليلة، ثمّ انقعوها في بول البقرِ ثلاثةَ أيّام، ثم اطمِروها في الأرض، فإنّه يَخْرُج من ذلك نوعٌ آخَرُ من الهِنْدَبا؛ والّذي يَنْبُت من أصول الأُشْنان أشدُّ مرارةً وأغلظُ ورقًا، لكنّه أنفعُ للكبد.

(١) الرتيلاء: ضرب من العقارب السامّة.
(٢) غضّة: طريّة.
(٣) اللب: العقل.
(٤) مشنفة: مزينة بالشنوف، وهي القروط.
(٥) أود: تثنٍّ واعوجاج.
(٦) مثقفات: مستقيمة.
(٧) المسد: الحبل من ليف، أو غيره، المحكم الفتل.
(٨) الفرد الصمد: من أسماء الله الحسنى.
(٩) الهندبا: بقل زراعي من فصيلة اللسانيات، ورقه أزرق وأخضر، يدخل في التوابل وفي الطعام.
(١٠) الأشنان: ضرب من النبت، فيه عقد كثيرة، يستخدم في غسل الثياب.

قال الشيخ الرئيس: الهِنْدَبا منه بَرِّيٌّ ومنه بستانيّ، وهو صنفان: عريضُ الورق، ودقيقُه؛ وأنفعُه للكبد أمرُّه؛ وقال في طبعِه: إنّه باردٌ في آخِرِ الأُولى ويابسُه يابسٌ في الأُولى، ورَطْبُه رَطْبٌ في آخِرِ الأولى، والبستانيُّ أبرَدُ وأرطَب؛ قال: وقد تشتدّ مرارتُه في الصّيف فيميل إلى حرارةٍ لا تؤثّر، والبَرّيُّ أقلُّ رطوبة وهو الطَّرْخَشْقُوق؛ وقال في أفعالِه وخواصّه: إنّه يفتّح سُدُدَ الأحشاء والعروق، وفيه قبضٌ صالحٌ وليس بشديد، وماؤه مع الإسْفِيدَاجِ[1] والخَلِّ عجيبٌ في تبريد ما يُراد تبريدُه طِلاءً؛ قال: ويُضمَد به النِّقْرِس، وينفع من الرّمد الحارّ، ولبنُ الهِنْدَبا البَرّيِّ يجلو بياضَ العين، ويُضْمَد به مع دقيق الشعيرِ للخفقان، ويُقوّي القلب؛ وإذا حُلَّ خيارُ شَنْبَرَ[2] في مائه وتُغُرْغِرَ به نَفَع من أورام الحَلْق؛ وهو يسكّن الغَثْيَ، ويقوّي المعدة؛ وهو خيرُ الأدويةِ لمعدةٍ بها مِزاجٌ حارّ؛ والبَرّيُّ أجوَدُ للمعدة من البستانيّ؛ وقيل: إنّه موافقٌ لمِزاج الكبد كيف كان؛ أمّا الحارُّ فشديدُ الموافَقة له، وليس يضرّ الباردُ ضررَ سائر أصنافِ البقول الباردة؛ قال: وإذا أُكِلَ مع الخلّ عَقَل البطن[3]؛ وهو نافعٌ لحمّى الرِّبْع[4] والحُمَّيَات الباردة؛ وإذا جُعِل ضِمادًا مع أصولِه للسع العقربِ والهَوَامِّ والزّنابيرِ والحيّة وسامِّ أبرَصَ[5] نفع، وكذلك مع السَّوِيق.

وأمّا النُّعْنُع وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّة: هو أحد مَنابتَ أنواعٍ تحت جنسٍ واحد يسمَّى الفُودَنْج، والفُودَنْج خمسة ضروب: جبليّ وصخريّ، وبَرّيّ، ونَهْريّ، وبستانيّ؛ فالجَبليّ والصَّخْريُّ والبَرّيُّ واحد؛ وأمّا النَّهْريّ فالنَّمّام؛ والبستانيُّ: النُّعْنُع، وكلاهما نوعٌ واحد، وذلك أنّ النَّمّام لمّا نُقِل من شطوط الأنهارِ إلى البستاتينِ صار نُعْنُعًا، ونقَصَ رِيحُه، وكبرُ ورقُه وطال لكثرةِ رِيِّه وشُربِه.

وقال في توليدِه: وإن أردتم فُودَنْجا بستانيًّا فخذوا رِجْليْ دَجاجةٍ وادهنُوهما بعَكِر الزّيت، وادفنِوهما في التراب ثلاثةَ أيّام، ثم اغرِسوهما في الأرض واجعلوا الأصابعَ إلى فوق، ثمّ اجعلوا فوقَها عودَ سَذابٍ عَرْضًا، ثمّ نَقِّطوا عليه زيتًا، ثم ألقُوا عليه التراب، واتركوه ثلاثًا، ثمّ صبُّوا عليه زيتًا في اليوم الرابع مقدارَ ما

---

(١) الإسفيداج: ضرب من الطين أو الرماد المستخرج من الرصاص.
(٢) خيار شنبر: ضرب من الأشجار، يشبه الخرنوب.
(٣) عقل البطن: أمسك أخلاطها وطعامها.
(٤) حمى الربع: الحمى التي تأتي ثم تذهب، ثم تعود في اليوم الرابع.
(٥) سام أبرص: دويبة منظرها يبعث على التقزز، تعيش في البيوت، في السقوف، وعلى الحيطان. قيل: إنها من المخلوقات التي مسخها الله.

تعلمون أنّ شيئًا من الزّيت قد وصل إليه، فإنّه يُخْرِج بعد أحدٍ وعشرين يومًا نُعْنُعًا ذكيَّ الرّائحة.

وقال الشيخ الرئيس في النّمّام[١]: النّمّام، هو السِّيسَنْبَر، وطبعُه حارٌّ في الثالثة يابسٌ إليها؛ وهو يقاوم العفونات، ويقتل القمل، وينفع من الأورام الباردة؛ وإذا طُبِخَ بالخَلِّ وخُلِطَ بدُهن الوَرْد ولُطِخَ به الرأسُ نَفَع من النِّسيان ومن اختلاط الذِّهْن، ويُتَضَمَّد[٢] بورق البَرِّيِّ منه على الجَبْهَةِ للصُّداع؛ وهو نافعٌ للفُواقِ[٣] إذا شُرِب بشراب، وبِزْرُه أقوى، وينفع من أورام الكبد الباردة، ويُخْرِجُ الجَنِينَ الميّت، والبَرِّيُّ منه إذا شُرِب بشرابٍ مَنَع من تقطير البول، وأخْرَج الحَصَاة، وينفع من المَغْص، ويُضمَد به لسعُ الزّنابير، ويُشرَب للسعها منه وزنُ درهمين في سِكَنْجَبِين.

وقال في النَّعناع: هو حارٌّ يابسٌ في الثانية، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة، وقوّةٌ مسخِّنةٌ قابضة؛ وهو ألطفُ البقول المأكولةِ جوهرًا، وإذا تُرِكتْ طاقاتٌ منه في اللّبن لم يتجبّن، وإذا شُرِبتْ عُصارتُه بالخَلِّ قَطعتْ سيلانَ الدم من الباطن؛ وهو مع السَّوِيقِ ضِمادٌ للدُّبَيْلات[٤]؛ وتُضمَد به الجَبْهة للصُّداع، وخصوصًا مع سَويق الشّعير، وتُدلَك به خشونةُ اللّسان فتزول، ويمنع قذفَ الدّم ونَزْفَه، ويَعقِد اللّبنَ في الثّدي ضِمادًا، ويسكّن ورمَه؛ وهو يقوّي المعدةَ ويسخِّنها، ويسكِّن الفُواقَ ويَهضِم، ويمنع القيءَ البَلْغَميَّ والدّمويّ، وينفع من اليَرَقان، وخصوصًا شرابَه؛ وهو يعين على الباه لنفخ فيه، ويقتل الدِّيدان؛ وإذا احتُمِل قبلَ الجماع منع الحَبَل؛ وهو نافعٌ لعضّة الكَلْب الكَلِب.

قال أبو إسحٰق الحَضْرَميُّ في النَّمّام: [من الوافر]

أرَى الـنَّـمّـامَ بـالـصّـوت الـفـصـيـحِ ينادي الشَّرْبَ[٥] حيِّ على الصَّبوحِ[٦]
بـدا لـك فـي مَـطـارفـه[٧] وأبـدَى روائـحَ تَـسـتَـقِـلّ بـكـلِّ رِيـح
فقمْ وٱعصِ النّصيحَ وكن مطيعًا لـنـا فـالـعيـش عـصـيـانُ الـنَّـصـيـحِ

(١) النمّام: نبت له بزر كالريحان، عطري قوي الرائحة، سمّي بذلك لسطوح رائحته.
(٢) يتضمّد: يتخذ منه ضمادًا.
(٣) الفواق: ترجيع الشهقة العالية، وما يأخذ المحتضر عند النزاع.
(٤) الدبيلات: ضرب من الدمامل تصيب الجلد. (٥) الشرب: جماعة الشاربين.
(٦) الصبوح: الخمرة تشرب صباحًا.
(٧) مطارفه: جمع مطرف، وهو الثوب الموشّى الفضفاض.

وقال آخَر: [من الكامل]

حَيّيتُها بتحيّةٍ في مجلسٍ ... بقضيب نمّامٍ من الرَّيحانِ
فتطيّرتْ منه وقالت: ألقِه ... لا تقربنّ مضيِّعَ الكتمانِ

وقال آخَر: [من البسيط]

لا بارك اللهُ في النّمّام إنّ له ... اسمًا قبيحًا من الأسماء مهجورا
لو لم يُنِمَّ على العشّاق سرَّهم ... ما كان فيهم بهذا الاسمِ مشهورا

وقال ابن رَشيق[1] ـ وخالَف الأوّل فيه ـ: [من السريع]

لِمْ كَرِه النّمّامَ أهلُ الهوى ... أساء إخواني وما أحسَنوا
إن كان نَمّامًا فتنكيسُه[2] ... من غير تكذيبٍ لهم مأمَنُ

وأمّا الجِرْجِير[3] وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّة: وإن أردتم جِرْجِيرًا فخذوا خُنْفَساءَ[4] كبيرة، ومن ورق الباذْرَنْبُوَيه ثلاثةَ قُضبان، واسحَقوه مع الخُنْفَساء، ثم خذوا سبعَ حبّاتِ حِمَّصٍ أسود، واقلوها، وألبِسوها الذي سحقتم، واطمِرُوه في الأرض، ولا تسقوه الماء، ولتكن أرضًا نديّةً بالقرب من نباتٍ يُسقَى دائمًا فإنّه يَخْرُج من ذلك الجِرْجِير.

وقال الشيخُ الرّئيس: الجِرْجِير مه بَرّيٌّ ومنه بستانيّ، وبِزْرُ الجِرْجِير هو الّذي يُستعمَل في الطّبيخ بدلَ الخَرْدَل؛ وهو حارٌّ في الثالثة، يابسٌ في الأُولى، وفي رَطْبِه رُطوبةٌ في الأُولى، وهو مليِّنٌ منفِّخ، وماؤه بمرارة البقر ينفع لآثار القروح؛ وهو مصدِّع، خصوصًا إذا أُكِلَ وحدَه، والخَسُّ يمنع هذا الضررَ منه، وكذلك الهِنْدَبا والرِّجْلة[5]؛ وهو مُدِرٌّ للَّبن، وفيه هضمٌ للغِذاء، والبَرّيُّ منه مُدرٌّ للبولِ محرِّكٌ للباه والإنعاظ[6]،

---

(١) ابن رشيق: هو أبو علي الحسن، شاعر لازم بلاط المعزّ بن باديس في القيروان. أهم آثاره «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، مات سنة ١٠٧١ م.
(٢) تنكيسه: قلبه، أي قلب حروفه.
(٣) الجرجير: ضرب من النبات والبقل، يتّخذ منه تابلًا، ويؤكل نيّئًا ومسلوقًا.
(٤) الخنفساء: دويبة سوداء أصغر من الجعل، كريهة الرائحة.
(٥) الرجلة: البقلة الحمقاء.
(٦) الإنعاظ: التحريك، تحريك العضو المذكّر، خاصة.

خصوصًا بِزْرَه؛ وإذا أُكِلَ وشُرِب عليه الشّرابُ الرَّيْحانيُّ فهو دِرْياقٌ[١] لعضّة ابنِ عِرْس[٢].

وأمّا السَّذابُ وما قيل فيه - فقال ابنُ وحشيّة: إن أردتم سَذابًا فخذوا رِجلَيْ ديكٍ فانقعوهما في عُصارة الفُودَنْج البَرّيّ أربعةَ أيّام، ثم اغمِسوهما في الزّيت واغرِزُوهما في الأرض، واجعلوا فوق أصابع كلِّ رِجلٍ حجرين من الكُنْدُر أكبرَ ما تقدون عليه، ثمّ طاقةً من سَذابٍ يابسًا عَرْضًا، واطمِرُوه في التراب، فإنّه بعد أحد وعشرين يومًا يخرج منه السَّذاب، فحوّلوه من مَنبَته إلى بقعةٍ أخرى، فإنّه يشتدّ ويقوَى؛ ومن خاصّيّة السَّذاب أنّ الحائضَ إذا مسَّته بيَدِها جفّ؛ وهو إذا زُرِع في أصل شجرة التّينِ نَقَصتْ حرارتُه وحَرافتُه لما بينهما من الموافَقة.

وقال الشيخ الرّئيس: أوفقُ السَّذابِ البستانيُّ ما يَنبتُ عند شجرة التّين؛ وطبعُ السّذابِ الرَّطْبِ منه حارٌّ يابسٌ في الثانية، واليابسُ حارٌّ يابسٌ في الثالثة: واليابسُ البَرّيُّ حارٌّ يابسٌ في الرّابعة؛ وهو مقطِّعٌ محلِّلٌ مُفِشٌّ[٣] جدًّا، منقٍّ للعروق مقرّحٌ قابضٌ؛ وهو مع النَّطْرون على البَهَق الأبيض وعلى الثآليل والتُّوثِ نافع ويُذهِب رائحةَ الثُّوم والبصل، وينفع من داء الثّعلب، وإذا دُقّ وضُمِد به مع الملح عضوٌ أحدث عليه ورمًا حارًّا؛ وإذا جُعِل على خنازير الحَلْق[٤] والإبْط حلّلها، والصَّمْغُ أقوى في جميع ذلك؛ وإذا جُعِل مع السّمن والعسل على القوابي ومع الخلّ والإسْفِيداج على النَّمْلة[٥] والحُمْرة نَفَع وينفع من الفالج وعِرْق النَّسا وأوجاع المفاصل شربًا وضِمادًا بالعسل، ويُضَمد به مع السَّويق للصُّداع المُزْمِن؛ وعُصارتُه المسخَّنةُ في قشور الرّمّانُ تُقطَر في الأُذُن فتنفعها، وتسكِّن الوجعَ والطَّنِينَ والدَّوِيّ، وتَقتلُ الدّود، وتُطلَى بها قُروحُ الرأس؛ وهو يُحِدّ البصر، وخصوصًا عُصارتَه مع عُصارةِ الرازِيَانَجِ والعسل كحلًا وأكلًا، وقد يُضمَد به مع السَّوِيقِ على ضَرَبان العين، وطبيخُ الرَّطْب منه مع الشِّبْث اليابِس نافعٌ لوجع الصّدر وعُسر النَّفَس على ما شَهِد به رُوفُس ويُضمَد به مع التّين للاستسقاء اللّحميّ، ويُسقَى شرابٌ طُبِخ فيه السَّذاب،

(١) الدرياق: لغة، في الترياق، وهو دواء يدفع السّموم.
(٢) ابن عرس: دويبة من فصيلة السّموريات، يشبه الفأرة، أصلم الأذنين، يفتك ببيوت الدجاج والحمام.
(٣) مفشّ: أي مزيل، ومحرّك، وباعث على الانتفاش، والنموّ.
(٤) خنازير الحلق: ضرب من الأورام تكون في العنق والحلق.
(٥) النملة: ضرب من البثور أو القروح مختلفة الآثار والأشكال.

وإذا شُرِب من بِزْرِه من درهم إلى درهمين للفُواق البَلْغَميِّ سكّنه، وهو يُمْرِىء[١] ويشهّي ويقوّي المعدة، وينفع من الطِّحال، وهو مجفِّفٌ للمنيِّ ويقطعه، ويُسقِط شهوةَ الباه ويُحقَن به مع الزّيت لأوجاع القُولَنج، ويوضع بالعسل على قروح المقعدة، ويُغلَى في الزّيت ويُشْرَب للدِّيدان؛ قال: والنوعان يَستفرِغان فضولَ البدن بالإدرار؛ ويُضمَد به وبورق الغار[٢] على الأنثيين لأورامهما، وأكلُه ينفع من الحمَّى النافض[٣] والتَّمريخُ[٤] بدُهنِه؛ وهو يقاوم السُّموم، والإكثارُ من أكل البرّيّ قاتل. ولم أقف على وصفٍ فيه فأُورِدَه.

وأمّا الطَّرْخُون وما قيل فيه ـ فهو صنفان: بابليّ، وهو طويل الورق؛ وروميّ، وهو مدوَّر؛ قال ابنُ وحشيّةَ في توليدِهِ: وإن أردتم الطَّرْخُون فخذوا من عروق العُشَر[٥] وورقِه فدُقّوا ذلك دقًّا يسيرًا بلا سحق، ثمّ صرّوه في صُرّةٍ واحدةٍ أو صُرَرٍ في ورق الفُجْل الكبار، واطمِروه في الأرض، فإنه يَخرُج لكم منه الطَّرْخُون.

وقال الشيخ الرئيس: قالوا: إن العاقرَ قَرْحًا هو أصلُ الطَّرْخُون الجبليّ؛ قال: وطبعُه الظاهر أنه حارٌّ يابسٌ إلى الثانية، وإن كانت فيه قوّةٌ مخدِّرةٌ؛ قال: وقال بعضُ من لا يُعْتَمد عليه: إنه باردٌ يابس. قال الشيخ: وهو مجفِّفٌ للرّطوبات، وفيه تبريدٌ ما، وإذا مُضِغ وأُمْسِك في الفم نفع القُلاع[٦]؛ وهو يُحدِث وجعَ الحَلْق، وهو عَسِر الهضم؛ وهو يقطع شهوةَ الباه.

وأمّا الإسفاناخُ وما قيل فيه ـ أمّا توليده فقال ابنُ وحشيّةَ فيه: خذوا عروقَ الخَطْميّ[٧] ولُفّوا عليها من ورق الخَسّ الرَّطْب، وانقَعوها في الشَّيْرَجِ يومًا ثمّ اطمِروها في التراب، فإنّها تُنْبِت بعد سبعة أيّامٍ إسفاناخًا.

(١) يمرىء: يجعل الطعام مريئًا، ويفتح شهية الآكل.

(٢) الغار: شجر طيّب الرائحة من فصيلة الغاريات، دائم الخضرة، يستخدم تابلًا في الطعام، ومن زيته يستخرج مادة طبّية، ويصنع منه الصابون.

(٣) الحمّى النافض: الحمّى التي تبعث على الرّعدة والانتفاض لشدّتها وارتفاعها.

(٤) التمريخ: الإدْهان.

(٥) العشر: ضرب من الشجر، يستخدم صمغه في الطبّ.

(٦) القلاع: ضرب من الأورام والتقيّحات تصيب سقف الحلق، وتمنع من مرور الطعام في المريء.

(٧) الخطمي: نبات من فصيلة الخبازيات يعيش في المواضع الرطبة، له فائدة طبية ويستعمل كملّين.

وأمّا طبعُه وأفعالُه ـ فقال الشيخ: هو باردٌ رَطْبٌ في آخِر الأُولى، وهو مليِّن، وفيه قوّةٌ جاليةٌ غسّالة، ويَقمَع الصّفراء، وينفع من أوجاع الظّهر الدّمويّة، ونافعٌ من وجع الصّدر والرّئة.

وأمّا البَقْلةُ الحَمْقاء ـ وهي اليرسا، وتسمّى الرِّجْلة والفَرْفَخِين ـ.

أمّا توليدها ـ فقال قال: وإن أردتم يرسا ـ وهي البقلةُ الحَمْقاء ـ فخذوا عروق القطن وورقَه رطبين فدقّوهما دقًّا يسيرًا وغرّقوهما باللّبن الّذي قد أُنبِذ(١) فيه الحِمَّص، ثمّ اطمِرُوه في الأرض؛ فإنّه بعد أسبوعٍ تَنْبُت منه هذه البقلة. والذي نعرفه نحن من أمرها أنّها تَنْبُت في أرضِ قصب السكّر من غير معالَجة.

وأمّا طبعُها وفعلُها ـ فقال الشيخ الرئيس: إنّ طبعَها باردٌ في الثانية رَطْبٌ في آخرها، وإنّ فيها قبضًا يمنع النَّزْفَ والسَّيَلاناتِ المُزْمِنة، وغِذاؤها قليلٌ غيرُ مذموم؛ وهي قامعةٌ للصّفراء جدًّا؛ قال: ومن خاصّيّتها أنّها تُحَكّ بها الثَّآليل فَتقلَعُها؛ وهي ضمادٌ للأورام الحارّة التي يُتخوّف عليها الفساد، وللحُمرة، وتنفع البثُورَ في الرأس غسلًا بها، وتسكّن الصُّداعَ الحارَّ الضَّرَبانيّ؛ وتنفع من الرَّمَد، وتَدخُل في الأكحال والإكثارُ منها يُحدِث الغِشاوةَ(٢)؛ وتنفع التهابَ المعدةِ شربًا وضِمادًا، وتنفع الكبدَ الملتهبة، وتمنع القيء، وتنفع من أوجاع الكُلَى والمَثانةِ وقروحِهما، وتقطع شهوةَ الباه؛ وزعم ماسرجويه(٣) أنّها تزيد في الباه. قال الشيخ: ويشبه أن يكون ذلك في الأمزجة الحارّةِ اليابسة؛ وهي تحبس نَزفَ الدّمِ من الحيض؛ وينفع ماؤها من البواسير الدّامية، ومن الحُمّيات الحارّة؛ قال: وإن شُوِيَتْ وأُكِلتْ قطعت الإسهال.

وأمّا الحُمّاض وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّة: وإن أردتم الحُمّاض فخذوا من اليرسا ثلاثًا أو أربعًا فانقعوها في ماءٍ وخَلٍّ ثلاثَةَ أيّام، ثمّ خذوا عِرْقًا من عروقها أو عِرْقين فاجعلوهما في الأرض، واجعلوا الطاقاتِ المنقوعةَ فوقهما ثم صبّوا عليها ذلك الخَلّ الممزوج، واطمِروها، فإنّها تُنبِت لكم الحُمّاض.

---

(١) أنبذ: خلط وطرح.
(٢) الغشاوة: رقاقة بيضاء تغشى العين.
(٣) ماسرجويه: طبيب يهودي من البصرة، خدم الخلفاء الأمويين، نقل من السريانية إلى العربية كتاب «الطبّ» للقسّ هارون. له كتاب: «قوى الأطعمة ومنافعها ومضارّها»، وكتاب «العقاقير». انظر: الفهرست، ص ٤١٣.

وقال الشيخ الرئيس: الحُمّاضُ منه بستانيٌّ ومنه بَرّيٌّ «يقال له: السِّلْقُ البَرّيّ، وليس في البَرّيِّ كلّه كما قال حموضة، بل لعلّ في بعضِه حموضة؛ والبَرّيُّ أقوى في كلِّ شيء، وطبعُه باردٌ يابسٌ في الثانية، وبِزْرُه باردٌ في الأُولى، يابسٌ في الثانية، وفيه قبض، وفي التَّفِه[١] منه تحليلٌ يسير، والحامضُ أقبَض؛ والذي ليس شديدَ الحموضةِ أغْذَى، وهذا هو الشبيهُ بالهِنْدَبا؛ وكلّه يَقمَع[٢] الصَّفراء؛ وخِلْطُه محمود؛ وأصلُه بالخَلّ ينفع لتقشير الأظفار؛ وإذا طُبِخَ بالشّراب نفع ضمادُه من البرصِ والقُوباء؛ وقيل: إنّ أصلَه إذا عُلّق في عنق صاحبِ الخنازير انتفَعَ به؛ وأصلُه بالخلّ للجرب المتقرِّحِ والقَوَابي، وطبيخُه بالماء الحارّ ينفع من الحِكّة، وكذلك هو نفسُه في الحمّام؛ وإذا تُمضمِض بعُصارتِه نفع من وجع السنّ، وكذلك بمطبوخِه في الشّراب، وينفع من الأورام التي تحت الأذن؛ وينفع من اليَرَقان الأسوَدِ بالشّراب؛ ويسكِّن الغَثَيان؛ ويؤكل لشهوةِ الطِّين، وبِزْرُه يَعْقِلُ البطن؛ وقد قيل: إنّ في ورقِه تليينًا ما، وفي بِزرِه عَقْلٌ مطلق؛ وقال بعضُهم: إنّ بِزْرَ الحُمّاضِ غيرَ مقلوٍّ فيه إزلاقٌ وتليين؛ وأصلُه مدقوقًا لسَيَلان الرَّحِم وتفتيتِ حَصاةِ الكُلْيةِ إذا شُرِبَ في شراب، واللُّزوجةُ الّتي فيه تنفع من السَّحْج[٣] العارِض من يُبْس الثُّفْل[٤]؛ وهو ينفع من لسع العقرب، وخصوصًا البَرّيّ؛ وإن استُعمِل بزرُه قبلَ لسع العقرب لم يضرَّ لسعُها.

وأمّا الرّازِيَانَج وما قيل فيه - فقال ابنُ وحشيّة: إن أخذتم أخثاءَ[٥] الخِنزير فخلطتموها بدمه، ولففتموها في شيءٍ من جِلدِه، ثم طمرتموها بالتراب الّذي له نَزٌّ[٦] وفيه رطوبة، خرج عن ذلك الرّازِيانَج.

وقال الشيخ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا: «والرّازِيانَجُ نَبَطيٌّ وروميّ.

فأمّا النَّبَطيُّ - فمنه بَرّيّ، ومنه بستانيّ»؛ والبرّيُّ أشدُّ حرارةً ويُبْسًا، وأَولى بالثالثة؛ وأمّا البستاني فتكون حرارتُه في الثانية؛ قال: والرّازِيانَجُ يفتّح السُّدَد، ويُحِدّ البصر، خصوصًا صَمْغَه، وينفع من ابتداء الماء، وزعم إبُقراطيس[٧] أنّ

(١) التفه: الغث والقليل، وما ليس له طعم أو رائحة.
(٢) يقمع: يمنع. (٣) السحج: التقشّر.
(٤) التفل: ما يستقرّ في أسفل الشيء من كدرة. (٥) أخثاء: براز وخُرء.
(٦) نزّ: ما يتحلّب من الماء.
(٧) إبقراطس: من أشهر أطباء اليونان، يتعهد الأطباء في قسمهم بالتقيّد بمسلك قسمه المشهور. مات سنة ٣٧٧ ق.م.

الهوامّ[1] ترعَى بِزرَ الرّازِيانَج الطّريّ ليقوّيَ بصرَها، والأفاعيَ والحيّاتِ تَحُكّ أعيانَها عليه إذا خرجتْ من مآويها بعد الشتاء استضاءةً للعين، ورَطْبُه يُغْزِر اللّبن، وخصوصًا البستانيّ، ويُدِرّ البولَ والطَّمْث، والبَرّيُّ خاصّةً يفتّت الحصاة؛ وفيهما منفعةٌ للكُلْية والمَثانة؛ والبرّيُّ ينفع من تقطير البول، وينقّي النُّفَساء[2]؛ وإذا أُكِلَ بِزْره مع أصلِه عَقَل؛ وينفع من الحُميَّات المُزْمِنة، وطبيخُه بالشّراب ينفع من نهشِ الهَوامّ؛ ويُدَقّ أصلُه ويُجعَل طِلاءً من عضّة الكَلْب الكَلِب.

«وأمّا الرّوميّ - وهو الّذي بِزرُه الأَنِيسُون» - فقال جالِينُوس: هو حارٌّ في الثانية، يابسٌ في الثالثة. وقال الشيخ: هو مفتّحٌ مع قبضٍ يسير، وهو مسكِّنٌ للأوجاع، محلِّلٌ للرّياح، وخصوصًا إن قُلِيَ، وفيه حدّةٌ يقارِب بها الأدويةَ المحرِقة وينفع من التهيّج في الوجه، وورم الأطراف؛ وإذا بُخِّر به واستُنْشِق برائحتِه سكّن الصُّداع؛ وإن سُحِق وخُلِط به دُهنُ الورد وقُطِر في الأذن أبرأ ممّا يَعْرِض في باطنِها من صَدْعٍ عن صدمةٍ أو ضربة، وينفع من السَّبَل[3] المُزْمِن، «ويسهِّل النَّفَس»[4]، ويُدِرّ اللَّبن، ويقطع العطشَ الكائنَ عن الرّطوبات البُورَقيّة؛ وينفع من سُدُدِ الكبدِ والطِّحال، ومن الرّطوبات؛ ويُدِرّ البولَ والطَّمْثَ الأبيض، وينقّي الرَّحِمَ من سَيَلان الرّطوبات البيض، ويحرِّك الباه، وربّما عَقَل البطن، وهو يفتّح سُدُدَ الكُلَى ويدفع ضررَ السُّموم والهَوامّ، والله أعلم.

وقال ابنُ وكيع في الرّازِيانَج: [من الرجز]

أخَذتُ من كفِّ الغزالِ الأحوَرِ[5] غصنًا من البَسباسِ ممطورًا طَرِي

كأنّه في عين كلِّ مبصِرِ مِذبّةٌ[6] من الحريرِ الأخضرِ

وأمّا الكَرَفْس وما قيل فيه - فقال الشيخُ الرئيس: الكَرَفْسُ منه جَبَليّ ومنه برّيّ، ومنه بستانيّ، ومنه ما يَنبُت في الماء وبقُربه؛ وهو أعظمُ من البستانيّ وقوّتُه كقوّته «ومنه نوعٌ يسمَّى سُمُرْنِيُون» أعظمُ من البستانيّ أجوفُ السّاق إلى البياض، وقد يختلف بالبلاد، فمنه روميّ، ومنه غيرُه؛ قال: وأقواه الروميّ ثمّ الجَبَليّ، وطبعُه في أولى

(١) الهوامّ: ما يدبّ من الحشرات وغيرها على الأرض، تطلق على السافة خاصة.
(٢) النفساء: المرأة التي وضعت حديثًا. (٣) السبل: الغشاوة على العين.
(٤) النفس: حالة المرأة إثر وضعها ولدها.
(٥) الأحور: الذي في عينه حور، وهو شدّة بياض العين وسواد حدقتها.
(٦) المذبّة: ما يذبّ ويدفع به الذباب وغيره.

الحرارة، وثانيةِ اليُبُوسة . وقال رُوفُس: البستانيُّ رَطْبٌ إلّا أصلَه، فهو يابسٌ اتّفاقًا؛ قال: وهو محلِّلٌ للنَّفخ، مفتِّحٌ للسُّدُد، مسكِّنٌ للأوجاع؛ ومُربّاه أوفق للمحرور[١]؛ والبَرّيُّ ينفع لداء الثّعلب، ولتشقيقِ الأظفار والثّآليل وشُقاقِ البَرْد؛ والبستانيُّ مطيِّبٌ للنَّكْهة جدًّا؛ والبَرّيُّ مقرِّحٌ إذا ضُمِدَ به ولذلك ينفع من الجربِ والقُوباءِ، ومن الجراحاتِ إلى أن تنختم، خصوصًا سُمُرْنِيُون، وسُمُرْنِيُون يوافِق جميعُ أجزائه عِرْقَ النَّسا؛ والكَرَفْسُ البستانيّ يَدخلُ في أضمدةِ أوجاعِ العين؛ وينفع من السُّعال، وخصوصًا سُمُرْنِيُون، وكذلك ضيقُ النَّفَس وعُسْرُه؛ وهو من أدويةِ أورام الثّدي الحارّة؛ وينفع الكبدَ والطِّحال؛ ويحرِّك الجُشاء[٢] لتحليلِه، وليس سريعَ الانهضام والانحدار، وفي بِزرِ الكَرَفْسِ تغثيةٌ وتقيءٌ إلّا أن يُقْلَى؛ قال: وقال بعضهم: إنّ جميعَ أصلِه نافعٌ للمعدة. ويقولُ رُوفُس: لا، بل قد يَجْلِب إليها رطوباتٍ رديئةً حادّةً؛ وقال جالِينوس: إنّه ممّا يَصلُح أن يؤكلَ مع الخَسّ، فإنّه يَعْدِل بَرْدَ الخسّ، وبِزرُه ينفع من الاستسقاء، وينقِّي الكبدَ ويسخِّنها، وهو يُدِرّ البولَ والطَّمْث؛ وهو رديءٌ للحوامل؛ وهو ينقِّي الكُلْيَة والمَثانَة والرحِم، وينفع من عُسر البول، ويُخرِج المَشِيمة، خصوصًا سُمُرْنِيُون، ويَملأ الرَّحِمَ رطوبةً حِرّيفةً إذا أُدمِن أكلُه[٣]. قال: وقال بعضُهم: الكَرَفْسُ يهيّج الباه، حتى قال: يجب أن تُمنَع المُرضِعَةُ من تناولِه لئلّا يفسد لبنها لهيجان شهوة الباه؛ والرّوميُّ جيّدٌ لقُولون والمَثانةِ والكُلْيَة؛ وطبيخُه مع العَدَس يُتقيَّأ به بعد شرب السّمّ؛ وإذا لسعت العقربُ مَن أكلَة اشتدّ به الأمر.

انتهى القسم الأول

(١) المحرور: من فيه حرارة وحمّى.
(٢) الجشاء: اضطراب النفس، والريح الذي يخرج من الفم مع صوت عند الشبع.
(٣) أدمن أكله: الدوام على أكله والاستمرار فيه.

القسم الثاني
من الفنّ الرابع في الأشجار

وفيه ثلاثة أبواب:

البابُ الأوّل
من هذا القسم من هذا الفنّ
فيما لثمره قشرٌ لا يؤكل

ويَشْتَمل هذا الباب على اللَّوْزِ والجَوْزِ والجِلَّوْزِ والفُسْتُقِ والشّاه بَلُّوط والصَّنَوْبَر والرّمّان والمَوْزِ والنّارَنْج واللَّيْمُون.

فأمّا اللَّوْزُ وما قيل فيه ـ فقال الشيخُ الرئيس في طبيعته: الحلوُ معتدِلٌ إلى رُطوبة، والمُرّ حارٌ يابسٌ في الثانية؛ وقال في أفعاله وخواصّه: في جميع أصناف اللَّوْزِ جِلاءٌ وتنقيةٌ وتفتيح، لكن الحلو أضعفُ من المرّ في تفتيحه؛ لأنه ملطِّفٌ، ودُهنُه أخفُّ من جِرْمِه، والمرُّ ينفع من الكَلَف والنَّمَش والآثار، ويَبسُط تَشنُّجَ الوجه، وأصلُ المُرِّ إذا طُبِخَ وجُعِل على الكَلَف كان دواءً قويًا، وأكلُ اللَّوْزِ الحلوِ يسمِّن؛ والمُرَبَّى بالشَّراب جَيّدٌ للشَّرَى، ويُطْلَى به بالعسل الساعية[1] والنَّمْلة ويُطلَى به بالخَلِّ أو بالشّرابِ على القَوَابي[2]، والمُرُّ أبلغُ في ذلك؛ وهو جيّدٌ لوجع الأُذُن والدَّوِيِّ فيها، وخصوصًا المُرَّ دهنًا ومسحوقًا بحاله وممسوحًا؛ وإذا غُسِل الرأسُ به وبالشرابِ نقَّى الرّطوبةَ والحَزازَ ونوَّم؛ وإذا شُرِبَ المُرُّ قبلَ الشرابِ مَنَع السُّكْر، وخصوصًا خمسين عددًا؛ وثمرُ اللَّوْزِ المُرِّ إذا دُقَّ ناعمًا وخُلِط بالخَلِّ ودُهْنِ الوردِ وضُمِد به الجبينُ نفع الصُّداع، وكذلك دُهنُ اللَّوْز المُرِّ ينفع منه؛ وهو يقوِّي البصر؛ واللَّوْزُ المُرُّ مع نَشَا الحِنْطةِ[3] جيّدٌ لنَفْثِ الدَّم؛ وينفع من السُّعال المُزمِن والرَّبْوِ وذاتِ الجَنْب، وخصوصًا دُهنَ الحلو؛ وسَوِيقُ اللَّوْزِ نافعٌ من السُّعال ونَفْثِ الدّم؛ وهو يفتّح سُدَدَ

(١) الساعية: نوع من أنواع النملة، وهي عبارة عن بثور وتورّمات في الجلد.

(٢) القوابي، القوبياء، أو جمع القوبياء: وهي الحزاز، وتقشّر الجلد.

(٣) نشا الحنطة: مادتها النشوية، والحنطة: القمح.

الكبد والطِّحال، وخصوصًا المُرّ، فإنّه يفتّح السُّدُدَ العارضةَ في أطراف العروق؛ وإذا أُكِل الطريُّ بقشرِه نقّى بِلّةَ المعدة؛ وهو عَسِرُ الهضم، جيّدُ الخِلْط، قليلُ الغذاء؛ وإذا كان بالسُّكّر انحدَرَ سريعًا، ودُهنُ المُرّ ينقّي الكُلْيَةَ والمَثانة ويفتّت الحَصاة، خصوصًا مع الإيْرِساء[١] شُرْبًا، وربّما نفع ضِمادًا معه ومع دُهن الوَرد؛ وينفع لأوجاع الرَّحِمِ وأورامِها الحارّةِ وصلابتِها وعُسْرِ البولِ ووجعِ الكُلَى؛ ويُحْتمل فيُدِرّ الطَّمْث؛ والحلوُ نافعٌ من القُولَنْج لِجلائه؛ والمُرُّ أنفع، ودُهنُه أخفُّ من جِرْمِه. قال: وينفع من عضّة الكَلْب الكَلِب[٢].

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك قولُ ابن المعتزّ[٣]: [من الطويل]

ثلاثةُ أثوابٍ على جسدٍ رَطْبِ ... مُخالِفةُ الأشكالِ من صنعة الرَّبِّ
تقيه الرَّدَى[٤] في ليلِه ونهارِه ... وإن كان كالمسجون فيها بلا ذنبِ

وقال آخَر: [من المنسرح]

أما تَرَى اللَّوْزَ حين تُرْجِله[٥] ... عن الأفانين[٦] كَفُّ مقتطِفِ
وقشره قد جلا القلوبَ لنا ... كأنّها الدُّرّ داخلَ الصَّدَفِ

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

جاء بلوزٍ أخضر ... أصغَرُه ملءُ اليَدِ
كأنّما زِئْبِرُه[٧] ... نَبْتُ عذارِ الأمردِ[٨]
كأنّما قلوبُه ... من توأمٍ ومفرَدِ
جواهرٌ لكنّما الـ ... ـأصدافُ من زبرجدِ

---

(١) الإبريساء: ضرب من الحشائش المزهرة، فيه عقد كثيرة.
(٢) الكِلب: الذي يسبب عضّة داء الكلب المعروف.
(٣) ابن المعتزّ: هو أبو عبد الله، الأمير العباسي، والخليفة الذي حكم يومًا وليلة، وذلك بعد خلع المقتدر. له ديوان شعر مشهور، وله كتاب «البديع». مات خنقًا سنة ٩٠٨ م. انظر: التنبيه والإشراف، للمسعودي ص ٣٢٦ ـ ٣٣٧، دار صعب، بيروت.
(٤) الردى: الهلاك والموت. (٥) ترجله: تنزله.
(٦) الأفانين والأفنان: جمع فنن، وهو الغصن والفرع.
(٧) زئبره: وبره. (٨) عذار الأمرد: جانب لحيته.

وقال أبو طالب المأمونيّ: [من البسيط]

ومستجِنٌ[١] عن الجانين ممتنعٍ بحُلّةٍ لم تحُكْها كفُّ نسّاجِ
دُرٌّ تَكوَّنَ من عاجٍ تضمّنه في البَرِّ لا البحرِ أصدافٌ من السّاجِ[٢]

وقال آخَرُ في لوزةٍ بقلبين: [من الطويل]

ومُهْدٍ إلينا لوزةً قد تَضمّنتْ لمبصرِها قلبين فيها تَلاصَقا
كأنهما حِبّان[٣] فازا بخَلوةٍ على رِقْبةٍ[٤] في مجلسٍ فتَعانَقا

وأمّا الجَوْزُ وما قيل فيه ـ فقال الشيخ: هو حارٌّ، ودِرْياقُه للمحرورين السَّكَنْجَبين، ولضعفاءِ المعدةِ المُرَبّى بالخَلّ؛ وهو حارٌّ في الثانية يابسٌ في أوّلها ويُبْسُه أقلُّ من حَرِّه، وفيه رطوبةٌ غليظةٌ تَذهَب إذا عَتُق.

وأمّا أفعالُه وخواصُّه؛ ففي مقلوِّه قبض، وورقُه وقشرُه كلُّه قابضٌ للنَّزْف؛ وقشرُه المُحرَقُ مجفِّفٌ بلا لَذْع، ودُهنُ العَتيقِ منه كالزّيت العَتِيق، وجِلاءُ العَتِيقِ قويّ، ولُبُّه الممضوغُ يُجعَل على الورم السَّوداويّ المتقرِّحِ فينفع؛ وصَمْغُه نافعٌ للقُروح الحارّةِ منثورًا عليها وفي المَراهم؛ وهو مع عسل وسَذابٍ ينفع التواءَ العَصَب؛ وعُصارةُ ورقِه تُفتَّر وتُقطَر في الأُذُن فتنفع من المِدّة[٥]. وقيل: إنّه مثقِّلٌ للّسان مبثِّرٌ للفم[٦]، وعُصارةُ قشرِه ورُبّه يمنع الخُنَاقَ، ويضرّ بالسُّعال؛ وهو عَسِرُ الهَضْم رديءٌ للمعدة، والمُرَبّى والرَّطْبُ أجوَدُ للمعدة وأقلُّ ضررًا؛ والمُرَبّى بالعسل نافعٌ للمعدة الباردة، وقشرُه يَحبِس نَزْفَ الطَّمْث؛ والمُرَبّى نافعٌ للكُلْية الباردة؛ ورَمادُ قشره يَمنع الطَّمْثَ شُرْبًا بالشراب وحَمْلًا؛ والجَوْز مع التّينِ والسَّذابِ دواءٌ لجميع السُّمُومِ ومع البصلِ والملحِ ضمادٌ على عضّة الكلب الكَلِب وغيرِه.

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك قولُ شاعر: [من مجزوء الرجز]

جاء بجوزٍ أخضرِ مكسَّرٍ مقشَّرِ
كأنّما أرباعُه مُضْغةُ عِلْكِ الكُنْدُرِ

---

(١) مستجنّ: مختفٍ، مستور.
(٢) الساج: ضرب من الخشب الجيد الصلب. والساج: الطيلسان الواسع المدوّر.
(٣) حبّان: مثنّ حِبّ، وهو المحبّ العاشق. (٤) الرقبة: الحراسة والتحفّظ.
(٥) المِدّة: ما يجتمع في الجرح من القيح. (٦) مبثّر للفم: يحدث فيه بثورًا وجروحًا.

وقال آخَر: [من الكامل]

والـجَـوزُ مـقـشـورٌ يـروق كـأنّـه لونًا وشكلًا مُصْطَكَى[١] ممضوغُ

وقال أبو طالب المأمونيّ: [من الكامل]

ومحقّقِ التدويرِ يَبعُد نفعُه مِن كفِّ من يجنيه ما لم يُكسَرِ
دُرٌّ يَـسُـوغ لآكـلـيـهِ يـضـمُّـه صدفٌ تكوَّنَ جسمُه من عَرْعَرِ[٢]
متدرِّع في السِّلْمِ فوقَ غِلالةٍ[٣] دِرْعًا مظاهَرةً بشوبِ أخضرِ

وأمّا الجِلَّوْزُ وما قيل فيه ـ فالجِلَّوْز، هو البُنْدُق، وقد سَمّى ابنُ سينا الصَّنَوْبَرَ بالجِلَّوْز، وقال في البُنْدُق: هو إلى حرارةٍ ما ويُبوسةٍ قليلة، وفيه من القبض أكثرُ ممّا في الجَوْز، وفيه نَفْخ، ويولِّد الرّياحَ في البطن؛ وإذا قُلِيَ وأُكِلَ مع فُلفُلٍ قليلٍ أنضج الزُّكام؛ وقال أبُقراط: البُنْدُقُ يزيد في الدِّماغ، وإذا أُكِلَ بماءِ العسل نفعَ من السُّعال المُزمِن، وهو بطيءُ الهَضْم، ويهيِّج القيء، وينفع من النُّهوش وخصوصًا مع التِّين والسَّذاب للدغ الغرب.

وأمّا ما وصّفه به الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك قولُ شاعر: [من الكامل]

ولقد شربتُ مع الغزال مُدامةً[٤] صـفـراءَ صـافـيـةً بـغـيـرِ مِـزاجِ
فتَفضَّل الظّبيُ الغَريرُ[٥] ببُنْدُقٍ شـبّـهـتُـه بـبـنـادقٍ مـن سـاجِ
وكسرتُه فرأيتُ صوفًا أحمرا قـد لُفَّ فـيـه بـنـادقٌ مـن عـاجِ

وقال ابنُ رافع: [من الرجز]

جِلَّوْزَةٌ من كفِّ ظبيٍ غَزِلِ[٦] رَمَى بها نحوي كمِثلِ جُلْجُلِ[٧]
أو كُرَةٍ في ثُلْثٍ من صَنْدَلِ[٨] تُكسَر عن حريرةٍ لم تُغزَلِ
محمّرةٍ فوق بياضٍ يعتلي من حسنها المستظرَفِ المستكمَلِ

* في مَطْعَمِ الشُّهْدِ وعَرْفِ[٩] المَنْدَلِ[١٠] *

---

(١) المصطكى: شجر له ثمر يميل طعمه إلى المرارة ويستخرج منه صمغ يعلك.
(٢) العرعر: جنس شجر من فصيلة الصنوبريات. (٣) غلالة: شعار أو ثوب رقيق.
(٤) المدامة: الخمرة. (٥) الغرير: البهيّ الشابّ.
(٦) غزل: فيه ضعف عن السّعي. (٧) الجلجل: الجرس الصغير أو الكبير.
(٨) الصندل: جنس من الشجر الهندي زهره أبيض، وخشبه طيّب الرائحة.
(٩) العرف: الرائحة الذكيّة. (١٠) المندل: العود الطيّب الرائحة.

وأمّا الفُسْتُق وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّةَ في توليده: وإن أردتم فُسْتُقًا فخذوا كبدَ الماعز فشقّوها، وادفنوا فيها عَظْمَ صُلْبِ الطّاووس[١]، وأَهْرِقوا فوقَها عُصارة الشّاهْتَرج، واطمِروها في الأرض؛ فإنه بعد سبعةٍ وعشرين يومًا تَخْرُج منها شجرةُ الفُسْتُق.

وقال الشيخ الرئيس: طبعُه أشدُّ حرارةً من الجَوْز؛ وهو حارٌّ يابسٌ في آخِر الثانية، وفيه رطوبة، وزعم بعضُهم أنّه بارد، وقد أخطأ، وهو يفتّح سُدُدَ الكبدِ لمرارتهِ وعطريّتِه، وفيه عفوصة[٢]؛ وغِذاؤه يسيرٌ جدًّا، وهو جيّدٌ للمعدة، خصوصًا الشاميَّ الشبيهَ بحَبّ الصَّنَوْبَر، وهو يفتّح منافذَ الغِذاء، ودُهْنُه ينفع من وجع الكبد الحادثِ من الرطوبة والغلظ. قال: فإن قال قائل: «لم أجد له في المعدةِ كبيرَ مَضَرّةٍ ولا منفعة». أقول: بل يَمْنَع الغَثَيانَ، وتَقلُّبَ المعدة، ويقوّي فمَها؛ وهو ينفع من نَهْشِ الهَوامّ، خصوصًا إذا طُبِخ بالشّراب.

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك ما قاله أبو إسحٰق الصّابي[٣]: [من مخلع البسيط]

والنَّقْل[٤] من فُسْتُقَ حديثٍ ... رَطْبٍ تَبدَّى به الجَفافُ
لي فيه تشبيهُ فيلسوفٍ ... ألفاظُه عذبةٌ خِفافُ
زُمُرُّدٌ صانه حريرٌ ... في حقٍّ[٥] عاجٍ له غِلافُ

وقال آخَر: [من الطويل]

زُمُرّدةً ملفوفةً في حريرةٍ ... لها حُقُّ عاجٍ في غِلافِ أديمِ[٦]

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَريّ[٧]: [من الطويل]

وحظّيَ من نَقْلٍ إذا ما نَعتُّه ... نَعَتُّ لَعَمري منه أحسنَ منعوتِ

---

(١) صلب الطاووس: ظهره.
(٢) عفوصة: مرورة، كأنها مرورة العفص، وهي المزازة أو المزوزة.
(٣) الصابي: هو أبو إسحٰق إبراهيم الصابىء الحراني، خدم بني بويه، اشتهر برسائله المعروفة بـ«رسائل الصابي»، عالم بالفلك، وله ديوان شعر، مات سنة ٩٩٤ م.
(٤) النقل: ما يؤكل على الشراب.
(٥) حقّ: وعاء.
(٦) الأديم: الجلد.
(٧) هو أبو بكر الصنوبري، واسمه أحمد. شاعر عاش في بلاط سيف الدولة وتغنّى بجمال الطبيعة، له ديوان «الروضيّات»، مات سنة ٩٤٦ م.

من الفُسْتُق الشاميِّ كلُّ مَصونةٍ تُصان عن الأحداق في بطن تابوتِ
زبـرجـدة مـلـفـوفـة فـي حـريـرةٍ مـضـمَّـنـة دُرًّا مـغـشًّـى بـيـاقـوتِ

وقال آخَر: [من المجتثّ]

وفُــسْــتُــقَ مــســتَــلــذٌّ من بعد شُرب الرَّحِيقِ[١]
كــأنــه حــيــن تــرنــو إلـيـه عـيـنُ الـرَّمـوقِ[٢]
حُـقٌّ مـن الـعـاج يَـحْـوِي زبـرجـدًا فـي عـقـيـقِ

وقال آخَرُ يصف الضّاحك: [من الطويل]

ومُهدٍ إلينا فُسْتُقًا غيرَ مُطْبَقٍ به زاد إحسانًا على كلِّ محسنِ
كأنّ انفتاحًا منه دَلَّ على الّذي به من كَمينٍ في حَشاه مضمَّنِ
ظماءٌ من الأطيار حامت ففَتَّحتْ مناقيرَها ثم استعانت بألسُنِ

وقال آخَر: [من البسيط]

أُنظر إلى الفُسْتُق المجلوبِ حين أتى مشقَّقًا في لطيفاتِ الطَّوامير[٣]
والقلب ما بين قشرَيه يلوح لنا كألسُنِ الطّير من بين المناقيرِ

وقال آخَر: [من البسيط]

كأنّما الفُسْتُق المملوحُ حين بدا مفتَّحَ القشر موضوعًا على طبقِ
وقد بـدا لُبُّـه لـلعـيـن، ألـسـنـةٌ للطّيرِ عطشَى بها شيءٌ من الرَّمَقِ[٤]

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

وضــاحــكٍ أجــفــانُــه لـم تَـكـتـحِـلْ بـالـوَسَـنِ[٥]
لــم أدرِ عــن أفــئـدةٍ تَـبـسِـمُ أم عـن ألـسُـنِ
كـعـاشـقٍ كـلّفـه الـ ـغـرامُ مـا كـلّفـنـي
إذا أخــذتَ قــلبَــه لـم يـنـتـفـع بـالـبـدنِ

(١) الرحيق: الخمرة. (٢) الرموق: الناظر بلهفة وحبّ.
(٣) الطوامير: جمع طومار، وهو الرقّ والورق. (٤) الرمق: بقية الروح في الجسم.
(٥) الوسن: النعاس.

وقال أبو بكر بنُ القُرْطُبيّة: [من مجزوء الخفيف]

صـدفُ أبـيـضٌ نَـقِـي ذو بــهــاءٍ ورونــقِ[1]
سـافـر عـن زبـرجـد أخـضـرٍ فـيـه مـطـبَـقِ
كـلُّ صبغٍ يُـعزَى إلى لـونِـه قـيـل فَـسْـتُـقِـي

وأمّا الشّاه بَلُوط وما قيل فيه ـ فالشّاه بَلُّوط هو القَسْطَل؛ قال ابنُ وحشيّة: وإن أردتم الشّاه بَلُّوطَ فخذوا كُلْيتي الخِنزيرِ وقرني غزال، فٱغرزوا في طرفي القرنين الكُلْيتين، وادفنوا ذلك في الأرض، واسقوه من الماء بقدرِ وصولِه إليه، فإنّه يُنْبِت في أربعةٍ وعشرين يومًا شجرةً تَحْمِل الشّاه بَلُّوط...

قال شاعرٌ يصفه: [من المنسرح]

يا حبّذا القَسْطَلُ المجرَّدُ عن قشرَيْه بعد الجَفافِ في الشجرِ
كـأنّـه أوجُـهُ الـصَّـقـالِـبـةِ[2] البِيضِ وفيها تَكرمُشُ[3] الكِبَرِ

وأمّا شجر الصَّنَوْبَر وما قيل فيه ـ فشجر الصَّنَوْبَر صِنفان، ذَكَرٌ وأُنثى؛ فالذَّكَر هو الأَرْز، وهو لا يُثْمِر، ومنه القَطِران؛ والأنثى صِنفان، صِنفٌ كبيرُ الحَبّ، وصِنفٌ صغيرُه، يسمَّى قَضْمَ قريش.

وقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ في توليده: خذوا من شجرة الخُرْنُوب الشاميِّ من عروقها الطّوال، فلُفّوها على قرنَيْ ثور، وانقَعوها في الزّيت سبعةَ أيّام، ثمّ اجعلوها في الأرض، واسحقوا الكُنْدُر وذُرُّوه عليها إذا غُرِستْ، فإنّها تُنْبِت شجرَ الصَّنَوْبَر.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليِّ بنُ سينا فيه ـ وسمّاه الجِلَّوْز ـ وقال: هو حَبُّ الصَّنَوْبَر الكبار، وهو أفضلُ غِذاءً من الجَوْز، لكنّه أبطأ انهضامًا؛ وهو مركَّبٌ من جوهرٍ مائيٍّ وأرضيّ، والهوائيّةُ فيه قليلة؛ قال: وفي لحاءِ[4] شجرِه قبض كثير؛ والدُّودُ الّذي فيه في قوّة الذّراريح[5]؛ ولِحاؤه ينفع من إحراق الماء الحارّ، «ويُلصِق

---

(١) الرونق: البهجة والحسن.
(٢) الصقالبة: أناس ينسبون إلى صقلية، من الرّوم،عاشوا في ظهراني العرب، في الأندلس خاصةً.
(٣) تكرمش: تكرّش، وضخامة وغلظ. (٤) لحاء الشجر: قشره.
(٥) الذراريح: ضرب من الديدان والدّوييات.

الجراحات ذَرُورا»[١]، ومن القُروح الحَرْقيّة؛ وفيه قوّةٌ مُدْمِلة[٢]، وفي لحائه من القبض ما يَبلُغ أن يشفِيَ السَّحْجَ إذا وُضِع عليه ضِمادًا أو ذَرُورًا؛ ويَصْلُح لمواقع الضربة ويَدْمُل، وورقُه أصلح لذلك لأنّه أرطب؛ والغَرْغَرة بطبيخ قشرِه تَجْلِب بلغمًا كثيرًا، وإذا سُلِق لحاؤه بالخَلّ وتُمُضْمِض به نفع وجعَ الأسنان؛ ودخانُه نافعٌ من انتثار الأشفار[٣]. قال: ويغذو غِذاء قويًا غليظًا غيرَ رديء؛ ويَصلُح للرّطوبات الفاسدةِ في الأمعاء؛ وهو بطيءُ الهضم، ويُصلِحُ هضمَه: أمّا للمبرودين فالعسل وللمحرورين فالطَّبَرْزَد، ويَزداد بذلك جُودةَ غِذاء؛ والمنقوعُ منه في الماء تَذهَب حِدّتُه وحَرافتُه ولَذعُه؛ ويُبْرِىء من أوجاع العَصَبِ والظّهرِ وعِرْق النّسا؛ وهو نافعٌ للاسترخاء، وينقّي الرِّئةَ ويُخْرِج ما فيها من القَيْح والخِلْطِ الغليظ، ويهيِّج الباه، وخصوصًا المُرَبَّى منه، وينفع من القَيْح والحَصاة في المَثانة؛ وهو مع التّمر والتّين ينفع من لدغ العقرب.

وقال في قَضْمِ قريش: إنّه جيّدٌ لقروح الكُلَى والمَثانة.

وأمّا ما وُصِف به الصَّنَوْبَر وشُبِّه به من الشِّعر ـ فمن ذلك قولُ بعض الشعراء: [من السريع]

صَـنَـوْبَـرٌ أطـيَـبُ مـوجـودِ ... نـلـتُ بـه غـايـةَ مـقـصـودِي
كـأنّـه حـيـن حـبـانـي[٤] بـه ... مـن خُـصَّ بـالإنـعـامِ والـجُـودِ
حَـبُّ لآلٍ[٥] مُـشْـرِقٌ لـونـه ... فـي جَـوْفِ أدراجٍ مـن الـعُـودِ[٦]

ونحوه قول الشاعر: [من السريع]

صَنَوْبَرٌ ظَلْتُ به مُولَعًا ... لأنّـه أطـيَـبُ مـوجـودِ
كـأنّـه الـكـافـورُ فـي لـونِـه ... تـحـويـه أدراجٌ مـن الـعُـودِ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَرِيّ ـ وذَكَر انتسابَه إليه ـ: [من المنسرح]

وإذ عُـزِيـنـا إلـى الـصَّـنَـوْبَـر لـم ... نُـعْـزَ إلـى خـامـلٍ مـن الـخـشـبِ

(١) ذرورًا: ما يذرّ في العين أو على الجرح كدواء.
(٢) مدملة: مبرئة من الدمامل.
(٣) الأشفار: أصول منابت شعر الأجفان للعين.
(٤) حباني: أعطاني.
(٥) لآل: جمع لؤلؤة، وهي واحدة اللؤلؤ المستخرج من البحر، للزينة.
(٦) العود: ضرب من النبات يحرق فتنتشر منه رائحة ذكيّة، يتبخّر به.

لا بل إلى باسِقِ[١] الفروعِ علا — مناسِبًا في أَرُومةِ[٢] الحَسَبِ
مِثل خِيامِ الحرير تَحْمِلها — أعمدةٌ تحتها من الذَّهبِ
كأنّ ما في ذُراه من ثمرٍ — طيرٌ وقوعٌ على ذُرا القُضُبِ
باقٍ على الصّيفِ والشّتاءِ إذا — شابت رؤوسُ النّباتِ لم يَشِبِ
محصَّن الحَبُّ في جَواشِنَ[٣] قد — أَمِنَّ في لُبْسِها من الحَرَبِ
حَبٌّ حَكى الحُبَّ صِينَ في قُرُب الـ — ـأصداف حتّى بدا من القُرُبِ
ذو نَثَّةٍ[٤] ما يُنال من عنبٍ — ما نِيلَ من طِيبِها ولا رُطَبِ
يا شجرًا حَبُّه حداني أن — أَفْدِي بأُمّي مَحبّةً وأبي
فالحمد لله إنّ ذا لقبٌ — يزيد في حسنهِ على النَّسبِ

وقال ابنُ رافع القَيْروانيّ: [من الرجز]

يا حسنَه في العين من صَنَوْبَرِ — يَحْكِي لنا جماجمًا من عنبرِ
يُفْلَق عن حَبٍّ إذا لم يُكْسَرِ — مُصَنْدَلٍ[٥] إن شئتَ أو مُعَصْفَرِ[٦]

* كمِثْلِ أصدافِ نفيسِ الجوهرِ *

وأمّا الرُّمّان والجُلّنار ـ فقال الشيخُ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا: الرمّان الحلوُ منه باردٌ إلى الأُولى رَطْبٌ فيها؛ والحامضُ يابسٌ في الثانية؛ والحامضُ يَقْمَع الصّفراء، ويَمنع سَيَلان الفُضول إلى الأحشاء، وخصوصًا شَرابَه، وهو جَلّاء مع القبض؛ وحَبُّ الرّمّان مع العسل طِلاءٌ للدّاحِس[٧] والقُروحِ الخبيثة؛ وأقماعُه للجراحات، ولا سيّما المُحرَقة. قال: والحلوُ مليِّن، وجميعُه قليلُ الغِذاء جيّدُه؛ والمُرُّ منه ربّما كان أنفعَ للمعدة من التُّفّاح والسّفرجل، لكنّ حَبَّه رديء؛ وأقبَضُ أجزائه الأقماع. قال: وحَبُّ الرّمّان بالعسل ينفع من وجع الأُذُن، وهو طِلاءٌ لباطن الأنف؛ وينفع حبُّه مسحوقًا مخلوطًا بالعسل من القُلَاعِ[٨] طِلاء؛ وإن

(١) باسق: عالٍ. (٢) أرومة: أصل.
(٣) جواشن: جمع جوشن، وهي الدّرع.
(٤) نثّة: نزّة، والواحدة من النثّ، أي السيلان الضعيف.
(٥) مصندل: فيه طعم الصندل ورائحته، الخشب المشهور الطيّب الرائحة.
(٦) معصفر: فيه لون العصفر، ضرب من النبت يشبه الزعفران وزهره.
(٧) الداحس: ضرب من الأورام تعرض لأصابع اليد أو الرجل.
(٨) القلاع: بثور وأورام تصيب اللّسان والحلق.

طُبِخَتْ الرّمّانةُ الحلوةُ بالشراب ثم دُقّتْ كما هي وضُمِدت بها الأُذُنُ نَفَعَ من ورمِها منفعةً جيّدة؛ وشَرابُ الرّمّان ورُبُّه نافعان من الحُمار، وعُصارةُ الحامض تنفع من الظَّفَرة[1]؛ وهو يخشِّن الصّدرَ والحَلْق، والحلوُ يليّنهما ويقوِّي الصّدر؛ وإذا سُقِيَ حَبُّ الرّمّان في ماء المطر مَنَع نَفْثَ الدّم؛ وجميعُه ينفع من الخفقان، ويجلو الفؤاد؛ والمُرُّ ينفع من التهاب المعدة، والحلوُ يوافق المعدة؛ والحامضُ يضرُّها، ومع ذلك فحَبُّ الرّمّان يضرّ المعدة، وسَوِيقه مصلِحٌ لشهوة الحَبالَى، وكذلك رُبُّه، خصوصًا الحامضَ؛ ويمُصُّه المحمومُ بعد غِذائه فإنّه يمنع صعودَ البخار. قال: والحامضُ أكثرُ إدرارًا للبول من الحلو، وكلاهما مُدِرّ؛ وسَوِيقُ الرّمّان ينفع من الإسهال الصّفراويّ، وقُشورُ أصلِ الرّمّان بالنَّبيذِ تُخرِج الدِّيدان. قال: والحلوُ يضرّ أصحابَ الحُمّيات الحارّة.

وقال في الجُلّنار: هو زهرُ رُمّانٍ بَرّيّ، فارسيّ أو مصريّ، قد يكون أحمرَ وقد يكون أبيضَ، وقد يكون مورّدًا، وعُصارتُه في طبعِها كعُصارة لحية التَّيْس؛ قوّتُه قوّةُ شحم الرّمّان؛ وطبعُه باردٌ في آخر الأُولى، يابسٌ في الثانية؛ وأفعالُه وخواصُّه، هو مُغَرٍّ، حابسٌ لكلّ سَيلان، ويولِّد السّوداء؛ وهو جيِّدٌ للّثةِ الدّامية، ويَدْمُل الجراحاتِ والقُروحَ والعُقورَ[2] والشُّجوجَ[3] ذَرُورا؛ وهو يقوِّي الأسنانَ المتحرّكة، وهو يَعْقِل، وينفع من قروح الأمعاء وسَيلانِ الرَّحِم ونَزْفِها.

وأمّا ما قيل فيهما من الشعر ـ فمن ذلك ما وُصِف به الرّمّان وشُبِّه به، قال أبو هلال العسكريّ: [من الوافر]

حَكَى الرُّمّانُ أوّلَ ما تَبدَّى ... حِقاقَ[4] زبرجدٍ يُحشَون دُرّا
فجاء الصيفُ يحشوه عقيقا ... ويكسوه مُرورُ القيظِ[5] تِبْرا[6]
ويَحكِي في الغصون ثُدِيَّ حُورٍ[7] ... شَقَقن غلائلًا عنهنّ خُضْرا

(١) الظفرة: ضرب من اللّحميات الزائدة تظهر في بياض العين، تشبه الظفر، وقد تمتدّ إلى حدقة العين فتغطّي قسمًا منها، أو تغطّيها كلها.
(٢) العقور: جمع عقر، وهو الجرح.
(٣) الشجوج: جمع شجّ، وهو أثر الضّربة في الجلد.
(٤) حقاق: جمع حقّة وحقّ، وهو الوعاء الصغير.
(٥) القيظ: الصيف، وشدّة الحرّ.
(٦) التبر: الذهب غير الخالص أو المصفّى.
(٧) حور: فيهنّ حور، وهو بياض العين الناصع والسواد الحالك.

وقال آخَر: [من الطويل]

خذوا صفةَ الرّمّان عنّي فإنّ لي بيانًا عن الأوصاف غيرَ قصيرِ
حِقاقٌ كأمثال الكُراةِ تضمّنتْ فصوصَ بَلَخْشٍ[١] في غشاءِ حريرِ

وقال آخَر: [من البسيط]

لله رُمّانةٌ من فوق دَوْحَتِها[٢] مِثالُها ببديعِ الحُسنِ منعوتُ
فالقِشْرُ حُقُّ نُضارٍ[٣] ضُمَّ داخِلُه والشَّحْمُ قطنٌ له والحَبُّ ياقوتُ

وقال آخَر: [من الكامل]

رمّانةٌ صَبَغَ الزُّمانُ أديمَها فتبسّمتْ في خُضرةِ الأغصانِ
فكأنّما هي حُقّةٌ من صَنْدَلٍ قد أُودِعَتْ خَرَزًا من المَرْجانِ

وقال ابنُ قَسِيم الحمويّ: [من المتقارب]

ومحمرّةٍ من بناتِ الغُصو نِ يمنعها ثِقْلُها أن تَمِيدا
منكّسةِ التّاج في دَسْتِها تفوق الخدودَ وتَحْكِي النُّهودا
تُفَضُّ[٤] فتَفْتَرُّ[٥] عن مَبْسِمٍ كأنّ به من عَقيقٍ عُقودا
كأنّ المَقابِلَ من حسنِها ثُغورٌ تقبِّلُ منها خدودا

وقال آخَر: [من البسيط]

رمّانةٌ مِثلُ نَهْدِ الكاعبِ الرِّيمِ[٦] تُزْهَى بشَكلٍ ولونٍ غيرِ مذمومِ
كأنّها حُقّةٌ من عسجدٍ[٧] مُلِئتْ من اليواقيت نَثْرًا غيرَ منظومِ

وقال محمّد بنُ عمرَ المقرىء الكاتب: [من الوافر]

ورمّانٍ رقيقِ القشرِ يَحْكِي ثُدِيَّ الغِيدِ[٨] في أثوابِ لاذٍ[٩]
إذا قشّرتُه طلعتْ علينا فصوصٌ من عَقيقٍ أو بَجاذِي[١٠]

(١) بلخش: ضرب من الجواهر.
(٢) الدوحة: الشجرة الكبيرة الملتفّة الأغصان.
(٣) النضار: الذهب.
(٤) تفضّ: تفتح.
(٥) تفترّ: تنشق.
(٦) الريم: الظبي أو ولده، شبه به المرأة.
(٧) العسجد: الذهب.
(٨) الغيد، جمع غيداء، وهي الحسناء التي فيها غيد، والغيد: بياض العنق وتلوّيه.
(٩) اللاذ: ضرب من الثياب الحريرية الحمر.
(١٠) البجاذي: ضرب من الحجارة الكريمة.

وقال آخَر: [من المنسرح]

ولاح رمّانُنا فأبهَجَنا بين صحيحٍ وبين مفتوتِ
من كلّ مصفرّةٍ مزعفَرةٍ تفوق في الحُسنِ كلّ منعوتِ
كأنها حُقّةٌ فإن فُتِحَتْ فصُرّةٌ من فصوصِ ياقوتِ

وقال آخَر: [من المتقارب]

ولابسةٍ صدفًا أصفرًا أتتك وقد مُلِئَتْ جوهرًا
حُبوبًا كمِثلِ لِثاتِ الحبيب رُضابًا[1] إذا شئتَ أو مَنْظَرًا

وقال آخَر: [من الكامل]

طعمُ الوصال يَصُونُه طعمُ النّوى سبحانَ خالقِ ذا وذا من عُودِ
فكأنّها والخُضْرَ من أوراقِها خُضْرُ الثّياب على نهود الغِيدِ

وأنشدني الشيخ شهابُ الدين أحمدُ بنُ الجبّاس الدِّمياطيُّ لنفسه في ذي الحِجّةِ سنةَ ثلاث عشرة وسبعمائة في رمّانةٍ مشقوقةٍ يتساقط منها الحَبّ: [من الكامل]

كَتَمتْ هوًى قد لَجَّ في أشجانِها[2] وحشَتْ حَشاها من لظى نِيرانِها
فتشقَّقَتْ من حُبِّها عن حَبِّها وجدًا[3] وقد أبدت خفا كتمانِها
رمّانة تَرْمِي بها أيدِي النّوى من بعد ما رُمّتْ[4] على أغصانِها
فأعجَبْ وقد بكَتْ الدُّموعَ عقائقا[5] لا مِن مآقيها ولا أجفانِها

ومنه ما وُصِف به الجُلّنار ـ قال أبو فِراس الحمدانيّ[6]: [من مجزوء الرجز]

وجُلّنارٍ مُشرِقٍ على أعالي الشجرَه

---

(١) رضابًا: ريقًا.
(٢) أشجانها: أحزانها.
(٣) وجدًا: حبًا، وهيامًا.
(٤) رمّت: تقبّضت، واجتمعت.
(٥) عقائق: جمع عقيقة، واحدة العقيق، الحجر الكريم المعروف.
(٦) هو أبو فراس الحمداني، واسمه الحارث، أميرٌ وشاعر، وابن عم سيف الدولة الحمداني أمير حلب. حارب ضدّ الروم وأسر في خرشنة والقسطنطينية، قتل سنة ٩٦٨ م. له الرّوميات، وهي القصائد التي قيلت في سجون الروم.

كـأنّ فـي أغـصـانِـه أحـمـرَه وأصـفـرَه
قُـراضـةٌ[١] مـن ذهـبِ في خِرْقةٍ معصفَرَه[٢]

وقال ابنُ وكيع: [من المجتثّ]

وجُـلّـنـارٍ بـهـيٍّ ضِـرامُـه يـتـوقّـدْ
بـدا لـنـا فـي غـصـونٍ خضـرٍ من الرّيّ مُـيَّـدْ[٣]
يَـحْـكِـي فصوصَ عَـقـيقٍ فـي قُـبّـةٍ مـن زبـرجـدْ

وقال آخَر: [من مخلّع البسيط]

كـأنّـمـا الـجُـلّـنـار لـمّـا أظـهـرَه الـعَـرْضُ لـلعـيـونِ
أنـامِـلٌ كـلُّـهـا خَـضـيـبٌ تَـنْـشُـر لاذًا عـلى الـغـصـونِ

وقال أبو الحسن الشّمْشاطيّ: [من الخفيف]

وبـدا الـجُـلّـنـارُ مِـثـلَ خـدودٍ قد كساها الحياءُ لونَ عُقارِ[٤]
صِـبـغـةَ الله كـالـعَـقـيـق تـراه أحـمرًا نـاصـعًـا لـدى الاخـضـرار

وأمّا الموزُ وما قيل فيه ـ فقال أبو بكر بنُ وحشيّة في توليده: وإن خلطتم باليَبْرُوح[٥] مثلَ وزنِه من التّمر، وعجنتموهما عجنًا جيّدًا، ثمّ زرعتموهما وتعاهدتم ذلك بالسقي الكثير، خرج منه شجرُ الموز؛ وكذلك إن عجِن القُلقاسُ[٦] بالتّمر خرج منهما الموز، إلّا أنّ ما يَنبتُ عن اليَبْرُوح أكبرُ موزًا، وأشدُّ حلاوة.

وقال الشيخ الرئيس: الموزُ مليّن، والإكثارُ منه يورث السُّدُد، ويزيد في الصّفراء، والبَلْغَم بحَسَب المِزاج، وهو نافعٌ للحَلْق والصّدر؛ وهو ثقيلٌ على المعدة؛ ويجب أن يَتناولَ المحرورُ بعدَه سِكَنْجَبِينًا بُزُوريًا، والمبرودُ عسلًا. قال: وهو يزيد في المنيّ، ويوافق الكُلَى، ويُدِرّ البول.

---

(١) القراضة: ما يفتّ من الذهب عند صياغته.
(٢) معصفرة: لونها كلون العصفر، وهو نبت يشبه الزعفران.
(٣) ميّد: متثنيّة، تميد وتتمايل. (٤) عقار: خمرة.
(٥) اليبروح: اللقاح البرّي.
(٦) القلقاس: نبات عسقولي، أوراقه كبيرة ولبّه النشوي يشبه لبّ البطاطا، يؤكل مطبوخًا ومقليًا.

وأمّا ما وُصِف به وشُبِّه من الشّعر ـ فمن ذلك قولُ ابنِ الرُّوميّ: [من الخفيف]

إنّـمـا الـمـوزُ إذا تُـمُـكِّـنَ مـنـه كاسمِه مُبدَلًا من الميم فاءَا[1]
وكـذا فـقـدُه الـعـزيـزُ عـلـيـنـا كاْسمِه مُبدَلًا من الزاي تاءَا[2]
فـهـو الـفـوزُ مِـثـلَما فقدُه الـمو تُ لـقـد عَـمّ فـضـلُه الأحـيـاءَا
ولـهـذا الـتـأويـلِ سـمّـاه مَـوزًا مَـن أفـادَ الـمـعـانـيَ الأسـمـاءَا
نَـكْـهـةٌ عـذبـةٌ وطـعـمٌ لـذيـذٌ فـنـعـيـمٌ مُـتـابِـعٌ نَـعـمـاءَا[3]
لـو تـكـونُ الـقـلـوبُ مـأوَى طـعـامٍ نـازعـتْـه قـلـوبُـنـا الأحـشـاءَا

وقال فيه أيضًا: [من الرجز]

لِلمـوزِ إحـسـانٌ بـلا ذنـوبِ لـيـس بمعدودٍ ولا محسوبِ
يـكـاد من موقِعهِ المحبوب يُسلمُه البلغُ إلى القلوبِ

وقال الصّاحب جمالُ الدّين عليُّ بنُ ظافر: [من مجزوء الرجز]

كـأنّـمـا الـمـوزُ إذا مـا جـاءنـا بـالـعَـجَـبِ
أنـيـابُ أفـيـالٍ صِـغـا رِ طُـلِّـيـتْ بـالـذّهـبِ

ونحوُه قولُ الآخَر ـ وكأنّه مأخوذٌ منه ـ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

مَـوزٌ حـلا فـكـأنّـه عـسـلٌ ولـكـن غـيـرُ جـارِي
ذو بـاطـنٍ مِـثـلِ الأقـا حِ[4] وظاهرٍ مِثلِ النُّضارِ[5]
يَـحـكِـي إذا قـشَّـرتَـه أنـيـابَ أفـيـالٍ صِـغـارِ

وحَكَى صاحبُ (بدائع البدائة) أنّ الحسنَ بنَ رَشِيقٍ ومحمّد بنَ شرف القَيْرُوانيّ اجتمعا في مجلس المعزِّ بنِ باديسَ وبين يديه مَوز، فاقترَحَ على كلّ واحدٍ منهما أن يَعْمَل فيه شيئًا، فقال ابنُ شرف: [من السريع]

يـا حـبّـذا الـمَـوْزُ إسْـعـادُه مِن قَبلِ أن يـمـضُـغـه الـمـاضـغُ

(١) أي يصير فوزًا، بدلًا من (موز). (٢) أي يصير موتًا.
(٣) نعماء: خلاف بأساء، وهي النعمة.
(٤) الأقاح: ضرب من الزهر مختلف الأنواع والألوان، وأهمّه شقائق النعمان والأقحوان الأصفر والأبيض.
(٥) النضار: الذهب.

لَانَ إلَى أن لا مُحَسَّ لَه ... فالفَمُ مَلآنٌ بِه فارغُ
سِيّانَ قلنا مأكلٌ طيِّبٌ ... فيه وإلّا مَشربٌ سائغُ[١]
إن قيل فيما قد حَلا طيِّبٌ ... فالمَوزُ حُلوٌ طيِّبٌ بالغُ
أحلَى مَذاقًا مِن دماء العِدا ... أُمكِنَ منها أسدٌ والِغُ[٢]

وقال ابنُ رَشِيقٍ ـ وتَوارُدًا في المعنى والقافية ـ: [من مجزوء الرجز]

مَوزٌ سَريعٌ سَوْغُه ... من قبلِ مَضغِ الماضغِ
مأكَلةٌ لآكلٍ ... ومَشْرَبٌ لسائغِ
فالفَمُ من لِينٍ به ... مَلآنُ مِثلُ فارغِ
يُخالُ وهو بالغٌ ... للحَلْق غيرَ بالغِ

ثمّ سألهما في مثلِ ذلك، فقال محمدُ بنُ شرف: [من مجزوء الرجز]

هل لك في مَوزٍ إذا ... ذقناه قلنا حبّذا
فيه شرابٌ وغِذا ... يُريك كالماء القَذَى[٣]
لو مات من تَلَذُّذا ... به لقلنا: ذا بِذا

وقال ابنُ رَشِيق: [من المجتثّ]

لله مَوْزٌ لذيذُ ... يُعيذُه المستعيذُ
فواكهٌ وشرابٌ ... به يُفيقُ الوَقِيذُ[٤]
تَرَى القَذَى العينُ فيه ... كما يُريها النَّبيذُ

فانظر إلى هذا التّوارد العجيبِ المرّةَ بعد المرّة:

وقال نجم الدين بن إسرائيل يصفه: [من الرجز]

أنْعَتُ لي مَوزًا شهيَّ المَنظَرِ ... مستحكِمَ النُّضجِ لذيذَ المَخبَرِ
كأنّه في جِلدِهِ المعصفَرِ[٥] ... لِفَاتُ زُبْدٍ[٦] عُجِنتْ بسكّرِ

---

(١) سائغ: مريء، شهيّ ولذيذ.
(٢) والغ: كارع وشارب.
(٣) القذى: الغبار أو القشّ يدخل في العين.
(٤) الوقيذ: المدنق في حالة الغيبوبة.
(٥) المعصفر: الأصفر كالعصفر.
(٦) الزبد: خالص اللبن إذا مخض.

وأنشدني الشيخُ الفاضلُ شهابُ الدين أحمدُ بنُ منصور الدِّمياطيُّ ـ عُرِف بابن الجَبّاس ـ في ذي الحِجّة سنةَ ثلاث عشرةَ وسبعمِائةَ لنفسِه وأجاد: [من المنسرح]

كأنّما الموزُ في عراجنِه[(١)] وقد بدا يانعًا على شجرِه
فروعُ شَعرٍ برأس غانيةٍ عُقِّص من بعد ضَمِّ منتشِره
كأنّ مَن ضَمَّه وعَقَّصَه[(٢)] أرسَلَ شَرّابةً على أثرِه
كأنّ أمشاطَه مَكاحلُ من زمرّدٍ نُظِّمتْ على قَدَرِه
كأنّما زَهرُه الأنيقُ وقد شُقِّق عنه كِمامُ مستتِرِه
نِظامُ ثغرٍ يَزينُه شَنَبٌ[(٣)] ممتزجٌ شَهدُه بمعتصَرِه
كأنّ قاماتِ سُوقِه عَمَدٌ حَنَتْ أواوينَها[(٤)] على جُدُرِه
كأنّ أشجارَه وقد نَشَرَتْ ظِلالَ أوراقِها على ثمرِه
حاملةٌ طِلفَها على يدِها تقيه حرَّ الهَجيرِ في خُمُرِه[(٥)]
كأنّما ساقُه الصَّقيلُ وقد بدت عليه رُقومُ معتبِرِه
ساقُ عروسٍ أُميطَ[(٦)] مئزرُها فبان وشيُ الخِضاب في حَبره[(٧)]
تصاغ من جوهرٍ خلاخلُها[(٨)] فتنجلي والنِّثارَ من زَهَرِه
حدائقٌ خفَقَتْ سَناجِقُها[(٩)] كأنّها الجيشُ أمَّ في زُمَرِه
وكلُّ آياتِه فباهرةٌ تَبين في وِرْدِه وفي صَدَرِه[(١٠)]
كأنّما عُمرُه القصيرُ حَكَى زمانَ وصلِ الحبيب في قِصَرِهِ
كأنّه عُرجُونَه المَشيبُ أتى يُخبِر أنْ خانَه انقضا عُمُرِه
كأنّه البدرُ في الكمال وقد أُصيبَ بالخَسْف في سَنا قمرِه
كأنّه بعد قطعِه وقد أُصفِـ ـرّ لِما نال مِن أذى حَجَرِه[(١١)]

---

(١) عراجنه: جمع عرجون، وهو عذقه وعثكوله.
(٢) عقّصه: جعله ضفائر ضفائر. (٣) الشنب: بياض الأسنان وجلاؤها.
(٤) أواوين: جمع إيوان، وهو الفناء الكبير.
(٥) خمره: جمع خمار، وهو الغطاء للرأس ولغيره.
(٦) أميط: كشف وأزيح. (٧) الحبرة: الحلّة الموشّاة.
(٨) الخلاخل: جمع خلخال، وهو ما يشدّ إلى الرجل ويلبس فيها زينة.
(٩) سناجقها: جمع سنجق، وهو الراية.
(١٠) الصدر: الرجوع عن مشرب الماء بعد الارتواء منه.
(١١) حجره: حبسه ليختمر.

مـتـيَّـمٌ قـد أذابـه كـمـدٌ[١] يَبيت من وجدِه على خطرِه
مـعـلَّقٌ بـالـرّجـاء، ظـاهـرُه يُخْبِر عمّا أجَنَّ[٢] من خبرِه
يَـطِيب رِيحـًا ويُستلَذُّ جَنًى على أذًى زاد فوقَ مصطبَرِه
كـأنّـه الـحُـرُّ حـالَ مـحـنـتِـه يزيد صبرًا على أذى ضررِه

وأمّا ما وُصِف به وشُبِّه النّارَنْج ـ فمن ذلك قولُ شاعر: [من البسيط]

لله أنـجُـمُ نـارَنْـجٍ تـوقُّـدُهـا يكاد ينجاب[٣] عن لألائه الغَسَقُ[٤]
تبدو لعينيك في لألائها[٥] ولَهَا من الغصونِ بُروجٌ دَوْحُها[٦] الأُفُقُ
تَجني به اليدُ جمرًا ليس يطفئه غيثٌ ولا اليدُ إذ تجنيه تَحْترِقُ
كأنّه مستعارُ الشِّبهِ من قُطْنٍ مذهَّبٍ أو حَباه لونَه الشَّفَقُ[٧]

وقال آخَر: [من الوافر]

تـأمّـلها كُـراتٍ مـن عَـقـيـقِ تَـروقُـك فـي ذُرا دَوْحٍ وَرِيـقِ[٨]
صَوالِجُ[٩] من غصونٍ ناعماتٍ غـذتـهـا دِرّةُ الـغـيـث الأَنِـيـقِ
تَخال غصونَها فيها نَشاوَى[١٠] بأيديهم كؤوسٌ من رَحيقِ[١١]
عجبتُ لها شربن الماءَ رِيًّا وفي لبّاتِها[١٢] لهبُ الحريقِ

وقال آخَرُ يصف نارَنْجه: [من البسيط]

يا رُبَّ نَارَنْجةٍ يلهو النديمُ بها كـأنّـهـا كُـرَةٌ مـن أحـمـر الـذّهـبِ
أو جَذْوةٌ[١٣] حَملتْها كفُّ قابِسها[١٤] لـكـنّـهـا جَـذْوةٌ مـعـدومـةُ الـلَّهَـبِ

---

(١) الكمد: الحزن الشديد.
(٢) أجنّ: ستر.
(٣) ينجاب: ينزاح وينفرج.
(٤) الغسق: الظلام في أوّله. والغسق: ظلمة أوّل الليل.
(٥) لألائها: سناها وبريقها.
(٦) الدوح: الشجر الكبير الملتفّ الأغصان.
(٧) الشفق: الحمرة في الأفق من السماء.
(٨) وريق: كثير الورق.
(٩) صوالج: جمع صولجان، وهو عصا معقوفة.
(١٠) نشاوى: فيهم نشوة ولذّة من أثر الخمر.
(١١) الرحيق: صفة للخمرة.
(١٢) لبّاتها: جمع لبّة، وهي النحر وأعلى الصدر.
(١٣) الجذوة: القبس من النار.
(١٤) قابسها: حاملها ومن أتى بها.

وقال آخَر: [من الطويل]

ومُورِقةٍ في صيفِها وشِتائها ... يَحارُ النُّهَى[١] في أرضها وسمائها
إذا ما زَهى الكانونُ يومًا بجمرِه ... نظرتَ إليه تحت فضلِ ردائها
أرى الماءَ يُطفِي كلَّ نارٍ ونارُها ... تزيد حياةً ما تغذّتْ بمائها
كُراتُ عَقيقٍ أم خدودُ كواعبٍ[٢] ... بدت وهي حُمْرٌ من صباغِ حيائها

وقال آخَر: [من البسيط]

أُنظرْ إلى مَنْظَرٍ يلهيك مَنْظَرُه ... بمِثلِه في البرايا يُضرَب المَثلُ
نارٌ تلوح على الأغصان في شجرٍ ... لا الماءُ يُطفِي ولا النِّيرانُ تَشْتَعِلُ

وقال آخَرُ يصف نارَنْجةً نصفُها أحمرُ ونصفُها أخضر: [من البسيط]

وبنتِ أيكٍ[٣] دنا مِن لمسِها قُزَحٌ[٤] ... فلاح منها على أرجائها أثرُ
يبدو لعينيك منها مَنْظَرٌ عَجَبٌ ... زبرجدٌ ونُضارٌ صاغه المطرُ
كأنّ موسى كليمَ الله أقبَسَها ... نارًا[٥] وجرَّ عليها كفَّه الخَضِرُ[٦]

وقال الصّاحبُ بنُ عَبّاد[٧]: [من الطويل]

بَعَثْنا من النارَنْج ما طاب عَرْفُه[٨] ... ونَمّتْ على الأغصان منه نَوافِجُ[٩]
كُراتٍ من العِقْيان[١٠] أُحْكِم خَرْطُها[١١] ... وأيدي النَّدامَى حولهنّ صوالجُ

---

(١) النهى: العقل.
(٢) كواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي كعب ثديها وبرز.
(٣) الأيك: ضرب من الشجر الملتفّ الأغصان.
(٤) قزح: أو قوس قزح وهو نصف الهالة من الضياء فيه الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالي والبنفسجي يظهر عند تراكم الغيوم إيذانًا بسقوط المطر.
(٥) إشارة إلى النار التي ظهرت لموسى، النبيّ، في الطور، فأراد أن يحمل منها قبسًا.
(٦) الخضر: هو مرافق النبيّ موسى، والذي علّمه أشياء لم يكن يعلمها.
(٧) الصاحب بن عباد: أديب ولغوي وشاعر وكاتب ووزير، وزر للبهويهيين، رسائله من أجود الرسائل. له من الكتب «المحيط» و«الوزراء» و«الكشف عن مساوىء المتنبّي». مات في الرّي ودفن بأصبهان سنة ٩٩٥ م.
(٨) عرفه: نشره ورائحته.
(٩) نوافج: جمع نافجة، وهي الصّرّة من المسك، أو الوعاء.
(١٠) العقيان: الذهب الخالص.
(١١) خرطها: تأليفها وتركيبها.

وقال أبو الحسن الصِّقلّيّ: [من المتقارب]

تَنعَّمْ بنارَنجِكَ المجتنَى فقد حضر السعدُ لمّا حضرْ
فيا مرحبًا بقُدودِ الغصون ويا مرحبًا بخدود الشجرْ
كأنّ السماءَ هَمَتْ[1] بالنُّضار فصاغت لها الأرضُ منه أُكَرْ[2]

وقال ابنُ المعتزّ: [من السريع]

كأنّما النّارَنْجُ لمّا بدت صُفرتُه في حُمرةٍ كاللّهيبْ
وجنةُ معشوقٍ رأى عاشقًا فاصفرّ ثمّ احمرّ خوفَ الرّقيبْ

وقال السّريُّ الرّفّاء: [من الكامل]

وبديعةٍ أضحى الجمالُ شِعارَها[3] صَبَغَ الحَيَا[4] صِبْغَ الحياءِ إزارَها
حَلّتْ عِقالَ نَسيمِها وتَوشّحتْ بالأُرْجُوانِ وشَدّدتْ أزرارَها
فالعينُ تَحسِر[5] إن رأت إشراقَها والنفسُ تَنعَم إن رأت أخبارَها
فكأنّها في الكفّ وجنةُ عاشقٍ عَبِث الحياءُ بها فأضْرَمَ نارَها
محمولةٌ حَمَلتْ عَجاجةَ[6] عنبرٍ[7] فإذا سَرَى[8] رَكْبُ النّسيمِ أثارَها
أمِنتْ على أسرارِها ريحَ الصَّبا[9] وَهْنًا فضَيّعت الصَّبا أسرارَها
وكأنّما صافحَت منها جمرةً أمِنَتْ يمينُك حرَّها وشَرارَها
ما أحسَب النّارَنْجَ إلّا فتنةً هتك[10] الزّمانُ لناظرٍ أستارَها
عَشقتْ محاسنَه العيونُ فلو رنتْ أبدًا إليه ما قضت أوطارَها[11]

وقال آخَر: [من المنسرح]

سَقْيًا لأيّامنا ونحن على رؤوسِنا نَعْقِد الأكاليلا
في جنّةٍ ذُلّلت لقاطفِها قُطوفُها الدّانياتُ تذليلا

---

(١) همت: سالت.
(٢) أكر: كرات، جمع كرة.
(٣) شعارها: ثوبها الرقيق.
(٤) الحيا: المطر.
(٥) تحسر: تطرف ولا تستطيع الرؤية لشدّة انبهارها.
(٦) العجاجة: الغبار.
(٧) العنبر: مادّة تستخرج من حيوان اسمه العنبر، وهي عطريّة وذات رائحة جيّدة.
(٨) سرى: مشى ليلًا.
(٩) الصبا: ريح الشرق الناعمة.
(١٠) هتك: خرق ومزّق.
(١١) أوطارها: حاجاتها، جمع وطر.

كــأنّ نــارَنْــجَــهــا يــلوح عــلى أغـصـانِـهـا حـامـلًا ومـحـمـولا
سـلاسـلٌ مـن زبـرجـدٍ حَـمَـلتْ مـن ذهـبٍ أحـمـرٍ قـنـاديـلا

وقال آخَر: [من الطويل]

وأشـجـارِ نـارَنْـجٍ كـأنّ ثـمـارَهـا حِـقـاقُ عَـقـيـقٍ قـد مُـلِئْن مـن الـدُّرِّ
تُـطـالِعـنـا بـيـن الـغـصـون كـأنّـهـا خُـدودُ غَـوانٍ في مَـلاحفها الخُضْرِ
أتـت كـلَّ مـشـتـاقٍ بـرَيَّـا[1] حـبـيـبِـه فهاجت له الأحزانَ من حيث لا يدري

وقال آخَر: [من الطويل]

حـدائـقُ أشـجـارٍ كـإقـبـالِ دولـة عليكَ أو الـبـشـرى أتـت لـقَـعـيـدِ
أنـارت بـنـارَنْـجٍ لـرَيّـاه فـي الـحَـشـا مـواقـعُ وصـلٍ مـن فـؤادِ عـمـيـدِ[2]
إذا مـا حَـنـى أغـصـانَـه فـكـأنّـه صوالجةُ الأصداغِ[3] فوق خدودِ

وقال آخَر: [من الوافر]

وأغـصـانٍ مـقـوَّمـةٍ حـسـانٍ ومـنـهـا مـا يُـرَى كـالـصَّـوْلَجـانِ
كـأنّ بـهـا ثُـدِيًّـا نـاهـداتٍ غـلائـلُهـا صُـبِـغْـن بـزعـفـرانِ

وقال آخَرُ يصف نارَنْجًا مختلَف الألوان: [من الطويل]

ريـاضٌ مـن الـنّـارَنْـج كـالأمـن والـمـنـى
جُـمِـعْـنَ ومِـثْـلُ الـنـوم بـعـد الـتـسـهُّـدِ[4]
تُـجـلِّي الـعـشـق[5] عـن نـاظـرَيْ كـلّ نـاظـرِ
وتجلو الصَّدَى[6] عن قلب ذي اللَّوْعة الصَّدِي
فـمِـن أخـضـرٍ غَـضِّ الـنّـبـاتِ كـأنّـه
مَـشـاربُ مِـيـنَـا[7] أو حِـقـاقُ زمـرّدِ

(١) الرّيا: الرائحة.
(٢) العميد: من عمّده الحبّ وأضناه.
(٣) الأصداغ: جمع صدغ، وهو جانب الرأس.
(٤) التسهد: عدم النوم.
(٥) العشوّ: مرض يصيب العين عشاءً، فلا تبصر.
(٦) الصدى: الصّدأ، وقد يكون الصدى، هنا، بمعنى العطش.
(٧) الميـنا: ضرب من الزجاج.

ومِن أحمرٍ كالأرْجُوان إذا بدا
وكالرّاح[١] صَرْفًا أو كخدٌ مورَّدِ
ومِن أصفرٍ كالصَّبِّ، يبدو كأنّه
كُراتٌ أديرتْ من خلاصة عسجدِ
إذا لاح في أشجارِه فكأنّه
شموسُ عَقيقٍ في قِبابِ زبرجدِ

وقال آخَر: [من الكامل]

أهْدَى لنا النّارَنْجُ عند قِطافِه ... أُكَرا تَرُوق بمَنْظَرٍ وبمَخْبَرِ
ببواطنٍ من يَاسَمِينٍ أبيضٍ ... وظواهرٍ من جُلّنارٍ أحمرِ

وقال آخَر: [من الكامل]

كانت هديّتُه لنا نارَنْجةً ... كالعِهْنِ[٢] لُفّتْ في حريرٍ أصفرِ
صفراءَ تحسَب أنّها قد جُدِّرتْ[٣] ... فترى ببهجتها انتشارَ مجدَّرِ
فسألتُها عمّا يغيِّر لونَها ... قالت سألتَ فخذ جوابَ مُخبِّرِ
كنّا حبائبَ فوق غصنٍ ناعمٍ ... أوراقُه مِثلُ الفِرِنْدِ[٤] الأخضرِ
فرَمَى الزّمانُ وصالَنا بتفرُّقٍ ... فلِذاكِ صفرةُ وجنتي وتَغيُّري

وقال ابنُ وكيع التِّنيسيّ: [من الرجز]

أُنظرْ إلى النّارَنْج في بَهْجاته ... يَلُوح في أفنان هاتيك الشّجرْ
مِثلَ دَبابيسِ نُضارٍ أحمرٍ ... أو كعَقيقٍ خُرِطتْ منه أُكَرْ

وقال أبو الحسن الصِّقِلّيّ: [من الطويل]

ونارَنْجَةٍ بين الرّياض نظرتُها ... على غُصُنٍ رَطْبٍ كقامة أغْيَدِ
إذا ميّلتْها الرّيحُ مالت كأُكْرةٍ ... بدت ذهبًا في صَوْلَجانِ زمرّدِ

---

(١) الراح: الخمرة. (٢) العهن: أي الصوف.
(٣) جدّرت: أصابها الجدري، الداء المعروف، ويترك ندوبًا في الوجه صفرًا.
(٤) الفرند: السيف.

وأمّا ما وُصِفَ وشُبِّه به اللَّيْمو ـ فمن ذلك قولُ الشاعر: [من السريع]

أُنظرْ إلى اللَّيْمون في شكله وحسنهِ لمّا بدا لِلعيانْ
كأنّه بَيضُ دَجاجٍ وقد لطّخه العابثُ بالزّعفرانْ

وقال السريُّ الرّفّاء: [من مجزوء الرّمل]

واصْطَبَحناها على نهـ ـرٍ بصفو الماء يَجْري
ظَلّلَتْه شجراتٌ عِطرُها أطيَب عِطْرِ
فَلَكٌ أنجُمُهُ اللَّيْـ ـمُو فمِن بِيضٍ وصُفرِ
أُكَرٌ من فضّةٍ قد شابَها تلويحُ تِبرِ

وقال آخر: [من البسيط]

يا رُبَّ ليمونةٍ حيًّا بها قمرٌ حلوُ المقبَّلِ ألمَى[1] باردُ الشَّنَبِ[2]
كأنّها كُرَةٌ من فضّةٍ خُرِطتْ فاستَوْدَعوها غلافًا صِيغَ من ذهبِ

البابُ الثاني
من القسم الثاني من الفنّ الرابع
فيما لثمره نوًى لا يُؤكَل

ويشتمل هذا البابُ على عشرة أصناف، وهي النّخلُ وما يشبهه، وهو النّارَجيل، والفَوْفَلُ والكاذِيُّ والخَزَم، ثمّ الزّيْتونُ والخُرْنُوبُ والإجّاصُ والقَراسِيَا والزُّعْرُورُ والخَوْخُ والمِشْمِشُ والعُنّابُ والنّبِق.

فأمّا النّخلُ وما قيل فيه ـ فقال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [قَ: الآيتان ١٠، ١١]. وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، إنّها مثلُ المُسلِم، فحدِّثوني ما هي»؟ فوقع الناسُ في شجر البوادي؛ قال عبدُ الله: ووقع في نفسي أنّها النّخلة، فاستحييت؛ ثمّ قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة»؛ قال عبد الله: فحدَّثتُ أبي بما وقع في نفسي؛ فقال: لأن تكونَ قُلتَها أحبُّ إليّ من كذا وكذا.

---

(١) ألمى: فيه لمى، وهو سمرة مستحبّة في الشّفاه.
(٢) الشنب: كناية عن الأسنان الرقيقة البيض.

وفي لفظ عنه، قال: كنّا عند النّبيّ ﷺ فأُتِيَ بجُمّار، فقال: «إنّ من الشجر شجرةً مَثَلُها كَمَثل المُسلِم» الحديث.

وفي لفظٍ عنه رضي الله عنه: أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ من الشجر لما بركتُه كَبَرَكة المُسْلِم» وساق الحديث.

وللنّخلة أسماءٌ نطقتْ بها العرب من حينِ تبدو صغيرةً إلى أن تَكبُر، وكذلك الرُّطَب[١] من حِين يكون طَلْعًا[٢] إلى أن يصير رُطَبا؛ تقول العرب لصغار النخل: الجَثِيثُ والهِرَاءُ والوَدِيُّ والفَسِيلُ والأشاء.

وقال الثّعالبيُّ في (فقه اللغة): إذا كانت النخلةُ صغيرةً فهي الفَسِيلةُ والوَدِيّة؛ فإذا كانت قصيرةً تَنَاوَلُها اليدُ فهي القاعد، «وفي (غريب المصنّف): العَضِيد، والجمع: عِضْدان»، فإذا صار لها جِذع لا يتناوَل منه المتناوِل فهي جَبّارة، فإذا ارتفعتْ عن ذلك فهي الرَّقْلةُ والعَيْدانة، فإذا زادت فهي باسِقة، فإذا تناهت في الطُّول مع انجراد فهي سَحُوق.

فصل في نعوتها

إذا كانت النخلةُ على الماء فهي كارِعةٌ ومُكْرَعة، فإذا حَملتْ في صغرها فهي مهتَجِنة، فإذا كانت تُدْرِك في أوّل النخل فهي بَكُور، فإذا كانت تَحْمِل سنةً وسنةً لا تَحْمِل فهي سَنْهَاء، فإذا كان بُسْرُها[٣] يَنتثِر وهو أخضرُ فهي خَضِيرة، فإذا دَقّت من أسفلها وانجرَدَ كَرَبُها[٤] فهي صُنْبُور، فإذا مالت فبُنِيَ تحتها دُكّانٌ تَعْتَمِد عليه فهي رُجَبِيّة، فإذا كانت منفردةً عن أخواتها فهي عَوَانة.

ويقال للطَّلْع: الكافور، والضَّحْك، والإغْريض. فإذا انعقد سمّته السَّيَاب، فإذا اْخضرَّ قبل أن يشتدّ سمّته الجَدَال، فإذا عظم فهو البُسْر، فإذا صارت فيه طرائق فهو المُخَطَّم، فإذا تغيّرتْ البُسْرةُ إلى الحمرة فهي شَقْحَة، فإذا ظهرت الحُمْرة فهو الزَّهْو، وقد أزهى؛ فإذا بدت فيه نُقَطٌ من الإرطاب نصفها فهي المجزِّع، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقانة، فإذا جرى الإرطاب فيها فهي مُنسَبِتة.

---

(١) الرطب: ما نضج من البسر قبل أن يصير تمرًا، من النخل.

(٢) الطلع: ما يبدو من تمرة النخل في أوّل ظهورها.

(٣) البسر: التمر إذا لوّن ولم ينضج.

(٤) كربها: أصول سعفها الغلاظ التي تقطع معها، من النخل.

وللشّعراء في النّخل أوصاف، فمن ذلك ما أنشده الأصمعيّ[١]: [من الوافر]

غدتْ سَلْمَى تعاتبني وقالت ... رأيتك لا تُريع[٢] لنا مَعاشا
فقلت لها: أما يكفيكِ دُهْمٌ ... إذا أمحلتِ كنّ لنا رِياشا
بَوارِكُ ما يبالين اللّيالي ... ضَرَبنَ لنا وللأيّام جاشا
إذا ما الغاديات[٣] ظَلَمن مَدّتْ ... بأسبابٍ تَنال بها انتعاشا
تَرَى أمطاءَها[٤] بالبُسْرِ هُدْلًا[٥] ... من الألوان تَرتَعِش ارتعاشا

وعن الشَّعبيّ[٦] قال: كَتب قيصر[٧] إلى عمر بنِ الخطّاب رضي الله عنه: إنّ رسلي أخبَروني أنّ بأرضك شجرةً كالرجل القائم تَفَلّقُ عن مِثلِ آذانِ الحُمُر[٨]، ثمّ يصير مِثلَ اللّؤلؤ، ثم يعود كالزّمرّد الأخضر، ثمّ يصير كالياقوت الأحمر والأصفر، ثمّ يُرطِب فيكونُ كأطيَبِ فالُوذٍ[٩] اتُّخِذ، ثمّ يَجِفُّ فيكون عصمةً للمقيم، وزادًا للمسافر، فإن كان رسلي صدَقوني فهي الشجرةُ التي نبتت على مريم[١٠] بنت عمران. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إنّ رسلَك صدقوك، وهي الشجرةُ التي نبتت على مريم، فاتّق الله، ولا تتّخذ عيسى إلٰهًا من دون الله.

أخَذ عبدُ الصمد بنُ المعذِّل[١١] هذه التشبيهات، فقال يصف النّخلَ في أُرجوزةٍ أوّلُها:

حدائقٌ ملتفّةُ الجِنانِ ... رَستْ بشاطي تَرِعٍ رَيّانِ[١٢]

---

(١) الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك، أحد كبار علماء اللغة البصريين. عهد إليه الرشيد تأديب ولده الأمين، له من كتب «خلق الإنسان» و«الخيل» و«الإبل» و«الأصمعيات».
(٢) تريع: تبغي وتريد.
(٣) الغاديات: جمع غادية، وهي السحابة الممطرة في الغداة.
(٤) أمطاءها: ظهورها وشماريخها. (٥) هدلًا: جمع هدلاء، أي مسترخية.
(٦) الشعبي: من الرواة، والمحدثين والحفّاظ. اتصل بعبد الملك بن مروان، وكان رسوله إلى ملك الروم. مات سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م.
(٧) قيصر: هو ملك الروم. (٨) الحمر: جمع حمار.
(٩) الفالوذ: ضرب من الحلواء، يدخل فيها العسل.
(١٠) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: الآية ٢٥] مخاطبًا مريم.
(١١) هو أحد شعراء العصر العباسي، امتاز شعره بالجدّة والابتكار، وعني بوصف الطبيعة والرياض.
(١٢) ريّان: ناضر.

تَـمـتـار[١] بـالأعـجـازِ لـلأذقـانِ لا تَـرهـب الـمَـحلَ من الأزمـانِ
إن هـي أبـدت زيـنـةَ الـرحـمٰـن لاحـت بـكـافـورٍ عـلى إهَـانِ[٢]
يَـطْـلُع مـنـهـا كَـيَـدِ الإنـسـانِ إذا بـدت مـلـمـومـةَ الـبَـنـانِ
عُـلّت بـوَرْسٍ[٣] أو بـزعـفـرانِ حـتّـى إذا شُـبِّـه بـالآذانِ
مِن حُمُر الوحشِ لدَى العِيانِ شـقّـقـه عِـلْجانِ[٤] مـاهـرانِ
عن لـؤلـؤٍ صِيغَ على قُضبانِ مَـصُـوغـةٍ مـن ذهـبٍ خـلصـانِ
ثـمّ يُـرَى لـلسّـبـعِ والـثّـمـانـي قد حالَ مِثلَ الشَّذْرِ[٥] في الجُمانِ[٦]
يَضحَك عن مشتبِهِ الأقرانِ كـأنّـه فـي نـاضـرِ الأغـصـانِ
زمـرّدٌ لاحَ عـلى تـيـجـانِ حـتّـى إذا تـمّ لـه شـهـرانِ
وانسَدلتْ عَثاكِلُ[٧] القِنْوانِ[٨] كـأنّـهـا قُـضْـبٌ مـن العِـقْـيـانِ
فُـصّـلنَ بـالـيـاقـوت والـمَـرْجـانِ رأيـتَـه مـخـتـلِفَ الألـوانِ
مِـن قـانـئٍ أحـمـرَ أُرجُـوانِـي وفـاقـعٍ أصـفـرَ كـالـنِّـيـرانِ

* مِـثـلِ الأكـالـيـلِ عـلى الـغَـوانِـي *

ونحوهُ قولُ أبي هِلال العسكريّ: [من الخفيف]

ونخيلٍ وقفن في مَعْطِف الرّمـ ـل وقوفَ الحُبْشانِ في التّيجانِ
شَـرِبـتْ بـالأعـجـازِ حـتّـى تـروّتْ وتـراءتْ بـزيـنـة الـرّحـمٰـنِ
طَلَعَ الطَّلْعُ في الجماجم منها كـأكُـفٍّ خـرجـن مـن أردانِ
فـتـراهـا كـأنّـهـا كُـمْـتُ الـخيـ ـلِ[٩] تـوافـتْ مُـصِـرّةَ[١٠] الآذانِ
أهـو الـطَّـلْعُ أم سـلاسـلُ عـاجٍ حُـمِـلتْ في سفائن العِقْـيـانِ

(١) تمتار: تطلب الحيرة، أي الطعام. (٢) الإهان: عرجون النّخل وحملها من البسر.
(٣) الورس: نبت يشبه الزعفران، لونه أصفر.
(٤) علجان: مثنّى علج، وهو الضخم من كفّار العجم.
(٥) الشذر: القطعة من الذهب. (٦) الجمان: اللؤلؤ.
(٧) عثاكل: جمع عثكل، وعثكول، وهو بمثابة العنقود في النّخل.
(٨) القنوان: جمع قنو وقني، وهو كالعنقود في النّخل.
(٩) كمت الخيل: الخيل فيها كميتة، وهي السواد الضارب إلى الحمرة.
(١٠) مصرّة الآذان: متفتّحة.

ثـمّ عـادت شبـائـهّـا تـتـبـاهـى   بـأعـالِ شـبـائـهِ أقـرانِ
خـرزات مـن الـزّبـرجـدِ خُـضْـرٌ   وَهـبـتـهـا الـسّـلوكُ لـلـقُـضـبـانِ
ثمّ حالَ النِّجارُ[1] واختلف الشـ   ـكـلُ فـلاحـت كـجـوهـرِ ألـوانِ
بـيـن صـفـرٍ فـواقـعٍ تَـتـبـاهـى   في شماريخها[2] وحمرٍ قَواني

وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب[3]: [من الوافر]

ضَرَبـن الـعِـرْقَ فـي يَـنـبوعِ عَـيْـنٍ   طَـلَـبـن مَـعِـيـنَـه حـتّـى رَوِيـنـا
بَناتُ الدّهر لا يـخـشَـيـن مَـحْـلا   إذا لـم تَـبْـقَ سـائـمـةٌ[4] بـقـيـنـا
كـأنّ فـروعَـهـنّ بـكـلِّ ريـحٍ   عَـذارَى بـالـذوائـب يَـنْـتَـضِـيـنـا[5]

وقال النابغة[6]: [من الطويل]

صِغارُ النّوى مكنوزةٌ ليس قِشرُها   إذا طار قِشرُ التّمرِ عنها بطائرِ[7]
مِن الواردات الماءَ بالقاع تَسْتَقِي   بأعجازها قبلَ استقاء الخناجرِ

وقال السّريُّ الرّفّاء: [من الكامل]

وكأنّ ظِلَّ النّخل حولَ قِبابِها   ظلُّ الغمام إذا الهجيرُ تَوقَّدا
من كلِّ خضراءِ الذّوائب زَيَّنَتْ   بثمارِها جِيدًا[8] لها ومُقلَّدا[9]
خَرَقتْ أسافلُهنّ أعماقَ الثَّرَى   حتّى اتَّخذن البحرَ فيه مَوْرِدا
شجرٌ إذا ما الصّبح أسفَر لم يَنُحْ   لِلأمـنِ طـائـرُه ولـكـن غـرَّدا

---

(١) النجار: الأصل.
(٢) شماريخها: أعذاقها عليها البسر، جمع شمراخ.
(٣) النمر بن تولب: أحد الأربعة الذين يشكلون الطبقة الثامنة من طبقات الشعراء الجاهليين، ومعه عمرو بن قمئة، وأوس بن غلفاء، وعوف بن عطية. انظر: طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ص ٥٩، لابن سلام الجمحي نسخة طبع أوروبا.
(٤) السائمة: واحدة السوام، وهي الإبل والنعم. (٥) ينتضينا: يبرزن ويظهرن.
(٦) النابغة: من فحول الشعراء الجاهليين، من بني ذبيان، وصاحب المعلقة من المعلقات العشر. مدح الغساسنة والمناذرة، ودافع عن قومه الذبيانيين. وضعه ابن سلام في الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين. انظر: طبقات الشعراء، لابن سلام ٢٥ ـ ٣٠.
(٧) انظر القصيدة التي أخذ منها البيت في: ديوان النابغة الذبياني، ص ١١٢، دار صعب، بيروت ١٩٨٠.
(٨) الجيد: العنق.
(٩) المقلّد: موضع القلادة من الجيد. والمقلّد: ما يقلّد به الجيد، أي القلادة.

وقال شهابُ الدّين الشَّطَنُوفيّ: [من الطويل]

كأنّ النّخيلَ الباسقاتِ وقد بدتْ لِناظرِها حُسنًا قِبابُ زبرجدِ
وقد عُلّقتْ من حولِها زينةً لها قناديلُ ياقوتٍ بأمراسِ عَسْجَدِ

وأمّا الجُمّارُ وما قيل فيه ـ فالجُمّار، هو رأسُ النّخل، وإذا قُطِعَت الجُمّارةُ لا تعيشُ النخلةُ بعدَها أبدًا.

وقال الشيخُ الرئيس: طبعُه باردٌ في الثانية، يابسٌ في الأُولى؛ وهو قابض؛ وينفع من خشونة الحَلْق، ويقبِض الإسهالَ والنَّزْف؛ وينفع من لَسْعِ الزُّنْبُور ضِمادًا.

وقال شاعرٌ يصفه: [من السريع]

جُمّارةٌ[١] كالماءِ تبدو لنا ما بين أطمارٍ[٢] من اللِّيفِ
جسمٌ رَطيبُ اللَّمْس لكنّه قد لُفَّ في ثوبٍ من الصّوفِ

وأمّا ما وُصِف به الطَّلْع ـ فمن ذلك قولُ كُشاجِم: [من الكامل]

أَفْدِي الّذي أَهْدَى إلينا طَلْعَةً أهدتْ إلى قلبِ المَشُوق بَلابِلا
فكأنّما هي زَوْرَقٌ من صندلٍ قد أَوْدَعوه من اللُّجَين سلاسلا

وقال ابنُ وكيع: [من السريع]

طَلْعٌ هتكنا عنه أستارَه من بعد ما قد كان مستورا
كأنّه لمّا بدا ضاحكًا في العين تشبيهًا وتقديرا
دُرْجٌ[٣] من الصّندلِ قد أودعتْ فيه يدُ العطّار كافورا

وقال محمّدُ بنُ القاسم العَلَويّ: [من الطويل]

وَطَلْعٍ هتكنا عنه جيبَ قميصِه فيا حُسنَه في لونه حين هُتّكا
حَكَى صدرَ خَوْدٍ[٤] من بني الرّوم هَزّها سَماعٌ فَشقّتْ عنه ثوبًا ممسّكا

وقال كُشاجم: [من الرجز]

ولابس ثوبًا من الحريرِ مضمّخ[٥] الظاهرِ بالعَبيرِ

---

(١) الجمّارة: شحم النخلة.
(٢) أطمار: جمع طمر، وهو الثوب البالي.
(٣) الدرج: الموضع توضع فيه الأشياء وتدرج.
(٤) الخود: الفتاة الشابّة الناعمة.
(٥) مضمّخ: معطّر، ومخلوط.

مـضـمَّـن الـبـاطـنِ ثـوبَ نُـور يَـفْـتَـرّ عـن مـكـنـونـةِ الـثُّـغـورِ
* كـأنّـمـا فُـتَّ مـن الـكـافـورِ *

وقال أيضًا: [من الخفيف]

قـد أتـانـا الّذي بَـعـثـتَ إلـيـنـا وهـو شـيءٌ في وقـتـنـا مـعـدومُ
طَـلْـعَـةٌ غـضّـةٌ[١] أتـتـنـا تُـحـاكي سَـفَـطـا[٢] فـيـه لـؤلـؤٌ مـنـظـومُ

وقال الرّبيعُ بنُ أبي الحُقَيْق اليهوديُّ يَرْثِي كعبَ بنَ الأشرف[٣]: [من الرّمل]

ذو نَـخـيـلٍ فـي تِـلاعٍ[٤] جَـمّـةٍ تُـخـرِجِ الـطَّـلْـعَ كـأمـثـال الأكُـفْ

وأمّا البلحُ والبُسْرُ والتّمر ـ فرُوِيَ عن عامر بنِ سعدٍ عن أبيه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من تَصبَّح كلَّ يوم سبعَ تَمرات ـ يعني عجوةً ـ لم يضرَّه في ذلك اليوم سمٌّ ولا سِحر»، خرّجه البخاريُّ[٥] في صحيحِه.

وقال الشيخ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا: إنّ طبعَهما باردٌ يابسٌ في الثانية؛ والبُسْرُ أقبَضُ من القَسْب[٦]؛ وإذا أُكِل وشُرِب الماءُ على أثرِه نَفَخ، وإن كان أوّلَ ما يحلو قَرْقَرَ أكثر، ويُحْدِثان السُّدُدَ في الأحشاء، وطبيخُ البُسْرِ يسكن اللّهيبَ مع حفظ الحرارةِ الغريزيّة؛ والإكثارُ منهما يولّد في البدن أخلاطًا غليظة، والبُسْرُ يصدِّع، وكثيرُه يُسْكِر؛ وهما رديئان للصّدر والرّئة، ويُحْدِثان السُّدُدَ في الكبد، وهضمُهما بطيء، والهَشُّ أقلُّ هضمًا؛ وغِذاؤهما يسير، وكلُّ واحد منهما يَعْقِل البطن. قال: والبلحُ يُغزِر البول، وإذا شُرِب بخلٍّ عَفِصٍ منعَ سيلانَ الرّحِمِ ونَزْفَ البواسير، وكثرةُ استعمالهما تُوقِع في القُشَعْرِيرة[٧].

وقف وصف الشعراء البلحَ والبُسْرَ في أشعارهم ـ فمن ذلك ما قاله ابنُ وَكِيع التِّنِّيسيّ في البلح: [من المنسرح]

أمـا تَـرى الـنّـخـلَ طـارحًـا بـلـحًـا جـاء بـشـيـرًا بـدولـة الـرُّطَـبِ

---

(١) غضّة: طريّة. (٢) السفط: الوعاء.
(٣) كعب بن الأشرف: شاعر جاهلي طائي، شبّب بالمسلمات فقتله الأنصار سنة ٦٢٥ م.
(٤) تلاع: جمع تلعة، وهي القطعة من الأرض وما ارتفع منها.
(٥) البخاري: أبو عبد الله محمد، من كبار المحدّثين، ولد في بخارى. أشهر كتبه «الجامع الصحيح» في الحديث، وله «التاريخ» و«الضعفاء» في تراجم رجال الإسناد والحديث. مات سنة ٢٥٦ هـ.
(٦) القسب: الرديء من التمر اليابس. (٧) القشعريرة: الارتجافة في الجلد والبدن.

كأنّه والعيونُ تنظُره ... إذا بدا زهرُه على القُضُبِ
مَكاحِلٌ[١] من زمرّدٍ خُرِطتْ ... مقمَّعاتُ الرؤوسِ بالذّهبِ

وقال عبدُ الصّمد: [من الرّجز]

كأنّه في ناضرِ الأغصانِ ... زمرّدٌ لاحَ على تيجانِ

وقال كمالُ الدين بنُ بشائرَ الإخْميمِي[٢] ـ وهو عصريّ ـ: [من مجزوء الرجز]

حيًّا بها رائحةً ... كالمِسك للمشتنشِقِ
وقال شَبِّهْها لنا ... فقلتُ غيرَ مُطْرِقِ
مُكْحُلةٌ مخروطةٌ ... من دَهْنَجٍ موثَّقِ[٣]
سِدادُها من ذهبٍ ... ومِيلُها مِن وَرَقِ[٤]

وقال شاعرٌ يصف البُسْرَ الأحمر: [من مخلّع البسيط]

أمَا تَرَى النخلَ حاملاتٍ ... بُسْرًا حَكَى لونُه الشَّقيقا
كأنّما خُوصُه[٥] عليه ... زمرّدٌ مثمِرٌ عَقيقا

وقال ابنُ المعتزّ: [من الرجز]

كَقِطَعِ الياقوت يانعاتِ ... بخالص التِّبر مقمَّعاتِ

وقال في الأصفر: [من مجزوء الرجز]

أما تَرَى البُسْرَ الّذي ... قد حاز كلَّ العَجَبِ
كيف غدا في لونِه ... كعاشقٍ مكتئبِ
مَكاحلٌ من فضّةٍ ... قد طُلِيَتْ بالذّهبِ

ووصفوا الرُّطَبَ والتّمر ـ فمن ذلك ما قاله محمدُ بنُ شرف القيروانيّ: [من الوافر]

ومطبوخٍ بغير عَقيدِ نارٍ ... عَزَمتُ على جَناه بابتكارِ

---

(١) مكاحل: جمع مكحلة، وهي وعاء الكحل.
(٢) الإخميمي: نسبة إلى إخميم، مدينة مصرية على النيل بمحافظة سوهاج.
(٣) الدهنج الموثق: ضرب من الجواهر.
(٤) سدادها: ما تسدّ به المكحلة. وميلها: العود الذي يطلى بالكحل، وتكتحل به العين.
(٥) خوصه: ورق نخله.

تَوابيت تبدّت من عقيقٍ مقمَّعة بمسبوك النُضارِ
تَرَى لصفاء جوهرِها نواها[١] كألسنة العصافير الصِّغارِ

وقال ابنُ الروميّ: [من الطويل]

بَعثْتَ ببرنيّ[٢] جنيٍّ[٣] كأنّه
مَخازنُ تِبْرٍ قد مُلِئن من الشَّهْدِ
مختَّمة الأطرافِ تَنقدُ قُمْصُها
عن العسل الماذيِّ والعنبرِ الهنديّ
تُنقَّلُ من خُضرِ الثياب وصُفرِها
إلى حُمرِها باللّحظ إلّا من البعدِ
فكم لبثتْ في شاهقٍ لا تُرَى به
ولا تُجْتَنَى باللّحظ إلّا من البعدِ
ألذّ من السّلوَى وأحلى من المنى
وأعذبُ من وصل الحبيبِ على الصَّدِّ[٤]

وقال محمدُ بنُ شرف القَيْرَوَانيّ في التّمر: [من المجتثّ]

أما تَرى التّمرَ يَحْكِي في الحُسنِ للنُّظّارِ
مَخازنًا من عقيقٍ قد قُمِّعتْ بنُضارِ
كأنّما زعفرانٌ فيه مع الشُّهْد جارِي
يَشِفّ مِثلَ كؤوسٍ مملوءةٍ من عُقارِ

وحيث انتهينا من وصف النخل وثمرتِه على اختلافها إلى ما وصفنا، فلنذكر أعجوبةً نَقلَها محمّدُ بنُ عليِّ بن يوسفَ بنِ جَلَب راغب في تاريخ مصرَ في حوادث سنةِ اثنتين وسبعين وثلاثِمائة، فقال: اتّفق يومُ النَّوْرُوز[٥] في هذه السنة لسبعِ خلون من شهر ربيع الأوّل، فأكل النّاسُ الرُّطَبَ قبل النَّوْرُوز، ولم يَبق في النّخل شيءٌ من الرُّطَب، ثمّ حَمَل النَّخلُ حَمْلًا ثانيًا، فأكل النّاسُ البلحَ والبُسْرَ

---

(١) نواها: بذورها، جمع نواة.
(٢) البرني: من أنواع التمور.
(٣) جنيّ: طيّب، حسن الجنا، وشهيّ.
(٤) الصّد: الامتناع والبعد والنفور.
(٥) النوروز: عيد فارسي يصادف أول يوم في الربيع، وتقام فيه احتفالات مشهورة. واللفظة فارسية وتعني: اليوم الجديد.

مرّةً ثانية، ولم يتّفق مِثْلُ هذا في سنةٍ من السّنين، ولا سُمِع في تاريخ إلى وقتنا هذا.

ولنصِلْ ذكرَ النخلِ بما يشبّهه، وهو النّارَجيلُ والفَوفَلُ والكاذيُّ والخَزَم.

فأمّا النّارَجِيل؛ ويُسمَّى الرّانِج، وسمّاه ابنُ سينا الجوزَ الهنديّ، وهو المشهورُ من أسمائه على ألسنة العوامّ؛ فهي نخلةٌ طويلةٌ تَميل بمرتقيها حتّى تُدنيه من الأرض للينِها، ولها أقناء[1]، يكون في القِنْو الكريم ثلاثون نارَجيلة، ولها لبنٌ يسمَّى الأطواقَ، يُشْرَب، حلوٌ، يُسكِر سُكْرًا معتدلًا؛ وأهلُ الهند يصنعون من النّارَجِيل الرَّطْب سُكّرًا، إلّا أنّه لا ييبسُ ويكونُ كالرَّمْل.

وقال الشيخ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا فيه: جيّدُه الطريُّ الشديدُ البياض؛ ويجب أن يؤخَذَ عنه قِشرُ لبِّه. قال: وطبعُه حارٌّ في أوّل الثانيّة، يابسٌ في الأولى، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة؛ والرَّطْبُ منه رَطْبٌ في الأُولى. وقال في أفعالِه وخواصِّه: هو ثقيل، غيرُ رديء الغِذاء؛ وقِشرُ لُبِّه لا ينهضِم. قال: ويجب ألّا يُتناوَلُ عليه الطعامُ إلّا بعد ساعة؛ ودُهنُه الطريُّ أفضلُ كَيْمُوسًا من السَّمْن، ولا يُلزج المعدة؛ ودهنُه للبواسير، وخصوصًا دُهنَ العتيق منه، لا سيّما مع دُهن المِشمِش مشروبًا من كلِّ واحدٍ مثقال.

وقال كُشاجِم يصفه: [من السريع]

وذاتِ قِشرٍ أسوَدٍ حشوُها ... كافورةٌ مومـوقـةُ المَنظَرِ[2]
قد نُشِرتْ في رأسها وَفْرةٌ[3] ... تَسْتُرها عن ناظر المبصرِ
كأنّها جمجمةٌ أُلبِستْ ... ذوائبًا[4] من خالص العنبرِ

الفَوفَل ـ فقال أبو حنيفة: هي نخلةٌ مِثلُ نخلة النّارَجِيل، تَحْمِل كبائسَ فيها الفَوفَل مِثلُ التّمر، فمنه أسوَد، ومنه أحمر. وقال الشيخ الرئيس: قوّةُ الفُوفَل قريبةٌ من قوّة الصَّندَل، وهو مبردٌ بقوّة، قابض؛ وهو جيّدٌ للأورام الحارّةِ الغليظة، وموافِقٌ لمن به التهابٌ في عينه.

---

(١) أقناء: جمع قني وقنو، وهو عنقود النخل. (٢) مومومقة المنظر: ينظر إليها بومق، أي بحبّ.
(٣) الوفرة: الشعر.
(٤) ذوائب: جمع ذؤابة، وهي الضفيرة من الشعر.

وأمّا الكاذِيّ ـ فقال: هي نخلة، إلّا أنّها لا تطول طولَ النّخل، فإذا أطْلَعَت الطَّلْعَةُ قُطِعَتْ قبلَ أن تنشقّ، ثمّ تلقَى في الدّهن، وتُتْرَك حتّى يأخذَ الدُّهنُ رائحتَها، فيُتطيَّب به، فإنْ تُرِكَت الطَّلعةُ حتّى تنشقَّ صار بلحًا، ويتناثر ولم توجد له رائحة.

وأمّا الخَزَم ـ فقال: هو شجرةٌ كالدَّوم[1]، له أقْناءٌ وبُسْرٌ أسوَدُ إذا أينع إلّا أنه مرٌّ عَفِصٌ لا يأكله الناس؛ وتُتّخَذُ من خُوصِه[2] وعُسُبِه[3] الحبال، فلا يكون شيءٌ أقوى منها.

وأمّا الزّيتون وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس: الزّيتونُ يغذو قليلًا؛ وورقُ البَرّيّ جيّدٌ للدّاحس[4]، ويَمنَع العَرَق مَسْحًا؛ وصَمْغُ البَرّيِّ ينفع من الجرب المتقرّح والقوابي، وينفع الغِشاوَة والبَياض، ويجلو العين ووسخَ قروحِها ويُخرِج الجنين.

وماءُ الزّيتون المملَّح يُحقَن به لعِرق النَّسا، وورقُه يُطبَخ بماء الحِصْرِم حتّى يصيرَ كالعسل، وتُطلَى به الأسنان المتآكلةُ فينفعها؛ وعُصارةُ ورقِه للجُحوظ[5]. قال: والزّيتونُ الأسودُ مع نواه من جملة البَخورات للرَّبْو وأمراضِ الرّئة؛ والزّيتونُ الغليظُ المملوحُ يثير الشهوةَ، ويقوّي المعدةَ، ويولّد كَيْمُوسًا قابضًا؛ والمخلَّلُ أقبَلُ الجميع للهضم وأسرعُه.

وقال ابنُ وَكيع يصفه: [من مجزوء الرّجز]

أُنْظُرْ إلى زيتونِنا ... فيه شفاءُ المُهَجِ[6]
بدا لنا كأعيُنٍ ... شُهْلٍ[7] وذاتِ دَعَجِ[8]
مخضرُّه زبرجدٌ ... مسودُّه من سَبَجِ[9]

---

(١) الدوم: ضرب من الشجر من فصيلة النخليّات، يستخرج منه شيء كالدّبس، ويطلق عليه أيضًا اسم شجر المقل.
(٢) خوصه: سعفه وورقه.
(٣) عسب: جمع عسيب، وهو الجريدة من النخل كشط خوصها.
(٤) الداحس: من فيه دحس، وهو ضرب من الجروح والبثور في الجلد.
(٥) الجحوظ: نتوء العينين إلى الخارج.
(٦) المهج: جمع مهجة، وهي النفس والروح.
(٧) شهل: جمع شهلاء، من الشّهل، وهو حسن منظر العينين واتّساعهما.
(٨) الدعج في العينين: اتّساعهما، وشدّة سوادهما.
(٩) السبج: ضرب من الخرز والأحجار الكريمة.

وأمّا الخُرْنُوب وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس: أصلَحُه الخُرْنُوب الشاميُّ المجفَّف، وهو قابض، والرَّطْبُ منه مُطلِق. قال: وإذا دُلِكت الثآليلُ بالخُرْنُوب النَّبَطِيِّ الفِجِّ دلكًا شديدًا أذهبها ألبتّة؛ والمضمضةُ بطبيخِه جيّدةٌ لوجع الأسنانِ؛ والرَّطْب من الشامِيِّ رديءٌ للمعدة، لا ينهضم، واليابسُ أبطأ انهضامًا. قال: والجلوسُ في طبيخِه يقوّي المعدة؛ وفيه إدرار؛ والنَّبَطيُّ نافعٌ من سيلان الطَّمْث[1] المُفْرط أكلًا واحتمالًا. وقال جالِينُوس: ليت هذه الشجرةَ لم تُجلَب إلى بلادٍ أخرى. وحُكِيَ أنّ سليمانَ عليه السلامُ كان من عادته أن يعتكفَ في البيت المقدَّس المُدَدَ الطِّوال، وكانت تخرج له في كلِّ يوم من محرابه شجرة، فيسألها عن اسمها فتخبره، فخرجتْ له شجرةُ الخُرْنُوب، فسألها عن اسمها، فأخبرتْه، فبكى، وقال: نُعِيتْ إليَّ نفسي، فقيل له في ذلك، فقال: الخُرْنُوب خراب؛ ومات بعد ذلك بقليل.

وقال شاعرٌ فيه: [من المنسرح]

لـمّـا أتـى الـخُـرْنُـوبُ فـي طـبـقٍ حـنّـت إلـيـه الـنُّـفـوسُ والـمُـهَـجُ
كـأنّــه فــي كــمــال حــالــتِــه حَـبُّ عـقـيـقٍ أصـدافُـهـا سَـبَـجُ

وأمّا الإجّاصُ وما قيل فيه ـ فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ في توليده: إن خلطتم اليَبْرُوحَ بورق العُنّاب ومثلِ نصفِ وزنِ اليَبْرُوح كُنْدُسًا، وزرعتموه في أيِّ البلاد، خرج عن ذلك شجرُ الإجّاص الحامض؛ وإن أردتموه حُلوًا فاخلطوا مع اليَبْرُوح خميرَ دقيقِ الشّعير والحنطة مختلطَين، وقد طال اختمارهما حتى حَمُضا، فإنّه يخرج عنه شجرُ الإجّاص الحلو، وذلك بعد أن يُخْلَط بما تقدّم، ومن الخمر الحديث برِطل.

وقال الشيخ الرئيس في الإجّاص: البستيّ[2] منه أقوى من الأسوَد، والأصفرُ أقوى من الأحمر، والأبيضُ الكبير ثقيلٌ قليلُ الإسهال، والأَرْمَنِيُّ أحلى الجميع وأشدُّه إسهالًا، وأجوَدُه الكبارُ السَّمِينة؛ وطبعُه باردٌ في أوّل الثانية رَطْبٌ في آخرها. وقال في أفعالِه وخواصّه: صَمْغُه ملطِّف قَطّاعٌ مُغَرٍّ؛ وفي الدِّمَشْقِيِّ عَقْلٌ وقبضٌ عند دِيسْقُورِيدُس؛ وقال جالِينُوس: والذي لم يَنْضَج فيه قبض وغِذاؤه قليل، وليؤكل قبلَ الطعام، ويشرب المرطوبُ بعدَه ماءَ العسلِ والنَّبيذ وصَمْغُه مُلْحِمٌ للقروح، وبالخلِّ

(١) الطمث: دم الحيض.
(٢) البستي: نسبة إلى بست، مدينة قديمة في أفغانستان.

يَقْلَع القُوبَاء. وخاصّةً إن كان معه عسلٌ أو سكّر وخصوصًا في الصِّبيان؛ وورقه إذا تُمِضْمِض بمائه مَنَع من النوازل إلى اللّوزتين[١] واللّهاة[٢]؛ وإذا اكتُحِل بصَمْغِه قوّى البصر، والمُرُّ منه يسكِّن التهابَ القلب، وهو أشدُّ قَمْعًا للصّفراء؛ والحلوُ منه يُرخي المعدةَ بترطيبه ويُبردها؛ وبالجملة لا يلائمها، والحلوُ منه أشدُّ إسهالًا للصّفراء؛ والرَّطْبُ أشدّ إسهالًا من اليابس، والدِّمَشقيُّ يَعْقِلُ البطنَ عند بعضهم؛ والبَرِّيُّ ما دام لم يَنْضَج جدًّا ففيه قبضٌ إجماعًا. وقال جالينُوس: إنّ دِيسْقُورِيدُس أخطأ في قوله: إنّ الدِّمَشِقيَّ يَقْبِض، بل هو مُسْهِل وصَمْغُه يفتِّت الحَصاة، وماؤه يُدِرّ الطَّمْث، وكلَّما صَغُر كان أقلَّ إسهالًا.

وقال سليمانُ بنُ بطّال الأندلسيّ يصفه: [من السريع]

بَـعـثـتُ مـا يَـنْـذُرُ لـكـنّـه ... في وصفه النّاعتُ لم يَبْررِ
جيشًا من الزِّنْج ولكنّه ... جيشٌ متى يَلقى العِدا يُقْهَرِ
يَنْفِي لك الصّفراءَ مهزومةً ... والزِّنْجُ أعداءُ بني الأصفرِ[٣]

وقال آخَر: [من السريع]

كأنّما الإجّاصُ في صِبغِه ... مسترِقٌ في اللّونِ صِبْغَ المُهَجْ
لم يَخْطُ في لونٍ وفي منظرٍ ... مستحسَنِ الوصف وعَرْف أرِجْ[٤]
قطائعَ العنبر ملمومةً ... أو خرزاتٍ خُرِطتْ من سَبَجْ

وممّا وُصِف به القَرَاسِيا ـ قال شاعر: [من الخفيف]

وحبوبٍ كأنّها حَدَقُ الأعـ ... ـين سُودٍ دموعهنّ دماءُ
مائلاتٍ مِثل النّجومِ علينا ... في بُرُوجٍ لها الغصونُ سماءُ
وإذا ما نثرتَها فَفُصوصٌ ... صَبَغتْها بمائها الظَّلماءُ
من يذُقْها يذُقْ رُضابَ[٥] غزالٍ ... فهي والخمرُ في المَذاقِ سواءُ

وأمّا الزُّعْرُور وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس: الزُّعْرُور يُسمّى مثلَّث العَجَم، ومنه نوعٌ تسمّيه اليونانيّون هيقيليمون، وربّما سَمّوه التّفاحَ البَرّيّ، وشجرُه يُشْبِه شجرَ

(١) اللوزتان: لحمتان في أقصى الحلق إلى داخل جنبيه.
(٢) اللهاة: لحمة تطل من سقف الحلق، في أقصاه.
(٣) بنو الأصفر: تطلق هذه اللفظة على الروم، وقد تطلق على الجنس الأصفر في شرق آسيا.
(٤) عرف أرج: رائحة ذكيّة. (٥) الرضاب: الريق.

التفّاح حتّى في ورقه، إلّا أنّه أصغرُ منه، عَفِصُ الطّعم؛ وهو قابض، يَقْمَع الصّفراء، ويَحْبِس السيلاناتِ أكثرَ من كلّ ثمرة.

وفي وصفه يقول ابنُ رافع: [من السريع]

كأنّما الزُّعْرُورُ لمّا بدا | في حُسنِ تقديرٍ ومَرأى أنِيقْ
جلاجلٌ[١] مخضوبةٌ عَنْدَمًا[٢] | أو خرزاتٌ خُرِطتْ من عقيقْ
يَضُوع من رَيّاه[٣] إمّا هفا | به نسيمُ الرّيح مِسكٌ فَتِيق[٤]

وقال أيضًا فيه: [من الرّجز]

أنظرْ إلى زُعْرورنا المنعوتِ | نَكْتُه كالعنبر المفتوتِ
كأنّه في الوصف والنُّعوتِ | بنادقٌ من أحمرِ الياقوتِ

وأمّا الخَوْخُ وما قيل فيه ـ فالشاميُّون يسمّونه الدُّراقِن؛ قال الشيخ الرئيس: طبعُ الخَوْخِ باردٌ في أوّل الثانية، رَطْبٌ في الأُولى دون آخِرها، ورطوبتُه سريعةُ العفونة، وهو مليّن، وفيه قبض ما، وأقبَضُه المقدَّد[٥]، وفيه منعٌ للسَّيلان؛ والفجُّ منه قابضٌ أيضًا، وإذا قُطِرَ ماءُ ورقِه في الأُذُن قَتَل الدِّيدان، ودُهنُه ينفع من الشَّقِيقَةِ[٦] وأوجاع الأُذُن الحارّةِ والباردة؛ والنَّضِيجُ منه جيّدٌ للمعدة، وفيه تشهيةٌ للطّعام؛ ويجب ألّا يؤكَل على غيرِه فيَفْسُد عليه ويُفْسِدَه، بل يقدَّم على الطّعام، وقَدِيدُه بطيءُ الهَضْم ليس بجيّد الغِذاء. قال: وإذا ضُمِدتْ بورقِه السُّرّةُ[٧] قَتَل دِيدانَ البطن، وكذلك إن شُرِبتْ عُصارةُ فُقّاحِه[٨] وورقِه؛ والنّضِيجُ منه يليّن البطن؛ والفِجُّ عاقل. قال: وقد قال بعضهم: إنّه يزيد في الباه، ويُشْبِه أن يكون ذلك للأبدان الحارّة.

وأمّا ما وُصِفَ به من الشّعر ـ فمن ذلك قولُ شاعر: [من المنسرح]

في الخَوْخِ أُعجوبةٌ لناظرِهِ | ما مِثلُها جاء في الأحاديثِ
كأنّه وجنةُ الحبيبِ وقد | أثّرَ فيها قَرصُ البراغيثِ

---

(١) الجلاجل: جمع جلجل، وهو الجرس الصغير.
(٢) العندم: ضرب من النبت، له صبغ مشهور، أحمر.
(٣) ريّاه: رائحته. (٤) فتيق: شديد الرائحة وطيّبها.
(٥) المقدّد: المعرّض للشمس لكي ييبس ويصير كالقديد من اللحم.
(٦) الشقيقة: الصداع المزمن في الرأس، أو في جانبه والشقّ منه.
(٧) السرّة: النقرة في وسط البطن، وهي أصل المشيمة للولد في بطن أمّه.
(٨) فقّاحه: زهره.

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَريّ: [من مخلّع البسيط]

أهـدَى إلـينـا الـزمـانُ خَـوْخَـا ... مَـنْـظَـرُهُ مَـنْـظَـرٌ أنِـيـقُ
مـن كـلّ مـخـصـوصـةٍ بـحُـسْـنٍ ... مـعـنـاه فـي مِـثْـلِـهـا دقـيـقُ
صـفـراء حـمـراء مـسـتـفـيـدٌ ... بـهـجـتَـهـا الـتِّـبْـرُ والـعـقـيـقُ
ذاتُ أديـمَـيـن[1] ذا بَـهـارٌ[2] ... لـمـجـتـنـيـه، وذا شَـقـيـقُ[3]
كـوجـنـةٍ أُلْبِـسـتْ خَـلُـوقًـا[4] ... فـزال عـن بـعـضِـهـا الـخَـلُـوقُ

وقال أبو بكر بنُ القُرْطُبيّة: [من البسيط]

وطيّبِ الرِّيقِ عذبٍ آبَ[5] في آبِ ... وزار مشتمِلًا[6] في زِيِّ أعرابِ
في مُخْمَلِ الثّوبِ لم تَخمُل رَآستُه ... بين الفواكه من نقصٍ ولا عابِ
خالستُه نظري فاحمرّ من خَجلٍ ... ثمّ أنثنى مُعْرِضًا عنّي كمرتابِ
مَن اسمُه فيه مقلوبًا ومبتدأً ... أربَى على اللّوز في تطريزِ جِلبابِ[7]

وقال أيضًا: [من الوافر]

وبـنـتِ نَـدًى مـخـطَّـطـةِ الأعـالـي ... بـمـحـمـرٍّ كـلَـوْن الأُرْجُـوانِ
كـوجـنـةِ غـادةٍ[8] خـافـت رقـيـبـا ... فـغـطّـتـهـا بـمـحـمـرّ الـبَـنـانِ[9]

وقال أبو هلال العسكريّ: [من السريع]

وخَـوخـةٍ مِـلءِ يـدِ الـجـانـيـهْ ... تَـمـلِك لـحظَ الأعيُـن الرّانـيـهْ[10]
مـصـفـرّةِ الـوجـنـةِ مـحـمـرّةٍ ... كـأنّـهـا عـاشـقـةٌ سـالـيـهْ

وأمّا المِشْمِش وما قيل فيه ـ فقال الشيخُ الرئيس: أجْوَدُ المِشْمِش الأرمَنيّ، فإنّه لا يُسْرِع إليه الفسادُ ولا الحُموضة، وإذا أُكِلَ المشمِشُ فيجب أن يؤخَذَ من المُصْطَكا والأَنِيسُون بالسويّة وزنُ درهم أو درهمين في خمرٍ صِرْفٍ أو نبيذِ زبيبٍ أو نبيذِ عسل.

(١) أديمين: مثنّى أديم، وهو الجلد.
(٢) البهار: ضرب من الأزهار.
(٣) الشقيق: واحد شقائق النعمان، الأزهار المختلفة اللون، وأشهرها الأحمر.
(٤) الخلوق: ضرب من الطّيب.
(٥) آب: رجع وعاد.
(٦) مشتملًا: لابسًا عليه، كالشّملة.
(٧) الجلباب: الثوب الواسع يتجلبب به.
(٨) الغادة: الحسناء في ريعان صباها.
(٩) البنان: الأصابع في اليد، وأطرافها.
(١٠) الرانية: الناظرة بحنوّ.

قال: وطبعُه باردٌ رَطْبٌ في الثانية، ودُهنُ نواه حارٌّ يابسٌ في الثانية، وخِلْطُه سريعُ العفونة، وهو يسكِّن العطش؛ ودُهنُ نواه ينفع من البواسير، وهو يولِّد الحُمّيات لسرعةِ تعفُّنه؛ ونَقيعُ المقدَّد منه ينفع من الحُمَّيَات الحارّة.

وقد وصفه الشعراءُ وشبَّهوه؛ فمن ذلك قولُ بعض الشعراء: [من السريع]

أفـدِي حـبـيـبًـا جـاءنـي مـتـحِـفًـا ... بـمِـشـمِـشٍ أحـلَى مـن الـسُّـكَّـرِ
فـخِـلـتُـه حـيـن تـأمّـلـتُـه ... بـنـادقًـا[١] مـن ذهـبٍ أحـمـرِ

وقال ابنُ وكيع: [من الطويل]

بدا مِشْمِشُ الأشجارِ يذكو[٢] شِهابُه ... على خُضرِ أغصانٍ من الرِّيِّ مُيَّدِ[٣]
حَكَى وحكت أشجاره في اخضرارِها ... جلاجلَ تِبْرٍ في قِبابِ زبرجدِ

وقال ابنُ رَشِيق: [من السريع]

كـأنّـمـا الـمِـشـمـشُ لـمّـا بـدت ... أشـجـارُه وهـو بـهـا يَـلْـتَـهِـبْ
خضرُ قِبابِ المُلك حَفّت بها ... جلاجلٌ مصقولةٌ من ذهبْ

وقال ابنُ المعتزّ: [من البسيط]

ومِشْمِشٍ بان منه أعْجَبُ العَجَبِ ... يدعو النفوسَ إلى اللّذّاتِ والطَّرَبِ
كأنّه في غصون الدَّوْح[٤] حين بدا ... بنادقٌ خُرِطَتْ من خالص الذَّهَبِ

وقال ابنُ الرُّوميّ: [من الكامل]

قِشرٌ من الذّهب المصفّى حشوُه ... شُـهْـدٌ لـذيـذٌ طـعـمُـه لـلـجـانـي
ظَلْنا لديه نديرُ في كاساتِنا ... خمرًا تُشَعْشَع كالعقيق القاني
وكأنّما الأفلاكُ من طربٍ بنا ... نَثَرَتْ كواكبَها على الأغصانِ

وقال أيضًا يذمّه: [من الطويل]

إذا ما رأيتَ الدّهرَ بستانَ مِشْمِشٍ ... فـأيـقِـنْ يـقـيـنًـا أنّـه لِطـبـيـبِ
يُـغِـلّ لـه مـا لا يُـغِـلّ لـرَبِّـه ... يُغِلّ مريضًا حَمْلُ كلِّ قضيبِ

(١) بنادق: جمع بندقة، وهي الحبة من البندق، ومن كل شيء.
(٢) يذكو: يتّقد.
(٣) ميّد: متثنّية.
(٤) الدوح: الشجر الكبير الملتفّ.

وأمّا العُنّابُ وما قيل فيه ـ فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ في توليدِه: وإن أردتم العُنّابَ الكبارَ فخذوا بِطّيخةً هنديّةً فقوِّروا[١] رأسَها من جهة الرأس، وأحشوا اليَبْرُوحَ فيها، وأعيدوا القُوَارَةَ في موضعِها، وصبّوا اللّبَن الحامضَ بزُبْدِه عليها وازرعوها في الأرض، وعمِّقوا لها الحفرَ قليلًا، واسقوها في أوّل زرعها، فإنّها تُخرِج شجرةً تَحْمِل عُنّابًا كبارًا كأمثال الإجاص اللّطيف.

وقال الشيخ: أجوَدُ العُنّاب أعظَمُه، وطبعُه باردٌ إلى الأُولى معتدلٌ في اليُبوسة والرطوبة، وهو إلى قليلِ رطوبة، وينفع حِدّةَ الدّم الحارّ. قال: أظنّ ذلك لتغليظه الدّم، وتلزيجِه إيّاه. قال: والّذي يُظَنّ من أنّه يصفّي الدَّمَ ويغسله ظنٌّ لستُ أميل إليه، وغِذاؤه يسير، وهضمُه عسير. قال: والقولُ الجيّدُ فيه ما قاله جالينُوس: «ما وَجدتُ للعُنّاب في حفظ الصّحّة ولا إزالةِ المرض أثرًا، لكن وجدتُه عسيرَ الهضم، قليلَ الغِذاء». قال الشيخ: والعُنّابُ ينفع الصّدرَ والرّئة، وهو رديءٌ للمعدة. وقيل: إنّه نافعٌ لوجع الكُلْيَة والمَثانة.

وقد وصفه الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك قولُ ابنِ القُرْطُبيّة: [من البسيط]

أما تَرَى شجرَ العُنّاب مُوقَرةً[٢] ... بكلِّ أحمرَ لمّاعٍ من الخَرَزِ
وقد تدلّت به الأغصانُ مائلةً ... مِثلَ العَثاكِيل[٣] من صدرٍ إلى عَجُزِ
وقد حمَتْه عن الأيدي أسنّتُها ... حِذارَ مفترسٍ أو خوفَ منتهِزِ

وقال أبو طالب المأمونيّ: [من المجتثّ]

يَرُوقُني العُنّابُ ... فبي إليه انصبابُ
إذ لاح لي منه أطرا ... فُ من أُحبُّ الرِّطابُ
يَحْكِي فرائدَ دُرٍّ ... لها العقيقُ إهابُ[٤]

وقال ابنُ رافع: [من الرّجز]

أحْبِبْ بعُنّابٍ بدا أَنيقِ ... كمِثْلِ لونِ وجنةِ المعشوقِ
أو خَرزٍ لُمّتْ من العقيقِ ... أو كقلوبِ الطّير في التحقيقِ
جاءت بها شَغْواءُ[٥] رأسَ نِيقِ[٦] ... كأنّما اشتُقّ من الشَّقِيقِ

---

(١) قوّروا: جوّفوا، وجعلوه مدوّرًا في جوفه.
(٢) موقَّرة: محمّلة.
(٣) العثاكيل: جمع عثكول، وهو العنقود.
(٤) إهاب: جلد وثوب.
(٥) الشغواء: صفة لأنثى العقبان.
(٦) النيق: أعلى قمة في الجبل.

أو كان يُسْقَى بجَنَى الرَّحِيقِ[١] أحلَى من السُّكَّر في الحُلوقِ
* في نَكْهَةِ العنبرِ والخَلُوقِ[٢] *

وقال أيضًا فيه: [من السريع]

كأنّما العُنَّابُ لمّا بدا يَلوح في أعطافِ غصنٍ أنِيقْ
تطريفُ[٣] مَن تطريفُها مِن دمي أو خَرَزاتٌ خُرِطَتْ من عَقِيقْ
أو كقلوب الطّير جاءت بها أفراخَها شَغْواءُ في رأسِ نِيقْ

وقال فيه: [من السريع]

كأنّما العُنَّابُ في دَوْحِهِ لمّا تَناهَى حُسنُه واستَتَمْ
أقراطُ ياقوتٍ تبدّت لنا أو أنملٌ قد طُرِّفتْ بالعَنَمْ[٤]

وأمّا النَّبِقُ[٥] وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس: الرَّطْبُ من النَّبْق واليابسُ فيهما تجفيفٌ وتلطيف؛ ودخانُ السِّدْرِ[٦] شديدُ القبض؛ والنَّبْقُ قابض وخصوصًا سَوِيقَه[٧]، ويَمْنَع تساقُط الشّعر، ويطوّلُه، ويقوّيه، ويليّنُه، وورقُ السِّدْرِ يليّن الورمَ الحارَّ ويحلّله؛ وينفع من الرَّبْو وأمراضِ الرِّئة؛ وهو مقوٍّ للمعدة عاقلٌ للطبيعة، وينفع من نَزْفِ الحيضِ والطَّمْثِ، ومن قُروح الأمعاء، خصوصًا سَوِيقَه؛ وينفع من الإسهال الكائنِ بسبب ضَعف المعدة. قال: والسِّدْرُ يُحْتَقَن بطبيخِه، ويُشْرَب لهذه العِلَلِ، ولسَيَلانِ الرَّحِم.

وقد وصفه الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك قولُ شاعر: [من الطويل]

وأشجارِ نَبْقٍ قد تَكامَل حُسْنُها أتت بغريبٍ في الثّمار بديعِ
فمِن أحمرٍ قانٍ وأصفرَ فاقعٍ ويانعِ مخضرٌ كزهرِ ربيعِ

وقال آخر: [من المجتث]

وسِدْرَةٍ كلّ يومِ من حُسنِها في فنونِ

---

(١) الرحيق: الخمرة، والخالص من الزهر. (٢) الخلوق: ضرب من الطّيب.
(٣) تطريف: تزيين وترصيع. (٤) العنم: ضرب من النبات، ثمره أحمر اللون.
(٥) النبق: دقيق حلو يخرج من لبّ النخلة، والنبق: ضرب من الشجر أيضًا، تستخرج منه مادة طبّية.
(٦) السدر: ضرب من الشجر، وهو النبق نفسه، أو ما يشبه النبق، ومن فصيلته.
(٧) سويقه: أي ماؤه المستخرج منه مخلوطًا بغيره.

كـأنـمـا الـنَّـبْـقُ فـيـهـا   وقــد بــدا لــلـعــيــونِ
جــلاجــلٌ مــن نُـضــارِ   قـد عُـلِّـقـتْ في الـغُـصـونِ

وقال كُشاجِم من أبيات: [من الرّجز]

في ظلّ سِدْرٍ مثمرٍ داني العَذَبْ[1]   فيـه لأنـواعٍ مـن الـطَّـيـر صَـخَـبْ
إذا الرّياحُ زَعْزَعَتْ تلك الشُّعَبْ   أهـدَى لـنـا بـنـادقًـا مـن الـذَّهَـبْ

وقال عبدُ الله بنُ المعتزّ: [من مجزوء الكامل المرفّل]

أُنــظُــرْ إلــى الــنَّــبْــقِ الّذي   فــيــه الــشّــفــاءُ لــكــلّ ذائــقْ
فــكـــأنّـــه فـــي دَوْحِـــهِ   والــلّــيــلُ مــمــدودُ الــسُّــرادِقْ[2]
ذهــبٌ تُــبــهــرِجُــه[3] الــصَّــيــا   رفُ[4] صــار حَــبًّــا لــلــمَــخــانــقْ[5]

وقال أبو الفرج البَبّغاء: [من الرّجز]

أُنظرْ إلى النَّبْق البديعِ المنظَرِ   الـطّـيّـبِ الـرّيـحِ اللّـذيـذِ الـمَـخـبَـرِ
أحـلَى مَـذاقًـا مـن مَذاقِ الـسُّـكّـرِ   كَـخَـرَزٍ مـن كـهـربـاءٍ أصـفـرِ

الباب الثالثُ
من القسم الثاني من الفنّ الرابع
فيما ليس لثمره قشرٌ ولا نوى

ويَشْتمِل هذا البابُ على ثمانية أصناف، وهي العِنَب والتّينُ والتّوتُ والتُّفّاح والسَّفَرْجَلُ والكُمَّثْرَى واللُّفّاحُ والأُتْرُجّ.

فأمّا العِنَبُ وما قيل فيه ـ فشجرةُ العنب: الكَرَمة، والجمعُ كَرْمٌ وكُروم. والجَفْنةُ: الكَرْمة، ويقال فيها: الجَفَنةُ بفتحتين. ويقال للقضيب منها: الحَبَلة، وقيل: الحَبَلةُ، أصلُ الكَرْمة: والقضيب: السَّرْغ بغين معجمة، والجمعُ سُروغ، رواه أبو عمرو عن ثعلب؛ وقال أبو بكر: السَّرْع بعينٍ غيرِ معجمة: قضيبٌ من قُضبان الكَرْم.

---

(١) العذب: أغصان الشجرة.
(٢) السرادق: الممشى العريض فيه بهاء وجلالة.
(٣) تبهرجه: تزيّنه وتصوّغه.
(٤) الصيارف: جمع صيرفي، وهو الذي يعمل في النقود، جلائها وتمييز الصحيح منها من الزائف.
(٥) المخانق: جمع مخنق، وهو ما يوضع حول العنق من العقود.

وفي القضيب الأُبْنة، والجمعُ أُبَن، وهي العُقَد التي تكون فيه. فإذا أَخْرَج القضيبُ ورقَه قيل: قد أطلَعَ، فإذا ظهر حَمْلُه قيل: قد أحْثَر وحَثِر، فإذا صار حِصْرِمًا قيل: حَصْرَم، ويقال للحِصْرِم: الكَحْب، الواحدة كَحْبَة؛ ولِما تَساقَطَ من العنب: الهَرُور. فإذا اسودّ نصفُ حَبِّه قيل: شَطَّر تَشْطيرًا. فإذا اسودَّت الحَبّةُ إلّادون نصفِها قيل: قد حَلْقَم يُحَلْقِم، فإذا اسودّ بعضُ حَبِّه قيل: قد أوْشَمَ إيشامًا؛ ولا يقال للعنب الأبيض: أَوْشَم. فإذا فشا فيه الإيشام قيل: قد أَطْعَمَ. فإذا أَدْرَكَ غايةَ الإدراك قيل: يَنَعَ وأَيْنَعَ وطاب. والعُنقُود معروفٌ ما دام عليه حَبُّه. فإذا أُكِلَ فهو عمشوش. ويقال لمَعْلَق الحَبِّ من الشِّمْرَاخ: القِمَع؛ ويقال إذا جُنِيَ: قد قُطِف قِطافًا، فإذا يَبِس، فهو الزَّبيب والعُنْجَد. والقِطْفُ: العُنقود؛ وفي التّنزيل: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقّة: الآية ٢٣].

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: الأبيضُ أحمدُ من الأسود إذا تَساوَيا في سائرِ الصّفات من المائيّةِ والرِّقَّةِ والحلاوةِ وغيرِ ذلك؛ والمتروكُ بعد القَطْفِ يومين أو ثلاثةً خيرٌ من المقطوف في يومِه.

وأمّا طبعُه ـ فإن قِشْرَه باردٌ يابسٌ بطيءُ الهضم، وحَشْوُه حارٌّ رَطْب، وحَبُّه باردٌ يابس؛ والمقطوفُ منه في الوقت ينفخ، والمعلَّقُ حتى يَضمُر قِشرُه جيّدُ الغِذاء، مقوٍّ للبدن؛ وغِذاؤُه شبيهٌ بغِذاء التّين في قلّة الرّداءةِ وكِثرةِ الغِذاء، وإن كان أقلَّ من غِذاء التّين، والنَّضيجُ أقلُّ ضررًا من غيرِ النَّضيجِ، وإذا لم ينهضم العنبُ كان غِذاؤه فِجًّا نِيئًا؛ وغِذاءُ العنب بحالِه أكثرُ من غِذاء عصيرِه، ولكنّ عصيرَه أسرعُ نفوذًا وانحدارًا. قال: والزَّبيبُ صديقُ الكبدِ والمعدة؛ والعنبُ والزَّبيب بعَجَمهما[1] جيّد لأوجاع المِعَى؛ والزَّبيب ينفع الكُلَى والمَثَانة؛ والعنبُ المقطوفُ في الوقت يحرِّك البطنَ وينفخ؛ وكلُّ عنبٍ فإنّه مضِرٌّ للمثانة، والله أعلم.

وأمّا ما وُصفتْ به الكُرومُ والأعنابُ نظمًا ونثرًا ـ فمن ذلك ما قاله مؤيِّدُ الدِّين الطُّغْرائيّ[2]: [من السريع]

وكَـرْمـةٍ أعـراقُـهـا فـي الـثَّـرَى   بـعـيـدةِ الـمَـنْـزع والـمَـضْـرِبِ

---

(١) عجمها: نواها وبزرها.

(٢) هو مؤيّد الدين الطغرائي، الشاعر والوزير والكاتب، ولد بأصبهان، ولي الوزارة للسلطان مسعود السلجوقي. مات قتلًا سنة ١١٢٠ م. اشتهر بلامية العجم ومطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحلية الرأي زانتني من العطل

كـريـمـةٍ تـلـتـفّ أغـصـانُـهـا الـ غَـضّـةُ[١] بـالأقـربِ فـالأقـربِ
تَمتاحُ[٢] مِن قَعرِ الثَّرَى رِيَّها[٣] أشطانُها[٤] عَفوًا ولم تُجْذَبِ
ألقَحها الرّيح وصَوْبُ الحَيا[٥] والشمسُ في المشرقِ والمغربِ
فأعقَبتْ حائلُها[٦] بعد ما عاشت زمانًا وهي لم تُعقِبِ
ووضعتْها نُخبا تَنْتَمِي إلى أبٍ أَكْرِمْ به من أبِ
وألحفتْها خضرًا أوراقها مغذوّةً بالحَلَبِ[٧] الأعذَبِ
وأسلمتْها الشمسُ من صِبغةِ التـ ـلويح للأغربِ فالأغربِ
فمَهَرتْ فيها وجاءت بما يَبهَر من مستحسَن معجِبِ
وبَدّلتْ خضرَ عناقيدِها بالأدهم اليَحْمومِ والأشهَبِ[٨]
واستَسلَفتْ ماءً وجاءت به مُدامةً[٩] كالقَبَس المُلهَبِ
ولم تَزَل بالرِّفق حتّى اكتَسَى لُجَيْنُها[١٠] من صِبغِها المُذْهَبِ
فالأشقرُ المَنْتُوجُ من نسلِها سَليلُ ذاك الأشهبِ المُنْجِبِ[١١]
تَرَى الثُّريّا[١٢] من عناقيدِها تلوح في أخضرَ كالغَيهَبِ[١٣]
ألقابُها شتّى وألوانُها متّفقاتُ النَّجرِ[١٤] والمَنْصِبِ
كم دُرّةٍ فيها وكم جَزْعةٍ[١٥] صحيحةِ التّدويرِ لم تُثقَبِ
كأنّما الحالِكُ منها لدى أبيضِها اللامعِ كالكوكبِ
جِيلان من زَنْجٍ ورُوَمٍ[١٦] غدت في جُنَنٍ خضرٍ لها تَختَبِي

(١) الغضّة: الطرية.
(٢) تمتاح: تمتصّ وتأخذ الماء.
(٣) ريّها: شربها وشبعها.
(٤) أشطانها: حبالها، كناية عن جذورها.
(٥) صوب الحيا: المطر المتساقط.
(٦) حائلها: من يميل، ولم يلقح أو يحمل بعد.
(٧) الحلب: الحليب، أي عصير مادّتها.
(٨) الحجوم والأشهب: الأسود والأبيض.
(٩) مدامة: خمرة.
(١٠) لجينها: فضّتها.
(١١) المنجب: الذي ينتج وينجب أولادًا.
(١٢) الثريا: مجموعة أنجم صغار في السماء، تبدو كالثريّا.
(١٣) الغيهب: الظلام.
(١٤) النجر: اللون، والأصل.
(١٥) الجزعة: الخرزة.
(١٦) إشارة إلى لونيها الأسود والأبيض أو الأشقر.

كأنّما تحمِل حَبّاتِها أكارعُ النُّغْرانِ[١] بالمِخْلَبِ
أُطْيِبْ بها حِلّاً ومحظورةً[٢] في كَرْمِهَا أو كأسِها أُطْيِبِ

وقال آخر: [من مجزوء الرّجز]

رُحْنا إلى حديقةٍ بكلّ حُسنٍ مُحْدِقَهْ
كأنّما عُنقودُها زِنْجٌ جَنَوا في سَرِقَهْ
فأصبحتْ رؤوسُهم على الذُّرا مُعلَّقَهْ

وقال ابنُ المعتزّ: [من البسيط]

ظلّت عناقيدُها يَخرُجن من ورقٍ كما احْتَبَى[٣] الزّنْجُ في خُضرٍ من الأُزُرِ

وقال النّاجِم: [من المنسرح]

مُعرَّشٌ[٤] للكُروم منتشِرٌ أوراقُه الخُضْرُ دونَ مَرآهَا
فكلُّ كَرْمٍ هو السماءُ دُجًى وكلُّ عُنقودِه ثُريّاها

وقال الرّفّاه[٥]: [من الكامل]

يَحْمِلن أوعيةَ المُدام كأنّما يحملنها بأكارعِ النُّغْرانِ

وقال الصّاحبُ بنُ عَبّاد[٦]: [من الرجز]

وحَبّةٍ من عنبٍ قطفتُها تحسُدها العقودُ في التّرائِبْ[٧]
كأنّها من بعد تمييز لها لؤلؤةٌ قد ثُقِبتْ من جانبِ

وقال ابنُ المعتزّ: [من مجزوء الرّجز]

وحَبّةٍ من عنبٍ من المُنَى مُتّخَذَهْ
كأنّها لُؤلؤةٌ في بطنِها زمرّده

---

(١) النغران: ضرب من الطيور. (٢) محظورة: ممنوعة.
(٣) احتبى: قعد الحبوة، أو لبس الثوب واحتبى به في قعدته.
(٤) معرّش: مكان العريش، وهو شجر الكرمة.
(٥) هو السريّ الرفّاه، الشاعر العباسي، سبق التعريف به.
(٦) الصاحب بن عباد: أديب وشاعر ووزير، سبق التعريف به.
(٧) الترائب: جمع تريبة، وهي الضّلع في الصدر.

وقال البادَنيّ: [من مجزوء الرّمل]

وعـنـاقـيـدِ تـراهـا إذ تَـمـايَـلن مَـمـيـلا
رُكّـبـتْ فـيـهـا لآلٍ[١] لـم تُـثـقَّـبْ فـتـزولا

وقال عبدُ المحسن الصوريّ[٢] يصف عنبًا أُهْدِيَ إليه وهو مغطًّى بورقه: [من الخفيف]

جـاءنـا مـنـكَ تُـحـفـةٌ أنـا مـنـهـا أبـدًا فـي تَـضـاعُـفِ الـسَّـرّاءِ[٣]
عـنـبٌ أسـودٌ كـأنّ عـلـيـه حُـللًا مـن حَـنـادِسِ الـظَّـلْـمـاءِ[٤]
خِـلْتُه فـي خِـلال أوراقِـه الـخُـضـ ـرِ ولـونِ اسـودادِه والـصّـفـاءِ
كـقُـمـوعٍ عـلى أنـامـلِ خَـوْدٍ[٥] لـحُـنَ مـن كُـمّ لاذةٍ[٦] خـضـراءِ

وقال ابنُ الرُّوميّ يصف العنبَ الرَّازقيّ: [من الوافر]

كـأنّ الـرازقـيَّ وقـد تَـبـاهـى وتـاهـت بـالـعـنـاقـيـد الـكُـرومُ
قَـواريـرٌ[٧] بـمـاء الـوَردِ مـلآى تَـشِـفّ ولـؤلـؤٌ فـيـهـا يـعـومُ
وتَـحسبُه من الـعـسل الـمـصفّى إذا اختَـلفتْ عليك بـه الـطُّـعـومُ
فـكـلُّ مـجـمَّـع مـنـه ثُـريّـا وكـلُّ مـفـرَّقٍ مـنـه نـجـومُ

وقال فيه أيضًا: [من الرجز]

ورازقـيٌّ مُـخْـطَـفِ الـخـصـورِ[٨] كـأنّـه مَـخـازنُ الـبَـلُّـورِ
قد ضُمِّنتْ مِسْكًا إلى الشُّطورِ وفي الأعالي ماء وَردٍ جُوريّ[٩]
لـم يُبْقِ مـنـه وَهْـجُ الـحَـرورِ[١٠] إلّا ضـيـاءً فـي ظـروفِ نُـورِ
لـه مَـذاقُ الـعـسلِ الـمَـشُـورِ[١١] ورِقّـةُ الـمـاء عـلى الـصّـدورِ

---

(١) لآل: أي لآلىء، جمع لؤلؤة.
(٢) عبد المحسن الصوري، شاعر من صور، حسن الإشارة، لطيف العبارة، اشتهر بوصفه الطبيعة والرياض. له ديوان شعر مطبوع.
(٣) السرّاء: السرور، بخلاف الضّرّاء.
(٤) حنادس الظلماء: الظلمات الشديدة الحالكة.
(٥) الخود: الفتاة الشابة المتثنّية.
(٦) اللاذة: ضرب من الثياب الحريرية.
(٧) قوارير: أوعية من الزجاج وغيره تعبأ بالسائل، جمع قارورة.
(٨) مخطط الخصور: ضامرها.
(٩) جوري: منسوب إلى بلد جور قرب شيراز، وفيها السور المعروف باسمها من أجمل الورود.
(١٠) الحرور: القيظ والحرّ.
(١١) المشور: المستخرج من أقراص شمعه.

ونَفحةُ المِسْكِ مع الكافورِ لو أنّه يَبْقى على الدّهورِ
قَرّطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ بلا فَريدٍ[١] وبلا شُذورِ[٢]

وقال أبو الوليد بنُ زيدون[٣] وقد أهداه: [من الخفيف]

قد بعثناه ينفع الأعضاءَ حين يجلو بلطفه السُّخْناءَ
جاء يُزهَى بمستشَفٍّ رقيقٍ خَدَعَ العينَ رِقّةً وصفاءَ
تَنفُذ العينُ منه في ظَرفِ نُورٍ ملأتْه أيدي الشُّموسِ ضياءَ
أكتسبتْه الأيّامُ بَرْدَ هواءٍ فهو جسمٌ قد صيغَ نارًا وماءَ
مَنظَرٌ يُبْهِجُ القلوبَ وطَعْمٌ يُسكِر النفسَ شَهدُه استمراء
فَضَلَ السابقَ المقدَّمَ في السِّنْـ ـخِ[٤] فأزرَى[٥] بطَعْمِه إزراءَ
غيرَ أنّي بعثتُ هذا غِذاءً يشتهيه الفتى وذاك دواءَ
مُلْطِفٌ يَبرُد المِزاجَ إذا جا شَ بحَرٍّ ويَقمَع الصفراءَ
ومُعينُ لواصلِ الصّومِ يَسْري بَرْدُه في الحشا ويُرْوِي الظَّماءَ
فاْقبَلِ النَّزْرَ[٦] شافعًا لأياد يكَ التي بعضُها يفوت الثّناءَ

وقال أبو طالب المأمونيّ الزّبيبَ الطّائفيّ: [من المنسرح]

وطائفيٌّ من الزَّبيب به يَنْتَقِلُ[٧] الشَّرْب[٨] حين ينتقِلُ
كأنّه في الإناءِ أوعيةٌ من النَّواجيد[٩] ملؤها عسلُ

وأمّا التّين وما قيل فيه ـ فقال ابنُ وحشيّةَ في توليده: وإن خلطتم من اليَبْرُوح الرَّطب أصلًا وفرعًا، ومِثلَ وزنِه من العسل والشَّمَع، وزرعتموه في الأرض كما تزرعون سائر الأشياء، وصببتم عليه وقت زرعِه من الماء ما تعلمون أنه قد وصل إليه، ثمّ تركتموه ولم تزيدوه، خرج من ذلك التينُ الأصفرُ الشديدُ الحلاوة؛ وإن خَلطتم باليَبْرُوح أربعَ ثُوماتٍ وبصلةٍ، وسَحقتم الجميع، وزرعتموه خرج عن ذلك

---

(١) الفريد: النفيس من اللآلىء. (٢) الشذور: حبّات الذهب والقطع منه.
(٣) ابن زيدون: هو أبو الوليد أحمد، الشاعر والوزير الأندلسي، ولد في قرطبة، أشهر شعره قاله في ولّادة بنت المستكفي. مات في إشبيلية سنة ١٠٧٠ م.
(٤) السنخ: النوع والأصل. (٥) أزرى: عاب.
(٦) النزر: القليل.
(٧) ينتقل: يأكلون النقل، وهو كل شيء يؤكل على مائدة الشراب مع الخمرة.
(٨) الشرب: جماعة الشاربين. (٩) النواجيد: جمع ناجود، وهو وعاء الخمرة.

التّينُ الأسودُ المتوسّطُ بين السواد الشديدِ، والأحمر، وهو الذّي يُنْفِط الفم. وأخبَرَني من يُرجَع إلى قولِهِ ويُوثَق بنقلِهِ من حكّام المسلمين أنّ بثغر[1] الإسكَندريّة صِنفًا من التّين أسودَ يسمَّى الغُرابيّ، إذا نَضَج يُكْتَبُ بالبياض فربّما وُجِد في بعضِه مكتوبًا اسمُ الله تعالى؛ وأخبَرَني أيضًا أنه رأى ذلك كثيرًا؛ وأخبَرَني أنه أُخْبِر من ثقاتٍ أنّه فيه ما يُوجد مكتوبًا عليه: (لا إلـه إلّا الله محمّد رسول الله)؛ وسألتُه: هل يُتحيَّل على ذلك بشيء؟ فقال: لا، وأنّه خلقةٌ من الله تعالى؛ فسبحان القادِرِ على كلّ شيء.

وأمّا المختار من التّين وما قيل في طبعه وخواصّه ـ فقد قال الشيخُ الرئيس: أجوَدُ التّين الأبيضُ ثمّ الأحمرُ ثم الأسود؛ والشديدُ النُّضج منه خيرُه، وقريبٌ من ألّا يضرّ، واليابسُ محمودٌ في أفعاله، إلّا أن الدَّمَ المتولِّدَ منه غيرُ جيّدٍ إلّا أن يكونَ مع الجَوْزِ فيَجُودَ كَيْمُوسُه، وبعد الجَوْزِ اللّوز، وأخفُّ الجميعِ الأبيض. وطبعُه: الرَّطْبُ منه حارٌّ قليلًا، ورَطْبُه كثيرِ المائيّة، قليلُ الدّوائيّة، والفِجُّ منه جَلّاءٌ إلى البَرْدِ ما هو إلّا لبَنه؛ واليابسُ منه حارٌّ في الأُولى في آخِرها لطيف. قال: واليابسُ منه قويُّ الجِلاء، مُنضِجٌ محلِّل، واللَّحِيمُ أكثرُ إنضاجًا، وفيه تغريةٌ وتقطيعٌ وتلطيف. قال: والتّينُ أَغْذَى من سائر الفواكه؛ وعُصارةُ ورقِه قويّةُ التسخين والجِلاء؛ وفيه تليينٌ نافعٌ يدفع العُفونات إلى الجِلد. قال: وفي تَناوُلِه تسكينٌ للحرارة، ولبنُه يُجمد الذوائبَ من الدّماء والألبان، ويُذِيبُ الجامد؛ والرَّطْبُ منه سريعُ الغَوْرِ والنّفوذ في المعدةِ وفي البدن. قال: وشرابُ التّين لطيفٌ رديءُ الخِلْط. قال: ولقُضْبان التّين من اللّطافة ما يهرّيء اللّحمَ إذا طُبِخَ بها؛ وفي الجُمّيز قوّةٌ جاذبةٌ من عُمق البدن وتحليلٌ لما جُذب. قال: والفِجُّ منه يُطْلَى به، ويُضْمَد به على الخِيلانِ[2] والثّآليل وأصنافِها والبَهَق[3]، وكذلك ورقُه؛ وتَناوُلُه يُصْلِح اللّونَ الفاسد، ويُنْضِج الدّماميل. قال: ولبنُ الجُمّيز وعُصارةُ ورقِه يقلعان آثارَ الوَشْم[4] وبقَيْرُوطي على شُقاق البَرْد. قال: وتُضْمَد به الأورامُ الصُّلبة، وبالجُمّيز مطبوخًا مع دقيق الشّعير؛ والفِجُّ منه على البَهَق، ويُنْضِج الدَّماميل، ويَجْذِب رَطْبُه الحَصَفَ[5]، وطبيخُه ينفع لأورام الحَلْق وأورامِ أصولِ

---

(١) الثغر: المدينة أو الموقع المهم الواقع على البحر، أو في أقصى تخوم الدولة.
(٢) الخيلان: البثور السود، في البشرة.
(٣) البهق: البياض في البشرة مخالفًا سائر لونها، وهو من الأمراض الجلدية.
(٤) الوشم: آثار في الوجه يحدثها غرز الإبر بالإثمد.
(٥) الحصف: بقع في الجلد.

الأذنين غَرْغَرةً كذلك مع قُشور الرّمّان، وللدّاحِس مع الفانيذ(١)، ويضرّ اليابسُ أورامَ الكبدِ والطِّحالِ بحلاوته؛ وأمّا إذا كان الورمُ صُلْبًا لم يضرّ ولم ينفع، إلّا أن يُخْلَط بالمُلطِّفاتِ المحلِّلات فينفع جدًّا؛ والجُمّيزُ شديدُ التحليلِ للأورام العَسِرة. قال: وطبيخُ التّين برَغْوة الخردلِ يُطْلَى به على الحِكّة: وورقُه ينفع من القُوباء؛ وإن استُعْمِل مع قشور الرّمّان أبرأ الدّاحس، ومع القَلْقَنْدِ لقُروح الساقَيْن الخبيثة؛ ولبنُ الجُمّيز مُلزِقٌ للجراحات. قال: ورَطْبُ التّينِ ويابسُه ينفع الصَّرْع، ويُقطَر طبيخُه مع رَغْوة الخَرْدَلِ في الأُذن التي بها طنين؛ وينفع لبنُه أو عُصارةُ قُضبانِه قبل أن تُورِق إذا جُعِل في السّنّ المتآكلة؛ وينفع استعمالُه على أورام ما تحت الأُذن ضِمادًا؛ والفِجُّ منه يبرىء قُروحَ الرأس ذَرُورًا؛ ولبنُه مع العسل ينفع الغِشاوةَ الرَّطْبةَ في العين وابتداءَ الماء وغِلَظَ الطّبقات، وتُدلَك بورقِه خُشونةُ الأجفان وجَربُها؛ والرَّطْبُ واليابسُ ينفعان من خشونةِ الحَلْق ويوافقان الصّدرَ وقصبةَ الرّئة، وشرابُ التّينِ يُدِرّ اللّبن؛ وينفع من السُّعال المزمِن وأوجاعِ الصّدر؛ وينفع من أورامِ القصبةِ والرّئة. قال: والتّين يفتّح سُدَدَ الكبد والطِّحال. وقال جالينُوس: رَطْبُه رديءٌ للمعدة، ويابسُه ليس برديء، فإن أُكِل بالمُرّيّ نقّى فُضولَ المعدة؛ وهو ممّا يقطع العطشَ الّذي يكون من بَلْغَم مالح؛ ويابسُه يَهيجُ العطش، وينفع من الاستسقاء، خصوصًا بالأَفْسَنْتِين، ورُبُّ شرابِه نافعٌ للمعدة، ويقطع شهوةَ الطعام. قال: والتّينُ سريعُ النّفوذ بِجلائه، واليابسُ يضرّ بالكبد والطِّحال الوَرِمَين بِجلائه فقط، فإن كان الورمُ صُلْبًا لم يضرّ ولم ينفع. قال: ولاستعماله على الرّيق منفعةٌ عجيبةٌ في تفتيحِه مَجاريَ الغِذاء، وخصوصًا مع الجَوْزِ واللَّوْز. قال: وجميعُ أصناف التّين غيرُ موافقٍ لسَيَلان الموادّ إلى المعدة؛ ورَطْبُه ويابسُه ينفع الكُلَى والمَثانة؛ وعُصارةُ ورقِه تُفتّح أفواهَ عُروقِ المَقعَدة(٢)؛ ورَطْبُه يليّن ويُسْهِل قليلًا، خصوصًا إذا أُكِلَ منه بلوزٍ مدقوق، وكذلك لصلابة الرَّحِم، وكذلك إن خُلِط بالنَّطْرُون والقِرْطِم وأُخِذ قبلَ الطعام؛ ويُحْتَمَل لبنُه بصُفرةِ البيضِ فينقّي الرَّحِمَ ويُدِرُّ الطَّمْث، ويُتّخذ في ضِماد الأرحامِ مع الحُلْبة، وفي حُقَن المَغْصِ مع السَّذاب؛ ويُسقَى من ماءِ رَمادِ خشبِه المكرَّرِ لمن به إسهالٌ ودُوسِنْطاريا(٣) أوقيّةٌ ونصف. قال: ولبنُه ينفع من لَسعة

(١) الفانيذ: ضرب من الحلواء يدخل فيها العسل.
(٢) المقعدة: المؤخرة والعجيزة.
(٣) الدوسنطاريا: مرض معوي يسبّب الإسهال، يشبه الزّحار.

العقربِ مَرُوخًا(١)، وكذلك الرُّتَيْلاء(٢)؛ ويُجْعَل الفِجُّ منه أو الورقُ الطَّريُّ على عضّةِ الكلب الكَلِب فينفع؛ ويُضْمَد به مع الكِرْسِنةِ(٣) على عضّةِ ابنِ عِرْسٍ فينفع، هذا ملخَّصُ ما أورَدَه الشيخُ في أفعالِه وخواصِّه، والله أعلم بالصواب.

وأمّا ما وصفه به الشعراءُ وشبّهوه ـ فمن ذلك قولُ أُسامةَ بنِ مرشد بن منقذ: [من المنسرح]

أمَا تَرَى التّينَ في الغصون بدا ... ممزَّقَ الجِلْدِ مائلَ العُنُقِ
كأنّه رَبُّ نِعمةٍ سُلِبتْ ... أصبحَ بعد الجديدِ في خَلَقِ(٤)
أو كأخي شِرّةٍ(٥) أُغيظ وقد ... مَزَّقَ جِلبابَه من الحَنَقِ(٦)
مِثلُ نُهودِ الأبكارِ صورتُه ... لو لم يُنادَ عليه في الطُّرُقِ
قد عَقدتْه يدُ السَّموم(٧) لنا ... فالوذَجَ(٨) الدَّوحِ غيرَ محترِقِ
فالشُّهْدُ والزّعفرانُ مَعْ عَرَقِ الـ ... ـوَرْدِ وحَبُّ الخَشْخَاشِ في نَسَقِ
فقُمْ بنا نحوَه نباكرُه ... قبلَ جَفافِ النَّدى عن الورقِ
ولا تَمِلْ بي إلى سواه فلا ... أَمِيل عنه ما دمتُ ذا رَمَقِ(٩)

وقال إبراهيمُ بنُ خفاجةَ(١٠): [من المتقارب]

وسُودِ الوجوهِ كلَوْنِ الصُّدوذْ ... تَبسَّمن تحت عُبوسِ الغَبَشْ(١١)
إذا ما تَجَلّى بياضُ الضُّحى ... تَطلَّعن في وجههِ كالنَّمَشْ(١٢)
كأنّي أقطِّف منها ضُحَى ... ثُدِيَّ صغارِ بناتِ الحَبَشْ

وقال أبو الفتح كُشاجِم يصف تينًا أصفرَ وأسوَد: [من مجزوء الرّجز]

أهلًا بتينٍ جاءنا ... منضَّدًا على طَبَقْ

---

(١) المروخ: ما يمرخ به الجلد أو الجرح، ويضمّد ويدّهن.
(٢) الرتيلاء: جنس من العقارب السامّة.
(٣) الكرسنة: ضرب من الحبوب تشبه العدس، وتستعمل في علف الماشية.
(٤) الخلق: الرّثاثة والبِلى.
(٥) شرّة: سَوْرة، وطبع حادّ.
(٦) الحنق: الغيظ والغضب.
(٧) السموم: شدّة الحرّ.
(٨) الفالوذج: ضرب من الحلواء.
(٩) الرمق: بقية الروح في الجسم أو الجسد.
(١٠) ابن خفاجة، واسمه إبراهيم، شاعر أندلسي اشتهر بالرقّة والعذوبة في أشعاره، وخصوصًا شعر الطبيعة والروضيات والنوريّات. توفي سنة ١١٣٨ م.
(١١) الغبش: الظلام الخفيف.
(١٢) النمش: بثور في الوجه تشين حسنه.

يَـحْـكِـي الـصّـبـاحَ بـعـضُـه وبعضُه يَحْكِي الغَسَقْ[١]
كـسُـفْـرةٍ مـضـمـومـةٍ قـد جُـمِّـعـت بـلا حَـلَقْ

وقال أيضًا في تينٍ أصفر: [من الكامل]

قُمْ قد أتى ضوءُ الصّباح المُسْفِرِ يا صاحِ نَغتنم الحياةَ وبَكِّرِ
نُلْمِمْ بتينٍ لذَّ طَعمًا واكْتَسَى حُسنًا وقارَبَ مَنْظَرًا من مَخْبَرِ
لطُفتْ معانيه لطافةَ عاشقٍ في لونِ مشتاقٍ حليفَ تَفكُّرِ
كالثّلج بَرْدًا في صفاءِ التِّبْرِ في رِيح العَبِيرِ وفوقَ طعمِ السّكّرِ
يَحْكِي لَنا ما صُفَّ في أطباقه خِيَمًا تلوح من الحرير الأخضرِ

وقال آخَر: [من الرّجز]

مـا الـتّـيـنُ إلّا سـيّـدُ الـثّـمـارِ بـلا امـتـراءٍ[٢] وبـلا مُـمـارِي
كـأنّـه إذ لاح فـي الأشـجـارِ أطـرافُ أثـداءٍ مـن الـجـوارِي
* أو أُكَرٌ صيـغـتْ من الـنُّضارِ[٣] *

وأمّا ما وُصِف به على سبيل الذّم ـ فمنه قولُ محمد بن شرف القَيْرُوانيّ: [من السريع]

لا مـرحـبًـا بـالـتّـيـن لـمّـا أَتَـى يَسْحَب كالـلّيل عليه وِشاحْ[٤]
مـمـزَّقَ الـجِـلـبـابِ يَـحْـكِـي لـنـا هـامـةَ زِنْـجِـيٍّ عـلـيـهـا جِـراحْ

وقال آخَر: [من السريع]

لا أشتهي ما عشتُ تينًا فما أقبَحه مـذ كـنـتُ فـي عـيـنـي
لأنّـه بَـيْـنٌ ومـن ذا الّذي يـحـبّ أن يَـسـمَـع بـالـبَـيْـنِ

وأمّا التُّوتُ وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: التُّوتُ صِنفان: أحدُهما هو الفِرْصاد الحلو، وهو يَجْرِي مَجرى التّين في الإنضاج إلّا أنّه «أردأ غِذاء» وأفسَدُ دمًا، وأقَلُّ، وأردأ للمعدة؛ وله سائرُ أحوال التّين ولكنّه دونَه.

---

(١) الغسق: ظلمة أوّل الليل.
(٢) امتراء: كذب ومواربة.
(٣) النضار: الذهب.
(٤) وشاح: ثوب رقيق يتّشح به، وخصوصًا حول الخصر وعلى الكتفين.

وأمّا المُزّ الّذي عُرَف بالتُّوتِ الشّاميِّ فليكن أكثرِ كلامِنا فيه؛ وطبعُه الحلوُ حارٌّ رَطْب، والحامضُ الشاميُّ هو إلى البَرْد والرّطوبة، وفي التُّوت قبضٌ وتبريد؛ وعُصارتُه قابضة، خصوصًا إذا طُبِخَتْ في إناء نحاس؛ ويَمنع سَيلانَ الموادِّ إلى الأعضاء، وخصوصًا الفِجّ منه. قال: وإذا طُبِخَ ورقُه وورقُ الكَرْم وورقُ التّين الأسوَدِ بماء المطر سَوَّدَ الشَّعر، والحامضُ يَحْبِس أورامَ الفَمِ والحَلْق وورقُه ينفع للذّبْحَةِ والخوانق؛ والحامضُ ينفع القروحَ الخبيثةَ مجفَّفُه وعُصارتُه، ورُبُّ الحامض نافعٌ لبُثور الفم؛ والتمضمُضُ بعُصارة ورقِ الحامِض جيّدٌ للسِّنّ الوَجِعة، والتُّوتُ رديءٌ للمعدة يَفسُد فيها، وخصوصًا الفِرْصاد، وإذا لم يَفسُد الفِرْصادُ في المعدة بسرعةٍ لم يضرَّ، ويجب أن تؤكل جميعُ أصنافه قبلَ الطعام وعلى معدةٍ لا فساد فيها؛ وأمّا الشاميُّ فلا يضرّ معدةً صفراويّةً، وليس فيه من رداءة الموافَقة للمعدة ما في الفِرْصاد، وهو يشهِّي الطعامَ ويُزْلِقه، ويُخْرِجه بسرعة، والعَفِصُ المجفَّفُ المملَّحُ من التُّوت يَحبس البولَ شديدًا، وينفع من الدُّوسِنْطاريا؛ ودمعةُ التُّوت تُسهِل، وفي لِحائه[1] تنقيةٌ وإسهال، وفي الحلو سرعةُ انحدار، وفي جميع أصناف التُّوت إدرارٌ للبول، وإذا شُرِب من عُصارةِ ورقِه أوقيّةٌ ونصف نَفَع من لَسْع الرُّتَيْلاء، ولَيَّن الطبيعة.

وأمّا ما وصفه به الشّعراء ـ فمن ذلك قولُ محمدِ بنِ شرف القَيْرَوانيّ: [من السريع]

أُنظرْ إلى تُوتِ الجِنانِ الّذي ... وافَى به النّاطُورُ في جامِ[2]
يَحْكِي جراحًا دمُها سائلٌ ... لدى جُسومٍ من بني حامِ[3]

وقال بعضُ الأندلسيّين وقد أهداه: [من الطويل]

تفاءلتُ بالتُّوت التأتّي لزَورةٍ ... وذلك فألٌ ما علمتُ صَدوقُ
فأهدَيتُه غضًّا حَكَى حَدَقَ المَهَا[4] ... له مَنْظَرٌ بالحُسنِ منه يَرُوقُ
فذا سَبَجٌ[5] لمّا يُرَى بأسودادِه ... وذا لاحمرارِ اللّونِ منه عَقيقُ

(١) لحائه: قشوره. (٢) جام: وعاء.
(٣) بنو حام: وهم جنس الزنوج، ينتسبون إلى حام بن نوح.
(٤) المها: البقر الوحشي، مشهور بجمال عيونه.
(٥) السبج: خرز أسود.

وقال ابنُ الرّوميّ: [من الطويل]

ومختضِباتٍ من نَجيعِ دمائها إذا جُنِيتْ في بُكْرةِ الغَدَواتِ
تَكاد بأن تُفْطا[١] إذا ما لمستُها فأرحمُها من سائر الثّمراتِ

وأمّا التفّاحُ وما قيل فيه ـ فقال الشيخ: أعْدَلُ التُّفّاح الشاميّ، والتَّفِهُ منه رديءٌ قليلُ المنافع، وكذلك الفِجّ، وطبعُه، العَفِصُ والقابضُ والحامضُ باردٌ غليظ؛ والحلوْ مائيٌّ أمْيَلُ إلى الحرارة من غيرِه، وإن كان الغالبُ البَرْد، فهي مختلفة؛ وكذلك أوراقُها وأشجارُها مختلفة؛ وبالجملة فإنّ الغالبَ في جوهره رطوبةٌ فضليّةٌ باردة. قال: وفيه منعٌ للفُضول، وخصوصًا في ورقه؛ وفي التفّاح نَفْخٌ فيما ليس بحُلو؛ والحامضُ والفِجُّ مولِّدٌ للعفونات والحُمِّيات لخاميّةِ خلطهما وفَجاجتِهما، وخِلْطُ الحامض ألطفُ من خِلْطِ القابض؛ وشرابُ التفّاح عتيقُه خيرٌ من طريِّه، لتحليل البخارات الرديئة؛ وورقُه ولِحاؤه يَدمُلان، وكذلك عُصارةُ القابض منه؛ وإدمانُ أكلِ التُّفّاح يُحدِث وجعَ العَصَب؛ والتفّاح يقوّي القلب، خصوصًا العَطِرَ الشّاميّ، والمشويُّ في العجين نافع لقِلّة الشّهوة، وينفع من الدّود ومن الدّوسِنْطاريا، وأوفَقُه للدُّوسِنْطاريا العَفِص؛ وسَوِيقُ التفّاح يقوّي المعدة، ويمنع القَيْء، والحلوُ والحامضُ إذا صادف في المعدة خِلْطًا غليظًا ربّما حَدَرَه[٢] في البِراز[٣]، وإن كانت خاليةً حَبَس، والتُّفّاح نافعٌ من السُّموم، وكذلك عُصارةُ ورقِه.

وأمّا ما وصفه به الشّعراء ـ فمن ذلك قولُ ابن المعتزّ: [من الطويل]

وتُفّاحةٍ حمراءَ خضراءَ غَضّةٍ[٤] مضمَّخةٍ بالطِّيب من كلِّ جانبِ
تَكامَلَ فيها الحُسنُ حتّى كأنّها تَورُّدُ خدٍّ فوق خُضرةِ شاربِ

وقال العسكريّ: [من الطويل]

وتُفّاحةٍ صفراءَ حمراءَ غَضّةٍ كخدٍّ مُحبٍّ فوقَ خدِّ حبيبِ
أُحيّا بها طَوْرًا وأشرَبُ مِثلَها من الرّاحِ[٥] من كفَّيْ أغنَّ رَبيبِ[٦]

(١) تفطا: تشق وتتخرق. (٢) حدره: أسقطه وأخرجه.
(٣) البراز: الخرء وما يخرج من جسم الإنسان، من الفضلات.
(٤) غضّة: طريّة. (٥) الراح: الخمرة.
(٦) ربيب: ناعم، والربيب في الأصل: ابن المرأة من رجل غير الأب.

وقال الرَّقِّيّ: [من مجزوء المتقارب]

وتُـفّـاحـةٍ غَـضّـةٍ عـقـيـقـيّـةِ الـجـوهـرِ
تَـنَـدّت بـمـاء الـرَّبِـيـ ـعِ في روضِـهـا الأخـضرِ
فـجـاءت كـمِـثـلِ الـعَـرو سِ في لاذهـا[1] الأحـمـرِ
ذَكـرتُ بـهـا الـجُـلَّـنا رَ[2] فـي خـدّك الأزهـرِ
فِـمـلتُ سـرورًا بـهـا إلـى الـقَـدَح الأكـبـرِ
وأنـت لـنـا حـاضـرٌ وإن كـنـتَ لـم تَـحْـضُـرِ

وقال آخَر: [من الرّجز]

تُـفّـاحـةٌ تُـذكِـر صـفـوَ الـوُدِّ وتَبعث النفسَ لحفظِ العهدِ
كـأنـهـا مـقـطـوفـةٌ مـن خـدِّ نـسيـمُـهـا يَـحْكِي نـسيـمَ الـوَرْدِ

وقال أبو بكر بنُ دريد[3]: [من الطويل]

وتُفّاحةٍ من سَوْسَنٍ صِيغَ نصفُها ومن جُلنّارٍ نصفُها وشقائقِ
كأنّ النّوى[4] قد ضَمّ من بعد فُرقةٍ بها خدَّ معشوقٍ إلى خدِّ عاشقِ

وقال أبو الوليد بنُ زَيْدونَ وقد أَهْدَى تُفّاحًا: [من المتقارب]

أتـتـك بـلَوْنِ الـحبيـبِ الـخَـجِـلْ تُـخالِط لـونَ الـمُـحِـبّ الـوَجِـلْ[5]
ثِـمـارٌ تَـضـمَّـنَ إدراكَـهـا هـواءٌ أحـاطَ بـهـا مـعـتـدِلْ
تـأتّـى لـتـدريـج تـلـطـيـفِـهـا فـمِـن حرِّ شـمـسٍ إلـى بَـرْدِ ظِـلْ
إلـى أن تـنـاهـتْ شـفـاءَ الـعَـلـيلْ وأنـسَ الـخـلـيـلِ ولـهـوَ الـغَـزِلْ
فـلو يَـجـمُـد الـراحُ[6] لـم يَـعـدُهـا وإن هـي ذابـت فـراحٌ يَـحِـلْ
قَـبـولُكَـهـا نـعـمـةٌ غَـضّـةٌ وفـضـلٌ بـمـا جـئـتَـه مـتّـصـلْ

---

(١) اللاذ: ضرب من الثياب الحمر الحريرية.
(٢) الجلنار: زهر الرّمّان، وهو ضرب من الأزاهير يعرف بهذا الاسم أيضًا.
(٣) ابن دريد: وكنيته أبو بكر، شاعر ولغوي بغدادي، له «الجمهرة» في اللغة، وأشهر قصائده «المقصورة». مات سنة ٩٣٣ م.
(٤) النوى: البعد والبَيْن.
(٥) الوَجِل: الخائف.
(٦) الراح: الخمرة.

وقال أبو نُواس ـ ومنه أَخَذ ابنُ زَيْدون ـ: [من السريع]

الـخـمـرُ تُـفّـاحٌ جـرى ذائـبًـا ... كـذلـك الـتُّـفّـاحُ خـمـرٌ جُـمَـدْ
فـاشـربْ عـلى جـامـدِهـا ذَوْبَـهـا ... ولا تَــدَعْ لــذّةَ يــومٍ لِغَــدْ

وقال ابنُ المعتزّ: [من مجزوء الرّجز]

تُـفّـاحـةٌ مـعـضـوضـة ... كـانـت رسـولَ الـقُـبَـلِ
كـأنّ فـيـهـا وجـنـةً ... تـنـقّـبـتْ[1] بـالـخـجَـلِ
تـنـاولـتْ كـفّـي بـهـا ... نـاحـيـةً مـن أمَـلِي
لـسـتُ أرجّـي غـيـرَ ذا ... يـا لـيـت هـذا دام لـي

وقال آخَر: [من السريع]

فَـدَّيـتُ مـن حـيًّـا بـتُـفّـاحـةٍ ... في خِلَع التّوريدِ من وجنتِهْ
نـسـيـمُـهـا يُـخـبِـرني أنّـهـا ... تَـسترِق الأنـفـاسَ مـن رِيـقـتِـهْ
لمّا حكتْ نوعين من حسنِه ... قَبّلتُها شوقًا إلى نَكْهتِهْ[2]

وقال الصَّنَوْبَريّ: [من الخفيف]

فـتَـنـاولـتُ مـنـه صـادقـةَ الـرِّيـ ... ـحِ تُـسـمَّـى صـديـقـةَ الأرواحِ
وَشَّحتْها[3] يداه من خالص التِّبْـ ... ـرِ بسطرٍ يَجُول جَوْلَ الوِشاحِ
كُـسِـيـتْ صِـبـغـةَ الـمـلَاحَـةِ لـمّـا ... صُبِغَتْ صِبغةَ الخدودِ الملاحِ

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

تُـخـالُ تُـفّـاحـتُـهـا ... فـي لَوْنِـهـا وقَـدِّهـا
تَـنـاولـتـهـا كـفُّـهـا ... مـن صَـدرِهـا وخـدِّهـا

وقال ابنُ رَشيق: [من الطويل]

وتُفّاحةٍ من كفِّ ظبيٍ أخذتُها ... جَناها من الغصنِ الّذي مِثلُ قَدِّهِ
حَكتْ لَمْسَ نَهْدَيه وطِيبَ نسيمِه ... وطَعْمَ ثنـاياه وحُمرةَ خَدِّهِ

---

(١) تنقبت: لبست نقابًا، وهو الغطاء للوجه، والبرقع.
(٢) النكهة: الرائحة.
(٣) وشّحتها: زينتها ودبّجتها، كزينة الوشاح ووشيه.

وقال ابنُ عَبّاد(١): [من الطويل]

ولمّا بدا التُّفّاحُ أحمرَ مُشرِقًا ... دعوتُ بكأسي وهي مَلأَى من الشَّفَقْ
وقلتُ لساقينا أدِرْها فإنّها ... خدودُ عَذارَى قد جُمِعْنَ على طَبَقْ

وقال محمّدُ بنُ سعيد: [من البسيط]

بديعةُ اللّونِ مِن نُور السُّرور بها ... في كلّ حُسنٍ وطِيبٍ يُضرَب المَثَلُ
جاءتكَ في حُلّةٍ بيضاءَ مُشرِقةٍ ... في حُمرةٍ كاتّقادِ النار تَشتَعِلُ
أو قهوةٍ(٢) مُزِجَتْ أو نصفِ لؤلؤةٍ ... بنصفِ ياقوتةٍ حمراءَ تتّصلُ

وقال آخَر: [من الرّمل]

قال جالِينُوسُ في حِكْمَتِهِ ... لك في التُّفّاح فكرٌ وعَجَبْ
هو رَوْحُ النّفس، مِن جوهرِها ... وبها شوقٌ إليه وطَرَبْ
ومزاج القلبِ يَنفِي همَّه ... ويُجَلِّي الحزنَ عنه والكُرَبْ(٣)

وقال ابنُ الروميّ ـ وهو ممّا يُكتَب على تُفّاحة ـ: [من المنسرح]

أرسَلَني عاشقٌ بحاجتِهِ ... فجئتُ بين الرّجاء والوَجَلِ
لا تُخجِلنّي بالردّ حسبُك ما ... تَرَى بخدّي من حُمرةِ الخجَلِ

وقال أبو الفتح البُسْتيّ(٤): [من الطويل]

فتًى جَمَعَ العَلياءَ علمًا وعِفّةً ... وبأسًا وجُودًا لا يُفيق فُواقا
كما جَمَعَ التّفّاحُ حُسنًا ونَضْرةً ... ورائحةً محبوبةً ومَذاقا

وقال آخَر: [من المنسرح]

أكلتُ تُفّاحةً فعاتبني ... خِلٌّ(٥) رآها كخدِّ معشوقِهْ
وقال خدُّ الحبيب تأكلُه ... فقلتُ لا، بل أمُصُّ من ريقِهْ

---

(١) هو الصاحب بن عباد، سبق التعريف به. (٢) القهوة: الخمرة.
(٣) الكرب: الهموم والأحزان، جمع كرب.
(٤) هو أبو الفتح عليّ البستي، نسبة إلى بست، مدينة أفغانية، أديب وشاعر. أشهر شعره قصيدته النونية المعروفة باسم «الحكم». مات سنة ١٠١٠ م.
(٥) الخلّ: الصديق والصاحب.

وقال آخَر: [من السريع]

لا آكـلُ الـتُّـفّـاحَ دهـري ولـو جنتْه كفِّي من جِنان الخُلُودْ
تـالله لا أتـركـه عـن قِـلَى[١] لـكـنّـنـي أتـركـه لـلخُـدودْ

وأمّا السّفرجَلُ وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس: السَّفَرْجَلُ إذا غُسِل برَماد أغصانِه وورقِه كان كالتُّوتِياء، والمشويُّ منه أخفُّ وأنفع؛ وصورةُ شَيِّه أن يقوَّرَ[٢] ويُخْرَجَ حَبُّه ويُجْعَلَ فيه العسل، ويُطيَّن خُرْمُه[٣]، ويودَعَ الرّماد؛ قال: وطبعُ السَّفَرْجَلِ باردٌ في آخِر الأُولى، يابسٌ في أوّل الثانية؛ وهو قابض مقوٍّ، وزهرُه قابض، وكذلك دُهنُه، والحلوُ أقلُّ قبضًا، وحَبُّه مليِّنٌ بلا قبض؛ وهو يمنع سَيَلَانَ الفُضول إلى الأحشاء، ويَحْبِس العَرَق؛ ودُهنُه ينفع من شُقاق البَرْد، ومن النَّمْلة والقُروحِ الجَرِبة. قال: وكثرة أكله تولّد وجع العَصَب، ومشويُّه يوضع على أورام العين الحارّة؛ وعُصارتُه نافعة من انتصاب النَفَس والرَّبْو، وتَمْنَع نَفْثَ الدّم؛ وحَبُّه ينفع من خشونة الحَلْق، ويليِّن قصبة الرّئة؛ ولُعابُه أيضًا يُرْطِب يُبس القصبة، والسفرجل ينفع من القَيْء والخُمار[٤]؛ ويسكِّن العطش، ويقوّي المعدة القابلة للفُضول شرابُه ونقيعُه ومطبوخُه، وشرابُه مقوٍّ للشهوة الساقطة جدًّا، ونِيئُه يقوّي المعدة، ويمنع القَيْء البَلْغميّ؛ والسفرجل مُدِرّ، والمطبوخ بالعسل أشدّ إدرارًا، وربّما أطلَق ولم يَعْقِلْ؛ ويولّد القُولَنْج والمَغْس[٥]، وينفع من الدّوسِنْطاريا؛ ويَحْبِس نَزْف الطَّمْث، وينفع من حُرْقة البول إذا قُطِرتْ عُصارتُه ودُهنُه في الإحليل[٦]؛ ودُهنُه ينفع الكُلَى والمَثانة؛ وإذا أُكِلَ من السفرجل على الطّعام أطلَق، حتّى إنّه إذا استُكْثر منه أخرج الطعام قبل الانهضام، ويُحقن بطبيخه لنُتوء المقعدة والرَّحم؛ هذا ما قاله الشيخ في السفرجل.

وأما ما وُصف به نظمًا ونثرًا ـ فمن ذلك ما قاله السّريُّ الرَّفّاء: [من الكامل]

لك في السفرجل مَنْظَرٌ تَحْظَى به وتـفـوزُ مـنـه بـشَـمِّـه ومَـذاقِـه
هو كالحبيب سَعِدتَ منه بحسنِه مـتـأمِّـلًا وبـلَثْـمِـه وعِـنـاقـه

---

(١) القلى: البغض والكراهية. (٢) يقوّر: يجوّف.
(٣) خرمه: ثقبه وفتحته.
(٤) الخمار: الأثر الذي تتركه الخمرة في الرأس.
(٥) المغس: اضطراب الأمعاء بألم.
(٦) الإحليل: القضيب، والعضو المذكّر للرجل.

يَحْكِي لك الذّهبَ المصفّى لونُه ... وتـزيـدُ بـهـجـتُـه عـلى إشـراقـه
فالشَّكْلُ من أعلاه يَحْكِي شكلَه ... ثَدْيَ الكَعابِ[1] إلى مَدار نِطاقه
والشَّكْلُ من سُفْلاه يَحْكِي سُرّةً ... من شادنٍ[2] يُزْهَى على عشّاقه

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

سَـفَـرْجَـلاتٌ خَـرْطُـهـا ... مِـثـلُ الـثُّـدِيِّ الـنُّـهّـدِ[3]
زُهْــرٌ حـكـت بـلونِـهـا ... صِـبـغـة مـاء الـعَـسـجـدِ

وقال أبو محمّد الدّاوديّ: [من المتقارب]

غـصـون الـسـفـرجـل مـلـتـفّـةٌ ... فـمـعـتـدلُ الـقَـدِّ أو مـنـثـنِـي
وقــد لاحَ فــي زِئـبِـرٍ شــامــل ... كـصـفـراءَ فـي مِـعْـجَـرٍ أدكَـن[4]

وقال مؤيّد الدّين الطُّغرائيّ: [من الكامل]

وسفرجلٍ عُنِيَ المَصيف بحفظه ... فكساه قبل البَرْد خَزًّا[5] أغبرا
صَوْغٌ من الذّهب المصفّى، نَشرُه ... مِسكٌ إذا حَضَر النَّديَّ تَعطَّرا
يَحْكِي نهود الغانيات وتحتَها ... سُررٌ لهنّ حُشِين مِسكًا أذفَرا
يُزْهَى بمَلْمَسِه وطِيبِ مَذاقِه ... ومَشَمِّه ويَروقُ عينَك مَنْظَرا

وقال شاعرٌ أندلسيّ: [من المتقارب]

سـفـرجـلةٌ جَـمَـعـتْ أربَـعًـا ... نَظَمن لها كلَّ معنًى عجيبِ
صفاءَ النُّضار[6] وطَعْمَ العُقار[7] ... ولَوْنَ المُحبِّ وريحَ الحبيبِ

وقال آخَر: [من الطويل]

ومصفرّةٍ تَختال في ثوبِ سندسٍ[8] ... وتَعْبَق عن مِسْكٍ ذَكيِّ التنفّسِ
لها رِيحُ محبوب وقسوة قلبِه ... ولونُ مُحِبٍّ حُلّةَ السُّقْم قد كُسِي

(١) الكاعب والكعاب من النساء: من كعب ثدياها وظهرا أو نهدا.
(٢) الشادن: صفة للظبي الغرير. (٣) النهّد: البارزة.
(٤) المعجر: ضرب من الثياب يلفّ على الرأس. والأدكن: الأسود والأحمر.
(٥) الخزّ: ضرب من الحرير، أو الثوب الموشّى بالحرير.
(٦) النضار: الذهب الخالص. (٧) العقار: الخمرة.
(٨) السندس: ضرب من نسيج الديباج أو الحرير، يغلب عليه الخضرة.

وقال آخَر: [من مجزوء الخفيف]

مُتْحِفي[١] بالسّفرجلِ لا أُحبّ السفرجلَا
اسمُه لو عَقلتَه سَفرٌ جَلّ واغتَلَى

وقال آخَر: [من مجزوء الكامل]

أتحفْتَنا بهديّةٍ نَقضتْ وصالَك أوّلا
أرأيتَ من يُهدِي إلى من يصطفيه سفرجلا
أو ما علمتَ بأنّه سَفرٌ وآخِره جَلا

ومن رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخِصال الأندلسيّ، جاء منها في السفرجل: وقد بَعثتُ منه ما يقوم مَقام الشاهد، وينوبُ عن ثَدْيِ النّاهد[٢]؛ فدونكها مخلّقةَ البَذْر، محلّقةَ الصَّدْر، وقد لَبست الحسن باطنًا وظاهرًا، واستوفت الطِّيبَ أوّلًا وآخِرًا؛ كأنّها من طِباعك طُبعت، أو من فضائلك أُلِّفتْ وجُمعتْ، كلّا إنّها بذكرك غُذِيَت، وعلى غاياتك حُذِيَتْ[٣].

ومنها: من كلّ ساهرة الشَّذا، نائمةٍ عن الأذى، دَوحُها لَدْن[٤]، وفَوْحُها عَدْن[٥]؛ من وسائط السلوك، وندامَى الملوك؛ لو ألفاها جَذيمةُ[٦] لاستغنَى عن مالكٍ وعَقِيل[٧]، أو ظَفِر بها بِلالٌ لَسلا عن شامةَ وطَفِيل[٨]، ولم يَعْبأ بإذْخِرٍ وجَليل[٩]، أما إنها لو حَلّت نَدِيًّا، وتَمثّلتْ بَشَرًا سويًّا، لنطقتْ بالصّواب، وأتت بالحكمة وفصل الخطاب، ونَثَرت في الطبّ دقائق، ووَضعتْ في الزهد رقائق؛ ولِمَ لا! وهي تَهْدِي للإيمان، وتدلّ على الجِنان؛ وتَحكي طُوبَى طِيبًا، وحسبُك بها أُولَى ما سَمَتْ بها النَّفْس، وواحدةً مُيِّزَ بها الجنس، وهاكَها قد تعرّضتْ لقبولِك، وانفردتْ كما انفردتُ بتأميلك، والله أعلم.

---

(١) متحفي: من أتحفني به أي جاد عليّ به.
(٢) الناهد من الفتيات: من نهد ثدياها، أي اكتملا.
(٣) حذيت: اقتفت واتّخذتك قدوة. (٤) لدن: طري مطاوع.
(٥) عدن: أي من ريح عدن، اسم إحدى الجنان في الآخرة.
(٦) هو من قواد العرب وفرسانها، كان أبرص، وحكم في شمال الجزيرة من قبل الفرس.
(٧) عقيل ومالك: كانا من ندامى جذيمة، ضرب المثل في صحبتهما.
(٨) طفيل: اسم جبل، قريب من مكة، وبجانبه جبل آخر يقال له شامة. انظر: معجم البلدان ٣/ ٣١٥ و٤/ ٣٧.
(٩) إذخر وجليل: ضربان من النباتات الصحراوية.

وأمّا الكُمَّثْرَى(١) وما قيل فيها ـ فقال الشيخ الرئيس: وفي بلادنا نوعٌ يقال له: شاه أَمْرُود كثير اللحم، شديد الاستدارة، رقيق القشرة، حَسنُ اللّون؛ كأنّه ماء سكّر معقود، طيّب الرائحة جدًّا، إذا سقط من شجرته إلى الأرض اضمحلّ؛ وهذا لا مَضرّةَ فيه من أصناف الكُمَّثرَى. وقال في طبعه: الكمثرى المعروف بالصِّينيّ بارد في الأُولى، يابس في الثانية، والشاه أَمْرُود معتدِل رَطْب؛ وقال في أفعالِه وخواصّه: جميعُ أصنافِه قابض يَدخل في ضِمادات حبس الموادّ، وقد يجلو يسيرًا؛ وأمّا المعروف بشاه أَمْرُود في بلاد خُراسان دون غيرها فهو مليِّنٌ للطّبيعة، حَسَنُ الكَيْمُوس جدًّا. قال: وهو يَدْمُل الجراحات، خصوصًا البَرّيَّ المجفَّف، وهو يَدبُغ المعدة؛ والصِّينيُّ خاصّة يقوّي المعدة، ويَقطع العَطش، ويسكِّن الصفراء. قال: وهو يَعْقِلُ البطن، خصوصًا المجفَّف منه، قال: وفي الكمثرى خاصّيّةُ إحداث القُولَنْج، فيجب أن يُشرب بعده ماءُ العسل بالأَفَاوِيه(٢).

وأمّا ما وصفه به الشّعراء ـ فمن ذلك قول ظافر الحدّاد الإسكندريّ: [من البسيط]

للهِ وافـدُ كُـمَّـثْـرَى ذَكـرتُ بـه ... مـا كـنـتُ أعـهـد فـي أيّـامـيَ الأُوَلِ
لـم أُدْنِـهِ مـن فـمـي إلّا وأحـسَـبُـه ... من الـنـهـود لـذيـذَ الـعَـضّ والـقُـبَـل
فذقتُ من طعمِه ما كاد يَبْلُغ بي ... ما ذقتُ من رَشْف محبوبٍ على عجل
أَكْـرِمْ بـزَوْرَتـه لـو أنـهـا اتـصـلـتْ ... أو أنـه كـان فـيـهـا غـيـرَ مـنـفـصـل
لو كنت أملك حُكم الأرض ما حَمَلتْ ... نـبـتًـا سـواه عـلى سـهـلٍ ولا جـبـلِ

وقال أبو الفتح كُشاجِم: [من الرجز]

أحضَرَنا النّاطُور(٣) من بستانِهِ ... في طَبـقٍ يـنـطق عـن إحـسـانِـهِ
لـونًـا مـن الـرائـع فـي أوانِـهِ ... أهـدَى لـه الـجـوهـرُ مـن ألـوانِـهِ
ما احمرّ أو ما اصفرّ من مَرجانِهِ(٤) ... مـثـل تُـرُوكِ الـجـيـش في مَـيْـدانِـهِ

(١) الكمثرى: الإجّاص.
(٢) الأفاويه: ضرب متعدّد الأجناس من الموادّ المطيّبة للطعام، كجوزة الطّيب والقرنفل، وسواهما.
(٣) الناطور: حارس الكرم والجنائن وغيرها.
(٤) المرجان: ضرب من العروق الحمر تطلع من البحر، ويتّخذ منها أحجارًا وفصوصًا.

مُذَهبةً في الهام من فُرسانِهِ شِيبَ بِرِيق الشُّهْد في أغصانِهِ
* أنْوَرُ في الناظر من إنسانِهِ[١] *

وقال آخَر - وقد أهداه -: [من الوافر]

بَعثتُ بها ولا آلوك حمدًا تحيّة ذي اصطناع واعتلاقِ
خدودَ أحبّةٍ راءَين صبّا وعُدن على ارتماضٍ[٢] واحتراقِ
فحَمّرَ بعضَها خجَلُ التلاقي وصَفّرَ بعضَها وجلُ[٣] الفراقِ

وأمّا اللُّفّاح وما قيل فيه - فاللّفّاح هو ثمر نبات يسمّى اليَبْرُوح الصَّنَميّ، وليس هو اللفّاح المعدودَ في صِنف البِطيخ الّذي يقال له الدَّسْتَنْبُو؛ ويقال: إنّها شجرة سليمان بن داود عليهما السلام، التي كان منها تحت فص خاتَمِه، ومَنْبِتُ قُضُبِها وورقِها الظاهرِ وسطُ رأسِ الصنم؛ وتكون منابتها في الجبال والكروم؛ وقال التَّميميّ: اليَبارِيحُ سبعة، وسيّدُها الصنميّ. وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا في كتاب الأدوية المفردة من القانون في اليبروح: هو أصلُ اللُّفّاح البَرّيّ، وهو أصلُ كلّ لُفّاح[٤]، «كبير» شبيهٌ بصورة الناس، فلهذا سُمّيَ باليبروح، فإنّ اليبروح اسمُ الصنم الطبيعي. قال: وطبعه بارد في الثانية يابس إليها؛ وفيه قليل حرارة على ما ظنّ بعضُهم. قال: وأمّا الأصل فقويّ مجفِّف، وقشر الأصل ضعيف، والورقُ يُستعمل مجفَّفًا ورَطْبًا فينفع الفالج. وقال في خواصّه: هو مخدِّر، وله دَمْعة وعُصارة؛ وعصارته أقوى من دَمعته، ومن أراد أن يُقْطَع له عضو سُقِيَ ثلاثةَ أوبُولُوسات[٥] في شرابٍ فَيسبُت[٦]. وقيل: إنّ الأصل منه إذا طبخ به العاجُ ستّ ساعات ليّنه وأسْلَسَ قِيادَه. قال: وإذا دُلِك بورقه البَرَش[٧] أسبوعًا ذهب من غير تقريح، وخصوصًا إن وُجد رَطْبًا، ولبنُ اللفّاح يَقْلَع النَّمَشَ والكَلَفَ بلا لذع؛ قال: ويُستعمل على الأورام الصُّلْبة والخنازير فينفع؛ وإذا دُقَّ الأصل ناعمًا وجعل بالخلّ على الحُمرة أبرأها؛ وأصله بالسَّويقِ ضِماد لأوجاع المفاصِل؛ والإكثار من شَمّ اللفّاح يورث السَّكْتة؛ وخصوصًا الأبيض الورق، وقد يُتّخذُ منه شراب يزيل

(١) إنسان العين: بؤبؤها. (٢) ارتماض: فساد.
(٣) الوجل: الفرق والفزع.
(٤) اللفاح: ضرب من النبات، ذو ألوان مختلفة ورائحة طيّبة.
(٥) أوبولوسات: ضرب من المعايير، يعيّر أو يوزن بها الدواء.
(٦) يسبت: يبعث على السبات والنوم. (٧) البرش: داء يصيب الجلد، كالبهق.

السَّهَر، وهو أن يُجعل من قشور أصله ثلاثةُ أَمْناءٍ[١] في مطر يطوّس شرابٍ حلو، ويُسقى منه ثلاثة قواثوسات[٢]، وقد تُطبخ القشورُ أيضًا في الشراب طبخًا يأخذ الشراب قواها؛ ويُستعمل للإسبات منه شيء كثير، وللإنامة أقلّ؛ وقوم من الأطباء يُجلسون صاحبه في الماء الشديد البرد حتّى يُفيق. قال: ودَمعته من أدوية العين، تسكِّن الوجع المفرط، ويُضمد بورقه أيضًا؛ وإذا احتُمِل نصف أُوبُولُوس من دَمعته أخرج الجنين، وبِزره ينقّي الرَّحم إذا شُرِب؛ وإذا احتملته المرأة قَطَعَ نَزْفَ الرَّحِم، ولبن اللفّاح يُسهِل البَلغم والمِرّة، وإذا تَناول الصبيّ الطفل اللفّاحَ بالغلط حصل له قَيْءٌ وإسهال.

وأمّا ما وصفه به الشعراء ـ فمن ذلك قول بعض الشّعراء: [من المتقارب]

أتــانــا الـمَـصـيـفُ بـلُفّـاحِـه ... فطابَ ولـو فـاتَـه لـم يـعـطِبْ
نــجــومٌ بــلا فَــلَكٍ دائــرٍ ... ولـكـنّ أوراقَـه كـالـقُـطُـبْ
روائحُـه مِـن شَـذا[٣] مِـسْـكـةٍ ... وأجـسـامُـه أُكَـرٌ مـن ذهـبْ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الكامل]

أُنظرْ إلى اللفّاح تَـنظرْ مُـعْجِبًا ... يجلو عليك مفضضًا في مُذْهَبِ
تـعلو مَفـارقَـه قَلانسُ[٤] أُخْـفِيَـتْ ... مِن تـحتهـنّ دراهـمٌ لـم تُـضْـرَبِ

وقال آخر: [من الكامل]

لِلعَيْن والـعِرْنِين[٥] في يبروحةٍ ... لـونُ الـمُـحبِّ وعَبْقةُ الـمعشوقِ
صـفـراء طـيّـبة الـنّـسيـم كـأنّـهـا ... بَـلّورةٌ مـحـشـوّةٌ بـخَـلُوقِ[٦]

وأمّا الأُتْرُجّ[٧] وما قيل فيه ـ فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ في كتاب (أسرار القمر): وإن خلطتم بأصل اليبروح وفروعِه أصلَ الجَزَرِ وورقَه أجزاءً سواء وطمرتموه في الأرض، خرج عن ذلك شجر الأترجّ؛ وإن أضفتم إليهما البِطّيخَ الفِجَّ خرجتْ عنه الشجرة الحاملة للأترجّ الكبير الطيّبِ الرائحة؛ وإن أردتم أترجًّا

(١) أمناء: جمع منّ، وهو معيار معيّن يوزن به.
(٢) قواثوسات: من أنواع المعايير يستخدمها العطّار، وصانع العقاقير.
(٣) شذا: عبير ورائحة.
(٤) قلانس: جمع قلنسوة، تلبس على الرأس.
(٥) العرنين: الأنف، أو أعلى الأنف.
(٦) الخلوق: ضرب من الطّيب.
(٧) الأترج: ضرب من الثمار يشبه الليمون.

إلى البياض شديدَ الرّيح فاخلِطوا باليبروح والجَزَر أصلًا وورقًا عِرْقَ شجرة التّين الأصفر.

وقال الشيخ الرئيسُ في طبع الأترجّ: قِشرُه حارّ في الأُولى، يابسٌ في آخر الثانية؛ ولحمُه حارٌّ في الأُولى، رَطْبٌ فيها، وقال قوم: بل هو بارد رَطب في الأُولى، وبردُه أكثر، وهو الأصح؛ وحُمّاضُه بارد يابس في الثالثة، وبِزره حارٌّ في الأُولى، مجفِّف في الثالثة.

وأمّا أفعاله وخواصّه ـ فإنّ لحمَه ينفُخ، وورقه يسكِّن النَّفْخ، وفُقّاحه ألطف، وحُمّاضه قابض كاسر للصّفراء، وبِزره وقِشره محلِّل؛ وإذا جُعِل قشره في الثياب مَنَعَ السُّوس؛ ورائحتُه تُصْلِح فساد الهواء والوَباء؛ وحُمّاضُه يجلو اللّون ويُذهب الكَلَف؛ وحُراقة قشره طِلاءً جيّدةٌ للبَرَص، وطبيخه يطيّب النَّكْهة، وهو مسمِّن؛ وقِشرُه يطيّب النَّكْهَة أيضًا إمساكًا في الفم، وحُمّاضُه نافع من القُوباء طِلاء، ودُهنه نافع من استِرخاء العَصَب والفالج. وحُمّاضه رديء للعَصَب، وإذا اكتُحِل بحُمّاضه أزال يرقانَ العين[1]، وحُمّاضه يسكِّن الخَفَقانَ الحارّ، والمُربَّى جيِّدٌ للحَلْق والرِّئة، لكن حُمّاضه رديء للصدر؛ ولُبّ الأترجّ إذا طُبِخ بالخلّ وسُقِيَ منه نصفُ أُسْكُرُجَةٍ[2] قَتَلَ العَلَقة المبلوعة وأخرجها؛ ولحمُه رديءٌ للمعدة، ينفخ، بطيءُ الهضم، لكن ورقه مقوٍّ للمعدة والأحشاء، وقشرُه إذا جُعل في الأطعمة كالأبازير[3] أعان على الهضم، ونفسُ قشره لا ينهضم لصلابته؛ وطبيخه يسكِّن القيء؛ ورُبُّه ـ وهو رُبُّ الحُمّاض ـ نافع للمعدة، قال: ويجب أن يؤكل الأترجّ مفرَدًا لا يُخلط بطعام لا قبله ولا بعده؛ ولحمه يورِث القُولَنج، وحُمّاضه يحبس البطن، ويمنع من الإسهال الصفراويّ؛ وبِزره ينفع من البواسير، وفي بزره قوّة مسهِلة؛ وعصارة حُمّاضِه تسكِّن غُلْمة النساء[4]؛ ووزن درهمين من بزره بالشراب والطِّلاء والماء الحارّ مقاوِمٌ للسُّموم كلِّها، وخصوصًا سمَّ العقرب شربًا وطِلاء؛ وقِشره قريب من ذلك؛ وعُصارةُ شره تنفع من نَهْش الأفاعي شُربًا، وقِشْرُه ضِمادًا.

---

(١) يرقان العين: اصفرارها.

(٢) الأسكرجة: إناء صغير، وقد يكون ضربًا من المكاييل يكال به.

(٣) الأبازير: ضرب من التوابل والأفاويه، يطيّب الطعام.

(٤) غلمة النساء: شهوتها إلى الرجال.

وأمّا ما وصفه به الشعراء ـ فمن ذلك قول ابن الروميّ: [من البسيط]

كلُّ الخِلال الّتي فيكم مَحاسنُكم تشابهت منكم الأخلاق والخِلَقُ
كأنّكم شجرُ الأُترُجّ طاب معًا حَمْلًا ونَوْرًا وطاب الأصل والورقُ

وقال جَحْظة[1]: [من السريع]

أُتْرجّةٌ كالمِسْكِ في طِيبِهِ والتِّبر في بهجة إشراقِهِ
كأنّها في كفّ أستاذنا مخلوقةٌ من طِيب أخلاقِهِ

وقال عليّ بن سعيد الأندلسيّ: [من المتقارب]

ومصفرّةِ اللّون لا من هوًى تُكابِد منه عَلاقاتِ هَمْ
ولكن كَساها سَمومُ الهَجير جلابيبَ تِبرٍ بتضريجِ دَمْ
وأَكْسَبَها طِيبَ نَشْرِ العَبير وريحَ الحبيب إذا ما يُشَمْ
عروسٌ تُزَفّ[2] إلى شاهها[3] على كفّ أغْيَد[4] مِثْلِ الصّنمْ

وقال عليّ بنُ رشيق في المعزّ بن بادِيس: [من البسيط]

أُترُجّةٌ سَبْطَةُ[5] الأطراف ناعمةٌ تَلقى النّفوسَ بحظٍّ غيرِ منحوسِ
كأنّها بَسطتْ كفًّا لخالِقها تدعو بطول بقاء لابن بادِيسِ

وقال آخَر: [من السريع]

كأنّما الأترجُّ في لونه وشكلِه المستظرَف المنظرِ
أبارقٌ تَسقُط عنها العُرَا مسبوكةٌ من ذهبٍ أحمرِ

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

يا حبَّذا أُترجَّةٌ تُحدث في النفس الطَّرَبْ
كأنّها كافورةٌ لها غِشاءٌ من ذهبْ

(١) جحظة: شاعر وعالم بالفلك، من شعراء العصر العباسي.
(٢) تزفّ: تنقل وتحمل إلى عريسها ليلة الزفاف، أي الزواج.
(٣) شاهها: ملكها. والشاه: الملك، بالفارسية.
(٤) الأغيد: من فيه غيد، وهو لين الأعطاف، وميل العنق.
(٥) سبطة: طويلة في لدونة.

وقال السريُّ الرَّفّاء: [من الكامل]

وقريبةٍ من كلِّ قلب إن بدت لـلمرءِ أدناها إليه وقَرَّبا
أروَى القلوب نسيمُها وتَلهّبتْ حُسنًا فأذكت في القلوب تَلهُّبا
فكأنّها ذهبٌ حوى كافورةً فغدا بريّاها[1] وراح مطيَّبا
صفراء ما عَنّتْ[2] لعينَيْ ناظرٍ إلّا توهَّمَها سنانًا مُذهَبا

وقال فيه: [من مجزوء الرجز]

يا حبّذا أُترُجّةٌ رُحْتُ بها مسرورا
إذ جاءني يحملها ظبيٌ يباهي الحُورا
شبّهتُها في كفِّه وقد كساها النُّورا
مَخْزَنةٌ من ذهب قد مُلِئَتْ كافورا

وقال الزاهي: [من البسيط]

وذاتِ جسمٍ من الكافور في ذهبٍ دارت عليه حواشيه بمقدارِ
كأنّها وهي قُدّامِي ممثّلةً في رأسِ دَوْحتها تاج من النّارِ

وقال ابنُ دُرَيْد: [من المنسرح]

جسمُ لُجَيْنٍ قميصُه ذهبٌ زُرَّ[3] على لُعبةٍ من الطِّيبِ
فيه لمن شَمَّه وأبْصَرَه لونُ مُحِبٍّ وريحُ محبوب

وقال أبو الفتح كِشاجِم: [من المنسرح]

يا حبّذا يومُنا ونحن على رؤوسنا نَعْقِد الأكاليلا
في جنّةٍ ذُلّلت لقاطفِها قُطوفُها الدّانياتُ تذليلا
كأنّ أُترُجّها تَميس[4] به أغصانُها حاملًا ومحمولا
سلاسلٌ من زبرجدٍ حَملتْ من ذهبٍ أصفر قناديلا

---

(١) ريّاها: رائحتها.
(٢) عنّت: برزت وظهرت.
(٣) زرّ: طمّ.
(٤) تميس: تتثنّى وتتمايل.

وقال أبو بكر بن القُرْطُبيّة: [من البسيط]

جسمٌ من النور في ثوبٍ من النّارِ ... كـأنّـه ذهـبٌ مـن فـوق بُـلّارِ[١]
وابـيـضّ بـاطنُـه واصـفـرّ ظاهـرُه ... كـأنّـه دِرهـمٌ مـن تـحـت ديـنـارِ

وقالت عُليّة بنتُ المهديّ متطيّرةً به: [من مخلّع البسيط]

أُتْـرُجّـةٌ قـد أتـتـك لـطـفًـا ... لا تـقـبَـلنّـهـا وإن سُـرِرتَ
لا تَـهْـوَ أُتْـرُجّـةً فـإنّـي ... رأيـت مـقـلوبَـهـا هُـجِـرتَ

وقال العبّاس بن الأحنف[٢]: [من الكامل]

أهـدى لـه أحـبـابُـه أُتْـرُجّـةً ... فبكَى وأشْفَقَ من عِيافةِ زاجرِ[٣]
خـاف الـتـلوّنَ إذ أتـتـه لأنّـهـا ... لـونـان بـاطنُـهـا خلافُ الـظـاهـرِ

وقال آخر: [من السريع]

أمـاتَ إذ حـيًّـا بـأُتْـرُجّـةٍ ... فـهـمتُ مـنـهـا كنـه[٤] تـأويـله
لـمّـا تـطـيّـرتُ بـمـنـكـوسـهـا[٥] ... ضَـمَّ بـنـانًـا لـي بـتـقـلـيـله

ومن الأُترجّ صِنف صغير مخطَّط بخضرة وصفرة، وفيه طول، يسمَّى شمّامَ الأترجّ، وفيه يقول ابنُ طَباطبا: [من البسيط]

ومُـخْـطَـفـاتٍ كـأنّ الـحُـبَّ أخـطَـفَـهـا ... هِيف الخصور[٦] ثقيلات المآخيرِ[٧]
صُـفـر الـثـيـاب كـأنّ الـدهـر ألـبـسـهـا ... بـنـاضـر الـنـبـت ألـوان الـدنـانـيـر

(١) البلّار: البلّور، والزجاج.
(٢) العباس بن الأحنف: شاعر من شعراء الغزل في العهد العباسي، كان نديمًا للرشيد. له ديوان شعر مطبوع. مات سنة ٨٠٨ م.
(٣) العيافة: زجر الطير، فتطير يمينًا وشمالًا، فيتشاءم بذلك أو يتفاءل.
(٤) كنه تأويله: سرّ تفسيره.
(٥) منكوسها: قلبها، أي قلب حروفها.
(٦) هيف الخصور: أي خصورها دقيقة.
(٧) المآخير: جمع مؤخرة، وهي المقعدة والمؤخرة.

القسم الثالث
من الفن الرابع
في الفواكه المشمومة

وفيه بابان:

الباب الأول
من هذا القسم من هذا الفنّ
فيما يُشَمّ رَطْبًا ويُسْتَقطر

ويشتمل هذا الباب على أربعة أنواع، وهي الوَرْد والنِّسْرين والخِلاف والنَّيْلَوْفَر.

فأمّا الوَرْد وما قيل فيه - فالورد ألوان، أشهرها الأحمر والأبيض؛ وقال صاحب كتاب (نِشْوار المُحاضَرة): إنه رأى وردًا أصفر، ووردًا أسودَ حالكَ السّواد، له رائحة ذكيّة، ورأى بالبَصرة وردةً نصفها أحمرٌ قانىء، ونصفها أبيض ناصع، وكأنّها مقسومة بقلم؛ وفيه ما له وجهان: أحمرُ وأبيض؛ ويقال: إنّه ربما وُجِد وَردٌ أحدُ وجهَي الورقة منه أحمرُ قانىء، والآخرُ أصفر، ومن ألوان الورد الأزرق، وهذا اللون يقال إنّه يُتحيَّل فيه، بأن تُسقَى شجرةُ الورد الأبيض الماءَ المخلوط بالنيل[1]، فيصير الورق أزرق، وقد يُتحيَّل على الأسود بمثل ذلك، والله تعالى أعلم. ومما يدلّ على وجود هذه الألوان وأنّها غير منكورة أن الشعراء وصفوها في أشعارهم فذكروا الأصفر والأزرق والأسود على ما نورده إن شاء الله تعالى، بعد ذكر منافع الورد وخواصّه.

قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: والورد مركَّب من جوهرٍ مائيّ وأرضيّ وفيه حرارة وقبض، ومرارة مع قبض، وقليلُ حلاوة، وفي مائيّته انكسارُ حَرافة بسبب

---

(١) النيل: ويقال له النيلج أيضًا، شيء يتّخذ من نبات العظلم، لونه أزرق، يصبغ به، وينظف الثياب.

الشيء الذي لأجله حلا ومَرّ، وفيه لطافة تُنفذ قبضه، فكثيرًا ما يُحدث الزُكام. قال: والقوّة المُرّة تَثْبت فيه ما دام طريًا، فإذا يَبِس قلّت مرارتُه، ورَطبُه يُسْهِل إذا شُرِب منه وزنُ عشرة دراهم؛ والمسمَّى منه بالوَرد المنتن حارّ، وأصله كالعاقِر قَرْحًا[١] مُحْرِق، وقال في طبعه:

ذكر جالِينُوس أن الورد ليس بشديد البَرْد بالقياس إلينا، ويقول: يجب أن يكون باردًا في الأُولى؛ قال الشيخ، أقول: ويُبْسُه في أوّل الثانية، لا سيّما في الجافّ؛ وقال في أفعاله وخواصّه: تجفيفُه أقوى من قبضه، لأنّ مرارته أقوى من قبضِ طَعمه؛ وهو مفتِّحٌ جَلّاء، ويسكِّن حركة الصفراء؛ وبِزره أقوى ما فيه قبضًا، وكذلك الزَّغب[٢] الّذي في وسطه، وفي جميعه تقوية للأعضاء الباطنة، ولا يجاوِز قبضُه منعَ التحليل؛ واليابس أقبض وأبرد. وقال: وإذا استُعمل الورد في الحمّام أصلح نَتْن العَرَق، ويُتّخذ منه غَسول على هذه الصفة، وهي أن يؤخذ من الورد الّذي لم تصبه نداوة - ويُترك حتى يَضمر - أربعون مثقالًا[٣]، ومن سنبل الطِّيب خمسةُ مثاقيل، ومن المُرّ[٤] ستّةُ مثاقيل، تُعمل أقراصًا صغارًا. قال: وربّما زادوا فيها من القُسْط[٥] والسَّوْسَن درهمين درهمين، فربّما جعلها النساء في المخانق[٦] علاجًا من ذَفَرِ العَرق[٧]. قال قوم: إنّه يَقْطَع الثّآلِيل كلّها إذا استُعمل مسحوقًا، وهو ينفع من القروح، ولا سيّما السَّحْج بين الأفخاذ وفي المَغابِن[٨]، ويُنْبِت اللحم في القروح العميقة، وادّعى قوم أنه يُخْرِج السُّلّاءَ[٩] والشَّوْك مسحوقًا؛ وهو مسكِّن للصُّداع رَطْبُه وطبيخُ مائه، ودُهنُه معطِّس بل شَمُّه نفسِه؛ وقال قوم: تعطيسُه لحبسه البُخار، ولعلّ ذلك لتضادِّ قوّتيه: الجالية والمانعة في الأدمغة الرقيقة الفضول؛ وشمّه نفسِه معطِّسٌ لمن هو حارّ الدماغ؛ وبِزرُه يَشُدُّ اللِّثة، وهو يسكِّن وجع العين من الحرارة، وكذلك طبيخ يابسه صالحٌ لغِلَظ الجفون إذا اكتُحِل به، وكذلك دُهنه وعُصارتُه؛ قال: وإنما ينفع من الرَّمَد[١٠] إذا قُطعت منه زوائد

---

(١) قرحًا: جرحًا.
(٢) الزغب: الشعر الناعم الدقيق.
(٣) المثقال: معيار يوزن به.
(٤) المرّ: ضرب من المستحضرات الطبّية الطيّبة الرائحة، مرّ الطعم، يستخرج من شجرة شائكة من فصيلة البخوريات، ويطلق على الحنظل اسم المرّ.
(٥) القسط: ضرب من الشجر يشبه العود، وهو أنواع مختلفة.
(٦) المخانق: الأعناق.
(٧) ذفر العرق: رائحته النتنة.
(٨) المغابن: المفاصل، وما تحت الآباط.
(٩) السلاء: الشوك.
(١٠) الرمد: داء يصيب العين، فيمنعها من الإبصار، وهو أنواع، وأهمّه الرمد الربيعي، والحبيبي.

البِيض. قال: وإذا تُجُرِّعَ ماءُ الوَرد نفع من الغَشْي[١]؛ قال: والوردُ جيّدٌ للكبد والمعدة؛ ومُربّاه بالعسل يقوّي المعدة، وهو الجَلَنْجَبين، ويعين على الهضم؛ ودهن الورد يطفىء التهاب المعدة، وكذلك طلاء المعدة بالورد نفسِه؛ وشرابه نافع لمن في معدته استرخاء؛ قال: وهو يسكِّن وجع المقعدة طَلْيًا عليها بريشة، ووجعَ الرحم من الحرارة، وكذلك طبيخ يابسه؛ وهو نافع لأوجاع المِعَى، ويُحتقن بطبيخه لقروح المِعَى، وشرابُه يُشرب بذلك؛ قال: والنومُ على المفروش منه يقطع الشّهوة؛ هذا ما قاله الشيخ في الورد، والذي جرّبتُه أنا منه أنّ زهر الورد الأصفر يُجفَّف ويُسحق بالملح فيكون دواءً جيّدًا للجراح يلحُمها بسرعة.

وأمّا ما جاء في وصف الورد نظمًا ونثرًا ـ فقال أبو العلاء صاعد الأندلسيّ[٢]: [من المتقارب]

ودونَـك يـا سـيّـدي وردةً   يـذكّـرك الـمِسْـكُ أنفـاسَـهـا
كـعـذراءَ أبـصَـرهـا مـبـصـرٌ   فـغـطّـت بـأكـمـامِـهـا راسَـهـا

وقال أبو عُبادة البحتريّ[٣]: [من الطويل]

أتاك الربيعُ الطَّلْق يختال ضاحكًا   من الحُسن حتى كاد أن يتكلّما
وقد نبَّهَ النَّوْروز[٤] في غَسَق الدُّجَى   أوائـلَ وَرد كـنّ بـالأمـس نُـوَّمـا
يـفـتّـحـه بَـرْدُ الـنَّـدَى فـكـأنّـمـا   يَـبـثّ حـديـثًـا بـيـنـهـنّ مـكـتَّـمـا

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر ـ ويُروَى لعليّ بن الجَهْم[٥] ـ: [من البسيط]

أما تَـرَى شجراتِ الـورد مظهـرةً   لـنـا بـدائـعَ قـد رُكِّـبـن فـي قُـضُـبِ
كـأنّـهـنّ يـواقـيـتٌ يُـطـيـف بـهـا   زبرجدٌ وسطَه شَذْرٌ[٦] من الذهبِ

---

(١) الغشي: الغثيان والغيبوبة.
(٢) هو أحد الشعراء الأندلسيين المشهورين، يقال له صاعد القسطليّ.
(٣) البحتري: من شعراء العصر العباسي المشهورين، اتّصل بالمتوكّل ومدحه. شعره رقيق الحاشية، جزل العبارة، وأشهر قصائده السينيّة في وصف إيوان كسرى.
(٤) النوروز: أو اليوم الجديد، بالفارسية، هو عيد أول السنة الفارسية، في الحادي والعشرين من آذار.
(٥) عليّ بن الجهم: شاعر بغدادي كان معاصرًا لأبي تمام. اشتهر بالهجاء وخبث اللّسان، فنفي إلى خراسان، ثم جاء حلب فقتله خراسان من بني كلب سنة ٨٣٦ م.
(٦) شذر: قطع.

وقال الناشي[١]: [من الكامل]

قُضُب الزبرجد قد حَمَلن شقائقًا ... أثمارُهنّ قُراضةُ العِقْيانِ[٢]
وكأنّ قَطْرَ الطَّلِّ في أهدابه ... دمعٌ مَرَتْه فواتر الأجفانِ

وقال ابن طاهر - ويُروَى لابن بسام[٣] -: [من البسيط]

أما تَرَى الورد يدعو للورُود إلى ... خمر معتَّقة في لونِها صَهَبُ[٤]
مَداهِنٌ من يواقيت مركَّبة ... على الزّبرجد في أجوافها ذهبُ
كأنّه حين يبدو من مَطالِعه ... صبٌّ يقبِّل حِبًّا[٥] وهو يَرتقبُ
خاف المَلالَ إذا طالت إقامتُه ... فظلَّ يَظهر أحيانًا ويَحتجبُ

وقال العماد الأصفهانيّ[٦]: [من الخفيف]

قلتُ للوَرد ما لشوكُك يُدْمِي ... كلَّ ما قد أَسَوته من جراحِ
قال لي هذه الرياحينُ جندٌ ... أنا سلطانُها وشوكي سلاحي

وقال آخَر: [من مجزوء الكامل المرفّل]

الورد أحسَنُ منظَرٍ ... تَستمتِعُ الألحاظ منه
فإذا انقضت أيّامُه ... أتت الخدود تنوب عنه

وقال أبو طالب الرَّقّيّ: [من المنسرح]

ووردةٍ في بَنانِ مِعطارِ ... حيّت بها في بديع أسرارِ
كأنّها وجنةُ الحبيب وقد ... نقّطها عاشق بدينارِ

---

(١) الناشيء: واسمه عبد الله، من الشعراء المجيدين من أهل بغداد. نشأ في الأنبار، ومات في مصر سنة ٩٠٦ م.
(٢) العقيان: الذهب الخالص.
(٣) ابن بسام: واسمه عليّ بن محمد، شاعر وأديب بغدادي، اشتهر بالهجاء والوصف. له «أخبار عمر بن أبي ربيعة» و«أخبار الأحوص» و«مناقضات الشعراء». مات سنة ٩١٥ م.
(٤) صهب: شقرة. (٥) الحِبّ: المحبّ.
(٦) هو أبو عبد الله عماد الدين الكاتب، والمؤرّخ والشاعر، في زمن الأيوبيّين. من كتبه «خريدة القصر» و«ديوان الرسائل» و«البرق الشامي». توفي سنة ١٢٠٠ م.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من السريع]

مـرّ بـنـا يـهـتـزّ فـي خـطـوِه كالغصن غِبَّ[١] العارض السارِي[٢]
شَـمِـمـتُ فـي وجـنـتـه وردةً جـاءت مـن الـمِـسـك بـأخـبـارِ
تـلوح فـي حـمـرتـهـا صـفـرةٌ كـالـخـدّ مـنـقـوطًـا بـديـنـارِ

وقال آخر: [من السريع]

كـأنّـمـا الـوردة لـمّـا بـدت فـي كـفّ مَـنْ أهـوَى ويـهـوانـي
حُـمـرةُ خـدّيـه وفـي وَسْـطِـهـا صُـفـرةُ لـونـي حـيـن يـلقـانـي

وقال آخر: [من مجزوء الرّمل]

جَـمَـع الـورد خـصـالًا لـم تـكـن فـي نُـظـرائـهْ
حُـسْـنَ لـون جـعـل الـزُّهْـ ـرةَ مـن تـحـت لـوائـهْ
ونـسـيـمًـا عَـطِّـر الـمجـ ـلَس مـن فـرط ذكـائِهْ
فـإذا غـاب وولّى عَـوَّض الـنـاس بـمـائـهْ

وقال آخَر: [من الوافر]

وذي لـونـيـن لـونُ الـمسـك فـيـه يـروق بـحـمـرةٍ فـوق اصـفـرارِ
كـمـعـشـوقَـيْـن ضـمّـهـمـا اعـتـنـاقٌ عـلى جِـذْثـان عـهـدٍ بـالـمَـزارِ

وقال الطُّغْرائيّ[٣]: [من الوافر]

ألـم تَـرَ أنّ جـنـد الـورد وافَـى بـصُـفـر فـي مَـطـارِده وحُـمـرِ
أتـى مـسـتـلـئـمًـا[٤] بـالـشـوك فـيـه نِـصـالُ زمـرّد وتِـراسُ[٥] تِـبـرِ
فـجـلَّى بـالـسـرور هـمـومَ قـلـبـي وطـارَدَ بـالـنـشـاط بـنـاتَ صـدري
فـمـا عـذري إذا أنـا لـم أقـابِـلْ أيـاديَـه بـسُـكـرٍ أو بـشـكـرِ

---

(١) غبّ: عقب. (٢) العارض الساري: المطر الهاطل.
(٣) الطغرائي: صاحب لامية العجم، سبق التعريف به.
(٤) مستلئمًا: لابسًا لأمة، وهي الدّرع.
(٥) تراس: جمع تراس، وهي المجنّ، وما يقي الفارس من ضرب النصال أو النبال.

ومما قيل في ذمّ الورد ومدحِه ـ قال ابنُ الرّوميّ: [من البسيط]

يا مادحَ الورد لا تنفكّ عن غلطٍ ألستَ تنظره في كفّ ملتقِطهْ
كأنّه سُرْمُ[١] بغل حين يُخرجُه عند البِراز[٢] وباقي الرَّوث في وَسَطهْ

وقال ابن المعتزّ في الردّ عليه: [من البسيط]

يا هاجيَ الوَرد لا حُيِّيتَ من رجلٍ غَلِطت والمرء قد يُؤتَى على غَلطهْ
هل تُنبت الأرض شيئًا من أزاهرها إذا تحلّت يحاكي الوَشيَ في نَمَطهْ
أحلَى وأشهرَ من وردٍ له أرَجٌ كأنّما المِسك مذرورٌ على وسَطهْ
كأنّه خدُّ حِبّي حين مَلّكني حَلَّ السراويل بعد الطُّول من سَخَطهْ

وقال العسكريّ: [من السريع]

أفضّل الورد على النرجِس لا أجعل الأنجم كالأشْمُسِ
ليس الذي يَقعد في مجلسٍ مِثلَ الّذي يَمثُل في المجلسِ

وكتب أبو دُلَف[٣] إلى عبد الله بن طاهر[٤]: [من الطويل]

أرى وُدَّكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهدُ
وحُبّي لكم كالآسِ حُسنًا ونَضرةً له زهرةٌ تَبْقَى إذا فَنِيَ الوَردُ

فأجابه ابن طاهرٍ يقول: [من الطويل]

وشَبّهتَ وُدّي الوردَ وهو شبيهُه وهل زهرةٌ إلّا وسيّدُها الوَردُ
ووُدُّكَ كالآسِ المَريرِ مَذاقُه وليس له في الطِّيب قبلٌ ولا بَعدُ

وممّا وُصِف به الوردُ الأبيض ـ قولُ محمد بن قيس: [من مجزوء الكامل]

جاءت بوَرْدٍ أبيضٍ شبّهتُه عند العِيان
بمداهنٍ[٥] من فضّةٍ فيها بقايا زعفران

---

(١) سرم: ثقب، كناية عن مخرجه. (٢) البراز: الرّوث، والخرء.
(٣) هو أبو دلف العجلي، واسمه القاسم بن عيسى، من رجال الدولة العباسية، كان شاعرًا وأديبًا وأميرًا. له من الكتب «سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». مات سنة ٢٢٦ هـ/ ٨٤٠ م.
(٤) عبد الله بن طاهر: والٍ عباسي في عهد المأمون، وطّد الأمن في مصر للعباسيين، ثم خلف أخاه طلحة في حكم خراسان سنة ٨٢٨ م. مات سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م.
(٥) مداهن: جمع مدهنة، وهي الوعاء يوضع فيه الدّهن.

وقال السّريّ الرفّاء: [من الطويل]

وروضٍ كساه الغيثُ إذ جادَ دمعُه مَجاسدَ[١] وشى من بَهارٍ ومنثورِ[٢]
بدا أبيضُ الوَردِ الجنيِّ كأنّما تَنَسَّمَ للنّاشِي بمسكٍ وكافورِ
كأنّ اصفرارًا منه تحت ابيضاضِه بُرادةُ تِبرٍ في مَداهنِ بَلُّورِ

وقال ابنُ المعتزّ: [من الوافر]

أتاك الوَرْدُ مبيضًّا مَصُونًا كمعشوقٍ تَكنَّفَهُ صُدودُ
كأنّ وجوهه لمّا توافت بدورٌ في مطالعها سعود
بياضٌ في جوانبه احمرارٌ كما احمرّت من الخجل الخدودُ

وممّا وصف به الأصفر ـ قولُ شاعرٍ: [من المتقارب]

رعى اللهُ وَردًا غدا أصفرًا بهيًّا نَضِيرًا يُحاكِي النُّضارا[٣]
وسقّى غصونًا به أثمرتْ وحُمِّلن منه شموسًا صِغارا

وقال الطُّغْرائيّ: [من الكامل الأحذّ]

شجراتُ وَردٍ أصفرٍ بَعثتْ في قلبِ كلِّ متيَّم طَرَبا
سَبَكتْ يدُ الغَيْم اللُّجَيْن[٤] لها وكسته صِبغًا مُونِقًا[٥] عَجَبَا
مَن ذا رأى من قبلِها شجرًا سُقِيَ اللُّجَيْن فأثمرَ الذّهبا
خَرَطتْ نهودَ زبرجدٍ حَملتْ أجوافُها من عَسْجَدٍ[٦] لُعَبا
فإذا الصَّبَا[٧] فَتَقتْ كمائمَها[٨] سَحَرًا وماد[٩] الغصنُ وانتَصَبا
شَبّهتُها بخريدةٍ[١٠] طَرَحتْ في الخُضر من أثوابها لَهَبا

وممّا وصف به الوَرد الأزرق ـ قال بعضُ الشعراء وقد وَصف بستانًا: [من الخفيف]

وبه واردٌ من الوَرد قد أيـ ـنَعَ في رِقّة الهواء اللّطيفِ

---

(١) مجاسد: مجسد، وهو ضرب من الثياب.
(٢) البهار والمنثور: ضربان من الأزاهير.
(٣) النضار: الذهب.
(٤) اللجين: الفضّة.
(٥) مونقًا: حسن المنظر والبهجة والرونق.
(٦) العسجد: الذهب.
(٧) الصبا: ريح شرقية ناعمة.
(٨) كمائمها: أزرارها.
(٩) ماد: تثنّى ومال.
(١٠) الخريدة: الفتاة البكر الطّوال والحيّية.

شبَّهوه بدَمعة العاشق الآ ... لِيفِ نالته جفوةٌ[١] من أليفِ
فهو يَحكيه رِقةً ومثالُ الـ ... ـقَرْص لونًا في خدِّ ظبيٍ تَرِيفِ[٢]
وَرَقٌ أزرقٌ كزُرق يواقيـ ... ـتَ تَطَلَّعن من لُجَيْنٍ مَشُوفِ[٣]

ومما قيل في الوَرد الأسود ـ قول مُؤيِّد الدِّين الطُّغرائيّ: [من البسيط]

للهِ أسودُ وَرْدٍ ظلّ يَلْحَظُنا ... من الرّياض بأحداق اليَعافِيرِ[٤]
كأنّها وجَناتُ الزِّنج نقّطها ... كفُّ الإمام بأنصاف الدّنانيرِ

وقال آخر فيه: [من الوافر]

ووَرْدٍ أسوَدٍ خلناه لمّا ... تَنَشّقَ نَشْرَه مَلِكُ الزّمانِ
مَداهنَ عنبرٍ غَضٌ وفيها ... بقايا من سَحيق الزعفرانِ

وأمّا ما جاء فيه نثرًا ـ فقال أبو حفص عمرُ بنُ بُرْد الأصغر[٥] رسالةً قدَّم فيها الوَرْد على سائر الرّياحين، وهي رُقعةٌ خاطب بها ابنَ جَهْوَر[٦]: أمّا بعد يا سيّدي ومن أنا أفْديه، فإنّه ذكَرَ بعضُ أهل الأدب المتقدِّمين فيه، وذوي الظَّرْف المُعْتَنِين بمُلَح معانيه، أنّ صنوفًا من الرّياحين، وأجناسًا من نُوّار البساتين، جَمَعها في بعض الأزمنةِ خاطرٌ خطرَ بنفوسِها، وهاجسٌ هَجَس في ضمائرِها، لم يكن لها بدٌّ من التفاوض فيه والتّحاور، والتحاكُم من أجلِه والتناصُف، وأجمعتْ على أنّ ما ثبت في ذلك من العهد، ونَفَذ من الحِلْف؛ ماضٍ على من غاب شخصُه، ولم يَئِن منها وقتُه، فقام قائمُها فقال: يا معشر الشّجر، وعامّة الزَّهَر؛ إن اللّطيف الخبير الذي خَلَق المخلوقات، وذرَأ[٧] البريّات، باين[٨] بين أشكالِها وصفاتها، وباعدَ بين مِنَحِها وأُعطياتِها؛ فجَعَل عبدًا ومَلِكًا، وخَلَق قبيحًا وحَسَنًا؛ فَضَّل على بعضٍ بعضًا حتى اعتدل بعدله الكلّ، واتّسق على لطفِ قدرته الجميع، وإنّ لكلّ واحد منها جمالًا

---

(١) الجفوة: النبوّ، والصدود.
(٢) التريف: الذي فيه ترف ونعومة وغنى.
(٣) مشوف: مصنّع ومصقول.
(٤) اليعافير: جمع يعفور، وهو ولد البقرة الوحشية، أو هو ولد الظبي في لونه عفرة.
(٥) ابن برد الأصغر: من ألمع الكتاب الأندلسيين في زمن ملوك الطوائف. له رسائل منمّقة اعتمد في معظمها الصنعة والسجع والمساواة أحيانًا.
(٦) بنو جهور: من ملوك الطوائف الذين حكموا في قرطبة، من سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م إلى سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩ م.
(٧) ذرأ: خلق.
(٨) باين: باعد.

في صورتِه، ورِقّة في محاسنه، واعتدالًا في قَدّه، وعَبَقًا في نسيمِه، ومائيّةً في ديباجتِه[١]، قد عُطِفتْ علينا الأعين، وثُنِيَتْ إلينا الأنفُس، وزهتْ بمحاضرتِنا المجالس؛ حتّى سفَرْنا[٢] بين الأحبّة، ووصلْنا أسبابَ القلوب، وتحمّلْنا لطائفَ الرّسائل، وصِيغَ فينا القَرِيض[٣]، ورُكِّبت في مَحاسِنِنا الأعاريض، فطَمح بنا العُجْب، وازدهانا[٤] الكِبْر، وحَمَلَنا تفضيلُ من فضّلَنا، وإيثارُ من آثَرَنا، على أن نَسِينا الفكَر في أمرِنا، والتمهيدَ لعواقِبنا، والتّطييبَ لأخبارنا، وادّعينا الفضلَ بأسرِه، والكمالَ بأجمعِه؛ ولم نعلم أنّ فينا من له المزيّةُ علينا، ومن هو أولَى بالرأسة منّا، وهو الوَرْد الذي إن بذلنا الإنصافَ من أنفسِنا، ولم نَسْبَحْ في بحرِ عمانا، ولم نَمِلْ مع هوانا؛ دِنّا له، ودَعَوْنا إليه، فمن لقِيَه منّا حيّاه بالمُلْك، ومن لم يدرك زمن سلطانِه، ودولَة أوانه، اعتَقَد ما عُقِد عليه، ولَبّى إلى ما دُعِيَ إليه؛ فهو الأكرمُ حَسَبًا، والأشرفُ زمنًا؛ إن فُقد عينُه لم يُفْقَدْ أثرُه، أو غاب شخصُه لم يَغب عرْفُه[٥]؛ وهو أحمرُ والحُمرةُ لونُ الدّم، والدّمُ صديقُ الرُّوح؛ وهو كالياقوت المنضَّد، في أطباق الزّبرجد، عليها فريدُ العسجد، وأمّا الأشعارُ فبمحاسنه حَسُنتْ، وباعتدال زمانهِ وُزِنَتْ.

وفي فصلٍ منها: وكان ممّن حضر هذا المجلس من رؤساء النُّوّارِ والأزهار، النَّرجِس الأصفر والبنفسَجُ والبَهار؛ والخِيري ـ وهو النّمام ـ فقال النَّرجِس الأصفر: والذي مَهَّدَ لي في حَجْر الثَّرى، وأرضَعَني ثَدْيَ الحَيا[٦]؛ لقد جئت بها أوضحَ من لَبَّة[٧] الصّباح، وأسطَعَ من لسان المصباح؛ ولقد كنتُ أسْتُر من التعبُّد له، والشغفِ به، والأسفِ على تعاقب الموت دون لقائه؛ ما أنحل جسمي ومَكَّن سُقْمي؛ وإذ قد أمكَن البَوْحُ بالشَّكْوَى، فقد خَفَّ ثِقَل البلوَى، ثمّ قام البنفسَجُ فقال: على الخبير واللهِ سَقطتَ، أنا واللهِ المتعبّدُ له، والدّاعي إليه والمغشوفُ به، وكفى ما بوجهي من نَدَب؛ ولكن في التأسّي بك أُنس؛ ثم قام البَهار فقال: لا تنظرنّ إلى غَضارةِ نَبْتي، ونَضارةِ وَرَقي، وانظرْ إليّ وقد صرت حَدَقةً باهتة تشير إليه، وعينًا شاخصة تَنْدَى

---

(١) ديباجته وشيه وزينته.

(٢) سفرنا: عملنا سفراء ورسلًا بينهم.

(٣) القريض: المنظوم من الشعر.

(٤) ازدهانا: تملّكنا وجعلنا نزهو به.

(٥) عرفه: معروفه، وشذاه.

(٦) الحيا، الحياء، بدون الهمز، وهو المصدر من حيي، أو اسم المصدر من استحيا حياءً. والحيا، بدون الهمز: المطر.

(٧) لبّة الصباح: غرّته وبياضه.

بكاءً عليه: [من الخفيف]

ولـولا كـثـرةُ الـبـاكـيـن حـولـي   على إخوانهم لقَتلتُ نفسي[١]

ثمّ قام الخِيريُّ فقال: والَّذي أعطاه الفضل دوني، ومَدَّ له بالبَيْعة يميني، ما اجترأتُ قَطُّ إجلالًا له، واستحياءً منه، على أن أتنفَّسَ نهارًا، أو أساعدَ في لذّة صديقًا أو جارًا، فلذلك جَعلتُ اللّيل سِترًا، واتَّخذْتُ جوانحه كِنًّا[٢]. فلمّا استوت آراؤها قالت: إنّ لنا أصحابًا، وأشكالًا وأترابًا، لا نلتقي بها في زمن، ولا نجاورها في وطن؛ فهلم فلنكتبْ بذلك عَقدًا يَنفُذ على الأقاصي والأداني، فكتبوا رُقعة نُسختُها: هذا ما تَحالَف عليه أصنافُ الشجر، وضُروبُ الزَّهَر، وَسْمِيّها وشَتْويّها، ورَبْعِيُّها وقَيْظِيُّها[٣]؛ حيث ما نَجمتْ[٤] من تَلْعةٍ[٥] أو رَبْوَةٍ، وتَفتّحتْ في قَرارة[٦] أو حديقة؛ عندما راجعتْ من بصائرِها، وأُلهمتْ من رشادِها، واعترَفتْ بما أسلَفتْ من هفواتِها، وأعطت للوَرد قِيادَها، وملّكتْه أمرَها؛ وعَرفتْ أنّه أميرها المقدَّمُ بخصالِه فيها، والمؤمَّرُ بسوابقه عليها؛ واعتقدتْ له السمعَ والطاعة، والتَزمتْ له الرِّقّ والعُبوديّة، وبرئتْ من كلِّ زَهر نازعتْه نفسُه المباهاةَ له، والانتزاء[٧] عليه؛ في كلِّ وطن، ومع كلِّ زمان، فأيّةُ زَهرةٍ قَصَّ عليها لسانُ الأيّام هذا الحِلْف، فلتتعرّفْ إرشادَها منه، وقِوامَ أمرِها به؛ والله أعلم.

ومن رسالةٍ لبعض فضلاءِ أصبهَان[٨] ممّن ذكرهم العِمادُ الأصبَهانيّ[٩] في الخريدة وَصَف فيها الرياضَ والرّياحين، وفَضَّل الوَردَ على جميعِها، وهي رسالةٌ مطوَّلةٌ في هذا النوع وغيرِه، وجاء منها: في يومٍ استعار نَضارتَه من عصرِ الصِّبا[١٠]، واكْتَسَى صحّتَه من عليلِ الصَّبا[١١]؛ ونَجَمَتْ فيه نجومُ الرّبيع، خاليةً من المقابَلة والتّربيع؛ وتَقابَل إشراقُ زَهرِه ونهارِه، فَراقَ بجري جداولِهِ وأنهارِه، وأقبَلَ فيه جيشُه بفوارسِه وجِيادِه، وعساكرِه وأجنادِه؛ بين رافعِ لواءٍ زبرجديّ،

(١) البيت للشاعرة العربية المعروفة الخنساء، وهو من قصيدة ترثي فيها أخاها صخرًا. انظر القصيدة في: ديوان الخنساء، ص ٥٣، ط دمشق ١٩٧٣.
(٢) جوانحه: أضلاعه، والكنّ: الستر.
(٣) قيظيّها: صيفيّها.
(٤) نجمت: ظهرت.
(٥) التلعة: الربوة.
(٦) القرارة: ما استقرّ واطمأنّ من الأرض.
(٧) الانتزاء: القفز والوثوب.
(٨) أصبهان: من مدن إيران المشهورة.
(٩) العماد الأصبهاني: الكاتب المشهور، صاحب «الخريدة» سبق التعريف به.
(١٠) الصبا: الشباب.
(١١) الصبا: بفتح الصاد، الريح الشرقية الناعمة.

وحامِلِ مِطْرَدٍ[١] عَسْجَدِيّ، وصاحبِ رِداءٍ لازَوَرْدِي[٢]، ومُعْلَم[٣] قد أَطْلَق عِنانه[٤]، ورامح[٥] قد خَضَب سِنانَه[٦]؛ وأخذت الأرضُ زينتَها وزخارفَها، ولَبِستْ حِليتَها ومَطارفَها[٧]؛ ومادت كُثْبانُها[٨] بخمائِلها[٩]، وماست قُضبانُها[١٠] في غلائِلها[١١]؛ فبَرَزتْ بين جبينٍ متوَّج، وخدٍّ مضرَّج، وصُدْغٍ مخلَّق[١٢]، وخَصْرٍ ممنطَق[١٣]، ونادت الشمسُ بلسان الجَذَل: [من البسيط]

* يا بُعدَ ما بين برجِ الجَدْيِ والحَمَلِ[١٤] *

[ومن المتقارب]:

وفَصَّل فصلُ الرّبيع الرياض عقودًا ورَصَّع منها حُليّا
وفاخَرَ بالأرض أُفْقَ السَّماء فحَلَّى الثَّرى بنجوم الثُّرَيَّا[١٥]

ونَثر منثورة ياقوتًا ودرًّا وزمرّدًا، وجَمَع بين ضدّين: من بَرْدٍ بَرَدٍ وتَوقُّدٍ جُذًا؛ فَشَمَخ بالمناكب، على الكواكب؛ وتاه بالصَّوْج[١٦]، على الأَوْج؛ وطاوَلَ بالآكام[١٧]، عُلا الرُّكام؛ فهنالك برز النرجِسُ من بين الرّياحين، وقال: الصمتُ لا يُحْمَد في كلِّ حِين؛ ومن لم يُفْصِح بتعريف نفسِه، وتفضيل يومِه على أمسِه، فهو مغبونٌ[١٨] في جنسِه؛ أنا حَدَقُ الحدائق، ونزهةُ الرّامق[١٩]؛ أَخْطِر بين جسدٍ زبرجديّ[٢٠]، وفرع

---

(١) مطرد: شيء يطرد به، وهو الرمح.
(٢) لازوردي: منسوب إلى اللازورد، الحجر الكريم الشفّاف جدًا والمتعدد الألوان، وإن كان أهمها وأشهرها الأزرق.
(٣) معلم: موسوم بعلامة.
(٤) عنانه: زمامه، وما يقاد به.
(٥) رامح: حامل الرمح.
(٦) سنان الرمح: رأسه الذي يطعن به، ويكون من الحديد.
(٧) مطارف: جمع مطرف، وهو رداء من خزّ.
(٨) كثبانها: جمع كثيب، وهو مجتمع الرمل.
(٩) خمائلها: جنائنها، جمع خميلة.
(١٠) قطبانها: كناية عن الأغصان.
(١١) غلائلها: ثيابها الرقيقة، كناية عن الورق والزهر.
(١٢) مخلّق: مصنّع.
(١٣) ممنطق: عليه النطاق، وهو الحزام يشدّ به الخصر.
(١٤) برج الجدي: أحد البروج الجنوبية في السماء، والحمل، من البروج الشمالية.
(١٥) الثريا: مجموعة من الأنجم الصغار المجتمعة.
(١٦) الصنوج: المنخفض، والأوج: الأعلى، بخلافه.
(١٧) الآكام: التلال وما ارتفع من الأرض.
(١٨) مغبون: وقع عليه الغبن، أي الحيف والظلم.
(١٩) الرامق: الناظر بؤمة.
(٢٠) زبرجدي: منسوب إلى الزبرجد.

كافوريٌ وعَسْجَدِيّ، إليّ يُنْسَب حُسْنُ العيون، وعندي يوجَد ضعفُ الجفون: [من المتقارب]

تَـنـافَـسُ فـيَّ نـفـوسُ الـكـرامِ ... إذا مـا أديـرت كُـؤوسُ الـمُـدامِ[١]
فأسْبي الجليسَ إذا ما حضرتُ ... بـلَـحـظ الـفـتـاةِ وقَـدِّ الـغـلامِ

فأيقَظ لمباهَلتِه[٢] الأُقْحُوان، وقال: الآنَ آنَ ظهوري وحان؛ ما هذه العجرفةُ[٣] والتّباهي! لقد نطقتَ بعجائب النّواهي؛ وتالله ما صدقتَ سنَّ بكْرك[٤]، ولا امتاز عُرفُك من نُكْرِك، فبم تَتِيه[٥] على أقرانِك، وتتكبَّر على سُجَرائك[٦] وأخدانِك[٧]؟! أنسيتَ تنكيسَ رأسِك بين النُّدَماء، وإمساكَ رَمَقِك ببِلَّةٍ من الماء، وأنّك لا تبيت إلّا مُوثَقًا محبوسًا، ولا تُشَمّ إلا صاغرًا منكوسًا، ولا تُستخدَم إلَّا قائمًا، ويا سوءَ يومِك إذا أصبحتَ نائمًا؟! ألا عَطَفتَ عليَّ جِيدَ الالتفات، وأشرتَ إليّ بأحسنِ الصِّفاتِ، فقلتَ: لله دَرّك من زهرٍ كَمُلتْ محاسنُه، وصفا مِن غَديرِه آسِنُه[٨]، وتبسّم عن مؤشر الثغور[٩]، وجمع فرعُه بين لونَي التبر والكافور؛ فتتوَّجَ بالتيجان المشرقة المرصّعة بخلاصة النُّضار والرِّقَة[١٠]؛ ألم تعلم أنّي فوز المَغاني[١١]، ونزهةُ الراني، ومَباسم الغواني؟ لا يُحكم لشاعر بالإحسان، أو يَنْسُبَ إليّ حُسْنَ ثغور الحسان: [من الخفيف]

أنـا زهـر الـرُّبـا ونَـوْرُ الـرّيـاضِ ... وعـيـون تـرنـو بـغـيـر اغـتِـمـاضِ
لـن تـرانـي إلّا بـشـاطِـي غـديـرٍ ... بـاسـمًـا أو مـضـاحـكًـا لـحـيـاضِ

فشُقّ الشقيق عن زفير ووَجيب[١٢]، ولَدغه بحُمَة[١٣] لسانٍ مجيب، وقال: لقد تجاوزَت بنفسك مدى الحدّ، وضربتَ في افتخارك بكهام[١٤] فَليلِ الحدّ؛ أليس ندى الطّلّ يَزينُك، وإغبابُه[١٥] يَشينُك؟ ومتى نَضب غديرُكَ، بدا تغييرُك؛ ما أراك بغير

---

(١) المدام: الخمرة.
(٢) مباهلته: مفاخرته.
(٣) العجرفة: الكبر.
(٤) بكرك: جملك.
(٥) تتيه: تتكبّر وتختال.
(٦) سجرائك: أقرانك وأصحابك.
(٧) أخدانك: نظرائك وأمثالك ومن هم في حوزتك ومعك في خدن واحد.
(٨) آسنة: ما أسن منه وأنتن.
(٩) مؤشر الثغور: أي الأسنان فيها أشر وبياض وتحزيز.
(١٠) النضار: الذهب، والرقة: الفضة.
(١١) المغاني: الديار الآهلة بالسكّان.
(١٢) وجيب: اضطراب واختلاج.
(١٣) الحمة: إبرة الهامة تلدغ أو تسلع بها.
(١٤) الكهام: السيف.
(١٥) إغبابه: غيابه، وانقطاعه بين الحين والآخر.

مضاهاة الثغور تفتخر، فهل هي على الحقيقة إلّا عَظم نَخِرٍ؟ بل أنا نزهة الناظر، وبِغية الحاضر؛ جسدي من قُضبان الياقوت، وفرعي من المسك المفتوت: [من المتقارب]

أفــوق إذا مِــســتُ بــيــن الــريــا ض زهوًا على مائسات القدودِ
وأفــضَــل لــونًــا وحُــســنًــا إذا حضرتُ على حُسنِ لونِ الخدودِ

فمالت إليه الخُزامَى[١]، وكادت تميل به جِذابا والتزامًا؛ وقالت: «أسمع جعجعةً ولا أرى طِحنًا»[٢]، وقَعْقعةً[٣] ولا أنظر إلّا شَنًّا[٤]، لقد ارتكبتَ جَللًا[٥]، واستَغزرتَ غللًا؛ ما أقبحَ عاقبةَ العجل، وأقربَ الواثقَ من الخجل! حتّام تُنْبِض ولا تَرْمي[٦]، وإلام تومِض ولا تَهمي[٧]؟ أبكُمْتة[٨] لونك تفتخر، وبعظم كونك تشمخرّ[٩]، ألستَ الخشنَ الجِلدة، الدمويَّ البردة، البعيدَ عن محلّ التقريب والشَّمّ، الطريدَ عن رتبة التقبيل والضمّ؟ لكن أنا المَلْبَس المشار إليه، والعِطرُ المنصوص عليه، مُدحتُ بالطِّيب واللّون، وتُخُيِّرتُ للتسربل والصَّون؛ وجُمِّعت منّيَ الحُلل، وتُوّجتْ منّيَ الكِلل[١٠]: [من الطويل]

فَضَلتُ على زهرِ الربيع برتبةٍ بها صَدق الراوون للشعر إذ قالوا
كأنّ الخُزامَى جُمِّعت لك حُلّةً عليك بها في الطِّيب واللّون سربالُ

فأنهضتْ لمعارضتها البنفسَج، وأَلْجَمَ[١١] جواد مناضَلتها وأسرَجَ[١٢]، وقال: يا ساكنةَ الشَّهْباء، لقد جئتِ بالداهية الدَّهياء، أضْبَحَ[١٣] الثعالب، وإرسالَ[١٤] الأرانب، ما يغني عنكِ وصفُ الشعراء، وأنتِ منبوذةٌ بالعَراء؛ بَعُدتِ عن محاسن أخلاقِ البريّة

(١) الخزامى: ضرب من الأزهار البرّية، لها رائحة ذكية.
(٢) «أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا»، مثل يدل على كثرة الكلام لكن بدون فعل.
(٣) قعقعة: صوتًا.
(٤) شنًّا: قربةً بالية.
(٥) جللًا: شيئًا عظيمًا.
(٦) تنبغي: تشد الوتر، ولا ترمي: لا تطلق السهم.
(٧) تهمي: تأتي بالمطر.
(٨) الكمتة: الغبرة والكدرة.
(٩) تشمخر: تتباهى وتتكبّر.
(١٠) الكلل: جمع كلّة، وهي الستر الرقيق يوضع فوق الفراش ليمنع أذى الحشرات.
(١١) ألجم: جعل له اللجام: وهو الرسن والزمام.
(١٢) أسرج: جعل عليه السّرج، وهو يوضع فوق ظهر الجواد.
(١٣) الضبح: صوت الثعلب.
(١٤) إرسال: ضرب من المشي.

وقَرُبتِ من مَراتع البهائم البَرّيّة؛ وحُرِمتِ بَرْدَ نَسيمِ العراق؛ وضَعُفَتْ ساقكِ عن حَمْل ساق، إنما أنا نزهةُ الأمصار، ومَسرّةُ الأبصار، وطِيبُ النفوس، ورَبيبُ الكؤوس، المحمولُ على الرؤوس، المحبوبُ إلى الرئيس والمرؤوس، ذو العِرق الذكيّ والعَرف المِسكيّ: [من الطويل]

رئيسُ الرّياحين المُضيفُ بلونِه جَمالًا إلى وَردِ الخدود المضرَّجِ
إذا ما جِنان الأرض بالنَّوْر[1] زُخرفتْ فتعريفُها من طِيب زهر البنفسَجِ

فغضب لذلك جُوريّ الوَرْدُ[2]، ووثب لو استطاع وَثبةَ الوَرد[3]؛ ثم قال: أرِكزًا[4] كأحاديث الضَّبُع، وزمجرةً[5] كزَمْجرة السَّبُع، ذَهب بك الشتاءُ وبَردُه، وشُغِل عنك الرّبيع ووَردُه، أطعتَ هوى النفس الأمّارة، ونطقتَ بحضرة الإمارة، وأنت لا تنقضي ساعتُك حتّى تَربَدّ، ولا ينصرم يومك حتى تَذبل وتسوَدّ؛ ثم تستحيل أوراقُك، ويفارقك وَراقُك[6]، وتَشْعَث قِمّتُك، وتَنْزُر قيمتُك. أتُراك لولا قرصُ الخدود، هل كنتَ في الألوان بمعدود؟ أما علمتَ أنّي مدعوٌّ بالأمير المقدَّم والميمونِ المِقدام. أنا الزائر في كلّ عام، القادمُ بمسرّة الخاصّ والعامّ، لا تَشْرُف الأيّام إلّا باسمي، ولا تفتخر الأجسامُ إلّا بمشابَهة جسمي، فبي يُفتَن النظر، وأنا السيّد المنتظَر. وإذا انقضت مدّتي، وقُضِيت عِدّتي، أقصدَتْني[7] حَنِيّة[8] الفُرْقةِ بسِهام الفَرَق، واستَولى عليّ والِي الحَرَق، فوَلّد تَلهّبي رشحًا من العَرَق، قام لهم مَقامي، وساوَى عندهم بين رِحلتي ومُقامي، يعرّض كلَّ وقت بذكري، ويُعرِّف لديهم نُكْري، ويجدِّد عندهم شكري: [من الطويل]

أخلِّفُ نفسي عندهم بعد رِحلتي فسيّان قربي إن تأمّلتَ والبُعْدُ
وقد فَضّل الكِنْديُّ بي عند قولِه فإنّك ماءُ الوردِ إن ذهب الوَرْدُ[9]

---

(١) النور: الزهر.
(٢) جوري الورد: الورد المنسوب إلى جور، قرب شيراز في فارس.
(٣) الورد: صفة للأسد، لونه كالورد. (٤) الركز: الصوت الخافت جدًا.
(٥) الزمجرة: الصوت القوي يحدثه الأسد حين يصوّت.
(٦) وراقك: سيماك وهيئتك. (٧) أقصدتني: رمتني بسهمها وأصابتني.
(٨) الحنيّة: القوس.
(٩) الشطر الثاني من هذا البيت، لأبي الطيب المتنبي، والكندي، صفة له، لأن ولد بمحلّة كندة في الكوفة. انظر البيت والقصيدة في: ديوان أبي الطيب المتنبي، ص ١٧٤، تحقيق وشرح عبد الوهاب عزام، دار الزهراء، بيروت ١٩٧٨.

ومن إنشاء المولى الفاضل تاجُ الدين عبدُ الباقي بنُ عبد المجيد اليمانيّ في شهور سنةِ ستٍّ وسبعمائة، رسالةٌ ترجمها (بأنوار السعد، ونُوّار المجد، في المفاخَرة بين النّرجِس والورد)، قال: الحمد لله الذي أضحك ثغورَ الأزهار، ببكاء عيون الأمطار، وأنطَق خطباءَ الأطيار، على منابر الأشجار؛ وعقد عليها من النُّوّار إكليلًا، وأمَر الغزالةَ[١] أن تَسُلّ عليها عند بروزِها من الإبريز[٢] سيفًا صَقيلًا؛ حَمَى حدائقها بأحداق نرجسِها، فنَمّ لسانُ النسيم بطيب نَفَسِها، أبدَع في تركيب حَلْها وعَقدِها، فثغور الأُقْحُوان تقبِّل خدودَ وَرْدِها، خَلْخَلتْ سُوقَها[٣] فَضَلاتُ الجداول، واطّردت أنهارُها كالأَيْم[٤] وقد حُثَّ بأطراف العوامل[٥]، فحكَت المَبارِدَ متونًا، والحيّاتِ بطونًا؛ أحمده على نعمه التي تأرّجَ نَشْرُها، وبدا على جبين الدّهر بِشْرُها، حمدًا تخضَلّ من تَرادف سَيْبِها[٦] أغصانُه، وتُثمِر بأنواع السعادة أفنانه؛ وأصلّي على سيّدنا محمد الذي عَطّر الكون مسكيُّ رسالته، ووطّد القواعد الشرعيّة مُرْهَفُ بَسالته؛ صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تَوّجت الغمائم رؤوسَ الرُّبا، وسَحَب ذيلَ الصَّبا على أزهار روضِها مَهبُّ الصَّبا[٧]؛ وبعد، فإنّ أَولى ما وقعت المفاخَرةُ بين غصنين نشأ في جَنّه، وبارقتين تألّقتا في دُجُنّة[٨]، وزهرتين تفتّحتا في كِمامَه، وقطرتين صدرتا من غمامَه؛ ولمّا كان النرجسُ والوردُ قَريعيْ[٩] هذه الصِّفات، وقارعَي هذه الصَّفاة[١٠]، تطاوَل كلٌّ منهما إلى أنّه النّديم، والخلّ الّذي لا يملّه الحميم، طالما عَطّر بنشرِه الأكوان، وغازل بعيونِه الغِزلان؛ وأنارت شموس سعودِه، وقُبّلت حُمرةُ خدودِه؛ أحببتُ أن أقيمَهما في موقف المناضَلة[١١]، وأشخِّصهما في مَعْرِض المفاضَلة، ليبرهن كلٌّ منهما على ما ادّعى أنّه في وِطابه[١٢]، ويبديَ شعائر ما تَقلّده وتَحلّى به، فبالامتحان يَظهَر الزَّيْف، ولا يُقْبَل الحَيْف[١٣]، فعندها حَدّق النرجسُ بأحداقه، وقام على قصبة ساقِه، وتهيّأ لمناضَلة

---

(١) الغزالة: الشمس.
(٢) الإبريز: الذهب الخالص، واللفظة يونانية.
(٣) خلخلت سوقها: جعلتها مخلخلة هشّة، والسوق، جمع ساق.
(٤) الأيم: الحيّة.
(٥) العوامل: جمع عامل، وهو صدر الرمح، دون السنان.
(٦) سيبها: عطائها.
(٧) الصبا: ريح شرقية.
(٨) دجنة: ظلمة.
(٩) قريعي: صاحبي، والمقارعة: المضاربة والمنافسة.
(١٠) الصفاة: الحجر أو الصخرة الملساء.
(١١) المناضلة: المقارعة والمحاربة.
(١٢) وطابه: سقاء لبنه.
(١٣) الحيف: الظلم.

خَصمِه، وشرع يُبدي شرائع حُكْمِه؛ وقال: أشبهتُ العيونَ وأشبهتَ الخدود فلا فَرْق، ولقد علمتَ ما بينهما مِثْلَ ما بين القَدمِ والفرق(١)؛ فأنا حارسُ مجلس الشراب، والنديمُ المعوَّل عليه بين الأحباب، تَسمَّيتُ بأحسن الأسامي، فلستَ لي بمُسامِي(٢)؛ تَسمّت بي الحسان، ومِستُ(٣) في حُللٍ مصبّغات الألوان؛ ولو اعتبرتَ بحمرة خجلك، وتشقيقِ جيوب حُللك، ما قمتَ في موقف المُفاخِر، ولا فهتَ ببنت شفة في مَعْرِض المَفاخِر، فتَضرّج خدُّ الورد حُمره، وأوقدَ من الغيظ لمناضَلته جمرَه؛ وقال: مُتْ بداء الحسد فقد عَلاك اصفرارُه، وأين منك الطّرْف(٤) كما ادّعيتَ ولم يَبدُ عليك احورارُه(٥)؛ صدقتَ، ولكن أنت أشبه بالعين المخصوصةِ باليَرَقان والصفرةِ المنوطةِ بالأَيْهُقان(٦)؛ فلقد عَشَتْ عيونُك السقيمةُ من أشعّة شُموسي ووقفتَ على قَصَب ساقِك حيث استقرّ كرسيُّ جلوسي؛ فأنا دائرةُ الجمَال، المشتملةُ على قُطب الكمال، ربّتني الدراريُّ بدَرّها، وقلّدتْني نفيسَ دُرّها، فنَشرتُ أعلامي العقيانيّةِ على زُهَرتها، وأشبهتُ شكلها وحُسنَ زَهرتِها؛ فهزّ النرجسُ رماحَه الزبرجديّة، فتلقّاها الورد بحجفته الذهبيّة(٧)؛ وقال: أردد هذه العقودَ النفيسةَ إلى هَواديها(٨)، فقد عَلِم كَذِبَك حاضرُها(٩) وباديها(١٠)؛ والطِم خدودَك حزنًا على فَوات مَقامي وقصورِك عن بلوغ مَرامي؛ من أين لك مَداهنُ دُرٍّ حشوُهنّ عَسْجَد؛ لستُ أبالي بنَفسِك تَصوّبَ(١١) أمْ تصعّد؛ أما تراني قد نُشرتُ على رماحٍ من زبرجدٍ طالما حَرستْ حِمى الرّياض، ولبستُ أحسنَ اللّباس وهو البياض؛ وقمتُ خطيبًا على منبر الصِّين وقُلِّدتُ إمرةَ الرّياحين؟ فأنا ناظر هذا الفضل، وناظر هذا الفصل؛ سبقتُك إلى الوجود مكانًا أعدمَ مكانَك، ولم يَرضَ زماني يجاورُ زمانَك، لَبثُك على وجه البسيطةِ قليل، وحالُك ـ كما علمتَ ـ ليس بالجليل؛ تتَلوّن كما يتلوّن الغُول(١٢)، من أحمرُك وأصفرِك وأبيضِك المملول؛ فلقد رماك ابنُ الروميِّ بسهام هجائه،

---

(١) الفرق: أي فرق الشعر في الرأس.
(٢) مسامي: مناظر ومماثل في الرفعة والسموّ.
(٣) مست: اختلّت وتمايلت.
(٤) الطرف: العين.
(٥) احوراره: شدّة بياضه، وسواده.
(٦) الأيهقان: ضرب من الأعشاب، لها ورق عريض وزهر أحمر.
(٧) جحفته الذهبية: ترسه ومجنّه الذهبية.
(٨) هواديها: جمع هادٍ، وهو المتقدم، والعنق، والنصل، وأوّل ما يطلع من الإبل.
(٩) حاضرها: من يعيش في الحاضرة.
(١٠) باديها: من يقيم في البادية.
(١١) تصوّب: تنحدر.
(١٢) الغول: حيوان أسطوري، وأنثاه السّعلاة.

وجعلَك عرضةً لنوائب الدهر ولأوائه[١]؛ حيث قال: [من البسيط]

كـأنّـه سُـرْمُ[٢] بـغـلٍ حيـن يُـخـرِجـه إلى البِراز وباقي الرَّوْث[٣] في وَسَطه

وحيث مدحني وقال: [من الكامل]

أيـن الـعـيـونُ من الـخـدود نَـفـاسـةً وَرأسـةً لـولا الـقـيـاسُ الـفـاسـدُ

فمِثلُ هذه المَسَبّة لا يضمحلّ أثرُها، ولا ينقطع خبرُها؛ ولله دَرّ القائل: [من السريع]

الـنـرجِـس الـغـضُّ لـه رتـبـةٌ أشبـهُ شيء بـالـعـيـون الـمِـراضْ
قـام عـلـى قُـضـبـانِـه مـبـديًـا فَـخـارَه الـمشـهـودَ بـيـن الـريـاضْ

ولو لم أُغْمِض عن مَساويك عيني، وأترك للصلح موضعًا بينك وبيني؛ لكنتُ أبديتُ أضعافَ مَساويك، لأني في الرتبة غيرُ مُساويك؛ فعندها اشتَعل الورد من كَلامِه، وظهر على جسدِه أثرِ كلامِه؛ وقال: لقد تَعدّيتَ طَورَك وستعرف جَورَك وكَوْرَك[٤]؛ ولكن قِحَة[٥] العيون مخصوصةٌ بالأنذال، والتجرّي على الملوك من شعائر الجهّال، فأنا سلطان الرياحين، وبذلك وُقّع لي في سائر الدواوين؛ كأنّني وجنةُ حِبٍّ وقد نقّطتْ بدينار، أو أناملُ خَوْد[٦] عَنْدَمِيةٍ[٧] ضُمّت على قُراضةِ نُضار[٨]؛ أشبهتُ الشموسَ شكلًا، وفقتُ البدور مثلًا؛ أُنظَم كما تُنْظَم العقود، وأصِل كما يصل الحبيب بعد الصدود، وأمّا افتخارك بالحِراسة فهي محلُّ الأسقاط، والوظيفةُ المنوطةُ بالأنباط[٩]؛ وأمّا كونُك سبقتني فهو على حُكم الحَجَبة؛ والمبشّر بوصولي وإن كان أَضْمَر بغضَه لا حُبّه؛ فلمّا عَلم أوان حَطّ رحالي حَثّ رِحالَه، وأشاع في أصحابه ارتحالَه؛ وقال: قد أظلّنا وصولُ مَلِكٍ لا يجارَى، ورئيسٍ لا يُبارَى؛ وأين زمانك من زماني، ومكانُك من مكاني؟ لا أظهر إلا والثّرى قد اكتسَى سندسيَّ أديمه[١٠] وفاح مسكيُّ نسيمِه، وخَطبتْ أطيارُه، واخضلّت أزهارُه، وصَدحتْ بلابلُه، وتأرّجت

(١) لأواء الدهر: شدائده.
(٢) السرم: فتحة الدبر، أو هو ثقب الدّبر.
(٣) الروث: البراز من الحيوان وخرؤه.
(٤) كورك: ادّعاءك وكبرك.
(٥) القحة: الوقاحة والخسّة.
(٦) الخود: الفتاة الناعمة الحسناء.
(٧) عندمية: فيها لون العندم، وهو ضرب من النبت الأحمر.
(٨) قراضة نضار: ما يتفتّت من الذهب عند صياغته وصقله.
(٩) الأنباط: جنس من الشعوب، يقال لهم النبط.
(١٠) أديمه: جلده.

خمائلُه[١]؛ واطّردت أنهارُه، وتعانقتْ أغصانُه وأشجارُه، بزغتْ شموسي في فَلَك غِياضِه[٢]، وتَكلّل خدّي عَرَقًا من أنداءِ رياضه؛ فأنا بينها الطِّراز المذهَّب، والمَلِك المعظَّم المهذَّب؛ إذا برزتَ في لياليك المُعتِمة، وظهرتَ في أراضيك المُقْتِمة؛ وسهرتْ عيونُك في ليل شتائك، وقاسيتَ بَرْدَ مائك وطولَ عَنائك؛ ولكَم بين الشتاء والربيع، كما بين الرئيس والوضيع؛ يا جبليَّ الطباع، لقد صرتك رياحي، وصَفّرتْ عينَك حُمرةُ خمرة ارتياحي؛ وأمّا ثَلْبُك[٣] بِقصَر مُدّتي، وسرعةِ بلى جِدّتي؛ فدليلٌ على عدم عقلِك، وسقوط معقولِك ونَقْلِك، أما علمتَ أنّ المكثر للزيارة مملول، وعَقدُ وُدّه محلول؛ لو بقيت الشمسُ على الدوام، لملّتها أنفس الأنام، ولك بذلك عِبره، وأنت في هذا الموطن من أهل الخبره؛ لمّا أقمتَ مَلّك الناشق، ولم يعرّج عليك العاشق؛ ولقد عجبتُ من رَقاعةِ عَصّبتْ رأسَك بالحماقة، وادّعيتَ شبهَ العيون وأنت أشبهُ شيء بصُفرةِ بَيض على رُقاقه؛ أن ذهبتْ عينك لم يَبق لك أثر، كلّا ولا يوجد لمجدك خَبَر؛ لكن أنا إن ذهبتْ عيني فأثري على أردان الأماجد يفوح، وعلى ممرّ الأعصُر يغدو ويروح، فأنا أثرٌ بعدَ عين، فدع عنك التحلّي بالمَيْن[٤]؛ ولله درّ القائل: [من البسيط]

يا حَبّذا الورد مذ حيّا[٥] بطلعته ... وعَطّر الأفق منه نشرُه العَبِقُ
كالشمس شكلًا ونشرِ المسك رائحةً ... وللؤلؤِ الرَّطب في تضريجه[٦] عَرَق

فعَميتْ عيون النرجس من بزوغ أنواره، ونُكّستْ أعلامُه الزبرجديّة لنضارة نُوّاره؛ فعندها قال الورد: هذه الشقراء[٧] والمَيْدان، إن كانت لك خبرة بمبارزة الأقران[٨]؛ فلمّا أورده لظى الحرب، ولم يكن من رجال الطَّعن والضَّرْب، وألزمه الحجّة، وعرّفه المَحَجّة[٩]، وبان بهرَجُه من إبريزه[١٠]، وتَحقّق موادَّ تبريزه؛ دمعت عينه أسفًا، على ما أبداه من الجفا؛ ثم قال: ما أنا أوّل من بحث بظِلفِه عن حَتْفِه وجَدَع[١١] مارن[١٢] أنفه بكفّه؛ لقد قيل: عادت السعادات، سادات العادات؛ وعادة

---

(١) خمائله: جنائنه وأشجاره.
(٢) غياضه: أراضيه ومجتمع الشجر في مغيض الماء. والغياض: الآجام.
(٣) ثلبك: عيبك.
(٤) المين: الكذب.
(٥) حيّا: سلّم.
(٦) تضرجيه: تشقيقه.
(٧) الشقراء: صفة للفرس.
(٨) الأقران: النظراء والأمثال.
(٩) المحجّة: الطريق الواسعة.
(١٠) إبريزه: ذهبه الخالص.
(١١) جدع: قطع.
(١٢) مارن أنفه: أعلاه.

المَلِك ـ أدام الله انهمار السُّحُب على خمائله الذهبية، وأطلَع في فَلَك الاعتلاء أنواره الشمسيّة ـ الصفحُ عمّن كثر ندمه، وزلّت قدمه؛ ومَن نشرَ أعلام الاستغفار، خليق أن يُقبَل منه ما يبديه من الاعتذار؛ وما أنا أوّل من هفا ولا أنت أوّل من عفا؛ ليت شعري، أين حياؤه من وقاحتي، وأين رشاقته من كثافتي؛ الخَفارة لائحةٌ عليه، وأمور الرّياحين تساق إليه، فعندها قال الورد: من شأننا الصفحُ عما أتيتَه، فقد جنيتَ ثمار الندم بما جنيتَه، فكن قرير العين، ولا تعد لمثلها فالمؤمن لا يُلْدَغ من جُحْر مرتين؛ واحذر أن تطاوِل من هو أعلى منك مَحلّة وأبهجُ في ارتداء السيادة حُلّة؛ والآن فقد تَولّد من بياضك وحُمرتي اجتماع، والتأم شعث أمرنا بعد أن طار شَعاع[١]؛ أما علمت أنّ الامتحان، يظهر رتبة الإنسان؛ ومن سعادة جَدِّك[٢]، وقوفُك عند حدِّك؛ فكن لما قلتُه بالمرصاد، وإن عدت لمثلها فترَقَّب أوّل النحل وآخِرَ صاد[٣]؛ ونسأل الله تعالى أن يهديَنا إلى الرَّشَد، وأن يذهب عنا ضغائن[٤] الحسد؛ بمنّه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وأمّا النِّسْرِين[٥] وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: طبع النسرين حارٌّ يابس في الثالثة، وهو منقٍّ ملطِّف، وزهره أخَصُّ بذلك، وينقع من برد العَصَب، ويقتل الديدان في الأذن؛ وينفع من الطَّنين والدّويّ، وينفع من وجع الأسنان، والبرّيّ تُلطَخ به الجبهةُ فيسكِّن الصُّداع، وهو يفتّح سُدَدَ المَنْخَرين، وإذا شُرِب مع أربع دَرْخَمِيَات[٦] سَكّن القيء، ويسكّن الفُوَاق[٧] وخصوصًا البَرّيَّ منه؛ والله أعلم.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال شاعر منشدًا: [من السريع]

أَكْرِمْ بِنِسرينٍ تُذيع الصَّبا[٨] ... من نشره مسكًا وكافورا
ما إن رأينا مِن قَبلِه ... زبرجدًا يُثمر بَلُّورا

وقال آخَر: [من مجزوء الكامل]

أُنظر لنِسرينٍ يلو ... ح على قضيب أملَدِ[٩]

(١) شعاع: متفرق.
(٢) جدّك: حظك.
(٣) صاد: عطشان.
(٤) ضغائن: أحقاد.
(٥) النسرين: ضرب من الزهور البيض.
(٦) درخميات: ضرب من المعايير.
(٧) الفؤاق: ما يأخذ المحتضر عند النزاع. وطبّيًا: ترجيع الشهقة العالية.
(٨) الصبا: الريح، ريح الشرق خاصة.
(٩) أملد: ناعم.

كَمَداهنٍ من فضّةٍ فيها بُرادةُ عسجدِ[١]
حيّتك من أيدي الغصو ن بها أكُفُّ زبرجدِ[٢]

وقال عبدُ الرحمٰن بنُ عليّ النحويّ: [من الخفيف]

زان حُسنَ الحدائق النّسرينُ فالحِجا[٣] في رياضه مفتونُ
قد جرى فوقه اللُّجين[٤] وإلّا فهو من ماء فضّة مدهونُ
أشبهتْه طُلَى[٥] الحسان بياضًا وحوتْه شبهُ القُدود غصونُ

وقال آخَر فيه مُلغِزًا: [من الوافر]

ومشمومٍ له عَرف[٦] ذكيٌّ وفي تصحيفه[٧] بعضُ الشُّهورِ
إذا أسقطتَ خمسَيه تراه عِيانًا في السماءِ وفي الطّيورِ
وأوّله وآخِرُه سواءٌ وباقيه يَشِحّ[٨] به ضميري

وأمّا البان[٩] وما قيل فيه - فقال أبو عليّ بن سينا في ماهية البان: حَبّه أكبر من الحِمَّص، إلى البياض، وله لُبٌّ ليّن دُهنيّ؛ وطبعه حارّ في الثالثة، يابسٌ في الثانية. وقال: إنه منقٍّ، خصوصًا لُبّه، يقطع الأخلاط الغليظة، ويفتّح مع الخَلّ والماء سُدَدَ الأحشاء. قال: وقشره قابض، ولا يخلو دُهنُه من قبض وفي جميعِه جِلاءٌ وتقطيع؛ وحَبُّه ينفع من البَرَش[١٠] والنَّمَش[١١] والكَلَف والبَهَق[١٢] وآثارِ القُروح وكذلك دُهنه. قال: وينفع من الأورامِ الصُّلبة كلِّها إذا وقع في المراهم، ومن الثّآليل، وهو بالخَلّ ينفع من التقشّر والجَرَب المتقرّح والبُثور اللَّبَنيّة، وهو يسخِّن العَصَب، ويليّن التشنّج وصلابات العَصَب، وخصوصًا دُهنَه. قال: وينفع من الرّعاف لقبضه، ودُهنه يوافق وجعَ الأذن والدويَّ فيها، خصوصًا مع شحم البطّ؛ وطبيخ أصله ينفع من وجه الأسنان مضمضة، وهو ينفع من صلابة الطِّحال والكبد إذا شُرِب بخلٍّ ممزوج وزن

(١) عسجد: ذهب.
(٢) زبرجد: حجر كريم مختلف الألوان.
(٣) الحجا: العقل.
(٤) اللجين: الفضّة.
(٥) طلى: أعناق.
(٦) عرف: رائحة.
(٧) تصحيفه: قلب حروفه.
(٨) يشحّ: يضنّ ويبخل.
(٩) البان: ضرب من الشجر الكريم يقال له الخلاف، يؤخذ منه صمغ جيّد.
(١٠) البرش: ضرب من الأمراض الجلدية يصيب الوجه خاصة.
(١١) النمش: بثور تنتشر في الوجه لونها يخالط سائر لون الوجه.
(١٢) البهق والكَلَف: بياض يعتري الجلد.

درهمين منه؛ والمثقالُ من حَبِّه يُسهل بلغمًا خامًا إذا شُرِب بالعسل، وكذلك دُهنُه إذا احتُملتْ فتيلةٌ مغموسةٌ فيه.

وأمّا ما جاء في باكورة الخِلاف[1] ـ قال شاعر: [من المنسرح]

أوّلُ ثغر الربيع مبتسِمًا نَوْر[2] خِلافٍ درٌّ مَضاحكُه
قضبانُه القانتات في لُمَعٍ من لؤلؤ وُضَّحٍ مَسالكُه
بشيرُ صدق جاء الربيع به يخبر أن زُيِّنت مَمالكُه

وقال آخر: [من مخلع البسيط]

عُود خِلافٍ أتى وفاقًا من المَلاهي بلا خِلافِ
مرصّعٌ قشرُه بنَوْرٍ أُلِّف من لؤلؤ وِلافِ[3]

وقال أبو عُبادة البحتريّ: [من الكامل]

هذا الرّبيع كأنّما أنوارُه أولادُ فارسَ في ثياب الرومِ
وترى الخِلاف كشارب من قهوَة[4] ثَمِلٍ إلى شرب المدامةُ يُومِي
بَسَط البسيطة سندسًا وتبرقعت قلل المياه بلؤلؤ منظومِ

وقال مؤيِّد الدّين الطُّغرائيّ: [من المتقارب]

غصون الخِلاف اكتست فانبرَتْ لها الطّير دارسةً شدوَها
مقدِّمةً لوُرود الربيـ ـع تشخص أبصارنا نحوَها
أحسّت برحلة فصلِ الشتا فجاءت وقد قَلَبتْ فَروَها

وقال آخَر، وهو شهاب الدين أحمد، عُرف بأبي جَلْنك الحلبيّ: [من الرجز]

لله بستانٌ حللنا دَوْحَه في لذّةٍ قد فَتَّحتْ أبوابَها
والبان تحسَبه سنانيرَ[5] رأت بعضَ الكلاب فنَفّشتْ أذنابَها

(١) الخلاف: البان.
(٢) نور: زهر.
(٣) الولاف: اللامع بصورة متتابعة.
(٤) القهوة: الخمرة.
(٥) سنانير: جمع سنّور، وهو الهرّ.

وكتب الصاحبُ بنُ عَبّاد ـ وقد أهدَى باكورةَ خِلاف ـ قد نَوّرتْ لتنوير الخلاف فضائلُ لا تحصَى، ومحاسن يطول أن تُستقصَى؛ منها أنّه أوّل ثغر يبتسم عند الربيع ويَضحك، ودرّ يُعقَد على القُضبان ويُسلك؛ ولتمايله اذّكار لقدود الأحباب، وتهييج لسواكن الاضطراب؛ وحُمل إليّ قضيب منه ذاته متعادله، ولذّاته متقابله، فأنفذتُه مع رقعتي هذه إليك، وسألت الله أن يعيده ألفَ حول عليك. قال، وقلت: [من الخفيف]

وقضيبٍ من الخِلاف بديعٍ — مستخَصٍّ بأحسن الترصيع
قد نَعَى شِرّةَ[1] الشتاء إلينا — وسعى في جِلاء وجه الربيع
وحكى مَن أُحبُّ عَرفًا وظَرفًا — واهتزازًا يثير نار الضلوع

وأمّا النَّيْلَوْفَر وما قيل فيه ـ فقال ابن التلميذ: النَّيْلَوْفَر اسم فارسيّ معناه النيليّ الأجنحة، والنيليّ الأرياش. وربما سمّي بالفارسية اسمًا معناه كرنب الماء؛ وسمّاه جالينوس: كرنب الماء؛ وحَبّه يسمّى حَبَّ العروس، وفيه حلاوة. وقال أبو بكر بن وحشيّةَ في توليده: إن أخذتم ظِلفَي الغزال من يديه، وقرنيه جميعًا، وطمرتم ذلك في التراب النديّ، خرج من ذلك النباتُ الذي يسمّى شاكريًا، وهو النَّيْلَوْفَر، وقال أيضًا: وإن أخذتم عيني الغزال وقرنيه وظِلْفًا واحدًا من يديه، وطمرتم ذلك في التراب، خرج منه الشاكريّا الأزرق؛ فإن طمرتم ظِلفيه من رجليه وقرنَه الأيسر مع كفّ من بعره، خرج منه الشاكريّا الأحمر؛ فإن نقصتم من هذا أحدَ ظِلفي رجليه، خرج الشاكريا الأصفر. قال: والهندُ تسمّيه نِينَوفَر، والنَّبَط تسمّيه نِيلَوفَريا، والعرب تسمّيه نِيلَوفه، والفُرس تسميه نِيلُوفَر.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بن سينا: والنَّيْلَوْفَر الهنديّ في حُكم اليَبْروح، وأقواه الأبيض الأصل؛ وبِزره أقوى من حَبّه. قال: وطبعه بارد رَطْب في الثانية؛ وشرابُه شديد التطفئة، ملطِّف جدًّا، وأصله بالماء على البَهَق نافع خصوصًا الأَسْوَدَ، وأصله مع الزفت على داء الثعلب، وخصوصًا الأسود؛ وشرابه جيّد للسُّعال والشَّوْصَة[2]. قال: وأصله ينفع من الأورام الحارّة؛ وأصله وبِزره للقُروح، وأصله ينفع أورام الطِّحال شربًا وضِمادًا، وينفع الاحتلام، ويَكسِر شهوة الباه إذا شُرِب منه

(١) شرّة: سورة وقسوة وطفرة.
(٢) الشوصة: ضرب من الأورام أو الأرياح في الضلوع.

درهم بشراب الخَشْخَاش[١]؛ وهو يُجمِد المنيّ بخاصيّة فيه، وخصوصًا أصلَه، وهو منوّم، مسكّن للصّداع الحارّ الصفراويّ، لكنّه يُضعف؛ وأصله ينفع من الإسهال المزمن وقُروح المِعَى وأوجاع المَثانةِ ضِمادًا؛ وبِزره أقوى في كل شيء، حتى إنه يَمنع نَزَف الحيض؛ وأصل الأصفر منه وبرزُه إذا شربا نفعا سيلان الرطوبة المزمنة من الرحم؛ وشرابه مليّن للبطن، نافع من الحميّات الحارّة، شديد التطفئة، والله المستعان.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال أبو بكر الزُّبيديُّ الأندلسيّ: [من السريع]

وبِركةٍ أحيا بها ماؤها ... من زهرها كلَّ نبات عجيبْ
كأنّ نَيْلَوْفرها عاشق ... نهارَه يَرقُب وجهَ الحبيبْ
حتى إذا الليل بدا نجمُه ... وانصرف المحبوب خوف الرقيبْ
أطبَقَ جفنيه عسى في الكرى[٢] ... يبصر من فارقه عن قريبْ

وقال آخَر: [من السريع]

يا حبّذا بِركةُ نيْلَوْفَرٍ ... قد جَمّعت من كلّ فنّ عجيبْ
أزرقَ في أحمرَ في أبيضٍ ... كقَرصة في صحن خدّ الحبيب
كأنّه يَعْشَق شمس الضُّحى ... فانظره في الصبح وعند المَغيب
إذا تجلّت يتجلّى لها ... حتى إذا غابَ سَناها يغيب
يرنو إليها مبصرًا يومَه ... ولا يحاشِي نظراتِ الرقيب
لا يَبتغي وجهًا سوى وجهِها ... فِعلَ محبّ مخلص في حبيب

وقال التّنُوخيّ: [من الكامل]

فكأنّه في الماء صاحبُ مذهب ... أغراه وِسواس[٣] بأن لم يَطهُرِ

وقال آخر: [من مجزوء الخفيف]

كلّنا باسط اليد ... نحو نَيْلَوْفَرٍ ندي
كدبابيسِ عسجدٍ ... نُصْبُها من زبرجدِ

---

(١) الخشخاش: نبات عشبي من فصيلة الخشخاشيات يحمل أكوازًا بيضًا وهو منوّم مخدّر.
(٢) الكرى: النوم.
(٣) الوسواس: مرض يحدث من غلبة السّوداء ويختلط معه الذهن.

وقال آخَر: [من السريع]

إشرب على بِركة نَيْلَوْفرِ ... محمرّةِ الأوراق خضراءِ
كأنّما أزهارُها أخرجتْ ... ألسنةَ النار من الماءِ

وقال آخَر: [من المتقارب]

ونَيْلَوْفَر صافحتْه الرياح ... وعانقه الماء صفوًا ورَنْقا[1]
تَخيَّلُ أوراقَه في الغدير ... ألسنةَ النار حمرًا وزُرقا

وقال آخَر: [من المنسرح]

صفرُ المداري تضمّها سَرَق ... مفتضِخٌ عند نَشرِها العطِرُ
تَحمِلها خَيْزُرانة[2] ذَبُلت ... ذبولَ صبّ أذابه الهجرُ

وقال ابنُ الروميّ: [من الكامل]

يرتاح للنَّيْلَوْفَر القلبُ الذي ... لا يستفيق من الغرام وجَهدِهِ
والوَرد أصبح في الروائح عبدَه ... والنرجس المِسكيّ خادمُ عبدِه
يا حسنَه في بِركة قد أصبحت ... محشوّةً مسكًا يشاب بنَدّهِ[3]
وكأنّه فيها وقد لحَظ الصَّبا ... ورمى المَنام ببُعده وبصَدّه
مهجورُ حبٍّ ظَلّ يرفع رأسَه ... كالمستجير بربّه من ضدّه
وكأنّه إذا غاب عندَ مَسائه ... في الماء فأنحجبت نَضارة قَدّه[4]
صبّ يهدّده الحبيب بهجره ... ظُلمًا فغَرَّق نفسَه من وجدِهِ

وقال مؤيِّد الدّين الطُّغْرائيّ: [من الطويل]

ونَيْلَوْفَرٍ أعناقُه أبدا صُعْر ... كأنّ به سُكرًا وليس به سُكْرُ
إذا انفتحتْ أوراقُه فكأنّها ... وقد ظهرت ألوانُها البِيض والصُّفرُ
أناملُ صبّاغ صُبِغن بنِيلِهِ ... وراحتُها[5] بيضاء في وَسْطها تبرُ

---

(١) رنقًا: كدرًا.

(٢) الخيزرانة: كل عود ليّن، والخيزرانة: الفتاة اللينة كالخيزران.

(٣) النَدّ: ضرب من العود يتبخّر به، طيّب الرائحة.

(٤) قدّه: قوامه. (٥) راحتها: كفها.

وقال السّريّ الرّفّاء: [من السريع]

وبِركةٍ حُفّت بِنَيْلَوْفَرِ ... ألوانُه بالحُسن منعوتهْ
نهارَه ينظر عن مقلة ... ساجيةِ الألحاظ مبهوتهْ
وإن بدا الليل فأجفانُه ... في لُجّة البِركة مسبوتهْ(١)
كأنّما كلُّ قضيب له ... يَحْمِل في أعلاه ياقوتهْ

وقال آخر: [من السريع]

وبِركةٍ تزهو بِنَيْلَوْفَرِ ... نسيمُه يشبه نشرَ الحبيبْ
مفتَّحِ الأجفان في يومِه ... حتى إذا الشمسُ دنت للمَغيبْ
أطبَق جفنيه على حِبّه ... وغاص في البِركة خوفَ الرقيبْ

وقال آخَر: [من الوافر]

تحبُّ الشمسَ لا تبغي سواها ... وتلحظها بمقلة مستهامِ
إذا غابت تَكنَّفَها اشتياقٌ ... فنامت كي تَراها في المنامِ

وقال الرّفّاء: [من المنسرح]

يا حُسنَ نَيْلَوْفَرٍ شُغِفتُ به ... يمنحه الماء صفوَ مشروبِهْ
كأنّه عاشق به ظمأٌ ... تَوهَّمَ الماءَ ريقَ محبوبِهْ

وقال آخَر: [من البسيط]

وشاخصٍ نحوَ عين الشمس يَرمقُها ... حتى إذا غَرَبتْ أغضَى(٢) بتنكيسِ(٣)
تَراه من قِطَع المَرجان في قُضُب ... زرقِ الشوابير(٤) أمثالِ الدّبابيسِ
كأنّه ودُروعُ الماء تَشمَله ... تحت الشُّعاع أكاليلُ الطَّواوِيسِ

وقال آخَر: [من الطويل]

ونَيْلَوْفَرٍ قد لاح في زِيِّ فاقدٍ ... حبيبًا فمنه يستعير لباسَهُ

---

(١) مسبوتة: نائمة.
(٢) أغضى: أظلم أو سكت وصبر، وأقفل عينيه.
(٣) تنكيس: إغفاء، وقلب.
(٤) الشوابير: ضرب من الثياب، والمفرد شابور وشوبر.

يَظَلّ نهارًا شاخصَ الطّرف لاحظًا ويَغْمِس جنحَ الليلِ في الماء رأسَهُ
كـأنَّ عـليـه لـلظَّـلام مـراقـبًـا فيَهربُ منه أو يَخاف اختلاسَهُ

وقال مؤيّد الدّين الطُّغْرائيّ: [من السريع]

نَـيْـلَوْفَـرٍ يَـسْـبَـح فـي لُجّـةٍ(١) عـلـيــه ألــوانٌ مــن الــلُّبْـسِ
مُـظـاهِـرٌ ثــوب حِـدادٍ عــلـى ثـوبِ بـيـاضٍ عُـلَّ بـالـوَرْسِ(٢)
فـالـشّـطـر مـن أعـلاه فـي مـأتَـمٍ وشَـطـره الأسـفـلُ فـي عُـرسِ
مـغـمَّـضٌ طُـولَ الـدّجـى نـاعـسٌ جـفـونُـه تُـفـتَّـحُ فـي الـشـمـسِ

الباب الثاني
من القسم الثالث من الفنّ الرابع
فيما يُشمّ رَطْبًا ولا يُسْتَقْطَر

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل في البنفسَج والنرجِس والياسَمِين والآس والزعفران والحَبَق.

فأمّا البنفسَج وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: طبعُ البنفسَج باردٌ رَطْب في الأُولى. وقال قوم: إنه حارٌّ في الأُولى. قال: ولا شكَّ في برودته.

وأمّا أفعاله وخواصّه، فقيل: إنه يولّده دمًا معتدلًا؛ وهو يسكّن الأورامَ الحارّةَ ضِمادًا مع سَوِيق الشعير؛ وكذلك ورقُه. قال: ودُهنُ البنفسَج طلاءٌ جيّدٌ للجرب؛ وهو يسكّن الصُّداع الدّمويّ شَمًّا وطِلاء. قال: وينفع من الرَّمَد الحارّ ومن السُّعال الحارّ، ويليّن الصّدر، خصوصًا المربّى منه بالسكّر؛ وشرابُه نافع من ذات الجَنْب(٣) والرِّئة والتهاب المعدة؛ وشرابه ينفع من وجع الكُلَى؛ ويابسُه يُسْهِل الصفراء؛ وشرابُه أيضًا يليِّن الطبيعةَ برفق.

(١) اللجّة: معظم الماء.
(٢) الورس: ضرب من النبت الأصفر يشبه الزعفران.
(٣) ذات الجنب: ضرب من الحمّى.

وأمّا ما جاء في وصفه؛ فقال أبو القاسم بنُ هُذَيْل الأندلسيّ - ويُروَى لابن المعتزّ -: [من البسيط]

بنفسَجٌ جُمّعَتْ أوراقُه فحكت[١] كُحلًا تَشرَّبَ دمعًا يوم تَشتيتِ[٢]
أو لازَوَرْدِيّةٍ أوفت بزُرْقتِها وَسْطَ الرّياض على زُرْقِ اليواقيتِ
كأنّه وضعافُ القُضب تحمله أوائلُ النار في أطراف كِبريتِ

وقال آخَرُ في معناه: [من البسيط]

بنفسَجٌ بذكيّ الريح مخصوصُ ما في زمانك إذ وافاك تنغيصُ[٣]
كأنّما شُعَل الكِبريتَ مَنْظَرُه أو خدُّ أغيَد[٤] بالتخميش[٥] مقروصُ

وقال أبو الحسن العُقَيليّ: [من الكامل]

اِشربْ على زَهر البنفسَج قهوةً[٦] تنفي الأسى عن كلّ قلب مُكمَدِ[٧]
فكأنّه قَرْصٌ بخدّ خَريدةٍ[٨] أو أعينٌ زُرق كُحِلن بإثمِدِ[٩]

وقال آخَر: [من البسيط]

ماس[١٠] البنفسَجُ في أغصانه فحَكَى
زرقَ الفصوص على بِيض القراطيسِ[١١]
كأنّه وهُبوب الرّيح يَعطفه
بين الحدائق أعرافُ الطّواويس[١٢]

وقال آخَر: [من مجزوء الكامل]

أهدت إليّ بنفسَجًا أحبب بمُهدية البنفسَجْ
فكأنّه هي في اللّطافة والذّكاء إذا تأرَّجْ

(١) حكت: ماثلت وشابهت.
(٢) تشتيت: تفريق.
(٣) تنغيص: تكدير.
(٤) أغيد: صفة للشاب في عنقه ميل وبياض وتثنٍّ في القوام.
(٥) التخميش: التجريح بالأظافر.
(٦) قهوة: خمرة.
(٧) مكمد: مهموم، محزون.
(٨) الخريدة: الفتاة البكر لم تمسّ.
(٩) الإثمد: الكحل.
(١٠) ماس: تمايل وتثنّى.
(١١) القراطيس: الأوراق والصحف.
(١٢) أعراف الطواويس: قنازعها وريشها الملوّن المصبوغ.

أوراقُــه الــلَّهــب الــمُــطِــ ـلُّ على الذُّبالة[١] حين تُسرَجْ[٢]
أو إثـــرُ قَـــرْص مـــؤلِـــم في وجنة الخدّ المضرَّجْ

وقال آخَرُ في الأبيض منه ـ وذكر ممدوحًا ـ: [من المتقارب]

كـأنّ الـبـنـفـسَـجَ فـيـمـا حَـكَـى من الطِّيب أخلاقَك المونِقهْ
يـلـوح فـتَـحـسَـب طـاقـاتِـه فصوصًا من الفضّة المحرقَهْ

وقال أبو الحسن الشاطبيّ ـ ويروَى لابن الروميّ ـ: [من مجزوء الكامل]

اِشـربْ عـلى زَهـر الـبـنـفـ ـسَج قبل تأنيب الحسود
فــكـــأنَّــمـــا أوراقُـــه آثـارُ قَـرْصٍ فـي الـخـدود

وقال آخَر: [من الخفيف]

وكـأنّ الـبـنـفـسَـجَ الـغـضَّ يحكي أثَـر الـلَّطم في خدود الغِيد

وقال أبو هِلال العسكريّ: [من الخفيف]

وبـحـافـاتـهـا الـبـنـفـسَـجُ يَـحـكـي أثَرَ القَرْص في خدود العَذارَى

وقال المِيكاليُّ فيه متفائلًا به: [من المنسرح]

يـا مُـهـديًـا لـي بـنـفـسَـجًـا أرِجـا يـرتـاح قـلـبـي لـه ويـنـشـرحُ
بـشّـرَنـي عـاجـلًا مـصـحَّـفُـه[٣] بـأنّ ضِـيـقَ الأُمـور يـنـفـسـحُ

وتَطيَّر آخَرُ به، فقال: [من المنسرح]

يا مُهديًا لي بنفسَجًا سَمِجًا أوَدُّ لـو أنّ أرضَـه سَـبَـخُ[٤]
أنـذَرَنـي عـاجـلًا مـصـحَّـفُـه بـأنّ عَـقـدَ الـحـبـيـب يـنـفـسـخُ

وقال صالحُ بنُ يونس: [من مخلّع البسيط]

بـنـفـسَـجٌ جـاء فـي حِـدادِ ووَردنـا فـي مـعـصـفَـراتِ[٥]
فـاْشـربْ عـلى مـأتـمٍ وعُـرْسٍ جَـلًا جـمـيـعًـا عـن الـصِّـفـاتِ

---

(١) الذبالة: الفتيلة. (٢) تسرج: تهيّىء السراج للإنارة، وتنيره
(٣) مصحّفة: تصحيف اسمه وقلب حروفه.
(٤) سبخ: السبخ من الأرض، ما أرضه ملحيّة لا تصلح للإنبات.
(٥) معصفرات: ثياب ملوّنة بلون العصفر، وهو نبت أصفر اللّون.

ومن رسالة لأبي العَلاء عطاءِ بنِ يوسفَ السِّنديِّ يصف طاقةَ بنفسَج، قال: سماويّةُ اللِّباس، مِسكيّةُ الأنفاس؛ واضعةٌ رأسَها على ركبتها كعاشقٍ مهجور، ينطوي على قلبٍ مسجور[١]؛ كبقايا النّقش في بَنان الكاعب[٢]، أو النّقس[٣] في أصابع الكاتب؛ أو الكُحْل في ألحاظ الملاح، المراضِ الصِّحاح؛ الفاترات الفاتنات؛ المحييات القاتلات، لازَوَرْدِيّةٌ أوفَتْ زُرقتُها على زُرق اليواقيت، كأوائل النار في أطرافِ كِبريت؛ أو كأَثَر القَرْص في خدود العَذارَى: [من الخفيف]

* أو عِذارٍ خَلعتْ فيه العِذارا[٤] *

وأمّا النّرجِسُ وما قيل فيه ـ فقال أبو بكر بنُ وحشيّةَ في توليده: إن أردتم النرجِسَ فخذوا قرنَي الغزال، فاقطعوا كلَّ قَرْن نصفين، وانقَعوهما في بول البقر سبعة أيّام، ثم اقلَعوا عينَي الغزال، واجعلوهما فوق رؤوس القرون، واطمِروهما في الأرض في أوّل ساعةٍ من يوم الجمعة، فإنّه بعد خمسةَ عشر يومًا ينعقد نرجِسًا مفتَّحًا. وإن أردتموه مضعَّفًا فخذوا الثُّوم، ثم شُقُّوا البصل، واجعلوا الثُّومة في وَسَطها، ولتكن سِنًّا واحدة، ثم ضُمّوا على الثُّومة نصفَي بصلة النرجِس، واغرِسوها في الأرض، فإنّه ينبت النرجس المضاعَف؛ وإن أردتم المضاعَف الذي بعضُ ورقِه أخضرُ وبعضُه أصفر، فخذوا سِنًّا من الثُّوم، وخذوا عُصارةَ ورق بصل النرجِس، وانقَعوا السّنَّ في العُصارة ثلاثةَ أيّام، ثمّ أدخِلوها في البصلة، واغرِسوها في الأرض، فإنّها تنبت بعد أيّام قلائل. وقال أبو عليّ بنُ سينا: إنّ أصل النّرجِس يُخرِج الشَّوْكَ والسُّلّاء[٥]، وخصوصًا مع دقيق الشَّيْلَم[٦] والعسل. قال: والنَّرجِس يجلو الكَلَف والبَهَق، وخصوصًا أصلَه بالخَلّ، وينفع أصلُه من داء الثَّعلب[٧]؛ ويُعْجَن أصلُه مع العسل والكِرْسِنّةِ فيفجِّر الدّماميل العَسِرةَ النُّضج؛ ويُضمَد بأصله على أورام العَصَب. قال: والنّرجِس يجفِّف الجراحات، ويُلزقها إلزاقًا شديدًا؛

---

(١) مسجور: محمّى بالنّار. (٢) الكاعب: الفتاة التي كعب نهداها وظهرا.

(٣) النّقس، بكسر النون: المداد الذي يكتب به.

(٤) العذار، الأولى: جانب الوجه، والعذار الثانية: الحياء.

(٥) السّلاء: ضرب من الشوك للنّخل خاصة.

(٦) الشيلم: ما يخالط القمح من حبّ أسود ينبذ ويطرح منه عند التنقية.

(٧) داء الثعلب: داء يصيب الجلد فينزع الشعر عنه.

ودُهنُه ينفع للعَصَب. قال: وينفع من الصُّداع الرَّطب السّوداويّ وكذلك دهنُه، وهو أوفق؛ ويصدِّع الرؤوسَ الحارّة، وإذا أُكِلَ أصلُه هيَّج القَيْء؛ وإذا شُرِبَ منه أربعةُ دراهمَ بماء العسل أسقَط الأجنّة الأحياءَ والأموات؛ ودُهنه يفتِّح انضمامَ الرَّحِم، وينفع من أوجاعِها.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال أبو نُواس الحسنُ بنُ هانيء: [من الطويل]

لَدَى نرجِسٍ غضِّ القِطاف كأنّه إذا ما منحناه العيونَ عيونُ
مخالفة في شَكلهنّ بصُفرةٍ مكانَ سوادٍ والبياض جفون

وقال أبو الفتح محمود كُشاجِم: [من مجزوء الرجز]

كأنّما نرجِسُنا قد تَبدّى من كَثَبْ[1]
أناملٌ من فضّةٍ يَحمِلن كأسًا من ذهبْ

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَريّ: [من السريع]

أضْعَفَ قلبي النرجِسُ المُضْعَفُ ولا عجيبٌ إن صَبا مُدنَفُ[2]
كأنّه بين رياحينِنا أعشارُ آي[3] ضَمَّها مصحَفُ

وقال آخر: [من مجزوء الرجز]

ونرجِسٍ إلى حدا ئقِ الرياض مُحْدِقِ
كأنّما صُفرتُه على بياضٍ يَقَقِ[4]
أعشارُ جُزءٍ ذُهِّبتْ من وَرِقٍ في وَرَقِ

وقال أبو بكر بنُ حازم: [من البسيط]

ونرجسٍ ككؤوس التِّبر لائحةً من الزّبرجد قد قامت بها ساقُ
كأنهنّ عيونٌ هَدْبُها[5] وَرِقٌ لهنّ من خالص العِقْيان أحداقُ

---

(١) كثب: قرب. (٢) المدنف: العاشق المولّه، وصبا: مال.
(٣) أعشار الآي: الأقسام من آيات القرآن الكريم.
(٤) يقق: شديد البياض، كاليقق، وهو القطن، أو شحم النخلة ولبّها.
(٥) هدبها: أهدابها، أطراف الرموش.

وقال الصَّنَوْبَرِيّ: [من المنسرح]

ونرجِسٍ مُضْعَفٍ تَضاعَف منـ ـه الحُسنُ في أبيضٍ وفي أصفرْ
الدُّرُّ والتِّبر فيه قد خُلِطا للعين والمِسكُ فيه والعنبرْ

وقال أيضًا يصفُه في مَنابِته: [من الكامل]

أرأيتَ أحسنَ من عيون النرجِسِ أو من تَلاحُظِهِنّ وَسْطَ المجلسِ
دُرٌّ تَشقَّقَ عن يواقيتٍ على قُضُبِ الزبرجد فوق بُسْطِ السُّندسِ
أجفانُ كافورٍ حُشِين بأعيُنٍ من زعفرانٍ ناعمات المَلْمَسِ
مغرورِقاتٍ في تَرقرُق طَلِّها(١) ترنو بعين الناظر المتفرِّسِ
فإذا تَنَشَّقها تَنفَّسَ ناشقٌ عن مِثل ريح المِسك أيَّ تَنفُّسِ
وحَكَى تَداني بعضِها مِن بعضِها يومًا تَدانِي مؤنِسٍ من مؤنِسِ
وإذا نَعَستَ من المُدام رأتَها ترنو إليك بأعين لم تَنْعَسِ

وقال ابنُ الرُّوميّ: [من المنسرح]

ونرجِسٍ كالثُّغورِ مبتسِمٍ له دموعُ المحدِّق الشاكي
أبكاه قَطْرُ النَّدَى وأضحَكَهُ فهو من القَطْر ضاحكٌ باكي

وقال آخَر: [من الخفيف]

قد عَكَفْنا(٢) على عيونٍ من النر جِس بِيضٍ مصفرّةِ الأحداقِ
ذابلاتِ الأجفانِ كالعاشق الوا قف يشكو الهوى على فَرْدِ ساقِ

وقال شاعرٌ أندلسيّ: [من البسيط]

أُنظرْ إلى نرجِسٍ في روضةٍ أُنُفٍ(٣) غَنّاءَ(٤) قد جَمَعتْ شتّى من الزَّهَرِ
كأنّ ياقوتةً صفراءَ قد طُبعتْ في غصنه حولها ستٌّ من الدُّررِ

---

(١) طلّها: نداها. (٢) عكفنا: أقمنا.
(٣) أنف: الأنف من الرياض، ما لم تُرْعَ أبدًا، البكر.
(٤) غنّاء: عامرة بالشجر والعشب.

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

أبـــصـــرتُ بـــاقـــةَ نـــرجِـــسٍ فـي كـفٍّ مـن أهـواه غَـضّـهْ[١]
فـكـأنّـهـا قُـضُـبُ الـزَّبـر جـد قُـمِّـعـتْ ذهـبًا وفِـضّـهْ

وقال ابنُ عَبّاد[٢]: [من البسيط]

عَمْري لقد راق طرفي حُسْنُ زاهرةٍ تميس في سُندسيّاتٍ من الوَرَقِ
أبدت لنا عَجَبًا منها حديقتُها عينًا من التِّبْر في جَفنٍ من الوَرِقِ

وقال أبو الفضل المِيكاليّ: [من المجتثّ]

أهـلًا بـنـرجِـسِ روضٍ يُـزْهَـى بـحُـسـنٍ وطِـيـبِ
يـرنـو بـعـيـنَـيْ غـزالٍ عـلى قـضـيـبٍ رَطـيـبِ
وفـيـه مـعـنًـى خـفـيٌّ يَـزيـنُـه فـي الـقـلوبِ
تـصـحـيـفُـه إن نَـسَـقـتَ الـ ـحـروفَ بِـرُّ حـبـيـبِ

وقال آخَر: [من السريع]

لـمّـا أطـلنـا عـنـه تـغـمـيـضًـا أهـدَى لـنـا الـنّـرجِـسَ تـعـريـضـا
فـدَلّـنـا ذاك عـلى أنّـه قـد اقـتـضـانـا الـصُّـفـرَ والـبِـيـضـا

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الرجز]

ونـرجِـسٍ مِـثـلِ أكُـفِّ خُـرَّدٍ[٣] دُونَ عـلـيـنـا بـكُـؤوس الـذهـبِ
نـاوَلَنِـيـهِ مِـثـلُه فـي حـسـنـهِ فـحَـلّ مـن قـلبيَ عَـقـدَ الـكُـرَبِ
مـبـتـسِـمٌ عـنـه ونـاظـرٌ بـه هـذا لَعَـمْري عَـجَـبٌ في عَـجَـبِ

وقال أيضًا فيه: [من المنسرح]

ونـرجـسٍ قـام فـوق مِـنـبـرِهِ مثـل عَروسٍ تُجْلَى[٤] وتشـتَـهِـرُ
نـام الـنَّـدَى فـي عـيـونـه سَـحَـرا فـاعـتـاده فـي مـنـامـه سَـهَـرُ

---

(١) غضّة: طريّة.
(٢) هو الصاحب بن عباد، الوزير والكاتب والشاعر، سبق التعريف به.
(٣) خرّد: جمع خريدة، وهي الفتاة الحسناء الفريدة بجمالها.
(٤) تجلى: يعمل لها الجلوة ليلة الزفاف، وهي الزينة.

لـم يَغـتـمض والـظـلامُ حَـلّ بـه | كـأنـمـا فـي جـفـونـه قِـصَـرُ
تَـحـيَّـرَ الـطَّـلُّ فـي مـدامـعِـهِ | فـلـيس يَـرقـا ولـيـس يـنـحـدرُ
كَـدمـعةِ الـصَّبّ[1] كـاد يَـسكُـبُـها | فـرَدّهـا فـي جـفـونـه الـحَـذَرُ

وقال ابنُ المعتزّ: [من الطويل]

وعُجبنا إلى الرّوض الذي طَلَّه النَّدَى | ولِلصّبح في ثوب الظّلام حريقُ
كأنّ عيونَ النرجِس الغَضّ بينه | مَـداهـنُ دُرٍّ حـشـوهـنّ عـقـيـقُ
إذا بَـلَّهـنّ الـقَـطْـرُ خِـلتَ دموعَـها | بـكـاءَ جـفـونٍ كـحـلهـنّ خَـلوقُ[2]

وقال ابنُ الروميّ يفضّله على الوَرد: [من الكامل]

خَجلتْ خدودُ الوَرد من تفضيلِه | خَـجَـلًا تَـورُّدُهـا عـلـيـه شـاهـدُ
لـم يَـخْـجَـلِ الـوَردُ الـمورَّدُ لـونُـه | إلا ونـاحِـلُـه الـفـضـيـلةَ عـانِـدُ
للنرجس الفضلُ المبين وإن أبَى | آبٍ وحـادَ عـن الـطـريـقـة حـائـدُ
فَـصْـلُ الـقـضـيّـة أنّ هـذا قـائـدٌ | زَهـرَ الـرّبـيـع وأنّ هـذا طـاردُ
شـتّـانَ[3] بـيـن اثـنـين هـذا مُـوعِـدٌ | بـتَـسـلّب الـدنـيـا وهـذا واعـدُ
وإذا احتَفَظتَ به فأمتَعُ صاحبٍ | بـحـيـاتـه لـو أنّ حـيًّـا خـالـدُ
يَـحْـكِـي مـصـابـيـحَ الـسـمـاء وتـارةً | يَحكي مصابيحَ الوجوه تُراصِدُ
يَنْهَى النديمَ عن القبيح بلحظِه | وعلى المدامةِ والسَّماع يساعِدُ
إن كنتَ تطلب في الملاح سميَّه | يـومًـا فـإنـك لا مـحـالـةَ واجـدُ
والـوَردُ إن فَـتّـشـتَ فَـردٌ في اسـمِه | مـا فـي الـمـلاح لـه سَـمِـيٌّ واحـدُ
هـذي الـنجـومُ هـي الـتي رَبَّـيـنـهـا | بحَيا السحابِ[4] كما يربِّي الوالدُ
فأنظر إلى الولـدين مَن أوفاهـما | شَـبَـهًـا بـوالـده فـذاك الـمـاجـدُ
أين الـعـيـونُ من الـخـدود نَـفـاسـةً | وَرأسـةً لـولا الـقـيـاسُ الـفـاسـدُ

وقال أيضًا فيه: [من المتقارب]

وأحسَنُ مـا فـي الـوجـوه الـعـيـون | وأشـبـهُ شـيءٍ بـهـا الـنَّـرجِـسُ

---

(١) الصب: العاشق المحبّ.
(٢) الخلوق: ضرب من الطّيب شديد الرائحة، ذكيّها.
(٣) شتان: اسم فعل بمعنى: بعد.
(٤) حيا السحاب: مطر الغمام.

وقال أيضًا: [من البسيط]

وزعفرانيّةٍ في اللَّون تحسَبُها إذا تأمّلتَها في ثوبِ كافورِ
كأنّ حَبَّ سَقِيط الطَّلِّ بينهما دمعٌ تَحيَّرَ في أجفان مهجورِ

وقال عبدُ الله بن المعتزّ: [من الطويل]

عيونٌ إذا عاينتَها فكأنّما مَدامعُها من فوق أجفانها دُرُّ
مَحاجرُها[١] بِيضٌ وأحداقُها صُفرُ وأجسامُها خُضرٌ وأنفاسُها عِطرُ

وقال محمدُ بن يزيدَ المبرِّد[٢]: [من السريع]

نرجِسةٌ لاحظني طَرفُها تُشبِه دينارًا على دِرهمِ

وقال عُبيد الله بنُ عبد الله: [من المنسرح]

ترنو بأحداقِها إليك كما ترنو إذا خافت اليَعافِيرُ[٣]
مِثل اليواقيت قد نُظِمن على زبرجدٍ بينهنَّ كافورُ
كأنّها والعيونُ ترمُقُها دراهمٌ وَسْطَها دنانيرُ

وأمّا الياسَمِين وما قيل فيه ـ فالياسَمِين والياسَمون اسم فارسيّ، وهو نوعان: بَرّيّ، ويسمَّى بَهْرَامج، وتسمّيه العرب الظَّيان؛ وبستانيّ، وهو أصفرُ وأبيض، والأبيضُ أطيَبُ رائحة. قال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: طبعُ الأبيض أسخَنُ من الأصفر، والأصفر من الأُرْجُوَانيّ؛ وهو بالجملة حارٌّ يابسٌ في الثانية. قال: وهو يلطِّف الرطوبات، ودُهْنُه ينفع المشايخ. قال: وهو يُذْهِب الكَلَف رَطْبُه ويابسُه، وكثرةُ شَمّه تورث الصُّفار؛ ودُهنُه نافعٌ للأمراض الباردة في العَصَب؛ ورائحتُه مصدِّعة، لكنّها مع ذلك تَحُلُّ الصُّداع الكائنَ عن البَلْغَم اللَّزِج إذا شُمّت، والخالص من دُهنه يُرعِف المحرور[٤] إذا شمّه لوقتِه.

---

(١) محاجرها: جمع محجر، ومحجر العين: مستقرّها.
(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، العالم بالنحو واللغة، تلميذ المازني والسجستاني، أديب وشاعر، علّم في بغداد، ومن أهم مؤلفاته «الكامل في اللغة والأدب». مات سنة ٢٨٥ هـ/ ٨٩٨ م.
(٣) اليعافير: جمع يعفور، وهو ولد الظبية، أو البقرة الوحشية، في لونه عفرة.
(٤) المحرور: الذي يعاني من الحمّى وارتفاع الحرارة.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال أبو إسحٰق الحَضْرَميُّ يصفه قبل تفتُّحه: [من الطويل]

خليليّ هُبَّا وانفُضا عنكما الكَرَى وقُومَا إلى روض وكأسِ رحيقِ[١]
فقد لاح رأسُ الياسَمِينِ منوِّرا كأقراط دُرٍّ قُمِّعتْ بعقيقِ
يميل على ضَعْفَي الغصونِ كأنّما له حالتا ذي غَشيةٍ ومُفيقِ
إذا الرّيحُ أدّته إلى الأنف خِلتَه نسيمَ جَنوبٍ ضُمِّخت[٢] بخَلوقِ[٣]

وقال آخر: [من مخلّع البسيط]

وروضةٍ نَوْرُها[٤] يَرِفُّ مثل عروسٍ إذا تُزَف[٥]
كأنّما الياسَمِينُ فيها أناملٌ ما لَها أكُفُّ

وقال آخَر: [من الوافر]

كأنّ الياسَمِينَ الغَضَّ لمّا أدَرتُ عليه وَسْطَ الرَّوض عيني
سماءٌ للزبرجد قد تبدّت لنا فيها نجومٌ من لُجَيْنِ

وقال آخر: [من السريع]

وياسَمِينٍ عَبِقِ النَّشْرِ يُزْرِي[٦] بريح العنبر الشِّحْرِي
يلوح من بين غصونٍ له كمِثل أقراطٍ[٧] من الدُّرِّ

وقال المعتمِد بنُ عَبّاد[٨]: [من السريع]

كأنّما يَاسَمِينُنا الغَضُّ[٩] كواكبٌ في السماء تنقضُّ
والطُّرُقُ الحُمرُ في بواطنِه كخدِّ عذراء مَسَّه عَضُّ

---

(١) الرحيق: الخمرة. (٢) ضمّخت: شقّقت.
(٣) الخلوق: ضرب من الطّيب. (٤) نورها: زهرها.
(٥) تزفّ: تنقل إلى بيت عريسها ليلة الزفاف. (٦) يزري: يُنقص ويعيب.
(٧) أقراط: جمع قرط، وهو ما يعلّق بالأذن، والشّنف.
(٨) المعتمد بن عباد: واسمه محمد، من ملوك بني عبّاد في إشبيلية، وآخر ملك من ملوكهم، كان شاعرًا ومترسّلًا وكاتبًا. مات مسجونًا في أغمات سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م.
(٩) الغضّ: الطريّ.

وقال الشِّمشاطيُّ في دوحةٍ جَمعتْ بين الأبيض والأصفر: [من الرّجز]

ويـاسَـمِـيـنٍ قـد بـدا لـونـيـن   قُـراضـة مـن وَرِقٍ وعَـيْـنِ
رُكِّـب فـي زبـرجـدٍ نـوعـيـن   فـالـبِيضُ منه في عِيان الـعَيْنِ
مِـثلُ ثـغور الـبِيض غيـرَ مَيْنِ[1]   والـصُّفْرُ لـون عاشـقٍ ذي بَيْـنِ[2]

وقال أحمدُ بنُ عبد الرحمٰن القُرطُبيّ: [من الطويل]

ولَفّاءَ[3] خلناها سماءَ زبـرجـدٍ   لـها أنجمٌ زُهرٌ من الزَّهَر الغَضِّ
تَناوَلَها الجاني من الأرض قاعدا   ولم أرَ من يَجني النجومَ من الأرضِ

وقال شاعرٌ يتطيّر به: [من البسيط]

أصبحتُ أذكر بالرَّيحان رائحةً   منكم ولِلنفس بالرَّيحان إيناسُ
وأهجرُ الياسَمِين الغضَّ من حَذَر الـ   ـياس إذ قيل في شطر اسمِه ياسُ

وقال آخر: [من مجزوء الكامل]

لا مـرحـبًـا بـالـيـاسَـمِـيـن وإن غـدا لـلرَّوض زَيـنـا
صـحَّـفـتُـه فـوجـدتُـه   مـتـقـابـلًا يـاسًـا ومَـيْـنـا

ونظيرُه قولُ الآخر: [من السريع]

ويـاسَـمِـيـن إن تـأمّـلتَـه   حـقـيـقـةً أبـصـرتَـه شَـيْـنـا[4]
لأنّـه يـاسٌ ومَـيْـنٌ ومَـن   أحَـبَّ قـطُّ الـيـاسَ والـمَـيْـنَ

وقال ابنُ الحَدّاد في عكس ذلك: [من البسيط]

بَعثتُ بالياسَمِينِ الغضِّ مبتسِمًا   وحسنُه فاتنٌ لـلنفسِ والعيـنِ
بعثتُه منبئًا عن صدق مُعْتَقَدِي   فانظر تجد لفظَه ياسًا من المَيْنِ

وأمّا الآسُ وما قيل فيه ـ فالآسُ نوعان: بَرّيّ وبستانيّ، فالبَرّيّ هو الّذي يسمَّى بدِمَشقَ: قِف اْنظر، سُمّيَ بذلك لحُسنِه، وورقُه يشبه ورقَ البستانيّ، إلّا أنّه أعرضُ منه؛ وطَرَفُه محدَّد، يشبه سِنانَ الرُّمح؛ واليونان تسمّي الآس: مَرْسِينَى، وتسمّيه

(١) مين: كذب.
(٢) بين: فراق.
(٣) لفّاء: ملفوف بعضها على بعض.
(٤) شينًا: عيبًا، والشين، خلاف الزّين.

العامّة: مَرْسِينًا. وقال ابن وحشيّة في توليده: وإن خلطتم بأصل اليَبْرُوح عيدانَ الشِّبْث[١] وورقَ الجِرجير[٢] وسحقتم ذلك سحقًا جيدًا وزرعتموه في الأرض، وهو كهيئة الكُبّة، وصببتم فوق الكُبّة الماء، وطمرتموه في التراب، خرجتْ عن ذلك شجرةُ الآس الطويلِ الورق. وإن أردتم المدوَّرَ الورق فاخلطوا مع أصل اليَبْرُوح ورقَ الآس الطويل، ونصفَ وزن أصل اليَبْرُوح من ورق النَّبِق، فإنه يخرج الآس المدوَّر الورق. قال: وإن أردتم الآسَ الأزرقَ اللّون، فاخلطوا بأصل اليَبْرُوح ورقَ النّيل، واعجنوا معهما من أصل الزيتون وعروقِه، واطْمِرُوه فإنه يَخرُج عنه الآسُ الأزرق.

وقال الشيخ الرئيسُ أبو عليّ بنُ سينا في الآس: أفواه الذي يَضرِب إلى السواد، لا سيّما الخُسْرُواني المستديرُ الورق، لا سيّما الجبليّ، وأجوَدُ زهرِه الأبيض، وعُصارةُ ثمرتِه أجوَد.

وأمّا طبعُه ففيه حرارةٌ لطيفة، والغالب عليه البَرْد، ويُشْبِه أن يكون بَرْدُه في الأُولَى، ويُبْسُه في حدود الثانية.

وأمّا أفعالُه وخواصُّه، فإنّه يَحبس الإسهالَ والعَرَقَ وكلَّ نَزْفٍ وكلَّ سَيَلانٍ إلى عضو؛ وإذا تُدُلِّك به في الحمّام قوّى البدن، ونَشَّف الرطوبات التي تحت الجلد، وهو ينفع من كل نَزْف لَطوخًا وضِمادًا ومشروبًا؛ وكذلك رُبُّه ورُبُّ ثمرته؛ وقبضُه أقوى من تبريدِه، وهو يُسرِع جبرَ العظام، وليس في الأشربة ما يَعْقِل وينفع أوجاعَ الرئةِ والسُّعال غيرُ شرابه، ودُهنُه وعُصارتُه وطبيخُه تقوِّي أصولَ الشَّعر؛ وورقُه اليابسُ يمنع صُنان[٣] الآباط[٤]، ورَمادُه ينقِّي الكَلَف، ويحلو البَهَق. قال: والآسُ يسكِّن الأورامَ والحُمرة والنّملةَ والبُثور والقُروحَ والشَّرَى وحَرقَ النّار؛ وورقُه يُضمَد به بعد تخبيصِه بزيتٍ وخمر؛ ويابسُه إذا ذُرَّ على الدَّاحِس[٥] نفعَه؛ وإذا طُبِخَتْ ثمرتُه بالشراب واتُّخذتْ ضِمادًا أبرأت القروحَ الّتي في الكفّين والقدمين وحَرقَ النار وتمنعه من التنفُّط، ومن استرخاء المَفاصل. قال: والآس يَحبِس الرُّعاف ويجلو الحَزاز[٦]، ويجفِّف قُروحَ الرأس، وقروحَ الأذن؛ وينفع شرابُه من استرخاء اللِّثة، وورقُه إذا طُبِخ

(١) الشبث: نبات من فصيلة الخيميّات يشبه الشّمرة، وهو من التوابل.
(٢) الجرجير: من البقول يؤكل نيًا ومطبوخًا، وهو من التوابل في الطعام.
(٣) صنان: ريح نتن. (٤) الآباط: جمع إباط، وهو باطن الكتف.
(٥) الداحس: ورم في الأظفار يترك آثارًا وحروقًا.
(٦) الحزاز: ضرب من البثور في الرأس، وهو أيضًا قشرة الرأس.

بالشراب وضُمد به سَكّن الصُداع الشديد؛ وإذا شُرِبَ شرابه قبلَ الشراب مَنَع الخُمار[١]؛ والآس يسكّن الرمد[٢] والجُحوظ؛ وإذا طُبِخ مع سَويق الشَّعير أبرأ أورامَ العين؛ والآس يقوّي القلب، ويُذهب الخفقان، وثمرته تنفع من السُّعال، وهو يقوّي المعدة، خصوصًا رُبّه، وحَبُّه يَمنع سيلان الفُضول إلى المعدة؛ وهو جيِّد في منع دُرور الحيض؛ وماؤه يَعْقِلُ الطبيعة، ويَحبس الإسهال؛ وطبيخ ثمرته ينفع من سيلان رطوبات الرَّحِم؛ وينفع تضميده للبواسير؛ وينفع من ورم الخِصية؛ وطبيخه ينفع من خروج المقعدة والرَّحِم، وهو ينفع من عَضِّ الرُّتيلاء، وكذلك ثمرته إذا شُربت بشراب، وكذلك من العقرب.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال الأخيطل الأهوازيّ: [من الكامل]

لـلآسِ فـضـلُ بـقـائـه ووفـائـه ... ودوامِ نَـضْـرتِـه عـلى الأوقـاتِ
الجوُّ أغبر وهو أخضرُ والثرى ... يَـبْـسٌ ويـبـدو نـاضـرَ الـورَقـاتِ
قـامـت عـلى قُـضـبـانِـه ورَقـاتُـه ... كـنِـصـال نَـبْـلٍ جِـدّ مـؤتـلِـقـاتِ

وقال آخَر: [من السريع]

وغـادةٍ أهـدت إلـى إلـفِـهـا[٣] ... قـضـيـبَ آسٍ زاد فـي ظَـرفِـهـا
كـأنّــمــا خُــضــرةُ أوراقِــه ... بـقـيّـةُ الـحِـنّـا[٤] عـلى كـفِّـهـا

وقال آخَرُ في باقة آس: [من الطويل]

ومشمومةٍ مخضرّةِ اللّون غَضَّةٍ ... حـوت مَـنْـظَـرًا لـلـنـاظـريـن أنـيـقـا
إذا شمَّها المعشوقُ خِلتَ اخضرارَها ... ووجـنـتَـه فَـيْـرُوزَجًـا[٥] وعَـقـيـقـا

وقال ابنُ وكيع: [من الطويل]

خـلـيـلـيَّ مـا لـلآسِ يـعـبـق نَـشْـرُه
إذا هَـبَّ أنـفـاس الـرِّيـاحِ الـعـواطـرِ

(١) الخمار: أثر السُكر في الرأس، والدّوار.
(٢) الرمد: مرض يصيب العين فيمنعها من الإبصار، وهو أنواع أهمها الرمد الحبيبي والربيعي.
(٣) إلفها: قرينها وصاحبها الذي تألفه.
(٤) الحنّا: نبات يتّخذ ورقه للخضاب الأحمر، وله زهر أبيض كالعناقيد، وهنا المقصود بالحنّا، أثر الحنّا الذي تتركه في اليد.
(٥) الفيروزج: حجر كريم، واللفظة فارسية.

حَكَى لونُه أصداغَ[١] ريمٍ[٢] معذَّرٍ[٣]
وصورتُه آذانَ خَيلٍ نوافرِ

وأمّا الزُّعفران وما قيل فيه - فالزّعفران يسمَّى الجادِيَّ بالدّالين المهملة والمعجمة، والجِساد، والرَّيْهُقَان، والكُرْكُم.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليٍّ بنُ سينا: جيّدُه الطريّ، الحسَنُ اللّون، الذكيُّ الرائحة، على شَعْرِهِ قليلُ بياضٍ غير كثير، ممتلىءٌ صحيحٌ سريعُ الصَّبْغ، غير متكرِّجٍ[٤] ولا متفتِّت؛ وطبعه حارٌّ في الثانية، يابسٌ في الأولى. وقال في أفعاله وخواصِّه: هو قابضٌ محلِّل مُنضج مفتّح. قال: وقال الخُوزيّ: إنّه لا يغيِّر خِلْطًا ألبتّة بل يحفظها على السويّة، ويُصْلِح العفونة، ويقوّي الأحشاء؛ وشُربُه يحسِّن اللّون؛ وهو محلِّلٌ للأورام، وتُطلَى به الحُمْرَة. قال: وهو مصدِّع، يضرّ الرأس، وهو منوِّم، وإذا سُقِيَ في الشّراب أسكَر؛ وينفع من الورم الحارِّ في الأُذُن؛ وهو يجلو البصر، ويمنع النوازلَ إليه، وينفع من الغِشاوة، ويُكتحَل به للزُّرقة المكتسَبةِ من الأمراض، وهو مقوٍّ للقلب، مفرِّح يشمّه المبرسمُ[٥] وصاحبُ الشَّوْصة[٦] للتنويم، وخصوصًا دُهنَه، ويُسهِّل النَّفَس، ويقوّي النفس. قال: وهو مُغْثٍ[٧] يُسقِط الشهوة بمضادّته الحموضةَ التي في المعدة وبها الشّهوة، لكنّه يقوّي المعدة لما في من الحرارة والدَّبْغِ والقَبْض. وقال قوم: الزعفرانُ جيّدٌ للطِّحال. قال: وهو يهيج الباه[٨]، ويُدرّ البول، وينفع من صلابة الرَّحِم وانضامِها والقروحِ الخبيثةِ فيها إذا استُعْمِل بمُوم[٩] أو مُحٍّ[١٠] مع ضِعفِه زيتًا. وزعم بعضهم أنّه سقاه للطَّلْق[١١] المتطاوِل فوَلدت لِلساعة. قال: وثلاثة مثاقيلَ منه تَقتُل بالتفريح، وإذا عُدِم فبدله وزنه قُسْط، وربعُ وزنه قشورُ السَّليخة[١٢].

---

(١) أصداغ: جمع صدغ، وهو ما بين العين والأذن.
(٢) ريم: ولد الظبي، كناية عن الحبيب.
(٣) معذّر: له عذار، وهو الشعر في جانب الوجه.
(٤) متكرّج: سريع الفساد والانحلال.
(٥) المبرسم: من أصابه البرسام، وهو ضرب من الأورام تصيب الصدر، ويصحبه ارتفاع في الحرارة حتى الهذيان.
(٦) الشوصة: ضرب من الأورام تصيب الأضلاع.
(٧) مغث: يبعث على الغثيان، وتقزّز النفس.
(٨) الباه: المنيّ للرجل، وقوّة الشهوة.
(٩) الموم: مادة تستخرج من العسل في شهده.
(١٠) المحّ: هو محّ البيضة، أي صفارها.
(١١) الطلق: حال المرأة قبيل الوضع بقليل.
(١٢) السليخة: ضرب من الأفاويه.

وأمّا ما جاء وصفه ـ فقال مؤيّد الدِّين الطُّغرائيّ: [من الكامل]

وحديقةٍ للزعفران تأرّجتْ ... وتبرّجت في نسجِ وشي مُونِقِ
شكت الحِيالَ[1] فألقحَتْها[2] نطفةٌ ... من صَوبِ[3] غاديةِ[4] الغمامِ المُغْدِقِ
حتى إذا ما حانَ وقتُ ولادِها ... فَتَق الصَّبا منها الذي لم يُفتَقِ
عذراء حُبلَى قَمَّطتْ[5] أولادَها ... حُمرًا وصُفرًا في الحرير الأزرقِ
وكأنّما اقتَتلوا فأصفرُ خائفٌ ... بحذاء قانٍ بالدّماء مغرَّقِ

وقال آخر: [من الكامل]

وكأنّ وَردَ الزعفران مَضاحكٌ ... قد جمّعتْ لعَسَ[6] المقبَّل[7] واللَّمَى[8]
أو أنصُلٌ فوق التراب سديدةٌ ... قد فارقتْ بعد الرِّماية أسهُما

وقال آخر: [من البسيط]

للزعفران إذا ما قاسه فَطِنٌ ... فضلٌ على كلّ ورد زاهرٍ أنِقِ[9]
كأنّه ألسُنُ الحيّات قد شُدِخَتْ ... رؤوسُها فاكتست من حُمرةِ العَلَقِ
مِن لابسٍ حُمرةً من وجه ذِي خجلٍ ... ولابسٍ صُفرةً من وجهِ ذي فَرَقِ[10]

---

(١) الحيال: جمع حائل، وهي الشهوة إلى لقاح الذكر.
(٢) ألقحتها: جعلتها تلقح، أي تحمل.
(٣) صوب: مطر.
(٤) الغادية: السحابة الممطرة في الغداة.
(٥) قَمّطت: شدّت بالقماط، وهو اللفافة من الثياب يلفّ بها الولد الرّضيع.
(٦) اللعس: في الشفاه: وهو السّمرة أو السواد فيها.
(٧) المقبّل: الثغر، موضع التقبيل.
(٨) اللمى: سمرة في الشفاه، مستحسنة.
(٩) أنق: ناضر، فيه رونق وحُسن.
(١٠) الفرق: الفزع.

لا شيءَ أعجبُ من لونيهما وهما
نَشْوانِ تِرْبانِ[١] في مَهْدٍ[٢] وفي خِرَقٍ[٣]
فرعانِ مختلِفٌ معناهما وهما
نتيجتا جوهرٍ في الأصل متّفِقِ

وقال آخَر: [من الخفيف]

طَلَعَ الزعفرانُ مِثلَ زِجاجٍ ... قد تُنُضِّلن[٤] من سهامِ غِلَاءِ[٥]
وتراءى كأنّه شُعَلُ الكِبْـ ... ـريتِ ليلًا ضياؤها في غِطاءِ
ورقٌ فيه زرقةٌ تَجلِب اللهـ ... ـو ويَسبي عِيانُه كلَّ رائي
يَتفرَّى عن قانئاتٍ حسانٍ ... مثلِ هُدْبِ معصفَرٍ[٦] من رِداءِ
قائماتٍ كأنّها ألِفاتٌ ... خُطِّطتْ في الطِّراز ذات استواءِ
يَتنقَّبن[٧] للرّجال مساءً ... ثم يَسْفِرنَ ضَحوةً للنّساءِ
يَتبرّجن في ثياب الثَّكالَى[٨] ... ويُعرَّين منه بعدَ اكتساءِ
زِيُّ عُرْسٍ ومأتَم ذا لدَى خـ ... ـيرِ عِشاءٍ وذا لِشَرِّ عِشاءِ
مثلُ غَمٍّ قد انجَلَى عن سرورٍ ... ونعيمٍ قد انتُضِي عن بلاءِ

وقال أبو بكر الخُوارَزميّ: [من البسيط]

أما تَرَى الزعفرانَ الغَضَّ تحسَبه ... جمرًا بدا في رَماد الفحم مضطرِما
كأنّه بين أطراف تَحُفّ به ... طرائقُ الدّم في خدّين قد لُطِما
دمٌ عِيانًا ومِسكٌ نَشْرَ رائحةٍ ... في طيبِه وكذاك المِسكُ كان دما

وقال آخَر: [من الكامل]

شبّهتُ روضَ الزّعفران بشاطرٍ ... سَلَب النّصارى واليهودَ شِعارَها
كصحيفةٍ من سندسٍ عُنِيَتْ بها ... كفُّ صُناعٍ[٩] قوَّمتْ أسطارَها

(١) نشوان تربان: صاحبان نشأتهما واحدة، وعمرهما واحد.
(٢) مهد: سرير.
(٣) خرق: لفائف يلفّ بها الرضيع في المهد.
(٤) تنضّلن: استخرجن.
(٥) سهام غلاء: سهام بعيدة المرمى.
(٦) المعصفر من الأردية والثياب: ما كان فيها صفرة بلون العصفر، ضرب من النبت.
(٧) يتنقّبن: يلبسن نقابهنّ، وهو غطاء الوجه.
(٨) الثكالى: النسوة اللائي فقدن أولادهنّ.
(٩) صناع: حاذقة ماهرة حسنة الصّنع أو الصناعة.

وكأنما ألِفاتُها قد تُوِّجَتْ بمَجامرٍ[(١)] تُذْكِي[(٢)] النسائمُ نارَها
من كلِّ فاقعةٍ تَلَفَّعُ دائمًا بدخانِ كبريتٍ تَجرّ إزارَها
متقنِّعاتٍ في الدّجى فإذا بدا للصّبح إسفارٌ سَفَرْنَ خِمارَها[(٣)]
والشمس طالعةٌ على أخَواتها وإذا توارت[(٤)] أسبَلتْ أستارَها

وأمّا الحَبَقُ وما قيل فيه ـ فالحَبَقُ أنواع، تُطلِق عليها العامّةُ الرَّيحان؛ ومن أسمائه الباذَرُوج، وهو الحَماحِم. ويسمَّى الباذرنجبوية والباذْرَنْبُوَية، واسمه بالفارسية: المَرْماحِوز، ومنه ما سُمِّي الفَرَنْجَمَشْكَ بالفاء والباء؛ ورائحتُه كرائحة القَرَنْفُل، ويقال فيه فَلَنْجَمَشْك، وأَفَلَنْجَمَشْك؛ وكلُّها فارسيّة. ومنه ما يسمَّى بالفارسيّة: الشاهِسْفَرَم، ومعناه مَلِكُ الرّياحين، والعرب تسمّيه: الضَّيْمَران والضَّوْمَران؛ ومنه حَبَقُ الفتى: المَرْزَجُوش والمَرْزَنْجُوش والمَرْدَقُوش والعَبْقَر. ومنه ما يسمَّى المَرْوَ والزَّغْبَر والزَّبْغَر، وهو المَرُو الدقيقُ الورق. والصَّعْتَريّ، ورَيحان الكافور، ويسمَّى بالفارسيّة (سَوسَن) وأناه، وشكلُه شكلُ المنثور، ورائحتُه رائحةُ الكافور الرّياحيّ.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا في طبائع الرّياحين: الباذَرُوجُ طبعُه حارٌّ في الأُولى إلى الثانية، يابسٌ في أوّل الأُولى، وفيه رطوبةٌ فَضْليّة. قال: وفيه قَبْض وإسهال، فإنّه يَقبِض، إلّا أن يصادفَ فَضْلًا مستعدًّا، فإذا صادف خِلْطًا أسهَله، وفيه تحليل وإنضاج ونَفْح، ويُسْرِع إلى التعفّن؛ ويولِّد خِلْطًا رديئًا سَوداويًّا، وبِزْرُه ينفع مَن تتولّد فيه السَّوداء[(٥)]؛ وإذا طُلِيَ بالخَلّ ودُهن الوَرد على الأورام الحارّة نَفع؛ وعُصارتُه قَطورًا تنفع الرُّعاف، لا سيّما بخلٍّ خمرٍ وكافور؛ وهو مما يسكِّن العُطاسَ مِن مِزاج، ويُحرّكه من مِزاج، وهو ينفع من ضربان العين ضِمادًا: ويُحدِث ظُلمةَ البصرَ مأكولًا لتخليط رطوبته وتبخيرها؛ وعُصارتُه تقوّي البصر كُحلًا، وهو يقوّي القلب جدًّا، ويجفِّف الرّئةَ والصدر، وسُكُرَّجة[(٦)] من مائه تنفع من سوءِ التنفّس، وماؤه يُدِرّ اللَّبَن، وبِزرُه ينفع من عُسر البول، وإذا وُضع على لَسْع الزَّنابير[(٧)] والعقارب سكّنه.

---

(١) مجامر: جمع مجمرة، وهي موضع الجمر والنار.
(٢) تذكي: تضرم، وتقوّي إضرامها. (٣) الخمار: غطاء الرأس.
(٤) توارت: استترت وخفيت.
(٥) السوداء: إحدى الأخلاط الأربعة في الجسم، وهنّ: السوداء، والصفراء، والبلغم، والدّم.
(٦) سكرّجة: إناء صغير يستخدم مكيالًا من المكاييل، واللفظة فارسية.
(٧) الزنابير: ضرب من الحشرات السامّة المؤذية تشبه النحل، أكبر منها، وتفتك بها فتكًا ذريعًا.

وأمّا المَرْماحُوز - فهو حارٌ في الثالثة، يابسٌ في الثانية؛ وهو لطيفٌ محلِّل مسكِّن للرّياح، مفتِّحٌ للسُّدُد البَلْغَميّة حيث كانت؛ والإكبابُ على نطولِه[1] يحلِّل البُخار والصُّداع البارد؛ وهو يقوّي المعدةَ وينشِّف رطوبتَها، ويقوّي الأمعاء.

وأمّا المَرْزَنْجُوش[2] - فهو حارٌ يابسٌ في الثالثة، وهو لطيف محلِّلٌ مفتِّح؛ وهو طِلاءٌ جيِّدٌ على الأورام البَلْغَميّة؛ ودُهنُه ضِمادٌ للفالج المُميل العنقِ إلى خَلْف ولغيره من الفالج؛ ويفتِّح سُدَدَ الدّماغ؛ وينفع من الشَّقيقة والصُّداع والرّطوبة والرياحِ الغليظة، ومن وجع الأُذُن نَطولًا وقَطورًا، وتُجْعَل فيها قطنةٌ مغموسةٌ في دُهن المَرْزَنْجُوش فتنفع من انسدادها، وطبيخُه ينفع من الاستسقاء، ومن عُسْر البول، والمَغْص، ودُهنُه ينفع من انضمام الرَّحِم المؤدِّي إلى احتقانِها، وهو مع الخلِّ ضِمادٌ للسع العقرب.

وأمّا الفَلَنْجَمَشْك - فهو أعْدَلُ من المَرْزَنْجُوش والنَّمّام، وأقلُّ يُبْسًا؛ وهو يفتِّح السُّدَدَ العارضةَ في الدُّماغ والمَنَخْرَين شمًّا وطِلاء وأكلًا؛ وينفع الخفقانَ العارضَ من البَلْغَم والسَّوداء في القلب؛ وهو جيِّدٌ للبواسير.

وأمّا ما وُصِفتْ به الرَّياحين - فقال السَّريُّ الرّفّاء: [من الكامل]

وبساطِ رَيحانٍ كماء زبرجدٍ ... عَبِثتْ بصفحتِهِ الجَنوبُ فأُرْعِدا
يشتاقُه الشَّرْبُ[3] الكرامُ وكلّما ... مَرِض النَّسيمُ سرَوا إليه عُوَّدا[4]

وقال أبو الفضل المِيكاليّ: [من الكامل]

أعددتُ محتفِلًا ليومِ فَراغي ... روضًا غدا إنسانَ عينِ الباغِ[5]
روضًا يَرُوض همومَ قلبي حُسنُه ... فيه لكأسِ اللّهو أيُّ مَساغِ
فإذا انثنت قُضبانُ رَيحانٍ به ... حيّت بمِثل سلاسلِ الأصداغِ

---

(١) النطول: ماء تغلى فيه الأدوية والحشائش ويصبّ فاترًا على العضو المصاب. والإكباب: المداومة.
(٢) المرزنجوش والمردقوش واحد، واللفظة فارسية، نبات عطري من فصيلة الشفويّات، ذو ورق دقيق وزهر صغير، له فوائد طبّية، ويستعمل تابلًا ومقبّلًا في الطعام.
(٣) الشرب: جماعة الشاربين.
(٤) عوّاد: جماعة العائدين وزوّار المريض.
(٥) الباغ: لفظة فارسية، وتعني البستان والجنينة.

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الوافر]

وخُضرٍ تَجمع الأعجازُ منها مَناطقَ[1] مِثلَ أطواقِ الحمَامِ
لها حُسنُ العوارض[2] حين تبدو وفيها لِينُ أعطاف الغلامِ

وقال مؤيِّد الدّين الطُّغرائيّ: [من الوافر]

مَراضيعٌ من الرَّيْحان تُسقَى سَقيطَ الطَّلِّ أو دَرَّ العِهَادِ[3]
ملابسُهنّ خُضرٌ مشبَعاتٌ تشير بزِيِّهنّ إلى السواد
إذا ذَرّت عليها المِسكَ رِيحٌ وجاد يفيضهنّ يدُ الغوادي[4]
تَخلَّلَها الرياحُ فسرّحتْها صنيعَ المُشط في اللِّمَمِ الجِعادِ[5]
جرت وَهْنًا بها وسَرَتْ عليها فطاب نسيمُها في كلِّ وادي

وقال ابنُ أفلحَ الأندلسيّ: [من مجزوء الكامل]

وخَماجِمِ كأسِنّةٍ في كلِّ معتدِلٍ قويمْ
أو أنجمٍ نَزَعتْ لتَحـ ـرِق كلَّ شيطانٍ رجيمْ[6]
أو مِثلِ أعرافِ الدُّيو كِ لدى مبارَزة الخصومْ
أو كالشَّقيق تحرّشتْ بفروعِه أيدي النسيمْ
أو ثاكلٍ[7] صَبَغتْ بَنا نَا من دم الخدّ اللَّطيمْ[8]

وقال آخَر: [من الوافر]

ورَيحانٍ تَميس به غصونٌ يطيب بشَمِّه شُربُ الكُؤوسِ
كسُودانٍ لَبِسن ثيابَ خَزٍّ وقد تُرِكُوا مَكاشيفَ الرُّؤوسِ

---

(١) مناطق، جمع منطقة: وهي النطاق والحزام، يتمنطق به الخصر.
(٢) العوارض: الأسنان. (٣) العهاد: اسم مطر يهطل في أوّل الربيع.
(٤) الغوادي: السحائب الممطرة في الغداة.
(٥) اللّمم: جمع لمّة، وهي شعر الرأس المجتمع، والجعاد، بخلاف المرسلة.
(٦) رجيم: ملعون.
(٧) الثاكل والثكلى، واحد، وهي المرأة تفقد ولدها.
(٨) اللطيم: الملطوم، أي المضروب باليد.

وقال آخَر: [من السريع]

أما ترى الرَّيحانَ أهْدَى لنا خَماجِمًا منه فأحيانا
تحسَبه في طَلِّه والنَّدَى زمرّدًا يَحْمِل مَرجانا

وقال آخَرُ في الشاهِسْفَرَم: [من الطويل]

وقامةِ رَيحانٍ أنيقٍ نباتُها غذاها نميرُ الماء سَقيًا على قَدْرِ
تَكلَّلَ أعلاها بنظمٍ محبَّرٍ[1] وضاق عليها الزِّيُّ بالوَرق الخضرِ
وفاحت بنَشْرٍ طيّبِ الشَّمِّ عاطرٍ له نَشَواتُ المِسْكِ في سائر العِطرِ
فأصبح شاهًا للرّياحين كلِّها فليس لها ما دام شيءٌ من الأمرِ

وقال أبو سعيد الأصفَهانيّ: [من الطويل]

وشمّامةٍ مخضرّةِ اللّونِ غَضّةٍ حوت مَنْظَرًا للناظرِين أنِيقا
إذا شمَّها المعشوقُ خلتَ اخضرارَها ووجنتَه فَيْرُوزَجًا وعقيقا

وقال ابنُ وكيع في الصّعتريّ: [من الخفيف]

صَعتريٌّ أدَقّ من أرجل النّمـ ـل وأذكى من نفحة الزّعفرانه
كسطورٍ كُسِين نَقْطًا وَشَكْلا من يَدَيْ كاتب ظريفِ البَنانِ

وقال أبو بكر الخُوارَزْميّ: [من الرجز]

وَصفتُ رَيحانًا إذا ما وَصَفَهْ واصفُه قيل له: زِدْ في الصِّفهْ
دقَّقَه صانعُه ولطَّفَهْ كأنّه وَشْمٌ[2] يدٍ مطرَّفهْ
أو خطُّ ورّاقٍ أدَقَّ أحرُفَهْ أو زَغَباتُ[3] طائرٍ مصفَّفهْ
* أو حُلَّةٌ مخضرّةٌ مفوَّفهْ[4] *

(١) محبّر: مزيّن، وموشّى، كالحبرة، وهي الحلّة المخطّطة.
(٢) الوشم: غرز الإبرة في البدن وذرّ النّيلج عليه، وما يحدثه الوشم في اليد أو الوجه من الخطوط يغلب عليه الزّرقة.
(٣) زغبات: جمع زغبة، وهي الشعرة الصغيرة الناعمة جدًا.
(٤) مفوّفة: رقيقة، أو فيها خطوط بيض على الطول.

وقال صاعد الأندلسيُّ[١] في الأترنجانيّ: [من البسيط]

لـم أَدْرِ قبـلَ تُـرُنْـجـانٍ مررتُ بـه ... أنّ الـــزمـــردَ أغـــصـــانٌ وأوراقُ

مِن طيـبِـهِ سرق الأُتْـرُجُ نَـكْـهَـتَـه ... يا قومُ حتّى مِن الأشجار سُرّاقُ

وقال آخَرُ وأجاد: [من الوافر]

ذكيُّ الـعَـرْفِ[٢] مشكـورُ الأيادي ... كـريـمٌ عِـرقُـه يُـسـلِـي الـحـزيـنـا

أغـارَ عـلى الـتُّـرُنْـج وقـد حـكـاه ... وزاد عــلى اســمِــه أَلِـفًـا ونــونــا

---

(١) هو صاعد الأندلسي، وكنيته أبو القاسم، واسمه أحمد، لقّب بصاعد. قاضٍ وأديب ومؤرّخ أندلسي، قرطبي الأصل، ولي قضاء المالكية في طليطلة. أشهر مصنّفاته: «طبقات الأمم» و«مقالات أهل الملل والنّحل» و«إصلاح حركات النجوم». توفي سنة ١٠٧٠ م.

(٢) العرف: الرائحة.

القسم الرابع

من الفن الرابع في الرّياض والأزهار
ويتّصل به الصُّموغ والأمنان والعصائر

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل

من هذا القسم من هذا الفن
في الرّياض وما وُصِفتْ به نظمًا ونثرًا

اتَّفَق جوّابو[1] الأقطار أنّ مستنزَهاتِ الدنيا أربعةُ مواضع؛ وهي صُغْدُ سَمَرْقَنْد[2]، وشِعبُ بَوّان[3]، ونهرُ الأُبُلّة[4]، وغُوطةُ دِمَشق[5]؛ وقد رأيتُ أن أصفَ هذه المستنزَهات بصفاتها التي شاهدتُها ونُقِلتْ إليّ، وأخبارِها التي عاينتُها وقُصّتْ أنباؤها عليّ؛ فقلتُ في ذلك: ألذُّ ما تَمتّعتْ بحسنه النواظر، وأبهى ما ارتاحت النفوس إلى أزهارِه النّواضر؛ وصفُ رياضٍ تاهت الأرضُ على السماء بأزهارِها، وباهت أنوارَ الكواكب بنُورِها ونُوّارِها.

فمنها صُغْدُ سَمَرْقَنْد ـ الذي تَحُفّ به بساتينُ كست زهرتُها من الأرض عاريها، وأصبح للسماء بكاءٌ في جوانبها وللرَّوض ابتسامٌ في نواحِيها، تتخلّلُها

---

(١) جوّابو: عابرو، ومرتادو.

(٢) سمرقند: مدينة قريبة من بخارى، في الشمال الشرقي من أفغانستان.

(٣) شعب بوّان: شعب عظيم بين العراق وبلاد فارس. ذكره المتنبي في شعره ووصفه جماله أبدع وصف، وأول بيت من قصيدته في وصف شعب بوّان هو التالي:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني … بمنزلة الربيع من الزمان

انظر: ديوان المتنبّي، من ٤٣٤ ـ ٤٣٦.

(٤) نهر الأبلّة، في العراق، إلى الجنوب، وقد يكون ملتقى دجلة والفرات، أو ما يعرف اليوم بشطّ العرب.

(٥) غوطة دمشق: ما يحيط بها من جنّات وبساتين، وتطلق على القسم الشرقي منها خاصةً.

قُصورٌ يتضاءل سَنا[١] النّجم في آفاقِها، وتَحتجب الغزالةُ[٢] عند طلوعها حياءً من بهجتِها وإشراقِها.

ومِنها شِعْبُ بَوّان ـ الذي غدت مغانيه[٣] معانيَ للزّمان، وقَصُرتْ الألسنُ عن وصف محاسنه وطالت إلى اقتطاف ثمرهِ البَنان؛ تكاد شمسُه تَغرُب عند الإشراق، ولا تتخلل أشجارَه إلا والحياءُ يعيدها في قبضة الإطراق، يستغنِي بغُدرانه عن صَوب الصَّيّب[٤]، ولقد أبدَع في وصفه أبو الطَّيّب[٥]: [من الوافر]

مَغاني الشِّعب طِيبًا في المَغانِي ... بمنزلة الرّبيع من الزمانِ
ولكنّ الفتى العَرَبيَّ فيها ... غريبُ الوجه واليدِ واللّسانِ
مَلاعبُ جِنّةٍ[٦] لو سار فيها ... سليمانٌ[٧] لسار بتُرْجُمَانِ
طَبَتْ فُرسانَنا والخيلَ حتّى ... خشيتُ وإن كَرُمن من الحِرانِ[٨]
غدونا تَنفُض الأغصانُ فيه ... على أعرافِها مِثلَ الجُمانِ[٩]
فسِرتُ وقد حَجَبن الشمسَ عنّي ... وجئن من الضّياء بما كفاني
وألقَى الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيرًا تَفِرُّ من البَنانِ
لها ثمرٌ تشير إليك منه ... بأشربةٍ وقفن بلا أواني
وأمواهٌ يَصِلّ[١٠] بها حَصاها ... صَليلَ الحَلْي في أيدي الغَواني[١١]

---

(١) سنا: ارتفاع وضياء.
(٢) الغزالة: الشمس.
(٣) مغانيه: منازله العامرة بالسكّان.
(٤) صوب الصيّب: المطر المتدافع سقوطه.
(٥) أبو الطيّب: هو أحمد بن الحسين الجعفي، الملقّب بالمتنبّي، أحد أهم وأبرز وأشهر الشعراء العرب في العصر العباسي. ولد في الكوفة، وانتقل إلى الشام، فحلب، فطبرية، فمصر، ومدح الكثير من الأمراء، وأشهرهم سيف الدولة الحمداني، أمير مصر، وكافور الإخشيدي، حاكم مصر. وأخيرًا، قصد العراق فبلاد فارس، فمدح الأمراء البويهيين. مات في طريق عودته إلى العراق قتلًا على يد فاتك الأسدي سنة ٣٥٥ هـ.
(٦) جنّة: الجنّ، بخلاف الإنس.
(٧) سليمان: هو سليمان بن داود، النبيّ، إشارة إلى الجنّ التي خضعت له، واستخدمها في بناء العديد من الصروح والهياكل.
(٨) الحران: النفور والشموس.
(٩) الجمان: اللؤلؤ، وأعرافها: أي أعراف الخيل ونواصيها.
(١٠) يصلّ: يحدث صليلًا، صوتًا.
(١١) الغواني: جمع غانية، وهي التي غنيت بجمالها وحسنها.

إذا غنّى الحَمامُ الوُرْقُ[(١)] فيها   أجابتْها أغانيُّ القِيانِ[(٢)]
ومَن بالشِّعب أحوَجُ من حَمامٍ   إذا غَنّى وناح إلى بيانِ
وقد يتقارب الوصفان جدًّا   وموصوفاهما متباعدانِ
يقول بشِعبِ بَوّانٍ حِصاني   أعَن هذا تسير إلى الطِّعانِ
أبوكم آدمُ سَنَّ المعاصي   وعلَّمكم مفارَقة الجِنانِ

وأجاد السّلَامي[(٣)] حيث قال: [من البسيط]

إِشربْ على الشِّعب واحلُل روضةً أُنُفًا[(٤)]   قد زاد في حسنه فازدد به شغَفا[(٥)]
إذ أَلْبَسَ الهِيفَ[(٦)] من أغصانه حُللًا   ولَقَّن العُجْم من أطيارِه نُتَفا[(٧)]
ونَمَّرتْ[(٨)] حُسنَه الأغصانُ مِثمِرةً   مِن نازعٍ قُرُطًا[(٩)] أو لابسٍ شَنَفا[(١٠)]
والماءُ يَثني على أعطافها أُزُرًا   والرّيحُ تَعقِد من أطرافها شُرَفا
والشمسُ تَخرِق من أشجارها طَرَفًا   بنُورها فتُرينا تحتَها طُرَفا[(١١)]
مِن قائلٍ نَسَجتْ دِرْعًا مفضَّضةً   أو قائلٍ ذهَّبتْ أو فَضَّضتْ صُحُفا

---

(١) الورق: صفة للحمام.
(٢) القيان: جمع قينة، وهي المغنية.
(٣) السلامي: وكنيته أبو الحسن، شاعر بغدادي، مدح الصاحب بن عباد، ثم انقطع إلى عضد الدولة البويهي بشيراز. مات سنة ١٠٠٣ م.
(٤) الأنف: البكر التي لم تمسّ ولم تُدْعَ.
(٥) شغفًا: ولعًا وحبًّا.
(٦) الهيف: جمع هيفاء، وهي الناحلة الضعيفة.
(٧) نتفًا: جمع نتفة، وهي القطعة من الشيء.
(٨) نمّرت: زيّنت ورصّعت.
(٩) القرط: الشنف يلبس أو يعلّق بالأذن للزينة.
(١٠) الشنف: القرط تزدان به الأذن كلّها أو من أعلى.
(١١) طرفًا: طرائف وبدائع نادرة.

ظـلّت تَـزُفّ إلـى الـدنـيـا مـحـاسـنَـهـا
وتـسـتـعـيـد لـهـا الألـطـافَ والـتُّـحَـفـا[١]
مـن عـارضٍ[٢] وَكَـفَـا[٣] أو بـارقٍ خَـطَـفـا
أو طـائـرٍ هَـتَـفَـا أو سـائـرٍ وَقَـفـا
ولـسـتُ أُحْـصِـي حَـصَـى الـيـاقـوت فـيـه ولا
دُرًّا أصـادفـه فـي مـائـه صَـدَفـا
يَـظُـنّ مـن وقـفـتْ فـيـه الـشـجـونُ[٤] بـه
أنّ الـصّـبـابـة[٥] شـابـت والـهـوى خَـرِفـا
تَـعـسَّـف[٦] الـشـوقَ فـيـه كـلُّ ذي شَـجَـنٍ
والـشـوقُ ألـطَـفـه مـا كـان مـعـتـسَـفـا
فـاحـلُل عُـرا الـهـمّ واشـربـهـا مـعـتَّـقـةً[٧]
رَقّ الـنـسـيـمُ مـبـاراةً لـهـا وصَـفـا

ومنها نهرُ الأُبُلّة ـ الّذي طولُه أربعُ فراسخ، ورؤوسُ نخلِهِ على وجه الأرض شوارفُ وأصولُها في الثَّرَى رواسخ؛ بجانبيه بساتينُ إن هَبَّ النسيمُ بأغصانها تعانقَتْ وتمايلتْ، وإن لَعِب بأفنانها تناظرَتْ وتماثلتْ؛ كأنّما غُرِستْ في يوم واحدٍ شجراتُه، وقامت على خَطّ الاستواء نَخَلاتُه؛ وفيه يقول التَّنُوخيُّ[٨] شاعرُ اليتيمة[٩]: [من الكامل]

وإذا نـظـرتَ إلـى الأُبُـلّة خِـلْـتَـهـا من جنّة الفردوسِ حين تُخيَّلُ

(١) التحف: الأشياء الثمينة النادرة التي تتحف. (٢) العارض: المطر المنهمر بقوّة.
(٣) وكف: انهمر. (٤) الشجون: الهموم.
(٥) الصبابة: الشوق والحبّ. (٦) تعسّف: ركب.
(٧) معتّقة: صفة للخمرة القديمة.
(٨) التنوخي: وكنيته أبو علي، واسمه المحسّن، من القضاة والأدباء والشعراء البصريّين. تولّى قضاء بغداد، ثم قضاء الأهواز، له من المصنّفات والكتب «نشوار المحاضرة» و«الفرج بعد الشّدة». مات في بغداد سنة ٩٩٤ م.
(٩) اليتيمة، هي «يتيمة الدهر في شعراء أهل مصر» الكتاب الجامع، للثعالبي، تضمّن أجمل شعر الشعراء المعاصرين له.

كم منزلٍ في نهرِها آلى[1] السّرو ر بـأنّـه فـي غـيـرِه لا يَـنـزِلُ
فكأنّما تلك القصورُ عرائسٌ والزهرُ وشيٌ فهي فيه تَرْفُلُ[2]
غنّت قِيانُ الطّير في أرجائه هَزَجًا[3] يَقِلّ له الثقيلُ الأوّلُ[4]
وتعانقتْ تلك الغصونُ فأذكرتْ يومَ الوَداع وعِيرُهم[5] تترحّلُ
رَبَعَ الربيعُ بها فحاكت كفُّه حُللًا بها عُقَد الهمومِ تُحلَّلُ
فمدبَّجٌ موشَّحٌ ومدنَّرٌ ومعمَّدٌ ومحبَّرٌ ومهلَّلُ[6]
فتخال ذا عَينًا وذا ثَغرًا وذا خدًّا يعضّض تارةً ويقبَّلُ

ومنها غُوطةُ دِمَشقَ ـ الّتي هي شَرَكُ[7] العقول وقَيْدُ الخواطر، وعِقالُ النفوس ونزهةُ النواظر، خَلْخَلتْ الأنهارُ أسوُقَ أشجارِها، وجاست المياهُ خِلالَ ديارِها؛ وصافحتْ أيدي النسيم أكُفَّ غُدرانِها، ومُثِّلتْ في باطنِها موانسُ أغصانها؛ يَخال سالكُها أن الشمس قد نَثرتْ على أثوابه دنانيرَ لا يستطيع أن يقبضها ببَنان، ويَتوهّم المتأمِّل لثمراتها أنّها أشربةٌ قد وقفتْ بغير أوانٍ في كلّ أوان؛ فيا لها مِن رياضٍ مَن لم يَطُفْ بزهرِها من قبل أن يحلّق فقد قصّر، ومن غِياضٍ[8] مَن لم يشاهدها في إبّانِها فقد فاته من عمره الأكثر.

وهذه الأربعةُ الأماكن أجمَعَ جَوّابُو الأقطار على تفضيلها على ما عداها، وتمييزها على ما سواها.

وللناس في وصف الرّياض محاسنُ سنذكر منها النَّزْرَ اليسير، ونقتصر على لُمْعةٍ[9] ليس لنَضارتها[10] نظير.

فمن ذلك قولُ الثعالبيُّ في (سحر البلاغة وسرّ البراعة): روضةٌ رقّت حواشيها وتأنّقَ واشيها؛ أشجارُها كالعرائش في حُلَلِها وزخارِفها، والقيانِ في وشيِها

(١) آلى: قسم، وحلف. (٢) ترفل: تزدان، وتتبختر.
(٣) هزجًا: طربًا. والهزج: من الأصوات في الغناء، وهي العروض، من الأوزان الشعرية.
(٤) الثقيل الأول، من الألحان. (٥) العير: القافلة.
(٦) جميع هذه الأسماء من المفاعيل، متشابهة المعنى تقريبًا، يجمعها الوشي والزّينة والترصيع.
(٧) شرك: مصيدة.
(٨) غياض: جمع غيضة، وهي مجتمع الشجر الكثيف، والعشب والزهر.
(٩) لمعة: نبذة قصيرة، ونتفة. (١٠) نضارتها: بهجتها وحسنها.

ومَطارِفها[١]؛ باسطةً زَرابيَّها[٢] وأنماطها[٣]، ناشرةً حِبَرَها[٤] ورِياطَها[٥]؛ كأنّما احتَفلتْ لوفد، أو هي من حبيبٍ على وعد.

ومن كلامه أيضًا: روضةٌ قد تَضوّعتْ بالأَرَج الطيِّبِ أرجاؤها، وتَبرّجتْ في ظُلل الغمام صَحراؤها؛ وتنافحتْ بنَوافج المِسك[٦] أنوارها، وتفاوضت بغرائب المنطق أطيارُها؛ بها أشجارٌ كأنّ الخُرَّد[٧] أعارَتْها قُدودَها، وكستْها بُرودَها، وحَلَّتْها عقودَها.

ومن كلام الفتح بنِ خاقانَ في (قلائد العقيان)[٨]: حتى استقرّوا بالرَّوض فحَلّوا منه ذَرا أيكٍ[٩] ربيع مفوَّفةٍ[١٠] بالأزهار، ومطرَّزةٍ بالجداول والأنهار، والغصونُ تختال في أدواحِها، وتنثني في أكُفِّ أرواحِها.

ومن كلامه أيضًا: روضٌ مفترُّ المَباسم، معطَّرُ الرياح النَّواسم؛ قد صَقَل الربيعُ حَوْذَانه[١١]، وأنطَق بلبلَه ووَرَشانه[١٢]، وألْحَفَ غصونَه بُرودًا مخضرّة، وجَعل إشراقَه للشمس ضَرَّه، وأزاهيرَه تنير على الكواكب، وتختال في خِلَع الغمائم السَّواكب.

ومن كلامه: روضةٌ لم يَجُلْ في مِثْلِها ناظر، ولم تَدَّع حُسنَها الخدودُ النَّواضر؛ غصونٌ تثنّيها الرياح، ومياهٌ لها انسياح، وحدائقُ تُهْدِي الأَرَجَ والعَرْف[١٣]، وتُبْهِج النفَس وتُمتع الطَّرْف.

---

(١) مطارفها: جمع مطرف، وهو الثوب أو كل شيء فيه وشي وحلي.
(٢) زرابيها: جمع زربيّ، وهو البساط والفراش.
(٣) أنماطها: جمع نمط، وهو ضرب من البُسُط، أو الثياب الصوفية تطرح على الهودج.
(٤) حبرها: جمع حبرة، وهي ضرب من برود اليمن.
(٥) رياطها: جمع ريطة، وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ونسجًا واحدًا.
(٦) نوافج المسك: أوعيته.
(٧) الخرّد: جمع خريدة، وهي الفتاة البكر التي لم تمسّ.
(٨) قلائد العقيان في محاسن الأعيان: كتاب ألّفه الفتح بن خاقان الإشبيلي، جمع فيه أخبار شعراء المغرب، وشعرهم، وقدّمه للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين.
(٩) ذرا أيك: أعالي الأيك، والأيك: الشجر الكثير الملتفّ.
(١٠) مفوّفة: رقيقة، ومخطّطة بخطوط بيض.
(١١) حوذانه: ضرب من الأزهار.
(١٢) الورشان: ضرب من الطيور والحمائم البرّية، لونها أكدر، وفيه بياض فوق الذنب.
(١٣) العرف: الأرج، والرائحة الطيّبة.

ومن كلامه: روضةٌ قد تأرّجتْ نَفحاتُها، وتَدبّجتْ ساحاتُها، وتفتّحتْ كمائمُها، وأفصحتْ حمائمُها؛ وتجرّدتْ جداولُها كالبواتر[١]، ورمَقتْ أزهارُها بعيون الجَآذِر[٢].

وقد أكثر الشعراءُ في وصف الرّياض والغصون ـ فمن ذلك قولُ ابنِ الرّوميّ: [من البسيط]

حيّتكَ عمّا شَمالٌ طاف طائفُها ... في جَنّةٍ قد حوت رَوحًا[٣] ورَيحانا
هبّت سُحيرًا فناجَى الغصنُ صاحبَه ... سرًّا بها وتَداعَى[٤] الطيرُ إعلانا
وُرقٌ[٥] تغنّي على خضرٍ مهدَّلةٍ ... تسمو بها وتَشُمّ الأرضَ أحيانا
تَخال طائرَها نشوانَ من طربٍ ... والغصنَ مِن هزّه عِطفيه نَشْوانا

وقال أبو إسحٰق إبراهيمُ بنُ خَفاجَة[٦]: [من مخلّع البسيط]

سَقْيًا لها من بِطاحِ[٧] أنسٍ ... ودَوْحِ حُسنٍ بها مُطِلّ
فما تَرَى غيرَ وجهِ شمسٍ ... أطلّ فيه عِذارُ ظِلّ

وقال أيضًا من أبيات: [من الكامل]

والرّوضُ محنيُّ المَعاطف خِلتُه ... نشوانَ تَعطفه الصَّبا فيَميلُ
ريّانُ فَضَّضهُ النَّدى ثم انجَلَى ... عنه فذهَّب صفحتيه أصيلُ[٨]

وقال الأخيطلُ الأهوازيُّ منشدًا: [من الكامل]

الروضُ يَنشُر رَفْرَفًا وحريرًا ... ومَطارفًا من سندسٍ وحَبِيرا[٩]
حَلّ الربيعُ نِقابَ كلِّ خَميلةٍ[١٠] ... فأراك من صورَ النبات سُفورا

---

(١) البواتر: صفة للسيوف القاطعة التي تبتر وتقطع.
(٢) الجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقر الوحشيّ.
(٣) الرّوح: الريح والرائحة التي تحيي الروح.
(٤) تداعى: تجاوب. (٥) ورق: صفة للحمائم.
(٦) هو إبراهيم بن خفاجة، الشاعر الأندلسي، أبدع في وصف الطبيعة والرياض. مات سنة ١١٣٨ م.
(٧) بطاح: جمع بطحاء، وهي كل أرض منبسطة بين جبلين أو أكثر.
(٨) الأصيل: الوقت قبيل مغيب الشمس.
(٩) حبير: حِبر، أي حلل وبرود من برود اليمن.
(١٠) الخميلة: الجنينة، ومجتمع الشجر الملتفّ الأغصان.

غِيدُ القوام إذا النسيمُ أمالَها ألقين عند صدورهنّ نُحورا
ينحلّ عنهنّ النّدى فتَخال ما ينحلّ عنها لؤلؤًا منثورا
كسلُ النعيم يَدِبّ في حركاتها فيريك في أعطافهنّ فُتورا

وقال أبو عُبادةَ البحتريّ: [من الكامل]

هذي الرياضُ بدا لطرفك نَوْرُها[1] فأرتك أحسنَ من رِياطِ[2] السّندسِ
ينشرن وشيًا مُذهبًا ومدبَّجًا ومَطارفًا[3] نُسِجتْ لغير المَلْبَسِ
وأرتك كافورًا وتبرا مُشرِقًا في قائمٍ مثلِ الزّمردِ أملَسِ
متمايل الأعطاف في حركاته كسلُ النعيم وفترةُ المتنفِّسِ
متحلّيًا من كلّ حُسنٍ مُونقٍ متنفِّسًا بالمِسك أيَّ تنفُّسِ

وقال التّنوخيّ: [من البسيط]

أما ترى الروضَ قد وافاك مبتسمًا ومدَّ نحوَ النّدامَى للسّلام يدَا
فأخضرٌ ناضرٌ في أبيضٍ يَقَقٍ[4] وأصفرٌ فاقعٌ في أحمرٍ نُضِدا
مِثل الرّقيب بدا للعاشقين ضُحًى فأحمرّ ذا خَجَلًا وأصفرّ ذا كمدا[5]

وقال أبو بكر الصَّنَوْبَريّ: [من المنسرح]

تَشَبُّهُ الرَّوض بالحبائب قد زاد المحبّين في مَحبّتِها
كم من قُدودٍ هناك مِن قُضُبٍ تميل من لينِها ونَعمتها
كم وجنةٍ خالُها[6] يلوح لنا سوادُه في صَفاء حُمرتِها
وكم ثنايا تَسْبِي بنَكْهَتِها[7] وكم عيونٍ تُصبِي[8] بلحظتِها
تُسارِق الغَمْزَ غَمْزَ خائفةٍ رقيبَها من خفاءِ نظرتِها

(١) نورها: زهرها. (٢) رياط، جمع ريطة: وهي الملاءة.
(٣) مطارف، جمع مطرف: وهو الثوب الموشّى المجزّع.
(٤) يقق: شديد البياض. (٥) كمدًا: حزنًا.
(٦) خالها: الخال، العلامة أو السيماء أو النكتة السوداء في الخدّ.
(٧) نكهتها: رائحتها. (٨) تصبي: تبعث على الصّبابة.

وقال أبو طاهر بنُ الخُبْزأرزيّ[١]: [من المنسرح]

وروضـةٍ راضَـهـا الـنَّـدَى فـغـدا لـهـا مـن الـزَّهـر أنـجـمٌ زُهُـرُ
تَـنْشُـر فـيـهـا أيـدي الـرّبـيـع لـنـا ثـوبًـا مـن الـوَشْـي حـاكَـه الـقَـطْرُ

وقال منصور بنُ الحاكم: [من الخفيف]

روضـةٌ غَـضّـةٌ عَـلاهـا ضَـبـابٌ قـد تـجـلّـت خـلالَـهـا الأنـوارُ
فهي تَحْكِي مَجامِرًا[٢] مُذكَياتٍ[٣] قدْ عَـلاهـا مـن الـبَـخـور بُـخـارُ

وقال سعيدُ بنُ حُمَيْد مُقْسِمًا: [من الخفيف]

لا وزهرِ الـريـاض تَـجْـرِي عليها بـاكـيـاتٌ ضَـواحـكَ الـنُّـوّارِ[٤]
صافحتْها الرياحُ فاعتَنَق الرو ضُ ومـالـت طِـوالُه لـلقِـصـارِ
لائـذًا بـعـضُـه بـبـعـضٍ كـقـوم فـي عـتـاب مـكـرَّرٍ واعـتـذارِ
مـا خـلـفـنـاك بـالـقـبـيـح ولا الـذ مٍّ عـلـى الـبُـعـد واقـترابِ الـمَـزارِ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الرجز]

وروضـــةٍ حـــالـــيـــةِ الـــصـــدورِ كـاسـيـةِ الـبـطـونِ والـظـهـورِ
مـحـمـودةِ الـمـخـبـور والـمـنـظـورِ مُـونِـقـةٍ[٥] الـمـطـويّ والـمـنـشـورِ
مـعـجـبـةِ الـظـاهـرِ والـمـسـتـورِ ضـاحـكـةٍ كـالـوافـد الـمـحـبـورِ
بـاكـيـةٍ كـالـعـاشـق الـمـهـجـورِ شـذَّرهـا[٦] الـغـيـثُ[٧] بـلا شُـذورِ
شـقـائـقٌ كـنـاظـرِ الـمـخـمـورُ وأُقـحـوانٌ كـثُـغـورِ الـحُـورِ[٨]
ونـرجـسٌ كـأنـجـم الـدَّيْـجُـورِ[٩] والـطَّـلُ مـنـثـورٌ عـلـى الـمـنـثـورِ

* يـرصِّـع الـيـاقـوتَ بـالـبَـلّـورِ *

---

(١) هو نصر الخبزأرزّي، الشاعر البصري، قصر شعره على الوصف والغزل. مات سنة ٩٣٩ م.
(٢) مجامر: جمع مجمرة، وهي الوعاء يوضع فيه الخمر.
(٣) مذكيات: مشتعلات. (٤) النوّار: الزهر.
(٥) مونقة: حسنة المنظر والرونق.
(٦) شذّرها: جعلها شذورًا، أي قطعًا من الذهب.
(٧) الغيث: المطر.
(٨) الحور: جمع حوراء، وهي الفتاة فيها حور، أي شدّة بياض العين وسوادها.
(٩) الديجور: الظلام.

وقال أيضًا: [من الخفيف]

لَبِس الماءُ والهواءُ صَفاءً ... واكْتَسَى الروضُ بهجةً وبَهاءَ
فكأنّ النِّهاءَ[1] صرن رياضًا ... وكأنّ الرياضَ عُدن نِهاءَ
وكأنّ الهواءَ صار رَحيقًا[2] ... وكأنّ الرحيقَ صار هَواءَ
وتَخال السماءَ باللّيل أرضًا ... وتَرَى الأرضَ بالنهار سماءَ
جلّلَتْها الأنوار زُهْرًا وصُفْرًا ... يومَ ظَلّت تُنادِم الأنواءَ[3]
فتَراها ما بين نَوْرٍ ونَوْءٍ ... تَتكافا تبسُّمًا وبُكاءَ
وتَظَلُّ الأشجارُ تَتَّخِذ الحسـ ... ـن قميصًا أو الجمالَ رِداءَ
وتَرَى السَّرْوَ كالمنابر تُزْهَى ... وتَرَى الطيرَ فوقها خطباءَ

وقال كُشاجِم[4]: [من المتقارب]

أرتك يدُ الغيث آثارَها ... وأعلنت الأرضُ أسرارَها
وكانت أكّنتِ لِكانونِها[5] ... خبيئًا فأعطته آذارَها
فما تقع العينُ إلّا على ... رياض تصنّف أنوارَها
يفتّح فيها نسيمُ الصَّبا ... خِباها ويَهتِك أستارَها
ويَسفح فيها دماءَ الشَّقيق نَدَى ظَلَّ يفتضّ أبكارَها
ويُدنِي إلى بعضِها بعضَها ... كضمّ الأحبّةِ زُوّارَها
كأنّ تَفتُّحها بالضُّحى ... عَذارَى تُحلِّل أزرارَها
تَغُضُّ لنرجسها أعينًا ... وطَورًا تحدِّق أبصارَها
إذا مُزْنةٌ[6] سكبتْ ماءها ... على بقعة أشعَلتْ نارَها

---

(١) النهاء: مسايل الماء.
(٢) رحيقًا: ضربًا من الطيب.
(٣) الأنواء: الأمطار الساقطة تبعًا للنجوم المسمّاة بالأنواء.
(٤) كشاجم: هو أبو الفتح محمود، الشاعر والكاتب والعالم بالفلك. فارسي الأصل. أقام في العراق ثم الشام، ثم في حلب، ومدح بني حمدان. له «أدب النديم» وديوان شعر مطبوع. مات سنة ٩٦٠ م.
(٥) كانونها: موقد النار، وكانون، أحد الكانونين الأول والثاني من شهور السنة.
(٦) المزنة: الغيمة الممطرة.

وقال البَسّاميّ: [من البسيط]

أما ترى الأرضَ قد أعطتك زهرتَها مخضرّةً واكْتَسَى بالنَّور عارِيها
فلِلسماء بكاءٌ في جوانبها وللربيع ابتسامٌ في نواحِيها

وقال آخَر: [من المنسرح]

قهقهةَ[١] زهرُ الربيع فاستبشَرْ واكتسَتْ الأرضُ مُطْرَفًا[٢] أخضرْ
ترى ربيعًا نُوّارُه ذهبٌ ماء لُجَيْن حَصْباؤه[٣] جوهرْ
عَطَّل صبّاغُه الخدودَ بما وَرّدَ من صِبغِها وما عَصفَرْ[٤]
لابسُ قُمصٍ من العقيق على غلائلٍ من زبرجدٍ أخضرْ

وقال المعوّج: [من الطويل]

حِقاقٌ[٥] من النُّوّار مزرورةٌ[٦] العُرَا على قِطَع الياقوت واللؤلؤ الغَضّ
فهنَّ على الأغصان أجفان يقظة وبالأمسِ كانت مطبَقاتٍ على الغَمضِ

وقال ابنُ الساعاتيّ: [من البسيط]

لله ما شُقّ من جَيب الرياض بها وحبّذا من ذُيول السُّحب ما سُحِبا
يا ضاحكَ الوَمْضِ[٧] والأنواءُ باكيةٌ أشبهتَ لَمْياءَ[٨] إلّا الظَّلْمَ[٩] والشَّنَبا[١٠]

وقال أيضًا: [من الكامل]

يا حبّذا زمنُ الربيع ودَوْحُه قَيْدُ النواظر بل عُقالُ الأنفُسِ
وافاكَ يَبْسِم والغمامُ معبِّسٌ فأعجب لطلعة باسمٍ ومعبِّس

---

(١) قهقة: ضحك عاليًا. (٢) مطرفًا: ثوبًا موشّى.
(٣) حصباؤه: حجارته.
(٤) عصفر: لوّن بالعصفر، وهو نبت أصفر اللّون.
(٥) حقاق: جمع حق وحقّة، وهي الوعاء. (٦) مزرورة: مجتمعة موثّقة.
(٧) الومض: البرق واللمعان.
(٨) اللمياء: التي في شفاهها لمى، وهو الزرقة في الشفاه والسواد.
(٩) الظلم: بياض الأسنان ولمعانها.
(١٠) الشنب: الطراوة والعذوبة، وتحديد أطراف الأسنان.

جُليتْ عرائسُه فهَمُّ قلوبنا | واللهوُ بين مقوّضٍ ومعرّسِ[(١)]
أنفاسُه من عنبرٍ وسماؤه | من لؤلؤ وبِساطُه من سندسِ

وقال أبو عُبادةَ البحتريُّ: [من الطويل]

ولا زال مخضرٌّ من الروض يانعٌ | عليه بمحمرٍّ من النَّوْرِ جاسدِ[(٢)]
يذكّرني ريّا[(٣)] الأحبّة كلّما | تنَفّسَ في جُنحِ من الليل باردِ

وقال السَّرَويّ: [من الطويل]

غدونا على الرَّوْض الّذي طَلّه النَّدَى | سُحيرًا وأوداجُ الأباريق[(٤)] تُسفَكُ
فلم أرَ شيئًا كان أحسنَ منظَرًا | من النَّور يجري دمعُه وهو يَضحكُ

وقال آخَر: [من الخفيف]

حظُّ عينٍ وحظُّ سمعٍ ربيعا | نِ وتغريدُ بلبلٍ وهَزارِ[(٥)]
في جِلاء من الزمان ووجهُ الأر | ض يُكسَى وشائعَ[(٦)] النُّوّارِ
بابيضاضٍ محدِّقٍ باخضرارٍ | واصفرارٍ مبطَّن باحمرارِ
كلّما أشرقت شُموسُ الأقاحِي | خِلتَ إحدى الشُّموس شمسَ النهار

وقال كُشاجِم: [من الوافر]

وروضٍ عن صنيعِ الغَيْثِ[(٧)] راضٍ | كما رضيَ الصديقُ عن الصديقِ
إذا ما القَطر أسعدَه صَبوحًا[(٨)] | أتَمَّ له الصنيعةَ في الغَبوقِ[(٩)]
يُعير الرِّيحَ بالنفَحاتِ رِيحًا | كأنّ ثَراه من مِسكٍ سَحيقِ[(١٠)]
كأنّ الطَّلّ[(١١)] منثِرًا عليه | بقايا الدّمع في خدّ المَشوقِ

---

(١) المقوّض: مرتحل. والمعرّس: النازل للاستراحة قبل استئناف المسير.
(٢) جاسد: لونه لون الزعفران الأحمر، والجاسد: الدّم اللاصق بالشيء.
(٣) ريّا: رائحة.
(٤) أوداج الأباريق: كناية عن أوعية الخمر التي تسيل خمرًا.
(٥) الهزار: البلبل، أو هو جنس من البلابل الغرّيدة.
(٦) وشائع: جمع وشيعة، وهي اللفيفة أيًا كانت.
(٧) الغيث: المطر.
(٨) الصبوح: خمرة الصباح.
(٩) الغبوق: خمرة المساء.
(١٠) سحيق: مسحوق مفتّت.
(١١) الطّل: الندى.

كأنج غصونَه سُقيتْ رَحيقًا[١] فماست مَيْسَ شُرّاب الرّحيقِ
كأنّ شقائقَ النُّعمان فيه محضَّرةٌ كؤوسًا من عقيقِ
كأنّ النرجسَ البَرّيّ فيه مَداهنُ[٢] من لُجَيْن للخَلوقِ[٣]
يذكّرني بنفسَجُه بقايا صنيعِ اللّطم في الخدّ الرقيقِ

وقال ابنُ سكّرةَ الهاشميّ: [من السريع]

أما تَرى الروضةَ قد نَوّرتْ وظاهرَ الرّوضة قد أعشَبا
كأنّما الأرضُ سماءٌ لنا نَقطِف منها كوكبًا كوكبا

وقال عليُّ بنُ عطيّةَ البَلَنْسيّ: [من الوافر]

أدِيراها على الزَّهر المندَّى فحُكمُ الصّبح في الظَّلماء ماضِي
وكأسُ الراح تنظر عن حَبابٍ[٤] ينوب لنا عن الحَدَقِ المِراضِ
وما غَربَتْ نجومُ اللّيل لكن نُقِلن من السّماء إلى الرياضِ

وقال شاعرٌ أندلسيّ: [من الطويل]

وفتيانِ صدقٍ عرَّسُوا[٥] تحت دَوْحةٍ[٦] وما لهُم غير النبات فِراشُ
كأنّهم والنَّوْرُ يَسْقُط فوقهم مَصابيحُ تَهْوِي نحوهنّ فَراشُ

وقال أبو محمد الحسنُ بنُ عليِّ بنِ وكيع التِّنّيسيّ: [من الرجز]

أسْفَرَ عن بهجتهِ الدهرُ الأغرْ وابْتَسَم الروضُ لنا عن الزَّهَرْ
أبدَى لنا فصلُ الرّبيع مَنْظَرا بمثلِه تُفْتَن ألبابُ[٧] البشرْ
وَشْيا ولكن حاكَه صانعُه لا لابتذال اللّبس ولكن للنظرْ
عاينَه طرفُ السماء فأنثنت عشقًا له تَبكي بأجفانِ المطرْ

(١) رحيقًا: رائحة طيّبة، والرحيق الثانية: الخمرة.
(٢) مداهن: جمع مدهنة، وهي الوعاء للدهن وللطّيب.
(٣) الخلوق: ضرب من الطّيب يدّهن به.
(٤) حباب: فقاقيع تظهر على سطح الشراب.
(٥) عرّسوا: أقاموا ليلًا للاستراحة قبل معاودة السّير.
(٦) الدوحة: الشجرة الكبيرة. (٧) ألباب: عقول.

فالأرضُ في زِيٍّ عَروسٍ فوقَها مِن أدمعِ القَطْرِ نِثارٌ مِن دُررْ
وَشْيٌ طَواه في الثَّرى صيانةً حتّى إذا مَلَّ من الطّيِّ نَشَرْ

وقال أبو طاهر بنُ أبي الرّبيع: [من الكامل]

وكأنّ مَوْلَّى[١] الرياض ضرائرٌ تُزْهَى بخُضرتها على الخَضْراءِ[٢]
قد أبرزَتْ زَهَراتِها وازَّيّنتْ وتعطّرتْ وتَبرّجتْ للرّائي
والنَّوْرُ[٣] منحسِرُ القِناع كما بدت للناظِرين محاسنُ العَذراءِ[٤]
والنبتُ رَيّانُ[٥] المَهزّة مائلٌ شَرِهٌ مَحاجِرُ زَهْرِه بالماءِ

البابُ الثاني
من القسم الرابع من الفنّ الرابع
في الأزهار

ويشتمل هذا البابُ على ما قيل في الخِيرِيِّ ـ وهو المنثور ـ والسَّوْسَن، والآذَرْيُون والخُرَّم، والشَّقِيق، والبَهار، والأُقْحُوان.

فأمّا الخِيرِيُّ وما قيل فيه ـ فالخِيريُّ هو المنثور ـ وهو مما أُولِع الشعراءُ بوصفه.

فمن ذلك قولُ ابن وَكيع التِّنِّيسيّ: [من الرجز]

أُنظرْ إلى المنثور في مَيْدَانِهِ يرنو إلى الناظر من حيث نَظَرْ
كجوهرٍ مختلِفٍ ألوانُه أسلَمَه سِلكُ نظامٍ فانتَثَرْ

وقال آخَر: [من السريع]

أُنظرْ إلى المنثور ما بيننا وقد كساه الطلُّ قُمصانَا
كأنما صاغته أيدي الحَيا[٦] من أحمرِ الياقوت قُضْبانا

(١) المولّى: ما سقي بالوليّ من الأرض والنّبت والشجر. والوليّ: اسم مطر ربيعي.
(٢) الخضراء: صفة أو اسم يطلق على السماء. (٣) النور: الزهر.
(٤) العذراء: الفتاة البكر. (٥) ريّان: ممتلىء وناضر، من أثر المياه.
(٦) الحيا: المطر.

وقال أبو إسحٰق إبراهيمُ بنُ خفاجةَ يذكر كوتَة لا تَظهَر رائحتُه إلّا لَيْلًا: [من الطويل]

وخِيريّةٍ بين النّسيم وبينَها حديثٌ إذا جَنّ[1] الظلامُ يَطيبُ
يَدِبّ مع الإمساء حتّى كأنّما له خلفَ أستار الظّلام حبيبُ

وقال أبو هلال العسكريّ: [من الرجز]

ألوانُ منثورٍ يريك حُسنُها ألوانَ ياقوتٍ زها في عِقْدِهِ
يا حُسنَها في كَفّ مَن يشبهها فأنظرْ إلى النّدّ[2] بكَفّ نِدّهِ[3]
مِن أشْهَلٍ[4] كعينِه وأبيضٍ كثغرِه وأحمرٍ كخدِّهِ
وأصفرٍ مِثلِ صريعِ حُبّهِ إذا تغشّته غَواشِي صَدِّهِ

وقال آخَر: [من الطويل]

عَجبتُ من الخِيريّ أمتَع في الدّجَى وأصبَحَ رَيّاه مع الصّبح تُحجَبُ
فخِلتُ الرّيا طبعًا له مِثلَ ناسكٍ يرائي[5] نهارًا وهو باللّيل يَشرَبُ

وقال آخَر: [من السريع]

ما أكرمَ الخِيريَّ في فِعْلِهِ يَسهَر إذ نَوْرُ الرُّبا ناعسُ
كأنّما خافَ عليه العِدا فهو له في ليلِهِ حارسُ

وقال ابنُ الحدّاد: [من الكامل]

عافَ النهارَ مخافةَ الرقباءِ فَسَرَى يضمّخ حُلّةَ الظّلماءِ
يَطْوِي شَذاه[6] عن الأنوف نهارَه ويجود في الظّلماء بالإفشاءِ[7]
متهتّكٌ في طبعِهِ متستّرٌ وكذا تكون شمائلُ[8] الظُّرفاءِ

(١) جنّ: ادلهمّ واشتدّ.
(٢) النّدّ: ضرب من العود يتبخّر به.
(٣) النّدّ: الخصم.
(٤) أشهل، فيه شهل، والشهل للعين، اتساقها ومخالطة سوادها زرقةً.
(٥) يرائي: يستخدم الرّياء، وهو الكذب.
(٦) شذاه: عرفه ورائحته.
(٧) الإفشاء: الإعلان والإذاعة.
(٨) الشمائل: الطباع الحسنة.

لـمّـا رأى حُـبَّ الأنـوف لَعـرفِـه ... لَبِس الغياهب[١] خِيفةَ الرُّقباءِ
كالطَّيْف لا يصل الجفونَ لسُهْدِها[٢] ... ويَـهُـبّ فـيـهـا سـاعـةَ الإغـفـاءِ

وقال أبو العَلاء المَرَوِيّ: [من البسيط]

أَهْدَى إليّ فنونَ الشّوقِ والأَرَقِ ... نسيمُ رائحة الخِيريِّ في طبقِ
كـأنّـه عـاشـق يَطْوِي صَبابَتَه[٣] ... صبحًا ويَنشرها في ظلمةِ الغَسَقِ[٤]
وكـلُّ ذي لـوعـةٍ فـالـلّـيـلُ راحتُـه ... واللّيلُ أخفَى لويل الوالِهِ[٥] القَلِقِ

وقال آخَر: [من الطويل]

يَنِمّ[٦] مع الإظلام طيبُ نسيمِهِ ... ويَخْفَى مع الإصباح كالمتستِّرِ
كـعـاطـرةٍ لـيـلًا لموعـدِ مـحـبِّـهـا ... وكـاتـمـةٍ صبحًـا نـسـيـمَ الـتعطّـرِ

وقال ابنُ الرّوميّ: [من المنسرح]

خِـيـريُّ وَردِ أتاكَ فـي طـبـقِـهْ ... قد مـلأ الـخـافـقَـيـن[٧] من عَبَـقِـهْ
قد خَلَعَ العاشقون ما صنع الهـ ... ـجـرُ بـألـوانـهـم عـلـى ورقِـهْ

وأمّا السَّوْسَن وما قيل فيه ـ فقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا في طبع السَّوسَن: الأبيضُ البستانيُّ منه حارٌّ يابسٌ في الثانية؛ والإيرِساءُ أشدُّ تسخينًا وتجفيفًا، والإيرساءُ هو أصلُ السَّوْسَن الإسمانْجوني. قال: وأصلُه جلّاء، مجفِّفٌ باعتدال؛ ودُهنُه ألطفُ وأشدُّ تحليلًا وتليينًا مطيَّبًا كان أم غيرَ مطيَّب؛ والإيرساءُ أقوَى في جميع ذلك؛ وهو قابض، وفيه شفاءٌ للأوجاع والعفونات، وينفع من الكَلَف والنَّمَش، وخصوصًا أصلَه، وينقّي الوجه غَسلًا به ويَصقِلُه، ويزيل تشنُّجه؛ وإن دُقَّ بِزْرُه وورقُه ناعمًا وعُمل منه ضمادٌ بالشراب على الحُمرة نفعَها، وكذلك على الأورام البَلْغَمِيّة الفِجّة «والجربِ المتقرّح والخُشْكَريشات»، وأصلُه ينفع من حَرْق الماء الحارّ؛ لأنّه مجفِّف مع جِلاء وباعتدال، وكذلك ورقُه مطبوخًا، والأحسنُ أن يكون استعمالُه بدُهن الوَرد وعُصارةِ الإيرِساء؛ وزهرُه يُطْبَخ في الخَلّ والعسل في إناءٍ من نحاسٍ للقُروح

---

(١) الغياهب: الظلمات، جمع غيهب.
(٢) سهدها: عدم نومها.
(٣) صبابته: شوقه وحبّه.
(٤) الغسق: ظلمة أوّل الليل أو آخره.
(٥) الواله: الذاهب العقل الذاهل من شدّة الوجد والحب.
(٦) ينمّ: يكشف ويعلن.
(٧) الخافقان: المشرق والمغرب.

المُزْمِنة[١] والجِراحات. والبستانيُّ أفضلُ الأدوية لحَرْق الماء الحارّ، وهو جيّدٌ لانقطاع العَصَب؛ وتُتّخذ من أصل البرّيِّ مضمضةٌ لوجع الأسنان؛ ويوافق دُهنُه قُروحَ الرأس والنُّخالة، وإذا قُطِر في الأُذُن سكّن الدّويّ[٢]؛ وهو رديءٌ للمعدة، وخصوصًا دُهْنَه، ودُهنُه محلِّل مليِّن لصلابة الرَّحِم شُربًا وتمريخًا[٣]؛ وكذلك إذا طُبِخ أصلُه بدُهن الوَرد، ولا نظير له في أمراض الرَّحِم، وكذلك دُهنُ الإيرِساء؛ ويُخرِج الجنين، وينفع من المَغْص، وإذا طُبِخ أصلُه وحدَه بالخلّ أو مع بِزر البَنْج[٤] ودقيقِ الحِنطةِ[٥] سكّن الأورامَ الحارّةَ العارضةَ للأنثيين[٦]؛ وإذا شُرِب مِن دُهنِه مقدارُ أوقيّةٍ ونصفِ أسهَل؛ ويَصلُح لأصحاب إيلاوس[٧] الصّفراويّ، ودُهنُ الإيرِساء يفتّح أفواهَ البواسير، وكذلك أصلُ السَّوْسَن كيف كان؛ وهو ينفع من لسع الهَوامّ[٨]، خصوصًا العقربَ هو وعُصارتُه وشرابُه وبِزْرُه شُرْبًا، ودُهنُه دِرْياق[٩] للبَنْج.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال الأخيطل الأهوازيّ: [من البسيط]

سَقيًا لأرضٍ إذا ما نمتُ أرّقَني ... بعد الهدوء بها قرعُ النّواقيسِ
كأنّ سَوْسَنَها في كلّ شارفةٍ ... على الميادين أذنابُ الطّواويسِ

وقال أيضًا فيه: [من الكامل]

وكأنّ سَوْسَنَها سبائكُ فضّةٍ[١٠] ... غضّ النبات فأزرقٌ أو أحمرُ
حُمِلتْ سقيط الطّلّ في ورقها ... فكأنّه متبسّمٌ مستعبِرُ

وقال الصَّنَوْبَريّ ـ ويُروَى للرّفّاء ـ: [من الرجز]

أُنظرْ إلى السَّوسَن في مَنْبَتِهِ ... فإنّه نبتٌ عجيبُ المَنْظَرِ
كأنّه مَلاعقٌ من ذهبٍ ... قد خُطَّ فيها نُقطٌ من عَنْبَرِ

---

(١) المزمنة: الدائمة، لا شفاء لها. (٢) الدّوي: الطنين.
(٣) تمريخًا: دهنًا ودلكًا.
(٤) البنج: ضرب من النبات، بزوره كبزور الخشخاش منوّمة.
(٥) دقيق الحنطة: طحين القمح. (٦) الأنثيان: متاع المرأة.
(٧) إيلاوس، ضرب من الأمراض السارية.
(٨) الهوام: كل ما له سمّ كالحيّة مثلًا، وقد تطلق اللفظة على ما لا يلسع أو يقتل من الحشرات، والمفرد هامّة.
(٩) الدرياق: لغة في الترياق، وهو الدواء الذي يقتل السمّ.
(١٠) سبائك الفضّة: القطع من الفضّة ذوّبت ثم أفرغت في قوالب مخصوصة.

وقال آخَر: [من مجزوء الرجز]

أُنظرْ إلى السَّوْسَن في جمالِه المنعوتِ
مِثل كؤوسٍ خُرِطتْ من أزرقِ الياقوتِ

وقال آخَر: [من البسيط]

يا رُبَّ سَوْسَنَةٍ قبّلتُها شَغَفًا[1] وما لَها غير نَشْرِ المِسْك من رِيقِ
مصفرّةِ الوجه مبيضٌ جوانبُها كأنّها عاشقٌ في حَجر معشوقِ

وقال آخَر: [من المنسرح]

كأنّ ثغر الربيع مبتسِمًا فالسَّوْسَن المجتنَى ثناياهُ[2]
يا حُسنَه ضاحكًا له عَبَقٌ كطِيب ريح الحبيب رَيّاهُ

وقال شاعرٌ أندلسيّ: [من السريع]

سَوسَنةٌ بيضاءُ أوراقُها فيها خطوطٌ من سوادٍ خَفِي
كأنّه دارسُ خَطٍّ بدت أشكالُه في الرّقّ[3] من مصحَفِ

وقال شاعرٌ متطيّرًا بإهدائه: [من السريع]

يا ذا الذي أهْدَى لنا السَّوْسَنا ما كنتَ في إهدائه محسِنا
أوّلُه سوءٌ فقد ساءني يا ليت أنّي لم أرَ السَّوْسَنا

وقال آخَر: [من السريع]

سَوْسَنةٌ أعطيتنِيها فما كنتِ فإعطائي لها محسِنهْ
أوّلُها سوءٌ فإن جئتِ لآ خُرُ منها فهو سوءُ سنهْ

وأمّا الآذَرْيُون وما قيل فيه ـ فالآذَرْيُون وَردٌ أصفرُ لا ريحَ له ألبتّة؛ وهو صِنفٌ من الأُقحوان، ومنه ما نُوّارُه[4] أحمر. وقال ابن البيضاء في جامعه: أنّه نُوّارٌ ذهبيّ، في وسطه رأسٌ صغير أسود، واسمُه بالفارسيّة: آذَرْكُون، ومعناه لونُ النار.

---

(١) شغفًا: حبًّا وولعًا.
(٢) ثناياه: أسنانه الأمامية.
(٣) الرّق: الورق والصحيفة.
(٤) نوّاره: زهره.

وقال أبو عليّ بنُ سينا: طبعُه حارٌّ يابسٌ في الثالثة؛ [illegible]ه ينفع من داء الثعلب مسحوقًا بخَلّ؛ ورَمادُه بالخَلّ لعِرْق النَّسا(١). وقال دِيسْقُوريدوس: إنّ الحُبْلَى إذا مسّته أو تَحمّلتْ منه أسقطَتْ من ساعتها، وهو ينفع من السمومات كلِّها وخصوصًا اللُّدوغ.

وأمّا ما جاء في وصفه ـ فقال شاعرٌ يصفه: [من البسيط]

تاه(٢) الربيعُ بآذَرْيُونةٍ وزها ... لمّا بدا منه في [illegible] الدّجَى أرَجُ(٣)

كأنّ أغصانَه فَيْرُوزَجٌ بَهِجٌ ... من فوقه ذهبٌ في وَسْطِهِ سَبَجُ(٤)

وقال التَّنوخيّ: [من الطويل]

وآذَرْيُونٍ مِثْلِ خدٍّ متيَّمٍ ... لأحشائه خوفَ الفراق وَجيبُ(٥)

شموسٌ لها من حينِ تَطلُع شمسُها ... طلوعٌ وفي وقتِ الغروب غروبُ

تُفتِّح إن لاحت سرورًا بضوئها ... كما سُرَّ بالرأي المصيبِ مصيبُ

وتنضمّ إن جاء الظلامُ كأنّه ... رقيبٌ عليها والضياءُ حبيبُ

وقال ابنُ وَكِيع: [من مجزوء الرجز]

قم فاسقني صافيةً ... تَسلُب قلبي فِكَرَهْ

في روضةٍ كأنّها ... خريدةٌ(٦) في حِبَرَهْ(٧)

كأنّ آذَرْيُونَها ... أسودَه وأحْمَرَهْ

سَحيقُ مِسكٍ مودَعٍ ... في خِرَقٍ معصفرَهْ(٨)

وقال عبدُ الله بن المعتزّ: [من مجزوء الرجز]

كأنّ آذَرْيُونَها ... تحت سماءٍ هاميَهْ(٩)

مَداهنٌ من ذهبٍ ... فيها بقايا غاليَهْ(١٠)

---

(١) عرق النّسا: داء مؤلم يصيب الفخذ والقدم. (٢) تاه: صال، وتباهى.
(٣) أرج: رائحة. (٤) السبج: ضرب من الخرز الأسود.
(٥) وجيب: اضطراب واختلاج وخوف. (٦) الخريدة: الفتاة البكر.
(٧) حبرة: حلل وبرود يمانية موشّاة ومخطّطة. (٨) معصفرة: صفر كالعصفر.
(٩) هامية: سائلة بالمطر. (١٠) الغالية: المسك، أو فتيت المسك.

وقال آخَر: [من الكامل]

أَظْـرِف بـآذَرْيُـونـةٍ أبـصـرتُـهـا ... في الروض تلمع كاتّقاد الكوكبِ
وكـأنّـهـا لـمّـا تَـكـامَـل حـسـنُـهـا ... مِـسـكٌ تَـفـتّـتَ فـي إنـاءٍ مُـذهَـبِ
وكـأنّـمـا تـشـريـفُـهـا مـن فـوقـهـا ... حَبَبٌ[1] يفرِّج عن رحيقٍ[2] أكهَبِ[3]

وقال السرّيُّ الرّفّاء: [من الطويل]

وروضـةِ آذَرْيُـونَ ذُرَّ بِـوَسْـطِـهـا ... نـوافـجُ[4] مِـسـكٍ قـلبَ مـهـتـاجِ
تـراهـا عـيـونًـا بـالـنـهـار روانـيـا ... وعند غروب الشمس أزرارَ ديباجِ

وقال الطُّغرائيّ: [من الكامل]

وكـــأنّ آذَرْيُـــونَ روضـــتِـــنـــا ... كـــانـــونُ فـــحـــم حـــولَه لَهَـــبُ
أوجـامُ[5] جَـزْع[6] وَسْـطَـه سَـبَـجٌ ... أو سُـؤرِ مـسـكٍ[7] جـامُـه ذَهـبُ

وأمّا الخُرَّمُ وما قيل فيه ـ فالخُرّم هو الخُزَامى؛ وهو عند المَغاربة السَّوْسَن الأزرق.

وقال ابنُ الروميُّ يصفُه: [من الرجز]

وخُـرَّمٍ فـي صِـبـغـةِ الـطـيـالِـسـهْ[8] ... يَحْكِي الطّواويسَ غدت مُطاوِسهْ
كـأنّـمـا تـلـك الـفـروعُ الـمـائـسـهْ[9] ... تَـغْـمِـسـهـا فـي الـلّازَوَرْد غـامـسـهْ

وقال الشُّمْشاطيُّ يصفه: [من البسيط]

وخُـرَّمٍ مـثـلِ لـونِ الـلازورد جـرى ... منـهـا عـلى فضّة بيضاءَ جارِيـهـا
كـأنـهـنّ خـدود الـلّاطـمـات ضُـحًـى ... أو الطّواويسُ حَلّتها خَوافيها[10]
ما غُمِّضت لعيون الشمس أعينُها ... إلّا عـلـى لُـمَـع مـن نُـورهـا فـيـهـا

(١) حبب: فقاقيع صغار تبدو على سطح السائل.
(٢) رحيق: خمرة.
(٣) أكهب: فيه كهبة، أي كدرة ضاربة إلى السّواد.
(٤) نوافج المسك: أوعيته.
(٥) الجام: الإناء الصغير.
(٦) الجزع: نوع من الخرز.
(٧) سؤر مسك: بقيّة من مسك.
(٨) الطيالسة: جمع طيلسان، وهو الثوب الواسع يلبس فوق الثياب العادية، ولونه أخضر غالبًا.
(٩) المائسة: المتمايلة.
(١٠) خوافيها: الريش في داخل الجناح، يقابلها القوادم.

وقال شاعرٌ أندلسيّ: [من الخفيف]

عافَ لونَ البياض ثوبَ أخيه وتَبدّى في حُلّةٍ زرقاءِ
لِتراه العيون في حُلّةٍ يَحْـ ـكي سَنا نُورها أديمَ السماءِ[1]
لو حواها الطاووس أصبحَ لا شـ ـكّ مهنًا بمُلك طيرِ الهواءِ
عِزّةٌ في طباعه وعُلوٌّ قد أنافا[2] به على العَلياءِ

وأمّا الشَّقيق وما قيل فيه - فالشقيق يسمّى الشّقائق والشَّقِر. قال أبو الخير العشّاب: في ألوانه الأبيضُ والأسودُ والأحمرُ والوَرديُّ والرَّماديُّ والأصفر، وفيه بستانيٌّ وبَرّيّ، فالبستانيُّ هو الخَشْخاشُ الأبيض.

قال: ومن أنواعه شقائقُ النُّعمان، ومن الشقائق نوعٌ يسمّى المامِيثا، ولونُه أصفرُ فاقع.

وقال أبو عليٍّ بنُ سينا: هو حارٌّ في الثانية، رَطْب؛ وهو جَلّاء محلِّل. قال: يسوِّد الشَّعرَ إذا خُلِط بقشر الجوز؛ وإذا استُعْمِل ورقُه وقُضبانُه كما هو أو مطبوخًا حسَّن الشَّعر. قال: ويابسُه ينفع من القُروح الوَسِخة؛ وعُصارتُه سَعوط[3] لتنقية الرأسِ والدّماغ؛ وأصلُه يُمْضَغ لجذب الرطوبات من الرأس؛ وعُصارتُه نافعةٌ من ظُلمة البصر وبياضِه وآثارِ قُروح العين؛ وإذا طُبِخ بالطِّلاء[4] وتُضُمِّد به أبرأ[5] الأورامَ الصُّلبة؛ وإذا طُبِخَ ورقُه بقُضبانِه بحشيش السَّعْتَر وأُكِل أدرَّ اللَّبن؛ وهو يُدِرُّ الطَّمْث[6]، والله أعلم.

وأمّا ما جاء في وصفه - فقال ابنُ الرّوميّ: [من الطويل]

تَصُوغ لنا كفُّ الربيع حدائقًا كعِقْدِ عقيقٍ بين سِمْطِ[7] لآلِي
وفيهنّ نُوّارُ الشقائق قد حَكَى خدودَ غَوانٍ نُقِّطت بغَوالِي[8]

وقال أبو الفتح كُشاجِم: [من الخفيف]

فَرَّج القلبَ غايةَ التفريجِ إبتهاجي ما بين روضٍ بهيجِ
فكأنّ الشَّقيقَ فيه أكاليـ ـلُ عقيقٍ على رؤوسِ زُنوجِ

(١) أديم السماء: لونها.
(٢) أنافا: أشرفا.
(٣) سعوط: ما يسعط، أي يتنشّق به.
(٤) الطلاء: الخمرة.
(٥) أبرأ: شفي.
(٦) الطمث: دم الحيض عند الفتاة أو المرأة.
(٧) السّمط: الخيط الذي ينتظم حبات العقد من اللآلىء وغيرها.
(٨) الغوالي، جمع غالية، وهي من أنفس ما يستخرج من المسك.

وقال آخر: [من الكامل]

طَرِب الشقائقُ للحَمام وقد شجا[١] شجوَ القِيان فشَقّ فضلَ ردائِهِ
وتحَيَّرتْ ما بين إثمِدِ[٢] مآقِهِ[٣] في الخدّ دمعتُه وبين حيائه
فكأنّه الحبشيُّ يصبغ جسمه فثيابُه مخضلّةٌ بدمائهِ

وقال القاضي عياض[٤]: [من السريع]

أُنظرْ إلى الزّرع وخاماته تَحْكِي وقد مالت أمامَ الرياحْ
كَتيبةً خضراءَ مهزومةً شقائق النعمان فيها جِراحْ

وقال الصَّنَوْبَريّ: [من الخفيف]

كم خدودٍ مصونةٍ من شقيقٍ لم تبذَّلْ لِلَثم أو للعِضاضِ
إعترِضْ ناظرَ الشقيق ففيه طُرَفٌ ما يَمَلُّها ذو اعتراضِ
جُمَمٌ[٥] سُرِّحَتْ[٦] بلا مُشْطٍ أو طُرَرٌ[٧] قُصِّصت بلا مِقراضِ[٨]
حُمرةٌ فوق خضرةٍ وسوادٌ بين هذين مُعلَمٌ ببياض

وقال أيضًا فيه: [من الوافر]

وجوهُ شقائقٍ تبدو وتَخفَى على قُضُبٍ تَمِيد[٩] بهنّ ضعفا
تَراها كالعَذارَى مُسبِلاتٍ عليها من عميم النّبت سَجْفا[١٠]
تَنازعتِ الخدودَ الحمرَ حُسنًا فما إنّ أخطأت منهنّ حَرْفا
إذا طلعتْ أرتك السُّرْجَ[١١] تُذْكَى[١٢] وإن غَرَبتْ أرتك السُّرْجَ تُطفَا

(١) شجا: بكى وحزن.
(٢) إثمد: كحل.
(٣) مأقه: عينه.
(٤) هو عياض القاضي، العالم بالتاريخ والأدب والحديث، ولي قضاء سبتة وغرناطة، واشتهر بالقاضي عياض. له من التصانيف «مشارق الأنوار» و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى». مات سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م.
(٥) جم: جمع جمّة، وهي مجتمع شعر الرّأس.
(٦) سرّحت: مشطت.
(٧) طرر: جمع طرّة، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٨) مقراض: مقصّ.
(٩) تميد: تتثنّى.
(١٠) السّجف: السّتر والغطاء.
(١١) السرج: جمع سراج، وهو القنديل.
(١٢) تذكى: تشعل.

تُخال إذا هي اعتدلتْ قَوامًا زجاجاتٍ مُلِئن الخمرَ صِرفا[١]
يزيد بهنّ روضُ الحَزْن حُسنًا إذا ما زهرُهنّ بهنّ حَفّا[٢]

وقال أيضًا من أبيات: [من مجزوء الكامل]

وكأنّ محمرّ الشقيـ ـق إذا تَصوّبَ[٣] أو تَصَعّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِر ن على رماحٍ من زبرجدْ

وقال آخَر: [من السريع]

شقيقةٌ شَقّ على الورد ما قد لبست من كثرة الصِّبْغ
كأنّها في حسنها وجنةٌ يلوح فيها طَرَفُ الصُّدْغِ[٤]

وقال الأخيطل الأهوازيّ: [من البسيط]

هذي الشقائقُ قد أبصرَت حُمرتَها فوق السوادِ على أعناقها الذُّلُلِ
كأنّه دَمعةٌ قد غَسّلتْ كُحُلا جالت بها وقفةٌ في وجنتَيْ خَجِلِ

وقال كُشاجِم من أبيات: [من البسيط]

فأنظر بعينك أغصانَ الشقائق في فروعها زَهَرٌ في الحسن أمثالُ
من كلّ مُشرِفة الأوراق ناضرةٍ لها على الغصن إيقادٌ وإشعالُ
حمراء من صِبغةِ الباري بقدرتِهِ مصقولةٌ لم يَنَلْها قطُّ صَقّالُ
كأنّما وَجَناتٌ أربعٌ جُمِعَتْ فكلُّ واحدةٍ في صحنِها خالُ[٥]

وقال مؤيِّد الدين الطُّغرائيّ: [من الكامل]

وتَرَى شقائقَه خلالَ رياضِها
أوفَتْ مَطارِدُها على أزهارِها
فكأنّها والرّيحُ تَصقُل خدَّها
والسُّحْبُ تملؤها بصَوْبِ قِطارِها[٦]

(١) صرفًا: خالصة. (٢) حفّ: أحاط.
(٣) تصوّب: انحدر ومال إلى السقوط.
(٤) الصّدغ: الجانب من الرأس ما بين العين والأذن. وهما صدغان.
(٥) الخال: النكتة السوداء في الخدّ، خاصة. (٦) القطار: جمع قطر، وهو المطر.

أقـــداحُ يـــاقـــوتٍ لِطـــافٍ أُتـــرِعَـــتْ[١]
راحًـا[٢] فـبـات الـمِـسـكُ سُـؤرَ[٣] قـرارِهـا
وكـــأنّـــهـــا وَجَـــنـــاتُ غِـيـدٍ أحـدَقـتْ
بـخـدودهـا حُـمـرًا خـطـوطُ عِـذارِهـا[٤]

وأمّا ما وُصِف به البهار - فمن ذلك قولُ الصَّنَوْبَريّ: [من المنسرح]

وروضـةٍ لا يـزال يـبـتـسـم الـنُّـ ـوار فـيـهـا ابـتـسـامَ مـسـرورِ
كـأنّـمـا أوجـهُ الـبَـهـار بـهـا وقـد بـدت أوجُـهَ الـدنـانـيـرِ

وقال أحمدُ بنُ بُرْد الأندلسيّ: [من الطويل]

تأمّلْ فقد شَقّ البَهارُ مقلَّصًا كمائمَه عن نَوْرِه الخَضِل النَّدِي
مَداهـن تِبرٍ في أنامـلِ فضَّةٍ على أذرعٍ مخروطةٍ من زبرجدِ

وقال ابنُ دَرّاج القَسْطَليّ[٥] من أبيات: [من المتقارب]

بَـهـارٌ يَـرُوق بـمِـسـكٍ ذكِـي وصِـبـغٍ بـديـعٍ وخَـلـقٍ عَـجَـبْ
غـصـونُ الـزبـرجـد قـد أورقَـتْ لـنـا فـضّـةً مُـوّهـتْ[٦] بـالـذهـبْ

وقال آخر: [من الكامل]

بَـهَـرَ الـبَـهـار عـيـونَـنـا فـقـلوبُـنـا مـسـحـورة بـجـمـالـه الـسّـحّـارِ
كـسـواعـدٍ مـن سُـنـدسٍ وأكـفُّـهـا مـن فـضّـةٍ حَـمَـلتْ كـؤوسَ نُـضـارِ

وأمّا الأُقْحُوان وما قيل فيه - فقال أبو الخير العشّاب: الأقحوان هو البابونَج؛ وهو نوعان: نوع يَنبت في الجبال الباردة جدًّا، ونوع يزرع في البساتين؛ فما كان جبليًّا فهو البابونج، وما كان مزروعًا فهو أقحوان؛ ومنه ما زهرُه أصفرُ كلُّه؛ ومنه ما زهرُه أبيض، وفي وسطه لُمْعةٌ صفراء، ومنه الحَوْذان، وورقُه يشبه ورقَ الخِيريِّ الأصفر؛ وهو مشرَّفٌ تشريفَ المِنشار، ويُعرفُ برأس الذّهب، ويسمّى بمصر:

---

(١) أترعت: مُلِئت.
(٢) راحًا: خمرةً.
(٣) السّؤر: الأثر وبقيّة الشيء.
(٤) العذار: شعر جانب الرأس.
(٥) أحمد بن دراج القسطلي، نسبة إلى قسطلة درّاج، المدينة الأندلسية، من ألمع الشعراء الأندلسيّين. امتاز بالمديح، وعمل كاتبًا للمنصور بن أبي عامر، وكانت وفاته سنة ١٠٣٠ م.
(٦) موّهت: طليت.

الكَرْكَاش؛ وأهلُ مصر يعتنون بأمره في وقت نزول الشمس برجَ الحَمَل[١]، ويحتفِلون به، فيَخرُج كثيرٌ من عوامِّهم وبعضُ الجند وغيرهم إلى البرِّ ويقطعونه في الساعة التي تَحُلُّ الشمسُ فيها الحَمَلَ بمَناجِلَ من الذهب يصوغونها برسمِه، أو بدنانير؛ ومنهم من يتكلّم بكلام شِبهَ الرُّقْية[٢]؛ لا ينطق بغيره ما دام يحصُده، ويجمعون ما يقطعونه من ذلك بالذّهب، ويدّخرونه في صناديقهم، ويزعمون أنّ مَن قطعه على وضعهِ ملك في تلك السنة ما يَقطعه منه دنانيرَ إن قَطَعَه بالذهب، ودراهمَ إن قطَعه بالفضّة.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: طبع الأُقْحُوان حارٌّ في الثالثة، يابس في الثانية. قال: وهو مسخِّنٌ مُنْضِج، مفتِّحٌ للسُّدُد، وفي الأحمر منه قبضٌ ومنعٌ لأنواع السَّيلان، مع ما فيه من التحليل، وهو يُدِرّ العَرَق، وكذلك دُهنُه مَسُوحًا، ويفتّح أفواهَ العروق، محلِّل، ملطِّف للأورام والبُثُور، محلّل للورم الحارّ في المعدة والدم الجامد فيها؛ وينفع جميعَ الأورام الباردة، وينفع من النَّواصير[٣]، ويقشِّر الخُشْكَرِيشات[٤] والقُروحَ النَّضيجة، وينفع من جراحات العَصَب، ومن التواء العَصَب إذا بُلّت صوفةٌ بطبيخه ووُضِعَتْ عليه، وهو مُسْبِت[٥]؛ وإذا شُمَّ رَطْبُه نَوَّم، ودُهنُه نافعٌ من أوجاع الأُذُن؛ وهو ينفع من الرَّبو إذا شُرِبَ يابسُه كما يُشْرَب الإفتِيمُون[٦]. قال: وهو رديء لفم المعدة، إلّا أنّه يحلّل يابسًا، ويجفّف ما يَتحلّب إليها، ويحلّل الدمَ الجامدَ فيها.

قال: وهو يُدِرّ بقوّة، ويحلّل الدمَ الجامدَ في المَثانة بماء العسل، ويفتّت الحَصاة، وإذا شُرِب مع زهرِه وفُقّاحِه[٧] في الشّراب أدَرَّ الطَّمْث، وكذلك احتمالُ دُهنِه فإنّه يُدِرّ بقوّة، واحتمالُ دُهنِه يحلّل صلابةَ الرَّحِم، ويفتّح الرَّحِم، ويُشْرَب يابسًا بالسَّكَنْجَبِين[٨] كما يُشْرَب الإفتِيمُون فيُسهل سوداءَ وبَلْغَمًا؛ وينفع من أورام المقعدة

---

(١) برج الحمل: هو أول البروج الاثني عشر، ويبدأ في الحادي والعشرين من آذار، وهو أول البروج الربيعية الثلاثة.

(٢) الرقية: هي أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعية في زعمهم.

(٣) النواصير: جمع ناصور، ويطلق عليه اسم الناسور، أيضًا، وهو العرق الغبر في باطنه فساد، وهي علّة تكون في المآقي وحول المقعدة. واللفظة سريانية معرّبة.

(٤) الخشكريشات: ضرب من القروح والدمامل، تسبّب التهابات حادّة.

(٥) مسبت: منوّم.

(٦) الإفتيمون: ضرب من النبت الطّبّي.

(٧) فقّاحه: نوّاره وزهره.

(٨) السكنجبين: خليط سائل من العسل والخلّ.

الحارّة، ويفتّح البواسيرَ وهو ودُهنُه، وينفع من أُدرةِ[١] الماء بعد أن تُشَقّ؛ وينفع من القُولَنْج[٢] ووجعِ المثانة، وصلابة الطُّحال، هذه منافعُه الطّبّية.

وأمّا ما وصفه به الشعراء ـ فقد أكثر الشعراءُ من تشبيهه بالثغور وتشبيهِ الثغور به، وتشبيهُ الثغور به أكثرُ في أشعارهم من تشبيهه بالثغور؛ وقد أجاد ظافر الحدّادُ الإسكندريُّ في وصفه؛ حيث قال: [من البسيط]

والأُقْحُوَانةُ تَحْكِي ثغرَ غانيةٍ[٣]
تَبسّمتْ عنه من عُجْبٍ ومن عَجَبِ
في القَدِّ والبَرْد والرِّيق والشهيّ وطِيـ
ـب الرِّيح واللّون والتفليجِ[٤] والشَّنَبِ[٥]
كشمسةٍ من لُجَيْنٍ في زبرجدة
قد شُرِّفتْ حول مسمارٍ من الذهبِ

وقال آخَر: [من البسيط]

والأُقْحوانةُ تُجلَى وهي ضاحكةٌ
عن واضحٍ[٦] غير ذي ظَلْمٍ[٧] ولا شنَبِ
كأنّها شمسةٌ من فضّة حُرِستْ
خوف الوقوع بمسمارٍ من الذهبِ

وهذا والذي قبلَه من بديع التشبيهِ، وهو أجوَدُ من تشبيهها بالثغور وأصنَع فإنّها لا تشبه بالثغر حقيقةً إلّا من وجهٍ واحد، وهذا وقد شبَّهها ووصَفَها بجميع صفاتها وهيئتها.

---

(١) الأدرة: انتفاخ في كيس الخصيتين.
(٢) القولنج: انسداد يصيب الإمعاء، يمنع من خروج الريح أو البراز.
(٣) الغانية: الفتاة الحسناء التي غنيت بجمالها.
(٤) التفليج: تباعد الأسنان الأمامية عن بعضها بعضًا.
(٥) الشنب: بياض الأسنان ورقّتها وعذوبتها.
(٦) الواضح: كناية عن الأسنان.
(٧) الظلم: بريق الأسنان.

وقال ابن عَبّاد: [من الطويل]

ومن لؤلؤٍ في الأُقْحُوان منظَّمٍ ... على نُكَتٍ[١] مصفرّةٍ كالفرائدِ[٢]
يذكِّرنا رَيّا[٣] الأحبّةِ كلّما ... تَنفّسَ في جُنحٍ من الليلِ باردِ

وقال آخَر: [من الخفيف]

كلّ يوم بأُقْحُوانٍ جديدِ ... تَضحَك الأرضُ من بكاء السماءِ
وَسْطَها جُمّةٌ[٤] من الشَّذْر[٥] حُفّت ... بثغورٍ من فضّةٍ بيضاءِ

وقال جمالُ الدين عليُّ بنُ أبي منصور المصريّ: [من الكامل]

أُنظرْ فقد أبدَى الأَقاحُ مَباسمًا ... ضحكتْ بدُرٌ في قُدودِ زبرجدِ
كفصوص دُرٍّ لُطِّفتْ أجرامُها[٦] ... قد نُظِّمتْ من حَوْلِ شمسةِ عَسْجَدِ

وقال آخَر: [من الكامل]

ظفرتْ يدِي للأُقْحُوان بزَهرةٍ ... باهت بها في الرّوضة الأزهارُ
أبدت ذراعَ زبرجدٍ وأناملا ... من فضّةٍ في كفِّها دينارُ

وقال آخر: [من المجتث]

كأنّ نَورَ الأقاحي ... إذ لاح غِبَّ القَطْرِ[٧]
أناملٌ من لُجَيْنٍ[٨] ... أكفُّها من تِبْرِ[٩]

وقال آخر: [من الطويل]

لَدَى أُقْحُوَاناتٍ يطفن بناضرٍ ... من الوَرد محمرٌ الثياب نَضيدِ[١٠]
إذا الرّيحُ هزّتها توهّمتَ أنها ... ثغورٌ هوت قصدًا لعضّ خدودِ

---

(١) نكت: جمع نكتة، وهي النقطة السوداء في الأبيض، أو البيضاء في الأسود.
(٢) الفرائد: جمع فريدة، وهي الجوهرة النفيسة.
(٣) ريّا: رائحة.
(٤) الجمّة: مجتمع شعر الرأس.
(٥) الشذر: قطع الذهب.
(٦) أجرامها: أجسامها، جمع جرم.
(٧) غبّ القطر: عقب المطر.
(٨) اللجين: الفضّة.
(٩) التبر: الذهب غير الخالص.
(١٠) نضيد: منضّد ومرتّب.

الباب الثالث
من القسم الرابع من الفن الرابع
في الصُّموغ

ويشتمل هذا الباب من الصّموغ على ثمانيةٍ وعشرين صنفًا ـ وهي: الكافُور، والكَهْرَبا، وعِلْكُ الأنباط، وعِلْكُ الرُّوم ـ وهو المُصْطَكا ـ وعِلْكُ البُطْم، وصَمْغُ اليَنْبُوت، وصَمْغُ قُوفيّ، والكَثيراء، والكُنْدُر، والفَرْبَيُون، والصَّبِر، والمُرّ، والكَمْكام، والضِّجاج، والأُشَّق، وترابُ القَيء، والقِنّة، والحِلْتيت، والأَنْزَرُوت، والسَّكَبِينَج، والسَّادَوْران، ودمُ الأَخوين، والمَيْعة، وصَمْغُ قبعرين، والمُقْل الأزرق، والصَّمْغُ العربيّ، والقَطِران، والزِّفت.

فأما الكافور وما قيل فيه ـ فهو أشرفُ الصُّموغِ قَدْرًا، وأحقُّها بالتقديم وأحْرَى؛ لِفَضْلِهِ في التركيب، ودخولِهِ في أصناف الأدويةِ والطِّيب، ويقال فيه: (القافور) بالقاف بدل الكاف، ويقال: إنّه صَمْغُ شجرةٍ سَفْحيّةٍ بحريّةٍ عظيمةٍ تُظِلُّ مائةَ رَجُل، تكون بأطراف الهند. وتزعم التجّار أنه يوجد في الشجرة الواحدة أصنافٌ من الكافور، فيميّزون كلّ صِنف على حدتِه؛ وله مَظانّ[1]: منها (فَنْصُور) وهي جزيرةٌ محيطها سبعُمائة فرسخ، وتُعرَف أرضُها بأرض الذهب؛ والكافور المنسوبُ إليها أفضلُ ممّا عَداه، ومن مَظانّه موضعٌ يُعرَف بأربشير، ومنها الزّابَج؛ والمنسوبُ إليها أدنى أصنافِه. قالوا: وكيفيّةُ جمعِه أن تُقصَد شجرتُه في وقتٍ معلومٍ من السنة فتُحفَر حولها حُفْرة، ويُجْعَل في الحفرة إناءٌ كبير، ثم يُقْبِل الرَّجُل وبِيَدِه فأسٌ عظيمة، وهو ملثّم، مسدودُ الأنف، ويمكّن الإناءَ من أصل الشجرة، ثمّ يضربها بالفأس ضربة، ويَطرح الفأسَ من يده، ويَهْرُب خشيةَ أن يفور في وجهه ما يخرج من الشجرة من الكافور، فإنّه متى أصاب وجهَه قَتَله، ويجمع ما يخرج من الشجرة عقيبَ تلك الضربة في ذلك الإناء الموضوع في أصلها، فإذا برّد في الإناء جعلوه في أوعيةٍ وقطعوا تلك الشجرة، وتركوها حتى تجفّ، ثم تُقطع أجزاءً صغارًا أو كبارًا. وذهب آخَرون إلى أنّه بين اللِّحاء[2] والعُود مِثلَ الصَّمْغ قِطَعًا صِغارًا وكِبارًا. وقال آخَرون: بل يشقّون الخشب فيجدون الكافورَ في قلب العُود منظَّمًا مِثلَ المِلْح، فيَقلعونه منه، وهذا هو الأصحّ عندهم. وقد زعم آخرون أنّ الكافور يُلتَقط من شجرٍ في غياضٍ[3]

(١) مظانّ: مواضع، جمع مظنّة. (٢) اللحاء: قشر الجذع أو الغصن من الشجر.
(٣) غياض: جمع غيضة، وهي الأرض والنبت الذي لم يُذْعَ.

متلفَّةٍ في سفوحِ جبال، وبين تلك الغِياضِ والبحرِ مسيرةُ أيام، وأنّ البُبُور[١] تألَف تلك الغِياض، ولا يصل أحدٌ إلى التقاطه خوفًا منها إلّا في وقتٍ معلومٍ من السنة، وهو زمنِ هِياج هذا الحيوان؛ لأنّه إذا هاج مرض، فتخرج إناثُه وذُكورُه إلى البحر فتَستشفي بمائه نحوًا من شهر، فيُلتقَط في ذلك الوقت. قالوا: ولولا ذلك لكان الكافورُ كثيرًا جدًّا.

والكافورُ أصناف: أفضلُها الرَّباحيّ، وأجود الرَّباحيِّ الفَنْصُوريّ. قالوا: ولا يوجَد هذا الصِّنفُ إلّا في رُؤوس الشجر وفروعِها، ولونُه أحمرُ مُلمَّع، ثم يُصعَّد هناك فيكونُ منه الكافورُ الأبيض، وإنّما سمّيَ الكافورُ رَباحيًّا، لأن أوّلَ من وقع عليه مَلِكٌ يقال له: (رَباح)، فنُسِبَ إليه؛ ومن الرَّباحيِّ صِنفٌ يسمّى المَهْنَشان وهو حَبٌّ أبيضُ برّاق، ناعمُ الفَرْك، ذكيُّ الرائحة، ومنه صِنفٌ يُعْرَف بالبرتك ناعمُ الفَرْك، ذكيُّ الرائحة، وليس له صَفاءُ المَهْنَشان، وبعدَه صِنفٌ يُعْرَف بالسِّرحان، وهو أكبر حَبًّا من المَهْنَشان، إلّا أنّه كثيرُ الخشب، ولونُه يَضرب إلى السواد، ناعم الفرك، ومنه صِنفٌ يسمَّى موطيان، ناعمُ الفَرْك، يَضْرِب إلى الحُمرة، ومنه صِنفٌ يسمَّى المهاي لبصيصِه[٢]، وهو حبٌّ أحمرُ الظاهر أبيضُ في الفَرْك، جافُّ الجوهر، ومنه صِنفٌ يُعْرَف بالرقرق، وصِنْفٌ يُعْرَف بالإسفرك، وهو غُثاء الكافور، وبعده صِنفٌ يسمَّى الكندج، يشبه لونُه نُشارةَ الساج[٣]، إلّا أن فيه لِينًا ودَهانة، وفي حَبّه كِبَر، إذا كُسِرَ وُجِد داخلُه أسوَد، فإذا فُرِكَ وُجِد أبيَض، وكلُّ هذه الأصناف لا تَدخل إلّا في الأدوية، إلّا الرَّباحيّ المجلوب من أرض (فَنْصور) فإنّه لا ينبغي أن يُسْتعمَل إلّا في الطِّيب لجُودته وحُسْنِه، وقد ذكر محمدُ بنُ أحمد بنِ سعيد التَّميميُّ المقدسيُّ في كتابه المترجَم (بجيب العروس) من الكافور أصنافًا كثيرة، منها الذي أوردناه.

وقال أبو عليّ بنُ سينا: طبعُ الكافور باردٌ يابسٌ في الثالثة، واستعمالُه يُسرع الشَّيب، ويمنع الأورامَ الحارّة، وإذا خُلِط بالخَلّ أو مع عصير البُسْر[٤] أو مع ماء الآسِ[٥]

(١) البيور: جمع بير، وهو ضرب من السّباع الهندية، وهو أبيض البطن والجانبين، ومخطّط بخطوط سود.

(٢) البصيص: البريق واللّعان.

(٣) السّاج: شجر من فصيلة رعي الحمام. جميل المنظر، وهو ينتج أحد أجود الأخشاب الصلبة المعروفة.

(٤) البسر: التمر الذي لوّن ولم ينضج.

(٥) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضيّ الورق، أبيض الزهر أو ورديّه، عطريّ، ثماره سود، تؤكل غضّة وتجفّف فتكون من التوابل.

أو ماءِ الباذَرُوج[١] مَنَع الرُّعاف، ونفَعَ الصُّداعَ الحارَّ، وهو يقوِّي حَواسَّ المحرور؛ وهو يَقطع الباه، ويولِّد حَصَى الكُلْية والمَثانة.

وأمّا الكَهْرَبَا وما قيل فيه ـ فالكَهْرَبا يسمَّى مصباحَ الرُّوم. قال عبدُ الله بنُ البيطار[٢] في مفرداته: من زعم أنّ الكَهْرَبَا صَمْغُ الحَوَرِ الرُّوميّ فليس قولُه بصحيح. والكَهْرَبا صِنفان: منها ما يُجْلَب من بلاد الرّوم والمشرق؛ ومنها ما يوجَد بالأندلس في غربيِّها عند سواحل البحر تحت الأرض، ويوجد في واحاتِ مصر. ويقال: إنّه رطوبةٌ تقطر من الدَّوْم[٣] من ورقِه، شبيهةٌ بالعسل، يكون منها الكَهْرَبا، وقد يوجَد في داخلِها الذُّبابُ والتِّبنُ والحِجارة. وأمّا من زعم أنّه صَمغُ الحَوْر الرُّوميّ المعروفِ بالتُّوز، فيقول: إنّ صَمغَته ذهبية، تسيل في النَّهر الذي يسمَّى أمريدانوس، فتَجمُد فيه، فيكون منه الكَهْرَبا؛ ولهذا الشجر ثمرةٌ تسمَّى السدد والكَهْرَبا يَجْذِب التِّبنَ إلى نفسِه، ولذلك يسمَّى كاهْ رُبَا، أي سالبُ التِّبْن، وأجوَدُه الشَّمْعيُّ اللّون.

وقال ابنُ سينا: طبعُ الكَهْرَبا حارٌّ قليلًا، يابسٌ في الثالثة، وهو قابضٌ وخصوصًا للدّم من أيِّ موضعٍ كان. قال: وقال بعضهم: إنّه يُعلَّق على الأورام الحارّةِ فينفع منها، وهو يَحْبِس الرُّعاف؛ وإذا شُرِب منه نصفُ مثقالٍ بماءٍ باردٍ نَفَع من الخَفَقان، ويَمنع من نَفْث الدَّم جدًّا، وهو يَحْبِس القَيْء، ويمنع الموادَّ الرديئة عن المعدة، ومع المُصْطَكا يقوِّي المعدة، وهو يَحْبِس نَزْفَ الرَّحِم والمَقْعَدة، وينفع من الزَّحير[٤].

وأمّا عِلْكُ الأنباط ـ فهو صَمْغُ شجرةِ الفُسْتُق، يُستخرَج منها كسائر الصُّموغ، وذلك أنّهم يَعْقِرون الشجرةَ في مواضعَ كثيرة، فيسيل من تلك العُقور فيُجمَع ويجفَّف في الشمس، ولونُه أبيضُ كَمِد[٥]، وفي طعمِه شيءٌ من مرارة.

---

(١) الباذروج: ضرب من الرّيحان الحرّيفة.

(٢) هو عبد الله بن أحمد، بن البيطار، الطبيب والعالم الأندلسي بالنبات، خدم الأيوبيّين، ومن مؤلّفاته: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، ويعرف بمفردات ابن البيطار، توفي سنة ١٢٤٨ م.

(٣) الدّوم: جنس شجر من فصيلة النخليات، ساقه مشعّبة، يستخرج من ثماره نوع من الدّبس، يعرف بشجرة المُقل، وهو ضخم الجرم.

(٤) الزّحير، والزحّار، واحد، وهو استطلاق البطن، أو التقطيع فيه، يمشّي دمًا، ويسبّب ألمًا، تقابله لفظة «ديسنطاريا».

(٥) كمد: فيه كمدة، أي غُبرة.

وأمّا عِلْكُ الرُّوم - فهو المُصْطَكَا - ويسمّى مصطيجا - وأجْوَدُه ما كان له بريق، وكان أحمرَ مُشْرَبًا، وأبيض، والأصفرُ دونهما.

وقال أبو عليِّ بنُ سينا فيه: الطبعُ حارٌ يابسٌ في الثالثة؛ وهو قابضٌ محلِّل، ودُهنُ شجرتِه ينفع من الجَرَب، حتى جَرَب المواشي والكلاب؛ ويُصَبّ طبيخُ ورقِه وعُصارته على القُروح فتنبت اللّحم، وكذلك على العظام المكسورةِ فتُجْبَر، ومَضغُه يَحْلِبُ البَلْغَم من الرأس وينقّيه، وكذلك المضمضةُ به تَشُدّ اللّثة، وهو يقوّي المعدةَ والكبد، ويَفْتِقُ الشهوة، ويطيّب المعدة، ويحرّك الجُشاء، ويُذيب البَلْغَم، وينفع من أورام المعدةِ والكبدِ في الوقت، ويقوّي الكبدَ والأمعاءَ وينفع من أورامهما؛ وطبيخُ أصلِه وشرِه ينفع من دُوسِنْطَاريا والسَّحْج، وكذلك نفسُ ورقِه، وينفع من نَزْف الدَّم من الرَّحِم وجميعِ أوجاعِ الأرحام وسيلانِ رطوباتِها الرّديئة، ومن نُتوء الرَّحِم والمَقْعدة، وكذلك دُهنُ شجرتِه. قال: ويُدِرّ.

وأمّا عِلْكُ البُطْم - فهو صَمْغُ شجرةِ الحبّةِ الخَضْراء، ويؤتَى به من بلاد المغرب وبلاد فِلَسْطِين وسُورِيَةَ وما جاورها. وقال ابنُ البيطار: العِلْك أنواع: أفضلُها عِلْكُ الرُّوم، وبعدَه عِلْكُ البُطْم، وبعدَه صَمْغُ اليَنْبُوت، وهو صَمْغ شجرِ قَضْمِ قُريش، وهو الصَّنَوْبَر الصّغير، وبعده صَمْغُ القُوفيّ، وهو الأَرْز. وقالوا: اليَنْبُوتُ هو الخُرْنُوبُ النَّبَطيّ.

وأمّا الكَثِيراء - فقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِيّ[1]: الكَثِيراء ممدود؛ هكذا نطقتْ به العرب، وهو صَمْغُ القَتاد، وهي شجرةٌ شَوكة تكون بأرض خُراسان؛ وهي أيضًا توجد في الجبال المُطِلّةِ على طَرابُلِس الشام، ورأيتُها أنا تَنبُت بجبل الثَّلج، وهي جُمَم، لا ترتفع عن الأرض أكثرَ من نصفِ ذراع، يكون فيها الكَثِيراء.

وقال ابنُ سينا: طبعُ الكَثِيراء باردٌ إلى يُبْس، وفيه تجفيف.

وأمّا الكُنْدُر - فهو اللُّبَان، والكُنْدُر كلمةٌ فارسيّة، وهو لا يكون إلّا بالشِّحْر[2] من اليَمَن، وشجرتُه لا ترتفع أكثرَ من ذراعين، ومنابتُها الجبال، وورقُها مِثلُ ورقِ

---

(١) أبو حنيفة، أحمد الدينوري، نسبة إلى دينور، المدينة الإيرانية القديمة، هو عالم ومؤرّخ مشهور. أهم آثاره «الأخبار الطوال» في التاريخ، و«النبات» في علم الطبيعة. مات سنة ٨٩٥ هـ. انظر ترجمته وافيةً في مقدمة «الأخبار الطوال» تحقيق عند المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٠.

(٢) الشحر: مدينة في حضرموت إلى الجنوب الشرقي من اليمن.

الآس، وثمرتُها مِثلُ ثمرته، لها مرارةٌ في الفم،وعِلْكُها يظهر في أماكنَ تُقَصّ بالفُؤوس.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: أجْوَدُ الكُنْدُر الأبيَض المدحرَج، الدِّبْقيُّ الباطن،الذهبيُّ المَكسِر، وطبعُه حارٌ في الثانية، مجفِّفٌ في الأُولى، وقِشرُه مجفِّفٌ في حدود الثالثة. قال: وهو حابسٌ للدّم؛ والاستكثار منه يحرِق الدّم، ودُخانُه أشدُّ تجفيفًا وقبضًا، وإذا خُلِط الكُنْدُر في العسل ووُضع على الدّاحس أذهبه، وقُشورُه جيّدةٌ لآثار القُروح، وينفع بالخَلّ والزَّيت لَطوخًا من الوجع المسمّى مرميقيا، وهو وجعٌ يَعْرِض منه في البدنِ كالثَّآلِيل، مع شيءٍ كدَبيب النمل، وإذا خُلِط بالخَلّ والزِّفتِ ولُطِخ به في ابتداء حدوث الثَّآليل الّتي تسمَّى النملةَ أزالها، ويَدخل في الضِّمادات المحلِّلة لأورام الأحشاء، وهو مدملٌ جدًّا، وخصوصًا للجراحات الطريّة، ويَمنع الخبيثة[1] من الانتشار، ويَصلُح للقُروح الكائنة من الحَرْق، ويقطع نَزْف الدم الرُّعافيّ إذا خُلِط بزفتٍ أو زيتٍ أو بلبن، ويَدمُل قُروحَ العين، ويُنْضِج الورمَ المزمنَ فيها، ودُخانُه ينفع من الورم الحارّ، ويقطع سيلانَ رُطوبات العين، ويَدمُل القُروحَ الرديئة، وينفع من السّرطان في العين، وإذا خُلِط بقَيْمُوليا[2] ودُهن الوَرد نَفَع الأورام الحارّة الّتي تَعْرِض في ثَدي النُّفَساء[3]، ويَدخُل في أدوية قصبة الرّئة، وهو يَحبس القَيْء، وينفع الهضم، ويَحبس نَزْفَ الدَّم من الرَّحِم والمقعدة، وينفع من دُوسِنْطاريا، ويمنع من انتشار القُروح الخبيثة إذا اتُّخِذَتْ منه فَتيلة، وينفع من الحُمَّيَات البَلْغَميَّة.

وأمّا الفَرْبَيُون ـ ويسمَّى اللُّبانة المغْربيّة، فشجرتُه تُشبه شجرةَ القَنا في شكلها، وصَمْغُها مفرطٌ في الحِدّة، يَحذره من يستخرجه لإفراط حِدته، فيَعمِدون إلى كُروش الغنم فيغسلونها ويشدّونها على ساق الشجرة، ثم يطعنونها بعد ذلك بمزاريق[4]، فينصبّ منها في الكَرِش صَمْغٌ كثير، كأنّه ينصبّ من إناء؛ ويَخرج من شجرِه صِنفان: منه ما هو صافٍ يشبه الأَنْزَرُوت، ومنه ما يشبه السكّر؛ وأكثر ما يوجد شجرُه ببلاد

(١) الخبيثة: ربما يقصد بها السرطانات الجلدية، والأنواع الأخرى من الجروحات والتقيّحات التي لا تبرأ.

(٢) القيموليا: ضرب من العقاقير القديمة يدخل في تركيبه مواد كثيرة.

(٣) النفساء: المرأة غبّ وضعها ولدها.

(٤) مزاريق: جمع مزراق، وهو الرمح أو ما يشبه الرمح يطعن به.

البربر[١]، خصوصًا بجبل دَرن[٢]، وهو عَساليجُ[٣] عريضةٌ كالألواح، مِثلُ عَساليج الخَسّ، بيض، لها شُعَب، وهي مملوءةٌ لَبَنًا،ولا يَنبت حولَ شجرِه نباتٌ آخَر. ومنه صِنفٌ آخَرُ ينبت ببلاد السُّودان، وشجرتُه شوِكَةٌ كثيرةُ الأغصان، تنبسط على الأرض. ويقال: إن ببلاد إفريقيةَ شجرةً صَمْغُها الفَرْبَيُون، وإن الصَّمغَ يسيل منها فيَجمُد، وبعضُ أهل البلد يَشرط الشجرة، ويعلِّق على موضع الشَّرْط ما تسيل فيه تلك الرطوبة، ولا يمسّون الشجرةَ بأيديهم، ولا تلك الرطوبة؛ لأنها سمّ قاتل مُشِيط[٤]، يُحرِق كلَّ ما لامَسَه أو باشره من أبدان الناس.

وقال الشيخ الرئيس: إنّ قوّةَ الفَرْبَيُون تتغيّر بعد ثلاثٍ أو أربعِ سنين، والعتيقُ منه يضرِب إلى الشُّقْرة والصُّفْرة، ولا يُداف[٥] في الزَّيت إلّا بصعوبة؛ والحديثُ خلافُ ذلك. قال بعضهم: إنه إذا جُعِل في إناءٍ مع الباقلّى[٦] المقشَّر انحفظت قوّته. قال: وجيّدُه الحديثُ الصافي الأصفرُ إلى الشُّقْرة، الحادُّ الرائحة، الشديدُ الحراقة؛ وغيرُ هذا فهو مغشوشٌ بالعَنْزَرُوت[٧] والصَّمْغ، وهو جالٍ، وله قوّةٌ لطيفةٌ محرِقةٌ جَلّاءة؛ والحديثُ منه أشدُّ إسخانًا من الحِلْتِيت[٨]، على أنه لا صَمغَ كالحِلْتِيت في إسخانِه، ويُخلَط ببعض الأشربة المعمولةِ بالأفاويهِ فينفع من عِرْقِ النَّسَا؛ ويُمرَخ به الفالجُ والخَدَرُ فينفع جدًّا، وإذا اكتُحِلَ به كان جاليًا، ولكن يدوم لذعُه النّهار كلَّه، فلذلك يُخلَط بالعسل. قال: وينفع من بَرْد الكُلَى، وينفع أصحابَ القُولَنْج؛ والشَّربةُ منه مع بعض البُزور وماءِ العسل ثلاثةُ أُوبُولُوسات. وقال بعضهم: إنّه يَضمّ فَمَ الرَّحِم ضمًّا شديدًا حتّى يَمنع الأدويةَ المسقِطَة أن تُسقِط الجنين، ويُسهِل البَلْغَم اللَّزِج الناشبَ في الوَرِكين والظهر والإمعاء فيما قالوا. قال: وقال بعضهم: إنّ من نهشه شيءٌ من الهوامّ فشَقَّ جلد رأسه وما يليه حتّى يظهر القِحْف[٩]، ويجعل فيه من هذا الصَّمْغ مسحوقًا، ثمّ يَخيطه، لم يصبه مكروه. قال: وثلاثةُ دراهمَ منه تقتل في ثلاثةِ أيّامٍ تقريحًا للمعدة والمِعَى.

---

(١) بلاد البربر: يطلق هذا الاسم على مواطن البربر في شمال إفريقية، وتمتدّ هذه المواطن من جنوب ليبيا إلى أقصى المغرب على الأطلسي.

(٢) درن: جبل من جبال البربر يعيش فيه قبائل كثيرة. انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٥٢.

(٣) عساليج: جمع عسلوج، وهو ما لانَ من قضبان الشجر.

(٤) مشيط: مهلك. (٥) يداف: يخلط ويذاب.

(٦) الباقلّى: الفول، أو ضرب قريب منه.

(٧) العنزروت: ضرب من الأصماغ النباتية يعالج به.

(٨) الحلتيت: ضرب من الصموغ النباتية. (٩) القحف: عظام الجمجمة من الرأس.

وأمّا الصَّبِر ـ فهو من الصُّموغ، وصفة شجرتِه فيما قيل: إن ورقها يشبه ورقَ الإسْقِيل[١]، وعليه رطوبةٌ تلصق باليد، وفي حَرفَيْ كلّ ورقةٍ شبهُ الشَّوك، قصيرٌ متفرّق، وعِرْقُها واحد؛ وهذه الشجرةُ تَنْبُت ببلاد الهند كثيرًا، وفي بلاد المغرب. ويقال: إنها ثلاثة أصناف: الأُسْقُطْريّ[٢]، والعربيّ، والسِّمِنْجاني[٣]؛ ويقال أيضًا: إن نباتَه كنبات الراسَن الأخضر، غير أنّ ورقَ الصَّبِر أطوَلُ وأعرض وأغلَظ، وهو كثيرُ الماء جدًّا، ويُلقَى في المَعاصر، ثم يُدَقّ بالخشب، ويداس بالأقدام حتّى يسيلَ عصيرُه، ويُترَك حتى يَثْخُن، ثم يُجعَل في الجُرُب[٤]، ويشمَّس حتى يجفّ؛ وأجوَدُه الأُسْقُطْريّ، وأُسْقُطْرَى جزيرةٌ قريبةٌ من ساحل اليَمَن. وقال إسحٰقُ بنُ عمران: الصَّبِر ثلاثةُ أصناف، فمنه الأحمر الأُسْقُطْرِيّ، ومنه الأسودَ الفارسيّ ومنه الأحمر الملمّعُ بصُفرة، ويؤتَى به من اليمن.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا: أجوَدُ الصَّبِر الأُسْقُطْرِيّ، وماؤه كماء الزّعفران، ورائحتُه كالمرّ[٥]، بَصّاص[٦]، منفرِك، نقيٌّ من الحصى؛ والعربيُّ دونه في الصُّفرة والرزانة والبصيص؛ والسِّمِنْجانيُّ رديء، منتِن الرائحة، قليلُ الصُّفرة، لا بَصيص له؛ وإذا عَتُق الصَّبِر اسودّ. قال: وطبعُه حارٌّ في الثانية يابسٌ فيها، وقيل: حارٌّ يابسٌ في الثالثة، وليس كذلك. وقوّتُه قابضةٌ مجفِّفةٌ منوِّمة، والهنديُّ كثيرُ المنافع؛ مجفِّفٌ بلا لذع، وفيه قبضٌ يسير، وهو بالعسل يَدمُل الدّاحس المتقرِّح، وبالشراب إذا جُعِل على الشَّعر المتساقط مَنَع تساقطَه، وهو ينفع أورامَ الدُّبُر والمَذاكير[٧]، وخاصّةً أورامَ العَضَل الّتي على جانبَي اللّسان إذا كان بالشّراب أو العسل؛ وهو صالحٌ للقُروح العَسِرة الاندمال، وخصوصًا في الدُّبُر والمَذاكير والأنف والفم، وينفع من أوجاع المفاصل، وينقّي الفُضولَ الصّفراويّةَ الّتي في الرأس، وإذا طُلِي به على الجبهة والأصداغ نَفَع من الصُّداع، وهو من الأدوية النافِعة من مرض

---

(١) الإسقيل: ضرب من النبات يطلق عليه اسم العنصل.

(٢) الأسقطري: نسبة إلى جزيرة سقطرى، في البحر العربي، هي أقرب إلى برّ العرب منها إلى برّ الهند، في الطريق إلى بلاد الزنج. انظر: معجم البلدان ٣/ ٢٢٧.

(٣) السمنجاني: نسبة إلى سمنجان، بلدة بطخرستان، وراء بلخ وبغلان. معجم البلدان ٣/ ٢٥٢.

(٤) الجرب: جمع جراب، وهو الوعاء من الجلد وغيره.

(٥) المرّ: ضرب من العود يتبخّر به، وقد يكون صمغًا من الشجر المسمّى باسمه.

(٦) بصّاص: لمّاع.

(٧) المذاكير: كناية عن أعضاء الرجل التناسلية.

الأُذُن. قال: وفي الطّبّ القديم أنّ الصَّبِر يُسهِل السوداء، وينفع من الماليخُوليا[١]؛ والصَّبِر الفارسيُّ يذكّي العقل، ويُحِدّ الفؤاد. قال: والصَّبِر ينفع من قُروح العين وجربِها وأوجاعِها ومن حِكّة المَآقي، ويجفّف رطوبتَها؛ وينقّي الفُضولَ الصَّفراويّةَ والبَلْغَمِيّة التي في المعدة إذا شُرِب منه مِلعقتان بماءٍ باردٍ أو فاتر؛ ويُصلح الحُرْقَةَ والالتهابَ الكائنَين في اللّهاة[٢]، وربّما نفع أوجاعَ المعدة في يوم واحد؛ ويفتّح سُدَدَ الكبد؛ لكنّه يضرّ بالكبد، وهو يُزيل اليَرَقان[٣] بإسهاله. قال: وَدَرخَميّ ونصف منه بماءٍ حارٍّ يُسهِل، وثلاثُ دَرْخَميات تنقّي تنقيةً كاملة؛ والمعتدِل دَرْخَمَيان بماءِ العسل يُسهِل بَلغمًا وصفراء؛ وهو أصلحُ مسهِلٍ للمعدة؛ والمعسولُ أضعفُ إسهالًا لكنّه أنفع للمعدة، وخَلْطُه بالعسل يَنْقُص قوّتَه حتّى يكاد لا يُسهِل. قال: وإذا شُرِب العربيُّ منه كَرَبَ[٤] وأمْغَص وأسْهَلَ، ونَقَبتْ قوّتُه إلى صِفاقات[٥] المعدة إلى يومٍ أو يومين، وسَقْيُ الصَّبِرِ أيّامَ البَرد خطر؛ وربّما أسهَل دمًا، وقد يُجْعَل بالشراب الحلو على البواسير النابتةِ وشُقاق المقعدة، ويقطع الدم السائلَ منها. قال: وبدلُه مِثلاه حُضُض[٦].

وأمّا المُرّ ـ فهو صَمغُ شجرةٍ تكون ببلاد المغرب شبيهةٍ بالشجرة الّتي تسمّى باليونانية: الشوكةَ المصريّة، تُشْرَط فتخرج منها هذه الصَّمْغة، فتسيل على حُصْرٍ وبواريَّ[٧] قد أُعدّت لذلك؛ ومنه ما يوجَد على ساق الشّجرة.

وقال أبو عليّ بنُ سينا: أجْوَد المُرّ ما هو إلى البياض والحمرة، غير مختلِط بخشبِ شجرتِه، طيّبُ الرائحة، وطبعُه: حارٌّ يابسٌ في الثانية، وهو مفتّحٌ محلّلٌ للرّياح، وفيه قبضٌ وإلزاقٌ وتليين، ودخانه يَصلُح لما يَصلُح هو، ولكنّه أشدُّ تجفيفًا؛ وهو يمنع التعفُّن، حتى إنّه يُمْسِك الميتَ ويحفظُه من التغيّر والنَّتْن، ويجفّف الفُضول، وإذا خُلِط بدُهن الآس واللاذَن[٨] أعان على تقوية الشَّعر

(١) الماليخوليا: اضطراب الفكر، ورداءته، وغلبة السوداويّة على صاحبه.
(٢) اللهاة: اللحمة الزائدة في أقصى الحلق.
(٣) اليرقان: مرض يصيب الكبد، فيسبّب اصفرار الجلد.
(٤) كرب: ضيّق النفس.
(٥) صفاقات: جمع صفاق، وهو الجلد دون الجلد الظاهر.
(٦) حضض: ضرب من عصارات بعض الأشجار المزهرة، يستخدم في العلاج الطبّي.
(٧) البواري: الحصُر.
(٨) اللاذن: جنس شجيرات مائية من فصيلة اللاذنيات، دائم الورق، زهره عريض، وردي=

وتكثيفِه، ويجلو آثارَ القُروح ويطيّب نَكْهة الفم إذا أُمسك فيه، ويُزيل البَخر[١]، ويُلطَخ بالشراب والشَّبّ على الآباط فيزيل صُنانَها[٢]، ويُلطَخ بالعسل والسّليخةِ[٣] على الثّآليل، وهو نافعٌ من الأورام البَلْغميّة، ويَدْمُل الجروحَ والقُروح، ويكسو العظامَ العارية، ويُستعمل بالخَلّ على القَوابي، ويبرىء الجراحات المتعفّنة، ورائحته مصدِّعةٌ للرأس، وإذا تُمَضْمِض به بشرابٍ وزيتٍ شدّ الأسنان جدًّا وقوّاها، ومَنَع من تأكُّلِها، ويَشدّ اللِّثة، ويُذهِب رطوبتَها، ويجفِّف قُروحَ الرأس، ويُلطَخ به المنخران للنوازل المُزْمِنة فيحبسها، وقد يُسْعَط بوزن دانَقٍ منه فينقّي الدّماغ، وهو يجلو آثارَ القُروح في العين، ويجلو البياض، وينفع من خشونة الأجفان، ويحلِّل المِدّةَ[٤] في العين بغير لذع، وربّما حلّل الماءَ في ابتداء نزوله إذا كان رقيقًا، وهو جيّدٌ للسُّعال المُزمِن الرَّطْب، ومن الرَّبْو[٥] وأوجاعِ الجَنْب، ويصفّي الصوت، ويُجْعل تحت اللّسان ويُبلَع ماؤه لخشونة الحَلْق، وينفع من استرخاء المعدة والنفخة فيها؛ ويُدرّ الحيض، وخصوصًا الاحتقان به بماء السَّذاب[٦] أو ماء الأَفْسَنْتِين[٧] أو ماءِ التُّرْمُس[٨]؛ ويُخرِج الأجنّةَ والدّيدان، ويليّن انضمامَ فم الرَّحِم، ويُسقَى بالشراب للسع العقرب.

وأمّا الكَمْكَامُ - فهو صَمْغُ شجرة الضِّرْو، ويقال: إنّه ورقُها؛ وقيل: لِحاؤها[٩]، وهو يسيل لَزِجًا أسودَ مِثلَ القار[١٠]، وشجرتُه تُشبِه شجرةَ البُطْم[١١]. وقيل: إنها تُشبِه شجرةَ البَلُّوط العظيمة، إلّا أنّها ألْيَنُ وأنْعَم، وتُثْمر عناقيدَ مثل عناقيد البُطْم إلّا أنّها أكبر.

= أو أبيض.
(١) البخر: رائحة الفم المتنتة.
(٢) الصّنان: رائحة العرق النتنة، تنبعث من الآباط أو من أصابع القدمين.
(٣) السليخة: دهن ثمر البان قبل أن يربّب، وقد يكون من شجر الرّمث ونحوه.
(٤) المدّة: ما يجتمع في الجرح من القيح.
(٥) الرّبو: علّة تحدث في الرئة فتصير التنفس صعبًا.
(٦) السّذاب: نبات من فصيلة السذابيات، قوي الرائحة، أزهاره صغيرة جدًا، له فوائد طبّية متعدّدة.
(٧) الأفسنتين: من النباتات المزهرة، يستخدم في أغراض طبّية متنوّعة.
(٨) الترمس: جنس نباتات من فصيلة القطانيّات، ساقه قويّة مستقيمة، وزهرته بنفسجيّة كبيرة، قرونه عريضة تحتوي على حبّات مرّة الطعم تؤكل بعد معالجتها بالنقع.
(٩) لحاؤها: قشرها. (١٠) القار: القطران، والزّفت.
(١١) البطم وحبّه يطلق عليه اسم الحبّة الخضراء، تدخل في العلاج الطبّي.

وأمّا الضَّجَاج ـ فقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِيّ: الضَّجاج، مِثلُ شجر اللُّبان يكون في جبلٍ يقال له: (قَهْوان) من أرض عُمان، وهو صَمْغٌ أبيَض تُغْسَل به الثيابُ فينقّيها مثل الصَّابون؛ ولهذه الشجرة حَبٌّ مثل الآس، أسود، يَلذع اللّسان.

وأمّا الأُشّق ـ ويقال فيه وُشّق وأُشَّجّ ولصاق الذهب، والكَلَخ، وهو صَمغ الطُّرْثُوث، وهو نباتٌ يَنْبُت تحتَ أصولِ الحُمّيض، وهو صِنفان: حلوٌ يؤكل ولونُه أحمر؛ ومرّ، ولونُه أبيض. وقال الخليل: هو نباتٌ مستطيلٌ دقيقٌ يَضْرِب إلى حُمرة. وقيل: إنه صمغُ نباتٍ يشبه القَنا في شَوْكِهِ، ينبت في بلاد نِينَوَى[١] على ما زعم دِيسْقُورِيدُوس[٢]. وقال أبو عليّ بنُ سينا: هو حارٌّ في آخر الثانية، يابسٌ في الأُولى، وتجفيفُه وتحليلُه قويّ، وفيه تليينٌ وجذبٌ للأورام والفُضول؛ وإذا طُلِيَ به أو ضُمِد نَفَع من الخنازير[٣] والصَّلابات والسِّلَع، وهو نافعٌ للجراحات الرديئة، يأكل اللّحمَ الخبيث، ويُنْبِت الجيّد، وإذا سُقِيَ بالعسل أو بماء الشَّعير نفع أوجاعَ المفاصل؛ وإذا ضُمِد به بالعسل والزفت حَلَّل تحجّرَ المفاصل، وهو يليّن خشونةَ الأجفان والجَرَب، ويجلو البياض، وينفع رطوبات العين، وينفع من الرّبو وعُسْر النَّفَس إذا لُعِق بعسلٍ أو بماء الشّعير، وينفع من الخَوانق[٤] التي من البَلْغَم والمِرّةِ السّوداء؛ وإذا طُلِيَ به نفع من الاستسقاء[٥]؛ وهو يُدِرّ البول حتّى يبولَ الدم، ويقتل الدّود ويُخْرِج الجنين حيًا أو ميتًا، وإذا لُطِخَ به الأنثيان بخَلٍّ لَيَّن صلابتَهما.

وأمّا ترابُ القَيء ـ ويسمَّى الكَنْكَرْزَد، فهو صَمْغُ الحَرْشَف، والحَرْشَف يسمَّى خَسَّ الكَلْب، وهو يَنْبُت على شطوط الأنهار وسواقي المياه، وعليه شَوْكٌ مُتفشّج[٦].

(١) نينوى: في العراق، بها آثار وديار دارسة.

(٢) ديسقوريدوس: ويطلق عليه اسم ديسقوريدوس العين زربي، نسبة إلى بلدة عين زربة في شمال الجزيرة الفراتية. كما يطلق عليه اسم السايح، لأنه ساح في البلاد بحثًا عن الأدوية والعقاقير. له من الكتب: «الحشائش» و«الدواب» و«السموم». انظر: الفهرست، لابن النديم ص ٤٠٧.

(٣) الخنازير: هنات لحمية زائدة، أو أورام تحدث في اللحم الرّخو، في العنق خاصةً.

(٤) الخوانق: جمع خانقة، وهي ضيق النّفس.

(٥) الاستسقاء: مرض يصيب الجسم فتمتلىء الخلايا والأنسجة في الجوف بالماء.

(٦) متفشج: متباعد ما بين شوكه.

وأمّا القِنّة ـ فهو بالفارسيّة البارْزَد، وشجرُه صِنفان: صِنْفٌ زُبْديٌّ[١] ضعيفُ الورق أبيض؛ والآخَرُ كثيفٌ ثقيل؛ وهو ثلاثةُ أنواعٍ بَرّيّ وعربيّ، وجبليّ وأجوده العسليُّ الصافي اللّون. وقال دِيسْقُوريدُوس: هو صَمْغُ نباتٍ يشبه القَنا في شكلِه يَنْبُت في بلادِ سُورِيَة، وأجوَدُه ما كان شبيهًا بالكُنْدُر، وكان متقطّعًا، نقيًّا يَدبَق باليد، وهو يُغَشّ بالأُشّق[٢] ودقيقِ الباقِلّاء[٣]. وقال أبو عليّ بنُ سينا: طبعُه حارٌّ في الثانية، مجفِّفٌ في الثالثة؛ وقوّتُه مليِّنةٌ محلِّلة، وهو مما يُفسِد اللحم، وفيه تسخينٌ وإلهابٌ وجَذْب، وهو يَقْلَع العدسيّات، وينفع من الخنازير ويُطلَى به على القُروح اللّبنيّة بالخَلّ، وينفع من تشنُّج العَضَل، ومن الصّداع، وإذا شمَّه المصروع[٤] انتعَش، وينفع من وجع الضِّرس والسِّنّ المتآكلة في الحال، وينفع من الأوجاع الباردة في الأُذُن، ويحلِّل أورامَها وأوجاعَها بغير أذًى إذا حُلَّ في دُهن السَّوْسَن وفُتِّر وقُطِر، وينفع من الرَّبو والسُّعال المُزْمِن، ويُدِرّ الطَّمْث بقوّة، ويُسْقِط الأجنّة، وينفع من اختناق الرَّحِم سَقيًا بالشراب، ويُزيل عُسْرَ البول؛ وهو تِرياقٌ[٥] للسّمّ الذي تسقاه السّهامُ إذا سُقي بشراب، ولسُموم الحيّات والعقارب، ودخانُه يطردَ الهوامّ، وبدلُه السَّكْبِينَج[٦].

وأمّا الحِلْتِيت ـ فهو صَمْغُ شجرة الأَنْجُذان، وهو نوعان: أحدُهما أبيض وهو المأكول، والآخَر أسود، منتن الرائحة. وقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِيّ: نباتُه الرّمل الذي بين بُسْت[٧] وبلاد القِيقان[٨]، والحِلْتِيت صَمْغٌ يخرج من أصل ورقِه بأن يُشرَط أصلُه وساقُه. وقال أبو عليّ بنُ سينا: طبعُه حارٌّ في أوّل الرابعة، يابسٌ في الثانية؛ وهو يُكثِر الرِّياحَ ويطردها بتحليله، وهو مع ذلك نَفّاخٌ مقطِّع، ويحلّ الدمَ الجامدَ في الجوف، وينفع من داء الثعلب لَطوخًا بالخَلّ والفُلْفُل؛ وإذا استُعْمِل في المأكولات حسّن اللّون، ويقلع الثّآليل المسماريّة، وإذا جُعِل على الأورام الخبيثة

(١) زبدي: نسبة إلى الزّبد، وهو خلاصة اللبن، تنجم عن خضّه وتحريكه.
(٢) الأشق: ضرب من الشجر، سوقه تشبه القنا.
(٣) الباقلاء، والباقلّى: ضرب من ضروب الفول.
(٤) المصروع: المصاب بالصرع، وهو علّة تمنع الأعضاء النفسانية عن أفعالها منعًا غير تام. ويصحبه هياج شديد.
(٥) ترياق: شفاء.
(٦) السكبينج: ضرب من الأصماغ مختلف الألوان.
(٧) بست: اسم مدينة في أفغانستان.
(٨) القيقان: منطقة قريبة من خراسان، في بلاد طبرستان.

نَفعَها؛ وإذا شُرِب بماء الرّمّان نَفع من شَدْخ[١] العَضَل؛ وينفع من أوجاع العَصَب مثل التمدّد والفالج بأن يؤخَذ منه، أُوبولُوس ويُخْلَط بالشَّمع، ويُبلَعَ أو يُشْرَبَ بالشراب مع فُلْفُلَ وسَذاب؛ وإذا تُغُرْغِرَ به قَلَعَ العَلَق من الحَلْق وهو جيّدٌ لابتداء الماء في العين كُحلًا بعسل؛ وإذا أُدِيفَ[٢] في الماء وتُجرِّع صفّى الصوت، ونفع من خشونة الحَلْق المُزْمِنة، وإن تُحُسّيَ[٣] بالبَيض نَفع من السُّعال المُزْمِن والشَّوْصة[٤] الباردة، وإن استُعمل بالتّين اليابس نَفَع من اليَرَقان؛ وهو ممّا يضرّ بالمعدة والكبد؛ وينفع من البواسير[٥]؛ ويقوّي الباه، ويُدِرّ البول، وينفع من المَغْص، ومن قُروح الأمعاء، ومن حُمَّى الرِّبْع[٦]، وإذا جُعِل على عَضْة الكَلْب الكَلِب والهَوامّ خصوصًا العقربَ والرُّتَيْلاءَ فإنّه ينفع من جميع ذلك شُربًا وطِلاء بالزيت؛ ويدفع ضررَ السِّهام المسمومة.

وأمّا الأَنْزَرُوت فهو صَمغُ شجرةٍ شائكة، وفيه مرارة، ومنه أبيضُ وأحمر، ويكون بجبال فارس، وأجوَده الشبيهُ باللُّبان.

وقال ابن سينا: قال بعضُهم: هو حارٌّ في الثانية، يابسٌ في الأُولى؛ وهو يسكِّن الأورامَ كلَّها ضِمادًا، ويأكل اللّحم الميّت، وينفع من الرَّمَد[٧] والرَّمَص[٨]؛ وهو يُسْهِل البَلْغَم الغليظ.

وأمّا السَّكْبِينَج ـ فقال دِيسْقُوريدوس: هو صَمْغُ نباتٍ يشبه القَنا في شكله، يَنْبُت في البلاد التي يقال لها: (ماه) ويسمّيه اليونان: (سكافتيون).

وقال ابنُ سينا: هو صمغُ شجرةٍ لا منفعة فيها، بل في صَمغِها. قال: وأجوَدُ نوعَيْه الأكثُف الأصفى، الذي يُضرب داخلُه إلى الحُمرة، وخارجُه إلى البياض، وينحلّ في الماء سريعًا، وخيرُه الأصفَهانيّ قال: وطبعُه حارٌّ في الثالثة، يابسٌ في الثانية، وهو محلِّلٌ ملطِّف، مُفِشّ[٩]، مسخِّنٌ، جالٍ؛ وينفع من الفالج، ويُسْهِل المادّة التي في الوَركين حُقنةً وشُربًا، وكذلك أوجاع المفاصل الباردة، ويحلِّل الصُّداعَ

(١) شدخ: تشقّق.
(٢) أديف: أذيب.
(٣) تحسّي: اتّخذ حساءً.
(٤) الشوصة: ضرب من الأورام.
(٥) البواسير: دمامل وقروح تصيب المستقيم في الدّبر.
(٦) حمى الربع: حمّى، تهدأ ثم تعاود في اليوم الرابع.
(٧) الرمد: مرض يصيب العين، منه الرمد الحبيبي، والربيعي.
(٨) الرمص: وسخ أبيض في مجرى الدمع من العينين.
(٩) مغشّ: مزيل للأورام.

البارِدَ والرِّيحيّ، وينفع من الصَّرْع[١]، ومن ظُلمة العين كُحلًا، ومن غِلَظ الأجفان، ومن الآثار في العين، وهو أفضلُ الأدوية للماء النازل فيها، وإن سُحِق بالخَلّ وجُعل على الشَّعيرة[٢] أذهبها، وهو نافع من وجع الصدر والجنب، ومن السُّعال المُزْمِن، يُسقَى بماء السَّذاب المعصور ثلاثة أرباع دِرهمٍ لسوءِ النَّفَس؛ وهو ينقّي الصدر، ويُخرج الأخلاطَ النِّيئة، وهو نافعٌ من الاستسقاء، ويُخرج الماءَ الأصفر، وينفع من القُولَنج حُقْنَةً وشُربًا من المَغْص، ويُخْرج الحَصاة، ويزيد في الباه، وينفع مِن أوجاع الأرحام، وإذا شُرِب أدَرّ الطَّمْث، وقَتَل الجنين، ويُخرج الخِلْطَ اللَّزِجَ والماءَ الأصفر؛ وهو ينفع من الحُمَّيات الدائرة، وإذا سُقِيَ في الشراب أفاد لسعَ الهَوامّ، ومن جميع السُّموم القاتلة.

وأمّا السّادَوْرَان ـ فهو شيءٌ أسوَدُ شبيهٌ بالصَّمْغ مِثلُ حَصَى السَّبَج[٣] يتكوّن في التجويفات الكائنةِ في أصول أشجار الجَوْز الكبارِ العتيقةِ إذا تجوّفتْ أصولُها، فإذا قُطعت الشجرةُ وُجدَ في وسطِها، ولونُه محلولًا إلى الصُّفْرة، وله بَصيصٌ[٤] إذا كُسِر.

وأمّا دمُ الأخوَيْن ـ ويسمَّى القاطِر، فقال أبو حنيفةَ الدِّينَوَري: هو صَمغٌ أحمرُ يؤتَى به من جزيرة سُقُطْرى، ويسمَّى الأَيْدَع، ودمَ التِّنِّين، ودمَ الثعبان، ويقال: إنه دموعُ شجرةٍ كبيرةٍ ببلاد الهند، معروفةٍ هناك.

وأمّا المَيْعةُ[٥] ـ فهي صِنفان: سائلة، ويابسة، وكلاهما دَسِمٌ مرّ؛ ومنها صِنفٌ هو صَمْغُ شجرةٍ تشبه شجرةَ السّفرجل، أجوَدُه ما كانَ لونُه أشقرَ دَسِمًا يَميل إلى البياض؛ ومن هذا الصِّنف ما هو أسْوَدُ هَشٌّ[٦] كالنُّخالة، وهو روميّ.

وقال إسحٰق بنُ عمران: شجرةُ المَيْعَة شجرةٌ جليلة كشجرة التُّفاح، ولها ثمرةٌ بيضاءُ أكبرُ من الجَوز تشبه عيونَ البقر الأبيض، يؤكل الظاهر منها، وفيه مرارة وثمرتُه الّتي داخل النوى[٧] دَسِمة، يُعتصَر منها دُهن هو المَيْعة اليابسة، ومنه تُسْتَخرَج المَيْعة السائلة.

---

(١) الصرع: الهياج واختلاط الفكر، بسبب حدّة السّوداء وغلبتها على صاحبها.
(٢) الشعيرة: ضرب من التقرّحات أو الأورام تصيب جفن العين.
(٣) السبج: ضرب من الجزع أو الخرز الأسود. (٤) بصيص: بريق ولمعان.
(٥) الميعة: شجرة جميلة من فصيلة المشتركات تستعمل في الصيدلة، والميعة صمغ عطر يسيل من شجرة الميعة ويتطيّب به.
(٦) هشّ: ليّن، فيه خلخلة وعدم تماسك. (٧) النوى: البزرة.

وقال ابنُ جُرَيْج: الميعةُ تسيل من شجرةٍ تكون في بلاد الرّوم تتحلّب منها، ثم تؤخذ فتُطبَخ، وتُعتصَر أيضًا من لِحاء تلك الشّجرة، فما عُصر فهو المَيْعَةُ السائلة وما طُبِخَ فهو المَيْعَةُ اليابسة.

وقال الشيخ الرئيس أبو عليّ بنُ سينا في المَيْعَة ـ وسمّاها لبنى ـ قال: ويقال للسائل: عسل اللُّبْنَى والأَصْطُرك، وهو دَمعة شجرةٍ كالسّفرجل. قال: وأجوَدُ أصناف الميعة السائلُ بنفسه، الشَّهْديّ، الصَّمْغيّ، الطيّبُ الرائحة الضاربُ إلى الصُّفْرة. قال: وطبعُ الميعة حارٌّ في الأُولى يابسٌ في الثانية، وله قوّةٌ مُنضِجة، مليِّنةٌ جدًّا، مسخِّنةٌ محلِّلة، ودخانُه شبيهٌ بدُخان الكُنْدُر(١)، وفيه تخديرٌ بالطبع، ودُهنُه الذي يُتّخَذ بالشام مليِّنٌ تليينًا قويًّا، وينفع الصَّلابات في اللّحم، ويُطلَى به على البُثور(٢) الرَّطْبة واليابِسة مع الأدهان؛ ويُطْلَى به على الجَرَب الرَّطب واليابس، وهو طِلاءٌ جيّدٌ عليه؛ وهو يقوّي الأعضاء وينفع تشبُّكَ المَفاصل جدًّا شُرْبًا وطِلاء؛ ورَطْبُه ويابسُه يحبس النّزلة تبخيرًا، وهو غايةٌ للزُّكام، وفيه قوّةٌ مسبِتة(٣)، لا سيّما في دُهنه، وينفع من السُّعال المُزمِن والبلغمِ ووجعِ الحَلْق ويصفّي صوت الأبحّ مع تليين شديد، وهو يَهضم، ويليِّن الطبيعة، ويُدرّ البول والطَّمْث إدرارًا صالحًا شُرْبًا واحتمالًا؛ ويليِّن صلابة الرَّحِم، واليابسة تَعْقِل(٤) البطن؛ قال: وإذا شُرِب من الميعة السائلة مثقال مع مثلِه من صَمغ اللّوز أسْهَل بلغمًا من غير أذًى. ويدلُ المَيْعة جُنْدَبادَسْتَر، ومثلاه من دُهن الياسَمين.

وأمّا صَمْغُ قبعرين ـ فقال دِيسْقُورِيدُوس: هو صَمغُ شجرةٍ تكون ببلاد العرب، وفيه شبهٌ يسيرٌ من المرّ إلّا أنّه كريهُ المطعم زَهِم(٥). وزعم قومٌ أنّه السَّنْدَرُوس(٦). وقال آخرون: هو اللُّك(٧). قال ابنُ البيطار: وليس كما زعموا.

وأمّا المُقْل(٨) الأزرق ـ فيسمَّى كُورًا، ويُعْرَف بالمُقْل المكّيّ، وبمُقْل اليهود، والمُقْل الهنديّ، وإن كان لا يوجد إلّا بأرض العَرب، ومنه صِقِلّيّ، ومنه عربيّ، وهو صَمغٌ يشبه الكُنْدُر، طيّب الرائحة، وشجرتُه كشجرة اللُّبان، وأكثرُ نباتِه بأرض اليمن

---

(١) الكندر: صمغ شجرة شائكة ورقها كالآس. (٢) البثور: القروح.
(٣) مسبتة: منوّمة. (٤) تعقل: تمسك.
(٥) زهم: فيه زهومة، أي دسومة.
(٦) السندروس: صمغ أو معدن شبيه بالكهرباء، يتّخذ منه فصوص للخواتم، واللفظة يونانية.
(٧) اللَّكّ: ثفل نبات اللّك وعصارته، واللّك: صبغ أحمر تصبغ به الجلود ونحوها.
(٨) المقل: ثمر شجر الدّوم، وهو صمغ يتداوى به.

فيما بين الشَّحْر وعُمانَ بجبلٍ هناك، ولشجره ثمرٌ يسمّى ديميس إذا كان رَطْبًا، فإذا يبس فهو الوَقْل، والّذي يؤكل منه يسمَّى الحَتِيّ. وقال أبو الخير العشّاب: المُقْل المكّيُّ هو صمغُ الدَّوْم؛ لأنَّ الدَّوْم هناك يدرِك ويُصمِغ، وليس في سائر البلاد كذلك إلّا بمكّةَ لا غير.

وأمّا الصمغ العربيّ ـ فهو صمغ القرظ، وهو الّذي يُستعمَل في المركَّب ولا يَصلح لغيره، فإنّه ينحلّ في الماء بسرعة من غير تعقيد، وما عداه من الصُّموغ التي تُجمَع من أشجار الفواكه متى جُعِل في المركَّب أفسده. ولهم أيضًا صمغ السُّمّاق وصَمْغُ السَّذاب، وصَمغُ الخَطْميّ[1]؛ ومن الصُّموغ التي جرت عليها التسمية بالعربيّ صمغ الإجّاص، وصَمغُ الدّاميثا، وهو شجرٌ ببلاد فارس، وصمغُ اللَّوْز، وصمغُ الزّيتون البرّيّ والبستانيّ، والبريّ يشبه السَّقَمُونِيا في لونه، ومنه ما هو أحمر، وصَمغ السَّرْو؛ ومن الصُّموغ الرّاتينَج وهو القُلْقُونِيا، ومنه ما هو أبيض، ومنه ما هو أسود وهو صَمغُ الصَّنَوْبَر الذَّكر.

وأمّا القَطْران ـ فهو معدودٌ من الصُّموغ، وشجرته تسمَّى شَرْبِين، وهي شجرةٌ عظيمة، لها ثمرٌ يشبه ثمرَ السَّرْو، غيرَ أنّه أصغر منه، والقَطْران دُهنٌ يَخرج منه، فأجوَدُه ما كان صافيًا، كريهَ الرّائحة. وقال الزمخشريّ[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠]، هو ما يُحلب من شجرٍ يسمَّى الأَبْهَل فيُطبخ، فتُدهَن به الإبلُ الجُرْب فيحلق الجربَ لحدَّتِه وحَرِّه، وهو أسوَدُ اللّون، مُنْتِن الرائحة.

وقال أبو عليِّ بنُ سينا: القَطْرانُ حارٌّ يابسٌ في الرابعة، وهو يقتل القملَ والصِّئْبان، وهو يقوّي اللحمَ الرّخو، وخصوصًا دُهنَه من الجَرَب، حتّى جرب الحيوان من ذوات الأربع، وينفع من شَدْخ العَضَل واجتماع الدّم والقيحِ[3] فيها، وهو دواء لداء الفيل[4] لَعوقًا ولَطوخًا. قال: وهو أعظمُ شيءٍ في تسكين الصُّداع

(١) الخطمي: ضرب من النّبت، يستخدم في الأغراض الطبّية، ويغسل به الشعر.
(٢) الزمخشري: أبو القاسم محمود، العالم باللغة والنحو والتفسير. ولد في زمخشر، وجاور بمكّة فلقب بجار الله، كان معتزليّ الهوى والرأي. أشهر كتبه: «أساس البلاغة» و«المفصّل» و«الكشاف» في تفسير القرآن الكريم، توفي سنة ١١٤٤ م. وانظر ترجمته مفصلة في أساس البلاغة، للزمخشري، من م. دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩.
(٣) القيح: الدم الفاسد.
(٤) داء الفيل: تورّم يصيب الساق والقدم، فتصير القدم أو الساق كقدم وساق الفيل، ضخمة.

البارد طِلاءً للرأس ويُقطَر في الأذن فيقتل دودَها، ويُقطَر فيها بماء الزُّوفا[١] للطّنين والدّويّ، وينفع الأسنانَ المتآكلة، وهو يُحدّ البصر، ويجلو آثارَ القُروح في العين، ولَعْقُ أوقيّةٍ ونصف منه ينفع لقُروح الرّئة، وينفع من السُّعال العتيق، ويَقتُل الدودَ في الأمعاء وخصوصًا الاحتقانَ به، ويُدِرّ الطَّمْث، ويَقتل الجنين، ويُفسد المنيّ، وإذا لُطخ به الذّكر قبل الجماع مَنَع الحَبَل، وينفع من تقطير البول، ويُضمَد به على نَهْش الحيّة ذاتِ القرن، وإذا أُذيبَ في شحم الأُيَّل[٢] ومُسِحَتْ به الأعضاءُ لا تقرَبها الهَوامّ.

وأمّا الزِّفت ـ فيكون من شجر التَّنُّوب[٣] وغيرِه من ضروب الصَّنَوْبَر، وهو قريبٌ من دُهن القَطْران.

الباب الرابع
من القسم الرابع من الفنّ الرابع
في الأمنان

ويشتمل هذا الباب على العسل والشَّمَع واللُّكّ والقِرْمِز واللّاذَن والأَفْتِيمُون والقِنْبِيل والوَرْس والتَّرَنْجَبِين والشِّيرْخُشْك والمَنّ والكَشُوث وسُكَّر العُشَر.

فأمّا العسل والشَّمَع ـ فقد قال التميميُّ في المرشد: إنّ العسلَ مَنٌّ يَسقط من الهواء بكلّ بلد وبكلّ إقليم من الأمصار المسكونة، وسقوطُه على أنواع كثيرة من الأزهار والنُّوّار والأوراق يلتقطه النّحل الّذي قد ألهمه الله جمعَه وإلقاءَه إيّاه في كَوائره[٤] التي هو ساكنها، وهي أقرصةُ شَهدِه، ويدّخره لقُوته عند حلول الشتاء عليه وانقطاعه عن الطَّيَران وعند حِصار الأمطار والثلوج له. وزعم كثيرٌ من الفلاسفة والأطبّاء أن الشَّمَع الذي تتخذ منه النحلُ مساكنَها، وتربّي فيه فراخَها، وتُوعِي فيه أعسالَها، نوع من المَنّ السّاقط من الهواء؛ والله تعالى أعلم.

---

(١) الزّوفا: أو الزوفاء، نبات برّي أريجيّ من فصيلة الشفويات، ساقه دقيقة مربّعة، وورقه كورق الصّعتر، يتداوى به لتقطيع البلغم.

(٢) الأيّل: حيوان من ذوات الأظلاف، للذكر منها قرون غير مجوّفة، متشعّبة.

(٣) التنوّب: من أهم الأشجار الحرجيّة، من فصيلة الصنوبريّات، جذعها مستقيم ويزرع منه نوع للتزيين في الحدائق العامة.

(٤) كوائر: جمع كوارة، وهي قفير النّحل.

وأمّا اللُّكّ ـ فيقال إنّه يسقط على قُضبان الكُروم في بلاد الهند، فينعقد عليها. وزعم قومٌ أنّه صَمغٌ يُلقَط من قُضبان الكُروم؛ والله أعلم.

وقال ابنُ سينا: إنّه ينفع من الخَفَقان، ويقوّي الكَبد، وينفع من اليَرَقان والاستسقاء.

وأمّا القِرْمِز ـ فقد قال أبو الخير في كتاب النبات: القِرْمِز طَلٌّ يقع في العام الكثيرِ الرُّطوبات والأنداء على شجر البَلُّوط والتَّنُّوب فينعقد على خشبه حَبٌّ أبيضُ اللّون مِثلُ حَبِّ الكِرْسِنّة، فإذا انتهى ونَضِج وكان في قَدر الحِمَّص صار لونُه أحمرَ قانئًا برّاقًا، فيُجمع في شهر إبريل ومائة، فيجفّف ويُخزن لتُصبَغ به الثياب؛ ومن خاصيّته أنّه لا يُصبَغ به إلّا ما كان من حيوان، كالحرير، والصوف، وإن هو لم يُجمع خرج منه دود صِغار، ويَصنع على نفسه نَسْجًا مِثلَ نسج العنكبوت، ويموت فيه.

وأمّا اللّاذَن ـ فهو مَنٌّ يسقط بجزيرة قُبْرُسَ على شجرٍ ترعاه الأغنام، فإذا باكرت الرَّعيَ من تلك الأشجار عَلِق اللّاذَن بلِحَى التُّيوس وخراطيمها وأظلافها، فيُجمع منها بأمشاط معدّة له. وأمّا ما يُجمع من الشجرة فإنّه يكون في خزائن الملوك لطِيب رائحته.

وقال ابنُ سينا: أجوَدُه الدَّسِم الرّزين القُبْرُسيُّ الطيّبُ الرائحة، الّذي هو إلى الصُّفرة ولا رمليّةَ فيه، وينحلّ كلُّه في الدُّهن فلا يَبقى منه ثُفْل[1]؛ والأسوَدُ القاريُّ[2] غيرُ جيّد؛ وطبعه حارٌّ في آخِر الأُولى، يابسٌ في الثانية؛ والذي يكون في البلاد الجنوبيّة أسخن. قال: وقال الخوزي: إنه بارد قابض؛ وليس ذلك. قال: وهو لطيفٌ جدًّا، وفيه يسيرُ قبض، منضِج للرّطوبات الغليظة اللَّزِجة يحلّها باعتدالٍ فيه، وفيه قوّةٌ حادّةٌ مسخِّنةٌ مفتِّحةٌ لأفواه العروق، ويَدخل في تسكين الأوجاع؛ وهو يُنبت الشَّعر ويكثّفه ويكثّره ويحفظهن، خصوصًا مع دُهن الآس ومع الشّراب؛ ويُقطَر منه مع دُهن الورد في الأذن الوَجِعة، ويَدخل في علاج الصُّداع والضَّرَبان وينفع من السُّعال، ويحلّل أورامَ الرَّحِم محتملًا[3]؛ ويُخرج الجنين الميّتَ والمَشيمةَ[4] تدخينًا به[5]؛ وإذا شُرِب بشرابٍ عتيقٍ عَقَل البطنَ وأدَرَّ البول.

---

(١) الثفل: ما يستقرّ في أسفل الشيء من كدره.
(٢) القاريّ: نسبة إلى القار، وهو الزفت والقطران.
(٣) محتملًا، أي معمولًا منه «تحميلة»، أي قطعة توضع في المهبل من الرّحم.
(٤) المشيمة: الحبل السّرّي، يكون ملتصقًا بذكرة الولد حين الولادة.
(٥) تدخينًا به: أي أن يحرق فيتنشّق دخانه.

وأمّا الأَفْتِيمُون ـ فهو مَنٌّ يسقط من الهواء على صِنفٍ من الصَّعاتر برياض جزيرة أَقْرِيطِش[(١)] وبُرْقَة[(٢)] وفي جبال بيت المقدس.

وأمّا القِنْبِيل ـ فهو شبيه بالوَرْس، يَسقط في اليمن مثل الرمل الأحمر وتُمازِج حمرتَه صُفرةٌ ظاهرةٌ فيه. ويقال: إنّه يوجد أيضًا بخُراسانَ على وجه الأرض غِبَّ المطر[(٣)] فيجمع.

وأمّا الوَرْس ـ فهو مَنٌّ يسقط بأرض الصِّين والهند والحبشة وأرض اليمن على ورق شجرٍ يشاكل[(٤)] الباذَرُوج، فتُجمَع الشجرةُ بما عليها منه، وتُلقَى في الشمس حتى تَنْشَف، ثم تُنفَض على أنطاع الأَدَم[(٥)] فيَسقط ورقُها وعليه الوَرْس متعلّقًا به، ولونُه أحمر، فإذا طُحِن صار أصفرَ، وأجوَدُه الهنديّ، ثم الحبشيّ، ثم اليمانيّ.

وأمّا التَّرَنْجُبِين ـ فمعناه عسل النَّدَى، وهو يَسقط ببلاد خُراسانَ وما وراءَ النهر على العاقُول[(٦)]، ويسمَّى الحاج؛ وقد يقع على سَعَف[(٧)] النخل ببلاد قُسْطِيلِيَة[(٨)]، وعلى ورق الأَثْل[(٩)]، وورقِ الطَّرْفاء[(١٠)].

وقال ابنُ سينا: أجوَدُه الطري الأبيض؛ وطبعُه معتدِلٌ إلى الحرارة، وهو ملِّن، صالحُ الجِلاء، وينفع من السُّعال، ويليِّن الصدر، ويسكِّن العطش، ويُسهِل الصَّفراء برفق، وإسهالُه بخاصيّةٍ فيه، والشَّرْبةُ عشرةُ مثاقيلَ إلى عشرين مثقالًا.

---

(١) أقريطش: هي جزيرة كريت، اليوم، في أرخبيل اليونان.

(٢) برقة: شبه جزيرة في ليبيا شرقي خليج سرت، في شماليها هضبة الجبل الأخضر، ومن مدنها طبرق، وبنغازي، ودرنة.

(٣) غبّ المطر: بعد سقوطه مباشرة.

(٤) يشاكل: يماثل.

(٥) أنطاع الأدم: البُسط من الجلد.

(٦) العاقول: ضرب من النبت البرّي، والعاقول، أيضًا: منعطف الوادي، ومعظم الماء.

(٧) سعف النخل: أوراقه.

(٨) قسطيلية: اسم مدينة أندلسية، وهي أيضًا في إفريقيا، عبارة عن كورة كبيرة، أي منطقة، من مدنها نفطة، والحمّة، وتوزر. انظر: معجم البلدان ٤/ ٣٤٨.

(٩) الأثل: شجر من فصيلة الطرفائيات، أوراقه دقيقة وأزهاره عنقودية، تصنع من خشبه الصلب والقصاع والجفان.

(١٠) الطرفاء: ضرب من الشجر من العضاه، هدبه مثل هدب الأثل، تتمخّض به الإبل. لحاؤه يستخدم تابلًا في الطعام، ومن الأفاويه.

وأما الشّيرُخُشْك ـ فقال ابن البيطار: قال علماؤنا: الشّيرُخُشْك طَلٌّ يقع من السماء بهَراةَ[(١)] من بلاد خُرَاسانَ على شجر الخلاف[(٢)]، حلو إلى الاعتدال. وقال التّميميّ: أمّا كيفيّته فإنّه حَبٌّ أبيَضُ مثلُ حَبِّ التَّرَنْجُبِين، بل هو أكبر، وهو قريب من مِزاج الكافور[(٣)] وطعمِه ورائحتِه، وإذا بقي في اليد انحلّ ودَبِقَ باليد[(٤)].

وأمّا المَنّ ـ فهو يسقط على ورق البَلّوط والسِّدْر[(٥)] والخَوْخ والمِشمِش مِثلَ العسل، فما تَخلَّص منه كان أبيضَ، وما لم يَتخلّص وجُمع بورقه كان أخضرَ وسقوطُه يكون بجبال ربيعةَ ومُضَرَ وجبال الشأم إلى نحو دِمَشقَ والساحل.

وأما الكَشُوث ـ فقال التّميميّ: الكَشُوث يَسقط بأرض العراق على شجرٍ يشاكل الباذَرُوج، وهو مركّبٌ من قُوًى مختلفة من مرارة وعُفوصة:

وقال ابنُ سينا: طبعُه حارٌّ قليلًا في أوّل الأُولى يابسٌ في آخِر الثانية؛ وهو منقٍّ يُخرج الفُضول اللّطيفةَ من العروق وينقّيها؛ وهو يقوّي المعدة، وخصوصًا المقليَّ منه؛ وإذا شُرِب بالخل سَكّن الفُؤاق[(٦)]، وهو يفتّح سُدَدَ الكبد والمعدة ويقوّيهما؛ وماؤه عجيبٌ لليَرَقان[(٧)]؛ وهو ينقّي الأوساخَ عن بطن الجنين، ويُدِرّ البولَ والطَّمْث[(٨)]؛ وينقّي سيلان الرَّحِم، وبِزرُه وماؤه ينفع من الحُمّيات العتيقة جدًّا.

---

(١) هراة: من مدن أفغانستان في الشمال الغربي من البلاد، كانت ممرًّا للقوافل في القديم.

(٢) الخلاف: صنف من شجر الصفصاف.

(٣) الكافور: طلع النّخل، أو وعاؤه. والكافور: شجر أريجيّ من فصيلة الغاريّات، أوراقه دائمة الخضرة، أزهاره بيض وصفر، يستخرج منه الكافور، المادّة العطريّة المستعملة في الطبّ.

(٤) دبق باليد: لزق بها.

(٥) السّدر: شجر النّبق.

(٦) الفؤاق: ما يأخذ المحتضر عند النزاع، وهو ترجيع الشهقة العالية، وتسمّى بالعاميّة «الحازوقة».

(٧) اليرقان: مرض يصيب الكبد، ويسبّب اصفرار اللون في الجسم، وفي العينين خاصة، ويعرف بالعامية باسم «الصّفيراء».

(٨) الطمث: دم الحيض، عند المرأة.

وأمّا سكّر العُشَر - فقال التّميميّ: هو طَلٌّ يَسقط على شجر العُشر[١] بأرض اليمن والحجاز، فإن أصابه الهواء جَمَد. وقال أبو حنيفة الدّينَوَريّ: العُشَر ضربٌ من العِضاة[٢]، يَنبت صُعُدًا، عريض الورق، وله سكّر يَخرج من فصوصِ شُعَبه[٣]؛ والله أعلم بالصّواب.

كمل الجزء الحادي عشر من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب
لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النُّوَيْريّ - رحمه الله -
ويليه الجزء الثاني عشر، وأوّله:
القسم الخامس من الفنّ الرابع في أصناف الطِّيب والبَخورات والغَوالي والنُّدود والمستقطَرات والأدهان والنضوحات وأدوية الباه والخواصّ
والحمد لله ربّ العالمين

(١) العشر: ضرب من الشجر من فصيلة الصّقلابيات، له صمغ يتطيّب به.
(٢) العضاه: كل شجر يعظم وله شوك.
(٣) فصوص شعبه: أزراره، وأكمامه.

المصادر والمراجع

١ - **الأخبار الطوال**، لأبي حنيفة الدينوري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٠.

٢ - **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، للقفطي، دار الآثار، بيروت.

٣ - **أساس البلاغة**، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩.

٤ - **التنبيه والإشراف**، للمسعودي، دار صعب، بيروت.

٥ - **ديوان أبي الطيب المتنبي**، شرح عبد الوهاب عزام، دار الزهراء، بيروت ١٩٧٨.

٦ - **ديوان الخنساء**، طبعة دمشق ١٩٧٣.

٧ - **ديوان النابغة الذبياني**، دار صعب، بيروت ١٩٨٠.

٨ - **زهر الآداب**، للحصري (هامش العقد الفريد)، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

٩ - **طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين**، لابن سلّام الجمحي، طبعة أوروبا.

١٠ - **فقه اللغة**، للثعالبي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٠.

١١ - **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨.

١٢ - **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٩٨٦م.

فهرس المحتويات

الفنّ الرابع
في النّبات

القسم الأول
من هذا الفنّ في أصل النبات
وما تختصّ به أرضٌ دون أرض
وتتّصل به الأقوات والخَضْراوات والبُقولات

القسم الثاني
من الفنّ الرابع في الأشجار

القسم الثالث
من الفن الرابع
في الفواكه المشمومة

القسم الرابع
من الفن الرابع في الرّياض والأزهار
ويتّصل به الصُّموغ والأمنان والعصائر

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

١٢ - ١٣ - ١٤

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
9 782745 138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القسم الخامس

من الفنّ الرابع

في أصناف الطِّيب والبَخورات والغَوالي والنُّدود والمستقطَرات والأدهان والنَّضُوحات وأدوية الباه والخواصّ

وفيه أحد عشر بابًا:

الباب الأوّل

من هذا القسم من هذا الفنّ

في المِسْك[1] وأنواعِه

قال محمدُ بنُ أحمدَ بنِ الخليل بنِ سعيد التَّمِيميُّ المَقْدِسيُّ[2] في كتابه المترجَم بـ (جَيب العروس[3] وريحان النفوس): المِسْك أصنافٌ كثيرة، وأجناسٌ مختلفة؛ فأرفعُها وأفضلُها التُّبَّتيّ[4]، ويؤتَى به من موضع يقال له: (ذو سَمْت)، بينه وبين (التُّبَّت) مَسيرةُ شهرين، فيُصار به إلى (التُّبَّت)، ثم يُحْمَل إلى

(١) المسك: نوعٌ من الطيب، يتكوّن من دم حيوان كالغزال، يرد من الصّين والهند حبوبًا سمراء، يذكّر ويؤنّث وقد ذكره المتنبّي في رثائه لوالده سيف الدولة:

فـإن تـفـق الأنـام وأنـت مـنـهـم ... فـإنّ الـمـسـك بـعـضُ دم الـغـزال

انظر ديوان المتنبي ٢/ ١٦ دار الكتب العلمية.

(٢) هو محمد بن أحمد بن سعيد التميميّ، أبو عبد الله، طبيب، عالم بالنبات والأعشاب، ولد في القدس، وانتقل إلى القاهرة فسكنها وتوفّي فيها نحو سنة ٣٩٠ هـ، له مؤلّفات عدّة من أشهرها كتابه: مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء، في عدّة مجلدات. الأعلام ٥/ ٣١٣.

(٣) في صبح الأعشى ٢/ ١٢٦ دار الكتب العلمية «طيب العروس»، وفي كشف الظنون ٣/ ٣٩٢ «جيب العروس وريحان النفوس» للمقدسي التميمي المتوفّى في حدود سنة ٣٧٠ هـ.

(٤) التبّتي: نسبة إلى التبّت، وهي مملكة متاخمة لمملكة الصّين، ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند، ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة، ومن جهة المغرب لبلاد الترك، ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات سعة وقوّة، وأهلها بدوٌ وحضر، وبدوهم من الترك، معظّمون لأن الملك كان فيهم قديمًا. انظر معجم البلدان ٢/ ١٠.

خراسان[١]. قال: وأصل المِسْك من بهيمةٍ ذاتِ أربع، أشبه شيءٍ بالظَّبي الصغير. وقد ذكرنا غزالَ المِسك في (الباب الثالث من القسم الثاني من الفنّ الثالث)، وهو في السفر التاسع من هذه النسخة، فلا فائدة في إعادته. وقد ذكروا في صفة تحصيل المِسك من هذا الحيوان أقوالًا نحن نذكرها؛ فزعم قوم أنّ الغِزلان تُذْبَح وتؤخذ سُرَرها[٢] بما عليها من الشّعر ويكون فيها دمٌ عَبِيط[٣]، وربّما كانت السرّة كثيرةَ الدم، وربّما كانت كبيرةً واسعةً قليلةَ الدم، فيُجمَع فيها دمُ عدّة سُرَر، ويُصَبّ فيها الرَّصاص وهو ذائب وتُخيَّط بالخوص[٤]، وتُعلَّق في حَلْق مُستَراحٍ[٥] مدّة أربعين يومًا، ثم تُخرَج وتُعلَّق في موضع آخَرَ حتّى يتكاملَ جفافها، وتشتدّ رائحتها، ثم تُصيَّر النَّوافِج[٦] في مَزاوِدَ صِغار، وتُخيَّط، وتُحمَل من التُّبَّت إلى خُراسان. قال: وقال أحمدُ بنُ أبي يعقوب مولى بني العبّاس: ذَكر لي جماعةٌ من العلماء بمعدن المِسْك أن معادنَه بأرض (التُّبَّت) وغيرِها معروفة، قد ابتَنَى الجلّابون فيها بناءً يشبه المنَار[٧] في طول عَظْم الذّراع، فتأتي هذه البهيمة التي مِن سُرَرِها يتكوّن المِسك فتُحَكّ سُرَرَها بتلك المنار، فتَسقط السُّرَرُ هنالك، فيأتي إليه الجلّابون في وقتٍ من السنة قد عرفوه، فيَلتقطون ذلك مباحًا لهم، فإذا وردوا به إلى (التُّبَّت) عُشِّر عليهم[٨]. وقال قوم: إنّ هذه الدابّة خَلقها الله تعالى معدِنًا للمِسك، فهي تُثمِره في كلّ سنة وهو فَضلٌ دمويٌّ يجتمع من جسمها إلى سُرَرِها في كلّ عام في وقتٍ معلوم، بمنزلة الموادّ التي تنصبّ إلى الأعضاء، فإذا حصل في سُرَرِها ورمٌ وعِظَم، مرضتْ له وتألّمتْ حتى يتكامل؛ فإذا بلغ وتَناهَى حكّته بأظلافها[٩]، فيَسقط في تلك المَفاوِز[١٠] والبَراريّ، فيَخرج إليه الجلّابون

---

(١) خراسان: بلاد واسعة بين العراق والهند وتشتمل على أمّهات من البلاد، منها نيسابور وهراة ومرو، وهي كانت قصبتها وغير ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. انظر معجم البلدان ٢/ ٣٥٠.

(٢) السرّة: منفذ الغذاء إلى الجنين.

(٣) العبيط: الطّريّ.

(٤) الخوص: ورق النخل.

(٥) المستراح: بيت الخلاء أو الكنيف.

(٦) النّوافج: أوعية المسك، واحده نافجة، وهي الجلدة التي يجتمع فيها، فارسي معرّب «نافه».

(٧) المنار: أي المنارة، وهي بناء مرتفع ينطلق من أعلاه نور قويّ دائم الإشعاع تهتدي به السفن والطائرات.

(٨) عشّر عليهم: أي أخذ عليه العُشر، وهو جُزء من عشرة أجزاء.

(٩) الأظلاف: مفردها الظّلف، وهو ظفرٌ ضخمٌ مشقوق يكون لبعض الحيوانات كالبقر والشاة والظّباء.

(١٠) المفاوز: مفردها مفازة، وهي الصحراء الواسعة.

فيأخذونه. قال: وهذا أصحّ ما قيل في باب المِسك. قال: ويشهد بصحّة ذلك ويوافقه ما حكاه محمدُ بنُ العبّاس المسكيُّ في كتابه: أنّ تجار المِسك من أهل الصُّغد[١] يذكرون أنّ المِسك سُرّةُ دابّة في صورة ضخامة الظَّبي، لها قَرن واحد في وسَط رأسها، قال: ومِن قَرنها وعَظْم جبهتها تُتّخَذ النُّصُب المعروفةُ بنُصُب (الخُتُو)[٢]، قال: وذَكروا أنّها تَهيج في وقتٍ معلوم من السنة، فتَرم مواضعُ سُرَرِها، ويجتمع إليها دم غليظ أسودُ يفيض إليها من سائر أجسادها، وأنه يشتدّ وجعُها، فتأتي مواضعَ فيها ترابٌ ليّن كهيئة المَراغة[٣] في تلك البراريّ، بين المراغة منها وبين الأخرى مسافة ليست بالقريبة، وتلك الظُّبِيُّ لا تَنْزِع سُرَرَها في غير تلك المَراغات، قد أَلِفت التَّمعُّك[٤] فيها، والتمرُّغَ في تُرْبِها، واعتادته على مَمَرِّ السنين؛ فإذا نالها ذلك أمسكتْ عن الرَّعي وعن ورود المياه، ولا تزال تتقلّب فيه حتّى تَسقط تلك السُّرَر عنها، وهي دمٌ عَبيط. قال: وربّما سقطتْ قرونُها أيضًا كما يَفصِل الأُيَّل[٥] قَرنَه في كلّ سنة. قال: وربّما اجتمع في المَراغة الواحدة مائتان من تلك الظِّباء، فإذا ألقت تلك السُّرَر خرج شبابُ أهلِ الصُّغْد وأهلِ التُّبَّت في وقت الإمكان إلى تلك المَفاوز الّتي فيها تلك المَراغات فيتفرَّقون في طلب النَّوافِج، فربّما وجدوا في المَراغة ألوفًا من تلك السُّرَر: من بين رَطْب وجامد ويابس. قال: وإذا سقطت السُّرّة عن الظَّبي كان في ذلك إفاقتُه وصحّتُه فيَثبُت حينئذ في الرَّعْيِ وورودِ الماء. وقال محمد بنُ العباس: أجوَدُ المِسْك الصُّغْديّ، وهو ما اشتراه تُجار خُراسانَ من التُّبَّت وحملوه على الظهر إلى خُراسان ثم يُحمَل من خُراسانَ إلى الآفاق؛ ثم يتلوه في الجُودة المِسك الهنديّ، وهو ما وقع من التُّبَّت إلى أرض الهند، ثم حُمِل إلى الدَّيْبُل[٦]، ثم حُمِل في البحر إلى

---

(١) الصغد: كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل:هما صغدان: صغد سمرقند، وصغد بخارى. معجم البلدان ٣/ ٤٠٩.

(٢) الختو: قرن حيوان صينيّ تتخذ منه مقابض السكاكين.

(٣) المراغة: الموضع الذي يتمرّغ فيه بالتراب، والتمرُّغ: التقلّب بالتراب. اللسان مادة مرغ.

(٤) التمعُّك: التمرُّغ، يقال مرّغه في التراب تمريغًا أي معكه فتمعّك. اللسان، مادة مرغ.

(٥) الإيل: ذكر الأوعال، وأكثر أحواله شبيهة ببقر الوحش، وقيل: هو الكبش الجبلي، وقيل: هو معزى الجبل، وقيل: هو حيوان كالمعز غزير الشعر طويل القرون.

(٦) الدّيبل: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند، وهي فُرضة وإليها تفضي مياه الهور ومولتان فتصبّ في البحر الملح. معجم البلدان ٢/ ٤٩٥.

سِيرافَ[١] وعَدَنَ[٢] وعُمَان[٣]، وغيرِها من النواحي، وهو دون الصُّغْدِيّ: ويتلو الهنديَّ المِسكُ الصِّينيّ وهو دونه، لطول مُكثِه في البحر، وما يلحقه من عفونة هوائه، ولِعلّةٍ أخرى وهي اختلاف المرعَى في الأصل. قال: وأفضل المِسك ما كان مَرعَى غِزلانِه حشيشًا يقال له: الكدهمس، يَنبُت بالتُّبَّت وقَشْمِير، أو بإحداهما. وذَكر أحمدُ بنُ أبي يعقوب أنّ اسم هذه الحشيشة الكندهسة. قال: وأفضل ما يَرْعَى هذا الحيوانُ بعد هذه الحشيشة السُّنْبُلُ[٤] الهنديّ، يريد سُنْبُل[٤] الطِّيب، فإنّه يَنْبُتُ بأرض الهند وبأرض التُّبَّت كثيرًا، وما كان يَرعى السُّنبلَ فإنّ المِسكَ المتكوّنَ منه يكون وَسَطًا دون الصِّنف الأوّل. قال: وأدنى المِسك ما كان مَرعَى حيوانِه حشيشةً يسمَّى أصلُها: «المَرْوَ»[٥]، ورائحة تلك الحشيشة كرائحة المِسك، إلا أنّ المِسك أقوى وأذكَى رائحةً. قال محمدُ بنُ أحمدَ بنِ العبّاس المِسكيّ[٦]: وقد ذَكر بعضُ العرب أنّ دابّة المِسك تَرعَى شجرَ الكافور، واستَدَلَّ على ذلك بقول الشاعر العُكليّ[٧]:

---

(١) سِيراف: مدينة على ساحل بحر فارس، كانت قديمًا فرضة الهند. معجم البلدان ٣/ ٢٩٤.

(٢) عدن: هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، وهي مرفأ مراكب الهند والتجّار يجتمعون إليه، ولأجل ذلك فإنّها بلدة تجارة. معجم البلدان ٤/ ٨٩.

(٣) عُمان: اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند، تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع إلّا أن حرّها يضرب به المثل. معجم البلدان ٤/ ١٥٠.

(٤) السنبل: من الزّرع واحدته سنبلة، وقد سنبل الزّرع إذا خرج سنبله، والسنابل: سنابل الزرع من البرّ والشعير والذرة، والسُّنبل: الطيب. اللسان، مادة سنبل.

(٥) المرو: شجرٌ طيّب الرّيح، والمرو: ضربٌ من الرّياحين، فقد ذكره الأعشى في قوله:

وآسٌ وخيريٌّ ومروٌ وسمسقٌ إذا كان هِنْزَمْنٌ ورحت مخشّما

والهنزمن: عيدٌ لهم. اللسان، مادة مرا.

(٦) ورد هذا الاسم في السّياق في رسم فلحظ فيه التباين، فتارة أحمد بن العبّاس، وتارة محمّد بن العباس، وورد ذكره في صبح الأعشى: محمد بن العباس الخشيكي، وأحمد بن عبّاس ومحمد بن عباس. انظر صبح الأعشى ٢/ ١٣٤ وما بعدها، ولعلّ الرجل هو محمد بن عباس بن أحمد بن عبيد الربعي الدّيسري، عماد الدّين طبيب أديب، من أهل دنيسر في الجزيرة قرب ماردين، تنقّل بين الشام ومصر، ثم سكن دمشق وتوفي بها سنة ٦٨٦ هـ. من كتبه: المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة، ونظم الترياق الفاروقي. انظر: الأعلام ٦/ ١٨٣.

(٧) العكلي: لعلّه عمرو بن الحارث بن أقيش العكلي، كما ورد في المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٢٢٢، دار الكتب العلمية. ولكن ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء أورد هذا البيت للرّاعي النميري وقال: وممّا أخذ عليه قوله في المرأة:

تكسو المفارق واللّبات ذا أرجٍ من قصب معتلف الكافور درّاج =

تكسو المَفارِقَ واللَّبّاتِ ذا أَرَجِ من قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافور دَرّاجِ[١]

والقُصْب: المِعَى، ومنه قولُ النبيّ ﷺ: «رأيتُ عَمرَو بنَ لُحَيٍّ[٢] يجرّ قُصْبَه في النار». وقال محمدُ بنُ أحمد: هذا رأيُ بدويّ، وليس برأي عالم يُعتمَد على نقلِه. وقال الحسين بنُ يزيدَ السِّيرافيّ - وهو من أهل الخِبرة ببرّ الصِّين وبحرِها، ومَسالِكها ومَمالِكها -: إنّ الأرض الّتي بها ظِباءُ المِسك الصِّينيّ والتُّبَّتِيّ أرضٌ واحدة لا فرق بينهما، وأهلُ الصِّين يَجْمَعون من المِسك ما قَرُب منهم وكذلك أهلُ التُّبَّت. قال: وإنما فُضِّل المِسكُ التُّبّتيّ على المسك الصِّينيّ لأمرين: أحدُهما: أنّ ظِباءَ المِسك الّتي في حدود التُّبَّت تَرتعِي سُنْبُل الطِّيب، وما يلي منها أرضَ الصِّين تَرتعِي سائرَ الحشائش؛ والثاني: أنّ أهلَ التُّبَّت يتركون النَّوافِج بحالها؛ وأهلَ الصِّين ربّما يَغُشّون فيها، ولسلوكهم بها في البحر وما يَلحقها من الأنداء[٣]؛ فأمّا إذا تَرَك أهلُ الصِّين المِسكَ في نَوافِجه من غير غِشٍّ، وأحرزَ[٤] في البَرانيّ[٥]، وحُمِل إلى أرض العرب، فلا فرق بينه وبين التُّبَّتيّ في الجُودة. قال: وأجْوَدُ المِسك كلّه ما حكّته الظِّباء على أحجار الجبال، وذلك أنّ المادّة الغليظة الدّمويّة إذا انصبّت إلى سُرَر الظِّباء اجتَمعت فيها كاجتماع الدم فيما يَعرِض من الدَّماميل[٦]، فإذا أدرَكَ وأضجَرَ[٧] الظِّباءَ، حَكَّت السُّرَر بالحجارة بحِدّةٍ وحُرقة فيَسيل ما في السُّرر على أطراف الحجارة، فإذا خرج عنها جَفّت السُّرَر واندَمَلتْ وعادت المادّة فاجتمعتْ فيها، فيَخرج أهلُ التُّبَّت في طلب هذا الدم السائل ولهم به معرفة، فليتقطونه ويجعلونه في النَّوافِج، ويحملونه إلى ملوك خُراسان، وهو نهاية المِسك جُودةً وفصلًا، إذ هو ممّا أدرَك على حيوانه، فصار فضلُه على غيره من المِسك كفضل ما يُدرِك من الثّمار على أشجاره على ما يُقطَف قبل بلوغه وإدراكه. قال: وغيرُ هذا من المِسك فإنّما تصاد ظِباؤه بالشُّرُك وبالسِّهام، وربّما

= أراد المسك فجعله من قصب ظبي، والقصب: المعي، وجعله يعتلف الكافور فيتولّد عنه المسك. الشعر والشعراء ص ٢٦٦، دار الكتب العلمية.

(١) اللبّات: جمع لبّة وهي موضع القلادة من الصّدر، والدرّاج: أي المندرج أو المتولّد.

(٢) عمرو بن لحيّ: هو عمرو بن لحيّ بن حارثة بن عمرو الأزدي، من قحطان، أوّل من غيّر دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأوثان، ويقال: إنّه عدنانيّ، وهو الذي نصب الأصنام بمكّة ودعا الناس إلى تعظيمها والاستشفاء بها. الأعلام ٥/ ٨٤.

(٣) الأنداء: مفردها «النّدى» وهو البلل.

(٤) أحرِز: وُضِع.

(٥) البراني: مفردها «بُرنيّة» وهي إناءٌ من خزف.

(٦) الدّماميل: مفردُها «دُمّل» وهو «الخرّاج» يخرج منه دمٌ وقيح.

(٧) أدرك وأضجر: أي اكتحل وأصبح إخراجه من الضرورة بمكان.

قُطِعت النَّوافِج عن الظِّباء قبل إدراك المِسْك فيها. قال: على أنّه إذا قُطِع عن ظِبائه كان كريهَ الرائحة مدّةً طويلة إلى أن يجفَّ على طول الأيّام، فيستحيل مِسكًا. قال: وظِباء المِسك كسائر الظِّباء المعروفةِ في القَدْر واللَّون ودقّة القوائم، وافتراق الأظلاف، وانتصاب القرون وانعطافِها، غير أنّ لكل واحد منها نابين رقيقتين أبيضين، خارجين مِن فيه في فَكِّه الأسفل، قائمَين في وجه الظَّبْي كنابَي الخنزير، في طول الفِتر[(١)] أو دونَه، على هيئة ناب الفيل.

وقال أحمدُ بنُ أبي يعقوب: أفضل المِسك التُّبَّتيّ، ثم بعده [المِسْك] الصُّغْديّ، وبعد الصُّغْديِّ المِسك الصِّينيّ، وأفضلُ الصِّيني ما يؤتَى به من خانقو[(٢)]، وهي المدينةُ العظمَى الّتي هي مَرْفَأ الصِّين الّتي تُرْسَى بها مَراكب تجار المسلمين، ثم يُحْمَل في البحر إلى الزّقَاق[(٣)]، فإذا قَرُب من بلد الأُبُلَّة[(٤)] ارتفعتْ رائحتُه، فلا يمكن التجارَ أن يستِرُوه من العَشّارِين[(٥)]، فإذا خرج من المركَب جادت رائحتُه، وذهبتْ عنه رائحةُ البحر. [ثم المِسكُ الهنديّ، وهو ما يقع من التُّبَّت إلى الهند، ثم يُحمَل إلى الدَّيْبُل، ثم يجهَّز في البحر]، وهو دون الأوّل؛ وبعد الهنديّ من المسك القِنْباري[(٦)]، وهو مِسكٌ جيّد؛ إلّا أنّه دون التُّبَّتيِّ في القِيمة والجَوهر واللّون والرائحة، يؤتَى به من بلد يقال له: قنبار بين الصِّين والتُّبَّت، وربّما غالَطوا به فنسبوه إلى التُّبَّت. قال: ويتلوه في الجُودة المِسك الطُّغُزْغزيّ، وهو مِسكٌ رزينٌ يَضرب إلى السواد، يؤتَى به من أرض التُّرك الطُّغُزْغُز[(٧)] تجلبه التجار

(١) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السّبابة إذا فتحتهما.

(٢) خانقو: مدينة على شرقي نهر خمدان، قال ابن خرداذبه: وهي المرفأ الأكبر، وفيها الفواكه الكثيرة والبقول والحنطة، وقال ابن حوقل في تقويم البلدان: وهي من أبواب الصين. صبح الأعشى، ٤/ ٤٨٠.

(٣) الزّقاق: المراد به هنا ما يسمّى الآن «مضيق هرمز» الذي هو مدخل الخليج الفارسيّ، وقد جاء في صبح الأعشى: «أن المسك يؤتى به من خانقو وهي مدينة الصين العظمى، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين، ومنها يحمل في البحر إلى بحر فارس». فبحر فارس يؤيّد من أن الزّقاق هو مضيق هرمز. صبح الأعشى، ٢/١٤٨.

(٤) الأبلّة: بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة وإليها ينسب نهر الأبلّة، والأبلّة: بليدة عند فوهته.

(٥) في الأصل: العطّارين، والصّواب «العشّارين»: الرّجال الذين يوكل إليهم أخذ «العُشر»، وهو ضريبة قدرها: جزء من عشرة أجزاء، ولذلك السبب كان التجار يسترون المسك ويخفونه.

(٦) القنباري: نسبة إلى قنبار، وهي بلد بين التبّت والصين.

(٧) الطغزغز: ويقال لهم أيضًا: الطغرغر: وهم التتر، ويقال فيهم التتار بزيادة ألف، وهم جيل من=

فيغالِطون به، إلا أنه ليس له جوهر ولا لون؛ وهو بطيء السَّحق لا يَسلم من الخشونة؛ ويتلوه في الجُودة المِسك القَصاريّ، يؤتَى به من بلد يقال لها قَصار، بين الهند والصِّين. قال: وقد يُلحَق بالصِّيني، إلّا أنّه دونه في القيمة والجَوهر والرائحة. قال: والمِسك الجرجيريّ، وهو مِسكٌ يشاكل التُّبَّتيَّ ويشبهُه وهو أصفر حسن، زَعِر الرائحة[1]. وبعده المِسك العِصْماريّ، وهو أضعف أنواع المِسك كلِّها، وأدناها قيمة، يَخْرج من النافِجَة التي زنتُها أوقيَةٌ زنةُ درهم واحد من المِسك، ثم المِسك الجبليّ، وهو ما يؤتَى به من ناحية أرض السِّند[2] من أرض المُولَتان[3]، وهو كبيرُ النَّوافِج، حَسَنُ اللّون، إلّا أنّه ضعيف الرائحة. وقال: أجْوَدُ المسك في الرائحة والمَنظَر ما كان تُفّاحيًا، تشبه رائحتُه التفّاح اللُّبْناني، وكان لونُه تَغلِب عليه الصُّفرة، وكان بين الجِلال والدِّقاق وَسَطًا؛ ثم الذي يليه وهو أشدُّ سوادًا منه، إلّا أنّه يقاربه في الرائحة والمَنظَر، وليس مِثله؛ ثم الذي هو أشدُّ سوادًا منه، وهو أدناه قدرًا وقيمة. وقال: بلغني أن العلماء بالمِسك من تجّار أهل الهند يذكرون أن المِسك ثلاثةُ أنواع، لا يُخرِجونه عن ذلك، فالنوع الأوّل ـ وهو أفضلُه وأجوَدُه ـ المِسكُ الأصليُّ الخِلقة المعروف؛ ونوعان آخَران متّخَذان: أحدهما يُتّخَذ من أخلاطٍ يابسة تكون عندهم من نباتِ أرضِهم، وليس فيه من المِسك الأصليِّ شيء، وهم يأمرون باستعماله وابتياعِه من مواضع أصوله وما يليها من البلاد ومن الّذين يعرفونه، وهم أهل التُّبَّت، والآخَر يتّخذونه ويَنْهَوْن عنه وعن ابتياعه والمتَّجَرِ فيه، وذلك أنّه يتغيّر ويَفسُد إذا أقام. قال: ونوع آخَرُ، وهو مِسكٌ يُجْلَبُ من قَشْمِير[4] الداخلة وما حولها، وليس بجيّد؛ وهو يقارب المِسْكَ المصنوعَ المنهيَّ عنه، ويكون هو أيضًا متّخذًا وغيرَ متّخَذ، وهو على نصف القيمة من المِسك الجيّد. قال: والمِسك في

= الترك يسكنون في أرض واسعة على حدود الصين، وهم أصحاب خيام. انظر: صبح الأعشى ١/ ٤٢٠.

(١) زعر الرّائحة: أي حادّها، واستعماله في هذا المعنى جارٍ على سبيل الاستعارة، إذ الزّعارة في الأصل: الشّراسة وسوء الخلق.

(٢) السّند: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان، قالوا: السّند والهند كانا أخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح، يقال للواحد من أهلها سنديّ. معجم البلدان ٣/ ٢٦٧.

(٣) المولتان: بلد في بلاد الهند على سمت غزنة، قال الإصطخري: وأمّا المولتان فهي مدينة نحو نصف المنصور وتسمّى فرج بيت الذّهب وبها صنم تعظمه الهند وتحجّ إليه، وسمّي المولتان بهذا الصّنم. معجم البلدان ٥/ ٢٢٧.

(٤) قشمير: مدينة متوسّطة لبلاد الهند، قيل: إنها مجاورة لقوم من الترك، فاختلط نسلهم، فهم أحسن خلق الله خلقة، يضرب بنسائهم المثل. معجم البلدان ٤/ ٣٥٢.

طبعِه حادٌ لطيفٌ غوّاص[١]، جيّدٌ لوجع الفؤاد، مقوٍّ للقلب، قاطعٌ للدّم إذا ضُمِد به الجُرح، ويدخل في أكحال العين[٢] وفي كثير من المَعاجين الكبار؛ وإذا جُعِل بدلًا من الجُنْدَبِيدَسْتَر[٣] فإنّه أقرَبُ الأشياء إليه في طبعِه وفعلِه. وقال محمدُ بنُ أحمد: فأمّا المِسك المنسوبُ إلى دارِين[٤]، فهو من نوع المسك الهنديّ؛ تجلبه التجّار إلى دارِينَ: جزيرةٌ بالبحرين تُرْفَأُ إليها سُفُن تجّار الهند، ويُحْمَل منها إلى المواضع؛ وليست دارِينُ بمعدِنٍ للمِسْك.

الباب الثاني
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
في العَنبر[٥] وأنواعِه ومعادنه

قال محمدُ بنُ أحمدَ التَّميميُّ: حدَّثني أبي عن أبيه عن أحمدَ بن أبي يعقوبَ أنّه قال: العنبر أنواع كثيرة، وأصناف مختلفة، ومعادنُه متباينة، وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره؛ فأجوَدُ أنواعه وأرفعُه وأفضلُه وأحسنُه لونًا وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمة، العنبرُ الشَّحْريّ، وهو ما قذفه بحرُ الهند إلى ساحل الشَّحْر من أرض اليَمَن؛ وزعموا أنّه يَخرج من البحر في خلقة البعير أو الصحرة الكبيرة[٦]. قال التَّميميّ: والأصل الصحيحُ فيه أن يَنْبُع من صخورٍ في قرار الأرض ومن عيون، ويُجتمع في قرار البحر، فإذا تَكاثَف وثَقُل جذَبتْه[٧] طبيعةُ الدُّهانة[٨] التي فيه، واضطرّته إلى الانقطاع من المواضع التي يتعلّق بها عند خروجه من الأرض، وطلعتْ به إلى وجه الماء فطفا

(١) الغوّاص: يريد بالغوّاص: أنّه نفّاذ إلى جميع أعضاء البدن.
(٢) أكحال العين: مفردها «الكحل» وهو كل ما وُضع في العين يستشفى به.
(٣) الجندبيدستر: ويقال فيه: جند بادستر، وباليونانية: أكسيانوس: وهو خصية حيوان بحري يعيش في البرّ والبحر، وأكثر ما يكون هذا الحيوان في النّهر مع الحيتان والتماسيح، ويغتذي بالسّمك، وهو على صورة الكلب لكنه أصغر منه، غزير الشعر، أسود بصّاص، أي برّاق. انظر الكلام على هذا الحيوان في نهاية الأرب ١٠/٣١٨، دار الكتب المصرية.
(٤) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند والنسبة إليها داريّ، قال الفرزدق:
كأنّ تريكةً من ماء مُزنٍ ... وداريّ الذكيّ من المُدام
معجم البلدان ٢/ ٤٣٢.
(٥) العنبر: مادة صلبة تنبعث منها رائحة ذكيّة إذا أحرقت.
(٦) في الأصل: «والصخرة الكبيرة» والتصويب يقتضيه السّياق حيث العطف «بأو» أسلم له.
(٧) جذبته: حوّلته عن موضعه. (٨) الدّهانة: لعلّها اللزوجة، وهي كثرة الدّهن.

على وجه الماء، وهو جارٍ ذائب؛ ومنه ما تقطِّعه الأمواج فتُخرِجه إلى السواحل قِطَعًا كبارًا وصغارًا. قال: وحدَّثني أبي عن أبيه عن أحمدَ بنِ أبي يعقوبَ قال: تقطِّعه الرِّيح وشدّةُ الموج فترمي به إلى السواحل وهو يفور، لا يدنو منه شيءٌ لشدّة حرِّه وفَوَرانه؛ فإذا أقام أيّامًا وضَرَبه الهواء جَمَد، فيجمعه الناسُ من السواحل المتّصلة بمعادنه. قال: وربّما أتت السمكةُ العظيمةُ التي يقال لها: «البال»[١] فابتَلَعتْ من ذلك العنبر الصافي وهو يفور، فلا يستقرّ في جوفها حتى تموت وتطفو، ويطرحها البحرُ إلى الساحل، فيُشَقُّ جوفُها، ويُستخرَج ما فيه من العنبر، وهو العنبر السَّمَكيّ ويسمَّى أيضًا: المبلوعَ. قال: وربّما طَرَح البحرُ قِطعةَ العنبر فيبصرها طير أسوَدُ شبيهٌ بالخُطّاف[٢]، فيأتي إليها ويرفرف بجناحيه، فإذا دنا منها وسقط عليها تعلّقتْ مَخاليبُه ومِنقارُه فيها فيموت ويَبْلَى، ويَبقى مِنقارُه ومَخاليبُه في العنبر، وهو العنبر المَناقيريّ. قال التّميميّ: وزَعَم الحسينُ بنُ يزيدَ السِّيرافيُّ أنّ الذي يقع من العنبر إلى سواحل الشَّحْر[٣] شيءٌ تَقذِفه الأمواج إليها من بحر الهند، وأنّ أجْوَده وأفضلَه ما يقع إلى بحر البَرْبَر[٤] وحدودِ بلاد الزَّنْج[٥] وما والاها[٦]، وهو الأبيضُ المدوَّر، والأزرقُ النادر. قال: ولأهل هذه النواحي نُجُبٌ[٧] يركبونها مؤدَّبةٌ يركبون عليها في ليالي القمر على سواحلهم، وهذه النُّجُب تعرِف العنبر، وربّما نام الراكب عليها أو غَفَل، فإذا رأى النجيبُ العنبرَ على الساحل بَرَكَ بصاحبه، فينزل ويأخذه. قال: ومنه ما يوجد فوق البحر طافيًا في عِظَم الثَّوْر. قال: وبعد العنبر الشَّحْريِّ العنبرُ الزِّنْجيّ، وهو الذي يؤتَى به من بلاد الزِّنْج إلى عَدَن، وهو عنبرٌ أبيض؛ وبعده العنبرُ الشَّلاهِطِيّ[٨]، وهو

---

(١) البال: الحوت العظيم من حيتان البحر، وهو اسم غير عربي، ويدعى جمل البحر. اللّسان، مادة بول.

(٢) الخطّاف: طائر السّنونو.

(٣) الشّحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، قال الأصمعي: هو بين عدن وعُمان، وإليه ينسب العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحله. انظر: معجم البلدان ٣/ ٣٢٧.

(٤) بحر البربر: هو البحر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزّنج وما والاها. صبح الأعشى ٢/ ١٣١.

(٥) بلاد الزّنج: وهي بلاد شرقي الخليج البربري، تقابل بلاد الحبشة من البرّ الآخر وقاعدتها «سُفالة الزنج»، وموقعها جنوبي خط الاستواء. انظر: صبح الأعشى ٥/ ٣٢١.

(٦) والاها: تبعها.

(٧) النُّجُب: مفردها «النّجيب» وهو القويّ من الإبل والسّريع.

(٨) في صبح الأعشى ٢/ ١٣١ «السّلاهطي» وكذلك في الأصل، والتصويب عن معجم البلدان=

يتفاضل، وأجوَدُ الشَّلاهِطِيّ الأزرقُ الدَّسِمُ الكثيرُ الدُّهن، وهو الذي يُستعمَل في الغَوالي[١]. وبعد الشَّلاهِطِيّ العنبرُ القاقُلّيّ[٢]، وهو أشهَب[٣]، جيّدُ الرِّيح، حَسَنُ المَنْظَر، خفيف، وفيه يُبْس يسير، وهو دون الشَّلاهِطِيّ لا يَصلُح للغَوالي ولا للتَّغْلية[٤] والتّطهير[٥] إلّا عن ضرورة، وهو صالح للذَّرائر[٦] والمُكَلَّسات[٧]، ويؤتَى بهذا العنبر من بحر قاقُلَّةَ إلى عَدَن؛ وبعد القاقُلّيّ العنبرُ الهنديّ، يؤتَى به من سواحِل الهند الداخلة، فيُحمَل إلى البَصْرة وغيرِها؛ وبعده الزِّنْجيّ، يؤتَى به من ساحل الزِّنْج، وهو شبيه بالهنديّ ويقاربه. هكذا ذَكَر التَّميميُّ في (جيب العروس)، فإنّه يَجعل الزِّنحيَّ بعد الشِّحْريّ وذَكر الزِّنحيَّ أيضًا بعد الهنديّ. قال: وعنبر يؤتَى به من الهند يسمَّى الكرك بالوس وينسَب إلى قوم من الهند يجلبونه، يُعرَفون بالكرك بالوس، يأتون به إلى قرب عُمان، يشتريه منهم أصحابُ المراكب. قال: وأمّا العنبر المَغرِبيّ، فإنّه دون هذه الأنواع كلِّها، يؤتَى به من بحر الأندلس، فتحمله التجّار إلى مصر؛ وهو شبيه في لونه بالعنبر الشِّحْريّ، وقد يغالَط به فيه. قال التَّميميّ: وأفضلُ العنبر وأجوَدُه ما جَمَعَ قوّةَ رائحةٍ وذَكاء[٨] بغير زَعارّة[٩]. وقال أحمد بن أبي يعقوب: قال لي جماعةٌ من أهل العلم بالعنبر: إنه بجبال ثابتةٍ في قرار البحر، مختلفةِ الألوان، تَقتلعه الرّياح وشدّةُ اضطراب البحر في الأشتية الشديدة، فلذلك لا يكاد يَخرج في الصيف. قال: وألوانُ العنبر مختلفة، منها الأبيض، وهو الأشهب؛ ومنها الأزرق،

= لياقوت حيث قال: الشلاهط: بحر عظيم بعد بحر هركند مشرقًا، فيه جزيرة سيلان. معجم البلدان ٣/ ٣٥٧.

(١) الغوالي: مفردها «غالية»، وهي ضرب من الطّيب، أوّل من سمّاه بذلك سليمان بن عبد الملك، وسمّي هذا النوع بذلك لأنه أخلاط تغلي على النّار بعضها مع بعض.

(٢) القاقلّي: وهو ما يؤتى به من بحر قاقلّة من بلاد الهند إلى عدن. صبح الأعشى ٢/ ١٣١.

(٣) الأشهب: ما كان لونه الشّهبة، وهي بياضٌ غلب على السواد، أو بياضٌ يخالطه سواد.

(٤) التّغلية: التطيّب بالغالية، أو لأن الطّيب أخلاط تغلى.

(٥) التطهير: لعلّه يريد «التطيب»، أي لا يصلح لأن يتطيّب به.

(٦) الذّرائر: جمع ذريرة، وهي نوع من الطّيب يجمع من أخلاط، وسمّيت بذلك لأنها تذرّ على البدن أو الثوب.

(٧) المكلّسات: من التكليس، وهو إذابة الأجسام حتى تصير كالكلس. والكلس: الصاروج أي النّورة وأخلاطها، وفي مفاتيح العلوم: ٢٦٥ ط. أوروبا: التكليس أن يجعل جسدًا في كيزان مطيّة، ويجعل في النار حتى يصير مثل الدقيق.

(٨) الذّكي: الطيّب الرائحة. (٩) الزّعارة: حدّة الرائحة، «تقدّم شرحها».

والرَّماديّ والجِراريّ، وهو الأبرش، والصّفائح، وهو الأصفر والأحمر، وهما أدنى العنبر قَدْرًا، والله أعلم.

ومن العنبر صِنفٌ يسمَّى المَنْد(١) ويوجد على سواحل من البحر ـ قال التَّميميّ: أخبَرني جماعةٌ من أهل المعرفة بالعِطْر وأصنافِه وأنسابِه أنّ دابّةً تَخرج من البحر فتَرمِي به من دُبُرِها، وأنّ تلك الدابّةَ في صورة البقر الوحشيّ، فيؤخذ وهو ليّن يمتدّ، فما كان منه عَذْبَ الرائحة حَسَنَ الجوهر، فهو أفضلُه وأجوَدُه. والمَنْد أصناف، أجْوَدُها الشِّحْريّ، وهو أسوَد، فيه صُفْرةٌ تَخضِب(٢) اليدَ إذا لُمِس، ورائحتُه كرائحة العنبر اليابس، إلّا أنّه لا بقاء له على النار، ويُستعمَل في الغوالي إذا عزَّ العنبرُ الشلاهِطِيّ، ومن المَنْد الزَّنْجيّ، وهو نظيرُ الشِّحْريّ في المَنْظَر، ودونه في الرائحة؛ وهو أسوَدُ بغير صُفرة، ومنه الخَمْريّ، وهو يَخضِب اليدَ وأصولَ الشَّعر خِضابًا جيّدًا، ولا ينفع في الطِّيب؛ ومنه السَّمَكيّ، وهو المبلوعُ كما قدّمنا ذكرَه، وهو في لونه شبيهٌ بالقار(٣)، وهو رديءٌ في الطِّيب، للسُّهوكة(٤) التي يكتسبها من السَّمَك. وقال التَّميميّ: طبعُ العنبر حارّ، وفيه شيءٌ من يُبْس، وهو مقوٍّ للقلب، مُذَكٍّ للحواسّ محلِّلٌ للرّطوبات، نافعٌ للشيوخ؛ وقد تُضمَد به المَفاصل المنصبُّ إليها الرُّطوبات فتَنتفع به نفعًا جيّدًا، ويقوّيها، ويُستعمَل في الجَوارِشنات(٥) وكبار المَعاجين، وفي المَعاجين المقوّية للمعدة والقلب، ويُسعَط(٦) فيحلِّل عللَ الدِّماغ. قال: وقد تُصطَنع منه شَمّامات فيشُمُّها مَن بهم اللَّقْوة(٧) والفالج(٨)، فينتفعون بروائحها.

---

(١) في صبح الأعشى ٢/ ١٣٢: النَّدُّ.

(٢) تخضب اليد: أي تترك عليها لونًا كأنّها خضبت بالخضاب.

(٣) القار: الزّفت.

(٤) السهوكة: رائحة السّمك التي تترك أثرها على اليدين بعد اللّمس.

(٥) الجوارشنات: أو الجوارشات بحذف النون، والجوارش: بالفارسية: معناه المسخن الملطف، والجوارشات هنا: عبارة عن الدّواء الذي لم يحكم سحقه ولم يطرح على النار بشرط تقطيعه رقاقًا.

(٦) يُسعط: من سعط، والسّعوط: الدّواء الذي يدخل في الأنف، أو ما ينشقّ في الأنف منه.

(٧) اللّقوة: داءٌ في الوجه ينجذب له شقٌّ منه إلى جهة غير طبيعية فتتغيّر سحنته.

(٨) الفالج: شللٌ يحدث في أحد شقّي البدن.

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الرابع

في العود[١] وأنواعه ومعادنه وأصنافه

قال محمدُ بنُ أحمدَ التَّميميّ: أخبَرَني أبي عن أبيه عن جماعةٍ من أهل العلم والمعرفة بالعُود أنّه شجرٌ عظام بمواضعَ من أرض الهند؛ وهي معادنُ له، وأنّ منه ما يُجلَب من أرض (قِشْمِير) الداخلة، [و][٢] من أرضِ (سَرَنْدِيب)[٣] ومن (قَمار)[٤] وما اتّصل بتلك النواحي؛ وذكروا أنّه لا تصير له رائحةٌ إلّا بعد أن يَعتُق ويُنجَرَ[٥] ويُقشّر، فإذا نُفِيَ عنه قشرُه وجُفِّف حُمِل إلى كلّ ناحية. قال: وأخبَرني بعضُ العلماء به أنه يكون من قلب الشجر، وأنّه ليس كلُّ ما في الشجرة عودًا، وأنّه بمنزلة قلب شجرةِ الآبَنُوس[٦] والعُنّاب والزيتون والأنواع الّتي داخِلها من جوهر الخشب فيه دَهانة، وما في خارجها خشب أبيضُ لا دَهانةَ فيه، وربّما كان فيه كمِثل الطرائق[٧] والشامات[٨] في الشجرة فيُقطَع، ويُقشَر البياضُ منه، ويُدفَن في التراب، فيقيم سنينَ حتى يأكل التراب ما عليه وما في داخله من الخشب، ويَبقَى العُود، ولا يَعمل التراب فيه؛ وإلى نحو هذا القول ذهب محمد بن العبّاس. وقال محمدُ بنُ العبّاس أيضًا: وأخبرني جماعةٌ من أهل (الأُبُلّة)[٩] أنّ العود المعروفَ بالهنديّ يكون في أوديةٍ بين جبالٍ شواهقَ متوعِّرة، لا وصولَ لأحدٍ إليها لصعوبة المسلك، وأنّ العُود يكون في

---

(١) العود: نوعٌ من الطِّيب يتبخّر به.

(٢) هذه الواو ساقطة من الأصل، وكذلك من صبح الأعشى ٢/ ١٣٣. والسّياق يقتضي إثباتها.

(٣) سرنديب: هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند، وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السّلام، يقال له الرّهون. معجم البلدان ٣/ ٢١٦.

(٤) قمار: بفتح القاف وكسرها، موضع بالهند ينسب إليه العود، هكذا تقول العامّة، والذي ذكره أهل المعرفة «قامرون: موضع في بلاد الهند يُعرف منه العود النهاية في الجودة». معجم البلدان ٤/ ٣٩٦.

(٥) ينجر: ينحت، ونجر العشب: نحته وسوّاه.

(٦) الآبنوس: شجرٌ في إفريقيا الاستوائية، خشبه صلب أسود ثقيل.

(٧) الطرائق: الطبقات.

(٨) الشامات: مفردها شامة وهي بثرة أو نقطة في البدن تميل إلى السّواد.

(٩) الأُبلّة: بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وإليها ينسب نهر الأبلّة، وهو نهر مخرجه من دجلة، والإبلّة بلدة عند فوهته.

غِياضٍ[١] بتلك الأودية، فيتكسّر بعضُ ذلك الشجر على طول الأيّام، وتتعفّن منه أصولُ بعض الشجر من الأمطار والسُّيول، فيأكل الترابُ والماءُ والهواءُ ما فيه من الخشب، ويَبقَى صميمُ العُود وخالصُه وجوهرُه، فإذا كثرت الأمطار وجرت السُّيول أخرجَتْه من تلك الأودية إلى البحر، فتقذِفه الأمواج إلى الساحل فيجمعه الناس ويلتقطونه وينقُلونه إلى الجهات. وقد حَكَى بعضُ من تردَّد إلى بلاد الهند من التجّار قال: لم أرَ شجر العود، ولا رأيتُ مَن رآه؛ قيل له: وكيف لم تَرَه وقد تردّدتَ إلى بلاد الهند، ومنها يُجْلَب؟ قال: لأنّ التجّار الذين يَجلبونه إلى الهند إذا قَدِموا بمَراكبهم إلى المواني بالهند يقفون بالمَراسي بحيث يَرى مَن بالمَواني مراكبَهم، ولا يَرون من فيها، فإذا شاهدوها أخْلَوا الفُرْضَة والمِينَا مِن عشيّة، ولا يَظهَر منهم أحدٌ بها، فيأتي أصحابُ تلك المراكب إلى المينَا ويَنقُلون جميعَ ما معهم إلى الفُرْضة[٢]، ويُفْرِد[٣] كلُّ تاجر منهم بضاعتَه، ويتركونها ويخرجون فيقفون على مَراسيهم، ويُصبح أهلُ المدينة فيأتون إلى تلك البضائع، ويجعلون إلى جانب كلِّ بِضاعةٍ بِضاعةً نظيرَها، ويتركونها، ويُخلون الفُرْضة، فيعود التجّار وينظرون إلى ما جُعِل لهم بدلَ بضائعهم، فمن رضيَ بالعِوَض[٤] أخَذَه وتَرَك بضاعته، ومَنْ لم يَرْضَ به تركَهما جميعًا؛ ويُصبح أهلُ المدينة فيأتون إلى تلك البضائع فما وجدوه منها قد أُخِذ عِوَضُه علموا أنّ صاحبَه رضي بالبيع، وما وجدوه باقٍ هو وعِوَضُه علموا أنّ صاحب البضاعة لم يَرْضَ بالعِوَض، فيزاد حتى يَرضى؛ فهذا دأبهم[٥] مع الذين يَجلبون العُود، وليس فيهم من رآهم. وحَكَى الحاكي، أنّه حُكِيَ أنّ بعض أهل المدينة كَمَنَ لهم في مكان يراهم منه ولا يَرونه، فرأى وجوهَهم وجوهَ كلاب، وبقيّة أجسامهم أجسامَ الآدميِّين.

وأمّا أنواع العُود ومعادنُه وأصنافُه ـ فهو أنواعٌ كثيرة، وأصنافٌ متباينة؛ فأفضلُه وأجلُّه وأنْفَسُه المَنْدَليّ، وهو الهنديّ؛ وإنما سُمِّي المَنْدَليَّ[٦] نسبةً إلى معدِنه. «والمَنْدَليُّ هو الهنديّ»، قالوا: وهو يُجْلَب من ثلاثة مواضعَ من أرض الهند، فأفضلُ ذلك القامِرُونيّ، وهو ما جُلِب من القامِرُون[٧]؛ والقامِرون: مكان مرتفِعٌ من الهند.

---

(١) الغياض: مفردها «غيضة» وهي الموضع الكثير الشجر والماء.
(٢) الفرضة: محطّ السّفن من البحر. (٣) يُفرد بضاعته: يبسطها للبيع.
(٤) العوض: البدل. (٥) دأبهم: عادتهم وطريقتهم.
(٦) المندليّ: نسبة إلى مندل من بلاد الهند. صبح الأعشى ٢/ ١٣٤.
(٧) القامرون: هي قمار التي تقدّم ذكرها، وقد ذكر صاحب معجم البلدان أن أهل المعرفة يقولون: =

وقيل: بل هو منسوبٌ إلى نوع من شجر العُود يسمَّى القامِرُون وهو أغلى العُود ثَمنًا، وأرفعُه قَدْرًا. قال: وهو قليل لا يكاد أن يُجْلَب إلّا في [بعض][١] الحِين، وهو عُودٌ رَطْبٌ جدًّا، شديدُ سواد اللّون، رزين، كثيرُ المَاء. وقال الحسين بنُ يزيدَ السِّيرافيُّ في (أخبار الهند): إنّ الصنم المعروفَ بالمُولْتان[٢] ـ وهو بقرب المنصورة[٣] ـ يقصده الرجل من مَسِيرَةِ ثلاثةِ أشهر يَحْمِل على ظهرِه أفخرَ العُود الهنديِّ والقامِرُونيّ. قال: وقامِرُون: بلد يكون فيه فاخرُ العُود، ويَتجشَّم الهنديُّ المَشَقَّةَ في حملِه حتى يأتيَ به إلى هذا الصَّنم فيدفعُه إلى السَّدَنة ليبخِّروا به الصَّنم، وإنّ هذا العُودَ القامرُونيَّ فيه ما قيمةُ المنِّ[٤] منه مائتا دينار، وإنّه ربّما خُتم عليه فانطبَعَ وقَبِل الخَتْمَ للينِهِ. قال: والتجّار يَبتاعونه من هؤلاء السَّدَنة[٥]؛ ولما غَلَب المسلمون على المُولْتان قَلَعوا هذا الصنمَ وكَسروه، فأصابوا تحته من هذا العُود، فأخذوه.

والصِّنف الثاني من الهنديّ، السَّمَنْدُورِيّ، ويُجْلَب من بلاد سَمَنْدُور[٦]، وهي بلدُ سُفالةِ الهند[٧]، والسَّمَنْدُوريّ يتفاضل، فأجْوَدُه الأزرق، الكثيرُ الماء، الصُّلب الرزين، الذي يصبر على النار؛ ومن الناس من يفضِّل الأسوَدَ على الأزرق، ومنهم من يفضِّل الأزرقَ على الأسوَد؛ وتكون القطعةُ الضَّخمةُ منه مَنًّا واحدًا، ويسمَّى لطيب رائحته رَيْحَانَ العُود؛ وأفضلُ العُود بعد السَّمَنْدُوريّ العُودُ القَمارِيّ ويؤتى به من قَمارِ، وهي أرض سفالة الهند؛ وهو أيضًا يتفاضل، وأجْوَدُه الأسوَد والأزرق، الكثيرُ

= قامرون بدل قمار، والقامرون: موضع في بلاد الهند يعرف منه العود النهاية في الجودة، وزعموا أنّه يختم عليه بالخاتم فيؤثر فيه. معجم البلدان ٤/ ٣٩٦.

(١) ما بين قوسين زيادة عن صبح الأعشى ٢/ ١٣٤.

(٢) المولتان: هي مدينة نحو نصف المنصورة، وتسمى فَرْج بيت الذّهب وبها صنم تُعظّمه الهند وتحجّ إليه، وسمّي المولتان بهذا الصّنم. معجم البلدان ٥/ ٢٢٧.

(٣) المنصورة: مدينة بأرض السّند وهي قصبتها، كثيرة الخيرات، ذات جامع كبير، قال المسعودي: سمّيت المنصورة بمنصور بن جُمهور عامل بني أُميّة، فهو الذي بناها فسمّيت به. انظر: معجم البلدان ٥/ ٢١١.

(٤) المنّ: وزن مقداره مائتين وسبعة وخمسين درهمًا وسُبع درهم، ووزنه بالمثاقيل: مائة وثمانون مثقالًا، وبالأواقي أربع وعشرين أوقيّة. مفاتيح العلوم: ص ١٤.

(٥) السّدنة: خدّام الصّنم وحجابه.

(٦) السّمندور: وربّما سقطت الرّاء فيقال «سمندو»، وهي بلد بسفالة الهند، وقال الإصطخري: أمّا سمندور فهي بلدة صغيرة وهي والملتان وجندراون عن شرقي نهر مهران، وهي حصيته. معجم البلدان ٣/ ٢٥٣.

(٧) سُفالة الهند: أي في أقصى بلاد الهند، وسُمّي هذا البلد سُفالة لأنه أسفل الهند.

الماء، الرزينُ الصُّلب، الذي لا بياض فيه، ويَبْقَى على النار، ويكون في القطعة منه نصفُ رطل[١] إلى ما دون ذلك. قال أحمدُ بن أبي يعقوب: وله سِنٌّ[٢] نضيج جيّد، كثيرُ الماء. قال: ولا يَجتمع في صِنفٍ من أصناف العُود ما يَجتمع في العودُ الهنديِّ من الحلاوة والمرارة والخُمرة[٣] والبقاء والصبر على النار. وحَكَى محمدُ بنُ العبَّاس المِسْكِيُّ في كتابه سبب تفضيل العودُ الهنديِّ وتقديمِه على غيره، واستعمالِ الخلفاء له، فقال: العُودُ الهندي أرفع أجناس العُود وأفضلُها وأجْوَدُها، وأبقاها على النار، وأعبَقُها بالثياب. قال: ولم تكن التُّجّار تَجْلِبُه في الجاهليّة ولا ما بعدها، إلى آخِرِ أيّام بني أُميّة، ولا ترغب في حَمْلِه، لأجل المرارة التي في رائحته؛ وإنّما كانت الأكاسرة[٤] تُتبخّر بالمَنْدَليِّ والقَماريِّ والسَّمَنْدُوريِّ والصَّنْفِيِّ لشدّة حلاوة روائحها. وزَعم أنّ تلك الحلاوةَ تولِّد القمل[٥] في الثِّياب. قال: ولم يكن الهنديُّ يُعْرَف في هذه الأمصار، ولا كانت التّجّار تَجْلِبُهُ مع معرفتها بفضله، فلمّا كان في آخِر أيّام الدّولة الأُمَويّة عندما كثر الاختلاف بينهم، وقلّت الأموالُ في أيديهم، شرعوا في مصادرات الرّعايا، وأخذوا الأموالَ من غير وجوهها، وتعرّضوا إلى أموال الأوقاف والأيتام، فتَعَرَّضَ وُلاةُ خُراسانَ لبَرْمَك[٦] ولولدِه وطالَبوهما بالأموال، وكان تحت يد بَرْمَكَ أوقافٌ جليلة، فهرَب هو وولدُه من أعمال خُراسانَ إلى بلاد الهند، فأقاموا بها إلى أن ظهرت الدّولةُ العبّاسيّة، فرأى الحسينُ بنُ بَرْمَكَ طِيبَةَ العُود الهنديِّ وزُهدَ التّجّار فيه، فاستجاده، واشترَى منه واستَكثَرَ؛ ثم قَدِمَ خالدُ بنُ بَرْمَكَ[٧] وأخوه الحسينُ وأهلُهما على المنصور أبي جعفر لمّا أفضت الخلافةُ إليه، فاصطَنَعهم وأدناهم وقرّبَهم؛ فدخل الحسينُ يومًا على المنصور وهو يَتبخّر بالعُود القَماريّ، فأعلَمَه أنّ عنده ما هو أطيَبُ منه رائحةً وأنّه حَمَله معه من الهند؛ فأمَرَه المنصور بحمل ما عنده منه، فحمله إليه، فاستجاده المنصور، وأمَر أن يُكتَب إلى الهند في حَمْل الكثير منه،

(١) الرّطل: معيار للوزن يساوي اثنتي عشرة أوقيّة إجمالًا.

(٢) السِّن: الوجه.

(٣) الخُمرة: الرائحة الطيّبة، يقال: وجدت منه خمرة طيّبة، إذا اختمر الطّيب، أي وجدت ريحه، وتخمّرت أطنابنا: أي طابت روائح أبداننا بالبخور. اللسان، مادة خمر.

(٤) الأكاسرة: مفردها «كسرى» وهو ملك الفرس.

(٥) القمل: حشرة تتولّد من الوسخ والعرق ونحوهما في بدن الإنسان وتغتذي بدمه.

(٦) برمك: هو والد حسين وخالد بن برمك، وهو من مجوس بلخ.

(٧) خالد بن برمك: هو أوّل البرامكة الذين تمكّنوا في دولة بني العباس، كان سخيًّا فصيحًا، دخل على السّفاح لمبايعته فظنّه من العرب لفصاحته وجعله على ديوان الغنائم، مات سنة ١٦٣ هـ. الأعلام ٢/ ٢٩٥.

ولم تُكْرَه تلك المَرارةُ والزَّعارَّةُ التي في رائحته، لأنّها تقتل القمل، وتَمنع مِن تكوُّنه في الثّياب، وله عَبَقٌ بالثياب وبقاءٌ فيها. قال: فلمّا اختارت الخلفاءُ والملوكُ العُودَ الهِنديّ وآثرت[١] البَخُور به[٢]، سقط قدرُ ما عداه من أصناف العُود، وعَزَّ العُودُ الهنديّ. قال محمد بن أحمد: وبعد العُود القَماريِّ في الفضل والجُودة العُودُ القاقُلِّيّ، ويُجْلَب من جزائرَ في بحرِ قاقُلَّة، وهو عُودٌ دَسِمٌ له بقاء في الثياب، وفي رَيْحانيِّه[٣] خُمْرة؛ وهو حَسَنُ اللّون شديدُ الصَّلابة، إلّا أن قُتَارَه[٤] ربّما تغيَّر على النار، فينبغي أنّه إذا استُعْمِل وبُخِّر به لا يُستقصَى إلى أن تَنتهيَ النار إلى القُتَار. قال ابن أبي يعقوب: وبعد العُود القاقُلِّيّ العُودُ الصَّنْفيّ، ويُجْلَب من بلد يقال له الصَّنْف[٥] بناحية الصِّين، وبين الصَّنْف والصِّين جبلٌ لا يُسْلَك، وهو أجلُّ[٦] الأعواد وأبقاها في الثياب، ومنهم من يفضِّله على القاقُلِّيّ، ويَرَى أنه أطيَبُ وأعْبَقُ وآمَنُ مِن القُتَار؛ ومنهم أيضًا من قَدَّمه على القَمَاريّ. قالوا: وأجْوَدُ الصَّنفيّ الأسوَد، الكثيرُ الماء، ويكون في القِطعة منه المَنُّ والأكثرُ والأقلّ. قالوا: وشجرُ العُود الصَّنفيّ أعظمُ من شجر الهنديِّ والقَماريّ، وبعد الصَّنفِيّ العُود الصَّنْدَفُوريّ، ويُجلَب من بلد الصَّنْدَفُور[٧]. ويقال: إنه صِنفٌ من الصَّنْفِيّ، إلّا أنّه ليس بالقِطَع الكبار؛ وهو حلوُ الرائحة حَسَنُ اللّون، رزينٌ[٨] صُلب، لاحقٌ بقيمة الجيّد من الصَّنْفيّ. وبعد الصَّنْدَفوريّ العُودُ الصِّينيّ، وهو عودٌ حَسَنُ اللّون، أوّلُ رائحتِه يُشاكل[٩] رائحةَ الهنديّ، إلّا أن قُتَارَه[١٠] غير محمود، وأفضلُه نوع منه يسمَّى القطعيّ[١١]، وهو رَطْبٌ حلو، طيّبُ الرائحة؛ ويؤتَى به من الصِّين، وتكون القِطعة منه نصفَ رطل وأكثرَ وأقلّ. قال أحمد بن أبي يعقوب:

---

(١) آثرت: فضّلت. (٢) البخور به: أي التبخُّر به.

(٣) ريحانيه: يريد الشّراب الرّيحاني الذي أضيف إليه بعض هذا الصنف من العود، والشّراب الرّيحاني: نوعٌ من الخمر، وهو الشراب الصّرف الطيّب الرائحة.

(٤) القتار: هو آخر رائحة العود إذا بخر به، والقتار: دخان ذو رائحة ينبعث من البخور المحروق أو الطبيخ أو الشّواء.

(٥) الصّنف: موضع في بلاد الهند أو الصين ينسب إليه العود الصنفي. معجم البلدان ٣/ ٤٣٠.

(٦) أجلّ: أفضل، وفي كلام ياقوت عن هذا العود ما يخالف هذا الكلام؛ إذ قال: العود الصنفي: من أردأ العود، لا فرق بينه وبين الخشب إلّا فرقًا يسيرًا. معجم البلدان ٣/ ٤٣٠.

(٧) الصّندفور: بلدٌ من بلاد الصّين. صبح الأعشى ٢/ ١٣٥.

(٨) الرّزين: هو الثقيل من كلّ شيء. (٩) يشاكل: يشابه.

(١٠) القتار: آخر رائحة العود.

(١١) القطعي: هو عودٌ رطب حلو طيّب الرائحة، وهو نوع من الصّيني. صبح الأعشى ٢/ ١٣٦.

ومن العُود أيضًا صِنفٌ يسمَّى القُثُور[١]، رَطْب أزرق؛ وهو أعذبُ رائحةً من القطعي، ودونه في القيمة. قال: ومن الصِّينيّ أيضًا أصنافٌ أُخَر، وهي دون كلِّ هذه الأصناف، منها: المَنْطائيّ[٢]، وهو المانطائيّ قِطَعُه كبار مُلْس سود، لا عُقَد فيها، ليست روائحها بمحمودة، تَصلُح للأدوية والسَّفوفات[٣] والجُوَارِشنات. ومنه صنفٌ يُعْرَف بالجُلْابيّ، وصِنفٌ يُعْرَف باللَّواقيّ وهو اللُّوقِينيّ[٤]، وهي أعوادٌ متقارِبةٌ في القيمة.

قال التَّمِيميّ: ومن الناس من رَتّب العُود الصِّينيَّ غيرَ ترتيب أحمدَ بنِ أبي يعقوب، فقالوا: إنّ أفضلَ العُود الصِّينيِّ العودُ القعطيّ، وبعده العودُ الكَلَهِيّ[٥]، وهو عُودٌ رَطْب يُمْضَغ، وفيه زَعارّة وشدّةُ مرارة، للدَّهانة الّتي فيه، وهو مِن أعْبَق الأعواد في الثّياب وأبقاها. وبعد الكَلَهيّ العُودُ العَولاتي، وهو عودٌ يُجْلَب من (جزيرة العولات) بناحية قَمَار من أرض الهند. وبعده اللُّوقِينيّ، ولُوقِين: طَرَف من أطراف الهند، وهو دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة؛ وله حُمْرةٌ في الثِّياب. وبعدَ اللُّوقينيِّ المانطائيّ، وهو من شجرٍ بجزيرة تسمَّى مالطاء؛ وقيمتُه مثلُ قيمة اللُّوقِينيّ، وهو خفيف، ليس بالحَسَن اللّون. وبعد المانطائيِّ العُودُ الريطائيّ، وهو من جزيرة تسمَّى ريطاء، وهو دون المانطائيِّ في الرائحة والقيمة، يدخل في أعمال المثلَّثات[٦] والبَرْمَكِيّات[٧]. وبعد العود الرِّيطائيّ العُودُ القُندغلي، ويؤتَى به من ناحية (كَلَه)[٨] وهو ساحل الزَّنْج، وهو يشبه القَمَاريّ، إلّا أنّه لا طِيبَ لرائحته. وبعدَه العُودُ السَّموليّ، وهو عُودٌ حَسَنُ المَنظَر فيه حُمْرة، وله بقاءٌ في الثياب وعلى النار؛ وقُتارُه غيرُ محمود، وهو سريع القُنار. وبعد السَّموليّ العُود الرانجيّ[٩]، وهو عُودٌ يُشْبِه

---

(١) في صبح الأعشى ٢/ ١٣٦: «القسور».

(٢) في صبح الأعشى: «المانطائي» وهو ما يجلب من جزيرة مانطاء.

(٣) السّفوفات: ما يسفّ من دواء أو نحوه، وسفّ الدواء: تناوله يابسًا غير ملتوت.

(٤) اللّوقيني: وهو ما يجلب من لوقين، وهي طرفٌ من أطراف الهند. صبح الأعشى ٢/ ١٣٦.

(٥) الكلهي: نسبة إلى كَلَه، وهي فرضة بالهند وهي منتصف الطريق بين عُمان والصّين، وموقعها من المعمورة في طرف خطّ الإستواء. معجم البلدان ٤/ ٤٧٨.

(٦) المثلّثات: يريد بالمثلّثات أنواعًا من النّد، والمثلّث: أوّل أنواع النّدّ، وهو أجودها وأعطرها.

(٧) البرمكيّات: يريد أنواعًا من الطّيب كان يعملها آل برمك ونسبت إليهم.

(٨) في معجم البلدان: كلوة، وهي موضع بأرض الزنج، مدينة، أمّا كَلَه فهي فرضة في بلاد الهند. انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٧٨.

(٩) الرّانجي: نسبة إلى الرّانج وهي جزائر في بحر الهند، مشهورة في ألسن التجّار والمسافرين. انظر: تقديم البلدان ص ٣٦٨.

قرونَ الثور، لا ذَكاء[١] له ولا بقاء؛ وهو ساقط القيمة، وهو أردأ أنواعه وأدناها. وبعده صنفٌ يقال له: المحرَّم، سُمِّيَ بذلك لأنه كان قد وقع إلى البَصْرة، فشكَّ الناسُ فيه، فحرّمه السلطان، فسمِّيَ المحرَّم، وهو من أدنى أصناف العود. وقال محمد بنُ العبّاس المِسكيُّ في كتابه: أفضلُ العُود كلِّه وأجوَدُه المَنْدَليّ، وبعده العُود السَّمَنْدُوريّ، وأجْوَدُ السَّمَنْدُوريِّ الأزرق، الكثير الماء الرزين، الصُّلب، الغليظ، الذي لا بياض فيه، الباقي على النار، الكثيرُ الغَلَيان، وقوم يفضِّلون الأسوَدَ منه، وآخَرون يفضِّلون الأزرق؛ ويكون في القطعة الضخمة منه مَنّ. ثمّ العُود القَماريّ، وأجوَدُ القَماريِّ الأسوَد، النقيُّ من البياض، الرَّزين الباقي على النار، قال: وربّما كان فيه شُهْبَةٌ[٢] يسيرة؛ وبعد القَماريِّ الصَّنْفيّ الغليظُ الكثيرُ الماء، وقد يوازِي القَماريّ في بعض الحالات، وربّما فُضِّل عليه، وهما عُودان يتقاربان في الصّفة، وتكون القِطعة من الصَّنْفيِّ رطلين وأقلّ. وبعد الصَّنفيِّ القاقُلّيّ، وهو عُودٌ أسوَد، فيه بعضُ شُهْبة، أشبه شيءٍ بالعُود القَماريِّ في مَنْظَره؛ وهو عُودٌ حلو، طيّب الرائحة. وبعد القاقُلّيِّ العُودُ الريركي وهو عُودٌ صُلْب، خفيف، قليلُ الصّبر على النار، حَسَنُ المَنْظَر واللّون، ويشبه القاقُلّيّ، ويؤتَى به من بلاد سُفالة الهند. وبعده العُود العطكيّ، يؤتَى به من الصِّين وهو عُودٌ رَطْبٌ حلو طيّب، دون الصَّنْفيّ، وفوق القاقُلّيّ[٣]. ثم صِنْفٌ من العُود يسمَّى: القُشور، وهو عُودٌ طيّبُ الرائحة، رَطْب، أزرق، عَذْب، رائحتُه مِثل رائحة القطعيّ، وهو دونه في القِيمة، وبعده المانطائيّ، وهو جنس من العُود الصِّينيّ، وهو قِطَع كِبارٌ مُلْسٌ لا عُقَد فيها، وليست رائحته طيّبة، وهو يَصْلُح للأدوية والجُوارِشنات. قال: وكذلك الجُلّابي، واللّواقي، والبربطائيّ[٤]، والبُوطاجيّ؛ هذه الأصنافُ لا خير فيها، ولا طِيب لروائحها؛ وهذه الأجناس يسمّونها: الأشباه. قال: وأمّا العُود المسمَّى: الإفليق، فإنه يُجْلَب من أرض الصِّين، ويكون في العِظَم مثلَ الخشب الرِّيحيّ[٥] الغليظ، يباع المَنّ منه بدينار وأقلّ وأكثر، والعُودُ من قشوره؛ وأمّا داخِلُه وقَلْبُه فخشبٌ أبيَضُ خفيف مِثل الخِلاف[٦]؛ وإذا وُضِع على الجَمْر وُجِد له في أوّله رائحةٌ حلوةٌ طيّبة، فإذا أخَذت النار منه ظهرتْ له رائحةٌ جُزازِيّةٌ[٧] رديئةٌ كرائحة

---

(١) الذّكاء: الرائحة الطيّبة. (٢) الشّهبة: ما كان في بياضه سواد.

(٣) نلاحظ أن جعله هذا الصّنف فوق القاقلّي منافٍ لما يستفاد من سياق الترتيب الذي جعل هذا الصنف بعد الرّيركي الذي هو بعد القاقلّي.

(٤) لعلّه يريد الرّيطائي المنسوب إلى جزيرة ريطاء، وقد تقدّم ذكره كذلك.

(٥) في صبح الأعشى ٢/١٣٧: الرّانجي، وقد تقدّم ذكره كذلك وهو الصّواب.

(٦) الخلاف: شجر الصفصاف.

(٧) جزازية: نسبة إلى الجُزاز، وهي ما جُزَّ من شعر أو صوف ويؤيّد ذلك قوله: كرائحة الشعر.

الشَّعر. هذا ما أمكَنَ إيرادُه من أصناف العُود وأجناسِه ومعادنِه[١]، وهو معنى ما أَوردَه التَّميميُّ في (جَيْبِ العَرُوس).

ذِكْرُ تطرية العُود الأبيضِ وإظهارِ دَهانتِه وإكسابِه[٢] سوادًا

قال التَّميميُّ فيما نقله عن أبي بكر بنِ محمد بنِ أحمدَ المُرَنْدِج[٣] المعروف بابن البوَّاب: يؤخذ من العود ما كان أبيضَ الظاهر، إلّا أنّ فيه رزانةً تدلّ على دَهانة كامنةٍ فيه فيُبرَى[٤] بَرْيةً يسيرة، ويُعمَد إلى قعرِ قِدرِ بِرام[٥] يثقّب حتّى يصير كهيئة المُنْخُل، ويُعمَد إلى قِدْرٍ من نحاس أو غير نحاس يكون رأسُها بمقدار قعر القِدر المبخَّش[٦]، بحيث إنها متى انطبقت عليها لا يَخرج من البخار شيء، ويُصَبّ في القِدر ماء، ويُجْعَل ذلك المثقَّب على فمِ القِدر، ويطيَّن، ويُجْعَل العُود فيها، وتُغطَّى بغِطاءٍ مُحْكَم، ويوقَد تحت القِدر السُّفْلَى وقيدًا جيدًا حتى يصعَد بُخار الماء إلى العُود من تلك الأبخاش[٧] ويفتقده بعد مضيّ ساعة، ثم يكشفه ويقلّبه تقليبًا جيّدًا، ثم يغطّيه، ويتعاهده ساعةً بعد ساعة إلى أن يظهر له أنّ دُهنَ العُود قد ظهر، ويمتحن[٨] ذلك بأن يمسح القطعة منه في خِرقة، فإذا أثّرت الدَّهانةُ فيها فليُخرَجْ ويُنْشَرْ في طَسْت[٩] حتى يبرُد ويرفعه.

الباب الرابع
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
في الصَّنْدَل[١٠] وأصنافه ومعادنه

والصَّنْدَل أصناف: أفضلُها الأصفر الدَّسِم، الرزينُ العُود، الذي كأنّه قد مُسِح

---

(١) معادنه: يريد مواطنه وأصوله.
(٢) في الأصل: واكتسابه، إلّا أن عطفه على التطرية والإطهار اقتضى ما أثبتناه.
(٣) لعلّه كان يبيع اليرندح أو يصنعه فلقّب بذلك، واليرندج والأرندج جلد أسود تعمل منه الخفاف، ولم نقف على ترجمة أبي بكر في كتب التراجم الكثيرة التي بين أيدينا.
(٤) يبرى: ينحت.
(٥) قدر برام: أي قدر من جنس البرام بكسر الباء، والمراد به هنا: الفخّار، وهو استعمال عاميّ.
(٦) المبخّش: المثقّب. (٧) الأبخاش: جمع «بخش».
(٨) يمتحن: يختبر. (٩) الطست: إناء من نحاس، يؤنّث ويذكّر.
(١٠) الصّندل: شجرٌ هندي أبيض الزّهر خشبه طيّب الرائحة يؤتى به من سفالة الهند.

بالزّعفران[١]، الذكيّ الرائحة، ويسمَّى المَقاصِيريّ، واختُلف في سبب تسميتِه بهذا الاسم ونسبتِه إليه، فقال قوم: هي نسبةٌ إلى بلد تسمى (مَقاصير). وقال قوم: إنّ بعض الخلفاء من بني العبّاس أمَر بأن تُصنَع منه مَقاصيرُ[٢] لأمّهات أولادِه وخواصّ سَراريّه[٣]، فسمِّي بذلك؛ والأوّل أصحّ. وقيل: إنّه يُجْلَب من بلدَين من أطراف الهند، إحداهما مَقاصِير، والأخرى تسمَّى الجُور[٤]؛ فما جُلِب من مَقاصيرَ فهو المَقاصِيريّ، وما جُلِب من الجُور فهو الجُورِيّ. قالوا: وهو شجرٌ عظام؛ وإنّه يُقطَع وهو رَطْب، ويُقشَر؛ وله من فوق قلبه الأصفر خشبٌ ليس بالذَّكيّ الرِّيح إلّا أنّه صَنْدَلٌ يَضرِب[٥] إلى البياض، وهو الصَّنْدَل الأبيض؛ وفي روائحه ضَعْفٌ عن رائحة القلب الدَّسِم. وأجْوَدُه ما اصفرّ وذكت رائحتُه ولم يكن فيه زَعارّة[٦]. ويلي الصندلَ الأصفرَ الصندلُ الأبيض، الطيّبُ الرِّيح، الّذي هو من جنس المَقاصِيريّ، لا يخالفه إلّا بالبياض؛ وبعده الصَّندلُ الأبيض الّذي يَضرِب لونُه إلى السُّمْرة، وهو الجُوريُّ السَّبط[٧]، الصُّلْبُ العُود، الّذي يُجْلَب من الجُور، وهو صَنْدَلٌ صُلْبٌ سَبْط، ضعيفُ الرائحة، وله رائحةٌ طيّبة، إلّا أنّها دون رائحةِ ما قَبْلَه. ويلي الجُوريَّ صِنفان: أحدهما أصفرُ فيه زَعارَّةٌ وطِيب؛ والآخَرُ يضرِب في لونه إلى الحُمرة، وفيه أيضًا زَعارّةُ رِيح وحِدّة، وما لونه منهما إلى الصّفرة فإنّه يسمَّى «الساوس»[٨]، وقيل: «الكاوس»، وقد تُفْتَق[٩] بهما الذّرائر[١٠]، ويَدخلان في المثلّثات[١١] والبَخُورات. وبعدهما صَندلٌ

(١) الزعفران: نبات له أصلٌ كالبصل، زهره أحمر إلى الصفرة.
(٢) المقاصير: مفردها مقصورة، وهي الدّار الواسعة المحصّنة التي لا يدخلها إلّا صاحبها.
(٣) السّراري: مفردها «سُرِّيّة» وهي المرأة المملوكة التي يتخذها الرجل للذّته الجسدية بطريقة غير شرعيّة.
(٤) الجور: مدينة بفارس، نزهة طيّبة، والعجم تسميها كور، وكور اسم القبر بالفارسية، وإليها ينسب الورد الجوري، وهو أجود أصناف الورد. معجم البلدان ٢/ ١٨١.
(٥) يضرب إلى البياض: أي يميل.
(٦) الزّعارة: الحدّة.
(٧) السّبط: السهل المسترسل.
(٨) السّاوس: ويقال له الكاوس، وهو صندل أصفر طيّب الرائحة. انظر: صبح الأعشى ٢/ ١٣٨.
(٩) تفتق: بتخفيف التاء وتشديدها، أي: تستخرج رائحة الذرائر بهما، يقال: فتقت الطيب بغيره، أي: إذا أدخلت غيره عليه لاستخراج رائحته.
(١٠) الذرائر: مفردها ذريرة، وهي نوعٌ من الطّيب.
(١١) المثلّثات: يريد أنواعًا من النّدّ المثلث، والنّد: هو العنبر والمثلّث، وهو النوع الأوّل من النّدّ، وهو أجود الأنواع وأعطرها. «راجع كيفية صنعه تحت عنوان «كيفية عمل النّدّ» من الكتاب».

جَعْدُ الشَّعرة، لا سَباطةَ له، إذا شُقِّق كان جَعْدًا كتجعيد خشب الزيتون، وهو أذكى أصناف الصَّندل، ولا يُستعمَل في شيءٍ سوى البَخُورات والمثلَّثات، وبعده الصَّنْدَل الأحمرُ الشديدُ الحُمرة، ويُستعمَل لتبريد الأورام الحارّة، وهو حَسَنُ اللّون، ثقيلُ الوزن، لا رائحةَ له ولا خاصّيّةَ غيرَ تحليل الأورام الحارّة، وتُتّخذ منه المَنْجُورات والمخرُوطات، كالدُّوِيّ[١]، والعَتائد[٢] وأدواتِ الشِّطْرِنْج[٣] ومَهارِك[٤] النَّرْد وأشباهِ ذلك؛ ويُتّخَذ ذلك من الأبيض فيما يَحتاج إلى لونين. والصندل الأحمرُ أيضًا يُحَكّ على الحجارة الخشنة بالماء، ويُطلَى به على الأورام الحارّة كما ذكرنا، وعلى الماشِرَا[٥]، وعلى كلِّ موضع من الجسد تَظهر فيه حُمْرةٌ دمويّة، وعلى النِّقْرِس[٦] الحادِّ المتولِّد من فساد الدم في بدء العِلّة، ليقوِّيَ العضو ويَمنَع من انصباب المادّة إليه. قال التَّميميّ: وبعد الصّندل الأحمر صِنفٌ يُعْرَف بالنّجاريّ[٧]، وهو خشبٌ صُلْبٌ لا رائحةَ له، ولا يدخل في شيء من الطِّيب، وإنّما تُتّخَذ منه المَنْجُورات والمخروطات التي ذكرناها، وذلك لصلابتِهِ ورزانتِهِ. قال: وجميعُ أنواع الصَّنْدَل الّتي ذكرناها يؤتَى بها من سُفالة الهند.

فالأصفرُ الطيّبُ الرائحةِ المَقاصِيريّ يَدخل في طِيب النساءِ الرَّطْبِ واليابس وفي البَرْمَكِيّات والمثلّثات والذَّرائر؛ وتُتّخَذ منه قلائد؛ ويدخل في الأدوية وفي ضِمادات الكَبِد والمَعِدة، وهو بارد منشِّف محلِّلٌ للأورام.

---

(١) الدُّويّ: مفردها دواة، وهي المحبرة.

(٢) العتائد: جمع عتيدة وهي الجقة يجعل فيها طيب الرجل والعروس وأدهانهما.

(٣) الشطرنج: لعبة من أصل فارسي أو صينيّ تُلعب على رقعة مؤلّفة من ٦٤ مربّعًا ولها ٣٢ قطعة.

(٤) المهارك: القطع المدوّرة التي يلعب بها النّرد، وينقلها المتلاعبان من مكان إلى مكان، والمهارك ثلاثين قطعة بعدد أيّام الشهر، والنّرد: طاولة الزّهر، وهو من حكم العرس، وضعه أردشير بن بابك. انظر: صبح الأعشى ١٥٨/٢.

(٥) الماشرا: لفظ سرياني معناه الورم الحادث من دم وصفراء مجموعين في أيّ موضع كان من الجسد، لكنّه خصّ في عرف الطبّ بورم الوجه، وما يكون حادثًا عن الدّم والصفراء.

(٦) النّقرس: وجع في مفاصل مقدّم القدم، لا سيّما الإبهام، ويسمّى داء الملوك، ويكون مصحوبًا بتنبّه القناة الهضمية.

(٧) النّجاري: نسبة إلى النّجارة، أو إلى النّجّار الذي يصنع من الأخشاب الأبواب والأثاث والأدوات المنزلية.

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفنّ الرابع

في السُّنْبُل(١) الهِنْدِيِّ وأصنافِه والقَرَنْفُلِ(٢) وجوهرِه

فأمّا السُّنبُل الهنديّ ـ فقد قال أحمد بن أبي يعقوب: السنبل أصناف، وأجْوَدُه العصافير الحُمرُ الألوان، المُسلَّل، والمُسلَّل هو الذي قد نُقِّيَ من زَغَبه ومُسِح منه، وبقيَ عصافيرَ مجرَّدة، وإذا أمسكه الإنسانُ بكَفِّه ساعةً ثم اشتمّه كانت رائحتُه كرائحة التّفّاح أو نحوَها؛ ثم الذي يليه، وهو نوع من العصافير أصفرُ كثيرُ البياض والشَّمَط(٣)، طيّبُ الرائحة، قريبٌ من الأوّل، ثم أدناه، وهو دِقاقٌ من السُّنبُل وجِلال(٤)، ليس ممّا يدخل في جيّد العِطْر.

وأمّا أصلُه ـ فهو حشيشة تَنْبُت بأرض الهند، وببلد التُّبَّت(٥) أيضًا. وقيل: إنّها تَنْبُت في أوديةٍ بالهند كما يَنبُت الزّرع، ثم تَجِفّ فيأتي قوم فيَحْصِدُونه ويجمعونه. وقيل: إنّ الأوديةَ التي يَنْبُت فيها هذا السُّنْبُل كثيرةُ الأفاعي وليس يأتيها أحد إلّا وفي رِجله خُفٌّ طويل غليظ مُنَعَّل بالخشب أو الحديد. قالوا: وتلك الأفاعي ذواتُ قرون فيها السّمّ القاتل الذي يقال له: (البِيش)(٦)؛ فيقال: إنّه من قرون الأفاعي. وقال قوم من أهل العلم: إنّه نبات يَنبُت بتلك الأودية؛ وهو ضربان: ضرب خَلَنْجِيّ، يَضرِب في لونه إلى الصُّفْرة، وهو أفضله؛ وضَرْبٌ أخَرُ يَضرب إلى السواد، وهم يعرفونه فيَتوقَّوْنه، وربّما جَهِله بعضُهم فمات عند مَسِّه، سيّما(٧) إن كانت يدُه قد عَرِقتْ، أو هي رَطْبة. وقد كان بعضُ الخلفاء يأمر بأن يُوَكّل بالمراكب التي تأتي من بلد الهند

(١) السنبل: نبات ينبت بأرض الهند، وتستعمل جذوره العطرية في الطبّ، ويقال: إنه يستخرج منه مرهم مخضرّ، وهو أنواع ثلاثة، أشهرها: السنبل الهندي، والسنبل الخزام، وهو من الأبصال ويحمل نورة عطرية سبليّة وحيدة تكتظّ بالأزهار في الربيع.

(٢) القرنفل: ثمر شجرة كالياسمين، وهو أفضل الأفاويه الحارّة وأذكاها.

(٣) الشَّمَط: اختلاط بياض الشّعر بسواده.

(٤) الجِلال: يريد الضخم من السّنبل.

(٥) التبّت: مملكة متاخمة لمملكة الصّين، تقدّم ذكرها. انظر: معجم البلدان ٢/ ١٠.

(٦) البيش: نبات مشهور هندي وصينيّ يكون بكابل وهلاهل وأطراف السّند يطول إلى ذراع، عريض الأوراق، سبط له بزر كالشبث وزهر أسمانجوني، يدرك بآب، منه ملتوٍ كالإكليل يسمّى قرون السنبل لوجوده معه، ومنه صنوبري الشكل صغير إلى الصفرة، يحكّ بنفسجيًا، ومنه ما يشبه القسط، شديد السّواد. تذكره داود ١/ ١٢٦.

(٧) سيّما: أي لا سيّما، حذف «لا» للعلم بها وهي مرادة، لكنّ هذا الحذف قليل. التاج، مادة سوا.

إلى الأُبُلّة[١] وغيرها من الفُرَض[٢] من يَكشف السُّنْبُل ويعتبره[٣]، فيُخْرِج منه البِيش، فيؤخذ بكَلْبَتَيْن من حديد وليس يَمسُّه أحدٌ إلّا مات لوقته، فكان يُجمع ذلك في وِعاء ويُلقَى في البحر.

وأمّا القَرَنْفُل[٤] وجوهرُه ـ فقال أحمد بن أبي يعقوب: القَرَنْفُل كلُّه جنس واحد، وأفضلُه وأجوَدُه الزَّهْر، القويُّ اليابسُ الجافُّ الذّكيّ، الحِرِّيف[٥] الطَّعم الحلوُ الرائحة، ومنه الزَّهر، ومنه الثمر؛ والزَّهر منه ما هو صَغُر وكان مشاكِلًا لعِيدان فروع الخَرْبَق[٦] الأسودِ في المَنْظَر. والثمر منه ما غَلُظَ وشاكَلَ[٧] نوى التَّمر، أو عجم الزّيتون[٨]. وقيل: هو ثمرُ شجرٍ عِظامٍ يُشبِه شجرَ السِّدْر[٩]، وقال آخرون: يشبه شجرَ الأُتْرُجّ[١٠]. وقال آخرون: هو ثمرُ شجرٍ ورقُه السّاذَج الهنديّ[١١]، واستدلّوا على ذلك بما في طَعم الساذجِ من القَرَنْفُليّة. قال: ويُجْلَب من بلاد سُفالة الهند وأقاصيها؛ وله بالمواضع التي هو بها روائحُ ذكيّة ساطعةُ الطِّيب جدًّا، حتى إنّهم يسمُّون أماكن القَرَنْفُل: «رِيحَ الجنّة»، لذكاء رائحته. وهو حارٌّ يابس، لطيف غوّاص، مقوٍّ للقلب، نافعٌ لبعض الأكباد التي فيها عفونة، قاطعٌ للغَثَيان المولَّد من الرّطوبة والقَيْء الكائنِ من التُّخمَة والهَيْضة[١٢]؛ وإذا دُقَّ مع التّفاح الشاميّ واعتُصِر ماؤه مع

(١) الأُبلّة: بلدة على شاطىء دجلة قرب البصرة. معجم البلدان ١/٧٧.
(٢) الفرض: مفردها فرضة، محطّ السّفن من البحر «الميناء».
(٣) يعتبره: يتفحّصه.
(٤) القُرنفل: ثمر شجر كالياسمين، وهو أفضل الأفاويه الحارّة وأذكاها، وهو ثمرٌ وزهر، والزّهر يكون أحمر أو أبيض أو غير ذلك، طيّب الرّائحة.
(٥) الحرّيف: الحارّ الذي يلسع عند المذاق.
(٦) الخربق: نبات ورقه كلسان الحمل، ومنه أبيض وأسود.
(٧) شاكل: شابه. (٨) عجم الزيتون: بزرُه الخشبي.
(٩) السّدر: شجر النّبق، واحدتها سِدرة، والسّدر: من العضاة، وهو لونان: فمنه عُبريّ ومنه ضال، فأمّا العُبريّ فما لا شوك فيه إلّا ما لا يضير، وأمّا الضال: فهو ذو شوك، وللسّدر ورقة عريضة مدوّرة. انظر: اللسان، مادة سدر.
(١٠) الأترج: شجر وثمر من جنس اللّيمون تسمّيه العامة الكبّاد، واحدته «أترجة».
(١١) الساذج الهندي: نبت يقوم على خيوط شعريّة تطول قدر الماء، وموضعه مناقع بالهند، إذا جفّت أشعلت بالنار فينبت من قابل حتى يفرس ورقه على الماء، وهي سبطة لا خطوط فيها دون سائر الأوراق، ولذا يسمّى ساذجًا، وأجوده القويّ الرائحة الضارب إلى السّواد.
(١٢) الهيضة: حركة من المواد الفاسدة غير المنهضمة إلى الانفصال من طريق المعيّ راجعات إليه من البدن على حدة فيحدث إسهال وقيء معًا، وقيل: هي أن يصيب الإنسان مغص وكرب يحدث بعدهما قيء وإسهال.

شيءٍ من قلوب النَّعناع وأعطِيَ الوَصِبَ[١] نَفَعَه؛ وقَطَع عنه الغَثَيان والقَيْء؛ وهو يطيِّب النَّكهَة؛ والذَّكَر منه ـ وهو الزَّهْر ـ أقوى من فعل الأنثى. قال: وقد يُصعَّد منه ماء يفوق في الطِّيب ماءَ الورد، ويَدخل في كثير من مُكَلَّسات[٢] الطِّيب والذَّرائر، وفي كثير من المَعاجين الكبار والأدوية، وفي عامّة طِيب النساء، وفي اللَّخالِخ[٣] والمخمَّرات[٤] كلِّها. وقال محمد بن العبّاس المِسْكيّ: رأيت قومًا ببغداد يدورون على الصَّيارفة يشترون منهم الدنانير المَرْوانيّة التي أَمَر بضربِها عبد الملك بنِ مروان، وعلى سِكّتِها[٥]: «الله أحد»؛ فسألتُهم عن ذلك، فذَكروا أنّها تُحْمَل في البحر في أكياسٍ قد كُتِبَ على كلّ كِيسٍ منها اسمُ صاحبه وَوَزْنُه، فإذا صاروا بالقرب من جزيرة عظيمة بناحية سُفالة الهند وَضعوا الأناجِر[٦]، وشَدُّوا المَراكب ناحية، ورَكِبوا قَوارِبَ ومعهم تلك الأكياسُ وأَنْطاع[٧] قد كُتِب على كلِّ نِطْعٍ منها اسمُ صاحبِه أيضًا؛ فيَخرجون إلى موضع من تلك الجَزيرة، فيَبسط كلٌّ واحدٍ منهم نِطْعَه، ويَحمل كيسَه فوق النِّطْع مغطًّى ببعض النِّطْع، حتى إذا فعَل ذلك جماعتُهم، وعادوا إلى القَوارب، ورجعوا إلى المراكب آخِر النهار، باتوا ليلتَهم تلك في مَراكبهم، ثمّ غَدَوْا في القوارب إلى الجزيرة، فيجدون فوق كلِّ نِطْع من أنطاعهم من القَرَنْفُل بحَسَبِ ما لَه من المال، ولا يجدون الأكياس؛ فإن رضيَ القومُ بما وَجدوا من القَرَنْفُل على أنطاعهم أخَذُوه، ومن لم يَرْضَ منهم تَرَكَه وعاد إلى مركَبه، ثم يعود في اليوم الثاني فيجد كِيسَه بحاله،

---

(١) الوَصَب: المريض المتألّم.

(٢) المكلّسات: من التكليس، وهو إذابة الأجسام حتى تصير كالكلس، والكلس: الصاروج أي النورة وأخلاطها، وفي مفاتيح العلوم ص ٢٦٥: التكليس: أن يجعل جسد في كيزان مطيّنة، ويجعل في النّار حتى يصير مثل الدّقيق.

(٣) اللخالخ: مفردها لخلخة: وهي ضروبٌ من الطّيب، وطريقة صنعها: أن يؤخذ من القرنفل نصف رطل، ومن العود والسّنبل من كلّ واحد ثلاث أواقي، ويسحق الجميع، ويعجن بدهن السّوسن ويعمل في جام ويبخّر بعود جيّد يومًا وليلة، ويبرّد، ويضاف إليه صندل نصف أوقيّة، ومسك وعنبر من كلّ واحد مثقال، ويخلط الجميع جيّدًا، ويحفظ في إناء زجاج مسدود الرأس لوقت الحاجة.

(٤) المخمّرات: ما خمّر في الآنية، من الأشربة وغيرها.

(٥) السّكّة: يريد النقود المضروبة والمكتوب عليها.

(٦) الأناجر: مراسي السفن، واحده أنجر معرّب «النكر» بالفارسيّة، وهو خشبات يخالف بينها وبين رؤوسها وتشدّ أوساطها في موضع واحد، ثم يفرغ بينها الرّصاص المذاب فتصير كصخرة، ورؤوس الخشب ناتئة تشدّ بها الحبال، وترسل في الماء إذا رست السفينة فأقامت.

(٧) الأنطاع: مفردها نطع، وهو بساطٌ من جلد يفرش لتلك الغاية وغيرها.

ولا يَرى للقَرَنْفُل أثرًا، ولا تقع عينُ أحد من التجّار على أحد ممّن هو في تلك الجزيرة، ولا يقفون على موضع القَرَنْفُل ولا على شجرِه. وهذه الحكاية شبيهةٌ بما ذكرناه في أمر العُود. قال التَّمِيميّ: وقد كان وقع إليّ ذِكرُ هذا بعينه، وزعَم الذي أخبرني: أنّهم قديمًا كانوا يَجِدُون أكياسَهم مع القَرَنْفُل على الأنطاع بحالها، فكان الرجلُ إن اختار القَرَنْفُل حَمَلَه وتَرَكَ الكيس، وإن اختار المالَ أخذَه وتركَ القَرَنْفُل، إلى أن غَدَر التُّجار بهم في بعض السنين، فحملوا المال والقَرَنْفُل، وانقطَعَ جَلْب القَرَنْفُل سنينَ كثيرة، وغلا حتّى لم يُقْدَر عليه، ثمّ عادوا ولزموا العدلَ مع أهل الجزيرة، فصاروا عند ذلك لا يجدون فوق الأنطاع غيرَ القَرَنْفُل فإن رضُوا به حملوه، وإن سَخِطُوا تركوه ليلتهم، ثم عادوا في اليوم الثاني فوجدوا أموالهم، وهذه الحكاية نحو ما قدمناه في العُود.

الباب السادس
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
في القُسْط[(١)] وأصنافِه

ويقال فيه: الكُسْت بالكاف والتاء، بدل القاف والطاء؛ وقد تكرّرت الأحاديثُ الصحيحةُ النبويّة ـ على قائلها أفضل الصّلاة والسّلام ـ بمنافعه وما فيه من الأشفية؛ فمنها ما رواه البخاريّ[(٢)] بسنده عن أُمّ قيسٍ[(٣)] بنتِ مُحْصَنٍ أختِ عكاشة ـ وكانت من المهاجرات الأُوَل اللّاتي بايَعْنَ رسولَ الله ﷺ ـ أنّها قالت: أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ بابن لي قد عَلَّقتُ عليه[(٤)] من العُذْرة[(٥)]، فقال النبيّ ﷺ: «اتّقوا الله، على

(١) القسط: عودٌ هنديّ يُتداوى به ويُتبخّر، قال أبو عمرو: يقال لهذا البخّور قسط وكُسط وكُشط، وهو ضربٌ من الطّيب، طيّب الرّيح تتبخّر به النّفساء والأطفال. اللسان، مادة قسط.

(٢) البخاري: هو محمد بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله، حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري، مات سنة ٢٥٦ هـ. الأعلام ٦/ ٣٤.

(٣) هي أمّ قيس بنت محصن الأسديّة، من المهاجرات، عُمّرت. انظر: الكاشف ٣/ ٤٤٣.

(٤) علّقت عليه: أي جعلت عليه علقًا كالعوذة.

(٥) العذرة: وجع الحلق من الدم، وهو قريب من اللّهاة، وقيل: العذرة قرحة تخرج في الخرم الذي بين الحلق والأنف، تعرض للصبيان عند طلوع العذرة، «كواكب تطلع في الحرّ» فتعمد المرأة إلى خرقة فتفتلها فتلًا شديدًا وتدخلها في أنفه، فتطعن ذلك الموضع فينفجر منه دمٌ أسود ربّما أقرحه، وذلك الطعن يسمّى «الدّغر».

ما تَدْغَرُون[١] أولادكم بهذه الأعلاق[٢]، عليكم بهذا العُود الهنديِّ فإنّ فيه سبعةَ أشفِيَة، منها ذاتُ الجَنْب»، يريد الكُسْت، يعني القُسْط.

وللقُسْط أصنافٌ ذكرَها محمدُ بنُ أحمدَ التَّمِيميُّ في جَيْب العَروس، فقال: منه ما يُجْلَب من بلاد الحبشة، ومنه البحريُّ الذي يسمَّى الجلود؛ وأجْوَدُه الأبيض الرقيقُ القشرة الّذي هو كأمثال الأصابع وأكبر، والمشقَّق اليابس. ويقال: إنّهم يأكلونه في بلادهم رَطْبًا. وقال محمد بن العبّاس المِسْكيّ: أخْبَرَني بعضُ البحريِّين أنّه يكون في جبال الماهات[٣]، ينبُت في شقوق الصُّخور وأعالي الجبال؛ ويقال له الكي[٤] ويؤكل، غيرَ أنّه رديء الجوهر، إذا جَفّ لا تكون له صلابة، ويشبه أصلُه أصلَ الكَرَفس[٥] الجبليّ، وكذلك ورقُه يشبه ورقَ الكَرَفْس الجبليِّ أيضًا. قال المِسْكيّ: فلمّا صرتُ إلى الجبل جَرّبتُ ذلك فوجدتُه كما قال، ورأيتُه كثيرًا في جبال أبْهَر[٦] وزَنْجان[٧]. قال التَّمِيميّ: ومن القُسْط الحلو أيضًا صِنْفٌ آخَرُ غليظ الرائحة يسمَّى القَرَنْفُل، ليس بطائل[٨]، ويدخل في الدُّخَن[٩].

وأمّا القُسْط المرّ ـ وهو الهنديّ ـ فيُجلَب من أرض الهند، وأجْوَدُه ما ابيضّ ورَزُن؛ ومن الهنديِّ صِنفٌ يَضرب إلى السواد لا خير فيه. قال: ومن المرّ نوع يسمَّى القَرَنْفُليّ، ليس بطائل، وهذا النوع من القُسْط والذي يَضرِب إلى السواد أدناه وأسقَطهُ ثَمنًا وقيمةً. والقُسْط المرّ الأبيضُ يدخل في كثير من الأدوية والمَعاجين الكبار؛ ومنه

---

(١) تدغرون: أي تغمرون بأصابعكم أو بغيرها حلوق أولادكم.

(٢) الأعلاق: جاء في اللسان: الإعلاق: أي رفع اللّهاة. والإعلاق: معالجة عذرة الصبي، وأعلق: غمز وكذلك دغر. انظر: اللسان، مادة علق.

(٣) الماهات: اسم مدينة «ماهان» والعرب تسمّيها بالجمع فتقول: الماهات، وهي مدينة بكرمان بينها وبين السِّيرجان مدينة كرمان مرحلتان، وبينها وبين خبيص خمس مراحل. انظر: معجم البلدان ٥/ ٤٨.

(٤) الكيّ: لعلّه سمّي ذلك لأنه يلسع.

(٥) الكرفس: بقلة غذائية كالبقدونس تؤكل جذورها.

(٦) أبهر: مدينة بين قزوين وزنجان من نواحي الجبل، ومنها إلى قزوين اثنا عشر فرسخًا، ومنها إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا. انظر: تقويم البلدان ص ٤١٩.

(٧) زنجان: بلد مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجم يقولون: «زنكان». انظر: معجم البلدان ٣/ ١٥٢.

(٨) ليس بطائل: أي ليس بذي فائدة كبيرة.

(٩) الدُّخَن: جمع دُخنة، وهي بخور تدخّن به الثياب والبيوت.

يُعْمَل دُهنَ القُسْط، ويُشْرَب فيُنتفَع به من أوجاع الجنبين والخَواصر ويُدِرّ البول ويفتِّح سُدُدَ الكَبِد؛ وهو حارٌّ يابس قويُّ الحرارة واليُبْس.

الباب السابع
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
في عمل الغَوالِي[١] والنُّدُود

أمّا عَمَلُ الغَوالي ـ فقد قال الزَّهْراويُّ[٢] في كتابه: والغالية ينقسم عملُها إلى ثلاثةِ أقسام: الأوّل في الوقتِ الذي تُعْمَل فيه، والثاني: الآلةُ التي تصلُح أن تُعْمَل فيها، والثالث: كيفيّةُ عملِها.

فأمّا الوقت الذي يَصْلُح أن تُعْمَل فيه ـ فوجهُ السَّحَر قبل طلوع الشمس، لاعتدال الهواءِ فيه، وإن وافق أن يكون فصل الربيع فهو أفضل ويُتوقَّى أن يكون حالةَ وقتِ هبوب الرِّيح، بل في وقت سكونِه.

وأمّا الآلاتُ التي تَصلُح لعملها وسَحْقِ أجزائها فيها ـ فأفْضَلُ ما سُحِق المِسْك في هاوُنِ[٣] ذهب خالص، أو صَلايةِ[٤] زُجاج، بِفِهْرِ[٥] زُجاج، وأن يذابَ العنبر في مَحارةٍ[٦] من حجر، أو في مُدْهُنٍ من حجرٍ أسوَد، أو زُجاج؛ أو في مُدْهُنِ ذهب، أو فضّةٍ مموَّهةٍ[٧] بالذّهب، ويُرفع في إناء من ذهب أو زُجاج.

وأمّا كيفيّةُ عَمَلِها وأخذُ أجزائها ـ فهو أن يأخذ من المِسْك الجيّد أوقيّة فيسحقَه برفق لئلّا يحترق من شدّة السَّحْق، ثم ينخله بمُنْخُلِ شَعرٍ صَفيق[٨] وإن أمكَن نخلُه

---

(١) الغوالي: مفردها «الغالية» وهي أخلاط الطِّيب، والنّدود: مفردها «النّدّ» وهو عودٌ طيّب الرائحة يُتبخّر به.

(٢) الزهراوي: هو خلف بن عباس، كان طبيبًا فاضلًا، خبيرًا بالأدوية المفردة والمركّبة، جيّد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطبّ، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بـ«الزهراوي»، وله من كتب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تامّ في معناه. «عيون الأنباء ٢/ ٥٢».

(٣) الهاوُن: وعاء من نحاس أو غيره، يدقّ فيه الدّواء أو نحوه.

(٤) الصَّلاية: مدقّ الطِّيب، أو كلّ حجر يدقّ عليه عطر أو نحوه.

(٥) الفهر: حجر رقيق تسحق به الأدوية.

(٦) المحارة: الصدفة ونحوها من العظم، أو ما يجتمع فيه الماء.

(٧) مموّهة: مطليّة.

(٨) الصّفيق: الجيّد النسج الكثيف.

من غير سَحْقٍ فهو أجوَد، ثمّ يأخذ من العنبر الطيّب نصفَ أوقية فيذوِّبه في مُدْهُنٍ على ألطف ما يكون من النار، فإذا كاد يذوب قَطَّرَ عليه شيئًا من دُهن البان[١] المطيَّب، ثم يُنزِله بعد أن يذوب، ويعتبره بأنامله، فإن كان فيه رَمْلٌ أخْرَجَه، ثم يلقيه على المِسك في الصَّلاية؛ ويَحذر أن يكون العنبر حارًّا؛ فإنّ حرارتَه تفسد المِسك، ثم يَسحق الجميعَ في الصَّلاية برفق حتى يَمتزجَ العنبرُ بالمسك، ويجرّدهما بصفيحةِ ذهبٍ لطيفة، ولا يجرّدهما بنحاس ولا بحديد فإنّهما يفسدانهما، ثم يَرفع الغاليةَ بالبان على حسب ما يُحِبّ من رقّتها أو ثِخَنِها، وليس للبان حدٌّ يوقَف عنده. وإن أراد أن يَجعل المسك مَثلَ العنبر أو دونه فَعَل؛ هذا ما ذكره الزَّهْراوِيُّ في الغالية. وقد ذكر محمدُ بنُ أحمدَ التَّمِيميّ في كتابه المترجَم بـ(جيب العَرُوس) في باب الغَوالي كثيرًا منها، نذكر من ذلك ما كان يُعْمَل للخلفاء والملوك والأكابر.

فمن ذلك غاليةٌ من غَوالي الخلفاء عن أحمد بنِ أبي يعقوب: يؤخذ من المسك التُّبَّتيّ النادرِ مائةُ مثقال، يُسحَق بعد تنقيته من أكراشِه[٢] وشَعْرِه، ويُنْخَل بعد السَّحق بالحرير الصِّينيِّ الصَّفيق، ويعاد سحقُه ونَخْلُه، ويكرّر[٣] حتى يصير كالغُبار؛ ثم يؤخذ تَوْرٌ[٤] مكِّيٌّ أو زِبْدِيّةٌ[٥] صِينيّ، فيُجعَل في أيِّهما حضر من البان الجيِّد النادر قدرُ الكفاية، ويقطَّع فيه من العنبر الشِّحْرِيِّ الأزرق الدَّسِم خمسون مثقالًا وتُرفَع الزِّبْديّة بما فيها من البان والعنبر على نارِ فحمٍ ليّنةٍ لا دخانَ لها ولا رائحة فتفسده، ويحرَّك بمِلْعقة من ذهب أو فضّة حتى يذوبَ العنبر، ثم يُنزله عن النار، فإذا فتَر طُرِح المِسْك فيه، ويُضرَب باليد ضربًا جيّدًا حتى يصير جزءًا واحدًا، ثم يُرْفَع ذلك في إناءٍ من الذهب أو الفضّة، وليكن ضيّقَ الرأس ليمكن تصميمُه، أو في بَرْنِيّةِ زُجاجٍ نظيفة، ويسدّ رأسها بصِمامةِ حريرٍ صينيٍّ محشوّةٍ بالقطن، لئلّا يتصاعد رِيحُها. قال: فهذه أجوَدُ الغَوالي كلِّها، وإن جعل العنبر نظير المسك فلا بأس. وهذه الغالية المتساوي فيها المِسْكُ والعنبرُ كانت تُعمَل لحُميد الطُّوسيّ[٦]؛ وكانت تُعجِب المأمون جدًّا؛

---

(١) البان: شجرٌ ليّن، ورقه طويل، أبيض الزّهر.

(٢) أكراش: مفردها «كرش» وهو هنا سرّة الحيوان الذي يستخرج منه المسك، انظر ما تقدّم من الحديث عن المسك وأنواعه.

(٣) يكرّر: أي يكرّر ذلك العمل مرارًا.

(٤) التّور: إناء من نحاس أو حجارة كالإجّانة، قيل: هو عربي، وقيل: هو دخيل. انظر: اللّسان، مادة تور.

(٥) الزِّبديّة: صحفة من خزف جمعها «زبادي».

(٦) هو حميد الطوسيّ: هو الأمير حميد بن عبد الحميد الطوسيّ، من كبار قوّاد المأمون، وكان=

وكانت هذه الغالية تُعمَل لأُمّ جعفر[١]، إلّا أنّهم كانوا يُضيفون إلى البان نظيرَ ربعه من دهن الزَّنْبَق[٢] الرُّصافيّ[٣] النَّيْسابُوريّ[٤]، وكانوا يصنعون هذه الغاليةَ لمحمد بنِ سليمان[٥]، إلّا أنّهم كانوا يجعلون مع البان والزَّنْبَق شيئًا من دُهن البَلَسان[٦] الخالص؛ وكانوا أيضًا يصنعون لأُمّ جعفرٍ غاليةً يسمّونها غاليةَ العنبر، وذلك أنّهم يجعلون لكلّ ثلاثةِ أجزاءٍ من المِسك عشرةَ أجزاءٍ من العنبر، وترتيبُ عملِها كما تقدّم.

غالية حَجّاجيّةٌ[٧] تسمَّى الساهريّة[٨]

يؤخذ من المِسك التُّبَّتيِّ عشرةُ مثاقيل، ومن العنبر عشرةُ مثاقيل، ومن العود الهنديِّ المسحوقِ مثقالٌ واحد، ومن الزَّعفران مثقالٌ واحد؛ فيُحَلّ العنبرُ بدُهن البان الكوفيِّ الجيِّد ودُهن الزَّنْبَق النَّيْسابوريّ، فإذا ذاب العنبرُ يُنزَل عن النار ويُتْرَك حتّى

= جبّارًا، وفيه قوّة وبطش وإقدام، وكان المأمون يندبه للمهمّات، وكانت وفاته يوم عيد الفطر سنة ٢١٠ هـ. النجوم الزاهرة ٢/ ١٩٠.

(١) أمّ جعفر: هي زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشميّة، زوجة هارون الرّشيد وبنت عمّه، وهي أم الأمين العباسيّ، اسمها «أمة العزيز»، وغلب عليها لقب زبيدة، توفّيت ببغداد سنة ٢١٦ هـ. الأعلام ٣/ ٤٢.

(٢) الزّنبق: هو الياسمين الأبيض، وأهل العراق يقولون لدهن الياسمين: دهن الزّنبق، والزّنبق: نبات له زهرٌ جميل طيّب الرائحة، طويل، منه ألوان مختلفة أشهرها الأبيض.

(٣) الرّصافي: المنسوب إلى الرّصافة، وهي ضيعة بنيسابور يقال لها: رُصافة نيسابور. انظر: معجم البلدان ٣/ ٤٩.

(٤) النيسابوري: نسبة إلى نيسابور وهي مدينة عظيمة، ذات فضائل جسيمة، سمّيت بذلك لأن سابور مرّ بها وفيها قصب كثير، فقال: يصلح أن يكون هٰهنا مدينة، فقيل لها نيسابور. انظر: معجم البلدان ٥/ ٣٣١.

(٥) هو محمد بن سليمان بن علي العباسي، أبو عبد الله، أمير البصرة، وهو زوج أخت هارون الرّشيد، «العبّاسة بنت المهدي»، وكان غنيًا نبيلًا، سمت نفسه إلى الخلافة، مات سنة ١٧٣ هـ. الأعلام ٦/ ١٤٩.

(٦) البلسان: شجر ينبت جماجم كجماجم الرّيحان، ثم يتعاظم حتى يكون كشجر البطم إذا أحسنت تربيته، والنّصارى تعظّمه، ويدّخر عند البطارقة والرّهبان، وأوّل ما نبت بعين شمس من قرى مصر.

(٧) الحجّاجيّة: لعلّها سمّيت بذلك لأنها صنعت إلى الحجاج بن يوسف الثقفيّ القائد الأمويّ المعروف.

(٨) السّاهريّة: سمّيت هذه الغالية بالسّاهريّة، لأنه يُسهر في عملها وتجويدها.

يَفْتِرُ[١]، ثم يُلقَى المِسكُ المسحوقُ المنخولُ والعُود والزَّعفران عليه ويُضرَب[٢] ضَرْبًا جيّدًا مُحْكمًا، وربما فُتِق[٣] بشيءٍ من الكافور، ويُرفع في ظَرف ويُسَدّ رأسُه كما تَقدّم؛ والله أعلم بالصّواب.

غاليةُ هشام بنِ عبد الملك[٤]، وهي غاليةٌ صفراء

يؤخذ من السُّنْبُل العصافير وزنُ أربعة دراهم، ومن الصَّنْدَل المَقاصِيريّ ثلاثةُ دراهم، ومن العُود الهِنديّ الجيّدِ أوقيّتان؛ وتُدَقّ هذه الأصناف، وتُنْخَلُ بحريرة، وينعَّم سَحْقُها بعد النَّخْل، وتُلْقَى عليها من الزّعفران[٥] القُمّيّ[٦] المطحونَ أوقيّةٌ منخولةٌ بحريرة، ويُخلَط جميعُ ذلك، ثم يؤخذ الزَّبيب الطائفيُّ[٧] والمَرْزَنْجُوش[٨] الرَّطْب والنَّمّام[٩] الرَّطْب، فتُنقَع الثلاثةُ ليلةً في ماء وتُمرَس[١٠] وتُصَفَّى وتُعجَن بها الأخلاط أو تُعجَن بطِلاءٍ عَتيق عَجنًا جيّدًا، وتُلصَق في باطية[١١]، وتُبَخَّر بالنَّدّ ثلاثةَ

---

(١) يفتُر: تذهب حرارته إلّا قليلًا. (٢) أي يضرب ذلك.

(٣) فُتق: أي استخرج ريحه بشيء من الكافور يدخل عليه ويخلط به.

(٤) هو هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، بويع بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥ هـ، توفي سنة ٢٥ هـ. انظر: الأعلام ٨/٨٦.

(٥) الزعفران: نبات له أصل كالبصل، زهره أحمر إلى الصفرة.

(٦) القمّي: نسبة إلى قمّ، وهي مدينة إسلامية مستحدثة ليس للأعاجم أثر فيها، بها آبار ليس في الأرض مثلها عذوبة وبردًا. ويقال: إن الثلج ربّما خرج منها في الصيف، أوّل من مصّرها طلحة بن الأحوص الأشعري. معجم البلدان ٤/ ٣٩٧.

(٧) الطائفي: المنسوب إلى الطائف مدينة على مسيرة يوم للطالع من مكّة ونصف يوم للهابط إلى مكّة، وهي ذات مزارع ونخل وأعناب وموز، بها مياه جارية. قال ابن عبّاس: سمّيت الطائف لأن إبراهيم عليه السلام لما أسكن ذرّيته مكّة وسأل الله أن يرزق أهلها من الثمرات، أمر الله عزّ وجلّ قطعة من الأرض أن تسير بشجرها حتى تستقرّ بمكان الطائف، فأقبلت وطافت بالبيت ثم أقرّها الله بمكان الطائف. انظر: معجم البلدان ٤/ ٩.

(٨) المرزنجوش: يقال له: المردقوش، والمردكوش، ومعناه آذان الفأر، وهو من الرّياحين التي تزرع في البيوت وغيرها طيّب الرائحة. انظر: تذكرة داود ٢/ ١٥٥.

(٩) النمّام: نبت له بزرٌ كالرّيحان، عطريّ قويّ الرائحة، وكأنّه ينمّ بريحه على نفسه، وفي رائحته شيء من رائحة المرزنجوش، ويدبُّ على الأرض، ويضرب فيها عروقًا كثيرة، ومنه برّي ليس يدبّ في نباته، بل هو قائم، وله أغصان دقاق مملوءة ورقًا كورق السذاب، وله زهر حرّيف المذاق، ويكثر هذا النبات في الغابات الجافّة وبطون الأودية والطرق.

(١٠) تُمرس: أي تهرس باليد حتى تتحلّل أجزاؤها.

(١١) الباطية: الجفنة الكبيرة، وقيل: هي من الزّجاج، تملأ من الشراب، وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون.

أيّام، وتُقلَّب كلَّ سبعِ تبخيرات مرّة؛ ثمّ يؤخذ لها من السُّكّ[١] المثلَّث أو المنصَّف خمسة عشر مثقالًا فتُسحَق سحقًا جيّدًا، وتُنخَل بحريرة، ويؤخذ نصفُ السُّكّ وتُعجَن به وهو رَطْب ثم يُقرَّص[٢] ويُترَكُ ثلاثةَ أيّام في الظّلّ، ولا يدنيه من الشمس، فإذا جَفّ يُسحَق في صَلاية، ويُنخَل بحريرة؛ ثمّ يذاب له من العنبر الأزرق أوقيّةٌ ببان[٣] الغالية المرتفِع الجيّد، وتُلقَى عليه بقيّة السُّكّ وتلك الأخلاط، ويُضرَب؛ ثم تُلقَى عليه أوقيّةٌ ونصف من المِسك التُّبَّتيِّ المسحوقِ المنخولِ بالحريرة، ويُضرَب فيه بالأصابع حتّى يختلط، ثمّ يُوعَى[٤]، ويُحكَم سَدُّه كما تَقدّم.

صفةُ غاليةٍ أخرى من كتاب محمدّ بن العبّاس

يؤخذ من العُود الهنديِّ الجيّد المطحونِ المنخولِ عشرةُ دراهم، فيُجعَل في قدح ويُصَبّ عليه ماءُ ورد، ويُسحَق به، ويُسقَى ماءَ الورد ثلاثَ مرّات، ثم يؤخذ من سُكّ المِسْك خمسةَ عشر درهمًا، فتُسحَق، وتُنخَل، وتُلقَى على العُود المحلولِ بماء الورد، ويُسحَقان جميعًا حتّى يجفَّ ماءُ الورد، ويُسقِيَانِه، ويُسحَقان، ثم يُسقَيان ثلاثَ مرّات حتّى يصيرا كالهَباء[٥]، ثم يُحَلّ العنبرُ بدُهن البان، ويُلقَى عليه العُودُ والمِسْكُ بعد أن يُنزَل عن النار، ويحرَّك بعُود، ولا يحرَّك بجريدة[٦] ولا ظُفر، فإذا اختلَطَ رُدَّ إلى الصَّلاية[٧] وسُحِق حتى يصير كالعِلْك، ثم يُذَرُّ عليه من المِسك المسحوقِ بحَسَب ما يريده صاحبُه.

غالية متوسِّطةٌ نسبها التَّمِيميُّ إلى كتاب أبي الحسن المصريّ[٨]

يؤخذ من المسك ثلاثةُ مثاقيل، ومن العنبر الأزرق مثقال، ومن سُكّ المِسْك المرتفِع مثقالان، ومن العُود الهنديّ مثقالان، ومن بان الغالية ثلاثُ أواقيّ، يُحَلّ

(١) السّكّ: طيبٌ يتّخذ من الرّامك مدقوقًا منخولًا معجونًا بالماء ويُعرك شديدًا، ويمسح بدهن الخيري لئلّا يلصق بالإناء، ويترك ليلة ثم يسحق المسك ويلقمه ويعرك شديدًا ويقرّص ويترك يومين ثم يثقب بمسلّة وينظم في خيط قنّب ويترك سنة، وكلّما عتق طابت رائحته.

(٢) يقرّص: أي يجعل أقراصًا، والتذكير في هذا اللفظ وما بعده من الألفاظ، أي يقرّص ذلك.

(٣) البان: شجرٌ ليّن، ورقه طويل، أبيض الزهر.

(٤) يوعى: أي يوضع في وعاء يحفظه. (٥) الهباء: الغبار.

(٦) الجريدة: قضيب النخل المجرّد من أوراقه. (٧) الصّلّاية: مدقّ الطّيب.

(٨) أبو الحسن البصري: هو أبو الحسن علي بن رضوان المصري، الطبيب، كان عالم مصر في أيامه في وسط المائة الخامسة، كان أبوه فرانًا وارتقى هو بعلمه فاتّصل بالحاكم فجعله رأسًا للأطباء، وهو من كبار الفلاسفة في الإسلام له تصانيف كثيرة. الأعلام ٤/ ٢٨٩.

العنبر في البان بنارٍ ليّنة، ويُنعَّم سَحقُ العُود والمِسك والسُّكّ، وتُخلَط، وتُلقى على العنبر المحلول وهو فاتر، وتُضرَب ضربًا جيّدًا حتّى تستوي.

غالية تسمّى الساهريَّة[١] خَتَم بها التَّميميّ بابَ الغَوالي

وقال فيها: من أحَبَّ أن يَحُلَّها بالبان فهي غاليةٌ لا بَعْدها؛ ومن تَطيَّب بها يابسةً بماء الورد فهي أطيَبُ ما يكون من المَسوحات[٢].

وصفةُ عملها، أن يؤخذ من المِسك التُّبَّتيِّ مثقال، ومن السُّكّ المثلَّث مثقالان، ومن العُود الهنديِّ ثلاثةُ مثاقيل، ومن العنبر الشِّحْريِّ مثقال؛ يُسحَق كلُّ واحد منها بمفرَدِه سحقًا ناعمًا، ويُنخَل بحريرة، إلّا العنبرَ فإنّه يُقرَّض، ويُحَلّ في تَوْرٍ[٣] من حجارة، أو في زِبْديّةٍ[٤] صِينيّ، ثم يُلقَى عليه العُود والسُّكّ، ويُخلَطان به خَلْطًا جيّدًا ويُجْعَل ذلك على الصَّلاية؛ فإذا بَرُدَ وجَمَد يُسحَق ويُنخَل بحريرة، ويضاف إليه المسك المسحوق، ويُسحَق ذلك جميعًا، ويُرفع؛ فمن أراد أن يَستعمل ذلك غاليةً يَحُلّ المثقالَ منه في مثقال من دُهن البان المفتَّر، ومن أراد أن يستعملَه مَسُوحًا يَحُلّه بماء الورد.

وأمّا عَمَل النُّدود[٥] ـ فقد ذكر التَّميميُّ منها أنواعًا كثيرة؛ فمنها النَّدّ المستعينيّ كان يُصنَع للمستعين بالله العبّاسيّ[٦]. قال: يؤخذ من العود الهنديّ خمسون مثقالًا، ومِثلُه من المسك التُّبَّتيّ، ومن العنبر الشِّحْريِّ الأزرق الدَّسِمِ خمسون ومائةُ مثقال، ومن الكافور الرِّياحيّ[٧] ثلاثةُ مثاقيل، يُسحَق العُودُ والمِسكُ والكافور سَحْقًا ناعمًا كلُّ واحدٍ منها بمُفرَدِه، ويُنخَل المِسكُ بالحريرة، ويحلّ العنبر

---

(١) السّاهريّة: سمّيت هذه الغالية بالسّاهرية لأنّه يسهر في عملها وتجويدها.

(٢) المسوحات: التي يمسح بها الجسد. (٣) التّور: إناءٌ صغير يشرب فيه، تقدّم ذكره.

(٤) الزبديّة: هي صحفة من فخار، والجمع «زبادي»، تقدّم ذكرها.

(٥) النّدود: مفردها «النّدّ»، وهو ضربٌ من الطّيب يُدخّن به، أي يُتبخّر به، وقال أبو العمرو بن العلاء: يقال للعنبر: النّدّ. اللّسان، مادة ندد.

(٦) المستعين العبّاسي: هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرّشيد من خلفاء الدولة العبّاسية، ولد بسامرّاء، وكانت إقامته فيها وبويع بها بعد وفاة المنتصر ابن المتوكّل، قتل سنة ٢٥٢ هـ. انظر: الأعلام ١/ ٢٠٤.

(٧) الرّياحي: سمّي بالرّياحي لتصاعده مع الريح، ويجوز أن يقرأ «الرّباحي» نسبة إلى ملكٍ يقال له «رباح»، وهو أوّل من وقف عليه كما ذكر المؤلّف في الجزء الحادي عشر من هذا الكتاب ص ٢٩٤، طبعة دار الكتب المصرية.

في عبّاسيّةٍ[١] صِينيّ أو في بِرام[٢]، ويُلقَى المسحوقُ عليه بعد أن ينزل عن النار، ويُعجَن به عجنًا جيّدًا ثم يُمَدّ على الرَّخامة، ويقطَّع شوابير[٣]، ويُصَفُّ على مُنْخُل حتى يَجِفّ ويُرْفَع. قال:

وأمّا النَّد الذي أجمعَ الناسُ عليه، فهو أن يؤخذ من العُود الجيّد خمسون مثقالًا، ومِثلُه من المِسك التُّبَّتيّ، ويُحَلّ لذلك من العنبر الهنديّ أو الشِّحْريّ مائةُ مثقال وثلاثةُ مثاقيل، ويُعجَن بالمسك، ويُمَدّ شوابير، ويجفَّف، ويُرفَع.

صنعة نَدٍّ آخَر

قال التَّميميّ، تركيبه لأبي سعيد يانس الفارسيّ، فجاء غايةً في الجُودة، يؤخذ من العُود الهنديّ القامِرُونيّ[٤] أو العُود القَماري عشرةُ مثاقيل، ومن المِسك التُّبَّتيّ المنقَّى من أكراشه وشَعرِه عشرون مثقالًا، يُسحَق كلُّ واحدٍ منهما بمفرَدِه، ويُنخَل بحريرة صِينيّة ثم يُجْمَعان على الصَّلاية، ويضاف إليهما من الكافور الفَنْصُوريّ[٥] مثقال واحد، ويُحَلّ لذلك من العنبر الشَّحْريّ الأزرق ثلاثون مثقالًا في تَوْرِ حَجر أو في عبّاسيّةٍ صينيٍّ حَلًّا لطيفًا بنارٍ ليّنة، بعد أن يُقرَّض العنبر ليُسرِع انحلاله، وسبيل التَّوْرِ أن يُحْمَل على النار قبل أن يُلْقَى فيه العنبر، ليَقلّ مُكث العنبر على النار، فإذا انحَلّ العنبر أُنْزِلَ عن النار وأُلْقِيَ فيه المسكُ والعودُ والكافور بعد إنعام سَحْقِها، ويُضرَب ذلك مع العنبر في التَّوْر بمِلعقة من فضّة أو حديد ضربًا جيّدًا حتى يصير جميعه جزءًا واحدًا؛ ثم تُبَلّ سِكّينٌ ويُمسَح بها ما تَعلَّق على المِلعقة، ويوضع على قطعة من الرّخام مَلساء قَد مُسح وجهُها بالماء، وتُبَلّ اليد، ويؤخذ بها من المعجون، ويُفتَل على الرَّخامة فَتْلًا متساويًا ويُقطَّع شوابير بسكّين مبلولةٍ بالماء، على ما يراه من المقادير، وإن خشيتَ أن يَبرُد المعجون فيَجمُد، جَعلتَ التَّوْرَ الّذي فيه المعجون على رمادٍ حارّ.

---

(١) العبّاسيّة: آنية صغيرة، ولعلّ العباسيين كانوا يستعملونها فنسبت إليهم.

(٢) البرام: إناء، مفرده «بُرمة».

(٣) الشّوابير: القطع المستطيلة الدّقاق، واحده شابور وشابورة، وهو لفظ عبريّ.

(٤) القامروني: المنسوب إلى قامرون، وهي حجازٌ بين الهند والصين، «تقدّم ذكرها».

(٥) الفنصوري: نسبة إلى فنصور، ذكر أبو الفداء أنّها مدينة في جنوبي جزيرة جاوة. تقويم البلدان ص ٣٦٩، ونقل ابن البيطار عن المسعوديّ ما يفيد أن فنصور هي جزيرة سرنديب. المفردات: ٤٢/٤.

صفةُ نَدٍّ كانت بنان العطّارة(١) تصنعه للواثق بالله(٢)

يؤخذ من العُود الجيِّد الهنديِّ مائةُ مثقال، ومن سُكِّ المِسك خمسون مِثقالًا، ومن المِسك التُّبَّتيِّ ثلاثون مثقالًا، ومن الكافور الرِّياحيِّ تسعةُ مثاقيل، يُسحَق كلُّ واحدٍ منهما على انفراده سحقًا ناعمًا، ثم تُجمَع كلُّها على الصَّلاية، وتُسحَق حتّى تختلط وتلتئم، ثم تؤخذ لها مائتا مثقال من العنبر الهنديِّ أو الشَّحْرِيِّ فيُحَلُّ في تَوْرِ بِرام أو غَضارةٍ(٣) صينيّ(٤)، فإذا ذاب يُنْزَل عن النار، وتُلقَى عليه المسحوقات، وتُخلَط به وتُعجَن عجنًا جيّدًا، ثم تُعمَل منه أقراص أو شوابير، وَزْنُ كلِّ قِطعةٍ منها مثقال، وتُجفَّف.

صفةُ نَدٍّ آخَرَ كانت تصنعه لجعفر المتوكِّل(٥) على الله

يؤخذ من العُود الهنديِّ القامِرُونيِّ عشرون مثقالًا، ومن السُّكِّ المُثلَّثِ خمسةَ عشر مثقالًا، ومن الكافور الرِّياحيِّ مثقالان، ومن المِسكِ التُّبَّتيِّ ستّةُ مثاقيل، ومن السُّكِّ الأصفر الطواميريّ مثقال واحد، ومن الزّعفران الرُّوذْرَاوَرِيِّ(٦) المسحوق مِثْقال؛ يُسحَق كلُّ واحد بمفرَدِه، ثم تُجمَع على الصَّلاية، وتُسحَق؛ ويؤخذ من العنبر الهنديِّ خمسون مثقالًا، فيُقرَّض، ويذاب في تَوْرٍ مكّيّ، وتُخْلَط فيه الأصناف نحو ما تقدّم، ويقطَّع شوابير.

---

(١) العطارة: التي تحترف صناعة العطر.

(٢) الواثق بالله: هو هارون بن المعتصم، أبو جعفر، من خلفاء الدولة العباسية بالعراق، ذهب مذهب المأمون في خلق القرآن، مات في سامرّاء سنة ٢٣٢ هـ. الأعلام ٨/٦٣.

(٣) الغضارة: القصعة الكبيرة، وتتّخذ من الغضار، وهو الطين اللّازب الأخضر، وتطلق على الإناء الصيني.

(٤) صينيّ: صفة لموصوف محذوف تقديره: غضارة فخّارٍ صيني.

(٥) جعفر المتوكّل: هو جعفر بن محمد الخليفة العبّاسي، قتل بسامرّاء بإغراء من ابنه المنتصر سنة ٢٤٧ هـ. انظر: الأعلام ٢/١٢٧.

(٦) الرّوذراوري: نسبة إلى الرّوذراور، وهي كورة بنهاوند من أعمال الجبال، وهي منبت الزعفران، وفي أشجارها جميع أنواع الفواكه. انظر: معجم البلدان ٣/٧٨.

صفة النَّدّ الذي كانت أمّ الخليفة المقتدر بالله[١] تصنعه وتُبخِّر به الكعبة وصخرةَ بيت المقدس في كلّ جمعة

يؤخذ من المِسك التُّبَّتيِّ المنقَّى من الأكراش مائةُ مثقال، يُسْحَق، ويُنْخَل ويُحَلّ له من العنبر الشِّحْريّ، ويُنزَل عن النار، فإذا فَتَرَ أُلقيَ عليه المِسكُ بمفرَدِه من غير عُودٍ ولا غيرِه، ويُضرَب ضَرْبًا جيّدًا، ثم يُمَدّ على الرَّخامة، ويقطَّع شوابير ويبخَّر به. قال التَّمِيميّ: كان رئيسُ الخَدَم ببيت المَقْدِس يُهدِي إلى والدي مِن هذا النَّدّ فيَحُلّه والدي بالبان، فتجيء منه غاليةً لا شيءَ أطْيَبُ منها.

صفةُ ندٍّ آخَرَ عن أُمِّ[٢] أبيها بنت جعفر بن سليمان ـ وهو الذي يسمَّى اللَّفيف[٣] الشريف ـ

قال التَّمِيميّ: ولا شيء في النَّدّ أرفع منه، يؤخذ من العُود الهنديِّ القامِرُونيِّ أوقيّة، فيُدَقُّ ويُنخَل، ويُسحَق على الصَّلاية، ويؤخذ له من السُّكِّ المثلَّث نصفُ أوقيّة، ومن المِسك التُّبَّتيِّ المنقَّى من أكراشه، المسحوقِ المنخولِ نصفُ أوقيّة ويُجْمَع الجميع، ويُسحَق على الصَّلاية؛ ويؤخذ من العنبر الهنديِّ الأزرقِ الدَّسِم أوقيّتان، ويُقرَّض ويذاب في تَوْرٍ على نارٍ ليّنة نحو ما تَقدّم، ثم يُلقَى عليه العُود والسُّكُّ والمسك، ويُعجَن ذلك، ويُمَدّ على صَلاية، ويقطَّع شوابير، ويجفَّف ويُرْفَع. قال التَّمِيميّ: أجْمَعَ العلماءُ بأمر العِطْر وأعمالِ الطِّيب أنّ السُّكَّ إذا كان مُثلَّثًا فله في النَّدّ معنًى جيّد وخُمْرة[٤]، والبَخور الّذي يدخل فيه يكون له عَبَقٌ في الثياب، سيّما[٥] في بلد مصر والبلادِ المعروفةِ بالعَفَن[٦]. قال: ومِلاكُ البَخور كلّه جُودةَ العنبر والمسك والعود والكافور والنار الّتي يُبخَّر بها، وألّا يكون في الفَحْم

---

(١) المقتدر بالله: هو جعفر بن أحمد بن طلحة، أبو الفضل، الخليفة العباسيّ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي، فاستصغره الناس، فخلعوه ونصّبوا عبد الله بن المعتز، ثم قتلوا ابن المعتزّ وأعادوه إلى الخلافة، وفي أيامه كثرت الفتن، قتل سنة ٣٢٠ هـ. انظر: الأعلام ٢/١٢١.

(٢) لم يرد في تاريخ الطبري ولا في تاريخ ابن الأثير ذكر أم أبيها بنت جعفر بن سليمان هذه، والذي ورد فيها أمّ أبيها بنت عبد الله بن جعفر.

(٣) اللّفيف: المخلوط من جنسين فصاعدًا.

(٤) الخمرة: ما خامر الإنسان من الرّائحة الطيّبة.

(٥) سيّما: يريد لا سيّما، فحذف لا للعلم بها وهي مرادة، لكنّ هذا الحذف قليل.

(٦) العفن: مادة نباتيّة فطرية تنمو على بعض الأشياء الفاسدة من الرطوبة أو غيرها.

شيءٌ من الزُّهومة[١]، فإنّ ذلك يُفسِد البَخور، ويقطع رائحتَه. وبَسَط التَّمِيميُّ القولَ في النُّدود، وقد أوردنا منها ما فيه كفاية؛ وهذه النُّدود كلُّها الّتي ذكرناها كانوا يصنعونها للبَخور خاصّة.

وأمّا الذي يُصنَع في عصرنا هذا بالديار المصريّة

فهو نادر إذا عُنِيَ به يَصلُح للحَمْل والادّخار والبَخور على النار، وتُعْمَل منه عنابرُ[٢] مختلفةُ الأشكال والمقادير، ومن الأُكَر[٣] والوَرْدات[٤] والشّوابير، وغيرِ ذلك، وتُنظم قلائدَ ومَعاضد[٥] ووِشاحات وسُبَحًا، وغيرَ ذلك، ويجعلها الناس بين ثيابهم إذا لبسوها ويمشون بها، ويجلسون ويرقدون وهي لا تتغيّر ولا تتكسّر، ويُكسَر بعضُ الأكْرة منها أو الوردة أو الخرزة فتُستعمَل في البَخور وغيره، وتَبقَى بقيّتها في جملة العنبر المنظوم، ولا يضرّها الكسر، ولا يتفتّت منها شيءٌ البتّةَ إلّا إن قُرِض بالسِّنّ أو قُطِع بالشَّفْرة أو المُدْية؛ وإذا طال مكثُه صَلُح وجاد وصَلُب، وعَبِق رِيحُه على النار، إلّا أنّه متى اختلط بالياسَمِين[٦] ضَعُف رِيحُه؛ وإذا تمادت عليه المُدَدُ وكثر استعماله وأفسده العَرَق الرديء كُسِّر وأضيفَ إليه شيءٌ من العنبر الخام الشِّحْرِيّ وعُجن به، ثم بالمسك المسحوق، وأعيد كما كان، أو على أيّ صفة أرادها صاحبُه فيجيء غايةً في الجُودة، وربّما كان أجْوَدَ وأنفَع من الأوّل، وها نحن نذكر كيفيّة عملِه ومفرداتِه ومقاديره؛ والله أعلم.

ذِكر كيفيّة عمل النَّدّ في وقتنا هذا ومفرداتِه ومقاديرِه

والنَّدّ في وقتنا هذا يسمَّى العنبر، فإذا أُطلِق عندهم اسمُ العنبر كان هو المراد؛ ويميّز العنبر الأصليُّ إذا أُريدَ بأن يقال فيه: العنبر الخام؛ وهذا النَّدّ الّذي يتداوله الناس في وقتنا هذا ثلاثةُ أنواع: **فالنوع الأوّل المثلّث**، وهو أجوَدُها وأعطَرُها، وصفة تركيبه ومقادير أجزائه أن يؤخذ له من العنبر الجيّد الشِّحْريّ[٧] الرزين الدَّسِم جزء،

(١) الزّهومة: الرائحة الخبيثة المنتنة.
(٢) العنابر: يريد النّدود، مفردها «النّدّ».
(٣) الأُكر: مفردها أُكرة، وهي الكرة.
(٤) الوردات: شكل من أشكال تقطيع النّدّ.
(٥) المعاضد: ما يلبس في العضُد.
(٦) الياسمين: نباتٌ زهره أبيض طيّب الرّائحة يستعمل في صناعة المواد العطريّة.
(٧) الشحريّ: المنسوب إلى الشحر، وهو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، قال الأصمعيّ: هو بين عدن وعمان ينسب إليه العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحله، وقد تقدّم ذكره. . .

ونظيرُه من العود الهنديّ الجيّد، ونظيرُه أيضًا مِن المسك التُّبَّتي، ويُجعل العود بُرايةً[١] أجزاءً صغارًا، ثم يُقْلَى على نار لينة، ويُطحَن بعد ذلك طحنًا ناعمًا ويُسحَق المسكُ بعد تنقيته ممّا لعلّه فيه من شَعرٍ أو غيرِه، ثم يُقرَّض العنبر صغارًا ويوضَع في قِدْر بِرام[٢] لطيفةٍ شبهِ رأس الخُوذة[٣] على نارِ فَحْمٍ ليّنة حتى يحمرّ، ويلقى ذلك العنبر الخام في القدر، ويحرَّك بمِلعقةٍ من النّحَاس مدوَّرةِ الرأس، ثقيلة، لها ساعد، فإذا ذاب العنبر يُلقَى عليه العُودُ المطحون شيئًا بعد شيء، ويحرَّكان حتى يختلطا ويصيرا جزءًا واحدًا، ويُجعَل العنبر والعود فتائل، ويُقسَّم المسك على نسبة تلك الفتائل، وتُعجَن به عجنًا جيّدًا على حَجَرٍ يَمَنِيٍّ مُعَدٍّ لذلك حتى تختلط به؛ ثم يقطَّع ويُجعَل أُكَرًا بحَسَب ما يريد، ويُرفَع. وهذا أجوَدُ ما يُصنَع من أنواع النَّدّ في وقتنا هذا؛ إلّا أنّه يكون ليّنًا لا يكاد يُستعمَل لِلِّباس[٤]، بل يُحمَل في الجيوب ويبخَّر به، ويُشَمّ، ويوضع بين الثياب، ونحو ذلك.

وأمّا النوع الثاني، وهو المعتدل: فأجزاؤه أن يؤخذ من العنبر الخام الجيّد عشرةُ مثاقيل، ومن النَّدّ العتيق الجيّدِ عشرةُ مثاقيل، ومن العُود الجيّد المطحون عشرون مثقالًا، ويؤخذ لذلك من المِسك الجيّد ما أَحَبَّ المستعمِل ويركَّب على ما نذكره.

وأمّا النوع الثالث، وهو السُّوقيّ[٥]: فأجزاؤه أن يؤخذ لكلّ عشرة مثاقيلَ من العنبر الخام عشرةُ مثاقيلَ من العنبر العتيق، وثلاثون مثقالًا من العود المطحون ومن المسك.

ذكر صفة خَلطِ أجزاء النَّدّ وتركيبه

أوّل ذلك أن يضع القِدر البِرام المعَدَّةَ لذلك على نار فَحْم ليّنة، ويكون وضعُه للقِدْر على جنبها، ثم يكسِّر العنبر العَتيقَ ويضعه في القِدر، فإذا سَخُن هَرَسَه بالمِلعقة النّحاس المعَدّة لذلك، فإذا انهرس ونَعُم رَفَعَه من القِدر إلى وِعاءٍ آخَرَ نظيف ثم يَمسح القِدر، ويكسِّر العنبر الخام قِطَعًا صغارًا، ويوضع في القِدر على أَثَر السُّخونة

---

(١) البُراية: النّحاتة المتساقطة من الشيء إذا بُري أو نُحت.
(٢) البرام: نوع من الآنية الفخّارية.
(٣) الخوذة: بيضة أو قبعة من حديد يجعلها المحارب على رأسه اتّقاء الضربات أو الرّصاص.
(٤) للّباس: أي لا يتّخذ منه القلائد والأوشحة وغير ذلك ممّا يعلّق أو يُلبس.
(٥) السّوقيّ: أي الذي يصنع للبيع في الأسواق وللتجارة.

ويحرِّك بالمِلعقة حتّى يذوب، ثم توضع القِدرُ على النار، ويُلقَى على العنبر من العود المطحون شيءٌ بعد شيءٍ إلى أن يختلط بعضُه ببعض ويصير جزءًا واحدًا، ثم يُلقَى عليه العنبر العتيق، ويُخلَط بالمِلعقة حتى يختلط بهما، ثم يُصَبّ على ذلك ماء وَرْدٍ بقَدرٍ واعتدال، ويُجَسّ بالإبهام[١] والسّبّابة[٢]، فإنْ قَبِلَ الفَتْل أَخَذ منه شيئًا بعد شيء وفَتَله فتائلَ على الحَجَر اليَمَنيِّ المُعَدِّ لذلك؛ فإذا صار جميعه فتائل ـ وهو الفَتْل الأوّل ـ وَضَعَ القِدرَ على النار، ووضَع بعضَ الفتائل فيها ويَصبّ عليها ماءَ ورد بقَدر، ويعجنها عجنًا جيّدًا، ثم يعيدها على الحَجَر، ويعجنها بالمِسك حتى يختلط بها، بحيث لا يضع المسكَ على النار اللّيّنة، فإذا اختلط المسكُ بها فَتَلها فتائل، ثم يقطِّعها أجزاءً متساويةً على قَدْر ما يريد، ويَضمّه[٣] بأصابعه الثلاث: الإبهامِ والسّبّابةِ والوُسْطَى حتى يدخل بعضُه في بعض، ثم يدوره تدويرًا جيّدًا في كفّه حتى يندمج ويصطحب[٤]، ثم يَنخُسه[٥] بمِسَلّة برفق، وينقّشه بعد ذلك بالمِشْطاب[٦] المُعَدِّ له، وإن كان ساذَجًا[٧] دوَّره على الرَّخامة، هذه كيفيّة عملِهِ وأجزاؤه؛ فإنْ نقص عن ذلك مُنِع من بيعه.

الباب الثامن
من القسم الخامس من الفن الرابع
في عمل الرّامك[٨] والسُّكّ[٩] من الرامِك والأدهان

فأمّا عَمَلُ الرَّامِك والسُّكّ

فالرّامِك هو أصل السُّكُّ الذي لا يمكن عَمَلُه إلّا منه، وصفة عَملِ الرامِك على

(١) يجسُّ بالإبهام: أي يمسُّ بها، والإبهام أكبر أصابع اليد.
(٢) السبّابة: الإصبع التي بين الإبهام والوسطى.
(٣) يضمّه: أي يجمعه، وقد ساغ له تذكير اللفظ لأنه يقصد: يضمّ ذلك.
(٤) يصطحب: أي ينضم بعضه إلى بعض. (٥) ينخسه: أي يغرز جانبه بمسلّة.
(٦) المشطاب: قطعة من الخشب أو الجريد أو غيرهما فيها شطب أي طرائق وخطوط بارزة يطبع بها على العجين فتظهر تلك الشطب بارزة وبأشكال مختلفة.
(٧) السّاذج: ما لا نقش فيه، أو السّهل الليّن.
(٨) الرّامِك: الذي يسمّيه النّاس الرّامك بفتح الميم وهو شيء يصير في الطّيب، وقال ابن سيّده: هو شيءٌ أسود كالقار يخلط بالمسك فيجعل سكًا. اللسان، مادة سكك.
(٩) السُّكّ: نوعٌ من الطيب فيه مسك.

ما أورده محمدُ بنُ أحمدَ بنِ سعيد التَّمِيميُّ المَقْدِسيُّ في كتابه المترجَم بـ(جَيْب العروس ورَيْحان النفوس)، وقال: إنه استنبطه ودبَّره برأيه ـ يشير إلى هذه الصفة التي نذكرها الآن، وإلّا فالرّامِك قديم، نقله هو عن غيره ممن كان قبله ـ فقال التَّمِيميّ في هذه النسخة: يُعمَد إلى العَفْص(١) النَّقيِّ الأبيض الجيِّد، فيُدَقّ ويُنخَل، ويُعتَّق بعد طحنه سنة. قال: ومن الناس من يطبخه بالماء حتى يَنْشَف الماء، فيَستغني بطبخه عن تعتيقه، وإنّما يراد تعتيقُه ليَسْلَس وتذهب منه زعارة العَفْصيّة وطعمُها، وطبيخُه يَفعل ذلك. قال: وتعتيقه أجْوَد. قال: ثم يؤخذ لكلّ عشرةِ أرطال العفص المنخول المعتق خمسة أرطال من الزَّبيب العَيْنُونيّ(٢) اللَّحِم(٣) المنقَّى من عيدانه، ويؤخذ من البلح الحديث ما قد لُقِط من تحت نخله بعد نَضْجِه، ويجفَّف، ويُحكَم تجفيفه، ويُنزَع نواه، خمسةُ أرطال، فيُنقَع الزَّبيب والبلح في الشّراب الرَّيحانيّ(٤) يومًا وليلة، ومن لم ينقعهما في الشراب فلينقعهما في المَيْسُوس(٥) الطيّب، أو في الماء القَراح، ثم يُرفَعان على النار، فيُغلَيان غليانًا جيّدًا حتى يَنضَجا، ولا تَبقَى فيهما قوّة، ويُعتصَر ماؤهما، فتُعجَن به العشرة أرطال العفص(٦) المطحونِ المنخولِ عجنًا جيّدًا حتى يصير مثل الحَساء أو أرَقَّ منه، ثم يُرفَع في طِنْجِيرٍ(٧) نحاس غليظ على نار ليّنة، فيُطبَخ وهو يحرَّك بإسْطامٍ(٨) حديد، ولا يُفْتَر تحريكه(٩)، ويَحترِز المتولّي لطبخه، بأن يتلثّم، ويَلُفَّ على يديه ورجليه ما يصونهما أن يقع عليهما من ذلك، حتّى إذا غَلُظ وصار أشقَرَ أنْزَلَه عن النار. قال: ومن الناس من يضيف إليه وقت طبخِه من عقيد العنب(١٠) على كلِّ

(١) العفص: نوع من شجر البلّوط، وثمره يتّخذ منه الحبر والصبغ.

(٢) العينوني: نسبة إلى عينون، وهي قرية من قرى بيت المقدس، قال يعقوب: هي كلمة عبرانية جاءت بلفظ سلامة العين، وقيل: هي قرية من وراء البثنيّة من دون القلزُوم في طرف الشام، وهناك من قال: إنها عين أُنا وهي بين الصلا ومدين على السّاحل. انظر: معجم البلدان ٤/ ١٨٠.

(٣) اللّحم: الكثير اللحم، ويقصد هنا: الزبيب الذي خلا من البزر وكان كثير المادة.

(٤) الشّراب الرّيحاني: نوعٌ من الخمر، قيل: هو الشّراب الصّرف الطيّب الرائحة، وقيل: هو ما كان خالص الصفرة أو الحمرة أو الخضرة، العطر الرّائحة، والطيّب الطّعم.

(٥) الميسوس: شرابٌ طبخ فيه السّوسن مع ماء الورد، ويقال له: الميسي، وقيل: هو شراب السوسن الأبيض.

(٦) كان من الأفصح أن يقول: عشرة أرطال «من العفص».

(٧) الطنجير: إناء معروف، وهو من الألفاظ المعرّبة، يستخدم في الطهي.

(٨) الإسطام: المسعار، وهو حديدة مقطوعة الطّرف، تحرّك بها النار وتُسعر.

(٩) يفترُ تحريكه: أي يتوانى طابخه عن تحريكه.

(١٠) عقيد العنب: ربّ العنب، أو ما انعقد من عصيره.

عشرةِ أرطالٍ رطلًا واحدًا مع ماء الزَّبيب وماءِ البلح، ومنهم مَن يقتصر على مائهما فقط، فإذا انتهى أنزَلَه عن النار، وصَبَّه على بَوارِيِّ[١] قَصَب، بعد أن يَبرُد، ويُبْسَطَ عليها بسطًا رقيقًا مستويًا بشيء قد دُهِن بدُهنِ خِيرِيٍّ[٢]، ثم يعلِّق البَوارِيَّ بعد جفافِه عليها في سَقْفِ بيتٍ كَنينٍ[٣] من الغُبار سَنةً كاملة، بحيث يصل إليها مَهَبُّ ريح الشَّمال؛ فهذا عمَلُ الرامِك الذي هو أصل السُّكّ.

فإذا أحببتَ أن تصنع منه سُكًّا فاْقلع الرامِكَ عن البَوارِيِّ، ودُقَّه، واطحنه طحنًا ناعمًا، واسقِه أمراقَ الأفاوِيه التي يُطبَخ بها البان، وسنذكرها في فصل الأدهان ـ إن شاء الله تعالى ـ وإذا أردتَ ذلك تَجمع أمراقَ الأفاوِيهِ بعد تصفية البان عنها، وغَسْلِها من دُهنيّة البان، وسَلْقِها وتصفيتِها، فيُعجَن بها عجنًا جيّدًا كما عُجِن أوّلًا بماء الزَّبيب والبلح، وترفعه على النار وأنت تحرّكه دائمًا بالإسْطام تحريكًا جيّدًا، وقد تحرّزْتَ ممّا يتطاير منه كما تَقدَّم، حتى إذا شَرِب تلك الأمراقَ وقَوِيَ، برّدتَه في سُطُول[٤]، وصببته على البَوارِيِّ كما فعلتَ أوّل مرّة، فتعتِّقه أربعةَ أشهر حتّى يجفّ، ثم تدقُّه وتطحنه وتنخُله، وتأخذ لكلِّ مَنٍّ[٥] منه من الهَرْنُوَة[٦] وزنَ ثلاثةِ دراهم، ومن الصندل المَقاصِيريِّ[٧] نصفَ أوقيّة، ومن العُود القَمارِيِّ الدِّقِّ[٨] الجيّدِ نصفَ أوقيّة، ومن الزعفران المسحوقِ وزنَ درهمين، ومثقالًا واحدًا أو مثقالين ـ إن أحببت ـ من نافِجةِ[٩] مسكٍ طريّةِ الفِتاق قد نُتِف ما عليها من الشَّعر وحُلِق، وقُرِّضتْ تقريضًا صغيرًا، ودُقّت دَقًّا ناعمًا، ومن دُهن الخِيريِّ الكوفيِّ الخالِص نصفَ أُوقيّة،

---

(١) البواري: واحده باري وبارية وبوريّ، وهو الحصر المنسوجة من القصب.

(٢) الخيريّ: هو النّبات المعروف بالمنثور، وهو الخزامى، وقيل: إن الخيري اسم يوناني أو نبطي، وهو القرنفل الأصفر أو المنثور الأصفر قرني الثمر، يحتوي على أنواع كثيرة عطرية مزينة للبساتين. انظر: عمدة المحتاج المعروف بالمادة الطبية للرشيدي ٢/ ٤٤١.

(٣) الكنين: المستور.

(٤) السّطول: مفردها سطل، وهو عند العامّة الدلو كبيرة أو صغيرة.

(٥) المنّ: كيلٌ أو ميزان، بين ١٨٠ مثقالًا و٢٨٠ مثقالًا، تقدّم ذكره.

(٦) الهرنوة: تسمّى شجرة العود أيضًا، وتنبت بين الشحر وعُمان وتسمّى هناك «القلنيك»، وقيل: هي حبّة صغيرة أصغر من الفلفل تعلوها صفرة قليلة وتشمّ منها رائحة العود.

(٧) المقاصيري: نسبة إلى بلد تسمّى مقاصير، أو لأنه كانت تصنع منه مقاصير أمّهات الخلفاء العبّاسيين وسراريهم.

(٨) الدِّقّ: أي الدّقيق منه.

(٩) النافِجة: الوعاء الذي يكون فيه المسك، أي الجلدة التي يجتمع فيها المسك وهو في غزاله.

ومن العسل الماذِي[١] نصفَ أوقيّة؛ يُعجَن جميعُ ذلك بالسُّكِّ عجنًا جيِّدًا، ويُترَك ثلاثةَ أشهر أو أربعةَ حتى يجِفَّ ويتكامل جَفافُه؛ ثم يُدَقّ ويُطحَن، ويُعجَن بمَيْسُوس[٢]، ويُطرَح في كلِّ مَنٍّ منه من المسك ثلاثةُ مثاقيل، يُعجَن بها عجنًا جيِّدًا، ويُقرَّص أقراصًا صغارًا ويُترَك حتى يَجِفَّ. قال: فهذا أذكى أبواب السُّكِّ وأصلحُه.

فإن أردتَ أن تَصنع منه سُكًّا مثلَّثًا أو منصَّفًا أو دون ذلك، فاعمِد إلى كلِّ عشرة مثاقيلَ من السُّكِّ الأصليِّ الذي قدّمنا ذِكرَه، فأَنعِم دقَّها وسَحقَها، وأضف إلى العشرة مثاقيلَ ـ إن أردتَه مثلَّثًا ـ من المِسْك خمسةَ مثاقيل؛ وإن أردته منصَّفًا فأَضِف إلى العشرة مثاقيلَ مِثلَها مِن المسك؛ وإن أردته دون المثلَّث فأضف إلى العشرة مثاقيل ثلاثةَ مثاقيل، وأنْعِم عجنَه به، وقرِّصه، واختمه، وجفِّفه؛ فهذه صفة السُّكِّ المنصَّفِ والمثلَّث وما دونه، وهو أفضل أنواع السُّكّ وأشرفُها.

صنعة سُكٍّ آخَر

يؤخذ من الرّامِك بعد تجفيفه على البَواريّ[٣] كما تقدَّم رطلان، يُدَقّ ويُنخَل ويُسقَى من أمراق الأفاوِيه نحوَ ما ذكرناه؛ ثم يؤخذ لذلك من العُود السِّنِّ القَماريّ[٤] المسحوق أوقيّة ونصف، ومن الصَّندلِ المَقاصِيري الأصفر الدَّسِم ثلاثُ أواقيّ، ومن السُّنبُل العصافير أوقيّة، ومن الهَرْنُوة أوقيّة، ومن القَرَنْفُل الزَّهر أوقيّة، ومن الهال[٥] نصفُ أوقيّة، ومن الزّعفران المائيّ[٦] أوقيّتان، يُدَقّ ذلك، ويُطحَن ويُنخَل، ويُلقَى على السُّكّ في الطِّنْجِيرِ وهو على نارٍ ليِّنة، ويُصَبّ عليه من دُهنِ

---

(١) الماذيّ: العسل الأبيض الرقيق.

(٢) الميسوس: شرابٌ طبخ فيه السّوسن مع ماء الورد «تقدّم شرحه».

(٣) البواري: مفردها بارية، وهي الحصير من القصب.

(٤) القماري: نسبة إلى قمار، موضع بالهند، ينسب إليه العود. انظر: معجم البلدان ٤/ ٣٩٦.

(٥) الهال، أو حبُّ الهال: وهو حبٌّ معروف «يستخدم في تحضير القهوة»، وهو الذي تسمّيه العامة في مصر «حبهان» وهو حبٌّ يخرج في أصل نحو ذراعين عريض الأوراق خشن، حادّ الرّائحة، يكون فيه هذا الحبّ كما يرى بهذه الصورة متفرّقًا وهو ذكرٌ وأنثى، فالذّكر مثلّث الشكل ينفرك عن حبّ كالعدس، والأنثى غلافها نحو أصبع مثلث أيضًا، ينفرك عن حبّ كالحمص.

(٦) الزعفران: نبات له أصلٌ كالبصل، زهره أحمر إلى الصفرة، والمائي: نسبة إلى «ماه»، وقد ذكر صاحب كتاب: الفلاحة النبطيّة أن أكثر نبات الزعفران وأقواه ما نبت في بلاد ماه، وقد قلبت الهاء في النّسب إلى همزة، فقيل: مائي. انظر: الفلاحة النبطية لأبي بكر بن وحشية، ص ٢٥٨.

الخِيريّ[١] الكوفيّ الخالِص أوقيّتان، ومن العسل الماذِيِّ الأبيضِ أوقيّتان، ويحرَّك ساعة، ثم يوضع عن النار، ويُبسَط على بارِيةٍ[٢] بعد أن يَبرُد، ويُعتَّق سنة، ثم يُقلَع فيدُقّ دقًّا ناعمًا ويُعجَن بمَيْسُوس أو بماءٍ قَراح، ويُلقَى على كلّ مَنٍّ[٣] منه من المسك ربعُ مثقال بعد سحقِه، ومن العسل خمسةُ دراهم، ويقرَّص ويُختَم. قال التَّميميّ: هذه الأفاويهُ - فيما أَرَى - كثيرة لرطلين عَفْصًا، وأنا أَرَى أن يكون العَفْص سبعةَ أرطال بالبَغداديّ، فإنّه يَحتمل ذلك.

صنعة رامِكٍ وسُكٍّ آخَرَ

ذَكر التَّمِيميّ عن أحمدَ بن أبي يعقوب أنّه عَمِلَه، وأنّه أجوَدُ ما يكون من السُّكّ. قال ابن أبي يعقوب: صفة عَملِ الرَّامِك أن يؤخذ من العَفْص البالغ الجيّد، فيُرَضّ[٤]، ويُصيَّر في قِدْر كبيرة، ويُصَبُّ عليه من الماء ما يغمره، ثم يُطبَخ أيّامًا، ويزاد في مائه كلَّما نَشِف حتى يَنضَج، ثم يُخرَج العَفْصُ فيُجعَل في شمسٍ حارّةٍ حتى يَجِفّ، ويُرفَع ذلك الماء الذي طُبِخ فيه، ويؤخذ ما جَلَس فيه من العفص فيجفَّف، ويضاف إلى العفص، ويُدَقّ، ويُنخَل بِمُنْخُلِ شَعر، ثم يُرَدُّ إلى القِدْر، ويُصَبّ عليه ماءٌ كثير، ويُطبَخ به يومين أو ثلاثةً حتى تَذهبَ العَفصيّةُ منه، ثم يُسحَق على صَلايةٍ حتى يَجِفّ، ويُصنَع منه أمثالُ العِلْك؛ فهذا عَمَلُ الرامِك ولم يذكر فيه البلح ولا الزَّبيب.

قال: فإذا أردتَ أن تصنع من هذا الرامِك سُكًّا فخذ منه ستّةَ أجزاء، ومن نوافِج المِسك جزءًا واحدًا، فتنزع الشَّعر عن النَّوافج، وتقرِّضها، وتدقّها دقًّا شديدًا وتطحنها، ثم اخلطها بالستّة أجزاء، واسحق الجميعَ على الصَّلاية بالماء أو بالشراب أو بالنَّضوح[٥] حتى يستويَ، ثم يقرَّص، فإذا جَفّ فخذ منه ستّة أجزاء، ومن المسك التُّبَّتيِّ جزءًا واحدًا، واسحق المسك، وحُلَّ السُّكَّ بماءِ ورد، وأضفه إليه بالعجن الجيّد، وقرِّصه يأتك سُكًّا طيّبًا.

---

(١) الخيري: هو النبات المعروف بالمنثور وهو الخزامى، تقدّم ذكره.
(٢) البارية: الحصير من قصب.
(٣) المنّ: مكيال أو ميزان، بين ١٨٠ مثقالًا و٢٨٠ مثقالًا، تقدّم ذكره.
(٤) يُرَضّ: يدقّ ويطحن.
(٥) النّضوح: ما كان رقيقًا سائلًا كالماء من الطّيب أو نحوه.

فإن أردتَ أن تعملْ منه منصَّفًا أو مثلَّثًا أو غيرَ ذلك، فاسحقه، وألق على كل مثقال منه نصفَ مثقال من المِسك، أو ثلثَ مثقال، أو دون ذلك، واعجنه به وقرِّصه.

قال: فهذا أفضل ما يُعمَل من السُّك.

وأمّا الأدهان[(١)] وما قيل فيها - فهي كثيرة، نقتصر منها على ما يدخل في أصناف الطِّيب والغوالي، مِثلِ دُهنِ البانِ، ودُهنِ الزَّنْبَق، ودُهنِ الحَماحِم[(٢)]، ودُهنِ الخِيريّ، ودُهنِ التُّفّاح، والأدهانِ المركَّبة العَطِرة، وأدهانٍ تُصلِح الشُّعور.

ولنبدأ بذكر دُهن البان وحَبِّه ومعادنِه وكيفيّة طبخِه - قال محمد بنُ أحمد التَّميميّ: شجر البان شجر عظيم، يَحمل حبًّا ألطفَ من البندق في مقدار حَبّ النَّبْق[(٣)]، مستديرًا، ذا ثلاثةِ حدود كحدود أَزِجّة النُّشّاب[(٤)]، يُكسَر فيَخرج من جوفه حَبّ أبيض دُهنيّ، تعتريه مرارةٌ يسيرة؛ ومنابتُه بيَنْبُع[(٥)] من أرض الحجاز، وبأرض عُمَان، وباليَمَن.

قال: ومنه شيء يَنْبُت بأرض مصر، وشيء يُجلَب من أرض الشَّراة[(٦)] وناحيةِ البَلْقاء[(٧)]، وشيء يَنْبُت على شاطىء البُحَيْرة المنتنة[(٨)] ما بين زُغَر[(٩)]

---

(١) الأدهان: المراهم التي يدهن بها الجسد تطيُّبًا أو تداويًا، وقد ذكر داود: أنّ الأدهان من استخراج أبقراط. انظر: التذكرة ١/ ٢٢٢.

(٢) الحماحم: الحبق البستاني العريض الورق. (٣) النبق: حمل شجر السّدر، مفرده: «نبقة».

(٤) الزّج: نصل السّهم، والنّشّاب: السّهام.

(٥) ينبع: بلدة عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى، وكان يسكنها الأنصار وجُهينة وليث وفيها عيون عذاب غزيرة، وهي قرية غنّاء وواديها يَلْيَلْ يصبُّ في غيقة. معجم البلدان ٥/ ٤٥٠.

(٦) الشّراة: صُقع بالشّام بين دمشق ومدينة الرّسول ﷺ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة التي كان يسكنها ولد عليّ بن عبد الله بن عبّاس في أيّام بني مروان. معجم البلدان ٣/ ٣٣٢.

(٧) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمّان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، والبلقاء من أريحا على مرحلة، وأريحا في الغرب من البلقاء، وقد جاء في الرّوض العطار: أنها سمّيت بالبلقاء بن سوريّة من بني عمّان بن لوط وهو الذي بناها. انظر: صبح الأعشى ٤/ ١١٠.

(٨) البحيرة المنتنة: هي البحيرة التي يصبّ فيها نهر الأردن، وهو نهر الشريعة، وأنّها في آخر الغور من جهة الجنوب، وتسمّى المقلوبة وهي غربي «الأردن».

(٩) زُغر: قرية بمشارف الشّام وهي في طرف البحيرة المنتنة في وادٍ هناك، بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيّام. انظر: معجم البلدان ٣/ ١٤٣.

وأَرِيحَا[١]، وأَجْوَدُه اليَمَنيّ والحجازيّ، وأجوَدُ حبِّه ما كان قِشرُه يَضرب إلى السَّواد؛ وأمّا الأبيض القِشر فإنّه رديء، يَعرِض له الفَوَران عند طَبْخِه.

وأمّا كيفيّة إخراج دُهنِه ـ فإنّه يؤخذ هذا الحَبّ فيُطحَن في أَرحيةٍ[٢] مُعَدَّةٍ له، ثم يُجعَل في قِدرٍ نحاس كبيرة تَسَعُ عشرَ كَيالجَ وأكثرَ بالكِيلجة[٣] الشاميّة، ومقدار كلِّ كِيلَجَةٍ ثمن إردبّ[٤] بالكيل المصريّ، ويكون الحبّ المطحون قد ملأ ثلثي القِدر ويُصَبّ عليه من الماء ما يَغمُره، وزيادة أربع أصابع مفتوحة، ويوقَد تحته بالحطب الجَزْل[٥] حتى يغلِيَ، فيُطبَخ نصفَ يوم، وكلّما نقص الماءُ يزاد، حتى إذا انتَصف النّهار يُقطَع عنه الوَقود، ويُترَك حتى يَبرُد، ثم يُلقَط ما طلع فوقه من الدُّهن ويُجمَع في آنيةٍ حتى لا يَبقَى من الدُّهن شيء؛ فهذا استخراج حَبِّ البان.

وأمّا كيفيّة طبخِه بالأفاوِيه[٦] حتى يصير بانًا[٧] مرتفِعًا ـ فمنه كوفيّ، ومنه مدنيّ.

أمّا الكُوفيّ ـ فقال أحمد بنُ أبي يعقوبَ مولى ولد العبّاس فيه: يؤخذ الدُّهن المستخرَج من حَبّ البان، فيُجعَل في قِدرِ بِرام[٨] كبيرة، ويُطبَخ بمِثلِه من الماء الصافي، ولا يزال يُطبَخ أيّامًا، وكلّما نَشِف الماء نُقِل إلى قِدْر أخرى، ويُصَبّ عليه من الماء الصافي نظيرُ الدُّهن، ويُطبَخ حتى يَنْشَفَ الماء ويَبقَى الدُّهن؛ يُفعَل ذلك به ثلاثَ مرّات؛ ثم يُطبَخ بالماء الصافي والوردِ الذي لم يتفتّح ثلاثةَ أيّام؛ ثم يُطبَخ بالماء والصندلِ الأصفر المَقاصيريّ المخروطِ[٩] أيّامًا ثلاثةً حتى تَذهب عنه رائحةُ الدُّهن؛ ثم يُطبَخ بالعُود الهنديّ السِّنّ والماء الصافيّ يومين أو ثلاثة، ثم يُطبَخ بسُكّ المِسْك المنصَّفِ المسحوق بماء الورد يومًا، وهذا الطبخ الّذي بالسُّكّ وماءِ الورد يسمَّى: النَّشّ، ويسمَّى بانُه: البانَ المَنْشُوش.

---

(١) أريحا: قرية بالغور من بيت المقدس على مسافة يوم، وعلى أربعة أميال منها مشرقًا نهر الأردن. تقويم البلدان ص ٢٣٦.

(٢) الأرحيّة: مفردها الرّحيّ، وهي الطاحون.

(٣) الكيلجة: مكيال، والجمع كيالج وكيالجة أيضًا، والهاء للعجمة. اللّسان، مادة كلج.

(٤) الإردب: مكيالٌ ضخمٌ يسع ٢٤ صاعًا. (٥) الجزل: الغليظ العظيم من الحطب.

(٦) الأفاويه: التوابل ونوافج الطِّيب.

(٧) البان: شجر ليّن، ورقه طويل وزهره أبيض، وهو يريد هنا أي يصير دهن بانٍ، وهو الدّهن المستخرج من حبّ البان الممزوج بالأفاويه.

(٨) البرام: الفخّار. (٩) المخروط: المقطّع.

قال: ثم يُنزل ويصفَّى، ثم يُنَشُّ بعد طبخه بالسُّكّ وماءِ الورد بالمِسْك التُّبَّتيِّ المسحوقِ المحلولِ بماء الورد الجُوريِّ نَشًّا جيّدًا حتى يَنْشَف عنه ماء الورد، ويأخذَ البانُ قوّة المسك.

وأما البان المَدَنيّ ـ فإنّ أهل المدينة يطبخونه بالأفاوِيهِ الطيّبةِ مِثلِ السَّليخة[١] والسُّنْبُل[٢] والقَرَنْفُل والكَبَابة[٣] والهَرْنُوَة[٤] والصَّنْدَل الأصفر المخروط، وسِنِّ العود الأسوَد، يطبخونه بكلٍّ واحد من هذه الأصناف أيّامًا مع الماء الصافي؛ ثم يبرَّد ويُطبَخ بالصِّنف الآخَر حتّى ينتهي ـ على ما نَصِفه إن شاء الله تعالى ـ إلّا أنّ هذا الدُّهن لا يَصلُح للغَوالي، لأنّه يتغلّب على روائح العنبر والمِسك بروائح الأفاوِيه وحِدّتِها، فلا تستعمله الملوك إلّا أن تَدهُن به أيديَها في الشتاء، وتستعمله النساءُ في أطيابهنّ وخُمُرِهنّ[٥].

صنعة بانٍ آخَر

قال التَّميميُّ فيه: هذا بانٌ رَكّبتُه أنا، واختَرَعْتُه رأيًا من ذات نفسي؛ فجاء غايةً في الطِّيب، وهو أن ينقَّى من حَبّ البان البالِغ في شجره ما كان قِشرُه يَضرِب إلى السواد، فتنقِّي منه مقدارَ ما يُخرِج لك من الدُّهنِ زيادةً على ثلاثين مَنًّا، وذلك يَخرُج من مائةِ مَنٍّ من الحَبِّ البالِغ إذا طُحِن وطُبِخ وأُحكِم طبخُه ـ على ما قاله أبو عمران موسى اليهوديُّ المعروفُ بالبانيّ[٦]. وقال أبو سعيد اليهوديُّ العطّار ـ وكان عالمًا

---

(١) السَّليخة: نبات عطري كأنّه قشر منسلخ، والسليخة: أصناف كثيرة تكون في بلاد العرب المنبتة للأفاويه، ولها ساق غليظة القشر وورق شبيه بورق النوع من السّوسن الذي يسمى «إيرساه»، وتسمّى القرفة الغليظة، وطعمها في الفم دبق لزج مع بعض مرارة، وكأنها تذوب فيه، ولونها أسمر ورائحتها أقل عطرية. انظر: المادة الطبّية ٢/ ٢٩٤.

(٢) السّنبل: هو سُنبل الطيب، ويقال له العصافير أيضًا ويسمّى الناردين وهو جنسان: سوري طيّب الرائحة جدًّا، وهنديّ «تقدّم ذكره».

(٣) الكبابة: هي تمر نبات يجلب من الصين، منها كبيرة «تسمّى حبّ العروس»، وفيها صغيرة تسمّى «الفلنجة» وشجرها كالآس، وأجودها الرزين الطيّب الرائحة. انظر: الشذور الذهبية لمحمد بن عمر التونسي.

(٤) الهرنوة: وتسمّى شجرة العود وتنبت بين الشحر وعُمان، وتسمّى هناك القلنيك، تقدّم ذكرها.

(٥) الخُمُر: مفردها خمار، وهو ما تستر به المرأة، أو ما تغطي به رأسها، يريد: الرائحة الطيبة التي تفوح من خمرهنّ.

(٦) لم يذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ولا القفطي في كتابه: إخبار العلماء بأخبار الحكماء موسى اليهودي الباني، وكذلك غيرهما من كتب الأنساب والأعلام، وموسى اليهودي الوارد ذكره هنا غير موسى بن ميمون الطبيب المعروف.

بعمل البان وعلاجِه وطبخِه ـ: إنّ الكِيلَجَة الفِلَسْطِينِيّة تُخْرِج منًّا من الدُّهن، وكلُّ كِيلَجة وربع نصفُ وَيْبة[١] بالكيل المصريّ والوَيْبة سدسُ إردبّ، فتَجعل من الثلاثين مَنًّا عشرين مَنًّا أوّلًا، وعشرةَ أمْناءٍ ثانيًا.

قال: فإذا حَصّلتَ من حَبّ البان ما يُخرِج لك ذلك، وطحنتَه، وجَمعتَ دُهنَه كما تَقدَّم، تَعمِد إلى قِدْرِ بِرام[٢] لم يَدخُلها شيءٌ من الدنس[٣]، تَسَعُ أربعين مَنًّا، فتَصُبّ فيها من دُهن البان عشرين مَنًّا بعد أن يَجلِس[٤]، وتصفّيه؛ ثم تَعمِد إلى مَنَوين[٥] من السَّليخة[٦] الحمراءِ تكون قضبانًا دقاقًا، فتَغلِي لها من الماء فوق غمرِها، وتصُبُّه عليها في إناءِ غَضارٍ[٧] أو صُفْر، وتَكمُر[٨] الإناءَ ليَرجع بُخار الماء إليها وتتركها منقوعةً يومًا وليلة، أو يومين، ورأى أبو سعيد أن تُغلَى على النار بعد نَقْعها ثم يُصفَّى ماءُ السَّلِيخة على دُهن البان، وتعاوَد بماءٍ ثانٍ فتُغْلَى به أيضًا حتى تَخرُج قوّتُها، وتصفّيه على دُهن البان أيضًا، وتطبخه حتى يَنْشَفَ الماء ويَبقَى الدُّهن فترفعه في قراريب[٩] بعد ترويقه[١٠]؛ ثم تَعمِد إلى السَّلِيخة فتَغمُرها بماءٍ ثالث، وتطبخها به طبخة خفيفة لتَستخرِج قوّتَها، ثم تصفِّيها، وتَطبخ بالماء الّذي يَخرج منها العشرةَ[١١] أمناء البان الثانية، وتعزِلها في قراريب مفرَدة؛ فإن كانت السَّلِيخةُ قد ضَعفَتْ بعد استخراجك منها الماءَ الأوّل فقوِّها بنصفِ مَنٍّ آخَرَ لتطيِّب به العشرةَ أمْنانِ الثانية؛ وكذلك تفعل في كلّ نوعٍ من الأنواع التي نذكرها إذا استخرجتَ ماءَه الأوّل ورأيته يَضعُف عن أن يطيِّب البانَ الثانيَ فقوِّه بشيءٍ منه طريّ، ثم تنقع من السَّلِيخة الحمراءِ التُّفّاحيّةِ المنسوفةِ[١٢] مَنًّا ونصفَ مَنٍّ في ماءٍ حارٍّ يومًا وليلة، ثم تغليه وتصفِّيه على

(١) الويبة: مكيال قدره اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مُدًّا.
(٢) البرام: الفخّار. (٣) الدّنس: القذارة.
(٤) يجلِس: يغلُظ.
(٥) منوان: مثنّى منّ، وقد تقدّم الكلام على المنّ، وهو مكيال أو ميزان قدره ما بين ١٨٠ و٢٨٠ مثقالًا.
(٦) السّليخة: نبات عطري كأنّه قشر منسلخ، وهي أصناف كثيرة تكون في بلاد العرب المنبتة للأفاويه، ولها ساق غليظة القشر وقد تسمّى «القرفة الغليظة»، تقدّم ذكرها.
(٧) الغضار: الطين اللازب الأخضر الحرّ، يُتّخذ منه بعض الأواني.
(٨) تكمُر الإناء: أي تحكم تغطيته لئلّا يتصاعد البخار منه.
(٩) القراريب: نوع من الأواني معروف في بعض أقاليم مصر، وواحده قرّابة.
(١٠) ترويقه: تصفيته.
(١١) كان من الأفصح أن يقول: يخرج منها عشرة أمناء، فيسقط أداة التعريف.
(١٢) المنسوفة: المغربلة، أو المذرّاة.

العشرين مَنٍّ بانِ المطبوخةِ بالسَّلِيخة في القِدْر، ثم صُبّ عليه من الماء ما تُكمِّله به حتى يصير الماءُ نظيرَ الدُّهن، واطبخه على الرسم[١] حتّى يَنْشَف الماء ويبقَى الدُّهن فأَعِدْه في قراريبه، ثم انقع السَّلِيخة في ماءٍ ثانٍ، وقوِّها إن ضَعُفَت، واطبخ بها العشرةَ أمْناءِ الدُّهن الثانية كما تَقدَّم؛ ثم بَرِّده، وأَعِدْه في قراريبه، ثم خذ من قرفة القَرَنْفُل[٢] الحارّة الذَّكيّةِ مَنَوين فدُقَّهما تهشيمًا، ثم اغلِ لهما عشرين مَنًّا من الماء وصُبَّه عليهما، واكمُره[٣] بالغطاء يومين وليلتين، ثم اغلِه بهما غَليةً واحدة، وصفِّه على البان الأوّل، واطبخه نصفَ يوم حتّى يَنْشَفَ الماء ويَبقَى الدُّهن، فبرِّده، وأوعِه[٤] وأحكِم سَدَّه، وانقع القرفةَ أيضًا بماءٍ حارّ، وقوِّها بربعِ مَنّ، ودَعْها يومًا وليلة ثم اغلِها، وصَفِّ ماءَها على البان الثاني حتّى يَنْشَف الماء ويَبقَى الدُّهن، فبرِّده وأَعِدْه إلى ظروفه[٥]، وأحكِم سَدّها.

قال: فإنْ أحببتَ أن ترفعه[٦] بالقَرَنْفُل ـ وهو أفضل ـ فخذ من القَرَنْفُل الجيّد الحَبّ المنسوفِ نصفَ مَنّ، فهشِّمه[٧]، واغلِ له من الماء عشرين مَنًّا، وصُبّه عليه وهو حارّ، وغَطِّه يومين وليلتين، ثم صفِّه على البان الأوّل في القِدر، واطبخه به وافعل في طَبخِه نحوَ ما تقدَّم؛ وانقع القَرَنْفُل المسلوقَ في سبعة أمْناء من الماء الحارّ ثم اغلِه، واطبخ به البان الثانيَ كما تقدَّم؛ ثم خذ من البَسْباسة[٨] الحمراءِ نصفَ مَنّ فانقعها في عشرة أمنانٍ من الماء الحارّ يومًا وليلة، وصَفِّ الماء على البان، واطبخه به كما تقدَّم، وافعل في البان الثاني كما تقدَّم، ثم يُطبَخ بماء الورد بعد البَسْبَاسة؛ ثم خذ من الورد الفارسيّ[٩] الأحمرِ المنقّى من أقماعه[١٠] مَنَوين، واغل لهما من الماء

---

(١) الرّسم: الطريقة التي تقدّم ذكرها.

(٢) قرفة القرنفل: نوع من الدارصينيّ، وهي دقيقة صلبة، إلى السّواد ما هي، ليس فيها شيءٌ من التحلحل أصلًا، ورائحتها وطعمها كالقرنفل، وقوّتها كقوته. انظر: المادة الطبية ٢/٢٨٦.

(٣) كمرُه بالغطاء: أي غطّاه جيّدًا، وكمر: من استعمالات العامة وليست بالفصحى.

(٤) أوعِهِ: أي اجعله في وعاء.

(٥) الظروف: الأوعية.

(٦) ترفعه: تحسّن نوعيّته.

(٧) هشّم الحبّ: دقّه.

(٨) البسباسة: بقلة، قال أبو حنيفة: البسباس من النّبات الطيّب الريح وزعم بعض الرواة أنّه النانخاه، وقيل: البسباس طيّب الرّيح يشبه طعمه طعم الجزء واحدته بسباسة، وقال الأزهري: البسباسة بقلة معروفة عند العرب. انظر: اللسان مادة بسس. وقد ذكر داود في التذكرة: أن البسباسة قشر جوزبوا، أو شجرته أو أوراقها، وهو أوراق متراكمة شقر حادة الرائحة، حرّيفة الطعم عطرية.

(٩) الورد الفارسيّ: أي الورد الجوريّ، المنسوب إلى «جور».

(١٠) الأقماع: مفردها «القمع»، وهو ما التصق بأسفل الثمرة أو نحوها حول عِلاقتها.

الصافي عشرين مَنًّا، وصُبَّها عليهما، واكمُره بما يَردّ بخارَه فيه، ودَعْه فيه يومين ثم صَفِّه على البان الأوّل من غير أن تغليَه، واطبخه به على الرسم، وصُبَّ على الورد عشرةَ أمْناء من الماء الحارّ، وقوّه بنصفِ مَنّ مِنَ الورد الطريّ، وصَفِّه على البان الثاني، واطبخه به كما تقدَّم؛ ثم خذ من السُّنبُل[1] العصافير الجيّد مَنًّا واحدًا، واغل له من الماء عشرين مَنًّا، وصُبَّه عليه، واكمُره بما يَردّ بخارَه فيه يومين، ثم اسلقه سلقةً خفيفة، وصَفِّه على البان الأوّل، واطبخه على الرسم، وقوِّ السُّنبُل بثُمن مَنّ وانقعه يومًا وليلة في ثمانية أمنانٍ من الماء؛ واغله على النار، وصَفِّه على البان الثاني، واطبخه به كما تقدَّم؛ ثم خذ من الهَرْنُوَة[2] مَنًّا وربعَ مَنٍّ فهشِّمه، واغلِ له من الماء عشرين مَنًّا، وصُبَّه عليها، واكمُره حتى ينعكس بخارُه إليها، واتركه يومين وصَفِّه على البان الأوّل، واطبخه به، ثم قوِّ الهَرْنُوَةَ بثُمن مَنٍّ منها، وانقعها في عشرة أمْناء من الماء الحارّ، وصَفِّه على البانِ الثاني، واطبخه به كما تقدَّم؛ ثم خذ من الصَّنْدَل الأصفر المَقاصِيريِّ الدَّسِم مَنًّا وأوقيّتين، واخرِطه[3] خرطًا رفيعًا على نِطْع[4] واجعله في سَفَن[5]، واغلِ له عشرين مَنًّا ماء، وصُبَّه عليه، واكمُره يومين وليلتين، ثم اغلِه به، وصَفِّه على البان الأوّل في القِدْر، واطبخه به حتّى يَنْشَفَ الماء، وبَرِّده، وأعِدْه إلى ظروفه، ثم قوِّ الصَّنْدَلَ بأوقيّتين، وانقعه يومًا وليلة واغلِه؛ ثم صَفِّه على البان الثاني، واطبخه به نحوَ ما تقدَّم؛ ثم خذ من العود الأسوَد السِّنّ نصفَ مَنٍّ أو ثلثي مَنٍّ إن أحببتَ فأنقعه في الماء الحارّ، واتركه فيه ثلاثةَ أيّام وثلاثَ ليال، ثم اغلِه على النار، وصفِّه على البان الأوّل، وثَنِّ العود وثلِّثه بالماء الحارّ والغليان، واجمع ماءَه الثانيَ والثالث، وصُبَّهما على البان الأوّل واطبخه بالمياه الثلاثة حتى يَنشَف الماء ويَبقَى الدُّهن، ثم برِّده وأَعِدْه إلى ظروفه ثم اغلِ العودَ بخمسة أمناءِ ماءٍ غليانًا جيّدًا، واطبخ به البانَ الثانيّ حتى يَنْشَف الماء ويَبقَى الدُّهن، فبرِّده وأَوْدِعْه في ظروفه[6].

قال: فهذا البانُ الأوّلُ الذي لا بَعْدَه، والثاني الذي دونه، ولم يَبْقَ إلّا نَشُّه[7] بالمِسك وسُكِّ المِسك، على ما نصف إن شاء الله تعالى.

---

(١) السُّنبل: هو سُنبل الطِّيب، ويقال له: العصافير، ويسمّى الناردين، تقدّم ذكره.

(٢) الهرنوة: وتسمى شجرة العود وتنبت بين الشّحر وعُمان، تقدّم ذكرها.

(٣) خرطه: قطّعه. (٤) النّطع: بساط من جلد.

(٥) السّفن: جلد خشن غليظ كجلود التماسيح، «يريد الوعاء منه».

(٦) الظروف: مفردها الظّرف، وهو الوعاء.

(٧) نشه: يقال: نششت الدّهن بالطّيب إذا ربّبته به، وفي حديث الزّهري: أنّه كره للمتوفّى عنها زوجها الدُّهن الذي ينشُّ بالريحان أي يطيّب بأن يغلى في القدر مع الرّيحان حتى ينش. انظر: =

قال التِّميميّ: ورأيتُ أبا سعيد العطّار يُؤثِر أن يُهشّم القرفةَ والقَرَنْفُلَ والهَرْنُوَة، ويَجمَع ذلك مع السُّنْبُل في إناءٍ كبير، ويَصبّ عليه من الماء الحارِّ ثلاثين مَنًّا، وينقعه فيه يومين وليلتين، ثم يصفّى ويُعزَل، ويَصُبّ على الأفواه[1] ماءً حارًّا عشرين مَنًّا، ويصفّى على الماء الأوّل في سَفَن[2]؛ ثم يَطبخ به البانَ الأوّل في ثلاث سَقَياتٍ وهو على النار، كلّما نَشِف ثلثُ الماء صبّ عليه الثُلُث الآخَر فإذا انتهى يبرَّد ويُوعَى في ظروفه حتى تُثَنَّى الأفواهُ بماءٍ ثانٍ للبان الثاني، وتُطبَخ به على الرسم.

وقال: هذا أروَح وأخفُّ مؤونةً من تكرار الطبخ بكلّ نوع على حدته إلّا الصَّنْدَل والعُود، فإنّه لا بدّ من طبخهما بماء؛ كلٌّ منهما على الانفراد.

قال: ورأى سعيدُ بنُ عمّار البانيُّ[3] وأبو عمرانَ بنُ الحارث البانيُّ أن يُطبَخ البانُ بالماء والأَفاوِيه جميعًا بعد نقعها، ولا يصفّى الماءُ عنها.

وقالا: طبخ البان بالأَفاويه مع الماء أقوى له، لأن البان ينمحق[4] في الأَفاوِيه. وقال سعيدُ بنُ عمّار: تُسلَق الأفاوِيهُ بعد إخراجها من البان، كلُّ صِنفٍ منها على انفراده، ويؤخذ ماءُ كلّ صِنفٍ منها على حدته، ويُترَك بما بَقِيَ فيه من البان ويُعجَن به السُّكّ كما ذكرناه قبلُ.

قال التَّميميّ: وأنا أرى عجنَ السُّكّ بأفواهٍ قويّةٍ منقوعةٍ خيرًا وأفضل. وقال: عَرَضْتُ هذه النُسْخَة التي اخترعتُها ـ وهي التي تقدَّم ذكرُها ـ على أبي عمران موسى بن الحرّان البانيِّ فعَجِب من ذلك، وقال: والله إنّ هذه الطريقَ لَطريقي في عمل البان وطريقُ كلِّ حاذق، ما عدوتَ منها شيئًا، وما كنت أظنّ أحدًا يصل إلى عِلْمِ مثلِ هذا من عند نفسِه من غير أن يأخذه عن صانع، والله أعلم.

صفة نَشِّ[5] البان[6] على رأي أبي عمران البانيّ

قال أبو عمران: إذا أردتَ نَشَّ البان فاسحق للعشرين مَنًّا منه بعد أن يَبْرُد

= اللّسان، مادة نشش.

(١) الأفواه: مفردها «الفُوة» وهو الطّيب، أو التابل.

(٢) السّفن: يريد هنا الوعاء المتّخذ من جلد خشن غليظ كجلد التمساح.

(٣) الباني: نسبة إلى شجر البان.

(٤) ينمحق: يذوب ويختلط بالأفاويه إلى الحدّ الذي لا يمكن تمييزه عنها.

(٥) النشّ: هو خلط الطّيب بغيره من المواد المستخدمة في صناعة الأدهان.

(٦) البان: شجر ليّن ورقه طويل زهره أبيض يستخدم ثمره في صناعة الطيب.

ويَجْلِس[١] من المِسك التُّبَّتيِّ مثقالين، ومن سُكِّ المِسك المرتفِع أربعةَ مثاقيل وانخلهما بحريرة، واعجنهما بماءِ ورد، ثم حُلَّهما بماء الورد بعد عجنهما حتى يصيرا مِثلَ الحَسَاء، وصُبَّهما على البان الذي تريد نَشَّه في قِدرٍ جديدةٍ مُعَدّةٍ للنَّشّ واجعله على الكانون الذي يسمّونه (نافِخَ نفسِه)[٢]، أو غيرِه، وأَوْقِد تحته بنارِ فَحَمْ، وحرِّكه بقصبةٍ فارسيّةٍ دائمًا وهو يغلي حتى يَنْشَف ماءُ الورد، وعلامة ذلك أن يَعلَق المِسكُ والسُّكُّ برأس القصبة مِثلَ الشَّمع أو مِثلَ الغالية، فأنزِله عند ذلك عن النار واتركه حتى يَبْرُد، وارفعه.

وأمّا نَشُّه على ما ورد في كتاب العطر المؤلَّف للمعتصم بالله ـ فهو أن تأخذ من البان الأصليِّ الأوّلِ الجيّدِ رطلين، فتجعلهما في طِنْجِيرِ بِرامٍ جديد لم يدخله شيءٌ غيرُ البان، ثم خذ لهما من السُّكّ المثلَّث المرتفِع أوقيّة، ومن العُود الهنديِّ أوقيّة، واسحق كلَّ واحد منهما، وانخله بحريرة، ثم اعجنهما بماء الورد حتّى يصيرا أرقَّ من الحَسَاءِ المصنوعِ من الدّقيق، وصُبَّهما على البان في الطِّنْجِير وارفعه على نارٍ ليّنةٍ حتى يغليَ غليانًا رفيقًا وأنت تحرّكه دائمًا بأنبوبةِ قصبٍ فارسيٍّ حتّى يَنشَف ماءُ الورد، ويَعلَق السُّكّ والعُودُ برأس الأنبوبة، فأنزِله حينئذ عن النار، ودَعْه حتى يَبْرُد، وصَفِّه في إنائه، ثم انزِع ما في أسفل الطِّنْجير من السُّكِّ والعُود برأس سكّين، أو بمِلعقةٍ من حديد، واعزله لعمل الغالي؛ ثم اغسل الطِّنْجِير غسلًا جيّدًا، وجفِّفه، وأَعِد إليه البانَ الذي نششتَه بالسُّكّ والعُود، واسحق للرِّطلين من المِسك أوقيّة، ومن العنبر الشِّحْرِيِّ أوقيّة، وانخل المسكَ بحريرةٍ صفيقة[٣]، والعنبرَ بخامَة[٤]، ثم اجمعهما على الصَّلاية، واسحقهما جميعًا، ثم حُلَّهما بماء الورد مثلما حللتَ السُّكَّ والعود، وصُبَّهما في الطِّنْجِير على البان، وارفعه على نارٍ ليّنة، وأَدِمْ تحريكَه بأُنْبُوبة القَصَب، ولا تَغفُل عن تحريكه، وتكون نارُه الآن أَلْيَنَ من النار الأُولى التي نَشَشتَ بها السُّكَّ والعود، فإذا نَشِف ماءُ الورد وتَعلَّق المِسكُ برأس القصبة، فأنزِله عن النار، وبرِّده، وارفعه.

---

(١) يجلِس: يجمد ويغلظ بعد أن كان مائعًا.

(٢) نافخ نفسه: تنور يكون له أسفل على ثلاث قوائم، مثقّب الحيطان، وله دكان من طين يوقد، يوضع عليه الدواء في كوز مطيّن في موضع يصفقه الرّيح.

(٣) الصفيقة: الجيدة النسج الكثيفة.

(٤) الخامة: واحدة الخام، وهو ما لم يستعمل أو يغسل من القماش.

قال: ونشَّ على أثَرِه بما بقي في الطِّنجِير من ثُفْل[١] المِسك والعنبر بانًا ثانيًا يكون دون الأوّل.

وأمّا دُهن الزَّنْبَق[٢] وما قيل فيه ـ فمنه أصليٌّ خالص، ومنه مولّد؛ فأمّا الخالص فمعروف، ولم أقِفْ على كيفيّة عمله فأذكُرَها.

وأمّا المولَّد[٣] ـ فقد ذكره التَّميميّ، ونَقَله عن الكتاب المؤلَّف للمعتصِم، فقال: تأخذ من الشَّيْرَج[٤] الرائق مَنًّا، فتصبّه في طِنْجِيرِ برام، ثم تأخذ من ورد النِّسْرين[٥] أوقيّة، ومن بِزْر الشاهِسْفَرم[٦] غير المفروك وورقِه من كلٍّ واحد منهما أوقيّة، ومن بِزر النِّسْرِين نصفَ أوقيّة، ومن زهر الياسَمِين الأبيض الطريِّ الغَضِّ لُقاط يومِه[٧] نصفَ رطل، ومن بِزر الورد الأحمرِ الطريِّ نصفَ أُوقيّة، ومن قُضبانِ قلوب شجر البَلَسان[٨] الطريّة خمسة قُضْبان أو ستّة، وإن تعذَّرت الطرية فخذ من لحائه الجافِّ أوقيّةً ونصفَ أوقيّة، ومن الصَّنْدَل الأصفر نصفَ أُوقيّة، واقسم هذه الأصناف وانقعها في ماء ورد ونَضُوحٍ وماءِ ريحانٍ مصعَّد من كلّ واحد نصفُ رطل، واتركها يومًا وليلة منقوعة، ثم ألقِ ذلك على الدُّهن مع الياسَمِين الطريِّ الأبيض، ثم ارفعه على نارٍ ليّنة، وحرِّكه بشِقَّةِ قَنا[٩] حتى تَنْشَف المياه التي نقعت فيها الأصناف، فأنزِل الطِّنْجِير عن النار، وأحكِم تغطيته لوقته، واتركه إلى الغد، ثم صَفِّ الدُّهن عن

(١) الثفل: ما رسب في الوعاء من كدرة.

(٢) الزّنبق: هو الياسمين الأبيض، ودهن الياسمين هو دهن الزنبق، «تقدّم ذكره».

(٣) المولّد: المستخرج حديثًا من كلّ شيء. (٤) الشيرج: دهن السّمسم.

(٥) النّسرين: ورد صغير أبيض وأصفر، تشبه شجرته شجرة الورد، ولشجرته شوك مثل شوك العلّيق، وهو عطريّ قويّ الرائحة، وكلّما بعد عن الماء كان أقوى رائحة، سمّاه بعض الناس «الورد الصيني».

(٦) الشاهسفرم: لفظ فارسي معناه ريحان الملك، وهو الحبق الكرماني، عطر الرائحة، وقد ذكره الأعشى في قوله:

وشاهسفرمْ والياسمين ونرجسٌ ... يصبّحنا في كلّ دجنٍ تغيّما

انظر: ديوان الأعشى، ص ١٨٧.

(٧) لقاط يومه: أي ما قطف في اليوم نفسه.

(٨) البلسان: شجر ينبت جماجم كالرّيحان، ثم يتعاظم حتى يكون كشجر البُطم، إذا أحسنت تربيته، ويؤذيه ما يؤذي الإنسان من الحرّ والبرد، تعظمه النّصارى «تقدّم ذكره». أمّا المقصود بقلوب شجر البلسان: أي ما كان في وسطها غضًا طريًا قبل أن يقوى ويصلب، وفي عبارة أخرى: أن قلوب الشجر ما رخص من أجوافها وعروقها.

(٩) القنا: الرّمح، وشقّة القنا: هي هنا شقّة عذق النخل أو عنقوده، أو هي شقة قصبة تحرّك بها المياه.

الثُّفْل(١)، فإذا بَرُد فألق على كلِّ مَنٍّ مِنْ هذا الدُّهن رِطْلًا من الزَّنْبَق المصريِّ الجيّد ثم بِعْه على أنّه زَنْبَقٌ خالص.

قال: وإن شئت فخذ من دُهن الشَّيْرَج الرائق العتيق، واجعله في دَسْتَجَةٍ(٢)، وألْقِ على كلِّ رِطلٍ منه في بُكرة النهار الأوّل من زَهر الياسَمِين الطريِّ الأبيض الذي لا نَداوة فيه أوقيّة، وسُدَّ رأسَه(٣)، واجعله طولَ النَّهار في شمسٍ حارَّة، ثم افتحه من الغد، وألقِ عليه من الياسَمِين نصفَ أوقيّة، ودرِّجه في كلِّ يوم بنقصِه(٤) درهمًا حتى يبقَى وزن درهم، فألْقِه فيه في كلِّ يوم إلى تمامِ أربعة عشر يومًا، ثم اقطع عنه الياسَمِين، ودَعْه أربعة عشر يومًا في الشمس حتى ينطبخ، فإذا انضمّ الزَّهر الذي ألقيتَه في الدُّهن، فألقِ عليه في كلِّ يوم وزنَ درهم أو درهمين من زهر الياسَمِين سبعةَ أيام، ثم دعه سبعة أيّام، وألقِ عليه سبعةَ أيام، ثم اقطع الإلقاءَ عنه ودَعْه في الشمس تمامَ ستّين يومًا حتى يَجفّ الزهر؛ ثم صَفِّه على شِقَّةِ غِرْبال وخذ ما صفا منه فأَوْدِعْه القَوارير(٥)، وأحْكِم سَدَّها، فهذا زَنْبقٌ غايةٌ لا بعده.

وأمّا دُهنُ الحَماحِم(٦) وما قيل فيه

فقال محمدُ بنُ العبّاس: يؤخذ من رؤوس الحَماحِم السُّود أوّل ما تَظهر قبل أن تَبْرُز، ومن ورقِه الصغيرِ الأخضرِ الذي يُجنَى منه، فيُعزَل، ويؤخذ تَوْرُ حجارة، أو بُرْمَةٌ جديدة، تُغسَل غسلًا جيّدًا ويُصَبّ فيها قَدْرُ رِطلٍ ماءَ وردٍ جُورِيّ، ويُطرَح فيه الحَماحِمُ والورقُ مع عشرين حَبَّةً من حَبِّ القَرَنْفُل الزَّهر، ويُصَبّ على ذلك من دُهن الخِيريِّ الكوفيِّ الفائق(٧) والزَّنْبَق السابوريّ(٨) لكلِّ عشرة رؤوسٍ من الحَماحِم

(١) الثُّفل: ما رسب في قعر الإناء من كدرة.

(٢) الدستجة: الإناء الكبير من الزّجاج، وهو معرّب «دستة» بالفارسيّة.

(٣) سُدّ رأسه: أي سدّ فوهته، وأحكم غطاءها.

(٤) بنقصه: أي بنقص الياسمين الذي يلقى فيه يومًا بعد يوم.

(٥) القوارير: مفردها «قارورة» وهي إناءٌ من زجاج إجمالًا مستطيل الشكل، يجعل فيه الشّراب والطّيب.

(٦) الحماحم: هو الحبق الكرماني، أو الحبق البستاني، ويسمّى الحبق النبطي وهو عريض الورق، له أغصان خضر مربّعة خوّارة، ونورٌ أبيض وسمّاه داود في التذكرة ١/٢٤٦: حبق السودان، وقال أبو حنيفة: الحماحم: بأطراف اليمن كثير وليس ببرّي، ويعظّم عندهم.

(٧) الفائق: الجيّد الخالص في نوعه.

(٨) السّابوري: نسبة إلى سابور وهي كورة مشهورة بأرض فارس ومدينتها النوبندجان وأصلها لفظ شاه بور أي ملك بور، وبور: الابن بلسان الفرس. معجم البلدان ٣/١٦٧.

الضخمة رِطلٌ من الخِيريِّ والزَّنْبَق، ثم اغلِه بنارِ فَحْم ليِّنةٍ حتى يَنْضَج الحَماحِم؛ ثم خُذ مثقالَ عُودٍ هنديٍّ مسحوق ومِثلَه من السُّكِّ المرتفِع، ونصفَ مثقال من الكافور، ووَزْنَ دانِق[١] من المِسْك يُعْجَن ذلك بزَنْبَق، ويبخَّر، ويقلَّب بعد كلِّ ثلاثِ بندات[٢]، ثم يصفَّى الدُّهن من فوق الحَماحِم، وتُعصَر حتى لا يَبْقَى فيها شيءٌ من الدُّهن، ثم صُبَّ الدُّهنَ على الأَفاوِيهِ المبخَّرة، ويحرَّكُ في باطِية، ويُترَك أربعةَ أيّام حتّى يصفو؛ ثم تُبخَّر قارورةٌ نظيفةٌ بسُكٍّ وكافورٍ وعُود؛ ثم صُبَّ فيها الدُّهن، وحُلَّ فيه من المِسك ثُلُثَ مثقال أو أكثر فإذا أردتَ استعمال شيء من الدُّهن فحرِّك القارورة، ومَن أحبَّ أن يزيده دُهنًا مبخَّرًا ويَفْتِقُه[٣] بشيءٍ من كافورٍ فَعَل.

وأمّا دُهن الخِيريّ[٤] ـ فمنه أصليّ، ومنه مولَّد:

فأمّا الأصليُّ الخالص، فلم أَقِفْ على كيفيّة عملِه.

وأمّا المولَّد ـ فقد ذَكَره التَّمِيميّ عن الكتاب المؤلَّف للمعتصم، فقال: تأخذ من الشَّيْرَج[٥] الصافي مَنًّا فتصبّه في طِنْجِير بِرام، وتأخذ له من بِزر الحَماحِم وزنَ ثلاثة دراهم، ومن بِزر الأَفْرَنْجَمَشْك[٦] خمسةَ دراهم، ومن ورقِه عشرةَ دراهم، ومن ورق الحَماحِم وقلوبِه[٧] ستّةَ عشر درهمًا رَطْبًا كان أو يابسًا، ومن بِزر الخِيريِّ الخَمْريِّ والأَسْمانجُونيِّ[٨] الطريِّ النقيِّ من خضرتِه من كلِّ واحد خمسةَ دراهم، ومن بزر

(١) الدّانق: سُدس الدّرهم.
(٢) البندات: يريد بالبندات هنا: المرّات من التبخير، فكلّ تبخيرة تسمّى بندة، وفي الصفحات التالية يفسّر المؤلّف ذلك عندما يقول في الصفحة: ١٠٦ طبعة دار الكتب المصريّة: ثمّ تبخّر الدهن على انفراده سبع بندات بالعود والكافور.
(٣) يفتقه: أي يستخرج رائحته بنوعٍ آخر من الطّيب الذي يمزج به.
(٤) الخيري: هو النّبات المعروف بالمنثور أو الخزامى. تقدّم ذكره.
(٥) الشّيرج: دهن السمسم.
(٦) الأفرنجمشك: ومعناه مسك الإفرنج، وهو عشبٌ دقيق القضبان، يستعمل في الأكاليل، طيّب الرائحة، وقد ذكر صاحب كتاب عمدة المحتاج أو المادة الطبية ٥٣٦/٢ أن النوع الشهير من هذا الجنس وهو الذي نحن بصدده يكثر وجوده نحو أواخر الصيف في الغابات وساقه تعلو من خمسة ديسيمترات إلى ستة، وهي زغبيّة بسيطة في العادة وأزهاره مهيّأة بهيئة إحاطية في قمّة النبات، والغالب كونها ورديّة، وقد يختلف هذا اللون أحيانًا، بل قد يكون لونها أبيض.
(٧) قلوبه: أي ما يكون في وسطها غضًا طريًا، أو ما رخص من أجوافها وعروقها.
(٨) الأسمانجوني: الذي لونه لون السّماء، وهو لفظ فارسي من كلمتين: آسمان: أي السّماء، =

الخِيريِّ الأصفرِ أربعةَ دراهم، ومن ورق الورد الأبيض ربعَ أوقيّة؛ ومن قلوب الأُتْرُجِّ[1] الورق الرَّطب ووَرْدِهِ المفتَّح وورد النارَنْج[2] الطريِّ وقشرِه من كلّ واحدٍ نصف أوقيّة، ومن قلوب النَّمّام[3] الطريِّ أوقيّة، ومن الصَّنْدَل الأصفرِ ربعَ أوقيّة؛ يُرَضّ الصَّنْدَل مع ما كان من الأوراق اليابسة والبُزور، ويُنقَع بماء الورد وبماء زَهر الخِيريِّ المصعَّد[4] يومين، وتُلقَى الأزهارُ والأوراقُ وماءُ الورد والخِيريُّ المنقوعُ فيه على الدُّهن، ويوقَد تحتَه[5] بنارٍ ليّنة، وأنت تحرّكه تحريكًا مستمرًّا بشِقَّةِ قَنا، حتى إذا علمتَ أن الدُّهنَ قد قبل روائح ما استودعَته، أنزلتَ الطِّنْجِير وغَطَّيته ليلة ثم تصفِّي الدُّهْنَ في القوارير، وإن شئتَ خلطتَه بدُهنِ خِيريٍّ فجعَلتَ على المنّ منه من هذا الدُّهن رطلًا، أو على الرِّطل منه مَنًّا، فإنّه يأتي غايةً في الطِّيب؛ وقد يباع هذا الدُّهنُ مُفرَدًا بسعر الخِيريِّ الخالص. قال: وإن أردتَ أن تجعل منه غيرَ مطيَّب، فخذ الشَّيْرَج واجعله في قارورة، وألقِ على كلِّ رطل من الشَّيْرَج أوقيّةً ونصفًا من زَهر الخِيريِّ الخَمْريِّ والاسْمانجُونيِّ[6] الطريِّ الّذي لُقِط عند غروب الشمس، وتلقيه فيه من أوّل الليل، ثم تعلِّق القارورةَ في بئرِ ماء عشرةَ أيّام، ثم تجعلها في الشمس عشرةَ أيّام، وتضع فيه في كلِّ عشيّة من زَهر الخيريِّ الاسْمانجُونيّ والخَمْريِّ لُقاطِ وقتِه[7] في كل يوم وزنَ ثلاثة دراهم، ثم يعاد إلى البئر عشرةَ أيّام؛ ثم يُخرَج ويعلَّق في الشمس، ويُجَدَّد له زَهرٌ كرّةً ثالثة[8]، ويُترَك في الشمس حتى يَجِفَّ ورقه، ويصفَّى بمُنْخُل فيأتي دُهنَ خِيرِيٍّ يُضرَب المَثلُ بطِيبه، والله أعلم بالصواب.

وأمّا دُهن التُّفّاح وما قيل فيه ـ فأجوَدُه ما ألّفه التَّميميُّ فقال: تأخذ من دُهن الخِيرِيِّ ودُهنِ الورد من كلِّ واحد نصفَ مَنٍّ، فتخلطهما في ظَرف وتأخذ من ورق

= وكون: أي اللّون. انظر: الألفاظ الفارسيّة المعربّة ص ٨٤.

(١) الأترُجّ: شجر وثمر من جنس اللّيمون تسمّيه العامة «الكبّاد».

(٢) النّارنج: نوعٌ من الليمون يعرف عند بعض العامّة بـ«اليوصفير» تتّخذ منه المربّيات.

(٣) النّمّام: هو نوعٌ من النعنع، وسمّي نمّامًا لسطوح رائحته فكأنه ينمّ بريحه على نفسه، تقدّم ذكره.

(٤) المصعّد: أي الذي يتصاعد بالتبخير. (٥) تحته: أي تحت الدّهن.

(٦) الأسمانجوني: الذي لونه لون السماء، لفظ فارسيّ معربّ، تقدّم ذكره.

(٧) لقاط وقته: أي الذي قطف في اليوم نفسه. (٨) كرّة ثالثة: أي مرّة ثالثة.

الآس[١] الغَضّ ما أحببتَ، فتدقّه بشيءٍ من الماء القَراح[٢]، وتستقطره في قابلة[٣]، وتأخذ مما قَطَر منه زنةَ مائة درهم، ومن ماء الزعفران المُصعَّد[٤] خمسين درهمًا، وتخلطهما في بَرْنِيّة، وتصبّ عليهما من ماء الورد ثلاثَ أواقيّ، وتدقّ من المحلب[٥] المقشَّر مائةَ درهم، وتعجِنه بنصف أوقيّةٍ مَيْعةٍ[٦] حمراءَ سائلةٍ عجنًا شديدًا وتعزِله، ثم تأخذ من قشور التُّفّاح الشاميِّ البالغِ الطريِّ رِطلًا فتلقيه في المياه وتغليَها عليه، ثم تَمرُسه مَرْسًا جيّدًا، وأنزِله عن النار، ثم ألقِ فيه أوقيّةً من فاغِية[٧] الحنّاء[٨] وجُرْزَةً[٩] من ورق النَّمّامِ[١٠] الطريّ، وتُلقِي المَحْلَب المعجونَ بالمَيْعة في الدُّهن وتضربه به ضربًا جيّدًا، وتسحق له من القَرَنْفُل مثقالين، ومن السُّنْبُل مثقالين وتنخل ذلك، وتضيف إليه أوقيّةَ ذَريرةٍ[١١] ممسَّكةٍ مفتوقة، وتَعجِن الجميعَ بنَضُوحٍ[١٢] عتيق، وتخمِّره يومين في باطيةٍ[١٣] بالعود والكافور، وألْقِه في الدُّهن الّذي حَللتَ فيه المَحْلَب، واضربه به، ثم اقلبه على المياه الّتي فيها قشورُ التُّفّاح والفاغيةِ والنَّمّام وأَحْكِمْ سَدَّ رأسِ الإناء، وضَعْه في شمسٍ حارّةٍ سبعةَ أيّام، وحرِّكه في كلِّ يوم ثمّ ارفعه بعد الأسبوع في طِنْجِيرٍ على نارٍ ليّنة، واطبخه حتى يَنْشَفَ الماء، ثم برِّده واقطِف الدُّهن في ظَرْفٍ مبخَّر، وافتقه[١٤] بمِسكٍ وكافورٍ من كلّ واحد سدس مثقال؛ فهذا دُهنُ التُّفّاح الفاخر.

---

(١) الآس: نبات ذو ثمار كرويّة بيضاء وسوداء، ورقه عطر خضرته دائمة يسمّى أيضًا «الرّيحان»، ويعرف بـ «الحنبلاس».

(٢) القراح: الخالص الذي لم يمزج بشيء.

(٣) القابلة: إناء يحمل رطلًا واحدًا، يجعل فيه ميزاب الأنبيق.

(٤) المصعّد: يقال: صعّدت الشراب: إذا عالجته بالنّار حتى يحوّل عمّا هو عليه طعمًا ولونًا.

(٥) المحلب: شجرٌ له حبٌّ، يجعل في الطّيب.

(٦) الميعة: صمغ عطر يُتطيب به.

(٧) الفاغية: يقصد بها إمّا زهر الحنا أو ثمرهُ.

(٨) الحنّاء: شجرٌ لا يوجد بدون الماء، ويعظم حتى يكون شجرًا كبيرًا، قال بعضهم: إنه قد يقارب السّدر أي النّبق، ويوجد بجزائر السّوس وما يليها وهو كثير في مصر، كما يوجد في فارس والهند وأمريكا. انظر: عمدة المحتاج ١/٥٥٩.

(٩) الجرزة: الحزمة.

(١٠) النمّام: هو نوعٌ من النعنع، تقدّم ذكره.

(١١) الذّريرة: نوعٌ من العطر يجاء به من الهند، وهو ما فتحت من قصب الطّيب.

(١٢) النضوح: طيبٌ فوّاح الرّائحة.

(١٣) الباطية: إناء كبير من زجاج يوضع فيه الشّراب.

(١٤) فتق الطّيب: أي استخرج رائحته بطيبٍ آخر.

وأمّا الأدهان المركَّبة العَطِرَة ـ فقد ذكَر منها التَّمِيميُّ وغيرُه كثيرًا؛ وقد اقتصرنا منها على أطيبِها وأجوَدِها وأَعْطَرِها.

فمنها دُهنٌ أَلَّفه التَّميميُّ فجاء غاية، وسمّاه: الدُّهنَ الفَيْح[١]، تُعمَل منه غالية رفيعة. قال: وهذا الدُّهن يفوق البان طِيبًا، وتُدهَن منه في الشتاء الأطرافُ والوجهُ فيفوق كلَّ دُهنٍ طيّب؛ تأخذ من دُهن الورد الفارسيِّ[٢] الطريِّ ثلاثَ أواقيّ، ومن الزَّنْبَق السابوريِّ الرُّصافيِّ[٣] أو المصريِّ أوقيّتين، ومن دُهن البنفسَج أوقيَّتين، ومن دُهن الخِيريِّ أوقيّتين، ومن البان المَنْشُوش[٤] بالمسك أوقيّتين، ومن دُهن النرجس أوقيّة، تُجمَع هذه الأدهانُ في خماسيّة[٥]، ثم تأخذ من العود الجيّد الفائق وزنَ دِرهم ونصف، ومن الصَّنْدَل الأصفر المحلولِ بماء الورد المخمَّر بالزَّهر والنَّمّام[٦] وزنَ دِرهم، ومن السُّكِّ المرتفِع وزنَ دِرهم، ومن زَهر القَرَنْفُل الذكيِّ نصفَ مثقال، ومن الهَرْنُوَةِ[٧] مثلَ ذلك، ومن السَّلِيخة[٨] التُّفّاحيّة وزنَ درهم، فتدقّ ذلك وتسحقه، وتنخله بحريرة، ثم تضيف إلى هذه الأصناف من الزّعفران القُمِّيِّ[٩] المسحوقِ وزنَ دانِقين[١٠]، ومن الكافور الرِّياحيِّ[١١] نصفَ مثقال، ومن المِسك ربعَ مثقال، ومن النَّدِّ مثقالًا، تسحق المسكَ والنَّدّ وتضيف إليهما الكافورَ بعد سحقِه على الانفراد والزّعفران؛ ثم تَعجِن الجميع بشيءٍ من الدُّهن، وتُقطِّر فيه من دُهن البَلَسان[١٢] زنةَ

---

(١) الفيح: أي الذي تفوح رائحته، فاح يفيح فيحًا المسك ونحوه: انتشرت رائحته.

(٢) الفارسيّ: نسبة إلى فارس، وهو الورد الجوريّ.

(٣) الرّصافي: نسبة إلى الرّصافة وهي ضيعة بنيسابور، تسمّى رصافة نيسابور. انظر: معجم البلدان ٣/ ٤٩.

(٤) المنشوش: أي الذي ربّبته بالطّيب وخلطته به.

(٥) الخماسيّة: آنية تسع خمسة من مقادير مخصوصة، أرطال أو أواقي أو غيرها.

(٦) النمّام: نوع من النبات يشبه النعنع، ينمّ برائحته فيُعرف.

(٧) الهرنوة: وتسمّى شجرة العود، تنبت بين الشحر وعمان، تقدّم ذكرها.

(٨) السّليخة: نبات عطري كأنه قشرٌ منسلخ ويسمّى بما معناه «القرفة الغليظة»، تقدّم ذكرها.

(٩) القمّي: نسبة إلى قُمّ، وهي مدينة مستحدثة في الإسلام لا أثر للأعاجم فيها، وأوّل من مصّرها طلحة بن الأحوص الأشعري، وبها آبار ليس في الأرض مثلها عذوبةً وبردًا. معجم البلدان ٤/ ٣٩٧.

(١٠) الدانق: سُدسُ الدّرهم.

(١١) الرّياحي: سمّي الرّياحي لتصاعده مع الرّيح. تذكرة داود ٢/ ١١٦.

(١٢) البلسان: شجرٌ ينبت جماجم كجماجم الرّيحان ثم يتعاظم حتى يكون كالبطم، يعظّمه النصارى، تقدم ذكره.

دانِق، ومن دُهن الأُتْرُجّ زنةَ دانِقين وتضربه ضربًا جيّدًا، ثم تخلطه بالدُّهن، وتضربه به حتى يَختمر، وتقيم سبعةَ أيّام تضربه كلَّ يوم، وتبخِّره في السبعة أيّام إحدى وعشرين بندة برمكيّة رفيعة، وبمِثلها من العود الصِّرف، وبمِثلها من العود والكافور، وتضربه بالبَخور والثُّفْل الذي فيه ضربًا جيّدًا في كلّ مرّة تبخِّره، فإنّه يأتي عَجَبًا في الطِّيب والذَّكاء، فإنْ أحببتَ رَفْعَه فحُلّ له نصفَ مثقال من العنبر الأزرق بشيءٍ منه، وألقِ فيه ربعَ مثقال من المِسْك المسحوق؛ واضربه به حتى يصير مثلَ الغالية، ثم صُبّه عليه، وأنعِم ضَرْبَه، فإنّه يرفعه ويطيّبه.

صنعة دُهن آخَرَ من الكتاب المصنّف للمعتصم بالله

تأخذ من العود الهنديّ أوقيّة، ومن السُّنْبُل مثقالًا، ومن الصَّنْدَل الأصفر مثقالًا، ونصفَ مثقال من الورد؛ يُدَقّ ذلك، ويخمَّر بمثقالٍ من سُكٍّ[1] مِسْكٍ محلولٍ بماء الورد، مرفوعٍ على النار، فتخمِّره به ليلة، ثم يُسحَق حتى يجفّ بالسَّحق ويُنخَل بحريرة، ويُعجَن بزَنْبَقٍ[2] سابُوريٍّ مرتفِع، ويدخَّن بمثَلَّثةٍ[3]، ثم تَهْضِمه[4] بعودٍ وكافور، ثم يُفْتَق بما أحبَّ صاحبُه من مِسكٍ وعنبر، ويؤخذ له من دُهن الخِيريّ العراقيّ نصفُ رطل، ومن دُهن الزعفران نصفُ رطل، ومن البان نصفُ رطلٍ مَنْشُوش[5]؛ تَجمَع هذه الأدهانَ في ءناء، وتبخّرها بالعود والكافور، ثم اخلطها بالمعجون المبخَّر، واضربها به ضربًا جيّدًا، واستودعه القَوارير، وافتُقْه بما أحببتَ من مِسكٍ وعنبر.

صنعة دُهن آخَرَ يسمَّى دُهنَ السيّدة

تأخذ من الزَّنْبَق[6] الرُّصافيّ المرتفِع ثلاثَ أَواقيّ، ومن دُهن الورد الفارسيّ أوقيّةً ونصفًا، ومن دُهن الخِيريّ[7] الخالِص أوقيّة، تَجمَع هذه الأدهانَ الثلاثةَ في إناءٍ واحد، ثم تأخذ لها من الهَرْنُوَةِ[8] وزنَ درهمين ونصف، ومن القَرَنْفُل الزَّهر مِثلَ

(١) السكّ: طيبٌ يتّخذ من الرّامك مدقوقًا منخولًا معجونًا بالماء، تقدّم ذكره.
(٢) الزّنبق: هو الياسمين الأبيض، ودهن الياسمين هو دهن الزّنبق.
(٣) المثلّثة: قطعة من الندّ المثلّث، يستخرج من العنبر والعود الهندي والمسك، تقدّم ذكره.
(٤) تهضمه: الهضم: نوع من البخور، وتهضمه هنا: أي تبخّره.
(٥) المنشوش: المربّب بالطّيب.
(٦) الزّنبق: هو الياسمين الأبيض، تقدّم ذكره.
(٧) الخيري: هو النبات المعروف بالمنثور، وهو الخزامى، تقدّم ذكره.
(٨) الهرنوة: وتسمّى شجرة العود، تنبت بين الشِّحر وعُمان، تقدم ذكرها.

ذلك، ومن الكَبابة[١] درهمين، ومن جَوزبُوا[٢] مِثلَ ذلك وبَسْباسَةً[٣] دِرهمًا، وزَعْفَرانًا دِرْهمًا، ومن الكافور ثُلثَ مثقال، تُسحَق الأفواه سحقًا جيّدًا، وتُعجَن بقليلٍ من الدُّهن، وتُلَطَّخ في باطن بَرْنيّة، ويُبخَّر الدُّهْنُ بالعود والكافور، ثم تصبّه في البَرْنيّةِ على الفِتاق[٤] المبخَّر، وتضربه به ضربًا جيّدًا، وتطرح فيه ثلاثةَ قلوب من قلوب الأَتْرُجّ، وإن قَطّرتَ فيه وزنَ نصف دِرهم من دُهن الأَتْرُجِّ أغناك عن قلوب الأَتْرُجِّ وجاء أطيَبَ، فإذا بَرُد وجَلَس[٥] فصَفِّ الدُّهن واستعمله على انفراده، ويؤخذ ثُفْلُه فيُعمَل في غُمَر[٦] الحمّام، فإنّه يكون عِطْرًا طيّبًا.

صنعة دُهن آخَرَ صُنِع للمأمون من كتاب يوحنّا بن ماسوَيه[٧]

تأخذ من الزَّنْبَق السابوريِّ خمسين درهمًا، ومن دُهن الورد الفارسيِّ الرفيع مِثلَ ذلك، ومن دُهن الخِيريِّ[٨] الرفيعِ مثلَه؛ تَجمع الأدهانَ الثلاثةَ في باطيةٍ أو قدحِ زُجاج أو بَرْنيّةٍ رحبةِ الفم، ثم يؤخذ من الورد خمسةُ مثاقيل، ومن الصَّنْدَل المَقاصِيريِّ[٩] الأصفرِ خمسة مثاقيل، ومن القاقُلّة مثقال، ومن الكبابة[١٠] مثقال، ومن القَرَنْفُل مثقال؛ يُدَقّ ذلك ويُنْخَل، ويُعجَن بزنبقٍ سابُوريٍّ عجنًا يابسًا، ويُبسَط في باطيةٍ أو

(١) الكبّابة: ثمر نبات، يجلب من الصّين، منها كبيرة تسمّى حبّ العروس، ومنها صغيرة تسمّى «الفلنجة» شجرها كالآس، وأجودها الرّزين الطيّب الرائحة، تقدّم ذكرها.

(٢) جوزبوا: بتشديد الواو: وهو في مقدار العفص، سهل المكسر، رقيق القشر، طيّب الرائحة، حاذّ، وأجوده الأحمر، يسمّى جوز الطّيب. انظر: عمدة المحتاج ٢/٣٢١.

(٣) البسباسة: قشر جوز بوّا، أو جوز الطّيب، أو شجرتها أو أوراقها، تقدّم ذكرها.

(٤) الفتاق: ما فتق بالدّهن، أي ما طيّب به، يقال: فتق الطّيب، أي: طيّبه وخلطه بعود، وقيل: الفتاق: أخلاط من أدوية تفتق.

(٥) جلس: أي غلظ وجمُد بعد أن كان مائعًا.

(٦) الغُمر: جمع غُمرة، وهو دواء مركّب، يجلو الوجه ويبيّضه، وإضافته إلى الحمّام لاستعماله فيه.

(٧) هو يوحنّا بن ماسويه أبو زكريا، من علماء الأطباء، سريانيّ الأصل، عربيّ المنشأ، عهد إليه الرشيد بترجمة كتب الطبّ القديمة، وجعله أمينًا على الترجمة، له آثارٌ عديدة، توفي بسامرّا سنة ٢٤٣ هـ. الأعلام ٨/٢١١.

(٨) الخيري: النبات المعروف بالمنثور، وهو الخزامى.

(٩) المقاصيري: نسبة إلى بلدة بالهند تسمّى مقاصير، أو لأن بعض الخلفاء أمر أن تصنع منه مقاصير لأمّهات أولاده وسراريه.

(١٠) الكبّابة: ثمر نبات يجلب من الصّين يسمّى الكبير منه حبّ العروس، والصغير «الفلنجة».

قدحِ زُجاج أو بَرْنيَّةٍ بسطًا رقيقًا، وتبخِّره بعودٍ صَنفيٍّ[١] وكافورٍ رياحيّ وسك مِسْكٍ فائقٍ ثلاثةَ أيّام في كلّ يوم ثلاث بندات[٢] بالغداة، وثلاث بندات بالعشيّ؛ فإذا أردتَ أن تصبّ عليه الدُّهن فبخِّره أيضًا بنصف مثقالِ عودٍ هنديّ، ونصف مثقالِ كافورٍ رياحيّ، ونصف مثقالِ عنبر؛ تَجمَع ذلك جميعًا، وتُقطِّع عليه من الزعفران الشَّعْرِ زنةَ دانق؛ ثم تبخِّر بجميعها الأفاويه التي عجنتَها في بَرْنيّةٍ رحبةٍ ضيّقةِ الفم ثلاث تبخيرات، ثم تبخِّر الدُّهنَ على انفراده سبعَ بندات بالعود والكافور، وتصبّه على إثْرِ تبخيرك للفتاق الممسَّك في البرنيَّة، وتسدّ رأسَها، وتَضرِب الدهنَ فيها بالفِتاق حتى ينحلّ به ويمتزِج، وتسُدّ رأسَ البَرْنيّة على الدّهن والثُّفْل سَدًّا جيّدًا حتى يَبْرُد[٣]؛ ثم أفرِغ الدُّهنَ في قدح، وبخِّر البَرْنيّة، وأَعِد الدُّهنَ إليها، تفعل ذلك حتى يَنْفَدَ ما أعددتَه للتبخير من العود والعنبر والكافور والزعفران، فإذا فرغ ذلك فَحُلَّ الأفاويهَ المبخَّرة فيه، وحرِّكها به حتى تختلط به، ودعه يومين وليلتين، ثم صفِّه عن الأفاوِيه، وارفعه في قارورةٍ ضيّقةِ الفم، وأحكِم سدَّها، ثم صُبّ على الثُّفْل الذي صَفَّيتَ عنه الدُّهنَ من الزَّنْبَق السّابُوريِّ ثلاثين درهمًا، ومن دُهن الورد الفارسيِّ مِثلَ ذلك، ومن دُهن الخِيريِّ الكوفيِّ مثلَ ذلك بعد أن تَجمع هذه الأدهانَ الثلاثةَ في بَرْنيّة، وتبخِّرها بالعود والكافور حتى تشبع؛ ثم تصبَّها إذا بَرَد بخورها على الثُّفْل، وتضربها[٤] به ضربًا جيّدًا، وتحرّكه تحريكًا جيّدًا سبعةَ أيّام، في كلّ يوم ثلاثَ مرّات؛ فإذا أردتَ رفعَه ألقيتَ فيه زنةَ دِرهم من الزعفران المطحون، وزنةَ دانقٍ ونصفٍ من الكافور الرِّياحيِّ[٥] المسحوق، وزنةَ دانِقٍ من المِسك المسحوق، وزنةَ دِرهم من العنبر المحلول على النار بشيءٍ منه وتضربه بذلك ضربًا جيّدًا؛ ثم تصفِّي الدُّهنَ الثاني عن الثُّفْل في قَواريرَ، وتُحكِم سَدَّ رؤوسها، ويؤخذ الثُّفْل ويُستعمَل في لخالِخ[٦] الحمّام، فإنّه نهاية؛ والله أعلم.

---

(١) العود الصنفي: سمّي بالصنفي لأنه يجلب من بلد يقال له الصّنف بناحية الصّين، وهو أجلّ الأعواد وأبقاها في الثياب.

(٢) ثلاث بندات: ثلاث تبخيرات.

(٣) يبرُد: يريد أي يبرد ذلك، وبهذا الاعتبار ساغ له إفراد الضمير.

(٤) تضربها: تخلطها بعضها ببعض.

(٥) الرّياحي: سمّي هذا الصنف من الكافور بالرّياحي لتصاعده مع الرّيح، كما ذكر داود في التذكرة ٢/١١٦.

(٦) اللّخالخ: جمع لخلخة، وهي ضربٌ من الطّيب المركّب من جملة أخلاط وتصنع على كيفيّات شتى مذكورة في كتب الطبّ من ذلك اللخلخة التي ذكرها القيصوني في قاموس الأطباء، وهي=

صنعة دُهنٍ برمكيٍّ[١] مبخَّر من كتاب يُوحنّا بن ماسويه

تأخذ من البانِ الرفيعِ ثلاثين درهمًا، ومن الزَّنبقِ السابُوريِّ مِثلَه، ومن دُهن الوردِ الفارسيِّ مثلَه، وتأخذ من العُود الهنديِّ أوقيّة، ومن الصَّنْدَل الأصفرِ أوقيّة، ومن جَوْزِبُوا أوقيّة، ومن القَرَنْفُل الزَّهر أوقيّة، ومن الهَرْنَوْةِ أوقيّة، ومن البَسْباسة نصفَ أوقيّة، ومن السُّكِّ المرتفِع[٢] الأوّل أوقيّة، ومن المِسْك ثلاثةَ مثاقيل[٣]، ومن العنبر مثقالين؛ تدقّ جميع الأفواه كلّ واحد على حدته، وتُنخَل بحريرة، ويُحَلّ العنبرُ بِبان الغالية، ويُعجَن به الجميع بعد أن يُحَلَّ بزَنْبَقٍ سابُوريٍّ عَجْنًا يابسًا، ويصيَّرُ في بَرْنِيَّةٍ رَحبةِ الجوف واسعةِ الفم، ويُبسَط فيها بَسْطًا رقيقًا، ويبخَّر يومًا بالقُسْط[٤] الحلو ويومًا بالعُود النيِّء[٥]، ويومًا بالصَّنْدَل الأصفر، ويومًا بالزعفران، ويومًا بالسُّكّ الرفيع، ويومًا بالعُود، ويومًا بالعُود والكافور والعنبر؛ ثم يؤخذ من كلّ واحد منها نصفُ مثقال، ويقطَّع ويبخَّر، فإذا انتهَى تبخيره فصُبَّ الدُّهنَ عليه، وحرِّكه فيه تحريكًا جيّدًا، واتركه يومًا وليلة، ثم صَفِّ الدُّهنَ عن الأثفال في بَرْنيّةٍ قد بَخَّرْتَها بمثقالِ مِسكٍ ومثقالِ عنبر، ونصف مثقالِ كافورٍ رِياحيّ، وسُدَّ رأسَها سَدًّا جيّدًا؛ فهذا الدُّهنُ البرمكيُّ الرفيعُ الّذي اتّخذه جعفر بنُ يحيىٰ[٦] لهارون الرشيد؛ ثم تأخذ بعد ذلك من الزَّنْبَق السابُوريِّ ودُهنِ الخِيري الكوفيّ الرفيعِ ودُهن الورد الفارسيِّ من كلِّ واحد خمسين درهمًا[٧]، فتصبّ ذلك على الأثفال، وتضربها به بعد أن تبخّرها بالعود والكافور سبعَ مرّات، وتضرب الأثفالَ بها[٨] في قارورةٍ

= أن يؤخذ من القرنفل نصف رطل ومن العود والسّنبل من كلّ واحد ثلاث أواقي، يسحق الجميع، ويعجن بدهن السّوسن ويعمل في جام، ويبخّر بعودٍ جيّد يومًا وليلة ويبرد، ويضاف إلى ذلك صندل نصف أوقيّة، ومسك وعنبر من كلّ واحد مثقال، ويخلط الجميع جيّدًا، ويحفظ في إناء زجاج مسدود الرأس لوقت الحاجة.

(١) برمكيّ: نسبة إلى آل برمك «أو البرامكة» في العصر العبّاسي.

(٢) المرتفع: الجيّد النّوع.

(٣) المثقال: ما يوزن به، وقدره: درهم ونصف الدّرهم.

(٤) القُسط: عودٌ هندي يتداوى به ويتبخّر، وهو ضربٌ من الطّيب طيّب الرّيح تتبخّر به النفساء والأطفال. اللسان، مادة قسط.

(٥) النِّيء: الذي لم ينضج.

(٦) هو جعفر بن يحيىٰ بن خالد البرمكيّ، أبو الفضل، وزير الرّشيد العبّاسي ولد ونشأ في بغداد، قتله الرّشيد بعد أن نقم على البرامكة سنة ١٨٧ هـ. الأعلام ٢/ ١٣٠.

(٧) الدّرهم: قطعة مالية فضّية، ذات مقدار معيّن.

(٨) بها: أي بالزّنبق، والدّهنين اللذين بعده.

نظيفة، وصَفِّه[١] عنها ويكون ذلك لِلَّخالخ ولشعور النّساء. والدُّهن الثاني يَلتَحق[٢] بالأوّل. قال التَّمِيميّ: وهذا الدّهنُ البرمكيُّ يقوم مَقام الغالية.

صنعة دُهنٍ آخَرَ كان يُعمَل للعبّاس بنِ محمّد[٣]

يؤخذ من السُّنْبُل ثلاثةُ مثاقيل، ومثقالٌ من القَرَنْفُل، وثلاثةُ مثاقيلَ من بُرايةِ العود الهنديّ، ووزنُ نصفِ دِرهم بَسْباسة، ووزنُ دانِقَين قاقُلَّة[٤]، ومثِلُها من المَحْلَب[٥] المقشَّر، تُدَقّ هذه الأصناف، وتُنْخَل بمُنْخُلٍ صفيق[٦]، وتُعْجَن بماء الورد الطيِّبِ والزَّنْبَق الخالص، وتبخَّر بعودٍ مُطَرًّى سبعَ بندات، ثم يُترك[٧] حتى يَبْرُد فإذا برد فاقلبه[٨]، ودخِّنه سبعَ مرّات، ثم صُبّ عليه رِطلًا من الزَّنْبَق السابُوريِّ الخالص بعد تبخيره مفرَدًا بالعود والكافور، وحرِّكه به، فإذا اختلط فدعه يومًا وليلةً حتى يَجلِس[٩]، ثم صَفِّه في قارورةٍ جديدةٍ مبخَّرة، وادّهِن منه متى أحببت.

صنعة دُهن العنبر من كتاب ابنِ العبّاس

تؤخذ قارورةٌ ضيّقةُ الرأس، فيُدهَن باطنُها بدُهن، وتُبخَّر بعنبرٍ قويِّ الرائحةِ حتّى تَكمَد وتسودَّ من دخان العنبر؛ فإذا اسودّت فصُبّ فيها قدر ثلثيها من دُهن الخِيريِّ المفتوقِ[١٠] بالمسك، واضرب الدُّهنَ في القارورة ضربًا جيّدًا حتى يختلط به ذلك السواد الذي اكتسبتْه القارورة من دخان العنبر؛ ثم يُستعمَل، فمن أحبَّ تقويتَه حَلَّ مثقالًا من العنبر بشيءٍ يسيرٍ منه، ثم يضربه [به][١١] ضربًا جيّدًا.

---

(١) صفّه: بتذكير الضمير، أي صفّ ذلك. (٢) يلتحق: بمعنى «يُلحق»، وهي كلمة مولّدة.

(٣) هو العبّاسُ بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو الفضل الهاشميّ، أميرٌ، وهو أخو المنصور والسفّاح، وإليه تنسب العبّاسيّة، محلّة بالجانب الغربي من بغداد دفن فيها سنة ١٨٦ هـ. الأعلام ٣/ ٢٦٤.

(٤) القاقلّة: أو حبّ الهال، وتسمّيه الهامة في مصر «حبهان»، تقدّم ذكرها.

(٥) المَحْلَب: هو حبّ شجره تشبه الصفصاف في ورقها وعودها وحبّه مدوّر عليه قشر إلى الحمرة والسّواد، تحته قشر خشبي صلب داخله طعمة بيضاء عطريّة فيها شيء من مرارة، وله خشب غليظ صلب. المفردات ٤/ ١٤١.

(٦) الصّفيق: الذي أحكم نسجه.

(٧) يترك: أي يترك ذلك، وبهذا الاعتبار ساغ له تذكير الضمير.

(٨) قلبه: أي جعل أعلاه أسفله. (٩) يجلس: يغلظ ويجمد.

(١٠) المفتوق: المخلوط بالمسك لاستخراج رائحته.

(١١) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السّياق.

وأمّا الأدهان التي تُصلِح الشُّعور وتكثِّرها وتبسُطها[١] وتسوّدها وتُذهِب ما بها من الحاصّة[٢] وتطوّلها وتقوّي أصولَها ـ فمنها دُهنٌ متَّخَذٌ من حَبِّ القطن يكثِّر الشعورَ ويسوّدها ويَذهب بالحاصّة ويصفّي اللّون.

يؤخذ من لُبِّ حَبِّ القطن مَنوان، فيُدَقّ حتى يصير مثلَ المُحّ[٣] وتَستخرجُ دُهنَه كما تَستخرِج دُهنَ اللّوز؛ فإذا استَخرجتَ من دُهنه منًّا فصيِّرْه في طِنْجيرِ بِرام وخذ له من السّنْبُل أوقيّة، ومن القَرَنْفُل نصفَ أوقيّة، ومن المَرْزَنْجُوش المجفَّفِ نصفَ أوقيّة، ومن الصَّنْدَل الأصفرِ نصف أوقيّة، ومن القاقُلّةِ أوقيّة، ومن الورد الفارسيّ الأحمرِ أوقيّة، ومن بِزْرِ الشاهِسْفَرَم[٤] نصفَ أوقيّة، ومن بِزْرِ الأفْرَنْجَمَشك[٥] نصفَ أوقيّة، ومن الزّعفران نصفَ أوقيّة، ومن الإذْخِر[٦] أوقيّة، ومن السُّعْد[٧] الكوفيّ المقشورِ ووَرْدِ الأُتْرُجّ وَوَرْدِ النارنْج ولُبِّ حَبِّ الأُتْرُجِّ المقشّر وبِزْر النّمّام وحَبِّ الآسِ الرَّطْبِ من كلِّ واحِد أوقيّة، ومن البَلح الأحمرِ المنزوعِ النّوى[٨] إن كان رَطْبًا فأربع أواقيّ، وإن كان يابسًا فأوقيّة، ومن الشِّير أمْلَج[٩] الأسوَدِ بعد دقّه ونَخْلِهِ ثلاثَ أواقيّ؛ تُجمَع هذه الأصناف، وتُلقَى في قِدْر، وتصبّ عليها من الماء غَمْرَها وزيادة أربع أصابع، وتصبّ عليها أيضًا من ماء الآس الأخضرِ رِطلًا، ومن النّضوح المعتَّق مَنًّا، وتُنقَع في ذلك يومين وليلتين، ثم يُصَبّ دُهنُ حَبِّ القطن عليها، وتُرفَع على نارٍ ليّنة، ويوقَد تحتها برفقٍ حتى يَنْشَف الماء، وتَدخل روائح الأفاويه في الدُّهن؛ فإذا انتهى إلى هذا

---

(١) تبسُطها: أي تجعلُها سهلة التسريح مسترسلة. (٢) الحاصّة: علّة يتناثر منها الشّعر ويتساقط.
(٣) المحّ: صفار البيضة. (٤) الشاهسفرم: الرّيحان، تقدّم ذكره.
(٥) الأفرنجمشك: ومعناه مسك الإفرنج، وهو عشبٌ دقيق القضبان يستعمل في الأكاليل، تقدّم ذكره.
(٦) الإذخر: حشيشٌ أخضر طيّب الرائحة تسقف به البيوت فوق الخشب، ويسمّى بمصر «حلفاء مكّة» و«الخلال المأموني»؛ لأن المأمون كان يتخلّل بعيدانه.
(٧) السُّعد: نبتٌ له أصلٌ تحت الأرض أسود مدحرج صلب، طيّب الرّيح، يقع في العطر والأدوية، ويكثر هذا النبات في مصر، ويستنبت في البيوت ويسمّى «ريحان القصارى» وهو عريض الأوراق، مزغب دقيق الأغصان، والمراد عند الإطلاق أصله، وأجوده الشبيه بنوى الزّيتون، الأحمر الطيّب الرائحة. انظر: عمدة المحتاج ٣/ ٣٤٨.
(٨) النّوى: البزر.
(٩) الشير أملج: شير معناه بالفارسية: اللبن الحليب، وإذا قالت الأطباء شير أملج، فإنّما يريدون به الأملج الذي ينقع في اللبن. والأملج: وهو المسمّى في مصر بالسّنانير، وهو معرّب «أمله» بالفارسية وأجوده ماأشبه الكمثري الصغيرة، الضارب إلى الاصفرار، والأسود منه رديء، وقيل: الأملج: ثمر شجرة سوداء اللّون يجلب من الهند.

الحدّ فخذ من اللّاذَن[١] الرَّطْب نصفَ أوقيّة وحُلَّه على نارٍ ليّنةٍ بزَنْبَقٍ رُصافيٍّ حتى يصير مِثلَ الغالية[٢]، وألقِ من الكافور سدسَ مثقالٍ بعد سحقِه، ومن المِسك المسحوق قيراطين[٣]، وإن أحببتَ فسدسَ مثقال واضربهما جميعًا في اللاذَن المحلول بالزَّنْبَق ضربًا جيّدًا، ثم أنزِل الطِّنْجِير عن النار وغَطِّه بطبق ينطبق على رأسه، وإن كان طبخُه في قِدْرٍ نحاسٍ فهو أجوَد وأمكَن للتغطية، وألقِ فوق الطبق خشبة، ودَعْه بقيّةَ يومِه وليلتِه حتى يَبْرُد الدُّهن ويصفو ثم اقطعه عن الثُّفْل[٤]، واجعله في إناءٍ واسع، واضرب فيه اللاذَن المحلولَ والكافورَ والمِسكَ ضربًا جيّدًا حتى تختلط به، وإن كان فاترًا فهو أجوَد؛ ثم ارفعه في قَواريرَ مبخَّرة، وأحكم سَدَّها، ودَعْه حتى يَخْتَمِر[٥]، ثم استعمِله، فإنّه غايةٌ في الطِّيب والنفع.

صنعة دُهنٍ يُصنَع من دُهنِ نوى المِشمِش يجوِّد الشَّعْرَ ويكثِّره ويَذهَب بالحاصّة[٦]، وينفع شعر الرأس واللّحية منقول من كتاب المعتصم

تَعصِر من دُهنِ نوى المِشمِش مَنًّا[٧]، وتدعه حتى يروقَ ويصفوَ، ثم تأخذ له من المَحْلَبِ[٨] الأبيض المقشورِ والقَرَنْفُل وسُكِّ المِسْكِ والبنك[٩] والوردِ اليابِس الأحمر والقاقُلّةِ والمَرْوِ الأبيض[١٠] والمَرْزَنْجُوشِ[١١] المجفَّفِ والأَفْرَنْجَمَشْكِ

(١) اللّاذن: شجرٌ له صمغ يمضغ أو يُتّخذ منه العطر والدّواء.
(٢) الغالية: أخلاطٌ من الطِّيب.
(٣) القيراط: نصف الدّانق الذي هو سُدس الدّرهم، ورُبع سُدس الدّينار.
(٤) اقطعه عن الثفل: نحّه وأفرده. (٥) يختمر: يكتمل وتفوح رائحته.
(٦) الحاصّة: مرض يتساقط منه شعر الرّأس.
(٧) المنّ: مكيال أو ميزان مقدار ما بين ١٨٠ مثقالاً و٢٨٠ مثقالاً.
(٨) المحلب: هو حبّ شجرة تشبه الصفصاف في ورقها وعودها، إلّا أنّها دونها في الطول، حبّه مدوّر عليه قشرة إلى الحمرة والسّواد، تحته قشر خشبي صلب داخله طعمة بيضاء عطريّة فيها شيء من مرارة، وله خشب غليظ. عمدة المحتاج ٤/١٤١.
(٩) البُنك: قشور عطريّة شبيهة بقشور شجر التوت، تقع في أخلاط الطّيب والدّخن، منها ما يجلب من الهند، ومنها ما يجلب من وادي عوسجة باليمن، ويقال: إنّه ينحت من أصل خشب أم غيلان هناك، وأجوده الأصفر الخفيف العذب الرّائحة الأبيض الرّزين.
(١٠) المرو: ضربٌ من الرّياحين، وقد ذكره مؤلّف هذا الكتاب ضمن أنواع الحبق، وهو الريحان، في باب «ما يشمّ ولا يُستقطر». انظر: نهاية الأرب ١١/٢٤٩، طبعة دار الكتب المصرية.
(١١) المرزنجوش: يقال له المردقوش و«المردكوش» وهو من الرّياحين التي تزرع في البيوت، تقدّم ذكره.

المجفَّفِ والشّاهِسْفَرم المجفَّفِ والصَّنْدَل الأصفرِ وورقِ الأُتْرُجِّ المجفَّفِ وورِدِ الياسَمِين المجفَّفِ والسُّنْبُل العصافير والهَرْنُوَةِ، من كلّ واحدٍ أوقيّة؛ تُدَقّ هذه الأصناف، وتُنْخَل نخلًا جريشًا[١] وتُعجَن بماءِ وردٍ ونَضوحٍ عتيقٍ في تَوْرِ بِرام[٢]، وتصبّ عليها من ماء الورد غَمْرَها وزيادة إصبعين، فإن كانَ الثلثان ماءَ ورد والثلثُ نَضوحًا كان أطيَب، وتُتْرَك فيه يومًا وليلة؛ فإذا أصبحتَ فألْقِه في طِنْجِير بِرام، وصُبَّ عليه أيضًا من ماء الورد والنَّضوح، وأوقِد تحته حتى إذا استَحَقَّ صببتَ الدُّهن عليه وأوقدتَ تحت الطِّنْجِير وأنت تحرِّكه دائمًا تحريكًا شديدًا حتى ينشَف ماءُ الورد والنَّضوح ويَبقَى الدُّهن وحدَه؛ فأنزِل الطِّنْجِير عن النار، وصُبَّ عليه من ماء الآس الرَّطْبِ الّذي قد رشَشتَ عليه الماء ودققتَه وعصرتَه وروّقتَه بخِرقة رِطلًا ونصفًا؛ ثم أعِدْه إلى النار، وأوقِدْ تحته حتى يَنْشَف ماءُ الآس؛ ثم أنْزِله، وألْقِ فيه قيراطين[٣] من المِسك المسحوق، وثلاثةَ قراريطَ من الكافور المسحوق، وحرِّكه تحريكًا جيّدًا؛ ثم غَطِّه وغَمِّه[٤] بخشبة، واتركه بقيّةَ يومِه وليلتِه حتى يَبْرُد ويصفوَ؛ ثم صَفِّه في القوارير، وارفعه.

قال التَّميميّ: وإن حللتَ فيه وهو حارٌّ نصفَ أوقيّة من اللّاذَن الرَّطْبِ وفتقته[٥] به زاد طِيبًا ونفعًا للشَّعر. وهذا الدّهن صنَعتُه أنا بالقاهرة في سنة خمس عشرةَ وسبعمائة فجاء غايةً في الطِّيب والنَّفع.

صنعةُ دُهن آخَرَ يجوِّد الشَّعر ويطوِّله ويكثِّفه ويقوِّي أصولَه ويَذهَب بالحاصّة، ألَّفته[٦] منه

يؤخذ من الإهْلِيلَج[٧] الأسوَدِ والبَلِيلَج[٨] وشِيرْأمْلَج[٩] ونِيلَوْفَر[١٠] أصفر وأحمر

---

(١) نخلًا جريشًا: أي نخلًا غير ناعم.
(٢) التور: قدر، والبرام: الفخار، يريد: قدر من فخّار.
(٣) القيراط عند الأطباء: وزن أربع شعيرات، وهو حبّة خرنوب شامي. انظر: مفاتيح العلوم ص ١٧٩.
(٤) غمّه: غطّه، وغمّ الشيء: غطّاه، وغمّى تغمية البيت أو الإناء: سقفه بالخشب.
(٥) فتقه: استخرج رائحته به.
(٦) ألّفته منه: أي صنعته والهاء في منه: عائدة على كتاب المعتصم السابق ذكره.
(٧) الإهليلج: فارسي معرّب، وهو أربعة أصناف: الهندي المعروف في مصر بالشعيري وهو كالثمر المعروف عندهم بروائح الآس، والأسود المعروف في مصر بالصينيّ كالبسر، والكابلي كالبلح، والأصفر كالتمر، وأصله كلّه من الهند وأكثره نفعًا الكابلي، وهذه الثمار زيتونية أي مؤلّفة من شحم ونواة، وهي عديمة الرائحة، ولا تصل إلينا إلّا جافة في قوام خشبي. =

مجفّفًا وخَبَثِ الحديد[١]، من كلّ واحد نصفُ أوقيّة؛ يُدَقّ ذلك ويُنخَل، ويُسحَق بماء الآسِ الأخضر، ويربَّب[٢] حتى يصير عليه من ماء الآس نحوُ رِطل؛ ثم يؤخذ من دُهن الحَلّ[٣] الصافي الجيّد رطلان، ومن ماء البئر ستّةُ أرطال، ومن ماء ورق الآس رِطل آخَر؛ فيُجمَع ذلك في قِدْرٍ أو طِنْجِيرٍ، وتوقِد تحته وقيدًا ليّنًا وأنت تحرّكه دائمًا بإسطامٍ[٤] حديدٍ صغيرٍ حتى تعلم أنّ الماء قد نَشِف أو قارَبَ أن يَنْشَف، ثم تحلّ لذلك من اللاذَن الرَّطب أوقيّة بأوقية دُهنٍ رازقِيٍّ[٥] رُصافيٍّ على نارٍ ليّنة، فإذا انحلّ فصبّهُ في القِدر على النار، واغله غليةً حتى تعلم أنه قد بلغ ونَشِف ماؤه، ثم بَرِّدْه وصَفِّ الدُّهن بخرقةِ حرير، واجعله في قارورة، وتَدهُن منه في كلّ مرّة بوزن درهمين، فإنّه نافعٌ لِما وُصِف.

صنعة دُهنِ فاغِية[٦] الحِنّاء يَصلُح لشعور النّساء

قال التَّميميّ: «هذا مما أَلَّفْتُه»، وهو أن تأخذ من دُهن الحَلّ[٧] الطَّريّ المخلوعِ السِّمْسِم غيرِ المملوح، ومعنى المخلوع أن يُسْلَق سِمْسِمُه بعد قَشْرِه وغسلِه وتجفيفِه

=(٨) البليلج: ثمر شجرة مستقلة عن الإهليلج، وبعضهم يجعله منه، وهو في حجم الزيتون وشكله لكنه أعظم يسيرًا، ومنابته بالأقطار الهندية والمستعمل منه قشره الذي على نواه، وأجوده الأصفر الرّخو الأملس ولبّه حلو قريب من البندق.

(٩) شيرأملج: شير: معناه اللبن، وإذا قال الأطباء شير أملج: فإنما يريدون به الأملج الذي ينقع في اللبن، والأملج معرّب «أمله» بالفارسية، ويسمّى في مصر «السنانير»، وأجوده ما يشبه الكمثري الصغيرة، وقيل: الأملج: ثمرة شجرة سوداء اللّون يجلب من الهند.

(١٠) النّيلوفر: هو النبات المعروف بمصر «بالبشنين»، وهو نبات مائي له أصل كالجزر وساق ملساء تطول حسب عمق الماء، ويزهر في أعظم جزء من الصيف، أزهاره الكبيرة البيض المفرحة، وتلك الأزهار تخرج من الماء في الساعة السابعة من ساعات النهار التي تبتدىء من نصف الليل، ثم تدخل وتنطبق نحو الساعة الرابعة بعد الزوال. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ١٨٢.

(١) خبث الحديد: ما نفاه الكير منه إذا أذيب، وهو ما لا خير فيه.

(٢) يربّب: أي يغذّى بماء الآس، يقال: ربيت الدّهن: إذا غذوته ببعض الرّياحين ليجود.

(٣) الحلّ: السمسم.

(٤) الإسطام: المسعار، وهو حديدة مفطوحة الطرف أي معرّضة من طرفها، تحرّك بها النار وتسعّر.

(٥) الرّازقيّ: يريد به دُهن الياسمين، أو دهن السّوسن الأبيض.

(٦) الفاغية: ثمر الحنّاء وهو المعروف في مصر بـ«تمر الحنّاء»، وفي القاموس: أنّ الفاغية نورُ الحنّاء.

(٧) دهن الحلّ: دهن السّمسم.

سلقةً ليّنة، ويجفَّف على مِسحٍ[١] في الشمس، ولا يُقْلَى، فإنّ المقلوَّ لا يقبل روائحَ الأزهار، ولا يملَّح في سلقه بمِلح، فإنّ المِلح يقطع روائحَ الطِّيب؛ فإذا أخذتَ الدُّهن فصيِّره في طِنْجِيرٍ أو قِدرٍ حجارة، وألقِ فيه من فاغِيَةِ الحِنّاء في أوّل يومٍ مَنًّا، وفي اليوم الثاني نصفَ مَنّ، ودرِّجه[٢] حتى تتمّ الفاغِيَة ثلاثةَ أمنان، ويسخَّن الدُّهن في كلِّ يوم حتى يحمى حين تُلقَى عليه الفاغِيَة، فإذا كَمُلَت فيه ثلاثة أمنانٍ فاصبب عليه من ماء الآس المصعَّد[٣] نصفَ مَنّ، ومن ماء الزعفران[٤] نصفَ مَنّ، ومن ماء الورد نصفَ مَنّ، ثم ارفعه على نارٍ ليّنة حتى تَنْشَف المياهُ عنه ويَبقَى الدُّهن؛ فإذا نَشِفَ الماءُ فأنزِله، وغَمِّه[٥] بالغِطاء، واتركه حتى يَبرُد، واستخرِجْ ما فيه من فاغيةٍ[٦] بمِصْفاة؛ ثم اعصِرها حتى يَخرُج ما فيها من الدُّهن بحريرة، وأودِعْه القَوارير، ولم يَذكر التَّمِيميُّ مقدارَ الدّهن.

وقال يُوحنّا بنُ ماسويه في صنعة دُهن الفاغِيَة: تأخذ من دُهن الحَلِّ الطريِّ غيرِ المملوح ثلاثةَ أرطال، فاجعلها في طِنْجِيرٍ أو قِدْرٍ حجارة؛ وخذ ذلك من فاغِيَة الحِنّاء وقلوبه[٧] زنةَ مَنَوين فألقِه فيه مفروكًا، وإن كان يابسًا فدُقَّه جريشًا[٨] واصبب عليه من الماء ثلاثةَ أرطال، وارفع الطِّنْجِير على نارٍ ليّنةٍ حتى يَذهبَ الماء ويَبقَى الدُّهن، فارفعه في قَوارير.

قال: وهو جيّدٌ لشعور النساء، مصلِحٌ لها، جيّدٌ للتّمريخ[٩]، يستعمله الرجال والنساء، والله أعلم.

---

(١) المسح: الثوب الغليظ.
(٢) درّجه: أي كرّر ذلك الأخذ في مقادير تقلّ شيئًا فشيئًا.
(٣) المصعّد: المقطّر.
(٤) الزعفران: نبات له أصلٌ كالبصل، زهره أحمر إلى الصفرة.
(٥) غمّه بالغطاء: أي أحطه به، وغمّى البيت: سقفه بالخشب.
(٦) الفاغية: ثمر الحنّاء، أو ورقه، تقدّم ذكره.
(٧) قلوب الحنّاء: أي قلوب شجر الحنّاء، وهو ما رخص ولان من أجوافها وعروقها.
(٨) الجريش: الخشن.
(٩) التّمريخ: الدّهن، يقال: مرخ جسده بالدّهن، أي: دهنه.

الباب التاسع
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
في عَمَل النَّضوحات(١) والمياه المستقطَرة وغير المستقطَرة مثلِ ماءِ الجُورِين(٢)، وماء الصَّنْدَل، وماءِ الخَلُوق، وماءِ المَيْسُوس، وماءِ التُّفّاح، وماءِ العنب، وتصعيدِ المياه

فأمّا النّضوحات، فليس المراد بها في هذا الباب النَّضوحاتِ التي تُصنَع للشُّرب، بل المراد بها النَّضوحاتُ التي تدخل في أصناف الطِّيب. وقد ذَكر التَّميميُّ منها كثيرًا، وهي غيرُ متباعدةٍ في الأعمال، ولا متنافية في المقادير؛ ثم اختار منها نَضوحًا، قال: إنّه ألّفه فجاء جيّدًا، وهو: يؤخذ من التمر المنقَّى من أقماعه، المنزوعِ النوى عشرون رِطلًا، فتُنقَع في الماء يومًا وليلة، ثم تُطبَخ في قِدرِ نحاسٍ مؤنَّكة(٣)، فإذا نَضج التَّمر فصفِّ عَنْه ماءَه من غير أن يُمرَس أو يُمَسّ، ثم يؤخذ من الآس الغضِّ الطريِّ المخروطِ(٤) من عيدانه رِطلان، فيُدَقّ دَقًّا جريشًا، ويُعجَن بشيء من ماء التمر، ويبخَّر بقُسْطِ مُرٍّ وبُرايةِ عُودٍ وصَنْدَلٍ وأظفارٍ(٥) خمسةَ أيّام، في كلّ يومٍ ثلاث بندات(٦) بالغداة، وثلاثًا بالعشيّ، وتقلِّبه حتى يأخذ روائحَ البَخور؛ ثم دُفْه بشيءٍ من ماء التمر، وألقِه عليه، وارفعه على النار حتّى يذهبَ من الماء النصف، ثم صَفِّه براوُوق(٧)، واتركه حتى يَغليَ، فإذا غَلَى وهدأ غَلَيانُه فخذ له من السُّنْبُل والأَفْلَنْجَةِ(٨) والقَرَنْفُلِ

(١) النضوحات: مفردها «النّضوح» وهو ما كان سائلًا رقيقًا كالماء من الطّيب أو نحوه.

(٢) ماء الجورين: أي الماء المصنوع من الورد الجوري.

(٣) المؤنّكَة: أي المطليّة بالآنُك بضمّ النون، والمراد هنا: القزدير.

(٤) المخروط: المقطّع، وخرط الورق: انتزعه اجتذابًا من أعلى القضيب إلى أسفله، ويريد هنا بالمخروط: الذي نفي منه عيدانه.

(٥) أظفار الطيب: هي قشور صلبة كالأغطية على ظرف من الصدف قد حُشي تقعيرها لحمًا رخوًا تخرج من بحر الهند، فتؤخذ وتنزع، وأجودها الأبيض الصغير، الضارب إلى حمرة، فالصافي البياض والأغبر رديء، وهي دواء طبي معروف قديمًا. انظر: عمدة المحتاج ٣/ ٧٨٨.

(٦) البندة: التبخيرة.

(٧) الراووق: إناء يروّق فيه الشراب ويصفّى.

(٨) الأفلنجة، أو الفلنجة: وهي ورق جوزبوّا، أو هي حبّ هندي، أو هي نبات بالهند نحو ذراع، له ورق كورق اللّوز، وزهر أبيض يخلف غلافًا داخله كأنّه الخردل، لكنه شديد الحمرة حادّ الرائحة. مرّ الطعم. انظر: التذكرة ١/ ٧٥ و٩٥.

والقِرفةِ والهال بُوا[١] والكبابة[٢] والقاقُلّة[٣]، من كل واحد ثلاثةَ دراهم؛ ودُقّ هذه الأصنافَ دقًّا جريشًا، ويضاف إليها من الزعفران نصفُ درهم، وتُعجَن بشيءٍ من النَّضوح، وابسطها في باطيةٍ[٤] أو قدح، وبخِّرها بالقُسْط[٥] الطَّيِّب والعُودِ والكافور، ثم اضربها به ضربًا جيّدًا وطَيِّنْ رأسَ الظَّرْف، ولا تفتحه إلّا بعد ثلاثة أشهر.

صفة عَمَل نَضوح نقلتُه من كتاب الزَّهراويِّ[٦] يَدخُل في أصناف الطِّيب، ويُستعمَل للشّرب، وهو:

يؤخذ من عصير العنب مائةُ رِطل فيُغلَى عليه[٧] حتى يظهر ريمُه[٨]، ويُقطَف عنه؛ فإذا صفا فخذ له من ورق الآس ثلاثةَ أرطال، ومن التُّفّاح الشاميِّ عشرين حَبّة، ومن السّفرجل الممسوحِ مِن زَغَبه عشرين حَبّة، ومن قشور الأُتْرُجِّ الأخضرِ ثلاثةَ أرطالٍ، وألقِ ذلك على العَصير، واطبخه على النار حتى يَبْقَى منه النصف واتركه حتى يَبْرُد، ثم أوعِه في آنية الزُّجاج، ودُقَّ الأفاوِيهَ الحارّة الوافرة، واعجنها بشيءٍ منه، وبخِّرها بالقُسْط الطيِّب والعود والكافور، واضربها به، واضرب به أيضًا شيئًا من الكادِيّ[٩]، ومثقالًا من دُهن الأتْرُجّ، وطيبه[١٠]، ويُستعمَل بعد تعتيقه.

---

(١) الهال بوّا: هو القاقلّة الصغيرة، أو ما يعرف بحبّ الهال.

(٢) الكبابة: ثمر نبات يجلب من الصين يسمّى «حبّ العروس» تقدّم ذكرها.

(٣) القاقلّة: لقد ذكر المؤلف قبل ذلك الهال بوّا، وهي والقاقلّة اسمان لشيء واحد.

(٤) الباطية: إناء كبير من زجاج يوضع فيه الشراب.

(٥) القسط: عودٌ هندي يتداوى به ويتبخّر، وهو ضربٌ من الطِّيب تتبخّر به النفساء.

(٦) الزّهراوي: هو خلف بن عبّاس الزهراوي الأندلسي، أبو القاسم، طبيبٌ من العلماء، ولد في الزهراء قرب قرطبة، وهو أشهر من ألّف في الجراحة عند العرب، وأوّل من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف، له مؤلفات عديدة منها: الأكيال والأوزان، مات سنة ٤٢٧ هـ. الأعلام ٢/٣١١.

(٧) كان عليه الاكتفاء بقوله «فيغلى» لأنه لا يقال أغليت على الماء، بل غليته.

(٨) الرّيم: يريد هنا الرّغوة الطافية على سطح الماء عند الغلي، والرّيم: الزيادة والرغوة زيادة.

(٩) الكاديّ: شجر كالنخل في ذاته وصفاته، فإذا أطلعت الطلعة قصعت قبل أن تنشق، ثمّ تلقى في الدهن، وتتركِ حتى يأخذ الدهن رائحتها، فيتطيّب به، فإن تركت الطلعة حتى تنشق، صار بلحًا، ويتناثر ولم توجد له رائحة، وقيل: إنه شجر هندي ماؤه يسمى الكاد.

(١٠) لعلّ الصواب: وطيّنه، أي غطّ رأس الوعاء الذي هو فيه بالطين، كما يدلّ السياق وكما يستفاد ممّا سبق حين قال في عمل النضوحات: «وطيّن رأس الظّرف».

قال الزّهراويّ في كتابه: إنه يَنقُص النِّصف، ولم يَزِدْ[١] على ذلك.

فمن أراده للطِّيب فهو كاف، وأمّا من أراده للشُّرب فلا بدّ أن يغليَه حتى يَبقَى منه الثُّلْث؛ ولا يجوز استعماله بأقلَّ من ذلك.

وأمّا المياه المستقطَرة وغيرُ المستقطَرة ـ فمنها ماء الجُورِين[٢]، وهو الّذي كان يُصنَع للخلفاء؛ يؤخذ من ماء الورد الجُوريِّ خمسةُ أرطال، تُجعَل في زجاجة ويُطرَح عليها من العُود الطيّبِ الهنديِّ أوقيّة بعد دقّه جريشًا[٣]، ثم يغطّى فمُ الزّجاجة ويُلفّ بمِلحَفةٍ نظيفة، ويُترَك خمسةَ أيّام، ثم تصفّيه بعد ذلك في قرعة[٤] التقطير، ويقطَّر الماءُ برفق وحكمة، ويُرفَع في قارورة؛ ثم يؤخذ رِطلان من الماء، ويُطرَح فيهما من الزّعفران الشَّعر خمسةُ دراهم، وجَوزبوا دِرهمان، ويُجمَع الجميعُ في قرعة التقطير وتُترَك القرعةُ مسدودة الفم يومًا وليلة، ثم تُجعَل في فرن التقطير، ويوقَد تحتها وُقودًا معتدلًا بنارِ حطبٍ لا دخانَ لها؛ فإذا رأيتَ الماء قد بدأ يَقطُر فاقطع النار ساعة وتكون قد أعددتَ قيراطَ[٥] مسك وقيراط عنبر، وحبّتين من الكافور، كلّ ذلك مسحوقًا، وألقِه في القرعة، ثم سُدّ رأسها، وأعِدْها إلى النار؛ فإذا بدأ الماء أن يَقطُر فأغْلِق باب الفرن، فإنّ الماء يَقطُر أبيضَ، فإذا تغيّر إلى الصُّفرة فارفع الأوّل في قارورة، وسُدَّ رأسها بشَمَع، واجمع الماء الأصفرَ في قارورة ثانية؛ فإذا تَغيَّر إلى الحُمرة فارفع القارورة الثانية، واجعل قارورةً ثالثة، فإنّه يَقطُر أحمرَ، فإذا فَتَرَ التقطير فارفع الماءَ الثالث، واجعل كلَّ ماء على حدة؛ فهذا ماء الجُورِين.

وأمّا ماء الصَّنْدَل ـ فقال الزَّهراوي: يؤخذ من الصَّنْدَل المَقاصِيريِّ[٦] الأصفرِ أوقيّتان، تُنقَعان في رطلٍ ونصفٍ من الماء المشروب يومًا وليلة؛ ثم يُصعَّد[٧] مِثلَ ماء الجُورِين، وإن عملتَه من ماء الورد فهو أبلغ؛ وكذلك تصعيد العُود، ويكونان قد طُحِنَا قبل نقعهما.

(١) لم يزد: أي الزهراوي في كتابه على ذلك في عمل هذا النّضوح.
(٢) ماء الجورين: أي الماء المستخرج من الورد الجوري.
(٣) الجريش: الخشن.
(٤) القرعة: إناء كالجراب الذي يوضع فيه الطعام.
(٥) القيراط: عند الأطباء وزن أربع شعيرات، وهو حبّة خرنوب شامي.
(٦) المقاصيري: المنسوب إلى مقاصير بلد في الهند، أو هي نسبة إلى المقاصير التي أمر ببنائها خلفاء بني العباس لأمّهاتهم وسراريهم.
(٧) يصعّد: أي يقطّر.

صفة تصعيد ماء القَرَنْفُل

يؤخذ من زهر القَرَنْفُل الذّكيّ الحِرّيف أوقيّة، تُدَقّ وتُنخَل، ويضاف إليها زِنةُ دانِقٍ من الكافور المسحوق، ويُحَلّ بمَنٍّ ونصفٍ من ماء الورد، ويُضرَب به ويُترَك يومًا وليلة، ثم يصعَّد كما تقدَّم.

صفة تصعيد ماء السُّنْبُل

يؤخذ من السُّنْبُل العصافيرِ الأحمرِ أوقيّتان، يُدَقّ، ويُعجَن بماء الورد وماء النَّمّام[1]، ويُترَك ليلةً مخمَّرًا؛ ثمّ يضاف إليه من الغد من ماء الورد مَنًّا[2]، ويُضرَب به ضربًا جيّدًا، ثم يصعَّد بنارٍ ليّنةٍ كما تقدَّم.

صفة تصعيد ماء الكافور

يؤخذ من الكافور الرِّياحيّ[3] مثقالان، يُسحَق سحقًا جيّدًا، ثم تصبّ عليه من ماء الورد رِطلًا، أو رطلين إنْ أحببتَ الكثرة؛ واضربه به ضربًا جيّدًا شديدًا حتى يصير أبيضَ، ثم طَيِّنْ له قرعةً بطين الحكمة[4]، وتفَقَّدْها ثلاثةَ أيّام حتى لا يَبْقى في طينها شقّ؛ ثم تُنصَب على الأَتُون، ويُصَبّ فيها الماءُ الذي ضُرب به الكافور ويركَّب عليها الأنبيق[5]، ويوقد تحتها بنارِ فَحْمٍ لَيِّنةٍ حتى يصعد، فإنّه يصعد منه ماءُ كافور يفوق كلَّ طِيب، ثم اَثْنِه[6] بماء وردٍ بغير كافور، فيأتيَ ماءَ كافورٍ دون الأوّل.

---

(١) النّمّام: نبات يشبه النعنع، ينمّ على نفسه بانتشار رائحته.

(٢) المنّ: مكيال أو ميزان ما بين ١٨٠ و٢٨٠ مثقالًا.

(٣) الرّياحيّ: سمّي الرياحي لتصاعده مع الرّيح، تقدم ذكره.

(٤) طين الحكمة: وهو أنواعٌ كثيرة، أجودها أن يؤخذ طين خالص وفحم مسحوق وشعر مقصوص وملح مكلّس وخطمي وخبث حديد، وكلس قشر البيض أجزاء سواء، تنخل وتعجن بالخلّ أو اللبن عجنًا محكمًا، وكلّما خمرت كانت غاية، وطين الحكمة يحتاج إليه في الطبّ لتوثيق آلات التقطير والطبخ به، ومع ذلك فهو يجبر الكسر ويشدّ العصب والعظام، ويلصق بشدّة وقوّة.

(٥) الأنبيق: إناء لصناع ماء الورد وغيره من المياه التي يراد تقطيرها، وهو يركب فوق قرعة التقطير، يشبه المحجمة.

(٦) اَثْنه: أي أعدّه وأرجعه مرّة ثانية.

تصعيد ماءِ الزّعفران عن ابن ماسويه

يؤخذ رِطلُ زعفرانٍ مسحوق، ويُصَبّ عليه من الماء رِطلان، ويُترَك يومًا وليلة؛ ثم يُضرَب[١] بالغداة، ويحرَّك باليد، ويُدلَك دلكًا جيّدًا، ثم يصفَّى بخِرقة رقيقة، ويُجعل الماءُ في قرعة، ويصعَّد؛ ومن أحبَّ ألّا يصفّيَه يصعِّده بثُفْلِه.

تصعيدٌ آخَرُ استنبَطَه التَّميميّ

قال: يؤخذ من الزعفران الشَّعر أوقيتان، فيُجعَل في بَرْنِيّةِ زجاج، ويُصَبّ عليه من ماء الورد مَنّ، ويُسَدّ رأسُها، ويُترَك يومًا وليلة؛ ثم يُسحَق له من القَرَنْفُل الزَّهر مثقال، ومن الكافور مثقال، ويُضرَبان به ضربًا جيّدًا، ثم يصعَّد بالقرعة والأنبيقُ على الماء، فإنّه يَخرُج منه ماءٌ عجيب في الطِّيب؛ ثم يثنَّى بالماء القَراح فيَخرُج منه ماءٌ ثانٍ دون الأوّل.

صفةُ تصعيد ماء الوَرد الطيّب الذي يسمَّى الغَنج[٢]

يؤخذ من ورق الوَرد الطريّ الأحمر، ويُسحَق لكلّ رِطلٍ منه نصفُ درهم جَوْزبُوا، ونصفُ درهم من القَرَنْفُل الزَّهر، ومن المسك قيراط، ومن الكافور نصفُ قيراط، وتُذَرّ[٣] على ورق الورد بعد أن يُرَشّ عليه ماءُ وَردٍ جُوريّ، ويُجعَل في قرع التقطير في كلّ قرعةٍ رِطلان؛ ويركَّب عليها الأنبيق، ويُستقطَر بُخارُ الماء؛ فإذا قَطَر من الرطلين ربعُ رطل عُزِل ذلك الماءُ الأوّل؛ ثم تُركَّب على القرعة قابلةٌ[٤] أخرى، ويُستقطَر فيها ما بقيَ في الورق من الماء، وهو نحو ربع رطل أو أكثر وارفعه على نوعين: أوّلَ وثانٍ، وأَحْكِمْ سدَّ رؤوس القوارير، وإن أردتَ أن تأمن عليه التعطُّن[٥] وأن يصفوَ، فاسحق لكلّ مَنٍّ من ماء الورد قدرَ حَبّتين[٦]

(١) يضرب: أي يعجن.

(٢) الغنج: لم يرد هذا الاسم في المصادر التي اعتمد عليها في الشرح، ويحتمل أن يكون هذا الاسم مجازيًا نظرًا لما تكتسبه المرأة المتطيّبة بهذا الطّيب من الغنج، وهو الدلّ وحسن الشكل، أو أن يكون مصحّفًا عن الفيح المسمّى به بعض الأدهان الطيبّة التي ورد ذكرها في هذا الكتاب ص ١٠١ ط. دار الكتب المصرية.

(٣) تذرّ: تنثر.

(٤) القابلة: شيء يحمل رطلًا أو نحوه، يجعل فيه ميزاب الأنبيق.

(٥) التعطّن: تغيّر الماء وإنتانه وفساده.

(٦) الحبّة: سدس سدس المثقال.

نوشادرًا[١] معدنيًا وألقِه فيه قبل سَدِّ رأسِ القارورة، فإنّه يصفّيه؛ وإن جمعتَ الماءَ الأوّل في إناءٍ وألقيتَ النوشادر[١] فيه، وتركتَه ثم أوعيتَه في القوارير كان أجودَ، وتَصنع بالثاني مِثلَ ذلك.

تصعيد ماءِ وردٍ آخَرَ ألّفه التَّميميُّ يُستخرَج من الورد اليابس

يؤخذ من الورد الأحمرِ الفارسيّ الجيدِ فينقّى من أقماعه، ويُنقَع منه رطلٌ واحد في منوَين ماءَ وردٍ جُوريٍّ يومين وليلتين، وفي بَرانيَّ مسدودةِ الرُّؤوس؛ ثم يُصَبُّ عليه من الماء العذب أربعةُ أمثالِ وزنِه، ويُسحَق له من الكافور مثقال، ومن القَرَنْفُل ثلاثةُ دراهم، ومن المسك قيراطان، ويُضرَب ذلك به، ثم يُقسَم في قرعتين أو ثلاثة؛ تفعل ذلك قبل إلقائك الكافورَ والقَرَنْفُل، ثم تُلقي في كلّ قرعةٍ من الفِتاق[٢] حقَّها، وتَضرِب ما فيها من الورد والماءِ ضربًا جيّدًا، ويركَّب عليها الأنبيق ويُستقطَر ماؤه، فإنّه يأتي منه ماءُ وردٍ لا بعده في الطِّيب، ثم تَصُبّ على الثُّفْل ماءَ ثانيًا نحو ثلاثة أرطال، وتستقطره[٣]، فإنّه يخرج منه ماءُ وردٍ ثانٍ لاحقٌ بالأوّل.

تصعيد ماءِ وردٍ ملوكيٍّ مرتفِعٍ عن ابن العبّاس

يؤخذ من حَبّ السّمسم المربّى[٤] بالمِسْك، فيُسحَق مع شيءٍ من الكافور على صلاية[٥]، ويُجعَل لكلّ عشرة مثاقيلَ من حَبّ السّمسم زِنةُ دانِق[٦] من الكافور ويُجعَل منه في كلّ قرعة مثقالان مخلوطان بورق الورد الأحمر العربيّ؛ ثم يُستقطَر فإنه يَقطُر منه ماءُ ورد أذكَى من كلّ طِيب، وإن سَحقتَ لكلّ قرعةٍ زنةَ دانقَين من زَهر القَرَنْفُل، أو نصفَ درهم، خرج ماء عجيبًا حَسَنَ الرائحة عَبِقًا.

(١) نوشادرًا: أو النشادر، وهو ضربان، معدني ومصنوع، فالمعدني يحصل عليه في جبل من جبال سمرقند وغيرها، والمصنوع يعمل من سواد الدخان المجتمع في أتون الحمام، وقد ورد هذا الاسم في مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٢٥٩ بالذال المعجمة المضمومة.
(٢) الفتاق: استخراج الطيب بطيب آخر.
(٣) تستقطره: أي تقوم بعملية تقطيرٍ له.
(٤) المربّى: المطلي بالمسك.
(٥) الصّلاية: مدقّ الطيب، أو كلّ حجر يدقّ عليه عطر أو نحوه.
(٦) الدانق: سدس الدّرهم.

تصعيد ماءِ المِسْك وماءِ الوَرْد

قال التَّمِيميّ: تأخذ من المِسْك دانِقًا، ومن ماء الوَرد الجُوريِّ رِطلًا بالبَغداديّ فتَسحَق المِسك، واضربه بماء الورد، واتركه فيه ساعة؛ ثم اجعله في القرعة ورَكِّب على رأسها الأنبيق، وصَعِّده على هبال[١] الماء؛ فإنّه يطلع منه ماءُ مِسْكٍ لا بعده، ومن أحَبَّ الزيادةَ في المِسك أو النقصان فَعَل، ويصعّد على أثره ماء وردٍ بغير مِسك، فإنّه يأتي ماءَ مِسْكٍ دون الماء الأوّل.

وأمّا تصعيد ماء الخَلوق[٢]
من كتاب الزَّهْراويّ

قال: يؤخذ جَوْزُبوا وبَسْباسَة[٣] وسُكّ، من كلّ واحدٍ أوقيّة، كافور نصفُ أوقيّة، قَرَنْفُل أوقيّة، سُنْبُل وقاقُلّة وكبابة، من كل واحد نصفُ أوقيّة، زعفران أوقيّة، تُدَقّ هذه الأصناف، وتُحَلُّ بماء الورد، وتُبَخَّر بالعود والكافور في يوم وليلة خمسَ عشرةَ مرّة، ويكون العُود والكافور سواءً في التّجزئة، ثم تُلقَى على ذلك من ماء الورد عشرةُ أرطال، ويُجعَل في قرعة التقطير، ويوقَد تحته بنارِ فَحْمٍ لَيّنةٍ[٤] حتّى يصعد جميعُ الماء ويَبقَى الثُّفْل، فإن أردتَ أنْ تزيده ماءً آخَرَ على الثُّفْل وتصعّده ثانيًا فافعل، وارفع كلَّ ماء على حِدَة، والله أعلم.

---

(١) قوله: (وصعده على هبال الماء) ضمير (صعِّده) يرجع إلى المسك المدوف بماء الورد و(التصعيد) كما في القاموس وشرحه الإذابة ومنه قيل خلّ مصعَّد. ويقال شراب مصعَّد إذا عولج بالنار حتى يحوّل عما هو عليه طعمًا ولونًا اهـ. وهبال الماء بخاره الساخن الصاعد عنه وهو على النار. وهي كلمة عاميّة كانت شائعة على ما يظهر في عهد المؤلّف كما لا تزال شائعة في بلادنا الشامية غير أنّا نلفظها نحن الشوام (هبلة) لا (هبال) على أن (هبال) قد تكون جمعًا لهبلة فإن (فعلة) تجمع على (فعال) قياسًا نحو قصعة وقصاع. واليسوعيون في معجمهم العربي الفرنسي فسَّروا الهبلة بقولهم Vapeur d'un liquide ثم وضعوا أمامها العلامة التي تدل على أن الكلمة ليست فصيحة وإنما هي مستعملة في اللغة العاميّة.

(٢) الخلوق: نوعٌ من الطّيب أعظم أجزائه من الزّعفران.

(٣) البسباسة: بقلة طيبة الرّيح، وزعم بعض الرواة أنّها النانخاه، وقيل: البسباس طيّب الريح، يشبه طعمه طعم الخرء، واحدته البسباسة. وقال الأزهريّ: البسباسة بقلة معروفة عند العرب. اللسان، مادة بسس.

(٤) ليّنة: أي على نارٍ هادئة.

تصعيد ماءِ خَلُوقٍ آخَرَ من كتاب أبي الحَسَن المصريّ

يؤخذ من القَرَنْفُل والسُّنْبُل والهَرْنُوَة والصَّنْدَل والزَّعفران، من كلّ واحدٍ جزء، ومن الورد الأحمر المنزوع الأقماع[١] جزءان؛ يُدَقّ الجميع، ويُنخَل، ويُعجَن بزَنْبَق، ويبخَّر بقُسْطٍ مُرٍّ وحلو وظُفُرٍ[٢] ولاَذَنٍ[٣] ثلاثةَ أيّام، ويقلَّب بين كلّ ثلاث بندات[٤]، ثم يبخَّر بعود وكافور ثلاثةَ أيّام، ثم يُفْتَق بجَوْزبُوا وبَسْبَاسة وسُكّ مِسْكٍ وعودٍ لكلّ رطلين منه نصفُ أوقيّة من جميع الفِتاق، ودرهمان من الكافور الرياحيّ، ومثقالٌ من دُهن البَلَسان، ويُحَلّ بماءِ وردٍ حتى يصير كالحَساء[٥]، ويُجعَل في قرعة التقطير، ويُستقطَر، ثم يُخرَج وفيه نَداوة[٦] بعد أن يثنّى بماءِ وردٍ آخَر، ويُجعَل ثُفْلُه في اللَّخالِخ[٧].

تصعيد ماءِ خَلُوق من كتابه[٨] أيضًا

يؤخذ من الزّعفران عشرةُ دراهم، ومن القاقُلّة والصَّنْدَلِ وحَبِّ العَروس[٩] والقَرَنْفُل والمَحْلَب، من كلّ واحد وزن درهمين، وسنبلٍ وقرفةِ قَرَنْفُلٍ[١٠] ومَصْطَكاء وجَوْزبُوا من كلّ واحد وزن درهم، ومِثْلُ الزّعفران وسائرِ هذه الأفاوِيهِ من الورد الفارسيّ الأحمر؛ يُدَقّ الجميع، ويُنخَل، ويُعْجَن بعسلِ نحلٍ صافٍ منزوعِ الرَّغْوة، مضروبٍ بالنَّضوح المعتَّق، ويبخَّر بقُسْطٍ وظُفُرٍ حتى يشبع، ثم بعُودٍ وكافورٍ ثلاثةَ أيّام ثم بزعفران وكافور ثلاثة أيّام، ثم يؤخذ من الرَّيحان الغَضّ الأخضر أربعةٌ وعشرون دِرهمًا، فتُدَقّ وتُعجَن بصَفْو النَّضوح، ويبخَّر الرَّيحان بقُسْطٍ وظُفُر، ويخمَّر ليلة ثم يُخْلَط بالخَلوق، ويُضرَب به ضربًا جيّدًا، وتُقطَّر عليه قَطَرات من دُهن البَلَسان أو دُهن الكاديّ؛ ويُسحَق من الكافور الرِّياحيّ مثقالٌ فيُعجَن به، ويُضرَب به ضربًا جيّدًا،

---

(١) الأقماع: مفردها «القمع» وهو ما التصق بأسفل الثمرة أو نحوها حول عِلاقتها.
(٢) الظفر: أو أظفار الطيب، وهي قشور صلبة كالأغطية على طرف من الصدف قد حُشي تقعيرها لحمًا رخوًا تخرج من بحر الهندي، يتداوى بها، تقدّم ذكرها.
(٣) اللاذن: شجرٌ له صمغ يمضع أو يتخذ منه العطر والدواء.
(٤) ثلاث بندات: ثلاث تبخيرات.
(٥) الحساء: ما يحتسى من المرق وغيره من الطعام.
(٦) النداوة: الطراوة، وندّى الشيء تنديه، بلّله.
(٧) اللخالخ: مفردها «اللخلخة» وهي ضرب من الطِّيب المركب من جملة أخلاط، تقدّم ذكرها.
(٨) أي من كتاب أبي الحسن المصري السّابق الذكر.
(٩) حبّ العروس: هو الكبابة، وقيل: هو النيلوفر الهندي، تقدّم ذكره.
(١٠) قرفة القرنفل: نوع من الدّارصيني، دقيقة صلبة، إلى السّواد، رائحتها وطعمها كالقرنفل، وقوّتها كقوته، تقدّم ذكرها.

ويُحَلّ جميعُ ذلك بمَنَوَيْن من ماء الورد، ومَنَوَيْن من ماء النَّمّام المصعَّد؛ ثم يصعَّد على ما تقدَّم، فإنّه يأتي غايةً في الطِّيب والذّكاء(١). قال: وهذا أطيَبُ ما يُستخرَج من ماء الخَلوق.

وأمّا ماء المَيْسُوس ـ فهو ممّا يدخل في النَّضوحات، وتُنقَع به الأفاوِيه وتخمَّر به اللَّخالِخ، وغيرُ ذلك من أصناف الطِّيب، وعمَلُه على طرق كثيرة، نذكر أقربَها وأجوَدَها إن شاء الله تعالى.

صنعة مَيْسُوسٍ نادرٍ أُخِذ عن بَخْتِيشُوع(٢) الطبيب من كتاب العطر المؤلَّف للخليفة المعتصِم بالله

قال يؤخذ من القُسْط المُرّ وقَصَب الذَّريرة(٣) والساذَج(٤) الهنديّ والقَرَنْفُل الزَّهر وقشورِ عيدان السَّليخة(٥) الحمراء والبَسْباسة الذّكيّة والأُشْنةِ(٦) الهنديّة واليَمانيّة بعيدانها من كلٍّ واحد ستّ أواقيّ، ومن السُّنْبُل العصافير أوقيّتان، ومن المَيْعة(٧) السائلة

(١) الذّكاء: طيب الرائحة.

(٢) بختيشوع: هو بختيشوع بن جبرائيل بن جرجس، طبيب سرياني الأصل، مستعرب، اشتهر وتقدم عند الخلفاء العباسيّين، صنّف كتابًا في الحجامة، مات ببغداد سنة ٢٥٦ هـ، وبختيشوع مركّب من كلمتين «بخت»، ومعناها بالسريانية «عبد» و«يشوع» معناها المسيح. انظر: الأعلام ٢/ ٤٤.

(٣) قصب الذّريرة: نبات هندي سمّي بذلك لوقوعه في الأطياب والذّرائر وأجوده الياقوتي اللّون، المتقارب العقد الذي يتهشّم إلى شظايا كثيرة، وفي مضغه حراقه ومسحوقه عطر إلى الصفرة والبياض، وهذا النبات يعطر الهواء في المحال التي ينبت فيها كالهند وبلاد العرب. انظر: المادة الطبية ٢/ ٦٦٥.

(٤) السّاذج: تعريب «سادة» بالفارسية، وهو نبات مائي يقوم على خيوط شعرية تطول قدر عمق الماء الذي تكون فيه، كالبشينين بمصر، وموضعه مناقع بالهند، إذا جفّت أشعلت بالنّار فينبت من قابل حتى يفرش ورقه على الماء، وهي سبطة لا خطوط فيها دون سائر الأوراق، ولذلك يسمّى ساذجًا، وأجوده القويّ الرائحة المائل إلى السّواد، ومنه نوع يسمّى الرّومي، تقدّم ذكره.

(٥) السليخة: نبات عطري كأنه قشرٌ منسلخ، ويكون في بلاد العرب المنبتة للأفاويه، تقدم ذكرها.

(٦) الأشنة: هي المعروفة بشيبة العجوز، وهي أجزاء شعرية تتخلّق بأصول الأشجار، وأجودها ما على الصنوبر والجوز، وهي قشور بيض رقيقة جدًّا توجد ملتفّة على كثير من الشجر.

(٧) الميعة: اسم مربى مشتق من الميع لأنه إذا أطلق أريد به الميعة السائلة، والميعة: شجرة جليلة كشجرة التفاح، ولها ثمرة بيضاء أكبر من الجوز تشبه عيون البقر الأبيض «الإجاص» يؤكل الظاهر منها وفيه مرارة، وثمرته التي داخل النوى دسمة، يعتصر منها دهن هو الميعة اليابسة، ومنه تستخرج الميعة السائلة، وينبت هذا الشجر في برونسه وإيطاليا وإسبانيا وبلاد الروم واليونان=

الحمراءِ أو البيضاءِ ستُّ أواقيّ، ومن دُهن البَلَسان ستُّ أواقيّ، ومن الزَّعْفران القُمِّيِّ المَسحوقِ خمسُ أواقيّ، ومن المِسك خمسةُ مثاقيل؛ تُدَقّ الأصنافُ اليابسة وتُطحَن، ويُسحَق المِسكُ والزّعفرانُ سحقًا ناعمًا، ويُدافَانِ[1] بالطِّلاءِ الرَّيحانيِّ[2] الذَّكيّ وتُحَلّ المَيْعةُ بدُهن البَلَسان، ويُصَبّ على الجميع من عسل النحل ستّ أواقيّ، ويُضرَب بالأصناف ضربًا جيّدًا وهو حارّ، ويُدافُ ذلك بالطِّلاء[3]، وتُعجَن به الأفواهُ عجنًا جيّدًا، ثم يؤخذ من ورد السَّوْسَن الأبيض الطريّ ثمانمائة وردة عددًا فتُقطَع أصولُ ورقِها بالأظفار، ويُمسَح من الصُّفرة التي تكون في داخله بخِرقةٍ ناعمةٍ كتّان جديدة، ثم تَفرِش الورقَ في إناء، راقًا[4] مِن الورق، وراقًا من الأدوية حتى تأتيَ على السَّوْسَن والأدوية، ثم تصبّ على ذلك من الطِّلاء الذّكيِّ خمسةً وعشرين رِطلًا بالبغداديّ، وتُغطِّي الإناءَ بغِطاءٍ ينطبق عليه، وتستوثق منه ويطيَّن بطينٍ حُرٍّ مخلوطٍ بشَعر العَنْز المدقوقِ المنخول؛ ويُرفَع في بيت كَنين[5]، في ظِلٍّ ممّا يواجه ريحَ الشّمال، ويُترَك ستّةَ أشهر، ثم يُفتَح ويصفَّى في القَوارير، قال: فإنّه ينفع ـ بإذن الله ـ من الإغماء الشديد، وفرطِ الغَثَيان والقَيْءِ والاستطلاقِ[6] والهُزالِ وضَعْفِ الطبائع، ومن الغمّ الشديد، وضعف المعدة والكبد؛ وقد ينفع في الضِّمادات، وتُعصَب به المفاصل، ويوضع منه على قرطاسٍ[7] وتُضمَد به المَعِدة.

صنعةُ نوعٍ آخَرَ من المَيْسُوس عن بَخْتِيَشُوع أيضًا من الكتاب المذكور

تؤخذ من السَّوْسَن[8] الأبيض أربعمائة سَوْسَنة، فيُقطع ورقُها، وتُمسَح الصُّفْرةُ التي داخله، ويُبسَط على ثَوْبِ كَتّانٍ جديد، ويُنْثَر عليه من المِلْح

= وغيرها ويألف المحال اليابسة. انظر: عمدة المحتاج ٣/ ٣٠.

(١) يداف: أي يخلط، وداف الدواء أو نحوه في الماء أو به: خلطه وأذابه.

(٢) الطِّلاء الريحاني: يريد هنا نوعًا من الخمر، قيل: هو الشراب الصرف الطيّب الرائحة، وقيل: هو ما كان خالص الصفرة أو الحمرة أو الخضرة، المتوسط القوام، العطر الرائحة، الطيّب الطعم.

(٣) بالطّلاء: أي بالطّلاء الرّيحاني الذي تقدم ذكره وهو نوعٌ من الخمر الخالص.

(٤) يريد بالرّاق: الطبقة الرقيقة، وهو استعمال عامّي شائع في مصر، والمعنى هنا أن تفرش طبقة من الورق ثم تضع نوعًا من الدواء، وتكرّر ذلك كلّما أضفت دواءً أو سوسنًا...

(٥) الكنين: المستور.

(٦) الاستطلاق: جريان البطن.

(٧) القرطاس: الصحيفة.

(٨) السّوسن: نبات من الرّياحين، طيّب الرائحة، كثير الأنواع.

الأَنْدَرانيّ[١] ويُجفَّف في الظِّلّ، ثم خذ له من القُسْط المرّ والساذَج[٢] الهنديّ والحَماميّ[٣] الحمراء وقُشور عيدان السَّلِيخة الحمراء والقَرَنْفُل وقصب الذَّريرة الطيّبة من كلِّ واحد أوقيّتين، ومن المَصْطَكاء[٤] وسُنْبُل الطِّيب والعودِ الهنديّ، من كلّ واحد أوقيّة، ومن الزّعفران نصفَ أوقيّة، ومن المَيْعة[٥] الحمراء السائلة ودُهن البَلَسان من كلِّ واحد أربعَ أواقيّ، ومن المِسك أربعةَ مثاقيل؛ تُدَقُّ هذه الأصناف جريشًا، وتُنْعِم سحقَ المِسك والزعفران، ويُجمَعان بالمَيْعة السائلة ودُهن البَلَسان، وتصبّ على ذلك أربعَ أواقيَّ من عسل النحل، ويُعجَن به (يعني الزعفران والمسك) عجنًا جيّدًا؛ ثم يُحَلُّ بالطِّلاء[٦] ويُعرَك، وتأخذ بَرْنِيَّةً من زجاج واسعةَ الرّأس، كبيرة، فتَبْسُط فيها راقًّا[٧] من ورق السَّوْسَن وراقًّا من الأخلاط حتى ينتهيَ ذلك؛ ثم صُبّ عليه من الطِّلاء الجيّد العتيقِ الذكيِّ الرائحة الّذي لم يوضع في الشمس عشرين رِطلاً، وتصبّ عليه بعد ذلك الزعفرانَ والمِسكَ المُدافَين بدُهن البَلَسان والمَيْعة والعسل المحلول بالطِّلاء فوق رأس البَرْنيّة، وليكن للبَرْنِيّة غِطاءٌ ينطبق عليها، وتجعل تحت الغطاء خِرْقة كَتّانٍ جديدة، وتشدّ فوق الخرقة بقرطاسٍ مصريّ، ثمّ بالغِطاء، ثم تطيِّن البَرْنِيَةَ بالطِّين الحُرّ والشَّعر وتبن الكتّان، وتجعل البَرْنيّةَ في طاقٍ[٨] يلي ريحَ الشّمال، ولا تقابل بها الريحَ استقبالاً، بل اجعلها منحرفةً عنها أدنى انحراف، واتركها ستّةَ أشهر ثم استعمِله.

---

(١) الأندراني: نسبة إلى أندران، وهي قرية بناحية اليمن، وقيل: هو ملح أنذراني، بالذال المعجمة.

(٢) السّاذج: تعريب «سادة» بالفارسية، وهو نبات مائي يقوم على خيوط شعرية، وموضعه مناقع بالهند، تقدّم ذكره.

(٣) الحمّامي: هو جنس من السليخة التي هي نبات عطري كأنه قشر منسلخ، وقيل في وصفه: إنه شجرة كأنها عنقود خشب مشتبك بعضه ببعض وله زهرٌ صغير مثل الدواء الذي يقال له: لوقائين وهو الخيري، وأجود هذا النبات ما كان بأرمينية، لونه شبيه بلون الذهب، ولون خشبه إلى الياقوت، وهو طيّب الرائحة جدًّا، وذُكر أن هذا النبات حرّيف حادّ طيّب الرائحة، يخرج من أصل واحد صلب المكسر جيّد العطرية.

(٤) المصطكاء: شجرٌ كالبطم له ثمر يميل إلى المرارة، يستخرج منه صمغ يُعلك.

(٥) الميعة: شجرة تشبه شجرة التفاح، لها ثمرة بيضاء أكبر من الجوز، وثمرته التي داخل النّوى دسمة، يعتصر منها دهن الميعة اليابسة، ومنه تستخرج الميعة السائلة، تقدم ذكرها.

(٦) الطّلاء: الخمر الخالص.

(٧) المراد براق: أي طبقة، تقدم شرحها.

(٨) الطاق: النافذة، أو ما جعل من الأبنية كالقوس والقناطر والنّوافذ.

قال: وبعضُ الحكماء الأطبّاء يزيد فيه كبابة وفَلَنْجَة وزَرْنَباذًا[١] من كلّ واحد أوقيّتين.

وأمّا ماء التُّفّاح ونَضُوحُه الذي يُصنَع منه ـ فقال التَّميميُّ عن أحمد بنِ أبي يعقوبَ في صنعة ماء التُّفّاح الشاميّ الطيّب: تؤخذ من التُّفّاح الشاميِّ الجيِّدِ السالِم من العَفَن والتشنّج[٢] خمسمائة حبّة، فتُمسَح، ثم تُشقَّق كلُّ تُفّاحة أربعة ويُلقَى ما فيها من الحَبّ وما يجاوره، ثم تُقطَّع صِغارًا في مَراكن[٣] خضر، ثم تُدَقّ دَقًّا جيّدًا في هاوُن حجارة، ثم تُعتَصر في كِرْباسة[٤] نظيفةٍ طيّبةِ الرِّيح مبخَّرة، ثم تُدَقّ مرّة ثانية، وتُعتصَر حتى لا يَبْقَى فيها شيء من الماء، ثم يُرَوَّق[٥]، ويُصَبّ في تَوْرِ حجارة، أو طِنْجِيرِ حجارة، ويُطبَخ بنارِ فَحْمٍ ليّنةٍ من فَحْمِ كَرْمٍ جَزْل[٦]، فإذا ذهب من الماء أقلُّ من الثلث فاطرح فيه قَرَنْفُلًا صحيحًا وقِطَعًا من صَندلٍ أصفرَ دقاقًا، واغلِه بهما حتى يَنْقُص الثلث وزيادة يسيرة، ثم ارفُق بالنار حتى يبلغ نقصُه النصف، ثم أنْزِلْه عن النار، ودَعْه حتى يَبْرُد، ثم صفِّه، وأَعِدْه إلى الطِّنْجِيرِ وأخرج الصندلَ والقَرَنْفُل منه، وأوْقِد تحته برِفْق، فإذا غلى ثانيةً فاطرح فيه عُودًا مَرْضوضًا[٧] مِثلَ رَضّ الخَشْخاش[٨]، أو أجلّ منه قليلًا، واغله به حتى يَذْهَب ثلثُ ما بقي وزيادة فيكون نقصُه عن أصله قد زاد عن ثلثيه، ثم اطرح فيه من السُّكّ[٩] المرتفِع سُكَّ الغالية، ولا تُكثِر تحته النارَ إلّا بقدر ما يَغلي غَلَيانًا رفيقًا، فإذا رأيتَه قد انعقد وصار مِثلَ الخَلوق ـ وهو إلى الرقّة ليس بخاثر[١٠] ـ فأنْزِله عن النار، واتركه في الإناء يومًا وليلة، ثم خذ قارورةً ليست بالواسعة الرأس ولا بالضيّقة قدرَ ما تدخلها اليد، فبخِّرها بسبعِ قِطَعِ عودٍ مخمَّر ونَدٍّ

(١) الزرنباد: هو عروق تجلب من الصين تشبه السّعد، لكنه أعظم وأقلّ عطرية، وأهل مصر تسميه الزرنبة، وهو عطري حاد لطيف، وليس مقسومًا إلى مستدير ومستطيل، بل كلّه مستدير وإنما تقطعه التجار طولًا زاعمين أن ذلك يمنعه من التآكل، ويطول نحو شبرين وله أوراق تقارب ورق الرمّان وزهر أصفر يخلّف بزرًا كبزر الورد، واسمه «الزنجبيل الزرنبادي».

(٢) التشنّج: التقبّض.

(٣) المراكن: جمع مركن، وهو شبه تور أي إناء يتّخذ للماء، أو شبه لقِن بالتحريك.

(٤) الكرباسة: إناء يتخذ لترويق الخمر فيه. (٥) يروّق: يصفّى.

(٦) الجزل: الغليظ. (٧) المرضوض: المدقوق المطحون.

(٨) الخشخاش: نبات يستخرج من ثماره الأفيون.

(٩) السّك: طيبٌ يُتّخذ من الرّامك مدقوقًا منخولًا معجونًا بالماء ويعرك جيّدًا ويمسح بدهن الخيري ثم يسحق بالمسك، ويعرك ويقرّص، تقدّم ذكره.

(١٠) الخاثر: الرّائب أو الجامد الغليظ.

وقِطَعِ عنبر، ثم صَفِّ ذلك الماءَ وصُبَّه فيها، وسُدَّ رأسها ما استطعتَ بخِرقة، وطيِّنه، ثم اتركه ثلاثةَ أيّام، حتى إذا كان في اليوم الثالث فاسحق له لكلِّ رِطل من الماء مثقالًا من مِسْك، ومثقالًا من عنبرٍ شَحْرِيٍّ مُداف[١]، واضرب ذلك بالماء ضربًا جيِّدًا، وحَرِّك القارورةَ سبعةَ أيّام، واتركها شهرًا، ثم استعمِله بعد ذلك.

صنعة عقيد[٢] ماء التُّفّاح من كتاب أبي الحسن المصريّ[٣]

قال: يُعتصَر ماءُ التُّفّاح على ما تَقدّم، ثم يُجعَل في طِنْجِيرِ بِرام أو بُرْمَة[٤] بعد ترويقه وتصفيته، ويُطبَخ على النار حتى يذهب منه النصف والرّبع، ثم يُنزَل عن النار، ويُبرَّد، ويُسحَق لكلِّ رِطل منه وزنُ نصفِ درهم من القَرَنْفُل الزَّهر وحبّتَيْ مسك، وحبّتَيْ كافور سحقًا جيّدًا، وتُضْرَب به، ويُجعَل في آنيةِ زجاج ويُحكَم سَدُّ رأسها، ويُرفَع إلى وقت الحاجةِ إليه.

صفةُ نَضُوح ماء التُّفّاح ممّا ألّفه التَّميمِيُّ وركَّبه فجاء غايةً في الطِّيب

قال: تأخذ من التُّفّاح الشاميِّ البالغِ النَّضيج خمسمائة حبَّة، فتَعصِر ماءها على ما تَقدّم، وترفعه على النار في قِدر نحاس مُؤنَّكة[٥]، وتُوقِد تحته حتى تَنشقّ[٦] عنه رَغوتَه، فإذا تَشقّقتْ فالقطها عنه حتى يصفوَ وينصقلَ وجهه، ثم خذ له من العُود الجيّد والسُّنبُل العصافير والقَرَنْفُل الزَّهر والقاقُلَّة والهال بُوا والهَرْنُوة والقرفة والجوزَة[٧]، من كلّ واحد وزنَ درهم، يُدَقّ ذلك دَقًّا جريشًا، ويُنخَل بمُنْخُلِ شعرٍ واسع، ويُشَدّ في خِرقةِ شُرْبٍ[٨] فيها عنه فَضْل، وتُدلَّى بخَيط في قدر ماء التُّفّاح ويُغلَى عليها، وتُمرَس[٩] الخِرقةُ ساعةً بعد ساعة حتى تَخرج قوّة الأفواه[١٠] في

(١) المداف: المخلوط أو المذاب. (٢) العقيد: ما غلُظ من السائل.

(٣) هو أبو الحسن عليّ بن رضوان المصري الطبيب، عالم مصر في أوانه أي في الأيام المستنصرية في وسط المائة الخامسة الهجرية، وكانت وفاته في حدود سنة ستين وأربعمائة. انظر: النجوم الزّاهرة ٥/ ٦٩.

(٤) البرمة: القدر من حجر. (٥) المؤنكة: أي مطلية بالآنُك، وهو القزدير.

(٦) تنشقّ: تنفصل.

(٧) الجوزة: هي جوز الطّيب، ويسمّيها العامة «جوزة الطيب»، تقدم ذكرها «جوزبوا».

(٨) خرقة شرب: أي خرقة تتشرّب الماء وينفذ إلى ما في داخلها بسهولة.

(٩) تمرس: أي تنقع. (١٠) الفوه: الطّيب.

ماء التُّفّاح، ولا تزال توقِد تحته وقيدًا ليّنًا حتى يَذهب نصفُ الماء وربعُه، فإذا بقيَ منه الربع فأنزِله عن النار، واعتصر الخِرْقَة فيه، ثم أخرجها وجفِّف ما فيها من أثفال الأَفواه، فإنّها تصلح للضِّمادات التي تُصلِح المعدة، فإذا فَتَر ماء التُّفّاح فاسحق له من المسك مثقالًا، ومن الكافور نصفَ مثقال، ومن سُكِّ المسك مثقالًا، ومن الزعفران المطحون نصفَ مثقال، واجمع ذلك في زِبديّة[١]، وصُبَّ عليه من مطبوخ ماء التُّفّاح ما تعجنه به، ثم أذِبه حتى يصير مِثلَ الخَلوق، ثم صُبَّه فيه، واضربه به ضربًا جيّدًا، واجعله في ظروف، وأَحْكِم سَدَّها، فإنه يأتي عجيبًا في الطِّيب.

وأمّا ماء العنب المطيّب والعقيدُ المصنوعُ منه ـ وقد سمّاه التَّمِيميُّ بهذه التسمية، ونقَلَه من كتاب العبّاس بن خالد وغيره، فقال في عَمَل ماء العنب المطيّب: تأخذ من عصير العنب الأسوَدِ زِقَّين أو ثلاثة، فتصبُّه في إناء، وتتركه يومين، ثم تروِّقه في إناءٍ آخَرَ حتى يصفوَ، واجعله في طِنْجيرِ بِرام، وأوقِد تحته بنارٍ ليّنة، وانزع رَغْوَتَه، فإذا صفا فخذ له من الزَّرْنَب[٢] والفَلَنْجَة[٣] من كلّ واحدٍ أوقيّة واجعلهما في خِرقةِ شُرْبٍ[٤] خفيفة، وتُشَدّ وتُعلَّق في الطِّنجِير، ويُطبَخ وهي فيه، وتُمرس ساعةً بعد ساعة حتى يذهب من ماء العنب النصف، ثم أنزِله عن النار وبرِّده يومًا وليلة، ثم روِّقه، وخذ له من المسك مثقالين، ومن الكافور الرِّياحيّ مثقالًا ونصفَ مثقال، ومن الزعفران نصفَ أوقيّة، ومن العود المسحوقِ المنخول نصفَ أوقيّة، ثم اجمع ذلك في زِبديّة، وحُلَّه بشيء من العصير المطبوخ، ثم صُبَّه فيه، واضربه ضربًا جيّدًا، واجعله في قَوارير، وسُدَّ رؤوسها، ويكون أقلَّ من مَلْوِها[٥]، فإنّه يَغلْي ويفور، وينبغي أن يحرَّك في كلّ يوم تحريكًا شديدًا إلى أن يسكن غليانُه ويُستعمَل بعد شهور.

---

(١) الزبديّة: صحفة من فخّار، والجمع «زبادي».

(٢) الزرنب: نبات لا يزيد على ثلثي ذراع، مربّع محرّف، له ورق أعرض من السعتر وزهر أصفر، يوجد بجبال فارس، وهو الأجود، حرّيف بين الدّارصينيّ «شجر كالرمّان هندي الأصل»، والقرنفل، شجرته طيبة الرائحة.

(٣) الفلنجة: هي ورق جوزبوا، أو هي نبت بالهند له ورق كورق اللّوز وزهر أبيض حبّه كحبّ الخردل، شديد الحمرة حادّ الرائحة، مرّ الطعم.

(٤) خرقة شرب: أي خرقة تمتصّ السّوائل.

(٥) ملوها: يريد أقل من سعتها إذا امتلأت، واستعملها بالواو استعمالًا عاميًا بمعنى الملء.

صنعةٌ أخرى لماء العنب المطيّب
من كتاب محمد بنِ العبّاس

يؤخذ من العنب الأبيض الكثير الماء فيُعصَر في إناء نظيف، ويُجعَل الماء في طِنْجِير، ويوقَد تحته وُقودٌ ليّنٌ حتى تُنزع رَغْوته ويصفوَ، ثم خذ له قِرفةَ قَرَنْفُل وسُنْبُل، فيُدَقّ ذلك دقًّا ناعمًا، ويُلقَى فيه وهو على النار بعد أن يَنقُص نصفه ثم يُغلَى عليه[١] ساعة، ويُنزَل، ويُترَك حتى يَبْرُد يومًا وليلة، ثم يُصفَّى براوُوق[٢] ويُجعَل في إناءِ غَضار[٣]، ويُفْتَق بمسكٍ وكافورٍ رياحيٍّ وعودٍ مطحون، فإن كان في زمن الحرّ فأخرِجه بالليل إلى صحن الدار مغطًّى، ويُردّ بالنهار إلى موضعٍ باردٍ كنين[٤] ولا يُترَك في مكانٍ نَدٍ[٥]، ثم يُجعَل بعد إحكام سَدِّه وتطيينه، في موضعٍ كنين إلى أن يُدرِك[٦]، ويُستعمَل في وقت الحاجة إليه.

ووَصَفَ التَّميميُّ أعمالًا كثيرةً لماء العنب، إلّا أنّها لا تبعد عن هذه النُّسَخ التي أوردناها ولا تنافيها إلا بكثرة الأَفاويه وقِلَّتِها، ولم يقل في شيء منها: إنّه يَنقُص أكثرَ من النصف؛ وفيه على هذه الصفة ما فيه، وبعيدٌ أن تفارقه النشاة[٧] مطلقًا إذا لم يزد عن النصف؛ فأمّا من أراد استعماله على الوجه المباح عند أكثرهم فإنه يغليه حتى لا يَبْقَى منه إلّا دون الثلث.

---

(١) يغلى عليه: مقتضى اللغة حذف «عليه»، والاكتفاء بقوله: «يغلى».

(٢) الراووق: المصفاة، أو إناءٌ يصفّى فيه الشّراب ويروّق.

(٣) الغضار: الطين اللازب الأخضر الحرّ، تتخذ منه الأواني.

(٤) الكنين: المستور.

(٥) مكانٍ ندٌ: أي مكان عرضة للأنداد.

(٦) يُدرِك: أي يصبحُ صالحًا للاستعمال.

(٧) النشاة: ربما يريد النشوة التي تنبعث عن تعاطي شراب الخمر، بدليل قوله: فأمّا من أراد استعماله على الوجه المباح، أي الذي لا تحريم فيه، لأنّ الخمرة محرّمة، والنشاة: فهي بمعنى الرائحة في الشراب وغيره، ولا تتعلّق بالإباحة والحرمة.

الباب العاشر
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
في الأدوية التي تزيد في الباه[١] وتلذِّذ الجماع[٢]
وما يتّصل بذلك من أدوية الذَّكَر والأدوية المُعينة على الحبل والمانعة منه وغير ذلك

اعلم ـ وفَّقَنا الله وإيّاك ـ أنّ علاج الباه يحتاج إلى أدويةٍ لإصلاح باطن البدن وظاهرِه.

أمّا باطنُه فإصلاحه بالأدوية المستعمَلة، من الأطعمة والأدوية المركَّبة والجُوارِشنات[٣] والمُربَّيات والسَّفوفات[٤] والحُقَن والحَمولات[٥].

وأمّا ظاهرُه فإصلاحه بالمَسوحات والضِّمادات والأدوية الملذِّذة بالجماع.

ذِكْر الأطعمة النافعةِ لذلك ـ من ذلك صفة عُجَّةٍ[٦] تزيد في الباه: يؤخذ حِمَّص وباقِلّاءُ[٧] وبَيْض وبصلٌ أبيَض، يُطبَخ ذلك بلبنٍ حليبٍ حتى يَتهرّأ[٨] ويصفَّى عنه اللّبن؛ ثم يُطرَح في مِهْرَاس[٩] ويُدَقّ ناعمًا حتى يختلط. . . وتؤخذ صُفرةُ عشر بيضات فتُطرَح عليه، ويُجعَل جميعُ ذلك في مِقْلَى، ويُقْلَى بزيت، وتُعمَل عليه الأبازير[١٠]، ولا يُترَك حتى يحترق، بل يؤكل قبل نُضجِه.

---

(١) الباه: النّكاح.
(٢) مقتضى اللغة أن يقال «بالجماع» بزيادة الباء، إذ معنى لذّذه جعله يلتذّ.
(٣) الجوارشنات: هي الجوارشات بحذف النون، وقد ذكر داود: أن الجوارش بالفارسيّة معناه: المسخن الملطف، وقال: الجوارشات هنا عبارة عن الدواء الذي لم يحكم سحقه ولم يطرح على النّار بشرط تقطيعه رقاقًا. التذكرة ١/ ١٦٠.
(٤) السّفوفات: ما يسفّ من دواء أو نحوه.
(٥) الحمولات: لعلّها ما يعرف عند العامة «بالتّحاميل»، التي تؤخذ من أسفل البدن.
(٦) العجّة: طعام من بيض وطحين مقلي بالسّمن أو الزّيت.
(٧) الباقلّاء: الفول.
(٨) يتهرّأ: يتحلّل من النضج.
(٩) المهراس: الهاون.
(١٠) الأبازير: التوابل، مفرده «البزر».

صفة عُجَّةٍ أخرى

يؤخذُ هِلْيونٌ[١] رَخْص[٢] ولُوبِيَاء[٣] وبصل أبيض وحِمّص، يُسلق جميعُ ذلك حتى يتهرّأ، ويؤخذ من صُفرة البيض ما يحتاج إليه، ويُجعَل على المسلوق بعد دقّه ويُطرَح عليه شيءٌ من شحم الإوَزّ، ويُقلَى بزيت مغسول[٤]، ويؤكل قبل نُضْجِه، فإنّه غايةٌ في زيادة الباه.

صفةُ لونٍ يزيد في الباه

تؤخذ فَراريجُ مسمَّنةٌ قد عُلِفتِ الحِمَّص والباقلاءَ واللُّوبِياء، تُذبَح وتُغسَل ويؤخذ حِمَّص يُسلَق ببصل كثير، ويُنشَّف، ويُرَضّ[٥] بشَحْم ثلاثةِ فَراريج، ويُحشَى به فَرُّوجٌ من المسمَّنة، ويُطبَخ إسْفِيدباجةً[٦] رَطْبة، ويكون ملحُها مِلحَ السَّقَنْقُور[٧] ويُذرّ عليه دارصِينيّ[٨] وزنجبيل وأبازير؛ ثم يُجعَل الفَرّوج بعد نُضْجه على رغيفِ سَميذٍ[٩] قليل الملح والخمير، ويُترَك الرّغيف في المَرَق حتى يتشرّبه، ثم يؤكَلان، فإنّ ذلك نهاية.

صفة هريسة

يئخذ من الحِنْطة النقيّةِ المقشورةِ، ثم تُجْعَل في قِدْر، ويُجعَل معها مِثلُ خمسها من الحِمَّص والباقِلاء واللُّوبياء، ثم يجاد طبخُها، ثم يؤخذ من عُصارتها جزءان، ومن

---

(١) الهليون: نبات مشهور بالشام، له قضبان تميل إلى صفرة، تمتدّ على وجه الأرض، فيها لبن يُتوعّى، إلى الحدَّة، وزهره إلى البياض، يخلّف بزرًا دون القرطم.

(٢) الرّخص: الطري. (٣) اللوبياء: نبات معروف.

(٤) الزيت المغسول: هو الذي يؤخذ زيتونه أوّل ما يخضب بالسّواد، ويدقّ ناعمًا ويصبّ عليه الماء الحار، ويمرس حتى يطفو الزيت فوق سطح الماء، فحينئذ يقال للزيت «المغسول».

(٥) يرضّ: يدقّ.

(٦) الإسفيدباج: هو أن يقطّع اللحم صغارًا ويطبخ حتى تنزع رغوته، ويلقى عليه من الحمّص والبصل المسحوق بالكزبرة والمصطكاء حتى تستوعب أجزاؤه، ويحمّض بيسير من الليمون أو الخلّ، ويغطى حتى ينضج.

(٧) السّقنقور: أي الملح الذي يحشى به السقنقور المجفّف، فإن العادة في هذا الحيوان أن يذبح بعد صيده ويشقّ طولًا ويحشى ملحًا ويعلّق منكوسًا في الظلّ إلى أن يستحكم جفافه، والسقنقور: دابة مائية على خلقة الضبّ تصاد من نيل مصر، وهو يتغذّى بالسمك في الماء وبالغطاء في البرّ، وأنثاه تبيض عشرين بيضة تدفنها في الرّمل فيكون حصنًا لها.

(٨) الدّارصيني: شجرٌ كالرمّان هنديّ الأصل.

(٩) السّميذ: الحواري، وهو لباب الدقيق، ويقال «بالذّال» المهملة.

اللّبن الحليبِ البقريِّ جزء، ومن النارَجيل مِثلُ ربع اللّبن، ويُلقَى فيه من شحم الإوزّ والبَطّ؛ ويُسلَق بلحم الهريسة، ويُخلَط جميعُ ذلك بالأوّل، ويُضرَب حتى يصير هريسة، ويكون ملحُها ملحَ السَّقَنْقُور، وتؤكل، فإنّها تزيد في الباه.

صفةُ لونٍ آخَر

يؤخذ لحمُ حَمَل سمين، يُطبَخ إسْفِيذْباجًا[١]، ويُطرَح معه حِمَّصٌ وبَصلٌ كثير وخَوْلَنْجان[٢] وصُفرةُ البيض، ويطيَّب بالأَبازير[٣] وملحِ السَّقَنْقُور ويؤكل فإنّه غاية. قال صاحب كتاب (الإيضاح)[٤]: إنّ الأطعمة التي تزيد في الباه هي الطَّباهَجات[٥] والإسفِيذْباجات واللُّوبِياء والهرائس والمطَجَّناتُ[٦] والأمخاخ وما يجري مجرى ذلك.

وأمّا الأشربة المركَّبة التي تزيد في الباه

فقد وصف منها محمدُ بن زكريا الرازيُّ[٧] وغيرُه أصنافًا، فقال: يؤخذ من لبن البقر الحليب رطلان من بقرة فتيّةٍ صفراء، يُجعَل فيه تَرَنْجُبِين[٨] أبيض، ويُطبَخ بوُقود

---

(١) الإسفيدباج: هو أن يقطع اللحم صغارًا ويطبخ حتى تنزع رغوته، ويلقى عليه الحمص والبصل المسحوق والمصطكا، ويحمض بيسير من الليمون أو الخل ويغطى حتى ينضج، تقدم ذكره.

(٢) الخولنجان: قال صاحب معجم أسماء النبات: إنها تسمية سنسكريتية، وذكر أن الكندي أدخله في الاستعمال الطبّي في القرن التاسع الميلادي، وهو نبات رومي وهندي يرتفع قدر ذراع وأوراقه كأوراق القرفة وزهره ذهبي، ويستعمل جذره في الطب. انظر: معجم أسماء النبات، ص ١٠.

(٣) الأبازير: التوابل.

(٤) هو كتاب الإيضاح في أسرار النكاح للشيرازي، شهاب الدين عبد الرحمٰن بن نصر.

(٥) الطباهجات: أنواع من اللحم المشرح، وهو الصفيف فارسي معرّب فارسيته «تباهة»، والطباهجة: طعام من لحم وبيض وبصل.

(٦) المطجّنات: مفردها المطجّن، وهو المقلي في الطّاجن، والطاجن: ما يقلى به من زيت أو دهن.

(٧) الرّازي: هو محمد بن زكريا الرّازي، أبو بكر، فيلسوف من الأئمّة في صناعة الطبّ، من أهل الريّ، سافر إلى بغداد ومات فيها سنة ٣١٣ هـ، له مصنّفات كثيرة منها: الفصول في الطبّ، ويسمّى المرشد. انظر: الأعلام ٦/ ١٣٠.

(٨) الترنجين: تعريب ترنكين في الفارسية، وهو طلّ أكثر ما يسقط بخراسان، وهو العاقول، ويجمع مثل المنّ، وأجوده الأبيض، وقيل: إن الترنجين: هو المنّ الفارسي، وهو عصارة تخرج من النبات المسمّى بالحاج أي العاقول، وتستخدم هذه العصارة مقام السكر في الفطائر ونحوها من المأكل. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٥٥٥.

شديد حتّى يغلظ ويصير مثلَ العسل، وتؤخذ منه في كلّ يومٍ أوقيّةٌ على الرّيق، وأكثر من ذلك. وقال: هذا لأصحاب الأمزجة الحارّة اليابسة.

آخَرُ يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة اليابسة

يؤخذ من اللّبن الحليب رطل، وتُسحَق عشرةُ دراهم دارِصينيّ[1] سحقًا ناعمًا حتى تصير مثلَ الكحل، وتُلقَى على اللّبن، ويُترك ساعة، ثم يُشرَب قدحًا بعد قدح ويخضخَض لئلّا يَرسُب الدارِصينيّ فيه، وليَشرَبْ قبل الطعام وبعده قليلًا قليلًا بدلَ الماء عند العطش حتى يأتي على اللّبن والدارِصينيّ بكماله، ويكون الغذاء طَباهَجًا بلحمِ ضأنٍ فَتِيّ، ويَشرَب عليه نبيذًا صَرْفًا، يَفعَل ذلك أسبوعًا، ولا يجامِع فيه، فإنّه يولِّد مَنِيًّا كثيرًا، ويهيِّج تهييجًا عظيمًا. قال: وينبغي أنّه إذا هاجت منه حِدّةٌ وحرارة أن يقطَع، فإن لم تسكن الحِدّةُ والحرارةُ فُصِد[2] وأُسْهِل وسُقِيَ ماءَ الشعير ويَترُك اللحمَ والشرابَ أيّامًا، ويقلِّل الغذاء. قال الرازيّ: إلّا أنّ هذا التدبير يَجمع امتلاءً كثيرًا، ولا يَقرَب هذا الدواءَ مَن بدنُه غيرُ نقيّ[3]، فإنّه يُحَمّ لا مَحالة. فأمّا النقيُّ البدن، القليلُ الدم، الساكنُ الحِدّة، فنعم الدواءُ هُوَ له، وهو دواء قويٌّ في فعله.

صفة شرابٍ آخَر

يؤخذ من حليب البقر رِطلان، وقيل: رطل، ويُلقَى عليه من التَّرَنْجُبِين[4] الأبيض الخُراسانيّ زنةُ عشرين درهمًا، ويُطبَخ برفق حتى يصير في قَوام[5] العسل، ثم تؤخذ منه في كلّ غداةٍ أوقيّةٌ على الرِّيق، فإنّه نهايةٌ في زيادة الباه.

صفةُ شرابٍ آخَر

يؤخذ ماءُ البصل وماءُ الهِلْيَوْن[6] وسمنُ البقر ولبنُها، من كلّ واحدٍ جزء، ومن بِزر الجِرْجِير[7] وبِزر اللِّفت من كلّ واحدٍ كفّ؛ يُدَقّان ويُلقَيان في المياه

---

(١) الدارصيني: شجرة كالرمّان، هنديّ الأصل، تقدّم ذكره.

(٢) فُصد: نقع بماء قليل.

(٣) غيرُ نقي: أي غير سليم من الأمراض.

(٤) الترنجين: المنّ الفارسي، عصارة نبات مسمّى بالخاج، يقوم مقام السكر، تقدّم ذكره.

(٥) القوام: يطلق لفظ «القوام» في كتب الطبّ على صيرورة الشيء السائل ثخينًا.

(٦) الهليون: نبات مشهور بالشّام، له قضبان تميل إلى صفرة، تمتدّ على وجه الأرض، فيها لبن يُتوعّى، وورق كالكبر وزهر إلى البياض، تقدم ذكره.

(٧) الجرجير: بقلة حرّيفة تنبت في المناطق المعتدلة.

واللّبن، ويُغلَى ذلك على النار، ويُصفَّى، وتُشرَب منه أوقيّةَ وهو حارّ، فإنّه جيّد.

ذكرُ الأدوية المركَّبة النافعة لزيادة الباه وتغزير المنيّ

يؤخذ بِزرُ رازِيانَج وبِزر جِرجِير، من كلِّ واحدٍ خمسةُ مثاقيل، يُسحَقان، ويُعجَنان بلبن البقر، ويحبَّب كالباقِلاء، ويؤخذ منه مثقال، ويُدخَل بعده الحمّام، ويُمرَخ البدنُ في الحمّام بزيتٍ وخَلٍّ وعُصارةِ عنب الثعلب، فإنّه نافع.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ من ماء البصل الأبيض جزء، ومن العسل جزءان، يُطبَخُ ذلك على نار ليّنة حتى يَذهب ماءُ البصل، ويؤخذ من العسل عند النوم مِلعقتان، فإنّه نافع جيّد لأصحاب الأمزجة الباردة.

دواءٌ آخَر

يؤخذ عاقِرْ[١] قَرْحَى وبِزْرُ الرشاد[٢] وبِزْرُ الأُتْرُجِّ وفُلْفُل، من كلّ واحدٍ مثقال؛ دارصينيّ وشَقاقُل[٣] وبِزرُ الجَزَر وزنجبيل، من كلّ واحد مثقالان. حِلْتِيت[٤] نصف مثقال؛ تُجمَع هذه الأدوية بعد دقِّها، وتُعجَن بعسلٍ منزوعِ الرّغوة، وتُرفَع، الشربة منه مثقالان.

---

(١) العاقر قَرْحى: هو نبات يشبه في شكله وقضبانه وورقه وزهره جملة النبات المعروف بـ «البابونج» الأبيض الزهر، إلّا أن قضبان العاقر قرحى عليها زغب أبيض. انظر: عمدة المحتاج ٢/٤٩٢.

(٢) بزر الرّشاد: هو الحُرف عند أهل العراق، والحُرف: الحِرمان، ويقال له: فلفل الصقالبة، وهو برّي وبستاني، فالبرّي شديد الحرافة، مشرف الأوراق إلى استدارة والبستاني دونه في ذلك، يُدرك في أواخر الرّبيع.

(٣) الشقاقل: وهو الجزر البرّي، وهو عروق طوال معقّدة تنبت في كلّ عقدة ورقة تشبه ورقة البسيلة، وفي طرف القضيب تخرج زهرة في آخر الربيع في لون نوّار البنفسج.

(٤) الحلتيت: هو صمغ شجرة الأنجذان، وهو نوعان، أحدهما: الأبيض المأكول، والآخر: أسود منتن الرائحة، ويسمّى بالعراق «الكاشم»، وبالمغرب: المحروث، ومنه رومي ينبت بأرمينية وخراساني، وأصله أغلظ من الأصابع، ويفرّع كثيرًا وأوراقه كصفيحة مخرقة تحيط بجمّة ذات زهر أبيض، فيها بزر كالعدس أسود حارّ، وأبيض لطيف. انظر: عمدة المحتاج ٢/٦١٣.

ذِكْر دواءٍ آخَرَ عجيبِ الفعل في زيادة الباه

يؤخذ حَسَك[١] يابس، يُدَقّ ويُسحَق سحقًا ناعمًا، ويُعتصَر من ماء الحَسَك الرَّطْب، ويُسقَى به المسحوق في الشمس حتى يشربَ ثلاثة أمثالِ وزنِ المسحوق، ثم تؤخذ منه خمسةُ مثاقيل، عاقِرْ قَرْحَى خمسةُ مثاقيل، وزنجبيل مثقال، وسكّر طَبَرْزَذ[٢] خمسةُ مثاقيل، يُدَقُّ جميعُ ذلك، ويُنخَل، ويُعجَن بعسلٍ قد رُبِّيَ[٣] فيه الزَّنْجبيل ويُرفَع؛ الشربة منه مثقالان بماءٍ فاتر، أو بلبن حليب، فإنّه لا مثالَ له في معناه.

دواءٌ آخَر

يؤخذ من الحِمَّص اليابس، يُنقَع في ماء الجِرْجِير حتى يربو؛ ثم يجفَّف، ويُقلَى بسمنِ بقرٍ على نارٍ ليّنة، وتؤخذ منه خمسةُ مثاقيل، تُسحَق وتُنخَل وتُعجَن بعسل منزوعِ الرَّغْوة، ويُلْقَى على العسل وهو حارٌّ دارصينيّ وقرفةٌ وقَرَنْفُلٌ ومَصْطَكاءُ، من كل واحد مثقال، ويُخلَط ذلك خلطًا جيّدًا، ويُرفَع والشربة منه مثقالان بماءٍ حارٍّ أو بلبن البقر.

صفةُ دواءٍ آخَر يزيد في الباه
ويصفِّي اللّون، وينفع الكَبِد والمَعِدة

يؤخذ إهْلِيلَج[٤] كابُليّ وهنديّ منزوعُ النّوى وبَلِيلَج[٥] وأَمْلَج[٦] وفُلْفُل ودار

---

(١) الحسك: نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم، ورقه كورق الرّجلة وأرقّ، وعند ورقه شوك ذو ثلاث شعب، قال أبو حنيفة: هي عشبة تضرب إلى الصفرة ولها شوكٌ يسمّى الحسك مدحرج، لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلّا مَن في رجليه خفٌّ أو نعل. انظر: **اللسان**، مادة حسك.

(٢) الطبرزذ: هو السكّر الأبيض الصلب، وأصله «تبرزذ» بالفارسية، كأنه نحت من نواحيه بالفأس، والتبر: الفأس، وزد: الضرب. انظر: اللسان، مادة طبرزذ.

(٣) رُبّي: من الرُّب: وهو ما يطبخ ويشدّد ويثخّن.

(٤) الإهليلج: نبات، وهو أربعة أصناف، هندي وكابلي وأسود وأصفر، وأصله كلّه من الهند، تقدّم ذكره.

(٥) البليلج: ثمر شجرة مستقلة، لا من الإهليلج والبعض يجعله منه، وهو في حجم الزيتون وشكله لكنّه أعظم يسيرًا ومنابته الأقطار الهنديّة، تقدّم ذكره.

(٦) الأملج: هو الأمليجا المسمّى في مصر بـ«السنانير»، وأجوده ما أشبه الكمثري الصفراء، والأسود منه رديء، تقدّم ذكره.

فُلفُل وزنجبيل وسُعد[١] وشِيطَرَج[٢] وقشورُ الأُتْرُجِّ المجفَّف وبُرادةُ الإبَر وتُوبال الحَديد[٣] وسِمسِم مقشور، من كلّ واحد مثقال؛ تُجمَع هذه الأدوية مسحوقةً منخولة وتُلَتُّ سمن البقر، وتُعجَن بعسلٍ منزوعِ الرَّغْوة، وتُرفَع؛ والشَّربة منه درهمٌ في أوّل يوم، ثم درهمان في اليوم الثاني، وثلاثةُ دراهمَ في اليوم الثالث، هكذا إلى سبعة أيّام، يزيد في كلّ يوم زنة درهم، ويكون استعماله لذلك عند النوم.

دواءٌ آخَرُ يهيج شهوةَ الجماع ويَصلُح لمن انقطعت شهوته فإنّه يقوّيها، ويزيد فيها

يؤخذ الحَنْدُقُوق[٤] وشَقاقُل وبِزرُ اللِّفت وبِزرُ الزَّراوَنْد[٥] وبِزرُ البصل الأبيض وحَبُّ الخَشْخاش وبِزرُ الجِرْجِير وبِزرُ الأَنْجرة[٦] وبِزرُ خُصَى الثّعلب[٧]، من كلّ

(١) السُّعد: نبت له أصل تحت الأرض، أسود مدحرج صلب طيّب الرّيح، يقع في العطر والأدوية، ويكثر في مصر، تقدّم ذكره.

(٢) الشيطرج: هو خشب هندي صغار ودقاق وقشور كقشور الدراصينيّ، ونباته له ورق عريض ودقيق، وزهر أحمر إلى بياض، يخلّف بزرًا أسود أصغر من الخردل، ورائحته ثقيلة حادّة، وطعمه إلى مرارة.

(٣) توبال الحديد: ما تساقط منه عند الطرق، وكذلك ما تساقط من غيره من المعادن.

(٤) الحندقوق: بقلة أو حشيشة كالقتّ الرطب، نبطية معرّبة ويقال لها بالعربية: الذّرق، زهره أصفر طيّب الرائحة، وكثيرًا ما يحرج مع العدس، والمستعمل منه بزوره وأوراقه. انظر: اللسان، مادة حندق.

(٥) الزراوند: نوعان: مدحرج وطويل، فالمدحرج هو الأنثى، وله ورق طيّب الرائحة مع شيء من الحدّة، وهو ذو شعب كثيرة مخرجها من أصل واحد، وأغصان طوال، وزهر أبيض، أما الزّراوند الطويل: فهو الذّكر، وورقه أطول من ورق المدحرج، وأغصانه دقاق طولها نحو من شبر، ولون زهره فرفيري، منتن الرائحة، والزراوند: اسم فارسي. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٣٩٠.

(٦) الأنجرة: يقال لها «أنجراه» و«قرّيص»، سمّيت بذلك لأنّ ورقها إذا أصاب عضوًا أحدث به حكّة وتقريصًا، والأنجرة: ثلاثة أصناف، وانظر: المفردات ١/ ٦٠.

(٧) خُصى الثعلب: هو نبات ربيعي ينبت بالجبال والأماكن النديّة، ويكون الأصل الواحد في الغالب ثلاث ورقات، والظاهر من ورقه كورق البصل أو أعرض يسيرًا، وأصله كبيضتين مزدوجتين، ومنه نوع يخرج من كلتا بيضتيه عرق دقيق في رأسه حبّة كلّما كبرت جفّت البيضة، ويسمّى قاتل أبيه، ولا بزر لهذين، ونوع له بزرٌ صلب أسود برّاق. انظر: التذكرة ١/ ٢٠٢.

واحد مثقالان ونصف مثقال، ومن كُلَى السَّقَنْقُور وعِلْك الأنْباط[١] وقُسْط[٢] وبصل الفأر[٣] المشويّ من كلٍّ واحد مثقالٌ واحدٌ ونصف؛ فُلفُل أبيض وسِمسِم مقشور ودار فُلفُل[٤] وزنجبيل وزَعْفَران، من كلٍّ واحد مثقال؛ أدمِغةُ الدُّيوك الصِّغار، وأدمِغةُ العصافير من كلٍّ واحد ثلاثةُ مثاقيل، خُصَى الدُّيوك ثلاثةُ مثاقيل، أدمِغةُ الحُمْلان الرُّضَّع خمسةُ مثاقيل؛ بَيضُ الشَّبُّوط[٥] (اللَّجَأة)[٦] ولحمُه من كلٍّ واحد خمسةُ مثاقيل؛ قِنَّة مثقالٌ واحد ونصف، تُدَقّ البُزُور اليابسة، وتذاب القِنَّة[٧] مع العِلْك[٨] بخمسة مثاقيلِ عسل؛ وتُنقَّى الأدمِغةُ والخُصَى من العروق، ويُطرَح ذلك في صَلاية[٩]، ويُخلَط بالسَّحق، فإن احتاج إلى عسلٍ فزِدْه إلى أن يترطّب؛ ثم يُجعَل في إناء، ويُختَم رأسُه ويُرفَع[١٠] مدّة أربعين يومًا، ويُفتَح بعد ذلك، ويُستعمَل؛ الشربة منه مثقالٌ بأوقيّةٍ من ماء الجِرْجِير، ويؤكل عليه إسفِيدباج[١١] بحمَّص وبصلٍ وسمنِ بقر، فإنّه نهايةٌ فيما ذكرناه.

---

(١) علك الأنباط: هو صمغ شجرة الفستق، يستخرج منها كسائر الصموغ، وذلك أنّهم يعقرون الشجرة في مواضع كثيرة فيسيل الصمغ من تلك العقور، فيجمع ويجفّف في الشمس، ولونه أبيض وفي طعمه مرارة.

(٢) القسط: عودٌ هندي يُتداوى به ويتبخّر، قال أبو عمرو: يقال لهذا البخور: قسط وكُسط وكُشط، وهو ضرب من الطّيب، طيبُ الرائحة. اللسان، مادة قسط.

(٣) بصل الفأر: سمّي بذلك لأنه يقتل الفأر إذا طعم به، ويسمّى العنصل وبصل البر، واسمه بالفارسية «مرك موش» أي قاتل الفأر وسمُّ الفأر، وله ورق مثل ورق الكرّاث، ويظهر منبسطًا وله في الأرض بصلة عريضة ويقع في الدواء وأصوله بيض، انظر: معجم أسماء النبات ص ١٦٤.

(٤) الدّار فُلفل: هو المعروف في مصر بـ«عرق الذّهب»، ويسمّى أذناب الحراذين، قيل: إنّه أوّل ثمر الفلفل، والشجرة تكون بجزائر الزنج كالتوت، تحمل غلفًا محشوّة كاللّوبياء. انظر: عمدة المحتاج ٢/٣٤٨.

(٥) الشبوط: من المعروف أنّ الشّبوط: ضربٌ من السّمك والسّبوط: بالسين المهملة لغة فيه، وهو دقيق الذنب عريض الوسط ليّن المسّ صغير الرأس، كأنّه البربط، أي العود ذو الأوتار.

(٦) اللّجاة: فسّر المؤلف الشّبوط باللّجاة، وهو في تفسيره قد خالف ما نصّت عليه كتب اللغة وكتب الحيان، فاللّجاه: نوع من السّلاحف يعيش في البرّ والبحر.

(٧) القنّة: صمغ نبات يشبه القنا في شكله، وأجوده ما كان شبيهًا بالكندر، يدبق باليد، ليس فيه كثيرٌ من الخشب، ولكن فيه شيء يسير من بزر نباته.

(٨) العلك: أي علك الأنباط. (٩) الصلاية: مدقّ الطّيب.

(١٠) يرفع: أي يحفظ في أوانيه. (١١) الإسفيدباج: اللحم المقطّع، تقدّم ذكره.

دواءٌ آخَر

يؤخذ جَزَر بَرّيّ وبزرُ اللِّفت ودار فُلفُل وقاقُلَّة[١] وبزرُ جِرْجِير وقَرَنْفُل وخَوْلَنْجان[٢] وبزرُ ورد وبزرُ كُرّاث وزنجبيل وبَسْباسة[٣]، من كلِّ واحد أربعةُ مثاقيل؛ تُجمَع هذه الحوائج مسحوقةً منخولة، وتُعجَن بقدر ما تحتاج إليه من العسل المنزوعِ الرَّغْوة وتُرفَع؛ الشربة منه مثقالان بلبن البقر الحليب، أو بشرابٍ حلو.

صفة دواءٍ آخَرَ عجيبِ الفعل

يؤخذ عودٌ هنديّ وكافور وزعفران وجَوْزبُوا وقرفة وقَرَنْفُل وصَنْدَلان: أحمرُ وأبيَض، وسُعدْ ودارصِينيّ وشِيطَرَج[٤] ونارَ مُشْك[٥] وساذَج[٦] هنديّ، وبصلُ العُنْصل[٧]، ولحاءُ الغار[٨]، ولِحاء أصل الكَبَر[٩]، وخَرْبَق[١٠] أسوَد، وسَنْدَرُوس[١١]، وكُنْدُر[١٢] من كلّ واحد أربَعةُ دراهم؛ يُدَقّ كلُّ واحد منها على

---

(١) القاقلّة: حبّ الهال، تقدّم ذكرها.

(٢) الخولنجان: نبات رومي وهندي يرتفع قدر ذراع وأوراقه كأوراق القرفة وزهره ذهبي، وتسميته من اللغة «السنسكريتية»، تقدّم ذكره.

(٣) البسباسة: قشر جوزبوّا، أو «جوزة الطيب»، تقدّم ذكرها.

(٤) الشيطرج: خشب نبات هندي، صغار دقاق وقشور كقشور الدّارصيني، تقدّم ذكره.

(٥) نارمشك: تسمية فارسيّة معناها «مسك الرمّان»، وهو فقاح وقشور وأقماع تشبه البسباسة، أقلّ حمرة إلى الصفرة، عطرة، وقيل: هي رمّانة صغيرة مفتّحة كأنها وردة وفي وسطها نوار، وطعمه عفص ورائحته طيّبة.

(٦) السّاذج: تعريب «سادة» بالفارسية، وهو نبات مائي يقوم على خيوط شعرية تطول قدر عمق الماء، وموضعه مناقع بالهند، تقدّم ذكره.

(٧) بصل العنصل: أي بصل الفأر، تقدّم ذكره.

(٨) لحاء الغار: اللّحاء: القشر، والغار: الرّند، وهو شجر عريض الأوراق أملس، مرّ الطعم، طيّب الرّائحة، وقيل في صفاته النباتية: أن شجره جميل المنظر، أخضر دائمًا، يعلو الأرض أحيانًا من عشرين إلى ثلاثين قدمًا والسّاق قائمة. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٢٧٩.

(٩) الكبر: نبت شائك كثير الفروع دقيق الورق، له زهر أبيض يفتح عن ثمر في شكل البلّوط، وينشقّ عن حبّ أصفر وأحمر فيه رطوبة وحلاوة، ويكثر بالخراب والجبال.

(١٠) الخربق: نبات ورقه كلسان الحمل ومنه أسود وأبيض، والأبيض يسمّى بقلة الرماة، وخانق الذئب، والأسود هو المستخدم، تقدّم ذكره.

(١١) السندروس: شجر يخرج منه صمغٌ يسمّى صمغ الدّهان وهو يسيل بنفسه من الشجرة مدّة الحرارة، رائحته وطعمه كرائحة الصنوبر. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٧٨٦.

(١٢) الكندر: اللُّبان، أو ضربٌ من العلك. اللّسان، مادة كندر.

حدة، وتُخلَط جميعُ الأصناف بالسَّحق، ويعجن بعسلٍ منزوعِ الرَّغوة، ويُرفَع في إناء، ويُترَكُ ستّةَ أشهر، ثم يُستعمَل بعد ذلك، الشربة منه مثقالٌ بماء العسل.

صفة لُبانة تُمضَغ تزيد في الباه، وتُنعِظ[١] إنعاظًا شديدًا وتهيج فلا يَسكُن حتى تُنزَع من فم الماضغ

قال شهابُ الدين عبدُ الرحمٰن بنُ نصر الشِّيرازيُّ صاحبُ كتاب (الإيضاح): هذه اللُّبانة كان يستعملها بعضُ ملوك مصر.

قال: وله فيها قصّة طويلةٌ لم نذكرها رغبةً في الاختصار. قال: وهذا من الأسرار الخفيّة، فاعرِفه.

يؤخذ من قشر البَلَاذُرِ[٢] الخارجِ أوقيّة، تُقَرَّض[٣] بالمِقراض صغارًا، ويُجعَل في بُرْمَة[٤] فخّار، ويُصَبّ عليه من دُهن البُطْم[٥] مقدارُ ما يغمره، ثم يؤخذ لبان ذَكرٌ عشرون دِرهمًا، يُسحَق ناعمًا، ويُلقَى عليه في البُرْمَة، ويوقَد تحته بنارٍ ليّنةٍ حتى ينعقد، ثم يُلقَى عليه من المحمودة[٦] الصفراءِ على كلّ أوقيّة من الدّواء نصفُ دانِق؛ فإذا انعقد جميعه فارفعه عن النار، واجعله في إناء زجاج؛ فإذا أردتَ استعمالَه فخذ منه وَزْنَ درهم وامضُغه، فإنّه يُنعِظ للوقت إنعاظًا قويًّا؛ فإذا أردتَ الإنعاظ يسكن فأخرجِها مِن فيك، والقطعة الواحدةُ منه تُستعمَل ثلاثَ مرّات ثم يُرمَى بها.

قال: وربّما قُطِع ما هاج من الإنعاظ باستعمال هذه اللُّبانة، وهي: يؤخذ من الشَّيْرَج الطَّرِيِّ[٧] جزء، ومن السكّر جزء، ومن اللُّبان الأبيض ثُلثُ جزء ويُطرَح فيه

---

(١) تنعظ: أي ينتصب منها الذّكر.

(٢) البلاذر: بالذّال المعجمة والدّال المهملة أيضًا: يسمّى «تمر الفؤاد» و«تمر الفهم» و«حبّ الفهم» وهو شجر هندي يعلو كالجوز، ورقه عريض أغبر، سبط، حادّ الرائحة، وثمره في حجم الشاه بلّوط، وفي رأسه قمع صلب وقشره إلى السّواد. انظر: معجم أسماء النّبات، ص ١٦٦.

(٣) تقرّض: تقطّع. (٤) البرمة: القدر.

(٥) البُطم: هو المعروف بالحبّة الخضراء، وهو شجرة في حجم الفستق والبلّوط، سبطة الأوراق والحطب، صخريّة، تكثر بالجبال، عطريّة، وحبّها مفرطح في عناقيد كالفلفل، وعليه قشر أخضر يحوي اللبّ كالفستق. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٨١٧.

(٦) المحمودة: هي المعروفة بـ «السقمونيا» وهي رطوبة نبتة لها أغصان كثيرة، مخرجها من أصل واحد، طولها نحو ثلاثة أذرع، ولها زغب وورق يشبهُ ورق اللبلاب، وزهر أبيض مستدير، ثقيل الرائحة. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٣٢٢.

(٧) الشيرج الطريّ: السّمسم الحديث القطف.

لكلّ أوقيّة من الدواء زنةُ دانق[١] من الكافور، ويُعقَد الجميعُ على نارٍ ليّنة ثم يُنزَل ويُرفَع، ويُستعمَل منه عند الحاجة زنةُ درهم يُمضَغ، فإنّه يسكِّن ما هاج.

ذِكر الجُوَارِشنات[٢] التي تزيد في الباه وتُغزِر المنيّ

صفة جُوارِش يُغزِر المنيّ

يؤخذ سُنْبُل وقَرَنْفُل ودار فُلْفُل[٣] ودار صِينيّ وقاقُلّة، من كلٍّ واحد مثقال؛ شَلْجَم[٤] مثقال ونصف، كمّون منقوع في خلِّ خَمْر يومًا وليلة مقلوٌّ أربعةُ مثاقيل، ومَصْطَكاء مثقالان ونصف، مِسك سدسُ مثقال، سكّر طَبَرْزَد خمسةُ مثاقيل؛ تُجمَع هذه الحوائج بعد سحقها ونخلها، وتُعجَن بعسلٍ منزوعِ الرَّغْوَة، وتُبْسَط على جام[٥]، وتُقطَّع وتُستعمَل.

صفة جُوارِش يقوِّي الباه ويزيد في الشَّهوة

يؤخذ قَرَنْفُل وجَوْزبُوا وبَسْباسة وألسنةُ العصافير[٦] وأصلُ الإذْخِر[٧] وزنجبيل ودارِصينيّ ومَصْطَكاء وعودٌ هِنديّ وزعفرانٌ، من كلٍّ واحد مثقالان؛ قاقُلّة ولُبانٌ ذكر

---

(١) الدّانق: سدس الدّرهم.

(٢) الجوارشنات: هي الجوارشات بحذف النون، وقد ذكر داود أن الجوارش بالفارسية معناه «المسخن الملطف»، والجوارشات هنا هي عبارة عن الدواء الذي لم يحكم سحقه، ولم يطرح على النار بشرط تقطيعه رقاقًا. التذكرة ١/ ١٦٠.

(٣) الدّار فلفل: هو المعروف بمصر بـ«عرق الذهب»، ويسمّى أذناب الحراذين، قيل: إنّه أول ثمر الفلفل، تقدّم ذكره.

(٤) الشلجم: هو اللّفت، ويقال له: السّلجم، بالسين المهملة.

(٥) للجام معاني ثلاثة تختلف باختلاف اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية فالجام في العربية معناه الإناء من فضة، وقال علماء اللغة إنه بهذا المعنى عربي فصيح. والجام في التركية الزجاج كزجاج الشبابيك والمرايا. والجام في الفارسية القدح الذي يُشرَب به الشراب في الأكثر وغير الشراب في الأقل. ولا يمكن أن يكون المراد من (الجام) في عبارة المؤلف هذا المعنى الفارسي أي القدح، وإنما الممكن أن يكون المراد الإناء من فضة (بالمعنى العربي) أو لوح الزجاج (بالمعنى التركي).

(٦) ألسنة العصافير: يحتمل أنه يريد هنا «ألسنة العصافير» من الطيور، ويحتمل أنه يريد ثمر الدّردار، إلّا أنه يذكر بصيغة المفرد «لسان العصفور»، ويقال لحطبه «القندول» وهو شائك، أصفر الزهر، ، طيّب الرائحة.

(٧) الإذخر: حشيش أخضر، طيّب الرائحة، تسقف به البيوت فوق الخشب، تقدّم ذكره.

من كلِّ واحد مثقال، أُشْنَة[١] ثلاثةُ مثاقيل، مِسك ربعُ مثقال، سكّر عشرةُ مثاقيل؛ يُحَلّ السكّر بماء الورد على النار، ويُلقَى عليه عسلُ نحلٍ منزوعُ الرَّغوة، ويُعقَد بالأدوية بعد سحقها، ويُبسَط على جام ويُقطَّع ويُستعمَل، فإنّه غاية.

صفةُ جُوارِش التُّفّاح، يقوِّي المَعِدة ويزيد في الباه

يؤخذ تُفّاحٌ شاميّ مقشَّرُ الخارج، منقَّى الدّاخل، تُطبَخ منه خمسةُ أرطال بخمسة عشر رِطلًا من الماء حتى يَنْشَف الماء؛ ثم يؤخذ رِطْلُ عسلِ نحل، ورِطلُ سكّر ورطلُ ماء ورد، ويُلقَى جميعُ ذلك على التُّفّاح حتى ينعقد على النار؛ ثم يُلقَى عليه زعفران وسُنْبُل[٢] وقَرَنْفُل ودارصِيني وزنجبيل ومَصْطَكاء، من كلِّ واحد مثقال، لسانُ ثور[٣] شاميٌّ مثقالان، عُودٌ هِنديٌّ ثلاثةُ مثاقيل، تُدَقّ هذه الأصناف، وتنخل قبل إلقائها عليه، ثم تُبسَط على رخام، وتُقطَّع، وتُستعمَل.

ذِكرُ المُرَبَّيات المقوِّية للشَّهوة والمَعِدة والباه

قال صاحب (كتاب الإيضاح): لا بدّ لسائر المُرَبَّيات من هذه الأَفاوِيه وهي: زنجبيل، ودارصِيني، وقرفة، وقَرَنْفُل، وهال[٤]، وجَوْزبُوا، ومَصْطَكاء، وعُود هندي، من كلِّ واحد أوقيّة، زعفران نصفُ أوقيّة، سُكٌّ[٥] مثقالان، مِسك نصفُ مثقال؛ تُدَقّ هذه الأصنافُ دَقًّا جريشًا[٦]، وتُجعَل في خِرقةِ كَتّان، وتُشَدّ شَدًّا متحَلْحِلًا[٧] ويعلَّق[٨] منها في كلِّ مُربًّى لكلِّ رِطلٍ أوقيّة.

---

(١) الأُشنة: هي المعروفة بشيبة العجوز، وهي أجزاء شعريّة تتخلّق بأصول الأشجار، وأجودها ما على الصنوبر فالجوز، تقدّم ذكرها.

(٢) السُّنبل: نبات ينبت بأرض الهند، وتستعمل جذوره العطريّة في الطبّ، تقدّم ذكره.

(٣) لسان الثور: نبات ربيعي، غليظ الورق، خشن، إلى السّواد، يفرش على الأرض، وساقه مزغّبة بين خضرة وصفرة، كرجل الجراد، وأصول فروعه دقاق بيض، وفي وجه الورق نقط بيض، كبقايا شوك أو زغب، ترتفع من وسطه ساق نحو ذراع فيها زهر لازورديّ، ويخلّف بزرًا مستديرًا لعابيًّا، ومن أسمائه العربية «حمحم». انظر: معجم أسماء النبات ص ١٥.

(٤) الهال: هو القاقلّة.

(٥) السُّكّ: طيبٌ يتّخذ من الرّامك مدقوقًا منخولًا معجونًا بالماء، تقدّم ذكره.

(٦) الجريش: الخشن، يريد أنّها لا تسحق سحقًا شديدًا.

(٧) المتحلحل: الليّن الضعيف الذي لم يشدّ بقوّة.

(٨) يريد بالتعليق: أي يعلّق الطرف الأعلى من الخرقة في شيء، ويكون الطرف الأسفل المحتوي على أخلاط الطيب في المربّى منقوعًا.

صفةُ عَمَل الرّاسَن[١] المُرَبَّى، وهو مسخِّنٌ للكُلَى والظَّهْر مُحَرِّكٌ لشَهْوَة الباه

تؤخذ عشرةُ أرطالِ راسَنٍ يقطَّع بقدر الإصبع، ويُنقَع في ماءٍ وملحٍ مدّةَ عشرين يومًا، ويغيَّر عليه الماءُ والملحُ في كلّ خمسة أيّام أو ثلاثة؛ ثم يصيَّر في قدر ويُصَبُّ عليه من الماء الحلو ما يغمره، ومن العسل ثلاثةُ أرطال، ويُغلَى حتّى يلين؛ وتُلقى عليه الأفاوِيه مصرورةً[٢] في خِرقةٍ كما وصفنا، ثم يُرْفَعُ ويُستعمَل.

صفةُ عَمَل الشَّقاقُل[٣] المُرَبَّى يقوّي المعدةَ والشهوةَ ويزيد في الباه

يؤخذ شَقاقُلٌ كبارٌ خمسةُ أرطال، يُنقع في ماءَ عشرةَ أيّام، ثم يُلقَى في قِدرِ حجارة، ويُغلَى عليه غليةً خفيفة، ثم يُخرَج ويقشَّر، ويُرَدُّ إلى القِدر؛ ويُصَبّ عليه من العسل ما يغمره، ويغلَى عليه[٤]، وتُلقَى عليه الأَفاويهُ معلقةً كما وصفنا ويُجعَل في بَرْنيَةٍ مدهونة، ويُغسَل ظاهرُ البَرْنِيَة بالماء في كلّ خمسةِ أيّام حتى يَبرُد لئلّا يَحْمُض ويَفسُد، ويُستعمَل عند الحاجة.

صفةُ عَمَل الجَزَر المُرَبَّى الّذي يزيد في الباه

يؤخذ من نُحاتة[٥] أجواف الجَزَر عشرةُ أرطال، فيُجعَل في قِدرِ حجارة، ويُلقَى عليه من الماء ما يغمره، ثم يُلقَى عليه ثلاثةُ أرطال من عسل النحل، ويُطبخ بنارٍ ليّنة حتى يَتهرّأ، ثم يُخرَج من الماء والعسل، ويُنشَّف ويُبَرَّد؛ ثم يُلقَى عليه من العسل ما يغمره؛ ويُرَدّ إلى القِدر، ويُغلَى عليه غليةً يسيرة، ويُبرَّد، ويُجعَل في إناء، ويُتعاهد

---

(١) الرّاسن: نبات يشبه الزنجبيل، ويسمّى «الفَنَس»، وقيل في صنعته: إنّه نبات كبير معمّر، جذره سميك، مخروطي قليلًا، وهو ينبت بنفسه في الأماكن التي فيها رطوبة، وفي المحال الجبليّة. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ١٠١.

(٢) المصرورة: من حرّ يصرّ الصرّة أو غيرها، شدّها وأحكم ربطها.

(٣) الشقاقل: هو الجزر البرّي إن عُدَّ في الجزر، وهي عروق منها الغليظ ومنها الرّفيع، تخرج زهرًا في لون نوّار البنفسج، وبزرها أسود كالحمص، حلو الطعم. تقدّم ذكره.

(٤) مقتضى اللغة «يغلى» فقط.

(٥) النّحاتة: كلّ ما خرج من الشيء إذا نُحت «البُراية».

غَسْلُ ظاهر الإناء حتى يَبْرُد ولا يَحْمُض، ويكون قد طَرحَ فيه الأَفاوِيَه على الرّسم، والله أعلم.

صفةُ عَمَل الإهْلِيلَج(١) الكابُلِيِّ المُرَبَّى

يؤخذ من الإهْلِيلَج الكابليّ الغليظِ(٢) «ما أُحِب الأَخْذُ» فيُجعَل في إناء، ويُصَبّ عليه من الماء ما يَغمُره، ويُلقَى فيه من رَماد البَلُّوط ما يكفيه، ويُترَك ثلاثةَ أيّام ويُغيَّر عليه الماءُ والرَّماد؛ يُفعَل به ذلك أربع مرّات «إلى تمام اثنَيْ عشر يومًا»؛ ثم يُغسَل بالماء العذب ثلاثَ مرّات، ثم يُطبَخ بماء الشَّعير طبخًا ليّنًا، ويُخرَج منه ويُمسَح مسحًا رفيقًا لئلّا ينسلخ، ثم تُثقَب كلُّ إهْلِيلَجة بالإبرة في عشرة مواضع، ثم يُجعَل في بَرْنِيّةٍ(٣) خَضْراء، ويُلقَى عليه من عسل النحل ما يَغمُره بعد أن تُنزَعَ رَغْوَتُه ويُغسَل ظاهرُ الإناء مرارًا على ما تقدَّم، وذلك بعد أن تُلقَى عليه الأَفاوِيهُ في خِرقةٍ على الرسم(٤).

صفةُ عَمَل التُّفّاح المُرَبَّى

يؤخذ من التُّفّاح الجيّدِ الّذي لا عيب فيه قدرُ خمسين حبّة، يُقشَر، ويُنقَّى ما في باطنه من الحَبّ وما يجاوره، ويصيَّر في قِدر، ويُلقَى عليه من عسل النحل ما يَغمُره، ويُغلَى عليه يسيرًا؛ وتُعلَّق فيه الأَفاويه، ويُجعَل بعد ذلك في بَرْنِيّةٍ من الزجاج، ويُتعاهَد(٥) غسلُ ظاهرها بالماء في كلّ ثلاثة أيّام حتى يَبْرُد، ويُستعمَل فإنّه يقوّي المَعِدَة، ويشدّ القلب، ويزيد في الباه.

صفةُ عَمَل الجَوْز المُرَبَّى، وهو ممّا يزيد في الباه

يؤخذ من الجَوْز الطريّ الأخضرِ الّذي لم يَصلُب قِشرُه، فيُسلَب عنه قِشرُه الخارج، وإن كان داخلَه قِشرٌ قد صَلُب يُقشَر عنه أيضًا، ويصيَّر في قِدرِ حجارة ويُصَبّ عليه من عسل النحل ما يَغمُره، ويُغلَى عليه غَلَيانًا خفيفًا، ويصيَّر في بَرْنِيّةِ زجاج، وتُعلَّق فيه الأَفاوِيه، ويُتعاهَد غسلُ الإناء كما تقدّم.

---

(١) الإهليلج: نبات هندي معروف، وهو أربعة أصناف، أجود الكابلي، تقدّم ذكره.
(٢) الغليظ: الخشن. (٣) البرنيّة: إناء من خزف أو غضار.
(٤) على الرّسم: أي على القاعدة أو الطريقة. (٥) يُتعاهد: أي يعتنى بغسله فلا يُنسى أو يترك.

ذِكرُ السَّفوفات[١] التي تزيد في الباه
فمن ذلك صفةُ سَفوف

يؤخذ إشْقِيلٌ[٢] مشويّ وفانِيذ[٣] وبُوزَيْدان[٤] وبزرُ سَذاب، وحبُّ الشَّهْدانج[٥] وألسنةُ العصافير من كلّ واحدٍ ثلاثةُ مثاقيل؛ شَقاقُل مثقالٌ ونصف، خَشْخاش وبِزْرُ البصل، وبِزرُ الجِرجِير من كلّ واحد مثقالان؛ تُجمَع هذه الأصنافُ بعد دقِّها ونَخْلِها، ويُستفُّ منها مثقالٌ ونصف بشرابٍ حلوٍ ممزوج، فإنّه غاية.

سَفوفٌ آخَرُ يزيد في الباه

تؤخذ ألسنةُ العصافير وبِزرُ الجِرْجِير وبِزرُ اللِّفت، من كلّ واحد مثقالان؛ ندقّ ذلك، ويُستَفُّ منه مثقالٌ بشرابٍ حلو، أو بعقيد العنب، فإنّه جيّدٌ نافع إن شاء الله تعالى.

ذِكرُ الحُقَن والحَمولات[٦] المهيّجة للباه
والمُغْزِرة للمنيّ والمسمِّنة للكُلَى

هذه الحُقَن والحَمولات إنّما جُعِلتا لمن عجز عن تناول ما قدّمناه من الأدوية إمّا لكثرة حرارتها، أو كراهيةً لمذاقها، أو لإحراقها[٧] مِزاجَ المستعمِل لها، فالحُقَن والحَمولات تنوبان مَنابَها، وتقومان مَقامَها في الفعل، إلّا أن هذه الحُقَن لا بدّ أن تتقدّمها حُقْنةٌ تغسل الأمعاء، ثم يُحتقَن بها بعد ذلك فتكون أسرعَ فعلًا وأنجحَ نَفعًا.

---

(١) السّفوفات: ما يسف من دواء أو نحوه، وسفّ الدواء: تناوله يابسًا غير ملتوت.

(٢) الإشقيل: بصل الفأر، أو العنصل، ويسمّى إسقيل وإسقال وإشقيل وبصل البرّ، تقدّم ذكره.

(٣) الفانيذ: صنف من السكر الأحمر اللّون، أو هو من السكر والعسل، وقيل: هو عصارة القصب.

(٤) بوزيدان: هو عرق الانطراب، قيل: إنّه دواء خشبي هندي أو هو نبات تصنع منه الحلواء بمزجه بحليب الغنم ودقيق الأرز.

(٥) الشهدانج: معرّب «شاهدانه» بالفارسية، ومعناه: سلطان الحَبّ واسمه بالعربية «التنوم»، وأهل مصر تسميه «الشرانق».

(٦) الحمولات: وهي «التحاميل» تؤخذ من طريق فُتحة الدُّبر.

(٧) كذا ورد هذا اللفظ «بالقاف»، والمزاج لا يوصف بالاحتراق بل بالانحراف، ضدّ الاعتدال، فلعلّ الكلمة «لإحرافها» أو هي «لإحراقها» أي أنّها تترك في المتناوِل لها من اللّسع الذي ينتج عادة عن الإحراق. . .

فمن ذلك صفةُ حُقْنةٍ تغسل الأمعاءَ وتنقّيها

يؤخذ بابُونج[١] وبِزرُ كَتّان وحُلْبة وشِبْث[٢]، من كلٍّ واحد سبعةُ مثاقيل، وبُطْم[٣] وحَسَك[٤] أربعةَ عشرَ مثقالًا، تين أربعةَ عشرَ مثقالًا؛ يُطبَخ جميعُ ذلك بخمسة أرطالٍ من الماء، ويُغلَى حتى يَبقَى منه رطل، ويصفًّى، ويؤخذ من هذا الماء نصف رطل، ويضاف إليه من الشَّيْرَج[٥] خمسةَ عشرَ مثقالًا، وسكّر أحمرُ سبعةُ مثاقيل ثم يُحقَن به.

صفةُ حُقْنة أخرى تغسل الأمعاء

يؤخذ لُعابُ بِزرِ قَطُونا[٦]، ولُعابُ بِزرِ كَتّان، ولُعابُ الحُلْبة، وماءُ الصِّلْق[٧] المعتصَر ولُعابُ الخِطْمَيّ[٨]، من كلّ واحدٍ خمسةُ مثاقيل؛ ثم يُجعَل في ذلك من البُورَق[٩] والسكّر الأحمر من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل، ومن الشَّيْرَج عشرةُ مثاقيل، ثم يُحقَن به، فإنّه نافع لما ذكرناه إن شاء الله، فهذه الحُقَن الّتي تتقدّم أوّلًا.

---

(١) البابونج: نبات ينبت حتى على الأسطحة والحيطان، وفي الدّور، وأكثره أصفر الزّهر، ونبات هذا الصنف له رائحة نفّاذة ناتجة من وجود دهن طيّار كثيرٍ فيه، وهو نبات معروف.

(٢) الشّبث: ويقال له الشّبت، وهو نوع من النبات، وقال أبو حنيفة: الشّبث معرّب عن الشّبت. اللسان، مادة شبت.

(٣) البطم: هو المعروف بالحبّة الخضراء، وهو شجرة في حجم الفستق والبلّوط، عطريّة، حبّها يحوي اللبّ كالفستق، تقدّم ذكره.

(٤) الحسك: نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم، ويسمّى «ضرس العجوز»، تقدّم ذكره.

(٥) الشّيرج: السّمسم.

(٦) قطونا: بالمدّ والقصر، نبات يسمّى بما معناه «حشيشة البراغيث» ولا تستعمل إلّا بزوره، وهي عديمة الرائحة وطعمها تافه، تصيّر اللّعاب لزجًا. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٦٩٨.

(٧) الصّلق: هو السلق. واستعمال المؤلف له بالصاد هو استعمال عاميّ. والسلق: نبات ذو أوراقٍ طوال يؤكل مطبوخًا.

(٨) الخطميّ: هو صنف من الملوخيّة البرّيّة، له ورق مستدير وزهرٌ شبيه بالورد، وساق طولها نحو من ذراع، وهو نبات معمّر ينبت في المحال الرّطبة وعلى شواطىء الأنهار وفي الصحاري التي ينزل عليها المطر، واستنبت في المزارع والبساتين، ويقال له: الخطميّة. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٦٨٢.

(٩) البورق: أو النطرون، وهو مادة أقوى من الملح، قيل: إنه أصناف كثيرة، ويشبه الملح المعدني، ومذاقه بين الملوحة والحموضة، ويسمّى باللسان الكيماوي: «بورات الصود». انظر: عمدة المحتاج ١/ ٣٧٥.

صفةُ حُقْنةٍ تسمِّن الكُلَى وتزيد في الباه

يؤخذ من دُهن الجَوْز نصفُ رِطل، يُلقَى فيه من الحَسَك نصفُ رطل، ومن لبن البقر رِطل ونصف، وفانِيذ[١] وزنجبيل وبِزرُ هِلْيَون[٢]، من كلّ واحد أوقيّة؛ يُغلَى على النار، ويصفَّى ماؤه؛ ويؤخذ منه أربعةَ عشرَ مثقالًا، ومن دُهن الزَّنْبَق أربعةُ مثاقيل، ومن دُهن البان أربعةُ مثاقيل، ثم يُحقَن به، فإنّه نافعٌ لذلك.

صفة حقنة أخرى تسمِّن الكُلَى وتزيد في الباه

يؤخذ رأسُ كبشٍ وأَكارعُه ونصفُ أَلْيته، ويُرَضُّ[٣] الجميع، ويوضَع في قِدْر؛ ثم يوضَع عليه ربعُ رِطل حِمَّص، ومِثلُ ذلك حنطة ولُوبِياء حمراء، ومن الشِّبْثِ والبابُونَج وبِزرِ اللِّفت ومَرْزَنْجُوش[٤]، من كلّ واحد سبعةُ مثاقيل، حَسَك خمسةَ عشرَ مثقالًا؛ تُطبَخ بعشرةِ أرطال ماء حتى يتهرّأ[٥] الجميع، ويصفَّى، ويؤخذ من ذلك الماءِ والدَّسَم رطل، ويُلقَى عليه من سمن البقر أوقيّة، ومن اللّبن الحليب أوقيّتان، ومن دُهن البَان نصفُ أوقيّة، ثم يُحقَن به ثلاثَ ليالٍ متوالية عقيبَ تلك الحُقْنة الّتي تَغسل الأمعاء، فإنّه عجيب الفعل.

صفةُ حُقْنةٍ أخرى تنفع من انقطاع الجماع، وتقوّي الشهوة وتسخِّن الكُلَى، وتزيد في الباه زيادةً حسنة

يؤخذ بِزرُ كَتّان وبِزرُ نَرْجِس[٦] وبِزرُ فُجل وبابُونَج من كلٍّ واحدٍ أوقيّة، حُلْبة ثلاثُ أواقيّ، أَنْجُرَة[٧] أوقيّة، حنطة أربعُ أواقيّ، سمنٌ ثلاثُ أواقيّ، تمرٌ عشرون عددًا لُبُّ القِرْطِم[٨] البريّ والبستانيّ من كلّ واحد أوقيّتان، مَرْزَنْجُوش ثلاثُ أواقيّ

---

(١) الفانيذ: قيل: إنّه صنفٌ من السكّر الأحمر، أو السكر والعسل، أو هو عصير القصب.

(٢) الهليون: نبات مشهور في الشام، بزره مدوّر أخضر، ثمّ يسودّ ويحمر، وفي جوفه ثلاث حبات كأنّها حبّ النيل، صلبة، تقدّم ذكره.

(٣) يرضّ: يدقّ ويطحن.

(٤) المرزنجوش: المردكوش، ويطلق عليه في بلادنا «المردشوش».

(٥) يتهرّأ: أي تذوب في الماء.

(٦) النرجس: نبتٌ من الرّياحين، أصله بصل صغار، له زهرٌ أبيض مستدير.

(٧) الأنجرة: أي «القرّيص»، سمّيت بذلك لأن ورقها إذا أصاب عضوًا أحدث به حكّة وتقريصًا.

(٨) القرطم: حبّ العُصفر، أو تمر العصفر، والقرطم شجر يشبه الرّاء، والقرطم: نبات يتخذ منه صبغ أحمر. انظر: اللسان، مادة قرطم.

يُطبَخ جميعُ ذلك بعشرةِ أرطالِ ماءٍ حتى يَبقَى منه الثُّلث، ويُمْرَس[١]، ويُصفَّى ويؤخذ دُهن سَوْسَن ودُهن نرجس ودُهن زَنْبَق ودُهن خِيريٍّ وعسل نحل من كل واحد أوقيّة، يخلط الجميع «بالماء الأوّل»، ويؤخذ منه نصف رطل ويحقن به فإنه نافع.

صفةُ حُقْنة أخرى

يؤخذ لبنُ ضأن وأذُنا الخروف وحنطة وشَعير وحُلْبة وشَحْمُ دَجَاج، وشَحْمُ بطّ وفراخُ حمام وبابُونَج وخِطْمِيّ وحَسَك وشِبْث وتين وعُنّاب وسَيْسَبان[٢] وبِزرُ كَتّان، من كلّ واحد جزء؛ ويُطبَخ جميعُ ذلك بماءٍ حتى يتهرّأ، ويصفَّى، ويُخلَط معه شَيْرَج ودُهنُ بَنَفْسَج ودُهنُ خِيرِيّ ودُهنُ بُطم[٣]، ودُهنُ جَوْز، وسمنُ بقر، ثم يُحقَن به على ما تقدم فإنّه غايةٌ في النّفع.

صفة حُقْنةٍ أخرى من كتاب الرازيِّ تهيج الباه

يؤخذ رطلٌ من دُهن الجَوْز، ويُلقَى فيه رطلُ حَسَك، وثلاثةُ أرطال من حليب البقر، وأوقيّة زنجبيل وأوقيّةُ فانِيذ، ويُطبَخ حتى يغلي مرارًا؛ ثم يصفَّى ويؤخذ منه أوقيّتان، وزَنْبَق[٤] نصفُ أوقيّة، ودُهنُ بان نصفُ أوقيّة، ويُحتقَن به ولا يجامع عشرَ ليال، فإنّه عجيب. هذه الحُقَن.

وأمّا الحَمولات التي تُحدِث الإنعاظ[٥] الشديد

يؤخذ بِزرُ جَزَر وبِزرُ جِرجير، ولُعْبة[٦]، ولُبُّ حَبُّ القطن، أجزاء متساوية،

---

(١) يُمرس: يسحق جيّدًا.

(٢) السيسبان: نبات برّي وبستاني، يطول قامتين، وأوراقه قد تتّسع وقد تدقّ على حسب الظلال الموافقة والأمكنة النديّة وزهره أصفر نضر، وخشبه متحلحل، وثمره في عناقيد يقارب حجم الحلية بين سواد وصفرة، ويعبّر عنه بـ«حبّ الفقد». انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٧٨٦.

(٣) البُطم: هو المعروف بالحبّة الخضراء، وهو شجرة في حجم الفستق والبلّوط، حبّها يحوي اللبّ كالفستق، تقدّم ذكره.

(٤) الزّنبق: نبات له زهر جميل طيّب الرائحة، طويل، منه ألوان مختلفة، أشهرها الأبيض.

(٥) الإنعاظ: انتصاب الذّكر.

(٦) اللعبة: هي أصل اليبروح، واليبروح: كلمة سريانيّة يقال إنّ معناها «يعوزه الرّوح»، وذلك لزعمهم أن جذره على صورة آدميين متعانقين خاليين من الرّوح، وينبت هذا النبات في إيطاليا وإسبانيا واليونان، وهو عديم الساق، وأوراقه كلّها جذريّة تامّة الكمال، متعوّجة الحافات والأزهار بيض أو محمرّة، والثمار بيض أو محمرة في غلظ البيضة، والجذور غليظة لحمية مستطيلة، تتصاعد منها رائحة سمّيّة مخدّرة. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٣٤.

يُعجَن بماء الراسَن[١] أو بماء الجِرجير، وتُعمَل من ذلك فَتيلة، ويُتحمَّل بها، فإنّها تُنعِظ إنعاظًا عجيبًا.

صفة أخرى

يؤخذ من شَحم كُلَى السَّقَنْقُور[٢] فيذاب بدُهن السَّوْسَن، ويُذَرّ عليه من لُبّ حَبّ القطن وعاقِر قَرْحَى[٣] وزنجبيل بعد سحقِ ذلك ونخلِه، وتُعمَل منه فَتيلة ويُتحمَّل بها.

صفة أخرى

يؤخذ من شحم كُلَى السَّقَنْقُور وشحم البقر، والشَّمَع[٤]، يُسْلأُ[٥] ذلك، وتُلقَى عليه أدمِغةُ العصافير الدُّورِيّة[٦]، وتُعمَل منه فَتيلة، ويُتحمَّل بها.

صفةٌ أخرى

يؤخذ قَنْطُرْيُون[٧] مسحوق، وزفت، وشَمَع، يذاب بدُهن سَوْسَن، وتُعْمَل منه فَتيلة، ويُتحمَّل بها، فإنّها تُنْعِظ إنعاظًا عجيبًا.

صفةٌ أخرى

تؤخذ قِطعةُ حِلْتِيتٍ[٨] فتُجعَل في ثَقْب الذَّكَر بقدر ما تَلْذَع، ثم تُشال منه، فإنّه يُنعِظ إنعاظًا قويًّا، وإذا حصل اللَّذْعُ يُقطَر في ثَقْب الذَّكَر دُهنُ بَنَفْسَج.

---

(١) الرّاسن: نبات يشبه الزنجبيل، ويسمى الفَتَس، تقدّم ذكره.
(٢) السّقنقور: ورل مائي، أي دابّة على خلقة الضبّ تصاد من نيل مصر.
(٣) العاقر قرحى: نبات يشبه في شكله وقضبانه وورقه وزهره جملةَ النبات المعروف بـ«البابونج»، تقدّم ذكره.
(٤) الشمع: مادة تتخذ من شمع النحل أو من مادة دهنيّة.
(٥) يُسلأ: أي يطبخ ويُذاب.
(٦) العصافير الدوريّة: أي العصافير التي تعشّش في البيوت (معروفة).
(٧) القنطريون: نوعٌ من الحشيش، وهو صنفان كبير وصغير، والكبير له ورق شبيه بورق الجوز، أخضر، مثل ورق الكرنب، وأطرافه مشرفة مثل تشريف المنشار، وله ساق شبيهة بساق الحمّاض، ولون زهره شبيه بالكحل، وثمره شبيه بالقرطم، والقنطريون الصغير: ينبت عند الماء، وله ساق طولها أكثر من شبر، وزهرٌ أحمر، وورق صغار شبيهة بورق السذاب، وثمر شبيه بالحنطة، وينتفع من ورقه وقضبانه وزهره. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٧٩.
(٨) الحلتيت: هو صمغ شجرة الأنجذان، وهو نوعان، أحدهما أبيض وهو المأكول، والآخر أسود منتن الرائحة ويسمّى بالعراق «الكاشم»، تقدم ذكره.

هذا ما يعالَج به الباطن، فلنذكر الأدويةَ النافعةَ للظاهر من المَسُوحات(١) والضِّمادات والأدويةِ الملذِّذة للجماع.

ذِكْرُ المَسوحات والضِّمادات الّتي تزيد في الباه، المقوِّية للذَّكَر

صفةُ مَسُوح يُمرَخ به القضيبُ فيهيج شهوةَ الجماع ويزيد في الباه

يؤخذ عاقِرْ قَرْحَى، وبَسْبَاسة، ودار فُلْفُل، من كلٍّ واحد مثقالان، قِنّة(٢) وأَفَرْبَيُون(٣) من كلّ واحد مثقال، جُنْدَبا دَسْتَر(٤) وبزر الجِرجير، من كلٍّ واحد نصفُ مثقال؛ دُهنُ النَّرجِس عشرةُ مثاقيل، شَمَعٌ أبيضُ أربعةُ مثاقيل، تُسحَق الأدويةُ اليابسة ويذوَّب الشَّمَع والقِنَّة مع الدُّهن على النار؛ ثم تُلقَى عليها الأدويةُ المسحوقة، ثم يُرفَع، ويُمرَخ به القضيبُ والعانة(٥)، فإنّه جيّدٌ مفيد لما ذُكِر.

صفةُ مَسوح آخَرَ يُمرَخ(٦) به الذَّكَر والعانة، يزيد في الإنعاظ ويسخِّن الكُلَى والمثانة

تؤخذ عصارةُ حشيشة الكلب ـ وهي الفُراسِيُون(٧) ـ تُدَقّ وتُحَلّ بالدّهن ويُمرَخ بها.

---

(١) المسوحات: أي ما يمسح أو يدهن بها الجلد من الخارج.

(٢) القنّة: صمغ نبات يشبه القنا في شكله، وأجوده ما كان شبيهًا بالكُندر، تقدّم ذكره.

(٣) الأفربيون: هو اللّبانة المغربيّة، وهو عصارة متجمّدة تأتي من النباتات الفربيونيّة ولا سيّما الفربيون الطبّي الذي يحتوي على نحو أربعمائة نوع تحتوي كلّها تلك العصارة وينبت بإفريقيا، ولا سيما «رأس الرجاء» وبالهند، وهو معمّر، ومنظره كقند الشمع، وساقه قائمة ثخينة في غلظ العضد، وإذا صلُب الساق يشقّ فتخرج منه عصارة لبنيّة أكالة تسلخ الأصابع. انظر: عمدة المحتاج ١/٢٣١.

(٤) الجندبادستر: هو خصية حيوان بحري يعيش في البرّ والبحر وأكثر ما يكون هذا الحيوان في النّهر مع الحيتان والتماسيح ويغتذي بالسّمك، وهو على صورة الكلب، لكنّه أصغر غزير الشعر، أسود برّاق، تقدّم ذكره.

(٥) العانة: الشّعر النابت في سفل البطن.

(٦) يمرخ: يدهن.

(٧) الفراسيون: وتسمّى أيضًا «عشبة الكلاب»؛ لأن الكلاب متى وقعت بها لا ترجع عنها حتى تتمرّغ فيها، وهو نبات معمّر يوجد في المحال المزروعة الجافّة الصخريّة، وعلى حافات الطرق والأزقّة والحفر بأوروبا، والمستعمل منه أوراقه وأطرافه المزهرة. انظر: عمدة المحتاج ٢/٥٧١.

مَسوحٌ آخَرُ يُمرَخ به الذَّكَر يزيد في الإنعاظ

تؤخذ مرارةُ ثورٍ فحل، وعسلُ نحل منزوعُ الرَّغْوة، وقليلُ عاقِرِ قَرْحَى؛ يُخْلَط الجميع، ويُمسَح به.

مَسوحٌ آخَرُ ملوكيّ

يؤخذ أَفَرْبَيُون وزنجبيل وعاقِر قَرْحَى[١]، من كلٍّ واحد مثقال، ومِسك نصفُ مثقال، تُجمَع بدُهن البَلَسان[٢]، ويُمرَخ بها القضيب وما يليه، فإنّها نهاية.

مَسوحٌ آخَرُ يُنعِظ ويزيد في الباه، ويعين على الجماع إذا مُرِخ به القضيب والعانة

يؤخذ السَّقَنْقُور وقضيبُ الإيَّل[٣] المجفَّف، والحشيشةُ المسمّاةُ خُصَى الثّعلب[٤] من كلٍّ واحد مثقال، ومن بزرِ العاقِر قَرْحَى وبزرِ الجِرْجِير، من كلّ واحد أربعةُ مثاقيل فَرْبَيُون مثقالان، بَيضُ العصافير الدُّورِيّة ثلاثُ بيضات، تُجعَل في إناءِ زجاج ويُصَبّ عليها شيءٌ من قَطِرانٍ ودُهنِ سَوْسَن مقدارَ ما يَغْمُرها ويطفو عليها، ويُسَدّ رأسُ الإناء، ويُدفَن في الزِّبل مدّةَ أربعين يومًا، يبدَّل عليه الزِّبْلَ في كلّ سبعة أيّام، ثم يُخرجه بعد ذلك، ويصفِّي عنها الدُّهن، ويُلقِي في الدّهن سبعةَ مثاقيلَ من عِلْك البُطْم[٥]، وتُسحَق الأدويةُ اليابسة، ويُخلط الجميعُ بالعجن الجيّد؛ ويُصَبّ عليه من دُهن السَّوْسَن حتى يصير في قوام المرهم الرَّطْب، ثم يُرفَع لوقت الحاجة، فإذا أراد العملَ به مَرَخَ به القضيبَ وما قرب منه، فإنّه يفعل فعلًا عجيبًا.

---

(١) العاقر قرحى: نبات يشبه البابونج، تقدّم ذكره.

(٢) البلسان: شجر ينبت جماجم كجماجم الرّيحان، ثمّ يتعاظم حتى يكون كشجر البطم، ويؤذيه ما يؤذي الإنسان من الحرّ والبرد والعطش والرّي، تقدّم ذكره.

(٣) الإيل: ذكر الأوعال، وأكثر أحواله شبيهة ببقر الوحش، وقيل هو الكبش الجبلي، وقيل: هو معزى الجبل، وهو حيوان كالمعز غزير الشعر، طويل القرون، ونظره مقلوب إلى فوق، فلذلك ينحدر من أعالي الجبال فيلقي قرونه ثمّ يصعد.

(٤) خُصى الثعلب: هو نبات ربيعي ينبت بالجبال والأماكن النّديّة، ويكون في الأصل الواحد ثلاث ورقات، والظاهر من ورقه كورق البصل، أو أعرض يسيرًا، تقدّم ذكره.

(٥) البطم: هو المعروف بالحبّة الخضراء، وهو شجرة في حجم شجرة الفستق والبلّوط، حبّها يحوي اللّب كالفستق، تقدّم ذكره.

مسوحٌ آخَر

يؤخذ دُهن خِيرِيّ ودُهنُ نرجس، من كلٍّ واحد نصفُ رطل؛ يُجعَل ذلك في طِنْجير، ويُلقَى عليه دارُ فُلْفُل[١] وعاقِر قَرْحَى وزنجبيل ودارصِينيّ من كلٍّ واحد أوقيّة؛ جُنْدَبِيدَسْتَر[٢] نصفُ أوقيّة؛ يُغلَى ذلك على النار غليانًا جّدًا، ويُمرَس ويصفَّى، ويُرفَع في إناءِ زجاج، ثم يُدهَن به القضيبُ وما حوله، فإنّه يفعل في الإنعاظ فعلًا جيّدًا قويًا.

مَسُوحٌ آخَر

تُؤْخَذ مرارةُ التَّيْس ويُطلَى بها الذَّكَر وما حوله والحَقْوان[٣]، فإنّ ذلك يقوّي على الباه[٤]. . . أمرًا عجيبًا.

مَسُوحٌ آخَرُ يُلطَخ به الذَّكَر المُرْخَى القليلُ القيام

يؤخذ بُورَق[٥] ووَرْس[٦]، ويُعجَنان بعسلٍ منزوعِ الرَّغْوة، ثم يُلطَخ به الذَّكَر وما حوله، ويُدمَن ذلك أيّامًا، فإنّه عجيب الفعل.

مَسُوحٌ آخَر

يؤخذ من شحم الضَّبِّ ولحمِه فيُطبَخان، ويؤخذ دُهنُه ويُخلَط بزَنْبَق، ويُدهَن به الذَّكَر، فإنّه يزيد في الإنعاظ، ويقوّي الباه[٧]. . . أمرًا عظيمًا.

---

(١) الدار فُلفل: هو المعروف في مصر بـ«عرق الذّهب»، ويسمّى أذناب الحراذين، قيل: إنّه أول ثمر الفلفل، تقدّم ذكره.

(٢) الجندبيدستر: هو خصية حيوان بحري يعيش في البرّ والبحر، وخاصة في الأنهار مع الحيتان والتماسيح ويشبه الكلب، تقدّم ذكره.

(٣) الحقوان: مثنى حقو وهو الخاصرة، ومعقد الإزار من الجسم.

(٤) يريد: يرى منه أمرًا عجيبًا، «مكان النقط الثلاثة».

(٥) البُورق: أو النطرون، وهو مادة أقوى من الملح، ويشبه الملح المعدني، ومذاقه بين الملوحة والحموضة.

(٦) الورس: هو الكركم، نبات يزرع فيخرج كعروق القطن، وحمله كالسمسم، إذا بلغ تشقّق عن شعر بين حمرة وصفرة، وهو اليمني الأجود، ومنه خالص الصفرة، ولا يكون إلّا استنباتًا، وهو نبات يصبغ به.

(٧) يريد: ويقوي الباه، ويرى منه أمرًا عجيبًا.

مَسُوحٌ آخَر

تؤخذ العصافير وقتَ هَيَجانها فتُذبَح على دقيق العَدَس، ويُلَتّ بدمها، ويُبَنْدَق ويجفَّف، فإذا أراد الجماع فليأخذ بندقةً ويَحُلّها بزيت، ثم يُطلِي بها أسفلَ القدمين؛ ولا يطأ على الأرض، بل يكون على الفراش، فإنّه يُنعظ إنعاظًا قويًّا، وإن وَطىء على الأرض بطل فعلُ الدّواء.

مَسُوحٌ آخَر

تؤخذ مرائر العصافير الدُّوريّة الذكور وتُخلَط بدُهنِ زَنْبَق خالص، ثم يؤخذ بَاذَرُوج[١] وشَهْدَانِج[٢] فيُدَقّان جميعًا دقًّا ناعمًا، ثم يُخلَطان بالمرائر والدُّهن، ويُرفَع ذلك في قارورة، فإذا أراد الجماعَ يمسح منه تحت القدمين وعلى القضيب والأنثيين ولا يطأ على الأرض، فإنّه يرى من قوّة الباه أمرًا عجيبًا.

مَسُوحٌ آخَر

يؤخذ قضيب الإيّل فيُحرَق، ويُعجَن رَمادُه بشرابٍ عتيق، ثم يُطلَى به القضيب ويُمرَخ به، ويُطلَى ما حوله، فإنّه يُنعِظ إنعاظًا شديدًا جدًّا؛ فهذه المَسُوحات.

وأمّا الضِّمادات التي تزيد في الباه وتعين على الجماع

فيؤخذ رمادُ قضيب الإيّل وعاقِر قَرْحَى وفَرْبَيُون وفُلْفُل أبيض، من كلّ واحد جزء؛ تُسحَق وتُجمع، وتُعجَن بشرابٍ عتيق، ويُضمَد الذَّكَر بها والأُنْثَيان[٣]، فإنّها تزيد في الباه.

صفةُ ضِماد يُجعَل على الظَّهر، يزيد في الباه، ويقوِّي الإنعاظ

يؤخذ فُلفُل وعاقِر قَرْحَى وفَرْبَيُون، من كلّ واحد مثقالان ونصف؛ حِلْتِيت مثقالٌ وربع؛ دُهْنُ بَلَسان ودُهنُ قُسْط[٤]، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل، دار فُلفُل

---

(١) الباذروج: قيل: إنه اسم نبطي، وهو بقلة تستنبت في البيوت، وقد ينبت بنفسه، ويسمّى الرّيحان الأحمر، وبعضهم يسمّيه السليماني، عريض الأوراق، مربّع الساق، حرّيف، غير شديد الحرافة.

(٢) الشهدانج: معرّب شاهدانه، ومعناه سلطان الحَبّ بفتح الحاء، واسمه بالعربيّة: التنوم، وأهل مصر تسمّيه الشرانق.

(٣) الأنثيان: يريد الخصيتان.

(٤) القسط: عودٌ هندي يتبخّر به ويُتداوى، تقدّم ذكره.

وجوزبُوا، من كلّ واحد مثقالان؛ تُسحَق الأدويةُ اليابسةُ سحقًا ناعمًا جدًّا؛ وتُحَلّ بالأدهان، وتُمَدّ على خِرقة، وتوضَع على الظَّهر، فإنّه يرى العجب.

صفةُ ضِماد يُجعَل على الإبهام من الرِّجل اليُمنَى يزيد في الباه ويقوّي الجماع

يؤخذ من عود اليُسْر[١] خمسةَ عشرَ مثقالًا، ومن صمغ البُطْم وصمغ عربيّ وفُلفُل من كلّ واحد عشرةُ مثاقيل؛ خُرْء الفأر والحشيشةُ المسمّاة خصيةَ الثّعلب، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل، ومُقْل[٢] أزرق وعاقر قَرْحَى وزنجبيل وفَرْبَيُون وسَكْبِينَج[٣] وجَوْزبُوا من كلّ واحد أربعةُ مثاقيل، ويؤخذ سامٌّ أبرصَ فيُنْقَعُ في الخَلّ الحامض أربعين يومًا، ويُخرَج ويجفَّف، ويؤخذ شحمُ وَدَكِ[٤] الكُلَى وقِنّة وشَمَع أبيض، من كلّ واحد عشرةُ مثاقيل، تُجمَع الصُّموغ والأصناف، ويذوَّب ما يَذُوب منها، وتُخلط به بقيّتُها بعد دقّها، فإذا اختَلَطَتْ خلطًا جيّدًا يُمَدّ منها على خِرقةِ حريرٍ أو صوف وتُوضَع على إبهام الرِّجل اليمنى، فإنّه يرى منه أمرًا عجيبًا.

ذكرُ الأدوية الملذِّذة للجماع

منها صفةُ دواءٍ يُطلَى به الإحليل عند الجماع يزيد في الباه واللّذّة، يؤخذ جَوْزبُوا[٥] وفُلفُل ودار فُلفُل وعاقِر قَرْحَى وزنجبيل وسُنْبُل وخَوْلَنْجان[٦] وسُكّر، من كلّ واحد مثقالان؛ فيُسحَق كلُّ صِنفٍ منها على انفرادِه ثم تُجمَع بالسحق، وتُنخَل،

(١) عود اليسر، والأسر: وهو قضبان تتولّد ببحر عُمان، وهي عقد وسبط، ومنها غليظ جدًّا يمتدّ في الأرض، وهو شديد السّواد، طيّب الرائحة، كلّما استعمل اشتدّ بريقه.

(٢) المقل: هو صمغ راتينجي يأتي من الهند وبلاد العرب، يستخرج من شجر أسود الخشب في عظم الزيتون، وأوراقه تشبه أوراق البلّوط، وثمره كثمر التّين البرّي، ويكون الصمغ على شكل دموع أي حبوب مستديرة متراكمة بعضها على بعض في حجم البندق، وعلى شكل كتل حمراء مسودّة معتمة لامعة السطح، كأنّهات مذابة. انظر: عمدة المحتاج ٢/٨٠٩.

(٣) السكبينج: هو صمغ شجره بفارس يخرج منها في شهر حزيران عند الورق، قيل: يخرج بواسطة الشّرط، وأجوده الأبيض الظاهر الأحمر الباطن.

(٤) الودك: الدّسم من اللّحم والشّحم، ورجلٌ ودك: أي سمين.

(٥) جوزبوًا: أي جوز الطيب.

(٦) الخولنجان: قطع ملتوية حمر وسود، حارّ المذاق طيّب الرائحة، يؤتى به من الصّين، تقدّم ذكره.

وتُعجَن بالعسل الّذي قد رُبِّيَ فيه الزنجبيل والشَّقاقُل[١] ويُمسَح به الذَّكَر، فإنّه يَرى منه عند الجماع لذّةً عظيمة.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ عاقِر قَرْحَى وزنجبيل ودارصِينيّ وسُكّر[٢]، من كلّ واحد مثقالان ونصف؛ تُجمع هذه الأصنافُ بعد سحقِها ونخلِها، وتُعجَن بماء الرازِيانج[٣] الرَّطْب، وتُحبَّب مِثلَ حَبِّ الفُلْفُل، وتُجفَّف في الظِّلّ، ثم تُسحَق ثانيًا، وتُطرَح في دُهنِ رازِقي[٤] ويُطلَى بها الذَّكَر، فإنّه جيّد.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يزيد في اللّذّة عند الجِماع

يؤخذ سكّر طَبَرْزَذ وكبابة[٥] وعاقِر قرحى، من كلّ واحد مثقالان؛ تُجمَع بعد سحقِها ونخلِها، وتُعجَن بماء الرازِيانَج الرَّطْب، وتُحبَّب مِثلَ الفُلْفُل، وتُجفَّف في الظّلّ، فإذا احتاج إليها طَرَح منها في الفم حبّة، واستَعمَل ما انحلّ منها، أو تُحَلّ في دُهن ويمسح بها الذَّكر، ويجامع، فإنّه يرى منه لذّةً عظيمة.

صفةُ دواء آخَرَ يُحدِث من اللّذّة ما لا يوصَف

يؤخذ رازِيانَج يابس محمَّص، وفُلْفُل، ودار فُلْفُل، وزنجبيل، وعاقر قَرْحَى، ودارصِينيّ، وجَوْزبُوا وقَرْدَمانًا[٦]، وسكّر طَبَرْزَذ، من كل واحد مثقالان، تُجمَع مسحوقةً منخولة، وتُحَلّ بماء الرازِيانَج الرَّطْب أو بماء الباذَرُوج[٧] الرَّطْب حتى

(١) الشقاقل: هو الجزر البرّي، تقدّم ذكره.

(٢) جاء في الإيضاح للشيرازي وصف السكر بأنه «طبرزذ» وهو السكر الأبيض الصلب، أو السكر والعسل الذي طبخ بمثل عشره فانعقد.

(٣) الرّازيانح: هو الأنيسون، ويسمّى الشمّار بالشام ومصر، والبسباس بالمغرب، وهو برّي وبستاني، والكل معروف، عطري، ذكيّ الرائحة. انظر: عمدة المحتاج ٢/٦١٧.

(٤) الدهن الرازقي: هو السوسن الأبيض، ويطلق كذلك على الزنبق.

(٥) الكبابة: هو ثمر نبات يجلب من الصين، منها كبيرة تسمّى «حبّ العروس»، ومنها صغيرة تسمى «الفلنجة»، وشجرها كالآس، وأجودها الرّزين الطيّب الرائحة، تقدّم ذكرها.

(٦) القردمانا: هي الكراويا المعروفة، وقيل: هو البرّي من الكراويا، أو الجبلي، وهو قضبان وأوراق إلى بياض وخضرة نحو ذراع له زهر إلى زرقة يخلّف بزرًا أصفر طويلًا إلى مرارة وحرافة، وأجوده الحديث.

(٧) الباذروج: قيل إنّه اسم نبطي، وهو بقلة تستنبت في البيوت وقد ينبت بنفسه، ويسمّى الرّيحان=

تصير في قوام الطِّلاء[1]، ثم تُرفَع في إناءِ زجاج، ويُسَدّ رأسُه عشرةَ أيّام، ويخضخَض في كلّ يوم ثلاثَ مرات، ثم يُمسَح منه الذَّكَر بعد ذلك، ويُترَك حتى يجفّ ثم يجامع بعد جفافه؛ ويحرص أن ينحلّ وهو يجامع؛ ولا يترك رأس الإناء مفتوحًا فإنّ الهواءَ يَذهَب بقوّة الدواء. قال: فمن استعمل هذا الدواءَ لم تصبر المرأةُ عنه.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يزيد في اللّذّة

تؤخذ مرارة ذئب، وعسل نحل، وماء الرازِيانَج الرَّطْب، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل؛ فُلْفُل ودار فُلْفُل ودارصِينيّ وزنجبيل وعاقِر قَرْحَى[2]، من كلّ واحد مثقال؛ تُسحَق الأدويةُ اليابسةُ، وتُنخَل، وتُلقَى في المرارة والماء والعسل، وتُخضخَض في إناءِ «زجاج»، ويغطَّى فمه حتى لا يصل إليه الهواء، ويُمسَح منه على الذَّكَر وقتَ الجماع، فإنّ المرأة تجد لذلك لذّةً عظيمة.

صفةُ دواءٍ آخَر

تؤخذ مرارةُ دَجاجةٍ سوداء، ويضاف إليها شيء يسيرٌ من الزنجبيل[3] المسحوق ويُطلَى بهما الذَّكَر، فإنّ المرأة تلتذّ به.

وحيث ذكرنا من أدوية الباه ما ذكرنا، فلنذكر ما قيل في الأدوية الّتي تعظِّم الذَّكَر وتصلّبه، والأدوية التي تضيّق فُروجَ النّساء وتجفِّف رطوبتَها.

ذِكْرُ الأدوية التي تعظِّم الذَّكَر وتصلِّبه

قد أجمع (جالينوس) ومَن تابَعه من الحكماء على أنّ الدّلك الدائمَ والتَّمريخَ بالأدهان والأشياءِ الملّيّنة والتنطيل[4] بالماء الحارّ والدّلكَ بالزيت والزفت[5]، تُعظِّم

= الأحمر، وبعضهم يسمّيه «السليماني» عريض الأوراق، مربع الساق، غير شديد الحرافة، تقدّم ذكره.

(١) الطِّلاء: الخمرة.

(٢) العاقر قرحى: نبات يشبه في شكله التام «البابونج»، تقدم ذكره.

(٣) الزّنجبيل: ممّا ينبت في بلاد العرب بأرض عُمان، وهو عروق تسري في الأرض، ونباته شبيه بنبات الرّاسن وليس منه شيء بريًا، وليس بشجر، وهو عودٌ حريف وأجوده ما يؤتى به الزنج وبلاد الصّين. اللّسان، مادة زنجبيل.

(٤) التنطيل: لعلّه النقع، ففي اللّسان: النّطل: ما يرفع من نقيع الزبيب بعد السُّلاف.

(٥) الزّفت: القار.

كلِّ عضو في الجسد، ولا خلاف عندهم أنّ هذا العضو إذا فُعِل به ذلك عَظُم ونما وزاد عن حالته الّتي هو عليها، فإذا اجتمع مع ذلك هذه الأدويةُ الّتي نذكرها ـ وهي ممّا اتفق الأطبّاءُ على جُودتها وصحّتها ـ فإنّ ذلك أبلَغُ وأسرَع.

فمن ذلك صفةُ دواءٍ يعظِّم الذَّكَر ويصلِّبُه ويُعِينُ على الجماع

يؤخذ بُورَق[١] أرمنيّ وسُنْبُل[٢]، من كلّ واحد مثقالان، عَلَقٌ[٣] طِوال عشرٌ عددًا، يجفَّف العَلق، ويُسحَق مع البُورَق والسُّنْبُل حتى يصيرَ جميع ذلك كالهَباء؛ ثم يُصَبّ عليه لبنٌ حليب وعسلٌ أجزاء متساوية، من كلّ واحد منهما عشرة مثاقيل، ويُمرَس باليد حتى يختلط، ثم يُطلَى به الذَّكر ليلة؛ ثم يُغسَل بالماء الحارّ من الغد، ويُدلَك بالخِطْمِيّ[٤] دَلْكًا قويًا حتى يحمرّ، ثم يُغسَل، ثم يعاد عليه الدواءُ والدَّلْكُ قبل الدواء وبعده، فإنّه جيّد.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يعظِّم الذَّكَر ويحسِّن مَنْظَرَه

يؤخذ شَمَع أحمر، وزفت، وعِلْكُ بُطْم[٥]، وزيتٌ فلَسْطينيّ، من كلّ واحد خمسةُ مثاقيل، أَنْزَرُوت[٦] وبُورَق أرمَنيّ مذوَّبان بلبن الأتان أربعةُ مثاقيل ـ وهو أن تأخذ الأَنْزَرُوت والبُورَق فتسقيهما لبنَ الأتان ثم تجفِّفهما وتسحقهما وتسقيهما، ثم تجفِّفهما حتى يشربا ثلاثةَ مثاقيل لبن ـ ويؤخذ من العَلَق الطّوال المجفَّف ثلاثةُ مثاقيل، ويُسحَق الجميع، ويذوَّب الشَّمَع والزِّفت والعِلْك والزّيت، وتُلقَى عليها

---

(١) البورق: صنوف كثيرة، ويقال له: النّطرون، وهو ضربان أحمر وأبيض ويشبه الملح المعدني، ومذاقه بين الملوحة والحموضة، تقدّم ذكره.

(٢) السنبل: أصناف ثلاثة، منه الهندي، وهو سنبل الطيب، ويقال له العصافير أيضًا، ويسمّى الناردين، تقدّم ذكره.

(٣) العلق: حشرة سوداء تشبه الدّودة تمتصّ الدم، وتكون في الماء.

(٤) الخطمي: ويقال له: الخطميّة، وهو نبات معمّر ينبت في المحال الرّطبة وعلى شواطىء الأنهار وفي الصحاري التي ينزل عليها المطر، والمستعمل منه الجذور والأوراق والأزهار، تقدّم ذكره.

(٥) البُطم: هو المعروف بالحبّة الخضراء، وهو شجر في حجم الفستق والبلّوط، حبّه يحوي لبًّا كالفستق، تقدّم ذكره.

(٦) الأنزروت: ويسمّى الكحل الفارسي والكرماني، وهو صمغ شجرة شائكة كشجر الكندر، ينبت بجبال فارس، وأجوده الهشّ الرّزين المائل إلى بياض، وأردؤه الأسود القليل الرائحة، وهذا الصمغ يكون تارة على شكل حبوب صغيرة لامعة مصفرة ومحمرّة، وبعضها يتشكّل بأشكال وألوان بين ذلك أو أقتم من ذلك ومنظرها كحبوب الرّمل، وتارة يكون حبوبًا أغلظ مما ذكرنا. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٥٠٢.

الأدويةُ المسحوقة، وتُخْلَط خَلْطًا جيّدًا، ويُمَدّ منها على خِرْقة، وتوضع الخِرقة على الذَّكَر بعد دَلْكِه إلى أن يحمرّ، وتُبيَّت عليه ليلة، ويُغسَل باكرَ النهار بالماء الحلو[١] الحارّ، ويُدْلَك أيضًا، ويعاد عليه الدواءُ إلى أن يبلغ في العِظَم ما تريد فاتركْه.

صفةُ دواءٍ آخَرَ لذلك

يؤخذ إشْقيل[٢] مشويّ وفَرْبَيُون[٣] وعاقِر قَرْحَى ودار فُلْفُل، من كلّ واحد جزء؛ يُسحَق ذلك سحقًا ناعمًا، ويُعْجَن بالعسل، ويُطلَى منه القضيب، ويُترَك ليلة، ثم يُغسَل باكرَ النهار بالماءِ الحارّ، ويُدهَن بدُهن زَنْبَق، فإنّه يَعظُم جدًّا.

دواءٌ آخَر

يؤخذ بَاذَرُوج[٤] أخضر، يُمضَغ حتّى يَنعم مَضغُه، ويُدلَك به الذَّكر دَلْكًا جيّدًا، فإنّه يعظّمه.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ عَلَقٌ طِوال طريّة، تجفَّف وتُسحَق، ثم تربَّب[٥] بدُهنٍ حتى تصير كالمرهم ثم يُطلَى بها الذَّكَر، فإنّها تعظّمه جدًّا.

صفةُ دواءٍ آخَر

يُطبَخ الزفت بالزَّيت، ثم يُمَدّ على خِرْقة، ويوضَع على الذَّكَر، ثم يُقلَع بعد ساعة ويُغسَل بالماء الحارّ، ثم تعيد الدواءَ عليه حتى يبلغَ من العِظَم ما تريد.

وإنْ تقرَّح الذَّكر من بعض الأدوية التي تقدَّم ذِكْرُها، فامسحه بدُهنِ زَنْبَق ودُهنِ بَنَفْسَج وشَمعٍ أبيض. قال: وإن دُلِك الذَّكر باللَّبن الحَليب مِن ضَرْع الشاة ثلاثةَ أيّام فإنّه يَعْظُم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) يريد بالماء الحلو، أي: العذب.

(٢) الإشقيل: ويسمّى بصل الفأر أو العنصل وبصل البرّ، له ورق مثل الكرّاث، وله في الأرض بصلة عريضة، تقدّم ذكره.

(٣) الفربيون: هو اللّبانة المغربيّة، وهو عصارة متجمّدة تأتي من النباتات الفربيونيّة، ولا سيّما الفربيون الطبّي، تقدّم ذكره.

(٤) الباذروج: اسم نبطي، وهو بقلة تستنبت في البيوت، وقد ينبت بنفسه، ويسمّى الرّيحان الأحمر، وبعضهم يسمّيه «السّليماني»، تقدّم ذكره.

(٥) تربّب: تمزج.

ذِكرُ الأدوية التي تضيّق فُروجَ النِّساء وتسخِّنها وتجفِّف رُطوبَتها

قال عبد الرحمٰن بن نصر بنِ عبد الله الشِّيرازيّ: اعلم أنّ كمال لذّةِ الوَطْءِ لا تحصل للرّجل حتى تجتمع في الفرج ثلاثةُ أوصاف، وهي الضِّيقةُ والسُّخونة والجَفاف من الرُّطوبة، فإذا نَقَص منها وصفٌ واحد أو وصفان فقد نَقَص من اللّذّة التي تحصل للرّجل عند الجماع بمقدار ذلك؛ وإن عدمتْ هذه الأوصاف الثلاثة من الفرج، لم يحصل بوطئه لذّةٌ البتَّة.

ثم قال: واعلم أنّ الوِلادةَ وكثرةَ الجماع يوسِّعان الفَرْج، ويُذهبان لذّته؛ فينبغي أن يُتدارَك من هذه الأدوية بما يُصْلِحه ليرجع إلى حالته الأُولى.

فمن ذلك صفةُ دواء يضيّق الفَرْج

يؤخذ جِلدُ ابنِ آوَى[١] مُحرَقًا، وأظلافُ المَعِز مُحرَقة، وحافرُ حمار مُحرَق، وجَوْزُ ماثِل[٢] مُحرَق، وسَرَطانٌ بحريٌّ[٣] مُحرَق، وبُسْفايَج[٤] مُحرَق، وسَعْتَر فارسيّ[٥]، من كل واحد وزن درهم؛ يُسحَق الجميع ناعمًا، ويُعجَن بدُهن البان، ويُرفَع؛ ثم تتحمّل منه المرأة بزِنةِ دانِقٍ في كلّ شهر ثلاثَ مرّات كلَّ عشرةِ أيّام مرّة، ولا يكون في وقت الحَيْض ويكون حَرْقُ الأدوية بمقدار ما تُسحق من غير مبالَغة في الإحراق، فإنّه يضيِّق القُبُل[٦] حتى تصير المرأة كالبِكْر.

---

(١) ابن آوى: حيوان وحشي، يكنّى «أبا أيوب» و«أبا ذؤيب» طويل المخالب والأظفار، يعدو على غيره، ويأكل ما يصيد من الطيور وخوف الدّجاج منه أشدّ من خوفها من الثعلب.

(٢) جوز مائل: هو المعروف عند الأطبّاء بـ«المرقد»، وفي مصر بـ«الداتورة»، وهو نبت لا فرق بين شجره وشجر الباذنجان، يكون بمجاري المياه وبالجبال وقريب الضحضاحات، وله زهرٌ أبيض، وغُلف خضراء، وقلّما تحمل الواحدة منه أكثر من جوزة وتكون بأعلى الشجرة، شائكة إلى غبرة قبل بلوغها فإذا بلغت اسودّت. انظر: عمدة المحتاج ٤/١٣٨.

(٣) السّرطان البحري: حيوان من خلق الماء، ويسمّى «عقرب الماء»، وهو حيوان برمائيّ، ذو مخالب وأظفار.

(٤) البسفايج: عروق دقاق إلى السّواد والحمرة اليسيرة أو إلى الخضرة، ذات شعب، كالدودة الكثيرة الأرجل، وفي داخلها شيء كالفستق عفوصة وحلاوة تلتقط من بين الصخور والأشجار الظليلة. الألفاظ الفارسية المصرية ص ٣٢.

(٥) السعتر الفارسي: هو الأسود منه، وقيل: إنّ الفارسي أحمر، حادّ الرائحة حرّيف، ويقال: صعتر، وزعتر.

(٦) القُبُل: الفرج.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ أفْسَنْتِين[١] وحَمامَى[٢] وعُصْفُر[٣] وصمغُ البُطْم وجُلَّنار[٤] وقَيْصُوم[٥] ودار شِيشَعان[٦]، من كلّ واحد زنةُ درهمين، تُدقّ وتُعجَن بزيت، وتتحمّل منها المرأة بصوفةٍ تسعة أيّام متوالية، فإنه مجرَّب لذلك.

صفةُ دواءٍ آخَرَ فيه منافع

يؤخذ بَسْباسة[٧] ومَرْزَنْجُوش وسَعْتَر بَرّيّ وقشورُ الكُنْدُر[٨] وإذْخِر[٩] وخِيريّ وورِدٌ أحمر، وقشورُ الرمّان وقشورُ الكَبَر[١٠] والتُّرْمُس[١١] من كلّ واحد مثقال، يُسحَق ذلك، ويُعجَن بدُهن البان، وتتحمّل منه المرأة نهارًا، وتُخرِجه ليلًا.

---

(١) الأفسنتين: هو نبات مملس، ويلحق بالشجر الصغير، ويقوم على ساق تتفرّع منها أغصان كثيرة، وعلى الأغصان أوراق كثيفة، بيض الألوان تشبه الأشنة، وله زهر أقحواني صغير أبيض، وفي وسطه صفرة تخلّفه رؤوس صغار فيها بزر دقيق، وفي طعمه قبض ومرارة. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٤٧١.

(٢) الحمامي: هو جنس من السليخة، وهي شجرة كأنّها عنقود وخشب مشتبك بعضه ببعض، وله زهر صغير مثل الدواء الذي يقال له: لوقائين، وهو الخيري، وأجود هذا النبات ما كان بأرمينية، ولونه كلون الذهب، ولون خشبه إلى الياقوت، وهو طيّب الرائحة جدًّا، تقدّم ذكره.

(٣) العُصفر: هو الذي يصبغ به، وهو نبات ينبت بأرض العرب، وبزرهُ القرطم، وقيل: العصفر: هو زهر القرطم.

(٤) الجلّنار: هو زهر الرمّان، معرّب عن «كُلنار».

(٥) القيصوم: نبات شجري صغير، والقيصوم: اسم عربي لنبات يطول كالشجر، أوراقه صغيرة متشقّقة، دقيقة التشقيقة وعلى أطرافها زهر دقيق، ذهبي اللّون إلى استدارة، طيّب الرائحة، مُرّ الطعم، يزهر في الصيف، ومنه أنثى، والذكر أدقّ أغصانًا وأضعف زهرًا. وفي اللسان: القيصوم: نبات السهل وهو طيّب الرائحة من رياحين البرّ، وورقه هَدَب، وله نورة صفراء، وهي تنهض على ساق وتطول.

(٦) دار شيشعان: ويسمّى عود البرق، لأنه إذا وقع عليه البرق صار أذكى رائحةً من العود الهندي، والنساء تجعله في الثياب لطيب رائحته.

(٧) البسباسة: قشر جوزبوّا، أو شجرته أو أوراقها، حادّة الرائحة عطرية، تقدّم ذكرها.

(٨) الكُندر: صمغ شجرة شائكة ورقها كالآس «تقدّم ذكره».

(٩) الإذخر: حشيش أخضر طيّب الرائحة، تسقف به البيوت فوق الخشب.

(١٠) الكبر: نبات شائك كثير الفروع دقيق الورق له زهرٌ أبيض يفتح عن ثمر في شكل البلّوط، وينشقّ عن حبّ أصفر وأحمر فيه رطوبة وحلاوة، تقدّم ذكره.

(١١) التّرمس: نبات من القطاني حبّه مرّ الطعم يؤكل بعد نقعه بالماء أيامًا ليحلو وتذهب مرارته.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يضيِّق القُبُل

يؤخذ سُكُّ مِسْك وزعفران، ويُصَبّ عليهما شرابٌ رَيْحانيّ[١]، ويُغلَى[٢] غليانًا جيّدًا، ثم تُشرَّب[٣] منه خِرْقة كَتّان، وتُرفَع لوقت الحاجة؛ فإذا أرادت المرأةُ استعمالها قَطعتْ قطعة، وتحمّلتْ بها قبل الجماع بيوم وليلة، فإنّه يضيِّق المحلّ، ويطيّب رائحته.

دواءٌ آخَر

يؤخذ رامِك[٤] وأقاقِيا[٥] وسُنْبُل وسُعْد؛ يُسحَق الجميع، ويُعجَن بشراب، وتتحمّل منه المرأةُ بصوفة.

دواءٌ آخَر

يؤخذ شَبٌّ[٦] وعَفْص وقَلْقَنْد[٧]، من كلّ واحد جزء؛ يُدَقّ الجميع، ويُعجَن بشراب ويصيَّر مِثلَ النَّوَى، وتتحمّل منه المرأة.

دواءٌ آخَر

يؤخذ زاج[٨] وشَبّ، من كلّ واحد جزء، يُسحَقان، ثم يُعجَنان بماء الحِصْرِم[٩] ويصيَّران شبهَ النَّوى، وتتحمّل المرأة بواحدة منه قبل الجماع، وتمكث ساعةً حتى تنحلّ في فرجها؛ فهذه أدويةٌ تضيِّق الفرج.

---

(١) الشراب الريحاني: نوعٌ من الخمر، وهو الشّراب الصرف الطيّب الرائحة.

(٢) أي يغلى ذلك.

(٣) تشرّب منه: أي من ذلك الدواء.

(٤) الرّامك: انظر طريقة صنعه مفصّلة في الباب الثامن من القسم الخامس، من الفنّ الرابع في هذا الكتاب.

(٥) الأقاقيا: هي عصارة القرظ، وتسمّى شجرتها «الشوكة المصريّة» لكثرة وجودها بمصر، وتؤخذ هذه العصارة من الثمرة بالعصر، فتكون ياقوتية قبل نضج الثمرة، وسوداء بعده.

(٦) الشبّ: ملح معدني ذلو بلّورات، يستعمل غرغرة.

(٧) القلقند: قيل إنه الزّاج الأبيض، والزّاج الأبيض: هو كبريتات النحاس، والزّاج الأخضر: هو كبريتات الحديد، ويميل إلى الزرقة، والزّاج: معرّب «زاك».

(٨) الزاج: أو القلقند، وهو معدني يقال له كبريتات النحاس أو كبريتات الحديد.

(٩) الحصرم: العنب قبل أن ينضج ويحلو.

وأمّا الأدوية التي تسخِّن القُبُل

فيؤخذ شَحْمُ الدَّجاج، وشَحْمُ البَطّ، وزِبلُ الغنم ودُهنُ نارِدِين[١]، وصمغُ اللَّوز، مِن كلّ واحد جزء؛ زعفران ومُرّ، من كلّ واحد ربعُ جزء، تذاب الشُّحوم بالدُّهن وتُذَرّ عليها الأدويةُ اليابسةُ بعد سحقها، وتتحمّل منه المرأة بصوفةٍ وهو فاتر، فإنّه جيّد مجرَّب.

دواءٌ آخَرُ مِثلُه

يؤخذ مَرْزَنْجُوش[٢]، وقشورُ الكُنْدُر، وسَعْتَرٌ بَرّيّ، وبَسْباسَة[٣]، من كلّ واحد جزء؛ يُسحَق الجميع، ويُعجَن بدُهنِ نارِدِين[٤] أو دُهنِ بان، ثم تتحمّل منه المرأة فإنّه بليغ جيّد الفعل.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ أَفَسَنْتِينٌ[٥] روميّ وسُنْبُل ودارصينيّ ومرارةُ ثورٍ يابسة وسَعْتَر؛ يُسحَق الجميع، ويُعجَن بشرابٍ صِرف، وتستعمله المرأة مِرارًا فإنّه جيّد.

وأمّا الأدوية التي تجفِّف رُطوبةَ الفرج ـ فقال الحكماء: إذا كثرتْ رطوبة فرج المرأة كان أنفع علاجِها الإسهال بالإيارَجات[٦] والحبوب واستعمال هذه الأدوية.

فمنها صفة دواء يجفِّف الرطوبة

يؤخذ شَبٌّ وإثْمِد[٧]، من كلّ واحد جزء؛ يُسْحَقان، وتتحمّل المرأة منهما ذَرُورًا[٨]، فإنّه جيّد.

---

(١) الناردين: هو السُّنبل الرومي، والناردين مطلقًا: هو السنبل الهندي.
(٢) المرزنجوش: هو «المردكوش». (٣) البسباسة: قشر جوز بوّا.
(٤) الناردين: هو السنبل الهندي مطلقًا، أو السنبل الرّومي.
(٥) الأفسنتين: نبات مملس، ويلحق بالشجر الصغير، ويشبه الأشنة وله زهر أقحواني صغير، أبيض وفي وسطه صفرة، وفي طعمه مرارة، تقدّم ذكره.
(٦) الإيارجات: هي المعجونات المسهّلة.
(٧) الإثمد: هو الكحل الأصفهاني، يتولّد بجبال فارس، وأجوده الرّزين البرّاق السّريع التفتّت، اللاذع بين مرارة وحلاوة وقبض.
(٨) الذّرور: ما يذرّ من دواء يابس بعد سحقه، كالملح.

صفةُ دواءٍ آخَر مثلِه

يؤخذ صَنَوْبَر وسُعْد(١)، من كلٍّ واحد جزء، يُدَقّ ذلك ناعمًا، ويُطبَخ بشراب وتُشرَّب منه خِرقةُ كَتّان، وتتحمّل منه المرأة، فإنّه نافع.

صفةُ دواءٍ آخر

يؤخذ عَفْص وجُفْتُ البَلُّوط(٢) وجُلَّنار(٣)، من كلّ واحد مِلءُ كَفّ، يُطبَخ ذلك بالماء طبخًا جيّدًا، ويُرفَع في إناء، وتستنجي(٤) منه المرأة قبل الجماع، فإنّه غاية.

دواءٌ آخَر

يؤخذ تَمْرٌ بَرْنيّ(٥) وسمن وعسل وأَنِيسُون ولبن، من كلّ واحد جزء، ويُجعَل ذلك في قِدْرٍ نظيفة، ويُغمَر بالماء أربعَ أصابع، ثم يُطبَخ طبخًا جيّدًا حتى يَغْلظ وتتحمّل منه المرأة.

قال حنين بنُ إسحٰق(٦): ينبغي ألّا يُستعمَل فيه ماءٌ البتّة، بل يُطبَخ بالعسل والسمن حتى يَغلُظ ويُرفَع، ويُستعمَل، فإنّه يقطع الرطوبة من الفرج، ويسكِّن الضربان(٧)، ويَصلُح للنُّفَساء؛ والله أعلم بالصواب.

ذكرُ الأدوية التي تطيِّب رائحةَ البدن وتعطِّره
فمنها صفة طِلاءٍ يطيِّب رائحةَ البدن

يؤخذ نَمّام(٨) ونُعْنُع ومَرْزَنْجُوش وورقُ التُّفّاح، من كلٍّ واحد جزء، ثم يُجعَل

(١) السُّعد: نبات له أصل تحت الأرض أسود مدحرج صلب طيّب الريح، يقع في العطور والأدوية، ويسمّى «ريحان القصارى»، تقدّم ذكره.
(٢) جُفت البلوط: هو جلده الرقيق الذي تحت جلده الغليظ، أي قشره الداخل.
(٣) الجلّنار: زهر الرمّان.
(٤) تستنجي: أي تغسل به أو تمسح.
(٥) التمر البرني: هو تمر أصفر مدوّر، وهو أجود التمر، واحدته برنية وقيل: هو ضربٌ من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللّحاء عذب الحلاوة، وهو معرّب «برنيك» أي الحمل.
(٦) هو حنين بن إسحٰق العبادي، أبو زيد، طبيب، مؤرّخ، مترجم، كان أبوه صيدلانيًا من أهل الحيرة في العراق، انتهت إليه رئاسة العلم في اللّغات اليونانية والسريانية والفارسية المترجم بها، وجعله المأمون رئيسًا لديوان الترجمة، مات سنة ٢٦٠ هـ. الأعلام ٢/٢٨٧.
(٧) الضّربان: اختلاج العرق.
(٨) النّمام: هو السيسنبر، وسمّي نمّامًا لسطوع رائحته، وكأنه ينمّ بريحه على نفسه، تقدم ذكره.

عليه[١] من الماء ما يَغْمُره وزيادةُ أربعِ أصابع، ويُطبَخ حتى يَنْقُص الثُّلُث، ويصفَّى ويُطلَى به البدن، فإنّه يطيِّبه ويقطع سُهوكَتَه[٢].

دواءٌ آخر

يؤخذ آس ومَرْزَنْجُوش وسُعْد وقشورُ الأُتْرُجّ وورقُه وأشْنَة[٣] وصندل، من كلّ واحد جزء، يُسحَق جميعُ ذلك، ويُرفَع؛ فإذا أراد استعماله حَلَّ منه قليلًا بدُهنِ آس أو دُهنِ وَرد، أو بماءٍ فاتر، ويَمْرَخُ به البدن، فإنّه جيّد.

دواءٌ آخَرُ مِثلُه

يؤخذ مُرْدَاسَنج[٤] وتوتياء ورمادُ ورق السَّوْسَن ومُرّ[٥] وصَبر وورد، من كلٍّ واحد جزء، يُدَقّ ذلك، ويُسحَق؛ ويُستعمَل مثل الأوّل لَطوخًا[٦] أو ذَرورًا[٧].

صفةُ قُرْص حادٍّ يقطع الصُّنان[٨]

يؤخذ صندل وسَليخة وسُكُّ مِسْك وسُنْبُل وشَبّ ومُرّ وورد أحمر، من كلٍّ واحد جزء، ومن التوتياء والمُرْداسَنْج، من كلٍّ واحد ثلاثةُ أجزاء، ومن الكافور نصفُ جزء؛ تُجمَع هذه الأصناف بعد سحقها، وتُعجَن بماء الورد، وتُقرَّص وتُستعمَل بعد التجفيف.

دواءٌ آخَرُ يقطع رائحةَ العَرَق

يؤخذ ورد وسُكّ وسُنْبُل وسُعْد وشَبّ ومُرّ، من كلٍّ واحد جزء؛ تُدَقّ هذه الأصنافُ دَقًّا ناعمًا، وتُحَلّ بماء الورد، وتُستعمَل لَطوخًا، فإنّه جيّد لما ذكرنا.

---

(١) يجعل عليه: أي يجعل على ذلك الذي سبق ذكره.

(٢) السهوكة: رائحة العرق الخبيثة.

(٣) الأشنّة: هي المعروفة بشيبة العجوز، وهي أجزاء شعريّة تتخلّق بأصول الأشجار وأجودها ما على الصنوبر والجوز، تقدّم ذكرها.

(٤) المرداسنج: معرب مردارسنك بالفارسيّة، ومعناه الحجر الخبيث، أو الحجر المحرق، وقيل: هو أوّل أوكسيد الرّصاص، أو الأوكسيد الأصفر للرصاص.

(٥) المرُّ: صمغ يسيل من شجرة فيجمّد قطعًا، وهو طيّب الرائحة، مرّ الطعم، يستعمل دواءً.

(٦) اللّطوخ: أي أن يحلّ المسحوق ويلطخ على الجسد.

(٧) الذرور: ما يذرّ من الدواء وهو يابس.

(٨) الصّنان: النتن، والصّنة: رائحة الإبط الفاسدة المنتنة.

صفةُ دواءٍ آخَر يُذهِب رائحةَ الإبْط ولا يُحتاج بعده إلى دواءٍ آخَر

يؤخذ راسَن مجفَّف مُحرَق وَزَراوند[١] طويل محرَق، وورقُ رَند[٢] مُحرَق، ونَوَى زُعْرُور[٣] مُحرَق، ونوى الزيتون الأخضر مُحرَقًا، وقِرطاس[٤] مُحرَق، وزُجاج[٥] فرعونيٌّ مُحرَق، وزعفران، من كلِّ واحد جزء؛ تُسحَق سحقًا ناعمًا حتى تصير مثل الكُحْل وتُعجَن بالماء المعتَصرِ من الآس، وتُحبَّب، وتُجفَّف في الظِّلّ، ثم يُشرَط تحت الإبْط شَرْطان يسيران، ويُسحَق ذلك الحَبّ، ويُدْلَك به ذلك الموضع والدّم يَجري، ويُترَك عليه يومًا وليلة، ثم يُغسَل، فلا تعود تَظهَر رائحته أبدًا.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يطيِّب البدن وينفع أصحاب الأمزجة الحارّة

يؤخذ سُعْد، وساذَج[٦]، وفُقّاح الإذْخِر[٧]، ومَيْعَة[٨] سائلة، من كلِّ واحد عشرةُ مثاقيل، ورد يابِس، وأطرافُ الآس، من كلِّ واحد مثقالان، يُبَلّ السُّعْد وفُقّاح الإذْخِر والساذَجُ بشرابٍ رَيْحانيّ[٩]، ثم تُسحَق، وتُعجَن بالشّراب وتُقرَّص، وتُجفَّف، ثم تُسحَق، ويُطرَح عليها الورد وأطرافُ الآس مسحوقَين ويُذاب زعفرانٌ

---

(١) الزراوند: نبات وهو نوعان: مدحرج وطويل، فالمدحرج هو الأنثى وله ورق طيّب الرائحة، والطويل: فهو الذكر، تقدم ذكره.

(٢) الرّند: هو الغار، وقيل: هو الآس البرّي، وهو شجر عريض الأوراق أملس، مرّ الطعم، طيّب الرائحة، تقدم ذكره.

(٣) الزّعرور: شجر له ثمر كأكبر البندق لونه أحمر أو أصفر بنّي وطعمه مقبول، يؤكل، ورائحته كالتفاح من غير فرق.

(٤) القرطاس: الصحيفة، وهي هنا المصنوعة من البردى وأصول اليشنين.

(٥) الزجاج الفرعوني: هو زجاج أبيض بلّوري.

(٦) الساذج: تعريب «سادة» بالفارسية، وهو نبات مائي يقوم على خيوط شعرية تطول قدر عمق الماء الذي تكون فيه وموضعه مناقع بالهند، تقدم ذكره.

(٧) فقّاح الإذخر: زهره، والإذخر عشب تسقف به البيوت فوق الخشب لطيب رائحته.

(٨) الميعة: اسم عربي مشتقّ من الميع، أي السائل، وشجرة الميعة شجرة جليلة كشجرة التفاح ولها ثمرة بيضاء أكبر من الجوز تشبه عيون البقر الأبيض، وثمرته التي داخل النوى يعتصر منها دهن هو الميعة اليابسة، ومنه تستخرج الميعة السائلة، تقدّم ذكره.

(٩) الشراب الرّيحاني: نوع من الخمر الصّرف الطيّب الرائحة.

بماء الورد، ويُخلَط مع الأدوية، ويجفَّف ذلك كلُّه في الظِّلّ ثم يُسحَق بعد جفافه، ويُجعَل ذَرُورًا؛ فإذا أراد استعماله دخل الحمّام، وتَنظَّفَ من كلّ دَرَن[١]، ثم خرج وتَنشَّف من العَرَق، ثم نثر على بدنه من هذا الدّواء، فإنّه نهاية في قَطْع رائحة العَرَق.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يقطع العَرَق وينفع أصحاب الأمزجة الحارّة

يؤخذ دارِصينيّ وسُنْبُلٌ هنديّ، وأظْفار[٢] وقُسْط[٣]، من كلّ واحد جزء، ومن طين البحر وإسْفِيداج[٤] مغسول، من كلّ واحد نصف جزء، شيح[٥] وشَقاقُل[٦] من كلّ واحد ثلاثةُ أجزاء، زعفران وورد يابس، من كلّ واحد ثُلُثُ جزء؛ تُسحَق الأدوية اليابسة بماء الزعفران والآس بعد أن تُحَلَّ بشرابٍ رَيْحانيّ ويُستعمَل، فإنّه جيّد.

ذِكرُ الأدوية الّتي تجلو الأسنانَ من الصُّفرة والسواد وتطيّب رائحةَ الفم والنَّكْهة

فأمّا السَّنُونات[٧] التي تجلو الأسنان ـ فمنها، يؤخذ قَرْنُ إيّل[٨] مُحرَق، وملحٌ أَنْدَرانيّ[٩]، وزَبَد البحر، من كلّ واحد جزء، ورقُّ أثْل[١٠] مُحرَق، وأصولُ القَصَب

---

(١) الدرن: الوسخ والقذارة.

(٢) الأظفار: هي أظفار الطيب، قشور صلبة كالأغطية على ظرف من الصدف قد حشي تقعيرها لحمًا رخوًا، تخرج من بحر الهند، وأجودها الأبيض الصغير الضارب إلى الحمرة، تقدم ذكرها.

(٣) القسط: عودٌ هندي يتبخّر به ويتداوى، ويقال له كسط وكشط.

(٤) الإسفيداج: أو الإسفيديا، طينٌ يجلب من أصفهان، يكتب به الصغار، وهو فارسي معرّب، وأصل معناه «الماء الأبيض». الألفاظ الفارسية المعرّبة، ص ١٠.

(٥) الشّيح: نبات طيّب الرائحة، قويُّها، أصفر الزّهر وأحمره.

(٦) الشقاقل: هو الجزر البرّي إن عدّ في الجزر، تقدم ذكره.

(٧) السّنونات: جمع سنون بفتح السين، وهو الدواء الذي تعالج به الأسنان، والسُّنون أيضًا: ما يستنّ به أي يستاك.

(٨) الإيل: ذكر الأوعال، وأكثر أحواله شبيهة بالبقر الوحشي، طويل القرون، تقدم ذكره.

(٩) أندراني: نسبة إلى أندران وهي قرية بناحية اليمن، والملح الأندراني: من أجود أصناف الملح، وهو الملح المعدني، تقدّم ذكره.

(١٠) الرّق: الجلد، والأثْل: شجر صلب الخشب جيّده يكثر قرب الماء في الأماكن الرملية.

المُحرَق جزءان؛ شاذَنج[١] ربع جزء، خَزَفٌ صِينيٌّ جزء، يُدَقّ الجميع، ويُخلَط ويُستَنّ به[٢].

سَنُونٌ آخر

يؤخذ من قشور الرمّان جزءان، ومن عُروق الجَنار[٣] والشَّبّ والعقيق[٤]، من كلٍّ واحد جزء، يُدقّ[٥] ويُنخَل، ويُسْتَنّ به، فإنّه غاية.

صفة سَنُونٍ آخَرَ يقوّي الأسنانَ ويجلوها

يؤخذ مِلْحٌ أَنْدَرانيّ، يُسحَق، ويُشَدّ في قِرطاس، ويُلقَى على الجَمْر، فإذا احمرّ أُخِذَ وأُطْفِىءَ في قَطِران، ثم يؤخذ منه جزء، ومن زَبَد البحر ودارصِينيّ ومُرّ وسُعْد ورَماد الشَّنَج[٦]، من كلٍّ واحد جزء؛ ومن السّكّر ثلاثةُ أجزاء، ومن الكافور عشرةُ أجزاء، يُسحَق ويُسْتَنّ به، فإنّه جيّد.

وأمّا الأدوية الّتي تطيّب رائحةَ الفم والنَّكْهَة، فمنها دواء

يؤخذ ورد أحمرُ منزوعُ الأقماع[٧]، وصَنْدَلٌ أبيض، وسُعْد، من كلٍّ واحد عشرةُ دراهم؛ سَليخة[٨] وسُنْبُل وقِرْفة وقَرَنْفُل وجَوْزبُوا، من كلٍّ واحد أربعةُ دراهم؛ قشورُ الأُتْرُجّ المجفَّفة وورقُه، وإذْخِر[٩] وأشْنة[١٠]، من كلٍّ واحد خمسةُ دراهم،

---

(١) الشاذنج: هو حجر الدم، معرّب شاذنة بالفارسية ومنه معدني، ومصنوع من المغناطيس إذا أحرق، وأجوده الرّزين الأحمر المعرّق الشبيه بالعدس. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ١٣١.

(٢) بستنّ به: أن يستاك به، ومنه السّواك.

(٣) الجَنَار: كسحاب، وهو الدّلب، ويسمّى الصّنار، والدلب جبلي ونهريّ، شجر يعظم عند الماء جدًّا وورقه كورق التبن.

(٤) العقيق: خرزٌ أحمر، وقيل: إن رماد العقيق يشدّ الأسنان واللّثة.

(٥) يدقّ: أي يدق ذلك.

(٦) رماد الشّنج: الشنج: يسمّى الحلزون، وخفّ الغراب، وهو صدفٌ داخله حيوان، وهو مختلف الأنواع، وأجوده الودع المعروف بـ«الكودة»، وتعيش هذه الحلزونيات على سطح الأرض وأوراق الشجر والثمار والحشائش الممتدّة، ولا تخرج إلّا في الليل، أو في أزمنة الأقطار. انظر: عمدة المحتاج ٤/ ٨٦٢.

(٧) الأقماع: مفردها قمع وهو ما التصق بأسفل التمرة أو نحوها حول عِلاقتها.

(٨) السليخة: نبات عطري كأنه قشر منسلخ، تقدم ذكرها.

(٩) الإذخر: حشيش طيّب الرائحة تسقف به البيوت فوق الخشب، تقدم ذكرها.

(١٠) الأشنة: هي المعروفة بشيبة العجوز، وهي أجزاء شعرية تتخلّق بأصول الأشجار، وأجودها ما على الصنوبر والجوز، تقدم ذكرها.

سُكّر وعُودٌ هنديّ ومَصْطَكاء وبَسْباسة وسُكّ(١)، من كلٍّ واحد درهمان، كافور نصفُ درهم، مِسْك نصفُ دانِق، تُدَقّ الأصنافُ دَقًّا ناعمًا، وتُعجَن بماء ورد، أو بماء ورق الأُتْرُجّ، وتُحبَّب بقَدْر الحِمَّص، وتُمسَك في الفم، فإنّه جيّدٌ مجرَّب.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ يزيل البَخر

يؤخذ صَبِر صمغ(٢) ثلاثةُ دراهم، وفُلفُل وقَرَنْفُل وخَوْلَنْجان(٣) وعاقِر قَرْحَى، من كلٍّ واحد درهم، مِسْك وكافور من كلٍّ واحد دانِق؛ تُدَقّ هذه الأصنافُ دَقًّا ناعمًا وتُعجَن بشراب رَيْحانيّ، وتُحبَّب، وتُستعمَل كما تَقدّم.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ ينفع من البَخَر

يؤخذ هال وقاقُلَّة(٤) وجَوزبُوا ودارصِينيّ وخَوْلَنْجان، من كلّ واحد ثلاثةُ دراهم ورد أحمر وصَنْدَل أبيض من كلّ واحد خمسةُ دراهم، كافور نصفُ درهم، مِسْك زنةُ دانِق؛ يُدَقّ الجميع دقًّا ناعمًا، ويُعجَن بماء ورد، ويحبَّب مِثلَ الحِمَّص، وتُمسَك في الفم منه حَبّة واحدة.

صفةُ دواءٍ آخَر

تؤخذ سَلِيخة(٥)، ودارصِينيّ، ورامِك، وهال، وفُقّاح الإذْخِر(٦)، وأصولُ السَّوْسَن، وكبابة(٧) وأشْنَة؛ تُسحَق هذه الأدوية وتُعجَن بماءِ ورد، وتُحبَّب مِثلَ الحِمَّص وتُجعَل في الفم منها تحت اللّسان في كلّ يوم واحدة، فإنّه جيّد.

---

(١) السُّك: تقدم الكلام على السُّك في الباب الثامن من القسم الخامس من الفنّ الرابع في هذا الكتاب، وفيه تفصيل وافٍ لصنعه.

(٢) لعله ذكر الصمغ هنا حذرًا من أن يتوهّم أن المراد من الصبر شجرته، فذكر أنّ المراد منه الصمغ الموجود فيه، والصبر معدود من الصموغ.

(٣) الخولنجان: قطع ملتوية حمر وسود من نبات حارّ المذاق طيّب الرائحة يؤتى به من الصّين، تقدم ذكره.

(٤) القاقلّة: نوعان كبير وصغير، والصغير منها هو الهال نفسه، أمّا الكبير وهو هنا المقصود لأنه ذكر الهال، فهو حبُّ أكبر من النبق بقليل له أقماع وقشر، وفي داخله حبّ صغير مربّع طيّب الرائحة دسم أغبر، يؤتى به من أرض اليمن، وهو حرّيف، وقشره وأقماعه أشدّ قبضًا وحرافة. المفردات ٤/ ١٩٤.

(٥) السليخة: نبات عطري كأنّه قشر منسلخ، وتكون في بلاد العرب المنبتة للأفاويه، تقدم ذكرها.

(٦) فقّاح الإذخر: زهره.

(٧) الكبابة: ثمر نبات يجلب من الصين منها كبير يسمّى «حبّ العروس»، وصغير يسمى «الفلنجة»، تقدم ذكرها.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ ملوكيّ ذَكَره التَّمِيميّ في كتابه، وقال: إنّه أخذه عن أحمد بنِ أبي يعقوب؛ وهو:

يؤخذ من العُود الهنديِّ سبعةُ دراهم، ومن القَرَنْفُل والبَسْباسة من كلٍّ واحد منهما أربعةُ دراهم، ومن الكَبابة والقاقُلَّة من كلٍّ واحد ثلاثةُ دراهم، ومن السُّعْد[(١)] الكوفيِّ الأبيضِ والصَّنْدلِ المَقاصِيريِّ[(٢)] من كلٍّ واحد خمسةُ دراهم، ومن سُكِّ المِسْك مثقال، ومن الكافور نصفُ مثقال؛ تُسحَق هذه الأصناف، وتُعجَن بماء الورد وتُحبَّب بقدر الحِمَّص أو أكبر، وتُجفَّف في الظِّلّ، ويأخذ منه[(٣)] حبَّةً بالغداة فيديرها في فمه حتّى تذوب، ويَفعل مِثْلَ ذلك عند النوم.

وقال: هذا الحبّ إن شئتَ استعملتَه على هذه الصفة، وإن شئتَ تَبخَّرتَ منه.

وإن شئتَ سَحَقْتَ منه حَبّةً وأذَبْتَها بماء ورد، وتطيَّبْتَ بها.

وإن شئتَ سحقتَها مِثْلَ الذَّريرة وتطيَّبت بها يابسة.

وإن حَلَلْتَ منه بالبان المَنْشُوش[(٤)] كان مَسُوحًا طيّبًا شبيهًا بالغالية.

وإن حَلَلْتَ منه ثلاثَ حَبّات أو أربعًا بماء ورد ومَسحتَ به على جسدك في الحمام، كان طِيبًا لا بعده.

صفةُ حَبٍّ آخَرَ مِثلِه يُطيِّب النَّكْهَةِ، ويُستعمَل كما تقدَّم أيضًا

يؤخذ عنبرٌ ومِسْكٌ وسُكُّ مِسْكٍ وعُودٌ هنديّ، من كلّ واحد جزء؛ كافور رِياحيٌّ[(٥)] ربعُ جزء، زعفران وقَرَنْفُل من كلّ واحد نصفُ جزء؛ تُسحَق هذه الأصناف، وتُجمَع، ويكون سَحْقُ العنبر مع العود، ثم يُعْجَن جميعُ ذلك بماء الورد

(١) السُّعد: نبت له أصل تحت الأرض أسود مدحرج صلب طيّب الرائحة، يقع في العطور والأدوية، ويكثر في مصر. تقدم ذكره.

(٢) الصندل المقاصيري: أي المنسوب إلى مقاصير وهي بلدة في الهند، أو سمّي بذلك لأن الخلفاء العباسيين صنعوا منه مقاصير لأمّهاتهم وسراريهم.

(٣) يأخذ منه: يريد يأخذ من ذلك الحبّ، أو الدواء.

(٤) المنشوش: هو المربّب بالطّيب، والنش: الخلط.

(٥) الكافور الرّياحي: سمّي هذا الصنف من الكافور بالرّياحي، لتصاعده مع الريح. التذكرة ٢/ ١١٦.

ويحبَّب كما تَقدَّم، ويُستعمَل حَبّةً بالغداة، وأخرى عند النوم، فإنّه ينفع لما ذكرناه وينفع الخَفقانَ وعِلَل القلب، وقد أخذ هذا الفصلُ حَقَّه، فلنرجع إلى أدوية الباه.

ذِكْرُ الأدوية الّتي تُعِين على الحَبَل والأدويةِ التي تَمنعه

أمّا الأدوية التي تُعِين عليه ـ فمنها صفة دواء: يؤخذ حَبُّ البَلَسان[١] ومُقْلٌ[٢] أزرق وجاوْشِير[٣] وباذاوَرْد[٤]، من كلّ واحد مثقال؛ تُدَقّ أفرادًا، وتُجمَع بالسَّحْق، وتُحَلّ بشراب، ويطلَى بها الذَّكَر، ويجامع بعد جفافه، ويحرص على أن ينحلّ الدواء في الفَرْج قبل الإنزال، فإنه نافعٌ مجرَّب.

صفةُ دواءٍ آخَر

يؤخذ أَفَرْبَيُون[٥] وعاقِر قَرْحَى وجُنْدَبِيدَسْتَر[٦] وسُنْبُل وقُسْط ومَيْعَة سائلة، من كلٍّ واحد مثقالان، يُسحَق[٧] ويُنخَل، ثم يُجمَع، ويُحَلّ بالمَيْعة، ويُرطَّب بشراب رَيْحانيّ، ويُطلَى الذَّكَر منه، وتُجامَع المرأةُ بعد جفافِه، فإنّه نافعٌ لذلك لا يَخْرِم[٨] سيّما[٩] إذا كانت عقيبَ طُهْر المرأة.

---

(١) البلسان: شجرٌ ينبت جماجم كجماجم الرّيحان، ويتعاظم حتى يكون كشجر البطم، ويؤذيه ما يؤذي الإنسان من حرّ أو برد أو ريّ أو عطش، تقدم ذكره.

(٢) المقل: هو صمغ راتينجي يؤتى به من الهند وبلاد العرب، وشجره مسودّ الخشب في عظم الزيتون وأوراقه تشبه أوراق البلوط، وثمره كثمر التين البرّي، تقدم ذكره.

(٣) الجاوشير: معرب «كاوشير» بالفارسية، أي حليب البقر، سمّي هذا النبات بهذا الاسم لبياضه، وهو شجرٌ يطول فوق ذراع، ورقه كورق الزيتون، ويخلّف زهرًا أصفر، وبزرًا يقارب الأنيسون، تشترط هذه الشجرة فيسيل منها صمغ إذا جمد كان باطنه أبيض وظاهره بين سواد وحمرة. التذكرة ١/١٤٦.

(٤) الباذاورد: كلمة فارسية نبطية معناها «الشوكة البيضاء» وهو نبات مثلّث الساق مستدير الأعلى مشرف الأوراق، شائك، له زهر أحمر، داخله كشعر أبيض، لا تزيد أوراقه على ست، إذا تفل مضيغه جمد، وتهواه الجمال، وأهل مصر تسمّيه اللحلاح. انظر: التذكرة ١/ ٩٤.

(٥) الأفربيون: هو اللّبانة المغربية، وهو عصارة متجمّدة تستخرج من النباتات الفربيونية، تقدم ذكره.

(٦) جندبيدستر: هو خصية حيوان بحري يعيش في البرّ والبحر، ويكون غالبًا مع الحيتان والتماسيح، يغتذي بالسمك، وهو على شكل كلب، شعره براق، تقدم ذكره.

(٧) يسحق: أي يسحق ذلك.

(٨) لا يخرم: لا يخيب استعماله، أو لا يشذّ مرّة واحدة إذا ما استخدم.

(٩) سيّما: المقصود «لا سيّما» حذفت «لا» للعلم بها، وهي مرادة، وهذا الحذف قليل.

دواءٌ آخَر

يؤخذ ورق الغُبَيْراء[١]، يجفَّف، ويُسحَق سحقًا ناعمًا، ويُعجَن بمرارة البقر، ويُطلَى به الذَّكَر، ويجامِع، فإنه يزيد في الباه ويعين على الحَبَل.

دواءٌ آخَر

يؤخذ بولُ الفيل، وتُسقَى منه المرأة وهي لا تعلم، ثم يجامعها، فإنّها تَحبَل لوقتها بإذن الله تعالى.

صفةُ دواءٍ آخَرَ وهو من الأسرار

يُطلَى الذَّكَر بلبنٍ حليب، ويُترك حتّى يجفّ، ثم يجامع عقيب طهر المرأة فإنّه غايةٌ لذلك. قال صاحب كتاب (الإيضاح): ينبغي لمن استعمَل دواءً من هذه الأدوية أن يقصد الجماعَ في الوقت الذي تطهر فيه المرأة من طَمْثِها.

قال: وينبغي أن يَرفع وَرِكَيها عند الإنزال، ويكون رأسها منكَّسًا إلى أسفل، فإنّ ذلك ممّا يعين على الحَبَل.

قال: وينبغي أنّه إذا إحسَّ بالإنزال أن يميل على جنبه الأيمن، وكذلك إذا نزَعَ، فإنّ الولد يكون ذَكَرًا إن شاء الله تعالى.

وأمّا الأدوية التي تمنع الحَبَل ـ فيحتاج الرجل مع الأدوية أن يكون اعتمادُه في الجماع بضدِّ[٢] ما تقدّم، وذلك أن يجعل إنزالَه قبل إنزالِها، وأن يَنهَض عنها بسرعة، ولا يجامعها عقيب الطّهر.

وأمّا الأدوية ـ فمنها صفةُ دواء يَمنع من الحبل ويُسقِط الجنين:

---

(١) الغبيراء: هذا الاسم فيه خلاف، فأهل الفلاحة يطلقون على القراصيا وقوم على السبستان، وآخرون على الأنجرة، وطائفة يقولون: إنه الزعرور الأسود، والصواب: الزيزفون، وهو شجر كثير الوجود في المشرق وأعمال أنطاكية، يقارب شجر العنّاب خشن الأوراق، سبط العود، له زهر إلى الصفرة، يخلّف ثمرًا دون النبق، وعوده قليل القوّة إن عظم، حادّ الرائحة طيّب عطري يزهر بالربيع ويدرك ثمره وسط الصيف. انظر: عمدة المحتاج ٣/ ٦٩٧.

(٢) بضدّ: أي متلبّسًا بضد، فالباء للملابسة.

يؤخذ سَذاب[١] مجفَّف ونَطْرُون[٢]، من كلٍّ واحد جزء؛ يُسحَقان ويُنخَلان ويُحَلّان بماء السَّذاب الرَّطْب، ويُطلَى بذلك الإحليل، ويجامع.

دواءٌ آخَرُ مِثلُه

تؤخذ قِنّة[٣]، تُسحَق بعُصارة السَّذاب وماءِ الكُسْبُرة الخضراء حتى تترطّب ويُطلَى بها الذَّكَر، ويجامع، فإنّه يمنع الحَبَل ويُسقِط الجَنين.

صفةُ دواءٍ آخَرَ يفعَل فِعلَ ما تقدّم

يؤخذ أبْهَل[٤] مثقالان؛ ورقُ سَذاب مجفَّف، وفُودَنْج[٥] يابس، من كلّ واحد نصفُ مثقال، فُوَّة[٦] وَسَقَمُونيا[٧] ونَطْرُون، من كلٍّ واحد مثقال؛ يُدَقّ ذلك ويُنخَل ويُسحَق، ثم يُجمَع، ويُحَلّ بماء السَّذاب الرَّطْب، أو بماءٍ طَفِيَ فيه الحديد ويجامع به، فإنّه شديد في منع الحَبَل وإسقاط الأجِنّة.

وحيث ذكرنا ما قدّمناه من الأدوية التي تزيد في الباه وتُغزِر المنيّ، وأشباهِ ذلك، وما وصلناه به، فلنذكر الأدوية الّتي تَنقُص الباه، وتسكّن الشهوة، فإنه قد يُحتاج إلى ذلك في بعض الأوقات.

---

(١) السّذاب: نبات يشبه الرمّان، ورقه كورق الصّعتر، وزهره أصفر ورائحته كريهة، يستعمل في الطبّ.

(٢) النطرون: هو البورق، وهو مادة أقوى من الملح، مذاقه بين الحموضة والملوحة.

(٣) القنّة: شجر يكون صنفان، صنف زبدي خفيف الوزن أبيض، والآخر كثيف ثقيل، وهو ثلاثة أنواع: عربي وبرّي وجبلي، وأجوده العسلي الصافي، وقيل: القنة: هو صمغ نبات يشبه القنا في شكله، وأجوده ما كان شبيهًا بالكندر، يدبق باليد، وأجوده ما كان منقطعًا عن غيره نقيًا، تقدّم ذكره.

(٤) الأبهل: هو صنف من العرعار، أو هو نفسه، منه صغير الورق كالطرفاء وكبيره كالسّرو، ويقارب النّبق في الحجم، أحمر اللون، فإذا تمّ استواؤه اسودّ، ينكسر عن أغشية كنشارة مسودّة داخلها نوى مختلف الحجم، فيه حلاوة وقبض وحدّة، ورائحة الأوراق قويّة عطرية نفّاذة، لا سيّما إذا دلكت بين الأصابع، وهي خضراء دائمًا.

(٥) الفودنج: وهو الحبق، وهو أنواع كثير. انظر: عمدة المحتاج ٢/ ٧٣٤.

(٦) الفوّة: هي عروق حمر دقاق، لها نبات يسمو، في رأسه حبّ أحمر شديد الحمرة، كثير الماء، يكتب بمائه وينقش. تاج العروس للزبيدي.

(٧) السقمونيا: هي المحمودة الصفراء، وهي رطوبة نبتةٍ لها أغصان كثيرة مخرجها من أصل واحد، ولها زغب وورق يشبه ورق اللبلاب، وزهر أبيض مستدير، ثقيل الرائحة، وصمغها مستهل، تقدم ذكرها.

ذِكرُ الأدوية التي تَنقُص الباه وتَمنع من الجماع وتسكِّن الشهوة وهذه الأدويةُ منها مفرَدةٌ ومنها مركَّبة

أمّا المفرَدة ـ فمنها البقلة الحَمْقاء، وهي الرِّجْلة، وتسمّى الفَرْفَحِين أيضًا، ومنها الخَسّ، والقرع، والشَّهْدَانِج[١]، والعَدَس، والجُمّار[٢]، والشَّعير، والأشياء الحامضة كالحِصْرِم والتُّوت، والرُّمّان الحامض، وحُمّاض[٣] الأُتْرُجّ، والخَلّ، وعِنَب الثعلب، ومنها البِطّيخ والخيار والقِثّاء والسَّفَرْجَل والمِشْمِش وأشباهُ ذلك؛ ومنها الفُودَنْج[٤] والمَرْماحُوز[٥] والمَرْزَنْجُوش والحَرْمَل[٦] والكَمُّون وبِزْرُقَطُونا[٧] والكافور والبَنْج[٨] والوَرْد والخِلاف والإسْفاناخ وكلُّ دواءٍ باردٍ يابس، فهذه المفرَدات.

وأمّا المركَّبات ـ فمنها أغذيةٌ وأدوية.

أمّا الأغذية ـ فمنها السُّمّاقِيّات، والحِصْرِميّات، واللَّيْمُونيّات، والسِّكْباج[٩]، والمَصُوص[١٠]، والمَضِيرة[١١]، والعَدَس، والتَّمْريّة، والزِّبيبيّة، وما أشبه ذلك ممّا فيه خَلٌّ أو حُموضة.

---

(١) الشهدانج: معرّب شهدانه بالفارسية، ومعناه «سلطان الحَبّ»، واسمه بالعربية «التنوم» وأهل مصر تسمّيه «الشرانق»، تقدم ذكره.

(٢) الجمّار: شحم النخلة.

(٣) حُمّاض الأترج: ما في جوفه، والأترج: ثمر وشجر من جنس اللّيمون تسمّيه العامة «الكبّاد».

(٤) الفودنج: هو الحبق.

(٥) المرماحوز: هو المرو، ضرب من الرّياحين، وقيل هو الريحان.

(٦) الحرمل: نبت يرتفع ثلث ذراع، ويفرّ كثيرًا، ورقه كورق الصفصاف، وزهره أبيض، يخلّف ظروفًا مستديرة مثلّثة، أي ثلاثية الفصوص، داخلها بزر أسود كالخردل، سريع الفرك، ثقيل الرائحة، وهو لعابي لزج ذو رائحة قوية كريهة وطعم مرّ. انظر: عمدة المحتاج ٣/ ٣٦٧.

(٧) بزرقطونا: يقال قطوناء بالمد وقطونا بالقصر، وهو نبات يُسمّى بما معناه «حشيشة البراغيث»، ولا تستعمل إلّا بزورهُ، تقدم ذكره.

(٨) البنج: هو الشيكران بالعربية، وقيل: السيكران، وهو نبات مخدّر مخبط للعقل، له قضبان غلاظ وورق عراض، وعلى القضبان ثمر شبيه بالجلنار في شكله، وفي هذا الثمر بزر شبيه ببزر الخشخاش. انظر: المفردات ١/ ١١٧.

(٩) السّكباج: مرق يعمل من اللحم والخل.

(١٠) المصوص: طعام من لحم يطبخ وينقع في الخل، وقيل: ينقع في الخلّ ثم يطبخ، وقيل: المصوص: يكون من لحم الطير خاصة.

(١١) المضيرة: مُريقة تطبخ باللبن المضير، وهو الذي حمض وابيضّ، والمضيرة عند العرب: أن يطبخ اللحم باللبن البحت الصريح الذي قد حذا اللسان حتى ينضج اللّحم وتخثر المضيرة، وربّما خلطوا الحليب بالحقين، وهو حينئذٍ أطيب ما يكون.

وأمّا الأدوية ـ فمنها صفةُ دواء يقطع الشهوة، ويُجمد المنيّ.

تؤخذ كُسْبُرة[١] يابسةٌ محمَّصة، وبِزرُ قِثّاء، وبِزرُ نرجِس، وبِزرُ كَتّان، وجُلَّنار[٢] وتُحمَّص البُزور كلُّها.

ويؤخذ سُمّاق، وحَرْمَل وبَنْج أبيض، وقَلْقَطار[٣] وقَلْقَنْد[٤]، وصَنْدَل أبيض من كلِّ واحد جزء؛ تُجمَع هذه الأدويةُ بعد سَحْقِها ونَخْلِها، وتُعجَن بالماء المعتصَر من الورد والرِّجْلَة[٥]، وتُحبَّب مِثلَ الحِمَّص، وتُجفَّف في الظِّلّ، وتُرفَع في إناء زجاج ويُسَدّ رأسُه من الهواء، فإذا احتيج إليه أُذِيبتْ منه واحدةٌ بلُعاب بِزْرِ قَطُونا، ويُطلَى به الإحليل[٦] في كلّ أسبوع ثلاث مَرّات. وإن طُلِيَتْ به فَقارُ الظَّهْر وتَكرَّر ذلك أيّامًا متوالياتٍ قَطَعَ النَّسْل وأماتَ شهوةَ الجماع.

صفةُ دواءٍ آخَر يقطع شهوةَ الجِماع البتّة وهو من الخواصّ

تؤخذ خِصْية السَّقَنْقُور[٧] اليُمنى، تُجفَّف، وتُسحَق، وتذاب بماء السَّذاب الرَّطْب، فمن شرب منه زِنةَ قيراط[٨] قطع شهوتَه ونسلَه.

صفةُ دواءٍ آخَر

يُضعِف الإحليلَ ويَكسِر حدّته، ولا يدعه ينتشر البتّة، وهو الّذي يستعمله كثيرٌ من الرُّهْبان.

يؤخذ تُوبال[٩] النحاس، وتُوبال الحديد، وتُوتِياء هنديّ، وشعرُ دُبّ، وشعرُ ثعلب مُحرَقان، وجُلَّنار مُحرَق، وجُفْت البَلُّوط[١٠]، وكافور، وجَوْزُ السَّرْو مُحرَقًا،

---

(١) الكسبرة: هي المعروفة عندنا بـ«الكزبرة». (٢) الجلّنار: هو زهر الرمّان.

(٣) القلقطار: ضربٌ من الزّاج الروحي، وقيل: هو الأصفر وهو أعدل أصناف الزّاج، والزّاج هو بلّورات خضراء إلى الزرقة تعرف بـ«كبريتات الحديد».

(٤) القلقند: هو الأبيض من الزّاج أي «كبريتات النّحاس».

(٥) الرّجلة: البقلة الحمقاء، يؤكل ورقها مطبوخًا ونيِّئًا.

(٦) يطلى به الإحليل: أي يطلى بذلك الدواء، والإحليل: القضيب.

(٧) السَّقنقور: ورل مائي على خلقة الضبّ، تقدّم ذكره.

(٨) القيراط: نصف الدّانق، وهو سُدس الدّرهم.

(٩) توبال الحديد والنحاس: ما تساقط منهما عند الطرق، وما ينفيه الكير منهما ممّا لا خير فيه.

(١٠) جُفت البلوط: هو جلده الرقيق الذي تحت الجلد الغليظ، وهو قشره الدّاخل.

وصَنْدَل أبيض من كلِّ واحد جزء، تُجمَع بعد سحقِها ونخلِها، وتُعجَن بالماء المعتصَر من السِّلْق[١] وتُحبَّب مِثلَ الحِمَّص، وتجفَّف في الظِّلّ، وتُرفَع في إناءٍ من الزّجاج، ويُسَدّ رأسُه فإذا احتيج إليه تؤخذ منه حَبّة تُحَلّ بماء الكُسْبُرة الخضراء، ويُطلَى بها الذَّكَر ويُرَشّ منها أيضًا في السّراويل.

الباب الحادي عشر
من القسم الخامس من الفنّ الرابع
فيما يُفعَل بالخاصّيّة[٢]

اعلم ـ وفَّقنا الله وإيّاك ـ أنّ الخواصَّ كثيرةٌ لا تكاد تنحصر، ولا تتعلّل أفعالُها، فأحببنا أن نذكرَ منها طَرَفًا نَختِم به هذا الفنّ.

ولنبدأ بما هو متعلّق بالنّكاح، ليكون القولُ فيه يتلو بعضُه بعضًا.

ذكرُ الخواصّ المختصّةِ بالنساء والنكاح التي استُقرِئتْ بالتجرِبة
خاصّيّة من خَواصّ الهنود

وهي: تأخذ رأسَ غُرابٍ أسوَد فأفرغ دماغه، واجعل موضعَ الدِّماغ شيئًا من تراب الموضع الذي تجلس فيه المرأةُ الّتي تريد، وشيئًا يسيرًا من زبل الحمام، واجعل في ذلك[٣] سبعَ شَعيرات، وادفنه في الأرض في موضعٍ نَدٍ؛ فإذا نبت الشَّعيرُ وصار طولَ أربع أصابع، فخذ منه، ثم ادلُك به يَدَك، وامسح به على وجهك وذراعيك ثم استقبلْ به تلك المرأة ولا تكلّمها، فإنها تسعى في أَثَرك، ولا تطيق الصبرَ عنك.

قال: وهو من الأسرار الخفيّة، فاعرفه.

---

(١) السّلق: نبات ذو أوراق طوال يؤكل مطبوخًا.

(٢) الخاصّية: نسبة إلى الخاصة، جمعها: خصائص وخاصيات، وهي ما يعرف به إنسان أو حيوان أو نبات أو شيء من صفة معيّنة تكون وقفًا عليه أو على جنسه، ولا تكون عامّة.

(٣) اجعل في ذلك: أي في ذلك التراب.

سِرٌّ آخَر

قال صاحب الخواصّ: خذ أظفار الهُدْهُد وأظفار نَفْسِك، فأحرِقْهما جميعًا واسحقهما حتى يصيرا ذَرُورًا(١)؛ ثم اجعلْ ذلك في قَدَحِ طِلاء، واسقه أيَّ امرأة أردتَ وهي لا تعلم، فإنّها تميل إليك، وتحبّ القربَ منك جدًّا.

سرٌّ آخَر لجعفرِ الطّوسيّ

قال: إذا أخذتَ لسانَ ضِفدعةٍ خضراء، ووضعتَه على قلب امرأةٍ نائمة أخبرتْك بجميع ما عملتْ في ذلك اليوم.

قال: وإن بَخّرتَ فِراشَ امرأةٍ بشيءٍ من ضِفدِعةٍ خضراء وهي لا تعلم ثم نامت عليه، فإنّها تتكلم في نومها بجميع ما عملَتْه.

قال: وكذلك إذا أخذتَ عينَ الرَّخَمة أو عينَ كلبٍ ميّت وأصلَ الخَسّ ثم ربطتَ ذلك في خِرقة كَتّان، ووضعتَه على سُرّة امرأة نائمة، أخبرتْك بجميع ما عملتْه.

وقال حنين بنُ إسحٰق: إذا أردتَ أن تعلم أنّ المرأة بِكْرٌ أو ثيّب، فمرها أن تأخذ ثُومَةً مقشورة وتَنْخُسَها(٢) في عدّة مواضع، ثم تحملها في فَرْجها ليلة، فإذا أصبحت فاستنكهها(٣)، فإنْ وجدتَ رائحةَ الثُّوم في فيها فهي ثيّب، وإن لم تجد فيه رائحةً فهي بِكر. وبذلك أيضًا تَعرِف حَمْلَها، فإنْ وجدتَ للثُّوم رائحةً فهي غيرُ حامل، وإن لم تجدها فهي حامل.

قال: وإذا أردتَ أن تختبر حالَ امرأة، وهل بقيتْ تَحمِل أم لا فمُرْها أنْ تأخذ زَراوندًا مُدَحْرَجًا(٤)، وتسحقَه بمرارة البقر، ثم تحمله بعد طُهرِها ليلة، فإذا أصبحتْ، فإن وجدتَ طعمَه في فيها فهي تَحمِل، وإلّا فهي عاقِر.

وقال صاحب كتاب (فردوس الحكمة): إذا تبخّرت المرأةُ بحافِر فرس أو حافِر بغل أو حافِر حمار أسقطت الولد والمَشِيمة؛ وإذا تحمّلت(٥) به بعد الجماع لم تَحبَل.

---

(١) الذّرور: المسحوق اليابس. (٢) تنخسها: تغرزها بالإبرة أو بغيرها.

(٣) استنكهها: أي شمّ نكهتها ورائحتها.

(٤) الزراوند المدحرج: هو الأنثى، وله ورق طيّب الرّائحة مع شيء من الحدّة، وزهرٌ أبيض، وما كان في آخر الزّهر أحمر فإنّه منتن الرائحة، تقدم ذكره.

(٥) تحمّلت به: عبارة يستعملها الأطباء في معنى إدخال الدواء في فرج المرأة.

قال: ومن طَلَى ذَكَره بمَرارةِ دَجاجةٍ سوداءَ ثمّ جامع امرأةً لم تَحمِل بعد ذلك أبدًا.

وقال جابر بنُ حَيّان[١]: إذا أخذت المرأةُ حَبّةَ خِرْوَعٍ وغَمَّضتْ عينيها وابتلعتْها لم تَحبَل سنة.

قال: وإن ابتلعتْ حَبّتين لم تَحمِل سنتين، وإن ابتلعتْ ثلاثًا فثلاث، وكذلك كلّما زادت كانت كلّ حَبّة بسَنة.

قال: وإذا أُخِذ رأسُ خُشّاف[٢] ووُضع تحت رأسِ امرأةٍ عند الجِماع، لم تَحبَل من ذلك الوطء.

قال: وإن أُخِذ شَوْكُرَان[٣] وسُحِق وعُجِن بلبن رَمَكة[٤] وجُعِل في صُرّة، ورُبِط في عضد المرأة الأيسر، لم تحبل أبدًا ما دام عليها.

قال: وإن شربت المرأةُ بولَ كبش لم تَحبَل أبدًا، وكذلك إن شربتْ من رُغَا[٥] الجمَل الهائج لم تَحبَل أبدًا.

وقال شرك الهنديّ: إذا أردتَ ذَهابَ غَيْرةِ المرأةِ فلا تغار من ضَرَّتها ولا مِن وَطْءِ جارية، فاسقِها دِماغَ أرنب بشراب وهي لا تعلم.

قال: وإن سُقِيتْ مرارةَ ذئب بعسل وهي لا تعلم ذهبتْ غَيْرَتُها.

ومما يُذهِب غَيْرَة المرأة أن تُسقَى غُبارَ دقيق الشَّعير من الرَّحَى الدائرة بماء المطر فإنّه جيّد في ذَهاب الغَيْرة.

قالوا: وإذا شُدَّت في مِقْنَعة[٦] امرأةٍ دودةٌ حمراءُ وهي لا تعلم هاجت شهوَتُها واغتَلَمَتْ[٧] أمرًا عظيمًا.

---

(١) هو جابر بن حيّان بن عبد الله الكوفي، أبو موسى، فيلسوف كيميائي، أصله من خراسان، اتصل بالبرامكة، وانقطع إلى جعفر بن يحيى، توفي بطوس سنة ٢٠٠ هـ، له تصانيف كثيرة. الأعلام ٢/١٠٣.

(٢) الخشّاف: هو الخفّاش بعينه، طائرٌ معروف.

(٣) الشوكران: نبات ساقه كساق الرازيانج، ورقه كورق القثاء، له زهر أبيض وبزره مثل النانخواة أو الأنيسون، من غير طعم ولا رائحة وله لعاب، ويقال له: الشيكران، أو السّيكران.

(٤) الرّمكة: هي الفرس، أو البرذونة تتّخذ للنسل.

(٥) الرُّغا: جمع رغوة، يريد الزّبد الذي يكون على شفتي الجمل إذا هاج.

(٦) المقنعة: ما تقنع به المرأة رأسها ومحاسنها.

(٧) اغتلمت أمرًا عظيمًا، يريد: اغتلمت اغتلامًا عظيمًا، والغلمة: شدّة الشهوة.

وإذا أُخِذ من الزِّنْجار[١] جزء، ومن النُّشادِر[٢] نصفُ جزء، وجُعِلا في الماء الّذي تستنجي[٣] به المرأة؛ اغتلَمَتْ وطلبت الجماع.

وكذلك إذا أُخِذَ من الأُقْحُوان[٤] والأَبْهَل[٥] والأشْنان[٦] الأحمر من كلٍّ واحد جزء ودُقّ ذلك، وسُحِق، وعُجِن بدُهنِ البان، وحملتْه المرأة، ثارت بها شَهوةُ الجَماع.

وإذا أُخِذ قضيبُ الثَّوْر الأحمر وجُفِّف في الظِّلّ، وسُحِق، وشربتْ منه المرأة وزنَ مثقال بنبيذٍ صِرف، قَطَع عنها شهوةَ الجِماع.

وإذا أخذتَ قضيب الذئب قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها بحيث لا تراه الشمس، وقطَّعتَه، ثم جفّفتَه في الظِّلّ، وسحقتَه، وأسقيتَه امرأة، فإنّها تُبغِض الرجال، وتذهَب عنها شهوةُ الباه.

وإذا أخذتَ شجرة مريم[٧] وسحقتَها وعجنتَها بماء النَّعْناع، وحبَّبتَها كلُّ حَبّةٍ زِنةُ نصف دانِق، وسَقيتَ منها امرأةً حَبّة، انقطعتْ شهوتُها سنَة.

وكذلك مهما زدتَ كانت كلُّ حَبّةٍ بسَنة.

---

(١) الزّنجار: معرّب «زنكار» بالفارسية، وهو المتولّد من النّحاس، وأقواه المتخذ من التوبال أي المتساقط من النحاس عند طرقه.

(٢) النّشادر: مادة بيضاء تميل إلى الصفرة، تتسعمل استنشاقًا في حالة الإغماء.

(٣) تستنجي: أي تمسح به أو تغسل فرجها.

(٤) الأقحوان: نبات له زهرة صفراء صغيرة في الوسط تحيط بها أوراق من الزهر الأبيض الصغير، يشبّه الشعراء بها الأسنان.

(٥) الأبهل: هو صنف من العرعار أو هو نفسه، تقدم ذكره.

(٦) الأشنان: نبات له أجناس كثيرة وكلّها من الحمض، وهو الحرض الذي تغسل به الثياب. انظر: عمدة المحتاج ١/ ١٤٠.

(٧) شجرة مريم: ويقال لها شجرة «الطلق» لأنها تسهل الولادة على المطلقة، و«كفّ مريم» و«كفّ العذراء»، وذكر ابن البيطار: أن شجرة مريم اسم مشترك بين جملة نباتات أوردها كلّها، وذكر منها بخّور مريم، وهو المراد في هذا الموضع، وقال: إنّه يعرف بإفريقية بخبز المشائخ وأهل الشام يعرفونه بـ«الركف». انظر: المفردات ٣/ ٥٥.

ذِكْرُ شيءٍ من الخَواصّ غير ما تَقدّم ذِكرُه

من ذلك طَلَسْمٌ[١] يُجعَل على المائدة فلا يقربها ذُباب

يؤخذ كُنْدُس[٢] وزِرْنيخ[٣] أصفر، وكَمْأة[٤] يابسة، أجزاء متساوية؛ يُسحَق جميعُ ذلك، ويُعجَن بماء بصل العُنْصُل[٥]، ويُجعَل منه مثال[٦]، ويُدهَن بالزّيت، فإنّ الذُّباب لا يَقرُب من المكان الّذي يوضع فيه.

سامٌّ أبْرَص[٧] إذا جُعِل في قَصبةٍ فارسيّةٍ أحدُ رأسيها مسدود، ثم يُسَدّ الآخَر بشَمعة، وتُعلَّق القصبة بما فيها على مَن به عِرْقُ النَّسا[٨] على وَركه من الجانب الّذي به الوجع، فإنّ وجعه يتناقص بقدر ما يَضعُف سامُّ أبْرَص، فإذا مات في القصبة زال الوجعُ كلّه.

الأفْسَنْتِين[٩] الرّوميُّ يمنع السوس عن الثياب، وفسادَ الهوامّ، ويمنع الحِبْر والمِدادَ أن يتغيّرا، والكاغَدَ[١٠] أن يَعُثّ[١١] أو يُقَرَّض[١٢].

قشرُ الأُتْرُجّ إذا جُعِل في الثّياب حَماها من السُّوس.

الساذَجُ[١٣] الهنديّ إذا نُثِرَ في الثّياب حفِظَها من السُّوس.

---

(١) الطلسم: ما يستعمله السّحرة.

(٢) الكُندُس: نبات له ورق بين البياض والخضرة، وعرق داخله أصفر وخارجه أسود، وهو المستعمل، ويقال له في المغرب «عرنة» و«عود العطاس».

(٣) الزّرنيخ: حجر كثير الألوان، يخلط بالكلس فيحلق الشّعر، له مركّبات سامة.

(٤) الكمأة: أصل مستدير لا ورق له ولا ساق، لونه إلى الحُمرة، ويوجد في الربيع، ويؤكل نيّئًا ومطبوخًا، وتكثر الكمأة في سنة المطر والرّعد، وهي نوعٌ من الفطر.

(٥) بطل العنصل: أو بصل الفأر، أو الإشقيل، له ورق كورق الكرّاث، تقدّم ذكره.

(٦) المثال: أي تمثال.

(٧) سام أبرص: حشرة بشكل الحرذون، أصغر منه، تكون في البيوت تعرف عندنا بـ«البوبريص».

(٨) عرق النّسا: وجع من أوجاع المفاصل يبتدىء من مفصل الورك وينزل إلى خلف الفخذ ويمتدّ إلى الركبة فالكعب.

(٩) الأفسنتين: هو نبات مملس، ويُلحق بالشجر الصغير، له زهر أقحواني أبيض في وسطه صفرة، في طعمه قبض ومرارة، تقدم ذكره.

(١٠) الكاغد: القرطاس.

(١١) يعُث: من العُثة: وهي حشرة تأكل الثياب والفراء والجلود والأوراق وغيرها.

(١٢) يقرّض: يتآكل أو يتقطّع.

(١٣) الساذج: تعريب «سادة» بالفارسية، وهو نبات مائي يقوم على خيوط شعريّة تطول قدر عمق=

الخَرْبق[١] إذا جُعِل مع الثياب التي تُرفَع لم يقربها السُّوس.

عُودُ الرِّيح[٢] وورقُ النَّعْناع مِثلُ ذلك.

يُكتَب على بيضتين بعد سَلْقِهما وقَشْرِهما، على الأُولى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: الآية ٤٧]، وعلى الثانية: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: الآيتان ٤٨، ٤٩]، ويُكتَب بعد ذلك على كلٍّ منهما: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: الآية ٨١]، وتُعطَى الأُولى للمرأة، والثانيةُ للرجل، ويُعطِي كلٌّ منهما لصاحبه البيضةَ التي أُعطِيَها يأكلُها، فإنّ ذلك يَحُلّ المعقود.

مَرارة الخُطّاف[٣] إن شُرِبَتْ وشُرِب في عقبها اللَّبنُ الحليب، سوّدتْ شعرَ اللِّحية والرأس.

إذا غُرِز في طَرَف القرع قِطَعٌ من حديد وهو متّصل بأصله، ولم يَنفُذ إلى الجانب الآخر، وطُلِيَ عليه بالطِّين الأصفر، وتُرِك في أصله إلى أن يُدرِك ويَجِفّ ويؤخذ ما في جوفه، وهو كالحِبْر، ويُحَلّ بعسلِ نحلٍ من غير نار، ويُستعمَل منه في كلّ غداة قدرَ البندقة ـ وإنْ حُلّ برُبِّ العنب فهو أجوَد، وهو المِيبَخْتَج[٤] ـ فإنّه يسوِّد الشَّعر إنْ داومَ عليه.

ذكر نُبْذةٍ من خواصّ الحروف والأسماء

خواصُّ الحروف والأسماءِ كثيرة، قد ذكرها البُونِيّ[٥]؛ فمنها ما عرفوا تأثيراته بطوالع، وقيّدوه بأوقات؛ ومنها ما ليس له وقت مخصوص، وهو الّذي أُورِد منه في هذا الموضع ما تقف عليه إنْ شاء الله تعالى.

= الماء الذي تكون فيه وموضعه مناقع بالهند، تقدم ذكره.

(١) الخربق: نبات ورقه كلسان الحمل، ومنه أبيض وأسود، والأبيض: يسمّى بقلة الرّماة، وخانق الذئب أي قاتله، تقدم ذكره.

(٢) عُود الرّيح: اسم يطلق على أنواع شتّى من النباتات وهي الماميران، والعاقر قرحى، والوج، وعود الفاوانيا، والبار باريس، وهو الأمير باريس.

(٣) الخطّاف: طائر السّنونو.

(٤) الميبختج: كلمة فارسية مركّبة من «مي» أي خمر، و«بخته» أي مطبوخ، وهو عسل العنب، لكن الأطباء يغلونه مرّة ثانية بالسكر والعسل. انظر: الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٤٨.

(٥) البوني: هو أحمد بن علي أبو العباس، صاحب المصنّفات في علم الحروف متصوف مغربيّ الأصل، نسبته إلى بونة بإفريقية على الساحل، توفي بالقاهرة سنة ٦٢٢ هـ، له تصانيف عديدة. الأعلام ١/ ١٧٤.

قال الشيخ جمال الدين أبو العبّاس أحمدُ بنُ أبي الحسن القُرَشيُّ البُونِيّ رحمه الله تعالى، في كتابه المترجم بـ(لطائف الإشارات في أسرار الحروف العُلْويّات): من نقش حَرفَ الحاء في فَصّ خاتَم[١] ثمانيَ مرّات، ونَقَش معه «يا حيّ يا حليم يا حَنّان يا حكيم»، أمِنَ من الحُمَّيات كلِّها.

وإنْ هو جعَله في ماء وسَقيَ منه المحمومِين خَفَّف ما بهم.

وإن داموا على شُرب ذلك الماءِ والابتِرادِ به ذهبت الحُمَّيَات كلُّها.

وكذلك ينفع المحرورين من أهل الصَّفْراء[٢].

قال: ولا يُكثِر مِن لُبسِه كبيرُ السِّنّ.

قال: ومن خاصّيّته تعطيلُ حركة النّكاح.

قال: وإنْ حَمَله الشابُّ فهو أوفق للتّختّم به، ولا يحمله في يوم السبت ولا في يوم الاثنين، ويحمله فيما عداهما من الأيّام.

وفيه لمن أَمْسَكه ذَهابُ العطش وكثرةِ شرب الماء.

وإن عُلِّق في بستانَ نَمَى ثَمرُه، وكثرتْ نَضارتُه.

قال: ومن قال عند طلوعِ الشمس: «يا حيّ يا حليم يا حنّان يا حكيم» ومن الأسماء المقدَّسة ما أوّله حاء في زمن القَيْظ، يذكر ذلك حتّى تنقلب الشمسُ في رأي عينه خضراءَ وهو ناظرٌ إليها، لم يُحِسَّ في يومه ذلك ألَمَ الحَرِّ.

قال: ومن كتب اسمَه[٣] «الجبّارَ وذا الجَلال» في بِطاقةٍ أيِّ وقتٍ شاءَ وهو على طهارة، وجعلَها في خاتَمِه أو بين عينيه وقت جلوسه بين الناس، رزقه الله الهيبةَ والتعظيم.

ومن كتب اسمَ الله «الجميلَ والجواد» في بِطاقةٍ أيِّ وقتٍ شاء، وتَختَّم بها أو حَمَلَها وقتَ دُخوله بين أحبابِه أو منزلِه، حَسّنه الله تعالى، وجَمَّل ظاهرَه وباطنَه.

---

(١) فصّ الخاتم: ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة.

(٢) الصفراء: خلط من أخلاط البدن.

(٣) اسمه: أي اسم الله تعالى.

قال: ومن كتب «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» خمسةً وثلاثين مرّة، «أحمد رسولُ الله» خمسةً وثلاثين مرّة في يوم جمعة بعد صلاة الجمعة وحملَها معه، رزقه الله تعالى قوّةً في الطاعة، وتقويةً على البِرِّ كلّه، وكفاه الله تعالى هَمَزات الشياطين[١].

وإن هو أدام النظر إلى تلك البِطاقة كلَّ يوم عند طلوع الشمس وهو يصلّي على محمّد ﷺ، كثرتْ رؤياه للنبيّ ﷺ، ويسّر الله تعالى عليه في يومه ذلك أسباب السّعادة، وذلك بحُسْن القبول وعَقْد النيّة وصفاءِ الباطن.

قال: ومَن نقش اسمَ الله (الخبير) على فَصٍّ مهما يكن يومَ الجمعة أو يوم الاثنين أوّلَ ساعةٍ من النهار، واحتَمَل هذا الفصّ في فمه، لم يَنَلْه وَصَب[٢] العطش.

وإن هو جعله في كوزِ ماء وشرب منه، أسرَعَ له الرِّيّ، ولم يطلب الماءَ بعده.

ومن كتب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٧] أربعَ مرات، وعلَّقها عليه، لم يَقرُبه شيطان، ولم يُصِبه، ولا يَقرُب البيت الّذي يكون فيه.

قال: ومن كتب الصاد ستّين مرّة في بِطاقةٍ وحملَها غَلَب خَصمَه.

ومن علّقها عليه وهو صائم، أمِنَ من الجوع بإذن الله تعالى.

قال: ومن كتب الصاد ستّين مرّة في عصابة، وعَصَّب بها مَن يشتكي الصُّداع، بَرِىءَ إن شاء الله تعالى.

وقال: إذا نقش حرف الطاء في لوحٍ من مِشمِش[٣] والشمس في السعود تسعَ طاءات، وخمسَ هاءات وحَمَلها إنسان، قهر الله عنه قلوبَ الجبّارين من الشياطين والإنس، وربّما أنه كثيرًا ما يرى النبيّ ﷺ.

ومن استدام إمساكَه على غير طهارة، أورثه ذلك حُمَّى الدِّقّ[٤].

قال: ولابسُه يحبّ أعمالَ البرّ كلَّها، ولا يقدر أن يَبقَى ساعةً بغير طَهارة. وإن عُلِّق على من يشتكي ألَمَ الرأس، هوَّن الله تعالى عليه ذلك.

---

(١) همزات الشياطين: خطراتهم التي يخطرون بها بقلوب الناس، أو وساوسهم.
(٢) الوصب: المرض والفتور والتّعب. (٣) من مشمش: أي من خشب المشمش.
(٤) حمّى الدقّ: هي حمّى تدوم ولا تكون قويّة، وليس لها أعراض ظاهرة مثل القلق، وعظم التنفس ويبس اللسان وسواده، لكن ينتهي الإنسان منها إلى ضنًى وذبول.

وإن ألقاه في كوز الماءِ وشرب من ذلك الماء، رأى بركةً في ذاته من محبّة الخير، وانشراحِ الباطن، واتّساع الصّدر.

قال: ومن كتبها في تسع من الشّهر، أو ثمانيةَ عشر، أو في سبعةٍ وعشرين عَدَدها، وخمسَ هاءات معها، وعلّقها على نفسه، أمِنَ مِن الهَوامّ.

قال: ومن نقش حرفَ العين سبعين مرّةً يومَ الجمعة وقت الأذان، في خِرقةِ حريرٍ بيضاء، وركّبها على خاتَم قَلعِيٍّ[١] أو قَمَر[٢]، وتختّمَ به، نطق بالحكمة، ويسّر الله عليه الفهمَ الثاقب؛ ويكونَ تعليقه بإزاء قلبه، ولا يعلّقه عليه عند نومه، فإنّه يرى خيالاتٍ كثيرة.

قال: ومن أكثر مِن ذكر اسمِه[٣] (العزيز)، نال عزّةً في دينه إن يكن من أهل الديانات، وعزّةً في دنياه إن يكن من أهل الدنيا.

قال: ومن كتب حرف القاف في زيادة الهلال مائةَ مرّة ومحاه بماء وشَرِبه أمِن من الرُّطوبات العارضة، وجاد فهمُه، وقوِيَ حِفظُه، ولا يداومْ ذلك لئلّا يُفرِطَ به اليُبْس.

ومن كتبه في ورقةِ رَنْدٍ[٤] مائةَ مرّة، وغلاها في زيتِ زيتون، ودَهَنَ به المفلوجين وأهلَ النَّزَلات الهوائيّة، نَفَعَهم.

قال: ومَن ذكر من أسماء الله تعالى ما فيه قاف كاسمه (القادر) و(القيّوم) و(القويّ)، وما أشبه ذلك، فمن استعمل ذلك الذِّكر ممّن يشتكي الضَّعف والفزع واستدام عليه بعقد نيّة وجمعِ هِمّة، رزقه الله تعالى القوّة، ويسّر له أسبابَ الخروج من الجزع.

قال: ومن نقش حرف الكاف في خاتَم عشرين مرّة، أو كتبه في خِرقةِ حرير، وطواها، وجعَلَها تحت فصِّ خاتَم، فإنّ لابسَه لا يُرَدّ كلامُه إلا بخير، وينفع لملاقاة الجبّارِين ودفعِ ضررهم.

---

(١) خاتم قلعي: أي خاتم رصاص قلعي، نسبة إلى القلع، وهو معدن ينسب إليه الرّصاص الجيّد، وهو الشديد البياض.

(٢) القمر: الفضة، ويكنّى عن الذّهب بالشمس، والقمر بالفضّة. انظر: مفاتيح العلوم، ص ٢٥٨.

(٣) اسمه: أي اسم الله تعالى.

(٤) الرّند: شجر صغير طيّب الرائحة، أزهاره بيض صغار.

قال: ومن نقش حرف النون بالعربيّ في فصّ خاتَم خمسَ نونات، وعلّقه على من يشتكي معدتَه أو خفقانَ قلبِه على موضع الألم، سَكَنَ بإذن الله تعالى.

قال: ومن كتب حرف الواو سِتّ مرّات، في ورقة وعلّقها عليه، أمِنَ مِن الصُّداع العارِض من اليبوسة، وحَسْبُه.

ومن نقشه في فصِّ مَهًا[١] أو فضّة وجعله في فيه، وكان به بلغم[٢] يجفِّف الفم، فإنّه يكونُ بُرْأَه إن شاء الله تعالى.

ومَن علّقه عليه أمِن مِن حُمَّى الرِّبْع[٣].

والخواصُّ كثيرة؛ وفيما أوردناه منها كفاية.

كَمُلَ الجزء الثاني عشر
من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنّوَيْريِّ رحمه الله تعالى
ويليه الجزء الثالث عشر
وأوّله: (الفنّ الخامس في التاريخ)
والحمد لله ربّ العالمين

(١) المها: حجر زجاجي شديد البياض وإن حكّ، ولا فرق بينه وبين البلور إلّا الصلابة في المها، فإنّه يقاوم الحديد فتخرج منهما النار. انظر: الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٩٨.

(٢) البلغم: مادة رخوة من اللّعاب المختلط بالمخاط.

(٣) حمّى الرّبع: هي حمّى تنوب يومًا وتترك يومين، وذلك لأنها تأخذ في الأيام الثلاثة ثماني عشرة ساعة، وهي ربع ساعات الأيام الثلاثة فسمّيت باعتبار السّاعات، وقيل: إنها تنوب بعد كل ثلاثة أيّام يومًا، يعني أنها تغيب ثلاثة أيام وترجع في الرابع.

ثَبْت المصادر والمراجع

١ ـ **الألفاظ الفارسية المعرّبة**، للسيّد أدّى شير، ط. بيروت.

٢ ـ **الإيضاح في أسرار النّكاح**، للشيرازي شهاب الدين عبد الرحمٰن بن نصر.

٣ ـ **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين.

٤ ـ **المؤتلف والمختلف**، للإمام الآمدي، دار الكتب العلمية.

٥ ـ **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.

٦ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.

٧ ـ **النجوم الزّاهرة**، لابن تغري بردى.

٨ ـ **الأدوية المفردة أو «المفردات»**، لابن البيطار، عبد الله بن أحمد، ط. بولاق.

٩ ـ **تقويم البلدان**، للملك المؤيّد أبي الفداء إسماعيل بن أيوب، ط. باريس.

١٠ ـ **تاج العروس**، لمحمد مرتضى الزبيدي، ط. مصر.

١١ ـ **تذكرة داود الأنطاكي**، ط. بولاق.

١٢ ـ **ديوان المتنبي**، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣ ـ **ديوان الأعشى**، دار صادر، بيروت.

١٤ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.

١٥ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، لابن أبي أصيبعة، ط. مصر.

١٦ ـ **عمدة المحتاج أو المادة الطبّية**، للرشيدي.

١٧ ـ **كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون**، لحاجي خليفة.

١٨ ـ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.

١٩ ـ **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.

٢٠ ـ **معجم أسماء النبات**، للدكتور أحمد عيسى بك.

٢١ ـ **مفاتيح العلوم**، للخوارزمي، ط. أوروبا.

فهرس المحتويات

القسم الخامس
من الفنّ الرابع
في أصناف الطِّيب والبَخورات والغَوالي والنُّدود والمستقطَرات والأدهان والنَّضُوحات وأدوية الباه والخواصّ

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثالث عشر

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي
وصلّى الله على سيّدنا محمد
وآله وصحبه وسلّم

الفنّ الخامس
في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام:

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: الآية ٢٦]؛ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: الآية ٨٢]؛ إلى غير ذلك من الآي.

والتاريخ ممّا يَحتاج إليه الملِك والوزير، والقائد والأمير، والكاتب والمُشير والغنيّ والفقير؛ والبادي والحاضر، والمقيم والمسافر.

فالملِك يعتبر بما مضى من الدّول ومن سلف من الأمم، والوزير يقتدي بأفعالِ من تقدّمه ممّن حاز فضيلتي السيف والقلم؛ وقائد الجيش يطّلع منه على مَكايد الحرب، ومواقف الطعن والضرب؛ والمشير يتدبّر الرأي فلا يُصدره إلّا عن رويّة ويتأمّل الأمر فكأنه أعطي درجة

المعيّة وحاز فضيلة الألمعية[١]؛ والكاتب يستشهد به في رسائله وكتبه، ويتوسّع به إذا ضاق عليه المجال في سِربه[٢]، والغنيّ يحمد الله تعالى على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله[٣]، وينفِق مما آتاه الله إذا علم أنه لا بدّ من زواله وانتقاله؛ والفقير يرغب في الزهد لعلمه أن الدنيا لا تدوم، ولتيقّنه أن سَعتها بضيقها لا تقوم. ومن عدا هؤلاء يسمعه على سبيل المسامرة، ووجه المحاضَرة والمذاكرة؛ والرغبة في الاطلاع على أخبار الأمم، ومعرفة أيام العرب وحروب العجم.

فقد تبيّن بهذه المقدّمة تعويل الأمر عليه، وميل المرء إليه.

وسأورد إن شاء الله في هذا الفنّ جُملًا من تواريخ الأمم السالفة[٤] والعصور الخالية[٥]، وأطرّزه من القصص والسِّيَر بما تصبح به صفحات الطروس[٦] خالية.

ولمّا رأيتُ غالب من أرّخ في الملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومَساقِها، لا الدّول واتّساقها؛ علمتُ أن ذلك ربما قطع على المُطالع لذّةَ واقعة استحلاها، وقضيّة استجلاها؛ فانقضت أخبار السنة ولا استوعب تكملةَ فصولها ولا انتهى إلى جملتها وتفصيلها؛ وانتقل المؤرّخ بدخول السنة التي تليها من تلك الوقائع وأخبارها، والممالك وآثارها، والدولة وسِيرَها، والحالة وخبرها؛ فتنقّل من الشرق إلى الغرب، وعَدَلَ عن السّلم إلى الحرب؛ وعطف من الجنوب إلى الشمال وتحوّل من البُكَر إلى الآصال؛ وقد تجول به خيلُ الاستطراد فيُبعِد، وتحول بينه وبين مقصده السِّنون

---

(١) الألمعيّة: الذّكاء والتوقّد فيه.

(٢) السّرب: الجماعة، أو الطريقة في الكتابة.

(٣) النّوال: العطاء.

(٤) السالفة: الماضية المتقدّمة في الزمن.

(٥) الخالية: الغابرة.

(٦) الطروس: مفردها «الطّرس» وهو الصحيفة.

فيغور[١] تارة وتارة يُنجِد[٢]، فلا يرجع المُطالع إلى ما كان قد أهمّه إلّا بعد مشقّة، وقد يعدل عنه إذا طالت المسافة وبعُدت عليه الشُّقّة.

فاخترتُ أن أقيم التاريخ دُوَلًا، ولا أبغي عن دولة إذا شرعتُ فيها حِوَلًا[٣]؛ حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها، وأذكرَ جُملًا من وقائعها ومآثرها؛ وسِياقة أخبار ملوكها، ونظم عقود سلوكها؛ ومقرّ ممالكها، وتشعُّب مَسالكها.

فإذا انقضت مدّتها، وانقرضت عِدّتها؛ وانتقلت من العين إلى الأثر، ومن العِيان إلى الخبر؛ رجعتُ إلى غيرها فقفوتُ أثرها، وشرحت خبرَها، وبيّنتُ خُبرها؛ وذكرتُ أسبابها، وسردت أنسابها؛ وبدأت بأصلها، ونَوَّهْتُ بأخبار من نبغ من أهلها؛ واستقصيتها[٤] دولة بعد دولة، وجالت بي خيول المطالعة[٥] جَولة ناهيك[٦] بها من جوله؛ ورغبتُ مع ذلك في الاختصار دون الاقتصار[٧]، وأوردت ما يُحتاج إلى إيراده من غير تَكرار ولا إكثار.

فإن عرضتْ واقعة كانت بين ملكين كان وقتهما واحدًا، وكان الدهر لأحدهما على الآخر مساعدًا؛ شرحتها بجملتها في أخبار الظافر منهما؛ وأحلت في أخبار المغلوب عليها، واكتفيت بإيرادها في أحد الموضعين ولم أعرّج في الآخر إلا بالإشارة إليها.

---

(١) يغور: ينخفض، والغَور: ما انخفض من الأرض.

(٢) ينجد: يرتفع، والنّجد: ما ارتفع من الأرض والاستعمال هنا في هذا الموضع على سبيل الاستعارة.

(٣) الحول: التوقّف.

(٤) استقصيتها: تتبّعت أخبارها باحثًا ومنقّبًا.

(٥) خيول المطالعة: يريد بها هنا الأفكار أو الشغف والجموح إلى نيل المراد والغاية.

(٦) ناهيك: كلمة تعجب، يقال: هو رجل ناهيك من رجل: أي هو رجل يكفيك عن غيره.

(٧) الاختصار والاقتصار: المراد بالاختصار: الإيجاز في الشرح وغير ذلك، أمّا الاقتصار: فيراد بها الاكتفاء بذكر بعض الحوادث دون بعض.

وجريت في تقسيم هذا الفنّ على القاعدة التي تقدّمت فيما قبله من الفنون ليكون أبسطَ للنفوس وأنشطَ للخواطر وأقرَّ للعيون؛ وجعلتُه خمسة أقسام، ووضعتُه على أحسن اتّساق[١] وأكمل انتظام.

القسم الأوّل: في مبدأ خلق آدم ـ عليه السلام ـ وحوّاء، وأخبارهما، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ. وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأوّل: في مبدأ خلق آدم وحوّاء ـ عليهما السلام ـ، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما.

الباب الثاني: في خبر شيث بن آدم ـ عليهما السلام ـ، وأولاده.

الباب الثالث: في أخبار إدريس النبيّ عليه السلام.

الباب الرابع: في قصة نوح ـ عليه السلام ـ، وخبر الطُّوفان.

الباب الخامس: في قصة هود ـ عليه السلام ـ مع عاد، وهلاكهم بالريح العقيم.

الباب السادس: في قصة صالح ـ عليه السلام ـ مع ثمود، وعَقْرهم الناقة وهلاكهم.

الباب السابع: في أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة، والقصر المَشِيد، وهلاكهم.

الباب الثامن: في أخبار أصحاب الرّسّ، وما كان من أمرهم.

القسم الثاني: في قصّة إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام، وخبره مع النُّمْروذ ـ لعنه الله ـ، وقصّة لوط،

(١) الاتساق: الاستواء والانتظام.

وخبر إسحٰق، ويعقوب، وقصة يوسف، وأيُّوب، وذي الكِفْل، وشُعيب ـ عليهم السلام ـ وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في قصّة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وأخبار نمروذ بن كنعان

الباب الثاني: في خبر لوط ـ عليه السلام ـ مع قومه، وقلب المدائن.

الباب الثالث: في خبر إسحٰق، ويعقوب عليهما السلام.

الباب الرابع: في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

الباب الخامس: في قصّة أيوب ـ عليه السلام ـ، وابتلائه وعافيته.

الباب السادس: في خبر ذي الكِفْل بن أيوب عليهما السلام.

الباب السابع: في خبر شُعَيْب ـ عليه السلام ـ، وقصته مع مَدْيَنَ[١].

القسم الثالث: يشتمل على قصّة موسى بن عِمْران ـ عليه السلام ـ، وخبره مع فِرْعَوْن وخبر يُوشَع ومَن بعده وخبر حِزْقِيلَ وإلياس والْيَسَع وغيلا وأَشْمَوِيل وطالوت وجالوت وداود وسليمان وسَعْيَا وإرْمِيَاءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وقصّة يُونس بن متّى وخبر بلوقيا وخبر زكريا ويحيىٰ وعِمران ومريم وعيسى ـ عليهم السلام ـ وخبر الحواريِّين وما كان من أمرهم وخبر جِرجيسَ. وفيه ستة أبواب:

(١) مع مدين: أي مع أهل مدين: مدينة على بحر القلزم، محاذية لتبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام السائمة شعيب عليه السلام ومدين اسم القبيلة «انظر: معجم البلدان ٥/ ٧٧».

وذيَّلتُ على هذا القسم ذيلًا يشتمل على أبواب أربعة، ذكرتُ فيها ما قيل في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ـ عليه السلام ـ إلى الأرض، وأخبار المهديّ والدجّال، ونزول عيسى ـ عليه السلام ـ ومدّة إقامته في الأرض ووفاته وما يكون بعده وشيئًا من أخبار الحشر والمعاد.

وإنما ذكرتُ هذا الذيل في هذا الموضع ـ وإن كان غير داخل في فنّ التاريخ ـ لأن النفوس لما كانت مائلةً إلى الاطّلاع على أخبار ما مضى من الزمان ومَن سلف من الأمم، فميلُها إلى الاطّلاع على ما يظهر في مستقبل الزمان أكثر وتشوّقها إليه أوفر؛ فأوردتُ ما أذكره لهذا السبب، ولأن كتابنا هذا ليس مبناه على مجرّد التاريخ بل هو كتاب أدب، لا تُخرجه هذه الزيادة عن شرطه.

الباب الأوّل: في قصّة موسى بن عِمْران وهارون عليهما السلام وغرق فِرْعَون، وأخبار بني إسرائيل، وخبر قارون وحروب موسى وخبر الجبّارين وبَلْعَمَ وغير ذلك.

الباب الثاني: فيما كان بعد موسى بن عِمْران ـ عليه السلام ـ وهو أخبار يُوشَع وخبر حِزْقِيلَ وإلياس والْيَسَع وغيلا وأشمويل وطالوت وجالوت وداود وسليمان ـ عليهم السلام ـ ومَن بعدهم.

الباب الثالث: في أخبار سَعْيَا وإرْمِياءَ وخبر بُخْتُنَصَّرَ وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتّصل بذلك من خبر عُزَير.

الباب الرابع: في قصّة ذي النُّون يونُس بن متّى ـ عليه السلام ـ، وخبر بلوقيا.

الباب الخامس: في خبر زكريّا ويحيىٰ وعِمْران ومريم ابنته وعيسى ابن مريم عليهم السلام.

الباب السادس: في أخبار الحواريِّين الذين أرسلهم عيسى وما كان من أمرهم وخبر جِرجِيس.

التذييل على هذا القسم ـ وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

الباب الثاني: في خبر نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام.

الباب الثالث: في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم إلى النفخة الأُولى.

الباب الرابع: في أخبار يوم القيامة والحشر والمَعاد والنفخة الثانية في الصُّور.

القسم الرابع: في أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم والطوائف، وخبر سَيْلِ العَرِم، ووقائع العرب في الجاهلية، وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول: في أخبار ذي القرنين المذكور في كتاب الله عزّ وجلّ.

الباب الثاني: في أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك مصر والهند والصين والترك وجبل الفتح.

الباب الثالث: في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم ملوك الفُرْس الأُول، وملوك الطوائف من الفُرس، والملوك الساسانيّة منهم، وملوك اليونان والسريان والكَلدانيِّين والروم والصقالبة والنُّوبرْد[1] والفَرَنْجة والجَلَالِقة وطوائف السودان.

(١) النّوبرد: هم اللّونبرد، سكان لومبرديا، الإقليم المعروف في شمال إيطاليا «انظر: تقويم البلدان ص ٢٠٨».

الباب الرابع: في أخبار ملوك العرب، وما يتّصل بها خبر سَيْل العَرِم.

الباب الخامس: في أيّام العرب ووقائعها في الجاهليّة.

القسم الخامس: في أخبار الملّة الإسلاميّة وذكر شيء من سيرة نبيِّنا محمد ـ ﷺ ـ، وأخبار الخلفاء من بعده ـ رضي الله عنهم ـ والدولة الأُمَويّة والعباسيّة والعَلَويّة ودول ملوك الإسلام وأخبارهم، وما فتح الله عليهم، وفيه اثنا عشر بابًا:

الباب الأول: في سيرة سيّدنا رسول الله ـ ﷺ ـ.

الباب الثاني: في أخبار الخلفاء من بعده: أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وابنه الحَسَن ـ رضي الله عنهم ـ.

الباب الثالث: في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشأم وغيره.

الباب الرابع: في أخبار الدولة العباسيّة بالعراق ومصر.

الباب الخامس: في أخبار الدولة الأُمَوِيَّة بالأندلس، وأخبار الأندلس بعد انقراض دولتهم.

الباب السادس: في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومَن وَلِيَها من العُمَّال، ومَن استقلّ بالمُلك.

الباب السابع: في أخبار مَن نهض في طلب الخلافة من الطالبيّين في مدّة الدولتين: الأُمَوِيّة، والعباسيّة، فقُتل دونها بعد مقتل الحسين بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ.

الباب الثامن: في أخبار صاحب الزّنج والقرامطة والخوارج ببلاد الموصل.

الباب التاسع: في أخبار مَن استقلّ بالمُلك، والممالك، في البلاد الشرقيّة والشماليّة في خلال الدولة العباسية، وهم ملوك خُراسان وما وراء النهر والجبال وطَبَرسْتَان وغَزْنَة والغَوْر وبلاد السند والهند كالدولة السامانيّة، والدولة الصَّفّاريّة، والدولة الغزنويّة، والدولة الغُوريّة، والدولة الدَّيْلميّة الختليّة.

الباب العاشر: في أخبار ملوك العراق وما والاه، وملوك المَوْصِل والديار الجَزِيريّة والديار البَكْريّة والبلاد الشاميّة والحَلَبيّة، كالدولة الحَمْدانيّة، والدولة الدَّيْلَميّة البُوَيهيّة، والدولة السَّلْجُقيّة، والدولة الأتابكيّة.

الباب الحادي عشر: في أخبار الدولة الخُوَارَزْميّة والدولة الجنكزخانيّة وهي دولة التتار (جنكزخان وأولاده) وما تفرّع منها.

الباب الثاني عشر: في أخبار ملوك الديار المصريّة الّذين ملكوا في خلال الدولة العباسيّة، نيابةً عن خلفائها، وهم الملوك الطُّولونيّة والملوك الإخْشِيديّة، ومَن استقلّ بمُلكها وانتزعها وأخرجها من يد نوّاب خلفاء الدولة العباسيّة، وهم الملوك العُبَيْديّون الذين انتسبوا إلى العَلَويِّين، وما كان من أمرهم من ابتدائه إلى انتهائه وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف استولَوْا على الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والثغور الساحلية، وانقراض دولتهم، وقيام الدولة الأيُوبيّة وأخبار ملوكها بمصر والشام إلى حين انقراضها، وقيام دولة الترك ومَن مَلَكَ منهم وما حازوه من الأقاليم، وما فتحوه من الممالك واستنقذوه من أيدي الأفرنج والأرمَنِ والتَّتار وغيرهم وما استقرّ في مُلك هذه الدولة من الممالك إلى حين وضعِنا لهذا التأليف في سنة... [1] وسبعمائة في أيّام مولانا السلطان السيد الأجلّ

(١) موضع هذه النقط الثلاث بياض في الأصول، والظّاهر أنّ هذا البياض من المؤلّف نفسه، ولعلّ=

المالك (الملك الناصر)، ناصر الدنيا والدين، محمد ابن السلطان الشهيد المالك، الملك المنصور سيف الدنيا والدين (قلاوون) الصالحيّ، خلّد الله تعالى مُلكَه على ممرّ الزمان، وسَقَى عهد والده صَوْبَ الرَّحمة والرِّضوان.

هذه جملة ما اشتمل عليه هذا الفنّ من الأقسام والأبواب، والله تعالى المرشد والهادي والموفِّق إلى الصواب، بمنّه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

= سبب ذلك مردّه إلى أن كتابه هذا لم يوضع في سنة معيّنة فيحدّدها، بل وضع في سنين، والمعروف أنّ المؤلّف توفي في سنة ٧٣٢ هـ.

القسم الأوّل

من الفنّ الخامس

في مبدأ خلق آدم وحوّاء عليهما السلام ودخولِهما الجنة، وما كان بينهما وبين إبليس لعنه الله وهبوطِهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفرقة، وخبر حرثِه وزرعه، وحَمْلِ حوّاء ووضعِها، وخبر ابني آدم هابيلَ وقابيلَ، ونبوّة آدم عليه السلام ووفاته، وخبر شيثٍ وأولادِه، وقصّة إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام وخبر أصحاب البئر المعطَّلة والقصرِ المشيّد، وخبر أصحاب الرسّ

وفيه ثمانية أبواب:

الباب الأول من هذا القسم
في مبدأ خلق آدم وحوّاء عليهما السلام وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما

ذكر خَلق آدم عليه السلام

خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام من تراب، بدليل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: الآية ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٥٩]، وقوله تعالى إخبارًا عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [صَ: الآية ٧٦] وهذا أمر بيّنٌ واضح لا خلاف فيه، ولا يحتاج إلى زيادة في إقامة دليل وإيضاح.

وقيل: إنما سمّي آدم لأن الله تعالى خلقه من أديم الأرض.

وعن وهب بن منبَه[١] أن رأسه من الأرض الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة، ويديه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة، وفخذه ومذاكيره وعجزه من السادسة، وساقيه وقدميه من السابعة.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى خلقه من الأقاليم السبعة.

وقيل: إن عزرائيل أخذ من تراب الأرض كلِّها أبيضها وأحمرها وأسودها وعَذْبِها ومالحها، فهو مخلوق من ذلك التراب.

قال: ولمّا خلقه الله عزّ وجلّ وصوّره على هذه الصورة الآدميّة، أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنّة عند ممرّ الملائكة، وكان جسدًا لا روح فيه، فكانت الملائكة يعجبون من خلقته وصورته، لأنّهم لم يكونوا رأوا مِثله قط وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول: ما خلق الله تعالى هذا إلّا لأمر. وربّما دخل فيه، فإذا خرج قال: إنه خَلقٌ ضعيف، خُلِق من طين أجوف، والأجوف لا بدّ له من مَطعَم ومَشرَب.

ويقال: إنه قال للملائكة: ما تعملون إذا فُضِّل هذا المخلوق عليكم؟ فقالوا: نطيع أمر ربّنا ولا نعصيه. فقال إبليس: إنْ فضّله عليّ لأعصِينّه، وإنْ فضّلني عليه لأُهلكنّه.

ذكر دخول الرُّوح فيه

قال: ولما أراد الله تعالى نفخ الرُّوح فيه أمر بروحه فغُمستْ في جميع الأنوار وليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من المخلوقات.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: الآية ٢٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: الآية ٨٥] الآية.

قال: فأمرها الله تعالى أن تدخل في جسد آدم بالتأنّي دون الاستعجال فرأت مدخلًا ضيّقًا حَرجًا؛ فقالت: يا ربّ، كيف أدخل؟ فنوديتْ «ادخلي كَرْهًا واخرجي

(١) هو وهب بن منبّه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله، مؤرّخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين، ولا سيّما الإسرائيليات أصله من الفرس، وأمّه من حمير، ولد ومات بصنعاء وقد ولّاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، توفي سنة ١١٤ هـ.

كَرْهًا»[١]. فدخلتْ من يافوخه[٢] إلى عينيه، ففتحهما آدم ونظر إلى نفسه طينًا، ثم صارت إلى أذنيه، فسمع تسبيح الملائكة، وجعلت الروح تمرّ في رأسه والملائكة ينظرون إليه، ثم صارت إلى الخياشيم، فعطِس، فانفتحتْ المجاري المسدودة؛ وصارت إلى اللّسان؛ فقال آدم: «الحمد لله الذي لم يزل ولا يزول» وهي أوّل كلمة قالها. فناداه الرب: «يرحمك ربّك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك ولذرّيتك». وسارت الروح في جسده حتى بَلغت الساقين، فصار آدم لحمًا ودمًا وعظمًا وعروقًا، غير أنّ رجليه من طين؛ فذهب ليقوم فلم يقدر وهو قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسرَاء: الآية ١١].

فلمّا صارت إلى الساقين والقدمين استوى قائمًا على قدميه يوم الجمعة.

فقيل: إنّ الروح استوت في جسده في خمسمائة عام عند نزول الشمس.

ذكر سجود الملائكة لآدم

قال: فلمّا استوى قائمًا أمر الله الملائكة بالسجود له؛ فسجدوا كلُّهم إلّا إبليس، كما أخبر الله تعالى عنه؛ قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾﴾ [صٓ: الآيـــات ٧٣ - ٧٦] الآيات.

قال: وكان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت الملائكة في سجودها إلى العصر.

قال وعلّم الله تعالى آدم الأسماء كلّها واللغات بأجمعها.

قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: علّمه حتى لغة الحيتان والضفادع وجميع ما في البرّ والبحر، ثم أمر اللائكة أن يحملوه على أكتافهم، ويطوفون به في طرائق السمٰوات؛ ففعلوا ذلك.

ثم أمر جبريلَ أن ينادي في صفوف الملائكة أن يَجتمعوا؛ فاجتمعوا واصطفّوا عشرين ألف صفّ، ووُضع لآدم مِنبرُ الكرامة، وعليه ثياب السندس

(١) الكره: ما أكره عليه المرء من فعل، أو المشقّة.
(٢) اليافوخ: ملتقى عظم مقدّم الرأس ومؤخّره.

الأخضر وله ضفيرتان(١) محشوّتان بالمسك والعنبر بطُوله، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصَّع بالدرّ والجوهر؛ فانتصب على المنبر، وسلم على الملائكة، فأجابته بردّ السلام وخطب فحمد الله، ثم ذكر علم السمٰوات والأرضين وما فيهما، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ٣١ - ٣٣].

ونزل آدم عن منبره، فجيء بِقطف من عنب أبيضَ فأكله، وهو أوّل شيء أكله من طعام الجنّة، ثم أخذته سِنةٌ(٢) فنام.

ذكر خَلْق حوّاء عليها السلام

قال: ولمّا نام آدم خلق الله تعالى حوّاء من جنبه الأيسر، من ضلعه مما يلي الشُّرسوف(٣)، وهو ضِلْعٌ أعوَج، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النّساء: الآية ١] فكانت على طول آدم وحسنهِ وجماله، إلّا أنها أرقّ جِلدًا منه، وأحسن صوتًا، ولها ضفائر مرصّعة محشوّة بالمسك تُسمع لذوائبها(٤) خَشخَشة، فجلستْ عند رأسه، فانتبه فرآها، فتمكّن حبُّها من قلبه؛ فقال: يا ربّ، مَن هذه؟ قال: أَمَتي حوّاء. فقال: يا ربّ من خلقتَها؟ قال: لمن أخذها بالأمانة، وأصدقها الشكر. قال: يا ربّ، أنا أقبلها على هذا فزوّجنيها. فزوّجها إياه قبل دخول الجنة على الطاعة والتقوى والعمل الصالح، ونَثرتْ عليهما الملائكة من نثار الجنّة، وأوحى الله إلى آدم، أن اذكر نعمتي عليك، فإنّي خلقتك ببديع فطرتي، وسوّيتك بَشرًا على مشيئتي، ونفختُ فيك من رُوحي، وأسجدتُ لك ملائكتي، وحملتُك على أكتافهم، وجعلتُك خطيبهم، وأطلقتُ على لسانك جميع اللّغات، وجعلت ذلك كلّه فخرًا وشرفًا لك، وهذا إبليس قد أبلستُه(٥) ولعنتُه حين أبى أن

(١) الضّفيرة: جمعها ضفائر، وهي كلّ خُصْلةٍ من شعر أو نحوه.
(٢) الشنة: النعاس.
(٣) الشرسوف: طرف الضّلع اللّين المشرف على البطن.
(٤) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي شعر مقدّم الرأس.
(٥) أبلسه الله: أيأسه من رحمته.

يسجد لك، وقد ختمتُ كرامتي لك بأمتي حوّاء، وقد بنيتُ لكما دارَ الحيوان[١] من قبل أن أخلقكما بألفي عام، على أن تدخلاها بعهدي وأمانتي.

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

قال: وهي أن يكافأوا على الإحسان، ويعذَّبوا على الإساءة؛ فأبَوا؛ فعرضتْ على آدم، فقيل له: إن أطعتَ كافأتُك بالإحسان، وخلّدتك في الجِنان؛ وإن تركتَ عهدي أخرجتك من داري، وعذّبتك بناري. فقبل آدم الأمانة، فعجب الملائكة من ذلك؛ ثم مُثِّل له ولحوّاء إبليس، وقيل له: ﴿هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: الآية ١١٧].

ثم ناداهما الرب: إنّ من عهدي إليكما وأمانتي أن تدخلا الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٣٥]. فقبلا هذه العهود كلها.

ثم أمر الله تعالى بإدخالهما الجنّة، فحُمل آدم على الفرس الميمون، وحوّاء وراءه على الناقة، والملائكةُ عن اليمين والشمال وأمامهما وخلفهما حتى بلغوا باب الجنّة ودخلا واستقرّا بجنّة عدن في وسط الجنّة بعد أن طافا بالجِنان، فقدّم إليهما من فواكه الجنّة فأكلا، فكانا في الجنّة خمسَمائة عام من أعوام الدنيا في أتمّ السرور وأنعم الأحوال.

ذكر خبر إبليس والطاووس والحيّة

قال: ولمّا سمع إبليس أن الله تعالى أباح لآدم أن يأكل من ثمار الجنّة إلّا شجرة واحدة، فرح بذلك، وقال: لأخرجنّهما من الجنة. ثم مرّ مستخفيًا في طرقات السمٰوات حتى وقف على باب الجنّة، فإذا الطاووس قد خرج من الجنة وله جناحان إذا نشرهما غَطّى بهما سِدرةَ المنتهى، وله ذَنَب من الزمرّد الأخضر على كلّ ريشة منه جوهرة بيضاء، وعيناه من الياقوت الأحمر؛ وهو أطيب طيور

(١) دار الحيوان: أي دار الحياة الدّائمة، وقد قال عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤].

الجنّة صوتًا وتغريدًا؛ وكان يخرج ويمرّ في السمٰوات يَخطِر في مِشيته ويرجع إلى الجنّة.

فلما رآه إبليس كلّمه بكلام ليّن، وقال: أيّها الطائر العجيب الخلق الطيّب الصوت، مَن تكون من طيور الجنة؟ فقال: أنا الطاووس، فمالك أيها الشّخص كأنّك مرعوب تخاف من طالب يطلبك؟ قال إبليس: أنا من ملائكة الصّفيح[١] الأعلى من زُمرة الكَرُوبيِّين[٢]، وقد أحببتُ أن أنظر إلى الجنّة وإلى ما أعدّ الله فيها لأهلها فهل لك أن تُدخلني الجنّة وأنا أعلّمك ثلاثَ كلمات من قالها لا يَهرَم ولا يَسقَم ولا يموت؟ فقال له: وأهل الجنّة يموتون؟ قال: نعم ويَسقَمون ويَهرَمون إلّا من كانت عنده هذه الكلمات، وحلف له على ذلك، فوثق به الطاووس ولم يظنّ أحدًا يحلف بالله كاذبًا؛ فقال: ما أحوجني إلى هذه الكلمات، غير أنّي أخاف أن يستخبرني (رضوان)[٣] عنك، ولكني أبعث إليك الحيّة فإنّها سيّدة دوابّ الجنة.

قال: وجاء الطاووس إلى الحية وهي يومئذٍ على صورة الجمل، ولها زغب كالعبْقريّ[٤] ما بين أبيضَ وأحمر وأسود وأخضر، ولها عُرف من اللؤلؤ، وذوائبُ من الياقوت ورائحة كرائحة المسك والعنبر، وكان مسكنها في جنّة المأوى، وكانت تساير آدم وحوّاء في الجنة، وتخبرهما بالأشجار.

فلما أخبرها الطاووس بالخبر أسرعت الحية نحو باب الجنة، فتقدم إبليس إليها وقال لها كقوله للطاووس، وحلف لها؛ فقالت: حسبُك[٥]، ولكن كيف أُدخلك؟ فقال: إني أرى ما بين نابيك فُرْجة، وهي تسعني. ففتحت الحيّة فاهَا، فوثب وقعد بين نابيها، فصار نابها إلى آخر الدهر سمًّا، وضمّت الحيّة شفتيها، ودخلتْ الجنّةَ ولم يكلّمها رضوانُ للقضاء السابق؛ فلمّا توسّطت الجنّة قالت: أُخرج وعجّل. قال: إن حاجتي من الجنة آدم وحوّاء، فإني أريد أن أكلّمهما مِن فيّك، فإن لم تفعلي ذلك فما أعلّمك الكلمات، فجاءت إلى حوّاء فقال إبليس مِن فيها: يا حوّاء، ألست تعلمين

(١) الصّفيح: من أسماء السّماء.
(٢) الكروبيون: هم ملائكةٌ مقرّبون من الله سبحانه وتعالى، قيل: إنّهم سمّوا بهذا الاسم لأنّهم المتصدون للدّعاء بدفع الكرب عن الناس.
(٣) رضوان: ملك من الملائكة، وهو خازن الجنّة.
(٤) العبقريّ: الطّنافس الثخان، الواحدة عبقرية، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابة الكريم: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾﴾ [الرّحمٰن: الآية ٧٦].
(٥) حسبُك: أي كفاك.

أنّي معك في الجنة، وأحدّثك بكلّ ما فيها، وأنا صادقة في كلّ ما حدّثتُك به؟ قالت حوّاء: نعم؛ قال إبليس: يا حوّاء، أخبريني ما الّذي أحلّ لكما ربّكما من هذه الجنة وحرّم عليكما؟ فأخبرته بما نهاهما عنه؛ فقال إبليس: لماذا نهاكما عن شجرة الخُلد؟ فقالت حوّاء: لا أعلم بذلك؛ قال: أنا أعلم، إنما نهاكما لأنه أراد ألّا يفعل بكما ما فعل بالعبد الذي مأواه تحت شجرة الخلد.

هذا وحوّاء تظنّ أن الخطاب لها من الحيّة؛ فوثبتْ حوّاء عن سريرها لتنظر إلى العبد، فخرج إبليس من فيها كالبرق، فقعد تحت الشجرة، فأقبلتْ حوّاء فوقفت بالبعد منه ونادته: من أنت أيها الشخص؟ قال: خَلْقٌ من خَلْق الله، خلقني من نار كما تَرِينني، وأنا في هذه الجنة منذ ألفي عام، خلقني كما خلقكما بيده، ونفخ فيّ من روحه، وأسجد لي ملائكته، وأسكنني جنّته، ونهاني عن أكل هذه الشجرة، فكنت لا آكل منها، حتى نصحني بعضَ الملائكة وقال لي: كلْ منها، فإنّ من أكل منها كان مخلّدًا في الجنّة أبدًا. فأكلتُ منها، فأنا في الجنة إلى وقتي هذا، قد أمنتُ الهَرَم والسقم والموت والخروج من الجنّة.

ثــم قــال: والله ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٠]، ثم نادى: يا حوّاء اسبقِي وكلي قبل زوجك، فمن سبق كان له الفضل على صاحبه. فأقبلتْ حوّاء إلى آدم وهي مستبشرة فرحة، فأخبرته بخبر الحيّة والشخص، وأنه قد حلف لها بأنّه لهما لمن الناصحين، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ٢١]؛ وتقدّمت حوّاء إلى الشجرة ولها أغصان لا تحصى، وعلى الأغصان سنابل، كل حبة منها مِثل قِلال هَجر[1]، ولها رائحة كالمسك، أبيض من اللبن وأحلى من العسل؛ فأخذتْ منها سبعَ سنابل من سبعة أغصان، فأكلت واحدة وادّخرت واحدة، وجاءت بخمس إلى آدم.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يكن لآدم في ذلك أمر ولا إرادة بل كان في سابق العلم، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]. فتناول آدم السنابلَ من يدها، وقد نسي العهد الذي أخذ عليه من

(١) القلال: جمع قلّة: وهي الجبل والقمّة، والقلال هنا: الجرّة العظيمة من فخار، وهجر: مدينة أو هي قاعدة البحرين وقيل: ناحية البحرين كلّها هجر، وقد جاء في الحديث ذكر القلال الهجريّة: قيل: إنها كانت تجلب من هجر إلى المدينة «معجم البلدان ٥/٣٩٣».

أجلها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طٰه: الآية ١١٥] فذاق من الشجرة كما ذاقت حواء؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: الآية ٢٢].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: والذي نفسي بيده ما ساغ[١] آدم من تلك السنابل سنبلة واحدة حتى طار التاج عن رأسه، وعري من لباسه، وانتُزعت عنه خواتمه، وسقط كلُّ ما كان على حوّاء من لباسها وحليّها وزينتها، وناداهما كلّ ما طار عنهما: «يا آدم طال حزنك، وعظمت رزيّتك، وعليك السلام إلى يوم اللّقاء». ولم يبق عليهما من لباسهما شيء، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: الآية ٢٢]؛ ونظر كلٌّ منهما إلى سوءة[٢] صاحبه؛ وهرب إبليس فسار مستخفيًا في طرائق السمٰوات، وصاح آدم صيحة عظيمة، ولم يَبق في الجنة شيء إلّا لامه، وانقبضت عنه الأشجار؛ فلمّا كثرت عليه الملامات مرّ هاربًا على وجهه، فالتفّت عليه شجرة الطَّلْح[٣] وأمسكتْه ونادته: إلى أين تهرب يا عاصي؛ واضطربت الملائكة لذلك؛ والله الموفّق للصواب.

ذكر خروج آدم وحوّاء من الجنة

قال: وأمر الله جبريل فجاء إلى آدم وقبض على ناصيته[٤]، وخلّصه من الشجرة؛ فلما صار به إلى باب الجنة وأخرج رجله اليمنى وبقيت اليسرى، نودي: يا جبريل قف به على باب الجنّة حتى يخرج معه أعداؤه الذين حملوه على أكل الشجرة لكي يراهم ويرى ما يُفعل بهم. فوقّفه هنالك، فناداه الربّ: يا آدم إنّما خلقتك لتكون عبدًا شكورًا، لا لتكون عبدًا كفورًا. قال: يا ربّ أسألك أن تعيدني إلى تربتي التي خلقتني منها لأكون ترابًا كما كنتُ أوّل مرّة. قال: يا آدم، كيف أعيدك إلى تربتك وقد سبق علمي أن أملأ من ظهرك الجنَّة والنار.

وأخرج آدمُ حوّاء وقد استترت بورقة من ورق الجنة بإذن الله؛ فلمّا رأت آدم صاحت وقالت: يا لها من حسرة؟ فوقفتْ خارج الجنّة، ثم أتى بالطاووس وقد طعنتْه الملائكة حتى قَطعت ريشه، وجبريل يجرّه ويقول: اخرج من الجنة خروج الأبد،

(١) ساغ: ذاق. (٢) السُّوءة: العورة.
(٣) الطّلح: شجرُ عظام ذات شوكٍ ترعاها الجمال.
(٤) الناصية: مقدّم الرأس.

فإنّك شؤم أبدًا ما بقيت؛ ثم أتى بالحية وقد جذبتها الملائكة جذبًا شديدًا، وهي ممسوخة «مبطوحة» على بطنها لا قوائم لها، وصارت ممدودة مشوّهة، ومُنعت النطقَ فصارت خرساء، مشقوقة اللسان، فقالت لها الملائكة: لا رحمك الله ولا رحم من يرحمك.

ثم حُجبتْ حوّاء عن آدم من هناك؛ ومرّ به جبريل في طرائق السمٰوات، ونظرت إليه الملائكة عريانًا ففزعت منه، وقالت: إلٰهنا، هذا آدم بديع فطرتك أقله عثرته[1]. وآدم قد ترك يده اليمنى على رأسه، واليسرى على سَوأته، ودموعه تجري على خدّيه، وكلّما مرّ على ملإ من الملائكة يوبّخونه على نقض عهد ربّه وميثاقه، وأكثروا عليه في الملامة والتوبيخ؛ فقال لهم: يا ملائكة ربّي، ارحموني ولا توبّخوني، فالّذي جرى عليّ بقضاء ربّي، حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠].

ذكر سؤال إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ

قال: وقال إبليس: يا ربّ أضللتني وأغويتني وأبلستَني، وكان ذلك في سابق علمك ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحِجر: الآيات ٣٦ – ٣٨] وهي النفحة الأولى، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعرَاف: الآيتان ١٦، ١٧].

قال الله تعالى: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨].

قال إبليس: أنظرتَني[2] فأين يكون مسكني؟ قال: إذا هبطتَ إلى الأرض فمسكنك المزابل. قال: فما قراءتي؟ قال: الشعر والغناء. قال: فما مؤذّني؟ قال: المِزمار. قال: فما طعامي؟ قال: ما لم يُذْكر اسمي عليه. قال: فما شرابي؟ قال: الخمور. قال: فما بيتي؟ قال: الحمّامات؛ قال: فما مجلسي؟ قال: الأسواق. قال: فما شِعاري[3]؟ قال: لعنتي. قال: فما دِثاري[4]؟ قال: سُخطي. قال: فما

(١) أقال عثرته: صفح عنه. (٢) أنظرتني: أمهلتني وأخّرتني.
(٣) الشّعار: اللّباس الذي يلي جسد الإنسان.
(٤) الُدثار: الثوب الذي يُستدفأ به من فوق الثُّوب الذي يلي الجسد.

مَصايدي؟ قال: النساء. قال: فوعزّتك لا أخرجتُ محبّة النساء من قلوب بني آدم أبدًا. قيل له: يا ملعون، فإن ربّك لا ينزع التوبة من ولد آدم حتى يتغرغر[(١)] بالموت، ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [صٓ: الآيتان ٧٧، ٧٨].

ذكر سؤال آدم ـ عليه السلام ـ

قال: فعند ذلك قال آدم: يا ربّ هذا إبليس قد أعطيتَه النَّظِرة[(٢)]، وقد أقسم بعزتك أنّه يُغوي أولادي، فبماذا أحترز من مَكايده؟ فنودي، يا آدم. إنّي قد مننتُ عليك بثلاث خصال، واحدةٌ لي، وهي أن تعبدني لا تشرك بي شيئًا؛ وواحدة لك، وهي ما عملتَ من صغيرة أو كبيرة من الحسنات فلك بالحسنة عشر وإن عملتَ سيئة فواحدة بواحدة، وإن استغفرتني غفرتها لك وأنا الغفور الرحيم. وواحدة بيني وبينك، وهي أنّ منك المسألة ومنّي الإجابة، فابسط يدك وادعني فإنّي قريب مجيب.

فصاح إبليس حسدًا لآدم وقال: كيف أكيد ولد آدم الآن؟ فنودي: يا ملعون ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: الآية ٦٤]. قال إبليس: زدني يا ربّ؛ قال لا يولد لآدم ولد إلّا يولد لك سبعة. قال: ربّ زدني؛ قال: زدتك أن تَجريَ منهم مَجرَى الدم في عروقهم، وتسكنَ في صدورهم. فقال: يا ربّ حسبي؛ ثم قال: علام أهبِط إلى الأرض؟ قال: على الإياس[(٣)] من رحمتي.

قال: ثم نظر آدم إلى الحيّة وقال: ربِّ هذه اللعينةُ هي التي أعانت عدوّي عليّ، فبماذا أتقوّى عليها؟ فقيل له: قد جعلتُ مسكنها الظلمات، وطعامها التراب فإذا رأيتَها فاشْدَخ رأسها[(٤)].

وقيل للطاووس: مسكنك أطرافُ الأنهار، ورزقك ممّا تنبته الأرض منْ حَبّها، وألقي عليك المحبّة حتى لا تُقتل.

---

(١) يتغرغر: يردّده في حلقه، وتغرغر بالماء أو الدواء: ردّده في حلقه ولم يبلعه.
(٢) النّظرة: الأجل والوقت المحدّد للانتظار. (٣) الإياس: أي اليأس.
(٤) شدخ رأسها: شقّه وهشمه.

ذكر سؤال حوّاء ـ عليها السلام ـ

قال: ثم قالت حوّاء: إلٰهي خلقتني من ضِلْع أعوج، وجعلتني ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث، وضربتَني بالنجاسة، وحرمتَني الجُمُعة والجماعات؛ وذكرتْ مشَقّة الحمل والولادة ـ فأسألك أن تعطيني مِثلَ ما أعطيتهم.

فقيل لها: قد وهبتُ لك الحياء والأنس والرحمة، وكتبتُ لك من ثواب الحبل والولادة ما لو رأيتِه لقرّت(١) به عيناك، فأيّ امرأة ماتت في ولادتها حشرتُها في زمرة الشهداء. قالت: حسبي يا ربّ.

قال: ثم أمر الله بعد ذلك أن يهبطوا إلى الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٦]. فهبَط آدم من باب التوبة، وحوّاء من باب الرحمة، وإبليس من باب اللّعنة، والطاووس من باب الغضب، والحيّة من باب السُّخط، وكان ذلك وقت العصر.

قال السَّدّيّ(٢): فمن هذه الأبواب تنزل التوبة والرحمة واللّعنة والغضب والسُّخط.

قال وهب(٣): خلق الله آدم يوم الجمعة، وفيه دخل الجنّة وأقام فيها نصف يوم مقدار خمسمائة عام، وأهبط بين الظهر والعصر من باب يقال له: (المبرم)(٤) وهو حذاءَ البيت المعمور.

قال كعب(٥): أهبط آدم إلى بلاد الهند على جبل من جبالها يقال له: (بُوذ) وهو جبل محيط بأرض الهند؛ وأهبطتْ حوّاء بجُدّة، وإبليس بدَسْتِمِيسان(٦)، والحيّة بأصفَهان، والطاووس بالبحر؛ ففرّق الله بينهم فلم ير بعضُهم بعضًا حينًا، ولم يكن

---

(١) قرّت عينه: سرّت واطمأنت.

(٢) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن، تابعي، سكن الكوفة، وهو صاحب التفسير والمغازي والسّير، وكان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيّام الناس: «الأعلام ١/ ٣١٧».

(٣) هو وهب بن منبه «تقدّم ذكره».

(٤) المبرم: كذا ورد هذا اللفظ في الأصل، ولعله من أبرم: أي أحكم، وأبرم الأمر: أحكمه.

(٥) كعب: هو كعب الأحبار ابن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحٰق تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في أيّام أبي بكر الصّديق، أخذ منه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الماضية، سكن حمص وتوفي فيها سنة ٣٢ هـ «الأعلام ٥/ ٢٢٨».

(٦) دستميسان: كورة بين واسط والبصرة والأهواز «معجم البلدان ٢/ ٤٥٥»

على آدم يوم أهبط إلّا ورقةٌ من أوراق الجنة، فذَرَتْها الرياح[١] في بلاد الهند فصارت معدنًا للطِّيب.

وأخذ آدم في البكاء مائة عام حتى نبت من دموعه العُود[٢] والزنجبيل[٣] والصندل[٤] والكافور[٥] وأنواع الطِّيب، وامتلأت الأودية بأطيب الأشجار؛ وبكت حوّاء فنبت من دموعها القرنفل والأفاويه[٦]؛ وكانت الريح تحمل كلامه إليها وكلامها إليه.

ثم أنبت الله عزّ وجلّ لآدم الشَّعر واللّحية، وكان قبل ذلك أمرد[٧] وجسده كالفضّة، فتألّم لذلك ألمًا شديدًا.

قال وهب: أوّل من علم بهبوط آدم من حيوان الأرض النَّسْر، وكان قد أَلِف الحوت، فجاء إليه وقال له: إني رأيت اليوم خَلْقًا عظيمًا ينقبض وينبسط، ويقوم ويقعد، ويجيء ويذهب. فقال الحوت: إن كان ما تقوله حقًّا فقد حان ألّا يكون لي معه مقرّ في البحر ولا لك في البرّ، وهذا الوداع بيني وبينَك. فجاء النَّسر إلى آدم وأَلِفه، وجاءه الوحش والطير وأَلِفوه وبكَوا لبكائه دهرًا طويلًا، فلمّا أضجرهم ذلك نفروا عنه ولم يبق عنده إلّا النَّسْر وحده وهو لا يَفتُر عن البكاء.

قال وهب: بكى آدم حتى بكت الملائكة لبكائه وقالوا: «إلـٰهنا أقله عثرتَه».

قال: وبقي من دموعه في الأرض ـ بعد أن كَفّ عن البكاء ـ ما شربه الوحش والطير والهوامّ مائةَ عام؛ وكان لدموعه رائحة كالمِسك، ولذلك كثر الطِّيب في الهند.

وقال كعب: بكى آدم ثلاثمَائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يقول: «إلـٰهي بأي وجه أنظر إلى السماء». فألهم الله سائر الحيوانات أن تأتي لآدم وتعزّيَه في مصيبته، فعزّاه جميعها ونهتْه عن البكاء وأمرتْه بالتسبيح والتقديس.

---

(١) ذرتها الرّياح: أي حملتها وفرّقتها. (٢) العود: نوعٌ من الطّيب يتبخر به.
(٣) الزنجبيل: نبات له عروق في الأرض حرّيفة الطعم لها عقد.
(٤) الصّندل: شجر هندي أبيض الزهر خشبه طيّب الرائحة.
(٥) الكافور: نبت طيّب زهره كزهر الأقحوان، تؤخذ من شجره مادة عطريّة تستعمل في الطبّ.
(٦) الأفاوية: التوابل.
(٧) الأمرد: الذي لم تنبت لحيته بعد وقد طلع شاربه.

ذكر توبة آدم عليه السلام

قال: فعند ذلك أمر الله تعالى جبريل أن يهبط على آدم، وقال له: «إن آدم بديعَ فِطْرتي قد أبكى أهل سمٰواتي وأرضي، ولا يَذكر غيري، ولم يخَفْ سواي، وهو أوّل من حمدني، وأوّل من دعاني بأسمائي الحسنى، وأنا الرحمٰن الّذي سبقت رحمتي غضبي، وهذه الكلمات قد خصصتُ بها آدم لتكون له توبة، وتخرجه من الظلمات إلى النور». فهبط عليه جبريل بالكلمات ولها نور عظيم، فقال: «السلام عليك يا طويل البكاء والحزن»؛ فلم يسمعه آدم لغليان صدره؛ فناداه بصوت رفيع: السلام عليك يا آدم. وأمرّ جناحَه على صدره ووجهِه حتى هدّأ من بكائه، وسمع الصوت فقال: أبنداء السُّخط تنادي، أم بنداء الإحسان والغفران؟ قال: بل بنداء الرحمة والغفران، يا آدم: لقد أبكيتَ ملائكة السمٰوات والأرض، فدونك هذه الكلمات، فإنّها كلمات الرحمة والتوبة.

قال كعب: كانت الكلمات ما قالها يونس في ظُلماتٍ ثلاث: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧].

وقال عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما كانت: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣].

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كانت «لا إلٰه إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءًا وظلمتُ نفسي فتُب عليّ يا خير التوّابين».

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٧].

قال: فلمّا قالها آدم انتشر صوتُه في الآفاق، فقالت الأرض والشجر والجبال: «أقرّ الله عينَك يا آدم، وهنّاك الله بتوبتك». وأمره الله أن يبعث بالكلمات إلى حوّاء؛ فحملتْها الريح إليها، فقالتها، فتاب الله عليها.

قال: ولمّا فرغ آدم من الدعاء والسجود قال له جبريل: ارفع رأسك. فرفعه وإذا قد رُفع له حجاب النّور، وفُتحت له السمٰوات، ونودي بالتوبة والرضوان وقيل له: يا آدم، إنّ الله قد قبل توبتك. فذهب ليقوم فلم يقدر لأنه كان قد رَسَب[1] في الأرض

(١) رسب في الأرض: استقر ورسخ.

كعروق الشجر، فاقتلعه جبريل، فصاح صيحة شديدة للألم الذي أصابه، وقال: «ماذا تفعل الخطيئة»؟

ثم ضرب جبريل بجناحه الأرض فانفجرتْ عينُ ماءٍ مَعِينٍ برائحة كالمسك فاغتسل آدم منها، ثم كساه الله حُلَّتين من سُندس[١] الجنّة، وبعث الله تعالى ميكائيل إلى حوّاء، فبشرها بالتوبة، وكساها كذلك؛ وسأل آدم جبريلَ عنها؛ فأخبره أن الله قد قبل توبتها، وأنه يجمع بينهما في أشرف الأعياد وأكرم البقاع.

قال: وأمر الله عزّ وجلّ الملائكة والحيوانات أن يَقرُبوا من آدم ليهنّئوه فأتوه وهنّأوه كما كانوا عزَّوْه.

ثم أمر الله تعالى جبريل أن يضع يده على رأس آدم ليقصِّر من طُوله، وكان إذا قام وصل رأسُه إلى السماء، فيسمَع تسبيح الملائكة، فلمّا قصُر اغتمّ لفقد ذلك، فقال له جبريل: لا يغمّك ذلك فإن الله يفعل ما يريد.

وأمره الله ببناء بيت يحاذي البيت المعمور[٢] ليطوف به هو وأولاده من بعده كما رأى الملائكة تفعل حول البيت المعمور؛ فبناه.

وقد ذكرنا صفة بنائه في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الأوّل من هذا الكتاب في خصائص البلاد، وهو في السفر الأوّل، فلا حاجة إلى إعادته هٰهنا. فلنذكر غير ذلك.

قال: وسار آدم من موضعه إلى موضع البيت؛ والله الهادي.

ذكر أخذ الميثاق على ذريّة آدم ـ عليه السلام ـ

قال: وأوحى الله تعالى إلى آدم: أنّي أريد أن آخذ على وديعتي الّتي في ظهرك الميثاق، فأحاطت الملائكة بآدم في أحسن صُورهم، فوقعت الرِّعدة على آدم من الخوف، فضمّه جبريل إلى صدره، واضطرب الوادي وارتجّ، فقال جبريل: اسكن فإنّك أوّل شاهد على الميثاق الذي يأخذه الله على ذريّة آدم. فسكن، ومسح الله تعالى على ظهر آدم كما شاء، وقال: «انظر يا آدم إلى من يخرج من ظهرك» فأوّل من بادر وكان أسرعَ خروجًا نبيُّنا محمد ﷺ فأجاب بالتلبية وأوى إلى ذات اليمين وهو يقول:

---

(١) السّندس: نوعٌ من رقيق الحرير.

(٢) البيت المعمور: الكعبة الشّريفة في مكّة المكرّمة.

أنا أوّل من يَشهد لك بالتوحيد، ويقرّ لك بالعُبوديّة، وأشهد أنّي عبدك ورسولك. فهو ﷺ أوّل الأنبياء في الخَلق، وآخرهم في البعث، وفي ذلك من الحكمة الإلـٰهية والقدرة الربّانيّة ما لم يَخفَ على ذي لُبّ[١] وفهم، وليس هذا موضع ذكر ذلك. ثم أجابت الطبقة الثانية من النبيّين والمرسلين نبيًّا بعد نبيّ في نورهم وبهائهم، ثم خرجت زُمرة من المؤمنين بِيض الوجوه، معلنين بالتوحيد، فوقفوا دون النبيّين.

ثم مسح الله مسحة أخرى فخرج (قابيل) بن آدم مبادرًا وقد تبعه أهل الشّمال[٢] فوقفوا ذات الشّمال كلُّهم سود الوجوه. ثم قيل لآدم: «انظر إلى ولدك هؤلاء لتعرفهم بأسمائهم وأزمانهم» فنظر إلى أهل اليمين فضحك منهم، وبارك عليهم؛ ونظر إلى أهل الشّمال فلعنهم وصرف وجهه عنهم؛ ثم استنطقهم الله تعالى فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٧٢] وأقررنا.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أمّا أهل اليمين فأجابوا بالسرعة، وأمّا أهل الشّمال فأجابوا بالتثاقل. قال الله تعالى: «يا ملائكتي اشهدوا على ذرّيّة آدم بأنهم أقرّوا أنّي ربّهم لا يجحدونني شيئًا، وأنّ آدم قد بارك على أهل يمينه، ولعن أهلَ شِماله، فأهل اليمين في جنّتي برحمتي، وأهل الشّمال في النار بما جحدوا من حقّي[٣]».

ثم ردّهم الله إلى ظهره كما أخرجهم بقدرته.

قال وهب: إذا كان يوم القيامة وحُشر الخَلْق لفَصْل القضاء قيل: يا آدم، «ابعثْ بعْثَ الجنّة إلى الجنّة، وبعثَ النار إليها». فيعرفهم بصوَرهم وأسمائهم؛ فيقول: «نَعَم يا ربّ»؛ ويراهم كما رآهم في الذرّيّة، ويُقبل عليهم بوجهه ويقول: أَنسيتم عهد ربّكم وشهادتَكم له بأنّه الله الواحد الأحد؟ فيقولون ما أخبرنا الله تعالى به عنهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣] يعنون قابيل بنَ آدم، لأنه أوّل من عصى ربّه؛ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٩] يعنون إبليس وقابيل، فيقبض آدم بشِماله من كلّ ألفٍ تسعَمائة وتسعةٍ وتسعين إلى النار، وواحدًا بيمينه إلى الجنة؛ ثم يقول: يا ربّ هل وفيتُ؟ فيقال له: نعم ادخل الجنّة برحمتي.

---

(١) اللّب: العقل.

(٢) أهل الشّمال: أهل النّار.

(٣) جحدوا الحقّ: أنكروه.

ذكر اجتماع آدم بحوّاء

قال: وأقبل ملَك إلى حوّاء وهي جالسة بجُدّةَ على ساحل البحر، فقال لها: «خذي لباسك وانطلقي إلى الحرم»؛ ثم رمى بها بقميص وخِمار[١] من الجنّة، وتَوارى عنها حتى لبست القميصَ وتخمّرتْ بالخمار، ومضت إلى مكّة فدخلت الحرم من شرقيّه يومَ الجمعة من شهر المحرّم؛ فأمرها الملَك أن تقعد على جبل المروة؛ وإنّما سمّيت المروةَ لقعود المرأة عليها.

قال وهب: دخلتْ حوّاء الحرم قبل آدم بسبعة أيّام، ودخل آدمُ من غربيّ مكّة وحوّاء من شرقيّها، فصار آدم إلى جبل الصفا، فناداه: «مرحبًا بك يا صفيّ الله»، فسمّيَ الصّفا لذلك؛ وناداه الربّ: يا آدم، فقال: «لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنّعمة لك والمُلكَ لا شريك لك». فصار ذلك سنّة في الحجّ والعُمرة.

ثم أوحى الله إليه: «اليوم حرّمتُ مكّة وما حولها». فهي حرام إلى يوم القيامة. فقال آدم: يا رب، إنك وعدتني أن تجمع بيني وبين حوّاء في هذا المقام. فنوديَ: إنّها أمامك على المروة، وأنت على الصَّفا، فانظر إليها ولا تمسّها حتى تقضيَ المناسك. فهبَط آدم إليها، والتَقيا، وفرِح كلّ منهما بصاحبه، وسعى هو من الصفا، وسعت هي من المروة، فكانا يجتمعان بالنهار، فإذا أمسَيا رجع إلى الصفا، ورجعتْ إلى المروة، فكانا كذلك حتى دخل ذو القعدة، فأعاد آدم التلبية وعقدَ الإزار[٢]، ولم يزل يلبّي حتّى دخل ذو الحجّة؛ فهبَط جبريل وعلّمه المناسك وكساه ثوبًا أبيضَ لإحرامه، وطاف به، وعرّفه المناسك، أمره أن يطوف بالبيت سبعًا؛ فلمّا فعل ذلك قال له جبريل: «حَسْبُك[٣] يا آدم قد أحللتَ»؛ فانطلق آدم إلى حوّاء فاجتمع بها في ليلة الجمعة فحملتْ من ساعتها.

قال كعب: ما حملتْ حوّاء حتّى رأت الحيض ففزِعتْ وأخبرتْ آدم بذلك فمنعها من الصّلاة أيّامَ حيضها حتى ينقطع الدم؛ ثم جاءها ملَك فوقَفَها على زمزم[٤] وقال لآدم: اركُض برِجلِك في هذا الموضع. فركضها، فانفجرتْ الأرض

---

(١) الخمار: السّتر، وثوب تغطي به المرأة رأسها.
(٢) الإزار: ثوبٌ يحيط بالنصف الأسفل من البدن.
(٣) حسبُك: كفاك.
(٤) زمزم: هي البئر المباركة المشهورة، وسمّيت زمزم لكثرة مائها «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».

بإذن الله عينَ ماءٍ مَعين؛ فكبّر آدم وحوّاء، وهمّت أن تشرب فمنعها وقال: «حتى يأذن لي ربّي». فاغتسلتْ حوّاء، وكان في ذوائبها[١] بقيّة من مِسك الجنّة، ففاحت الدنيا.

ذكر أبناء آدم وزرعِه وحرثِه

قال: ثم أوحى الله تعالى إلى آدم: «أنك إن لم تَعمُر هذه الدنيا لم يَعمُرها أحد من أولادك، فاعمرها». فبنى له مسكنًا يأوي إليه هو وحوّاء؛ ثم أخذ بعد ذلك في الحرث والزرع وحفر الآبار؛ وجاءه جبريل بالحبّة وهي على قدر بَيض النَّعام، بيضاء في لون الثلج وأحلى من العسل؛ وجاءه بثورين من ثيران الفردوس وجاءه بالحديد؛ فلمّا نظر آدم إلى الحَبّ صاح صيحة عظيمة، وقال: مالي ولهذا الحَبّ الّذي أخرجني من الجنّة.

قال: «هذا رزقك في الدنيا، لأنك اخترته في الجنّة، فهو غذاء لك ولذرّيّتك».

ثم قال له جبريل: يا آدم، قم فكن حرّاثًا زرّاعًا، وأتاه بالنار وقد غمسها في سبعين ماءً حتّى اعتدلتْ وكَمَنتْ في الحديد والحجر، وأمره أن يوقد النار ويُلين الحديد، ويتّخذ منه مِطرَقة وسَنْدانًا، ففعل؛ ثم اتخذ مُدية يذبح بها، وفأسًا يحفر بها ويكسر، ومحراثًا يحرُث به الأرض، ونِيرًا؛ كلّ ذلك وجبريل يعلّمه.

قال وهب: أوّلُ ما اتخذ آدم من الحديد سَنْدانٌ ومِطرَقة وكلبتان[٢]؛ ثم اتخذ بعد ذلك آلة النجارة، وأتاه جبريل بكبش من الجنّة، فنحره آدم، وأكل هو وحوّاء من لحمه، واتخذا مقراضًا فجزّا به الصوف من الكبش، وغزلاه، واتخذا منه جبّتين بغير كمّين، وكساءين، فاكتسى كلّ واحد منهما جبّة وكساء، فلما مسّت جلدَهما خشونة الصوف بكيا شوقًا إلى السندس والاستَبرق؛ فقيل لهما: «هذا لباس أهل الطاعة في الدنيا». وجيء بالأشجار التي ذكرناها في الفن الرابع من هذا الكتاب، وهو فنّ النباتات؛ وقد قدّمنا ذكرها فيما سلف منه.

وعن كعب أن الذي جاء بالحَبّ ميكائيل، لأنّه الموكَّل بالحَبّ والقَطر والنبات.

(١) الذوائب: جمع ذؤابة وهي شعر مقدّم الرأس.
(٢) الكلبتان: آلة من حديد يتناول بها الحدّاد الحديد المحمّى.

قال: فقام آدم فعقَد النِّير على عنقَي الثورين؛ ثم حرث وبذر، وكان يقف على الزرع ويقول: متى يُدرِك؟. فيسمع هاتفًا يقول: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣٧]؛ وكان الزرع في طول النخل، والسنبلة في طول مائة ذراع، بيضاء كالفضّة.

قال كعب: فلمّا استحقّ الزرع(١) كان آدم يَحصُد، وحوّاء تجمع؛ ثم عُلّم آدم الدّراسةَ والتذرية والطحن والعجم والخَبز؛ ثم أكلا وشربا فأصابتهما النفخة والقَرقَرة(٢) في بطونهما؛ فتجشّأ آدم(٣) جُشاء متغيّرًا، وتغيّر عليه بدنُه وثَقُل؛ فلمّا ثَقُلتْ عليهما بطونهما أمرهما الملَك أن يتبرزا(٤) إلى الصحراء لقضاء الحاجة؛ فلمّا رأيا ذلك من أنفسهما بكيا بكاءً شديدًا، وقالا: «هذا الذي أورثنا ذنبنا».

ثم أمرهما الملَك أن يمسحا بالمَدَر(٥)، ثم يغسلا بالماء؛ ثم علّمهما الوضوء فتوضأ وضوء الإسلام؛ ثم أمرهما بالصلاة، فكان أوّل صلاة صلّاها آدم الظهر.

وكان آدم ربّما اشتغل عن صلاته ولا يعرف الأوقات، فأعطاه الله ديكًا ودجاجة، فكان الديك أبيضَ أفرقَ(٦) أصفرَ الرجلين، كالثور العظيم، وكان يضرب بجناحه عند أوقات الصلاة ويقول: سبحان من يسبّحه كلُّ شيء سبحان الله وبحمده، يا آدم: الصلاة يرحمك الله.

قال: وأخذَ آدم في الغرس حتى غرس كلَّ ما على وجه الأرض من أنواع الثمار والأشجار، وأخذت الأرض زَهرتَها؛ وكان آدم يأكل من بقول الأرض ونباتها.

قال وهب: أوّل بقلة زرعها آدم الهِنْدَبا، وأوّل ما زرع من الرياحين الحنّاء، ثم الآس.

ذكر حمل حوّاء ـ عليها السلام ـ وولادتها

قال: وواقع آدم حوّاء في ليلة الجمعة، فحملتْ بذكر وأنثى، وأسقطتهما في الشهر الثامن، فكان أوّل سِقْط في الدنيا؛ ثم حَملتْ ثانيًا كذلك، فأصابهما مِثلُ

(١) استحقّ الزّرع: نضج واستوفى وبلغ أوان الحصاد.
(٢) القرقرة: صوتٌ تحدثه الأرياح من الأمعاء، وتجشّأت المعدة: تنفست من امتلائها.
(٣) تجشأ الرّجل: اضطربت نفسه وثارت للقيء.
(٤) البراز: قضاء الحاجة.
(٥) المدر: الطين اللزج الذي لا يخالطه رمل.
(٦) الدّيك الأفرق: ذو العرفين أي أنّ عرفه مفروق.

الأوّل؛ ثم حملت ثالثة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٩].

قال: فجاء إبليس إلى حوّاء وقال: أتحبّين أن يعيش في بطنك؟ قالت: نعم. قال: سمّيه (عبد الحارث).

وقال ابن حبيب(١) عن ابن عباس: أنها لمّا وضعته جاء إبليس وقال: ألا تسمّيانه باسمي؟ قالت له حوّاء: ما اسمك؟ فذهب ولم يتسمّ، ثم عاد إليهما فقال: كيف تريدان أن تسمّياه؟ قالا: نسمّيه (عبد الله). قال: أفتظنّان أنّ الله يترك عبده عندكما إن سمّيتماه (عبد الله)، لا والله لا يدعه عندكما حتى يقبضه، ولكن سمِّياه (عبد شمس) فإنّه يبقى ما بقيت الشمس. فأطاعاه وسمَّياه (عبد شمس)؛ فمات صغيرًا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: الآية ١٩٠].

قال وهب: أوحى الله إليهما «إنّكما أطعتما إبليس في هذه التسمية، فهلّا سمّيتُماه عبد الله أو عبد الرحمٰن أو عبد الرحيم» فجزِعا لذلك جزعًا شديدًا، وقالا: «لا حاجة لنا في هذا المولود». فأماته الله.

ثم حملت بذكر وأنثى، فلما وضعتهما سمّتهما (عبد الله) (وأمة الله)؛ ثم وضعت بطنًا آخر فسمّتهما (عبد الرحيم) (وأمة الرحيم)؛ ولم تزل كذلك حتى وضعت مائة بطن؛ ثم وضعت بعد ذلك هابيل وأختَه في بطن، ثم قابيلَ وأخته في بطن، حتى وضعت عشرين ومائةَ بطن ذكرٍ وأنثى، فتَناسَلوا وكثُروا.

ذكر مبعث آدم ـ عليه السلام ـ إلى أولاده

قال: ثم بعث الله عزّ وجلّ آدم إلى ذرّيّته رسولًا، وذلك في أوّل ليلة من شهر رمضان، وخصّه بالوحي، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة فيها سُور مقطّعة الحروف، لا يتّصل حرف بحرف، وهو أوّل كتاب أُنزِل، وهو بألف لغة فيها

(١) ابن حبيب: هو محمد بن حبيب بن أميّة بن عمرو الهاشمي بالولاء، أبو جعفر البغدادي من موالي بني العبّاس، علامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، مولده ببغداد ووفاته بسامراء سنة ٢٤٥ هـ كثير التصانيف «الأعلام ٦/ ٧٨».

الفرائض[١] والسنن[٢] والشرائع[٣] والوعد والوعيد وأخبار الدنيا، وبيّن له فيها أهل كل زمان وصورهم وسِيرهم، وما يحدث في الأرض حتى المأكل والمشرب.

ثم أمره الله تعالى أن يكتبها بالقلم، فأخذ جلود الضأن فدبغها حتى صارت رَقًّا[٤]، وكتب فيها الحروف التسعة والعشرين، وهي في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، أوّلها: (أ) معناها، أنا الله الواحد الأحد الذي لم يزل. (ب) بديعُ السمٰوات والأرض. (ت) توحّد في ملكه، وتواضع كلّ شيء لعظمته. (ث) ثابت لم يَزَل ولا يزال. (ج) جميل الفعال، جواد، جليل المقال. (ح) حليم على من عصاه، حميد عند من أنشأه. (خ) خبير ببواطن الأشياء وظواهرها، خالق كلّ شيء. (د) ديّان[٥] يوم الدين، دانَ مَن خَلَقه. (ذ) ذو الفضل العظيم، والعرش المجيد، ذو الطَّول القَديم. (ر) ربّ الخلائق رزّاق رؤوف رحمٰن رحيم. (ز) زرّاع زرع من غير بَذْر، زائد لمن شكر، زيّن كلّ شيء برحمته. (س) سريع الحساب، سميع الدعاء، سريع الإجابة. (ش) شديد العقاب والبطش، شاهد كلّ نجوى. (ص) صمد صادق الوعد. (ض) ضياء السمٰوات والأرض، ضمن لأوليائه المغفرة. (ط) طاب من أخلص له من المطيعين، طوبى[٦] لمن أطاعه. (ظ) ظهر أمره، وظفِر أهلُ محبّته بالجنّة. (ع) عليم عالم علّام علا بالربوبيّة. (غ) غياث المستغيثين، غنيّ لا يفتقِر. (ف) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧]، فرد ليس له شريك. (ق) قيّوم، ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣]، قدير قاهر. (ك) كريم كان قبل كلّ شيء، كائن بعد كلّ شيء، كافي كلّ بليّة. (ل) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٥]، وله الخلق والأمر. (م) مالك يوم الدين، متكبّر محسن محمود متين معبود منعم مِن قَبلُ ومِن بَعد. (ن) نور السمٰوات والأرض ناره مُعَدّة لأهل عذابه. (و) وليّ المؤمنين، ويل لمن عصاه، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطفّفين: الآية ١]. (هـ) هادٍ هدى من الضلالة من قدّر له ذلك برحمته ومشيئته. (لا) لا إلـٰه إلا الله الواحد القهّار، الّذي لا إلـٰه إلّا هو العزيز الحكيم. (ي) يعلم ما في السمٰوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما تُخفي الصدور.

---

(١) الفرائض: جمع فريضة، وهي ما تفرضه الأديان على أتباعها من واجبات.
(٢) السّنن: مفردها «سنّة»: وهي الطريقة والسّيرة.
(٣) الشرائع: مفردها «شريعة» وهي ما شرعه الله للناس من سنن وأحكام.
(٤) الرق: الصحيفة من جلد يكتب عليها. (٥) الدّيّان: الله الحاكم القاضي.
(٦) طوبى: قيل: هي منزلة في الجنّة أعدّت للمتّقين، والطوبى: السعادة والغبطة.

قال: فلما نزلت هذه الحروف علّمها آدم لولده، فتوارثها ولده، إلى أن بعث الله تعالى إدريس، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وأنزل عليه هذه الحروف.

ذكر قتل قابيل هابِيلَ

قال: ودعا آدم ابنيه (هابيل) (وقابيل) ـ وكان يحبّهما من بين أولاده ـ فذكر لهما ما كان من أمره ودخوله الجنة، وسبب خروجه، وغير ذلك، ثم أمرهما أن يقرّبا قربانًا، وكان هابيل صاحب غنم، وقابيل صاحبَ زرع، فأخذ هابيل من غنمه كبشًا سمينًا لم يكن في غنمه خير منه، فجعله قربانًا؛ وأخذ قابيل من زرعه أدناه فقرّبه؛ فنزلتْ من السماء نار بيضاء لا حرّ ولا دخان فيها، فأَحرقتْ قُربانَ هابيل، ولم تحرق قربان قابيل، فداخله الحسد من ذلك، وقال: إن أولاد هذا تفتخر على أولادي من بعدي، فوالله لأقتلنه. قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المَائدة: الآيتان ٢٧، ٢٨].

قال: ثم رجعا من مِنًى[1] ـ وهو موضع القربان ـ يريدان أباهما وهابيل أمام قابيل؛ فعمَد قابيل إلى حجر فضرب به رأس أخيه (هابيل) فقتله، ثم مرّ على وجهه هاربًا. قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المَائدة: الآية ٣٠]؛ وإذا هو بغرابين قد اقتتلا، فقتَل أحدُهما الآخر، وجعل يبحث في الأرض برجليه حتى حفر حفرة ودَفن فيها المقتول؛ فقال قابيل في نفسه ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٣١].

فلما أبطأ على آدم خرج في طلبهما، فأصاب هابيلَ مقتولًا، فساءه ذلك واغتمّ غمًّا شديدًا، وكانت الأرض لمّا شربتْ دمه تغيّرت الأشجار عن نَضارتها، فيقال: إن آدم قال: [من الوافر]

تغيّرت البلادُ ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحْ

(١) مِنًى: من مهبط العقبة إلى محسّر وموقف المزدلفة، من محسّر إلى أنصاب الحرم وموقف عرفة في الحلّ لا في الحرم، وهو مذكّر مصروف قال ابن الأعرابي: أمنى القوم ومنى الله الشيء قدّره، وبه سمّي منى، وقال ابن شميل: سمّي منًى لأنّ الكبش مُني به أي ذبح «معجم البلدان ١٩٨/٥».

تـغـيّـر كـلُّ ذي لـونٍ وطـعـمٍ وقـلّ بـشـاشـة الـوجـه الـمـلـيـحْ
قَـتَـلْ[١] قـابـيـلُ هـابـيـلًا أخـاه فـوا أسفَى على الوجه الصبيحْ

ثم حمل آدم هابيلَ على عاتقه[٢] وهو باك، ثم دفنه، وبكى عليه هو وحوّاء أربعين يومًا، فأوحى الله تعالى إليه أن كُفّ عن بكائك، فإنّي سأهب لك غلامًا زكيًّا على صورة هابيل يكون أبا النبيّين والمرسلين. فسُرِّيَ[٣] عنه، وجامع حوّاء فحمَلتْ بشِيثٍ واسمه (هِبة الله) فلمّا وضعتْه كان على صفة هابيل وصورته؛ فلمّا ترعرع وبلغ بعث الله تعالى له قضيبًا من سدرة المنتهى[٤] في صفاء الجوهر، ورزق الله شيئًا الأولاد في حياة آدم؛ والله أعلم.

ذكر وفاة آدم ـ عليه السلام ـ

قال: وكان آدم لمّا أخرج الله تعالى الذرية من ظهره رأى داود عليه السلام وحُسنَ صورته، فسأل عنه وعمّا رزقه الله تعالى من العمر؛ فقيل له: إنه نبيّ الله داود، وإنّ عمره الذي كتبه الله له أربعون سنة. فقال: يا ربّ زد في عمره. قال: ذلك الذي كتبتُ له. فقال: يا ربّ فإنّي قد وهبته من عمري ستّين سنة. فلمّا انقضى من عمره تسعُمائة سنة وأربعون سنة أتاه ملَك الموت، فقال له آدم: قد عَجِلتَ عليّ، لأنّ ربّي كتب لي ألفَ سنة. قال: ألم تهَب منها لولدك داود ستّين سنة؟ قال: لا. قال: فجحد[٥] آدم وجحدت ذرّيّته من بعده، ونَسي فنَسيتْ.

وقيل في عمر داود: ستون سنة، وإن آدم وهبه أربعين سنة؛ والله أعلم.

فلما استكمل عدّته أمر الله بقبض روحه، فعَهِد إلى ابنه شيثٍ وأوصاه، وسلّم إليه التابوت، وكان فيه نَمَط[٦] من الجنّة أبيض أهداه الله تعالى لآدم، فيه صور الأنبياء والفراعنة من ذرّيته؛ فنشر آدم النَّمَط وأراه لابنه شيث، فنظر إليه، ثم أمر بطيّه ووضعه في التابوت؛ وعمد آدم إلى طاقات من شعر لحيته فوضعها في التابوت وقال له: يا بنيّ، إنك لا تزال مظفَّرًا على أعدائك ما دامت هذه

(١) قَتَلْ: بتسكين اللام، للضّرورة الشعرية، وقد ورد هذا البيت في كثير من الكتب بروايات أخرى وزيادات على هذه الأبيات، وهو في رأي كثير من النّقاد مختلق وموضوع ولا تثبت صحته أمام النقد الرّصين.
(٢) العاتق: ما بين المنكب والعنق.
(٣) سرّي عنه: كشف عنه غضبه وهمّه.
(٤) سدرة المنتهى: شجرة في أقصى الجنّة عن يمين العرش.
(٥) جحد: أنكر على علم.
(٦) النمط: نوعٌ من البسط.

الشعرات سودًا فإذا ابيضّت فاعلم أنّك ميّت، فأوص إلى خير أولادك. وأوصاه بقتال أخيه قابيل.

ثم قبض الله تعالى نبيّه آدم في يوم الجمعة بعد أن استكمل ألف سنة، وصلّت عليه الملائكة صفوفًا، وصلّى عليه شيث، ودُفن عليه السلام.

وقيل: كانت وفاته بالهند، فلما كان زمن الطوفان حَمل نوحٌ معه تابوت آدم في السفينة، ثم دفنه ببيت المقدس.

ذكر وفاة حوّاء

قال: ولما توفّي آدم عليه السلام لم تعلم حوّاء بموته حتى سمعت بكاءَ الوحش والسباع والطير، ورأت الشمس منكسفة؛ فقامت من قبّتها فَزِعة أن يكون حلّ بشيثٍ ما حلّ بهابيل، وصارت إلى قبّة آدم فلم تره، فصاحت صيحة عظيمة، فأقبل إليها شيث وعزّاها وأمرها بالصبر، فلم تصبر دون أن صرخت ولطمتْ وجهها ودقّت صدرها، فأورثت ذلك بناتها إلى يوم القيامة؛ ثم لزمت قبره أربعين يومًا لا تَطعَم؛ ثم مرضت مرضًا شديدًا ودام بها حتى بكت الملائكة رحمة لها؛ ثم قُبضت رحمة الله عليها فغسلها بناتُها، وكُفِّنت من أكفان الجنة ودُفنت إلى جنب آدم عليهما السلام ورأسُها إلى رأسه، ورِجلاها عند رجليه.

وقيل: كانت وفاتها بعد مضيّ سنة من وفاة آدم.

الباب الثاني
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في خبر شيث ابن آدم عليهما السلام وأولاده

قال: ولمّا مات آدم عليه السلام أسند وصيّته إلى ابنه شيث، وكان ممّا أوصاه به التمسّكُ بالعروة الوثقى[(١)]، وشهادةُ أن لا إله إلا الله، والإيمانُ بمحمّد رسول الله؛ وقال له: يا بنيّ؛ إني رأيت اسمه مكتوبًا على سُرادق[(٢)] العرش وأبوابِ الجنان

(١) العروة الوثقى: العُروة من الثوب: ما يُدخل فيه الزرّ، ومن الدّلو وغيره: مقبضه، وقيل هنا: إن العروة الوثقى هي أن يعقد الإنسان لنفسه من الدّين عقدًا وثيقًا لا تحلّه حجّة.

(٢) السُّرادق: كلّ ما أحاط بالشيء، والمنصّة.

وأطباق السمٰوات وأوراقِ شجرة طوبى؛ فهذه وصيّتي إليك. ثم نزع خاتَمَه من إصبعه ودفعه إليه، وتسلّم منه التابوت، ثم قال له: إن الله سيعطيك ثوب المجاهَدة، فحارب أخاك قابيل، فإن الله تعالى ينصرك عليه. وكان شيث حين الوصية إليه ابنَ أربعمائة سنة، فأطاعه أولاد أبيه، وصار إليه الفرس الميمون، وكان أغرَّ محجَّلًا إذا صَهَل أجابته الدوابّ كلُّها بالتسبيح.

ذكر قتال شيث قابيل

قال: ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل، وكان قابيل قد اعتزل في ناحية من الأرض، فعَمَرها، وخدع أختًا له فأحبَلها، ورُزق منها أولادًا كثيرة فسار إليه شيث بجميع أولاده، وتقلّد سيف أبيه، وكان بين يديه عمود من الياقوت تحمله الملائكة يضيء بالليل والنهار؛ وسار وقد أحدقتْ[1] به الملائكة؛ فتوجّه إبليس إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه، فتأهّب للقائه وقد داخله الفزع؛ ثم جاء شيث فقابله، فاقتتلا، فانكبّ قابيل على وجهه، فأخذه شيثٌ أسيرًا، وأسر جماعة من أولاده.

ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه في سلسلة من سلاسل جهنّم، وغلّوا يده إلى عنقه، وساقوه بين يدي شيث مُهانًا وهو يقول: يا شيث احفظ الرَّحم بيني وبينك. فقال: لا رَحِمَ بيننا بعد أن قتلتَ أخاك ظلمًا.

ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولًا إلى عين الشمس بالمغرب، فلم يزل مواجهًا للشمس حتى مات كافرًا، وصار ذريّته عبيدًا وإماءً لشيث وأولاده.

ثم أخذ شيث بعد ذلك في عمارة المدن حتى بنى نيّفًا[2] على ألف مدينة في كلّ مدينة منارة ينادَى عليها: (لا إلـٰه إلا الله، آدم صفوة الله، محمد رسول الله). وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر هو وأولاده، حتى عمرت الدنيا؛ وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة، فكانوا يقرؤونها ويعملون بما فيها من غير عداوة ولا تباغض ولا تحاسد ولا فسقٍ بينهم؛ وكان إبليس يحسد شيثًا وأولادَه، فأقبل إبليس إليه في صورة امرأة حسناء، فقال لها: من أنتِ؟ قالت: امرأة أرسلني الله إليك لتتزوّج بي، ولستُ من بنات آدم. فقال: إن ربي لم يأمرني بذلك ولا أخبرني

---

(١) أحدقت: أحاطت.

(٢) النيّف: الزّيادة، ولا تستعمل إلّا بعد العقود من الإعداد، يقال: عشرون طالبًا ونيّف، ولا يقال سبعة عشر طالبًا ونيّف...

عنك، وما أظنك إلا إبليس. فضحك وقال: إنما أنا امرأة من نساء الجنة، ولا تعصِ ربّك وتزوّجْ بي؛ وجعل إبليس يتزيّن له حتى كاد يفتنه[١]؛ فنادته الملائكة: يا نبيّ الله، إنه عدوّك إبليس. فقبض شيث عليه وهمّ بقتله؛ فقال: خلِّ عنّي فإني من المنظَرين[٢]، ولكن أعطيك الميثاق أنّي لا أتعرّض إليك بعدها. فأطلقه ولم يعد إليه.

وولد لشيث (أَنُوشُ) على طوله وحسنه؛ فجعله شيث مكانه والخليفةَ من بعده، وسلّم إليه التابوت، وأوصاه بقتال أولاد قابيل.

ومات شيثٌ وله سبعمائة سنة وعشرون سنة.

وقيل: بل عاش بعد آدم مائتي سنة، وعهد إلى ابنه (أَنُوشَ) فقام على أولاده بالطاعة ثلاثَمائة عام.

وعهد من بعده إلى ابنه (قَيْنَان)، فعُمِّر بعد أبيه مائتين وخمسين سنة.

وعهد إلى ابنه (مَهْلَائِيلَ)، وكثر في زمانه بنو آدم، وكان منزلهم الحرم فضاق بهم، فقسّم الأرض بينهم خمسة أقسام، وأرسل خمسة نفر من صلحاء قومه يقيمون لهم شرائع آدم عليه السلام ويتولّون الحكومة بينهم، وهم وَدٌّ وسُواعٌ ويَغُوثُ وَيعُوقُ ونَسْرٌ، وهؤلاء الذين لمّا فُقِدوا بلغ من وَجْد قومهم عليهم أن جعلوا لهم تماثيلَ يتسلّون بها؛ وترامى الأمرُ إلى أن عبدها القَرن الذي تلاهم، فكان ذلك هو السببَ لعبادة الأوثان.

ثم قام بالأمر بعد (مَهْلَائِيل) ابنُه (أَخْنُوخ)، وهو إدريس.

الباب الثالث
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في أخبار إدريس النبيّ عليه السلام

واسمه أخنوخ، وإنّما سُمّي إدريس لكثرة دراسته الكتب؛ وهو أوّل من بُعث من بني آدم؛ وهو أوّل من خط بالقلم بعد شيث، وأوّل من كتب في الصحيفة؛ وكان

(١) يفتنه: يضلّه.
(٢) من المنظرين: أي من الذين أمهلهم الله إلى يوم الوقت المعلوم.

مشتغلًا بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فانفرد للعبادة، فجعله الله تعالى نبيًّا، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وورّثه صحف شيث وتابوت آدم.

وكان يعيش من كسب يده؛ وكان خيّاطًا، وهو أوّل من خاط الثياب ولبسها وكانوا قبل ذلك يلبسون الجلود، حتى أتت عليه أربعون سنة، فبعثه الله تعالى إلى أولاد قابيل، وكانوا جبابرة، وقد اشتغلوا باللّهو والغناء والمزامير والطنابير وغير ذلك، وعبدوا الأصنام؛ وكان إدريس يدعوهم ثلاثة أيّام، ويعبد الله أربعة.

وحُكِيَ عن وهب أنه أوّل من اتّخذ السلاح، وجاهد في سبيل الله، ولبس الثياب، وأظهر الأوزان والأكيال، وأنار علم النجوم.

وكان إدريس شديد الحرص على دخول الجنة، وكان قد رأى في الكتب أنّه لا يدخلها أحد دون الموت، فبينما هو يسبح في عبادته إذ عَرَض له مَلك الموت في صورة رجل في نهاية الجمال؛ فقال له إدريس: من أنت؟ قال: عبدٌ من عبيد الله أعبده كعبادتك. واصطحبا، فكان إدريس يأكل من رزق الله، وهو لا يَطعم شيئًا؛ فسأله عن ذلك؛ فأخبره أنه مَلك الموت؛ فقال له: جئتَ لقبض رُوحي؟ قال: لا، ولو أمرني الله بذلك ما أمهلتُك، ولكنّه أمرني أن أصطحبك. فسأله إدريس أن يَقبض روحه؛ فقال له: وما تريد بذلك وللموت كربٌ[1] عظيم؟ قال: لعل الله تعالى يحييني فأكونَ أكثرَ في عبادته. فأمره الله بقبض روحه فقبضها، وأحياه الله تعالى لوقته.

ثم قال إدريس له بعد حين: هل تستطيع أن تَقِفَني[2] على جهنّم؟ قال: ما حاجتك إلى ذلك ولها من الأهوال ما لا تطيق أن تنظر إليه، وما لي سبيل إلى ذلك، ولكني أَقِفُك على طريق مالكٍ خازنِها، والله أعلم بحاجتك. فاحتمله ووَقَفه على طريق مالك، فلما رآه كَشَر في وجهه، فكادت رُوحه تخرج، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى مالك: وعزّتي وجلالي لا رأى عبدي إدريس بعد كشرتك سوءًا، ارجع إليه وقِفْه على شَفير[3] جهنّم ليرى ما فيها. فوقَفَه مالك على شفيرها ونظر إلى ما فيها من الأهوال، فلولا أن ثبّته الله تعالى لصعِق؛ ثم أعاده إلى مكانه، فاحتمله مَلك الموت إلى الأرض، فعبد الله عزّ وجلّ حينًا؛ ثم قال لمَلك الموت: هل لك أن تدخلني الجنّة

(١) الكرب: الحزن الشديد.
(٢) تقفني: من وقف يقف على الأمر والشيء: أي عاينه.
(٣) الشّفير: ناحية كلّ شيء وطرفه، وشفير الوادي: ناحيته من أعلاه.

لأرى ما أعدّ الله تعالى لأهل طاعته من النعيم؟ فقال: حاجتُك إلى الله تعالى، ولكنّي أحملك وأقف على طريق رضوان خازنِ الجنان فسله حاجتك. ففعل ذلك؛ فلما رآه رضوان قال: مَن هذا؟ قال: إدريس نبي الله يريد أن ينظر إلى نعيم الجنان. قال: «ذلك إلى ربّي». فأوحى الله تعالى إلى رضوان: أنّي قد علمتُ ما يريد عبدي إدريس، وقد أمرتُ غصنًا من أغصان شجرة طوبى أن يتدلّى إليه فيلتفَّ به ويدخلَه الجنّة، فإذا دخل فأقعِدْه في أعلى موضع؛ فلمّا دخلها إدريس ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان: اخرج الآن. قال له إدريس: أيدخل الجنّة من يخرج منها؟ فحاجّه[1] في ذلك، فأرسل الله تعالى له ملَك الموت، فقال له إدريس: ما حاجتك؟ إنك لن تُسلَّط على قبض روحي مرّتين، فاذهب. فرجع مَلك الموت إلى ربّه عزّ وجلّ وقال: إلـٰهي قد علمتَ ما قال إدريس. قال الله تعالى: إنه حاجّك بكلامي، فذره[2] في جنتي. فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريَم: الآيتان ٥٦، ٥٧].

هذا ما أورده الكِسائيّ[3] رحمه الله في كتاب المبتدأ.

ونقل الشيخ أبو إسحـٰق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيُّ[4] رحمه الله في كتابه المترجَم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) وفي تفسيره أيضًا في سبب رفع إدريس عليه السلام، قال: وكان سبب رفعه على ما قال ابن عَبّاس رضي الله عنهما وأكثرُ الناس: أنه سار ذات يوم فأصابه وَهَج الشمس، فقال: يا رب إني مشيتُ يومًا فتأذيتُ منها، فكيف من يحملها خمسمائة عام في يوم واحد؟! اللهم خفّف عنه من ثقلها، واحمل عنه حرّها. فلمّا أصبح المَلك وجد من خفّة الشمس وخفة حرّها ما لا يَعرِف؛ فقال: يا رب، خلقتني لحمل الشمس، فما الّذي قضيتَ فيّ؟ فقال: أما إنّ عبدي إدريس سألني أن أخفّف عنك ثقلها وحرّها، فأجبته. قال: يا ربّ اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خُلّة[5]. فأذنْ الله تعالى له؛ فأتى إدريسَ حتى إنّ إدريس

---

(١) حاجّه: غلبه بالحجّة والبيّنة. (٢) ذرْهُ: اتركه ودعْهُ.

(٣) الكسائي: هو علي بن حمزة مولى بني أسد، أشهر نحاة الكوفة، ومؤسس المذهب الكوفي، وأحد القرّاء السبعة، أصله فارسي، وله مؤلّفات عدة منها معاني القرآن مات سنة ١٨٩ هـ «الأعلام ٤/ ٢٨٣».

(٤) الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحـٰق، مفسّر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ، من كتبه «عرائس المجالس، والكشف والبيان في تفسير القرآن» مات سنة ٤٢٧ هـ «الأعلام ١/ ٢١٢».

(٥) الخلّة: الصداقة والودّ.

لَيسأله، فكان ممّا سأله أن قال: أخبرت أنّك أكرم الملائكة عند مَلك الموت وأمكنُهم عنده، فاشفع لي إليه أن يؤخِّر أجلي فأزداد شكرًا وعبادة. فقال المَلَك ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنَافِقون: الآية ١١]. قال إدريس: قد علمتُ ذلك، ولكنّه أطيَب لنفسي. قال: نعم أنا مكلّمه لك، فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بني آدم فهو فاعله لك. ثم حمله ملك الشمس على جناحه، فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس؛ ثم أتى ملك الموت، فقال: لي إليك حاجة. قال: أفعلُ كلّ شيء أستطيعه. فقال له: صديق لي من بني آدم يتشفّع بي إليك أن تؤخّر أجله. فقال: ليس ذلك إليّ، ولكن إن أحببتَ أُعلِمه أجله متى يموت فيتقدّم في نفسه. قال: نعم. فنظر في ديوانه[1]، فأخبره باسمه، فقال: إنك كلّمتني في إنسان ما أراه يموت أبدًا. ثم قال: إني لأجده يموت عند مطلع الشمس قال: فإنّي أتيتك وتركتُه هناك. فانطلِق فإنّه قد مات، فوالله ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملك فوجده ميتًا.

قال: وقال وهب: كان يُرفع له في كلّ يوم من العبادة مثلُ ما يرفع لأهل الأرض في زمانه. فعجبتْ منه الملائكة، فاشتاق إليه ملك الموت، فاستأذن الله تعالى في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة غلام؛ وكان إدريس يصوم الدهر كلّه فلمّا كان في وقت إفطاره دعاه إلى الطعام، فأبى أن يأكل معه، وفعل ذلك ثلاث ليال، فقال له إدريس في الليلة الثالثة: إنّي أريد أن أعلم من أنت. قال: أنا ملَك الموت، استأذنت ربّي أن أزورك وأن أصاحبك، فأذن لي في ذلك. فقال له إدريس: فلي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: اقبض رُوحي؛ فأوحى الله تعالى إليه: «اقبض روحه». ففعل، ثم ردّها الله تعالى إليه بعد ساعة، فقال له ملَك الموت: فما الفائدة في سؤالك قبضَ الروح؟ قال: لأذوق كرب[2] الموت وغمَّه فأكونَ له أشدّ استعدادًا.

ثم قال: لي إليك حاجة أخرى، قال: وما هي؟ ترفعني إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنّة والنار. فأذن الله تعالى له في ذلك، فلمّا قرب من النار قال: لي إليك حاجة. قال له: وما تريد؟ قال: تسأل مالكًا حتى يفتح لي أبوابها فأردها. ففعل؛ ثم قال له إدريس: فكما أريتني النار فأرني الجنّة. فذهب إلى الجنة فاستفتح، ففُتحتْ له أبوابها، فأدخله الجنة؛ فقال له ملَك الموت: اخرج منها لتعود إلى مَقَرِّك. فتَعلّق بشجرة وقال: لا أخرج منها. فبعث الله تعالى ملَكًا حَكمًا بينهما؛ فقال له المَلَك:

---

(١) الديوان: الدّفتر الذي تدوّن فيه الأسماء. (٢) الكرب: الحزن الشديد والهمّ.

مالكَ لا تخرج؟ قال: لأنّ الله تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٥] وقد ذقتُه. وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريَم: الآية ٧١] وقد وردتُها. وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٤٨] فلستُ أخرج. قال الله تعالى لملك الموت: دعه فإنه بإذني دخل الجنة، وبأمري يخرج. فهو هناك، فتارة يعبد الله في السماء الرابعة، وتارة يتنعّم في الجنة.

الباب الرابع
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في قصة نوح ـ عليه السلام ـ وخبر الطوفان

قال الكسائيّ رحمه الله تعالى قال وهب بن منبّه: لمّا رفع الله تعالى إدريس عليه السلام ترك إدريسُ في الأرض ولدَه متوشلح، فتزوّج بامرأة يقال لها: (ميشاخا)؛ فولدت له ولدًا سمّاه (لَمَك)، وكان يرجع إلى قوّة وبطش وكان يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها، وكان على وجهه نور نبيّنا محمد ﷺ؛ فخرج في يوم إلى البرّيّة فرأى امرأة في نهاية الجمال وبين يديها غنم ترعاها، فأعجبتْه، فسألها عن نفسها، فقالت: أنا قينوش ابنة براكيل بن محويل من أولاد قابيل بن آدم. فقال: ألك زوج؟ قالت: لا. قال: فما سنُّك؟ قالت: مائة وثمانون. قال: لو كنتِ بالغة لتزوّجتك ـ وكان البلوغ يومئذٍ لاستيفاء مائتي سنة ـ فقالت: كان عندي أنك تريد أن تفضحني، فأمّا إذا أردتَ الزواج فقد أتى عليّ مائتا سنة وعشرُ سنين. فخطبها من أبيها، وأرغبه بالمال؛ فزوّجه بها فحملت منه بنوح عليه السلام فلما كان وقت الولادة ولدته في غار خوفًا على نفسها وولدها من الملك لكونها تزوّجتْ بمن ليس منهم؛ فلمّا وضعتْه هناك وأرادت الانصراف قالت: وانُوحاه. وانصرفت، فبقي في الغار أربعين يومًا؛ ثم توفّي أبوه لَمَك؛ فاحتملته الملائكة ووضعتْه بين يدي أمّه مزيَّنًا مكحولًا، ففرحتْ به وربّته حتى بلغ.

وكان ذا عقل وعلم ولسان وصوت حسن، واسع الجبهة، أسيل(١) الخدّ، وكان يرعى الغنم لقومه مدّة، وربما عالج التجارة؛ ثم كره مجاورة قومِه لعبادتهم الأصنام.

---

(١) أسيل الخدّ: أملسه وليّنه.

وكان لهم ملِك يقال له درمشيل؛ وكان جبّارًا عاتيًا قويًا، وهو أوّل من شرب الخمر واتّخذ القِمار وقعد على الأسرّة واتخذ الثياب المنسوجةَ بالذهب وأمر بصنعة الحديد والنحاس والرصاص؛ وكان هو وقومه يعبدون الأصنام الخمسة: وَدًّا وسُواعًا ويغوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا؛ ثم اتخذ ألف صنم وسبعمائة صنم على صور شتّى، واتخذ لها كراسيَّ من الذهب والفضة، وأقام لها الخدم يخدُمونها؛ فاعتزلهم نوح إلى البَراريّ ولم يخالطهم حتى بعثه الله تعالى نبيًّا؛ والله أعلم بالصواب.

ذكر مبعث نوح عليه السلام

قال: فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يهبط إلى نوح ويبشره بالنبوّة والرسالة؛ فهبط جبريل عليه، وجاءه بوحي الله أن يسير إلى درمشيل الملِكِ وقومه ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى؛ فأقبل نوح إلى قومه من يومه ـ وكان يوم عيدهم وقد نصبوا أصنامهم على أسرّتها وكراسيِّها، وهم يقرّبون القرابين لها، وكانوا إذا فعلوا ذلك يخرّون لها سجّدًا ويشربون الخمر، ويضربون بالصَّنْج[(١)]، ويأتون النساء كالبهائم من غير تستّر ـ فجاءهم وهم يزيدون على تسعين زمرة[(٢)]، كلّ زمرة لا يُحصَون كثرة، فاخترق الصفوف حتى صار في وسط القوم، وسأل الله تعالى أن ينصره عليهم؛ فلما أرادوا السجود للأصنام نادى: أيها القوم، إني قد جئتكم بالنصيحة من عند ربّكم أدعوكم إلى عبادته وطاعته، وأنهاكم عن عبادة هذه الأصنام ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٠٨]. فخرقتْ دعوته الأسماع، وهوت الأصنام عن كراسيِّها، وسقط الملك عن سريره مغشيًّا عليه، فلمّا أفاق قال: يا أولاد قابيل، ما هذا الصوت الّذي لم أسمع مثله؟ قالوا: أيّها الملك، هذا صوت رجل منّا اسمُه نوح بن لَمَك كان يجانبنا[(٣)] قبل ذلك بجنونه، والآن قد اشتدّ عليه فقال ما قال. فغضب الملك واستدعاه، فأتوه به بعد أن ضربوه الضرب الشديد؛ فقال له: مَن أنت، فقد ذكرتَ آلهتنا بسوء؟ قال: أنا نوح بن لَمَك رسولُ ربّ العالمين، جئتكم بالنصيحة من عند ربّكم لتؤمنوا به وبرسوله، وتهجروا هذه الأصنام والقبائح. فقال درمشيل: إنّك قد جئتنا بما لا نعرفه، ولا نعتقد أنك عاقل، فإن كان بك جِنّة[(٤)] فنداويك أو فقر

(١) الصّنج: صفيحة من النّحاس مدوّرة تضرب على أخرى مثلها للطرب.
(٢) الزّمرة: الجماعة.
(٣) يجانبنا: يبتعد عنّا ويفارقنا في معتقده وأفعاله ومجالسته.
(٤) الجنّة: الجنون.

فنواسيك. قال: يا قوم، ما بي جنون ولا حاجة إلى ما في أيديكم، ولكنّي أريد أن تقولوا: لا إلٰه إلا الله وإني نوحٌ رسول الله. فغضب درمشيل وقال: لولا أنه يوم عيد لقتلناك.

فأوّل من آمن به امرأة من قومه يقال لها: (عَمرة) فتزوّجها فأولدها (ساما) (وحاما) (ويافثَ) وثلاثَ بنات؛ ثم آمنت به امرأة أخرى من قومه يقال لها: (والعة) فتزوّجها فأولدها كنعانَ؛ ثم نافقتْ وعادت إلى دينها.

وكان نوح يخرج في كلّ يوم في أنديةٍ لقومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى فيَضربونه حتى يُغشَى عليه، ويجرّون برجله فيُلقُونه على المزابل، فإذا أفاق عاد إليهم بمثل ذلك، ويعاملونه بمثله؛ حتى أتى عليه ثلاثُمائة سنة وهو على هذه الحال؛ ثم مات ملِكهم درمشيل، وملك بعده ابنه بولين، وكان أعتى وأطغى من أبيه وكان نوح يدعوهم في القرن الرابع على عادته، فيضربونه ويشتمونه، وربما سَفَوْا[1] عليه التراب ويقولون: إليك عنا يا ساحر يا كذّاب. ويضعون أصابعهم في آذانهم؛ فينصرف عنهم ويعود إليهم، وإذا خلا بالرجل منهم دعاه، وهم لا يزدادون إلّا عتوًّا وتمرّدًا واستكبارًا، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: الآيات ٥ - ٧] الآيات.

ثم دعاهم حتى استكمل ستّة قرون؛ فلمّا دخل القرن السابع مات ملكهم (بولين) واستخلف عليهم ابنه (طفردوس) - وكان على عتُوّ أبيه - وكان نوح يأتي أصنامهم بالليل وينادي بأعلى صوته: يا قوم، قولوا (لا إلٰه إلا الله، وإني نوح رسول الله). فتُنكَّس الأصنام؛ وكانوا يضربون نوحًا ضربًا شديدًا، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه.

وكان الرجل منهم عند وفاته يوصي أولاده ويأخذ عليهم العهد ألا يؤمنوا به؛ ويأتي الرجل بابنه إلى نوح ويقول: يا بنيّ انظر إلى هذا فإنّ أبي حملني إليه وحذّرني منه، فاحذره أن يزيلك عمّا أنت عليه فإنّه ساحر كذّاب. وهو بعد ذلك يدعوهم؛ فضجّت الأرض إلى ربّها وقالت: ما حلمك على هؤلاء؟ وضجّ كلُّ شيء إلى ربّه من عتوّهم[2]، ونوح يدعوهم ويذكّرهم بآيات الله؛ فلمّا كان في بعض

(١) سفوا على وجهه التراب: حثوا وذروا ورموا.
(٢) العتوّ: الاستكبار والإفراط في الكفر والظلم.

الأيّام إذا هو برجل من كبار قومه قد أقبل بولده يحذّره منه؛ فضرب الغلام بيده إلى كفٍّ تراب وضَرب به وجه نوح، فعند ذلك قال نُوحٌ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نُوح: الآيتان ٢٦، ٢٧] فأمّنت الملائكة على دعوته، فمنع الله عنهم القَطر والنبات؛ فعلم نوح أنّ الله مُهلكَ قومه؛ فأحبّ أن يؤمن بعضُهم إن لم يؤمنوا كلُّهم؛ فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: الآيتان ٣٦، ٣٧].

ذكر عمل السفينة

قال: وأوحى الله تعالى إليه أن يتّخذها في ديار قومه، وأن يجعلها ألفَ ذراع طولًا وخمسمائة عرضًا وثلاثمائة ارتفاعًا، فأعدّ آلاتِ النّجارة، وشرع في عملها وأعانه أولادُه ومن آمن من قومه، والناس يسخرون منه ويقولون: بعد النبوّة صرت نجّارًا، ونحن نشكو القحط، وأنت تبني للغرق. قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: الآيتان ٣٨، ٣٩]؛ وكانوا يأتون السفينة بالليل فيشعلون فيها النار ولا تحترق، فيقولون: هذا من سحرك يا نوح.

وجعل نوح رأسَ السفينة كرأس الطاووس، وعنقَها كعنق النَّسر، وجؤجَؤها[١] كجؤجؤ الحمامة، وكوثلها[٢] كذنَب الديك، ومنقارَها كمنقار البازي، وأجنحتَها كأجنحة العُقاب؛ ثم غشّاها بالزفت، وجعلها سبعَ طبقات لكلّ طبقة باب؛ فلمّا فرغ من بنائها نطقت بإذن الله وقالت: لا إلٰه إلا الله إلٰه الأوّلين والآخرين، أنا السفينة، من ركبني نجا، ومن تخلّف عنّي غرق، ولا يدخلني إلّا أهل الإخلاص. فقال نوح لقومه: أتؤمنون؟ قالوا: هذا قليل من سحرك. ثم استأذن ربّه في الحج، فأذن له؛ فلمّا خرج همّ القومُ بإحراقها، فأمر الله الملائكة فاحتملوها إلى الهواء، فكانت معلّقة حتى عاد من حجّه. ولمّا قضى مناسكه[٣] رأى تابوت آدم عن يمين الكعبة، فسأل ربّه في ذلك التابوت فأمر الملائكة فحملوه إلى دار نوح ـ وكانت يومئذٍ في مسجد الكوفة ـ فلمّا رجع من حجّه نزلت السفينة من الهواء، ثم أوحى الله إليه: أن قد دنا هلاكُ

(١) الجؤجؤ: عظام صدر الطائر. (٢) الكوثل: مؤخر السفينة.
(٣) المناسك: شعائر الحجّ وفرائضه.

قومك ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٧]. ثم أمره الله تعالى أن ينادي في الوحش والسباع والطير والهوامّ والأنعام؛ فوقف على سطح منزله، ونادى: «هلمّوا إلى السفينة المنجّية». فمرّت دعوته إلى الشرق والغرب والبعد والقرب، فأقبلتْ إليه أفواجًا.

فقال: إنّما أُمرتُ أن أحمل من كلِّ زوجين اثنين؛ فأَقْرَع بينهم، فأصابت القُرْعةُ مَنْ أذن اللهُ في حَمْله، وكان معه من بني آدم ثمانون إنسانًا بين رجل وامرأة؛ فلما كان في مستهلّ شهر رجب نودي من التنور وقت الظهر: قم يا نوح فاحمل في سفينتك من كلِّ زوجين اثنين من الذكر زوجًا ومن الأنثى زوجًا، فحملهم. وكان معه جسد آدم وحوّاء؛ وتباطأ عليهم الحمار في صعوده، لأن إبليس تعلّق بذَنَبه؛ فقال نوح بالنبطيّة: على سيطان، يعني ادخل يا شيطان؛ فدخل ومعه إبليس فرآه نوح فقال: يا ملعون، من أدخلك؟ قال: أنت حيث قلت: على سيطان: فعاهده ألا يغويَ(١) أهل السفينة ما داموا فيها.

ثم أوحى الله إلى جبريل أن يأمر خَزنة الماء أن يرسلوه بغير كيل ولا مقدار وأن تُضرَب المياهُ بجناح الغضب. ففعل ذلك، ونبعت العيون، وهطلت السماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القَمَر: الآية ١٢] وكان ماء السماء أخضر، وماء الأرض أصفر؛ وأمر الله الملائكة أن يحملوا البيت إلى سماء الدنيا؛ وكان الحجر يومئذ أشدّ بياضًا من الثلج؛ فيقال إنه اسودّ من خوف الطُّوفان؛ وقال نوح عند ركوبه السفينة ما أخبرنا الله عنه في كتابه العزيز: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: الآيات ٤١ - ٤٣].

قال: كان ابنه هذا كنعان.

قال: وكانوا لا يعرفون الليل من النهار إلّا بخرزة كانت مركَّبة في صدر السفينة بيضاء، فإذا نقص ضوءها علموا أنّه النهار، وإذا زاد علموا أنّه اللّيل؛ وكان الديك يصيح عند أوقات الصلاة؛ وعلا الماء على الجبال أربعين ذراعًا؛ وسارت

(١) يغوي: يضلّ بدهائه ومكره.

السفينة حتى بلغت موضع الكعبة، فطافت سبعًا، ونطقت بالتلبية؛ وكانت لا تقف في موقف إلّا وتناديه: يا نوح هذه بقعة كذا، وهذا جبل كذا؛ حتى طافت به الشرق والغرب ورجعتْ إلى ديار قومه، فقالت: يا نبيّ الله، ألا تسمع صلصلة السلاسل في أعناق قومك؟ قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نُوح: الآية ٢٥]؛ ولم تزل السفينة كذلك ستّة أشهر آخرها ذو الحجة.

وقيل: كان ركوب نوع ومن معه السفينةَ لعشر خلون من شهر رجب وذلك لتتمّة ألفَي سنة ومائتي سنة وخمسين سنةً من لدن أهبط الله تعالى آدم عليه السلام وخرجوا منها في العاشر من المحرّم بعض مضيّ ستة أشهر؛ ثم استقرّت على جبل الجُودِيّ[١]، قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: الآيات ٤٤ - ٤٦].

قال: ثم فتح نوح باب السفينة، فنظر إلى الأرض بيضَاء من عظام قومه؛ وبعث الغراب لينظر ما بقي على وجه الأرض من الماء؛ فأبطأ، فبعث الحمامة فانطلقت شرقًا وغربًا وعادت مسرعة، فقالت: يا نبيّ الله، هلكت الأرض ومن عليها، وأما الماء فإني لا أراه إلّا ببلاد الهند، ولم تَبق على وجه الأرض شجرة إلّا الزيتون، فإنّها على حالها. فأوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هُود: الآية ٤٨] فخرج من السفينة وأخرج من فيها، وأعاد الله الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأشجار والنبات كما كانت، وتفرّق الوحش والسباع والطيور وغيرُها في الأرض؛ وأمر نوح فبُنيت قرية في أسفل جبل الجُودِيّ وسمّيتْ (قريةَ ثمانين) على عددهم.

قيل: هي الجزيرة؛ وهي أوّل قرية بُنيتْ على وجه الأرض بعد الطُّوفان ثم قسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة: سام وحام ويافِثَ، فأُعطِيَ سامٌ الحجازَ واليمن والشأم، فهو أبو العَرَب، وأُعطِيَ حاَمٌ بلادَ المغرب فهو أبو السّودان وأُعطِي يافثُ بلادَ المشرق، فهو أبو الترك.

---

(١) الجودي: هو جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح عليه السلام «انظر معجم البلدان ٢/ ١٧٩».

ثم أوحى الله عزّ وجلّ إلى نوح أن يردّ التابوت إلى المكان الذي أخذ منه، فردّه.

ذكر خبر دعوة نوح على ابنه حام ودعوته لابنه سام

قال: ولما استقرّ الأمر قال نوح لبنيه: إني أحب أن أنام، فإنني لم أتهنّأ بالنوم منذ ركبتُ الفُلك. فوضع رأسه في حجر ابنه حام، فهبّت الريح فكشفت عن سوءته، فضحك حام، وغطّاه سام؛ فانتبه فقال: ما هذا الضحك؟ فأخبره سام، فغضب وقال لحام: أتضحك مِن سوءة[١] أبيك؟ غيّر الله خلِقتَك، وسوّد وجهك. فاسودّ وجهه لوقته. وقال لسام: سَترتَ عورة أبيك، ستر الله عليك في هذه الدنيا، وغفر لك في الآخرة، وجعل من نسلك الأنبياء والأشراف، وجعل من نسل حام الإماء والعبيد، وجعل من نسل يافثَ الجبابرةَ والأكاسرةَ والملوكَ العاتية.

ذكر وصيّة نوح ووفاته

قال كعب: بعث الله عزّ وجلّ نوحًا إلى قومه وله مائتان وخمسون سنة ولبث فيهم ألفَ سنة إلّا خمسين عامًا، وعاش بعد الطُوفان مائتي سنة؛ فلمّا حضرته الوفاة دعا بابنه سام وقال له: أوصيك يا بُنيّ باثنين، وأنهاك عن اثنين: أوصيك «بشهادة أن لا إلٰه إلا الله»، فإنّها تَخرق السمٰوات السبع، لا يحجبها شيء، والثانية أن تُكثر من قولك: «سبحان الله وبحمده»، فإنها جامعة الثواب؛ وأنهاك عن الشِّرك بالله، والاتّكال على غير الله. فلمّا فرغ من ذلك أتاه ملَك الموت، فسلّم عليه فقال: من أنت؟ فقد ارتاع قلبي من سلامك. قال: أنا ملَك الموت، جئتُ لقبض رُوحك. فتغيّر وجهه وجزِع[٢]، فقال له: ما هذا الجزع، ألم تشبع من الدنيا في طول عمرك؟ قال: ما شبّهتُ ما مضى من عمري في الدنيا إلّا بدارٍ لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر. فناوله ملَك الموت كأسًا فيها شراب وقال: اشرب هذا حتى يسكن روعك. فلمّا شربه خرّ ميتًا عليه السلام والله الموفّق.

ذكر خبر أولاد نوح ـ عليه السلام ـ من بعده

فأما حام فإنه واقع زوجته فولدتْ غلامًا وجارية سُودًا[٣]، فأنكرهما حام؛ فقالت امرأته: «لحقتك دعوة أبيك». فلم يقربها حينًا؛ ثم واقعها فولدت مثلهما فتركها

---

(١) السوءة: العورة. (٢) جزع: خاف.

(٣) سودًا: أراد هنا ما فوق الواحد، فقال: «سودًا» على سبيل الجمع.

حامٌ وهرب على وجهه؛ فلما كَبِر الولدان الأوّلان خرجا في طلب أبيهما حتى بلغا قرية على شاطىء البحر فنزلاها، وواقع الغلام أخته فحملت منه وولدت غلامًا وجارية؛ وأقاما في ذلك الموضع لا مأكل لهما إلّا السمك؛ فرجع حامٌ في طلب ولديه فلم يجدهما، فاغتمّ[١] لذلك؛ ثم ماتت امرأته، فخرج الولدان الآخَران في طلب أخوَيهما حتّى صارا إلى قرية أخرى على الساحل خرِبة؛ فنزلاها فسمع بهما الأخوان اللّذان في البطن الأوّل، فلحقا بهما؛ ونزلوا هناك، ووطىء كلٌ منهما أخته؛ فرُزِقوا أولادًا، وكثر منهم النسل، وانتشروا في أعلى الأرض على ساحل البحر؛ فمنهم النُوبة والزَّنْج والبربر والهند والسند وجميع طوائف السودان.

وأمّا يافثُ بن نوح، فإنه صار إلى المشرق، فوُلد له هناك خمسةُ أولاد[٢]: جومر وتِيرس وأشار وسفويل ومياشخ؛ فمن جومر جميع الصَّقالبة والروم وأجناسهم؛ ومن تِيرس جميع الترك والخَزَر وأجناسهم؛ ومن مياشخ جميع أصناف العجم؛ ومن أشار يأجوج ومأجوج؛ ومن سفويل جميع الأرمن.

وأما سام بن نوح فولد خمسةَ أولاد: أرفخشذ، وهو أب العرب؛ ولاوَذ وهو أبو العمالقة؛ وأشور، وهو أبو النسناس؛ وعيلم، وهو أبو العادية الأولى، وإرم، وهو أبو عاد وثمود؛ ورُزِق غيرَهم ممّن لم يُعقب.

الباب الخامس
من القسم الأوّل من الفن الخامس
في قصة هود ـ عليه السلام ـ مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم

قال وهب: كان ملِكُ عادٍ الأكبر اسمه الخَلَجان بن عاد بن العَوْص بن إرَم بن سام؛ وكان قومه يَرجِعون إلى فصاحة وشعر، وكان له ثلاثة أصنام: صَدًا وَهبا، وصَمُو؛ وكان مَلِكُهم قد حلّى هذه الأصنام بأنواع الحليّ، وطيّبها، وجعل لها عدّة من الخدم بعدد أيّام السنة؛ فعتوا[٣] في المعاصي، وانهمكوا على عبادة الأصنام؛

---

(١) اغتم: حزن.

(٢) يلاحظ أن كتب التاريخ مختلفة تمام الاختلاف في رواية كثيرة من هذه الأسماء العشرة، أولاد يافث وسام، حتى إنّه لا صلة بين رواية وأخرى، ومن المتعذّر الوصول إلى تحقيق كثير من هذه الأسماء.

(٣) عتوا: استكبروا وجاوزوا الحدّ.

وكان فيهم رجل من أشرافهم اسمه الخلود بن معيد بن عاد، وكان له بَسْطة[١] في الخَلْق وقوّة في الجسم، مع الحُسن والفصاحة؛ وكان إذا قيل له: لم لا تتزوّج وقد بلغتَ سنّ أبيك؟ يقول: رأيت في المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجتْ من ظهري، ولها نور كالشمس، وقيل لي: إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجتْ من ظهرك ثانية فتزوّج بالتي تؤمر بتزوّجها؛ ولم أرها بعد، وقد عزمتُ على التزوّج. وقام ليعبر بيتَ الأصنام يدعو بالتوفيق في التزوّج، فلما همّ بالدخول لم يقدر، وسمع هاتفًا يقول: يا خلود، ما لمن في ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها. ثم رأى بعد ذلك في منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وقائلًا يقول: «قم يا خلود فتزوّج بابنة عمك» فانتبه وخطبها وتزوّجها، وواقعها فحملتْ بهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحي: هذا هود قد حملت به أمّه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم.

ووضعَتْه أمّه في ليلة الجمعة، فوقعت الرِّعدة على قبائل عاد، ولم يعلموا ما حالهم؛ فعلموا أنه قد ولد لخَلود ولد، فقال بعضهم لبعض: ليكونن لهذا الولد شأن فاحذروه. فخرج أحسنَ الناس وجهًا، وأكمَلهم عقلًا، وسمّته أمّه عابرَ، فرأته أمّه ذات يوم يصلّي، فقالت: لمن هذه العبادة يا بنيّ؟ قال: لله الذي خلقني وخَلَقَ الخلَقْ. قالت: أليس هي لأصنامنا؟ قال: إنّ أصنامكم لا تضرّ ولا تنفع وإنما الشيطان قد زيَّن لكم عبادتها. قالت: أُعبد إلـهك يا بنَيّ، فقد رأيت منك حين كنتَ حَمْلًا وطفلًا عجائبَ كثيرة.

ذكر مبعث هود ـ عليه السلام ـ

قال: ولم يزل هود في ديار قومه يجادلهم في أصنامهم، حتى أتت عليه أربعون سنة؛ فبعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه رسولًا، وأتاه الوحي، فانطلق إليهم وهم متفرّقون في الأحقاف[٢]، وهي الرمال والتِّلال ـ وكانت مساكنهم ما بين عُمان[٣] إلى حضرموتَ[٤] إلى الأحقاف إلى عالجة[٥] ـ فأتاهم في يوم عيد لهم

(١) البسطة في الخَلْق: الزّيادة والكمال.
(٢) الأحقاف: مفردها «الحقف» وهو المعوج من الرّمل.
(٣) عُمان: اسم كورة عربيّة على ساحل بحر اليمن والهند، في شرقي هجر، تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، إلّا أن حرّها يضرب به المثل «معجم البلدان ٤/ ١٥٠».
(٤) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السّلام «معجم البلدان ٢/ ٢٧٠».
(٥) عالجة: الذي في معجم البلدان «عالج» فقد ذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوبار=

وقد اجتمع الملوك على الأسرّة والكراسيّ، ومَلِكهم الخلجانُ على سرير من ذهب وهو متوّج وقد أحدقت به قبائل عاد، وهم في اللهو والطرب؛ فلم يشعروا إلا وهود ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هُود: الآية ٥٠] وهذه الأصنام التي تعبدونها هي الّتي أغرقتْ قوم نوح، ولستم أكرمَ على ربّكم منهم؛ فاستغفِروا ربّكم من عبادة هذه الأصنام. والأصنام ترتجّ؛ فقال له ملِكهم: ويحك يا هود، أقبِل إليّ. فتقدّم إليه، فلما صار بين يدي الملِك صاح صيحة أجابه الوحش والسباع: أبلِغ ولا تخف. فامتلأت قلوبُ الناس خوفًا، فقام إليه رجل منهم وقال: يا هود، صِف لنا إلـٰهك. فوصف عظمة الله، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١] - وكان الذي سأله عمرو بن الحلي - فلمّا فرغ من كلامه قال له الملك: يا هود، أتظن أنّ إلـٰهك يقدر علينا وهذه كثرة جموعنا وشدّةُ قوّتنا؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت: الآية ١٥].

فأوّل من آمن بهود رجل من قومه يقال له جُنادة بن الأصمّ وأربعون من بني عمّه؛ ثم انصرف إلى منزله.

فلمّا كان من الغد أقبل جُنادة وبنو عمّه حتى وقفوا على جماعة من سادات قومه، فقال: يا قوم لا تمنعكم مرارةُ الحق أن تَقبلوه، ولا حلاوةُ الباطل أن تتركوه؛ وهذا ابن عمّكم هود قد عرفتم صدقَه، وقد أتاكم من عند الله رسولًا وواعظًا فاتقوا الله وأطيعوه. وحذّرهم، فحصبوه(١) وشتَموه، فرجع إلى هود.

فلما كان من الغد خرج هود فوقف عليهم وقال: يا قوم لا تبدّلوا نعمة الله كفرًا. وأخذ يعظهم؛ فكذّبوه وواجهوه بالقبائح؛ فبقيَ على ذلك دهرًا طويلًا يلاطفهم وهم على كفرهم وعتوّهم؛ فأعقَم الله أرحام نسائهم، فلم تحمل امرأة منهم؛ فشكَوا ذلك إلى الملِك، فأمرهم أن يُخرجوا أصنامهم ويقرّبوا القرابين إليها؛ ففعلوا ذلك؛ فأتاهم هود وقال: يا قوم ألا تفزعون إلى الله الّذي خلقكم وأعطاكم هذه النعمة والقوّة، فإنه مجيبكم إذا سألتموه، ويزيدكم مُلكًا إلى مُلككم وقوّة إلى قوّتكم. وهو أن تقولوا معي: «لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وإني هود عبده ورسوله» وإن لم تفعلوا ذلك ضربكم الله بالذلّ والنّقمة، وهبّت عليكم الريح العقيم حتّى تذركم في

= «معجم البلدان ٤/ ٧٠».

(١) حصبوه: رموه بالحصى.

ديارکم هشيمًا. فلمّا سمعوا ذلك منه ضربوه حتى سال الدم على وجهه وهو يقول: «إلـٰهي قد أبلغتُ وأنذرتُ».

وأقبل إلى هود بعد انصرافه رجل من قومه يُعرَف بمرثد بن عاد، وقال: يا هود، إنّي قد جئتك في أمر، فإن أخبرتني به فأنت رسول الله. قال له هود: يا مرثد، كنتَ البارحة نائمًا مع زوجتك فواقعتَها، فقالت لك: أتظنّ أني قد حملتُ؟ فقلتَ لها: إني صائر غدًا إلى هود، فإن أخبرني بهذا الكلام آمنتُ به. فقال مرثد: أشهد أنّك رسول الله حقًا؛ ولكن أخبرْني هل حملتْ؟ قال: نعم حملت بولدين ذكرين يكونان من أمّتي، سيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين؛ وستلد لك عشرة أبطن في كلّ بطن ذكران، ويكونان من أمّتي. فوثب مرثد وقبّل رأس هود وكان من خيار أصحابه، وجعل مَرثد يقول: [من البسيط]

من كان يَصدُق يومًا في مقالتِه ... فإنّ هودًا رسولٌ صادق القِيلِ
نبيُّ صدقٍ أتى بالحقّ من حِكمٍ ... وقد أتانا ببرهانٍ وتنزيلِ
فالحمد لله حمدًا دائمًا أبدًا ... مضاعَفًا[1] شكرُه في كلّ تفصيلِ

ثم انصرف مرثد إلى امرأته وأخبرها، فآمنت؛ وكان مرثد يكتم إيمانه ويجالس قومه، فإذا سمعهم يذكرون هودًا بسوء يقول: مهلًا يا بَني عمّ فإنه كأحدكم وابنُ عمّكم.

قال: ثم اجتمعوا في متنزّه لهم ومَلِكهم ونصبوا أصنامهم؛ فأقبل هود عليهم وقال: يا قوم اعبدوا الله فإن هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ولا تُبصِر ولا تَسمع. فقال الرؤساء من قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: الآيات ٦٦ - ٦٩].

فنادَوه من كلّ ناحية: يا هود ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: الآيتان ٧٠، ٧١].

(١) مضاعفًا بالنصب: حال من الله.

وكان القوم يشتمونه ويضربونه ويدوسونه تحت أرجلهم حتى يظنّوا أنه قد مات، ثم يولّون عنه ضاحكين؛ فيقوم غير مكترث بفعلهم؛ فلما أكثر عليهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هُود: الآيات ٥٣ - ٥٧] فآمن به في ذلك اليوم رجل يقال له نُهيل.

قال: ولم يزل هود فيهم يحذرهم وينذرهم العذاب سبعين عامًا؛ فلما رأى أنهم لا يؤمنون دعا الله تعالى أن يبتليهم بالقحط، فإن آمنوا وإلّا يهلكهم بعذاب لم يُهلِك به أحدًا قبلهم ولا بعدهم؛ فاستجاب الله تعالى دعوته، وأمره باعتزالهم بمن معه من المؤمنين، فاعتزلهم فأمسك الله عنهم المطر، وأجدبت الأرض ولم تُنبِت ومات عامّة المواشي؛ فصبروا على ذلك أربعَ سنين حتى يئسوا من أنفسهم، وهمّوا أن يؤمنوا؛ فنهاهم الملِك عن ذلك وصبّرهم[1]؛ فأجمعوا رأيهم أن يبعثوا رجالًا منهم إلى الحرم يستسقون لهم؛ والله الفعّال.

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم

قال وهب: فجمعوا الهدايا، واختاروا سبعين رجلًا من أشرافهم، وجعلوا لكلّ عشرة منهم رئيسًا، من جملتهم مَرثَد المؤمن؛ فسار وهو يدعو عليهم؛ فلما أشرفوا على الحرم إذا بهاتف يقول: [من الخفيف]

قـبَّـحَ اللهُ قـومَ عـادٍ وذلّوا إنّ عـادًا أشرُّ أهـلِ الـجـحـيـمِ
سيِّروا الوفد كي يسقوا غياثًا فسيُسقَون من شراب الحميم

فدخلوا الحرم والملِك يومئذٍ معاوية بن بكر[2]، وكانوا أخواله، فسألهم عما جاء بهم فأخبروه بخبر هود وبما حلّ بعاد، وأنّهم قد لجأوا إلى الحرم للاستسقاء؛ فأنزلهم معاوية في منزل الضيافة، وأطعمهم وسقاهم شهرًا؛ فشغلهم اللهو عن

---

(١) صبّرهم: أمرهم بالصّبر والتمهُّل.

(٢) هو معاوية بن بكر بن هوازن، من قيس عيلان، من عدنان، جدّ جاهلي مات قتيلًا، فجعل عامر بن الظرب العدواني ديته مئة من الإبل، قال ابن حزم: وهي أوّل دية قضي فيها بذلك «الأعلام ٧/ ٢٦٠».

الاستسقاء؛ فبلغ الملِكَ (الخلجانَ) ذلك، فبعث إلى معاويةَ يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء، فكره مواجهتهم بذلك فيقولون: «قد تبرّم[١] بضيافتنا» فدعا بالجرادتين ـ وهما قَينتان لمعاوية ـ فقال لهما: إذا شرب القوم ودبّ فيهم الشراب فغنّياهم بهذه الأبيات، وهي: [من مجزوء الرمل]

بأبي مَن خَلَق الخَلْـ ـقَ بني سام وحام
سادةٍ سادوا جميعَ الـ ـخَلْقِ في الخَلْقِ التَّمامِ[٢]
نَصَب الدهر عليهم حَربَه دون الأنامِ
فسقى الله بني عا د من الصَّوْب الغَمامِ

فأجابهما رجل من الوفد يقال له الجَعْد بنُ القَيْل: [من مجزوء الرمل]

علِّلينا ـ زانك اللّـ ـهُ ـ بأكواب المُدام[٣]
وبماءٍ فامزُجيها تستريحي من مَلامِ

فلما لم يكترثوا بالصوت الأوّل قالت: [من الوافر]

ألا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فهينِمْ لعلّ الله يَمنحُكم غماما[٤]
غمامًا صَوْبُها هَطِلٌ مغيث يُروِّي السّهل طُرًّا والإكاما
من العطش الشديد فليس نرجو بها الشيخَ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهمُ بخيرٍ فقد أمست نساؤهمُ عِياما[٥]
وأنّ الوحش تأتيهم جهارًا ولا تَخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم هٰهنا فيما اشتَهيتم نهارَكم وليلَكم التِّماما
فقُبِّح وفدُكم مِن وفد قوم ولا لَقَوا التحيّة والسلاما
أفيقوا أيّها الوفد السُّكارى لقومكم فقد أضحَوا هِياما
فقد طال المُقام على سرورٍ ألا يا قَيْلُ وَيْك ذَرِ المُداما[٦]

---

(١) تبرّم: ضاق وضجر.
(٢) في الخلق والخلق جناس تام، فالأولى تعني النّاس، والثانية الشكل والخلقة...
(٣) علّلينا: من علّ يعلّ ويعَلّ: أي شرب بعد الشّرب الأوّل ثانية أو تباعًا.
(٤) هينم: من الهينمة وهي الصوت الخفي في الدّعاء وغيره، وويحك: كلمة بمعنى ويلُك.
(٥) العيام: الشديدات الشهوة إلى اللبن.
(٦) ويك: كلمة مركبة من «دي» وكاف المخاطبة، وهي بمعنى ويلك، يكنّى بها عن التهديد.

قال: فانتبه الناس وقاموا فاغتسلوا ولبسوا ثيابًا جُدُدًا، وكسَوا البيت بالكسوة التي حملوها له؛ فجعل ينفضها؛ فقال مَرْثَد: يا قوم، إنّ ربّ هذا البيت لا يَقبل الهديّة إلّا من مؤمن، فهل لكم أن تؤمنوا بهود؟ فقالوا: يا مَرْثَد: إنّ كلامك يدلّ على إيمانك به، ونحن لا نؤمن به أبدًا.

فأنشأ يقول: [من الوافر]

أرَى عادًا تَمادى في ضلالٍ وقد عَدَلوا عن الأمر الرشيدِ[1]

بما كفرتْ بربّهم جِهارًا وحادوا رغبةً عن دِين هود

فاجتمعوا يستسقون، فقال واحد منهم: [من الرّجز]

يا ربَّ عادٍ اسقينّ عادًا إنّك حقًّا ترحم العِبادا

فاسق البساتينَ وذي البلادا أجواد غيث تَتبع العِهادا[2]

وجعل كلُّ واحد منهم يتكلّم بما حضره من ذلك. ثم تكلّم مَرْثَد بن سعد - وهو المؤمن الّذي يكتم إيمانه - وقال: اللهمّ إنا لم نأتك إلى حرمك إلّا لأرض تسقيها، أو أمّة تحييها.

فأوحى الله إلى مَلك السحاب أن ينشر لهم ثلاثَ غمامات: بيضاءَ وحمراء وسوداء؛ وجعل السوداء مَشُوبة بغضبه، فارتفعت البيضاء، وتبعتْها الحمراء خَلْفَهما السوداء، فارتفعتْ حتى رأى الوفد جميع الغمامات؛ ففرحوا واستبشروا ثم نُودوا: يا قَيْل، اختر لقومك من هذه السحائب. فنظر فقال: أمّا البيضاء فإنها جَهام لا ماء فيها؛ وأمّا الحمراء فإنها إعصار ريح. فاختار السوداء. فنودي: يا قَيْل، اخترتَ رَمادًا أرمدًا، لا يُبقي من قوم عاد أحدًا، إلا تراهم في الديار هُمّدًا.

ذكر إرسال العذاب على قوم هود

قال: وأوحى الله إلى (مالكٍ) خازنِ جهنم أن يقبض على سلاسل السوداء وليكن عليها ألف من الزبانية.

(١) تمادى: يريد تتمادى، وتمادى في الضّلال: داوم عليه، وعدلوا: مالوا.

(٢) الأجواد: الأمطار الغزيرة، الواحد جَوْد بفتح الجيم، والعهاد: أوّل مطر السّنّة.

قال كعب: إن هذه السلسلة غُمستْ في سبعين واديًا من أودية الزمهرير[١] ولولا ذلك لذابت الجبال من حرّها.

فمدّت الزبانية السلاسل، وجَعلت السحابة ترمي بشرر كالجبال، وخرجت عليهم من واد يقال له: (وادي الغيث) فنظروا إليها فقال بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: الآية ٢٤]، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٤، ٢٥].

وأخرج القوم أصنامهم ونصبوها على أسرّتها؛ فأمر الله تعالى خازن الريح العقيم أن يفتح بعض أطباقها، فانطلقتْ ناشرةً أجنحتها بعدد قبائل عاد؛ فلمّا عاينوا الملائكة يطوفون حول السحاب تيقّنوا العذاب، فأدخلوا النساء والوِلدان في الحصون وخرجوا ونشروا أعلامهم وأوتروا قِسِيَّهم[٢]، وأفرغوا السهام بين أيديهم، والرياح ساكنة تنتظر أمر ربّها، وهود قائم ينذرهم العذاب، وهم يقولون: ستعلم يا هود من أشدّ منا قوّة وبطشًا. حتى إذا كانت صَبيحة الأربعاء، خرجت الريح عليهم في يوم نحس مستمرّ، فكانت في اليوم الأوّل شهباء[٣]، فلم تترك على وجه الأرض شيئًا إلّا نسفتْه نسفًا؛ وفي اليوم الثاني صفراء، فاقتلعت الأشجار؛ وفي اليوم الثالث حمراء، فدمّرت كلّ شيء مرّت عليه؛ فلم يزل يجري في كلّ يوم لون والنساء ينظرن إلى فعلها بقومهنّ، فجعلن يقلن شعرًا: [من الهزج]

ألا قــد ذهــب الــدّهــ ـــر بـعـمـرو ذي الـعـليّـاتِ
وبـالـحـارث والـقـمـقـا م طَـلّاعِ الـثّـنِـيّـات[٤]
ومـن سَـدّ مـهـبّ الـريـ ـح فـي وقـت الـبَـلِيّـات

واستمرت الريح ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحَاقَّة: الآية ٧]، أي دائمة؛ فلما كان في اليوم الثامن اصطفّت القوم صفوفًا، كلُ واحد إلى جنب أخيه، وهم عشرة صفوف؛ فجعل ملكهم الخلجان يشجّعهم ويقول: [من الرّجز]

مـا بـال عـادِ الـيـومَ خـائـفـيـنـا؟ أمِنْ مَهَبّ الريح يجزعونا؟[٥]
لـقـد خـشـيـت أن يـكـونـوا دونـا إنّ الـبـنـيـن تُـعـقِـب الـبـنـيـنـا

(١) الزّمهرير: شدّة البرد.
(٢) أوتر القوس: شدّ وترها واستعدّ للرّمي.
(٣) الشهباء: التي في لونها الشهبة وهو البياض الذي يخالطه السّواد.
(٤) الثنيّات: مفردها «الثنيّة»: وهي الطريق في الجبل، أو العقبة المسلوكة.
(٥) الذي في الأصول:

«يـا آل عـادِ أيـكـم جـنـونـا»

=

هذا والرِّيح تمزّقهم، فكانت تدخل في ثوب الرجل فتحمله في الهواء، ثم ترميه على رأسه ميتًا. قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القَمَر: الآية ٢٠].

فلم يَبق منهم إلا الملِك أخّره الله تعالى ليرى مَصارعَ قومه، وهو يردّ الريح بصدره، فجاءت الريح فدخلت من فيه وخرجت من دبره، فمات؛ ثم مرّت الريح نحو الوفد، فحملتهم من الأرض إلى الهواء، فألقتهم على وجوههم؛ فماتوا عن آخرهم.

قال: وهودٌ في حظيرة بمن معه من المؤمنين لا يصيبهم منها إلا ما تلين له الجلود. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هُود: الآية ٥٨].

قال: وارتحل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشِّحر[(١)] من بلاد اليمن؛ فنزلوا هناك حولين، ثم مات.

ويقال: إنه دفن بأرض (حضرموت)؛ والله أعلم.

ذكر خبر مرثد ولقمان

قال: وخرج من وفد عاد مرثد، ولقمان بن عاد، فدخلا مكة منفردَين، فدعوا الله تعالى لأنفسهما؛ فقيل لهما: قد أُعطيتما مُناكما، فاختارا لأنفسكما، إلا أنه لا سبيل إلى الخلود. فقال مرثد: اللهم أعطني برًّا وصدقًا. فأُعطِيَ ذلك. وقال لقمان: «يا ربّ عُمرا». فقيل له: اختر لنفسك بقاء سبعِ بقرات صفر عُفْر[(٢)] في جبل وَعْر، لا يمسّهن ذُعْر؛ وإن شئتَ بقاء سبعِ نويات من تمر، مستودعات في صخر، لا يمسّهن ندًى ولا قَطْر؛ وإن شئتَ بقاء سبعة أنسُر كلّما هلك نَسْر أُعقِب من بعده نسر. فاختار الأنسر، فكان يأخذ الفرخَ منها حين يخرج من بيضته، فإذا مات أخذ غيرَه، فكان كلّ نسر يعيش ثمانين سنة، حتى انتهى إلى السابع، فكان آخرَها لُبَد؛ فلما مات لبد مات معه لقمان[(٣)]، وهو لقمان النسور.

= وقوله: «أيكم جنونا» غير مستقيم الإعراب كما هو ظاهر، والتّصويب عن قصص الأنبياء للكسائي...

(١) الشّحر: الشطّ، والشّحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعُمان، وإليه يُنسب العنبر الشّحري لأنّه يوجد في سواحله «معجم البلدان ٣/ ٣٢٧».

(٢) العفر: اللاتي خالط بياضها حمرة.

(٣) هو لقمان بن عاد بن ملطاط، من بني وائل من حمير، معمّر جاهلي قديم، من ملوك حمير في=

ولنصل هذا الباب بخبر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفَجر: الآية ٧]، وقصة شديدٍ وشدّاد.

ذكر خبر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وقصّة شديد وشدّاد بنيْ عاد

قد ذكرنا خبر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ فيما تقدّم من كتابنا هذا على سبيل الاختصار وذلك في (الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأوّل في المباني القديمة) وهو في السفر الأوّل من هذه النسخة؛ ورأينا إيرادَه في هذا الباب بما هو أبسط من ذلك لتعلّقه به.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيات ٦ - ٨].

روى أبو إسحٰق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبيّ في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) عن منصور عن سفيان عن أبي وائل أنّ رجلًا يقال له: (عبد الله بن قِلابة) خرج في طلب إبل له قد شردت[(١)]، فبينما هو في بعض صحارى عَدَنَ في تلك الفلوات، إذ وقف على مدينة عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال؛ فلمّا دنا منها ظنّ أن فيها من يسأله عن إبله فلم ير داخلًا فيها ولا خارجًا منها، فنزل عن ناقته وعقلها[(٢)]، وسلّ سيفه، ودخل من باب الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين لم يُرَ في الدنيا أعظمُ منهما ولا أطيبُ رائحة وإذا خشبُهما من أطيبِ عُود، وعليهما نجوم من ياقوت أصفرَ وياقوت أحمر ضوءُها قد ملأ المكان؛ فلما رأى ذلك عجب، ففتح أحد البابين، فإذا هو بمدينة لم ير الراوون مِثلَها قطّ، وإذا هو بقصور تتعلّق، تحتها أعمدةٌ من زبرجد[(٣)] وياقوت[(٤)] وفوق كلّ قصر منها غُرَف مبنيّة بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعلى كلّ باب من أبواب تلك القصور مِصراع[(٥)] كمصراع باب المدينة

= اليمن، يلقّب بالرّائش الأكبر، وهو غير لقمان الحكيم الذي ذكره القرآن الكريم «الأعلام ٥/ ٢٤٣».

(١) شردت: نفرت. (٢) عقلها: ربطها بالعقال، وهو الزّمام.

(٣) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرد، متعدّد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر وجمعه «زبارج».

(٤) الياقوت: حجر كريم صلب شفّاف ذو ألوان مختلفة ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأزرق.

(٥) المصراع: من الباب أحدُ غلقيه أو جزئيه.

من عُودٍ طيِّب، قد نُضِّدتْ عليه اليواقيت؛ وقد فُرشتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق[1] المسك والزعفران[2] ولم يَرَ هنالك أحدًا، فأفزعه ذلك، ثم نظر إلى الأزقّة فإذا في كلّ زُقاق منها أشجار قد أثمرت، تحتها أنهارٌ تجري؛ فقال: هذه الجنّة التي وصفها الله تعالى لعباده في الدنيا الحمد لله الذي أدخلني الجنة. فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها ولا ياقوتها لأنّها كانت مشتبكةً في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورةً بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف؛ فأخذ منها ما أراد، وخرج؛ ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليَمَن، فأظهر ما كان معه، وأعلم الناس بخبره، وباع ذلك اللؤلؤ، وكان قد اصفرّ وتغيّر من طول الزمان الذي مرّ عليه، ففشا خبره وبلغ معاوية، فأرسل رسولًا إلى صاحب (صنعاء)، وكتب بإشخاصه[3]، فسار حتى قدم على معاوية، فخلا به وسأله عمّا عاين؛ فقصّ عليه أمر المدينة وما رأى فيها؛ فاستعظم ذلك، وأنكر ما حُدّث به، وقال: ما أظنّ ما يقول حقًّا. ثم قال: يا أمير المؤمنين، معي من متاعها الّذي هو مفروش في قصورها وغرفها وبيوتها. قال له: ما هو؟ قال: اللؤلؤ والبنادق. فشمّ البنادق فلم يجد لها ريحًا؛ فأمر ببندقة منها فدُقّت، فسطع ريحها مسكًا وزعفرانًا؛ فصدّقه عند ذلك؛ ثم قال معاوية: كيف أصنع حتى أسمع باسم هذه المدينة ولمن هي ومن بناها؟ والله ما أُعطيَ أحد مِثْلَما أُعطي سليمان بنُ داود وما أظنّ أنه كان له مِثلُ هذه المدينة. فقال بعض جلسائه: ما تجد خبر هذه المدينة إلّا عند (كعب الأحبار)[4] فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر بإشخاصه ويغيب عنه هذه الرجلَ في موضع ويسمعَ كلامَه منه وحديثه ووَصْفَ المدينةِ حتّى يتبيّن أمر هذه المدينة فَعَل، فإنّ كعبًا سيخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمرِ هذا الرجل إن كان دخلها، لأن مثل هذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولَها، إلّا أن يكون سبق في الكتاب دخولُه إيّاها فيعرف ذلك.

---

(١) البنادق: مفردها «البندقة» وهي شجرة لها ثمر يؤكل، وبنادق المسك: أي المسك الذي حبّه كحبّ البندق في الحجم.

(٢) الزّعفران: نبات له أصل كالبصل، زهره أحمر إلى الصفرة، طيّب الرائحة.

(٣) إشخاصه: إحضاره.

(٤) كعب الأحبار: هو كعب بن مائع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحٰق، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر، قدم المدينة وأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة مات بحمص سنة ٣٢ هـ «الأعلام ٥/٢٢٨».

فأرسل معاويةُ إلى (كعب الأحبار) وأحضره ثم قال له: يا أبا إسحٰق إنّي دعوتك لأمر رجوتُ أن يكون علمُه عندك. فقال له: يا أمير المؤمنين «على الخبير سقطتَ» فسلني عما بدا لك. فقال له: أخبِرنا يا أبا إسحٰق، هل بلغك أن في الدنيا مدينةً مبنيّةً بالذهب والفضّة، عَمَدها زبرجد وياقوت، وحصا قصورها وغرفِها اللؤلؤ، وأنهارُها في الأزقّة تحت الأشجار؟ قال: والّذي نفس كعب بيده لقد ظننتُ أن سأتوسّدُ يميني[1] قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولمن هي، ومن بناها.

أمّا المدينةُ فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وُصفتْ له.

وأمّا صاحبها الّذي بناها فشدّاد بن عاد.

وأمّا المدينة فهي إرَم ذات العماد التي لم يُخلَق مِثلُها في البلاد.

فقال له معاوية: يا أبا إسحٰق، حدِّثنا بحديثها ـ يرحمك الله ـ فقال كعب: نعم يا أمير المؤمنين، إن عادًا كان له ابنان يسمَّى أحدهما «شديدًا» والآخر «شدّادًا»؛ فهلك عاد، فبقيَا ومَلَكا وتجرّآ، فقهَرَا أهل البلاد، وأخذاها عَنوة وقَسرًا، حتى دان[2] لهما جميع الناس، فلم يبق أحد من الناس في زمانهما إلا دخل في طاعتهما، لا في شرق الأرض ولا في غربها؛ وإنهما لمّا صفا لهما ذلك وقرّ قرارهما مات شديد بن عاد، وبقي شدّاد، فملك وحده، ولم ينازعه أحد ودانت له الدنيا كلُّها، فكان مولَعًا بقراءة الكتب القديمة، وكان كلّما مرّ فيها بذكر الجنة دعته نفسُه لتعجيل تلك الصفة لنفسه الدنيّة عتوًّا على الله وكفرًا؛ فلما وَقر[3] ذلك في نفسه أمر بصنعة تلك المدينة الّتي هي إرم ذات العماد، وأمّر على صنعتها مائةَ قَهْرَمان، مع كلّ واحد ألف من الأعوان. ثم قال: انطلقوا إلى أطيب فلاة من الأرض وأوسعها، واعملوا فيها مدينة من ذهب وفضّة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد، وعلى المدينة قصور، من فوق القصور غرف، ومن فوق الغرف غرف، واغرسوا تحت القصور غروسًا فيها أصناف الثمار كلّها، وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية، فإنّي أسمع في الكتب صفةَ الجنة، وإني أحبّ أن أتخذ مِثلَها في الدنيا، أتعجّل سكناها. فقال له قَهارمتُه[4]: كيف لنا بالقدرة على ما وصفتَ لنا من

(١) أتوسّد يميني: كنّي بذلك عن دفنه بعد الموت، يريد: أنه يموت دون أن يسأله أحد عن ذلك.
(٢) دان: خضع وذلّ. (٣) وقر: أي سكن وثبُت.
(٤) القهارمة: مفردها «القهرمان: وهو المسيطر الحفيظ على ما تحت يديه، أو الوكيل أو أمين=

الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة نبني منها مدينة كما وصفتَ لنا؟ فقال لهم شدّاد: ألستم تعلمون أن مُلك الدنيا كلّها بيدي؟ فقالوا: بلى. قال: انطلقوا إلى كلّ موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وكلّفوا من كلّ قوم رجلًا يُخرج لكم ما في كلّ معدن من تلك الأرض؛ ثم انظروا إلى ما في أيدي الناس من ذلك فخذوه، سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن، فإنّ معادن الدنيا فيها كثير من ذلك، وما فيها ممّا لا تعلمون أكثرُ وأعظمُ ممّا كلّفتُكم من صنعة هذه المدينة.

قال: فخرجوا من عنده، وكتب معهم إلى كلّ ملِك من ملوك الدنيا يأمره أن يجمع لهم ما في بلده من الجواهر، ويحفرَ معادنها؛ فانطلق القهارمة، وبعث الكتب إلى الملوك بأخذ كلٍّ ما يجدونه في أيدي الناس عشرَ سنين من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة، ويبعثون بذلك إلى فعلة إرم ذات العماد. وخرج الفَعَلة يطلبون موضعًا كما وصفه لهم شدّاد.

فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، كم كان عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شدّاد؟ قال: كانوا مائتين وستّين ملِكًا.

قال: فخرج عند ذلك الفعلة والقَهارمة، فتفرّقوا في الصحارى ليجدوا ما يوافق غرضه؛ فوقعوا في صحراء عظيمة نقيّة من الجبال والتلال. وإذا هم بعيون مطّردة[1]؛ فقالوا: هذه صفة الأرض التي أُمرنا بها؛ فأخذوا منها بقدر ما أمرهم به من العرض والطول، ثم عمَدوا إلى مواضع الأزقّة فأجرَوا فيها قَنَوات الأنهار؛ ثم وضعوا الأساس من صخور الجَزْع[2] اليمانيّ، وعجنوا طين ذلك الأساس من دُهن البان[3] والمحلب[4]؛ فلمّا فرغوا من وضع الأساس بُعث بالعَمَد والذهب والفضّة من جهة الملوك؛ فتسلّمها الوزراء والقَهارمة، وأقاموا حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شدّاد.

فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، إني لأحسبهم أقاموا في بنائها زمنًا من الدهر. قال: نعم يا أمير المؤمنين. إني لأجد في التوراة مكتوبًا أنهم أقاموا في بنائها ثلاثمائة

= الدّخل والخرج...».

(١) العيون المطرّدة: أي المتتابعة، والعيون: منابع الماء.

(٢) الجزع: نوعٌ من الخرز فيه خطوط بيض وسود.

(٣) البان: شجرتين، ورقه طويل أبيض الزّهر طيّب الرائحة.

(٤) المحلب: شجرٌ له حبٌّ يجعل في الطّيب.

سنة. فقال معاوية: كم كان عمر شدّاد؟ فقال: سبعَمائة سنة. فقال معاوية: لقد أخبرتَنا عجبًا، فحدّثنا. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّما سمّاها الله تعالى إرم ذات العماد الّتي لم يُخلق مِثلُها في البلاد، للعَمَد التي تحتها من الزبرجد والياقوت وليس في الدنيا مدينةٌ من الزبرجد والياقوت غيرها، فلذلك قال الله تعالى: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: الآية ٨].

وقال كعب: إنّهم لما أتَوه فأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا واجعلوا عليها حصنًا، واجعلوا حول الحصن ألفَ قصر، عند كلّ قصر ألفَ عَلَم، ويكون في كلّ قصر وزير من وزرائي، ويكون كلّ عَلَم عليه ناطور. فرجعوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن؛ ثم أتوه فأخبروه بالفراغ ممّا أمرهم به.

قال: فأمر شدّاد ألفَ وزير من خاصّته أن يهيّئوا أسبابهم(١)، ويعوّلوا(٢) على النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر رجالًا أن يسكنوا تلك الأعلام ويقيموا فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجَهاز إلى إرم ذات العماد؛ فأقاموا في جَهازهم عشر سنين؛ ثم سار الملك شدّاد بن عاد بمن أراد، وتخلّف من قومه في عَدَنَ مَن أمَرَه بالمُقام بها.

قال: فلمّا استقلّ وسار إليها ليسكن فيها، وبلغ منها موضعًا بقي بينه وبين دخوله إليها مسيرةُ يوم وليلة، بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء، فأهلكتْهم جميعًا، ولم يبق منهم أحد، ولم يدخل شدّاد ولا مَن كان معه إرم ذات العماد، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة.

فهذه صفة إرم ذات العماد، وأنّه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ويَرى ما فيها، فيحدّث بما عاين(٣)، ولا يُسمَع منه ولا يصدّق. فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، فهل تصفه لنا؟ قال: نعم، هو رجل أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عَقِبه(٤) خال، يخرج في طلب إبل له ندّت(٥) في تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد، فيدخلها ويحمل ممّا فيها. والرجل جالس عند معاوية. فالتفت كعب فرأى الرجل، فقال: هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها، فاسأله عما حدّثْتك به. فقال معاوية: يا أبا إسحٰق، إنّ هذا من خَدمي، ولم يفارقني. قال كعب: قد دخلها وإلّا

---

(١) أسبابهم: مفردها «السّبب» وهو كلّ شيء يتوصل به إلى غيره.
(٢) يعوّلوا: يستعينوا.
(٣) عاين: شاهد وأبصر.
(٤) العقب: عظم مؤخّر القدم.
(٥) ندّت: تاهت وشردت.

سوف يدخلها، وسيدخلها أهلُ هذا الدين في آخر الزمان. قال معاوية: يا أبا إسحٰق، لقد فضّلك الله على غيرك من العلماء ولقد أُعطيتَ من علم الأوّلين والآخرين ما لم يُعطَه أحد. فقال: والّذي نفس كعبٍ بيده، ما خلق الله تعالى في الأرض شيئًا إلّا وقد فسّره في التوراة لعبده موسى تفسيرًا، وإن هذا القرآن أشدّ وعيدًا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ٧٩] والله الهادي للصواب.

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله تعالى وقال الشعبيّ[١]: أخبرنا دَغْفَلٌ الشيبانيُّ[٢] عن رجل من أهل (حضرموت) يقال له: بِسْطام، أنه وقع على حَفيرة شدّاد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مطلٍّ على البحر.

قال: وكنت أسمع من صباي إلى أن اكتهلتُ بمغارة في جبل من جبالنا بحضرموت وهيبةِ الناس لدخولها، فلم أحتفل بما كنت أسمع من ذلك؛ فبينما أنا في نادي قومي إذ تناشدوا حديثَ تلك المغارة وأطنبوا[٣] في ذكرها ووصفوا موضعها؛ فقلت لقومي: إني غير منته حتى أدخلها، فهل فيكم من يساعدني؟ فقال فتى منهم حديث السنّ: أنا أصاحبك. فقلت: يا ابن أخي، أو تجسر على ذلك؟ قال: عندي ما عند أشدِّ رجل من رَباطة الجأش وشدّة القلب. فهيّأنا شمعة وحملنا معنا إداوةً[٤] عظيمة مملوءة ماء وطعامًا مقدارَ ما قدرنا على حمله؛ ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذي فيه المغارة ـ وكان مشرفًا على المكان الذي يركب أهلُ حضرموتَ منه البحر ـ فلما انتهينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثيابنا؛ وأشعلنا الشمعة؛ ثم ذكرنا الله تعالى، ودخلنا ومعنا تلك الإداوةُ وذلك الطعام، فإذا بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعًا، وطولُها علوًّا نحو خمسين ذراعًا؛ فمشينا فيها هونًا[٥] في طريق أملس مستوٍ، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرضُ الدرجة عشرون ذراعًا في سَمْك عشر أذرع، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات فقلت لصاحبي: هلمّ، إليّ يديك، فكنت آخذ بيده حتى ينزل، فإذا نزل وقام في الدرجة تعلّقتُ بطرف

---

(١) الشّعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يُضرب المثل في حفظه، كان نديم عبد الملك بن مروان وسفيره إلى قيصر الرّوم مات سنة ١٠٣ هـ «الأعلام ٣/ ٢٥١».

(٢) هو دغفل بن حنظلة الشيباني، نسّابة العرب، يضرب به المثل في معرفة الأنساب لم يدرك الناس مثله لسانًا وعلمًا وحفظًا، مات سنة ٦٥ هـ بفارس في وقعة مع الأزارقة «الأعلام ٢/ ٣٤٠».

(٣) أطنبوا: بالغوا وأكثروا.

(٤) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٥) مشى هونًا: أي بتؤدة ورفق وتمهُّل.

الدرجة وتسيّبتُ[١] حتى تنال رجلاي منكبيه؛ فلم نزل كذلك وذلك دأبُنا عامّة يومنا، حتى نزلنا ذلك الدَّرَج وكانت مقدار مائة درجة؛ فأفضينا إلى أزَج[٢] عظيم محفورٍ في الجبل، في طول مائة دراع، في عرض أربعين ذراعًا، وسَمْكُه في السماء نحو مائة ذراع، وفي صدره سرير من ذهب مفصَّصٌ بأصناف الجواهر، وفوقه رجل عظيم الجسم، قد أخذ طولَ هذا الأزَج وعرضَه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم، وعليه سبعون حلّة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الحلل بقضبان الذهب والفضة، وإذا في ذلك الأزج نَقْب عرضه ذراعان، وارتفاعه ثلاث أذرع، خارج إلى فضاء لم ندر ما هو، وإذا على رأس السرير لوح من ذهب، فيه كتاب بالمُسنَد[٣] ـ وهو كتاب عادٍ كانت تكتبه في زمانها ـ محفور ذلك الكتاب في اللوح حفرًا؛ فقلعناه ودنونا من الرجل فمسسنا تلك الحلل فصارت رميمًا، وبقيت قضبان الذهب قائمة، فجمعناها وكانت مقدار مائة رطل، فحملناها في أُزُرنا، وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المفصَّصِ بها السرير، فلم نقدر عليه لوثاقته[٤]، فتركناه؛ وهجم علينا الليل، ونحن في ذلك الأزَج وعزفْنا ذلك بذهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك النَّقب، فبتنا ليلتنا في ذلك الأزَج، وطَفئت الشمعة التي كانت معنا؛ فلما أصبحنا قلت لصاحبي: ما ترى؟ قال: أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه، لارتفاع الدَّرَج، وأنا لا نستطيع صعودها، لا سيّما والشمعة قد طَفئت، ولكن هلمّ لنلزم هذا الضوء الذي نراه في هذا النقب، فإني أرجو أن يخرج بنا إلى الفضاء إن شاء الله تعالى. فقلت له: لعمري إنّ هذا لهو الرأي.

قال: فانطلقنا بما معنا من تلك القضبان من الذهب، وحملناها مع ذلك اللوح الذهب الذي كان عند رأس السرير، ومشينا في ذلك النَّقب نتبع ذلك الضوء، فلم نزل نمشي فيه في طريق ضيق مدارَ مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى كهف في ذلك الجبل كهيئة الحائط، وقد حَفّ بذلك الكهف البحر؛ فجلسنا على باب ذلك النَّقْب ثلاثة أيّام نتموّن بقيّةَ ما كان معنا من الماء والطعام؛ فلمّا كان في اليوم الرابع نظرنا إلى مركَب قد أقبل في البحر فلوّحنا إلى مَن فيه، فأرسلوا إلينا القارِب، فنزلنا من باب ذلك النقب[٥] نزولًا شاقًّا حتى وثبنا إلى القارب بما

(١) تسيّبت: أي أنزل قدميه وهو متمسّك بشيء حتى يضعها على كتفي ذلك الرّجل.
(٢) الأزج: البيت الذي يبنى طولًا.
(٣) بالمسند: أي بالخطّ المسند، فالمسند: نوعٌ من الخطوط.
(٤) لوثاقته: لشدّة تمكنه في مواضعه.
(٥) النّقب: الطريق الضيّق في الجبل.

معنا، ثم خرجنا من البحر فقسمنا ذلك الذهب بيننا، وصار ذلك اللّوح إليّ بِقِسْطي[(١)].

قال: ثم إنّ أنفسنا دعتنا إلى العودة إلى ذلك السَّرَب ممّا يلي النَّقْبَ من جهة البحر، فركبنا قارِبًا وسرنا في البحر نحو المكان الذي كنّا فيه، فنزلنا منه، فخفي علينا فعلمنا أنّا لم نُرزَق من ذلك المكان إلّا ما أخذناه، فرجعنا.

قال: ومكث ذلك اللوح عندي حولًا وأنا لا أجد من يقرؤه، حتى أتانا رجل حِمْيَريّ من أهل صنعاء كان يُحسن قراءة تلك الكتابة، فأخرجتُ إليه اللوح فقرأه، فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات: [من مجزوء الرّمل]

اعتبرْ بي أيّها المغـ ـرورُ بالعمر المديدِ
أنا شدّاد بنُ عادٍ صاحبُ الحصن العتيدِ
وأخو القوّة والبأ ساء والمُلك الشديدِ
وبفضل المُلك والعُدّ ة فيه والعديدِ
دان أهلُ الأرض طرًّا ليَ من خوف وعيدي[(٢)]
وملكتُ الشرق والغر ب بسلطانٍ شديدِ
فأتى هودٌ وكنّا في ضلالٍ قبلَ هودِ
فدعانا ـ لو قبِلنا ه ـ إلى الأمر الرشيدِ
فعصيناه ونادَيـ ـنا ألا هل من محيدِ[(٣)]
فأتتنا صيحةٌ تهـ ـوي من الأُفْق البعيدِ
فَتَوافَيْنَا كزرعٍ وَسط بيداءَ حصيدِ

وقد ساق أبو إسحٰق الثعلبيُّ أيضًا هذه الأبيات بهذا السند دون القصّة في تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) وفيها في البيت الرابع بدل قوله:

وإن أهل الأرض طرًّا ليَ من خوف وعيدي
دانَ أهلُ الأرض لي من خوفِ وعدي ووعيدي

(١) بقسطي: أي بحقي من القسمة. (٢) طرًّا: أي جميعًا.
(٣) المحيد: المفرّ.

قال أبو إسحٰق رحمه الله قال دَغْفَلٌ الشيْباني: سألت علماء حِميَر عن شداد بن عاد[١]، فقلت: إنه أصيب وكان قد دنا من إرم ذات العماد، فكيف وُجِد شِلْوة في تلك المغارة وهي بحضرموت؟ فقالوا: إنّه لمّا هلك هو ومن معه بالصيحة، ملك بعده مَرْثَد بن شدّاد، وقد كان أبوه خلّفه على مُلكه بحضرموت فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت، فحُمِل مطليًا بالصبر والكافور، فأمر أن تُحفَر له تلك المغارة، واستودعه فيها على ذلك السرير الذهب؛ والله تعالى أعلم.

هذا ما أورده رحمه الله من خبر إرم ذات العماد وخبرِ شديدٍ وشدّاد بنَيْ عاد.

وقد ذُكر في هذه الأبيات هود النبيّ عليه السلام في قوله:

فــأتــى هــودٌ وكــنّــا في ضـلالٍ قـبـلَ هـودِ

الأبيات الخمسة.

وقد تقدّم في خبر هود وهلاكِ عاد بالريح العقيم، أن ملِكهم القائمَ بأمرهم في زمن هود كان اسمه الخَلَجان بن الوهم بن عاد، وأنه هلك بالريح العقيم إثْر هَلاكِ قومه، ولم يَرِد أنّه آمن بالله تعالى؛ وهذه الأبيات تدلّ على ندم قائلها؛ ومقتضى هذا السياق فيه دَلالة على أن شدّاد بن عاد هذا المذكورَ آنفًا، وابنَه مرثد بن شدّاد وخبرَ إرم ذات العماد، كان قبل مبعث هود عليه السلام والله تعالى أعلم.

ولنرجع إلى قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الباب السادس

من القسم الأوّل من الفنّ الخامس في قصة صالح ـ عليه السلام ـ مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم

قال الكسائيّ: قال كعب: لما أهلك الله عزّ وجلّ عادًا، جاءت ثمود وعَمَرت الأرض، وكانوا بضع عشرة قبيلة، في كلّ قبيلة زيادةٌ عن سبعين ألفًا سوى النساء

(١) هو شدّاد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حمير، من قحطان، ملك يماني جاهلي قديم، من ملوك الدولة الحميرية، وكان حازمًا مغوارًا، غزا البلاد فبلغ أرمينية، وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب يبني المدن ويتخذ المصانع، وبنى قصره في مأرب إلى جانب السّد «الأعلام ٣/ ١٥٨».

والذرّية، وكثروا حتى صاروا في عدد عادٍ وأكثر، وكانوا ذوي بطش وقوّة وتجبّر وكفر وفساد، وكانت منازلهم ما بين الحِجاز إلى الشأم، وهي ديار الحجْر[١] من وادي القُرى[٢]، وكان ملِكهم جُنْدَع بن عمرو بن عاد بن ثمود بن إرم بن سام بن نوح.

وقيل في نسبه: إنّه جُنْدَع بن عمرّد بن عمرو بن الدُّمَيْل بن عاد بن ثمود بن عائذ بن إرم بن سام، وكانت طائفة ممّن آمنت بهودٍ يذكرون له كيف أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم[٣]، وكيف كانت سيرة هود فيهم؟ فيقول: إنّما هلكتْ عاد لأنها لم تكن تشيّد بنيانها: ولا تنصح آلهتها، وكان بنيانهم على الأحقاف التي هي الرمال، ونحن أشدّ قوّة وبناء وبلادًا، ونحن نتخذ الجبال بيوتًا فننحتها في الصخر لئلّا يكون للرّيح عليها سبيل، ونحن نعبد آلهتنا حقَّ العبادة.

قال كعب: كانت قوّة الرجل منهم أن ينحت في الجبل بيتًا طوله مائة ذراع في عرض مِثلِ ذلك، ويضربَه بصفائح الحديد، ويُغَلّق بابًا من حديد مصمَت[٤] لا يفتحه إلّا القويُّ منهم، وكانت منازلهم أوّلًا بأرض كوش في بلاد عالج[٥]، فانتقلوا إلى هذه البلاد لكثرة جبالها.

قال: ثم اجتمع كبراؤهم إلى ملكهم جُنْدَع، وقالوا: نريد أن نتّخذ لأنفسنا إلـٰهًا نعبده، لم يكن مِثله لقوم عاد ولا قوم نوح. فأذن في ذلك، فنحتوا صنمًا من جبل يقال له: (الكثيب) وجعلوا وجهه كوجه الإنسان، وعنقَه وصدره كالبقر ويديه ورجليه كالخيل، وضربوه بصفائح الذهب والفضّة، وعقدوا على رأسه تاجًا، ورصّعوه بالدرّ والجوهر؛ فلمّا كمل خرّوا له سجّدًا، وقرّبوا القربان، وأقبلوا إلى الملِك فقالوا له: اخرج إلى هذا الإلـٰه الّذي أتعبنا أنفسَنا في اتّخاذه. فخرج الملِك إليه في زينته وأصحابه؛ فلما رأوه خرّوا له سجّدًا؛ ثم أمر الملِك أن يُتّخذ له بيت، وأن يسقَّف

---

(١) الحجر: قرية قليلة السكان صغيرة، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال وبها كانت منازل ثمود «معجم البلدان ٢/ ٢٢١».

(٢) وادي القرى: هو وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القرى والنسبة إليه واديّ «معجم البلدان ٥/ ٣٤٥».

(٣) الرّيح العقيم: الرّيح الشّديدة الحرّ التي لا تترك شيئًا إلّا وتهلكه.

(٤) المصمت: المغلق المبهم، وجدارٌ مصمت: لا فرجة فيه.

(٥) عالج: رمال بين قَيد والقُريات ينزلها بنو بحتُر من طيىء، وهي متصلة بالثعلبية على طريق مكة، لا ماء بها ولا يقدر أحدٌ عليهم فيه، وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوبار «انظر معجم البلدان ٤/ ٧٠».

بصفائح الذهب والفضّة، ويرصّع بالجوهر، وتُفْرش أرضه بالدِّيباج؛ وأمر أن تُتّخذ لسائر الأصنام بيوت، وأن يتخذ سرير من العاج والآبنُوس[١] على عرض البيت، قوائمه من الفضّة، وأن تعلّق قناديل الفضّة بسلاسل الذهب وأمر أن يُجعل للبيت مصراعان في كلّ مصراع مائة حَلْقة من الذهب والفضّة ويعلّق عليهما سِتْران، وسمّاهما ستورَ العزّ، ووضع الصنم على ذلك السرير، وسائر الأصنام الصغار على كراسيِّ العاج والآبنُوس؛ وأمر أن يُنْدَب لخدمة الأصنام رجل من أشراف قومه وأحسنِهم وأنسبِهم؛ فقالوا: ليس في ثمود أشرف نسبًا وأجمل وجهًا من كانوه[٢]. فاستدعاه وقرّبه وتوّجه وسوّده[٣]، وجعله على خدمة الأصنام؛ فقبل ذلك، وتفرّغ لخدمتها وعبادتها، وقوم ثمود يعبدون ذلك الصنم، وقد ازدادوا عتوًّا وتجبّرًا وكفرًا وفسادًا، والله تعالى يزيدهم سَعة وخِصبًا، وهم يرون أن ذلك كلّه من بركات أصنامهم.

ذكر ميلاد صالح ـ عليه السلام ـ

قال: فبينما كانوه في بيت الأصنام إذ تحرّكتْ نطفة صالح[٤] في ظهره، وصار لها نور على عينيه، وسمع هاتفًا يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٨١] ألا بعدًا وسحقًا لثمود لكفرهم، وهذا صالح بن كانوه يصلح الله به الفساد. ففزع من ذلك، وذهب ليتقدّم إلى الصنم الأكبر، فنطق بإذن الله وقال: ما لي وما لك يا كانوه، مثلك يخدمني وقد استنارت الأرض بنور وجهك للنور الذي في ظهرك؟! ثم تَنكّس الصنم عن سريره، فأعاده كانوه وأعوانهُ إلى السرير، وبلغ الملِكَ ذلك، فاغتمّ له؛ فقال له أصحابه: إنّ هذا لسوء خدمة كانوه فإنّه لا يوفّي الآلهة حقَّها في الخدمة. وهمّوا بقتله، فأخفاه الله تعالى عن عيونهم؛ فلمّا كان الليل هبط عليه ملَك من السماء، فاحتمله وهو نائم، وألقاه في وادٍ على أميال من ديار قومه وهو لا يدري في أي موضع هو، فنظر غارًا في جبل هناك، فدخله ليكنّه[٥] من حرّ الشمس ونام، فضرب الله على أذنه مائة سنة[٦]، وفقدَه قومُه، ونصبوا لخدمة أصنامهم رجلًا منهم يقال له: داود بن عمرو، فبينما هم كذلك وقد خرجوا في يوم عيد لهم إذ

---

(١) الآبنوس: شجر في إفريقيا الاستوائية خشبه أسود صلب ثقيل.
(٢) في الأصول «كانول» والتصويب عن تاريخ العيني.
(٣) سوّده: جعله سيّدًا.
(٤) هو نبي الله صالح الذي أُرسل إلى ثمود.
(٥) ليكنّه ليستره.
(٦) ضرب الله على أذنه مائة سنة: أي أماته أو جعله في نومٍ متّصل كلّ هذه المدّة...

نطقت الأشجار بإذن الله وقالت: يا آل ثمود، ألا تعتبرون، إنّ الله يُخرج لكم في السنة من الثمار مرّتين، ثم تكفرون بنعمة ربّكم وتعبدون سواه. ونطقت المواشي كذلك فعمدوا إلى الأشجار فقطّعوها، وعقروا المواشي؛ فنطقت السباع ونادت من رؤوس الجبال: ويلكم يا آل ثمود، لا تقطعوا هذه الأشجار وتذبحوا هذه المواشي وقد نطقتْ بالحقّ. فخرجوا إلى السباع بالأسلحة وهي تَهْرب من بين أيديهم وتستغيث بالله وتقول: اللهم طهّر أرضك بنبيّك صالح، وارفع به الفساد. والقوم يسمعون ذلك ويقولون: قد كفر هؤلاء بآلهتنا.

قال: وكان لكانوه في ديار قومه امرأة يقال لها: (رعوم) وهي كثيرة البكاء عليه منذ فقدته؛ فبينما هي ذات ليلة وإذا بغراب نَعَق، فقامت لتنظر إليه، فرأته على مثال الغراب، ورأسه أبيض، وظهره أخضر، وبطنه أسود وهو أحمر الرجلين والمنقار، وأخضر الجناحين؛ فقالت: أيها الطائر، ما أحسنك! فقال: أنا الغراب الّذي بُعثتُ إلى قابيلَ فأريتُه كيف يواري[1] سوءة[2] أخيه، وأنا من طيور الجنّة، وإني أراكِ باكية حزينة. فقالت: إني فقدتُ زوجي منذ مائة عام. فقال: اتبعيني فإنّي أرشدك إليه. فتبعته، وطُويتْ لها الطريق حتى وقَفَها على باب الغار، ونادى الطائر: قم يا كانوه، قم بقدرة الله. فقام ودخلت إليه زوجته، فواقعها، فحملت ـ بإذن الله تعالى ـ بصالح. وقبض الله كانوه لوقته؛ وعادت رعوم والغراب يدلّها على منزلها؛ فلما انقضت مدّة حَملها، وضعتْ في ليلة الجمعة من شهر المحرم، فوقعتْ هزّة شديدة في بلاد ثمود لمولده، وخرّت الوحوش والسباع ساجدة لله تعالى، وأصبحت الأصنام وقد تنكّست[3]؛ فأقبل داود وأخبر الملكَ بخبرها؛ فجاء بأشراف ورفعوها على مراتبها وأسرّتها، وتقدّم الملك إلى الصنم الأكبر وقال: ما دهاك؟ فناداهم إبليس منه: قد وُلد فيكم غلام يدعوكم إلى دين هود ليس عليكم منه بأس.

فخرج الملك ومَن معه مستبشرين.

ونشأ صالح، حتى إذا بلغ سبع سنين أقبل على قومه وهو يقول: يا آل ثمود، تنكرون حَسَبي ونسبي، أنا فلان بن فلان. فيقولون: إنك من أحسبنا وأنسبنا؟ حتى إذا بلغ عشر سنين إذ أقبل عليهم ملِك من أولاد سام، كان يغزوهم في كلّ سبع سنين مرّة فيَسلُب أموالهم؛ فوثب صالح إلى سيف أبيه وسلاحه وخرج يعدو، وإذا هو

---

(١) يواري: يدفن في التّراب. (٢) السوءة: هنا الجثّة.
(٣) تنكّست: انقلبت.

بالملك جُنْدَع وسادات قومه قد اجتمعوا، وقد انتزع الملك منهم أموالهم، وهم لا يستطيعون دفعه عنها لكثرة جموعه؛ فصاح بهم صالح صيحة أزعجتهم، وألقى الله الرعب في قلوبهم، واستنقذ منهم جميع ما أخذوه من قومه.

فعجب جندع وأصحابه منه، وأقبلوا يقبّلون صالحًا ويكرمونه؛ فخشي الملِك على مُلكه أن يعزلوه ويولّوا صالح بن كانوه، فهمّ أن يقتله، ودسّ إليه جماعة من خواصّه فدخلوا منزله، فأيبس الله أيديَهم عنه، وأخرس ألسنتهم؛ فعلم الملِك أنّه معصوم، فبعث يسأله فيهم؛ فدعا لهم، فأطلق الله أيديهم وألسنتهم، وبقي صالح مكرّمًا معظّمًا في قومه.

ذكر مبعثه ـ عليه السلام ـ

قال: ولمّا أتى عليه أربعون سنة بعثه الله عزّ وجلّ رسولًا إلى قومه؛ فجاءه جبريل بالوحي عن الله، وأمره أن يدعوهم إلى قول ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصَّافات: الآية ٣٥] والإقرار بأن صالحًا عبده ورسوله، وترك عبادة الأصنام، وأعلمه بما سيظهر على يديه من العجائب.

قال: فأقبل صالح إلى قومه في يوم عيد لهم وقد نصبوا أصنامهم واجتمعوا على يمينها وشمالها، والملِك جُنْدَع مشرف عليهم ينظر إليهم وإلى قربانهم؛ فتقدّم حتى وقف على الملك وقال: قد علمت نصحي لك أبدًا، وقد جئتك رسولًا أدعوك إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله، وأنّي صالح رسول الله. فقال الملك له: إن قبائل ثمود لا ترضى أن يكون مِثلك رسولًا إليهم، غير أنّي أنظر فيما تقول، فعُد إليّ غدًا.

ثم أصبح الملِك ودعا بأشراف قومه، وأخبرهم بخبر صالح؛ فقالوا: أحضِرْه حتى نسمع ما يقول. فأحضره فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هُود: الآية ٦١]، فقال له نفر منهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هُود: الآيتان ٦٢، ٦٣]، فقال له الملِك: كيف خصّك ربّك بالرسالة من بيننا، ورفعك علينا وفي قبائل ثمودَ من هو أعزّ منك؟ فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: الآية ٢١]، ثم قال: يا قوم اتقوا الله وأطيعون، ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ

مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٤٥ - ١٤٨] أي ليّن، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٤٩] أي حاذقين، ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٥٠ - ١٥٤].

قال: فأقبل الملك عليهم وقال: قد عرفتم صالحًا في حسبه ونسبه، وأنا رجل منكم؛ فما تقولون؟ وما عندكم من الرأي في أمره؟ قالوا: أيّها الملك ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القَمَر: الآية ٢٥]، قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القَمَر: الآية ٢٦].

قال: فآمن به منهم جماعة، وخرج صالح من عند الملك، فأمره الله تعالى أن يبني مسجدًا لنفسه ولمن معه من المؤمنين، فأعانته الملائكة على بنائه؛ فلمّا كمل جاءه جبريل بشجرة فغرسها على باب المسجد، وأنبع الله له عينًا من الماء العذب.

وكان صالح يخرج في كلّ يوم إلى قبيلة من قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويعظهم بأيّام عاد وما حلّ بهم فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ٧٥]، فكان المستضعفون يقولون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٥]، والمتكبّرون يقولون: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٦].

ولم يزل صالح يدعوهم حتّى استكمل سبعين عامًا؛ ثم أعقم الله نساءهم وجفّت أشجارهم فلم تثمر، ولم تضع لهم بقرة ولا شاة.

ثم لم يزل يدعوهم حتى استكمل مائة سنة وهم لا يزدادون إلا كفرًا؛ فلمّا أيس منهم خرج يريد أن يدعو عليهم بالهلاك، وقال لقومه: لا تبرحوا حتى أعود إليكم. وقصد جبلًا فطاف به حتى أمسى، فنظر إلى عين ماء، فتقدّم وتوضأ وقام ليصلّي ويدعو على قومه، فرأى في الجبل كهفًا، فدخله فرأى فيه سريرًا من الذهب، عليه فُرُش الحرير، وفي وسط الكهف قنديل؛ فعجب من ذلك، وصعد على السرير، فضرب الله على أذنه فنام أربعين سنة؛ وأخذ قومُه في العبادة؛ فكان يموت منهم الواحد بعد الواحد، فيدفن إلى جانب المسجد، ويكتب على قبره: «هذا فلان ابن فلان».

قال: ثم بعث الله عزّ وجلّ صالحًا من نومته، فخرج من الكهف وتوضّأ وصلّى ركعتين، وأراد أن يدعوَ على قومه؛ فقيل له: لا تعجل عليهم، فإنّ عَجَلتك غيّبتك عن قومك أربعين سنة.

فعاد إلى قومه، وإذا برسوم وآثار لا يعرفها، وأشرف على مسجده وهو خراب ليس فيه إلّا الملائكة يحفظونه من فُسّاق أهل ثمود؛ فقال: إلٰهي ما فعل أهل هذا المسجد؟ فنادته الملائكة: مات بعضهم ورجع الباقون إلى دينهم الأوّل لمّا أيسوا منك.

ثم أمره الله تعالى أن يأتي قومَه ويدعوهم إلى عبادة الله والكفّ عن عبادة الأصنام؛ فأقبل وهم مجتمعون في يوم عيدهم ومعهم مِلكُهم، فناداهم: قولوا (لا إلٰه إلا الله وإني صالح رسول الله) يا قوم إني أرسلت إليكم مرّة وهذه أخرى.

فتحيّروا وتساقطتْ أصنامهم، ونطقت الدوابّ: جاء الحقّ من ربّنا. قال له الملك: مَن أنت؟ قال: أنا صالح. قال: أليس قد بقي صالح فينا طويلًا وغاب عنّا منذ مدّة طويلة؟ ما أنت إلّا ساحر جئتنا بعده. وهمّ بقتله.

وكان للملك ابن عمّ يقال له: هذيل، فقال: يا صالح، لا نحتاج إلى نصحك فانصرف عنّا. فقال: يا هذا أما إنك ميت في يومك هذا أنت وأهلك وولدك في وقت كذا وكذا، وفي غد يموت أبوكَ وأمّك، فبادِرْ إلى الإيمان، فإن آمنتَ أحياكَ الله وجعلك حجّة على قبائل ثمود.

فانصرف الرجل وهم ينظرون إلى الوقت الذي ذكره صالح؛ فلما جاء الوقت مات الرجل وأهله وولده، وانتشر الخبر في قبائل ثمود، ومات أبوه وأمّه من الغد؛ فعجب الناس وجزعوا، وخاف الملك.

وأقبل صالح فقال: يا آل ثمود، كيف كان هذا الميّت عندكم؟ قالوا: خير رجل حتى مات. قال: فإن أحياه الله بدعائي، أتؤمنون بي وبإلٰهي وتبرأون من أصنامكم؟ قالوا: نعم. فجاء صالح إلى الميت فدعا ربّه، ثم ناداه باسمه فقال: لبّيك يا نبيّ الله، وقام وهو يقول: (لا إلٰه إلا الله صالح عبد الله ورسوله).

فلما عاين قومه ذلك ازدادوا كفرًا، ودخلوا على صنمهم وشكوا ما يلقونه من صالح؛ فنطق إبليس من جوفه وقال: انصرفوا إلى ما أنتم عليه؛ وإذا رأيتم صالحًا فقولوا: ائتنا ببرهان كما أتى به هود ونوح.

فخرجوا مسرورين حتى أتوا صالحًا، فقال لهم: قد رأيتم وسمعتم كلام الوحش والطير وإحياءَ الموتى وغيرَ ذلك من الآيات ما فيه كفاية، فأيّ آية تريدون؟ قالوا: نخرج نحن وأنت إلى هذا الوادي، وندعو وتدعو، وننظر أيّ الدعوتين تستجاب؛ وتواعدوا إلى يوم عيدهم.

فلمّا كان في ذلك اليوم اجتمعوا وخرجوا بأصنامهم وزينتهم؛ وأقبل صالح يخترق صفوفهم؛ حتّى وقف أمام ملِكهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله. قالوا: أرنا آية. قال: ما تريدون؟ قالوا: أخرِج لنا ناقة من هذه الصخرة ونؤمن بك ونعلم أنّك صادق. قال: إنّ ذلك هيّن على ربّي، ولكن صفوها لي.

فأقبل القومُ يصف كلٌّ منهم صفة حتى أكثروا. فقال الملِك: إنّ هؤلاء قد أكثروا وأنا أصفها بما في قلبي: تكون ناقة ذات فَرْث ودم ولحم وعظم وعَصَب وعروق وجلد وشَعر يخالطه وبر، وتكون شَكلاء[١] شقراء هيفاء، ولها ضَرع كأكبر ما يكون من القلال[٢]، يدرّ من غير أن يستدرّ[٣]، يشخب لبنًا غزيرًا صافيًا، ويكون لها فصيل[٤] يتبعها على مثالها، فإذا رغت أجابها بمِثل رُغائها، ويكون حنينها[٥] الإخلاص لربّك بالتوحيد، والإقرار لك بالنبوّة، فإن أخرجتَها على هذه الصفة آمنّا.

فأوحى الله إليه: أن أعطهم ما سألوا. فقال لقومه: إن الله قد شفّعني في حاجتكم، فإن أخرجتها تؤمنون؟ قالوا: نعم، على شرط أن يكون لبنها ألذّ من الخمر وأحلى من العسل. قال: إن أخرجها ربّي تؤمنون؟ قالوا: نعم على شرط أن يكون لبنها في الصيف باردًا، وفي الشتاء حارًا، لا يشربه مريض إلّا بريء، ولا فقير إلّا استغنى. قال: إن أخرجها ربّي أتؤمنون؟ قالوا: نعم، على شرط ألّا ترعى من مراعينا، بل في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وتذر ما على الأرض لمواشينا. قال: إن أخرجها ربّي أتؤمنون؟ قالوا: نعم، على شرط أن يكون الماء لنا يومًا ولها يومًا، ولا يَفوتنا اللّبن، وتدخل علينا بالعشيّات في بيوتنا وتسمّى كلّ واحد منّا باسمه، وتنادى: «ألا من أراد اللّبن»؟ فيخرج ويضع ما يريد تحت ضرعها، فيمتلىء لبنًا من غير احتلاب. قال أتؤمنون حقيقة؟ قالوا: نعم. قال صالح: قد شرطتم شرائط كثيرة،

---

(١) الشكلاء: أي في لونها بياض مخطط بحمرة.
(٢) القلال: جمع قلة، وهي الجرّة والخابية.
(٣) يُستدر: يحلب أي يُخرج درّه.
(٤) الفصيل: ولد النّاقة.
(٥) الحنين: صوت الناقة.

وأنا أشترط عليكم: لا يركبها أحد منكم، ولا يرميها بحجر ولا سهم، ولا يمنعها من شربها ولا فصيلها.

قالوا: هذا لك يا صالح. فأخذ عليهم المواثيق.

ذكر خروج الناقة

قال: فلمّا انتهت شروطهم وشروطه، وأخذ عليهم المواثيق، قام وصلّى ركعتين، ودعا، فاضطربت الصخرة وتمخّضت[١]، وتفجّر من أصولها الماء، والقوم ينظرون، وسمعوا دويًا كدويّ الرعد، فرفعوا رؤوسهم، فإذا بقبّة تنقضّ من الهواء فانحدرتْ على الصخرة وحولها الملائكة؛ ثم تقدّم صالح إلى الصخرة فضربها بقضيب كان بيده، فاضطربت وتشامخت[٢] صُعُدًا؛ ثم تطامنتْ[٣] إلى موضعها؛ ثم خرج رأس ووثبتْ من جوفها على الصفة كأنّها قطعة جبل، فوقفتْ بين يدي المَلِك وقومه وهي أحسن ممّا وصفوا، وهي تنادي: (لا إلـٰه إلا الله، صالح رسول الله).

ثم مرّ جبريل على بطنها بحربة، فخرج فصيلها على لونها.

ثم نادت: «أنا ناقة ربّي، فسبحان من خلقني وجعلني آيةً من آياته الكبرى».

فلما رأى الملِك ذلك قام عن سريره وقبّل رأس صالح، وقال: يا معشر قبائل ثمود، لا عمى بعد الهدى، أنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن صالحًا رسول الله.

وآمن معه في ذلك اليوم خلق كثير من أهل مملكته وغيرِهم؛ فلمّا رأى داود خادمُ الأصنام ذلك نادى بصوت رفيع: يا آل ثمود، ما أسرع ما صبوتم[٤] إلى هذا الساحر، إن كانت الناقة قد أعجبتكم فهلمّوا إلى آلهتكم فسلوها حتى تُخرج لكم أحسن منها.

فوقفوا عن الإيمان، وعمدوا إلى شهاب أخ الملك، فملّكوه عليهم؛ ودخل جُنْدَع المدينة فكسر الصنم الذي كان يعبده، وفرّق أمواله على المؤمنين، ولبس الصوف، وعبد الله حقّ عبادته، وكانت الناقة تتبع صالحًا كاتّباع الفصيل لأمّه؛ فلمّا كان بعد ذلك أقبلت ثمود على صالح، وقالوا: إن لم نمسّ الناقة بسوء يصرفُ ربّك عنّا عذابه؟ قال: نعم، إلى منتهى آجالكم. وكانت الناقة تخرج وفصيلها

---

(١) تمخّضت: تحرّكت.

(٢) تشامخت: ارتفعت.

(٣) تطامنت: انخفضت.

(٤) صبوتم: من صبا يصبو أي مال.

خلفَها، فتصعد إلى رؤوس الجبال، ولا تمرّ بشجرة إلّا التفّت عليها أغصانُها فتأكل أطايب أوراقها؛ ثم تَهبِط إلى الأودية فترعى هناك، فإذا أمست تدخل المدينة وتطوف على دُور أهلها، وتنادي بلسان فصيح: ألا من أراد منكم اللّبن فليخرج. فيخرجون بآنيتهم، فيضعونها تحت ضرعها، واللّبن يشخب حتى تمتلىء الآنية؛ فإذا اكتفوا عادت إلى المسجد، وتسبّح الله حتى تصبح؛ ثم تخرج إلى المرعى وهذا دأبها.

قال: وكان للقوم بئر يشربون منها ليس لهم سواها، فإذا كان يوم الناقة تأتي وتدلّي رأسها فتشربه وتقول: «الحمد لله الذي سقاني من فضل مائه، وجعلني حجّة على آل ثمود».

وكانت تَمُجُّ من فِيها إلى فم الفصيل حتّى يَروى؛ فإذا كان يوم القوم أتوا البئر ونزحوا ما فيها؛ وكانت الناقة تقول إذا أصبحت: إلٰهي كلّ من شرب من لبني وآمن بك وبرسولك فزده إيمانًا ويقينًا، ومن لم يؤمن بك وبرسولك فاجعل ما يَشرب من لبني في بطنه داء لا دواء إنّك على كلّ شيء قدير.

ذكر خبر عَقر(١) الناقة وهلاك ثمود

قال: فلما كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شربوا لبنها اعترتهم الحِكّة في أبدانهم؛ فاجتمعوا وقالوا: ليس لنا في هذه من خير؛ وأجمَعوا على عَقرها؛ وكانت فيهم امرأة يقال لها: عُنيزة بنت غُنْم بن مجلز(٢)، وتُكنَى أمَّ غُنْم، وهي من بنات عبيد(٣) بن المهيل، وكانت امرأةَ ذؤاب بن عمرو، وهي عجوز مسنّة، ولها أموال ومواش، ولها أربع بنات من أجمل النساء، وبجوارها امرأة يقال لها: صَدُوف بنت المحيّا بن فهر، ولها أيضًا مواشٍ كثيرة؛ فدَعَتا قومهما إلى عقر الناقة، فلم يجيبوهما إلى ذلك؛ فبينما صَدُوف كذلك إذ مرّ بها رجل يقال له الحباب(٤) ـ وكان مولَعًا بالنساء ـ فعرضت نفسها عليه على أن يعقر الناقة؛ فامتنع، فقالت له: لقد جَبُن قلبك، وقَصُرت يدك. وتركته؛ وأقبلت على ابن عمّ لها يقال له: مِصْدَع فكشفت عن وجهها، وعرضت نفسها عليه على أن يُصدِقها عَقرَ الناقة؛ فأجاب.

---

(١) العقر: هو قطع إحدى القوائم من الناقة لتسقط وتذبح، وعقره: نحره.
(٢) في الأصول «مخلد» والتصويب عن تفسير الطبري ٨/ ١٦٠.
(٣) في الأصول «العند» والتصويب عن تفسير الطبري ٨/ ١٦٠.
(٤) في الأصول «الجناب» والتصويب عن تفسير الطبري ٨/ ١٦٠.

وأقبلت صَدوف إلى عُنيزة فأخبرتها بذلك، ففرحت به. قالت: إلّا أنه منفرد، ولكن قومي إلى عزيز ثمود قُدَار، فإنه شابّ لم يتزوّج، فاعرضي عليه بناتك لعله يفعل؛ ففعلت عُنيزة ذلك، وزيّنت بناتها، وأقبلت بهنّ إلى قُدار، وكان أقبح رجل في ثمود، وكان في عينيه زُرقة، وكأنّهما عدستان، وأنفه أفطس ولحيته بطوله، غير أنه كان يمرّ بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها؛ فلمّا رأته عُنيزة رجعت ببناتها إلى صَدوف، وقالت: من تطيب نفسُه أن يزوّج مِثلَ هؤلاء من هذا؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهنّ إليه، وعرضتهنّ عليه؛ فاختار منهنّ (الرّباب)، وأجاب إلى عَقر الناقة، واجتمع إليه «مصدع وأخوه[١] ورُعَيْن وداود خادم الأصنام وريّان ولبيد والمصرد وهُزَيل ومفرّج»[٢] فهؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله في كتابه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النَّمل: الآية ٤٨].

فطافوا بأجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عَقر الناقة؛ فرضي بذلك كبيرهم وصغيرهم، واجتمع هؤلاء التسعةُ بسيوفهم وقِسِيِّهم[٣]، وذلك في يوم الأربعاء، وقعدوا ينتظرون الناقة، فأقبلتْ حتى قرِبت من البئر؛ فنادت عُنيزة: يا قدار، اليومَ يومُك، فأنت السيّد في قومك. قال الله: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: الآية ٢٩].

قال: فشدّ قُدارُ قوسَه ورماها بسهم فأصاب لَبَّتَها[٤]، وهو أوّل من رماها، ثم مِضْدَع، وأقبلوا عليها بالسيوف فقطّعوها، وأنذرت فصيلها، فهرب إلى رأس جبل، ودعا باللّعنة على ثمود، فاتبعه القوم وعقروه، وتقاسموا لحمه.

وحكى الثعلبيّ في كتابه المترجَم (بيواقيت البيان في قصص القرآن): أنّ الفصيل لمّا عُقرت الناقة أتى جبلًا منيعًا يقال له: صُور[٥]. وقيل: اسمه فارِه؛ وأن صالحًا لمّا بلغه عقر الناقة أقبل إلى قومه، فخرجوا يتلقّونه ويعتذرون إليه ويقولون: إنّما عقرها فلان وفلان، ولا ذنب لنا.

---

(١) في كتاب الكسائي «قصص القرآن» وآخر اسمه حراب.
(٢) يلاحظ أن هذه الأسماء التسعة، قد اختلفت فيها الرّوايات والمصادر اختلافًا بيّنًا لم يجعل بينها تقاربًا في رسم الحروف.
(٣) القسيّ: جمع «قوس».
(٤) اللُّبَّة: موضع القلادة من الصّدر.
(٥) كذا ورد هذا الاسم في تفسير الطبري.

فقال لهم صالح: انظروا، هل تدركون فصيلها؟ فعسى أن تدركوه فيُرفَع عنكم العذاب. فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن يتطاول؛ فتطاول في السماء حتى ما يناله الطير؛ وجاء صالح، فلمّا رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه؛ ثم دعا ثلاثًا فانفرجت الصخرة حتّى دخلها؛ فقال صالح: بكلّ دعوة أجل يوم فتمتَّعوا ﴿فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هُود: الآية ٦٥].

نرجع إلى رواية الكسائيّ، قال: وصاح قُدار بأصحابه: هلمّوا[١]. فقدموا فأمرهم أن يقطّعوا لحم الناقة؛ فقطّعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب، وصالح لا يعلم بذلك، فنادته الوحوش: يا صالح، هتكتْ ثمود حرمة ربّها، وتعدّوا أمره. فأقبل بالمؤمنين من قومه؛ فلمّا رآها بكى وقال: إلـٰهي أسألك أن تنزل على ثمود عذابًا من عندك.

فأوحى الله إليه: أن أنذر قومك بالعذاب. فبشَّرَهم بعذاب الله. فقالوا له: افعل ما بدا لك، فقد عقرناها، وقد أنذرت بالعذاب منذ بعيد وما نرى له أثرًا. فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هُود: الآية ٦٥]. وبات القوم ليلتهم، فلمّا أصبحوا تفجّرت آثار وطء الناقة[٢] بعيون الدم، وظهرت الصفرة في ألوانهم؛ فقالوا: يا صالح، ما هذا التغيّر في ألواننا وبلادنا؟ قال: غَضِب ربّكم عليكم. فأجمعوا على قتله، وقالوا: إذا قتلناه امتنع عنّا سحره ولا تُمكِنه الإساءة إلينا. فتقدّم التسعة لقتله عندما أقبل الليل، فوقف لهم جبريل ورمى كلَّ واحد منهم بحجر فقتله.

فلمّا كان من الغد نظرتْ ثمود إليهم وقد قُتلوا، فقالوا: هذا من فعل صالح. فعزموا على الهجوم عليه وقتلِه، فأمره الله تعالى بالخروج من المسجد، فجاؤوا ليقتلوه فما رأوه، وأصبحوا في اليوم الثاني وقد احمرّت وجوههم، وفي اليوم الثالث اسودّت، فأيقنوا بعذاب الله، وحفروا لأنفسهم حفائر، ولأهليهم وأولادهم ولبسوا الأنطاع[٣]، وجلسوا في الحفائر ينتظرون العذاب، وصالح يخوّفهم وينذرهم عذابَ الله وهم لا يبالون به.

---

(١) هلُمَّ: كلمة دعاء إلى الشيء نحو: هلمَّ إلى العمل.
(٢) آثار وطء الناقة: أي آثار أخفافها على الأرض.
(٣) الأنطاع: مفردها «النطع» وهو بساط من جلد يفرش تحت جسد المحكوم عليه بالعذاب أو القتل.

فلما كان في اليوم الرابع ـ وهو صَبيحة الأحد ـ أرسل الله تعالى جبريل فنشر جناح غضبه، وأتاهم بشرارة من نارِ لظى، وجعل يرميهم منها بجَمْر متوهِّج كأمثال الجبال، وثمود باركة في حفائرها.

وأخذ جبريل بتُخوم الأرض، فزُلزلت بيوتهم وقصورهم، ثم نشر جناح غضبه على ديار ثمود، وصاح صيحة، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القَمَر: الآية ٣١].

ثم أقبلتْ سحابة سوداء على ديارهم، فرمتهم بوَهَج الحريق سبعة أيّام حتّى صاروا رمادًا.

فلمّا كان في اليوم الثامن انجلت السحابة وطلعت الشمس، وجاء صالح بمن معه من المؤمنين، فطاف بديارهم، واحتملوا ما قدروا عليه من أموالهم وارتحل بقومه إلى أرض الشأم، فنزل بأرض فِلَسْطين، وأقام عليه السلام حتى مات.

الباب السابع
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في أخبار أصحاب البئر المعطَّلة والقصر المشَيد
وما كان من أمرهم وهلاكهم

قال الكسائيّ: قال كعب: لمّا قبض الله تعالى نبيّه صالحًا عليه السلام بأرض فلسطين، خرج أصحابه إلى بلاد اليمن فتفرّقوا فرقتين: فنزلت إحداهما بأرض عَدَن، وهم أصحاب البئر المعطَّلة، والثانية صارت إلى (حضرموت) (والقصر المشيد) وهو قبل البئر؛ والذي بناه رجل يقال له: جند بن عاد، وذلك لأنه رأى ما نزل بقوم هود من الريح، فعزم على بناء قصر مشيّد، فبالغ في تشييده، وانتقل إليه، وكان له قوّة عظيمة، فكان يقتلع الشجرة، ويمرّ بيده في الجبل فيخرقه وكان مولَعًا بالنساء، فتزوّج زيادة عن سبعمائة امرأة، ورزق من كلّ امرأة ذكرًا وأنثى؛ فلمّا كثر ولده وقومه طغى في الأرض وتجبّر، وكان يقعد في أعلى قصره مع نسائه فلا يمرّ به أحد إلّا أمر بقتله؛ فلمّا كثر فساده أهلكه الله بصيحة جبريل جاءته من قبل السماء فأهلكته هو وأولاده وقومه.

قال الكسائيّ: ولا يجسر[1] أحد أن يدخل إلى القصر ممّا نزل بسكّانه.

قال: ويقال: إنّ فيه حيّة عظيمة، وإنّه يُسمع من داخله أنين كأنه المريض.

وأما البئر المعطّلة - فهي بأرض عَدَن، وكان أهلها على دين صالح، وكان المطر ينقطع عنهم في بعض الأوقات حتّى يبلغ بهم الجهد، فيحملون الماء من بلد بعيد، فأعطاهم الله تعالى هذه البئر على ألّا يُشرِكوا به شيئًا، ويعبدوه حقّ عبادته وكانوا معجَبين بها، قد بنَوها بألوان الصخور، وبنَوا حولها حياضًا بعدد قبائلهم؛ وكان لهم مَلِك يسوسهم[2]، فلما مات حزِنوا عليه حزنًا عظيمًا؛ فأقبل عليهم إبليس وقال: ما بالكم بهذا الحزن؟ قالوا: كيف لا يكون كذلك وقد فقدنا مَلِكَنا مع إحسانه إلينا. قال: إنّه لم يمت، ولكنّه احتجب عنكم لغضبه عليكم، ولكونكم لم تعبدوه.

وانطلق إبليس فاتخذ لهم صنمًا على صورة المَلِك، ونصبه على سريره، وقال: هلمّوا إلى الملِك فاسمعوا كلامه.

فأقبلوا حتى وقفوا مِن وراء السِّتر، ووَقَفَ إبليس في جوف الصنم شيطانًا يكلّمهم بلغة لا ينكرون أنّها لغة الملك؛ ثم قال إبليس: استمعوا. فكلّمهم الشيطان من الصنم وقال: يا آل ثمود، ما لي أراكم تبكون؟ قالوا: لفقدك. قال: قد كذبتم، لو كنتم تحبّونني كما تقولون كنتم عبدتموني، وقد كنت فيكم أربعمائة سنة ما فيكم من سجد لي سجدة واحدة، والآن فقد ألبسني ربّي ثوبَ الألُوهيّة، فصيّرني فيكم لا آكل ولا أشرب ولا أنام، وأخبركم بالغيوب، فاعبدوني وسمّوني ربًّا، فإني أقربكم إلى ربّي زُلْفى[3].

قالوا: يا أيها الملِك، فلو رأينا وجهك. فرفع إبليس الحجاب حتى رأوه فلم ينكروا من صفاته شيئًا، فخرّوا له سجّدًا، واتخذوه ربًّا؛ وكان فيهم رجل من خيار قوم صالح اسمه حنظلة بن صفوان، ففارقهم ولحق بالحرم، وعَبَدَ الله حِينًا فرأى في منامه قائلًا يقول له: قد أمرك ربُّك أن تصير إلى قومك وتحذّرهم عذابه إن لم يرجعوا عن عبادة الأصنام، وتذكّرهم العهودَ في البئر، وإن لم يؤمنوا غار ماء البئر حتى يموتوا عطشًا.

---

(١) يجسُر: يجرؤ.

(٢) يسوسهم: يقودهم.

(٣) الزّلفى: القربى.

فانتبه وخرج من ساعته حتى أتى قومه، فأنذرهم ووعظهم، فهمّوا بقتله فعطّل الله تعالى بئرهم حتّى لم يجدوا فيها قطرة، فأتوا إلى صنمهم فلم يكلّمهم، وأتتهم صيحة من السماء، فهلكوا عن آخرهم.

ويقال: إنّ سليمان صَفَّد شياطين وحبسهم بهذه البئر؛ والله أعلم.

الباب الثامن
من القسم الأوّل من الفنّ الخامس
في خبر أصحاب الرسّ وما كان من أمرهم

قال الكسائيّ: قال كعب: إن أصحاب الرسّ كانوا بحضرموت، وكانوا كثيرًا، فبنَوا هناك مدينة كانت أربعين ميلًا في مثل ذلك، فاحتفروا لها القنوات من تحت الأرض، وسمَّوها رَسًّا، وكان ذلك أيضًا اسم مَلِكِهم؛ فأقاموا في بلدهم دهرًا طويلًا يعبدون الله تعالى حقّ عبادته؛ ثم تغيّروا عن ذلك وعبدوا الأصنام وكان ممّا أحدثوه[1] إتيانُ النساء في أدبارهنّ والمبادلةُ بهنّ، فكان كلٌّ منهم يبعث بامرأته إلى الآخر، فشَقّ[2] ذلك على النساء، فأتاهنّ إبليس في صورة امرأة وعلّمهنّ السّحاق ففعلنه، وهم أوّل من أتى النساء في أدبارهنّ وساحق؛ فاشتهرت هذه القبائح فيهم.

فبعث الله إليهم رسولًا اسمه حنظلة. وقيل: خالد بن سنان[3]. وقيل: ابن صفوان. فدعاهم إلى طاعة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وفعلِ القبائح وحذّرهم وذكّرهم ما حلّ بمن قبلهم من الأمم؛ فكذّبوه؛ فوعظهم دهرًا طويلًا وهم لا يرجعون، فضربهم الله بالقحط، فقتلوا نبيّهم وأحرقوه بالنار؛ فصاح بهم جبريل صيحة فصاروا حجارة سودًا، وخُسِفت مدينتهم.

وقيل: إن هذه المدينة لم يرها إلّا ذو القرنين[4]، وإنّه رآهم حجارة، ورأى

---

(١) أحدثوه: فعلوه ولم يُسبقوا إليه. (٢) شقّ: صعب.

(٣) هو خالد بن سنان العبسي، حكيم من أنبياء العرب في الجاهلية، كان في أرض بني عيسى يدعو الناس إلى دين عيسى، ومن آثاره أنه دخل نارًا فانطفأت بإذن الله، ووفدت ابنته على رسول الله ﷺ، فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وقال: ابنةُ بنيّ «ضيّعه أهله» «الأعلام ٢/ ٢٩٦».

(٤) ذو القرنين: ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة «الكهف» الآية ٨٣، وما بعدها، وقد جاء في صبح الأعشى أن ذا القرنين هو الملك إفريدون من ولد جمشيد، من الفرس، وهو الذي ملك جميع الأرض وقسّمها بين بنيه ومات «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠» ومن المؤرّخين من يقول: إن=

النساء ملتصقات بعضهنّ ببعض، ورأى الملوك على الأسرّة وبين أيديهم الجنود قائمة، بأيديهم الأعمدة والأسلحة، وقد صاروا كلّهم حجارة سودًا.

هذا ما حكاه الكسائيّ.

وقال أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله تعالى قال سعيد بن جبير[١] والكلبيّ[٢] والخليل بن أحمد ـ دخل كلامُ بعضهم في بعض، وكلٌّ قد أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرسّ: أنّهم بقيّة ثمود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحَجّ: الآية ٤٥].

قال: وكانوا بفَلْج اليمامة نزولًا على تلك البئر.

وكلّ ركيّة[٣] لم تُطوَ بالحجارة والآجُرّ فهي رَسّ؛ وكان لهم نبيّ يقال له: (حنظلة بن صفوان)[٤]. وكان بأرضهم جبل يقال له: (فَلْج) مُصْعِد في السماء ميلًا وكانت العَنْقاء تأتيه، وهي أعظم ما يكون من الطير، وفيها من كلّ لون، وسمّوها العَنْقاء لطول عنقها، وكانت تكون في ذلك الجبل وتنقضّ على الطير فتأكلها فجاعت ذات يوم وأعوَزَها الطير فانقضّت على صبيّ فذهبت به، فسُمّيت عَنْقاءَ مُغْرِب، لأنّها تُغرب بما تأخذه وتذهب به، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمّتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين، فشكوا ذلك إلى نبيّهم؛ فقال: اللهم خذها واقطع نسلها، وسلّط عليها آفة تذهب بها. فأصابتها صاعقة فاحترقت، فلم يُر لها أثر بعد ذلك.

قال: ثم إنّ أصحاب الرسّ قتلوا نبيّهم، فأهلكهم الله تعالى.

= الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين المذكور في القرآن...

(١) هو سعيد بن جبير الوالبي، أبو محمد، أحد الأعلام، قتل في شهر شعبان شهيدًا سنة ٩٥ هـ، وقد قتله الحجّاج بسبب خروجه مع ابن الأشعث «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٢) الكلبي: هو محمد بن السّائب الكلبي، أبو النّضر، نسّابة راوية عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مات سنة ١٤٦ هـ «الأعلام ٦/ ١٣٣».

(٣) الرّكيّة: البئر.

(٤) هو حنظلة بن صفوان الرّسّي، من أنبياء العرب في الجاهلية، وهو من أصحاب الرّس الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، بُعث لهدايتهم فكذّبوه وقتلوه، واختلف الرواة في الرّس، والأكثر على أنّها «بئر» وفي رواية ابن حبيب أنها كانت في بلدة «حضور» من أعمال زبيد باليمن، وقال ابن خلدون: الرّس ما بين نجران إلى اليمن، ومن حضرموت إلى اليمامة «الأعلام ٢/ ٢٨٦».

قال الثعلبيّ: وقال بعض العلماء: بلغني أنّه كان رسّان: أمّا أحدهما فكان أهله أهل بذر وعمود[١]، وأصحابَ غنم ومواش، فبعث الله إليهم نبيًّا فقتلوه، ثم بعث الله رسولًا آخَر وعضّده بوليّ، فقتلوا الرسول، وجاهدهم الوليّ حتى أفحمهم؛ وكانوا يقولون: إلٰهنا في البحر. وكانوا على شفير البحر؛ وكان يخرج إليهم من البحر شيطان في كلّ شهر خرجةً فيذبحون عنده، ويتّخذون ذلك اليوم عيدًا؛ فقال لهم الوليّ: أرأيتم إن خرج إلٰهكم الّذي تدعونه وتعبدونه إليّ وأطاعني أتجيبوني إلى ما دعوتكم إليه؟ قالوا: بلى. وأعطوه على ذلك العهود والمواثيق، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبًا على أربعة أحوات، وله عنق منقلب، وعلى رأسه مثل التاج؛ فلمّا نظروا إليه خرّوا سجّدًا؛ وخرج الوليّ إليه وقال: ائتني طوعًا أو كرهًا باسم الله الكريم.

فنزل عند ذلك عن أخواته؛ فقال له الوليّ: ائتني راكبًا لئلّا يكون القوم في شكّ. فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضوا[٢] إلى البرّ يجرّونه ويجرّهم؛ ثم كذّبوه بعدما رأوا ذلك، ونقضوا العهود؛ فأرسل الله تعالى عليهم ريحًا تقذفهم في البحر ومواشيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضّة وآنية؛ فأتى الوليّ الصالح إلى البحر حتى أخذ التّبر والفضّة والأواني، فقسمها على أصحابه بالسويّة على الصغير والكبير، وانقطع ذلك النسل.

وأمّا الرسّ الآخَر - فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرسّ، وذلك النهر بمنقَطَع أَذْرَبِيجان، بينهما رَسُّ أرمينية، فإذا قطعته مدبرًا دخلتَ في حدّ أرمينية وإذا قطعته مقبلًا دخلتَ في حدّ أَذْرَبِيجان، وكان مَن حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان، ومَن قدّامهم من أهل أَذْرَبِيجان يعبدون النيران، وكانوا هم يعبدون الجواريَ العذارى، فإذا تمّت لإحداهنّ ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها. وكان عرض نهرهم ثلاثةَ فراسخ، وكان يرتفع في كلّ يوم وليلة حتّى يبلغ أنصاف الجبال الّتى حوله، ولا ينصبّ في برّ ولا بحر، وإذا خرج من حدّهم يقف ويدور ثم يرجع إليهم، فبعث الله إليهم ثلاثين نبيًّا في شهر واحد، فقتلوهم جميعًا فبعث الله إليهم نبيًّا وأيّده بنصره، وبعث معه وليًّا، فجاهدهم في الله حقّ جهاده.

(١) أهل العمود: أي أهل أخبية.
(٢) أفضوا: وصلوا ونزلوا.

ثم بعث الله تعالى ميكائيل حين نابذوه[١] ـ وكان ذلك في أوان وقوع الحَبّ في الزرع، وكانوا إذ ذاك من أحوج ما يكون إلى الماء ـ فبَحَرَ نهرَهم[٢] في البحر فانصبّ ما في أسفله، وأمّا عيونه من فوق فسَدّها، ثم بعث الله تعالى خمسمائة ألفِ مَلكٍ من الملائكة أعوانًا له، ففرّغوا ما بقي في نهرهم.

ثم أمر الله تعالى جبريل فنزل فلم يَدَع في أرضهم عَينًا ولا نهرًا إلّا أيبسه بإذن الله تعالى.

وأمَر ملَك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتها في ربضة[٣] واحدة.

وأمَر الرياح الأربع: الجنوب والشمال والدَّبور[٤] والصَّبا[٥] فقمَّت ما كان لهم من متاع، وألقى الله تعالى عليهم السُّبات[٦].

ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فشتّتته في رؤوس الجبال وبطون الأودية.

وأمر الله الأرض فابتلعتْ ما كان لهم من حليّ وتبر وآنية؛ فأصبحوا لا ماشية عندهم ولا بقر ولا مال يرجعون إليه ولا ماء يشربون ولا طعام يأكلون، فآمن بالله تعالى عند ذلك قليل منهم، وهداهم الله تعالى إلى غار في الجبل له طريق إلى خلفه، فنجوا، وكانوا أحدًا وعشرين رجلًا وأربعَ نسوة وصبيّين، وكان عدّة الباقين من الرجال والنساء والذراريّ ستّمائة ألف، فماتوا عطشًا وجوعًا، ولم تبق منهم باقية.

ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها، فدعا القومُ عند ذلك مخلصين أن يحييهم الله تعالى بماء وزرع وماشية، وأن يجعل ذلك قليلًا لئلّا يطغوا. فأجابهم الله تعالى إلى ذلك، وأطلق لهم نهرهم، وزادهم على ما سألوه.

فأقام أولئك القومُ على طاعة الله تعالى باطنًا وظاهرًا حتى مضوا وانقرضوا؛ فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله تعالى في الظاهر، ونافقوا في الباطن؛ وأملى الله تعالى لهم، ثم بعث الله عليهم عدوّهم ممّن قاربهم وخالفهم، فأسرع فيهم

---

(١) نابذوه: خالفوه وقاوموه وعادوه. (٢) بحر نهرهم: أي شقه.
(٣) الرّبضة: مأوى الغنم، والرّبضة: الجماعة من الماشية.
(٤) الدّبور: الريح الحارة. (٥) الصّبا: الرّيح الباردة.
(٦) السُّبات: النوم.

القتل، وبقيَت منهم شرذمة[١]، فسلّط الله عليها الطاعون، فلم يبق منهم باقية وبقي نهرهم ومنازلهم مائتي عام لا يسكنها أحد.

ثم أتى الله بعد ذلك بقرن[٢] فنزلوها وكانوا صالحين سنين، ثم أحدثوا فاحشة وجعل الرجل منهم يدعو ابنته وأخته وزوجته فيَلْقَى بهنّ جاره وأخاه وصديقه يلتمس بذلك البرّ والصلة؛ ثم ارتفعوا عن ذلك إلى نوع آخر، ترك الرجال النساء حتى شَبِقْن[٣]، واشتغلن عن الرجال، فجاءت النساءَ شيطانةٌ في صورة امرأة ـ وهي الوَلْهانة بنت إبليس ـ فشبّهت[٤] للنساء ركوبَ بعضهن بعضًا؛ وعلمتهنّ كيف يصنعن؛ فأصل ركوب النساء النساءَ منها؛ فسلّط الله تعالى على ذلك القرن صاعقة من أوّل ليلتهم، وخسفًا في آخر اللّيل، وصيحة مع الشمس، فلم تبق منهم باقية وبادت مساكنهم.

قال الثعلبيّ: ولا أحسب مساكنهم اليوم مسكونة.

وقال أبو إسحٰق الثعلبيّ أيضًا: وروى عليّ بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أن رجلًا من أشراف بني تميم يقال له: عمرو، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن أصحاب الرس وأي عصر كانوا فيه؟ وأين كانت منازلهم؟ ومن كان ملِكَهم؟ وهل بعث الله تعالى إليهم رسولًا أو لا؟ وبماذا هلكوا؟ فإنّي أجد في كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم.

فقال له: لقد سألتني عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك، ولا يحدّثك به أحد بعدي.

كان من قصتهم يا أخا تميم أنهم كانوا يعبدون شجرة صَنَوْبَر يقال لها: ساب درخت، كان يافث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها: دوشاب كانت أُنْبِطتْ[٥] لنوح بعد الطوفان، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطىء نهر يقال له الرسّ من بلاد المشرق، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكّانًا وعمرانًا منها؛ وذلك قبل سليمان بن داود، وكان من أعظم مدائنهم أسفيدبا، وهي التي كان ينزلها ملِكُهم، وكان يسمى بركون بن عابور بن بلوش بن سارب بن النُّمْروذ بن كنعان، وفيها العين والصَّنَوْبَرة، وقد غرسوا في كلّ عين حبّة من تلك

(١) الشرذمة: الجماعة القليلة من النّاس.
(٢) قرن: أي جماعة آخرين.
(٣) شبقن: اشتدت شهوتهن إلى الرّجال.
(٤) شبّهت: مثّلت وصوّرت وزيّنت.
(٥) أنبطت: أنبتت، وأظهرت بعد خفاء.

الصنوبرة، فنبتت الحبّة وصارت شجرة عظيمة، وحرّموا ماء تلك العيون والأنهار، لا يشربون منها ولا أنعامهم، ومن فعل ذلك منهم قتلوه ويقولون: هي مياه آلهتنا، ولا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها، ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرسّ الّذي عليه قُراهم؛ وقد جعلوا في كلّ شهر من السنة في كلّ قرية عيدًا يجتمع أهلها ويضربون على تلك الشجرة مِظَلّة مِن الحرير، فيها من أصناف الصُّوَر؛ ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانًا للشجرة، ويشعلون فيها النيران، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقُتارُها[1] وبخارها في الهواء، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء، خرّوا سجّدًا، ويتلون ويتضرّعون إليها أن ترضى عنهم.

وكان الشيطان يجيء فيحرّك أغصانها ويصيح مِن ساقِها صياح الصبيّ: عبادي قد رضيت عنكم، فطيبوا نفسًا، وقرّوا عينًا. فيرفعون عند ذلك رؤوسهم، ويشربون الخمر، ويضربون بالمعارف؛ فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثم ينصرفون؛ حتى إذا كان عيد قريتهم العظمى، اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم، فضربوا عند الصَّنَوْبرة والعين سُرادقًا[2] من ديباج، عليه من أنواع الصُّوَر، له اثنا عشر بابًا، كلّ باب لأهل قرية منهم؛ ويسجدون للصنوبرة خارجًا من السرادق، ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما يقرّبون للأشجار الّتي في قُراهم؛ فيجيءُ إبليس عند ذلك فيحرّك الشجرة تحريكًا شديدًا، ويتكلّم من جوفها كلامًا جهرًا، ويَعِدُهم ويمنّيهم[3] بأكثر ممّا وعدهم به الشياطين كلُّهم؛ فيرفعون رؤوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفيقون ولا يتكلّمون معه، فيداومون الشرب والعزف، فيكونون على ذلك اثني عشر يومًا بلياليها بعدد أعيادهم في السنة؛ ثم ينصرفون؛ فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتُهم غيره، بعث الله إليهم نبيًّا من بني إسرائيل من ولد يهوذ بن يعقوب، فلبث فيهم زمنًا طويلًا يدعوهم إلى الله تعالى، ويعرّفهم ربوبيّته؛ فلا يتّبعونه ولا يسمعون مقالته؛ فلما رأى شدّة تماديهم في البغي والضلالة وتركَهم قبولَ ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح، وحضر عيدُ قريتهم العظمى قال: يا ربّ إنّ عبادك أبوا تصديقي ودعوتي لهم، فما زادوا إلّا تكذيبي والكفرَ بك، وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضرّ، فأيْبِس شجرهم أجمع، وأرِهم قدرتك وسلطانك.

(١) القتار: دخان ذو رائحة ينبعث من اللحم عند شوائه.

(٢) السُّرادق: البيت أو الخيمة، أو المنصّة.

(٣) يمنّيهم: يعدهم ويرغّبهم بإنجاز ما يتمنّونه أي يبغونه.

فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه، فهالهم ذلك وتضعضعوا[١]، فصاروا فرقتين: فرقة قالت: سِحرُ هذا الرجل الّذي زعم أنّه رسول ربّ السماء، ألهاكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إلـٰهه؛ وفرقة قالت: بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها، ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكي تغضبوا لها، فتنتصروا منه.

فأجمعوا رأيهم على قتله، فاتخذوا مثال بئر، واتخذوا أنابيب طوالًا من رصاص واسعةَ الأفواه، ثم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ[٢]، ونزحوا ماء العين، ثم حفروا في قرارها بئرًا ضيّقة المدخل عميقة، وأرسلوا فيها نبيّهم، وألقوا عليه فيها صخرة عظيمة؛ ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا: الآن نرجو رضا آلهتنا عنّا إذا رأت أنا قد قتلنا من كان يقع فيها، ويصدّ عن عبادتها.

فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبيّهم، وهو يقول: سيّدي، ترى ضيق مكاني وشدّة كربي، فارحم ضعف ركني[٣] وقلّة حيلتي، وعجّل قبض روحي ولا تؤخّر إجابة دعوتي. حتى مات عليه السلام.

فقال الله تعالى لجبريل: انظر عبادي هؤلاء الّذين غرّهم حلمي، وأمنوا مكري، وعبدوا غيري، وقتلوا رسولي؛ وأنا المنتقم ممّن عصاني ولم يخش عذابي وإنّي حلفت بعزّتي لأجعلنّهم عبرة ونكالًا للعالمين.

فبينما هم في عيدهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء، فتحيّروا وذُعروا منها وانضمّ بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم حَجَر كبريت يتوقّد؛ وأظلّتهم سحابة سوداء، فألقت عليهم كالقبّة حجرًا يلتهب نارًا، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار؛ نعوذ بالله من غضبه ودَرَك نِقْمتِه[٤].

(١) تضعضعوا: تفرّقوا.
(٢) البرابخ: جمع بربخ، والبربخة: الإردبة، وبربخ البول: مجراه.
(٣) الرّكن: ما يستند عليه الإنسان من قوّة. (٤) درك نقمته: أي لحاقها بنا...

القسم الثاني

من الفنّ الخامس في قصّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وخبره مع نُمْروذ، وقصّة لوط، وخبر إسحٰق ويعقوب، وقصّة يوسف وأيّوب وذي الكفل وشعيب

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأوّل منه

في قصّة إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - وخبر نُمْروذ بن كنعان

ولنبدأ من هذه القصّة بخبر نمروذ؛ ثم نذكر قصّة إبراهيم عليه السلام لتعلُّق قصّته به، لأنّ إبراهيم ولد في زمانه، وآيتُه الكبرى معه.

ذكر خبر نمروذ بن كنعان

هو نُمْروذ بن كَنْعان بن كُوش، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة الّذين ملكوا شرقها وغربها.

وقد ورد أنهم مؤمنان وكافران: فالمؤمنان سليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين المذكورُ في سورة الكهف؛ والكافران: شدّاد بن عاد ونُمْروذ بن كنعان.

وقد قيل: بدل شدّاد بُخْتُنَصَّر.

قال الكسائيّ: قال وهب: لمّا أهلك الله تعالى أهل الرسّ بالمسخ ومَن تقدّمهم بما ذكرناه، أنشأ قرونًا آخرين، فكان ممّن أنشأ من ولد حام بن نوح كُوش بن قرط بن حام، وكان جبّارًا شديد القوّة عظيم الخَلْق، له مخاليب كالسِّباع وهو الذي أنشأ كوثا رَبًّا[(١)]

(١) كوثا ربًّا: الذي في معجم البلدان «كوثى» وهي ثلاثة مواضع بسواد العراق في أرض بابل=

من أرض العراق، وولد له بها ولد سمّاه كنعان، وكان له ولد آخر يقال له: الهاص؛ فلما مات كوش استقل الهاص بالمُلك دون كنعان واستقلّ كنعان بالصيد، ووَلع به حتّى ألهاه عن طلب المُلك؛ وكان مع ذلك شديد البطش والقوّة، فبينما هو يتصيّد إذ رأى امرأة ترعى بقرات، فأعجبتْه فراودها عن نفسها، فامتنعت واعتذرت بزوجها؛ فقال: ويلك، هل على وجه الأرض من يطاولني وأنا من ولد كوش، ونحن ملوك الأرض؟ فضحكت المرأة كالمستهزئة، وقالت: لا تذكر الملوك وأنت رجل صيّاد.

ثم أقبل زوجُها فقتله كنعان وأخذ المرأة ووطئها(١)، فحملت بنُمْروذ، ونقلها كنعان إلى قصره، فكانت من أحظى نسائه؛ ثم قتل أخاه بعد ذلك، واستقلّ بالمُلك.

ثم رأى في منامه كأنّه صارع إنسانًا فصرعه وقال: أنا مشؤوم أهل الأرض ومنزلي الظلمة، وقد أجّلتك حتّى أخرج من ظلمتي هذه إلى ضوء الدنيا.

فانتبه مرتاعًا، وأحضر أصحابَ علم النجوم، وقص رؤياه عليهم؛ فقالوا: سيولد مولود هو الآن في بطن أمّه يكون هلاكك على يديه.

وتبيّن حمل الراعية ـ وكان اسمها شلخاء ـ وكانت تسمع من بطنها صوتًا عجيبًا، فسمعه كنعان فقال: ويحك، هذا ليس بآدميّ؛ وإنما هو شيطان؛ وهمّ أن يدوس بطنها ليقتل من فيه؛ فهتف به هاتف: مه(٢) يا كنعان، ليس إلى قتله سبيل.

فلمّا كملت مدّة الحمل وضعتْه أسود أحول أفطس(٣) أزرق العين؛ وخرجت حيّة من حجر فدخلت في أنفه، ففزعت شلخاء؛ وأخبرت كنعان بخبره؛ فقال: أُقتليه فإنّه شؤم. فقالت: لا تطيب نفسي بقتله. قال: فاحتمليه واطرحيه في البريَّة. فاحتملته إلى البرّيّة، فمرّت براعي بقرات فعرضته عليه، فأخذه، وعادت إلى منزلها؛ فلمّا وضعه الراعي بين البقر نفرتْ وتفرّقت وعسر عليه جمعها؛ وأقبلت امرأته فأخبرها بخبر الغلام؛ فقالت: اقتله فإنّه شؤم. فأبى وقال: اطرحيه في النهر. فطرحته في نهر عظيم، فألقاه الماء إلى البرّ؛ فقيّض الله له نَمِرة فأرضعتْه وانصرفت؛ فرأته امرأة من

= وبمكة، وكوثى العراق وبها شهد إبراهيم الخليل عليه السّلام، وبها مولده «انظر معجم البلدان ٤/ ٤٨٧».

(١) وطئها: جامعها.

(٢) مه: اسم فعل مبني على السكون بمعنى «كفّ».

(٣) الأفطس: الذي انخفضت قصبة أنفه.

قرية هناك فعجبت وأخبرت أهل القرية، فخرجوا إليه واحتملوه وربّوه وسمّوه نمروذ، فلمّا بلغ جعل يقطع الطريق ويغير على النواحي، واجتمع له جمع كثير، فبلغ خبرُه كنعان، فجعل يبعث إليه بقائد بعد قائد وهو يهزمهم؛ وعظم أمره حتى صار في جيش عظيم؛ فسار إلى كوثاربًا وقاتل كنعان، فهزم جيوشه وظفر به، وقتله وهو لا يعلم أنه أبوه، واحتوَى على مُلكه؛ ثم أخذ في غزو الملوك حتى ملك الشرق وسائرَ ممالك الدنيا؛ ثم رجع إلى كوثاربًا فاستدعى وزراءه وقال: أريد أن أبني بنيانًا عظيمًا لم أُسبَق إلى مثله. فدلّوه على تارَح وذكروا أنّه عارف بأمر النجارة والبناء؛ فأحضره ومكّنه من خزانته، وأمره بإنشاء قصر عظيم؛ فخرج تارَح وشرع في بنائه، وتأنّق فيه، وأجرى فيه الأنهار؛ فلمّا كمل ورآه نُمرُوذ خلع على[1] تارَح، وجعله وزيره.

وأخذ نمروذ في التكبّر حتى ادّعى الألوهية.

وكان مولَعًا بعلم النجوم، فأتقنه؛ فجاءه إبليس في صورة شيخ وسجد له وقال: إنك قد أتقنت علم النجوم؛ وعندي علم ما هو أحسن منه، وهو البحر والكهانة. فعلّمه ذلك، ثم حسّن له عبادة الأصنام، فدعا بتارَح وأمره أن يتخذ له صنمًا على صورته، ويتّخذ لقومه أصنامًا أخرى؛ فاتخذها تارَح من الجوهر والذهب والفضّة والقوارير[2] والخشب على أقدار الناس، وكلّها على صورة نُمروذ حتى اتّخذ سبعين صنمًا، وأمر نمروذ قومه أن يتخذوها؛ ففعلوا ذلك وانهمكوا في عبادتها، وكلّمهم الشياطين من أجوافها؛ فعبدوها حتّى لم يعرفوا سواها وطغَوا وبغَوا، وأكثروا الفساد في الأرض، حتى ضجّت الأرض والسماء والوحش والطير إلى ربّها منهم.

ذكر الآيات التي رآها نمروذ قبل مولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: كان أوّل ذلك أنّه صعِد في بعض الأيّام إلى سريره، فانتفض[3] من تحته انتفاضًا شديدًا، وسمع هاتفًا يقول: تَعِس من كفر بإلـٰه إبراهيم. فقال لتارَحَ وهو واقف عنده: سمعتَ ما سمعتُ؟ قال: نعم. قال: فمن هو إبراهيم؟ قال: لا أعرفه.

---

(١) خلع عليه: منحه وأعطاه.
(٢) القوارير: يريد الزّجاج، والقارورة: إناءٌ من زجاج يجعل فيه الشّراب والطّيب.
(٣) انتفض: اضطرب وارتجف.

فأرسل إلى السحرة وسألهم عن إبراهيم، وأخبرهم بما سمع؛ فقالوا: لا نعرف إبراهيم ولا إلـٰهه.

ثم توالت عليه الهواتف، ونطقت الوحش والطير والسباع بمثل ذلك؛ ثم رأى الرُّؤَى في منامه.

فكان منها أنّه رأى كأنّ القمر قد طلع من ظهر تارح، وألقى نورَه كالعمود الممدود بين السماء والأرض؛ وسمع قائلًا يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسراء: الآية ٨١] ونظر إلى الأصنام وهي ترتعد، فاستيقظ وقصّ رؤياه على تارَح، فقال: أيّها الملِك، إنّي في الأرض كالقمر لكثرة عبادتي لهذه الأصنام. فقال له نمروذ: صدقت.

وانصرف تارَح حتى دخل بيت الأصنام، فإذا هي قد سقطت عن كراسيّها منكبّة على أوجهها؛ فأمر خَدمَها بإعادتها، وعجب من ذلك.

قال: ثم رأى في منامه كأنّ نورًا ساطعًا بين السماء والأرض، وقومًا يسلكون فيه ينزلون إلى الأرض، ويصعدون إلى السماء، وإذا برجل من أحسن الناس وجهًا في ذلك النور، وأولئك يقولون: نصرك إلـٰه السماء، فبك تحيا الأرض بعد موتها. فانتبه ودعا بالسَّحَرة والكَهَنة والمنجّمين، وذكر لهم رؤياه، وأقسم إن كتموه تأويلها عذّبهم وجعلهم طعمًا للسباع. فطلبوا أمانه، فأمّنهم، فقالوا: رؤياك تدلّ على مولود من أقرب الناس إليك، يرث ملكك، ويرتفع ذكره إلى السماء والشرق والغرب ويُهلكك، وأنه لا يأتيك ومعه سلاح ولا جند. فتبسّم نمروذ وقال: إن كان كذلك فأمره هيّن. ثم قال لهم: فممّن يكون؟ قالوا: من ظهرِ أقربِ الناس إليك، ولا نعلم أكثر من هذا.

ثم قال: ليس أحد أقرب إليّ من ابني كوش ووزيري تارَح؛ ثم أمر بابنه كُوشَ فضُرب عنقه؛ وأمر بقتل الأطفال حتى قتل مائة ألف طفل؛ ثم دعا بالمنجّمين فقال: انظروا هل استرحتُ ممّن كنت أخافه؟ قالوا: ما حملت به أمّه بعد.

وأخذ في ذبح الأطفال حتى ضجّت الخلائق إلى الله تعالى.

ذكر حمل أمّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وطلوع نجمه

قال: وعبر تارحُ يومًا إلى الأصنام فاضطربت اضطرابًا شديدًا؛ فسجد لها فأنطقها الله، فقالت: يا تارح، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: الآية ٨١] ووافى(١)

(١) وافى: أتى وأدرك وفاجأ.

نمروذَ ما كان يحذره، فخرج خائفًا وجلًا[١] حتى دخل على امرأته وذكر لها ذلك؛ فقالت: وأنا أخبرك بعجب، كنت قعدت عن الحيض منذ كذا وكذا، وقد حضت في يومي هذا. فقال: اكتمي أمرِك لئلّا يبلغ الملك. فلما طهرتْ هتف به هاتف: يا تارَح صر[٢] إلى زوجتك ليخرج النور الّذي على وجهك. فلمّا سمع ذلك مرّ هاربًا على وجهه فإذا هو بملَك يقول: أين تريد؟ ارجع فرُدَّ الأمانة الّتي في ظهرك.

فانصرف إلى منزله ولم يجسر أن يقرب امرأته؛ فأصبح وإذا بنور ساطع على وجهه؛ وكان هو الّذي يقرّب إلى الأصنام الطعام والشراب كلّ ليلة، وينصرف إلى منزله فتأكله الشياطين؛ فقرّب الطعام إليها، فأقبلت الشياطين لتأكله، فرأوا الملائكة هناك فولّوا هاربين، وبقي الطعام على حاله؛ فلمّا أصبح تارَحُ رآه على حاله فظنّ أن الأصنام ساخطة عليه، فعكف عليها لترضى عنه، فأبطأ عن منزله، فأتته امرأته؛ فلمّا خلت به في بيت الأصنام تحرّكت شهوته، وهمّ بمواقعتها، فقالت: ألا تستحي، أتفعل هذا بين يدي آلهتك؟ فواقعها[٣]، فحملت منه بإبراهيم عليه السلام فنُكِّست الأصنام، وظهر نجم إبراهيم وله طرفان: أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب؛ فعجب الناس منه؛ ورآه نمروذ فتحيّر، فلمّا أصبح سأل المنجّمين عنه، فقالوا: هذا نجمٌ جديد طلع يدلّ على مولود جديد من أولاد الأكابر، يرتفع شأنه، ويُخشى عليك منه. فهتف به هاتف يقول: يا عدوّ الله، هذا المولود قد حملت به أمّه والله مُهلكك على يديه.

قال: فلمّا استكملت أمّه تسعة أشهر قالت لأبيه: إني أحبّ أن أدخل بيت الأصنام فأسألَها أن تخفّف عنّي أمر الولادة؛ فأذِن لها في ذلك، وتربّص بها إلى اللّيل خوفًا أن يعلم الناس بحملها؛ فلمّا دخلت بيت الأصنام تنكّست[٤] عن كراسيّها فخرجت فزعة، فإذا هي بنُمروذَ في قومه، وبين أيديهم الشُّموع والمَشاعل؛ فقال نمروذ: من هذا؟ قالت: زوجة عبدِك تارَح؛ فأراد أن يقول: اقبِضوها فقال: خلّوها؛ فأقبلت إلى منزلها مذعورة، فجاءها الطلق، فأقبل إليها ملَك من عند الله تعالى وقال: لا تخافي وانهضي فضعي ما في بطنك. فتبعتْه حتّى أدخلها الغار، وهو الّذي ولد فيه إدريس ونوح عليهما السلام.

---

(١) الوجل: الخوف.
(٢) صر: اذهب وتقدّم.
(٣) واقعها: جامعها.
(٤) تنكّست: انقلبت.

ذكر ميلاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: ودخلت أمّه الغار فوجدت فيه جميع ما تحتاج إليه، وخفّف الله عنها الطلق، فولدته في ليلة جمعة، وهي ليلة عاشوراء؛ فلمّا سقط إلى الأرض قطع جبريل سرّته، وأذّن في أذنه، وكساه ثوبًا أبيض؛ ثم عاد بها الملك إلى منزلها فرجعت خفيفة كأن لم تلد، وقال لها الملَك: اكتمي أمرِك وما قد رأيتِ. فدخلت منزلها، وجاء تارَح فرآها نشطة خفيفة، فقالت: إن الذي كان في بطني لم يكن ولدًا، وإنّما كانت ريحًا وقد انفشّت[1] عنّي. ففرح بذلك، وألقى الله تعالى على نمروذ النسيان في أمر إبراهيم؛ فلمّا كان في اليوم الثالث خرجت أمّه إلى الغار فرأت الوحش والسباع على بابه، فتوهّمتْ أن يكون هلك؛ فدخلت فرأته على فراش من السندس[2]، وهو مدهون مكحول، فتحيّرتْ وعلمت أنّ له ربًّا، ورجعت إلى منزلها وأخبرت تارَحَ الخبر، فنهاها عن العود إلى الغار، فكانت تروح إليه سرًّا في كلّ ثلاثة أيّام تنظر إليه وتعود، حتى تمّ له حولان، فأتاه جبريل بطعام من الجنّة، فأطعمه وسقاه؛ فلمّا استكمل أربع سنين جاءه ملَك بكسوة من الجنّة، وسقاه شربة التوحيد وقال: اخرج الآن منصورًا.

ذكر خروج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الغار واستدلاله

قال: ولمّا قال له الملَك ذلك خرج عند غروب الشمس، فجعل ينظر إلى السمـٰوات، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: الآيتان ٧٥، ٧٦] يعني على سبيل الاستفهام، أي أهذا ربّي؟ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: الآيات ٧٦ - ٧٩] وهبط جبريل عليه السلام فقال له: انطلق إلى أبيك وأمّك ولا تخف فإن الله معك. فخرج إبراهيم وجبريل معه حتى وقفه على الباب وقال: هذا بيت أبيك، فدونك هو. فاستأذن إبراهيم وقال: أَدْخُل؟ قال تارح: أُدخُل. فلمّا دخل نظر إليه فعجب من حسنه وجماله، وقامت أمّه مسرعة إليه

(١) انفشت: انتشرت وتبعثرت. (٢) السندس: نوعٌ من رقيق الحرير.

واعتنقتْه وقالت: ولدي وعزّةِ نمروذ. فقال لها: لا تحلفي بعزّة نمروذ، فإن العزة لله الّذي خلقني في بطنك وأخرجني منك، وكلأني(١) وربّاني وهداني.

فارتعد تارَح من كلامه وقال لأمّه: أخشى أن تزول عنّي هذه المنزلة بسببه.

ونظر إليه وقال: ما أحسنك! فلولا ما وقع في قلبي من محبّتك لرفعتُ خبرك إلى نمروذ.

ثم بكى تارح خوفًا عليه أن يقتل، فقال له: يا أبت لا تخف عليّ من القتل فإن الله يعصمني من نمروذ. فقال له: ألك رب غير نمروذ، وله مملكة الأرض شرقها وغربها، وله ثلاثمائة صنم؟ فقال إبراهيم: بل ربّي الله الّذي لا إلـٰه إلّا هو خالق السمٰوات والأرض وما بينهما لا شريك له.

وبلغ خبر إبراهيم بعضَ أقارب تارَح، فدخل عليه وقال: ما هذا الغلام الجميل؟ قال: هو ابني وُلد لي على كبر. قال: فما الّذي بلغك من قوله عن نمروذ وأصنامنا؟ قال تارَح: هو ما بلغكم، فكلّموه حتى يعود إلى ديننا. فحاجّه قومه وخوّفوه بعذاب نمروذ، وهو يجادلهم ويحتج عليهم، ويذكر عظمة ربّه حتى عجزوا عنه فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: الآيات ٨٠ ـ ٨٣].

فانصرفوا عنه، وخاف تارح أن يسعوا به وبولده إلى نمروذ، فقال: يا إبراهيم كفّ عن هذا الكلام حتّى أستخلفك على خزانة الأصنام فقد كَبرتُ. فقال: يا أبت، إنّ المعبود هو الله، والأصنام لا تضرّ ولا تنفع.

فغضب تارح وأقبل على نمروذ، فسجد له، وقال: إن المولود الذي كنت تحذره هو ولدي، ولم يولد في داري، ولا أعلم به حتى الآن، وقد جاءني وهو غلام يعقل ويفهم، ويزعم أن له ربًا سواك، وقد أعلمتك فاصنع ما أنت صانع.

فلمّا سمع نمروذ ذلك داخله الرعب وقال: صفه. فوصفه. قال نمروذ: هو الّذي رأيته في منامي. وقال لأعوانه: ائتوني به. فأتوه به، فردّد النظر إليه وقال: احبسوه إلى غد؛ فلمّا أصبح أحضره وقد أمر بتزيين قصره بأعظم زينة، وهوّل عليه بجنوده وأصنافِ السلاح؛ فالتفت إبراهيم إلى الناس يمينًا وشمالًا وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣٣]؟ فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ

(١) كلأه الله: حفظه ورعاه.

مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشُّعَراء: الآيات ٦٩ ـ ٧٧]، ثم قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيات ٧٨ ـ ٨٥]، ثم التفت وقال: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشُّعَراء: الآيات ٨٦ ـ ٩١].

فلمّا فرغ من كلامه قال له نمروذ، يا إبراهيم، تقع في ديني وأنا الّذي خلقتك ورزقتك؟ قال: كذبتَ، إنّ خالقي ورازقي وخالقَ الخلق ورازقَهم، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الحَشر: الآية ٢٢] فبُهِت الناس[1]، ووقعت في قلوبهم محبّته لحُسنه وحُسن كلامه؛ فالتفت نمروذ إلى تارح وقال: إنّ ولدك صغير لا يدري ما يقول ولا يجوز لمِثلي في قدرتي وعظَم مملكتي أن أعجّل عليه؛ فخذه إليك، وأحسن إليه وحذِّره بأسي حتى يرجع عما هو فيه.

فأخذه تارح وانصرف إلى منزله، وقال: يا بنيّ، إنّ لي عليك حقًّا، وأسألك بحقّي عليك أن تلازمني في عملي وبيعِ هذه الأصنام كما يفعل إخوتك. قال: كيف أبيع ما أبغضه؟ قال: ما عليك أن تبيعها؟ وأخرج له صنمين صغيرًا وكبيرًا، وقال: بع هذا بكذا، وهذا بكذا. قال: يا أبت أنت تعبد هذه الأصنام على أنّها ترزقك وهي الّتي خلقتك؟ قال: نعم. فقال له ما أخبرنا الله به في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ [مريَم: الآيات ٤١ - ٤٥] فغضب تارح من قوله وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريَم: الآية ٤٦]، قال إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريَم: الآية ٤٧].

وقال: وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومَعهما صنمان، فيقول: من يشتري ما لا يضر ولا ينفع ولا يدفع الذّباب عن نفسه؛ وكان يغمسهما في الماء ويقول: اشربا. ويشدّ الحبل في أرجلهما ويجرّهما، والناس يُعظِمون ذلك ولا يجسرون يكلّمونه لمكان أبيه من نمروذ.

---

(١) بهت الناس: دهشوا وأخذوا بالحجّة والبيّنة.

ذكر معجزة لإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

قال: وبينما إبراهيم قاعد إذ جاءته امرأة عجوز، فقالت: بعني أحد هذين الصنمين، واختر لي أجودهما. فقال: هذا أكثر حطبًا من هذا. قالت: لست أريده للوقود: وإنّما أريد أن أعبده، فقد كان لي إلٰه سُرِق في جملة ثياب كثيرة لي، وأنا أريد أن أشتري هذا الصنم فأعبدَه حتى يردّ عليّ رحلي[1]. قال لها إبراهيم: إن الإلٰه الّذي يُسرَق لو كان إلٰهًا لحفظ الثياب وحفظ نفسه، فكم لك تعبدينه؟ قالت: كنت أعبده ونمروذَ منذ كذا وكذا سنة. قال: بئس ما صنعتِ، هلا عبدتِ ربّ السمٰوات والأرض حتى يردّ عليك ما سُرِق منك، فإن عاد مالك تؤمنين؟ قالت: نعم.

فدعا إبراهيم ربّه فإذا بالمسروق بين يديه قد جاء به جبريل؛ فقال لها إبراهيم: هذا رحلك. فأخذته العجوز وكسرت الصنم، وقالت تبًّا[2] لك ولمن عبدك دون الله. وآمنت، وجعلت تطوف في المدينة وتقول: يا أيها الناس اعبدوا الله الّذي خلقكم ورزقكم، وذروا ما كنتم عليه من عبادة الأصنام.

فبلغ خبرها نمروذ، فأحضرها وأمر بقطع يديها ورجليها وفَقْءِ عينيها؛ فاجتمع إبراهيم والناس لينظروا إليها ـ وهو إذ ذاك لم يبلغ الحُلُم ـ فدعا لها بالصبر وقال: إلٰهي إنّك قد هديتها، أسألك أن تجعلها آية. فردّ الله عينيها ويديها ورجليها وارتفعت في الهواء وهي تنادي: ويلك يا نمروذ، أنا الّذي قد فعلتَ بي ما فعلت ها أنا أرقى إلى الجنان.

وكان لنمروذَ خازن[3] يقال له: بهرام، فقام وقال: آمنتُ أيّتها المرأة بالذي خصّك بهذه الكرامة، وآمن في ذلك اليوم خلق كثير من وجوه القوم؛ فأمر نُمروذُ فنُشِروا بالمناشير وألقُوا للأسود فلم تأكلهم؛ وارتجّت المدينة بزلزلة عظيمة وترادفتْ[4] معجزات إبراهيم عليه السلام.

ذكر مبعث إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: فلما تمّ لإبراهيم أربعون سنة، جاءه جبريل بالوحي من الله، وأرسله إلى نمروذ، فأقبل إبراهيم ووقف على باب نمروذ ونادى بأعلى صوته: يا قوم، قولوا:

---

(١) الرّحل: المتاع. (٢) تبًّا: دعاء بالهلاك والخسران.

(٣) في كتاب الكسائي المنقول عنه هذا الكلام «ولد».

(٤) ترادفت: تتابعت وتتالت.

«لا إلـه إلّا الله وإنّي إبراهيم رسول الله». فانتشر الصوت على جميعهم؛ فأحضر نمروذُ الوزراء والبطارقة، وأجلسهم في مجالسهم، وأقام جنوده، وأحضر الأسود والفِيَلة بسلاسلها، وأقيمت صفوفًا عن يمين الدار ويسارها؛ وأمر بدخول إبراهيم؛ فدخل وقال: «باسم الله العظيم» فلمّا توسّط الدار قال بصوت رفيع: يا قوم قولوا: «لا إلـه إلّا الله خالق كلّ شيء».

ثم تقدّم إلى نمروذ؛ فقال له بعض وزرائه: من أنت؟ قال: أنا إبراهيمُ بن تارَح رسولُ رب العالمين، أدعوكم إلى عبادته. قال له: من ربّك؟ قال: الذي خلق الناس جميعًا. قال نمروذ: إنّ مُلكي أعظم من مُلكه. قال إبراهيم: المُلك والسلطان لله رب العالمين. قال: لقد تجرّأت عليّ يا إبراهيم، وأنت تعلم أنّي خلقتك ورزقتك.

فاضطرب سرير نمروذ، وقال إبراهيم: كذبت يا نمروذ، إنّ الله هو الّذي خلقك وخلق الناس أجمعين، ورزقك ورزقهم، وأنت تكفر بنعمته وقد رأيت بعض الآيات؟ قال: هات غير ذلك. فوصف إبراهيم قدرة الله. قال نمروذ: فما الّذي يفعل من قدرته؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨]، قال نمروذ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨]. قال: كيف تفعل؟ قال: أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه، وأقتل الّذي لم يَجِبْ عليه.

قال إبراهيم: إنّ ربّي لا يفعل كذلك، بل الميّت يحييه، والحيّ يميته من غير قتل، ولكن يا نمروذ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٨].

ذكر سؤال إبراهيم ـ عليه السلام ـ في إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٠].

قال: فأخذ ديكًا أبيض وغرابًا أسود وحمامة خضراءَ وطاووسًا، وقطع رؤوسها، وخَلَط الدم بالدم والريش بالريش؛ ثم جزّأها أجزاءً متساوية، وجعل على كلّ جبل منهنّ جزءًا، وجعل رؤوسها بين أصابعه؛ ثم دعاها، فانضمّ كلّ جزء إلى بعضه، وخرجت الرؤوس من بين أصابع إبراهيم، فصار كل رأس إلى بدنه.

قال: والتفت إبراهيم إلى نمروذ وقال: كيف ترى قدرة إلٰهي؟ قال: ليس هذا ببديع(١) من سحرك. وأمر به فقُيّد وغُلّت يده، وأدخل المطبق تحت الأرض وفيه الحيّات والعقارب فلم يضرّه ذلك.

وجاءه جبريل فبشّره عن الله بالنصر، وألبسه حلّة(٢) خضراء، وفرش له فرشًا من السندس، وأتاه بطعام فأكل وقال له: اصبر كما صبر الأنبياء من قبلك.

ذكر آية لإبراهيم - عليه السلام -

قال: وكان إبراهيم يسلّي أهل السجن، ويذكّرهم بالجنّة والنار؛ فقام إليه رجل وقال: يا إبراهيم، أنا من ملوك العرب، وأنا ابن مَلِكهم، وكنّا أربع إخوة فغضب الملِك علينا فحبسني هٰهنا، وحبس الآخر بالمشرق، والآخر بالمغرب والرابعَ باليمن، فهل يقدر ربّك أن يجمع بيننا؟ قال: نعم. ودعا إبراهيم ربّه، فإذا بالأخوين وقد انقضّا من المشرق والمغرب. فبلغ ذلك نمروذ، فأحضرهم وقال: مَن جمع بينكم؟ قالوا: إلٰهُنا بدعاء إبراهيم. فأحضرَ إبراهيم وقال: ائتنا بالأخ الرابع من اليمن. فقال: إنّه قد مات ودفن. فقال نمروذ: ادع ربّك حتّى يأتينا بقبره.

فدعا إبراهيم، فأمر الله المَلَك الموكّل بالأرض أن يخترق بالقبر إلى إبراهيم؛ فخرج القبر من تحت الأرض إلى دار نمروذ، فقال إبراهيم للثلاثة: هذا قبر أخيكم. فقالوا: أيُّها الملك، إن كان حقًّا ما يقول فليدع ربّه ليحييه وينظر إليه ويكلّمه.

فصلّى إبراهيم ركعتين، وسأل الله أن يحييه؛ فانشق القبر، وخرج الرجل منه وهو يشتعل نارًا ويقول: هذا جزاء من عبد الأصنام ورغِب عن دين الله.

فقام بهرام الخازن ونزع ما كان عليه من لباس نمروذ، وآمن بالله وبإبراهيم. فقال له نمروذ: لقد عملَ سحرُه فيك. وأمر بهم نمروذ فشُدّت أيديهم وأرجلهم ووُضعت عليهم أساطين(٣)، فلم يؤلمهم ثقلها؛ فبُهت نمروذ ثم قال: عودوا لطاعتي فأنا الذي خففت عنكم ثقل هذه. فقال خازنه: قم حتى نضع عليك واحدة منها وخفّفها عن نفسها.

(١) ليس هذا ببديع من سحرك: أي بغريب، وبدع الشيء أبدعه: أنشأه من غير أن يكون له مثال.
(٢) الحلّة: الثوب الجيد الجديد.
(٣) الأساطين: جمع أسطوانة وهي السّارية والعمود.

فغضب نمروذ وأحرقهم بالنار حتى صاروا رمادًا؛ فردّ الله عليهم أرواحهم فقاموا على أرجلهم يقرّون بعظمة الله؛ فعجب الناس، ولم يدر نمروذ ما يفعل؛ فأمر بهم فأُلقوا في الحبس بين حيّات وعقارب، فبقوا فيه أربعين يومًا، ولم يطعموا شيئًا؛ فجاءت أمّ إبراهيم إلى نمروذ وسألته في إطلاقه، فأمر بإخراجه هو ومن آمن به، وفي ظنّه أنّهم قد ماتوا؛ فأخرجهم فإذا هم في أحسن صورة؛ فعجب وقال: يا إبراهيم، من أطعمك وسقاك؟ قال: ربّي أطعمني وسقاني، فآمِنْ به يا نمروذ، فقد رأيت آياته وعظمتَه.

فغضب نمروذ ثم أقبل على تارح وقال له: قد كنت أتخوّف من ابنك، لأنّي كنت أظنّ له شوكة من الجنود، والآن فليس عنده إلّا السحر، وقد وهبته لك. فأخذه أبوه وأخرجه من دار نمروذ، وقال له: يا بنيّ، امشِ حتى أدخلك على هذه الأصنام لعلّك تميل إليها. فقال إبراهيم: سوءة لك أيّها الشيخ. ثم قال: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ [الصَّافات: الآية ٩٥]؟ ثم قال: يا قوم قولوا: لا إلـٰه إلّا الله وإنّي إبراهيم رسول الله تُفلحوا. فكذّبوه، فقال له أبوه: يا بنيّ ما تخشى سطوة الملِك؟ فقال: يا أبت إنّ الله يعصمني من مكايده.

قال: ثم ابتلاهم الله عزّ وجلّ بالقحط، وقلّت عندهم الأقوات؛ وكان بظاهر المدينة كثيب من الرمل[1]، فتعبّد إبراهيم فيه، ودعا ربّه أن يحوّله طعامًا. فحوّله الله، فكان المؤمنون ينالون منه ما يريدون، والكفّار يسجدون لنمروذ ويأخذون منه القوتَ.

وكان قد جمع الأقوات في سراديب عنده، فأطعمهم حتى نفد أكثرها ولم يبقَ إلّا قوتُ أهله وعشيرته؛ فشرع الناس يؤمنون ويزيدون في كل يوم؛ فشقّ ذلك على نمروذ، وطلب إبراهيم وقال له: اخرج من بلدي فقد أفسدتَ قومي بسحرك. فقال إبراهيم: لِمَ أخرج وأنا أحقّ منك؟ وخرج من عنده فأحضر نمروذ تارح وقال له: إن ابنك قد آذاني في أهل مملكتي، ولولا منزلتك عندي لبطشت به. فقال: إنّني قد هجرته، ولست راضيًا بصنعه، فافعل به ما بدا لك.

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه في النار

قال كعب: وكان لأهل كُوثَا رَبًّا عيد يخرجون إليه في كلّ سنة، فيتعبّدون هناك أيّامًا؛ وكان بعيدًا من البلد؛ فلمّا حضر ذلك العيد قال تارح لإبراهيم: أُخرج معنا إلى

(١) الكثيب: التلّ.

عيدنا. ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٨٩]، يعني لعبادتكم الأصنام، ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٠] إلى عيدهم، ولم يبق في بلدهم إلّا الصّغار والهَرِمون.

فقام إبراهيم ودخل بيت الأصنام ـ وكان القوم قد وضعوا الطعام بين أيديها ـ ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصَّافات: الآيتان ٩١، ٩٢] استهزاء بهم؛ وكانت في جانب البيت فأس، فأخذها وكسر بها هذا الصنم، وكسر يد هذا الصنم ورجلَ هذا ورأسَ هذا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٣] وترك كبيرهم كما أخبر الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الأنبيَاء: الآية ٥٨] ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر ورجع إلى منزله.

وأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم، فرأوا أصنامهم على ذلك؛ فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٥٩، ٦٠] وبلغ الخبر نمروذ. قال: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٦١] يعني عذابه. فلمّا أتوا به ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٦٢، ٦٣]، قال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٦٤، ٦٥]، فصاحوا من كلّ ناحية: أفتأمرنا بذلك وأنت تعلم أنّها لا تسمع ولا تبصر. فقال إبراهيم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبيَاء: الآيتان ٦٦، ٦٧]، فقال القوم لنمروذ ما أخبرنا الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٨].

وكان لنمروذ تنّور من حديد يُحرِق فيه من غضب عليه، فأَمَر به فأسجِر[1] فطَرَح إبراهيم فيه، فلم تضرَّه النار بقدرة الله؛ فلمّا رأى نمروذ ذلك جَمَع أهل مملكته واستشارهم، فأشاروا أن يحبسه ويجمعَ له الحطب الكثير، ويُضرِمَ فيه النار، ثم يلقيَه فيه إذا صار جمرًا. وقالوا: إنّه لا يَقدر يسحر النار الكبيرة، ولا يعمل سحرُه فيها.

فعند ذلك حبَسَه وأمر بجمع الأحطاب؛ فيقال: إنّ الدوابّ امتنعتْ من حملها إلّا البغال، فأَعقمها الله عقوبة لذلك؛ فجمعوا من الأحطاب ما لا يُحْصَى كثرة؛ وأَمَر

---

(١) أسجر: أشعل وأضرمت به النّار.

أن تُحْفَر حَفيرةٌ واسعة، وبنى حولها حائطًا عاليًا، وألقى فيها تلك الأحطاب وأضرم فيها النار والنِّفْط ثلاثة أيّام، فكان لهبها يصيب الطائر في الجوّ فيُحْرَق.

قال: وهمّوا بطرح إبراهيم فيها، فلم يقدروا يقربوا منها.

فيقال: إنّ إبليس أتاهم في صورة شيخ، وصنع لهم المنجنيق[١]، ولم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، ووضعوا إبراهيم في كفّة المنجنيق، ورمَوا به وهو يدعو الله أن ينصره عليهم؛ فعارضه جبريل وهو في الهواء، وقال له: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أمّا إليك فلا، بل حسبي الله ونعم الوكيل.

فلمّا قرب من النار قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبيَاء: الآية ٦٩].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لو لم يقل ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لمات إبراهيم من شدّة البرد.

فبرد حرُّها واخضرّت الأشجار التي احترقت ورَسَتْ بعروقها.

فلمّا أصبح نمروذ جلس في مكان مُشرِف ينظر إلى ما أصاب إبراهيم من النار؛ فكشِف عن بصره فإذا هو برجل في وسطها على سرير، عليه ثياب خضر وإلى جنبه رجل آخر؛ وخلقٌ كثير وقوفٌ من ورائهما؛ فدعا بصاحب المنجنيق وقال له: كم ألقيتَ في النار؟ قال: إبراهيم وحده. فعجب وعجبت الناس وقال: اذهبوا وانظروا مَن القاعد على السرير ومن إلى جنبه وحولَه. فأتوا فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة، فأخبروا نمروذ، فقال: ائتوني به. فقالوا: لا نستطيع الوصول إليه لحرّ النار. فنادَوه: يا إبراهيم، اُخرج إلينا. فخرج إلى نمروذ وقال له: ما أعجب سحرك يا إبراهيم! قال: ليس هذا بسحر، وإنما هو من قدرة الله تعالى. قال: فمن الّذي عن يمينك؟ قال: ملَك جاءني من عند ربّي بشّرني أنّ الله اتّخذني خليلًا[٢]. فقال نمروذ: لأصعدنّ إلى السماء وأقتل إلٰهك.

ذكر خبر صعود نمروذ إلى السماء على زعمه

قال: وأمر نمروذ أن يُتّخذ له تابوت مربّع، ويكونَ له بابان: باب إلى السماء وباب إلى الأرض، وجَوَّع أربعة نسور، وسَمَّرَ أربعة رماح في أركان التابوت، وعلّق

(١) المنجنيق: آلة حربية من آلات الحصار ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف.
(٢) الخليل: الصديق الخالص والصاحب.

اللحمَ في أعلاها، وشدّ النسور بأوساطها إلى الرماح، وجلس في التابوت ومعه وزيره، وحمل معه قوسًا ونُشّابًا[١]، وأطبق البابين، فرفعت النسور رؤوسها فنظرتْ إلى اللّحم، فطارت صاعدة، وارتفعت في الهواء؛ فقال لوزيره: افتح الباب الذي يلي الأرض وانظر كيف هي؟ قال: أراها كأنّها قرية. قال: فانظر إلى السماء. فقال: هي كما رأيناها ونحن في الأرض. ولم يزل يصعد حتى قال: أما الدنيا فلا أراها إلا سوادًا ودخانًا، والسماء كما رأيناها.

وارتفعت النسور حتى كادت تسقط إلى الأرض؛ فعارضه[٢] ملَك وقال: ويلك يا نمروذ؛ إلى أين؟ قال: أريد محاربة إلـه إبراهيم. قال: ويحك، إنّ بينك وبين سماء الدنيا خمسَمائة عام، ومن فوق ذلك ما لا يعلمه إلّا الله. فخرّ الوزير ميتًا؛ فأخذ نمروذ القوس ووضع فيه السهم، وقال: أنا لك يا إلـه إبراهيم، ورمَى بالسهم إلى الهواء، فيقال: إنّ ذلك السهم عاد إليه ملطّخًا بالدم بإذن الله.

وأمر الله جبريل أن يضرب التابوت بجناحه، فيلقيَه في البحر؛ فضربه فمرّ يَهوِي به حتى ألقاه في البحر؛ وأمر الله الأمواج أن تلقيه إلى الساحل؛ فلمّا وصل إلى البرّ خرج وقد ابيضّت لحيته لِما عاين[٣] من الأهوال، وتوصّل من بلد إلى بلد حتى أتى المدينة، فدخل منزله ليلًا فأنكره الناس لشيبه، ثم عرفوه؛ وجاءه إبراهيم فقال: كيف رأيتَ قدرة ربّي؟ قال: قد قتلتُ ربّك. قال: إنّ ربّي أعظم من ذلك، ولكن هل لك قوّة ـ مع كثرة جنودك ـ أن تقاتلني؟ قال: نعم.

ذكر خبر إرسال البعوض على نمروذ وقومه

قال: وأمر نمروذ جنوده فاجتمعوا لحرب إبراهيم وهم لا يُحصَون كثرة؛ وخرج إبراهيم في سبعين من قومه الذين آمنوا في الصحراء؛ فأرسل الله عليهم البعوض حتى امتلأت منه الدنيا، ولدغت جيش نمروذ؛ فمات من لدغها خلق كثير، والتجأ الباقون إلى الدُور، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا[٤] الستور؛ فلم تُغن عنهم شيئًا؛ وانفرد نمروذ عن جيشه، ودخل منزله وأُغلِقت الأبواب، وأرخِيت الستور، واستلقى على سريره، فجاءت بعوضة فقعدتْ على لحيته، فهمّ بقتلها، فدخلت منخره وصعدت إلى دماغه؛ فعذّبه الله بها أربعين يومًا لا ينام ولا يَطعم؛ ثم شَقّت رأسه وخرجت في كبَر الفرخ، فمات.

(١) النشّاب: السهام.
(٢) عارضه: اعترضه في الأفق.
(٣) عاين: شاهد.
(٤) أسبلوا السّتور: أسدلوها.

وقيل: إنّه اتخذ إرْزَبَّةَ[١] من حديد، فكان صديقه الّذي يضرب بها رأسه فانفلق رأسُه بضربة فخرجتْ كالفرخ وهي تقول: هكذا يهلك الله أعداءه، وينصر أنبياءه، ويسلِّط رُسُله على من يشاء.

وأرسل الله الزلازل على المدينة، فخُرِّبت.

قال: وجاء لوط وهو ابن أخي إبراهيم، وآمن به، وآمنت سارة، فتزوّج بها إبراهيم.

ذكر هجرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: وجمع إبراهيم أصحابه الّذين آمنوا به، وسار يريد الشأم، فجاء إلى (حَرّانَ)[٢] فأقام بها مدّة من عمره، وترك بها طائفة من المؤمنين، وسار حتى أتى الأرْدُنّ وكان اسم مَلِكها صادوق، فمرّ به وهو في منظرة[٣] له، فنظر إلى سارّة مع إبراهيم فأحضرهما، وقال لإبراهيم: من أنت؟ قال: أنا خليل الله إبراهيم. وذكر له ما كان من أمر نمروذ. فقال له: مَن هذه؟ قال: هي أختي. فقال: زوّجنيها. قال: هي أعلم بنفسها منّي، وإنّها لا تحلّ لك. فاغتصبها منه، وقام إلى مجلس آخر وأمر بحملها إليه. فدعا إبراهيم اللهَ تعالى، فارتجّ المجلس بالمَلِك، ويَبِست يده فقال لسارّة: ألا ترين ما أنا فيه؟ قالت: لأنّك أغضبتَ خليل الله.

قال: فتضرّع إلى إبراهيم؛ فسأل اللهَ في ردّ يده عليه؛ فأَوحى الله إليه: لا أطلقه دون أن أخرِجه من مُلكه ويُسلِم؛ فأَسلَم وخرج عن المُلك، ووهب سارّة هاجرَ، وهي أمّ إسماعيل.

قال وارتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدّسة فنزلها.

وقد روينا هذه القصة بسندنا إلى البخاريّ رحمه الله.

وسنذكر الحديث ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار طرطيس أحد الملوك بمصر، فقد ورد أنه صاحب القصة؛ والله أعلم.

---

(١) الإرزبّة: المطرقة الكبيرة التي تكسر بها الحجارة.

(٢) حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقة يومان، وهي على طريق الموصل والشّام والروم، وقيل: إنّها أوّل مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وقيل: سمّيت بها راق أخي إبراهيم عليه السّلام لأنه أوّل من بناها فعرّبت فقيل: حرّان «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

(٣) المنظرة: موضع الرؤية أو موضع المراقبة.

ذكر خبر ميلاد إسماعيل ـ عليه السلام ـ ومقامه وأمّه في البيت المحرّم

قال: وأقام إبراهيم بالأرض المقدّسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارّة وأيست من الولد، فخافت من انقطاع نسل إبراهيم عليه السلام فوهبته هاجر فقَبِلها، وواقعها، فحملت بإسماعيل، ووضعته كالقمر وفي وجهه نور نبيّنا محمد ﷺ؛ فأحبّته سارّة حتى بلغ من عمره سبع سنين، فداخلت الغيرة سارّة، ولم تُطق أن ترى إبراهيم مع هاجر، فقالت: يا نبيّ الله، إني لا أحبّ أن تكون هاجر معي في الدار، فحوّلها حيث شئت.

فأوحى الله إليه أن انقلها إلى الحرم؛ وجاءه جبريل بفرس من الجنة، فقال له: يا إبراهيم، احمل هاجر وإسماعيل على هذا الفرس. فأركب إبراهيم هاجرَ وإسماعيلَ من ورائها، وسار بهما حتى بلغ الحرم.

فأوحى الله إليه أن انزل بهما هٰهنا. فأنزلهما بالقرب من البيت، وهو يومئذٍ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان. ثم قال إبراهيم لهاجر: كوني هٰهنا مع ولدك فإني راجع، فبذلك أمرني ربّي. فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧].

ثم رجع وتركهما هناك ولا ثالث لهما إلّا الله تعالى.

فلما علا النهار، واشتدّ الحرّ، ونفد ما معهما من الماء، قامت هاجر تعدو يمينًا وشمالًا في طلب الماء فلم تجده؛ فعادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه في موضع بئر زمزم(١) وقد نبع الماء؛ فسجدت لله، وأخذت تجمع الحصا حول العين لئلّا ينتشر الماء وهي تقول: زُمَّ زُمَّ يا مبارك.

فناداها جبريل: لا تخافي وأبشري، فإن الله سيعمر هذا المكان.

قال وهب: لولا أن هاجر جمعت الحصا حول الماء لتمّت العين نهرًا جاريًا على وجه الأرض إلى يوم القيامة.

(١) بئر زمزم: هي البئر المباركة المشهورة قيل: سمّيت زمزم لكثرة مائها، وقيل: سمّيت بضمّ هاجر أم إسماعيل عليه السّلام لمائها حين انفجرت وزمّها إيّاه، قال ابن عبّاس: لو تركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شيء «معجم البلدان ٣/ ١٤٧».

قال: وأقبل ركب من اليمن يريدون الشأم، وطريقُهم على الحرم، فرأوا الطير تهوي إلى الأرض، فقالوا: إن الطير لا تنقض إلّا على الماء والعمارة.

وأقبلوا فرأوا هاجر وإسماعيل والعين؛ فسألوها، فقالت: أنا جارية خليل الله إبراهيم وهذا ابنه، خلّفنا وانصرف إلى الشأم.

فاستأذنوها في الماء؛ فأذنت لهم. ثم قالوا: هل أحد ينازعك[1] على هذا الماء؟ قالت: لا، فإنّ الله أخرجه لي ولولدي. قالوا: إن حضرنا بأهالينا وسكنّا في جواركم هل تمنعيننا من هذا الماء؟ قالت: لا، فإنه لله يشربه خلق الله.

فرجعوا إلى بلدهم، واحتملوا[2] أهاليّهم وأتوا الحرم بها وبمواشيهم، فصاروا لهما أنسًا.

ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال، فكان يخرج إلى الصيد معهم ويرجع وماتت أمه هاجر، وتزوّج إسماعيل منهم، وبلغ إبراهيمَ خبرُ موت هاجر، فاشتاق إلى إسماعيل، فاستأذن سارّة في ذلك، فأذنت له، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم، فقال: السلام عليكم يا أهل المنزل. فقالت له المرأة: إن صاحب البيت غائب. فقال إبراهيم: إذا رجع فقولي له: ابدِلْ عتبة[3] دارك، فإنّي لا أرضاها لك. وانصرف إلى الشأم.

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر، فقال: صفيه لي. فوصفته؛ فقال: الحقي بأهلك. فجاء أهلُها وقالوا: ما الذي كرهت منها؟ قال: لأنها لم تعرف لخليل الله قدرًا.

ثم تزوّج امرأة من جُرْهُم[4]، فأولدها إسماعيل ستّة أبطن، فاشتاق إبراهيم إلى ولده، فجاءه جبريل بفرس فركبه وساء إلى الحرم، وقد عمر ذلك المكان بجرهم؛ فوقف على باب إسماعيل وقال: السلام عليكم يا أهل المنزل. فبادرت المرأة وسلّمت عليه، وقالت: فدتك نفسي، إن صاحب المنزل غائب، وإنه يعود عن قريب. قال: هل عندك طعام؟ قالت: نعم، عندنا خير كثير. وجاءته بطبق عليه لحم

(١) ينازعك: يخاصمك. (٢) احتملوا أهاليهم: أي جاؤوا بهم.

(٣) العتبة: خشبة الباب أو بلاطته، والمراد بها هنا «الزوجة».

(٤) جرهم: قبيلة من القحطانية، وهم بنو جرهم من قحطان، كانت منازلهم اليمن، وقد نزلوا الحجاز لقحطٍ أصابهم، وتزوّج إسماعيل عليه السّلام منهم «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ١٩٦».

مشويّ من الصيد، وقدح فيه ماء. قال: فهل غير هذا من حب أو زبيب! قالت: يا عمّاه، ما هذا طعام بلدنا، ولكنّه يُجلب إلينا، فأنزل بنا وتناول طعامنا. قال: إنّي صائم، ولكن عليّ ذَرْق[1] الطير فاغسليه. وحوّل قدمه عن الفرس، ووضعه على المقَام؛ فغسلته[2]، فقال: إذا جاء زوجك فسلّمي عليه وقولي له: الزم عتبة بابكَ فقد رضيتها لك. وانصرف.

فلما رجع إسماعيل من الصيد أخبرتْه الخبر فقال: لقد كنتِ كريمة عليّ وقد صرت الآن أكرمَ بإكرامك أبي خليل الله إبراهيم.

ثم اشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثًا، وذلك بعد ثلاث وعشرين يومًا، فجاء إليه ولقيه، وأمره الله أن يبني البيت، فبناه؛ وأتاه جبريل فعلّمه مناسك الحجّ[3].

وقد تقدّم ذِكر ذلك مبيّنًا في الباب الثاني من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو في السفر الأوّل من كتابنا هذا، فلا حاجة لنا في إعادته.

قال: ورجع إبراهيم إلى البيت المقدّس، وأوحى الله إليه أن يرسل لوطًا نبيًا إلى سَذُوم؛ فأرسله.

وكان من أمره ما نذكره في أخباره في الباب الّذي يلي هذا الباب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحٰق ـ عليهما السلام ـ

قال: وبعث الله الملائكة إلى إبراهيم حين أرسلهم بالعذاب على قوم لوط وأمرهم أن يبشّروه بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب؛ فأتوه على صورة البشر وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ودريائيل.

قال: فأتوه مفاجأة على خيولهم، ودخلوا عليه منزله ففزع منهم، حتى قالوا: ﴿سَلَٰمًا﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٥]. فسكن خوفه، وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٥] ورحّب بهم وأجلسهم وقام إلى زوجته سارّة وأمرها بخدمتهم؛ فقالت: عهدي بك وأنت أغير الناس. قال: هو كما تقولين، وإنّما هؤلاء أضياف أخيار. ثم قام إلى عِجل سمين فذبحه وشواه، وقرّبه إليهم، ووقفت سارّة لخدمتهم، فجعل إبراهيم يأكل

(١) ذرق الطّير: روثه.
(٢) في كتاب الكسائي: فغسلت رأسه.
(٣) مناسك الحج: شعائره وعباداته.

ولا ينظر إليهم وهو يظنّ أنهم يأكلون؛ فرأت سارّة أنّهم لا يأكلون؛ فنبّهته على ذلك، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصّافات: الآية ٩١]؟ وداخله الخوف من ذلك، ثم قال: لو علمت أنّكم لا تأكلون ما قطعت العجل عن البقرة.

فمدّ جبريل يده نحو العجل، وقال: قم بإذن الله. فاشتدّ خوف إبراهيم وقال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحِجر: الآيات ٥٢ ـ ٥٦].

قال: وكانت سارّة واقفة هناك، فقالت: «أوّه» ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذّاريَات: الآية ٢٩]، قال الله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هُود: الآية ٧١] أي حاضت، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هُود: الآيات ٧١ - ٧٣] ولم تعلم أنّهم ملائكة؛ فقال لها جبريل: يا سارّة، ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذّاريَات: الآية ٣٠]. قال إبراهيم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذّاريَات: الآيات ٣١ - ٣٣] ثم عاد جبريل إلى صورته، فعرفه إبراهيم، وعرّفه أنهم يقصدون قوم لوط بالعذاب؛ فاغتم إبراهيم شفقة على لوط وأهله، ثم قال: امضوا حيث تؤمَرون.

وكان من أمر قوم لوط ما نذكره.

قال: وحملت سارّة بإسحٰق في الليلة الّتي خسف الله فيها بقوم لوط، ووضعته وعلى وجهه نور أضاء منه ما حولها؛ فدخل إبراهيم وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٩] وربّته سارّة حتى بلغ سبع سنين.

ذكر خبر الذبيح وفدائه

قال: وكان إسحٰق يخرج مع أبيه إلى بيت المقدس، فبينما إبراهيم في مصلّاه إذ غلبته عينه فنام، فأتاه آت في منامه وقال: إن الله يأمرك أن تقرّب قربانًا. فلمّا أصبح عمد إلى ثور فذبحه وفرّق لحمه على المساكين، فلما كان الليل رأى في منامه الّذي أتاه وهو يقول: يا إبراهيم، إنّ الله يأمرك أن تقرّب له قربانًا أعظم من الثور. فلمّا انتبه ذبح جملًا وفرّق لحمه على المساكين. ثم رآه في الليلة الثالثة وهو يقول: إنّ الله يأمرك أن تقرّب قربانًا أعظم من الثور والجمل. قال إبراهيم: وما هو؟ فأشار

إلى ولده إسحٰق؛ فانتبه فزِعًا، وأقبل على إسحٰق وقال له: ألست تطيعني يا بنيّ؟ قال: بلى، ولو كان في ذبح نفسي.

فانصرف إبراهيم إلى منزله، وأخذ الشَّفْرة والحبل، فوضعهما في مِخلاتهُ وقال: يا إسحٰق، امض بنا إلى الجبل.

فلما مضيا أقبل إبليس إلى سارّة وقال لها: إنّ إبراهيم قد عزم على ذبح إسحٰق. فالحقيه وردّيه. قالت: ولِمَ يذبحه؟ قال: إنّه زعم أن ربّه أمره بذلك. قالت: إن كان الأمر كذلك فإنّه صواب إذا أراد رضى ربّه. وقالت: اللّهم اصرف نزغ[١] الشيطان. فولّى عنها هاربًا، وتبع إسحٰق فناداه: إنّ أباك يريد أن يذبحك. فقال إسحٰق لأبيه: يا أبت ألا تسمع إلى هذا الهاتف ما يقول؟ قال: يا بنيّ امض ولا تلتفت إليه، فسأخبرك.

فلما انتهيا إلى رأس الجبل قال إبراهيم: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: الآية ١٠٢].

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك؛ فنودي من السماء: أليس الله قد وصفك بالحلم فكيف لا ترحم هذا الطفل؟ قال: إن الله قد أمرني بذلك. فقال إسحٰق: يا أبت عجّل أمر ربّك قبل أن ينال منّا الشيطان.

فنزع إبراهيم قميصه وربطه بالحبل، وكبّه على جبينه وهو يقول: الحمد لله باسم الله الفعّال لما يريد. ووضع الشفرة على حلقه، فلمّا همّ بذبحه انقلبت الشفرة، فارتعدت يد إبراهيم، فقال له إسحٰق: يا أبت، حُدّ الشفرة، واصرف وجهك عنّي حتى لا ترحمني. قال: يا بنيّ، قد فعلتُ حتى لو قطعتُ بها المِجَنَّ[٢] لقطعتْه بحدّها.

ثم وضع إبراهيم الشفرة على حلقه ثانيًا، وهمّ بقطع أوداجه؛ فانقلبت؛ فقال إبراهيم: لا حول ولا قوّة إلا بالله. فقال: أصبت في قولك يا أبت ولكن حدّ شفرتك لتذبحني ذبحًا، ولا تجزع. فحدّ إبراهيم المدية حتى جعلها كالنار ووضعها على حلق إسحٰق، فسمع إبراهيم هدّة[٣] عظيمة ومناديًا يقول: يا إبراهيم خذ هذا

---

(١) نزغ الشيطان: وساوسه وما يدفع به الإنسان إلى الشرّ والمعصية.
(٢) المجنّ: التُرس.
(٣) الهدّة: صوت شديدٌ تسمعه من سقوط ركنٍ أو ناحية جبل، ويقال: الهدّة صوتٌ ما يقع من=

الكبش فاذبحه عن ابنك، فهو قربان عنه، وهذا اليوم جعل عيدًا لك ولولدك من بعدك.

فالتفت إبراهيم إلى الجبل، وإذا هو بكبش أملح(١) أقرن، قد انحدر من الجبل وهو يقول: خذني يا إبراهيم فاذبحني عن ابنك، فأنا أحق منه بالذبح، فأنا كبش هابيل بن آدم.

فحمد إبراهيم ربّه على ذلك، وذبح الكبش؛ فأتت نار من السماء بغير دخان فأكلته حتى لم يبق إلّا رأسه؛ وانصرف إبراهيم وإسحٰق ورأس الكبش معهما إلى منزل إبراهيم، وأخبر سارّة بما جرى.

قال: ثم توفّيت سارّة بعد ذلك، وتزوّج إبراهيم بامرأة من الكنعانيين وأولَدها ستّة أولاد في ثلاثة أبطن.

وإبراهيم أوّل من صافح وعانق وفرق الشعر بالمُشط ونَتَف الإبط واستاك(٢) واكتحل واختَتَن(٣) بالقَدوم.

ذكر وفاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

قال: فبينما إبراهيم على باب داره، وإذا هو بملَك الموت وقد وافاه في أحسن صورة؛ فسلّم عليه؛ فأجابه وقال: من أنت؟ قال: أنا ملَك الموت، أمرني الله يقبض رُوحك. فكره إبراهيم الموت؛ ثم تصوّر له في صورة شيخ كبير، ودخل على إبراهيم وقال: هل من طعام؟ فقُدّم إليه طعام على طبق، فجعل ملك الموت يتناول الطعام، ويخيَّل إلى إبراهيم أنه يلوّث وجهه وعنقه، وأنّه لا يستقرّ في بطنه. فقال له إبراهيم: أيّها الشيخ، ما بال هذا الطعام لا يستقرّ في بطنك؟ قال: يا خليل الله، إني قد شِخْت، ولستُ أتمكّن منه إلّا على هذا الوجه. قال: فكم تعدّ من السنين؟ قال: قد جزت مائتي سنة. قال إبراهيم: وأنا في المائتين إلّا سنة، وإذا مضى عليّ مائتين أصير كذا؟ [قال: نعم](٤).

= السماء.

(١) أملح: أسود يعلو شعره بياض.

(٢) استاك: أي استخدم السّواك في تنظيف الأسنان.

(٣) اختتن: من الختان وهو تطهير الولد الذّكر.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للكسائي.

فدعا إبراهيم ربّه أن يقبضه. فجاءه ملك الموت؛ فقال: يا ملك الموت قد اشتقت إليك منذ رأيت ذلك الشيخ على تلك الصورة، فاقبض روحي. فقبض روحه ﷺ.

الباب الثاني
من القسم الثاني من الفن الخامس
في قصّة لوط ـ عليه السلام ـ وقلب المدائن

هو لوط بن هاران بن تارح، وتارح هو آزر أبو إبراهيم عليه السلام وكان لوط قد شخص[١] مع عمّه إبراهيم عليهما السلام من المدائن[٢] إلى أرض الشأم، مؤمنًا به، مهاجرًا معه، ومع إبراهيم تارح وسارّة بنتُ ماحور؛ فلمّا انتهوا إلى حرّان هلك تارح بها وهو باق على كفره؛ وسار إبراهيم ولوط وسارّة إلى الشأم؛ ثم مضوا إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة يقال له: سِنان بن علوان بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام؛ ورجعوا إلى أرض الشأم فنزل إبراهيم فلسطين، وأنزل لوطًا الأُرْدُنّ، فكان هناك إلى أن بعثه الله نبيًّا.

قال: وأوحى الله عزّ وجلّ إلى إبراهيم أن يرسل لوطًا نبيًّا إلى (سَذُوم)[٣]، وكانت خمسَ مدائن؛ وهي: (صامورا) (وصابورا) (وسَذُوم) (ودُومة) (وعامورا)[٤]، وهي المؤتفكات[٥]، وكان أعظمها (سَذُوم) وعلى كلّ مدينة سور عظيم مبنيّ بالحجارة والرّصاص، وعليهم ملك يقال له: (سَذُوم) من بيت نمروذ بن كنعان، وكان أهل هذه المدائن قد خُصّوا بحذف الحصا والخَبِق[٦] في المجالس وعبادةِ الأصنام، وكانوا حسان الوجوه، فأصابهم قحط، فأتاهم إبليس فقال: إنما أصابكم القحط لأنّكم منعتم الناس من دُوركم ولم تمنعوهم من بساتينكم. فقالوا: كيف

---

(١) شخص: حضر.

(٢) المدائن: اسم المدائن بالفارسية توسفون، وإنّما سمّتها العرب المدائن لأنها سبع مدن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة فلما ملك العرب ديار فارس واختطت الكوفة والبصرة انتقل إليهما الناس عن المدائن وسائر مدن العراق، وهي الآن بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين ستة فراسخ، وأهلها فلاحون «معجم البلدان ٥/ ٧٥».

(٣) سذوم: فعول من السّدم، وهو النّدم، مدينة من مدائن قوم لوط «معجم البلدان ٣/ ٢٠٠».

(٤) عاموراء: وهي من قرى قوم لوط عليه السلام «معجم البلدان ٤/ ٧١».

(٥) المؤتفكات: من الإفك، وهو الإثم. (٦) الحبق: الضراط.

السبيل إلى المنع؟ قال: اجعلوا السنّة بينكم إذا دخل بلدكم غريب سلبتموه ونكحتموه في دبره، فإذا فعلتم ذلك لم تقحطوا.

فخرجوا إلى ظاهر البلد فتصوّر لهم إبليس في صورة غلام أمرد، فنكحوه وسلبوه، فطاب لهم ذلك حتى صار فيهم عادةً مع الغرباء، وتعدّوا إلى أهل البلد، وفشا بينهم؛ فأرسل الله إليهم لوطًا، فبدأ بمدينة (سَذُوم) وبها الملك، فلما بلغ وسط السوق قال: يا قوم اتقوا الله وأطيعون وارجعوا عن هذه المعاصي التي لم تُسبقوا إليها، وانتهُوا عن عبادة الأصنام، فإنّي رسول الله إليكم.

فكان جوابهم أن قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢٩].

وبلغ الخبر الملِك، فقال: «ائْتُوني بِهِ» فلمّا وقف بين يديه سأله: من أين أقبل؟ ومن أرسله؟ ولماذا جاء؟ فأخبره أن الله أرسله. فوقع في قلبه الخوف والرعب، وقال: إنما أنا رجل من القوم، فادعهم فإن أجابوك فأنا منهم. فدعاهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٦٧]. فقال لهم: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ١٦٨، ١٦٩].

فلبث فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله وهم لا يجيبونه.

ثمّ توفيت امرأته، فتزوّج بامرأة من قومه كانت قد آمنت به، فأقام معها أعوامًا وهو يدعوهم حتى صار له فيهم أربعون سنة وهو يدعوهم بما أخبر الله به ويقول: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٠] الآيات، وهم لا يزدادون إلا كفرًا وإصرارًا وتماديًا على أفعالهم الذميمة، فضجّت الأرض منهم.

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن

قد ذكرنا في قصّة إبراهيم أن الله عزّ وجلّ أرسل الملائكة إليه وبشّروه بإسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب، وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط، وقال لهم: امضوا حيث تؤمرون.

فاستوَوا(١) على خيولهم، وساروا إلى المدائن وهم على صفة البشَر، فأتوا المدائن وقت المساء، فرأتهم ابنة لوط ـ وهي الكبرى من بناته وهي تستقي الماء

(١) استووا: استقرّوا.

ـ فتقدّمت إليهم وقالت: ما لكم تدخلون على قوم فاسقين؟ ليس يضيفكم إلّا ذلك الشيخ. فعدلت الملائكة إلى لوط، فلما رآهم اغتمّ غمًّا شديدًا مخافةً عليهم من شرّ قومه، ثم قال لهم: من أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع بعيد، وقد حللنا بساحتك، فهل لك أن تضيفنا الليلة؟ قال: نعم، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء الفاسقين عليهم لعنة الله قال جبريل لإسرافيل: هذه واحدة ـ وكان الله قد أمرهم ألّا يدمّروا على قومه إلّا بعد أربع شهادات من لوط ولعنته عليهم أقبلوا إليه وقالوا: يا لوط، قد أقبل علينا الليل، فاعمل على حسب ذلك. قال: قد أخبرتُكم بأنّ قومي يأتون الرجال من العالمين عليهم لعنة الله فقال جبريل لإسرافيل: هذه ثانية. ثم قال لهم لوط: انزلوا عن دوابّكم واجلسوا هٰهنا حتى يشتدّ الظلام، وتدخلون ولا يشعر بكم أحد منهم عليهم لعنة الله قال جبريل: هذه ثالثة. ثم مضى لوط والملائكة وراءه، فدخل المنزل، وأغلق الباب، وقال لامرأته: إنك قد عصيت الله أربعين سنة وهؤلاء ضِيفاني قد ملؤوا قلبي خوفًا، فاكتمي[1] عليّ أمرهم حتى يغفر الله لكِ ما مضى. قالت: نعم. ثم خرجت وبيدِها سراج كأنها تُشغَل، فطافت على عدّة من القوم، فأخبرتهم بجمالهم وحسنهم، فعلم لوط بذلك، فأغلق الباب وأوثقه؛ فأقبل الفُسّاق وقرعوا الباب، فناداهم لوط: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هُود: الآيتان ٧٨، ٧٩] ثم كسروا الباب، ودخلوا، فقالوا له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَٰلَمِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٧٠].

فوقف لوط على الباب الذي دونه ضيفانه وقال: لا أسلِم ضِيفاني إليكم دون أن تذهب نفسي.

فتقدّم بعضهم ولطم وجهه، وأخذ بلحيته، ودفعوه عن الباب، فقال: أوّه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هُود: الآية ٨٠]، ثم قال: إلٰهي خذ لي بحقّي من هؤلاء الفسقة والعنهم لعنًا كبيرًا. فقال جبريل عند ذلك: هذه أربعة. وقام جبريل ففتح الباب وقال للوط: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ﴾ [هُود: الآية ٨١] فهجم القوم. ودخلوا وبادروا نحو الملائكة، فطمس الله أعينهم، واسودّت وجوههم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القَمَر: الآية ٣٧] فجاءت طائفة أخرى ونادوهم: اخرجوا لندخل. فنادوا: يا قوم، هؤلاء قوم سحرة سحروا أعيننا

(١) اكتمي أمرهم: أي أخفيه عن قومي.

فأخرِجونا. فأخرجوهم، وقالوا: يا لوط، حتى نصبح نريك وبناتَك. وخرجوا فقال لوط للملائكة: بماذا أرسلتم؟ فأخبروه، فقال: متى؟ قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هُود: الآية ٨١].

ثم قال له جبريل: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هُود: الآية ٨١] فجمع لوط أهله وبناته ومواشيه، وأخرجه جبريل من المدينة، وقال له: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٦٦] ومضى لوط بمن معه، وجبريل قد بسط جناح الغضب، وإسرافيل قد جمع أطراف المدن ودريائيل قد جعل جناحه تحت الأرض، وملك الموت قد تهيّأ لقبض أرواحهم حتى إذا برز عمود الصبح صاح جبريل صيحة: يا بئس صباحُ قوم كافرين. وقال ميكائيل: يا بئس صباح قوم فاسقين. وقال دريائيل: يا بئس صباح قوم ظالمين. وقال إسرافيل: يا بئس صباح قوم مجرمين. وقال عزرائيل: يا بئس صباح قوم غافلين.

فاقتلع جبريل هذه المدن عن آخرها، ثم رفعها، بلغ بها إلى البحر الأخضر وقلبها، فجعل عاليها سافلها. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٥٣، ٥٤]، يعني رمَى الملائكة إيّاهم بالحجارة من فوقهم.

قال: واستيقظ القوم، وإذا هم بالأرض تَهوي بهم، والنيران من تحتهم والملائكة تقذفهم بالحجارة.

قال: ومن كان من القوم بغير مدائنهم ممّن كان على دينهم وفعلهم أتاه حجر فقتله.

قال: وبقي يخرج من تحت المدائن دخان منتن، لا يقدر أحد يَشُمّه لنتنه، وبقيت آثار المدائن. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٣٥].

قال: ومضى لوط إلى إبراهيم عليهما السلام فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: الآيتان ٧٤، ٧٥].

الباب الثالث

من القسم الثاني من الفن الخامس

في خبر إسحٰق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ

قال: ولمّا قبض الله تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام سكن إسماعيل الحرم، وإسحٰق الشأم ومدين[1]، وسكن معه سائر أولاد إبراهيم، وبعثه الله إلى الأرض المقدّسة نبيًّا ورسولًا، فأقام بينهم نحوًا من ثمانين سنة، وكفّ بصره فبينما هو نائم إلى جنب امرأته إذ تحرّكت شهوته، فقالت: وفيك بقيّة يا إسحٰق؟ فواقعها مرّة فحملت بذكرين: وهما يعقوب والعيص ـ على ما ذكرناه في الأنساب ـ وهو في الباب الرابع من القسم الأوّل من الفنّ الثاني، وهو في الجزء الثاني من هذا الكتاب، وذكرنا أيضًا أولاد العيص فيه.

قال: ثم قبض الله تعالى نبيّه إسحٰق، فقسم ما كان له من بقر وخيل وغنم وغير ذلك بالسوية، ومات؛ فغلَب العيصُ على مال يعقوب، واغتصبه إياه وقصد قتله؛ فقالت له أمّه: إلحق بخالك (لابان) وإخوته بحَرّان[2]، فإنّهم مؤمنون من آل إبراهيم.

فتوجّه يعقوب إلى حرّان، فأكرمه خاله، وزوّجه ابنته، وسلّم إليه ما بيده من المال، وكانت ابنته هذه الكبرى، واسمها (لِيا) فرُزق منها روبيل وشِمعون، ثم ذكرين: لاوي ويهوذا، وتوفيت؛ فزوّجه خاله ابنته الثانية واسمها سروريّة، فولدت له ولدين: دانا ونفتالى؛ ثم توفيت، فزوّجه الثالثة فأولدها ذكرين يساخر وزبولون، وماتت؛ فزوّجه ابنته الرابعة، واسمها راحيل ـ وكانت أحسن بناته ـ وذلك بعد أن استكمل يعقوب من عمره أربعين سنة، فجاءه الوحي يومئذٍ وهو بحرّانَ وقد ماتت أمّه.

---

(١) مدين: هي مدينة قوم شعيب سمّيت بمدين بن إبراهيم عليه السّلام، وهي على بحر القلزم، محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السّلام لسائمة شعيب «معجم البلدان ٥/ ٧٧».

(٢) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، وهي على طريق الموصل والشام والرّوم، قيل: سمّيت بها ران أخي إبراهيم عليه السلام، فعرّبت فقيل حرّان «معجم البلدان ٢/ ٢٣٥».

ذكر مبعث يعقوب بن إسحـٰق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ

قال: ولما أتاه الوحي أقبل على خاله لابان، وشكره على فعله، وقال: إن ربّي بعثني رسولًا إلى أرض كنعان[١]. فزوّده بخيل وغنم وبقر وغيرِ ذلك، وقال: امض لما أمرك به ربّك. فخرج يعقوب ومعه أولاده العشرة[٢] وامرأتُه يريد أرض كنعان، فبلغ خبر نبوّته أخاه العيص، فغضب لذلك، وعارضه في طريقه بجموعه؛ فراسله يعقوب مع ابنه روبيل، وذكّره الأخوّة والرحم، فزبر[٣] روبيل وردّه؛ ثم التقيا، فظفّر الله يعقوب بالعيص بقوّة النبوّة، فاحتمله وألقاه على الأرض وجلس على صدره، وقال له: كيف رأيت صنع الله بك يا عِيص؟ ثم رقّ له وقام عن صدره واعتنقه، فاعترف العِيص بفضله عليه، وسأله أن يعفوَ عمّا سلف منه في حقّه؛ فاستغفر له يعقوب ودعا له، وانصرف العيص إلى بلده، وأقبل يعقوب إلى أرض كنعان، فبنيت له دار متّسعة، سكنها بأهله وأولاده، وكان بأرض كنعان ملك يقال له: سحيم، فدعاه يعقوب إلى الإيمان بالله، فلم يكترث به قال: فإنّي مجاهدك. قال: بمن تجاهدني وليس معك أحد؟ قال: أجاهدك بالله وملائكته وهؤلاء أولادي.

وأقبل يعقوب بأولاده والملِك في حصنه، فقال: يا بنَيّ، جاهدوا في الله حقّ جهاده. فقال ابنه شمعون: أنا أكفيك هذا الحصن. وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه، وصاح صيحة عظيمة فمات الملِك وأكثرُ من بالحصن. ودخل يعقوب الحصن، وغنم ما كان فيه؛ فكانت هذه معجزةً ليعقوب، وبلغ ذلك أهلَ كنعان، فوقع الرعب في قلوبهم، فآمنوا بيعقوب عليه السلام.

---

(١) أرض كنعان: كنعان: هو كنعان بن سام بن نوح، وإليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلّمون بلغة تضارع العربية، والشام: هي منازل الكنعانيين «معجم البلدان ٤/ ٤٨٤».

(٢) يلاحظ أن المؤلّف لم يذكر فيما سبق من أولاد يعقوب غير ثمانية، ولم يذكر ولديه من راحيل وهما: يوسف وبنيامين، فقوله هنا: العشرة غير ظاهر ويؤخذ ممّا يأتي أنه لم يرزق بولديه من راحيل إلّا بعد خروجه إلى أرض كنعان، وغزوته لملكها.

(٣) زبره: أي انتهره.

الباب الرابع
من القسم الثاني من الفن الخامس
في قصة يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم
ـ عليهم السلام ـ

وهذه القصة تدخل فيها بقيّة أخبار يعقوب وما كان من أمره ووفاته وخبر الأسباط أولاده.

ذكر خبر ميلاد يوسف عليه السلام

قال: ولمّا رجع يعقوب من غزاته دخل على امرأته راحيل فواقعها(١) فحملت بيوسف وببنيامين أخيه، فوضعتهما، فجاء يوسف كالقمر، فربّته أمّه حتى صار عمره سنتين، وماتت أمه؛ فلمّا بلغ عمره عشر سنين أمر يعقوب بجَذَعة(٢) من غنمه، فذبحت، وصنعت طعامًا، وجمع أولاده على الطعام يأكلون، فأقبل مسكين وسأل وأكثر السؤال، واشتغل يعقوب عنه ولم يأمرهم بإطعامه، حتى انصرف السائل.

فلما فرغ يعقوب من أكله قال: أعطيتم السائل شيئًا؟ فقالوا: إنك لم تأمرنا بشيء. فجاءه الوحي: يا يعقوب، قد جاءك مؤمن فقير مريض شمّ رائحة طعامك فلم تطعمه، وأحرقت قلبه، فلأحرقنّ قلبك. فاغتم يعقوب.

ذكر رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ وكيد إخوته له

قال: ولما بلغ اثنتي عشرة سنةً رأى رؤياه وقصّها على أبيه. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: الآيات ٤ ـ ٦].

قال: فسمع إخوتُه الرؤيا، فداخلهم الحسد، وقالوا ما أخبر الله به عنهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ

(١) واقعها: جامعها.
(٢) الجذعة: الصغير من الغنم.

مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يُوسُف: الآيات ٨ - ١٠].

قال: فاتفقوا وجاؤوا إلى أبيهم، فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يُوسُف: الآيتان ١١، ١٢]. فقال لهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يُوسُف: الآيتان ١٣، ١٤].

قال: وأحب يوسف ذلك، فدعا يعقوب بسلّة فيها طعام وكوز ماء، وقال: إذا جاع فأطعموه من هذا الطعام، وإذا عطش فاسقوه؛ وأخذ عليهم العهود بردّه وشيّعهم بنفسه، وجلس على تلّ عال ينظر إليهم حتى غابوا عنه؛ فندم على إرساله ثم رجع إلى منزله، وجعل إخوة يوسف يُمعنون في السير، وهو يمشي وراءهم ولا يلحقهم، ويناديهم: «قفوا لي». فلم يقفوا. ويقول: «اسقوني». فلم يسقوه؛ وكسر شَمعون الكوز وقال: قل لأحلامك الكاذبة حتى تسقيك. ورمى (لاوى) سلّة الطعام في الوادي؛ فعلم يوسف أنهم قد عزموا على أمر، فناداهم وناشدهم الله والرحم، وذكّرهم بعهود أبيه، فلطمه أحدهم فأكبّه[1]؛ وساروا ويوسف يعدو وراءهم حتى بلغوا موضع أغنامهم، فأرادوا قتله؛ فقال لهم يهوذا: إن قتلتموه حلّ بكم ما حلّ بقابيل[2] حين قتل أخاه. فأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب[3] وطلبوا له جبًّا عميقًا فوجدوه، فجرّوه إليه وهو يبكي، فقال لهم يهوذا: يا بني يعقوب لقد ذهبت الرحمة من قلوبكم. قالوا: فنردّه إلى أبيه فيحدّثه بما فعلناه به؟ قال: فإن طرحتموه في الجبّ لا يبلغ قعره حتى يموت، ولكن دَلُّوه بحبل. ولم يكن معهم حبل، فذبحوا شاة، وقدّوا جلدها كالحبل، ودلّوه به؛ فلما نزل إلى الجبّ امتلأ نورًا، وأتاه جبريل وقال له: لا تخاف فإنّ الله معك. وكان في الجبّ حجر عظيم، فسطّحه جبريل بجناحه فصار كالطبق وأجلسه فيه، وأتاه بطعام من الجنّة فأكل، وأتاه بقميص فلبسه، وبفراش من الجنة، وآنسته الملائكة في الجبّ.

---

(١) أكبّه: صرعه.

(٢) قابيل ابن آدم عليه السّلام، وهو الذي قتل أخاه هابيل ظلمًا.

(٣) الغيابة: قعرُ كلّ شيء، وغيابة الجبّ: قعره، والجبّ: البئر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٥].

قال: ثم قالوا: ماذا نقول لأبينا؟ قال بعضهم: إنه كان يخاف عليه من الذئب، فنقول: إن الذئب أكله. فعمدوا إلى جدي فذبحوه على قميصه. وألصقوا بالدم شيئًا من شعر الجدي، ورجعوا إلى أبيهم.

ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب

قال: ولمّا قَرُبوا من عريش يعقوب أخذوا في البكاء والعويل، فرأتهم ابنة يعقوب، فنزلت إلى أبيها باكية، وقالت: رأيت إخوتي متفرّقين يبكون، وروبيل يقول: «يا يوسف يا يوسف». فصاح يعقوب، وخرّ على وجهه؛ فدخلوا عليه وقالوا: يا أبانا، حلت المصيبة وعظمت الرزيّة ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٧]، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] وأخذ يعقوب القميص، ونظر إليه فلم ير فيه أثر خدش فقال: يا بَنيّ، ما للذئب وأكل أولاد الأنبياء؟ وأخذ يبكي؛ ثم قال: اخرجوا في طلب هذا الذئب، وإلّا دعوت عليكم فتهلكوا. فخرجوا فأخذوا ذئبًا عظيمًا وجعلوا يضربونه ويجرّونه، حتى جاؤوا به إلى أبيهم، فقال: كيف عرفتموه؟ قالوا: لأنه ذئب كبير، وكان يتعرّض لنا في غنمنا.

ذكر كلام الذئب بين يدي يعقوب

فقال يعقوب: سبحان من لو شاء لأنطقك بحجتك. فنطق الذئب وقال: لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له، يا نبيّ الله، إني ذئب غريب، فقدت ولدًا لي فجئت في طلبه حتى بلغت بلدك، فأخذني هؤلاء وضربوني وكذبوا عليّ؛ والذي أنطقني ما أكلت ولدك، وكيف يأكل الذئبُ أولادَ الأنبياء؟ فأطلقه يعقوب.

ذكر خبر خروج يوسف من الجب وبيعه من مالك بن دعر

قال: وأقبل قوم من بلاد اليمن يريدون أرض مصر، فخرج بعضهم في طلب الماء، فرأى نورًا يسطع من البئر، فأدلى دلوه، فتعلّق به يوسف، فاجتذبه، فنظر إليه فرآه، فقال للّذي كان معه: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ١٩] فأخرجوه.

قيل: وذلك في اليوم الرابع من إلقائه في الجبّ، وكان إخوته على رأس جبل فنظروا إلى اجتماع القافلة على الجبّ، فعدوا[١] إليهم، وقالوا: هذا عبد لنا أَبَق[٢] منذ أيام، ونحن في طلبه، فإن أردتم بعناه منكم.

ثم قالوا ليوسف بالعبرانية: إن أنكرت العبوديّة انتزعناك من أيديهم وقتلناك. فسأله أهل القافلة فقال: «إني عبد»، أراد لله.

وكان رئيس القافلة مالك بن دُعْر، فاشتراه منهم بأقل من عشرين درهمًا.

قيل: تنقص درهمًا. وقيل: تزيد درهمين. وقيل: اشتراه بأربعين درهمًا والله أعلم. فاقتسموها بينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٢٠]، ثم قالوا لمالك: هذا عبد أبِق سارق، قيّده حتى لا يَهرُب منك ولا يسرق. فقيده وأركبه ناقة، وكتب يهوذا كتاب البيع، وساروا حتى بلغت القافلة قبر أمّ يوسف، فلم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر وبكى؛ فافتقدوه فلم يرَوه، فبعثوا في طلبه، فوجدوه وقد اتكأ على القبر؛ فلطمه واحد منهم، وقالوا: هلّا كان هذا البكاء قبل اليوم حتى كنّا لا نشتريك؟ وساروا به حتى دخلوا مصر، فغيّر مالك لباس يوسف، وعبَرَ به، فاجتمع الناس على القافلة، ورأوا يوسف فعجبوا لحسنه وجماله.

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر

قال: وواعدوا مالكًا على بيعه بباب الملك ريّان بن الوليد، فزَيّن يوسف بأحسن زينة، وأقعده على كرسيّ، وأقبل عزيز مصر واسمه قِطْفِير، واجتمع التجار وقام الدلّال[٣] ونادى عليه؛ فبكى يوسف، وتزايد القوم حتى بلغ يوسف مالًا لا يحصى كثرة؛ واستقرّ بيعه من قِطْفِير، وأحضَر الأموال.

وقد اختلف الرّواة في كمّية الثمن، فمنهم من لم يَحُدَّه، بل قال: مالًا كثيرًا.

---

(١) عدوا: من العَدو، وهو الرّكض. (٢) أبق: هرب.

(٣) الدّلّال: الذي ينادي بسوق النّخاسة.

ومنهم من قال: إنّ عزيز مصر تلقّى القافلة، واشتراه من مالك بن دُعْر بعشرين دينارًا، ونعلين، وثوبين أبيضين. وقد عُزِي هذا القول إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما.

ورُوِيَ عن وهب بن منبّه أنه أقيم في السوق، وتزايد الناس في ثمنه، فبلغ ثمنُه وزنَه مسكًا وورِقًا[١] وحريرًا؛ فابتاعه العزيز بهذا الثمن.

نرجع إلى سياق الكسائيّ:

قال: فوقف عليه رجل من بلاد كنعان على ناقة، فمدّت عنقها، وجعلت تَشَمّ يوسف، فسأل يوسف صاحب الناقة بالعبرانيّة: من هو؟ فأخبره أنه من أرض كنعان؛ فقال له: أقرىء[٢] يعقوب سلامي إذا رجعت، ووصف له صفتي. فلمّا عاد الكنعانيّ خبر يعقوب بذلك؛ فقال يعقوب: سلني حاجةً بهذه البشارة. قال: ادع لي أن الله يُكثِر ولدي ومالي. فقال: اللهمّ أكثر ولده وماله وأدخله الجنة.

قال: ثم دنا مالك[٣] من يوسف فقال له: أنا يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل؛ وأخبره بخبر إخوته. فصلح مالك وقال: والله ما علمت فاستغفر لي فإني من أولاد مدين بن إبراهيم. فبكى يوسف، وقال له مالك: أسألك أن تدعو الله يرزقني ولدًا. فدعا الله فرزقه أربعة وعشرين ولدًا؛ وعاش مالك حتى رأى يوسف وهو عزيز مصر.

قال: ودخل قطْفير منزله ويوسف معه، فرأته زَلِيخا ـ وكانت أحسن نساء زمانها ـ فقال لها زوجها قطفير: قد اشتريت هذا الغلام لنتّخذه ولدًا فإنا لم نرزق ولدًا. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ [يُوسُف: الآية ٢١].

ذكر خبر يوسف وزليخا

قال: ولمّا رأته زليخا عجبت لحسنه، ولاطفته، وقالت: لا ينبغي لمثلك أن يباع عبدًا. ويوسف ساكت؛ وكان لا يأكل من ذبائحهم، فقالت له: لم لا تأكل من ذبيحتنا وتقبل كرامتنا ولي هذا البستان أريد أن تحفظه. فقال يوسف: أفعل ذلك.

---

(١) الورق: الدراهم المضروبة من الفضة «اللّسان مادة ورق».

(٢) أقرىء: بلّغ.

(٣) لعلّ الصّواب: ثمّ دنا يوسف من مالك، لأن السّياق فيما بعد يدلّ على ذلك...

فكان يوسف يتعاهده حتى عمر ببركته، وهو يأكل من نباته، فوقعت محبّته في قلب زليخا، فكتمت ذلك حتى كاد يظهر عليها، فأتتها دايتها[1]، وقالت: يا سيدة نساء مصر، أخبريني بقصّتك. فذكرت ما بها من حبّ يوسف؛ فأمرتها أن تتزيّن بأحسن زينتها؛ ففعلت، وجلست على سرير وأحضرت يوسف، فوقف بين يديها وهو لا يعلم ما يراد منه؛ وأغلقت الداية أبواب المجلس من خارج؛ فعلم عند ذلك مراد زليخا ـ وكان عمره ثمان عشرة سنة ـ؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٢٣].

قال: فرمت بتاجها وهمت به. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٢٤].

قالوا: همَّ بضربها، وقيل: بردعها. وقيل: لما حصل عنده من الهمّ ولا تعويل على ما نقله أهل التاريخ: أنّه همّ بها كما همّت به.

قالوا: وكان البرهان الذي رآه أنه سمع صوتًا من ورائه، فالتفت، فرأى صورة يعقوب وهو عاضّ على يديه يقول: «الله الله يا يوسف».

وقيل: خرجت كفّ من الحائط مكتوب عليها: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣]؛ ثم انصرفت الكفّ وعادت زليخا لمراودته، فخرجت الكف ثانية مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفِطار: الآيات ١٠ - ١٢]، ثم عادت فخرجت الكف ثالثة وعليها مكتوب: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨١].

قال: فلمّا نظر يوسف إلى البرهان، بادر إلى الباب؛ فَعَدَتْ زليخا خلفه فلحقته عند الباب، فجذبت قميصه فقدّته من دُبُر؛ وإذا قطفير قد أقبل. قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يُوسُف: الآية ٢٥].

قال: فلمّا نظرت زليخا إليه لطمت وجهها، وقالت: أيّها العزيز، هذا يوسف الّذي اتخذناه ولدًا دخل يراودني عن نفسي.

---

(١) الدّاية: القابلة.

ثم قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسُف: الآيتان ٢٥، ٢٦]، فهمّ قطفير أن يضرب يوسف بسيف، فأنجاه الله منه؛ وكان في المجلس صغير ابن شهرين ـ وهو ابن داية زليخا ـ فتكلّم بإذن الله وقال: لا تعجل يا قطفير، أنا سمعت تخريق الثوب. قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ [يوسف: الآيتان ٢٦، ٢٧]، ثم لم ينطق الصبيّ بعد ذلك حتى بلغ حدّ النطق، وهذا الصبيّ أحد من تكلّم في المهد. ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف: الآية ٢٨]؛ وأقبل على يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسُف: الآية ٢٩] الحديث لا يسمعه أحد. وقال لزليخا: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسُف: الآية ٢٩].

وخرج قطفير من منزله، وعادت زليخا لمراودته؛ فامتنع عليها.

ذكر خبر النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ

قال: وفشا في المدينة، وشاع عند نساء الأكابر خبرها، فعتبنها عليه، وهو قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسُف: الآية ٣٠]، فلمّا بلغها ذلك من قولهنّ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسُف: الآية ٣١].

قال: استدعت امرأة الكاتب والوزيرِ وصاحبِ الخراج(١) وصاحبِ الديوان(٢).

وقيل: إنّ النساء اللاتي تكلّمن في أمر زليخا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحبِ الديوان وامرأة صاحبِ السجن وامرأة الحاجب(٣)؛ والله أعلم.

قيل: إنها قدّمت إليهنّ صوانيّ الأترج وصِحاف العسل: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسُف: الآية ٣١] وزيّنت يوسف، وقالت: إنك عصيتني فيما مضى، فإذا دعوتك الآن فاخرج. فأجابها إلى ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ

---

(١) صاحب الخراج: الذي يتولى الضريبة التي تؤخذ من الناس، أو الجزية.

(٢) صاحب الديوان: كانوا يعبّرون عنه في الزّمن الأول بمتولّي الديون، وهو ثاني رتبه الناظر في المراجعة، وله أمورٌ تخصّه كترتيب الدَّرْج ونحو ذلك «صبح الأعشى ٥/٤٣٧».

(٣) الحاجب: الذي يتولى خدمة باب السلطان.

إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣١].

قال: كُنّ يأكلن الأُتْرُجَّ[١] بالسّكاكين فنالهنّ من الدهش والحيرة ما قطّعن أيديهنّ[٢] وتلوّثت بالدماء ولم يشعرن؛ فقالت لهنّ زليخا ما حكاه الله عنها: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣٢].

وقيل: إنّ النساء خلون بهِ ليعذّلنه[٣] لها، فراودته كلّ واحدة منهنّ عن نفسه لنفسها، ثم انصرفن إلى منازلهنّ.

ثم دعته زليخا وراودته، وتوعّدته بالسجن إن لم يفعل؛ فقال يوسف ما أخبر الله به عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٣٣].

قال: فلمّا أيست زليخا منه مضت إلى الملِك ريّان بن الوليد ـ وكانت لا تُردّ عنه ـ فقالت: إنّي اشتريت عبدًا، وقد استعصى عليّ، ولا ينفع فيه الضرب والتوبيخ، وأريد أن أحبسه مع العصاة. فأمر الملِك بحبسه، وأن يفرج عنه متى اختارت؛ فأمرت السجّان أن يضيّق عليه في محبسه ومأكله ومشربه؛ ففعل ذلك؛ فأنكره العزيز، وأمر أن يُنقل إلى أجود أماكن السجن، ويُفكّ قيده، وقال له: لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك لأخرجتك، ولكن اصبر حتى ترضى عنك ويطيب قلبها.

ذكر إلهام يوسف ـ عليه السلام ـ التعبير

ونزل جبريل على يوسف عليه السلام وبشّره أنّ الله قد ألهمه تعبير الرؤيا فعرفه بإذن الله عزّ وجلّ، وأنبت الله له شجرة في محبسه يخرج منها ما يشتهيه.

ذكر خبر الخبّاز والساقي

قال: وغضب الملِك ريّان بن الوليد على ساقيه شرهيا، وصاحب مطبخه شرها، فأمر بحبسهما، فحبِسا في السجن الذي فيه يوسف، فرأى الساقي رؤيا فسأل

---

(١) الأترج: شجر وثمر من جنس الليمون تسمّيه العامة «الكبّاد».

(٢) يلاحظ أنّ المؤلف في هذه العبارة قد حذف عائد «ما» الموصولة وهو قوله: بسببه أو به، مثلًا، ويستفاد من كتب القواعد أن حذف العائد المجرور جائز إذا تعيّن الجار كما هنا.

(٣) يُعذّلنّهُ: بتشديد الذّال وتخفيفها: أي يقوّمنه، وعدله: قوّمه وسوّاه. . .

أهل السجن عن تأويلها[١]، فدلّوه على يوسف؛ فأتاه وقال: قد رأيت رؤيا. فقال له يوسف: قصّها. فقال: رأيت كأنّي في بستان فيه كَرمة حسنة؛ وفيها عناقيد سود؛ فقطعت منها ثلاث عناقيد وعصرتها في كأس الملِك، ورأيت الملك على سريره في بستانه، فناولته الكأس فشربه، وانتبهت.

فقال صاحب المطبخ: وأنا رأيت مثل هذه الرؤيا، رأيت كأني أخبز في ثلاثة تنانير: أحمر وأسود وأصفر، ورأيت كأنّي أحمل ذلك الخبز في ثلاثِ سِلال إلى دار الملِك، وإذا بطائر على رأسي يقول لي: قف فإنّي طائر من طيور السماء ثم سقط على رأسي فجعل يأكل من ذلك الخبز، والناس ينظرون إليه وإليّ، وانتبهت فزِعًا.

فقال يوسف: بئسما رأيت. ثم قال للساقي: إنّك تقيم في السجن ثلاثة أيّام ويخرجك الملِك فيسلّم إليك خِزانته، وتكون ساقيه وصاحب خِزانته. وأنت يا خباز بعد ثلاثة أيام تُضرب رقبتك وتُصلب وتأكل الطير من رأسك. فقال الخباز: إني لم أر شيئًا، وإنّما وَضعتُ رؤياي هذه. فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يُوسُف: الآية ٤١].

ثم قال يوسف للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢] وأعلِمه أنّي محبوس ظلمًا. فقال له: ما أبقِي جهدًا.

فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام كان من أمر السّاقي والخباز ما قاله لهما يوسف.

ثم هبط جبريل على يوسف وقال: إن الله يقول لك: نسيتَ نعمائي عليك فقلتَ للساقي يذكرك عند ربه، وهما كافران، فأنزلت حاجتك بمن كفر بنعمتي وعبد الأصنام دوني.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢].

قيل: الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الساقي، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٢] وهو يبكي ويستغفر ويتضرّع إلى الله؛ فأوحى الله إليه: أني قد غفرت لك ذنبك، وأنه سيخرجك من السجن، ويجمع بينك وبين أبيك وإخوتك وتصدق رؤياك. فخرّ ساجدًا لله تعالى.

(١) تأويل الرؤيا: تفسيرها.

ذكر رؤيا الملِك وتعبيرها وما كان من أمر يوسف وولايته

قال: وقدّر الله عزّ وجلّ أن الملك ـ وهو الريّان بن الوليد بن ثروان بن أواسة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن نوح عليه السلام ـ رأى في تلك الليلة رؤيا هالته؛ فدعا بالمعبّرين، فقالوا: إن هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسُف: الآية ٤٤]، فغضب الملك وقطع أرزاقهم؛ وذكر الله الساقي؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسُف: الآية ٤٥] فتقدّم إلى الملك وذكر له خبر يوسف ـ وكان بين المدّتين(١) سبعُ سنين وسبعة أشهر ـ فأرسله الملك إليه وقال: أخبره برؤياي وأتني بتأويلها. فأقبل الساقي إلى السجن واجْتمع بيوسف، واعتذر له، وأخبره برؤيا الملك، وقال: هل عندك تعبير ذلك؟ قال: لا أفعل حتى ترجع إلى الملك وتسأله ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٠]؛ فرجع الساقي إلى الملك وأخبره، فاستدعى النسوة، فأتى بمن كان يعيش منهن، فقال الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٥١]، فلما قلن ذلك قال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٤]؛ فلمّا دخل عليه أجلسه معه على السرير، وسأله عن اسمه ونسبه، فانتسب له، وذكر قصّته مع إخوته؛ فقال له الملك: قد سمعتَ ما رأيتُ في منامي. ثم قصّها عليه، فقال: رأيت سبع بقرات سمان في نهاية الحسن، ولكل بقرة قرون كبيرة، فحملتني واحدة على قرنيها، فجعلت أصير من بقرة إلى بقرة حتى طفت على الجميع؛ فبينما أنا كذلك وإذا بسبع بقرات عِجاف(٢) مهازيل، فعمدتْ فأكلتْ كلُّ واحدة من المهازيل واحدة من السمان، وبقيت الّتي أنا على قرنيها فلمّا تقدّمت المهزولة لأكلها، رمتني عن قرنيها، فأكلتْها المهزولة؛ ثم صار للمهازيل أجنحة، فطارت ثلاثٌ نحو المشرق وثلاث نحو المغرب، وبقيت هناك واحدة؛ فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسبع سنبلات في نهاية الخضرة خرجن من ذلك الوادي، ثم لاحت فيهن سبع سنبلات يابسات، فالتففن على الخضر حتى غلبن على خضرتهن، وإذا بملك قد أقبل وقال: يا ريّان، خذ هذا الرجل فأقعده على سريرك، فإنّه لا يصلح ما رأيت إلّا على يديه؛ فهذا ما رأيت.

---

(١) في نسخة الكسائي «وكان بين هذا الحديث وبين هذه الرؤيا»...

(٢) العجاف: الضّعاف المهازيل.

فقال يوسف: أما السبع بقرات السِّمان فهي سبع سنينَ يكون فيها زرع وخصب ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٧] فإنّه أبقى له.

وأما البقرات العجاف، فإنّها سبعُ سنين فيها قحط وضيق، فتأكل ما حصدتم في سنين الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٨] في بيوتكم.

وأما السنابل الخضر، فهي سِنو الخصب، واليابسة سِنو الجوع، والرجل الذي قال لك؛ أقعده على سريرك، فيكون صلاح ذلك على يديه فأنا هو؛ وقد أمرك ربي بهذا؛ فهذا تأويل رؤياك.

قال: فقال له ريّان: أشر عليّ الآن بمن أقدّمه في هذا الأمر. فقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥].

قال: كيف يتهيّأ لك وأنت رجل عبرانيّ لا تعرف لغة أهل مصر؟ فقال: إنّ الله ألهمني جميع هذه الألسنة يوم دخلت مصر. فنزع الملك خاتَمه، وجعله في إصبع يوسف، وقال لأصحابه: هذا عزيز مصر وخليفتي، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال الثعلبيّ: قال أهل الكتاب: لما تمت ليوسف في الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر. وكان مرادهم ـ والله أعلم ـ أنه لما استكمل ثلاثين سنة من عمره.

وحكى الثعلبيّ أن الملك عزل العزيز وولّى يوسف، ثم هلك العزيز عن قريب وكان يوسف يوم قضائه تُضرب له قبّة من الديباج[1] يجلس فيها للحكومة بين الناس وبقيّةَ الأيام يدور في عمله ويأمر بالزراعة والحرث وعمر البيوت لخزن الحبوب بسنابلها، حتى ملأها، وخزن الأتبان حتى انقضت سنوّ الخصب ودخلت سِنوّ القحط، فنهى عن الزراعة فيها لعلمه أن الأرض لا تثمر فيها شيئًا؛ فأكلوا ما عندهم حتى نفذ؛ فالتجأوا إلى الملك، فقال الملك: عليكم بالعزيز فإن في يده خزائن الطعام. فجاؤوه، فباعهم في السنة الأولى بالدنانير والدراهم، وفي السنة الثانية بالحليّ والجواهر، وفي الثالثة بالأراضي والعقار، وفي الرابعة بالإماء والعبيد، وفي الخامسة بأولادهم، وفي السنة السادسة بأنفسهم، حتى صاروا مِلكًا له وعبيدًا، وأطعمهم في السنة السابعة لأنهم صاروا عبيده وإماءه؛ والله أعلم.

---

(١) الديباج: نوعٌ من رقيق الحرير.

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها

يقال: إن زليخا أصابها من الحاجة ما أصاب غيرها، وابتاعت الطعام بجميع مالها، وبقيت منفردة، فلم تجد بدًّا من التعرّض ليوسف، فقعدت على طريقه وإذا هو قد أقبل في مواكب عظيمة، فقامت وقالت: يا يوسف، سبحان من أعز العبيد بالطاعة، وأذلّ السادات بالمعصية، أنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأنّك من أولاد النبيين.

فسألها يوسف. من أنت؟ فقالت: زليخا؛ وبكت وذكرت حاجتها إلى الطعام؛ فصرفها إلى منزلها، وردّ عليها أملاكها وأموالها؛ وبعث لها بمال جزيل وطعام كثير؛ ثم استأذن الله تعالى في زواجها؛ فأذن له؛ فتزوّجها، وردّ الله عليها حسنها وجمالها؛ فلمّا دخل عليها وجدها بكرًا؛ فعجب من ذلك؛ فقالت: يا نبيّ الله «والذي هداني إلى دينك ما مسّني ذكر قطُّ، وما قدر عليّ العزيز».

فيقال: إنه رزق منها عشرة أولاد في خمسة أبطن.

وقد حكى الثعلبيّ أنّ العزيز قطفير لـمّا هلك بعد عزله زوّج الملكُ يوسفَ بامرأته زليخا، وسماها الثعلبيّ في كتابه: «راعيل».

قال: وانتشر القحط حتى بلغ أرض كنعان؛ فقال يعقوب لبَنيه: يا بنيّ، إنكم ترون ما نحن فيه من الضرّ، وقد بلغني أنّ عزيز مصر تقصده الناس فيمتارون(١) منه ويحسن إليهم، وأنه مؤمن بإلـٰه إبراهيم، فاحملوا ما عندكم من البضاعة وتوجهوا إليه. ففعلوا ذلك وساروا.

قال: وأقبل مالك بن دُعْر على يوسف ومعه أولاده، وهم أربعة وعشرون ولدًا، كلّهم ذكور، فوقف بين يديه وحيّاه بتحيّة المُلك، وقال: أيّها العزيز أتعرفني؟ قال: إنّي أشبّهك برجل حملني إلى هـٰهنا. قال: أنا هو.

فقرّبه وسأله عن الفتية، فقال: هم أولادي رُزِقتهم ببركة دعائك. فكساه وكساهم، وكفاهم من الطعام؛ وسأله: هل مرّ بأرض كنعان؟ قال: نعم وإنّهم لفي جهد(٢)، وقد رأيت الذين باعوك منّي مقبلين عليك يريدون أن يمتاروا. ففرح يوسف.

---

(١) يمتارون: أي يشترون منه الميرة، وهي الطعام والمونة.

(٢) الجهد: الفاقة والشدّة.

ذكر دخول إخوة يوسف - عليه السلام - في المرّة الأولى

قال: وأقبل إخوة يوسف فدخلوا مصر ليلًا، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيهم؛ فأشرف عليهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نحن أولاد يعقوب النبيّ، قدمنا من أرض كنعان لنشتري القوت. فسكت، وأمر بتزيين قصره؛ وبات إخوته على الباب.

وأصبح يوسف فجلس على السرير، وتتوّج وتمنطق[١] وتطوّق[٢]؛ ثم أمر بإخوته؛ فدخلوا عليه - وهم عشرة، وتأخر عنهم بنيامين عند أبيه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٥٨].

فسلّموا عليه، وحيّوه بتحيّة الملوك؛ فردّ عليهم وقال لهم: إنكم أولاد يعقوب النبيّ، فكيف لي بصدقكم؟ فقال له روبيل: نحن نأتيك بأخينا الّذي عند أبينا يخبرك بمثل ما أخبرناك به.

فأمر بأخذ بضاعتهم، وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم.

ثم قال لأعوانه: اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ في رِحَالِهِمْ. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يُوسُف: الآيات ٥٩ - ٦٢].

فوضعت في رحل يهوذا؛ ثم سار القوم حتى أتوا إلى أرض كنعان، فدخلوا على أبيهم؛ فسألهم عن حالهم وما كان من أمرهم؛ وفتحوا رحالهم، فوجدوا بضاعتهم ردّت إليهم؛ فدخلوا على أبيهم وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٥].

فقال: إنّ هذا الطعام حرام عليكم إلّا أن تؤدّوا ثمنه.

فقالوا: كيف نرجع إليه وقد ضمنّا له أن نأتيه بأخينا بنيامين؟

---

(١) تمنطق: أي لبس النّطاق، وهو قطعة من ثوب أو جلد أو نحوهما يشدُّ بهما الوسط.

(٢) تطوّق: لبس الطّوق، وهو حليٌ للعنق يحيط به.

ثم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يُوسُف: الآيتان ٦٣، ٦٤].

فقال له يهوذا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: الآيتان ٦٥ - ٦٦].

ودعا يعقوب بقميص يوسف الّذي وردوا به عليه بالدم، فألبسه بنيامين وودّعهم: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٦٧] ثم ساروا.

ذكر خبر دخولهم عليه في المرّة الثانية

قال: فلمّا بلغوا مصر ودخلوا على يوسف قرّبهم، ونظر إلى أخيه بنيامين وأدناه وأجلسه بين يديه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يُوسُف: الآية ٦٩].

ثم قال له: أرى كلّ واحد من هؤلاء مع أخيه، فما بالك منفردًا؟ فقال: أيّها العزيز، كان لي أخ، ولا أدري ما أصابه، غير أنّه خرج مع هؤلاء الإخوة إلى الغنم، فذكروا أنّ الذئب أكله، وردّوا قميصه هذا الّذي عليّ وهو ملطّخ بالدم.

فقال لهم يوسف: يا أولاد يعقوب، إنّ فيكم من يصيح بالأسد فيخرّ ميتًا ومن يأخذ برجل الذئب فيشقّه اثنين، وفيكم من يقتلع الشجرة من أصلها، وفيكم من يعدو مع الفرس فيسبقه.

قالوا: نعم أيها العزيز. فقال: سوءة(١) لكم ولقوّتكم إذ يعدو الذئب على أخيكم فيأكله. فقالوا: إذا جاء القضاء ذهبت القوى.

فسكت يوسف، ثم أمر لهم بخمس موائد، وأمر كلّ اثنين منهم أن يجلسا على مائدة؛ ثم وضعت أخرى بين يدي بنيامين، فبكى؛ فقال له: ما يبكيك؟ قال: أيّها

(١) سوءة لكم: من سوّأ الشيء تسويئًا: إذا عابه وقبّحه ووبّخه.

العزيز، إخوتي يأكلون كلّ واحد مع أخيه، وأنا وحدي، ولو كان أخي يوسف باقيًا أكل معي.

فقال يوسف: يا فتى، أنا لك كالأخ. ثم نزل عن السرير وأكل معه.

فلمّا فرغوا من الأكل جعل يوسف يسألهم عن أرض كنعان وهم يخبرونه.

ثم خرج صبيّ من القصر يتثنّى، فنظر إليه بنيامين وبكى؛ فقال له يوسف: ممّ بكيت؟ قال: هذا الصبيّ يشبه أخي يوسف، فبكيتُ لأجله.

فقال يوسف: هل فيكم مَن حزِن على يوسف؟ قالوا: نعم، كلّنا حزنّا عليه وبنيامين أشدّ منّا حزنًا.

ثم قال: فما الّذي حملتم من البضاعة؟ قالوا: لم نحمل شيئًا، لأنه لم يكن لنا شيء، غير أنا رددنا عليك البضاعة التي وجدناها في رحالنا، لأنها ثمن الطعام الّذي حملناه من عندك.

فأمر أن يُعطَوا من الطعام ما تحمله إبلهم، وأمر غلمانَه أن يجعلوا الصُّواع[1] في رحل بنيامين؛ فكانوا يكيلون وإخوة يوسف يَخيطون الأعدال[2]، حتى فرغوا.

ورحل إخوة يوسف وهم لا يشعرون بالصُّواع.

وقال الثعلبيّ: كانت السقاية مِشربةً يَشرب فيها الملك، وكانت كأسًا من ذهب مكلّلةً بالجوهر، جعلها يوسف مكيالًا يكال بها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يُوسُف: الآيات ٧٠ - ٧٥].

فعند ذلك أمر يوسف أن تفتّش رحالهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٦] الآية.

---

(١) الصّواع: المكيال.

(٢) الأعدال: جمع «عدل» وهو الكيس الكبير.

قال: فلما نظروا ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم، وقالوا: ثكلتك أمّك فضحتَنا يا بنيامين. قال: إني لم أفعل ذلك. قالوا: من وضعه في رحلك؟ قال: الّذي جعل البضاعة في رحالكم. فسكتوا، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يُوسُف: الآية ٧٧].

قال الثعلبيّ: واختلف العلماء في السرقة التي وُصف بها يوسف، فقال سعيد[١] وقتادة[٢]: سرق يوسفُ صنمًا لجدّه أبي أمّه وكان من ذهب، فكسره وألقاه في الطريق.

وقال ابن جريج[٣]: أمرته أمّه ـ وكانت مسلمة ـ أن يسرق صنمًا لخاله كان يعبده.

وقال مجاهد[٤]: جاء سائل يومًا، فسرق يوسف بيضة من البيت.

وقال ابن عيينة[٥]: دجاجة، فناولها السائلَ، فعيّروه.

وقال وهب: كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء.

وقال الضحاك[٦] وغيره: كان أوّلَ ما دخل على يوسف من البلاء أن عمّته بنتَ إسحٰق كانت أكبرَ ولد إسحٰق، وكانت لها منطقة إسحٰق، وكانوا يتوارثونها بالكِبر، وكانت راحيل أمّ يوسف قد ماتت، فحضنتْه عمّته وأحبّته حبًّا شديدًا فكانت لا تصبر عنه؛ فلما ترعرع وبلغ سُنَيَّات وقع حبّه في قلب يعقوب؛ فأتاها وقال: يا أختاه سلّمي إليّ يوسف، فوالله ما أصبر عنه ساعةً واحدة. فقالت: ما أنا بتاركته.

---

(١) سعيد: لعلّه سعيد بن جبير الوالبي، أحد الأعلام، روى الحديث عن ابن عبّاس وغيره قتل شهيدًا في شعبان سنة ٩٥ هـ «الكاشف ١/ ٢٨٢».

(٢) قتادة: هو قتادة بن دعامة أبو الخطّاب السّدوسي الأعمى الحافظ المفسّر، مات كهلًا سنة ١١٨ هـ، محدّث ثقة «الكاشف ٢/ ٣٤١».

(٣) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز، أبو الوليد وأبو خالد، فقيه الحرم المكيّ، كان إمام أهل الحجاز في زمانه، روميّ الأصل، من موالي قريش مات سنة ١٥٠ هـ «الأعلام ٤/ ١٦٠».

(٤) مجاهد: هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج، مولى السّائب بن أبي السّائب المخزومي إمام في القراءة والتفسير والحديث، مات سنة ١٠٤ هـ «الكاشف ٣/ ١٠٦».

(٥) هو سفيان بن عيينة، أبو محمد الهلالي، أحد الأعلام الثقات، من أئمة رجال الحديث مات في رجب سنة ١٩٨ هـ «الكاشف ١/ ٣٠١».

(٦) الضّحاك: هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، محدّث مفسّر مات سنة ١٠٥ هـ «الكاشف ٢/ ٣٣».

فلما غلبها يعقوب قالت: فدعه عندي أيامًا أنظر إليه، لعل ذلك يسليني عنه. ففعل ذلك يعقوب؛ فلمّا خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحٰق فحزمتْها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدتُ منطقة إسحٰق فانظروا من أخذها. فالتُمست فلم توجد؛ فقالت: اكشفوا أهل البيت. فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف؛ فقالت: والله إنّه ليُسلَّم لي أصنع فيه ما شئت ـ وكان ذلك حُكمَ آل إبراهيم في السارق ـ فأتاها يعقوب، فأخبرته بذلك؛ فقال: إن كان فعل ذلك فهو يُسلَّم إليك، ما أستطيع غير ذلك.

فأمسكته بعلّة المنطقة، فما قدر يعقوب عليه حتى ماتت، فهو الذي قال له إخوته: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: الآية ٧٧]، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١﴾ [يُوسُف: الآيات ٧٨ - ٨١].

قال: ثم تشاوروا فقالوا: إن هذا الملك وأهلَ مصر كفرة يعبدون الأصنام فتعالوا نتظاهر عليهم.

قال روبيل: أنا أكفيكم الملك وأعوانه.

وقال شَمْعون: أنا أكفيكم أمر العزيز وأعوانه.

وقال يهوذا: أنا أكفيكم الأسواق.

فعلم يوسف بذلك، فأحضرهم وقال: يا بني يعقوب، ما الّذي غرّكم منّي؟ أحسنتُ إليكم مرّة بعد مرة، وتفضّلت عليكم، وجنى أخوكم جناية فتشاورتم في هلاك المدينة وأهلها، أتظنون أن هذه القوّة لكم دون غيركم؟ ثم ضرب برجله السُّدّة(١) التي كان عليها فطحطحها(٢) وكسر صفائح رخامها؛ ثم قال: لولا أنكم من أولاد الأنبياء لصحت بكم صيحة تخرّون على أذقانكم.

---

(١) السُّدّة: ما يجلس عليه من سرير أو يصعد عليه كالمنبر.

(٢) طحطحها: هدّها.

قال: وكان يهوذا قد عزم على أن يفعل شيئًا، وكان على كتفه شعرةٌ إذا غضب خرجت من جبته فيقطر منها الدم، ثم يصيح صيحة فلا يسمعها أحد إلّا سقط مغشيًّا عليه؛ وكان لا يسكن غضبه إلا أن يمسّه أحد من آل يعقوب؛ فدعا يوسف بابنه مَنَسًّا وقال: اذهب إلى ذلك الكهل فمَسَّه بيدك، وتنحّ عنه من حيث لا يشعر بك. ففعل ذلك، فسكن غضبه؛ فقال يهوذا لإخوته: من الذي مسّني منكم فقد سكن غضبي. قالوا: لم يمسّك غيرُ ذاك الصبي. فقال: والله لقد مسّتني يد من آل يعقوب.

فلمّا عسر عليهم ما عزموا عليه، عزموا على العود إلى أبيهم، وتركوا روبيل عند بنيامين.

قال: فلمّا انصرفوا دخل يوسف إلى منزله وأحضر بنيامين، وقال: أتعرفني؟ قال: نعم، أنت العزيز، والله ما سرقتُ، فلا تعجل عليّ، فإنك موصوف بالإحسان. فضمّه يوسف إلى صدره، وقال له: أنا أخوك يوسف. ثم كساه وسأله عن أبيه، فأخبره بما يقاسيه من أجله.

قال: ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم فذكروا ما كان من خبر بنيامين، وأن روبيل أقام عنده.

قال: وكيف يسرق ولدي وهو من الذرّيّة الطيّبة؟ فقالوا له: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: الآيات ٨٢ ـ ٨٦].

قال: وأخذ في البكاء حتى ضجر منه جيرانه، فأوحى الله إليه: أن كفّ عن بكائك فإنّي سأردّ عليك بصرك، وأجمع بينك وبين لدك. فسكن وهدأ، ثم قال لبنيه: احملوا كتابي إلى العزيز. ودعا بابنته (دِينَةَ) وقال لها: اكتبي، باسم إلـٰه إبراهيم، من يعقوب إلى عزيز مصر، إن الله أكرمني بولد كان أحبَّ أولادي إليّ وقد فقدته وبكيت عليه حتى عميت، وكنت آنس بأخيه بنيامين الّذي حبستَه عندك؛ وعجبتُ من أمر الصُّواع؛ فإن أولاد الأنبياء لا يفعلون ذلك، وإنه مكذوب عليه؛ فإذا أتاك كتابي هذا فتفضّل عليّ بولدي وردّه عليّ فإني أدعو الله أن يزيدك فضلًا وكرامة.

وسلّم الكتاب إليهم، وقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٧] الآية.

ذكر خبر دخولهم عليه في الدفعة الثالثة

قال: وساروا حتى دخلوا مصر، فاستقبلهم روبيل ودخل معهم، ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٨٨] وناولوه الكتاب؛ فقبّله وقرأه، ثم قال لهم: لو كنتم حملتم إليّ هذا الكتاب قبل اليوم دفعته لكم، ولكنّي قد ألقيت حديثه إلى الملك، وأنا أكلّمه فيه.

ذكر خبر حديث الصاع

قال: ثم أمر يوسفُ بإحضار الصاع(١) بين يديه وقال: اجتمعوا حتى أسأل هذا الصاع عنكم. فنقر الصاع فَطنّ، فقال: يا بني يعقوب، إنّ هذا الصاع يقول: إنكم تشهدون بالزور؛ وإنكم كذبتم في قولكم: إنّ الذئب أكل أخاكم. قالوا: ما شهدنا بالزور قط، وما قلنا في يوسف إلّا الحقّ. فنقر الصاعَ وقال: أتدرون ما يقول؟ إنه يقول: إنكم حسدتم أخاكم، وأخرجتموه من عند أبيه وأردتم قتله، ثم ألقيتموه في الجب المظلم البعيد القعر. ثم نقر ثالثًا وقال: إنه يقول، ما كذبتُك فيما أقول، ولقد أخرجوا أخاهم من الجب فباعوه بعشرين درهمًا عددًا تنقص درهمًا، وأوصَوا مشتريه أن يقيّده حتى يبلغ أرض مصر. فتغيّرتْ وجوه القوم، وقالوا: ما نعرف شيئًا من هذا. ثم نقره رابعًا وقال: إنه يقول: وكتبوا كتاب البيع بخطّ يهوذا. فقال: أيّها العزيز، إني لم أكتب شيئًا وأنكِره. فقال: مكانكم حتى أعود إليكم. ودخل على زليخا وقال: هاتي تلك الصحيفة. فأخرجتها له؛ فأخرجها إلى يهوذا وقال: أتعرف خطّك؟ قال: نعم. فألقاها إليه فرآها وهي خطّه؛ فقال: هي خطّي، «غير أنّي لم أكتبه باختياري(٢)، وإنّما كتبته على عبد أَبَق منّا».

فغضب يوسف وقال: ألستم تزعمون أنكم من أولاد الأنبياء، ثم تفعلوا مِثل هذا.

ثم قال لأعوانه: انصبوا عشرة أشجار على باب المدينة حتى أضرب أعناق هؤلاء وأصلّبهم؛ وأجعلَهم حديثًا لأهل مصر. فبكوا وقالوا: اقتلنا كيف شئت ولا تصلّبنا.

---

(١) الصّاع: مكيال للحبوب أو نحوها مقداره أربعة أمداد تقريبًا.

(٢) يلاحظ أن وجه المقابلة غير ظاهر بين قوله: «لم أكتبه باختياري» وقوله: وإنّما كتبته على عبدٍ أبق منا».

وأقبل بعضهم على بعض وقالوا: هذا جزاؤنا بما عامَلْنا به أخانا. فلمّا أقرّوا كلّهم بالذنب، رفع التاجَ عن رأسه، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٨٩]، وكان في رأسه شامة مِثلُها في رأس يعقوب؛ فلما نظروا إلى الشامة عرفوها وقالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يُوسُف: الآيات ٩٠ ـ ٩٢].

فعمد يوسف إلى قميصه، وجعله في قصبة من فضة؛ ودفعه إلى يهوذا وخلع عليهم وطيّبهم، وقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٩٣]. فخرجوا، وسبقهم يهوذا بالقميص. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يُوسُف: الآية ٩٤].

قال: لمّا فصلت العير من أرض مصر حملت الريح رائحة القميص فشمّها يعقوب، فقال ذلك. ومعنى ﴿تُفَنِّدُونِ﴾، أي تكذّبون. فقال له أهله: ـ وقيل: بنو بنيه ـ ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: الآية ٩٥] معناه في حبّك القديم ليوسف.

فلمّا وصل يهوذا بالقميص ودخل على يعقوب ألقاه على وجهه وقال: خذها بشارة. فعاد بصره من ساعته، وخرّ ساجدًا لله. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يُوسُف: الآية ٩٦] الآية.

وجاء بنوه وقالوا: يا نبيّ الله، نحن الذين غيّبنا يوسف عنك، ونحن الذين أتيناك بخبره وهو عزيز مصر. ثم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يُوسُف: الآيتان ٩٧، ٩٨].

قال: وجاءه جبريل بناقة من نوق الجنّة، فاستوى عليها، وخرج من أرض كنعان يريد مصر ومعه أولاده وأهله، وهم ثمانية وسبعون إنسانًا، فدعا لهم يعقوب فما دخل أولاده مصر إلّا وقد غفر لهم؛ وخرج يوسف لملتقى أبيه ومعه خلق كثير فلما رآه يوسف ترجّل عن فرسه وأبرك(١) يعقوب ناقته، واعتنقا وبكيا، وقال يوسف: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩].

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] يعني الأب والخال، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ

(١) أبرك: أناخ.

بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: الآية ١٠٠].

قال: وكان بين مفارقته ووقتِ الاجتماع أربع وثلاثون سنة.

وقال الحسن(١): كان بين خروج يوسف إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجفّ عيناه.

وأقام يعقوب بمصر أربعين سنة. وقيل: أربعًا وعشرين سنة؛ ثم أمره الله أن يرتحل إلى أرض كنعان لاقتراب أجله؛ فارتحل ومات هناك، ودفن إلى جانب أبيه إسحٰق.

وحكى الثعلبيّ رحمه الله أن يعقوب مات بمصر، وأوصى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدّسة حتى يدفنه عند أبيه إسحٰق وجدّه إبراهيم؛ ففعل ذلك، ونقله في تابوت من ساج إلى البيت المقدَّس، وخرج معه في عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر، ووافق ذلك اليومُ وفاةَ عيصو(٢)، فدفنا في يوم واحد، وكان عمرهما جميعًا مائة سنة وسبعًا وأربعين سنة، لأنّهما وُلدا في بطن واحد، وقُبرا في قبر واحد.

ذكر دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ وارتحاله عن بلد الريّان

قال: ثم إنّ يوسف عليه السلام دعا أهل مصر إلى الإيمان سرًّا وعلانية، فآمن به كثير منهم، وكسروا الأصنام، وصارت الغلبة للمسلمين؛ فاستدعاه ريان بن الوليد وقال له: أيها العزيز، إن أهل مصر كانوا يحبّونك وقد كرهوك بسبب أديانهم، فما لك وأديانَهم؟ فقال يوسف: قد بلغني ذلك وأنا رادّ عليك ما خوّلتنيه(٣)، ومتحول عنك وعن قومك بأهل ملّتي، فإني لا أحبّ أن أكون من عبدة الأوثان.

وخرج يوسف هو وأولاده وإخوته وقومه الذين آمنوا حتى نزل الموضع الذي استقبل أباه يعقوب عنده؛ فجاءه جبريل وخرق له نهرًا من النيل إلى هناك، وهو نهر الفَيُّوم، ولحق به كثير من الناس، وآمنوا، وابتنى مدينتين وسمّاهما بالحرمين وكان لا

(١) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد من التّابعين، كان إمام أهل البصرة، وهو أحد العلماء الفقهاء الشجعان النساك، مات سنة ١١٠ هـ «الأعلام ٢/ ٢٢٦».
(٢) عيصو: هو ابن إسحٰق وأخ يعقوب عليهما السّلام.
(٣) ما خوّله: ما أنعم عليه به أو ما جعله قيّمًا عليه.

يدخلهما أحد إلّا يلبّي يقول: «لبيّك يا مفضِّل إبراهيم بالنبوّة لبَّيك». ولم يكن بأرض مصر أعمر منهما، وسار يوسف في قومه سيرة الأنبياء حتى مات.

ذكر خبر وفاة يوسف ـ عليه السلام ـ

قال: ولمّا أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه (أَفْرايم) أن يسوس[1] قومه بالواجب وأن يكون معاندًا[2] لأهل مصر الذين يعبدون الأوثان، ويجاهدهم في الله حقّ جهاده؛ ثم توفّي، وكانت زَليخا قد ماتت قبله، وما تزوّج بعدها.

قال الثعلبيّ: قال أهل التاريخ: عاش يوسف بعد يعقوب ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة.

قالوا: ودفن في بلده فعمَر الجانب الذي يليها وأخصب، وقَحِط الجانب الآخر، فشكا أهله إلى الملك، فبعث إلى أفرايم أن ينقله فيدفنه في الجانب الآخر وإن لم يفعل قاتله؛ فدفنه هناك، فخَصَب ذلك الجانب، وقَحَط الآخر، فكان يدفن سنة في هذا الجانب، وسنة في الآخر؛ ثم اجتمعت الآراء أن يدفن في وسط النهر؛ ففعلوا ذلك، فخَصَب الجانبان ببركته، ولم يزل في نهر النيل حتى بعث الله موسى عليه السلام فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس، فدفنه هناك، وموضع قبره معروف.

الباب الخامس
من القسم الثاني من الفنّ الخامس
في قصّة أيوب عليه السلام وابتلائه وعافيته

عن وهب بن منبِّه أنه لم يكن بعد يوسف نبيّ إلّا أيوب، وهو أيّوب بن أموص بن عيصو بن إسحٰق بن إبراهيم.

وكان أموص كثير المال والماشية، لم يكن في أرض الشأم أغنى منه؛ فلما مات صار ذلك جميعه لأيوب؛ وكان أيوب يومئذٍ ابن ثلاثين سنة، فأحبّ الزواج فخطب رحمة بنتَ أفرايم بنِ يوسف؛ فتزوّجها، وكانت أشبه الخَلْق بيوسف وكانت كثيرة العبادة، فرزقه الله منها اثني عشر بطنًا، في كلّ بطن ذكر وأنثى؛ ثم بعثه الله تعالى

(١) يسوس قومه: أي يتولّى أمرهم وقيادتهم. (٢) معاندًا: أي مخالفًا لما هم فيه من ضلال.

إلى نومه رسولًا ـ وهم أهل حَوْران والبَثَنِية[(١)] ـ ورزقه الله حُسن الخلق والرفق، فشرع لقومه الشرائع، وبنى المساجد، ووضع موائده للفقراء والأضياف؛ وأمر وكلاءه ألّا يمنعوا أحدًا من زراعته وثماره، فكان الطير والوحش وجميعُ الأنعام تأكل من زرعه وبركة الله تزداد صباحًا ومساءً؛ وكانت كلّ مواشيه تَحمِل في كلّ سنة بتوأم.

وكان أيّوب إذا أقبل الليل جمع من يلوذ[(٢)] به في مسجده، ويصلّون بصلاته ويسبّحون بتسبيحه حتى يصبح، فحسده إبليس؛ وكان لا يمر بشيء من ماله وماشيته إلا رآه وهو مختوم بخاتم الشكر؛ وكان إذ ذاك يصعد إلى السمٰوات ويقف في أي مكان أحبّ منها، حتى رفع الله عيسى ابن مريم، فحُجب عن أربع سمٰوات منها؛ حتى بعث الله نبينا محمدًا ﷺ، فحُجِب عن جميعها فصعد إبليس في زمن أيّوب عليه السلام وقال: يا ربّ إني طفت الأرض ففتنت[(٣)] من أطاعني إلّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. فنودي: يا ملعون، هل علمت بعبدي أيّوب؟ وهل نلت منه مع طول عبادته؟ وهل تستطيع أن تغيّره عن عبادتي؟ فقال إبليس: إلٰهي إنك ذكرتَه بالخير، وقد نظرتُ في أمره فإذا هو عبد عافيتَه بعافيتك، ورزقته شكرك، ولم تختبره بالبلاء؛ فلو ابتليته بالمصائب لوجدته بخلاف ما هو عليه، فلو سلّطتني على ماله لرأيتَه كيف ينساك.

فسلّطه[(٤)] الله على ماله؛ فانقضّ وجمع العفاريت، وأخبرهم أنه سُلّط على مال أيوب، وحضّهم على زرعه وأشجاره ومواشيه، فأحرقوا الأشجار، وصاحوا بالمواشي صيحة فماتت برعاتها.

قيل: وكان له ألفُ فرس وألف رَمَكة[(٥)] وألف بغل وبغلة، وثلاثةُ آلاف بعير، وألف وخمسمائة ناقة، وألف ثور، وألف بقرة، وعشرة آلاف شاة وخمسمائة فدّان، وثلاثمائة أتان[(٦)]، مع ما يتبع ذلك من النِّتَاج؛ فهلك جميع ذلك؛ ثم أقبل إبليس إلى أيوب في صورة راع من رعاته، وخَيّل له أن عليه وهجَ الحريق وقد اسودّ وجهه، وهو ينادي: يا أيّوب، أدركني فأنا الناجي دون غيري ما رأيتُ قطّ مثل هذا اليوم،

---

(١) البثنيَّة: هي مدينة من أعمال دمشق، ويقال لها أذرعات أو يذرعات وبينها وبين الصنمين ثمانية عشر ميلًا، وبها ولاية الحاكم على مجموع الصّفقة «انظر صبح الأعشى ١٠٩/٤».
(٢) يلوذ به: أي يؤمن به من أقرباء وغيرهم. (٣) فتن: أضلّ.
(٤) سلّطه: حكّمه. (٥) الرّمكة: الفرس التي تتخذ للنسل.
(٦) الأتان: الحمارة.

رأيت نارًا أقبلت من السماء فأحرقت أموالك، وسمعت نداء من السماء: هذا جزاء من كان مرائيًا[١] في عمله يريد به الناس دون الله. وسمعتُ النار تقول: أنا نار الغضب. فأقبل أيوب على صلاته، ولم يكترث به حتى فرغ منها، وقال: يا هذا، لقد كثّرت عليّ، ليست الأموالي لي، بل هي لربيّ يفعل فيها ما يشاء. فقال إبليس: صدقت.

وماج الناس[٢] بعضهم في بعض، وقالوا: هلّا قبضها قبضًا جميلًا.

فشقَّ ذلك على أيّوب من قولهم، ولم يجبهم، غير أنه قال: الحمد لله على قضائه وقدره. وانصرف إبليس عنه، وصعد إلى السماء، فنودي: يا ملعون كيف وجدت عبدي أيّوب وصبرَه على ذهاب أمواله؟ فقال إبليس: إلٰهي إنك قد متّعته بالأولاد، فلو سلّطتني عليهم لوجدتَه غير صابر. فنودي: يا ملعون اذهب فقد سلّطتك عليهم. فانقضّ إبليس على باب قصر أيّوب الّذي فيه أولاده فزلزله حتّى سقط عليهم، وشدخهم بالخشب، ومثّل بهم كلّ مُثْلة؛ فأوحى الله إلى الأرض: احفظي أولاد أيّوب فإنّي بالغ فيهم مشيئتي.

وأقبل إبليس إلى أيوب وقال له: لو رأيت قصورك كيف تهدّمت، وأولادك وما حلّ بهم. ولم يزل يعدّ له ما حلّ بهم حتى أبكاه؛ ثم ندم على بكائه، فاستغفر وخرّ ساجدًا؛ وأقبل على إبليس وقال: يا ملعون، انصرف عنّي خائبًا؛ فإن أولادي كانوا عارية[٣] عندي لله.

فانصرف وصعد إلى السماء، ووقف موقفه، فنودي: يا ملعون، كيف رأيت عبدي أيوب واستغفاره عند بكائه؟ فقال: إلٰهي إنّك قد متّعته بعافية نفسه، وفيها عوض عن المال، فلو سلّطتني على بدنه لكان لا يصبر. فنودي: يا ملعون اذهب فقد سلّطتك على جسده إلّا عينيه ولسانَه وقلبَه وسمعَه. فانقضّ إبليس عليه وهو في مسجده يتضرّع إلى الله ويشكره على جميع بلائه؛ فلمّا سمع إبليس ذلك منه اغتاظ، ولم يتركه يرفع رأسه من السجود حتى نفخ في مَنخِريه كالنار الملتهِبة؛ فاسودّ وجهه، ومرّت النفخة في سائر جسده؛ فتمعّط[٤] منها شَعره، وتقرّح جميعُ بدنه،

(١) مرائيًا: من المراءاة: وهو أن يظهر المرء خلاف ما يبطن من معتقد أو نحو ذلك...
(٢) ماج الناس: هاجوا واضطربوا. (٣) العارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك.
(٤) تمعّط الشّعر: تساقط.

ووَرِم في اليوم الثاني، وعظم في الثالث، واسودّ في الرابع، وامتلأ قيحًا في الخامس، ووقع فيه الدود في السادس، وسال منه الصديد في اليوم السابع ووقع فيه الحُكاك، فجعل يحكّه حتى سقطت أظافيره؛ فحكّ بدنه بالخروق والمُسوح[١] والحجارة، وكان إذا سقطت دودة من بدنه ردّها إلى موضعها، ويقول: كلي إلى أن يأذن الله بالفرج.

فقالت له رحمة: يا أيوب، ذهب المال والولد، وبدأ الضرّ في الجسد.

فقال لها: يا رحمة، إنّ الله ابتلى الأنبياء من قبل فصبروا، وإن الله وعد الصابرين خيرًا؛ وخرّ ساجدًا لله تعالى، وقال: إلٰهي لو جعلت ثوب البلاء سرمدًا[٢] وحرمتني العافية، ومزّقتني كلّ ممزَّق، ما ازددت إلّا شكرًا؛ إلٰهي لا تشمت بي عدوّي إبليس.

ثم قال لرحمة: انقليني إلى موضع غيرِ مسجدي، فإنّي لا أحبّ أن يلتوّث المسجد.

فانطلقت إلى قوم كان أيوب يحسن إليهم؛ فالتمست منهم أن يعينوها على إخراجه من المسجد؛ فقالوا: إنه قد غضب عليه ربُّه بما كان فيه من الرياء، فليت كان بيننا وبينه بعد المشرقين. فرجعت رحمة واحتملته إلى الموضع الّذي كان يضع فيه الموائد للناس بالفضاء.

ثم قال لها: يا رحمة، إن الصدقة لا تحلّ علينا، فاحتالي[٣] في خدمة الناس. وبكى وبكت، فكانت تخدم أهل البلد في سقي الماء وكنس البيوت وإخراج الكناسات إلى المزابل، وتتكسّب من ذلك ما تنفقه على أيوب؛ فأقبل إبليس في صورة شيخ، فوقف على أهل القرية وقال: كيف تطيب نفوسكم بمخالطة امرأة تعالج من زوجها هذا القيح والصديد وتدخل بيوتكم، وتدخل يدها في طعامكم وشرابكم؟!

فوقع ذلك في قلوبهم[٤] ومنعوها أن تدخل بيوتهم.

---

(١) المسوح: مفردعا «مسح» وهو ثوب من شعر.
(٢) السّرمد: الدائم الذي لا يزول.
(٣) احتالي: يريد احتالي لكي نعيش أي اعملي واخدمي الناس لكسب القوب.
(٤) وقع ذلك في قلوبهم: أي رأوا صوابه واقتنعوا بما يقول.

قال: واشتد بأيوب البلاء، ونَتن حتى لم يقدر أحد من أهل القرية أن يستقرّ في بيته لشدّة رائحته؛ فاجتمعوا على أن يرسلوا عليه الكلاب لتأكله؛ فأرسلوها فعدت حتى قربت منه وولّت هاربة ولم ترجع إلى القرية.

ثم قال لرحمة: إنّ القوم قد كرهوني، فاحتالي في نقلي عنهم.

فتوجّهت واتخذت له عريشًا[١]، واستعانت بمن يحمله؛ فأعانها الله بأربعة من الملائكة، فحملوه بأطراف النِّطْع[٢] إلى العريش، وعزَّوه في مصيبته ودعَوا له بالعافية؛ واتخذت له رحمة في العريش رَمادًا، فألقى نفسه عليه؛ ثم توجّهت في طلب القوت، فردّها أهل القرية، وقالوا: إنّ أيوب سَخِط عليه ربّه. فعادت إليه باكية، وقالت: إنّ أهل القرية غَلّقوا أبوابهم دوني. فقال: إن الله لا يُغلِق بابه دوننا. فحملته إلى قرية أخرى، وصنعت له عريشًا ودخلت القرية، فقرّبوها وأكرموها، وحمَلتْ في ذلك اليوم عشرة أقراص من خمسة بيوت؛ ثم شمّ أهلُ القرية رائحة أيّوب بعد ذلك، فمنعوا رحمة أن تدخل إليهم، وقالوا: نحن نواسيك من طعامنا بشيء. فرضيت بذلك؛ فبينما هي تتردّد إلى أيوب إذ عرض لها إبليس في صورة طبيب وقال: إني أقبلت من أرض فلسطين لما سمعت خبر زوجك، وقد جئت لأداويه، وأنا صائر إليه غدًا فيجب أن تخبريه، وقولي له: يحتال في عصفور أو طائر فيذبحه ولا يذكر اسم الله عليه، ويأكله ويشرب عليه قدحًا من خمر، ففرجه في ذلك. فجاءت رحمة إلى أيوب وأخبرته بذلك، فتبيّن الغضبُ على وجهه، وأخبرها أنه إبليس وحذّرها أن تعود لمثل ذلك؛ ثم أقبلت بعد ذلك إلى أيوب بشيء من الطعام فعرض لها إبليس في صورة رجل بهيٍّ على حمار، فقال: كأني أعرفك، ألستِ رحمة امرأةَ أيوب؟ قالت: بلى. قال: إني أعرفكم وأنتم أهل غَناء ويسار[٣] فما الّذي غيّر حالكم؟ فذكرت ما أصاب أيّوب من البلاء في المال والولد والنفس قال: وفي أيّ شيء أصابتكم هذه المصائب؟ قالت: لأنّ الله أراد أن يعظم لنا الأجر على قدر بلائه.

قال إبليس: بئس ما قلت، ولكن للسماء إلـه وللأرض إلـه؛ فأمّا إلـه السماء فهو الله؛ وأمّا إلـه الأرض فأنا، فأردتكم لنفسي فعبدتم إلـه السماء ولم تعبدوني

(١) العريش: الهودج. (٢) النّطع: بساط من جلد.
(٣) اليسار: النعمة والسَّعة في الرزق.

ففعلت بكم ما فعلت، وسلبتكم نعمكم، وكلُّ ذلك عندي، فاتّبعيني حتى تنظري إلى ذلك، فإنّه عندي في وادي كذا وكذا.

فلما سمعت (رحمةُ) ذلك منه عجبت، واتبعته غيرَ بعيد حتى وقفها على ذلك الوادي، وسحر عينيها حتى رأت ما كانت فقدته من أموالهم. فقال: أنا صادق أم لا؟ فقالت: لا أدري حتى أرجع إلى أيّوب. فرجعت وأخبرته بذلك، فتألم وأنكر عليها وغضب؛ فسألته أن يعفو عنها ولا تعود؛ فقال: قد نهيتك مرّة وهذه أخرى، وأقسم إن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدةٍ على كلامها لإبليس.

قال: ولبث أيوب في بلائه ثماني عشرة سنةً حتى لم يبق إلّا عيناه تدوران في رأسه، ولسانه ينطق به، وقلبه على حالته، وأذناه يسمع بهما.

قال: وعجزت (رحمة) في بعض الأيام عن تحصيل القوت، وطافت القرية حتى أتت إلى امرأة عجوز فشكت لها ذلك؛ فقالت العجوز: يا رحمة، قد زوّجت ابنتي، فهل لك أن تعطيني ضفيرتين من ضفائرك لأزين بهما ابنتي، وأعطيك رغيفين. فأجابتها رحمة إلى ذلك، وأخذت الرغيفين، وجاءت بهما إلى أيوب؛ فأنكرهما أيوب وقال: من أين لك هذين؟ فأخبرته بالقصة؛ فصاح أيوب وقال ما أخبر الله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٣].

فأوحى الله إليه: يا أيّوب، قد سمعت كلامك، وسأجزيك على قدر صبرك؛ وأمّا رحمة فلأرضينّها بالجنة.

ذكر كشف البلاء عن أيّوب عليه السلام

قال: فلما كان يوم الجمعة عند زوال الشمس، هبط عليه جبريل فسلّم عليه فردّ عليه وقال: من أنت؟ قال: أنا جبريل، وبشّره بالشفاء، وأن الله قد وهب له أهلَه وماله وولده ومِثلَهم معهم لتكون آية، فبكى أيّوب من شدّة الفرح وقال: الحمد لله الذي لم يشمت بي عدوّي إبليس. فقال له جبريل: قم يا أيّوب. فلم يستطع؛ فأخذ بيده وقال: قم بإذن الله. فقام على قدميه، فقال له جبريل: اركض(١) برجلك هذه الأرض. فركضها، فنبعت عين من الماء تحت قدميه أشدّ بياضًا من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك؛ فشرب منه شربة فسقط ما في بدنه من الدود، ثم أمره جبريل فاغتسل من تلك العين، فخرج ووجهه كالقمر وعاد إليه حسنه وجماله؛ ثم

(١) ركض برجله الأرض: ضربها وحرّك أديمها.

ناوله جبريل خلعتين[١]، فاتزر[٢] بواحدة وارتدى بالأخرى؛ وناوله نعليْن من الذهب شِراكهما[٣] من الياقوت؛ وناوله سفرجلةً من الجنّة؛ ثم قام إلى الصلاة، فأقبلت رحمة وقد طردها الناس من كل الأبواب؛ فلما صارت إلى ذلك المكان رأته وقد تغيّر، فظنت أنها قد أخطأت الطريق؛ فقالت: أيها المصلّي كلّمني. فلم يكلّمها، وثبت في صلاته؛ فقال له جبريل: كلمها. فقال: ما حاجتك؟ قالت: هل عندك علم بأيوب المبتلَى فإنّي خلّفته هٰهنا ولست أراه.

فتبسّم أيوب وقال: إن رأيتِه عرفتِه؟ فقالت: والله إنّك لأشبه الناس به قبل بلائه. فضحك وقال: أنا أيوب. فبادرت إليه واعتنقته، وبشرهما جبريل بأولادهما وما فقداه من الأموال وغيرها ومثلِهم معهم، وأمطر الله عليهم جرادًا من ذهب؛ وكان له بَيْدَران، فأرسل الله سحابتين فأفرغتا في أحدهما ذهبًا وفي الآخر فضة حتى فاض أحدهما على الآخر.

قيل: إنه كان له بعد العافية أربعةُ آلاف وكيل، رزقُ كلٍّ واحد في الشهر مائةُ مثقال[٤] من الذهب، وبين يديه اثنا عشر من البنين، ومِثلهم من البنات وملّكه الله جميع بلاد الشأم، وأعطاه مِثلَ عمره الّذي عُمِّره في الماضي.

فلما أدركته الوفاة أوصى أولادَه أن يخلفوه[٥] في ماله كما كان يفعل مع الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل؛ ثم مات، وتوفيت امرأته قبله.

وقيل: بعده بقليل؛ فدفن إلى جانب العين التي أذهب الله بلاءه فيها.

قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى: وكانت مدّة ابتلائه ثماني عشرة سنة.

الباب السادس
من القسم الثاني من الفن الخامس
في خبر (ذي الكفل)

اختلف العلماء في (ذي الكفل) من هو؟ فقال الكسائي: هو ابن أيوب عليهما السلام وذكر قصته فقال:

---

(١) الخلعة: الثوب.
(٢) ائتزر: أي جعله إزارًا له.
(٣) الشّراك: الرّباط.
(٤) المثقال: ما يوزن به.
(٥) أن يخلفوه في ماله: أي أن يتبعوا سيرته وسنّته.

لما قبض الله عزّ وجلّ أيوب عليه السلام سار ابنه حوميل - وهو أكبر أولاده - في الناس سيرة أبيه، حتى خرج عليهم ملِك من ملوك الشأم يقال له: لام بن دعام، فغلَب على بلاد الشأم، وبعث إلى حوميل يقول: إنكم ضيّقتم علينا بلاد الشأم، وأريد منكم نصف أموالكم وتزوّجوني أختكم حتى أقرّكم على ما أنتم عليه، وإلّا سرتُ إليكم بخيلي ورَجِلي وجعلتكم غنيمة.

فأرسل إليه حوميل يقول: إن هذه الأموال التي في أيدينا ليس لأحد فيها حق إلا الفقراءِ والمساكينِ والأيتام والأرامل؛ وأما أختنا فإنّك من غير ديننا، فلا نزوّجها لك؛ وأما تخويفك لنا بخيلك ورَجلك، فنحن نتوكّل على الله ربّنا، وهو حسبنا.

فجمع الملك جنوده وقصدهم، فالتقوا واقتتلوا قتالًا شديدًا، فكانت الكسرة على أولاد أيوب، وأُسِر بشير بن أيوب وجماعةٌ معه؛ وانقلب[1] حوميل بنفسه وجمع مالًا عظيمًا ليحمله إلى الملك ويخلّص أخاه منه؛ فبينما هو في ذلك إذ أتاه آت في منامه فقال: لا تحمل هذا المال، ولا تخف على أخيك، فإن هذا الملِك يؤمن، وتكون عاقبة أمره خيرًا.

فلما أصبح قصّ رؤياه على إخوته، ففرحوا؛ فبلغ الملكَ توقّفُه في حمل المال فأرسل إليه يقول: احمل ما تكفل به أخاك من المال وإلّا أحرقتُه بالنار. فبعث إليه: إني قد أُمرت ألّا أحمل لك شيئًا، فاصنع ما أنت صانع. فغضب الملك وأمر أن تجمع الأحطاب؛ فجُمعت وألقَى فيها النار والنِّفْط، وأُمر ببشير فألقى فيها فلم تُحرِقه؛ فعجب الملكُ من ذلك، وآمن بالله، واختلط بعضهم ببعض، وزوّجوه أختهم، وسمي بشير ذا الكفل، وأرسله الله إلى الشأم؛ وكان الملِك يقاتل بين يديه الكفار، فلم يزل كذلك حتى مات أولاد أيّوب؛ ثم مات الملِك وغلب العمالقةُ[2] على الشأم، إلى أن بعث الله عزّ وجلّ شعيبًا رسولًا.

وحكى الثعلبي في تفسيره وقصصه في قصّة ذي الكفل غير ما تقدّم، وساق القصّة تلوَ قصة اليسع، فقال: قال مجاهد: لما كبر اليسع قال: لو أني استخلفت

---

(١) انقلب: رجع.

(٢) العمالقة: وهم بنو عمليق «ويقال: عملاق» بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وهم أئمة عظيمة يضرب بهم المثل في الطول والجثمان. قال الطبري: وتفرّقت منهم أمم في البلاد، فكان منهم أهل عُمان، والبحرين والحجاز وملوك العراق والجزيرة وجبابرة الشّام، وفراعنة مصر = «صبح الأعشى ١/ ٣٦٥».

رجلًا على الناس فعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس وقال: من يتكفّل لي بثلاثةٍ أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

فقام رجل شاب تزدريه العين قال: أنا. فردّه ذلك اليوم؛ وقال مثل ذلك في اليوم الآخر؛ فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلَفَه؛ فجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم؛ فقال: دعوني وإياه. فجاءه في صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة[١]، وكان لا ينام بالليل إلّا تلك النومة؛ فدقّ الباب؛ فقال: من هذا؟ فقال: شيخ مظلوم. ففتح الباب، فجعل يقص عليه قصته، فقال: إن بيني وبين قوم خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا وفعلوا؛ وجعل يطوّل عليه حتى حضر الرواح[٢] وذهبت القائلة؛ فقال له: إذا رحتُ فإنّي قد آخذ بحقك. فانطلق وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره؛ فلما رجع وأخذ مضجعه أتاه ودقّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا الشيخ المظلوم. فقال: ألم أقل لك: إذا قعدتُ فأتني. قال: إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نطيعك ونعطيك حقّك، وإذا قمتَ جحدوني.

قال: فانطلِق، فإذا رحتُ فاتني، ففاتته القائلة، فراح فجعل ينظر فلا يراه وشقّ عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعنّ أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق عليّ النعاس. فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل، فنظر فرأى كوّة[٣] في البيت، فتسوّرها فإذا هو في البيت، وإذا هو يدقّ الباب من داخل؛ فاستيقظ ذو الكفل، وقال: يا فلان، ألم آمرك ألّا تأذن لأحد عليّ؟ فقال: أمّا من قِبلي فما أُتيتَ، فانظر من أين أتيت.

فقام إلى الباب فإذا هو مغلق والرجل معه في البيت، فقال له: أتنام والخصوم ببابك؟ فقال: فعلتها يا عدوّ الله. قال: نعم، أعييتني[٤] في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك، فعصمك الله مني، فسمّى ذا الكفل، لأنه متكفّل بأمر فوفى به.

وروى الثعلبيّ أيضًا بسند رفعه إلى ابن عمر[٥] رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدّث حديثًا لو لم أسمعه إلّا مرة أو مرتين لم أحدّث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات.

---

(١) القائلة: النوم في الظهيرة.
(٢) الرّواح: العشي.
(٣) الكوّة: الفتحة في الحائط.
(٤) أعييتني: أي جعلتني أفقد صبري وأتعبتني.
(٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطّاب العدوي، أبو عبد الرحمٰن، صحابي جليل، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، وهو آخر من توفي من الصحابة وذلك سنة ٧٣ هـ «الأعلام ٤/ ١٠٨».

قال: كان في بني إسرائيل رجلٍ يقال له: ذو الكفل، لا ينزع عن ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن تعطيه نفسها؛ فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة أرعدت وبكت؛ فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل ما عملته قطّ. قال: أكرهتِك؟ قالت: لا، ولكن حملتني عليه[١] الحاجة. قال: اذهبي فهي لك. ثم قال: والله لا أعصي الله أبدًا. فمات من ليلته. فقيل: «مات ذو الكفل» فوجدوا على باب داره مكتوبًا: إن الله قد غفر لذي الكفل.

وقال أبو موسى الأشعريّ[٢] رضي الله عنه إنّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا ولكنه كان عبدًا صالحًا، تكفّل بعمل رجل صالح عند موته، فكان يصلّي لله تعالى في كل يوم مائة صلاة، فأحسن الله عزّ وجلّ عليه الثناء.

وقيل: كان رجلًا عفيفًا، تكفل بشأن رجل وقع في بلاء، فأنجاه الله تعالى.

وقيل: ذو الكفل، هو إلياس النبيّ عليه السلام.

وقيل: هو زكريا النبيّ عليه السلام؛ والله تعالى أعلم.

الباب السابع
من القسم الثاني من الفن الخامس
في خبر شعيب النبيّ عليه السلام

هو شعيب بن صنعون بن عفّا بن نابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام.

قال: وعاش مدين عمرًا طويلًا، وكان قد تزوّج امرأة من العمالقة فولدت له أربعة بنين، ونسلوا فكثر عددهم في حياة مدين، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصّنوها من العمالقة؛ ففعلوا ذلك، وجعلوا أبوابها من الحديد، وسموها مدين باسم أبيهم، وجعلوها محالَّ لقبائلهم، فرغبت العمالقة في مجاورتهم، وامتلأت المدينة من العمالقة ومن أهلها حتى ضاقت بهم، فخرجت العمالقة من مدين ونزلوا بالأيْكة[٣]، ـ وكانت غَيضةً عن يمين مدين ـ فبنوا هناك

---

(١) حملتني عليه الحاجة: أي أجبرتني.

(٢) أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، صحابي من الشجعان، وأحد الحكمين في صفّين توفي في الكوفة سنة ٤٤ هـ «الأعلام ٤/ ١١٤».

(٣) الأيكة: مكان تكثر فيه الأشجار والمياه، وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين.

الدُّور لأنفسهم، واختلطوا بأهل مدين، وكان أهل مدين يعبدون الله، وأصحاب الأيكة يعبدون الأصنام، ولا يعدو بعضهم على بعض؛ وكان (صنعون) والد شعيب من العبّاد والعلماء بمدين، وتحته امرأة من العمالقة، فولدت له شعيبًا في نهاية الجمال؛ فلمّا كبِر أعطاه الله فهمًا وعلمًا؛ وكان قليل الكلام دائم الفكر؛ وكان أبوه إذا تأمّل ضعفه ونحافته يقول: اللهم إنك كثّرت الشعوب والقبائل في أرض مدين، فبارك لي في شعيبي هذا. يعني ولده. فرأى في منامه أن الله تعالى قد بارك لك في شعيبك هذا، وقد جعله نبيًّا إلى أهل مدين. فسمّي شعيبًا لذلك.

وتوفّي والده فقام شعيب مقامه، وبرّز بالزهد على أهل زمانه، واشتهر بالعبادة.

قال: وكان ملكُ الأيكة ـ واسمه أبو جاد ـ قد اتخذ لقومه أصنامًا، وهي ثلاثون صنمًا، عشرة من الذهب حَلّاها بالجوهر خاصّة به وبأولاده، والبقية من الفضة والنحاس والحجارة والحديد والخشب لبقية الناس.

قال كعب في تفسير (أبجد): إنها أسماء ملوك مدين.

وقيل: بل ملوك الأيكة، وهم أبو جاد وهوّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت.

قال: وكان أهلُ مدين أصحابَ تجارات يشترون الحنطة والشعير وغيرَهما من الحبوب، ويجلبون ذلك من سائر البلدان يتربّصون[1] به الغلاء، وهم أوّل من تربّص؛ وكان لهم مكيالان: وافٍ يكتالون به لأنفسهم عند الشراء، وناقصٌ يكيلون به للإعطاء، وكذلك في وزنهم؛ فكانوا على ذلك وشعيب بين أظهرهم وهو لا يخالطهم، وله غنم ورثها من أبيه يأكل من منافعها، وهو عظيم المحلّ[2] عندهم.

فبينما هو ذات يوم على باب منزله مشتغل بالذكر، إذ جاءه رجل غريب فقال: إنّ هؤلاء القومَ يظلمون الناس، وإني اشتريت منهم مائة مكيال بمائة دينار وقبضوا الثمن وزيادة، والذي كالَه منهم نقصَ عشرين مكيالًا. فقال له شعيب: ارجع إليهم فلعلّهم قد غلطوا عليك. قال: قد راجعتهم فضربوني وسبّوني، وقالوا: هذه سنّتنا في بلدنا. والتمس الرجل من شعيب أن يساعده عليهم؛ فخرج شعيب معه حتى صار إلى سوقهم، وسألهم عن قصّته فلم ينكروها، وقالوا: ألم تعلم يا شعيب أنّ هذه سنّة

---

(١) يتربّصون: ينتظرون الوقت المناسب. (٢) المحلّ: المكانة والمنزلة.

آبائنا في بلدنا؟ قال ليس هذا من السنة. فعذلهم[1]، فلم يرجعوا إلى قوله وضربوا الرجل حتى أدموه، وانصرف شعيب إلى منزله.

ذكر مبعث شعيب عليه السلام

قال: فأتاه جبريل في الحال، وأخبره أنّ الله قد بعثه رسولاً إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة وغيرهم ممّن يعبدون الأصنام، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته، وألّا يبخسوا الناس أشياءهم.

قال: وأقبل شعيب إلى أهل مدين وقال لهم ما أخبر الله تعالى به في كتابه: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: الآيات ٨٤ - ٨٦].

فلما سمعوا ذلك منه أجابوه بما أخبر الله به عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: الآيات ٨٧ - ٩٠].

ثم انصرف عنهم، وعاد إليهم من الغد وقد اجتمعوا مع ملكهم أبي جاد؛ فوقف عليهم ونهاهم عن عبادة الأصنام وبخس المكيال والميزان؛ فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: الآيتان ٩١، ٩٢].

---

(١) عذلهم: لامهم.

فاستهزأ القوم به، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هُود: الآية ٩٣].

فكذّبه سفهاء قومه، كما أخبر الله عنهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٧٦ - ١٨٨].

ثم قال له الملك: قد بلّغت رسالتك بزعمك، وقد سمعناها وأبينا، فلا تعد إلينا فترى ما لا طاقة لك به. فقال: أنا رسول الله إليكم، وإن أعود أدعوكم حتّى ترجعوا إلى طاعة الله. فغضب الملك، وانصرف عنهم شعيب؛ وآمن به رجل من وزراء الملك، واستكتمه إيمانه، فكتمه شعيب؛ ثم عاد من الغد وقد خرج الملك ومن معه إلى سوقهم، وأخرجوا أصنامهم ونصبوها، وأمر الملك في أهل مدين والأيكة: من سجد لأصنامنا فهو منّا، ومن أبى عذّبناه عذابًا شديدًا. فسجد القوم بأجمعهم للأصنام؛ فناداهم شعيب: إنّ هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع، فاتركوا عبادتها. وحذرهم عذاب الله. فقالوا: إنك تدعونا بغير حجة، فهل لك حجة على دعواك النبوة؟ قال لهم شعيب: إن نطقت هذه الأصنام بصدق مقالتي أتؤمنون؟ قالوا: نعم. ورضي الملك بذلك؛ فتقدّم شعيب إلى الأصنام وقال لها: أيتها الأصنام، من ربّك؟ ومن أنا؟ تكلّمي بإذن الله. فنطقت بإذن الله وقالت: ربّنا الله وخالقنا وخالقُ كلّ شيء، وأنت رسول الله ونبيّه. وتنكّست عن كراسيّها ولم يبق منها صنم صحيح؛ وأرسل الله على قوم شعيب ريحًا كادت تنسفهم نسفًا فأسرع الملك ومن معه إلى منازلهم، وآمن بشعيب خلق كثير؛ ثم أصبح الملك ومن معه فخرجوا إلى سوقهم، ونصبوا ما كان قد بقي عندهم من الأصنام، وأمرهم بالسجود لها؛ فأتاهم شعيب ونهاهم وحذرهم فلم يرجعوا إليه، وأمر الملك أصحابه أن يقعدوا لشعيب ولمن معه كلّ مرصد(١)، ويؤذوهم أشدّ الأذى؛ ثم قال الملك وقومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ

(١) قعدوا كلّ مرصد: أي ترصّدوا لهم المكان وراقبوا طرقهم، وتعرّضوا لهم.

ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان ٨٨، ٨٩].

قال: وإذا بريح قد هاجت عليهم فيها من الحرّ والكرب ما لا طاقة لهم به حتى رموا أنفسهم في الآبار والسراديب[1]، واشتدّ الحرّ ودام عليهم مدّة وهم لا يزدادون إلا عتوًّا وتمرّدًا، وشعيب يدعوهم ويحذّرهم العذاب؛ فيقولون: لسنا نرى من عذاب ربّك إلا هذا الحرّ، ونحن نصبر عليه.

وأقاموا كذلك أعوامًا كثيرة وهم لا يؤمنون؛ فأرسل الله عليهم الذباب الأزرق، فكان يلدغهم كالعقارب، وربما قتل أولادهم؛ ثم تضاعف الحرّ عليهم فتحوّلوا من مدين إلى الأيكة، فتضاعف الحرّ عليهم، وتنقّلوا من الأودية إلى العياض والحرّ يشتدّ عليهم، حتى اسودّت وجوههم، فأقبل إليهم شعيب ودعاهم إلى الإيمان؛ فنادوه: يا شعيب، إن كان ما نلقاه لكفرنا بك وبربك فزدنا منه فإنا لا نؤمن. فأوحى الله إليه أنّه مهلكهم، فتحوّل عنهم.

ذكر خبر الظُّلّة

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ١٨٩، ١٩٠].

قال: ولما كان من غد يوم مقالتهم ما قالوه لشعيب وهو يوم الأربعاء وإذا بسحابة سوداء قد ارتفعت فأظلّتهم، فاجتمعوا تحتها يستظلون بها من الحرّ فانطبقت عليهم حتى لم يبصر بعضهم بعضًا؛ واشتدّ الحرّ؛ ثم رمت بوهجها وحرها حتى أنضجت أكبادهم وأحرقتهم وجميع ما كان على وجه الأرض، وشعيب والمؤمنون ينظرون إلى ما نزل بهم، ويتأمّلون مصارعهم، ولم ينلهم من ذلك مكروه. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هُود: الآية ٩٤] يعني صيحة جبريل، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٩٤، ٩٥]، ثم أقبل شعيب والمؤمنون ينظرون إلى مصارع القوم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:

(١) السّراديب: الحفر تحت الأرض، ولها مخارج.

الآية ٩٣] معناها، كيف أحزن عليهم. ثم قسم شعيب أموال الكفار على قومه، وتزوّج بامرأة من أولاد المؤمنين، ورزقه الله رزقًا حسنًا، ولم يزل بأرض مدين حتى كفّ بصره، وجاء موسى بن عمران من أرض مصر، وزوّجه ابنته ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى ـ.

القسم الثالث

من الفنّ الخامس

يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون؛ وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيلا وأشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متّى وجرجيس وبلوقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى، عليهم السلام، وأخبار الحواريين

وفيه ستة أبواب؛ والله أعلم بالصواب:

الباب الأوّل

من القسم الثالث من الفن الخامس

في قصة موسى بن عمران وهارون عليهما السلام وخبر فرعون وابتداء أمره وغرقه، وأخبار بني إسرائيل، وخبر قارون، وحروب موسى عليه السلام

ولنبدأ بخبر فرعون وابتداء أمره، وكيف توصل إلى الملك، ثم نذكر قصة موسى عليه السلام معه، ليكون الكلام في ذلك على سياقه.

فأمّا فرعون، فهو الوليد بن مصعب.

قال وهب: كان مصعب بن نُسَيم بمصر يرعى البقر لقومه، وله امرأة يقال لها: راعونة، وهما من العمالقة؛ فأتت عليه مائة وسبعون سنة لم يرزق ولدًا، فبينما هو في برّيّة مصر إذا ببقرة قد ولدت عجلًا؛ فتأوّه وحسد البقرة؛ فنادته: يا مصعب لا تعجل، فسيولد لك ولد مشؤوم يكون من أهل جهنم. فرجع وذكر ذلك لامرأته، وواقعها فحملت بفرعون، ومات أبوه قبل ولادتها؛ ثم ولدته أمّه وسمّته الوليد، وأخذت في إرضاعه وتربيته حتى كبر، فأسلمته إلى النجارين؛ فأتقن صناعة النجارة؛

ثم ولع بالقمار، فعاتبته أمّه؛ فقال: كفّي عني فأنا عون نفسي. فلزمه هذا اللقب، فكان يُعرف بعون نفسه، فقامر في بعض الأيام، فقمروه[١] في قميصه، وبقي في خلق لا يستره؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر؛ فعرض نفسه على بقّال، فخدمه، وكان يضرب المشترين ويؤذيهم حتى نفروا من البقّال؛ فطردوه فعاد إلى مصر؛ وكانوا يقولون: (فَرَّ عَوْن).

قال: ورجع إليها وهو لا يملك إلّا درهمًا واحدًا، فاشترى به بقلًا وبطيخًا وقعد يبيعه، فجاءه عريف[٢] الطريق وطالبه بحق الطريق؛ قال: وما هو؟ قال: درهم. فتلاحيا[٣]؛ فترك فرعون رحله ومضى، وجعل يسرق وينقب[٤]، فيهرب مرة ويؤخذ أخرى.

فاتفق أن رجلًا من العمالقة جمح به فرسه فعجز عن ضبطه، فوثب فرعون إلى الفرس وضبطه بلجامه؛ فقال له العمليقيّ: أراك جلدًا قويًا. فاتخذه سائسًا؛ فجعل يخدمه حتى مات الرجل وليس له وارث؛ فاحتوى فرعون على جميع ماله وحمله إلى أمّه، وأكل ذلك المال حتى فني، وضاق به الأمر، فوقع في قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر ويطلب أرباب الجنائز بشيء، ويُظهر أنه بإذن الملك؛ ففعل ذلك مدّة حتى اجتمع له مال عظيم؛ واتخذ له أعوانًا وحفدًا[٥] يعينونه على ذلك؛ وكان الملك بعد أن أهلك الله الريان بن الوليد يتوارثه الفراعنة؛ واستقرّ في سنجاب بن الوليد، وكان مكرمًا لبني إسرائيل، وكانوا يعبدون الله علانية ويتلون الصحف جهرًا.

قال: فماتت ابنة للملك؛ فحملت إلى المقبرة، فتعلق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ القطيعة[٦]؛ فاتصل الخبر بالملك؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله؛ فقصّ عليه قصّته، وفدى نفسه بما جمعه من المال؛ فعظم عند الملك وأقرّه على عمله؛ فقرّر فرعون عند ذلك على جنائز الملوك ألف درهم، وعلى جنائز الوزراء سبعمائة والقوّاد خمسمائة، ثم إلى المائة، إلى الخمسين، إلى عشرة، إلى ثلاثة؛ فاجتمع الناس إلى الملك وحرّفوا رأيه[٧] عن هذه الحالة وقبّحوها عليه؛ فصرفه الملك عنها وأبطلها؛

---

(١) قمروه: أي غلبوه فخسر قميصه في القمار.
(٢) عريف الطريق: الذي أوكل إليه أمرُها وجمع الجزية منها.
(٣) تلاحيا: تسابّا وشتم كلّ واحدٍ منهما الآخر.
(٤) ينقب: يدخل البيوت بعد أن يحدث خروقًا في جدرانها.
(٥) الحفد: الخدم.
(٦) القطيعة: الجزية أو الرّسم.
(٧) حرّفوا رأيه: صرفوه عنه.

وحمل إليه فرعون أموالًا جمّة، وقال له: أيها الملك، إنّ جدّي كان على حرس أبيك، فاجعل ذلك إليّ. فولّاه الحرس وأمره أن يشدّد فيه، ويقتل كلّ من لقيه بالليل كائنًا من كان؛ وجعل الملك معه عدّة من الرجال والأعوان؛ فخرج فرعون واتخذ لنفسه قبّة في وسط البلد، وكان يوجّه أعوانه، فمن أتوه به في الليل أمر بقتله؛ فتقدّم عند الملك بذلك، لأنه أخاف أعداء الملك، وأمن الملكُ جانبهم يسببه، وخافه الناس، وجعل لنفسه حاجبًا، ونفذت كلمته.

ذكر خبر قتل الملك
واستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره

قال: واتفق مرض بعض وزراء الملك ـ وكان الملك يأنس إليه ويقتدي برأيه ـ فأحبّ أن يزوره بالليل؛ فخرج منفردًا وليس معه أحد من خدمه؛ فأخذه أعوان فرعون وأتوه به وهو يقول: ويلكم، أنا الملك سنجاب، وهم يظنون أنه يخدعهم بذلك، حتى أتوا به إلى فرعون، فأمر بقتله، فقتل؛ وبادر فرعون بمن معه ـ وكان فيهم كثرة ـ ودخل القصر، وكان لا يمنع منه؛ فاستوى على سرير الملك ووضع التاج على رأسه، وفتح الخزائن، وأحضر الوزراء وفرّق فيهم الأموال فرضُوا به، وصاروا أولياء له.

قال: وأتاه إبليس وسجد بين يديه، وسمّاه إلـٰهًا وربًّا؛ ثم سجد له هامان وكان غلامًا لسنجاب ـ وسجد الوزراء والملوك والأعوان وغيرهم؛ وبعث إلى أسباط[1] بني إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له؛ فسجدوا وقصدوا بالسجود الله تعالى.

ثم أقبل فرعون بعد ذلك على إبليس وقال: أيّها الشيخ، إنّك كنت مباركًا وأنت أوّل من سجد لي، ثم جرى القوم بعدك على سنّتك، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل مصر أشير على الملوك بمصالحهم. ثم قال لفرعون: اتخذ لقومك أصنامًا واحملهم على عبادتها، واتخذ لك صنمًا انفرد به أنت، واجعله إلـٰهًا وربًّا. فوافقه فرعون على ذلك، واتخذ له ثورًا من ذهب يعبده، وأمر الناس بعبادة الأصنام؛ فعبدوها؛ فكان فرعون يعبد الثور، والقبط يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل يعبدون الله؛ فبلغه ذلك، فأحضر عُبّادهم وقال: قد بلغني أنكم مطيعون لي في الظاهر،

(١) الأسباط: عند اليهود كالقبائل عند العرب.

مخالفون لي في الباطن، فاسجدوا لي. فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقًا كثيرًا، وتبعه الباقون وأسرّوا[١] الإيمان؛ ثم إن فرعون استعبد الناس ووضع عليهم الخرَاج الكثير، وشقّ عليهم في الأعمال.

هذا ما حكاه الكسائيّ رحمه الله في خبر فرعون وابتداء أمره وسببِ ملكه.

وحكى أبو إسحٰق الثعلبي رحمه الله في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن): أنّ فرعون موسى هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريّان بن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكنّاه بهذه الكنية.

قال: وملك بعد أخيه قابوس بن مصعب؛ وذلك أنه لما مات الريان بن الوليد فرعونُ يوسف عليه السلام وذكر أنّه قد آمن بيوسف ومات قبل وفاة يوسف عليه السلام ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف الثاني؛ فدعاه يوسفُ إلى الإسلام، فأبى، وكان جبّارًا، وقبض الله تعالى يوسف في ملكه، وطالت أيّام ملكه، ثم هلك؛ وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس الوليد بن مصعب، ولم يذكر خلاف ذلك.

وقد قيل في اسمه ونسبه وسبب ملكه غير ذلك، وسيرد إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك مصر الفراعنة ما ستقف عليه هناك إن شاء الله تعالى والله أعلم.

ذكر خبر آسية ابنةِ مزاحم وزواجِ فرعون بها

قال: وكانت آسية ابنةُ مزاحم من الصدّيقات، وهي مختلَف في نبوّتها ولا خلاف أنّها صدّيقة؛ وكانت بارعة الجمال؛ فبلغ فرعونَ خبرها وجمالها، فأرسل إلى أبيها مزاحم (أن ابعث إليّ بآسية فإنها أمتي). فدخل على فرعون وقال: إن ابنتي صغيرة لا تصلح. فكذّبه فرعون وقال: قد عرفت وقت ودلاتها. فقال: أيها الملك، فاجعل لها مهرًا. فغضب فرعون وقال: احملها إليّ، فإن رضيتُها أكرمتها، وإلّا رددتها إليك. فقال له عمران: أيها الملك، لا تفضحني في ابنة أخي، ولكن أكرمها بخلعة ومهر. فأجابه إلى ذلك؛ فانصرف مزاحم وأخبر آسية بذلك وقال: إن امتنعتِ يكون ذلك هلاكي وهلاكَكِ. قالت: فكيف تكون مؤمنةٌ عند كافر؟ فلم يزل بها حتى أجابت على كره منها؛ وحمل إليها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب، ومثل ذلك

---

(١) أسرّوا الإيمان: كتموه.

من الفضّة، وجملةً من أنواع الثياب والطُّرَف، وحُملت إلى فرعون، فحماها الله منه حتى رضي منها بالنظر. وكان فرعون قد رأى قبل ذلك من الآيات ما دلّه على أن زوال ملكه يكون على يد فتى من بني إسرائيل؛ فقال: ائتوني بعمران لأنه كبير فيهم لأصطنع إليه[1] وإليهم معروفًا. فأُتي به، فخلع عليه[2] وتوجّه، وجعله سيّد وزرائه، حتى كان هامان وغيرُه يحسدونه.

ذكر شيء من الآيات التي رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام

فمن ذلك أنه هتفت به الهواتف تقول: ويلك يا فرعون، قد قرب زوال ملكك على يد فتى من بني إسرائيل.

ثم رأى الرُّؤى التي أزعجته وأفزعته؛ فكان منها أنه رأى شابًا وقد دخل عليه وبيده عصًا، فضربه بها على رأسه وقال: ويلك يا فرعون، ما أقل حياءك من خالق السمٰوات، كلّما رأيت آية ازددت كفرًا. ونظر إلى آسية في المنام ولها جناحان تطير بهما بين السماء والأرض حتى دخلت السماء؛ ورأى الأرض قد انفرجت وأدخلته في جوفها؛ فانتبه فزعًا، وقصّ رؤياه على أهل العبارة[3]، فقالوا: إنّها تدلّ على مولود يولَد يسلبُك ملكك، ويزعم أنه رسول إلٰه السماء والأرض ويكون هلاكك وقومك على يديه.

وكان فرعون قبل ذلك إذا عبّر عليهم رؤيا يقولون: هذه أضغاث[4] أحلام ويكتمونه ما تدلّ عليه.

ذكر خبر قتل الأطفال

قال: فاستشار فرعون وزراءه وأهلَ مملكته؛ فأشاروا عليه بقتل من يولد من الذكور؛ فقتل اثنتي عشرة ألف امرأة وسبعين ألف طفل؛ وكان يعذّب الحوامل حتى يسقطن، حتى ضجّت الملائكة إلى ربّها؛ فأوحى الله إليهم بأن له أجلًا وبشّرهم بموسى؛ وكان فرعون قد منع وزراءه وكبار أهلِ مملكته من الاجتماع بأهاليهم

---

(١) اصطنع إليه: أحسن.
(٢) خلع عليه: منحه وأعطاه.
(٣) أهل العبارة: أهل التأويل والتفسير.
(٤) الأضغاث: مفردها «الضغث» وهو التخليط والاضطراب.

والخلوة بهنّ، لأنه كان قد بلغه أن المولود يكون من أقرب الناس إليه؛ وكان عمران ممن مُنع؛ وكان فرعون إذا نام لا يفارقه حتى يستيقظ؛ فبينما عمران ذات ليلة على كرسيه عند رأس فرعون إذا هو بامرأته وقد حُملت إليه على جناح ملَك من الملائكة؛ فلما نظر عمران إليها فزع وقال: ما حاجتك هٰهنا؟ فسكتت؛ فقال له الملك: إن الله يأمرك يا عمران أن تأتي زوجتَك على فراش فرعون ليكون ذلك هوانًا[١] له. فواقعها فحملت بموسى؛ ثم اغتسلا في الحوض الذي في دار فرعون؛ ثم حملها الملَك وردّها إلى منزلها؛ وكان على باب فرعون ألف حاجب، والأبواب مغلّقة، فلم يُغن عنه ذلك؛ ولما أصبح فرعون دخل عليه المنجّمون وقالوا: إن الذي تخافه قد حملتْ به أمّه وقد طلع نجمه. فأمر فرعون القوابل والحواضن أن يدرن على نساء بني إسرائيل؛ ففعلن ذلك، ولم يعبرن بيت عمران لعلمهنّ بملازمته لفرعون ليلًا ونهارًا؛ فلما تمت أيّامها جاءها الطلق نصف الليل، وليس عندها إلا ابنتها، فوضعتْه ووجهه يتلألأ نورًا.

ذكر خبر ميلاد موسى
وما كان من أمره وإلقائه في التابوت

قال: وأصبحت أمّ موسى وهي شديدة الفرح به والخوف عليه؛ وسمع فرعون في تلك الليلة هاتفًا يقول: ولد موسى وهلكت يا فرعون وتنكّست الأصنام. فشدّد فرعون في طلب المولود، فكانت أمّه ترضعه، وإذا خرجت في حاجة ألقته في التنّور بمهده[٢] وغطّته؛ ففعلت ذلك في بعض الأيّام، وكانت أخته قد عجنتْ وأرادت أن تخبز، فسجرت[٣] التنور وهي لا تعلم أن موسى فيه؛ وجاء هامان والدايات فدخلوا دار عمران فلم يجدوا شيئًا، ونظروا إلى التنور والنار تعلو منه، فانصرفوا؛ وجاءت أمّ موسى فرأت الأعوان والحرس قد خرجوا من منزلها، فكاد روحها يَزهَق[٤] من الغمّ؛ فدخلت المنزل بسرعة نحو التنور، فرأت النار فيه؛ فلطمت وجهها وقالت: ما نفعني الحذر، أحرقتم ولدي. وانطلقتْ إلى التنور فرأت موسى ولم تمسّه النار؛ فأخرجته؛ ولمّا تم له أربعون يومًا فزِعتْ عليه، فاتخذت له تابوتًا ووضعته فيه، وألقته في اليمّ؛ وكان أبوه قد مات قبل ذلك ودفن، فلذلك اشتدّ خوف أمّ موسى.

---

(١) الهوان: الإذلال والاحتقار.
(٢) المهد: السّرير.
(٣) سجرت: أوقدت.
(٤) زهقت الروح: خرجت من البدن.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص: الآية ٧].

قال: فلمّا أتت به لتلقيه في النيل تصوّر لها إبليس في صورة حيّة سوداء وقال: إن ألقيتِه في اليمّ ابتلعتُه. فعلمتْ أنه إبليس؛ فسمعت النداء: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٧].

قال: فطرحته في النيل. فقيل: إنه بقي في الماء أربعين ليلة.

وقيل: ثلاثًا.

وقيل: ليلة واحدة.

ذكر دخول التابوت في دار فرعون ورجوع موسى إلى أمّه

قال: وأصبح فرعون في اليوم الذي دخل فيه التابوت إلى قصره، فصعد أعلى القصر وأشرف فرأى التابوت والموج يلعب به؛ وكان لفرعون سبع بنات من غير آسية، بكلّ واحدة منهنّ نوع من البلاء والمرض؛ وكان الأطبّاء قالوا له: إنّ دواءهنّ أن يغتسلن في النيل. فصنع لهنّ نهرًا من النيل وأجراه في وسط القصر يصب في حوض عظيم؛ فكانت بناته يغتسلن فيه؛ فأمر الله الريح أن تلقي التابوت في ذلك النهر وبنات فرعون فيه؛ فبادرت الكبرى وفتحته فإذا فيه موسى وله شعاع ونور؛ فلما لمسته أذهب الله ما بها من البلاء والمرض؛ فلمسته بنات فرعون واحدة بعد أخرى، فذهب ما بهنّ من الأمراض؛ وأقبلن بالتابوت إلى آسية؛ فلما رأته قبلته ولم تعلم أنه ابن عمّها؛ ثم أعادته إلى التابوت؛ وحملَتْه جارية معها ومضت به إلى فرعون؛ فلمّا نظر إليه أرعد(١) منه وقال: يا آسية، إني أخاف أن يكون هذا عدوّي، ولا بدّ لي من قتله. فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص: الآية ٩].

وحكى الثعلبيّ أنها لما قالت: قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، قال فرعون: قرّة عين لكِ، أمّا أنا فلا حاجة لي فيه.

---

(١) أرعد منه: ارتجف وخاف.

قال أبو إسحاق[١]: قال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلَف به لو أقرّ فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرّت به لهداه الله تعالى كما هدى به امرأته ولكن الله تعالى حرمه ذلك».

قال الكسائي: ولم تزل تتلطّف بفرعون حتى تركه، وأحضرت له المراضع فلم يرضعهنّ. قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القَصَص: الآية ١٢].

وأرسلت أمّ موسى ابنتها كلثم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ[٢] فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ [القَصَص: الآية ١١].

قال: فدخلت قصر فرعون فرأته في حجر آسية وقد امتنع أن يرضع؛ فتقدّمت إليها، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص: الآية ١٢].

قال: ولم تعلم آسية أنها ابنةُ عمّها لرثاثة ثيابها، لأنها دخلت في حلية المراضع؛ فالتفت إليها فرعون وقال: مَن هؤلاء القوم الّذين يكفلونه؟ قالت: قوم من آل إبراهيم. قال: اذهبي وائتني بهم. فرجعت إلى أمّها وأخبرتها؛ فدخلت على فرعون وموسى بين يديه، فعرفتها آسيةُ وقالت: خذي هذا الصبيّ وأرضعيه. فلما أخذته التقم ثديها[٣] ورضع منه، وفرعون لا يعلم أنّها امرأة عمران؛ فقالت لها آسية: أحبّ أن تكونين عندي إلى أن يستغني هذا الغلام عن الرضاع. فأقامت عند آسية سنتين حتى فطمته وفارقته مستبشرة فرحة.

وحكى الثعلبيّ أنها لم تقم عند آسية، بل أخذته وصارت إلى منزلها فأرضعته إلى أن تمّ رضاعه، وأعادته إلى آسية؛ والله أعلم.

ذكر شيء من عجائب موسى ـ عليه السلام ـ وآياته

قال: فلمّا صار موسى من أبناء ثلاث سنين، استدعاه فرعون وأجلسه في حجره[٤] وجعل يلاعبه؛ فقبض على لحية فرعون؛ فتألّم لذلك وقال: لا شكّ أنّ هذا عدوّي. وهمّ بقتله؛ فقالت له آسية: إن الصبيان لهم جراءة ولعب من غير معرفة ولا

---

(١) أبو إسحاق: هو الثعلبي أحمد بن محمد بن إبراهيم، المفسّر.
(٢) قصّيه: أي اتبعي أثره فانظري كيف يصنع به.
(٣) التقم ثديها: أي أقبل عليه بضمه راضعًا لبنها.
(٤) الحجر من الإنسان: حضنه.

عقل، وأنا أريك أنه لا يعقل؛ وأمرت بإحضار طست وطرحت فيه درّة وجمرة، وقدّمته إلى موسى، فأراد أن يأخذ الدرّة؛ فصرف جبريل يده عنها إلى الجمرة، فأخذها ورفعها إلى فيّه، فاحترق لسانه، فقذفها من فيّه وبكى بكاء شديدًا؛ فقالت آسية لفرعون: علمتَ أنه لا يميّز بين الدرّة والجمرة؟ فسكن عند ذلك.

قال: فلمّا تمّ لموسى سبع سنين، جلس في بعض الأيّام مع فرعون على سريره فقرصه فرعون، فغضب موسى ونزل عن السرير وضرب قوائمه برجله، فكسر قائمتين منه، فسقط فرعون عنه، وانهشم[1] أنفه وسال الدم على لحيته؛ فبادر موسى ودخل على آسية وأعلمها بالخبر، وتبعه فرعون إليها وأراد قتله؛ فقالت: ألا يسرّك أن يكون ولدك بهذه القوّة يدفع أعداءك عنك؟ ولاطفته حتى سكن غضبه.

ثم ظهر له من المعجزات والآيات ما لا يظهر إلّا للأنبياء وفرعون يكرمه؛ والله الموفّق.

ذكر خبر القبطيّ وخروج موسى من مصر

قال: ولما كبِر موسى صار يركب من مراكب فرعون ويلبس من ملابسه؛ وكان يدعى: موسى بن فرعون؛ فامتنع بسببه الظلم عن بني إسرائيل، ولم يعلم إلّا أنّ ذلك من قبل الرضاعة؛ واتفق ركوب فرعون، فركب موسى في أثره والمدينة مغلّقة الأسواق، وليس بها أحد؛ قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القَصَص: الآية ١٥] فكان الذي من شيعته فتى من بني إسرائيل، والذي من عدوّه رجل من القبط، وهو طبّاخ لفرعون، وقد أخذ حطبًا للطعام، وهو يريد الإسرائيليّ على حمله وقد امتنع؛ فلما مرّ بهما استغاثه الإسرائيليّ؛ فقال للطبّاخ: اتركه. فامتنع من تركه؛ فوكزه موسى في صدره فمات؛ فندم موسى على قتله؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: الآية ١٥].

قال: «فَأَصْبَحَ في الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ».

وجاء القبط وشكوا إلى فرعون أنّ بني إسرائيل قتلوا رجلًا منهم؛ فأمرهم أن يطوفوا على قاتله؛ وخرج موسى في اليوم الثاني، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ

(١) انهشم: تكسّر.

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القَصَص: الآية ١٨] على قبطيّ آخر، والقبطيّ يقول: هذا الّذي قتل ابن عمّي بالأمس. فقال الإسرائيليّ: أعنّي يا موسى على هذا، فإنّه يريد أن يحملني إلى دار فرعون ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: الآية ١٨].

قال: ثم لم يجد موسى بدًّا من نُصرة الإسرائيليّ، فحسر عن ذراعيه، ودنا من القبطيّ؛ فظنّ الإسرائيليّ أنّ موسى يريد أن يبطش به، فقال ما أخبر الله به عنه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القَصَص: الآية ١٩].

فلمّا سمع القبطيّ كلام الإسرائيليّ لموسى تحقق أن موسى قاتل ابن عمه؛ فدخل إلى دار فرعون وأخبره أن موسى هو الّذي قتل القبطيّ؛ قال: ومن أعلمك؟ فقصّ عليه القصة؛ فأذن فرعون لأولياء المقتول في قتل موسى حيث وجدوه؛ فجاء حزقيل ـ وكان مؤمنًا من آل فرعون ـ وأعلم موسى بالخبر.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص: الآيات ٢٠ - ٢٢].

ومضى بغير زاد ولا راحلة(١)؛ فمرّ براعٍ في طريقه، فأعطاه موسى ثيابه، وأخذ جبّة الراعي وكساه، وسار فوصل إلى مدين في اليوم السابع وقد أجهده(٢) الجوع.

قال: وكان موسى يسير بالليل ودليله النجم، فإذا جاء الصبح جاءه أسدان يدلّانه على الطريق؛ فكان هذا دأبه وهُما كذلك حتى ورد مدين؛ والله الهادي.

ذكر خبر ورود موسى مدين
وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القَصَص: الآية ٢٣] وكانتا ابنتي شعيب عليه السلام.

(١) الراحلة: ما يركب من الدّواب. (٢) أجهده الجوع: أتعبه.

قال: وكان الرّعاء إذا سقَوا غطَّوا البئر بصخرة لا يرفعها إلّا جماعة؛ فلمّا انصرفوا تقدّم موسى إلى الصخرة فوكزها برجله، فدحاها[١] أربعين ذراعًا على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما.

قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص: الآية ٢٤].

قال: فتمنّى موسى في ذلك الوقت شبعةً من خبز الشعير؛ وانصرفت المرأتان إلى أبيهما وأخبرتاه بالخبر، فأرسل إحداهما إليه وقال: ائتيني به. قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القَصَص: الآية ٢٥].

فقام موسى، وكانت تمرّ بين يديه فكشف الريحُ عن ساقيها؛ فقال لها: تأخّري ورائي ودلّيني على الطريق. فتأخّرت وكانت تقول: عن يمينك وعن شمالك. حتى دخلا مدين؛ وجاء إلى شعيب ـ وهو شيخ كبير وقد كفّ بصره ـ فسلّم عليه؛ فردّ عليه ورحّب به وسأله عن خبره. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٢٥].

ثم دعا شعيب بالطعام فأكل؛ فقالت ابنته: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصَص: الآية ٢٦] أرادت بالقوّة رفع الحجر عن رأس البئر واستقاءه بالدلو العظيمة، وأمانته أنه أخّرها إلى خلفه.

فرغب فيه وقال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القَصَص: الآيتان ٢٧، ٢٨].

فتزوّج موسى صفورًا ـ وهي الصغرى منهما ـ وطلب عصا؛ فقالت له: ادخل بيت أبي الّذي يأوي فيه فخذ عصاك. وكان فيه عصيّ كثيرة ـ فدخل موسى البيت وأخذ من العصيّ عصا حمراء؛ فقال له شعيب: هذه من أشجار الجنة أهداها الله إلى آدم، ثم صارت إلى شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب، وكلهم توكّأوا عليها، فلا تخرجنّها من يدك. ثم أوصاه وحذّره من أهل

---

(١) دحاها: رماها بعيدًا.

مدين، وقال: إنّهم قوم وحسدة، وإذا رأوكَ قد كفيتني[١] أمر غنمي حسدوني عليك، فدلّوكَ على وادي كذا وكذا، وهو كثير المرعى، وإنما فيه حيّة عظيمة تبتلع الغنم، فإن دلّوكَ عليه فلا تمرّ به، فإنّي أخاف عليك وعلى غنمي.

فخرج موسى بالغنم ـ وكانت يومئذٍ أربعين رأسًا ـ وقال في نفسه: إنّ من أعظم الجهاد قتلَ هذه الحيّة. وتوجه بالغنم إلى ذلك الوادي؛ فلمّا قاربه أقبلت الحيّة إلى الغنم، فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار، وعاد إلى شعيب وأعلمه الخبر؛ ففرح بقتلها، وفرح أهل مدين وعظّموا موسى وأجلّوه؛ وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها، حتى انقضت المدّة التي بينهما، وبلغت أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير.

ذكر خبر خروج موسى ـ عليه السلام ـ من أرض مدين ومناجاته ومبعثه إلى فرعون

قال: ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال: يا موسى، إنّي قد كبِرت وضعفت، فلا تضيّعني مع كبر سنّي وكثرة حسّادي، وتترك غنمي شاردةً لا راعي لها. قال موسى: إنّها لا تحتاج إلى راعٍ، وقد طالت غيبتي عن أمّي وخالتي وهارونَ أخي وأختي. فقال شعيب: إني أكره أنْ أمنعك. وأوصاه بابنته وأوصاها ألّا تخالفه؛ وسار موسى عليه السلام بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادي طُوًى[٢] في عشيّة شديدة البرد؛ وجاء الليل وهبّت الرياح وغيّمت السماء؛ فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على شفير الوادي، وأدخل أهله فيها؛ وهطلت السماء بالمطر؛ وكانت امرأته حاملًا، فجاءها الطلق، فجمع حطبًا وقدح الزناد فلم يور[٣]، فرماه وخرج من البيت، فرأى نارًا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ

(١) كفيتني: أي أغنيتني عن القيام بأمرها والعناية بها.
(٢) وادي طُوى: هو اسمٌ أعجمي للوادي المذكور في القرآن الكريم، وهو موضع بالشّام عند الطور، وقوله عزّ وجلّ: بالواد المقدّس، طُوى: أي طوي مرّتين: أي قدّس، وقيل: ثنيت فيه البركة والتقديس مرّتين. «معجم البلدان ٤/ ٤٤/ ٤٥».
(٣) لم يورِ: أي لم يشتعل.

ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القَصَص: الآيتان ٢٩، ٣٠].

ولم يكن هناك نار بل نور.

قال الثعلبيّ: واختلفوا في الشجرة ما كانت، فقيل: العوسجة[(١)]. وقيل: العُنّاب.

قال الكسائي: وأمر موسى بخلع نعليه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: الآيات ١١ ـ ١٨].

قال: لأنه كان يركزها في الأرض ويعلّق عليها كساءه وإداوته ونعليه، ويقاتل بها السباع، ويستظلّ بها من الشمس.

قال الله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: الآيتان ١٩، ٢٠] على مثال الثعبان العظيم.

قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ[(٢)]﴾ [النَّمل: الآية ١٠].

فلما أمعن في الهرب قال له جبريل: أتهرب من ربّك وهو يكلّمك؟ قال: ما فررت إلّا من الموت. ورجع وهي بحالها؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: الآية ٢١].

فأدخل يده في فيّها فإذا هي عصا؛ ثم قال الله له: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: الآية ٢٢] فذهب الخوف عن موسى؛ ثم أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: الآية ٢٤]. قال موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: الآيات ٢٥ ـ ٣٥]، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: الآية ٣٦].

---

(١) العوسجة: شجرة شائكة الأغصان.

(٢) لم يعقّب: لم يرجع، من قولهم عقّب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

قال: ثم تذكّر موسى ما كان منه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص: الآية ٣٣]، فنودي: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: الآية ١٠]، ثم ذكّره الله منّته عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [طه: الآية ٣٧] الآيات؛ ثم قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: الآيات ٤٣ - ٤٧].

قال: وكان الخطاب لموسى وحده، والرسالة له ولهارون.

قال: وأمّا ابنة شعيب فاشتدّ بها الطلق، وسمع سكّان الوادي من الجنّ أنينها، فأتوها وأوقدوا النار عندها، وقبلوها؛ وقيّض الله تعالى لها من ردّها إلى أبيها؛ والله المعين.

ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمّه

قال الكسائيّ: وسار موسى من الطُّور حتى بلغ العمران؛ وكان هارون يومئذٍ وزيرًا لفرعون على عادة أبيه لا يفارقه ليلًا ولا نهارًا؛ فبينما هو نائم إلى جنب سرير فرعون إذ أتاه آت في منامه ومعه شراب في كأس من الياقوت، وقال: يا هارون اشرب هذه الشربة فهي بشارة بقدوم أخيك من أرض مدين، وأنت شريكه في الرسالة إلى فرعون.

فانتبه هارون فزِعًا وظنّ ذلك من الشيطان، وعاد إلى النوم، فعاوده القائل ثلاث مرّات؛ ثم قال له: قم إلى أخيك - وكانت الأبواب مغلّقة - فاحتمله الملَك إلى قارعة[1] الطريق وقال له: امض واستقبل أخاك. ثم أتاه جبريل بوحي الله وبشّره بالرسالة، وحمله إلى شاطىء النيل، وموسى إلى الجانب الآخر؛ فكان يكلّمه والريح تحمل كلامه إلى هارون؛ ثم أذن الله لهما أن يلتقيا؛ فجاء موسى إلى الجانب الآخر، فالتقيا؛ وبشّره بشركته في الرسالة؛ ثم أقبلا إلى أمّهما وجبريل معهما، فطرق هارون الباب وأمّه في صلاتها، فقامت من محرابها وقالت: من بالباب؟ فقال موسى: أنا ولدك موسى وأخي هارون. ففتحت الباب، ووقعت مغشيًّا عليها من الفرح؛ ثم

(١) قارعة الطريق: أعلاه ووسطه.

أفاقت؛ وذكر لها موسى ما كان من أمره؛ فسجدتْ لله تعالى؛ ثم حمل جبريل هارونَ وأعاده عند رأس فرعون؛ وأقام موسى بقيّة ليلته عند أمّه، وخرج من الغد متنكّرًا، فنظر إلى ما أحدثه فرعون في أرض مصر ورجع حتى أقبلت الليلة الثانية، فخرج وجاء إلى قصر فرعون وبه الحجّاب والحرس والجنود، فقرع الباب بعصاه، فانفتح ودخل حتى بلغ القبّة الأُرجوانيّة، فانفتحت وعبرها وفرعون نائم بها، وهارون عند رأسه؛ فقام إليه هارون وقال: لقد عجلتَ يا أخي. وأخرجه؛ فانصرف، وغُلّقت الأبواب كما كانت.

فلما كان من الغد جاء إلى فرعون فعرفه بعضهم، وأنكره البعض، وجاء بعض الوزراء إلى فرعون وأخبره به، فأرعدت فرائصه[١]، وأمر هامانَ أن يخرج إليه؛ فخرج وسأله عن اسمه، فأخبره أنه موسى؛ فعاد هامان إلى فرعون وأعلمه أنه هو؛ فنظر إلى هارون وقال: أيَقدَم أخوك ولم تعلمني به؟ فقال: أردت ذلك وإنما خشيت غضبك.

ذكر خبر دخول موسى عليه السلام إلى فرعون وما كان من أمره معه

قال: وأمر فرعون أن يزيّن قصره، وجلس والتاج على رأسه، ووقف الوزراء عن يمينه وشماله، وأُحضِر موسى؛ فلمّا رآه عرفه، ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله ورسوله وكليمه. قال: أنت عبد فرعون. قال: إن الله أعزُّ من أن يكون له نِدّ[٢]. قال له فرعون: إلى من أرسلت؟ قال: إليك وإلى جميع أهل مصر. قال: فبماذا؟ قال: أن يقولوا لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّي موسى عبده ورسوله. قال: فما حجّتك؟ فإنّ لكلّ مدّعٍ بيّنة. قال: إن أتيتك ببيّنة تؤمن؟ قال: نعم. قال موسى: يا هارون، انزل عن الكرسيّ وبلّغ فرعون الرسالة. فنزل وقال: يا فرعون: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: الآية ٤٧]. فقال فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: الآيتان ٤٩، ٥٠]، الآيات.

---

(١) الفرائص: مفردها «فريصة» وهي اللحمة بين الجنب والصّدر والكتف وهي ترتجف عند الخوف، وارتعدت فرائصه: أي خاف خوفًا شديدًا.

(٢) النّدّ: المثل والنظير.

فغضب فرعون على هارون، وأمر هامانَ بنزع ما عليه من اللباس؛ فنزعه حتى بقي بالسراويل، فألبسه موسى مِدرَعة الصوف؛ فاقشعرّ جلده؛ فنزل جبريل بقميص كوّنه الله تعالى فكان وألبسه إياه؛ فقال فرعون لهامان: احمل موسى وأخاه إلى منزلك ودارِهما، فإن أطاعاني مكّنتهما من خزائني، ولا أقطع أمرًا دونهما. ففعل ذلك؛ فقالا له: يا هامان اشترِ نفسك من ربّك، فضحك من قولهما، ثم أحضرهما من الغد إلى فرعون؛ فأقبل على موسى وقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ١٨ - ٢٠] أي عن النبوّة، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٢١، ٢٢]، ثم قال: تذبّح أبناءهم وتستحي نساءهم، فشكوك إلى ربّ العالمين. وكان فرعون متكئًا، فاستوى جالسًا وقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيتان ٢٣، ٢٤]. فالتفت فرعون لمن حوله وقال: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٥]. قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٦ - ٢٨]. قال فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٢٩ - ٣١].

ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانًا واليد البيضاء

قال: وبينما هما في المخاطبة وإذا بالعصا اضطربت في كف موسى؛ فناداه جبريل: أطلقها يا نبيّ الله. فألقاها موسى ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٣٢] كأعظم ما يكون؛ ثم تمثّل مثال الجمل البُختيّ(١) وقام على رجليه حتى أشرف برأسه على حيطان القصر وتنفس نارًا ودخانًا، وعطف على قبّة فرعون فضربها فطحطحها(٢)، وجعلت لا تمرّ بشيء إلّا ابتلعته، وهاجت كالحمل المغتلم(٣) ولها صوت كالرعد؛ وأقبلتْ إلى قبّة فرعون وهو فيها، فوضعت لَحيها(٤) الأسفل تحت

---

(١) الجمل البختي: البخت: دخيل في العربية، أعجميّ معرّب والبخت: هي الإبل الخراسانيّة، تنتج من بين عربيّة وفالج وقيل: إنّ البُخت عربي «اللّسان مادة بخت».

(٢) طحطحها: دكّها وزعزعها. (٣) المغتلم: الذي انقاد للشهوة.

(٤) اللحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان.

القبة، ولحيها الأعلى فوقها، ورفعت القبّة ثمانين ذراعًا في الهواء، وقالت: يا فرعون، وعزّة ربّي لو أذن لي لابتلعتُك بقصورك وأموالك. فلمّا نظر فرعون إلى ذلك وثب عن سريره ـ وهو أعرج ـ وجعل يعدو ويقول: يا موسى بحق التربية والرضاع، وبحقّ آسية كفّها عنّا. فناداها، فأقبلت، فأدخل يده في فيها، وقبض على لسانها فإذا هي عصا كما كانت؛ فعاد فرعون إلى مكانه وقال: يا موسى، لقد تعلّمتَ بعدي سحرًا عظيمًا. قال: يا فرعون، ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يُونس: الآية ٧٧]. قال فرعون: هل عندك سحر غير هذا؟ قال: نعم؛ فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها وعليها نور وشعاع؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٣٢ - ٣٧].

ذكر خبر السّحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم

قال: فأمر فرعون بجمع السَّحَرة؛ فاجتمع إليه سبعون ألف ساحر؛ فاختار منهم سبعين ساحرًا ـ وهم أحذق الخَلْق ـ.

وحكى الثعلبيّ عن عطاء[1] قال: كان رئيسا السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين؛ فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمّهما: دلّينا على قبر أبينا. فدلّتهما عليه؛ فأتياه فصاحا باسمه، فأجابهما؛ فقالا له: إن الملك قد وجّه إلينا أن نَقدَم إليه، لأنّه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح، ولهما عزّ ومنعة، وقد ضاق الملك ذَرعًا بهما، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شيء حتى تبتلع الحديد والخشب والحجارة. فأجابهما أبوهما: انظرا إذا هما ناما، فإن قدرتما أن تسُلّا العصا فسُلّاها، فإنّ الساحر لا يعمل سحرُه وهو نائم، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك أمر ربّ العالمين فلا طاقة لكما به ولا للمَلِك ولا لجميع أهل الدنيا. فأَتياهُما خِفية وهما نائمان ليأخذاها، فصدّتهما.

قال الكسائيّ: وبعث فرعون إلى موسى فأحضره وقال ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا

---

(١) عطاء: هو عطاء بن دينار الهذلي، من رجال الحديث له كتاب في التفسير يرويه عن سعيد بن جبير مات بمصر سنة ١٢٦ هـ «الأعلام ٤/ ٢٣٥».

وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: الآيات ٥٧ - ٥٩].

قال: ويوم الزينة هو أوّل يوم من السنة؛ فلمّا كان في ذلك اليوم اجتمع الناس من أطراف أرض مصر في صعيد واحد، فأخذ فرعون يقول للسحرة: اجتهدوا أن تغلبوا موسى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: الآية ١١٣]. قال فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١١٤].

وأقبل موسى وهارون وقد أحدقت بهما الملائكة، فرأى موسى الوادي وقد امتلأ من الحبال والعصيّ؛ فقال موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم(١) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: الآية ٦١].

قال: وكان في السحرة ساحران عظيمان ـ وهما رأس السحرة ـ فقالا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٥]، فهمّ موسى أن يُلقي، فمنعه جبريل، وأجرى الله على لسانه فقال: ﴿بَلْ أَلْقُواْ﴾ [طه: الآية ٦٦] ﴿أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: الآية ١١٦]. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: الآية ٦٦]. فامتلأ الوادي من الحيّات، وجعلت يركب بعضها بعضًا؛ ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٤٤]؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: الآيات ٦٧ - ٦٩] فعندها زال خوفه وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: الآية ٨١]. ثم ألقى عصاه في وسط الوادي، فانكشف سحر السحرة، وبطل ما أظهروه من التخييل، فإذا هي حبال وعصيّ، وصارت عصا موسى ثعبانًا له سبعة أرؤس، وعلى ظهره مثل الأزِجّة(٢)، فابتلعت الحبالَ والعصيَّ وجميعَ ما كان في الوادي من الزينة؛ فقام فرعون ووزراؤه فوقفوا على تل ينظرون فعل الحية وهم خائفون، ثم حَملتْ على السبعين رجلًا فولّوا هاربين على وجوههم؛ ثم اجتمعوا بأجمعهم وقالوا: ما هذا بسحر. وخرّوا

(١) يسحتكُم الله: يستأصلكم.

(٢) الأزِجّة: مفردها «الزّج» وهو الحديدة في أسفل الرّمح. وقد زاد الكسائي بعد هذه العبارة «الأسنّة».

سجدًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآيات ٤٦ - ٤٨].

قال: فاغتمّ فرعون لذلك وقال للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٤٩].

وأمر أن يفعل بهم ذلك؛ فقالوا ما أخبر الله به تعالى عنهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: الآيتان ٧٢، ٧٣].

ثم صُلبوا على سبعين جذعًا بعد أن قطّع فرعون أيديَهم وأرجلهم.

ذكر خبر حزقيل مؤمن آل فرعون

قد قيل: إن خبر مؤمن آل فرعون كان قبل خبر السحرة، وسياق الآيات يدل على أن خطابه لفرعون كان بعد خبرهم، وذلك أنه لما كان من أمر السحرة ما ذكرناه، قال الملأ من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٢٧]. وقال الله تعالى إخبارًا عن فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: الآية ٢٦].

قال: فلمّا عزم فرعون على قتل موسى، أقبل حزقيل على القوم ـ وكان خازنَ فرعون وزوجَ ماشطةِ بناته ـ فقال ما أخبر الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: الآيتان ٢٨، ٢٩].

ففزع فرعون من قوله وقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: الآية ٢٩].

فخوّفهم المؤمن وقال ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣﴾ [غافر: الآيات ٣٠ - ٣٣].

فلما سمع فرعون كلامه غضب وقال: كأنّك ممن اتبع موسى، فارجع عن ذلك وإلّا عاقبتك بأنواع العذاب. فقال له حزقيل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: الآية ٣٨] الآيات.

ثـم قـال: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤﴾ [غافر: الآيات ٤١ - ٤٤]؛ ولحق بموسى وهارون، وفارق فرعونَ وقومه؛ قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: الآية ٤٥].

وحكى الثعلبيّ أن فرعون قتله مع السحرة صَلبًا؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه كان مع موسى عليه السلام لمّا فرق الله له البحر؛ والله تعالى أعلم.

ذكر خبر بناء الصرح(١) وما قيل فيه

قال: ولما انقضى أمر السحرة أقبل فرعون على هامان وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧].

قال: فجمع هامان خمسين ألف صانع وصنع القِرْمِيد ـ وهو الآجُرّ، وهامان أوّل من صنعه ـ فكانوا يبنون فيه ليلًا ونهارًا لا يَفترُون(٢)؛ فلمّا تكامل الصرح وارتفع ارتفاعًا عظيمًا، أمر الله عزّ وجلّ جبريل فهدمه وجعل عاليَه سافلَه ومات كلُّ من كان فيه على دين فرعون، والمؤمنون يزيدون ويجتمعون إلى موسى عليه السلام.

---

(١) الصّرح: كلّ بناءٍ عال.

(٢) يفترون: يضعفون ويكلّون.

وحكى أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله أن الصرح اجتمع فيه لبنائه خمسون ألف بنّاء سوى الأتباعِ والأجراء ممّن يطبخ الآجُرَّ والجِصَّ(١) وينجر الخشب والأبواب ويضرب المسامير؛ فلم يزل يبني ذلك الصرح؛ ويسّر الله تعالى له أمره استدراجًا منه، فأتى الأمر فيه على ما يريد، إلى أن فرغ في سبع سنين، فارتفع ارتفاعًا لم يبلغه بنيانُ أحد من الخلق منذ خلق الله السمٰوات والأرض؛ فشقّ ذلك على موسى، فأوحى الله تعالى إليه: أن دعه وما يريد فإنّي مستدرجه ومبطل كلّ ما عمله في ساعة واحدة.

قال: فلمّا تم بنيانه بعث الله عزّ وجلّ جبريل فضرب بجناحه الصرح، فقَذَف به على عسكر فرعون، فقتل منهم ألفي ألف رجل.

قالوا: ولم يبق أحد ممّن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة.

قال: وكان تدمير الله تعالى الصرحَ فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال: فلمّا رأى فرعون ذلك من أمر الله، وعلم أنّ حيلته لم تغن عنه شيئًا عزم على قتال موسى ومن معه، وأمر أصحابه فنصبوا(٢) له الحرب؛ فلما رأى الله تعالى ذلك من فعل فرعون وقومِه، وأنه حَقّت عليهم كلمة العذاب، ابتلاهم الله تعالى بالعذاب والآيات.

ذكر خبر الآيات التسع

قال الكسائيّ: ثم أخذ الله تعالى قوم فرعون بالآيات التسع، فكان أوّل ما جاءهم الطوفان، فدام عليهم ثمانية أيام لا يرون فيها شمسًا، حتى امتلأت الأسواق والدُور، وأخذتْ في الخراب، فالتجأوا إلى فرعون، فقال: سأكشف ذلك عنكم. ودعا موسى وسأله أن يدعو برفع الطوفان ليؤمن به؛ فطمع موسى في ذلك، فسأل الله تعالى، فرفع ذلك عنهم، فازدادوا كفرًا، فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل أشجارهم وزرعهم، ودام ثمانية أيّام، ففزعوا إلى فرعون، فوعدهم بصرفه عنهم وضمن لموسى إن صرفه عنهم آمن به؛ فدعا ربّه، فأرسل الله على الجراد ريحًا باردة فقتلته، فلم يؤمنوا؛ فبعث الله عليهم القُمَّل فأكل جميع ما في بيوتهم، وقرض ثيابهم وأبدانهم وشعورهم؛ فضجّوا إلى فرعون، فسأل موسى ووعده الإيمان؛ فسأل الله

---

(١) الجصّ: مادة ترابية تتخذ من حجر يحرق، وتتخذ لجبر الكسر في العظم.

(٢) نصبوا له الحرب: أعدّوا.

تعالى، فصرفه عنهم بعد ثمانية أيام وأماته، فازدادوا كفرًا؛ فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع، فكانت تدخل في طعامهم وشرابهم، وكانت لها رائحة منتنة فدامت ثمانية أيام؛ فسأل موسى؛ فلما كشفها الله عنهم لم يؤمنوا وازدادوا كفرًا؛ فأمر الله تعالى موسى: أن اضرب بعصاك النيل. فضربه فتحوّل دمًا عبيطًا[(١)]، فاشتدّ بهم العطش، فكان الإسرائيليّ والفرعونيّ يأتيان إلى موضع واحد، فإذا أخذه الإسرائيليّ يكون ماء، وإذا أخذه الفرعونيّ كان دمًا، فدام ذلك ثمانية أيّام حتى أجهدهم العطش وأشرفوا على الهلاك؛ فلمّا كشفه الله عنهم بدعوة موسى ازدادوا كفرًا.

ذكر خبر مسخ قوم فرعون

قال: ولما لم يؤمنوا بهذه الآيات، قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾ [يونس: الآية ٨٨] وكان الدعاء من موسى، والتأمين لهارون؛ فأوحى الله إليهما: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩] الآية.

قال: فطمس الله تعالى على كثير منهم، حتى أصبح الرجال والنساء والصبيان والأموال كلّها حجارة، فلم يؤمنوا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ﴾ [الإسراء: الآية ١٠١].

قال عمر بن عبد العزيز في تفسيره: كان أوّل الآيات العصا، واليد البيضاء والطُّوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والطَّمْس[(٢)] والبحر حتى صار يَبَسًا.

هذا ملخّص ما حكاه الكسائيّ.

وحكى أبو إسحٰق الثعلبيُّ في قصصه عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وقتادة ومحمد بن إسحٰق[(٣)] وغيرهم من أصحاب الأخبار ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالوا: لما آمنت السحرة وصلبهم فرعون، وانصرف موسى وهارون إلى عسكر بني إسرائيل، أمر فرعون أن يكلّفوا بني إسرائيل ما لا يطيقونه، فكان

---

(١) العبيط: الطّريّ.

(٢) الطّمس: التغيير، وطمس الله على أموالهم: غيّرها فصارت حجارة.

(٣) هو محمد بن إسحٰق بن يسار المطّلبي، المدني، من أقدم مؤرخي الإسلام له السيرة النبوية، وكان قدريًا من حفّاظ الحديث مات سنة ١٥١ هـ «الأعلام ٦/ ٢٨».

الرجل من القبط يجيء إلى الرجل من بني إسرائيل فيقول له: انطلق معي فاكنسْ حُشي[١] واعلف دوابّي واستق لي. وتجيء القبطية إلى الكريمة من بني إسرائيل فتكلّفها ما لا تُطيق، ولا يطعمونهم في ذلك كلّه خبزًا، وإذا انتصف النهار يقولون لهم: اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم. فشكَوا ذلك إلى موسى، فقال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨]. قالوا يا موسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

قالوا: فلمّا أبى فرعون وقومُه إلّا الإقامة على الكفر، والتماديَ في الشر والظلم، دعا موسى ربّه وقال: ربّ إن عبدك فرعون طغى في الأرض وبغى وعتا وإن قومه نقضوا عهدك وأخلَفوا وعدك، ربّ فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومي عظة، ولمن بعدهم من الأمم عبرة. فتابع الله عليهم الآيات المفصّلات بعضها في إثر بعض، فأخذهم بالسنين ونقصٍ من الثمرات، ثم بعث عليهم الطوفان (وهو الماء) أرسل عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوتُ بني إسرائيل وبيوتُ القبط مشبّكة مختلطة بعضُها في بعض، فامتلأت بيوتُ القبط حتى قاموا في الماء إلى تَراقيهم[٢]، فمن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل من الماء قطرة وفاض الماء على وجه أراضيهم كذلك، فلم يقدروا على أنْ يحرثوا ولا يعملوا شيئًا؛ ودام ذلك عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت؛ فقالوا لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنّا هذا البلاء ونؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربّه فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، وعادوا أشرّ مما كانوا عليه.

واختلف العلماء في الطوفان ما هو؛ فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو الماء أرسله الله تعالى عليهم.

وقال مقاتل[٣]: هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها.

وقال الضحّاك: هو الغرق.

---

(١) الحشّ: يكنّى به عن بيت الخلاء حيث تقضى الحاجة.

(٢) التراقي: جمع «تِرقوة» وهي العظمة بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر.

(٣) مقاتل: هو مقاتل بن سليمان البلخي المفسّر، أبو الحسن، من أعلام المفسّرين توفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ «الأعلام ٧/ ٢٨١».

وقال مجاهد وعطاء: هو الموت الذريع.

وقال وهب: هو الطاعون بلغة أهل اليمن، أرسل الله الطُّوفان على أبكار آل فرعون فقبضهنّ في ليلة واحدة، فلم يُبق منهنّ واحدة ولا دابة.

وقال أبو قِلابة[١]: الطُّوفان هو الجُدَريّ، والله تعالى أعلم.

قالوا: وأنبت الله تعالى لهم في تلك السنة من الكلأ[٢] والزرع ما لم يَنبُت قبل ذلك، فأعشبت بلادهم وأخصبتْ، فقالوا: هذا ما كنّا نتمنّاه، وما كان هذا الماء إلّا نعمةً لنا وخِصبًا. فأقاموا شهرًا في عافية؛ ثم بُعث عليهم الجرادُ فأكل زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم والزهرَ، حتّى إن كان ليأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير حتى سقطتْ دورهم، والجراد لا يدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء؛ فعَجّوا وضَجّوا، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٣٤] فأعطوه عهد الله وميثاقه؛ فدعا موسى ربّه، فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت.

ويقال: إن موسى برز إلى الفضاء، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حيث جاء كأن لم يكن قطّ.

قالوا: فأقاموا شهرًا في عافية؛ ثم بعث الله عليهم القُمّل، وذلك أن موسى أُمر أن يمشي إلى كثيب أعْبَر بقرية من قرى مصر تدعى: (عين شمس) فمشى موسى إلى ذلك الكثيب ـ وكان عظيمًا ـ فضربه بعصاه، فانثال عليهم القُمّل فتتبّع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلّها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعَضّه، وكان يأكل أحدهم الطعامَ فيمتلىء قُمّلًا، حتى إن أحدهم ليبني الأسطوانة بالجِصّ فيُزَلِّقُها حتى لا يَرتقِي فوقها شيء، ثم يرفع فوقها طعامه، فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملآن قُمّلًا، فما أصيبوا ببلاء كان أشدّ عليهم من القُمّل؛ وأخذ القمل شعورهم وأشفارَ عيونهم وحواجبهم، ولصق بجلودهم كالجُدَريّ، ومنعهم النوم والقرار، ولم يستطيعوا له حيلة.

---

(١) أبو قلابة: هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي، عالم بالقضاء والأحكام ومن رجال الحديث الثقاة «الكاشف ١/ ٧٩».

(٢) الكلأ: العشب.

وقد اختلفوا في القُمَّل ما هو؟ فروي عن أبي طلحة[١] أنه الذباب لا أجنحة له.

وروى مَعمرٌ[٢] عن قَتادة قال: القمّل أولاد الجراد.

وعو عبد الرحمٰن[٣] بن أسلم قال: هو البراغيث.

وقال عطاء: هو القَمْل؛ دليله قراءة الحسن: «والقَمْل» بفتح القاف وسكون الميم.

وقال أبو عبيدة[٤]: هو الحَمْنان، وهو ضرب من القردان.

وقال سعيد بن جُبير[٥] عن ابن عبّاس رضي الله عنهم: القُمَّل، هو السوس الذي يخرج من الحنطة والحبوب، فكان الرجل يُخرج عشرة أقفزةٍ[٦] فلا يردّ منها إلّا ثلاثة أقفزة؛ فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا: يا أيّها الساحر أي أيّها العالم إنا نتوب إلى الله ولا نعود، فادع لنا ربّك يكشف عنا هذا البلاء. فدعا موسى ربه، فرفع الله تعالى عنهم القُمَّلَ بعدما أقام عليهم سبعة أيّام من السبت إلى السبت، ثم نكثوا العهد[٧]، وعادوا إلى خبث أعمالهم، وقالوا: ما كنا قطّ أحقّ أن نستيقن أن موسى ساحر إلّا اليوم، فيَجعل الرملَ والرماد دوابَّ، فعلى ماذا نؤمن به ونرسل معه بني إسرائيل؟ فقد أهلك زرعنا وحروثنا، وأذهب أموالنا، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل، وعزّة فرعون لا نصدّقه أبدًا ولا نتبعه. فدعا عليهم موسى بعدما أقاموا شهرًا في عافية ـ وقيل أربعين يومًا ـ فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفّة النيل فيَغرز عصاه فيه، ويشيرَ بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفلِه؛ ففعل موسى ذلك، فتداعت إليه الضفادع بالنَّقيق من كلّ جانب حتى أعلم بعضها بعضًا، وأسمع أدناها أقصاها؛ ثم خرجت من النيل مثل البحر تدبّ سِراعًا نحو باب المدينة، فدخلت عليهم في بيوتهم بغتة، وامتلأت منها أفنيتُهم وأبنيتُهم وأطعمتهم، وكان أحدهم لا

(١) لعلّه أبو طلحة الأسدي، محدّث صدوق، حدّث عن ابن عبّاس وأنس «الكاشف ٣/ ٣٠٩».

(٢) لعله معمر بن راشد أبو عروة الأزدي، عالم اليمن، كان من أطلب أهل زمانه للعلم توفي سنة ١٥٣ هـ «الكاشف ٣/ ١٤٥».

(٣) لعلّه عبد الرحمٰن بن سلم من رجال الحديث «الكاشف ٢/ ١٤٨».

(٤) لعله أبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان، محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ٣١٥».

(٥) هو سعيد بن جبير الأسدي، أبو عبد الله، تابعي حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس، وهو من أكابر العلماء الثقات، مات سنة ٩٥ هـ «الأعلام ٣/ ٩٣».

(٦) الأقفزة: مفردها «القفير»، مكيال.

(٧) نكثوا العهد: نقضوه ونبذوه.

يكشف ثوبًا ولا إناء ولا طعامًا ولا شرابًا إلّا وجد فيه ضفادع؛ وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهمّ أن يتكلّم فيثب الضفدع في فيه؛ وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعًا بعضها فوق بعض، وصارت عليه حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شِقّه الآخر؛ وكان أحدهم يفتح فاه لأكلتِه فتستبق الضفادع إلى فيه؛ وكانوا لا يعجنون إلّا انشدخت[١] فيه، ولا يطبخون إلا امتلأت القدر بالضفادع؛ وكانت تثب في نيرانهم فتطفئها، وفي طعامهم فتفسده؛ فلقُوا منها أذًى شديدًا.

ورُوِيَ عن عكرمة[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: كانت الضفادع برّيّة، فلمّا أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت، فجعلت تقذف أنفسهم في القدر وهي تفور، وفي التنانير وهي مسجورة، فأثابها الله بحسن طاعتها بَرْدَ الماء.

قال: فضجّوا إلى فرعون من أمر الضفادع، وضاق عليهم أمرُهم حتى كادوا يهلكون، وصارت المدينة وطرقها مملوءةً جِيَفًا من كثرة ما يطأونها بأقدامهم، فلما رأوا ذلك بكَوا وشكَوا ذلك إلى موسى، وقالوا: اكشف عنّا هذا البلاء فإنا نتوب هذه المرّة ولا نعود. فأخذ بذلك عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا الله تعالى فكشف عنهم الضفادع، فما كان منها حيًا لحق بالنيل؛ وأرسل الله تعالى ريحًا على الميت منها فنحّته عن مدينتهم بعدما قامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فأقاموا شهرًا في عافية؛ وقيل: أربعين يومًا. ثم نقضوا العهود وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم؛ فدعا عليهم موسى، فأرسل الله تعالى عليهم الدم، وذلك أنّ الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطىء النيل ويضربه بعصاه؛ ففعل ذلك، فسال النيل عليهم دمًا، وصارت مياههم كلّها دمًا عبيطًا[٣]، فما يشربون من الأنهار والآبار إلّا وجدوا دمًا أحمَر عَبيطًا؛ فشكَوا ذلك إلى فرعون وقالوا: إنّا قد ابتُلينا بهذا الدم، وليس لنا شراب. فقال: إنّه قد سحركم. فكان يُجمَع بين الرجلين على الإناء: القبطيِّ والإسرائيليِّ فيُسقيَان من ماء واحد، فيخرج ماء القبطي دمًا، وماء الإسرائيليّ عذبًا؛ وكانا يقومان إلى الجرّة فيها الماء، فتُخرِج للإسرائيليّ ماء وللقبطيّ دمًا، حتى إنّ المرأة من آل فرعون كانت

(١) انشدخت فيه: انشجّت وتكسّرت.
(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري، المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي كان عالمًا بالتفسير والمغازي، كثير التطواف مات سنة ١٠٥ هـ «الأعلام ٤/ ٢٤٤».
(٣) الدم العبيط: الطري.

تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جَهَدهم العطش فتقول: اسقيني من مائِك. فتغرف لها من جرّتها، ونصبَ لها من قربتها، فيعود في الإناء دمًا، حتى إن كانت المرأة تقول لها: اجعليه في فيك ثم مُجّيه في فمي. فتأخذ في فيها ماء، فإذا مجّته في فيها صار دمًا، والنيل على ذلك يسقي الزرع والشجر؛ فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دمًا عبيطًا.

قالوا: وإنّ فرعون اعتراه العطش في تلك الأيام، حتى إنه اضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فكان إذا مضغها يصير ماؤها في فيه ملحًا أُجاجًا ومرًّا زُعاقًا(١)؛ فمكثوا في ذلك سبعة أيّام لا يأكلون ولا يشربون إلّا الدم؛ فقالوا لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربّه فكشف عنهم ذلك، وأمر أن يَضْرِب بعصاه النيل ضربة أخرى؛ ففعل فتحوّل صافيًا كما كان، فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهَدوا عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٣].

وقال نَوْفٌ البِكَالِيّ(٢) ـ وهو ابن امرأة كعب الأحبار ـ: مكث موسى في آل فرعون عشرين سنة بعدما غلب على السحرة يُريهم الآيات: الجراد والقُمَّلَ والضّفادع والدم.

وقال الضحّاك: لمّا يئس موسى من إيمان فرعون وقومِه، ورأى أنهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتمادي، دعا عليهم موسى وأمّن هارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: الآية ٨٨] فأجاب الله دعاءه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: الآية ٨٩] الآية.

قال: وكان لفرعون وأصحابه من زهرة الدنيا وزينتها من الذهب والفضّة واليواقيت وأنواع الجواهر والحليّ ما لا يحصيه إلا الله تعالى؛ وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام في زمانه أيّام القحط، فبقي ذلك في أيدي القبط، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أنّي مورث بني إسرائيل ما في أيدي آل فرعون من

---

(١) الزّعاق: الشديد المرارة.

(٢) نوف البكاليّ: هو نوف بن فضالة الحميري، إمام أهل دمشق في عصره من رجال الحديث، كان راويًا للقصص مات نحو سنة ٩٥ هـ «الأعلام ٨/ ٥٤».

العُروض[١] والحليّ، وجاعلُه لهم جَهازًا وعَتادًا إلى الأرض المقدّسة فاجعل لذلك عيدًا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونني وتذكرونني فيه وتعظّمونني ذلك اليوم، وتعبدونني فيه لما أريكم من الظَّفَر ونجاه الأولياء وهلاك الأعداء واستعير لعيدكم من آل فرعون الحليّ وأنواع الزينة، فإنّهم لا يمتنعون عليكم للبلاء الحالّ بهم في ذلك الوقت، ولما قذفت لكم في قلوبهم من الرعب. ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى، فأمر فرعونُ بزينة أهله وولده وما كان في خزائنه من أنواع الحليّ، فأُعيرت بني إسرائيل لما أراد الله تعالى بذلك أن يَفيء على موسى وقومِه أفضلَ أموال أعدائه بغير قتال ولا إيجافِ[٢] خيل ولا رَجل؛ فلمّا دعا موسى عليهم مسخ الله تعالى الأموالَ الّتي بقيتْ في أيديهم حجارة حتى النخل والرقيق.

وقال محمد بن كعب[٣]: سألني عمر بن عبد العزيز عن الآيات الّتي أراهن الله تعالى فرعونَ وقومه؛ فقلت: الطُّوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والعصا واليد البيضاء والطَّمْس وفَلْق البحر.

قال عمر: كيف يكون الفقه إلّا هكذا. ثم دعا بخريطة فيها أشياء ممّا كان أصيب لعبد العزيز بن مروان لمّا كان على مصر من بقايا آل فرعون، فأخرج البيضة مقسومة نصفين كأنّها الحجر، والجوزة مشقوقة نصفين وكأنها الحجر، والحِمَّصةَ والعدسة.

وروى ابن إسحٰق[٤] عن رجل من أهل الشأم كان بمصر قال: ورأيتُ نخلةً مصروعة كأنها الحجر.

قال: ورأيتُ إنسانًا وما شككتُ أنه إنسان وإنّه لَحَجَر؛ وكان المسخ في أرقّائهم دون أحرارهم، إذ العبيد من جملة أموالهم؛ فلم يَبقَ لهم مال إلّا مسخه الله تعالى ما خلا الذي في أيدي بني إسرائيل من الحليّ والجواهر وأنواعِ الزينة.

---

(١) العُروض: جمع العَرْض، وهو الجيش، ولعلّه يريد السّلاح الذي في أيدي جيش فرعون، «اللسان مادة عرض».

(٢) الإيجاف: العدو والسّير، يريد: دون قتال ودون تحريك الجيوش الراكبة والرّاجلة.

(٣) هو محمد بن كعب القرظي، محدّث ثقة حجّة مات سنة ١٠٨ هـ وقيل: ١١٦ هـ «الكاشف ٣/ ٨١».

(٤) هو محمد بن إسحٰق بن يسار المطلبي المدني، من أقدم مؤرّخي العرب، من حفّاظ الحديث مات في بغداد سنة ١٥١ هـ «الأعلام ٦/ ٢٨».

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أوّل الآيات العصا، وآخرها الطمس؛ وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا، وجُعِل سكّرهم حجارة، وبعض المسخ من الآدميين باقٍ مشاهَد إلى وقتنا هذا، وقد شاهدتُ أنا منه شخصًا شكل خادم وهو جالس على كرسيّ بقرب البيت الأخضر ببلاد الجيزية، وذلك في شهور سنة سبع عشرة وسبعِمائة، ولعلّه من ذلك المسخ؛ والله أعلم.

ذكر خبر قتل الماشطة

قال: وكانت لبنات فرعون ماشطة - وهي امرأة حِزْقيل المؤمن - فبينما هي تَمشُط إحدى بناته إذ سقط المُشْط من يدها، فقالت: تَعِس من كفر بالله. فقالت لها ابنة فرعون: إنما تريدين من كفر بأبي. فقالت: إنّما عَنيتُ من كفر بإلـه موسى. فقامت إلى أبيها وأخبرته؛ فغضب وأحضرها وقال: ما الّذي بلغني عنك؟ قالت: صدقوا، أنا مؤمنة بإلـه موسى، فَاقْض مَا أَنْتَ قَاضٍ. فشدّها إلى أوتاد من حديد، وأحضر أولادها الثلاثة، وعرض عليها أن تؤمن به؛ فأبت، فذبحهم على صدرها وهي تَحمَد الله تعالى؛ ثم طرحها في تنور من نحاس وأحرقها فيه وأحرق أولادها.

ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأةِ فرعون

قال: لما قتل فرعون الماشطة، سمعت آسيةُ الملائكة تعدها بالجنة، فقامت من مجلسها وهي تقول: يا إلـه موسى ألبسني الصبر وارزقني الشهادة و﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التّحريم: الآية ١١] وخرجت على فرعون وهي حاسرة(١) عن وجهها، وقالت له: يا ملعون، إلى كم تقتل أولياء الله وتأكل رزق الله وتكفر نعمته ولا تشكره، وترى آياته ولا تعتبر بها؟ فقال لوزرائه: قد أفسد عليّ موسى حتّى آسية؛ واستشارهم في أمرها؛ فأشاروا عليه بقتلها، فأمر بنزع ما عليها؛ وشدّها إلى أوتاد في الأرض، وضرب وتدين في صدرها فماتت رضي الله عنها.

ذكر خبر انقطاع النيل وكيف أجراه الله عزّ وجلّ لفرعون

قال الكسائي: ثم بعث الله تعالى الظُّلمة على أهل مصر ثلاثة أيام، فلم يعرفوا الليل من النهار، وانقطع عنهم النيل حتى أضرّ بهم العطش؛ فشكوا ذلك إلى فرعون

---

(١) الحاسرة: المسفرة عن وجهها.

فأمر بجمع الجنود وخرج ليُجْرِيه، فلمّا قرب من مكانه انفرد عن القوم ونزل عن فرسه وقال: إلـٰهي إنك إلـٰه السماء والأرض لا إلـٰه إلا أنت، وحلمك الذي يحملني أن أسألك ما ليس لي بحق، والخَلق خَلقُك، وقد علمتَ ما هم فيه من العطش وأنت المتكفّل بأرزاقهم؛ اللهم أجر لهم النيل. فما فرغ من كلامه حتى انصبّ النيل، وركب فرسه والنيلُ يجري معه إن سار سار وإن وقف وقف، حتى دخل مصر، فسجد القوم له، وازدادوا كفرًا؛ وعجب موسى وهارون لذلك.

ذكر خبر غرق فرعون وقومه

قال الكسائيّ: ولما رجع فرعون بجنوده وقد أجرى لهم النيلَ بزعمهم، دخل عليه جبريل في صورة آدميّ حسن الهيئة، فقال له: مَن أنت؟ قال: عبدٌ من عبيد الملك جئتُك مستعديًا على عبد من عبيدي مكّنتُه من نعمتي، وأحسنتُ إليه كثيرًا، فاستكبر وبغى وجحدني حقّي وتسمّى باسمي، وادّعى في جميع ما أنعمتُ عليه به أنّه له، وأنّه لا منعم عليه به. قال فرعون: بئس ذلك من العبيد. قال جبريل: فما جزاؤه عندك؟ قال: يُغرَق في هذا البحر. فقال له جبريل: أسألك أن تكتب لي خطَّك بذلك. فكتب له فرعون خطًّا، وأخذه جبريل وجاء به إلى موسى، وأَمَرَه عن الله عزّ وجلّ أن يرتحل بقومه عن مصر؛ فنادى موسى في بني إسرائيل وأمرهم بالرحيل؛ فارتحلوا وهم يومئذٍ سِتُّمائة ألف.

قال الثعلبيّ: سِتُّمائة ألف وعشرون ألفًا لا يُعَدّ فيهم ابن سبعين سنة ولا ابن عشرين سنة؛ ولكنّ هؤلاء المُقاتِلةُ سوى الذريّة. وأهل التوراة يقولون: إنه لا يُعَدّ فيهم ابن خمسين سنة ولا ابن عشرين سنة، لا خلاف عندهم في هذا ويزعمون أنه نصّ التوراة.

قال الكسائي: فلما سمع فرعون بارتحالهم أمر باجتماع جنوده؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: الآيات ٥٣ - ٥٦]. فاجتمعوا وهم لا يُحصَون كثرة.

قيل: إنّ هامان كان على مقدِّمة فرعون بألف ألف وسِتّمائة ألف.

وقال الثعلبيّ: ألف ألفٍ وسبعمائة ألف رجل على ألف ألفٍ وسبعِمائة ألفِ حصان.

قال: وقال ابن جريج[١]: أرسل فرعون في أثر موسى وقومِه ألفَ ألفِ وخمسَمائة ألف مَلِك مسوَّر، مع كل ملك ألفُ رجل؛ ثم خرج فرعون خَلْفَهم في الدُّهْم، وكان في عسكره مائة ألف حصان أدهمَ سوى سائر الشِّيات[٢]، وذلك حين طلعت الشمس وأشرقت؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٠].

قال الكسائيّ: وساروا حتى قربوا من موسى ومن معه، فقالوا: يا موسى، قد لحقَنا فرعونُ بجنوده، والبحر أمامنا والسيف وراءنا، ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٢].

فأوحى الله تعالى إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٣] فضربه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٦٣]. وصار فيه اثنا عشر طريقًا للأسباط الاثني عشر فجعلوا يسيرون وموسى أمامهم وهارون وراءهم، وجعل الله بينهم فتحًا ليرى بعضهم بعضًا، وجاء فرعون ومن معه إلى البحر ورأى تلك الطرق فيه، فقال لهامان: هذه تفرّقت من هيبتي. وقصد الاقتحام فلم يطاوعه فرسه - وكان حصانًا - ونفر من العُبور؛ فأتاه جبريل على رَمَكة[٣] في صورةِ آدميّ، فدنا من فرعون وقال: ما يمنعك من العُبور؟ وتقدّم إلى جنبه، فاشتمّ فرسُ فرعون رائحة الرَّمَكة فتبِعها ودخل فرعونُ وجنوده وجبريل أمامهم وميكائيل يسوق الناس، حتى لم يبق من جنود فرعون أحد على الساحل، فجاءه جبريل بخطّه؛ فلما رآه فرعون علم أنه هالك وانضمّت الطرق، وأُغرِق الناس، وفرعونُ ينظر إليهم؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونس: الآية ٩٠]. فقال له جبريل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يُونس: الآية ٩١].

ثم غرق فرعون وجميع من معه وبنو إسرائيل ينظرون إليهم؛ ثم قال بنو إسرائيل: إنّ فرعون لم يَغرَق. فأمر الله تعالى البحر فألقاه على الساحل. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يُونس: الآية ٩٢].

---

(١) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز، أحد المحدّثين الأعلام الفقهاء توفي سنة ١٥٠ هـ «الأعلام ٤/ ١٦٠».

(٢) الشّيات: جمع «شية» وهل كلُّ لون يخالف سائر لون الشيء، أو العلامة.

(٣) الرمكة: الفرس تتخذ للنسل.

قال: فلمّا عبر موسى البحر ببني إسرائيل إلى الطُّور، إذا هم في طريقهم بقوم يعبدون الأصنام، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ[(١)] مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨، ١٣٩].

ثم قال: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٤٠] وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، وأمرهم بالتوبة والاستغفار؛ ثم ساروا وفي قلوبهم حبّ الأصنام حتى قربوا من الطُّور.

ذكر خبر ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة

حكى أبو إسحٰق الثعلبيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢].

قال: كان ذلك في شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجّة.

قال: وذلك أنّ موسى عليه السلام كان قد وعد بني إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوّهم أن يأتيَهم بكتاب فيه ما يأتون وما يذَرون؛ فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومَه واستنقذ بني إسرائيل من أيديهم، وأمّنهم من عدوّهم، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، قالوا: يا موسى ائتنا بالكتاب الذي وعدتنا به. فسأل موسى ربَّه تعالى ذلك؛ فأمره أن يصوم ثلاثين ليلةٍ ثم يتطهر ويطهّرَ ثيابه ويأتيَ طورَ سيناءَ[(٢)] ليكلّمه ويعطيَه الكتاب؛ فصام ثلاثين يومًا؛ فلمّا صعد الجبل أنكر خلوفَ[(٣)] فمه، فاستاك بعودِ خرنوب.

وقال أبو العالية[(٤)]: أخذ من لِحاء الشجر فمَصّه؛ فقالت له الملائكة: كنا نَشَمّ من فمك رائحةَ المسك فأفسدتَه بالسواك، فأَوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيّام

---

(١) المتبّر: المهلك والمخسّر.

(٢) طور سيناء: قال الليث: طور سيناء: جبل، وقال أبو إسحٰق: قيل: إن سيناء حجارة، وهو اسم جبل بقرب أيلة، وعنده بُليد فتح في زمن النبيّ ﷺ سنة تسع صلحًا، وما أظنه إلّا الذي تقدّم ذكره بأنه كورة بمصر «معجم البلدان ٤/٤٨».

(٣) الخلوف: تغيّر رائحة الفم.

(٤) أبو العالية: البراء البصري، زياد، وقيل: كلثوم محدّث ثقة، روى عن ابن عبّاس وغيره... «الكاشف ٣/٣١١».

أُخر، وقال له: أما علمتَ يا موسى أنّ خلوف فم الصائم أطيب عِندي من ريح المسك؟.

قال: وكانت فتنة بني إسرائيل في العشر ليالي التي زادها الله تعالى؛ فلما مضت أربعون ليلة تطهّر موسى وطهّر ثيابه لميقات ربّه؛ فلمّا أتى طور سيناء كلّمه ربّه وناجاه، وقرّبه وأدناه، كما قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٥٢].

قال وهب: كان بين الله تعالى وبين موسى سبعون حجابًا، فرفعها كلها إلّا حجابًا واحدًا، فسمع موسى كلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها، فقال ما أخبر الله عزّ وجلّ به عنه في كتابه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣]. فقال الله تعالى له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] وليس يطيق البشر النظرَ إليّ في الدنيا، من نظر إليّ مات. قال: إلٰهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموتَ أحبُّ إليّ من أن أعيش ولا أراك. فقال له تعالى: ﴿انظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣] وهو أعظم جبل يقال له: (الزَّبِير).

قال: وذلك أنّ الجبال لَمّا علمت أن الله تعالى يريد أن يتجلّى لجبل منها تَعاظمتْ وتشامخت رجاء أن يتجلّى الله تعالى لها، وجعل الزَّبِيرُ يتواضع من بينها فلما رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينها، وخصّه بالتجلّي، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٤٣]، فتجلّى الله تعالى للجبل.

قال: واختلف العلماء في معنى التجلّي.

قال ابن عباس: ظهر نورُه للجبل.

وقال الضحّاك: أظهر الله تعالى من نور الحُجُب مثلَ منخر الثور.

وقال عبد الله بن سلام(١) وكعب: ما تجلّى من عظمة الله تعالى للجبل إلّا مثل سَمّ الخياط حتى صار دكًا.

(١) هو عبد الله بن سلّام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابي، قيل: إنّه من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام، أسلم عند قدوم النبيّ ﷺ إلى المدينة، وكان اسمه الحُصين فسمّاه النبيُّ عليه الصلاة والسلّام عبد الله مات سنة ٤٣ هـ «الأعلام ٤/ ٩٠».

وقال السدّيّ(١): ما تجلّى منه إلّا قدر الخنصر.

وقال الحسن: أوحى الله تعالى إلى الجبل فقال: هل تطيق رؤيتي؟ فغار الجبل وساخ(٢) في الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع.

قال أبو إسحٰق: قال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق: حُكِي لي عن سهل بن سعد(٣) الساعديّ أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورًا قدر درهم، فجعل الجبل دكًا.

قال أبو بكر: فعذُب إذ ذاك كلُّ ماء، وأفاق كلُّ مجنون، وبرأ كلّ مريض وزال الشوك عن الأشجار، واخضرّت الأرض واهتزّت، وخمدت نيران المجوس وخرّت الأصنام لوجوهها.

وقال السّدّيّ: ما تجلّى للجبل إلّا مقدار جناح بعوضة، فصار الجبل دكًّا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ترابًا.

وقال سفيان: ساخ حتى وقع في البحر.

وقال عطية العوفيّ(٤): صار رملًا هائلًا.

وقال الكلبيّ(٥): ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]، أي كُسِّر جبالًا صغارًا.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] قال: صار بعظمة الله ستّة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة: أُحُد، ووَرِقان، ورَضْوَى. ووقعت ثلاثة بمكّة: ثَوْر، وثَبِير وحِراء.

(١) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن، تابعي حجازيّ الأصل، سكن الكوفة، كان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيام النّاس، قال ابن تغري بردي: هو صاحب التفسير والمغازي والسّير مات سنة ١٢٨ هـ «الأعلام ١/٣١٧».

(٢) ساخ في الأرض: غاص.

(٣) هو سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري، صحابي، من أهل المدينة، عاش نحو مئة سنة، وله في كتب الحديث ١٨٨ حديثًا مات سنة ٩١ هـ «الأعلام ٣/١٤٣».

(٤) هو عطية بن سعد العوفي، أبو الحسن، أحد رواة الحديث، مات سنة ١١١ هـ «الكاشف ٢/٢٣٥».

(٥) الكلبي: هو محمد بن السّائب، أبو النضر الكوفي، محدّث رؤية مات سنة ١٤٦ هـ «الكاشف ٣/٤٠».

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: مغشيًا عليه.

وقال قتادة: ميّتًا.

وقال الكلبيّ: خرّ موسى صعقًا: يوم الخميس يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر.

قال الواقديّ[١]: لمّا خرّ موسى صعقًا قالت الملائكة: ما لابن عمران وسؤال الرؤية.

قال وهب: لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضَّباب والصواعق والظُّلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الّذي عليه موسى، وأمر الله تعالى ملائكة السمٰوات أن يُعرَضوا على موسى أربعةَ فراسخ من كلّ ناحية؛ فمرّت ملائكة سماء الدنيا كثِيران البقر، تُتابع أفواهُهم التقديسَ والتسبيح بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية: أن اهبطوا على موسى. فهبطوا عليه مثل أسد لهم نَحِيتٌ[٢] بالتسبيح والتقديس؛ ففزع موسى مما رأى وسمع واقشعرّ جلده، ثم قال: ندمتُ على مسألتي، فهل ينجيني من مكاني الّذي أنا فيه شيء؟ فقال له حَبْر الملائكة ورأسُهم: يا موسى اصبر لما رأيت، فقليل من كثير رأيتَ. ثم هبطتْ ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور، لهم قَصْف ورَجْف باالتسبيح والتهليل والتقديس كجلَب[٣] الجيش العظيم وكلَهَب النار؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبهم شيء من الّذين مرّوا به قبلَهم، ألوانهم كلهب النار، وسائر خَلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الّذين مرّوا به قبلهم؛ ثم هبطتْ عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان، فلم يستطع موسى أن يُتبِعهم[٤] الطَّرْف، لم يَرَ مثلهم ولا سمع مثل أصواتهم، وامتلأ جوف موسى فزعًا، واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه؛ ثم قال له حبر الملائكة ورأسُهم: يا ابن عمران، مكانك حتّى ترى ما لا تصبر عليه؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الّذي أراد أن يراني؛ فعُرِضوا عليه وفي يد كلّ منهم

(١) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد السهلي، أبو عبد الله، من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن حفّاظ الحديث، له تصانيف عديدة مات سنة ٢٠٧ هـ «الأعلام ٦/ ٣١١».
(٢) نحيت: هو اللهث وشدة تتابع النفس. (٣) الجلب: اختلاط الأصواب.
(٤) يتبعهم الطّرف: أي أن يديم النّظر إليهم.

حربة مِثْلُ النخلة الطويلة، نارُها أشدّ ضوءًا من الشمس، ولباسهم كلهب النّيران، إذا سبّحوا وقدّسوا جاوَبَهم من كان قِبلهم من ملائكة السمٰوات، كلّهم يقولون بشدّة أصواتهم: سبّوح قدّوس ربّ العزّة أبدًا لا يموت. وفي رأس كل ملَك منهم أربعة أوجه؛ فلمّا رآهم رفع صوته يسبّح معهم ويبكي ويقول: ربّ اذكرني ولا تنس عبدك، لا أدري هل أتخلّص مما أنا فيه أم لا، إن خرجتُ احترقت وإن مكثتُ مِت. فقال له كبير الملائكة ورئيسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتدّ خوفك وينخلع قلبك، فاصبر للذي سألت.

ثم أمر الله تعالى أن يُحمل عرشُه في ملائكة السماء السابعة، فقال: أرُوه إيّاه. فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة ربّ العزّة، وردّدت ملائكة السمٰوات أصواتهم جميعًا؛ فارتج الجبل، واندكت كلّ شجرة كانت فيه، وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ليس معه رُوحه؛ فقلب الله تعالى الحجر الذي كان موسى عليه وجعله كهيئة القبّة لئلا يحترق موسى؛ وأرسل الله عليه روحَ الحياة برحمته؛ فقام موسى يسبّح الله تعالى ويقول: آمنتُ أنّك ربّي وصدّقتُ أنه لا يراك أحد، فنجّني، ومَن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه، فما أعظمك وأعظم ملائكتك! أنت ربّ الأرباب وإلٰه الآلهة وملك الملوك، لا يَعدِلك شيء، ولا يقوم لك شيء، تبت إليك، الحمد لك لا شريك لك ربّ العالمين.

ذكر خبر الألواح ونزول التوراة والعشر كلمات

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: الآيات ١٤٣ - ١٤٥].

قال الثعلبيّ: ثم بعث الله جبريل عليه السلام إلى جنّة عدن فقطع منها شجرة، فاتخذ منها تسعة ألواح، طول كلّ لوح عشر أذرع بذراع موسى، وكذلك عرضه، وكانت الشجرة من زمرّد أخضر؛ ثم أمر الله تعالى جبريل أن يأتيه بسبعة أغصان من سدرة المنتهَى؛ فجاء بها، فصارت جميعها نورًا، وصار النور قلمًا طاف فيما بين السماء والأرض فكَتَب التوراة، وموسى يسمع صرير القلم؛ فكتب الله تعالى له: ﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥] وذلك يوم الجمعة، فأشرقت الأرض بالنور؛ ثم أمر الله تعالى موسى أن يأخذها بقوّة ويقرئها

قومه؛ فوضعت الألواح على السماء فلم تطِق حملها لثقل العهود والمواثيق؛ فقالت: يا ربّ كيف أطيق حمل كتابك الكريم الثقيل المبارك؟ وهل خلقت خلقًا يطيق حمل ذلك؟ فبعث الله تعالى جبريل وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى، فلم يطِق حملها، فقال: يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود؟ وهل خلقتَ خلقًا يطيق حملها؟ فأمدّه الله تعالى بملائكة يحملونها بعدد كلّ حرف من التوراة؛ فحملوها حتى بلّغوها موسى؛ فعرضوا له الألواح على الجبل، فانصدع الجبلُ وخشع، وقال: يا ربّ من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها؟ فلمّا وضعتها الملائكة على الجبل بين يدي موسى - وذلك عند صلاة العصر - قبض موسى عليها فلم يُطِق حملَها، فلم يزل يدعو حتّى هيأ الله تعالى له حملها؛ فحمَلَها، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤].

قال: وأمّا العشر كلمات الّتي كتبها الله تعالى لنبيّه موسى في الألواح - وهي معظم التوراة، وعليها مدار كلّ شريعة[(١)] - فهي: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتِحَة: الآية ١]، هذا كتاب من الله الملكِ الجبّارِ العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران، سَبِّحني وقدِّسني، لا إلـٰه إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئًا و﴿ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمَان: الآية ١٤] أحيِك حياة طيّبة؛ ولا تقتل النفس الّتي حرّم الله عليك فتضيق عليك السماءُ بأقطارها والأرضُ برُحبها؛ ولا تحلف باسمي كاذبًا فإنّي لا أطهِّر ولا أزكّي من لم يعظِّم اسمي؛ ولا تشهد بما لا يعي سمعُك ولا تنظر عينُك ولم يقف قلبُك عليه فإني أقف أهلَ الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة، وأسائلهم عنها؛ ولا تحسد الناس على ما آتيتُهم من فضلي ورزقي، فإنّ الحاسد عدوّ لنعمتي، ساخط لقِسمتي؛ ولا تزنِ ولا تسرق فأحجبَ عنك وجهي، وأُغلِقَ دون دعوتِك أبواب السمٰوات؛ ولا تذبح لغيري، فإنه لا يصعد إليّ من قُربان الأرض إلّا ما ذُكِر عليه اسمي؛ ولا تغدرنّ بخليلة جارك فإنّه أكبر مقتًا عندي؛ وأَحِبَّ للناس ما تحبّ لنفسك. فهذه العشر كلمات؛ وقد أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّنا محمد ﷺ مثلها في ثماني عشرة آية، وهي قوله تعالى في سورة بني إسرائيل[(٢)]:

(١) مدار كلّ شريعة: أي قوام كلّ شريعة وأساسها وركائزها.

(٢) سورة بني إسرائيل: هي سورة الإسراء، سمّيت بذلك لقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسرَاء: الآية ٤].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: الآيات ٢٣ - ٣٩] ثم جمعها في آيتين من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ١٥١، ١٥٢].

وقد روى أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: لمّا أعطى الله موسى الألواح نظر فيها وقال: يا ربّ لقد أكرمتني بكرامة لم تُكرم بها أحدًا قبلي. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٤].

وأخرج الحافظ[(١)]: تموت على حبّ محمد عليه السلام. قال موسى: يا ربّ وما محمد؟ قال: أحمد الذي أثبتّ اسمه على عرشي من قبل أن أخلق السمٰوات والأرض بألفي عام، وإنه لنبيّ وحبيبي وخِيرتي من خلقي، هو أحبّ إليّ من جميع خلقي ومن جميع ملائكتي. قال: يا ربّ إن كان محمد أحبَّ إليك من جميع خلقك فهل خلقتَ أمّة أكرم عليك من أمّتي؟ قال الله تعالى: إنّ فضل أمّة محمد عليه السلام على سائر الأمم كفضله على سائر الخَلْق. قال: يا ربّ ليتني رأيتهم. قال: إنّك لن تراهم، ولو أردتَ أن تسمع كلامهم لسمعتَ. قال: يا ربّ فإنّي أريد أن أسمع كلامهم. قال: يا أمّة محمد. فأجبنا كلُّنا من أصلاب آبائنا وأرحام أمّهاتنا: لَبَّيْكَ اللّهمّ لبّيك لا شريك لك. قال الله تعالى: يا أمّة محمد. إنّ رحمتي سبقت غضبي، وعفوي عقابي، قد أعطيتكم من قبل أن تسألوني، وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني، وقد غفرت لكم من قبل أن تعصوني، من جاء يوم القيامة يشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمدًا عبدي ورسولي دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثرَ من زَبَد البحر. وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القَصَص: الآية ٤٤].

وروى الثعلبيّ أيضًا بسند رفعه إلى (كعب الأحبار) أنّه رأى حَبرًا من أحبار اليهود يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ فقال له: ذكرتُ بعض الأمر. فقال كعب: أنشُدك الله إن أخبرتُك بما أبكاك أتصدّقني؟ قال: نعم. قال: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمّة هي خير أمّة أُخرجتْ للناس يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، يؤمنون بالكتاب الأوّل وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهلَ الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجّال. فقال موسى: يا ربّ اجعلهم أمّتي. قال: هي أمّة أحمدَ يا موسى. فقال له الحبر: نعم. قال كعب: أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمّة هم الحامدون، الرُّعاة الشُّمُسُ[(٢)] المحكّمون، إذا أرادوا أمرًا قالوا: «نفعله إن شاء الله تعالى» فاجعلهم أمّتي. قال: هي أمّة أحمد يا موسى. قال له الحَبر: نعم. قال:

---

(١) الحافظ: هو الحسن بن سفيان بن عامر الشيباني النّسوي، أبو العباس، مصنّف المسند في الحديث، كان محدّث خراسان في عصره، مقدّمًا في الفقه والأدب مات سنة ٣٠٣ هـ «الأعلام ٢/١٩٢».

(٢) الشُّمُس: بضمّ الشين: الأعزاء الذين لا ينقادون للمذلة ويشمسون: أي يمتنعون ويأبون.

أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: ربّ إنّي أجد أمّة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم.

قال: «وكان الأوّلون يُحرِقون صدقاتهم بالنار، غير أنّ موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبدًا مملوكًا ولا أمة ألّا اشتراه ثم أعتقه من تلك الصدقة وما فضل حفر له حفيرة عميقة وألقاه فيها، ثم دفنه كيلا يرجعوا فيه» وهم المسبِّحون والمسبَّح لهم، وهم الشافعون والمشفَّع لهم. قال موسى: يا ربّ اجعلهم أمّتي. قال: هم أمّة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله أتجد في التوراة أنّ موسى نظر في التوراة فقال: إنّي أجد أمّة إذا أشرف أحدهم على شَرَف[1] كبّر الله تعالى، وإذا هبط واديًا حَمِد الله تعالى؛ الصعيد لهم طَهور والأرضُ لهم مسجد حيثما كانوا، يتطهّرون من الجنابة، طُهُورهم بالصعيد كطُهورهم بالماء حين لا يجدون الماء؛ غُرّ[2] محجَّلون[3] من آثار الوضوء، فاجعلهم أمّتي. قال: هي أمّة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: يا ربّ إنّي أجد أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها تُكتَبُ له، فإنْ عملها ضوعفتْ عشرَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه، وإن عملها تُكتَب عليه سيّئة مِثلَها. فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة أحمد يا موسى. قال الحبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله أتجد في كتاب الله المنزَّل أن موسى نظر في التوراة فقال: ربّ إنّي أجد أمّة مرحومة ضعفاء «يرثون[4] الكتاب الّذين اصطفينا» ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فَاطِر: الآية ٣٢] فلا أجد أحدًا منهم إلّا مرحومًا فاجعلهم أمتي. قال: هي أمّة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال كعب: أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزَّل أنّ موسى نظر في التوراة فقال: يا ربّ إنّي أجد أمّة مرحومة، مصاحفُهم في صدورهم، يلبسون ألوان ثيابِ أهل الجنّة يَصُفّون في صلاتهم صفوفًا كصفوف الملائكة، أصواتهم في مساجدهم كدَوِيّ النحل، لا يدخل

(١) الشّرف: المكان العالي، فالسّياق يقتضي هذا المعنى لأنه يقول: إذا أشرف وإذا هبط.
(٢) الغرُّ: البيض الوجوه.
(٣) المحجّل: المشهور، والمحجّل من الخيل: ما كان في قوائمه بياض، لعلّه يريد: أن أيديهم ووجوههم بيضًا، يسطع نورها من أثر الوضوء والصلاة. . .
(٤) كذا وردت هذه العبارة التي بين قوسين، ويلاحظ أنه يقصد الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: الآية ٣٢].

النار منهم أحد إلّا مَرّ الحسبان[١] مثل ما يُرمَى الحجر من وراء الشجر. فاجعلهم أمتي. قال: هي أمة أحمد يا موسى. قال الحَبر: نعم. قال: فعجب موسى من الخير الذي أعطاه الله محمدًا وأمّتَه. وقال: يا ليتني من أصحاب محمد. فأوحى الله تعالى إليه ثلاثَ آيات يرضيه بهنّ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ إلى قوله: ﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٤٤، ١٤٥]، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩].

قال: فرضيَ موسى كلَّ الرضا.

ولنصل هذا الفصل بما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥]، وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩].

قال الثعلبيّ: قال أهل المعاني: هذا كقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدًا إلى ما تصير إليه حالُ من يخالف أمري» على وجه الوعيد والتهديد.

وقال مجاهد: سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، يعني مَصيرَهم في الآخرة.

وقال الحسن[٢]: جهنّم.

وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشأمَ فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكّانها من الجبابرة والعمالقة.

وقال عطيّة العوفيّ: معناه سأريكم دار فرعون وقومه، وهي مصر.

قال أبو العالية: رُفعت مصر لموسى حتّى نظر إليها.

وقال السدّيّ: دار الفاسقين: مصارع الفاسقين، ما يمرّون عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرونِ الذين أُهلِكوا.

وقال ابن كيسان[٣]: دار الفاسقين، يعني إلى ما يصير قرارهم في الأرض.

---

(١) والحسبان جمع حسبانة ضرب من السهام صغار قصار كالمسالّ. يعني أن أُمة محمد لا يدخلون النار إلا مرورًا كمرور السهام. ومرور السهم ومروقه يُضرَب مثلًا لسرعة النفاذ. ومنه قوله ﷺ في صفة الخوارج: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

(٢) هو الحسن البصري، تقدّم ذكره.

(٣) ابن كيسان: هو محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن، من أهل بغداد، عالمٌ بالعربية نحوًا ولغة، له تصانيف كثير: منها «غريب الحديث» «ومعاني القرآن» مات سنة ٢٩٩ هـ «الأعلام ٥/٣٠٨».

وقيل: الدار الهلاك، وجمعه أدوار؛ وذلك أن الله تعالى لمّا أغرق فرعون وقومَه أمر البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل؛ ففعل، فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم هلاكَ الفاسقين.

وقال يمان[١]: يعني مسكن فرعون.

وأما ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] يعني بني إسرائيل، ﴿أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] جماعة، ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] أي يرشدون إلى الحق.

وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٩] أي ينصِفون من أنفسهم لا يجورون.

قال السدّيّ: هم قوم بينكم وبينهم نهر من شُهْد[٢].

وقال ابن جريج: بلغني أن بني إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءهم وكفروا ـ وكانوا اثني عشر سِبطًا ـ تبرّأ سبط منهم؛ واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبينهم، ففتح الله تعالى لهم نَفَقًا في الأرض، فساروا فيه سنةً ونصفًا حتى خرجوا من وراء الصّين؛ فهم هناك حنفاءُ مسلمون مستقبلون قبلتَنا.

قال الكلبيّ وربيع[٣] والضحّاك وعطاء: هم قوم من المغرب خلف الصين على نهر يحوي الرمل يسمى نهر أوران، وليس لأحدهم مال دون صاحبه؛ يُمطَرون بالليل، ويصحَون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منّا أحد ولا منهم إلينا وهم على الحقّ.

قال: وذكر عن النبيّ ﷺ أن جبريل ذهب به ليلة أُسرِيَ به إليهم؛ فكلّمهم؛ فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلّمون؟ قالوا: لا. قال: هذا محمّد النبيّ الأمّيّ. فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا وقال: من أدرك منكم أحمدَ فليقرأ

(١) يمان: لعلّه يمان بن عديّ الحمصي، محدّث، شيخ «الكاشف ٣/ ٢٥٩».
(٢) الشُهد: والشَّهْد: العسل.
(٣) ربيع: لعلّه الرّبيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي، عالم بالحديث، من أعيان المئة الثانية للهجرة له كتاب في الحديث سُمّي «الجامع الصحيح» «الأعلام ٣/ ١٤».

منّي عليه السلام. فردّ رسول الله ﷺ على موسى وعليهم السلام؛ ثم أقرأهم عشرَ سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضةٌ سوى الصلاة والزكاة، فأمرهم بالصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يَسبِتون، فأمرهم أن يُجمِّعوا ويتركوا السبت.

حكاه أبو إسحٰق الثعلبيُّ في تفسيره.

نرجع إلى تتمّة أخبار موسى عليه السلام.

ذكر خبر السامري واتخاذه العجل وافتتان بني إسرائيل به

قال الكسائيّ والثعلبيّ وغيرُهما من أهل السير ما مختصره ومعناه: إن موسى عليه السلام لمّا توجّه إلى البقعة المباركة الّتي كلّمه الله تعالى فيها لميقات ربّه، استَخلَف أخاه هارونَ على بني إسرائيل، وكان السامريّ فيهم.

واختُلِف فيه، فقال قتادة والسدّيّ: كان السامريّ من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها: (سامِرة)[١] ولكنه عدوّ لله منافق.

وقال سعيد[٢]: كان السامريّ من (كرمان).

وقال غيرهم: كان رجلًا صائغًا من أهل باجَرْما، واسمه مِيخَا.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: اسمه موسى بن ظَفَر، وكان رجلًا منافقًا وقد أظهر الإسلام؛ وكان من قوم يعبدون البقر، فدخل قلبَه حبُّ البقر، فلما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربّه ـ وكان قد واعد قومَه ثلاثين ليلةً فأتمّها الله بعشر، كما أخبر الله عزّ وجلّ ـ فعَدّ بنو إسرائيل ثلاثين، فلمّا لم يرجع إليهم موسى افتَتنوا وقالوا: إنّ موسى أخلفنا الوعد؛ فاغتنمها السامريُّ ففعل ما فعل.

وقال قوم: إنهم عَدّوا الليلة يومًا واليومَ يومًا، وكان موسى قد واعدهم أربعين، فلمّا مضت عشرين يومًا افتتنوا، فأتاهم السامريُّ وقال: إنّ موسى قد احتبس عنكم، فينبغي لكم أن تتخذوا إلـٰهًا، فإنّ موسى ليس يرجع إليكم، وقد تمّ الميقات. وإنما طمع فيهم السامريُّ لأنّهم في اليوم الذي أنجاهم الله من فرعون وطلعوا من البحر،

---

(١) سامرة: في شرح القاموس: أن اسم هذه القبيلة «سامر» بدون هاء.

(٢) هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، تابعي جمع بين الفقه والحديث والزهد «الكاشف ١/ ٢٩٦».

كان من أمرهم ما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] فطمع السامريُّ فيهم واغتنمها، فلمّا تأخّر موسى عن الميقات ـ وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليّ آل فرعون كما قدّمنا؛ فلمّا فصل موسى قال هارون لبني إسرائيل: إنّ حليّ القبط الّذي استعرتموه غنيمة، وإنّه لا يحلّ لكم؛ فاجمعوه فاحفروا له حفيرة وادفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه. ففعلوا ذلك، وجاءهم السامريّ ومعه القبضة التي قبضها من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام.

قالوا: وكان لجبريل عليه السلام فرس أنثى بلقاءُ[1] يقال لها: «فرس الحياة» لا تصيب شيئًا إلّا حيي؛ فلما رأى السامريّ جبريلَ على تلكَ الفرس عرفه وقال: إن لهذا الفرس لشأنًا. وأخذ قبضة من تراب حافرها حين عبر جبريلُ البحر.

قالوا: وإنّما عرف السامريُّ خبر الفرس دون غيره من بني إسرائيل، لأنّ فرعون لمّا أمر بذبح أولاد بني إسرائيل جَعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقتْ به سرًّا في جوف الليل إلى صحراءَ أو وادٍ أو غارٍ في جبل فأخفته، فقيّض الله تعالى له ملَكًا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى لا يختلط بالناس، وكان الذي وَلِيَ كفالة السامريِّ جبريل عليه السلام، فجعل يمصّ من إحدى إبهاميه سمنًا، ومن الأخرى عسلًا، فمِن ثَمّ عرفه، ومن ثَمّ الصبيّ إذا جاع يمصّ إبهامَه فيروَى من المصّ.

نرجع إلى خبر بني إسرائيل مع السامريّ.

قال: فلمّا أمرهم هارون بجمع الحليّ وجمعوه، جاء السامريّ بالقبضة فقال لهارون: يا نبيّ الله، أأقذفها فيه؟ فظنّ هارون أنها من الحليّ، وأنّه يريد بها ما يريد أصحابه، فقال له: اقذف. فقذفها في الحفرة على الحليّ، فصارَ عجلًا جسدًا له خُوار.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أوقد هارون نارًا وأمرِهم أن يقذفوا الحليّ فيها؛ فقذف السامريّ تلك القبضة فيها وقال: «كن عجلًا جسدًا له خوار». فكان كذلك للبلاء والفتنة.

(١) البلقاء: التي لونها سوادٌ وبياض.

ويقال: إنّ الّذي قال لبني إسرائيل: «إنّ الغنيمة لا تحل لكم» هو السامريّ، فصدّقوه وجمعوها، فدفعوها إليه فصاغ منها عجلًا في ثلاثة أيام ثم قذف فيه القبضة، فجثا وخار خَوْرةً ثم لم يعد.

وقال السدّيّ: كان يخور ويمشي؛ فلمّا أخرج السامريُّ العجلَ وكان من ذهب مرصّع بالحجارة كأحسن ما يكون، قال هذا إلٰهكم وإلٰه موسى. فشبّه السامريّ على أوغاد بني إسرائيل وجُهّالِهم حتى أضلّهم وقال لهم: إنّ موسى قد أخطأ ربّه فأتاكم ربُّه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه، وأنه قد أظهر لكم العجلَ ليكلّمكم من وسطه كما كلّم موسى من الشجرة.

قالوا: فلمّا رأوا العجل وسمعوا قول السامريّ، افتَتَنوا غير اثني عشر ألفًا وكان مع هارون سِتُّمائة ألف، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله تعالى، وأحبّوه حبًّا ما أحبّوا مِثلَه شيئًا قطّ؛ فقال لهم هارون يا بني إسرائيل: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾ [طٰه: الآيتان ٩٠، ٩١].

فأقام هارون بمن معه من المسلمين، وأقام من يعبد العجل على عبادته؛ وخشي هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتتنين الضالّين أن يقول له موسى: فرقت بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قال راشد بن سعد[١]: لما واعد الله تعالى موسى أربعين يومًا قال الله تعالى: يا موسى، إنّ قومك قد افتَتَنوا من بعدك. قال: يا ربّ كيف يفتتنون وقد نجّيتَهم من فرعون ومن البحر، وأنعمت عليهم؟ قال: إنهم اتخذوا العجل إلٰهًا من دوني وهو عجل جسد له خُوار. قال: يا ربّ مَن نفخ فيه الرُّوح؟ قال: أنا. قال: أنت ـ وعزّتك ـ فتنتَهم، ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥].

قال: فلمّا رجع موسى من الميقات إلى قومه وقرب منهم، سمع اللغط[٢] حول العجل وكانوا يرقصون حوله، ولم يخبر موسى أصحابَه السبعين بما أخبره به ربّه

---

(١) هو راشد بن سعد الحمصي، محدّثٌ ثقة، شهد صفّين توفي سنة ١٦٣ هـ «الكاشف ١/ ٢٣١».

(٢) اللغط: الصّوف والضجّة والجلبة.

تعالى من حديث العجل، فقالوا: هذا قتالٌ في المحَلّة. قال موسى لهم: لا ولكنّها أصوات الفتنة، افتتن القومُ بعدنا بعبادة غير الله تعالى.

ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠] وذلك أنّه لما رآهم حول العجل وما يصنعون فيه ألقى الألواح من يده فتكسّرت، فصعد عامّة الكلام الذي فيها، ولم يبقَ إلّا سُدسها، ثم أعيدت له في لوحين.

رُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: ليس المُعاين كالمخبَر، قال الله تعالى لموسى: إن القوم قد افتتَنوا فلم يُلقِ الألواح، فلمّا عاين ألقى الألواح فكسرها.

قالوا: فلما رأى موسى ما صنع قومُه بعده من عبادة العجل، أخذ شعر رأس أخيه هارون بيمينه، ولحيتَه بشماله وقال له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٢، ٩٣]، هلّا قاتلتَهم إذ علمتَ أنّي لو كنت فيما بينهم لقاتلتُهم على كفرهم؟ فقال هارون: يا ابن أمَّ؛ قال المفسّرون: كان هارون أخا موسى لأبيه وأمّه، ولكنّه أراد بقوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: الآية ٩٤] تقريبه واستعطافه عليه، ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ﴾ [طه: الآية ٩٤] إنْ أُقاتلهمْ أن يصيروا حزبين يقتل بعضهم بعضًا، فتقول: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: الآية ٩٤]، ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٢]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٠]، فقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قال: ثم أقبل موسى على السامريّ فقال له: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ [طه: الآية ٩٥] أي ما أمرُك وشأنُك؟ فقال السامريّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: الآية ٩٦] أي أخذتُ ترابًا من أثر فرس جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: الآية ٩٦] وطرحتها في العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: الآية ٩٦] أي زَيّنت.

قال: فلمّا علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلّوا في عبادتهم العجل، ندموا على ذلك واستغفروا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٤٩]، فقال لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]. قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]، أي بقتل البريءِ المجرمَ، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٤٩] يعني القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلّا بالحال الّتي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل.

وقال قتادة: جعل الله توبة عبدةِ العجل القتلَ لأنّهم ارتدّوا، والكفر مبيح للدّم.

وقال الكسائيّ: لمّا قال موسى لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]، سألوه أن يتوب الله تعالى عليهم؛ فسأل الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه أنّه لا توبة لهم، لأنّ في قلوبهم حبَّ العجل، فاجمع رماد العجل وألقه في الماء، وامرهم أن يشربوا منه فإنه يظهر ما في قلوبهم على وجوههم. ففعل ذلك؛ فلمّا شربوا لم يبق أحد ممّا في قلبه مرض إلا اصفرّ وجهه ولونُه وورِم بطنُه، ودام ذلك بهم، فقالوا: يا موسى، هل شيء غير التوبة الخالصة وقد أخلصنا في توبتنا حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا فعلنا؟ فأوحى الله إليه: يا موسى قد رضيتُ بحكمهم على أنفسهم، فقل له: يقتلوا أنفسهم إن كانوا صادقين في توبتهم. فقال لهم موسى ما أمرهم الله به: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٤]. فقالوا: كيف نقتل أنفسنا؟ قال: يا قوم من لم يعبد العجلَ إلى من عبده فيقتله. فقاموا بالسيوف والخناجر إلى الّذين عبدوه وأرسل الله عليهم ظُلمةً فلم يُبصِر بعضهم بعضًا، حتى كان الرجل يأتي إلى أخيه وأبيه وابن عمه وقرابته فيقتله وهو لا يعرفه، ولم يعمل السلاح فيمن لم يعبد العجل حتى خاضوا في الدماء، وصاح النساء والصبيانُ إلى موسى: «العفوَ يا نبيّ الله» فدعا موسى الله بالعفوَ عنهم؛ فلم يعمل السلاحُ فيهم بعد ذلك، وقبل الله تعالى توبتهم، وارتفعت الظُّلمة عنهم.

قالوا: ثم همّ موسى بقتل السامريّ، فأوحى الله تعالى إليه: لا تقتله فإنّه سخيّ، ولكن أخرجه عن قومك. فلعنه موسى وقال له ما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ(١) وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾

(١) لا مساس: لا أمسّ، ولا أمسّ.

[طه: الآية ٩٧] أي لعذابك في القيامة. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: الآية ٩٧].

قال: وأمر موسى بني إسرائيل ألّا يخالطوا السامريّ ولا يقاربوه؛ فصار السامريّ وحشيًا لا يألَف ولا يؤلَف ولا يدنو من الناس ولا يمسّ أحدًا منهم فمَن مسّه قُرض ذلك الموضع بالمقراض، فكان ذلك دأبه حتى هلك.

ذكر خبر امتناع بني إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفعِ الجبل عليهم وإيمانهم

قال الكسائيّ: ثم أقبل موسى على بني إسرائيل بالتوراة وقال: هذا كتاب ربّكم فيه الحلال والحرام والأحكام والسنن والفرائض ورجمُ الزاني والزانية المحصَنَين وقطع يد السارق، والقصاص في كل ذنب يكون منكم. فضجّوا من ذلك وقالوا: لا حاجة لنا في هذه الأحكام، وما كنا فيه من عبادة العجل كان أرفق بنا من هذا.

قال: فلما امتنعوا من قبول أحكام الله عزّ وجلّ قال موسى: يا رب قد علمت أنهم ردّوا كتابك وكذّبوا بآياتك. فأمر الله تعالى جبريل أن يرفع عليهم جبل طور سيناء في الهواء؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٧١]، ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٩٣] فجعل الجبل يدنو منهم حتى ظنوا أنه يسقط عليهم؛ فآمنوا وخرّوا سجّدًا على أنصاف وجوههم وهم ينظرون إلى الجبل بالنصف الآخر؛ فلأجل ذلك سجود اليهود كذلك. وردّ الجبل عنهم.

ذكر خبر الحجر الذي وضع موسى عليه السلام ثيابه عليه

قال: وكانوا إذا اغتسلوا لا يسترون عوراتهم، وإذا اغتسل موسى يستتر فظنوا أن في بدنه عيبًا، فتكلموا بذلك، وكان موسى عليه السلام إذا اغتسل وضع ثوبه على حجر وقرعه بعصاه فيتفجر الماء منه، فيغتسل ثم يلبس ثوبه؛ ففعل ذلك في بعض الأيام، فلما أراد أن يلبس ثوبه انقلع الحجر من موضعه ومرّ على وجه الأرض وعليه ثوب موسى؛ فعدا موسى خلفه وهو يقول: «ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر» ولم يزل يعدو حتى وقف على بني إسرائيل، فنظروا إلى موسى ولا عيب فيه، فندموا على ما كان منهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٩].

ذكر خبر طلب بني إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة، وكيف أحياهم الله - عزّ وجلّ - وبعثهم من بعد موتهم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآيتان ٥٥، ٥٦].

وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل؛ فاختار موسى عليه السلام سبعين رجلًا من قومه من خيارهم، وكان قد اختار من كلّ سِبط ستّة نفر، فصاروا اثنين وسبعين، فقال: إنما أمرت بسبعين، فليتخلّف منكم رجلان. فتشاحنوا(١) على ذلك، فقال موسى: إن لمن قعد مِثل أجر من خرج. فقعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، فقال موسى للسبعين: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. ففعلوا ذلك فخرج بهم موسى عليه السلام إلى طور سيناء لميقات ربه؛ فلما بلغوا ذلك الموضع قالوا لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عمود الغمام عليه وتَغشَّى الجبلَ كلَّه، فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه عزّ وجلّ - وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه؛ فضرب دونه الحجاب، ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخرّوا سجّدًا، وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه؛ فأسمعهم الله تعالى: إني أنا الله لا إلـه إلا أنا ذو المُلك، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري. فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٥] أي لن نصدّقك، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٥] وهي نار جاءت من السماء فأحرقتهم جميعًا.

وقال وهب بن منبّه: أرسل الله عليهم جندًا من السماء، فلما سمعوا حسّها ماتوا في يوم وليلة.

فلما هلكوا جعل موسى عليه السلام يبكي ويتضرّع ويقول: يا ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم، ولو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥]، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله عزّ وجلّ رجلًا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون. حكاه الثعلبيّ في تفسيره.

---

(١) الشحناء: العداوة والبغضاء.

وقال الكسائيّ في هذه القصة: أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا: أرنا الله جهرة. فأوحى الله تعالى إليه: أكلّهم يريد ذلك؟ ـ وهو أعلم ـ فقال الصالحون منهم: إن الله أجل من أن نراه في الدنيا.

وقال الباقون: إنما امتنع هؤلاء لضعف قلوبهم. فأوحى الله تعالى إليه: أن اختر منهم سبعين رجلًا وسر بهم إلى جبل الطور؛ فسار بهم، ووقع الغمام على الجبل حتى أظله، وأتاه موسى وهم معه؛ فأمر الله تعالى الملائكة أن تهبط إلى الجبل بزيّها وصوَرِها؛ فلما نظر بنو إسرائيل إليهم أخذتهم الرِّعدة والخوف، وندموا على ما كان منهم، ونودوا من قبل السماء: يا بني إسرائيل. فصعقوا كلّهم وماتوا. وساق نحو ما تقدّم.

قال: ورجعوا إلى قومهم وخبّروهم بما رأوا.

ذكر خبر قارون

قال المفسرون: إنّ قارون كان ابن عم موسى، لأنه قارون بن يصهر بن قاهث.

وقال ابن إسحٰق: هو عم موسى، لأن يصهر بن قاهث تزوّج شميش[١] بنت ماويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم، فولدت له عمران بن يصهر وقارون بن يصهر.

فعلى هذا القول يكون عم موسى؛ وعلى قول الآخرين يكون ابن عمه، وعليه عامّة أصحاب التواريخ؛ وعليه أهل الكتاب، لا خلاف عندهم في ذلك.

قالوا: وكان قارون أعلمَ بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلَهم وأجملَهم.

قال قتادة: وكان يسمى المبشور[٢] لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه، ولكنّ عدوّ الله نافق كما نافق السامريّ، فبغى على قومه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦].

قال الثعلبيّ: واختلفوا في معنى هذا البغي ما هو، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فرعون قد ملّك قارون على بني إسرائيل، وكان يبغي عليهم ويظلمهم.

(١) كذا في تاريخ العيني الورقة ٣٠٠ من الجزء الثاني، قسم ثان، والذي في الأصول: «سميث» بنت ماديب بن نوكيا بن يعشان.
(٢) في الأصل «المبسور» وهو تحريف.

وقال عطاء الخراسانيّ وشهر بن حوشب[١]: زاد عليهم في الثياب شبرًا.

وقال شيبان[٢] عن قتادة: بغى عليهم بالكبر والبَذَخ.

وقال سعيد عنه: بكثرة المال. وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦] أي تثقل وتميل بهم إذا حملوها لثقلها.

واختلف المفسرون في عدد العصبة، فقال مجاهد: ما بين العشرة إلى الخمسة.

وقال قتادة: ما بين العشرة إلى الأربعين.

وقال عكرمة: منهم من يقول: سبعين.

وقال الضحّاك: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

وقيل: هم ستون.

وروى جرير[٣] عن منصور[٤] عن خيثمة[٥] قال: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون كانت وِقر ستين بغلًا غُرًّا محجَّلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح منها كنز.

ويقال: إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه ـ وكانت من حديد ـ فلما ثقلت عليه جعلها من الخشب، فثقلت عليه، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع، تُحمل معه على أربعين بغلًا.

وقال بعضهم: أراد بالمفاتيح الخزائن. وإليه ذهب أبو صالح.

وقال أبو رزين[٦]: لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيًا.

(١) هو شهر بن حوشب الشامي، محدّث ثقة، حدّث عن مولاته أسماء بنت يزيد وأبي هريرة وابن عبّاس «الكاشف ٢/ ١٤».

(٢) هو شيبان بن عبد الرحمٰن النحوي المؤدّب، البصري، صاحب حروف وقراءات حجّة توفي سنة ١٦٤ هـ «الكاشف ٢/ ١٥».

(٣) هو جرير بن حازم الأزدي، محدّث ثقة مات سنة ١٧٠ هـ «الكاشف ١/ ٥١».

(٤) منصور: لعلّه منصور بن زاذان الواسطي، العابد، أبو المغيرة، مولى ثقيف، كبير الشأن، مات سنة ١٢٨ هـ «الكاشف ١/ ١٥٥».

(٥) هو خيثمة بن عبد الرحمٰن الجعفي، إمامٌ ثقة، ورث مائتي ألف حديث، فأنفقها على العلماء «الكاشف ١/ ٢١٩».

(٦) أبو رزين: لعلّه مسعود بن مالك، أبو رزين الأسدي، محدّث ثقة مات في العام ٨٥ هـ «الكاشف ٣/ ١٢٢».

واختلفوا في سبب اجتماع تلك الأموال لقارون؛ فقيل: كان عنده علم الكيمياء.

قال سعيد بن المسيّب: كان موسى يَعلَم الكيمياء، فعلّم يوشعَ ثلث العلم، وعلّم كالب ثلثه، وعلّم قارون ثلثه، فخدعهما قارونُ حتى أضافا علمهما إلى علمه.

وحكى الكسائيّ: كان قارون من فقراء بني إسرائيل، فأوحى الله إلى موسى أن يحلّيَ تابوت التوراة بالذهب؛ وعلّمه صنعة الكيمياء؛ فجاء قارون إلى أم كلثم أخت موسى ـ وقد قيل: إنها كانت زوجته ـ فسألها: من أين لموسى هذا الذهب؟ فقالت: إن الله تعالى قد علّمه صنعة الكيمياء. وكان موسى قد علّمها الصنعة، فتعلّمها قارون منها.

قالوا: فكان ذلك سبب أمواله، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: الآية ٧٨].

وقيل: معناه على علم عندي بالتصرّف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب.

وقيل في سبب جمعِه تلك الأموال ما رواه الثعلبيّ بسنده عن أبي سليمان الداراني أنه قال: تَبدَّى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام في جبلٍ أربعين سنة حتى غلب بني إسرائيل في العبادة، فبعث إبليس إليه شياطينه فلم يقدروا عليه؛ فأتاه وجعل يتعبد معه، وجعل قارون يتعبّد وإبليس يقهره في العبادة ويفوقه؛ فخضع له قارون؛ فقال له إبليس: يا قارون، قد رضينا بهذا الذي نحن فيه، لا نشهد لبني إسرائيل جماعة، ولا نعود مريضًا، ولا نشهد جنازة.

قال: فأحدره من الجبل إلى البيعة، فكانا يؤتَيان بالطعام، فقال له إبليس: يا قارون، قد رضينا أن نكون هكذا كَلًّا على بني إسرائيل؟ فقال له قارون: فأيّ رأي عندك؟ قال: نكسب يوم الجمعة، ونتعبد بقية الجمعة.

قال: فكسبوا يَوم الجمعة وتعبدوا بقيتها؛ فقال إبليس: قد رضينا أن نكون هكذا؟ قال قارون: فأيّ رأي عندك؟ قال: نكسب يومًا ونتعبّد يومًا فنتصدّق ونُعطِي.

قال: فلما كسبوا يومًا وتعبّدوا يومًا خَنَس[١] إبليس وتركه، ففُتحت على قارون أبوابُ الدنيا، فبلغ مالُه ـ على ما رواه الثعلبيّ بسنده إلى المسيِّب بن شريك قال: ﴿مَآ

(١) خنس: رجع وتنحّى.

إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القَصَص: الآية ٧٦] وكانت أربعمائة ألفِ ألفٍ في أربعين جرابًا.

قال: فبغى وطغى حين استغنى، فكان أوّل طغيانه وعصيانه أنه تكبّر واستطال على الناس بكثرة الأموال، وكان يخرج في زينته.

قال مجاهد: خرج عليّ براذينَ[1] بِيض عليها سروج الأرجوان وعليه المعصفَرات.

وقال ابن أسلم: خرج في سبعين ألفًا عليهم المعصفَرات.

قال: وذلك أوّل يوم ظهرت فيه المعصفَرات في الأرض.

وقال مقاتل[2]: خرج على بغلة شهباءَ على سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم الديباج وعلى دوابّهم الأرجوان؛ ومعه ستُّمائة جارية بِيض عليهنّ الحليّ والثياب الحمر، وهن على البغال الشهبَ[3].

وحكى الكسائيّ أن قارون اتخذ سريرًا من الذهب يصعد إليه بمراقٍ، وعليه أنواع من فُرُش الديباج، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصّع بالجوهر.

قالوا: فلما خرج في بعض الأيام في زينة عظيمة، تمنّى أهلُ الجهالة والخسارة مثلَ الّذي أُوتيَه، وقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القَصَص: الآية ٧٩] فأنكر عليهم أهل العلم بالله تعالى، وقالوا لهم: اتقوا الله واعملوا ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه، فإن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا من لذّات الدنيا وشهواتها؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [القَصَص: الآية ٨٠]، أي لا يوفَّق لهذه الكلمة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القَصَص: الآية ٨٠]، أي على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا.

قالوا: ثم أوحى الله تعالى إلى نبيّه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعلّقوا في آذانهم خيوطًا أربعة، في كل طَرَفٍ خيط أخضر كلون السماء فقال موسى: يا رب لم أمرتَ بني إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الخضر في آذانهم؟ فقال تعالى: إن بني

---

(١) البرذون: دابة دون الفرس غليظة الأعضاء، ضخمة تتخذ للحمل خصوصًا.
(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، من أعلام المفسّرين دخل بغداد وحدّث فيها. توفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ له عدّة مؤلّفات منها: التفسير الكبير «الأعلام ٧/ ٢٨١».
(٣) الأشهب: ما كان لونه لون الشهبة، وهي بياض غلب على السّواد، أو بياض خالطه سواد.

إسرائيل في غفلة، وقد أردتُ أن أجعل لهم عَلَمًا في ثيابهم ليذكروني به إذا نظروا إلى السماء، ويعلموا أني منزِل منها كلامي. فقال موسى: يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضرًا، فإن بني إسرائيل تحقِر هذه الخيوط؟ فقال له: يا موسى، إن الصغير من أمري ليس بصغير، وإن لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير.

قال فدعا موسى بني إسرائيل وأعلمهم بأمر الله تعالى؛ ففعلوا ذلك واستكبر قارون فلم يطعه، وقال: إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا من غيرهم. فكان هذا أيضًا من بغيه وعصيانه.

قالوا: ولما قطع موسى البحر ببني إسرائيل جُعلت الحُبورة - وهي رآسة المذبح وبيتِ القربان - لهارون عليه السلام؛ وكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون، فيضعه على المذبح، فتنزل نار من السماء فتأكله، فوجَد قارونُ في نفسه من ذلك، وأتى موسى وقال له: يا موسى، لك الرسالة، ولهارون الحُبورة، وليس لي من ذلك شيء، وأنا أقرأُ للتوراة منكما، لا صبر لي على هذا. فقال موسى: والله ما أنا جعلتها في هارون، بل الله جعلها له. فقال قارون: والله لا أصدّقك في ذلك حتى تريني بيّنة.

قال: فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل وقال: هاتوا عصيَّكم. فجاؤوا بها فحزمها وألقاها في قبّته التي كان يعبد الله تعالى فيها؛ وجعلوا يحرسون عصيّهم حتى أصبحوا، فأصبحت عصا هارون قد اهتزّ لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز فقال موسى: يا قارون، أترى هذا من فعلي؟ قال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر. وذهب قارون مغاضِبًا، واعتزل موسى بأتباعه؛ وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه في كل وقت، ولا يزداد كلَّ يوم إلا عتوًّا وتجبّرًا ومخالفَة.

ويقال: إنّه بنى دارًا وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح الذهب، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون[١] عليه ويروحون[٢] فيطعمهم الطعام ويحدّثونه ويضاحكونه.

(١) الغدو: ما بين الفجر وطلوع الشمس، أوّل النهار.
(٢) الرّواح: العشي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم أنزل الله تعالى الزكاة على موسى؛ فلما وجبت الزكاة على بني إسرائيل أتى قارون موسى فصالحه عن كلّ ألف دينار على دينار، وعن كلّ ألفِ درهم على درهم، وعن كلّ ألف شاة على شاة، وعن كلّ ألفِ شيء شيئًا، ثم رجع إلى بيته فحسَبه فوجده كثيرًا، فلم تسمح بذلك نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: يا قوم، إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئتَ. فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغيّ فنجعل لها جُعلًا[1] على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه. فأتوا بها، فجعل لها قارون ألف درهم. وقيل: ألف دينار. وقيل: طَسْتًا من ذهب. وقيل: حُكمَها؛ وقال لها: إني أموّلكِ وأخلطكِ بنسائي على أن تقذفي موسى غدًا إذا كان بنو إسرائيل متجمّعين. فلما كان الغد جمع قارونُ بني إسرائيل. ثم أتى موسى فقال: إنّ بني إسرائيل قد اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبيّن لهم أعلام دينهم وأحكامَهم وأحكام شرعهم. فخرج إليهم موسى وهم في بَراح[2] من الأرض، فقام فيهم خطيبًا ووعظهم، وقال فيما قال: يا بني إسرائيل، من سرق قُطعتْ يده، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فجرتَ بفلانة. قال موسى: أنا؟ قال: نعم. قال: ادعها فإن قالت فهو كما قالت. فدُعيتْ؛ فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة، أنا فعلت بكِ ما يقول هؤلاء؟ وعظّم عليها وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلّا صدقت. فلما ناشدها موسى تداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت: لأن أحدِث اليوم توبة أفضل من أوذيَ رسول الله. وقالت: لا والله بل كذبوا، ولكن جعل لي قارون جُعلًا على أن أقذفك بنفسي. فلما تكلّمتْ بهذا الكلام سُقط[3] في يد قارون ونكّس رأسه، وسكت الملأ وعرف قارونُ أنه قد وقع في مهلكة، وخرّ موسى ساجدًا لله تعالى.

وقال الكسائيّ في قصّة هذه المرأة: إن قارون بعث إلى امرأة فاسقة كان موسى قد نفاها من عسكره، فقال لها: إني أريد أن أتزوّج بك وأنقذَك من هذا الفقر إن

---

(١) الجعل: المكافأة.
(٢) البراح: المتسع من الأرض.
(٣) سقط في يده أو أسقط: تحيّر.

عملتِ ما أقول. قالت: وما هو؟ قال: إذا اجتمع بنو إسرائيل عندي فاحضري وقولي: إن موسى دعاني إلى نفسه فلم أطاوعه، فأخرجني من عسكره فانصرفت ودخلت على قارون من الغد ـ وقد اجتمع بنو إسرائيل عنده ـ فقالت: يا بني إسرائيل، هذا ما لقي الأخيار من الأشرار؛ اعلموا أن قارون دعاني بالأمس وقال لي كذا وكذا، وأمرني أن أكذب على نبيّ الله موسى؛ وكَذَب قارون إنما أخرجني موسى من عسكره لفسادي، وقد تبت إلى الله تعالى من ذلك. فلما سمع قارون ذلك ندم، ولامه بنو إسرائيل، وبلغ موسى الخبر فغضب ودعا على قارون.

قالوا: وجعل موسى يبكي ويقول: يا رب إن عدوّك هذا قد آذاني وأراد فضيحتي، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلّطني عليه. فأوحى الله تعالى إليه: ارفع رأسك وامر الأرض بما شئت تطعك. فقال موسى: يا بني إسرائيل إن الله قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليَثْبُت مكانه ومن كان معي فليعتزل[١] عنه. فاعتزل بنو إسرائيل قارونَ ولم يبق منهم إلا رجلان ثم قال موسى: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى كعابهم. ثم قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى ركبهم. ثم قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى حُقِيِّهِم[٢]. ثم قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أعناقهم؛ وقارون وصاحباه في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشدونه؛ حتى رُوِيَ في بعض الأخبار: أنه ناشده سبعين مرة وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه، لشدّة غضبه عليه. ثم قال: يا أرض خذيهم. فانطبقت عليهم الأرض؛ فأوحى الله إلى موسى: استغاثوا بك سبعين مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزّتي وجلالي لو إياي دعَوا لوجدوني قريبًا مجيبًا. قال قتادة: ذُكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم في كل يومٍ قامة، وأنه يتخلخل[٣] فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة.

قالوا: فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه أصبحت بنو إسرائيل يتناجون[٤] فيما بينهم: إن موسى دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه وأمواله. فدعا موسى حتى خسف الله تعالى بدار قارون وأمواله الأرض؛ وأوحى الله تعالى إلى موسى: أني لا أعبد الأرض لأحد بعدك أبدًا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا

(١) اعتزل: تجنّب.
(٢) الحقيّ: جمع حقّ، وهو أصل رأس الورك الذي فيه عظم الفخذ.
(٣) يتخلخل: يتقلقل ويضطرب. (٤) يتناجون: يتهامسون ويتسارّون.

كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: الآية ٨١].

قال: فلما حلّت نِقمة الله تعالى بقارون حمد المؤمنون الله تعالى، وندم الذين كانوا يتمنّون ماله وحاله، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ[١] ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: الآية ٨٢]. والله الفعّال.

ذكر خبر موسى والخَضِر ـ عليهما السلام ـ

وهذا الخبر إنما رجعتُ فيه واعتمدت على ما ورد في الحديث الصحيح النبويّ مما خرّجه البخاريّ رحمه الله تعالى في صحيحه، ورويناه بسندنا عنه بسنده عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب رضي الله عنهم عن النبيّ ﷺ: أن موسى[٢] عليه السلام قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ العلم إليه؛ فقال: بلى، عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك.

وورد في الحديث الآخر من رواية البخاريّ[٣]: بلى عبدنا خَضِر. قال: أي ربِّ ومن لي به؟ قال سفيان[٤] من روايته: أيْ ربِّ وكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله في مِكتَل[٥] فيحثما فقدتَ الحوت فهو ثَمّ. وربما قال: فهو ثمّة. فأخذ حوتًا فجعله في مِكتَل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما؛ فرقد موسى عليه السلام، واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦١] فأمسك الله عن الحوت جِرية الماء فصار مثل الطاق؛ فانطلقا يمشيان بقيّة يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٢]؛ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز

---

(١) ويكأنّه: ألم تر أنّه، وهي كلمة مؤلّفة من «وي» وكاف المخاطبة.

(٢) يلاحظ أنّ في رواية هذا الحديث هنا اختلافًا يسيرًا عمّا ورد في البخاري في كتاب «تفسير القرآن» انظر الجزء الخامس ص ٢١٤ ط بولاق سنة ١٢٩٦ هـ.

(٣) البُخاري: هو محمد بن محمد شمس الدين الجعفري البخاري، فقيه حنفي عالمٌ بالتفسير، له تفسير القرآن العظيم في مئة مجلد مات سنة ٨٢٢ هـ وهو غير البخاري الجامع لحديث رسول الله ﷺ «صاحب الصحيح» الأعلام ٧/ ٤٦.

(٤) هو سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي، أبو محمد، كان حافظًا ثقة واسع العلم له الجامع في الحديث وكتاب في التفسير مات سنة ١٩٨ هـ «الأعلام ٣/ ١٠٥».

(٥) المكتل: قفّة من ورق النخل.

حيث أمره الله تعالى؛ قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٣] فكان للحوت سَرَبًا ولهما عَجَبًا.

قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: الآية ٦٤].

فرجعا يقصّان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجًّى بثوب، فسلّم موسى، فردّ عليه فقال: وأنّى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلّمني ممّا عُلِّمتَ رُشدًا. قال: يا موسى إني على علم من علم اللهِ علّمنيه اللهُ لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه اللهُ لا أعلمه. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: الآية ٦٦]؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَمْرًا﴾ [الكهف: الآيات ٦٧ ـ ٦٩]؛ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت بهما سفينة فكلّموهم أن يحملوهم؛ فعرفوا الخَضِر فحملوهما بغير نَول؛ فلما ركبا في السفينة جاء عصفور[١] فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين[٢] فقال له الخَضِر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمُك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. «فأخذ الفأس فنزع لوحًا»[٣].

قال: فلم يَفجأ[٤] موسى إلّا وقد قلع لوحًا بالقدوم؛ فقال له موسى: ما صنعتَ؟ قومٌ حملونا بغير نَول عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتَها ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف: الآيات ٧١ - ٧٣]. وكانت الأولى من موسى نسيانًا. فلمّا خرجا من البحر مرّا بغلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخَضِر برأسه يقلعه بيدِه هكذا ـ وأومأ سفيانُ بأطراف أصابعه كأنّه يقطف شيئًا ـ قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾

(١) وردت قصة العصفور هذه في البخاري مؤخّرة عن هذا الموضع بقليل، أي بعد خرق السفينة.
(٢) لم يرد في البخاري قوله: «أو نقرتين» انظر القسطلاني ٧/٢٦١.
(٣) هذه العبارة التي بين قوسين لم ترد في تفسير البخاري أثناء هذا الحديث.
(٤) عبارة البخاري: لم يفجأ إلّا والخضر قد قلع لوحًا. الخ...

[الكهف: الآيات ٧٤ - ٧٧] مائلاً، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٧٧] ـ أومأ بيده هكذا وأشار سفيان كأنّه يمسح شيئًا إلى فوق ـ قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا عمدتَ إلى حائطهم، ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: الآيتان ٧٧، ٧٨]. قال النبيّ ﷺ: «وددنا أنّ موسى كان صبر فقصّ علينا من خبرهما».

قال سفيان: قال النبيّ ﷺ: «يرحم الله موسَى لو كان صبر لقصّ علينا من أمرهما».

وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: ﴿أمامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: الآيتان ٧٩، ٨٠].

ثم قال لي سفيان: سمعتُه منه مرّتين وحفظتُه منه.

هذا حديث البخاريّ عن عليّ بن عبد الله عن سفيان عن عمرو بن دينار(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب(٢)؛ وقصّتهما في كتاب الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآيات ٧٩ ـ ٨٢].

وحكى أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله في قصصه أنّ الخَضِر عليه السلام اسمُه بَلْيا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وروى حديثًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنما سمّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، وإذا هي تهتزّ تحته خضراء.

---

(١) هو عمرو بن دينار، أبو محمد، مكّي إمام، محدّث صدوق ثقة، قال الزهري: ما رأيت شيخًا أنصّ للحديث الجيد من هذا الشيخ، مات سنة ١٢٦ هـ عن ثمانين سنة «الكاشف ٢/ ٢٨٤».

(٢) هو أُبيّ بن كعب، بدري، سيّد القرّاء، وكاتب للوحي، وكان ممّن جمع القرآن مات بين ٢٠ و٣٣ هـ «الكاشف ١/ ٥٢».

ورُوِيَ عن مجاهد[١] قال: إنما سمّي الخضر لأنه حيثما صَلّى اخضرّ ما حوله.

قال الثعلبيّ: وكان الخضر في أيام أفريدون الملِك[٢] على قول عامّة أهل الكتب الأُوَل.

قال: وقيل إنه كان على مقدِّمة ذي القرنين[٣] الأكبر الذي كان في أيام إبراهيم عليه السلام وذلك في أيام مسِيره في البلاد، وأنه بلغ مع ذي القرنين نهرَ الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم ذو القرنين، فخُلِّد، وهو حيّ إلى الآن؛ والله أعلم.

وسنذكر إن شاء الله تعالى في السِّفر الذي يلي هذا السفرَ خبرَه في ظفره بماء الحياة في أخبار ذي القرنين.

ذكر خبر البقرة وقتلِ عاميل

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في تفسيره عن السّديّ وغيره: إن رجلًا كان في بني إسرائيل كان بارًّا بأبيه، وبلغ من برّه به أن رجلًا أتاه بلؤلؤة فابتاعها منه بخمسين ألفًا، وكان فيها فضل وربح؛ فقال له البائع: أعطني الثمن. فقال: إن أبي نائم، ومفتاح الصندوق تحت رأسه، فأمهلني حتى يستيقظ فأعطيك الثمن. فقال له البائع: أيقِظ أباك وأعطني المال. قال: ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرةَ آلاف وأنظِرني حتى ينتبه. فقال الرجل: أنا أعطيك عشرة آلاف إن أيقظتَ أباك وعجّلت النقد. فقال: أنا أزيدِك عشرين ألفًا إن انتظرتَ انتباهه. ففعل ولم يوقظ أباه؛ فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك، فدعا له وجزاه خيرًا، وقال له: أحسنتَ يا بنيّ، وهذه البقرة لك بما صنعت. وكانت بقيّة بقر كانت لهم.

قال: وقال ابن عبّاس ووهبٌ وغيرُهما: كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل، وكان له عجلة، فأتى بها إلى غَيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة

---

(١) هو مجاهد بن جبر، أبو الحجّاج المكّي، تابعي، مفسّر من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس «الكاشف ٣/١٠٦».

(٢) أفريدون الملك: يقال: إنّه التاسع من ولد جمشيد من الطبقة الأولى القيشداذية، وفي أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض وقسمها بين بنيه ومات «صبح الأعشى ٤/٤١٠».

(٣) ذو القرنين: منهم من يقول إنه أفريدون الملك السابق الذكر ومنهم من يقول إنّه الإسكندر المقدوني. . .

لابني حتى يكبر. ومات الرجل، فشبّت العجلة في الغيضة[١] وصارت عَوانًا[٢] وكانت تَهرُب من كلّ من رامها؛ فلما كبِر الابن ـ وكان برًّا بوالدته، وكان يقسم الليلَ ثلاثة أثلاث: يصلي ثلثًا، وينام ثلثًا، ويجلس عند رأس أمّه ثلثًا؛ فإذا أصبح انطلق واحتطب على ظهره، ويأتي به السوق فيبيعُه بما شاء الله، ثم يتصدق بثلثه، ويأكل ثلثه، ويعطي والدته ثلثه.

وحكى الكسائيّ عن وهب قال: كان في بني إسرائيل عبد صالح، فمات وترك امرأته حاملًا، فولدت غلامًا، فسمّته مِيشَى، فكبِر. وكان يحتطب من المواضع المباحة، وينفق على نفسه وأمه، وكان كثير العبادة؛ فلم يزل كذلك حتى كبِر وضعف وعجز عن الاحتطاب.

قالوا: فقالت له أمه: إن أباك ورّثك عجلة وذهب بها إلى غَيضةِ كذا واستودعها الله عزّ وجلّ فانطلِق إليها وادع إلٰه إبراهيم وإسحٰق ويعقوب أن يردّها عليك، وإنّ من علامتها أنك إذا نظرت إليها يخيّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ـ وكانت تسمّى المُذهَبة لحسنها وصُفرتها وصفاء لونها ـ فأتى الفتى إلى الغَيضة، فرآها ترعى، فصاح بها وقال: أعزم عليكِ بإلٰه إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب. فأقبلتْ تسعى حتى قامت بين يديه، فقبض على عنقها وقادها، فتكلّمتْ بإذن الله عزّ وجلّ وقالت: أيّها الفتى البارّ بوالدته، اركبني فإنّ ذلك أهوَن عليك. فقال: إنّ أمي لم تأمرني بذلك، ولكن قالت: خذ بعنقها. فقالت البقرة: وإلٰه بني إسرائيل لو ركبتَني ما كنتَ تقدر عليّ أبدًا، فانطلق فإنّك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلقَ معك لفعل، لبِرّك بوالدتك. فسار الفتى بها، فاستقبله عدوّ الله إبليس في صورة راع فقال: أيها الفتى، إني رجل من رعاة البقر، اشتقتُ إلى أهلي فأخذتُ ثورًا من ثيراني، فحملتُ عليه زادي ومتاعي، حتى إذا بلغتُ شطر الطريق ذهبت لأقضي حاجتي، فعدا الثورُ وسط الجبل وما قدرتُ عليه، وإني أخشى على نفسي الهَلَكة، فإن رأيتَ أن تحملني على بقرتك. فلم يفعل الفتى وقال له: اذهب فتوكّل على الله عزّ وجلّ فلو علم الله منك الصدق لبلّغك بلا زاد ولا راحلة. فقال له إبليس: إن شئتَ فبِعنيها بحكمك، وإن شئتَ فاحملني عليها وأعطيك عشرًا مثلها. فقال الفتى: إن أمّي لم تأمرني بذلك. فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يديه، فنفرت البقرة

(١) الغيضة: الموضع الكثير الشجر والماء.

(٢) العوان: نَصَفٌ قد ولدت بطنًا بعد بطن، وهي الوسط بين الكبيرة والصغيرة.

هاربةً في الفلاة، وغاب الراعي، فدعا الفتى باسم إلـه إبراهيم، فرجعت إليه وقالت: أيها الفتى البارُّ بوالدته، ألم تر إلى الطائر الذي طار، إنه إبليس عدوّ الله اختلسني، أما إنه لو ركبني ما قدرت عليّ أبدًا، فلمّا دعوتَ بإلـه إبراهيم جاء ملَك وانتزعني من يد إبليس وردّني إليك لبِرّك بأمّك وطاعتِك لها. فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالت له أمّه: إنك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنهار والقيامُ بالليل، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها. قال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير، ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي. فكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثةَ دنانير، فانطلق بها الفتى إلى السوق فبعث الله عزّ وجلّ ملَكًا ليرى في خَلْقه قدرته، وليَخبُر الفتى كيف برّه بوالدته، وكان الله تعالى به خبيرًا؛ فقال له الملَك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضا والدتي. فقال له الملَك: فأنا أعطيك ستة دنانيرَ ولا تستأمر[1] أمّك. فقال الفتى: لو أعطيتني وزنَها ذهبًا لم آخذه إلّا برضا أمّي. فردّها إلى أمّه، وأخبرها الخبر، فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضًا منّي فانطلق بها إلى السوق، وأتى الملَك، فقال: استأمرتَ والدتك؟ فقال الفتى: إنها أمرتني ألا أنقُصَها عن ستة دنانير على أن أستأمرها. فقال الملَك: فإني أعطيك اثني عشر دينارًا على ألّا تستأمرها. فأبى ورجع إلى أمّه فأخبرها بذلك؛ فقالت: إنّ ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملَك من الملائكة يأتيك في صورة آدميّ ليختبرك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ ففعل الفتى ذلك؛ فقال له الملَك: اذهب إلى أمّك فقل لها: أمسِكي هذه البقرة، فإن موسى بن عمران يشتريها منكم لقتيل يُقتل من بني إسرائيل، فلا تبيعوها إلّا بمِلءِ مَسْكِها[2] دنانير. فأمسَكوا البقرة، وقدّر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على برّه بأمّه؛ وذلك أنه وُجد قتيل في بني إسرائيل اسمه (عاميل) ولم يُدرَ قاتلُه.

واختلفوا في قاتله والسببِ في قتله؛ فقال عطاء والسدّيّ: كان في بني إسرائيل رجل كثير المال، وله ابن عم مسكين لا وارث له غيره، فلما أبطأ عليه موتُه قتَلَه ليرثَه.

قال: وقال بعضهم: كان تحت عاميلَ بنتُ عمّ له تُضرَب مثلًا في بني إسرائيل بالحسن والجمال، فقتله ابن عمّها لينكحها.

---

(١) استأمر: شاور وعمل برأيها وأمرها. (٢) المسك: الجلد، جمعه مسوك.

وقال الكلبيّ: قتله ابن أخيه لينكح ابنته، فلمّا قتله حمله من قريته إلى قرية أخرى وألقاه هناك.

وقيل: ألقاه بين قريتين.

وقال عكرمة[١]: كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابًا، لكل سِبْط[٢] منهم باب، فوُجِد قتيل على باب سِبْط، وجُرَّ إلى باب سِبْط آخر؛ فاختصم السِّبطان فيه.

وقال ابن سيرين: قتله القاتل ثم احتمله فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يطلب بثأره ودمه ويدّعيه عليه.

قالوا: فجاء أولياء القتيل إلى موسى عليه السلام وآتوه بأناس وادّعوا عليهم القتل، وسألوه القصاص؛ فسألهم موسى عن ذلك، فجحدوا، فاشتبه أمرُ القتل على موسى عليه السلام ووقع بينهم خلاف.

قال الكلبيّ: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة، فسألوا موسى عليه السلام أن يدعو الله ليبيّن لهم ذلك؛ فسأل موسى عليه السلام ربّه عزّ وجلّ؛ فأمرهم بذبح بقرة؛ فقال لهم موسى ما أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٧]، أي تستهزىء بنا حين نسألك عن القتيل وتأمرنا بذبح البقرة؛ وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه. قال موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي من المستهزئين بالمؤمنين؛ فلما علم القوم أنّ ذبح البقرة عزمٌ من الله عزّ وجل، سألوه الوصف، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨].

قال: ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم؛ وإنما كان تشديدهم تقديرًا من الله عزّ وجلّ وحكمة.

قال: ومعنى ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي سَلْ؛ وهكذا في مصحف عبد الله: «سل لنا ربّك يبيّن لنا ما هي وما سنّها». قال موسى: إنه ـ يعني الله عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿إِنَّهَا

---

(١) عكرمة: عو عكرمة أبو عبد الله المفسّر، مولى ابن عباس، وعنه أخذ الحديث، ثبت مات سنة ١٠٦ هـ وقيل: ١٠٧ هـ. «الكاشف ٢/ ٢٤١».

(٢) السّبط عند بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب.

بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨]: لا كبيرة ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨] أي نَصَفٌ بين السنَّين.

وقال الأخفش: العَوان التي نُتِجتْ مرارًا، وجمعه عُون. ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٨]: من ذبح البقرة، ولا تكرروا القول. ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٦٩].

قال ابن عبّاس: شديدة الصُفرة.

وقال قتادة وأبو العالية والربيع: صاف.

وقال سعيد بن جبير: صفراء القرنين والظِّلْف.

وقال الحسن: سوداء. والعرب تسمِّي الأسودَ أصفر.

وقال العتبيّ: غلط من قال: الصفراء هـٰهنا السوداء، لأنّ هذا غلط في نعوت البقرة، وإنما هو من نعوت الإبل، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادَها صُفرة.

وقال آخر: إنه لو أراد السواد لما أكّده بالفُقوع، لأنّ الفاقع: البالغ في الصفرة، كما يقال: أبيض يَقَق، وأسوَدُ حالِك، وأحمرُ قانىء، وأخضر ناضِر. ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها، ويعجبهم حسنها وصفاء لونها، لأنّ العين تسرّ وتُولَع بالنظر إلى الشيء الحسن.

وقال عليّ رضي الله عنه: مَن لبس نعلًا صفراءَ قلّ همّه. لأنّ الله تعالى يقول: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: الآيتان ٦٩، ٧٠] أسائمة أم عاملة؟ ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٠] أي إلى وصفها.

قال رسول الله ﷺ: «وأيم الله[1] لو لم يستثنوا لما بُيِّنتْ لهم آخِرَ الأبد». ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] أي مذلّلة للعمل. ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] أي تقلبها للزراعة، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] أي بريئة من العيوب.

(١) أَيم الله: للقسم، أصله: أيمُنُ الله، تقديره: أيمن الله قسمي.

وقال الحسن: مسلَّمة القوائم، ليس فيها أثر العمل. ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١]، قال عطاء: لا عيب فيها.

وقال قتادة: لا بياض فيها أصلًا.

وقال مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد.

وقال محمد بن كعب[١]: لا لون فيها يخالف معظم لونها. فلما قال هذا ﴿قَالُوا ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١]، أي بالوصف البيّن التامّ؛ فطلبوها فلم يجدوا كمال وصفها إلّا عند الفتى البارّ بوالدته؛ فاشتروها منه بملء مَسْكِها ذهبًا.

وقال السدّيّ: اشتروها بوزنها عشر مرّات ذهبًا.

وقيل: اشتروها بوزنها مرّة؛ قاله أبو عبيد.

وقيل: بوزنها مرّتين.

وقال الكسائيّ: إنهم أتوا إلى مِيشَى في بيع البقرة فقال: لا أبيعها إلّا بحضرة موسى. فرضوا بذلك، وأخرج البقرة إلى موسى، قال: بكم تبيعها؟ قال: المساومة بيني وبينك لا خير فيها، لا أبيعها إلّا بملء جلدها ذهبًا. فقال موسى لبني إسرائيل: ذلك لتشديدكم على أنفسكم فشدّد الله عليكم. فضمنوا له ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧١] من غلاء ثَمَنها.

وقال محمد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها.

وقال الكسائيّ: بوفاء المال؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٢]، يعني عاميل. ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٢]: اختلفتم، قاله ابن عبّاس ومجاهد.

وقال الضحّاك: اختصمتم.

وقال عبد العزيز بن يحيىٰ: شككتم.

وقال الربيع بن أنس[٢]: تدافعتم. وأصل الدَّرْء: الدفع، يعني ألقى هذا على هذا وهذا على ذاك، فدافع كلٌّ واحد عن نفسه لقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ

(١) محمد بن كعب: هو محمد بن كعب القرظي، محدّث حجّة ثقة توفي سنة ١٠٨ هـ وقيل: سنة ١١٦ هـ «الكاشف ٣/ ٨١».

(٢) هو الربيع بن أنس، بصريّ نزل خراسان، محدّث صدوق حُبس بمرو ثلاثين سنة توفي سنة ١٣٩ هـ «الكاشف ١/ ٢٣٤».

﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرّعد: الآية ٢٢]، أي يدفعون. قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٣] يعني القتيل ببعض البقرة.

واختلفوا في هذا البعض ما هو.

فقال ابن عباس: ضربوه بالعظم الّذي يلي الغُضْروف، وهو المقبل.

وقال الضحّاك: بلسانها.

قال الحسين بن الفضل[١]: وهذا أولى الأقوال، لأنّ المراد كان من إحياء القتيل كلامُه، واللسان آلته.

وقال سعيد بن جبير: بعَجْم ذَنَبها.

قال يمان بن زرياب: وهو أولى التأويلات بالصواب، لأنّ العُصعُص أساس البدن الَّذي رُكِّب عليه الخَلق، وأنّه أوّل ما يُخلَق، وآخِرُ ما يَبلي.

وقال مجاهد: بذَنَبها.

وقال عكرمة والكلبيّ: بفخذها الأيمن.

وقال السدّيّ: بالبَضعة الّتي بين كتفيها.

وقيل: بأذنها. ففعلوا ذلك، فقام القتيل ـ بإذن الله عزّ وجلّ ـ وأوداجه تَشخُب دمًا، وقال: قتلني فلان. ثم مات وسقط مكانه؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٣].

قال الكلبيّ: ثم قالوا بعد ذلك: «لم نقتله نحن» وأنكروا، فلم يكونوا قطّ أقسى قلبًا ولا أشدَّ تكذيبًا منهم لنبيّهم عند ذلك، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: الآية ٧٤].

قال الكلبيّ: يبست واشتدّت.

وقال أبو عبيدة[٢]: جفّت من الشدّة فلم تَلِن.

---

(١) هو الحسين بن الفضل بن عُمير البجلي، مفسّر معمّر، كان رأسًا في معاني القرآن أصله من الكوفة مات بنيسابور سنة ٢٨٢ هـ «الأعلام ٢/٢٥١».

(٢) أبو عبيدة: هو معمّر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، من أئمة العلم باللغة والأدب، قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وهو من حفّاظ الحديث، مات سنة ٢٠٩ هـ «الأعلام ٧/٢٧٢».

وقيل: غلظت.

وقيل: اشتدّت.

وقال الزّجاج[١]: تأويل القسوة ذهاب اللّين والرحمة والخشوع والخضوع.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: الآية ٧٤]، أي من بعد ظهور الدّلالات، فهي في غلظها وشدّتها ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: الآية ٧٤]، أي بل أشدّ قسوة.

ثم عدّد الله تعالى الحجارة وفضّلها على القلب القاسي، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤]، أي ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٧٤].

ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار

وهذا البيت ليس هو البيت المقدّس الموجود الآن، وإنما هو الذي تسميه اليهود: «قبة الزمان» ويزعمون أن ذلك نص التوراة، وكان من خبر هذه القصة ما رواه الثعلبيّ بإسناده عن وهب بن منبّه قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يتّخذ مسجدًا لجماعتهم، وبيتَ قدس للتوراة، وتابوتًا للسكينة وقبابًا للقربان، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان، وحبالها من أصواف تلك الذبائح؛ وعهد إليه ألا تغزل تلك الحبالَ حائض، ولا يدبغَ تلك الجلودَ جُنُب؛ وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عَمَد من نحاس، طول كلّ عمود منها أربعون ذراعًا، ويجعل فيها اثني عشر قسمًا مُشَرجًا[٢]، إذا نُقِضتْ صارت اثني عشر جزءًا. يَحمل كلّ جزء بما فيه من العمد سبط من الأسباط من بني إسرائيل؛ وأمره أن يجعل سعةَ ذلك السرادق سِتَّمائة ذراع، وأن ينصب فيه سبعَ قباب، ستُّ قباب منها مشبكةً بقضبان الذهب والفضة، كلّ واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طول كل عمود منها أربعون ذراعًا، وعليها أربعة دسوتِ ثياب، الباطن منها سندس أخضر، والثاني أُرجُوان

---

(١) الزّجّاج: هو إبراهيم بن السّري بن سهل، أبو إسحٰق، عالم بالنّحو واللغة ولد ومات في بغداد سنة ٣١١ هـ «الأعلام ١/ ٤٠».

(٢) المشرج: الذي دوخل بين عراه وضمّ بعضها إلى بعض.

أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من جلود القربان[١] وقايةً لها من المطر والغبار، وحبالها التي تُمدّ بها من صوف القربان، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعًا، وأن ينصب في جوفها موائد من فضّة مربّعةً مرصّعة يوضع عليها القربان، سعة كلّ مائدة منها أربع أذرع، كلّ مائدة منها على أربع قوائم من فضّة، طول كلّ قائمة ثلاث أذرع، لا ينال الرجل منها إلّا قائمًا؛ وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب، طوله سبعون ذراعًا، وأن يضعه على سبيكة من ذهب أحمرَ طولها تسعون ذراعًا، مرصّعةٍ بألوان الجواهر، وأن يجعل أسفله مشبَّكًا بقضبان الذهب والفضّة، وأن يجعل حباله التي يُمدّ بها من صوف القربان مصبوغةً بألوان من أحمر وأصفر وأخضر؛ وأن يُلبِسه سبعةً من الحُلَل، الباطن منها سندس أخضر، والثاني أرجوان أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من الحرير الأبيض، وسائرُها من الدِّيباج والوشي؛ والظاهر غاشيةٌ[٢] له من جلود القربان وقايةً له من الأذى والندى؛ وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعًا، وأن يفرش القباب بالقَزّ[٣] الأحمر؛ وأمره أن ينصب فيه تابوتًا من ذهب كتابوت الميثاق، مرصّعًا بأنواع الجواهر والياقوت والزمرد الأخضر، وقوائمه من الذهب، وأن يجعل سعته سبع أذرع في أربع أذرع، وعلوّهُ قامةَ موسى عليه السلام، وأن يجعل له أربعة أبواب: باب تدخل منه الملائكة، وباب يدخل منه موسى، وباب يدخل منه هارون، وباب يدخل منه أولاد هارون، وهم سَدَنة[٤] ذلك البيت وخُزّان[٥] التابوت، وأمر الله نبيّه موسى أن يأخذ من كلّ محتلم من بني إسرائيل مثقالًا من الذهب فينفقه على هذا البيت، وأن يجعل باقيَ المال الذي يحتاج إليه في ذلك من الحلي والحلل التي ورِثها موسى وأصحابه من فرعون وأصحابه؛ ففعل موسى ذلك، فبلغ عدد رجال بني إسرائيل ستمائة ألف وسبعَمائة وخمسين رجلًا فأخذ منهم ذلك المال.

وأوحى الله تعالى إليه أني منزّل عليك من السماء نارًا لا دخان لها ولا تُحرِق شيئًا، ولا تنطفىء أبدًا، لتأكل القرابين المتقبَّلة، وتُسرَج منها القناديلُ الّتي في بيت المقدس، وكانت من ذهب معلّقةً بسلاسلَ من ذهب، منظومةً باليواقيت واللآلىء وأنواع الجواهر؛ وأمره أن يضع في وسط البيت صخرة عظيمة من الرّخام، وينقرَ فيها

(١) القربان: أي ما يذبح قربانًا لله تعالى. (٢) الغاشية: الغطاء.
(٣) القزّ: الحرير.
(٤) السدنة: الذين يقومون على خدمة البيت المقدّس.
(٥) الخُزّان: الحافظون له.

نُقرةً لتكون كانونَ تلك النار التي يُنزَل بها من السماء؛ فدعا موسى أخاه هارون وقال له: إن الله تعالى قد اصطفاني بنار يُنزِلها من السماء لتأكل القرابين المقبولة ولتُسرَج[1] منها القناديل، وأوصاني بها، وإني قد اصطفيتك لها وأوصيتك بها. فدعا هارون ابنيه وقال لهما: إن الله تعالى قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به، وإنه قد اصطفاني له وأوصاني به، وإني قد اصطفيتكما وأوصيتكما به. وكان أولاد هارون هم الذين يلون سِدانة بيت المقدس وأمرَ القربان والنيران؛ فشربا ذات ليلة ثم ثَمِلا، ثم دخلا البيت وأسرجا القناديل من هذه النار التي في الدنيا، فغضب الله عليهما، وسلّط عليهما تلك النار حتى أحرقتهما، وموسى وهارون يدفعان عنهما النار ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحْريم: الآية ١٠] فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: هكذا أفعل بمن عصاني ممّن يعرفني، فكيف أفعل بمن لا يعرفني، والله أعلم.

ذكر ما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المَائدة: الآية ٢٠].

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ: اختلفوا في معنى الملوك؛ فروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وامرأة فهو ملِك».

وقال أبو عبد الرحمٰن الحُبُليّ: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ ـ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: وإنّ لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك.

وقال الضحّاك: كانت منازلهم واسعة، فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه واسعًا وفيه ماء جارٍ فهو ملِك.

وقال قتادة: وكانوا أوّل من مَلَكَ الخَدَم، وأوّل من سُخّر لهم الخدم من بني آدم.

(١) تسرج: توقد.

وقال السدّيّ[١]: يعني وجعلكم أحرارًا تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط بمنزلة أهل الجزية، فأخرجكم الله تعالى من ذلك الذلّ.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٠]، يعني من عالَم زمانكم.

وقال مجاهد: يعني المنّ[٢] والسلوى[٣] والحجر والغمام.

قال: ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدّسة ويجاهد الجبّارين؛ فأخرجهم موسى عليه السلام لذلك، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: الآية ٢١].

قال الثعلبيّ: اختلفوا في الأرض المقدّسة ما هي.

فقال مجاهد: هي الطُور وما حوله.

وقال الضحاك: هي إيلياء وبيت المقدس.

وقال عكرمة والسدّيّ وابن يزيد[٤]: هي أريحا.

وقال الكلبيّ: دمشق وفلسطين وبعض الأرْدُنّ.

وقال قتادة: الشأم كلّه.

قال الكسائي: فلمّا أخبرهم موسى بذلك قالوا: يا موسى إنّك قلت لنا حين أخرجتَنا من مصر: إن الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون، والآن فإنك تحملنا على ما هو أشقّ منه، وبيننا وبين الأض المقدَّسة المَفاوزُ[٥] والقفار، وكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، قل لهم: إني منزِّل عليهم المنّ والسلوى، وقد أمرت الحجر أن يتفجّر لهم بالماء العذب، وأمرت الغمام أن

(١) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن السّدي، نسبة إلى سدّة، مسجد بالكوفة، كان يبيع بها المقانع جمع قناع، محدّث حسن الحديث توفي سنة ١٢٧ هـ «الكاشف ١/ ٧٥».

(٢) المنّ: ندىً ينعقد على شجر عسلًا ويجفّ جفاف الصّمغ، أو ما أنزله الله على بني إسرائيل بأعجوبة في التّيه ليقتاتوا به...

(٣) السّلوى: طائر أبيض يشبه السمَّاني... وهو ما أنزل على إسرائيل في التّيه.

(٤) ابن يزيد: لعلّه عبيد الله بن يزيد الطائفي، محدّث ثقة، حدّث عن ابن عباس، «الكاشف ٢/ ٢٠٦».

(٥) المفاوز: مفردها «المفازة» وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وسمّيت «مفازة» على سبيل التفاؤل بالنجاة...

يظلّهم ويسير معهم حيث ساروا؛ وألا تنقب[١] خِفافُهم ونعالُهم؛ وأمرت ثيابَهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم.

فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم، وساروا نحو الأرض المقدّسة والغمام يظلّهم في مسيرهم، والسماء تمطر عليهم بالمنّ، والريحُ بالسلوى، ويجدون كلّ ما يحتاجون إليه، ويضيء لهم بالليل عمود من النور، وتهبّ الريح على السلوى فتَمَعَط ريشها فيطبخونها بغير تعب؛ ويقرع موسى عليه السلام الحجر فتتفجّر لهم اثنتا عشرة عينًا، تجري كلّ عين إلى سبط من الأسباط؛ وثيابهم جدد بيض لا تَخلُق، وهم في خفض[٢] ودعة.

وقال أبو إسحٰق الثعلبيّ، كان ما أنعم الله تعالى به عليهم أنهم قالوا لموسى في التّيه: أهلكتَنا وأخرجتَنا من العمران إلى مَفاوزَ لا ظلّ فيها. فأنزل الله تعالى عليهم غمامةً بيضاء رقيقةً ليست بغمام المطر أرقّ وأطيب وأبرد، فأظلّتهم وكانت تسير معهم إذا ساروا، وتدور عليهم من فوقهم إذا داروا؛ وجعل لهم عمودًا من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر؛ فقالوا: هذا الظلّ والنور قد حصلا، فأين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ.

واختلفوا فيه؛ فقال مجاهد: هو شيء كالصمغ يقع على الأشجار، وطعمه كالشُّهْد.

وقال الضحّاك[٣]: هو الطَّرَنْجبين.

وقال وهب: الخبز الرُّقاق.

وقال السدّيّ: عسل كان يقع في السَّحَر من الليل فيأكلون منه.

وقال عكرمة: أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ عليهم مِثلَ الزيت الغليظ.

وقيل: هو الزنجبيل.

وقال الزجّاج: جملة المنّ: ما يمنّ الله عزّ وجلّ به ممّا لا تعب فيه ولا نصب[٤].

---

(١) تنقب الخفاف: تخرق. (٢) الخفض من العيش: السهل المتسع.

(٣) كذا في تاريخ العيني، والذي في الأصول «مجاهد» وهو تبديل من الناسخ فإن مجاهد هو صاحب القول السابق.

(٤) النصب: التعب.

فكان ينزل عليهم كلّ ليلة ويقع على أشجارهم مِثلَ الثلج، لكلّ إنسان منهم صاع كلّ ليلة؛ فقالوا: يا موسى، قتلَنا هذا المنُّ بحلاوته، فادع لنا ربَّك أن يُطعِمنا اللحم. فدعا موسى عليه السلام، فأنزل الله - عزّ وجلّ - عليهم السَّلْوَى.

قالوا: واختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وأكثر المفسِّرين: هو طائر يشبه السُّمَانَى.

وقال أبو العالية ومقاتل: بعث الله - عزّ وجلّ - السحابة فمطرت السُّمَانَى في عرض مِيل وقدرِ طولِ رمح في السماء بعضه على بعض.

وقال عكرمة: طير يكون بالهند أكبر من العصفور.

فكان يأخذ كلُّ واحد منهم ما يكفيه يومًا وليلة من المنّ والسلوى، فإذا كان يوم الجمعة أخذوا ما يكفيهم عن يومين، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٥٧] ولا تدّخروا لغد. فجنَوا لغد فقطع الله ذلك عنهم، ودوّد وفسد ما ادّخروا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: الآية ٥٧] معناه وما ضرّونا بالمعصية، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥٧] روى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: لولا بنو اسرائيل لم يخنز[١] الطعام، ولم يخبث[٢] اللحم، ولولا حوّاء لم تخن أُنثى زوجها.

ثم قالوا: يا موسى، من أين لنا الشراب؟ فاستسقى لهم موسى؛ فأوحى الله تعالى إليه: أنِ اضرب بعصاك الحجر.

قال الثعلبيّ: واختلف العلماء في الحجر؛ فقال وهب: كان موسى - عليه السلام - يقرع لهم أقربَ حجر من عرض الحجارة فيتفجّر عيونًا، لكلّ سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطًا، ثم تسيل كلّ عين في جدول إلى سبط؛ فقالوا: إن فَقَدَ موسى عصاه مِتنا عطشًا. فأوحى الله تعالى إليه: لا تقرعنّ الحجارة بالعصا ولكن كلِّمها تُطِعك لعلّهم يعتبرون. فكان يفعل ذلك. فقالوا: كيف بنا لو مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التي ليس فيها حجارة؟ فأمر موسى فحمَل معه حجرًا، فحيثما نزل ألقاه.

---

(١) خنز الطعام واللبن: فسد وأنتن. (٢) خبث: فسُد.

وقال آخرون: كان حجرًا مخصوصًا بعينه، والدليل عليه قوله: «الحجر» فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص؛ وأمر أن يحمله، فكان موسى عليه السلام يضعه في مخلاته، وإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه وسقاهم.

وقال أبو روق[١]: كان الحجر من الغضار[٢]، وكان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة ماء عذب، فيأخذونه، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه؛ فيذهب الماء؛ فكان كلّ يوم يستقي منه ستّمائة ألف.

وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه لغسله ففرّ بثوبه؛ فلما وقف أتاه جبريل فقال: يا موسى، إن الله تعالى يقول لك: ارفع هذا الحجر فإنّ لي فيه قدرة، ولك فيه معجزة.

وقد تقدّم ذكر خبر الحجر.

وورد أيضًا في صحيح البخاريّ نحو ما تقدّم.

قال أبو إسحٰق الثعلبيّ: وكان مما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى عليه السلام: من أين لنا اللباس؟ فخلّد الله تعالى ثيابهم التي عليهم حتى إنها لا تزيد على الأيام ومرورِها إلّا جِدّة وطراوة، ولا تَخلُق ولا تَبلَى، وتنمو على صبيانهم كما ينمون.

قال: ثم سئم بنو إسرائيل المنّ والسلوى، فقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١].

واختلف في الفُوم ما هو؟ فقال ابن عبّاس: هو الخبز، تقول العرب: «فَوِّمُوا لنا»، أي اختبِزوا.

وقال عطاء وأبو مالك: هو الحنطة، وهي لغة قديمة.

وقال العتبيّ: هو الحبوب كلّها.

وقال الكلبيّ والنضر بن شميل[٣] والكسائيّ والمؤرّج[٤]: هو الثُّوم.

---

(١) أبو روق: هو عطية بن الحارث، أبو روق الهمداني، محدّث صدوق «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

(٢) الغضار: الطين اللزج الأخضر الذي لا رمل فيه.

(٣) هو النّظر بن شميل المازني التميمي، أبو الحسن، أحد الأعلام بمعرفة أيّام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة، له تصانيف كثيرة، توفي بمرو سنة ١١٢ هـ «الأعلام ٨/ ٣٣».

(٤) هو مؤرّج بن عمرو بن الحارث السّدوسي، عالم بالعربية والأنساب من أهل البصرة، له مؤلّفات=

فقال لهم موسى عند ذلك: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٦١].

قالوا: مصرًا من الأمصار، ولذلك نوّنه؛ ولو أراد مصر بعينها لقال: «مصر» ولم يصرفه، كقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩].

وقال الضحّاك: هي مصر فرعون.

واليهود يزعمون أنّ موسى عليه السلام وبني إسرائيل حُرّم عليهم بنصّ التوراة الدخولُ إلى مصر حين خرجوا منها عند اتباع فرعون لهم وغرقِه، وأنهم لم يدخلوها بعد ذلك. والله أعلم.

ولنرجع إلى أخبار النقباء وقتال الجبّارِين.

ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا وقصّة عُوج بن عُوق[1] وخبرِ التِّيه

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المَائدة: الآية ١٢].

قال الثعلبيّ: وذلك أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام أن يورِّثه وقَوْمَه الأرض المقدّسة، وهي الشأم. وكان يسكنها الكنعانيّون الجبّارون ووعدهم أن يهلكهم ويجعل أرض الشأم مسكن بني إسرائيل؛ فلمّا استقرّت ببني إسرائيل الدارُ بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا.

«هكذا قال الثعلبيّ: بمصر»[2].

واليهود تنكر ذلك، ويقولون: إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجّى موسى وبني إسرائيل، تنقلوا من مكان إلى آخر. ويذكرون أسماء الأماكن بالعبرانية ـ وليست تعرف الآن ـ وكان في خلال مسيرهم خبر التيه، وكلّ ما تقدّم ذكره من الأخبار يزعمون أنه في التيه؛ والله أعلم.

نعود إلى سياق الثعلبي.

= عديدة منها «غريب القرآن، وكتاب الأمثال، والمعاني، مات سنة ١٩٥ هـ «الأعلام ٧/ ٣١٨».

(١) كذا في القاموس وشرحه، وفي الأصل: عوج بن عنق.

(٢) تُشعِر هذه العبارة التي بين قوسين بأنّ قوله: «بمصر» محل نظر.

قال: فأمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا وأرض الشأم، وهي الأرض المقدَّسة وقال: يا موسى، إني قد كتبتها لكم دارًا وقرارًا، فاخرج إليها وجاهِد من فيها من العدوّ، فإني ناصركم عليهم، وخذ من قومك اثني عشر نقيبًا، من كل سبط نقيبًا يكون كفيلًا على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به.

فاختار موسى عليه السلام النقباء.

قال: وهذه أسماؤهم؛ «من سبط روبيل شامل بن زكور. ومن سبط شَمعون سافاط بن حري. ومن سبط يهوذا كالَب بن يوقَنا. ومن سبط أبين حامل بن بكر بن سورا. ومن سبط يوسف وهو سبط افرايم يوشع بن نون. ومن سبط بنيامين قلطم بن رقوق. ومن سبط زبولون خدي بن سوري. ومن سبط يوسف وهو سبط منشي بن يوسف جديّ بن سوشي. ومن سبط أشير شيانون بن ملكيل. ومن سبط نفتالي حنا بن وقشي. ومن سبط دان جملائيل بن حمل. ومن سبط لاوي حولي بن مليكا»(١).

قال: فسار موسى ببني إسرائيل حتى إذا دنَوا من أرض كنعان ـ وهي أريحا ـ بعث هؤلاء النقباءَ إليها يتجسّسون له الأخبار ويعلمون علمها؛ فلقيهم رجل من الجبّارِين يقال له: عُوج بن عُوق، وكان طوله ثلاثةَ آلاف وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثًا وثلاثين ذراعًا.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: وكان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها، ثم يأكله. ويُروى أنه أتى نوحًا عليه السلام يوم الطُّوفان فقال له: احملني معك في السفينة. فقال له: اذهب يا عدوّ الله فإني لم أومَر بك؛ وطبّق الماء ما على وجه الأرض من سهل وجبل فما جاوز ركبتي عُوج.

وعاش عُوج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدي موسى.

قال: وكان لموسى عسكر فرسخ في فرسخ، فجاء عُوج حتى نظر إليهم، ثم جاء إلى الجبل وقوّر منه صخرة على قدر العسكر، ثم حملها ليُطبقها على العسكر، فبعث الله عليه الهدهد ومعه الطيور، وجعلت تنقر بمناقيرها حتى قوّرت الصخرة وانثقبتْ حتى وقعت في عنق عُوج، فطوّقْته وصرعتْه، فأقبل موسى وطوله عشرُ أذرع

(١) هذه الأسماء وردت في التوراة ص ٢١٤ مخالفة تمامًا لما هنا، كذلك وردت في تاريخ العيني مخالفة بعض الشيء لما ذكره المؤلّف.

وطول عصاه عشرُ أذرع، ونزا[١] في السماء عشرَ أذرع، فما أصاب إلّا كعبَه وهو مصروع بالأرض، فقتله.

قالوا: وأقبلتْ جماعة كثيرة ومعهم الخناجر حتى خرّوا رأسه؛ فلما قُتل وقع على نيل مصر فسَكره[٢] سنة.

قالوا: وكانت أمّ عُوج يقال لها: عناق، وهي إحدى بنات آدم لصلبه.

ويقال: إنها كانت أوّل من بغتْ على وجه الأرض، وكان كلّ إصبع من أصابعها ثلاثَ أذرع في ذراعين، في كلّ إصبع ظُفران حادّان مثل المِنجَلين، وكان موضع مقعدها جَريب[٣] من الأرض، فلمّا بغتْ بعث الله تعالى إليها أسودًا كالفِيَلة وذئابًا كالإبل، ونسورًا كالحُمُر[٤]، وسلّطها عليها فقتلوها وأكلوها.

قالوا: فلمّا لقي عُوج النقباء لقيهم وعلى رأسه حُزمة حطب، فأخذهم وجعلهم في حُزمتِه، وانطلق بهم إلى امرأته، وقال: انظري إلى هؤلاء الّذين يريدون قتالنا. فطرحهم بين يديها وقال: ألا أطحنهم برجلي؟ قالت امرأته: لا، بل خلّ عنهم حتى يُخبِروا قومهم بما رأوا. ففعل؛ وجعلوا يتعرّفون أحوالهم.

وكان لا يحمل عنقودَ عنهم إلّا خمسة أنفس بينهم في خَيْشة، ويدخل في قشر شطر الرمّانة إذا نُزِعَ حبُّها خمسة أنفس.

قال: فلمّا خرج النقباء قال بعضهم لبعض: يا قوم إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم ارتدّوا عن نبيّ الله، ولكن اكتموا وأخبروا موسى وهارون فيكونا هما يَريان رأيهما. فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك؛ ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وجاؤوا بحبّة من عنبهم وِقْر[٥] رجل، ثم إنهم نكثوا العهد، وجعل كلُّ واحد منهم يَنهى سبطه عن قتالهم، ويخبرهم بما رأى، إلّا يوشع وكالَب.

قال: فلمّا سمع القوم ذلك من النقباء رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا متنا في أرض مصر، وليتنا نموت في هذه البرّيّة ولا يدخلنا الله أرضهم، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمةً لهم.

---

(١) نزا: وثب. (٢) سكّره: سدّه.
(٣) الجريب: مكيال، أو مساحة.
(٤) الحُمُر: جمع حمار، والحُمر من الإبل: الأكثر صبرًا.
(٥) الوقر: الحمل.

وجعل الرجل يقول لأصحابه: تعالَوا نجعل علينا رأسًا وننصرف إلى مصر؛ فذلك قوله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٢].

فلما قالوا ذلك وهمّوا بالانصراف إلى مصر، خرّ موسى وهارون عليهما السلام سجّدًا، وخرق يوشع وكالب ثيابهما، وهما اللّذان أخبر الله تعالى عنهما بقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: الآية ٢٣]، أي يخافون الله.

وقرأ سعيد بن جبير (يخافون) بضم الياء.

قال: كانا من الجبّارين، فأسلما واتبعا موسى. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣]، لأن الله تعالى منجز وعده، وإنا أتيناهم فكانت أجسامهم عظيمة قويّة، وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣] فأراد بنو إسرائيل أن يرجموها بالحجارة، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٤].

فلما قالوا ذلك غضب موسى وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٥]. وكانت عجلةً عجلها موسى عليه السلام فظهر الغمام على قبّة الزمان، وأوحى الله تعالى إلى موسى: إلى متى يعصيني هذا الشعب، وإلى متى لا يصدّقون بالآيات؟ لأقتلنهم جميعًا، ولأجعلنّ بدلهم شَعبًا أشدَّ وأكثرَ منهم.

قال موسى: إلـٰهي لو أنّك قتلت هذا الشعب كلّه كرجل واحد قالت الأمم الذين سمعوا: إنّما قتل هذا الشعبَ من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدّسة، فقتلهم في البَريّة، وإنك طويلٌ صبرُك، كثيرةٌ نِعَمُك، وأنت تغفر الذنوب، وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء، فاغفر لهم ولا توبقهم(١).

فقال الله تعالى: قد غفرت لهم بكلمتك، ولكن بعدما سمّيتَهم فاسقين ودعوتَ عليهم، لأحرّمنّ عليهم دخول الأرض المقدّسة غيرَ عبديّ يوشع وكالَب ولأُتيهنّهم في هذه البرّيّة أربعين سنة، ولتُلقَيَنّ جِيَفُهم في هذه القِفار؛ وأمّا بنوهم الّذين لم يعملوا الخير والشرّ فإنهم يدخلون الأرض المقدّسة، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ

(١) توبقهم: تهلكهم.

عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المَائدة: الآية ٢٦] في ستّة فراسخ، يسيرون كلَّ يوم جادِّين، حتى إذا سئموا وأمسوا، فإذا هم في الموضع الّذي ارتحلوا منه وكانوا سِتَّمائة ألف مقاتل، مات النقباء العشرة الّذين أفشَوا الخبر بغتة، وكلّ من دخل التيه ممّن جاوز عشرين سنة مات في التّيه غيرَ يوشع وكالب، ولم يدخل أريحا أحد ممن قال: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ [المَائدة: الآية ٢٤].

فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة، ونشأت النواشيء من ذراريّهم، ساروا إلى حرب الجبّارين، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٦] والله المعين.

ذكر مسير موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل لحرب الجبّارِين ودخولهم القرية

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٨].

اختلف المفسّرون في القرية.

قال ابن عبّاس: هي أريحا، وهي قرية الجَبارِين، وكان فيها بقيّة من عاد يقال لهم: العمالقة.

وقيل: هي بلقاء[١].

وقال ابن كيسان[٢]: هي الشأم.

وقال الضحّاك: الرملة والأرْدُنُ وفلسطين وتَدْمُر.

وقال مجاهد: بيت المقدس.

وقال مقاتل: إيلياء[٣]. وقوله: رَغَدًا. أي موسَّعًا عليكم.

والباب: باب من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب.

---

(١) البلقاء: سمّيت بالبلقاء بن سوريّة من بني عَمّان بن لوط وهو الذي بناها، وهي إحدى كور الشّراة، وهي عن أريحا في جهة الشرق على مرحلة. انظر «صبح الأعشى ٤/ ١١٠».

(٢) هو صالح بن كيسان المدني، محدّث ثقة، جامع للفقه والحديث والمروءة «الكاشف ٢/ ٢١».

(٣) إيلياء: هي بيت المقدس «صبح الأعشى ٥/ ٢٢٨».

وقال مجاهد: هو باب في بيت المقدس يُعرَف إلى اليوم بباب حِطّة.

وقيل: هو باب القبّة الّتي كان موسى يصلّي إليها.

وعن مجاهد أيضًا: أنه باب في الجبل الّذي كلّم الله تعالى عليه موسى كالفُرضة[١].

وقوله: سُجَّدًا، أي منحنين متواضعين.

وقال وهب: قيل لهم: ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله عزّ وجلّ، وذلك أنّ موسى عليه السلام لما انقضت مدّة التّيه سار بالأبناء إلى القرية ودخلها، ودخل المؤمنون سجّدًا كما أمرهم الله تعالى. وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٨]؛ قال قتادة: حُطّت عنّا خطايانا، أمِروا بالاستغفار.

قال ابن عبّاس: يعني لا إلـٰه إلا الله، لأنها تحطّ الذنوب.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٩].

قال مجاهد: طُؤطِيء[٢] لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم يسجدوا، ودخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا قولًا غير الذي قيل لهم، وذلك أنهم أمروا أن يقولوا: حِطّة؛ فقالوا: (هطا سمعاثا)، يعنون حنطةً سمراء استخفافًا بأمر الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا[٣] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٥٩]، وذلك أنّ الله تعالى أرسل عليهم ظُلمة وطاعونًا، فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفًا.

قال الكسائيّ[٤]: وغلب موسى على مدينة أريحا، وهرب من كان بها من الجبّارِين.

وقيل: إنما دخل موسى الآن أرضَ كنعان، وإن مدينة أريحا فتحها يوشع بن نون بعد وفاة موسى عليه السلام على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار يوشع.

---

(١) الفرضة: الخشبة التي يدور عليها الباب، والفرضة محطّ السفن من البحر.

(٢) طوطىء: من طأطأ: أي خفض وانحنى. (٣) الرّجز: العذاب.

(٤) الكسائي: هو علي بن حمزة الكسائي، أبو الحسن، إمام في اللغة والنحو القراءة، له تصانيف كثيرة، منها: معاني القرآن، والقراءات، والمتشابه في القرآن، مات سنة ١٨٩ هـ «الأعلام ٤/ ٢٨٣».

ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بَلْعَم بن باعُورا وما يتّصل بذلك

قالوا: ولمّا دخل موسى ببني إسرائيل أرضَ كنعان، سار منها يريد مدينة بلقاء.

قال مقاتل: سمّيت بلقاء لأنّ ملكها كان يقال له: بالق، وكان بها بَلْعَمَ بن باعورا، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] الآيات.

وقيل: نزلت الآيات في غيره ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخرَ القصّة ـ.

واختُلِف أيضًا في اسمه ونسبه.

فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو بَلْعَم بنُ باعُورا.

وقال ابن مسعود[١] ـ رضي الله عنه ـ: بلعم بن إبر.

وقال مجاهد: بلعم بن باعر.

وقال الثعلبيّ: قال أكثر المفسّرين: هو بِلعام بن باعورا بن أيدن بن مَأرب بن لوط، وكان من الكنعانيّين.

وقال عطية عن ابن عبّاس: هو من بني إسرائيل.

وقال علي بن أبي طلحة[٢] عنه: هو من الكنعانيّين من مدينة الجبّارِين.

وقال مقاتل: هو من مدينة بلقاء.

قالوا: فلمّا أقبل موسى ببني إسرائيل إلى مدينة بلقاء، كان أهلها يعبدون الأصنام، فلمّا بلغ الملِكَ مسيرُ موسى عليه السلام إليه استشار أكابرَ دولته؛ فقالوا له: إنّ فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأنت أولى ألّا تطيقه، غير أنّ هٰهنا رجلًا يعرف ببَلْعام مجابَ الدعوة، التمِس منه أن يدعو عليهم ليكفيك ربّك أمرَ موسى. فبعث الملكُ إليه وأحضره وتحدّث معه في أمر موسى؛ فقال: حتى أستأذن ربّي. ودخل بلعم مصلّاه واستأذن في الخروج، فَأوحى إليه أن هذا العسكر هم بنو إسرائيل،

(١) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمٰن الهذلي، من السّابقين الأوّلين، محدّث ثقة، مات بالمدينة سنة ٣٢ هـ «الكاشف ٢/١١٦».

(٢) هو علي بن أبي طلحة، مولى آل العباس، محدّث، مات سنة ١٤٣ هـ «الكاشف ٢/٢٥٠».

وعليهم موسى رسولي، ولا تخرج إليهم. فقال بلعم لرسل الملك: إنّ ربي قد منعني من ذلك، فانصرفوا وعرّفوا الملِك.

وكان لبلعم امرأة، فأهدَى لها الملكُ هديّة نفيسة، وسألها أن تكلّم زوجها في التوجّه مع الملك؛ فسألته؛ فقال: قد استأذنتُ ربّي فنهاني. فلم تزل به حتى استأذن الله ثانيًا؛ فأوحى الله إليه: أني نهيتك عن ذلك، والآن قد جعلتُ الأمر إليك. فطابت نفسه بالخروج مع الملِك. حكاه الكسائيّ.

وقال الثعلبيّ في تفسيره، وعزاه إلى ابن عباس وابن إسحٰق والسدّيّ وغيرِهم: إن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبّارِين ونزل أرض كنعانَ من أرض الشأم، أتى قومُ بَلْعام ـ وكان عنده اسم الله الأعظم ـ فقالوا: إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويُحِلُّها بني إسرائيل، وإنّا قومك وبنو عمّك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج وادع الله أن يردّ عنّا موسى وقومَه. فقال: ويلكم، هو نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! وإني إن فعلتُ ذلك ذهبت دنياي وآخرتي. فراجعوه في ذلك، فقال: حتى أؤامر ربّي. ـ وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمَر به في المنام ـ فآمَرَ في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تدعُ عليهم. فقال لقومه: إني قد نُهيت عن الدعاء عليهم. فأهدَوا إليه هديّة فقبلها، ثم راجعوه في الدعاء عليهم، فقال: حتى أؤامر[١]. فآمر فلم يجرِ إليه شيء فقال: قد آمرت فلم يجر إليّ شيء. فقالوا: لو كره ربُّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى. فلم يزالوا به يرققونه ويتضرّعون إليه حتى فتنوه فافتتن؛ فركب أتانًا له متوجهًا إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له: (حَبَّان)؛ فلما سار عليها غير كثير ربَضتْ[٢]، فنزل عنها فضربها، حتى إذا آلمها قامت، فركبها فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت، فنزل عنها وضربها حتى إذا آلمها أُذِن لها بالكلام، فتكلّمتْ حجّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ ألا ترى الملائكة أمامي يردّونني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها؛ فخلّى الله سبيلها؛ فانطلقت حتى إذا أشرفتْ به على جبل (حَبّان) جعل يدعو عليهم، فلا يدعو بشرّ إلا صُرف به لسانُه إلى قومه؛ ولا يدعو لقومه بخير إلّا صُرِف لسانُه إلى بني إسرائيل؛ فقال قومه: يا بَلْعَم أتدري ما تصنع؟ إنما تدعو لهم

(١) أؤامر: أشاور في الأمر. (٢) ربضت: أناخت.

وتدعو علينا. قال: فهذا ما لا أملك. واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلّا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمِّلوا النساء وزيّنوهنّ وأعطوهنْ السِّلَع، ثم أرسلوهنّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجلٍ أرادها؛ فإنّهم إن زنى منهم رجل واحد كُفيتموهم. ففعلوا؛ فلما دخل النساء العسكرَ مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها كُسْتى بنت صعور برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له: زمزى بن شلوم رأس سبط شَمْعون بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليهم السلام فقام إليها فأخذ بيدها حتى أعجبه جمالُها؛ ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له: إني أظنك ستقول: هذه حرام عليك. قال موسى: أجل، هي حرام عليك، لا تقرَبها. قال: فوالله لا نطيعك في هذا. ثم دخل بها قبّته فوقع عليها فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل في الوقت؛ وكان فنحاص بن العَيزار بن هارون صاحب أمر موسى رجلًا قد أعطِيَ بَسْطة(١) في الخَلْق وقوّة في البطش وكان غائبًا حين صنع زمزى بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعونُ يجوس(٢) في بني إسرائيل فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت كلّها من حديد، ثم دخل عليهما القبّة وهما مضطجعان فنظمهما(٣) بحربته، ثم خرج بهما رافعًا حربته إلى السماء قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لبته ـ وكان بِكَر العيزار ـ وجعل يقول: اللهمّ هكذا تفعل بمن يعصيك؛ ورُفع الطاعون، فحُسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون ـ فيما بين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص ـ فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفًا في ساعة واحدة من النهار.

قال: فمن هناك يُعطِي بنو إسرائيل ولَد فنحاص من كلّ ذبيحة ذبحوها الخاصرة(٤) والذراع واللَّبَّة(٥)، لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبِكَر من كل أموالهم وأنفسهم، لأنه كان بِكَر العَيزار بن هارون.

---

(١) البسطة: الزيادة والقوّة.

(٢) يجوس: من جاس جوسًا وجوسانًا خلال الدّيار: دار فيها وتردّد بينها بالإفساد والهلاك...

(٣) نظمهما: سلكهما في سلكٍ واحد.

(٤) في الأصول: «القبّة» والتصويب عن قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٨٢ «المطبعة البهيّة».

(٥) واللبة أعلى الصدر حيث تقع القلادة أو نقول هي الزوْر وهو ما ارتفع من الصدر إلى الكتفين.

قال الثعلبيّ أيضًا: وقال مقاتل: إن ملك البَلْقاء قال لبلعام: ادع الله على موسى. فقال: إنه من أهل ديني فلا أدعو عليه. فنحت الملكُ خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعوَ عليه، فلما عاين عسكَرهم قامت به الأتان أي وقفت، فضربها، فقالت: لِمَ تضربني وأنا مأمورة؟ فلا تظلمني، وهذه نارٌ أمامي قد منعتْني أن أمشيَ. فرجع فأخبر الملك؛ فقال: لتدعونّ عليه أو لأصلّبنّك. فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألّا يدخل المدينة، فاستُجيب له، ووقع موسى في التِّيه بدعائه، فقال موسى: يا ربّ بأيّ ذنب وقعنا في التّيه. فقال: بدعاء بلعام. قال: ربّ كما سمعتَ دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه. فدعا موسى أن ينزع منه الاسم الأعظم والإيمان. فسلخه الله مما كان عليه، ونزع منه المعرفة، فخرجت كحمامة بيضاء، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيِّب وأبو روق وزيد بن أسلم(١): نزلت هذه الآية في أميّة بن أبي الصَّلْت(٢)، وكانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب وعلم أن الله عزّ وجلّ مرسِل رسولًا في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ حسده وكان قد قصد بعض الملوك، فلما رجع مرّ بقتلَى بَدْر، فسأل عنهم؛ فقيل: قتلهم محمد. فقال: لو كان نبيًا ما قتل أقرباءه. فلما مات أتت أختُه فارعةُ رسولَ الله ﷺ فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها؛ فقالت: بينا هو راقد أتاه اثنان فكشفا سقفَ البيت ونزلا، فقعد أحدهما عند رجليه والآخَر عند رأسه، فقال الّذي عند رجليه للّذي عند رأسه: أَوَعَى؟ قال: وَعَى. قال: أَزَكَا(٣)؟ قال: أَبَى. [قالت](٤): فسألته عن ذلك؟ فقال: خير أريدْ بي فصُرِف عنّي. ثم غُشِي عليه، فلمّا أفاق قال: [من الخفيف]

كلُّ عيشٍ وإن تَطاوَلَ دهرًا ... صائرٌ أمرُه إلى أن يزولا
ليتني كنت قبلَ ما قد بدا لي ... في قِلال الجبال أرعَى الوُعولا(٥)

---

(١) هو زيد بن أسلم الفقيه العمري، من رجال الحديث الموثوقين، قال ابن عجلان: ما هبت أحدًا هيبتي زيد بن أسلم، توفي سنة ١٣٦ هـ «الكاشف ١/ ٢٦٣».

(٢) هو أميّة بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعرٌ جاهلي، كان مطّلعًا على الكتب القديمة، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات سنة ٥ هـ «الأعلام ٢/ ٢٣».

(٣) زكا: صلُح، وزكا الشيء: نما وزاد.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي.

(٥) القلال: جمع «قلة» وهي أعلى الجبل.

إنّ يوم الحساب يومٌ عظيمٌ   شاب فيه الصغير يومًا ثقيلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ أنشديني من شعر أخيك فأنشدتْه: [من الطويل]

لك الحمدُ والنَّعماءُ والفضلُ ربَّنا   ولا شيءَ أعلى منك جَدًّا وأمجدُ

مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ   لعزّته تعنو الوجوهُ وتسجدُ[(١)]

وهي قصيدة طويلة، حتى أتت على آخِرها.

وأنشدْته قصيدته الّتي يقول فيها: [من الخفيف]

يوقَف الناسُ للحساب جميعًا   فشَقيٌّ معذَّبٌ وسَعيدُ

ثم أنشدتْه قصيدتَه الّتي يقول فيها: [من الخفيف]

عند ذي العرش تُعرَضون عليه   يَعلَمُ الْجَهْرَ والسِّرارَ الخفيّا[(٢)]

يوم نأتي الرحمٰنَ وهو رحيمٌ   إنّه كان وعدُه مأتيّا

يوم آتيه ـ مِثلَ ما قال ـ فردًا   ثم لا أدرِ[(٣)] راشدًا أم غويّا[(٤)]

أسعيدًا إسعادَه أنا أرجو   أو مُهانًا بما اكتسبتُ شقيًّا

إنْ أُؤاخَذْ بما اجترمتُ فإنّي   سوف أَلقَى من العذاب فَرِيّا[(٥)]

ربِّ إن تَعفُ فالمعافاة ظنّي   أو تعاقب فلم تعاقِب بريّا

فقال رسول الله ﷺ: آمن شعرُه وكفر قلبُه. وأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٥] الآيات.

ومنهم من قال: إن الآيات نزلت في البسوس، وكان رجلًا أُعطِيَ ثلاث دعوات مستجابة، وكانت له امرأة، وكان له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها دعوةً واحدة. فقال: لكِ فيها دعوة، فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل. فدعا لها، فصارت أجمل امرأة في بني إسرائيل؛ فلما علمتْ أنّه ليس فيهم مِثلُها رغبتْ[(٦)] عنه، فغضب ودعا عليها، فصارت كلبة نبّاحة، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبة نبّاحة والناس يعيّروننا بها، فادع الله أن

---

(١) تعنو: تخضع.   (٢) السّرار: ما تخفي الأنفس.
(٣) يلاحظ أنه حذف الياء من قوله «لا أدري» لضرورة الوزن، وحقّها أن تثبت.
(٤) الغويّ: الضال.   (٥) اجترم: اكتسب من الإثم، والفري: العظيم.
(٦) رغبت عنه: كرهته.

يردّها إلى الحال الّتي كانت عليها. فدعا الله تعالى، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات.

وقال أبو سعيد[1]: نزلت في أبي عامر بن نعمان بن صيفيّ الراهب الذي سمّاه رسولُ الله ﷺ: الفاسق، وكان قد ترهّب في الجاهليّة ولبس المُسوحَ وقدم المدينة، فقال للنبيّ ﷺ: ما هذا الذي جئتَ به؟ فقال: جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم. قال: فأنا عليها. فقال له النبيّ ﷺ: «لستَ عليها، ولكنّك أدخلتَ فيها ما ليس منها». ثم خرج إلى كفّار قريش.

وأخباره تُذكَر ـ إن شاء الله ـ في سيرة سيّدنا رسول الله ﷺ.

فهذا ما قيل في تفسير هذه الآية.

قال الكسائيّ: ونادى موسى في قومه بعد رفع الطاعون عنهم: «أن احملوا». فحملوا واقتتلوا. فقُتِل الملِك وبَلْعَم، وانهزم الباقون، وغنم بنو إسرائيل من النساء والولدان شيئًا كثيرًا. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر وفاة هارون عليه السلام

قال الكسائيّ: ـ وذكر وفاة هارون إثرَ خبر البقرة وقتل عاميل ـ قال: لمّا كان بعد قتل عاميل نظر هارون إلى جبل في التِّيه بعيد من العسكر، فقال: يا موسى، ألا نمضي إلى ذلك الجبل فننظر إلى خضرته ونضارته. فمضيا من الغد ومعهما أولاد هارون، فأتوه فإذا هو جبل كثير المياه والعشب والكهوف وفيه كهف واسع يسطع نورًا، فدخلوه وإذا هم بسرير من ذهب عليه أنواع من الفرش، فصعد هارون إليه ونام، فجاء طولَه، فهمّ أن ينزل، فأتاه ملَك الموت في صورة شابّ حسن، فقبض روحه، وغسّلته الملائكة، وصلّى موسى عليه، وسدّوا باب الكهف، وعاد موسى إلى بني إسرائيل، فسألوه عن هارون، فأخبرهم بوفاته قالوا: بل قَتلْتَه. فقال: ماذا لقيتُ منكم يا سفهاءَ بني إسرائيل، أقتل أخي وشقيقي؟ ثم دعا ربَّه أن يريَهم إيّاه على صورته. فأمر الله تعالى الملائكةَ أن يُخرجوا سَريره من الكهف، فأخرَجوه وحملوه في الهواء حتى نظرت إليه بنو إسرائيل، ثم نادت الملائكة: يا بني إسرائيل، هذا سرير هارون قد قبضه الله تعالى إليه.

---

(١) لعلّه أبو سعيد بن المعلّى الأنصاري، صحابي، من رجال الحديث توفي سنة ٧٣ هـ «الكاشف ٣/ ٣٠٠».

وقال أبو إسحـٰق الثعلبيّ في تفسيره في وفاة هارون عليه السلام قال السدّيّ: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أني متوفي هارون، فأت به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون عليهما السلام نحو ذلك الجبل فإذا هما بشجرة لم يَريا شجرةً مِثلَها، وإذا بيتٌ مبني، وفيه سرير عليه فراش وإذا فيه ريح طيّبة، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال: يا موسى، إنّي أحبّ أن أنام على هذا السرير. قال: نم عليه. قال: إني أخاف أن يأتي ربّ هذا البيت فيغضب عليّ. قال موسى: لا تَرهَب، أنا أكفيك رب هذا البيت، فنم. قال: يا موسى، بل نم معي، فإن جاء ربّ البيت غضب عليّ وعليك جميعًا. فلمّا ناما أخذ هارونَ الموتُ، فلما وجد حِسَّه قال: يا موسى خدعتَني، فلمّا قُبض عليه السلام رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورُفع السرير به إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون، قالوا: إن موسى قَتَل هارون وحسده لحبّ بني إسرائيل له. فلمّا أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا الله تعالى، فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض؛ فصدّقوه.

وقال الثعلبيّ أيضًا. وقال عمرو بن ميمون(١): مات هارون عليه السلام في التِّيه، ومات قبل موسى، وكانا خرجا في التِّيه إلى بعض تلك الكهوف، فمات هارون، فدفنه موسى، وانصرف إلى بني إسرائيل، فقالوا: ما فعل هارون؟ قال: مات. قالوا: كذبت، ولكنّك قتلتَه لحبّنا إيّاه ـ وكان محبّبًا في بني إسرائيل ـ فتضرّع موسى إلى الله تعالى وشكا ما لقي من بني إسرائيل؛ فأوحى الله إليه: أن انطلق بهم إلى قبره، فإنّي باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتًا وأنك لم تقتله. فانطلق بهم موسى إلى قبره، فنادى: يا هارون. فخرج من قبره ينفض رأسه؛ فقال: أنا قاتِلُك؟ قال: لا، ولكنّي مِتُّ. قال: فعُد إلى مَضجَعك. فعاد عليه السلام وانصرفوا.

ذكر وفاة موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام

قال أبو إسحـٰق الثعلبيّ رحمه الله قال ابن إسحـٰق: كان موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظَمَه، فأراد الله تعالى أن يحبّب إليه الموت ويكرِّه إليه الحياة؛ وكان يوشع بن نون يغدو عليه ويروح، فيقول له موسى: يا نبيّ الله ما أحدث الله إليك. فيقول له يوشع: يا نبيّ الله، ألم أصحبك كذا وكذا سنة، فهل كنتُ أسألك عن شيء

(١) هو عمرو بن ميمون الرّقي، من رجال الحديث، كان رأسًا في السّنّة والورع مات سنة ١٤٥ هـ «الكاشف ٢/٢٩٦».

ممّا أحدث الله إليك حتى تكون أنت تبتدىء به وتذكره؟ ولا يَذكر له شيئًا.

فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحبّ الموت.

وعن وهب أنه قال ـ وذكر من كرامة موسى عليه السلام ـ أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعًا لمّا كثروا عليه؛ فأوحى الله تعالى إلى ألف نبيّ أن يكونوا أعوانًا له؛ فلمّا مال الناس إليهم وَجَد موسى في نفسه، فأماتهم الله تعالى لكرامته في يوم واحد.

والذي صحّ لنا من خبر وفاة موسى عليه السلام ما ثبت في صحيح البخاريّ وهو ما حدّثنا به الشيخان المُسْندان المعمَّران: شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن أبي طالب نعمة بن حسن بن عليّ بن سنان الشُّحْنة الصالحيّ الحجّار، وسِتُّ الوزراء أمّ محمد[١] (وزيرةُ) ابنةُ الشيخ الإمام العالم شمس الدين أبي حفص عمر ابن القاضي وجيه الدين أسعد بن المنجا التنوخيّ الدمشقيّان، قراءة عليهما، وأنا أسمع بالمدينة المنصوريّة بخُطّ (بين القصرين بالقاهرة المعزّيّة)، وذلك في يوم السبت السابع من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة، بقراءة الشيخ علاء الدين عليّ بن المارديني، قالا: حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيىٰ الزبيديّ، قال: أخبرنا الشيخ أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السَّجزيّ الصوفيّ ثم الهَرَويّ، قال: أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود الداوديّ، قال: أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمويه التنوخيّ، قال: أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطهر الفهريّ، قال: حدّثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفيّ مولاهم البخاريّ رحمه الله قال: حدّثنا محمود، حدّثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن ابن طاوس[٢] عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أرسل مَلكُ الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه[٣]، فرجع إلى ربّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. فردّ الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطّت به يده بكل شعرة سنة.

---

(١) كنيتها في الدّرر الكامنة، أُم عبد الله.

(٢) لعلّه يريد طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني، أبو عبد الرحمٰن، من أكابر التابعين تفقهًا في الدّين ورواية الحديث مات سنة ١٠٦ هـ «الأعلام ٣/ ٢٢٤».

(٣) صكّه: دفعه.

قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيَه من الأرض المقدَّسة رمية بحجر. قال: قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب(١) الأحمر.

قال الثعلبي: وكان عمر موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة، عشرون منها في مُلك أفريدون(٢)، ومائة سنة في مُلك منوجهر(٣)، وبعث الله تعالى بعد موسى يوشع عليهما السلام.

كمل الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التيميّ القرشي المعروف بالنويريّ ـ رحمه الله تعالى ـ ويليه الجزء الرابع عشر، وأوّله: الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الخامس فيما كان بعد موسى بن عمران عليهما السلام، وهو أخبار يوشع بن نون وحزقيل وإلياس وإليسع وغيلا وأشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود عليهم السلام.

والحمد لله ربّ العالمين

(١) الكثيب: التلّ من الرمل المستطيل المحدودب.

(٢) أفريدون هو التاسع من ولد جمشيذ، في أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السّلام يقال: إنّه ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم سورة الكهف «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

(٣) منوجهر: هو منوجهر بن إيراج، في أيّامه ظهر موسى عليه السّلام ويقال: إن فرعون موسى كان عاملًا له على مصر داخلًا تحت أمره، «صبح الأعشى ٤/ ٤١٠».

المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم**.
٢ - **التوراة**.
٣ - **تاج العروس**، للزبيدي، ط. مصر.
٤ - **تاريخ الطبري**، ط. أوروبا.
٥ - **تاريخ العيني**، دار الكتب المصرية.
٦ - **تفسير البخاري**، ط. بولاق.
٧ - **تفسير الألوسي**، ط. بولاق.
٨ - **تقويم البلدان**، لابن حوقل، ط. أوروبا.
٩ - **الدّرر الكامنة**، لابن حجر العسقلاني، ط. حيدرآباد.
١٠ - **صبح الأعشى**، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.
١١ - **صحيح البخاري**، دار الفكر.
١٢ - **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين.
١٣ - **قصص القرآن**، للثعلبي، المطبعة البهية مصر.
١٤ - **قصص القرآن**، للكسائي، دار الكتب المصرية.
١٥ - **الكاشف**، للذهبي، دار الكتب العلمية.
١٦ - **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر.
١٧ - **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر.
١٨ - **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.

فهرس المحتويات

الفنّ الخامس
في التاريخ

القسم الثاني
من الفنّ الخامس في قصّة إبراهيم الخليل
عليه الصلاة والسلام
وخبره مع نُمْروذ، وقصّة لوط، وخبر إسحٰق ويعقوب، وقصّة يوسف وأيّوب وذي الكفل وشعيب

القسم الثالث
من الفنّ الخامس
يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام
وخبره مع فرعون؛ وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيلا وأشمويل وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متّى وجرجيس وبلوقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى، عليهم السلام، وأخبار الحواريين

نهاية الأرب
في
فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الرابع عشر

تحقيق

الدكتور مفيد قميحة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثاني
من القسم الثالث من الفن الخامس
فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليهما السلام
وهو أخبار يُوشَعَ بنِ نُون وحَزْقِيلَ وإلْيَاسَ وٱلْيَسَعَ وعَيْلَى[1] وأشْمَوِيلَ وداودَ وطالوتَ وجالوتَ وسليمانَ بنِ داودَ عليهم السلام

ذكر خبر يُوشَعَ بن نُون عليه السلام وفتح أرِيحَا[2] وغيرها

قال أبو إسحاق الثَّعْلبيّ[3] رحمه الله تعالى: اختلف العلماء فيمن تولّى حرب الجبّارين[4] وفيمن كان على يده الفتح، فقال قومٌ: إنما فَتَح أرِيحا موسى عليه السلام وكان يُوشَعُ على مقدّمته فسار إليها بمن بَقِيَ من بني إسرائيل ولم يَمُت في التِّيه[5]،

(١) كذا في الأصل، وفي قصص الأنبياء للثعلبي، وتاريخ الطبري ج١ ص٣٣١، وفي الكتاب المقدّس «ج١ ص٤٥٠ وما بعدها» عالي.

(٢) أريحا: بالفتح ثمّ الكسر، مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس في جبال صعبة المسلك، سمّيت فيما قيل: بأريحا بن مالك بن أرفخشذ» معجم البلدان لياقوت.

(٣) أبو إسحاق الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، مفسّر من أهل نيسابور، له اشتغال بالتاريخ، من كتبه عرائس المجالس في قصص الأنبياء، والكشف والبيان في تفسير القرآن، توفي سنة ٤٢٧هـ. الأعلام ١/ ٢١٢.

(٤) الجبارون: أو الجبابرة: الذين كانوا بالشام من العماليق، ويقال لهم الكنعانيون. انظر تاريخ الطبري ٢/ ٢١٣ ط أوروبا.

(٥) التّيه: المفازة لا علامة فيها يهتدى بها، والتيه: الهلاك وقيل الذّهاب، والتيه هنا: حيث تاه بنو إسرائيل، أي حاروا فلم يهتدوا للخروج منه «اللسان مادة تيه».

فدخلها يُوشَعُ بهم وقتل الجبّارين الذين كانوا فيها، ودخلها موسى ببني إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم قبضه(١) الله تعالى، ولم يعلم أحدٌ من الناس أين قبره. قال: وهذا أولى الأقاويل بالصدق. وقال الآخرون: إنما قَتَل الجبّارِين يُوشَعُ ولم يسر إليهم إلاّ بعد موت موسى. وقالوا: إنما مات موسى وهارون عليهما السلام في التِّيه.

قالوا: فلما انقضت مدّة التِّيه ومات موسى عليه السلام بعث الله تعالى يُوشَعَ بن نُون نبيًا، فأخبرهم أنه نبيّ الله تعالى، وأنّ الله عزّ وجل قد أمره بقتال الجبّارين، فصدّقوه وبايَعُوه. فتوجه ببني إسرائيل إلى أَرِيحا ومعه تابوت(٢) الميثاق، فأحاط بمدينة أرِيحا ستّة أشهر، فلمّا كان في الشهر السابع نفخوا في القُرُون(٣) وضجَّ الشعبُ ضجَّة واحدة، فسقط سُور المدينة، فدخلوا وقاتلوا الجبّارين، فهزموهم وهجموا عليهم يقتِّلونهم، فكانت العِصَابةُ من بني إسرائيل يجتمعون على عُنُق الرجل يضربونها لا يقطعونها، وكان القتال يومَ الجمعة، فبقيت منهم بقيّة وكادت الشمس تغرُب وتدخل ليلةُ السبت، فخشِيَ يُوشَعُ أن يُعْجِزوه، فقال: اللهمّ ارْدُد الشمس عليّ، وقال للشمس: إنكِ في طاعة الله، وأنا في طاعة الله. فسأل الشمسَ أن تَقِف والقمر أن يُقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غُرُوب الشمس، فرُدّت عليه الشمس وزِيدَ له في النهار ساعةٌ واحدةٌ حتى قتلهم أجمعين.

قالوا: ثم أرسل ملوك الأرمانيِّين(٤) بعضُهم إلى بعض - وكانوا خمسةً(٥) - فجمعوا كلمتَهم على حرب يُوشَع وقومِهِ، فهَزَمت بنو إسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنِيّة حَوْران(٦)، فرماهم الله تعالى بأحجار البَرَد، فكان مَن قَتَله البَرَد أكثرَ ممّن قتله بنو إسرائيل بالسيف، وهربت الملوك الخمسةُ، فاختفَوْا في غارٍ، فأمرَ بهم يُوشَعُ فأُخرجوا، فقتلهم وصلَبهم، ثم أنزلهم وطرحهم في ذلك الغار، وتتبع سائرَ ملوك الشأم فاستباح منهم أحدًا وثلاثين ملِكًا حتى غلب على جميع أرض الشأم، وصار الشأم كلُّه لبني إسرائيل، وفرّق عمّاله في نواحي الشأم.

---

(١) قبضه الله: أماته.

(٢) التابوت: هو تابوت بني إسرائيل، وسوف يأتي وصفه في الصفحات القادمة. راجع وصفه في الكتاب المقدّس ١/ ١٣٢ ط. بيروت.

(٣) القرون: المراد بها الأبواق. راجع الكتاب المقدّس ١/ ٣٥٦.

(٤) الأرمانيون: في الكتاب المقدّس (١/ ١٨ - ٣٦٣) ملوك الأموريين وهم من ذريّة كنعان.

(٥) هم: ملك أورشليم وملك حيرون وملك يرموث وملك لاكيش وملك عجلون. انظر الكتاب المقدّس ١/ ٣٦٥.

(٦) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق، ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار «معجم البلدان ٢/ ٣١٧».

وحكى الكِسَائيّ[١] في (كتاب المبتدا) أنّ يُوشَع أخذ في الجِهاد بعد وفاة موسى عليه السلام حتى فتح الله على يديه نيِّفًا[٢] وثلاثين مدينة من مدن الكفّار بأرض الشأم. قال: ثم سار ببني إسرائيل إلى أرِيحا لقتال الجبّارين، وكانوا قد عادوا إليها بعد أن فتحها موسى، فقاتلهم يومَ الجمعة، وساق نحو ما تقدّم من حبس الشمس. قال: وفسد على أهل علم النجوم علوم كثيرة من ذلك اليوم.

قال الكِسَائيّ: ولما فرغ يُوشَعُ بن نُون من قتال الجبّارين بأرِيحا سار ببني إسرائيل إلى أرض بني كَنْعان[٣]، فقاتلهم حتى قتل أكثر من ثلاثين ملِكًا، وفتح ثلاثين حصنًا.

قال الثعْلَبِيّ في تفسيره: ولمّا قتل يُوشَعُ الملوكَ واْستباحَ الأموال جمع الغنائم فلم تُنْزَلِ النار، فأوحَى الله تعالى إلى يُوشَع أنّ فيها غُلُولاً[٤]، فمُرهم فليبايعوك فبايعوه، فاْلتصقتْ يدُ رجل منهم بيده، فقال: هَلُمّ[٥] ما عندك! فأتاه برأس ثور من ذهب مكلّل بالياقوت والجوهر كان قد غلّه، فجعله في القُرْبان[٦] وجعل الرجلَ معه، فجاءت النار فأكلت الرجلَ والقُربان.

قالوا: ثم مات يُوشَع فدُفن في جبل أفرائيم[٧]، وكان عمره مائةً وستًّا[٨] وعشرين سنة، وتدبيرُه أمرَ بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام تسعًا وعشرين سنة. وقال الكسائيّ: أربعين سنة. والله تعالى أعلم.

---

(١) الكسائي: هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي، أبو الحسن الكسائي من أهل الكوفة، إمام عالم في اللغة والنحو والقراءة، توفي سنة ١٨٩هـ «الأعلام ٤/ ٢٨٣».

(٢) النّيف: الزيادة، يقال: عشرة رجال ونيّف ولا تستعمل إلاّ بعد العقود من الأعداد.

(٣) الكنعانيون: وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان بن حام بن نوح «صبح الأعشى ١/ ٤٢٤».

(٤) الغلول: الخيانة في المغانم.

(٥) هلمّ: كلمة دعاء إلى الشيء، وهي اسم فعل يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكّر والمؤنّث.

(٦) القربان: كلّ ما يتقرّب به إلى الله من ذبيحة أو غيرها.

(٧) جبل أفرائيم: كان يطلق هذا الاسم على سلسلة هضاب في أملاك أفرائيم تمتدّ إلى تخوم بنيامين، أمّا تربة هذا الجبل فخصبة بالإجمال إلاّ ما كان منها إلى جهة الأردن فإنّه صخري صعب المرتقى، وكذلك ما كان منه إلى جهة البحر الميت فإنّه غاية في القحل، وقد ورد ذكره في الكتاب المقدّس (١/ ٣٧٦ ـ ٣٩٠).

(٨) في الكتاب المقدّس ١/ ٣٩٥: «ابن مائة وعشر سنين».

ولما مات ٱستُخلف على بني إسرائيل كالبُ[١] بن يوقَنَّا، وهو من أولاد يَهُوذَا بن يعقوب، وكان من الزهّاد، فسار فيهم أجمل سيرة حتى قبضه الله تعالى.

فٱستُخلف عليهم ٱبنه برشاناسُ[٢] وكان نظير يوسف الصدّيق عليه السلام في حُسنه وجماله، فافتتن الناسُ به، فسأل اللّهَ تعالى أن يغيِّر خلقته، فأصابه الجُدَريّ[٣]، فتغيّرتْ خلقته، فأنكره الناس وأكثروا من سؤاله عن خبره، فشقّ ذلك عليه وشغله عن عبادته، فسأل الله تعالى أن يزيده تشويهًا، فاسترخَى وجهُه، وظهرت له أسنان طوال، وقَبُح حتى كره الناسُ أن ينظروا إليه، وعرفوا منه الأجتهاد في عبادة الله تعالى وطاعته، فاختاروه وسمعوا له وأطاعوا، ولم يزل بين أظهرهم[٤] أربعين سنة ثم قبضه الله تعالى.

فقام بأمرهم العَيْزار[٥] بن هارون بن عِمْران، وكان قد أسنّ ولا ولد له، فجعلوا يقولون: ما حُرِم الولدَ إلاّ لذنب عظيم. فسأل الله الولدَ، فرزقه ولدًا بعد كِبَرِ سنّه وإياسِ زوجته صَفُّورِيّة[٦] بنت عمّه موسى بن عِمْران وجدّد له قوّة، ولها جمالاً وحُسنًا، وسمَّى ولدَه «سباسبا»[٧] وجاء عالمًا بالتوراة، فٱستخلفه والده على بني إسرائيل، فقام بأمرهم، وتزوّج بٱمرأة يقال لها صَفُّورِيّة، فأولدها إلياس. هكذا نقل الكِسائيّ.

وقال الثعْلبيّ في قصصه في خبر ٱبن كالب وسمّاه «بُوساقُوس»: وأنه لمّا ٱفتتن الناسُ به سأل الله تعالى أن يغيّر صورته مع سلامة حواسه وجوارحه[٨] فأصابه الجُدَريّ. وقال: إنه لبث فيهم مائة سنة، ثم قبضه الله عزّ وجلّ ولم يذكر العَيْزَارَ وٱبنَهُ، بل ذكر خبر حَزْقِيل. والله تعالى أعلم.

---

(١) في الكتاب المقدّس ١/ ٣٧٣ «كالب بن يفنا».
(٢) في تاريخ الطبري ١/ ٣٢٤: أن كالب بن يوحنّا لمّا قبضه الله بعد يوشع خلف فيهم يعني بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو ابن العجوز.
(٣) الجدريّ: مرض جلدي معدٍ، يتقيّح منه الجلد ويعقبه قشر.
(٤) بين أظهرهم: أي بينهم.
(٥) في الكتاب المقدّس ١/ ٣٩٠ «العازار».
(٦) في الكتاب المقدّس ١/ ١٢١ «صفورة».
(٧) في قصص الأنبياء للكسائي ص٢٠٩ «بـابـا».
(٨) الجوارح: مفردها الجارحة، وهي العضو العامل من أعضاء الجسد كاليد والرّجل.

ذكر خبر حَزْقيل عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى قالت العلماء لمّا قبض الله تعالى كالبَ وٱبنَه، بعث الله عزّ وجل حزقيل[١] إلى بني إسرائيل، وهو حَزْقيل بن بُوذِي، ويلقّب بٱبن العجوز.

قال: وإنما لُقِّب بذلك لأن أمّه سألت الله تعالى الولد وقد كَبِرت وعَقِمت، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذي أحيا الله تعالى القوم بعد وفاتهم بدعائه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال: قال أكثر المفسرين: كانت قريةٌ يقال لها دَاوَرْدانُ[٢] قِبَلَ واسط وقع بها الطاعون[٣]، فخرج منها طائفةٌ هاربين من الطاعون وبقيت طائفة، فهلك أكثر مَنْ بَقِيَ في القرية، وسَلِم الذين خرجوا، فلمّا ٱرتفع الطاعون رجعوا سالمين. فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أجرمَ منّا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون بها ثانية لنخرجنّ إلى الأرض التي لا وباء فيها. فوقع الطاعون من قابل[٤]، فهرب عامّة أهلها، فخرجوا حتى نزلوا واديًا أفيح[٥]، فلمّا نزلوا المكان الذي يبغون فيه الحياة والنجاة، إذا هم بملَكٍ من أسفل الوادي وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا فماتوا.

وقال الضحاك[٦] ومقاتل والكلبيّ: إنّما فرّ هؤلاء من الجهاد؛ وذلك أنّ ملِكًا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم، فخرجوا فعسكروا ثم جَبُنُوا وكرِهُوا الموت وٱعتلّوا[٧] وقالوا لملِكهم: إنّ الأرض التي نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء؛ فأرسل الله تعالى عليهم الموت، فلمّا رأوا أنّ الموت

---

(١) في الكتاب المقدّس: (٢/ ٥٣٨) «حزقيال».

(٢) داوردان: من نواحي شرقي واسط، بينهما فرسخ، وهي التي وقع فيها الطاعون، وفيها ديرٌ يعرف بدير هزقل «معجم البلدان ٢/ ٤٣٤».

(٣) الطاعون: مرض خبيث ذو حمّى شديدة الحرارة، ينتقل إلى الإنسان من الفئران.

(٤) من قابل: أي من قبل، ومن قابل الشيء من أوّله.

(٥) الأفيح: الواسع.

(٦) هو الضحّاك بن عثمان بن الضحّاك بن عثمان بن عبد الله الأسدي القرشي، علاّمة قريش بأخبار العرب وأيّامها وأشعارها، توفي بمكة سنة ٧٩٦م «الأعلام ٣/ ٢١٤».

(٧) اعتلوا: اختلقوا الحجج والذرائع.

كَثُر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا منه. فلمّا رأى الملك ذلك قال: اللهمّ ربَّ يعقوب وإله موسى، قد نرى معصية عبادك فأرِهم آية[١] في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفِرار من حكمك وقضائك. فلما خرجوا قال الله لهم: موتوا، فماتوا جميعًا وماتت دوابهم كموت رجل واحد، فمما أتت عليهم ثلاثةُ أيام حتى ٱنتفخوا وأرْوَحَتْ[٢] أجسادهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظَروا عليهم حَظِيرة[٣] دون السِّباع وتركوهم فيها.

قال: وٱختلفوا في مبلغ عددهم، فقال عطاء الخُرَاسانيّ[٤]: كانوا ثلاثةَ آلاف. وقال ٱبن عباس ووهب: أربعةَ آلاف. وقال مُقاتل[٥] والكلبيّ: ثمانية آلاف. وقال أبو روْق: عشرةَ آلاف. وقال أبو مالك: ثلاثين ألفًا. وقال السُّدّيّ: بضعةً وثلاثين ألفًا. وقال ٱبن جُرَيج: أربعين ألفًا. وقال عطاء بن أبي رَبَاح[٦]: سبعين ألفًا.

قالوا: فأتت عليهم مدّة وقد بَلِيتْ أجسادهم، وعَرِيتْ عظامهم، وتقطّعت أوصالُهم[٧]، فمرَّ بهم حَزْقِيل النبيّ عليه السلام فوقف عليهم متفكّرًا متعجّبًا، فأوحى الله تعالى إليه: يا حَزْقيل، تريد أن أرِيَك كيف أُحيِي الموتَى؟ قال نعم، فأحياهم الله جميعًا.

قال: هذا قول السُّدّيّ[٨] وجماعةٍ من المفسِّرين. وقال هلال بن يَسَاف[٩] وجماعةٌ من العلماء: دعا حَزْقِيل ربّه أن يحييهم فقال: يا ربّ لو شئتَ أحييتَ هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك. فقال الله عزّ وجل أَوَتحبّ أن أفعل؟ قال نعم، فأحياهم.

---

(١) الآية: المعجزة. (٢) أروحت: أنتنت وتغيّرت رائحتها.

(٣) الحظيرة: ما أحاط بالشيء، وتكون من قصب أو خشب أو شجر، وتعمل للإبل لتقيها البرد والرّيح.

(٤) عطاء الخراساني: هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس، مفسّر، كان يغزو، ويكثر من التهجّد في الليل، توفي سنة ٧٥٢، «الأعلام ٤/ ٢٣٥».

(٥) مقاتل: هو مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي بالولاء، البلخي، من أعلام المفسّرين، دخل بغداد وحدّث فيها وتوفي بالبصرة سنة ٧٦٧م له عدّة مؤلّفات «الأعلام ٧/ ٢٨١».

(٦) هو عطاء بن أبي رباح بن أسلم بن صفوان، تابعي من أجلاء الفقهاء، كان عبدًا أسود، ولد باليمن، ونشأ بمكة وكان مفتي أهلها ومحدّثهم وتوفي فيها سنة ٧٣٢م «الأعلام ٤/ ٢٣٥».

(٧) الأوصال: مفردها الوصل، وهو المفصل، أو مجتمع العظام، أو كلّ عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره.

(٨) السّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن السّدي الكوفي، والسّدّي: نسبة إلى سدة مسجد الكوفة، كان يبيع بها المقانع، والسدّة: الباب، والمقانع: ما تلف به المرأة رأسها. محدّث حسن الحديث توفي سنة ١٢٧ «الكاشف ١/ ٧٥».

(٩) هو هلال بن يساف الأشجعي، أبو الحسن، محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ٢٠٢».

وقال عَطاءٌ ومُقاتل والكلبيّ(١): بل كانوا قومَ حَزْقِيل، فأحياهم الله عزّ وجل بعد ثمانية أيام؛ وذلك أنهم لمّا أصابهم ذلك خرج حَزْقِيل في طلبهم فوجدهم مَوْتَى، فبكى وقال: يا ربّ كنتُ في قوم يحمدونك ويقدّسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيتُ وحيدًا لا قومَ لي. فأوحى الله تعالى إليه: إني قد جعلتُ حياتَهم إليك. فقال حَزْقيل: احْيَوْا بإذن الله تعالى، فعاشوا.

وقال وهب(٢): أصابهم بلاءٌ وشدّةٌ من الزمان، فشكَوْا ما أصابهم فقالوا: يا ليتنا مَتنا فاسترحنا ممّا نحن فيه. فأوحى الله عزّ وجل إلى حَزْقيل: إنّ قومَك قد ضجِروا من البلاء، وزعموا أنهم وَدُّوا لو ماتوا فاستراحوا، وأيّ راحة لهم في الموت! أيظنّون أنّي لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت! فانطلِق إلى جبّانة كذا، فإنّ فيها قومًا أمواتًا. فأتاهم، فقال الله عزّ وجل: قُم فنَادِهم ـ وكانت أجسامهم وعظامهم قد تفرّقت، فرّقتها الطير والريح ـ فنادى حَزْقِيل: أيتها العظام، إنّ الله يأمركِ أن تكتسيَ اللحم. فاكتست جميعًا اللحم، وبعد اللحم جلْدًا ودَمًا وعَصَبًا وعروقًا، فكانت أجسادًا، ثم نادى: أيتها الأرواح، إنّ الله تعالى يأمرك أن تعودي في أجسادك. فقاموا جميعًا عليهم ثيابهم التي كانوا فيها، وكبَّروا تكبيرة واحدة.

قال: وزعم منصور بن المعتمر عن مُجاهد(٣) أنهم قالوا حين أُحْيُوا: سبحانك ربّنا وبحمدك لا إله إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم بعدما أحياهم الله عزّ وجل وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا أمواتًا، سِحْنةُ(٤) الموت على وجوههم، لا يلبَسون ثوبًا إلا عاد رميمًا(٥) مِثلَ الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي كَتب الله لهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما فإنها لتُوجد اليوم في ذلك السِّبط(٦) من اليهود تلك الريح(٧).

---

(١) الكلبي: هو محمد بن السّائب بن بشر بن عمرو بن حارث الكلبي، أبو النضر، نسّابة راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة موله ووفاته فيها سنة ٧٦٣م «الأعلام ٦/ ١٣٣».

(٢) وهب: وهب بن مُنبّه الأبناوي الصنعاني الذماري، أبو عبد الله مؤرّخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأوّلين ولا سيّما الإسرائيليّات، ولد ومات بصنعاء سنة ٧٣٢م «الأعلام ٨/ ١٢٥».

(٣) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجّاج مولى السّائب بن أبي السّائب المخزومي، إمام في القراءة والتفسير محدّث حجّة مات سنة ١٠٤هـ «الكاشف ٣/ ١٠٦».

(٤) السّحنة: الهيئة واللّون. (٥) الرّميم: البالي.

(٦) السّبط: القبيلة من اليهود.

(٧) قوله: (وقال ابن عباس فإنها لتوجد اليوم تلك الريح الخ) المراد بالريح الرائحة وكان ينبغي تفسيرها لأن المتبادر من معناها الهواء الشديد. وقوله: (فإنها) الفاء فيه للتفريع والمفرع عليه في (ص٨ سطر ٥) عند قوله (وأروحت أجسادهم) أي تغيرت رائحتها وأنتنت فقول **ابن عباس** إذن مؤخر عن موضعه إلى هذه الصفحة سهوًا. وكان الأصل هكذا (أروحت أجسادهم وقال ابن عباس فإنها الخ) أي وكان من نتيجة إرواح أجساد أولئك القوم أن انتقلت تلك الرائحة الخبيثة إلى أعقابهم.

قال قَتَادةُ[١]: مقتهم الله عزّ وجل على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبةً لهم، ثم بعثهم إلى بقيَّة آجالهم ليستوفُوها، ولو كانت آجال القوم جاءت ما بُعِثوا بعد موتهم. فلما أحياهم الله عزّ وجل قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤]. ثم تلا الثَّعْلبيُّ هذه القصّة بقصّة إلياس؛ وذكرها الكِسَائيّ، تلو قصّة العَيْزَار. والله الموفق للصواب.

ذكر خبر إلياس عليه السلام

قال الله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الصافات: ١٢٣]. قال الكسَائيّ رحمه الله تعالى: قال كعب[٢]: لمّا وُلِد إلياس عليه السلام ونسبه أنه إلياس بن سباسبا بن العَيْزَار بن هارون. قال: وأمّه صَفُّوريّة، وجدّته أمّ أبيه صَفُّورِيّة بنت موسى بن عِمْران عليه السلام ظهر ليلة مولده أنوار أضاءت منها محاريب[٣] بني إسرائيل. فلما نظرتْ ملوكُ بني إسرائيل ذلك علموا أنه قد حدث حادث، فتعرّفوا الخبر، فقيل لهم: وُلِد مولود من ولد هارون بنِ عِمْران.

قال: وكان إلياس على صورة موسى وقوّته، ونشأ أحسن نشأة. وبنو إسرائيل يقولون: هذا الذي بشّرَنا به العَيْزَار، أن الله يُهلك الملوك والجبابرة على يديه.

قال: فلمّا بلغ سبعَ سنين ـ وكان يحفظ التوراة ـ قال: يا بني إسرائيل، إني أُريكم من نفسي عَجَبًا. فصاح بهم صيحةً ٱنتشرت فيهم فأرعبتْ قلوبهم. فلما سكنتْ روعتُهم همُّوا بقتله، وقال بعضهم: هو ساحر، فهرب منهم وصعِد إلى جبل وهم يتبعونه. فلمّا قَرُبوا منه ٱنفرج[٤] له الجبل فدخل فيه، وٱنصرف القوم. فنُمِي[٥] الخبر إلى بعض ملوكهم فعذّبهم، ثم ٱنفرج الجبل، وأقام إلياس به يأكل من المباحات حتى ٱستكمل أربعين سنة، والناس قد أخذوا في عبادة الأصنام وخاضوا في المعاصي، فبعثه الله تعالى نبيًا ورسولاً، وجاءه جبريل بالوحي، وأمَره عن الله تعالى أن يتوجّه إلى الملوك والجبابرة الذين يعبدون الأصنام ويدعوَهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته،

---

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي الأعمى الحافظ المفسّر مات كهلًا سنة ١١٨هـ وعدّ من الثقات «الكشاف ٢/ ٣٤١».

(٢) كعب: هو كعب بن ماتع الحميري، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود، ويسمّى كعب الأحبار، أسلم في زمن أبي بكر وسكن حمص وتوفي بها سنة ٦٥٢، روى كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة «الأعلام ٥/ ٢٢٨».

(٣) المحاريب: جمع محراب، وهو من المسجد: أرفع مكان فيه، ومقام الإمام، وهو مجلس الناس ومجتمعهم.

(٤) انفرج: اتسع وحدثت فيه فرجة أي فتحة. (٥) نُمي الخبر: أذيع ونقل.

وأن يُرسِلوا معه بني إسرائيل وأعطاه القوّة، وأمر النار والجبال والوحش بطاعته. فأنطلق إلياس إليهم وهم في سبعين قرية، كلّ قرية منها مدينةٌ، في كلّ مدينة جبّارٌ يَسُوسهم، وكلّهم يعبدون صنمًا يُدعَى «بَعْلاً» وهو على صورة أمرأة، فصار إلياس إلى قرية من قُراهم، وكان فيها ملك يقال له «آجاب»[١]، فوقف بالقُرب من قصره، وقرأ التوراة بأطيب نغمة، فسمعه الملك، فقال لأمرأته: ألاَ تسمعين؟ ما أطيبَ هذا الصوت! فقامت المرأة إليه وأشرفت عليه من أعلى القصر وسألته عن حاله وخبره، فأخبرها أنه رسول الله. قالت: وما حُجَّتك على دعواك؟ فاستدعَى النار فجاءت إليه وشهِدتْ بنبوّته وصدّقْته، فأخبرت المرأةُ زوجَها بما رأت منه، فجاء إليه وآمن به هو وأمرأتُه، وأوصاه بالصبر والجهاد، وأنصرف إلياس. حتى إذا كان يومُ أجتماع القوم وقد خرجوا بزينتهم ونصبوا صنمهم بَعْلاً وقف عليهم ودعاهم إلى الإيمان، فقال فيما أخبر الله تعالى به عنه: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٦] فقالوا له: من أنت؟ فقال: أنَسيتموني بعد أن كنتُ فيكم ومعكم! أنا إلياس. فحثَوا[٢] في وجهه التراب ورمَوْه بالحجارة من كلّ جانب. وكان ملِكُهم الأكبر يقال له «عَاميل»، فأمر بزيت فغُليَ في قِدْر نحاس وقال لإلياس: إنْ رجعتَ وإلاّ طرحتُك فيه! فقال: أنا وحيدٌ في أرضكم، فريدٌ في جمعكم، ولكنِّي أُريكم آيةً تدلّ على صدق دعوايَ أنّي رسول الله إليكم. فقال له الملِك نعم. فقال إلياس: أيّتها ٱلنار اخْمُدِي بإذن الله تعالى، فَخَمَدت وسكن غَلَيان الزيت، فعجِب الناسُ من ذلك. قال الملِك: قد أتيتَ بحجّة، ولكن أمهِلْنا يومًا لننظر في أمرك. ففارقهم وأتاهم من الغد ودعاهم، فجمع الملِك ملوكَ قومِه وعلماءَهم وقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال العلماء: إنّا نرى في التوراة صفةَ هذا الرجل أنّه يُبْعَثُ نبيًّا تُسَخَّر له النار والأُسود والجبال، وأنه لا يسمع أحدٌ صوته إلاّ ذلّ وخضع له.

---

(١) (ملك يقال له آجاب) آجاب بالجيم كذا رواه بعضهم ونقل المصحح عن الطبري (آحاب) بالحاء المهملة وقوله هذا موافق لما جاء في أسفار أهل الكتاب. ويقال في اسمه أيضًا (آخاب) بالخاء المعجمة وكأنه بالمعجمة هو الأصل العبراني فلما عربته العرب نطقته بالحاء المهملة كما هو الدأب في تعريب الألفاظ العبرانية فإذا كان الأمر كذلك وجب أن يُعوَّل على (آحاب) بالمهملة لا آجاب بالجيم. وهكذا نقول في الأعلام الأخرى التي وردت في هذا الكتاب وقد كثر الخلاف في ضبطها: ينبغي أن يرجع فيها إلى ما قاله أمثال الطبري من ثقات مؤرخينا ولا سيما إذا كان معزَّزًا برواية أهل الكتاب: فإنهم مصدَّقون في ما كان شأنًا من شؤونهم ما لم يخالف الثابت في شريعتنا.

(٢) حثوا: رموه.

فقال بعض علمائهم: أيها الملِك، كَذَب هؤلاء فيما ذكروه، وهذا ساحر، فلا يهولنّك أمره، فبسط العذاب على أولئك النفر، فاْشتدّ ذلك على إلياس، وخالفه الملك «آجَاب» الذي كان قد آمَنَ به، ففارقته زوجته ولحِقتْ بإلياس؟ وكانت من الصالحات.

قال: واْتخذ إلياس عَرِيشًا[١] بالقُرْب من قصر الملك «عَامِيل»، فأشرفتْ اْمرأةُ عاميل عليه في بعض الليالي وهو يعبد الله تعالى، فنظرتْ إلى عمود من نور من لدن[٢] العريش حتى السماء فأمنتْ ولحِقتْ به، فأمر زوجُها أن تُلْقَى في النار، فألقِيتْ فيها، فدعا إلياس عليه السلام الله تعالى لها، فلم تعمل النار فيها شيئًا، فأطلقها الملك، فلَحِقَتْ بإلياس. ثم مات ولدٌ لعاميل الملِكِ فجزِع عليه وتضرّع إلى صنمه فلم يُغن عنه شيئًا، فغضب وقال لإلياس: إن اْبني قد مات وعَجَزَ إلٰهي عن إحيائه، فهل تقدِر أن تُحييَه؟ فقال: هذا على ربِّي هيِّن، ودعا الله تعالى، فقام الغلام يشهد أن لا إله إلا الله، وأن إلياس عبدُه ورسولُه، فآمن الملِك وخرج عن المُلْك وتبع إلياسَ ولبس الصوف وعبدَ اللّهَ تعالى حتى مات، وماتت زوجتُه واْبنُه. واْستمرّ القوم في ضلالهم وكفرهم ما شاء الله، وإلياس يدعوهم فلا يجيبونه، فأوحى الله تعالى إليه أنِ اْدْعُهم وأنذرْهم، فإن آمنوا وإلاّ حبستُ عنهم الغيث واْبتليتُهم بالقحط. فدعاهم فقالوا: إنّا لا نؤمن بك ولا بربّك، فاصنع ما أنت صانع. فحبس الله عزّ وجلّ عنهم المطر، وغارت[٣] العيون وجَفّت الأشجار، فأكلوا ما عندهم حتى نَفِد، ثم أكلوا المواشيَ حتى أكلوا الكلاب والسنانير والفئران، وبلغ بهم الجوع حتى كانوا يأكلون مَنْ مات منهم، وإلياس بينهم وهم لا يرونه، ويدعونه وهو لا يجيبهم، وكان الله تعالى قد جعل أمر أرزاقهم إليه، فأوحى الله إليه أن السماءُ والأرض ومن عليها قد بكت على هؤلاء، وقد هلك كثير من خَلْقي بسببهم، وكلٌّ يدعوك ولا ترحمهم، فأنصِفْ خَلْقي يا إلياس، فإني أُعْصَى فأرزُق، وأُكْفَر فأحلُم. ففزع إلياس وقال: يا ربّ ما غضبتُ إلا لك، وأنت أعلم بمصالح عبادك. فأوحى الله إليه أنْ سِرْ إليهم واْدْعُهم، فإن آمنوا وإلاّ كنتُ أرأفَ بهم منك.

قال: فاْنطلق إلياس حتى صار إلى أوّل قرية من قُرى مدائنهم، فمرّ بعجوز فقال لها: هل عندك طعام؟ فقالت: وحق إلٰهي بَعْل ما ذقتُ الخبز منذ مدّة. قال: فهلاّ تؤمنين بالله! فقالت: إنّ ابني اْلْيَسَعَ على دين إلياس، ولا أراه ينتفع به وقد أشرف على الموت من الجوع. فقال له إلياس: يا اْلْيَسَع، أتحبّ أن تأكل الخبزَ؟ فصاح: كيف لي

(١) العريش: ما يستظلُّ به، والسّقف والحظيرة.
(٢) لدن: ظرف زماني ومكاني غير متمكّن، بمنزلة «عند» إلاّ أنّه أقرب مكانًا من «عند» وأخصّ منه.
(٣) غارت العيون: جفّ ماؤها ودخل جوف الأرض.

بالخبز! ومات؛ فبكت العجوز ولطمت[١]. فقال لها: إنْ أحياه الله وجاءكِ مما تأكلين أتؤمنين بالله؟ قالت نعم. فدعا الله تعالى، فقام ٱلْيَسَع وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن إلياس رسول الله، ورزقهم الله تعالى خبزًا ولبنًا، فأكلوا، وآمنت العجوز، وخرجت تُنذر قومها، فخنقوها فماتت، فٱغتمّ ٱلْيَسَعُ لذلك. فقال له إلياس: إن الله سيحييها ويجعلكما آيةً لقومكما. وخرج إلياس إلى قومه وقد ٱجتمعوا عليها يريدون أكلَها؛ فصاح بهم، فتفرّقوا عنها وقالوا: إنك أنت إلياسُ حقًّا، فدعا الله تعالى فأحياها، فأقبل القوم عليه وقالوا: ألاَ ترى ما نحن فيه منذ سبع سنين! قال: فهلاّ دعوتم صنمكم بَعْلاً ليَكشِف[٢] عنكم! قالوا: قد دعوناه فلم يُغنِ شيئًا. قال: فإن أغاثكم الله تعالى أتؤمنون؟ قالوا نعم. فسأل الله تعالى فأمطرهم، وجرت أنهارُهم وأنبتت أرضُهم، وأحيا الله من مات منهم من الجوع، فٱزدادوا كفرًا وعُتوًّا[٣]، فحذّرهم إلياس وأنذرهم وذكّرهم بنعمة الله عليهم. فقالوا: إنّ القحط قد ارتفع عنّا وهيهات[٤] أن يعود أبدًا، وإن عاد فلا نبالي، قد جمعنا في منازلنا ما يكفينا زمنًا طويلاً. فدعا اللّهَ عليهم وٱعتزلهم، وقال: قد بلّغت الرسالة. وأنك لاحق بالملائكة. فاستخلف ٱلْيَسَعَ على المؤمنين[٥]؛ فقال ٱلْيَسَعُ: يا نبيّ الله، إني ضعيف بين قوم كافرين. فأوحى الله تعالى إلى ٱلْيَسَع بذلك، وخرج إلياس عن ديار قومه في يوم جمعة، فإذا هو بفَرس يلتهب نُورًا، وله أجنحة ملوَّنة، فناداه: أقبِل يا نبيّ الله. فٱستوى على ظهره، وجاءه جبريل فقال: يا إلياس طِرْ مع الملائكة حيث شئتَ، فقد كساك الله الريش، وقَطَع عنك لذّة المطعَم والمشرَب وجعلك آدميًا مَلَكِيًّا سماويًّا أرضيًّا.

قال: ونَشَرَ الفرس أجنحته فهو يطير مع الملائكة. ثم أرسل الله عزّ وجل العذاب على قومه، فأحدقت[٦] بهم سحابةٌ من جهنم، وٱعتزلهم المؤمنون، فأحدقت السحابة بالكَفَرة، فأمطرت عليهم حجارة من العذاب. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]. قال: ثم ٱنكشفتْ عن ديارهم وقد صاروا حُمَمًا[٧] سودًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾ [الصافات: ١٢٧ ـ ١٢٨].

---

(١) لطمت: خربت خدّها وصفحة وجهها بالكف مبسوطة، أو بباطن كفّها.

(٢) يكشف عنكم: يزيل. (٣) العتوّ: الاستكبار ومجاوزة الحدّ.

(٤) هيهات: اسم فعل بمعنى «بعد».

(٥) كذا في الأصل: وهو غير واضح، وفي قصص الأنبياء للكسائي ص٢٠٨: فأوحى الله أن يا إلياس قد أدّيت الرسالة وفعلت ما أمرت به فاستخلف الآن موضعك اليسع بن أخطوب فإنه قد جعلته لك خليفة على بني إسرائيل المؤمنين.

(٦) أحدقت: أحاطت. (٧) الحمم: الفحم، أو كل ما احترق من النار.

قال: وأقام ٱلْيَسَعُ مع بني إسرائيل حتى قبضه الله تعالى.

هذا ما أورده الكسائي في أخبار إلياس وٱليسع عليهما السلام.

وأمّا ما حكاه الثعْلبيّ ـ رحمه الله ـ في هذه القصة، فإنه قال:

قال ٱبن إسحاق[١] والعلماء من أصحاب الأخبار: لمّا قبض الله حَزْقِيلَ النبيّ عليه السلام عظُمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد، ونَسُوا عهد الله تعالى إليهم في التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عزّ وجل فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيًّا. قال الثعلبيّ: وهو إلياس بن ياسين بن فِنْحَاص بن العَيْزَار بن هارون عليه السلام.

قال: وإنما كانت الأنبياء بعد موسى عليه السلام يُبْعَثون إليهم بتجديد ما نَسُوا وضيعوا من أحكام التوراة، وبنو إسرائيل يومئذ متفرّقون في أرض الشأم وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يُوشَع لمّا فتح أرض الشأم بوّأها[٢] بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحلّ سِبْطًا[٣] منهم بَعْلَبكّ ونواحيها، وهم سبط إلياس، فبعثه الله تعالى إليهم نبيًّا، وعليهم يومئذ ملك يقال له «آجاب» قد أضلّ قومه وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان يعبد هو وقومُه صنمًا يقال له «بَعْل» وكان طوله عشرين ذراعًا، وكانت له أربعة وجوه، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهم في ذلك لا يسمعون منه شيئًا إلاّ ما كان من أمر الملِك الذي كان ببعلبك[٤] فإنه صدّقه وآمن به، وكان إلياس عليه السلام يقوِّم أمرَه ويسدّدُه ويُرشدُه، وكان لآجَاب الملك هذا ٱمرأة يقال لها «أرايل»[٥]، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غَزَاة أو غيرها، فكانت تبرُز للناس كما يبرُز زوجها وتركَب كما يركَب، وتجلس في مجلس القضاء فتَقضِي بين الناس، وكانت قتّالَةً للأنبياء، وكان لها كاتب وهو مؤمن حكيم يكتمها إيمانَه، وكان الكاتب قد خَلَّص من يدها ثلاثمائة نبيّ كانت تريد قتلَ كلِّ واحد منهم إذا بُعث، سوى الذين قتلتْهم ممن يكثُر عددهم؛ وكانت في نفسها غيرَ مُحْصَنَةٍ[٦] ولم يكن على وجه الأرض أفحشُ منها،

---

(١) ابن إسحاق: هو محمد بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرّخي العرب من أهل المدينة، له «السيرة النبويّة» التي هذّبها ابن هشام، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١هـ «الأعلام ٦/ ٢٨».

(٢) بوّأها بني إسرائيل: أي أنزلهم وأحلّهم فيها، أورثهم إيّاها.

(٣) السبط من اليهود: كالقبيلة من العرب.

(٤) بعلبك: مدينة قديمة فيها آثار عظيم وقصور على أساطين من الرخام لا نظير لها في الدنيا. بينها وبين دمشق ثلاثة أيام «معجم البلدان».

(٥) في قصص الأنبياء للثعلبي ص١٩٩ «أربيل».

(٦) غير محصنة: أي غير محافظة على عرضها.

وهي مع ذلك قد تزوّجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل وقتلتهم كلَّهم بالاْغتيال؛ وكانت معمَّرة حتى يقال: إنها ولَدتْ سبعين ولدًا. وكان لآجاب هذا جارٌ من بني إسرائيل رجل صالح يقال له «مزدكِي» وكانت له جُنَينة يعيش منها ويُقبِل على عمارتها ومَرَمّتها(١)، وكانت الجُنَينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، فكانا يُشرفان على تلك الجُنَينة ويتنزّهان فيها، ويأكلان ويشربان ويَقِيلان(٢) فيها، وكان «آجَاب» في ذلك يُحسِن جِوار «مزدكي» صاحبها ويُحسِن إليه، وامرأته «أرايل» تَحْسُده على ذلك لأجل تلك الجُنَينة، وتحتال في أن تغتصبها منه لمّا تسمع الناس يذكرون الجُنَينة، ويتعجبون من حسنها ويقولون: ما أحرى(٣) أن تكون هذه الجُنَينة لأهل هذا القصر، ويتعجّبون من الملك وامرأته كيف لم يَغصباها صاحبَها. فلم تزل المرأة تحتال على العبد الصالح «مزدكي» أن تقتله وتأخذ جُنَينَته، والملِك ينهاها عن ذلك. ثم اتفق خروج الملِكِ إلى سفر بعيد وطالت غيبته، فاْغتنمت المرأةُ غَيبة الملك واْحتالت على «مزدكي» صاحب الجُنَينة، وهو غافل عما تريد مُقبِلٌ على عبادة ربه وإصلاح جنينته، فجمعت «أرايل» جمعًا من الناس وأمرتْهم أن يشهدوا على «مزدكي» أنه سبّ زوجها الملكَ «آجَاب»، فأجابوها إلى ملتمسها من الشهادة عليه، وكان حُكمهم في ذلك الزمان على من سبّ الملِك القتلَ إذا قامت البينة عليه بذلك. فأحضرت «مزدكي» وقالت: بلغني أنك سببت الملك وعبته، فأنكر ذلك. فقالت: إنّ عليك شهودًا، وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بحضرة الناس، فأمرت بقتل «مزدكي»، فقُتل وأُخذت جُنَيْتُه غَصْبًا، فغضِب الله عزّ وجل عليهم للعبد الصالح. فلمّا قدم الملِكُ من سفره قال لها: ما وُفِّقتِ وما أصبت، ولا أرانا نُفلح بعده أبدًا، وإنْ كنّا عن جُنَينته لأغنياء، قد كنّا نتنزّه فيها، وقد جاوَرَنا(٤) وتحرّم بنا منذ زمان طويل، فأحسنّا جِوَارَه، وكفَفنا عنه الأذى لوجوب حقّه علينا، فختمتِ أمره بأسوأ حال الجِوَار. وما حملَكِ على اْجترائِك عليه إلاّ سَفَهُكِ وسوء رأيِك وقلّةُ عقلِك وقلّةُ تفكّرك في العواقب. فقالت: إنما غضِبتُ لك وحكمتُ بحكمك. قال: أو ما كان يَسَعُه حلمُك ويَحْدُوكِ(٥) عِظَمُ خَطَرِك على العفو عن رجلٍ واحدٍ فتحفظين له جوارَه! قالت: قد كان ما كان.

---

(١) المرمّة: متاع البيت.

(٢) يقيلان فيها: من قال يقيل قيلاً، أي نام وسط النّهار، والقيلولة: هي الغفوة وسط النّهار في الظلّ.

(٣) ما أحرى: ما أجدر.

(٤) تحرّم بنا: أي استجار ونزل في حرمتنا.

(٥) يحدوك: يدفعك ويبعثك.

فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى «آجاب» الملِكِ وقومه، وأمره أن يخبرهم أنّ الله تعالى قد غضب لوليّه حين قتلوه بين أظهُرِهم ظلمًا، وآلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يردّا الجُنَينة على ورثة «مزدكي» أن يُهلكهما، يعني «آجاب» وٱمرأته، في جوف الجنينة أشر ما يكون بسفك دمهما، ثم يدعهما جيفتين مُلقاتين فيها حتى تتعرّى عظامُهما من لحومهما، ولا يُمتَّعان بها إلا قليلاً.

قال: فجاء إلياس عليه السلام إلى الملِك وأخبره بما أوحى الله عزّ وجل إليه في أمره وأمر ٱمرأته والجُنَينة. فلمّا سمع الملِك ذلك ٱشتدّ غضبه عليه، ثم قال له: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعونا إليه إلاّ باطلاً، والله ما أرى فلانًا وفلانًا ـ سمَّى ملوكًا منهم قد عبدوا الأوثان ـ إلاّ على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون ويتنعَّمون مملَّكين، ما يَنْقص من دنياهم أمرُهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل.

قال: وهمَّ الملِك بتعذيب إلياس وقتلِه. فلمّا سمع إلياس عليه السلام ذلك وأحس بالشرّ، رفضه وخرج عنه. فلحق بشواهق الجبال، ودعا الملِكُ[١] الناسَ إلى عبادة بَعْل، وٱرتقى إلياسُ عليه السلام أصعب جبل وأشمَخَه[٢]، فدخل مغارةً فيه. فيقال: إنه بَقِيَ فيه سبع سنين شَرِيدًا طَرِيدًا خائفًا، يأوي الشِّعاب[٣] والكهوف، ويأكل من نبات الأرض وثمارِ الشجر وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون يتوكفون[٤] أخباره ويجتهدون في أخذه، والله تعالى يستره ويدفع عنه. فلمّا تمّت له سبعُ سنين أذِن الله تعالى في إظهاره عليهم، وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله تعالى ٱبنًا لآجاب الملِك وكان أحبّ ولدِه إليه وأعزَّهم عليه وأشبهَهم به، فأدنفَ[٥] حتى يُئس منه، فدعا صنمه بَعْلاً؛ وكانوا قد فُتِنوا به وعظّموه حتى[٦] جعلوا له أربعَمائة سادِن[٧] وكّلوهم به وجعلوهم أنبياءه، وكان الشيطان يوسوس إليهم بشريعة من الضلالة، فيبيّنونها للناس فيعملون بها، ويسمُّونهم الأنبياء. فلمّا ٱشتدّ مرض ٱبنِ الملكِ طَلب إليهم أن يشفَعوا إلى بَعْل، ويطلبوا لٱبنه من قِبَله الشفاء والعافية، فدعَوْه فلم يجبهم،

---

(١) في قصص الأنبياء للثعلبي: «وعاد الملك إلى عبادة بعل».

(٢) أشمخه: أرفعه.

(٣) الشّعاب: مفردها الشِّعب وهو الانفراج بين الجبلين.

(٤) يتوكّفون أخباره: ينتظرونها ويسألون عنها.

(٥) أدنف المريض: ثقل مرضه وأدناه إلى الموت.

(٦) في قصص الأنبياء للثعلبي: «حتى سمّوا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا الخ...».

(٧) السّادن: خادم بيت العبادة.

ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الوُلوجُ في جوفه، وهم مجتهدون في التضرُّع إليه، وهو لا يزداد مع ذلك إلاّ خمودًا[١]. فلمّا طال عليهم ذلك قالوا لآجاب: إن في ناحية الشأم آلهةً أخرى، وهي في العِظَم مثلُ إلٰهك، فابْعَثْ إليها أنبياءك فليشفعوا لك إليها، فلعلها أن تشفع لك، إلى إلٰهك بَعْل فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لقد كان أجابك وشَفَى لك ٱبنَك. قال آجاب: ومن أجل ماذا غضِب عليّ وأنا أُطيعه وأطلب رضاه منذ كنت لم أُسخطه ساعةً قطّ؟ قالوا: من أجل أنّك لم تقتل إلياس وفرّطتَ فيه حتى نجا سليمًا وهو كافر بإلٰهك يعبد غيره، فذلك الذي أغضبَه عليك. قال آجاب: وكيف لي أن يقتل إلياس يومي هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ٱبني وليس لإلياسَ مطلب، ولا يُعْرَف له موضع فيُقصَد، فلو عُوفيَ ٱبني لتفرَّغتُ لطلبه، ولم يكن لي همٌّ ولا شغل غيره حتى آخُذَه فأقتله فأريحَ إلٰهي منه وأُرضيَه.

قال: ثم ٱندفعتْ أنبياؤه الأربعمائة ليَشفعوا إلى الأرباب التي بالشأم ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملِك ليشفي ٱبنه، فٱنطلقوا حتى إذا كانوا بحِيال[٢] الجبل الذي فيه إلياس أوحَى الله عزّ وجل إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضَهم ويستوقفَهم ويكلِّمَهم، وقال له: لا تَخفْ فإنّي سأصرف عنك شرَّهم، وأُلقِي الرعبَ في قلوبهم. فنزل إلياس عليه السلام من الجبل، فلمّا لقيهم ٱستوقفهم فوقفوا، وقال لهم: إنّ الله عزّ وجل أرسلني إليكم وإلى مَن وراءكم، فٱستمعوا أيّها القوم رسالةَ ربكم لتبلغوا صاحبكم، فٱرجِعوا إليه وقولوا له: إنّ الله تعالى يقول لك: ألستَ تعلم يا آجاب أنّي أنا الله لا إلٰه إلاّ أنا إلٰهُ بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم، أفجهلُك وقلّةُ علمِك حملك على أن تُشرك بي وتطلبَ الشفاء لٱبنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئًا إلاّ ما شئتُ. إني حلفتُ بٱسمي لأغيظنّك في ٱبنك ولأُميتنّه في فوري هذا حتى تعلم أنّ أحدًا لا يملك له شيئًا دوني. فلمّا قال لهم إلياس هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رعْبًا. فلمّا صاروا إلى الملك قالوا له ذلك، وأخبروه أنّ إلياس ٱنحطّ عليهم، وهو رجلٌ نحيفٌ طُوالٌ[٣] قد قَشِفَ[٤] وقَحِلَ[٥] وتمعَّط[٦] شَعرُه وتقشَّر جلدُه، عليه

(١) الخمود: الركون، وخمدت النار: سكنت.

(٢) حيال الجبل: قبالته وإزاؤه. (٣) طوال: أي طويل.

(٤) قشف: يقال: قشف فلان: إذا كان رثّ الهيئة أو يبس عيشه، أو قذر جلده وخشن لأنه لم يتعهّده بالنظافة.

(٥) قحل: يبس، ومنه تقحّل الشيخ: إذا يبس جلده من البؤس والكبر.

(٦) تمعّط شعره: تمرّط وسقط من داء يعرض له.

جبّة[١] من شعر وعباءة قد خلّها[٢] على صدره بخِلال، فاستوقفَنا، فلمّا صار معنا قُذِفَتْ في قلوبنا الهيبة والرُّعب، وٱنقطعت ألسنتُنا، ونحن في هذا العدد الكثير وهو واحد، فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك، وقصّوا عليه كلامَ إلياس عليه السلام. فقال آجاب: لا ننتفع بالحياة ما دام إلياس حيًّا. ما الذي منعكم أن تبطِشوا به حين لقيتموه وتُوثِقوه وتأتوني به، وأنتم تعلمون أنه طلِبَتِي وعدوّي. قالوا: أخبرناك بالذي مَنَعنا منه ومن كلامه والبطش به. قال آجاب: ما يُطاق إذًا إلياس إلاّ بالمكر والخديعة. فقيّض له خمسين رجلاً من قومه ذوي قوّة وبأس، وعهِد إليهم عهدَه، وأمرهم بالاحتيال له والاغتيال[٣] به وأن يُطمِعوه في أنهم قد آمنوا به هم ومَن وراءهم، ليستنيم[٤] إليهم ويغترّ بهم، فيمكّنهم من نفسه، فيأتوا به الملِك. فٱنطلقوا حتى ٱرتقَوْا ذلك الجبل الذي فيه إلياس عليه السلام ثم تفرّقوا فيه وهم ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون: يا نبيّ الله، ابرُزْ لنا وأنت آمِنٌ على نفسك فإنا قد آمنا بك وصدّقناك، وملكنا آجاب، وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون: قد بلّغتَنا رسالةَ ربّك، وعرفنا ما قلتَ، وآمنّا بك، وأجبناك إلى ما دعوتَنا، فهلمّ إلينا فأنت نبيُّنا ورسولُ ربّنا، فأقِم[٥] بين أظهرنا وٱحكم فينا؛ فإنّا ننقاد لما أمرتَنا، وننتهي عمّا نهيتَنا، وليس يسعك أن تتخلّف عنّا مع إيماننا وطاعتنا، فتَدارَكْنا وٱرجِع إلينا. وكلّ هذا كان منهم مُماكرةً وخديعةً. فلمّا سمع إلياس عليه السلام مقالَتهم وقعتْ بقلبه وطمِع في إيمانهم وخاف الله تعالى وأشفق من سُخْطه إن هو لم يَظهَر لهم ولم يُجبهم بعد الذي سمع منهم. فلمّا أجمع على أن يبرُز لهم رجع إلى نفسه فقال: لو أنّي دعوتُ الله عزّ وجلّ وسألتُه أن يُعلِمني ما في أنفسهم ويُطْلِعَني على حقيقة أمرهم. فقال: اللهمّ إن كانوا صادقين فيما يقولون فأْذَنْ لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فٱكفنيهم وٱرمِهم بنار تُحرِقهم. فما ٱستتمّ قوله حتى حُصِبُوا[٦] بالنار من فوقهم، فٱحترقوا أجمعين.

قال: وبلغ آجابَ الخبرُ فلم يرتدع، وٱحتال ثانيًا في أمر إلياس، وجهّز فئةً أُخرى مثلَ عدد أولئك أقوى منهم وأمكنَ في الحيلة والرأي، فأقبلوا حتى ٱرتقَوْا

---

(١) الجبّة: ثوب سابغ واسع الكمّين مشقوق المقدّم، يلبس فوق الثياب.

(٢) خلّها على صدره: أي جمع أطرافها بخلال، والخلال: عودٌ يثقب به.

(٣) الاغتيال به: لعل المراد هنا أخذه من حيث لا يدري على حين غفلة.

(٤) يستنيم إليهم: يميل ويأمن جانبهم فلا يفرّ منهم أو يحاذرهم.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي.

(٦) حُصبوا بالنار: رُميوا بها.

قُلَل(١) تلك الجبال متفرقين(٢)، وجعلوا ينادون: يا نبيّ الله، إنّا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسَطَواته. إنّا لسنا كالذين أتَوك من قَبْلنا، إنّ أولئك فرقة نافقتْ وخالفتْنا، فصاروا إليك ليكيدوك(٣) من غير رأينا ولا علم منّا، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك، وخرجوا إليك سرًّا، ولو علِمنا بهم لقتلناهم ولَكفيناك مؤنتهم، والآن فقد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم بسوء نيّاتهم وأنتقم لنا ولك منهم. فلمّا سمع إلياس عليه السلام مقالَتهم دعا الله تعالى بدعوته الأولى، فأمطر الله عليهم النار، فأحترقوا عن آخرهم، كلّ ذلك وأبن الملِك في البلاء الشديد من وجعه ـ كما وعده الله تعالى على لسان نبيّه إلياس ـ لا يُقْضَى عليه فيموت، ولا يخفَّف عنه من عذابه.

قال: فلمّا سمع الملِك بهلاك أصحابه ثانيًا أزداد غضبًا إلى غضبه، وأراد أن يخرج(٤) في طلب إلياس بنفسه، إلاّ أنه شغله عن ذلك مرضُ أبنه فلم يمكنه، فوجّه نحو إلياسَ الكاتبَ المؤمنَ الذي هو كاتب أمرأته رجاءَ أن يأنَس به إلياس فينزلَ معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءًا. وإنما أظهر له ذلك لَما أطّلع عليه من إيمانه، وكان الملِك مع أطّلاعه يغُضّ عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسَدادِ الرأي، فوجّهه نحوه، وأرسل معه فئةً من أصحابه،وأوعَزَ إلى الفئة دون الكاتب أن يُوثِقوا إلياس ويأتُوه به إن أراد أن يتخلّف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقًا به آنسًا بمكانه لم يُوحِشُوه ولم يروّعوه، ثم أظهر آجاب للكاتب الإنابة(٥) وقال: إنه قد آن لي أن أتوب وأتّعظ، وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني؛ وقد عرفتُ أنّ ذلك بدعوة إلياس، ولستُ آمَنُ أن يدعوَ على جميع مَن بقِي منّا فَنهلِك بدعوته. فأنطلِقْ إليه وأخبره أنّا قد تُبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضا ربّنا وخلعِ أصنامنا إلاّ أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا، ويُخبِرُنا بما يرضَى به ربُّنا. وأمر الملِك قومه فأعتزلوا الأصنام، وقال له: أخبر إلياس بأنّا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد وأرجأنا(٦) أمرَها حتى ينزل إلياس إلينا، فيكون هو الذي يُحرِقها ويُهلِكها وكان ذلك مكرًا من الملك. فأنطلق الكاتب والفئةُ حتى عَلُوا الجبل

---

(١) قُلل الجبال: مفردها قُلّة، بضمّ القاف، وقُلّة كل شيء قمته وأعلاه.

(٢) ما بين قوسين زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي.

(٣) في قصص الأنبياء للثعلبي «ليمكروا بك».

(٤) في الأصل «إلى طلب إلياس» والتصويب عن الثعلبي.

(٥) الإنابة: التوبة والرّجوع عن الغيّ والضلال.

(٦) في الأصل: وأرجينا أمرنا والتصويب عن الثعلبي.

الذي فيه إلياس عليه السلام ثم ناداه الكاتب، فعرف إلياس صوتَه، فتاقتْ نفسُه إليه وأنِسَ بمكانه وكان مشتاقًا إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أنِ ٱبرُز إلى أخيك الصالح فٱلْقَه وجدِّد العهدَ به، فبرز إليه إلياس وسلَّم عليه وصافحه، وقال له: ما الخبر؟ قال له المؤمن: إنّه قد بعثني إليك هذا الجبّار الطاغيةُ وقومُه، ثم قصّ عليه ما قالوا، ثم قال: وإنِّي خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معي أن يقتلني، فمُرْني بما شئتَ أن أفعلَه وأنتَهيَ إليه، [إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه، وإن شئتَ جاهدتُه معك][(١)] وإن شئتَ فأرسلني إليه بما تحبّ فأبلّغه رسالتك، وإن شئتَ دعوتَ ربّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا.

قال: فأوحى الله عزّ وجل إلى إلياس عليه السلام أنّ كلّ شيء جاؤوك به مكرٌ وخديعةٌ ليَظفَروا بك، وأن «آجاب» إن أخبرتْه رسلُه أنّك قد لَقِيتَ هذا الرجل ولم يأتِ بك إليه ٱتّهمَه وعرفَ أنه قد داهن[(٢)] في أمرك، فلم يأمن أن يقتله، فٱنطلِقْ معه فإنّ في ٱنطلاقك معه عذره وبراءته عند آجاب، وإني سأشغَل عنكما آجاب، وأضاعِفُ على ابنه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره، وأُمِيته على شرّ حال، فإذا مات فٱرجِع عنه ولا تُقِم. فانطلَق معهم حتى قَدِموا على آجاب، فلمّا قدموا عليه شدّد الله تعالى على ابنه الوجع، وأخذه الموت، فشَغَل الله تعالى آجاب وأصحابه بذلك عن إلياس، فرجع إلياس سالمًا إلى مكانه. فلمّا مات ابن آجاب وفرغوا منه وقلّ جزعه، انتبَه لإلياس وسأل عنه الكاتبَ الذي جاء به، فقال: ليس لي به علم، وذلك أنّه شغلني عنه موتُ ابنِك والجزعُ عليه، ولم أكن أحسبك إلاّ قد ٱستوثقتَ منه. فأضرب[(٣)] عنه آجاب وتركه لما كان فيه من الحزن على ابنه. فلمّا طال الأمر على إلياس ملّ الكُمُونَ[(٤)] في الجبال والمُقامَ بها وٱشتاق إلى العُمْران وإلى الناس فنزل من الجبل، وٱنطلق حتى نزل بٱمرأة من بني إسرائيل، وهي أمّ يونس بن متّى [ذي النون. فٱستخفى عندها ستة أشهر][(٥)]، ويونس يومئذ مولودٌ يرضع، وكانت أُمّ يونس تخدِمُه بنفسها، وتواسيه بذات يدها، ولا تدّخر عنه كرامة[(٦)] تقدِر عليها.

ثم إنّ إلياس سئم ضِيق البيوت بعد مُقامِه بالجبال وسَعَتها، فأحبّ أن يلتحقَ بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه، فجزِعتْ أمّ يُونس لفراقه وأوحشَها فقدُه، ثم لم تَلبث إلاّ يسيراً حتى مات ٱبنها [يونس] حين فطمتْه، فعظمتْ مصيبتها فيه، فخرجتْ في

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٢) داهن: نافق وغشّ وخدع.
(٣) أضرب عنه: أعرض.
(٤) الكمون: الاستتار والإقامة.
(٥) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٦) الكرامة: المعروف والإحسان والخدمة.

طلب إلياس، فلم تَزل تَرقى الجبال وتطُوف [فيها][١] حتّى عثرت عليه ووجدتْه، فقالت: إنِّي قد فُجِعْتُ بموت ٱبني بعدَك، فعظمت فيه مصيبتي، وٱشتدّ لفقده بلائي، وليس لي ولد غيرُه، فٱرحمني وٱدْعُ ربّك جلّ جلاله فيحيي لي ٱبني، ويجبر مصيبتي، وإني قد تركته مسجًّى[٢] لم أدفنه، وإني قد أخفيتُ مكانه. فقال لها إلياس: ليس هذا ممّا أُمرتُ به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني به ربّي، ولم يأمرني بهذا. فجزعتِ المرأة وتضرَّعتْ، فعطّف الله سبحانه وتعالى قلبَ إلياس عليها، فقال لها: ومتَى مات ٱبنُكِ؟ قالت: منذ سبعة أيام. فٱنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى ٱنتهى إلى منزلها فوجد ٱبنَها يونس ميتًا منذ أربعة عشر يومًا، فتوضّأ وصلَّى ودعا الله فأحيا الله تعالى يونسَ بنَ متّى بدعوة إلياس. فلمّا عاش وجلس وثب إلياس وٱنصرف وعاد إلى موضعه. والله أعلم.

ذكر دعاء إلياس على قومه، وما حلّ بهم من القحط وخبر ٱلْيَسَع حين ٱتّبع إلياس

قال: ولمّا طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذَرْعًا[٣] وأجهده البلاء، فأوحى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهودٌ: يا إلياس، ما هذا الحزن والجَزَع الذي أنت فيه! ألستَ أميني على وحيي، وحُجّتي في أرضي، وصفوتي من خَلْقي! فسَلْني أعطِك فإنِّي ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم. قال: تميتُنِي فتُلحقني بآبائي، فإنّي قد مَلِلتُ بني إسرائيل ومَلُّوني، وأبغضتُهم فيك وأبغضوني. فأوحَى الله تعالى إليه: يا إلياس، ما هذا باليوم الذي أُعرِي منك الأرضَ وأهلَها، وإنّما قِوامُها وصلاحُها بك وبأشباهِك إن كنتم صبرتم قليلاً، ولكن تسألني فأعطيك. قال إلياس: فإن لم تُمِتني يا إلهي فأعطني ثأري من بني إسرائيل. قال الله تعالى: وأي شيء تريد أن أعطيَك يا إلياس؟ قال: تمكنني من خزائن السماء سبعَ سنين، فلا تُنشِىء[٤] عليهم سحابةً إلاّ بدعوتي، ولا تُمطِر عليهم سبعَ سنين قطرةً إلاّ بشفاعتي، فإنهم لا يُذِلّهم إلاّ ذلك. قال الله تعالى: يا إلياس، أنا أرحم بخَلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: ستَّ سنين. قال: أنا أرحم بخَلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين. قال: فخمس سنين. قال: أنا أرحم بخَلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين، ولكني أُعطيك ثلاثَ سنين

---

(١) زيادة عن الثعلبي. (٢) مسجّى: مغطّى.

(٣) ضاق بالأمر ذرعًا: لم يقدر عليه، وأصابه القلق والتبرُّم.

(٤) لا تنشىء: يقال: نشأت السّحابة: أي ارتفعت وبدت وأنشأها الله: رفعها وأبداها.

أجعل خزائن المطر بيدك، فلا تَنشَأُ عليهم سحابةٌ إلاّ بدعوتك، ولا تَنزِل عليهم قطرةٌ إلاّ بشفاعتك. قال إلياس: فبأيّ شيء أعيش؟ قال: أُسخِّر جيشًا من الطير تنقل إليك طعامَك وشرابك من الريف والأرض التي لم تَقْحَط. قال إلياس: قد رضيت. قال: فأمسك الله عزّ وجل عنهم المطر حتى هلكت الماشيةُ والدوابُّ والهوامُّ[١] والشجرُ وجُهِد[٢] الناس جَهْدًا شديدًا وإلياسُ على حالته مُستخفٍ من قومه يوضع له الرزقُ حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومُه، فكانوا إذا وجدوا ريحَ ٱلخبز في بيت قالوا: لقد دخل إلياس هذا البيتَ وطلبوه، ولقِيَ أهلُ ذلك المنزل منهم شرًّا.

قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: أصاب بني إسرائيل ثلاثَ سنين القحطُ، فمرّ إلياس عليه السلام بعجوز فقال لها: هل عندكِ طعام؟ قالت: نعم، شيء من دقيق وزيت قليل. فجاءته بشيء من الدقيق والزيت، فدعا فيهما بالبركة ومسّهما، فبارك الله في ذلك حتى ملأت جُرُبَها[٣] دقيقًا وملأت خَوابِيَها زيتًا. فلمّا رأوْا ذلك عندها قالوا: من أين لك هذا؟ قالت: مرّ بي رجل من حاله كذا وكذا، فوصفت صفتَه، فعرفوه وقالوا: ذلك إلياس؛ فطلبوه فوجدوه فهربَ منهم.

ثم أوى ليلةً إلى بيت ٱمرأة من بني إسرائيل لها ٱبن يقال له: ٱلْيَسَع بن أخطوب به ضرّ[٤]، فآوتْه وأخفتْ أمرَه، فدعا له فعُوفيَ من الضرّ الذي كان به، وٱتّبع ٱلْيَسَعُ إلياسَ وآمن به وصدّقه ولزمه، وكان يذهب به حيثما ذهب، وكان إلياس قد أسنّ وكَبِر، وكان ٱلْيَسَعُ غلامًا شابًّا.

ذكر رفع البلاء عن قوم إلياس بدعوته واستمرارهم على الكفر ورفع إلياس وهلاك آجاب الملك وٱمرأته، ونبوّة ٱلْيَسَع

قال: ثم أوحَى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام إنك قد أهلكتَ كثيرًا من الخلق ممن لم يَعْصِ سوى بني إسرائيل من البهائم والدوابّ والطير والهوامّ والشجر بحبس المطر عن بني إسرائيل. فيزعمون ـ والله أعلم ـ أنّ إلياسَ قال: يا ربّ دَعْني أكُنِ الذي أدعو لهم وآتيهم بالفرج ممّا هم فيه من البلاء الذي أصابهم لعلّهم أن

---

(١) الهوام: المراد بها الحشرات والزواحف.
(٢) جُهد الناس: أصابهم الإنهاك والتعب والجدب.
(٣) الجُرُب: جمع جراب، وهو وعاء يحفظ فيه الزّاد ونحوه.
(٤) الضرّ: ما كان من سوء حال أو فقر أو شدّة في بدن.

يرجعوا ويَنزِعوا[١] عمّا هم عليه من عبادة غيرِك. قيل له: نعم. فجاء إلياس عليه السلام إلى بني إسرائيل فقال لهم: إنكم قد هلكتم جوعًا وجَهْدًا، وهلكت البهائمُ والدّوابُ والطيرُ والهَوَامُ والشجرُ بخطاياكم، وإنكم على باطل وغرور. فإن كنتم تحبُّون أن تعلموا ذلك فأخرجوا بأصنامكم هذه، فإن ٱستجابت لكم فذلك كما تقولون، وإن هي لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنَزعتم، ودعوتُ الله عزّ وجلّ ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفتَ. فخرجوا بأوثانهم فدعَوْها فلم تستجب لهم، ولم تفرّج عنهم ما كانوا فيه [من البلاء][٢]. ثم قالوا لإلياس: يا إلياس، إن الله قد أهلكنا، فٱدعُ الله لنا. فدعا اللّهَ تعالى لهم ومعه[٣] ٱليسع بالفرج ممّا هم فيه وأن يُسقَوْا، فخرجت سحابةٌ مثل التُرْس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبَّقت[٤] الآفاق، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر [فأغاثهم][٥] وحيِيَتْ بلادهم.

فلمّا كشف الله تعالى عنهم الضُرّ نقضوا العهد ولم يَنزِعوا عن كفرهم، ولم يُقلِعوا[٦] عن ضلالتهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه. فلمّا رأى إلياس عليه السلام ذلك دعا الله تعالى أن يريحه منهم؛ فقيل له ـ كما يزعمون ـ: أُنظرْ[٧] يومَ كذا وكذا فٱخرُجْ فيه[٨] إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فٱركبه ولا تَهَبْه. فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذي أُمِر إلياس به، أقبلَ فرس من نار حتى وقف بين يديه، فوثبَ عليه إلياس، فٱنطلق الفرسُ به، فناداه ٱليسع، يا إلياس: ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائه من الجوّ الأعلى، كان ذلك علامةَ ٱستخلافه إيّاه على بني إسرائيل، فكان [ذلك][٩] آخر العهد به. ورفع الله عزّ وجلّ إلياسَ من بين أظهُرهم، وقطع عنه لذَّة المطعم والمَشرَب، وكساه الرِّيش، فكان إنسيًّا مَلَكيًّا أرضيًّا سماويًّا، وسلّط الله على آجاب الملِكِ وقومه عدوًّا لهم فقصدهم من حيث لم يَشعُروا [به][١٠] حتى رَهِقَهم[١١]، فقُتل آجاب وٱمرأته أرايل في بستان مزدكي، فلم تزل جِيفتاهما ملقاتَين في تلك الجُنَينة حتى بَلِيتْ لحومُهما ورَمّت عظامُهما[١٢].

(١) ينزعوا: يتخلّوا ويكفّوا.
(٢) زيادة عن الثعلبي.
(٣) في الأصل: «ومعهم» والتصويب عن الثعلبي.
(٤) طبّقت الآفاق: غطتها.
(٥) زيادة عن الثعلبي.
(٦) يقلعوا: ينتهوا ويتخلّوا.
(٧) انظر: بمعنى انتظر.
(٨) زيادة عن الثعلبي.
(٩) في الأصل: فيهم والتصويب عن الثعلبي.
(١٠) زيادة عن الثعلبي.
(١١) رهقهم: قرب منهم وأصابهم شرّه وظلمه.
(١٢) رمّت عظامهما: بليت.

ذكر نبوّة ٱلْيَسَع عليه السلام

قال أبو إسحاق رحمه الله تعالى: ولمّا رفع الله تعالى إلياسَ عليه السلام نبّأ ٱلْيَسَعَ وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحَى إليه وأيّده بما أيّد به عبدَه إلياس؛ فآمنتْ به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه وينتهُون إلى أمره، وحُكْمُ الله تعالى قائمٌ فيهم إلى أن فارقهم ٱلْيَسَع عليه السلام.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله بسند رفعه إلى عبد العزيز بن أبي روّاد[١] قال: إلياسُ والخَضِرُ[٢] عليهما السلام يصومان شهرَ رمضان ببيت المقدس، ويوافيان الموسمَ في كلّ عام.

وروي بسند رفعه إلى زيدٍ مَولى عون الطُّفَاوِيّ[٣] عن رجل من أهل عَسْقلان[٤] أنّه كان يمشي بالأُرْدُنّ نصفَ النهار، فرأى رجلًا فقال له: يا عبد الله، من أنت؟ قال: فجعل لا يكلّمني. فقلتُ: يا عبد الله، من أنت؟ قال: أنا إلياس. قال: فوقعتْ عليّ رِعْدة[٥]، فقلتُ: أُدعُ اللّهَ يَرفع عنّي ما أجد حتى أفهم حديثَك وأعقِلَ عنك. قال: فدعا لي بثمانِ دَعَوات: يا برّ، يا رحيم، يا حنّان، يا منّان، يا حيّ، يا قيوم، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما. قال: فرفع الله عنّي ما كنتُ أجد، فوضع كفّه بين كَتِفيّ، فوجدتُ بَرْدَها بين يديّ. قال فقلت: يُوحَى إليك اليوم؟ قال: منذ بعث الله محمدًا رسوله فإنه ليس يُوحَى إليّ. قال قلتُ له: كم من الأنبياء اليومَ أحياء؟ قال: أربعة، ٱثنان في الأرض، وٱثنان في السماء، في السماء عيسى وإدريس، وفي الأرض إلياس والخضِر. قلتُ: كم الأبدال[٦]؟ قال: ستون رجلًا، خمسون منهم من لَدُن

---

(١) هو عبد العزيز بن أبي روّاد، مولى المهلّب بن أبي صفرة محدّث ثقة، عابد، من المرجئة، توفي سنة ١٥٩هـ «الكاشف ٢/ ١٧٥».

(٢) الخضر: هو العبد الصالح الذي وردت قصته في القرآن الكريم مع نبيّ الله موسى في سورة الكهف.

(٣) الطُّفاوي: بضمّ الطاء: نسبة إلى طفاوة من قيس عيلان.

(٤) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام وقد نزلها جماعة من الصحابة والتابعين وحدّث بها خلق كثير «معجم البلدان ٤/ ١٢٢».

(٥) الرّعدة: الخوف والاضطراب.

(٦) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، بهم يقيم الله عزّ وجل الأرض، قال ابن دريد: هم سبعون رجلًا، أربعون منهم بالشام وثلاثون بغيرها، وقيل: لا يموت أحدهم إلاّ قام به آخر من سائر الناس.

عَرِيش[١] مِصر إلى شاطىء الفُرَات؛ ورجلان بالمَصِّيصة[٢]، ورجلان بعَسْقلان، وستة في سائر البلدان، كلّما أذهب الله واحدًا جاء بآخر [مكانه] بهم يدفع الله عن الناس [البلاء] وبهم يُمْطَرون. قلت: فالخَضِر أين يكون؟ قال: في جزائر البحر. قلتُ: فهل تلقاه؟ قال: نعم. قلت: أين؟ قال: بالمَوْسم. قلتُ: فما يكون من حديثكما؟ قال: يأخذ من شِعْري وآخذ من شعْره. قال: وذلك حين كان بين مَرْوان بن الحَكَم[٣] وبين أهل الشأم قتال. قال: فقلتُ: ما تقول في مَرْوانَ بنِ الحَكَم؟ قال: ما تصنع به! [رجلٌ جبّار][٤] عاتٍ على الله عزّ وجلّ القاتل والمقتول والشاهد في النار.

قال قلت: فإني قد شهِدتُ فلم أطعُن برمْح ولم أرمِ بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله عزّ وجلّ أن أعود إلى ذلك المقام أو مثله أبدًا. قال: أحسنتَ، هكذا فكن.

قال: فإني وإيّاه قاعدان إذ وُضع بين يديه رغيفان أشدّ بياضًا من الثلج، أكلتُ أنا وهو رغيفًا وبعضَ آخرَ ثم رُفع، فما رأيتُ أحدًا وضعه ولا أحدًا رفعه.

قال: وله ناقة ترعى في وادي الأُرْدُنّ، فرفع رأسه إليها، فما دعاها حتى جاءت فبَرَكَتْ بين يديه فركبها. قلتُ: أُريد أن أصحبك. قال: إنك لا تقدِر على صُحبتي. قلتُ: إني خِلْوٌ ما لي زوجة ولا عيال. قال: تَزَوّجْ، وإيّاكَ والنساءَ الأربعَ، إيّاك والناشِزَ[٥]، والمختلِعةَ[٦]، والملاعنة[٧]، والمبارئة[٨]، وتزوّج ما بدا لك من النساء.

---

(١) عريش مصر: هي مدينة كانت أوّل عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم وسط الرّمل، وهي مدينة جليلة كانت حرس مصر أيام فرعون، وهي آخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر «معجم البلدان ٤/ ١١٤».

(٢) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم، تقارب طرسوس، وكانت من أشهر ثغور المسلمين وقد رابط بها الصالحون قديمًا «معجم البلدان ٥/ ١٤٤».

(٣) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص، أبو عبد الملك، خليفة أموي وإليه ينسب «بنو مروان» ودولتهم، ولد بمكة ونشأ بالطائف وسكن المدينة، مات سنة ٦٨٥م «الأعلام ٧/ ٢٠٧».

(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٥) الناشز: المرأة التي تكره زوجها وتبغضه وتستعصي عليه فيضربها ويجفوها.

(٦) المختلعة: المرأة التي تبذل مالاً لزوجها ليطلّقها.

(٧) الملاعنة: المرأة التي يرميها زوجها برجل أنّه زنى بها، فالإمام يلاعن بينهما. (انظر القرآن الكريم سورة النور الآيات ٦ ـ ٩).

(٨) المبارئة: المرأة التي تبرىء الرجل من حقوقها للمفارقة.

قال: قلت: فإني أحبّ لقاءك. قال: إذا رأيتني فقد رأيتني، ثم قال: إني أريد أن أعتكف في بيت المقدس في شهر رمضان. قال: ثم حالت بيني وبينه شجرة، فوالله ما أدري كيف ذهب.

فهذا ما أورده في خبر إلياس وألَيسع عليهما السلام. والله أعلم.

ذكر خبر عَيْلى وأشمويل(١) وما يتّصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: قال وهبُ بنُ مُنَبِّه: لمّا قبض الله تعالى ٱلْيَسَعَ عليه السلام أخلفت في بني إسرائيل الخلوف(٢)، وعَظُمتْ فيهم الخطايا، وكان عندهم تابوت يتوارثونه صاغِرًا عن كابرٍ(٣)، فيه السَّكِينة(٤) وبقيّة(٥) ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون، وكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدِّمون التابوتَ إلاّ هَزَم الله ذلك العدوّ. وكان الله تبارك وتعالى قد بارك لهم في جَبَلهم، لا يدخله عدوّ، ولا يحتاجون معه إلى غيره. وكان أحدهم ـ فيما يذكرون ـ يضع الترابَ على الصَّخْرة ثم ينثر فيه الحَبّ فيُخرِجِ اللّهُ تعالى له ما يأكله سنةً هو وعيالُه. ويكون لأحدهم الزيتونةُ فيعتصر منها ما يأكله سنةً هو وعيالُه. فلمّا عَظُمتْ أحداثهم وكثرتْ ذنوبهم وتركوا عهدَ الله إليهم سلّط الله عليهم العمالقة ـ وهم قوم [كانوا](٦) يسكنون غَزّة(٧) وعَسْقلان وساحلَ بحر الروم ما بين مصرَ

---

(١) في الكتاب المقدّس ١/ ٤٤٥ «حموئيل». (٢) الخلوف: من لا خير فيهم من الأجيال.

(٣) قوله (يتوارثونه ـ أي التابوت ـ صاغرًا عن كابر) الصاغر الذليل وضده الكابر وهو الرفيع الشأن أو الذي فاق غيره في رفعة الشأن ويقال: توارثوا المجد كابرًا عن كابرٍ أي شريفًا بعد شريف. ويظهر أن هذا التعبير من قبيل الأمثال والأمثال لا تغير. وقد ذكره أرباب المعاجم بهذا التركيب وعلى هذا الشكل فقط ولم نرهم ذكروا (صاغرًا عن كابر) وكأن من ابتدع هذا التركيب ظنّ أن (الصاغر) بمعنى الصغير و(الكابر) بمعنى الكبير على معنى أن الصغير تلقى المجد عن الكبير. وليس الأمر كما توهم وإنما معنى الصاغر والكابر ما قلنا. والمقام هنا أي في كلام المؤلف يستدعي أن يقال (كابرًا عن كابر) أي أن تابوت العهد كان يقوم بحفظه وكلأته نبي بعد نبي أو شريف بعد شريف من بني إسرائيل. أما أن صاغرًا ذليلاً من شعب إسرائيل يقوم بحفظ التابوت بعد أن يكون في حفظ شريف منهم وكلأته ـ فهذا غير مراد ولا متصور الوقوع فصواب العبارة ما قلنا وقالته المعاجم وتوارثنا استعماله كابرًا عن كابر من شيوخنا وبلغاء كتابنا.

(٤) السكينة: قال ابن عطيّة: الصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى «انظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩».

(٥) البقية: قال أبو صالح: البقيّة: عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة «انظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠».

(٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٧) غزّة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقلّ، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان «معجم البلدان ٤/ ٢٠٢».

وَفِلَسْطين ـ وكان جالوت الملك منهم فظهروا على بني إسرائيل، وغلبوهم على كثير من أرضهم وسبَوْا كثيرًا من ذرارِيهم[١] وأسروا من أبناء ملوكهم أربعَمائة وأربعين غلامًا، فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا تَوْراتهم، ومكثوا على اضطراب من أمرهم واختلافٍ من حالهم يتمادَوْن أحيانًا في غيّهم[٢] وضلالتهم، فسلّط الله عليهم مَن ينتقم منهم ليراجعوا التوبة، حتى بعث الله تعالى فيهم طالوتَ ملِكًا. وكانت مدّةُ ما بين وفاة يُوشَع بن نُون إلى نبوّة أشمويل أربعَمائة سنة وستّين سنة، وكان آخرَ ملوكهم في هذه المدّة رجل يقال له «إيلاف» وكان يُدبّر أمرهم في ملكه شيخ يقال له «عَيْلَى» الكاهن، وكان حَبْرَهم[٣] وصاحبَ قُرْبانهم، وكانوا ينتهون إلى رأيه.

ذكر ابتداء أمر أشمويل وكيف كانت نبوّته

قال الثعلبيّ قال وهب: كان لأبي أشمويل امرأتان، إحداهما عجوزٌ عاقِرٌ لم تَلِد، وهي أمّ أشمويل، والأخرى وَلدتْ عشرةَ أولاد. وكان لبني إسرائيل عيدٌ من أعيادهم قد قاموا بشرائطه وقرّبوا فيه القَرابِين، فحضر أبو أشمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد، فلمّا قرّبوا قُربانهم أخذ كلّ واحد منهم نصيبه، فكان لأمّ الأولاد عشرةُ أنصباء، وللعجوز نصيبٌ واحد، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغي، فقالت أمّ الأولاد [للعجوز][٤]: الحمد لله الذي كثّرني بولدي وقللكِ، فوَجَمَتْ[٥] العجوز وُجومًا شديدًا. فلمّا كان عند السَّحَر عَمَدت العجوزُ إلى متعبَّدها فقالت: اللهمّ بعِلْمِك وسَمْعِك كانت مقالةُ صاحبتي واستطالتُها عليّ بنعمتك التي أنعمتَ عليها، وأنت ابتدأتَها بالنعمة والإحسان، فارحَمْ ضَعْفي وارحمني وارزقني ولدًا تقيًّا رضيًّا أجعله لك ذُخْرًا في مسجد من مساجدك، يعبدك ولا يكفرك، ويطيعك ولا يجحدك. وإذا رحِمتَ ضَعفي ومسكنتي وأجبتَ دعوتي، فاجعل لها علامةً أعرفها بها. فلمّا أصبحت حاضت وكانت من قبلُ قد يئست من الحيض، فألمّ بها زوجها، فحملتْ وكتمتْ أمرَها، ولقي بنو إسرائيل في ذلك الوقت من عدوّهم بلاءً وشدّة، ولم يكن في بني إسرائيل من يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيًّا يشير عليهم ويجاهدون عدوّهم معه، وكان سِبْط النبوّة قد هَلَك، فلم يبق منهم إلاّ هذه المرأة الحُبلى؛ فلمّا علموا بحَبَلها تعجّبوا وقالوا: إنما حَبِلتْ بنبيّ، لأن الآيسات[٦] لا يَحبَلن إلاّ بالأنبياء، فأخذوها وحبسوها في بيتٍ رَهْبَةَ أن تَلِدَ جارية فتُبدِلَ بها غلامًا، لما ترى من رغبة بني إسرائيل

(١) الذراري: مفردها الذّريّة، وهي النسل.
(٢) الغيّ: الإمعان في الضلال.
(٣) الحبر: العالم.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٥) وجمت: أي سكتت على غيظ وحزن.
(٦) الآيسات من النساء: اللائي قطعهنّ الحيض، وأصبحن لا يرجون من النكاح ذريّة.

في ولدها، فجعلت ٱلمرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلامًا، فولدتْ غلامًا فسمّته «أشمويل» وقيل فيه «شِمْعون». وتقول: سمع الله دعائي.

وٱختُلِف في نسبه، فالذي يقول ٱسمه شِمْعون يقول: هو شمْعون بنُ صفيّة بن علقمة بن أبي ياسف بن قارون بن يَصْهُر بن قاهث بن لاَوِي بن يعقوب.

وقال سائر المفسّرين: هو أشمويل، وهو بالعربية إسماعيل بن بالِي بن علقمة بن حام بن النهر بن بهر بن صوف بن علقمة بن ماحت بن عموصا بن عَزْرَيَا.

قال مُقاتل: هو من نسل هارون عليه السلام. وقال مجاهد: أشمويل بن هلقانا. والله أعلم.

قالوا: فلمّا كَبِر الغلام أسلمتْه أمّه يتعلّم التوراة في بيت المقدس وكَفَله عَيْلَى، فلمّا بلغ أشمويلُ الوقتَ الذي يبعثه الله عزّ وجلّ نبيًا أتاه جبريل وهو نائم إلى جَنْب عَيْلَى الكاهن، وعَيْلَى لا يأمن عليه أحدًا، فدعاه بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام فَزِعًا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه، دعوتني؟ فكره الشيخُ أن يقول لا فيفزع الغلام؛ فقال: يا بُنيّ اِرجِعْ. فرجع فنام، ثم دعاه ثانيًا، فأتاه فقال: أدعوتَني؟ فقال الشيخ: ما شأنُك؟ فقال: أمَا دعوتَني؟ قال: لا. قال أشمويل: فإني سمعتُ صوتًا في البيت، وليس فيه غيرُنا. فقال: ارجِعْ فتوضّأْ وصلِّ، فإذا دُعِيتَ بٱسمك فأجِب وقل لَبّيك، أنا طَوْعُك[١]، فمُرْني أفعلْ ما تأمرني. ففعل الغلام ذلك، فنودي الثالثة، فقال: لَبّيك أنا طوعُك، فمُرْني أفعلْ ما تأمرني. فظهر له جبريل وقال: اِذهبْ إلى قومك فبلّغهم رسالة ربّك، فإنّ الله تعالى قد بعثك إليهم نبيًا، وإن الله تعالى ذَرَأك[٢] يَوْمَ ذرأك [للنبوة][٣] ورَحِمَ وَحْدَةَ أمّك في ذلك اليوم الذي تاهت[٤] عليها ضَرَّتُها، ولا أحد اليوم أشدُّ عَضُدًا[٥] ولا أطيبُ وِلادةً منك، فٱنطلِقْ إلى عَيْلَى [فقل له][٦] إنك كنتَ خليفة الله على عباده، فبقيتَ زمانًا تأمر بأمره، وحاكمًا بكتابه، وحافظًا لحدوده؛ فلمّا ٱمتدّ سنّك، ودقّ عَظمُك، وذهبتْ قوّتك، وفنِيَ عمُرك، وقَرُب أجلُك؛ وصرت أفقرَ ما تكون إلى الله تعالى، ولم تزل فقيرًا إليه، عَطّلتَ الحدود، وعَمِلْتَ بالرُّشَا[٧]، وأضعتَ حكومات[٨] الخَلْق، حتى عزّ الباطلُ وأهلُه، وذَلّ الحقُّ وحِزْبُه، وظهر

---

(١) طوعُك: يقال: هو طوع يدك أي منقادٌ لك.

(٢) ذرأك: خلقك. (٣) زيادة عن الثعلبي.

(٤) تاهت: افتخرت وتكبّرت.

(٥) العضُد: الساعد، وهو من المرفق إلى الكتف.

(٦) زيادة عن الثعلبي.

(٧) الرّشا: مفردها الرّشوة، وهي ما يعطى لإحقاق باطل وإبطال حقّ.

(٨) حكومات الخلق: أي أحكامهم التي تفصل في مشكلاتهم وقضاياهم وفق الأنظمة والأعراف التي تحفظ لكلّ إنسانٍ حقّه..

المكر، وخفِيَ المعروف، وفشا الكذب، وقَلّ الصدق، وما ٱللهُ عاهَدَك على هذا، ولا عليه ٱستخلَفَك، فبئس ما خَتَمتَ به عَمَلَك، والله لا يحبّ الخائنين. فبلِّغه هذه الرسالة، وقمْ بعده بالخلافة؛ فلمّا بلّغ أشمويلُ عَيْلَى هذه الرسالة فَزِع وجَزِع.

قالوا: وكان السبب فيما عاتب الله تعالى عبدَه عَيْلَى ووبَّخه عليه أنه كان له ٱبنان شابّان، فأحْدَثا شيئًا في القُرْبان لم يكن فيه، وذلك أنه كان في مِسْوَاط[(١)] القُرْبان الذي يَسُوطونه[(٢)] به كُلاّبان[(٣)]، فما أخرجا كان للكاهن الذي كان يَسُوطه، فجعل ٱبناه لهما كلاليب، فأوحَى الله تعالى إلى أشمويل: اِنطلقْ إلى عَيْلَى فقل له: مَنعَك حبُّ الولد أن تزجر ٱبنيك أن يُحدِثا في قُرْباني وأن يعصياني، فلأنزعنّ الكَهانة منك ومن ولديك ولأهلِكَنّك وإياهما. فأخبر أشمويلُ عَيْلَى بذلك، ففزِع فزعًا شديدًا وسار إليهم عدوّهم، فأمر عَيْلَى ٱبنيه أن يَخْرجا بالناس ويقاتلا ذلك العدوّ، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فجعل عَيْلَى يتوقع الخبر؛ فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيّه فأخبره أنّ الناس قد ٱنهزموا، وأن ٱبنيه قُتِلا. قال: فما فُعِل بالتابوت؟ قال: ذهب به العدوّ. فشَهَق[(٤)] عَيْلَى ووقع ميّتًا. فلمّا بلغ ملِكَهم إيلافَ أن التابوت ٱستُلِب، وأن عَيْلَى قد مات كمدًا مالت عنقه فمات كمدًا.

قالوا: فلمّا ماتا وأُخذ التابوت مَرِج[(٥)] أمرُ بني إسرائيل وٱجترأ عليهم عدوّهم فقالوا لأشمويل ما أخبر الله تعالى به عنهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] الآيات. وذلك بعدما دبَّر أشمويلُ أمرَهم عشر سنين.

وإنما كان قِوَامُ أمرِ بني إسرائيل بالٱجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءَهم، وكان الملِك هو الذي يسير بالجنود ويقاتِل العدوّ، والنبيّ يقيم له أمرَه ويُشير عليه ويرشده، ويأتيه بالخبر من الله تعالى.

قال وهب: بعث الله تعالى أشمويلَ نبيًّا، فلبثوا أربعين سنةً بأحسن حال، وكان من أمر جالُوتَ الملِكِ والعَمَالِقةِ ما كان، فسألوه أن يَبعث لهم مَلِكًا؛ فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٦]. فأجابوه بما قصّ الله تعالى في كتابه: ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال: فلمّا أخذ أشمويلُ ميثاقَهم في الطاعة والجهاد سأل اللّهَ تعالى أن يبعث لهم مَلِكًا. والله أعلم بالصواب.

---

(١) المسواط: خشبة يحرّك بها ما في القدر ليختلط.

(٢) في الأصل: كان في مسواط للقربان الذي يسوط به كلاّبين، فما أخرجا كان للكاهن الذي يسوطه، والتصويب عن الثعلبي.

(٣) الكلاّب: المهماز، أو هو حديدة معوجّة الرأس ينشل بها الشيء أو يعلّق.

(٤) شهق: تردّد النفس في حلقه مع صوت. (٥) مرج الأمر: أي التبس واختلط.

ذكر خبر الملك طالوتَ وإتيانِ التابوت وخبر جالوت

قالوا: ولما سألوا أشمويلَ أن يبعث لهم ملِكًا، سأل الله تعالى في ذلك، فأُتَى بعصًا وقَرَنٍ[١] فيه دُهن القُدْس، وقيل له: إنّ صاحبكم الذي يكون مَلِكًا طوله طول هذه العصا؛ وقيل له: انظر إلى القَرَن الذي فيه الدُّهن فإذا دَخَل عليك رجل فنَشّ[٢] الدُّهن الذي في القَرَن فهو مَلِكُ بني إسرائيل، فادْهُن به رأسه، وملّكه عليهم؛ فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مِثلَها؛ وكان طالوت ـ واسمه بالسُّريانيّة «شارك»[٣] وبالعِبرانيّة شاول بن قيس بن أنيال بن ضرار بن أحرب بن أفيح بن آيش من بَنْيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ رجلًا دباغًا يعمل الأدَم[٤]. قال وهب وعِكْرِمة[٥] والسُّدّيّ: كان سقَّاء يَسقي على حمار من النهر، فضلّ حمارُه، فخرج في طلبه. وقال وهب: بل ضلَّت حُمُر لأبي طالوت، فأرسله وغلامًا له يطلبانها، فمرَّا ببيت أشمويل فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبيّ فسألناه عن أمرِ حُمُرنا ليُرشدَنا ويدعوَ لنا بخير. فقال نعم. فدخلا عليه، فبينما هما عنده يذكرَان شأن الحُمُر إذ نشَّ الدُّهنُ في القَرَن فقام أشمويلُ وقاس طالوتَ بالعصا، فكانت على طوله، فقال لطالوت قرب رأسك. فقرّبه فدَهنه بدُهن القُدْس، ثم قال له: أنت مَلِك بني إسرائيل، وقد أمرني الله تعالى أن أُملّكك عليهم. فقال طالوت:

---

(١) (فأُتي بعصا وقَرَن فيه دهن القدس) قوله (قَرَن) مشكول هنا وفي صفحات أُخر بفتح الراء وعلق عليه المصحح قوله (القرَن بفتح القاف والراء المهملة الجَعبة ما كانت اهـ. وهذا التفسير خطأ والصواب (قَرْن) بفتح القاف وسكون الراء. والمراد قرن الحيوان الذي كان اليهود يتخذونه وعاء للزيوت والعطور كما يتخذون منه بوقًا ينفخون فيه داعين الشعب إلى الصلوات (راجع قاموس الكتاب المقدس جزء ٢ ص ٢١٣) أما القرَن بفتح الراء فهو في العربية بمعنى الجعبة كما قال المصحح الفاضل والجعبة وعاء النبال وقد اشترط بعضهم أن تكون من جلد وبعضهم قال (ما كانت) أي سواء أكانت من جلد أو من خشب مغشى بجلد وهي ـ كيفما كانت ـ لا تصلح لوضع الدهن فيها لأن الخشب يتشرب الدهن ويتسرب من شقوقه ومن شقوق الجلد. نعم تصلح الجعبة لوضع تمرات يتبلغ فيها المحارب أو المسافر أحيانًا: ففي حديث عمير بن الحمام (فأخرج تمرًا من قَرَنه) بفتح الراء أي من جعبته. ومثل هذا في تفسير كلمات أهل الكتاب إنما يرجع فيه إلى علمائهم ومعاجمهم ما لم يكن هناك نصوص إسلامية تعارضه. وشرّاح التوراة قالوا في تفسير (قرْن الدهن المقدس) إنه قرن حيوان.

(٢) نشّ: صوّت عند الغليان، أو قطر من الوعاء.

(٣) في قصص الأنبياء للثعلبي «سادل». (٤) الأدَم: الجلود.

(٥) عكرمة: هو عكرمة، أبو عبد الله المفسر، محدّث ثقة، أباضيّ المذهب يرى السّيف، مات سنة ١٠٦هـ وقيل ١٠٧هـ، قال الشعبي: ما بقي أحدٌ أعلم بكتاب الله من عِكرمة، رموه بغير نوع من البدعة «الكاشف ٢/ ٢٤١».

أنا؟ قال نعم. قال: أوما علمتَ أن سِبْطي أدنَى[١] الأسباط في بني إسرائيل؟ قال بلى. قال: أفما علمت أن بيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ قال بلى. قال: فبأيّ آية أكون ملِكًا؟ قال: بآيةِ أنك ترجع وقد وَجد أبوك حُمُرَه. فكان كذلك.

ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبْطان: سِبْط نبوّة، وسِبْط مملكة؛ فكان سِبْطُ النبوّة سِبْطَ لاوِي بن يعقوب، منهم موسى وهارون عليهما السلام، وسِبْطُ المملكة سِبْطُ يهوذَا بن يعقوب، منهم سليمان بن داود؛ ولم يكن طالوت من سِبْط النبوّة ولا المملكة، وإنما كان من سِبْط بَنْيامين بن يعقوب، وكانوا عَمِلوا ذنبًا عظيمًا؛ كانوا ينكحون النساء على ظهر[٢] الطريق نهارًا، فغضب الله تعالى عليهم، ونزع النبوّة والمملكة منهم، فأنكر بنو إسرائيل ذلك وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧] قال أشمويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ [البقرة: ٢٤٧]، أي فضيلة وسعة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك أنه كان أعلمَ بني إسرائيل في وقته. وقال الكلبيّ: «في العِلْم» بالحرب. ﴿وَٱلْجِسْمِۖ﴾ يعني بالطُول والقوّة؛ وكان يفوق الناسَ برأسه ومَنْكِبَيْه؛ وإنما سُمِّيَ طالوتَ لطُوله. وقال ابن كَيْسان[٣]: للجمال، وكان أجملَ رجل في بني إسرائيل وأعلمَهم ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] قالوا: فما آية ذلك؟ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨].

ذكر قصة التابوت وصفته وما قيل فيه

قال أبو إسحاق الثعْلبيّ رحمه الله: قال أهل التفسير وأصحابُ الأخبار: إنّ الله تعالى أهبط تابوتًا على آدمَ حين أُهْبِط آدمُ إلى الأرض، فيه صُوَر الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرُسُل منهم، وآخرُ البيوت بيت محمد ﷺ وهو من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلّي وعن يمينه الكَهْلُ المطيع، مكتوبٌ على جبينه: هذا أوّل من يتّبعه من أمّته «أبو بكر الصدّيق» وعن يساره «الفاروق»، مكتوبٌ على جبينه:

---

(١) أدنى: أقرب.

(٢) ظهر الطريق: ما غلظ وارتفع منها، يريد علانيةً.

(٣) ابن كيسان: هو صالح بن كيسان المدني، مؤدّب أبناء عمر بن عبد العزيز، كان من فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه، وهو أحد الثقات في رواية الحديث، عاش أكثر من مائة سنة، توفي سنة ١٤٠هـ «الأعلام ٣/ ١٩٥».

قِرْن[١] من حديد لا تأخذه في الله لومةُ لائم؛ ومن ورائه ذو النُّورَين آخِذٌ بحُجْزته[٢]، مكتوبٌ على جبينه: بارٌّ من البَرَرَة. ومن بين يديه «عليّ بن أبي طالب» شاهرٌ سيفَه على عاتقه[٣]، مكتوبٌ على جبينه: هذا أخوه وٱبنُ عمه المؤيّد بالنصر من عند الله. وحوله عمومته والخلفاء والنُّقَباء والكَبْكَبَة[٤] الخَضْراء - وهم أنصار الله وأنصار رسوله - نورُ حوافِرِ دوابِّهم يومَ القيامة مِثلُ نور الشمس في الدنيا.

وكان التابوت نحوًا من ثلاثة أذرع في ذراعين، وكان من عود الشِّمْشار[٥] الذي تتّخذ منه الأمشاط، مموّهًا بالذهب، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم عند شيث، ثم توارثه أولادُ آدم إلى أن بلغ إبراهيمَ عليه السلام فلمّا مات كان عند إسماعيل، ثم كان عند قَيْذَار بن إسماعيل، فتنازعه ولدُ إسحاق وقالوا: إنّ النبوّة قد صُرفتْ عنكم، وليس لكم إلاّ هذا النور الواحد، [يعني نور محمد ﷺ][٦] فَأَعْطِنا التابوت. فكان قَيْذَار يمتنع عليهم ويقول: إنه وصيّة لأبي، ولا أعطيه أحدًا من العالمين.

قال: فذهب ذات يوم يفتح التابوت، فتعسّر عليه فتحُه، فناداه منادٍ من السماء: مهلاً يا قَيْذار، فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل، إنه وصيّة نبيّ، لا يفتحه إلا نبيّ، فٱدفعه لٱبن عمّك يعقوبَ إسرائيلِ الله؛ فحمل قَيْذار التابوتَ على عنقه وخرج يريد أرض كَنْعان وكان بها يعقوب عليه السلام فلمّا قَرُب منه صَرّ[٧] التابوتُ صَرّة سمعها يعقوب، فقال لبنِيهِ: أقسم بالله لقد جاءكم قَيْذار بالتابوت فقوموا نحوه. فقام يعقوب وأولاده جميعًا إليه، فلمّا نظر يعقوب إلى قَيْذار ٱستعْبَرَ باكيًا وقال: يا قَيْذَار، ما لي أراك متغيّرًا وقوّتك ضعيفة، أَرَهِقَكَ عدوّ أم أتيتَ معصيةً بعد أبيك إسماعيل؟ قال: ما رَهِقَني عدوّ ولا أتيتُ معصية ولكن نُقِل من ظهري نورُ محمد، فلذلك تغيّر لَوْني وضَعُفَ رُكْني، قال: أفي بنات إسحاق؟ قال: لا، في العربيّة الجُرْهُمِيّة[٨]، وهي العامريّة، فقال

---

(١) القرن: النظير في الشجاعة والعلم، وهنا بمعنى السيّد البطل الشجاع.
(٢) الحجزة: يقال: أخذ بحجزته أي استظهر به واستنصر، والحجزة: موضع شدّ الإزار من وسط الإنسان.
(٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق.
(٤) الكبكبة: الجماعة.
(٥) الشمشار: شجر البقس، يشبه ورقه ورق الآس، وعوده أصفر صلب، وله حبٌّ أسود، منابته بلاد الروم، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته.
(٦) زيادة عن الثعلبي.
(٧) صرّ التابوت: صوّت.
(٨) الجرهمية: نسبة إلى جُرهم الثانية، لأن جرهم الأولى من العرب البائدة، أما جُرهم الثانية فهم بنو جُرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السّلام، ولمّا أسكن إبراهيم الخليل عليه السّلام ولده إسماعيل بمكة، كانت جرهم الثانية نازلين بالقرب من مكة، فاتصلوا بإسماعيل عليه السلام وتزوّج منهم وكثر ولده وتناسلوا فعمروا الحجاز إلى الآن «صبح الأعشى ٤/ ٢٥١ - ٢٥٢».

يعقوب: بَخ بَخ[١]! شرفًا لمحمد، لم يكن الله عزّ وجل ليُجْرِيَه إلا في العربيّات الطاهرات يا قيذار، وأنا مُبشّرك ببشارة. قال: وما هي؟ قال: اعلم أن العامريّة قد ولدت لك البارحة غلامًا. قال قيذار: وما علّمك يابن عمّي وأنت بأرض الشأم وهي بأرض الحَرَم؟ قال يعقوب: علمتُ ذلك لأني رأيتُ أبوابَ السماء قد فُتحت، ورأيتُ نورًا كالقمر الممدودِ بين السماء والأرض، ورأيتُ الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة، فعلمتُ أنّ ذلك من أجل محمد ﷺ فسلم قيذارُ التابوتَ إلى يعقوب ورجع إلى أهله، فوجدها قد ولدت غلامًا، فسمّاه «حَمَلًا» وفيه نور محمد ﷺ.

قالوا: وكان التابوت في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعًا من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم تداوله أنبياء بني إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكر الله تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قال الثعلبيّ: واختلفوا في السكينة ما هي؟ فقال عليّ بن أبي طالب: السكينة ريحٌ خَجُوج[٢] هفّافة[٣] لها رأسان [كرأس الهرّة][٤] ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: رأس كرأس الهِرّة، وذَنب كذَنب الهرّة وجناحان. وقال ابن إسحاق عن وهب عن بعض علماء بني إسرائيل: السكينة، رأس هرّة ميّتة كانت إذا صرَخت في التابوت بصُراخِ هِرّ أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال السُّدّيّ عن أبي مالك[٥] عن ابن عبّاس: هي طَسْت[٦] من ذهب من الجنة كانت تُغسَل فيه قلوب الأنبياء. وقال بكّار بن عبد الله عن وهب: رُوحٌ من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبي رَبَاح: هي ما يَعرِفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال قَتَادة والكلبيّ: فَعِيلة من السكون أي طُمَأنينة من ربكم، وفي أيّ مكان كان التابوت اطمأنّوا ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قالوا: كان فيه عصا موسَى ورُضاض[٧] الألواح، وذلك أنّ موسى لمّا ألقى الألواح تكسرتْ فوقع بعضها وجمع ما بقيَ فجعله في التابوت. وكان فيه أيضًا لَوْحان

---

(١) بخ بخ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء، أو المدح والفخر.
(٢) ريحٌ خَجوج: تخج في هبوبها أي تلتوي.
(٣) الهفّافة: الرّيح التي إذا هبّت سُمع صوت هبوبها.
(٤) زيادة عن الثعلبي.
(٥) أبو مالك: لعله أبو مالك الأشعري، محدّث، له صحبة. انظر «الكاشف ٣/ ٣٣٠».
(٦) الطست: إناء، يؤنّث ويذكّر.
(٧) رضاض الشيء: دقاق الشيء وفتاته، أي ما رضّ منه.

من التوراة، وقَفِيزٌ من المنّ[١] الذي كان ينزل عليهم، ونَعلاً موسى، وعِمامةُ هارون وعصاه. وكان التابوت عند بني إسرائيل؛ وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون[٢] به على عدوّهم، فلمّا عصَوْا وأفسَدوا سلّط الله عزّ وجلّ عليهم العمالقةَ فاستلبوا التابوت كما تقدّم.

ذكر إتيان التابوت إلى بني إسرائيل وسبب عَوْده

قال أبو إسحاق: لمّا سَلب العمالقةُ قومَ جالوتَ التابوت كان جالوتُ صغيرًا، فأتَوْا بالتابوت قرية من قُرى فِلَسْطين يقال لها أشدود[٣]، وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه، وسمَّروا قدمَي الصنم على التابوت، فأصبحوا من الغد وقد قُطعتْ يدُ الصنم ورِجلاه، وأصبحَ ملقًى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم كلُّها منكّسة، فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهلَ تلك الناحية وجعٌ في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم[٤] له شيء، فأخرِجوه عن مدينتكم، فأخرجوه إلى قرية أخرى، فبعث الله عزّ وجلّ على تلك القرية فأرًا، يبيت[٥] الرجل صحيحًا فيَقْرِضه[٦] الفأر فيصبح ميتًا قد أكلت ما في جوفه، فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه في مَخْرَأةٍ لهم، فكان كلُّ من تبرّز هناك أخذه الباسُور[٧] والقُولَنْج[٨]؛ فتحيَّروا، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سَبْيِ بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون تَرَون ما تكرهون ما دام هذا التابوتُ فيكم، فأخرِجوه عنكم، فأتَوْا بعَجَلةٍ بإشارةِ تلك المرأة فحملوا التابوتَ عليها، ثم علّقوها على ثورين، ثم ضربوا جُنُوبَهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل

(١) المن: طلٌّ ينزل من السّماء على شجر أو حجر، ينعقد ويجف جفاف الصمغ، وهو حلو يؤكل.
(٢) يستفتحون به: يقال: استفتح فلان: طلب الفتح والنصر، أي يجعلونه بين أيديهم طلبًا للفتح والنصر.
(٣) أشدود: هي إحدى مدن الفلسطينيين الخمس المتحالفة، وقد خرجت في نصيب يهوذا، وهي المركز الخصوصي لعبادة داجون، وأمّا موقعها فعلى ٣ أميال من البحر المتوسط بين غزّة ويافا، وهي الآن قرية حقيرة تسمى «أسدود» وفي جوارها خرائب كثيرة، «انظر قاموس العهد الجديد ج١ ص١٠١/٢٧٦».
(٤) لا يقوم له شيء: أي لا يستطيع أن يواجهه.
(٥) عبارة الأصل محرّفة، والتصويب عن الثعلبي.
(٦) يقرضه الفأر: يقطعه. (٧) الباسور: مرض في مقعدة الإنسان.
(٨) القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والرّيح.

الله تعالى بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما، فلم يمرّ التابوت بشيء من الأرض إلاّ كان مقدّسًا، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبني إسرائيل فكسرا بُرَتَهما[١] وقطعا حبالهما، ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما، فلم يَرُع بني إسرائيل إلاّ التابوت، فكبّروا وحمدوا الله تعالى.

وقال الكِسَائيّ: إنهم لمّا دفنوه إلى جنب الحش[٢] وأخذهم الباسور أعادوه إلى الكنيسة. فغزاهم بعض الفراعنة فهزمهم ودخل الكنيسة، وأخذوا التابوت وهمّوا بفتحه فلم يقدروا فهمّوا بكسره فلم يقدروا، فتركوه؛ فكان القوم يتشاءمون به لِما كان يصيبهم من البلاء، فحوّلوه إلى خمس مدائن، فقال أهل المدينة الخامسة: إن هذا البلاء يصيبكم بسبب هذا التابوت فأَخْرَجوه. وساق نحو ما تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] أي تَسُوقه. فعند ذلك أقرّوا بمُلك طالوت. وقال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعوه في دار طالوت، فأقرّوا بمُلكه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما إنّ التابوت وعصا موسى في بحيرة طَبَرِيّة[٣]، وإنهما يخرجان يوم القيامة. والله أعلم.

ذكر مسير طالوت بالجنود وخبرِ النهر الذي ٱبتُلُوا به

قالوا: فلمّا أقرّوا بمُلك طالوت سألوه أن يغزوَ بهم، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل. وقيل: ثمانون ألفًا لم يتخلّف عنه إلاّ كبيرٌ لهَرَمه أو مريضٌ لمرضِه أو ضَرير لضُرِّه أو معذورٌ لعُذره؛ وذلك أنهم لما رأوُا التابوت قالوا: قد أتانا التابوت وهو

(١) (فكسرا برتهما وقطعا حبالهما ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما) الظاهر أن ضمير المثنى في هذه الجمل راجع إلى الثورين المذكورين قبلها وليس هذا بمعقول فيكون الصواب فكسروا وقطعوا الخ ويكون ضمير الجمع راجع إلى بني إسرائيل المحدث عنهم، إلا أن يُدّعى بأن الضمائر راجعة إلى الثورين وإنما فعلا ما فعلا من قبيل الخوارق الإلّهية التي شَذَّ ما وقعت في زمن بني إسرائيل!!.

(٢) الحش: الكنيف، وموضع قضاء الحاجة.

(٣) بحيرة طبرية: هي كالبركة، تحيط بها الجبال، ويصبّ فيها فضلات أنهر كثيرة تجيء من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر، وينفصل منها نهر عظيم فيسقي أرض الأردن الأصغر، وهو بلاد الغور، ويصبّ في البحيرة المنتنة قرب أريحا، ومدينة طبريا في لحف الجبل مشرفة على البحر، ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة، وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتىء يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام، وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلاً «انظر معجم البلدان لياقوت».

النصر لا شكّ فيه؛ فسارِعوا إلى الجهاد، فقال طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى، لا يخرج معي رجلٌ بنَى بناءً لم يفرُغ منه، ولا صاحبُ تجارةٍ مشتغِلٌ بها، ولا رجلٌ عليه ديْن، ولا رجلٌ تزوّج بامرأة ولـم يَبْنِ(١) بها؛ ولا يَتْبَعُني إلاّ الشابّ النشيط الفارع(٢). فٱجتمع له ثمانون ألفًا على شرطه وكانوا في حرّ شديد فشكَوْا قلّة المياه فيما بينهم وبين عدوّهم، وقالوا: إنّ المياه لا تحمِلنا، فٱدع الله تعالى أن يُجريَ لنا نـهـرًا. فـقـال لـهـم طـالـوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي من أهل دِيني وطاعتي؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ ثم ٱستثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال الكِسَائيّ: لمّا سألوه أن يُجريَ لهم نهرًا قال: أفعل - إن شاء الله - وسار بهم حتى إذا كانوا في بَرّيّة وفقدوا الماء وأجْهدهم العطش، أتَوه، فدعا أن يجري الله تعالى لهم نهرًا؛ فأوحَى الله إليه ما أخبر به في كتابه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] الآية. قال: وهو نهر الأُرْدُنّ من بلاد فَلَسْطين. وقال الثعلبيّ: قال ٱبن عبّاس والسُّدّيّ: هو نهر فلسطين. وقال قَتَادة والربيع(٣): هو نهرٌ بين الأُرْدُنّ وفلسطينَ، عَذْب. قال الكِسَائيّ: قالوا: وما تُغْنِي عنّا الغُرْفة ثم عَرَض لهم النهر فٱنهمكوا في شربه. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] قال: وٱختلفوا في القليل الذين لم يشربوا؛ فقال السُّدّيّ: كانوا أربعة آلاف. وقال غيره: كانوا ثلاثمائة وبضعةَ عشر؛ وهو الصحيح، لقول رسول الله ﷺ لأهل بدر: «أنتم اليوم على عدّة أصحابِ طالوتَ حين عبروا النهر» وكان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قالوا: فلم يزد هؤلاء على الغُرفة فكانت كفايةً لهم ولدوابّهم؛ فمن ٱغترف غُرفة، كما أمر الله، نوّر الله قلبَه وصحّ إيمانُه، وعبر النهرَ سالمًا. والذين شربوا وخالفوا أمر الله عزّ وجل ٱسودّت شفاههم وغلبهم العطش فلم يَرْوَوْا وبقوا على شطّ النهر وجَبُنوا عن لقاء العدوّ؛ فقال طالوت للذين عصَوا ربهم: ارجعوا فلا حاجة لي بكم فرجعوا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وإنّما قال ذلك الذين عصَوْا وشربوا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

---

(١) لم يبنِ بها: أي لم يدخل عليها. (٢) الفارع: المرتفع الهنيء الحسن.

(٣) الربيع: لعلّه الربيع بن أنس، بصري نزل خراسان محدّث صدوق توفي سنة ١٣٩هـ «الكاشف ١/ ٢٣٤».

ذكر خبر داود حين قتل جالوت الملك

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: قال المفسّرون بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة: عبر النهرَ مع طالوت إيشَى أبو داود في ثلاثة عشر ٱبنًا له، وكان داود أصغرهم، فأتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمي بقَذّافتي[١] شيئًا إلاّ صرعته. فقال: أبشر يا بُنيّ فإن الله عزّ وجل جعل رزقَك في قذّافتك؛ ثم أتاه مرّة أخرى فقال: يا أبتاه، لقد دخلتُ بين الجبال فوجدتُ أسدًا رابضًا، فركبتُه وأخذتُ بأذنيه فلم يَهِجنِي[٢]، فقال: أبشر يا بنيّ فإنّ هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يومًا آخر فقال: يا أبتاه، إني لأمشي بين الجبال فأسبّح فما يَبْقى جبلٌ إلاّ سبّح معي. فقال: أبشر يا بنيّ فإنّ هذا خيرٌ أعطاكه الله عزّ وجل.

قالوا: فأرسل جالوتُ إلى طالوت، أن ٱبرُزْ إليّ أو أبرِزْ إليّ مَن يقاتلني، فإن قتلني فلكم مُلكي، وإن قتلته فلي ملككم. فشقّ ذلك على طالوت، فنَادَى في عسكره: مَن قتل جالوتَ زوّجتُه ٱبنتي وناصَفْتُه مُلْكي. فهاب الناسُ جالوت فلم يجبه أحد؛ فسأل طالوتُ نبيَّهم عليه السلام أن يدعو، فدعا الله عزّ وجل في ذلك، فأُتِي بقَرَن[٣] فيه دُهْن القدس، وتنُورٍ من حديد، فقيل له: إنّ صاحبكم الذي يقتل جالوتَ هو الذي يوضع هذا القَرَن على رأسه فيَغْلي الدُّهن ثم يَدهُن به رأسَه ولا يسيل على وجهه، يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل في هذا التنُّور فيملأه لا يتقلقل[٤] فيه؛ فدعا طالوتُ بني إسرائيل، فجرَّبهم فلم يوافقه منهم أحد، فأوحى الله عزّ وجل إلى نبيِّهم أن في ولد إيشَى من يقتُل الله به جالوت، فدعا طالوتُ إيشَى وقال له: اعرِض عليّ بنِيك. فأخرَجَ له ٱثني عشر رجلاً أمثال السواري[٥]، وفيهم رجل فارعٌ[٦] عليهم؛ فجعل يعرضهم على القَرَن فلا يَرَى شيئًا، فيقول لذلك الجسيم: ارجع فيردّده

(١) القذّافة: المقلاع.
(٢) لم يهجني: أي لم ينفرني أو يزعجني.
(٣) القرن: الجعبة ما كانت.
(٤) يتقلقل: يتحرّك.
(٥) السواري: مفردها سارية، وهي الأسطوانة أو العمود الذي ينصب في وسط السفينة ويعلّق عليه الشراع.
(٦) رجلٌ فارعٌ عليهم: أي علاهم وجاهة وشرفًا وقامة.

على التنُّور. فأوحَى الله عزّ وجل إليه: إنّا لا نأخذ الرجال على صُوَرهم، ولكنّا نأخذهم على صلاح قلوبهم. فقال لإيشَى هل بقيَ لك ولدٌ غيرُهم؟ فقال لا. فقال النبيّ: ربّ إنه زعم أن لا ولد له غيرهم. فقال كذَب. فقال النبيّ: إن ربِّي كذَّبك. قال: صدق الله يا نبيّ الله، إنّ لي ٱبنًا صغيرًا يقال له داود ٱستَحْيَيْتُ أن يراه الناس لقصَر قامته وحقارته، فخلَّفتُه في الغنم يرعاها وهو في شِعْب[١] كذا. وكان داود عليه السلام رجلًا قصيرًا مسقامًا مُصفارًا[٢] أزرقَ أشقرَ. فدعاه طالوت. ويقال: بل خرج طالوت إليه فوجد الوادي قد حال بينه وبين الزَّريبة التي كان يُرِيح إليها، فوجده يحمل شاتين فيُجيزُهما السَّيلَ ولا يخوض بهما الماء؛ فلمّا رآه [أشمويل][٣] قال: هذا هو لا شكّ فيه، هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم. فدعاه ووضع القَرن على رأسه ففاض؛ فقال له طالوت: هل لك أن تَقتل جالوتَ وأزوّجَك ٱبنتي وأجريَ حُكْمَك في مُلكي؟ قال نعم. قال: وهل أنِستَ من نفسك شيئًا تتقوّى به على قتله؟ قال: نعم، أنا أرعى فيجيء الأسد أو النّمر أو الذئب فيأخذُ شاةً فأقوم له فأفتحُ لَحييه[٤] عنها وأخرِقُهما إلى قفاه. فردّه إلى عسكره؛ فمرّ داود عليه السلام في الطريق بحَجَر فناداه: يا داود، احملني فإني حَجَر هارون الذي قتل بي مَلِكَ كذا، فحمله في مِخلاته[٥]. [ثم مرّ بحجر آخر فناداه: يا داود، احملني فإني حجر موسى عليه السلام الذي قتل به ملك كذا وكذا، فحمله في مخلاته][٦]. ثم مرّ بحجر آخر فقال: احملني فإني حجرك الذي تقتل به جالوت، وقد خبأني الله لك، فوضعه في مخلاته. فلما تصافُّوا للقتال وبرز جالوتُ وسأل المبارَزة، ٱنتدب له داودُ، فأعطاه طالوت فرسًا ودرعًا وسلاحًا، فلبس السلاح وركب الفرس، وسار قريبًا، ثم ٱنصرف فرجع إلى الملِك، فقال مَن حولَه: جَبُن الغلام. فجاء فوقف على الملك فقال: ما شأنك؟ قال: إنّ الله عزّ وجل إن لم ينصرني لم يغنِ عنّي هذا السلاحُ شيئًا، فدعني أقاتل كما أريد. قال نعم. فأخذ داود مِخلاته فتقلّدها، وأخذ المِقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشدّ الناس وأقواهم؛ وكان يهزم الجيوش وحده، وكان له بَيْضة[٧]

---

(١) الشِّعب: ما كان منفرجًا بين جبلين.
(٢) مصفارًا: أي تعلو وجهه صفرة من سقام أو مرض.
(٣) زيادة عن الثعلبي.
(٤) اللّحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان.
(٥) المخلاة: ما يوضع فيه الخلى، وهو الحشيش الذي يحتش من بقول الربيع.
(٦) زيادة عن الثعلبي.
(٧) البيضة: الخوذة توضع على الرأس.

فيها ثلاثُمائةِ مَنٍّ[١] حديدًا، فلمّا نظر إلى داود أُلْقِي في قلبه الرُّعبُ، فقال له: أنت تَبرُز لي؟ قال نعم ـ وكان جالوت على فرس أبلق[٢]، عليه السلاح التامّ ـ قال: تأتيني بالمِقلاع والحجر كما يُؤتَى الكلب؟ قال: نعم، لأنت شرٌّ من الكلب. قال: لا جَرَم[٣] لأُقسِّمَنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء. فقال داود: [باسم الله و][٤]يقسِّم الله لحمَك. وقال: بسم إلٰه إبراهيم، وأخرج حجرًا، ثم أخرج الآخرَ وقال: بٱسم إلٰهِ إسحاق، ووضعه في مِقْلاعه[٥]، ثم أخرج الثالثَ وقال: بٱسم إلٰه يعقوب، ووضعه في مِقْلاعه، فصارت كلُّها حجرًا واحدًا، ودوّر المقلاعَ ورماه به، فسخَّر اللّهُ تعالى له الريحَ حتى أصاب الحجرُ أنفَ البَيضة وخالط دماغَه فخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً، وهزم الله تعالى الجيشَ وخرّ جالوتُ قتيلاً، فأخذه داودُ فجرّه حتى ألقاه بين يدَيْ طالوتَ.

وقال الكسائيّ في هذه القصة: كان مع طالوتَ سبعةُ إخوة لداود، وكان داود عند أبيه وهو صغير، فقال له أبوه: قد أبطأ عليّ خبر إخوتك مع طالوت، فٱحمل إليهم طعامًا وتَعرّفْ لي خبرَهم. فمضى داود ومعه مِخلاة له فيها الطعام، وقد شدّ وَسَطَه بمقلاع؛ فبينا هو يسير إذ ناداه حجر من الأرض: خذني فأنا حجر أبيك إبراهيم. فأخذه؛ ثم ناداه حجر آخر خذني فأنا حجر أبيك إسحاق. فأخذه، ثم ناداه حجر آخر: خُذْني فأنا حجر أبيك يعقوب. فأخذه وسار حتى أتى العسكر، فنزل على إخوته، فلمّا كان من الغد تهيّأ الجيشان للمحاربة؛ فقال طالوت: أيها الناس، من كفاني منكم أمرَ جالوت زوّجتُه ٱبنتي، وأشركتُه في مُلكي، وجعلتُه خليفتي من بعدي. فلم يجبه أحد إلاّ داود؛ فخلع عليه وأركبه وطاف به في معسكره؛ فلمّا كان من الغد ركبوا، وأقبل جالوتُ بجيوشه وهو على فيل، وكان طوله ثمانيةَ عشر ذراعًا، وطول داود عشرة أذرع، فقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٥٠] الآية.

فبرز جالوتُ بين الصفَّين فبرزَ له داودُ، فقال له جالوت: إنك صغير ولا سلاحَ معك فٱرجِع، فأبى ذلك، وأخذ تلك الأحجار فوضعها في مِقلاعه ورمى بها، فوقع أحدها بمَيْمنة جالوت فهزمها، والثاني في المَيْسرة فٱنهزَموا، والثالث وقع على أنف بَيْضة جالوت فخرج من قفاه، فسقط جالوتُ ميّتًا، وٱنهزم أصحابُه.

---

(١) المنّ: كيل أو ميزان، بين ١٨٠ مثقالاً و٢٨٠ مثقالاً، جمعه أمنان.
(٢) الأبلق: الذي فيه سوادٌ وبياض. (٣) لا جرم: لا بدّ.
(٤) التصويب عن الثعلبي، وفي الأصل «لو يقسّم».
(٥) المقلاع: ما يرمى به الحجر.

قالوا: ولمّا قتل داودُ جالوتَ ذكر الناسُ داودَ وعظُم في أنفسهم، فجاء إلى طالوت وقال له: أنجِزْ لي ما وعدتَني، وأعطني آمرأتي. فقال له طالوت: أتريد ٱبنةَ الملِكِ بغير صَدَاق[١]، عجّل صَدَاق ٱبنتي وشأنَك بها. فقال له داود: ما شرطتَ عليّ صَدَاقًا، وليس لي شيء، فتحكّم في الصداق ما شئتَ وأقرضني مَهرَها وعليّ الأداء والوفاء لك. فقال طالوت: أصدِقْها نصيبَك من المُلك. فقالت بنو إسرائيل: لا تظلمه وأنجزْ له ما وعدتَه به.

فلمّا رأى طالوتُ ميلَ بني إسرائيل إلى داود وحُسْنَ رأيهم فيه قال: لا حاجة لٱبنتي في المال، ولا أكلّفك إلاّ ما تُطِيق، أنت رجل جريء، وفي جبالنا أعداء من المشركين غُلْف[٢] فٱنطلِقْ وجاهِدْهم، فإذا قتلتَ منهم مائتي رجل وجئتني برؤوسهم زوّجتُك ٱبنتي. فأتاهم داود، وجعل كلّما قتل منهم رجلاً ٱحتزّ رأسه ونظمه[٣] في خيط حتى نَظَم رؤوسهم فجاء بها إلى طالوت، فألقاها إليه وقال: ادفع إليّ ٱمرأتي، فزوّجه ٱبنتَه وأجرى خاتَمه في مُلكه، فمال الناس إلى داود وأحبّوه وأكثروا من ذكره، فوجَد[٤] طالوتُ من ذلك في نفسه وحسَده وأراد قتله.

قال وهب بن مُنَبِّه: وكانت الملوك يومئذ يتوكّؤون على عِصِيٍّ فيغرِزون في أطرافها أزِجة[٥] من حديد، وكان بيد طالوت منها واحدةٌ، في رأسها رمّانة من ذهب وفي أسفلها زُجٌّ من حديد، وداود جالس قريبًا منه في ناحية البيت، فرماه بها بغتة ليقتله بها، فلمّا أحسّ داود بذلك حاد عن طريقها، وأمال نفسَه عنها من غير أن يبرح من موضعه، فٱرتكزتْ في الجِدَار، فقال له داود: عمدتَ إلى قتلي؟ قال طالوت: لا، ولكن أردتُ أن أقف على ثباتك في الطِّعان ورَبْطِ جأشِك للأقران[٦]. قال داود: فألفيتَه على ما قدّرتَه فيّ؟ قال: نعم، ولعلك فَزِعت. قال: معاذ الله أن أخاف إلاّ اللّهَ تعالى وأرجوَ إلا الله، ولا يدفع الشرَّ إلا الله. فٱنتزعها من الجِدَار ثم هَزّها هَزّة منكرة وقال له: أُثبُتْ كما ثَبَتُّ لك، فأيقن طالوتُ بالهلاك؛ فقال له: أنشُدُك اللّهَ والحُرمةَ التي بيني وبينك إلاّ ما صفحتَ؛ فقال داود: إن الله تعالى كتب في التوراة أن ٱجز السيئةَ مثلَها، واحدةٌ بواحدة والبادي أظلم؛ فقال طالوت: ألا تقول قول

(١) الصداق: المهر يدفع للزوجة. (٢) الأغلف: الذي لم يختن.

(٣) نظمه: سلكه.

(٤) وجد: من الوجد، وهو الغضب هنا والحقد.

(٥) الأزجّة: مفردها المزجّ: وهو رمحٌ صغير في أسفله زجّ والزجّ: الحديدة في أسفل الرمح.

(٦) الأقران: النظراء في الشجاعة والقوّة.

هابيل لأخيه قابيل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨] قال داود: قد عفوتُ عنك لوجه الله تعالى.

فلبث طالوتُ زمنًا يريد قتلَ داود، فعزم على أن يأتيَه ويغتالَه في داره، فأخبر بذلك بنتَ طالوتَ رجلٌ يقال له: ذو العينين، فقالت لداود: إنك مقتولُ الليلة؛ قال: ومَن يقتلني؟ قالت: أبي، وأخبرتْه الخبر وقالت: لا عليك أن تغيب الليلةَ حتى تنظر مِصْداقَ ذلك. فأخذ داودُ زِقَّ[1] خمرٍ فوضعَه في مَضْجَعه على السَّرير وسَجّاه ودخل تحت السَّرير ودخل طالوتُ نصفَ الليل، فعمد إليه فضربه ضربةً بالسيف فسالتِ الخمرُ، فلمّا وَجَد ريحها قال: رحم الله داود، ما كان أكثرَ شربَه للخمر، وخرج، فلمّا أصبح علم أنه لم يصنع شيئًا، فقال: إنّ رجلاً طلبتُ منه ما طلبتُ لخليق[2] ألاّ يَدَعني حتى يطلب مني ثأرَه؛ فاشتدّ حُجّابه وحُرّاسُه وأغلق دونه الأبوابَ، فأتاه داود ليلةً وقد هدأتِ العيونُ وأعْمَى الله الحُجّاب عنه وفتح له الأبواب، ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سَهمًا عند رأسه وسهمًا عند رجليه وسهمًا عن يمينه وسهمًا عن شماله ثم خرج. فلمّا استيقظ طالوت بصُر بالسهام فعرفها، فقال: رحم الله داود فهو خير منّي، ظفرتُ به فقصدتُ قتلَه، وظفر بي فكفّ عنّي، لو شاء لوَضَع هذا السهمَ في حلقي وما أنا بالذي آمَنُه. فلمّا كانت الليلةُ القابلة أتاه ثانيًا، وأعمى الله الحُجّاب، فدخل وهو نائم، فأخذ إبريقَ طالوتَ الذي كان يتوضّأ به وكوزَه الذي يشرب منه، وقطَع شَعَرات من لحيته وشيئًا من هُدْب ثيابه، ثم خرج وهرب وتَوَارَى؛ فلمّا أصبح ورأى ذلك نصب على داود العيون وطلَبه أشدَّ الطلب فلم يقدر عليه، ثم رَكِبَ طالوتُ يومًا فوجد داود يمشي في البرِّيَّة فقال: اليوم أقتلُ داود، وكان داودُ إذا فرّ لم يُدرَك، فركض داود حتى دخل غارًا، فأمر الله العنكبوتَ أن تَنْسُج، فنَسَجت عليه بيتًا، وجاء طالوتُ إلى الغار فنظر إلى بيتِ العنكبوت فقال: لو كان هاهنا لخَرَق[3] بيتَ العنكبوت، فتركه ومضى، وانطلق داود إلى الجبل ومعه المتعبّدون، فجعل يتعبّد فيه. وطعَن[4] العلماءُ والعبّادُ على طالوتَ في شأن داود؛ فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن داود إلاّ قتله. وأغْرِيَ بقتل العلماء، فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم [ويُطيق قتله إلاّ قتله] ولم يكن طالوت يحارب جيشًا إلا هزمه، حتى أتِيَ بامرأة تعلم اسم الله الأعظم، فأمر جبّاره بقتلها، فرحمها الجبّار وقال: لعلّنا نحتاج إلى عالم فتركها.

---

(١) الزّق: وعاء من جلد توضع فيه الخمرة وغيرها من السوائل.

(٢) الخليق: الجدير. (٣) خرق: شقّ.

(٤) طعن: يقال: طعن على فلان: أي عابه وثلبه واعترض عليه.

ثم وقع في قلب طالوت التوبةُ، وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كلَّ ليلة يخرج إلى القبور ويبكي وينادي: أَنشُد اللّهَ عبدًا يعلم لي التوبةَ إلاّ أخبرني. فلمّا كَثُر عليهم [بكاؤه] ناداه منادٍ من قبر: يا طالوت، أما ترضَى [أنك][1] قتلتنا حتى تؤذينا أمواتًا، فازداد بكاءً وحزنًا، فقال له الجبّار: ما لك أيها الملك؟ قال: هل تعلم لي في الأرض عالمًا أسأله؟ هل لي من توبة؟ قال الجبّار: هل تدري ما مَثَلُك؟ إنما مَثَلُك مَثَلُ ملِكٍ نزل قريةً عِشَاءً، فصاح ديك فتطيّر[2] به، فقال: لا تتركوا في هذه القرية ديكًا إلاّ ذبحتموه. فلمّا أراد أن ينام قال لأصحابه: إذا صاح الدّيك فأيقِظونا حتى نَدَّلِج[3]. فقالوا له: وهل تركتَ ديكًا يُسمَع صوته؟ وأنت هل تركتَ في الأرض عالمًا؟! فازداد طالوتُ حُزنًا وبكاءً؛ فلمّا رأى الجبّار ذلك قال له: أرأيتَك إن دللتُك على عالم لعلّك أن تقتله؟ قال لا. فتوثّق منه الجبّار وأخبره أنّ المرأة العالمةَ عنده؛ قال: فانطلِقْ بي إليها حتى أسألَها هل لي من توبة؟ - وكان إنما يعلم ذلك أهلُ بيت لهم علمٌ بالاسم الأعظم[4] - فلمّا بلغ طالوتُ البابَ قال له الجبّار: إنها إن رأتك فزِعتْ، فخلَّفه خَلْفَه، ثم دخل عليها فقال لها: ألستُ أعظمَ عليكِ حُرمة، أنجيتُكِ من القتل وآويتُكِ عندي؟ قالت بلى. قال: فإنّ لي إليكِ حاجة. قالت: وما هي؟ قال: هذا طالوت يسأل هل له من توبة؟ فقالت: لا والله ما لطالوت من توبة، ولكن هل تعلمون مكانَ قَبرِ أشمويل؟ قال: نعم. قالت: فانطلقوا بي إلى قبره، ففعلوا، فصلَّت ثم نادت: يا صاحب القبر أُخرج. فخرج أشمويل من قبره ينفُض رأسَه من التراب. فلمّا نظر إليهم ثلاثتهم المرأةِ والجبّار وطالوت قال: ما لكم! أقامت القيامة؟ قالت: لا، ولكنّ طالوت يسألكَ هل له من توبة؟ قال أشمويل: يا طالوت، ما فعلتَ بعدي؟ قال: لم أَدَع من الشرّ شيئًا إلاّ فعلتُه، وقد جئت أطلب التوبة. قال: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال. قال: ما أعلم لك من توبة إلاّ أن تتخلّى عن مالك وتخرجَ أنت وولدُك في سبيل الله، ثم تُقدِّم ولدَك حتى يُقتَلوا بين يديك، ثم تُقَاتِلَ أنت حتى تُقتَلَ آخرهم. ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميّتًا،

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٢) تطيّر به: أي تشاءم، وأصله من الطّير.

(٣) ندّلج: يقال: أدلج القوم أي ساروا في آخر الليل، أو ساروا الليل كلّه.

(٤) عبارة الثعلبي: وكانت تعلم الاسم الأعظم، وكان إنّما يعلم بهذا الاسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم وهو الأصوب للسياق.

ورجع طالوت أحزنَ ما كان، رهبةَ ألاّ يتابعَه أولادُه، وقد بكى حتى سقطت أشفارُ[١] عينيه، ونحَل جسمُه. فدخل عليه أولاده فقال لهم: أرأيتم لو دُفِعتُ إلى النار هل كنتم تنقذونني؟ قالوا: بلى، ننقذك بما قدَرنا عليه. قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول. قالوا: فأعرِضْ[٢] علينا، فذكرَ لهم القصة. قالوا: فإنك لمقتول؟! قال نعم. قالوا: فلا خير لنا في الحياة بعدك، قد طابت أنفسُنا بالذي سألتَ. فتجهّزَ للغزْو بماله وولده، فتقدّم ولدُه فقاتلوا بين يديه حتى قُتلوا؛ ثم تقدّم فقاتلَ بعدهم حتى قُتل. فجاء قاتله إلى داود يبشّرْه وقال: قد قتلتُ عدوّك. فقال داود: ما أنت بالذي تحيا بعده. فضرب عنقَه.

وحكى الكسائيّ: أنّ طالوت لـمّا حسد داود على ما أُوتي من القوّة، وهمّ بالغدر مرارًا فلم يَظْفَر به وظفر به داود فأبقَى عليه، ٱعتذر له طالوت وٱتفقا؛ ثم مات أشمويل، فانضمّ بنو إسرائيل إلى داود واختلفوا على طالوت وحاربوه؛ فاستقلّ داود بالمُلك، وجاهدَ ببني إسرائيل وقهر الأعداء. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خلافة داود عليه السلام ونبوّته ومبعثه إلى بني إسرائيل وما خصه الله عزّ وجل به

هو داود بن إيشَى[٣] بن عويل بن باعد بن سلمون بن يحسون بن عمى بن مارب بن أرَم بن حَصْرُون بن فارَص بن يَهُوذَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [صَ: ٢٦] قال الكسائيّ: لـمّا مات أشمويل تفرّق بنو إسرائيل واشتغَلوا باللهو، فبعث الله تعالى داود عليه السلام وأعطاه سبعين سطرًا من الزّبور، وأعطاه حُسن الصوت، فكان إذا سبّح سبّحت الجبال معه والطير والوحش؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾﴾ [صَ: ١٨ ـ ١٩] أي مطيع.

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ: قالت العلماء بأخبار الأنبياء: لـمّا ٱستُشهِد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطَوْه خِزانَة طالوت وملّكوه على أنفسهم، وذلك بعد قتلِ جالوت بسبع سنين، ولم يجتمع بنو إسرائيل بعد يُوشَع بن نُون على ملِكٍ واحدٍ إلاّ على داود عليه السلام.

---

(١) أشفار العين: مفردها شفر: وهو الحرف الذي ينبت عليه الهدب.

(٢) فاعرض علينا: أي أخبرنا بما تريد.

(٣) في الكتاب المقدّس ١/ ٤٧٢ «يسّي» بفتح الياء وتشديد السين.

قال: وخصّ الله تعالى نبيّه داود بخصائص:

منها: أنه أنزل عليه الزَّبور بالعبرانية خمسين ومائةَ سورة، في خمسين منها ما يكون من بُخْتَنصر وأهل بابِل[١]؛ وفي خمسين ما يكون من أهل إبْرُون[٢]؛ وفي خمسين منها موعظة وحكمة؛ ولم يكن فيها حلال ولا حرام، ولا حدود ولا أحكام؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومنها: الصوت الطيّب، والنغمة اللذيذة، والترجيع[٣] في الألحان؛ ولم يُعْطِ الله تعالى أحدًا من خلقه مثلَ صوته، فكان يقرأ الزَّبور بسبعين لحنًا بحيث يعرق المحموم ويُفيق المَغْشِيّ عليه.

وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرّيّة، فيقوم ويقرأ ويقوم معه علماء بني إسرائيل خَلْفَه، ويقوم الناس خلفَ العلماء، وتقوم الجنّ خلفَ الناس، وتقوم الشياطين خلف الجنّ، وتدنو الوُحوش والسباع حتى تؤخذ بأعناقها، وتُظِلّه الطيرُ مُصيخة[٤]، ويركُد الماء الجاري ويسكن الريح.

قال الثعلبي: وما صنعت المزامير[٥] والبرابط[٦] والصُّنوج[٧] إلاّ على صوته، وذلك أنّ إبليسَ حسده وٱشتدّ عليه أمره، فقال لعفاريته: ترون ما دهاكم؟ فقالوا: مُرنا بما شئتَ. قال: فإنه لا يصرف الناس عن داود إلاّ ما يُضادّه ويُحادّه[٨] في مثل حاله. فهيّأ المزامير والأعواد والأوتار والملاهي على أجناس أصوات داود عليه السلام فسمِعها سفهاء الناس فمالوا إليها وٱغترُّوا بها.

ومنها: تسبيح الجبال والطير معه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [صٓ: ١٨]. يقال: إن داود كان إذا تخلّل الجبالَ يسبِّح اللّهَ تعالى

---

(١) بابل: مدينة من أقدم وأكبر مدن العالم الديم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهي مدينة النمرود اشتهرت في الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة وفيها مات الإسكندر «انظر معجم البلدان لياقوت».

(٢) إبرون: لم نقع على وصف لهذه الناحية أو البلد في معجم البلدان وغيره من المظانّ، ولكننا وجدنا صبح الأعشى يذكر أن أَبرون: جزيرة «صبح الأعشى ٥/ ٨٣».

(٣) الترجيع: ترديد الصوت.

(٤) مصيخة: أي مصغية ومستمعة.

(٥) المزمار: الآلة التي يزمّر بها.

(٦) البرابط: مفردها بربط، وهو العود.

(٧) الصنوج: مفردها صنج، وهي صفيحة مدوّرة من نحاس يضرب بها على أخرى.

(٨) يحادّه: يعاديه.

جعلت الجبالُ تجاوبه بالتسبيح نحوَ ما يسبِّح. ثم قال في نفسه ليلةً من الليالي: لأعبُدنّ اللّهَ عبادةً لم يُعْبَد مثلَها، فصعِد الجبلَ، فلمّا كان في جوف الليل وهو على جبل داخلتْه وَحْشة، فأوحى الله إلى الجبال: أن آنِسِي داود، فاْصطكّت[١] الجبالُ بالتسبيح والتهليل. فقال داود في نفسه: كيف يُسمع صوتي مع هذه الأصوات؟ فهبَط عليه ملَك وأخذ بعَضُده حتى انتهى به إلى البحر، فوكَزه[٢] برجله فانفرج له البحر، فانتهى إلى الأرض فوكزها برجله فانفرجت له الأرض، حتى انتهى إلى الحوت فوكزه برجله، فانتهى إلى الصخرة، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت فخرجت منها دودة تَنِشّ[٣]، فقال: إن الله تعالى يسمع نَشِيش هذه الدودة في هذا الموضع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر[٤].

ومنها: أن الله تعالى أكرمه بالحكمة وفصل الخطاب. قالوا: والحكمة: الإصابة في الأمور. واختلفوا في فصل الخطاب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بيان الكلام. وقال ابن مسعود[٥] والحسن[٦]: المعنى علمُ الحُكْم والنظرُ في القضاء، كان لا يَتتعتَع[٧] في القضاء بين الناس. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هو البيِّنة على المدّعِي واليمينُ على المدّعَى عليه. وقال كعب: الشهود والأيمان. وقال الشعبيّ: سمعتُ زيادًا يقول: فصل الخطاب الذي أُعطِيَ داود: أمّا بعد. قال أسباط: وهو أوّل من قالها.

ومنها: السلسلة التي أعطاه الله إيّاها، ليَعرِف المُحِقَّ من المبطل في المحاكَمة إليه. قال الثعلبيّ: روى الضحّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنّ الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالمجرّة[٨] والفلك، ورأسها عند محراب داود حيث يُتحاكَم إليه، وكانت قوّتُها قوّةَ الحديد، ولَوْنُها لونَ النار، وَحَلَقُها مستديرة، مفصَّلة

---

(١) اصطكت: اضطربت. (٢) وكزه: دفعه وضربه.

(٣) تنش: تصوّت.

(٤) المدر: واحدتها المدرة، وهي القرية المبنية بالطين واللّبن، ومدرة الرجل: بيته.

(٥) ابن مسعود: هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمٰن الهذلي من السابقين الأولين، محدّث ثقة، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ «الكاشف ٢/١١٦».

(٦) الحسن: هو الحسن البصري، أبو سعيد، إمام أهل البصرة، وحبرُ الأمّة في زمانه، ولد بالمدينة وشبّ في كنف عليّ بن أبي طالب، كان غاية في الفصاحة، تنصبّ الحكمة من فيه، توفي سنة ١١٠هـ «الأعلام ٢/٢٢٦».

(٧) يتتعتع: يتردّد.

(٨) المجرّة: نجوم كثيرة في السّماء لا تدرك بالبصر، وإنّما يُرى ضوؤها كأنه بقعة بيضاء.

بالجوهر، مدسَّرة[١] بقُضبان اللؤلؤ الرَّطْب، فلا يحدث في الهواء حَدَث إلاّ صلصلت السلسلةُ، فيعلم داود ذلك الحَدَث؛ ولا يلمَسها ذو عاهة إلاّ برِئ، وكان علامة دخول قومه في الدّين أن يمسّوها بأيديهم ويمسحوا بأكفّهم على صدورهم. وكانوا يتحاكمون إليه، فمن تعدّى على صاحبه أو أنكره حقًا أتَوا السلسلة، فمن كان صادقًا مُحقًّا مدّ يده إلى السلسلة فنالها، ومن كان كاذبًا ظالمًا لم يَنلها؛ فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة.

قال: فبلَغنا أن بعض ملوكهم أودعَ رجلاً جوهرةً ثمينة، فلمّا أستردّها منه أنكره ذلك، فتحاكَما إلى السلسلة، فعلم الذي كانت عنده الجوهرة أن يده لا تَنال السلسلة، فعمَد إلى عُكّازة فنَقَرها[٢] ثم ضمّنها الجوهرة وأعتمد عليها حتى حضر معه غريمه[٣] عند السلسلة، فقال لصاحبها: ما أعرِف لك من وديعة، إن كنتَ صادقًا فتناوَل السلسلة، فتناولَها بيده وقال للمنكِر: قم أنت أيضًا فتناوَلْها، فقال لصاحب الجوهرة: الزمْ عُكّازتي هذه حتى أتناول السلسلة. فأخذها وقام الرجل وقال: اللهم إن كنت تعلم أنّ هذه الوديعة التي يدّعيها عليّ قد وصلتْ إليه فقرِّب منّي السلسلة. فمدّ يده وتناوَلَها، فشكّ القومُ وتعجّبوا، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة.

وقال الكسائيّ في خبر السلسلة: أوحى الله تعالى إلى داود أن ينصِب سلسلةً من حديد ويعلِّقَ فيها جرسًا، ففعل ذلك؛ وساق في خبرها نحو ما تقدّم في أمر المُحقّ والمُبطل.

قال: وجاء خَصمان فأدّعى أحدهما على الآخر أنه أودعه جوهرًا؛ فاعترف به وقال: أعدتُه إليه، فقام المدّعِي وتناولَ السلسلة فدنت منه حتى تناولَها، ثم قال للمدّعَى عليه: تناوَلْها. وكان قد أخذ الوديعة فجلعها في قَناة[٤] مجوفّة، فناولها للمدّعِي وقال: الزمْ عصايَ هذه، ومدّ يده إلى السلسلة فدنت منه حتى كاد يتناولها؛ ثم أرتفعت وتدلّت إليه مرارًا، ثم تناولَها، فقال داود للمدّعِي: لعلّ هذا قد سلّم وديعتَك لأهلك. فرجع وسأل أهلَه، فقالوا: ما دَفَع إلينا شيئًا. فعاد وأعلمَ داود، فأخذ داود القَناة وشقها، فطلعت الوديعةُ منها؛ وارتفعت السلسلةُ من ذلك اليوم.

---

(١) مدسّرة: مسمّرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.
(٢) نقرها: حفر فيها نقرة.
(٣) الغريم: الدائن الذي يقاضيه.
(٤) القناة: كلّ عصا مستوية أو معوجة.

قال الثعلبي: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا ٱشتبه عليه أمر الخَصْمَين قال: ما أحوجكما إلى سلسلة بني إسرائيل؟ كانت تأخذ بعنُق الظالم فتجرّه إلى الحق جرًّا. والله أعلم بالصواب.

ومنها: القوّة في العبادة وشدّة الاجتهاد؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [صَ: ١٧] أي القوّة في العبادة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: ١٧] أي توّاب مطيع مسبِّح.

وكان داود يقوم الليل، ويصوم يومًا ويُفطِر يومًا، وما مرّت ساعةٌ من الليل إلاّ وفيها من آل داود قائم يصلّي، ولا يومٌ من الأيام إلاّ وفيه منهم صائم.

ومنها: قوّة المملكة. قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [صَ: ٢٠] أي قوّيناه، وقرأ الحسن: (وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ) بالتشديد. قال ٱبن عباس[١]: كان أشدّ ملوك الأرض سلطانًا؛ كان يحرس محرابَه كلَّ ليلة ثلاثةٌ وثلاثون ألف رجل. وقال السُّدِّيّ: كان يحرسه في كل يوم وليلة أربعةُ آلاف.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا من بني إسرائيل ٱستَعْدَى[٢] على رجل من عظمائهم عند داود؛ فقال المستعدِي: إن هذا قد غصبني بقري. فسأل داودُ الرجلَ فجحدَه، وسأل الآخرَ البيّنة فلم تكن له بيّنة، فقال لهما داود: قُومَا حتى أنظرَ في أمركما. فقاما من عنده، فأوحَى اللّهُ تعالى إلى داود في منامه أن يقتل الذي استُعدِي عليه، فقال: هذه رؤيا [ولستُ أعجل حتى أتبيّن] فأوحى الله تعالى إليه مرة ثانية أن يقتله [فقال: هذه رؤيا، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله] أو تأتيه العقوبة من الله. فأرسل داود إلى الرجل فقال: إن الله تعالى قد أوحى إليّ أن أقتلك. فقال: تقتلني بغير بيّنة ولا تثبُّت؟ فقال نعم، والله لأُنفِذَنّ أمرَ الله فيك. فلمّا عرف الرجل أنه قاتلُه قال: لا تَعْجَل حتى أخبرَك. إنّي والله ما أُخِذتُ بهذا الذنب، ولكنّي [كنتُ][٣] اغتلتُ والدَ هذا فقتلتُه. فأمر به داودُ فقتل؛ فاشتدّت هيبتُه عند بني إسرائيل وٱشتدّ ملكه.

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشيّ الهاشمي، حبرُ الأمة، صحابي جليل، ولد بمكة، ولازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، كفّ بصره في آخر عمره، توفي سنة ٦٨هـ «الأعلام ٤/ ٩٥».

(٢) استعدى: اشتكى واستعان. (٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

ويقال: كان لداود إذا جلس للحكم عن يمينه ألف رجل من الأنبياء، وعن يساره ألفُ رجل من الأحبار[1].

ومنها: شدّة البطش. فرُوِيَ أنه ما فرّ ولا أنحاز من عدوّ له قطّ، ولذلك قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح عن داود عليه السلام: «كان يصوم يومًا ويُفطِر يومًا».

ومنها: إلانةُ الحديد له. قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١] قالوا: وكان سبب ذلك أنّ داود عليه السلام لمّا ملك أمر بني إسرائيل، كان من عادته أن يخرج للناس متنكّرًا، فإذا رأى رجلاً لا يعرفه تقدّم إليه وسأله، فيقول له: ما تقول في داود وإليكم هذا؟ أيّ رجل هو؟ فيُثنون عليه ويقولون خيرًا؛ فبينما هو ذاتَ يوم إذ قيّض الله له مَلَكًا في صورة آدميّ، فتقدّم داود إليه، فسأله على عادته، فقال له: نِعْم الرجلُ هو لولا خَصْلة[2] فيه. فراع داودَ ذلك، فقال: ما هي يا عبدَ الله؟ قال: إنه يأكل ويُطعِم عيالَه من بيت المال. قال: فتنبّه داود لذلك، وسأل اللّهَ تعالى أن يسبّب له سببًا يستغني به عن بيت المال، فألانَ الله له الحديد، فصار في يده مثلَ الشَّمْع والعجين والطِّين المبلول، فكان يصرفه بيده كيف شاء من غير إدخال نار ولا ضربٍ بحديد.

وعلّمه الله تعالى صنعةَ الدروع فهو أوّل من اتّخذها وكانت قبل ذلك صفائح. وقيل: إنه كان يبيع كل دِرْع منها بأربعة آلاف، فيأكل ويطعم عياله ويتصدّق منها على الفقراء والمساكين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] الآية. وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١] أي دروعًا كواملَ واسعاتٍ ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، أي لا تجعل المسامير دقاقًا فتنفلق، ولا غِلاظًا فتكْسِر الحِلَقَ. فكان يفعل ذلك حتى جَمع منه مالاً.

ورُوي أنّ لقمان الحكيمَ[3] رأى داود وهو يَعمل الدُّروع، فعجب من ذلك ولم

---

(١) الأحبار: العلماء.

(٢) الخصلة: خُلق في الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة، يستفاد معناها من السّياق.

(٣) لقمان الحكيم: ورد ذكره في القرآن الكريم، «سورة لقمان رقمها ٣١» وقيل: كان رجلاً صالحًا ولم يكن نبيًا، وقيل: كان نبيًا. «انظر القرآن الكريم المفسّر: طبعة دار الشروق» وقد ذكر بعض المفسّرين أن لقمان الحكيم من اليمن، ثمّ سكن مدينة آيلة، ثمّ دخل بيت المقدس «انظر صبح الأعشى ٥/ ٢٦٦».

يدر ما هو؟ فأراد أن يسأله، فسكت حتى فَرَغ داود من نسج الدروع، فقام وصبّها على نفسه وقال: نِعم القميصُ هذا للرجل المحارب. فعلِم لقمانُ ما يراد به، فقال: الصمت حكمة وقليلٌ فاعلُه. والله أعلم.

ذكر خبر داود عليه السلام حين ٱبتُلي بالخَطيئة

قال الثعلبيّ رحمه الله: اختلف العلماء في سبب ٱمتحان الله تعالى نبيّه داود عليه السلام فقيل: إنه تمنَّى يومًا من الأيام على ربّه تعالى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو الذي كان يمتحنهم به، ويعطيَه من الفضل نحو الذي أعطاهم. قال: ورَوَى السُّدِّيّ والكلبيّ ومُقاتِل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: كان داود عليه السلام قَسَم الدهر ثلاثةَ أيام(١): يومًا يَقضِي(٢) فيه بين الناس، ويومًا لعبادة ربّه، ويومًا يخلو فيه بنسائه وأولاده وأشغاله؛ وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام فقال: يا ربّ إنّ الخير كلَّه ذهب به آبائي الذين كانوا من قبلي. فأوحى الله تعالى إليه: أنهم ابتُلوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبَروا عليها؛ ابتُلِيَ إبراهيمُ بالنُّمرود وبذبح ٱبنه؛ وٱبتُلِيَ إسحاقُ بالذَّبح وبذَهاب بصره، وٱبتُلِيَ يعقوبُ بالحُزن على يوسف، وإنك لم تُبْتَلَ بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: ربّ فٱبتَلِني بمثل ما ٱبتليتَهم وأعطني مثلَ ما أعطيتَهم. فأوحى الله تعالى إليه: إنك مُبتلًى في شهر كذا في يوم كذا فٱحترِس(٣). فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده الله عزّ وجل دخل داود محرابَه وأغلقَ بابه، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان، تمثّل له في صورة حمامةٍ من ذهب، فيها من كل لونٍ حَسَن؛ فوقعت بين رجليه، فمدّ يدَه ليأخذها. وفي بعض الروايات: «ليدفعها إلى ٱبن له صغير»، فلمّا أهوَى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه(٤) من نفسها؛ فامتدّ إليها ليأخذها، فتنحّت، فتبعها فطارت حتى وقعت [في كُوّة](٥)، فذهب ليأخذها فطارت من الكُوّة؛ فنظر داود عليه السلام أين تقع فيبعثُ إليها من يصيدها؛ فأبصر ٱمرأةً في بستان على شطّ بركةٍ لها تغتسل، هذا قول الكلبيّ. وقال السُّدِّيّ:

---

(١) في الأصل: ثلاثة أقسام، والتصويب عن الثعلبي.

(٢) يقضي: يحكم ويفصل.

(٣) احترس: توقّى واحذر.

(٤) تؤيسه: أي ينقطع رجاؤه من إمساكها.

(٥) الكوّة: الفرجة أو الخرق في الجدار يدخل منه الهواء والضوء وهي ليست في الأصل وإنّما زيادة عن الثعلبي.

رآها تغتسل على سطح لها. وقال الكسائيّ: سقط الطائر على شجرة إلى جانب الحوضِ الذي تغتسل فيه نساءُ بني إسرائيل. قالوا: فرأى داودُ ٱمرأةً من أجمل النساء خَلْقًا، فعجب من حُسنها، وحانت منها التفاتة، فأبصرت ظِلّه، فنَفضتْ شعرها فتغطّى بدنُها، فزاده ذلك إعجابًا بها؛ فسأل عنها، فقيل هي بَتْشَابَعُ بنتُ سالغ[١]، ٱمرأة أُوريّا بن حُنانا، وزوجها في غزاةٍ بالبلقاء[٢] بُعث مع يُوآب[٣] بن صَرُويَة ٱبن أخت داود، فكتب داود إلى ٱبن أخته: أن ٱبعث أُوريّا إلى موضع كذا وكذا، وقدِّمه قبلَ التابوت؛ وكل من قُدِّم على التابوت لا يحلّ له أن يرجع وراءه [حتى يفتح الله على يديه][٤] أو يُستشهَد، فبعثه أيوب وقدَّمه، ففُتِح له، فكتب إلى داود بذلك؛ فكتب إليه أيضًا: أن ٱبعثه إلى عدوّ كذا وكذا. فبعثه، ففُتِح له؛ فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أيضًا: أن ٱبعثه إلى عدوّ كذا أشدَّ منه بأسًا. فبعثه؛ فقتِل في المرّة الثالثة. فلمّا ٱنقضت عِدّة[٥] المرأة تزوّجها داود عليه السلام وهي أمّ سليمان عليه السلام.

وقال آخرون: كان سببُ ٱمتحانه أن نفسَه حدّثته أنه يُطيق قطع يوم بغير مقارفة سوء.

وقد رَوَى الثعلبيّ في ذلك بسند [سعيد بن][٦] مطر عن الحسن قال: إن داود عليه السلام جزّأ الدهرَ أربعةَ أجزاء: يومًا لنسائه، ويومًا للعبادة، ويومًا للقضاء بين الناس[٧]، ويومًا لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه، ويُبْكِيهم ويُبكونه. فلمّا كان يوم بني إسرائيل ذكروا فقالوا: هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب[٨] فيه ذنبًا؟ فأضمر داود في نفسه أنه سيُطيق ذلك. فلمّا كان يومُ عبادته غلّق أبوابه، وأمر ألاّ يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزَّبور؛ فبينما هو يقرأ إذا حمامةٌ من ذهب فيها من كل لونٍ

---

(١) التصويب عن الثعلبي، وهي في الأصول: «يشايع بنت سايع».
(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، حنطتها يضرب بها المثل، وقيل: سمّيت بالبلقاء لأنّ بالق من بني عمّان بن لوط عليه السلام عمّرها «معجم البلدان».
(٣) كذا في الكتاب المقدّس ١/٥٠٣، وفي الأصول: أيوب بن صوريا.
(٤) زيادة عن الثعلبي.
(٥) عدّة المرأة: مدّة حدّدها الشرع، تقضيها المرأة دون زواج بعد طلاقها، أو وفاة زوجها عنها.
(٦) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.
(٧) كذا في قصص الأنبياء للثعلبي، وفي الأصول: «بين بني إسرائيل».
(٨) يصيب: يقترف.

حَسَن وقد وقعت بين يديه، فأهوى إليها ليأخذها، فطارت فوقعت غيرَ بعيد، ولم تؤيسه من نفسها، فما زال يتبعها حتى أشرف على آمرأة تغتسل، فأعجبه خَلْقُها؛ فلمّا رأت ظِلّه في الأرض جلّلت[١] نفسَها بشَعرها، فزاده ذلك إعجابًا بها؛ وكان قد بَعث زوجَها على بعض جيوشه، فكتب إليه: أن سِرْ إلى مكان كذا وكذا ـ مكان إذا سار إليه قُتِل ولم يرجع ـ ففعل، فأصيب. فخطبها داود وتزوّجها.

وقال بعضهم في سبب ذلك ما رواه أبو إسحاق بسنده عن قَتَادة عن الحسن قال: قال داود عليه السلام لبني إسرائيل حين ملك: والله لأعدلنّ بينكم. ولم يستثن؛ فأبتُلِيَ.

وقال أبو بكر الورّاق[٢]: كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة، فأعجب بعمله وقال: هل في الأرض أحدٌ يعمل عملي؟ فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله عزّ وجل يقول: أُعجِبتَ بعبادتك والعجب يأكل العبادة، فإن أُعجِبتَ ثانيًا وَكَلْتُك إلى نفسك. فقال: يا ربّ كِلْني إلى نفسي سنة. قال: إنها لكثيرة. قال: شهرًا. قال: إنه لكثير. قال: فأسبوعًا. قال: إنه لكثير. قال: فيومًا. قال: إنه لكثير. قال: فساعة. قال: فشأنَك بها. فوكّل الأحراس ولَبِس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه، فبينما هو في نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه؛ وكان من أمر المرأة ما كان.

قالوا: فلمّا دخل داود عليه السلام بأمرأة أُوريّا لم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله عزّ وجل مَلَكين في صورة إنسِيّين، يطلبان أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه؛ فتسوّرا[٣] المحراب عليه، فما شَعَر وهو يصلّي إلاّ وهما بين يديه جالسان، فذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [صَ: ٢١ ـ ٢٢] أي تجر ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صَ: ٢٢] أي وسط الطريق ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [صَ: ٢٣] كنى

---

(١) جلّلت: غطّت، والتحفت، وسرّت.

(٢) أبو بكر الورّاق: هو أحمد بن محمد بن سعيد بن عبيد الله بن أبي مريم، أبو بكر القرشيّ الورّاق، الحافظ الدمشقي، ويعرف بابن فُطيس، مات سنة ٣٥٠ هجرية، روى الحديث عن جماعة من أهل الشام، وكان ثقة مأمونًا، يورق للناس بدمشق، له خطّ حسن «انظر معجم الأدباء لياقوت ١/٦٢٦».

(٣) تسوّر المحراب: علاه وتسلّقه، والمحراب: مكان العبادة.

بالنِّعاج عن النساء؛ والعرب تفعل ذلك. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾. قال ٱبن عباس: أعطنيها. وقال ٱبن جُبَير[١] عنه: تحوّل لي عنها. وقال أبو العالية[٢]: ضمّها إليّ حتى أكفُلَها. وقال ٱبن كَيْسان: اجْعَلْها كِفْلي، أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾، أي غلبني. وقرأ عُبَيد بن عُمير[٣]: وعازَّني، من المعازّاة، وهي المغالبة. قال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي الشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [صَ: ٢٤] وروى السُّدِّيّ أن أحدهما لما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ الآية، قال داود عليه السلام للآخر: ما تقول؟ قال: إن لي تسعًا وتسعين نعجة ولأخي هذا نعجةٌ واحدة، وأنا أريد أن آخذها منه فأكمّل نعاجي مائة وهو كاره. قال داود: وهو كاره؟ قال نعم. قال: إذًا لا ندَعُك وذلك، وإن رُمْتَ ذلك ضربْنا منك هذا وهذا، يعني طرَف الأنف وأصلَ الجبهة. فقال: يا داود، أنت أحقُّ أن يُضرَب منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأُوريّاء إلا ٱمرأةٌ واحدة، فلم تزل به تعرّضه للقتل حتى قُتل وتزوّجتَ ٱمرأته. فنظر داود عليه السلام فلم يَرَ أحدًا، فعرف ما قد وقع فيه؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي أيقن ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [صَ: ٢٤] أي ٱبتليناه. قال سعيد بن جُبَير: إنما كانت فتنة داود النظر. قال الثعلبيّ: ولم يتعمد النظرَ إلى المرأة، ولكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه[٤].

قال: فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير في قصة ٱمتحان الله تعالى داود عليه السلام. وقد رُوِي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص معتقدًا صحته جلدتهُ حدَّين لعظيم ما ارتكَب وجليل ما ٱحتقَب[٥] من الوِزْر والإثم، يَرمي مَنْ قد رفع الله محلّه وأنابَه من خلقه رحمةً للعالمين وحجةً للمجتهدين»!

وقال القائلون بتنزيه المرسلين في هذه القصة: إن ذنب داود عليه السلام إنما كان أنه تمنّى أن تكون له ٱمرأةُ أُوريّاء حلالاً له، وحدّث نفسه بذلك، فٱتفق غَزْو

---

(١) ابن جبير: لعله جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم محدّثٌ ثقة «انظر الكاشف ١/ ١٢٥».

(٢) هو أبو العالية البرّاء البصري زياد، وقيل كلثوم محدّث ثقة أخذ الحديث عن ابن عباس وأبي برزة «الكاشف ٣/ ٣١١».

(٣) لعلّه عبيد بن عُمير مولى ابن عبّاس، محدّث أخذ الحديث عن ابن عباس «انظر الكاشف ٢/ ٢٠٩».

(٤) صارت عليه: أي صارت ذنبًا عليه، وذلك مصداق قول رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة فإنّ لك الأولى وعليك الأخيرة».

(٥) ما احتقب: ما اكتسب من الإثم.

أُورِيّاء وتقدُّمه في الحرب وهلاكُه. فلمّا بلغه قتلُه لم يجزَع عليه ولم يتوجّع له كما [كان] يجزَع على غيره من جُنده إذا هلك، [ووافق قتله مُرادَه، ثم تزوّج أمرأته فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت](١) فهي عظيمة عند الله تعالى.

وقال بعضهم: ذنب داود أن أَورِيّاء كان قد خطب تلك المرأةَ ووطّن(٢) نفسه عليها، فلما غاب في غَزاته خطبها داود، فتزوّجت منه لجلالته؛ فأغتمّ لذلك أُورِيّاء غمًّا شديدًا، فعاتبه الله تعالى على ذلك، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأوّل، وقد كانت عنده تسع وتسعون أمرأة.

قالوا: فلما علم داود أنه أبتُليَ سجد فمكث أربعين ليلةً ساجدًا باكيًا حتى نبت الزرعُ من دموعه، وأكلت الأرض من جبينه، وهو يقول في سجوده: ربَّ داودَ زل داودُ زَلَّةً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضَعْفَ داود وتَغفِرْ ذنبَه جعلتَ ذنبَه حديثًا في الخُلُوف(٣) من بعده. فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال: يا داود، إن الله تعالى قد غَفَر لك الهمّ الذي هَمَمْتَ به. فقال داود: عرفتُ أن الربّ قادر على أن يغفر لي، وقد عرفتُ أن الله عَدْلٌ لا يَميل، فكيف بفلان إذا جاء يومَ القيامة فقال: يا ربّ، دمي الذي عند داود؟ فقال جبريل: ما سألتُ ربك عن ذلك، ولئن شئتَ لأفعلنّ. قال نعم. فعرجَ جبريل عليه السلام وسجد داود فمكث ما شاء الله، ثم نزل جبريل فقال: قد سألتُ يا داود ربَّك عن الذي أرسلتَني فيه فقال: قل لداود: إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له: هَبْ لي دَمَك الذي عند داود؛ فيقول: هو لك يا ربِّ، فيقول: فإن لك في الجنة ما شئتَ وما أشتهيتَ عوَضًا.

ورَوَى الثعلبيّ بسندٍ رفعه إلى أبن عبّاس وكعب الأحبار(٤) ووهب بن مُنَبِّه، قالوا جميعًا: إن داود عليه السلام لما دخل عليه المَلَكان فقَضَى على نفسه تحوَّلاَ عن صورتهما، فعرَجا وهما يقولان: قَضَى الرجل على نفسه. وعلم داود أنه عُنِيَ به، فخرَّ ساجدًا أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب ولا يرفع رأسه إلاّ لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجدًا، لا يرفع رأسه إلاّ لحاجة لا بدّ منها ثم يعود، فسجد تمامَ

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٢) وطّن نفسه على الأمر: أي حملها على إتيانه.

(٣) الخلوف: العقب.

(٤) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، أخذ عنه العرب كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، خرج إلى الشام وسكن حمص ومات فيها سنة ٣٢هـ «الأعلام ٥/٢٢٨».

أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العُشْبُ حول رأسه، وهو ينادي ربه عزّ وجل ويسأله التوبة ويدعو بدعاء طويل ذكره الثعلبيّ، في آخر كل كلمة منه: سبحان خالقِ النور.

قال: فأتاه نداء: يا داود، أجائع أنت فتُطْعَم، أظمآنٌ أنت فتُسْقَى، أمظلوم أنت فتُنْصَر، ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء. فصاح صيحةً هاج منها ما حوله؛ ثم نادى: يا رب الذنب الذي أصبتُه. فنُودِيَ: يا داود، إرفع رأسك فقد غفرتُ لك. فلم يرفع رأسه حتى جاء جبريل عليه السلام فرفعه.

قال وَهْبٌ: إن داود عليه السلام أتاه نِدَاء: إنّي قد غفرتُ لك قال: يا رب كيف وأنت لا تظلِم أحدًا؟ قال: اِذْهَبْ إلى قبر أورِيّاء، فنادِه وأنا أُسمِعه نداءك، فتحلَّلْ منه. فانطلَقَ حتى أتى قبرَه وقد لبِس المسُوح[١]، فجلس ثم نادى: يا أُورِيّاء. فقال: لَبَّيك، مَن هذا الذي قطع عليَّ لذّتي وأيقظني؟ قال: أنا داود. قال: ما جاء بك يا نبيَّ الله؟ قال: أسألك أن تجعلني في حِلٍّ مما كان منّي إليك. قال: ما كان منك إليّ؟ قال: عرّضتُك للقتل. قال: عرّضتَني للجنّة، فأنت في حلٍّ. فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، ألم تعلم أني حَكَمٌ عدلٌ لا أقضي بالغيب والتغرير[٢]! ألاَ أعلمته أنك قد تزوّجت امرأته!.

قال: فرجع إليه فناداه؛ فأجابه فقال: من هذا الذي قَطَع عليّ لذّتي؟ قال: أنا داود. قال: يا نبيّ الله، أليس قد عفوتُ عنك! قال: نعم، ولكن إنما فعلتُ ذلك لمكان امرأتك فتزوّجتُها، فسكت ولم يُجبه، وعاوَدَه فلم يجبه، فقام عند قبره وحثا[٣] التراب على رأسه ثم نادى: الويلُ لداود ثم الويلُ لداود إذا نُصبت الموازين القِسْطُ [ليوم القيامة][٤]، سبحان خالقِ النور. الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُؤْخَذ بذَقنَه[٥] فيُدفع إلى المظلوم، سبحان خالقِ النور. الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُسْحَبُ على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور. الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقرّبه الزبانية[٦] مع الظالمين إلى النار، سبحان خالق النور.

---

(١) المسوح: واحدها المسح، وهو ثوب الرّاهب، أو الكساء من شعر.
(٢) التغرير: تعريض الإنسان إلى الهلاك، يقال: غرّر به: أي عرضه للهلاك، والغرّة: الغفلة.
(٣) حثا التراب: رماه وأهاله على رأسه، أو نثره.
(٤) زيادة عن الثعلبي.
(٥) يؤخذ بذقنه: يمسك ويشدّ، والذّقن: مجتمع اللحيين من أسفلهما.
(٦) الزّبانية: سمّي بها بعض الملائكة بدفعهم أهل النار إليها.

قال: فأتاه نداء من السماء: يا داود، قد غفرتُ لك ذنبك، ورَحِمتُ بكاءك، واستجبتُ دعاءك، وأقلتُ عَثْرتك[١]. قال: يا ربّ، كيف لي أن تعفوَ عنّي وصاحبي لم يعفُ عنّي؟ قال: يا داود، أُعطيه يوم القيامة ما لم تَرَ عيناه، ولم تَسمَع أذناه، فأقول له: رَضِيتَ عبدي؟ فيقول: يا ربّ، من أين لي هذا ولم يبلُغه عملي؟ فأقول له: هذا عِوَض من عبدي[٢] داود، فأستوهبُك منه فيَهَبُك لي. قال: يا رب، الآن قد عرفتُ أنك قد غفرتَ لي. فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [صَ: ٢٤ - ٢٥]، أي ذلك الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [صَ: ٢٥] أي وإنّ له بعد المغفرة عندنا يومَ القيامة حُسْنَ مرجع.

قال الثعلبيّ ورفَعَه إلى وهب بن مُنَبِّه قال: إن داود عليه السلام لما تاب اللّهُ تعالى عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنةً لا تَرْقَأُ[٣] له دمعةٌ ليلاً ولا نهارًا، وكان أصاب الخطيئة وهو ٱبن سبعين سنة، فقسَم الدهرَ بعد الخطيئة على أربعة أيام، فجعل يومًا للقضاء بين بني إسرائيل، ويومًا لنسائه، ويومًا يَسِيحُ[٤] في الفيافي والجبال والساحل، ويومًا يخلو في دار له فيها أربعةُ آلافِ محراب؛ فيجتمع إليه الرُّهبان، فينوح معهم على نفسه، ويساعدونه على ذلك. فإذا كان يومُ سياحته يخرج في الفيافي، فيرفع صوته بالمزامير، فيبكي وتبكي معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يَسِيلَ من دموعهم مثلُ الأنهار؛ ثم يجيء إلى الساحل فيبكي وتبكي معه الحِيتان ودوابُّ البحر والسباعُ وطيرُ الماء، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نَوْحه نادَى مُنادٍ: إن اليوم نوح داود على نفسه فليَحْضُر مَن يساعده. قال: فيدخل الدارَ التي فيها المحاريب، فتُبْسَط له فَرْشٌ من مُسوح[٥] حَشْوُها ليف فيجلس عليها، ويجيء الرُّهبان وهم أربعة آلاف، عليهم البرانس وفي أيديهم العِصِيّ، فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالنَّوح والبكاء، ويرفعُ الرهبانُ معه أصواتَهم، فلا يزال يبكي حتى تَغْرق الفُرُش من دموعه، ويقعَ داود مثلَ الفَرْخ يضطرب، فيجيء ٱبنُه سليمانُ فيحمله، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفَّيه، ثم يمسح بها وجهه ويقول: يا رب ٱغفر ما تَرَى. قال: فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببكاء أهل الدنيا لَعَدَله.

---

(١) أقلت عثرتك: أي غفرت زلّتك وخطيئتك. (٢) أي من أجل عبدي داود.
(٣) ترقأ: تنقطع أو تجفّ. (٤) يسيح: يذهب ويسير تائهًا.
(٥) المسوح: مفردها مسح: وهو الثوب من شعر، أو البِلاس الذي يقعد عليه.

وقال ثابت[١]: ما شرب داود شرابًا بعد المغفرة إلاّ ونصفُه ممزوجٌ بدموع عينيه. وعن الأوزاعي[٢] قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «خدّت[٣] الدموعُ في وجه داود عليه السلام خَدِيد الماء في الأرض».

ذكر ميلاد سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائيّ: كان لداود عليه السلام عِدّةٌ من الولد، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدًا يرث مُلْكَه؛ فرزقه الله تعالى سليمان. فنُوديَ إبليس عند ما حَمَلتْ به أمه: يا ملعون، قد حُمِل في هذه الليلة برجل يكون طولُ حزنك على يديه، ويكون أولادُك له خُدّامًا. ففزِع من ذلك وجمع الشياطين وأخبرَهم بأمر المولود وما سمعه وقال: إنه لا يكون إلاّ من داود، فإنه خيرُ أهل الأرض.

قال: فلما وضعتْه أمه أتت الملائكةُ إلى داود وقالوا: أقرّ الله عينَك به. فبادر داود إلى منزله فرأى أعلام الملائكة منصوبةً، فخرّ داود شكرًا لله تعالى، وقرّب قُربانًا عظيمًا. ثم جاءه إبليس وقال: يا داود، أقرّ الله عينَك بولدك، غير أنه يقتلك ويَسلُبُك مُلْكَك، فاْقتُلْه صغيرًا وإلاّ قَتَلك كبيرًا، فغضب منه ولعنه، فاْنصرف وقد خاب أملُه.

قال: ونشأ سليمان، فكان داود إذا تلا الزبور حفظ ما يتلوه لوقته، وحفظ التوراة، وكان يحكم بحضرة أبيه.

ذكر خبر أبْشالوم بن داود

قال الكَسائيّ: كان من خبر «أبْشَالوم»[٤] أنه لما كان من أمر فتنة داود عليه السلام ما قدّمناه، تكلّم بعضُ بني إسرائيل في ذلك وجاؤوا إلى «أبشالوم» وهو اْبن بنت طالوت، وقالوا: إن أباك قد كَبِر وعَجَز عن سياستنا، وقد وقع في هذه الخطيئة، وأنت أكبرُ أولاده، والرأي أن ندعوَ الناس إليك وتقومَ مقامَه، فتبع رأيَهم وتولّى المُلك. فخاف داود على نفسه من سفهاء بني إسرائيل، ففارق منزلَه واْعتزل القوم برجلين من أصحابه. ثم جاء رجل من بني إسرائيل اْسمه أحِيتُوفَل[٥] إلى

---

(١) ثابت: لعلّه ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد، كان رأسًا في العلم والعمل، يقال: لم يكن في وقته أعبد منه، عاش ستًّا وثمانين سنة، مات سنة ١٢٧هـ «الكاشف ١/ ١١٥».

(٢) الأوزاعي: هو عبد الرحمٰن بن عمرو، إمام الدّيار الشامية في الفقه والزّهد، ولد في بعلبك، وسكن بيروت وتوفي فيها سنة ١٥٧هـ كان عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعزّ من أمر السلطان «الأعلام ٣/ ٣٢٠».

(٣) خدّت الدموع في وجهه: أي أثّرت فيه.

(٤) في الأصل: إبشالوم، والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/ ٥٠٥.

(٥) في الأصل: «نوفل» والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/ ٥٣٠.

أبْشالُوم وقال: إنه لا يستقيم أمرُك إلاّ بعد وفاة أبيك، والرأي أن تُعاجِله وتقتلَه ما دام في الخطيئة، فهمّ بذلك ثم صرفه الله عنه. فلما غفر الله تعالى لداود ورجع إلى قومه اعتزل ابنُه «أبشالوم» في طائفة من بني إسرائيل. فلمّا وُلد سليمان أرسل داودُ ابنَ أخت[١] له يقال له «يُوآب»[٢] إلى ابنه «أبشالوم» وقال: سِرْ إليه فإنه اعتزلني خوفًا على نفسه، وما كنتُ بالذي أقتل ولدي وقد تاب الله تعالى عليّ ورزقني هذا الولدَ المبارَك، فإن ظَفِرتَ به فأتني به مكرَّمًا، وإيّاك أن تقتله، فإنك إن قتلتَه قتلتُك به. فسار إليه في نفر من أصحابه، فالتقوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أبشالوم ومن معه. فبينا هو في هزيمته إذ مرّ بشجرة فعَلِق بَرْنُسُهُ[٣] بها، وخرج الفرس من تحته، فأدركه يوآب فحمله الحرج[٤] على قتله فقتله وتركه معلَّقًا في الشجرة، ورجع إلى داودَ فأخبره الخبر، فغضب وقال: إني قاتلُك به لا محالة عاجلاً أو آجلاً.

قال الثعلبي: فلما حضرتْ داودَ الوفاةُ أمر سليمان أن يقتله، فقتله بعد فراغه من دفن أبيه.

ذكر خبر الزرع الذي رعته الغنم وما حكم فيه سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: وبينما داود عليه السلام في يوم قَضائه وسليمانُ بين يديه، إذ تقدّم إليه قوم فقالوا: يا نبيّ الله، إنّا قوم حرثنا أرضًا لنا وزرعناها وسقيناها حتى بلغت الحَصَاد، فجاء هؤلاء وأرسلوا أغنامهم فيها بالليل، فرعتْها جميعًا حتى لم يبق منها شيء. فقال داود لأصحاب الغنم: ما تقولون؟ قالوا: صدقوا. فقال لأصحاب الزرع: كم قيمةُ زرعكم؟ قالوا: كذا وكذا. وقال لأرباب[٥] الغنم: كم قيمة أغنامكم؟

---

(١) كذا في الأصول، وفي الكتاب المقدّس ١/ ٥٠٤ «وفي الثعلبي: ابن أخ» وهو خطأ.

(٢) ورد هذا الاسم في الأصول هكذا «نوال» والتصويب عن الكتاب المقدّس: ١/ ٥٢٥.

(٣) قوله: (إذ مرَّ ـ أبشالوم بن داود ـ بشجرة فعلق بُرْنسه بها وخرج الفرس من تحته) لا يعقل أن يمرّ أبشالوم على فرس بشجرة فيعلق برنسه بالشجرة ويخرج فرسه من تحته وأين بقي أبشالوم يا ترى حتى أدركه يوآب وقتله؟ وإنما صوابه ما ورد في الكتاب المقدس ونحن ناقلوه من قاموس الدكتور بوست (جزء ١ ص ٢١) بنصه:
(وهرب أبشالوم وكان راكبًا على بغل فمرَّ به من تحت بُطمة عظيمة فتعلق شعر رأسه في أغصانها ومر البغل من تحته وبقي معلقًا في الفضاء اهـ) فعلق برنسه صوابه (فعلق رأسه) أي بواسطة شعره الكثيف الذي اشتهرت غزارته حتى كان إذا قصه بلغ وزنه مائتي شاقل. واختلف شرّاح الكتاب المقدس في حقيقة هذا الوزن والبَطمة الواحدة من شجر البَطم وهو شجر كالفستق جرمًا.

(٤) الحرج: الضّيق.

(٥) أرباب الغنم: أصحابها ومالكوها.

فذكروا قيمتها، فتقاربت القِيَم، فقال: ادفعوا أغنامكم إليهم بقيمة زرعهم. فقال سليمان: يا أبت إن أذِنتَ لي تكلّمتُ. قال: يا بُنَيّ تكلم بما عندك. فقال سليمان لأرباب الغنم: ادفعوا أغنامَكم إلى هؤلاء ينتفعوا بأصوافها وألبانها ونتاجها، وخذوا أنتم أرضَهم فاْحرُثوها وازرعوها واْسقوها حتى يقوم الزرعُ على سوقه[١]، فإذا بلغ الحَصَاد فسلِّموا إليهم أرضهم بزرعها وخذوا أغنامكم، فرضُوا جميعًا بذلك. قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال: ولما نظر مشايخ بني إسرائيل إلى جلوس سليمان عن يمين أبيه مع صغر سنّه حسدوه على ذلك. فأوحى الله إلى داود أن يقيم سليمان خطيبًا ليُسمِعهم من الحكمة ما ألهمه الله ليعلموا فضلَه عليهم. فجمع داودُ الناسَ حتى العُبَّاد والرُّهبانَ وأهلَ السّياحة[٢] إلى محرابه، وكانت سِنُّ سليمان يومئذ اْثنتي عشرةَ سنة، فأخرجه داود إليهم وألبسه لباسَ النبيِّين من الصوف الأبيض وقال: هذا اْبني قد أخرجتُه إليكم خطيبًا ليُورِد عليكم مما علّمه الله تعالى. فجلس على منبر أبيه وحمد الله تعالى ووحَّده، ووصفَ عجائب خَلْقه وصُنْعه؛ فسجدوا شكرًا لله، ونظروا إليه بعد ذلك بالعين الرفيعة وأجلُّوه، وأعطِي سليمانُ في حياة أبيه من العلم ما فَسَّر لبني إسرائيل خطيئة آدم ووصيّةَ شيثٍ ورفعَ إدريسَ وغيرَ ذلك.

ذكر خبر الذين اْعتدَوْا في السبت

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآية.

قال الكسائيّ: وكان في زمن داود عليه السلام قومٌ من بني إسرائيل من أبناء الذين كانوا مع موسى؛ وكانوا ينزلون على ساحل البحر بقرية يقال لها: «أيْلة»[٣] وكان الله قد حرّم على بني إسرائيل أن يشتغلوا يوم السبت، وأوجبَ عليهم فيه العبادة؛ لأنّ موسى عليه السلام أمرهم بالعبادة يومَ الجمعة فأبَوْا وقالوا: لا ينبغي لنا أن نشتغل بعبادة الرب إلا في اليوم الذي فَرَغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت. فلمّا اْختاروه شدّد الله عليهم فيه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ﴾ [النحل: ١٢٤]. وكان موسى يأمر قومه بتعظيمه؛ فكانوا كذلك مدّة، وكان على

---

(١) السوق: يراد بها سيقان الزرع.

(٢) أهل السّياحة: أهل العبادة والانقطاع عن الناس لعبادة الله.

(٣) أيلة: فرضة في طريق مكة من مصر، وهي أول حدّ الحجاز، يجتمع بها حاج مصر والمغرب «الروض المعطار: ٧٠».

ساحل البحر إلى جانب أيْلة حَجَران أبيضان، وكانت الحِيتان تخرج إلى أصلهما ليلةَ السبت ويومَ السبت، لأنها كانت لا تصاد، فإذا أقبلتْ ليلةُ الأحد خرجتْ منهما إلى البحر، فيتعذّر عليهم صيدها فيه إلاّ بمشقّة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فجعل فُسّاق أهل «أيلة» يقل بعضهم لبعض: إنما حرّم الله تعالى الأصطيادَ على آبائنا وأجدادنا لا علينا، ونحن لا ذنب لنا، وهذه الحِيتان تكثر يومَ السبت وليلتَه، فمن المُحال تركُها؛ فاْصطادوها وطبخوها وشوَوْا منها، فشمّ المؤمنون رائحتَها في يوم السبت، فخرجوا إلى الفُسّاق ووعظوهم وحذّروهم، فلم يكترثوا لذلك ولم ينتهوا عنه، فاجتمع المؤمنون على أبواب القرية بالسلاح ومنعوهم من دخولها، فاْشتدّ ذلك على الفُسّاق وشق عليهم أن يمتنعوا من الاْصطياد في يوم السبت لكثرة الحِيتان فيه دون غيره من الأيام، فقالوا: إن هذه [القرية] مشتركة بيننا [وبينكم][(١)] ولا يحلّ لكم أن تمنعونا منها، فإمّا أن تصبروا على أفعالنا أو تُقاسِمونا القرية فننفرد عنكم. فتراضَوْا على ذلك وقاسموهم القرية، وبنَوْا بينهم حيطانًا عالية وبابًا يدخلون منه غيرَ بابهم، واْنفردت كلُّ طائفة، واْشتغل الفُسّاق باللهو واللعِب والاْصطياد، وحفروا أنهارًا صغارًا من البحر إلى أبواب دُورهم، فكانت الحِيتان تأتيها في يوم السبت، فإذا غَرُبت الشمس همّتِ الحِيتان بالرجوع إلى البحر، فيسُدّون أفواهَ تلك الأنهار مما يلي البحر، ويصيدون تلك الحيتان. هذا والمؤمنون يخوّفونهم عذابَ الله فلا يرجعون. فلمّا طال ذلك وتكرّر منهم قال بعض المؤمنين لبعض: إلى كم ننصح هؤلاء ولا يزيدون إلا تماديًا وعُتُوًّا[(٢)]! قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] الآية.

قال: واْستغنى الفُسّاق وكثُرت أموالهم، ولاشترَوْا الضِّياع واْنهَمَكُوا على الفِسق فبلغ ذلك داودَ عليه السلام فلعنهم ودعا عليهم. فبينما هم في منازلهم في شر ما هم فيه إذ زُلزلت قريتُهم زلزلة عظيمة، ففزع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨]. فالذين لُعِنوا على لسان داود هم هؤلاء الذين اعتدَوْا في السبت، والذين لُعِنوا على لسان عيسى الذين سألوه نزولَ المائدة، فلمّا نزلت عليهم كفروا.

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن قصص الأنبياء للكسائي.

(٢) العتوّ: الاستكبار وتجاوز الحدّ في الظلم والكفر.

قال: فمسخ[١] الله هؤلاء الذين ٱعتدَوْا في السبت قِرَدة، ومسَخَ أصحابَ المائدة خنازير ـ وسنذكر إن شاء الله خبر أصحاب المائدة في موضعه من أخبار عيسى عليه السلام ـ قال: فكان أحدُهم يأتي حميمَه[٢] من المؤمنين وعيناه تَذْرِفان دمعًا فيقول له: أنت فلان؟ فيشير برأسه، أي نعم. فيقول لهم المؤمنون: قد أنذرناكم عذاب ربكم وعقوبتَه فلم تّتعظوا، فنزل بكم ما نزل.

قال الثعلبيّ قال قَتادة: صارت الشُّبّان قِرَدة، والشيوخُ خنازير، فما نجا إلاّ الذين نَهَوْا وهلك سائرُهم. قال: ثم برز الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيِّرين، فمكثوا ثلاثةَ أيام ثم هلكوا، وكذلك لم يلبث مَسْخٌ فوقَ ثلاثةِ أيام، ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا؛ ثم بعث الله تعالى عليهم ريحًا ومطرًا فقذفهم في البحر، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله إلى صُوَرهم الأولى البشرية، فيدخلهم النار. والله أعلم.

ذكر ٱستخلاف داودَ ٱبنَه سليمانَ عليهما السلام وخبر الصحيفة وٱبتداء أمر الخاتم

قال الكسائي رحمه الله: ولمّا أتى على سليمان بضعٌ وعشرون سنة نزل جبريل على داود بصحيفة، وأمَرَه عن الله تعالى أن يجمع أولاده ويقرأ عليهم ما في الصحيفة من المسائل، فمن أجاب عمّا فيها فهو الخليفة من بعده. فأحضر داود أولاده، وكان سليمان أصغرَهم سنًّا، وقرأ عليهم ما في الصحيفة، فأقرُّوا بالعجز عن معرفتها، وذلك بحضور مشيخة بني إسرائيل، فقال داود عليه السلام لسليمان عليه السلام: أجب عن هذه المسائل. فقال: أرجو أن يَهْدِيَني الله تعالى إلى جوابها. فقال: يا سليمان، ما الشيء؟ قال: المؤمن. قال: فما بعضُ الشيء؟ قال: الفاجر. قال: فما لا شيء؟ قال: الكافر. قال: فما كلّ شيء؟ قال: الماء. قال: فما أكبر شيء؟ قال: الشِّرْك. قال: فما أقلّ شيء؟ قال: اليقين. قال: فما أمرّ شيء؟ قال: الفقر بعد الغنى. قال: فما أحلى شيء؟ قال: المال والولد. قال: فما أقبح شيء؟ قال: الكفر بعد الإيمان. قال: فما أحسن شيء؟ قال: الرُّوح في الجسد. قال: فما أوحشُ شيء؟ قال: الجسد

---

(١) المسخ: هو تغيّر صورة المرء عن طبيعتها إلى صورة أخرى، كصورة القردة والخنازير. . .

(٢) الحميم: القريب الذي تودّه ويودّك.

بلا رُوح. قال: فما أقربُ شيء؟ قال: الآخرة [من الدنيا][١]. قال: فما أبعدُ شيء؟ قال: الدنيا من الآخرة. قال: فما أشرّ شيء؟ قال: المرأة السوء. قال: فما خير شيء؟ قال: المرأة الصالحة.

قال: وكان داود يصدِّقه عَقِبَ كل مسألة، ثم ٱلتفت إلى بني إسرائيل فقال: ما أنكرتم من قول ٱبني؟ قالوا: ما أخطأ في شيء متّعك الله به، وبارك لنا ولك فيه. قال: أترضَون أن يكون خليفتي عليكم؟ قالوا نعم. هذا ما أورده الكسائيّ رحمه الله.

وقد ذكر الثعلبيّ في هذه القصة زيادات نذكرها. قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى: قال أبو هريرة رضي الله عنه: نزل كتاب من السماء مختوم بخاتَم من الذهب على داود فيه ثلاثَ عشرة مسألة[٢]، فأوحى الله تعالى إليه أن ٱسأل عنها ٱبنك سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك. قال: وإن داود عليه السلام دعا سبعين قسِّيسًا[٣] وسبعين حَبرًا[٤]، ولم يذكر أولاده. قال: وأجلسَ سليمانَ بين أيديهم وقال له: يا بُنَيّ، إن الله أنزل من السماء كتابًا فيه مسائل، وأُمِرتُ أن أسألك عنها، فإن أخرجتَها فأنت الخليفة من بعدي. قال سليمان: اسأل يا نبيّ الله عما بدا لك، وما توفيقي إلا بالله.

قال داود: أخبرني يا بُنيّ، ما أقربُ الأشياء؟ وما أبعدُ الأشياء؟ وما آنَسُ الأشياء؟ وما أوحشُ الأشياء؟ وما أحسنُ الأشياء؟ وما أقبحُ الأشياء؟ وما أقلّ الأشياء؟ وما أكثرُ الأشياء؟ وما القائمان؟ وما المختلفان؟ وما المتباغضان؟ وما الأمرُ الذي إن ركبه الرجل حَمِدَ آخِرَه؟ وما الأمرُ الذي إن ركبه الرجل ذمّ آخره؟

قال سليمان: أمّا أقربُ الأشياء فالآخرة. وأما أبعدُ الأشياء فما فاتك من الدنيا. وأما آنسُ الأشياء فجسد فيه روح. وأما أوحشُ الأشياء فالجسد بلا روح. وأما أحسنُ الأشياء فالإيمان بعد الكفر[٥]. وأما أقبحُ الأشياء فالكفر بعد الإيمان. وأما أقلّ الأشياء

---

(١) زيادة عن الكسائي.

(٢) كذا في الأصول وقصص الأنبياء للثعلبي، غير أن الثعلبي ذكر في كتابه من المسائل أربع عشرة مسألة، ولكلّ مسألة جواب، فزاد في المسائل قوله: وما السّاعيان، وزاد في الأجوبة قوله: وأمّا الساعيان فالشمس والقمر...

(٣) القسيس: مرتبة دينية، وهي عند النصارى ما بين الأسقف والشمّاس ويقصد بها هنا رجل الدّين...

(٤) الحبر: العالم المتفقّه بالدّين وأحكامه.

(٥) في الأصول: فالروح في الجسد، وهو خطأ من الناسخ، ناتج عن السرّعة، والتصويب عن الثعلبي.

فاليقين. وأما أكثرُ الأشياء فالشكر. وأما القائمان: فالسماء والأرض. وأما المختلفان: فالليل والنهار. وأما المتباغضان: فالموت والحياة. وأما الأمرُ الذي إذا ركبه الرجل حَمِدَ آخره فالحلم. وأما الأمرُ الذي إذا ركبه الرجل ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب.

قال: ففكّوا الخاتَم، فإذا جواب المسائل سواءً على ما نزل من السماء. فقال القسِّيسُون والأحبار: لا نرضى حتى نسأله عن مسألة، فإن هو أخرجها فهو الخليفة. قال: سلوه. قال سليمان: سلوني وما توفيقي إلا بالله. قالوا: ما الشيءُ الذي إذا صَلَح صَلَح كلُّ شيء من الإنسان، وإذا فسد فسد كلُّ شيء منه؟ قال: هو القلب. فقام داود وصعِد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني أن أستخلف عليكم سليمان. قال: فضجّت بنو إسرائيل وقالوا: غلام حَدَثٌ يُسْتَخْلَفُ علينا وفينا من هو أعلم وأفضَلُ منه! فبلغ ذلك داودَ، فدعا رؤوس أسباط بني إسرائيل وقال: إنه بلغتْني مقالتكم، فأرُوني عِصِيّكم، فأيّ عصا أثمرتْ فإنّ صاحبها وليّ هذا الأمر [بعدي]؛ فقالوا: قد رضِينا. فجاؤوا بعِصِيهم؛ فقال لهم داود: ليكتبْ كل رجل منكم ٱسمه على عصاه؛ فكتبوا. ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه؛ ثم أُدخلتْ بيتًا وأُغلِقَ عليها الباب وسُكِّر بالأقفال، وحرسه رؤوسُ أسباط بني إسرائيل. فلما أصبح صلّى بهم الغداة؛ ثم أقبل وفتح الباب وأخرج عِصِيَّهم كما هي، وعصا سليمانَ قد أثمرتْ وأورقتْ. قال: فسلّموا ذلك لداود، فأخذ ابنَه سليمانَ ثم سار به في بني إسرائيل فقال: هذا خليفتي فيكم من بعدي.

قال وهب بن مُنَبِّه: لما ٱستخلفَ داودُ ٱبنَه وعظه فقال: يا بنيّ، إياك والهَزْلَ؛ فإنّ نفعه قليل ويَهيجُ العداوةَ بين الإخوان. وإيّاك والغضب؛ فإنّ الغضب يستخفّ صاحبه. وعليك بتقوى الله وطاعته؛ فإنهما يغلبان كل شيء. وإيّاك وكثرةَ الغَيرةِ على أهلك من غير شيء؛ فإن ذلك يورِث سوءَ الظنّ بالناس وإن كانوا بُرَآء(١). وٱقطع طمَعك عن الناس؛ فإنه هو الغنى. وإياك والطمعَ فهو الفقر الحاضر. وإياك وما يُعتذَر منه من القول والفعل. وعوِّد نفسَك ولسانَك الصدق؛ وٱلزم الإحسان؛ فإن ٱستطعتَ أن يكون يومُك خيرًا من أمسك فافعل. وصلّ صلاةَ مودِّع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تُماره(٢) في الدِّين. وإذا غضِبتَ فألصِق نفسكَ بالأرض وتحوَّلْ من مكانك. وٱرجُ رحمةَ الله فإنها واسعة وَسعتْ كل شيء.

---

(١) براء: مفردها بريء، وهو الذي يكون سليم الصدر خالص النيّة بعيدًا من الإثم.

(٢) تماريه في الدّين: تناظره وتجادله وتنازعه.

قالوا: ثم إن سليمان بعد أن آستُخلِف أخفَى أمرَه وتزوّج آمرأةً واستتر عن الناس، وأقبلَ على العلم والعبادة. ثم إن آمرأته قالت له ذات يوم: بأبي أنت وأمّي، ما أكملَ خِصالَك وأطيبَ ريحَك! ولا أعلم لك خَصلةً أكرهُها إلا أنك في مؤونة[١] أبي، فلو أنك دخلتَ السوق فتعرّضتَ لرزق الله لرجوتُ ألا يخيّبك الله. قال سليمان: إني والله ما عَمِلتُ عملاً ولا أُحسِنه، ثم دخل السُّوق صبيحةَ يومه ذلك فلم يقدِر على شيء، فرجع فأخبرها. فقالت له: يكون غدًا إن شاء الله.

فلما كان في اليوم الثاني مضى حتى آنتهى إلى ساحل البحر وإذا هو بصياد، فقال له: هل لك أن أعينك وتُعطِيَني شيئًا؟ قال نعم، فأعانه. فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين، فأخذهما وحَمِد الله تعالى، ثم إنه شقّ بطنَ إحداهما فإذا هو بخاتَم في بطنها، فأخذه وصرَّه في ثوبه، وحَمِد الله تعالى، وجاء بالسمكتين إلى منزله، ففرِحت آمرأته بذلك، فأخرج الخاتَم [ولبسه في إصبعه][٢]؛ فعكفت[٣] عليه الطير والريح، ووقع عليه بهاء المُلك؛ ولم يلبث أبوه أن مات. [فلما ملك حَمَل المرأة وأبويها إلى اصطخر][٤].

وقد قيل في أمر الخاتم غير ذلك - على ما أورده الكسائيّ - وسنذكره إن شاء الله تعالى بعد هذا في أخبار سليمان عليه السلام.

ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الكسائيّ: كان داود عليه السلام شديدَ الغَيرة على النساء، ويُغلق الأبواب عليهنّ إذا خرج، ويحمل المفاتيح معه. فقيل: إنه رجع يومًا ففتح باب نسائه، فرأى رجلاً [في داره ذا مَهَابة][٥] فقال له داود - وغضب -: مَن أنت؟ ومَن أدخلك داري؟ قال: أدخَلَني الدار من هو أولى بها منك، أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمنعُني دونَهم الحُجّاب والجنود، وأفرّق بين الجمع، أنا ملَك الموت. فارتعد داود وقال: دَعْني أدخل إلى أهلي لأودّعهم. قال: لا سبيل إلى ذلك يا داود. فبكى وقال: مَن

(١) المؤونة: القوت، والمراد هنا: أنك في رعايته وكنفه وهو الذي يتحمّل مؤونتك.
(٢) زيادة عن الثعلبي. (٣) عكفت عليه: لزمته ولم تنصرف عنه.
(٤) اصطخر: مدينة من أقدم مدن فارس، وبها كان سرير الملك في القديم، وبها آثار عظيمة من الأبنية حتى يقال: إنها من عمل الجنّ كما يقال عن تدمر وبعلبك في بلاد الشام، بينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخًا «صبح الأعشى ٤/٣٤٨».
(٥) في الأصول: في نهاية الجمال، والتصويب عن الكسائي.

لبني إسرائيل من بعدي؟ قال: ابنُك سليمان. قال: الآن طابت نفسي، اِمْضِ لما أُمرتَ به، فقبض رُوحَه عليه السلام وغسّله سليمانُ وإخوتُه، وكفّنه بأكفان نزلت عليه من الجنة، وحمله إلى قبره، ودُفن دون غار إبراهيم عليه السلام قال: وعكفت الطير على قبره أربعين يومًا.

قال الثعلبيّ في خبر وفاة داود: إن داود كانت له وصيفةٌ تُغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام، ويُقبِل داود على وِرْده[(١)] في العبادة. فأغلقت ذاتَ ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام، فرأت رجلاً قائمًا في وسط الدار فقالت: ما أدخلك هذه الدار! فإن صاحبها رجل غيور، فخذ حِذْرك. فقال: أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن. فسمعه داود، وكان في المحراب يصلّي، ففزِع واضطرب وقال: عليّ به، فأتاه. فقال: ما أدخلك هذه الدار في هذا الوقت بغير إذن؟! فقال: أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن. قال: فأنت مَلَكُ الموت؟ قال نعم. قال: أجئتَ داعيًا أم ناعيًا؟ قال: بل ناعيًا. قال: فهلاّ أرسلتَ إليّ قبل ذلك وآذنتني لأستعدّ للموت؟ قال: كم أرسلتُ إليك يا داود فلم تنتبه. قال: ومَن كانت رسُلُك؟ قال: يا داود، أين أبوك إيشى؟ وأين أمّك؟ وأين أخوك؟ وأين قَهْرَمانُك[(٢)] فلان؟ قال: ماتوا كلهم. قال: أمَا علمتَ أنهم رُسُلي، وأن التوبة تبلُغُك! ثم قبضه[(٣)].

قال أهل التاريخ: كان عمر داود مائة سنة، ومدّةُ ملكه أربعين سنة.

وقد تقدّم خبر آدمَ فيما وَهَب له من عمره.

ذكر نبوّة سليمان بن داود عليهما السلام وملكه

قال الكسائيّ رحمه الله: ولما قام سليمان عليه السلام من عزاء أبيه داود وتفرّق الطير عن قبره، دخل محرابَ أبيه، فهبَط عليه جبريل عليه السلام وقال له: إن الله تعالى يخصّك بالسلام ويقول لك: المُلك أحبّ إليك أو العِلم؟ فخرّ سليمان ساجدًا لله تعالى وقال: العلم أحبّ إليّ من المُلك، لأنه أنفع الأشياء. فأوحى الله تعالى إليه: إنك تواضعتَ واخترتَ العلم على المُلك، فقد وهبتُ لك العِلم والمُلك، وأضفتُ إلى ذلك كمالَ العقل وزينةَ الخُلُق، ونزعتُ عنك العُجْب[(٤)]، وسأطوي لك الدنيا بأسرها حتى تطأها بجيشك وتشاهد عجائبها. فخرّ سليمان ساجدًا

---

(١) الوِرد: الجزء من الليل يكون على الرجل أن يصلّيه.
(٢) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.
(٣) قبضه: أماته. (٤) العُجب: الكبر والزّهد.

لربه، ورفع رأسه فإذا الرياح الثمانية قد وقفت بين يديه وقالت له: إن الله سخّرنا لك، فاركبْنا إذا شئتَ إلى أيّ موضع شئتَ. وأقبلتِ الوحوشُ والسِّباع فوقفت بين يديه وقالت: إن الله أمرنا بالطاعة لك. وأقبلت الطير وقالت: قد أُمرنا أن نُظِلّك بأجنحتنا ولا نخالفك في أمر. وفوّض الله عزّ وجل إلى سليمان أمرَ الدنيا شرقِها وغربِها.

ذكر حشرِ الطير لسليمان بن داود عليهما السلام وكلامها له

قال الكسائيّ: ولما آتاه الله النبوّة والملك أحبّ أن يستنطق الطير، فحُشِرت إليه، فكان جبريلُ يحشُر طيرَ المشرق والمغرب من البر[١]، وميكائيلُ يحشُر طيرَ الهواء والجبال. فنظر سليمان إلى عجائب خَلْقها، وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه ومعاشه فيخبره، وكان بين يديه سبعةُ ألوية من ألوِية الأنبياء، يُمسكها سبعةٌ من الملائكة.

قال: ولما حُشرت الطيرُ له جاءته فَوْجًا فَوْجًا؛ فسلّمت عليه «الخُطّافة»[٢] بثلاث لغات وقالت: يا نبيّ الله، أنا ممن اختارني نوح وحملني في السفينة، ومنّي تناسَل كلُّ خُطّافة في الدنيا، ودعا لي آدمُ وقال: إنكِ تُدرِكين من أولادي مَن خلافتُه مثلُ خلافتي، تُحْشَر إليه الوحوش والطيورُ والمَرَدَةُ، فإذا رأيتِه فأقرئيه منّي السلام. وقالت له: يا نبيّ الله، إن معي سُورةً تعجَب الملائكةُ من نُورها، ما أُعطِيتْ لأحدٍ من بني آدم غيرَ أبيك إبراهيم، فإنها نزلت كرامةً له يوم أُلقيَ في النار، فهل لك أن تسمعها منّي؟ قال نعم. فقرأت سورة «الحَمْدُ»[٣] حتى بلغت ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الحمد: ٧] ومدّت صوتها بآمين وسجدت، وسجد معها سليمان عليه السلام.

ثم تقدّم «النّسر» وهو يومئذ في صورة عظيمة فقال: السلام عليك يا ملِك الدنيا، ما رأيتُ مُلْكًا أعظم من مُلْكك، وإني صحِبتُ آدم وساعدتُه على كثرة حزنه، وأنا أوّل من عَلِم بهبُوطه إلى الأرض، وكنتُ معه إلى أن تاب الله عليه وقال: إنه يكون من ذرّيتي من يحشر له الطير، فإذا رأيتَه فأقرِئه منّي السلام؛ وقد أدّيتُ إليك

---

(١) البرّ: يريد الأرض.

(٢) الخطّافة: السنونو، أو هي ضرب من الطيور القواطع عريض المنقار، دقيق الجناح طويله، منتفش الذّيل.

(٣) سورة الحمد: فاتحة الكتاب الكريم.

وديعته[١]، فاَصطنِعني يا نبيّ الله، فإني عليم بمعادن الأرض وجبالها، ومعي آيةٌ عظيمة لا يفتُرُ لساني عنها، وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾ [النساء: ٨٧] ثم سجد وسجد معه سليمان؛ فلمّا رفع رأسه جعله سليمانُ ملِكًا على سائر الطيور.

ثم تقدّمت «العُقَاب»[٢] فوقفت بين يديه وسلّمت عليه وقالت: يا نبيّ الله: إن الله حين خلقني كنتُ أعظم خلقًا من هذا، غير أن حُزني على هابيل يوم قتله قابيلُ صيّرني إلى ما ترى، ولقد توحّشت الأرض والجبال يوم قُتِل. ومعي آية أعطانيها ربي، وهي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]. ثم قالت: سلِّطني على من شئت، فإني قوية سميعة.

ثم تقدّمت «العنقاء»[٣] وهي يومئذ شديدة البياض، وصدرُها كالذهب الأحمر، ووجهها كوجه الإنسان، ولها ذوائب[٤] كذوائب النساء، ورجلان صفراوان، ولها تحت أجنحتها يدان، في كل يد ثلاثون إصبعًا، فوقفت بين يديه وسلّمت وقالت: إن الله فضّلك على كثير من الملوك حين أبرزني إليك في صورتي هذه، فمرني بما شئت، فوالله ما نطقتُ لأحد إلا لصفوة الله آدم، فإني وقفت بين يديه وتعجّب من حسن صورتي، وقال: ما أشبهك بطيور الجنان[٥]! فمنذ كم خلقك ربك؟ قالت: منذ ألفي عام. ثم تبخترت بين يديه فقال: أيها الطائر، إنك مُعْجَبٌ بخلقك، والعُجْب يهلك صاحبه، لقد فاز المفلحون وخسِر المبطلون.

وللعنقاء خبر عجيب نذكره إن شاء الله في آخر خبر الطير على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ثم تقدّم «الغُراب» فسلّم وقال: يا نبيّ الله، لقد فضّلك الله على كثير من ولد آدم، وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا، وإني كنت أبيض قبل

---

(١) الوديعة: ما استودع، الأمانة.

(٢) العقاب: طائرٌ من العتاق، مؤنثه، وقيل: العقاب يقع على الذكر والأنثى، إلاّ أن يقولوا: هذا عقابٌ ذكر.

(٣) العنقاء: طائر مستوهم لا وجود له، قيل: إنّها طائر عظيم لا ترى إلاّ في الدّهور، وسمّيت عنقاء لأنه كان في عنقها بياض كالطوق، وقال الزجّاج: العنقاء المُغرِب طائرٌ لم يره أحد.. «انظر اللسان مادة عنق».

(٤) الذوائب: خصل الشّعر.

(٥) الجنان: مفردها الجنّة، وهي دار النعيم في الآخرة.

ذلك، فصرت كما ترى، لمّا سمعتهم يقولون ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩٢] ولقد دعا لي أبوك آدم ونوح بطول العمر، وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شيء، وهي: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨].

ثم تقدّمت «الحمامة» فسلّمت عليه وقالت: يا نبيّ الله، أنا الحمامة التي ٱختارني أبوك آدم لنفسه إلفًا[١] وأنيسًا، وكنت آنسُ به وبتسبيحه؛ وكان إذا ذكر الجنة يصيح صيحة عظيمة ويقول: أتراني أرجع إليها؟ وإن لم أرجع إليها كنت من الخاسرين. وٱعلم يا نبيّ الله أنه قد علّمني كلمات حفظتها عنه، وهي: الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله سيد الأوّلين والآخرين. وقد أقبلتُ إليك طائعة لأمرك، فمرني بما شئت.

ثم تقدّم «الهُدْهُد» فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال: ما أحببتُ أحدًا كما أحببتك، لأني رأيت الدنيا ضاحكة لك، وقد أعطاك الله مُلكًا عظيمًا، فٱتخذني رسولاً آتك بالأخبار، وأدلك على مواضع الماء. فقال له: أراك أكيس[٢] الطيور، وأرى فخاخ بني إسرائيل تصطادك، ولا تغني عنك كياستك شيئًا، قال الهدهد: يا نبيّ الله، الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر، وإن الله يضيف إلى عقل المخلوق سبعين ضِعفًا ثم ينفّذ فيه حكمه وقضاءه. قال: صدقت. ثم سجد بين يديه مرارًا.

قم تقدّم إليه «الديك» وهو آخر من تقدّم، فوقف بين يديه وهو في نهاية الحسن، وضرب بجناحيه، وصاح صيحة أسمع الملائكة والطيور وجميع من حضر وقال في صياحه: يا غافلين اذكروا الله. ثم قال: يا نبيّ الله، إني كنت مع أبيك آدم وكنت أوقظه أوقات الصلوات، ومع نوح في الفُلك[٣]، ومع أبيك إبراهيم وكنت أسمعه يقول: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] وٱعلم يا نبيّ الله أني ما صحت صيحة إلا أفزعت بها الجن والشياطين. ففرِح سليمان به وأمره أن يكون معه حيثما كان. ووقف كل طير بين يديه، وفرغ من حَشْر الطيور وعرفها بأسمائها ومنطقها، وكانوا يعبدون الله بالليل والنهار، وكذلك الوحوش والسباع، حتى عَرَف كل واحد منهم بأسمه وصفته ونعته[٤].

---

(١) الإلف: الصديق والمؤانس.
(٢) الكيّس: العاقل الفطن.
(٣) الفُلك: السفينة.
(٤) نعته: أي ما ينعت به ويوصف.

ذكر خبر العنقاء في القضاء والقدر

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى جعفر بن محمد الصادق[(١)] قال: عاتب سليمان الطير في بعض عتابه فقال لها: إنك تأتين كذا، وتفعلين كذا، فقالت له: والله ربِّ السماء والثَّرَى، إنا لنحرص على الهدى، ولكن قضاءَ الله يأتي إلى منتهى علمه وقَدَره. قال سليمان: صدقت، لا حيلة في القضاء. فقالت العنقاء: لست أُومن بهذا. قال لها سليمان: أفلا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت بلى. قال: إنه وُلد الليلة غلامٌ في المغرب، وجارية في المشرق، هذا ٱبن ملك وهذه بنت ملك، يجتمعان في أمنع المواضع وأهولها على سِفاح[(٢)] بقَدَر الله تعالى فيهما. قالت العنقاء: يا نبيّ الله، وقد وُلدا؟ قال: نعم الليلةَ. قالت: فهل أُخبرتَ بهما؟ من هما وما اسمهما واسم أبويهما؟ قال: بلى، اسمهما كذا وكذا، واسم أبويهما كذا وكذا. قالت: يا نبيّ الله، فإني أفرّق بينهما وأبطل القَدَر. قال: فإنك لا تقدِرين على ذلك. قالت بلى. فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البُومة. ومرّت العنقاء وكانت في كبر الجمل عِظَمًا، ووجهها وجه إنسان، ويداها وأصابعها كذلك؛ فحلّقت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا وأبصرت كل دار فيها، وأبصرت الجارية في مهدها قد ٱحتوشتها الظئور[(٣)] والخَوَل[(٤)]، فاختلست المهد والجاريةَ وطارت، ومرّت حتى ٱنتهت بها إلى جبل شاهق في السماء، أصله في جوف البحر، وعليه شجرة عالية في السماء، لا ينالها طائر إلا بجهد، لها ألف غصن، كل غصن كأعظم شجرة في الأرض، كثيرة الورق، فاتخذت لها فيه وكرًا عجيبًا واسعًا وطيئًا، وأرضعتها وٱحتضنتها تحت جناحها، وصارت تأتيها بأنواع الأطعمة والأشربة، وتكنّها[(٥)] من الحرّ والبرد، وتؤنسها بالليل، ولا تخبر أحدًا بشأنها، وتغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها. وعلم سليمان بذلك ولم يبده لها، وبلغ الغلام مبلغ الرجال، وكان ملكًا من ملوك الدنيا، وكان يلهو بالصيد ويحبّه ويطلبه حتى نال منه عظيمًا. فقال يومًا

(١) هو الإمام جعفر بن محمد الصادق الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم، ولقّب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قطّ مولده ووفاته بالمدينة سنة ٨٠ ـ ١٤٨هـ «الأعلام ٢/ ١٢٦».

(٢) السّفاح: الزّنى، والإقامة مع المرأة من غير زواج صحيح.

(٣) الظئور: مفردها الظئر: وهي المرضعة لغير ولدها، واحتوشتها: أي أحاطت بها.

(٤) الخول: العبيد والإماء والأتباع.

(٥) تكنّها: تسترّها وتقيها.

لأصحابه: كل صيد البر وفلواته ومفازاته[١] قد تمكنت من صَيده، فلو ركبت البحر لأنال من صيده فإنه كثير الصيد كثير العجائب! فقال وزير من وزرائه: نعْمَ ما رأيتَ، وهو أكثر ما خلق الله صيدًا. فأمره بجَهازه، وهيأ السفن وجعل يختار من كل شيء يملكه، وأخذ من الوزراء والندماء والمُشِيرين والجواري والغلمان والطباخين والخبازين والبُزاة[٢] والصقور وغير ذلك مما يريده ويشتهيه من الملاهي والشراب، وركب ومرّ في البحر يتصيّد ويتلذذ لا يعرف شيئًا غير ذلك، حتى سار مسيرة شهر، فأرسل الله تعالى على سفينته ريحًا عاصفًا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها إلى جبل العنقاء الذي فيه الجارية، وذلك مسيرة خمسين سنة في خمسين ليلة، ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة، فأخرج رأسه من السفينة، فرأى الجبل وهو في لون الزعفران[٣] [صفرة][٤]، وطوله لا يُدْرَى أين منتهاه ولا عرضه، ورأى الشجرة فإذا هي كثيرة الأغصان والورق، ورقها عرض آذان الفِيَلة ليس لها ثمر، بيضاء الساق، فقال: إني أرى عجبًا، أرى جبلاً شاهقًا لم أرَ مثله، وأرى شجرة حسنة قد أعجبني منظرها. فحرّك سفينته نحو الجبل، فسمعت الجارية التي في عُشّ العنقاء صوت الماء وكلام الناس، ولم تكن سمعت قبل ذلك شيئًا من ذلك؛ فأخرجت رأسها من العُشّ، فتطلّعت فرأى الملك صورتها في الماء، ورأى عجبًا من جمالها وكثرة شعرها وذوائبها[٥]؛ فرفع رأسه إلى الشجرة فرأى الجارية، فأبصر أمرًا عظيمًا فأخذه القلق، فناداها: مَنْ أنتِ؟ فأفهمها الله تعالى لغته وقالت: لا أدري ما تقول ولا مَنْ أنت إلا أني أراك يشبه وجهك وجهي وكلامك كلامي، وإني لا أعرف شيئًا غير العنقاء، وهي أمي التي ربّتني وتسميني بنتها. فقال لها الغلام: وأين العنقاء أمك؟ قالت: في نوبتها. قال: وما نوبتها؟ قالت: تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلِّم عليه وتقيم عنده إلى الليل، ثم تروح وتجيئني وتحدّثني بما فعل سليمان وبما حكم وقضى، وإنه لملك عظيم، على ما تصف أمي العنقاء، وإنها تخبرني أنه يشبهني إلا أنها تخبر أنه أحسن وجهًا وأتمّ مني.

---

(١) المفازة: الصحراء الواسعة لا ماء فيها.
(٢) البزاة: واحدها الباز، وهو ضربٌ من الطيور يستخدم في الصيد.
(٣) الزعفران: نبات بصلي معمّر من الفصيلة السوسنيّة، منه أنواعٌ برّية، ونوع صبغي طبّي مشهور.
(٤) زيادة عن الكسائي.
(٥) الذوائب: مفردها الذؤابة، وهي من كلّ شيء أعلاه، والمراد هنا: شعر مقدّم الرأس.

قال: فانذعر الغلام وفزع، ثم قال: قد عرفته، هو الذي قتل أبي وسبَى ذرّيته، وإني لمن طُلَقائه[١] وممن يؤدّي إليه الخراج[٢]، ورسله الطير والرياح، ثم بكى الغلام. فقالت الجارية: وما يبكيك؟ قال: أبكي على وَحْدتك في مثل هذا الموضع الذي ليس به أنيس ولا أحد، وإن مثلك في الدنيا عدد الشجر والمدر[٣]، وكلهم في مقاصير[٤] الذهب والفضة والعيش الهنيء واللّذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعّمون، ويتوالدون أولادًا مثل خلقتك وخلقتي، أرأيتِ إن هاجت الريح وأزعجتك من وَكْرك مَنْ يمسكك أن تقعي في البحر؛ فإن وقعت في البحر فمن ذا الذي يُخرجك. قال: ففزِعت من قوله وقالت: وكيف لي أن يكون معي إنسيّ مثلُك يحدّثني مثل حديثك، ويحفظني من خوف ما ذكرت. فقال لها الغلام: أو لا تعلمين أن الله الذي ٱتخذَ سليمان نبيًّا وسخّر له الطير والرياح هو الذي رَحِمَك وساقني إليك إلفًا وصاحبًا وأنيسًا، وأني من أبناء الملوك. قالت الجارية: وكيف تصير إليّ وأصير إليك، وهذه العنقاء تنام وتحضُنني إلى صدرها بين جناحيها؟ قال الغلام: تُكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتَك هذه إذا ٱنصرفت إليك، فإذا قالت لك: ما تخشَيْن وما شأنُك، فأخبريها بحديثك، ثم ٱنظري إلى ما يكون ردّها عليك فتخبريني به. فراحت العنقاء فوجدتها حزينة كئيبة. فقالت لها: يا بُنَيّة، ما شأنك؟ قالت: الوَحْدة والوَحْشة، وإني لجزِعة على نفسي لذلك. فقالت لها: يا بُنَيّة لا تخافي ولا تحزني، فإني أستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف عنه يومًا. فلمّا أصبحت أخبرت الغلام بجوابها. فقال لها: لا تُريدي هذا، ولكن سأنحر من دوابي هذه فرسًا وأبقر[٥] بطنه وأخرج ما في جوفه وأقيرّه[٦] وأطيّنه وأدخل أنا في جوفه، وألقيه على قُرقور[٧] سفينتي هذه، فإذا جاءتكِ العنقاء فقولي لها: إني أرى عجبًا، خِلقةً مُلقاةً على هذه السفينة، فلو ٱختطفتيها وحملتيها إلى وكري هذا، فأنظر وأستأنس بها، كان أحبَّ إليّ من كينونتك عندي نهارًا وإمساكِكِ عني خبر سليمان. فرجعت العنقاء فوجدتها في مثل حالها، وشُغل سليمان عنها، فلم تصل إليه في ٱستئذانها إيّاه بالمُقام يومًا في منزلها.

---

(١) الطلقاء: مفردها: الطليق: وهو الأسير أطلق وشأنه.

(٢) الخراج: الجزية التي كانت تفرض على أهل الذمّة، أو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس أو غلّة الأرض.

(٣) المدر: البيوت من لبِن وطين.

(٤) المقاصير: مفردها مقصورة وهي الحُجرة.

(٥) بقر بطنه: شقّها.

(٦) أقيّره: أي أطليه بالقار وهو الزّفت.

(٧) القرقور: ضرب من السفن الكبار، ولكنّ سياق الكلام يدلّ على أنه يريد به رأس السفينة أو مقدّمها.

فقالت لها: إن نبيّ الله شُغِل عني اليوم بالحُكْم بين الآدميين فلم أصِلْ إليه. قالت لها: فإني لا أريد أن تتخلّفي عنه نهارًا لمكان أخبار سليمان، وإني أرى في البحر عجبًا، شيئًا مرتفعًا ما هو؟ قالت العنقاء: هذه سفينة قوم سيّارة ركبوا البحر. قالت: فما هذا الذي أرى مُلقًى على رأس هذه السفينة؟ قالت: كأنه مَيْتة رمَوْها. قالت: فاحمليها إليّ لأستأنس بها وأنظرَ إليها. فانقضّت العنقاء فاْختطفت الفرس والغلام في بطنها فحملتها إلى عُشّها. فقالت: يا أمّاه، ما أحسن هذا! وضحكت، ففرِحت العنقاء بذلك وقالت: يا بُنَيّة، لو علمتِ لقد كنت آتيكِ بمثل هذا منذ حين. ثم طارت العنقاء إلى نَوْبتها إلى سليمان، وخرج الغلام من جوف الفرس فلاعبها ومسّها ولامسها[١] واْفتضّها فأحبلها، وفرِح كل واحد منهما بصاحبه واْستأنس به.

وجاء الخبر إلى سليمان باجتماعهما من قِبَل الريح، ووافت العنقاء، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلسَ الطير؛ فدعا بعُرَفاء[٢] الطير وأمرهم ألاّ يَدَعُوا طائرًا إلا حشروه، ففعلوا؛ ثم أمر عُرَفاء الجنّ فحشروا الجنّ من ساكني البحار والجزائر والهواء والفَلَوات والأمصار، ففعلوا وحشروهم، وأحضروا الإنس وكل دابّة، واشتدّ الخوف وقالوا: نشهَد بالله أن لنبيّ الله أمرًا قد أهمّه. فأوّل سهم خرج في تقديم الطير سهم الحِدَأة[٣]، وكانت الطير لا تتقدّم إلا بسهام، فتقدّمت الحِدَأة واْستَعْدَتْ على زوجها، وكان قد جحدها ولدها، فقالت: يا نبيّ الله، إنه سفَدني[٤]، حتى إذا اْحتضنت بيضي وأخرجتُ ولدي فجحدني. فأمر سليمان بولدها فأُتي به، فوجد الشبه واحدًا، فألحقه بالذكر وقال لها: لا تمكّنيه من السِّفاد أبدًا حتى تشهِدي على ذلك الطير لكيلا يجحدَك بعدها أبدًا. فإذا سفَدها ذَكَرُها صاحت وقالت: يا طيور[٥] سفدني اشهدي، يا معشر الطير اْشهدي.

ثم خرج سهم العنقاء فتقدّمت، فقال لها سليمان: ما قولك في القَدَر؟ قالت: يا نبيّ الله، إن لي من القوّة والاْستطاعة ما أدفع الشر وآتي الخير. قال لها: وأين شَرْطُك الذي بيني وبينك أنك تفرّقين بقوّتك واستطاعتك بين الجارية والغلام؟ قالت: قد فعلتُ. قال سليمان: الله أكبر! فأتيني بها الساعة والخَلْقُ شهودٌ لأعلَمَ تصديق

(١) لامسها: باشرها كما يباشر الرّجل زوجته.
(٢) العُرفاء: مفردها عريف: وهو القيم بأمرهم والعارف لهم.
(٣) الحدأة: طائرٌ من الجوارح ينقضّ على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.
(٤) السّفاد: الجامعة.
(٥) في الأصل: يا كفور شهرتني، والتصويب عن الثعلبي.

ذلك، وأمر عَريف الطير ألاّ يفارقها حتى يوافيَ بها. فمرّت العنقاء، وكانت الجارية إذا قرُبت منها العنقاء تسمع حَفيف أجنحتها، فيبادر الغلام فيدخل جوف فرسه، فقالت كالفَزِعة: إن لكِ لشأنًا إذ رجعت نهارًا. قالت: لعمري إن لي لشأنًا، إن سليمان قد أمرني بإحضارك الساعةَ لأمرٍ جرى بيني وبينه في أمرك، فأنا أرجو نُصرتي اليوم فيك. قالت: فكيف تحمليني؟ قالت: على ظهري. قالت: وهل أستقرّ على ظهرك وأنا أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزِلّ وأسقطُ فأهلِك! قالت: ففي منقاري. قالت: وهل أصبر في منقارك! قالت: فكيف أصنع؟ لا بدّ من إحضارك إلى سليمان، وهذا عَريف الطير معي، وقد دعا بكفيلي البُومة. قالت: ادخل جوف هذا الفرس، ثم تحملين الفرس على ظهرك أو في منقارك، فلا أرى شيئًا ولا أسقُط ولا أفزَع. قالت: أصبتِ. فدخلت في جوف الفرس وأجتمعت مع الغلام، وحملت العنقاء الفرس بما فيه في منقارها، وطارت حتى وقعت بين يدي سليمان، فقالت: يا نبيّ الله، هي الآن في جوف الفرس، فأين الغلام! فتبسّم سليمان عليه السلام طويلاً وقال لها: أتؤمنين بقَدَر الله تعالى وقضائه! إنه لا حيلةَ لأحد[1] في دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشرّ. قالت العنقاء: أومن بالله وأقول: إن المشيئة للعباد والقوّة، فمن شاء فليعمل خيرًا ومن شاء فليعمل شرًّا. قال سليمان: كذبتِ ما جعل الله من المشيئة إلى العباد شيئًا، ولكن مَنح شاء الله أن يكون سعيدًا كان سعيدًا، ومن شاء أن يكون كافرًا كان كافرًا، فلا يقدِر أحد أن يدفع قضاء الله وقَدَره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم، وإن الغلام الذي قد وُلِد بالمغرب والجاريةَ التي وُلدت بالمشرق قد أجتمعا الآن في مكان واحد على سِفَاح، وقد حمِلت منه الجارية ولدًا. قالت العنقاء: لا تَقُلْ يا نبيّ الله هذا، فإن الجارية معي في جوف فرسي هذا. قال سليمان: الله أكبر! أين البُومة المتكفِّلة بالعنقاء؟ قالت: ها أنا. قال سليمان: على مثل قول العنقاء أنت؟ قالت نعم. قال سليمان: يا قَدَرَ الله السابقَ قبل الخلق أخرجهما على قضاء الله وقدره. قال: فأخرجهما جميعًا من جوف الفرس.

فأما العنقاء فتاهت[2] وفزِعت فطارت في السماء وأخذت نحو المغرب، وأختفت في بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت لا ينظر الطير في وجهها أبدًا أستحياء منها.

---

(١) في الأصل: «للروحانيين» والتصويب عن الثعلبي.

(٢) تاهت: اضطرب عقلها وفرّت.

وأمّا البُومةُ[١] فلزِمت الآجام[٢] والجبال وقالت: أمّا بالنهار فلا خروج ولا سبيل إلى المعاش. فهي إذا خرجت نهارًا وبّختها الطير واجتمعت عليها وقالت لها: يا قَدَرِيّة، فهي تخضع لهذا.

هذا ما كان من شأن العنقاء في القضاء والقدر. فلنرجع إلى أخبار سليمان عليه السلام.

ذكر خبر خاتم سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: وأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أنه قد سبق في علمي أني أُملِّك سليمان الدنيا، ليعلم الجن والإنس أني لم أخلُق خَلْقًا هو أفضل من ذرّية آدم؛ وأمره أن يأخذ خاتَمَ الخلافة من الجنة ويأتيه به. فجاء جبريل إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضيء كالكوكب الدرّيّ[٣]، ورائحته كالمسك، وعليه كتابة بغير قلم، وهي: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فأعطاه لسليمان وقال له: هنيئًا لك يابن داود بهذه الهديّة، وكان في يوم الجمعة لسبع وعشرين[٤] خلت من المحرّم. فلما صار الخاتَمُ في كفّ سليمان لم يتمكن من النظر إليه حتى قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكذلك كل من كان ينظر إليه.

قال وقيل: إن الخاتَم أنزل من تحت العرش من نور برهان الله، وقيل لسليمان: لا تنزِعه من كفّك إلا بأمانة، وجعل الله عزّه فيه، فتختم[٥] سليمان به وصعِد على كرسيّه واستقبل الناسَ بوجهه ورفع إليه الخاتم وهو يلمع، وقال: هذا الخاتم جمع فيه عِزّي وسلطاني وفضّلني به ربي على العالمين، وسلّطني على كل شيطان مريد[٦]. ثم سجد شكرًا لله تعالى وسجد معه الناس. ثم نزل عليه بعد نزول الخاتم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ والدروع فكان لا يقرؤها على شيء إلا خضع وذلّ، فتلاها على بني إسرائيل فلم يسمعها أحد إلا امتلأ فرحًا. ثم أمر بعد ذلك باتخاذ البَيْض[٧] والسيوف، فكان عنده اثنا عشر ألف درع من نَسْج داود.

---

(١) البومة: طائر يظهر في الليل، قبيح الصورة والصوت، يسكن الأماكن الخربة، ويقضي على الجرذان والفئران.

(٢) الآجام: مفردها الأجمة وهي الشجر الكثير الملتفّ.

(٣) الكوكب الدرّيّ: الثاقب المضيء.

(٤) عبارة الكسائي: «لثلاثٍ بقين من شهر رمضان» راجع ذلك في قصص الأنبياء للكسائي حيث تجد في هذا الموضع تفصيلاً أشمل عمّا هو هنا.

(٥) تختّم به: أي وضعه في إصبعه. (٦) المريد: الخبيث الشّرير المتمرّد.

(٧) البيض: واحدتها البيضة وهي الخوذة توضع على الرأس في الحرب.

وقيل: إن داود لم يعمل أكثر من سبع أذرع، ثم قال سليمان: يا بني إسرائيل، إني أمرت بمجاهدة أعداء الله؛ ثم جمع الخيول وشرع في الاستعداد للحرب.

ذكر خبر حشر الجن لسليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائيّ: وأمر الله عزّ وجل جبريلَ عليه السلام أن يحشر الجنّ، فنشر جناحه الأيمنَ على شرق الأرض، والأيسرَ على غربها، ونادى: أيتها الجنّ والشياطين، أجيبوا سليمان بن داود بإذن الله، فخرجت من سائر الأماكن وهي تقول: لَبَّيك لَبَّيك يا حجة الله. فحشرها[1] إلى سليمان طائعةً ذليلة تسُوقها الملائكة، وهي يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة، كل فرقة تَدِين بدين غير دين الأخرى، فوقفت بأجمعها بين يدَيْ سليمان، فنظر إلى عجائب صُوَرها وسجد لله شكرًا؛ ثم قام على قدميه والخاتَم في إصبعه، فلما نظرت إليه الجنّ خرّت ساجدة ثم رفعت رؤوسها وقالت: يابن داود، قد حُشِرنا إليك وأُمرنا بالطاعة لك، فختم على أكتافهم بخاتمه وجنّدهم وصفَّد[2] مَرَدَتهم بالحديد ولم يتخلّف منهم إلا صخر الجنيّ تغيّب في جزيرة، وسنذكر خبره إن شاء الله تعالى. قال: وبقي إبليس بغير أعوان وفرّق سليمان الشياطين في الأعمال المختلفة. من الحديد والنحاس وقَطْع الصخور والأشجار وعمارة القُرَى والمدن والحصون، وأمرهم بعمل القدور والجِفان[3]؛ قال الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣] قيل: كان يأكل من كل جَفْنة ألفُ إنسان. وشَغَل طائفة منهم يَغوص البحار واستخراج الأصداف والجواهر منها، وأمر بعضهم بحفر الآبار وشقّ الأنهار والقَنَوات، وبعضهم بإخراج الكنوز والمعادن، وغير ذلك من الأعمال.

ثم حُشِر له بعد ذلك الهوامُّ[4] من الحيّات والعقارب وغيرها من الحشرات وسُخِّرت له. فسأل كلًّا منها عن اسمها [وضرّها ونفعها][5] ومأكلها ومشربها ومسكنها ومقدار أعمارها وعادتها وغيرِ ذلك من أحوالها، فأخبرته، ثم صرفهم وأمرهم ونهاهم. والله أعلم.

---

(١) حشرها: جمعها وساقها.

(٢) صفّدها: شدّها وأوثقها.

(٣) الجفان: مفردها جفنة وهي القصعة.

(٤) الهوام: الزواحف والحشرات.

(٥) زيادة عن الكسائي.

ذكر خبر مطابخه عليه السلام

قال الكسائيّ: وأمر سليمان أن تُصْنَع الأطعمة للخلق الذين معه، حتى كان طبّاخوه ينادون في عسكره: مَنْ أراد طعامًا فليأت حتى نصنعه له كما يريد، فإن سليمان نَصَبنا[١] لذلك. وكانت موائده منصوبة، كل مائدة طول ميل وأطول، ومعه عدّة من الطبّاخين، مع كل طباخ شيطان يُعينه، ورتب في كل مخبز ألف خباز، وفي كل مطبخ ألف طباخ.

قال ويقال: إنه كان يُذْبَح في مطبخه في كل يوم من الإبل والبقر والغنم زيادة على ثلاثين ألف رأس، ويستعمل في مطابخه كل يوم كذا وكذا كُرّا[٢] من الملح، وكانت موائده منصوبة لعامّة الناس فقيرِهم وغنيِّهم، وكان يلَقى للطير في كل يوم من الحبوب سبعون ألف كُرّ ـ والكر عشرة أجربة[٣]، والجريب ثلاثون قَفِيزًا[٤] ـ وكانت تظل البلاد بأجنحتها.

ذكر خبر الرزق الذي سأل سليمان الله تعالى أن يجريه على يديه

قال الكسائيّ: ولمّا نظر سليمان عليه السلام إلى عِظَمِ ما آتاه الله عزّ وجل من المُلك، سأل الله تعالى أن يجعل أرزاق المخلوقات على يديه. فأوحى الله تعالى إليه: إنك لا تطيق ذلك. قال: يا رب فيومًا واحدًا؛ فأوحى الله إليه: إنك لا تطيق ذلك. قال: يا رب فساعة واحدة؛ فأوحى الله إليه: إني قد أعطيتك ذلك، فاْستعدّ الآن لأرزاق خلقي واْجمع لهم. فأخذ في الاْستعداد حتى جمع ما يُنيف على حمل مائة ألف بغل وبعير، وسار يريد ساحل البحر، حتى أتاه ووضع ما جمعه هناك، ونادى مناديه في سكّان البحر احضُروا لقبض أرزاقكم. فاْجتمع الحِيتان والضفادع ودوابُّ البحر على صُوَر مختلفة، وإذا بحوت قد أخرج رأسه وقال: اشبعني ياْبن داود، وهو على مثال الجبل. فقال سليمان: دونك الطعام، فأكل جميع ذلك، ثم قال: زِدْني يا نبيّ الله، والله ما أصابني الجوع منذ خلقني ربي كما أصابني اليوم حين جُعِل رزقي

---

(١) نصبنا: ولاّنا مهمة ذلك العمل.

(٢) الكُرّ: مكيال قيل إنه أربعون أردبًا أو غير ذلك.

(٣) الأجربة: مفردها جراب، وهو وعاءٌ من جلد يحفظ فيه الزاد ونحوه.

(٤) القفيز: مكيال يعدل ثمانية مكاكيك، والمكوك صاعٌ ونصف، والصاع: قدحان وثلث.

على يديك. فعجِب سليمان منه وقال: هل في البحر مثلُك؟ فقال: إني لفي زُمرة[١] من الحيتان فيها سبعون ألف زمرة، كل زمرة مثلُ عدد الرمل؛ وفي البحر حيتان لو دخلت أنا في جوف أحدها ما كنت إلا كخردلة[٢] في أرض فَلاة. فبكى سليمان عند ذلك وقال: رب أقِلْني[٣] عَثْرتي. فأقاله الله تعالى، ثم أوحى إليه: أنْ قِفْ يابن داود حتى ترى جنودي، فإنّ ما رأيت قليل. فوقف وإذا بالبحر قد اضطرب اضطرابًا عظيمًا وخرج منه شيء أعظمُ من الجبل يشقّ البحر شقًّا وهو يقول: سبحانَ من تكفّل بأرزاق العباد، ثم نادى: يابن داود، لولا اليَدُ الباسطة[٤] عليك لكنتَ أضعف الخلائق، وإنك لم تقدر أن تُشبع حُوتًا واحدًا ولا نال كلَّ طُعمه، فكيف تقدِر أن تتكفّل بأرزاق الخلائق!. ثم مرّ ذلك الحوت، فنظر سليمان إلى خَلْق عظيم، وقال: إلٰهي، هل خلقتَ خلقًا أكبرَ من هذا؟ فأوحى الله تعالى إليه: إنّ في البحر مَن يحتاج أن يأكل سبعين ألفًا مثل هذا ولا يُشبِعه، ولا يُشبِعه إلا نعمتي ولطفي. فعلِم سليمان أنّ الذي أُعطِيَه ليس بشيء في قدرة الله عزّ وجل. والله الواسع المتفضّل.

ذكر خبر بناء بيت المَقْدِسِ وابتداء أمره

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله في سبب بناء بيت المَقْدِسِ: إن الله تعالى بارك في نسل إبراهيم عليه السلام حتى جعلهم في الكثرة غاية لا يُحصَوْن. فلما كان زمن داود عليه السلام لبِث فيهم مدّةً مديدةً بأرض فَلَسْطِين وهم يزدادون كلّ يوم كثرةً، فأُعْجِبَ داودُ بكثرتهم فأراد أن يعلمَ عدد بني إسرائيل فأمر بعدّهم، وبعث لذلك عُرَفاء ونُقَباء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ من عِدّتهم، فكانوا يَعُدُّون زمانًا من الدهر حتى عَجزوا وأيسوا أن يحيط علمهم بعدد بني إسرائيل. فأوحى الله تعالى إلى داود: إني وعدت أباك إبراهيم يومَ أمرته بذبح ابنه فصدّقني وائتمر بأمري أن أبارك له في ذريّته حتى يصيروا أكثر من عدد نجوم السماء، حتى لا يحصيهم العادّون. وإني قد أقسمتُ أن أبتليهم ببليّة يقلّ منها عددهم، ويذهب عنك إعجابك بكثرتهم. وخيّره بين أن يبتليهم بالجوع والقحط ثلاث سنين، وبين أن يسلِّط عليهم عدوهم ثلاثة أشهر، وبين أن يسلِّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام. فجمع داود بني إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيّره فيه. فقالوا: أنت أعلم بما هو أيسر لنا، وأنت نبيُّنا

---

(١) الزمرة: الجماعة.
(٢) الخردلة: واحدة الخردل، نباتٌ له حبٌّ صغير أسود يستعمل في التوابل والطبّ.
(٣) أقال عثرته: غفر زلّته ونجّاه. (٤) الباسطة: المنعمة المتفضّلة بالرزق.

فٱنظُرْ لنا غيرَ الجوع فلا صبرَ لنا عليه، وتسليطُ العدوّ أمر فاضح. فإن كان ولا بدّ فالموت، لأنه بيده لا بيد غيره. فأمرهم داود أن يتجهّزوا للموت، فٱغتسلوا وتحنّطوا[1] ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد[2] بيت المقدس قبل بناء المسجد بالذراريّ[3] والأهلين، وأمرهم داود أن يَضِجُّوا إلى الله تعالى وأن يتضرّعوا إليه لعله أن يرحمهم. فأرسل الله عليهم الطاعون فأُهْلِكَ منهم في يومٍ وليلةٍ ألوفٌ كثيرةٌ لا يُدرَى عددُهم، ولم يفرُغوا من دفنهم إلا بعد مدّة شهرين.

فلما أصبحوا في اليوم الثاني خرّ داود ساجدًا يبتهل إلى الله تعالى، فٱستجاب الله تعالى منه وكشَف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت. ورأى داود الملائكة سالّين[4] سيوفَهم فأغمدوها وهم يرقَوْن في سُلَّم من ذهب من الصخرة إلى السماء. فقال داود لبني إسرائيل: إن الله قد منّ عليكم ورحمكم فجدِّدوا له شكرًا. قالوا: وكيف تأمُرنا؟ قال: آمركم أن تتّخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم الله فيه مسجدًا لا يزال فيه منكم وممن بعدكم ذكر الله تعالى. فأخذ داود في بنائه. فلمّا أرادوا أن يبتدئوا البناء جاء رجلٌ صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم في بنيانهم، فقال لبني إسرائيل: إنّ لي فيه موضعًا أنا محتاج إليه، فلا يحلّ لكم أن تحجبوني عن حقي. قالوا له: يا هذا، ما من أحد من بني إسرائيل إلا وله في هذا الصعيد حقّ مثلُ حقّك، فلا تكن أبخلَ الناس ولا تضايقْنا فيه. فقال: أنا أعرف حقي وأنتم لا تعرفون حقكم. قالوا له: إمّا أن ترضَى وتطيب نفسًا وإلا أخذناه كَرهًا. قال لهم: أوَتجدون ذلك في حكم الله تعالى وحكم داود؟! قال: فرفعوا خبره إلى داود فقال: أرْضُوه. فقالوا: نعم نأخذه منه يا نبيّ الله بثمنه. قال: خذوه بمائة شاة. فقال الرجل: زدْني يا نبيّ الله؛ فقال: بمائة بقرة. قال: زدني يا نبيّ الله؛ قال: فبمائة بعير. قال: زدني يا نبيّ الله، فإنما تشتريه لله تعالى. فقال داود: أمّا إذ قلت هذا فٱحتكم أُعطِك. قال: تشتريه منّي بحائط[5] مثله زيتونًا ونخلاً وعِنَبًا؟ قال نعم. قال: أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخَل. قال: سَل ما شئت أُعطِك، وإن شئتَ أُؤجِرْك نفسي. قال: أوَتفعل ذلك يا نبيّ الله؟ قال: نعم إذا شئت. قال: أنت أكرم على الله تعالى من ذلك، ولكن تبني

(١) تحنّطوا: جعلوا عليهم الحناط، وهو كلّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وذريرة وعنبر وغير ذلك.
(٢) الصعيد: المرتفع من الأرض، أو الموضع الواسع.
(٣) الذّراري: مفردها ذرّيّة، وهي النسل.
(٤) سلّ السّيف: شهره وأخرجه من غمده. (٥) الحائط: البستان.

حولَه جِدارًا ثم تملؤه ذهبًا وإن شئت ورِقًا(١). قال داود: هو هيّن. فالتفت الرجل إلى بني إسرائيل وقال: هذا هو التائب والمخلص. ثم قال لداود: لأنْ يغفر الله تعالى لي ذنبًا واحدًا أحبُّ إليّ من كل ما وهبتَ لي، ولكن كنت أختبركم. فأخذوا في بناء بيت المقدس، وذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من خلافة داود. وكان داود ينقل لهم الحجارة على عاتقه(٢)، وكذلك خيارُ(٣) بني إسرائيل حتى رفعوه قامة. فأوحى الله تعالى إليه: إن هذا بيت مقدّس، وأنت سفّاك للدماء، ولست بانيَه، ولكن أبنٌ لك أملّكه بعدك أسمُه سليمان أسلّمه من سفك الدماء وأقضي إتمامَه على يديه ويكون له صيتُه وذكرُه.

قال: فصلَّوْا فيه زمانًا إلى أن توفَّى الله نبيّه داود وأستخلف سليمان وأمره بإتمام بناء بيت المقدِس. فجمع سليمان الإنس والجنّ والشياطين وقَسَم عليهم الأعمال، فخصّ كلّ طائفة منهم بعمل، فأرسل الجن والشياطين في تحصيل الرّخام والمها(٤) الأبيض الصافي من معادنه؛ وأمر ببناء المدينة بالرُّخام والصُّفّاح(٥)، وجعلها أثني عشر رَبضًا(٦)، وأنزل كلّ رَبَض منها سِبْطًا من الأسباط. فلمّا فرغ من المدينة أبتدأ في بناء المسجد، فوجه الشياطين فِرَقًا، فريقًا منهم يستخرجون الذهب والفِضّة من معادنها، وفريقًا يغوصون في البحر ويستخرجون أنواع الدُّرّ ويقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها، وفريقًا يأتونه بالمسك(٧) والعنبر(٨) وسائر أنواع الطِّيب من أماكنها؛ فأتِيَ من ذلك بشيء لا يحصيه إلا الله تعالى. ثم أحضر الصُّنَّاع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها(٩) ألواحًا، وإصلاح تلك الجواهر وتثقيبها؛ فكانوا يُعالجونها فتصوّت صوتًا شديدًا لصلابتها. فكره سليمان تلك الأصوات، فدعا الجنّ فقال لهم: هل لكم حيلة في نحت هذه الجواهر من غير تصويت؟ فقالوا: يا نبي الله، ليس في الجنّ أكثرُ تجارب ولا أكثرُ علمًا من صخر. فاستدعاه. وكان من أمره في حضوره إليه والتلطف في تحصيل حجر السامور ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار صخر.

---

(١) الورق: الفضّة. (٢) العاتق: ما بين المنكب والعنق.
(٣) خيارُ بني إسرائيل: أي خيارهم من الرّجال المؤمنين الفضلاء.
(٤) المها: البلّور. (٥) الصُّفّاح: الحجارة العريضة الرقيقة.
(٦) الرّبض: الناحية.
(٧) المسك: نوعٌ من الطيب، يتكوّن من دم حيوان كالغزال، يرد من الصين والهند حبوبًا سمراء.
(٨) العنبر: مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلاّ إذا سحقت أو أحرقت.
(٩) التنضيد: التنسيق أو العمارة.

قالوا: فلمّا أتيَ بحجر السامور، وهو حجر الماس، استعمله في أدوات الصُّنّاع، فسهَّل عليهم نحت الحجارة.

قالوا: فبنى سليمان المسجد بالرُّخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمَّده بأساطين[١] المَهَا الصافي، وفصَّصه[٢] بألواح الجواهر الثمينة، وفصّص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفَيْروزَج[٣]، فلم يكن يومئذ بيت في الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر.

قالوا: فلما فرغ من بنائه جمع أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى، وأنّ كلّ شيء فيه خالص لله تعالى. وٱتخذ ذلك اليوم عيدًا، فلم يُتخَذْ في الأرض قطُّ أعظمُ منه ولا من الأطعمة التي عُمِلَتْ فيه. قيل: إنه ذبح من الخراف خمسين ألفًا، ومن البقر خمسة وعشرين ألفًا معلوفة، ومن الغنم أربعمائة ألف شاة.

قالوا: ومن أعاجيب ما ٱتخذ سليمان ببيت المَقْدس أنه بنى بيتًا وطيّن حيطانه بالخُضرة وصقَله؛ فكان إذا دخله الوَرِع البارّ[٤] ٱستبان خيالَه في ذلك الحائط أبيض؛ وإذا دخله الفاجر ٱستبان خيالُه في الحائط أسود. فارتدع عند ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة. ونصب في زاوية من زوايا المسجد عصا آبِنُوس[٥]، فكان منْ مسّها من أولاد الأنبياء لم تضرّه، ومن مسّها من غيرهم ٱحترقت يدُه.

قالوا: ولمّا فرغ من بناء بيت المقدس قرّب قربانًا على الصخرة، ثم قال: اللّهمّ أنت وهبت لي هذا المُلك مَنًّا منك عليّ، وجعلتني خليفتك في أرضك، وأكرمتني به من قبل أن أكون شيئًا، فلك الحمدُ. اللّهمّ إني أسألك لمن دخل هذا المسجدَ خصالاً: ألاّ يدخله أحدٌ فيصليَ فيه ركعتين مخلصًا فيهما إلا خرج من ذنوبه كيوم

---

(١) الأساطين: مفردها أسطوانة، وهي كلّ جسم أو شيء ذي شكل أسطواني، وأسطوانة الدار: عمودها.

(٢) فصّصه: جعل فيه الفصوص من الحجارة الكريمة، وفصّ الخاتم: ما يركّب فيه من حجارة كريمة.

(٣) الفيروزج: حجر كريم غير شفّاف معروف بلونه الأزرق كلون السّماء أو أميل إلى الخضرة، يُتحلّى به.

(٤) البارّ: الصالح.

(٥) الآبنوس: شجرٌ ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

ولدته أُمّه، ولا يدخله مستتيب إلا تُبْتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمّنته، ولا سقيم إلا شَفَيتَه، ولا مُجدِبٌ إلا أخصبتَه وأغنيته. وإذا أجبتَ دعوتي فأجعلْ علامتها أن تقبل قُرْباني. قال: فنزلت نارٌ من السماء فسدّت ما بين الخافقين(١) ثم امتدّ منها عنق فاحتمل القُرْبان وصعد به إلى السماء.

وقال سعيد بن المسيِّب(٢): لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه، فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال في دُعائه: بصلوات أبي داود إلا ما فُتحتِ الأبوابُ، ففُتحت. ففرّغ له سليمان عليه السلام عشرة آلاف من قرّاء بني إسرائيل، خمسةَ آلاف بالليل، وخمسةَ آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعةٌ من ليل أو نهار إلا والله عزّ وجل يعبدَ فيها فيه.

وحكى الكسائيّ في خبر بناء بيت المقدس قال: فأوحى الله تعالى إلى سليمان عليه السلام أن تبنيَ بيتَ المقدس وترفَعَ قواعدَه كما رفع إبراهيم قواعد البيت العتيق، وأن تبنيه على صخرة المِعراج(٣). فأمر سليمانُ الجانّ أن تقطع الصخور. وتنقل الرُّخام والأحجار والعمَد وآلات العمارة إليه؛ ثم أمر بالبناء على الأساس الذي كان داود وضعه. فلما كمل البناء أنهار وأنهدم؛ فأمر أن يُحْفَر أساسُه حتى يبلغ الماء، وعقدَ البناء بالحجارة المنحوتة بعضِها على بعض، فغلب الماءُ على البناء فما أنعقد الأساس. فأمر أن تُصْنَع قِلالُ(٤) النحاس والرَّصاص، وختمها بخاتَمه، وجعلها تحت الأساس. ثم أمر بالبناء فوقها فبنيت وأرتفع البناء، وعمِل فيه عشرة آلاف عمود من الرُّخام الملوّن، يلي كلَّ عمود سارية(٥) من الذهب، وسارية من الفضة؛ ومحاريب الذهب والفضة، وكمُل البناء والزخرفة في أربعين يومًا.

قال: وكان يَعْمَل فيه في كل يوم ألفُ عِفْريت من الجِنّ وألفُ شيطان وألفٌ من الإنس. وفرغ منه يوم عرفة(٦)، وأتخذ له قناديلَ من الذهب بسلاسل الفضّة.

---

(١) سدّت ما بين الخافقين: وهما أفق الشرق وأفق الغرب.

(٢) هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي الإمام، أبو محمّد، سيّد التابعين وأحد الأعلام والفقهاء السبعة بالمدينة محدّث ثقة حجّة، عرف بالزّهد، رفيع الذكر، رأس في العلم والعمل، عاش تسعًا وسبعين سنة، مات سنة ٩٤هـ «الكاشف ١/ ٢٩٦».

(٣) صخرة المعراج: هي الصخرة التي في بيت المقدس، وقد عرج عنها الرسول الكريم إلى السّماء حيث كان من العرش قاب قوسين أو أدنى.

(٤) القلال: الأعمدة.

(٥) السّارية: عمودٌ مرتفع، والسارية من السفينة: عمود ينصب عليه الشّراع.

(٦) يوم عرفة: أي يوم وقوف الناس في عرفة يوم الحجّ.

قال الثعلبيّ: فكان بيتُ المَقْدِس على ما بناه سليمان إلى أن غزاه بُخْتَنَصَّر، فخرّب المدينةَ وهدمها، ونقض المسجد، وأخذ ما كان في سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدرّ والياقوت وسائر الجواهر، فحمل ذلك معه إلى دار مملكته من أرض العراق. قال: ثم لم يزل خرابًا إلى أن بُنِيَ في الإسلام.

قال الكسائيّ: ثم أمر الله سليمانَ بجهاد العدوّ، فرغِب في جمع الخيل، فأُهديت إليه من جهة ملوك الأطراف(١) الخيولُ المسوَّمة(٢)؛ فاجتمع له ما يُنيف على سبعين ألف فرس بسروج الذهب والفضة بأجلّة الديباج(٣). وسار صوب بلاد الشأم. وكان إذا خرج للغزو لا يستصحب شيطانًا ولا جِنِّيًا بل العبّاد من بني إسرائيل. والله المعين.

ذكر خبر وادي النمل وما قيل فيه

قال: ولمّا سار سليمان لقصد الغزو مرّ في طريقه بوادي النمل. قال الثعلبيّ: إنه مرّ بوادي السدِير(٤) (واد من الطائف) فأتى واديَ النمل(٥). قال الكسائيّ: فنظر إليهم وإذا هم يزيدون على مائة ألف كُرْدوس(٦) مثلَ السحاب، وهم زُرق العيون، ولهم أيدٍ وأرجُل. فقال سليمان: إني أرى سحابة في الأرض لا أعلم ما هي. فحملت إليه الريح قول النملة كما أخبر الله تعالى عنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٨ ـ ١٩]. قال: ونزل الناسُ معه، فقال: أتدرون ما هذا السواد؟ هذه أُمّة من الأمم يقال لها النمل، وأخبرهم بقول النملة، وسجد وسجدوا شكرًا لله تعالى. ودخلت النملُ مساكنَها زُمرةً بعد زُمرة، والنملة تناديهم: الوَحَا الوَحَا(٧) فقد وافتكم الخيل. فصاح بها سليمانُ وأراها الخاتَم فجاءته خاضعةً، فوقفت بين يديه وهي أكبر من الذئب، فسجدتْ بين يديه ثم قالت: يا نبيّ الله، ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم، وهاأنا بين يديك مُرْني بأمرك. فقال: ما الذي

---

(١) الأطراف: النواحي المحيطة بمملكته. (٢) المسوّمة: المعلمة بسومة وهي العلامة.

(٣) الديباج: ضرب من الثياب سُداه ولحمته من الحرير.

(٤) قوله: (إنه مر ـ أي سليمان ـ بوادي السدير: واد من الطائف) لا أظن الطائف إلا محرفًا: لأن سليمان إنما يقصد وادي النمل (الواقع بين بيت جيرون وعسقلان) كما نقل المصحح الفاضل عن ياقوت. أو صوابه (الواقع بين بيت جبرين وعسقلان) وكل هذه الأماكن في فلسطين. وقد مرَّ بها سليمان. فما شأنه وأرض الطائف في الحجاز. اللهم إذا ادعى مدعٍ بأن الملائكة نقلوا وادي النمل من الطائف إلى تحت مواطىء أقدام سليمان!!.

(٥) وادي النمل: بين جبرين وعسقلان «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٤٦».

(٦) الكردوس: الفرقة. (٧) الوحا الوحا: أي أسرعوا أسرعوا.

تكلّمتِ به قبل وصولي إليك؟ قالت: يا نبي الله، إني رأيتك في مَوْكِبك وعسكرك، فناديتُ النملَ أن يدخلوا مساكنهم لئلاّ يحطِمهم جُنْدُك، وأنا كمثل غيري من الملوك أُريد الإصلاح لقومي. فقال لها: كم عددُكم؟ وما تأكلون وما تشربون؟ قالت: يا نبيّ الله، لو أمرتَ الجِنّ والشياطينَ أن يحشرونا إليك لعجَزوا، وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبلٌ ولا غابةٌ إلا وفي أكنافها مثل سُلطانك كراديس من النمل. ولو تفرّق كُرْدوس واحد في الأرض لَمَا وسِعته. ولقد خُلقنا قبل أبيك آدم، وإنا لنأكل رزقَ ربنا ونشكره. فأمرها أن تَعرض النمل عليه. فنادتهم، فمرّوا به زُمرةً بعد زُمرة، وسلّموا عليه بلُغاتهم وهو ينظر إليهم. فقالت مَلِكةُ النمل: يا نبيّ الله، مِنّا ما يأوي الجبالَ، ومِنّا ما يأوي قُرْب المياه والأشجار والزرع، وفي الهواء وهي الطيّارة، فإذا نبتت أجنحتها هلكت وآختطفتها الطير. والنملة لا تموت حتى يخرج من ظهرها كراديسُ من النمل. وليس على ظهر الأرض أحرصُ من النملة؛ وإنها لتجمع في صيفها ما يملأ بيتها وهي مع ذلك تظن أنها لا تَشْبَعُ. وتسبيحُها تسأل ربَّها أن يُوسّع الرزقَ على خلقه. قال الثعلبيّ قال الضحّاك: اسم النملة [التي كلمت سليمان][1] «طاحية»[2] وقيل: «حَزْمَى»[3]. والله أعلم.

ذكر خبر البعوض وما قيل فيه

قال الكسائيّ: ولما نظر سليمان إلى كثرة النمل قال: إلٰهي هل خلقت أكثر من النمل؟ فأوحى الله إليه: نعم وسترى ذلك. ثم أمر الله تعالى مَلكَ البَعُوض أن يحشرها لسليمان، فحشرها من شرق الأرض وغربها. فأقبلت كراديس البَعُوض كالسَّحاب يتبع بعضُها بعضًا حتى وقف منهم كُرْدُوس على سليمان، وأقبل مِلكُهم وقال: يا نبيّ الله، ما لَكَ ولِلضُّعَفاء من خَلْق ربِّك ألهيتَهم عن التسبيح! يأبنَ داود، إنّا في هذه الأرض قبل أبيك آدم بألفَيْ عام ما عُرِضْنا على آدميّ غيرك، نأكل من رزق ربنا، ولا نفتُرُ[4] عن ذكره صباحًا ولا مساءً. قال: أخبِروني كم أنتم؟ وأين مأواكم؟ ومن أين تُرْزَقون؟ قال مَلِكهم: يا نبيّ الله، تحت يدي سبعون سحابةً، كلّ سحابة تملأ المشرق والمغرب، لكلِّ زُمرةٍ موضع معلوم، تأكل كل واحدةٍ رزقَها، ولولا خوف المعاد لأكلنا ما في الدنيا. ثم سجدوا وآنصرفوا. وكان سليمان إذا أراد أن يُدرك قومًا بعث إليهم البعوضَ فيأكل جميع ما في مدينتهم.

---

(١) زيادة عن الثعلبي.
(٢) في الأصل: طاجية والتصويب عن الثعلبي.
(٣) في الأصل: جرما، والتصويب عن الثعلبي.
(٤) نفتُرُ: نسكن أو نلين أو نضعف.

ذكر خبر الخيل وما قيل فيها

قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣١ ـ ٣٣]. قال أبو الحسن عليّ بن إبراهيم الحَوْفي[١] في «كتاب البرهان في علوم القرآن» في تفسيره هذه الآية: الصافن من الخيل الذي يجمع بين يديه. وقال الفرّاء[٢]: الصافن هو القائم. وقال مجاهد: صُفُون الفرس إذا رفع إحدى رجليه حتى يكون على طَرَف الحافر. قال ابن زيد[٣]: الخيل أخرجها الشيطان لسليمان من مَرْج من مروج البحر. والصَّفْن أن يقوم الفرس على ثلاث ويرفعَ رجلاً واحدة، يكون طرف الحافر على الأرض. قال: وكانت لها أجنحة. قال: والجياد السِّراع. وذكر أنها كات عشرين فرسًا ذوات أجنحة. قال وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ إنه لَهَا[٤] عن الصلاة حتى فاتته. قال قَتَادةُ والسُّديّ: الخير: الخيل. وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال: هي العصر، وهي التي فُتِن بها سليمان. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني الشمس حتى تغيب في مَغِيبها. وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي الخيل التي عُرِضتْ عليّ فشغلتني عن الصلاة. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي جعل يمسح فيها السُّوق وهو جمع ساق. قال بعضهم: عَقرها[٥] وضرب أعناقها؛ قاله قَتادة والحسن والسُّدّيّ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يَمسح أعرافَها[٦] عراقيبَها[٧] بيده حبًّا لها. وقيل: كشف عن عراقيبها وضرب أعناقها وقال: لا تَشغليني عن عبادة ربِّي مرّة أُخرى. قال أبو إسحاق[٨]: يجوز أن يكون الله أباح له ذلك لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنبٍ أعظَم منه. والله أعلم.

---

(١) هو علي بن إبراهيم بن سعيد، أبو الحسن الحوفي، نحوي، من العلماء باللغة والتفسير، من أهل الحَوْف بمصر، توفي سنة ٤٣٠هـ «الأعلام ٤/ ٢٥٠».

(٢) الفرّاء: هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدّيلمي، أبو زكريا إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب وأيّام العرب وأخبارها، توفي في طريق مكة سنة ٢٠٧هـ «الأعلام ٨/ ١٤٥».

(٣) ابن زيد: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد، شهاب الدين، فاضل دمشقي من علماء الحنابلة، له مؤلّفات عدّة، توفي سنة ٨٧٠هـ «الأعلام ١/ ٢٣٠».

(٤) لَهَا: أي اشتغل عن الصلاة حتى نسي موعدها أو تأخّر عنه.

(٥) عقرها: قطع إحدى قوائمها لتسقط، أو ذبحها.

(٦) الأعراف: مفردها العُرف وهو شعر عُنق الفرس.

(٧) العراقيب: مفردها العرقوب، وهو من الدّابة ما يكون في رجلها بمنزلة الرّكبة في يدها.

(٨) أبو إسحاق: هو كعب الأحبار، كعب بن ماتع «تقدّم ذكره».

وقال الثعلبيّ رحمه الله في قصّة الخيل قال الكلبيّ: غزا سليمانُ أهلَ نَصِيبِين[١]، فأصاب منهم ألفَ فرس. وقال مُقاتل: ورِث سليمان من أبيه داود ألف فرس، كان داود أصابها من العمالقة.

قالوا: فصلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيّه، فعُرِض عليه منها تسعمائة[٢] فرس؛ فتنبّه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غابت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك، فاغتمّ وقال: ردّوها عليّ، فرُدّت عليه، فعرقبها بالسيف، وقرّبها إلى الله عزّ وجل وبقي منها مائة فرس. فما في أيدي الناس من الخيل العِراب[٣] فهي من نسل تلك المائة. وقال كعبٌ: كانت الأفراس أربعةَ عشر فرسًا، فأمر بضرب أعناقها وسُوقها بالسيف وقتلها؛ فسلبه الله مُلْكه أربعة عشر يومًا؛ لأنه ظلمَ الخيل بقتلها. قال الثعلبيّ وقال قوم: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ حبسها في سبيل الله وكَوَى سُوقها وأعناقها بِمِيسَم[٤] الصَّدَقة. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن الله تعالى أمر الملائكة الموكّلين بالشمس فردّوها، وصلى سليمان العصر في وقتها.

ذكر خبر بساط سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: وكان سليمان إذا ركب الرِّيح تقدّم أمام بساطه البَعُوض ثم الزنابير وكل ما يطير في الهواء، ثم الشياطين. وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمانية: الشَّمال[٥] والجَنوب[٦] والصَّبا[٧] والدَّبور[٨] والصَّرْصَر[٩] والعَقِيم[١٠] والكرس[١١] والراكي[١٢]، فيبسُط بعضَها على بعض؛ ثم يبسط بساطه على هذه

(١) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستّة أيّام «معجم البلدان ٥/٢٨٨».

(٢) في الأصل: «أربعمائة» والتصويب عن الثعلبي وكتب التفسير.

(٣) العراب: الكريمة السالمة من الهجنة.

(٤) الميسم: حديدة تكوى بها إبل الصّدقة لتعرف وتتميّز عن غيرها من الإبل المملوكة.

(٥) الشّمال: الرّيح التي تهب من الشمال، وتكون باردة.

(٦) الجنوب: الرّيح التي تهبّ من الجنوب وتكون حارّة.

(٧) الصّبا: ريحٌ مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار وتكون معتدلة.

(٨) الدّبور: ريحٌ تهبّ من المغرب وتقابل القبول، وهي ريح الصّبا.

(٩) الصّرصر: الرّيح الشديدة الصوت، أو الشديدة البرد.

(١٠) العقيم: يقال ريحٌ عقيم أي لم تأت بمطر.

(١١) الكرس: الريح التي تجمع التراب وتثيره.

(١٢) الرّاكي: الريح التي تجيء بالرّك، وهو القليل من المطر.

الرياح، وكان من السندس(١) الأخضر، أخضر البطن أحمر الظهر، أهداه الله تعالى إليه من الجنة، لا يعلم طولَه وعرضَه إلا الله تعالى. وقيل: كان طولُه ثلاثمائة وسبعين فرسخًا في عرض عشرة آلاف ذراع. وكان سليمان إذا ركبه جعل اللّون الأخضر مما يلي الأرض، فإذا رفع الناس رؤوسهم إليه يرونه على لون السماء. وكان يجلس على كرسيّه وعن يمينه ويساره القضاة والعلماء والأحبار من بني إسرائيل على كراسيّ معدّة لهم، وهو جالس في وسط البساط وزمام الريح بيده، ويتغدّى على مسيرة شهر ويتعشى على مسيرة شهر؛ قال الله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال: وكان سليمان إذا ركب الرياح على بساطه يرى كل شيء عليه من الجنّ والإنس والشياطين والهوامّ وغيرهم، والطير تُظِلّه، ولا يقف على مدينة إلا فتحها.

ذكر خبر صخر الجني

قال: وجمع سليمان عليه السلام عفاريت الجنّ والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجنيّ، فقالوا: يا نبيّ الله، إنّ الله قد أعطاه قوّة جماعةٍ منّا؛ ويصعُب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتي في كل شهر إلى عينٍ في جزيرة فيشرب ماءها. والرأي أن ننزفه(٢) منها ونملأها خمرًا، فإذا جاء وشربه وسكِر ذهبت قوّته فنحمله ونأتيك به. ثم خرجوا ففعلوا ذلك، واْختفَوْا في تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشربَ فاشتَمّ رائحةَ الخمر وقال: أيتها الخمرة إنك لطيّبة غيرَ أنك تسلُبين العقل وتجعلين الحليم جاهلًا، وأمرُك كلُّه ندامةٌ، واْنصرف ولم يشرب. ثم عاد في اليوم الثاني وقد أجهده(٣) العطش فقال: ما من قضاء يأتي من الله إلا كان مبرمًا، ثم نزل على العين فشرب حتى اْمتلأ، ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريتُ إليه ومعهم طابَعُ (خاتِم سليمان) فلما رآه ذَلّ وخَضَع، فحملوه حتى وقفوه بين يدَيْ سليمان وهو يُخرج من فِيهِ لَهَبَ النيران، ومن منخريه الدُّخان. فلما عاين الخاتَمَ ضعُفت قوّته وخرّ ساجدًا على وجهه، ثم رفع رأسَه وقال: يا نبيّ الله، سيزول هذا المُلْك عنك ولا يبقى إلا ذكرُه. قال: صدقت. ثم قال له: يا نبيّ الله، ما الذي أحوجك إليّ وأنا بالبعد منك لا أختلط بالآدميين؟ فقال له سليمان: إنّ الناس قد اشتكَوْا من وقع الحديد وصوته على الحجر. فقال: عليك بوَكْر العُقَاب وعُشّه

---

(١) السندس: ضرب من رقيق الدّيباج.

(٢) ننزفه منها: نفرغه، ونزف ماء البئر: إذا ذهب.

(٣) أجهده العطش: أضناه وأتعبه، فاشتهاه.

وبيضه، فليس شيء من الطيور أبصرَ منه، فأُتِيَ به. فوضعه في البرّيّة وغطّاه بجام[١] من القوارير[٢] شديد الصفاء فوضعه على عُشّ العقاب. فجاء العقاب فلم ير عُشّه، فطار في الهواء حتى نظر إلى عُشّه في تلك البرّيّة، فٱنقضّ عليه وضرب الجام برجله ليكسِرَه فلم يقدرِ على ذلك، فطار وتعلّق في الهواء وغاب يومه وليلته، ثم أقبل صبيحة اليوم الثاني وفي منقاره قطعة من حجر السامور[٣]، فٱنقضّ على الجام بذلك الحجر فضربه به، فانشقّ الجام نصفين ولم يُسْمَع له صوت، وأخذ العقاب عُشّه وبيضَه وترك حجر السامور هناك، فأخذه صخر وهو في صفاء المرآة وحرّ النار. فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور من أين ٱحتمله، فأخبره أنه من جبلٍ شامخ[٤]. فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا منه ما قَدَرُوا، فكان يقطع به الأحجار والصخور والجَزْعَ[٥] من غير أن يُسْمَع له وَقْع.

قال: ثم قال صخر: يا نبيّ الله، أتحبّ أن أتّخذ لك مدينةً؟ قال نعم؛ فاتخذَها. فعجب سليمان من ذلك، وأمره أن يتّخذ له مدينةً دون تلك المدينة حتى يحملها معه على بساطه حيثما ذهب. فقال: يا نبيّ الله، لك كلّما أردتَ السفر مدينةٌ على أيّ لون شئت. فبنى له مدينة في طول عسكره وعرضه، وجعل لكل سِبْط من الأسباط قصرًا في طول ألف ذراع وعرضه مثلُ ذلك، وفي كل قصر بيوت وغُرَف، ثم بنى بعد ذلك مجلسًا من القوارير في طول ألف ذراع، وعرضه مثل ذلك، يجلس فيه العلماء والقضاة. وبنى لسليمان قصرًا عجيبًا في طول خمسة آلاف ذراع، وعرضه مثلها، وزخرفه بألوان القوارير ورصّعه بأنواع الجواهر، وجعل فيه جميع الصور والتماثيل وأتقن صنعته. وكان مما صنع صخر لسليمان الكرسيّ.

ذكر صفة كرسيّ سليمان عليه السلام وما ٱنتهى إليه أمره

قالوا: وكان مما عمله صخر الجنيّ لسليمان عليه السلام الكرسيّ، وكان سليمان أمره بٱتخاذه ليجلس عليه للقضاء، وأمره بأن يعمله بديعًا مهولاً بحيث إنه إذا رآه مبطل أو شاهدُ زور ٱرتدعَ وتهيَّب[٦].

---

(١) الجام: إناء للطعام أو للشراب، من فضة أو نحوها.
(٢) القوارير: مفردها قارورة، وهي وعاء من زجاج تحفظ فيه السّوائل.
(٣) السّامور: الألماس. (٤) الشامخ: المرتفع.
(٥) الجزع: ضربٌ من الخرز، وقيل: هو الخرز اليماني، وهو الذي فيه بياضٌ وسواد تشبّه به الأعين «اللسان مادة جزع».
(٦) تهيّب الشيء: حذره وأجلّه وعظّمه.

قال: فعَمِل له الكرسيّ وكان من أنياب الفِيَلة وقصّصه بالياقوت[١] واللؤلؤ[٢]، والزَّبَرْجَد[٣] وأنواع الجوهر، وحفّه بأربع نَخَلات من ذهب، شماريخها[٤] من الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر، على رأس نخلتين طاووسان من ذهب، وعلى رأس النخلتين الأخريين نسران من ذهب، بعضها يقابل بعضًا، وجعل مقابل جنبيّ الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل أسد منهما عمود من الزُّمرد الأخضر، وعقد على النخلات أشجارَ كروم من الذهب، عناقيدها من الياقوت الأحمر.

قالوا: وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدَمَيْه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسيّ كله بما فيه دَوَرَان الرحا[٥] المسرعة، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وكذلك كان يفعل في كل درجة يصعد فيها سليمان. فإذا أستوى سليمان بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان، ثم يستدير الكرسيّ بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان، والأسدان مائلان برؤوسهما إلى سليمان، ينضَحن[٦] عليه من أجوافها المسك والعنبر[٧]، ثم تُناوله حمامة من ذهب جاثمةٌ على عمود من جوهر من أعمدة الكرسيّ التوراةَ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل[٨] القضاء. فإذا دعا بالبيّنات [و][٩]تقدّمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسيّ بما فيه من جميع ما حوله دَوَرَان الرحا المسرعة.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ قال معاوية لوَهْبِ بن مُنَبِّه: ما الذي كان يُدير ذلك الكرسيّ؟ قال: بُلبلتان[١٠] من ذهب. قال: فإذا دار الكرسيّ بسط الأسدان أيديَهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النسران والطاووسان أجنحتها فتفزّع منها الشهود ويداخلهم الرعب الشديد، فلا يشهدون إلا بالحق.

---

(١) الياقوت: حجر كريم شفاف صلب ذو ألوان مختلفة ما بين أحمر وأصفر وأزرق وأخضر.
(٢) اللؤلؤ: الدرّ، ينشأ في الصدف في بعض البحار، ويكثر استخراجه في بلدان الخليج العربي.
(٣) الزبرجد: حجرٌ كريم ذو ألوان كثيرة أشهره الأخضر المصري والأصفر القبرصي.
(٤) الشماريخ: مفردها شمراخ وهو العنقود الذي عليه بلح.
(٥) الرّحا: الطاحون، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.
(٦) ينضحن: يرشحن.
(٧) العنبر: مادة صلبة لا طعم لها ولا ريح إلاّ إذا سحقت أو أحرقت.
(٨) فصل القضاء: أحكامه. (٩) زيادة يقتضيها السّياق.
(١٠) البلبلة: ضرب من الكيزان في جنبه ينصب منه الماء، والبلبل: قناة الكوز الذي فيه بُلبُل إلى جنب رأسه «اللسان مادة بلل».

قال: فلما توفَّى الله سليمان عليه السلام وجاء بُخْتَنصّر[١] إلى بيت المقدس أخذ الكرسيّ وحمله إلى أنطاكِية[٢]، وأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا معرفة بأحواله. فلما وضع قدمه على الدرجة رفع الأسد يده اليمنى فضربه ضربة شديدة دقّه ورماه، فحمل بختنصّر، فلم يزل يعرُج منها ويتوجّع إلى أن مات. وبقي الكرسيّ بأنطاكية حتى غزاهم ملك من ملوك الشام يقال له كداس بن سدارس فهزم خليفة بختنصّر وردّ الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع أحد من الملوك الصعود إليه. فوُضعت تحت الخصرة فغاب فلم يعرف له خبر ولا يُدرَى أين هو. والله أعلم بالصواب.

ذكر خبر بلقيس وٱبتداء أمرها

قال الكسائيّ قال كعب: هي بِلْقِيس بنت ذي شَرْح، وهي متولِّدة من الإنس والجنّ. وأمّها عَمِيرةُ بنتِ ملكِ الجنّ. وكان لاتّصال ذي شَرْح والد بلقيس بعَمِيرةَ بنت ملك الجنّ سببٌ عجيبٌ نذكره على ما حكاه الكسائيّ، قال: أهلك الله تعالى مساكن[٣] سبأ بسيل العَرِم[٤]، على ما نذكر ذلك في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى، وهو يلي أخبار ملوك قَحْطان، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس في السفر الثالث عشر من هذه النسخة. قال: فلما ٱنقرضوا وأبادهم الفناء

---

(١) بختنصر: هو ملك بابل الذي غزا بن إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شعيا فخرّب بيت المقدس بعد ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، ثم رجع إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل فنقلهم إلى أصفهان وبلاد العراق، عاش بعد تخريب بيت المقدس أربعين سنة «انظر تاريخ ابن الأثير ١/ ٢٦١ ـ ٢٧٢ ـ ٣٠٣، وتاريخ ابن خلدون ١/ ١٤ ـ ٤١٠، ٢/ ٦٣١».

(٢) أنطاكية: حاضرة سوريا في القديم، وهي واقعة على منعطف من نهر العاصي وقد فاقت قديمًا غيرها من المدن في الثروة والعلوم والتجارة وكان لأهاليها امتيازات مدنية خصوصية حتى أنها كانت الثالثة بين مدن مقاطعات الرومان العظيمة، وقد اشتهرت بحسن موقعها وطيب هوائها وكانت محفوفة بغياض السرو ومجاري المياه العذبة «راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست».

(٣) سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام وسمّيت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان «معجم البلدن ٣/ ١٨١».

(٤) سيل العرم: قيل: العرم اسم وادٍ بعينه، وقيل: العرم الجرذ الذي نقب السكر على أصحاب السّيل العرم، وقيل: العرم: المطر الشديد، وقيل: العرم: ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنان فلم يسقها فيبست وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذابًا أرسل عليهم «انظر معجم البلدان ٥/ ٣٤ وما بعدها، ففيه تفصيل كافٍ لقصّة السّيل».

توارثها بعدهم جماعةٌ من الملوك ليس هذا موضع ذكرهم، حتى آنتهى المُلْك إلى رجل فظّ[١] غليظ يقال له شَرَاحِي الحِمْيَرِيّ. وكان من عادته مع قومه أنه آفترض على أهل مملكته في كل أسبوع أن يأتوه بجارية من بناتهم فيفتضّها ثم يردّها إلى أهلها. وكان ذو شَرْح وزيره وهو من أبناء ملوك حِمْير من ولد سبأ، وكان لذي شرح ألفُ قصر وألفُ فرس عتيق[٢] وألف سيف يمان[٣]، وكان يرجع إلى حُسْنٍ وجمالٍ وعقل، وكان مُولَعًا بالصيد، فكانت الجنّ تتصوّر له في صورة الظبي، فإذا صادهم وهمّ بذبحهم كلّموه وقالوا له: لا تَعجَلْ فإنّا إنما جئنا لننظر إلى محاسن وجهك. وكانت الجنّ تؤذي أهل اليمن، فأقسم ذو شرح أن يقتل ملك الجنّ ويتزوّج بآبنته. قال: وكان اسم ملك الجنّ عُمَير، وكان حسن الوجه، وآبنتُه عَمِيرة. فمرّ ذو شرح ذاتَ يوم في واد من بلاد اليمن كثير الأشجار فنزل به، حتى جنّه[٤] الليل، وكان في جمع قليل من أصحابه، وكان الوادي الذي نزل به من مساكن الجنّ. فلما مضى بعض الليل سمع هَمْهَمَة[٥] الجنّ، فقام ونادى: يا معشر الجنّ، قد نزلتُ بكم الليلةَ على أن تُضِيفوني فإني جارٌ لكم، فأسمعوني من أشعاركم. قال: فأنشدته الجنّ من أشعارها، وجاءته عَمِيرة بنت عُمَير مَلك الجن على أحسن صورةٍ. فلما نظر إليها ذَهِلَ عقلُه من حسنها، وغابت عن عينه فشُغِفَ بحبّها فقال: يا معشر الجنّ، إن أنتم زوّجتموها مني وإلاّ كنت حربًا لكم ما عشت أبدًا. فنادوه: يا ذا شَرْح، إنك آدميّ فكيف تقاتل الجنّ ومسكنُهم الهواء وظلمات الأرض! مهلاً أيها الآدميّ لا تعرِّض نفسك إلى ما لا تقدر عليه وآرجع، فإن قُدِّر لك أمر فسوف تناله. فلما سمع ذلك أيِسَ من التزويج وأخذ في مستأنف أمره في مؤالفة الجنّ، فكان يُهاديهم بما يصلُح لهم من الهدايا، فصافاه عُمَير ملك الجنّ وآخاه وألِفه حتى صار عنده كالأخ. فلما رأى ذلك ذو شَرْح وأنه قد تمكّن من ملك الجنّ قال له: هل لك أن تزوّجني آبنتَك عمِيرة ليكون لي في ذلك شرفٌ إلى الممات! فرغب فيه عُمَير ملك الجنّ لحسنه وجماله وشرفه وماله؛ فزوّجه آبنته بحضرة سادات الجنّ. وآنصرف ذو شَرْح إلى مدينة سبأ وأهدى هدايا كثيرة إلى ملك الجن وساداتِ قومه، ثم زُفّت إليه فوطِئها فحمَلتْ منه.

---

(١) الفظّ: الحادّ الطب والسّيىء الخلق. (٢) الفرس العتيق: الفرس الرّائع الكريم.

(٣) سيفٌ يمان: أي سيف منسوب إلى اليمن.

(٤) جنّه الليل: ستره بظلامه. (٥) الهمهمة: أصوات خفيّة.

ذكر خبر ميلاد بلقيس وكيف كان وسبب مُلْكها

قال: ووَلَدت عَمِيرة بنت ملك الجنّ بِلقيس بنت ذي شرح على أحسن ما تكون من الصُّوَر، ثم ماتت أمها بعد ذلك بقليل، فربتها الجن. فلما بلغت مبلغ النساء قالت لأبيها: إنّي كرهت المُقَام عند الجن فٱحملني إلى بلاد الإنس فإنهم أحبّ إليّ. فقال لها: إنّ للإنس مَلِكًا ظالمًا وذكر لها سنّته في بلاد قومه، وأنه يفتضّ الأبكار ثم يردّهن إلى أهلهنّ. قالت: لا تخش ذلك عليّ وٱنقُلني، وسترى ما يكون منّي. فبنى لها قصرًا خارجَ مدينة سبأ من أعظم ما يكون من الأبنية، وٱتّخذ لها عريشًا من العاج والآبِنوس[1] والذهب والفضة، ونقلها إلى القصر واتّخذ لها أواني الجوهر. فأقامت بِلقيس في قصرها زمنًا طويلاً، وٱنتشر خبرها إلى ملك سبأ، فركب في موكبه حتى وقف على باب القصر ورأى حُسْنَ بنائه، فرجع وأرسل بجارية من جواريه إلى بِلقيس، فدخلت عليها ونظرت إليها وإلى ما في قصرها من التُّحَف العظيمة وما عندها من جواري الإنس والجنّ، فعادت إلى الملك وأخبرته بما هي عليه من الجمال وأنها ٱبنة وزيره. فأحضره وأنكر عليه وقال: كيف ٱتّخذتَ مثل هذا القصر ولك مثلُ هذه البنت وأنت وزيري ولم تعلمني ولا ٱستأذنتني في بنائه! فقال: أيها الملك، أمّا القصر فإني أنفقت عليه المال الذي ورثتُه من أبي. وأمّا البنت فإنها ٱبنة ٱبنة عَمِيرةَ بنت ملك الجن، ورغِبتْ في السكن في بلاد الإنس، فحملتُها إلى هذا المكان، فهذه قصتها. فقال: صدقتَ فزوِّجْنيها ولا بدّ من ذلك. فقال: أحتاج في ذلك إلى إذنها. قال: استأْذِنْها. فجاء إليها وقال: يا بُنَيّة، قد وقعتُ فيما كنت أخشاه عليكِ، وذكر لها مقالة الملك. فقالت: زوِّجني منه ولا تَخَفْ، فإنه لا يصل إليّ. فزوّجها منه بحضور أكابر أهل المملكة. ولمّا تمّ التزويج كتب الملك كتابًا إليها يقول: إني قد عشِقتُ ٱسمَك قبل أن أنظر إليك، فإذا قرأتِ هذه الرقعة فعجِّلي بحضورك إليّ. فكتبتْ إليه: إني لمشتاقة إلى وجهك أشوقَ منك إليّ، غير أن قصري هذا هو من بناء الجن، وفيه عجائبُ كثيرة، وقد جمعتُ فيه ما لا يصلح إلا لمثلك. فإن رأيتَ أن تتحوّل إلى قصري فافعلْ. فلما ورد جوابها عليه ركب لوقته في حَشَمه وجنوده وسادات قومه. فبلغ بِلقيس فقالت لأبيها: امضِ إلى الملك وقُلْ له: إنّ ٱبنتي من بنات الجن ولم تنظر قطُّ إلى مثل هذه الجنود، ففَرِّق هؤلاء وٱدخل إليها منفردًا. فقال ذلك للملك،

---

(١) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند خشبه أسود صلب يصنع منه بعض الأدوات المنزلية والأواني والأثاث.

ففرّق جنوده وأتى إليها بمفرده، ودخل القصر وله سبعة أبواب. وكانت بِلقيس قد جعلت عند كل باب جاريةً من بنات الجن من أحسن ما تكون من النساء، وفي أيديهنّ أطباق الذَّهب فيها الدنانير والدراهم والطِّيب، وأمرتهن أن ينثُرنَ ذلك على الملك. فلما دخل توهَّم أنّ كل واحدة منهنّ امرأتُه وهمّ بالنزول عليها، فتقول: أنا خادمتها وهي أمامك، حتى انتهى إلى آخر الأبواب، فتقدّمت إليه جارية وأصعدته إلى العرش، فنظر إلى القصر وما فيه من الآلات والزينة، فرأى ما لم يخطُر ببالِه. ثم أقبلتْ بلْقيس والجواري بين يديها ينثُرن على الملك من أنواع النِّثار[1] وعلى رأسها تاجٌ، فصعِدت على عرشها. فلمّا رآها الملك فُتن بها وكاد يَذْهَل عقلُه. وأخذت في مخادعته وملاعبته، ثم أمرتْ بالطعام فأحْضِرَ بين يديه، فامتنع من الأكل وقال: ما أريد أن أغفُل عن وجهك. فأمرتْ بإحضار الشراب فأتيَ به في آلات الجوهر النفيس. وأخذا في الشرب، فلم تزل به حتى أسكرته وغاب عن عقله ووقع على قفاه لا يعقِل من أمره شيئًا. فذبحته بِلْقِيس، ثم دعتْ بأبيها وأعلمته بما فعلت. ففرِح وكتب إلى خُزّان الملك عن الملِك: إنّي قد أحببتُ النزول بهذا القصر فاجمعوا ما في الخزائن من الأموال وأنفِذوه إلى عندي[2]. فجمعوا الأموال وأنفذوها إلى القصر. ثم أمرتْ بعد ذلك باتخاذ الأطعمة فصُنعتْ ودعتْ ساداتِ ملوك اليمن. فلمّا جلسوا قُدِّمتْ إليهم الأطعمةُ فأكلوا، ثم قُدّم إليهم الشراب فشرِبوا. فلما أخذ منهم أشرفتْ بِلقيس عليهم وقالت: إنّ الملك يأمركم أن توجّهوا إليه بنسائكم وبناتكم. فغضبوا وقالوا: أمَا يكفيه أنه فضَح بناتِ العرب حتى طمِع فينا نحن! فقالت لهم: لا تغضَبوا حتى أرجِع إليه وأُعرِّفه غضبكم. ثم أمرتْ أن يُعاد عليهم الشراب ثانيًا فشربوا ساعةً، فعادت إليهم وقالت: قد أخبرتُ الملِك بغضبكم ومقالتكم فقال: لا بدّ من ذلك. فازداد القوم غضبًا وصاحوا. فقالت: على رِسْلكم[3] حتى أراجعه وأسأله. ومضتْ وعادت فقالت: إني عدتُ إلى الملك فوجدته قد نام، فما رأيُكم في أمر أفعَلُه وأريحكم مما أنتم فيه من شرّه على أن تملّكوني على أنفسكم؟ قالوا نعم. فخلَّفتهم على ذلك وأخذت عليهم العهود والمواثيق، وغابتْ ساعةً وعادتْ ومعها رأسُ الملك فألقته إليهم، ففرحوا بذلك واستبشروا وملّكوها عليهم. فملكت بِضْعَ عشرةَ سنةً حتى بعث الله سليمان نبيًا.

---

(١) النثار: ما ينشر من ذهب وعطور وغير ذلك.

(٢) في الكسائي «وأتوني بها» وهي أفصح لغة.

(٣) على رسلكم: أي تمهّلوا ولا تعجلوا.

ذكر خبر سليمان وبلقيس وسبب زواجه بها

قال: وكان سببُ اتّصال خبرها بسليمان عليه السلام أنه بينما هو يسير على بِساطه، وكان الهُدْهُدُ دليلَه على الماء لأنه يراه من عِدّة فراسخ، فأرتفع في الهواء لطلب الماء، فنظر إلى هُدْهُدٍ قد أقبل من ناحية اليمن، فالتقيا. فقال له الهدهدُ السليمانيّ: من أين أنتَ؟ قال: من اليمن. وسأله الآخر فقال: أنا من الشام من طيور الملك سليمان. قال: ومَنْ سليمان؟ قال: نبيّ الله ملك الجنّ والإنس والطير وجميع المخلوقات. قال: إنّ هذا مَلِكٌ عظيم. قال: وهل في اليمن مِلِكٌ؟ قال: نعم، مَلِكَةٌ يقال لها «بِلقيس» تحت يدها عشرة آلاف قائد، تحت يدِ كلِّ قائد كذا وكذا ألفًا من العساكر.

وحكى الثعلبيّ أنه قال لمّا أخبره بمُلْك سليمان: إن لصاحبكم مُلْكًا عظيمًا، ولكن ليس مُلْكُ بِلقيس دونه، فإنها ملكةُ اليمن وتحت يدها اثنا عشر ألفَ قَيْلٍ مع كل قَيْل مائةُ ألف مقاتل - والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن - فهل أنت مُنطلق معي حتّى تراها؟ قال نعم. فانطلقَ الهدهدان حتى أتيا بلادَ اليمن وصارا إلى قصرها؛ فنظر إليها [الهدهد السليمانيّ][1] وإلى قصرها ومُلْكها. وحضر وقتُ الصلاة لسليمان فلم يجد الهدهد، فقال ما أخبر الله به عنه: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾ [النمل: ٢٠ - ٢١] أي بحجة بيّنة. ثم دعا العُقاب وقال: أنت عَريف الطير، فتعرّفْ لي خبر الهدهد. فطار في الشرق والغرب، وإذا هو بالهدهد قد أقبل من جهة اليمن، فجاء به إلى سليمان. فاستخبره عن سبب غيبته فقال: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٣] وذكر صفةَ عرشها وما فيه من أصناف الجواهر وغيرها ثم قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] وخرّ ساجدًا لله، ثم رفع رأسه وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ[2] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] قال سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]!. ثم سأله عن الماء فقال: هو تحت قائمة كُرسيّك. فأمر سليمان تحويل البِساط، فحُوّل ونقر الهدهدُ بمنقاره فخرج الماء، فشرب الناس وصلّوْا. ثم قال للهدهد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [النمل: ٢٨] وأقبل سليمان على آصف بن بَرْخِيا وقال: اُكْتُبْ إلى هذه المرأة كتابًا لطيفًا. فدعا بصحيفةٍ من فِضّة وكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ

---

(١) زيادة يقتضيها السّياق.

(٢) الخبء: خبء الأرض: نباتها وخبء السماء: مطرها.

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٣٠ ـ ٣١] وختم الكتاب وبعثه مع الهدهد في زُمرة من الطير، فأقبلوا نحوَ اليمن وٱنقضُّوا على قصرها، ودخل الهدهد إلى قُبَّتها من كَوّة[١] من كَوى القُبّة وهي نائمة، وقد وَضَعتْ خاتَم مُلْكها على صدرها، فوضع الكتابَ على نحرها وطار. فلما ٱستيقظتْ أخذتِ الكتاب وجمعتْ قومها ثم قالت: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] وفتحتْه وقالت: إنه من سليمان، وقرأتْه عليهم وعلمتْ أنه من قِبَل رجلٍ عظيم. وجمعتْ أكابرَ قومها وأهلَ العقل والعلم الذين في مملكتها و﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٢ ـ ٣٣] فعلمتْ عند ذلك أنهم قد أخطلُوا[٢] الرأيَ في عَزْمِهم على الحرب و﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٤ ـ ٣٥].

قال: وأرادتْ أن تختبِر حالَ سليمان عليه السلام فقالت: إنْ طلب الدنيا أرضيناه بالمال وصرفنا أذاه عنّا، وإنْ كان من الأنبياء ولم ترغِّبه الدنيا لم يكن لنا أمرٌ إلا الطاعةُ له، فمضَوْا على رأيها، فأمرتْ بٱتّخاذ الهدايا. فعاد الهدهد إلى سليمان وأخبره بما كان من أمرها مع قومها. فأمر سليمان أن يُفرَش مَيْدانه بلَبِن[٣] الذهب والفِضّة، وأن يُبْنى حولَ الميدان حائطٌ من الفضة شُرُفاته من الذهب، على كل شُرْفةٍ تاجٌ من الذهب مرصّع بالجوهر، وأمر الجن أن يأتوا بأولادهم من الذكور والإناث، وأمر بإحضار كل فرس عجيب الخَلْق.

قال الثعلبيّ: إنّ سليمان عليه السلام سأل الجنّ عن أحسن دوابَّ رأوْها في البحر. قالوا: رأينا دوابَّ في بحر كذا وكذا منمّرة منقّطة مختلفة ألوانُها، لها أجنحة وأعرافٌ[٤] ونواصٍ[٥]. قال: عَلَيَّ بها الساعةَ، فأتَوْه بها. قال: شُدُّوها عن يمين المَيْدان ويساره، ففعلا. قالوا: وأمر سليمان الشياطين أن يُظهروا من التهويلات ما لم يُظهروه قبل ذلك اليوم.

---

(١) الكوّة: الفتحة أو الخرق في الحائط.

(٢) قوله: (قد أخطلوا الرأي في عزمهم على الحرب): في المصباح (خطل في منطقه ورأيه أخطأ وأخطل في كلامه لغة اهـ) فأخطل بالهمزة إنما يستعمل مع الكلام لا الرأي فصوابه إذن (قد خطلوا في الرأي) متعديًا بحرف الجر (في) لا بنفسه أو أن (أخطلوا) محرفة من (أخطأوا) الذي يتعدى إلى مفعوله بنفسه. إذ يقال: أخطأ الطريق، وأخطأ الصواب. ومثلهما أخطأوا الرأي.

(٣) اللّبِن: المضروب من الذهب هنا بدل الطين.

(٤) الأعراف: مفردها العرف وهو شعر عنق الدّابة.

(٥) النواصي: مفردها الناصية: وهي شعر مقدّم الرأس إذا طال.

قال الكِسائيّ: وكانت بِلقيس قد أعدّتْ مائةَ لَبِنةٍ من الذهب، ومائةَ لَبِنةٍ من الفضّة، ومائةَ غلام أمرد، لكل غلام ضفائرُ كضفائر النساء، ومائةَ وصِيفة مطموماتِ الشعر.

قال الثعلبيّ: واْختلفوا في عددهم، فقال الكلبيّ: عشرة غِلْمانٍ وعشر جوارٍ. وقال مُقاتل: مائةُ وصيفٍ ومائةُ وصِيفة. وقال مجاهد: مائتا غلام ومائتا جارية. وقال وهب: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية. وألبستْ الغلمانَ ثيابَ الوصائف، وألبست الوصائفَ ثيابَ الغلمان.

وقال الثعلبيّ: قال وَهْبٌ وغيره من أهل الكتُب: عَمَدتْ بِلْقِيسُ إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجوارِيَ لباس الغِلمان، وألبست الغِلمان لباس الجوارِي، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفي آذانهم أقراطًا وشُنُوفًا[١] من ذهب مرصّعاتٍ بألوان الجواهر، وحَمَلت الجوارِي على خمسمائة رَمَكةٍ[٢]، والغلمانَ على خمسمائة بِرْذَوْنٍ[٣]، على كل فرس لجامٌ من ذهب مرصّع بالجواهر، وغواشِيها[٤] من الدِّيباج الملوّن، وبعثت إليه خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب، وخمسمائة لبِنةٍ من فضة.

قالوا: وعَمَدتْ إلى تاجٍ من ذهب مرصع بالجواهر، ومائةِ فرسٍ من جياد خيول اليمن، عليها براقع[٥] الحرير وأجلّة الديباج، وبعثت بحُقّة[٦] من ذهب فيها دُرّة غير مثقوبة، وجَزْعٌ[٧] يمانيّ مثقوبٍ مُعْوَجّ الثَّقْب، [وقارورة][٨] وبعثتْ ذلك مع وزيرها، وكتبتْ جوابَ كتابِ سليمان وقالت: قد بعثتُ إليك بمائتَي وصِيفٍ ووصيفةٍ على سِنّ واحدة، وأحبّ أن تميّز ذكورَهم من إناثهم من غير أن تكشف عنهم، ودُرّةٍ غير مثقوبة تأمر من يثقُبها من غير أن تستعين بأحدٍ من الإنس والجنّ والشياطين، وجَزعٍ مثقوبٍ تُدخِله فيه خيطًا، وقارورةٍ تملؤها ماءً ما نزل من السماء ولا نبع من الأرض.

---

(١) الشنوف: مفردها شَنف وهو ما يعلّق في أعلى الأذن، وأمّا ما يعلق في أسفلها فهو «قرط».

(٢) الرّمكة: الفرس.

(٣) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، وهو من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء، قويّ الأرجل عظيم الحوافر.

(٤) الغواشي: مفردها غاشية، وهي هنا الغطاء الذي يوضع على ظهر الدّابة.

(٥) البراقع: مفردها برقع وهو قناع للدّواب. (٦) الحقّة: وعاء صغير يوضع فيه الطيب.

(٧) الجزع: نوعٌ من الخرز فيه خطوط بيض وسود، أو هو ضربٌ من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان والحجر بجملته بلون الظفر.

(٨) زيادة يقتضيها الكلام الآتي.

فلمّا جاء الرسولُ ونظر إلى مَيْدان سليمانَ وحيطانه وما على شُرُفاتها من التِّيجان والخيول حول الميدان، دخل على سليمان بالجواري والغِلمان والحُقّة والقارورة، ولم يظهر الذهب والفضة والخيل لأنه استحقرها بالنسبة إلى ما رآه.

وقال الثعلبيّ: إنه كان مما بعثته خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب، وخمسمائة لبنةٍ من فضة. قال: فلمّا دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلْك سليمان ورأوْا الدوابّ تَرُوثُ[١] على لَبِنِ الذهبِ والفضة رمَوْا ما معهم من الهدايا. قال: وفي بعض الروايات أنّ سليمان لمّا أمر بفِراش الميدان بلَبِن الذَّهَب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر اللَّبِنات التي معهم. فلمّا رأت الرسل موضع اللَّبِنات خاليًا وكل الأرض مفروشة خافوا أن يُتَّهموا بذلك، وطرحوا ما معهم في ذلك المكان.

قال: ثم مرّوا على الشياطين، فلمّا نظروا إليهم فزِعوا. فقيل لهم: جُوزُوا[٢] فلا بأسَ عليكم. وكانوا يمرّون على كُرْدُوسٍ[٣] كُرْدوس من الجنّ والإنس والطير والسباع والوحش حتى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام.

قال الكِسائيّ: فقُدِّم الكتابُ إلى سليمان، فأخبر سليمانُ الرسولَ بما فيه قبل فتحه وقراءته، وميّز الوُصَفاء من الوصائف، وأمر دودةً فثقبتْ الدُّرّة وأدخلت الخيط في الجَزْع، وأمر أن تُساق الخيلُ حتى تعرَق وتُملأ القارورةُ من عَرَقها، وأقبل على وزير بِلْقِيس وقال: ارجعْ إلى صاحبتك بما جئتَ به من الهديّة وقُلْ لها: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

قال: فعاد الوزير إليها بما جاء به من الهديّة وأخبرها بما كان من أمر سليمان. فقالت لقومها: هل علمتم الآن أنّ رأيي كان أصوب من رأيكم في ترك المحاربة؟ ومن أين لنا طاقةٌ بحرب نبيّ!! ثم جمعتْ أموالَها وكنوزها وٱستصحبت ذلك معها إلاّ عَرْشَها فإنّها تركتْه بقصرها وأغلقتْ عليه سبعةَ أبوابٍ وسارتْ إلى سليمان ومعها ملوكُ اليمن وأكابرُها وساداتُها، فبلغ ذلك سليمانَ.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى: شخصتْ[٤] بِلقيس إلى سليمان عليه السلام في اثنَيْ عشر ألفَ قَيْلٍ[٥] من ملوك اليمن، تحت يد كل قَيْل منهم مائة

(١) تروث: تلقي روثها، والرّوث: زبل الفرس وذوات الحوافر.
(٢) جوزوا: أي سيروا وامضوا في طريقكم. (٣) الكردوس: الكتيبة من الخيّالة.
(٤) شخصت: خرجت وسارت. (٥) القيل: القائد في لغة اليمن.

ألف. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: وكان سليمان رجلاً مَهيبًا، لا يُبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه. فخرج يومًا فجلس على سرير مُلْكه فرأى رَهَجًا[1] قريبًا منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بِلقيس. قال: وقد نزلتْ منّا بهذا المكان؟ قالوا نعم. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كما بين الكوفة والحِيرة قَدْرُ فرسخ.

قال: فأقبل حينئذ سليمان على جنوده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝٣٩﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩] قال: أريد أسرَعَ من ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ـ وهو آصِف بن برْخِيَا ـ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. قال: وكان عنده اسمُ الله الأعظم ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. ثم قال سليمان: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]. فأقبل عفريتٌ من الجنّ وقال: يا نبيّ الله، إنّ رجليها كحافر حمارٍ. قال له سليمان: إن كان ذلك كما قلتَ وإلا عاقبتُك. قال: يا نبيّ الله، أُريد أن أتّخذ لك صَرْحًا من قَوارير، وأُجرِيَ فيه ماءً، وأُنزل فيه الحيتانَ والسمك، فلا يشكّ مَنْ رآه أنه ماءٌ جارٍ، فاتّخذه كذلك. فلمّا فرغ منه شكره. فقال: يا نبيّ الله، أُعفُ عنّي فإنّي كذبت على بِلقيس في رِجْلَيْها، فعفا سليمان عنه.

وأقبلت بلقيس فجعلتْ تنظر إلى الجنّ والإنس والطير والوحش وغيرهم، وهم قيامٌ لا يضرّ بعضهم بعضًا. فلما قاربتِ الصَّرْحَ الممرَّد[2] إذا بعَرْشها، فتعجّبت. فقيل: أهَكَذا عَرْشُك؟ قالت: كأنه هو، وعلمتْ أنّه هو، وأنه من قدرة الأنبياء.

قال: فلمّا أقبلتْ إلى الصرح حَسِبتْه لُجّة[3] وكشفتْ عن ساقَيْها. فناداها سليمان: إنه صرحٌ ممرّد من قوارير. فأرسلت ثوبها على ساقَيْها حياءً من سليمان، ثم ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ثم أسلم قومُها.

---

(١) الرّهج: الغبار أو ما أثير منه.

(٢) الصرّح الممرّد: يقال: مرّد الصّرح إذا سوّاه وماسّه فهو ممرّد، والصّرح: القصر وكل بناء عال.

(٣) اللجّة: معظم البحر وتردّد أمواجه.

قال الثعلبيّ: اختلف العلماء في أمرها بعد إسلامها، فقال أكثرهم: لمّا أسلمت بِلقيس أراد سليمان أن يتزوّجها. فلمّا همّ بذلك كَرِه ما رأى من كثرة شعر ساقَيْها وقال: ما أقبحَ هذا! فسأل الإنس: بِمَ يذهب هذا؟ فقالوا: بالموسى. فقالت المرأة: لم يَمَسَّنِي الحديدُ قطُّ، فكرِهه سليمان. فسأل الجنّ، فقالوا: لا ندري. فسأل الشياطين فمكروا عليه[١]، فلمّا ألحّ عليهم قالوا: نحن نحتال عليه حتى يكون كالفضّة البيضاء، فاتّخذوا لها النُّورةَ[٢] والحمّام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو أوّل يوم اتُّخِذَت فيه النُّورة. وقال الكسائيّ في سياقة خبره: ثم قالت بِلقيس: يا نبيّ الله، أرى خاتَمَك منقوشًا، فما الذي عليه؟ قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» قالت: ومَنْ محمد؟ قال: نبيّ يخرج في آخر الزمان، فآمنتْ بِلقيس به. ثم قال لها بعد إيمانها: أتحبِّين أنْ تَرجِعِي إلى بلادِكِ وما كنتِ فيه؟ قالت: لا، بل أكون معك من بعض نسائك، فتزوج بها سليمان عليه السلام.

هذا ما أورده الكسائيّ. وفيه زياداتٌ نقلها أبو إسحاق الثعلبيّ قد ذكرناها في أثناء القصّة ونبّهنا عليها ونسبناها إلى قائلها. وحكى الثعلبيّ أيضًا في هذه القصة زيادات قد رأينا إثباتها؛ فمن ذلك وَصْفُ قصرها وعَرْشِها.

ذكر صفة القصر الذي بنته بلقيس وصفة عرشها

قال أبو إسحاق الثعلبيّ قال الشعبيّ: يُروَى أنّ بلقيس لمّا ملكت أمرت فحُمِل إليها خمسمائة أسطوانة[٣] من الرُّخام، كلُّ أسطوانة خمسون ذراعًا، وأمرت بها فنُصبت على تلّ قريب من مدينة صَنْعاء[٤]، وخَطّت بين كلِّ أسطوانتين عشرةَ أذرع، ثم جعلت على ذلك سقفًا مبسوطًا بألواح الرُّخام وأُلْحِم بعضها إلى بعض بالرَّصاص حتى صارت كأنها لوحٌ واحد. ثم بنَتْ فوق ذلك قصرًا مربّعًا من آجُرّ وجعلت في كل زاوية من زواياه قُبّةً من ذهب مُشرفةً في الهواء، وفيما بين ذلك مجالسُ حيطانُها

---

(١) مكروا عليه: أخفوا معرفتهم وأنكروا.

(٢) النورة: حجر الكلس، أو أخلاط من الكلس والزرنيخ وغيره يستعمل لإزالة الشعر.

(٣) الأسطوانة: العمود.

(٤) صنعاء: كان اسمها في القديم أزال، فلمّا وافتها الحبشة، قالوا: نعم نعم فسمّي الجبل نعم أي انظر، فلمّا رأوا مدينتها وجدوها مبنيّة بالحجارة، حصينة فقالوا هذه صنعة ومعناها حصينة فسمّيت صنعاء بذلك، وقيل: سمّيت بصنعاء بن أزال بن يقطن بن عابر بن شالخ وهو الذي بناها، وهي بلد في خط الاستواء وهي من الاعتدال من الهواء بحيث لا يتحوّل الإنسان من مكان طول عمره صيفًا ولا شتاءً، وهي قصبة اليمن وأحسن بلادها، بينها وبين عدن ثمانية وستون ميلاً. «معجم البلدان ٣/ ٤٢٦».

من ذهبٍ وفضّةٍ مُرصّعةً بأنواع الجواهر الملوّنة، فكانت الشمس إذا طلعت على ذلك القصر ألْتهبَ الذهبُ والجوهر فيكاد يُغْشي[١] العيونَ وتحَارُ فيه الأبصار. وجعلتْ بابَ ذلك القصر مما يلي المدينةَ بدَرَج من الرخام الأبيض والأحمر والأخضر، وفي جانبه حُجُرًا لحُجّابها وبوّابيها وحَرَسها وخَدَمها وحَشَمها[٢] على قدرِ مراتبهم.

قال: وأمّا صفة عَرْشها فكان مُقَدَّمُه من ذهب مفصّص بالياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، ومؤخَّرُه من فضّة مكلّل بأنواع الجواهر، وله أربعُ قوائم: قائمةٌ من ياقوت أحمَر، وقائمةٌ من ياقوت أصفَر، وقائمةٌ من زُمُرُّد أخضَر، وقائمةٌ من دُرٍّ أصفَر، وصفائح السرير من ذهب. وعليه سبعةُ بيوت، على كل بيت بابٌ مُغْلَقٌ، وكان ثمانين ذراعًا في ثمانين ذراعًا، وطولُه في الهواء ثمانون ذراعًا، فذلك قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] أيْ سرير ضخم.

ذكر خبر وادي القِرَدَة

قال الكسائيّ: وبينما سليمان عليه السلام مع بِلْقِيسَ ذاتَ يوم إذ قال لها: أكلُّ اليمن في طاعتك؟ قالت: نعم، إلاّ وادٍ عن يمين سبأ، فيه أشجار ومياه غلبت عليه القِرَدَةُ وأزاحوا عنه سُكّانه، وهو وادٍ طويلٌ عريضٌ، وهم في كثرة، وإنهم على سُنَن[٣] اليهود لا يتبايعون[٤] يوم السبت. فبعث سليمانُ العُقَابَ ليأتيَه بخبرهم. فطار إلى الوادي وعاد إليه قبل أن يقوم من مُقامه ذلك، وأخبره بكثرتهم. فركب سليمان الريحَ على بِساطه في قُبّة القوارير، وسار في نفر من بني إسرائيل حتى نزل على شَفِير[٥] الوادي، فعلم القِرَدة أنه سليمان، فبادروا إلى طاعته وأتَوْه، وقالوا: يا نبيّ الله، إنّا من نَسْل اليهود الذين أعتدَوْا في السبت، ونحن على دين موسى نعمل بأحكام التوراة، وسألوه أن يُقِرّهم في ذلك الوادي، فأقرّهم فيه وكتب لهم سِجِلاً[٦] على لَوْح من نُحاس وجعله في عُنق كبيرهم يتوارثونه، ثم أنصرف عنهم. هكذا نقل. والصحيح أنّ الذين أعتدَوْا في السبت وغيرهم ممن مُسِخ لم يُعْقِبوا. وفي الصحيح: إنّ الله لم يجعل لمَسِيخٍ[٧] نَسْلاً.

(١) يعشي العيون: يذهب ببصرها، والأعشى: ضعيف البصر.
(٢) الحشم: خاصة الرّجل من أهل وعبيد وجيرة.
(٣) سنن اليهود: شرائعهم وأحكامهم واعتقادهم.
(٤) يتبايعون: يعقدون البيع، أي لا بيع في ذلك اليوم ولا شراء.
(٥) شفير الوادي: ناحيته من أعلاه.
(٦) السّجل: الكتاب الذي تدوّن فيه العهود والأحكام ونحوها.
(٧) المسيخ: أي الممسوخ الذي تحوّل عن صورة الإنسان إلى الحيوان كالقرد والخنزير.

ذكر خبر الرجل الذي قُبِض بأرض الهند

قال الكسائيّ: كان سليمان عليه السلام قد سأل الله تعالى أن يُرِيَه مَلَك الموت فأراه إيّاه، وكان يعوده ويأتيه في كل خميس. فأتاه في بعض الأيام على صُورة البشر، وجعل يطيل النظر إلى رجل في مجلس سليمان حتى أرعبَ ذلك الرجل. فلمّا فارقه مَلَك الموت قال: يا نبيّ الله، لقد فزّعني هذا الرجل الذي كان في مجلسك من نظره إليّ، فمَنْ هو؟ قال: هو مَلَك الموت. قال: يا نبيّ الله أسألك أن تأمُرَ الريح أن تحملني إلى أرض الهند، فأمرها سليمان فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند. ثم جاء مَلَك الموت إلى سليمان، فقال له: قد كنتَ اليوم عندي وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا شافنًا حتى خاف منك. قال: يا نبيّ الله، إني كنتُ قد أمرت بقبض روحه في موضع من أرض الهند في هذا اليوم، فلمّا رأيته عندك عجبتُ متى يصل إلى الهند، فإذا الريح قد جاءت به، فألقتْه في البقعة التي أمِرتُ بقبض رُوحه فيها، فقبضتُ روحه هناك. فعجِب سليمان عليه السلام من ذلك.

ذكر خبر الفتنة وذهاب خاتَم سليمان عليه السلام ورجوعه إليه

قال الكسائيّ: كان سليمان عليه السلام كلّما نزل بمنزلٍ من البراري بنتِ الجنّ والشياطين له قصرًا بديعًا، فإذا تحوّل عنه خرّبوه. وكان له قصر على ساحل البحر من بناء الجنّ، فأمرهم أن يتركوه على حالته. فجاء سليمان إلى ذلك القصر فنزله، وكان صخر الجنيّ معه وهو شديد الحرص على أن يسلبه الخاتم؛ لأنه كان قد علِم أن مُلْكَه في خاتَمه. وكان لسليمان جاريةٌ ٱسمها «الأمينة» فكان إذا أراد الدخول إلى الخَلْوة بنسائه يسلِّم الخاتَم إليها، فإذا ٱغتسل أخذ خاتمه منها، وكذلك إذا أراد الوضوء. فجاء سليمانُ في بعض الأيام فنزل ذلك القصر وأراد الوضوء، فدفع الخاتَم إلى الجارية. فجاء صخرٌ وقد ألقَى على نفسه صورة سليمان، فقال للجارية: هاتِ الخاتَم، فناولته إيّاه وهي لا تعلم. فلمّا صار الخاتَمُ في يد صخر لم يستقرّ في يده لأنه شيطان، فرماه في البحر، فجاء حُوت بإذن الله فٱبتلعَه. ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيّه ومعه الناس وهم يظنّون أنه سليمان؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صٓ: ٣٤] قيل: الجسد هو صخر الجني.

قال: وخرج سليمان من الخلاء وقد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتَمَ، فقالت الجارية: أعوذ بالله منك، قد فعتُ الخاتم إلى سليمان. فعلم أن الله قد

أوقع به البليّة، فخرج يريد القصر ويقول للناس: أنا سليمان، والناسُ يهزؤون بقوله ويقولون: لستَ سليمان أنت صخر الجنّيّ. فجعل سليمان يدور على جميع الناس وهم على كلمة واحدة في إنكاره، وجعل يدور في القرى ويقول: أنا سليمان والناس يَشْتُمونه حتى لزِق بطنُه بظهره من الجوع، فقال: إلٰهي إنّكَ ٱبتليتَ كثيرًا من الأنبياء ولم تَحرِمهم رِزقك. إلهي إنّي تائب إليك من خطيئتي. فلم يَزَلْ سليمان كذلك أربعين يومًا لم يَطْعَمْ شيئًا، ثم وجد قرصةً[1] يابسةً مُلقاةً، فأخذها ولم يقدِر على أكلها ليُبْسها، فأقبل إلى ساحل البحر وقعد يبُلّ القرصة فٱستلبتْها الأمواج من يده. فقال: إلٰهي رزقتَني بعد أربعين يومًا قُرصةً يابسة نزلتُ حتى أبلّها فٱستلبتْها الأمواج من يدي وأنت المتكفِّل بأرزاق العباد، وأنا عبدك المذنب، فارزقني فأنت الرزّاق الكريم. ثم جعل يمشي على الساحل وهو يبكي، فإذا هو بقوم يصطادون السمك، فسألهم شيئًا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا له: انْصَرِفْ عنّا، فما رأينا أوحش من وجهك. قال: ما عليكم من وجهي إذا أطعمتموني؟! قالوا: وحقِّ سليمان إنْ قُمْنا إليك لنُوجعنّك ضربًا إن لم تَرُحْ[2] عنّا. قال: يا قوم، فأنا والله سليمانُ. فضربه رجلٌ منهم على رأسه وقال: أتكذِب على نبيّ الله! فبكى حتى بكت الملائكة لبكائه ورحِمه أولئك القوم وناولوه سمكةً وأعطَوْه سِكّينًا، فشقّ بطنها ليصلحها ويَشوِيَها ويأكلَها، فخرج الخاتَمُ من بطنها فغسَله وجعله في إصبعه، وعاد إليه حسنُه وجماله، فوضع السمكة وسار يريد قصره، فجعل يمرّ بتلك القُرَى، فكُلُّ من كان قد أنكره عَرَفه وسَجَد له. فبلغ ذلك صخرًا الجنّيّ فهربَ. وعاد سليمان إلى قصره وٱجتمع له الإنس والجن والشياطين والسباع والهوامّ كما كانوا أوّل مرّة. فبعث العفاريت في طلب صخر فأتَوْه به، فأمر أن ينقُروا له صخرتين وصفّده[3] بالحديد وجعله بينهما وأطبقهما عليه وختم عليه بخاتَمه وطرحه في بُحيرة طَبَرِيّة. فيقال: إنه فيها إلى يوم القيامة. ثم أمر الله الرياح أن تَحشُر له سائر الشياطين فحُشِرتْ له، فصفّد مَرَدَتهم بالحديد وحبسهم. هذا ما أورده الكِسائيّ في قصّة الفتنة، وهو أولى ما أورده وأشبه ما نقل.

---

(١) القرصة: خبزة صغيرة مبسوطة مدوّرة.

(٢) قوله: (لنوجعنك ضربًا إن لم تَرُح عنا) راح يروح بمعنى مطلق الذهاب لهجة شامية مستعملة اليوم ويظهر أنها كانت مستعملة في زمن المؤلف ايضًا. أو صوابه (تبرح عنا) ففي كتب اللغة برح مكانه زال عنه. فهو متعدٍ بنفسه. ونقل صاحب أقرب الموارد أنه يتعدى بمن أيضًا. فقوله هنا (تبرح عنا) إما أن تكون (عنا) محرفة من (منا) أي من مكاننا. أو أن فعل (تبرح) قد ضمن معنى فعل زال عنه يزول فعدى تعديته فمعنى (تبرح عنا) (تزل عنا) والتضمين بشروطه طريق مطروق، واستعمال مألوف.

(٣) صفّده: قيّده بالأغلال.

وحكى الثعلبيّ رحمه الله في خبر الفتنة قال قال محمد بن إسحاق قال بعض العلماء عن وهب بن مُنَبِّه قال: سمع سليمان عليه السلام أنّ في جزيرة من جزائر البحر رجلاً يقال له «صَيْدون» ملك عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس عليه سبيل لمكانه في البحر. وقال غيره: إن هذه الجزيرة مسيرة شهر في مثله، وفيها عجائب كثيرة وأشجار وأنهار، وفي وسطها مجلس على عمد من مرمر(١) ملوّن، والمجلس من ذهب مفصل بأنواع الجواهر يُشرف على جميع الجزرة. وقيل: إنه كان ساحرًا، فكانت الجنّ تُطيف(٢) به وتعمل له العجائب، فدُلّ سليمان عليها فغزاه.

نَرْجِع إلى سياق الثعلبيّ قال: فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والإنس، فقتل مَلِكها وسَبَى ما فيها، وأصاب فيما أصاب بنتَ الملك وٱسمُها «جرادة» لم ير الناسُ مثلَها حسنًا وجمالاً، فٱصطفاها سليمان لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلّة ثقة، وأحبّها سليمان حبًّا لم يحبّه شيئًا من نسائه، وكانت منزلتُها عنده منزلةً عظيمة، وكان لا يذهَب حزنُها ولا ترقأ(٣) دمعتُها على أبيها. فشقّ ذلك على سليمان وقال لها: ويحِك! ما هذا الحزنُ الذي لا يذهَب، والدمع الذي لا يرقأ! قالت: إني أذكره وأذكر مُلْكه وما كان فيه وما أصابه فيَحزُنني ذلك. قال سليمان: فقد بدّلك الله مُلْكًا أعظمَ من ملكه، وسلطانًا أعظمَ من سلطانه، وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك كلّه. قالت: إنّ ذلك كذلك، ولكن إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن. ولو أنك أمرت الشياطين فصوّروا لي صورته في داري أراها بُكرةً وعشيّة لرجوتُ أن يذهب ذلك، وأن يسكُنَ عنّي بعضُ ما أجد في نفسي. فأمر سليمان الشياطين أن يمثّلوا صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئًا، فمثّلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا رُوحَ فيه. فعَمَدتْ إليه حين صنعوه فأزّرتْه(٤) وقمّصته(٥) وعمّمته(٦) بمثل ثيابه التي كان يَلْبَس. ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو على ذلك التمثال هي وولائدُها(٧) فيسجُدْن

(١) المرمر: نوع من الرّخام شديد الصلابة والصفاء.
(٢) تطيف به: تأتيه، أو تدور وتحوم.
(٣) لا ترقأ: لا تجفّ ولا تنقطع.
(٤) أزّرته: ألبسته الإزار، وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.
(٥) قمّصته: ألبسته القميص.
(٦) عمّمته: ألبسته العمّة، وهي كورة من القماش توضع على الرأس.
(٧) الولائد: مفردها وليدة وهي الأمة.

له كما كانت تصنع ذلك في مُلكه، وتفعل ذلك بكرةً وعشيّة وسليمانُ لا يعلمَ بشيء من ذلك أربعين يومًا. وبلغ ذلك آصِفَ بن بَرْخِيَا، وكان صدّيقًا، وكان لا يُرَدّ من باب سليمان متى أراد دخوله من ليل أو نهار، فأتاه فقال: يا نبيّ الله، كَبِرتْ سنّي، ودقّ عظمي، ونَفِدَ عمري، وقد حان منّي الذهاب، وقد أحببتُ أن أقوم مقامًا قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأُثني عليهم بعلمي، وأُعَلِّم الناس ما يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعلْ. فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيبًا، فذكر مَنْ مضى من أنبياء الله وأثنى على كلٍّ منهم بما فيه، وذكر ما فضّلهم الله به حتى أنتهى إلى سليمان، فقال: ما كان أحلمَك في صغرك، وأورعَك وأفضلَك في صغرك، وأحكمَ أمرَك في صغرك، وأبعدَك من كل ما تكره في صغرك، ثم انصرف. فوجدَ[1] سليمان في نفسه من ذلك. فلمّا دخل سليمان داره أرسل إلى آصِف بن بَرْخِيَا فقال: ذكرتَ مَنْ مضى من أنبياء الله، وأثنيتَ عليهم خيرًا في كل زمانهم، وفي كل حالٍ من أمورهم؛ فلما ذكرتَني جعلت تُثني علي بخير في صِغَري وسكتّ عما سوى ذلك من أمري في كِبَرِي، فماذا أحدثتُ في آخر أمري؟ قال: لأنّ غيرَ الله يُعْبَد في دارك أربعين يومًا في هَوَى أمرأة. قال سليمان: في داري! قال: نعم في دارك. فأسترجع[2] سليمانُ ثم دخل داره فكسر ذلك الصنم، وخافت تلك المرأة. ثم أمر سليمان بثياب الطُّهر فأُتِيَ بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تَمَسُّها أمرأة ذاتُ دم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده، فأمر برماد ففُرش له، ثم أقبل تائبًا إلى الله حتى جلس على ذلك الرَّماد تذلُّلاً لله تعالى وتضرُّعًا إليه، يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره، فلم يزل ذلك دأبَه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره. وكان له وَليدة يقال لها «الأمينة»، فكان إذا دخل لحاجته أو أراد إصابة أمرأة من نسائه وضع خاتَمه عندها حتى يتطهّر، فوضعه يومًا من الأيام عندها ثم دخل لقضاء حاجته، فأتاها صخر الجِنّيّ على صورة سليمان لا يُنْكَر منه شيء، فقال لها: يا أمينة، خاتَمي؛ فناولته إياه، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت[3] عليه الجنّ والإنس والطير. وخرج سليمان فأتى الأمينةَ وقد تغير عن حلْيته وهيئته عند كل مَنْ يراه. فقال: يا أمينة. قالت: ومن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود. قالت: كذبتَ لستَ سليمان، وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سريره في مُلكه، فعرف سليمان أنّ خطيئته قد أدركتْه، فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل

(١) وجد في نفسه: حزن أو غضب. (٢) استرجع: قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.
(٣) عكفت عليه: أقبلت عليه وأمّن مجلسه.

فيقول: أنا سليمان بن داود، فيَحْثُون[1] عليه التراب ويسبُّونه ويقولون: أُنظروا إلى هذا المجنون يزعم أنه سليمان. فلمّا رأى سليمان ذلك عمَد إلى البحر، فكان ينقُل الحِيتان لأصحاب البحر منه إلى السوق فيعطونه كلَّ يوم سمكتين، فإذا أمسَى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوي الأخرى فيأكلها. فمكث كذلك أربعين صباحًا عدّة ما كان ذلك الوثن في داره.

قال: وأنكر آصِف وعظماءُ بني إسرائيل حُكْم عدوّ الله الشيطان في تلك المدّة. فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم من ٱختلاف حكم سليمان بن داود ما رأيتُ؟ قالوا نعم. قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه وأسألهنّ هل أنكرنَ منه في خاصّة أمره ما أنكرناه في عامّة أمرِ الناس. فدخل على نسائه فقال: ويحكنّ! هل أنكرتنّ من أمر نبيّ الله سليمانَ ما أنكرناه؟ فقلن: أشدّ وأعظم، ما يدع ٱمرأة منّا في دمها، ولا يغتسل من جنابة. فقال آصِف: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إن هذا لهو البلاء المبين. ثم خرج إلى بني إسرائيل فقال: ما في الخاصّة أعظمُ ممّا في العامّة. فلمّا مضت أربعون صباحًا طار الشيطان عن مجلسه ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتمَ فيه، فٱبتلعته سمكة وأخذها بعض الصيادين، وقد عمِل له سليمان صدر يومه حتى إذا كان آخرُ النهار أعطاه سمكتيه، فأُعطيَ السمكة التي ٱبتلعت الخاتم، وحمل سليمان سمكتيه فباع التي ليس فيها الخاتَمُ بالأرغفة، ثم عَمَد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها، فاستقبله الخاتم من جوفها فأخذه، فجعله في يده ووقع ساجدًا لله تعالى، وعكفت عليه الطير والوحش والجنّ. وأقبل إليه الناس ورجع إلى مُلكه وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين بإحضار صخر فأدخله في صخرة عظيمة، ثم شدّ عليه أخرى، ثم أوثقهما بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقُذف في البحر.

هذا حديث وَهْب. وقال السُّدِّيّ في سبب الفتنة: كان لسليمان مائةُ ٱمرأة وكانت منهن ٱمرأةٌ يقال لها «جَرَادةُ» وهي آثر[2] نسائه وآمنهنّ عنده، وكان إذا أجنبَ[3] أو أتى حاجته نزع خاتَمه ولم يأتمن عليه غيرَها. فجاءها يومًا من الأيام فقالت له: إنّ أخي بينه وبين فلان خصومة، وإني أُحبّ أن تقضيَ[4] له إذا جاءك. قال نعم، ولم يفعل؛ فٱبتُليَ بقوله وأعطاها خاتَمه ودخل المَذْهَب[5]، فخرج الشيطان في صورته فقال لها: هاتي الخاتم، فأعطته إيّاه، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج

(١) يحثون التراب: يهيلون وينثرون.
(٢) آثر نسائه: أخصّهم منزلةً لديه.
(٣) أجنب: صار جُنبًا من النّكاح.
(٤) تقضي: تفصل وتحكم.
(٥) المذهب: المتوضأ.

سليمان بعده فسألها أن تُعطيَه الخاتم فقالت: ألم تأخذه؟ قال: لا! وخرج من مكانه. ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يومًا، فأنكر الناس حكمه، فاْجتمع قرّاء بني إسرائيل وعلماؤهم فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا: إنّا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمانَ فقد ذهب عقلُه وأنكرنا حكمه، فأبكى النساءَ عند ذلك. فأقبلوا يمشون حتى أتَوْه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوها، فطار الشيطان من بين أيديهم حتى وقع على شُرْفة والخاتم معه حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم في البحر فاْبتلعه الحوت. فأقبل سليمان في حالته التي كان فيها حتى اْنتهى إلى صيّادين وهو جائع فاستطعمهم من صيدهم وقال: إنّي سليمان بن داود. فقام إليه بعضهم فضربه بعصاه فشجّه[1]. فجعل يغسِل دمه وهو على شاطىء البحر، فلام الصيّادون صاحبه الذي ضربه وقالوا: بئسما صنعتَ حيث ضربته. فقال: إنه زعم أنه سليمان بن داود! فأعطاه سمكتين. فقام إلى ساحل البحر فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه ولبسه وردّ الله تعالى عليه مُلكه وبهاءه، وجاءت الطير فعكفت عليه، فعرفه القوم فقاموا يعتذرون إليه مما صنعوا. فقال: ما أؤاخذكم على عُدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم، هذا ما كان لا بدّ منه. وجاء حتى أتى مُلكه، فأخذ الشيطانَ فجعله في صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختَمه بخاتمه، ثم أمر به فأُلقيَ في البحر، وهو فيه كذلك[2] إلى يوم القيامة.

قال: وفي بعض الروايات أنّ سليمان لمّا اُفتُتِن سقط الخاتم من يده، فأخذه سليمان فأعاده إلى يده، فسقط من يده فلما رآه لا يثبت في يده أيقن بالفتنة. وقال آصف لسليمان: إنّك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك أربعةَ عشر يومًا؛ ففِرَّ[3] إلى الله تعالى تائبًا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير في عملك وأهل بيوتك بسيرتك حتى يتوب الله عليك ويردّك إلى مُلكك. ففرّ سليمان هاربًا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم ووضعه في يده فثبت. وإنّ الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [صٓ: ٣٤] هو آصف كاتب سليمان، وكان عنده علمٌ من الكتاب. فأقام آصِف في مُلك سليمان يسير سيرته ويعمل بعمله أربعةَ عشر يومًا، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبًا إلى الله تعالى، وردّ الله تعالى عليه مُلكه، وقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيّه وأعاد الخاتم في يده فثبت فيها.

---

(١) شجّه: شقه وأدماه.

(٢) في الأصل: وهو حيٌّ كذلك إلى الساعة، والتصويب عن الثعلبي.

(٣) فرَّ إلى الله تائبًا: أي عجّل بالتوبة بعد المعصية.

قال أبو إسحاق: وقيل في سبب ذلك ما رُوِيَ عن سعيد بن المسيّب[1]: إنّ سليمان احتجب عن الناس ثلاثةَ أيّام، فأوحى الله تعالى إليه أنْ يا سليمان احتجبتَ عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تُنصف مظلومًا من ظالم. وذكر حديث الخاتم وأخْذ الشيطان إيّاه كما تقدّم، وقال في آخره: قال عليّ: فذكرت ذلك للحسن فقال: ما كان الله ليسلّطه على نسائه.

قال: وقال بعض المفسّرين: كان سبب فتنة سليمان أنه أُمِر ألاّ يتزوّج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوّج من غيرهم فعُوقب على ذلك.

وقيل: إن سليمان لمّا أصاب ابنة الملك صَيْدون أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت وامتنعت، فخوّفها فقالت: إنْ أكرهتني على الإسلام قتلتُ نفسي. فخاف سليمان أن تقتل نفسها، فتزوّج بها وهي مشركة أربعين يومًا، وكانت تعبد صنمًا لها في خُفْية من سليمان إلى أن أسلمتْ، فعُوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يومًا.

قال وقال الشعبيّ[2] في سبب ذلك: إنّ سليمان وُلد له ولد، فاجتمعتِ الشياطين وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ولد لم ننفك[3] مما نحن فيه من البلاء والسُّخْرة[4]، وما لنا إلا أن نقتل ولده أو نَخْبَله[5]. فعلم سليمان بذلك، فأمر السحاب أن يأخذ ابنه، وأمر الريح فحملته، وغدا ابنُه في السحاب خوفًا من مضرّة الشيطان. فعاقبه الله تعالى بخوفه من الشيطان، ومات الولد فأُلقِيَ ميّتًا على كرسيّه، فهو الجسد الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [صَ: ٣٤].

---

(١) سعيد بن المسيّب: هو أبو محمد سعيد بن المسيّب بن حزن بن مخزوم القرشي المدني، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان سيّد التابعين، جمع بين الفقه والحديث والزّهد والعبادة والورع «وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥».

(٢) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، كان نديم عبد الملك بن مروان وسفيره إلى ملك الروم، وهو من رجال الحديث الثقات، وكان فقيهًا وشاعرًا، مات سنة ١٠٣هـ «الأعلام ٣/ ٢٥١».

(٣) لم ننفك: لم نتخلّص.

(٤) السّخرة: الاستعباد أو العمل بلا أجر.

(٥) نخبله: أي نفسد عقله.

ذكر عزم سليمان عليه السلام أن يطوف على نسائه

قال الكسائيّ: كان سليمان عليه السلام قد أُعطِيَ من القوّة ما إنه يأتي على خمسمائة حرّة وسبعمائة سُرِّيَّة[١]. فقال في يوم: لأطوفنّ على ألف امرأة وأجامعهنّ كلهنّ، فتحمل كل واحدة منهنّ بغلامين فارِسَيْن يركبون الخيل ويغزون البلاد، ولم يقل إن شاء الله. وطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ غير واحدة، حملتْ بنصف إنسان، قيل: إنه الجسد الذي أُلقِيَ على كرسيّ سليمان. والله تعالى أعلم.

والذي ثبت من هذه القصة ما رويناه من صحيح البخاريّ بسندنا المتقدّم إليه. قال البخاريّ[٢] حدّثنا خالد بن مَخْلَد[٣] حدّثنا مُغيرة بن عبد الرحمٰن[٤] عن أبي الزِّناد[٥] عن الأعرج[٦] عن أبي هريرة[٧] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «قال سليمان بن داود لأطوفنّ الليلةَ على سبعين امرأةً تحمِل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبُه إن شاء الله فلم يقل، ولم تحمِل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا إحدى شِقَّيه فقال النبيّ ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله» قال شُعَيب وابن أبي الزناد تسعين وهو أصح.

ذكر وفاة بلقيس زوجة سليمان عليه السلام

قال الكسائيّ: أقامت بِلقيس عند سليمان سبعَ سنين وسبعةَ أشهر ثم تُوُفِّيت، فدفنها بمدينة تَدْمر من أرض الشام تحت حائط، ولم يعلم أحد بموضع قبرها إلى أيّام الوليد بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) السُّرِّيَّة: الجارية المملوكة.

(٢) البخاري: هو محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب الجامع الحصيح المعروف بصحيح البخاري، مات سنة ٢٥٦هـ «الأعلام ٦/ ٣٤».

(٣) هو خالد بن مخلد القطواني الكوفي، أبو الهيثم، والقطواني بثلاث فتحات، نسبة إلى قطوان موضع بالكوفة، محدّث صدوق توفي سنة ٢١٣هـ «الكاشف ١/ ٢٠٨».

(٤) هو المغيرة بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الحزامي المدني، محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ١٤٩».

(٥) هو عبد الله بن ذكوان، أبو عبد الرحمٰن، الإمام أبو الزِّناد المدني محدّث ثقة ثبت مات فجأة في رمضان سنة ١٣١هـ «الكاشف ٢/ ٧٥».

(٦) الأعرج: هو عبد الرحمٰن بن هرمز، أبو داود، محدّث ثقة، كان يكتب المصاحف، توفي في ثغر الإسكندرية سنة ١١٧هـ «الكاشف ٢/ ١٦٧».

(٧) أبو هريرة: هو عبد الرحمٰن بن صخر الدّوسي، كان حافظًا متثبّتًا ذكيًا مفتيًا صاحب صيام وقيام، ولي أمر المدينة عدّة مرات، توفي سنة ٥٧هـ «الكاشف ٣/ ٣٤١».

قال موسى بن نُصَيْر[١]: بُعِثتُ في أيّام الوليد إلى مدينة تَدْمُر[٢] ومعي العباس بن الوليد بن عبد الملك، فجاء مطر عظيم فأنهار بعضُ حائط المدينة، فأنكشفت عن تابوت طولُه ستون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا مُتَّخِذ من حجر كالزَّعْفران مكتوبٍ عليه: «هذا تابوتُ بِلقيس الصالحة أسلمت لثلاثَ عشرة سنة خلت من مُلْك سليمان، وتزوّج بها يوم عاشوراء سنة أربعِ عشرة خلت من مُلكه، وتوفيت يوم الاثنين من ربيع الأوّل سنةَ إحدى وعشرين مضت من مُلكه، وقد دُفنت ليلاً في حائط مدينة تدمُر، ولم يطّلع على دفنها إنس ولا جنّ ولا شيطان». قال: فرفعنا غطاء التابوت وإذا هي غضّة[٣] كأنها دُفنت ليلَتها. فكتبنا بذلك إلى الوليد فأمر بتركه في مكانه، وأن يُبنَى عليه بالصخر والمرمر، ففعلنا ذلك.

ذكر خبر وفاة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائيّ: مَلَك سليمان شرق الأرض وغربها وطاف أقطارها حتى أنتهى إلى السَّدّ[٤] الذي هو بالقُرب من جبل قاف[٥]، فوقف هناك ثم قال للريح: هل جريتِ هاهنا قطّ؟ قالت: لا يا نبيّ الله، وإنه آخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى. ثم أمر الريح فاحتملته حتى نظر إلى التِّنِّين[٦] المُحْدِقِ بالعالم، فسار أيامًا على طرَف من

---

(١) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمٰن بن زيد اللخمي، فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، نشأ في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية، مات سنة ٩٧هـ «الأعلام ٧/ ٣٣٠».

(٢) تدمر: مدينة قديمة معناها بالعبرانية «النخيل» وكانت عامرة ذات تجارة واسعة وهي واقعة بطرف بادية الشام في الشمال الشرقي من دمشق، تمرّ عليها القوافل بين الشّام والعراق من القرن السادس قبل الميلاد، وهي بين القريتين والرّحبة، قال صاحب حماة: وهي من أعمال حمص من شرقيها، وغالب أرضها سباخ، وبها آثار عظيمة أزليّة من الأعمدة والصخور، ولها سورٌ وقلعة «انظر صبح الأعشى ٤/ ١١٨».

(٣) الغضّة: النّظرة الطّريّة.

(٤) السّد: هو السدّ الذي بناه الإسكندر ذو القرنين، وهو المعروف بسدّ يأجوج ومأجوج وسيأتي ذكره في آخر هذا الكتاب..

(٥) جبل قاف: جبل مذكورٌ في القرآن الكريم، ذهب المفسّرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض، قالوا: وهو من زبرجدة خضراء، وإن خضرة السّماء من خضرته، قالوا: وأصول الجبال كلّها من عرق جبل قاف، ذكر بعضهم أنّ بينه وبين السّماء مقدار قامة رجل، وقيل بل السّماء مطبقة عليه، وأن الشمس تغرب فيه وتطلع منه وهو الستار لها عن الأرض وتسميه القدماء البرز «معجم البلدان ٤/ ٢٩٨».

(٦) التنّين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، يقال: له مخالب أسد وأجنحة نسر وذنب أفعى، ويُتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا.

أطرافه فإذا هو بملَك، فقال: يأبن داود إن هذا التنّين محيط بالعالم الذي هو مسيرة خمسمائة عام. ثم أرتفع إلى مستقرّ الغمام ونظر إلى مجمع القَطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار فإذا هو بملَك يقول: اللهم أعطِ كل مُنفقٍ خَلَفًا[١] وكل ممسك[٢] تَلَفًا. ثم أمر الريح أن تحطّ بساطه إلى الأرض المقدّسة، وكانت مدّةُ غيبته مائة وثلاثين يومًا. وكان في طول سَفْرته هذه يرى شخصًا بين يديه يسبق كل شيء، فسأله من هو؟ فأخبره أنه ملَك الموت، فوقعت عليه الرِّعدة[٣] وتغيّر لونه وجعل أبنه رَحْبَعَم خليفتَه، وأوصى الناس بالسمع والطاعة له. وأخذ في الصوم والصلاة طول ليله، فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيها نبات حسن يتسلّى به. فخرج في بعض الأيام فرأى نبتًا غريبًا لم يكن قد رآه قبل ذلك اليوم. فقال: أيها النبت ما أنت؟ قال: أنا الخَرْنوب[٤] الذي لا أنبت في موضع إلا خرّبته. فقال سليمان: فما تصنع هاهنا فلستَ من نبات الرياض بل من نبات البراري؟ قال: قد أمرت أن أنبت هاهنا. فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نباته. فقال له سليمان: ألم آمُرْك أن تلحقَ بموضعك من البراري! قال الخرنوب: يا نبيّ الله، إنّ هذا الموضع سَيخْرَب عن قريب، فسكت سليمان. فلما ضعُف عن العبادة توكّأ على عصاه. فبينا هو في محرابه متوكئًا قائمًا يتلو الزَّبور والتوراة إذ أتاه ملك الموت، فرفع رأسَه إليه فناوله شمّةً فشمّها فمات. وبقي سليمان على حالته لم يسقط إلى الأرض ولم يتحرّك ولا مال. فهابوه وما جَسَروا أن يتقدّموا إليه. وقالوا: إنه لم يمتْ، ولم تزل الإنس والجنّ والشياطين والوحش والطير في الطاعة والأعمال حتى مضت سنة، ثم وقعت الأرضة[٥] في أسفل العصا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤] فخرّ سليمانُ عند ذلك كالخشبة اليابسة، وكانت الجنّ قبل ذلك تدّعِي علم الغيب؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] أي في تلك السنة في نقل الصخور والبنيان وغير ذلك.

وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في خبر وفاة سليمان عليه السلام: قال أهل التاريخ: لبِث سليمان في مُلكه بعد أن ردّه الله عليه تعمل له الجنّ ما يشاء

---

(١) الخلف: العوض عمّا أنفق. (٢) الممسك: البخيل.

(٣) الرّعدة: اضطراب الجسم من حمّى أو خوف أو غيرهما.

(٤) الخرنوب: شجر مثمر من الفصيلة القرنيّة، ثماره قرونٌ تؤكل، وتعلفها الحيوانات.

(٥) الأرضة: دويبة بيضاء تشبه النملة، تظهر في أيّام الربيع، أو دويبة تأكل الخشب ونحوه.

من محاريب[١] وتماثيل وجِفان[٢] كالجوابي وقدور راسيات وغير ذلك، ويعذِّب من الشياطين مَن يشاء، ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحبّ. فأتاهم إبليس وهم في العمل فقال: كيف أنتم؟ فقالوا: ما بنا طاقة لما نحن فيه. فقال لهم: تذهبون تحملون الحجارة وترجِعون فُرَّاغًا لا تحملون شيئًا؟ قالوا نعم. قال: فأنتم في راحة. فأبلغت الريح ذلك سليمان، فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين. فقال لهم إبليس: تعملون بالليل؟ قالوا لا. قال: فأنتم في راحة. فأبلغت الريح ذلك سليمان، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار. فأتاهم إبليس فسألهم فشكَوْا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار. فقال لهم إبليس: وفَعَلَها؟ قالوا: نعم. قال: فتوقّعوا الفرج، فقد بلغ الأمر منتهاه. فما لبِثوا إلا يسيرًا حتى مات سليمان.

قال ابن عبّاس وغيره: كان سليمان يتحنّث[٣] في بيت المَقْدس السنةَ والسنتين والشهرَ والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر، يدخله ومعه طعامه وشرابهُ، فدخله في المرّة التي مات فيها. قال: وكان بدء ذلك أنه لم يكنْ يومًا يُصبِحُ فيه إلا نبتَ في بيت المقدس شجرةٌ فيسألها سليمان ما ٱسمُك؟ فتقول الشجرة: ٱسمي كذا وكذا. فيقول: لأي شيء تصلُحين؟ فتقول: لكذا وكذا؛ [فيأمر بهَا فتُقْطَع][٤]، فإن كانت تنبت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا. فبينا هو يصلّي ذات يوم إذ رأى شجرةً بين يديه، فقال لها: ما ٱسمك؟ فقالت: الخَرْنوبةُ. قال: ولأيّ شيء نبتِّي؟ قالت: لخراب هذا المسجد. فقال سليمان: ما كان الله ليُخرِبَه وأنا حيّ، أنتِ التي على وجهك هلاكي وخرابُ بيت المقدس. فنزعها وغرسها في حائط له، ثم قال: اللهمّ عَمِّ عن الجنّ موتي حتى يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنّ يخبرون الإنس أنهم يعلمون الغيب وأنهم يعلمون ما في غدٍ.

قال: ثم دخل سليمان المحرابَ فقام يصلّي متكئًا على عصاه، فمات على تلك الحالة، ولم يعلم بذلك أحدٌ من الشياطين، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم.

قال وقال عبد الرحمٰن [بن زيد][٥] قال سليمان لملك الموت: إذا أُمِرتَ بي فأعْلِمْني. قال: فأتاه فقال: يا سليمان قد أُمرتُ بك وقد بَقِيَتْ لك سُوَيعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب، فقام يصلّي وٱتكأ على عصاه، فدخل عليه ملَك الموت فقبض رُوحه وهو متكيء على عصاه.

---

(١) المحاريب: أماكن العبادة، مفردها محراب، أو القصر.
(٢) الجفان: مفردها الجفنة، وهي القصعة.
(٣) يتحنّث: يتعبّد.
(٤) زيادة عن الثعلبي.
(٥) زيادة عن الثعلبي.

قال وفي رواية أخرى: أنّ سلميان قال ذاتَ يوم لأصحابه: قد آتاني الله من المُلْك ما تَرَوْن، وما مرّ عليّ يوم في ملكي بحيث صفا لي من الكَدَر، وقد أحببت أن يكون لي يومٌ واحد يصفو لي إلى الليل ولا أغتمّ فيه، وليكن ذلك غدًا. فلما كان من الغد دخل قصرًا له، وأمر بإغلاق أبوابه ومَنَع الناس من الدخول عليه ورَفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئًا يسوءه، ثم أخذ عصاه بيده وصعِد فوق قصره واتكأ عليها ينظر في ممالكه، إذ نظر إلى شابّ حسنِ الوجه، عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال: السلامُ عليك يا سليمان. فقال سليمان: وعليكم السلام، كيف دخلتَ هذا القصر وقد مَنعتُ من دخوله؟ أمَا منعك البوّاب والحجّاب!. أمَا هِبتَني حين دخلت قصري بغير إذني!! فقال: أنا الذي لا يحجُبُني حاجب، ولا يمنعني بوّاب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرِّشا[1]، وما كنتُ لأدخل هذا القصر بغير إذْن. فقال سليمان: فَمَن أذِنَ لك في دخوله؟ قال: ربّه. فأرتعد سليمان وعلم أنه مَلَك الموت. فقال له: أنت ملَك الموت؟ قال: نعم. قال: فيمَ جئتَ؟ قال: جئتُ لأقبِض رُوحك. قال: يا ملك الموت، هذا يوم أردتُ أن يصفو لي وما أسمع فيه ما يغمّني. قال له: يا سليمان، إنك أردت يومًا يصفو لك فيه عيشك حتى لا تغتمّ فيه، وذلك اليوم لم يُخْلَق في الدنيا، فأرضَ بقضاء ربك فإنه لا مَرَدّ له. قال: فأقبِضْ كما أُمرت، فقبض مَلَك الموت رُوحه وهو متكىء على عصاه.

قال الثعلبيّ قالوا: وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومُصَلاّه أينما كان. وكان للمحراب كُوًى بين يديه ومن خلفه، فكان الشيطان الذي يريد أن يدخل يقول: ألستُ جليدًا[2] إن دخلتُ فخرجت من ذلك الجانب، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر. فدخل شيطان من أولئك فمرّ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا أحترق، فمرّ ولم يَسْمَع صوت سليمان، ثم رجع ولم يَسْمَع، ثم رجع فوقف في البيت فلم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميّتًا، فخرج فأخبر الناس أنّ سليمان قد مات، ففتحوا عنه وأخرجوه ووجدوا مِنْسَأته [وهي العصا بلسان الحبشة - قد أكلتها الأرَضة[3]]، فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً كاملاً، فأيقن الناس أنّ الجنّ كانوا يكذِبونهم، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، فلم يلبثوا في العذاب سنة يعملون.

---

(١) الرّشا: مفردها الرشوة، وهي ما يعطى لقضاء حاجة أو مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطل وإبطال حقّ.

(٢) الجليد: الصبور القويّ المتحمّل.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

قال: ثم إنّ الشياطين قالوا للأرَضة: لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب طعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكننا سننقل إليك الماء والطين. قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو مما تأتيها به الشياطين شكرًا لها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤] وهي الأرَضة، ويقال لها القادح أيضًا، وهي دُوَيْبَّةٌ تأكل العيدان ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤] أي عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ...﴾ [سبأ: ١٤].

قال أهل التاريخ: كان عمر سليمان ثلاثًا وخمسين سنة، ومدّة ملكه أربعين سنة، ومُلّك يوم ملّك وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

وقال الكسائيّ قال وهب: عاش سليمان ستين سنة، منها في الملك والنبوّة أربعون سنة. قال: وتفرّقت الإنس والجنّ وغيرهم، فتفرّق بنو إسرائيل بعده ثلاث فرق: فرقة كفروا واتّبعوا السحرة، وفرقة اعتزلوا وقالوا: لا نطيع بعده أحدًا، وفرقة اتّبعوا ابنه رَحْبَعَم[1].

قال الثعلبيّ: ملك بعد سليمان عليه السلام ابنُه رَحْبَعَم، وكان قد استخلفه فنبّأه الله تعالى ولم يكن رسولاً ثم قُبِض، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة. ثم ملك بعده ابنه أيشا بن رحبعم، وكان مُلكه ثلاثًا وستين سنة. ثم ابنه أينا.

وقال الكسائيّ: ملك بعد رحبعم ابنه لايي، وملك بعد لايي ابنه أيْشا بن لايي، ثم بعث الله تعالى بعد أن قبض أيشا، شَعْيَا وهو من ولد هارون بن عمران.

وقال الثعلبيّ في سياقه: لمّا ملك أينا بن أيشا، وكان رجلاً صالحًا، وكان أعرج، وكان به عِرْق النَّسا، فطمعت الملوك فيه لضَعْفه، وافترقت ملوك بني إسرائيل، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له «زَرَج الهنديّ»[2] في جمع كثير، فبعث الله تعالى عليهم ملائكة فهزموهم، فقصدوا البحر حتى ركِبوه جميعًا، فبعث الله تعالى عليهم الرياح والأمواج حتى ضربت سُفُنَهم بعضها ببعض، فتكسّرت وغرق زَرَجٌ ومَن كان معه، وألقت الأمواج أثقالهم وأموالهم وسلَبهم إلى محَلّة بني إسرائيل، ونُودُوا أنْ خذوا ما غنّمكم الله وكونوا فيه من الشاكرين. ثم لم يزل يغزوهم الملِك بعد الملك من ملوك العراق وغيرهم، فيُهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد، وفشت فيهم المعاصي، وعبد بعض ملوكهم الأصنام، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(١) في الأصل: «رجعيم» والتصويب عن الطبري.
(٢) في الأصل: «روح» والتصويب عن الطبري.

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الخامس

في أخبار شعيا وإرْمِيَا عليهما السلام وخبر بختنصّر وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وفتنة اليهود

ذكر قصة شَعْيَا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: كان المَلِك إذا مَلَكَ من بني إسرائيل بعث الله معه نبيًّا يُرشده ويسدّده ويكون فيما بين الناس وبين الله تعالى، ولا يُنزِل الله تعالى عليه كتابًا إنما يأمر بأحكام التوراة وينهَى عن المعصية، ويدعو الناس إلى ما تركوا من الطاعة. وكان ممن مَلَك منهم «صَدِيقة». فلمّا ملك بعث الله تعالى شَعْيَا بن أمْصِيَا[(١)]، فملَك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زمانًا، ثم كثُرت في بني إسرائيل الأحداث، فبعث الله سَنْحَاريب[(٢)] ملك بابل، معه ستمائة ألف راية، فأقبل حتى نزل حول بيت المقدس والمِلِكُ إذ ذاك مريض في ساقه قَرْحة[(٣)]، فجاء النبيّ شَعْيا عليه السلام فقال لملك بني إسرائيل: إنّ سَنْحاريب مِلِكَ بابلَ قد أقبل ونزل بك في ستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفَرِقُوا[(٤)] منهم. فكبُر ذلك على الملك وقال: يا نبيّ الله، هل أتاك وحيٌ فيما حدَث فتخبرَنا به كيف يفعل الله تعالى بنا وسَنْحارِيب؟ قال: لم يأتني وَحْي. فبينما هم كذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيا أن ائتِ ملك بني إسرائيل فمُرْه أن يُوصيَ بوصية ويستخلف على مُلكه مَنْ يشاء من أهل بيته. فأتاه شَعْيَا فقال: إنّ ربك عزّ وجل قد أوحى إليّ أن آمرك أن تُوصيَ وصيّتك وتستخلف من شئتَ على مُلكك من أهل بيتك فإنك ميّت. فلمّا قال له شعيا ذلك أقبل صَدِيقة الملِك على القِبلة فصلّى ودعا وبكى، فقال وهو يبكي ويتضرّع إلى الله عزّ وجل بقلب مخلص وتوكُّل وصبر: [اللهمّ ربَّ الأرباب وإلَهَ الآلهة القُدّوس المقدّس، يا رحمٰن يا رحيم، يا رؤوف يا من لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، اذْكُرْني بنيّتي وفعلي وحُسْن قضائي في بني إسرائيل، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منّي سرّي

---

(١) في الكتاب المقدّس ١/ ٣٢٤ «آموص».

(٢) سنحاريب: معناه «القمر بكر الأخوة» ويستفاد أن الأشوريين كانوا يتفاءلون بالأسماء كالعرب، وسمّي سنحاريب تفاؤلاً بكثرة الولد «انظر تاريخ مختصر الدول: ٦٤».

(٣) القرحة: البشرة إذا دبّ فيها الفساد. (٤) فرقوا: خافوا.

وَعَلانِيَتي لك][١]، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وكان عبدًا صالحًا. فأوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أن أخبر صَدِيقة أن الله استجاب له وقَبِلَ منه ورحمه وأخّر أجله خمسَ عشرةَ سنة، وأنجاه من عدوّه سَنْحَاريب وجنوده. فأتاه شعيا فأخبره بذلك، فذهب عنه الجَزَع وخرّ[٢] ساجدًا لله تعالى ودعاه. فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صدِيقة يأمر عبدًا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قَرْحة ساقه فيُشفَى ويبرأ، ففعل ذلك فشُفِيَ. وقال الملك لِشَعْيَا: سَلْ ربّك أن يجعل لنا عِلْمًا بما هو صانع بعدوّنا هذا. فقال الله تعالى لِشَعْيَا: قل له إني كفيتك عدوّك وأنجيتك منهم، وإنهم سيُصبحون موتى إلا سَنْحَاريب وخمسة نفر من كتّابه. فلمّا أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة: يا ملك بني إسرائيل، إن الله تعالى قد كفاك أمر عدوّك؛ فإن سَنْحَاريب ومن معه قد هلكوا. فخرج الملك فالتمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى. فبعث الملك في طلبه، فأدركه الطَّلَبُ في مغارة وخمسةً من كتّابه، أحدهم بُخْتَنَصَّرُ، فجعلوهم في الجوامع[٣] ثم أتَوْا بهم ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجدًا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسنحاريب: كيف ترى فعلَ ربّنا؟ ألم يقتلكم بحوله وقوّته ونحن وأنتم غافلون؟! فقال سنحاريب: قد أتاني خبرُ ربّكم ونصرُه إيّاكم، ورحمتُه التي رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي، فلم أُطِعْ مرشدًا ولم يُلقني في الشِّقوة[٤] إلاّ قلّة عقلي، ولو سمعت أو عَقَلْت ما غَزوتكم، ولكن الشّقوة غلبت عليّ وعلى من معي. فقال صَدِيقة: الحمد لله رب العزّة الذي كفاناكم بما شاء. إنّ ربَّنا لم يُبقك ومَن معك لكرامة لك عليه، ولكنّه إنما أبقاك ومَن معك لتزدادوا شقْوةً في الدنيا وعذابًا في الآخرة، ولتُخبروا مَنْ وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا. وَلَدَمُك ودمُ مَن معك أهونُ على الله تعالى من دم قُرَادة[٥] لو قُتلت. ثم أمر صَدِيقة أمير جيشه أن يقذف في رقابهم الجوامع، فطاف بهم سبعين يومًا حول بيت المقدس إيليا[٦]، وكان يرزقهم في كل يوم خُبزتَيْن من شعير لكل رجل. فقال سَنْحَاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا، فافعل ما أُمرت. فأمر بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله تعالى إلى شعيا: أن قل لملك بني إسرائيل: يرسل سنحاريب ومَن معه لِيُنذروا مَنْ وراءهم، وأن يُكْرِمَهم ويَحملهم حتى يبلُغوا بلادهم. فبلَّغ شَعْيَا الملكَ ذلك، ففعل ما أُمِر به، وخرج سنحاريب ومَن معه حتى

---

(١) ما بين قوسين تكملة عن الثعلبي.

(٢) خرّ: جثا على ركبتيه ورأسه إلى الأرض.

(٣) الجوامع: مفردها جامعة وهي القيد.

(٤) الشّقوة: العذاب والشّقاء.

(٥) القرادة: دويبة متطفّلة ذات أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور، ومنها أجناس.

(٦) إيليا: اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله، وسمّيت إيلياء باسم بانيها، وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وفيها ثلاث لغات مدّ آخرها وقصره: إيلياء وإيليا، وقصر أولها إلياء «انظر معجم البلدان لياقوت ومعجم ما استعجم للبكري ١/ ٢١٧».

قدموا بابل. فلمّا قدِموا جمع سنحاريب الناسَ وأخبرهم كيف فعل الله بجنوده. فقال له كُهّانه[١] وسَحَرته: قد كنا نقُصّ عليك خبر ربهم وخبر نبيِّهم ووحيَ الله إلى نبيّهم، فلم تُطِعنا، وهي أمّة لا يستطيعها أحد من ربّهم. ولبِث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات. وٱستُخلف بُخْتَنَصّرُ ٱبنُ ٱبنه على ما كان عليه جدّه، فعمِل بعمله وقضى بقضائه، فلبث سبعَ عشرةَ سنة ثم قَبَض الله تعالى صَدِيقةَ مِلِك بني إسرائيل، فمرِج[٢] أمرُ بني إسرائيل وتنافسوا المُلْك حتى قتل بعضهم بعضًا، ونبيّهم شَعْيَا معهم لا يرجِعون إليه ولا يقبلون منه. فلما فعلوا ذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا: أنْ قُم في قومك أُوحِ على لسانك. فلمّا قام أوحى الله تعالى على لسانه وأنطقه بالوحي فقال: يا سماء ٱسمعي، ويا أرض أنصتي؛ فإنّ الله يريد أن يقصّ شأن بني إسرائيل الذين ربّاهم بنعمته، وٱصطنعهم لنفسه، وخصّهم بكرامته، وفضّلهم على عباده، وٱستقبلهم بالكرامة، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعيَ لها؛ فآوَى شاردَها[٣]، وجمع ضالّها، وجَبَر كَسِيرها[٤]، وداوَى مريضَها، وأسمن مهزولها، وحفِظ سمينها. فلمّا فعل ذلك بها تناطحت كِباشها فقتل بعضها بعضًا، حتى لم يبق منهم عظم صحيح يُجبَر إليه آخر كَسِير. فويلٌ لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون ما جاءهم من الخير. إنّ البعير مما يذكر وطنه فيأتيه، وإنّ الحمار مما يذكر الآرِيّ[٥] الذي يشبَع عليه فيراجعُه، وإنّ الثور مما يذكر المَرْج[٦] الذي يَسمَن فيه فينتابه، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من (أين)[٧] جاءهم الخر وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير، وإني ضارب لهم مثلاً فليسمعوه.

قال لهم: كيف تَرَوْن في أرض كانت جُرُزًا[٨] زمانًا خَرِبةً مَوَاتًا لا عُمْران فيها، وكان لها ربّ حكيمٌ قويّ، فأقبلَ عليها بالعمارة وكَرِهَ أن تَخْرَب أرضُه، فأحاط عليها جِدارًا وشيّد فيها قصرًا وأنبط[٩] فيها نهرًا، وصفّف[١٠] فيها غِرَاسًا من الزيتون والرمّان والنخيل والأعناب وألوان الثّمار كلها، وولّى ذلك وٱستحفظه ذا رأي وهمّة حفيظًا قويًا

(١) الكهّان: مفردها كاهن وهو عند اليهود والوثنيين الذي يقدّم الذبائح والقرابين.
(٢) مرج أمرهم: فسد واضطرب واختلط.
(٣) الشارد من الإبل: ما نفر منها واستعصى.
(٤) الكسير: الذي هشم أو فرّق بين أجزائه، المكسور.
(٥) الآري: محبس الدّابة.
(٦) المرج: المرعى الذي تسرح فيه الدواب وترعى.
(٧) في الأصل: «من حيث» وما أثبتناه أصوب للسياق.
(٨) الجُرز: الأرض التي قطع نباتًا.
(٩) أنبط: أظهر وأبرز.
(١٠) صفّف: زرع ورتّب.

أمينًا، فأنتظرها، فلمّا أطلعتْ[١] جاء طَلْعها خرُوبًا؟! قالوا: بئستِ الأرض هذه! نرى أن يُهْدَم جِدارُها وقصرُها ويُدَمَّر نهرها ويُقبَضَ قيِّمها ويُحْرَق غرسُها حتى تصير كما كانت أولَ مرّة خرابًا مَوَاتًا لا عُمران فيها. قال الله عزّ وجلّ لهم: إنّ الجِدارَ ذِمّتي، وإنّ القصر شريعتي، وإنّ النهرَ كتابي، وإنّ القيِّم نبيِّي، وإنّ الغِرَاس هُمْ[٢]، وإن الخرُوبَ الذي أطلعَ الغراسُ أعمالُهم الخبيثة، وإنّي قضيتُ عليهم قضاءهم على أنفسهم، فإنه مَثَلٌ ضربه الله لهم. يتقرّبون إليّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالني اللحمُ ولا آكلُه. ويدّعون أنهم يتقرّبون إليّ بالتقوى والكفّ عن ذبح الأنفس التي حرّمتُها، فأيديهم مخضوبةٌ[٣] منها، وثيابهم مترمِّلةٌ[٤] بدمائها؛ يُشيِّدون ليَ البيوت مساجدَ ويطهِّرون أجوافَها، وينجِّسون قلوبهم وأجسادهم ويُدنِّسونها. فأيّ حاجةٍ لي إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها! وأيّ حاجةٍ لي إلى تزويقِ[٥] المساجد ولستُ أدخلها! إنما أمرتُ برفعها لأُذْكَرَ فيها ولأُسبَّح، ولتكون مُصَلًّى لمن أراد أن يصلي فيها. يقولون: لو كان الله يقدِر على أن يجمع ألفتَنا لجَمَعَها، ولو كان الله يَقدِر على أن يُفقِّه[٦] قلوبنا لأفقهها، فاْعمِدْ إلى عُودين يابسين ثم ائتِ بهما ناديهم في أجمع ما يكونون، فقل للعودين: إنّ الله يأمركما أن تكونا عودًا واحدًا. فلمّا قال لهما ذلك اختلطا فصارا واحدًا. فقال الله تعالى [قل][٧] لهم: إني قد قَدَرتُ على أن أُفقه العودين اليابسين، وعليّ أن أؤلّف بينهما، فكيف لا أقدِر على أن أجمع أُلفتَهم إن شئتُ! أم كيف لا أقدِر على أن أُفقِّه قلوبهم وأنا الذي صوّرتُها! يقولون: صُمنا فلم يُرفَع صيامُنا، وصلّينا فلم تُنوَّر صلاتُنا، وتصدّقنا فلم تَزْكُ[٨] صدقاتُنا، ودعَوْنا بمثل حِنينِ[٩] الحمام، وبكَيْنا بمثل عُوَاءِ الذئاب، في كل ذلك لا يُسمَع ولا يُستجاب لنا. قال الله تعالى: فسَلْهم: ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم! ألستُ أسمعَ السامعين، وأبصَرَ الناظرين، وأقرَبَ المُجيبين، وأرحمَ الراحمين! ألأنّ ذات يدِي[١٠] قلّتْ! وكيف ويدايَ مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء، ومفاتيحُ الخزائن عندي لا يفتحها غيري! أو

---

(١) أطلعت: أي خرج طلعها، والطّلع من النخل: ما يبدو من ثمره في أوّل ظهوره.
(٢) الغراس هُمْ: أي القوم.
(٣) المخضوبة: الملوّثة بالدّماء، والخضاب ما يغيّر لون اليد.
(٤) المترملة: المتلطخة.
(٥) التزويق: التزيين.
(٦) أفقه القلب: شرحه للإيمان.
(٧) زيادة عن الثعلبي.
(٨) تزك الصدقة: تنمو وتزداد.
(٩) الحنين: التصويت بشوق وحنّت الإبل: صوّتت شوقًا إلى أولادها.
(١٠) ذات اليد: ما تملكه.

لأن رحمتي ضاقتْ! فكيف ورحمتي وَسِعتْ كلّ شيء، إنما يَتراحَم المتراحمون بفضلها! أو لأنّ البخل يعترِيني! أوَلستُ أكرمَ الأكرمين. والنّفّاحُ[1] بالخيرات أَجْوَدَ مَن أعطَى وأكرمَ مَن سُئِل!. لو أنّ هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التي تُورِث في قلوبهم [النور][2] فنبذوها وٱشترَوْا بها الدنيا، إذًا لأبصروا من حيثُ أتوا، وإذًا لأيقنوا أنّ أنفسهم هي أعدى العُداة لهم. فكيف أرفع صيامهم وهم يَلْبِسونه بقول الزُّور ويتقوَّون عليه بطُعْمة الحرام! وكيف أُنوّر صلاتَهم وقلوبُهم صاغيةٌ إلى من يحاربني وينتهك محارمي! أم كيف تزكُو عندي صدقاتُهم وهم يتصدّقون بأموال غيرهم! إنما آجُر عليها أهلَها المغصوبين. أم كيف أستجيب لهم دعاءهم، وإنما هو قولٌ بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد!. إنما أستجيب للدّاعي البَرّ[3]، وإنما أسمع قول المستعِفّ المستكين[4]. وإنّ من علامة رضايَ رِضا المساكين. فلو رَحِموا المساكين، وقرّبوا الضعفاء، وأنصفوا المظلوم، ونصروا المغصوب، وعدلوا للغائب، وأدّوا إلى اليتيم والأرملة والمسكين وكلّ ذي حقّ حقَّه، ثم لو كان ينبغي لي أن أكلّم البشر إذًا لكلّمتهم، وإذًا لكنتُ نورَ أبصارهم، وسمعَ آذانهم، ومعقولَ قلوبهم؛ وإذًا لَدَعَمْتُ أركانَهم فكنتُ قوّة أيديهم وأرجلهم؛ وإذا لَثَبّتُّ ألسنَتَهم وعقولَهم.

يقولون لمّا سَمِعوا كلامي وبَلَغتْهم رسالاتي إنها أقاويلُ منقولةٌ، وأحاديثُ متوارثَةٌ، وتآليفُ مما يؤلِّف السَّحَرة والكَهَنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، وأن يطّلعوا على علم الغيب بما يُوحِي إليهم الشياطين لاطلعوا، وكلهم يَستخفِي بالذي يقول ويُسِرّه، «وهم يعلمون أني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يُبدون وما يكتُمون». وإني قد قضيتُ يوم خلقتُ السماء والأرضَ قضاءً أثْبَتُّه على نفسي وجعلتُ دُونه أجلاً[5] مؤجّلاً لا بدّ أنه واقع، فإن صدَقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليُخبروك متى أُنفذه، وفي أيّ زمان يكون. وإن كانوا يقدِرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل القُدرة التي بها أقضي؛ فإنّي مُظهره على الدِّين كله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وإن كانوا يقدِرون على أن يؤلّفوا ما يشاؤون فليؤلّفوا مثل الحكمة التي أدبّر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين. فإنّي قضيتُ يومَ خلقتُ السمواتِ والأرضَ أن أجعل النبوّة في الأُجَراء[6]، وأجعلَ المُلْك في الرِّعاء[7]، والعزَّ في الأذلاّء، والقوّة في

---

(١) النّفّاح: المتكرّم المعطي.
(٢) زيادة عن الثعلبي.
(٣) البرّ: الصالح العطوف.
(٤) المستكين: الخاضع الذليل.
(٥) الأجل: الميقات المعلوم المحدّد.
(٦) الأجراء: جمع أجير وهو من سلم نفسه بعوض.
(٧) الرّعاء: جمع راعي، وهو الذي يرعى الماشية.

الضعفاء، والغِنَى في الفقراء، والثروةَ في الأقلاّء، والمدائن في الفَلَوَات، والآجام[١] في المفاوز[٢]، والثَّرى في الغِيطان[٣]، والعِلْم في الجَهَلة، والحُكْم في الأُمّيِّين. فسَلْهم متى هذا ومَن القيِّم به وعلى يَدَيْ مَن أُسبِّبه، ومَن أعوانُ هذا الأمر وأنصارُه. وإن كانوا يعلمون فإني باعثٌ لذلك نَبيًّا أُمّيًّا لا أعمى من العُمْيان ولا ضالاً من الضالِّين، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخّاب[٤] في الأسواق، ولا متزيِّنٍ بالفُحْش، ولا قوّالٍ للخَنَا[٥]، أسدّده لكل جميل، وأهَبُ له كلَّ خُلُق كريم، ثم أجعل السكينة[٦] لباسَه، والبِرَّ شِعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ معقولَه، والصدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقه، والعدلَ سيرته، والحقَّ شريعتَه، والهدي إمامَه، والإسلامَ ملّته، أحمدُ ٱسمُه، أهدِي به بعدَ الضَّلالة، وأُعلِّم به بعد الجَهَالة، وأرفع به بعد الخَمالة، وأُشهِّر به بعد النَّكِرَة، وأُكَثِّر به بعد القلّة، وأُغنِي به بعد العَيْلة[٧]، وأجمعُ به بعد الفُرقة؛ وأؤلِّف به قلوبًا مختلفةً، وأهواءً مُتشتِّتة، وأُمَمًا متفرّقة، وأجعل أمّته ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إيمانًا بي، وتوحيدًا لي، وإخلاصًا[٨] بي، يُصلُّون قيامًا وقُعودًا، ورُكَّعًا وسُجودًا، ويُقاتلون في سبيلي صفوفًا وزُحوفًا، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ٱبتغاء رضواني [ألوفًا][٩]. أُلهِمُهم التكبيرَ والتوحيدَ، والتسبيحَ والتحميد، في مجالسهم ومَسيرهم ومضاجعهم ومُتقلَّبهم ومَثْواهم؛ يكبِّرون ويُهلِّلون ويقدّسون على رؤوس الأشراف، ويُطهِّرون لي الوجوه والأطراف، ويعقِدون الثيابَ إلى الأنصاف؛ قُربانُهم دماؤهم، وأناجيلُهم صدورهم؛ رُهبانٌ بالليل، ليوثٌ بالنهار. ذلك فضلي أوتِيه مَن أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

قال فلما فرغ نبيُّهم شَعْيَا من مقالته عَدوْا عليه ليقتلوه فهرَب منهم فٱنفلقت[١٠] له شجرة فدخل فيها، فأدركه الشيطان فأخذ بهُدبةٍ[١١] من ثوبه فأراهم إيّاها، فوضعوا المنشار في وَسَطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وَسَطها.

---

(١) الآجام: جمع أجمة وهو الشجر الكثير المتلف.
(٢) المفاوز: مفردها مفازة وهي الصحراء.
(٣) الغيطان: مفردها الغوط وهو المنخفض الواسع من الأرض.
(٤) الصخّاب: الكثير الصخب، وصخب القوم: ارتفعت أصواتهم وضجّوا.
(٥) الخنا: الفحش في الكلام.
(٦) السكينة: الوقار والهدوء والخضوع لله عزّ وجل.
(٧) العَيلة: المراد بها هنا الفقر والشدّة في مؤنة الحياة، وعاله الشيء: ثقل عليه وغلبه.
(٨) إخلاصًا بي: تعدية الإخلاص بالباء لا ترضاه اللغة والأصوب أن يقال: وإخلاصًا لي.
(٩) زيادة عن الثعلبي.
(١٠) انفلقت: انشقت.
(١١) هدبة الثوب: طرفه.

ذكر قصة إرميا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: استخلَفَ الله تعالى على بني إسرائيل بعد قتلهم شَعْيَا عليه السلام رجلاً منهم يقال له «ناشِيَةُ بن آمُوص»، وبعث لهم الخَضِرَ نبيًّا. قال: وآسم الخَضِر إرْمِيَا بن حِلْقِيَا، وكان من سِبْط هارون بن عمران. قال: وإنما سُمِّي الخَضِر لأنه جلس على فَرْوة بيضاء فقام عنها وهي تهتزّ[١] خضراءَ. فقال الله عزّ وجل لإرْمِيَا حين بعثه إلى بني إسرائيل: يا إرميا، من قبل أن خَلَقْتُك آخترتُك، ومن قبل أن أُصوّرك في بطن أمّك قدّستُك، ومن قبل أن أُخرِجَك من بطن أمّك طهّرتُك، ومن قبل أن تبلُغ السَّعْيَ نبّأتُك، ولأمرٍ عظيم آجتبيتُك[٢]؛ فذكِّر قومَك نِعَمِي، وعَرفهم أحداثهم، وآدعُهم إليّ. وكانت الأحداث قدْ عظُمت في بني إسرائيل فركِبوا المعاصِي وآستحلُّوا المحارم. فقال إرميا: إني ضعيف إن لم تقوّني، عاجزٌ إن لم تنصُرني. فقال الله عزّ وجل: أنا أُلهِمُك. فقام إرْمِيَا فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عزّ وجل خطبةً طويلةً بليغةً، بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال في آخرها: وإني أحلف بعزّتي لأُقَيِّضَنّ[٣] لهم فتنةً يتحيّر فيها الحكيم، ولأُسلِّطنّ عليهم جبّارًا قاسيًا قلبُه، أُلبِسه الهيبةَ وأنزِعُ من صدره الرحمة، يتبعه عددٌ مثلُ سوادِ الليل المظلم. ثم أوحَى الله تعالى إلى إرْمِيَا: إنِّي مُهلكٌ بني إسرائيل بيَافَث، ويافَثُ أهلُ بابلَ، وهم من ولد يافَث بن نوح. فلمّا سمع ذلك إرْمِيَا صاح وبكى وشقَّ ثيابه ونبذ[٤] الرَّمادَ على رأسه. فلمّا سمع الله عزّ وجل تضرُّعه وبكاءه ناداه: يا إرْمِيَا، أشقَّ عليك ما أوحيتُ إليك؟ قال: نعم يا ربّ، أهلِكْنِي قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أُسَرّ به. فقال الله عزّ وجل: وعِزّتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمرُ في ذلك من قِبَلك. ففرح بذلك إرميا وطابتْ نفسُه وقال: لا والذي بعث موسى بالحقّ لا أرضَى بهلاَك بني إسرائيل. ثم أتى الملكَ فأخبره بذلك، وكان ملكًا صالحًا، ففرِح وآستبشر وقال: إنْ يعذبنا ربُّنا فبذنوبٍ كثيرة، وإن عفا عنا فبرحمته. ثم إنهم لبِثوا بعد الوحي ثلاثَ سنين لم يزدادوا إلا معصيةً وتماديًا في الشرّ، وذلك حين آقتربَ هَلاكُهم ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا، فسلّط الله عليهم بُخْتَنَصّر فخرج في ستمائة ألف راية يريد بيت المَقْدس. فلمّا فَصَل[٥] سائرًا أتى الخبرُ الملِكَ فقال لإرميا: أين ما زعمتَ أنّ الله أوحَى إليك؟ فقال إرميا: إنّ الله عزّ وجلّ لا يُخلِف الميعاد وأنا به واثقٌ. فلمّا قرُب الأجلُ[٦] وعزم الله عزّ وجل على

---

(١) في نسخة الثعلبي «تزهر».
(٢) اجتباه: اختاره واصطفاه.
(٣) قيّض لهم: قدّر وهيّأ.
(٤) نبذ الرّماد: نثره.
(٥) فصل: يقال فصل فلان من البلد: خرج منه.
(٦) قرب الأجل: حان الوقت المحدّد.

هَلاكهم بعث الله تعالى إلى إرميا مَلَكًا فتمثّل له رجلاً من بني إسرائيل فقال له: يا نبيّ الله، أستَفتيك في أهل رَحِمِي، وصلتُ أرحامَهم ولم آتِ إليهم إلا حُسْنًا، ولا يزيد إكرامي إيّاهم إلا إسخاطًا لي، فأفتِني فيهم. فقال له: أحْسِنْ فيما بينك وبين الله وصِلْهم وأبشر بخير. فانصرف المَلَك فمكث أيامًا ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه، فقال له إرميا: أوَما ظَهَرَتْ أخلاقُهم لك بعدُ؟ فقال: يا نبيّ الله، والذي بعثك بالحقّ ما أعلم كرامةً يأتيها أحدٌ من الناس إلى أهل رَحِمِه إلا قدّمتُها إليهم وأفضَل. فقال له إرميا: إرجعْ إلى أهلك وأحسِنْ إليهم، واسألِ الله تعالى الذي أصلحَ عباده الصالحين أن يُصلِحهم. فقام الملك فمكث أيّامًا وقد نزل بختنصّر وجنودُه حولَ بيتِ المقدِس بأكثر من الجراد، ففزِع منهم بنو إسرائيل وشقّ عليهم. فقال ملكهم لإرْمِيَا: يا نبيّ الله، أين ما وَعَدَك الله؟ قال: إني بربِّي واثق. ثم أقبل الملك إلى إرميا وهو قاعد على جِدار بيت المقدس وهو يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذي وعده، فقعد بين يديه وقال له: أنا الذي أتيتُك في شأن أهلي مرّتين. فقال إرْمِيَا: ألم يأنِ[1] لهم أن يُفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال الملك: يا نبيّ الله، كل شيء يُصيبني منهم قبلَ اليوم كنتُ أصبِر عليه، فاليومَ رأيتُهم في عمل لا يُرضِي الله عزّ وجل. فقال إرمِيا: على أيّ عمل رأيتَهم؟ قال: على عمل عظيم من سُخْط الله، فغضِبتُ لله ولك وأتيتُك لأُخبِرَك. وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحقّ إلاّ ما دعوتَ الله عليهم ليُهلكهم. قال إرْمِيَا: يا مَلِكَ السمواتِ والأرضِ إن كانوا على حقّ وصوابٍ فأبقهم، وإن كانوا على سُخْطك وعملٍ لا ترضاه فأهلِكْهم. فلمّا خرجتِ الكلمة من فم إرمِيا أرسل الله عزّ وجل صاعقةً من السماءِ في بيت المَقْدِس فالتهبَ مكانُ القُربان[2] وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها.

فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابَه ونَبَذَ الرَّماد على رأسه وقال: يا مَلِك السمواتِ والأرضِ، أين ميعادُك الذي وعدتَني! فنُودِيَ: إنه لم يُصبهم الذي أصابهم إلاّ بفُتياك ودعائك. فاستيقَنَ إرْمِيَا أنها فُتياه[3]، وأن ذلك السائل كان رسول ربه. فطار إرميا حتى خالَطَ الوحوش. ودخل بختنصّر وجنودُه بيتَ المقدس ووطِىء الشام وقَتَل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس؛ ثم أمر جنودَه أن يملأ كلّ رجلٍ منهم ترسه ترابًا[4] ثم يَقذِفه في بيت المقدس، فَقَذَفوا فيه التراب حتى مَلَؤوه؛ ثم أمرهم أن يجمعوا مَن كان في بلدان بيت المقدس كلِّهم، فجمعوا عنده كل صغير

(١) ألم يأنِ لهم: أي ألم يحِن لهم، من آن يئين أي حان.

(٢) القربان: الذبيحة التي يتقرّب بها إلى الله.

(٣) الفتيا في المسألة: إبانة الحكم فيها.

(٤) التُّرس: قطعة من المعدن أو الجلد يحملها المحارب بإحدى يديه ويتّقي بها الضربات.

وكبير من بني إسرائيل، فٱختار منهم مائةَ ألفِ صبيّ، وقيل سبعين ألف صبيّ. فلمّا خرجت غنائم جُنده لتُقْسَم قال له الملوك الذين كانوا معه: أيهَا الملك، لك غنائمها كلها، فٱقسِمْ بيننا هؤلاء الصِّبيان الذين ٱخترتَهم من بني إسرائيل، ففعل ذلك، فأصاب كلّ رجل منهم أربعة غِلْمة. وكان من أولئك الغلْمان دانِيَالُ وحَنَانِيَا وعزارِيَا وميشائيل[١]، وسبعةُ آلاف من أهل بيت داود عليه السلام، وأحدَ عشر ألفًا من سِبْط يوسف بن يعقوب، وأخيه بَنْيَامِين عليه السلام، وثمانيةُ آلاف من سِبْط أشْرَس[٢] بن يعقوب؛ وأربعةَ عشر ألفًا من سِبْط ريالون[٣] بن يعقوب ونَفْتَالِيَ[٤] بن يعقوب، وأربعةُ آلاف من سِبْط يَهُوذَا بن يعقوب، وأربعةُ آلاف من سِبط رُوبِيل[٥] ولاوِي ٱبْنَي يعقوب، ومَن بَقِيَ من بني إسرائيل.

قال: وجعل بُخْتَنَصّر مَن بَقِيَ[٦] من بني إسرائيل ثلاث فِرَق، فثُلُثًا أقرّ بالشام، وثُلُثًا سَبَى، وثُلُثًا قَتَل. وذهب بآنيةِ بيت المقدس وسَلَبَ حُلِيَّه حتى أقدم ذلك بابِلَ، فكان على سبعين ألفًا ومائةَ ألفِ عَجَلةٍ من حُلِيّ. فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥] يعني بختنصّر وأصحابه ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥] فهذه الواقعةُ الأولى التي أنزلَها الله ببني إسرائيل لٱختلافهم وظلمهم. ولنصل هذا الفصل بخبر بختنصّر.

ذكر خبر بختنصر وٱبتداء أمره وكيف ملك

يقال في ٱسمه: بُخْتَنَصّر (بتشديد الصاد وإسكانها) ويقال فيه: بختناصر[٧]. وقد ٱختُلِف في أمره، فقال قوم: إنه مَلَك الدنيا أجمع. وقال آخرون: بل مَلَك بابِل وما ٱفتتحه. وقال قوم: إنما كان مَرْزُبَانًا[٨] للهراسف[٩] الفارسيّ. وقال قوم: كان أصله

---

(١) في الكتاب المقدّس ٢/ ٦٢٥ «حنينًا وعزريا».
(٢) في الكتاب المقدّس ١/ ٥٠ «أشير». (٣) في الكتاب المقدّس ١/ ٥٠ «زبولون».
(٤) ورد في الأصل بحروف مهملة والتصويب عن الكتاب المقدّس ١/ ٨٦.
(٥) في الكتاب المقدّس ١/ ٥٠ «رأوبين».
(٦) في نسخة الثعلبي: «فجعل بختنصر سبايا بني إسرائيل».
(٧) يقال له أيضًا: نبوخذ نصر، ونبوكد نصر «راجع الكتاب المقدّس ١/ ٦٤٩».
(٨) المرزبان: الرئيس عند الفرس.
(٩) لهراسف: في صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥ «بهراسف» وقد ذكر أن بُختنصر كان نائبًا له، وهو أحد ملوك الطبقة الرابعة من ملوك الفرس.

من أبناء الملوك، وقيل: بل كان من الفقراء. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما نَقِفُ عليه من ذلك. فمن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسير قوله عزّ وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ. . .﴾ [الإسراء: ٤] الآيات بسندٍ رفعه إلى سَعِيد بن جُبَير قال: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ التوراة، حتى إذا بلغ: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] بكى وفاضت عيناه ثم أطبق المصحفَ وقال: أي ربّ أرني هذا الرجلَ الذي جعلتَ هَلاكَ بني إسرائيل على يديه؛ فأُرِيَ في المنام مسكينٌ ببابلَ يقال له بُخْتَنَصَّر، فانطلق بمال وأعبُدٍ[1] له وكان رجلاً مُوسِرًا. فقيل له: أين تريد؟ قال: أريد التجارة. فسار حتى نزل بابِلَ، فنزل دارًا فاكتراها[2]، ليس فيها أحدٌ غيرُه، فجعل يدعو المساكين ويَلْطُفُ بهم حتى لا يأتيه أحدٌ إلا أعطاه. فقال: هل بَقِيَ مسكينٌ غيركم؟ قالوا: نعم، مسكينٌ بفجّ[3] آل فلان مريضٌ يقال له بختنصّر. فقال لِغلْمته: انطلِقُوا بنا، فانطلقَ حتى أتاه فقال له: ما اسمُك؟ قال بختنصّر. فقال لغِلْمته: احتملوه، فنقله إليه فمرّضه[4] حتى برىء، فكساه وأعطاه نفقةً، ثم آذن الإسرائيليّ بالرحيل، فبكى بختنصّر. فقال له الإسرائيليّ: ما يُبْكِيك؟ قال: أبكي أنك فعلتَ بي ما فعلتَ، ولا أجد شيئًا أجزِيك به. قال: بلى، شيئًا يسيرًا. فقال له: وما هو؟ قال: إن مُلِّكْتَ أطعتَني. فجعل يتبعه ويقول: تستهزىء بي! ولا يمنعه من أن يُعطِيَه ما سأله إلاّ أنه يرى أنه يستهزىء به. فبكى الإسرائيلي وقال: لقد علمتُ ما يمنعك مما سألتك إلاّ أنّ الله تعالى يريد أن يُنفِّذ ما قد أمضَى وكتب في كتابه.

قال: وضرب الدهر ضَرَبانه[5] فقال صَيْحون وهو ملِك فارسَ ببابلَ: لو أنّا بَعثنا طليعةً إلى الشام؟ قالوا: وما ضرَّك لو فعلتَ؟ قال: فمن تَرَوْن؟ قالوا: فلان. فبعث رجلاً وأعطاه مائة ألف فارس، وخرج بختنصّر في مطبخه لا يخرج إلا ليأكل من مطبخه [ويعيش منه][6]. فلمّا قدِم الشام رأى صاحبُ الطليعة أكثرَ خلقِ اللّهِ فُرسانًا ورِجالاً، فكسر ذلك في ذَرْعه[7] فلم يسأل. فجعل بختنصّر يجلس في مجالس أهل الشام فيقول: ما يمنعكم أن تغزوا بابِلَ! فلو غَزَوْتموها فما دُون بيتِ مالِها شيءٌ.

(١) الأعبُد: مفردها «عبد».
(٢) اكتراها: استأجرها.
(٣) الفجّ: الطريق الواسع الواضح بين جبلين، وهنا بمعنى الناحية أو بمضارب أولئك القوم.
(٤) مرّضه: داواه وطبّبه.
(٥) ضربان الدهر: أي حدثانه.
(٦) زيادة عن الثعلبي.
(٧) كسر ذلك في ذرعه: أي ثناه عن عزمه وأحبط همّته.

قالوا: لا نُحسِن القتالَ ولا نُقاتل، حتى انتفذ[١] مجالسَ أهلِ الشام. ثم رجع أميرُ الطليعة فأخبر المِلكَ بما رأى. وجعل بختنصّر يقول لفوارس المِلك: لو دعاني الملكُ لأخبرتُه غيرَ ما أخبره فلان. فرُفع ذلك إلى الملك فدعاه، فقال: إنّ فلانًا لمّا رأى أكثرَ أرضِ الله كُراعًا[٢] ورِجالاً كسَر ذلك في ذَرْعه ولم يسألهم عن شيء، وإنني لم أدع مجلسًا بالشام إلا جالستُ أهلَه فقلت لهم كذا وكذا، فقالوا لي كذا وكذا. فقال صاحب الطليعة لبختنصّر: بصحبتي لك مائةُ ألف دينار وتنزع[٣] عما قلتَ. قال: لو أعطيتَني بيت مالِ بابلَ ما نزعتُ. فضرب الدهر ضَرَبانه فقال الملك: لو بعثنا جريدة[٤] خَيل إلى الشام، فإن وجدوا مَساغًا سَاغُوا وإلاّ أستلَبُوا ما قدروا عليه. قالوا: ما ضرّك لو فعلتَ؟ قال: فمَن تَرَوْن؟ قالوا: فلان. قال: بل الرجل الذي أخبرني بما أخبرني. فدعا بختنصّر وأرسله وانتخب معه أربعةَ آلافٍ من فرسانهم، فأنطلقوا فجاسُوا[٥] خِلال الديار، فسبَوْا ما شاء الله ولم يخرِّبوا ولم يقتلوا. ومات صَيْحون الملك، فقالوا: استخلفوا رجلاً. فقالوا: على رِسْلكم حتى يأتي أصحابكم فإنهم فُرسانُكم. فأمهلوا [وأخّروا ذلك][٦] حتى جاء بختنصّر بالسَّبْي وما معه، فقسّم ذلك في الناس. فقالوا: ما رأينا أحدًا أحقّ بالمُلْك من هذا فملّكوه.

قال: وقال السُّدّيّ بإسناده: إنّ رجلاً من بني إسرائيل رأى في المنام أنّ خرابَ بيتِ المَقْدِس وهَلاكَ بني إسرائيل على يَدَيْ غلام يتيم أبن أَرْمَلَةٍ من أهل بابل يُدعَى بختنصّر، وكانوا يَصدقُون فتَصدُق رؤياهم. فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب. فلمّا جاء وعلى رأسه الحطب ألقَى الحُزْمة ثم قعد في جانب من البيت،

---

(١) قوله: أخذ بختنصر يجلس في مجالس أهل الشام ويحضهم على غزو بابل (حتى انتفذ مجالس أهل الشام) قوله (انتفذ) بالذال المعجمة غير صحيح وصوابه (انتفد) بالمهملة يقال: انتفد حقه استوفاه. ومعنى انتفد مجالس أهل الشام أنه استوفاها واستوعبها كلها فلم يدع مجلسًا لهم حتى جلس فيه وكلم أهله. ويشبه ما قلناه في (انتفذ) و(انتفد) ما جاء في اللسان وخلاصته (في حديث ابن مسعود: إنكم مجموعون في صعيد واحد ينفذكم البصر على معنى أن البصر يأتي عليهم كلهم ويجاوزهم. قال أبو حاتم: أصحاب الحديث يروونه بالذال المعجمة وإنما هو بالدال المهملة أي يبلغ البصر أولهم وآخرهم حتى يراهم كلهم ويستوعبهم اهـ) ورواية الحديث (ينفذهم) بالمعجمة من (نفذ) الثلاثي أما ما هنا (نهاية الأرب) فهو (انتفذ) ثلاثي مزيد ولم أعثر عليه في المعاجم وهذا يؤيد أن الصواب (انتفد) بالمهملة.

(٢) الكرَاع: يريد هنا الدّواب من الخيل والبغال والحمير.

(٣) تنزع: تعدل عن قولك وتغيّره.

(٤) الجريدة: الخيل لا رجّالة فيها.

(٥) جاسوا: داروا وتردّدوا وأفسدوا، أي استباحوا.

(٦) زيادة عن الثعلبي.

فكَلّمه ثم أعطاه ثلاثةَ دراهم وقال: اشترِ بهذه طعامًا وشرابًا، فاْشترى بدرهم لحمًا، وبدرهم خبزًا، وبدرهم خمرًا؛ فأكلوا وشربوا، حتى إذا كان اليوم الثاني عمل به كذلك؛ وفي اليوم الثالث كذلك. ثم قال: إني أحبّ أن تكتب لي أمانًا[١] إن أنتَ مُلِّكتَ يومًا من الدهر. قال: تسخَر منّي؟ قال: إني لا أسخَر منك، ولكن ما عليك أن تتّخذها عندي يدًا! فكلّمتْه أمّه فقالت: ما عليك إن كان، وإلاّ لم ينقصك شيئًا، فكتب له أمانًا. فقال له: أرأيتَ إن جئتَ والناسُ حَوْلك قد حالوا بيني وبينك فاْجعَلْ لي آيةً تعرِفني بها. قال: ترفع صحيفتَك على قَصَبة فأعرِفك بها، فكساه وأعطاه. ثم إنّ ملِك بني إسرائيل كان يُكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويُدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرًا دُونه؛ وإنه هَوِيَ أن يتزوّج بنت اْمرأته. ـ قال وقيل: كانت بنت أخيه، قال الثعلبيّ: وهو الأصحّ إن شاء الله ـ فسأله عن ذلك، فنهاه عن نكاحها وقال: لن أرضاها لك. فبلغ ذلك أمّها فحَقَدت على يحيى عليه السلام حين نهاه أن يتزوّج بنتَها، فعَمدت أمّ الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابًا رِقاقًا حمراءَ وطيّبتها[٢] وألبستها من الحُليّ، وألبستها فوق ذلك كساءً أسودَ وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تَسقيَه وأن تتعرّض[٣] إليه، فإن أرادها على نفسها[٤] أبتْ عليه حتى يُعطيَها ما سألتْه، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يُؤتَى برأس يحيى بن زكريا في طَسْتٍ، ففعلتْ. فلمّا أخذ منه الشرابُ أرادها على نفسها، فقالت: لا أفعل حتى تُعطيَني ما أسألك. قال: ما تَسأليني؟ قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريّا فتُؤتَى برأسه في طَسْتٍ. فقال: وَيْحكِ! سَلِيني غير هذا. قالت: ما أريد إلاّ هذا. فلمّا أبتْ عليه بعث إليه فأُتِيَ برأسه، والرأس يتكلّم حتى وُضِع بين يديه وهو يقول: لا يحِلّ لك. فلمّا أصبح إذا دَمُه يَغْلِي، فأمر بترابٍ فأُلقِيَ عليه، فرقِيَ الدمُ فوق التراب يَغْلِي، فأُلقِيَ عليه أيضًا فارتفع الدمُ فوقه، فلم يزل يُلقَى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي. فبلغ صَيْحون ملك بابل ذلك فنادى في الناس، وأراد أن يبعث إليهم جيشًا [ويؤمّر عليهم رجلاً][٥]. فأتاه بختنصّر فكلّمه وقال: إنّ الذي كنتَ أرسلتَ تلك المرّة ضعيفٌ، وإنّي قد دخلتُ المدينة وسمعتُ كلام أهليها [فاْبعثني][٦] فبعثه. فسار بختنصّر، حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منه في مدائنهم فلم يُطقْهم. فلمّا اْشتدّ عليه المُقامُ وجاع أصحابُه وأرادوا الرجوع خرجت اْمرأةٌ عجوزٌ من عجائز بني إسرائيل فقالت: أين أميرُ الجُنْد؟ فأُتِيَ بها إليه. فقالت: إنه بلغني أنك تريد أن ترجع بجُنْدك قبل أن تفتح هذه المدينة. قال: نعم، قد طال مُقامي وجاع

(١) الأمان: كتابٌ يأمن صاحبه بموجبه من الشرّ.

(٢) طيّبتها: ضمّختها بالطيب. (٣) تتعرّض إليه: تغريه.

(٤) أرادها على نفسها: طلب منها أن يفجُر بها.

(٥) زيادة عن الثعلبي. (٦) زيادة عن الثعلبي.

أصحابي، فلستُ أستطيع المُقام فوق الذي كان منّي. فقالت: أرأيتَك إن فُتِحَتْ لك المدينةُ أتُعطِيني ما أسألك، فتقتُل مَن أمرتُك بقتله، وتكُفّ إذا أمرتُك أن تكفّ؟ فقال لها نعم. قالت: إذا أصبحتَ فاْقسِمْ جندَك أربعةَ أرباع، ثم اْجعَلْ في كل زاوية رُبْعًا، ثم اْرفعوا أيديَكم إلى السماء فنادُوا: إنّا نستفتحك[١] يا الله بدم يحيى بن زكريّا، فإنها سوف تَسّاقط، ففعلوا؛ فتساقطتِ المدينةُ فدخلوا من جوانبها. فقالت: كُفّ يدك واْقتل على هذا الدم حتى يسكُن، واْنطلقت به إلى دم يحيى بن زكريّا، وهو على تراب كثير، فقتل عليه حتى سَكَنَ، فقتل سبعين ألفًا. فلمّا سكن الدم قالت له: كُفّ يدك فإنّ الله تعالى إذا قُتِلَ نبيّ لم يرضَ حتى يُقتَل مَن قتله ومَن رضِيَ قَتْلَه. وأتاه صاحبُ الصحيفة بصحيفته فكفّ عنه وعن أهل بيته، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تُطرَح الجِيَفُ فيه، وقال: مَن طَرَح فيه جِيفةً فله جِزْيَتُه تلك السنة. قال: وأعانه الروم على خرابه من أجل أنّ بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا.

قال: فلمّا خرّبه بختنصّر ذهب معه بوُجُوه بني إسرائيل وسَرَاتهم[٢] وذهب بدَانِيَالَ وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت الملك، فلمّا قَدِم وجد صَيْحون مَلِكَ بابِلَ قد مات فمُلِّكَ مكانه.

ذكر خبر بختنصّر مع دانِيَال

قال: ولمّا سار بختنصّر إلى بابِلَ ومُلِّك بعد موت الملك كان معه دانِيَالُ، وكان أكرمَ الناس عليه هو وأصحابُه، فحسدهم المَجُوس على ذلك، فوشَوْا[٣] بهم إليه وقالوا: إنّ دانيالَ وأصحابَه لا يعبدون إلٰهك ولا يأكلون ذَبِيحتك. فدعاهم فسألهم؛ فقالوا: أجَلْ، إنّ لنا ربًّا نعبُده، ولسنا نأكل من ذبيحتكم. فأمر أن يُخَدّ[٤] لهم أُخدودٌ فخُدّ لهم وأُلقوا فيه وهم ستّة، وأُلقِيَ معهم سَبُعٌ ضارٍ[٥] ليأكلهم، ثم قال: اذهبوا بنا لنأكل ونشرب، فذهبوا فأكلوا وشربوا، ثم عادوا فوجدوهم سبعة والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدِش منهم أحدًا. فقالوا: ما بالُ هذا السابع إنما كانوا ستّة! فخرج السابع إلى بختنصّر، وكان مَلَكًا من الملائكة، فلطَمه لطمةً فصار من الوحش [ومسخه الله] سبع سنين، [ثم ردّه الله إلى صورته وردّ عليه ملكه][٦]. هذا ما حكاه السدّيّ.

---

(١) نستفتحك: نطلب منك الفتح والنّصر.

(٢) السّراة: من القوم سادتهم وأكارمهم وأعلاهم فرعًا وشرفًا.

(٣) وشوا بهم: من الوشاية، وهي النميمة والسّعاية بالشّر.

(٤) يُخدّ لهم: يحفر، والأخدود: الحفرة المستطيلة في الأرض.

(٥) الضاري: المفترس المولع بأكل اللّحوم. (٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

وروى الثعلبيّ بسنده إلى وَهْب قال: لمّا سار بختنصّر إلى بابل ومُلّك بعد موت ملكها وٱستتبّ أمرُه لبِثَ على ذلك مدّة، ثم رأى رؤيا عجيبة فأفزعتْه وسأل عنها الكَهَنةَ والسحَرةَ فعجزوا عن تعبيرها. فبلغ ذلك دانِيَال وكان في السجن مع أصحابه وقد أحبّه صاحب السجن وأُعجبَ به لِمَا رأى من حسن سَمْته[١]. فقال له دانيال: إنك قد أحسنتَ إليّ، وإنّ صاحبكم قد رأى رؤيا، فدُلَّه عليّ لأُعبِّرها[٢] له. فجاء السجّان فأخبر بختنصّر بقصّة دانِيَال، فاستدعاه فجاء إليه. وكان من عادة من حَضَر بين يَدَي الملك أن يسجُد له، فلما أتَوْا بدانيال قام بين يديه ولم يسجُد له. فقال: ما الذي منعك من السجود؟ فقال: إن لي ربًّا آتاني العلمَ والحكمةَ وأمرني ألاّ أسجُد لغيره، فخشِيتُ إن سجدتُ لغيره أن ينزع منّي الحكمة والعلم ويُهلكني. فأُعجِب به وقال: نِعْمَ ما فعلتَ حيث وفّيتَ بعهده، وأجللتَ علمه؛ ثم قال: هل عندك علمُ هذه الرؤيا؟ قال: نَعَمْ وأبشر، فأخبره برؤياه قبل أن يخبره الملك بها، وعبّرها له.

قال الثعلبيّ: وكانت الرؤيا على ما أخبرَنا به عبد الله بن حامد[٣] في إسناده عن وهب بن منبِّه قال: إنّ بختنصّر رأى في آخر زمانِه صنمًا رأسه من ذهب، وصدره من فضّة، وبطنه من نُحاس، وفخذاه من حديد، وساقاه من فَخّار، ثم رأى حجرًا من السماء وقع عليه فدقّه، ثم ربا[٤] الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأى شجرة أصلُها في الأرض وفرعُها في السماء، ثم رأى عليها رجلاً بيده فأس وسمع مناديًا ينادي: اضرِبْ جِذْعَها ليتفرّق الطيرُ من فروعها، وتتفرّق الدوابّ والسباع من تحتها، وٱترك أصلَها قائمًا. فعبّرها دانيال عليه السلام له فقال: أمّا الصنمُ الذي رأيتَ، فأنت الرأس وأنت أفضلُ الملوك. وأما الصدرُ الذي من فضة فٱبنك يملك من بعدك. وأما البطنُ الذي رأيتَ من نُحاس فمَلِكٌ يكون بعد ٱبنك يكون أشدّ الملوك. وأما ما رأيتَ من الفَخذَيْن من حديد فيتفرّق الناس فرقتين في فارس. وأما الفَخّار فآخرُ ملكهم يكون دون الحديد. وأما الحجر الذي رأيتَه قد ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبيّ يبعثه الله تعالى في آخر الزمان فيفرِّق مُلْكَهم كلَّه، ويربو مُلكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب. وأما الشجرةُ التي رأيتَ والطيرُ التي عليها والسِّباعُ والدوابُّ التي تحتها وما أمر بقطعها، فيذهب مُلكك ويردّك الله طائرًا تكون

(١) السّمت: الهيئة والوقار والمذهب. (٢) عبّر الرؤيا: فسّرها.

(٣) لعلّه عبد الله بن عبيد بن عُمير الذي ورد ذكره فيما بعد محدّثًا عن وهب بن منبّه لأنه لم نجد في المصادر من يذكر هذا الاسم.

(٤) ربا: زاد وكبر.

نسرًا مِلك الطير، ثم يردّك الله ثورًا ملك الدوابّ، ثم يردّك الله أسدًا مِلك السباع والوحش سبع سنين، وفي كل ذلك قلبك قلب إنسان، حتى تعلم أنّ الله له مُلْك السموات والأرض، يقدر على الأرض ومَن عليها، وكما رأيتَ أصلها قائمًا فإن مُلكك قائم.

قال: فمُسِخَ بختنصّر نسرًا في الطيور، وثورًا في الدوابّ، وأسدًا في السباع، فكان مسخه كله سبع سنين، ثم ردّ الله تعالى إليه مُلكه، فآمن ودعا الناس إلى الله تعالى.

قال: وسُئل وهب بن منبِّه: أكان بختنصّر مؤمنًا؟ فقال: وجدتُ أهل الكتاب قد ٱختلفوا فيه، فمنهم من قال: مات مؤمنًا، ومنهم من قال: مات كافرًا؛ لأنه حَرَّق بيت المقدس وكُتُبَ الله وقَتَل الأنبياء، فغضِب الله تعالى عليه ولم يقبل توبته.

قالوا: فلمّا عبّر دانيال لبختنصّر رؤياه أكرمه وصحِبَه وٱستشاره في أموره وقرّبه منه حتى كان أكرمَ الناسِ عليه وأحبّهم إليه، فحسده المجوس على ذلك ووشَوْا به وبأصحابه إلى بختنصّر فقالوا: إنّ دانِيَال وأصحابه لا يعبدون إلٰهك، ولا يأكلون ذَبيحتك. فدعاهم وسألهم فقالوا: إن لنا ربًّا نعبده ولسنا نأكل من ذبائحكم. فأمر بختنصّر بأُخدود، فخُدّ لهم وأُلقوا فيه، وهم ستّة، وأُلقِيَ معهم سبُعٌ ضارٍ ليأكلهم، ثم قالوا: انطلِقوا لنأكل ونشربَ، فأكلوا وشرِبوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسًا والسبع مفترش ذراعَيْه بينهم ولم يخدِش منهم أحدًا ولم ينكأهم[1] بشيء، ووجدوا معهم رجلًا فعدُّوهم فوجدوهم سبعة، فقالوا: ما بال هذا السابع وإنما كانوا ستّة!. فخرج إليهم السابع، وكان ملكًا من الملائكة، فلطم بختنصّر لطمةً فصار في الوحوش، ومسخه الله تعالى سبعَ سنين ثم ردّه الله تعالى إلى صورته وردّ عليه مُلْكه.

قال السُدِّيّ: ثم إن بختنصر لمّا رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله تعالى عليه مُلْكه، كان دانِيَالُ وأصحابُه أكرمَ الناس عليه، فحسدته المجوسُ ووشَوْا به ثانية فقالوا لبختنصّر: إنّ دانِيَالَ إذا شرِب الخمرَ لم يملك نفسه أن يَبُول، وكان ذلك فيهم عارٌ. فجعل بختنصّر لهم طعامًا وشرابًا فأكلوا وشربوا وقالوا للبوّابين: انظروا أوّل مَن يخرج إليكم ليبول فٱضربوه بالطَّبْرَزِين[2]، وإن قال لكم أنا بختنصّر فقولوا له:

---

(١) ينأهم: يجرحهم.

(٢) الطّبرزين: كلمة فارسية، وهي آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان، يعلّقها الفارس في سرجه لاستخدامها وقت القتال والمبارزة «انظر صبح الأعشى ٥/ ٢٠١».

كذبتَ، بختنصّر أمرنا بهذا. فحبس الله تعالى عن دانيال البَوْل، وكان أوّلُ مَن قام من القوم يريد البَوْل بختنصّر، فقام مُدِلاً[١] وذلك ليلاً، فخرج يسحَب ثيابه، فشدّ عليه البوّاب فقال: أنا بختنصّر. فقال: كذبتَ، بختنصّر أمرني أن أقتل أوّلُ مَن يخرج، فضربه فقتله.

وحكى محمد بن إسحاق[٢] بن يَسَار في سبب هلاك بختنصّر غير ما حكاه السُّدّيّ، وذلك أنه قال بإسناده: لمّا أراد الله تعالى هَلاكَ بختنصّر انبعثَ فقال لمن كان في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيتَ الذي خرّبتُه، وهؤلاء الناس الذين قتلتُهم مَن همْ؟ وما هذا البيت؟ قالوا: هذا بيتُ الله ومسجدٌ من مساجده، وهؤلاء أهله، كانوا من ذرارِي الأنبياء فظلموا وتعدَّوْا وعصَوْا، فسُلِّطتَ عليهم بذنوبهم، وكان ربُّهم ربُّ السموات والأرض وربّ الخلق كلهم، يُكرمهم ويمنعهم ويُعزّهم، فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله تعالى وسلّط عليهم غيرهم. قال: فأخبروني. ما الذي يطلُع بي إلى السماء العُليا لعلّي أطّلع إليها وأقتل من فيها وأتخذها مُلْكًا فإني قد فرغت من الأرض ومَن فيها؟ قالوا: ما يقدِر على هذا أحدٌ من الخلائق. قال: لَتفعلُنّ أو لأقتلنّكم عن آخركم. فبكَوْا وتضرّعوا[٣] إلى الله تعالى، فبعث الله عزّ وجل عليه بقدرته ليُرِيه ضَعفَه وهوانه بعوضةً فدخلت في مَنْخَره ثم ساخت[٤] فيه حتى عضّت بأمّ دماغه فما يَقِرّ ولا يسكن حتى يُوجأ[٥] له رأسُه على أمّ دماغه. فلمّا عرف أنه الموت قال لخاصّته من أهله: إذا مُتّ فشُقُّوا رأسي فانظروا ما هذا الذي قتلني. فلمّا مات شقّوا رأسه فوجدوا البعوضةَ عاضّة بأمّ دماغه ليُرِيَ الله تعالى عباده قُدرتَه وسلطانَه، ونجّى الله تعالى مَن بَقِيَ في يديه من بني إسرائيل وردّهم إلى إيليا والشام، فبنَوْا فيه وربوا وكثُروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه. قال: فيزعمون أنّ الله تعالى أحيا أولئك الموتَى الذين قُتلوا ولَحِقوا بهم. قال: ثم إنهم لمّا رجعوا إلى الشام وقد أُحرقتِ التوراةُ وليس معهم عهد من الله تعالى جدّد الله عزّ وجل تَوْراتَهم وردّها عليهم على لسان عُزَيْر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) مدلاً: مظهرًا الجرأة في تكسّر وملاحة.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، أقدم مؤرّخي العرب، له السيرة النبوية، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١هـ وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار «الأعلام ٦/ ٢٨».

(٣) تضرّعوا: ابتهلوا.

(٤) ساخت فيه: غاصت.

(٥) يوجأ: يشقّ أو يضرب.

قال: وكان عُمر بختنصّر بأيام مَسْخه نَيِّفًا وخمسين سنة وخمسين يومًا. فلمّا مات بختنصّر ٱستُخلف [ٱبنه][١] بلسطاس. وكانت آنيةُ بيتِ المقدِس التي حملَها بختنصّر إلى بابل باقيةً، فنجّسها بلحوم الخنازير وأكل وشرب فيها، وأقصى[٢] دانيالَ ولم يقبل منه، وٱعتزله دانيال. فبينما بلسطاس ذات يوم إذ بدت له كف بغير ساعد وكتبت ثلاثةَ أحرُف بمشهده ثم غابت، فعجِب من ذلك ولم يدر ما هي، فٱستدعَى دانيالَ وٱعتذر إليه وسأله أن يقرأ تلك الكتابة ويخبره بتأويلها. فقرأها دانيال، فإذا هي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. وُزِنَ فخفّ[٣]، ووُعِد فنجَز، وجُمع فتفرّق». فقال دانيال: أمّا قوله وُزن فخفّ، أي وُزِن عملُك في الميزان فخفّ. ووُعِد مُلْكُ فنجَز اليوم، وجُمِع فتفرّق، أي جُمِع لك ولوالدك من قَبلِك مُلْكٌ عظيمٌ فتفرّق اليوم فلا يرجع إلى يوم القيامة. فلم يلبث إلا قليلاً حتى أهلكهم الله تعالى وضعُف مُلكهم، وبَقِيَ دانيال بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس[٤].

فهذه الأقاويلُ التي وردت في بختنصّر هي على ما جاء في التفسير[٥] والمبتدا[٦]. وأمّا قول من قال إنه كان مَرْزُبانًا[٧] للهراسف الملك الفارسيّ فسنذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك الفُرْس، على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى في موضعه وهو في الباب الثالث من القسم الرابع من هذا الفنّ في السفر الثالث عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا. وهذه الأخبار التي قدّمنا ذكرها أوردها أبو إسحاق الثعلبيّ في تفسيره وفي كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان في قصص القرآن». وقال في تفسيره: إلاّ أنّ رواية مَن رَوَى أن بختنصّر غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريّا عليهما السلام غلطٌ عند أهل السِّيَر والأخبار والعلم بأمور الماضِين من أهل الكتاب والمسلمين. وذلك أنهم مُجمعون على أن بختنصّر غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شَعْيَا وفي عهد إرمِيَا بن حِلْقِيّا عليهم السلام، وهي الوقعة الأولى التي قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ [الإسراء: ٥] يعني بختنصّر وجنودَه.

---

(١) زيادة من الثعلبي. (٢) أقصى: أبعد.

(٣) في الأصول: وزن فخفّف. . وجمع ففرّق، والمثبت عن الثعلبي لوضوحه.

(٤) السّوس: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السّلام وقال ابن المقفّع: أوّل سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور السّوس، وقال ابن الكلبي: السّوس بن سام بن نوح عليه السلام «معجم البلدان ٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١».

(٥) هو الكشف والبيان في تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧هـ.

(٦) لعلّه: العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون.

(٧) المرزبان: الرئيس عند الفرس.

قال الثعلبيّ قالوا: ومن عهد إرْمِيَا وتخريب بختنصّر البيت المقدّس إلى مولد يحيى بن زكريّا أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة. والله أعلم.

ذكر خبر عمارة بيت المقدس بعد أن خرّبه بختنصّر وخبر الذي مرّ على قرية

قال الله عزّ وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ. . .﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: اختلفوا في ذلك المارّ[1] مَن كان، فقال عِكْرمة وقَتَادة والرَّبيع بن أنس[2] والضحّاك والسُّدّيّ وناجية[3] بن كعب وسليمان بن بُرَيدة[4] وسَلْم[5] الخوَّاص: هو عُزَير بن شرخيا. وقال وهب بن مُنَبِّه وعبد الله بن عبيد[5] بن عُمَيْر: هو إرْمِيَا بن حِلْقِيّا، وكان من سِبْط هارون بن عمران، وقد تقدّم ذكره.

قال: واختلفوا أيضًا في القرية التي مرّ عليها، فقال وهب وعِكْرمة وقَتَادة والربيع: هي بيت المقدس. وقال الضحّاك: هي الأرض المقدّسة. وقال ابن زَيْد: هي الأرض التي أهلك الله تعالى بها ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقال الكلبيّ: هي دَيْر سَابُرَابَاذ. وقال السُّدّيّ: هي سلماباذ. وقيل: هي دَيْر[6] هِزْقِل. وقيل: هي قرية العِنَب، وهي على فرسخين من بيت المقدس. قال فالذي يقول: إن المارّ إرْمِيَا وإنّ القرية بيت المقدس، هو ما رواه محمد بن إسحاق بن يَسَار عن وهب بن مُنَبِّه: أنه لمّا كان من أمر إرْمِيَا ما قدّمناه، وأنه طار لمّا التهب مكان القُرْبان وخُسف بسبعة أبواب من أبواب بيت المقدس حتى خالط إرْمِيَا الوحش ودخل بختنصّر وجنودُهُ بيت المقدس وخُرِّب كما تقدّم. فلمّا رجع

---

(١) المارّ: أي الذي مرَّ على تلك القرية.

(٢) هو الربيع بن أنس، بصري نزل خراسان، محدّث صدوق ثقة حُبس بمرو ثلاثين سنة مات سنة ١٣٩هـ «الكاشف ١/ ٢٣٤».

(٣) هو ناجية بن كعب الأسدي، محدّث لم يرو عنه غير أبي إسحاق الثعلبي، عدّه البعض من الثقات «الكاشف ٣/ ١٧٢».

(٤) هو سليمان بُريدة الأسلمي، حدّث بمرو، وعدّ من الثقات، توفي سنة ١٠٥هـ «الكاشف ١/ ٣١١».

(٥) هو عبد الله بن عبيد بن عُمير الليثي، أبو حاتم، توفي سنة ١١٣هـ عُدّ من الثقات «الكاشف ٢/ ٩٥».

(٦) دير هزقل: وأصله دير حزقيل، وهو ديرٌ مشهور بين البصرة وعسكر مُكرم «انظر معجم البلدان ٢/ ٥٤٠».

بختنصّر عن بيت المقدس أقبل إرْمِيَا على حمار له معه عَصيرُ عنب في رِكْوَة[١] وسَلّةُ تينٍ حتى غَشِيَ إيلِيَاء[٢]. فلمّا وقف عليها ورأى خرابها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩]!. قال: ثم ربط إرْمِيَا حماره بحبل جديد، فألقَى الله تعالى عليه النوم، فلمّا نام نَزَع منه الرُّوح مائةَ عام وأمات حمارَه، وعَصِيرُه وتينُه عنده، وأعمى الله تعالى عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضُحًى، ومنع الله السباعَ والطيرَ لحمه. فلمّا مضى من نومه سبعون سنة أرسل الله عزّ وجل مَلَكًا إلى مَلِك عظيم من ملوك فارس يقال له: «بُوسَك»[٣] فقال له: إن الله عزّ وجل يأمرك أن تنفِر بقومك فتعمِّر بيت المقدس وإيلياءَ وأرضَها حتى تعود أحسنَ ما كانت، فانتدب الملك ألف قَهْرمان[٤] مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل، فجعلوا يعمِّرونها فعُمِّرت، ونجّى الله تعالى مَن بَقيَ من بني إسرائيل ولم يمت ببابل أحدٌ منهم وردّهم الله تعالى إلى بيت المقدس وعَمّروها ثلاثين سنة حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه؛ وذلك بعد أن خُرِّبت سبعين سنة. فلمّا مضت المائة سنةٍ أحيا الله عزّ وجل منه عينيه وسائرُ جسده ميّتٌ، ثم أحيا جسده وهو ينظر، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامُه متفرّقةٌ بيضٌ تلوح، فسمع صوتًا من السماء: أيّتها العظامُ الباليةُ إن الله يأمركِ أن تجتمعي، فاجتمع بعضها إلى بعض واتّصل بعضها ببعض. ثم نُودِيَ: إن الله يأمركِ أن تكتسِيَ لحمًا وجِلْدًا فكان كذلك. ثم نُودِيَ: إن الله يأمركَ أن تحيا، فقام بإذن الله ونَهَق. وعمّر الله تعالى إرْمِيَا، فهو الذي يُرَى في الفَلَوَات؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي أحياه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وذلك أن الله تعالى أماته ضُحًى في أوّل النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾، وهو يرى أن الشمس قد غَرُبت، ثم التفت فرأى بقيّةً من الشمس فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ﴾، بمعنى بل بعض يوم ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ يعني التّين ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعني العَصِير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْۖ﴾ أي لم يتغير ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. قال وهب: ليس في الجنة كلبٌ ولا حمارٌ إلا كلبُ أصحابِ أهلِ الكهف وحمارُ إرْمِيَا الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. هذا قول من قال إنه إرميا بن حِلْقِيَا.

* * *

(١) الرِّكوة: إناءٌ صغير من جلد. (٢) إيلياء: بيت المقدس.

(٣) في رواية الثعلبي «يوشك» وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي «كوشك» ٤/ ٢٩١.

(٤) القهرمان: الوكيل، أو أمين الدّخل والخرج.

وأمّا من قال إنه عُزَيْر، فإنه يقول: إنّ بختنصّر لمّا خرّب بيتَ المقدس قتل أربعين ألفًا من قرّاء التوراة والعلماء، وقتل منهم أبا عُزَيْر وحدَه. وكان عُزَيْر يومئذ غلامًا قد قرأ التوراة وتقدّم في العلم، وأقدمه بختنصّر مع بني إسرائيل إلى أرض بابل، وهو من ولد هارون. فلمّا نجا عُزَير من بابل ٱرتحل على حمار حتى نزل على دير هِزْقِل على شطّ دِجْلة، وطاف في القرية فلم ير فيها أحدًا، وعامّة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة وٱعتصر من العنب وشرب منه، وجعل فضل الفاكهة[1] في سَلّة وفضل العصير في زِقّ. فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية، وساق فيه نحو ما تقدّم في خبر إرْمِيَا.

وقال قوم في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] إنّ الله تعالى لم يُمِتْ حمارَه فأحيا الله تعالى عينيه ورأسَه وسائرُ جسده ميّتٌ فقال له: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فنظر إلى حماره قائمًا كهيئته يومَ ربطه حيًا، لم يَطْعَم ولم يشرَب مائةَ عام، ونظر إلى الرُّمّة[2] في عُنُقه جديدة؛ وهذا قول الضحّاك وقَتَادة. وقال الآخرون: أراد عظام حماره كما تقدّم في قصّة إرْمِيَا. وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت. وقال الضحّاك: وهو أنه عاد إلى قريته وأولادُه وأولادُ أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللّحية.

وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: أحيا الله تعالى عُزَيرًا بعد مائة سنة، فركب حماره حتى جاء مَحَلّته[3]، فأنكره الناسُ وأنكر الناسَ ومنازلَه، فٱنطلق على وَهْم حتى أتى منزلَه، وإذا هو بعجوز عمياءَ قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنةً، وكانت أمَة لهم، فخرج عنهم عُزَير وهي ٱبنة عشرين سنة، وكانت قد عَرَفته وعَقِلَتْه؛ فلما أصابها الكِبَرُ والزَّمَنُ[4] قال لها عُزَير: يا هذه، هذا منزل[5] عُزَير؟ قالت: نعم هذا منزل عُزَير وبكت وقالت: ما رأيتُ أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عُزَيرًا وقد نَسِيَه الناس. قال: فإني عُزَير. قالت: سبحان الله! فإنّ عُزَيرًا قد فقدناه من مائة سنة. قال: فإنّي أنا عُزَير، إنّ الله أماتني مائة سنة ثم بعثني. قالت: فإن عُزَيرًا كان رجلاً مُجابَ الدعوة، يدعو للمريض وصاحبِ البلاء بالعافية والشفاء، فٱدعُ الله يردّ عليّ بَصَري

(١) فضل الفاكهة: ما زاد منها. (٢) الرّمة: القطعة البالية من الحبل.
(٣) وردت في الأصل محرّفة، والتصويب عن الثعلبي.
(٤) الزَّمن: من الزّمانة وهي الكبر وتعطيل القوى.
(٥) في الأصل: «هذه منازل» والتصويب عن الثعلبي.

حتى أراك، فإن كنتَ عُزَيْرًا عرفتُك. فدعا ربّه تعالى فاستجاب له ومسح بيده على وجهها وعينيها فصحّتا، وأخذ بيدها وقال لها: قومي بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجلَيْها، فقامت صحيحةً كأنما نَشطَت[١] من عِقَال[٢]، فنظرت إليه فقالت: أشهَد أنك عُزَير. فانطلقت إلى مَحَلّة بني إسرائيل وهم في أنديَتهم ومجالسهم وٱبنٌ لعُزَير شيخٌ ٱبن مائة سنة وثمانيةَ عشرَ سنة وبنو ٱبنه شيوخٌ في المجالس، فنادت: هذا عُزَير قد قَدِم وجاءكم، فكذّبوها. فقالت: وأنا فلانة مولاتكم دعا لي ربّه فردّ الله عليّ عينيّ وأطلق رجليّ، وزعم أنّ الله أماته مائة عام ثم بعثه. فنهض الناسُ وأقبلوا إليه، فقال ٱبنه: إنه كان لأبي شامةٌ سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه وإذا هو عُزَير.

* * *

وأمّا خبرُ فتنة اليهود به وقولُهم عُزَيرٌ ٱبن الله، فقد رَوَى عطيّة العَوْفِيّ[٣] عن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: كان عُزَير من أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعَمِلُوا بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعَمِلوا بغير الحقّ، وكان التابوت فيهم. فلمّا رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراةَ وعَمِلوا بالأهواء[٤] رَفَع عنهم التابوتَ وأنساهم التوراة ونَسَخها[٥] من صدورهم، وأرسل عليه مرضًا، فٱستَطلقت[٦] بطونُهم، حتى إنّ الرجل يَمَسّ كَبِدَه، حتى نَسُوا التوراة وفيهم عُزَير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نُسِخَت التوراةُ من صدورهم. وكان عُزَير دعا الله وٱبتهل إليه أن يردّ إليه الذي نُسِخَ من صدورهم. فبينما هو يصلّي ويبتهل إلى الله تعالى إذ نزل نورٌ من السماء فدخل في جَوْفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من التوراة، فأذّن في قومه فقال: يا قوم، قد أتانِيَ الله التوراة وردّها إليّ، فطفِق[٧] يُعلّمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلّمهم. ثم إنّ التابوتَ نزل بعد ذلك. فلمّا رأوُا التابوت عَرَضوا ما كان فيه على الذي كان يعلّمهم عُزَير فوجدوه مثلَه، فقالوا: والله ما أُوتِيَ عزير هذا إلاّ وهو ٱبن الله.

---

(١) نشطت: خرجت. (٢) العقال: القيد.

(٣) هو عطية بن سعد العوفي، أبو الحسن، محدّث مات سنة ١١١هـ «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

(٤) الأهواء: مفردها الهوى وهو الميل إلى ما تحبّه النفس.

(٥) نسخها من صدورها: أي أزالها. (٦) استطلقت بطنه: سال ما فيها.

(٧) طفق: جعل واستمرّ بفعله.

وقال السُّدِّيّ وابنُ عبّاس في رواية عمّار بن ياسر(١): إنما قالت اليهودُ هذا لأنّ العمالقةَ ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهَرَب علماؤهم الذين بَقُوا ودفنُوا التوراة في الجبال وغيرها، ولحق عُزَير بالجبال والوحوش، وجعل يتعبّد في رؤوس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل إلاّ يوم عيد، وجعل يبكي ويقول: يا ربّ تركتُ بني إسرائيل بغير عالم، فبكى حتى سقطت أشفار(٢) عينيه، فنزل مرّةً إلى العيد، فلمّا رجع إذا هو بامرأة قد تمثّلت له عند قبر من القبور تبكي وتقول: يا مُطْعِمَاه، ويا كاسياه! فقال لها عُزَير: يا هذه اتّقي الله واصبِري واحتسِبي، أمَا علمتِ أنّ الموت مكتوبٌ على الناس! وقال لها: وَيْحَكِ! مَن كان يُطعِمُكِ ويكسوكِ قبل هذا الرجل؟ (يعني زوجها التي كانت تندُبه). قالت له: الله تعالى. قال: فإن الله تعالى حيّ لا يموت. فقالت: يا عُزَير، مَن كان يعلِّم العلماء قبلَ بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلمَ تبكي عليهم وقد علمتَ أنّ الموت حقّ وأن الله حيّ لم يمت. فلمّا علم عُزَير أنه قد خُصِم(٣) ولّى مُدبرًا. فقالت له: يا عُزَير، لستُ بامرأة ولكنّي الدنيا. أمّا أنه ستنبعُ لك في مُصَلاّك عينٌ وتنبتُ لك شجرةٌ، فكُلْ من ثمرة تلك الشجرة واشرَبْ من ماء تلك العين واغتسل وصلّ ركعتين؛ فإنه سيأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخذ منه. فلمّا أصبح نبعت العين في مُصلاّه ونَبَتَتِ الشجرة، ففعل ما أمرتْه به، وجاء شيخ وقال له: افتح فاك، ففتح فاه فألقَى فيه شيئًا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعًا كهيئة القوارير ثلاث مرّات، ثم قال له: ادخُل هذه العينَ فامشِ فيها حتى تبلُغ قومك. قال: فدخلها فجعل لا يرفع قدمه إلاّ زِيدَ في علمه، فرَجَع إليهم وهو أعلم الناس بالتوراة. فقال: يا بني إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عُزَير، ما كنتَ كذّابًا. فربط على كلّ إصبع له قلمًا وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراةَ كلَّها عن ظهر قلبه، فأحيا لبني إسرائيل التوراة وأحيا لهم السُّنّة. فلمّا رَجَع العلماء استخرجوا كُتُبَهم التي كانوا دفنوها، فعارَضُوا(٤) بها توراةَ عُزَير فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاه الله تعالى هذا إلاّ أنه ابنه.

وقال الكلبيّ(٥): إنّ بختنصّر لمّا ظهر على بني إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل مَرّةً قُرّاء التوراة، كان عُزَير إذ ذاك غلامًا صغيرًا، فاستضعفه فلم يقتله، ولم يدرِ

---

(١) هو عمّار بن ياسر العنسي، أحد السابقين البدريين، وهو أوّل من بنى مسجدًا، قتل بصفين عن ثلاثٍ وتسعين سنة «الكاشف ٢/ ٢٦١».

(٢) أشفار العين: مفردها شفر وهو أصل منبت الشعر في طرف العين.

(٣) خُصم: أي لقّن حجّة بينة من خصمه. (٤) عارضوا بها: قابلوها.

(٥) الكلبي: هو محمد بن السائب بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسّابة عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، توفي سنة ١٤٦هـ «الأعلام ٦/ ١٣٣».

أنه يقرأ التوراة. فلمّا تُوفِّيَ مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس منهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عزّ وجل عُزَيرًا ليجدّد لهم التوراةَ ويكون لهم آية، فأتاهم فقال: أنا عُزَير. فكذّبوه وقالوا: إن كنتَ عُزَيرًا كما تزعُم فٱتلُ علينا التوراةَ. فكتبها وقال: هذه التوراة. ثم إنّ رجلاً قال: إنّ أبي حدّثني عن جدّي أن التوراة جُعِلتْ في خابية ثم دُفنت في كَرْم. فٱنطلقوا معه حتى ٱحتفروها وأخرجوا التوراة، فعارضوها بما كتب عُزَير فلم يجدوه غادر منها آية ولا[1] حرفًا، فعجِبوا وقالوا: إنّ الله لم يقذِف التوراة في قلب رجل واحد منّا بعدما ذهبت من قلوبنا إلاّ أنّه ٱبنه؛ فعند ذل قالت اليهود: عُزَير ٱبن الله.

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفن الخامس
في قصة ذي النُّون يونس بن مَتَّى عليه السلام وخبر بلوقيا

ذكر قصة ذي النُّون يونُس بن مَتَى عليه السلام

قال الكسائيّ رحمه الله: قال وهب بن مُنَبِّه: كان مَتَّى رجلاً صالحًا من أهل بيت النبوّة، ولم يُرْزَق الولدَ إلى آخر عمره بعد أن أسنّ هو وزوجته، فسأل الله تعالى الولدَ، فنُودِيَ: إنّ الله قد ٱستجاب دعاءك، فٱنطلِقْ إلى حَظِيرة التوبة، وهو الموضع الذي أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فيه لمّا عبدوا العِجْل. فصار إلى هناك وإذا بملَكٍ قد هَبَط من السماء فضرب قُبّة على باب حَظيرة التوبة، وذلك في ليلة عاشوراءَ، وأمرهما أن يدخلاها فدخلا وواقعها[2]، فحملت بيونُسَ، ثم ٱنصرفا إلى منزلهما. فلمّا صار لها أربعةَ أشهُر تُوُفِّيَ متّى وبقيتْ ٱمرأتُه أرملةً ليس لها إلاّ قَصْعة[3] كانت لآل هارون، فكانت تُصِيب رزقَها في المَسَاء والصباح من عند الله. فلمّا وَضَعَت يونُسَ لم يكن لها لَبَن يكفيه، فكانت أمّه تأتي إلى الرُّعاة وتسألهم اللبنَ فلا يجيبونها، فكانت تقول: اللهُمّ هذا الولد هِبَتُك فلا تُهلكه جُوعًا، فكانت المواشِي تأتيه وتَمجّ[4] عليه بضَرْعها حتى يشبعَ، فإذا شَبِعَ يقول: الحمد لله، فآمَنَ به جماعةٌ

(١) زيادة عن الثعلبي. (٢) واقعها: جامعها.

(٣) القصعة: وعاء يؤكل فيه ويثرد، وكان يُتخذ من الخشب.

(٤) تمجّ: تسترخي، والضَرع: موضع الدَّرّ.

من الرُّعاة، فبقيَ كذلك حتى فَطَمته أُمه، وكان يُسمَّى يتيم بني إسرائيل، حتى أتت عليه سبعُ سنين، فأقبل على أمه فقال: يا أمّاه، لا ينبغي أن تذهب أيّامي بالبِطالة، وأُريد أن تُلبِسيني ثوبًا من الصوف حتى ألحقَ بالعُبّاد وأكون معهم. فقالت: يا بنيّ، أنت صغير ولم يأنِ[١] لك أن تَسِيح[٢]. فلم يزل بأمّه حتى أجابته إلى ذلك ولَحِق بالعُبّاد وٱشتهر ذكرُه فيهم بكثرة العبادة حتى ٱستكمل من العُمْر خمسًا وعشرين سنة، فرأى في منامه: إنّ الله يأمرك أن تمضِيَ إلى مدينة الرَّمْلة[٣] فإنّ فيها وليًّا من أوليائي وله ٱبنةٌ عفيفةٌ فتزوّجها منه. فلمّا أصبح عزمَ على المسير، وصَحِبه جماعةٌ من بني إسرائيل من أصحابه، وسار حتى دخل مدينة الرَّمْلة، وسأل عنه فقيل: إنه في السُّوق يبيع ويشتري. فعجِب يونس من ذلك وجاء إلى السُّوق فرآه وهو يبيع الطيِّب ويُكثر الضَّحِك. فقال يونس: ليس هذا من صفات الأولياء والعبّاد. فنظر إليه زكريّا[٤] وقام إليه وصافحه وسلّم عليه بٱسمه وٱسم أبيه. قال: وكيف عرفتَني؟ قال: رأيتك في المنام وأُمِرتُ أن أزوّج ٱبنتي منك. وتوجَّه به إلى منزله وقدّم له الطعام فأكلا، وذكر له رؤياه وأنها سببُ مَسِيره إلى الرملة، ثم سأله عن مكسبه بالبيع والشراء فقال: أمّا البيعُ والشراء فمباحٌ، والتاجر فاجر[٥] إلاّ من أخَذ الحقّ وأعطاه، وٱتقَى الله ولم يمدَح سِلْعته.

فلمّا أقبلَ الليل نزع زكريّا ما كان عليه من الثياب ولبِس الصوف ودخل محرابه ولم يزل في صلاته ودعائه وتضرُّعه حتى أصبح، فنزع الصوف ولبس ما كان عليه بالأمس وبَرَز إلى السوق ويونسُ معه، فكان ذلك دأبَه.

ثم زوّج ٱبنته من يونس ووهَبَ لهما بعضَ ماله. وأقام يونس عنده، ورزق الله يونس من زوجته وَلَدَيْن ومات زكريّا، فٱحتمل يونس زوجته إلى بيت المقدس وأقام هناك يعبد الله تعالى. وشَعْيَا يومئذ ببيت المقدس وهو نبيّ في بني إسرائيل إلى أن بعث الله تعالى يونس نبيًّا.

---

(١) لم يأن لك: أي لم يحن الوقت بعد. (٢) يسيح: ينأى عن النّاس تعبّدًا وترهُّبًا.

(٣) الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت رباطًا للمسلمين وكانت قصبتها، وقد خربت الآن «انظر معجم البلدان ٣/ ٦٩».

(٤) في الأصول: زكريا عليه السلام، والمذكور هنا هو زكريا بن عبدان وليس زكريا النبي أبا يحيى عليهما السلام.

(٥) الفاجر: الفاسق.

قال: وكان في بلاد نِينَوَى[١] مَلِكٌ[٢] وكانت جيوشه كثيرة، قيل: إنها كانت تزيد على عشرة آلاف قائد. وكان إذا غزا تكون معه تماثيل من الأسود والفِيَلة متّخذة من النحاس والحديد، يخرج من أفواهها لَهَبُ النِّيران، ومعه رجال يلعبون بالنيران. فغزا هذا الملك بني إسرائيل على هذه الصورة، فقتل من بني إسرائيل وسبَى، ثم عاد إلى بلاد نِينَوَى، وغزاهم ثانيةً وتكرّرت غزواته فيهم. فأوحَى الله تعالى إلى شَعْيَا نبيّ بني إسرائيل أن يختار من عُبّاد بني إسرائيل أمينًا قويًّا يبعثه إلى بلاد نِينَوَى رسولاً إلى مَن بها من الملوك وغيرهم؛ فإنهم قد جحدوا[٣] حقّي وأنكروا معرفتي. فدخل شَعْيَا على حِزْقيّا الملك وأمره أن ينادِيَ في عُبّاد بيت المقدس، وبها يومئذ عشرة آلاف عابد، لباسُهم الشعر والصوف ونعالُهم الخُوص[٤]، فنادى فيهم بالاْجتماع فاْجتمعوا، فاختار منهم ثلاثة واْختار من الثلاثة يونُس بن مَتّى، ثم قال له حِزْقِيّا: إن الله أوحَى إلى نبيّه شَعْيَا أن يختار من جملة هؤلاء العُبّاد والزُّهّاد أعبَدهم وأتقاهم، وقد وقع اْختياره عليك لتُبْعَثَ [إلى أهل][٥] بلاد نِينَوَى. قال يونس: إن في بني إسرائيل مَن هو أعبدُ منّي وأزهدُ، فاْبعث أيها الملِك غيري. قال: لا أبعث سواك، فاْنهض ولا تخالفْني فإنّ هذا عن أمر الله. فاْنصرفَ يونُس إلى أمّه وأخبرها الخبر واستشارها، فقالت: إن الله أنطق الملِكَ في حقّك بالرسالة فسِرْ كما أُمِرتَ ولا تعصِ الله ونبيَّنا شَعْيَا وملكَنا حِزْقِيّا. فعزم على المسير وودَّع أمّه وحمل أهلَه[٦] حتى بلغ شاطىء دِجْلة، فنزل هناك وفَكَّر في أمره وضَعْفه وعياله وقال: كيف لي بمُطاولة الجبابرة والفراعنة! وأقبل على أهله وقال: قد عزمتُ على الفِرَار، فنهاه أهله عن ذلك. فسكت وقام ليعبُر دِجْلة إلى بلاد نِينَوَى فعبرَ بولده الأكبر، ثم رجع وأخذ ولده الثاني. فلمّا توسّط دِجْلة زاد الماء فَغرِق اْبنه الذي كان معه، وكان في يده نُقْرَةٌ[٧] من الذهب كان قد ورثها من حَمِيه[٨] فغَرِقت، وجاء ذئبٌ إلى ولده الذي عَبَر به فاْحتمله. فصاحت المرأة: يا يونس، إن اْبنك أخذه الذئب. فخرج من الماء يعدو خلف الذئب فاْلتفتَ إليه وقال: اِرْجِعْ يا يونُس فإني مأمور، فرجع يونس باكيًا على ولديه. فلمّا بلغ الشطّ لم ير أهله، فجلس يبكي. فأوحى الله إليه: إنك شكوتَ كثرة العيال، وقد أرحتُك منهم، فاْذهب الآن إلى قومك فإني سأردّ عليك أهلك وولَدَيْك

---

(١) نينوى: هي قرية يونس عليه السلام بالموصل وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى، منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه «معجم البلدان ٥/ ٣٣٩».

(٢) في الكسائي: «يقال له ثعلب بن الأسارد».

(٣) جحدوا الحقّ: أنكروه.

(٤) الخوص: ورق النخل.

(٥) الزيادة عن الكسائي.

(٦) أهله: المراد زوجته وأولاده.

(٧) النقرة من الذهب: ما سبك مجتمعًا منها.

(٨) الحمّ: والد الزوج.

وأنا على كل شيء قدير. فطابت نفسه وسار حتى بلغ بلاد نِينَوَى فتوسّط سُوقها ونادَى: يا قوم، قولوا بأجمعكم: لا إلٰهَ إلا الله وأنّي يونس عبدُه ورسولُه. فلمّا سَمِعوا ذلك أقبلوا على مَلِكهم وأخبروه به وبمقالته. فأحضره الملك وقال له: من أين أنت؟ قال: رسول الله إليك وإلى أهل مملكتك فآمِنوا بي تنجوا من النار. فأمر الملك بحبسه ثم بعث إليه وزيره، وهو من أهل بيت المقدس، وٱسمه سنجير[1]، فقال له: أُدخُل على هذا الرجل يونس وتعرَّف أمره. فدخل عليه وسأله عن ٱسمه وٱسم أبيه، ومن أين أقبل وفيماذا جاء. فذكر له أنه رسول الله إليهم. فقال له الوزير: أرى أن ترفُق[2] فإني أخشى عليك من هذا الملك فإنه جبّار. وٱنصرف الوزير إلى الملك وقال له: قد عرفتُ الرجل، وقد ذكر أنه رسول من إلٰه السماء. فهمّ الملك بقتله، فٱستوهبه الوزيرُ منه على أن يكون في البلد ولا يقول مثل مقالته. فٱستدعى الوزير يونس وذكر له ذلك. فقال له: أمّا القتلُ فلا أخشَى منه، والرسالةُ فلا أتركها حتى يحكم الله بيني وبينه. ثم إنّ الملك خلّى سبيله على أنه مجنون. فلم يزل يونس يدعوهم إلى طاعة الله تعالى في كل يوم عامّة[3] نهاره، حتى إذا جاء المَسَاء أتى شطّ دِجْلة فيُصَلّي حتى يُصبح، ثم يعود إليهم والناس يضربونه ويرجمونه ويسبُّونه حتى ضجِر فٱستغاث إلى ربّه. فأوحَى الله تعالى إليه: يا يونس، إنك دعوتَ القوم فلا تعجَل عليهم وٱدعُهم أربعين يومًا، فإن آمنوا وإلاّ جاءهم العذابُ. فدعاهم حتى ٱستكمل العِدّة ولم يؤمنوا. فأوحى الله إليه أنِ ٱخرُج من بين أظهرهم[4]، فخرج حتى بلغ شاطىء دِجْلة، فقعد ينظر إلى العذاب كيف ينزل بالقوم. فأمر الله تعالى جبريلَ أن يُرسل على قوم يونس سحابةً فيها ألوانُ العذاب؛ فٱنطلقَ إلى مالك وأمره بذلك، فأخرجَ شرارةً من الحُطَمة[5] على مثال سحابةٍ سوداءَ مظلمة. فجاءت بها الزبانية[6] حتى بلغت بلاد نِينَوَى وٱنبسطتْ حتى أظلّتْ عليها، فظنّ القوم أنها مطر. فنظر وزير الملك إلى السحابة يخرج من أطرافها شَرَرُ النار، فدخل على الملك وقال: الحَذَرَ الحَذَرَ! فليست هذه سحابةَ مطر بل هي سحابةُ عذاب، وأخشَى أن يكون ذلك لتكذيبنا يونس نبيّ الله. ثم قال: ٱنظروا إلى يونس إن كان معكم في بلدكم فلا تخافوا، وإن كان قد خرج عنكم فقد هلكتم. فطلبوا يونس فلم يجدوه. وجعلت السحابة تدنو حتى قرُبتْ منهم ورمتهم بشرر كالرَّماد الأحمر لا يقع على شيء إلاّ

(١) في الكسائي: «سنحاريب».

(٢) ترفُق: تحسن الصنيع وتتأنّى.

(٣) عامّة النهار: كلّه.

(٤) أخرج من بين أظهرهم: أي أخرج من وسطهم.

(٥) الحطمة: اسمٌ لجهنّم.

(٦) الزبانية: الملائكة الذين يدفعون أهل النار إليها.

أحرقه. فبينا الناس يقولون: أين نطلب يونس إذا هم بالملك قد خرج عليهم وجميع أصحابه وهم يقولون: أين أنت يا يونس! فإنا لا نعود إلى مخالفتك، فلم يجدوه. فأقبل عليهم سنجير الوزير وقال: أيها الملك، إن يكن يونس قد غاب عنّا فإن إلٰهه لم يغب، فتعالَوْا حتى نتضرّع[1] إلى الله لعلّه يرحمنا. فخرجوا بأجمعهم ونسائهم وأطفالهم إلى ظاهر البلد يبكون ويتضرّعون، فقام سنجير فيهم وقال: إلٰهنا إنك أمرتَنا أن نُعْتِق رقابَ عَبيدنا وإمائنا ونحن عبيدك وإماؤك فأعْتِقْنا. إلٰهنا إنك أمرتَنا أن نعفو عمن ظلمنا فٱغفر لنا وٱعفُ عنا. اللهم أعْتِقْنا من عذابك فإنّا قد آمنا بنبيّك يونس وبجميع النبيّين فٱغفر لنا ذنوبنا، ثم خَرُّوا سُجَّدًا بأجمعهم. فأوحى الله تعالى إلى ملائكة العذاب أنِ ٱرجعوا، فٱنصرفت السحابة عنهم، وسمعوا صوتًا: أبشِرُوا يا أهل نِينَوَى برحمةٍ من ربكم؛ فرجعوا إلى المدينة وقد آمنوا. وجاء يونس لينظر إلى ما نزل بهم من العذاب، فلقِيه إبليس في صورة شيخ. فقال له يونس: من أين أقبلت أيها الشيخ؟ [قال][2]: من نِينَوَى. قال: فما نزل بهم اليوم؟ قال: ما نزل بنا إلاّ سحابة بيضاء أمطرت مطرًا جَوْدًا[3]، وكان يونس قد وعدنا بالعذاب فلم يكن وعَلِمنا كذبَه. فغضب يونس وقال: لا أعود إلى قوم كذّبوني، وسار. قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال مجاهد وقَتَادة والضحّاك والكلبيّ: معناه أن لن نقضيَ عليه بالعقوبة، وهي رواية العَوْفيّ[4] عن ٱبن عبّاس؛ ودليل ذلك قراءة عمر بن عبد العزيز والزُّهريّ[5] «فظنّ أن لن نُقَدِّر عليه» بالتشديد. وقال عطاء[6] وكثير من العلماء: معناه نضيّق عليه الحبس.

قال الكسائيّ: فلم يزل يسير حتى لحق بساحل البحر، فإذا هو بسفينة مارّة فلوّح إليهم فدخلوا إليه فقال: احملوني معكم فإنّي رجل منقطعٌ غريبٌ من بيت المقدس. فحملوه فقعد على كَوْثَل[7] السفينة. فلمّا توسّطوا البحر هبّت عليهم رياح

---

(١) نتضرّع: نبتهل.
(٢) التكملة من الكسائي.
(٣) الجود من المطر: الغزير.
(٤) العوفي: هو عطية بن سعد العوفي، أبو الحسن، محدّث مات سنة ١١١هـ.
(٥) الزّهري: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزّهري، من قريش، أبو بكر، أحد أكابر الحفّاظ والفقهاء، تابعي من أهل المدينة، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدًا أعلم بالسُّنة الماضية منه، مات بشغب آخر حدّ الحجاز وأول حدّ فلسطين سنة ١٢٤هـ «الأعلام ٧/ ٩٧».
(٦) عطاء: هو عطاء بن دينار الهذلي، من رجال الحديث، له كتاب في «التفسير» يرويه عن سعيد بن جبير، توفي بمصر سنة ١٢٦هـ «الأعلام ٤/ ٢٣٥».
(٧) الكوثل: ذنب السفينة.

كثيرةٌ من جميع الجوانب وأشرفوا على الغرق، فأخذوا في الدعاء والتضرّع ويونس لا يتكلّم، فأقبل أهل السفينة عليه وقالوا: لِمَ لم تدعُ أنت معنا؟ قال: لأني مغموم لذهاب الأهل والولد. فلم يزالوا به حتى دعا، فأزداد البحر هَيَجانًا. قال يونس: اطرحوني في البحر فإنّ هذا من أجْلي. قالوا: ما نفعل. قال: فأقترِعُوا[١]. فأقترَعُوا فوقعت القُرعةُ عليه. فقالوا: إنّ القرعة تُخطىء وتصيب، ولكن تعالَوْا حتى نتساهم[٢]. فجعل كل واحد منهم لنفسه سهمًا ثم رمَوْا بها في البحر، فغرقت إلاّ سَهْمَ يونس فإنه بَقِيَ على وجه الماء: قال الله عزّ وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: ١٤١]. ثم أقبل حوت عظيم من بحر الهند حتى بلغ جانب السفينة، فقام يونس ليرمي بنفسه، فتعلّق القوم به وقالوا: ألا ترى هذه الأمواج وهذا الحوتُ العظيم! فأقعدوه والبحر يزيد عليهم بكثرة أمواجه وأهواله، فصار إلى جانب السفينة ليرمي بنفسه، فإذا بالحوت قد دار إلى الجانب الذي قصد أن يَرميَ نفسه منه، فعلم يونس أنه هو المراد، فغطّى وجهه بكسائه ورَمَى نفسه في البحر[٣] فأبتلعه الحوت. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢] معناه يلوم نفسه على ما فعله. وبقيَ في جوف الحوت وهو يسمع تسبيح الحيتان بلغاتهم، فلم يزل كذلك حتى بلغ [إلى موضع يُسمَع فيه صَريف[٤] الأقلام]. وهو إذا سجد يكون سجوده على كبد الحوت وهو يقول له: يا يونس، أسمعني تسبيح المغمومين المحبوسين في حَبْس لم يُحْبَس فيه أحد من الآدميّين، ويونس يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وكانت الملائكة تقول: إلهنا إنّا نسمع تسبيح مكروب كان لك شاكرًا، اللهمّ أرحمه في غُربته. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية. قيل: ظُلْمة الليل، وظُلْمة البحر، وظُلْمة بطن الحُوت. قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] أي المصلّين ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤]. وأختُلف في مدّة لُبْثه، فمنهم من قال: لبِث أربعين يومًا، وقيل: ثلاثة أيام. فلمّا أنقضت المدّة التي

---

(١) اقترعوا: ضربوا قرعة، والقرعة: هي السّهم والنصيب.

(٢) نتساهم: نتبارى في الفوز بالسّهام.

(٣) جاء في نسخة الكسائي: أن ذلك البحر هو بحر الرّوم، وهو البحر الأبيض المتوسط، وسمّي بحر الروم لأن البلاد التي على سواحله كانت كلّها في ملك الرّوم «انظر قاموس الجغرافية القديمة ص٢٢».

(٤) صريف الأقلام: أي صوت جريانها.

قدّر الله عليه ألهمَ الله الحوت أن يرجع إلى الموضع الذي ٱبتلعه فيه. فشقّ ذلك على الحوت لأنه كان قد أنِس به وبتسبيحه، فناداه الملك أنِ ٱقذفه من بطنك فليس هو مَطعمٌ لك. فتقدّم الحُوت إلى الساحل وقذفه. قال الله تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥]. قال: خرج كالفرخ الذي لا ريش له، وهو لا يقدر على القيام، فأنبت الله عليه شجرة من يَقْطِين[١] كان لها ثلاثة أغصان: غصن قِبَلَ المشرق، وغصن قِبَلَ المغرب، والغصن الثالث على رأسه. وجاءه جبريل فقال: يا يونس، إن الله قد أعطاك من الجنة ما ترضَى به، ثم أمرَّ يده على رأسه وجسمه فأنبت الله شعره ولحيته، وأمر الله ظبية فوقفت بين يدَيْ يونس وكلّمته بإذن الله، فمصّ من لبنها فقوِيَ عند شُربه؛ ثم بشّرته بإيمان قومه وأخبرته بما كان من أمرهم وسبب إيمانهم وذكرت ٱشتياقهم إلى رؤيته. وكانت الظبية ترعَى حولَ يونس فإذا جاع أو عطِش أرضعته، فلم يزل كذلك أربعين يومًا. فنام في بعض الأيام ثم ٱنتبه فرأى اليقطينةَ قد جفّت والظبيةَ قد غابت، فٱغتمّ لذلك، فعلم يونس أن الله ضرب له مثلاً بقومه، ثم هبط عليه مَلَكٌ وقال: قُم إلى قومك فإنهم يتمنَّوْن رؤيتك، وأتاه بحُلّتين[٢] فأْتزر[٣] بواحدة وارتدى بالأخرى، ثم سار حتى دخل قريةً كثيرة الأشجار والخيرات وأهلها يقطعون تلك الأشجار ويُلقون ثمارها في الأرض، فقال: يا قوم، كيف تفعلون ذلك وتُبطلون على أنفسكم ثمارها! فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، إنك أشفقتَ على قوم لا تعرفهم من قطعهم الأشجار ولم تُشفِق على قومك وهم مائة ألف أو يزيدون! فعلم يونس أنّ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى له، فقال: إلٰهي لا أعود إلى ذلك أبدًا. ثم سار حتى دخل قرية أخرى وقت المساء، فتلقّاه رجلٌ من أهل القرية وسأله أن ينزل عليه فنزل. فلمّا أكل وشرب نظر إلى بيت الرجل وفيه فَخّار كثير يريد أن يُوقد عليه. فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، قل لهذا الفاخِرانيّ أن يكسِر الفَخّار الذي قد عَمِلَه. فقال يونس ذلك للفاخرانيّ، فقال: يا هذا أضفتُك لِمَا رأيتُ فيك من أثر الخير وإذا أنت رجل مجنون، تأمرني أن أُكَسِّر فَخّارًا قد أتعبت فيه نفسي لأنتفع بثمنه! قُم الآن فٱخرج من عندي، وأخرجه. فأوحَى الله تعالى إليه: يا يونس، إنه أشفق على فَخاره وسمّاك مجنونًا وأخرجك من منزله حين أمرتَه بكسره، وأنتَ بُعِثت إلى مائة ألف أو يزيدون فدعوتَ عليهم ولم تفكّر في هلاكهم فترحمهم! قال: إلٰهي

---

(١) اليقطين: شجرة القرع.

(٢) الحلّة: الثوب الجيد الجديد غليظًا كان أو رقيقًا.

(٣) اتتزر: أي جعل إحداهما إزارًا، والإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

لا أعود إلى ذلك أبدًا. فلمّا أصبح سار فإذا هو برجل يزرع زرعًا، فقال له الرجل: ادعُ الله عزّ وجل حتى يبارك لي في زرعي، فدعا له فأنبته الله تعالى من ساعته وقام على سُوقه، ففرح الرجل وأتى بيونس إلى منزله. فأرسل الله جرادًا فأكله، فحزن يونس لذلك، فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، قد حزِنت على إرسال الجراد على الزرع ولم تزرعه، ولم تحزن على إرسال العذاب على مائة ألف أو يزيدون! قال: إلٰهي تبتُ إليك من ذنبي لا أعود إليه أبدًا. وسار حتى دخل قرية وهناك ٱمرأة معها رجل وهو ينادي: مَن [يحمل] هذه المرأة إلى بلاد نِينَوَى [ويردّها][1] إلى زوجها وله مائةُ مثقال من الذهب؟ فنظر إليها يونس فإذا هي ٱمرأته، فقال: أيها الرجل، ما قصّة هذه المرأة؟ قال: إنها كانت قاعدةً على شاطىء دَجلة تنتظر زوجها يونس، فمرّ بها مِلِكٌ من ملوك هذه القرية فٱحتملها وأراد أن يفجُر[2] بها، فأيبسَ الله يَدَيْه ورجلَيْه، فسألها أن تدعوَ له بالفرج ولا يعود إلى ذلك، فدعت له. فلمّا عافاه الله لوقته دفعها إليّ وأعطاني مائة مثقال[3] ذهبًا على أن أحملها إلى بلاد نِينَوَى، وما يمكنني ذلك. قال يونس: أنا أحملها فأعطِني الذهب، فأعطاه إياه وسلَّم إليه المرأة. فسارا وقد فرحا حتى أتَيَا قريةً أخرى، وإذا برجل يبيع سمكة، فٱشتراها يونس وقعد ليُصلحها فشقّ بطنها فوجد فيها تلك الصرّة الذهب التي وقعت منه في دجلة، فقال: الحمد لله الذي ردّ عليّ أهلي ومالي، اللهمّ فٱرْدُدْ عليّ أولادي يا أرحم الراحمين، ثم سار فإذا هو برجل على دابة ومن ورائه غلامٌ، فإذا هو ولد يونس الصغير. فتعلّق به، فقال له الرجل: مَن أنت؟ قال: أنا يونس. فسلّم إليه الغلام وقال: الحمد لله الذي ردّ الأمانة إلى أهلها وخلّص ذمّتي. فسأله يونس عن قصّة الغلام فقال: أنا رجل صيّاد، وكنتُ قد ألقيتُ الشبكة في طرف دِجْلة فوقع هذا الغلام فيها فأخذتُه، وإذا بهاتف يقول: يا صيّاد، احفَظ هذا الغلام حتى يأتِيَ إليك يونس فإنه أبوه فادفَعْه إليه. ثم قال له: يا نبيّ الله، أُدعُ لي أن يُغنيَني الله عن صيد السمك، فدعا له فرزقه الله مالاً وولدًا. وسار يونس حتى قرُب من بلاد نِينَوَى، فإذا هو براعٍ على قارعة الطريق يرعَى غنمًا وهو يقول: اللهمّ اردد عليّ والدي، فرآه يونس فعرَفَهُ وهو ولده الأكبر، فتعانقا وبكيا طويلاً، ثم قال له: يا أبتِ إنّ هذه الأغنام لرجلٍ في القرية فسِرْ معي حتى أرُدّها إليه، فسارا إلى القرية وإذا بشيخ على باب داره، فقال له الغلام: هذا أبي. فقام الشيخ إلى

(١) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.
(٢) يفجُر بها: يفسُق.
(٣) المثقال: وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع الدّرهم.

يونُس وسلّم عليه. فقال له يونُس: هل تعرف قصّة هذا الغلام؟ قال الشيخ: نعم، كنتُ أرعَى هذه الغنمَ، وإذا بهذا الغلام على ظهر ذئبٍ فكلّمني الذئب بقدرة الله وقال: إذا جاء إليك يونس فٱدْعُ إليه هذا الغلام. ثم قال له: يا نبيّ الله، أُدعُ الله أن يغفر لي ذنوبي وأن يُميتني في وقتي هذا، فدعا له فقبضه الله لوقته، فغسّله يونس وكفّنه وصلّى عليه ودفنه. ثم سار حتى قرُب من المدينة، فإذا هو بغلام يرعى غنمًا فوقف يونس عليه السلام وقال: يا غلام، هل من لَبَنٍ؟ قال الغلام: يا هذا، والذي بعث إلينا يونس نبيًّا ما ذقتُ اللبن منذ غاب عنّا نبيّنا يونس. قال: فأنا يونس نبيّ الله. فقبّل الغلام رأسَه وقال: لو رأيتَنا يا نبيّ الله ونحن نجول تحت العذاب لَرَحِمتَنا. قال: يا غلام، اذهبِ الآن إلى المدينة وأخبرِ الناس أنك قد رأيتَني. قال: أخشى أن يكذّبوني. فقال: سِرْ إليهم [وهذه الأغنام شهودٌ لك][١]. فمضى حتى توسّط سوق المدينة وقال: أيها الناس، البُشْرَى فقد رجع إلينا يونس نبيّنا وقد لقيتُه. فاتّصل الخبر بالملك فقام عن سريره وقال: عليّ بالغلام، فأُتِيَ به، فسأله فأخبره بمَقْدَم يونس. ففرح وخرج الملك وأهلُ المدينة وٱلتقَوْا بيونس وأدخلوه المدينة وأجلسه الملك في موضعه، ووقف بين يديه، وفرح به أهل المدينة. فقام يونس فيهم ما شاء الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إلى أن مات الملك وماتت ٱمرأةُ يونس وولداه جميعًا، فاستخلف يونس الراعي على مدينة نِينَوَى وخرج هو وسبعون رجلًا من العُبّاد حتى جاء إلى جبل يقال له صِهْيَوْن[٢] فكانوا هناك يعبدون الله حقّ عبادته، حتى مات يونس عليه السلام، ومات العُبّاد الذين صحبوه، فَقُبِرُوا هناك في جبل صِهْيَوْن، رضي الله عنهم ورحمهم.

ذكر خبر بُلُوقِيَا وما شاهد من العجائب

وهذه القصّة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعضُ من يقف عليها لغرابتها وليست بمستنكرة بعد أن ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بَلِّغوا عنّي ولو آيةً[٣] وحدِّثوا عن

---

(١) التكملة عن الكسائي.

(٢) صهيون: «الجبل المشمس أو الجاف» وقد يطلق هذا الاسم للدلالة على كلّ أورشليم إلا أنّه ينحصر غالبًا في الجبل الجنوبي الغربي من المدينة، وكان هذا الجبل محاطًا من كلّ جانب إلاّ جانب الشمال بأودية عميقة الجوانب شاهقتها «انظر قاموس الكتاب المقدّس».

(٣) الآية: المراد هنا الآية القرآنية، أو المعجزة والعلامة الظاهرة.

بني إسرائيل ولا حَرَجَ ومَن كَذَبَ عليّ مُتعمِّدًا فَلْيَتبوّأ مَقْعَدَه من النار». ولنأخذ الآن في سَرْد القصّة.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بيواقيت البيان في قصص القرآن بسند رفعه عن عبد الله بن سلاّم[(١)] قال:

كان في بني إسرائيل رجل يقال له «أوشيا» وكان من علمائهم، وكان كثير المال، وكان إمامًا لبني إسرائيل، وكان قد عَرَف نَعْتَ[(٢)] النبيّ ﷺ في التوراة، فخبأه وكتمه عنهم. وكان له ٱبنٌ يقال له بُلُوقِيَا خليفة أبيه في بني إسرائيل، وذلك بعد سليمان بن داود عليهما السلام. فلمّا مات أوشيا بقِي ٱبنه بُلُوقِيَا والأمانة في يده والقضاء، ففتّش يومًا خزائن أبيه فوجد فيها تابوتًا من حديد مُقفلاً بقُفْلٍ حديدٍ، فسأل الخُزّان عن ذلك، فقالوا: لا ندري. فٱحتال على القفل حتى فكّه، فإذا فيه صندوق من خشب الساج[(٣)]، ففكّه وإذا فيه أوراق، فقرأها فإذا فيها نعت النبيّ ﷺ وأُمّته وهي مختومةٌ بالمسك، فقرأ ذلك على بني إسرائيل ثم قال: الويل لك يا أبتِ من الله فيما كتبتَ وكتمتَ من الحقّ وأهله! فقالت بنو إسرائيل: يا بُلُوقِيَا، لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وحرّقناه بالنار. قال: يا قوم، [لا ضَيْر][(٤)] إنما ترك حظّ نفسه وخسِر في دينه ودُنياه، فألحقوا نعت النبيّ ﷺ وأُمّته بالتوراة. قال: وكانت أمّ بلوقيا في الأحياء، فٱستأذنها في الخروج إلى بلاد الشام، وكانوا يومئذ في بلاد مصر. فقالت: وما تصنع بالشام؟ قال: أسأل عن محمد وأمّته، فلعلّ الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه، فأذِنتْ له. فبرزَ بُلُوقِيَا وقدِم بلاد الشام. فبينما هو يسير إذا ٱنتهى إلى جزيرة من جزائر البحر، فإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عِظَمًا وفي الطُّول ما شاء الله وهنّ يقلن: لا إلٰه إلاّ الله محمدٌ رسول الله. فقلن له: أيها الخَلْق المخلوق مَن أنت؟ وما ٱسمُك؟ قال: ٱسمي بُلُوقِيَا، وأنا من بني إسرائيل. فقُلْنَ: وما إسرائيل؟

---

(١) هو عبد الله بن سلاّم بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابي، قيل: إنه من نسل يوسف بن يعقوب، أسلم عند قدوم النبي المدينة، وفيه نزلت الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ بني إسرائيل، مات سنة ٤٣هـ «الأعلام ٤/ ٩٠».

(٢) نعت النبي: أوصافه، وفي الأصول: بعث النبي، والتصويب عن الثعلبي.

(٣) السّاج: ضربٌ من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا وله ورق كثير خشبه جيد أسود صلب.

(٤) زيادة عن الثعلبي، ولا ضير: أي لا ضرّ، يقال: لا ضير ولا ضور ولا ضرّ ولا ضرر ولا ضارورة بمعنى واحد «اللّسان مادة: ضور».

قلت: من ولد آدم. فقُلْنَ: سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم إسرائيل. فقال بلوقيا: أيتها الحيّات مَن أنتنّ؟ فقلن: نحن حيّات من حيّات جهنّم ونحن نعذّب الكفّار فيها يوم القيامة. قال بلوقيا: وما تصنعن هاهنا؟ وكيف عرفتُنّ محمدًا؟ فقُلنَ: إن جهنّم تفور وتَزْفِر[١] في كل سنة مرّتين فتُلقِينَا هاهنا ثم نعود إليها، فشِدّة الحرّ في الصيف من حرّها، وشدّة البرد في الشتاء من بردها. وليس في جهنّم دَرَك[٢] من دركاتها، ولا بابٌ من أبوابها، ولا سُرادق من سُرادقاتها إلا وقد كُتب عليه: «لا إله إلاّ الله محمدٌ رسول الله» فمن أجل هذا عَرَفْنا محمدًا ﷺ. قال بلوقيا: أيتها الحيّات، هل في جهنّم مثلكنّ أو أكبر منكنّ؟ فقُلنَ: إن في جهنّم حيّات تدخل إحدانا في أنف إحداهنّ وتخرج من فمها ولا تشعر بذلك لعظمها. قال: فسلّم بلوقيا عليهنّ ومضى حتى أتى جزيرة أخرى، فإذا هو بحيّات كأمثال الجذوع والسوارِي[٣]، وعلى متن إحداهنّ حيّة صغرى صفراء كلما مشتْ اجتمعتِ الحيّات حولها فإذا نفخت صِرْنَ تحت الأرض خوفًا منها. فلمّا رآها ورأته قالت له: أيها الخَلْق المخلوق مَن أنتَ؟ وما اسْمُك؟ قال: اسمي بلوقيا، وأنا من بني إسرائيل من ولد إبراهيم. فأخبريني أيتها الحيّة مَن أنتِ؟ قالت: أنا موكّلة بالحيّات واسمي تمليخا، ولولا أني موكّلة بهنّ لقتلتِ الحيّات بني آدم كلهم في يوم واحد، ولكنّي إذا صفّرتُ صفرة [واحدة][٤] وسمِعنَ صوتي دخلنَ في الماء الذي تحت الأرض. ولكن يا بلوقيا إن لَقِيتَ محمدًا ﷺ فأقرئه منّي السلام.

قال: ومضى بُلُوقِيَا إلى بلاد الشام فأتى بيت المقدس، وكان بها حِبْرٌ من أحبارهم يسمّى عفّان الخير، فأتاه فسلّم عليه وقصّ عليه قصّته. فقال له: ليس هذا زمان محمد ولا زمان أُمّته، بينك وبينه بُعْدُ سنين وقرون. ثم قال عفّان: يا بلوقيا أرِني موضع الحية التي اسمها تمليخا، فإن قدرتُ أن أصيدها رجوتُ أن أنال معك مُلكًا عظيمًا ونحيا حياة طيّبة إلى أن يبعث الله محمدًا ﷺ فندخل في دينه. قال: فمن حِرْص بلوقيا على الدخول في دين محمد ﷺ قال: أنا أُريك المكان. فقام عفّان وأخذ تابوتًا من حديد وحمل فيه قَدَحين من فضّة في أحدهما خمر وفي الآخر لبن؛

(١) تزفر: يقال زفرت النّار أي سمع لاتّقادها صوت.

(٢) الدّرك: أقصى قعر الشيء، والدّرك: طبقٌ من أطباق جهنّم والمقصود هنا: ناحية قصيّة من نواحيها.

(٣) السّواري: مفردها السّارية وهو عمود من الخشب طويل ينصب عليه الشراع.

(٤) زيادة عن الثعلبي.

ثم سارا جميعًا حتى أنتهيا إلى موضع الحيّة ففتحا باب التابوت وتنحّيا. وجاءت الحيّة تبغي الرائحة فدخلت التابوت وشرِبت من اللبن والخمر حتى سَكِرتْ ونامت. فقام عفّان ودبّ[١] إلى التابوت دبيبًا خفيفًا فأغلق بابه وأحتضنه وسارا جميعًا فلم يمرّا بشجرة ولا بيت إلا كلمهما بإذن الله تعالى. فمرّا بشجرة يقال لها الدواء فقالت: يا عفان، مَن يأخذني ويقطعني ويدقّني ويَعصِر مائي ودُهْني ويطلِي به قدميه فإنه يغوص البحار السبعة ولا تبتلّ قدماه ولا يغرق. فقال عفّان: إيّاكِ طلبتُ، فقطع تلك الشجرة فدقّها وعصر دُهنها وجعله في كوز[٢] ثم خلّى عن الحيّة فطارت بين السماء والأرض وهي تقول: يا بني آدم ما أجرأكم على الله تعالى، ولن تصلوا إلى ما تريدون، وذهبت الحيّة. وسار عفّان وبُلُوقِيَا إلى اليمّ فطليا أقدامهما ثم عَبَرا البحر ومشيا على الماء كما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأوّل ثم الثاني، فإذا هما بجبل في وسَط البحر ليس بعالٍ ولا متدانٍ ترابه كالمسك، عليه غمامٌ أبيض، وفيه كهفٌ، وفي الكهف سريرٌ من الذهب عليه شابٌ مُستلقٍ على قفاه ذو وَفْرة[٣]، واضعٌ يده اليمنى على صدره واليسرى على بطنه بمنزلة النائم وليس بنائم وهو ميّت، وعلى رأسه تنّين وخاتَمه في الشمال. قال: وكان ذلك سليمان بن داود، ومُلْك سليمان في خاتمه، وكانت حَلْقته من ذهب وفصّه من ياقوت أحمر مربّع، مكتوبٌ عليه أربعة أسطر، في كل سطر اسمٌ من أسماء الله الأعظم. وكان عند عفّان عِلمٌ من الكتاب، فقال بلوقيا: مَن هذا؟ قال: هذا سليمان بن داود، نريد أن نأخذ خاتَمه فنملك مُلكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدًا ﷺ. فقال بلوقيا: أليس قد سأل سليمانُ ربه ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] فأعطاه الله إيّاه على ما سأل، ولا يُنال مُلك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه. فقال عفّان: يا بلوقيا اسكُت إنّ الله معنا ومعنا أسم الله الأعظم، ولكن أنت يا بلوقيا فأقرأ التوراة. فتقدّم عفّان لينزِع خاتمَ سليمان من إصبعه، فقال التنّين: ما أجرأك على الله! إن غلبتنا بأسم الله فنحن نغلبك بقوّة الله. قال: فكلّما نفخ التنين ذكر بلوقيا أسمَ الله، فلم تعمل نفخات التنّين فيهما. ودنا عفّان من السرير لينزِعَ الخاتم من إصبع سليمان، فأشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل من السماء، فلمّا نزل صاح بهما صيحة ارتجّتِ الأرض والجبال وتزلزلت منها وأختلطت مياه البحار وماجت[٤] والتطمت[٥] حتى صار كلّ عَذْب مِلْحًا من شدّة

---

(١) دبّ: مشى مشيًا بطيئًا بحيث لا يُسمع وقع خُطاه.

(٢) الكوز: إناءٌ بعروة يشرب منه.

(٣) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس.

(٤) ماجت المياه: ارتفعت واضطربت.

(٥) التطمت الأمواج: ضرب بعضها بعضًا.

صيحته، وسَقط عفان على وجهه، ونفخ التنّين فخرجت من بطنه شُعلة نار كأنها البرق الخاطف، فاحترق عفّان وعادت نفخته في البحر فما مرتِ البرقة بشيء إلاّ أحرقته ولا بماء إلا أجاشته وأغلته. وذكر بلوقيا اسم الله الأعظم فلم ينله مكروه، ثم تراءى له جبريل في صورة رجل فقال له: يأبن آدم ما أجرأك على الله تعالى! فقال له بلوقيا: مَن أنت رحمك الله؟ قال: أنا جبريل أمين ربّ العالمين. قال له يا جبريل، إنما خرجتُ حبًّا لمحمد ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمّده. قال: فبذلك نجوتَ. ثم صعِد جبريل إلى السماء، ومضى بلوقيا فَطَلَى قدميه بذلك الدُّهن فأضلّ الطريق الذي جاء منه وأخذ في طريق آخر، وسار فقطع ستّة أبحر ووقع في السابع فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الوَرْس[1] والزعفران[2] وأشجارها النخل والرمّان. قال بلوقيا: ما أشبه هذا المكان بالجنّة على ما وُصِفتْ! ثم دنا من بعض تلك الأشجار فتناول من ثمرها، فقالت الشجرة: يا خاطىء أبن الخاطىء لا تأخذ منّي شيئًا. فتعجّب، وإذا بحيال[3] الشجرة قوم يتراكضون، بأيديهم سيوفٌ مسلولة، يتناوش[4] بعضهم بعضًا بالطعن والضرب. فلمّا رأوْا بلوقيا طافوا به وأحدقوا[5] من ورائه وهمُّوا به سوءًا، فذكر اسم الله فهابوه وعجبوا منه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم قالوا له: مَن أنتَ يا عبد الله؟ قال: أنا من بني آدم اسمي بُلُوقِيا. قالوا: نعرف آدمَ ولا نعرفك فما أوقعك إلينا؟ قال: إني خرجت في طلب نبيّ يسمّى محمدًا وإنني قد ضَلَلْتُ عن الطريق الذي أردته فرأيت من الأهوال كذا وكذا. قالوا: يا بلوقيا نحن من الجنّ مؤمنون، ونحن مع ملائكة الله في السماء، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كَفَرة الجنّ ونحن هاهنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت لا تصبر معنا. فقال بلوقيا لملك الجنّ: يا صخر، أخبرني عن خَلْق الجنّ كيف كان؟ قال: لمّا خلق الله جهنّم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسُن، خلق منها خَلْقين: خلق في سمائه [سمّاه] حيليت[6]، وخَلْق في أرضه [سمّاه][7] تمليت[8]. فأمّا حيليت فإنه خُلق على صورة أسد، وتمليت في صورة ذئب، وجعل الأسد ذكرًا والذئب أنثى، وجعل طول كلّ واحد منهما مسيرة خمسمائة

---

(١) الورس: نبات كالسمسم أصفر، يزرع باليمن ويصبغ به.
(٢) الزّعفران: نبات بصلي من الفصيلة السوسنية، منه أنواع بريّة، ونوع صبغي طبي مشهور.
(٣) حيال الشجرة: قبالتها أو إزاءها.
(٤) يتناوش: يتناول بعضهم بعضًا بالرّماح ولم يتقاربوا.
(٥) أحدقوا: أحاطوا.
(٦) في الثعلبي: جبليت.
(٧) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٨) في الثعلبي: يمليت.

عام، وجعل ذنبَ الذئب بمنزلة ذنب العقرب، وذنب الأسد بمنزلة الحيّة، وأمرهما أن ينتفضا[١] في النار آنتفاضة ففعلا، فسقط من ذنب الذئب عقارب، ومن ذنب الأسد حيّات. فعقارب جهنّم وحيّاتها من ذلك. ثم أمرهما أن يتناكحا ففعلا، فحمل الذئب من الأسد فولد سبعة بنين وسبع بنات. فأوحى الله تعالى إليهم أن يزوّج البنات من البنين كما أمر آدم، فستّة بنين أطاعوا وواحد لم يُطِع ولم يتزوّج فلعنه أبوه وهو إبليس. وكان آسمه الحارث، وكنيته أبو مرّة؛ فهذا أوّل خلق الجنّ. ثم قال له: يا بلوقيا إنّ دوابّنا لا تثبُت مع الإنس ولكن أُجلّل[٢] فرسي وأبرقعه[٣] حتى لا يعرف راكبه، فآركب عليه على آسم الله تعالى؛ فإذا آنتهيتَ إلى أقصى أعمالي[٤] على ساحل بحر كذا وإذا شيخ وشابٌّ ومشايخ معهما فإنك ستلقاهما هناك فآدفع الفرس إليهما وآمضِ في حفظ الله راشدًا. فجاء بلوقيا على الفرس حتى آنتهى إليهم فسلّم على الشيخ والشابّ ونزل عن الفرس ودفعه إليهما. وكان قد فَصَل من عند ملك الجنّ عند صلاة الغداة ووصل إليهما نصف النهار. فقالا لبلوقيا: مذ كم فارقتَ الملك؟ قال: فارقته غدوةَ[٥]. فقالا له: ما أسرع ما جئتَ! قد أتعبتَ فرسنا. فقال بلوقيا: والله ما مددتُ إليه يدًا ولا حرّكتُ عليه رِجلاً ولم أركُضه عُنفًا. قالا: صدقتَ ولكن فرسنا أحسّ بك وبمنزلتك[٦]، فطار ما بين السماء والأرض ليُريح نفسه منك، فكم تراه جاء بك؟ قال: خمسة فراسخ أو أقلّ أو أكثر. قالا: بل جاء بك مسيرة مائة وعشرين سنة، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون «قاف»[٧] وأنت لا تعلم. فحوّلوا عنه السَّرج واللِّجام والبُرقع وإذا العرق يقطُر من كلّ شعرة منه، وله جَناحان انقضّا من كثرة الطيران. فقال بلوقيا: هذا والله العجب. فقالوا: يا بلوقيا عجائب الله لا تنقضي. ثم سلّم عليهم ومضى فركب اليمّ. فبينما هو يسير إذ رأى مَلَكًا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له الملك: مَن أنت أيها الخَلْق المخلوق؟ فقال: أنا بلوقيا وأنا من

---

(١) انتفض: تحرّك واضطرب.
(٢) جلّل الفرس: ألبسها الجلّ وهو ما تغطى به الدّابة لتصان.
(٣) برقع الفرس: ألبسها البرقع، وهو قناع الدّواب.
(٤) الأعمال: الأملاك.
(٥) العدوة: الغداة، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس.
(٦) منزلة المرء: مكانته وقيمته.
(٧) قاف: هو جبل قاف، وهو مذكورٌ في القرآن، ذهب المفسرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض، «انظر معجم البلدان ٤/٢٩٨».

بني إسرائيل من ولد آدم. ثم قال له: أيها الملك ما ٱسمك؟ قال: [اسمي يوحاييل وأنا موكّل بضوء النهار وظلمة الليل. فقال: ما بال يديك مبسوطتين؟ فقال له: في يدي اليمنى ضوء النهار، وفي يدي اليسرى ظُلْمة الليل، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السموات والأرَضُون. ولم يكن الليل أبدًا، ولو سبقتِ الظُّلمة النور لأظلمتِ السماء والأرض ولم يكن ضوء أبدًا. وبين يديه لَوْح معلّق فيه سطران سطرٌ أبيضُ وسطرٌ أسودُ، فإذا رأيتُ السواد ينتقص نقصتُ الظلمة، وإذا رأيتُ السوادَ يزيد زدتُ الظُّلمة، وإذا رأيتُ السطر الأبيض يزداد زدتُ في البياض والنور، وإذا انتقص نقصتُ؛ فلذلك الليل في الشتاء أطول والنهار أقصر؛ وفي الصيف النهار أطول والليل أقصر. ثم سلّم بلوقيا ومضى، فإذا هو بمَلَك قائم يده اليمنى في السماء ويده اليسرى في الأرض في الماء تحت الثرى وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له: مَن أنت وما ٱسمك؟ قال اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم. قال له بلوقيا: أيها الملك ما ٱسمك؟ قال: اسمي ميخاييل. قال: فما لي أراك يمينك في السماء وشمالك في الماء؟ قال: أحبس الريح بيميني والماء بشمالي، ولو رفعتُ شمالي عن الماء لزخرت[١] البحار كلّها في ساعة واحدة ولَطَمَت[٢] بإذن الله تعالى، ويدي اليُمنى في الهواء أحبس الريح عن بني آدم لأنّ في السماء ريحًا يقال لها الهائمة[٣] لو أرسلتُها لقتلتْ مَن في السماء ومَن في الأرض من بَرْدها. فسلّم عليه بُلُوقِيَا ومضى، وإذا بأربعةٍ من الملائكة، أحدهم رأسه كرأس الثّور؛ والآخر رأسه كرأس النسر؛ والثالث رأسه كرأس الأسد؛ والرابع رأسه كرأس الإنسان. فالذي رأسه كرأس الثّور يقول: اللهم ارفع العذابَ عن البهائم، وارفع عنهن برد الشتاء وحرّ الصيف، وٱجعل لهن في قلوب بني آدم الرأفة والرحمة كيلا يُكْرِهُنَّ ولا يكلّفوهن[٤] فوق طاقتهن. وٱجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وأمّا الذي رأسه كرأس النسر فيقول: اللهمّ ارحم الطيور ولا تعذّبها، وادفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، وٱجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وأمّا الذي رأسه كرأس الأسد فإنه يقول: اللهمّ ارحم السّباع ولا تعذبها وٱدفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، وٱجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وأمّا الذي رأسه كرأس الإنسان فإنه يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، اللهمّ ٱرحم المسلمين ولا تعذّبهم وادفع عنهم حرّ النار، وٱجعلني من أهل شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. فسلّم عليهم ومضى حتى أتى على

---

(١) زخرت البحار: طمت وفاضت. (٢) لطمت: ماجت.
(٣) الهائمة: المتحيّرة وفي الثعلبي «الهائجة». (٤) كلّفه: حمّله.

جبل قافٍ وإذا هو بملَكٍ قائم على قاف، وهو جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء. فسلّم بلوقيا على الملك، فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم. فقال الملك: وأين تريد؟ قال: خرجتُ في طلب مَن يُسمى محمدًا، ولستُ أرى أمره ولا أدري في أيّ بلاد أنا. فقال الملك: لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله، قد أُمرنا بالصلاة على محمد. قال بلوقيا: أيها الملَك، ما اسمك؟ قال: اسمي حزقاييل. قال: وما تصنع هنا؟ قال: أنا أمين الله على قاف، وإذا في يده وَتَرٌ[1] مرّةً يعقِده ومرّةً يُحلّه، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر في كفّ الملك [قال:][2] فإذا أراد الله أن يضيّق على عباده أمرني أن أمُدّ الوتر وأعقده وأرتق[3] عُروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد والبلاد. وإذا أراد الله أن يوسّع عليهم أمرني أن أرخي الوتر وأفتق عروق الأرض فتتّسع الدنيا على العباد والبلاد. وإذا أراد أن يخوّف قومًا أمرني أن أحرّك عروق تلك الأرض، فمن أجل ذلك موضع يهتزّ وموضع لا يهتزّ، وموضع يتزلزل وموضع لا يتزلزل. قال بلوقيا: أيُّها الملك ما وراء قاف؟ قال: وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التي جئتَ منها، في كلّ دنيا أربعمائة[4] ألف باب في كل باب أربعة آلاف ضعف مثل الدنيا التي جئتَ منها، وليس فيها ظُلمة بل كلها نور وأرضها ذهب عليها حُجُبٌ من نور وسكّانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، لذلك أُلهِموا وله خلقوا وبه أُمروا إلى يوم القيامة. قال بلوقيا: فما وراءهم؟ قال: حُجُبٌ ووراء الحُجُب علم الله وقدرته. قال بلوقيا: أخبرني أيها الملك على أيّ شيء هذا الجبل موضوعًا؟ قال: على قرني ثور واسمه قرياطية وهو أبيض رأسه بالمشرق ومؤخره بالمغرب وما بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربه على صخرة بيضاء. قال بلوقيا: أيها الملك، كم الأرضون؟ وكم البحار؟ قال: الأرضون سبعٌ والبحار سبع. قال: فجهنم أين هي؟ قال: تحت الأرض السابعة. قال: فسلّم بلوقيا عليه ومضى حتى انتهى إلى حجابٍ طرفه في السماء وأسفله في الماء عليه باب مقفل وعليه خاتم من نور وعلى الباب ملكان أحدهما رأسه كرأس الثور والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور وهما يقولان: لا إله إلا الله محمد رسول الله. قال: فسلّم بلوقيا عليهما فردّا عليه السلام وقالا: أيها الخلْق الضعيف المخلوق مَن أنت؟ وما اسمك؟ قال: اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم فقالا: لا إله إلا الله محمد رسول الله هذه أسامي ما عرفناها.

---

(١) الوتر: معلّق القوس.

(٢) زيادة عن الثعلبي.

(٣) أرتق: أسدّ وأغلق.

(٤) كلمة ألف ليست في نسخة الثعلبي.

قال بلوقيا: كيف عرفتم محمدًا ولم تعرفوا آدم ومحمد من نَسْله؟ فقالا: لهذا خُلِقنا وبذلك أُمرنا، ولم نسمع باسم آدم ولا إسرائيل. فقال بلوقيا: افتحا لي الباب حتى أجوز[١] فقالا: ما نحسنُ فتحه وإنّ لله في السماء ملكًا اسمه جبرائيل عسى أن يقدر على فَتْحه. فدعا بلوقيا، فأمر الله تعالى جبريل فنزل عليه وفتح الباب، ثم قال: يا بن آدم ما أجرأك على الله! ثم جاز بلوقيا حتى انتهى إلى بحرين: بحرٌ مالح وبحرٌ عَذْب. فلمّا وصل إليهما رأى بينهما حاجزًا، وفي البحر المالح جبل من ذهب، وفي البحر العذب جبلٌ من فضّة، وبينهما مَلَك على صورة النمل ومعه ملائكة على تلك الصورة. فسلّم عليهم فردُّوا عليه السلام وقالوا له: مَن أنت؟ فأخبرهم بقصّته. ثم قال بلوقيا: مَن أنتم؟ قالوا: نحن أمناء الله تعالى على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان[٢]. فقال لهم بلوقيا: ما هذا الجبل الأحمر؟ قالوا: هذا كنز الله في الأرض وكلّ ذهبٍ في الأرض إنما هو من نصاب[٣] هذا الجبل، وكلّ ما في الدنيا من ماء عَذْبٍ هو من هذا البحر. وهذا البحر إنما يجيء من تحت العرش من قبل أن خلق الله تعالى الملائكة؛ وكل ما يجري من ماءٍ مالح فهو من ذلك البحر الملِحْ. وهذا الجبل الأبيض هو من فضّة وهو كنز الله تعالى؛ وكل كنز في الدنيا وكل مَعدِنِ فضّةٍ فهو من عروق هذا الجبل. فسلّم بلوقيا عليهم ومضى حتى انتهى إلى بحر عظيم، فإذا هو بحِيتان كثيرة عظيمة وقد اجتمعت وبينها حُوتٌ عظيم يقضي بين الحِيتَان. فلمّا نظر إلى بلوقيا قال: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. فسلّم بلوقيا وأخبره بحال النبيّ ﷺ وأنه خرج في طلبه، فردّ السلام ثم قال: يا بُلُوقيا، إن لقيتَ محمدًا فأقرئه منّي السلام. فقال: نعم إن شاء الله. ثم قال: أيتها الحِيتان إني جائع عطشان وماء البحر ملحٌ وما أجد ما آكل. فقال الحوت الأعظم: يا بُلُوقِيَا سأُطعمك طعامًا تسير أربعين سنةً لا تَعيَا ولا تجوع ولا تعطَش، قال: فأطعمه ذلك الحوت قُرصًا أبيضَ، فأكله ومضى حتى بلغ العُمْران. قال: ومن قبل أن يبلُغ العُمْران رأى شابًا يجري على الماء كأنه البدر. فقال له بلوقيا: مَن أنت؟ قال: سَلِ الذي خَلْفِي. فسار بُلُوقِيَا يومًا وليلةً فإذا هو بآخر يمرّ على الماء ضوءُه كضوء النجوم. فقال له بلوقيا: يا فتى، مَن أنت؟ قال: سَلِ الذي خَلْفي. فسار بلوقيا يومًا وليلةً، فإذا هو بشابّ كأنه القمر يلوح في آخر الشمس، فقال بلوقيا: أنشُدُك الله إلاّ وقفتَ. قال: فوقف وقال: لماذا

---

(١) أجوز: أمر، واجتاز الطريق: قطعها.

(٢) لا يبغيان: أي لا يبغي الواحد منهما على الآخر فيختلط به.

(٣) النصاب: الأصل والمرجع.

استحلفتَني؟ قال: خَشِيتُ أن تفوتني مثل أصحابك الماضِين، فمَنْ كان الأوّل؟ قال: إسرافيل صاحب الصُور[١]، والثاني ميكائيل صاحب المطر، والثالث جبرائيل أمين ربّ العالمين. فقال بلوقيا: ماذا تصنعون في اليمّ؟ قال جبريل: حيّة من حيّات البحر قد آذت سُكّانه، فَدَعوُا الله عليها فاَستجاب الله دعاءهم وأمرنا أن نسوقها إلى جهنّم ليعذّب الله بها الكفّار يوم القيامة. قال بلوقيا: كم طولُها وكم عَرْضُها؟ قال: طولُها مسيرة ثلاثين سنة، وعَرْضُها مسيرة عشرين سنة. فقال بلوقيا: يا جبريل، أيكون في جهنّم مثل هذه أو أكبر منها؟ فقال جبريل: إنّ في جهنّم من الحيّات ما تدخل هذه في أنف إحداهنّ ولا تشعر بها من عِظَم خِلْقتها. فسلّم بلوقيا عليه ومضى إلى جزيرة أخرى، وإذا هو بغلام أمردَ[٢] بين قبرين، فسلّم عليه بلوقيا وقال: يا شابّ، مَن أنت وما اسمُك؟ قال: اسمي صالح. قال: فما هذان القبران؟ قال: أحدهما أبي والآخر أمّي، كانا سائحين[٣] فماتا هاهنا، وأنا عند قبريهما حتى أموت. فسلّم بلوقيا ومضى حتى اَنتهى إلى جزيرة، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائرٌ رأسه من ذهب، وعيناه من ياقوت، ومنقاره من لؤلؤ، وبدنه من زعفران، وقوائمه من زُمُرد[٤]، وإذا مائدةٌ موضوعة تحت الشجرة وعليها طعامٌ وحُوتٌ[٥] مَشوِيّ. فسلّم عليه بلوقيا فردّ عليه الطائر السلام. فقال بلوقيا: أيها الطائر مَن أنت؟ قال: أنا من طيور الجنّة، وأن الله تعالى بعثني إلى آدم بهذه المائدة لمّا هبط من الجنة وكنتُ معه حتى لقِي حوّاء، وأنا هاهنا من ذلك الوقت، وكلّ غريبٍ وعابرُ سبيل يمرّ بها ويأكل منها، وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة. فقال بلوقيا: ولا تتغيّر ولا تنقُص! قال: طعام الجنّة لا يتغيّر ولا ينقُص. فقال لبلوقيا: كُلْ فأكل حاجته، ثم قال: أيها الطائر، هل معك أحدٌ؟ قال: معي أبو العبّاس يأتيني أحيانًا. قال: ومَن أبو العبّاس؟ قال: الخَضِر. فلمّا ذكر اَسمه إذا هو بالخضر عليه السلام قد أقبل عليه ثيابٌ بِيضٌ. قال: فما خطا خطوةً إلاّ نبت الحشيش تحت قدميه. فسلّم عليه بلوقيا وسأله عن حاله. قال بلوقيا: قد طالت غَيْبتي وأريد أن أرجع إلى أمّي. قال الخَضِر: بينك وبينها مسيرة خمسمائة سنة، أنا أردّك في مسيرة خمسمائة شهر. قال الطائر: إن كان بينك وبين أمّك مسيرة خمسمائة

---

(١) الصُور: قرنٌ ينفخ فيه يوم القيامة.
(٢) الأمرد: الذي طرّ شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبدُ.
(٣) كانا سائحين: أي كانا ذاهبين للتعبُّد والترهُّب.
(٤) الزمرّد: حجرٌ كريم شفافٌ شديد الخضرة.
(٥) الحوت: السمكة.

سنة أنا أردّك مسيرة خمسمائة يوم. قال الخَضِر: أنا أردّك إليها في ساعة ثم قال: غمِّض عينيك فغمّضهما ثم قال له: افتحهما ففتحهما، وإذا هو عند أمّه جالس. فسألها: مَن جاء بي؟ فقالت: جئتَ على متن طائر أبيض يطير بين السماء والأرض فوضعك قدّامي. قال: ثم إنّ بلوقيا حدّث بني إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار، فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا. فهذا ما كان من حديث بُلُوقِيا. والله أعلم.

الباب الخامس
من القسم الثالث من الفن الخامس
في أخبار زكريّا وٱبنه يحيى وعمران ومريم وعيسى ابن مريم عليهم السلام

ذكر نسب زكريّا وعمران عليهما السلام وما يتصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى: هو زكريّا بن بَرْخِيَا بن آذَن بن مُسلم بن صَدُوق بن نَحْشان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صُدَيقَة بن ناحُور بن شَلُوم بن نهفاشاط بن أنْبا بن لَبْنا بن رَحْبَعَم بن سليمان بن داود عليهم السلام.

وعِمْران بن ماتان. وقال ٱبن إسحاق: هو عمران بن باسَهْم بن أمُون بن مَنَسَّى بن حِزْقِيًا بن أخريق بن يوثام بن عَزاريا بن أنصِيَا بن ناوش بن يارم بن يهفاشاط بن أنبا بن لَبْنا بن رحبعم بن سليمان بن داود.

وكان زكريّا وعمران متزوّجين بأختين، فٱمرأة زكريّا أسباع، وقيل بَلْيَشْفع بنت فاقود وهي أمّ يحيى. وٱمرأة عمران حَنّة بنت فاقود وهي أمّ مريم بنت عمران.

قالوا: وكان زكريّا نجّارًا قبل أن يُبعَث نبيًّا، وكان كثير العبادة، وكان بيت المقدس قد خلا من الأنبياء، فبينا زكريّا في محراب جدّه داود عليه السلام وقد ٱنفتل(١) عن صلاته إذ هَبَط عليه جبريل بوحي الله تعالى ونبوّته، وأعلمه أنّ الله تعالى قد بعثه رسولاً إلى بني إسرائيل. فخرّ زكريّا ساجدًا لله تعالى على ذلك، وخرج إلى بني إسرائيل ودعاهم، فكذّبه بعضهم وصدّقه آخرون. فأقام زكريّا في بني إسرائيل

---

(١) انفتل عن الصلاة: انصرف عنها بعد انتهائه منها.

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعِمْران يعبد الله. وكان زكريّا وعِمْران لم يُرزقَا الولد. فبينا حَنّة ذاتَ يوم جالسة إلى جانب عمران إذ رأت حمامة تَزُقّ(١) فرخًا لها، فبكت شوقًا منها إلى ولد، وذكرت ذلك لزوجها عمران فقال: قُومي ندعو الله ربّنا في ذلك، فقاما جميعًا وصلّيا ودَعَوَا الله تعالى أن يرزقهما ولدًا، فرأى عمران في منامه إن الله قد استجاب دعاءك. فقام إلى زوجته فواقعها فحملت منه، وقالت ما أخبر الله تعالى عنها. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥] قال: وكان الناس في ذلك الزمان يتقرّبون إلى الله عزّ وجل بتحرير(٢) أولادهم، وكانوا يخدمون بيت المقدس في صغرهم إذا بلغوا، فمَنْ أحبَّ أن يقيم على الخدمة أقام، ومن ٱختار الٱنصراف انصرف.

ذكر ميلاد مريم بنت عمران عليه السلام

قال الكسائيّ: ولمّا حرّرتها أمّها لله تعالى قال لها زوجها: إنكِ حرّرتِ ما في بطنك، فإن كان أنثى كيف يكون محرّرًا؟ فاغتمّت لذلك حتى وضعت مريم. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦] ثم قالت: «ربِّ إني كنت نذرتُ لك ما في بطني محرّرًا فتقبّلها منّي» قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. قال: ثم حملتها حتى دخلت بيت المقدس وزكريّا هناك في نَفَر من عُبّاد بني إسرائيل، فقال لها: ما هذه يا حَنّة؟ قالت: هذه ٱبنتي مريم، قد جعلتُها مُرّرةً وقد قبِلها الله منّي فٱقبَلوها ولا تردّوها، فأقبل بنو إسرائيل على زكريّا وقالوا: ما تقول في هذه؟ قال: لا بدّ لها من مُكَفِّل إلى أن تبلُغ مبلغ الخدمة ثم تكون خادمةً في المسجد. قالوا: أيّنا يَكْفُلها؟ قال زكريا: أنا أولى بها لأنّي زوج خالتها، ولكنّا نقترع(٣)، فأخذوا أقلامهم وصاروا إلى عَيْن سُلْوان(٤) وقالوا:

(١) تزقّ: تطعم.

(٢) تحرير أولادهم: إفرادهم لخدمة المسجد وطاعة الله.

(٣) نقترع: نضرب القرعة.

(٤) سلوان: محلّة في ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسقي جنانًا عظيمة، وقفها عثمان بن عفان رضي الله عنه على ضعفاء بيت المقدس تحت بئر أيوب عليه السلام، ويزعمون أنّ ماء زمزم يزور ماء سلوان كل ليلة عرفة «معجم البلدان ٣/ ٢٤١».

نَرمِي بأقلامنا فيها فأينا وقف قلمُه فهو الذي يكفُلها؛ فألقَوها فرسبتْ أقلامهم جميعًا إلاّ قلم زكريّا فإنه طفا وغالَبَ الجِرْية[1]، فأخذها وأسترضع لها بعض نساء بني إسرائيل. ثم مات عِمْرانُ والد مريم. قال: وبنى لها زكريّا بيتًا لا يُصْعَد إليه إلاّ بسُلَّم، وكان لا يصعَد إليها إلاّ زكريّا يحمل إليها الطعام، وأبن خال لها يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان من العبّاد المحرَّرين، وكان زكريّا إذا صعِد إليها وجد عندها في الصيف فواكه الشتاء، وفي الشتاء فواكه الصيف، فيعجَب من ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ذكر دعاء زكريا أن يرزقه الله عزّ وجل الولد ومولد يحيى بن زكريا

قال الكسائيّ: فلمّا نظر زكريّا إلى ما رَزَق الله عزّ وجلّ من الفاكهة في غير وقتها قال: إن الذي رزق هذه الفواكهَ لقادرٌ على أن يرزق من العجوز العقيم والشيخ الكبير الولد. قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]. قال: ولمّا أراد زكريّا أن يدعو استحيا من الله تعالى، فجلس سبعة أيّام ثم قام إلى المحراب ووافق ذلك يوم عاشوراء، فكلّمه المحراب بإذن الله تعالى وقال: يا زكريّا، أوجدتَ ربّك بخيلاً! يا زكريّا إنّ ربك أبدًا رحيم. فعند ذلك عزم على الدعاء وأجتهد في العبادة، ثم رفع يديه ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣] معناه أخفاه عن قومه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] يعني غلب بياضه على سواده ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] معناه لم تخيّبني في الدعاء ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ [مريم: ٥] يعني الذرّية من بعدي أن تصير الحبوريّة[2] في غير أولاد الأنبياء ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ﴾ [مريم: ٥ ـ ٦] يعني مكاني وحُبُوريّتي والتابوت الذي فيه وأقلام المحرَّرين ومفاتيح القُرْبان، ثم قال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] في بني إسرائيل. فأستجابَ الله تعالى دعاءه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبُشْرَى فأتاه وأتته الملائكة وأحدقوا بالمحراب. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] الآية. وقال تعالى:

---

(١) غالب الجرية: أي غالب جريان الماء فلم تجرفه المياه في جريانها.

(٢) الحبورية: مفردها الحبر، وهو العالم، ورئيس الكهنة عند اليهود.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٧ ـ ٩]. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]. قال الكلبيّ: كان زكريّا يوم بُشِّر بالولد ٱبن ٱثنتين وتسعين سنة. وروى الضحّاك عن ٱبن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان ٱبن مائة وعشرين سنة. وكانت ٱمرأته بنت ثمانٍ وتسعين.

قالوا: ولمّا جامع زكريّا ٱمرأته ٱغتسل وعاد إلى محرابه، فجاءته نساء بني إسرائيل وقالوا له: نرى أمرك أعجبُ من ٱمرأتك، فذهب زكريّا ليتكلّم فلم يقدِر على الكلام، فعلم أن ٱمرأته قد حملت فكتب لهم في الأرض، إنّي لا أقدر على الكلام ثلاثة أيام.

قال الثعلبيّ رحمه الله: فإن قيل: لِمَ أنكرَ زكريّا ذلك وسأل الآية[1] بعدما بشّرته الملائكة؟ أكان ذلك شكًّا في وَحْيه؟ أم إنكارًا لقُدْرته، وهذا لا يجوز أن يُوصَف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء؟! فالجواب عنه ما قال عِكْرمة والسُّدِّيّ: إنّ زكريّا لمّا سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال: يا زكريّا إنّ الصوت الذي سمِعتَ ليس من الله إنما هو من الشيطان سَخِر بك، ولو كان من الله لأوحاه إليك خَفِيًّا كما ناديته خَفِيًّا وكما يوحي إليك في سائر الأمور؛ فقال ذلك دفعًا للوسوسة[2]. قال: وفيه جواب آخر، وهو أنه لم يشُكّ في الولد وإنما شكّ في كيفيته والوجه الذي يكون منه الولد فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى﴾؟ أي كيف يكون لي ولد؟ أتجعلني وٱمرأتي شابّين أو ترزقنا على كِبَرنا، أو ترزقني من ٱمرأة عاقر، أم من غيرها من النساء؟ فقال ذلك مستخبرًا لا مستنكرًا. وهذا قول الحسن ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ [آل عمران: ٤١] تكُفّ عن الكلام ثلاثة أيام وتُقْبِل بكلّيّتك على عبادتي وطاعتي؛ لأنه ما حبس لسانه عن الكلام ولكنه نُهِي عنه؛ ويدلّ عليه قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. هذا قول قوم من أهل المعاني. وقال آخرون: عُقِلَ[3] لسانُه عقوبةً له لسؤاله الآيةَ بعد مُشافهةِ الملائكة إيّاه، فلم يقدِر على الكلام ثلاثة أيام، لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلّموا إلاّ رَمْزًا.

---

(١) الآية: العلامة.

(٢) الوسوسة: الكلام الخفي، ووسوس له الشيطان: حدّثه بما لا نفع فيه ولا خير.

(٣) عقل لسانه: حُبس عن الكلام.

قال: وفي بعض الأخبار أنه لمّا وُلد يحيى رُفع إلى السماء فغُذِّيَ بأنهار الجنّة حتى فُطِم ثم أنزِل إلى أبيه، فكان يُضيء البيت لنُوره.

واختلفوا في تسميته بيحيى ولم سُمِّيَ بذلك؟ قال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: لأنّ الله تعالى أحيا به عُقْر[١] أمّه. وقال قَتَادة وغيرُه: لأنّ الله تعالى أحيا قلبَه بالإيمان والنبوّة. وقال الحُسين بن الفَضْل[٢]: لأنّ الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يَعْصِ ولم يَهِمّ بمعصية. وقيل: سُمِّي بذلك لأنه ٱستُشهد والشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون.

ويحيى أوّل من أقرّ بعيسى عليه السلام وصدّقه؛ وذلك أنه لمّا كان في بطن أمّه استقبلتها مريم وقد حَمَلتْ بعيسى، فقالت لها أمّ يحيى: يا مريم، أحاملٌ أنت؟ فقالت: لماذا تقولين؟ قالت: إني أرى ما في بطني يسجُد لما في بطنك؛ فذلك تصديقه وإيمانه. وكان يحيى أكبر من عيسى بستّة أشهر، وقُتِل قبل رفع عيسى. وقوله تعالى فيه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] قال ٱبن جُبَير: السيِّد الذي يطيع ربّه عزّ وجل. وقال الضحّاك: السيّد الحَسَن الخُلُق. وقال عِكْرمة: السيّد الذي لا يَغضَب. وقال سُفيان[٣]: السيّد الذي لا يحسُد. وحَصُورًا، قال ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما: هو الذي لا يأتي النساء ولا يقربَهنّ، فَعُول بمعنى فاعل، يعني أنه حَصَر نفسه عن الشهوات: وقال المبرّد: الحَصُور: الذي لا يدخل في اللّعِب ولا الباطل.

ذكر صفة يحيى بن زكريا وحِلْيته

قال كعب الأحبار[٤]: كان يحيى بن زكريّا عليهما السلام حَسَنَ الوجه والصُّورة، ليِّن الجَنَاح[٥]، قصيرَ الأصابع، طويلَ الأنف، مقرونَ الحاجبين، رقيقَ الصوت، كثير العبادة، قويًا في طاعة الله عزّ وجلّ وقد ساد الناس في عبادته.

---

(١) العقر: يقال امرأة عاقر: أي لا تلد.

(٢) هو الحسين بن الفضل بن عُمير البَجَلي، مفسّر معمّر، كان رأسًا في معاني القرآن، أصله من الكوفة، انتقل إلى نيسابور وأنزله عبد الله بن طاهر واليها في دارٍ اشتراها له، فأقام فيها يعلّم الناس، مات سنة ٢٨٢هـ «الأعلام ٢/ ٢٥١».

(٣) سفيان: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث، كان سيّد أهل زمانه في علوم الدّين والتقوى، ولد ونشأ في الكوفة، انتقل بين مكة والمدينة والبصرة حيث مات فيها سنة ١٦١هـ «الأعلام ٣/ ١٠٤».

(٤) كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، من كبار علماء اليهود في اليمن، أسلم زمن أبي بكر، أخذ عنه الصحابة كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، مات في حمص سنة ٣٢هـ «الأعلام ٥/ ٢٢٨».

(٥) الجناح: الجانب من الإنسان.

ذكر نبوّة يحيى عليه السلام وسيرته وزهده

قال الله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]. قيل: هو أن يحيى عليه السلام قال له أقرانه من الصبيان: يا يحيى اذهب بنا نلعب؛ فقال: أللّعِبِ خُلِقتُ! وقال الآخرون: هو أنه نبيّ وهو صغير، وكان يَعِظ الناس ويقِف لهم في أعيادهم وجَمعهم يدعوهم إلى الله تعالى، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس.

ولمّا بعثه الله عزّ وجل إلى بني إسرائيل أمره أن يأمرهم بخمس خِصال وضرَب لكلّ خَصْلة منها مثلاً.

أمرهم أن يعبدوا الله تعالى ولا يُشركوا به شيئًا وقال: مَثُلُ الشِّرْكِ مَثُلُ رجُل اشترى عَبيدًا من خالص ماله ثم أسكنهم دارًا له ودفع لهم مالاً يتّجرون فيه ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه، ويؤدّون إليه فضل الرِّبح[١]، فعمدَ العَبِيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى غير سيّدهم.

وأمرَهم بالصلاة وقال: إنّ مَثَل المُصلّي كمثَل رجل استأذنَ على ملكٍ فأذِن له ودخل عليه، فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضيَ حاجته، فلما دخل الرجل ٱلتفت يمينًا وشمالاً ولم يَهُمّ بحاجته، فأعرض الملك عنه بوجهه ولم يقض حاجته.

وأمَرَهم بالصدقة وقال: مثلها كمثل رجل أسره العدوّ فٱشترى[٢] منهم نفسه بثمن معلوم، فجعل يعمَل في بلادهم ويؤدّي إليهم من كَسْبه القليلَ والكثيرَ حتى وفّى ثمنه فأُعتق.

وأمَرهم بذكر الله تعالى وقال: مَثَلُ الذِّكْر مثل قوم لهم حِصْنٌ ولهم عدوّ، فإذا أقبل عليهم عدوّهم دخلوا حِصْنهم فلم يقدر العدوّ عليهم، كذلك مَن ذكر الله عزّ وجلّ لا يقدِر عليه الشيطان.

وأمَرهم بالصيام وقال: مثله كالجُنّة[٣] لا يصل عدوّه إليه. وكان عليه السلام فيهم كثير التقشُّف والعبادة والزهد والسياحة إلى أن قُتل عليه السلام.

---

(١) فضل الرّبح: زيادته عن الحاجة. (٢) اشترى منهم نفسها: خلّصها من الأسر.

(٣) الجنجة: السّتر، وكل ما وقى النفس من سلاح.

ذكر مقتل يحيى بن زكريّا وأبيه زكريّا عليهما السلام

اختلف العلماء في سبب قتل يحيى؛ فقال بعضهم: كان يحيى عليه السلام في زمن مَلِكٍ من ملوك بني إسرائيل، وكانت له ٱمرأةٌ وهي بنت ملك صَيْدَا[١]، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين، وكانت عاهرة تبرُز للناس، وكان يحيى يزجُرُها عن ذلك ويقول لها: لا تبرُزين كاشفةً عن وجهِك. وكان كثيرًا ما يقول لها: مكتوبٌ في التوراة: إنّ الزُّناة يُوقَفُون يوم القيامة ورِيحهم أنتنُ من الجِيَف. فأمرتْ بيحيى فسُجِن. وكان قد حُبِس رجلٌ من أبناء الملوك، وكان يختلف إليها، فعلم بها وبه يحيى فزجره، فبلغ ذلك ٱمرأة الملك فحملتْ بنتًا لها وٱستقبلت بها زوجها. فقالت: لم فعلتِ ذلك؟ فقالت: وجَبَ لها عليك حقّ. فقال: سَلِيني ما شئتِ. فسألته أهلَ السجن. فظنّ أنها ترحمهم وتسرّحهم فقال: قد فعلتُ. فأمرت المرأة بأهل السجن فعُرضوا. فلمّا مُرّ بيحيى أمرت به فذُبح في طَسْت ثم حملت الطست إلى أبيها بأمر أمّها وقالت: أيها الملك، إني ذبحتُ لك ذبيحةً من أعظم ما وجدتُ، ولو كان مثلُه ألفًا لذبحتهم لك. فقال: ومَن هو؟ قالت: يحيى بن زكريا. قال: هلكتِ وأهلكتِ أبويك. فغيّر الله ما بهم من النعم، وسلّط عليهم عدوَّهم فذبح البنت وأبويها، وسلّط عليهم الكلاب حتى أكلتهم.

وقال الثعلبيّ في تفسيره: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق بن يَسَار قال: عبرت[٢] بنو إسرائيل بعدما عمرت الشام، وعادوا إليها بعد خراب بُخْتَنَصَّر إياها وسَبْيهم منها، فجعلوا بعد ذلك يُحدثون[٣] الأحداث بعد مَهْلَكِ عُزَير عليه السلام، ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الأنبياء، ففريقًا يكذّبون وفريقًا يقتلون، حتى كان آخرُ من بعث الله تعالى فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام. فمات زكريا وقُتل يحيى بسبب نَهْيه الملك عن نكاح ٱبنته في قول عبد الله بن الزبير، وٱبنة ٱمرأته في قول السُّدِّيّ، وٱبنة أخيه في قول ٱبن عباس رضي الله عنهما وهو

---

(١) صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال دمشق، شرقي صور، بينهما ستة فراسخ، قالوا: سمّيت بصيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، فتحها المسلمون في خلاف عمر سنة ٦٣٨م «انظر معجم البلدان ٣/ ٤٣٧».

(٢) عبرت: كذا في الأصول، ولعلّها: غبرت، أي مكثت وبقيت، وهو أقرب إلى سياق النصّ ومعناه.

(٣) يحدثون الأحداث: أي يأتون بالأعمال المنكرة.

الأصح إن شاء الله تعالى؛ لِمَا رَوَى الأعمش[١] عن المِنْهَال[٢] عن سَعيد بن جُبير عن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: بَعَث عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا عليهم السلام في ٱثني عشر من الحَوَاريّين يعلّمون الناس، فكان مما نَهَوْهم عنه نكاحُ ٱبنة الأخ. قال: وكانت لملكهم ٱبنة أخ تُعجبه يريد أن يتزوّجها، وكانت لها في كل يوم حاجةٌ يقضيها لها. فلمّا بلغ ذلك أمّها أنه نهى عن نكاح بنت الأخ قالت لٱبنتها: إذا دخلتِ على الملك فسألكِ فقولي له: [حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا. فلمّا دخلت عليه سألها حاجتها قالت: حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا. فقال:][٣] سَلِينِي غير هذا. قالت: لا أسألكِ إلا هذا. فلمّا أبت عليه دعا بيحيى ودعا بطَسْت فذبحه فيه، فندّت[٤] من دمه قطرة على الأرض، فلم تزل تَغْلي حتى بعث الله عزّ وجل ملك بابل، فقتل عليها من بني إسرائيل حتى سكنت. وقد تقدّم أيضًا خبر مقتله، وأنّ بختنصّر هو الذي قَتَل على دمه حتى سكن[٥]. والصحيح أن بختنصّر إنما قَتَل بسبب قتل شَعْيَا عليه السلام.

قال الثعلبيّ أيضًا: وقال علماء النصارى: إنّ قتل يحيى كان على يدَيْ ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له هِيرُودُس بسبب ٱمرأة يقال لها هَرْدُوبَا، كانت امرأة أخ له يقال له فَلْفُوس، عَشِقها فوافقته على الفجور، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحلّ له، فسألت المرأة هِيرُودُس أن يأتيها برأس يحيى ففعل، ثم سُقِط[٦] في يده وجزِع جَزَعًا شديدًا.

وقال كعب: كان يحيى عليه السلام من أحسن الناس وجهًا وأجملهم في زمانه، فأحبّته ٱمرأة الملك الذي كان في ذلك الزمان حبًّا شديدًا، فأرسلت إليه تراوده[٧]، فأرسل إليها أنه لا عِلْم له بالنساء والملِك أحقّ أن يطأ[٨] فِراشَه. فلمّا جاءها الرسول

---

(١) الأعمش: هو سليمان بن مهران الحافظ، أبو محمد الكاهلي، أحد الأعلام من رجال الحديث، قال ابن المديني: له ألف وثلاثمائة حديث... عاش ثمانيًا وثمانين سنة، مات في ربيع الأول سنة ١٤٨هـ «الكاشف ١/ ٣٢٠».

(٢) المنهال: هو المنهال بن عمرو الأسدي، محدث ثقة، روى عنه الأعمش وشعبة «انظر الكاشف ٣/ ١٥٧».

(٣) زيادة عن الثعلبي، وعبارة الأصول مضطربة.

(٤) ندّت: شردت ونفرت. (٥) سكن: هدأ.

(٦) سقط في يده: عبارة تقال لكلّ من ندم أو حزن وتحسّر على فائت من فعل أو ترك أو عجز.

(٧) تراوده: طلبت منه أن يستسلم لها ويفجر بها.

(٨) يطأ فراشه: أي يجامع امرأته.

غضِبتْ وقالت: كيف لي أن أقتله حتى لا يخبر الناسَ أني قد راودته!. فلم تزل بالملك حتى وهب لها رأسَ يحيى بن زكريّا، وأرسلت إليه وهو قائم يصلّي في محراب داود في بيت المقدس فضُرِب عنقه وأخذ رأسه. فلمّا أرادوا أن يأخذوا رأس يحيى خَسَفَ الله بها وبأهلها الأرض عقوبةً لقتلها يحيى عليه السلام.

قال كعب: فلمّا رأى زكريّا أن ٱبنه يحيى قد قُتِل وخُسِف بالقوم انطلق هاربًا في الأرض، حتى دخل بستانًا عند بيت المقدس فيه أشجار. وأرسل الملك في طلبه غضبًا لما لَقِيَتِ المرأة وأهلها. فمرّ زكريّا بشجرة من تلك الأشجار فنادته الشجرة يا نبيّ الله، هَلُمّ إلى هاهنا. فلمّا أتاها التفّت عليه الشجرة ودخل زكريا عليه السلام في وَسَطها، فانطلق عدوّ الله إبليس لعنه الله حتى أخذ بطَرَف ردائه، فأخرجه من الشجرة ليصدِّقوه إذا أخبرهم، وجاء الذين يلتمسون زكريّا، فأخبرهم إبليس أنه دخل الشجرة؛ فقالوا: لا نصدّقك. قال: فإني أُريكم علامة تصدّقونني بها. قالوا: فأَرِناها، فأراهم طَرَف ردائه، فأخذوا الفؤوس فضربوا الشجرة حتى قطوها بٱثنتين، فسلّط الله عليهم أخبثَ أهل الأرض عِلْجًا[١] مجوسيًّا[٢]، فٱنتقم الله من بني إسرائيل بدم يحيى وزكريّا، فقتل عظماء بني إسرائيل وسَبَى منهم مائة ألف وعشرين ألفًا.

وقد قيل في سبب قتل زكريا غير هذا، وسنذكره إن شاء الله في أثناء أخبار عيسى ابن مريم على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر هلاك بني إسرائيل وخراب بيت المقدس ثانيًا

قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى في بعض طُرُقه[٣] عن محمد بن إسحاق: إن خراب بيت المقدس ثانيًا وقَتْلَ بني إسرائيل كان بعد رفع عيسى ابن مريم وقَتْلِ يحيى بن زكريّا. فلمّا فعلوا ذلك سلّط الله تعالى عليهم ملِكًا من ملوك بابل يقال له خَرْدُوس، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام؛ فلمّا ظهر عليهم أمر رأسًا من رؤوس أجناده يدعى نَبُوزَرَادان صاحب الفيل فقال له: إني قد كنتُ حلفتُ بإلٰهي إن أنا ظهرتُ على أهل بيت المقدس لأقتلنّهم حتى تَسيل دماؤهم في وسَط عسكري إلى ألاّ أجد أحدًا أقتله، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، وأن نَبُوزَرَادَان دخل بيت المقدس فقتلهم في البقعة التي كانوا يقرّبون فيها قُربانهم، فوجدوا فيها دمًا يَغْلي

(١) العلج: يطلق على الكافر من غير المسلمين، والعلج أيضًا: الشديد القاسي من الرجال.
(٢) المجوسي: الذي يعبد الشمس والقمر والنار من دون الله.
(٣) طرقه: أي أسانيده، أو كتبه.

فسألهم عنه فقالوا: هذا دَمُ قُربان قرّبناه فلم يُتَقَبَّلْ منّا فلذلك هو يَغْلِي كما تراه، ولقد قرّبنا منذ ثمانمائة سنة القُربان فتُقُبِّل منا إلاّ هذا القربان. فقال: ما صَدَقتموني الخبر. قالوا له: لو كان كأوّل دمائنا لقُبل ولكنّه قد انقطع منّا المُلْك والنبوّة والوَحي فلذلك لم يُقْبَل. فذبح منهم نَبُوزَرَادَان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رُوحًا من رؤوسهم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد. فلمّا رأى نَبُوزَرَادَان أن الدم لا يهدأ قال لهم: ويلكم يا بني إسرائيل! اُصْدُقوني واْصبروا على أمر ربكم، فقد طالما ملكتم الأرض تفعلون فيها ما شئتم، قبل ألاّ أترك نافخ نار ذكرًا أو أنثى إلا قتلته. فلمّا رأَوُا الجهدَ[1] وشدّة القتل صدَقوه الخبر فقالوا: إن هذا دم نبيّ منّا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَط الله، فلو أطعناه لكان أرشد لنا، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدِّقه فقتلناه فهذا دمه. فقال لهم: ما كان اْسمُه؟ قالوا: كان اسمه يحيى بن زكريّا. قال: الآن صدَقتموني، لمثل هذا ينتقم منكم ربكم. ولمّا رأى أنهم قد صَدَقوه خرّ ساجدًا وقال لمن حوله: أغلقوا باب المدينة وأخرجوا مَن كان هاهنا من جيش خَرْدُوس. وخلا في بني إسرائيل ثم قال: يا يحيى بن زكريا، قد علم ربّي وربّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قُتِل منهم، فاْهدأ بإذن الله تعالى قبل ألاّ أبقي من قومك أحدًا، فهدأ دم يحيى بن زكريّا بإذن الله تعالى، ورفع نَبُوزَرَادان عنهم القتل وقال: آمنتُ بما آمنت به بنو إسرائيل وصدّقت به وأيقنت أنه لا ربّ غيره.

فأوحى الله تعالى إلى رأس من رؤوس بقيّة الأنبياء عليهم السلام أن نَبُوزَرَادان حَبُور صَدُوق ـ والحبور بالعبرانية حديث الإيمان ـ فقال نَبُوزَرَادان: يا بني إسرائيل، إنّ عدوّ الله خَرْدُوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وَسَط عسكره، وإني لستُ أستطيع أن أعصيه. قالوا له: افعل ما أُمرتَ به، فأمرهم أن يحفِروا خَنْدَقًا وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمُر والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتلوا قبل ذلك فطُرحوا على ما قُتل من مواشيهم حتى كانوا فوقها. فلمّا بلغ الدم عسكر خَرْدُوس أرسل إلى نَبُوزَرَادَان أنِ اْرفع عنهم القتل فقد بلغتني دماؤهم. ثم اْنصرف عنهم إلى بابل وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد. وهذه هي الوقعة الآخرة التي أنزل الله تعالى فيها وفي الأولى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٥] فكان بختنصّر وجنودُه. ثم ردّ الله لهم الكرّة عليهم. وكانت الوقعة الآخرة خَرْدُوس وجنوده فلم تقُم لهم بعد ذلك راية.

---

(١) الجهد: العذاب والمشقة.

وانتقل المُلك بالشام ونواحيها إلى الروم واليونان، إلاّ أنّ بقايا بني إسرائيل كثروا وانتشروا بعد ذلك. وكانت لهم الديانة والرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك. وكانوا في نَعْمة ومَنَعَة[١] إلى أن بدّلوا وأحدثوا الأحداث واستحلّوا المحارم وضيّعوا الحدود[٢]، فسلّط الله تعالى عليهم طَطُوس بن اسفَيَانوس الرومي فأخرب بلادهم وطردهم عنها، ونزَع الله تعالى منهم المُلْك والرياسة وضرب[٣] عليهم الذلّ، فليسوا في أمّة من الأمم إلاّ وعليهم الصَّغَار[٤] والجزية والمُلْك في غيرهم. وبقي بيت المقدس خرابًا إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعمّره المسلمون بأمره.

قال: ورَوَى أبو عَوَانة[٥] عن أبي بشر[٦] قال: سألت سَعِيد بن جُبَير عن قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] فقال: أمّا الذين جاسوا[٧] خلال الديار فكان صَرْخان[٨] الخزريّ شعَّث[٩] من الديار وتَبَّر[١٠]. ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦] إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٧] إلى قوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] قال: هذا بختنصّر الذي خرّب بيت المقدس. ثم قال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] قال: فعادوا فعِيدَ عليهم، فبعث الله تعالى عليهم ملك الروم. ثم عادوا أيضًا فعِيدَ عليهم، فبعث عليهم درم أوزن ملك الريّ[١١]. ثم عادوا أيضًا فعيد عليهم، فبعث عليهم سابورَ ذا الأكتاف[١٢].

---

(١) المنعة: العزّ والقوّة.

(٢) الحدود: مفردها الحدّ، وهو العقوبة الشرعية التي يفرضها الدّين على مرتكبي الآثام.

(٣) ضرب عليهم الذل: أي أذلّهم. (٤) الصّغار: الذلّة.

(٥) أبو عوانة: هو الوضاح بن عبد الله الحافظ، أو الوضّاح بن خالد، اليشكري مولى يزيد بن عطاء محدّث ثقة، متقنٌ لكتابه، توفي سنة ١٧٦هـ «الكاشف ٣/٢٠٧».

(٦) هو أبو بشر العنبري: الوليد بن مسلم، محدّث ثقة «انظر الكاشف ٣/٢١٣».

(٧) جاسوا خلال الدّيار: تردّدوا بين الدّيار جائين ذاهبين وقيل: يقتلونهم جائين ذاهبين «القرآن الكريم المفسّر».

(٨) هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل، ملك الرّوم.

(٩) شعّث: فرّق. (١٠) تبّر: أهلك ودمّر.

(١١) الريّ: مدينة مشهورة من أمّهات البلاد وأعلام المدن الكثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا، وهي داخلة في الإقليم الخامس «انظر معجم البلدان ٣/١١٦».

(١٢) هو سابور «ذو الأكتاف» بن هرمز بن نرس بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك من بني ساسان، أحد ملوك الفرس «انظر جمهرة أنساب العرب ٢/٥١١».

وقال قتادة: هذه الآيةُ قضاءٌ قُضِيَ على القوم كما يسمعون، فبعث عليهم في الأولى جالوت فسبى وقتل وخرّب بيتَ المَقْدِس وسامهم(١) سوء العذاب، ثم قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] فعاد الله عليهم برحمته. ثم عاد القوم بشرّ ما يحضُرهم. فبعث الله تعالى عليهم ما شاء أن يبعث من نَقْمته وعقوبته. ثم بعث الله تعالى عليهم هذا الحيّ من العرب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] فهم بهم في عذاب إلى يوم القيامة.

وهذه الأخبار التي أوردناها في هذا المكان من خبر زكريّا ويحيى وخراب بيت المقدس ثانيًا، منها ما كان في زمن عيسى عليه السلام، ومنها ما كان بعد رفعه. وإنما أوردناها سياقة وتركنا خبر عيسى عليه السلام لئلا تنقطع بغيرها وليتلو بعضها بعضًا. فلنرجع إلى أخبار عيسى ابن مريم عليه السلام.

ذكر خبر حمل مريم بنت عمران بعيسى عليهما السلام

قال الكسائيّ رحمه الله تعالى: وكانت مريم تنمو وتزيد في كل يوم وتعبد الله تعالى حتى برّزت(٢) في العبادة على نساء بني إسرائيل. فلمّا بلغت مبلغ النساء أتت منزل زكريّا، فقال لها: كيف خرجتِ من بيتك ومفتاحه معي؟ قالت: إني رأيت أمرًا قبيحًا ـ أرادت بذلك الحيض ـ فجئتك بإذن الله. فأمرها زكريّا أن تكون عند خالتها حتى تطهُر، ففعلت ذلك. فلما طهُرت واغتسلت عادت إلى عبادتها. فكان ذلك عادتها وشأنها إذا حاضت. فذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٧] أي سترًا ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] يعني جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] أي في صورة رجل ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨] أي مطيعًا لربك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٩ ـ ٢١] ثم نفخ في جيبها فوصلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى لوقتها. ويقال: إنّ زكريّا في ذلك الوقت أفضى إلى امرأته فحملت بيحيى. وقيل: إنّ امرأة زكريّا حملت قبل مريم بثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر. وكانت مريم إذ ذاك بنت خمس عشرة سنة، وقيل ثلاث عشرة سنة.

---

(١) سامهم العذاب: أي أذلّهم وألحق بهم. (٢) برّزت: ظهرت وتفوّقت.

وحكى الثعلبيّ في قصة حمل مريم أنه كان معها في المسجد ٱبن عمّ لها من المحرَّرين(١) يقال له يوسف بن يعقوب النجّار، وكان رجلاً حكيمًا نجّارًا، يتصدّق بعمل يديه، وكان يوسف ومريم إذا نفِد ماؤهما أخذ كل واحد منهما قُلّته(٢) وٱنطلق إلى المغارة التي فيها الماءُ يستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة. فلمّا كان اليومُ الذي لَقِيها فيه جبريل، كان أطول يوم في السنة وأشدَّ حرًّا، نفِد ماؤها، فقالت: يا يوسف، ألاَ تذهب بنا نستقي؟ فقال لها: إنّ عندي لفضلاً من ماء أكتفي به في يومي هذا إلى غد. قالت: لكني والله ما عندي ماء، فأخذت قُلّتها ثم ٱنطلقت وحدها حتى دخلت المغارة، فوجدت عندها جبريل عليه السلام، قد مثّله الله عزّ وجل بشرًا سويًّا؛ فقال لها: يا مريم، إنّ الله قد بعثني إليك لأهَبَ لكِ غلامًا زكيًّا. قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. قال عِكْرمة: وكان جبريل قد عرَض لها في صورة شابّ أمردَ(٣) وضيء(٤) الوجه، جَعْد الشعر، سويّ الخَلْق. قال الحكماء: وإنما أرسله الله تعالى في صورة البشر لتثبُت مريم عليها السلام وتقدِر على ٱستماع كلامه، ولو أتاها على صورته التي هو عليها لَفَزِعت ونفَرت عنه، ولم تقدِر على ٱستماع كلامه. فلمّا ٱستعاذت مريم منه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] الآية. فلما قال ذلك استسلمتْ لقضاء الله تعالى. فنفخ جبريل في جيب دِرْعها(٥)، وكانت قد وضعته(٦)، ثم انصرف عنها. فلما لبِست مريم درعها حملت بعيسى عليه السلام، ثم ملأت قُلّتها وٱنصرفت إلى المسجد. وقال السُّدّيّ وعِكْرمة: إنّ مريم عليها السلام كانت تكون في المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها حتى إذا طهُرت عادت إلى المسجد. فبينما هي تغتسل من الحيض وقد أخذت مكانًا شرقيًا ـ قال الحسن(٧): إنما اتخذت النصارى الشرق قِبلةً لأن مريم انتبذت مكانًا شرقيًا ـ فاتخذت، فضربت من دونهم حجابًا، أي سترًا. وقال مقاتل: جعلت الجبل بينها وبين قومها، فبينما هي كذلك إذ عرض لها جبريل وبشّرها ونفخ في جيب درعها.

---

(١) المحرّر: الذي أفرد لخدمة المسجد وعبادة الله.

(٢) القلّة: إناء من الفخار يشرب منه.

(٣) الأمرد: الذي طرّ شاربه ولم تبدُ لحيته بعد.

(٤) الوضيء: حسن الوجه وجميله.

(٥) الدّرع: قميص المرأة.

(٦) وضعته: خلعته، ونضّته عن جسدها.

(٧) هو الحسن البصري، تقدّمت ترجمته.

قالوا: فلما اشتملت على عيسى وتبيّن حملُها داخلها الغمّ وعلمت أنّ بني إسرائيل سوف يقذِفونها[١]، فنادتها الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] أي من الحيض ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣]. قال: وبشّرها الله تعالى بعيسى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦]. ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩] الآية فطابت نفسها. قال وَهْب: فلمّا اشتملت[٢] على عيسى وكان معها يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي بجبل صِهْيَوْن ـ وجبل صهيون على باب بيت المقدس ـ وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم، وكانت مريم ويوسف يخدمان ذلك المسجد، وكان لخدمته فضل عظيم، فكانا يَلِيان معالجته بأنفسهما وتطهيره، وكان لا يُعْلَم أحدٌ من أهل زمانهما أشدّ اجتهادًا وعبادة منهما. فكان أوّل مَن أنكر حمل مريم يوسف النجّار. فلما رأى ما بها استعظمه وقُطع[٣] به ولم يدر على ماذا يضع أمرَها. فكان إذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تَغِب عنه، وإذا أراد أن يبرّئها رأى الذي ظهر بها من الحمل. فلما ٱشتدّ ذلك عليه كلّمها، فكان أوّل ما كلّمها به أن قال لها: إنه قد وقع[٤] في نفسي منك ومن أمرك شيء، وقد حَرصت على أن أكتُمه فغلبني ذلك ورأيتُ أنّ الكلام فيه أشفَى لصدري. فقالت: قل قولاً جميلاً. قال: خبِّريني يا مريم، هل ينبُت زرع بغير بَذْر؟ قالت نعم. قال: فهل تنبُت شجرة بغير غيث يصيبها؟ قالت نعم. قال: فهل يكون ولدٌ من غير فَحْل؟ قالت: ألم تعلم أنّ الله عزّ وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بَذْر، والبِذَارُ إنما تكون من الزرع الذي كان أنبته من غير بذر! ألم تعلم أن الله عزّ وجل أبنت الشجر من غير غيث، وبالقَدَر جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق كل واحدة على حدة! أوَتقول إن الله لا يقدر على إنباته! قال يوسف لها: لا أقول هذا، ولكني أعلم أن الله تبارك وتعالى يقدر على ما يشاء، يقول

(١) يقذفونها: يرجمونها بالحجارة كما يُفعل بالزّناة.
(٢) اشتملت على عيسى: أي حملته في بطنها.
(٣) قُطع به: يئس أو حيل بينه وبين ما يريده من اليأس والحيرة.
(٤) وقع في نفسي منك: أي حصل أمرٌ حملني على الشك.

لذلك: كُنْ فيكونُ. فقالت له مريم: أوَلم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وٱمرأته حوّاء من غير ذكر ولا أنثى! قال بلى. فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من أمر الله، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لِما رأى من كتمانها. وقال الكسائيّ: لما قال يوسف لمريم: هل يكون ولد من غير فَحْل؟ قالت: نعم، آدم من غير أب وأمّ. قال صدقتِ. ثم قال: هذا الولد الذي في بطنك مَن أبوه؟ قالت: هذا هبة ربّي لي، ومَثَلُه كمثل آدم خلقه من تراب. فنطق عيسى في بطنها وقال: يا يوسف ما هذه الأمثال التي تضربها! قم فٱشتغل بصلاتك وٱستغفر لذنبك مما قد وقع في قلبك. فقام يوسف وجاء إلى زكريّا وأخبره، فاغتمّ وقال لٱمرأته: إنّ مريم حاملٌ، وأخاف من فُسّاق بني إسرائيل أن يتّهموا يوسف بها. قالت: توكّل على الله وٱستعن به فإنه يردّ عنها مقالة الفُسّاق.

قالوا: ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمله فيه لما رأى من رقّة جسمها، وٱصفرار لونها، وكَلَف[(١)] وجهها، ونتوء بطنها[(٢)]، وضعف قوّتها. والله أعلم.

ذكر خبر ميلاد عيسى ابن مريم عليهما السلام

قال الكسائيّ رحمه الله: فلمّا دنا وقت الولادة خرجت مريم في جوف الليل من منزل زكريا حتى صارت إلى خارج بيت المقدس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢]. قال: وأخذها الطَّلْق، فنظرت إلى نخلة يابسة فجلست تحتها فاخضَرَّت النخلة من ساعتها وصار لها سَعَفًا[(٣)] وخُوصًا[(٤)] وحملت الرُّطَب[(٥)] لوقتها وأنبع الله في أصل النخلة عينًا من الماء. قال: وعن وهب أنه لمّا دنت ولادة مريم عليها السلام أوحى الله تعالى إليها أن تخرج من المحراب فتتبوّأ منزلاً تلد فيه، فتحوّلت إلى بيت خالتها أمّ يحيى بن زكريا لتَلِد في بيتها. قال: فلمّا دخلت عليها استقبلتها أمّ يحيى وسلّمت عليها. فلمَّ ٱلتقيا أحسّت أمّ يحيى بسجود مَن في بطنها، فقالت: يا مريم، إن الذي في بطني يسجد لما في بطنك.

---

(١) الكلف: حمرة كدرة تعلو الوجه، أو هو لون بين السّواد والحمرة والكلف: شيء يعلو الوجه ويُعرف «بالنّمش».

(٢) نتوء البطن: بروزها.

(٣) السّعف: أغصان النخيل.

(٤) الخوص: ورق النخيل.

(٥) الرّطب: ثمر النخل، إذا أدرك ونضج.

قالوا: ثم أوحى الله تعالى إلى مريم أن تخرج من أرض بَيْتَ[١] لَحْمَ إلى جهة من الأرض تلد فيها، فحملها يوسف النجّار على حمار بأُكَاف[٢] ليس بينها وبين الأُكَاف غير ثوبها وهي مُثْقِلة لا تكاد تقوم. فانطلقا في سواد الليل من بَيْتَ لَحْمَ يؤمّان[٣] الجبال، حتى إذا كانا ببعض الطريق بين نخلات ينزلها الرُّكبان، بينهنّ أَوَارِيّ[٤] مبنيّة بناها السَّفْر[٥] ليعلّقوا[٦] فيها دوابّهم. فنزلا ذلك المنزل، فأدركها المخاض، فالتجأت إلى بعض تلك الأوارِيّ وهو في أصل جِذْع نخلة يابس قَحْل ليس فيه عَرَاجين[٧] ولا غيرها، فأنبته الله تعالى وأثمره حتى أظلّها وأكنّها[٨] وتدلّت عليها غصونه من كل جانب حتى سترها السَّعَف والعراجين. واشتدّ بها الطَّلْق وداومها سبع ليال، وأشرفت على الموت، فقالت ما أخبر الله تعالى به عنها، قال الله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣]. قال: واشتدّ عليها البرد، فعمد يوسف إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة، ثم أشعل فيه النار فأدفأها، وكسر لها سبع جَوْزات فأكلتها. فمن أجل ذلك تُوقِد النصارى النارَ ليلة الميلاد وتلعب بالجوز. قال وقال كعب: إنها خرجت منفردة، فلمّا فقدها زكريّا أهمّه ذلك، وبعث يوسف النجّار في طلبها، فجاء حتى نظر إليها تحت النخلة. قال: ولمّا شكت من ألم الولادة ما شكت وقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ

---

(١) بيت لحم: قرية صغيرة في فلسطين، ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام، وهي إلى الجنوب من أورشليم، محاطة بتلال تكسوها الأشجار وفيها مياه عذبة تتفجر من أراضيها الخصبة «انظر قاموس الكتاب المقدّس، وقاموس الجغرافية القديمة».

(٢) الآكاف: برذعة الحمار. (٣) يؤمّان الجبال: يقصدانها.

(٤) الأواري: مفردها أريّ، وهو محبس الدّابة. (٥) السّفر: جماعة المسافرين.

(٦) قوله: (ليعلقوا فيها دوابهم) فيها أي في (الأواري) وهي الذرائب التي تحبس فيها الدواب وصواب (ليعلقوا) بالقاف (ليعلفوا) بالفاء من العلف وهو إطعام الدابة. نعم: (العليق) بالقاف يكون بمعنى علف الدابة غير أن فعله وهو (علق يعلق) معناه أن يمد البعير مشفره إلى أعلى الشجرة ويرعى من ورقها. قال صاحب النهاية في تفسير حديث «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمار الجنة» أي تأكل وهو في الأصل للإبل إذا أكلت شجرة العضاه. (فنقل إلى الطير اهـ) ولا يخفى أن الطير حينما تنقر الأثمار من فوق الأشجار تكون شبيهة بالإبل التي تمد أعناقها وتتناول قوتها من أعالي الأشجار. والمؤلف يقول: إن المسافرين من بني إسرائيل بنوا أواري أي زرائب لدوابهم بين نخلات لأجل أن تتناول من العلف ما يسدّ جوعتها. ولا يتصور من هذه الدواب وهي محبوسة في الذرائب المبنية بين أشجار النخيل أن تعلق وإنما هي تعلف.

(٧) العراجين: مفردها عرجون، وهو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسًا، سمّي بذلك لانعراجه.

(٨) أكنّها: سترها.

قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي لا تُعْرَف ولا تذكر ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قيل: إن الذي ناداها عيسى. وقيل: جبريل ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤] وهو الجدول الصغير. قالوا: كان نهرًا من ماء عذب، يكون باردًا إذا شربت منه، وفاترًا إذا ٱستعملته ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥] أي نضيجًا ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ [مريم: ٢٦] أي كلي واشربي من الماء الذي أنبعه الله لك وقرّي عينًا بهذا الولد ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ [مريم: ٢٦] أي صمتًا ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦].

قال: فلما جاء يوسف النجّار كلّمها فلم تتكلم، فتكلّم عيسى في حِجْرها[١] وقال: يا يوسف، أبشر وقَرَّ عينًا وطِبْ نفسًا، فقد أخرجني ربي من ظلمة الأرحام إلى ضوء الدنيا، وسآتي بني إسرائيل وأدعوهم إلى طاعة الله.

واختلف العلماء في مدّة حمل مريم عليها السلام بعيسى ووقت وضعها إياه، فقال بعضهم: كان تسعة أشهر كحمل سائر النساء، وقيل: ثمانية أشهر، وكان ذلك آية[٢] أخرى لأنه لم يعش مولود يوضع لثمانية أشهر غير عيسى، وقيل: ستة أشهر، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل ساعة واحدة. وقال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت، ولم يكن بين الحمل والٱنتباذ[٣] إلا ساعة واحدة؛ لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلاً. وقال مُقاتل: حملته مريم في ساعة وصُوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وهي بنت عشر سنين، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى عليه السلام. قال: فٱنصرف يوسفَ إلى زكريّا وأخبره بولادة مريم وكلام عيسى، فٱزداد زكريّا غمًّا لما يقوله الناس.

قال الثعلبيّ قال وهب: فلما وُلد عيسى عليه السلام أصبحتِ الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رؤوسها، ففَزِعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك، فساروا مسرعين حتى جاؤوا إبليس وهو على عرش له في لُجّة[٤] خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء، فأتَوْه وقد خلت ستّ ساعات من النهار. فلمّا رأى إبليس جماعته فزع من ذلك ولم يرهم جميعًا منذ فرّقهم قبل تلك الساعة إنما كان يراهم أشتاتًا، فسألهم، فأخبروه أنه حدث في الأرض حادث أصبحت الأصنام كلها منكوسةً على رؤوسها، ولم يكن شيء أعون[٥] على هلاك بني آدم منها لما يدخل في أجوافها فتكلّمهم وتدبّر أمرهم، فيظنّون أنها هي التي تكلّمهم، فلمّا أصابها هذا الحادث صغّرها في أعيُن بني

---

(١) حجر المرأة: حضنها.
(٢) الآية: المعجزة والعلامة.
(٣) الانتباذ: الوضع والولادة.
(٤) اللّجّة: معظم الماء.
(٥) أعون: من العون، وهو المساعدة.

آدم وأذلّها، وقد خَشِينا ألاّ يعبدها بعد هذا. وٱعلم إنّا لم نأتك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء، فلم نزدد بما أردنا إلا جهلاً. فقال لهم إبليس: إنّ هذا لأمرٌ عظيم، فكونوا على مكانكم. وطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات، فمرّ بالمكان الذي وُلد فيه عيسى عليه السلام. فلمّا رأى الملائكة مُحْدِقين بذلك المكان علم أنّ ذلك الحادث فيه، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رؤوس الملائكة ومناكبهم[١] إلى السماء، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدامُ الملائكة راسيةٌ، فأراد أن يدخل من بينهم فنحَّوْه عن ذلك، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال: ما جئتكم حتى أحصيت الأرض كلها شرقها وغربها وبرّها وبحرها والخافِقَيْنِ[٢] والجوّ الأعلى، وكل هذا بلغته في ثلاث ساعات، وأخبرهم بمولد عيسى عليه السلام وقال: ما ٱشتملت قبله أمّ على ولد إلاّ بعلمي، ولا وضعته قطّ إلاّ وأنا حاضرها. وإني لأرجو أن أُضِلَّ به كثيرًا ممن يهتدي، وما كان نبيّ قبله أشدّ عليّ وعليكم من هذا المولود.

قال: ثم خرج من تلك الليلة قوم يؤمُّونه من أجل نجم طلَع، وكانوا قبل ذلك يتحدّثون أنّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دَانِيَال، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمُرُّ[٣] واللُّبان[٤]، فمرّوا بملك[٥] من ملوك الشام، فسألهم أين تريدون؟ فأخبروه بخبرهم. قال: فما بال الذهب والمرّ واللُّبان أهديتموه له من بين الأشياء كلها[٦]؟ قالوا: تلك أمثاله؛ لأنّ الذهب سيّد المتاع كله، وكذلك هذا النبيّ سيد أهل زمانه. ولأنّ المرّ يجبر به الكسر والجُرْح، وكذلك هذا النبيّ يَشْفِي الله تعالى به كل سقيم ومريض. ولأن اللُّبان يبلغ دُخَانه إلى السماء ولا يبلغها دُخان غيره، وكذلك هذا النبيّ يرفعه الله تعالى إلى السماء ولا يرفع في زمانه أحدًا غيره. فلمّا قالوا ذلك للملك حدّث نفسه بقتله فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني ذلك فإني راغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره. فٱنطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهديّة إلى مريم، وأرادوا أن يرجعوا إلى الملك ليعلموه بمكان عيسى، فلقيهم مَلَكٌ

---

(١) المناكب: واحدها منكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف.

(٢) الخافقان: هما أفق المشرق وأفق المغرب.

(٣) المرُّ: صمغ شجر، وهو دواء نافعٌ للسّعال ولسع العقرب ولديدان الأمعاء، طيّب الرائحة.

(٤) اللّبان: نبات من الفصيلة البخوريّة يفرز صمغًا وهو الكندر.

(٥) هو هيرودس الأكبر الذي حكم من ٤٠ إلى ٤ قبل الميلاد، والتاريخ المسيحي متأخر عن وقته الأصلي بأربع سنين، ولذلك يكون ميلاد السيّد المسيح في السنة الأخيرة من ملكه، وكان هيرودس هذا حديد الذهن قوي الإرادة مشهورًا بالحيل، غير أنه كان صارمًا لا يبالي الحق في إجراء مقاصده «انظر الكتاب المقدّس ٣/٣».

(٦) في الأصل: أهديتموه بهذه الأشياء والتصويب عن الثعلبي.

فقال لهم: لا ترجِعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنما أراد بذلك ليقتله، فٱنصرَفوا في طريق آخر. وقال مُجاهد: قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدّثني وحدّثته، فإذا شغلني عنه شيء سبّح في بطني وأنا أسمع.

قالوا: وكان مولد عيسى عليه السلام بعد مضيّ ٱثنتين وأربعين سنة من مُلْك أغوسطوس[١]، وخمسين سنة مضت من مُلك الأشغانين[٢] ملوك الطوائف. وكانت المملكة لملوك الطوائف، والرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم، والملك عليها من قِبَل قَيْصر هِيرُودُس[٣]، وقيل في ٱسمه هرادوس.

ذكر رجوع مريم بعيسى عليه السلام بعد مولده إلى قومها

قال الكسائيّ: ثم قامت مريم بعد الولادة وحملت عيسى على صدرها حتى أشرفت به على بني إسرائيل وزكريا بينهم. وقال الثعلبيّ قال الكلبيّ: احتمل يوسفُ مريمَ وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يومًا حتى تَعَالَّتْ[٤] مريم من نِفاسها، ثم جاء بهما فكلّمها عيسى في الطريق فقال: يا أمّاه، أبشري فإني عبد الله ومسيحه. قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧]. فلما نظروا إليها بكَوْا و﴿قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] أي عظيمًا فظيعًا لا يُعرف منكِ ولا من أهل بيتك، وكانوا أهل بيت صالحين. ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] واختلف في سبب قولهم لها ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾، فقال الكسائيّ: ناداها هارون وكان أخاها من أمّها، وهو من أحبار[٥] بني إسرائيل وعُبّادهم، وقال لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، فمن أين لك هذا الولد! وقال الثعلبيّ قال قتادة: كان هارون رجلًا صالحًا من أتقياء بني إسرائيل، وليس هارون أخا موسى. وقال وهب: كان هارون من أفسق بني إسرائيل وأظهرهم فسادًا، فشبّهوها به ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي كلّموه ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]!، وضربوا بأيديهم على جباههم تعجُّبًا، فتنحنح عيسى و﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ -

---

(١) في الأصل: «أغسوطوس» والتصويب عن الطبري ص٧٤٠.

(٢) في الأصل: «الأسكانيين» والتصويب عن الطبري ص٧٠٦.

(٣) في الأصل: «هردوس» والتصويب عن الكتاب المقدس ٣/ ٣.

(٤) تعالت المرأة من نفاسها: خرجت منه وطهرت.

(٥) الأحبار: العلماء.

٣٣]. قالوا: فلما سمع ذلك أحبار بني إسرائيل علموا أنه لا أبَ له وأنّ الله تعالى خلقه كما خلق آدم. فقال زكريا: الحمد لله الذي برّأنا بقول عيسى من فُسّاق بني إسرائيل. قالوا: ثم لم يتكلم عيسى بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان. وقيل غير هذا. والله أعلم.

ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر وما ظهر له من المعجزات في مسيره ومدّة مُقامه إلى أن عاد

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: ٥٠]. اختلف العلماء في الرَّبوة فقال عبد الله بن سَلاَم: هي دمشق. وقال أبو هريرة: هي الرَّمْلة[١]. وقال قَتَادة وكعب: هي بيت المقدس. وقال كعب: هي أقرب الأرض إلى السماء. وقال أبو زيد: هي مصر. وقال الضحّاك: هي غُوطَة دمشق. وقال أبو العالية: هي أيلة[٢]. وقال بعض المفسرين: هي قرية من قرى مصر تسمى سَدَمَنْت. وسَدَمَنْت: بلد من بلاد إقليم الفيوم معروفة مشهورة. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ القرار: الأرض المستوية. والمعين: الماء الظاهر. وكان سبب خروج مريم إلى مصر ما حكاه الكسائيّ وغيره من أهل السير قالوا: وبلغ الملك هِيرُودُس خبر عيسى فهمّ بقتل مريم وٱبنها، فخاف زكريا والمؤمنون عليهما من القتل، وذلك بعد مولد عيسى بأيام قلائل، فقال زكريا لمريم: إني أخاف عليك وعلى ٱبنك من هذا الملك، وأمر يوسف النجار أن ينقلهما إلى أرض مصر، وأعطاهما أتانًا[٣] وزوّدهم، فسار يوسف بهما نحو مصر.

* * *

وكان من المعجزات التي ظهرت على يَدَيْ عيسى عليه السلام في مسيره ومُقامه بمصر أنه بينما هم سائرون إلى أرض مصر رأى يوسف النجّار في بعض الطريق أسدًا ففزع منه، فقال عيسى: قرّباني إلى الأسد ولا تَقْرَباه أنتم، فقرّبوه؛ فلما صار بين يَدَيِ الأسد قال عيسى: أيها الوحش، ما وقوفك على قارعة[٤] الطريق؟ قال: لثور

---

(١) الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين، وكانت رباطًا للمسلمين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر يومًا، وهي كورة فلسطين، وكانت دار ملك داود وسليمان ورحبعم بن سليمان «معجم البلدان ٣/ ٦٩».

(٢) أيلة: مدين في طريق مكة من مصر، وهي أوّل حدّ الحجاز، يجتمع بها حاج مصر والمغرب «الروض المعطار: ٧٠».

(٣) الأتان: أنثى الحمار.

(٤) قارعة الطريق: أعلاه ووسطه.

يمرّ عليّ لا بدّ لي منه. قال عيسى: هذا الثور لقوم مساكين ليس لهم سواه، ولكن انطلق إلى برِّيَّة كذا وكذا، فإنك سترى جملاً ميّتًا فكُلْه، واترك هذا الثور لأصحابه، فمضى الأسد نحو الميتة وتركهم. والله أعلم بالصواب.

معجزة أخرى:

قال: ثم ساروا، فرأوْا قومًا قد اجتمعوا بالقُرب من دار ملك من الملوك. فقال لهم عيسى: ما وقوفكم هاهنا؟ قالوا: امض أيها الصبيّ لشأنك. قال: أتحبُّون أن أخبركم بوقوفكم؟ قالوا نعم. قال: إنكم تريدون دخول هذه الدار إذا جنّ[1] الليل فتأخذون مال هذا الملك، فلا تفعلوا فإنه مؤمن، ودلّهم على كنز وقال: إنه كان لقوم ماتوا، فسار أولئك إليه واقتسموا منه مالاً عظيمًا.

معجزة أخرى:

قال: ثم ساروا حتى دخلوا قرية عامرة وقد اجتمع الناس على باب ملكها ومعهم صنم من حجر وهم يبكون ويسجدون لذلك الصنم. فقال عيسى: ما شأنكم أيها القوم؟ فقالوا: إنّ امرأة هذا الملك قد عسُر عليها وضع الولد، وقد أمرنا الملك أن نسجد لهذا الصنم ونسأله أن يخفّف عنها ما هي فيه. قال عيسى: اذهبوا إلى الملك وقولوا له: لو وضعتُ يدي على بطنها يخرج الولد عاجلاً. فأخبروا الملك فقال: ائتوني به، فأدخلت مريم وعيسى على الملك، فعجِب من نطقه وهو صغير، وأدخل على المرأة، فقال عيسى: إن أخبرتك بما في بطنها وخرج كما أقول أتؤمن بربّي الذي خلقني من روحه؟ قال نعم. قال عيسى: في بطنها غلام على خدّه خال[2] أسود، وعلى ظهره شامة[3] بيضاء، ثم وضع يده على بطن المرأة وقال: أيها الجنين، بالذين خلق الخلق وأسبغ[4] عليهم سعة الرزق أُخرُج. فخرج الولد على ما وصفه عيسى فهمّ الملك أن يؤمن، فقال وزراؤه: إنّ هذه المرأة ساحرة، وهذا الصبيّ مثلها، وقد طردوهما من بيت المقدس، ولم يزالوا به حتى ردّوه عن الإيمان. فأرسل الله تعالى على الملك وقومه صاعقة فأهلكتهم. ثم مضى يوسف بهما حتى دخلوا مصر، ونزلت مريم دار دِهقان[5] هناك، ولم يكن لها ما تعيش منه إلاّ الغَزْل، فكانت تغزل الكَتّان والصوف بالأُجرة لأهل مصر، ويوسف يحتطب ويبيع الحطب مدّة ليس لهم رزق إلا من ذلك.

---

(١) جنّ الليل: أسدل ظلامه.
(٢) الخال: الشامة.
(٣) الشامة: علامة في البدن يخالف لونها لون سائره.
(٤) أسبغ الرزق: أجراه وأتمّه.
(٥) الدهقان: التاجر أو رئيس الإقليم.

معجزة أخرى:

قال الثعلبيّ قال وهب: كان أوّل آية رآها الناس من عيسى أنّ أمه كانت نازلة في دار دِهقان من أهل مصر أنزلها به يوسف النجّار حين ذهب بها إلى مصر، وكانت داره يأوي إليها المساكين، فسُرق للدِّهقان مال من خزانته فلم يتّهم المساكين، فحزِنت مريم لمصيبة الدّهقان. فلمّا رأى عيسى حُزْن أمّه بمصيبة صاحب ضيافتها قال لها: يا أمّاه، أتحبِّين أن أدلّه على ماله؟ قالت: نعم يا بنيّ. قال: قولي له يجمع لي مساكين داره. فقالت مريم ذلك للدهقان، فجمع له المساكين. فلما اجتمعوا عمَد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مُقعَد، فحمل المقعد على عاتق[1] الأعمى وقال له: قُم به. فقال الأعمى: أنا أضعف من ذلك. فقال عيسى: وكيف قويت على ذلك البارحة! فلمّا سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام. فلما استقلّ قائمًا هوى المُقعَد إلى كُوة الخزانة. فقال عيسى عليه السلام: هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوّته والمقعد بعينيه. فقال المقعد والأعمى: صدق، فردّا على الدهقان ماله. فقال الدهقان لمريم: خذي نصف المال. فقالت: إني لم أُخلق لهذا. قال: فأعطه ابنك. قالت: هو أعظم مني شأنًا. والله أعلم بالصواب.

معجزة أخرى:

قال: ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس[2] ٱبنًا له، فصنع له عيدًا فجمع عليه أهل مصر وكان يُطعمهم شهرين. فلمّا انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان به حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب. فلمّا رأى عيسى ٱهتمامه بذلك دخل بيتًا من بيوت الدهقان فيه جرار، فأمرّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشي، فكلّما مرّ بيده على جرّة امتلأت شرابًا حتى أتى على آخرها، وهو يومئذ ابن ٱثنتي عشرة سنة.

معجزة أخرى:

قال: وبينا عيسى يلعب مع الصبيان بأرض مصر، إذ وثب غلام منهم على غلام آخر فقتله. فجاء أهله وتعلّقوا بجميع الصبيان وفيهم عيسى وأتَوْا بهم إلى القاضي. فقال القاضي: مَن قتل هذا؟ قالوا: هذا، وأشاروا إلى عيسى. فقال له القاضي: لم قتلتَ هذا الغلام؟ قال: أراك حاكمًا جاهلاً، كان يجب أن تسألني: أقتلته أم لا! قال القاضي: أراك ذا عقل، فما ٱسمك؟ قال: عيسى ابن مريم. قال: يا عيسى، لمَ قتلتَه؟ قال: يا جاهل، أبهذا أمرتك؟ ثم دنا عيسى من الغلام وقال: قم بإذن الله الذي

(١) العاتق: ما بين المنكب والعنق. (٢) أعرس: اتخذ عرسًا.

يحيي العظام وهي رميم[١]، فأستوى جالسًا وقال له: مَن قتلك؟ قال: قتلني فلان ابن فلان، وهذا عيسى ابن مريم بريء من دمي. فعجِب الناس من ذلك وقتلوا قاتل الغلام، وأخذت مريم بيد عيسى وأنطلقت.

معجزة أخرى:

قال: وأتت به أمّه إلى معلّم ليعلِّمه، فقال: إنّ ربي قد أغناني عن تعليم المعلّمين وقد علّمني التوراة والإنجيل. قالت: صدقت، ولكن تكون عند معلّم خير من أن تلعب مع الصبيان. فأتت به إلى معلّم يعلّمه، فعلّمه عيسى. قال الثعلبيّ: وروى محمد الباقر رحمه الله قال: لما وُلد عيسى عليه السلام كان ٱبنَ يوم كأنه ٱبن شهر، فلمّا كان ٱبنَ تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاءت به إلى كتّاب[٢] وأقعدته بين يدَي المؤدّب. فقال له المؤدّب: قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقالها عيسى عليه السلام. فقال المؤدّب: قل: أبجد، فرفع عيسى رأسه وقال للمؤدّب: هل تدري ما أبجد؟ فعلاه ليضربه. فقال: يا مؤدّب، لا تضربني، إن كنت تدري وإلاّ فسَلْني حتى أُفسّر لك. فقال: فسِّره لي. فقال عيسى عليه السلام: الألف آلاء[٣] الله، والباء بهجة الله، والجيم جلال الله، والدال دين الله. هوّز، الهاء هي جهنم وهي الهاوية، والواو ويل لأهل النار، والزاي زفير[٤] جهنم. حُطّي، حُطّت الخطايا عن المستغفرين. كَلَمُن، كلام الله غير مخلوق لا مبدّل لكلماته. سعفص، صاع[٥] بصاع والجزاء بالجزاء. قَرَشَتْ تقرشهم حين تحشرهم، أي تجمعهم. فقال المؤدّب لأمه: أيتها المرأة، خذي بيد ٱبنك فقد عُلِّم ولا حاجة له إلى مؤدّب. وقال سَعيد بن جُبَير: قال رسول الله ﷺ: «إنّ عيسى عليه السلام أرسلته أمّه إلى الكُتّاب ليتعلّم، فقال له المعلّم قل ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال وما باسم الله. قال لا أدري. قال الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته». والله أعلم الموفّق.

معجزة أخرى:

قال الكسائيّ: وٱنطلقت به أمّه إلى صبّاغ ليعلِّمه صنعة الصباغة. فأخذه الصبّاغ وأمره أن يملأ التّيغارات[٦] من تيغار كبير، وناوله أصباغًا وأمره أن يجعل في كل تيغار صِبْغًا، وأن يصبُغ الثياب في تلك التيغارات على ٱختلاف ألوانها، وفارقه الصبّاغ وخرج إلى منزله. فعمَد عيسى إلى تيغار واحد وملأه ماء وأخذ جميع تلك الأصباغ

---

(١) الرّميم: البالي من كلّ شيء.
(٢) الكتّاب: مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن.
(٣) آلاء الله: نعمه. (٤) زفير جهنم: صوت اتقادها.
(٥) الصاع: مكيال تكال به الحبوب ونحوها.
(٦) التيغارات: مفردها تيغار، وهو إناء تغسل فيه الثياب.

فجعلها فيه، ووضع جميع تلك الثياب فيه وآنصرف إلى أُمّه. فلما كان من الغد جاء الصبّاغ إلى الحانوت فنظر إلى ما فعله عيسى، فقال له: يا عيسى أهلكتني وأفسدت ثياب الناس. قال عيسى: يا صبّاغ، ما دينك؟ قال: دين اليهود. قال: قل: لا إلٰه إلا الله وأنّي عيسى رُوح الله، وأدخل يدك في هذا التيغار وأخرج كل ثوب على ما تريد. فآمن الصبّاغ بالله وبعيسى عليه السلام وأدخل يده فأخرج كل ثوب على ما أراده أصحابه. قال: وظهر لعيسى بمصر معجزات كثيرة.

ذكر خبر زكريا عليه السلام
مع هيرودس الملك وما كان من أمره

قال الكسائيّ: ولمّا كان من أمر عيسى عليه السلام وكلامه ما قدّمناه وتنكّست الأصنام ليلة مولده، جاء إبليس لعنه الله إلى الملك في صورة شيخ وقال له: أيها الملك، إن لك عندي نصيحة فآخلُ معي. فخلا به وقال: ما نصيحتك؟ قال: قد بلغك ما كان من شأن المولود الذي تكلم في المهد[1]. قال نعم. قال: وقد رأيتَ ما حلّ بالأصنام من شؤم مولده، وإنه لخليق أن يشمَل الأرض كلها بشؤمه، وأنت فلا يمكنك قتله الآن لخروجه من بلادك، وأرى أن تفعل أمرًا يتشاءم الناس بسببه بهذا المولود ويُعينونك على قتله، وأنت مع ذلك تطلبه، فإن ظفرتَ به ذبحته. قال الملك: فما الذي رأيت؟ فلعمري لقد وقع في نفسي إنك لخليق أن يكون عندك رأي ومكيدة. قال: تذبح الولدان، فإن ذلك يبغّضه إلى الناس ويتشاءمون فيه فيكفوك أمره. قال: لقد أتيت بالأمر على وجهه، وأمر بذبح الولدان من سنتين فما دونهما، فوقع الذبح في صبيان بني إسرائيل. قال: ثم انطلق إبليس إلى مجالس بني إسرائيل ونواديهم يقول: الفاحشة في مريم ويقذفها[2] بزكريا، يعرّض بذلك لخيارهم، ويبوح به ويصرح لشرارهم، حتى شاعت الفاحشة على زكريّا. فلما رأى زكريا ذلك هرب وآتبعه سفهاؤهم وشرارهم، وسلك في واد كثير النبت، حتى إذا توسّط الوادي انفرجت له شجرة فدخلها وأقبل القوم في طلبه، وإبليس يقدُمهم حتى أوقفهم عليه وهو في الشجرة وقد آلتحمت عليه، فأشار عليهم بقطعها، فقُطعت. ثم قال لهم: أيّ العقوبة والنكال أبلغ في هذا الذي أورث آباءكم الطيبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذرّيتهم من بعدهم الفضيحة والعار؟! قالوا: القتل أو النشر. فأشار عليهم بنشره، فنشروه نصفين ثم آنصرفوا عنه، وغاب عنهم إبليس لعنه الله. وبعث الله تعالى الملائكة فغسلوا زكريّا وصلّوا عليه ثلاثة أيام ثم دفنوه. وقد قيل في مقتل زكريا غير هذا، وقد تقدّم في أخباره. والله أعلم.

---

(١) المهد: السّرير.

(٢) يقذفها: يرميها ويتهمها بالمنكر.

ذكر رجوع عيسى ومريم عليهما السلام من مصر

قال الكسائيّ قال وهب: وأقامت مريم وٱبنها عيسى بمصر ٱثنتي عشرة سنة حتى أهلك الله الملك هِيُرودُس. قال: وأوحى الله تعالى إلى مريم بوفاة الملك وأمرها أن ترجع إلى بلادها بالشام، فجاء يوسف النجار فرجع بها. فلم تزل هي وٱبنها يسكنان بجبل الخليل بقرية يقال لها الناصرة[(١)]، وبها سمِّيت النصارى، وبها ٱبتُدعت النصرانية. قال: ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى بعد أن تمت له ثلاثون سنة أن يبرز إلى الناس ويدعوهم إلى الله تعالى، وأنزل عليه الإنجيل. فكان يسير في البلاد ويدعو الناس إلى الله عزّ وجل، ويرغِّبهم فيما عنده، ويزهِّدهم في الدنيا ويضرب لهم أمثالاً، ويداوي المرضى والزَّمْنَى[(٢)]، ويُبرىء الأكمه[(٣)] والأبرص[(٤)]. فأحبّه الناس وسكنوا إليه، وكثُرت أتباعه حتى ٱمتنع وعلا أمره. ثم أحيا الموتى بإذن الله تعالى.

قالوا: وربما ٱجتمع عليه من المرضى والزَّمْنَى في الساعة الواحدة خمسون ألفًا، فمن أطاق منهم أن يبلُغه بلغه، ومن لم يقدر على ذلك أتاه عيسى يمشي إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان.

ذكر خبر الحواريّين[(٥)] حين ٱتبعوا عيسى عليه السلام وآمنوا به

قال الكسائيّ رحمه الله: ومرّ عيسى على قوم يَصِيدون السمك وهم أربعة: شِمْعُون، وأخ له ٱسمه أنْدِرْيُوس، ويعقوب، ويُوحنّا. فوعظهم وزهّدهم في الدنيا ووعدهم الجنة ونعيمها فآمنوا به وٱتّبعوه. قال: ومرّ بطائفة أخرى فوجدهم على نهر يغسلون الثياب، منهم لُوقا، وتوما، ومرقوس، ويُوحنّا، وأخوان لهم صبيّان لم يبلُغا

---

(١) الناصرة: قرية بينها وبين طبريّة ثلاثة عشر ميلًا، فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ومنها اشتقّ اسم النّصارى، وأهل بيت المقدس يزعمون أن المسيح وُلد في بيت لحم «معجم البلدان ٥/ ٢٥١».

(٢) الزّمنى: أصحاب العاهات والأمراض المزمنة.

(٣) الأكمه: الذي ولد أعمى ولم ير الضوء قط.

(٤) الأبرص: من البرص وهو مرض يحدث في الجسم بياضًا.

(٥) الحواريون: سمّوا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا قصّارين وصبّاغين، والقصّار: الذي يغسل الثياب ورد ذكرهم في القرآن الكريم في غير سورة.

الحُلُم[1]، أحدهما شِمْعُون والآخر يعقوب، وقيل في أسمائهم غير هذا. والله تعالى أعلم. فقال لهم عيسى: يا قوم، إنكم تقصّرون هذه الثياب وتنظّفونها من أوساخها، فلم لا تفعلون ذلك مع قلوبكم! ثم قال لهم: إنّي رسول الله إليكم جميعًا، وبشرّهم برسول الله ﷺ فقال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] قال: فآمنوا به واتّبعوه، وكانوا كلهم اثني عشر رجلًا، أربعة منهم كانوا يصيدون السمك، وثمانية يقصّرون الثياب. وكان من القصّارين رجل أسفلَ النهر يقال له يُوذا[2] لم يسمع كلام عيسى. فلمّا رأى أصحابه اتّبعوه لحق بهم، وهو الذي ارتدّ[3] بعد ذلك ودلّ اليهود على عيسى، فصاروا به قبل ارتداده ثلاثة عشر.

ذكر الخصائص والآيات والمعجزات التي أظهرها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام بعد مبعثه

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] الآيات. قوله تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ قال الحسن: ذكر النعمة: شكرها، وأراد بقوله: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ نعمي، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ثم ذكر تعالى النعم فقال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وقال: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]. واختلفوا في روح القدُس ما هو؟ فقال الربيع بن أنَس: هو الرُّوح الذي نفخ فيه، أضافه سبحانه إلى نفسه تكرُّمًا وتخصيصًا، نحو: بيت الله، وناقة الله. والقدس: هو الله تعالى يدلّ عليه قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١١٧] وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. وقال آخرون: أراد الله تعالى بالقدس: الطهارة، يعني الروح الطاهرة، سمّي روحه قدمًا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة إنما كان أمرًا من الله تعالى. وقال السُّدِّيّ وكعب: روح القدس هو جبريل، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان رفيقه وقرينه يُوحِي إليه ويعينه ويسير معه حيثما سار

---

(١) الحلُم: يقال: بلغ الصبيُّ الحلم إذا بلغ مبلغ الرّجال.
(٢) اسمه يهوذ الإسخريوطي كما في الكتاب المقدّس ٣/ ٨٥.
(٣) ارتدّ: أي كفر بعد إسلام.

إلى أن صعِد به إلى السماء. وقال سعيد بن جُبَير وعُبيد بن عُمير: هو اسم الله الأعظم، وبه كان يُحيي الموتى ويُري الناس تلك العجائب. وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ١١٠] يعني الخطّ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني العلم والفهم. ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كان يقرؤهما من حفظه. وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]. قوله: ﴿تَخْلُقُ﴾ أي تجعل وتصوِّر وتقدِّر ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي كصورة الطير. فكان عيسى يصوِّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفُخ فيه فيصير طيرًا بإذن الله تعالى. قالوا: ولم يخلُق غير الخُفَّاش[١]. وإنما خُص بالخُفّاش لأنها أكمل الطير خَلْقًا، فتكون أبلغ في القُدرة، لأن لها ثديًا وأسنانًا، وهي تَلِد وتَحيض وتطهر. قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا ليتميّز فعل الخلق من فعل الله تعالى، وليعلم أنّ الكمال لله عزّ وجل. وقوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠]. الأكمه: الذي وُلد أعمى ولم ير الضوء قط. قالوا: ولم يكن في الإسلام أكمه غير قَتَادة. والأبرص: الذي به وَضَح[٢]، وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ، فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك.

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عُميان، فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء قوم طُلِبوا للقضاء فطمسوا[٣] أعينهم بأيديهم. فقال لهم: ما دعاكم إلى هذا؟ فقالوا: خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى. فقال: أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل، امسحوا بأيديكم أعينكم وقولوا: باسم الله. ففعلوا ذلك فإذا هم جميعًا يبصرون.

ذكر خبر سام بن نوح وغيره
الذين أحياهم عيسى بإذن الله عزّ وجل

قال الكسائيّ قال وهب: سألتْ طائفة من بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام أن يُحيي لهم سام بن نوح وقالوا: أَحْيِ لنا سام بن نوح ليكلّمنا وإلاّ قتلناك، وإن فعلتَ آمنّا بك واتّبعناك. فأوحى الله تعالى إليه: نادِه ثلاث مرّات فإنه سيُجيبك. فقام عيسى على قبره وناداه ثلاث مرات: يا سام بن نوح قم بإذن الله، فقام

---

(١) الخفّاش: حيوان ثدبي من رتبة الخفاشيات، قادر على الطيران، ولا يطير إلاّ في الليل.
(٢) الوضح: البياض. (٣) طمسوا أعينهم: أعموها.

في الثالثة وهو أشمط[1] الرأس واللحية. فقال له عيسى: أهكذا متّ أبيض الرأس واللحية؟ قال: لا، ولكنّي سمعت نداءك فخفت أن تكون القيامة فشَمِطتُ، وأخبر القومَ بما أرادوه وكلّمهم، ثم ردّه عيسى إلى قبره، وما آمن بعيسى منهم إلاّ قليل.

* * *

قالوا: وممن أحياه عيسى ابن مريم العازر، وكان صديقًا له، فأرسل أخته إلى عيسى إنّ أخاك العازر يموت فأتِه، وكان بينه وبين أن يصل إليه مسيرة ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مُطْبِقَة. فقال عيسى: اللهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتَني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرتُهم أني أحيي الموتى بإذنك فأحْي العازر. فقام العازر وأوداجه[2] تقطُر. فخرج من قبره وبقي ووُلِد له.

قالوا: ومرّ عيسى عليه السلام برجل جالس على قبر وكان يكثر المرور به فيجدُه جالسًا عنده، فقال له: يا عبد الله، أراك تكثر القعود على هذا القبر. فقال: يا رُوح الله، امرأة كانت لي وكان من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولي عندها وديعة. فقال عيسى: أتحبّ أن أدعو الله تعالى فيحييها؟ قال نعم. فتوضّأ عيسى وصلّى ركعتين ودعا الله عزّ وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جِذْع محترق. فقال له: ما أنت؟ قال: يا رسول الله أنا في عذاب منذ أربعمائة سنة، فلما كانت هذه الساعة قيل لي أجِبْ فأجبتُ. ثم قال: يا رسول الله، قد مرّ عليّ من أليم العذاب ما إن ردّني الله إلى الدنيا أعطيته عهدًا ألاّ أعصيه، فادعُ الله لي. فرقّ له عيسى ودعا الله عزّ وجل ثم قال له: امضِ، فمضى. فقال صاحب القبر: يا رسول الله، لقد غلِطت بالقبر، إنما قبرها هذا. فدعا عيسى عليه السلام، فخرج من ذلك القبر امرأة شابّة جميلة. فقال له عيسى: أتعرفها؟ قال: نعم هذه امرأتي. فدعا عيسى حتى ردّها الله عليه. فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه في حجر المرأة. فمرّ بهما ابن ملك فنظر إليها ونظرت إليه وأُعجب كل واحد منهما بصاحبه، فأشار إليها فوضعت رأس زوجها على الشجرة واتّبعت ابن الملك. فاستيقظ زوجها ففقدها وطلبها فدُلّ عليها، فأدركها وتعلّق بها وقال: امرأتي، وقال الفتى: جاريتي. فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى فقال الرجل: هذا عيسى وقصّ عليه القصّة. فقال لها

(1) الأشمط: من خالط بياض شعره سواد.

(2) الأوداج: واحدها الوداج، وهو عرقٌ في العنق، وهو الذي يقطعه الذّابح فلا تبقى معه حياة.

عيسى: ما تقولين؟ قالت: أنا جارية هذا ولا أعرف هذا. فقال لها عيسى: ردّي علينا ما أعطيناك. قالت: قد فعلت. فسقطتْ مكانها ميّتة. فقال عيسى: هل رأيتم رجلاً أماته الله كافرًا ثم بعثه فآمن!. وهل رأيتم ٱمرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت!

قالوا: ومرّوا بميّت على سرير[1]، فدعا عيسى الله تعالى، فجلس الميّت على السرير ونزل عن أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله وبقي ووُلِد له.

وممن أحياه عيسى بإذن الله تعالى ٱبنة العازر، قيل له: أتحييها وقد ماتت بالأمس! فدعا الله عزّ وجل، فعاشت وبقيت ووُلدت.

قال الكسائيّ: وسأل بنو إسرائيل عيسى عليه السلام أن يُحيي لهم عُزَيرًا، فقال: التمسوا قبره فالتمسوه، فوجدوه في صندوق من حجر، فعالجوه ليفتحوا بابه فلم يستطيعوا ذلك. فرجعوا إلى عيسى وأخبروه أنهم عجزوا أن يُخرجوه من قبره، فأعطاهم ماء في إناء وقال: انضَحوه[2] بهذا الماء فإنه ينفتح. فٱنطلقوا ونضحوه بالماء فٱنفتح طابقه. فأقامه عيسى في أكفانه فنزعها عنه، ثم جعل ينضح جسده بالماء ولحمه ينبت وشعره وهم ينظرون. ثم قال عيسى: يا عُزَير احْيَ بإذن الله، فإذا هو جالس. فقالوا: ما شهادتك على هذا الرجل؟ فقال عزير: أشهد أنه روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وأنه عبد الله ونبيّه وٱبن أَمَته. قالوا: يا عيسى، ادعُ ربك يحييه لنا فيكون بين أظهُرنا[3]. فقال عيسى: ردّوه إلى قبره فإنه انقطع رزقه وٱنقضى أجله، فردّوه إلى قبره.

ومن معجزاته عليه السلام إخباره عن الغيوب

قال الله عزّ وجل إخبارًا عنه: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. قالوا: لما أبرأ عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله قالوا له: إنك تزعم أنك تُخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما ندّخر. قال نعم. قالوا: فإنّا نجمع خيارنا وأحبارنا ورهباننا فنأمرهم أن يأكلوا ويدّخروا في بيوتهم ثم نأتيك فتخبرنا. قال نعم. فانطلقوا إلى بيوتهم وأكلوا وٱدّخروا وأقبلوا إليه من الغد، وسأله كل رجل منهم وهو يخبره بما أكل وٱدّخر.

---

(١) السّرير: النعش الذي يحمل عليه الميت ليدفن.

(٢) أنضحوه بالماء: أي رشّوه وطيّبوه من نضح أي رشّ.

(٣) بين أظهرُنا: أي في وسطنا.

ومما أخبر به عيسى عليه السلام من المغيّبات قصّة ٱبن العجوز. وكان من خبره ما حكاه أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله أن عيسى عليه السلام مرّ في سياحته بمدينة ومعه الحواريّون، فقال: إنّ في هذه المدينة كنزًا، فمن يذهب فيستخرجه؟ قالوا: يا روح الله، لا يدخل هذه القرية غريب إلاّ قتلوه. فقال لهم: مكانكم حتى أعود إليكم، ومضى حتى دخل المدينة فوقف بباب فقال: السلام عليكم يا أهل الدار، غريب أطعِموه. فقالت له ٱمرأة عجوز: أمَا ترضى أن أدَعَك لا أذهب بك إلى الوالي حتى تقول أطعموني شيئًا! فبينا عيسى بالباب إذ أقبل ٱبن العجوز فقال له عيسى: يا عبد الله، أضِفْني ليلتك هذه. فقال له الفتى مثل مقالة العجوز. فقال له عيسى: أمَا إنك لو فعلت ذلك زوّجتك بنت الملك. فقال له الفتى: إمّا أن تكون مجنونًا، وإمّا أن تكون عيسى ابن مريم. قال: أنا عيسى. فأضافه وبات عنده. فلمّا أصبح قال له: اغدُ وٱدخل على الملك وقل له: جئت أخطب ٱبنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك. فمضى الفتى حتى دخل على الملك وقال له: جئت أخطب إليك ٱبنتك، فأمرَ به فضُرب وأخرج. ورجع الفتى إلى عيسى فأخبره، فقال له: إذا كان الغد فٱذهب إليه واخطُب إليه فإنه ينالك بدون ذلك. ففعل ما أمره عيسى، فضربه الملك دون ذلك. فرجع إلى عيسى فأخبره، فقال: ارجع إليه وٱخطبها فإنه سوف يقول لك: إني أُزوّجك إياها على حُكمي، وحُكمي قصر من ذهب وفضّة، وما فيه من فضّة وزَبَرْجَد[1]، فقُلْ له: أفْعَلُ ذلك. فإذا بعث معك فٱخرج فإنك سوف تجده فلا تُحدِث فيه شيئًا. فدخل عليه فخطب إليه، فقال: تُصدِقها[2] حُكْمي؟ فقال: وما حكمك؟ فحَكَمَ الذي سمَّى له عيسى. فقال له: نعم، ابْعَثْ مَن يقبض ذلك. فبعث معه [قومًا][3]، فدفع إليهم ما سأله الملك. فعجِب الملك من ذلك وسلّم إليه ٱبنته. فتعجّب الفتى وقال لعيسى: يا روح الله، تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحال! قال عيسى: لأنني آثرت ما يبقى على هذا الفاني. فقال الفتى: وأنا أدعه وأصحبك. فتخلّى من الدنيا وٱتّبع عيسى. فأخذ بيده وأتى أصحابه وقال: هذا هو الكنز الذي قلت لكم. فكان ٱبن العجوز مع عيسى حتى مات. والله أعلم.

---

(١) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرّد، وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

(٢) الصداق: المهر.

(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

ذكر خبر يجمع عدّة معجزات من معجزات عيسى عليه السلام

حكى أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله قال وَهْب: خرج عيسى عليه السلام يسيح في الأرض، فصحبه يهوديّ، وكان مع اليهوديّ رغيفان، ومع عيسى رغيف. فقال له عيسى: تشاركني في طعامك؟ قال اليهوديّ نعم. فلمّا رأى اليهوديّ أنّ عيسى ليس معه إلا رغيف واحدٌ ندِم. فقام عيسى إلى الصلاة فأكل اليهوديّ رغيفًا. فلما قضى عيسى صلاته قدّما طعامهما، فقال عيسى لليهوديّ: أين الرغيف الآخر؟ فقال: ما كان إلاّ رغيف واحد، فأكل عيسى رغيفًا وصاحبُه رغيفًا، ثم أنطلقا فجاءا إلى شجرة، فقال عيسى لصاحبه: لو أننا بتنا تحت هذه الشجرة! فناما ثم أصبحا. فأنطلقا فلقيا أعمى، فقال له عيسى: أرأيتَ إن عالجتك حتى ردّ الله عليك بصرك هل تشكره؟ قال نعم. فمسّ عيسى عليه السلام بصره ودعا الله تعالى فإذا هو صحيح. فقال عيسى لليهوديّ: بالذي أراك الأعمى بصيرًا كم كان معك من رغيف؟ فقال: والله ما كان إلاّ رغيف واحد، فسكت عيسى عنه. ومرّا فإذا هما بمُقعد، فقال له عيسى: أرأيتَ إن عالجتك فعافاك الله تعالى هل تشكره؟ قال بلى. فدعا الله عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه. فقال صاحب عيسى: ما رأيتُ مثل هذا قط! فقال عيسى: بالذي أراك الأعمى بصيرًا والمُقْعَد صحيحًا، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فحلف له اليهوديّ ما كان معه إلاّ رغيف واحد، فسكت عيسى. وأنطلقا حتى أنتهيا إلى نهر عَجّاج[١] جرّار، فقال عيسى: لا أرى جسرًا ولا سفينة، فخذ بحُجْزتي[٢] من روائي وضع قدمك موضع قدمي، ففعل ومشيا على الماء. فقال له عيسى: بالذي أراك الأعمى بصيرًا والمقعد صحيحًا وسخّر لك هذا البحر حتى مشيت عليه، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال: لا والله ما كان إلاّ رغيف واحد، فسكت عيسى. وأنطلقا فإذا هما بظباء يَرعيْن، فدعا عيسى بظبي فأتاه فذبحه وشوى منه بعضًا وأكلاه، ثم ضرب عيسى بقية الظبي بعصاه وقال: قُم بإذن الله عزّ وجل فإذا الظبي يعدو. فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى: بالذي أراك هذه الآية، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال: ما كان إلاّ رغيف واحد. فأنطلقا فمرّا بصاحب بقْر، فنادى عيسى: يا صاحب البقر، اجزُر[٣] لنا من بقرك هذه عجلاً. قال: ابعَثْ صاحبك يأخذه. فانطلق اليهوديّ فجاء به، فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر إليه. فقال له عيسى: كُلْ ولا تكسِر له عظمًا، ففعل. فلمّا

(١) العجّاج: الممتلىء، والجرّار: القويّ الجرّ لغزارة مياهه.
(٢) الحُجزة: معقد الإزار.
(٣) أجزر: أي اذبح.

فرغ قذف بعظامه في جلده وضربه بعصاه وقال: قُم بإذن الله تعالى، فقام العجل وله خُوَار. فقال: يا صاحب البقر خذ عجلك. قال: ويحك! من أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم. قال: عيسى السحّار! ثم فرّ منه. فقال عيسى لصاحبه: بالذي أحيا لك العجل، كم كان معك من رغيف؟ قال: ما كان معي إلا رغيف واحد، فسكت عيسى. ومضيا حتى دخلا قرية، فنزل عيسى في أسفلها واليهوديّ في أعلاها، فأخذ اليهوديّ عصا عيسى وقال: أنا الآن أبرىء المرضى وأحيي الموتى. قال: وكان ملك تلك المدينة مريضًا مُدنفًا[١]. فأنطلق اليهوديّ ينادي: مَن يبتغي طبيبًا، حتى أتى قصر الملك، فأُخبر بوجعه، فقال: أدخلوني عليه فأنا أبرئه، وإن لقيتموه قد مات فأنا أحييه. فقيل له: إنّ وجع الملك قد أعيا الأطبّاء قبلك، فليس من طبيب يداويه ولا يَشفيه إلاّ صلبه. فقال: أدخلوني عليه، فأدخلوه فضرب الملك بعصاه فمات. فجعل يضربه بالعصا وهو ميّت ويقول: قُم بإذن الله. فأُخِذ ليُصلَب. فبلغ ذلك عيسى، فأقبل إليه وقد رُفع على الخشبة، فقال لهم: أرأيتم إن أحييت لكم الملك أتتركون لي صاحبي؟ قالوا نعم. فدعا الله تعالى عليه السلام فأحياه وقام وأنزل اليهوديّ من الخشبة، فقال: يا عيسى، أنت أعظم الناس عليّ منّة، والله لا أفارقكَ أبدًا. فقال له عيسى: أنشُدُك الله الذي أحيا الظبي والعجل بعدما أكلناهما، وأحيا هذا بعدما مات، وأنزلك من الجِذع بعدما صُلبت، كم كان معك من رغيف؟ قال: والله ما كان معي إلاّ رغيف واحد، قال: لا بأس. ثم أنطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خرِبة فيها كنز وفيها ثلاث لَبِنات[٢] من ذهب. فقال الرجل لعيسى: هذا المال اك؟ فقال: أجَلْ! واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة للذي أكل الرغيف الثالث. فقال اليهوديّ: أنا والله أكلته وأنت تصلي. فقال عيسى: هي لك كلها. فأنطلق عيسى وتركه قائمًا ينظر وهو لا يستطيع أن يحمل واحدة منهنّ، وكلما أراد أن يحمل واحدة ثقُلت عليه. فقال له عيسى: دعه فإنّ له أهلاً يهلِكون عليه. فجعلت نفس اليهوديّ تَطَلَّع إلى المال ويكره أن يعصي عيسى ويعجز عن حمله. فأنطلق مع عيسى، فبينما هما كذلك إذ مرّ بالمال ثلاثة نفر فأقاموا عليه. فقال أثنان منهما لصاحبهما: انطلق إلى أهل هذه القرية فأتنا بطعام وشراب ودوابّ نحمل هذا المال عليها. فلمّا ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر: هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال فيما بيننا؟ قال نعم. وقال الذي ذهب في نفسه: هو ذا أجعل في الطعام سمًّا فإذا أكلاه ماتا ويصير المال كله إليّ، ففعل ذلك. فلمّا رجع إليهما قتلاه، ثم أكلا الطعام فماتا. ومرّ عيسى عليه السلام بهم وهم

(١) المدنف: المشرف على الهلاك. (٢) اللبنة: الصفيحة أو السبيكة.

موتى حوله، فقال: هكذا تصنع الدنيا بأهلها، فأحياهم بإذن الله عزّ وجل، فاعتبروا ومرّوا ولم يأخذوا من المال شيئًا. فتطلّعت نفس اليهوديّ صاحب عيسى إلى المال فقال: أعطني المال. فقال له عيسى: خذه فهو حظّك من الدنيا والآخرة. فلمّا ذهب اليهوديّ ليحمله خسف الله تعالى به الأرض، وانطلق عيسى عليه السلام.

ذكر خبر المائدة التي أنزلها الله عزّ وجل من السماء

قال وهب: وسأل بنو إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة من السماء. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٣]. وقرأ عليّ وعائشة وسعيد بن جُبَير ومجاهد رضي الله عنهم «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ» (بالتاء المثناة من أعلاها ونصب الباء الموحدة في ربك) واختاره الكسائيّ وأبو عُبَيد على معنى هل تستطيع أن تدعو ربك وتسأل ربك. قالوا: لأنّ الحواريّين لم يكونوا شاكّين في قدرة الله تعالى. وقرأ الباقون «يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» (بالياء المثناة من تحتها ورفع الباء) وقالوا: إنهم لم يشكّوا في قدرة الله تعالى وإنما معناها هل يُنزل أم لا، كما يقول الرجل لصاحبه: هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع، وإنما يريد هل يفعل أم لا، وأجراه بعضهم على الظاهر فقالوا: غلِط القوم وكانوا بشرًا، فقال لهم عيسى عليه السلام استعظامًا لقولهم: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢] معناه أن تشكّوا في قدرة الله أو تنسبوه إلى عَجْز أو نقصان. وقيل: قال لهم: اتقوا الله أن تسألوه شيئًا لم تسأله الأمم قبلكم. قالوا: إنما سألنا لأنّا نريد أن نأكل منها فنستيقن قدرته وتطمئنّ وتسكُن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله، ونكون عليها من الشاهدين، فنقرّ لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالرسالة والنبوّة. وقيل: ونكون عليها من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم. قال الكسائيّ: فأمرهم عيسى بصيام ثلاثين يومًا وأنّ الله بعد ذلك يُطعمهم ويُنزلها عليهم. فصاموا حتى تمّ الأجل[١]، فقام عيسى وصلّى وسأل الله الى وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤]. قال قوله: ﴿عِيدًا﴾ أي عائدة من الله علينا وحجة وبرهانًا. والعيد اسم لما أعدته وعاد إليك من كل شيء؛ ومنه قيل ليوم الفطر ويوم

(١) الأجل: الوقت المحدّد.

الأضحى عيد، لأنهما يعودان كل سنة. وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾. قال الثعلبيّ: يعني لأهل زماننا ولمن يجيء من بعدنا. وقرأ زيد بن ثابت[1]: «لِأُولانَا وَأُخْرَانَا». وقال ٱبن عباس رضي الله عنهما: يعني يأكل منها آخر الناس كما يأكل أوّلهم. ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ دلالة وحجة. قال الله عزّ وجل مجيبًا لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقرأ أهل الشام وقَتادة وعاصم «مُنَزِّلُهَا» بالتشديد لأنها نزلت مرّات، والتفعيل يدل على التكثير مرّة بعد مرّة. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي يكفر بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] أي عالَمِي زمانهم. قال: فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمُسِخوا قِرَدَةً وخنازير.

قال الثعلبيّ: وٱختلف العلماء في المائدة، هل نزلت أم لا؟ فقال مجاهد: ما نزلت مائدة، وهذا مثل ضُرِب. وقال الحسن: والله ما نزلت المائدة، إنّ القوم لمّا سمعوا الشرط وقيل لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. استعفَوْا وقالوا: لا نريدها ولا حاجة لنا فيها، فلم تنزل. قال أبو إسحاق الثعلبيّ: والصواب أنها نزلت، لقوله عزّ وجل: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقع في خبره الخُلْف ولتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم وغيرهم من علماء الدين في نزولها. قال كعب: أنزلت يوم الأحد، فلذلك اتخذه النصارى عيدًا.

واختلفوا في صفتها وكيفية نزولها، فحكى الكسائيّ عن وهب قال: أنزل الله تعالى على عيسى مِكْتَلاً[2] فيه ثلاث سَمَكات مشويّات ليس لها شوك ولا قشر وثلاثة أرغفة، والملائكة تحملها حتى وضعوها بين يدَيْ عيسى. قال: وقد قيل: إنّ المائدة كانت سُفْرة[3] من الأدَم[4] الأحمر، وكان فيها سمكة واحدة مشويّة وحولها الخُضَرُ والبقول، وعند رأسها خلّ، وعند ذنبها مِلح وخمسة أرغفة على كل منها زيتون، وخمس رمّانات وتمرات. وقال الثعلبيّ في تفسيره: روى قَتادة عن خِلاَس بن

---

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، كاتب الوحي، صحابيّ ولد في المدينة ونشأ فيها، وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام من الأنصار، مات سنة ٤٥هـ «الأعلام ٣/ ٥٧».

(٢) المكتل: زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيرُه، يسع خمسة عشر صاعًا.

(٣) السّفرة: هي التي تتخذ من الجلود، ولها معاليق تنضمُّ وتنفرج فبالانفراج سمّيت سفرة، لأنّها إذا حلّت معاليقها أسفرت عمّا فيها، فقيل لها السّفرة.

(٤) الأدم: الخبز.

عمرو[١] عن عمّار بن ياسر عن النبيّ ﷺ قال: «نزلت المائدةُ خبزًا ولحمًا»[٢]. وذلك أنهم سألوا عيسى طعامًا يأكلون منه لا ينفَد، فقيل لهم: إنها مقيمة لكم ما لم تخونوا أو تخبؤوا أو ترفوا، فإن فعلتم ذلك عُذِّبتم. قال: فما مضى يومهم حتى خبئوا ورفعوا وخانوا. وقال إسحاق بن عبد الله: إنّ بعضهم سرق منها وقال: لعلها لا تنزل أبدًا، فرُفعت ومُسِخوا قِردة وخنازير. وقال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال لبني إسرائيل: «صوموا ثلاثين يومًا ثم سَلُوا الله تعالى ما شئتم يُعطِكم». فصاموا ثلاثين يومًا، فلمّا فرغوا قالوا: يا عيسى، إنا لو عَمِلنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعامًا، وإنّا قد صُمنا وجُعنا، فٱدعُ الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ففعل. فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات[٣] حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم. وروى عطاء بن السائب عن زاذان[٤] وميسرة[٥] قالا: كانت المائدة إذا وُضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي من السماء بكل طعام إلاّ اللحم. وقال سَعيد بن جُبَير عن ٱبن عباس رضي الله عنهم: أُنزِل على المائدة كل شيء إلاّ الخبز واللحم. قال عطاء: أُنزل عليها كل شيء إلا السمك واللحم. وقال عطيّة العَوْفي: نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شيء. وقال عمّار وقتادة: كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة. وقال وهب بن مُنَبِّه: أنزل الله تعالى أقْرِصةً[٦] من شعير وحيتانًا. فقيل لوهب: ما كان ذلك يُغني عنهم؟ قال: لا شيء، ولكنّ الله أضعف لهم البركة، فكان قومٌ يأكلون ويخرجون ويجيء الآخرون فيأكلون ويخرجون، حتى أكلوا بأجمعهم وفَضَل. وقال الكلبيّ ومُقاتل: استجاب الله تعالى لعيسى عليه السلام فقال: إني مُنَزِّلها عليكم كما سألتم، فمَن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلاً ولعنة لمن بعدهم، قالوا: قد رَضِينا. فدعا شِمْعون الصَّفا وكان أفضل الحواريّين فقال: هل معك طعام؟ قال: نعم معي سمكتان وسبعة أرغفة. قال: قدّمها. فقطعهنّ عيسى عليه السلام قطعًا

---

(١) هو خلاس بن عمرو الهجري، محدّث ثقة، أخذ الحديث عن الإمام علي وعمّار بن ياسر «الكاشف ١/٢١٨».

(٢) راجع نصّ الحديث كاملاً في «الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣٧٢».

(٣) الأحوات: مفردها حوت، وهو نوعٌ من السّمك.

(٤) هو زاذان، أبو عمر الكندي محدّث ثقة توفي سنة ٨٤هـ «الكاشف ١/ ٢٤٦».

(٥) هو ميسرة أبو صالح الكندي محدّث ثقة «الكاشف ٣/ ١٦٩».

(٦) الأقرصة: مفردها قرص أو قرصة، وهي القطعة من الخبز مبسوطة مدوّرة.

صغارًا ثم قال: اقعُدوا في روضة وترفّقوا[١] رفاقًا، كل رفقة عَشَرة. ثم قام عيسى عليه السلام ودعا الله تعالى فٱستجاب الله له ونزّل فيها البركة، فصار خبزًا صِحَاحًا وسمكًا صحاحًا. ثم قام عيسى فجعل يُلقي في كل رفقة ما حملت أصابعه، ثم قال: كلوا بٱسم الله، فجعل الطعام يكثر حتى بلغ رُكَبهم، فأكلوا ما شاء الله وفَضل منه، والناس خمسة آلاف ونيّف. فقال الناس جميعًا: نشهد أنك عبد الله ورسوله. ثم سألوه مرّة أخرى، فدعا الله تعالى، فأنزل الله خبزًا وسمكًا، خمسة أرغفة وسمكتين، فصنع بها ما صنع في المرّة الأولى. فلمّا رجعوا إلى قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم مَن لم يَشهدها، وقالوا لهم: ويحكم! إنما سحر أعينكم، فمَن أراد الله تعالى به الخير ثبّته على بصيرته، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره. فمُسِخوا خنازير وليس فيهم صبيّ ولا ٱمرأة. فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا. وقال كعب: نزلت مائدة منكوسة من السماء تَطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلاّ اللحم. وقال قَتادة: كانت تنزِل عليهم بكرة وعشيّة حيث كانوا كالمنّ[٢] والسَّلْوى لبني إسرائيل. وقال يَمَان بن رِئاب: كانوا يأكلون منها ما شاؤوا. وروى عطاء بن أبي رباح عن سَلْمان الفارسيّ[٣] قال: لمّا سأل الحواريّون عيسى ابن مريم أن يُنزل عليهم المائدة لبس صوفًا وبكى وقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، وٱرزقنا عليها طعامًا نأكله، وٱرزقنا وأنت خير الرازقين. فنزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها، وهم ينظرون إليها وهي تَهوِي منقضّة حتى سقطت بين أيديهم. فبكى عيسى وقال: «اللهمّ ٱجعلني من الشاكرين، اللهمّ ٱجعلها رحمةً ولا تجعلها عُقوبةً ومُثْلَة»[٤] والشهود ينظرون إليها، ينظرون إلى شيء لم يَروْا مثله قطّ، ولم يجدوا ريحًا أطيبَ من ريحه. فقال عيسى عليه السلام: ليَقُمْ أحسنُكم عملاً فيكشف عنها ويذكر ٱسم الله ويأكل منها. فقال شِمْعون الصَّفَا رأس الحواريّين: أنت أولى بذلك منّا. فقام عيسى عليه السلام فتوضّأ وصلّى صلاة طويلة وبكى بكاءً كثيرًا وكشف المنديل عنها وقال: بٱسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشويّة ليس عليها

---

(١) ترفّقوا: تصاحبوا.

(٢) المن: طلّ ينزل من السّماء على شجر أو حجر ينعقد ويجفّ جفاف الصمغ، وهو حلوٌ يؤكل.

(٣) سلمان الفارسي: صحابي، كان يسمّي نفسه سلمان الإسلام، كان قويّ الجسم صحيح الرأي عالمًا بالشرائع وغيرها، قال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت» توفي في المدائن سنة ٣٦هـ «الأعلام ٣/ ١١١».

(٤) المثلة: بضمّ الميم: التنكيل.

فلوسًا[١] ولا شَوكَ تسيل سيلاً من الدسم، وعند رأسها مِلْح، وعند ذنبها خلّ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكرّاث[٢]؛ وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث بيض، وعلى الرابع جُبن، وعلى الخامس قدِيد[٣]. قالوا: فلمّا استقرّت بين يدَيْ عيسى فقال عيسى ليقم أحدكم فيكشف عن المائدة قال شِمْعُون رأس الحواريّين: أنت أولى يا روح الله، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال عيسى عليه السلام: ليس شيء مما ترون، ولكنّه شيء ٱفتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يُمْدِدكم ويَزِدْكم من فضله. قال الحواريّون: يا روح الله، لو أريتنا من هذه الآية اليوم آية أخرى! فقال عيسى: يا سمكة ٱحْيَيْ بإذن الله. فاضطربت السمكة وعادت عليها فلوسها وشَوْكها ففزعوا منها. فقال عيسى: ما لكم تسألون أشياء إذا أُعطيتموها كرهتموها، ما أخوفني عليكم أن تعذَّبوا! يا سمكة عودي كما كنتِ بإذن الله تعالى. فعادت السمكة مشويّة كما كانت. فقالوا: يا روح الله، كن أوّل من يأكل منها ثم نأكل نحن. فقال عيسى: معاذ الله أن آكل منها، ولكن يأكل منها من سألها، فخافوا أن يأكلوا منها. فدعا عيسى عليه السلام أهلَ الزَّمانة[٤] والمرض وأهلَ البَرَص والجُذَام[٥] والمُقْعدين والمُبْتَلين فقال: كلوا من رزق الله ولكم المَهْنأ ولغيركم البلاء. وفي رواية: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم وٱذكروا ٱسم الله. فأكلوا وصدروا عنها وهم ألف وثلاثمائة رجل وٱمرأة من فقير وزَمِن ومريض ومبتلًى كلهم شبعان يتجشّأ[٦]، ثم نظر عيسى عليه السلام إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء. ثم طارت المائدة صُعُدًا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم. فلم يأكل منها يومئذ زَمِنٌ إلاّ صحّ، ولا مريض إلا برأ، ولا مبتلًى إلاّ عُوفِيَ، ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيًا حتى مات؛ وندم الحواريّون ومن لم يأكل منها إذ لم يأكلوا منها. وكانت إذا نزلت ٱجتمع الفقراء والأغنياء والصغار والكبار والرجال والنساء فيزدحمون عليها. فلمّا رأى عيسى ذلك جعلها نوبة بينهم، فلبثت أربعين صباحًا تنزل ضُحًى ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء[٧] طارت صُعُدًا

---

(١) الفلوس: مفردها الفلس وصوابها بالرفع، وهي القشرة على ظهر السمكة.

(٢) الكرّاث: نباتٌ معمّر من الفصيلة الزنبقية، ذو بصلة أرضية تخرج منها أوراق مفلطحة ليست جوفاء، وفي وسطها شمراخ يحمل أزهارًا كثيرة، وله رائحة قويّة.

(٣) القديد: من اللّحم ما قطع طولاً وملّح وجُفّف في الهواء والشمس.

(٤) الزّمانة: المرضى من ذوي العاهات.

(٥) الجُذام: علّة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط. (٦) يتجشّأ: يخرج صوتًا من فمه عند الشّبع.

(٧) فاء الفيء: أي حلّ، والفيء الظلّ بعد الزوال.

وهم ينظرون إلى ظلها حتى تتوارى عنهم. وكانت تنزل غبًا[١]، تنزل يومًا ولا تنزل يومًا كناقة صالح. وأوحى الله عزّ وجل إلى عيسى أن اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء، فعظُم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها وقالوا: أترون المائدة حقًّا نزلت من السماء! فقال عيسى: هلكتم تجهّزوا لعذاب الله. فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إني شرطت على المكذّبين شرطًا أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذابًا لا أعذّبه أحدًا من العالمين. فقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]. فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلًا. وقال الكسائيّ عن وهب: مُسخ منهم خمسة آلاف وخمسمائة، فباتوا على فرشهم مع نسائهم في ديارهم، فأصبحوا خنازير يسعَوْن في الطُّرقات والكُناسات[٢] ويأكلون العَذِرة[٣]. فلمّا رأى الناس ذلك فزِعوا[٤] إلى عيسى عليه السلام، وبكى على الممسوخين أهلوهم. ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدًا واحدًا فيبكون ويُشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا. وهؤلاء الذين لُعنوا على لسان عيسى كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

ذكر ما قالته الشياطين الثلاثة في عيسى ابن مريم واتّبعهم الناس بعدهم

قال الكسائيّ قال وهب: جاء إبليس إلى عيسى عليه السلام هو وأصحاب له على صُوَر رجال ذوي هيئة وشيبة وعيسى يقول لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فقال إبليس: أتخلُق وتَشفِي المرضَى وتُحيي الموتى وتنبئنا بالغيب؟ قال عيسى نعم. قال إبليس: هذا الله عزّ وجل! يا أيها الناس فانظروا إليه، فإنه نزل إليكم ليُريَكم قُدرته. فقال أحد أصحاب إبليس: بئسما قلتَ يا شيخ! أخطأت وجُرتَ وقلت قولًا عظيمًا، أتزعم أنّ الله يتجلّى لخَلْقه لينظروا إلى قدرته! وهل ينبغي لخلقه أن ينظروا إليه أو يسمعوا كلامه أو يقوموا لرؤيته! لا، ولكنّه ابن الله وليس هو

(١) تنزل غبًّا: أي تنزل يومًا وتمتنع يومًا.
(٢) الكناسات: مفردها كناسة، وهي موضع إلقاء القمامة.
(٣) العذِرة: الغائط.
(٤) فزعوا: لجأوا واستغاثوا.

الله. فقال الثالث: كلاكما قال شططًا[١] وأخطأ وجار وقال قولاً عظيمًا، وهل ينبغي لله أن يتخذ صاحبة يكون له منها ولد! وهل ينبغي لولد هو من الله أن تستقلّ به قوّة أمرأة ويسعه رَحِمها! ولكنّه إله مع الله وليس بولد لله وليس بالله كما قلتما. قال: فتفرّقوا على ذلك ونطق الناس بقولهم، فصار ذلك كلام النصارى. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام وما خاطبه به وجوابه

قال وهب: ثم جاء إبليس إلى عيسى ابن مريم فعارضه في عَقَبة[٢] من عقاب الأرض المقدّسة يقال لها عَقَبة فَيْق، فقال له: أنت المسيح ابن مريم؟ قال عيسى: أنا المسيحُ عيسى ابنُ مريم رُوح الله وكلمتُه وعبدُ الله وأبن أمته. فقال له إبليس: فأنت إله الأرض. قال: بل إله الأرض ربّي. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيّتك أن تكلّمت في المهد صبيًّا. قال: بل العَظَمة للذي أنطقني في صغري. قال: بل فأنت الذي بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تخلُق من الطين كهيئة الطير فتنفُخ فيه فيكون طيرًا[٣]. قال عيسى: بل العَظَمة للذي خلقني وخلق ما سخّر لي. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيّتك أنك تَشفِي المرضَى. قال عيسى: بل العظمة للذي بإذنه شَفَيتهم وإن شاء أمرضني. قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تُحيي الموتَى. قال عيسى: بل العَظَمة للذي بإذنه أحييهم، ولا بدّ أنه سيُميت من أحييتُ ويُميتني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعبرُ البحر فلا تبتلّ قدماك ولا ترسخ[٤] فيه. قال: بل العَظَمة للذي ذلّله. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعلم الغيب. قال: بل العظمة لعالم الغيب والشهادة، لستُ أعلم إلا ما علّمني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك كُوّنت من غير أب. قال: بل العظمة للذي كوّنني وكوّن آدم وحوّاء من قبلي. قال: فأنت الذي بلغ من عظم رُبوبيتك أنك سيأتي

(١) الشّطط: الجور، وقال شططًا: قال جورًا وحاد عن الحقّ.
(٢) العقبة: مرقى صعبٌ من الجبال، أو الطريق في أعلاها.
(٣) انظر سورة المائدة الآية ١١٠، وآل عمران الآية ٤٩.
(٤) ترسخ: تغوص.

عليك يوم تعلو فيه الخلائق كلها، فتكون السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ دونك، وأنت فوق ذلك كلّه تدبّر الأمر وتَقسِم الأرزاق. قال: فأعظم عيسى قولَه وضاق به ذرعًا[١] وسبّح إعظامًا لِما قال إبليس. قال: فأتاه جبريل فنفخ إبليسَ نفخة ذهب يلطِم منها على وجهه فلا يملك من نفسه شيئًا حتى وقع بالخافق[٢] الأقصى، ثم نهض بالذي أعطاه الله من القوّة فسبق عيسى إلى أسفل العقبة فسدّها وملأ كل ثُلْمة[٣] وطريق، ثم قال لعيسى: لقد غضِبتَ غضب إلٰه عظيم، وقد أخبرتك بأنك إلٰه وما أنت من البشر، ولو كنت من البشر ما قمتَ[٤]، منذ فارقتك، أربعين ليلة لم تَطْعَم ولم تشرب ولم تَنَم ولم يضرُع[٥] لذلك جسمُك، وهذا ما لا ينبغي لبشر. قال عيسى: إنّ جسدي ليألَمَ مما يألم منه البشر، وإني لأطعَم وأشرب وأنام وأغفُل وأفرَح وأحزَن وأجزَع وأهلع وأحتاج إلى أن أتنظّف بالماء وكيف تزعم أني إلٰه وأنت تعلم أني هكذا!. ولم يزل إبليس لعنه الله يحاوره حتى عرَض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته والاعتراف بربوبيته. فضاق عيسى ذَرْعًا وسبّح لله تعالى فقال: «سبحان الله عما يقول وبحمده، ملء سمائه وأرضه، وعدد خلقه، ورضا نفسه، ومبلغ علمه، ومنتهى كلماته، وزنة عرشه». فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل، فنفخه ميكائيل نفخة ذهب منها نحو مطلع الشمس حتى صدم عين الشمس عند طلوعها، فخرّ حصيدًا[٦] محترقًا، فأتبعه إسرافيل فنفخه نحو مغرب الشمس فانطلق لا يملك من نفسه شيئًا حتى حاذى[٧] عيسى فقال: يأبن مريم، لقد لَقِيت منك تعبًا. ومرّت به النفخة حتى وقع في العين الحامية التي تغرب الشمس فيها، فلبث سبعة أيام وسبعَ ليال، متى أراد الخروج منها غطّته الملائكة بأجنحتها، فما رام عيسى بعد ذلك. والله أعلم.

ذكر خبر عيسى مع اليهود
حين ظفروا به وأرادوا صلبه وقتله

قال وهب: لـمّا أوحى الله عزّ وجل إلى عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] جَزِع من الموت جَزَعًا شديدًا وقال للحواريّين: هذا الزمان الذي يَقبِض الله فيه الراعي ثم تُفرَّق الرعيّة من بعده، فعرَفوا أنه يعني نفسه، فبكَوْا

(١) ضاق به ذرعًا: تذمّر وتململ. (٢) الخافق: الأفق.
(٣) الثلمة: الموضع الذي انثلم، أي حفر وشق.
(٤) في الأصل: «ما قمت لي» بزيادة «لي» والظاهر أنها من زيادات النسّاخ.
(٥) يضرع: يضعف. (٦) الحصيد: الزرع المحصود.
(٧) حاذاه: صار بجانبه.

وجزِعوا، فقال: لا تبكوا من حزنِ الفراق، فسترَوْن ما هو أشدّ منه، ولستُ مفارقكم حتى يظفر بي عدوّي ثم يأسِرونني، فلا تدفعوا عنّي ولا تمنعوا. قال: وطلبه اليهود ليقتلوه فأستخفى منهم، فدلّهم عليه يُوذَا وهو الذي ارتدّ[1] عنه، فأخذوه من غار جبل بيتَ لَحْم وجعلوا على رأسه إكليلاً من الشّوك ليمثّلوا به، وجعلوا يلطِمونه ويضربونه من خلفه ويقولون له: إن كنت نبيًا كما تزعم فامنع عن نفسك وأدعُ ربك فليحُلْ بيننا وبينك، وهو لا يكلّمهم حتى طلع الفجر، ونصبوا له خشبة ليصلبوه. فلمّا أرادوا أن يرفعوه عليها أظلم الجوّ ظلمةً عظيمة لم تلبس الأرض مثلها، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبينه وصلبوا مكانه يُوذَا الذي دلّ عليه، وأشرقت الشمس وقلب الله قلوب الناس وأبصارهم فجعلوا ينظرون إلى يُوذَا في صورة عيسى قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. قال: ولمّا رفعوا يُوذَا على الخشبة قال: يا هؤلاء، إنّي أذكّركم الله في دمي، إنّي صاحبكم يُوذَا الذي دللتكم على عيسى. ثم أخبرهم خبر الظلمة وأنّ الملائكة حالوا بينهم وبين عيسى وجعلوه مكانه، وأخبرهم بعلامات يعرفونها. فلمّا سمعوا ذلك منه زادهم عليه غيظًا وحنقًا وقالوا: ما أعظَم سحره! كيف اطّلع بسحره على سرّنا وما كنّا نطويه دُونه! وقتلوه وهو صاحبهم.

ذكر خبر رفع عيسى عليه السلام أوّل مرة وهبوطه إلى الأرض ووصيّته إلى الحواريّين ورفعه ثانيًا

قال: رفع الله تعالى عيسى لثلاث ساعات مضت من النهار، فلبث في السماء أيّامًا، قيل سبعة أيام، وقيل أربعين يومًا. والله أعلم. ثم قال الله له: إنّ أعداءك اليهود أعجلوك عن الوصيّة والعهد إلى أصحابك، فانزِل إليهم واعهَد لهم وأوصهم، وانزِل على مريم المَجْدَلانيّة[2] فإنها في غار في جبل الجليل. وكانت مريم المَجْدَلانيّة من قرية من قرى أنْطاكِيَةَ يقال لها مَجْدَل[3]. وكانت من أوسط نساء بني إسرائيل حَسَبًا، وكانت أجمل نسائهم وأكثرَهم مالاً، وكانت تُستحاض فلا تطهُر أبدًا وخطبها أشراف بني إسرائيل وملوكهم وأمتنعت من إجابتهم، فظنّوا أنّ ذلك ترفّعًا منها، وإنما كان

---

(١) ارتدّ عنه: كفر بعد إيمانه به.

(٢) كذا في الأصول وفي نسخة الثعلبي، ولعلّها نسبة شاذة إلى مِجْدل، وفي الكتاب المقدس: المجدليّة.

(٣) مِجدل: بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدّال، اسم بلدٍ طيّب بالخابور إلى جانبه تلٌّ عليه قصر، وفيه أسواق كثيرة ويازارٌ قائم «معجم البلدان ٥/ ٥٦».

بسبب ما يعرضُ لها. فلمّا ظهر عيسى عليه السلام وشاع ذكره أتته في جملة المرضى ليشفيَها، فخجِلت أن تسأله لكثرة الناس حوله، فجاءت من ورائه فمسّته بيدها فزال عنها ما كانت تشكوه وطهُرت وآمنت بعيسى، وأنفقت مالها فيما أمرها به من وجوه البرّ، وصارت فقيرة وتبتّلت[(١)] وتخلّت للعبادة، وكانت تُعدّ من أصحاب عيسى. قال: وأمر الله تعالى عيسى أن يأمرها أن تجمع له الحواريّين، وأن يستخلف عليهم شِمْعُون، وأن يُفرّقهم دعاةً إلى الله عزّ وجل في البلاد، وأن يخبرهم بالعلامة التي تأتيهم من الله. ثم أهبطه الله تعالى على مريم فاشتعل الجبل نورًا، وأتته بالحواريّين، فبلّغهم رسالة ربهم، وقال: إن آية ذلك أن تأتيكم الملائكة في ليلتكم هذه بمغارف[(٢)] فيها نور من نور الله، فكلّ مَن تناول مِغْرفةً منها فليلحَسِ النور الذي فيها فإنه يصبح وقد تكلّم بلغة القوم الذين بُعِث إليهم ويُصبح وهو على باب مدينتهم. قال: والليلة التي هبط عيسى فيها هي الليلة التي تدخّن فيها النصارى باللُّبَان[(٣)]. قال: فلمّا فرغ عيسى من وصيّته إلى الحواريّين رُفع بعد سبعة أيام، وتوفّاه الله تعالى لثلاث ساعات من النهار، ثم كساه الله الريش وألبسه النور، وقطع عنه المطعم والمشرب وصار مَلَكِيًّا إنسيًّا. قال وهب: برز عيسى عليه السلام للناس يوم برز وهو ابن ثلاثين سنة، ولبث فيهم في نبوّته وفيما كان الناس يرونه منه من العجائب والآيات ثلاث سنين، ورفعه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وحكى أبو إسحاق الثعلبيّ عن أهل التاريخ أن الله تعالى أوحى إلى عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ورفعه من بيت المقدس ليلة القَدْر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وتسعين سنة. وقد ورد في الحديث ما يدلّ على أنه رُفع وله مائة وخمس وعشرون سنة. وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في آخر السيرة النبوية على ما تقف إن شاء الله عليه هناك.

ذكر وفاة مريم بنت عمران عليها السلام

قال الكسائيّ قال كعب: ماتت مريم بنت عمران أمّ عيسى عليهما السلام قبل رفعه، فدفنها في مشاريق[(٤)] بيت المقدس. وحكى الثعلبيّ رحمه الله أنها ماتت بعد رفع عيسى عليهما السلام. وقال في خبره: إنه لمّا صُلِب المشبَّه بعيسى جاءت مريم ابنة

(١) تبتّلت: تفرّغت لعبادة الله، والبتول: العذراء المنقطعة عن الزواج إلى الله.
(٢) المغاريف: مفردها مغرفة، وهي ما يغرف به الطعام ونحوه.
(٣) اللبّان: نبات من الفصيلة البخوريّة يفرز صمغًا ويسمّى الكندر.
(٤) المشاريق: مفردها المشريق وهو الشقّ الذي يدخل منه ضوء الشمس عند شروقها، ولعلّ المقصود: مشارق: أي الجوانب الشرقيّة.

عمران وأمرأةٌ كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون يبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما: على ماذا تبكيان؟ فقالتا عليك. فقال: إن الله تعالى رفعني فلم يُصبني إلا خير، وإنّ هذا شيء شُبِّه لهم. ثم قال أيضًا في قصة وفاة مريم عن وهب: لمّا أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام آخى بين الحواريّين وأمر رجلين منهما وهما شِمْعُون ويوحنّا أن يلزما أُمّه ولا يفارقانها، فأنطلقا ومعهما مريم إلى نيرون[١] ملك الروم يدعوانه إلى الله عزّ وجل، وقد بعث الله إليه قبل ذلك بُولُس[٢]. فلمّا أتوه أمر بشِمْعُون وبُولُس فقُتِلا وصُلِبا منكّسَيْن، وهربت مريم ويوحنًّا، حتى إذا كانا في بعض الطريق لحقهما الطلب، فخافا فأنشقت لهما الأرض فغابا فيها، فأقبل نيرون ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئًا فردّوا التراب على حاله، وعلموا أنه أمرٌ من الله عزّ وجل. فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأُخبر به فأسلم. وقد قيل في إسلامه غير هذا، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الباب السادس
من القسم الثالث من الفنّ الخامس
في أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام وما كان من أمرهم مع من أرسلوا إليه وخبر جرجيس

ذكر خبر أخبار الحواريّين

قال الكسائيّ: قال وهب: وأصبح الحواريّون على أبواب المدائن التي بُعِثوا إليها، يتكلّم كل رجل منهم بلغة الأمة التي بُعِث إليها. فبَعَث إلى أهل رُومِيَةَ رجلين من الحواريّين، وبعث إندراوس ولوقا إلى أرض الحبشة، وبعث رجلاً إلى بابل[٣]،

(١) في الأصل: «بارون» والتصويب عن الطبري ١/ ٧٣١.

(٢) في الأصل: «بودس» والتصويب عن الطبري ١/ ٧٣١.

(٣) بابل: مدينة من أكبر وأقدم مدن العالم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهي مدينة النمرود، اشتهرت في الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة، وفيها أُلقي إبراهيم الخليل عليه السلام في النار، وأنّ بها هاروت وماروت الملكين اللذين يعلمان الناس السحر، ذكر ذلك القرآن الكريم «صبح الأعشى ٤/ ٣٣١».

وبعث رجلاً إلى إفريقيّة، ورجلاً إلى أصحاب قرية الكهف[١]، ورجلاً إلى بَرْبَر[٢]، ورجلين إلى أنطاكِيَةَ، ورجلاً إلى السِّنْد والهند، وأقام شمعون مكانه وهو رأسهم، وأُمروا أن يستظهروا[٣] به فيما يهمّهم.

ذكر خبر يوحنّا وبولس اللذين توجّها إلى أنطاكية

قال الكسائيّ: لمّا أصبح يُوحنّا وبولُس على باب أنطاكِيَة دخلاها عند فتوح بابها، ومَلِكُها يومئذ مَخْلنطيس بن مَخْلنطيس، وكان ظالمًا جبّارًا متكبّرًا، فلم يقدِرا على الوصول إليه، وما أمكنهما أن يذكرا ما جاءا فيه مخافة أن يُقْتَلا قبل أن يبلّغاه رسالة الله تعالى. فكانا كذلك مدّة، حتى شَخَص الملك من منزله إلى مُسْتَنزَه له فنادياه من بعيد بالإنذار. فلمّا سمع أصواتهما أرسل مَن يسمع مقالتهما فبلّغاه رسالة الله عزّ وجل؛ فأمر الملك بجلد كلّ منهما مائة جلدة وحَلْق رؤوسهما حَلْقَ الشمامسة[٤] ليمثّل بهما، ثم أمر بهما إلى السجن ليخلُدا فيه. فأوحى الله تعالى إلى شِمْعُون بخبرهما وأمره بالانتصار لهما. فخرج حتى بلغ أنطاكِيَة فدخلها، وتلطّف حتى صحِب خواصّ الملك وبطانته[٥] وأنِسوا به وذكروه للملك. ثم طرق[٦] السجن ليلاً، وكان له باب من حديد طوله خمسون ذراعًا وعرضه ثلاثون، وكان إذا فُتِح صرصر[٧] حتى يَسْمَع صريره أقصاهم وأدناهم. فأرسل الله تعالى مَلَكًا فاقتلع الباب من موضعه فلم يُسمَع له صوت، وألقى الله عزّ وجل السُّبات[٨] على أهل السجن وحرّاسه. فدخله شِمْعُون، واجتمع بيُوحنّا وبولس وبشّرهما عن الله بالثواب والخير وانصرف عنهما، وردّ الملك باب السجن إلى موضعه. وكان شمعون يدخل مع الملك وأصحابه إلى بيوت أصنامهم ويسجد لله ويبكي ويُكثر العبادة وهم لا يشكّون أنه يعبد

---

(١) قرية الكهف: قيل: الرقيم اسمُ القرية التي كان فيها أصحاب الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم، والكهف المذكور الذي فيه أصحاب الكهف بين عمورية ونيقية، بينه وبين طرسوس عشرة أيام أو أحد عشر يومًا قال ابن عبّاس: أصحاب الرقيم سبعة، واسم كلبهم قطمير، واسم ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم أفسس ورستاقها الرّس «معجم البلدان ٣/ ٦١».

(٢) بربر: قد يكون المراد: البربر، وهو اسم لقبائل كثيرة أخرجت من أرض فلسطين وقصدوا المغرب حيث تناسلوا وسمّيت قبائلهم بأسماء الأماكن التي نزلوا فيها.

(٣) يستظهروا: يستقووا.

(٤) الشمامسة: مفردها الشمّاس، وهو من يقوم بالخدمة الكنسيّة ومرتبته دون القسّيس.

(٥) البطانة: حاشية الملك المقرّبين.

(٦) طرق: أتى ليلاً.

(٧) صرصر: أحدث صوتًا متقطّعًا.

(٨) السّبات: النعاس والنوم.

أصنامهم، فأحبّه الملك وقرّبه وسأله عن نسبه، فأخبره أنه من بني إسرائيل وأنه بقيّة قوم انقرضوا، ولم يكن له مَن يأنس به فاعتمدتكم رغبة في قُربكم، وحرصًا على إخائكم. فقال الملك: قد قبلنا قولك وسوّدناك علينا، فأنت أفضلنا وسيّدنا. فلبث فيهم زمنًا يصدرون عن رأيه. فلما تمكّن أمره من الملك قال له: أيها الملك، بلغني أنك سجنت رجلين كانا قد جاءاك يدعوانك إلى غير دينك وإلى عبادة إلٰه غير إلٰهك، ويزعمان أنّ الله أرسلهما إليك، وعجبتُ كيف اجترأا عليك. فماذا قلتَ لهما وما قالا لك؟ وهل أجبتهما بما كان ينبغي لك من الجواب؟ وهل سألتهما حين عظّما لك ربهما أن يذكرا لك سائر عظمته، أو أحييا لك مَيْتًا، أو غير ذلك مما تعرف به مصداق قولهما؟ قال الملك: لقد حال الغضب دون ما تقول. قال: فهل لك أن تدعوهما؟ قال نعم. فأحضرهما بين يديه، فقال لهما شِمْعُون: أخبراني مَن أرسلكما إلى هذا الملك وقومه؟ قالا: أرسلنا الله الذي هو على كل شيء قدير. فقال شمعون: صِفا لي عظمته. قالا: هي أعظم من أن تُحْصَى. قال: فأخبراني ماذا يبلُغ من قدرته؟ قالا: إن شئتَ وصفنا لك ما نُطيق وصفَه، وصِفَتُه أعظم من طاقتنا، وإن شئتَ وصفنا لك ذلك في كلمتين تكفيان من كلام كثير. قال: نعم، صِفَا وأوجزا. قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فوضع شمعون يده على رأسه كالمنكر لما قالا، ثم أقبل عليهما وقال: إني أسألكما أمرًا فإن قدَر إلٰهكما عليه آمنّا بكما. قالا: سل. قال: هل يقدر أن يخلق خلقًا ونحن ننظر إليه؟ قالا نعم. قال: اعلما ما تقولان! قالا: قد علمنا، فمتى شئتَ أريناك. فعندها خلا شمعون بالملك وقال: أيها الملك، إنّ هذين الرجلين ليسا ببعيدين من أن يكون ربهما كما قالا، ولا أظنهما عرّضا أنفسهما للملك لمثل هذا الموقف إلا وعندهما ثقةٌ من إلٰههما. وإني أخشى أن يدعُوَا ربهما فيخلق خلقًا ينظر إليه الناس فيُمْرِض ذلك قلوبهم ويزهدون في إلٰهك الذي تعبده ويذهبان بالصوب[1] والشرف. فهل لك أن تدعو إلٰهك فيخلق هذا الخلق الذي نريد أن نتمناه عليهما فيكون لك ولإلٰهك شرف هذا اليوم وصوْبُه؟ قال له الملك: ليس دونك سرّ، إنّ هذا الإلٰه الذي نعبُد لا يسمع ولا يُبصِر ولا يضرّ ولا ينفع ولا يُحيي ولا يُميت. فقال لهما شمعون: اِعْرِضا عليّ بعض قدرة إلٰهكما فإن أجابكما وخلَق الشيء على أعيننا ونحن ننظر إليه فقد صَدَقتما والقول قولكما. واجتمع الناس لينظروا. فأوحى الله إليهما أن سَلاَه ماذا يريد، فإني مسخّر لكما ما سألكما. قالا: قد أوْحَى إلينا أنه فاعلٌ ما تسألنا، فسلنا. وكان شمعون قد عهد في المدينة غلامًا مطموس الوجه لم يُخْلَق له

(١) الصوب: أي الصّواب، ضد الباطل.

عينان، فأتِيَ به فقال: ادعُوَا ربكما أن يخلُق له عينين ونحن ننظر. قالا نعم. فأوقفاه بين أيديهما ودعَوَا الله وأعانهما شمعون سرًّا، فأجابهم الله تعالى، فأخذ كل واحد منهما حَثْوَةً[١] من تراب وعجنه وجعله كالبندقة[٢]، ووضعا البندقتين في موضع العينين من وجه الغلام فانشقّ لهما البصر، ثم صارت البندقتان عينين. فخاف الملك، فقال له شمعون: لا تخف إنّ عندي حيلة. قال له الملك: لعلّهما ساحران، أرِنَا ما لا يكون وما ليس بكائن. قال شِمْعون: ليس هذا من السحر، ولكني أخاف أن يأتيَ من إلههما ما يُعجِز حيلتنا. فدعا شِمْعون بغلام مطموس وعمل كما عملا فانشقّ بصره، كما انشقّ بصر الأوّل، ففرح الملك وأصحابه بذلك. فقال شمعون: إنما صنع ما ترون إلٰه اخترته لنفسي وهو الذي أظهر فُلْجكم[٣]، فاسجدوا لهذا الإلٰه الذي أظفركم بعدوّكم لعلّه يُعينكم على ما يكون بعد هذا. فقال الملك: كيف نسجُد لغير إلٰهنا! قال شمعون: ألم تُخبرني أنه لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، فما قُدرته عليك إن سجدتَ لغيره! قال: صدقتَ. وسجد الملك وسجد قومه لسجوده. ثم قال شمعون ليوحنّا وبولُس: إنّي أسألكما عن أمر، فإن قَدَر عليه إلٰهكما فالحجّة إذًا لكما والقولُ قولكما. قالا: سَلْ عمّا بدا لك. قال: تسألان ربكما أن يُحييَ لنا ميّتًا حتى يكلّمنا ويخبرنا ما خبره، ويُعلمنا ما كان فيه وما لقِي بعدنا. قالا: نعم، إنّ الذي سألتَ يسيرٌ على الله وهيِّن عليه. فوضع شِمعون يده على رأسه كالمُعْظِم والمنكر لما قالا. ثم خلا بالملك وقال: إنك قد رُميتَ بأمر عظيم، وإني أخاف إن أحيا إلٰههما الموتى أن يميل الناس إليهما. قال الملك: إنّا نرجو ألاّ يأتيا بشيء إلا أتيتَ أنت بمثله. قال شِمْعُون: إنّي لا أغُرّكم، إنّ إلٰهي لا يُحيي الموتى، ولا أعلم في الأرض مَن يقدِر على ذلك. قال الملك: فهل تَدَعهما يَدَعانِنا وندعهما، فإن أبَيَا قاتلناهما؟. قال شِمْعُون: كيف نقاتل مَن لهما إلٰه يُحيي الموتى! ولكن أرجو أن أدعو الإلٰه الذي صنع ما رأيتم فيُعيننا على ما نريد. قال شِمْعُون: هل يقدر إلٰهكما على أن يُحيِيَ الموتى؟ قالا نعم. قال الملك: إنّ عندنا ميّتًا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن دِهْقان[٤] مدينتنا، فدعا به الملك فأُحضر في نَعْش، وقد تغيّر لونه وأرْوَح[٥]، فقال:

---

(١) الحثوة: الغرفة باليد من التراب ونحوه.

(٢) البندقة: واحدة البندق، رصاص كرويّ الشكل صغير يستعمل في بعض القذائف للقتال أو للصّيد.

(٣) الفلج: بمعنى الفوز والنجاح.

(٤) الدهقان: رئيس المقاطعة والإقليم، والتاجر.

(٥) أروح: أنتن.

دونكما ادعُوَا أن يُحيِيَه إلٰهكما. فدعَوَا الله، فما لبث أن تفتّقت[١] عنه أكفانه وردّ الله إليه رُوحه. فسألوه متى مات وماذا لقِي. فقال: مُتّ منذ سبعة أيام، ثم عُرِضْتُ على عملي فقُذِفتُ في سبعة أودية من نار، وذكر ما في الأودية من العذاب والحيّات وغير ذلك. قال: فلمّا صرت إلى الوادي السابع خُفِّف عنّي العذاب. قالوا: فمن أين خُفِّف عنك العذاب؟ قال: أحياني الله وردّ عليّ رُوحي، فجاءني شيء مثل الريح فدخل في رأسي، فلمّا صار في جسدي حَيِيتُ، ثم قيل لي: انظر فوقك، فشخَصتُ[٢] ببصري وفُتحت أبواب السماء، فنظرتُ فإذا برجل شابّ حَسَنِ الوجه نحيفِ الجسم أبيض يخالطه حمرة متعلّق بالعرش يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة، يعني عيسى ابن مريم. فقال له الملك: أيّ رهط تعني؟ قال: هذا الشيخ الأجلخ[٣]، وهذا الكهل الأنزع[٤]، وهذا الفتى الرَّجْل[٥]. فما زالوا مجتهدين في الدعاء حتى شُفِّعوا، والشافع لهم مُصغٍ إليهم بأذنه كأنه يسمع ما يقولون ثم يرفعه إلى الله فيدعو به. فلما فرغ من كلامه قال: إنّي أحذّركم أيها القوم مثلَ ما كنتُ فيه، فإنه لا إلٰه إلاّ إلٰه عيسى ابن مريم وشِمْعُونَ وبُولُس ويُوحنّا. قال شِمْعُون: اعتصَمنا بالله وتوكّلنا عليه، ثم أخبر الملك بخبره وخبر أصحابه ودعاهم إلى الله، فمنهم من آمن، ومنهم من تولّى. وكان الملك ممن آمن به في عُصبةٍ يسيرةٍ. وأرسل الله على مَن تولّى منهم صَيحة[٦] من السماء فإذا هم خامدون.

قال: وكان قد نُعِي إلى الدِّهقان ٱبنُه، وكان اسم الدِّهقان حبيبًا النجّار، ثم لم يلبث أن جاءته البشارة بحياة ٱبنه، ولم يكن له ولدٌ غيرُه، وأُخبر خبر الحَواريّين، فآمن بهم قبل أن يراهم، فأقبل مسرعًا. فلمّا قصّ عليه ابنه قصّته ازداد إيمانًا ويقينًا. قال وهب: فيقال ـ والله أعلم ـ إنّ هذا هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يٓس: ٢٠]. فأوجب الله له بكلامه الجنة، وخُيِّر أن يُعَمَّر هو وٱبنُه مائة عام أو يعجَّل بهما إلى الجنة، فٱختارا الجنة؛ وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ [يٓس: ٢٣]. قال: ولم يزل يجاهد قومَه قبل أن تأخذهم الصيحة ويدعوهم إلى الله حتى قتلوه،

(١) تفتّقت: تشقّقت.
(٢) شخص ببصره: رفعه ونظر إلى أعلى.
(٣) الأجلخ: صوابه [الأجلح] بالحاء المهملة ومعناه: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه.
(٤) الأنزع: الذي انحسر شعره عن جانبي جبينه.
(٥) الرَّجل: بتشديد الرّاء وتسكين الجيم: الذي شعره رأسه بين السّبوطة والجعودة.
(٦) الصيحة: العذاب.

فقيل له: ادخل الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: ٢٦- ٢٧].

ذكر خبر تُومَا الحواريّ مع ملك الهند وإيمانه به

قال الكسائيّ قال وهب: وجاء توما إلى أرض الهند والسِّنْد. فبينما هو يتردّد على ساحلهم إذا هو بغلام لملك الهند يقال له حَيّان، وكان تاجرًا. فأتاه تُومَا فقال له: هل لك أن تبتاعني للملك؟ فقال له حَيّان: مَن أنت أيها الرجل الكريم؟ قال له تُومَا: إنّي كنتُ عَبْدًا مملوكًا فأعتقني سيّدي وأمرني بالطلب لنفسي، فلم أصادف من الحرّيّة ما كنتُ أظنّ، وكان حالي يوم كنتُ عبدًا خيرًا منه اليوم وأحسن. فقال له حيّان: ما أرى عليك مِيسَم[1] العُبوديّة، وإني لأرى عليك أثر الخير، ثم قال له: ما الذي تُحسِن من الأعمال؟ قال: أعمل سائر الأعمال. فٱشتراه بثلاثمائة مثقال[2] من الذهب وٱنطلق به إلى الملك. فلمّا رآه أجلّه وعظّمه، وسأل التاجر عنه فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائر الأعمال. فقال له الملك: أريد أن تبني لي قصرًا لم يُعمَل مثلُه لأحد قطُّ. قال تُومَا: لك ذلك عليّ، ولكن أرضَك حارّة، وإذا بُنِيَ في زمن الحرّ كان حارًّا لا يُسكَن من حرّه، وكذلك في زمن البرد يكون باردًا، وإني لأرى أن يُعمَل في زمن الٱعتدال، فوافقه الملك على رأيه. وعرض للملك غَزَاةٌ فخرج إليها وٱستَخلف أخاه على المُلْك، وأمره أن يدفع لتُومَا ما يحتاج إليه من الأموال للنفقة على القصر، فصرف له أموالاً كثيرة، ففرّقها توما في الفقراء والمساكين حتى أغناهم، ثم مرِض أخو الملك مرضًا شديدًا وغاب عن حسّه وحركته سبعة أيام. فقدم الملك وهو على تلك الحال، فلما ردّ الله عليه رُوحه قال الملك لتوما: ما فعلتَ في القصر؟ قال: قد فرغتُ منه. فقال الملك لأخيه: ما الذي أعطيتَه من مالي؟ قال: جميع ما في بيت مالك. قال: فهل رأيتَ القصر؟ قال: إنه قبض مني المال ثم اشتكيت فقال لتوما: أين بنيتَ هذا القصر؟ قال: بنيتُه لك في السماء. قال: وكيف لي بسُلَّم أنال به السماء؟ قال: تنال السماء بالسُّلَّم الذي نالها به أخوك. فقال له أخوه: اسمع منّي أيها الملك أُخبِرْكَ بالعجَب؛ فإنك لو تعلم ما أسبل عليك هذا الرجل من الخير وصرف عنك من الشرّ لقبّلتَ قدميه وجعلته فوق رأسك. قال: أَخْبِرْني خبره. قال: أُخبرك أنّ الله عزّ وجل عرجَ برُوحي، فعرَضني على النار فرأيتُ أمرًا عظيمًا مَهُولاً ووصفه

---

(١) الميسم: العلامة، والسّمة.

(٢) المثقال: وزنٌ مقداره درهم وثلاثة أرباع الدّرهم.

لأخيه، ووصف له صفة ما يُعَذَّب به أهل الشِّرك بالله وعَبَدة الأوثان. قال: ثم قيل لي: إنّ الله عرضك على النار فأراك ما رأيتَ لتكون لمن خَلْفك نذيرًا، وسيُريك الجنة، لتبشِّر بها قومك، ولتُخبِر مَن خلفك بما رأيت. قال: فأُدخلتُ الجنة فرأيت كذا وكذا، ووصف الجنة ونعيمها وما فيها. قال: وأنتهيتُ إلى قصر عظيم من أعظم قصورها وأبوابُه مُغلقة، فقلت لخزنة الجنة: إنّي أحبّ أن أشاهد باطن هذا القصر فإنّي لم أرَ مثله. قالوا: إنّ صاحبه الآن في الدنيا ومفاتيحه عند ملَك من الملائكة. قلت: فلمن أُدُّخِر هذا القصر؟ قالوا: هذا لأخيك فلان وهو الآن في الدنيا، وعنده رسول من عند الله يقال له تُوما الحوَاريّ من حواريّي عيسى ابن مريم. فإذا رجعتَ إليه فبشّره وأخبره أنه القصر الذي بناه له تُوما في السماء، وأنفق فيه بيت ماله. ثم ردّ الله بعد ذلك عليّ رُوحي، وأنت تعلم يا أخي أنّ لي شَطْر مالك ومُلْكك وخزائنك، وتعلم ما لي بعد ذلك من الأموال والخزائن، وأنا أعطيك جميع ذلك على أن تُعطيني قصرك الذي رأيته لك في الجنة. قال: يا أخي، ما كنتُ لأُعطيك الباقي بالفاني. ثم أقبل على تُوما وآمن به هو وأهل مملكته، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى حتى أبادها الموت.

ذكر خبر لُوقَا الحواريّ مع ملك فارس

قال: وأصبح لُوقا على باب مدينة من مدائن فارس، وهي التي يسكنها الملك، فإذا غلمانٌ من أبناء الملوك وأبناء الوزراء جلوسٌ على قارعة الطريق يلعبون. فجلس الحواريّ إلى جانب غلام منهم وعلمه كيف يلعب، فغلب جميع أولئك. فلمّا تفرّقوا دعاه الغلام إلى منزله، فقال له: اذهَبْ إلى أبيك وأستأذِنْه في ذلك. فأنطلق الغلام إلى أبيه وأخبره بخبر الشيخ، فأذِن له أن يأتيه به، فرجع إليه وقال له: إنّ أبي يدعوك، فأقبل معه. فلمّا ولجَ[1] باب الدار قال: بأسم الله، فخرج كل شيطان في الدار، وصاحبُ الدار ينظر إلى ذلك، وكانت الشياطين تَظهر لهم وتُشاركهم في طعامهم وشرابهم، فعجِب صاحب الدار من ذلك. وقُدِّم الطعام فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها، فقال لُوقا: بأسم الله، فنفَرت الشياطين وفرّت من الدار. فقال الشيخ: قد رأيتُ منك اليوم ما لم أره من أحد، وإنّ لك لشأنًا، وخلا به وقال: لا بدّ أن تُخبرني خبرك ولا تكتُمني أمرك. قال: على أن تكتُمه ولا تذكره إلاّ أن آذَنَ لك، قال نعم. فأستوثق منه وأخبره بخبره. ثم قال له لُوقا: أخبرني أيّ مال الملك أحبّ

(١) ولج الدار: دخلها.

إليه وأعجب عنده؟ قال: ما شيء من ماله أحبّ إليه وأعجب عنده من بِرْذَوْن[1] حتى إنه يركبه من سريره. ثم أقام مدّة، فقُدِّم البِرْذَوْن إلى الملك ليركبه على عادته، فلما صار إلى جانب السرير خرّ ميّتًا، فشقّ ذلك على الملك وآلمه وقال: وَدِدتُ لو فديتُه بمال عظيم، وحزِن جلساءُ الملك وخواصُّه لحزنه. قال: وجاء الرجل إلى لُوقَا وقد حَزِن لحُزْن الملك، فسأله عن سبب حُزْنه فذكر له قصّة البِرْذَوْن، فقال له: ارجِعْ إلى الملك وقل له: إني أُحيِيه له إن أطاعني فيما أقول. فرجع إلى الملك وأخبره بذلك، وقال: إنّ هذا الرجل لمّا عَبَر إلى منزلي نفرَتْ منه الشياطين ولم تطعَم من طعامنا، وكانت تأكل معنا قبل ذلك وتشرب كما علمتَ، وقد قال: إن أطاعني الملك أحييتُ له بِرْذَوْنه. فقال الملك: إنّ نفسي لتَطيب بكل شيء أُحيِي به هذا البِرْذَوْن، فعليّ بالرجل، فأحضره إلى الملك. فلمّا دخل الدار لم يبق بها شيطان إلا خرج. ثم جلس لوقا إلى جانب الملك، فقال له: بلغني أنك تُحيِي الموتى، فأَحْيِ لِي بِرْذَوْني هذا. فقال له: إن أطعتني فيما أقول لك أُحْيِ بِرْذَوْنَك. قال الملك: مُرني بما شئتَ. قال: أُدْعُ ٱبنك وٱمرأتك، وكان ٱبنُه وليّ عهده وٱمرأته منه بمكان، فدعاهما، فأخذ لُوقا بقائمة من قوائم البِرْذَوْن، وكلّ من الملك وٱبنِه وامرأته بقائمة، ثم قال الحواريّ بالفارسيّة: «اللهمّ ربَّ السموات والأرض، خالق السموات والأرض وما فيها لا إلٰه إلاّ أنتَ وحدك لا شريك لك، أحيِ هذا العضو الذي في يدي» فتحرّك ذلك العضو. ثم قال للملك: قل كما قلتُ، فقال الملك مثل قوله. فتحرّك العضو الذي في يده. ثم قال لٱبنه: قل كما أقول، فقال فتحرّك العضو الثالث، ثم قال لٱمرأته: قولي كما قلتُ، فدعت بدعائه، فتحرّك العضو الذي في يدها. ثم قال لهم: قولوا جميعًا كما أقول، فقالوا كلهم: «اللهم ربّ السموات والأرض خالق السموات والأرض وما فيهما لا إلٰه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك أحْيِ هذا البِرذون». فقام البِرْذَوْن حيًّا ينفُض ناصيته[2]. فعجِب الملك والناس من ذلك. وسأله الملك عن خبره فأخبره أنه رسول عيسى ابن مريم إليه وإلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فآمنوا به. وقد قيل: إن الذي أُرسل إلى أرض فارس متّى الحواريّ، وإنه لمّا دخل على الملك كان الملك سكرانًا، فلمّا أحيا الفرس أمر الملك أصحابه بقتل متّى فقتلوه. فلمّا أفاق الملك من سكره سأل عنه فقيل له: إنك أمرتَ بقتله فقتلناه، فقال: ما علمتُ بذلك. فقاموا إليه

---

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيليّة، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء قويّ الأرجل، عظيم الحوافر.

(٢) النّاصية: شعر مقدّم الرأس إذا طال.

وغسلوه وكفّنوه ودفنوه. ويقال: إنّ الله تعالى بعد دفنه خسَف بالملك وأولاده وأهله. والله أعلم. ولنصل أخبار الحوارّين بخبر جرجيس وإن لم يكن منهم، فقد كانت له قصّة عجيبة تلتحق بهم.

ذكر خبر جِرْجِيس رحمة الله عليه

قل أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان في قصص القرآن» بإسناده عن وهب بن مُنَبِّه قال: كان بالموصل ملك يقال له داديه[١]، وكان قد ملك الشام كله ودان له أهله، وكان جبّارًا عاتيًا[٢]، وكان يعبد صنمًا يقال له أفلون، وكان جِرْجِيس عبدًا صالحًا من أهل فِلَسْطِينَ قد أدرك بقايا من حَوَارِيّي عيسى عليه السلام، وكان تاجرًا عظيمًا كثير المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه مخافة أن يفتِنوه[٣] عن دينه. فخرج يريد المَوْصِل[٤] ومعه مال يريد أن يُهديه إليه حتى لا يجعل لأحد من الملوك عليه سلطانًا دُونه. فجاءه حين جاءه وقد بَرز في مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنُصِب وأوقدَ نارًا، فمن لم يسجُد لصنمه أُلْقِيَ في النار. فلمّا رأى جِرْجِيس ذلك قُطِع[٥] به وهاله وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده، وألقى الله تعالى في نفسه بغضه ومجاهدته. فعمَد إلى المال الذي أراد أن يُهديه له فقسمه في أهل ملّته حتى لم يبقَ منه شيءٌ وكرِه أن يجاهده بالمال. ثم أقبل عليه وقال له: إنك عبد مملوكٌ لا تملك لنفسك شيئًا ولا لغيرك، وإنّ فوقك ربًّا هو الذي ملّكك وغيرك، وهو الذي خلقك ورزقك ويُحييك ويُميتك ويضرّك وينفعك، وإنك عمَدتَ إلى خَلقٍ من خَلْقه قال له: كن، فكان أصمّ أبكم لا يَنطق ولا يَسمع ولا يُغني عنك من الله شيئًا، فزيَّنته بالذهب والفضة فتنةً للناس، ثم عبدته من دون الله. فكان من جواب الملك إيّاه أن سأله عن حاله وأمره ومَن هو ومن أين هو. فأجابه جرجيس: أنا عبد الله وٱبنُ عبده وٱبنُ أمته أذلّ عباده وأفقرهم إليه، من التراب خُلقت

---

(١) في تاريخ ابن الأثير ١/ ٢٦٤ «دازانه».

(٢) العاتي: الظالم.

(٣) فتنه عن دينه: أخرجه.

(٤) الموصل: مدينة مشهورة في العراق، وهي إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كِبرًا وعِظمًا وكثرة خلق وسعة رقعة، فهي محطّ الرّحال للركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان وسمّيت الموصل لأنها وصلت بين بلد سنجا والحديثة، وقيل بل الملك الذي أحدثها كان يسمّى الموصل، وهي مدينة قديمة الأسّ على طرف دجلة، ومقابلها من الجانب الشرقي نينوى «معجم البلدان ٥/ ٢٢٣».

(٥) قُطع به: يئس أو أصابه نوعٌ من الذّهول.

وإليه أصير. فقال له الملك: لو كان ربّك الذي تزعُم كما تقول لرُئِي عليك أثرُه كما رُئِي أثري على مَن حَوْلي وفي طاعتي. فأجابه جِرْجِيس بتحميد الله وتعظيم أمره وقال: أتعدِل أفلون الأصمّ الأبكم الذي لا يُغني عنك شيئًا بربّ العالمين الذي قامت السموات والأرض بأمره! أو تَعدِل طَرْفَلينا وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس بولاية الله تعالى؛ فإنّ إلياس كان في بدء أمره آدميًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلم تزل به كرامة الله تعالى حتى أنبت له الريش وألبسه النور فعاد إنسيًّا ملكيًّا سماويًّا أرضيًّا يطير مع الملائكة! أم تعدل مَخْلَنْطِيس وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك، بالمسيح ابن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإنّ الله فضّله على رجال العالمين وجعله [وأمه][1] آية للمعتبرين! أم تعدِل أمر هذه الروح الطيّبة التي اختارها الله لكلمته وسوّدها على إمائه وما نالت بولاية الله تعالى، بأزبيل وما نالت بولايتك فإنها كانت من شِيعتك وعلى ملّتك، فأسلمها الله مع عظم مُلْكها حتى اقتحمت عليها الكلاب في بيتها فانتهشت لحمها وولغت[2] في دمها، وقطّعتِ الضباع أوصالها! قال الملك: إنك لتحدّثنا عن أشياء ليس لنا بها علمٌ؛ فأتني بالرجلين اللذين ذكرتَ أمرهما حتى أنظر إليهما، فإني أنكر أن يكون هذا من البشر. قال له جِرْجِيس: إنما جاءك الإنكار من قِبَل الغِرّة[3] بالله تعالى. وأمّا الرجلان فلن تراهما ولا يريانك إلاّ أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما. فقال له الملك: أمّا نحن فقد أعذرنا إليك وتبيّن لنا كذبك لأنك فخرتَ بأمور عجزتَ عنها. ثم خيّره الملك بين العذاب وبين السجود لأفلون. فقال جرْجيس: إن كان أفلون هو الذي رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبتَ، وإلاّ فاخسأ[4] أيها النّجِسُ الملعون. فلمّا سمعه الملك غضِب وسبّه وسبّ إلٰهه وأمر بخشبة فنُصِبتْ له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدَش بها جسدَه حتى تقطّع لحمه وجلده وعروقه، ونضح خلال ذلك الخلّ والخردل[5]، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم والهلاك. فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستّة مسامير من حديد فأُحميتْ، حتى إذا جُعِلت نارًا سمّر بها رأسه حتى سال دماغه، فحفظه الله من الألم والهلاك. فلمّا رأى ذلك لم يقتله أمر بحَوْض من نحاس وأوقد عليه حتى إذا جعله نارًا أمر به فأُدخل في

---

(١) زيادة عن الثعلبي.

(٢) ولغت في دمها: أي شربت يقال: ولغ الكلب أو نحوه الإناء أو فيه أو منه أو به: شرب ما فيه بأطراف لسانه، أو أدخل فيه لسانه وحرّكه.

(٣) الغرّة: الغفلة أو الجهل.

(٤) خسأ: بعد وانزجر.

(٥) الخردل: نبات عشبي من الفصيلة الصليبية، ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، تستعمل بزوره في الطبّ، ومنه بزور يتبل بها الطعام.

جوفه وأُطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد حرّه. فلمّا رأى أنّ ذلك لم يقتله دعا به فقال: يا جرجيس، أمَا تجد ألَم هذا العذاب الذي تُعذَّب به؟ فقال: إنّ ربّي الذي أخبرتك به حمل عنّي ألم العذاب وصبّرني لأحتجّ عليك. فلمّا قال له ذلك أيقن الملك بالشرّ وخافه على نفسه ومُلْكه، وأجتمع رأيه أن يخلِّده في السجن. فقال له الملأ من قومه: إنك إن تركتَه طليقًا في السجن يكلّم الناس يوشك أن يميل بهم عليك، ولكن مُرْ له بعذاب في السجن يشغله عن كلام الناس. فأمر به فبُطح في السجن على وجهه ثم أوتد له في يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد في كل ركن منها وتدٌ، ثم أمر بأسطوان[١] من رخام فوُضع على ظهره، وحمل ذلك الأسطوان ثمانية عشر رجلاً، فظلّ يومه ذلك مُوتَدًا تحت الحجَر. فلمّا يدركه الليل أرسل الله تعالى [إليه][٢] ملكًا فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه وبشّره وعزّاه. فلمّا أصبح أخرجه من السجن وقال له: اِلحَقْ بعدوّك فجاهده في الله حقّ جهاده، فإنّ الله يقول لك: أبشر واصبر فإنّي قد ابتليتك بعدوّك هذا سبع سنين يعذّبك ويقتلك فيهنّ أربع مرّات، في كل ذلك أردّ إليك رُوحك، فإذا كانت الرابعة تقبّلت رُوحك وأوفيتك أجرك. قال: فلم يشعُر الملك وأصحابه إلاّ وجِرْجِيس قد وقف على رؤوسهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى. فقال له الملك: يا جِرْجِيس مَن أخرجك من السجن؟ قال: أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك. فلمّا قال له ذلك مُلىء غيظًا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلِّف منها شيئًا. فلمّا رآها جِرْجِيس أوجس في نفسه خِيفةً وفزعًا منها، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون. فلمّا فرغ من عتابه نفسَه مدّوه بين خشبتين ثم وضعوا سيفًا على مَفْرِق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار قطعتين، فعَمدوا إلى أجزائه فقطّعوها قطعًا، وللملك سبعةُ أسود ضارية، وكانوا صنفًا من أصناف عذابه، فرمَوْا بجسده إليها. فأمرها الله تعالى فخضعت له برؤوسها وأعناقها وقامت على براثنها، فظلّ يوْمه ذلك ميّتًا وهي أوّل موتة ماتها. فلمّا أدركه الليل جمع الله جسدَه الذي قطّعوه بعضَه إلى بعض حتى سوّاه، ثم ردّ الله تعالى إليه رُوحه وأرسل مَلَكًا فأخرجه من قَعْر الجُبّ[٣] فأطعمه وسقاه وبشّره وعزّاه. فلمّا أصبحوا قال له المَلَك: يا جِرْجِيس، قال: لَبّيك! قال: اعلم أنّ القدرة التي خلق الله تعالى بها آدم من التراب هي التي أخرجتك من قعر الجُبّ، اِلحَقْ بعدوّك وجاهدْه في الله حقّ جهاده ومُتْ موتَ الصابرين. فلم يشعُرِ

---

(١) الأسطوان: العمود.
(٢) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٣) الجبّ: البئر الواسعة.

الملك وأصحابُه إلاّ وقد أقبل جِرْجِيس وهم في عيد لهم عُكُوفٌ عليه صنعوه فرحًا بموت جِرْجِيس. فلمّا نظروا إليه وقد أقبل قال الملِك: ما أشبه هذا بجرجيس! قالوا: كأنه هو. قال الملك: ما بِجِرْجِيس من خفاء إنه لهو، ألاَ ترون إلى سكون ريحه وقلّة هيبته. قال جرجيس: أنا هو، بئس القوم أنتم! قتلتم ومثّلتم فأحياني الله بقدرته، فهلمُّوا إلى هذا الرب العظيم الذي أراكم ما أراكم. فلما قال لهم ذلك أقبل بعضُهم على بعض وقالوا: ساحرٌ سحرَ أعينكم. وجمعوا مَن كان ببلادهم من السحَرة. فلمّا جاؤوا قال الملِك لكبيرهم: اِعرض عليّ من كبير سحرك ما يُقِرّ عَيْني. قال: ادعُ لي بثور من البقر. فلمّا أُتِي به نفثَ في إحدى أذنيه فٱنشقَّت بٱثنتين، ثم نفثَ في الأخرى فإذا هو ثَوْران، ثم دعا ببذر فحُرِث وبُذِر، فشبّ الزرع وٱستحصد، ثم دُرِس وذُرِيَ وطُحِن وعُجِن وخُبِز، كلّ ذلك في ساعة واحدة. فقال الملك: هل تقدِر أن تمسَخه لي دابّة؟ قال الساحر: أيّ دابّة أمسخه لك؟ قال: كلبًا. قال: ادعُ لي بقَدَح من ماء. فلمّا أُتِي بالقدح نفث[١] فيه الساحر ثم قال: اعْزِمْ[٢] عليه أن يشربه، فشربه جِرْجِيس حتى أتى على آخره. فلمّا فرغ منه قال له الساحر: ماذا تجد؟ قال: ما أجد إلاّ خيرًا، قد كنتُ عطِشتُ فلطَف الله بي بهذا الشراب فقوّاني به عليكم. فأقبل الساحر على الملك فقال له: اِعلم أيها الملك إنك لو كنتَ تقاسي رجلاً مثلك إذًا لقد كنتَ غلبته، ولكنك تُقاسي جبّار السموات والأرض. وهو الملك الذي لا يرام[٣].

قال: وكانت امرأةٌ مسكينةٌ من أهل الشام سمعت بجِرْجِيس وما يصنع من الأعاجيب، فأتته وهو في أشدّ ما هو فيه من البلاء، فقالت له: يا جِرْجِيس، إنّي ٱمرأةٌ مسكينةٌ ولم يكن لي مالٌ إلا ثورًا أحرُث عليه فمات، فجئتك لترحمني وتدعو الله تعالى أن يُحييَ لي ثوري. فذرفت عيناه، ثم دعا الله تعالى أن يُحييَ لها ثورها، وأعطاها عصًا وقال لها: اذهبي إلى ثورك فاقرعيه بهذه العصا وقُولِي له: احْيَ بإذن الله. فقالت: يا جِرْجِيس، مات ثوري منذ أيام ومزّقته السباع، وبيني وبينه أيام. فقال: لو لم تجدي منه إلاّ سنًّا واحدة ثم قَرَعْتِها بالعصا لقام بإذن الله تعالى. فٱنطلقت حتى أتت مَصْرَعَ ثورها، وكان أوّلُ شيء بدا لها أحدَ رَوْقَيه[٤] وشعر أذنيه، فجمعت أحدهما إلى الآخر ثم قرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها، فقام الثور بإذن الله تعالى وعمِلت عليه. قال: فلما قال الساحر للملك ما قال، قال رجل من

(١) نفث: بصق، ونفثت الحيّة السمّ: رمت به.

(٢) اعزم عليه: أي اجعله يقسم، وعزم الرّاقي أو السّاحر: أي قرأ العزائم.

(٣) لا يرام: ولا ينال بمكروه.

(٤) الرّوق: قرن الدابة.

أصحاب الملك، وكان أعظمهم من بعد الملك، إنكم قد وضعتم أمرَ هذا الرجلِ على السحر، وإنكم عذّبتموه فلم يصل إليه عذابكم، وقتلتموه فلم يَمُتْ، فهل رأيتم ساحرًا يدرأ عن نفسه الموت وأحيا ميّتًا قط؟ فقالوا له: إنّ كلامك لكلام رجلٍ قد صغا إليه فلعلّه استهواك. فقال: بل آمنتُ بالله، وأشهدوا أني بريء مما تعبدون، فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه. فلمّا رأى القوم ذلك اتّبع جِرْجِيس أربعة آلاف رجل. فعمد إليهم الملك فأوثقهم، ثم لم يزل يعذّبهم بأنواع العذاب حتى أفناهم. فلمّا فرغ منهم قال لجرجيس: هلاّ دعوتَ ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قُتلوا بجريرتك[١]!. فقال له جرجيس: ما خُلِّي بينك وبينهم حتى حان لهم. فقال رجل من عظماء أصحابه يقال له مَخْلَنْطِيس: إنك زعمتَ يا جِرْجِيس أن إلٰهك هو الذي يبدأ الخَلْق ثم يُعيده، وإني سائلك أمرًا إن فعله إلٰهك آمنتُ بك وصدّقتك وكفيتك، إنّ حولنا أربعةَ عشر كرسيًّا ومائدة، وبيننا أقداحٌ وصِحَافٌ[٢] وهي من أشجار شتّى، فادعُ إلٰهك ينشىء هذه الكراسيّ والأواني كما بدأها أوّل مرّة حتى تعود خضراء يُعرَف كلّ عود منها بلونه وورقه وزهره. فقال له جِرْجِيس: قد سألتَ أمرًا عزيزًا عليّ وعليك، وإنه على الله لهيِّن، ودعا الله عزّ وجل، فما برِحوا من مكانهم حتى اخضرّت تلك الكراسيّ والأواني كلها وساخت عروقها وأُلبست اللحاء[٣] وتشعّبت فأورقت وأزهرت وأثمرت. فلمّا نظرا إلى ذلك انتدب له مَخْلَنْطِيس الذي تمنّى عليه ما تمنّى فقال: أنا أُعذّب لكم هذا الساحر عذابًا يضِلّ عنه كيدُه[٤]. فعمدَ إلى نحاس فصنع منه صورة ثور أجوف واسع، ثم حشاه نَفْطًا ورَصَاصًا وكِبْريتًا وزِرْنيخًا، ثم أدخل جِرْجِيس مع الحشو في جوفه، ثم أوقد تحت الصورة حتى التهبت وذاب كل شيء فيها واختلط، ومات جرجيس في جوفها. فلمّا مات أرسل الله عزّ وجل ريحًا عاصفًا فملأتِ السماء سحابًا أسودَ مظلمًا، فيه رعد وبرق وصواعق، وأرسل الله تبارك وتعالى إعصارًا ملأت بلادهم عجَاجًا[٥] وقتامًا حتى اسودّ ما بين السماء والأرض، ومكثوا أيامًا متحيّرين في تلك الظُّلمة لا يفصلون بين الليل والنهار، وأرسل الله تعالى ميكائيل فاحتمل الصورة التي فيها جرجيس، حتى إذا أقلّها[٦] ضرب بها الأرض ففزع

---

(١) الجريرة: الذّنب.

(٢) الصّحاف: مناقع صغيرة للماء وهي هنا: صحن للطّعام كبير عريض مفردها «الصَّحفة».

(٣) اللحاء: القشر.

(٤) الكيد: المكر والخداع والخبث.

(٥) العجاج: الغبار والدخان، والقتام: السّواد.

(٦) أقلّها: رفعها وحملها.

من وقعها أهل الشام أجمعون فخرّوا على وجوههم صَعِقين، وٱنكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيًّا. فلمّا وقف يكلّمهم انكشفتِ الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم. فقال له رجل يقال له طَرْفَلينا: لا ندري يا جرجيس أأنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربّك! فإن كان ربك هو الذي يصنع هذا فٱدعُه يُحْيي موتانا؛ فإنّ في هذه القبور أمواتًا منهم مَن يعرف ومنهم مَن لا يعرف. فقال له جِرْجِيس: لقد علمتُ ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويُريكم هذه الأعاجيب إلاّ كانت عليكم حجّة، فتستوجبوا غضبه، ثم أمر بالقبور فنُبشتْ وهي عظامٌ رُفَاتٌ وأقبل على الدعاء، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا إلى سبعة عشر إنسانًا: تسعة رهط وخمس نسوة وثلاثة صبية، وإذا فيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: يا شيخ، ما ٱسمك؟ فقال: يا جرجيس اسمي نُوبِيل. قال: متى مُتَّ؟ قال: في زمان كذا وكذا. فحسبُوا فإذا هو مات منذ أربعمائة سنة. فلمّا نظر الملك وأصحابه إلى ذلك قالوا: ما بقِي من أصناف العذاب شيءٌ إلاّ وقد عذّبتموه به إلاّ الجوع والعطش، فعذِّبوه بهما. فعمَدوا إلى بيت عجوز كبيرة، وكان لها ٱبن أعمى أصمّ أبكم مُقعَد، فحصروه في بيتها ولا يصل إليه من عند أحد طعامٌ ولا شرابٌ. فلمّا بلغ به الجوع قال للعجوز: هل بقِي عندك من طعام أو شراب؟ قالت: لا والذي يُحلَف به ما عهِدنا الطعام منذ كذا وكذا، وسأخرج ألتمس لك شيئًا. فقال لها جرجيس: هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم. قال: فإيّاه تعبُدين؟ قالت لا. فدعاها إلى الله عزّ وجلّ فصدّقته، وانطلقت تطلب له شيئًا، وفي بيتها دِعامة[١] من خشبة يابسة تحمل خشب البيت، فأقبل على الدعاء، فاخضرّت تلك الدِّعامة وأنبتت له كل فاكهة تُؤكَل أو تُعرَف، حتى كان فيها اللُّوبيا واللُّبان[٢] مثل البَرْدِيّ[٣] يكون بالشام، وظهر للدِّعامة فروعٌ من فوق البيت أظلّته وما حوله. فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رَغَدًا. فلمّا رأتِ الذي حدث في بيتها من بعدها قالت: آمنتُ بالذي أطعمك، فادعُ هذا الربّ العظيم ليشفي ٱبني. قال: أدنِيه منّي، فأدنته، فبصق في عينيه فأبصر، ونفَث في أذنيه فسمِع. قالت له: أطْلِق لسانه ورجليه رحمك الله. قال: خذيه فإنّ له يومًا عظيمًا. وخرج الملك يومًا ليسير في مدينته، إذ وقع

---

(١) الدّعامة: عماد البيت.

(٢) اللبّان: نبات من الفصيلة البخوريّة يفرز صمغًا، يسمّى الكندر.

(٣) البرْدي: نبات مائي من الفصيلة السعدية تسمو ساقه الهوائية إلى متر أو أكثر، ينمو بكثرة في منطقة المستنقعات بأعالي النّيل وقد صنع منه المصريون القدماء الورق البردي المعروف للكتابة.

بصره على الشجرة، فقال: إني أرى شجرة بمكانٍ ما كنتُ أعرفها به. قالوا: تلك شجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردتَ أن تعذّبه بالجوع، فهو فيما شاء وقد شبع منها وأشبع العجوز الفقيرة وشفى لها ٱبنها. فأمر الملك بالبيت فهُدِم وبالشجرة لتُقطَع. فلمّا همّوا بقطعها أيبسها الله تعالى وردّها كما كانت أوّل مرّة، فتركوها. وأمر بجرجيس فبُطح على وجهه وأُوتدَ له أربعةُ أوتاد، وأمر بعجلة وأوقرها[١] أسطوانًا وجعل في أسفل العجلة خناجر وشِفارًا، ثم دعا بأربعين ثَوْرًا فنهضت بالعجلة نهضةً واحدة وجِرْجِيس تحتها، فٱنقطَع ثلاثَ قِطَع، فأمر بِقطَعه فأُحرقت بالنار، حتى إذا عادت رَمادًا بعث بذلك الرَّماد وبعث معه رجالاً فذرَّوه في البحر، فلم يبرحوا من مكانهم حتى سمعوا صوتًا من السماء: يا بحر، إنّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيّب، فإنّي أريد أن أعيده كما كان. ثم أرسل الله تعالى الريح فأخرجته ثم جمعته حتى صار الرَّماد صُبْرةً[٢] كهيئته قبل أن يذرّوه؛ فخرج منه جِرْجِيس مغبرًا ينفُض رأسه، فرجعوا ورجع جِرْجِيس، فأخبروا الملك خبر الصوت [الذي سمعوا][٣] والريح التي جمعته، فقال: هل لك يا جرجيس فميا هو خيرٌ لي ولك مما نحن فيه؟ ولولا أن يقول الناس إنك قهرتني وغلبتني لأتّبعتك وآمنتُ بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة وٱذبَحْ له شاة واحدة، ثم إني أفعل ما يسرّك. فقال له: نعم، مهما شئت فعلت، فأدخِلْني على صنمك. ففرح الملك بقوله فقام وقبّل يديه ورجليه ورأسه وقال: إنّي أعزِم عليك ألاّ تظل هذا اليومَ إلاّ عندي، ولا تبيت هذه الليلة إلاّ في بيتي وعلى فراشي، حتى تستريح ويذهب عنك وَصَب[٤] العذاب، ويرى الناس كرامتك عليّ، فأُخلي له بيت فظلّ فيه جرجيس، حتى إذا أدركه الليل قام يصلّي ويقرأ الزَّبور، وكان أحسن الناس صوتًا. فلمّا سمعت ٱمرأة الملك ٱستجابت له، فلم يشعُر إلاّ وهي خلفه تبكي معه، فدعاها جِرجِيس إلى الإيمان فآمنت به، وأمرها فكتمت إيمانها. فلمّا أصبح غدا به الملك إلى بيت الأصنام ليسجُد لها. وقيل للعجوز التي كان سجن في بيتها: هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك فأصغى إلى الدنيا وقد أخرج به الملك إلى بيت أصنامه ليسجُد لها فخرجت العجوز تحمل ٱبنها على عاتقها[٥] وتوبِّخ جِرْجِيس والناس مشغولون عنها. فلمّا دخل جِرْجِيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظر فإذا العجوز وٱبنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقامًا؛ فدعا ٱبن العجوز بٱسمه

---

(١) أوقرها: حمّلها.
(٢) الصُبّرة: الكومة.
(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٤) الوصب: المرض والألم.
(٥) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

فنطق وأجابه ولم يكن[١] يتكلّم قبل ذلك، ثم ٱقتحم عن عاتق أمه يمشي على رجليه وهما مستويتان وما وطىء على الأرض قبل ذلك قط. فلمّا وقف بين يدي جرجيس قال: اذهَبْ فٱدعُ لي هذه الأصنام وهي حينئذ سبعون صنمًا على منابر من ذهب، وهم يعبدون الشمس والقمر معها. فقال له الغلام: كيف أدعو الأصنام؟ قال: قل لها إن جرجيس يسألك ويعزِم عليك بالذي خلقك إلاّ أجبتيه. قال: فلمّا قال لها الغلام ذلك أقبلت تَدَحرج إلى جِرْجِيس، فلمّا ٱنتهت إليه ركض[٢] الأرض برجله فخُسف بها وبمنابرها[٣]، وخرج إبليس من جوف صنم منها هاربًا فَرِقًا من الخَسْف، فلمّا مرّ بجرجيس أخذ بناصيته، فخضع له وكلّمه جرجيس فقال له: أخبرني أيها الرُّوح النَّجِسة والخَلْق الملعون، ما الذي يحملك على أن تُهلِك نفسَك وتُهلِك الناسَ وأنت تعلم أنك وجُندك تصيرون إلى جهنّم؟ فقال له إبليس: لو خُيِّرتُ بين ما أشرقت عليه الشمس وأظلم عليه الليل وبين هلكة واحد من بني آدم وضلالته طَرْفَةَ عين لٱخترته على ذلك كله، وإنه ليقَعُ لي من الشهوة واللذّة في ذلك مثل جميع ما يتلذّذ به جميع الخلائق. ألم تعلم يا جرجيس أنّ الله تعالى أسجدَ لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا كلّهم وٱمتنعتُ أنا من السجود وقلتُ أنا خير منه! فلما قال هذا أخلاه جرجيس. فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدًا. فقال الملك: يا جرجيس خدعتني وغدرتني وأهلكت آلهتي. فقال جرجيس للملك: إنما فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لٱمتنعت منّي فكيف ثقتك ـ ويلك ـ بآلهة لم تمنع أنفسها منّي! وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلاّ ما ملّكني ربّي. فلمّا قال جرجيس هذا كلّمتهم ٱمرأة الملك وكشفت لهم إيمانها، وعدّدت عليهم [أفعالهم][٤] وأفعال جرجيس والعِبَر التي أراهم الله تعالى، وقالت لهم: ما تنتظرون من هذا الرجل إلاّ دعوةً فيخسِف الله بكم الأرض كما خسفَ بأصنامكم. اللّهَ اللّهَ أيها القوم في أنفسكم! فقال لها الملك: وَيْحَكِ يا سَكَنْدرة! ما أسرعَ ما أضلّك هذا الساحر في ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفَر منّي بشيء قطّ! فقالت: أمَا رأيتَ الله كيف يُظفره بك ويسلّطه عليك فيكون له الفَلْج[٥] والحجّة عليك في كل موطن! فأمر بها الملك عند ذلك فحُمِلتْ على خشبة جرجيس التي كان عليها عُلِّق، وحُملت عليها الأمشاط التي جُعلت على جرجيس. فلمّا تألّمت قالت: ادعُ ربك يا جرجيس فيخفّف

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٢) ركض الأرض: حرّك التراب بقدمه.
(٣) المنابر: القواعد.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٥) الفلج: الفوز، والحجّة: البيّنة والغلبة.

عني فإني قد آلمني العذاب. فقال لها: انظري فوقك. فلمّا نظرتْ ضحِكت. فقال لها: ما الذي يُضحِكك؟ قالت: أرى مَلَكين فوقي معهما تاجٌ من حليّ الجنة ينتظران به روحي أن تخرج. فلمّا خرجتْ أتيا بذلك التاج ثم صعِدا بها إلى الجنة. قال: فلمّا قبض الله تعالى رُوحها أقبل جِرْجِيس على الدعاء فقال: اللّهمّ أنت أكرمتَني بهذا البلاء لتُعطِيَني فضائل الشهداء، فهذا آخر أيامي التي وعدتَني فيه الراحة من بلائك، فإنّي أسألك ألاّ تقبضَ رُوحي ولا أزول من مكاني هذا حتى تُنزِل بهؤلاء القوم من سطوتك ونِقمتك ما لا قِبَل لهم به حتى تشفي به صدري وتُقرّ به عيني؛ فإنهم ظلموني وعذّبوني. اللّهمّ وأسألك ألاّ يدعوَ بعدي داعٍ في بلاء وكرب فيذكرني ويُشير بٱسمي إلاّ فرّجتَ عنه ورحِمتَه وأجبتَه وشفّعتني فيه. فلمّا فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارًا من السماء. فلمّا رأَوْا ذلك عمدوا إليه وضربوه بالسيوف غيظًا عليه من شدّة الحريق ليُعطِيَه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده. ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رَمادًا، فحملَها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها، فمكثت زمانًا يخرج من تحتها دُخَانٌ مُنتنٌ لا يشمّه أحدٌ إلاّ سقِم سقمًا شديدًا. وكان مَن آمن بجرجيس وقُتل معه أربعون وثلاثون ألفًا وٱمرأة الملك. قالوا: وكان جِرْجِيس في أيام ملوك الطوائف.

وحيث ٱنتهى بنا القول في سرد ما شرحناه من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وما ٱتصل بذلك من الأخبار؛ فلنذكر الآن التذييل الذي شرحناه في ترجمة هذا القسم للسبب الذي قدّمناه. وبالله المستعان.

التذييل على القسم الثالث من الفن الخامس

يشتمل على ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض، وما يكون من الفِتَن والحروب، وخروج من يخرج ويتغلّب على البلاد، وخروج المهديّ والدجّال ونزول عيسى ابن مريم وقَتْله الدجّال، وخروج يأجوج ومأجوج(١) وهلاكهم، ووفاة عيسى ابن مريم، وما يكون بعده من أشراط الساعة ويوم القيامة

(١) يأجوج ومأجوج: قال الحسن البصري: أصلهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج من الترك، وقال وهب بن منبه: إنّما سمّي الترك تركًا لأن ذا القرنين لما بنى السدّ على يأجوج ومأجوج كان منهم جماعة غائبون لم يعلموا ببناء السدّ، فتركوا خارج السدّ، فسمّوه تركًا «انظر بدائع الزهور ١/ ٢٦٢».

والنفخ في الصُّور والحَشْر والمعاد. مما أورد إن شاء الله تعالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبويّ، ومن كتاب المبتدا للكسائيّ، ومن كتاب العاقبة للشيخ أبي محمد عبد الحقّ بن عبد الحقّ بن عبد الله الأزْديّ الإشبيليّ على سبيل الاختصار.

الباب الأوّل

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى ابن مريم

ولنبدأ بذكر الملاحم. قال رسول الله ﷺ: «ستُصالحكم الرُّوم صُلْحًا آمِنًا، ثم تغزُون أنتم وهم عدوًّا[١] فتنتصِرُون وتَغنَمُون وتَسلَمون ثم تنصرفون حتى تَنزِلوا بمَرْج ذي تلول[٢]، فيرفع الرجلُ من أهل الصليبِ الصليبَ فيقول غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيقوم إليه فيدُقُّه، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون حينئذ تحت ثمانين غاية[٣] تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا». وعنه ﷺ: «إذا وقعتِ الملاحمُ بعث الله بَعْثًا من الموالي هم أكرمُ العرب فَرَسًا وأجودُه سلاحًا يؤيّد الله بهم الدِّين». وعنه ﷺ أنه قال: «الملحمة الكبرى وفتح القُسْطَنْطِينِيّة[٤] وخروج الدجّال[٥] في سبعة أشهر». وعنه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغارَ الأعيُن ذُلْف[٦] الأنوف كأنّ وجوههم المَجانّ[٧] المُطْرَقة ولا تقوم الساعة حتى تُقاتِلوا قومًا نِعالُهم الشَّعَر». وفي الحديث الآخر: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا عِراضَ الوجوه كأنّ وجوههم المَجانُّ المُطْرَقَةُ. وإنّ

(١) أي تغزون عدوًّا لكم ولهم بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذي بينكم وبينهم، أو أنتم تغزون عدوّكم، وهم يغزون عدوّهم بالانفراد.

(٢) التلول: مفردها تلّ، وهو الهضبة والمرتفع.

(٣) الغاية هنا: الرّاية.

(٤) القسطنطينيّة: ويقال قسطنطينة بإسقاط ياء النسبة، وكان تسمّى بيزنطية فلما ملك بلاد الرّوم قسطنطين انتقل إليها وسمّاها قسطنطينية، وهي دار ملكهم إلى اليوم واسمها اصطنبول «انظر معجم البلدان ٤/٣٤٧».

(٥) الدجّال: سوف تأتي صنعته نقلاً عن كعب الأحبار.

(٦) الذّلف: قصر الأنف وانبطاحه.

(٧) المجان: مفردها المجنّ وهو الترس، والمطرّقة: التي ألبست طراقًا أي جلدًا يغشاها.

من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا ينتعلون الشَّعَر». وعنه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صِغارَ الأعيُنِ عراض الوجوه كأنّ أعينهم حَدَق الجراد كأنّ وجوههم المَجَانّ المُطْرَقَة ينتعلون الشَّعَر ويتّخذون الدرَق[1] يربطُون خيولهم بالنخل»[2]. خرّج هذه الأحاديث ابن ماجه[3].

ذكر خبر المتغلِّبين على البلاد
وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى عليه السلام

قال أبو الحسن الكسائيّ عن كعب الأحبار: ولا بدّ أن يحدُث بين يدَيْ نزول عيسى علامات وحروب وفتن، فأوّل مَن يخرُج ويغلب على البلاد رجلٌ اسمه الأَصْهَبُ من بلاد الجزيرة، ويخرج الجُرْهُمِيّ من بلاد الشام، ويخرج القَحْطانيّ بأرض اليمن، وهو أمثل هؤلاء الثلاثة شَوْكةً. فبينا هؤلاء الثلاثة في مواضعهم وقد تغلّبوا على أمكنتهم بالظلم والجَوْر إذا هم بالرجل السُّفيانيّ قد خرج من غُوطَة دِمَشْق، وقيل: إنه يخرُج من الشام، وقيل: إنه يخرُج من الوادي اليابس. وأخواله من كَلْب، واسمه مُعاوية بن عَنْبسة، وهو رَبْعٌ[4] من الرجال، دقيق الوجه، طويل الأنف، مُحْدَوْدِب، جَهْوَرِيّ الصوت، يَكسِر عينه اليمنى؛ يحسبُه الذي يراه كأنه أعْوَر وليس بأعْور، يظهر في أوّل أمره بالزهد ويبذُل الأموال، ويُخْطَب له على منابر الشام، ويكون جريئًا على سَفْك الدماء لمن خالفه، ويعطِّل الجمعة والجماعة. وعلامة بدء أمره أنه يخرُج في كل مدينة دجّال يدعو إلى نفسه، ويُظهِر الفسق حتى إنهم يفجُرون في المساجد، فيخرُج عليهم السُّفيانيّ حتى ينزل أرض دمشق، فيجتمع إليه القوم ويبايعونه، ويفرّق الأموال الكثيرة بينهم حتى يقولوا هذا خير أهل الأرض. ثم يسير

---

(١) الدّرق: مفردها الدّرقة، وهي الترس من جلد ليس فيه خشب.

(٢) النخل: موضع غربي مسجد الأحزاب، وقيل: هو على ثلاثة أميالٍ من المدينة، وذكر يعقوب النخل، فقال: هو منزلٌ من منازل بني ثعلبة من المدينة على مرحلتين، وقيل: هو موضعٌ بنجد من أرض غطفان، وقيل: هو منزل لبني مرّة بن عوف على ليلتين من المدينة «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٧٦/ ٢٧٧».

(٣) ابن ماجه: هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور، مصنّف كتاب «السّنن» في الحديث، كان إمامًا في الحديث عارفًا بعلومه، وله تفسير القرآن، وكتابه أحد الصحاح الستة «وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٩».

(٤) الرّبع من الرّجال: الوسيط القامة.

في الشام وعلى مقدّمته رجلٌ من جُهَينة[١] يقال له ناجية حتى ينزل العراق، فيُخرِج إليه القَحْطانيّ جيشًا كثيرًا فيهزمهم ناجية هزيمة قبيحة، فعند ذلك يُوَجِّه السُّفْيَانيّ ثلاث جيوش: جيش إلى الكوفة فيقتُلون قتلاً ذريعًا، وجيش إلى خراسان فيقتُلون ويحرِّقون، وجيش إلى الروم حتى يكثر القتل منهم في الدنيا وفي كل طريق. فعند ذلك يجتمع الصالحون على السُّفيانيّ ويخوِّفونه عقوبة الله في سَفْك الدماء، فيأمر بقتلهم وقتل العلماء والزُّهّاد في جميع الآفاق. فعند ذلك يجتمع المسلمون على رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ يقال له محمد بن عليّ فيبايعونه ويسمّونه المهديّ. والله أعلم.

ذكر خبر خروج المهديّ

قال ٱبن عبّاس رضي الله عنهما: يُبَايَعُ بين مكة والرُّكن، ويكون أوّل أمره على عدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل: إنه يخرج [قبل هذا ولي] من قرية من قرى حرس[٢] في ثلاثين رجلاً، ثم يجتمع إليه المؤمنون من كل ناحية، ثم ينكسف القمر ثلاثَ ليالٍ متواليات، ثم يظهر المهديّ بمكة ويَشِيع أمره؛ فيبلغ ذلك [الزّهرانيّ صاحب][٣] السُّفيانيّ، فيبعث إلى المهديّ جيشًا ثلاثين ألفًا فينزلون في البرِّيّة. ثم يخرج السُّفيانيّ إلى البيداء، فإذا ٱستقرّ بالموضع خسف الله تعالى بهم الأرض، فيأخذهم إلى أعناقهم حتى لا يُفلت منهم إلاّ رجلان يخرجان بفرسيهما، فإذا وصلوا إلى القوم رأوْهم وقد خَسَفَ الله بهم، فيخسِف الأرض بواحد منهما، ويحوِّل الله وجه الآخر إلى قفاه، فيبقى كذلك مدّة حياته. ثم يخرُج المهديّ بمن معه إلى بلاد الروم فيسير حتى يسمع بهلاك السُّفيانيّ وأصحابه. قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ: ٥١]. فيحمد المهديّ الله تعالى على ذلك، ويخرج إلى بلاد الروم في نحو مائة ألف فيصل[٤] إلى القُسْطَنْطِينِيّة، فيدعو ملكَ الروم إلى الإسلام فيأبى فيقاتله، ويدوم القتال بينهم شهرين، ثم ينهزم ملك الروم. ويدخل المسلمون إلى القسطنطينية، فينزل المهديّ

---

(١) جهينة: هم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سُود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، وهي قبيلة عظيمة، ولها بقايا ببلاد الصعيد من الديار المصرية وبالحجاز وغيرهما، والنسبة إليهم جُهنيّ «انظر جمهرة أنساب العرب ٢/ ٤٤٤ وصبح الأعشى ١/ ٣٦٨».

(٢) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي. (٣) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.

(٤) الفيصل: السيف، يريد في نحو مائة ألف رجل، ذكر الفيصل كناية عنهم.

على بابها، ولها سبعة أسوار، فيكبِّر سبع تكبيرات فينهدم كلّ سور منها بتكبيرة. ويدخلها المهديّ ويقتُل خلقًا كثيرًا ويقتُل ملك الروم، ثم يرفع عنهم السيفَ، ويأخذ المسلمون من الغنائم ما لا يُحصَى، حتى إنّ الرجل ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمله. فبينما هم كذلك إذ يأتيهم الخبرُ من خليفة المهديّ بخروج الدجّال واجتماع الناس عليه، فيتركون تلك الغنائم وينصرفون إلى بلادهم مسرعين لمحاربة الدجّال. فيقال: إن المهديّ يسير نحو الدجّال وعلى رأسه عمامة رسول الله ﷺ، فيلتقون ويقتتلون قتالاً شديدًا، فيُقتَل من أصحاب الدجّال أكثر من ثلاثين ألفًا، ثم ينهزم الدجّال فيمرّ نحو بيت المقدس، فيأمر الله الأرض بإمساك قوائم خيله، ويرسل عليهم ريحًا حمراءَ فتقتُل منهم أربعين ألفًا. قال: ثم يُقبِل المهديّ بجيشه زُهَاءَ[(١)] مائة ألف، في أيديهم الراياتُ البيض. فيقول المهديّ [لعسكر الدجّال][(٢)]: ويلكم! أتشكّون في هذا الأعور الكذّاب أنه الدجّال؟ فيقولون: لا، ولكنّا نعيش في طعامه. فيُمْسَخُون في الحال قِرَدَةً وخنازير. ثم ينزل عيسى بعد ذلك إلى الأرض ويصلّي خلف المهديّ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خبر خروج الدجّال وصفته
وما يكون من أمره إلى أن ينزل عيسى عليه السلام

قال كعب: إنّ الدجّال رجلٌ طويلٌ، عريضُ الصدر، مطموسُ[(٣)] العين اليمنى، واليسرى كأنها كوكبٌ دُرِّيّ[(٤)]، مكتوبٌ بين عينيه: «كافر»، يقرؤه كل كاتب أو غير كاتب. ويدّعي أنه الربّ، ومعه يومئذ جبل من خبز، وجبل من لحم، وأجناس الفواكه والخمور، ومعه أصحاب الملاهي يمشون بين يديه بالطبول والطنابير[(٥)] والمعازِف والعيدان[(٦)] والنايات والصُّنوج[(٧)] وغير ذلك، فلا يسمعه أحد إلا وتبعه وفَتَنه إلاّ مَن عصمه الله. ويكون معه نارٌ وجنّة، وهو يقول: مَن أطاعني أدخلته

---

(١) الزّهاء: المقدار، أو ما يقارب الشيء.
(٢) ما بين قوسين زيادة عن الكسائي.
(٣) مطموس العين: الذي ذهبت عينه أو شوّهت أو امّحت.
(٤) الكوكب الدرّي: الثاقب المضيء.
(٥) الطنابير: مفردها الطنبور: من آلات اللهو والطرب، ذات عنق وأوتار.
(٦) العيدان: مفردها العود وهو آلة موسيقية وتريّة يضرب عليها بريشة أو نحوها.
(٧) الصنوج: مفرد الصنج وهي صفيحة مدوّة من نحاس يضرب بها على الأخرى.

الجنّة، ومَن عصاني ولم يسجُد لي ألقيته في النار. قال: وعلامة خروجه أن تهبّ ريحٌ مثل ريح قوم عاد، وتُسمَعَ صيحةٌ عظيمةٌ مثل صيحةِ قوم صالح، ويكونَ مَسْخٌ كمَسْخ أصحاب الرسّ[١]، وذلك عند ترك الناسِ الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر. فإذا أخذوا في سَفْك الدماء واستحلَوا الرّبا وشيّدوا البنيان وشربوا الخمور، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فعند ذلك يخرج الدجال من جهة المشرق من قرية يقال لها سيراباد بين الأهواز وأصفهان، ويخرج على حمار له. قال: وهو أحمرُ الحاجبين، أشعرُ الأنف، تخرُج من خلل أسنانه رائحةٌ لا يَشَمّها أحدٌ إلاّ صار إليه نَتنه، في جبهته قرنٌ مكسور تخرج منه الحيّات والعقارب، مُحْدَوْدِب الظهر، قد صُوِّرت آلات السلاح في جسده حتى الرمح والفأس والسهم والدَّرَق[٢]. وهو يتناول السحاب بيده، ويخوض البحار إلى كعبيه، ويستظلّ في ظلّ أُذُنِ حماره خلقٌ كثير من أولاد الزّنا، عليهم خِفافٌ[٣] مخروطةٌ، لخِفافهم مناقير كمناقير العِقْبان، لأصابعهم أظافير كالمناجل، ومعه قوم من السَّحَرة يقلِبون الجبال خبزًا والأنهارَ شرابًا، ولا يُطعِم ولا يَسقِي إلاّ من آمن به. ومعه صاحب لوائه من قريته ينادي بأعلى صوته: هذا ربكم فاعرِفوه. فإذا سار الدجّال سارت معه جبال طعامه وأنهار شرابه، وإذا وقف وقفت. يطوف الأرض شرقَها وغربَها حتى يدخل أرض بابِل فيلقاه الخَضِر[٤]، فيقول له الدجّال: أنا ربّ العالمين. فيقول له الخَضِر: كذبتَ يا دجّال! إنَّ ربّ العالمين ربُّ السموات والأرَضِين. فيقتله الدجّال ويقول: لو كان لهذا إله كما يزعم لأحياه. فيُحيِي الله الخضِر من ساعته فيقوم ويقول: ها أنا يا دجّال، قد أحياني الله ربّي. ثم يُقبِل الخَضِر على أصحابه ويقول: ويلكم! لا يفْتِننّكم هذا الكافر. ويقال: إنه يقتل الخَضر ثلاث مرّات ويُحييه الله تعالى. ثم يخرج الدجّال نحو مكة، فإذا دنا منها رأى الملائكة[٥] مُحدقين بالبيت الحرام قد نشروا أجنحتَهم على الكعبة، يخرُج من خَلَل

---

(١) أصحاب الرّس: قال السدّي: كانوا بقيّة قوم ثمود، وهم أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد اللذين ذكرهما القرآن الكريم، وقال الكسائي أصحاب الرّس: كانوا بأرض حضرموت ومدينتهم تسمّى الرّس، وكانت ذات أشجار وأثمار وقرى، يسكن بها طائفة من أصحاب الرّس يعبدون الأصنام وطائفة يعبدون النار «بدائع الزهور: ١٢٠».

(٢) الدّرق: مفردها الدّرقة، وهي الترس من جلد يتّقي فيه المقاتل ضربات السيوف.

(٣) الخفاف: مفردها خفّ: وهو الحذاء، والخف: هو للجمل ونحوه بمنزلة الحافر للفرس.

(٤) الخضر: هو العبد الصالح الذي ذكره القرآن الكريم ونبيّ الله موسى عليه السلام في سورة «الكهف».

(٥) في الأصل: ينظر إلى الملائكة، والتصويب عن الكسائي.

أجنحتهم مثلُ شَرَ النِّيران، فلا يقدر على دخولها. ثم يسير إلى المدينة فيجدها كذلك. ثم يمضي إلى بيت المَقْدِس فلا يقدر على دخوله لكثرة مَن حوله من الملائكة. واْختُلف في مدّة إقامته في الأرض، فقيل أربعين سنة، وقيل أربعين يومًا، على ما نورد ذلك من الحديث الصحيح النبويّ الذي يشمَل ذكر هذه الفتن كلها. قال: وأمّا المسلمون فإنهم يصومون ويصلُّون كما كانوا غير أنهم في غمّ، قد تركوا المساجد ولزموا البيوت، وتطلُع الشمس متلوّنة: مرّة بيضاء، ومرّة صفراء، ومرّة حمراء، ومرّة سوداء، وتكون الأرض في الزلزلة والرجفة[1]، ثم يكون بينه وبين المهديّ ما قدّمنا، ثم ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام.

الباب الثاني من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

في خبر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام وقتله الدجّال وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام

لمّا رأيت أهل السِّيَر قد أكثروا من القول في نزول عيسى عليه السلام وزادوا في القول ونقصوا منه، عدلت عن أقوالهم، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث الصحيح النبويّ، وكذلك خروج يأْجوج ومأْجوج وهلاكهم. وختمتُ هذا الباب بالحديث الشامل في خروج الدجّال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام وغير ذلك. وهذه الأحاديث خرّجتها من كتاب السُّنَن للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوِيني، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

ذكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام

قال رسول الله ﷺ، وقد ذكر فتنة الدجّال وما يلاقيه الناس منه، قال: «فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى ابنَ مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين

---

(١) الرجفة: الزلزلة.

مَهْرُودَتَيْن[١] واضعٌ[٢] كفَّيه على أجنحة مَلَكَيْن، إذا طأطأ رأسه قَطَر[٣]، وإذا رفع رأسه يتحدر منه جُمان[٤] كاللؤلؤ، ولا يحلّ لكافر أن يجد ريحَ نَفَسِه إلاّ مات. ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه[٥]، فينطلق حتى يدرك الدجّال فيقتله عند باب لُد»[٦]. قال: «ثم يأتي نبيّ الله عيسى عليه السلام قومًا قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة». والله أعلم.

ذكر خبر يأجوج ومأجوج

صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ يأجوج ومأجوج لَيَحْفِرون السدّ كلّ يوم حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال الذي عليهم ارجِعوا فستحفِرونه غدًا فيعيده الله عزّ وجل أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم إلى الناس حفَروا حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال ارجِعوا فستحفِرونه غدًا إن شاء الله واْستثنَوْا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفِرونه ويخرجون على الأرض فيَنْشَفُون المياه ويتحصّن الناس منهم في حصونهم فيرمُون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليهم الدم الذي أجْفط[٧] فيقولون قهَرْنا أهلَ الأرض وعلَوْنا أهلَ السماء فيبعث الله عليهم نَغَفًا[٨] في أقفائهم فيقتلهم بها». قال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنّ دوابّ الأرض لتسمَن وتشكر[٩] شكرًا من لحومهم ودمائَهم». وفي الحديث الآخر: «إنّ الله تعالى يُوحِي إلى عيسى أنّي قد أخرجتُ عبادًا لي لا يَدَانِ[١٠] لأحدِ بقتالهم فاحْرُزْ عبادي إلى

---

(١) بين مهرودتين: أي بين حلّتين شبيهتين بالهرد، والهرد بالضمّ: عروق يصبغ بها، وهو الزعفران أو الكركم الأصفر، وهو عروق ذات صبغ أصفر.

(٢) كذا في سنن ابن ماجه، وفي الترمذي «واضعًا» بالنصب وهو الظاهر، والرّفع على تقدير مبتدأ محذوف أي «وهو واضعٌ».

(٣) قطر: لعلّه سال منه القطر وهو الماء.

(٤) الجمان: اللؤلؤ، أو حبٌّ يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ.

(٥) الطّرف: النظر.

(٦) لدّ: بضم اللاّم وتشديد الدال، قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يُدرك عيسى ابن مريم عليه السلام الدجّال فيقتله «معجم البلدان ٥/ ١٥».

(٧) أجفط: أنتن. (٨) النّغف: الدود.

(٩) تشكر: تسمن، يقال: شكرت الدّابة إذا سمنت.

(١٠) لا يدان لأحدِ بقتالهم: أي لا يستطيع أحد أن يقاتلهم أو ينال منهم.

الطور(١). ويبعث الله يأجُوج ومأجُوج وهم كما قال الله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] فيمرّ أوائلهم على بُحَيرة طَبَرِيّة فيشربون ما فيها ثم يمرّ آخرهم فيقولون لقد كان في هذا ماء مرّةً وَليُحْصَرُ نبيّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغَب نبيّ الله عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجل فيُرسِل الله عليهم النغفَ في رقابهم فيصبَحون فَرَسَي(٢) كموت نفسٍ واحدةٍ ويهبط نبيّ الله عيسى وأصحابُه فلا يجدون موضع شِبْرٍ إلاّ قد ملأه زهَمُهُم(٣) ونَتَنه ودماؤهم فيرغبون إلى الله عزّ وجل فيُرسِل عليه طيرًا كأعناق البُخْت(٤) فتحملهم فتطرحُهم حيث شاء الله عزّ وجل. ثم يُرسِل [عليهم](٥) مطرًا لا يَكُنّ(٦) منه بيتُ مَدَرٍ(٧) ولا وبرٍ فيغسِله حتى يتركه كالّلفَة(٨)، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردّي بركتك، فيومئذ تأكل العِصابة من الرمّانة فتُشبعهم ويستظلّون بقِحْفها(٩)، ويبارك الله في الرِّسْل(١٠) حتى إن اللّقْحة(١١) من الإبل تَكفِي الفِئَام(١٢) من الناس، واللّقْحة من البقر تَكفِي القبيلة، واللقحة من الغَنَم تكفِي الفَخِذ(١٣). فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحًا طيّبة فتأخذ تحت آباطهم فتقِض رُوحَ كلّ مسلم ويبقَى سائر الناس يتهارَجُون(١٤) كما يتهارج الخمرُ، فعليهم تقوم الساعة». وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود(١٥) رضي الله عنه قال: «لمّا كان ليلةُ أُسْرِيَ برسول الله ﷺ لقِيَ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا(١٦)

---

(١) الطور: في كلام العرب: الجبل، ويقال لجميع بلاد الشام الطور، وفي مصر عند موضع يسمى مَدين جبل يسمّى الطور، وعليه كان الخطاب الثاني لموسى عليه السلام.

(٢) فَرْس: أي قتلى، وفرس الذئب الشاة: قتلها «معجم البلدان ٤/ ٤٧».

(٣) الزَهم: الريح المنتنة.

(٤) البُخت: الإبل الخراسانيّة.

(٥) زيادة عن سنن ابن ماجه.

(٦) يكنّ: يستر أو يحجب.

(٧) بيت مدر: أي بيتٌ مبنيٌّ من الطين اللّزج المتماسك.

(٨) الزّلفة: الصخرة الملساء، والمرآة، والصدفة.

(٩) القحف: من الرّمانة قشرها.

(١٠) الرِّسل: اللبن.

(١١) اللقحة: الناقة القريبة العهد بالنّتاج.

(١٢) الفئام: الجماعة الكثير من الناس، لا واحد له من لفظه.

(١٣) الفَخِذ: هو دُون القبيلة وفوق البطن.

(١٤) يتهارجون: يتسافدون.

(١٥) هو عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمٰن، صحابيّ من السابقين كان خادم رسول الله وصاحب سرّه ورفيقه في حلّه وترحاله، نظر إليه عمر يومًا وقال: وعاءٌ ملىء علمًا، كان قصيرًا جدًّا، وكان يكثر من التطيّب، توفي في الكوفة عن ستين عامًا وذلك سنة ٣٢هـ «الأعلام ٤/ ١٣٧».

(١٦) تذاكروا الساعة: استحضروا ما يعرفونه عنها.

الساعة فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علمٌ، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علمٌ، فردّ الحديث إلى عيسى ابن مريم فقال قد عُهد إليّ فيما دونَ وَجْبتها[١]، فأمّا وَجْبتها فلا يعلمها إلاّ الله، فذكر خروجَ الدجّال قال فأنْزلُ فأقتُله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوجُ ومأجوجُ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ[٢] يَنسِلُونَ﴾[٣] [الأنبياء: ٩٦] فلا يمرّون بماء إلاّ شربوه ولا بشيء إلاّ أفسدوه، فيجثرون[٤] إلى الله تعالى فأدعو الله أن يميتهم فتَنتِن الأرض من رِيحِهم، فيجأرون إلى الله فأدعو الله فيُرسِل السماءَ بالماء فيحملهم فيُلقيهم في البحر ثم تُنسَف الجبال وتُمَدّ الأرض مدّ الأدِيم[٥] فعُهِد إليّ متى كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل لا يدري أهلُها متى تَفْجَأهم بولادتها». قال العوّام بن حَوْشَب[٦] وهو من رواة هذا الحديث: ووُجد تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]. وفي الحديث الآخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُفْتَح يأجوجُ ومأجوجُ فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعمُّون الأرض وينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقيّة المسلمين في مدائنهم وحصونهم ويضمُّون إليهم مواشِيَهم، حتى إنهم ليمرّون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئًا، فيمرّ آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرّةً ماء، ويَظْهَرون على الأرض، فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولَنُنازِلَنّ أهلَ السماءِ، حتى إنّ أحدهم لَيَهُزّ حَرْبته[٧] إلى السماء فترجع مخضَّبةً بالدم، فيقولون قد قتلنا أهل السماء. فبينما هم كذلك إذ بعث الله دوابّ كنغَف[٨] الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضًا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حِسًّا، فيقولون مَن رجُلٌ يَشْرِي نفسه وينظر ما فعلوا، فينزِل منهم رجُلٌ قد وطّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتَى، فيناديهم ألاَ

(١) وجيتها: قيامها أو موعدها.
(٢) الحدب: ما ارتفع وغلظ من الأرض.
(٣) ينسلون: يسرعون.
(٤) يجثرون: يستغيثون ويضرعون بصوت عالٍ.
(٥) الأديم: البساط من جلد.
(٦) هو العوّام بن حوشب الواسطي، أحد الأعلام، محدّث ثقة له نحو مائتي حديث، توفي سنة ١٤٨هـ «الكاشف ٢/ ٣٠٥».
(٧) الحربة: آلة قصيرة من الحديد، محدّدة الرأس، تستعمل في الحرب.
(٨) النغف: الدود، والجراد: نوعٌ من الحشرات يأكل نبات الأرض.

أبْشِروا فقد هلك عدوّكم، فيخرج الناس ويُخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رِعْيٌ إلاّ لحومهم فتَشكَر[١] عليها كأحسن ما شَكِرْت من نابتٍ أصابته قطّ». وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيُوقِد المسلمون من قِسِيّ يأجوج ومأجوج ونُشّابهم وأتْرِستهم سبعَ سنين» والله المعين.

الحديث الجامع لأخبار عيسى ابن مريم عليه السلام والدجّال

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوِيني في سِنَنه: حدّثنا عليّ بن محمد قال حدّثنا عبد الرحمٰن المُحارِبيّ[٢] عن إسماعيل بن رافع أبي رافع[٣] عن أبي زُرْعة السَّيبانيّ[٤] يحيى بن أبي عمرو عن أبي أُمامة الباهليّ[٥] قال: خَطَبنا رسولُ الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثًا حدَّثَناه عن الدجّال وحذَّرَناه، فكان من قوله أن قال: «إنه لم تكن فتنةٌ في الأرض مُنذ ذرأ[٦] الله ذريّة آدم ﷺ أعظم من فتنة الدجّال، وإنّ الله عزّ وجل لم يبعث نبيًّا إلاّ حذّر أمّته الدجّال. وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارجٌ فيكم لا محالةَ. فإن يخرُج وأنا بين ظَهْرانَيْكم فأنا حَجِيجٌ[٧] لكلّ مسلم، وإن يخرُج من بعدي فكلّ أمرىء حجيج نفسِه، والله خليفتي على كل مسلم. وإنه يخرُج من حِلّة[٨] بين الشام والعراق فيَعِيث[٩] يمينًا ويَعِيث شمالاً يا عباد الله فأثبتوا فإنّي سأصفه لكم صفةً لم يصفها إيّاه نبيّ قبلي: إنه يبدأ فيقول أنا نبيّ، ولا

---

(١) تشكر عليها: أي تسمن من أكلها.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن محمّد المحاربي، أبو محمّد الحافظ، محدّث ثقة، توفي سنة ١٩٥هـ «الكاشف ٢/ ١٦٣».

(٣) هو إسماعيل بن رافع المدني، القاصّ، محدّث ضعيف واهٍ، «الكاشف ١/ ٧٢».

(٤) أبو زرعة السّيباني: هو يحيى بن أبي عمر السيباني، أبو زرعة الشامي محدّث ثقة عاش خمسًا وثمانين سنة، توفي سنة ١٤٨هـ «الكاشف ٣/ ٢٣٢».

(٥) أبو أمامة الباهلي: هو صديّ بن عجلان بن وهب الباهلي، صحابيّ كان مع الإمام عليّ في صفّين، سكن الشام، ومات في حمص سنة ٨١هـ وهو آخر من مات من الصحابة بأرض الشام «الأعلام ٣/ ٢٠٣».

(٦) ذرأ: خلق.

(٧) حجيج لكلّ مسلم: أي ضامن ومدافع وعون.

(٨) حلّة: علم لعدّة مواضع، وأشهرها حلّة بني مزيد مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، والحلّة في اللغة: القوم النزول وفيهم كثرة «انظر معجم البلدان ٢/ ٢٩٤».

(٩) يعيث: يفسد.

نبيّ بعدي، ثم يثنّي فيقول أنا ربكم، ولا تَرَوْن ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور وإنّ ربكم عزّ وجل ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب. وإنّ من فتنته أنّ معه جنةً ونارًا، فناره جنةٌ، وجنته نارٌ. فمن ابتُلِي بنَاره فليستغِثْ بالله وليقرأ فواتح الكهف[1] فتكون عليه بَرْدًا وسلامًا كما كانت النار على إبراهيم. وإنّ من فتنته أن يقول لأعرابيّ أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمّك أتشهد أنّي ربّك فيقول نعم، فيتمثّل له شيطانان في صورة أبيه وأمّه فيقولان يا بنيّ اتبعه فإنه ربك. وإنّ من فتنته أن يسلَّط على نفس واحدةٍ فيقتلها وينشُرها بالمنشار حتى تُلقيَ شِقّين، ثم يقول انظروا إلى عبدي هذا فإنّي أبعثه الآن، ثم يزعم أنّ له ربًّا غيري، فيبعثه الله ويقول له الخبيثُ مَن ربّك؟ فيقول ربّي الله وأنتَ عدوّ الله أنتَ الدجّال، والله ما كنتُ بعدُ أشدّ بصيرةً بك منّي اليوم». قال أبو الحسن الطَّنافِسِيّ فحدثنا المُحَارِبيّ حدّثنا عُبَيد الله بن الوليد الوَصّافِيّ عن عطيّة[2] عن أبي سَعِيد[3] قال: قال رسول الله ﷺ: «ذلك الرجلُ أرفعُ أمّتي درجةً في الجنة». قال قال أبو سَعِيد: والله ما كنّا نرى ذلك الرجل إلاّ عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله. قال المُحارِبيّ ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: «وإنّ من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر، ويأمرَ الأرض أن تُنبِت فتُنبِت. وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحيّ فيكذّبونه فلا تَبقَى لهم سائمةٌ[4] إلاّ هلكت. وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحيّ فيصدّقونه فيأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر ويأمر الأرض أن تُنبِت فتُنبِت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمنَ ما كانت وأعظَمَه وأمدَّه خواصرَ وأدَرَّه ضروعًا. وإنه لا يَبقَى شيءٌ من الأرض إلاّ وطِئه وظهر عليه إلاّ مكة والمدينة لا يأتيهما من نَقْب[5] من نقابهما إلاّ لَقِيَتْه الملائكة بالسيوف صَلْتةً[6] حتى ينزل عند الظَّرِيب[7] الأحمر عند مُنْقَطَع السَّبَخة[8] فترجُف المدينة بأهلها ثلاثَ

(١) فواتح الكهف: لعلّ المقصود الآيات الأولى من سورة الكهف.

(٢) هو عطيّة بن سعد العوفي، أبو الحسن محدّث مات سنة ١١١هـ «الكاشف ٢/ ٢٣٥».

(٣) لعلّه أبو سعيد بن المعلّى الأنصاري صحابيّ توفي سنة ٧٣هـ «الكاشف ٣/ ٣٠٠».

(٤) السائمة: كلّ إبل أو ماشية ترسل للرّعي دون أن تعلف.

(٥) النّقب: الطريق بين الجبلين.

(٦) صلته: أي مجرّدة، يقال: أصلت السيف: شهره وجرّده من غمده.

(٧) قوله: (حتى ينزل عند الظريب الأحمر) ضبط [الظَّرِيب] كقتيل وصوابه [الظُّرَيب] تصغير [ظرب] على وزن كتف بمعنى الجبل الصغير كما في النهاية لابن الأثير.

(٨) السبخة: أرضٌ ذات ملح ونزّ لا تكاد تنبت.

رَجَفات فلا يبقَى منافق ولا مُنافقة إلاّ خرج إليه، فتنفي الخَبَث منها كما ينفي الكِيرُ[١] خَبَث الحديد، ويُدعَى ذلك اليوم يومَ الخلاص. فقالت أمّ شَرِيك بنت[٢] أبي العَكِر يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال هم يومئذ قليلٌ وجلّهم ببيت المقدس وإمامهم رجلٌ صالح. فبينما إمامهم قد تقدّم يصلّي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام الصبحَ، فرجع ذلك الإمام ينكص (يمشي القهقرى) ليتقدّم عيسى عليه السلام يصلّي بالناس، فيضع عليه السلام يديه بين كتفيه ثم يقول له تقدّم فصلِّ فإنها لك أُقيمت فيصلِّي بهم إمامهم، فإذا أنصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب[٣] فيُفتَح ووراءه الدجّال ومعه سبعون ألف يهوديّ كلهم ذو سيف محلًّى وساج[٤]، فإذا نظر إليه الدجّال ذاب كما يذوب المِلح في الماء فينطلق هاربًا، ويقول عيسى عليه السلام إنّ لي فيك ضربةً لن تسبقني بها فيدركُه عند باب اللُّدّ[٥] الشرقيّ فيقتله فيهزم الله اليهود فلا يبقَى شيء مما خلق الله عزّ وجل يتوارى به يهوديّ إلا أنطق الله ذلك الشيء لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابّةٌ إلاّ الغَرْقدة[٦] فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال يا عبد الله المسلم هذا يهوديّ فتعالَ اقتُله. قال رسول الله ﷺ وإنّ أيامه أربعون سنةً، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشَرَرة يُصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلُغ بابَها الآخر حتى يُمسِي. فقيل له يا رسول الله كيف نُصَلِّي في تلك الأيام القِصَار؟ قال تقدّرون فيها الصلاة كما تقدّرونها في هذه الأيام الطِّوال ثم صلّوا. قال رسول الله ﷺ فيكون عيسى ابن مريم في أُمّتي حَكَمًا عَدْلاً وإمامًا مُقْسِطًا[٧]، يدُقّ الصليب[٨]، ويذبح[٩] الخنزير، ويضع[١٠]

---

(١) الكير: جهاز من جلد أو نحوه، يستخدمه الحدّاد وغيره للنفخ في النار لإشعالها، جمعه أكيار وكيرة.

(٢) كذا في الأصول وهو خطأ، والصواب أن أمّ شريك هذه هي بنت دودان بن عمرو بن عامر بن رواحة الدوسيّة، وكانت تحت أبي العكر الدّوسي واسمها غزية، من المهاجرات «انظر أسد الغابة ٥/ ٥٩٤».

(٣) المراد باب المسجد. (٤) السّاج: الطيلسان الأخضر.

(٥) باب اللُّد: أي مدخل مدينة اللُّد بفلسطين، تقدّم ذكرها وتعريفها.

(٦) الغرقدة: ضرب من شجر العضاه. (٧) المقسط: العادل.

(٨) يدقّ الصليب: يكسره.

(٩) يذبح الخنزير: أي يحرّم أكله، أو يقتله بحيث يفنيه من الأرض.

(١٠) يضع الجزية: أي لا يقبلها من أحد من الكفرة، بل يدعوهم إلى الإسلام وهذا بيان منه ﷺ بأنّ الجزية في دينه إلى زمان عيسى عليه السلام، لا أن عيسى يقوم بنسخها.

الجزْية، ويترك الصدقة[١] فلا يُسعَى على شاة ولا بعير، وتُرفَع الشحناء[٢] والتباغُض، وتُنزَع حُمَة[٣] كلّ ذاتِ حُمَة حتّى يُدخِل الوليد يده في فيّ[٤] الحيّة فلا تضرّه، وتفُرّ[٥] الوليدةُ الأسدَ فلا يضرّها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتُملأ الأرضُ من السِّلْم كما يُملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبَد إلاّ الله، وتَضَع الحرب أوزارها، وتُسْلَب قريشٌ مُلْكَها، وتكون الأرض كما ثور الفضّة - وقيل كفاثور[٦] الفضة - تُنبِت نباتَها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القِطْف[٧] من العِنب فيُشبِعُهم، ويجتمع النفر على الرّمانة فتُشبِعُهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بالدُّرَيهمات. قالوا يا رسول الله: وما يُرخِّص الفرس؟ قال: لا يُركَب لحرب أبدًا. قيل له: فما يُغلي الثور؟ قال تُحْرَثُ الأرض كلُّها. وإن قبلَ خروج الدجّال ثلاثَ سنوات شِدَاد يصيب الناس فيها جوعٌ شديدٌ، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تَحبِس ثُلث مطرها ويأمر الأرض فتَحبِس ثُلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتَحبِس ثُلثيْ مطرها ويأمر الأض فتحبِس ثُلُثَيْ نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتَحبِس مطرها كلّه فلا تقطُر قطرة ويأمر الأرض فتَحبِس نباتها كلّه فلا تُنبت خَضِرًا، ولا تبقَى ذاتُ ظِلْف[٨] إلاّ هلكت إلاّ ما شاء الله عزّ وجل. قيل: فما يُعِيش الناسَ في ذلك الزمان؟ قال: التهليل[٩] والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مَجرى الطعام». قال المُحارِبيّ[١٠]: ينبغي أن يُدْفَع هذا الحديث إلى المؤدّب حتى يعلّمه الصبيان في المكاتب.

---

(١) يترك الصدقة: أي يترك الزكاة لكثرة الأموال.
(٢) الشحناء: العداوة والبغضاء.
(٣) الحمّة: السمّ، أو اللسعة التي تسبّب السمّ في البدن.
(٤) في الحيّة: أي فمها.
(٥) تفرّ: أي تفتح فمه لترى أسنانه.
(٦) الفاثور: الخوان من رخام أو طست أو جام من ذهب أو فضة.
(٧) القطف: العنقود.
(٨) ذات الظلف: من الأبقار والماشية.
(٩) التهليل: القول: لا إلّه إلا الله.
(١٠) المحاربي: هو عبد الرحمٰن بن محمّد المحاربي، الحافظ محدّث ثقة توفي سنة ١٩٥هـ «الكاشف ٢/١٦٣».

الباب الثالث من التذييل
على القسم الثالث من الفنّ الخامس
في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم عليه السلام
إلى أن ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى

ذكر خروج الدابّة وطلوع الشمس من مغربها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تخرُج الدابّة ومعها خاتَمُ سليمان بن داود وعصا موسى بن عِمْران، فتجلو[١] وجه المؤمن بالعصا، وتَخْطِم[٢] أنفَ الكافر بالخاتَم، حتى إنّ أهل الحِواء[٣] ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر». وعن عبد الله بن بُرَيدةَ[٤] عن أبيه رضي الله عنهما قال: ذهب بي رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرضٌ يابسةٌ حولها رملٌ، فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابّة من هذا الموضع» فإذا فترٌ[٥] في شِبرٍ. قال ابن بُرَيدة: فحججتُ بعد ذلك بسنين فأرانا عصًا له، فإذا هي أشبه بعصاي هذه كذا وكذا. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلُع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن مَن عليها؛ فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّلُ الآيات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة على الناس ضُحًى». قال عبد الله: فأيّتهما ما خرجت قبل الأخرى فالأخرى منها قريبٌ. قال عبد الله: ولا أظنها إلاّ طلوع الشمس من مغربها. وعن رسول الله ﷺ: «إنّ من قِبَل مغرب الشمس بابًا مفتوحًا عَرْضُه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحًا للتوبة حتى تطلُعَ الشمس من نحوه، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسٌ إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا». والله الهادي للصواب.

---

(١) تجلوا وجه المؤمن: أي تنوِّره.

(٢) تخطم أنف الكافر: تسمه، يقال: خُطم البعير: إذا كُوي خطا من الأنف إلى أحد خديه.

(٣) الحواء: بيوت مجتمعة من الناس على ماء.

(٤) هو عبد الله بن بُريدة، قاضي مرو وعالمها، محدّث ثقة، ولد عام اليرموك وعاش مائة سنة توفي سنة ١٢٥هـ «الكاشف ٢/ ٦٦».

(٥) الفتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتهما.

ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال صاحبُ الصُّور مذ وُكِّل به مُستعدًّا ينظر نحو العَرْش إلى أن يُؤمَرَ فينفُخ قبل أن يرتدّ إليه طَرْفه كأنّ عينَيْه كوكبان دُرِّيّان». وسُئل رسول الله ﷺ ما الصُّور؟ فقال: «قَرْنٌ يُنفَخ فيه». وعنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩] قال: «الصور كهيئة القَرْن». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ تكون بينهما مَقْتلةٌ عظيمةٌ دَعْوَتُهما واحدةٌ، وحتى يُبعَثَ دجَّالون كذَّابون قريبٌ من ثلاثين كلّهم يزعُم أنه رسول الله، وحتّى يُقبَضَ[1] العلمُ وتكثُرَ الزلازلُ ويتقارَبَ الزمانُ وتَظهَرَ الفِتَنُ ويكثُرَ الهَرْج، وهو القتل، وحتّى يكثُرَ فيكم المالُ فيَفِيضَ حتّى يَهِمَّ ربَّ المال مَن يَقبَلُ صَدَقَتَه، وحتّى يَعرِضَه فيقولَ الذي يَعرِضُه عليه لا أَرَب لي[2] به، وحتَّى يتطاوَلَ الناسُ في البُنيان، وحتى يمُرّ الرّجُلُ بقبر الرّجُلِ فيقول يا ليتني مكانَه، وحتَّى تطلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجُلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْوِيانه. وَلتقُومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبَن لِقْحَتِهِ[3] فلا يَطْعَمُه، وَلَتَقُومَنّ السَّاعةُ وهو يلِيطُ[4] حَوْضَه فلا يَسْقِي فيه. وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد رَفَعَ أُكْلَتَه إلى فِيهِ فلا يَطعَمُها». هذا من صحيح البخاري. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وذكر خبر الدجّال وقتله قال: «. . . . ثم يمكُث الناسُ سَبْعَ سِنينَ ليس بين اثنين عداوةٌ. ثم يرسل الله عزّ وجل ريحًا باردةً من قِبَل الشأم فلا يَبقَى على وجه الأرضِ أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرّة من خير أو إيمان إلا قَبَضَتْه، حتّى لو أنّ أحدَكم دخل في كَبِد جَبَلٍ لَدَخلتْه عليه حتى تَقبِضَه. قال فيبقَى شرارُ الناسِ في خِفّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباعِ لا يعرفون معروفًا ولا يُنكرون مُنكَرًا، فيتمثَّلُ لهم الشيطانُ فيقول ألاَ تستجيبون! فيقولون فما تأمُرُنا؟ فيأمُرُهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقُهُم[5] حَسَنٌ عيشُهُم، ثم يُنفَخُ في الصُّور فلا يَسمعُه أحدٌ إلاّ أصغَى لِيتًا[6] وَرَفَعَ لِيتًا. قال وأوّلُ مَن يسمعُهُ رجلٌ

---

(١) يقبض العلم: يزول من الناس، أو يُمسك.

(٢) لا أرب لي به: أي لا حاجة لي به.

(٣) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٤) يليط الحوض: يطيّنه ويصلحه، يقال: لاط الحوض يليط ويلوط.

(٥) دارٌّ رزقهم: أي كثير.

(٦) اللّيت: صفحة العنق، وأصغى ليتًا: أي خفض.

يَلُوطُ[١] حوضَ إبلِهِ، قال فيَصعَقُ[٢] ويصعَقُ الناسُ، ثم يُرسِلُ اللّهُ ـ أو قال يُنزِلُ اللّهُ ـ مطرًا كأنه الطَّلّ[٣] أو الظِّلّ ـ الشكّ من الراوي ـ فتُنبتُ منه أجسادُ الناسِ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ثم يقال يأيُّها الناسُ هَلُمُّوا إلى ربّكم». ويروى أن هذا المطر الذي تنبت منه الأجساد كمنيّ الرجال.

الباب الرابع

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

في أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد

والنفخة الثانية في الصور

ذكر يوم القيامة وأسمائه

هو اليوم الذي وصفه الله عزّ وجل بالعظمة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢]. ووصفه الله بالطُّول فقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٤ ـ ٥].

وليوم القيامة أسماءٌ جاء بها القرآن، وقد ذكرها عبد الحقّ في كتاب العاقبة فقال: «يوم القيامة وما أدراكَ ما يومُ القيامة! يوم الحَسْرة والندامة، يوم يجد كلّ عامل عمله أمامه، يوم الدمدمة[٤]، يوم الزلزلة، يوم الصاعقة، يوم الواقعة، يوم الراجفة، يوم الرادفة، يوم الغاشية، يوم الداهية، يوم الآزفة[٥]، يوم الحاقّة، يوم الطامّة، يوم الصاخّة[٦]، يوم التَّلاق، يوم الفراق، يوم الميثاق، يوم الانْشقاق، يوم القِصاص، يوم لات حين مناص[٧]، يوم التَّنادِ، يوم الأشهاد، يوم الميعاد، يوم المآب، يوم العذاب، يوم الفِرار، يوم القَرار، يوم المِرْصاد، يوم السائلة، يوم المناقشة، يوم الحساب، يوم القضاء، يوم الجزاء، يوم البكاء، يوم البلاء، يوم تَمُور[٨] السماء مَوْرًا

---

(١) يلوط: يطيّن. (٢) يصعق: يموت ويهلك.

(٣) الطلّ: المطر الخفيف يكون له أثر قليل، أو النّدى.

(٤) الدمدمة: الطحن والهلاك، أو الإطباق. (٥) الآزفة: القيامة، وأزف الوقت: قرُب.

(٦) الصاخة: الداهية والمصيبة.

(٧) لات حين مناص: أي لات الحين وقت مهرب ونجاة.

(٨) تمور: تضطرب وتثور.

وتسير الجبال سيرًا، يوم الحشر، يوم النشر، يوم الجمع، يوم البَعْث، يوم العَرْض، يوم الوَزْن، يوم الحقّ، يوم الحُكْم، يوم الفصل، يوم الخِزْي، يومٌ عقيمٌ، يومٌ عظيمٌ، يومٌ عَسِير، يومٌ عَبُوس، يومٌ قمطرير(١)، يوم النشور، يوم المصير، يوم الدِّين، يوم اليقين، يوم النفخة، يوم الصَّيْحة، يوم الرَّجْفة، يوم الرجّة، يوم الزجرة، يوم الشدّة، يوم الفَزَع، يوم الجَزَع، يوم القَلَق، يوم العَرَق، يوم الميقات، يوم تخرج الأموات وتظهر المخبآت، يوم الإشفاق، يوم الانشقاق، يوم الانكدار، يوم الانتشار، يوم الانفطار، يوم الافتقار، يوم الوقوف، يوم الانصداع، يوم الانقطاع، يومٌ معلوم، يومٌ موعود، يومٌ مشهود، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩] يوم تُخْرَج الضمائر، يوم ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩] يوم يُدْعَى فيه إلى النار، يوم تُسْجَر(٢) فيه النار، يوم تُقَلَّبُ فيه الوجوه في النار، يوم البروز فيه إلى الله، يوم الصُّدور إلى الله، يوم لا تنفع المعذرة، يوم لا يرجى إلاّ المغفرة. قال: وأهول أسمائه وأشنع ألقابه: يوم الخلود، يومٌ لا انقطاعَ لعذابه، ولا آخرَ لعقابه، ولا يكشف عن كافر ما به. نعوذ بالله من غضبه وبلائه، برحمته وآلائه(٣). والله معين العاجزين.

ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية

جاء في بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] قيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. قال: ثم يأمر الله ملك الموت أن يقبض رُوح جبريل وميكائيل وإسرافيل، ثم يأمر ملك الموت أن يموت فيموت ولا يبقى إلا الله، فينادي جلّ جلاله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. ثم يمكث الناس في البَرْزَخ(٤) أربعين عامًا، ثم يحيي الله عزّ وجل إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزّمر: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: ٢٧]. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأكل الترابُ كلّ شيء من الإنسان إلاّ

---

(١) يومٌ قمطرير: أي شديد.
(٢) تبلى السّرائر: تختبر، والسّرائر: ما كان في الدُّنيا مستخفيًا عن أعين الناس، أو كل ما أضمره الإنسان من إيمان أو كفر، واستسرّه من خير أو سر.
(٣) تسجر: توقد.
(٤) البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى القيامة.

عجْبَ الذَّنَب»[١]. قيل: يا رسول الله، وما هو؟ قيل: «مثل حبّة خَرْدَل ومنه ينشأ». وفي الحديث الآخر: «ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبُتُون كما ينبُت البقل»[٢]. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله وعزتي وجلالي لَيرجعنّ كلُّ رُوح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجسام، فتدخل في الخياشيم ثم تمشي مَشْيَ السمّ في اللّدِيغ». قال: «وتجتمع الأرواح كلها في الصُّور، ثم ينفخ إسرافيل فيه فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأتْ ما بين السماء والأرض، ثم تدخل في الأجساد» كما تقدّم. وفي الحديث الصحيح أنّ عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، كيف يُحشَر الناس يوم القيامة؟ قال: «حُفَاةً عُرَاةً». قالت: يا رسول الله، والنساء؟ قال: «والنساء». قالت: يا رسول الله، فما نستحيي؟ قال: «يا عائشة الأمر أهمّ من أن ينظُر بعضُهم إلى بعض». وعن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعْرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات، فأمّا عَرْضتان فَجِدالٌ ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشِماله». وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦] قال: «يقوم أحدهم في رَشْحه[٣] إلى أنصاف أُذُنَيه وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١١ ـ ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الأوّلين والآخِرين في صعيدٍ[٤] واحد فيُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذهم البصر» يريد أرضًا مستويةً لا جبلَ فيها ولا أكَمَة ولا رَبْوة ولا وَهْدَة[٥]، أرضٌ بيضاء لم يُسْفَك عليها دمٌ قطّ، ولا عُمِل عليها خطيئةٌ ولا ارتُكِب فيها محرّمٌ. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وفي حديث ثَوْبان[٦]: أن النبيّ ﷺ سُئل أين يكون الناس يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «هم في الظُّلمة دون الْجِسر» والجسر هو الصراط. وفي حديث عائشة «إنهم على الصراط». قال الله عزّ وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ [طه: ١٠٣] أي يقول

---

(١) عَجْب الذنب: العظم الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص.

(٢) البقل: نبات عشبي يؤكل. (٣) الرّشح: العرق.

(٤) الصعيد: الموضع الواسع العريض، أو المرتفع من الأرض.

(٥) الوهدة: الأرض المنخفضة.

(٦) ثوبان: هو ثوبان بن يجدد، أبو عبد الله، مولى رسول الله ﷺ، أصله من أهل السّراة بين مكة واليمن، اشتراه النبيّ وأعتقه خدم النبيّ حتى وفاته ﷺ، توفي في حمص سنة ٥٤هـ «الكاشف ١/١١٩».

بعضهم لبعض سرًّا، فيقول أعدلهم قولاً وأرجحهم عقلاً: إن لبثتم إلا يومًا. قال الله عزّ وجل: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٤]. ورُوي عن مجاهد أنه قال: للكفّار هَجْعةٌ[١] قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا بُعِثُوا قالوا: يا ويلَنا مَنْ بَعَثَنا من مَرْقَدِنا! فتخرج الخلائق مذعورين خائفين وَجِلِين، وإذا المنادي يادي: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]، فيطمع في ذلك النداء المؤمنون والكافرون، فينادي المنادي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَر الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصناف رُكبانًا ومُشاةً وعلى وجوههم». قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم أمَا إنهم يتّقون بوجوههم كلّ حَدَب[٢] وشَوْك». وفي حديث مسلم بن الحجّاج[٣] عن أنس[٤] أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحْشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رِجْليه في الدنيا قادرًا على أن يُمْشِيَه على وجهه يومَ القيامة». والأحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جدًّا لو آستقصيناها لطال الكلام وآنبسط القول، وخرج التأليف عن شرطه الذي قدّمناه، فلنختم هذا الباب بحديث لَقِيط بن عامر العُقَيليّ[٥] فإنه حديث جامع لأكثر ما في هذا الباب.

حديث لَقِيط بن عامر

قال أبو بكر بن أبي خَيْثمة بإسناده إلى لَقِيط بن عامر العُقَيليّ قال: خرجتُ أنا وصاحب[٦] لي حتى قَدِمْنا على رسول الله ﷺ المدينةَ لآنسلاخ رجب، فأتينا رسول الله ﷺ، فوافيناه[٧] حين انصرف من صلاة الغداة فقام [في الناس][٨] خطيبًا

(١) الهجعة: النومة الخفيفة من أوّل الليل.

(٢) الحدب: ما ارتفع من الأرض وغلُظ.

(٣) هو مسلم بن الحجّاج أبو الحسين القشيري الحافظ، صاحب الصحيح، قيل ولد سنة ٢٠٤هـ مات في رجب سنة ٢٦١هـ «الكاشف ٣/ ١٢٣».

(٤) أنس: هو أنس بن مالك الصحابي، صاحب رسول الله وخادمه، توفي سنة ٩٣هـ، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة «الكاشف ١/ ٨٨».

(٥) هو لقيط بن عامر بن صبرة، أبو رزين العقيلي، صحابي، محدّث «الكاشف ٣/ ١٢».

(٦) هو نهيك بن عاصم بن مالك المنتفق «انظر البداية والنهاية ٥/ ٧٢».

(٧) ما بين قوسين تكملة عن البداية والنهاية ٥/ ٧٢.

(٨) زيادة عن البداية والنهاية.

فقال: «أيها الناس! ألاَ إني قد خبأتُ لكم صوتي منذ أربعةَ أيام لأُسمعكم اليومَ. ألاَ فهل من اْمرىء بعثه قومه فقالوا اعلَمْ لنا ما يقول رسول الله ﷺ. ألاَ ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضّلال. ألاَ إني مسؤولٌ هل بلّغتُ. ألاَ اْسمعوا تعيشوا ألا اْجلِسوا»[١] فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول الله، ما عندكَ من علم الغيب؟ [فضحِك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه وعلِم أنّي أبتغي لسقطه][٢] فقال: «ضنّ ربك عزّ وجل بمفاتيح خمس من الغيبِ لا يعلمها إلا الله». فقلت: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «عَلِم المنية [قد علم متى منيّة أحدكم ولا تعلمونه][٣]. وعَلِم المنيّ حين[٤] يكون في الرَّحِم [قد علمه ولا تعلمونه][٥] وعَلِم ما في غد وما أنت طاعمٌ غدًا ولا تعلمه. وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزِلين[٦] مسنتين[٧] فيظلّ يضحك قد علم أنّ غَوْثكم قريبٌ». قال لقيط: لم لن نعدَم من ربٍّ يضحك خيرًا. «وعلم يوم الساعة». قلت: يا رسول الله، إني سائلك عن حاجتي. قال: «سل عمّا شئتَ». قلتُ: يا رسول الله، علِّمنا مما لا يعلم الناس ومما تُعلم. فإنا من قبيل[٨] لا يصدقون تصديقنا أحدًا من مذحج[٩] التي تدنو إلينا، وخثعم[١٠] التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها. قال: «تلبَثون ما لبِثتم ثم يُتَوفّى نبيّكم ثم تلبَثون ما لبثتم ثم تُبعثُ الصيحةُ، فلَعَمْرُ إلٰهك ما تَدَع على ظهرها من شيء إلاّ مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فأرسل ربك السماء [بهَضْبٍ][١١] من عند العرش، فلعمر إلهك ما تَدَع على

---

(١) ألا اسمعوا تعيشوا: أي تحيوا حياةً أبدية سعيدة فإنها الحياة المطلوبة.

(٢) ما بين قوسين زيادة عن البداية والنهاية. (٣) ما بين قوسين زيادة عن البداية والنهاية.

(٤) في الأصل متى والتصويب عن البداية والنهاية.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن البداية والنهاية. (٦) الأزل: الشدّة والضيق.

(٧) المسنتون: الذين أصابهم القحط والجدب. (٨) القبيل: القوم.

(٩) مذحج: هم بنو مَذْحِج واسمه مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان، قبيلة من قبائل العرب، وإنّما سمّوا مذحجًا لشجرةٍ تحالفوا عندها اسمها مذحج فسمّوا باسمها، ثم لمذحج بطون كثيرة «انظر صبح الأعشى ١/٣٧٨».

(١٠) خثعم: هم بنو خَثْعَم بن أنمار بن أراش بن هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد بن عدّ من القبائل العدنانية، كانت مساكنهم بسروات اليمن فاخترقوا في الفتحات الإسلامية «انظر صبح الأعشى ١/ ٣٨٢».

(١١) ما بين قوسين زيادة عن العقد الفريد، وفي البداية والنهاية ومسند الإمام أحمد تهضب، وفي العقد: فيرسل ربك ولشيء بهضبٍ وقد جرى التصويب عنه والهضب: المطر «العقد ١/ ٣٠٠».

ظهَرها من مَصْرَع قتيلٍ ولا مَدْفَن ميّت إلا شقّت القبرَ عنه حتى تخلُقه من قِبَل رأسه فيستوي جالسًا، فيقول ربك مهيَمْ[١] لما كان فيه، فيقول: يا رب أمتّني[٢] أمس اليوم، لعهده بالحياة يحسبه حديثًا بأهّله». فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلى والسباع؟ قال: «أنبئك بمثل ذلك في إلّ[٣] الله الأرض أشرفتَ عليها وهي مَدِرة بالية فقلتَ لا تحيا أبدًا ثم أرسل ربك عليها السماء، فلم تلبث عليها إلا أيامًا حتى أشرفتَ عليها فإذا هي شَربةٌ[٤] واحدة، فلعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يجمعهم من الماء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء[٥] ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعةً وينظر إليكم». قلت: يا رسول الله، وكيف ونحن ملء الأرض وهو شخصٌ واحدٌ ينظر إلينا وننظر إليه؟ قال: «أُنبئكم بمثل ذلك في إلّ الله الشمس والقمر آية منه صغيرةً تَرَوْنهما ساعةً واحدةً ويريانكم لا تُضَارُّون في رؤيتهما ولَعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يراكم وتَرَوْه منهما أن تروهما ويرياكم لا تضارُّون في رؤيتهما». قلت: يا رسول الله، فماذا يفعل بنا ربّنا إذا لَقِيناه؟ قال: تُعْرَضون عليه باديةً له صَفَحاتُكم لا يخفى عليه منكم خافيةٌ، فيأخذ ربك بيده غَرْفةً من الماء فينضح بها[٦] قِبَلكم، فلعمر إلٰهك ما تخطىء وجهَ واحدٍ منكم منها قَطْرةٌ، فأمّا المسلم فتَدَع وجهه مثلَ الرَّيْطة[٧] البيضاء، وأمّا الكافر فتخطِمه[٨] بمثل الحُمَمِ[٩] الأسود. ألاَ ثمّ ينصرف نبيّكم[١٠] ويتفرّق على أثره الصالحون، فتسلكون جسرًا من النار يطأ أحدُكم

---

(١) مهيم: كلمة استفهام عن الحال والشأن.

(٢) كلمة أمتني ليست في المصادر التي اعتمدنا عليها، وفي البداية والنهاية: «يا رب أمس اليوم فلعهده».

(٣) إلّ الله: ربوبيته وقدرته، ويجوز أن يكون في إلّ الله: أي في عهده، وفي البداية والنهاية «آلاء الله» أي في نعمه.

(٤) الشربة: الحنظلة الخضراء، أي أن الأرض تخضر بالنبات فتصير في اخضرار الحنظلة ونضارتها.

(٥) الأصواء: القبور.

(٦) ما بين قوسين تكملة عن البداية والنهاية ومسند الإمام أحمد والعقد الفريد.

(٧) الرّيطة: الملاءة والمنديل.

(٨) تخطمه: أي تصيب خطمه وهو أنفه فتجعل فيه أثرًا.

(٩) الحمم: الفحم.

(١٠) زيادة عن البداية والنهاية والعقد ومسند الإمام أحمد.

الجمرة يقول حَسِّ[١]، فيقول ربك وإنّه[٢]. ألا فتطلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهلُه فلعمر إلٰهك ما يبسط أحدٌ منكم يده إلاّ وقع عليها قدحٌ يطهّره من الطّوف[٣] والبَوْل والأذى. وتُحبَس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحدًا». قلت: يا رسول الله، فبم نُبصِر الأرض[٤]؟ قال: «بمثل ساعتك هذه» وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال. قلت: يا رسول الله، فبِمَ نُجزَى من سيئاتنا وحسناتنا؟ قال «الحسنةُ بعَشر أمثالها والسيئة بمثلها إلاّ أن يعفو الله». قلت: يا رسول الله، ما الجنة وما النار[٥]. قال: «لَعَمْرُ إلٰهك إن للنار لسبعةَ أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عامًا. وإن للجنة لثمانيةَ أبواب ما منها بابان إلاّ يسير الراكب بينهما سبعين عامًا». قلت: يا رسول الله، فعلامَ نَطَّلِعُ[٦] من الجنّة؟ قال: «على أنهار من عسل مصفّى، وأنهارٍ من كأس ما بها صُداع[٧] ولا نَدامة، وأنهارٍ من لبن لم يتغيّر طعمه، وماءٍ غير آسن[٨]، [وفاكهةٍ لَعَمْرُ إلٰهك ما تعلمون][٩] وخير من مثله معه وأزواج مطهّرة». قلت: يا رسول الله، ولنا فيها أزواج أو منهنّ مصلحات؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذّونهنّ مثلَ لذّاتكم في الدنيا ويَلْذَذْنكم غير أن لا تَوَالُدَ فيها».

انتهى التذييل على القسم الثالث بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه. والله الموفّق للصواب.

(١) حسّ: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة كالجمرة والضربة.
(٢) كذا في المصادر التي بين أيدينا والمعنى: إنّه أي نعم أو إنه كذلك.
(٣) الطّواف: الحدث من الطعام.
(٤) في البداية والنهاية» فبم نبصر؟ وفي العقد: فبم نبصر يومئذ».
(٥) في العقد الفريد: فما الجنّة وما النّار، وفي البداية والنهاية: إما الجنة وإما النار.
(٦) نطّلع: ننظر ونرى.
(٧) الصّداع: يريد أثر الخمرة في الإنسان.
(٨) الآسن: الذي تغيّر وفسد طعمه فلا يشرب.
(٩) ما بين القوسين تصويب من العقد والبداية والنهاية ومسند الإمام أحمد، ففي الأصل: وماء غير آسن خيرٌ مما تعلمون وخير من مثله معه.

القسم الرابع من الفنّ الخامس

في أخبار ملوك الأصقاع[(١)]، وملوك الأمم والطوائف، وخبر سيل العَرِم[(٢)] ووقائع العرب في الجاهلية

ويشتمل على خمسة أبواب:

الباب الأوّل

في أخبار ذي القرنين[(٣)] الذي ذكره الله عزّ وجل في كتابه العزيز في سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٨٤]. وٱختلف في تسميته ذا القرنين، فقيل: لبلوغه أطراف الأرض، وإنّ الملك الموكّل بجبل قاف[(٤)] سمّاه بذلك. وهذا القول محكيّ عن ٱبن عبّاس رضي الله عنهما. وقيل: إنما سُمِّيَ بذلك لأنه كانت له ذؤابتان من الذهب. ويُعْزَى هذا القول إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: إنما سُمِّي بذلك لأنه رأى في منامه أنه يدنو من الشمس فيضع

---

(١) الأصقاع: مفردها الصّقع أي الناحية.

(٢) سل العرم: العرم: جمع عرِمة وهي السُكر والمُسنّاة التي تسدّ بها المياه وتقطع، وقيل: العرم اسم وادٍ بعينه، وقيل: العرم: المطر الشديد، وقال البخاري: العرم! ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنان فلم يسقها فيبست وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذابًا أرسل عليهم «انظر معجم البلدان ٤/ ١١٠».

(٣) ذو القرنين: هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف.

(٤) جبل قاف: يقال: قاف أثره إذا اتبع أثره فيكون هذا الجبل يقوف أثر الأرض فيستدير حولها، وقاف مذكور في القرآن الكريم وذهب المفسّرون إلى أنه الجبل المحيط بالأرض «معجم البلدان ٤/ ٢٩٨».

يده في قرنَيْها من شرقها وغربها، فقصّ رؤياه على قومه فسمَّوْه ذا القرنين، وهذا القول مرويّ عن وهب. وقيل: إنما سُمِّيَ به لأن الله تعالى كان قد بعثه إلى قوم فضربوه على قَرْنه فمات، فأحياه الله ثم بعثه إليهم فضربوه على قرنه الآخر فمات، ثم أحياه الله، فسُمِّيَ ذا القرنين. وقيل: إنما سُمِّيَ بذلك لأنه أفنى قرنين من الناس. وقيل: لأنه كريم الطرَفين من أهل بيت شرفٍ من قِبَل أبيه وأُمّه. وقيل: لأنه أُعطِيَ علم الظاهر والباطن. وقيل: لأنه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنه ملك فارس والروم. وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

قال وهب: كان ذو القرنين رجلاً من أهل الإسكندرية يقال له الإسكندروس. والعَجَبُ كونه نَسَبَه أنه من أهل الإسكندرية، وقد نقل جماعة من أهل التاريخ أن الإسكندر هو الذي أنشأ الإسكندرية وبناها، فكيف يكون من أهلها وهو الذي أنشأها وإليه نُسبت!. ورُوِي عن وهب أيضًا أن ذا القرنين كان خارجيًا في قومه، ولم يكن بأفضلهم نسبًا ولا حسبًا ولا موضعًا، ثم قال بعد ذلك: إن الله تعالى بعثه نبيًا ورسولاً. ولا يكون الأنبياء إلاّ من أفضل قومهم حسبًا وأشرفهم نسبًا. وقد يكون هذا النقل لٱختلاف الروايات. وما آفة الأخبار إلاّ رُواتها.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبيّ(١) في تفسيره عن ٱبن إسحاق قال حدّثني مَن يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم: أنّ ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مرذبة اليونانيّ من ولد يُونان بن يافث بن نوح. قال: وقال ٱبن هشام(٢): ٱسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية، فنُسِبت إليه. قال وقيل: ٱسمه هرمس، ويقال هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بن ذي يزن الحِمْيريّ. وقال وهب: هو روميّ. وقيل: إنه أفريدون [الذي قتل بيوراسب بن أروندااسب](٣) الملك الفارسيّ.

---

(١) القرطبي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسّر، كان من الصالحين الزّاهدين العارفين، له مؤلّفات كثيرة منها «الجامع لأحكام القرآن» وكتاب «الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى» وكتاب «التذكار في أفضل الأذكار» وغير ذلك، توفي سنة ٦٧١هـ ودفن حيث كان مستقرًا في منية ابن الخصيب «انظر الجامع لأحكام القرآن الجزء الأول ص و ـ ز».

(٢) ابن هشام: هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، مؤرخ، كان عالمًا بالأنساب واللغة وأخبار العرب، ولد ونشأ في البصرة ومات بمصر سنة ٢١٣هـ، من كتبه: «السّيرة النبوية».

(٣) ما بين قوسين تكملة عن القرطبي ١١/ ٤٧ «الأعلام ٤/ ١٦٦».

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى في قصصه ـ وذكر الخلاف في نبوّته ـ قال: الصحيح إن شاء الله أنه كان نبيًّا غير مُرْسَل، كما رُوي عن وهب وغيره من أهل الكتب. قال وقالوا: كان ذو القرنين رجلاً من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه إسكندروس. قال ويقال: كان اسمه ابن عيّاش[١]، وكان عياش عبدًا صالحًا. قال وهب: ونشأ ذو القرنين في علم وأدب وثروة وعفّة، ولم يزل يتخلّق بمكارم الأخلاق ويسمو إلى معالي الأمور حتى بعُدت همّته، واشتدّ أمره، وعلا صوته، وعزّ في قومه، وألقى الله تعالى عليه الهيبة، وحدّث نفسه بمعالي الأمور. قال الثعلبيّ: فلمّا استحكم مُلْكه واستجمع أمره أوحى الله تعالى إليه: يا ذا القرنين، إنّي بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافِقَيْن[٢]، وجعلتك حجّتي عليهم، وهذا تأويل رؤياك. وإني باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهي سبع أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمّتان بينهما عَرْض الأرض، وأمّتان بينهما طُول الأرض، وثلاث أمم في وَسَط الأرض، وهم الإنس والجنّ ويأجوج ومأجوج. فأمّا الأمّتان اللتان بينهما طولُ الأرض فأمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، والأخرى [بحيالها عند مطلع الشمس][٣] يقال لها مُنسك. وأمّا الأمّتان اللتان بينهما عرض الأرض فأمّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى بحيالها في قطر الأرض الأيسر يقال لها تأويل. فلمّا قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين: إلٰهي إنك قد ندبتني[٤] إلى أمر عظيم لا يقدر قدرَه إلا أنت؛ فأخبرني عن هذه الأمم التي بعثتني إليها بأيّ قوّة أكاثرهم، وبأيّ حِيلةٍ وجَمْعٍ أُكابرهم، وبأيّ صبر أقاسيهم، وبأيّ لسان أناطقهم؛ وكيف لي بأن أفقه لغاتهم، وبأيّ سمع أسمع أقوالهم، وبأيّ بصر أنفُذهم، وبأيّ حجّة أخاصمهم، وبأيّ عقل أعقِل عنهم، وبأيّ قلب وحكمة أدبّر أمرهم، وبأيّ قسط[٥] أعدِل بينهم، وبأيّ حلم أُصابرهم، وبأيّ معرفة أفصِل بينهم، وبأيّ علم أُتقن أمرهم، وبأيّ يدٍ أسطو عليهم، وبأيّ رِجْلٍ أطؤُهم، وبأيّ طاقة أُحصِيهم، وبأيّ جُنْدٍ أُقاتلهم، وبأيّ رفقٍ أتألفهم، وليس عندي يا إلٰهي شيء مما ذكرتُ يقوم لهم ويَقْوَى عليهم[٦] وأنت الرؤوف الرحيم، الذي لا تكلّف نفسًا إلا وُسْعَها، ولا تحمّلها إلاّ

(١) في الأصول: ابن عيّاس، والتصويب عن الثعلبي.
(٢) الخافقان: مثنى خافق، وهما أفق المشرق وأفق المغرب.
(٣) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي، وحيال الشيء: إزاؤه.
(٤) ندبتني: دعوتني واخترتني.
(٥) القسط: العدل.
(٦) في الأصل «أقوم لهم وأقوى عليهم» والتصويب عن الثعلبي.

طاقتها، ولا تُشْقيها؛ بل أنت ترحمها. فقال الله تعالى له: إني سأُطوّقك[١] ما حمّلتك، وأشرح لك صدرك وسمعك فتسمع وتَعِي كلّ شيء، وأُوسْع لك فهمك فتفقه كلّ شيء، وأبسُط لك لسانك فتنطِق بكل شيء، وأفتح لك بصرَك فينفُذ في كل شيء، وأحصي لك قوّتك فلا يفوتك شيء، وأشُدّ لك عضُدك فلا يهولك شيء، وأشيّد لك ركنك فلا يغلبك شيء، وأشدّ لك قلبك فلا يُفزعك شيء، وأشُدّ لك يديك فتسطو على كلّ شيء، وأُلبسك الهيبة فلا يروعك شيء، وأسخّر لك النور والظلمة وأجعلهما جندًا من جنودك، يهديك النور من أمامك، وتحوطك الظلمة من ورائك. قال: فلما قيل له ذلك حدّث نفسه بالمسير، وألحّ عليه قومُه بالمُقام، فلم يفعل وقال: لا بدّ من طاعة الله تعالى. قال وهب: وكان أوّل ما بدأ به أن أخذ قومه بالإسلام فأسلموا قهرًا من عند آخرهم، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدًا ويجعلوا طوله أربعمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع، وسُمْك حائطه اثنين وعشرين ذراعًا، وارتفاعه في السماء مائة ذراع، وأمرهم أن ينصبوا فيه سواري[٢]. قالوا: يا ذا القرنين، كيف لنا بخشب يبلغ ما بين الحائطين؟ فلمّا كمل البناء أمرهم بردمه بالتراب، ثم فرض على المُوسِر قدرَه من الذهب وعلى المُقْتِر قدرَه، وأمرهم أن يجعلوا ذلك الذهب كقُلامة الظُّفر ويخلطوه بالتراب وكبسوا التراب حتى ساوى البناء، ثم أمرهم بعد ذلك أن يتّخذوا أعمدةً من النحاس بدلاً من الخشب فصنعوها، وجعلوا على كل حائط اثني عشر ذراعًا، فكان طول كل عمود من النحاس مائتين وأربعة وعشرين ذراعًا، فتمكّنوا من ذلك بسبب الردم. فلمّا استقرّ السقف بما فيه أمر الإسكندر المساكين أن يحوّلوا التراب، ومن خرج له شيء من الذهب فهو له، فسارعوا إلى ذلك ونقلوه واستغنَوْا بما فيه، ثم جَنّد القومَ أربعين ألفًا، وهم أوّل جُنْد اتّبعوه.

وقال الثعلبيّ رحمه الله: إنّ الإسكندر جنّد المساكين بما حصل لهم من قُراضة[٣] الذهب، وكانوا أربعين ألفًا، جعلهم أربعة أجناد، في كل جُنْد عشرة آلاف. قال: ثم عرَض جُنْده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل غير المساكين، وهم أربعون ألفًا؛ ثم انطلق يؤمّ[٤] الأمّة التي عند مغرب الشمس، فسار لا يمرّ بأمّة إلاّ دعاهم إلى الله تعالى، فإن أجابوه قبِل ذلك منهم، وإن أبَوْا عليه

---

(١) سأطوّقك: سأرعاك وأحميك وأحرسك.
(٢) السّواري: الأعمدة، والسارية: العمود الذي يعلّق عليه شراع السفينة.
(٣) قراضة الذهب: نثاره، أي ما سقط منه بالقرص.
(٤) يؤم الأمة: يقصد.

غشيتهم الظُّلْمة فلبست مدائنهم ومنازلهم وأعشت[١] أبصارهم، فيتحيّروا حتى يجيبوه، أو يأخذهم عَنْوةً[٢]. ولم يزل كذلك حتى بلغ مغرب الشمس. قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٥ ـ ٨٦] أي ذات حمْأة[٣]، ومن قرأ حامية فمعناه حارّة ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] الآيات إلى قوله: ﴿يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨]. قال الثعلبيّ: فوجد جمعًا وعددًا لا يُحصيه إلا الله تعالى، وقوّة وبأسًا لا يُطِيقه إلا الله تعالى، ورأى ألسنًا مختلفةً وأهواءً متشتّتةً، وهذه الأمّة هي ناسك. فلمّا رأى ذلك كاثرهم بالظُّلْمة فضرب حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد، ثم أخذ عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه، فعمَد إلى الذين تولَّوْا عنه فأدخلهم الظُّلْمة، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم، ودخلت في بيوتهم وغَشِيَتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب، فصاحوا وتحيّروا وأشفقوا[٤] من الهَلكة، فعجُّوا إليه بصوتٍ واحدٍ، فكشفها عنهم وأخذهم عَنْوةً فدخلوا في دعوته، فجنّد منهم أممًا عظيمة وجعلهم جُنْدًا واحدًا، ثم ٱنطلق بهم يقودهم والظُّلْمة تسوقهم من خلفهم وتحرُسهم والنور أمامهم، وسار يريد الأمّة التي في قطر الأرض التي يقال لها هاويل، فكان إذا ٱنتهى إلى بحر أو نهر بنى سُفُنًا من ألواح صغار أمثال النعال ونظمها في ساعة، ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود، فإذا قطع ذلك البحر أو النهر فتقها[٥] ثم دفع إلى كل رجل منهم لَوْحًا فلا يكرُثه[٦] حملُه، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل بهم كما فعل بالأمة التي قبلها. قال: ولما فرغ منها مضى حتى انتهى إلى مُنسك وهي الأمة التي عند مطلع الشمس. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ [الكهف: ٨٩ ـ ٩١]. قال: وقوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقرّ عليه بناء، وكانوا يكونون في أسراب[٧]

---

(١) أعشت أبصارهم: ساءت أو ضعفت.

(٢) العنوة: من عنا يعنو، يقال: عنوت لك: أي خضعت وأطعت، قال ابن سيّده: قيل: كلّ خاضع لحقٍّ أو غيره، عانٍ والاسم من كلّ ذلك «العَنْوة» «اللسان: مادة عنا».

(٣) الحمأة: الطين الأسود المنتن.

(٤) أشفقوا من الهلكة: خافوا وحذروا.

(٥) فتقها: شقّها.

(٦) يكرُثه حمله: أي يبلغ منه المشقّة.

(٧) الأسراب: جمع سرب وهو الحفير تحت الأرض.

لهم، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معايشهم وحروثهم. وقال الحسن[١]: كانت أرضهم أرضًا لا تحتمل البناء، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم تهوّروا[٢] في الماء، فإذا اُرتفعت عنهم خرجوا فتراعَوْا كما تَرعَى البهائم. وقال الكلبيّ: هم أمّة يقال لها مُنسك عُراةٌ حُفاةٌ عُماةٌ عن الحقّ. قال: وحدّثني عمرو بن مالك بن أميّة قال: وجدت رجلًا بسَمَرْقَنْد[٣] يحدّث الناس وهم مجتمعون حوله، فسألت بعض مَن سمع حديثه فأخبرني أنه حدّثهم عن القوم الذين تطلُع عليهم الشمس، قال: خرجت حتى جاوزت الصين، ثم سألت عنهم فقيل: [لي] إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاُستأجرت رجلًا [يرينيهم][٤]، فسرت بقيّة عشيّتي وليلتي حتى صبّحتهم، فإذا أحدهم يفترش أذنه ويلبَس الأخرى. وكان صاحبي يُحسن لسانهم[٥] فسألوه فقال: جئنا ننظر كيف تطلُع الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مثل الصلصلة[٦]، فغُشِيَ عليّ فوقعت، فلمّا أفقت وجدتهم يمسحونني بالدهن فإذا الشمس طلعت على الماء، وهي عليه كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفُسطاط[٧]، فلمّا اُرتفعت دخلوا في سَرَبٍ لهم وأنا وصاحبي، فلمّا اُرتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك فيطرحونه في الشمس فينضَج.

نرجع إلى تتمة أخبار الإسكندر ومطلع الشمس. قالوا: ولمّا بلغ الإسكندر مطلع الشمس فعل بمنسك كما فعل بالأمم التي قبلها وجنّد منها جنودًا، ثم كرّ حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهي بدء تأويل، وهي الأمّة التي بحيال هاويل، وهما متقابلتان بينهما عَرْض الأرض. فلمّا بلغها عمل فيها كما عمل بمن قبلها. ولمّا فرغ من الأمم الذين هم بأطراف الأرض وطاف الشرق والغرب عطف[٨] منها إلى الأمم التي هي في وسط الأرض من الجنّ والإنس ويأجوج ومأجوج. فلمّا كان في بعض الطريق مما يلي منقطع الترك نحو المشرق قالت له أُمّة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين، إنّ بين هذين الجبلين خَلْقًا من خَلْق الله ليس فيهم مُشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم، يأكلون العُشْب ويفترسون الدوابّ والوحوش كما يفترسها السباع، ويأكلون هوامّ الأرض من الحيّات والعقارب وكل ذي رُوح مما خلق الله تعالى.

---

(١) هو الحسن البصري «تقدمت ترجمته». (٢) تهوّروا: أي نزلوا في الماء.

(٣) سمرقند: يقال لها بالعربية «سُمران» بلد معروف مشهور، قيل: إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر، وهو قصبة الصّغد، قال الأزهري: بناها شمر أبو كرب فسمّيت شمركنت. فأعربت فقيل سمرقند «معجم البلدان ٣/ ٢٤٦».

(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٥) يحسن لسانهم: أي يتكلّم لغتهم.

(٦) الصلصلة: الصوت الذي فيه ترجيع، أو هو صوت الرّعد.

(٧) الفسطاط: بيتٌ يتخذ من الشّعر. (٨) عطف: مال قاصدًا.

وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم. فإن أتت مدّة على ما نرى من نمائهم وزيادتهم فلا شكّ أنهم سيملؤون الأرض ويُخْلون أهلها منها ويظهرون[١] عليها فيفسدون فيها. وليست تمرّ بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقّعهم أن يطلُع علينا أوّلهم من بين[٢] هذين الجبلين[٣].

قال الشيخ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطيّ[٤] في كتابه عن وهب بن مُنَبّه: إنّ يأجوج ومأجوج أجفلوا[٥] في زمن ذي القرنين يريدون أرضًا وأمّة من الأمم، وكانوا إذا توجّهوا لوجه لم يَعْدِلوا عنه ولا يميلون ولا يعرِّجون، وكانت تُسمَع هَمْهَمَتُهم[٦] من مسيرة مائة فرسخ لكثرتهم. فلما سمعت تلك الأمّة حسّهم استغاثوا بذي القرنين، وهو يومئذ في ناحية أرضهم من شرقي أرض الترك والخَزَر[٧] وقالوا: يا ذا القرنين، إنه قد بلغنا ما آتاك الله من السلطان والمُلْك، وما ألبسك من الهيبة، وما أيّدك به من جنود أهل الأرض ومن النور والظلمة، وإنّا جيران يأجوج ومأجوج، وليس بيننا وبينهم إلا شواهق الجبال، وليس لهم إلينا طريق إلا من هذين الصَّدَفين[٨] ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: ٩٢ ـ ٩٤] أي جعلًا وأجرًا ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤] أي حاجزًا فلا يصلون إلينا ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى﴾ أي قوّاني ﴿خَيْرٌ﴾ من خراجكم ولكن ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] حاجزًا كالحائط. قالوا: وما تلك القوّة؟ قال: فَعَلَةٌ وصنّاع يُحسِنون البناء والعمل والآلة. قالوا: وما تلك الآلة؟ قال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]

(١) يظهرون عليها: ينتصرون ويغلبون أهلها. (٢) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٣) الجبلان: هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان كما في تفسير القرطبي.
(٤) هو عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد، أبو البركات الأنماطي، محدّث بغداد في عصره مولده ووفاته فيها سنة ٥٣٨هـ قال ابن الجوزي: لم تسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجرًا على سماع الحديث «الأعلام ٤/ ١٨٥».
(٥) أجفلوا: فرّوا مذعورين.
(٦) الهمهمة: صوتٌ كأنّه دويّ الرّعد، والهمهمة: صوت البقر والفيلة وما أشبه.
(٧) الخزر: وهم التركمان، وفي الإسرائيليات أنهم من ولد توغربحا بن تومر بن يافث بن نوح، وقيل: هم من بني طيراش بن يافث، وقيل: نوعٌ من الترك «انظر صبح الأعشى ١/ ٤٢١».
(٨) الصّدفان: مفردها صدف، وهو الناحية والجانب، أو هما جانبا الجبل لأنهما يتصادفان أي يتقابلان.

يعني قِطَعَه، واحدتها زُبْرة، وأتوني بالنُّحاس. قالوا: من أين لنا الحديد والنُّحاس [ما يكفي هذا العمل][١]؟ قال: سأدلّكم على معادن الحديد والنحاس، فضرب لهم في جبلين حتى فلقهما، ثم استخرج منهما معدنين من الحديد والنحاس. قالوا: فبأيّ قوّة نقطع الحديد والنحاس؟ فاستخرج معدن السامور[٢] وهو أشدّ ما خلق الله بياضًا، وهو الذي قطع به سليمانُ صخورَ بيتِ المقدس وجواهره، كما تقدّم. قال الثعلبيّ: ولمّا شغلهم الإسكندر في استخراج الحديد والنحاس سار نحو يأجوج ومأجوج ليعلم علمهم، فانطلق يؤمّهم حتى انتهى إليهم وتوسّط بلادهم، فوجدهم على مقدارٍ واحدٍ ذكرهم وأنثاهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: منهم مَن طوله شبر، ومنهم مَن هو مُفرِطٌ في الطول، لهم مخاليبُ في أيديهم موضع الأظافر، وأنيابٌ وأضراسٌ كالسِّباع، يُسمَع لها حركةٌ إذا أكلوا كقَضْم البغل المسنّ أو الفرس القويّ، ولهم من الشعر في أجسادهم ما يُواريهم وما يتّقون به الحرّ والبرد، ولكل واحد منهم أُذُنان عظيمتان، إحداهما وَبِرَةٌ[٣] والأخرى زَغِبَةٌ[٤]، يفترش إحداهما ويلتحق الأخرى، ويصيّف في إحداهما ويشتيّ في الأخرى[٥]. وقال الأنماطيّ في خبره: ولهم أخفاف كأخفاف الإبل. قالوا: وليس منهم ذكرٌ ولا أنثى إلاّ قد عرف أجلَه الذي يموت فيه. وذلك أنّ الذكر منهم لا يموت حتى يخرج من صُلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد[٦]، فإذا كان ذلك أيقن بالموت وترك طلب المعيشة. قالوا: وهم

---

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٢) السّامور: الألماس.

(٣) الوبرة: كثيرة الوبر، وهو صوف الإبل والأرانب.

(٤) الزغبة: التي نبت زغبها، والزّغب: صغار الرّيش.

(٥) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ١٠١ «وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدًا فمنهم من هو كالنخلة السحوق ومنهم من هو في غاية القصر ومنهم من يفترش أذنًا من أذنيه ويتغطّى بالأخرى، فكلّ هذه أقوال بلا دليل ورجمٌ بالغيب بغير برها، والصحيح: أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم»...

(٦) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ١٠١ «وما قيل من أنّ أحدهم لا يموت حتى يرى من ذرّيته ألفًا، فإن صحّ في خبرٍ قلنا به، وإلا فلا نردّه إذ يحتمله العقل والنقل أيضًا قد يرشد إليه والله أعلم، بل قد ورد حديث مصرّح بذلك إن صح، قال الطبراني وذكر السند مرفوعًا إلى النبي: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معائشهم، ولن يموت منهم رجلٌ إلاّ ترك من ذرّيته ألفًا فصاعدًا» وهو حديث غريب جدًّا وإسناده ضعيف، وفيه نكارة شديدة.

يُرْزَقون التنّين في أيام الربيع، يقذفه عليهم السحاب من البحر في كل عام مرّة. فإذا تأخّر عنهم وقت عادته استمطروه كما يُستمطَر الغيث لجينه، فإن قُذِفوا به أخصبوا وسمِنوا وتوالدوا وكثروا وأكلوا منه حولاً كاملاً لا يأكلون غيره، ويقدّدونه[١] فيعمّهم على كثرتهم. قال: وهم يتداعَوْن تَداعِيَ الحمام، ويعوون عُوَاء الذئاب، ويتسافدون تسافُد البهائم حيث التقَوْا. فلمّا عاينهم ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين فقاس ما بينهما، ثم أوقد على ما جُمع من الحديد والنحاس فصنع منه زُبَرًا[٢] أمثال الصخور العظام، ثم أذاب النُّحاس فجعله كالطين وألاط[٣] به تلك الصخور الحديد ثم بناه.

قالوا: وكيفيّة بنائه على ما ذكره أهل السِّيَر: أنه لمّا قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مائة فرسخ، ثم حفَر له الأساس حتى بلغ الماء، وجعل عرضه خمسين فرسخًا، ثم وضع الحطب بين الجبلين، ثم نسَج عليه الحديد، ثم نسج الحطب على الحديد، فلم يزل يحوّل الحديد على الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين الصَّدَفين، وهما الجبلان، ثم أمر بالنار فأُرسلت فيه، ثم قال انفخوا ثم جعل يُفرِغ القِطْر وهو النحاس المُذَاب، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس، فصار كأنه بُرْد حِبرة[٤] من صُفْرة النحاس وحُمرته، وسواد الحديد وغُبْرته؛ فصار سدًّا طويلاً عظيمًا حصينًا. قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧]. وقد رُوي أنّ رجلاً قال يا رسول الله قد رأيتُ سدّ يأجوج ومأجوج. قال: «إنعَتْه لي». قال: كالبُرْد المُحَبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء. قال: «قد رأيتَه». وقد ذكرنا خبر السدّ فيما سلف من كتابنا هذا عن سلاّم التُّرجمان حين أرسله الواثق إلى السدّ فرآه، وهو في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو في السفر الأوّل من كتابنا هذا.

قال الأنماطيّ قال وهب: فبلَغنا ـ والله أعلم ـ أنهم يأتونه في كل سنة مرّة، وذلك أنهم يسيحون[٥] في بلادهم حتى إذا انتهَوْا إلى ذلك الرَّدْم حبسهم فرجعوا يسيحون في بلادهم، فهم كذلك حتى تقرُب الساعة، فإذا جاء أشراطها فتحه الله

---

(١) القديد: اللحم المجفّف. (٢) الزّبر: القطع.
(٣) ألاط: طيّن.
(٤) بُرد حبرة: على الوصف والإضافة: ضربٌ من البرود اليمانية المخطّطة.
(٥) يسيحون: من السّوح، وهو السّفر والتنقل.

عزّ وجل؛ فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. والله أعلم.

ذكر خبر دخول ذي القرنين الظلمات مما يلي القُطْب الشماليّ لطلب عَيْن الحياة

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله: قال عليّ رضي الله عنه: ملَك ذو القرنين ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة اسمه رَفائيل يأتيه ويزوره. فبينما هما ذات يوم يتحادثان إذ قال ذو القرنين: يا رفائيل، حدّثني عن عبادتكم [في السماء]. فبكى وقال: يا ذا القرنين، وما عبادتكم [بشيء][(1)] عند عبادتنا! إنّ في السماء من الملائكة من هو قائم أبدًا لا يجلس، ومنهم من هو ساجدٌ لا يرفع رأسه أبدًا، ومنهم الراكع لا يستوي[(2)] أبدًا قائمًا، يقولون: سبحان الملك القدّوس، ربّ الملائكة والرُّوح، ربنا ما عبدناك حقّ عبادتك. فبكى ذو القرنين بكاءً شديدًا ثم قال: إني لأحبّ أن أعيش فأبلُغ من عبادة ربّي حقّ طاعته. قال رفائيل: أوَتحبّ ذلك؟ قال نعم. قال: فإنّ لله عينًا في الأرض تسمَّى عين الحياة فيها من الله عزيمةٌ، إنّ من يشرب منها شربة لم يمت أبدًا حتى يكون هو الذي يسأل ربّه الموت. قال ذو القرنين: هل تعلم موضع تلك العين؟ قال الملَك: لا، غير أنّا نتحدّث في السماء أنّ لله تعالى في الأرض ظُلمة لا يطؤها إنسٌ ولا جانّ، فنحن نظن أنّ العين في تلك الظُلمة. فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوّة فقال لهم: أخبروني هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله وما جاءكم من أحاديث الأنبياء ومَنْ كان قبلكم أنّ الله وضع في الأرض عينًا سمّاها عينَ الحياة؟ قالوا لا. وقال عالم من العلماء: إنّي قرأتُ وصيّة آدم، وصّى أنّ الله تعالى خلق في الأرض ظُلمة لم يطأها إنسٌ ولا جانّ ووضع فيها عين الخلد. فقال ذو القرنين: فأين وصيّته في الأرض؟ قال: على قرن الشمس. فبعث ذو القرنين وحشر إليه العلماء والأشراف والملوك، ثم سار يطلب مطلع الشمس، فسار اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظُّلمة، فإذا ظلمة تقوم مثل الدُّخان ليست بظُلمة ليل، فعسكر هناك، ثم جمع العلماء وقال: إنّي أريد أن أسلُك هذه الظلمة. قالوا: إنه مَن كان قبلك من الأنبياء

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.
(٢) لا يستوي: لا يستقيم ويعتدل.

والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها، فإنّا نخاف أن ينبثق عليك أمر تكرهه فيكون فيه فساد [أهل](١) الأرض. فقال: لا بدّ من أن أسلُكها. قالوا: أيها الملك كفّ عنها ولا تطلبْها فإنّا لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط علينا ربّنا لأتّبعناك، ولكنّا نخاف العتب(٢) من الله عزّ وجل وفساد الأرض ومَن عليها. فقال: لا بدّ أن أسلكها. قالوا: شأنك بها. قال: أيّ الدوابّ بالليل أبصر؟ قالوا: الخيل. قال: فأيّ الخيل أبصر؟ قالوا: الإناث. قال: فأيّ الإناث أبصر؟ قالوا: البِكارة(٣). فجمع ذو القرنين ستّة آلاف فرس بهذه الصفة، ثم انتخب من عسكره [أهل الجلد والعقل](٤) ستّة آلاف رجل، فدفع إلى كلّ رجلٍ فرسًا، وعقد للخَضِر عليه السلام على مقدّمته ألفين، وبَقِي هو في أربعة آلاف. وقال ذو القرنين للناس: لا تبرحوا(٥) من معسكركم هذا إلى ٱثنتي عشرة سنة، فإن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى بلادكم. فقال الخضر: أيها الملك، إنّا نسلُك ظُلمةً لا ندري كم المسير فيها ولا يُبصِر بعضنا بعضًا، فكيف نصنع إذا ضَلَلنا! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال: حيث يصيبكم الضلال فٱطرَح هذه في الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت. فسار الخضر بين يديه، يرتحل الخضر وينزل ذو القرنين. فبينا الخضر يسير إذ عرَض له وادٍ فظنّ أنّ العين فيه وأُلقِي ذلك في قلبه. فقام على شفير الوادي وقال لأصحابه: قِفُوا لا تبرحوا، ورمى بالخرزة في الوادي ومكث طويلاً حتى أجابته الخرزة، فطلب صوتها فٱنتهى إليها فإذا هي إلى جانب العين. فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين، فإذا ماؤها أشدّ بياضًا من اللبن وأحلى من الشهد، فشرب وٱغتسل وتوضّأ ولبس ثيابه، ثم رَمَى الخرزة نحو أصحابه، فوقعت الخرزة وصاحت، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه، فركب وقال: سيروا على ٱسم الله. ومرّ ذو القرنين فأخطأ الوادي فسلكوا تلك الظُّلمة أربعين يومًا وليلة، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء شمس ولا قمر، وإلى أرض حمراء ورملةٍ خشخاشيّة(٦)، فإذا هو بقصر مبنيّ في تلك الأرض طوله فرسخ في فرسخ عليه باب، فنزل ذو القرنين بعسكره، ثم خرج وحده فدخل القصر، فإذا حديدةٌ قد وُضع طرفاها على جانِبَي القصر من

(١) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٢) العتب: اللوم.
(٣) البكارة: مفردها البكرة وهي أنثى البكر، والبكر: الفتيّ من الخيل، وهي هنا: الفرس التي لم تلد بعد.
(٤) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي. (٥) لا تبرحوا: لا تغادروا.
(٦) الخشخاشية: التي إذا داستها الأقدام تحرّكت وصوّتت.

هاهنا وهاهنا، وإذا طائرٌ أسودُ يشبه الخُطّاف مزموم(١) بأنفه إلى الحديدة، معلّق بين السماء والأرض. فلمّا سمع الطائر خشخشة(٢) ذي القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. فقال: يا ذا القرنين، أمَا كفاك ما وراءك حتى وصلت إليّ! ثم قال الطائر: يا ذا القرنين، حدّثني؛ قال سَل؛ فقال: هل كثُر بناء الآجُرّ والجِصّ في الأرض؟ قال: نعم؛ فأنتفض الطائر أنتفاضةً ثم أنتفخ فبلغ ثلث الحديدة، ثم قال: يا ذا القرنين، هل كثُرت شهادات الزور في الأرض؟ قال نعم؛ فانتفض الطائر ثم أنتفخ فملأ الحديدة وسدّ ما بين جِداري القصر. ففرِق ذو القرنين فَرَقًا عظيمًا. فقال الطائر: لا تخف، حدّثني. قال سَلْ. قال: هل ترك الناس [شهادة أن](٣) لا إله إلاّ الله بعدُ؟ قال لا، فأنضم الطائرُ ثُلُثه ثم قال: هل ترك الناس الصلاةَ المفروضة بعدُ؟ قال لا، فأنضمّ ثلثاه. ثم قال: يا ذا القرنين، هل ترك الناس غسل الجنابة بعدُ؟ قال لا؛ فعاد الطائر كما كان. ثم قال: يا ذا القرنين، أُسلُك هذ الدَّرَج درجةً درجةً إلى أعلى القصر، فسلكها وهو خائفٌ وَجِلٌ لا يَدرِي على ماذا يهجُم، حتى انتهى إلى سطح ممدود، عليه صورة رجل شابّ قائم، وعليه ثيابٌ بيضٌ، رافعًا وجهه إلى السماء، واضعًا يديه على فِيهِ، فلمّا سمع خَشْخَشَة ذي القرنين قال: مَن هذا؟ قال: أنا ذو القرنين. قال: يا ذا القرنين، إنّ الساعة قد اقتربت، وأنا منتظرٌ أمر ربّي يأمرني أن أنفُخ [فأنفخ](٤)، ثم أخذ صاحب الصُّور شيئًا بين يديه كأنه حجر وقال: خذه يا ذا القرنين، فإن شبع هذا شَبِعتَ، وإن جاع جُعتَ؛ فأخذه ونزل إلى أصحابه فحدّثهم بأمر الطائر وما قال له وما ردّ عليه، وما قال صاحب الصُّور. ثم جمع علماء عسكره فقال: أخبروني عن هذا الحجر ما أمْرُه؟ [فقالوا: أيها الملك، أخبرنا عما قال لك فيه صاحب الصور. فقال ذو القرنين: إنه قال لي: إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت](٥) فوضعوا ذلك الحجر في إحدى كَفَّتَيْ ميزان وأخذوا حجرًا مثله فوضعوه في الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا هو يميل، [فوضعوا معه آخر فإذا هو يميل بهنّ](٦) فلم يزالوا يضعون حتى وضعوا ألف حجر فمال بالألف جميعًا، فقالوا: انقطع علمُنا دون هذا الحجر لا ندري أسحر هو أم علم [ما نعلمه](٦)! فقال

---

(١) المزموم بأنفه: أي جعل له زمان، وهو الخيط الذي يشدّ في البُرة أو في الخشاش ثم يشدّ إلى طرف المقود وهنا: معلّقا بأنفه.

(٢) الخشخشة: صوت الشيء إذا حرّك، وهنا: ربمّا صوت وقع أقدامه أو صوت حركة سلاحه.

(٣) زيادة عن الثعلبي.

(٤) زيادة عن الثعلبي.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

الخضر: نعم أنا أعلمه، فأخذ الميزان بيده ثم وضع الحجر في كفّتها وأخذ كفًّا من تراب فجعله في الكفّة الأخرى ثم رفع الميزان فاستوى. فخرّت العلماء سُجَّدًا لله تعالى وقالوا: هذا علمٌ لم يبلُغه علمنا. فقال الخضر عليه السلام: أيّها الملك، إنّ سلطان الله عزّ وجل قاهرٌ لخلقه، وأمره نافذٌ فيهم، وحُكْمه جارٍ عليهم؛ وإنّ الله تعالى ابتلَى خَلْقَه بعضهم ببعض، فابتلى العالِمَ بالعالم، والجاهلَ بالجاهل، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم؛ وإنه ابتلاني بك وابتلاك بي. قال ذو القرنين: صدقتَ، فأخبرني ما هذا؟ فقال الخضر: أيها الملك، هذا مَثَل ضربه لك صاحب الصُّور، [إن الله تعالى مكّن لك في البلاد، وأعطاك منها ما لم يعط أحدًا، وأوطأك منها ما لم يوطىء أحدًا، فلم][1] تشبَع، وآتيتَ نفسك شرّها، حتى بلغتَ من سلطان الله ما لم يطأه إنسٌ ولا جانٌ، فهذا مثلٌ ضَرَبَه لك، إن ابن آدمَ لا يشبَع أبدًا دون أن يُحثَى عليه التراب، ولا يملأ جوفه إلاّ التراب. فبكى ذو القرنين وقال: صدقتَ، لا جرم أني[2] لا طلبتُ أثرًا[3] في البلاد بعد مسيري هذا حتى أموت، ثم انصرف راجعًا. فلمّا توسّط الظُّلمة وطىء وادي الزَّبَرْجَد[4]، فقال مَن معه لما سمِعوا الخشخشة تحت حوافر دوابّهم: ما هذا أيّها الملك؟ فقال: خذوا منه فإنه من أخذ منه ندم، ومَن تركه ندِم. فمنهم مَن أخذ، ومنهم مَن ترك. فلمّا خرجوا من الظلمة إذا هو الزبرجد. فندم الآخذ كَوْنَه لم يُكثر، والتاركُ كَوْنَه لم يأخذ. قال: فقال النبيّ ﷺ: «رَحِمَ اللّهُ أخي ذا القرنين لو ظفِر بوادي الزَّبَرْجَد في المبتدأ ما ترك منه شيئًا حتى أخرجه إلى الناس لأنه كان راغبًا في الدنيا ولكنّه ظفِر به وهو زاهدٌ في الدنيا لا حاجةَ له فيها».

قال الثعلبيّ: ثم رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف، ومات في طريقه بشَهْرَزُور[5]. وقال عليّ رضي الله عنه: [ثم إنه][6] رجع إلى دُومة[7] الجَنْدَلَ فأقام بها

(١) ما بين قوسين زيادة من الثعلبي.

(٢) في الأصل: «إنّك لم» والتصويب عن الثعلبي.

(٣) لا طلبت أثرًا: أي لا طلبت غاية ولا قصدت.

(٤) الزّبرجد: حجر كريم يشبه الزّمرد متعدّد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر، جمعه «زبارج».

(٥) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان وأهدتها زُور بن الضحّاك، ومعنى شهر بالفارسية مدينة وأهل هذه النواحي كلهم أكراد «معجم البلدان ٣/ ٣٧٥».

(٦) ما بين قوسين زيادة عن الثعلبي.

(٧) دُومة الجندل: موضع على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ، وهي في غائط من الأرض، وسمّيت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل، وقيل: هي حصن وقرىً بين الشام والمدينة قرب جبلي طيىء «معجم البلدان ٢/ ٤٨٧».

حتى مات. وصرّح الثعلبيّ في سياقة أخباره أنه الذي قتل دَارَا بن دَارَا[١]، وأنه لم تطُل مدّة عمره. وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر قاتل دارا بن دارا في أخبار ملوك اليونان.

وحكى الأنماطيّ عن وهبٍ في خبر دخول الإسكندر الظُّلُمات: أنه لمّا ٱنتهى إلى مغرب الشمس ترك مَن معه هناك وسار على الماء في الظلمة ثمانيةَ أيام وثماني ليال حتى ٱنتهى إلى جبل قاف، وإذا هو بملَك قابضٍ على الجبل يسبِّح الله تعالى؛ فخرّ ذو القرنين ساجدًا لله تعالى فلم يرفَع رأسه حتى قوّاه الله تعالى على النظر إلى المَلك. فقال له: كيف قَوِيتَ يٱبن آدم على أن تبلُغ هذا الموضع ولم يبلُغه أحدٌ من ولد آدمَ قبلك؟! قال: قوّاني الله الذي قوّاك على قبض هذا الجبل. فأخْبِرْني عن هذا الجبل. قال: إنه قافٌ المحيط بالأرض كلها، ولولا هو لٱنكفأت الأرض بأهلها، وليس على ظهر الأرض أعظم منه، وإنه لمحيط بها كالحَلْقة، وهو أوّل جبل أثبته الله، فرأسُه مُلصَقٌ بسماء الدنيا، وأسفله راسخ في الأرض السفلى.

وحكى إبراهيم بن وَصِيف شاه[٢] في كتاب العجائب الكبير: أنّ ذا القرنين لمّا سار إلى الظُّلمة مرّ بجزيرة فيها أُمّة رؤوسُهم رؤوسُ الكلاب العظام باديةٌ أنيابُهم، يخرج من أفواههم مثلُ لَهَبِ النار، وأنهم خرجوا إلى مراكبه فحاربوه فتخلّص منهم، وسار فرأى نورًا ساطعًا فقصده فإذا هو قد بلغ جزيرةَ القصر. قال: وهذه الجزيرة فيها قصرٌ مبنيّ بالبلّور الصافي عالي الطول يشفّ حتى يُرَى نورُه على البعد، فأراد النزول بها، فمنعه بهرام فيلسوف الهند وعرّفه أنّ من نزل إليها وقع عليه النومُ وعزَب[٣] عقلُه فلا يستطيع الخروج منها حتى يهلِك. قال: ويقال إنه ظهر لهم منها قوم قِصَار زُعْرٌ[٤]، لباسُهم ورق الشجر. فسأل بهرامُ عن صبرهم على المُقام بها، فعرّفوه أنّ بها ثمرًا إذا أكلوا منه زال عنهم ذلك، وذكروا أنهم إذا كان الليل ظهر بين شُرَف القصر

---

(١) دار ابن دار: هو داريوس الثالث، سقطت أمبراطوريته بعد أن هزم الإسكندر جيوشه عند أسوس سنة ٣٣٣ق.م، وقد قتله جماعة من قومه، وهو آخر من ملك مصر من الفرس «انظر صبح الأعشى ٣/ ٤٧٥ والموسوعة العربية الميسرة ص٧٧٣».

(٢) هو إبراهيم بن وصيف شاه، مؤرّخ له كتاب «عجائب الدنيا» ثلاثة أجزاء وجواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الدّيار المصرية، توفي سنة ٥٩٦هـ.

(٣) عزب عقله: ضلّ.

(٤) الزُّعر: القليل الشّعر المتفرّقه، وزعر الرّجل: ساءت أخلاقه وقلّ خيره.

مثلُ المصابيح تُسرَج[١] إلى الصُّبح ثم تُخمَد نهارًا إلى الليل فتُوقَد. قال: ويقال إنه مرّ في طريقه بجزيرة التِّنِّين[٢] وإنها جزيرة فيها جبال وأنهار وأشجار وزروع وهي عامرة، وعلى مدينتها حصنٌ عالٍ، وبها تِنِّين عظيمٌ قد سام[٣] أهلَها أقبح سَوْم. فلمّا دخلها الإسكندر استغاثوا به من التنّين وأنه أتلف مواشِيَهم حتى إنهم جعلوا له في كل يوم ثورين ينصِبونهما قريبًا من موضعه، فيخرج فيبتلعهما. فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلِخَا وحشا جلودهما زِفْتًا وكِبْريتًا وكِلْسًا وزِرْنيخًا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليبَ حديد، وجعلهما في ذلك المكان. وخرج التنِّين وأقبل كالسحابة السوداء وعيناه تلمعان[٤] كالبرق، والنار تخرج من جوفه، فٱبتلعهما ومضى، فٱضطرمت تلك الأشياء في جوفه، فلمّا أحسّ بثِقلَها ذهب ليقذفها، فتشبّكت الكلاليب في حلقه فخرّ وفتح فاه ليستَرْوِح، فأمر الإسكندر بقِطَع الحديد فأُحمِيَتْ وحُمِلت على ألواح من حديد وقُذِفت في حلقه فمات. ففرح أهل ذلك الموضع بموته وألطفوا الإسكندر وحملوا إليه من طرائف ما عندهم. وكان فيما حملوه إليه دابّة في خَلْق الأرنب، شعرها أصفر يبرق كالذهب، يسمّونها المعراج[٥]، وفي رأسها قرن واحد أسود، إذا رأتها الأسود وسباع الوحش وكلّ دابّة هربَت منها.

وقال الأنماطيّ في سياقة أخبار الإسكندر عن وهب تلو خبر السدّ: ثم انطلق ذو القرنين بعد ذلك، فبينما هو يسير إذ مرّ على شيخ يصلّي، فوقف عليه بجنوده حتى إذا ٱنصرف من صلاته قال له: كيف لم يَرُعْك ما حضرك من الجنود؟! قال: كنت أُناجي مَنْ جنودُه أكثرُ من جنودك، وسلطانُه أعزُّ من سلطانك، وقوّته أشدّ من قوّتك؛ ولو صرفتُ وجهي إليك لم أُدرك حاجتي قِبَله. قال له: هل لك أن تنطلق معي وأواسيَك بنفسي وأستعينَ بك على بعض أمري؟ قال: نعم، إن ضمِنتَ لي أربعةَ خِصالَ: نعيمٌ لا يزول، وصحةٌ لا سَقَمَ فيها، وشبابٌ لا كِبَرَ فيه، وحياةٌ لا موت فيها. قال له ذو القرنين: وأيّ مخلوق يقدِر على هذه الخصال! قال الشيخ: فإنّي مع

---

(١) تُسرج: توقد وتضاء.

(٢) هذه الجزيرة تسمّى «جزيرة المستشكين» والتنين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير. «انظر مسالك الأبصار ٢/ ٦٧».

(٣) سام: أذلّ وأنزل البلاء والعذاب.

(٤) ما بين قوسين زيادة عن مسالك الأبصار.

(٥) المعراج: دابة عظيمة عجيبة مثل الأرنب، صفراء اللون، على رأسها قرن واحد أسود، لم يرها شيءٌ من السبّاع والدّواب إلا هرب «انظر حياة الحيوان للدّميري ٢/ ٣٨٤».

مَن يقدر عليها ويملكها، فتركه وسار. فبينما هو يسير إذ دَفَع إلى الأمة الصالحة من قوم موسى الذين يهدون بالحقّ وبه يعدِلون، فوجد أمّة مُقْسِطةً[١] عادلةً يَقسمون بالسَّوِيّة، ويحكمون بالعدل ويتواسَوْن، فكلمتُهم واحدة، وقلوبُهم مؤتلفة مستقيمة، وسِيرتُهم مستوية، وقبور موتاهم في أفنيتهم، وليس على بيوتهم أبواب تُغلَق[٢]، وليس عليهم أُمراءُ، ولا قضاة بينهم، ولا أشراف يتفاوتون، ولا يتفاضلون ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يتسابّون ولا يقتتلون ولا يقحَطون[٣] ولا تصيبهم الآفات[٤]؛ فعجِب من أمرهم وقال: أخبروني خبركم أيها القوم؛ فإنّي قد أحصيتُ الأرض شرقَها وغربَها، وسهلَها وجبلَها، وبَرَّها وبحرها، ونورَها وظُلْمتها، فلم أرَ مثلكم. قالوا: سَلْنا عمّا بدا لك نُخْبِرْك. قال: ما بال قبوركم في أفنيتكم[٥] وعلى أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت ولا يخرجَ ذكره من قلوبنا. قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟ قالوا: ليس فينا متّهم ولا ظَنِين، ولا فينا إلاّ مُؤتَمَنٌ أمين. قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لأنّا لا نتظالم[٦]. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لأنّا لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا تتفاضلون ولا تتفاوتون؟ قالوا: من قِبَل أنّا متواسُون متراحمون. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟ قالوا: لأنّا لا نتنافس. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من أُلفة قلوبنا وصلاحِ ذاتِ بيننا. قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام؟ قالوا: نحن لا نختصم. قال: فما بال كلمتكم واحدة؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضًا. قال: فأخبروني من قِبَلِ ماذا تشابهت قلوبكم واْعتدلت سِيرتكم؟ قالوا: من صحّة صدورنا، فنزع الله بذلك الغِلّ والحسَد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسم بالسويّة. قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظٌ؟ قالوا من قِبَل الذل والتواضع. قال: فأخبروني بماذا أنتم أطول الناس أعمارًا؟ قالوا: من قِبَل أنّا نتعاطَى الحقّ ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنّا لا نغفُل عن الاْستغفار. قال: فما بالكم لا تُصيبكم الآفات؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتوكّل إلاّ على الله، ولا نَستمطر

---

(١) المقسطة: العادلة.

(٢) في الأصل: وليس على أبواب بيوتهم أبواب تغلق، فجرى التصويب ليستقيم السّياق.

(٣) القحط: الجدب.

(٤) الآفات: مفردها «الآفة» وهي كلّ ما يصيب شيئًا فيفسده من عاهة أو مرض أو قحط.

(٥) الأفنية: مفردها «الفناء» بكسر الفاء وهو ساحة الدّار أو الساحة بجانبها.

(٦) نتظالم: أي نظلم بعضنا بعضًا.

بالأنواء[١] ولا بالنجوم. قال: أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يُعطُون مسكينهم، ويُواسُون فقيرهم، ويوقّرون غنيّهم، ويعفُون عمّن ظلمهم، ويُحسنون إلى مَن أساء إليهم، ويحلُمون عمّن جهِل[٢] عليهم، ويستغفرون لمن سبّهم، ويَصِلون أرحامهم، ويؤدّون أمانتهم، ويحفظون وفاءهم لصلاحهم، ويُوفون بعهدهم، ويصدقون في مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون[٣] عن أقاربهم؛ فأصلح الله تعالى لهم بذلك أمرهم، وحفِظهم به ما كانوا أحياء. قال: فأقام ذو القرنين عندهم حتى قبضه الله عزّ وجل، ولم تطُل مدّة إقامته فيهم. قال وهب: عاش منذ بعثه الله تعالى إلى أن قُبض خمسَمائة عام. وقال غيره: أكثر من ذلك، وقد ذكر في المعمَّرين. وقيل: إنه عاش ألف وستمائة وخمسين سنة ومات في حياة أمه. وقيل: إنه أدرك إبراهيم الخليل واْجتمع معه وأركبه من دوابّه. حكاه الأزرقيّ[٤] وأبو عبيد البكريّ[٥]. والله أعلم.

الباب الثاني
من القسم الرابع من الفنّ الخامس
في أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر

ذكر أخبار ملوك الهند

قال المسعودي[٦] في مروج الذهب: ذكر جماعة من أهل النظر والبحث الذين

---

(١) الأنواء: مفردها النّوء، وهو النجم إذا مال للغروب، أو هو المطر.

(٢) جهل: تسافه. (٣) يستنكفون: يمتنعون ويأنفون.

(٤) الأزرقي: هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق، أبو الوليد الأزرقي، مؤرّخ يماني الأصل من أهل مكة، له كتاب «أخبار مكة وما جاء فيها من آثار» توفي نحو سنة ٢٥٠هـ «الأعلام ٦/ ٢٢٢».

(٥) أبو عُبيد البكري: هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، مؤرّخ جغرافي، ثقة، علاّمة بالأدب وله معرفة بالنّبات، توفي بقرطبة عن سنٍّ عالية وذلك سنة ٤٨٧هـ له مؤلّفات عدّة منها «المسالك والممالك، ومعجم ما استعجم وأعلام النبوة وغير ذلك كثير» انظر «الأعلام ٤/ ٩٨».

(٦) المسعودي: هو علي بن الحسين بن عليّ المسعودي المؤرّخ، أبو الحسن، من ولد عبد الله بن مسعود صاحب النبيّ ﷺ أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٣٤٦، وكان من المعتزلة، له مؤلّفات عدّة «الأعلام ٤/ ٢٧٧».

واصلوا البحث والعناية بتأمّل شأن هذا العالم وبدئه[١] أنّ الهند كانت في قديم الزمان الفرقةَ التي فيها الصلاح والحكمة، وأنه لمّا تجيّلت[٢] الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضمّ المملكة وتستولي على الحوزة[٣] وتكون الرياسة فيها. قال كبراؤهم: نحن كنّا أهلَ البدء وفينا التناهي، ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومنّا سرى الأب إلى الأرض، فلا شاقّنا أحدٌ ولا عاندنا ولا أراد بنا الاغتماص[٤] إلاّ أتينا عليه وأبدناه أو يرجعَ إلى طاعتنا. فأجمعت على ذلك رأيها ونصبتْ لها ملكًا، وهو «البَرهمَنُ» الأكبر والملك الأعظم، وإليه تُنسَب طائفة البراهمة بالهند، لا إلى إبراهيم الخليل ﷺ. وهذا «البرهمن» هو الإمام المقدّم فيهم الذي ظهرت في أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء، وأمر باستخراج الحديد من معادنه، وضُربت في أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع السلاح وآلات القتال، وشيّد الهياكل ورصّعها بالجواهر النفيسة المشرقة، وصوّر فيها الأفلاك والبروج الاثني عشر بُرْجًا والكواكب، وبيّن بالصورة كيفيّة العالم، وأرى بالصورة أيضًا كيفيّة أفعال الكواكب في هذا العالَم وإحداثها للأشخاص الحيوانيّة من الناطقة وغيرها، وبيَّن حال المدبِّر الأعظم الذي هو الشمس، وبرهن على ذلك كلّه وقرَّبه إلى عقول العوامّ وأذهانهم ففهموه، وغرس في نفوس الخواصّ دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المُبدىء الأوّل المُعطي لسائر الموجودات وُجُودَها الفائض عليها بجُوده[٥]. فانقادت له الهند، وأراهم وجه مصالح الدنيا وأخصبت بلادهم. وجمع الحكماءُ في أيامه كتاب «السند هند»[٦]، وتفسيره دهر الدهور، ومنه فُرِّعت الكتب، ككتاب الأزجهير والمِجَسْطِي، وفُرِّع من الأزجهير الأركند ومن المجسطي[٧] كتاب بطليموس[٨]، ثم عُمِل منها بعد ذلك الزِّيجات. وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهنديّ. وكان البرهمن هذا أوّل من تكلم

(١) زيادة عن مروج الذهب.

(٢) تجيّلت الأجيال: أي أتى الواحد منها بعد الآخر.

(٣) الحوزة: الناحية، أو «مكان العلم والحكمة».

(٤) الاغتماص: الاحتقار والاستصغار.

(٥) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

(٦) السند هند: أحد المذاهب الثلاثة المشهورة للهند في علم النجوم، وهذا المذهب هو الذي تقلّده جماعة من الإسلام وألّفوا فيه الأزياج، وفي طبقات الأمم أن السند هند معناه «الدهر الداهر» «انظر طبقات الأمم لابن صاعد ص١٩».

(٧) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

(٨) بطليموس: هو أحد ملوك اليونان ملك بعد أبيه ويعرف ببطليموس صاحب علم الفلك وهو الذي ألّف كتاب المجسطي، وقد ملك أربعًا وعشرين سنة «صبح الأعشى ٣/ ٤٧٧».

في أوج الشمس[١]، وذكر أنه يقيم في كلّ بُرْج ثلاثة آلاف سنة، ويقطع الفَلَك في ستّة وثلاثين ألف سنة، إلى غير ذلك من هذا الفنّ. وكان مُلْك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستًّا وستين سنة، وولده يعرفون بالبراهمة، والهند تعظّمهم إلى وقتنا هذا، وهم أعلى أجناسهم وأشرفُهم، وهم لا يتغذّون بشيء من الحيوانات. وفي رقاب النساء والرجال منهم خيوط صُفْر يتقلّدون بها كحمائل السيوف، تفرّق بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند. وقد تنوزع في البرهمن، فمنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله إلى الهند، ومنهم مَن زعم أنه كان ملكًا، على حسب ما قدّمناه وهو الأشهر. ولمّا هلك البَرَهْمَن جزِعت عليه الهند جزعًا شديدًا، وملّكت عليها ولده الأكبر.

ذكر تنصيب ٱبن البَرَهْمَن وهو الباهبُود[٢]

وكان وليّ عهد أبيه من بعده. فسار فيهم سيرةَ أبيه وأحسن النظر إليهم، وزاد في بناء الهياكل، وقدّم الحكماء ورفع من مقدارهم وزاد في مراتبهم، وحثّهم على تعليم الناس الحكمة وبعثهم على طلبها. وكان مُلْكه إلى أن هلك مائةَ سنة. وفي أيامه عمِل النَّرْد[٣] ولعِب به، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب، وأنها لا تُنَال بالكَيْس[٤] ولا بالحِيَل في هذه الدنيا، وأن الرزق لا يتأتّى فيها بالحذق. وذكر أن أرْدَشير بن بابك[٥] أوّل مَن وضع النَّرد ولعب بها، وأرى تقلُّب الدنيا بأهلها وٱختلاف أمرها. وجعل بيوتها لاثني عشر بعدد الشهور، وجعل مهاركها ثلاثين بعدد أيام الشهر، والفصوص أمثلة للقَدَر وتقلبه بأهل الدنيا وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القَدَر له في مراده بها ما يريد، وأن الحازم الفَطِن لا يتأتّى له ما يتأتّى لغيره إذا لم يُسعده القَدَر، وأن الأرزاق لا تُنال في هذه الدنيا إلا بمقادير.

---

(١) أوج الشمس: قال المسعودي: الأوج على رأي البرهمن في وقتنا هذا هو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، في برج الثور، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة، فصار العامر خرابًا والخراب عمارًا والشمال جنوبًا والجنوب شمالاً «انظر مروج الذهب ١/ ٣٥ وما بعدها».

(٢) في مروج الذهب ١/ ٣٧ «الناهود».

(٣) النّرد: لعبة تعرف بلعبة الطاولة أو بطاولة الزّهر.

(٤) الكَيْس: العقل.

(٥) أردشير بن بابك: هو أول ملوك الطبقة الرابعة من الفرس «الأكاسرة» من عقب ساسان بن أردشير بهمن، قتل «أردوان» واستولى على ملكه، فأقام أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكتب عهدًا بالملك في عقبه ومات، فملك بعد ابنه سابور. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤١٢».

ثم ملك بعده رامان[١]، فكان مُلْكه نحوًا من خمسين ومائة سنة. قال: وله سِير وأخبار وحروبٌ مع ملوك فارس وملوك الصين.

ثم ملك بعده فُور، وهو الذي قتله الإسكندر بن فِيلِبْس اليونانيّ مبارزةً. وكان مُلْكه إلى أن قُتِل أربعين ومائة سنة.

ثم ملك بعده تسام[٢]، وهو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة الذي نقله أبن المقفّع. وكان مُلكه مائة وعشر سنين[٣]، وقيل غير ذلك.

ثم ملك بعده بلهيت. وفي أيامه صُنِعت الشِّطْرَنْج فقضى بلعبها على النَّرْد، وبيَّن الظفَر الذي يناله الحازم والنكبة التي تلحق الجاهل وحسب حسابهما، ورتّب لذلك كتابًا للهند يتداولونه بينهم، ولعب بها مع حكمائه. وكانت مدّة مُلكه إلى أن هلك نحوًا من ثمانين سنة، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة.

ثم ملك بعده كُوش[٤]، فأحدث للهند آراءً في الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وما يحتمله أهل العصر من التكليف، وخرج عن مذاهب مَن سلَف. وكان في مملكته وعصره سندباد، وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وأمرأة الملك، وهو الكتاب المترجم بكتاب السندباد. وعُمِل لهذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العِلَل والأدواء والعلاجات وأشكال الحشائش وصفتها. وكان مُلْك هذا الملك إلى أن هلك عشرين ومائة سنة. ولمّا هلك اختلفت الهند في آرائها فتحزّبت الأحزاب وتجيّلت الأجيال، وأنفرد كل رئيس بناحيته، فملّك على أرض السند[٥] ملك، وعلى أرض القِنَّوج[٦] ملك، وعلى أرض قِشْمير[٧] ملك. فكانت مدّة أجتماع الكلمة ببلاد الهند على ملك واحد على هذا الحكم نحوًا من ألف سنة وستٍّ وستين سنة، وعلى القول الآخر ألف سنة ومائة سنة وست عشرة سنة. وعدّة ملوكهم سبعة ملوك. والله تعالى أعلم.

---

(١) في المسعودي «دامان». (٢) في المسعودي «وسلم».

(٣) في المسعودي «مائة وعشرين سنة». (٤) في المسعودي «كورس».

(٥) السِّند: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان، قيل: السّند والهند كانا لأخوين من ولد بوقير بن يقطن بن حام بن نوح، وقصبتها مدينة يقال لها «المنصورة» «معجم البلدان ٣/ ٢٦٧».

(٦) القَنُّوج: موضع في بلاد الهند، وقيل: إنها أجمة «معجم البلدان ٤/ ٤٠٩».

(٧) قشمير: مدينة متوسطة لبلاد الهند، قيل: إنها مجاورة لقوم من الترك فاختلط نسلهم بهم فهم أحسن خلق الله خلقه «معجم البلدان ٣/ ٣٥٢».

وملك بعد كُوش بمدينة المانكير وهي الحَوْزة الكبرى ملك يسمَّى البَلَهْرَا. قال المسعودِيّ: وأرض الهند أرضٌ متّسعة في البرّ والبحر والجبال. وملكهم يتّصل بملك الزّنج وهي دار مملكة المَهْراج[١]. وهذه المملكة فَرْزٌ[٢] بين مملكة الهند والصين. قال: ومن عادة الهند أنها لا تملّك الملك حتى يبلُغ عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلاّ في كل برهة معلومة من الزمان. ويكون ظهور الملك للنظر في أمور الرعيّة. وقال أيضًا: رأيت في بلاد سَرَنْديب[٣]، وهي جزيرة من جزائر البحر إذا مات ملكهم صيَّروه على عجلة صغيرة البَكَر، وشعره ينجرّ على الأرض، وٱمرأةٌ بيدها مِكْنسةٌ تحثو التراب على رأسه وتنادي: أيها الناس، هذا مَلِكُكم بالأمس قد مَلَككم وجاز فيكم أمره قد صار إلى ما تَرَوْن من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الملوك الحيّ القديم الذي لا يموت. فلا تغترّوا بالحياة بعده. وكلامٌ هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالَم. ويطاف به في جميع شوارع المدينة وهو كذلك. ثم يُفصَل بأربع قِطَع وقد هُيِّىء له الصندل[٤] والكافور[٥] وسائر أنواع الطِّيب ويُحرَق بالنار ويذرّى رماده في الرياح. قال: وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصّهم لغرض يذكرونه. قال: والمُلْك مقصور في أهل بيت لا ينتقل منهم إلى غيرهم. وكذلك بيوت الوزراء والقضاة وسائر أرباب المراتب، تتوارث مناصبهم ولا تغيّر ولا تبدّل. وعندهم أنّ ملكهم متى شرب الشراب فقد ٱستحق الخلع. والله الهادي.

ذكر أخبار ملوك الصين

قال أبو الحسن عليّ بن عبد الله المسعوديّ في كتابه المترجم بمروج الذهب[٦]: لمّا قسم فَالَغُ[٧] بن عَابَرَ بن أرْفَخْشَذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد

(١) المهراج: ومنها المهراجا: وهو لقب أمراء الهند، ويعني الملك الكبير.
(٢) الفرز: موضع منخفض بين ربوتين.
(٣) سرنديب: هي جزيرة سيلان الآن، وهي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند، وفيها الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام ويقال له: «الرَّهون» «معجم البلدان ٣/٢١٦».
(٤) الصندل: شجر خشبه طيّب الرائحة، يظهر طيب خشبه بالإحراق أو بالدّلك وألوانه مختلفة: أحمر وأبيض وأصفر.
(٥) الكافور: شجر من الفصيلة الغاريّة يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مرّ، وهو أصناف كثيرة.
(٦) راجع مروج الذهب ١/٦١ «ط. بولاق».
(٧) في الكتاب المقدّس ١/١٨ «فالج».

نوح سار ولد عامور[١] بن تُوبَلَ[٢] بن يَافَثَ بن نوح يَسْرةَ المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد عامور على ساحل البحر حتى أنتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين. فتفرّقوا في تلك البقاع والبلاد وقطنوها وعمّروها، وكوّروا[٣] الكُوَر، ومصروا الأمصار، ومدّنوا المُدُن، وأتخذوا للملك مدينة عظيمة سمّوها إيقو[٤]، وبينها وبين ساحل البحر الحبشيّ، وهو بحر الصين مسيرة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة. فكان أوّل مَن تملّك عليهم في هذه الديار نسطِيرطاس[٥] بن ماعو[٦] بن بزنج[٧] بن عامور. قال: ولمّا ملك فرّق أهله في تلك الديار، وشقّ الأنهار، وغرس الأشجار، وطعّم[٨] الثمار، وقتل السباع. وكانت مدّة ملكه ثلاثمائة سنة ونيّفًا وهلك.

فقام بالأمر بعده ولده عَرُون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعًا عليه وتعظيمًا له، وأجلسه على سرير من الذهب مُرصّع بالجوهر، وجعل مجلسه دونه، وسجد له وهو في جوف ذلك التمثال، وسجد معه أهل مملكته، وفعل ذلك في كل نهار في طرفيه. وكانت مدّة مُلْكه بعد أبيه نحوًا من مائتي سنة وخمسين سنة ثم هلك.

فملك بعده أبنه عِبيرون بن عَرُون. ولمّا ملك جعل جسد أبيه عَرون في تمثال من الذهب ونصبه دون مرتبة جدّه، وكان يبدأ بالسجود لجدّه ثم يسجد لأبيه، وساس الرعيّة بأحسن سياسة، وساواهم في جميع أمورهم، وشملهم بعدله، وكثر النسل، وأخصبت الأرض. وكان مُلْكه إلى أن هلك مائتي سنة.

ولمّا مات ملك بعده ولده عَثِينان بن عَبِيرون. قال: ولمّا ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وجرى في أمره على ما سلف من عادتهم في السجود والتعظيم. وطالت مدّته في الملك، وأتسعت مملكته حتى أتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه. وأتُّخِذَ في أيامه كثيرٌ من المهن مما لطف في الرقة من الصنائع، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك.

---

(١) في المسعودي: «عابور».

(٢) في الأصل «سربل» والتصويب عن الكتاب المقدّس ٥١٧/١.

(٣) كوّروا الكور: أي أدخلوا من هذه الكورة في تلك، أو زاد في هذه الكورة من تلك، والكورة: الصّقع أو البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

(٤) في المسعودي: «انموا».

(٥) في المسعودي: «اسطرماس».

(٦) في المسعودي: «فاعور».

(٧) في المسعودي: «بريح».

(٨) طعّم الثمار: يقال: طعّم الغصن بآخر من غير شجره، أي وصله به وركّبه فيه ليتكوّن من الغصنين المركّبين غصنٌ آخر يثمر ثمرًا جديدًا.

فملك بعده ٱبنه حَرَانان بن عَثِينان. قال: ولما ملك جرى في جسد أبيه على عادتهم، ثم أمر بٱتّخاذ الفُلْك[١] وحمل فيها الرجال، وحمل معهم لطائف بلاد الصين وسفّرهم نحو بلاد الهند والسند وإلى إقليم بابل وسائر الممالك مما قرب وبعد في البحر. وأهدى إلى الملوك الهدايا العجيبة والتحف النفيسة. وأمر أصحابه الذين سفّرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف[٢] والتحف والمأكول الذي لا يوجد في بلاده، والمشروب والغروس وأصناف الأقمشة والأمتعة وغير ذلك. وأمرهم أن يتعرّفوا سياسة[٣] كلّ ملك، وملّة كل أمة وشرائعها ونهجها الذي هي عليه، وأن يرغّبوا الناس فيما في بلادهم من الجواهر والطِّيب والآلات. فتفرّقت تلك المراكب في البلاد وفعلوا ما أمرهم به، فلم يَرِدُوا على مملكة من الممالك إلاّ أعجبوا بهم وٱستظرفوا ما معهم. فأنشأت الملوك المحيطة ممالكُهم بالبحار السفن وجهّزت نحو الصين، وحملوا إليهم ما ليس عندهم. وكاتبوا ملكهم وكافؤوه على ما كان قد هاداهم به من تحف بلاده، فعمرت بلاد الصين، وٱستقامت أمور مملكة الصين. فكانت مدّة حياته في الملك نحوًا من مائتي سنة وهلك، فجزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزنًا شديدًا، وأقاموا النياحة عليه شهرًا.

وملك بعده ابنه توتال بن حرانان. قال: ولما ملك جعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وسلك فيه سنّة[٤] من تقدّمه من آبائه، وٱستقام أمره، وأحدث من السُّنَن المحمودة ما لم يُحدثه أحدٌ من الملوك قبله. وقال لأهل مملكته: إنّ المُلْك لا يثبت إلا بالعدل لأنه ميزان الباري، وإنّ من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل. وخصّ وشرّف وتوّج ورتّب الناس في رتبهم، ووقفهم على طرائقهم. وخرج يرتاد موضعًا يبني فيه هيكلاً، فوافى موضعًا عامرًا بالنبات، حسن الاعتمام[٥] بالزهر، تخترقه المياه. فخطّ الهيكل هناك، وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان، فشيّد الهيكل وجعل على أعلاه قبّة، وجعل لها مخارق[٦] للهواء متساوية. وجعل في الهيكل بيوتًا لمن أراد الانفراد للعبادة. فلمّا فرغ من الهيكل نصب في أعلاه تلك

---

(١) الفُلك: السفينة، للمذكر والمؤنّث والواحد والجمع.
(٢) الطّريف: الغريب المستحسن.
(٣) سياسة كل ملك: أي تدبيره لأمور مملكته.
(٤) السنّة: الطريقة في الحكم.
(٥) الاعتمام: قال: اعتمّ النبت، أي تمّ طوله وظهر نَوْره، والاعتمام: ظهور النَّور.
(٦) المخارق: الخروق والفتحات.

التماثيل التي فيها أجسام مَن سلف من آبائه، وقال: في ترك ذلك على ما هو عليه خروج عن حدّ الحكمة، ويكون ذلك إلى غير غاية ونهاية. وأمر بتعظيم تلك الأجساد التي جعلها في أعلى القبّة. ثم جمع الخواصّ من أهل مملكته وأخبرهم أنّ من رأيه أن يضمّ الناس إلى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل ويتساوى النظام، وقال: إنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل؛ فرتّب لهم سياسة وشريعة وفرائض، ورتّب لهم قِصَاصًا للنفوس والأعضاء، وقاعدةً تستباح بها الفروج وتصحّ بها الأنساب. وجعل مما رتّبه وقرّره لوازم ونوافل(١)، وأوجب عليهم صلواتٍ لخالقهم تقرّبًا إلى معبودهم منها إيماءٌ لا ركوعَ فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنين وفي شهور محدودة. ورسم لهم أعيادًا، وأوجب على الزُّناة منهم حدودًا، وعلى مَن أراد من نسائهم البِغاءَ جزيةً مقرّرة، وألاّ يستبحن بالنكاح وقتًا من الأوقات، وإن أقلعن عما كنّ عليه تكف الجزية عنهنّ. وما يكون من أولادهنّ ذكورًا يكونون للملك جُنْدًا وعبيدًا، وما يكون من أولادهنّ إناثًا فلأمهاتهنّ ويلحقن بصنعتهنّ. وأمر بقرابين للهياكل ودُخْنٍ(٢) وأبخرة للكواكب. وجعل لكل كوكب منها دُخْنًا يتقرّب إليه بها معمولة من أنواع الطِّيب والعقاقير. وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه وكثُر النسل. فكانت مدّة حياته نحوًا من مائة وخمسين سنة ثم مات، فجزعوا عليه جزعًا عظيمًا، وجعلوه في تمثال من الذهب ورصّعوه بالجوهر وبنوا له هيكلاً عظيمًا، وجعلوا في أعلاه سبعة أنواع من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيدًا يجتمعون فيه عند [ذلك](٣) الهيكل، وصوّروا صورته وذكروا سيرته في لوح من الذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالاً لمن يَرِد بعده في السياسة ونهج السيرة وصوّروا صورته على أبواب المدينة. وعلى الدنانير والفلوس والثياب. وأكثر أموالهم الفلوس الصُّفْر والنُّحاس. قال: واستقرّت هذه المدينة دار ملك الصين وهي مدينة إيفو. قال: ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلي مغرب الشمس من أرضهم يقال لها مدو، وتلي بلاد التُّبّت(٤). والحرب بين أهل مدو وبين

(١) اللوازم: الواجبات، والنّوافل: ما يتطوّع به الإنسان.
(٢) الدُّخن: الأبخرة والأطياب، أو هو نبات برّي من الفصيلية البخيلية، حبّه كحبّ السّمسم.
(٣) ما بين قوسين ممّا تقدّم زيادة عن المسعودي.
(٤) التبت: بلدٌ بأرض الترك، قيل هي في الإقليم الرابع المتاخم لبلاد الهند وهي مملكة متاخمة لبلاد الصين. وفيها عمائر ومدن كثيرة ذوات سعة وقوّة «انظر معجم البلدان ٢/ ١٠».

أهل بلاد التُّبَّت سجال[١]. ولم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورُهم منتظمة، وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصب لهم توتال من الأحكام. وحروبهم على عدوّهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود جار، والتجّار يختلفون إليهم في البرّ والبحر من كل بلد. ودينهم دين من سلف من آبائهم، وهي ملّة تُدعَى السُّمَنية[٢]، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل الإسلام، يعبدون الصُّوَر ويتوجهون نحوها بالصلوات. فاللبيب فيهم يقصد بصلاته الخالق عزّ وجل، ويقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قِبْلة. والجاهل ومن لا عِلْم له يُشرك هذه التماثيل بإلاهية الخالق ويعتقدهما[٣] جميعًا، وأنّ عبادتهم الأصنام تقرّبهم إلى الله زُلْفى، وأنّ منزلتهم في العبادة تنقُص عن البارىء لجلالته وعظمته وسلطانه، وأنّ عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة، إلى أن ظهرت في أهل الصين آراء ونِحَلٌ حدثت من مذاهب الثَّنَويّة[٤] وأهل الدهر[٥]. وقد كانوا قبل ذلك في الآراء وعبادة التماثيل على حسب ما عليه عوامّ الهند وخواصّهم، فتغيّرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا، إلاّ أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نُصِب لهم من القاعدة التي قدّمناها. قال: ومُلْكهم متصل بمُلْك الطُّغُزْغُر[٦]. وكان اعتقاد الطُّغُزْغُر القول بإله النور والظُّلْمة، وكانوا قبل ذلك جاهليّة جهلاء، سبيلهم في الاعتقاد سبيل أنواع الترك، إلى أن وقع إليهم شيطان من شياطين المانيّة[٧]، فزخرف لهم كلامًا يريهم فيه تَضَادّ هذا العالم وتنافِيَه من موت وحياة وصحّة وسقم وغنى وفقر وضياء

---

(١) سجال: يقال الحرب بينهم سجال: أي أن النّصر بينهم متداول.

(٢) السُمنيّة: قوم بالهند من عبدة الأصنام دهريون، قائلون بالتناسخ وينكرون وقوع العلم بالأخبار، يقال: إنه نسبة إلى اسم صنم لهم، وقيل: إن نسبتهم إلى اسم بلد بالهند يقال لها سومات فتكون النسبة على غير قياس «شرح القاموس مادة سمن».

(٣) في الأصل: ويعبدهما والتصويب عن المسعودي، وما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

(٤) الثنوية: أصحاب الاثنين، زعموا أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنّهم قالوا بحدوث الظلام والنور.

(٥) أهل الدّهر: الذين يقولون: ما يهلكنا إلاّ الدّهر، ولا يعتقدون بالآخرة.

(٦) الطغزغر: جيل من الترك كانوا يسكنون أرضًا واسعة على حدود الصين، وهم فيها أصحاب خيام كأعراب البادية، ويقال لهم أيضًا طغزغز، وتغزغز وتغرغر «انظر النجوم الزاهرة ٣/ ٣».

(٧) المانيّة: ويقال لهم: المانوية، أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في إيران في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى عليه السلام، زعم أن العالم مركّب من أصلين أحدهما النور والآخر الظلمة، وأنهما أزليّان «انظر الملل والنحل للشهرستاني».

وظلام وٱجتماع وٱفتراق وٱتصال وٱنفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادّات، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان الناطق والصامت، وما يعرض للأطفال والبُله والمجانين، وأنّ الباري غنيّ عن إيلامهم، وأراهم أنّ هناك ضِدًّا شديدًا دخل على الخير الفاضل في فعله وهو الله تعالى الله ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، فٱجتذب بذلك عقولهم ودانوا به. فإذا كان ملك الصين سُمَنيّ[١] المذهب يذبح الحيوانات، فتكون الحرب بينه وبين ملك الترك قائمة، وإذا كان مانيّ المذهب كان الأمر بينهم مشاعًا.

قال: وملوك الصين ذوو آراء ونِحَلٍ، إلاّ أنهم مع ٱختلاف أديانهم غير خارجين عن قضيّة العقل وسُنَن الحق في نَصْب القُضَاة والأحكام، وٱنقياد الخواصّ والعوامّ إلى ذلك. قال: وأهل الصين شعوبٌ وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها[٢]، ولهم مُراعاةٌ لحفظ أنسابهم. وينتسب الرجل منهم إلى خمسين أبًا وأكثر إلى أن يتصل بعامور[٣]. ولا يتزوّج أهل كل فخذ إلا من فخذهم، ويزعمون أنّ في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنّ ذلك أصحّ للبقاء وأتمّ للعمر.

قال المسعوديّ: ولم تزل أمورُ الصين مستقيمةً في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سَلَف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين؛ فإنه حدث في مُلْك الصين أمر زال به النظام وٱنتقض به حكم شرائعهم ومَنَع من الجهاد. وكان سبب ذلك أنّ خارجيًا خرج ببلد من مدن الصين وهو من غير بيت المُلْك، يقال له ياسر، شرِّير. وكان في ٱبتداء أمره يطلب الفتوّة[٤]، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشرّ، فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره. وأنه ممن لا يبالَى به؛ فاشتدّ أمره، ونما ذكره، وكثر عتوّه[٥]، وقَوِيتْ شوكته، وقطع أهل الشرّ المسافات نحوه. فسار من موضعه وشنّ الغارات، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو[٦]، وهي المدينة العظيمة. قال:

---

(١) السّمنيّ: نسبة إلى السّمنية، أي الدّهريون الذين يقولون بالتناسخ ويؤمنون ببقاء الدهر.

(٢) الأفخاذ: مفردها فخذ، وهو في القبيلة: إحدى فصائلها أو أحيائها.

(٣) في المسعودي «عابور».

(٤) الفتوّة: ألعاب الشباب والقوّة.

(٥) العتو: الاستكبار وتجاوز الحدّ والتعالي والظّلم.

(٦) خانقو: مدينة تقع إلى الشرق من مصبّ نهر حمدان «بنغ تسي كنغ» ونهر حمدان كما رسمه الإدريسي يصبّ في المحيط بفرعين بينهما بعد كبير، ويلتقيان في الدّاخل على مسافة كبيرة وتقع خانقو على الفرع الجنوبي منهما، وذهب محقق وناشر خرائط الإدريسي كونراد ميلر إلى أن خانقو هي مدينة «كنتون» الآن «راجع مسالك الأبصار ٢/٣٩ الحاشية رقم ٤».

وهي على نهر عظيم أكبر من دِجْلة أو نحوه، تدخله السفن التي ترد من بلاد البصرة وسِيرَاف[١] وعُمَان[٢] ومدن الهند وجزائر الزابج[٣]. وبين هذه المدينة وبحر الصين مسيرة ستة أيام أو سبعة، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين. فقصد الخارجيّ هذه المدينة، والتقى بجيوش الملك فهزمها. وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة. وقتل من أهل مدينة خانقو خَلْقًا لا يُحصَوْن كثرةً. فأحصى من قُتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا على مائتي ألف. ثم سار بجيوشه إلى بلد بلد فٱفتتحه، وقصد مدينة إيقو، وهي دار المملكة، وهو في ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل. فخرج إليه الملك في خواصّه في نحو مائة ألف وٱلتقيا، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحو شهر وصبرا جميعًا. ثم كانت على الملك فٱنهزم، وأمعن الخارجيّ في طلبه. وٱنحاز الملك إلى مدينة في أطراف أرض الصين. وٱستولى الخارجيّ على حوزة[٤] الصين وٱحتوى على دار المُلْك وخزائن الملوك السالفة وما أعدّوه للنوائب[٥]. وعلم أنه لا يقوم بالمُلْك لأنه ليس من بيته، فأخرب البلاد وٱستباح الأموال وسفك الدماء. فكاتب ملك الصين ملك الترك أمْرخَان وٱستنجده. فأنجده ملك الترك بولده في نحو أربعمائة ألف فارس وراجل. وقد ٱستفحل أمر الخارجيّ فٱلتقى الفريقان، فكانت الحرب بينهما سجالاً نحو سنة وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرةً، ثم فُقِد الخارجيّ فقيل قُتِل وأسر ولده وخواصّ أصحابه، وعاد ملك الصين إلى دار ملكه. قال: والعامّة تسمّيه «بغيور»، وتفسيره ابن السماء تعظيمًا له. والٱسم الذي يخاطب به ملوك الصين طمغاجيان، ثم لقّبوا بعد ذلك ملكهم بالخان[٦]. قال: ولمّا كان من أمر هذا الخارجيّ الذي ذكرناه تغلّب صاحب كل عمل على عمله، وضعف ملك الصين عن مقاومتهم. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما آل إليه مُلْك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجِنْكِزْخانيّة. والله أعلم.

---

(١) سيراف: هي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديمًا فرضة الهند، وهي معرّبة من شير وهو اللبن وآب وهو الماء، فقلت الشين سينًا والباء فاءً، «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٩٤».

(٢) عُمان: اسم كورة عربيّة على ساحل بحر اليمن والهند، وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع، إلا أن حرّها يضرب به المثل «معجم البلدان ٤/ ١٥٠».

(٣) جزائر الزّابج: هي في أقصى الهند وراء بحر هركند في حدود الصين، وقيل هي بلاد الزّنج، ذات زرع وخصب وضرع وماء كثير، وبها مغائص اللؤلؤ وأفاويه الطيب، وبها جبل يسمّى وبرة يأوي إليه عبّادها «انظر مسالك الأبصار ٢/ ٣٤».

(٤) حوزة الصين: أي عاصمتها ومقرّ حكومتها.

(٥) النّوائب: مصائب الدّهر. (٦) الخان: السلطان أو الأمير.

ذكر أخبار ملوك الترك

قال المسعوديّ: وقد تنازع الناس في الترك وبدئهم، فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن تُوبل بن يافث بن نوح لمّا قسم فَالغ بن عابَرَ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح كما ذكرنا في أخبار ملوك الصين ساروا يَسْرة المشرق، فقطع قوم منهم من ولد رعُوَ على سمت الشمال وٱنتشروا في الأرض، فصاروا عدّة ممالك، منهم الدَّيْلم[(١)]، والجِيل[(٢)]، والطَّيْلسان[(٣)]، والتتر[(٤)]، وفَرْغانة[(٥)]، وأهل جبل الفتح من أنواع اللَّكْز[(٦)] واللان[(٧)] والخَزَر[(٨)] والأبخاز[(٩)] والسَّرِير[(١٠)] وكمشك وسائر تلك

---

(١) الدّيلم: جيل سمُّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر، وليس باسم لأب لهم، وهي ناحية واسعة من طبرستان وأذربيجان على بحر قزوين، قاعدتها مدينة «رشتَ» وهي الآن إقليم جيلان بإيران «انظر معجم البلدان ٢/ ٥٤٤» ومعجم الخريطة التاريخية لأمين واصف بك.

(٢) الجيل: اسمٌ مصقع واسع مجاور لبلاد الدّيلم فيه قرى كثيرة، ويقال له جيلان، وجيلان قوم من أبناء فارس «انظر تقويم البلدان ومعجم البلدان ٢/ ٢٠١».

(٣) الطيلسان: إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الدّيلم والخزر افتتحه الوليد بن عقبة سنة ٣٥هـ «معجم البلدان ٤/ ٥٦».

(٤) التّتر: جيل من أجناس الترك ظهر سنة ست عشرة وستمائة هجرية بأقاصي بلاد المشرق في جبال طغمان من حدود الصين يتاخمون الترك ويجاورونهم «انظر تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٤ ط بولاق».

(٥) فرغانة: ناحية عظيمة وراء الشاش، ووراء سيحون وجيحون، نسب إليها كثير من العلماء، وهي متاخمة لبلاد تركستان، كثيرة الخير واسعة الرستاق، يقال: كان بها أربعون منبرًا، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخًا «انظر معجم البلدان ٤/ ٢٥٣».

(٦) اللّكز: جيل من الناس كانوا يسكنون بلدة بنوها فسمّيت بهم وهي تقع خلف الدّربند تتاخم خزران، وأهلها مسلمون وفيها نصارى «انظر معجم البلدان ٥/ ٢٢».

(٧) اللاّن: أمّة كانت تسكن إقليم القفقاس مما يلي جبال القبج «القوقاز» شمالاً، غربي داغستان والدّربند، واللاّن بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخز «انظر معجم البلدان ٥/ ٨».

(٨) الخزر: هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدّربند، ويقولون الخزر: مسمّى بالخزر بن يافث بن نوح «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٦٧».

(٩) الأبخاز: هي اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهي جبال صعبة المسالك وعرة لا مجال للخيل فيها تجاور بلاد اللاّن «انظر مجم البلدان وتقويم البلدان».

(١٠) السّرير: مملكة واسعة بين اللاّن وباب الأبواب وليس إليها إلا مسلكين، مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى أرمينية، والسّرير اسم المملكة لا اسم المدينة «معجم البلدان ٣/ ٢١٨».

الأمم المنتشرة في ذلك الصُقع والأرمن إلى طَرَابْزَنْدة[١] إلى بحر مانِيطِش[٢] ونِيطِش[٣] وبحر الخَزَر إلى البُلغار[٤] ومَن اتصل بهم من الأمم. وعبر ولد عامور نهر بَلْخ[٥]، ويمّم بلاد الصين الأكثر منهم وتفرّقوا في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار، منهم الخُتَّل وهم سكّان خَتْلان[٦] ووَرْسَنان[٧] والأُسْرُوشَنة[٨]، والسُغْد[٩] وكانوا بين بُخارَى[١٠] وسَمَرْقَند[١١]، ثم الفراغِنة والشاش[١٢] وإسْپيجاب[١٣] وأهل بلاد الفاراب[١٤]، فبنوا المدن والضياع، وانفرد منهم ناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي

---

(١) ذكر أبو الفداء في تقويم البلدان أنها تسمّى الآن طرابزون، وهي ميناء مشهورة على بحر مانيطش غربي سحوم وشرقي سامسون، وأكثر سكانها اللّكزى، وهذه المدينة لها أسواق في السّنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة.

(٢) مانيطش: هو المعروف الآن ببحر آزاق أو بحر «آزوف».

(٣) نيطش: هو المعروف الآن بالبحر الأسود.

(٤) البلغار: جنس معروف، وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها، وهي قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الإتل «الفولجا» «انظر معجم الخريطة التاريخية».

(٥) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان وهي واقعة في الإقليم الخامس «انظر معجم البلدان».

(٦) ختلان: بلاد مجتمعة وراء بلخ قرب سمرقند والنسبة إليها ختلي «معجم البلدان ٢/ ٣٤٦».

(٧) ورستان: من قرى سمرقند «معجم البلدان ٥/ ٣٧١».

(٨) الأشروسنة: بلاد الغالب عليها الجبال، يحيط بها من الشرق فرغانة، ومن الغرب حدود سمرقند، ومن الجنوب حدود كش والصغانيان. «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤٣٢».

(٩) السّغد: ناحية فيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند، وقصبتها سمرقند، وهي كثيرة المياه نضرة الأشجار تمتد مسيرة خمسة أيام لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها «معجم البلدان ٣/ ٢٢٢».

(١٠) بخارى: موقعها في الإقليم الخامس، مدينة خارجها نزهٌ كثير البساتين وليس بتلك البلدان بلد أهلها أحسن قيامًا على عمارة قراهم منهم، وليس فيها ماء جارٍ لارتفاعها ومياهها من النهر الأعظم الجاري من سمرقند «صبح الأعشى ٤/ ٤٣٣».

(١١) سمرقند: موقعها في الإقليم الخامس، وهي قصبة السُغد وهي مبنيّة على ضفّة واديه، وهي مرتفعة عن الوادي وحول سورها رسم خندق عظيم ولها نهر يدخل إليها على حمالات في الخندق «انظر صبح الأعشى ٤/ ٤٣٤».

(١٢) الشاش: مدينة وراء النهر ثم وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك وأهلها شافعيّة المذهب «انظر معجم البلدان ٣/ ٣٠٨».

(١٣) أسبيجاب: بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان «انظر معجم البلدان».

(١٤) الفاراب: ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك، وهي أبعد من الشاش وهي ناحية سبخة لها غياض «معجم البلدان ٤/ ٢٢٥».

وهم الترك الخَزْلج[١] والتُّغُزْغُز وهم أصحاب مدينة كُوشان[٢]، وهي مملكة بين بلاد خراسان والصين. قال: ومن الترك الكَيْماكية[٣] والبَرْسُخانية[٤] والغُزّية[٥] والجفرية[٦]. قال: وأشدّهم بأسًا الغُزّيّة، وأحسنهم صورًا الخَزْلجيّة، وكانوا على بلاد فَرْغانة والشاش وما يلي ذلك الصُّقع[٧]. قال: وفيهم كان المُلْك، ومنهم خاقان الخوّاقين، وكان مُلْكه يجمع سائر مالك الترك وينقاد إليه ملوكها.

قال: ولحق فريق من ولد عامور بتُخُوم الهند، فأثّرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانُهم خلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند. ولهم حضر وبوادٍ، وسكن فريق منهم بلاد التُّبَّت وملّكوا عليهم ملكًا وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان. فلمّا زال مُلْك خاقان سَمَّى أهل التُّبَّت ملكهم بخاقان تشبيهًا بملوك الترك.

ذكر جبل الفتح وما عليه من الملوك والأمم

قال المسعوديّ: وأمّا جبل الفتح فهو جبل عظيمٌ اشتمل على كثير من الممالك والأمم، وفيه اثنتان وسبعون أمّة، لكل أمّة ملك ولغة تخالف لغة الأخرى. وهو ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعْبٍ من شعابه، وهي التي بناها كسرى. وعلى أحد شعاب هذا الجبل بحر الخَزَر مما يلي الباب والأبواب، ومملكة شرْوان، ويلي هذه المملكة مملكة الأرّان[٨]، وملكها يُدعَى الأزان شاه. ومنها مملكة المُوقانية[٩]، ومملكة اللَّكْز، وهي أمّة لا تُحصَى كثرةً تسكن أعالي هذا الجبل،

---

(١) الخزلج: صنفٌ من الترك، وهم الذين كان منهم «السلجوقيون».

(٢) كوشان: مدينة في أقصى بلاد الترك، وأهلها كانوا أشدّ الناس شوكة وملكهم أعظم ملوك الترك «معجم البلدان ٤/ ٤٨٩».

(٣) الكيماكية: نسبة إلى كيماك، وهي ولاية واسعة في حدود الصين وكان أصلها تركًا يسكنون الخيام ويتبعون الكلأ «معجم البلدان ٤/ ٤٩٨».

(٤) البرسخانيّة: نسبة إلى برسخان، وهي إحدى مدن إسفنجياب.

(٥) الغزيّة: حدود بلادهم ما بين الخزر وكيماك وأرض الخزلجيّة وبلغار.

(٦) الجفريّة: نسبة إلى الجفر وهي في حدود بلاد التغزغز «انظر معجم البلدان ٢/ ٢٣».

(٧) الصقع: الناحية.

(٨) أرّان: ناحية واسعة الأرجاء، لها قاعدتان الأولى بردعة، والثانية تفليس، وبردعة قاعدة مملكة أرّان، وهي من أقاصي أذربيجان «انظر صبح الأعشى ٤/ ٣٦١».

(٩) الموقانية: نسبة إلى موقان، أو موغان، وهي ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرّعي، فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمرّ القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال «معجم البلدان ٥/ ٢٢٥».

وهؤلاء ينقادون إلى ملك شِرْوان، ومنهم كفّار لا ينقادون إليه يقال لهم الدُّودانيّة(١) جاهلية لا يرجعون إلى قِبلة. ويلي مُلك شِرْوان مُلك طَبَرِسْتان. ومن ممالك الجبل مملكة حَيْزان(٢)، وهي داخلة في جملة الخَزَر. ومملكة الخَزَر تلي مملكة حَيْزان، وبين مملكة الخَزَر ومدينة الباب ثمانية أيام. ومدينة الخزر ٱسمها سَمَنْدَر(٣). ومن مدن الخَزَر أيضًا مدينة إتِل(٤) بينها وبين سَمَنْدَر سبعة أيام، وهي ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغار ويصب في بحر مانِيطِش. وفي هذه المدينة [خلق](٥) من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية. فالملك وحاشيته وجيشه من اليهود، والجاهلية بها من الصقالبة والروس، وهم يحرقون موتاهم ودوابّ مَن يموت وآلاته. وإذا مات الرجل منهم أُحرقت معه ٱمرأته، وإن ماتت المرأة لا يُحرَق معها الزوج. وأما المسلمون فهم جُند الملك، ويعرفون باللارسية، وهم ناقلة من بلاد خُوارزم كانوا قد وفدوا إلى هذه المملكة لقَحْطٍ أصاب بلادهم في صدر الإسلام. فاستعان بهم الملك فأقاموا عنده على شروط، منها: أن يقيموا شِعار الإسلام، وأن تكون الوزارة فيهم، وأنه إذا كانت الحرب بينه وبين المسلمين لا يحضرونها ويحاربون معه سائر الكفار. وبالمدينة قضاة سبعة: اثنان من المسلمين، واثنان للخَزَر يحكمان(٦) بحكم التوراة، وٱثنان من النصارى يحكمان بالإنجيل، وواحد من الصقالبة والروس والجاهلية يحكم بالقضايا العقلية. وإذا ورد ما لا علم لهم به من النوازل(٧) الكبار اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وٱنقادوا لما توجبه الشريعة الإسلامية. وليس في الملوك مَن عنده جند مرتزقة غير ملك الخَزَر.

---

(١) الدودانية: أمّة يزعمون أنّهم من بني دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة ولعلّهم الذين ذكرهم امرؤ القيس في قوله:
قَولاً لدودان عبيد العصا ... ما غرّكم بالأسد الباسل
(٢) حيزان: من مدن أرمينية قريبة من شروان «انظر معجم البلدان ٢/ ٣٣١».
(٣) سمندر: مدينة خلف باب الأبواب بأرض الخزر بناها أنو شروان بن قباذ كسرى، وكانت دار مملكة الخزر «انظر معجم البلدان ٣/ ٢٥٣».
(٤) إتل: عاصمة بلاد الخزر، وقد سمّي بها النهر العظيم الذي يمرّ ببلاد الخزر وبلاد الروس وبلغار «انظر معجم البلدان».
(٥) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي ١/ ٨٦.
(٦) في الأصل يحكمون، والتصويب لاستقامة السّياق اللغوي.
(٧) النوازل: المصائب.

قال: وفي دار مملكة الخَزر رجل يكون اسمه خاقان لا يركب ولا يظهر للخاصّة ولا للعامّة، ولا يستقيم مُلْك الخَزَر لملكهم إلاّ أن يكون عنده خاقان معه في قصره. فإذا أجدبت أرض الخَزَر أو نابت بلادهم نائبة[١] أو حرب، جاءت الخاصّة والعامّة إلى ملك الخَزَر وقالوا له: قد تطيّرنا بخاقان[٢] وبأيامه وتشاءمنا به، فاَقتله أو سلّمه إلينا نقتله، من غير أن يكون قد عمل ما يوجب ذلك؛ فتارة يقتله، وتارة يسلّمه إليهم فيقتلونه، وتارة يمانع عنه ويرقّ له. وإذا قتل خاقان أقاموا غيره. قال: وللخَزَر زوارق يركبون فيها من نهر فوق المدينة يصبّ إلى نهر يقال له بُرْطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ملوك الخَزَر، وعمائرهم متّصلة بين مملكة الخَزَر والبُلْغَر، يرِد هذا النهر من نحو بلاد البلغر. ومن بلاد بُرْطاس تُحمَل جلود الثعالب السُّود التي يُعرَف وبرها بالبُرْطاسيّ. قال المسعوديّ: ويبلغ ثمن الجلد منها مائة دينار. وتلبسها الملوك وهو عندهم أغلى من السمور[٣] والفَنَك[٤]، والحُمْر دونها في الثمن.

قال: وفي أعالي نهر الخَزَر مصبّ يتّصل بخليج من نهر نِيطِش، وهو بحر للرُّوس لا يسلُكه غيرهم، وهم على ساحل من سواحله. وهي أمّة عظيمة لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة. وفي أرض الرُّوس معدِن من الفضّة. قال: والرُّوس أمم كثيرة، فمنهم جنس يقال لهم البوداغية، وهم الأكثر، يختلفون بالتجارات إلى بلاد الأندلس والقسطنطينية ورومية. قال: وبين مملكة حَيْزان التي ذكرناها وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يُحسنون غير اللغة العربية في آجام[٥] هنالك وغياض وأودية وأنهار، ولهم قرى قد سكنوها. وهم على نحو من ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب.

قال: ويلي مملكة حَيْزان مما يلي الفتح والسُّغْد ملك يقال له برزينان[٦] مسلم، ويعرف بلد هذا الملك بالكُرْج. وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى برزينان. ثم يلي مملكة برزينان ملك يقال له عينق، وهم يدينون بدين النصرانيّة، لا ينقادون لملك،

---

(١) النائبة: المصيبة. (٢) الخاقان: الملك.

(٣) السّمور: حيوان برّي يشبه السّنور يتخذ من جلده فِراء ثمينة للينها وإدفائها وحسنها.

(٤) الفنك: دابة يُفترى جلدها أي يلبس فروها.

(٥) الآجام: مفردها الأجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ.

(٦) كذا في معجم ياقوت في كلامه عن الكرج حيث قال: وكلّ ملك في هذه البلاد يقال له «برزينان» «انظر معجم البلدان ٤/٤٤٦».

ولهم رؤساء، وهم مهادنون لأهل مملكة اللاّن. ثم يليهم مما يلي السور والجبل مملكة يقال لها زِرِهْ كَرَان(١). وتفسير ذلك بالعربية عمّال الزّرَد؛ لأن أكثرهم يعملون الزّرَد والسيوف واللُّجُم والرُّكُب(٢) وغير ذلك من آلات الحديد. وهم ذوو أديان مختلفة من المسلمين والنصارى واليهود. وبلدهم بلد ممتنع خَشِنٌ قد أمتنعوا فيه ممن جاورهم من الأمم لخشونته. ثم يلي هؤلاء مَلِك السرير(٣) ويدعى قُبْلان شاه يدين بالنصرانية. ودار مملكته تعرف بخندج، وله اثنتا عشرة ألف قرية يستعبد منهم من شاء. وبلده بلد منيع. وهو شَعْبٌ من جبل الفتح. وهذا الملك يغير على الخَزَر ويستظهر عليهم. ثم يلي هذه المملكة مملكة اللاّن. وملكها يقال له كَرْكُنْداج(٤)، وهذا الأسم غالبٌ على سائر ملوكهم. وكانوا جاهليّة ثم دانوا بالنصرانيّة، ثم رجعوا فيها بعد العشرين والثلاثمائة. وصاحب اللاّن يركب في ثلاثين ألف فارس. ثم يلي ملك اللان أمّة يقال لها كمشك. وتفسير هذا الأسم بالفارسية التِّيه والصَّلَف(٥). وهم بين جبل الفتح وبحر الروم. وهي تنقاد إلى دين المجوسيّة. قال: وليس في الأمم التي ذكرناها أنقى أجسادًا، ولا أصفى لونًا، ولا أحسن رجالاً، ولا أصبح(٦) نساءً، ولا أقوم قدودًا، ولا أدق خصورًا وأظهر أردافًا، ولا أحسن شكلاً من هذه الأمّة. ونساؤهم موصوفات بلذّة الخلوة. ولباسهنّ البياض والدِّيباج(٧) الروميّ والسَّقْلاطون(٨) وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب. واللاّن تستظهر على هذه الأمّة إلاّ أنها تمتنع منهم بقلاع لها على ساحل البحر. وتلي هذه الأمّة على ساحل البحر أمّة يقال لبلدهم السبع بلدان، وهي أمّة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار. ويلي هذه الأمّة أمّة عظيمة يقال لها إرَم [ذات العماد](٩) ذوو خلق عجيب جاهليّة الآراء. ويلي هذه الأمّة صحراء نحو من

---

(١) زركران: من قرى سمرقند «انظر معجم البلدان ٣/ ١٣٧».

(٢) الرُّكب: مفردها الرِّكاب، وهو ما توضع فيه الرِّجل.

(٣) السّرير: مملكة واسعة بين اللاّن وباب الأبواب، وليس لها إلاّ مسلكان، والسّرير اسم المملكة لا اسم المدينة ويقال: إن هذا السّرير كان لبعض ملوك الفرس وهو سريرٌ من ذهب «انظر معجم البلدان ٣/ ٢١٨».

(٤) في معجم البلدان لياقوت عند كلامه عن اللاّن وفي المسعودي «كركنداح» بالحاء المهملة.

(٥) الصّلف: التكبُّر والادّعاء، وكذلك التّيه.

(٦) أصبح الوجه: أشرق وحسن وأضاء.

(٧) الدّيباج: ثوب لحمته وسُداه من الحرير.

(٨) السّقلاطون: الملابس الملوّنة بالألوان القرمزيّة وغيرها، وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه.

(٩) ما بين قوسين زيادة عن المسعودي.

مائة ميل، بين جبال أربعة، كل جبل منها ذاهب في الهواء، في وسط هذه الصحراء دارة مقوّرة[١] كأنها خُطّت ببِرْكار[٢]، منحوتة في حجر صَلْد[٣]، استدارتها نحو من خمسين ميلاً قَطْعٌ قائمٌ كأنه حائط مبنيّ، يكوّن قعرها نحوًا من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويُرى بها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، ويرى فيها بالنهار قرى وأنهارٌ تجري، وفيها ناس وبهائم إلا أنهم يُرَوْن لطاف الأجسام لبُعْد قعر الموضع لا يُدرَى من أيّ الأمم هم. ولا سبيل إلى صعودهم ولا إلى النزول إليهم من جهة من الجهات. ووراء تلك الجبال خَسْفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وعياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، الأغلب عليها صُوَر الناس وأشكالهم إلا أنهم ذوو شعور. قال: وربّما وقع في النادر منها القرد إذا ٱحتيل عليه في ٱصطياده، فيكون في نهاية الفَهْم والدراية. وربّما حُمِل الواحد منها إلى الملوك فيُعلَّم القيام على رأسه بالمِذَبّة[٤]. ولهم خاصيّة بمعرفة المسموم من المآكل والمشارب. فإذا دنا الطعام منها شمّته ويُلقَى لها الشيء منه فإن أكلته أكله الملك، وإن ٱمتنعت علم الملك أنّ ذلك مسموم.

قال: وفيما بين بلاد الخَزَر وبين بلاد المغرب أمم أربع من الترك ترجع في أنسابها إلى أب واحدٍ، وهم حَضَرٌ وبَدْوٌ، ذوو مَنَعة وبأس شديد. ولكل أمّة منها ملك. ومسافة كل مملكة منها أيام، متّصلة ممالكهم بعضها ببحر نِيطِش. ولتصل غاراتهم ببلاد رومية وما يلي بلاد الأندلس. وهي تستظهر[٥] على سائر مَن هنالك من الأمم. وبينهم وبين الخزر واللاّن مهادنة، وبلادهم تتّصل بممالك الخزر. فالجِيل الأوّل منهم يقال له نجا. ويليه بجعود[٦]. ويليه بَجِناك؛ وهي أشدّ هذه الأمم الأربع بأسًا، ويليه أنو جرذذ. وكانت لهم حرب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة. ويلي بلاد اللاّن أيضًا أمة يقال لها الأبخازتَدِين بالنصرانية، وملك اللاّن مُستظهِر عليهم وهم متّصلون بجبل الفتح. ثم يلي بلاد الأبخاز مَلِك الخزَرية، وهم أمّة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تُدعَى خزَران ولها ملك. قالوا: وكانوا يؤدّون الخراج إلى صاحب ثَغْر

---

(١) المقوّرة: يقال: قوّر الشيء تقويرًا جعل في وسطه خرقًا مستديرًا.
(٢) البركار: آلة ذات ساقين ترسم بها الدّوائر.
(٣) الصلد: الصلب.
(٤) المذبّة: ما يدفع بها الذّباب.
(٥) تستظهر: تستقوي.
(٦) في المسعودي: «جعرد».

تَفِليس[١]. وتليهم أمّة يقال لها الصمصحيّة نصارى، ومنهم جاهليّة لا مَلِك لهم. ويليهم بين ثغر تِفْليس وقلعة باب اللاّن مملكة يقال لها الصنبارية[٢]، وملكهم يقال له كريشكُوش[٣]، ينقادون إلى النصرانيّة، ويزعمون أنهم من العرب من نزار بن معدّ. ثم يلي مملكة الصنباريّة مملكة شكى[٤] وهم نصارى. ويليهم مملكة أخرى وهي مأوى الصعاليك[٥] والذُّعّار[٦]، ثم تتصل بمملكة المُوقانيّة وهي التي على ساحل بحر الخزر. والله أعلم بالصواب.

تم الجزء الرابع عشر، ويليه الجزء الخامس عشر
وأوّله: ذكر أخبار مصر

(١) تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول يأرّان، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة لا إسلام وراءها، يجري في وسطها نهر يقال الكُرُ يصب في البحر، وفيها غروب تطحن، وعليها سورٌ عظيم، وبها حمّامات شديدة الحرّ لا توقد ولا يُستقى لها ماء «معجم البلدان ٢/ ٣٥ ـ ٣٦».

(٢) في الأصل: الضارية والتصويب عن المسعودي.

(٣) في المسعودي «كرسكوس».

(٤) في المسعودي «سكين».

(٥) الصعاليك «مفردها صعلوك» وهو الفقير، ويقال صعاليك العرب: أي فتّاكها.

(٦) الذّعار: مفردها الذّاعر، يقال رجلٌ ذاعر: أي ذو عيوب.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الكتاب المقدّس.
٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ط. مصر.
٤ ـ الأعلام «قاموس تراجم» للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
٥ ـ بدائع الزهور، لابن إياس، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧ ـ تاريخ الأمم والملوك «تاريخ الطبري» مطبعة الاستقامة، مصر.
٨ ـ تاريخ مختصر الدول، لابن العبري، بيروت ١٨٩٠.
٩ ـ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، دار الكتب العلمية.
١٠ ـ حياة الحيوان للدميري.
١١ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب المصرية.
١٢ ـ ديوان امرؤ القيس.
١٣ ـ الروض المعطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري.
١٤ ـ صبح الأعشى، للقلقشندي، دار الكتب العلمية.
١٥ ـ طبقات الأمم، لابن صاعد.
١٦ ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه، دار الكتب العلمية، ط. مصر.
١٧ ـ قاموس الجغرافيا القديمة، لأحمد زكي باشا، ط. مصر.
١٨ ـ قاموس الكتاب المقدّس، لجورج بوست، ط. بيروت ١٨٩٤.
١٩ ـ قصص الأنبياء أو عرائس المجالس، للثعلبي، ط. مصر.
٢٠ ـ قصص الأنبياء، للكسائي، دار الكتب المصرية.
٢١ ـ الكاشف، للإمام الذهبي، دار الكتب العلمية.
٢٢ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط. مصر.
٢٣ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر.
٢٤ ـ مروج الذهب، للمسعودي، ط. بولاق.

٢٥ ـ مسالك الأبصار، لابن فضل العمري، ط. مصر.
٢٦ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٢٧ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، للبكري، ط. مصر.
٢٨ ـ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية.
٢٩ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر.
٣٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية.
٣١ ـ النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية.
٣٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، ط. مصر.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

١٥-١٦

تحقيق

الدكتور يوسف الطويل | الأستاذ علي محمد هاشم

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر أخبار مصر

ومن ملكها من الملوك قبل الطوفان وبعده، وما بنوه بها من المدن، وما أقاموه من المنارات والأهرام والبرابي(١) وغير ذلك من المباني، وما وضعوه بها من العجائب والطِّلَّسمات(٢) والحِكم، وما أثاروا من المعادن وما دبّروه من الصَّنْعة، وما شقّوه وأنبطوه من الأنهار وغير ذلك من عجائبها وأخبارها

فأمّا ملوكها قبل الطُّوفان فقد ذكرهم إبراهيم بن القاسم الكاتب في مختصر كتاب العجائب الكبير الذي ألّفه إبراهيم بن وَصِيف شاه. قال: أوّل مَن ملك مصر من الملوك قبل الطوفان نَقْرَاوُس، ومعناه مَلِكُ قومه وعظيمهم. وذلك أن بني آدم لمّا بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا وتغلّب عليهم بنو قابيل تحمّل نَقرَاوس الجبّار ابن مصرايم بن بَرَاكِيل بن زَرَابِيل بن غِرْناب بن آدم في نيّف وسبعين رجلاً من بني غِرناب جبابرة، كلّهم يطلبون موضعًا ينقطعون فيه من بني آدم. فلمّا نزلوا على النيل ورأوا سَعَة البلد وحسنه أقاموا فيه وبنوا الأبنية، وقالوا: هذا بلد زَرْع؛ وبنى نقراوس مصر وسمّاها بأسم

(١) البرابي: بالفتح، وبعد الألف باء أخرى، وهو جمع بربا، كلمة قبطية، وظنّ صاحب معجم البلدان أن هذه الكلمة اسم لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع السحر. وبيوت هذه البرابي في عدة مواضع من صعيد مصر في إخميم، وأنصنا، وغيرهما باقية إلى عصر ياقوت وكذلك الصور الثابتة في حجارة البرابي كانت موجودة في عصره.

(٢) الطلّسمات: جمع طلّسم، وهو، في علم السحر، خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز، والأحاجي. (اللسان).

أبيه مصرايم ثم تركها. وكان نقراوس جبّارًا له أيْدٌ وبَسْطة، وكان مع ذلك كاهنًا عالمًا، له مُعاون من الجنّ، فملك بني أبيه ولم يزل مطاعًا فيهم. وقد كان وقع إليه من العلوم التي كان زرابيل عُلِّمها من آدم. قال: فهو وبنوه الجبابرة الذين بنوا الأعلام، وأقاموا الأساطين العظام، وعملوا المصانع، ووضعوا الطِّلَّسمات، واستخرجوا المعادن، وقهروا من ناوأهم[١] من ملوك الأرض ولم يطمع طامعٌ فيهم. وكل علم جليل في أيدي المصريين إنما هو من فضل علم أولئك القوم، كان مرموزًا على الحجارة. فيقال إن فليمون الكاهن الذي كان ركب مع نوح عليه السلام في السفينة هو الذي فسّرها لهم وعلمهم كتابتها، وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر فليمون في موضعه.

قال: ثم أمرهم نقراوس حين استقرّ أمرهم ببناء مدينة فقطعوا الصخور والأحجار من الجبال، وأثاروا معادن الرصاص وبنوا مدينة وسمّوها أَمسُوس[٢]، وأقاموا بها أعلامًا[٣]، طول كل عَلَم مائة ذراع، وعمَروا الأرض، وأمرهم ببناء المدائن والقُرى، وأسكن أهل كل بيت ناحية من أرض مصر. وهم الذين حفروا النيل حتى أجرَوْا ماءه إليهم، ولم يكن معتدل الحفر إنما كان يتسطح ويتفرّق في الأرض. قال: ووجّه إلى بلد النوبة جماعة حتى هندسوه وشقّوا منه أنهارًا إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنَوْها، وشقّوا نهرًا عظيمًا إلى مدينتهم أَمسوس يجري في وسطها وغرسوا عليه الغروس، فكثُر خيرهم وعزّت أرضهم وتجبَّر ملكهم. قال: وبعد مائة وعشرين سنة من مُلْكه أمر بإقامة الأساطين العظام وزبر[٤] عليها ذكر دخولهم البلد، وكيف نزلوا به، وحربهم لمن حاربوه من الأمم. ثم أمر ببناء قبّة على أساطين مثبتة في الرِّصاص، طولها مائة ذراع، وجعل على رأسها مرآة من زبرجد[٥] أخضر، قُطْرها سبعة أشبار، ترى خُضرتها على أمد بعيد. قال: وفي مصاحف المصريين أنه سأل الذي كان معه أن يعرّفه مخرج النيل، فحمله حتى أجلسه على جبل القُمْر خلف[٦]

---

(١) ناوأهم: عاداهم.

(٢) أمسوس: هي أول مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان، وموضعها خارج الإسكندرية تحت البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط).

(٣) الأعلام: واحدها علم، وهو شيء منصوب في الطريق يهتدى به؛ أو الراية.

(٤) يقال: زبر الكتاب: أي كتبه؛ أو أتقن كتابته.

(٥) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرد، وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي.

(٦) المراد بخلف هنا شمال خط الاستواء.

خطّ الاستواء على البحر الأسود الزِّفتي، وأراه النيل كيف يجري فوق ذلك البحر الأسود مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القُمْر، ثم يخرج إلى بطائح[١] هناك. ويقال: إنه عمل بيت التماثيل هناك، وعمل فيه هيكلاً للشمس. ورجع إلى أَمسُوس فقسم البلد بين بنيه، فجعل لنقارس الجانب الغربي، ولسورب الجانب الشرقي، ولابنه الصغير وهو مصرام مدينة سمّاها برسان وأسكنه فيها، وأقام فيها أساطين وشقّ لها نهرًا وغرس بها غروسًا. وعمل بأَمسوس عجائب كثيرة، منها صورة طائر على أُسطوانة عالية، يَصفِر كل يوم مرّتين عند طلوع الشمس وعند غروبها صفيرًا مختلفًا، فيستدلّون به على ما يكون من الحوادث فيتأهّبون لها؛ ومخزن للماء المقسوم على جنَاتهم مائة وعشرين قسماً لا يقدِر أحدٌ أن يحوز ما ليس له. وعمل وسط المدينة صنمين من حجر أسودَ، إذا تقدّم السارق لم يقدر على الزوال عنها حتى يسلك بينهما، فإذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ. وله أعمال كثيرة سوى هذه. قال: وعمل في برسان صورة من نحاس مذهب على منار عال لا تزال عليها سحب تظلّها، مَن اُستمطرها أمطرت عليه ماء، فهلكت في الطوفان. وعمل على حدود بلادهم أصنامًا من نحاس مجوّف وملأها نارًا وكبريتًا وجلب إليها روحانيّة النار، فإن قصدهم قاصد بسوء أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارًا أحرقته. وكان حدّ بلادهم إلى داخل الغرب مسافة أيام كثيرة عامرًا كلّه بالقصور والبساتين، وكذلك في المشرق إلى البحر، ومن الصعيد إلى بلاد علْوة[٢]. وعمل فوق جبال بطرس منارًا يفور بالماء يسقي ما تحته من المزارع. وملَكهم مائة وثمانين سنة. فلما مات لطّخوا جسده بالأدوية المُمْسِكة، وجعلوه في تابوت من ذهب، وعملوا له ناووسًا[٣] مُصَفَّحًا بالذهب، وجعلوا معه كنوزًا من أنواع الجواهر وتماثيل الزَّبرجد، وكنزًا من الصَّنْعة المعمولة، وأواني الذهب، والطِّلَّسمات التي تدفع الهَوامّ وغيرها، وزَبَروا عليه تاريخ الوقت.

ولما مات ملك بعده اُبنه نقارس بن نَقْرَاوُس، فتجبَّر وعلا أمرُه، وبنى مدينة يقال لها خلجة، وعمل فيها جنّة صفّح حيطانها بصفائح الذهب والحجارة الملوّنة، وغرس فيها أصناف الفواكه والغروس الحسنة، وأجرى تحتها الأنهار، وأمر بإقامة

---

(١) بطائح: واحدتها البطيحة، وهي المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار. ومنه أبطح مكة؛ والمراد بها هنا منابع النيل.

(٢) بلاد علوة: هي من بلاد النوبة، وتقع على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة، وبينهما مسيرة أيام في النيل.

(٣) الناووس: صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت. جمع نواويس.

الأساطين والأعلام، وركَّب عليها أصناف العقاقير والأدوية وجميع العلوم. وكان معه شيطان يعمل له التماثيل العجيبة. وهو أوّل مَن بنى بمصر هيكلاً وجعل فيه صور الكواكب السبعة، وزَبَر على رأس كل كوكب محارته[١] وما يعمله من المنافع والمضارّ، وألبسه الثياب الفاخرة وأقام له كاهنًا وسَدَنة[٢]. وخرج مغرِّبًا حتى بلغ البحر المحيط وعمل عليه أعلامًا، وجعل على رأس كل علَم أصنامًا تُسْرَج[٣] عيونها بالليل كأنها مصابيح، ورجع على بلاد السودان إلى النيل، وأمر ببناء حائط على جانب النيل، وجعل له أبوابًا يخرج الماء منها. وبنى في صحراء الغرب وراء الواحات ثلاثَ مُدُن على أساطين، وجعل شُرَفها من الحجارة الملوّنة التي تَشُفّ، وجعل في كل ناحية منها ثلاث خزائن للحكمة، وهي أوّل عجائب الأرض، جعل الدخول إلى هذه المدائن من الأساطين التي بنيت عليها. ففي إحدى هذه الخزائن صنم الشمس الذي هو أعظم أصنامهم، وهي معلّقة عليه في بيت شرفها[٤]، وعلى رأسه إكليل فيه كواكبها الثابتة. وفي إحداها صنم للشمس رأسُه رأس طاووس في جسد إنسان من ذهب أزرق، وعيناه جوهرتان صفراوان، وهو جالس على سرير مغنطيس، وفي يده مصحف العلوم. وفي إحداها صنم رأسه رأس إنسان وجسده جسد طائر، وصورة اَمرأة جالسة من زئبق معقود، لها ذؤابتان[٥]، وفي يدها مرآة وعلى رأسها صورة كوكب، وهي رافعة بالمرآة إلى وجهه، ومظهرةٌ فيها سبعة ألوان، من الماء السائل لا يختلط بعضها ببعض ولا يواري بعضها بعضًا، وصورة شيخ من حجر الفَيْروزَج[٦]، وبين يديه صِبْيةٌ يعلّمهم، وهم من أصناف العقيق[٧] والجوهر. وفي الخزانة الثانية صورة هِرْمِس يعني عُطَارد وهو مُكِبٌّ ينظر إلى مائدة بين يديه من نُوشَادِر[٨] على

(١) المحارة: المكان الذي يحور أو يحار فيه. والمحارتان: رأسا الورك المستديران اللذان يدور فيهما رؤوس الفخذين، والمراد بالمحارة هنا الدائرة التي يدور فيها الكوكب.

(٢) السدنة: جمع السادن، وهو خادم المعبد.

(٣) تسرج: أي توقد للإنارة.

(٤) بيت شرفها: أي محل عزّها وعلوّها وسعادتها.

(٥) الذؤابة: شعر مقدم الرأس.

(٦) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء أو أميل إلى الخضرة، يتحلّى به.

(٧) العقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، يكون باليمن وبسواحل البحر المتوسط، واحدته عقيقة.

(٨) لم نقع على تفسير لهذه الكلمة في المظان التي توفرت لنا.

قوائم كبريت أحمر، وفي وسطها مثل الصَّحْفة من جوهر أحمر فيها دواء أخضر من الصنعة، وصورة عُقَاب من زُمرّد أخضر عيناه من ياقوت أصفر، وبين يديه حيّة من فضّة قد لوتْ ذنبها على رجليه ورفعت رأسها كأنها تريد أن تنفخ عليه، وفي ناحية منها صورة المِرّيخ راكبًا على فرس وبيده سيف مسلول من حديد أخضر، وعمود من جوهر أخضر، عليه قبّة من ذهب فيها صورة المُشترِي، وقبّة من أدرك[1] على أربعة أعمدة من جَزْع[2] أزرق في سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيَيْن في صورة ٱمرأة ورجل كأنهما يتحادثان، وقبة من كبريت أحمر فيها صورة الزُّهَرة على صورة ٱمرأة مُمسكة بضفيرتها وتحتها رجلٌ من زبرجد أخضر، في يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها. وجعل في كل خزانة من بقية الخزائن من العجائب ما لا يحدّ، وعلى باب كل مدينة طِلّسمات تمنع من دخولها في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضًا، وفي كل مدينة من الجوهر النفيس والذهب والفضة والكبريت الأَحمر والتُّربة الصنعيّة في البرانيّ[3] الملوّنة، وصنوف الأدوية النفيسة المؤلّفة والسموم القاتلة. وعلّم كل باب من الأساطين بعلامة يعرف بها يُصعد إليها من مسارب تحت الأرض. قال: وجُعل بين هذه المدائنِ وبين مدينة خلجة، وهي التي عمل فيها الجنة، سبعة أميال إلى الغرب، وبينها وبين الأخرى أربعة عشر ميلًا، وبين الأخرى واحد وعشرون ميلًا. وكان له من مدينته إلى هذه المدائن أسراب تحت الأرض يصل منها إليها، وكذلك من بعضها إلى بعض. وعمل عجائب كثيرة أزالها الطوفان، وركبت هذه الأرض الرمال فأزالت طلّسماتها. قال: وملك نقارس مائة سنة وسبع سنين ثم هلك فعُمِل له ناووس، وجُعِل معه من الأشياء العجيبة ما يطول الأمر بذكره.

ثم ملك بعده أخوه مِصرام بن نقراوس، فبنى للشمس هيكلًا من المرمر[4] الأبيض وموّهه بالذهب، وجعل وَسَط الهيكل كالعرش من جوهر أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر وأرخى عليها كلَل الحرير الملوّن، وأمر أن يوقد عليها بطيّب الأدهان، وجعل في الهيكل قنديلًا من الزجاج الصافي، وجعل فيه حجرًا مدبَّرًا يضيء

---

(١) الأدرك: الحجر الأحمر.

(٢) الجزع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، والحجر جملته بلون الظفر.

(٣) البراني: جمع البرنية، وهي إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين.

(٤) المرمر: صخر رخامي جيري متحول يتركب من بلورات الكلسيت، يستعمل للزينة في البناء، ولصنع التماثيل ونحوها.

كما يضيء السراج وأكثر منه ضوءًا، وأقام له سَدَنَةً، وعمل له سبعة أعياد في السنة. وقيل: إن مصر سمّيت به. وتسمًّى به مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح بعد الطوفان لأنه وجد آسمه مزبورًا على الحجارة. وكان فليمون الكاهن أخبرهم أخبار هؤلاء الملوك. وكان مصرام هذا قد ذلّل الأُسْد في وقته فكان يركبها. وصحبه الروحانيّ الذي كان مع أبيه لما رأى من حرصه على لوازم الهياكل والقيام بأمور الكواكب، وأمره أن يحتجب عن الناس. وألقى على وجهه بسحره نورًا عظيمًا لا يقدر أحد أن يتمكّن من النظر إليه. فآدّعى أنه إله، وغاب عن الناس ثلاثين سنة، وآستخلف عليهم رجلًا من ولد غرناب وكان كاهنًا. ويقال: إنّ مصرام ركب في عرش وحملته الشياطين حتى آنتهى إلى وسط البحر الأسود، فعمل فيه القلعة الفضّة وجعل عليها صنمين من النحاس وزبر عليها: أنا مصرام الجبّار، كاشف الأسرار، الغالب القهار، صنعتُ الطِّلَّسمات الصادقة، وأقمتُ الصُّوَر الناطقة، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة، ليعلم من بعدي أنه لا يملك أحد ملكي، وكل ذلك في أوقات السعادة. وكان قد عمل في جنّته شجرة مولدة يؤكل منها جميع الفواكه، وقبّة من زجاج أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس، ووكّل بها شياطين إذا آختلط الظلام نادَوْا: لا يخرج أحد من منزله حتى يُصبح وإلاّ هلك، وكان أوّلَ مَن عُمِل له ذلك. وأمرم أن يجتمعوا له، وجلس لهم في مجلس عال مزيَّن بأصناف الزينة وتجلّى لهم في صورةٍ هالتهم وملأت قلوبهم رعبًا، فخرّوا على وجوههم ودعَوْا له. فأمر بإحضار الطعام والشراب فأكلوا وشربوا ورجعوا إلى مواضعهم ثم لم يروه بعد. وبلغ بكهانته ما لم يبلغه أحد من آبائه.

ثم ملك بعده عِنْقام الكاهن؛ فعدل فيهم، وعمل مدينة عجيبة قرب العريش جعلها لهم حرسًا. وقيل: إنّ إدريس عليه السلام رُفع في زمانه. ويَحكِي عنه أهل مصر حكايات كثيرة تخرج عن العقول. وكان قد رأى في عِلْمه كون الطوفان، فأمر الشياطين التي تصحبه أن تبنيَ له مكانًا خلف خطّ الاستواء بحيث لا يلحقه الفساد، فبُنِيَ له القصر الذي في سفح جبل القُمْر، وهو قصر النحاس الذي فيه التماثيل، وهي خمسة وثمانون تمثالاً، يخرج ماء النيل من حُلوقها وينصبّ إلى بطيحة[١]. ولمّا عُمل له ذلك القصر أحبّ أن يراه قبل أن يسكنه، فجلس في قبّته وحملته الشياطين على أعناقها إليه. فلمّا رأى حكمة بنيانه وزخرفة حيطانه وما فيه من النقوش وصور الأفلاك

---

(١) البطيحة: المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار.

والكواكب، وغير ذلك من صنوف العجائب ـ وكان يُسرَج بغير مصابيح، وتُنصب فيه موائد يُوجَد عليها من كل الأطعمة ولا يُدْرَى مَن يعملها، وكذلك الأشربة في أوانٍ، يُستعمَل منها ولا تنقُصْ. وفي وسطه بركة من ماء جامد الظاهر تُرَى حركته من وراء ما جمد منه، وأشياء كثيرة من هذا النوع وإن كانت تنبو عن العقول ـ أعجبه ما رأى، ورجع إلى مصر فاستخلف ابنه عِرْناق وأوصاه بما يريده وقلّده المُلْك، ورجع إلى ذلك القصر فأقام به حتى هلك هناك. وإليه تُعزى مصاحف القبط التي فيها تواريخهم وجميع ما يجري إلى آخر الزمان. قالوا: ولم تطل مدّة ملكه.

ثم ملك بعده ابنه عِرْناق بنِ عِنْقام. ملك بعد أبيه وعمل عجائب كثيرة، منها شجرة صُفْر فيها أغصان حديد بخطاطيف حادّة إذا تقرّب منها الظالم والكاذب تقرَّبت إليه تلك الخطاطيف فتعلّقت به وشكّت بدنه ولم تفارقه حتى يُحدّث عن نفسه بالصدق ويعترف بظلمه ويخرجَ عن ظُلامة[١] خَصْمه. وعمل صنمًا من صَوّان أسود وسمّاه عبد قزويس، أي عبد زُحَل، فكانوا يحتكمون إليه، فمن زاغ[٢] عن الحقّ ثبت في مكانه فلم يقدر على الخروج منه حتى يُنْصِف من نفسه ولو أقام سنة أو أكثر. ومن كانت له حاجة منهم أو طلب شيئًا بخّر الصنم ليلاً ونظر إلى الكواكب وذكر اسم عِرْناق وتضرّع فيُصبِح وقد وجد حاجته على باب منزله. قال: وكان عِرْناق ربما حملته أطيار عظام وتمرّ به وهم يرونه. وكان ربما غضب على ناس فجعل ماءهم مُرًّا لا يُذاق، وسلّط عليهم وُحوش الأرض وسباعها وهوامّها. قال: وتجرّأ على صيد السباع والوحوش، وعمل عجائب، منها أنه عمل شجرة من حديد ذات أغصان لطّخها بدواء مدبّر، فكانت تجتلب كل صنف من الوحش. قال: وفي كتب المصريين أنّ هاروت[٣] وماروت كانا في وقته وعلّما أهل مصر أصنافًا من السحر، ونُقِلا بعد الطوفان إلى بابِل[٤]. وكان عرناق يجتلب النساء بسحره ويغتصبهنّ، وكان يسكن

(١) الظلامة: ما يطلبه المظلوم.

(٢) زاغ عن الحق: أي مال عنه.

(٣) هاروت وماروت: ملكان هبطا ببابل فعلّما الناس السحر.

(٤) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها الكوفة والحلة؛ ينسب إليها السحر والخمر. قال يزدجرد بن مهبندار: تقول العجم: إن الضحاك الملك بنى مدينة بابل العظيمة، وهو الذي أسره أفريدون الملك وصيّره في جبل دبناوند، واليوم الذي أسره فيه يعد المجوس عيدًا، وهو المهرجان؛ قال: فأما الملوك الأوائل أعني ملوك النبط وفرعون وإبراهيم فإنهم كانوا نزلاً ببابل، وكذلك بخت نصّر. وقال أبو المنذر هشام بن محمد: إن مدينة بابل كانت اثني عشر فرسخًا في مثل ذلك، وكان بابها مما يلي الكوفة، وكان الفرات يجري ببابل حتى صرفه بخت نصّر إلى موضعه الآن مخافة أن يهدم عليه سور المدينة، لأنه كان يجري معه. . . (معجم البلدان).

الجنة التي عملها نقارس، فاْحتالت عليه اْمرأة من المغصوبات فسمّته فهلك وبقي مدّة لا يعرف خبره. وكان من رَسْمه[١] ـ إذا خلا بنسائه ـ لا يقرَبه أحد، فلمّا تأخر خبره عن الناس هجم عليه فتًى من بني نقراوس يقال له لُوخيم ومعه نفر من أهله، فوجدوه ملقًى في فراشه جيفة. فأمر أن توقد له نار فأحرقه فيها. وجمع النسوة اللواتي كنّ في الجنة، فمن كانت من نسائه تركها، ومن كانت من المغصوبات سرّحها إلى أهلها، ففرح الناس بذلك وبما نزل به.

وملك بعده لُوخِيم وجلس على سرير المُلْك ولبس تاج أبيه، وأمر بجمع الناس وقام فيهم وتكلّم وذكر ما كان عليه عِزْناق الأثيم من سوء السيرة واْغتصاب النساء وسَفْك الدماء ورفض الهياكل والاستخفاف بالكهنة إلى أن هلك، وأنه أحقّ بتُراث أبيه وجدّه. وضمن للناس العدل والإحسان والقيام بأمرهم ودفع كل أذى عنهم. فرضي الناس به وأطاعوه وقالوا: أنت أحقّ بالمُلْك، ولا زلتَ دائم السعادة طويلَ العمر قائمًا بتجويد الهياكل وتعظيمها. فركب إلى هيكل الشمس فقرّب له بقرًا كثيرًا، وسار في الناس بالعدل. قال: وكانت الغَرانيق[٢] قد كثُرتْ في زمن عِزْناق فأهلكت زروع الناس. فعمل لوخِيم أربع منارات من نحاس في أربعة جوانب أمسوس، وجعل على كل منارة صورة غراب في فمه حيّة قد اْلتوت عليه فلم يقربهم شيء من تلك الطيور، فكانت كذلك حتى أزالها الطوفان.

قال: ومن ملوكهم خصليم وهو أوّل من عمل مقياسًا لزيادة الماء؛ وذلك أنه جمع أصحاب العلوم والهندسة فعملوا بيتًا من رُخام على حافة النيل، وجعل في وسطه بركة من نحاس صغيرة فيها ماء موزون، وعلى حافَتَي البركة تمثالُ عُقابين من نُحاس ذكر وأنثى. فإذا كان في أوّل الشهر الذي يزيد فيه الماء فتح باب البيت وحضر الكُهّان وأمناء الملك وتكلّموا بكلام لهم حتى يصفِر أحد العقابين، فإن صَفَر الذكر كان الماء زائدًا، وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصًا، ثم يعتبرون الماء فكلّ إصبع يكون في تلك البركة فهو ذراع من زيادة النيل، وكل إصبع ينقص فهو نقصان ذراع. فإذا علموا ذلك حفروا الترع[٣] وأصلحوا الجسور. وعمل على النيل القنطرة التي هي ببلاد النُّوبة. وكان له اْبن سمّاه هِرْصال، أي خادم الزُّهَرة، لرؤيا كانت رأتها أخت

---

(١) يقال: رسم له كذا: أي أمره به؛ ويقال: رسم له بكذا: أي كتب له مرسومًا.

(٢) الغرانيق: الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق، وهو طائر مائي طويل القوائم والعنق أسود وقيل أبيض.

(٣) الترع: جمع الترعة؛ وهي القناة الواسعة للسقي أو الملاحة.

الملك أن الزُّهَرة تخاطبها، وكفلت الغلام عمّته، وٱسمها خِرداقة، وأدّبته أحسن التأديب، وزوّجته عشرين ٱمرأة من بنات الملوك والعظماء، وبنت له مدينة فيها عجائب كثيرة، احتفلت بها وزيّنتها بأحسن النقوش والزينة والعمارة، وعملت فيها حمّامًا معلّقًا على أساطين يرتفع الماء إليها حارًّا من غير وَقِيد[1]. ولمّا هلك خصليم دُفن في ناووس.

ثم ملك بعده ٱبنه هِرْصال بن خصليم فتحوّل إلى المشرق وسكنه، وبنى مدينة هي إحدى المدائن ذوات العجائب، وعمل في وسطها صنمًا للشمس يدور بدَوَرَانها ويبيت مغرِّبًا ويصبح مشرِّقًا. ويقال: إنه عمل من تحت النيل سَرَبًا[2]، وهو أوّل مَن عمل ذلك. وخرج متنكرًا يشقّ الأمم إلى أن بلغ بابِل، ورأى ما عمل الملوك من العجائب. وعلم حالَ ملِكها في الوقت وسيرته ومجاري أموره. ويقال: إنّ نوحًا عليه السلام وُلد في وقته. قال: ووُلد لهِرْصال عشرون ولدًا، جعل مع كل ولد منهم قاطرًا وهو رأس الكهنة. وتزعم القبط أنه بعد مائة وسبع وعشرين سنة من مُلْكه لزم الهياكل وتعبّد للكواكب فأخفته عن أعين الناس. وأقام بنوه على حالهم كل واحد منهم في قسمه الذي أعطاه إياه يدبّره ولا يشركه فيه غيره. وأمور الناس جارية على سداد، فأقاموا كذلك سبع سنين. ثم وقع بين الإخوة تشاجر، وٱجتمع رأي الكهنة على أن يجعلوا أحدهم ملكًا، ويقيم كل واحد منهم في قسمه. فٱجتمعوا في ذلك اليوم في دار المملكة، وقام رأس الكهّان فتكلّم وذكر هِرْصالَ وسعادة أيامه وما شملهم فيها من الخير، وأخبر بما رأته الجماعة من تقليد أحدهم المُلْك. فإن كان هِرْصالُ لم يمُت ورجع إليهم لم ينكر ما فعلوه لأنهم أرادوا بذلك حفظ ملكه، وإن لم يرجع كان الأمر قد جرى على ما سلف من قيام ملك بعد ملك فٱجتمع رأيهم على أكبر ولده وهو:

نَدْسان بن هِرصال. فملك وسار سيرة أبيه وحمد الناس أمره. وعمل قصرًا من خشب ونقشه بأحسن النقوش، وصوّر فيه صور الكواكب ونجّده بالفرش وحمله على الماء وكان يتنزّه فيه. فبينما هو فيه إذ زاد النيل زيادة عظيمة وهبّت ريح عاصف فٱنكسر القصر وغرِق الملك. وكان قد نفى إخوته إلى المدائن الداخلة في الغرب. وٱقتصر على ٱمرأة من بنات عمّه، وكانت ساحرة، فتفرّد بها وٱستخلف بعض وزرائه على المُلْك وأقبل على لذّته ولهوه. فلمّا هلك كتمت ٱمرأته الساحرة موته، وكان أمرها ونهيها يخرجان إلى الوزير عن الملك. وأقام الناس تحت طاعته سبع سنين لا

(١) الوقيد: ما توقد به النار من الحطب ونحوه.

(٢) السَّرب: بفتح السين والراء، المسلك في خفية.

يعلمون بأمره. فلما رأى إخوته طول غيبته جمعوا جموعًا كثيرةً وقدّموا على أنفسهم أحدهم وهو شمرود الجبّار وساروا إلى أمسوس. وبلغ ذلك ٱمرأة نَدْسان الساحرة فأمرت الوزير بالخروج إليهم ومُحاربتهم، ففعل ذلك ولقيهم فمزّقوه وقتلوا كثيرًا ممن كان معه، ودخلوا مدينة أمسوس، وأتوا دار المملكة فلم يروا نَدْسان وأيقنوا بهلاكه.

وملك شمرود بن هرْصال فسُرّ الناس بهِ، ووعدهم بحُسن السِّيرة فيهم وتغيير ما كانوا يُنكرونه على أخيه. وٱستولى على كنوزه وخزائنه ففرّقها على إخوته، وأقطعهم جميع ما كان في يد نَدْسان. وطلب ٱمرأته الساحرة وٱبنها ليقتلهما، فٱنتقلت إلى مدينة أهلها من الصعيد، وكانوا كلّهم كُهّانًا سحرة، فٱمتنعت بهم، وأرسلت إلى الناس وعرّفتهم أنّ ٱبنَها الملِكُ في وقته؛ لأنّ أباه قلّده المُلْك وأمرها أن تدبّر أمره حتى يكبرَ، فصدّقوها وأجابوها وقالوا: إنّ الغلام مغصوب على ملك أبيه، وإنّ شمرود متغلب. فٱجتمع في ناحيتها جماعة من أهل البلد وزحف ٱبن الساحرة وقد عمل له السحَرة أصنافًا من التخاييل الهائلة والنيران المحرقة، فقامت الحرب بينهم أيامًا؛ فٱنهزم شمرود وإخوته وتعلّقوا ببعض الجبال.

وملك تُوميدون بن ندسان وهو ٱبن الساحرة. ودخل دار الملك وجلس على السرير ولبس التاج الذي كان لأبيه وأطاف به بطانة أبيه، وهو يومئذ حَدَث السّنّ، وكانت أمه تدبّر أمره، فقتل كلّ من كان مع شمرود. وطلب شمرودَ حتى ظَفِر به، وٱجتمع الناس لينظروا ما يصنع به، فشُدّ رأسه برأس أسطوانة قائمة، ورجلاه برأس أسطوانة أخرى. وكان طُوله فيما يذكر القبط عشرين ذراعًا، ووكّلت الساحرة به حَرَسًا لتقتلَه يومَ عيدها، وكان قريبًا. فصاح بالليل صيحة مات منها بعض الحرس وهرب الباقون. فلمّا ٱتّصل بها ذلك أوقدت نارًا وأمرت بإنزاله وجعلت تقطع منه عضوًا عضوًا وترميه في النار. قال: وخرج ابنها كاهنًا منجّمًا، وعملت له الشياطين قبّة الزُّجاج الكبيرة الدائرة على دوران الفلك، وصوّروا عليها صور الكواكب، وكانوا يعرفون الطالع منها وما يحدث بطلوعه بعد ستين سنة. ثم ماتت أمّه الساحرة وأوصت أن يجعل جسدها تحت صنم القمر فإنه يخبرهم بالعجائب وما يسألون عنه ففعلوا ذلك. وذلّ الناس لٱبنها وهابوه، وكان يتصوّر لهم في صور كثيرة، وملكهم مائة سنة وستين سنة. ولمّا حضره الموت أمرهم أن يعملوا له صنمًا من زجاج على شقّين ويُطبق على جسده بعد أن يُطلَى بالأدوية المُمْسِكة ويُلحَم ويقام في هيكل الأصنام، ويُجعَل له عيد في السنة ويقرّب له قُربانٌ[1]، وتُدفَن علومه وكنوزه تحته، ففعلوا ذلك كله.

---

(١) القربان: كل ما يتقرب به إلى الله عزّ وجل من ذبيحة وغيرها.

ولمّا مات ملك بعده ابنه شرناق بن تومیدون، فعمل بسيرة أبيه وجدّته، واجتمع الناس عليه. وزَحَف رجل من بني صرابيس بن إرم من ناحية العراق، فتغلّب على الشام، وأراد أن يزحف إلى مصر، فعرف أنه لا يصل إليها لسحر أهلها، فأراد أن يدخلها متنكّرًا ليقف على أحوالها، فخرج في نفر[1] حتى بلغ الحصن الذي كانوا بنوه على مصر. فسألهم الحرس الموكّلون به عن أمرهم، فعرّفوهم أنهم قصدوا بلدهم ليسكنوه، فحبسوهم وطالعوا الملك بخبرهم. وكان الملك قد رأى في منامه كأنه قائم على منار لهم عال، وكأن طائرًا عظيمًا انقضّ عليه ليختطفه، فحاد عنه حتى كاد يسقط عن المَنارة فجاوزه ولم يضُرّه، فانتبه مرعوبًا، وبعث إلى رأس الكَهَنة فقصّ عليه رؤياه، فعرّفه أن مَلِكًا يطلب مُلْكه فلا يصل إليه. فنظر في علمه فرأى أنه قد دخل بلده. فلما وردت الرسل بذكر القوم علم أن المَلِك فيهم؛ فوجّه جماعةً من أصحابه فاستوثقوا منهم وحملوهم إليه، وقد كان أمرهم أن يطوفوا بهم في أعمال مصر كلها ليروا ما فيها من الطِّلَّسمات والأصنام المتحرّكات والعجائب المعجزات، فبلغوا بهم إلى الإسكندرية، ثم ساروا بهم إلى أمسوس وطيف بهم على عجائبها. ثم سيرَ بهم إلى الجنّة التي عملها مِصْرام، وكان الملك مُقيمًا بها وأمر السحرةَ بإظهار التهاويل[2] والتخاييل[3]، فجعلوا يتعجّبون مما رأَوا إلى أن وصلوا إلى شرناق الملك والكهنة حوله وقد أظهروا صنوف العجائب، وجعلوا بين يدي الملك نارًا عظيمة لا يصل إليه إلا مَن خاضها ولا تضرّ إلا مَن أضمر للملك غائلة[4]، وأمر بدخولها، فشقّوها واحدًا واحدًا لم ينلهم منها أذًى، وكان الملك آخرَهم، فلمّا دنا من النار أخذته فولّى هاربًا. فأُتِيَ به شرناق فسأله عن أمره فأقرّ، فأمر بقتله على أسطوانة عند باب الحصن من ناحية الشام، فقُتِل وزُبِر[5] عليه: هذا فلان المتغلّب على الشام أضمر غائلة الملك، طلب ما لا يصل إليه فعوقب بهذا. وأمر بإخراج الباقين من بلاده

(١) النفر: من ثلاثة إلى عشرة من الرجال.

(٢) التهاويل: واحدها تهوال، وأصلها ما يهول الإنسان ويحيره. والتهويل: شيء كان يفعل في الجاهلية، كانوا إذا أرادوا أن يستحلفوا الرجل أوقدوا نارًا وألقوا فيها ملحًا. واسم تلك النار الهولة.

(٣) التخاييل: هي التمويه بالحيل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيل للناظر أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء..

(٤) الغائلة: الفساد والشر؛ أو الداهية. جمع غوائل.

(٥) يقال: زبر الكتاب: أي كتبه؛ أو أتقن كتابته.

فأُخرجوا. وقيل لهم: قد وجب عليكم القتل لصُحبتكم من أراد الفساد في الأرض، ولكنّ الملك عفا عنكم. فكانوا لا يمرّون على أحد إلاّ حدّثوه بما رأَوْا من العجائب، فانقطعت أطماع الملوك عن الوصول إلى مصر والتعرّض إليها. وعُمِلت في أيامه عجائب كثيرة، منها أنه عمل على باب كل مدينة بطّة نحاس قائمة على أُسطوانة، فإذا دخل الغريب من الباب صفّقت بجناحيها وصرَخت، فيؤخذ ويكشف عن أمره. وشقّ إلى مدائن الغرب نهرًا من النيل، وبنى على عِبْره[١] منازل وأعلامًا[٢] وغرس بينها غروسًا، وكان إذا خرج إليها سار في عِمارة متّصلة. وملكهم مائة سنة وثلاثين سنة ثم مات.

وملك بعده ابنه سهلوق بن شرناق، وكان كاهنًا منجّمًا، فأفاض العدل وقسم ماء النيل قسمًا موزونًا، صرف إلى كل ناحية قسْمها، ورتّب المراتب وجعلها على سبعة أقسام: فالطبقة الأولى الملك وولده وأهل بيته ومن يلي عهده ورأسُ الكهّان والوزير الأكبر وقائد الجيش الأكبر وصاحب خاتَم الملك وصاحبُ خزانته. والطبقة الثانية مراتب العمّال والمتولّين جباية الأموال والإشراف على النفقات في أمر المملكة ومصالح البلد والعِمارات وقسمة المياه. والطبقة الثالثة الكهّان وأصحابُ الهياكل وخدمتها ومتولو القرابين والمشرفون على جميع ما يتقرّب به من بواكير الفواكه والرياحين وفُتِيِّ[٣] البقر والفراريج الذكور ورؤوس خوابي الشراب. والطبقة الرابعة المنجِّمون والأطباء والفلاسفة. والطبقة الخامسة أصحاب عِمارة الأرض ومتولّو أمر الزراعة. والطبقة السادسة أصحاب الصناعات والمِهَن في كلّ فنّ، والمشرفون على أعمالهم ونقلِ ما يستحسنون منها إلى خزانة الملك. والطبقة السابعة أصحاب الصَّيد من الوَحْش والسِّباع والطير والهوامّ والخَشَاش[٤]، والمشرفون على أخذ دمائها ومرائرها وشحومها وحملها إلى الأطبّاء لإصلاح العقاقير وتأليف الأدوية. وتقدّم ألاّ يدخل أهل مِهْنة ولا صناعة في غيرهم، ومن قصَّر في عمله عوقب، ومَن أحسن في عمله جوزي بقدره. وكانت رتبة الألحان والملاهي في قسمة الملك: وتقدّم في استنباط المعادن وبناء المدائن ونصب الأعلام والمنارات وإبداع الصناعات وجرّ المياه

(١) العبر من النهر: شاطئه وناحيته.
(٢) الأعلام: واحدها علم، وهو شيء منصوب في الطريق يهتدى به.
(٣) الفتيّ: جمع الفتى: وهو من الإنسان الشاب أول شبابه بين المراهقة والرجولة؛ ومن الحيوان الشاب.
(٤) الخشاش: حشرات الأرض؛ أو الطير ونحوها، الواحدة خشاشة.

وتوليد غرائب الأشجار. وأقام على أعالي الجبال سَحَرة يقسمون الرياح ويمنعونَ من يقصدهم ويقصد بلادهم بأذى، وكذلك كلّ مفسد من طائر وسبع ووحش وهوامّ، وأجرى أمر البلاد والناس على سَدَاد، وجعل في كلّ صِنْف من الناس صِنْفًا من الكَهَنة يعلّمونهم الدين، ودينهم يومئذ الصابئة[1] الأولى. ويرفع كلُّ صنف منهم ما يجري من أمر ما يتولّونه إلى الملك في كلّ يوم. وعمل البيت ذا القِبَاب النوريّة الثلاث، وأوقد فيه النار الدائمة تعظيمًا للنور. والقبط تزعم أنه أوّل من وضع بيتًا لتعظيم النار. وقيل: إن جَمْ الفارسيّ إنما بنى بيت النار ـ وهو أوّل من عمل ذلك للفُرس ـ اقتداءً بسهلوق مصر. وكان السبب في عمل سهلوق بيت النار أنه رأى أباه في نومه يقول له: انطلق إلى جبل كذا من جبال مصر فإنّ فيه كُوَّةً[2] من صفتها كذا وكذا، وإنك واجد على باب الكوّة أَفْعىً لها رأسان، وإنها إذا رأتك كشّت[3] في وجهك، فليكن معك طيران صغيران، فإذا رأيتَ الأفعَى فأذبحهما لها وألقهما إليها، فإنه يأخذ كلُّ رأس من رأسيها أحدَ الطيرين وتتنحّى إلى سَرَب قريب من الكوّة فتدخله، فإذا غابت عنك فأدخل الكوّة فإنك تنتهي إلى آخرها إلى صورة أمرأة جميلة الخَلْق. وهي من ثور حارّ يابس، وسوف يقع عليك وَهَجها وتُحِسّ بحرارة شديدة، فلا تقرُب منها فتحترق، وقِفْ وسلّم عليها فإنها تخاطبك فأسكن إلى خطابها، وأنظر ما تقوله لك فأعمل به، فإنك تشرُف بذلك. وهي حافظة كنوز جدّك مِصرام التي رفعها إلى مدائن العجائب المعلّقة وهي تدلّك عليها. وتنال مع ذلك شرفًا في بلدك وطاعة في قومك، ثم مضى وتركه. فلمّا أنتبه سهلوق جعل يفكّر فيما رأى ويتعجّب منه، ورأى أن ينفّذ ما أخبره به أبوه، فمضى إلى الجبل وحمل الطيرين معه وفعل جميع ما أمره أبوه إلى أن وقف حذاء المرأة وسلّم عليها، فقالت له: أتعرفني؟ قال: لا، لأنّي ما رأيتكِ قبل وقتي هذا. قالت: أنا صورة النار المعبودة في الأمم الخالية، وقد أردتُ أن تُحيي ذكري وتتّخذَ لي بيتًا وتُوقد فيه نارًا دائمةً بقدر واحد، وتتّخذ لها عيدًا في كل سنة تحضره أنت وقومك فإنك تتّخذ بذلك عندي يدًا وتنال به شرفًا وملكًا إلى مُلْكك، وأمنع عنك وعن بلدك من يطلبك ويعمل الحيلة عليك، وأدلّك

---

(١) الصابئة: قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنهم على ملّة نوح، وقبلتهم مهبّ الشمال عند منتصف النهار.

(٢) الكوّة والكوّ: الخرق في الحائط والثقب في البيت ونحوه. قال الليث: تأسيس بنائها من ك و ي كأن أصلها كوّى ثم أدغمت الواو في الياء فجعلت واوًا مشددة..

(٣) يقال: كشّت الأفعى كشيشًا: إذا صوت جلدها إذا احتك بعضه ببعض، أو إذا صوتت من فمها.

على كنوز جدّك مصرام. فلمّا سمع ذلك منها ضمِن لها أن يفعل، ودلّته على الكنوز التي كانت لجدّه تحت المدائن المعلّقة، وكيف يصير إليها ويمتنع من الأرواح الموكّلة بها وما يبخّرها به. فلمّا فرغ من ذلك قال لها: كيف لي بأن أراك في الأوقات وأسألك عمّا أريده، أأصير إليك في هذا المكان أو غيره؟ قالت: أمّا هذا المكان فلا تقدر بعد وقتك هذا عليه؛ لأنّ الأفعى التي رأيتَها فيه قيّمتُه لأنّ فيه آيةً[1] تمنع أن يوقف عليها في وقتنا هذا، ولكن إن أحببتَ أن تراني فدخِّن في البيت الذي تعمله لي بكذا وكذا: أشياءَ ذكرتْها له، منها: عظام ما يقرّبه له من القرابين والذبائح والصُّموغ، فإني أتخيّل لك وأخبرك بكل حقّ وباطل مما يكون في بلدك. فلمّا سمع ذلك منها سُرّ به وغابت عنه، وظهرت الأفعَى وخرج هاربًا وجعل على الكُوّة سَدًّا، وعمل ما أمرتْه به وأخرج كنوز جدّه.

وعمل من العجائب بأمسوس وغيرها ما يطول شرحه. وعمل القبّة المركّبة على سبعة أركان، ولها سبعة أبواب، على كل باب صورةٌ معمولة، وكان يقال لها قبّة القصر. وكان السبب في بنائها أنّ بعض الكهّان جار في قضيّة قضى بها؛ وذلك أن بعض العامّة أتاه يشكو امرأته ـ وكان يحبّها والمرأة تُبْغِضه ـ وسأله أن يقوّمها له، وكانت المرأة من أهل بيت الكاهن، فمالأها[2] على زوجها، وأمره بتخليتها فلم يفعل، فحبسه وشدّد عليه، وكان من أهل الصناعات، فاجتمع جماعة من أهل صَنعته ممّن كان قد عرف حال المرأة معه وأنها ظالمةٌ وهو لها منصفٌ، فوقفوا على ظلم الكاهن فاستعدَوْا[3] عليه عند خليفة الملك. فأحضر الكاهن وسأله، فذكر أنه لم يحكم إلاّ بواجب. فأحضر رؤساء الكهنة والقومَ الذين شهدوا للرجل، فوقف على ظلم الكاهن فأخرج الرجل وحبس الكاهن مكانه، وأمر بعقوبة المرأة وردّها إلى زوجها ورفع ذلك إلى الملك، فأمر بإخراج الكاهن من رسم الكِهانة، وأن يُعاقب ويحبس إلى أن يرى فيه رأيَه. واهتمّ الملك لذلك وخشي أن يجريَ من غير ذلك الكاهن في أمر الرعيّة مثلُ ما جرى منه، فبات مهمومًا. ثم فكّر في أمر النار، فأتى إلى بيت النار ودخّن بالدُّخْنة[4] التي أمرته بها، فأتته وخاطبته. فسألها أن تعمل له

---

(١) الآية: العلامة والأمارة؛ أو العبرة؛ أو الشخص؛ أو الجماعة؛ أو المعجزة.
(٢) يقال: مالأها على الأمر ممالأة وملاء: إذا ساعدها وعاونها.
(٣) استعدى: استعان واستنصر؛ يقال: استعديت الأمير أو الملك على فلان.
(٤) الدخنة: ما يتبخر به من الطّيب.

عملاً يقف به على حقيقة أمر المظلوم من الظالم، فأمرته أن يعمل بيتًا مركّبًا على سبعة أركان ويجعلَ له سبعة أبواب في كل ركن باب، ويعمل في وسطه قبّة من صُفْر، ويصوّرَ عليها صور الكواكب السبعة، ويعمل تحت القبّة مَطْهَرة(١) من جوهر ملوّن، ويجعل فيها سبعة أدهان من أشجار مختلفة؛ وتكون القبّة معلّقة على سبعة أساطين، ويُعمل على الباب الأوّل تمثال أسد رابض، وحِذاءه من الجانب الآخر لبؤة رابضةٌ من صُفْر(٢) ويقرّب لهما جرو وأسد ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الثاني صورةُ ثور وبقرة ويذبح لهما عجلاً ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الثالث صورة خنزير وحذاءه خنزيرة ويذبح لهما خِنَّوْصًا(٣) ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب الرابع صورة فرس وحِجْر(٤) ويذبح لهما مهرًا ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الخامس صورة ثعلب وحذاءه أُنثاه ويذبح لهما جرو ثعلب ويبخّرهما بوَبَره. وعلى الباب السادس صورة حمار وحذاءه أتان(٥) ويذبح لهما عَيرًا ويبخّرهما بشعره. وعلى الباب السابع صورة ديك وحذاءه دَجاجة ويذبح لهما فَرُوجًا ويبخّرهما بريشه. ويلطخ وجوهها جميعًا بدم ما يذبح. ثم يُحرَق بقيّة القُرْبان ويُجْعَل تحت عَتَب أبوابها وتُغَلَّق الأبواب، ويُقام للبيت سَدَنة يوقدونه ليلَه ونهاره. فإذا فرغ ذلك يتكلّم على باب الكواكب السبعة، فإني سوف ألقى روحانيّة الكواكب على تلك الصور فتنطق. وإذا فرغت من ذلك فأجعل لكل مرتبة من المراتب التي قسمتها بابًا من تلك الأبواب، وليكن باب الأسد لأهل بيت المملكة، وسائر الأبواب لسائر المراتب. فإذا تقدّم الخصمان إلى شيء من تلك الصور اَلتصقت بالظالم وشَدّت عليه شدًا عنيفًا يُؤلمه حتى يخرج لخصمه من حقّه، الذكر للذكر، والأنثى للأنثى، فيُعرف بذلك المظلوم من الظالم، ومن كان له قِبَلَ(٦) أحد حقّ ودعاه إلى تلك الصور فلم يجيء معه فأتاه المظلوم، وقد عرَّف الصورة ذلك، أُقعد الظالم من رجليه وخَرِس لسانه ولم يتحرّك. فاستراح الملك إلى تلك الصورة. ولم تزل على ذلك حتى أزالها الطوفان مع ما أزال من أعمالهم وطِلَّسماتهم وعجائبهم. وعُملت في أيام سهلوق أعمال كثيرة، وكُتِبت سيرته

(١) المطهرة: ما يتطهر به؛ أو كل إناء يتطهرونه، كالإبريق والسطل والركوة وغيرها.

(٢) الصُّفر: النحاس الأصفر.

(٣) الخنوص: ولد الخنزير.

(٤) الحِجْر: الأنثى من الخيل.

(٥) الأتان: أنثى الحمار.

(٦) يقال: لي قبل فلان دين: أي عنده.

وما عمل من العجائب في مصحف[١]. وعمل عقاقير كثيرة وتماثيل ومحرّكات وصَنْعة، وأمر أن يُحمل ذلك كلّه إلى ناووس عمله لنفسه في الجبل الغربيّ ونقل إليه حِكَمه. وهلك بعد أن ملك تسعًا وستين سنة وحمل إلى ناووسه، وأقام أهل المملكة ووجوه المدينة ونساؤهم عند ناووسه شهرًا يبكون عليه ويتوجّعون عنده، وٱغتمّوا عليه غمًّا لم يغتمّوه على ملكٍ قبله، وأقاموا لناووسه سَدَنة يخدمونه.

وملك بعده ٱبنه سُوريد بن سُهلوق؛ وكان أبوه قد قلّده الملك قبل مَهْلَكِه، فملك وٱقتفى سيرة أبيه في العِمارة ومصالح البلد والإنصاف بين الناس والأخذ لهم من نفسه وأهل بيته، وعمل الهياكل وبنى المنارات، ونصب الأعلام والطِّلَّسمات فأحبّه الناس. وبنى بالصعيد ثلاث مدائنَ وعمل فيها عجائب كثيرة. وهو أوّل من جبى الخراج بمصر، وألزم أهل الصناعات على أقدارهم، وأوّل من أمر بالإنفاق على الزَّمْنَى[٢] والمرضَى من خزائنه. وعمل مرآة من أخلاط كان ينظر منها جميع الأقاليم ما أخصب منها وما أجدب وما حدث فيها، وكانت المرآة على منارة من النحاس وسط مدينة أمسوس، وكان يعلم من المرآة مَن يقصد مدينته من جميع النواحي فيتأهّب له. وهو أوّل من عمل صحيفة في كلّ يوم يكتب فيها جميع ما يكون في يومه وما يعمله ويُرفَع إليه، ثم يُخلد في خِزانته يومًا بيوم. وإذا مضى الشهر نُقلت إلى مصحف الملك وختمه بخاتَمه، وما صلح أن يُزبَر على الحجارة زَبَره: وكذلك ما عُمل من الصنائع وما أحدِث منها. وكان يُعطِي الرغائب على الصِّناعات العجيبة والحِكَم الغريبة. وعمِل في المدائن صورة ٱمرأة جالسة في حِجرها صورة صبيّ كأنها تُرضِعه، فمن أصابتها عِلّة بجسمها مسحت ذلك الموضع من جسد تلك الصورة فيزول عنها ما تجد، وكذلك إن قلّ لبنها مسحت ثديها، وإن أحبّت أن يعطف عليها زوجها مسحت وجهها بدهن طيّب وقالت افعلي كذا وكذا، وإن قلّت حيضتها[٣] مسحت فوق رَكَبِها، وإن كثر دمها ونزفت مسحت تحت رَكَبِها، وإن أصاب ولدها شيء فعلت مثل ذلك بالصبيّ فيبرأ[٤]، وإن عزّت[٥] ولادتها ومسَحت رأس الصبيّ سهلت ويسهل افتضاضها، وإذا بخرته ومسحته بدهن طيّب منع جميع التوابع. وإذا

(١) المصحف: المراد به هنا مجموع من الصحف في مجلد.

(٢) الزّمنى: جمع الزّمن، وهو الذي به مرض يدوم.

(٣) الحيضة: دم الحيض؛ أو الحزمة تضعها المرأة لتتلقى دم الحيض؛ والمعنى الأول هو المراد.

(٤) يبرأ من الشيء: يخلص منه؛ ويبرأ من المرض، أي يشفى.

(٥) عزت ولادتها: عسرت.

وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تكفَّ عن زناها. وما كان من أعمال الليل بُخّرت ليلاً، وما كان من أعمال النهار بُخّرت نهارًا. وكانت تعمل أعمالاً كثيرة إلى أن أزالها الطوفان. قال: وفي بعض كتب القِبْط أنها وجدت بعد الطوفان وأنهم استعملوها وعبدوها. وصورتها مصوّرة في جميع البرابي، واسمها نبلوية، والذي دلّهم عليها قرابة فليمون الكاهن. قال: وعمل سوريد عجائب كثيرة، منها الصنم الذي يقال له نكرس المعمول من عدّة أخلاط كان يعمل أعمالاً كثيرة في الطبّ ودفع الأسقام والعِلل، ويعرِفون به من تُبْرِئه الأَدوِية فيعيش، وإن كان يموت فله علامات فيُقْصِرون عن علاجه، وكانوا يغسلون المواضع التي بإزاء أعضاء العلَل منه ويُسقَى لصاحب الداء فيزول عنه. وهو أوّل من عمل الأفروثنات[١] وزبر فيها جميع العلوم. وهو الذي بنى الهرمين الكبيرين.

ذكر خبر بناء الأهرام وسبب بنائها وشيء من عجائبها

قال: كان بناء الأهرام قبل الطوفان بنحو ثلاثمائة سنة. وقد ذكرنا فيما سلف من كتابنا هذا نبذة من خبر الأهرام في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل؛ وذلك في السِّفر الأول من هذه النسخة. ونحن الآن نذكر من خبرها خلاف ما قدّمناه مما أورده إبراهيم بن القاسم الكاتب مما اختصره من كتاب العجائب الكبير لإبراهيم بن وَصِيف شاه. قال: كان سبب بنائها أن الملك سُوريد رأى رؤيا أفزعته؛ رأى كأنّ الأرض انقلبت بأهلها، وكأنّ الناس يَخِرّون على رؤوسهم، وكأنّ الكواكب تتساقط ويصدِم بعضها بعضًا بأصوات هائلة مفزعة، فغَمَّه ذلك ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدُث في العالَم أمر عظيم. ثم رأى بعد ذلك بأيام كأنّ الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض في صوَر طيور تنصَبُّ، وكأنها تتخطّف الناس وتُلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأنّ الجبلين انطبقا عليهم، وكأنّ الكواكب النيِّرة مظلمة كاسفة؛ فانتبه أيضًا مذعورًا فزعًا، فدخل إلى هيكل الشمس وجعل يمرِّغ خدّيه ويبكي. ولمّا أصبح أمر بجمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر فاجتمعوا، وكانوا مائة وثلاثين، فخلا بهم وقصّ عليهم رؤياه، فأعظموه وأكبروه وأوّلوه على أمر عظيم يحدث في العالم. فقال لهم فليمون ـ وكان من كبارهم وكان لا يبرح من حضرة الملك لأنه رأس كهنة أمسوس ـ: إنّ في رؤيا الملك لعجبًا وأمرًا كبيرًا، والملوك رؤياهم لا تجري على فساد ولا كذب

(١) الأفروثنات: لفظ يوناني معناه القبور.

لعِظَم أخطارهم، وكِبَر أقدارهم. وأنا أخبر الملك عن رؤيا رَأيتها منذ سنة لم أذكرها لأحد من الناس. فقال له الملك: قُصَّها علينا. قال: رأيت كأني مع الملك على رأس المنار الذي في أمسوس، وكأنّ الفلَك قد انحطّ من موضعه حتى قارب سَمْت[١] رؤوسنا، وكان علينا كالقبّة المحيطة بنا، وكأنّ الملك قد رفع يديه نحو السماء وكواكبها قد خالطتنا في صور مختلفة، وكأن الناس يستغيثون بالملك وقد انضمّوا إلى قصره، وكأنّ الملك رافع يديه ليدفع الفلك أن يبلغ رأسه، وأمرني أن أفعل فعله ونحن على وجل شديد، إذ رأينا منه نورًا مضيئًا طلعت علينا منه الشمس، فكأنّا استغثنا بها، فخاطبتنا بأنّ الفلك سيعود إلى موضعه إذا مَضَت ثلاثمائة دورة، وكأنّ الفلَك لصِق بالأرض ثم عاد إلى موضعه، ثم انتبهت فزعًا. فعند ذلك قال لهم الملك: خذوا ارتفاع الكواكب فانظروا هل من حادثة تحدث. فنظروا فأخبروه بأمر الطوفان وبعده بذكر النار التي تخرج من بُرْج الأسَد تحرق العالم، فذكروا له أن ذلك يكون في وقت عيّنوه له من مقارنات النجوم ونزولها في الأبراج على ما حرّروه من الدقائق، وشرحه إبراهيم في كتابه مما لا فائدة لنا في ذكره. قال: فلما تبيّن ذلك له أمر بقطع الأساطين العظام ونشر البلاط الكبير المصفّح[٢]، واستخراج الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور السود التي جعلها أساسًا من ناحية أسوان، وكانت تُحمَل على أطواف[٣]. وقيل: كانت لهم فراقلَ[٤] من خوص[٥] لها عَذَبٌ[٦] وعليها كتابة منقوشة، فكانوا إذا ضربوا بها الحجارة عَدَتْ عى وجه الأرض وحدها مقدار رمية سهم حتى وضعت الأساساتُ. وأمر أن يُزبَر على البلاط المنشور المهندم جميعُ علومهم. ثم بنى الأهرام الثلاثة الأُوَل: الشرقيّ، والغربيّ، والملوّن؛ فكانوا يجعلون في وسط البلاطة قلب حديد قائمًا ويركّبون عليه بلاطة أخرى مثقوبة الوسط، ثم يُدْخَل ذلك القلب الحديد في ثقب البلاطة التي تُطبَق عليه، ويذاب الرَّصاص ويُصبّ

(١) السمت: الهيئة؛ أو نقطة في السماء فوق رأس المشاهد؛ أو السكينة والوقار؛ أو الطريق الواضح؛ أو المذهب.

(٢) المصفّح: الذي كسي بالصفيح، أو الفولاذ.

(٣) الأطواف: جمع الطوف، وهو خشب يشد بعضه إلى بعض ويركب عليه في الماء.

(٤) فراقل: لم نقع على تفسير لها في ما توفّر لنا من المظان.

(٥) الخوص: ورق النخل والمقل والنارجيل وما شاكلها. .

(٦) العذب: واحدتها العذبة، وهي طرف الشيء. يقال عذبة السوط، وعذبة اللسان، وعذبة العمامة. أو الخيط يرفع به الميزان.

حول البلاطة بعد أن تؤلّف الكتابة التي عليها. وجعل أبوابها من تحت الأرض بأربعين ذراعًا في آزاج[١] مبنيّة بالحجارة في الأرض، طول كل أَزَج مائة وخمسون ذراعًا. قال: فأما باب الهرم الشرقيّ فإنه من الناحية الجنوبيّة على قياس مائة ذراع من وسط حائط الهرم إلى الناحية الجنوبيّة، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج ثم يدخل إليه منه. وأما باب الهرم الغربيّ فمن الناحية الغربيّة يُقاس أيضًا من وسط الحائط الغربيّ إلى الغرب مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج المبنيّ ويدخل منه إليه. وأما باب الهرم الملوّن فمن الناحية البحرية يقاس أيضًا من وسط الحائط البحريّ مائة ذراع، ويحفر حتى ينزل إلى باب الأزج. وجعل طول كل واحد منها أربعمائة ذراع بالمَلكي، يكون خمسمائة بذراعنا. وجعل تربيع كل واحد أربعمائة ذراع. وبناها في الاستواء إلى أربعين ذراعًا ثم هرّمها[٢]. وكان أوّل بنائهم لها في أوقات السعادة، فلمّا فرغ منها كساها ديباجًا[٣] مُلوّنًا من أعلاها إلى أسفلها، وعمل لها عيدًا عظيمًا لم يبق في المملكة أحد إلاّ حضَره. ثم أمر بعمل ثلاثين جرنًا من حجارة الصوّان ملوّنة فجعلت في الهرم الغربيّ، ونقل إليها من الكنوز والأموال والجواهر المعدنيّة، والجواهر المسبوكة الملوّنة، والآلاتِ الزَّبَرْجَد، والتماثيل المعمولة، والطِّلَّسمات، والحديد الفاخر، والسلاح الذي لا يصدأ، والزجاج الذي ينطوي ولا ينكسر، والنواميس والمولّدات والدُّخَن[٤] وأصناف العقاقير والمفردات والمؤلّفات والسموم وغير ذلك شيئًا كثيرًا لا يدرك وصفه. ونقل إلى الآخر وهو الشرقيّ أصنام الكواكب والقباب الفلكيّة، وما عمل أجداده من التماثيل والدُّخَن التي يتقرّب بها لها ومصاحفها، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التي مضت، والحوادث التي تحدث، والأوقات التي تحدث فيها، ومن يلي مصر من الملوك إلى آخر الزمان، وكَون الكواكب الثابتة وما يحدث بكَوْنها وقتًا وقتًا، وجعل فيها المطاهر التي فيها المياه المدبّرة والبودقات الدهنية وما أشبه هذه الأشياء. وجعل في الهرم الآخر أجساد الكهنة في توابيت من الصوّان الأسود، وعند كل كاهن منهم مصحف فيه عجائب صناعته وسيرته وما عمل في وقته. وكانوا سبع مراتب. فالمرتبة الأولى القاطرون، وهم الذين يعبدون الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، ومعنى القاطرون جامع

(١) آزاج: جمع الأزج، وهو بيت يبنى طولاً.
(٢) هرّم البناء: أي جعله على هيئة الهرم.
(٣) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.
(٤) الدّخن: جمع الدخنة، وهي ما يتبخر به من الطيب.

العلوم. والمرتبة الثانية لمن يعبد ستّة من الكواكب وهم اللاحقون بالدرجة الأولى. ثم يسمّون صاحب الخمسة وما دونها كل واحد بأسم، فجعل في كل ناحية من الهرم مرتبة من هذه المراتب، فأجسادهم هناك وما عملوه من العجائب. وجعل في الحيطان من كل جانب مما يدور أصنامًا تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها، وكذلك أصحاب النواميس ومن عالج شيئًا من الأشياء وجعل فيها أموال الكواكب التي أُهديت إليها الكواكب وأموال الكهنة. وجعل لكل هرم منها خادمًا، فخازن الهرم الشرقيّ صنم من جزع[١] أسود مجزَّع بأسود وأبيض له عينان مفتوحتان برّاقتان، وهو جالس على كرسيّ، ومعه شبيه بالحرية، إذا نظر إليه الناظر سمع من جهته صوتًا كالرعد يكاد يفزع قلبه، فيهيم على وجهه ويُختَلَس[٢] عقله، ولا يكاد يفارق الهرم حتى يموت فيه. وجعل خازن الهرم الآخر من حجر الصّوّان المجزَّع، معه شبيه بالحربة، وعلى رأسه حيّة تطوّق بها[٣]، من قَرُب منه وثبت عليه من ناحيته وتطوّقت في عنقه فقتلته ثم تعود إلى مكانها. وجعل خازن الهرم الثالث صنمًا صغيرًا من حجر البَهْتَة[٤] على قاعدتيه، من نظر إليه اجتذبه إليه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت. فلمّا فرغ من ذلك حصنها بالأرواح وذبح لها الذبائح لتمنع عن نفسها من أرادها إلا من قرّب إليها وعمِل لها أعمال الوصول فإنه يصل إليها. قال: وذكر القبط أنه كُتِب عليها اسم الملك والوقت الذي بناها فيه، ويقول: إنا بنيناها في ستّ سنين فقل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة فإن الهدم أهون من البُنيان. وإنا كسوناها الدِّيباج الملوّن المذهب المرقوم[٥] بالذهب فقل لمن يأتي بعدنا يكسوها حصيرًا. فنظروا فوجدوا أحدًا لا يقوم بهدمها وكسوتها لأنه لا يستطاع ذلك ولا يُقدَر عليه.

قال: وحُكي عن هذه الأهرام عجائب يطول الشرح بذكرها؛ منها أن المأمون لمّا دخل إلى مصر أحبّ أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها، فقيل له: إنك لا تقدر على

---

(١) الجزع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان؛ والحجر في جملته بلون الظفر.

(٢) يقال: اختلس الشيء اختلاسًا، أي استلبه في نهزة ومخاتلة.

(٣) تطوّق بها: أي جعلها كالطوق ولبسها كالطوق.

(٤) حجر البهتة، ويقال له البهت والباهت، يوجد في المحيط الإطلنطي وكانت له شهرة في إفريقية الغربية حيث يباع بثمن غال.

(٥) المرقوم: الموشى والمطرز والمخطط.

ذلك. فقال: لا بدّ من فتح شيء منه. فعولجت الثُّلمة[١] المفتوحة منه فأنفق عليها مالاً كثيراً لنار توقد وخلّ يُرشّ ومنجنيقات[٢] ترمى بها، فوجد عرض الحائط قريبًا من عشرين ذراعًا. فلما أنتهوا إلى داخل الهرم وجدوا خلف الحائط عند النقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب دنانير، وزن كل دينار أُوقيّة[٣] من أواقينا، وكان عددها ألف دينار، فعجِبوا من ذلك ولم يعرفوا ما معناه، ثم أُتِيَ المأمون بالذهب والمطهرة فجعل يتعجّب من الذهب وحسنه وجودته وحمرته، فقال: ارفعوا لي حساب ما أنفقتموه على هذه الثُّلمةِ ففعلوا، فوجده بإزاء المال الذي أصابوه لا يزيد ولا ينقص. فعجب المأمون من معرفتهم على طول المُدَد بأنهم سيفتحونه من ذلك الموضع بعينه، ومعرفتهم بمقدار ما يُنفَق عليه وتركهم مقداره في موضعه، فقال: كان هؤلاء القوم من العلوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا. وقيل: إنّ المطهرة[٤] التي وُجد فيها الذهب كانت من زَبَرْجَد، فأمر المأمون بحملها إلى خزانته، وكانت أحد ما حمل من عجائب مصر.

ومن عجائب أخبارها أنّ المأمون لمّا فتح الهرم أقام الناسُ سنين يقصدونه ويدخلون فيه وينزلون الزلاّقة[٥] التي فيه، فمنهم من يسلَم ومنهم من يهلك. وأنّ جماعة من الأحداث[٦] أهتمّوا، وكانوا عشرين رجلًا، على أن يدخلوا الهرم ولا يبرحوا منه حتى يقفوا على منتهى أمره، فأخذوا معهم من الطعام والشراب ما يكفيهم لشهرين، وأخذوا السكك والحبال والشمع والوقيد[٧] والفؤوس والقِفاف[٨] ودخلوا الهرم، ونزل أكثرهم في الزلاّقة الأولى والثانية، ومضَوْا في أرض الهرم فرأَوْا فيه

(١) الثلمة: الموضع الذي قد انثلم، أي انكسر جانبه وصارت فيه ثلمة.
(٢) المنجنيقات: جمع المنجنيق، وهي آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.
(٣) الأوقية هي سبعة مثاقيل وزنها أربعون درهمًا فيما مضى. وأوقية اوطباء عشرة دراهم وخمسة أسباع درهم.
(٤) المطهرة: ما يتطهر به؛ أو كل إناء يتطهر منه كالإبريق والسطل والركوة ونحوها.
(٥) الزلاقة: الموضع لا تثبت عليه القدم؛ أو هي جهاز ثابت يجلس عليه الصبيّ فينزلق من أعلى إلى أسفل.
(٦) الأحداث: جمع الحدث، وهو الصغير.
(٧) الوقيد: ما توقد به النار من الخشب ونحوه.
(٨) القفاف: واحدتها القفّة: وهي المقطف الكبير؛ أو الزبيل؛ أو زورق مقيّر مستدير لا يزال مستعملاً في العراق.

خفافيش بقدر العِقْبان تضرب وجوههم، فانتهَوْا إلى لِصْب[(١)] في حائط تخرج منه ريح باردةٌ لا تفتُر، فذهبوا ليدخلوا فأنطفأتْ سُرُجهم، فجعلوها في زجاج وذهبوا ليدخلوا فكاد اللِّصْب ينطبق عليهم فهابُوه فقال أحدهم: اربُطُوا وَسَطِي بحبل وأنا أدخل، فإذا كاد اللِّصْب ينطبق فجرّوني إليكم؛ وكان على باب اللّصب أجرنة[(٢)] فارغةٌ فعلموا أنّ أجساد موتاهم داخل ذلك اللصب، فربطوه بالحبل، فلمّا تقحّم[(٣)] اللصبَ انطبق عليه فجرّه أصحابه فلم يقدروا على نَزْعه وسمعوا عظامه تتكسّر، وسمعوا صيحة هائلة فسقطوا على وجوههم لا يعقلون. فلمّا أفاقوا طلبوا الخروج فأخرجهم أصحابهم بشدة، وسقط بعضهم في وقت صعودهم من الزلاّقة فنزل، وخرجوا من الهرم فجلسوا في سَفْحه متعجِّبين، فإنهم كذلك إذ أخرجت لهم الأرض صاحبهم يتكلّم بكلام كاهنيّ فسّره لهم بعض أصحاب الديارات بالصعيد: هذا جزاء من يطلب ما ليس له؛ ثم سقط ميّتًا، فحملوه وفُطِن بهم فأُخِذوا وأُتِيَ بهم إلى الوالي فحدّثوه بالخبر.

وفي خبر آخر: أنّ قومًا دخلوا الهرم وأنتهَوْا إلى أسفله وطوّفوه فعرَض لهم مثلُ الطريق فساروا فيه فوجدوا قبّة تحتها كالمطهرة يقطُر فيها ماءٌ فينِشّ ثم يَغِيض[(٤)] ولم يدرُوا ما هو، ووجَدوا موضعًا كالمجلس المربّع حيطانه كلّها بحجارة مُلوّنة عجيبة، فقلَع أحدهم منها حجرًا وجعله في كمّه فأنسدّت أذناه من الريح، ولم تزل تُصِر[(٥)] وهو معه، ووجدوا مكانًا كالفوّارة العظيمة فيها ذهبٌ مضروبٌ كثير يكون الدينار منه زهاءَ مائة مثقال، فأخذوا منه شيئًا فلم يستطيعوا أن يمشُوا ولم يتحرّكوا حتى تركوه من بين أيديهم. ووجدوا في مكان آخر كالصُفّة فيها شيخٌ من حنتم[(٦)] أخضرَ كأنه مشتمل بشَمْلة[(٧)]، وبين يديه تماثيلُ صِغار في صُوَر الصِّبيان وكأنه يعلمهم، فأخذوا منه شيئًا فلم يقدِروا أن يتحرّكوا فردّوه، ومشَوْا أيضًا في ذلك الطريق فوجدوا بيتًا

---

(١) اللصب: كل مضيق في الجبل أو الوادي. جمع لصوب ولصاب.

(٢) أجرنة: جمع جرن بالضم، وهو حجر منقور للماء.

(٣) تقحم اللصب: أي اقتحمه، أي دخله عنوة. واقتحم الأمر العظيم: رمى بنفسه فيه بغير رويّة. والمراد هنا: دخل فيه.

(٤) يغيض: ينقص.

(٥) تصرّ: أي تصوت صوتًا شديدًا.

(٦) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة.

(٧) الشملة: شقّة من الثياب ذات خمل يتوشح بها ويتلفع؛ أو هي كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به.

مسدودًا فيه دوِيّ هائلٌ وزمزمةٌ[١] فلم يتعرّضوا له، ومضَوْا فوجدوا كالمجلس المربَّع فيه صورة ديك من جواهرَ معمولةٍ، قائم على أُسطوانة خضراءَ، وله عينان يُسرج منهما المجلس، فلما قربُوا منه صوّت بصوت مُفزِع وخفَق بجناحيه، فتركوه ومضَوا حتى بلغوا صنمًا من حجر أبيضَ في صورة اُمرأةٍ منَكّسة على رأسها ومن جانبيها أسدان من حجارة كأنهما يريدان نهسها[٢]، فجعلوا يتعوّذون ويقرؤون إلى أن جاوزوها. قال: وقيل إنهم مشَوْا حتى لاح لهم نور فاتّبعوه فإذا بفُوّهة مفتوحة فخرجوا منها فإذا هم في صحراء، وإذا على باب تلك الفُوهة تمثالان من حجر أسوَد معهما كالمزراقين فعجبوا من ذلك. ووجدوا أجرنة منقورة وأسطوانات مخروطة، فساروا منها بُعُدًا فانتهوا إلى ماء وجدوه في نِقَارِ[٣] حذاء تلك الفُوهة، وأخذوا نحو المشرق فساروا يومًا حتى وصلوا إلى الأهرام من خارج فأخبروا والي مصر بخبرهم، فوجّه معهم مَن يدخل من تلك الفُوهة، فطافوا فلم يجدوها وأَشكل عليهم أمرُها. ووجد الآخِذُ للحجر الحجرَ جوهرًا نفيسًا فباعه بمال.

قال: وحُكي أنّ قومًا في زمن أحمدَ بن طولون دخلوا الهرم فوجدوا في طاق[٤] في أحد بيوته أستاندانة زجاجًا ثخينة فأخذوها وخرجوا، ففقدوا رجلاً منهم فدخلوا في طلبه، إذ خرج عليهم الرجل عُرْيانًا يضحَك ويقول: لا تتعبوا في طلبي، ورجع هاربًا إلى أن دخل، فعلموا أن الجنّ استهوته وشاع أمرُهم، فأخذوا الأستاندانة منهم ومُنع الناس من الدخول إلى الهرم، ووُزنت الأستاندانة فكانت أربعة أرطال زجاجًا أبيضَ صافيًا، فأنتبه رجل من أهل المعرفة لها وقال: لم تُعمَل إلاّ لشيء، وملأها ماء ووَزنها فوجد وزْنها وهي ملأى مثل وزْنها فارغة لا تزيد ولا تنقُص فكانت أُعجوبة.

وحُكي أن قومًا دخلوا الهرم ومعهم مَن يريدون يعبثون به، فلمّا همّوا بذلك خرج عليهم غلام أسودُ أمردُ[٥] في يده عصا فأخذ في ضَرْبهم، فخرجوا هاربين وتركوا ما كان معهم من طعام وشراب وبعض ثيابهم.

---

(١) زمزم: أي صوّت من بعيد تصويتًا له دويّ غير واضح.

(٢) يقال: نهسه الكلب والذئب والسبع بالسين المهملة، ونهشته الحية بالشين المعجمة.

(٣) النقار: جمع نقرة بالضم، وهي الوهدة المستديرة في الأرض غير كبيرة.

(٤) الطاق: ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية؛ أو الطيلسان.

(٥) الأمرد: الذي طرّ شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد.

وحُكي أن رجلاً دخل بأمرأة ليفجُر بها فصُرعا جميعًا ولم يزالا مجنونَيْن مشهورَيْن حتى ماتا.

قال: وفي بعض مصاحف القِبْط أن سُورِيد الملك لما أخبره كهَنَته بخبر النار المحرقة وأنها تخرُج من برج الأسَد فتحرق العالَم، عَمِل في الأهرام مَسارِب موجّهة إلى آزاج[١] ضيّقة تجتلب الرياح إلى داخل بصوت هائل. وعمِل فيها مَسارب يدخل منها ماء النيل إلى مكان ينتهي إلى موضع من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملأ تلك الأسراب عجائب وطلّسمات وأصنامًا تنطق.

قال: وحَكى بعض القِبْط أن سُوريد لمّا أخبره منجّموه قال: انظروا لبلدنا هذا هل تلحقه آفة[٢]؟ فنظروا فقالوا: يلحقه طوفان ويلحقه خراب يُقيم فيه عدّة سنين وتغلب عليها التنانين[٣]. قال: كيف يكون خرابها؟ قالوا: يقصدها ملك فيقتل أهلها ويَغْنَم مالها ويهدم مصانعَها. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم تكون عمارتها من قِبله. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم يقصدها قوم مشوّهون من ناحية مصبّ النيل فيأتون على أكثرها. قال: ثم ماذا؟ قالوا: ثم ينقطع نيلها ويجلو أهلها عنها؛ فأمر أن يكتَب جميع ذلك على الأهرام.

قال: وذكر رجل من أهل الغرب ممن يختلف إلى ألواح ويحمِل الشَّمار[٤] على جمل له أنه بات في بعض الليالي قُرب الهرم فما زال يسمع الضوضاء والعطعطة[٥] فهاله ذلك وتباعد عنه بجمله، وكان يرى حول الهرم شِبْه النيران تأتلِق، فلم يزل مرعوبًا إلى أن سرقته عيناه فنام وأصبح وهو في الموضع الذي جمع منه الشمَّار وشمَاره موضوع بحاله، فتعجّب من ذلك وشدّ شماره على جمله ورجع إلى الفُسطاط[٦] وآلى على نفسه ألاّ يقرُب من الهرم بعد ذلك.

---

(١) آزاج: جمع الأزج، وهو بيت يبنى طولاً.

(٢) الآفة: كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط.

(٣) التنانين: جمع التنين: وهو حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، ويقال: له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا.

(٤) الشّمار: هو الرازيانج تعريب رازيانة وهو الأنيسون، وأنواعه ثلاثة: بستاني، وبري وشامي، وهو نبات بزره حرّيف مرّ.

(٥) العطعطة: تتابع الأصوات واختلاطها.

(٦) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر. أو مدينة مصر العتيقة التي بناها عمرو بن العاص في موضع فسطاطه.

قال: والقبط يذكرون أنّ روحانيّة الهرم الغربي في صورة اَمرأة عُرْيانة مكشوفة الفرج حسناء لها ذؤابتان[١]، فإذا أرادت أن تستفزّ الإنْسِيّ ضحكت إليه فاختلسته إلى نفسها فيدنو منها فتستهويه ويزول عقله. قال: وقد رأى جماعة هذه المرأةَ تدور حول الهرم وقت القائلة[٢] وعند غروب الشمس. وروحانيّة الهرم الشرقي غلام أمردُ أصفر عُريان له ذؤابة. قال: وقد رأوه أيضًا يطُوف حوله. وروحانيّة الهرم الملوّن في صورة شيخ يرى عليه بُرْطُلَةٌ[٣] وفي يده مِجْمرة[٤] من مجامر الكنائس. وهو يبخّر كذلك في جميع الأفروثنات[٥].

* * *

وأمّا روحانيّات البرابِي: فبِرْبا إخميم[٦] روحانيّتها غلام أسود عُرْيان. وروحانيّة بِرْبا قِفْط[٧] في صورة جارية سوداء تحمل صبيًّا أسود صغيرًا. وروحانية بِرْبا دَندرَة[٨] في صورة إنسان رأسه رأس أسَد وله قَرْنان. وروحانية بِربا بُوصِير[٩] في صورة شيخ أبيض عليه زيّ الرهبان ومعه مصحف يحمله. وروحانية بِربا سمنّود[١٠] في صورة شيخ آدم طوال أشيب صغير اللحية. وروحانيّة بِرْبا عديّ في صورة راع عليه كساء ومعه عصا. وهذه البربا في أعمال المُرْتاحيّة[١١] من عمل أشمون طنّاح[١٢] بقرب

---

(١) الذؤابة من كل شيء: أعلاه، والذؤابة: شعر مقدم الرأس.
(٢) القائلة: الظهيرة؛ أو النوم في الظهيرة.
(٣) البرطلة: المظلة الصيفية، نبطية وقد استعملت في لفظ العرب.
(٤) المجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.
(٥) الأفروثنات: لفظ يوناني معناه القبور.
(٦) إخميم: من البلاد المصرية واقعة على الشاطىء الشرقي للنيل. وكانت إخميم في عهد الفراعنة قاعدة قسم «خمينو» وفي عهد الرومان قاعدة قسم «بانوس» وفي عهد العرب قاعدة كورة الإخميمية واستمرت كذلك إلى آخر حكم دولتي المماليك. وفي العهد العثماني ألغيت الإخميمية وأضيفت بلادها إلى ولاية جرجا وأضحت إخميم إحدى بلاد مركز سوهاج. وفي سنة ١٩٠٣م صدر قرار من الداخلية بفصل البلاد الواقعة شرقي النيل من مركز سوهاج وجعلها مركزًا باسم إخميم وهي قاعدة المركز من تلك السنة إلى اليوم.
(٧) قفط: مدينة بالصعيد الأعلى، اسمها القديم «قوبطى» ومنه اشتق اسم قبطي وأقباط للمصريين.
(٨) سوف يذكرها المؤلف فيما بعد أثناء كلامه على قفطريم بن قبطيم.
(٩) بوصير: هي بوصير سمنود، وكانت قاعدة شهيرة قبل الإسلام.
(١٠) سمنود: مدينة شهيرة بالوجه البحري بمصر.
(١١) المرتاحية: هو اسم أحد الأقاليم المصرية بالوجه البحري في العهد العربي.
(١٢) أشمون طناح: هي من المدن المصرية القديمة واقعة على الشاطىء الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة.

تلبانة عديّ[١]. قال: ولكلّ من هذه الأهرام والبرابي قرابين وبخُورات تظهر كنوزها وتؤلّف بين الناس والروحانيّين الذين بها.

* * *

ولنرجع إلى أخبار الملوك قال: وأقام سُورِيد في الملك مائة سنة وسبع سنين، وقد كان منجّموه عرّفوه الوقت الذي يموت فيه واليوم والساعة، فأوصى إلى ٱبنه هِرجيبْ وعرّفه ما يعمل، وأمره أن يُدخل جسده الهرم، وأن يجعله في الجُرْن الذي أعدّه لنفسه ويغشّيه بكافور[٢]، ويحمل معه ما أعدّه من فاخر الثياب والسلاح والآلات، فٱمتثل جميع ما أمره به.

ولما مات ملك بعده ٱبنه هرْجيب بن سُوريد فسار بسيرة أبيه في العدل والعمارة والرأفة بالناس، فأحبّوه. وبنى الهرم الأوّل من أهرام دَهْشور وحمل إليه من المال والجوهر. وكان غرضه جَمْعَ المال وعَمَل الكِيمياء وٱستخراج المعادن ودفن ما تهيّأ له من الكنوز في كل سنة. وكانت له ٱبنة أفسدَت مع بعض خدمه فنفاها إلى ناحية الغرب، وأمر أن تُبنى لها مدينة هناك ويقام عليها علَم ويُزبَر عليها اسمها، وأسكن معها كل ٱمرأة مسنّة من أهل بيته. قال: وشجّ[٣] رجل رجلًا فأمر بقطع أصابعه، ووجد سارقًا من العامّة فملّك رقّه الذي سرق منه، وعمل منارات ومصانع وطلّسمات، وملكهم نيّفًا وسبعين سنة.

وملك عليهم بعده ٱبنه منْقاوش بن هرجيب وكان جبّارًا أثيمًا فآذى الناس وسفَك الدماء وٱغتصب النساء وٱستخرج كنوز آبائه، وبنى قصورًا بالذهب والفضة وأجرى فيها الأنهار، وجعل حصباءها من صنوف الجواهر، وتخرّق[٤] في الهِبَات وأغفل العمارات فأبغضه الناس، وأباح أصحابَه غَصْبَ نساء العامّة، وأطاف به أهل الشرّ من كل ناحية، وكان يَفْترِع النساء قبل أزواجهنّ، وٱمتنع عليه قوم في شيء أمرهم به فأحرقهم بالنار، وسلّط رجلًا من الجبّارين ٱسمه قرناس من ولد ورادِيس بن آدم على الناس ووجّهه لمحاربة الأم الغربية فقتل منهم أممًا. وكان أشجع أهل زمانه ثم هلك، فٱغتمّ عليه الملك وأمر أن يدفَن مع الملوك في الهرم. ويقال: بل عمِل له ناوُوسًا وأقام

---

(١) تلبانة عديّ: بلد بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية.

(٢) الكافور: شجر من الفصيلة الغارية يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مرّ، وهو أصناف كثيرة، جمع كوافير.

(٣) سجّة: أي شق جلد رأسه أو وجهه. (٤) تخرق في الهبات: توسع فيها.

عنده أعلامًا وزبرَ عليها اسمه وما عمله في وقته. وملك مِنقاوش ثلاثًا وسبعين سنة ومات، فجُعل في الهرم مع أجداده في حوض مرمر(١) مصفّح بالذهب والجوهر، وحُمِل معه كثير من ذخائره وأمواله وسلاحه وعجائبه.

وملك بعد ابنه أقروش بن منقاوش، وكان عاقلًا فخالف آثار أبيه وعدل في الناس وردّ النساء اللاتي غصبهنّ منقاوش إلى أهلهنّ. وعَمِل في وقته فوّارة(٢) قُطرها مائة ذراع وطُولها خمسون ذراعًا، وركّب في جميع جوانبها أطيارًا تَصفِر بأصناف اللغات المطربة لا تفتُر. وعَمِل في وسط المدينة منارتين من صُفْر عليهما صورة رأس إنسان من صُفْر كلّما مضت ساعةٌ من النهار صاح ذلك الرأس صياحًا عاليًا، وكذلك الليل، فيعلَم به دخول الساعات، وجعل فيه علامة لكلّ ساعة تَمضِي تُعرف بها عِدّتها. وعَمِل منارًا آخر وجعل على رأسه قبّة صُفْر مُذهَب ولَطَخها بلَطُوخات، فإذا غرَبت الشمس اشتعلت تلك القبّة نارًا يُضيء بها أكثر المدينة لا تُطفئها الأمطارُ ولا الرِّياح، فإذا كان النهار قلّ ضوءها بضوء الشمس. ويقال: إنه أهدى الدرمسيل بن محويل الملك ببابِلَ مائدة من الزبرجد قُطْرها خمسة أشبار، وكان استهداه ذلك ليجعلها في بيت القُربان. ويقال إنها وُجدت بعد الطوفان. ويقال أيضًا: إنه عَمِل على الجبل الشرقيّ صنمًا عظيمًا قائمًا على قاعدة وهو مصبوغ بلَطوخ(٣) أصفر مصوّر بالذهب ووجّهه إلى الشمس يدُور معها حتى تغرُب، ثم يدُور ليلاً إلى الناحية الجنوبيّة حتى يحاذي الشمس مع الصبح، فلم يزل إلى أن سقط في أيام فرغان الملك فتهشم(٤). وكان نصبه تعظيمًا للشمس. ويقال: إن أقروش كان يطلب الولد فنكح ثلاثمائة امرأة يبتغي الولد منهنّ فلم يكن ذلك. وقيل: إنّ في عصره عَقَمت الأرحام لما أراد الله عزّ وجلّ من هَلاك العالَم بالطوفان، وعَقَمت أرحام البهائم ووقع الموت فيها. وقيل: إن الأُسْد كثُرت في وقته حتى كانت تتخلّل(٥) البيوت، فاحتالوا لها بالطِّلَّسمات المانعة والحِيَل المضرّة لها، فكانت تغِيب وقتًا وتعود، فرفعوا ذلك إلى الملك فقال: هذه علامة مكروهة، وأمر أن تُعمَل أخاديد(٦) وتُملأ نارًا واجترُوا إليها

(١) المرمر: صخر رخامي جيري متحول يتركب من بلورات الكلسيت، يستعمل للزينة في البناء، ولصنع التماثيل ونحوها.

(٢) الفوارة من الماء: منبعه.

(٣) اللطوخ: ما يلطخ بالشيء ويغيّر لونه.

(٤) تهشم الصنم: تكسر.

(٥) تتخلل البيوت: تمضي فيها وتمشي خلالها.

(٦) الأخاديد: واحدها أخدود، وهو الشقّ المستطيل في الأرض.

الأُسْد بالدُّخَن التي تجلب رُوحانيتها وألقوها على تلك النِّيران، فٱجتلبتها تلك الدخن فتهافتت في تلك النيران فٱحترقت. وبَنَى في وقته مدائن في ناحية الغرب تَلِفت بالطوفان مع أكثر مُدُنهم.

قال: وٱرتفعت الأمطار عنهم وقلّ الماء في النيل فأجدبوا، وهلك الزرع بالنار والريح الحارّة وغيرها، فأضرّ ذلك بهم، فٱحتالوا لدفع النار بطِلَّسماتهم فكانت تذهب وتعود. وقيل: إنّ الذي فعل بهم ذلك ساحر من سَحَرتهم كان منقاوش غصبه ٱمرأته فكان يعمل الحيلة قليلاً قليلاً في إفساد طِلَّسماتهم؛ لأن لكل طلسم شيء تبطل به روحانيته. وبهذه العلّة دخل بختنصّر الفارسيّ مصر وقد كانت ممتنعة من جميع الملوك. فلمّا أفسد ذلك الساحر الطلّسمات، سلّط عليهم تلك الآفات وأفسد طلّسمات التماسيح فهاجت عليهم ومنعتهم الماء وعذّبهم عذابًا كبيرًا إلى أن فطنوا به من قِبَل تلاميذه؛ وذلك أن أحدهم لامه على فِعْله فانتهره ونفخ في وجهه فأظلم عليه بصرُه، فجاء إلى وزير الملك وعرّفه القصّة فأنهاها إلى الملك، فأمر الملك بإدخاله عليه فأُدخل، فسأله عن الخبر فعرّفه بفعل الساحر، فأنفذ إليه جيشًا ليأتوه به، فلمّا نظر الساحر إلى القوم وقد أقبلوا دخّن دُخْنة أغشتْ أبصارَهم وٱرتفعت منها عَجاجةُ[1] نارٍ أحرقَت وحالت بينه وبينهم، فهالهم ذلك، فرجعوا إلى الملك وعرّفوه ما جرى فأمر بجمع السحَرة، وكان من رَسْم السحَرة أن يعاهدوا ملوكهم على أن يكونوا معهم ولا يخالفونهم ولا ينالهم منهم مكروه ولا يبغُونهم الغوائلَ[2]، فمن فعل ذلك سُلِب علمُه، وكان للملك أن يسفِك دمَه ودمَ أهل بيته وولده، وكانوا مع الملوك على هذه الحال يُوفُون بعهودهم. فلمّا اجتمع السحَرة عند الملك أخبرهم خبر الساحر، وكان يقال له: أخْتاليس، وبما عمِله وقال: تُحضرونه إليّ وإلاّ أهلكتكم؛ فسألوه النَّظِرَة[3] فأنظرَهم، فأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا هاربين، فلمّا خرجوا عنه تكلّموا بينهم وقالوا: إنكم لتعرفون كثرة عِلْم أختاليس وشدّةَ سِحْره، وما نرى لنا به طاقةً، ومنقاوش الملك الذي نقَض عهده وتعدّى عليه وأخذ ٱمرأته غَضْبًا، فٱحتالوا لخلاصكم منه؛ فأجمعوا أنهم يَصدُقون الملك عن أنفسهم، ويستأذنونه في الذهاب إليه ومداراته حتى يأتوه به بعد أن يأخذوا له أمانًا منه ويجدّد العهد بينه وبينه. فمضَوْا إلى الملك وصدَقوه عن أنفسهم، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك، ثم مضَوْا إلى أختاليس فلطَفُوا به ووعَظُوه إلى أن أجابهم إلى ما أرادوا، فكتبوا إلى الملك بذلك،

---

(١) عجاجة النار: دخانها.

(٢) الغوائل: واحدتها الغائلة، وهي الداهية؛ أو الفساد والشرّ.

(٣) النَّظِرة: التأخير والإمهال في الأمر.

فكتب للساحر أمانًا وعهدًا، فرجع ورُدّت إليه ٱمرأته، فأكرمها وردّها إلى دار الملك، وعرّفهم أنه لا يرى في ذمّته أن يلابس ٱمرأة لابَسها الملك على حال من الأحوال لَمَا كانوا يراعونه من حقوق الملك، فسُرّ الناس بذلك وعجبوا من عقله وحكمته، وصَلُح أمر الناس، وعمل أختاليس طِلّسمات وعجائب كثيرة. قال: ومَلَكهم أقروش أربعًا وستين سنة، وهلك وليس له ولد ولا أخ، فدُفن في الهرم وجُعلت معه أمواله وذخائره وجواهره والصنائع التي عُمِلت في وقته، وٱجتمع الناس على تمليك رجل من أهل بيت الملك.

فملّكوا عليهم أرمالينوس، فلمّا ملك أمر بجمع الناس وقال: أرى الأمم الغربية قد تطرّقت إليكم في نواحيكم، ويُوشِك أن تسير إليكم، وأنا مانع لبلادكم ودمائكم منهم بغزوهم والخروج إليهم وتحويلكم إياهم، وأحتاج إلى معونة من حكمائكم بالأعمال الهائلة والتخاييل العجيبة، فشكروه ودعَوْا له بالتوفيق. وقالت الحكماء: نحن نخرج مع الملك إذا خرج ونبلغ له مجابه[1] أو يقيم ونحن نخرُج مع الجيش مكانه ونبذُل أنفسنا دُونه. فٱمتنع من ذلك وخرج في جيش عظيم وحارب تلك الأمم ونكأ[2] فيها أعظم نكاية، ورجع غانمًا وخلّف في وجوههم جيشًا، فٱجتمعت تلك الأمم فهزمت جيشه ورجع أصحابه مغلوبين فعظُم ذلك عليه. وكانت أصابته علّة من تغيّر الهواء فأنفذ ابن عمّ له يقال له فِرْعان بن مِسْوَر، وكان أحد الجبابرة الذين لا يطاقون، وهو أوّل فرعون تسمّى بهذا الاسم ومن سُمّي بعده سُمّي تشبيهًا به؛ فأنفذه الملك أرمالينوس في جيش عظيم فأجلى تلك الأمم ونفاها إلى أطراف البحر، وعاد ومعه خلق كثير من الأسرى والرؤوس، فأمر الملك بنصب تلك الرؤوس حول مدينته وقتل جميع الأسرى. وكان منهم كاهن فأمر الملك أن يُوشَر[3] بمنشار، وهو أوّل من فعل ذلك، فأعلم[4] الملكُ فرعانَ وألبسه خِلَعًا منظومةً بالجوهر، وأمر بأن يطاف به ويذكَر فضلُه، وأمر له ببعض قصوره.

وٱتفق أن ٱمرأة من نساء الملك عشقته وراسلته فٱمتنع فِرْعان من ذلك وفاءً للملك، ولأنّ التحظّي إلى نساء الملوك كان من الأمور العظيمة عندهم. فلمّا طال ذلك عليها أحضرَتْ ساحرةً ولاطفَتْها وذكرت لها حالها ووجْدَها بفِرْعان، فضمِنت لها بلوغ مأربها منه وسحَرتْه لها، فٱهتاج إليها وندم على ردّها وجعل يدسّ إليها إلى أن ٱجتمعت معه، وتمكّن حبّ كلّ واحد منهما من صاحبه، إلى أن ذاكرتْه أمرَ الملك

(١) الحاب: ما يقع حول الهدف ولا يصيبه. (٢) نكأ فيهم: أي قتل فيهم وجرح وأثخن.
(٣) يقال: وشر الخشبة بالمنشار إذا نشرها. (٤) أعلمه: وسمه بسيماء الحرب.

وأنها لا تأمن أن يتّصل به خبرهما وقالت: أنا أعمل الحيلة في قتله وتكون أنت الملكَ وأكون لك ونأمن على أنفسنا. فمن شدّة ما عنده من حبّها حسَّن لها ذلك، فسمّت الملكَ في شرابه فمات لوقته وحُمل إلى الهرم.

وملك بعده فِرْعان بن مِسْوَر وجلس على سرير المُلْك فلم ينازعه أحد، وفرح الناس بمكانته لشجاعته. وهو الذي كان الطوفان في وقته. قال: ولمّا ملك علا في الأرض وتجبّر وٱغتصب الناسَ أموالهم وأنفسَهم ونساءهم، وعمل ما لم يعمله ملك قبلَه؛ وأسرف في القتل وهابته الملوك وأقرّوا له. وهو الذي كتب إلى الدرمسيل ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام. وذلك أن الدرمسيل بن مَحْوِيل كتب إلى الأقاليم يسألهم: هل يعرفون آلهة غير الأصنام؟ ويذكر قصّة نوح وأنه يريد تغيير ذلك، وأن له إلٰهًا غيرها، فكلٌّ أنكر ذلك. ولمّا أخذ نوح في بناء السفينة كتب فرعان إلى الدرمسيل يشير عليه بإحراقها، وكان عند أهل مصر خبر الطوفان ولكنهم لم يُقدِروا كثرتَه وطولَ مقامه على الأرض، فٱتّخذوا السراديب تحت الأرض وصفّحوها بالزجاج وحبسوا فيها الرياح بتدبيرهم، وٱتخذ فرعان منها عدّة له ولأهل بيته. وكان فرعان قد أقصى الكهّان وباعدهم، وكانوا مع الملوك على خلاف ذلك. ولنصل هذا الخبر بخبر الكُهّان وما كانوا عليه.

ذكر خبر كُهّان مصر وحالهم مع الملوك

قال: وكُهّان مصر أعظم الكهان علمًا، وأجلّهم في الكَهانة حديثًا. وكان حكماء اليونان يصفونهم بذلك، ويشهدون لهم به ويقولون: أخبرنا حكماء مصر بذلك فٱستفدناه منهم. وكانوا يَنْحون في كهانتهم نحو الكواكب، ويزعمون أنها هي التي تُفيض عليهم العلوم وتُخبرهم بالغيوب، وهي التي علّمتهم أسرار الطبائع، ودلّتهم على العلوم المكنونة؛ فعملوا الطِّلّسمات المشهورة، والنواميس الجليلة، وولّدوا الولادات الناطقة، والصوَر المتحرّكة؛ وبنَوْا العاليَ من البنيان، وزَبَروا علومهم في الصلب من الصَّوّان، وٱنفردوا بعمل البرابي، ومنعوا بها الأعداء من بلدهم، وعجائبهم ظاهرة. وكان الذي يتعبّد منهم الكواكب السبعة المدبّرة، لكلّ كوكب سبع سنين، فإذا بلغ هذه الرتبة سُمّي قاطِرًا[1]، وكان يجلس مع الملكُ في المرتبة ويصدُر الملك عن رأيه، وإذا رآه قام له.

(١) القاطر: أي جامع العلوم، وهو الذي يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، كما سبق أن ذكره المؤلف.

وكان من رَسْمهم في كل يوم أن يدخل القاطر إلى الملك فيجلس إلى جانبه، ويدخل الكهنة ومعهم أصحاب الصناعات فيقفوا حذاء[١] القاطر، وكلّ واحد من الكهنة منفردٌ بكوكب يخدمه لا يتعدّاه إلى سِواه، ويُسمّى عبدَ كوكبِ كذا، كما كانت العرب تُسمّي عبد شمس، فيقول القاطر للكاهن: أين صاحبك؟ فيقول: في البُرْج الفلاني في الدرجة الفلانية في دقيقة كذا، ويسأل الآخر حتى إذا عرف مستقرّ الكواكب قال للملك: ينبغي لك أن تعملَ اليوم كذا، وتَضعَ بنيان كذا، وتوجّه جيشًا إلى ناحية كذا، وتُجامع في وقت كذا، وتأكل في وقت كذا، وجميع ما يراه صَلاحًا له في أموره كلّها؛ والكاتب قائمٌ يكتب جميع ما يقوله القاطر، ثم يلتفت إلى أهل الصناعات فيقول: انقُشْ أنت صورة كذا على حجر كذا، واْغرِسْ أنت كذا، واْصنَعْ أنت كذا، حتى يمرّ على أهل الصناعات؛ فيخرجون إلى دار الحكمة ويضَعون أيديَهم في تلك الأعمال، ويستعمِل الملك جميع ما يأمره القاطر. ويُشرَح ذلك اليوم في الصحيفة وتُطوَى وتُودَع في خِزانة الملك، فعلى ذلك كانت تجري أمورهم.

وكان الملك إذا نابَهُ[٢] أمرٌ جمعهم واْصطفّ الناسُ لهم في شارع المدينة، ثم يدخلون رُكباناً يقدُم بعضهم بعضًا، ويُضرب بين أيديهم بطبل الاجتماع، فيدخُل كلّ واحد منهم بأُعجوبة: فمنهم مَن يعلو وجهَه نورٌ كنور الشمس فلا يقدِر أحدٌ على النظر إليه، ومنهم مَن يكون عليه بَدَنةٌ[٣] جوهر أخضر أو أحمر أو من ذهب منسوج. ومنهم مَن يدخل راكبًا أسدًا متوشّحًا بحيّات عِظام. ومنهم مَن تكون عليه قبّة من نور أو من جوهر في صنوف من العجائب كثيرة. ويصنع كلّ واحد منهم ما يدلّه عليه كوكبُه الذي يعبدُه؛ فإذا دخلوا على الملك قالوا: أرادنا الملك لأمر كذا وقد علِمنا، أو أضمر الملك كذا والصواب فيه كذا. فكانوا مع ملوكهم على هذه الحال حتى ملك فِرْعان فأبعدهم. وكان فليمونُ رئيسَ الكهّان، فرأى فيما يرى النائم كأنّ مدينة أمسوس قد اْنقلبت بأهلها، وكأنّ الأصنام تهوِي على رؤوسها، وكأنّ ناسًا ينزلون من السماء معهم مَقامع[٤] فيضربون الناس بها، وكأنه قد تعلّق بأحدهم وقال له: ما لكم تفعلون بالخَلْق هذا! أما ترحمونهم؟ فقال: لأنهم كفَروا بإلٰههم. قال: أفما لهم من خلاص؟ قالوا: نعم، مَن أراد الخَلاص فليَلْحَق بصاحب السفينة، فاْنتبه وهو يخاطبه، فبقِيَ

---

(١) حذاء الشيء: ما يحاذيه؛ وحذاء القاطر، أي إزاءه.
(٢) نابه أمر: أي أصابه ونزل به.
(٣) البدنة البقيرة، هي قميص لا كمين له تلبسه النساء.
(٤) المقامع: جمع المقمعة، وهي خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذلّ ويهان.

مرعوبًا مما رآه. وكان له ٱمرأة وولدان ذكر وأنثى ومعه تلاميذه، فأجمع على أن يَلْحَق بنوح عليه السلام، ثم نام أيضًا فرأى كأنه في رَوْضة خضراء، وكأنّ فيها طيورًا بيضاء تفُوح منها رائحة طيّبة، وكأنه تعجّب من حُسنها إذ تكلّم بعض الطيور فقال لأصحابه: سيروا بنا نُنجِ المؤمنين. قال له فليمون: ومَن هؤلاء المؤمنون؟ قال: أصحاب السفينة. فٱنتبه مرعوبًا وأخبر أهله وتلاميذَه بذلك ثم نام.

فلمّا كان الغدُ أتى الملكَ فقال: إن رأى الملك أن يُنْفِذَني إلى درمسيل لأعرف حالَ هذا الرجل الذي عمل السفينة فأشاهده وأناظره على ما جاء به من هذا الدِّين الذي أظهره وأتبيّن حقيقة أمره فليفعل؛ فإني أرجو أن يكون ذلك سببًا لهلاكه ودفعه عما يدّعيه، فأعجب الملك ذلك منه وأذن له في الخروج، فسار بأهله وولده وتلاميذه حتى ٱنتهَوْا إلى أرض بابل وقصد نوحًا وسأله أن يشرح له دينه ففعل ذلك، فآمن به وجميعُ مَن معه، فقال نوح عليه السلام: من أراد اللّهُ عزّ وجل به الخيرَ لم يَصدُفْه[(١)] أحد عنه. فلم يزل فليمون مع نوح عليه السلام يخدمه هو وولده وتلاميذه إلى أن ركبوا السفينة.

وأمّا فِرْعان الملك فإنه أقام مُنهمكًا في ضلاله وظُلمه، مقبلاً على لَهْوه، وٱستخفّ بالكَهَنة والهياكل، وضاقت الدنيا بأهلها، وكثُر الهَرْج[(٢)] والظلم، وفسَدت الزروع، وأجدبت النواحي، وظلَم الناسُ بعضهم بعضًا، ولم يكن أحدٌ ينكر ذلك عليهم، وسُدّت الهياكل والبرابي، وطُيِّنت أبوابها، وجاءهم الطوفان. وأقبل المطر عليهم، وكان فِرْعان سكران فلم يقُم إلاّ بخرير الماء، فوثب مُبادرًا يريد الهرب إلى الهرم فتخلخلتِ الأرض به، وطلب الأبواب فخانته رجلاه وسقط على وجهه وجعل يخُور كما يخُور الثور، إلى أن أهلكه الله تعالى بالطوفان، ومَن دخل الأسراب منهم هلك بغَمّها[(٣)]، ولحق الماءُ من الأرض والأهرام إلى آخر التربيع، وهو ظاهر عليها إلى الآن، وٱنقرضت ملوك الدنيا أجمع بالطوفان ولم يسلم إلا أصحاب السفينة كما تقدّم. فعدّة مَن سُمّي لنا من ملوك مصر قبل الطوفان على هذا السِّياق تسعة عشر ملكًا، ثم ملكها بعد الطوفان مَن نذكره.

---

(١) لم يصدفه أحد عنه: لم يصرفه. (٢) الهرج: الفتنة والاختلاط.

(٣) غمّ السرب: أي اشتداد الحرّ فيه حتى ليكاد يأخذ بالنّفس.

ذكر مَن ملك مصر بعد الطوفان من الملوك

قال إبراهيم بن القاسم الكاتب: قال إبراهيم بن وَصِيف شاه: أجمع أهل الأثر أنّ أوّل مَن ملك مصر بعد الطوفان مصْرِيم بن بَيْصر بن حام بن نوح عليه السلام، وذلك بدعوة سبقت له من جدّه. وكان السبب في ذلك أنّ فليمون الكاهن سأل نوحًا عليه السلام أن يخلطه بأهله وولده وقال: يا نبيّ الله، إني قصدتك رغبةً في الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتصديقك يا نبيّ الله، وتركت وطني وبلدي فأجعل لي رفعةً وقدرًا أذكَر بهما من بعدي، فزوّجَ نوحٌ عليه السلام بَيْصرَ بن حام بنتَ فليمون لكاهن فولدت له ولدًا سمّاه فليمون مصريم باسم بلده، فلمّا أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون: ابعث معي يا نبيّ الله ابني حتى أمضِي به إلى بلدي وأُظهره على كنوزه وأُوقفه على علومه ورموزه، فأنفذه معه في جماعة من أهل بيته، وكان غلامًا مراهقًا، فلمّا قرُب من مصر بنى له عَرِيشًا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض، ثم بنَى له بعد ذلك في الموضع مدينة وسمّاها دَرْسان(١)، أي باب الجنة؛ فزرعوا وغرسوا الأشجار والأجنّة(٢) من درسان إلى البحر. فصارت هناك زروع وأجنّة وعمارة وكان الذين مع مِصْريم جبابرة؛ فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا في أرغد عَيْش.

ونكح مصريم امرأة من بنات الكَهَنة فولدت له ولدًا سمّاه قبطيم، ونكح قُبْطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر، وهم: قُفْطَريم، وأشمون، وأَتريب، وصا، وكثروا وعمّروا الأرض وبُورك لهم فيها. وقيل: كان عدد مَن وصل مع مصريم ثلاثين نفرًا فبنَوْا مدينة سمَّوْها مافَهْ، ومعنى مافَهْ ثلاثون بلغتهم، وهي مَنف(٣)؛ وكشف أصحاب فليمون عن كنوز مصر وعلّموهم خطّ البرابي، وأثاروا لهم المعادن من الذهب والزبرجَد والفَيْروزَج(٤) والأسباد شم(٥) وغير ذلك، ووصفوا لهم

(١) درسان: هي مدينة العريش.

(٢) الأجنّة: قد يراد بها النخيل أو النبات الكثيف الملتف، أو العشب.

(٣) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: أصلها بلغة القبط مافة فعربت فقيل منف... وقيل: هي أول مدينة عمرت بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح.. وآثار هذه المدينة وحجارة قصورها كانت ظاهرة في عصر ياقوت الحموي، وبين منف وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ، وقيل إنه كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها في موضع سرير فرعون... (معجم البلدان).

(٤) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء أو أميل إلى الخضرة، يتحلى به.

(٥) الاسبادشمّ: نوع من الجواهر تتخذ منه النصول وغيرها.

عمل الصنعة، فجعل الملك أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام، فكان يعمل الكيمياء في الجبل الشرقيّ فسُمّيَ به المُقطّم[١]، وعلّموهم أيضًا عمل الطلّسمات. وكانت تخرُج من البحر دوابّ تفسد زرعهم وأجنّتهم وبنيانهم فعملوا لها الطلّسمات فغابت ولم تعُد. وبنَوْا على عَبْر البحر مُدُنًا منها: رَقُودة مكان الإسكندرية، وجعلوا في وسطها قبّة على أساطين من نُحاس مُذهَب والقبّة مُذهَّبة، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتّى قُطْرها خمسة أشبار؛ وكان ارتفاع القبّة مائة ذراع؛ فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التي حولهم، فإن كان مما يهمّهم أو من البحر عملوا لتلك المرآة عملاً فألقت شُعاعها على ذلك الشيء فأحرقته؛ فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها البحر فنسفها. وقيل: إن الإسكندر إنما عمل المنارة تشبّهًا بها. وقد ذكرنا خبر المنارة فيما تقدّم من كتابنا هذا.

وقال: لما حضرت مِصْريم الوفاة عهد إلى ابنه قُبْطيم بن مصريم؛ فقسم قبطيم مصر بين بنيه الأربعة: فجعل لابنهِ قُفْطَريم من قِفْط إلى أسوان إلى النُّوبة، ولأشمون من أشمون إلى مَنْف، ولأَتْريب الحَوْف كلّه إلى الشجرتين إلى أيلة[٢] من الحجاز، ولِصَا من ناحية صَا البحيرة إلى قُرْب بَرْقة[٣]؛ وقال لأخيه فارق: لك من برقة إلى المغرب، فهو صاحب إفريقية. وولده الأفارق. وأمر كل واحد من بنيه أن يبني لنفسه

(١) المقطّم: بضم أوله، وفتح ثانيه، وتشديد الطاء المهملة وفتحها، وميم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى لكنه لا نبت فيه ولا ماء غير عين صغيرة تنزّ في دير للنصارى بالصعيد. . . (معجم البلدان).

(٢) أيلة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام؛ وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. . قال أبو زيد: أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة لليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير؛ وقال أبو المنذر: سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام؛ وقال أبو عبيدة: أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطىء بحر القلزم تعد في بلاد الشام. . (معجم ياقوت).

(٣) برقة: بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن؛ قال بطليموس: طول مدينة برقة ثلاث وستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق تحت تسع درجات من السرطان وست وخمسون دقيقة يقابلها مثلها من الجدي. . . وفي برقة قبر رويفع صاحب النبي ﷺ؛ وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك، ولها آبار يرتفق بها الناس، ولها ساحل يقال له أجية. . . (معجم ياقوت).

مدينة في موضعه. وأمر مصريمُ عند موته أن يحفروا له في الأرض سَرَبًا وأن يفرشوه بالمرمر الأبيض ويجعلوا فيه جسده، ويدفنوا معه جميع ما في خزائنه من الذهب والجوهر، ويَزبروا عليه أسماء الله تعالى المانعةَ من أخذه. فحفروا له سربًا طوله مائة وخمسون ذراعًا، وجعلوا في وسَطه مجلسًا مصفّحًا بصفائح الذهب، وجعلوا له أربعة أبواب، على كل باب منها تمثال من ذهب عليه تاج مرصّع بالجوهر، جالس على كرسيّ من ذهب قوائمه من زَبرجَد، وزبروا في صدر كل تمثال آيات عظامًا مانعة، وجعلوا جسده في جُرْن من المرمر مُصفَّح بالذهب وَزَبَرُوا على مجلسه: مات مصريم بن بيصر بن حام بعد سبعمائة عام مضت من أيام الطوفان، ومات ولم يعبد الأصنام، إذ لا هرَم ولا سَقام، ولا حُزْن ولا اهتمام، وحصنه بأسماء الله العظام، لا يصل إليه إلا ملك ولدته سبعة ملوك يَدين بدين الملك الديّان، ويؤمن بالبعث[١] والفُرقان[٢]، الداعي إلى الإيمان في آخر الزمان. وجعلوا معه في ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجَد المخروط، وألفَ تمثال من الجوهر النفيس، وألفَ بَرْنيّة مملوءة من الدرّ الفاخر والصَّنْعة الإلٰهية، والعقاقير البرّيّة، والطلّسمات العجيبة، وسبائك الذهب مكدّسةً بعضها على بعض، وسقّفوا ذلك بالصخور العظام وهالوا فوقها الرمال بين جبلين.

واستقلّ قبْطيم بالملك بعد أبيه.

ويقال: إنّ قِبْط مصر منسوبون إليه. وهو أوّل من عمل العجائب وأثار المعادن، وشقّ الأنهار. ويقال: إنه لحق البلبلة[٣] وخرج منهم بهذه اللغة القِبْطية، وعمِل ما لم يعمله أبوه من نَصْب الأعلام والمنارات والعجائب والطلّسمات. ومَلَكهم قبطيم أربعمائة وثمانين سنة ومات؛ فاغتمّ عليه بنوه وأهله ودُفن في الشرق في سَرَب تحت الجبل الكبير الداخل، وصَفّحوه بالمرمر الملوّن وجعلت فيه منافذ للرِّياح؛ فهي تتخرّق فيه بدويّ عظيم هائل، وجُعل فيه من الكبريت الأحمر وأُكَر[٤] من نحاس مطليّة بأدوية مُشعِلة لا تُطفأ، ولطّخوا جسده بالمرّ والكافور والمُومِيا[٥]، وجعلوه في

(١) البعث: النشر، ويوم البعث يوم القيامة.

(٢) الفرقان: كل ما فرق بين الحق والباطل؛ وهو القرآن أيضًا.

(٣) البلبلة: اختلاط الألسن.

(٤) الأكر: جمع الأكرة، وهي الكرة.

(٥) موميا: لفظ يوناني معناه حافظ الأجساد وهو ماء أسود كالقار يقطر من سقف غور من بلد بأعمال إصطخر بفارس فيجمد قطعًا تستخرج يوم نزول الميزان بإذن الملك وأول ما عرفت هذه ثم وجد بساحل البحر الغربي من أعمال قرطبة وجبال المصمودة ما يشاكلها... وأجود الموميا البراق الشديد البياض الطيبة الرائحة تبقى قوتها أربعين سنة... (تذكرة داود الأنطاكي ص٣٢٥).

جُرْن من ذهب في ثياب منسوجة بالمَرجان[١] والدرّ، وكشفوا عن وجهه وجعلوه تحت قبّة ملوّنة، في وَسَطها درّة معلّقة تُضيء كالسراج، والقبّة على أعمدة بين كلّ عمودين تمثالٌ في يده أُعجوبة، وجعلوا حول الجُرْن توابيتَ مملوءة جوهرًا وذهبًا وتماثيل وصَنْعة وغيرَ ذلك، وحول ذلك مصاحف القِبْط والحكمة، وسدّوا عليه بالصخور والرَّصاص وزَبَروا عليه كما زَبَروا على ناووس أبيه.

وملك بعده ابنه قُفْطريم بن قُبْطيم؛ وكان أكبرَ ولد أبيه؛ وكان جبّارًا عظيم الخَلْق، وهو الذي وضع أساسات الأهرام الدَّهْشوريّة وغيرها ليعمل منها كما عمل الأوّلون، وهو الذي بنى دَنْدَرة ومدينة الأصنام. ودَنْدَرة: بلد من بلاد إقليم قوص، وهي في البرّ الغربيّ مشهورة هناك. قال: وأثار من المعادن ما لم يُثره غيره، وكان يجرّ من الذهب مثلَ حَجَر الرحى[٢]، ومن الزَّبرجَد كالأُسطوانة، ومن الأسباد شم في صحراء الغَرْب كالقلّة[٣]. وعمِل من العجائب شيئًا كثيرًا. وبَنى منارًا عاليًا على جبل قِفْط يُرَى من البحر الشرقيّ، ووجَد هناك مَعدن زئبق فعمل منه بركة كبيرة، فيقال إنها هناك إلى الآن؛ وأما المنار فسقط. وعمل عجائب كثيرة. ويقال: إنه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب كثيرة، منها: الماء الملفوف القائم كالعمود لا ينحلّ ولا يذوب، والبركة التي تسمّى فلسطين، أي صيّادة الطير، إذا مرّ عليها الطير سقط فيها ولم يمكنه أن يبرح حتى يؤخَذ. وعمل أيضًا عمودًا من نحاس عليه صورة طائر إذا قرُبت الأُسْد والحيّات والأشياء المضرّة من تلك المدينة صفر صفيرًا عاليًا فترجع تلك الدوابّ هاربة. وكان على أربعة أبواب هذه المدينة أربعةُ أصنام من نحاس لا يقرُب منها غريب إلاّ ألقى عليه النوم والسُّبات، فينام عندها ولا يستيقظ حتى يأتيه أهل المدينة وينفخون في وجهه فيقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لم يزل نائمًا عند الأصنام حتى يهلك. وعمِل منارًا لطيفًا من زجاج ملوّن على قاعدة من نحاس، وعلى رأس المنارة صورة صنم من أخلاط كثيرة، وفي يده كالقوس كأنه يرمي عنها، فإن عاينه غريب وقف في موضعه لم يبرح حتى يُنجِيَه أهل المدينة. وكان ذلك الصنم يتوجّه إلى مهبّ الرياح الأربع من نفسه.

---

(١) المرجان: جنس حيوانات بحرية ثوابت، لها هيكل وكلس أحمر يعد من الأحجار الكريمة، ويكثر المرجان في البحر الأحمر.

(٢) الرحى: الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٣) القلّة: إناء من الفخار يشرب منها.

قال وقيل: إن هذا الصنم على حالته إلى الآن، وإنّ الناس تحامَوْا تلك المدينة على كثرة ما فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة خوفًا من ذلك الصنم أن تقع عين الإنسان عليه فلا يزال قائمًا حتى يتلف. قال: وكان بعض الملوك عمِل على قلعه فما أمكنه، وهلك لذلك خلق كثير. ويقال: إنه عَمِل في بعض المدن الداخلة مرآة من أخلاط ترى جميع ما يسأل الإنسان عنه وهي غربيّ البلد. قال: وعمِل خلف الواحات الداخلة مُدُنًا عمِل فيها عجائب كثيرة ووكّل بها الروحانيّين الذين يمنعون منها؛ فما يستطيع أحد أن يدنو منها ولا يدخلها أو يعملَ قرابين أولئك الروحانيين فيصل إليها حينئذ ويأخذ من كنوزها ما أحبّ من غير مشقّة ولا ضرر. قال: وأقام قفطريم ملكًا أربعمائة سنة. وأكثر العجائب عُملت في وقته ووقت أبنه البودَسِير. وكان الصعيد أكثرَ عجائب من أسفل الأرض. قال: وفي آخر أيام قفطريم هِلكت عاد بالريح العقيم.

ولمّا حضرت قفطريم الوفاةُ عُمِل له ناووس من الجبل الغربيّ قرب مدينة الكَهَنة، كان عمله لنفسه قبل موته في سَرَب في الجبل كهيئة الدار الواسعة وجعل دورها خزائن منقورة، وجعل في سقوفها مسارب للرياح، وبنى ذلك بالمرمر، وجعل في وسط الدار مجلسًا على ثمانية أركان مصفحًا بالزجاج الملوّن المسبوك، وجعل في سقفه جواهر وحجارةً تسرج، وجعل في كل ركن من أركان المجلس تمثالاً من الذهب بيده كالبوق، وجعل تحت القبّة دكّة[١] مصفّحة بالذهب، وجعل لها حوافيَ زَبَرْجَد، وفرش فوق الدكّة فرش الحرير، وجعل عليها جسده بعد أن لُطخ بالأدوية الممسكة، ومن جوانبه آلات الكافور المخروطة، وسُدِلت عليه ثياب منسوجة بالذهب، ووجهه مكشوف وعلى رأسه تاج مُلكه، وعن جوانب الدكّة أربع تماثيل مجوّفات من زجاج مسبوك مثل صُوَر النساء وألوانهن، بأيديهن كالمراوح من ذهب، وعلى صدره من فوق الثياب سيف صاعقيّ قائمه[٢] من الزبرجد، وجُعل في تلك الخزائن: من الزبرجد وسبائك الذهب والتيجان والجواهر وبراني الحِكَم وأصناف العقاقير والطِّلّسمات، ومن المصاحف الحاوية لجميع العلوم، ما لا يحصى قدره كثرة؛ وجُعل على باب المجلس ديك من ذهب على قاعدة من زجاج أخضر منشور الجناحين مزبور عليه آيات عظام مانعة، وجُعل على مدخل كل أَزَج صورتين من

(١) الدكة: مقعد مستطيل من خشب غالبًا يجلس عليه.
(٢) قائم السيف: مقبضه.

نحاس مشوّهتين بأيديهما سيفان كالبرق، ووراءهما بلاطة تحتها لوالب فمن وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه، وفي سقف كل أَزَج كرة عليها لَطُوخ مدبّر يُسرَج، وسُدّ باب الأَزَج بالأساطين ورصُّوا على سقفه البلاط العظام وردموا فوقها الرمال، وزبروا على باب الأَزَج: هذا الداخل إلى جسد الملك العظيم المهيب الكريم الشديد قفطريم ذي الأَيْد والفخر، والغلبة والقهر، أفَل[١] نجمه وبقِيَ ذكره وعلمه، فلا يصل أحد إليه، ولا يقدر بحيلة عليه، وذلك بعد سبعمائة وسبعين، ودورات مضت من السنين.

قال: ولمّا مات قُفْطريم ملك بعده ابنه البُودسير بن قفطريم؛ فتجبّر وتكبّر وعمِل بالسحر واحتجب عن العيون، وقد كان أعمامه أشمون وأتريب وصاملوكا على أحيازهم[٢] إلاّ أنه قهرهم بجبروته وقوّته، فكان الذكر له كما كان لأبيه. ويقال: إنه أرسل هِرْمِس الكاهن المصريّ إلى جبل القُمْر الذي يخرج النيل من تحته حتى عمِل هناك هيكل التماثيل النحاس، وعدل إلى البطيحة التي ينصبّ إليها ماء النيل. ويقال: إنه الذي عدّل جانبي النيل وقد كان يفيض في مواضع وينقطع في مواضع، وأمره البودسير أن يسير مغرّبًا فينظر إلى ما هناك، فوقع على أرض واسعة متخرّقة[٣] بالمياه والعيون كثيرة العُشْب، فبنى منائر ومتنزهات، وحوّل إليها جماعة من أهل بيته فعمَروا تلك النواحي وبنَوْا فيها حتى صارت أرض الغرب كلها عمارة، وأقامت كذلك مدة كثيرة وخالطهم البربر فتناكحوا؛ ثم إنهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، وكانت بينهم حروب فخرب البلد وباد أهله إلا بقية منازل تسمى الواحات هي موجودة إلى وقتنا هذا.

ويقال: إنه عمل عجائب كثيرة في وقته، منها: قبّة لها أربعة أركان وفي كلّ ركن منها كوّة يخرج منها كالدخان الملتفّ في ألوان شتّى يستدلّون بكل لون على شيء؛ فما خرج منه أخضر دلّ على العمارة وحسن النبات والزرع وصلاحه، وإن خرج الدخان أبيض دلّ على الجدب وقلّة الزكاء[٤]، وإن خرج أمر دلّ على الدماء والحروب وقَصْد الأعداء، وإن كان أسود دلّ على كثرة الأمطار والمياه وفساد بعض

---

(١) أفل النجم: غاب.
(٢) الحيز: كل جمع منضم بعضه إلى بعض، والمراد هنا ما كان تحت حكم الملك أو الأمير من المدن والقرى.
(٣) الأرض المتخرقة، أي التي بها الخريق، وهو مجرى الماء الذي ليس بقعير ولا يخلو من شجر.
(٤) الزكاء: النماء، يقال زكا الشيء يزكو زكاءً وزكوًا، نما.

الأرض بذلك، وإن كان أصفر دلّ على النيران وآفاتٍ[١] تحدُث في الفلَك، وما كان منها مختلطًا دلّ على مظالم الناس وتعدّى بعضُهم على بعض وإهمالِ ملوكهم لهم، وأشياء من هذا الضرب. وكانت هذه القبّة على منار أقام زمنًا طويلاً ثم هدمه بعض الملوك البربر؛ لأنه أراد غزو قوم بتلك الناحية فعلموا بحاله فانتقلوا عن ذلك الموضع إلى قُرب النيل فلمّا جاء ولم يجدهم هدمه.

ومما عُمِل له في الصحراء التي تقرُب منه ـ وكانت الوحش قد كثُرت وأفسدت عليهم زرعهم وكذلك خنازير الماء ـ شجرةٌ من نحاس عليها أمثالُ تلك الوحوش مُلَجَمة أفواهُها بخيوط من نحاس، فما يجوز[٢] بها من الوحش لا يستطيع الحراكَ ولا البَراح[٣] من عندها حتى يُؤخَذ قَبْضًا ويُقتَل؛ فأشبع الناسَ في لحوم تلك الوحوش وانتفعوا بجلودها زمانًا طويلاً إلى أن انتزعها بعض ملوك الغرب سرًّا من أهل مصر وقدّر أن ينصبها في بلدهم فتعمل له مثل ذلك، فلمّا عمِلها بطَلت؛ لأنهم كانوا يعملون ما يعملون بطالع يأخذونه له، فلا يزال عمله مستقيمًا إلى أن تغيّر عن مكانه فبطَل عمله.

ومما عُمِل في وقته أنّ غرابًا نقَر عين صبيّ من أولاد الكهنة فقلعها، فعمِل شجرة من نحاس عليها تمثالُ غراب من نحاس في منقاره حربة بادية الطرفين، منشور الجناحين، وكتب على ظهره كتابًا؛ فكانت الغربان تَقَع على تلك الشجرة ولا تبرح حتى تؤخَذ فتُقتل، ففنِيَ أكثر الغربان وزالت عن تلك الناحية إلى ناحية الشام. ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن أصاب بعضَ ملوكهم علّةٌ ووُصِف له فيها لحمُ غراب يطبُخه ويأكله ويشرب من مرقه[٤] فلم يُوجَد، فوجّه إلى آخر العمل الذي بمصر من ناحية الشام من يأتيه بغراب فأبطأ عليه، فأمر بنزع الشجرة فرجع الغربان وأخذ منها ما عولج به الملك قبل أن يرجع رسوله.

ومما عُمِل في وقته ـ وكانت الرمال قد كثُرت عليهم من ناحية الغرب حتى ظهرت على زروعهم ـ فعَمِل لذلك صنمًا من صوّان أسود على قاعدة منه وعلى كتفه شبه القفّة فيها كالمسحاة، ونقش على جبهته وصدره وذراعيه وساقيه حروفًا، وأقامه الكاهن بطالع أخذه له ووجهه إلى الغرب؛ فانكشفت تلك الرمال ورجعت إلى

(١) الآفات: جمع الآفة: وهي كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط.
(٢) جاز الموضع وبه: سار فيه وقطعه. (٣) البراح: مفارقة المكان.
(٤) المرق: الماء أغلي فيه اللحم فصار دسمًا. النوع أو الجزء منه: مرقة.

ورائها. فتلك الأكداس العالية في صحراء الغرب منها. ولم تزل الرمال تندفع عنهم إلى أن زال ذلك الصنم عن موضعه. قال: وأقام البودسير مدّة وٱحتجب عن الناس، وكان يتجلّى لهم في صورة وجه عظيم، وربما خاطبهم ولا يروْنه، ثم غبر[١] مدّة وهم في طاعته إلى أن رآه ٱبنه عديم وهو يأمره بالجلوس على سرير الملك.

فجلس عديم بن البودسير على الملك وكان جبارًا لا يطاق، عظيم الخَلْق، فأمر بقطع الصخور ليعمل هرمًا كما عمل الأوّلون. قال: وكان في وقته الملكان اللذان هبطا من السماء، وكانا في بئر يقال لها أفناوه، وكانا يعلّمان أهل مصر السحر. ويقال: إن عديم استكثر من علمهما ثم نُقلا إلى بابل.

قال: وأهل مصر من القبط يقولون إنهما شيطانان يقال لهما: مُهلة ومَهَالة، وليس هما المَلَكين. والمَلَكان ببابل في بئر هناك يغشاها السحَرة إلى يوم الساعة.

ولنصل هذا الفصل بخبر هاروت وماروت وإن لم يكن منه؛ وإنما الشيء بالشيء يذكر. والله أعلم.

ذكر خبر هاروت وماروت

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية. قال أبو إسحاق الثعلبيّ[٢] في تفسيره: وكانت قصّتهما ـ على ما ذكره ٱبن عباس رضي الله عنه والمفسّرون ـ أنّ الملائكة رأوْا ما يصعَد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة؛ وذلك في زمن إدريس عليه السلام فيعيّرونهم بذلك، ودعت عليهم الملائكة وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم في الأرض وٱخترتهم فهم يعصونك؛ فقال الله عزّ وجل لهم: لو أنزلتكم إلى الأرض وركّبت فيكم ما ركّبت فيهم لركبتم ما ٱرتكبوا؛ فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك؛ قال الله تعالى: فٱختاروا مَلَكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فٱختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة

---

(١) غبر: مكث وبقي.

(٢) أبو إسحاق الثعلبي: هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسر المشهور؛ كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف «التفسير الكبير». وله كتاب «العرائس» في قصص الأنبياء (ص)... والثعلبي صحيح النقل موثوق به. حدث عن أبي طاهر بن خزيمة والإمام أبي بكر بن مهران المقرىء، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ. توفي سنة ٤٢٧ هجرية... (وفيات الأعيان ١: ٧٩).

وأعبدهم. قال: وقال الكلبيّ: قال الله لهم: اختاروا ثلاثة فٱختاروا عَزًّا وهو هاروت، وعَزَايا وهو ماروت، وغُيّر ٱسمهما لمّا قارفا الذنب، وعزاييل؛ فركّب الله فيهم الشهوة التي ركّبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق. ونهاهم عن الشرك والقتل بغير حق، ونهاهم عن الزنى وشُرب الخمر. فأما عزاييل فإنه لمّا وقعتِ الشهوة في قلبه استقال ربَّه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه؛ فسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه. ولم يزل بعد ذلك مطأطئًا رأسه حياءً من الله تعالى. وأما الآخران فإنهما بقيا على ذلك، وكانا يقضيان بين الناس يومَهما فإذا أمسيا ذكرا ٱسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء. قال قَتادة: فما مرّ عليهما أشهر حتى افتتنا.

قال الثعلبيّ: قالوا جميعًا: وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزُّهَرة، وكانت من أجمل النساء. قال عليّ رضي الله عنه: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة في بلدها، فلمّا رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها فأبت وٱنصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك، فأبت وقالت: لا! إلا تعبدا ما أعبد، وتصلّيا لهذا الصنم، وتقتلا النفس، وتشربا الخمر. فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء؛ فإن الله عزّ وجل نهانا عنها، فٱنصرفت؛ ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر؛ فشربا فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا، فلمّا فرغا رآهما إنسان فقتلاه. قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم فمسخ الله عزّ وجل الزُّهَرة كوكبًا.

وقال عليّ بن أبي طالب والسدّي والكلبيّ رضي الله عنهم: إنها قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء. فقالا: بٱسم الله الأكبر. قالت: فما أنتما بمدركاني حتى تعلمانيه. فقال أحدهما لصاحبه: علّمها! قال: إني أخاف الله. قال الآخر: فأين رحمة الله! فعلّماها ذلك. فتكلّمت به وصعدت إلى السماء. فمسخها الله تعالى كوكبًا. فعلى قول هؤلاء هي الزُّهَرة بعينها، وقيّدوها فقالوا: هي هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسية «ناهيد»، وبالنبطية «بيدخت».

قال: ويدلّ على صحة هذا القول ما رواه الثعلبيّ بسنده إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ إذا رأى سُهَيلاً قال: «لعن الله سُهَيلاً إنه كان عشّارًا[1] باليمن ولعن الله الزُّهَرة فإنها فتنت مَلَكين».

---

(١) العشّار: من يأخذ على السلع مكسًا، وهي الضريبة؛ أو الذي يقبض عشر المال.

وقال مجاهد: كنت مع ٱبن عمر رضي الله عنهما ذاتَ ليلة فقال لي: ارمُقِ[1] الكوكبة فإذا طلعت فأيقظني، فلمّا طلعت أيقظته، فجعل ينظر إليها ويسبّها سبًّا شديدًا، فقلت: رحمك الله تسبّ نجمًا سامعًا مطيعًا لله؟ ما له يُسَبّ! فقال: إن هذه كانت بغيًا فلقِي المَلَكان منها ما لقِيا. وقال نافع: كان ٱبن عمر رضي الله عنهما إذا رأى الزُّهَرة قال: لا مرحبًا بها ولا أهلاً. وروى أبو عثمان النهدي عن ٱبن عباس رضي الله عنهما: أن المرأة التي فُتِن بها المَلَكان مُسِخَت، فهي هذه الكوكبةُ الحمراءُ، يعني الزُّهَرة.

قال الثعلبيّ: وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السيّارة التي جعلها الله قِوامًا للعالَم، وإنما كانت هذه التي فَتَنت هاروت وماروت ٱمرأة، كانت تسمّى زُهَرة من جمالها، فلمّا بغت جعلها الله تعالى شهابًا[2]، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها، وكذلك سُهَيل العشّار. والله أعلم.

قالوا: فلم أمسَى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عزّ وجل ففعل ذلك، فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فٱختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يعذّبان. واختلف العلماء في كيفيّة عذابهما فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هما معلّقان بشعورهما إلى قيام الساعة. وقال قَتادة: كُبِّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما. وقال مجاهد: إن جُبّا[3] مُلىء نارًا فجُعلا فيه. وقال حُصَيف: معلّقان منكّسان في السلاسل. وقال عُمَير بن سعد: منكوسان يُضرَبان بسياط الحديد. ورُوي أنّ رجلاً أراد تعلم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما، مُزرقّة أعينهما، مُسودّة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ قدرُ أربع أصابع، وهما يعذّبان بالعطش، فلمّا رأى ذلك هاله مكانهما فقال: لا إله إلا الله، وقد نُهِيَ عن ذكر الله هناك. فلمّا سمعا كلامه قالا: مَن أنت؟ قال: رجل من الناس. قالا: من أيّ أمة

---

(١) رمقه ببصره: أي أتبعه بصره بتعهده وينظر إليه ويرقبه.

(٢) الشهاب: النجم المضيء اللامع: أو هو جرم سماويّ يسبح في الفضاء، فإذا دخل في جوّ الأرض اشتعل، وصار رمادًا.

(٣) الجبّ: البئر الواسعة. جمع أجباب، وجباب، وجببة.

أنت؟ قال: من أمة محمد ﷺ. قالا: وقد بُعِث؟ قال نعم. قالا: الحمد لله! وقد أظهرا الاستبشار. فقال الرجل: وممّ استبشاركما؟ قالا: إنه نبيّ الساعة، وقد دنا انقضاء عذابنا.

قال: وأمّا كيفية تعلّم السحر، فقد رُوِيَ فيه خبرٌ جامعٌ، وهو ما رواه أبو إسحاق بسنده عن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ امرأة من أهل دُومَة الجندل[١] جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم نعمل به؛ قالت عائشة رضي الله عنها لعُروة: يا بن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ، فكانت تبكي حتى إني لأرحمها! تقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت؛ قالت: كان لي زوج فغاب عنّي فدخلتْ عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به فلعلّه يأتيك، فلمّا كان الليل جاءتني بكبشَيْن أسودَيْن فركبتُ أحدهما وركبتُ الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابِل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بكِ؟ فقلتَ: أتعلّم السحر، قالا: إنما نحن فتنة فلا تكفُري وارجعي، فأبيت فقلت: لا، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور فبُولي فيه، فذهبت ففزِعت فلم أفعل، فرجعت إليهما فقالا: فعلتِ؟ قلت نعم، قالا: هل رأيتِ شيئًا؟ قلت: لم أرَ شيئًا، فقالا: لم تفعلي، إرجعي إلى بلادك فلا تكفُري، قالت: فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور فبُولي فيه، فذهبت فاْقشعرّ جلدي فرجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: هل رأيتِ شيئًا؟ فقلت: لم أر شيئًا، فقالا: كذبتِ لم تفعلي، إرجعي إلى بلادك فلا تكفُري فإنك على رأس أمرك؛ قالت: فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التنُّور فبُولي فيه، فذهبتُ إليه فبلتُ فرأيت فارسًا مقنّعًا بحديد خرج منّي حتى ذهب في السماء وغاب عنّي حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت؛ قالا: فما رأيتِ؟ قلت: رأيتُ فارسًا مقنّعًا بالحديد خرج منّي حتى ذهب في السماء حتى ما أراه، قالا: صدقتِ، ذلك إيمانك خرج منك؛ اذهبي. فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئًا، وما قالا لي شيئًا. فقالت: لن تريدي شيئًا إلا كان؛ خذي هذا القمح فاْبذُري، فبذَرْت، قلت: أطلُعي، فأطْلعت[٢]، فقلت: أحقِلي،

(١) دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، وهي حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ. قال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّيء كانت به بنو كنانة من كلب. . . (معجم ياقوت).

(٢) يقال: أطلع الزرع، أي بدا.

فأحقَلت[١]، ثم قلت: أفركي[٢]، فأفركت، ثم قلت: أطحني، فأطحنت، ثم قلت: أخبزي، فأخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئًا إلا كان، سُقِط في يدي وندِمت. والله يا أمّ المؤمنين ما فعلتُ شيئًا قطّ، ولا أفعله أبدًا.

قال: وقال بعضهم: إنهما لا يتعمّدان تعليم السحر ولكنهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران باْجتنابه، فيتعلّم الشقيّ منهما في خلال صفتهما ويترك موعظتهما ونصيحتهما، فلا يكون على هذا التأويل كفرًا وإنما يكون العمل به كفرًا. وقد أنكر بعضهم أن يكونا مَلَكين قال: وإنما كانا مَلِكَيْن. وقرىء في الشواذّ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلِكَيْنِ﴾ (بكسر اللام). وقيل: كانا عِلْجين[٣] ببابل. حكاه القاضي عياض[٤] في كتاب الشفا. والله تعالى أعلم.

* * *

ولنرجع إلى أخبار عَدِيم بن البودسير الملك. قال: وعديم أوّل من صلب[٥]؛ وذلك أنّ اْمرأة زَنَت برجل من أهل الصناعات، وكان لها زوج من أصحابه، فأمر بصلبهما على منارتين، وجعل ظهر كلّ منهما إلى ظهر صاحبه، وزَبَر على المنارتين اْسمهما وما فعلاه وتاريخ الوقت الذي عُمِل ذلك بهما فيه، فاْنتهى الناس عن الزِّنى. قال: وبنى أربع مدائن وأودعها صنوفًا كثيرة من عجائب الأعمال والطِّلّسمات وغير ذلك، وكنز فيها كنوزًا كثيرة. وعمِل في الشرق منارًا وأقام على رأسه صنمًا موجّهًا إلى الشرق، مادًّا يديه يمنع دوابّ البحر والرمال أن تتجاوز حدّه، وزبر في صدره تاريخ الوقت الذي نصبه فيه؛ ويقال: إن هذا المنار قائم إلى وقتنا هذا؛ ولولاه لغلب الماءُ المالح من البحر الشرقيّ على أرض مصر. وعمل قنطرة على النيل في أوّل بلاد النوبة ونصب عليها أربعة أصنام موجّهة إلى أربع جهات الدنيا في يدي كل صنم جرسٌ يضرب به إذا أتاهم آت من تلك الناحية؛ فلم تزل بحالها إلى أن هدمها فِرعَوْن

(١) يقال: أحقل الزرع: إذا تشعب ورقه قبل أن تغلظ سوقه.

(٢) أفرك الزرع: أي بلغ أن يفرك باليد.

(٣) العلج: كل جاف شديد من الرجال.

(٤) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي؛ كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة منها «الإكمال في شرح كتاب مسلم» كمل به «المعلم في شرح مسلم» للمازري، ومنها «مشارق الأنوار» وهو كتاب مفيد جدًا في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة... (معجم البلدان ٣: ٤٨٣).

(٥) يعني لأجل الزنى.

موسى. وهو الذي عمل البربا على باب النوبة، ويقال: إنه عَمِل في إحدى المدائن الأربع التي ذكرناها حوضًا من صَوّان أسود مملوءًا ماء لا ينقُص على طول الدهر ولا يتغيّر؛ وكان أهل تلك الناحية يشربون منه ولا ينقُص ماؤه؛ وإنما عمل ذلك لبعدهم عن النيل وقُربهم من البحر المالح. وقد ذكر بعض كهنة القبط أن ذلك لقربهم من البحر المالح، لأن الشمس فيما ذكروا ترفع بحرّها بخارًا فيحصُل من ذلك البخار حرّ بالهندسة، وقيل بالسحر. وملكهم عَدِيم مائة سنة وأربعين سنة، ومات وهو ابن سبعمائة سنة وثلاثين سنة. وقيل: إنه دُفن في إحدى المدائن ذات العجائب في أَزَج من رخام ملوّن بزرقة، مبطّن برخام أصفر، وطُلِيَ جسده بما يُمسكه، وجُعل حوله كثير من ذخائره، وذلك وسط المدينة، فهي محروسة بما يمنع منها من الروحانيّين.

قال: وذكر بعض القبط أنّ عديمًا هذا عمل لنفسه في صحراء قِفْط[١] على وجه الأرض قبّة عظيمة من زجاج أخضر برّاق، معقودة على ثمانية آزاج من صِنفها، على رأسها أكرة من ذهب، عليها طائر من ذهب، متوشّح بجوهر، منشور الجناحين، يمنع من الدخول إليها، وقطرها مائة ذراع في مثلها، وجعل جسده في وسطها على سرير من ذهب مشبّك وهو مكشوف الوجه، وعليه ثياب منسوجة بذهب مغروزة بجوهر منظوم؛ والآزاج مفتحة، طول كل أَزَج ثمانية أذرع، وارتفاع القبّة أربعون ذراعًا تُلقي الشعاعَ على ما حولها من الأرض، وجُعل حوله في القبّة مائة وسبعون مصحفًا من مصاحف الحكمة، وسبع موائد عليها أوانيها، منها: مائدة من أدرك[٢] رمّانيّ أحمر وآنيتها منها. ومائدة من ذهب فيلموني يخطَف البصر، وهو من الذهب الذي تعمل منه تيجان الحكماء، وآنيتها منها. ومائدة من حجر الشمس المضيء بآنيتها. ومائدة من الزبرجد المخروط الذي يخالطه شعاع أصفر بآنيتها، قال: وهذا الزبرجد إذا نظرت إليه الأفاعي سالت عيونها. ومائدة من كبريت أحمر مدبّر بآنيتها. ومائدة من ملح مدبّر برّاق يكاد نوره يخطف الأبصار بآنيتها. ومائدة من زئبق معقود وقوائمها وحافاتها من زئبق أصفر معقود مضيء، وعليها آنية من زئبق أحمر معقود. وجُعل في القبّة جواهر كثيرة ملوّنة وبرانيّ صنعة مدبّرة، وجُعل حوله سبعة أسياف صاعقية وكاهنية وأتراس

(١) قفط: بكسر أوله، وسكون ثانيه، كلمة عجمية لا يعرف في العربية لها أصلاً، وهي مسماة بقفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وهي مدينة تقع ما بين الصعيد الأعلى وأسوان من الديار المصرية. كان الغالب على معيشة أهلها التجارة والسفر إلى الهند وليست على ضفة النيل بل بينهما نحو الميل، وبينها وبين قوص نحو الفرسخ. . . (معجم البلدان).

(٢) الأدرك: الحجر الأحمر.

من حديد أبيض مدبّر، وجُعل معه تماثيل أفراس من ذهب، عليها سروج من ذهب وسبع توابيت من الدنانير التي ضربها وصوّر عليها صورته، وجُعل معه من أصناف العقاقير والسمومات والأدوية في برانيّ الحَنْتم[١]، ومن أصناف الأحجار شيء كثير.

قال: وقد ذكر من رأى تلك القبة وأقاموا عليها أيامًا فما قدروا على الوصول إليها، وأنهم إذا قصدوها وكانوا منها على مقدار ثمانية أذرع دارت القبّة عن أيمانهم وشمائلهم وقد عاينوا ما فيها. ومن أعجب ما ذكروا أنهم كانوا يحاذون آزاجها أزَجًا أزَجًا فلا يرون غير الصورة التي يرونها من الأزَج الآخر على معنى واحد. وذكروا أنهم رأوا وجهه في قدر ذراع ونصف بالذراع الكبير، ولحيته كبيرة مكشوفة، وقدّروا طول بدنه عشرة أذرع وزيادة، وأنهم لمّا تهيأ أن يصلوا إليها فنيَ ماؤهم وخافوا على أنفسهم فرجعوا ليمتاروا[٢] ما يكفيهم من الزاد ففعلوا، ثم رجعوا فأقاموا أيامًا يطوفون تلك الصحراء، ثم أخبروا أنهم رأَوْا بها عجائب كثيرة وصنوفًا من الوحش لم يَرَوْا مثلها.

قال: وفي كتبهم أنهم لا يصلون إليها إلا بأن يُذبَح لها ديك أفرق[٣] ويبخّر بريشه من بعد، ثم يسأل من المرّيخ الوصول حتى يصل، وتكون الكواكب النيّرة على مثل ما كانت عليه وقتَ نَصَبَهَا من اجتماعها في البروج: يكون زُحَل والمُشْتَرِي والمرّيخ في بُرْج واحد، والشمسُ والقمر في بُرْج واحد، والزُّهَرة وعُطارد في بُرْج واحد، ويتكلّم عليها بصلاة الكهنة سبع مرّات، فإذا وصل إليها لطّخ حائطها بدم الديك الذي قرّبه لها ويأخذ ما شاء من المال والتماثيل ولا يكثر المقام فيها ولا يقيم غير ساعة واحدة.

قال: وذكر هؤلاء الذين رأَوْها أنهم لم يكونوا من تلك الناحية وإنما خرجوا يطلبون غيرها؛ فإنهم سألوا أهل قِفْط عنها فلم يجدوا مَن يعرفها ولا رآها غير رجل شيخ منهم، فإنه ذكر أن ابنًا له خرج في بعض الأمور ومعه جملٌ له فرآها ولم يصل إليها، وبحث عن أمرها فعرف أن قومًا من الشرق جاؤوا في طلبها وأنهم أقاموا يطوفون بقِفْط أيامًا وخرجوا إليها فما رجع أحدٌ منهم ولا عُرِف لهم خبر.

---

(١) الحنتم: جرار خضر تضرب إلى الحمرة.

(٢) امتار: لنفسه أو لأهله: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٣) الديك الأفرق: الذي انشق عرفة خلقة.

قال: وكان عديم قد أوصى إلى ٱبنه شدّاث عند موته أن ينصِبَ في كل حيّز من أحياز عمُومته منارًا ويزبرَ عليه ٱسمه، فٱنحدر إلى الأُشمونين فعمل منارًا وزبر عليه ٱسمه وعمل بها ملاعب، وعمل في صحرائها منارًا وأقام عليه صنمًا ذا رأسين بٱسم كوكبين كانا مقترنين في الوقت الذي خرج فيه إلى أتريب وبنى فيها قبّة عظيمة مرتفعة على عُمُد وأساطين بعضها فوق بعض، وجعل على رأسها صنمًا صغيرًا من ذهب، وعمل هيكلًا للكواكب. وكان أبوه البودسير أوّل من أقام للكواكب فأخذ ذلك عنه. ومضى إلى حيّز صا فعمل فيه منارًا على رأسه مرآة من أخلاط نورِي الأقاليم، ورجع إلى أبيه فعهد له بالملك.

فملك شدّاث بن عَدِيم وهو الذي بنى الأهرام الدهشوريّة من الحجارة التي قُطعت في زمان أبيه. قال: مَن أنكر أن يكون العادِيّة دخلوا مصر إنما غلطوا بٱسم شدّاث بن عديم فقالوا شدّاد بن عاد لأنه أكثر ما يجري على ألسنتهم، وقلة ما يجري على ألسنتهم شدّاث بن عديم؛ وإلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر ولا قوي على أهلها غيرِ بُخْتَ نصّر. وشدّاث الذي عمل مصاحف النارنجيّات، وعمل هيكل أرمنت[1] وأقام فيه أصنامًا بأسماء الكواكب من ذهب وفضة وحديد أبيض ونحاس مذهب ورصاص مُصفّى وزئبق معقود. وهذه الأجساد المعدنيّة في طباع الكواكب وفي قسمتها. فلما فرغ منه زيّنه بأحسن زينة ونقشه بأحسن النقوش من الجواهر الملوّنة والزجاج المعمول الملوّن وكساه الوشي والديباج[2] ولم يترك شيئًا من التحف إلا عمله، وكذلك عمل في المدن الداخلة من أَنْصِنا[3] هيكلًا، والقبّة التي أقامها بأتريب[4] وهيكلًا شرقيّ الإسكندرية، وأقام لزُحَل صنمًا من صَوّان أسود على عبر النيل من الجانب الغربيّ. وبنى شدّاث من الجانب الشرقيّ مدائن وجعل فيها صورة

(١) أرمنت: بلدة بصعيد مصر الأعلى، بينها وبين الأقصر في سمت الجنوب بعض مرحلة، وبينها وبين أسوان مرحلتان..

(٢) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير (فارسي معرب).

(٣) أنصنا: بلدة بالصعيد الأوسط وبها آثار عظيمة أولية، وهي على شط النيل من البر الشرَقي قبالة الأشمونين من البر الآخر، ولها مزدرع كثير، وهي المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون.

(٤) أتريب: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وباء: اسم كورة في شرقي مصر مسماة بأثريب بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وقصبة هذه الكورة عين شمس، وعين شمس خراب لم يبق منها إلا آثار قديمة.

صنم قائم له إحليل إذا أتاه المعقود والمسحور ومن لا ينتشر فمسّه بكلتا يديه أزال عنه ذلك وانتشر وقَوِيَ على الباه، وجعل في إحداها بقرة لها ضَرْعان كبيران إذا مسحتهما المرأة التي ٱنعقد لبنها درّ وصلُح أمرها.

وفي أيامه بُنيت قُوص[١] العالية، بناها لابنٍ له كان سَخِط على أمّه فحوّلها إليها وأسكن معها قومًا من أهل الحكمة وأهل الصناعات. وقيل: إن شُطْب[٢] بُنيت في أيامه؛ وعمِل الصورتين الملتصقتين لكثرة النسل. وكانت الحبش والسودان عاثوا في بلده فأخرج لهم ٱبنه منقاوش في جيش عظيم فقتل منهم وسبى وٱستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنّة لهم، واقتطع معدن الذهب من أرضهم وأقام ذلك السبْيَ يعملون فيه ويحملون الذهب إليه؛ وهو أوّل من أحَبّ الصيد وٱتخذ الجوارح، وولّد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية، وعمِل البَيْطرة وما تعالج به الدوابّ، وعمل من العجائب والطلّسمات لكل فنّ ما لا يُحصَى كثرة، وجمع التماسيح، بطلّسم عمله لها، إلى بركة بناحية أسيوط[٣] فكانت تنصبّ إليها من النيل انصبابًا فتقتلها، وتستعمَل جلودها في السفن وغيرها، وتستعمَل لحومها في الأدوية والعقاقير المؤلّفة. قال: وبعض القبط يَحكي أنه عمل بمصر اثنتي عشرة ألف أعجوبة وطلّسمًا، ولم يعمل في بلد كما عمل فيها ولا تهيّأ لأهله ما تهيّأ لهم من ذلك.

قال: وأقام شدّاث في المُلْك تسعين سنة وخرج يَطرد[٤] فأكبّ فرسُه في وَهْدة[٥] فقتله. وفي بعض كتبهم: أنه أخذ بعض خدمه، وقد خالفه في أمر من الأمور، فأمر بطرحه من أعلى الجبل إلى أسفل فطُرح فتقطّع جسده، وندم على فعله ذلك فرأى في منامه أنه سيصيبه مثل ذلك فكان يتوقّاه، وآلى على نفسه ألا يعلو جبلًا، وأوصى إن أصابه شيء أن يُجعل ناووسه في الموضع الذي يلحقه فيه ما يلحقه، ويُزبر عليه: لبس ينبغي لذي القُدرة أن يخرج عن الواجب ويفعل ما لا يجوز

(١) قوص: أعظم مدائن الصعيد وهي على ضفة النيل الشرقية سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم، وهي باب مكة واليمن وسواكن..

(٢) شطب: مدينة من المدن التي أخربها بخت نصر وأحرقها، وهي بالقرب من أسيوط.

(٣) أسيوط: مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر، وهي مدينة جليلة كبيرة، قيل فيها خمسًا وسبعين كنيسة للنصارى، وهم بها كثير، وقيل: صورت الدنيا للرشيد فلم يستحسن إلا كورة أسيوط... (معجم البلدان).

(٤) يطرد: يصطاد.

(٥) الوهدة: الأرض المنخفضة. جمع: وهد، ووهاد.

له فعله، وهذا ناووس شدّاث بن عَديم بن قفطريم الملك، عَمِل ما لا يحلّ له فكوفىء عليه بمثله.

قال: ولمّا هلك عُمِل له سَرَب في سفح الجبَل فيه قبّة على مجلس قد صُفّح بالفضّة وجُعل فيه على سرير مُلْكه، وجُعل معه من الأموال والجواهر والتماثيل وأصناف الحِكَم والمصاحف شيءٌ كثير. وكان له أربعمائة وأربعون سنة.

وملك بعده ٱبنه منقاوُش بن شدّاث؛ فملك بحزم وحُنْكة وأظهر مصاحف الحكَم وأمر بالنظر فيها، وأن يُنسَخ منها لهم بخطّ العامّة ليفهموها، وردّ الكهنة إلى مراتبهم. وهو أوّل مَن عُمل له الحمّام من ملوك مصر. وكان كثير النكاح؛ تزوّج عدّة نساء من بنات عمه وبنات الكهنة، وجعل لكل ٱمرأة منهن مكانًا بجميع ما يُصلِحه من البنيان العجيب والصور المتقنة والغروس الحسنة والآلات العجيبة، وأسكنهنّ فيها. وقد قال بعض أهل الأثر(١): إنه الذي بنى منف(٢) لبناته وكنّ ثلاثين بنتًا ونقلهنّ إليها، وعَمِل مدنًا غيرها ومصانع، وعمل هيكلاً لصُوَر الكواكب وأصنامها على ثمانية فراسخ من منف، وعمل بتلك الناحية طلّسمات كثيرة وعجائب أغرب فيها بفضل حكمة أبيه وجدّه، وعمل في السنة اثني عشر عيدًا لكل شهر عيدٌ يُعمَل فيه من الأعمال ما كان موافقًا لبُرْج ذلك الشهر؛ وكان يُطعم الناس في تلك الأعياد ويوسّع عليهم، ففرح الناس به ورأوْا معه ما لم يَروْه مع غيره، وفُتح عليه من المعادن ما لم يُفتَح على أحد، وألزم أصحاب الكيمياء العملَ فكانوا لا يفتُرُون(٣) ليلاً ولا نهارًا: فٱجتمع عنده أموال عظيمة وجوهرٌ كثيرٌ وزجاجٌ نفيس مسبوك وغير ذلك، فأحبّ كنزه فدعا أخًا له فقال له: قد ترى كثرة هذا الذهب والجوهر، وما عُمل من هذه التماثيل الكثيرة، ولست آمَنُ أن يتسامع بنا الملوك فيُغزُونا من أجله، فأمعِن في أرض الغرب ثم انظر مكانًا حريزًا(٤) خفيَّ الأثر ثم أحرزه فيه ثم ٱستره بعلامات وٱكتب صفة المكان وطريقه وعلامته. قال: ويقول أهل الأثر: إنه حمل معه ٱثنتي عشرة ألف

(١) الأثر: الخبر المرويّ والسنة الباقية.

(٢) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر، قال القضاعي: أصلها بلغة القبط مافة فعربت فقيل منف... وقيل: هي أول مدينة عمرت بعد أن أغرق الله تعالى قوم نوح. وبين منف وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وبينها وبين عين شمس ستة فراسخ، وقيل: إنه كان فيها أربعة أنهار يختلط ماؤها في موضع سرير فرعون..

(٣) لا يفترون: أي لا يسكنون ولا يلينون ولا يقصرون في أعمالهم.

(٤) الحريز: الحصين.

عجلة، منها من الجوهر ثلاثمائة عجلة، وسائرها من الذهب الإبريز الصفائح والمضروب، ومن آلات الملوك وطرائفهم وسلاحهم وأوانيهم؛ فسار في الجنوب يومًا ثم أخذ مغرّبًا[١] اليوم الثاني وبعض الثالث، فٱنتهى إلى جبل أسود مُنيف ليس له مصعد بين جبال مستديرة حوله، فعمل تحت ذلك الجبل أسرابًا ومغاور ودفن فيها ما كان معه وردمها وزبر عليها ورجع؛ فمكث أربع سنين يبعث كل سنة عَجَلاً[٢] عظيمة تُدفَن في نواح شتّى.

وهو الذي عمل في أنديمس[٣] المدينة بيتًا تدور به تماثيل لجميع العِلَل، وكتب على رأس كل تمثال ما يصلُح له من العلاج، فٱنتفع الناس بها زمانًا إلى أن أفسدها بعض الملوك ضنًا بالحكمة. وعمل في هذه المدينة صورة ٱمرأة مبتسمة لا يراها مهموم إلا زال همّه ونَسِيَه؛ وكان الناس يأتونها ويطوفون حولها ثم عبدوها من بعد. وعمل تمثالاً روحانيًا من صُفْر[٤] مُذهَب بجناحين لا يمرّ به زانٍ ولا زانية إلا كشف عورته بيده، وكان الناس يُمتحَنون به فامتنعوا من الزنى فَرَقًا[٥] منه، وٱستمرّ كذلك إلى زمن كَلْكَمن الملك؛ وذلك أن بعض نسائه، وكانت حظية عنده، عشقت رجلاً من خدم الملك وخافت أن ينتهي إليه خبرها فيمتحنها بذلك الصنم فيقتلها، فٱحتالت لذلك فخلا بها الملك في بعض الليالي، وهما يشربان، فأخذت في ذكر الزواني وجعلت تسبهنّ وتذمهنّ، فذكر الملك ذلك الصنمَ وما فيه من المنافع للناس، وما يستحقّ مَن عمله من الثناء والذكر الجميل؛ فقالت المرأة: إنه كذلك وقد صدق الملك، غير أن منقاوش لم يُصب الرأي في أمره؛ قال الملك: وكيف قلت ذلك؟ قالت: لأنه أتعب نفسه وحكماءه فيما جعله لصلاح العامّة دون نفسه، وهذا أكبر العجز؛ وإنما كان حُكْم هذا التمثال أن يُنصَب في دار الملك حيث تكون نساؤه وجواريه، فإن ٱقترفت إحداهنّ ذنبًا علم بها فيكون رادعًا لهنّ متى عرض بقلوبهنّ شيء من الشهوة؛ لأن شهواتهنّ أغلب وأكثر من شهوات الرجال؛ ولو حدث ـ وأعوذ بسعد الله الأعلى ـ في دار الملك شيء من هذا فأحبّ امتحانه فضح نفسه وشاع في الخاصّ والعامّ أمره، وإن عاقب بغير أمر يتحققه كان متعدّيًا آثمًا، وإن لم يمتحنه صبر

(١) غرّب القوم: أي ذهبوا ناحية المغرب.
(٢) العجل: جمع العجلة، وهي الدولاب، والمراد بها هنا العربة.
(٣) أنديمس: مدينة لم نقع على وصف لها فيما توفر لنا من المظان.
(٤) الصفر: النحاس الأصفر.
(٥) الفرق: الخوف والفزع.

على المكروه. قال الملك: صدقت، فكيف الوجه في هذا الأمر؟ قالت: يأمر الملك ينزع هذا الصنم من مكانه ونقله إلى داره ففعل فبطل عمله، وٱمتحن فلم يصنع شيئًا، فعملت المرأة ما كانت همت به وٱنهمكت فيه.

قال: ويقال: إن منقاوش بنى هيكلاً للسحَرة على جبل القصير وقدّم عليه رجلاً منهم يقال له مسّيس، فكانوا لا يطلقون الرياح للمراكب المقلعة إلاّ بضريبة يأخذونها منهم للملك. وكان الملك إذا ركب عمِلوا بين يديه التخاييل[١] العجيبةَ، فيجتمع الناس إليهم ويعجبون من أعمالهم، وأمر أن يُبنَى لهم هيكل للعبادة يكون لهم خصوصًا، وجعل فيه قبّة فيها صورة الشمس والكواكب، وجعل حولها أصنامًا وعجائب، وكان الملك يركب إليه ويقيم سبعة أيام، وجعل فيه عمودَيْن زبر عليهما تاريخ الوقت الذي عُمل فيه، وهما بعين شمس، ونقل منقاوش إلى عين شمس كنوزًا وجواهر وطلّسمات وعقاقير وعجائب ودفنها بها وبنواحيها.

قال: وكان منقاوش قسم خراج البلاد أرباعًا: فربع منه للملك خاصة يعمل منه ما يريد، وربع لأرزاق خدمه، وربع ينفق في مصالح الأرض وما يحتاج إليه من حفر ترعها وعمل جسورها وتقوية أهلها على العمارة، وربع يدفن لحادثة تحدُث وحاجة تنزل. وكان خراج البلد في ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار. وهو مقسوم على مائة وثلاث كور[٢] بعدّة الآلاف. وأقام ملكًا إحدى وسبعين سنة، ومات من طاعون أصابه، وقيل: من سمّ جُعل له في طعامه، وعُمل له ناووس في صحراء المغرب، وقيل: في غربيّ قُوص[٣]؛ ودُفن معه من مصاحف الحكمة والصنعة المعمولة وتماثيل الذهب والجوهر. ومن الذهب المضروب شيء كثير، ودُفن معه روحانيّ الشمس من ذهب يلمع، وله جناحان من زَبَرْجَد، وصنم على صورة ٱمرأته التي كانت أحظى نسائه عنده وكان يحبّها، فأمر أن تُعمَل صورتها في هياكلهم جميعًا،

(١) التخاييل: هي التمويه بالحيل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيل للناظر أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرًا حقيقيًا يخيل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه.

(٢) الكور: جمع الكورة، وهي، فيما ذكر حمزة الأصبهاني، اسم فارسي بحت، يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسمًا للأستان.. وقال صاحب معجم البلدان: الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة..

(٣) قوص: أعظم مدائن الصعيد وهي على ضفة النيل الشرقية سميت باسم قوص بن قفط بن إخميم...

فعُمل له تمثالها من ذهب بذؤابتين من ذهب أسود، وألبست حلّة من جواهر منظومة وجعلت جالسة على كرسيّ، فكانت تجعل بين يديه في موضع تجلس فيه يتسلّى بذلك عنها، فدُفنت معه عند رجليه.

وملك بعده ابنه مناوش بن منقاوش؛ ملك بوصيّة من أبيه، فطلب الحكمة على عادة أبيه واستخرج كتبها وأكرم أهلها، وبذل فيهم الجوائز وطلب الإغراب[1] في عمل العجائب، وكان كل واحد من ملوكهم يجهد جهده في أن تُعمَل له غريبة من الأعمال لم تُعمَل لمن كان قبله وتثبت في كتبهم وتزبر على الحجارة في تواريخهم. قال: ومناوش هذا أوّل من عبد البقر من أهل مصر، وكان السبب في ذلك أنه اعتلّ علّة يئس منه فيها، وأنه رأى في منامه صورة روحانيّ عظيم يخاطبه ويقول له: إنك لا يخرجك من علّتك إلا عبادة البقر لأن الطالع كان وقت حلولها بك في صورة ثور بقرنين؛ ففعل ذلك، وأمر بأخذ ثور أبلق[2] حسن الصورة، وعمل له مجلسًا في قصره وسقفه بقبّة مذهبة، فكان يبخّره ويطيّب موضعه، ووكّل به سادنًا يقوم به ويكنس تحته، وكان يتعبّد له سرًا من أهل مملكته، فبرأ من علّته وعاد إلى أحسن أحواله.

ويقال: إنه أوّل من عمل العَجَل[3] وضبّبها[4] بالذهب، وعمل فيها قبابًا من الخُشب المذهبة وفُرشت بأحسن الفرش، وكان يركب عليها مع مَن أحبّ. وقيل: إنه عُمل له ذلك في علّته لأنه كان لا يقدر على الركوب؛ وكانت البقر تجرّه فإذا مرّ بالمكان النزِه أقام فيه، وإن مرّ بالمكان الخراب أمر بعمارته. وقيل: إنه نظر إلى ثور أبلق من البقر الذي يجرّ عجلته فأعجبه حُسن بَشَرته فأمر بترفيهه وسَوْقه بين يديه إلى كل موضع يسلكه إعجابًا به، وجعل عليه جُلاً[5] من الدِّيباج المنسوج بالذهب، فلما كان في بعض الأيام ـ وقد خلا في موضع منفرد عن أتباعه والثور قائم بين يديه ـ إذ خاطبه الثور وقال: لو رفّهني الملك عن السير معه وجعلني في الهيكل وعبدني وأمر أهل مملكته بعبادتي كفيته جميع ما يريده، وعاونته على أمره، وقوّيته في مُلكه،

---

(١) الإغراب: الإتيان بالشيء الغريب.

(٢) الثور الأبلق: الذي يكون فيه سواد وبياض.

(٣) العجل: جمع العجلة، وهي الدولاب؛ والمراد بها هنا العربة.

(٤) يقال: ضبّب الخشب ونحوه: أي ألبسه الحديد ونحوه.

(٥) الجلّ: ما تغطى به الدابة لتصان، جمع: جلال وأجلال.

وأزلت عنه جميع عِلَله؛ فأرتاع لذلك وأمر بالثور أن يُغسَل ويطيَّب وينظَّف ويدخل الهيكل، وأمر بعبادته. وعُبد ذلك الثور مدّة وصارت فيه آية(١) أنه لا يبول ولا يَرُوث ولا يأكل إلاّ أطراف ورق القصب الأخضر في كل شهر مرّتين، فأفتتن الناس به وصار ذلك أصلاً لعبادة البقر.

قال: وابتنى مناوش مواضع وكنز فيها كنوزًا وأقام أعلامًا. وبنى في صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس(٢) وأقام فيها منارًا ودفن حولها كنوزًا. قال: ويقال: إن هذه المدينة قائمة، وإن قومًا جازوا بها من نواحي الغرب وقد أضلّوا الطريق فسمعوا بها عَزِيف(٣) الجنّ ورأوْا أضواء نيرانهم. قال: وفي بعض كتبهم أنّ ذلك الثور، بعد مدّة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف، ويُؤخَذ من رأسه هو شعرات، ومن ذنبه ومن نحاتة قرونه وأظلافه، ويُجعَل ذلك في التمثال، وعرّفهم أنه يُلحَق بعالَمه وأمرهم أن يجعلوا جسده في جُرن من حجر أحمر ويُدفَن في الهيكل ويُنصَب تمثاله عليه، ويكون ذلك وزُحَل في شَرفه والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث والقمر في الزيادة، ويُنقَش على التمثال علامات الكواكب السبعة ففعلوا ذلك، وعملت الصورة من ذهب ملمّع على شِبْه الثور، وجُعل له قرنان من ذهب وكُلِّلا بأصناف الجواهر، وجعلوا عينيه جَزْعتين(٤) سوادًا في بياض، ودفن جسد الثور في الجرن الأحمر.

قال: وجعل في المدينة شجرة تُطْلِع(٥) كل لون من الفاكهة، ومنارًا في وسطها طوله ثمانون ذراعًا، وعلى رأسه قبّة تتلوّن في كل يوم لونًا حتى تمضي سبعة أيام ثم تعود إلى اللون الأوّل فيكسو المدينة من تلك الألوان، وجعل حول المنار ماء شقّه إليه من النيل، وجعل في ذلك الماء سمكًا من ذلك اللون، وجعل حول المدينة طِلّسمات رؤوسها رؤوس قِرَدة وأبدانها أبدان الناس، كل واحد منها لدفع مضرّة أو اجتلاب منفعة، وعمل على أبواب المدينة، وهي أربعة أبواب، على كل باب صنمًا،

---

(١) الآية: المعجزة، أو العلامة.

(٢) ديماس: اسم موضع في وسط عسقلان عالٍ يطلع إليه وفيه عمد بقرب الجامع؛ وقيل هو سجن كان للحجاج بواسط؛ هذا ما ذكره ياقوت في معجم البلدان.

(٣) عزيف الجنّ: أصواتها.

(٤) الجزعتين: مثنى الجزعة: وهي القطعة من عقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان.

(٥) أطلع الشجر: أورق..

ودفن تحت كلّ صنم كنزًا من الكنوز؛ وباب كل واحد منها على قياس مائة ذراع منه إلى الجهة التي وجهه منصرف إليها، وكتب على كل واحد منها قُربانه وبخوره والوصول إليه، وأسكنها السحرة فكانت تعرف بمدينة السحرة، ومنها كانت أصناف السحرة تخرج.

قال: وأقام مناوش في الملك سبعًا وثلاثين سنة وهلك، وعُمل له ناووس تحت الجبل الغربيّ، وجعل وصيّتَه إلى ٱبنه من بعده هِرْميس بن منقاوش، فملك إحدى عشرة سنة لم يبنِ بنيانًا ولا نصب منارًا ولا عمل في أيامه أعجوبة حتى إنه لم يكن يذكر في عداد ملوكهم. فهذا ما أورده في أخبار قفطريم بن قبطيم وبنيه على توالٍ وٱتساق فلنذكر أخبار أشمون.

ذكر أخبار أشمون ومَن ملك من بنيه

هو أُشمون بن قبطيم بن مِصْريم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وهو أخو قفطريم أبي الملوك الذين قدّمنا ذكرهم. كان مُلْكه من أُشمونين إلى منف، ومن الشرق إلى البحر المالح، ومن الغرب إلى حدود برقة، وهو آخر حدّ مصر، ومن الصعيد إلى حدّ أخميم. وكان ينزل مدينة الأشمونين وله بُنيت وبٱسمه سُمِّيت، وكان طولها اثني عشر ميلًا في مثلها. قال إبراهيم: وأشمون أوّل من ٱتّخذ الملاعب بأنصنا[١] والبهنسا وغيرها، وبنى القصور وغرس الغروس، وبنى مدينة تُعرف بقمَنْطر ذات العجائب، وهي بالقُرب من مدينة السحَرة التي تقدّم ذكرها في أخبار منقاوش. قال: وفي وسط هذه المدينة قبّة تُمطر شتاءً وصيفًا مطرًا خفيفًا، وتحت القبّة مطهرةٌ فيها ماء أخضر يُتداوَى به من كل داء فيبرئه، وفي شرقها سَرَب[٢] لطيف له أربعة أبواب، لكل باب منها عِضادة[٣] صورة وجه يخاطب كل واحد منها صاحبه بما يحدُث في قومه، ومَن دخل تلك البربا على غير طهارة نفخوا عليه فأصابته عِلّة فظيعة لا تفارقه إلى أن يموت. وكانوا يقولون إنّ في وسطه مهبط النور وهو في صورة

(١) أنصنا: بلدة بالصعيد الأوسط، وبها آثار عظيمة أولية، وهي على شط النيل من البر الشرقي قبالة الأشمونين من البر الآخر، ولها مزدرع كثير، وهي المدينة المشهورة بمدينة السحرة ومنها جلبهم فرعون.

(٢) السرب: الحمر الخفيّ.

(٣) عضادتا الباب: خشبتان منصوبتان مثبتتان في الحائط على جانبيه.

العمود، مَن اعتنقه لم يحتجب عن نظره شيء من الروحانيّات، ويسمع كلامهم ويرى ما يعملون، وعلى كل باب من أبواب هذه المدينة صورة راهب في يده مصحف فيه علوم الكهنة، فمن أحبّ ذلك العلم أتى تلك الصورة فمسحها بيديه وأمرّهما على صدره، فيثبت ذلك العلم في صدره. ويقال: إن هاتين المدينتين قَمَنْطر ومدينة السحَرة بُنيتا على اسم هِرْمِس وهو عُطارد، وأنهما بحالهما.

قال: وحُكي عن رجل أنه أتى عبد العزيز بن مروان، وهو على مصر، فعرّفه أنه تاه في صحراء الشرق وأنه وقع على مدينة خراب، وأنه وجد فيها شجرة تحمل من كل فاكهة، وأنه أكل منها وتزوّد؛ فقال له رجل من القبط: هذه إحدى مدينتي هِرْمس وفيها كنوز كثيرة؛ فوجّه عبد العزيز معه جماعة وحمل معهم زادًا وماءً، فأقاموا يطوفون شهرًا في تلك الصحارى فلم يقفوا لها على أثر. ويقال: إن أُشمون عمِل في وقته على باب الأشمونين إوزّة من نحاس، فكان الغريب إذا دخل المدينة صاحت الإوزّة وخفقت بجناحيها فيعلَم به، فإن أحبّوا منعوه، وإن أحبّوا تركوه.

قال: وفي أيامه كثُرت الحيّات فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها الأدوية والدِّرياقات[١]، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادي الحيّات في جبال لوبية ومراقية[٢] فسجنوها هناك. قال: وهو أوّل من عمل النوروز[٣] بمصر ورتبه سبعة أيام يدمنون فيها الأكل والشرب واللهو. وفي زمانه بُنيت البهنسا وأقام بها أسطوانات، وجعل فيها مجلسًا من زُجاج أصفر وعليه قبّة مذهبة، فكانت الشمس إذا طلعت على القبّة ألقت شعاعها على المدينة. وعمل فيها عجائب كثيرة يطول الشرح بذكرها.

قال: ويقال إن أشمون كان أوّل إخوته ملكًا، وكان أعدل بني أبيه وأرغبَهم في صنعة تبقَى ويبقَى ذكرها. وهو الذي بنى المجالس المصفّحة بالزجاج الملوّن في وسَط النيل. وتزعم القِبْط أنه بنى سَرَبًا تحت الأرض من الأُشمونين إلى أَنْصِنا تحت

---

(١) الدرياقات: جمع الدرياقة، وهي الترياق، أو الخمر.

(٢) مراقية: بالفتح، والقاف مكسورة، والياء مخففة، إذا قصد القاصد من الإسكندرية إلى إفريقية فأول بلد يلقاه مراقبة ثم لوبية؛ ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبي رومان عبد الله بن يحيى بن هلال الإسكندري المراقي.

(٣) النوروز، أو النيروز (فارسي) معناه: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وعيد النوروز أو النيروز: أكبر الأعياد القومية للفرس.

النيل. وقيل: إنه عمله لبناته لأنهنّ كنّ يمضِينَ إلى هيكل الشمس. وكان هذا السرَب مبلّط الأرض والحِيطان والسقف بالزجاج الثخين الملوّن. وقيل: إنه كان أطول إخوته مُلْكًا. وقال أهل الأثر: إنه ملك ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا منه المُلْك بعد ستمائة سنة من مُلْكه وأقاموا تسعين سنة وٱستوبؤوا[١] البلد فٱنتقلوا إلى الدَّثِينة[٢] من طريق الحجاز إلى وادي القرى[٣] فعمروها واتخذوا بها المنازل والمصانع فسلّط الله عليهم الذَّرّ فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أُشمون بعد خروجهم من البلد. ويقال: إنه ملكهم ثمانمائة سنة وثلاثين سنة، ودُفن في أحد الأهرام الصِّغار القبليّة. وقيل: بل عُمل له ناووس في غربي الأشمونين ودُفن معه فيه من الأموال والعجائب شيء كثير، وأصنام الكواكب السبعة التي كانت في هيكل المرآة التي تُرى منها الأقاليم، ودُفن معه ألف سَرْج من ذهب وفضّة، وعشرة آلاف خابية صغار من ذهب وفضّة وزجاج، وألف عُقَّار مدبّرة لفنون الأعمال وزُبر عليه اسمه ومدّة مُلْكه والوقت الذي مات فيه.

وٱستخلف ٱبنه مناقيوس بن أشمون. وكان جَلْدًا محنّكًا فاستأنف العمارة وبنى القرى ونصَب الأعلام[٤]، وجمع الحكمة ومصاحف الملوك والحكماء وعمل العجائب، وبنى لنفسه مدينة وٱنفرد بها، وعمل عليها حصنًا ونصب عليه أربعة أعلام، في كل ركن من أركانه علَم، وبين تلك الأعلام ثمانون صنمًا من نحاس وأخلاط، في أيديها آلات السلاح وزبر على صدرها آياتها[٥].

قال: وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة من أعلم الناس بالسحر وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع، وكان يعلّم الغلمان السحر فإذا حذقوا علّم غيرهم؛ فأمر الملك أن تُبنَى له مدينة ويحوّل إليها فبُنيت، وهي إخميم. وملك مناقيوس نيّفًا وأربعين سنة ومات فدُفن في الهرم المحاذي لإطفيح، ونُقِل معه شيء كثير من المال والجواهر والآنية والتماثيل، وزُبِر عليه ٱسمه والوقت الذي مات فيه.

---

(١) استوبأ فلان البلد: استوخمها، أو وجدها وبئة.

(٢) الدثينة: ناحية بين الجند وعدن.

(٣) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى.

(٤) الأعلام: واحدها: علم، وهو شيء منصوب في الطريق يهتدى به. أو الراية، أو الجبل.

(٥) الآية: العلامة أو المعجزة.

وملك بعده ابنه ـ ولم يُسمّه إبراهيم ـ فكان أحزم من أبيه، فعظُم في عيون أهل مصر. وهو أوّل مَن عمل المَيْدان(١) وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه. وأوّل من عمل البيمارستانات(٢) لعلاج المرضَى والزمْنَى(٣) وأودعها العقاقير ورتّب فيها الأطبّاء وأجرى عليهم ما يسعهم، وأقام الأمناء على ذلك، وصنع لنفسه عيدًا وسمّاه عيد الملك؛ فكان الناس يجتمعون إليه في يوم من السنة، فيأكلون ويشربون سبعة أيام وهو يُشرف عليهم في مجلس قد بُنيَ له على عمد قد طُوِّقت ذهبًا وألبست فاخر الذهب المنسوج، وعليه قبّة مصفّحة من داخلها وخارجها بالذهب والزجاج المسبوك، وكان يعطي كلّ قوم قسطهم من النظر ثم يُكثرون الدعاء له وينصرفون إلى مواضعهم.

وفي أيامه بنيت سَنْتَرِيّة(٤) في صحراء الواحات، عملها من حجارة بيض مربّعة على تقدير واحد، وجعل في كل حائط من حيطانها بابًا في وسطه شارع ينتهي إلى الحائط المجاور له من الجهة الأخرى، وجعل في كل شارع أبوابًا يَمنة ويَسرة تنتهي طرقاتها إلى داخل المدينة، وجعل في وسط هذه المدينة ملعبًا يدور به من كل ناحية سبع درج؛ وعمل عليه قبّة من خشب مدهون على عمد عظيمة من رخام، وفي وسطه منار من رخام عليه صنم من صوّان أسود يدور مع الشمس بدَوَرَانها، وبسائر نواحي القبّة صور معلّقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة. وكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء، وعلى الثالثة رؤساء الجيش، وعلى الرابعة أصحاب الفلسفة والمنجّمون والأطبّاء وأصحاب العلوم، وعلى الخامسة أصحاب العمارات، وعلى السادسة أصحاب المِهَن، وعلى السابعة العامّة؛ فيقال لكل طائفة منهم: انظروا مَن دُونَكم ولا تنظروا مَن فَوْقكم، فإنكم لا تلحقونهم فكان في هذا ضربٌ من التأديب.

قال: وكان للملك عدّة نسوة، وكان يحبّ منهنّ امرأتين ويتخطاهما ويجمع بينهما في مجلس واحد، فمال لإحديهما في بعض الأيام دون الأخرى، فغارت وغَرَب عقلها وتناولت سكّينًا ودخلت إلى الملك وهو مغتر وتلك المرأة جالسة إلى جنبه فضربتها بالسكّين، وقام الملك دُونها ليمنعها منها فضربته على فؤاده فخرّ صريعًا، وقُبض على المرأة وحُبست، ومات الملك. وقد أوصى بقتل المرأة ووضع رأسها على ناووسه. ومدّة مُلكه ستون سنة.

---

(١) الميدان: فسحة من الأرض متسعة معدة للسباق أو للرياضة ونحوها.

(٢) البيمارستانات: جمع البيمارستان، وهي المستشفى. (فارسي معرب).

(٣) الزمنى: جمع الزَمِن، وهو الذي مرض مرضًا يدوم زمانًا طويلاً.

(٤) سنتيرية: مدينة في غربي الفيوم دون فزام السودان وهي آخر أعمال مصر.

وملك بعده اُبنه مرقورة الملك؛ فدخل عليه العظماء وهنؤوه ودعَوْا له بدوام المُلْك والنعمة، وكان حازمًا عاقلًا، فأخذ في حُسْن التدبير وتقويم العمارة وترتيب المراتب، وجعل لرأس الكهّان الحكومة في أمر الدِّين. قال: وفي كتبهم أنه أوّل مَن ذلّل السباع بمصر وركبها. قال: وبنى المدن وعمّر الهياكل وأقام الأصنام التي غربي منف، وكان مُلْكه نيّفًا وثلاثين سنة، وعُمل له ناووس على طريق الغرب على مسافة يومين.

وقلّد ابنه بلاطس بن مرقورة، فملك وهو صبيّ. وكانت أمّه تدبّر الملك مع الوزراء والكهنة، وكانت حازمة مجرّبة، فأجرت الأمور على ما كانت في حياة أبيه، وأحسنت إلى الأولياء، وعدلت في الرعيّة، ووضعت عنهم بعض الخراج فأحبّوها. وعُملت في وقته البركة العظيمة في صحراء الغَرْب، وجُعل في وسطها عمود طوله ثلاثون ذراعًا، في أعلاه قصعة من حجارة يفور منها الماء فهي لا تنقُص أبدًا، وجُعل حولها أصنام حجارة ملوّنة من كل صنف على صُوَر الحيوان والوحش والطير، وكان كل جنس يأتي إلى صورته ويألفها فيُؤخَذ ولا يدري.

قال: ولمّا ترعرع الملك أحبّ الصيد ولَهِج[1] به، فعمِلت له أمّه متنزّهًا فيه مجالس مركّبة على أساطين من المرمر مصفّحة بالذهب، عليها قباب مرصّعة بالتصاوير العجيبة والنقوش المؤلّفة، يطلُع من تحتها الماء في فوّارات[2] وتنصب إلى أنهار مصفّحة بالفضّة تُفضِي إلى حدائق فيها بدائع الغروس، عليها تماثيل تصفر بأصناف اللغات، ونُضِّدت بأنواع الفواكه، وأرخت عليها ستور الدِّيباج المنسوجة بالذهب، واُختارت له من بنات الملوك الحسان وأزوجته منهنّ، وبنت حول تلك الجنة مجالس يجلس فيها الوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات يرفعون إليه ما يعملونه، فكان أكثر مقام الملك في تلك الجنة، فإذا فرغوا من أعمالهم نُقِل إليهم الطعام والشراب من مطبخه، ولا يزالون في أكل وشرب بقية يومهم وليلتهم، وأقاموا على ذلك والأمور جارية على السداد.

وكانت أيامه سعيدة كثيرة الخِصْب والسعة للناس والعدل فيهم والإحسان إليهم. وكان له يوم يخرج فيه إلى الصيد ويرجع إلى جنّته فيأمر لمن معه بالجوائز والأطعمة والأشربة، ويجلس يومًا للناس فينظر في أمورهم ومصالحهم ويقضي حوائجهم،

---

(١) يقال: لهج بالأمر: أي أولع به فثابر عليه واعتاده.

(٢) الفوارة من الماء: منبعه.

ويجلس يومًا للخلوة بنسائه، ثم جُدر(١) فمات؛ وعُمل له ناووس في جنّته وجعل فيه من الأموال والجواهر والصنعة والتماثيل كما كان يجعل لآبائه. وكان ملكه ثلاث عشرة سنة، وانتقل المُلْك إلى أعمامه.

ذكر أخبار أتريب الملك

هو أتريب بن قِبْطيم بن مصريم بن بَيْصر بن حام بن نوح عليه السلام. قال: وكان أتريب قد انتقل إلى حيِّزه بعد وفاة أبيه قبطيم، وهي المدينة التي كان أبوه بناها له، وكان طولها اثني عشر ميلاً، ولها اثنا عشر بابًا، وفي شارعها الأعظم ثلاثُ قِباب عالية على عمد بعضها فوق بعض، منها قبّة في وسط المدينة، وقبّتان في طرفيها، وجعل على كل ركن منها مرقبًا(٢) كبيرًا يُوقَد ليلاً، وعلى كل باب من أبوابها حرسًا كثيرًا، وجعل في كل جانب منها ملعبًا ومجالس ومتنزّهات تشرف من تلك المجالس عليها، وشقّ في عرضها نهرًا وعمل عليه قناطر معقودة، وبنى فوقها مجالس يتّصل بعضها ببعض، وجعل حوله منازل تدور بالخليج متّصلة بالقناطر على رياض مزروعة وخلفها الأجنّة(٣) والبساتين، وعلى كل باب من أبوابها أعجوبة من تماثيل وأصنام متحرّكة وأصنام ينبع الماء من آذانها، ومن داخل كل باب صورة شيطانين من صُفْر، فكان إذا قصدها أحد من أهل الخير قهقه الشيطان الذي عن يَمنة الباب، وإن كان من أهل الريب بكى الشيطان الذي عن يَسرة الباب، وجعل في كل متنزّه منها من الوحوش الآلفة والطير المغرّدة كل مستحسَن، وجعل فوق قباب المدينة صورًا تصفر إذا هبّت الرياح، ونصب له فيها مرايا ترى البلدان البعيدة والعجائب الغريبة، وبنى حذاءها في الشرق مدينة وجعل فيها ملاعب وأصنامًا بارزة كثيرة في خلق مختلفة، وجعل في وسطها بركة إذا مرّ بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ، وجعل لها حصنًا باثني عشر بابًا وجعل على كل باب من أبوابها تمثالاً يعمل أعجوبة وعمل حولها أجِنّة، وجعل ما يقرُب منها من ناحية الشرق مجلسًا منقوشًا على ثماني أساطين، وفوق المجلس قبّة عليها طائر منشور الجناحين يصفر كل يوم ثلاث صَفَرات: بكرة، ونصف النهار، وعند الغروب، وأقام فيها أصنامًا وعجائب كثيرة، وبنى مدنًا كثيرة وأكثر من العمارات، وأقام رجلاً يقال له برسان يعمل الكيمياء،

---

(١) جدر فلان: أي أصابه الجدري، وهو مرض جلدي معد يتميز بطفح حليمي يتقيح ويعقبه قشر.

(٢) المرقب: موضع المراقبة، جمع مراقب. (٣) الأجنة: الحدائق ذات النخل والشجر.

وضرب منها دنانير، في كل دينار سبعة مثاقيل[١] عليها صورته، وعمل منها تماثيل كثيرة. وعاش أتريب في الملك ثلاثمائة سنة وستين سنة، وكانت سنّه خمسمائة سنة. وعُمل له ناووس في جبل بالشرق حُفر له تحته سَرَب بُطِّن بالزجاج والمرمر[٢] وجُعل على سرير من ذهب مرصّع وحُملت إليه ذخائره، وجُعل على بابه صورة تنّين[٣] لا يدنو منه أحد إلاّ أهلكه، وزبر عليه اسمه وتاريخ وقته، وسفَوْا[٤] عليه الرمال.

وملكت بعده ابنته تدرورة فدبّرت الملك وساسته بأيدٍ وقوّة خمسًا وثلاثين سنة ثم ماتت.

فقام بالملك بعدها أخوها فليمون بن أتريب؛ فردّ الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهّان على مواضعهم ولم يخرج الأمر عن رأيهم، وجدّ في العمارات وطلب الحكَم وعمل بها. وفي أيامه بُنيت تنّيس[٥] الأولى التي غرّقها البحر، وكان بينها وبين البحر شيء كثير، وحولها الزروع والأشجار والكروم والقُرى ومعاصر الخمر وغيرها وعمارة لم يكن أحسن منها، فأمر الملك أن يُبنَى له في وسطها مجالس، ويُنصَب له عليها قباب، وتزيّن بأحسن الزينة والنقوش، وأمر بفرشها وإصلاحها، وكان إذا بدأ النيل في الزيادة انتقل الملك إليها فأقام بها إلى النَّوْروز ورجع. وكان للملك بها أمناء يقسّمون المياه ويُعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك القُرَى حصن يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتي يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له متنزّهًا.

ويقال: إن الجنّتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه كانتا لأخوين من أهل بيت الملك أقطعهما الملك ذلك الموضع. وقد تقدّم ذكر خبرهما عند ذكرنا لبحيرة تِنِّيس، وهو في الباب السادس من القسم الرابع من الفن الأوّل في ذكر البحار والجزائر وهو في السفر الأوّل من كتابنا هذا.

---

(١) المثقال: جمع المثاقيل؛ والمثقال: وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع درهم.

(٢) المرمر: صخر رخامي جيريّ متحول يتركب من بلورات الكلسيت، يستعمل للزينة في البناء، ولصنع التماثيل.

(٣) التنين: حيوان أسطوري يجمع بين الزواحف والطير، ويقال: له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى. ويتخذ في بعض البلاد رمزًا قوميًا.

(٤) يقال: سفت الريح الرمل ونحوه؛ أي ذرته أو حملته.

(٥) تنيس: بكسرتين وتشديد النون، وياء ساكنة، والسين مهملة: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين العزما ودمياط، والعزما في شرقيها، كانت تعمل بها الثياب الملونة والفرش البوقلمون؛ وقد سميت تنيس باسم تنيس بنت دلوكة الملكة، وهي العجوز صاحبة حائط العجوز بمصر.

قال: وفي زمان فليمون بُنيت دمياط على ٱسم غلام له كانت أمّه ساحرة لفليمون. قال: وملك فليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووسًا في الجبل الشرقيّ، وحوّل إليه من الأموال والجواهر وسائر الذخائر شيئًا كثيرًا، وجعل من داخله تماثيل تدور بلوالب في أيديها سيوف فمن دخلها قطّعته بسيوفها. وجعل عن يمينه ويساره أسدَين من نحاس مذهب بلوالب أيضًا فمن دنا منهما حطّماه، وزبر على الناووس: هذا قبر فليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصريم، عمّر عمرًا، وبقي دهرًا، وأتاه الموت فما ٱستطاع له دفعًا، فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه، وليأخذ مما بين يديه.

وصار المُلْك بعده إلى ٱبنه قرسون بن فليمون؛ وجلس على سرير الملك، ودخل إليه عظماء أهل البلد والخاص والعام فهنَّؤوه بالملك، فتقدّم في أمر الهياكل والكهنة وطلب الحكمة؛ وكان حَدَثًا جميلاً فعشقته إحدى نساء أبيه، وكانت تتولى طيبة[1] وتزعم أن أباه أمرها بذلك، ثم بعثت إلى ساحرة من أعلم السحرة بمنف فسألتها أن تسحره لها وبذلت لها على ذلك أموالاً، وإذا الساحرة قد عشقته أشدّ من عشقها، فسَعَت بٱمرأة أبيه وعرّفته ما بذلت لها على ذلك، فأبعدها عن مجلسه ومنعها من الدخول إليه.

وبلغ ملكًا من ملوك حِمْير أن مُلْك مصر صار إلى غلام حَدَث غرّ فطمع فيه وسار إليه في جموع عظيمة، فخرج قرسون نحوه فٱلتقوا بأيلة وٱقتتلوا قتالاً شديدًا حتى تفانَى الفريقان، فأتت تلك الساحرة إلى الملك فقالت: ما تجعل لي إن أعنْتك على عدوّك حتى تفضّ جموعه وتظفر به؟ قال حُكْمك؛ فأخذت عليه بذلك العهود والمواثيق، وأصبحوا للحرب فدخّنت الساحرة بدخن عجيبة وأظهرت تخاييل هائلة، فهرب الحميريّ في نَفَر يسير من ثقاته، وقتل بقية أصحابه، وحاز جميع ما كان في خزائنهم، وعاد الملك إلى منف بالظفر والغنيمة، فأتته الساحرة فسألته الوفاء بالشرط فقال: احتكمي ما أحببتِ، فهذه الأموال والخزائن بين يديك؛ فقالت: ما أريد غير الملك؛ فقال: ويحك! إنك لست من أهل بيت الملك، وقد علمت ما في هذا على الملك؛ فقالت: قد كان الملوك قبلك يغصبون نساء الناس ويلدن منهم ولا يسألون عن ولاداتهم، وأنا ٱبنة فلان رئيس الكهنة، ويوشِك أن يحتاج الملك إليّ بعد هذا. ولم تزل به حتى انصرف قلبه إليها، فتزوّجها وأحبّها وحظيت عنده. فضاقت الأرض

(١) طيبة: هي ثيبة عاصمة الصعيد في أيام الفراعنة وذات المائة باب، وفي بعض مكانها الآن مدينة الأقصر..

بامرأة أبيه فأخذت في أعمال الحيلة عليها؛ فدسّت جارية لها عاقلة لطيفة على ساقي الملك الذي يتولّى شرابه، فاختلطت بجواريه حتى تمكّنت من إناء كان فيه شرابٌ للملك فألقت فيه سمًّا وعادت في الوقت إلى مولاتها وأخبرتها، فدخلت إلى الملك فسجدت له وقالت: قد كنتُ للملك ناصحة، وعليه مشفقة، فأقصاني واختصّ هذه الساحرة الفاجرة، وقد سمّت شرابه في إناء من صفته كذا وكذا، فليسقها الملك منه ليعلم صدقي؛ فدعا الملك بالإناء فوجده على ما ذكرت، فأحضر الساحرة وأمرها بشرب قدح منه فشربته ولم تعلم ما فيه فسقط لحمها عن عظمها. فأمر بدفنها في ناووس وزبر عليه اسمها وما همّت به وما صار أمرها إليه، وعاد امرأة أبيه وتزوّج بها وحسنت حالها عنده.

قال: وفي أيامه عُمل المنار على بحر القُلزُم(١) وجُعلت على رأسه مرآة من أخلاط تجتذب المراكب على شاطىء البحر، فلا يمكنها أن تبرح أو تعشّر، فإذا عَشَرت(٢) سترت المرأة فتجوز المراكب.

قال: وأقام قرسون ملكًا مائتين وستين سنة؛ وقد كان عمل لنفسه ناووسًا خلف الجبل الأسود الشرقيّ، وجعل في وسطه قبّة فيها اثني عشر بيتًا، في كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخرى، وزبر عليها اسمه ومدّة ملكه. قال: وملك بعده ثلاثة أو أربعة. فهؤلاء الذين سمّاهم من أولاد أتريب ممن ملك منهم. والله أعلم.

ذكر أخبار صا بن قبطيم بن مصريم بن بيصر بن حام ابن نوح عليه السلام

قال: ولمّا قسم قبطيم الأرض بين بنيه الأربعة كما تقدّم وانتقل كل واحد منهم إلى حيّزه، خرج صَا بأهله وولده وحشَمه إلى حيّزه، وهو بلد البحيرة وما يليها إلى برقة، ونزل مدينة صَا(٣)، وذلك قبل أن تُبنَى الإسكندرية. وكان صا أصغر ولد أبيه وأحبّهم إليه، فلمّا ملك حيّزه أمر بالنظر في العمارة، وبنى المدائن والبلدان والهياكل، وعمل في إظهار العجائب كما صنع إخوته، وطلب الزيادة في ذلك. وكان مرهون

---

(١) بحر القلزم: هو المعروف الآن بالبحر الأحمر.

(٢) عشرت: أي دفعت عشر الأموال.

(٣) صا: بالقصر: كورة بمصر يقال لها صا، وصا مسماة بصا بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وهي ما بين صا إلى البحر، وعدها القضاعي في كورة الحوف البحري.

الهندي صاحب بنائه، فبنى له من حدّ صا إلى حدّ لوبية(١) ومراقية على عبر البحر أعلامًا، وجعل على رؤوس تلك الأعلام مرايا من أخلاط شتّى: فكان منها ما يمنع من دوابّ البحر وأذاهم، ومنها ما إذا قصدهم عدوّ من الجزائر الداخلة وأصابها الشمس ألقت شعاعها على مراكبهم فأحرقتها، ومنها ما يُري المدائن التي تجاورهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها، ومنها ما ينظر منها إلى إقليم مصر فيعلم ما يخصب وما يجدب منه في كل سنة. وجعل فيها حمامات تُوقد من نفسها ومستشرفات. وكان كل يوم في موضع منها بمن يخصّه من حشمه وخدمه، وجعل حولها بساتين وسرّح فيها الطيور المغرّدة والوحش المستوحش والمستأنس والأنهار المطردة والرياض المونقة، وجعل شرف القصر من حجارة ملوّنة تلمع إذا أصابتها الشمس فتنشر شعاعها على ما حولها؛ ولم يدع شيئًا من آلة النعمة والرفاهية إلا استعمله. فكانت العمارة ممتدّة إلى برقة في رمال من رشيد(٢) إلى الإسكندرية إلى برقة. وكان الرجل يسافر في أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات، ولا يسير إلا في ظلال تستره من الشمس. وعمل في تلك الصحارى قصورًا وغرس فيها غروسًا، وساق إليها من النيل أنهارًا. وكان يسلك من الجانب الغربيّ إلى حدّ الغرب في عمارة متصلة.

قال: فلما انقرض(٣) أولئك القوم بقيت آثارهم في تلك الصحارى وخربت تلك المنازل وباد أهلها. قال: ولا يزال مَن دخل تلك الصحارى يَحكي ما رأى فيها من الآثار والعجائب.

قال: ومن ملوكهم مرقونس؛ وكان فاضلًا حكيمًا، محبًا للنجوم والحكمة، فعُمل في أيامه درهم إذا ابتاع به صاحبه شيئًا اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم ولا يطلب عليه زيادة، فيغترّ البائع بذلك ويقبل الشرط، فإذا تمّ ذلك بينهما وقع في وزن الدرهم أرطال كثيرة تساوي عشرة أضعافه، وإن أحبّ أن يُدخل في وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل. قال: وقد وُجد هذا الدرهم في كنوزهم في أيام بني

---

(١) لوبية: بالضم ثم السكون، وباء موحدة، وياء مثناة من تحت: مدينة بين الإسكندرية وبرقة، ينسب إليها لوبيّ.

(٢) رشيد: بفتح أوله، وكسر ثانيه، بلفظ الرشيد ضد الغويّ: بليدة على ساحل البحر الأحمر والنيل قرب الإسكندرية؛ خرج منها جماعة من المحدثين، منهم: عبد الوارث بن إبراهيم بن فراس الرشيدي المرادي قاضي رشيد؛ ويحيى بن جابر بن مالك الرشيدي القاري من القارة قاضي رشيد أيضًا، وغيرهما..

(٣) انقرض القوم: ذهبوا ولم يبق منهم أحد.

أميّة، فكان الناس يتعجّبون منه. وقد كانوا وجدوا درهمًا آخر قيل إنه عُمل في وقته أيضًا يكون في ميزان الرجل، فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ الدرهم من ميزانه وقلبه وقال: اذكر العهد، ومضى فأبتاع به ما أراد، فإذا أخذ السِّلْعة ومضى إلى بيته وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله، ووجد البائع حيث وضعه ورقة آس[١] أو قرطاس أو مثل ذلك بدور الدرهم.

وقيل: إن في وقته عُملت الآنية الزجاج التي توزَن، فإذا مُلئت ثم وُزنت لم تزد على وزنها الأوّل شيئًا، وهي تحمل من الماء بوزنها. وعُمِل أيضًا في وقته الآنية التي إذا جُعل الماء فيها صار خمرًا في لونه ورائحته وسكره. قال: وقد وُجد من هذه الآنية بإطفيح[٢] في إمارة هارون بن خُمَارويه بن أحمد بن طولون شربة جَزْع[٣] بعُروة زرقاء ببياض. وكان الذي وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانيّ هو ونفرٌ معه، فجلسوا ليأكلوا على عَبْر النيل وشربوا الماء بها فوجدوه خمرًا فسكروا منه ورقصوا، فوقعت الشربة فأنكسرت على عدّة قطع، فاغتمّ الرجل وجاء بها إلى هارون مكسورةً، فأسف عليها وقال: لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض مُلْكي.

وفي أيامه عُمِلت الصورة الحنتمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات، فكانت إذا جُعلت في موضع من المواضع أجتمع إليها ذلك الجنس بعينه ولا يقدر أن يفارقها حتى يُقتَل. وعمل في صحراء الغرب ملعبًا من زجاج ملوّن، وجعل في وسطه قبّة من الزجاج خضراء صافية اللون؛ وكانت إذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على المواضع البعيدة. وعمل من أربع جهاته أربعة مواضع عالية من الزجاج، كلّ مجلس منها بلون، ونقش كلّ مجلس منها بما يخالف لونه من الطلّسمات العجيبة والنقوش الغريبة والصور البديعة؛ كل ذلك من زجاج مطابَق يَشِفّ[٤]. وكان يقصد هذا الملعب ويُقيم فيه الأيام الكثيرة. وعمل له ثلاثة أعياد في كل سنة، فكانوا يحجّون إليه ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام؛ فلم يزل ذلك الملعب بحاله تقصده الأمم لتنظر إليه لأنه لم يكن له نظير ولا شكل، ولا عُمل في العالم مثلهُ إلى أن هدمه بعض الملوك لأنه تعاطى مثله فلم يقدر على ذلك.

---

(١) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضي الورق، أبيض الزهر أو ورديّه، عطري، وثماره لبية سود تؤكل غضة، وتجفف فتكون من التوابل؛ وهو من فصيلة الآسيات.

(٢) إطفيح: هي الآن إحدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة.

(٣) سمي جزعًا لأنه مقطع بألوان مختلفة، أي قطع سواده بياضه وصفرته.

(٤) شفّ الشيء: أي رقّ حتى يرى ما خلفه.

وكانت أمّ مرقونس أبنة ملك النوبة، وكان أبوها يعبد نجمًا يقال له السُّها(١)، ويسمّيه إلْهًا، فسألت أبنها أن يعمل لها هيكلاً ويفردها به، فعمله لها وصفّحه بالذهب والفضّة وأقام فيه صنمًا وأرخت عليه ستور الحرير، فكانت تدخل إليه مع جواريها وحشمِها وتسجُد له كل يوم ثلاث مرّات. وعَمِلت في كل شهر عيدًا تقرّب له فيه القرابين وتبخّره ليله ونهاره، ونصبَت له كاهنًا من النوبة فكان يقوم به ويبخّره ويقرّب له، ولم تزل بأبنها حتى سجد له ودعا الناس إلى عبادته.

قال: ولـمّا رأى الكاهن أن الأمر قد أُحكم له من جهة الملك في عبادة الكواكب، أحبّ أن يكون له مثالاً في الأرض على صورة شيء من الحيوان يتعبّد له ليكون حذاء(٢) عينيه؛ فأقام يعمل الحيلة في ذلك إلى أن أتفق بمصر كثرة العِقْبان(٣) حتى أضرّت بالناس، فأحضره الملك وسأله عن كثرتها فقال: إنّ إلْهك أرسلها لتعمل له نظيرًا يُسجَد له. فقال الملك: إن كان ذلك يُرضيه فأفعله، فعمل تمثال عُقاب طوله ذراعان في عرض ذراع من ذهب مسبوك، وعمل عينيه من ياقوتتين، وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيب جوهر أخضر، وجعل في منقاره كرة معلّقة وسَرْوَله بأدرك أحمر، وأقامه على قاعدة من فضّة منقوشة، وركّبها على قائمة زجاج أزرق، وجعله في أزَج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير، وجعل له دُخْنة(٤) معمولة من جميع الأفاويه والصمغ، وقرّب له بعجل أسود وبكارة الفراريج وبواكير الفواكه والرياحين. فلما تمّت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود له فأجابوه. ولم يزل الكاهن يُجهد نفسه في عبادته، وعَمِل له عيدًا دعاهم فيه إلى أن يبخّر له في أنصاف الشهور بالمندَل(٥) وترشّ الهياكل بالخمر العتيقة التي تؤخذ من رؤوس الجوابي(٦)، ونطق لهم العُقاب وعرّفهم أنه أزال عنهم العِقبان وضررَها؛ وكذلك يفعل في غيرها ممّا يخافون؛ فسُرّ الكاهن بذلك ووجّه إلى أمّ الملك فعرّفها ذلك فصارت إلى الهيكل، فلمّا سمعت كلام العقاب سرّها ذلك وأعظمته، وبلغ الملك خبره فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه، فسجد له وأقام له سَدَنة وأمر أن يزيّن بأصناف الزينة، وكان الملك يقوم بذلك الهيكل ويسجد لتلك الصورة ويسألها عمّا يريد فتخبره.

---

(١) السُّها: كوكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى أو الصغرى.
(٢) حذاء عينيه: أي إزاءهما.
(٣) العقبان: جمع عقاب، وهو طائر من كواسر الطير قويّ المخالب، له منقار قصير أعقف، حادّ البصر. (لفظه مؤنث للذكر والأنثى).
(٤) الدّخنة: ما يتبخر به من الطيب. (٥) المندل: العود الطيب الرائحة. جمع منادل.
(٦) الجوابي: مفردها الجابية، وهي الحوض يجبى فيه الماء.

وعمل من الكيمياء والذهب ما لم يعمله أحد من الملوك. فيقال: إنه دَفَن في صحراء الغرب خمسمائة دَفِين. ويقال: إنه عمل على باب صَا عمودًا وجعل عليه صنمًا في صورة أمرأة جالسة وفي يدها مرآة ينظر فيها العليل أو ينظر له أحد فيها فإن كان يموت رآه ميّتًا، وإن كان يعيش رآه حيًا؛ والمسافر، فإن كان مُقبلاً بوجهه علموا أنه راجع، وإن رآه مولّيًا علموا أنه متماد، وإن كان مريضًا أو ميّتًا رأوه كذلك. وعمل بالإسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة وعلى رأسه كالبرنس[١] وفي يده كالعكّاز[٢] إذا مرّ به رجل تاجر جعل بين يديه شيئًا من الذهب على قدر بضاعته، وإن حاذاه عن بُعْد ولم يفعل ذلك لم يقدر على الجواز ويبيت قائمًا مكانه، فكان يجتمع من ذلك مالٌ عظيم يفرّق في الزمْنَى والفقراء.

وعمل في وقته كل أعجوبة طريفة، وأمر أن يُزبَر اسمه عليها وعلى كل علَم وكل طِلّسم وصنم. وعمل لنفسه ناووسًا في داخل أرض الغرب عند جبل يقال له سدام، وعمل تحته رحًى طوله مائة ذراع في ارتفاع ثلاثين ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا، وصفّحه بالمرمر والزجاج الملوّن المسبوك وسقفه بالحجارة الصافية، وعمل فيما دار به مصاطب[٣] لطافًا مبلّطة بالزجاج، وعمل على كل مصطبة فيها أعجوبة وتمثالاً مما عُمل في وقته، وعمل في وسط الأزَج دكّة[٤] من زجاج ملوّن، على كل ركن من أركانها صورة تمنع من الدنو إليها، وبين كل صورتين كالمنارة عليها حجرٌ مضيء، وجعل في وسَط الدكّة حوضًا من ذهب يكون جسده فيه بعد تضميده بالأدوية الممسكة، ونقل إليه ذخائره من الجوهر والذهب وغير ذلك، وأمر أن يُسَدّ باب الأزَج بالصخور والرّصاص وتُهال عليه الرمال. وكان مُلْكه ثلاثًا وسبعين سنة، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلاً ذا وَفْرة[٥] حَسنة فنسَكت عامّة نسائه بعده ولَزِمن الهيكل.

وعهد بالملك إلى أبنه أنساد بن مرقونس؛ فملك بعد أبيه وهو غلام أبن خمس وأربعين سنة، وكان مُعجبًا جبّارًا طمّاح العين، فنكح أمرأة من نساء أبيه وأنكشف أمره معها، وكان أكبر همّه اللهو واللعب، فجمع كل مُلْهٍ كان في مملكته وقصده كل مَن

---

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به. أو القلنسوة الطويلة.

(٢) العكاز: عصًا يتوكأ عليها. جمع عكاكيز.

(٣) المصاطب: جمع المصطبة، وهي بناء غير مرتفع يجلس عليه.

(٤) الدكّة: مقعد مستطيل من خشب غالبًا يجلس عليه.

(٥) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس، أو ما جاوز شحمة الأذن.

هذه سبيله، وجعل تدبير المُلْك إلى وزير له يقال له مسرور، ورفض العلوم والهياكل والكهنة والنظرَ في أمور الناس. وعمل قصورًا من خشب عليها قباب من خشب منقوشة مموّهة وجعلها على أطواف[1] في النيل، فكان يشرب عليها مع من يحبّه من نسائه وخدمه ومَن يُلهيه. وعمِل عَجَلاً في البرّ وحمل عليها الأروقة المذهبة وفرشها بفاخر الفرش، فكان يتنزّه عليها ويجرّها البقر ويقيم في نزهته شهورًا لا يمرّ بموضع نزِه إلاّ أقام فيه أيامًا. وولّد من الشجر توليدًا كثيرًا. واستنفد أكثر ما في خزائن أبيه لجوائز المُلْهِين والنفقات في غير وجه. فلمّا أسرف في ذلك اجتمع الناس إلى وزيره فأنكروا عليه حاله وسألوه مسألته والمشورة عليه أن يقع عمّا هو عليه فضمن لهم ذلك، وفاوضه فيه فلم ينته عنه، وسلّط أصحابه على الناس فأساءوا إليهم وأضروا بهم. وخرج في بعض الأيام إلى متنزّه كان له قد صفّح مجالسه بصفائح الذهب والفضة، وغريب الزجاج الملوّن، والجواهر المخروطة، والصهاريج المرخّمة الملوّنة، وأمال إليه المياه، وغرس فيه الرياحين والثمار، وفرش مجالسه بأصناف الفرش؛ وكان إذا أحبّ أن يخلو بامرأة من نسائه خلا بها هناك؛ فإنه في ذلك المكان، وقد أقام به أيامًا، إذ خرج غلام لبعض حُرَمه فأتى بعض التجّار في حاجة أراد أخذها بغير ثمن، فمنعه التجّار منها، فوثب بهم فضربوه حتى أسالوا دمه وحمل، واتصل الخبر بالوزير وصاحب الجيش فركبا إلى الموضع وأنكرا على الناس فأغلظوا لهما، فانصرفا وعرّفا الملك الخبر، فأراهما أنه لم يحفل بذلك، وأمر بالنداء في الناس مَن تعرّض لكم من خدم الملك وأصحابه بأذى فاقتلوه، فشكره الناس وحمدوا فعله على ذلك، وتواصَوْا بالوثوب على أصحابه، حتى إذا مضى لذلك أسبوع وجه الملك إلى الوزير وصاحب الجيش فعرّفهما أنه قد عزم على الركوب إلى صحراء الغرب يتصيّد هناك؛ وأمر أن يركب معه الجيش ويتزوّدوا لثلاثة أيام ففعلوا، وخرج إلى البريّة فسار حتى إذا اختلط الظلام رجع الجيش حتى وافى باب المدينة، وأمر أصحابه أن يضعوا السيف في الناس فقتلوا خلقًا كثيرًا، ثم أمر أن ينادَى: هذا جزاء مَن أقدم على الملوك من رعاياهم وأصحاب مهنهم، وأخرب الموضع الذي ضُرب فيه الغلام، فاستغاث به الناس، فتقدّم إلى وزيره أن يطرح نفسه بين يديه ويسأله فيهم، ففعل وأمّنهم وقال:

---

(١) الأطواف: جمع الطوف: وهو عبارة عن قرب ينفخ فيها حتى تمتلىء هواء وتسد سدًا محكمًا، ويشد بعضها إلى بعض ويجعل عليها خشب في صورة سطح يركب عليه الناس فوق الماء؛ ليعبروا نهرًا ونحوه، أو يسيروا فيه.

مَن عاد إلى مثل ما كان فقد حلّ لنا دمه، فدعَوْا له وٱنصرفوا. ثم ٱحتجب عن الناس وٱستخفّ بالكهنة والهياكل فأبغضته العامّة والخاصّة وبغَوْا الغوائلَ[١] فٱحتال عليه خاصّته بطبّاخه وساقيه فسمّاه وهو ابن مائة وعشرين سنة فمات.

وصار الملك من بعده إلى ٱبنه صا بن أنساد بن مرقونس؛ قال: وأكثر القبط تزعُم أن صا بن مرقونس أخو أنساد. فملك وهنّأه الناس، فوعدهم بالعدل فيهم، والإحسان إليهم، وحُسْن النظر لهم، وسكن منف وحكم الأحياز كلها، وعمِل بها عجائب وطِلَّسمات، وردّ الكهنة إلى مراتبهم، ونفى المُلْهِين وأهل الشرّ ممن كان يصحب أخاه، ونصب العُقاب الذي كان أبوه عمله، وشرف هيكله ودعا إليه. وعمل في منف مرآة كان يرى منها ما يُخصِب من بلده وما يُجدِب. وبنى بداخل الواحات مدينة غرس حولها نخلاً كثيرًا. ونصب قُرْب البحر أعلامًا كثيرة. وعمل خلف المقطّم[٢] صنمًا يقال له صنم الحِيلة، فكان كل من تعذّر عليه أمرٌ يأتيه فيبخّره فيتيسّر عليه ذلك الأمر. وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجري في حدودهم. وعمِل على غربي النيل منائر يُوقَد عليها إذا قصدهم قاصد أو نابهم أمرٌ. ويقال: إنه بنى أكثر منف وكل بنيان عظيم بالإسكندرية.

قال: وكان لمّا ملك البلد بأسره جمع الحكماء إليه ونظر في النجوم، وكان ـ حاذقًا ـ فرأى أن بلده لا بدّ أن تغرق بالطوفان من نيلها، ورأى أنها تحت يد رجل يأتي من ناحية الشأم، فجمع كل فاعل بمصر وبنى في ألواح الأقصى مدينة جعل طول حصنها في الارتفاع خمسين ذراعًا وأودعها جميع الحِكَم والأموال.

وبنى المدينة[٣] التي وقع عليها موسى بن نُصَير في زمن بني أميّة، وكان قد أخذ على ألواح الأقصى، وكان عنده علم منها، وأقام سبعة أيام يسير في رمال وصحَارى سَمتَ الغرب والجنوب إلى أن ظهرت له مدينة عليها حصنٌ وأبواب حديد،

(١) الغوائلُ: واحدتها الغائلة، وهي الفساد والشرّ؛ أو الداهية.

(٢) المقطم: بضم أوله، وفتح ثانيه، وتشديد الطاء المهملة وفتحها، وميم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى لكنه لا نبت فيه ولا ماء غير عين صغيرة تنز في دير للنصارى بالصعيد.. (معجم البلدان).

(٣) هذه المدينة تسمى «مدينة النحاس» ويقال لها «مدينة الصفر» وتقع في بعض مفاوز الأندلس.

فأصعد إليها الرجال ليقِفوا على ما فيها لمّا لم يمكنه فتح أبوابها، ولغلبة الرمال على ما حولها؛ فكانوا إذا عَلَوا الحصن وأشرفوا عليها وثبوا إليها؛ وعَرْض حصنها عشرون ذراعًا؛ فلمّا أعياه أمرها تركها ومضى، فهلك في تلك الطريق جماعة من أصحابه. فلم يُسمَع بأحد بعد موسى بن نُصَير ولا قبله وقع عليها.

قال: وفي تلك الصحارى أكثر متنزّهاتهم ومدائنهم العجيبة؛ إلا أنّ الرمال غلبت عليها. ولم يبق بمصر ملك إلا وقد عمل للرمال دفعًا ثم تفسد طِلَّسماتهم على تقادُم الأيام.

وقال: وحكى قوم من التُّنَاء[١] في ضياع الغرب: أنّ عاملاً من عمّالهم عَنُفَ بهم فهربوا ودخلوا في صحراء الغرب وحملوا معهم زادًا إلى أن يصلح أمرهم ويرجعوا إلى بلادهم، وكانوا على يوم وبعض آخر قد لحِجوا[٢] في سفح الجبل، فوجدوا عَيْرًا[٣] أهليًّا قد خرج من بعض شِعابه، فتبعه نفر منهم، فأخرجهم إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تَطَّرِدُ[٤] وقوم يسكنون هناك ويزرعون، فخاطبوهم وعجبوا منهم وسألوهم عن حالهم فعرّفوهم أنهم منذ كانوا يسكنون تلك الناحية ويتناسلون ويزرعون ولا يطالبهم أحدٌ بخراج ولا يُؤذيهم، وأنهم لم يدخلوا إلى ضياع الغرب قطّ، وقالوا لهم أنتقلوا إلينا؛ فخرج القوم بعد أن صلحت أمورهم وأجتمعوا على الرجوع إلى ذلك الموضع والسكنَى فيه بأهليهم ومواشيهم، فخرجوا يطلبون الطريق مدّة فما عرفوا الطريق ولا تأتّى لهم الوصول إليه بعد ذلك فأسِفوا على ما فاتهم منه.

وحُكي أيضًا عن آخرين ضلّوا الطريق في الغرب، فوقفوا على مدينة عامرة، كثيرة الناس والمواشي والنخيل والشجرَ، فأضافوهم[٥] وأكلوا عندهم وشربوا، وباتوا في طاحونة يعمل فيها الخبز، فسكروا من الشراب وناموا، فلم ينتبهوا إلاّ عند طلوع الشمس، فوجدوا أنفسهم في مدينة كبيرة خراب ليس فيها أحدٌ، فأرتاعوا لذلك وخرجوا على وجوههم كالهاربين، وساروا يومهم على غير سَمْت[٦] حتى قرب

(١) يقال: تنأ: أي أقام في البلد وغيره؛ فهو تانىء، جمع تُنّاء، وهم المقيمون.
(٢) يقال: لحج بالمكان: إذا لزمه.
(٣) العير: الحمار.
(٤) تطرد: تجري.
(٥) أضافوهم: أي أنزلوهم ضيوفًا عندهم.
(٦) السمت: الطريق الواضح؛ أو المذهب؛ أو الهيئة؛ أو السكينة والوقار.

المساء، فظهرت لهم مدينة أخرى عظيمة أكبر من الأولى وأعمر، وأكثر أهلاً ودوابّ ومواشِيَ وشجرًا ونخلاً، فأنِسُوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون؛ وإذا لبعض أهل المدينة وليمةٌ فأنطلقوا بهم معهم، فأكلوا وشربوا وغنّوهم بأصناف الملاهي، وسألوهم عن حالهم فحدّثوهم أنهم ضلّوا عن الطريق في هذه الصحَارِي، فقالوا لهم: الطريق بين أيديكم واضح مستقيم لا يمكن أن تغلطوا فيه، فإن أحببتم المسير وجّهنا معكم مَن يُوقفكم على سَنَن الطريق الكبير الذي يوصلكم إلى منازلكم، وإن أحببتم أن تقيموا عندنا رفدناكم[1] وكنتم إخواننا وأحبابنا. قالوا: فسُررنا بذلك من قولهم، وأجمع بعضنا على المُقام معهم، وأجمع من كان له منا أهلٌ وولدٌ على أن يسير إلى منزله ويحملَ أهله وولده ويعودَ إليهم. قال: وبتنا عندهم في خير مَبيت، فرِحين بما ساق الله إلينا. فلمّا كان من الغد انتبهنا فوجدنا أنفسنا في مدينة عظيمة ليس فيه أحدٌ من الناس وقد تشعّب بعض حصنها، إلاّ أن حولها نخلاً قد تساقط ثمره وتكدّس حَوله، فلحِقَنا من الخوف لذلك والارتياع ما أستوحشنا له، وخرجنا على وجوهنا هاربين مفكّرين فيما عايَنّاه من أهلها، وإنّا لنجدُ روائح الشراب منّا ومعاني الخُمار[2] ظاهرة، فلم نزل نسير يومنا أجمع وليس بنا جوع ولا عطشٌ، حتى إذا كان المساء رأينا راعيًا يرعَى غنمًا فسألناه عن العمارة وعن الطريق فدلّنا على الطريق وقال: إنّ العمارة حذاؤكم؛ وإذا بنِقار[3] من ماء المطر فشربنا منه وبتنا عليها، ثم أصبحنا فإذا نحن في خلاف موضعنا الذي كنّا فيه، وإذا آثار العمارة والناس فما سرنا إلاّ بعض يوم حتى دخلنا مدينة الأشمونين[4] بالصعيد، فكنّا نحدّث الناس ولا يقبلون منا.

قال: وهذه مدائن القوم القديمة قد غلب عليها الجانّ، ومنها ما قد سترته عن العيون فلا ينظر إليها أحد.

---

(١) رفدناكم: أي أعطيناكم؛ أو أعناكم.

(٢) الخُمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها.

(٣) النقار: جمع نقرة، بضم النون، وهي الوهدة المستديرة في الأرض.

(٤) أشمون: بالنون، وأهل مصر يقولون الأشمونين: وهي مدينة قديمة أزلية عارمة آهلة إلى هذه الغاية، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، سميت باسم عامرها وهو أشمن بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح... (معجم البلدان).

قال: وذكر بعض القبط أن رجلاً من بني الكهنة الذين قتلهم أنساد سار إلى ملك الإِفْرَنْجة فذكر له كنوز مصر وعجائبها وخيرها، وضمِن له أن يوصّله إلى مُلْكها وأموالها، ويدفع عنه أذى طِلّسماتها حتى يبلُغ جميع ما يريده ويعرّفه مواضع الكنوز. فلمّا أتصل بصَا الملك أنّ صاحب الإفْرَنْجة يتجهّز إليه، عمد إلى جبل بين البحر المالح وشرقي النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه وما في خزائنه، وبنى عليها قِبابًا وصفّحها بالرَّصاص، وأمر ففتحوا جوانب الجبل إلى منتهى خمسين ذراعًا، وجعلوا في أنتهاء المنحوت منه شبه الطرر[1] البارزة خارجة من النحت بقدر مائة ذراع وهو بين جبال وعرة، فحصّن أمواله هناك. وتجهّز إليه صاحب الإفْرَنْجَة في ألف مركب، فكان لا يمرّ بشيء من أعلام مصر ومناراتها وأصنامها إلاّ هدمه وكسره بمعونة الكاهن له. حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وهدم كثيرًا من معالمها إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد وصعد إلى منف فحاربه أهل النواحي، وجعل ينهَب ما مرّ به ويقتُل مَن قَدر عليه إلى أن طلب المدائن الداخلة ليأخذ كنوزها فوجدها ممتنعة بالطلّسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق الشدّاخات[2]، فأقام عليها أيامًا كثيرة يعالج أن يصل إليها، فلمّا لم يُمكنه ذلك قتل الكاهنَ، وهلك جماعةٌ من أصحابه، وأجتمع أهل النواحي على مراكبه وأصحابه فقتلوا منهم خلقًا وأحرقوا بعض المراكب. ولما تيقّن أهل مصر تلفَ الكاهن الذي كان معه أرسلوا إليه سحرهم وتهاويلَهم، وأتت مع ذلك رياح غرقت كثيرًا من مراكبه، وكان جَل مرامه أن ينجو بنفسه فما عاد إلى الإفرنجة إلا وَقِيذًا[3] بجراحات أصابته، ورجع الناس إلى منازلهم وقُراهم، ورجع صا إلى منف فأقام بها وترك ما كنزه على حاله.

قال: ولم يزل بعد ذلك يغزو بلاد الروم وأهل الجزائر ويخرّبها فهابته الملوك، وتتبّع الكهنة فقتل منهم خلقًا، وأقام سبعًا وستين سنة، وكانت سنه مائة وسبعين سنة وهلك، فدُفن بمنف في ناووس عمله وسَط المدينة من تحت الأرض، وجعل المدخل إليه من خارج المدينة من الجهة الغربية، وحمل إليه أموالاً عظيمة وجواهر كثيرة، وتماثيلَ وطلّسمات وغيرَ ذلك كما فعل أجداده. وكان فيه أربعةُ آلاف تمثال ذهب على صُوَر شتّى برّية وبحرية، وتمثال عُقاب من جوهر أخضر جُعل عند رأسه، وتمثال تنّين من ذهب مشبّك عند رجليه وزبر عليه أسمه وسيرته وغلبته للملوك.

---

(١) الطرر: مفردها: الطرّة: وهي اسم الشيء المقطوع؛ أو طرف كل شيء وحرفه؛ أو شفير الوادي وغيره.

(٢) الشداخات: واحدتها الشداخة، وهي التي تشدخ، والشدخ: الكسر أو الشجّ.

(٣) الوقيذ: الشديد المرض المشرف على الموت.

وعهد إلى ٱبنه تدارُس بن صا؛ فملك الأحياز كلها بعد أبيه وصفا له مُلْك مصر. وكان محنّكًا مجرّبًا ذا أيدٍ وقوّة ومعرفة بالأمور؛ فأظهر العدل، وأقام الهياكل وأهّلَها قيامًا حسنًا. وبنى غربي منف بيتًا عظيماً للزُّهَرة وزبر جميع الأكبار - وكان صنم الزهرة من لازَوَرْد[1] مذهّب متوّجًا بذهب - وسوّره بسوارين من الزَّبَرْجَد الأخضر؛ وكان في صورة ٱمرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبّر، وفي رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف ونعلان من ذهب، وفي يدها قضيبُ مَرجان[2] وهي تشير بسبّابتها كالمسلّمة على مَن في الهيكل، وجعل حذاءها من الجانب الآخر تمثال بقرة ذات قرنين وضَرعين من نحاس أحمر مموّه بذهب موشحة بحجر اللازورد، ووجه البقرة محاذيًا لوجه الزهرة، وجعل بينهما مطهرة من أخلاط للأجساد على عمود رُخام مجزّع[3] فيها ماء مدبّر يُستشفَى به من كل داء، وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها في كل سبعة أيام، وجعل فيه كراسيّ للكهنة مصفّحة بذهب وفضّة، وقرّب له ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به. وكانت فُرش الهيكل وستوره عن يمين تمثال الزهرة ويساره. وكان في قبّته صورة رجل راكب على فرس له جناحان وله حربة في سنانها رأس إنسان معلق، وبقي هذا إلى زمان بُخْتَ نصر وهو الذي هدمه. ويقال: إن تدارُس الملك هذا هو الذي حفر خليج سخا[4]، وٱرتفع مال البلد في أيامه مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار. وقصده بعض عمالقة الشأم فخرج إليه وٱستباحه ودخل إلى فلسطين فقتل منها خلقًا كثيرًا وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر وهابته الملوك.

قال: وعلى رأس ثلاثين سنة من مُلْكه طمع السودان من الزَّنج والنُّوبة في أرضه فعاثوا وأفسدوا، فأمر بجمع الجيوش وأعدّ المراكب ووجّه قائدًا من قوّاده يقال له: بلوطس في ثلاثمائة ألف، وقائدًا آخر في مثلها، ووجّه في البحر ثلاثمائة سفينة في

---

(١) اللازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماوي أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان وأمريكا، يستعمل للزينة.

(٢) المرجان: جنس حيوانات بحرية ثوابت، من طائفة المرجانيات، لها هيكل وكلس أحمر يعد من الأحجار الكريمة؛ ويكثر المرجان في البحر الأحمر.

(٣) المجزّع: المضبب بالجزع، والجزع: ضرب من العقيق..

(٤) سخا: كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر، وهي الآن (في عصر صاحب معجم البلدان)، قصبة كورة الغربية ودار الوالي بها، ذكر أن في جامع سخا حجر أسود عليه طلّسم يعلم إذا أخرج الحجر من الجامع دخلت إليه العصافير فإذا أعيد إلى الجامع خرجت منه..

كل سفينة كاهنٌ يعمل أعجوبة من العجائب ثم خرج في جيوش كثيرة، فلقي جموع السودان وكانوا في زُهاء ألف ألف فهزموهم، وقتلوا أكثرهم أبرح[١] قتل، وأسر منهم خلقًا كثيرًا، وتبعهم حتى وصل إلى أرض الفِيلة من بلاد الزَّنج[٢] فأخذ منها عدّة من النمور والوحش وذللها وساقها معه إلى مصر. وعمل على حدود بلده منارات وزبر عليها مسيرَه وظفرَه والوقتَ الذي سار فيه. ولمّا وصل إلى مصر اُعتلّ ورأى رؤيا تدلّ على موته، فعمِل لنفسه ناووسًا ونقل إليه شيئًا كثيرًا من أصنام الكواكب والذهب والجوهر والصنعة والتماثيل وهلك؛ فحُمل إليه وزُبِر عليه اسمه وتاريخُ الوقت الذي هلك فيه، وجُعل عليه طِلَّسمًا تمنع منه.

وعهد إلى اُبنه ماليق بن تدارس؛ فملك بعد أبيه. وكان غلامًا كريمًا حسنَ الوجه، مجرّبًا، مخالفًا لأبيه وأهل بلده في عبادة الكواكب والبقر. ويقال: إنه كان موحدًا على دين أجداده قبطيم ومصريم، وكانت القبط تذمّه لذلك. وكان سبب إيمانه فيما حُكي أنه رأى في منامه أن رجلين لهما أجنحة أتياه فاُختطفاه وحملاه إلى الفلك، فأوقفاه بين يدي شيخ أسود أبيض الرأس واللحية، فقال: هل عرفتني؟ فدخلته فزعة الحداثة، وكانت سنه نيّفًا وثلاثين سنة، فقال له: ما أعرفك! فقال: أنا قرويس، يعني زُحَل، فقال: قد عرفتك، أنت إلٰهي، فقال: إنك وإن كنتَ تدعوني إلٰهًا فإني مربوب مثلك، وإلٰهي الذي خلق السماواتِ والأرضَ وخلقني وخلقك، فقال: وأين هو؟ فقال: هو في العلوّ لا تراه العيون، ولا تلحقه الأوهام، وهو الذي جعلنا سببًا لتدبير العالَم الأسفل. قال له ماليق الملك: فكيف أعمل؟ قال: تُضمِر في نفسك ربوبيّته علينا. وتُخلِص في وحدانيّته وتعرف بأزليّته. ثم إنه أمر الرجلين فأنزلاه؛ فانتبه وهو مذعور، فدعا رأس الكهنة فقصّ عليه رؤياه فقال: قد نهاك عن عبادة الأوثان فإنها لا تضُرّ ولا تنفع، فقال له: مَن أعبد؟ قال: الله الذي خلق السماواتِ والكواكب التي فيها والأرض ومَن عليها. فكان الملك يحضر الهيكل فإذا سجد انحرف عن الصنم وأضمر السجود لخالق السماواتِ والأرض دون غيره، ثم أخذ في الغزو والغيبة عن أهل مصر وجال في البلدان.

قال: وقال بعض أهل مصر: إنّ الله تعالى أيّده بملك من الملائكة يعضّده ويرشده، وربما أتاه في نومه، فأمره أن يأمر الناس باتخاذ كل فارهٍ[٣] من الخيل،

---

(١) أبرح قتل: أي أشده.

(٢) بلاد الزنج: هي الآن بلاد الصومال والحبشة وبلاد زنجبار.

(٣) الفاره من الخيل: الذي جمل وحسن؛ أو الذي خفّ ونشط.

واتخاذ السلاح وما يصلُح للأسفار، وإعداد الزاد، واتّخذ في بحر الغرب مائتي سفينة، وخرج في جيش عظيم في البرّ والبحر، فلقيه جموع البربر في جموع لا تُحصَى فهزمهم واستأصل أكثرهم، وبلغ إلى إفريقية وسار منها، وكان لا يمرّ بأمة إلاّ أبادها إلى أن عدّى من ناحية الأندلس يريد الإفْرَنْجَة، وكان بها ملك عظيم يقال له: أرقيوس، فأقام يحاربه شهرًا ثم طلب صلحه وأهدى له هدايا كثيرة فسار عنه، ودوّخ الأمم المتّصلة بالبحر الأخضر[١] وأطاعه أكثرها. ومرّ بأمّة عُراة لهم حوافر في أرجلهم، وقرون صغار، وشعور كشعور الدوابّ، ولهم أنياب بارزة من أفواههم، فقاتلهم قتالاً شديدًا حتى أثخنهم، فنَفِروا منه إلى غِيرانٍ[٢] لهم مظلمة عظام.

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، وعمل أعلامًا على البحر وزبر عليها اسمه ومسيرَه، وخرب مدن البربر حيث كانت، وألجأهم إلى قرون الجبال ورجع؛ فتلقّاه أهل مصر بأصناف اللهو والطيب والرياحين، وفُرشت له الطرقات ولَقوه بابنه بلهقانس وكان وُلد بعد مسيره فسُرّ به. واتصل خبره بالملوك فهابوه وحملوا إليه الهدايا من كل وجه ومكان.

قال: وبلغه أن قومًا من البربر سحرةً لهم تخاييل عجيبة وبخورات يدلّون بها، وأنهم في مدينة لهم يقال لها: قرميدة[٣]، في الغرب من مصر، قد ملّكوا عليهم امرأة ساحرة يقال لها: اسطافا، فاتصل به كثرة أذاهم للناس فغزاهم، فلما قرب منهم ستروا عنه مدينتهم بسحرهم فلم يرها، وطمّوا مياههم فلم يعرفها، فهلك أكثر أصحابه عطشًا. فلما ستروا عنه البلد صعد إلى ناحية الجنوب، ثم رجع على غير الطريق التي سار إليهم فيها، فمرّ بهيكل كان لهم يحضرونه في أعيادهم، فهدم بعضه وسقط منه موضع على جماعة ممن تولّى هدمه فأهلكهم، فلما رأى ذلك تركهم وانصرف، وخرجوا إلى هيكلهم فبنَوْا ما سقط منه وحرسوه بطِلّسمات محكمة، ونصبوا فوق قبّته طِلّسمًا من نحاس مذهب، وكان إذا قصده أحد صاح صياحًا منكرًا يَرْعَد منه مَن سمعه ويبهت فيخرجون إليه ويصطلمون[٤]. وكانت ملكتهم أحذق منهم بالسحر فقالت: إني أعمل الحيلة في إفساد مصر وأضرّ وآذي أهلها، فعملت أشياء وأرسلتها

(١) البحر الأخضر، ويقال له بحر الظلمات: هو المحيط الإطلنطي.
(٢) الغيران: جمع غار، وهو ما ينحت في الجبل شبه المغارة فإذا اتسع قيل كهف.
(٣) قد تكون سميت «قرميدة» لكثرة صخورها. لأن القرمد يعني الصخور.
(٤) يصطلمون: يستأصلون.

مع مَن ألقاها في النيل، ففاض النيل على مزارعهم وغلاّتهم، وكثرت فيه التماسيح والضفادع، وكثرت العلل في الناس، وأنبثّت فيهم الثعابين والعقارب، فأحضر ماليق الكهنة والحكماء وقال: أخبروني عن هذه الحوداث التي حدثت في بلادنا ما هي؟ ولِمَ لم تشرحوها في طالع السنة؟ فأجتمعوا في دار حكمتهم ونظروا حتى علموا أنه من ناحية الغرب، وأنّ امرأة عملته وألقته في النيل، فعلم أنه من فعل تلك الساحرة، فقال لهم: اجهدوا أنفسكم في هلاكها فقد بلغت فيكم مرادَها، فأجتمعوا للهيكل الذي فيه صور الكواكب وأصنامها، وسألوا الملك الحضور معهم فلم يمكنه الخلافُ عليْهم. فلما أمسى لبس مِسْحًا وافترش رمادًا وأستقبل مصلاه وأقبل على الابتهال إلى الله والتضرّع وقال: يا ربّ يا الله، أنت إله الآلهة، وخالق الخلق، ولا يكون شيء إلا بقضائك، أسألك أن تكفيني أمر هؤلاء القوم، وغلبه السهر فأغفى في مصلاه، فرأى آتيًا يقول له: قد رحم الله تضرّعك، وأجاب دعاءك، وهو مُهلك هؤلاء القوم ومدمّر عليهم، وصارف عنك الماء المفسد والدوابّ المضرّة. فلمّا أصبح الكهنة غَدوْا عليه وسألوه حضور هيكلهم، فقال لهم: قد كفيتكم أمر عدوّكم وأهلكتهم، وأزلت الماء الفاسد والدوابّ المضرّة عنكم، ولن ترَوْا بعدها شيئًا تكرهونه، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين لقوله وقالوا: قد سررنا بما ذكره الملك، وهم يضمرون الأستهزاء به والتكذيب له، ومضَوْا إلى دار الحكمة فقال بعضهم: الرأي ألا تقولوا في هذا شيئًا، فإن كان حقًّا وقفتم عليه، وإن كان باطلاً اتسع لكم اللفظ في لومه، وسيتبين لكم أمره.

فلما كان بعد يومين انكشف ذلك الماء الفاسد، وهلكت تلك الدوابّ المضرّة، فعلموا أن الذي أخبرهم به حقّ؛ وأمر قائدًا من قوّاده ورجالاً من الكهنة أن يمضوا حتى يعلموا علم هؤلاء القوم، فأتوا المدينة فوجدوا حصنها قد سقط وقد هلكوا بأجمعهم واحترقوا وأسودّت وجوههم؛ ووجدوا الأصنام منكّسة على وجوهها، وأموالَهم ظاهرة بين أيديهم، فطرقوا المدينة فلم يجدوا فيها غير رجل واحد كان مخالفًا لهم بسبب رؤيا رآها؛ ووجدوا من الأموال والجواهر وأصنام الذهب والتماثيل ما لا يُحصى ولا تعرف له قيمة، ووجدوا صورة كاهن لهم من زبرجد أخضر على قائمة من حجر الأسباد شم؛ ووجدوا صورة روحانيّ من ذهب، ورأسه من جوهر أحمر، وله جناحان من درّ، وفي يده مصحف فيه كثير من علومهم في دفّتين مرصّعتين بجوهر ملوّن؛ ووجدوا مِطهرة من ياقوت أزرق على قاعدة من زجاج أخضر مسبوك، وفيها فضلة من الماء الدافع لأسقامهم، وفرسًا من فضّة مَن عزم عليه بعزائمه

ودخنه بدُخنة ورَكِبه طار به فيما يزعمون، وغير ذلك من العجائب والأصنام؛ فحملوا من ذلك ما قدروا عليه من الأموال والجواهر، وسأل الملك ذلك الرجل: ما أعجب ما رأيت من أعمالهم؟ فقال: نعم أخبرك أيها الملك؛ إنه قصدهم بعض ملوك البربر، وكان جبّارًا من أهل بيت سحر، فجاء بالجموع الكثيرة وتخاييل هائلة، فأغلق أهلُ مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى أصنامهم يخضعون لها ويتضرّعون إليها، وكان لهم كاهن عظيم الشأن، فسار إليه رؤساؤهم وشكَوْا إليه ما دهمهم من عدوّهم، فأتى إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها، فجلس على حافّتها وأحاط رؤساء الكهنة بها وزمزم على ماء البركة، فلم يزل كذلك حتى فار الماء وفاض، وخرجت من وسطه نار تتأجج، وظهر من وسطها وجه كدارة الشمس وعلى صورتها وضوئها، فخرّ الجماعة وسجدوا لذلك الوجه، وتجلّلهم نور؛ وجعل يعظم حتى ملأ البركة، وصعد حتى خرق سقف القبّة، ثم ارتفع إلى رأسها وسمعتُه يقول: قد كفيتكم شرّ عدوّكم، وأمرهم أن يأخذوا دوابّهم ففعلوا ذلك، وهَلَكَ الملك الذي قصدهم وجميعُ مَن كان معه، وٱنصرفوا؛ فأقبلوا يأكلون ويشربون، فقلت لبعض الكهنة: لقد رأيت عجبًا من ذلك الوجه فما هو؟ فقال: تلك الشمس تبدّت لنا في صورتها وأهلكت عدوّنا، صاحت بهم صيحة أحرقتهم فأصبحوا خامدين.

قال: وكان هذا الرجل عاقلاً فاتخذه ماليق وزيرًا. ولم يزل ماليق على التوحيد، وهو مع ذلك يساير أهل البلد خوفًا من ٱضطراب مُلكه، وأمر أن يُعمَل له ناووس، فكان يقصِده ويتعبّد فيه، وأمر ألا يُدفَن معه ذهب ولا جوهر، فلم يُدفَن معه شيء سوى الطِّيب وصحيفة مكتوبة بخطه فيها: هذا ناووس ملك مصر ماليق، مات مؤمنًا بالله العظيم لا يعبد معه غيره، بريئًا من الأصنام وعبادتها، مؤمنًا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال، عاش كذا وكذا سنة، ملك فيها كذا وكذا، فمن أحبّ النجاة من عذاب الآخرة فليدِن بما دان[1] به. وأوصى ألا يُدفَن معه في ناووسه أحد من أهله، وكان قد كنزَ كنوزًا عظيمة وزبر عليها أن تخرجها أمة النبيّ المبعوث في آخر الزمان.

وٱستخلف لابنه حِرْما بن ماليق. قال: وكان ليّنًا سهلَ الخُلُق، لم يمت أبوه حتى شرح له التوحيد، وأمره أن يدين به، ونهاه عن عبادة الأصنام؛ وكان معه على ذلك في حياته، ثم رجع عنه بعد وفاته إلى دينهم. وكان سبب رجوعه إلى عبادة

(١) دان به: أي اتخذه دينًا وتعبّد به.

الأصنام أنّ أمّه كانت من بنات كبار الكهّان، فنقلته بعد موت أبيه إلى دينها وغلبته على رأيه، وأمرت بتجديد الهياكل وتشدّدت في عبادة الأصنام. وتزوّج حرما أمرأة من بني عمّه فأحبّها حبًّا شديدًا وهام بها، فأفسدته على جميع نسائه، فاشتدّ ذلك على أمه، وكانت له قَهْرَمانة[١] من أهل سُيُوط[٢] ساحرة لا تطاق، وكانت تميل إلى هذه المرأة لأنها كانت تعشق أخاها؛ فزادت في سحرها لتلك المرأة فأوحشت ما بين الملك وأمّه حتى رفضها وٱستخفّ بأمرها، وزاد الأمر حتى حلف ألاّ يجاورها، وأنه يغزو وينصرف فلا يرجع إلى مصر أو يتّصل به موتُها، ففعل ذلك وغزا بلد الهند وأرض السودان.

وكان سبب خروجه إلى الهند أن ملكًا من ملوكها يقال له مسور خرج في عدد كثير وسايرته مراكبه في البحر ففتح بلدانًا وجزائر، وأكثر القتل والسبي؛ وذُكِرت له مصرُ فقصدها وٱعتلّ فرجع من طريقه، فأمر حرما الملكُ بعمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، وتجهّز وركب وحمل معه المرأة ووجوه أصحابه وقوّاده، وٱستخلف ٱبنَه كلكن على مصر وكان صبيًا، وجعل معه وزيرًا يقال له لاون، وكاهنًا يقال له ويسموس، وخرج فمرّ على ساحل اليمن وعاث في مدائنه. وكان لا يمرّ بمدينة إلا أقام صنمًا وزبر عليه ٱسمَه ومسيرَه ووقتَه، وبلغ سرنديب[٣] فأوقع بأهلها، وغَنِم منها مالاً وجوهرًا كثيرًا، وحمل معه حكيمًا لهم، وبلغ جزيرةً بين الهند والصين بها قوم سمرٌ طوال يجرّون شعورهم، ورأى لهم الدوابّ والطيور وشجر الطيب والنارَجيل[٤] والفواكه التي لا تكون إلا عندهم، فأذعنوا له بالطاعة وحملوا إليه أموالاً وهدايا فقبلها وسار عنهم. وأقبل يتنقّل في تلك الجزائر عدّة سنين؛ فقيل: إنه أقام في سفره سبعَ عشْرةَ سنة، ورجع إلى مصر بالظَّفَر والغنيمة، ووجد أمه قد هلكت، ووجد ٱبنه على الملك كما ٱستخلفه؛ فسُرَّ بذلك وهابه مَنْ حوله من الملوك. وبنى عدّة هياكل وأقام فيها أصنام الكواكب؛ لأنها ـ فيما زعم ـ هي التي أيّدته في سفره حتى ظَفِر بما ظفر

(١) القهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه.
(٢) سيوط: بفتح أوله، وآخره طاء: كورة جليلة من صعيد مصر؛ تغنّى بجمالها الشعراء أمثال أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن الساعاتي.
(٣) سرنديب: هي جزيرة سيلان الآن.
(٤) النارجيل: جنس شجر من الفصيلة النخلية، فيه أنواع للتزيين، وفيه نوع مثمر، ومن أسمائه الشعصور، والرانج، ويزرع لثمره المسمى: جوز الهند. ويستخرج منه دهن من أجود الأدهان المسماة: سموناً نباتية. واحداته: نارجيلة.

به وغَنِم ما غنمه. وقد كان حمل معه من الهند حكيمًا وطبيبًا، وكان معهما من كتبهم وحكمهم ما أظهرا به في مصر عجائب مشهورة، وحمل معه صنمًا من أصنام الهند من الذهب مقرَّطًا بالجوهر، فنصبه على بعض الهياكل التي عملها. وكان حكيم الهند يقوم به ويخدِمُه ويقرّب له. وكان يخبرهم بما يريدون منه.

قال: وأقام حرما بعد مُنْصَرَفِه من الهند مدّة ثم غزا نواحيَ الشام فأطاعه أهلها وهادَوْه ورجع إلى مصر. ثم غزا نواحي النوبة والسودان فصالحوه على خراج يحملونه له، ورفع أقدار الكهنة وزاد في تعظيم دينهم؛ فصوّروه في هياكلهم ومضاجعهم، وملكهم خمسًا وسبعين سنة. وعمل لنفسه في صحراء الغرب ناووسًا، وعمل برقودة[١] مصانع وعجائب، وأقام بها إلى أن مات وٱبنُه كلكن بمنف، فضمد جسده بالموميا والكافور والمرّ[٢]، وجعل في تابوت من ذهب، وجُعِل معه مالٌ كثير، وجوهر نفيس، وسلاح عجيب، وتماثيلُ وصنعة وعقاقيرُ، ومصحف الحكمة. وصوّر في جانب الناووس صورًا وزبر عليها ذكرَ السفن التي سار فيها، والبلدانَ التي فتحها، وسدّ باب الناووس وزبر عليه اسمَه ومدّتَه وتاريخَ الوقت الذي هلك فيه، وقتل جماعةً من نسائه أنفسَهنّ عليه. وكان جميلاً سمح الأخلاق، وٱغتمّ عليه الكهنة لإكرامه لهم، وأهل المملكة لٱتّباعه لهم.

وملك بعده ٱبنه كلكن بن حرما، وعقد التاج على رأسه بالإسكندرية بعد موت أبيه وأقام بها شهرًا ورجع إلى منف. وكان أصناميًا على دين أبيه وٱستبشر به أهل مصر. وكان يحبّ الحكمة وإظهار العجائب ويقرّب أهلها ويُكثر جوائزهم. ولم يزل يعمل الكيمياء في مدّة ملكه؛ فخزن أموالاً عظيمة بصحارى الغرب. وهو أوّل من أظهر علم الكيمياء بمصر وكان مكتومًا. وكان الملوك قبله أمروا بترك صنعتها لئلا تجتمعَ ملوك الأمم على غزوهم، فعملها كلكن وملا دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهبُ بمصر أكثر منه في وقته ولا الخراجُ؛ لأنه كان في وقته ـ فيما حكاه القبط ـ مائةَ ألفِ ألفِ وبضعةَ عشَرَ ألفِ ألفِ مثقالٍ. قال: وكان المثقال الواحد من الصّنعة يطرح على القناطير الكثيرة فيصبغها، فٱستغنَوْا عن إثارة المعادن لقلّة حاجتهم إليها. وعمل من الحجارة المسبوكة الملوّنة الصمّ التي تَشِفّ[٣] شيئًا كثيرًا لم يعمله مثله أحدٌ

(١) رقودة: هي مدينة الإسكندرية.

(٢) المرّ: صمغ شجر، وهو دواء نافع للسعال ولسع العقرب ولديدان الأمعاء.

(٣) شفّ: أي رقّ حتى يرى ما خلفه.

ممن تقدّمه. وعمل من الأدرك الملوّن والفيروزج أشياء تخرج عن العقول، حتى كان يسمَّى حكيمَ الملوك. وغلب جميع الكهنة في علومهم، وكان يخبرهم بما يَغيب عنهم، فهابوه وٱحتاجوا إلى علمه. وكان نمروذ بن كنعان الذي أهلكه الله تعالى على يد إبراهيم الخليل عليه السلام في وقته، فيقال: إنه لما ٱتصل بنمروذ خبر حكمته استزاره فوجّه إليه أن يلقاه منفردًا من أهله وحشمه بموضع كذا، ففعل النمروذ ذلك وسار إلى الموضع الذي ذكره، وأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله ذواتِ أجنحة، وقد أحاط به نور كالنار، وحوله صُوَرٌ هائلة قد خَيَّل بها، وهو متوشّح بثعبان محتزمًا ببعضه، والثعبان فاغرٌ فاه، ومعه قضيب آس أخضر كلما حرّك الثعبان رأسه ضربه بالقضيب. فلما رآه النمروذ هاله أمره وخاطبه؛ فاعترف له بجليل الملك والحكمة، وسأله أن يكون ظهيرًا له.

وتقول القبط: إن كلكن الملك كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربيّ في قبّة تلوح على رأسه. وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر ٱجتمعوا حول الهرم. ويقولون: إنه ربما أقام على رأس الهرم أيامًا لا يأكل ولا يشرب، ثم ٱستتر عنهم مدّة حتى توهّموا أنه هَلَكَ. وكان يجول في الأرض وحده حتى طَمِعت الملوك التي حوله في ملكه؛ فقصده ملك من ملوك الغرب يقال له «سادوم» في جيش عظيم، وأقبل من ناحية المغرب من نحو وادي هبيب[1] ليكبس البلد، فأقبل حتى وافاهم، ثم جلّلهم بشيء من سحره كالغمام شديد الحرارة، فأقاموا تحته أيامًا لا يدرون أين يتوجّهون، فطار إلى مصر فٱستأنس الناس لمقدَمه، فعرّفهم ما جرى وأمرهم بالخروج إليهم ليعرفوا خبرهم، فوجدوهم ودوابَّهم أمواتًا فعجبوا لذلك، وهابه الكهنة هيبة لم يهابوها أحدًا قبله، وصوّروه في جميع الهياكل، وملكهم زمانًا.

وبنى في آخر عمره هيكلاً لزُحَل من صَوّان أسود في ناحية الغرب، وجعل له عيدًا، وجعل في وسطه ناووسًا، وحمل إليه ما أراد من ذهب وجوهر، وحِكَم وعقاقيرَ، وعرّفهم بموته، وجعل على باب الناووس طِلَّسمات تمنع منه، وغاب عنهم فلم يقفوا على موته.

وكان قد أوصى إلى ٱبنه ماليا بن كلكن فملك بعد أبيه. وكان شَرِهًا كثيرَ الأكل والشرب، منفردًا بالرفاهة، غيرَ ناظر في شيء من الحكمة، وجعل أمر البلد إلى وزير

(١) وادي هبيب: هو واد بالجانب الغربي من أرض مصر فيما بين مريوط والفيوم، يجلب منه الملح والنطرون.

له. وكان معجبًا بالنساء؛ وكان له ثمانون آمرأة، ثم آتخذ آمرأة من بنات الملوك التي بمنف وكانت عاقلة سديدة الرأي، وكان بها مُعْجَباً فحمته النساءَ. وكان له بنون وبنات، وكان أكبر بنيه يقال له: طوطيس، فكان يستجهل[١] أباه فأعمل الحيلة في قتله، وإنما حملته على ذلك أمه وجماعة نسائه وبعض وزراء أبيه؛ فهجم عليه في وزرائه وهو سكران وتلك المرأة عنده فقتله وقتل المرأة وصلبها.

وملك بعده آبنه طوطيس بن ماليا وجلس على سرير الملك. وكان جبّارًا جريئًا شديد البأس مهيبًا؛ فدخل عليه الأشراف وهنئوه ودعَوْا له، وأمرهم بالإقبال على مصالحهم وما يَعنيهم، ووعدهم الإحسانَ.

والقبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقولون إن الفراعنة سبعة هو أوّلهم. قال: ثم تذاكر الناس ما فعله بأبيه وأنكروه وآستقبحوا صلبَه المرأة فأنزلها ودفنها، واستخفّ بالكهنة والهياكل.

ولنذكر خبره مع إبراهيم الخليل عليه السلام في أمر سارة، ونورد من ذلك ما أورده أهل الأثر وما ورد في الحديث الصحيح النبويّ من هذه القصة. قال إبراهيم بن القاسم الكاتب في سياقه أخباره: لما فارق إبراهيم عليه السلام قومَه والنمروذَ بنَ كنعان ونزل الشام ثم خرج إلى مصر ومعه سارة امرأته وخلّف آبن أخيه لوطًا بالشام وسار إلى مصر، وكانت سارة أحسن نساء العالمين في وقتها، ويقال إن يوسف الصدّيق ورث جزءًا من حسنها لأنها جدّة أبيه. قال: فلما سار إبراهيم إلى مصر وأتى الحرس المقيمون على أبواب المدينة فرأوا سارة وعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طوطيس. وقد روينا في ذلك حديثًا بسندنا الذي قدّمناه إلى أبي عبد الله البخاريّ رحمه الله قال: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم بآمرأة هي من أحسن النساء؛ فأرسل إليه أنْ يا إبراهيم مَنْ هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذّبي حديثي فإني أخبرتهم أنكِ أختي؛ والله إنْ على الأرض من مؤمن غيري وغيرك؛ فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت تَوَضّأُ وتصلي، فقالت: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك وأحصنت فرجي

(١) استجهله: استخفه؛ أو وجده جاهلاً؛ أو حمله على الجهل.

إلا على زوجي فلا تسلِّط عليّ هذا الكافرَ، فغُطّ[١] حتى ركض[٢] برجله. قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن: إن أبا هريرة قال: قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته فأرسل، ثم قام إليها فقامت تَوَضَّأُ وتصلي وتقول: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي فلا تسلّط عليّ هذا الكافر، فغُط حتى ركض برجله. قال عبد الرحمٰن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته فأُرسل في الثانية أو في الثالثة. فقال: والله ما أرسلتم إليَّ إلا شيطانًا! إرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها آجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت: أشعَرْتَ أن الله كَبَت الكافرَ وأخدم وليدةً». هذا ما رويناه من صحيح البخاري. وقد ورد في أخبار طوطيس زيادات نذكرها؛ وهو أن الملك لما أطلقته في المرة الثالثة قال لها: إن لك ربًّا عظيمًا لا يُضيِّعكِ؛ وأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبي وزوجي. قال: فإنه ذكر أنك أخته. قال: صدق أنا أخته في الدين، وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا. قال: نعم الدينُ دينكم! ووجهها إلى ابنته حوريا، وكانت من العقل والكمال بمكان كبير، فألقى الله تعالى محبة سارة في قلبها فعظّمتها حوريا وأضافتها أحسن ضيافة، ووهبت لها جوهرًا ومالاً، فأتت به إبراهيمَ عليه السلام فقال لها: رُدِّيه فلا حاجة لنا به فردته؛ فذكرت حوريا ذلك لأبيها فعجب منها وقال: هؤلاء من قوم كرام ومن أهل بيت طهارة فتحيّلي في برّها بكل حيلة، فوهبت لها جاريةً قبطيةً من أحسن الجواري يقال لها آجر، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وعملت لها سِلالاً من الحلوى وقالت: يكون معك هذا للزاد. وجعلت تحت الحلوى جوهرًا نفيسًا وحليًا مصبوغًا مكلّلًا. فقالت: أشاور صاحبي؛ فأتت إبراهيم عليه السلام فشاورته فقال: إذا كان مأكولاً فخذيه، فقبلته منها وخرج إبراهيم عليه السلام. فلما أمعنوا في السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحليّ، فعرّفت إبراهيم ذلك، فباع بعضه وحفر من ثمنه البئر التي جعلها للسبيل وفرّق بعضَه في وجوه البرّ، وكان يُضيف كل من مرّ به.

قال: وعاش طوطيس إلى أن وجهت إليه هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب وتستغيثه، فأمر بحفر نهر في شرقيّ مصر يمرّ بسفح الجبل حتى ينتهي إلى مرفأ السفن

(١) غطّ: بضم الغين المعجمة وتشديد الطاء المهملة، أي أخذ بمجاري نفسه حتى سمع له غطيط.
(٢) ركضه برجله: أي ضربه بها.

في البحر المالح، فكان يحمل إليهما الحنطةَ وأصناف الغلاّت فتصل إلى جُدّة[(١)] وتحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة. ويقال: إن كل ما حُلِّيتْ به الكعبة في ذلك العصر هو مما أهداه ملك مصر. ويقال: إنه لكثرة ما كان طوطيس يحمله إلى الحجاز سمّته العرب «جُرْهُمَ الصادق» وكذلك يسمِّيه كثير من أهل الأثر. وقد تقدّم في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام أن اسم الملك صادوق، ويقال: إنه سأل إبراهيمَ عليه السلام أن يبارك له في بلده، فدعا بالبركة لمصر، وعرّفه إبراهيم أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليه.

قال: وطوطيس أوّل الفراعنة بمصر؛ وذلك أنه أكثر القتل حتى قتل قراباتِه وأهلَ بيته وبني عمه وخدمه ونسائه، وأكثر الكهنة والحكماء. وكان حريصًا على الولد فلم يرزقه الله ولدًا غير اًبنته حوريا، وكانت عاقلة حكيمة تأخذ على يده كثيرًا وتمنعه من سفك الدماء، فأبغضته وأبغضه الخلق: الخاص والعام. فلما رأت أمرَه يزيد خافت على زوال ملكهم فسمّته فهلك. وكان ملكه سبعين سنة. ولما مات اختلفوا فيمن يملّكوه عليهم بعده فقالوا: لا يُمَلَّكُ علينا أحد من أهل بيته، وأرادوا تمليك بعض ولد أتريب؛ فقام بعض الوزراء ودعا إلى تمليك ابنته لصنيعها فيه، ولِمَا كانت تنكر عليه، وتبعه أكثر القوّاد والوجوه فتمّ لها الأمر.

وملكت حوريا بنة طوطيس وجلست على سرير الملك، ووعدت الناس بالإحسان، وأخذت في جمع الأموال وحفظها، فاجتمع لها من الأموال والجوهر والحليّ والطيب ما لم يجتمع لملك، وقدّمت الكهنةَ وأهلَ الحكمة ورؤساءَ السَّحَرة ورفعت أقدارهم، وأمرت بتجديد الهياكل وتعظيمها. وسار مَنْ لم يرضها إلى مدينة أتريب وملّكوا عليهم رجلاً من ولد أتريب يقال له أنداخس؛ فعَقد على رأسه تاجًا واًنضمّ إليه جماعة من بني عمه وأهل بيته، فأنفذت إليه جيشًا فحاربه؛ فلما رأى أنه لا طاقة له بها دعاها إلى الصلح وخطبها إلى نفسه وقال لها: إن الملك لا يقوم بالنساء، وخوّفها أن يزول ملكهم بمكانها؛ فعملت صنيعًا وأمرت أن يحضره الناس على منازلهم، فحضروا وأكلوا وشربوا وبذلت لهم الأموال وعرّفتهم ما جرى من

(١) جُدّة: بالضم، والتشديد؛ والجدّة في الأصل الطريقة، والجدة الخطة في ظهر الحمار تخالف سائر لونه. وجُدّة: بلد على ساحل بحر اليمن، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال؛ عن الزمخشري، وقال الحازمي: بينهما يوم وليلة، وهي في الإقليم الثاني... قال أبو المنذر: وبجدة ولد جدّة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة فسمي جدة باسم الموضع... (معجم البلدان).

خِطبتها، فبعضٌ صوّب الرأي، وبعضٌ امتنع وقالوا: لا يتولّى علينا غيرها لمعرفتنا بعقلها وحكمتها، وهي وارثة الملك؛ ووثبوا على نفر ممن خالفها فقتلوهم، وخرجوا في جيش كثيف فلقوا جيش الخارج بأتريب[١] فهزموه وقتلوا كثيرًا من أصحابه، فهرب إلى أرض الشام وبها الكنعانيون من ولد عمليق، فاستغاث بملكهم وضَمِن له أخذَ مصر وفتحها، فجهزه بجيش عظيم إلى مصر، فاجتمع الناس كلهم إلى حوريا، ففتحت خزائن أبيها وفرّقت ما فيها على الناس فأحبّوها، وقوّت السحرة بالمال ووعدتهم الإحسان.

فلما تقدّم أنداخس بالجيوش أمرت السَّحرةَ أن يعمَلوا له عملًا، وكان على جيوشهم قائدٌ من عظماء قوّاد ملكهم يقال له جيرون؛ فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرًا[٢] لها من عقلاء النساء إلى جيرون سرًّا من أنداخس تعرّفه رغبتها في تزويجه، لأنها لا تختار أحدًا من أهل بيتها، وأنه إن قَتَل أنداخس تزوّجت به وسلمت إليه ملك مصر ومنعت منه صاحبه. فرغِب في ذلك وسمّ أنداخس بسمّ أنفذته إليه فقتله؛ فوجهت إليه أنه لا يجوز أن أتزوّجك حتى تُظهِرَ في بلدي قوّتَك وحكمتك وتبنيَ لي مدينة عجيبة ـ وكان أفتخارهم حينئذ بالبنيان وإقامة الأعلام وعمل العجائب ـ وقالت له: انتقل من موضعك هذا إلى غربيّ بلدي فثَمّ آثار لنا كثيرة فاقتف تلك الأعمال الغريبة وأبن عليها. ففعل ذلك وبنى لها مدينة بصحراء الغرب يقال لها تندومة[٣]، وجرّ إليها من النيل نهرًا وغرس عليها غروسًا كثيرة، وأقام بها منارًا عاليًا، وعمل فوقه مِنْظرًا وصفّحه بالذهب والفضة والصُفْر والرخام الملوّن والزجاج المسبوك وأبدع في عمله. وكانت تمدّه بالأموال وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم.

فلما فرغ من بناء المدينة قالت له: إن لنا مدينة حصينة كانت لأوائلنا وقد خَربت منها أمكنة وتشعّث حصنها فامض إليها واعمل في إصلاحها إلى أن أنتقلَ إلى هذه المدينة التي بنيتها وأنقل إليها جميع ما يُحتاج إليه، فإذا فرغتَ من إصلاح تلك المدينة فأنفذ إليّ جيشًا حتى أصير إليك وأنظرَ ما صنعته، وأبعد عن مدينتي وأهل بيتي فإني أكره أن آتيك بالقرب منهم. فمضى وجدّ في عمل الإسكندرية الثالثة.

---

(١) أتريب: بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ساكنة وباء: اسم كورة في شرقي مصر مسماة بأثريب بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وقصبة هذه الكورة عين شمس، وعين شمس خراب لم يبق منها إلا آثار قديمة.

(٢) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

(٣) تندومة: لم تقع على هذه الكلمة فيما وصلنا من المعاجم والمظان؛ وقد يكون المراد «تندة»، وهي قرية كبيرة في غربي النيل من الصعيد الأدنى.

قال: وأهل التاريخ يسوقون شيئًا من أخبار أنداخس ويذكرون أنه الذي قصد الوليد بن دومع العمليقي، وهو ثاني الفراعنة. وكان سبب قصده له أنه كانت به علّة فوجّه إلى المواضع ليُحمل إليه من مياهها حتى يعرف ما يلائم جسده، فوجّه غلامًا له فأتى مملكة مصر ووقف على كثرة خيراتها وحمل إلى صاحبه من مائها وألطافها وعاد إليه، فعرّفه حالَ مصر فقصدها في جيش كثيف حتى حطّ عليها، وكاتب الملكة وخطب إليها نفسها، فوجهت إليه مَنْ أشرف على حاله فوجد قومًا عظامًا لا يقوم بحربهم، فأجابته إلى النرويج وألطفته وشرطت عليه أن يبنيَ لها مدينة يُظهر فيها أيْدَه[1] وقوّته ويجعلها مهرًا لها، فأجابها ودخل مصر وانتهى إلى ناحية الغرب ليبنيَ لها المدينة ناحية الإسكندرية، فأمرت أن يُتلقّى بأصناف الرياحين والفواكه وتُخَلَّقَ[2] وجوه الخيل؛ فمضى إلى الإسكندرية ـ وقد خربت بعد خروج العاديّة[3] منها ـ فنقل منها ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها ووضع أساس مدينة عظيمة وبعث إليها مائة ألف فاعل، فأقام في بنائها مدّة وأنفق جميع ما كان معه من المال، وكان كلما بنى بناءً خرجت من البحر دوابُّ تقلعه فإذا أصبح لم يجد منه شيئًا؛ فاهتمّ[4] لذلك.

وكانت حوريا قد أنفذت إليه ألف رأس من المَعَزِ اللبون يستعمل ألبانها في مطبخه، وكانت مع راع يثق به، وكان ذلك الراعي يطوف بها ويرعاها هناك، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسُه إليها، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه فإن صرعها كانت له وإن صرعته أخذت رأسين من المَعْزِ؛ فكانت على طول الأيام تَصرعه وتأخذ من الغنم حتى أخذت أكثر من نصفها وتغير باقيها لشَغَله بحب تلك الصورة عن رعيها، وتغير هو أيضًا في جسمه ونَحَل، فمرّ به صاحبه وسأله عن حاله وحال الغنم فخبّره الخبر خوف سطوته فقال: أي وقت تخرج؟ قال: قرب المساء. فلبس ثياب الراعي وتولّى رِعْيَة الغنم يومَه إلى المساء، وخرجت الجارية فشرطت عليه كما شرطت على الراعي، فأجابها وصارعها فصرعها وقبض عليها وشدّها فقالت له: إن كان لا بدّ من أخذي فسلِّمني لصاحبي الأوّل فإنه ألطف بي، وقد عذَّبتُه مرةً بعد مرة، فردّها إليه وقال له: سلْها عن هذا البنيان الذي بنيتُه ويزول من ليلته مَنْ يفعل به ذلك؛ وهل في بنائه من حيلة؟ فسألها

---

(١) أيده: أي قوته واشتداده.

(٢) يقال: خلّقه: أي طيبه بالخلوق، وهو ضرب من الطيب معظم أجزائه من الزعفران.

(٣) العادية: نسبة إلى قبيلة عاد البائدة. (٤) أهتمّ الرجل: أي اغتمّ.

الراعي عن ذلك فقالت: إن دوابّ البحر التي تنزع بنيانكم. قال: فهل فيها من حيلة؟ قالت: نعم. قال: وما هي؟ قالت: تعمَل توابيتَ من زجاج كثيف بأغطية وتجعل فيها قومًا يُحسنون الصناعة في التصوير، وتجعل معهم صحفًا وأنقاشًا وزادًا يكفيهم أيامًا، وتجعل التوابيتَ في المراكب بعد أن تُشُدّها بالحبال، فإذا توسّطوا الماء صوّر المصوّرون جميع ما مرّ بهم وتُرفع تلك التوابيتُ من الماء، فإذا وقفتم على تلك الصور فأعملوا لها أشباهًا من الصُفْر[1] أو من الحجارة أو من الرصاص وانصِبوها أمام البنيان الذي تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدوابّ إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد. فعرّفه الراعي ذلك ففعله، وتمّ بناء المدينة.

وقل قوم من أهل التاريخ: إن صاحب البناء والغنم جيرون المؤتفكيّ وكان قَصَدهم قبل الوليد، وإنما أتاهم بعد حوريا وقهرهم جيرون وملك مصر. وذكروا أن الأموال التي كانت مع جيرون نَفِدت كلها في تلك المدّة ولم يتم البناء، فأمر الراعي فسأل تلك الجارية فقالت: إن في المدينة التي خَرِبت ملعبًا مستديرًا حوله سبعة عَمُدٍ على رؤوسها تماثيلُ من صُفْرٍ قيام، فقرّب لكل تمثال منها ثورًا سمينًا ولطِّخ العمودَ الذي عليه التمثال من دم الثور، وبخّره بشعر من ذنبه وشيء من نُحاتة قرونه وأظلافه، وقل له: هذا قربانك فأطلق لي ما عندك، ثم قِسْ من كل عمود إلى الجهة التي يتوجّه إليها وجهُ التمثال مائةَ ذراع واحفر، وليكن ذلك في وقت امتلاء القمر واستقامة زُحَل؛ فإنك تنتهي بعد خمسين ذراعًا إلى بلاطة عظيمة فلطِّخها بمرارة الثور وأقلعها فإنك تنزل منها إلى سَرَب طوله خمسون ذراعًا في آخره خِزانة مقفلة ومفتاح القفلْ تحت عتبة الباب فخذه ولطّخ الباب ببقية مرارة الثور ودمه وبخره بنُحاتة قرونه وأظلافه وشعره، وادخل الباب بعد أن تَخرُجَ الرياحُ التي فيه، فإنه يستقبلك صنم في عنقه لوحٌ من صُفْر معلقٌ مكتوب فيه جميع ما في الخزانة من مال وجوهر وتمثال وأعجوبة، فخذ منه ما شئت ولا تتعرض لميت تجده ولا لما عليه؛ وكذلك فافعل بكل عمود وتمثاله؛ فإنك تجد في تلك الخزائن نواويسَ سبعةٍ من الملوك وكنوزَهم. فلما سمع ذلك سُرّ به وفعله فوجد ما لا يُدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئًا كثيرًا؛ فتم بناء المدينة. واتصل ذلك بحوريا فساءها؛ وإنما كانت أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة عليه. فيقال: إنه فيما وُجد من العجائب درجُ ذهب مختومٌ بطين ذهب فيه مكحلة زبرجد

(١) الصفر: النحاس الأصفر.

فيها ذَرورٌ[١] أخضر ومعها عِرقُ جوهر أحمرُ، من اكتحل من ذلك الذَّرور وكان أشيب عاد شابًا وٱسودّ شعره وأضاء بصره حتى يدرك النظر إلى أصناف الروحانيين، ووُجِد تمثالٌ من الذهب إذا أُظهر غيمت السماء وأمطرت، وتمثال غراب من حجر إذا سئل عن شيء صوّت وأجاب عنه. ويقال: إنه كان في كل خِزانة عشر أعجوبات.

قال: فلما فرغ جيرون من بناء المدينة وجه إليها يعلمها ذلك ويحثّها على القدوم. فحملت إليه فُرُشًا فاخرة وقالت: ابسطها في المجلس الذي تجلس فيه، وأقسم جيشك أثلاثًا وأنفذ إليّ ثلثه، حتى إذا بلغتُ ثلث الطريق فأنفذ إليّ الثلث الآخر، فإذا جزتُ نصف الطريق فأنفذ إليّ الثلث الباقي، ويكونون من ورائي لئلا يراني أحد إذا دخلت عليك، ولا يكن عندك إلا صِبْيةٌ تثق بهم يخدمونك فإني أوافيك في جوارٍ تكفيك الخدمة ولا أحتشمهنّ[٢]؛ ففعل. وأقامت تحمل إليه الجهاز والأموال حتى علم بمسيرها ووجه إليها ثلث جيشه فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، فلما أتَوْها استنزلهم جواريها وحشمُها وأقبلوا عليهم بتلك الأطعمة والأشربة والطيب والكساء واللهو فلم يصبح منهم أحد يعيش، ولقيها الثلث الثاني والثالث بعده ففعلت بهم كذلك، وهي توجِّه إليه أنها أنفذت جيشه إلى قصرها ومملكتها يحفظونه. إلى أن دخلت عليه هي وظِئرها وجوارٍ كنّ معها، فنفخت ظِئرُها في وجهه نفخة بهث إليها ثم رشّت عليه ماء كان معها فٱرتعدت مفاصله فقال: من ظنّ أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبته النساء، ثم فصدت[٣] عروقه وأسالت دمه وقالت: دماء الملوك شفاء. وأخذت رأسه فوجّهت به إلى قصرها فنُصِب عليه وحملت تلك الأموال إلى منف. وبنت منارًا بالإسكندرية وزبرت عليه ٱسمها وٱسمه وما فعلت به وتاريخ الوقت.

قال: ولما ٱتصل خبرُها بالملوك الذين يتاخمون بلدها، هابوها وأذعنوا لها وهادَوْها. وعملت بمصر عجائب كثيرة، وأقطعت أهل بيتها وقوّادها وحشمها أقطاعًا كثيرة، وأمرت أن يبنى على حدّ مصر من ناحية النوبة حصنٌ وقنطرة يجري ماء النيل من تحتها. وٱعتلت حوريا فاجتمع إليها أهل مملكتها وسألوها أن تقدِّم عليهم ملكًا،

---

(١) الذرور: ما يذر في العين وعلى الجرح من دواء يابس، وعلى الطعام من ملح مسحوق. جمع أذرّة.

(٢) احتشمهنّ: أي أستحيي منهن.

(٣) فصدت العرق: أي شقّته لتستخرج دمه وتشربه.

ولم يكن في ذلك الوقت من ولد أبيها وأهل بيته من يصلح لذلك، فقلدت عمتها دليفة بنت ماموم، وكانت عذراء من عقلاء النساء وكبراهنّ، فعهِدَت إليها وأخذت لها المواثيق على أهل مصر ألا يُسْلِمُوها وأن يتبعوا أمرها، وسلمت إليها مفاتيح خزائنها، وأطلعتها على مواضع كنوز آبائها وكنوزها، وأمرت أن يضمّد جسدها بالكافور وتحملَ إلى المدينة التي بنيت لها في صحراء الغرب، وقد كانت عملت لها فيها ناووسًا وعملت فيه عجائب ونقلت إليه أصنام الكواكب، وزينته بأحسن الزينة ونصّبت له قَوَمة، وأسكنت تلك المدينةَ جماعةً من الكهنة وأصحاب العلوم والمهن وبعض الجيش، وعمرت تلك المدينة فلم تزل على حالها من العمارة إلى أن خرّبها بُخْتَنَصّر وحمل بعض كنوزها.

وجلست دليفة بنت ماموم على سرير الملك بعد وفاة حوريا، واجتمعت الكلمة عليها وأحسنت إلى الناس ووضعت عنهم خراجَ سنة، وقام عليها أيمينُ يطلب بثأر خاله أنداخس، واستنصر بملك العمالقة فوجّه معه قائدًا من قوّاده في جيش كثيف، فأخرجت إليه دليفة بعضَ قوّادها فألتقَوْا بالعريش[(١)]، وجعل سَحَرةُ الفريقين يُظهرون التخاييل الهائلة والعجائب العظيمة والأصوات التي تقرع الأسماع وتؤلمها، فأقاموا مدّة يتكافؤون الحرب ويتراجعون فهلك بينهم خلق كثير، ثم أنهزم أصحاب دليفة إلى منف وسار أصحاب أيمين في آثارهم، ومضت دليفة في جمع من جيوشها إلى ناحية الصعيد فنزلت الأشمونين وأنفذت من قدرت عليه من الجيوش ووقعت الحرب بينهم بناحية الفيوم وخلّى أصحابُ دليفة الماءَ بينهم وبين عدوّهم، وأستنجدت دليفة بأهل مدائن الصعيد فحاربوا أصحابَ أيمين حتى أزالوهم عن منف، وكانوا قد ظَفِروا بها وعاثوا فيها، فهزموهم حتى ركبوا المراكب وعدوا إلى ناحية الحَوْف[(٢)]، وكان معهم ساحر من أهل ناحية قِفط فأظهر بسحره نارًا حالت بينهم وبين أصحاب دليفة، فلما

---

(١) العريش: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت: هي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل؛ وهي مدينة جليلة، وهي آخر مدينة تتصل بالشام من أعمال مصر ويتقلدها والي الجفار وهي مستقرة، وفيها جامعان ومنبران، وهواؤها صحيح طيب، وماؤها حلو عذب، وبها سوق جامع كبير وفنادق جامعة كبيرة ووكلاء للتجار ونخل كثير، وفيها صنوف من التمور ورمان يحمل إلى كل بلد بحسبه. . . (معجم البلدان).

(٢) الحوف: بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. .

زاد الأمر وأشفق أهل مصر من خروجها عن أيديهم سَفَرَ[١] السفراء بينهم على أن يجعلوا البلد قِسْمةً بينهم فأجاب كل منهما إلى الصلح، ثم غدرت دليفة بعد ذلك بأيمين وأخرجت الأموال والجواهر وفرقتها في الناس، وكان بعضهم قد لامها في الصلح، فرجعت إلى الحرب فأقاموا ثلاثة أشهر ثم ظهر أيمين عليها وهزمها إلى ناحية قوص وسار خلفها وتمكن من المملكة، فلما رأت ذلك سمّت نفسها فهلكت.

وملك بعدها أيمين؛ فتجبر وقتل خلقًا كثيرًا ممن كان حاربه. وكان الوليد بن دومع العمليقي قد خرج في جيش كثيف يتنقل في البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها؛ فلما صار بالشام انتهى إليه خبر مصر وعظم قدرها، وأن أمرها قد صار إلى النساء، وبادت ملوكها، فوجه غلامًا له يقال له عون، فسار إلى مصر وفتحها وحوى أموالاً، ومولاه لا يعرف خبره ولا يشك في هلاكه وهلاك الجيش الذي معه، لِمَا كان يسمع عما بمصر من الطلّسمات والسحر؛ ثم اتصل به خبره فسار إلى مصر فتلقاه عون وعرّفه أنه كان عزم على المسير إليه وإنما أراد تعديل البلد وإصلاحه فقبل قوله ودخل.

وملك مصر الوليد بن دومع العمليقيّ، واستباح أهلها وأخذ أموالها وقتل جماعة من كهنتها، ثم سنح[٢] له أن يخرج فيقفَ على مصبّ النيل ويعرف ما بناحيته من الأمم ويغزوهم، فأقام ثلاث سنين يستعدّ لخروجه، وأصلح ما يحتاج إليه، واستخلف عونًا على البلد وخرج في جيش كثيف فلم يمرّ بأمة إلا أبادها[٣]. فيقال: إنه أقام في سفره سنين كثيرة، وإنه مرّ على أمم من السودان وجاوزهم، ومرّ على أرض الذهب وفيها قضبان نابتة؛ ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة[٤] التي ينصبّ ماء النيل إليها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل القُمْر؛ ثم سار حتى بلغ هيكل الشمس فدخله. ويقال: إنه خوطب فيه. وسار حتى بلغ جبل القمر؛ وهو جبل عال. وإنما سمي جبل القُمْر لأن القمر لا يطلع عليه لخروجه عن خط الاستواء. ونظر إلى النيل يخرج من تحته. وقد تقدّم خبر النيل.

---

(١) سفر السفراء بينهم: أصلح بينهم.

(٢) سنح: عرض. (٣) أبادها: أهلكها.

(٤) هي إحدى البحيرات الثلاث التي تسمى: البطيحة الغربية، والبطيحة الشرقية، وبينهما البطيحة الكبرى، وهي التي يخرج منها نهر النيل المصري، ونهر النيل السوداني.

قال: ودخل الوليد القصر الذي فيه تماثيل النحاس التي عَمِلها هِرْمِس الأوّل في وقت البودسير الأوّل بن قفطريم. قال: ولما بلغ الوليد جبل القُمْر رأى جبلاً عاليًا فأعمل الحيلة وصعد عليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزفتيّ المنتن، ونظر إلى النيل يجري عليه كالأنهار الرقاق، وأتته من ذلك البحر روائحُ منتنة هلك كثير من أصحابه من ريحها فأسرع النزولَ بعد أن كاد يَهْلِك.

قال: وذكر قوم أنهم لم يروْا شمسًا ولا قمرًا وإنما رأوْا نورًا أحمر كنور الشمس عند مغيبها. وأقام الوليد في غيبته أربعين سنة. وأما عَوْن الذي استخلفه بمصر فإنه فعل في غيبة الوليد ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خبر عون وما فعله في غيبة الوليد وخبر المدينة التي بناها

قال: ولما مضت من غيبة الوليد بن دومع سبعُ سنين تجبّر غلامه عونٌ بمصر، وادّعى أنه الملك، وأنكر أن يكون غلامًا للوليد، وأنه أخوه وقلّده الملك بعده، ووثب على الناس وغلبهم بالسحرة وأسنى[1] جوائزهم ولم يمنعهم محابَّهم؛ فمالوا إليه ووثّقوا أمره، فلم يترك امرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها، ولا مالاً إلا أخذه وقتل صاحبه. وكان مع ذلك يلزم الهياكل ويُكرم الكهنة، فكانوا يُمسكون عنه إشفاقًا منه وخوفًا من السحرة الذين معه؛ إلى أن رأى في منامه الوليدَ بن دومع وكأنه يقول له: مَنْ أمرك أن تتسمى بأسم الملك، وقد علمتَ أنه من فعل ذلك استحق القتل، ونكحتَ بنات الملوك وأخذتَ الأموالَ بغير واجب، ثم أمر بقدور فملئت زيتًا وأُحميت على أنه يغمر فيها، فلما غلت أمر بنزع ثيابه فأتى طائر في صورة عُقاب فاختطفه من أيديهم وحلق به في الجوّ وجعله في هوّة على رأس جبل، وأنه سقط من رأس الجبل إلى واد فيه حية، فانتبه مرعوبًا طائر العقل. وقد كان في فعله ذلك وتملُّكِه إذا خطرت بقلبه من ذكر الوليد خطرةٌ كاد عقله يزول، خوفًا منه لِمَا يعلمه من فظاظته[2] وبطشه وقوّته. ولم يتيقّن هلاكَه وأضمر في نفسه الهربَ من مصر بما معه من الأموال.

قال: ولما رأى الرؤيا لم يشك في حياة الوليد وأنه سيعود، فأطلع بعضَ السَّحَرَة ممن يثق به على أمره وقال: إني خائف من الوليد وقد عزمت على الخروج

---

(١) يقال: أسنى جوائزهم: أي رفعها.

(٢) الفظاظة: القساوة والإساءة.

من مصر فما الوجه عندكم؟ قالوا: نحن نُنْجِيك منه على أن تقبل منا. قال: قولوا، قالوا: تعمل عُقابًا وتعبده؛ فإن الذي حصّنك منه أحدُ الروحانيين وهو يريد ذلك منك. قال عون: أشهد لقد قال لي وأنا معه: أعرفْ لي هذا المقام ولا تَنْسَه. قالوا: قد بينا لك. فأجابهم إلى ذلك وعمل عُقابًا من ذهب وعمل عينيه جوهرتين ووشّحه بأصناف من الجوهر، وعمل له هيكلاً لطيفًا وجعله في صدره وأرخى عليه ستور الحرير، وأقبل أولئك يبخّرونه ويقرّبون إليه ويَسْحَرُون إلى أن نطق لهم، فأقبل عون على عبادته ودعا الناس إليها فأجابوه.

فلما مضى لذلك مدّة أمره العقاب ببناء مدينة يحوله إليها وتكون مَعْقِلاً[١] له وحرزًا من كل أحد. فأمر عون أصحابه أن يخرجوا إلى صحارِي الغرب ويطلبوا كل أرض سهلة حسنة الاستواء، ويكون المدخل إليها بين هجُول[٢] صعبة وجبال وعرة، ويتوخَّوْا أن تكون قريبة من ناحية مَغِيض[٣] الماء التي هي اليوم الفيوم. وكانت مغيضًا لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام على ما نذكره إن شاء الله. وإنما أراد عون بذلك ليجرَّ الماء منها إلى مدينته التي يبنيها؛ فخرج أصحابه وأقاموا شهرًا يطوفون الصحارى حتى وجدوا له بغيته، ولم يبق فاعل ولا مهندس ولا أحد ممن يبصُر البناء ويقطع الصخور وينحتها إلا وجّه به عون إليها، وأنفذ معهم ألف رجل من جيشه وسبعمائةَ ساحر يعاونونهم بالروحانيين الذين في طاعتهم، وأنفذ معهم جميع الآلات وأقام يحمل لهم الزاد إلى هناك شهورًا على العَجَل[٤]؛ وطريق العجل على الفيوم واضحةٌ في صحراء الغرب وخلف الأهرام - وهي التي يقصدها أصحاب المطالب - مشهورة.

قال: فلما تكامل له ما أراد من ذلك ومن نحت الأحجار خَطَوا المدينة فرسخين في فرسخين، وحفروا في الوسط بئرًا وجعلوا في تلك البئر تمثالَ خنزير من نحاس بأخلاط ونصبوه على قاعدة من نحاس وجعلوا وجهه إلى الشرق، وكان ذلك بطالع زُحَل واستقامته وسلامته من المتضادين له في شرفه، وأخذوا خنزيرًا فذبحوه له ولطخوا وجهه بدمه وبخروه بشعره، وأخذوا شيئًا من عظامه ولحمه ومرارته فجعلوه

---

(١) المعقل: الملجأ والحصن.
(٢) الهجول: جمع هجل، وهو المطمئن من الأرض.
(٣) المغيض: المكان الذي يغيض فيه الماء؛ وغاض الماء: أي نزل في الأرض وغاب فيها.
(٤) العجل: الدولاب، والمراد به هنا العربة.

في جوف ذلك الخنزير النحاس، وجعلوا في أذنيه شيئًا من مرارته، وأحرقوا بقية الخنزير، وجعلوا رماده في قلة[١] نحاس بين يدي الخنزير النحاس، ونقشوا عليه آيات زحل، ثم شقوا في البئر أخدودًا[٢] من أربعة وجوه شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، ومدّوا تلك الأخاديد إلى حيطان المدينة، وعملوا على أفواهها مسارب تجتلب الرياحَ إليها، ثم سدّوا البئر وعملوا عليها قبة على عمد مربعة، وجعلوا منها شوارع كل شارع ينتهي إلى باب من أبواب المدينة وفصلوها بالطرقات والمنازل، وجعلوا حول القبة تماثيل فُرسان من نُحاس بأيديها حِرابٌ ووجوهها مقابلة لتلك الأبواب، وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود وفوقه أحمر وفوقه أصفر وفوقه أخضر، وفوق الجميع أبيض يشفّ، مثبتة كلها بالرصاص المصبوب بين الحجارة، وقلوبَها أعمدة من حديد على وضع بناء الأهرام؛ وجعل طول حصنها ستين ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا، ونُصب على كل رأس باب من أبوابها في أعلا الحصن تمثالُ عُقاب كبير من صفر وأخلاط ناشرَ الجناحين أجوفَ، وعلى كل ركن صورةُ فارس بيده حربة ووجهه إلى خارج المدينة؛ وساق الماء إلى ناحية الباب الشرقي ينحدر في صبَبٍ[٣] إلى الباب الغربي ويخرج إلى صهاريجَ[٤] هناك، وكذلك من الباب الجنوبي إلى الشمالي وقرّب لتلك العِقبان عقبانًا ذكورًا، واجتذب الرياح إلى أفواه التماثيل، فكانت الرياح إذا دخلتها سُمعت لها أصواتٌ شديدة لا يسمعها أحد إلا هالته، وصمّدها[٥] بعفاريت تمنع الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها، ونصب العُقاب الذي كان يعبده تحت القبة التي في وسط المدينة على قاعدة لها أربعة أركان في كل ركن منها وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها، والعقاب يدور إلى كل الجهات الأربع، ويقيم فيها ربع السنة، يقرب إليه من جهتها.

فلما فرغ من ذلك كله حمل إليها جميع الأموال والجواهر المخزونة بمصر وما وجده في خزائن الملوك، ومن التماثيل والحكم وتراب الصنعة والعقاقير والسلاح وغير ذلك، وحوّل إليها كبارَ السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم لا يختلط أهلُ صنعة بغيرها، وعمل لها رَبَضًا[٦] يحيط بها، وبنى فيه

---

(١) القلة: إناء يشرب منها.

(٢) الأخدود: الشقّ المستطيل في الأرض، جمع أخاديد.

(٣) الصّبب: ما انحدر من الأرض. جمع أصباب.

(٤) الصهريج: حوض كبير للماء. جمع صهاريج.

(٥) صمّدها: سدّها.

(٦) المراد بالربض هنا: سور المدينة.

منازل لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمرّ عليها الداخل إلى المدينة، وجعل الماء يدور حول الرَّبَض؛ ونصب عليها أعلامًا وحرسًا؛ ثم غرس وراء ذلك بالبرية النخل والكروم وأصناف الأشجار، ومن وراء ذلك مزارع الغلات من كل جهة، وكان يرتفع له بها في كل سنة ما يكفيه لعشر سنين، كل ذلك خوفًا من الوليد.

قال: وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام؛ فكان عونٌ يخرج إليها فيقيم بها عشرة أيام ثم يعود إلى منف، وكان لها أربعة أعياد في السنة؛ وهي الأوقات التي يتحوّل العُقاب فيها. فلما تمّ ذلك كله لعَون ٱطمأنّ قلبه، وسكنت نفسه.

ذكر عود الوليد إلى مصر وهرب عون إلى مدينته

قال: ثم وافا كتاب الوليد بن دومع من نواحي النوبة إلى عون يأمره أن يُنْفِذَ[١] إليه الأزوادَ[٢] وينصبَ له الأسواق؛ فوجّه إليه ذلك في المراكب وعلى الظهر[٣]، وحوّل جميع عياله ومن ٱصطفاه من بنات ملوك مصر وكبرائها إلى المدينة، حتى إذا قرب دخولُ الوليد إلى مصر خرج عون إلى مدينته وخلّف خليفة على مصر يكون بين يدي الوليد. ودخل الوليد مدينة منَف وتلقاه أهل مصر وشكَوْا إليه عونًا وما حلّ بهم منه. قال: وأين هو؟ قالوا: فرّ منك. فغضب الوليد وأمر بجيش كثيف ينفذ إليه، فعرّفوه أن الجيش لا يصل إليه، وأخبروه خبر المدينة وكيف بناها وخبر السّحرة الذين معه. فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه ويحذّره التخلفَ عنه، ويُقسم أنه إن لم يفعل وظفر به بضَّع[٤] لحمه بِضَعًا. فردّ جوابه يقول: ما على الملك مني مؤنة، وأنا لا أتعرّض إلى بلده ولا أعيث فيه؛ لأني عبده، وأنا له في هذا الموضع أردّ كل عدوّ يأتيه من نواحي الغرب، ولا أقدر على المصير إليه لخوفي منه، فليقرَّني الملك بحالي كأحد عمّاله وأوجه إليه ما يلزمني من الخراج والهدايا. ووجه إليه بأموال جليلة وجوهر نفيس. فلما رأى ذلك كفّ عنه. وأقام الوليد بمصر فٱستعبد أهلها وٱستباح حريمهم وأموالهم. وملكهم مائة وعشرين سنة فأبغضوه وسئموا أيامه. وٱتفق أنه ركب

---

(١) ينفذ إليه: أي يرسل إليه.
(٢) الأزواد: جمع الزاد، وهو طعام يتخذ للسفر.
(٣) المراد بالظهر هنا: العير والدواب التي تحمل الأثقال في السفر على ظهرها.
(٤) يقال: بضّع اللحم: أي قطعه بضعًا.

في بعض الأيام إلى الصيد فألقاه فرسه في وهدة[١] فهلك. وكان ابنه الريان يُنكر عليه فعلَه ولا يرضاه. فلما هلك عمل له ناووسًا قرب الأهرام. وقيل: بل دفن في الهرم.

ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد بن دومع؛ وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش[٢]، وجلس على سرير الملك. وكان عظيم الخَلْق، جميل الوجه، عاقلاً متمكنًا؛ فتكلم ومنّى الناس وضمِن لهم الإحسان وأسقط عنهم الخراج ثلاث سنين، فأثنوْا عليه وشكروه، وأمر بفتح الخزائن وفرّق ما فيها على الخاصّ والعامّ، وتمكنت منه أرْيحيّة[٣] الصِّبا فملّك على الرعية رجلاً من أهل بيته يقال له أطفين، وقيل في اسمه: قطفير، وقيل: قوطيفر، وهو الذي يسميه أهل الأثر العزيز. وكان من أولاد الوزراء. وكان عاقلاً أديبًا متمكنًا صائب الرأي كثير النزاهة مستعملاً للعدل والعِمارة والإصلاح. وأمر الريان أن يُنصب له في قصر الملك سرير من الفضة يجلس عليه ويغدو ويروح إلى باب الملك، ويخرج بجميع الوزراء والعمال والكتاب بين يديه؛ فكفى الريّانَ ما خلف سريره وقام بجميع أمره وأخلاه للذّاته؛ فأقام الريان منعكفًا على قصفه[٤] ولهوه منغمسًا في لذّته لا ينظر في عمل ولا يظهر للناس ولا يخاطبهم، فأقاموا بذلك حينًا. هذا والبلد عامر.

وبلغ الخراج في وقته سبعة وتسعين ألف ألف مثقال فجعلها أقسامًا، فما كان للملك وأسبابه وموائده حُمل إليه، وما كان في أرزاق الجيش والكهنة والفلاسفة وأصحاب الصنائع ومصالح البلد وأهل المهنة صُرف إليهم، والملك مع ذلك غير سائل عن شيء؛ قد عُمِلت له مجالسُ من الزجاج الملوّن وأُجْرِيَ حولها الماء وأُرسِلت فيها الأسمك المقرّطة[٥]، فكانت الشمس إذا وقعت على المجلس منها أرسل شعاعًا عجيبًا يبهَر العيون. وعملت له عدّة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم في موضع منها، وفي كل موضع منها من الفرش والآنية والآلات ما ليس في غيره.

---

(١) الوهدة: الأرض المنخفضة. جمع وهد، ووهاد.
(٢) نهراوش: هو أحد العمالقة، وهم ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.
(٣) الأريحية: الارتياح للندى والنشاط إلى المعروف.
(٤) القصف: اللهو واللعب والافتنان في الطعام والشراب.
(٥) المقرطة: التي لها زنمتان معلقتان تشبهان القرط في الأذن.

فلما اتصل بملوك النواحي تشاغُل الريان بلذاته وتدبير العزيز لأمره، قصده رجل من العمالقة يقال له عاكن بن بيحوم وكنيته أبو قابوس، وقصد مصر حتى نزل على حدودها، فأنفذ إليه العزيز جيشًا كثيفًا وجعل عليه قائدًا يقال له بريانس، فأقام ثلاث سنين يحاربه، ثم ظفر به العمليقي ودخل من الحدود وهدم أعلامًا ومصانع كثيرة، وتمكن طمعه في البلد فأعظم أهلُ مصر ذلك وٱجتمعوا إلى قصر الملك وجعلوا يصيحون ويستغيثون ويرفعون أصواتهم حتى سمعها الملك فقال: ما بال الناس؟ فأُخبر خبر العمليقي وأنه قد دخل عَمَلَ مصر وعاث وأفسد المزارع والمصانع والأعلام، وأنه سار بجيشه إلى قصر الملك، فارتاع الريان لذلك وأنف منه وٱنتبه من غفلته وعرض جيوشه وأصلح أمره وخرج في ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقَوْا من وراء الأحواف في تلك الصحراء، واقتتلوا قتالاً شديدًا فٱنهزم العمليقي وٱتبعه الريان إلى حدود الشام وقتل من أصحابه خلقًا وأفسد زرعهم وأكثرَ أشجار الفواكه والزيتون، وأحرق وصلب ونصب أعلامًا على الموضع الذي بلغه وزبر عليها: إني لِمَن يجاوز هذا المكان بالمرصاد. فلما تمّ له هذا الظفر هابته الملوك ولاطفوه وأعظموه. وقيل: إنه بلغ الموصل وضرب على الشام خراجًا وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها هي وتلك الناحية بالرجال، ورجع إلى مصر فحشد جنوده من جميع الأعمال، وٱستعدّ لغزو ملوك الغرب فخرج في تسعمائة ألف واتصل بالملوك خبره، فمنهم من تنحّى عن طريقه، ومنهم من دخل تحت طاعته. ومرّ بأرض البربر[(١)] فأجلى كثيرًا منهم، ووجه قائدًا يقال له مريطس في سفن فركب البحر من ناحية رقودة. ومرّ الريان بجزائر بني يافث فعاث فيها وٱصطلم أهلها، وخرج من ناحية أرض البربر فقتل بعضهم وصالح بعضهم وحملوا إليه الأموال، ومضى إلى إفريقية وقرطاجنّة فصالحوه على أموال وألطاف كثيرة حملوها إليه، ومرّ حتى بلغ مصبّ البحر الأخضر[(٢)] وهو موضع الأصنام النحاس، فأقام هناك صنمًا وزبر عليه اسمه وتاريخَ الوقت الذي خرج فيه، وضرب على أهل تلك النواحي خراجًا، وعدّى إلى الأرض الكبيرة وصار في الإفرنجة، والأندلس في حوزهم وعليها لذريق الأصغر، فحاربه أيامًا وقتل من أصحابه خلقًا وصالحه بعد ذلك على ذهب مضروب، وعلى ألا يغزوَ مصر ويمنع من رام ذلك من جميع أهل النواحي، وٱنصرف مشرّقًا فشقّ بلد البربر فلم يمر بموضع إلا

(١) البربر: هو اسم يشتمل قبائل كثيرة في جبال المغرب، أولها برقة ثم إلى آخر المغرب والبحر المحيط وفي الجنوب إلى بلاد السودان، وهم أمم وقبائل لا تحصى، ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويقال لمجموع بلادهم بلاد البربر.

(٢) البحر الأخضر: ويقال له بحر الظلمات: هو المحيط الإطلنطي.

خرج أهله بين يديه وأهدوا له ودخلوا تحت طاعته. ثم أخذ نحو الجنوب ومر ببلد الكوسانيين فحاربوه فقتل خلقًا كثيرًا، وبعث قائدًا إلى مدينة على عبر البحر الأخضر فخرج إليه ملك المدينة وأهلُها فعرّفهم حال الريان ومصالحة الملوك له فقالوا: ما بلغنا أحد قط، وسألهم هل ركب هذا البحر أحدٌ؟ فقالوا: ما يستطيع أحد أن يركبه، وأخبروه أنه ربما أظله الغمام فلا يرونه أيامًا، وأتى الريان فتلقَّوْه بهدايا وفاكهة أكثرها الموز؛ وحجارة سود فإذا جعلت في الماء صارت بيضاء، ثم تركهم وسار إلى أمم السودان حتى بلغ ملك الدمدم[١] الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عُراة بأيديهم العمد الحديد، وخرج ملكهم على دابة وهو عظيم الخلق له قرون، وكان جسيمًا أحمر العينين، فظفِر بهم فانهزموا إلى أوحال وأدغال فلم يتهيأ له اتباعهم فيها، وجازهم إلى قوم على خلق القرود لهم أجنحة صغار يثبون بها من غير ريش. ومرّ على عبر[٢] البحر المظلم فغشيهم منه غمام فرجع شمالاً حتى انتهى إلى جبل يقال له وسن، فرأى فوقه تمثالاً من حجر أحمر يومي بيده: إرجعوا، وعلى صدره مزبور: ما ورائي أحد. فتركه وسار راجعًا فانتهى إلى مدينة النحاس[٣] فلم يصل إليها. ومضى حتى بلغ الواديَ المظلم فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة ولا يَرَوْن أحدًا لشدّة ظلمته. وسار حتى أنتهى إلى وادي الرمل ورأى على عَبْرِه أصنامًا عليها أسماء الملوك قبله فأقام معها صنمًا وزبر عليها أسمه. فلما أسبت[٤] الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، وسمع جلبة وصياحًا هائلاً فخرج في شجعان أصحابه حتى أشرف على السباع المقرنة الأنوف، فإذا بعضها تهِرّ[٥] وتأكل بعضها بعضًا، فعلم أنه لا مذهب له من ورائها فرجع، وعدّى واديَ الرمل ومرّ بأرض العقارب فهلَكَ بعض أصحابه ورفعوها عنهم بالرُّقَى[٦] التي يعرفونها، ثم جاوزهم حتى أنتهى إلى مكان صلوفة وهي حية عظيمة، فهجموا عليها ولم يعرفوها وظنوا أنها جبل، ثم عرجوا عنها وتعوّذوا منها بالرُّقَى. قال: ويزعم القبط أنه منعها من الحركة بسحره وتركها فهلَكت. وقيل: إن تعريجَ هذه الحية مِيلٌ وأنها كانت تبتلع السباع هناك.

---

(١) دمدم: بدالين على وزن زمزم بزايين في شعر أمية حيث قال:
ولطت حجاب البيت من دون أهلها، تغيب عنهم في صحاريّ دمدم
(معجم البلدان).

(٢) العبر من النهر أو البحر: شاطئه وناحيته. (٣) مدينة النحاس: تقدم وصفها وتفسيرها.

(٤) المراد بقوله: أسبت الرمل، أي سكن ولم يتحرك.

(٥) تهر: أي تصوّت.

(٦) الرقى: واحدتها الرقيَة، وهي العوذة التي يرقى بها المريض ونحوه.

وسار حتى بلغ مدينة الكند[١]، وهي مدينة الحكماء، فتهاربوا منه إلى جبل صَعِدوه من مواضع يعرفونها من داخل مدينتهم لم يعرفها غيرهم، ولم يجد الريان ومن معه إلى الصعود إليها سبيلاً، فأقاموا عليها أيامًا وكادوا يهلِكون من العطش، فنزل إليهم من الجبل رجل يقال له مندوس، كان من أفاضل الحكماء وقد لبس شعرُه جسدَه، فقال: أين تريد أيها المغرور الممدود له في الأجل! المرزوق الكفاية! أتعبت نفسك وجيشك! ألا اقتنعت بما تملكه وٱتكلت على خالقك وربحت الراحة وتركت العناء والغرور بهذا الخلق. فعجب الملك من قوله وسأله عن الماء فدلّه عليه، وسأله عن موضعهم فقال: موضع لا يصل إليه أحد ولا بلغه قبلك أحد. قال: فما عيشكم؟ قال: من أصول نبات لنا نعتصم به ونقنع بأكله ويكفينا اليسير. قال: فمن أين تشربون؟ قال: من نِقار[٢] الماء من الأمطار. قال: فلمَ هربتم منا؟ قال: رغبة عن[٣] خلطتكم وإلا فليس لنا ما نخاف عليه. قال: فكيف تكونون إذا حَمِيت عليكم الشمس؟ قال: في غِيرَانٍ[٤] تحت هذه الجبال. قال: فهل تحتاجون إلى مال أخلفه لكم؟ قال: إنما يريد المالَ أهلُ البذخ ونحن لا نستعمل منه شيئًا، ٱستغنينا عنه بما قد اكتفينا به، وعندنا منه ما لو رأيتَه لحقَّرت ما عندك. قال: فأَرِنيه، فانطلق به مع نفر من أصحابه إلى أرض في سفح جبلهم فيها قضبان الذهب نابتة، وأراهم واديًا حافتاه حجارة الزبرجد والفيروذج[٥]، فأمر الرّيان أصحابه أن يأخذوا من كبار تلك الحجارة ففعلوا؛ ورآهم الحكيم يصلّون إلى صنم يحملونه معهم، فسألهم ألا يقيموا بأرضهم خوفًا من عبادة الأصنام؛ فسأله الملك أن يدله على الطريق ففعل، وودّع الحكيمَ وسار على السمت[٦] الذي وصفه له. فلم يمر بأُمة إلا أبادها وأثر فيها إلى أن بلغ بلدَ

---

(١) الكند: بالفتح: من نواحي خجندة، وتعرف بكند بادام وهو اللوز لكثرته بها، وهو لوز عجيب خفيف القشر يتقشر إذا فرك باليد. (معجم البلدان).

(٢) النقار: جمع النقرة، وهي الحفرة الصغيرة المستديرة في الأرض ونحوها، وقد يبقى فيها ماء السيل.

(٣) رغب عن الشيء: تركه متعمدًا وزهد فيه. ورغب بنفسه عن الشيء: ترفّع عنه.

(٤) الغيران: جمع غار، وهو ما ينحت في الجبل شبه المغارة، فإذا اتّسع قيل كهف.

(٥) الفيروذج: حجر كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء، أو أميل إلى الخضرة، يتحلى به.

(٦) السمت: الطريق الواضح، أو المذهب، أو الهيئة.

النوبة، فصالح أهلها على مال يحملونه إليه، ثم أتى دُنْقُلَةَ[١] فأقام بها عَلَمًا وزبر عليه اسمه ومسيره. ومرّ يريد منف؛ فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقَّوْنه بالفرح والسرور والطيب والرياحين والملاهي إلى أن بلغ منف، فلم يبق أحد من أهلها إلا خرج إليه مع العزيز وتلقَّوْه بأصناف الطيب والبخورات والرياحين.

وكان العزيز قد بنى له مجلسًا من الزجاج الملوّن وفرشه بأحسن الفُرُش المذهبة، وغرس حوله جميع الأشجار والرياحين، وجعل فيه صِهْريجًا من زجاج سمائي، وجعل في أرضه شبه السمك من زجاج أبيضَ وأنزله فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أيامًا كثيرة. وأمر بعرض جيشه فوجد أنه قد فُقِد منهم سبعون ألفًا، وكان قد خرج في ألف ألف، ووجد من انضاف إليه من الغرباء والمأسورين نيّفًا وخمسين ألفًا، وكان مسيره وغيبته إحدى وعشرين سنة. فلما سمع الملوك بذكره وما فتح من البلاد وما أسر هابوه، وخافوا شدّة بأسه وعظم سلطانه. وتجبّر وبنى بالجانب الشرقي قصورًا من الرخام ونصب عليها أعلامًا، فكان يقيم بها الأيام الكثيرة. وكان الخراج قد بلغ في وقته سبعة وتسعين ألف ألف فأحبّ أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمَارات وإصلاح الجسور والزيادة في استنباط الأراضي حتى بلغ ذلك وزاد عليه.

ثم كان من خبر يوسف الصديق عليه السلام وبيعه بمصر وخبره مع امرأة العزيز وسجنه وقصته مع صاحبي الملك ورؤيا الملك وتعبيرها وتولية الريان بن الوليد يوسفَ عليه السلام رتبةَ العزيز وخبرِ القحط، ما قدّمنا ذكره في أخبار يوسف عليه السلام، وهو في السفر الحادي عشر من نسخة الأصل. فلا فائدة في إعادته. إلا أنه قد وردت زيادات أخرُ لم ترد هناك نحن نذكرها الآن. وهو ما حكاه مؤلف هذا الكتاب الذي نقلنا منه إبراهيمُ بن القاسم[٢] الكاتب عن إبراهيم بن وصيف شاه قال:

(١) دنقلة: هي دمقلة: بضم أوله وسكون ثانيه، وضم قافه، ويروى بفتح أوله وثالثه أيضًا: مدينة كبيرة في بلاد النوبة، وإذا استقبلت الغرب كانت على يسارك في الجنوب، وهي منزلة ملك النوبة على شاطىء النيل، ولها أسوار عالية لا ترام مبنية بالحجارة، وطول بلادها على النيل مسيرة ثمانين ليلة. . . (معجم البلدان).

(٢) إبراهيم بن القاسم الكاتب: يعرف بالرقيق القيرواني، والرقيق لقب له، رجل فاضل، له تصانيف كثيرة في علم الأخبار، ومنها كتاب تاريخ إفريقية والمغرب، عدة مجلدات، وكتاب النساء كبير، وكتاب الراح والارتياح، كتاب بضم السلوك في مسامرة الملوك، أربع مجلدات؛ هو شاعر سهل الكلام محكمه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التأريخ وتأليف الأخبار. . . (معجم الأدباء: ١: ٢١٦).

إن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر بأهله وولده، خرج يوسف عليه السلام في وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك؛ وكان يعقوب عليه السلام مَهِيبًا جميلاً فقرّبه الملك وعظّمه وقال له: يا شيخ، كم سنوك وما صناعتك وما تعبد؟ فقال: أما سنّي فعشرون ومائة سنة، وأما صناعتي فلنا غنم نرعاها وننتفع بها، وأما الذي أعبد فربُّ العالمين، وهو الذي خلقني وخلقك، وهو إلٰه آبائي وإلٰهك وإلٰه كل شيء.

قال: وكان في مجلس الملك فنيامين، وهو كاهن جليل القدر، فلما سمع كلامَ يعقوب ضاق به ذرعًا وقال للملك بلغتهم: أخاف أن يكون خرابُ مصر على يد ولد هذا. فقال له الملك: فأتى لنا خبره. فقال الكاهن: أرنا إلٰهك أيها الشيخ. قال: إلٰهي أعظم من أن يُرى. قال: فإنا نحن نرى آلهتنا. قال: لأن آلهتكم ذهبٌ وفضة ونحاس وخشب، وما يعمله بنو آدم عبيدُ إلٰهي الذي احتجب عن خلقه بعزّ ربوبيته، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم. قال له فنيامين: إن لكل شيء دليلاً، وكل شيء لا تراه العيون فليس بشيء، فغضِب يعقوب وقال: كذبتَ يا عدوَّ الله وطغيت في هذه الدنيا؛ إن الله سبحانه وتعالى شيءٌ وليس كالأشياء، وهو خالق كل شيء لا إلٰه إلا هو. قال: فصفه لنا. قال: إنما يوصف المخلوقون ولا يوصف الخالق عزّ وجل؛ لأنه يرتفع عن الصفات؛ لأنه واحد قديم مدبّر للأشياء في كل مكان يَرَى ولا يُرَى. ثم قام يعقوب مُغْضَبًا، فأجلسه الملك وأمر فنيامينَ أن يكفّ عنه ويكونَ بين يديه ويأخذَ في غير هذا. ثم قال الملك: كم عدّةُ من دخل معك إلى مصر؟ قال ستّون رجلاً. قال الكاهن: كذلك نجده في كتبنا؛ إن خراب مصر يجري على أيديهم. قال الملك: فهل يكون في أيامنا؟ قال: لا، ولا إلى مدّة كبيرة. والصواب أن يقتله الملك ولا يستبقي من ذرّيته أحدًا. قال الملك: إن كان الأمر كما تقول فما يمكننا أن ندفعَه ولا نقتلَ هؤلاء، وإن لهم إلٰهًا عظيمًا، وقد قبل قلبي هذا الشيخَ، وما لي إلى قتله من سبيل، فخاطبه بألين الكلام؛ فجرت بينهما بعد ذلك مخاطبات ألان له فيها القول.

قال: ثم إن يعقوب عليه السلام أحبّ أن يعرفَ خبرَ مصر ومدائنها وكيف بُنيت وخبرَ طِلسّماتها وعجائبها. فسأله عن ذلك وسأله بحقّ الملك ألا يكتمه شيئًا من أمرها فأخبره. قال: وأقام يعقوب عليه السلام مع الريان بن الوليد الملك يعظّمه ويبجّله إلى أن حضرته الوفاة، فأوصى أن يُحمل إلى مكانه من الشأم، فحُمِل في تابوت وخرج معه يوسف عليه السلام ووجوه مصر حتى بلغ إلى موضعه ورجعوا. وقيل: إن عيصو منعهم من دفنه هناك لأن إسحاق عليه السلام كان قد وهبه الموضعَ فاشتراه يوسف عليه السلام منه. ويقال: إن الريان آمن بيوسف وكتم إيمانه خوفًا من فساد ملكه.

وملك الريّان مائة وعشرين سنة. وفي وقته عَمِل يوسف عليه السلام الفيوم لاَبنه الملك، وكان أهل مصر قد وَشَوْا به وقالوا: قد كَبِر ونقص نفعه فاَختبرْه. فقال له الملك: قد وهبتُ هذه الناحيةَ لاَبنتي، وكانت مغايضَ(١) للماء فدبِّرْها. قال: فقلع أدغالها، وساق المنهى(٢)، وبنى اللاّهون(٣)، وجعل الماء فيه مقسومًا موزونًا، وفرغ من ذلك كله في أربعة أشهر، فعجِبوا من حكمة يوسف عليه السلام.

قال: ولما مات الريان بن الوليد ملك بعده اَبنه دريموس بن الريان ابن الوليد ويسميه أهل الأثر دارم، وهو الفرعون الرابع عندهم. قال: ولما ملك خالف سنّة أبيه، وكان يوسف عليه السلام خليفتَه كما كان مع أبيه، وذلك بأمر الريان. وكان يوسف يسدّده فربما قبل منه وربما خالفه، وظهر في وقته معدِن فضة على ثلاثة أيام من النيل فأبان منه شيئًا عظيمًا، وعمل منه صنمًا على اَسم القمر؛ لأن طالعه كان بالسرطان، ونصبه على القصر الرخام الذي كان أبوه بناه في شرقي النيل، ونصب حوله أصنامًا كلًّها من الفضة وألبسها الحريرَ الأحمر، وعمل لها عيدًا في كل سنة، وهو إذا نزل القمرُ السرطان.

وكان يتنقّل إلى مواضع شتّى يتنزّه فيها، وإذا أراد أن يضرّ الناسَ بشيء منعه يوسفُ عليه السلام ودفعه عنه إلى أن تُوفِّي يوسف عليه السلام، كما تقدّم في خبر وفاته، فاستوزر الملك دارمُ بعده بلاطسَ بن منسا الكاهن، فكان بلاطس يُطلِق له ما كان يوسف يمنعه عنه، وحمله على أذى الناس وأَخْذ أموالهم فبلغ منهم كل مبلغ. وعمل الوادي المنحوت بين الجبلين في الناحية الغربية وكنز الأموال فلا يُوصل إليها، وجعل صقالة من الوادي إلى باب الخباء، وجعل له بابًا من الحديد يُتوصّل إليه من تلك الصقالة، وصمده(٤) بجماعة من العفاريت يمنعون من ذلك الخباء، فمن رامه من الناس سقط في الوادي. وقال آخرون: كنزها في موضع منه يُدخَل إليه ويُنظر إلى الأموال مكشوفةً مضروبةً، في كل دينار عشرة مثاقيل عليها صورته، فإن أخذ الداخل منها شيئًا انطبق عليه الباب فلم يقدر على الخروج، فإذا ردّه إلى موضعه انفتح له الباب. وهو بحاله إلى هذا الوقت كما زعموا.

---

(١) مغايض: جمع المغيض، وهو المكان الذي يغيض فيه الماء، أي ينزل في الأرض ويغيب فيها.

(٢) المنهى: اسم فم النهر الذي احتفره يوسف الصديق يفضي إلى الفيوم مأخذه من النيل.

(٣) اللاّهون: هو الكسر الذي بناه لردّ الماء إلى الفيوم.

(٤) صمده: سدّه.

قال: ثم زاد دارمُ في التجبّر إلى أن اختلع[1] كلَّ امرأة جميلة بمدينة منف من أهلها؛ ولا يسمع بامرأة حسناء في ناحية من النواحي إلا وجّه فحُملت إليه. وفشا ذلك في المملكة واضطرب الناس من فعله وشقّ عليهم أمره إلى أن شَغَبُوا عليه وعطّلوا الصنائع والأعمال والأسواق فعدا على جماعة منهم فقتلهم. وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعه، فخاف بلاطس الوزير أن يَفْسُدَ أمر المملكة فدخل على الملك وأشار عليه أن يتودّد إلى الناس ويعتذر إليهم ويردّ نساءهم فأبى إلا مخالفتَه، وهمّ أن يخرج إلى الناس في خاصّته ويقتلَ منهم وقال: إنما هم عبيدي وعبيد آبائي. فلم يزل يرفُق به إلى أن سكن غضبه؛ فأمره أن يعتذر إلى الناس عنه، ففعل الوزير ذلك وذكر عنه جميلاً، فأبى الناس أن يقبلوا منه دون مخاطبتهم الملك فَضَمِن لهم ذلك وخاطبه وأشار به عليه، فأمره أن ينادِيَ في الناس بالحضور في يوم عيّنه، ثم لبس أرفعَ ثيابه وأكبر تيجانه وجلس ودخل الناس عليه فذكروا ما حلّ بهم من أخذ أموالهم، وعرّفوه أنه لم يجر عليهم من مَلِكٍ قبله مثلُ هذا، فاعتذر إليهم ووعدهم الإقلاعَ عما شكوا منه وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين.

ثم أمر بعمل قصر من خشب على أساطين خشب ممدودة بأضلاع مسمّرة يتنزّه فيه، فعُمل ودُهن بالأدهان والأصباغ الملوّنة المذهبة، وضُبِّبَ[2] بالفضة والنحاس المذهب، وعَمِل فوقه قبة من الفضة المذهبة مصوّرةً بالزجاج الملوّن وعلّق فيها الحجر المضيء الذي أتى به أبوه من المغرب. فلما فرغ القصر فرشه بأحسن الفرش وجعله طبقتين: طبقة له يجلس فيها مع من يحبّه، وطبقة لحشمه، وجعل حول ذلك أرْوِقة[3] ملصقة بالمجلس يجلس فيها من يريد؛ فكان يركب فيه بمن أحبّ من خاصته ونسائه ويُصعَّد فيه في الماء إلى ناحية الصعيد وتتبعه المراكب فيها أصحابه وغلمانه بالعُدد[4] والسلاح وينحدر إلى أسفل الأرض، فإذا مرّ بمكان يستحسنه أقام فيه أيامًا.

واتفق أنه خرج في بعض الأيام مُصَعِّدًا فوثب رجل من الإسرائيليين على رجل من سَدَنَةِ الهياكل فضربه حتى أدماه وعاب دينَ الكهنة، فغضب القبط لذلك وخاطبوا خليفة الملك أن يُخرِجَهم من مصر فامتنع دون مشاورة الملك، وكتب إليه يعرّفه

---

(١) يقال اختلعت الزوجة، إذا طلقت بفدية من مالها.

(٢) ضبّب الخشب ونحوه: أي ألبسه الحديد ونحوه.

(٣) أروقة: جمع الرواق، وهو مقدم البيت؛ أو سقيفة للدراسة في مسجد أو معبد أو غيرهما.

(٤) العدد: جمع العدة، وهي الاستعداد؛ أو ما أعدّ لأمر يحدث.

ذلك، فكتب إليه ألا يُحدِث في القوم حادثة دون موافاته، فشَغَبوا وأجمعوا على خلعه وتمليك غيره، وتعرّض بعضهم إلى ذكر الملك فحشد أهلَ الصعيد وٱنحدر إليهم، فحاربوه فهَلَك بينهم خلق كثير. وعاونته ٱمرأة أبيه، وكانت ساحرة، فأظهرت من سحرها وتخاييلها ودُخَنِها ما أعماهم عن النظر، وأضعف حواسهم أسكرهم، فقتل خلقًا منهم وصلب خلقًا على عبر النيل، ورجع إلى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء ونهب الأموال وٱستخدام الأشراف والوجوه من القبط ومن بني إسرائيل؛ فأجمع الكل على ذمه. وكانت الساحرة لا تُخلِّيه من معونتها إلى أن ركب في ذلك القصِر في بعض الليالي وقد أحدق النيل بالبلد، وهو من الجبل إلى الجبل، وامتدّ القمر على الماء، فأراد أن يعدّي من العُدِوة[١] إلى العدوة الأخرى فلم يتهيأ له سَوْقُ القصر بسرعة لعظمه، فركب مركبًا لطيفًا مع ثلاثة من خدمه والساحرة، فلما توسّط البحِرَ هاجت ريح عاصف فغرق هو ومن معه، وأصبح الناس شاكّين في أمره لا يعلمون ما نزل به، إلى أن وُجدت جثته بشَطَّنَوْف[٢] فعُرِف بخاتمه وبجوهر كان يتقلّد به فحمل إلى منف.

وملك بعده ٱبنه معاديوس بن دريموس؛ ويسميه أهل الأثر معدان بن دارم، وهو الفرعون الخامس. وذلك بتدبير الوزير؛ فأجلسه على سرير الملك وبايعه الجيش، وكان صبيًا فكرهه الناس ثم رَضُوا به، فأسقط عن الناس الخراج الذي كان أبوه أسقطه، وزادهم سنة وأحسن إليهم فأطاعوه؛ وٱستقام له الأمر وردّ نساءهم. وكان ينكر على أبيه فعله ولا يرضاه؛ فلذلك رضُوا به.

قال: وفي زمانه كان طوفانٌ أضرّ ببعض البلد فلزم الملك الإقبال على الهياكل والتعبد، وطلب القاطر[٣] ووجوه الكهنة بالحضور معه، وأنصف بعضَ الناس من بعض. وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام وثلبوها. وكان الوزير قد هلك فٱستوزر كاهنًا يقال له أملاده، فلما رأى ما فعله بنو إسرائيل أنكره وأمر أن يُفردوا بناحية من البلد لا

(١) العدوة: المكان المرتفع؛ أو شاطىء الوادي وجانبه.

(٢) شطنوف: بلدة ـ مركز أشمون ـ مديرية المنوفية: وشطنوف: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وفتح النون، وآخره فاء: بلد بمصر من نواحي كورة الغربية عنده يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقيًا إلى تنس، وفرقة تمضي غربياً إلى رشيد على فرسخين من القاهرة... (معجم البلدان).

(٣) القاطر: أي جامع العلوم، وهو الذي يعبد الكواكب السبعة لكل كوكب سبع سنين، وقد سبق أن ذكر ذلك المؤلف. وحذاء القاطر: أي إزاءه.

يختلط بهم أحد غيرهم، فأقطعهم موضعًا في قبليِّ منف، واجتمعوا إليه وعملوا لأنفسهم معبدًا كانوا يتلون فيه صحف إبراهيم عليه السلام، وٱتفق أن رجلًا من أهل بيت الكهنة عشق امرأة من بني إسرائيل كانت قد جاءته لتشتكيَ أخاها أنه غصبها ميراثَها، وأرادت أن يعتنيَ بأمرها عند وزير الملك، فرآها ٱبنه فأحبها وسأل والده أن يزوّجه منها، فخطبها من أهلها فأبوا ذلك، فأنكر الناس فعلهم وٱجتمعوا إلى الوزير وقالوا: هؤلاء قوم يَعيبوننا ويرغبون عنّا، ولا نحب أن يجاوروننا إلا أن يَدينوا بديننا. فقال الوزير: قد علمتم إكرام الريان الملك لجدّهم يوسف عليه السلام، وقد وقفتم على بركة جدّهم يوسف عليه السلام حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه فلا تخوضوا في هذا، فأمسكوا.

قال: وتغلّب أحد ملوك الكنعانيين على الشام وامتنع أهله أن يحملوا الضريبة التي كانت عليهم لملك مصر، فأنكر أهل مصر ذلك وأشفقوا من غلبة صاحب الشام على بلدهم، فحضّوا الملك على غزو الشام فقال: إن رام أحد حدود بلدنا غزوناه، وما لنا في ذلك البلد من حاجة؛ فاستنقصوا رأيه. وأقام على ملازمة الهياكل والتعبّد فيها؛ فيزعم القبط أنه بيننا ذات يوم قائم في هيكل زُحَل حذاء صورته، وقد أجهد نفسه في التعبد، إذ تغشّاه النوم فتجلّى له زحل وخاطبه وقال: قد جعلتك ربًا على أهلك وأهل بلدك، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم، وسأرفعك إليّ فلا تخل من ذكري؛ فعظُم عند نفسه، وٱتصل خبره بأهل البلد، وأخبرهم سَدَنَةُ الهيكل أنهم رأوا النور وسمعوا الخطاب، وأعظم الناس أمره، فتجبّر في نفسه وأمر الناس أن يسمّوه ربًا، وترفّع أن ينظر في شيء من أمر المُلك، وأحضر الناس وقال: قد وقفتم على ما خُصِصت به دون الملوك، وهذه مَوْهبة يلزمني الشكر لواهبها عليها، ولست أتفرّغ للنظر في أموركم، وقد رأيت أن أجعل المُلك إلى ٱبني أكسامس، وأكون من ورائه إلى أن يغيب شخصي عنكم كما وُعِدْتُ، وقد أيدته بالقاطرين، فٱنظروا كيف تكونون، ولا تتظالموا(١) فإنكم مني بمرأى ومسمع، فرضُوا بذلك وقالوا: نحن عبيد الملك ومن رضيته الآلهة فحكم الخلق أن يَرْضوه ولا يخالفونه.

فملك ابنه أكسامس بن معاديوس؛ ويسميه أهل الأثر كاسم بن معدان، وهو الفرعون السادس، وجلس على سرير الملك وتُوّج بتاج أبيه وقام القاطرون بين يديه، فجعل لكل واحد منهم رتبةً، ورتّب الناس مراتب، وقسم الكُوَر والأعمال، وأمر

(١) لا تتظالموا: أي لا يظلم بعضكم بعضًا.

باستنباط العمارات وإظهار الصناعات، ووسع على الناس في أرزاقهم وعلى حاشيته وحاشية أبيه، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها، وزاد في القرابين؛ وكلما أتى شيئًا من ذلك لم تخالفه الكهنة وقدّروا أن ذلك عن أمر أبيه برضى الكواكب، واْحتجب أبوه عن الناس. وأقام كاسم أعلامًا كثيرة حول منف وجعل عليها أساطين يُمَرُّ عليها من بعضها إلى بعض. وعمل برقُودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض مدنًا كثيرة وأعلامًا ومنائر للوقود والطلّسمات. وعمل كُرَة من الفضة على عمل البيضة الفلكية ونقش عليها صور الكواكب الثابتة ودهنها بدُهن الصيني وركّبها على منار في وسط منف. وعمل في هيكل أبيه روحانيَّ زُحَل من ذهب أسودَ مدبَّر. وعمل في وقته الميزان الذي يعتبر به الناس، وجعلت كَفّتاه من ذهب وعلائقه[1] من فِضّة وخيوطه سلاسل ذهب، وكان معلقًا في هيكل الشمس، وكتب على إحدى كَفّتيه حقّ، والأخرى باطل، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء كل شيء من الكواكب؛ فيدخل الظالم والمظلوم ويأخذ كل واحد منهما فصًا من تلك الفصوص ويسمى عليها ما يريد، ويجعل أحد الفصين في كفّة والآخر في الأخرى، فتثقل كفة الظالم وترتفع كفة المظلوم. وكذلك من أراد سفرًا أخذ فصين فذكر على واحد اْسم السفر، والآخر اسم الجلوس، ويجعل كل واحد في كفة، فإن لم يرتفع أحدهما على الآخر جلس، وإن ارتفعا خرج، وإن ارتفع أحدهما مكث شهرًا. ومن نحو هذا من غائب ودين وفساد وصلاح. ويقال إن بُخْتَنَصَّر لما ظَفِر بمصر حمله في جملة ما حمل إلى بابل وجعله في بيت من بيوت النار.

قال: وطالب كاسم الناسَ بلزوم الأعمال وإظهار الصنائع، فعُمِلت كل غريبة منها: التنّور[2] الذي يَشوي من غير نار فيه، والقدور التي يطبخ فيها من غير نار، والسكين التي تُنصب فإذا رآها شيء من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها، والماء الذي يستحيل نارًا، والزجاج الذي يستحيل هواء، وأشياء من ذلك.

قال: فأقام في أوّل ولايته ثلاث سنين بأجمل أمر وأصلح حال، ومات وزير أبيه الذي كان معه فاستخلف رجلًا من أهل بيت المملكة يقال له طلما، وكان شجاعًا فارسًا كاهنًا كاتبًا حكيمًا دهيًا متصرّفًا في كل فنّ، وكانت نفسه تنازعه المُلْكَ فصلُح أمر المملكة بمكانه وأحبه الناس، فعمل معالم كثيرة وعمر خرابًا وبنى مدنًا من الجانبين. ورأى في نجومه أنه ستكون شدّةٌ فاستعمل ما اْستعمله نهراوش، وبنى

---

(١) العلائق: واحدتها العلاقة، وهي ما تعلق به كفة الميزان، أو السيف أو نحوهما.

(٢) التنور: الفرن يخبز فيه. جمع تنانير.

بناحية رقودة والصعيد[١] ملاعب ومصانع. وشكا القبط إليه حال الإسرائيليين فقال: هم عبيد لكم، فكان القبطيّ إذا أراد حاجة سخر الإسرائيلي، وكان القبطيّ يضرب الإسرائيليَّ فلا يُنكر عليه أحد، وإن ضرب الإسرائيليُّ القبطيَّ قُتل، فكان أوّل من أذى بني إسرائيل، ويفعل نساء القبط بنساء بني إسرائيل ما يفعل الرجال بالرجال من السَّخَر والضرب.

قال: وفي أيام أكسامس بُنيت منارة الإسكندرية. وفي زمانه هاج البحر المالح فغرّق كثيرًا من القرى والجنان والمصانع. وحكي أن أكسامس تغيّب عن الناس مدّة. وقيل: مات وكتموا موته. وكانت مدّة ملكه إلى أن غاب إحدى وثلاثين سنة، وأقام طلما إحدى عشرة سنة يدبّر المملكة ثم اضطرب الناس على طلما وتغيّروا واتصل بهم أنه قَتَل الملك بسمّ سقاه إياه فأجتمعوا وقالوا: لا بدّ لنا من النظر إلى الملك، فعرّفهم أنه قد تخلّى عن المُلك وولّى ابنَه لاطس فلم يقبلوا ذلك.

فأمر طلما الجيوش فركبت في السلاح وأجلس لاطس بن أكسامس على سرير الملك ولبس التاج. وكان جريئًا معجَبًا فوعد الناس جميلاً وقال: أنا مستقيم لكم ما استقمتم، وإن ملتم عن الواجب ملت عنكم، وأمر ونهى وألزم الناس أعمالهم، وحطّ جماعة من الوجوه عن مراتبهم، وصرف طلما عن خلافة المملكة وأستخلف رجلاً يقال له لاهوق من ولد صا الملك ودفع إليه خاتمه، وأنفذ طلما عاملاً على الصعيد وأنفذ معه جماعة من الإسرائيليين، وعمل الأعلام وأصلح الهياكل وبنى قرى كثيرة، وأُثيرت[٢] في أيامه معادنُ كثيرة وكنوز في صحراء المشرق، واستعمل آنية كثيرة من الجوهر الأخضر وأصناف الزجاج. وكان محبًّا للحكم ثم تجبّر وعلا، وأمر ألا يجلس أحد في مجلسه ولا في قصر الملك من الكهنة وغيرهم، بل يقومون على أرجلهم إلى

(١) الصعيد: قال الزجاج: الصعيد وجه الأرض؛ وقال ابن الأعرابي: الصعيد الأرض بعينها؛ وقال الفراء: الصعيد التراب، والصعيد الأرض، والصعيد الطريق يكون واسعًا أو ضيقًا؛ والصعيد الموضع العريض الواسع، والصعيد القبر؛ والصعيد: واد قرب وادي القرى فيه مسجد لرسول الله ﷺ عمّره في طريقه إلى تبوك. ويقول الأصمعي: الصعيد بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها أسوان، وهي أوله من ناحية الجنوب، ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك، وهي تنقسم ثلاثة أقسام: الصعيد الأعلى وحدّه أسوان وآخره قرب إخميم، والثاني من إخميم إلى البهنسا، والأدنى من البهنسا إلى قرب الفسطاط... (معجم البلدان).

(٢) أثيرت: من الإثارة، وهي الإخراج من تحت الأرض.

أن ينصرفوا، وزاد في أذى الناس والعنف بهم، ثم منع الناس فُضولَ(١) ما بأيديهم وقصرهم على القوت، وجمع أموالهم وطلب النساء فانتزع كثيرًا منهنّ، وفعل في ذلك أكثر من فعل مَنْ تقدّمه من الملوك، وقهر الناس بالسطوة واستعبد بني إسرائيل وقتل جماعة من الكهنة فأبغضه الخاص والعامّ.

وكان طلما لما صرفه لاطس عن خلافته وَجَدَ(٢) في نفسه وأضمر الغدر به. فلما خرج إلى الصعيد احتجز الأموال فلم يحملها، وحال بين الملك وبين المعادن، وأراد أن يقيم ملكًا من ولد قبطريم ويجلسه في الملك، فأشار بعض الكهنة على طلما أن يطلب المُلك لنفسه وعرّفه أنه سيكون له حال. فلما شجّعه الكاهن وجرّأه على ذلك دعا إلى نفسه وكاتب وجوه أهل البلد، فبعض أجابه وبعض توقف، ورفع كل واحد من ولد الملوك رأسه وطمع في الملك.

قال: وفي بعض كتبهم أن بعض الروحانيين ظهر له وقال: إني أطيعك إن أطعتني، وأقلدك مصر زمانًا طويلاً، فأجابه إلى ما سأله وقرّب له أشياء ذكرها له، منها غلام إسرائيليّ؛ فعاونه حينئذ وكان له رسولاً إلى رؤساء مصر، فكان يُتصوّر بصور بعضهم ويشير بتمليكه عليهم إلى أن ٱستقام له الأمر، قال: ولما منع طلما لاطسَ من مال الصعيد كتب بصرفه عن العمل فأبى أن ينصرف، فوجه إليه قائدًا من أهل بيته وقلده مكانه وأمره أن يحمله إليه، فحاربه وأعانه الروحانيّ فظفر به طلما وٱعتقله ثم خلاّه وقرّبه وأدخله في جملته، وٱتصل الخبر بلاطس فأنفذ إليه قائدًا آخر فهزمه طلما وسار في أثره بجيش كثيف، وكاتب جميع القوّاد وأهل البلد وبذل لهم الأموال، وخرج إليه لاطس فحاربه طلما وعاونه الروحانيّ فظفر به طلما وقتله وسار حتى دخل منف وعاث فيها.

وملك طلما بن قومس؛ ونزل قصر المملكة وجلس على سرير الملك وحاز جميع ما كان في خزائنهم. قال: وطلما هذا هو ٱبن قومس، وهو الذي يذكر القبط أنه فرعون موسى عليه السلام. وأهل الأثر يسمونه الوليد بن مصعب وأنه من العمالقة. وذكروا أن الفراعنة سبعة فأوّلهم: طوطيس بن ماليا، ثم الوليد بن دومع، ثم ٱبنه الريان بن الوليد، ثم دريموس بن الريان، ثم معاديوس بن دريموس، ثم أكسامس بن معاديوس، ثم طلما.

---

(١) الفضول: الزيادة.

(٢) وجد بالتحريك: أي غضب.

قال: وكان طلما فيما زعموا قصيرًا. قيل: كان طوله أربعة أشبار، طويل اللحية، أشهل[١] العينين، صغير العين اليسرى، في جبينه شامة. ويقولون: إنه كان أعرج. وزعم قوم أنه من القبط. قال: والدليل على ذلك ميلُه إليهم ونكاحه فيهم؛ ونسبُ أهل بيته مشهورٌ عندهم.

وقد ٱختلف الناس في سبب ملكه وعمن تلقّى الملك، فقيل ما ذكرناه، وقيل ما قدّمناه في قصة موسى بن عمران عليه السلام، والله تعالى أعلم.

قال: ولما جلس طلما على سرير الملك اضطرب الناس عليه فبذل الأموال وأرغب من أطاعه، وقتل من خالفه، فاعتدل الأمر له. وكان أوّل ما عَمِل أن رتّب المراتب، وشيّد الأعلام، وبنى المدن، وخندق الخنادق، وعمل بناحية العريش حصنًا، وكذلك على حدود مصر، وٱستخلف هامان، وكان يَقْرُب منه في نفسه ونسبه، فأثار بعض الكنوز وصرفها في بناء المدن والعمارات، وحفر خلجانًا كثيرة. ويقال: إنه الذي حفر خليج السَّرْدُوس[٢]، وكان كلما عرَّجه إلى قرية من قرى الحوف[٣] حمل إليه أهلها مالاً؛ فاجتمع له من ذلك شيء كثير، فأمِرَ بردّه على أهله.

وٱنتهى الخراج في وقته إلى سبعة وتسعين ألف ألف دينار، وكان يُنزل الناس على مراتبهم. وهو أوّل من عرَّف العُرفَاء على الناس، وكان ممن صحبه من الإسرائيليين رجل يقال له إمري، وهو عمران أبو موسى عليه السلام، وهو أخو مزاحم لأبويه، ومزاحم أبو آسية، فهي ٱبنة عم موسى وبنت خالته، فجعل فرعون عمران حارسًا لقصره يتولى حفظه وفتحه وإغلاقه. وكان رأى في كهانته أن هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين، فمنعهم المناكحة ثلاث سنين؛ لأنه رأى أن ذلك المولودَ يكون فيها. ثم كان من خبر موسى في حمل أمه به وولادته وغير ذلك من أمره ما قدّمنا ذكره في قصة موسى عليه السلام فلا فائدة في إعادته.

---

(١) الأشهل: الذي يشوب إنسان عينه حمرة.

(٢) خليج السردوس: هو أحد نزهات الدنيا، وهو خليج يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفة وفواكه دانية... (كتاب الانتصار لابن دقماق).

(٣) الحوف: بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط؛ يشتملان على بلدان وقرى كثيرة...

وقد نقل أن موسى عليه السلام لمّا كبر عند فرعون عظُم شأنه وردّ فرعون إليه كثيرًا من أمره وجعله من قوّاده، وكانت له سطوة؛ ثم وجهه فرعون لغزو الكوثانيين، وكانوا قد عاثوا في أطراف مصر[١]، فخرج في جيش كثيف فرزقه الله عزّ وجل الظَّفَر، فقتل منهم خلقًا وأسر خلقًا وأنصرف سالمًا فسُرّ به فرعون وآسية. قال: وأستولى موسى وهو غلام على كثير من أمر فرعون وأراد أن يستخلفه حتى قتل رجلاً من أشراف القبط فكان من أمره ما تقدّم ذكره. والله أعلم.

هذا ما أورده إبراهيم[٢] في كتابه؛ ولم يذكر من أخبار ملوك مصر بعد غرق فرعون شيئًا ولا ذكر مَنْ ملك بعده. وقد أشار المسعودي[٣] في مروج الذهب إلى نبذة من أخبار مَنْ ملك مصر بعد غرق فرعون نحن نذكرها. وأما سياقة أخباره فيما كان قبل فرعون فهذا الذي ذكرناه أتمّ منه وأكثر استيعابًا.

ذكر نبذة من أخبار من ملك مصر بعد غرق فرعون

قال أبو الحسن علي بن عبد الله المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر: لما أهلك الله تعالى فرعون وقومه بالغرق خشيَ من بقيَ بمصر من الذراري[٤] والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب؛ فملكوا عليهم أمرأة يقال لها دَلُوكة؛ فبنت على أرض مصر حائطًا يحيط بجميع البلاد من حدّ أرض رَفَح[٥] إلى برقة، وجعلت الحرّاس على مسافة كل ميل منها يصل أخبار بعضهم إلى بعض، فإذا حدث أمر في أوّل ملكها بليل رُفعت النيران في وقت حدوثه فعلم في آخر المملكة بالخبر من ليلته، وإن كان بالنهار دخن. وهذا الحائط موجود إلى حين

---

(١) عاثوا في أطراف مصر: أي أفسدوا فيها افتراسًا وتقتيلاً وسرقة ونهبًا وغير ذلك.

(٢) إبراهيم: هو إبراهيم بن القاسم الكاتب المعروف بالرقيق القيرواني. وقد تقدمت ترجمته.

(٣) المسعودي: هو علي بن الحسين بن عليّ المسعودي المؤرخ؛ أبو الحسن من ولد عبد الله بن مسعود صاحب النبي ﷺ. كانت وفاته سنة ٣٤٦ هجرية..

(٤) الذراري: جمع ذريّة، وهي النسل.

(٥) رفح: بفتح أوله وثانيه، وآخره حاء مهملة: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر، وهو أول الرمل، خرب الآن... قال المهلبي: رفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام.. ومن رفح إلى غزة ثمانية عشر يومًا.. (معجم البلدان).

وضعنا لهذا الكتاب ويسمى حائط العجوز[١]. وقيل فيه: حائط الحجوز. وقيل: إنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها.

واتخذت دلوكة بمصر البرابيَ وصوّرت فيها الصور، وأحكمت آلات السحر، وجعلت في البرابي صُوَرَ من يرد في البر ودوابِّهم إبلًا كانت أو خيلًا، ومن يرد في البحر في المراكب من بلاد الغرب وسواحل الشام، وأحكمت جميع ذلك بحركات فلكيّة. فكان إذا ورد عليها عدوّ من نحو الحجاز واليمن عوّرت تلك الشخوص التي في البرابي من الإبل وغيرها فيحدث العَوَر[٢] في ذلك الجيش وتَهلِك دوابّهم، وكذلك كل من يقدُم عليها من البر والبحر إذا بلغها خبر مقدمه صنعت في تلك الصور ما يحدث مثله في ذلك الجيش من الآفات[٣]، فهابها سائر ملوك الأمم. وخبر هذه المرأة مشهور. وأكثر هذه البرابي باقٍ إلى وقتنا هذا وفيها التصاوير إلا أنها لا فعل لها. وقد قيل في البرابي: إنها اتخذت مع الأهرام قبل الطوفان. والله تعالى أعلم.

وقيل أيضًا: إن مما أنشأته هذه المرأة منارة الإسكندرية، وقد تقدّم ذكر خبرها في المباني القديمة وهو في السفر الأول من كتابنا هذا من هذه النسخة.

قال: وملكت هذه المرأة نحوًا من ثلاثين سنة، وقيل أقل من ذلك.

ولما هلكت دلوكة ملك بعدها دركوس بن بلوطس. ثم ملك بعد ولده بورش. ثم ملك بعده ولده بغاش بن بورش نحوًا من خمسين سنة. ثم ملك بعده دنيا بن بورش نحوًا من عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس عشرين سنة. ثم ملك بعده بلوطس بن متناكيل أربعين سنة. ثم ملك بعده مالس بن بلوطس. ثم ملك بعده بوليه بن متناكيل؛ وكانت له حروب وسِيَرٌ في الأرض وهو فرعون الأعرج[٤] الذي غزا بني إسرائيل وخرّب بيت المقدس. ثم ملك بعده وينوس بن مرينوس ثمانين سنة. ثم ملك بعده قومس بن بغاس عشر سنين. ثم ملك بعده مكاييل وكانت له

---

(١) وهذا الحائط من العريش إلى أسوان شاملًا للديار المصرية من الجانب الشرقي.

(٢) العور: الشين والقبح.

(٣) الآفات: جمع الآفة، وهي كل ما يصيب شيئًا فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط.

(٤) قيل له الأعرج لأنه لما غزا بيت المقدس ونهبها وسبى ملكها همّ أن يصعد على كرسي نبيّ الله سليمان وكان بلولب لا يمكن أن يصعد عليه إلا برجليه جميعًا فصعد برجل واحدة وهي اليمنى فدار اللولب على ساقه الأخرى فاندقت، فلم يزل يخمع بها إلى أن مات فلذلك سمي الأعرج.

حروب مع ملوك الغرب، وهو الذي غزاه بختنصّر فقتله وقتل رجاله وخرّب أرض مصر، فقيل إنها خرّبت مدة أربعين سنة. وانقرض[١] ملك الفراعنة.

* * *

وملك الروم أرض مصر فتنصّر أهلها؛ ولم تزل بيد ملوك الروم إلى أن ملك كسرى أنو شروان فارسَ فغلبت جيوشه على الشام وسارت نحو مصر، فملك الفرسُ أرضَ مصر، وغلبوا عليها نحوًا من عشر سنين. وكانت بين الروم وفارس حروبٌ كثيرة، فصار أهل مصر يؤدّون خراجين: للروم وللفرس، ثم انجلت الفرس عن الشام ومصر لأمر حدث في بلادهم، فغلبت الروم على مصر والشام وأظهروا النصرانية، واستمرّ ذلك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام. وكان المقوقس ينوب عن ملك الروم، وهادى رسولَ الله ﷺ. ولم تزل الديار المصرية والشام بيد ملوك الروم إلى أن فُتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما سنورد ذلك إن شاء الله تعالى في خلافة عمر في الباب الثاني من القسم الخامس من هذا الفن، وهو في السفر السابع عشر من هذه النسخة.

قال المسعودي رحمه الله: والذي اتفقت عليه التواريخ، مع تباين[٢] ما فيها، في عدد ملوك مصر إلى آخر أيام الفراعنة أنهم أثنان وثلاثون ملكًا. قال: فمن ملوك بابل إلى آخر أيام ابنة ماموم - يشير إلى دليفة - أحد عشر ملكًا وملكة. ومن العماليق أربعة ملوك. ومن الفراعنة من لَدُن الوليد بن مصعب فرعون موسى بن عمران عليه السلام، وإلى أن خرج بختنصّر الفارسيّ على مكاييل وقتله سبعة عشر ملكًا بما في ذلك من مُلْك دَلوكة، وهو إنما يشير إلى مَنْ ملكها بعد الطوفان. وأما مَن ملكها قبل الطوفان فإنه لم يتعرّض إلى ذكرهم. قال: وملكها من الروم سبعة ملوك. ومن اليونان عشرة ملوك. قال: وذلك قبل ظهور المسيح عليه السلام. قال: وملكها أناس من الفرس فكانت مدّة من ملكها من الفراعنة ومن بعدهم والعماليق والفرس والروم واليونان ألفي سنة وثلاثمائة سنة. والله أعلم بالصواب.

---

(١) انقرض القوم: أي ذهبوا ولم يبق منهم أحد.
(٢) التباين: الاختلاف، أو افتراقهما.

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الخامس

في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم؛ وهم ملوك الفرس الأول، وملوك الطوائف من الفرس، والملوك الساسانية واليونان والسريان والكلوانيين والروم والصقالبة والنوكبرد والإفرنجة والجلالقة وطوائف السودان

ذكر أخبار ملوك الفرس وهم الفرس الأوَل

وقد اختلف الناس في الفرس وأنسابهم وكم من دولة كانت لهم. وسنذكر هاهنا مقالاتهم في ذلك وٱختلافهم. فمن الناس من زعم أنهم من فارس بن ياسور بن سام بن نوح، وهذا قول هشام بن محمد[١]. ومنهم من زعم أنهم من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومنهم من زعم أنهم من ولد هدرام بن أرفخشد بن سام بن نوح وأنه وُلِد له بضعةُ عشر رجلًا كلهم كان فارسًا شجاعًا؛ فسمّوا الفرس لفروسيتهم، وفي ذلك يقول حِطّان بن المعلّى الفارسيّ:

وبنا سُمِّيَ الفوارس فُرسا ... نا ومنّا مناجِبُ الفتيان[٢]

وزعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ٱبنتيه رشا ورغوشا. وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن أران بن الأسود بن سام بن نوح، ولبوّان هذا ينسب شِعْب بوّان وهو أحد متنزّهات الدنيا. وقد تقدّم ذكره في باب الرياض من الفن الرابع.

---

(١) هشام بن محمد: هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمر الكلبي، أبو المنذر الأخباري النسابة العلامة، كان عالمًا بالنسب، وأخبار العرب وأيامها، ووقائعها ومثالبها، أخذ عن أبيه أبي النضر محمد المفسر، وعن مجاهد، وعن محمد بن أبي السري البغدادي ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وأبي الأشعث أحمد بن المقدام وغيرهم، وحدث عنه جماعة. ذكر ابن النديم له مصنفات كثيرة تزيد على مائة وخمسين مصنفًا. كانت وفاته سنة ٢٠٤ وقيل سنة ٢٠٦ هجرية.. (معجم الأدباء).

(٢) المناجب: أي الأفاضل.

ومن الناس من يرى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون، ولا خلاف بين الفرس أجمع أنهم من ولد كيومرث وهو الأشهر، وإليه يرجع جميع الفرس الأُوَل وملوك الطوائف والملوك الساسانية.

وأما التنازع في دولهم فمن الناس من زعم أنهم أربعة أصناف، وأن الصنف الأوّل منهم كان من كيومرث إلى أفريدون وهم الجرهانية، وقيل الجهدهانية. والصنف الثاني من كيان إلى دارا بن دارا وهم الكيانية. والصنف الثالث ملوك الطوائف. والصنف الرابع الساسانية. ومن الناس من جعلهم صنفين: فجعل الصنف الأوّل من كيومرث إلى دارا بن دارا. والصنف الثاني من أردشير بن بابك إلى يزدجرد بن شهريار المقتول في خلاف عثمان رضي الله عنه. فمدّة ملكهم في الدولة الأولى ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وستة وعشرون سنة. وعدّة ملوكهم عشرون ملكًا فيهم امرأة واحدة.

فأوّل مَلِك مَلَك من الفرس الأُوَل كيومرث وقيل فيه جيومرث.

وقد اختلف في نسبه، فمن الناس من قال: إنه ولد آدم لصلبه. ومنهم من قال: إنه ولد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. وقد قيل: إنه أوّل مَلِك ملَك من بني آدم. وكان السبب في ملكه أنه لمّا كثر البغي والظلم في الناس اجتمع أكابر أهل زمانه ورأَوْا أنه لا يُقيم أمرَهم إلا ملك يرجعون إليه فيما يأمر وينهي، فأتوْه وقالوا: أنت أكبر أهل زمانك وبقية أبينا، والناس قد بَغَى بعضهم على بعض، وأكل القويّ الضعيف، فضمّ أمرنا إليك وكن القائم بصلاحنا. فأخذ عليهم العهود والمواثيق بالسمع والطاعة له وترْك الخلاف عليه. فصنعوا له تاجًا ووضعوه على رأسه. وهو أوّل من وضع التاج على رأسه. فاستوثق له الأمر وقام بأمر الناس وحسُنَت سيرته فيهم. وكانت مدّة ملكه عليهم أربعين سنة. وكان ينزل إصطخر[1] من أرض فارس حتى مات. واُختُلِف في مقدار عمره، فقيل: إنه عاش ألف سنة، وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة، والنسبة إليها إصطخري وإصطخرزيّ بزيادة الزاي: بلدة بفارس من الإقليم الثالث، قيل: كان أول من أنشأها إصطخر بن طهمورث ملك الفرس، وطهمورث عند الفرس بمنزلة آدم... وإصطخر من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور... (معجم البلدان).

فلما مات قام بالأمر من بعده أوشهنج ابنه وقيل: أخوه، وقيل: أوشهنج بن فيشداد بن كيومرث. وفي الناس من يزعم أنه أوّل مَلِكٍ ملَك من الفرس، وهو الذي جمع الأقاليم السبعة، ورتب المُلك ونظّم الأعمال، ولقِّب بفيشداد، وتفسيره بالعربية أوّل سيرة العدل. ويقال: إن أوشهنج هذا كان بعد الطوفان بمائتي سنة، وهو أوّل من قطع الحجر وبنى به، واستخرج المعادن، وبنى مدينتي بابل والسوس[(١)]. وكان فاضلاً حسن السياسة محمودَ الأثر. قال: ونزل الهند وتنقّل في البلاد وعقد التاج وجلس على السرير. وكان من حسن سياسته أنه نفى أهل الفساد والدعارة من البلدان وألجأهم إلى رؤوس الجبال وجزائر البحر، وآستخدم منهم من كان يصلُح للخدمة وسمّاهم الشياطين والعفاريت، وقرّب أهل الخير والصلاح. وكانت مدّة ملكه أربعين سنة.

ولما مات ملك بعده طهمورث وقيل فيه طهورث بن أنوجهان بن أوشهنج، وقيل بل بينهما عدّة آباء. قال: ولما ملك سار في الناس سيرة جدّه أوشهنج. وكان ينزل نيسابور. وقيل إنه الذي أنشأها ثم جدّدها بعد ذلك سابور. وقيل: إنه أوّل من كتب بالفارسية ونفى أهل الدعارة والشرّ وآستقام له نظام الملك. قيل: وفي أيامه ظهر بوداسف الذي أحدث دينَ الصابئة. وكان ملكه ثمانين سنة. وقيل ثلاثين سنة.

ولما مات ملك بعده أخوه جمشيد، وتفسير شيد: الشعاع، سمي بذلك لوضاءة وجهه. قال: ولما ملك سلك سيرة من تقدّم وزاد عليها بأن صنَّف الناس وطبَّقهم ورتّب منازل الكتّاب وأمر لكل واحد وظيفة وأمره أن يلزمها. وعمل أربعة خواتيم: خاتمًا للحرب والشُّرَط[(٢)] وكتب عليه الأناة، وخاتمًا للخراج وجباية الأموال وكتب عليه العمارة، وخاتمًا للبريد وكتب عليه ألوحا، وخاتمًا للمظالم وكتب عليه العدل. فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفرس إلى أن جاء الإسلام.

وكان ملكه ستمائة سنة. وقيل سبعمائة سنة وستة أشهر. وقيل ألف سنة إلا

---

(١) السّوس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة أخرى، بلفظ السّوس الذي يقع في الصوف: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبيّ عليه السلام.. قيل: أول من بنى كور السوس وحفر نهرها أردشير بن بهمن القديم بن أسفنديار بن كشتاسف... (معجم البلدان).

(٢) المراد بالشرط: أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيّأ للموت.

عشر سنين. وفي أيامه أحدث النيروز(١) وجعله عيدًا، وأمر الناس أن يتنعموا فيه. ثم بدّل سيرته بالجَور بعد الإنصاف، والظلم بعد العدل، والإساءة بعد الإحسان، فثَقُلت وطأته على الناس. ثم أظهر الكِبْرَ على وزرائه وكتّابه وقوّاده. ثم ٱنهمك على لذّاته وترك مراعاة كثير من السياسة الملوكية التي جرت عادة الملك أن يتولاّها بنفسه. وقيل: إنه ٱدّعى الإلَهية فخرج عليه بيوراسب، وكان من جملة عمّاله، وٱستجلب الناس وجمعهم عليه وٱستصلحهم لنفسه، وقصد جمشيد بعد أن كثرت أتباعه وقويت شوكته، فهرب منه فٱتبعه حتى أدركه وظَفِر به ونشره بمنشار.

وملك بعد جمشيد بيوراسب؛ وهو الذي يسمّيه العرب الضحّاك. قالوا: وهو بيوراسب بن أروندااسف بن بغاداس بن طوخ بن قروال بن ساعل بن فرس بن كيومرث، وهو الدَّهّاك، فعُرّب اسمه فقيل الضحّاك. وقيل: إنه ملك ألف سنة. وزعم قوم أنه نمروذ. وزعم قوم آخرون أنه كان من عمّال بيوراسب على كثير من أعماله.

قال: ولما ملك بيوراسب ظهر منه خبث شديد وفجور كثير، وملك الأرض كلها، فسار فيها بالجَوْر والعَسْف(٢) وسَفْك الدماء والصلب، وهوّل على الناس ومحا سيرة من تقدّمه من الملوك، وسنّ الأعشار وٱتخذ الملاهيَ والغناء. وكان على منكِبيه سِلعتان(٣) يحرّكهما إذا شاء كما يحرّك يده، فٱدّعى أنهما حيّتان تهويلاً على ضعفاء الناس. وقد تقدّم ذكره في الباب الرابع من القسم الثالث من الفنّ الأوّل، وهو في السفر الأوّل من نسخة الأصل في أخبار أعياد الفرس، فلا حاجة إلى إعادة ما قدّمنا ذكره من أمره.

قال: ولما عمّ الناس جَوْره كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر بأصبهان رجل يقال له كابي من عوامّ الناس. ويقال: إنه كان حدّادًا. وكان الضحاك قتل لكابي ٱبنين، فبلغ به الجزع على ولديه مبلغًا عظيمًا، فقام وأخذ عصا وعلّق عليها جرابًا.

---

(١) النيروز أو النوروز: بالفارسية: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وعيد النوروز أو النيروز: أكبر الأعياد القومية للفرس.

(٢) العسف: الأخذ بالعنف والقوة، والعسف: الظلم.

(٣) السلعتان: مثنى السلعة، وهي زيادة تحدث في الجسد مثل الغدة تمور بين الجلد واللحم إذا أضغطت، وتكون من قدر حمصة إلى بطيخة.

وقيل: بل علّق النِّطْع[١] الذي كان يشدّه على وسطه يتّقي به النار إذا صنع الحدادة. وقيل: بل كان جلد أسد. وقيل: بل جلد نمر، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب، فحمل الناسَ ما كانوا فيه من البلاء إن اتبعوه وأطاعوه، فاستفحل أمره، وكثرت أتباعه، واجتمع عليه أشراف الناس وأكابرهم؛ فقصد بيوراسب. فلما أشرف عليه هرب عن منازله، فجاء أشراف الناس إلى كابي الأصبهاني واجتمعوا عليه ليملّكوه، فامتنع من ذلك وقال: إني لست من بيت الملك، ولكن التمسوا من هو من بيت الملك فنولّيه علينا. وكان أفريذون بن اثفيان قد استخفى من الضحاك في بعض النواحي، فجاء إلى كابي الأصبهانيّ ففرح الناس به واستبشروا بمقدَمه، وكان مرشحًا للملك فملّكوه عليهم، وصار كابي من جملة أعوان أفريذون.

قال: وتفاءل الفرس وتبركوا بذلك العلَم الذي كان قد رفعه كابي الأصبهاني وعظّموه ورصّعوه بعد ذلك بالجواهر وسمّوه الدِّرَفْس وجعلوه علمهم الأكبر الذي يتبرّكون به، وهو الذي صار إلى المسلمين في وقعة القادسيّة[٢]. وكانت الفرس لا ينشرونه إلا في الأمور العظيمة.

قال: ولما هرب بيوراسب ملك بعده أفريذون؛ وهو التاسع من ولد جمشيد. قال: فأوّل ما بدأ به أن اتبع بيوراسب فأدركه بدُنْبَاوَنْد[٣] وقتله. وفي يوم قتله أحدث المِهْرجان على ما قدّمناه. قال: ثم ردّ أفريذون مظالم الناس وأمر بالإنصاف وبسط العدل، ونظر إلى ما كان بيوراسب قد اغتصبه من أموال الناس وأملاكهم وأراضيهم، فردّ ذلك على أهله، وما لم يجد أهلَه وقفه على المساكين ومصالح العامة. وكان مؤثرًا للعلم وأهله. وكان صاحب طبّ وفلسفة ونجوم. وزعم بعض الفرس أن بيوراسب الضحاك هو النمروذ، وأن أفريذون هو إبراهيم عليه السلام. قال: ودام ملكه خمسمائة سنة. وقال: هو أوّل من تسمى بكَيْ، فكان يقال له: كَيْ أفريذون،

---

(١) النطع: بساط من الجلد.

(٢) القادسية: بلدة قرب الكوفة بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا، وبينها وبين العذيب أربعة أميال؛ كانت بها وقعة القادسية المعروفة بين المسلمين والفرس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذه الوقعة من أعظم وقائع المسلمين خيرًا وبركة.

(٣) دنباوند: جبل من نواحي الريّ، وهو جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلج شتاءً ولا صيفًا، ويعرف بجبل البيوراسف يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة حمدان، والناظر إليه من الريّ يظن أنه مشرف عليه. . .

وهي كلمة يراد بها التنزيه؛ أي روحانيّ منزّه متصل بالروحانية. وهو أوّل من ذلّل الفِيَلة وقاتل بها الأعداء. قال: وكان لأفريذون ثلاثة أولاد وهم: سَرْم وقيل فيه سلم، وطوخ، وإيرج وقيل فيه إيران؛ فخشي أفريذون ألا يتفقوا بعده وأن يبغيَ بعضهم على بعض، وظن أنه إذا قسم الملك بينهم في حياته بقيَ الأمر بعده على انتظام واتساق فقسمه بينهم. فجعل الرومَ والشامَ وناحيةَ المغرب لسرم. وجعل التركَ والصينَ لطوخ. وجعل العراقَ والهندَ لإيرج، وهو صاحب التاج والسرير. ففي ذلك يقول شاعرهم:

وقَسَمنا ملكنا في دهرنا ... قسمة اللحم على ظهر الوَضَمْ[١]
فجعلنا الرومَ والشامَ إلى ... مغرب الشمس إلى المَلْكِ سَرَمْ
ولطوخ جُعِلَ التُّركُ له ... فبلادُ الصين يحويها ٱبنُ عم
ولإيرانَ جعلنا عنوة ... فارسَ الملك وفزنا بالنعم

فلما مات أفريذون وثب طُوخ وسَرَم بأخيهما إيران فقتلاه وملكا الأرض بينهما، ولذلك نشأت العداوة بين الترك والروم، وقامت الحروب، وطلب بعضهم بعضًا بالدماء. فكان من سوء عاقبة غدرهما بأخيهما وتغلبهما على ملكه أن نشأ ٱبن لإيران بن أفريذون يقال له منوجهر، وقيل اسمه منواشجهر، وقيل فيه منوشهر، فغلب على ملك أبيه إيران.

وملك منوجهر بن إيران بلاد فارس، ثم نشأ ٱبن لطوخ التركي فنفى منوجهر عن بلاده وجرت بينهما حروب، ثم ظَفِر منوجهر وعاد إلى ملكه، ونفى ولدَ طوخ وقوي أمره وظهر ٱسمه. وكان منوجهر موصوفًا بالعدل والإحسان في مملكته. ويقال: إنه أوّل من خندق الخنادق، وجمع آلة الحروب، وأوّل من وضع الدّهقنة[٢]، وجعل لكل قرية دِهقانًا، وجعل أهلها عبيدًا وخَوَلاً[٣] وألبسهم لباس المذلّة. ولما قوي أمره سار نحو الترك وطلب بدم أبيه فقتل عمّيه اللذين قتلا أباه، وأدرك ثأره وٱنصرف إلى بلاده.

---

(١) الوضم: خشبة الجزار يقطع عليها اللحم.
(٢) الدهقنة: مصدر واسم من دهقن، والدهقان يراد به: رئيس الإقليم.
(٣) الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم. (للواحد والجمع والذكر والأنثى).

ثم نشأ فراسياب بن ترك من ولد طوخ بن أفريذون وإليه ينسب الترك، فحارب منوجهر وحاصره بطَبَرِسْتان[١]، ثم اصطلحا وضربا بينهما حدًّا لا يجاوزه واحد منهما، وهو نهر بلخ[٢]، فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوجهر. وكان لمنوجهر هذا خُطَبٌ تدل على سداد رأيه، ووفور عقله، وجَوْدة فهمه؛ قد ذكرنا بعضَها في الباب الرابع من القسم الخامس من الفنّ الثاني في وصايا الملوك. قال: وفي أيام منوجهر ظهر موسى بن عمران عليه السلام.

قال: ولما مات منوجهر تغلّب فراسياب على إقليم بابل اْثنتي عشرة سنة، وأكثر الفساد، وخرّب البلاد، وطمّ الأنهار ودفن القُنَى[٣]، فقَحِط الناس إلى أن ظهر زوّ بن طهماسب فأخرجه عن بلاد فارس إلى تركستان.

وملك زوّ بن طهماسب وقيل فيه: زاع، وقيل فيه: زاب، وقيل: راسب، وهو من أولاد منوجهر، وبينه وبين منوجهر عدّة آباء. قال: ولما ملك ابتدأ في عمارة ما خرّبه فراسياب، وأمر ببناء ما هدم من الحصون، وحفر الأنهار والقُنَى، حتى عادت البلاد إلى أحسن ما كانت عليه، ووضع عن الناس الخراج سبع سنين، فعَمَرت البلاد في أيامه، ودرّت معايش الناس، واحتفر بالسواد[٤] نهرًا وسماه الزاب، وبنى على حافتيه مدينة وهي التي تسمى المدينة العتيقة، وكوّرها[٥] كورًا، وجعلها ثلاثة طساسيج[٦]: الزاب الأعلى، والزاب الأوسط، والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين، وأصول الأشجار.

وزوّ هذا أوّل من اتخذ ألوان الطبيخ، وأنواع الأطعمة، وقسم الغنائم على جنوده. وكانت مدّة ملكه ثلاث سنين.

---

(١) طبرستان: ناحية واسعة الأرجاء ببلاد فارس بين جرجان والديلم، على بحر قزوين الذي يسمى أيضًا باسمها «بحر طبرستان» وأشهر مدنها آمل، والدمغان، وقرمسان من مملكة إيران، فتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، قيل: بلخ في الإقليم الخامس.. وهي من أجمل مدن خراسان وأذكرها وأكثرها خيرًا وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم، وقيل: إن أول من بنى بلخ لهراسف الملك لما خرّب صاحبه بخت نصّر بيت المقدس... (معجم البلدان).

(٣) القنى: المجاري الضيقة للماء أو الواسعة. (٤) المراد بالسواد، العراق.

(٥) كوّرها: جعلها كورًا. (٦) طساسيج: جمع طسوج، وهي الناحية.

ثم ملك بعده كرشاسب بن أسباس؛ وأمه من سبط يامين بن يعقوب عليه السلام. قال: وكان مسكنه ببابل. ومدّة ملكه عشرون سنة. وبعض المؤرّخين لم يذكره في الملوك. وقال الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه[١] في كتابه المترجم بتجارب الأمم: إن كرشاسب كان وزيرًا لزوّ بن طهماسب، وأنه من أولاد طوخ بن أفريذون. قال: وقد حكي أن زوًّا وكرشاسبًا اشتركا في الملك. قال: والصحيح من أمره أنه كان وزيرًا لزوّ ومعينًا له، والذي أثبت كرشاسب في الملوك الشيخ عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمي الشلبي في كتابه المترجم بكمامة الزهَر وصدفة الدرر، وقال: ولم يذكره بعض المؤرّخين.

ثم ملك بعده كيقباذ بن زوّ؛ وقيل فيه: ٱبن زاب بن تور، وسلك سبيل أبيه فكوّر الكور، وبين حدودها، وأمر الناس بالعمارات، وأخذ العشر من الغلات لأرزاق الجند. وكان حريصًا على العمارة، مانعًا لحوزته. والملوكُ الكيّية[٢] من نسله. وكان بينه وبين الترك حروب كثيرة. وكانت إقامته في الحدّ الذي بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ. وكان ملكه مائة وعشرين سنة ثم مات.

وملك بعده كيقابوس بن كينة بن كَيْقُباذ الملك. قال: ولما ملك شدّد على أعدائه، وقتل خلقًا كثيرًا من عظماء البلاد وسكن بلخ، وولد له ابن لم يُرَ مثله في عصره جمالاً وتمامَ خلقة، وسمّاه سياوخش وضمه إلى رستم الشديد بن دستان من ولد كرشاسب. وكان أصبهبذا[٣] بسجستان وما يليها من قبل كيقابوس وأمره بتربيته. فمضى به رستم إلى سجستان وتخيّر له الحواضن والمراضع إلى أن عَقَلَ، فجمع له المعلمين، ثم علّمه الفروسية حتى فاق فيها، فقدم به على أبيه وهو كامل الصفات من العقل والأدب والفروسية، فٱمتحنه والده فوجده فوق ما يحب.

قال: وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال يقال إنها بنت فراسياب ملك الترك؛ ويقال: إنها ٱبنة ملك اليمن، فهَوِيت سياوخش وهَوِيَها، ويقال: إنها كانت ساحرة فسحرته، وآل أمرهما إلى أن انكشف لأبيه كيقابوس وٱطّلع على ما كان من أمر ٱبنه

(١) ابن مسكوية: هو أحمد بن محمد، بن يعقوب، الملقب مسكوية، أبو علي الخازن، صاحب التجارب، مات سنة إحدى وعشرين وأربعماية. قال ياقوت الحموي: كان مسكوية مجوسيًا وأسلم... (معجم الأدباء، لياقوت ٥:٥).

(٢) الكيّية: الذين تبتدىء أسماؤهم بلفظة (كي) وهي كلمة يراد بها التنزيه.

(٣) الإصبهبذان: لغة لكل من ملك طبرستان، كما نعت ملك الفرس بكسرى، وملك الترك بخاقان، وملك الروم بقيصر.

وزوجته، فأشفق سياوخش على نفسه وخشي عاقبة أبيه فتلطف في البعد عنه، فسأل رستم أن يُشير على أبيه لإرساله لحرب فراسياب ملك الترك، وكان قد تجدّدت بين فراسياب وكيقابوس وَحْشةٌ، ففعل رستم ذلك وخاطب كيقابوس فيه واستأذن له في جند يضمهم إليه، فأذن له وضمّ إليه جندًا كثيفًا وأشخص سياوخش إلى بلاد الترك، فسار حتى التقى بفراسياب فانتظم الصلح بينهما من غير حرب، فكتب سياوخش إلى أبيه يخبره بما كان بينه وبين فراسياب من الصلح والاتفاق، فكتب إليه كيقابوس بإنكار ذلك عليه وأمره بمناهضتهِ[١] ومناجزته الحرب، فرأى سياوخش أنه إن فعل ما أمره به والده من الحرب ونقض الهدنة من غير سبب وقع يوجب نقضها، يكون ذلك عارًا عليه ومَنْقصَةً، فامتنع من إنفاذ أمر أبيه وأجمع رأيه على الهرب منه، فكتب إلى فراسياب ملك الترك يطلب منه الأمان لنفسه، وعرّفه أنه آثر اللحاق به فأجابه إلى ذلك. وكان السفير بينهما أحد عظماء الترك وأكابرهم يسمى قيران. فلما استوثق سياوخش من ملك الترك سار نحوه وانصرف مَنْ كان معه من جند أبيه ورجعوا إليه. قال: ولما وصل سياوخش إلى فراسياب ملك الترك أكرمه وعظّمه وزوجه بابنته، وهي أم كيخسرو الذي ملك الفرس. ولم يزل على إكرامه إلى أن ظهر له من أدبه وحسن سياسته وجميل تلطفه ما أشفق[٢] منه وخشِي على مُلكه لميل الناس إليه فقتله. وكانت ابنة الملك قد اشتملت من سياوخش على حَمْلٍ، فقصد أن يُسقطه وتحيّلوا في ذلك فلم تسقط؛ ثم جاء قيران، وهو الذي كان السفير في الصلح بين الترك وسياوخش، وأنكر ما كان من فعل الملك وحذّره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته زوجةَ سياوخش إليه لتكون عنده إلى أن تضع وقال: إذا أردت بعد ذلك قتل ولدها فاقتله؛ فأجابه الملك إلى ذلك وسلّم إليه ابنته، فكانت عنده إلى أن وضعت كيخسرو؛ فلما وضعته امتنع قيران من قتله وسترَ أمرَه، فكان عند قيران حتى بلغ، ثم احتال جدّه كيقابوس إلى أن أخرجه هو وأمّه من بلاد الترك.

قال أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: وللفرس في أمر كيقابوس خرافاتٌ كثيرة منها: أنهم يزعمون أن الشياطين مسخوه، وقوم منهم يزعمون أن سليمان بن داود عليهما السلام أمرهم بذلك في خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة: من الصعود إلى السماء، وبناء مدينة كنكر بأسوار من ذهب وفضة وحديد ونحاس وأنهار، وأنها ما بين السماء والأرض؛ وأشباه ذلك مما تُحيله العقول السليمة؛ لأن ذلك ليس في قدرة البشر.

---

(١) المناهضة: المخاصمة؛ ويقال: تناهض القوم: أي أسرع كل فريق إلى مقاومة خصمه.

(٢) يقا: أشفق منه: أي خاف وحذر منه.

قال: ولما تمّ لكيقابوس أكثرُ ما كان يقصده سار من خراسان ونزل بَابِلَ وترك ما كان يتولاه بنفسه من السياسات، وٱحتجب عن الناس وتعاظم عليهم، وآثر الخلوة، فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه ملكه وغزته الملوك؛ فكان بعد ذلك يغزوهم فيظفَر بهم مرّة ويُنكَب أخرى، إلى أن غزا بلاد اليمن، والملك بها يومئذ ذو الأذعار بن أبرهة بن ذي المنار. فلما أتاه كيقابوس خرج إليه ذو الأذعار في جموعه من حِمْير وولد قحطان، فظَفِر به ذو الأذعار وأسره وٱستباح عسكره وحبسه في بئر وأطبق عليه طبقًا، فخرج رستم الشديد من سجستان في جموع كثيرة من الفرس؛ فالفرس تزعم أنه أوغل في بلاد اليمن واستخرج كيقابوس من مَحبِسه، واليمن تقول غير ذلك، وأن ملكهم ذا الأذعار لما بلغه إقبالُ رستم خرج إليه في جموعه وجنود عظيمة، وخندق كل منهما على نفسه وعسكره، وأنهما أشفقا على جنديهما من البوَار[1]، فاتفقا على أن دفع لهم ملكُ اليمن كيقابوسَ وانصرف رستم من غير حرب ورجع بكيقابوس إلى بابل، فكتب له كيقابوس كتابًا بالعتْق وأقطعه سجستان. ونسخةُ الكتاب الذي كتبه: من كيقابوس بن كيقباذ إلى رستم. إني قد أعتقتك من العبودية، وملّكتك بلاد سجستان، وٱجلس على سرير من فضة مموّه بالذهب، والبس قلنسوة من الحرير منسوجة بالذهب متوجة. قال: ومما يدل على صحة ما نقل من أمر كيقابوس قول الحسن بن هانىء[2]:

وقاظ قابوسُ في سلاسلنا ... سنينَ سبعًا وَفَتْ لحاسبها[3]

ولما مات كيقابوس ملك بعده ولد ٱبنه كيخسرو بن سياوخش بن كيقابوس. قال: ولما ملك عقد التاج على رأسه وخطب رعيته خطبة بليغة أعلمهم فيها أنه على الطلب بدم أبيه سياوخش قِبَل فراسياب ملك الترك، وكتب إلى جوذرز بأصبهان ـ وكان أصبهبذا على خراسان ـ يأمره بالمسير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن ينتخب ثلاثين

---

(١) البوار: الهلاك.

(٢) الحسن بن هانىء: هو أبو علي الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح المعروف بأبي نواس الحكمي الشاعر المشهور. ولد بالبصرة ونشأ بها ثم خرج إلى الكوفة مع والبة بن الحباب، ثم صار إلى بغداد، وهو في الطبقة الأولى من المولدين، وشعره عشرة أنواع، وهو مجيد في العشرة... (وفيات الأعيان ٢:٩٥).

(٣) قاظ: أي أقام زمن القيظ.

ألف راجل ويضمهم إلى طوس بن نوذران وكان فيمن أشخص معه برزافره بن كيقابوس عمّ كيخسرو وابن جوذرز وجماعة من إخوته، وتقدّم كيخسرو إلى طوس، وأمره أن يقصد فراسياب وطراخنته[١] وحذره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له من أبيه سياوخش يقال له فروذ، وكان قد رُزِقه من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش قد تزوّجها لما سار إلى فراسياب فولدت له فروذ، وأقام بموضعه إلى أن شبّ، فسار طوس وكان من غلطه الذي فعله أنه لما صار بالقرب من المدينة التي فيها فروذ حاربه فقُتِل فروذ في الوقعة. فلما اتصل الخبر بكيخسرو غضب لذلك وشقّ عليه، فكتب إلى عمه برزافره ذلك كتابًا غليظًا يخبره بما ورد عليه من خبر طوس ومخالفته له ومحاربته لأخيه فروذ وقتله إياه، وأمره بإشخاص[٢] طوس إليه مقيدًا مغلولاً، وأن يتقدّم هو على العسكر ويتوجه. ففعل برزافره ذلك وتولى أمر العسكر، وسار وعبر النهر المعروف بكاشرود، وانتهى خبره إلى فراسياب فوجه للقائه وحربه جماعة من إخوته وطراختنه، فالتقَوْا وفيهم قيران وإخوته، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وظهر من برزافره عمّ كيخسرو في ذلك اليوم فشلٌ لمّا اشتدت الحرب، فهرب وأنحاز بالعلم إلى رؤوس الجبال، واضطرب على ولد جوذرز الأمرُ، فقُتِل منهم في تلك الملحمة في وقعة واحدة سبعون رجلًا، وقتل خلق كثير، وأنصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو، فرُئيت الكآبة في وجهه وأمتنع عن الطعام والشراب أيامًا، ثم أتاه جوذرز وشكا إليه عمه برزافره وأنه كان سبب الهزيمة، ولاطفه كيخسرو وقال: إن حقك لازم لنا لخدمتك إيانا، وهذا جندنا وخزائننا مبذولة لك فاطلب تِرَتَك[٣] واستعِدَّ وتجهّز للتوجه إلى فراسياب. فنهض جوذرز وقبّل يده وقال: نحن رعيتك وعبيدك أيها الملك، فإن كانت آفة أو نازلة فلتكن بالعبيد دون الملوك، وأولادي الذين قُتلوا فداؤك، ونحن من وراء الانتقام من فراسياب والاستيفاء من الترك. فكتب كيخسرو إلى وجوه عساكره وأكابر أجناده يأمرهم بموافاته في صحراء تعرف بشاه أسطون من كورة بلخ في وقت وَقّته لهم، فوافَوْه في ذلك الوقت، وشخص كيخسرو بأصبهبذيته وأصحابهم وفيهم برزافره عمه وجوذرز وولده، فعرض كيخسرو الجند بنفسه حتى عرف عدّتهم وأطّلع على أحوالهم، ثم أحضر جوذرز وثلاثةَ نفر معه من القوّاد فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه ليُحِيطوا بهم من جميع

---

(١) الطراخنة: جمع الطرخان، وهو زعيم القوم المعفى من الضرائب. (فارسي).

(٢) بإشخاصة مقيدًا: أي بإرساله إليه مقيدًا. (٣) المراد بالترة: الثأر.

جهاتهم، وقوّد على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز، ودفع إليه يومئذ دِرَفْس[١] كابيان، ولم يكن يُدفع قبل ذلك لأحد من القوّاد، بل مع أولاد الملوك.

قال: وأمر أحدَ القوّاد بالدخول مما يلي الصين وضم إليه ثلاثين ألف رجل، وأمرهم بالدخول من ناحية الخزر[٢] من طريقٍ بين جوذرز وبين الذي دخل من طريق الصين، ودخل جوذرز من ناحية خراسان وبدأ بقيران والتحمت بينهما الحرب واشتدّ القتال، فقتل جوذرز أخًا لقيران، ثم قتل قيرانَ مبارزة، ثم قصد فراسياب والتحمت عليه العساكر من كل جهة، واتبع كيخسرو القومَ بنفسه وقصد الوجه الذي كان فيه جوذرز، وقد أثخن في القتل وقتل أصبهبذَ فراسياب والمرشحَ للملك بعده، وجماعةً كثيرة من إخوته وأولاده، وأسر برويز وهو الذي قتل سياوخش.

قال: ولما جاء كيخسرو وجد جوذرز قد أحصى الأسرى والقتلى وما غنم من الكُراع[٣] والأموال، فوجد ما في يده من الأسرى ثلاثين ألفًا، ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفًا وستين ألفًا على ما تزعم الفرس، وحاز من الكُراع والأموال ما لا يحصى كثرة، وأمر كل واحد من الوجوه الذين كانوا معه أن يجعل أسيره ورأس قتيله عند علمه لينظر إلى ذلك كيخسرو عند موافاته. فلما وافى كيخسرو موضعَ الملحمة تلقاه جوذرز وعرض عليه الأسرى والقتلى، فرأى قيرانَ قتيلاً، وأُتي بقاتل أبيه الذي مثّل به بعد قتله. فقتله كيخسرو شرّ قِتْلة؛ قطعه عضوًا عضوًا ثم ذبحه، وأحسن صلة جوذرز وفوّض إليه الوزارة التي يقال لها بزر جفر مذار وجعل إليه مع ذلك أصبهان[٤] وجرجان[٥]، وأحسن لكل من أبلَى من قوّاده ورجاله، ثم أتته أخبار قوّاده الثلاثة

---

(١) الدرفس: الراية الكبيرة. جمع درافس؛ وقيل: الدرفس: العلم الأكبر الذي كان الفرس يحملونه في غزواتهم، ولم يكن يحمل إلا إذا كان الملك يقود الجيش بنفسه.

(٢) الخزر: بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدرنبد قريب من سدّ ذي القرنين، وملك الخزر اسمه خاقان، ولم يكن يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزهًا... (معجم البلدان).

(٣) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٤) أصبهان: هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها؛ وهي اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاً جيًا ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع، وقد اختلف في سبب تسميتها... (معجم البلدان).

(٥) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدّها من هذه وبعض يعدّها من هذه، وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن الملهب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين... (معجم البلدان).

الأخر أنهم قد أحاطوا بفراسياب، وبرز فراسياب ومن بقي من ولده وعساكره وتوجه نحو كيخسرو بجيوش عظيمة، فيقال إن كيخسرو أشفق منه وهابه حتى ظن أنه لا قبل له به، ودام القتال بين العسكرين أربعة أيام، فقتل شيده مقدّم عسكر فراسياب، وكانت هذه الحرب معه، ثم أقبل فراسياب في جمع عظيم من الأتراك وٱلتقى هو وكيخسرو ونشِبت بينهما حروب عظيمة يقال إنه لم يُرَ مثلها قبلها قط على وجه الأرض، فكانت الدائرة على الترك، وٱنهزم فراسياب وكثر القتل في أصحابه وأتبعه كيخسرو حتى أدركه بأذربيجان[١] فظفر به واستوثق منه بالحديد ووبّخه على ما كان منه من قتل سياوخش، فلم يكن له حجة، فذبحه ثم ٱنصرف. وقد غنم غنائم عظيمة لا تحصى وأدرك بثأره.

قال: ولما فرغ كيخسرو من أمر الترك ورجع إلى بلاده واستقرّ بدار ملكه زَهِد في الملك وتنسّك، وأعلم وجوه أهل بيته وأكابر مملكته أنه قد عزم على التخلي والٱنفراد وتَرْك الملك؛ فجزِعوا من ذلك وسألوه ألا يفعل، فأبى عليهم. فلما أيسوا منه سألوه أن ينصب في الملك من يراه له أهلاً، فأشار بيده إلى لهراسف وأعلمهم أنه خاصته ووصيته، فقبل لهراسف ذلك وأقبل الناس عليه. وفُقِد كيخسرو. فمنهم من يقول: إنه غاب للتنسك، وبعضهم يقول غير ذلك، إلا أنه لم تُعلَم جهة وفاته. قال: وكان ملكه ستين سنة. قال: وفي أيام ملكه كان سليمان بن داود عليه السلام.

ثم ملك بعده لهراسف؛ وقيل فيه بهراسف بن تنوفي بن كيمش وهو ٱبن أخي كيقابوس ويلقب بكي لهراسف. قال: ولما ملك اتخذ سريرًا من ذهب مكللاً بالجوهر للجلوس عليه، وبنيت له بأرض خراسان مدينة، وسماها بلخ الحسناء.

قال: وهو أوّل من دوّن الدواوين، وقوّى ملكه بانتخاب الجنود، وعَمَر الأرض. وكانت شوكة الأتراك اشتدّت في زمانه، فنزل بلخ لمقاتلتهم، ووجه بختنصر أصبهبذًا ما بين الأهواز إلى أرض الروم، من غربيّ الفرات. وسنذكر أخباره إذا انتهت أخبار لهراسف.

---

(١) أذربيجان: بالفتح، ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم. قيل: آذر اسم النار بالفهلوية، وبايكان معناه الحافظ والخازن، فكأن معناه بيت النار، أو خازن النار. وحدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطّرم، وهو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها تبريز وهي قصبتها قديمًا... (معجم البلدان).

قال: وكان لهراسف بعيد الهمة، طويل الفكرة، شديد القمع للملوك المحيطة لإيران شهر. وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يؤدّون إليه إتاوة[١] معلومة في كل سنة، ويُقرّون له أنه ملك الملوك هيبةً له، واستمرّ في الملك إلى أن كَبِرت سنّه وأحس بالضعف فاعتزل الملك ونصب ٱبنه بشتاسب. وكان ملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة.

ذكر أخبار بختنصّر

ويقال في ٱسمه بالفارسية بخترشه، وكان مَرْزُبانًا للهراسف، ومعنى المرزبان أنه مَلِكٌ على ربع من أرباع المملكة. وقد قدّمنا أن الملك لهراسف كان قد جعله أصبهبذًا ما بين الأهواز[٢] إلى أرض الروم. قال: فسار حتى أتى دِمَشق فصالحه أهلها، ووجه قائدًا له فأتى بيتَ المقدس فصالح ملك بني إسرائيل، وهو رجل من بني داود النبيّ عليه السلام، وأخذ منه رهائن وانصرف. فلما بلغ طبَرية[٣] وثب بنو إسرائيل على مَلِكهم فقتلوه وقالوا له: إنك هادنت أهل الكفر وخذلتنا واستعدّوا للقتال؛ فكان عاقبة ذلك أن قائد بختنصر ـ لما بلغه ما كان من بني إسرائيل ـ كتب إليه يخبره بقتلهم مَلِكهم، فأجابه بختنصر أن يقيم بموضعه حتى يوافيَه، وأمره بضرب أعناق الرهائن الذين معه. وسار بختنصر حتى أتى بيت المقدس فأخذ المدينة عنوة وقتل المقاتِلة وسبى الذرّية وهرب الباقون إلى مصر، فكتب بختنصر إلى ملك مصر: أن عبيدًا لي هربوا مني إليك فسرِّحهم إليّ وإلا غزوتك وأوطأت خيلي بلادَك، فكتب إليه ملك مصر: إنهم ليسوا عبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، وامتنع من إنفاذهم إليه، فغزاه بختنصر وقتله وسبى أهل مصر، ثم سار في أرض المغرب حتى بلغ أقصى نواحيها.

---

(١) الإتاوة: الجزية، أو الخراج جمع أتاوي.

(٢) الأهواز: كان اسمها في أيام الفرس خوزستان؛ وفي خوزستان مواضع يقال لكل واحد منها خوز كذا؛ منها خوز بني أسد وغيرها؛ فالأهواز اسم للكورة بأسرها، وأما البلد الذي يغلب عليه هذا الاسم عند العامة اليوم فإنما هو سوق الأهواز؛ وأصل الحوز في كلام العرب مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزًا إذا حصله وملكه. . . (معجم البلدان).

(٣) طبرية: هذه كلها أسماء أعجمية، وطبر في العربية بمعنى قفز واختبأ، وطبرية في الإقليم الثالث، طولها من جهة المغرب سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة، وفتحت طبرية على يد شرحبيل بن حسنة في سنة ١٣ هجرية، صلحًا على إنصاف منازلهم وكنائسهم. . . (معجم البلدان).

قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وقد حكى أهلُ التوراة وغيرهم في أمر بختنصر أقوالاً مختلفة، فذكروا منها: أن بختنصر لما خرّب بيت المقدس أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم تُرسه ترابًا ثم يقذفه في بيت المقدس، فقذفوا فيه من التراب ما ملأه. قال: ولما انصرف إلى بابل اجتمع معه سبايا بيتِ المقدس من بني إسرائيل وغيرهم، فاختار منهم سبعين ألف صبيّ، فلما فرّق الغنائم على جنوده سألوه أن يقسم فيهم الصبيان، فقسمهم في الملوك منهم، فأصاب كل رجل منهم أربعة، وكان من أولئك الغِلْمة الذين سباهم، دانيال النبيّ وحنين ومنشايل، وسبعة آلاف من أهل بيت داود، وأحد عشر ألفًا من سبط بشر بن يعقوب. ثم غزا بختنصر العرب، وذلك في زمن معدّ بن عدنان.

قال: وكانت مدّة غلبة بختنصر إلى أن مات أربعين سنة، ثم قام ابن له يقال له أونمروذ ثم هلك، وملك مكانه ابن له يقال له بلتنصر، وذلك في زمن بهمن، فلم يرض بهمن أمره فعزله وملك مكانه كيرش، وتقدّم إليه بهمن أن يرفُق ببني إسرائيل ويمكّنَهم من النزول حيث سألوا، أو الرجوع إلى أرضهم، وأن يولّيَ عليهم من يختارونه، فاختاروا دانيال فولاه أمرهم. فكانت مدّة خراب بيت المقدس سبعين سنة. وقيل غير ذلك. ولنرجع إلى أخبار الفرس.

ولما اعتزل لهراسف المُلك كما ذكرناه، ملك بعده كي بشتاسف بن كي لهراسف. قال: ولما ملك بنى مدينة فسا[١]، وهو أوّل من بسط دواوين الكتاب لا سيما ديوان الرسائل، وكان له ديوانان أحدهما: ديوان الخراج، والآخر ديوان النفقات، فكل ما يَرِد فإلى ديوان الخراج، وكل ما يصرف فمن ديوان النفقات. وكان له كاتب موكل بدار المملكة، فإن وقع تقصير بأحد في منزلته، أو حُطَّ من درجته رجع إلى ذلك الكاتب ليبين له حال مرتبته فيجري على رسمه وعادته.

وفي أيامه ظهر زرادشت بعد ثلاثين سنة من ملكه فادّعى النبوّة فأراده على قبول دينه فامتنع من ذلك ثم صدّقه وقَبِل دعواه، وأتاه بكتاب يكتب في جلد اثنتي عشرة ألف بقرة حفرًا في الجلود ونقشًا بالذهب، فصير بشتاسف ذلك الكتاب بإصخطر ووكل به الهرابذة[٢]، ومنع من تعليمه العامة. وبنى ببلاد الهند بيوتًا للنيران، وتنسّك

(١) فسا: مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي مدينة واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز، وهي أصح منها.

(٢) الهرابذة: جمع الهربذ: هم خدّام النار؛ وقيل: هم حكام المجوس الذين يصلون بهم.

واشتغل بالعبادة، وهادن كي خرزاسف بن كي سواسف أبن أخي فراسياب ملك الترك على ضروب من الصلح، وفي جملة شريطة الصلح ألا يكون ببلاد خرزاسف دابة موقوفة في منزلة الدوابّ التي تكون على أبواب الملوك، وغير ذلك مما وقعت عليه المهادنة. فأشار زرادشت على بشتاسف بنقض الهدنة ومفاسدة ملك الترك، فبلغ ملكَ الترك ذلك، فغضب وكتب إليه كتابًا غليظًا من جملته أن يوجه إليه زرادشت، وأقسم إن متنع أن يغزوَه حتى يسفك دمه ودماء أهل بيته؛ فأجابه بشتاسف بجواب أغظ من كتابه وآذنه بالحرب وأعلمه أنه غير ممسك عنه إن أمسك هو. فسار كل منهما إلى الآخر، ومع كل واحد منهما إخوته وأهل بيته، والتقَوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فكانت الدائرة على الترك، وقتل اسفنديار بن بشتاسف بيدرفش الساحر مبارزة؛ وقُتِلت التركُ قتلاً ذريعًا، وهرب ملكهم خرزاسف ورجع بشتاسف إلى بلخ.

قال: فلما مضت لتلك الحرب سنون سعى رجل يقال له فروخ بإسفنديار إلى بشتاسف ونسبه أنه تطاول للملك، وزعم أنه أحقُّ به، فأفسد بذلك قلب بشتاسف عليه، وصدق مقالة فروخ، فأخذ في التدبير على إسفنديار وجعل يرسله إلى حرب بعد حرب، وهو يظفر وينجح ويرجع بالغنائم، ثم أمر بتقييده فقُيِّد، وصيره في الحبس في حصن من حصونه، وسار بشتاسف إلى جبل يقال له طميدر لدراسة دينه والتنسك هناك، وخلّف أباه لهراسف في مدينة بلخ، وقد كبرت سنه وهرم وعجز.

قال: فاتصل هذا الخبر بخرزاسف ملك الترك، فجمع من الجنود ما لا يحصى كثرة، وشَخَص من بلاده نحو بلخ حتى إذا انتهى إلى تخوم[١] ملك فارس قدّم أمامه جوهرمز أخيه، وكان مرشحًا للملك، في جماعة كثيرة من المقاتلة، وأمرهم أن يُغِذُّوا[٢] السير حتى يتوسطوا المملكة، ثم يوقعوا بأهلها ويُشنوا الغارة على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك وسفك الدماء وأستباح الحرم، وسبى ما لا يحصى، وأتبعه خرزاسف ملك الترك حتى انتهى إلى مدينة بلخ، فأحرق الدواوين وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على الأموال الكنوز، وسبى أبنتين لبشتاسف وأخذ دِرَفْس كابيان، وسار في طلب بشتاسف فتحصن منه في جبل طميدر؛ فعند ذلك ندم بشتاسف على ما كان منه في حق أبنه إسفنديار؛ فيقال: إنه وجه من استخرجه من محبسه، وجاءه به؛ فلما دخل عليه اعتذر منه ووعده عقْدَ التاج على

(١) التخوم: جمع التّخم، وهي المعالم يهتدى بها، أو الحدّ الفاصل بين أرضين.

(٢) يقال: غذّ الرجل والحيوان غذوًا، وغذوانًا: أي أسرع.

رأسه، وأن يفعل معه كما فعل لهراسف به. وقلده أمر عساكره وندبه لحرب ملك الترك. فطابت نفس إسفنديار بكلام أبيه له، وتأهب لوقته، وسار بالجنود صبيحة النهار نحو الترك. فلما قَرُب منهم تبادروا لحربه؛ فكان ممن خرج إليه منهم جوهرمز واندرمان، فالتقَوْا والتحمت بينهم الحرب، فانقضّ إسفنديار على عساكر الترك بنفسه واختلط بهم، وقاتل حتى ثلم فيهم ثُلمة عظيمة، وفشا في الترك أن إسفنديار قد أُطلق من مَحبِسه، وأنه هو الذي يقاتلهم، فانهزموا لا يلوون على شيء. واسترجع إسفنديار من الترك الدِّرَفْس وعاد إلى أبيه، فاستبشر وأمره باتّباع القوم وقتال خرزاسف وقتله - إن ظَفِر به - بجدّه لهراسف، وقَتْل جوهرمز واندرمان بمن قُتل من ولده، وأن يهدم حصون الترك ويحرِّق مدنهم ويقتل أهلها بمن قتلوا من أهل بلاده، ويستنقذ من سَبَوْه من بناته. فدخل إسفنديار بلاد الترك ورام ما لم يَرُمْهُ أحد قبله، واعترض العنقاء[١] ورماها على ما يزعم الفرس، ودخل مدينة الصفر[٢] عنوة، وقتل ملكها وأخوته ومقاتِلته، واستباح أمواله وسبنى ذراريه ونساءه واستنقذ أختيه، وكتب بالفتح إلى أبيه. ولم يستقل إسفنديار هذا بالملك.

والذي ملك الفرس بعد بشتاسف أردشير بَهْمَن بن إسفنديار بن بشتاسف. وتفسير بهمن بالعربية: الحَسَن النيّة.

قال: ولما ملك أردشير انبسطت يده وتناول الممالك حتى ملك الأقاليم. وكانت ملوك الأرض تحمل إليه الإتاوة، وأبتنى بالسواد مدينة وهي المعروفة بهمينيا[٣]، وهو أبو دارا الأكبر، وأبو ساسان. قال: وكان بهمن كريمًا متواضعًا. وكانت تخرج كتبه: من أردشير بهمن عبد الله وخادم الله والسائس لأمركم. ويقال: إنه غزا رومية الداخلة في ألف ألف مقاتل. ومن المؤرّخين من ذهب إلى أن بهمن هذا هو الذي جهّز بختنصّر لغزو العرب وغيرهم. وكانت مدّة ملك أردشير مائة وأثنتي عشرة سنة.

---

(١) العنقاء: طائر متوهم لا وجود له.

(٢) الصفر: بالضم ثم الفتح والتشديد، موضع بين دمشق والجولان. والصفر: بفتح أوله وثانيه جبل أحمر من جبال ملل قرب المدينة. والصفر: بكسر الفاء: جبل بنجد في ديار بني أسد. وقد يكون المراد مدينة النحاس التي تقدم تفسيرها، لأن الصفر يعني النحاس الأصفر.

(٣) همينيا: قرية كبيرة كالبلدة بين بغداد والنعمانية في وسط البريّة ليس بقربها شيء من العمارات، وهي في ضفة دجلة.

ولما مات ملكت بعده ٱبنته جماز هرازاد، وهي جماني أمّ ٱبنه دارا. قال: وكانت قد حملت منه بدارا الأكبر وسألته أن يعقد التاج للذي في بطنها ويؤثره بالملك، ففعل أردشير ذلك. وكان ٱبنه ساسان يتصنع للملك ولا يشكّ أنه يكون هو الملك بعد أبيه. فلما رأى ما فعل أبوه شقّ ذلك عليه، فلحِق بإصطخر وتزهّد، وخرج عن حلية الملوك، وٱتخذ غُنَيْمَةً وكان يتولاّها بنفسه، فاستشنع الناس ذلك من فعله وقالوا: صار ساسان راعيًا، ولم تزل جماني قائمة بأمر الملك، ضابطة له، وأغزت الروم جيشًا بعد جيش وأوتيت ظَفَرًا، فقمعت الأعداءَ وشغلتهم عن التطرّق إلى شيء من بلادها، ونال رعيّتها بتدبيرها رفاهية وأمنٌ إلى أن كبر ٱبنها.

فملك دارا بن أردشير بهمن. قال: ولما كبر حُوِّل التاجُ إلى رأسه ونزل بابل. وكان ضابطًا لملكه. قاهرًا لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج. وٱبتنى بفارس مدينة وسماها دارا بَجِرْد. ورتّب دوابّ البريد. وكانت مدّة ملكه ٱثنتي عشرة سنة.

وملك بعده ٱبنه دارا بن دارا بن أردشير؛ وكان دارا هذا حقودًا جبارًا، فملّه قومه. وغزاه الإسكندر بن فيلبس اليوناني، والتقَوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل دارا بن دارا. وسنذكر خبر مقتله في أخبار الإسكندر.

فهؤلاء ملوك الفرس الأول. ثم تبدّد ملك الفرس وٱنتشر[١] لقتل دارا بن دارا، واستقل الإسكندر بالملك. وملك بعده مَنْ نذكره من ملوك اليونان، وتفرّق مُلك الفرس أربعمائة سنة إلى أن عاد إلى بني ساسان. وها أنا ذاكر خبر ملوك الطوائف ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك.

ذكر أخبار ملوك الطوائف

وملوك الطوائف هم الذين ملكوا بلاد فارس ما بين دارا بن دارا وأردشير بن بابك الذي جمع مُلك الفرس بعد تبدّده، ونَظَمه بعد انتشاره. وكان من خبرهم أن الإسكندر لما قتل دارا بن دارا وغلب على بلاد الفرس همّ بقتل أكابرهم، فكتب إلى معلّمه أرسطاطاليس يستشيره في ذلك، فنهاه عن قتلهم وقال: هذا من الفساد في الأرض، وإذا قتلتَهم أنبتت أرضُ بابل أمثالهم؛ وأشار عليه أن يفرّق المملكة بين أولاد الملوك، فإنهم يتنافسون المُلكَ فلا يجتمعون على مَلِكٍ واحد منهم، فمتى خالفك واحد كانت مؤنته[٢] عليك خفيفة؛ ففعل ذلك، وفرّق المُلك حتى أمكنه أن

(١) انتشر: تفرّق. (٢) المؤنة: الاتقاء والحذر.

يتجاوز أرض فارس إلى بلاد الهند والصين. فكانت ملوك الطوائف في إقليم بابل لا يَدِين بعضهم إلى بعض.

فكان من ملوكهم الذين ملكهم الإسكندر: أشك بن دارا الأكبر؛ فقَوِي أشك هذا وعظّمته الملوك وقدّموه على أنفسهم، وبدؤوا به في كتبهم إليه إجلالاً له، وبدأ في كتبه إليهم بنفسه، وسَمَّوْه ملكًا، وأهْدَوْا إليه من غير أن يُطيعوه أو يستعمل أحدًا منهم أو يَعزِله، وكثرت جموعه وسار إلى أنطيخس، وكان مقيمًا بسواد العراق من قبل الروم، وتقدّم أنطيخس إليه والتقيا ببلاد الموصل واقتتلا فقُتِل أنطيخس، وغلب أشك على السواد، وصار في يده من الموصل إلى الريّ[١] وأصفهان، ولذلك عظّمته ملوك الطوائف.

ثم ملك جوذرز بن أشكان. وهو الذي غزا بني إسرائيل المرة الثانية؛ وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فسلطه الله تعالى عليهم فأكثر فيهم القتل فلم يَعُدْ لهم جماعة بعد ذلك، ورفع الله عنهم النبوّة وأنزل بهم الذل.

وكان من سُنَّة الفرس بعد الإسكندر أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل، وهم الأشغانية؛ فأوّلهم أشك بن أشكان، ثم سابور بن أشكان، وفي أيامه ظهر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بأرض فِلَسطين. ثم ملك جوذرز بن أشغانان الأكبر. ثم ملك بيزن الأشغاني. ثم ملك جوذرز الأشغاني. ثم نرسي الأشغاني. ثم هرمز. ثم أردوان الأشغاني. ثم كسرى الأشغاني. ثم بلاش الأشغاني. ثم أردوان الأصغر الأشغاني. ثم أردشير بن بابك. فكانت مدة هؤلاء، إلى أن وثب أردشير بن بابَك على الأردوان فقتله، مائتين وستًا وستين سنة.

وفي أيام ملوك الطوائف اصطُلِمت[٢] طسم وجديس. وسنذكر إن شاء الله خبرهم.

---

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا، وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا، ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخًا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا. . . (معجم البلدان).

(٢) اصطلمت طسم وجديس: أي أبيدتا.

ذكر أخبار الملوك الساسانية

وهم الفرس الأخر. وأوّل من ملك منهم أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر. وكان من أعظم ملوك الطوائف وملوك الأشغانية، فوثب بالأردوان وقتله واستولى على الممالك وقاد الملوك إلى طاعته رغبةً ورهبةً. وكتب إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الاجتماع إليه: بسم الله وليّ الرحمة. من أردشير المستأثَرِ دونه بحقه، المغلوبِ على تراث آبائه، الداعي إلى قوام دين الله وسنته، المستنصِر بالله، الذي وعد المحقّين الفَلَح[1]، وجعل لهم العواقب؛ إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من ملوك الطوائف. سلام عليكم بقدر ما تستوجبون بمعرفة الحق، وإنكار الباطل والجَوْر[2]. ودعاهم إلى الطاعة: فمنهم من أقرّ له بالطاعة، ومنهم من تربّص[3] حتى قَدِم عليه، ومنهم من عصاه فكانت عاقبة أمره إلى القتل والهلاك؛ حتى استوثق له الأمر. فكانت طائفة الأشكانية ممن اْمتنعت من طاعة أردشير، فأقسم أنه لا يُبقي منهم ـ إن قدر عليهم ـ رجلًا ولا اْمرأة. فلما غَلَب عليهم ما نجا منهم إلا من أخفَى اْسمه ونسبه. وقد كان أخذ في جملة من أخذ منهم ابنةُ ملكهم، وكانت بارعة الجمال، وافرة العقل. فلما رآها قال لها: أنت من بنات ملوكهم؟ قالت: بل من خدمهم. فاصطفاها لنفسه، فحملت منه. فلما علمت بالحمل شهرت نفسها وقالت: أنا اْبنة ملكهم. فعند ذلك أمر شيخًا من رجاله الذين يثق بهم يقال له هرجند بن سام بأن يودعها في بطن الأرض إشارة إلى قتلها. فقالت: أيها الشيخ، إنني قد حملت من الملك فلا تُبطِل زرعَه. فعَمِل لها سَرَبًا[4] تحت الأرض وجعلها فيه، ثم عَمَد إلى مذاكيره[5] فجبّها[6] ووضعها في حُقّ[7] وختم عليه ورجع إلى الملك وقال: قد أودعتها بطن الأرض؛ ودفع له الحُقّ وقال: إن فيه وديعةً وأحب أن يكون عند الملك إلى أن أحتاج إليه،

---

(١) الفلح: الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال.
(٢) الجور: الظلم والفساد.
(٣) تربّص: أي انتظر به خيرًا أو شرًا يحلّ به.
(٤) السرب: الحفير تحت الأرض لا منفذ له.
(٥) المراد بالمذاكير: المذكرات.
(٦) المراد بقوله: جبّها: أي طواها.
(٧) الحقّ: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

فاستودعه الملكَ؛ وأقامت الجارية في السَّرَب حتى كملت مدّة حملها، فوضعت غلامًا فسماه الشيخ: شاه بور، أي ولد الملك؛ فسماه الناس سابور. وبقي أردشير هذا دهرًا لا يُولَد له، فرآه الشيخ في بعض الأيام وقد ظهر عليه الحزن، وكان خاصًا به، فقال له: ما هذا الحزن سرّك الله أيها الملك وعَمَرك. فقال: من أجل أنه ليس لي ولد يرث ملكي. فقال له الشيخ: إن لك عندي ولدًا طيبًا فادّع بالحقّ. وأمر أردشير بإحضاره فأحضر، ففضّ ختمه فإذا فيه مذاكيرُ الشيخ وكتاب فيه: إنه لما أمرني الملك بقتل المرأة الأشكانية التي عَلِقَتْ من ملك الملوك أردشير لم أرَ أن أبطل زرع الملك الطيب فأودعتها بطن الأرض كما أمرني، وتبرأت إليه من نفسي لئلا يجد عائب إلى عيبها سبيلاً؛ فسرّ أردشير بذلك، وأمر الشيخَ أن يجعل الغلام بين مائة غلام من أشباهه في الهيئة وأقرانه في السن، ثم يُدخلَهم عليه، ففعل ذلك، فعرفه أردشير من بينهم وقبلته نفسه، ثم أمرهم أن يلعبوا في حجرة الإيوان بالصَّوالج[١]، فدخلت الأكرة[٢] الإيوان، فأحجم الغلمان عن دخولهم وأقدم سابور، فأمر أردشير عند ذلك بعقد التاج له.

وكان أردشير من أهل العقل والمعرفة وحسن التدبير، وله وصايا ومكاتبات صدرت عنه تدل على حكمة ورجاحة عقل. وقد تقدّم إيرادها في الباب الرابع من القسم الخامس من الفنّ الثاني في وصايا الملوك. وكانت مدّة ملكه أربع عشْرة سنة وستة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه سابور بن أردشير، والعرب تسميه سابور الجنود. وسابور هذا هو الذي حصر الضَّيْزن[٣]، وملك حِصْن الحَضْر، وهو من مباني العرب المشهورة. وقد تقدّم ذكره في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل، وهو في السفر الأوّل. فلا حاجة إلى إعادة ذكره.

وفي أيامِه ظهر ماني[٤] الزِّنديق تلميذ قاردون وقال بالاثنين، فرجع سابور إلى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد إلى دين المجوسية وترك

---

(١) الصوالج: جمع الصولج، وهي عصا معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة.

(٢) الأكرة: أي الكرة، وهي الطابة يلعب بها الأولاد.

(٣) الضّيزن: هو الضيزن بن معاوية بن العبيد من قبيلة قضاعة ويلقب بالساطرون.

(٤) ماني: هو ماني بن فاتك الحكيم، ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور.

المانَوِيَّة[١]، وهو المسمى عندهم بدين الثَّنْوِيّة. وكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة. وقيل إحدى وثلاثين سنة ونصف سنة وثمانية عشر يومًا.

ثم ملك بعده ٱبنه هرمز بن سابور؛ وهو الذي يدعى هرمز البطل، ويلقّب أيضًا بالجريء. وبنى مدينة رامهرمز بين كَوْرِ الأهواز. وكانت مدة ملكه سنة وعشرة أشهر.

ثم ملك بعده ٱبنه بهرام بن هرمز. قال: ولما ملك جاءه ماني الزنديق فعرض عليه مذاهب الثنوية فأجابه إلى ذلك احتيالاً منه عليه، إلى أن أحضر له دعاته المتفرقين في البلاد الذين يدعون الناس إلى مذاهب الثنوية. فلما أحضرهم إليه قتلهم وقتل ماني وسلخه.

وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزنادقة الذين أضيفت إليهم الزندقة. وذلك أن الفرس كان لهم كتاب يسمونه السنا، وكان له شرح يسمى الزند. فكان من أتاهم بزيادة على ما في كتابهم يسمونه زنديًا. فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس فعربته وقال زنديق. فالثنوية هم الزنادقة، فألحق هذا الاسم بسائر من اعتقد القِدَمَ وأبى حدوث العالم وأنكر البعث.

والذي أتى الفرسَ بهذا الكتاب زرادشت[٢] في زمن الفرس الأوّل. وقد قدّمنا ذكره في أخبار بشتاسف. وهذا زرادشت هو الذي تزعم المجوس أنه نبيُّها الذي أرسل إليها. وكان زرادشت خادم شعيا فدعا شعيا عليه فبَرِصَ. وكان صاحب نِيرَجات[٣] وسحر. وكان يحزِرُ[٤] بعض الكوائن قبل أن تقع مما كان قد سمعه من شعيا وقت خدمته له، وٱدّعى النبوّة في المجوس وعمل لهم الكتاب الذي قدّمنا ذكره، وزعم أنه أُنزِل عليه من السماء، وجعل كلامه فيه يدور على نيّف وسبعين حرفًا، فلم يقدر أحد منهم على قراءته فٱختصره لهم وسمي مختصره الزند.

فلما قام ماني بدين الثنوية سمته المجوس «زندين» وسموا أصحابه الزنادنة لأنه

---

(١) المانويّة: هم أصحاب ماني بن فاتك، وهم يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه، وقالوا كذلك بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخبر والمكان والأجناس والأبدان والأرواح.. (الملل والنحل للشهرستاني ١:٢٤٤).

(٢) زرادشت: هو زردشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب الملك. وأبوه كان من أذربيجان، وأمه من الريّ واسمها: دغدوية (الملل والنحل للشهرستاني ١:٢٣٦).

(٣) النيرجات: جمع نيرج. والنيرج: أخذ كالسحر وليس بسحر، إنما هو تشبيه وتلبيس.

(٤) يقال: حرز الشيء: أي قدّره بالحدس.

زاد في شرعهم الذي شرعهم لهم زرادشت، فقتل بهرام هذا مانيًا وصلبه على باب من أبواب مدينة من مدنه بالعراق؛ فيُدعى ذلك الباب إلى آخر وقت بابَ ماني. وكانت مدة ملك بهرام ثلاثًا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه بهرام بن بهرام. قال: ولما ملك أقبل في أوّل ملكه على اللهو والصيد والنُّزَه، وترك ملكه لا يفكر فيه ولا في رعيته؛ فخربت البلاد ونقصت بيوت الأموال. فلما كان في بعض الأحيان ركب إلى بعض متنزهاته وصيده فجنّه[١] الليل وهو يسير نحو المدائن، وكانت ليلة قمراء[٢]. فدعا بالمُوبَذِ لأمر خطر بباله، والموبذ عند المجوس كالقسيس عند النصارى، فجعل يحادثه فتوسطا في مسيرهم بين خرابات كانت من أمهات الضياع فخربت في ملكه، وإذا بُومٌ يصيح وآخر يجاوبه، فقال الملك: أَتُرى أحدًا من الناس أعْطِيَ فَهْمَ ما يقول هذا الطائر؟ فقال الموبذ: أنا أيها الملك ممن خصه الله تعالى بذلك. قال: فما يقول هذا الطائر، وما يقول الآخر؟ فقال الموبذ: هذا بوم ذكر يخاطب بومة أنثى ويقول: متِّعيني من نفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله تعالى. فأجابته البومة: إن الذي دعوتني إليه هو الحظ الأكبر، والنصيب الأوفر، إلا أنني أشترط عليك شرائطَ. فقال: وما هي؟ فقالت: أن تُقطِعَني[٣]. من خرابات أمهات الديار عشرين قرية مما خَرِبت في أيام هذا الملِك السعيد. فقال له المَلك: فما الذي قال الذكر؟ قال الموبذ: كان من قوله لها: إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعتُكِ منها ألف قرية، فما تصنعين بها؟ قالت: في اجتماعنا ظهور النسل وكثرة الولد، فنُقطع كل واحد من الأولاد ضَيْعة. فقال الذكر: هذا سهل ما حيِيَ الملك.

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذ عَمِل في نفسه وفكر فيما خوطب به، فنزل من ساعته وخلا بالموبذ وقال له: ما هذا الكلام الذي خاطبتني به؟ فقد حركت مني ما كان ساكنًا. فقال: صادفت من الملك وقتَ سعدٍ بالعباد والبلاد، فجعلت الكلام مثلاً وموقظًا على لسان الطائر عند سؤال الملك إياي. فقال له الملك: أيها الناصح للملك، المنبه على ما أغفله من أمور ملكه، وأضاعه من أمور بلاده ورعيته، اكشف لي عن هذا الغرض ما المراد منه. فقال له: أيها الملك! إن المُلك لا يتمّ إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، ولا قِوام للشريعة إلا بالملِك، ولا عزّ للملك إلا

(١) جنّه الليل: أي ستره. (٢) الليلة القمراءة: أي المقمرة.

(٣) يقال: أقطعه فلان أرضًا: إذا ملّكه إياها.

بالرجال، ولا قيام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان المنصوب بين البرية، نصبه الربّ وجعل له قيّمًا وهو المَلِك.

قال: أما ما وصفت فحقّ، فأَبِنْ لي عما إليه تقصد، وأوضح لي في البيان. قال: نعم أيها الملك! عمدتَ إلى الضياع فأقطعتها الخدمَ وأهل البطالة فعمدوا إلى ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يُصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف[1] على الرعية وعُمّار الضياع فانْجَلوا عن ضياعهم، وقلّت الأموال، وهلكت الجند والرعية، وطمِع في ملك فارس من طمع فيه من الملوك والأمم، لعلمهم بانقطاع المواد التي بها تستقيم دعائم الملك. فلما سمع الملك ذلك أقام في موضعه ثلاثة أيام، وأحضر الوزراء والكتّاب وأرباب الدواوين، فانتُزِعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية ورُدّت إلى أربابها، وحُمِلوا على رسومهم[2] السالفة، وأُخِذوا بالعمارة، وقَوِيَ من ضعف منهم، وعَمَرت البلاد، وكثرت الأموال، وقويت الجند، وانتظم ملكه حتى كانت أيامه تدعى بالأعياد، لما عمّ الناسَ من الخصب، وشملهم من العدل. وكان ملكه سبع عشرة سنة.

ثم ملك ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام البطل، وكان يدعى شكان شاه، وهو الذي يقال له شاهنشاه[3]. فكان ملكه أربعين سنة وأربعة أشهر.

ثم ملك بعده أخوه ترسي بن بهرام الثاني فكان ملكه تسع سنين. وقيل سبع سنين وخمسة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن نرسي. قال: وكان فظًا إلا أنه كان يرفُق بالرعية، وكان حسن السيرة فيهم. وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر.

ثم ملك بعده ابنه سابور بن هرمز؛ وهو الملقب بذي الأكتاف. وكان هرمز قد تركه حمْلاً في بطن أمه، فعقدوا التاج على بطنها، وقام الوزراء بتدبير الأمر مدّة حملها، وفي مدّة رضاع سابور وطفولته وصغره حتى كبر؛ فكتب إليه الناس الكتب من الآفاق وأجابهم، ووجه البريد إلى الآفاق والأطراف، ورتّب الوزراء والكتّاب وقرّر العمال.

---

(١) الحيف: التنقّص.

(٢) الرسوم: جمع الرسم، وهو ما أمر به، والمراد به المرسوم.

(٣) شاهنشاه: لفظ فارسي معناه ملك الملوك.

قال: وكان قد شاع في الممالك أن ملك الفرس صغيرُ السنّ، وأنه يتدبّر برأي وزرائه، ولا يدري ما يراد منه، ولا ما يكون من الأمر، فطمِع في مملكة الفرس الترك والروم والعرب. وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى الفرس بلادُ العرب. وكانت العرب من أحوج الأمم إلى تناول شيء من المعايش لسوء حالهم وشظف عيشهم، فانبسطت أيديهم في البلاد وغلبوا أهلها عليها واتسعت حالهم وكثرت مواشيهم، وأفسدوا في بلاد فارس، ومكثوا كذلك حينًا، وقد أمنوا جانب الفرس واطمأنوا من قتالهم لقلة هيبتهم. وكان الذي غلب على سواد العراق من العرب جمرةُ[١] العرب ولدُ إياد بن نزار. وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد، ومَلِكُها يومئذ الحارث بن الأغر الإيادي. قال: ولما ترعرع سابور جعل الوزراء يعرضون عليه أمر الجنود الذين في الثغور، وأن الأخبار وردت عليهم أن أكثرهم قد أخلّ، وعظّموا عليه الأمر وهوّلوه، فقال لهم: لا يَهُولنَّكم ذلك، فالخطب فيه غيرُ جسيم، والحيلة في ذلك يسيرة. وأمر الكتّاب أن يكتبوا إلى أولئك الجنود أنه قد انتهى إليّ طولُ مكثكم في النواحي التي أنتم فيها، وعِظَمُ عنائكم وذبُّكم عن إخوانكم وأوليائكم، فمن أحب منكم الانصراف إلى أهله فلينصرف مأذونًا له في ذلك، ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصبر في موضعه عرفنا له ذلك؛ وتقدّم إلى من اختار الانصراف منهم بلزوم أهله وبلاده إلى وقت الحاجة إليه. فلما سمع الوزراء قوله ورأيه استحسنوه وقالوا: لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور وسياسة الجنود ما زاد على ما سمعناه. ثم تتابعت آراؤه في تقويم أصحابه وقمع أعدائه؛ حتى إذا تمت له ستُّ عشْرة سنة جمع أساوِرَته وأمرهم بالاستعداد لقتال العرب. وكانت إياد تَصِيف بالجزيرة وتَشْتو بالعراق. وكان في جيش سابور رجل منهم يقال له لَقيط[٢]، فكتب إلى إياد شعرًا ينذرهم وهو: [من الوافر]

سلامٌ في الصحيفة من لَقِيطٍ ... إلى مَنْ بالجزيرة من إياد
بأن الليث آتيكم دَليفا ... فلا يحبسْكُمُ سَوْقُ النِّقاد[٣]
أتاكم منهمُ سبعون ألفًا ... يُزَجُّون الكتائب كالجراد[٤]

---

(١) يقال: جمرة القوم: أي انضموا فصاروا يدًا واحدة ولم يحالفوا غيرهم. ويقال: هم جمرة: أي أهل منعة وشدّة.

(٢) لقيط: هو لقيط بن معمر من إياد، وكانت إياد أكثر نزار عددًا وأحسنهم وجوهًا وأمدهم وأشدهم وأمنعهم، وكانوا لقاحًا لا يؤدون خرجًا؛ وهم أول معدي خرج من تهامة فنزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق، وسنداد نهر كان بين الحيرة إلى الأُبُلّة... (الشعر والشعراء).

(٣) المراد بقوله: آتيكم دليفًا: أي يمشي مشي القيد. والنقاد: الغنم.

(٤) يقال: زجا الشيء زجوًا: أي ساقه ودفعه: أو ساقه يرفق.

فلم يعبئوا بكتابه، وسراياهم تُكرّ نحو العراق وتُغير على السواد. فلما تجهّز القوم نحوهم ظفر بهم سابور فعمّهم بالقتل، وما أُفلت منهم إلا نفرٌ لحِقوا بأرض وَبَارِ(١)، وخلع سابور أكتاف كثير منهم، فلذلك سُمِّي ذا الأكتاف. وكان سابور في مسيره أتى البحرين وفيها بنو تميم فهربوا، وشيخُها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة وعمره ثلاثمائة سنة، وكان يُعلَّق في عمود البيت في قُفّة، فأرادوا حمله فأبى عليهم إلا أن يتركوه في ديارهم وقال لهم: أنا هالك اليوم أو غدًا فتركوه. فلما صبحت خيل سابور الديار لقوها خالية، فلما سمع عمرو صهيل الخيل جعل يصيح بصوت ضعيف، فحمل إلى سابور، فلما نظر إلى دلائل الهَرَم ومرور الأيام عليه قال له: من أنت أيها الفاني؟ قال: أنا عمرو بن تميم بن مرة، قد بلغت من الكِبَر ما ترى، وقد هرب الناس منك لإسرافك في القتل، فآثرت الفناء على يديك ليبقى من بقي من قومي، ولعل الله يُجري على يديك فَرَجهم، وأنا سائلك عن أمر إن أذنت فيه؛ فقال سابور: قُلْ نَسمعْ؛ فقال: ما الذي حملك على قتل رعيتك من رجال العرب؟ فقال سابور: أقتلهم لما ارتكبوا في بلادي وأهل مملكتي؛ فقال عمرو: فعلوا ذلك ولستَ بقيِّم عليهم؛ فلما ملكت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك؛ قال سابور: وأقتلهم لأنا نجد في مخزون علمنا وما سلف من أنباء أوائلنا أن العرب ستُدَال علينا. فقال عمرو: هذا أمر تظنه أم تتحققه؟ قال: بل أتحققه ولا بدّ أن يكون؛ فقال عمرو: فلِمَ تسيءُ إليها؟ والله لئن تُبقي عليها وتُحسن إليها ليكافئون قومك عند إدالة الدولة إليهم بإحسانك، وإن أنت طالت بك المدّة كافؤوك عند مصير الأمر إليهم إن كان حقًا، وإن كان باطلاً فلِمَ تتعجل الإثم وتَسفِك دماء رعيتك؟ فقال سابور: الأمر صحيح والحقّ ما قلت، ولقد صدقتَ في القول ونصحتَ. فنادى منادي سابور بأمان الناس ورَفْعِ السيف. ويقال: إن عمرًا بقي بعد هذا الوقت ثمانين سنة.

ثم سار سابور إلى أرض الروم ففتح المدن وقتل خلائق من الروم وقال لمن معه: إني أريد أن أدخل بلاد الروم متنكرًا لأتعرّفَ أحوالهم وسيرهم ومسالك بلادهم، فإذا بلغتُ من ذلك حاجتي انصرفت إلى بلدي فسرت إليهم بالجنود؛ فحذّروه التغرير بنفسه فلم يقبل قولهم. وسار متنكرًا إلى أرض القسطنطينية(٢) فصادف وليمة لِقَيْصَرَ

---

(١) الوبار: أرض واقعة ما بين الشحر إلى تخوم صغد.

(٢) القسطنطينية: وهي بزنطية، وسميت أسطنبول، وهي دار ملك الروم، بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح، عمّرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه. . . (معجم البلدان).

اجتمع فيها الخاص والعامّ، فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وقد كان قيصرُ أمر مصوّرًا أتى عسكر سابور فصوّره وجاء إلى قيصَر بالصورة، فأمر بها فصوِّرت على آنية الشراب من الذهب والفضة، وأتى بعضُ من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس، فنظر بعض الخدم إلى الصورة التي على الكأس، وسابور مقابل له، فانطبعت مثالاً لصورة سابور، فقام إلى الملك فأخبره، فمَثَل بين يدي الملك، فسأله عن خبر فقال: أنا من أساورة سابور وهربت منه لأمر خِفْته منه. فلم يقبل ذلك منه، وقُدِّم إلى السيف فأقرّ بنفسه، فجُعِل في جلد بقرة، وسار قيصر في جنود حتى توسط العراق، فافتتح المدن، وشنّ الغارات، وعقر النخل، وانتهى إلى مدينة نيسابور، وقد تحصن بها وجوه فارس، فنزل عليها وحضر عيدًا للنصارى فأغفل الموكّلون بسابور أمرَه، وأخذ منهم الشراب، وكان بالقرب من سابور أُسارى من الفرس، فراطنهم[١] بالفارسية أن يَحُلَّ بعضهم بعضًا، وأمرهم أن يصبّوا عليه زِقَاق[٢] الزيت ففعلوا، فَلاَنَ عليه الجلد وتخلص، وأتى المدينة فراطنهم فرفعوه بالحبال، ففتح خزائن السلاح وخرج على الروم فكبس جيشهم عند ضرب النواقيس[٣]، فانهزم الروم، وأُتِيَ بقيصر أسيرًا، فأبقى عليه وضمّ إليه من أُسِرَ من أصحابه، وأخذهم بغرس الزيتون بالعراق بدلاً من النخل التي عقروها؛ ولم يكن الزيتون بالعراق قبل ذلك. وفي فعل سابور ودخوله إلى أرض الروم يقول بعض شعراء الفرس: [من البسيط]

وكان سابورَ صفوًا في أُرومته ... اختير منها فأضحى خيرَ مختار
إذ كان بالروم جاسوسًا يجول بها ... حوم المنيّة من ذي كيد مَكّار
فاستأسروه، وكانت كبوة عجبًا ... وزَلّة سبقت من غير عَثّار[٤]
وأصبح الملِكُ الروميُّ مغتربًا ... أرضَ العراق على هول وأخطار
فراطن الفرسَ بالأبواب فافترقوا ... كما تَجَاوَبُ أُسْدُ الغاب بالغار[٥]
فجدّ بالسيف أصلَ الروم فامتُحِقوا ... لله دَرُّكَ من طَلاّب أوتار[٦]
إذ يغرِسون من الزيتون ما عَضَدُوا ... من النخيل وما حَفُّوا بمنشار

(١) راطنه: أي خاطبه بالأعجمية.
(٢) الزقاق: جمع الزق، وهو جلد يجز ولا ينتف يستعمل للشراب وغيره.
(٣) النواقيس: جمع الناقوس، وهو مضراب النصارى الذي يضربونه إيذانًا بحلول وقت الصلاة.
(٤) العثّار: الذي يعثر؛ وعثر: زلّ وكبا.
(٥) الغار: مثل البيت المنقور في الجبل.
(٦) امتحق: أي نقص وذهبت بركته.

وسابور هذا هو الذي بنى الإيوان المعروف بإيوان كسرى، وبنى السّوس[١] والكرج[٢] ونيسابور. قال صاحب كتاب تجارب الأمم: وبنى بالسواد مدينة نرجس سابور، وبنى الأنبار[٣]. قال: وبنى مدائن أُخر بالسند وسجستان، ونقل طبيبًا من الهند وأسكنه السوس، فورِث طِبَّه أهلُ السوس. وهلك سابور بعد ٱثنتين وسبعين سنة من ملكه.

ثم ملك بعده أردشير بن هرمز وهو أخو سابور بن هرمز هذا. قال: ولما ملك ظهر منه شرّ كثير وقتل من العظماء وذوي الرياسة خلقًا كثيرًا، فاجتمع الناس على خلعه فخلعوه بعد أن ملك أربع سنين.

ثم ملّكوا عليهم بعده سابور بن سابور. قال: ولما ملك استبشرت الرعية برجوع ملك أبيه إليه، فأحسن السيرة وَرَفق بالرعيّة. وكانت له حروب كثيرة مع إياد بن نزار وغيرها من العرب، وفيه يقول شاعر إياديّ:

على رغم سابور بنِ سابور أصبحت قِبابُ إياد حولها الخيل والنَّعَمْ[٤]

وكان ملكه خمس سنين وأربعة أشهر، وسقط عليه فُسطاط كان ضرب عليه فمات.

وملك بعده أخوه بهرام بن سابور ذي الأكتاف، وهو الملقّب كِرْمان شاه؛ لأن سابور كان ولاّه كِرْمان[٥]. قال: وكان حسن السيرة، جميل السياسة، محمود الأثر، محبَّبًا للرعية. وكان ملكه عشر سنين. وقيل إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا.

وملك بعده ٱبنه يزدجرد بن بهرام المعروف بالأثيم. قال: وكان فظًّا غليظًا، ذا عيوب كثيرة، وكان من أشدّ عيوبه وصنعُه ما آتاه الله من ذكاء ذهن وحسن أدب في غير موضعهما؛ وذلك أنه كان كثير الرَّوِيّة في المضارّ من الأمور، واستعمل الذي

---

(١) يقال: عضد الشجرة عضدًا: أي قطعها بالمعضد.

(٢) الكرج: هي بين جبال القبج من الشمال وأرمينية وأران من الجنوب، وأشهر مدنها تفليس...

(٣) الأنبار: مدينة بالعراق بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ على نهر الفرات قرب مخرج نهر عيسى.

(٤) النعم: المال السائم؛ وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل: جمع أنعام وأناعيم.

(٥) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، فشرقيها مكران ومفازة ما بين مكران والبحر من وراء البلوص، وغربيها أرض فارس، وشماليها مفازة خراسان، وجنوبيها بحر فارس... (معجم البلدان).

أوتيه في الدهاء والحِيَل، واستخف بكل علمٍ كان عند الناس، واَحتقر آدابهم، وتعاظم عليهم واستطال بما عنده. وكان مُعْجَبًا بنفسه سيىء الخلق، حتى بلغ من شدته وحدّته أنه كان يستعظم صغار الزلات، ولا يرضى في عقوبتها إلا بما لا يُستطاع. وكان لا يقدر أحد من بطانته ـ وإن كان لطيف المنزَلة منه ـ أن يشفع عنده لمن اَبْتُليَ به وإن كان ذنب المُبتليَ به يسيرًا، ولم يكن يأتمن أحدًا على شيء اَلبتّة، ولا يكافىء على حسن البلاء. وكان يعتدّ بالخسيس من المعروف إذا أولاه ويستجزل ذلك، فإن جَسَرَ على كلامه أحد في أمر قال له: ما قدر جَعَالتك[1] في هذا الأمر الذي كلمتنا فيه، وما الذي بُذِل لك بسببه؟ وما أشبه ذلك. فلما اشتدت بليّة الناس به، وكثرت إهانته للعظماء، وأكثر من سفك الدماء، واستعمل الضعفاء في الأعمال الشاقة، وحمّلهم ما لا طاقة لهم به، تضرّعوا إلى الله عزّ وجل وسألوه أن يُنقِذهم منه. فزعم الفرس أنه كان ذات يوم مطلعًا من قصره إذ رأى فرسًا عائرًا لم يُرَ مثله قط في الخيل من حسن الصورة وتمام الخلقة حتى وقف على بابه، فتعجب الناس من ذلك، فأمر يزدجرد أن يُسرج ويُلجم ويُدخل عليه به، فحاول السوّاس وأصحاب المراكيب أن يُلجموه أو يُسرجوه فعجِزوا عن ذلك، ولا مكّنهم الفرس من نفسه، فخرج يزدجرد بنفسه إلى الفرس وتقدم إليه وأسرجه وألجمه ولبّبه[2] وهو لم يتحرّك، فلما استدار ورفع ذنبه لِيُثفِرَه[3] رمحه[4] الفَرَسُ على فؤاده رَمْحَةً فهلك منها لساعته، ثم لم يُعاين الفرس بعد ذلك؛ فأكثرت الفُرْس في حديثه فظنّوا الظنون. وكان أحسنهم مذهبًا وأمثلهم طريقة مَنْ قال: إنما استجاب الله عزّ وجل دعاءنا. فكان ملكه إلى أن هلك إحدى عشْرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا. وقيل اثنتين وعشرين سنة غير شهرين.

قال: وكان اَبنه بهرام جور في حِجْرِ النعمان بن المنذر بن ماء السماء أسلمه أبوه إليه ليربِّيَه بالحيرة لصحة هوائها. وقد تقدّم خبره في ذكر بناء الخورنق[5]

(١) الجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة. جمع جعائل.
(٢) لبّبه: أي ضرب لبته؛ واللبة: موضع القلادة من العنق.
(٣) أثفره: أي وضع الثفر تحت ذنبه؛ والثفر: السير الذي يوضع في مؤخر الرحل وتحت ذنب الدابة.
(٤) رمحه: أي رفسه.
(٥) الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة. والسدير: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وآخره راء: هو قصر، وهو معرب وأصله بالفارسية سه دله، أي فيه قباب مداخله مثل الجاري بكمين. . . (معجم البلدان).

والسدير. فعدل الفرس عنه لسوء أثر يزدجرد فيهم وملّكوا عليهم كسرى، وهو رجل من عِترة[١] ساسان، فاستعان بهرام جور بالعرب وأرسل إلى الفُرس وأعلمهم إنكارَه سيرة أبيه، ووعدهم بإصلاح ما فسد، وأنه إن مضى لملكه سنة ولم يَفِ لهم بما بذل تبرّأ من المُلك طائعًا، فمال إليه قوم وبقيت طائفة مع كسرى، فتراضوا أن يوضع تاج الملك بين أسدين مُشْبِلَيْن فمن تناوله فهو الملك. وكان بهرام جور شجاعًا بطلاً، فلما وقف هو وكسرى إلى جانب الأسدين هابهما كسرى، فوثب بهرام جور فإذا هو على ظهر الأسد وعصر جنبيه بفخذيه، فلما تمكّن منه قبض على أذنيه، ولم يزل يضرب رأس الأسد برأس الآخر حتى قتلهما. فكان كسرى أوّل من هتف به وأذعن له.

فملك بهرام جور بن يزدجرد؛ فأحسن السيرةَ، وجلس سبعة أيام متوالية للجند والرعيّة، يَعِدُهم الخير من نفسه ويحضّهم على تقوى الله وطاعته. وكان جلوسه على سرير الملك وهو ابن عشرين سنة، فَغَبر زمانًا وهو يحسن السيرة، ويَعْمُر البلاد، ويدرّ الأرزاق، ثم آثر اللهو على ذلك وكثرت خلواته بأصحاب الملاهي حتى كثُرت عليه الملامة من أرباب دولته، وطَمِع مَنْ حوله من الملوك في استباحة بلاده والغلبة على مُلْكه. وكان أوّلَ من سبق إلى مغالبته ومكاثرته خاقانُ ملك الترك، وغزاه في مائتي ألف وخمسين ألفًا من الأتراك، فبلغ الفُرْسَ إقبالُ الترك في هذه الجموع العظيمة فهالهم ذلك، ودخل على بهرام جور جماعة من عظماء الفرس وأهل الرأي والنجدة وقالوا: أيها الملك، قد أرهقك من بائقة[٢] عدوّك ما يشغَلك عما أنت فيه من اللهو والتلذذ، فتأهّب له لئلا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسبّة وعار. وكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه يجيب القوم بأن يقول: الله ربنا قويّ ونحن أولياؤه. ثم يقبل على ما هو عليه من اللهو والصيد.

قال: ثم أظهر بهرام جور التجهز إلى أذربيجان ليتنسّك في بيت نارها، ويتوجه منها إلى أرمينية ويتصيّدَ في آجامها[٣]، وسار في سبعة رَهْطٍ من عظماء الفرس وأهل البيوتات، وثلاثمائة رجل من رابطته ذوي بأس وشدّة ونجدة، واستخلف أخًا له يقال له نرسي على ملكه، فما شك الناس ـ لما بلغهم ذلك ـ أنه هرب من خاقان، فتآمر الفرس في مراسلة خاقان والانقياد إلى طاعته والإقرار له بالخراج؛ مخافة منه أن

---

(١) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته. (٢) البائقة: الداهية.
(٣) الآجام: جمع الأجمة، وهي الشجر الكثير الملتفّ.

يستبيح بلادهم، فاتصل هذا الخبر بخاقان فاطمأنّ وترك التحفظ والاستعداد وآثر المسالمة. وتعرّف بهرام خبرَ خاقان وحال جنده وما هم عليه من الطمأنينة والفتور وعدم الاستعداد، فسار بمن معه وبيَّت[١] خاقان وقتله بيده. فلما علم الأتراك أن ملكهم خاقان قد قتل انهزموا لا يَلْوُون على شيء وخلّفوا أثقالهم وأموالهم. فأكثر بهرام فيهم القتل وأمعن في طلبهم، وحاز غنائم لم يسمع بمثلها، وسبى من ذرّيتهم كثيرًا. وكان مما غَنِمه تاجُ خاقان وإكليلُه، وغلب على بلاد الترك وانصرف بالظفر والغنائم، وكتب إلى أهل مملكته يعلمهم بما حصل له من الظفر بخاقان وجموعه بمن كان معه من أولئك القوم الذين استصحبهم معه.

وكان بهرام يتكلّم بلغات كثيرة، منها اللغة العربية. ومما حُفِظَ من شعره يوم ظَفَره بخاقان: [من الكامل]

أقول لهُ لمّا فَضَضْتُ جموعَهُ ... كأنك لم تسمع بصولات بهرام[٢]
وأنّيَ حامي مُلْكَ فارسَ كلِّها ... وما خير مُلْكٍ لا يكون له حامي

ومن شعره أيضًا: [من الوافر]

لقد علم الأنامُ بكلّ أرضٍ ... بأنّهمُ قد أضحَوْا لي عبيدا
ملكتُ ملوكَهم وقهرتُ منهم ... عزيزَهم المُسوّدَ والمَسُودا
فتلك أسودهم تبغي حِذَاري ... وترهب من مخافتِيَ الوُرودا
وكنتُ إذا تشاوس مَلْكُ أرضٍ ... عَبَأْتُ له الكتائبَ والجنودا[٣]
فيعطيني المقادةَ أو أوافي ... به يشكو السلاسلَ والقيودا

قال: ولما قُتِل خاقان بعث بهرام جور أحدَ قوّاده إلى ما وراء النهر فغزاهم وأقرّوا لبهرام بالعبودية وأداء الجزية. قال: وأسقط بهرام جور عن رعيته إثر هذا الظفَرِ خراج ثلاث سنين، وترك ما كان قد بقي من الخراج ولم يُستخرج من قسط تلك السنة، وكان سبعين ألف ألف درهم، وقسم في الفقراء مالاً عظيمًا وفي أهل البيوتات والأحساب عشرين ألف ألف درهم؛ ونَحَل[٤] بيت النار بأذربيجان جميعَ ما غنمه من الترك من اليواقيت والجواهر والتاج والإكليل. ويقال إن بهرام دخل إلى أرض الهند متنكرًا فمكث حينًا لا يُعرف حتى بلغه أن فيلًا قد هاج وقطع السُّبُل وأهلك الناس،

---

(١) يقال: بيّت القوم: أي أوقع بهم ليلًا بغتة. (٢) فضضت جموعه: أي فرقتهم.
(٣) تشاوس إليه: نظر إليه بمؤخر العين تكبرًا. (٤) نحل: تبرع.

فسألهم أن يَدُلُوه عليه، فرُفِع أمره إلى الملك فأرسل معه رسولاً، فلما انتهى إليه أوفى[١] الرسول على شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل، فصرخ بالفيل فخرج إليه، فجعل يرميه ويثبّت النُشّاب[٢] بين عينيه، ثم دنا وأخذ بمِشْفره[٣] وجذبه جذبة خرّ منها الفيل، ثم احتز رأسه وأقبل به إلى الملك فحباه وأحسن إليه.

ثم إن ملكًا من أعداء ذلك الملك أقبل لغزوه فَجَزِع ذلك الملك من كثرة جنود الملك الذي أتى نحوه، فقال له بهرام: لا يهولنّك أيها الملك أمره؛ فركب بهرام وقال لأساورة الهند: احموا ظهري، وانظروا إلى عملي، وكانوا لا يُحسِنون الرمي، وأكثرهم رَجّالة، فحمل عليهم حملة هدّهم بها، ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه نصفين، ويأتي الفيل فيضرب مِشفره ويكُبّه[٤] ويأخذ مَنْ عليه فيقتله، ويأخذ الفارس فيذبحه على قَرَبوس[٥] سرجه، ويتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالآخر فيموتان جميعًا، ويرمي فلا تقع له نُشابة إلا في رَجُلٍ، فولَّوْا أمامه منهزمين، وحمل الذين كانوا يحرُسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم، فزوّجه ملك الهند بنته ونَحَلَه الدَّيبُل[٦] ومُكران[٧] وما يليهما من أرض السند وأشهد له بذلك، وانصرف بهرام جور إلى مملكته وضمّ ذلك إلى بلاده وحمل خراجها إليه، ثم أغزى بهرام جور أخاه نرسِي إلى بلاد الروم في أربعين ألفًا فدخل القسطنطينية وهادن ملك الروم على إتاوة يحملها إلى أخيه. ثم مضى بهرام جور إلى أرض السودان على طريق اليمن فأوقع بهم وعاد إلى مملكته وهلك بعد ذلك في ماءٍ. وذلك أنه توجه إلى الصيد فشدّ على عَيْر وأمعن في طلبه، فارتطم في ماء في سبخة[٨] فغرق فيه، فسارت أمه إلى ذلك الموضع بمال عظيم ونزلت بالقرب منه، أمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه، فنقلوا طينًا عظيمًا وحمأة كثيرة حتى صار من ذلك آكامًا عظامًا ولم يقدروا على استنقاذ جثته. وكان ملكه ثلاثًا وعشرين سنة.

---

(١) أوفى: أشرف عليها.
(٢) النشاب: النبل، واحدته نشابة.
(٣) المشفر: شفة البعير الغليظة.
(٤) كبّه: أي ألقاه وصرعه.
(٥) القربوس: حنو السرج، وهما قربوسان؛ جمع: قرابيس.
(٦) الديبل: بلد صغير شديد الحرّ على شط ماء السند، وهي من أكبر فرضة وأشهرها، وبها سمسم كثير، ويجلب إليها التمر من البصرة، ويجلب منها المتاع الديلبي.
(٧) مكران: بلدة من بلاد كرمان؛ وهي ناحية واسعة عريضة، والغالب عليها المفاوز والقحط..
(٨) السبخ: المكان يظهر فيه الملح وتسوح فيه الأقدام؛ والسنجة: ما يعلو الماء من طحلب ونحوه، جمع: سباخ.

وحُكي عنه في صغره ما يدلّ على نباهته، وجَوْدة فكرته وجميل رأيه. فمن ذلك أنه قال للنعمان بن المنذر لما بلغ عمره خمسَ سنين: أحضر لي مؤدّبين ليعلّموني الكتابة والفقه والرمي والفروسية. فقال له المنذر: إنك بعدُ صغير السنّ، ولم يَأْنِ لك ذلك بعدُ. فقال له بهرام: أَمَا تعلم أيها الرجل أني من ولد الملوك، وأن المُلك صائر إليّ، وأولى ما كُلِّف به الملوك وطلبوه صالحُ العلم؛ لأنه زَيْنٌ لهم وركن، وبه يُعرفون. أما تعلم أن كل ما يُتقدّم في طلبه، ينالُ في وقته، وما لم يُتقدّم فيه ويُطلب في وقته، يُنال في غير وقته، وما يُفرّط فيه وفي طلبه يفوت ولا يُنال؟ عجِّل عليّ بما سألتك. فبعث المنذر من ساعته إلى باب الملك من أتاه برهط من المعلمين الفقهاء والرماة، وجمع له حكماء الروم وفارس وغيرهم، وألزمهم إياه، ووقّت أوقاتًا لكل منهم؛ فتعلّم بهرام من كل عِلْم أحسنه، وسمع الحكمة ووعى ما سمع منها، وثقُف كلَّ ما علم بأيسر شيء، وبلغ أربعَ عشرة سنة، وقد فاق معلّميه، وحفظ للنعمان حقّ التربية، فملّكه على العرب لمّا صار الملك إليه.

ولما هلك بهرام جور ملك بعده ٱبنه يزدجرد بن بهرام جور؛ فسار بسيرة أبيه؛ ولم يزل قامعًا لعدوّه، كثير الرفق برعيته. وكان له ٱبنان أحدهما يسمَّى هرمز، والآخر فيروز. ودام ملك يزدجرد تسعَ عشْرة سنة، وقيل ثماني عشْرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يومًا ثم هلك.

فتغلّب على الملك بعده ابنه هرمز بن يزدجرد. ولما ملك هرمز هرب منه فيروز ولحق ببلاد الهياطلة[1]، وأخبر ملكها بقصته وقصة أخيه هرمز، وذكر أنه أحقُّ منه بالملك، وسأله أن يمدّه بجيش يقاتل به أخاه، فأبى عليه ملك الهياطلة وقال: سأعلم خبره ثم آمرك بعد ذلك بما تفعل. وكشف ملك الهياطلة عن خبر هرمز وتعرّف أحواله فبلغه أنه غَشوم ظَلوم؛ فقال عند ذلك: إن الجور لا يرضاه الله تعالى، ولا يصلح عليه الملك، ولا تقوم به سياسته؛ وأمدّ فيروز بالعساكر ودفع له الطالقان[2]؛ فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان[3] وطوائف خراسان، فظفر بأخيه فحبسه.

(١) الهياطلة: الصغد، وهم بين بخارى وسمرقند.

(٢) الطالقان: بلدة بخراسان بين مرو والروز وبلخ، بينها وبين مرو والروز ثلاث مراحل، وهي أكبر مدينة بطخارستان.

(٣) طخارستان: هي ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، وهي طخارستان العليا والسفلى، فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون، وأما السفلى فهي أيضًا غربي جيحون إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا.. (معجم البلدان لياقوت).

وملك فيروز بن يزدجرد. ولما ملك أظهر العدل وحسن السيرة، وكان يتديّن إلا أنه كان مشؤومًا على رعيته، فقحِطَ الناسُ في زمانه سبع سنين، فأحسن فيها إلى الناس، وقسم ما في بيوت الأموال. ويقال: إن الأنهار غارت في مدّة القحط، وكذلك القُنى والعيون، وقحِلت الأشجار والغياض، وهلكت الوحوش والطير، وجاعت الدوابّ حتى كادت لا تطيق الحُمولة، وعمّ أهلَ البلاد الجهدُ والمجاعةُ، فبلَغ من حسن سياسة فيروز لهذا الأمر أن كتب إلى جميع الرعية: أنه لا خراج عليكم ولا جزية ولا سخرة، وأنه قد ملّكهم أنفسهم، وأمرهم بالسعي فيما يَقُوتهم ويُصلحهم، وكتب بإخراج ما في المطامير(١) من الأطعمة وقسمها في الناس، وترك الاستئثار عنهم وتساوَى بهم، وأخبر أهل الغنى والشرف، بكل مدينة وقرية، أنه إن بلغه أن إنسانًا مات جوعًا عاقب أهل تلك المدينة أو الجهة التي يموت بها، ويُنَكِّل بهم أشدّ النكال. فقيل إنه لم يَهْلِك في هذا القحط والمجاعة من رعيته إلا رجل واحد من رُستاق(٢).

قال: ثم أغاثه الله فأمطرت السماء، وجرت الأنهار ونبعت العيون، وصَلُحت الأشجار، وسمِنت المواشي؛ فاستوثق له الملك، وأخذ في غزو أعدائه وقهرهم. وبنى مدنًا إحداها بين جرجان وباب صول وأخرى بناحية آذربيجان(٣). ثم سار بجنوده نحو خراسان لقصد حرب أخشنوار ملك الهياطلة لأشياءَ كانت في نفسه، ولأن الهياطلة كانوا يأتون الذُّكران ويركبون الفواحش فسار إليهم؛ فلما بلغ أخشنوار ملكُ الهياطلة خبره خافه واْشتدّ رعبه منه، وعلم أنه لا طاقة له به، وأن جيشه يضعف عن مقابلة الجيوش التي أقبل بها فيروز فحار في أمره؛ فتقدّم إليه رجل كبير السنّ من أهل بلاده وقال: أنا أفدي الملك وأهل مملكته بنفسي، فليأمر الملك بقطع يديّ ورجليّ ويؤثر في جسدي آثار العقوبة بضرب السياط، ويُلْقِني في الطريق التي يمرّ فيروز بها، ويُحسِن إلى ولدي وعيالي الذين أخلفهم؛ ففعل به ذلك وأمر بإلقائه في الطريق. فلما مرّ به فيروز أنكر حاله، فأخبره أن أخشنوار فعل به ذلك؛ لأنه أشار عليه بالانقياد إلى

(١) المطامير: واحدتها المطمورة، وهي مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البرّ والفول ونحوه.

(٢) رستاق: مدينة بفارس من ناحية كرمان.

(٣) أذربيجان: لفظ فارسي معناه: بيت النار، أو خازن النار، وحدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أوزنجان مغربًا؛ ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل والطرّم، وهو إقليم واسع؛ ومن أشهر مدنها تبريز، وهي قصبتها وأكبر مدنها... (معجم البلدان).

طاعة فيروز والإقرار بعبوديته، وأن يحمل إليه من الأموال والتحف ما يُرضيه؛ فرقّ له الملك فيروز ورَحِمَه وأمر بحمله معه، فنهاه أكابر قومه عن تقريبه فلم يرجع إليهم، ثم قال له ذلك الأقطع كالمتنصِّح[١] له: أنا أدُلّ الملك على طريق مختصر تدخل منه في مفازة إلى بلاد أخشنوار، فتصادف غِرّته؛ وسأله أن يشتفيَ له منه. فاغترّ فيروز بذلك؛ وأخذ الأقطعُ بفيروز ومن معه وعدل بهم عن الطريق الجادّة وشرع يقطع بهم مفازة بعد مفازة. فلما شَكَوْا العطشَ منّاهم بقرب الماء وقطع المفازة. ولم يزل يتقدّم بهم حتى بلغ بهم موضعًا علم أنهم لا يقدرون فيه على التقدّم ولا الرجوع، فتبين لهم أمره، فعندها سُقِطَ في أيدي القوم وقالوا لفيروز: ألم نَنْهَك عن هذا الرجل فلم تنته؟ فهلك أكثر أصحابه من العطش، ومضى على وجهه بمن نجا معه؛ فوافى[٢] أخشنوار وقومَه؛ وهو ومن نجا معه على أسوإ حال، وقد أجهدهم العطش، فدعَوْا أخشنوار إلى الصلح على أن يُخلِيَ سبيلهم وينصرفوا إلى بلادهم، وعاهدوه على ألا يغزوَهم أبدًا، فرضي أخشنوار بذلك وحصل اتفاقهما على أن يجعلا بينهما حدًّا لا يتجاوزه واحدٌ منهما، ووُضِعَ عند الحدّ حجر، وحلّفه أخشنوار أنه لا يتجاوز ذلك الحجر، فحلف له وأخذ عليه العهود والمواثيق وأطلقه أخشنوار، فعاد فيروز إلى بلاده.

فلما سار إلى مملكته داخلته الحمِيّة وحملته الأنفة على محاربة أخشنوار والغدر به، فنهاه أهل مملكته عن ذلك وقبّحوا عليه نقضَ العهود والمواثيق، فلم يرجع إلى أقوالهم وأبى إلا غزوَه. وسار بجيوشه حتى أتى الحدَّ الذي بينهما والحجر الذي حلف أنه لا يتجاوزه إلى بلاد الهياطلة، فأمر فيروز بالحجر أن يصمُدِ[٣] فيه خمسون فيلاً وثلاثمائة رجل، فجره أمامه وأمر العسكر ألا يتجاوز ذلك الحجرَ ولا يتقدّم الفيلةَ، وزعم أنه يكون قد وفى بيمينه ولم يتجاوز ما عاهد عليه. فلما بلغ أخشنوار ذلك أرسل إليه يقول: إن الله عزّ وجل لا يُخادَع ولا يُماكَر، ونهاه عن الغدر وقبّحه عليه، وهو لا يكترث بقوله، وأحجم أخشنوار عن محاربة فيروز وكرهها، ثم أعمل الفكرة وأخذ يفكر في وجوه[٤] المكايد والمكر والخداع، فحفر حول عسكره خندقًا عَرضه عشرة أذرع، وعمقه عشرون ذراعًا، وغطاه بخشب ضعيف وألقى عليه التراب، ثم ارتحل بمن معه ومضى غير بعيد، فبلغ فيروز رحيل أخشنوار بجنده من معسكره،

---

(١) المتنصح: الذي يتشبه بالنصحاء.

(٢) وافى فلانًا: فاجأه؛ ووافى القوم: أتاهم؛ ووافى الموت: أدركه.

(٣) يصمد فيه: أي يثبت فيه.

(٤) الوجوه: جمع وجه، وهو الأول والأفضل.

فما شك أنه انهزم منه، فركب في طلبه وأغذّ(١) السير بجنوده ـ وكان مسلكهم على الخندق ـ فلما مروا عليه تردّى فيروز وعامة جنوده فيه فهلكوا عن آخرهم وعطف عليهم أخشنوار واحتوى على كل شيء كان في معسكر فيروز، وأسر مُوبَذَانَ مُوبَذَ وجماعةً من نساء فيروز منهنّ دخت ابنة فيروز، فكان هذا عاقبة مكره. وكان ملكه سبعًا وعشرين سنة.

ولما هلك تنازع الملك بعده أبناه قباذ وبلاش؛ فملك بلاش بن فيروز بن يزدجرد. وكان حسن السيرة حريصًا على العمارة؛ وبلغ من حسن نظره أنه كان لا يبلغه أن بيتًا خَرِب وجلا عنه أهله إلا عاقب صاحب القرية التي فيها ذلك البيت على تركهم إنعاشَ أهله وسدَّ فاقتهم(٢) حتى لا يُضطرون إلى الجلاء عن أوطانهم. ثم هلك بعد أربع سنين.

وملك بعده أخوه قُباذ بن فيروز. قال: وكان قباذ لما ملك أخوه بلاش سار إلى خاقان(٣) يستنصره على أخيه ويذكر أنه أحقّ منه بالملك؛ فمَطَلَه بذلك أربع سنين ثم جهزه بجيش، فلما عاد وبلغ نيسابور بلغه وفاة أخيه بلاش. وكان قباذ في مسيره إلى خاقان مرّ على نيسابور متنكرًا وتزوّج بها بابنة رجل من الأساورة وواقعها، فحملت منه بأنو شِرْوان وتركها بنيسابور، فلما عاد في هذا الوقت سأل عن الجارية فأُتِيَ بها وابنه منها أنو شروان، فتبرّك بهما وفرح بابنه، ثم عاد إلى بلاد فارس وبنى مدينة أرّجان(٤) وحُلوان وعدّة مدن أخر.

قال: وكان لقباذ خال يقال له سوخرا وقيل فيه: ساخورا، وكان يخلُف فيروز والد قباذ على مدينة الملك بالمدائن، فجمع جموعًا كثيرة من الفرس وقصد أخشنوار ملكَ الهياطلة وحاربه وانتقم منه واستنقذ جميع من كان أسره من الفرس ومن سباه من نساء فيروز، وأكثر ما كان قد احتوى عليه أخشنوار من خزائن فيروز؛ فعظُمَ قدره عند الفرس، وحَسُنَ فيهم أثره، وكبُرت منزلته عند بلاش وقباذ إلى أن لم يبق بينه وبين الملك إلا مرتبةٌ واحدة، وتولى سياسة الأمر بحُنْكة وتجربة؛ ومال إليه الناس

---

(١) أغذّ السير: أسرع. (٢) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٣) خاقان: لقب ملك الترك.

(٤) أرجان: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثير وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسيح، بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخًا، وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخًا. قيل: إن أول من أنشأها قباذ بن فيروز والد أنو شروان العادل. . . (معجم البلدان).

وأطاعوه، واَستخفوا بقباذ ولم يعبأوا بأمره، وهان عندهم فما حملت نفسه هذه الإهانةَ والذُّلَّ، فأخذ في التدبير على ساخورا وكتب إلى سابور الرازي، وهو الذي يقال له اللبيب، وهو أصبهبذُ البلاد، في القدوم عليه بمن قِبَله من الجند، فقدم بهم سابور فخاطبه قباذ في أمر خاله، فوافقه سابور عليه، فأمره قباذ بالتلطف في هذا الأمر وكتمانه، وإعمال الحيلة وحسن التدبير فيه، فغدا سابور على قباذ فوجد خاله ساخورا عنده، فتقدّم سابور إليه وهو آمن، فألقى وهَقا[١] في عنقه واَجتذبه وأوثقه بالحديد ثم أودعه السجن، وقتله قباذ وخافته الفرس بعده.

وفي أيام قباذ ظهر مَزدق ـ ويقال فيه: مَزْدَك، وتفسيره: حديد الملك؛ وإليه تضاف المزدقية، ويقال لهم العدلية ـ وقال: إن الله تعالى إنما جعل الأرزاق في الأرض مبسوطة ليقسِّمها عبادُه بينهم بالسوية، ولكن الناس يظلِمون؛ واستأثر بعضهم على بعض، فانضم إليه جماعة وقالوا: نحن نقسِم بين الناس بالسويّة ونردّ على الفقراء حقوقهم من الأغنياء، ومَنْ عنده فضلٌ من المال والقوت والنساء والمتاع وغيرِ ذلك فليس هو له ولا أولى به من غيره؛ فافترص[٢] السِّفْلة ذلك واغتنموه واَتبعوا مَزْدَكَ وأصحابه، فقوِيَ أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلِبونه على ما فيها من ماله ونسائه ولا يستطيع أن يردّهم عنه ولا يدافعهم. ورأى الملك قباذُ رأي مزدك وأصحابه وتابعهم فازداد قوة، فلم يلبث الناس إلا قليلاً حتى صار الأب لا يعرف ولده، ولا الولد يعرف والده، ولا يملِك أحد شيئًا، وصيّرت العدليةُ قباذَ في مكان لا يصل إليه غيرُهم. فاجتمعت الفرس على خلع قباذ من الملك ففعلوا ذلك.

وملّكوا عليهم عند ذلك جاماسف بن فيروز. وهو أخو قباذ. وقيل: إن المزدكية هم الذين أجلسوه. قال: ولما ملك جاماسف قبض على أخيه قباذ وحبسه فاحتالت أخت قباذ في خلاصه. وذلك أنها أتت إلى الحبس الذي هو فيه وحاولت الدخول إلى أخيها، فمنعها الموكَّلُ به من الدخول إليه، وطمِع أنه يَفضحها، وأعلمها أنه لا يمكّنها من العبور إليه إلا إن وافقته على قصده، فأطمعته في نفسها وقالت: إني لا أخالفك في شيء مما تهواه مني، فمكّنها من الدخول إلى السجن والاجتماع بأخيها قِباذ، فدخلت إليه وأقامت عنده أيامًا، ثم لفته في بساط أمرت بعض الغلمان أن يحمله فحمله على عاتقه[٣]، فلما مر الغلام بالموكَّل بالحبس سأله عن حمله

---

(١) الوهق: الحبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ.

(٢) افترص: اغتنمها فرصة. (٣) العاتق: ما بين المنكب والعنق.

فاضطرب الغلام فلحقته وقالت: إنه فِراشٌ كنت أفرِشه تحتي وَعَركْت[١] فيه؛ وأنها خرجت لتتطهرَ وتعودَ، فصدّقها ولم يَمَسّ البساط ولم يَدْنُ منه استقذارًا له على مذهبهم في ذلك، فمضى الغلام به وخرجت أخته في أثَرِه، وهرب قباذ فلحق بأرض الهياطلة يستمد ملكها ليمده بجيش يحارب من خالفه، ويقال: إن زواجه بأمّ كسرى أنو شروان كان في هذه السفرة لا في تلك، وأنه تزوّجها بأَبْرَشَهرْ[٢]، وهي ابنة رجل من عظمائها، وأنه رجع به وبأمه عند عوده من بلاد الهياطلة. قال: وسار قباذ إلى ملك الهياطلة فأقام عنده عدّة سنين، ثم عاد إلى بلاده بأمداده، فغلب على أخيه ونزعه من الملك بعد أن ملك ستَّ سنين.

ثم عاد قباذ إلى الملك ثانيًا، ولما عاد إلى الملك وجد ٱبن ساخورا قد وثب في جماعة من أصحابه على مَزْدَكَ فقتله، فسُعِيَ به إلى قباذ فقتله بمزدك. قال: ثم غزا الروم وافتتح آمد[٣]، ثم أدبر ملكه لسوء عقيدته. وهلك قباذ إثر ذلك.

وكان سبب هلاكه أن الحارث بن عمرو الكنديّ قتل النعمان بن المنذر بن ٱمرىء القيس، ومَلَك العربَ وما كان ملَكه النعمان، فبعث قباذ بن فيروز إلى الحارث بن عمرو يقول: إنه كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عَهْدٌ، وإني أحبّ لقاءك؛ وخرج للقائه في عَدَد وعُدّة، وجاءه الحارث والتقيا بمكان، فأمر قباذ بطبق من تمر فنُزِع نواه وبطبق آخر على حالته، فوُضِعا بين أيديهما، وجُعل المنزوع بين يدي قباذ، والذي هو بنواه بين يدي الحارث، فجعل الحارث يأكل التمر ويُلقي النوى، وقباذ يأكل التمر ولا يحتاج إلى إلقاء شيء. فقال للحارث: ما لك لا تأكل كما آكل؟ فقال الحارث: إنما يأكل النوى إبِلُنا وغنمنا، وعلم أن قباذ يهزأ به. ثم ٱفترقا على الصلح على ألا يجاوز الحارث وأصحابه الفرات، إلا أن الحارث استضعف قباذ وطمع فيه، فأمر أصحابه أن يعبروا الفرات ويُغيروا على قرى السواد ففعلوا ذلك، فجاء الصريخ إلى قباذ وهو بالمدائن، فكتب إلى الحارث بن عمرو أن لصوصًا من العرب قد أغاروا على السواد، وأنه يحب لقاءه فلقيه، فقال قباذ كالعاتب له: قد صنعتَ صنيعًا ما صنعه أحد قبلك، فطمِع الحارث فيه من لين كلامه وقال: ما علمتُ بذلك ولا شعرتُ به، وإني لا أستطيع ضبط لصوص العرب، وما كل العرب

---

(١) عركت المرأة: أي حاضت. (٢) أبرشهر: هي نيسابور؛ وقد تقدم تفسيرها.

(٣) آمد: هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا: وآمد بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشر دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين، يتناول ماؤها باليد، وفيها بساتين يحيط بها السور. . . (معجم البلدان لياقوت).

تحت طاعتي، ولا أتمكن منهم إلا بالمال والجنود. فقال له قباذ: فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تعطيَني من السواد ما أتخذ به سلاحًا، فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات؛ وهو ستة طساسيج[١]؛ فعند ذلك زاد طمع العرب فيه، وأرسل الحارث بن عمرو إلى تُبَّع وهو باليمن: إني قد طمِعت في ملك الأعاجم، وقد أخذت منه ست طساسيج، فأجمع الجنود وأقبل فإنه ليس دون ملكهم شيء؛ لأن الملك عليهم لا يأكل اللحم ولا يستحل هراقة الدماء، وله دين يمنعه من ضبط الملك؛ فبادر إليه بجندِك وعدّتك، وأطمعَه في الفرس. فجمع تُبّع جنوده وسار حتى نزل الحيرة[٢]، وقرب من الفرات، فآذاه البقّ، فأمر الحارث بن عمرو أن يُشق له نهر الحيرة فنزل عليه، ووجه ٱبن أخته شَمِرًا ذا الجناح إلى قُباذ فقاتله فهزمه شمر حتى لحق بالريّ، ثم أدركه بها فقتله.

وملك بعده ٱبنه كسرى أنو شروان بن قباذ بن فيروز. ولما ملك استقبل الأمر بجِدّ وسياسة وحزم. وكان جيّد الرأي، كثير النظر، صائب التدبير، طويل الفكر؛ فجدّد سيرة أردشير وعمِل بها، ونظر في عهده وأخذ نفسه به، وأدّب رعيته وبطانته، وبحث عن سياسات الأمم فاستصلح لنفسه منها ما رضيه، ونظر في تدابير أسلافه المستحسنة فاقتدى بها. وكان أوّل ما بدأ به أن أبطل مِلّة زرادشت الثاني الذي كان من أهل فَسَا[٣]، وأبطل ملة المزدكية وقتل على ذلك خلقًا كثير، وسفك من الدماء بسبب إبطال هذين المذهبين ما لا يحصى كثرةً، وقتل قومًا من المانَوِيَّة، وثبّت ملة المجوسية القديمة، وكتب في ذلك كتبًا بليغة إلى أصحاب الولايات والأصبهبذين[٤]، وقوّى مُلك الفرس بعد ضعفه بإدامة النظر وهَجْرِ الملاذّ وترك اللهو، وقوّى جنوده بالأسلحة والأمتعة والكُراع، وعمّر البلاد وحفظ الأموال وثمّرها، وسدّ الثغور وٱستعاد كثيرًا من الأطراف التي غلب عليها الأمم.

---

(١) الطساسيج: جمع الطسوج، وهو حبتان من الدوانيق. والدانق: أربعة طساسيج.

(٢) الحيرة: بالكسر ثم السكون وراء: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف زعموا أن بحر فارس كان يتصل به، وبالحيرة الخورنق يقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية. . . (معجم البلدان).

(٣) فسا: بالفتح والقصر، كلمة عجمية: هي مدينة بفارس أنزه مدينة بها فيما قيل، بينها وبين شيراز أربع مراحل، وهي في الإقليم الرابع؛ قيل: هي مدينة مفترشة البناء واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز. . . (معجم البلدان).

(٤) الأصبهبذ: تقدم تفسيرها.

قال: وأما تدبيره في أمر المزدكية وإبطال ما فعلوه فإنه ضرب أعناق رؤسائهم، وقسّم أموالهم في أهل الحاجة، وقتل جماعة كثيرة ممن عَرَف من الذين كانوا يدخلون على الناس في بيوتهم، ويشاركونهم في أموالهم وأهاليهم، وردّ الأموال إلى أربابها. وأمر بكلّ مولود ٱختُلِف فيه أن يُلحق بمن هو في سيمائه، وأمر بكل ٱمرأة غُلِب عليها أن يؤخذ الغالب عليها حتى يَغرَم لها مهر مثلها، ثم تُخير المرأة بين الإقامة عنده وبين تزويج غيره؛ إلا أن يكون لها زوج أوّل فتردُّ إليه. وأمر بكل من أضرّ برجل في ماله أو ظلمه أن يؤخذ منه الحق؛ ويعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه. وأمر بعيال ذوي الأحساب الذين مات قيّمهم(١) فكُتِبوا له فأنكح بناتِهم للأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال، وأنكح بنيهم من بيوتات الأشراف وأغنيائهم. وأمرهم بملازمة بابه ليستعين بهم في أعماله، وخيّر نساء والده أن يقمن مع نسائه فيواسَيْن ويصيّرن في الأحرار، ويبتغي لهنّ الأكفاء من البعول، ثم أمر بكرْي(٢) الأنهار وحفر القُنَى. وأمر بإعادة كل جسر قطع، أو قنطرة خَرِبت أن تردّ إلى أحسن ما كانت عليه، وتخيّر الحكام والعمال وأمرهم أن يسيروا بسيرة أردشير ووصاياه.

فلما ٱنتظمت له هذه الأمور وٱستوثق له الملك ووَثِق بجنده سار نحو أنطاكية(٣) فافتتحها، وأمر أن تصوّر له المدينة على هيئتها وذَرْعها وطرقها وعدّة منازلها، وأن تُبنى له مدينة على صفتها إلى جانب المدائن، فبنيت المدينة المعروفة بالرومية، ثم نقل أهل أنطاكية إليها. فلما دخلوا باب المدينة مضى كل أهل بيت إلى ما يشبه منازلهم التي كانوا فيها بأنطاكية. وفتح مدينة هرقل ثم الإسكندرية، ثم أخذ نحو الخزَر، ثم إلى الهياطلة فقتل ملكهم بفيروز، وصاهر خاقانَ ملك الترك، وتجاوز بلخ وأنزل جنوده فَرْغانة(٤)، وبنى بابَ الأبواب. وقد ذكرناه في المباني القديمة.

(١) قيمهم: أي سيدهم.

(٢) يقال: كرى النهر: أي حفر فيه حفرة جديدة.

(٣) أنطاكية: بالفتح ثم السكون، والياء مخففة: بلد عظيم ذو سور وفصيل ولسوره ثلاثمائة وستون برجًا يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس، ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة، ويستبدل بهم في السنة الثانية، وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق...

ولما بنى هذا السورَ هابته الملوك وراسلته وهادنته؛ فورد عليه رسول ملك الروم بهدايا فنظر إلى إيوانه فرأى في ميزانه اعوجاجًا، فقال: ما هذا الاعوجاج؟ فقيل له: إن عجوزًا لها منزل في جانب هذا الاعوجاج فأرادها الملك على بيعه وأرغبها في الثمن فأبت، فلم يُكْرِهْها وبقي الاعوجاج على ما ترى. فقال الروميُّ: هذا الاعوجاج أحسن من هذا الاستواء. وكتب إليه ملك الصين: من نقفور ملك الصين، صاحِب قصر الدرّ والجوهر، الذي يخرج من قصره نهران يسقيان العود[١] والكافور، والذي توجد رائحته على فرسخين، والذي يخدِمُه بنات ألف ملك، والذي في مَرْبِطه ألف فيل أبيض، إلى أخيه كسرى أنوشروان. وأهدى إليه هدايا عظيمة. وكتب إليه ملك الهند: من ملك الهند وعظيم ملوك الشرق، وصاحب قصر الذهب، وأبواب الياقوت والدرّ، إلى أخيه كسرى أنوشروان ملكِ فارس، صاحبِ التاج والراية. وأهدى إليه هدايا؛ منها ألف مَنٍّ[٢] من العود يذوب على النار كالشمْع، ويختم عليه كما يختم على الشمع. وجامٌ[٣] من الياقوت الأحمر فتحته شبر مملوء درًّا، وعشرة أمنانِ كافور كالفستق، وجاريةٌ طولها سبعة أذرع تضرِب أشفارُ عينيها خدّيها، وكأن بين أجفانها لمعان البرق مع إتقان شكلها، مقرونةُ الحاجبين، لها ضفائر تجرها؛ وفراشٌ من جلود الحيّات ألين من الحرير وأحسن من الوَشْي. وكان كتابه في لِحَا الشجر المعروف بالكاذي[٤] مكتوبًا بالذهب. وكتب إليه ملك التُّبَّتِ[٥]: من ملك التبت ومشارقِ الأرض المتاخمة للصين والهند، إلى أخيه كسرى المحمودِ السيرة والقدر، ملكِ المملكة المتوسطة في الأقاليم السبعة، أنوشروان. وأهدى إليه أنواعًا مما عُمِلَ من عجائب أرض تبت، منها مائةُ جوشن[٦] ومائة ترس تُبَّتِيَّةٍ مذهبة، وأربعة آلاف مَنٍّ من المسك من نوافِجَ[٧] غزلانية. واستغاث به ابن ذي يَزَنٍ يستصرخه على الحبشة فبعث معه قائدًا من قوّاده. وسنورد ذلك إن شاء الله في خبر سيف بن ذي يزن.

(١) العود: ضرب من الطيب يتبخّر به.
(٢) المنّ: لغة من المنا الذي يوزن به، وهو رطلان.
(٣) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها. وقد غلب استعمالها في قدح الشراب.
(٤) الكاذي: نوع من النبات عجيب، قشره أرق من الورق الصيني تتكاتب فيه ملوك الصين والهند، وهذا الشجر ينبت في أرض الصين والهند.
(٥) التُّبَّت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك... (معجم البلدان).
(٦) الجوش: الدرع؛ أو الصدر.
(٧) النوافج: جمع النافجة، وهو وعاء المسك في جسم الظبي.

ولما استتبَّ له الأمر ووظّف الوظائفَ على الترك والخزر والهند والروم وغيرهم، نظر في الخراج وأبواب المال. وكانت رسوم الناس جارية على الثلث من البقاع، ومن بعضها الربع والخمس والسدس على حسب العمارة. وكان قباذ أبوه قد مسح[١] الأرض وهَلَك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة؛ فجمع أنوشروان أهل الرأي فاتفقوا على أن جعلوا على كل جَرِيب[٢] من الحنطة والشعير درهمًا، وعلى الجريب من الكرم ثمانية دراهم، وعلى الرِّطَاب[٣] تسعة دراهم، وعلى كل أربع نَخَلات فارسية درهمًا، وعلى كل ستّ نَخَلاتِ دَقَلٍ[٤] مثل ذلك، وعلى كل ستة أصول زيتون مثل ذلك، ولم يضعوا إلا على نخل في صديقة، أو مجتمِع غير شاذّ، وتركوا فيما سوى ذلك من الغلاّت السبع، وألزموا النّاس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتِلَة والهرابذة والكتّاب، ومن كان في خدمة الملك، وصيروها على طبقات: اثني عشر درهمًا، وثمانية دراهم، وستة دراهم، وأربعة دراهم، على قدر إكثار الرجل وإقلاله، ولم يُلزِموا الجزيةَ من كان أتى له من السنين دون العشرين أو فوق الخمسين، ورفعوا هذه الوضائعَ إلى كسرى فرضيَها وأمر بإمضائها وجباية مبلغها في ثلاثة أنجم[٥] في كل سنة، وسماها أبراسيار. ومعنى ذلك الأمر المُتراضَى به.

وكان أنو شروان ـ لما أراد أن يضع هذه الوضائع ـ أمر بإتمام المساحة التي بدأ بها قباذ، وأحصى النخل والزيتون وغير ذلك، والجماجم[٦]؛ ثم أمر الكتاب فأخرجوا جُمَلَ ذلك غير تفصيله، وأذِنَ للناس إذنًا عامًا، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليهم الجمل المستخرجة من أصناف الغلاّت وعدد النخل والزيتون والجماجم، فقرأ ذلك عليهم. ثم قال كسرى: إنا قد رأينا أن نضع على ما أُحْصِيَ من جِرْبان هذه المساحة وضائعَ، ونأمرَ بإنجامها في السنة ثلاثة أنجم، ونجمعَ في بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من الثغور أو طَرَفٍ من الأطراف فتقٌ[٧] أو ما نكرهه واحتجنا إلى تداركه أو حسمه بذلنا الأموال التي عندنا ولم نحتج إلى استئناف جبايتها، فما الذي ترون فيما رأيناه من ذلك وأجمعنا عليه؟ فلم يُشِرْ عليه أحد منهم بمشورة، ولا نطق

---

(١) مسح الأرض: أي قاسها بالذراع ونحوه. (٢) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.

(٣) الرطاب: جمع الرطب، وهو ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يصير تمرًا.

(٤) الدّقل: أردأ التمر. (٥) النجم: الوقت المعين لأداء دين أو عمل.

(٦) الجماجم: جمع الجمجمة، وهي ضرب من المكاييل.

(٧) يقال: فتق بين القوم: أي شقّ عصاهم فرجعت الحرب بينهم.

بكلمة. فكرر كسرى عليهم القول ثلاثًا، فقام رجل من عُرْضهم[١] وقال: أتضع أيها الملك ـ عمرك الله ـ خالدًا من هذا على الفاني؟ من كرم يموت، وزرع يَهِيج[٢]، ونهر يَغِيض[٣]، وعين أو قناة ينقطع ماؤها. فقال له كسرى: يا ذا الكُلْفَة المشؤوم، من أيّ طبقات الناس أنت؟ فقال: من الكتّاب. فقال كسرى: اضربوه بالدُّوِيّ[٤] حتى يموت، فضربه الكتاب خاصة تبرؤًا منهم إلى كسرى من رأيه، وما صدر من مقالته حتى قتلوه. وقال الناس: نحن راضون بما ألزمتنا أيها الملك به من خراج. ثم اجتمعت الآراء على وضع ما ذكرناه من الوضائع، فاستقرّت على ذلك إلى أن جاء الإسلام، وبها أخذ عمر رضي الله عنه لما فتحت بلاد فارس.

ذكر قطعة من سِيَر كسرى أنو شروان وسياسته

قال الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: إنه قرأ فيما كتبه أنو شروان من سيرة نفسه في كتاب عَمِلَه في سيرته وما ساس به مملكته: قال كسرى: كنت يومًا جالسًا بالدَّسْكرة[٥] وأنا سائر إلى هَمَذان لنَصِيفَ هناك؛ وقد أُعدّ الطعام للرسل الذين بالباب من قِبَل خاقان والهياطلة والصين وقيصر ونقفور؛ ودخل رجل من الأساورة مخترطًا سيفه حتى وصل إلى السِّتر في ثلاثة أماكن، وأراد الدخولَ حيث نحن والوثوبَ علينا، فأشار عليّ بعض خدمي أن أخرجَ إليه بسيفي، فعلمت أنه إن كان إنما هو رجل واحد فسوف يحال بيننا وبينه، وإن كانوا جماعة فإنّ سيفي لا يغني شيئًا؛ فلم أَخَف ولم أتحرّك من مكاني؛ وأخذه بعض الحرس فإذا هو رجل رازيٌّ من حشمنا[٦] وخاصّتنا، فلم يشكّوا أنّ على رأيه كثيرًا من الناس، فسألوني ألاّ أجلسَ ولا أحضُر للشرب حتى يستبين الأمر، فلم أُجبهم إلى ذلك لئلاّ ترى الرسُل منّي جُبْنًا، فخرجت لِشَرْبِي[٧]، فلما فرغنا هدّدت الرازيَّ بالعقوبة وقطع اليمين، وسألته أن يَصْدُقني عن الذي حمله على ذلك، وأنه إن صَدَقَني لم تنله عقوبة بعد ذلك؛ فذكر أنّ قومًا وضعوا من قِبَل أنفسهم كتبًا وكلامًا، وذكروا

---

(١) عُرضُ الناس: معظمهم. (٢) هاج الزرع: أي يبس واصفرّ.
(٣) غاض الماء: أي نزل في الأرض وغاب فيها.
(٤) الدويّ: جمع الدواة، وهي المحبرة.
(٥) الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي، يكون للملوك.
(٦) حشم الرجل: خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة.
(٧) المراد بالشراب: الجماعة الذين يشربون الخمر.

أنه من عند الله، أشاروا عليه بذلك وأخبروه أني إن قتلته وإن قتلني أدخل الجنة. فلما فحصت عن ذلك وجدته حقًّا؛ فأمرت بتخلية الرازيّ وبردّ ما أخذ منه، وتقدّمت بضرب رقاب أولئك الذين أشاروا عليه حتى لم أدع منهم أحدًا.

وقال أنو شروان: إني لما أحضرت القوم الذين اختلفوا في الدين وجمعتهم للنظر فيما يقولونه، بلغ من جرأتهم وخبثهم وقوّة شياطينهم أنْ لم يبالوا بالقتل والموت في إظهار دينهم الخبيث، حتى إني سألت أفضلَهم رجلًا على رؤوس الناس عن استحلاله قتلي، فقال: نعم، استحلّ قتلك وقتل من لا يطاوعنا على ديننا! فلم آمر بقتله حتى إذا حضر وقت الغداء أمرت أن يُحْبس الغداء وأرسلت إليه بطُرف[١] الطعام، وأمرت الرسول أن يبلّغه عنّي أنّ بقائي له أنفعُ مما ذكر؛ فأجاب الرسولَ إنّ ذلك حقٌّ، ولكن سألني الملك أن أَصْدُقَه عن ذات نفسي ولا أكتمه شيئًا مما أدين به، وإنما أدين بما أخذته من مؤدّبي.

قال أنو شروان: لمّا غدر بي قيصر وغزوته فذَلَّ وطلب الصلح وأنفذ[٢] إليّ بمال وأقرّ بالخراج والدية، تصدّقت على مساكين الروم وضعفائهم وضعفاء مزارعيهم مما بعث به قيصر بعشرة آلاف دينار، وذلك فيما وطِئتُه من أرض الروم دون غيرها.

وقال: لمّا أمرت بتصفح أمر الرعية بنفسي ورفع البلاء والظلم عنهم، وما ينوبهم من ثِقل الخراج؛ فإنّ فيه مع الأجر تزيين أهل المملكة وغناهم وقدرة الوالي على أن يستخرج منهم إنْ هو احتاج إلى ذلك ـ وقد كان في آبائنا من يرى أنّ وضع الخراج عنهم السنة والسنتين والتخفيف أحيانًا مما يقوّيهم على عمارة أرضيهم ـ جمعت العمال ومن يؤدّي الخراج فرأيت من تخليطهم ما لم أرَ له حيلة إلا التعديلَ والمقاطعةَ على بلدة بلدة، وكورة[٣] كورة، ورُستاق رُستاق، وقرية قرية، ورجل رجل؛ فاستعملت عليهم أهل الثقة والأمانة في نفسي، وجعلت في كل بلد مع كل عامل أمناء يحفظون عليه، ووليت قاضيَ القضاة بكل كورة النظرَ في أهل كورته، وأمرت أهل الخراج أن يرفعوا ما يحتاجون إلى رفعه إلينا إلى القاضي الذي وليته أمرَ كُوَرِهم حتى لا يقدِرَ العالم أن يزيد شيئًا، وأن يؤدّوا الخراج بمشهد من القاضي، وأن

(١) الطرف: جمع الطريف، وهو الطيب النادر؛ والطرف: جمع الطرفة، وهي كل شيء مستحدث عجيب.
(٢) أنفذ إليه المال: أرسله.
(٣) الكورة: البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال؛ أو الصقع.

تعطى به البراءة، وأن يرفع خراج من هلك منهم، ولا يزاد الخراج ممن لم يُدْرِكْ من الأحداث، وأن يرفع القاضي وكاتبُ الكورة وكاتبُ أهل الكورة وكاتب أهل البلد والعامل محاسبتهم إلى ديواننا وقت الكَتْب بذلك.

وقال: رفع إلينا مُوبَذان مُوبَذ أنّ قومًا سمّاهم من أهل الشرف، بعضهم بالباب كان شاهدًا وبعضهم ببلاد أخر، دينهم مخالف لما رويناه عن نبينا وعلمائنا، وأنهم يتكلمون بدينهم سرًّا ويَدعون إليه الناس، وأن ذلك مَفْسدةٌ للملك، وحيث لا تقوم الرعيّة إلا على هوًى واحد، فيحرّمون جميعًا ما يحرّم الملك، ويستحلّون ما يستحلّ الملك في دينه؛ فإنّ ذلك إذا اجتمع للملك قَوِيَ بجنده لأجل الموافقة بينهم وبين الملك، فاستظهر على قتال الأعداء؛ فأحضرتُ أولئك المختلفين في الأهواء، وأمرتُ أن يخاصَموا حتى يقفوا على الحقّ ويُقرّوا به، وأمرت أن يُقْصَوْا عن مدينتي وعن بلادي ومملكتي، ويُتتبع كل من هو على هواهم فيُفعل به ذلك.

وقال: إن الترك الذين في ناحية الشمال كتبوا إلينا بما أصابهم من الحاجة، وأنهم لا يجدون بدًّا - إن لم نعطهم شيئًا - من أن يغزونا، وسألوا خصالاً إحداها أن نتخذهم في جندنا، ونُجرِيَ عليهم ما يعيشون به، وأن نُعطيَهم من أرض الكَرَج(١) وبَلَنْجَر(٢) وتلك الناحية ما يعيشون به، فرأيت أن أسير في ذلك الطريق إلى باب صُول(٣)، وأحببت أن يَعرِف مَنْ قبلنا من الملوك هناك نشاطنا للأسفار وقوّتنا عليها متى هممنا، وأن يَرَوْا مَا رأوْا من هيبة الملوك وكثرة الجنود وتمام العُدَّة وكمال السلاح ما يقوَوْن به على أعدائهم، ويعرفون به قوّة مَنْ خلفهم إن هم احتاجوا إليه، وأحببنا بمسيرنا أن نُجريَ لهم على أيدينا الجوائز والحُمْلان(٤)، والقربَ من المجلس واللطفَ في الكلام ليزيدَهم ذلك مودّة لنا ورغبةً فينا، وحرصًا على قتال أعدائنا، وأحببت أيضًا التعهدَ لحصونهم، وأن أسأل أهل الخراج عن أمرهم في مسيرنا. فسرت في طريق همذان(٥) وأذربيجان. فلما بلغت إلى باب الصول ومدينة فيروز

---

(١) الكرج: مدينة بين همذان وأصفهان في نصف الطريق وإلى همذان أقرب.

(٢) بلنجر: وراء مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.

(٣) صول: مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الأبواب وهو الدربند.

(٤) الحملان: ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة.

(٥) همذان: كانت همذان أكبر مدينة بالجبال وكانت أربعة فراسخ في مثلها، طولها من الجبل إلى قرية يقال لها زينواباذ، وكان صنف التجار بها وصنف الصيارف بسنجاباذ، وكان صنف البزازين في قرية يقال لها برشيقان. . . (معجم البلدان لياقوت).

خسرو يمّمت تلك المدائنَ العتيقة، وتلك الحدود، وأمرت ببناء حصون أُخَر. فلما بلغ خاقانَ الخَزَر نزولُنا هناك تخوّف أن نغزوَه، فكتب أنه لم يزل ـ منذ ملكتُ ـ يحب موادَعتي، وأنه يرى الدخول في طاعتي؛ ورأى بعضُ قوّاده ـ لمّا شاهد حاله ـ تركَه وأتانا في ألفين من أصحابه؛ فقبلناه وأنزلناه في تلك الناحية، وأجريت عليه وعلى أصحابه الرزق، وأمرت لهم بحصن هناك، وأمرت بمصلّى لأهل ديننا، وجعلت فيه مُوبَذًا وقومًا نسّاكًا، وأمرتُهم أن يُعلِموا من دخل من الترك في طاعتنا ما في طاعة الولاة من المنفعة العاجلة في الدنيا، والثواب الآجل في الأخرى، وأن يَحثُّوهم على المودّة والصحبة والعدل والنصيحة ومجاهدة العدوّ، وأن يُعلِّموا أحداثهم رأينا ومذهبنا، وأقمت لهم في تلك التخوم[١] الأسواقَ، وأصلحت طرقهم وقوّمت السكك[٢]. ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرجال فإذا هو بحيث لو كان بوسط فارس لكان منزلنا بها فاضلاً.

وقال: فلما أتى لمُلْكنا ثمانٍ وعشرون سنة جدّدتُ النظرَ في أمر المملكة والعدلَ على الرعية، والنظرَ في أمرهم، وإحصاءَ مظالمهم، وإنصافَهم. وأمرتُ مُوبَذَ كل ثغر ومدينة وبلد وجُنْدٍ بإنهاء ذلك إليّ. وأمرتُ بعرض الجند، من كان منهم بالباب بمشهدٍ منّي، ومَن غاب في الثغور والأطراف بمشهدٍ من القائد وبادوستان والقاضي وأمينٍ من قِبَلنا. وأمرت بجمع أهل كُوَرِ الخراج في كل ناحية من مملكتي إلى مصرها[٣] مع القائد وقاضي البلد والكاتب والأمين. وسرّحتُ من قِبَلي مَنْ عرفتُ صحبتَه وأمانته ونُسُكَه وعلمه، ومن جرّبت ذلك منه إلى كل مصر ومدينة حيث أولئك العمالُ والغلمانُ وأهلُ الأرض ليجمعوا بينهم وبين أهل أراضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يُرْفع الأمرُ كلُّه على حقّه وصدقه، فما نفذ لهم فيه أمر أو صَحّ فيه القضاءُ فرضيَ به أهلُه فرَغوا منه هنالك، وما أَشكل عليهم رفعوه إليّ.

وبلغ اهتمامي بتفقّد ذلك ما لولا الذي أُدارِي من الأعداء والثغور لباشرت أمرَ الخراج والرعية بنفسي قريةً قريةً حتى أتعهدَها وأكلّم رجلاً رجلاً من أهل مملكتي؛ غير أني تخوّفت أن يضيع بذلك السببِ أمرٌ هو أعظم منه، الأمر الذي لا يُغني[٤] فيه

(١) التخوم: جمع التخم، وهو الحد الفاصل بين أرضين.

(٢) المراد بالسكك: الطرق.

(٣) المصر: الكورة الكبيرة تقام فيها الدور والأسواق والمدارس وغيرها من المرافق العامة.

(٤) يقال: أغنى عنه غناء: أي ناب عنه.

أحدٌ غنائي ولا يقدِر على إحكامه غيري، ولا يكفينيه كافٍ، مع الذي في الشخوص إلى قريةٍ قريةٍ من المؤونة على الرعية من جندنا، ومَنْ لا نجد بدًّا من إخراجه معنا. وكرهنا أيضًا إشخاصَهم إلينا مع تخوّفنا أن يشتغل أهل الخراج عن عِمارة أراضيهم، أو يكونَ فيهم من يدخُل عليه من ذلك مؤونة في تكلُّف السير إلى بابنا، وقد ضيّع قُرَاه وأنهاره وما لا يجد بدًّا من تعهده في السنة كلها في أوقات العمارة، ففعلنا ذلك بهم ووكّلنا مُوبَذان[١] مُوبَذ بذلك، وكتبنا به الكتب وسرَّحنا مَنْ وَثِقْنا به، ورجونا أن يجري مجرانا وأشخصناه وقلّدناه ذلك.

قال: ولما أمّن الله جميعَ أهل مملكتنا من الأعداء فلم يبق منهم إلا نحو ألفي رجل من الديلم[٢] الذي عَسُر افتتاحُ حصونهم لصعوبة الجبال عليها، لم نجد شيئًا أنفع لمملكتنا من أن نفحص عن الرعية، وأولئك الأمناءِ الذين وصّيناهم بإنصاف أهل الخراج. وكان بلغنا أن أولئك الأمناءَ لم يبالغوا على قدر رأينا في ذلك، فأمرت بالكَتْبِ إلى قاضي كورةٍ كورةٍ أن يجمع أهلَ الكورة بغير علم عاملهم وأُولي أمرهم فيسألَهم عن مظالمهم وما استُخرِج منهم، ويفحصَ عن ذلك بمجهود رأيه ويبالغَ فيه، ويكتبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم ويختِمَ عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة، ويبعثَ به إليّ ويسرّحَ ممن يجتمع رأي أهل الكورة عليه بالرضا نفرًا، وإن أحبّوا أن يكون فيمن يُشْخَصُ بعضُ سِفلتهم أيضًا فعل ذلك.

فلما حضروا جلست للناس وأذِنت لهم بمشهد من عظماء أرضنا وملوكهم وقضاتهم وأحرارهم وأشرافهم، ونظرت في تلك الكتب والمظالم، فأيّة مظلمة كانت من العمال ومن وكلائنا، أو من وكلاء أولادنا ونسائنا وأهل بيتنا حططناها عنهم بغير بينة[٣]؛ لعلمنا بضعف أهل الخراج منهم، وظلم أهل القوّة من السلطان لهم، وأيّةُ مظلمة[٤] كانت لبعضهم من بعض ووَضحَت لنا، أمرت بإنصافهم قبل البرَاح، وما أشكل وأوجب الفحصُ عنه شهودَ البلد وقاضيها سرّحت معه أمينًا من الكتاب، وأمينًا من فقهاء ديننا وأمينًا ممن وثقنا به من خدمنا وحاشيتنا، فأحكمت ذلك إحكامًا وثيقًا.

---

(١) موبذان موبذ: قاضي القضاة في دولة الفرس قبل الإسلام.

(٢) الديلم: في الإقليم الرابع، طولها خمس وسبعون درجة، وعرضها ست وثلاثون درجة وعشر دقائق. وقيل: الديلم: جيل سمّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر وليس باسم أب لهم... (معجم البلدان).

(٣) البينة: الحجة الواضحة.

(٤) المظلمة: أي الظلامة، وهي ما يطلبه المظلوم، وهو اسم ما أخذ منه ظلمًا.

ولم يجعل الله لذوي قرابتنا ورحمنا وخدمنا وحاشيتنا منزلة عندنا دون الحقّ والعدل؛ فإن من شأن قرابة الملك وحاشيته أن يستطيلوا[١] بعزّته وقوّته، فإذا أهمل السلطان أمرَهم هَلَكَ من جاوره إلاّ أن يكون فيهم متأدّب بأدب مَلِكه، محافظ على دينه، شفيق على رعيّته، وأولئك قليل؛ فدعانا الذي أطلعنا عليه من ظلم أولئك ألا نطلبَ البيِّنةَ عليهم فيما ادُّعِيَ قِبَلهم. ولم نزل نردّ المظالم، ولم نرِد أيضًا ظلم أحد ممن كان عزيزًا بنا، منيعًا بمكانه ومنزلته عندنا، فإن الحقّ واسع للضعفاء والأقوياء والفقراء والأغنياء؛ ولكنا لما أشكلت الأمور في ذلك علينا كان الحَمْلُ على خواصّنا وخدمنا أحبَّ إلينا من أن نحمل على ضعفاء الناس ومساكينهم، وأهل الفاقة والحاجة منهم. وعلمنا أن أولئك الضعفاء لا يقدرون على ظلم مَنْ حولنا. وعلمنا مع ذلك أن الذين أَعْدَينا[٢] عليهم من خاصّتنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا إلى ما لا يرجع إليه أولئك. ولعمري إن خواصّنا إلينا، وآثر خَدَمِنَا في أنفسنا الذين يحفظون سيرتنا في الرعية، ويرحمون أهل الفاقة والمسكنة وينصفونهم؛ فإنه قد ظلمنا مَنْ ظلمهم، وجار علينا مَنْ جار عليهم، وأراد تعطيل ذمتنا التي هي حرزُهم[٣] وملجأهم.

قال: ثم كَتَب إلينا على رأس سبع وثلاثين سنة من ملكنا، أربعةُ أصناف من الترك من ناحية الخزر، ولكل صِنْف منهم ملك، يذكرون ما دخل عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظ في عبوديتنا، وسألوا أن نأذن لهم في القدوم بأصحابهم لخدمتنا، والعمل لما نأمرهم به، وألا نحقِد عليهم ما سلف منهم قِبَل مُلكنا، وأن نُنزلهم منزلة سائر عبيدنا، فإنا سنرى في كل ما نأمرهم به من قتال وغيره كأفضل ما نرى من أهل نصيحتنا، فرأيت في قبولي إياهم عدة منافع، منها: جلَدُهم[٤] وبأسُهم، ومنها: أني تخوّفت أن تحملهم الحاجة على إتيان قيصر أو بعضِ الملوك فيقوَوْا بهم علينا، وقد كان فيما سلف يستأجر منهم قيصر لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرة. وكان لهم في ذلك القتال بعضُ الشوكة بسبب أولئك الأتراك؛ لأن الترك ليس عندهم لذةٌ للحياة، فهو الذي يجرئهم مع شقاء معايشهم على الموت؛ فكتبت إليهم إنّا نقبل من دخل في طاعتنا، ولا نبخل على أحد بما عندنا، وكتبت إلى مَرزُبان[٥] الباب آمره بأن يُدخِلهم أوّلاً أوّلاً، فكتب إليّ إنه قد أتاه منهم خمسون ألفًا بنسائهم وأولادهم وعيالهم. ولما

(١) استطال عليه: أي تكبر وترفع؛ أو اعتدى. (٢) يقال: أعدينا عليهم: أي ظلمناهم.
(٣) الحرز: المكان المنيع يلجأ إليه؛ أو العوذة.
(٤) الجلد: الصبر على المكروه. (٥) المرزبان: الرئيس من الفرس.

بلغني ذلك أحببت أن أقرِّبهم إليّ ليعرفوا إحساني إليهم، وأعظِّمهم ليطمئنّوا إلى قوّادنا، حتى إذا أردنا تسريحهم مع بعض قوّادنا كان كل واحد بصاحبه واثقًا، فشخصنا إلى أذربيجان، فلما نزلتها أذنت لهم في القدوم، وأتاني عند ذلك طرائف من هدايا قيصر، وأتاني رسول خاقان الأكبر، ورسول صاحب الروم، ورسول صاحب خوارزم، ورسول ملك الهند، والداوَر[١]، وكابل[٢] شاه، وصاحب سَرَنْديب[٣]، وصاحب كله[٤]، وكثير من الرسل، وتسعة وعشرون ملكًا في يوم واحد، وانتهيت إلى أولئك الأتراك الثلاثة والخمسين ألفًا فأمرت أن يُصَفُّوا هناك وركبت لذلك، فكان يومئذ من أصحابي وممن قدم عليَّ ومن دخل في طاعتي وعبوديّتي مَنْ لم يسعهم مَرْجٌ كان طوله عشرة فراسخ، فحمَدت الله كثيرًا وأمرت أن يُصَفّ أولئك الأتراك في أهل بيوتاتهم على سبع مراتبَ، ورأست عليهم منهم، وأقطعتهم وكسوت أصحابهم، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرت لهم بالمياه والأَرضين، وأسكنت بعضهم مع قائد لي باللان[٥]، وقسمتهم في كل ما احتجنا إليه من الثغور، وضممتهم إلى المرزُبان؛ فلم أزل أرى من مناصحتهم واجتهادهم فيما نوجههم له ما يسرنا في جميع البلدان والثغور وغيرها.

قال: وكتب إليّ خاقان الأكبر يعتذر إليّ من بعض غَدَراته ويسأل المراجعةَ والتجاوزَ؛ وذكر في كتابه ورسالته أن الذي حمله على عداوتي وغزو أرضي مَنْ لم يُنظَر له، وناشدني الله أن أتجاوز عنه، وتوثَّق لي بما أطمئنّ إليه. وذكر أن قيصر قد أرسل إليه وزعم أنه يستأذنني في قبول رسله، وأنه لا يعمل في قبول رسل أحد إلا بما آمره، ولا يجاوز أمري، ولا يرغب في الأموال ولا في المودّات لأحد إلا برضائي، وكان دَسِيسٌ[٦] لي في الترك يكاتبني بندم خاقان وندم أصحابه على غدره وعداوته إياي، فأجبته: إني لعَمْرِي ما أبالي إن طبيعة نفسك وغريزتَك غدرت بنا أم

---

(١) الداور: هي ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رخج وبست والغور.

(٢) كابل: ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنة؛ وقيل هي من ثغور صخارستان. وبها العود والنارجيل والزعفران والإهليلج. . .

(٣) سرنديب: هي جزيرة سيلان المعروفة.

(٤) كله: فرضة بالهند، وهي في منتصف الطريق بين عمان والصين، يسكنها المسلمون والهند والفرس، وبها معادن الرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور.

(٥) اللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية، قرب باب الأبواب. .

(٦) الدسيس: الذي تدسه ليأتيك بالأخبار.

أطعتَ غيرك في ذلك، وما ذنبك في طاعة مَنْ أطعتَ في ذلك إلا كِذْبتك فيما فعلتَه برأي نفسك، وإني قد استحققتُ أشد العقوبة. وكتبتُ أني لا أظن شيئًا من الوثيقة تفي لكم إلا وقد كنتَ ضيعتَه، ولا أظن شيئًا وثقت لنا به من قبل اليوم ثم غدرتم، فكيف نطمئنّ إليك ونثق بقولك؟ ولسنا نأمنك على مثل ما فعلت من الغدر ونقض العهد والكذب في اليمين. وذكرتَ أن رسل قيصر عندك، ووقفنا على استئذانك إيانا فيهم؛ وإني لست أنهاك عن مودّة أحد. وكرهت أن يُرى أني أتخوّف مصادقته وأهاب ذلك منه. وأحببت أن أعلمه أني لا أبالي بشيء مما جرى بينهما. ثم سرحت لمرمّة[1] المدائن والحصون التي بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف إليها ما يحتاج إليه الجند، وأمرت أن يكونوا على استعداد وحذر، ولا يكون من غفلتهم ما كان في المرة الأولى وهم على حال الصلح.

قال: وكان شكري لله تعالى لما وهب لي وأعطاني متصلاً بنعمه الأول التي وهبها لي في أوّل خلقه إياي؛ فإنما الشكر والنّعم عِدْلا كِفَّتي الميزان أيهما رجح بصاحبه احتاج الأخفّ إلى أن يُزاد فيه حتى يعادلَ صاحبه، فإذا كانت النعم كثيرة والشكر قليلاً انقطع الحِمْل وهلك ظهرُ الحامل، وإذا كان ذلك مستويًا استمرّ الحامل. وكثيرُ النعم يحتاج صاحبها إلى كثير الشكر، وكثيرُ الشكر يجلب كثير النعم. ولما وجدت الشكر بعضه بالقول، وبعضه بالعمل، ونظرت في أحبّ الأعمال إلى الله وجدته الشيءَ الذي أقام به السماوات والأرضَ، وأرسى به الجبال، وأجرى به الأنهار وبرأ[2] به البريّة. وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتهما. ورأيت ثمرة الحقّ والعدل عمارة البلدان التي بها معايش الناس والدوابّ والطير وسكان الأرض.

ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتِلة[3] أُجَراء أهل العمارة، ووجدت أهل العمارة أجراء المقاتلة، فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم، ومجاهدتهم من ورائهم، فحَقٌّ على أهل العمارة أن يوفُّوَهم أجورهم؛ فإن عمارتهم تتمّ بهم، وإن أبطؤوا عليهم بذلك أو هنوهم[4] فقوي عدوّهم؛ فرأيت من الحق على أهل الخراج ألا يكون لهم من عمارتهم إلا ما أقام معايشهم، وعمروا به بلدانهم، ورأيت ألا أجتاحهم وأستفرغَ ذات أيديهم للخزائن

---

(١) المرمّة: موضع الرمّ. (٢) برأ البرية: خلقها.

(٣) المقاتلة: جمع المقاتل: وهو من يصلح للقتال أو يباشره.

(٤) أوهنوهم: أضعفوهم في الأمر والعمل والبدن.

والمقاتلة، فإني إذا فعلت ذلك ظلمت المقاتلة مع ظلم أهل الخراج؛ وذلك أنه إذا فسد العامر فسد المعمور، وكذلك أهل الأرض والأرض، فإنه إذا لم يكن لأهل الخراج ما يعيشهم ويعمرون به بلادهم هلكت المقاتلة الذين قوّتهم بعمارة الأرض؛ فلا عمارة للأرض إلا بفضل ما في يد أهل الخراج؛ فمن الإحسان إلى المقاتلة والإكرام لهم أن أرفُق بأهل الخراج وأعمر بلادهم، وأَدَع لهم فضلًا في معايشهم؛ فأهل الأرض وذوو الخراج أيدي المقاتلة والجند وقوتُهم، والمقاتلة أيضًا أيدي أهل الخراج وقوتُهم.

ولقد ميزت ذلك بجهدي وطاقتي، وفكرت فيه فما رأيت أن أفضّل هؤلاء على هؤلاء إذ وجدتهما كاليدين المتعاونتين والرجلين المترادفتين.

ولعمري ما أعفى أهلَ الخراج من الظلم من أضرّ بالمقاتلة، ولا كفّ الظلمُ عن المقاتلة مَنْ تعدّى على أهل الخراج. ولولا سفهاء الأساورة[١] لأبقوا على أهل الخراج والبلاد إبقاء الرجل على ضيعته التي منها معيشته وحياته وقوّته، ولولا جهّال أهل الخراج لكفّوا عن أنفسهم بعض ما يحتاجون إليه من المعايش إيثارًا للمقاتلة على أنفسهم.

قال: ولما فرغنا من إصلاح العامة والخاصة بهذين الركنين من أهل الخراج والمقاتلة كان ذلك ثمرةَ العدل والحقّ الذي دبّر الله العظيمُ خلائقه به، وشكرت الله على نعمته والمقاتلةَ في أداء حقه على مواهبه، وأحكمنا أمر المقاتلة وأهلِ الخراج ببسط العدل، وأقبلنا بعد ذلك على السِّيرَ والسُّنَن، ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم من أمورنا، والأكبرَ فالأكبر عائدًا على جندنا ورعيتنا، ونظرنا في سِيَر آبائنا من لَدُنْ بستاسف إلى مُلْكِ قُباذ أقربِ آبائنا. ثم لم نترك إصلاحًا في شيء من ذلك إلا أخذناه، ولا فسادًا إلا أعرضنا عنه، ولم يَدْعُنا حبّ الآباء إلى قبول ما لا خير فيه من السنن، ولكنّا آثرنا حبَّ الله وشكره وطاعته.

ولما فرغنا من النظر في سير آبائنا وبدأنا بهم، وكانوا أحق بذلك، فلم نَدَع حقًا إلا آثرناه، ووجدنا الحق أقرب القرابة. نظرنا في سير أهل الروم والهند فاصطفينا محمودها، وجعلنا عيار[٢] ذلك عقولنا، وميزانه بأحلامنا، فأخذنا من جميع ذلك ما

(١) الأساورة: جمع الإسْوار، وهو قائد الفرس؛ والأصل أساورة الفرس وكانوا رماة الحدق.

(٢) عيار: أي المعيار، وهو ما جعل نظامًا للشيء يقاس به ويسوى.

زيّن سلطاننا، وجعلناه سنة وعادة، ولم تنازعنا(١) أنفسنا إلى ما تميل به أهواؤنا، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السِّيَر ونهيناهم عنه وتقدّمنا إليهم فيه؛ غير أنا لم نُكرِه أحدًا على غير دينه وملّته، ولم نحسُدهم ما قِبَلنا، ولا منع ذلك أنقباضٌ(٢) بعلم ما عندهم، فإن الإقرار بمعرفة الحقّ والعلم والاتباع له من أعظم ما تزيّنت به الملوك. ومن أعظم المضرة على الملوك الأَنَفةُ(٣) من العلم والحميّة من طلبه، ولا يكون عالمًا من لا يتعلّم.

ولما استقصيت ما عند هاتين الأمتين من حكمة التدبير والسياسة، ووصلت بين مكارم أسلافي، وما أحدثتُه بالرأي، وأخذت به نفسي، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منا، وثبت على الأمر الذي نلت به الظفر والخير، ورفضت سائر الأمم لأني لم أجد عندهم رأيًا ولا عقولاً ولا أحلامًا(٤)، ووجدتهم أصحاب بَغْي وحَسَد وكَلَب وحرص وشحّ وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلة مكافأة. وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية، ولا تتمّ لها نعمة.

قال ٱبن مسكويه(٥): وقرأت مع هذه السير في آخر هذا الكتاب الذي كتبه أنو شروان في سيرة نفسه أن أنو شروان لما فرغ من أمور المملكة وهذبها جمع إليه الأساورة مع القوّاد والعظماء والمرازبة والنساك والموابذة وأماثل الناس معهم فخطبهم فقال:

ذكر خطبة أنو شروان

قال: أيها الناس، أَحْضِروني فهمَكم، وأَرعَوْني أسماعَكم، وناصحوني أنفسَكم، فإني لم أزل واضعًا سيفي على عنقي منذ وَلِيتُ عليكم غرضًا للسيوف والأسنة، وكل ذلك للمدافعة عنكم، والإبقاء عليكم، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى الشرق، وتارة في آخر المغرب، وأخرى في نهاية الجنوب، ومثلها في جانب الشمال، ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم، ووضعت الوضائع في بلدان الترك، وأقمت بيوت النيران بقسطنطنية، ولم أزل أصعد جبلاً شامخًا وأنزل عنه، وأطأ

(١) تنازعنا أنفسنا: أي تشوقنا. (٢) الانقباض: الإمساك.

(٣) الأنفة: العزّة والحميّة.

(٤) الأحلام: جمع الحلم، وهو العقل؛ أو الأناة وضبط النفس، والأول هو المراد.

(٥) ابن مسكويه: هو أحمد بن محمد بن يعقوب، الملقب مسكويه.. وقد تقدمت ترجمته.

حزونه[١] بعد سهوله، وأصبر على المخمصة[٢] والمخافة، وأكابد البرد والحر، وأركب هول البحر وخطر المفازة؛ إرادة هذا الأمر الذي قد أتمه الله لكم: من الإثخان[٣] في الأعداء، والتمكن في البلاد، والسعَة في المعاش، ودَرْك[٤] العز، وبلوغ ما نلتم؛ فقد أصبحتم بحمد الله ونعمته على الشرف الأعلى من النعمة، والفضل الأكبر من الكرامة والأمن، وقد هزم الله أعداءكم وقتّلهم؛ فهم بين مقتول هالك، وحيّ مطيع لكم سامع؛ وقد بقي لكم عدوّ عددهم قليل، وبأسهم شديد، وشوكتهم عظيمة؛ وهؤلاء الذين بقَوْا أخوف عندي عليكم، وأحرى أن يهزِموكم ويغلِبوكم من الذين غلبتموهم من أعدائكم، وأصحاب السيوف والرماح والخيول؛ وإن أنتم أيها الناس غلبتم عدوّكم هذا الباقي، غَلَبَتكم لعدوّكم الذين قاتلتم وحاصرتم، فقد تمّ الظَفَر والنصر، وتمّت فيكم القوّة، وتمّ بكم العزّ، وتمّت عليكم النعمة، وتمّ لكم الفضل، وتمّ لكم الاجتماع والألفة والصحة والسلامة؛ وإن أنتم قصّرتم ووهنتم[٥]، وظفِرَ هذا العدوّ بكم فأين الظَّفَر الذي كان منكم، فاطلبوا أن تقتلوا من هذا العدو الباقي مثل ما قتلتم من ذلك العدوّ الماضي؛ وليكن جدّكم في هذا واجتهادكم واحتشادكم أكبرَ وأجلّ وأحزم وأعزم وأصح وأشدّ، فإن أحق الأعداء بالاستعداد له أعظمُهم مكِيدة، وأشدهم شوكة، وليس الذي كنتم تخافون من عدوّكم الذي قاتِلتم بقريب من هؤلاء الذين آمركم بقتالهم الآن؛ فاطلبوه وصلوا ظفرًا بظفر، ونصرًا بنصر، وبقوّة بقوّة، وتأييدًا بتأييد، وعزمًا بحزم وعزم، وجهادًا بجهاد؛ فإن بذلك اجتماعَ إصلاحكم، وتمامَ النعمة عليكم، والزيادة في الكرامة من الله لكم، والفوزَ برضوانه في الآخرة.

ثم اعلموا أن عدوّكم من الترك والروم والهند وسائر الأمم لم يكونوا ليبلغوا منكم ـ إن ظهروا[٦] عليكم وغلبوكم ـ مثل الذي يبلغ هذا العدوّ منكم إن غلبكم وظهر عليكم؛ فإن بأسَ هذا العدوّ أشدُّ، وكيدَه أكبرُ، وأمرَه أخوف من ذلك العدوّ.

يا أيّها الناس، إني قد نَصِبْتُ[٧] لكم كما رأيتم، ولقِيتُ ما قد علمتم بالسيف والرُّمح والمفاوز والبحار والسهولة والجبال؛ أقارع عدوًّا عدوًّا، وأُكالب جنْدًا جنْدًا،

(١) الحزون: جمع الحزن، وهو من الأرض ما غلظ.

(٢) المخمصة: خلاء البطن جوعًا.

(٣) يقال: أثخن في العدو: أي بالغ في قتاله.

(٤) الدرك: اسم مصدر من الإدراك.

(٥) وهنتم: أي ضعفتم.

(٦) يقال: ظهر على عدوّه: أي غلبه.

(٧) يقال: نصب الرجل بكسر الصاد، أي أعيا وتعب.

وأكابد مِلِكًا ملِكًا، لمْ أتضرّع إليكم هذا التضرّعَ في قتال أولئك الجنود والملوك، ولم أسألكم هذه المسألةَ في طلب الجِدّ منكم، والاجتهادِ والاحتفالِ والاحتشادِ، وإنما فعلت هذا لعِظَم خطره، وشدّة شوكته، ومخافةِ صولتِه بكم. وإن أنا أيها الناس لم أَغلِبْ هذا العدوَّ وأنْفِه عنكم، فقد أبقيت فيكمْ أكبر الأعداء، ونفيت عنكم أضعفها، فأعينوني على نفي هذا العدوّ المَخُوفِ عليكم، القريبِ الدار منكم؛ فأُنشِدكم اللّهَ أيها الناس لَمّا أعنتموني عليه حتى أنفِيَه عنكم، وأخرجَه من بين أظهركم[1] فيتمَّ بلائي عندكم، وبلاءُ الله فيكم عندي، وتتمَّ النعمةُ عليّ وعليكم، والكرامةُ من الله لي ولكم، ويتمَّ هذا العز والنصر، وهذا الشرفُ والتمكين، وهذه الثروة والمنزلة.

يا أيّها الناس، إني تفكرت بعد فراغي من كتابي هذا، وما وصفتُ من نعمة الله علينا في الأمر الذي لمّا غلب دارا الملوكَ والأممَ وقهرها، واستولى على بلادها، ولمّا تحكّم أمر هذا العدوّ، هلك وهلكت جنوده بعد السلامة والظَّفَر والنصر والغلبة؛ وذلك أنه لم يرض بالأمر الذي تمّ له به المُلك، واشتدّ به السلطان، وقوي به على الأعداء، وتمّت عليه به النعمةُ، وفاضت عليه من وجوه الدنيا كلّها الكرامةُ، حتى احتال له بوجوه النميمة والبغي[2]؛ فدعا البغي والحسد فتقوّى به وتمكّن، ودعا الحسدُ بغضَ أهل الفقر لأهل الغنى، وأهل الخمول لأهل الشرف؛ ثم أتاهم الإسكندر وهم على ذلك من تفرُّق الأهواء، واختلاف الأمور، وظهور البغضاء وقوّة العداوة فيما بينهم والفساد منهم. ثم ارتفع ذلك إلى أن قتله صاحب حرسه وأمينه على دمه، للذي شمل قلوب العامة من الشر والضغينة[3]، ونبت فيها من العداوة والفُرقة، وكفى الإسكندر مؤونة نفسه؛ وقد اتعظتُ بذلك اليوم وذكرتُه.

يا أيُّها الناس، فلا أسمعنّ في هذه النعمة تفرقًا ولا بغيًا ولا حسدًا ظاهرًا، ولا وشاية ولا سعاية، فإن الله قد طهّر من ذلك أخلاقنا ومُلْكنا، وأكرم عنه ولايتنا، وما نلت ما نِلت بنعمة ربنا وحمده بشيء من الأمور الخبيثة التي نفتها العلماء، وعافتها الحكماء؛ ولكن نلت هذه الرتبة بالصحة والسلامة، والحب للرعية، والوفاء والعدل والاستقامة والتؤدة. وإنما تركنا أن نأخذ عن هذه الأمم التي سميناها، أعني من الترك والبربر والزنج والجبال وغيرهم، مثل ما أخذنا عن الهند والروم لظهور هذه الأخلاق فيهم وغلبتها عليهم. ولا تصلح أمة قط وملكها على ظهور هذه الأخلاق التي هي أعدى أعدائكم.

---

(١) بين أظهركم: أي بينكم.
(٢) البغي: تجاوز الحد، والاعتداء؛ أو التسلط والظلم.
(٣) الضعينة: الحقد الشديد.

يا أيُّها الناس، إن فيما بسط الله علينا بالسلامة والعافية والاستصلاح غِنًى لنا عما نطلب بهذه الأخلاق الرديئة المشؤومة؛ فأكفوني في ذلك أنفسَكم، فإنّ قهرُ هذه الأعداء أحبُّ إليّ وخير لكم من قهر أعدائكم من الترك والروم. فأما أنها أيها الناس فقد طِبتُ نفسًا بترك هذه الأمور ومحقها[١] وقمعها ونفيها عنكم.

يا أيُّها الناس، إني قد أحببت أن أنفيَ عدوّكم الظاهر والباطن؛ فأما الظاهر منهما فإنّا بحمد الله ونعمته قد نفيناه وأعاننا الله عليه وحصد لنا شوكته، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسيتم وأجهدتم، فأفعلوا في هذا العدوّ كما فعلتم في ذلك العدوّ، وأعمَلوا فيه كالذي عَمِلتم في ذلك، وأحفظوا عنّي ما أوصيكم به فإني شفيق عليكم ناصح لكم.

أيها الناس، من أحيا هذه الأمورَ فينا فقد أفسد بلاءَه عندنا بقتاله مَنْ كان يقاتلنا من أعدائنا، فإن هذه أكثر مضرةً، وأشدّ شوكةً، وأعظم بليةً، وأضر تَبِعةً. وأعلموا أن خيركم يا أيها الناس من جمع إلى بلائه السالف عندنا المعونةَ لنا على نفسه في هذا الغابر[٢]. وأعلموا أن من غلبه هذا غلبه ذاك، ومن غلب هذا فقد قهر ذاك؛ وذلك أن بالسلامة والألفة والمودّة والاجتماع والتناصح منكم يكون العزّ والقدرة والسلطان، ومع التحاسد والبَغْي والنميمة والسبِّ يكون ذهاب العزّ، وأنقطاع القوّة وهلاك الدنيا والآخرة؛ فعليكم بما أمرناكم به، وأحذروا ما نهيناكم عنه، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، عليكم بمواساة أهل الفاقة[٣]، وضيافة السابلة[٤]، وأكرموا جوار من جاوركم، وأحسنوا صحبة من دخل فيكم من الأمم، فإنهم في ذمّتي، ولا تَجْبَهوهم ولا تظلموهم، ولا تَسَلَّطوا عليهم، ولا تُحرجوهم، فإن الإحراج يدعو إلى المعصية، ولكن اصبِروا لهم على بعض الأذى، واحفظوا أمانتكم وعهدكم، واحفظوا ما عَهِدت إليكم من هذه الأخلاق، فلا تَصلُحوا إلا معها، وبالله تعالى ثقتنا في الأمور كلها. ثم هلك أنو شروان بعد ثمان وأربعين سنة من ملكه.

* * *

ثم ملك بعده ابنه هرمز بن كسرى أنو شروان. وأمه قاقم ابنة خاقان ملك الترك. وقيل: بل ابنة ملك من ملوك الخزر. قال: وكان كثيرَ الأدب، حسن السياسة، جميل النية، وافر الإحسان إلى الضعفاء والمساكين.

---

(١) محق الشيء: أي أبطله ومحاه. (٢) الغابر: الباقي.

(٣) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٤) المراد بالسابلة هنا: المارون على الطريق المسلوك.

وكان من سيرته المرتضاة أنه يُجري الخير والعدل على الرعية، ويشدّد على العظماء المتسلطين على الضعفاء. وبلغ من عدله أنه كان يسير إلى المياه ليَصِيفَ[١] هناك، فأمر فنودِي في مسيره أن يُتحامى مواضعُ الحروث[٢]، ولا يسيرُ فيها الراكب لئلا يضروا بأحد، ووكّل بتعهد ما يجري في عسكره، ومعاقبةِ من تعدّى أمره وتغريمه لصاحب الحرث عوضًا عما أفسده له. وكان ٱبنه كسرى أبرويز في عسكره فغار مركَبٌ من مراكبه ووقع في حرث كان على الطريق، فأفسد ما مرّ عليه، فأُخذ ودُفع إلى الرجل الموكل من جهة هرمز بمعاقبة من أفسد هو أو دوابُّه شيئًا من الحرث، فلم يجسر الرجل الموكل من جهة هرمز أن ينفِّذ أمر هرمز في ٱبنه أبرويز، فرفع الأمر إلى هرمز فأمره أن يجدع[٣] أذنيه، ويبتُرَ ذنبَه، ويغرّم كسرى أبرويز لصاحب الحرث؛ فخرج الرجل لإنفاذ الأمر، فدس له كسرى رهطًا[٤] من العظماء يسألونه التثبت في الأمر، فكلّموه فلم يُجِب إلى ذلك، فسألوه تأخير ذلك الأمر في المركَبِ حتى يكلموا هرمز، ففعل، ولقي أولئك الرهطُ هرمزًا وأعلموه أن ذلك المركب الذي غار إنما غار زَعارَةً[٥]، وأنه أُخِذَ لوقته، وسألوه أن يأمر بالكف عن جدعه وبتره، لما في ذلك من سوء الطِّيرَةِ[٦] فلم يجبهم إلى ما سألوه، وأمر بالمركب فجدعت أذناه وبتر ذنبه، وغَرِم كسرى كما يغرَم غيره من الجند ثم ارتحل.

قال: وركب ذات يوم في أوان إيناع الكَرْم يريد ساباط[٧] المدائن، وكان ممرُّه على بساتين وكروم، فنظر بعض الأَساوِرَة إلى كرم فرأى حِصْرِما، فأصاب منه عناقيدَ ودفعها إلى غلامه وقال: اذهب بها إلى المنزلة وٱطبخها بلحم وٱصنع منها مرقة فإنها نافعة في هذا الإبّان، فأتاه حافظ ذلك الكرم فلزمه وصاح به، فبلغ إشفاق الأُسوار من عقوبة هرمز أن دفع إلى حافظ الكرم مِنْطَقة[٨] محلاَّةً بالذهب كانت في وسطه، وسأله أن يأخذها عوضًا عما أخذه من الحِصْرِم، ولا يرفع الأمر إلى الملك.

(١) صيف بالمكان: أي أقام به صيفًا.
(٢) الحروث: جمع الحرث، وهي الزّرع.
(٣) جدع أنفه: أي قطعه.
(٤) الرهط: الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة، أو ما دون العشرة.
(٥) زعارة: أي شراسة وسوء خلق.
(٦) الطّيرة: طيرة الغضب أو الشباب ونحوه.
(٧) ساباط: أي ساباط كسرى: وهو بالمدائن، موضع معروف؛ قال أبو المنذر: إنما سمّي ساباط الذي بالمدائن بساباط بن باطا كان ينزله فسمّي به، وهو أخو النخيرجان بن ياطا الذي لقي العرب في جمع من أهل المدائن. والساباط عند العرب: سقيفة بين دارين من تحتها طريق نافذ.. (معجم البلدان لياقوت).
(٨) المنطقة: ما يشد به الوسط.

فهذه كانت سيرته في العدل، وهذا كان خوف جنده وأساورته منه. وكان مظفَّرًا منصورًا، وكان أديبًا داهيًا، إلا أنه كان مُقْصِيًا للأشراف وأهل البيوتات والعلماء. وقيل: إنه قتل ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل منهم، ولم يكن له رأي إلا في تألف السِّفْلة وأسقاط الناس واستصلاحِهم. وحبس خلقًا كثيرًا من العظماء، وحط مراتب جماعة كبيرة، وقصّر بالأساورة ففسدت عليه نيات أكابر جنده وعظماء مملكته، فكان عاقبة سوء هذا التدبير أن خرج عليه جماعة من الملوك منهم شابه شاه ملك الترك في ثلاثمائة ألف مقاتل، وسار إلى باذَغِيس[١]، وذلك بعد مضيّ إحدى عشْرة سنة من ملكه، وخرج عليه ملك الروم في ثمانين ألف مقاتل، وخرج عليه ملك الخزر حتى سار إلى باب الأبواب، وخرج عليه من العرب خلق كثير، فنزلوا في شاطىء الفُرات وشنّوا الغارات على أهل السواد، فاجترأ عليه أعداؤه وغزوا بلاده.

فأما شابه شاه ملك الترك فإنه أرسل إلى هرمز وإلى عظماء مُلكه من الفرس يؤذنهم بإقباله في جيوشه زُمَرًا زُمَرًا، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم، ويسلك إليهم من بلادهم، وأمرهم أن يعقدوا له قناطر على كل نهر يمرّ عليه في بلادهم من الأنهار التي لا قناطر عليها، وكذلك في الأودية، وأن يسهِّلوا له الطرق والمسالك وقال: فإنني قد أجمعت على المسير إلى بلاد الروم من بلادكم، فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك، وجمع أكابر مملكته وعرض ذلك عليهم، وشاورهم فيما يفعله، فاجتمعت الآراء على قصد ملك الترك وحربه، فندب إليه رجلًا من أهل الرأي والنجدة يقال له بهرام جُوبين، فاختار بهرام من العسكر اثني عشر ألفًا من الكهول دون الشباب، وسار بهم حتى انتهى إلى هَراة[٢] وباذغيس، ولم يشعر شابه شاه ملك الترك ببهرام حتى وافاه ونزل بالقرب من معسكره، فكانت بينهما حروب كثيرة آخرها أن بِهرام جوبين قتال شابه شاه برمية رماه بها فاستباح عسكره، وأقام بهرام موضعه، فوافاه برموذة بن شابه وكان يعدل بأبيه، فحاربه فهزمه بهرام جوبين وحصره في بعض الحصون، ثم ألحّ عليه حتى استسلم له، فوجهه أسيرًا إلى هرمز، وغَنِم كنوزًا عظيمة، فيقال إنه حمل إلى هرمز من الأموال والجواهر والأواني وسائر الأمتعة وقر[٣] مائتي ألف وخمسين ألف بعير في مدّة تلك الأيام، فشكره هرمز على ذلك، وأمره أن يتقدّم بمن معه إلى بلاد الترك فلم يره بهرام صوابًا، ثم خاف سطوة هرمز.

---

(١) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ.

(٢) هراة: مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر.

(٣) الوقر: أي الحمل الثقيل، جمع أوقار.

وحُكِيَ له أن الملك يستقلّ ما حمله إليه من الغنائم في جنب ما وصل إليه منها، وأنه يقول في مجالسه قد ترفّه بهرام واستطاب الدَّعة، وبلغ ذلك الجند فخافوا مثل خوفه. فيقال إن بهرام جمع ذات يوم وجوه عسكره وأجلسهم على مراتبهم ثم خرج عليهم في زيّ النساء بيده مِغْزلٌ وقطن حتى جلس في موضعه؛ وحُمِل إلى كل واحد من أولئك القوم مِغزل وقطن ووضع بين أيديهم، فامتعضوا من ذلك وأنكروه وقالوا: ما هذا الزيّ! فقال بهرام: إن كتاب الملك ورد عليّ بذلك ولا بدّ من امتثالي أمره إن كنتم طائعين له، فأظهروا أنفة وحميّة وأجمعوا كلهم على خلع هرمز، فخلعوه وأظهروا أن ابنه كسرى أبرويز أصلح للملك منه، وساعدهم على ذلك خلق كثير ممن كان بحضرة هرمز.

ولما اتصل ذلك بهرمز أنفذ جيشًا كثيفًا مع بعض قوّاده لمحاربة بهرام جوبين، فأشفق أبرويز من الحديث وخاف سطوة أبيه ببهرام، فهرب إلى أذربيجان، فاجتمع إليه هناك عدّة من المَرازِبة ومن الأصبهبذين، فأعطوْه بيعتهم ولم يُظهر أبرويز شيئًا، وأقام بمكانه إلى أن بلغه قتل القائد الذي كان قد بعثه هرمز لمحاربة بهرام جوبين، وهو أذبيحشيش، وهزيمة الجيش الذي كان معه واضطراب أمر هرمز أبيه، وكتبت أخت أذبيحشيش إلى كسرى أبرويز تخبره بضعف أبيه هرمز، وأعلمته أن العظماء والوجوه قد أجمعوا على خلعه، وأن بهرام جوبين إن سبقه إلى المدائن احتوى على الملك. قال: ولم يلبث العظماء أن وثبت على هرمز وفيهم بِنْدَوَيْه وبسطام خالا أبرويز وخلعوه وسملوا عينيه، وتركوه تحرّجًا من قتله. فكان ملكه إلى أن خُلِع وسُمِل اثنتي عشرة سنة.

* * *

ثم ملك بعده ابنه كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان. قال: ولما ملك بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين وتتوّج وجمع إليه الوجوه والأشراف، وجلس على السرير ومنّاهم، وأمرهم بالسمع والطاعة، فاستبشر الناس به ودعَوْا له وأجابوه ودخلوا تحت طاعته. فلما كان في اليوم الثاني أتى إلى أبيه فسجد له، وآعتذر وقال: إنك تعلم أيها الملك إنني بريء مما جناه إليك هؤلاء القوم الذين فعلوا بك ما فعلوا، وإنما هربتُ خوفًا منك وإشفاقًا على نفسي، فصدّقه هرمز وقال: يا بنيّ! إن لي إليك حاجتين فاسعفني بهما، إحداهما: أن تنتقم لي ممن عاون على خلعي وسَمَل عينيّ ولا تأخذك بهم رأفة، والأخرى تُؤْنسني كل يوم بثلاثة نفر ممن لهم أصالة رأي، وتأذن لهم بالدخول إليّ؛ فتواضع له أبرويز وقال: عمرك اللّهَ أيها

الملك، إن المارِق[١] بهرام قد أطلنا[٢] ومعه أهل الشجاعة والنجدة، ولسنا نقدِر أن نمدّ يدًا إلى من أتى إليك ما أتى؛ فإنهم وجوه أصحابك؛ ولكن إن أمكنني الله من المنافق فأنا خليفتك وطوع أمرك.

قال: وأما بهرام جوبين فإنه ورد إلى النهروان[٣]، فخرج كسرى أبرويز إليه وواقفه بها وجعل النهر بينه وبينه، ودار بينهما كلام كثير. كل ذلك في استصلاح بهرام ورجوعه إلى الطاعة، وهو لا يُجيب إلى ذلك ولا يردّ إلا ما يسوء أبرويز حتى يئس منه وأجمع على حربه والتقَوْا واقتتلوا. وكان بينهما أخبار كثيرة وأحاديث طويلة آخرها أن أبرويز ضَعُفَ عنه بعد أن قتل بيده ثلاثة نفر من الأتراك، وكانوا من أشدهم وأعظمهم شجاعة ووَسامة، وكانوا قد التزموا لبهرام بقتل أبرويز، وضمن لهم بهرام على ذلك أموالاً عظيمة.

قال: ثم رأى أبرويز من أصحابه فتورًا فسار إلى أبيه وشاوره فرأى المسير إلى الروم، وأحرز[٤] نساءه وشخَص في عدّة يسيرة فيهم بِنْدَوَيْه وبسطام وكُرْدى أخو بهرام؛ لأنه كان معاديًا لأخيه، شديد الطاعة والنصيحة لأبرويز. فلما خرجوا من المدائن خاف القوم من بهرام، وأشفقوا أن يردّ هرمز إلى الملك، ويكاتب ملك الروم عن هرمز في ردّهم فيتلفوا؛ فذكروا ذلك لأبرويز واستأذنوه في إتلاف هرمز فلم يُحِرْ جوابًا، فانصرف بِنْدَوَيْه وبسطام وطائفة معهما إلى هرمز فخنقوه ثم رجعوا إلى كسرى فقالوا: سر على خير طالع، وأيمن طائر؛ فحثّوا[٥] دوابّهم وساروا إلى الفُرات فقطعوه، وأخذوا طريق المفازة بدلالة رجل يقال له: خُرْشِيذان وساروا إلى بعض الديارات التي في أطراف العمارة، فلما أوطنوه للراحة لحقتهم خيل بهرام جوبين، فلما نَذِروا بهم أَنْبَه بندويه أبرويزَ من نومه وقال له: احتل لنفسك فإن القوم قد طلبوك. فقال كسرى: ما عندي حيلة. فقال بندويه: إني سأحتال لك بأن أبذل نفسي دونك؛ قال: وكيف ذلك؟ قال: تدفع لي ثوبك وزينتك لأعلوَ الدير وتنجو أنت ومن معك من وراء الدير، فإن القوم إذا وصلوا ورأوا هيئتك عليّ اشتغلوا بي عن غيري،

(١) المارق: الخارج من دينه. (٢) أطلنا: أشرف علينا.
(٣) النهروان: هي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة؛ وقد أورد صاحب معجم البلدان قصة طريفة في سبب تسميتها بذلك..
(٤) يقال: حرز حرازة: إذا امتنع وتحصّن؛ ويقال: احترز منه: إذا توقاه.
(٥) حثّه: أي أعجله إعجالاً متصلاً.

وطاولتهم حتى تفوتهم، ففعل ذلك. وخرج أبرويز ومن معه، ثم وافت خيل بهرام الدير وعليهم قائد لهم يقال له بهرام بن سِياوش فاطلع عليهم بندويه من فوق الدير وعليه زينة أبرويز وثيابه، وأوهمهم أنه هو، وسأله أن يُنظِره إلى غد ليصير في يده سليمًا ويسير به إلى بهرام جوبين، فأمسك عنه وحفظ الدير ليلة كاملة بالحرس. فلما أصبح اطلع عليه في بزّته وحليته وقال: إن عليّ وعلى أصحابي بقيةَ شغل من استعداد وصلوات وعبادات فأمهلنا ولم يزل يدافعه حتى مضى عامة النهار وأمعن أبرويز، وعلم بندويه أنه قد فاتهم، ففتح الباب حينئذ وأعلم بهرام سياوش بأمره، فانصرف به إلى بهرام جوبين فحبسه.

وأما بهرام جوبين فإنه دخل المدائن وجلس على سرير الملك، وجمع العظماء فخطبهم وذمّ أبرويز ودار بينهم كلام، فكان كلهم منصرفًا عنه إلا أن بهرام تتوّج وانقاد له الناس خوفًا، ثم إن بهرام بن سياوش واطأ بندويه على الفتك ببهرام جوبين، فظهر بهرام على ذلك، فقتل سياوش وأفلت بندويه ولحق بأذربيجان، وسار أبرويز حتى أتى أنطاكية فكاتب ملك الروم منها، وراسله بجميع من كان معه وسأله نصرته، فأجابه إلى ذلك وزوّجه ابنته مريم وحملها إليه، وأمدّه بثياذوس أخيه ومعه ستون ألفًا من المقاتلة[١]، عليهم رجل يقال له سرجس، يتولى تدبير أمرهم، ورجل آخر من أبطال الروم، كان يعدّ بينهم بألف رجل، وسأله ترك الأتاوة التي كان أبوه ومَنْ قبله من ملوك الفرس يستأدونها من ملوك الروم إذا هو مَلَك، فأجابه إلى ذلك، وفرح بالجيش الذي أمدّهُ به ملك الروم، واغتبط بهم وأراحهم خمسة أيام، ثم عرضهم وعرّف عليهم العرفاء وسار بهم حتى نزل من أذربيجان في صحراء تدعى الدنق فوافاه هناك بندويه ورجل من أصبهبذي الناحية يقال له موسيل في أربعين ألف مقاتل، فانضمّوا إليه، ووافاه الناس بالخيل من أصبهان وفارس، وانتهى إلى بهرام جوبين مكانه بصحراء الدنق، فشخص نحوه من المدائن، فجرت بينهما حروب شديدة قتل فيها الكميّ[٢] الروميّ بضربة ضربه بها بعض الفرس على رأسه فقدّ رأسه وبدنه، وعاد فرسُه بنصف بدنه الباقي إلى المعركة.

فلما رآه أبرويز استضحك؛ فعظم ذلك على الروم وعاتبوا أبرويز وقالوا له: هذا جزاؤنا منك! يقتل كميُّنا وواحد عصره في طاعتك وبين يديك ونصحك ونصرتك

(١) يقال: واطأ فلانًا على الأمر: إذا وافقه.

(٢) الكميّ: الشجاع المقدام الجريء، كان عليه سلاح أو لم يكن.

وأنت تضحك لقتله! فاعتذر بأن قال: إني والله ما ضحكت لما تكرهون. ولقد شقَّ عليّ أن فَقَدتُ مثله أكثر مما شقّ عليكم، ولكني رأيتكم تستصغرون شأن جوبين وتُنكرون هربي منه، فذكرت ذلك من قولكم الآن وعلمت أنكم برؤيتكم هذه الضربة تعذرونني وتعلمون يقينًا أن هربي إنما كان من أمثال هؤلاء القوم الذين هذا مبلغ نكايتهم[١] في الأبطال. ويقال إن أبرويز حارب بهرام منفردًا عن العسكر بأربعة عشر رجلاً منهم كردي أخو جوبين وبندويه وبسطام حربًا شديدًا وصل فيها بعضهم إلى بعض، وآخر الأمر أن أبرويز استظهر استظهارًا يئس منه بهرام جوبين، وعلم أنه لا حيلة له فيه ولا قدرة عليه، فانحاز عنه نحو خراسان، ثم سار إلى الترك، وسار أبرويز إلى المدائن بعد أن فرق في الجنود من الروم أموالاً عظيمة وصرفهم إلى ملك الروم.

قال: ولبث بهرام جوبين في الترك مكرمًا عند الملك حتى احتال عليه كسرى[٢] أبرويز بتوجيهه رجلاً يقال له هرمز إلى الترك بجوهر نفيس وغيره من الهدايا إلى اَمرأة ملك الترك حتى دسّت لبهرام من قتله؛ فاغتمّ خاقان لموته وأرسل إلى أخته كردية وامرأته يعلمهما بلوغ الحوادث ببهرام، وسأل كردية أخت بهرام أن يتزوّجها وفارق اَمرأته خاتون بهذا السبب، فأجابته كردية جوابًا لينًا، ثم ضمت إليها مَنْ كان مع أخيها بهرام من المقاتلة، وخرجت بهم من بلاد الترك إلى حدود مملكة فارس، فأتبعها ملك الترك أخاه نطرا في اَثني عشر ألف فارس. فيقال إن كردية قاتلت وقتلت نطرًا بيدها، ومضت لوجهها حتى بلغت حدود أرض فارس، وكتبت إلى أخيها كردي فأخذ لها أمانًا من أبرويز، فلما قدِمت عليه اغتبط بها وتزوّج بها أبرويز.

قال: ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذي نصره وأمدّه ويهاديه إلى أن وثبت الروم عليه[٣] في شيء أنكروه منه فقتلوه وملّكوا غيره، فبلغ ذلك أبرويز فتألم له وأوى إلى أبرويز ابن الملك المقتول، فتوجه أبرويز وملّكه على الروم، ووجّه معه جنودًا كثيفة مع شهرياز فدوّخ بهم البلاد. وملك صاحب كسرى بيت المقدس وأخذ خشبة الصلب وبعث بها إلى كسرى، وذلك في أربع وعشرين سنة من ملكه، ثم

---

(١) النكاية في الأبطال: الإيقاع بهم، وغلبتهم وهزيمتهم.

(٢) كسرى: المراد به لقب شاهنشاه الفرس، وهو أبرويز بن كسرى أبرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان.

(٣) وثب عليه: أي غالبه وساوره.

احتوى على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة، وبعث مفاتيح ثغر الإسكندرية إلى كسرى في سنة ثمان وعشرين من ملكه، وقصد قسطنطينية فأناخ[١] على ضفة الخليج الذي هو بالقرب منها وخيم هنالك، فأمره كسرى فخرّب بلاد الروم غضبًا على أهلها لما انتهكوا من ملكهم وانتقامًا له، ومع ذلك لم يخضعوا لاَبن ملكهم المقتول ولا منحوه الطاعة، ولا مال إليه واحد منهم؛ غير أنهم قتلوا الملك الذي ملّكوه عليهم بعد أبيه المسمى قوقالما ظهر لهم من فجوره وسوء تدبيره؛ وملّكوا عليهم رجلاً يقال له هرقل. فلما رأى هرقل عظم ما فيه أهل بلاد الروم من تخريب جنود فارس بلادَهم، وقتْلِهم مقاتِلتهم، وسبيِهم ذراريهم، واستباحتِهم أموالهم تضرّع إلى الله وأكثر الدعاء وابتهل. فيقال إنه رأى في منامه رجلاً ضخم الجثة رفيع المجلس قد دخل عليه، فدخل عليهما داخل فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إني قد أسلمته في يدك، فلم يقصص رؤياه تلك في يقظته على أحد حتى توالت عليه أمثالها، فرأى في بعض لياليه كأن رجلاً دخل عليهما وبيده سلسلة طويلة فألقاها في عنق صاحبه، أعني صاحب المجلس الرفيع، ثم دفعه إليه وقال له: ها قد دفعت إليك كسرى برقبته.

فلما تتابعت هذه الأحلام قصّها على عظماء الروم وذوي العلم منهم، فأشاروا عليه أن يغزوَه، فاَستعدّ هرقل واَستخلف اَبنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ عن الطريق الذي فيه شهرياز صاحب كسرى وعدل إلى غيرها، وسار حتى أوغل في بلاد أرمينية ونزل نصيبين، وكان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استُدْعِيَ لِمَوْجِدة كانت من كسرى عليه. وأما شهرياز فقد كانت كتُبُ كسرى ترد عليه في الجثوم على الموضع الذي هو به وترك البراح، ثم بلغه أن هرقل قد أقام بجنوده بنصيبين، فوجه كسرى لمحاربة هرقل رجلاً من قوّاده يقال له: راهزار في اَثني عشر ألف رجل من الأنجاد[٢]، وأمره أن يقيم بنِينَوى ـ وهي الموصل ـ على شاطىء دجلة ويمنع الروم أن يجوزوها. وكان كسرى بلغه خبرُ هرقل، وهو يومذاك بدَسْكَرة[٣] المُلْك، فنفذ الجيش لمنعه من جواز دجلة، فعسكروا حيث أمرهم كسرى، فقطع هرقل دجلة من موضع آخر إلى الناحية التي فيها جنود فارس، فأذكى راهزار العيون عليه، فأخبروه أن هرقل في سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزار ومن معه من الجند أنهم عاجزون عن

---

(١) يقال: أناخ بالمكان: إذا أقام فيه.

(٢) الأنجاد: جمع النّجد، وهو الرجل الماضي فيما لا يستطيعه سواه.

(٣) دسكره: تقدم تفسيرها.

مناهضته، فكتب إلى كسرى غير مرة أن هرقل قد دهمه بما لا طاقة له به ولا قبل من الجنود الكثيرة. كل ذلك يجيبه كسرى بأنه إن عجَزَ عن الروم فلن يعجِزَ عن استقبالهم، وبَذْلِ دماء الفرس في طاعته.

فلما تتابعت على راهزار أجوبة كسرى بذلك عبّأ[١] جنده وناهض الروم بهم؛ فقتلت الروم راهزار وستة آلاف رجل من الفرس، وانهزم بقيتهم وهربوا على وجوههم لا يلوون على شيء، وبلغ كسرى ذلك فانحاز من دسكرة المُلك إلى المدائن[٢]، وتحصّن بها لعجزه عن محاربة هرقل، وسار هرقل بجيوش الروم حتى كان قريبًا من المدائن، فاستعدّ كسرى لقتاله، فلما بلغه ذلك أنصرف إلى أرض الروم، وكتب كسرى إلى قوّاد الجند الذين انهزموا يأمرهم أن يَدُلّوه على كل رجل انهزم منهم، ومن فَشِل في تلك الحرب، ولم يرابط مركَزه، وأمر بعقوبتهم بحسب ما استوجبوا، فأحوجهم بهذا الكتاب إلى الخلاف عليه، وطلب الحِيَل لنجاة أنفسهم منه، وكتب إلى شهرياز يأمره بالقدوم عليه ويستعجله في ذلك ويصف ما نال هرقل منه ومن بلاده.

وقد حكي أن كسرى عرِّف أن له أمرأة في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال فدعاها وقال: إنّي أريد أن أبعث إلى الروم جيشًا وأستعمل عليهم رَجُلاً من بَنِيك فأشِيرِي عليّ أيُّهم أستعمل، فوصفتْ له أولادُها فقالت: هذا فَرُّخان أنفذ من سِنان؛ وهذا شَهْرَياز أَحْكَم من كذا، وهذا فلان أَرْوَغُ من كذا؛ فأستعمل شَهْرَياز؛ فسار إلى الروم فظهر عليهم وهزمهم وخرَّب مدائنهم.

فلمّا ظهرتْ فارس على الروم جلس في بعض الأيام فَرُّخان يشرب؛ فقال فَرُّخان لأصحابه: لقد رأيتُ أنّي جالس على سرير كِسْرى، فبلغتْ كلمتُه كِسْرى، فكتب إلى شَهْرَياز: إذا أتاك كتابي هذا فأبعث إليّ برأس فَرُّخان، فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرّخان، وإن له نكايةً في العدوّ وصيتًا فلا تفعل، فكتب

(١) عبّأ الجيش: جهزه في مواضعه وهيأه للحرب.

(٢) المدائن: موضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون من مدائنها ثم أسفانبر ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك.. (معجم البلدان).

إليه: إنّ في رجال فارس خَلَفًا منه، فعجِّل إليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى ولم يُجِبه، وبعث بَرِيدًا إلى أهل فارس: إنّي قد نزعتُ عنكم شهرياز وٱستعملتُ فَرُّخان، فٱنقَاد له شهرياز وقال: سمعًا وطاعةً، ونزل عن سريره وجلس عليه فَرُّخان، ثم دفع البريد(١) صحيفةً صغيرةً إلى فرّخان كان كسرى قد أعطاها له وقال له: إذا ٱنقاد شهرياز إلى طاعة فَرُّخان فأعط فَرُّخان هذه الصحيفة، فلما قرأها فرّخان قال: عليّ بشهرياز! فأُتي به فقُدِّم ليضرب عنقه فقال: لا تعجِّل عليّ حتى أكتب وصيّتي، ثم دعا بسَفَط(٢) وأخرج منه ثلاث صحائف، وهي التي كان كِسْرى أمر شَهْرَياز فيها بقتل فَرُّخان وقال له: كلّ هذه راجعت كسرى فيها عنك، وأنت تريد أن تقتلني بكتاب واحد؟ فردَّ المُلْك إلى أخيه وٱعتذر منه، فكتب شهرياز إلى هِرَقْل ملك الروم: إنّ لي إليك حاجة لا تحملها البُرُد(٣)، ولا تُبلِّغها الصُّحُف، فألقِني ولا تأتيني إلاّ في خمسين روميًا، فإنّي أيضًا ألقاك في خمسين فارسيًا، فأقبل هِرَقْل في خمسمائة ألف روميّ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مَكَر به، فأتته عيونه(٤) أنه ليس مع شَهْرياز إلا خمسين رجلاً.

قال: ثم ٱلتقيَا وقد بُسِط لهما في قُبّة من الدِّيباج ضُربت لهما، فٱجتمعا ومع كلّ واحدٍ منهما سِكِّين، ودعَوْا تُرْجُمانًا يترجم لكلٍّ منهما عن قول الآخر؛ فقال شهرياز لهرقل: إنّ الذين خرَّبوا مدينتك وبلغوا منك ومن جندك ما بلغوا أنا وأخي بشجاعتنا وكَيْدنا، وإنّ كِسْرى حَسَدَنا وأراد قَتْلَ أخي وكتب إليّ بقتله فأبيتُ، ثم أمر أخي أن يقتلني وقد خلعناه جميعًا ونحن نقاتله معك. قال: قد أصبتما ووفِّقتما، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه: إنّ السرّ إنما يكون بين ٱثنين فإذا جاوز ٱثنين فشا، قال الآخر: نعم، فقاما جميعًا إلى الترجمان بسكِّينَيْهما فقتلاه، وٱتفقا على قتال كسرى أبرويز.

ومما ٱتفق في أيامه من الحوادث يوم ذي قار، وسنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أيام العرب ووقائعها، ولم نذكر في هذا الموضع يوم ذي قار على سبيل الإيراد له بل على سبيل التنبيه عليه.

---

(١) المراد بالبريد هنا: الرسول.

(٢) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.

(٣) البرد: جمع البريد، وهو الرسول. (٤) العيون: يراد بها الجواسيس.

ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم

قال: كان أبرويز وجّه رجلاً من جِلّة[١] أصحابه في جيش جرّار إلى بلاد الروم، فنكأ[٢] فيهم، وبلغ منهم، وفتح الشام، وبلغ الدرب في آثار الروم، فعظُم أمرُه حتى خافه أبرويز، فكاتبه بكتابين، يأمره في أحدهما أن يستخلف على جيشه مَنْ يثق به، ويُقبل إليه، ويأمره في الكتاب الآخر أن يُقيم بمكانه، وأنه لمّا تدبّر أمره، وأجال الرأي لم ير مَنْ يسُدُّ مَسَدّه، ولم يأمن الخَلل إن غاب عن موضعه، وأرسل بالكتابين رسولاً من ثِقاته وقال له: أعطِه الكتاب الأوّل بالأمر بالقدوم، فإن أجاب إلى ذلك فهو ما أردت، وإن كَرِه وتثاقلَ عن الطاعة فاسكُت عليه أيامًا وأعلمه أن الكتاب الثاني ورد عليك وأوصله إليه ليقيم بموضعه. فخرج رسول كسرى حتى أتى صاحب الجيش ببلاد الشام فأوصل إليه الكتاب، فلمّا قرأه قال: إمّا أن يكون كسرى قد تغيّر لي وكَرِه موضعي، أو يكون قد اختلط عقلُه بصرف مثلي وأنا في نَحْر العدوّ؛ فدعا أصحابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه. فلما كان بعد ثلاثة أيام أوصل إليه الكتاب الثاني بالمقام وأوهمه أنّ رسولاً ورد به. فلمّا قرأه قال: هذا تخليط[٣] ولم يقع منه موقعًا، ودسّ إلى ملك الروم من باطنه في إيقاع الصلح بينهما على أن يُخلي الطريق لملك الروم حتى يدخل إلى بلاد العراق على غِرّة من كِسْرى، وعلى أنّ لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق، وللفارسيّ ما وراءَ ذلك من بلاد فارس، فأجابه ملك الروم إلى ذلك وتنحّى الفارسيّ عنه في ناحية من الجزيرة، وأخذ أفواه الطريق، فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم من ناحية قرقيسيا[٤]، وكسرى على غير استعداد، وجُنده متفرّقون في أعماله. فلما أتاه الخبر وثب عن سريره وقال: هذا وقت حيلة ومكيدة، لا وقت شدّة، وجعل ينكُث الأرض مليًا، ثم دعا برقٍّ[٥] فكتب فيه كتابًا صغيرًا بخطّ دقيق إلى صاحبه بالجزيرة يقول فيه: قد علمتَ ما كنتَ أمرتُك به من مواصلة صاحب

---

(١) الجلة: العظام السادة ذوو السلطان.

(٢) يقال: نكأ في العدو: أي قتل فيهم وجرح وأثخن.

(٣) المراد بالتخليط: فساد العقل واضطرابه.

(٤) قرقيسيا: مدينة بالجزيرة مصب نهر الخابور بالفرات. وقرقيسيا: معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لإرسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة؛ وقرقيسيا من الإقليم الرابع. . .

(٥) الرّق: بتشديد الراء وكسرها وتشديد القاف: جلد رقيق يكتب فيه؛ أو الصحيفة البيضاء.

الروم وأطماعهم في نفسك، وتخليَة الطريق حتى إذا تُولج بلادنا أخذته من أمامه، وأخذته ومَن ندبناه معك من خَلْفه فيكون في ذلك بوارُه، وقد تمّ في هذا الوقت ما دبّرناه، وميعادك في الإيقاع به يوم كذا وكذا، ثم دعا راهبًا في دَيْر بجوار مدينته وقال له: أيّ جارٍ كنتُ لك، قال: أفضل جار، فقال: قد بدتْ لنا إليك حاجة، فقال الراهب: الملك أجلّ من أن يكون له إليّ حاجة، ولكن عندي بذل نفسي، فما الذي يأمر به الملك؟ قال كسرى: تحمل لي كتابًا إلى فلان صاحبي، قال نعم، قال كسرى: ستمرّ بأصحابك النصارى فأخفه، فلما ولّى عنه الراهب قال له كسرى: أعلمتَ ما في الكتاب؟ قال لا، قال: فلا تحمله حتى تعلم ما فيه. فلما قرأه أدخله في جيبه ثم مضى. فلما صار في عسكر الروم ونظر إلى الصُلبان والقِسّيسِين وضَجيجِهم بالتقديس والصلوات أحترق قلب الراهب وأشفق عليهم وقال في نفسه: أنا شرّ الناس إنْ حملتُ بيدي حَتْفَ النصرانية، وهلاك هؤلاء الخلق؛ فصاح الراهب: أنا لم يُحملني الملك كسرى رسالة ولا معي كتاب، فأخذوه فوجدوا الكتاب معه، وقد كان كسرى أيضًا وجّه رسولاً قبل ذلك وأمره أن يمرّ بعسكر الروم كأنه رسولٌ إلى كسرى من صاحبه الذي وافق ملك الروم ومعه كتابٌ فيه: إنّ الملك كان قد أمرني بمقاربة ملك الروم، وأن أخدعه وأُخلي له الطريق، فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خَلْفه، وقد فعلتُ ذلك، فرأى الملك في إعلامي وقت خروجه إليه. فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال: قد عجبتُ من أن يكون هذا الفارسيّ معي على كسرى، ووافاه كسرى أبرويز فيمن أمكنه من جُنده، فوجد ملك الروم قد ولّى هاربًا فأتبعه يقتل ويأسر مَن أدرك، وبلغ صاحب كسرى هزيمة الروم فأحبّ أن يُخليَ نفسه ويستر ذنبه. فلمّا فاته ما دبَّر خرج خلف ملك الروم يقتل فيهم ويأسر، فلم يسلم منهم إلاّ القليل.

ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله

قال: وكان سبب ذلك تجبّره وأحتقاره للعلماء وعُتُوّه، وذلك أنه استخفّ بما لا يستخفّ به الملك الحازم، وكان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك، وبلغتْ خيله إلى قسطنطينية وإفريقية، وكانت له أثنتا عشرة ألف أمرأة وجارية، وألف فيل إلاّ فيل واحد، وخمسون ألف دابّة، ومن الجواهر والأواني والآلات ما يليق بذلك، وأمر أن يُحْصِي ما جُبِيَ من بلاده وسائر أبواب المال سنة ثماني عشرة من

مُلْكه، فرُفع إليه أنّ الذي جُبِيَ في تلك السنة من الخراج وسائر الأبواب كان ستمائة ألف ألف درهم، وأمر أن يُحوَّل إلى بيت مالٍ بُنِيَ بمدينة طَيْسَفون[١] من ضَرْب فَيْروز بن يَزْدَجِرْد وقُباذ بن فَيْروز اثنتي عشرة ألف بَدْرة[٢] من أنواع الجواهر وغير ذلك.

قال: فعتا وتجبّر وٱستهان بالناس والأحرار، وبلغ من جُرأته أنه رأى رجلاً كان على حَرَس باب الخاصّة، يقال له: زاذان فَرُّوخ، فأمره أن يقتل كل مقيّد في سجنٍ من سجونه، فأحصَوْا مَن بالسجون من المقيّدين فبلغوا ستّة وثلاثين ألفًا، فلم يقدِر زاذان فَرُّوخ على قتلهم، وتوقّف عن إمضاء أمر كِسْرى وأعَدّ عِللاً له فيما أمره به فيهم، فكان هذا أحد الأسباب التي كسب بها كسرى عداوة أهل مملكته مع وجود ٱحتقاره إيّاهم، وٱستخفافه بهم، وٱطّراحه لعظمائهم. ومن ذلك أنه سلّط عِلْجًا[٣]، يقال له: فَرُّخان زاذ، على الخراج فاستخرج بقاياهم منهم بعُنْف وعذاب. ومن ذلك أنه أجمع على قتل الفَلّ[٤] الذين ٱنصرفوا إليه من قِبَل هِرَقْل، فأكّدت هذه الأسباب بغضه، وٱستطال الناس مدّته فكان نتيجة ذلك أنّ قومًا من العظماء ٱنصرفوا إلى عَقْر بابِل[٥]، وفيه شِيرَي بن أَبَرْوِيز مع إخوته، وقد كان كسرى أَبَرْويز وكّلَ بهم مؤدّبين وأساورة، يُحولون بينهم وبين من يجتمع بهم من الناس، ويمنعونهم من البراح، فأخذه العظماء وأقبلوا به إلى مدينة بَهُرَسير[٦] ودخلوها ليلاً، فخلّى عمّن كان في سجونها وأخرجهم، وٱجتمع إليه الفلّ الذين كانوا غلبوا وفرّوا من هِرَقْل وأمر كسرى بقتلهم، فنادوا: قُبَاذ شَاهَنْشَاه، وصاروا كلّهم عندَ الصباح إلى رَحَبةِ كِسْرى، فهرَب الحرس، وانحاز كسرى بنفسه إلى باغ[٧] له بالقُرْب من قصره، يعرف بباغ الهِنْدُوَان، فارًّا مرعوبًا، فأُخِذ وحُبِس بمكانٍ غيرِ دار المملكة، في دار رجل يقال له: ماراسْفَنْد،

---

(١) طيسفون: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة، وفاء، وآخره نون: هي مدينة كسرى التي فيها الإيوان، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ.. (معجم البلدان).

(٢) البدرة: كيس فيه مقدار من المال، يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.

(٣) العلج من الرجال: الشديد الكثير الصرع لأقرانه.

(٤) الفَلّ: المنهزم، وقد يكون المراد هنا الجماعة.

(٥) عقر بابل: موضع قرب كربلاء من الكوفة.

(٦) بهر سير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن. وقيل: هي إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن.

(٧) الباغ: البستان.

إلى أن قُتل بعد حديث طويل ومراسلات كانت بينه وبين ٱبنه شِيرَي بمواطأة العظماء، بعد تقريع عظيم، وتوبيخ كثير، على ما كان منه، ومن سوء تدبيره، وقُبْح فعاله، وهو يجيبهم بأجوبة إقناعيّة، وله مراسلاتٌ ووصايا كتبها إلى ٱبنه من السجن؛ قد ذكرنا بعضها فيما سَلَف من هذا الكتاب. وكان هلاكه بعدَ ثمانٍ وثلاثين سنةً من مُلْكه. وبمضيِّ ٱثنتين وثلاثين سنة وخمسةَ أشهر وخمسةَ عشرَ يومًا من مُلْكه، كانت هجرة سيّدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

قال: ولمّا قُبِض على كِسْرى خلّف في بيت المال من الوَرِق أربعمائة ألف بَدْرة سِوَى الكنوز والذخائر والجواهر والآلات.

وكان وزيرُه والقائمُ بتدبير دولته بُزُرْجِمِهْر الحكيم. ولبُزُرْجِمِهْر هذا قضايا وحِكَم ومواعظَ في أيدي الناس. ويقال: إنَّ بُزُرْجِمِهْر هذا إنما كان وزيرًا لكسرى أنوشِرْوان، وهو الذي قتله. وذلك أنّ بُزُرْجِمِهْر ترك المجوسيّة ورجع إلى دين عيسى ابن مريم عليه السلام ودان به، فقتله كسرى لذلك. ويقال: إنه وُجِد في مِنْطَقَتِه لمّا قُتِل كتابٌ فيه: إذا كان القَدَرُ حقًّا فالحِرْصُ باطلٌ، وإذ كان الغَدْرُ في الناس طباعًا فالثِّقةُ بكلّ أحدٍ عَجْزٌ، وإذا كان الموتُ نازلاً فالطُّمأنينةُ إلى الدنيا حُمْقٌ.

قالوا: ولمّا بلغ بُزُرْجِمِهْر من العُمْر خمسَ عشرةَ سنةً دخل على كسرى، وقد جلستْ الوزراء على كَراسيها والمَرازبة في مجالسها، فوقف وحيّا الملِك بتحيّة الملوك ثم قال: الحمدُ لله المأمونِ نِعَمُه، المَرْهوبِ نِقَمُه، الدالّ عليه، بالرغبة إليه، المؤيِّد المُلْك، بسعوده في الفُلْك، حتّى رفعَ شأنَه، وعَظُم سلطانُه، وأنار به البلاد، وأنعش به العباد، وقسَّم به في التقدير، وجوه التدبير، فرعى رعيّته بفضل نعمته، وحَماها الموبِلات، وأوردها المُعْشِبات، وذاد عنها الأكّالين، وألّفها بالرِّفْق واللين، إنعامًا من الله عليه، وتثبيتًا لما في يديه. وأسأله أن يبارك له فيما آتاه، ويخيِّر له فيما ٱسترعاه، ويرفع قدرَه في السماء، ويسير ذكره على وجه الماء، حتى لا يبقى له بينهما مناوي، ولا يُوجَد له مساوي. وأستوهب الله له حياةً لا يتنغّص فيها، وقُدرة لا يَحِيد أحدٌ عنها، ومُلْكًا لا بُؤْس فيه، وعافيةً تُدِيم له البقاء، وتُكثِر له النَّماء؛ وعزًّا يؤمّنه من ٱنقلاب رعيّته، أو هجوم بليّته، فإنه مُؤتِي الخير، ودافعُ الشرّ.

فلمّا سمعه كسرى أمر فحُشِيَ فمُه بنفيس الجواهر، ولم تمنعه حداثةُ سنّه أن ٱستوزره، وقلّده خيرَه وشرَّه؛ فكان أوّلَ داخل، وآخرَ خارج. وكان أبوه خاملَ القَدْر، وَضِيعَ الحال، سَفِيهَ المنطق، ٱسمه البَخْتكان.

قال: ولـمّا قُبِض على أَبرويز ملك بعده ابنه: قُبَاذ بن أبرويز ويُعرَف قُبَاذ بشيرويه. وقُبَاذ هذا هو القابضُ على أبيه والقاتلُ له، وقتل سبعةَ عشرَ أخًا له، وقيل ثمانيةَ عشرَ، ذوي آدابٍ وشجاعة؛ فكان عاقبةُ ذلك أنّ الله عزّ وجلّ ٱبتلاه بالأسقام، فٱنتقض عليه بدنه، ولم يلتذ بشيء من ملاذّ الدنيا، وجَزَع بعد قتل إخوته جَزَعًا شديدًا؛ وكان يبكي حتى يرمَى التاج عن رأسه، وعاش ما عاش مهمومًا حزينًا مُدنَفًا[١]. وفي أيامه فشا الطاعون فأهلك أكثر الفُرْس. وكان مُلْكه ثمانيةَ أشهر، وقيل أكثر من ذلك.

وملك بعد وفاته ٱبنه أزْدَشِير بن شِيرَوَيْه وهو ٱبن سبع سنين ولم يوجد من بيت الملك غيره.

قال: ولـمّا ملّكته الفُرْس عليها حضنه رجلٌ يقال له: مِهْآذَرْجُشنَس، فأحسن سياسة المُلْك. وكان شَهْر بَراز المقيم بثَغْر الروم في جُنْدٍ ضمّهم إليه كِسْرى أبرويز وٱبنه شِيرَوَيْه، وكانا يكتبان إليه ويستشيرانه في الأمر الذي يهمهما ويعملان برأيه. فلمّا مات شِيرَوَيْه وملّكتْ الفُرْس عليها ٱبنه أردشير - مع حداثة سنه - لم يشاوره عظماء الفرس في ذلك، فعظُم عليه ٱنفرادهم عنه، وجعل ذلك ذنبًا لهم، وبسط يده وطمع في المُلْك، وٱستهان بعظماء الفرس، ودعا الناس لنفسه، وأقبل بجُنده نحو المدائن، فعمد مِهْآذَرْجُشْنَس إلى مدينة طَيْسَبُون[٢]، فحصّنها وحوّل أردشير ومَنْ بَقيَ من نَسْل الملوك ونسائهم والأموال والخزائن والكُرَاع وغير ذلك إليها؛ فورد شَهْرَبَراز إلى مدينة طَيْسَبُون وحاصرها ونصَب عليها المجانيق[٣]، فعجزَ عنها لحصانتها، فأخذ في أعمال المكايد والحِيَل، فلم يزل يتلطّف برجل يقال له: نِيوخسرو ويراسله هو وغيره، حتى فتحوا له باب المدينة فدخلها، وقتل جماعة من الرؤساء وٱستصفى أموالهم وقتل أردشير بن شيرويه. وكان مُلْكه سنة ونصفًا، وقيل: إنما ملك نصف سنة، وقيل: خمسة أشهر.

وملك بعده شَهْربَراز، وقيل فيه: شَهْريار، ولم يكن من أهل بيت المملكة.

---

(١) المدنف: المريض الذي أصابه مرض شديد ولزمه.

(٢) طيسبون: تقدم تفسيرها ووصفها.

(٣) المجانيق: أو المجاليق: جمع المنجليق، أو المنجنيق، وهي آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة؛ وهي مؤنثة وقد تذكر.

قال: ولمّا جلس على سرير المُلْك ضرب عليه بطنَه، وبلغ من شدّة ذلك عليه أنه لم يقدر على إتيان الخلاء؛ فدعا بالطست، فوُضع أمام ذلك السرير، ومدّ أمامه ما يستتر به، وبقي يتبرّز في ذلك الطست.

قال: ثم آمتعضَ[١] رجلٌ يقال له: فُسْفرّوخ بن ماخُرْشيذان وأخَوَان له من قتل شَهربَرَاز أردشير بن شِيرَويه وغلبته على المُلْك، فتحالَفوا على قتله. وكان من السنّة[٢] إذا ركب الملك أن يقف له حرسه سمَاطين[٣] عليهم الدروع والبِيض، وبأيديهم السيوف والتِّراس[٤] والرِّماح؛ فإذا حاذاهم الملك وضع كلّ واحدٍ منهم تُرْسه على قَرَبُوس[٥] سَرْجه، ثم يضع جبهته عليه كهيئة السجود.

قال: وآتفق ركوب شَهْربَراز في بعض الأيام فوقف فُسْفرُّوخ وأخواه وهم بالقُرْب من بعضهم بعضًا، فلمّا حازاهم شهربراز طعنه فُسْفرُّوخ، ثم طعنه أخواه فسقط عن دابّته، فشدّوا رجله بحبل وجرّوه إقبالاً وإدبارًا ساعةً، وساعدهم العظماء على ذلك، وقتلوا جماعةً ممن كان قد ساعد شَهْربَراز على قتل أردشير. فكان مُلْكه أربعين يومًا، وقيل عشرين يومًا.

وملكتْ بعده بُوران بنت كسرى أبرويز ويقال لها: بوران دخت.

قال: فأحسنتِ السِّيرة وبسطتِ العدل، وأمرت برمّ[٦] القناطر والجسور، وإعادة ما تشعَّث من العمارات، ووضعتْ بقايا الخَرَاج، وكتبت إلى الناس عامّة كتبًا تعلمهم ما هي عليه من الإحسان، وأنها ترجو أن يريَهُم الله من الرفاهية والآستقامة بمكانها، ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون أنه ليس ببطش الرجال تُدوّخ البلاد، ولا ببأسهم تُستبَاح العساكر، ولا بمكائدهم ينال الظفَر وتُطفَأ النوائر؛ ولكنّ ذلك بالله عزّ وجلّ، وحُسْن النيّة واستقامة التدبير. وأمرتْ بالمُناصحة وحُسْن الطاعة، وردّت خشبة الصليب على مَلِك الروم. وكان مُلْكها سنةً وأربعةَ أشهر.

---

(١) امتعض: غضب وتألم.

(٢) السنّة: الطريقة؛ أو السيرة حميدة كانت أو ذميمة.

(٣) سماطين: مثنى السماط، وهو الصفّ.

(٤) التراس: جمع الترس، وهو صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه.

(٥) القربوس: صنو السرج. جمع قرابيس. وللسرج قربوسان، فأما القربوس المقدم ففيه العضدان، وهما رجلا السرج؛ والقربوس الآخر فيه رجلا المؤخرة، وهما صنواه..

(٦) رمّ الشيء: أي أصلحه وقد فسد بعضه. يقال: رمّ المنزل ونحوه.

ثم ملك رجلٌ يقال له: جُشْنَسْدِه وهو ٱبن عمّ أبرويز، وكان مُلْكه أقلّ من شهر، وقيل: إن الذي ملك يَزْدَجِرْد بن كسرى وهو طفل.

ثم ملكتْ بعده آزَرْمِيدُخْت بنت كسرى أبرويز، وكانت من أجمل نساء دهرها، وكان عظيم فارس يومئذ فَرُّخَ هُرْمُز أصْبِهْبذ خراسان؛ فأرسل إليها يسألها أن تزوّجه نفسها، فأرسلت إليه: التزويج للملكة غير جائز، وقد علمتُ أن أرِيَك فيما ذهبتَ إليه قضاء حاجتك منّي؛ فصِرْ إليّ ليلة كذا وكذا، ففعل وركِب إليها في تلك الليلة، وتقدّمت إلى صاحب حرسها أن يرصده في الليلة التي تواعدا للٱلتقاء فيها، فإذا رآه يقتله، فرصده صاحبُ الحرس؛ فلمّا جاء قتله وجرّ برجله وطرحه في رحبة دار المُلْك.

فلمّا أصبح الناس ورأَوْه علموا أنه لم يُقتَل إلاّ لأمر عظيم، ثم أمرتْ بتغييب جثّته فغُيِّبت. وكان رُسْتَم بن فَرّخ هُرْمُز هذا - وهو رُسْتَم صاحب القادسيّة - عظيم البأس، قويًّا في نفسه، فلمّا بلغه ما صُنع بأبيه أقبل في جُنْد عظيم حتى نزل المدائن؛ فقبض على آزَرْمِيدُخْت وسَمَل عينيها وقتلها بعد ذلك. فكانت مدّة مُلْكها ستةَ أشهر.

واختُلف فيمَن ملك بعد آزَرْمِيدُخْت، فقيل رجل من عَقِب أردشير بن بابك كان ينزل الأهواز يقال له: كِسْرَى بن مِهْرجُشْنَس، فلبس التاج وقتل بعد أيام. ويقال: بل كان رجل يسكن مَيْسان[1] يقال له فَيْروز، فملّكوه كُرْهًا. وكان ضخم الرأس، فلمّا تُوِّج قال: ما أضيقَ هذا التاج! فتطيّر العلماء من ٱفتتاح الأمر بالضيق وقتلوه. ثم أُتِيَ برجُل من أولاد كِسْرى كان قد لجأ إلى موضع من الغرب بالقرب من نَصِيبين، يقال له: «حصن الحجارة» حين قَتَل شِيرَويْه بن كِسرى أبرويز إخْوَتَه، وهو فَرُّخْ زاباذ خُسْرَوْ بن كِسْرى أبرويز، فٱنقاد الناس له طَوْعًا زمانًا يسيرًا ثم ٱستعصَوْا عليه وخالفوه. وكان مُلْكه ستةَ أشهر. وكان أهل اصطخر قد ظفروا بِيَزْدَجِرْد بن شَهْريار بن أبرويز بٱصطخر، وكان قد هرب إليها حين قَتَل شِيرَويه إخوته. فلمّا بلغ عظماء أهل اصطخر أنّ مَن بالمدائن خالفوا الملك فَرُّخ زاد خُسْرَوْ أتَوْا يَزْدَجِرْد ببيت نار أردشير، فتوَّجوه هناك وملّكوه، وكان حَدَثًا[2]، ثم أقبلوا به إلى المدائن وقتلوا فَرُّخ زاد خُسْرَوْ بحيل احتالوها عليه.

---

(١) ميسان: بالفتح ثم السكون، وسين مهملة، وآخره نون: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان، وفي هذه الكورة أيضًا قبر عزير النبي عليه السلام... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الحدث: الصغير السنّ.

ومَلَك يَزْدَجِرْد بن شَهْريَار بن كسرى أبرويز بن هُرمُز بن كِسْرى أنوشِرْان بن بَهْرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك، فمَلك وكان العظماء والوزراء يدبِّرون المُلْك لحداثة سنِّه، وهو آخرُ الملوك الساسانيّة وعليه ٱنقرضتْ دولتهم، فلم تقُم لهم قائمة، وتردّد إلى بلاد خراسان وإلى بلاد الترك، وعاد فقُتِل بمَرْو[١] من بلاد خراسان في سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

وكانت مدّة مُلْك يَزْدَجِرْد منذ ملك وإلى أن قُتِل عشرين سنةً، إلاّ أنّ فيها مدّة لا يعدّ فيها مع الملوك؛ لأنه كان مشرّدًا طريدًا على ما نذكر أخباره مفصّلة، وكيف فُتحتْ بلاده ومُدُنه بلدًا بلدًا، ومدينةً مدينةً في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان رضي الله عنهما.

فعِدّة ملوك الفرس الأُوَل والساسانيّة على هذا المساق الذي ذكرناه ٱثنان وخمسون ملِكًا منهم ثلاث نسوة. فالفرس الأُوَل عشرون مَلِكًا منهم ٱمرأة واحدة. والملوك الساسانيّة ٱثنان وثلاثون ملكًا فيهم ٱمرأتان. وذكر بعض المؤرّخين أنّ ملوك الفرس ستّون ملكًا، وأنّ مدّة مُلْكهم أربعة آلاف سنة وسبعون سنة وشهورًا. والله أعلم.

ذكر أخبار ملوك اليونان وأنسابهم

قد تنازَع الناس في اليونانيّين، فذهبتْ طائفة منهم أنهم ينتمون إلى الروم ويضافون إلى ولد إسحاق؛ وقالت طائفة: إنّ يونان هو ٱبن يافث بن نوح. وقال آخرون: إنه يافث بن الأصغر. وذهب قوم إلى أنهم من ولد أوراش بن ماذان بن سام بن نوح. وذهب آخرون إلى أنهم من قبيل متقدّم في الزمن الأوّل.

وقال المسعوديّ: وقد ذكر أنّ يونان أخو قحطان، وأنه من ولد عابر بن شالخ، وأن أمره في الٱنفصال عن دار أخيه كان سبب الشكّ في الشركة في النسب، وأنه خرج من أرض اليمن. وكان يونان جبّارًا عظيمًا، وَسِيمًا جسيمًا. وكان جَزْل الرأي،

(١) مرو: المراد مرو الشاهجان: وهي مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها. والنسبة إليها مروزيّ على غير قياس، والثوب مرويّ على القياس، وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخًا ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخًا وإلى بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخًا اثنان وعشرون منزلاً. . . (معجم البلدان لياقوت).

كبير الهمّة، عظيم القَدْر. وهكذا ذكر يعقوب بن إسحاق الكِنْدِيّ في نسب يونان أنه أخٌ لقحطان، وردّ عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء في قصيدته حيث قال: [من الطويل]

أبا يوسفٍ إنّي نظرتُ فلم أجدْ على الفَحْص رأيًا صحّ منك ولا عَقْدَا
وصرتَ حكيمًا عند قوم إذا أمرؤٌ بلاهم جميعًا لم يجد عندهم عَهْدَا
أتَقْرِنُ إلحادًا بدين محمدٍ لقد جئت شيئًا - يا أخا كِنْدَةَ - إدّا
وتخلط قَحطانًا بيُونان ضِلّةً لَعَمْرِي لقد باعدتَ بينهما جِدّا

قيل: ولمّا كثُر ولد يونان خرج يطلب موضعًا يسكنه، فأتى إلى موضع من الغرب، فأقام به هو ومَن معه من ولده، وكثُر نسلُه إلى أن أدركه الموت، فجعل وصيّته إلى الأكبر من ولده واسمه جريبوش، وأوصاه بأولاده ونَسْله، ومات وبقي أبنه على مكانه، وكثُر نسلُهم فغَلَبوا على بلاد الغرب من الفِرِنْجة والنُّوكَبَرْد والصقالبة وغيرهم.

وذكر بطليموس في كتابه: أن أوّل ملِكٍ ملَك من ملوك اليونانيين فِيلبُّس وتفسيره محبّ الفرس، وقيل أسمه نفليص، وقيل فيلفوس. وكانت مدّة ملكه سبع سنين.

ثم ملك بعده أبنه الإسكندر ذو القرنين وليس هو صاحب الخِضْر رضي الله عنه. والإسكندر هذا هو الذي قتل دارًا بن دارًا ملك الفُرْس، ونثر عِقْد مملكة فارس، وقرّر ملوك الطوائف فيما ذكرناه.

وكان سبب قتله لدارا أن سائر الملوك كانت تؤدّي الإتاوة[١] إلى ملوك الفرس منذُ دوّخ بُخْتنصّر البلاد، وذلّل لهم الملوك على ما ذكرناه آنفًا في أخبار الفرس، ولا حاجة إلى إعادته.

قالوا: وكان فِيلبُّس أبو الإسكندر قد صالح دارًا على إتاوة يؤدّيها إليه في كل سنة. فلمّا وليَ الإسكندر وظهر أمره، وكان بعيد الهمّة، فأمتنع أن يؤدّيَ إلى دارا الخراج الذي كان يحمله أبوه إليه، فأسخط دارا ذلك، فكتب إليه يؤنّبه بسوء صنيعه بتركه حمل ما كان أبوه يحمله من الخراج وقال في كتابه: إنما دعاك إلى حبس ذلك الصِّبا[٢] والجهل، وبعث إليه بصَوْلجان وكُرَة وبقَفِيز[٣] من السمسم. يُعلمه بذلك أنه

(١) الإتاوة: الجزية أو الخراج: أو الرشوة. (٢) الصّبا: الحداثة.

(٣) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجرامًا.

إنما ينبغي لك أن تلعب مع الصبيان بالصولجان ولا تتقلّد الملك ولا تلبث به، ويُعلمه أنه إن لم يقتصر على ما أمره به وتعاطى الملك بعد أن أمره بأعتزاله بعث إليه بمَن يأتيه به في وثاق. وأنّ عِدّة جنوده الذين يبعث بهم إليه كعِدّة حبّ السمسم الذي بعث به إليه.

فكتب إليه الإسكندر في جواب ذلك: أنه قد فهم ما كتب به، ونظر إلى ما أرسله إليه من الصَّوْلجان والكُرَة وتيمّن به لإلقاء الملقي الكُرَة إلى الصَّوْلجان وإحرازه إيّاها، وأنه شبّه الأرض بالكرة، وتفاءل بملكه إياهَا وٱحتوائه عليها، وأنه يجترّ مُلْك دارا إلى مُلْكه، وبلاده إلى حيِّزه؛ وأنه نظر إلى السمسم الذي بعث به كنظره إلى الصولجان والكرة لدسَمَه، وبُعْده عن المرارة والحَرَافة[1]، وبعث إلى دَارا مع كتابه بصُرّة من خَرْدل، وأعلمه في الجواب أنّ ما بعث به إليه قليل، غير أن ذلك مثل الذي بعث به في القوّة والحَرَافة والمرارة، وأنّ جنوده فيما وصف به منه.

فلمّا وصل إلى دارا جواب كتاب الإسكندر، جمع جُنْده وتأهّب لحربه وسار نحو بلاده، وتأهّب الإسكندر أيضًا للقائه وسار نحو دارا، فٱلتقيا جميعًا بأرض الجزيرة[2] وٱقتتلا سنة، وقد كان دارا مَلَّه قومُه وأحبّوا الراحة منه، فلحق كثير من وجوه الفرس بالإسكندر وأطلعوه على عَوْرة دارا وقوّوْه عليه، ثم وثبَ على دارا حاجِباه فقتلاه وتقرّبا برأسه إلى الإسكندر، فلما أتَوْه بها أمر بقتلهما وقال: هذا جزاء مَن تجرّأ على مَلِكه.

وقد ذُكر أنه سِيق إليه أسيرٌ غَدَر به صاحبُ شُرْطته، فقال له الإسكندر: بما ٱجترأ عليك صاحبُ شُرْطتك؟ قال: بتركي ترهيبَه وقتَ إساءته، وإعطائي إيّاه وقتَ الإحسان بالسير من فعله نهايةَ رغبته، فقال الإسكندر: نعم العَوْنُ على إصلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيبُ بالأموال، وأصلحُ منه الترهيبُ وقتَ الحاجة، ثم أمر الإسكندر بقتله.

وقد قيل: إنه لمّا هزمه الإسكندر فرّ جريحًا فخرج في طلبه في ستّة آلاف حتى أدركه، ثم لم يلبث دارا أن هلك، فأظهر الإسكندر عليه الحزن ودفَنَه في مقابر الملوك.

---

(١) الحرافة: طعم يحرق اللسان والفم.

(٢) المراد بأرض الجزيرة: أرض الجزيرة الحالية التي عاصمتها بغداد.

وقيل: إنّ الإسكندر كان قد نادَى ألاّ يُقتَل دارًا وأن يُؤسَر. فلمّا عَلِم الإسكندر بما تمّ على دارًا سار حتى وقف عنده فرآه يجود بنفسه فنزل الإسكندر عن دابته وجلس عند رأسه، وأخبره أنه ما أمر بقتله، وأنّ الذي أصابه لم يكن عن رأيه. وقال: سَلْني ما بدا لك فإنّي أسعفك به، فقال له دارا: لي إليك حاجتان: إحداهما أن تنتقم لي من الرجلَيْن اللذَيْن قتلاني وسمّاهما له، والأخرى أن تتزوّج ٱبنتي روشنك، فأجابه إلى ذلك، وأمر بصلب الرجلَيْن اللذَيْن فتكا بدارا. ويقال: إنّ الرجلَيْن اللذَيْن قتلاه إنما فعلا ذلك عن رأي الإسكندر، وأنه كان شرط لهما شرطًا على قتله، فلمّا طعناه دفع إليهما ما كان شرطه لهما ثم قال: قد وفَيتُ لكما بالشرط ولم تكونا شرطتما لأنفسكما وأنا قاتلُكما لا محالة، فإنه ليس ينبغي لقتَلَة المَلِك أن يُستبقوا إلاّ بذمّة لا تُخفَر[١]، فقتلهما وصلبهما.

ويقال: إن الإسكندر في الأيّام التي نازل فيها دارا كان يسير إليه بنفسه على أنه رسولٌ فيتوسّط العسكر ويعرف كثيرًا مما يحتاج إليه، فكان دارا يَستحسن سَمْته، ويُحسن صِلَته ومجازاته، ثم ٱتّهمه، وأحسّ الإسكندر بذلك فما عاد إليه بعدها.

ذكر شيء من مكايد الإسكندر وحِيَله في حروبه

من ذلك أنه لمّا التقى بدارا يوم الحرب أمر مناديه فنادى: يا معشر الفرس، قد علمتم ما كتبنا لكم من الأمانات، فمن كان منكم على الوفاء فليعتزل عن العسكر وله منّا الوفاء بما ضمنّاه، فٱتهمت الفرس بعضها بعضًا، وكان ذلك أوّل ٱضطراب حدث فيهم.

ومن ذلك أنه لمّا شَخَص[٢] عن فارس إلى أرض الهند تلقاه ملكها قور في جمع عظيم من الهنود ومعه ألف فيل عليها المقاتلة بالسلاح وفي خراطيمها السيوف والعمد، فلم تقف لها دوابّ الإسكندر وفرّت فكانت الهزيمة عليه، فلمّا بلغ الإسكندر مأمنه أمر بٱتّخاذ فِيَلة من نحاس مجوّفة وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فمُلِئت نِفْطًا وكبريتًا، وألبسها الدروع وجرت على العَجَل[٣]، وعاود حرب الهند، وجعل بين كلّ تمثالين جماعة من أصحابه. فلمّ نشبت الحرب أمر بإشعال النيران في أجواف تلك التماثيل وٱنكشف أصحابه عنها وغشيتها فيلة الهند،

---

(١) يقال: خفر بالعهد: إذا وفى به. (٢) شخص عن فارس: خرج منها.

(٣) العجل: أي الدولاب؛ والمراد هنا العربة.

فخرجت النيران من خراطيم التماثيل فولّت الفِيَلة مُدْبِرة ورجعت على أصحابها، فكانت الدائرة على الهند وقتل ملكهم قور.

ومما يُحكَى عنه أنه نزل على مدينة حصينة فتحصَّن فيها أهلها، فتعرَّف خبرها فقيل له: إن فيها من المِيرة[١] ما يكفيهم زمنًا طويلاً، وإنّ بها من العيون والأنهار ما لا يقدر على قطعه، فارتحل عنها ودسّ جماعة من التجّار متنكّرين، فدخلوها وأمدّهم بالأموال الكثيرة، وأمرهم أن يبتاعوا الأقوات ويغالوا في أثمانها، ففعلوا ذلك حتى حازوا أكثر ما فيها. فلما علم الإسكندر بذلك كتب إليهم يأمرهم بإحراق ما حصلوه من الأقوات وأن يهربوا، ففعلوا كما أمرهم، وعاد إلى المدينة وحاصرها وزحف عليها فأعطوه الطاعة وملك المدينة. وكان إذا أراد أن يحاصر مدينة شرَّد مَن حولها من أهل القرى وتهدّدهم بالسبي فيلجأوا إلى المدينة ويعتصموا بها، فلا يزال كذلك حتى يعلم أنه قد دخلها أضعاف أهلها وأسرعوا في المِيرة فيحاصرهم حينئذ فيفتح المدينة.

ومما يُحكَى عنه أنه كتب إلى معلِّمه أرسطاطاليس[٢]، وكان الإسكندر يشاوره في كثير من أموره، ويقتدي بآرائه، ويعمل بما يشير به عليه ولا يعدل عنه. وأرسطاطاليس هذا هو تلميذ أفلاطون، وأفلاطون صاحب الفِرَاسة تلميذ سقراط.

ويُحكَى عن أفلاطون أنه كان يصوّر له صورة إنسان لم يره قطّ ولا عرفه فيقول: صاحب هذه الصورة من أخلاقه كذا، ومن هيئته كذا، فيكون الرجل كما أخبر عنه، فيقال: إنه صوِّر له صورة نفسه، فلمّا عاينها قال: هذا رجل محبّ في الزّنى فقيل له: إنها صورتك، فقال: نعم أنا كذلك، ولولا أني أملك نفسي لفعلت وإني لمحبّ فيه.

* * *

نرجع إلى أخبار الإسكندر فيما كتب به إلى أرسطاطاليس وما أجابه به قالوا: إنه كتب إليه يخبره أنّ في عسكره من الروم جماعة من خاصّته لا يأمنهم على نفسه لِمَا يرى من بُعْدِ هِمَمِهم في شجاعتهم وكثرة آلتهم، وأنه لا يرى لهم عقولاً تفي بتلك الفضائل التي تمنعهم من الإقدام والجُرأة عليه، وأنه يكره الإقدام عليهم بالقتل بمجرَّد الظِّنّة مع وجوب الحُرْمة.

---

(١) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

(٢) أرسطاطاليس: من أعظم الحكماء الأقدمين، ورأس الفلاسفة المعروفين بالمشائين. ويعرف بالمعلم الأول لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية.

فكتب إليه أرسطاطاليس: قد فهمتُ كتابك، وما وصفتَ به أصحابك. أمّا ما ذكرتَ من بُعْد هِمَمِهم فإنّ الوفاء من بُعْد الهمّة. وأمّا ما ذكرتَ من شجاعتهم ونَقْص عقولهم عنها، فمن كانت هذه حالُهُ فرفّهه في معيشته وأخْصُصْه بحِسَان النساء، فإنّ رفاهيَة العيش تُوهِن[١] العزْم، وتحبب السلامةَ، وتباعد من ركوب الخطَر والغَرَر[٢]، وليكن خُلُقك حسنًا تخلص إليك النيّات، ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط إخوتك مثلَه، فليس ينبغي مع الاَستئثار محبّة، ولا مع المواساة بغضة. واُعلم أنّ المملوك إذا اَشتُري لم يسأل عن مال مولاه، وإنما يسأل عن خُلُقه.

وكتب إليه الإسكندر يُعلمه أنه شاهد بإيران شهر[٣] رجالاً ذوي أصالة في الرأي، وجمال في الوجوه، ولهم مع ذلك صَرامةٌ وشجاعةٌ، وأنه رأى لهم هيئات وخِلَقًا لو كان عرف حقيقتها لما غزاهم، وأنه إنما ملكهم بحُسْن الاَتفاق والبخت[٤]، وأنه لا يأمن إذا ظعن[٥] عنهم وُثُوبَهم ولا تسكُن نفسُه إلاّ ببوارهم.

فكتب إليه أرسطاطاليس: فهمتُ كتابك في رجال فارس؛ فأما قتلهم فهو من الفساد في الأرض، ولو قتلتهم لأنبتَتْ أرضُ فارسَ أمثالَهم، لأنّ إقليم بابل يُولد أمثال هؤلاء الرجال من أهل العقل، والسداد في الرأي، والاَعتدال في التركيب؛ فصاروا أعداءك وأعداءَ عَقِبك بالطبع، لأنك تكون قد وترتَ[٦] القوم وكثُرت الأحقاد على أرض الروم منهم وممَّن بعدَهم، وإخراجك إيّاهم في عسكرك مخاطرة بنفسك وأصحابك؛ ولكنّي أشير عليك برأي هو أبلغ لك في كل ما تريد من القتل وغيره، وهو أن تستدعيَ أولاد الملوك منهم وممّن يُستصلَح للمُلْك ويُترشَّح له، فتقلِّدهم البلدانَ وتولِّيهم الولايات ليصير كلّ واحدٍ منهم ملكًا برأسه، فتتفرّق كلمتهم، ويجتمعوا على الطاعة لك، ولا يؤدِّي بعضُهم إلى بعض طاعةً، ولا يتفقوا على أمر واحد، ولا تجتمع كلمتُهم. ففعل الإسكندر ذلك، فتمّ أمرُه وأمكنه أن يتجاوز أرضَ فارس إلى أرض الهند حتى قتل ملكَها مبارزةً بعد حروب عظيمة. ثم صار إلى أرض الصِّين وطاف مما يلي القُطْبَ الشماليَّ ورجع إلى العراق فمات في طريقه بشَهْرُزُور[٧]،

---

(١) توهن: تضعف. (٢) الغرر: التعريض للهلكة.

(٣) إيران شهر: هي بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان.

(٤) البخت: الحظ، جمع بخوت. (٥) ظعن عنهم: سار وارتحل.

(٦) وترت القوم: أي قتلت حميمهم.

(٧) شهرزور: بلدة بين الموصل وبين همذان، بناها زور بن الضحاك.

ويقال: بل في قرية من قُرَى بابل. وكان عمره ستًّا وثلاثين سنة. وفي بعض النسخ ثلاثًا وثلاثين سنة. وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وشهورًا. وقيل: سبعة عشر سنة. وقَتَلَ دارًا في السنة الثالثة من مُلْكه.

قال: وبنى الإسكندر اثنتي عشرة مدينة وسمّاها كلّها الإسكندرية منها: مدينة جَيّ[١] بأصبهان، وثلاث مُدُن بخراسان وهي: هَرَاة[٢] ومَرْو[٣] وسَمَرْقَنْد. وبنى بأرض بابل مدينة لروشنك. وبنى بأرض يونان سبعَ مُدُن.

ومن عجيب ما قيل في نسب الإسكندر: أنه من ولد دارا الأكبر، وأنه أخو دارا الأصغر، وذلك أن دارا الأكبر بن أردشير تزوّج ببنت ملك الزّنج هَلاَي، فلمّا حملت منه استخبث رِيحَها، فأمر أن تحتال لذلك، فكانت تغتسل بماء السندروس[٤] فأذهبَ ذلك كثيرًا من دفرها[٥]، ثم عافَها وردّها إلى أهلها وقد عَلِقت منه بالإسكندر فقيل له الإسكندروس. هذا ما نقله عبد الملك بن عبدون في كتابه المترجم بكلمة الزهر وصدفة الدرّ، قال: واختلف في مدّته فذكر الخوارزميّ في تاريخه أنه كان قبل الهجرة بتسعمائة سنة، وثلاث وثلاثين سنة. وذكر أبو محمد[٦] بن قتيبة في كتاب المعارف: أن بينه وبين الهجرة أربعمائة سنة. والله أعلم بالصواب.

ذكر شيء من أخبار الإسكندر وما اتفق له مع ملكي الهند والصين

فأما خبره مع ملك الهند قال عبد الملك بن عبدون: إن الإسكندر لمّا دوّخ البلاد وقهر الملوك سار نحو الهند وقتل ملكها الأعظم فُورًا صاحب مدينة

---

(١) جيّ: اسم مدينة ناحية أصبهان القديم، وهي الآن كالخراب منفردة، وتسمى عند العجم شهرستان..

(٢) هراة: كانت مدينة عظيمة مشهورة بخراسان خربها التتر.

(٣) مرو: هي مرو الشاهجان: وقد تقدم وصفها وتفسيرها.

(٤) السندروس: صمغ أصفر يشبه الكهرباء في قوته إلا أنه أرخى منه، وفيه شيء من مرارة، وله عدة فوائد..

(٥) الدفر بسكون الفاء وفتحها: خبث الرائحة.

(٦) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري؛ ويقال المروزي، نسبة إلى مرو، النحوي اللغويّ. سكن بغداد وحدّث بها عن إسحاق بن راهوية، ومحمد بن زياد بن عبيد الله، المعروف بالزيادي، وأبي حاتم السجستاني. واشتغل بالتدريس، وتولى قضاء الدينور، وكانت له تصانيف عديدة. كانت وفاته سنة ٢٧٠ هجرية.

المانكير[١]. فلما دانت له ملوك الهند بلغه أنّ بأقاصي ديارها مَلِكًا من ملوكها ذا حكمة وسياسةٍ وإنصاف لرعيّته، وأنه ليس في بلاد الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له كندكان، وأنه قاهر لنفسه مانع لها من الشهوة الغضبية، فكتب إليه الإسكندر كتابًا يقول فيه: أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كنت قائمًا فلا تقعد، وإن كنت ماشيًا فلا تلتفت حتى تدخل في طاعتي، وإلاّ مزّقتُ مُلْكَك وألحقتُك بمن مضى من ملوك الهند من قبلك.

فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب بأحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنه قد اجتمع عنده أشياء لم تجتمع عند غيره مثلها: فمن ذلك ابنةٌ له لم تطلُع الشمس على أحسن منها؛ وفيلسوفٌ يخبرك بمرادك قبل أن تسأله لحِدّة مزاجه وحسن قريحته، واعتداله في بِنْيته، واتساعه في علمه؛ وطبيبٌ لا يُخشَى عليه معه داء ولا شيءٌ من العوارض إلا ما يطرأ من الفناء والدثور[٢] الواقع بهذه البِنْية، وحلّ العقدة التي عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسّيّ، وإذا كانت بِنْية الإنسان وهيكلُه قد نُصِبَا في هذا العالَم غرضًا للآفات والحتوف والبلايا؛ وقدحٌ إذا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقُص منه شيء، وإنّي منفذ جميع ذلك إلى الملك وصائر إليه.

فلمّا قرأ الإسكندر كتابه قال: كون هذه الأشياء عندي ونجاة هذا الحكيم من صَوْلتي أحبّ إليّ من ألا تكون عندي ويهلك. فأنفذ إليه الإسكندر جماعة من الحكماء اليونانيين والروم في عدّة من الرجال وتقدّم إليهم أنه إن كان قد صدق فيما كتب به إليّ فاحملوا ذلك إلى عندي واتركوه في موضعه، وإن تبيّنتم الأمر على خلاف ذلك، وأنه أخبر عن الشيء على خلاف ما هو به فقد خرج عن حَدّ الحكمة فأَشخصوه[٣] إليّ. فلمّا انتهَوْا إلى مملكة الملك خرج إليهم وتلقّاهم بأحسن لقاء، وأنزلهم بأحسن منزل. فلما كان في اليوم الثالث جلس لهم مجلسًا خاصًّا للحكماء دون من كان معهم من المقاتلة. فقال بعضهم لبعض: إن صَدَقنا في الأوّل صَدَقَنا فيما بعد ذلك مما ذكر.

فلمّا أخذت الحكماء مراتبَها واستقرّت بها مجالسَها أقبل عليهم مباحثًا في أصول العلوم الفلسفية وفروعها، وعلى كم فنّ يحتوي العلم الفلسفيّ في أصوله، وإلى كم يتفرّع.

---

(١) ويقال لها أيضًا: بلهر باسم ملك من ملوك الهند، وكان يقيم فيها.

(٢) الدثور: البلى، أو الدرس، أو التهدم. (٣) أشخص فلانًا إليه: أي بعث به.

قال عبد الملك بن عبد الله بن عَبْدون ـ رحمه الله ـ: وقد ذكر أن العلم الفلسفيّ ينقسم على أربعة أنواع: أحدها الرياضيّات، والثاني المنطقيّات، والثالث الطبيعيّات، والرابع الإلٰهيّات. قال:

فأما الرياضيّات فأربعة أنواع: الواحد علم الحساب، والثاني علم الهندسة، والأصل فيه النقطة، وهي فيه كالواحد في علم الحساب، والثالث علم النجوم، والرابع علم الموسيقى، وهو علم تأليف الألحان.

وأما العلوم المنطقيّات فخمسة أنواع: الواحد معرفة صناعة الشعر، وأنواع البديع كالتكافؤ والتفريع والحَشْو والتتبيع والتسميط والترصيع والالتفاتة والإشارة والمقابلة والاستعارة والتبليغ والتلويح والتصدير والتوشيح والتجنيس والتضادّ والترديد والاستطراد والتقسيم والتسهيم والإحالةِ والتتميم. والثاني معرفة صناعة الخطابة. والثالث صناعة الجَدَل. والرابع صناعة البرهان. والخامس صناعة المغالطين في الناظرة والجَدَل.

وأما العلوم الطبيعيّات فسبعة أنواع: الواحد علم المبادىء الجسمانيّة، وهي خمسة أشياء: الهَيُولَى[١] والصورة والزمان والمكان والحركة. والثاني علم السماء والأرض، وهو معرفة ماهية جواهر الأفلاك والكواكب وكيفيتها وكيفية تركيبها وعلّة دورانها، وهل تقبل الكَوْن والفساد كما تقبل الأركان الأربعة التي دون فلك القمر أو لا، وما علّة حركات الكواكب واختلافها في السرعة والإبطاء، وما علّة سكون الأرض في وَسَط الفلك في المركز، وهل خارج العالم جسم آخر أم لا. وهل في الكَوْن والفساد موضع فارغٌ لا شيء فيه، وما شاكل هذه المباحث. والثالث علم الكون والفساد وهو علم معرفة جواهر الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض. والرابع علم حدوث الجواهر بتغيّرات الهواء وتأثيرات الكواكب بحركاتها ومطارح شعاعاتها على الأركان الأربعة وانفعالاتها بعضها ببعض بقدرة الله تعالى. والخامس علم المعادن التي تنعقد من البخارات المختنقة في بطن الأرض والعصارات المتحلّلة من الهواء. والسادس علم النبات على اختلاف أنواعه في هيآته وأشكاله واختلاف صموغه وطعومه وخواصّه وروائحه ومنافعه ومضارّه. السابع علم الحيوان،

---

(١) الهيولى: مادة الشيء التي يصنع منها، كالخشب لكرسي، والحديد للمسمار، والقطن للملابس القطنية. والهيولى عند القدماء، وهذا هو المراد: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير في شتّى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم الماديّة.

وهو معرفة كلّ جسم يغتذي ويحسّ ويعيش ويتحرّك على ٱختلاف أنواعه، وما شاكل ذلك مما ينسب إلى علم الطبيعيّات كعلم الطبّ والبيطرة وسياسة الدوابّ والسباع والطيور والحرث والنسل وعلم الصنائع أجمع داخل في علم الطبيعيات.

وأما العلوم الإلٰهيّات فخمسة أنواع؛ أوّلها: معرفة الباري سبحانه وتعالى بجميع صفاته، وأنه أوّل كلّ شيء وآخر كلّ شيء، والخالق لكلّ شيء، والعالم بكلّ شيء، وأنه ليس كمثله شيء. والثاني علم الروحانيّات من الجواهر البسيطة العقليّة، وهي الصورة المجرّدة من الهيولّى المستعملة للأجسام المطهّرة، ومعرفة ٱرتباط بعضها ببعض، وقبض بعضها عن بعض، وهي أفلاك روحانيّة تحيط بأفلاك جسمانيّة. والثالث علم النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكيّة والطبيعيّة من لَدُن الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض. والرابع علم السياسة وهي خمسة أنواع: أولها: السياسة النبويّة، والسياسة الملوكيّة، والسياسة العاميّة، والسياسة الخاصّيّة، والسياسة الذاتيّة. فأما السياسة النبويّة فالله تبارك وتعالى يختصّ بها من يشاء من عباده ويهدي لأتباعهم مَن يشاء لا معقّب لحكمه، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون. وأما السياسة الملوكية فهي حفظ الشريعة على الأمة وإحياء السنّة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما السياسة العاميّة فهي الرياسات على الجماعات كرياسة الأمراء على البُلدان وقادة الجيوش وترتيب أحوالهم على ما يجب وينبغي من الأمور وإتقان التدبير. وأما السياسة الخاصّيّة فهي معرفة كلّ إنسان بنفسه، وتدبيره أمر غلمانه وأولاده، ومَنْ يليهم من أتباعه وقضاء حقوق الإخوان. وأما السياسة الذاتية فهي أن يتفقّد الإنسان أفعالَه وأحوالَه وأخلاقَه وشهوتَه فيزمّها[1] بزمام عقله، وغضبَه فيردعه وما شاكل ذلك. والخامس من العلوم الإلٰهيات علم المعاد وكيفية ٱنبعاث الأرواح وقيام الأجساد وحشرها للحساب يومَ الدين، ومعرفة حقيقة جزاء المحسنين وعقاب المسيئين.

* * *

نرجع إلى خبر الملك الهنديّ مع أصحاب الإسكندر، قال: ولمّا تكلّم مع الحكماء اليونانيين في العلوم الفلسفية وطال الخطب في مناظرتهم أخرج الجارية إليهم، فلمّا ظهرت لأبصارهم لم يقع طَرْف كلّ واحد منهم على عضو من أعضائها

(١) يقال: زمّ فلانًا كلمته: أي جعل لها من الصواب غرضًا يرمي إليه. يقال: ما تكلمت بكلمة حتى أزمها وأخطمها.

فتعدّى ببصره إلى غير ذلك العضو اشتغالاً بحسنه عمّا سواه حتى خاف القوم على عقولهم، ثم رجعوا إلى أنفسهم وقهروا سلطان هواهم، ثم أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به وصرفهم، وبعث بالفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم.

فلمّا وردوا على الإسكندر أمر بإنزال الفيلسوف والطبيب، ونظر إلى الجارية فحار عند مشاهدتها، فأمر قيّمة[1] الجواري بالقيام عليها، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف والطبيب وإلى علم ما عندهما، وقصّ عليه الحكماء ما جرى لهم مع الملك الهنديّ من المباحث في العلوم الفلسفيّة، فأعجبه ذلك وتأمّل أغراض القوم ومقاصدَهم، وأقبل ينظر في مطاردة[2] الهند يعلّلها في معلولاتها، وما يصفه اليونانيون أيضًا من عِلَلها في معلولاتها على حَسَب ما قدّمتُ من أوضاعها، ثم أراد مِحْنة[3] الفيلسوف على حسب ما خُبِّر عنه، فأجال فكره فيما يختبره به، فدعا بقَدَح فملأه سمنًا ولم يجعل للزيادة عليه موضعًا، ودفعه لرسولٍ وقال: احمل هذا إلى الفيلسوف ولا تكلِّمه بشيء، فلمّا دفعه إليه دعا الفيلسوف بألف إبرة فغرزها في السمن وصرفه إليه، فأمر الإسكندر بضَرْبِ تلك الإبر كُرَةً متساويةَ الأجزاء وردّها إليه، فأمر الفيلسوف ببسطها وجلائها حتى صارت جسمًا تردّ صورة مقابليها لصفائها وردّها إلى الإسكندر، فدعا بطست وجعل تلك المرآة فيه وصبّ عليها الماء حتى غمرها وردّها إليه، فأخذها الفيلسوف وعَمِل منها طَرْجهارة[4] طافية على الماء وصرفها إليه، فملأها الإسكندر ترابًا وردّها إليه، فلمّا نظر الفيلسوف إلى التراب تغيّر لونه وبكى ثم ردّها إلى الإسكندر ولم يضع فيها شيئًا.

فلمّا كان في اليوم الثاني جلس الإسكندر جلوسًا خاصًا ودعا بالفيلسوف، ولم يكن رآه قبل ذلك اليوم، فلمّا أقبل نظر الإسكندر من الفيلسوف إلى رجلٍ طويلِ الجسم رَحْبِ الجبين معتدلِ البِنْية فقال في نفسه: هذه بِنْيةٌ تضادّ[5] الحكمة، فإذا اجتمع له حُسْن الصورة والفهم كان أوحد زمانه، فأدار الفيلسوف إصبعه حول وجهه ثم وضعه على أرنبة أنفه وأسرع نحو الإسكندر وحيّاه بتحية الملك، فأشار إليه

---

(١) قيّمة الجواري: التي تتولّى أمرهم.

(٢) المراد بمطاردة الهند: الوقوف على مدى صحة آرائهم ومواقفهم الفلسفية أو العكس.

(٣) المحنة: الاختبار والتجربة.

(٤) الطرجهارة: نوع من الصفحات أو الصحون يقطع عليها اللبن المتجمد.

(٥) تضادّ: تخالف؛ والضدّ: المخالف والمنافي.

بالجلوس وقال: لَمَ أدرتَ إصبعك حولَ وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك؟ قال: علمتُ أنك تقول في نفسك، إذا نظرت إلى حُسْن صورتي وإتقان بِنْيتي قلّما تجتمع هذه الخِلْقة مع الحكمة، وإذا كان على هذا كان صاحبها أوحدَ زمانه، فأريتُك مصداقًا لِمَا سَنَح[١] لك أنه كما ليس لك في الوجه إلا أنف واحدٌ فكذلك ليس في ديار الهند على هذه الصفة أحدٌ غيري.

فقال الإسكندر: حَسَنٌ ما أتيتَ به! فما بالك حين بعثتُ إليك بالقدح السمن غرزتَ فيه الإبر وردّدتَه؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنك تقول إنّ قلبي قد ٱمتلأ علمًا فليس لأحد فيه مستزاد، فأعلمتُك أنّ علمي سيزيد فيه كما زادتْ هذه الإبر في هذا السمن. قال: فما بالك حين عَمِلتُ لك الإبر كُرَة صنعتَ منها مرآةً صقيلةً وصرفتَها إليّ؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنك تقول إنّ قلبي قد قسا من سَفْك الدماء واشتغل بهذا العالَم فلا يقبل العلم ولا يرغب فيه، فأخبرتك أني سأعمل الحِيلَة في ذلك، كما جعلتُ من الكُرَة مرآةً مُورية[٢] للأجسام. قال: فما بالك حين جعلتها لك في الطست وصببتُ عليها الماء جعلتها طَرْجهارةً طافيةً على الماء؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنك تقول إنّ الأيام قد قَصُرت والأجل قريب، ولا يُدرَك العلم الكثير في المهل القليل، فأخبرتُك أني سأعمل الحيلةَ فيه في غير مدّة طويلة، كما جعلتُ هذه المرآة الراسبة طافيةً في أسرع وقت. قال: فما بالك حين ملأتُ ذلك الإناء ترابًا ردّدته إليّ ولم تُحدث فيه شيئًا؟ قال: علمتُ أنك تقول: ثم الموت، وأنه لا بدّ منه، فأخبرتك أن لا حِيلَةَ في ذلك. قال الإسكندر: قد أجبتَني على مُرادي في جميع ذلك ولأُحسنَنّ إلى الهند من أجلك، وأمر له بجوائز كثيرة. فقال له الفيلسوف: لو أحببتُ المال لَمَا كنتُ عالمًا، ولستُ أُدخِل على علمي ما يضادّه، فإن القنية[٣] تُوجب الخدمة، وقد ملكتَ أيها الملك الرحيم بسيفك أجسام رعيّتك فأملك قلوبهم بإحسانك فهو خِزَانة سلطانك، وٱحذر العامّة فإنها إذا قَدَرَتْ أن تقول قَدَرَتْ أن تفعل فٱحترزْ من أن تقول تأمَنْ أن تفعل، فالملكُ السعيدُ من مَلَك الرعيّة بالرغبة والرهبة، وأشبهُ الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الإحسان، فخيَّره الإسكندرُ في المُقَام معه، أو الٱنصراف إلى بلاده، فاختار الرجوع إلى موضعه.

---

(١) سنح لك: عرض لك.

(٢) يقال: ورّى الشيء: جعله وراءه وستره.

(٣) القنية: أي القنوة، وهي ما اكتسب.

وأمّا القدحُ فملأهُ ماءً ثم أورد عليه الناسَ فلم ينقُص شربهم منه شيئًا، فيقال إنه كان معمولاً من خواصّ الهند الروحانيّة مما تدّعيه الهند. ويقال إنه كان لآدم أبي البشر عليه السلام، مبارَكٌ له فيه حين كان بأرض سَرَنْدِيبَ، فوُرِثَ عنه إلى أن ٱنتهى إلى هذا الملك الهنديّ.

وأما الطبيبُ فإنه كان له معه مناظراتٌ دلَّت على ثبوت قدمه في علمه، وأنه كما وَصَف صاحبُه أو كاد. هذا خبره مع ملك الهند.

* * *

وأما خبره مع ملك الصين؛ قال أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم: وفي الرواية الصحيحة أن الإسكندر لمّا ٱنتهى إلى بلاد الصين أتاه حاجبُه وقد مَضَى من الليل شَطْرُه فقال: هذا رسولُ ملِكِ الصين بالباب يستأذنُ في الدخول عليك، قال: أدخلْه، فأدخلَه فوقف بين يدي الإسكندر وسلَّم ثم قال: إن رأى الملك أن يَستخليني فعل، فأمر الإسكندر مَن بحضرته أن ينصرفوا، فانصرفوا كلّهم عنه وبقي حاجبُه فقال: إنّ الذي جئتُ له لا يحتمل أن يسمعه غيرُك، فأمر الإسكندر أن يُفتَّش ففتّش، فلم يجد معه سلاحًا، فوضع بين يديه سيفًا مسلولاً وقال له: قِفْ مكانك وقُلْ ما شِئتَ، وأخرج الحاجبَ ومن كان قد بَقِيَ عنده، فلمّا خلا المجلس قال له: أنا ملكُ الصين لا رسولُه، جئتُ لأسألك عما تريد، فإن كان ممّا يمكن عَمَلُه ولو على أصعَب الوجوه عَمِلْتُه وأغنيتُك عن الحرب، فقال له الإسكندر: وما الذي آمنَك منّي؟ قال: علمي بأنك عاقلٌ حكيمٌ، ولم تك بيننا عداوةٌ ولا مطالبةٌ بذَحل[1]، وأنك تعلم أنك إن قتلتني لم يكن ذلك سببًا لتسليم أهل الصين إليك مُلْكَهم، ولم يمنعهم قتلي من أن ينصبوا لأنفسهم مَلِكًا غيري ثم تنسب أنت إلى غير الجميل وضدّ الحزم. فأطرق الإسكندر وعلم أنه رجلٌ عاقلٌ، ثم قال له: إن الذي أريد منك ارتفاع[2] مملكتك لثلاث سنين عاجلاً ونصف ٱرتفاع مملكتك لكلّ سنة. قال: هل غير هذا؟ قال لا، قال: قد أجبتُك، ولكن سَلْني كيف تكون حالُك، قال: كيف تكون؟ قال: أكون أوّلَ قتيلِ مُحارب، وأوّلَ أَكِيلة مُفترس. قال: فإن قنعتُ منك بٱرتفاع سنتين. قال: أكون أصلحَ قليلاً وأفسحَ مدّة. قال: فإن قنعتُ بٱرتفاع سنة. قال: يكون في ذلك بقاءُ مُلْكي، وذهابٌ لجميع لذّتي. قال: فإن قنعتُ منك بثلث الٱرتفاع كيف تكون حالك؟ قال: يكون السدس للفقراء ومصالح العبّاد، ويكون الباقي لجيشي ولسائر أسباب الملك. قال الإسكندر: قد ٱقتصرتُ منك على هذا، فشكره وٱنصرف.

---

(١) الذحل: الثأر.

(٢) المراد بالارتفاع: ما يرفع ويحمل إلى خزائن الملك من الأعشار والجزية والخراج..

فلمّا طلعت الشمس أقبل جيش الصين وقد طبَّق الأرض وأحاط بجيش الإسكندر حتى خافوا الهلاك، وتواثبَ أصحابه فركبوا الخيل وٱستعدّوا للحرب بعد الأمن والطمأنينة إلى السِّلْم. فبينما هم كذلك إذ طلع ملك الصين وهو راكب وعليه التاج، فلمّا تراءى الجمعان نظر الإسكندر إلى مَلِك الصين فظنّ أنه حضر للحرب، فصاح به: أغدرتَ؟ فترجَّل ملك الصين وقال: لا والله، قال: فأْدْنُ منّي فدنا منه، فقال له الإسكندر: ما هذا الجيش الكثير؟ فقال: إنّي أردتُ أن أريَك أنّي لم أطعك من قِلَّة وضَعْف، ولكنّي رأيتُ العالَم العُلْوِيّ مقبلاً عليك ممكِّنًا لك ممن هو أقوَى منك وأكثر عددًا، ومَن حاربَ العالم العُلْويّ غُلِب، فأردتُ طاعته بطاعتك، والتذلّل له بالتذلّل لك، فقال الإسكندر له: ليس مثلك مَن يُسَام الذّل، ولا مَن يؤدّي الجزية، فما رأيتُ بيني وبين الملوك مَن يستحقّ التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرفٌ عنك. فقال ملك الصين: ولستَ تخسر إذًا ثم ٱنصرف عنه الإسكندر. فبعث إليه ملك الصين بضعف ما قرّر معه وٱنصرف عن الصين.

كلام الحكماء عند وفاة الإسكندر

قال: لمّا تُوُفّي الإسكندر جُعل في تابوت من الذهب، وٱجتمع الحكماء فتقدّم الأوّل[١] فقال: قد كان الإسكندر يخبأ الذهب، وقد أصبح الآن يخبؤه الذهب. وتقدّم الثاني[٢] إليه والناس يبكون ويجزعون فقال: حرّكنا بسكونه. وتقدّم الثالث[٣] إليه

(١) هوديوجانس: كان حكيمًا فاضلاً متقشفًا لا يقتني شيئًا، ولا يأوي إلى منزل، وكأنه من قدرية الفلاسفة لما يوجد في مدارج كلامه من الميل إلى القدر... (الملل والنحل للشهرستاني).

(٢) هو أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية، وهو آخر المتقدمين الأوائل الأساطين، معروف بالتوحيد والحكمة. ولد في زمان أردشير بن دارا في سنة ستة عشر من ملكه. كان تلميذًا لسقراط. ولما اغتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه، وجلس على كرسيّه.. (الملل والنحل للشهرستاني ص٨٨).

(٣) هو سقراط بن سفرنيسقوس الحكيم الفاضل؛ ولد في أثينا حوالي سنة ٤٧٠ق.م. من أب يحترف صناعة التماثيل، وأم قابلة. احترف حرفة أبيه ولبث يزاولها حينًا قصيرًا. ثم ترك هذه المهنة وتخصص للفلسفة التي اعتبرها رسالته في الحياة. اتهم بإنكار آلهة اليونانيين والدعوة إلى آلهة جديدة فحكم عليه بالإعدام وأعدم. وكان قبيح المنظر، قصير دميم بدين، بارز العين، كبير الأنف، واسع الفم، بالي الثياب. كان عادلاً حتى لا يؤثر عنه أنه ظلم أحدًا.. وكانت مواهبه العقلية لا تقل عن مواهبه الأخلاقية...

فقال: قد كان يَعِظنا في حياته، وهو اليوم أوعظُ منه أمس. وتقدّم إليه الرابع فقال: قد جاب الأَرَضِين وسلكها، ثم حصل منها في أربعة قوائم. ووقف عليه الخامس فقال: انظروا إلى حُلْم النائم كيف ٱنقضى، وإلى ظِلّ الغمام كيف ٱنجلَى. ووقف عليه السادس فقال: قد أمات هذا الميِّت كثيرًا من الناس لئلاّ يموتَ، وقد مات الآن. ووقف عليه السابع فقال: ما لك لا تقلّ[1] عضوًا من أعضائك، وقد كنتَ تستقلّ بمُلْك العباد. وقال الثامن: ما لك لا ترغبُ بنفسك عن المكان الضيِّق، وقد كنتَ ترغب بها عن رَحْب البلاد. وقال التاسع: كان لا يُقدَر عنده على الكلام، واليوم لا يُقدَر عنده على الصَّمْت. وقال العاشر: قد كان غالبًا فصار مغلوبًا، وآكلاً فصار مأكولاً. وقال الحادي عشر: ما كان أقبحَ إفراطُك في التجبُّر أمس مع شدّة خضوعك اليوم!. وقالت بنت دارا: ما كنتُ أحسَبُ أنّ غالبَ أبي يُغلَبُ. وقال رئيس الطبّاخين: قد نضَّدتُ النضائد[2]، وألقيتُ الوسائد، ونَصَبتُ الموائد، ولستُ أرى عميدَ القوم.

قال: ولما مات الإسكندر عُرِض المُلْك على ٱبنه من بعده فأباه واختار العبادة والنُّسك.

فملك بعد الإسكندر على اليونانيين بطليموس، وهذه التسمية لكلّ من ملك اليونان ككِسْرى للأكاسرة من الفُرْس، وقَيْصر للروم، وخاقان للترك، وطَرْخان للخزَر، والنجاشيّ للحبشة.

قال: وكان بطليموسُ هذا شابًا مدبّرًا حكيمًا عالمًا. وكان مُلْكه أربعين سنة، وقيل عشرين سنة، وقيل إنه أوّل من ٱقتنى البُزَاة[3] وضرّاها[4] ولعب بها.

ثم ملك بعده بطليموس الثاني، وهو الذي يقال له: محبّ الأخ، واسمه هِيقْلوس، وكان مُلْكه ستًّا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأب، وكانت مدّةُ ملكه سبعَ عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده بطليموس، وهو صاحبُ علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطي. فكان ملكه أربعًا وعشرين سنة.

---

(١) يقال: أقلّ الشيء: إذا حمله ورفعه.

(٢) النضائد: جمع النضيدة، وهي ما حشي من المتاع أو الوسادة.

(٣) البزاة: جمع الباز، وهو ضرب من الصقور يستعمل في الصيد.

(٤) الضرّ: الشديد، أو الداهية الفطن.

ثم ملك بعده بطليموس محبّ الأمّ. فكان ملكه خمسًا وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الصائغ. فكان مُلْكه سبعًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الإسكندرانيّ. فكان ملكه اثنتي عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الحديديّ. فكانت مدّة مُلْكه ثمانين سنة.

ثم ملك بعده بطليموس الجوّال. فكان ملكه أيضًا ثمانين سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده بطليموس الحرب. فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة.

ثم ملكت بعده ٱبنته قُلُوبَطْرة، وكانت حكيمة متفلسفة معظّمة للحكماء، ولها كتب مصنّفة في الطبّ والزينة وغير ذلك، مترجمة بٱسمها ومنسوبة إليها، وكان زوجها بطليموس ويسمّى أنطونيوس مشاركًا لها في مُلْك مقدونية وهي مصر.

فلمّا أراد الله تعالى ذهاب ملك اليونانيين أيّد عليهم مَلِك رومية وهو أغسطس، فسار إليها، وكان له مع الملكة قلوبطرة وزوجها حروبٌ كثيرة، فقُتل زوج قلوبطرة، فأراد ملك الروم أن يتزوّجها لعلمه بحكمتها وليتعلّم منها، فراسلها فعلمتْ مرادَه منها، فطلبت حيّة تكون بالحجاز ومصر والشام، وهي نوع من الحيّات تراعي[1] الإنسان حتى إذا نظرت إلى عضو من أعضائه قَفَزت أذرُعًا نحوه فلم تخطىء ذلك العضو بعينه حتى تثفُل[2] عليه سمًّا فيموت لوقته ولا يُعلَم ما خبره، فيتوهّم الناس أنه مات فجأة حَتْفَ أنفه. فٱحتُمِلَت لها. فلمّا كان في اليوم الذي علمت فيه أن أغسطس يدخل في قصرها أمرتْ بأنواع الرياحين والزهور أن تُبسَط في مجلسها وأمامَ سريرها، وجلست على سرير مُلْكها والتاجُ على رأسها وفرّقتْ حشَمَها وقرّبت يدها من الإناء الذي فيه تلك الحيّة فضربتها فماتت لوقتها، وٱنسابتْ الحيّة في تلك الرياحين ودخل أغسطس حتى ٱنتهى إلى المجلس، فنظر إليها جالسةً وهو يظنّ أنها باقية، فدنا منها فتبيّن له أنها قد ماتت، فنظر إلى تلك الرياحين فقَفَزت عليه تلك الحيّة فرمتْه بسمّها وقد خفّ، فبطل شقّه الذي ضربته من جهته، ولولا أنّ سمّها كان قد نَقُصَ لمات، فعجب من قتلها لنفسها وما كادته به من إلقاء الحيّة. وكانت قلوبطرة هذه آخر مَنْ مَلَك من اليونانيين. والله أعلم.

---

(١) راعاه: راقبه؛ أو لاحظه.

(٢) تثفل السّم: أي تنثره مرة واحدة.

ذكر أخبار ملوك السُّريان

قال أبو الحسن عليّ بن عبد الله المسعوديّ في كتابه المترجم بمروج الذهب:

ذكر ذوو العناية بأخبار ملوك العالَم أنّ أول الملوك بعد الطوفان ملوك اليونان، قال: وقد تُنوزِع فيهم وفي النبَط، فمن الناس مَن رأى أنّ السريانيين هم النَّبَط، ومنهم من رأى أنهم إخوةٌ لولد ماس بن نَبِيط، ومنهم مَن رأى غير ذلك على حسب تبايُن الناس في الأجيال الماضية والقرون لخالية.

قال: فكان أوّلَ مَن ملك منهم رجلٌ يقال له سُوشان، وهو أوّل من وضع التاج على رأسه في تاريخ السريانيّين. قال: وٱنقاد له ملوك الأرض، فكان ملكه ستّ عشرةَ سنة باغيًا في الأرض، ومفسدًا في البلاد، وسفّاكًا للدماء.

ثم ملك بعده يريز، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة.

ثم ملك بعده سماسير بن أبوبا. فكان ملكه تسع سنين.

ثم ملك بعده أهريمون فخطّ الخطط(١)، وكوّر(٢) الكُوَر، وجدّ في أمره، وأتقن مُلْكه، وعمر أرضه. فلمّا استقامت له الأحوال وٱنتظم ملكه بلغ بعض ملوك الهند وهو رُتبيل، وهو ٱسم لمن يملك هذه الجهة من الهند، ما القومُ عليه من القوّة، وما بلادُهم عليه من العمارة، وأنهم يحاولون الممالك، وقد كان هذا الملك الهنديّ غَلَب على مَن حوله من ممالك الهند وٱنقادتْ إلى أحكامه، وذلك أنّ ملكه كان مما يلي بلاد الهند والسِّند، فسار نحو بلاد بُسْت(٣) وغَزْنين(٤) ونَغر(٥) وبلاد الداوَر(٦) على النهر المعروف بالهِنْدمِنْد، وهو نهر ببلاد سِجِسْتان ويُعرَف بنهر بُسْت تجري فيه السفن منها إلى سِجِسْتان.

قال: وكان بين ملك الهند وملك السريانِيّين حروبٌ كثيرةٌ نحوًا من سنة ثم أجلتْ الحرب عن قتل السريانيّ وٱحتوى الهنديّ على الصُّقع ومَلَكه، فكان مُلْك أهريمون عشر سنين.

---

(١) الخطط: جمع الخطة، وهي القطيعة.

(٢) الكور: جمع الكورة، وهي الصقع، أو البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال.

(٣) بست: هي مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وهي من البلاد الحارة المزاج.

(٤) غزنين: مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند.

(٥) نغر: مدينة ببلاد السند بينها وبين غزنين ستة أيام.

(٦) هي ولاية واسعة ذات بلدان وقرى مجاورة لولاية رخّج وبست والغور.

قال: وبقي ذلك الصُقع بيد الملك الهنديّ حتى سار إلى بعض الملوك فأتى[١] عليه وملك العراق وردّ السريانيين.

فملّكوا عليهم تسنوا بن سماسير. فكان مُلْكه إلى أن هلك ثماني سنين.

ثم ملك بعده أهريمون. فكانت مدّة مُلْكه ٱثنتي عشرة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه هوريا فزاد في العمارة وأحسن للرعايا وغَرَس الأشجار. فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة.

ثم ملك بعده ماروت وٱستولى على المُلْك. فكان مُلْكه خمس عشرة سنة. وقيل أكثر من ذلك.

ثم ملك بعده أزور وسلحاس، ويقال إنهما كانا أخَوَيْن. قال: فأحسنا السيرة، وتعاضَدَا على تدبير المُلْك. ويقال: إنّ أحد هذين الملِكَيْن كان جالسًا ذاتَ يوم في أعلا قصره فنظر إلى طائر قد فرّخ[٢] هنالك، وهو يصيح ويضرب بجناحه، فنظر إلى حيّة تنساب إلى الوَكْر لتأكل الفراخ التي للطائر، فدعا بقَوْس وسهم ورمى الحيّة فقتلها، وسلمت الفراخ، وغاب الطائر وعاد إلى الملك بعد هُنَيهة وفي منقاره حبّةَ وفي مخاليبه حبّتان، وطار حتى وازَى الملك، وألقى الحبّ بين يديه فتناوله الملك وقال: ما ألقى هذا الطائر هذا الحبّ إلا لأمر قصد به مكافأتنا على ما فعلناه من خلاص فراخه، ولم يعرف ما هو ذلك الحبّ، وٱستدعى الحكماء وأراهم فما عَرَفوه، فقال له حكيم: ينبغي أن يُزرَع هذا الحبّ ببطن الأرض لِيُنظَرَ ما يكون منه، فأحضر الأَكَرَة[٣] وأمرهم بزرعه فزَرَعوه، والملك يراعيه حتى طلع[٤] وأزهرَ وحصرمَ وأعنبَ، وهم لا يقرُبونه خشية أن يكون متْلفًا، فأمر الملك أن يُعصَر ماؤه ويُودَع الآنيةَ وأُخرجَ الحبّ منه وتُرِك بعضُه على حاله. فلمّا صار في الآنية غلا وقذف بالزبد وفاحت له روائح عَبِقَة، فقال الملك: عليّ بشيخ كبير، فأُتِيَ به، فسقاه من هذا العصير. فلمّا شرب منه ثلاثًا صال وتكلّم وصفّق بيديه وحرّك رأسه ووقع برجليه على الأرض،

(١) أتى عليه: مرّ به؛ أو أنفده.

(٢) أفرخ الطائر وفرّخ: أي صار ذا أفراخ.

(٣) الأكرة: جمع الأكار، وهو الحرّاث.

(٤) طلع النخل: أي خرج طلعها؛ والطلع: غلاف يشبه الكوز ينفتح عن حبّ منضود فيه مادة إخصاب النخلة.

فظهر عليه الطَّرَب والفرح وتغنّى. فقال الملك: هذا شرابٌ مذهبُ للعقل، وأخلقْ(١) به أن يكون قتّالاً، ألاَ تَرَوْنَ إلى هذا الشيخ كيف عاد إلى حال الصِّبا وقُوّة الشباب، ثم أمر الملك بالشيخ فرقَد، فسكن ونام. فقال الملك: هَلَك، ثم أفاق الشيخ وطلب الزيادة من الشراب وقال: لقد شربتُه فكشف عنّي الهموم والغموم، وأزال عنّي الأحزان. فقال الملك: هذا أشرفُ شراب الرجل، فأكثر من غَرْس الكروم، واَختصّ به دون غيره من الناس، وآستعمله بقيّة أيامه، ثم نما بعد ذلك وكثُر في أيدي الناس. وهذا آخر ما أورده المسعوديّ من أخبار السُّريان.

ذكر أخبار الملوك الكلدانيين وهم ملوك النَّبَط وملوك بابِل

قال المسعوديّ، ذهب جماعةٌ من أهل البحث والعناية بأخبار ملوك العالَم أنهم ملوك العالَم الذين مهّدوا الأرض بالعمارة، وأنّ الفُرْس الأوَل إنما أخذوا المُلْك من هؤلاء كأَخْذ الروم المُلْك من اليونان.

فكان أوّلَ مَن ملك منهم نُمْروذ الجبّار. فكان مُلْكه نحوًا من ستين سنة. وقد قدّمنا أخبار نُمْروذ في قصّة إبراهيم عليه السلام.

قال: ونُمْروذ هذا هو الذي احتفر أنهارًا بالعراق آخذةً من الفُرات، فيقال: إنّ من ذلك نهر كُوثى(٢) على طريق الكوفة، وهو بين قصر(٣) اَبن هُبَيرة وبغداد.

ثم ملك بعده أبولس، وكان عظيم البطش جبّارًا في الأرض. وكان مُلْكه نحوًا من سبعين سنة.

ثم ملك بعده فيزمنوس. وكان باغيًا في الأرض، ملك نحوًا من مائة سنة.

ثم ملك بعده سوسوس. فكان مُلْكه نحوًا من تسعين سنة.

ثم ملك بعده كورس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

---

(١) يقال: أخلق به: أي ما أجدره وما أولاه.

(٢) نهر كوثى: هو أول نهر أخرج بالعراق من الفرات، وسمي بكوثى من بني أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وهو الذي كراه فنسب إليه.

(٣) قصر ابن هبيرة: ينسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، بناه بالقرب من جسر سورا لما ولي العراق من قبل مروان بن محمد.

ثم ملك بعده اذفرنجوا. فكان ملكه نحوًا من عشر سنين.

ثم ملك بعده سيهزم. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة، وقيل أكثر.

ثم ملك بعده قوسيس. فكان ملكه نحوًا من سبعين سنة.

ثم ملك بعده أنبوش. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده إيلاوس. فكان ملكه نحوًا من خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده الجلوس. وكان مُلْكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده أونوبس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده بعنكلوس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين شهرًا.

ثم ملك بعده سفرين. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة، وقيل أقلّ.

ثم ملك بعده مارنوس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده رسطاليم. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده أسطوس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

ثم ملك بعده تاولوس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

ثم ملك بعده العداس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أطيروس. فكان ملكه نحوًا من ستين سنة.

ثم ملك بعده ساوساس. فكان ملكه نحوًا من عشرين سنة.

ثم ملك بعده فارينوس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة، وقيل خمسًا وأربعين سنة.

ثم ملك بعده أدرموس. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة. وغزاه ملك من ملوك فارس في عُقْر داره.

ثم ملك بعده مسروس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة.

ثم ملك بعده أفروس. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده طاطاوس. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة.

ثم ملك بعده لاوسيس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة، وقيل خمسًا وأربعين سنة.

ثم ملك بعده قريطوس. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده قروطاوس. فكان ملكه نحوًا من عشرين سنة.

ثم ملك بعده قراقريس. فكان ملكه نحوًا من خمسين سنة، وقيل اثنتين وأربعين سنة.

ثم ملك بعده بوليس قنطروس. فكان ملكه نحوًا من عشرين سنة.

ثم ملك بعده قولا قسما. فكان ملكه نحوًا من ستين سنة.

ثم ملك بعده هيقلس. فكان ملكه خمسًا وثلاثين سنة، وقيل خمسين سنة. وكانت له حروب مع ملوك الصقالبة.

ثم ملك بعده سموجد. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده مردوج. فكان ملكه نحوًا من أربعين سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده سنحاريب. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة، وهو الذي ابتنى بيت المقدس.

ثم ملك بعده منوشا. فكان ملكه نحوًا من ثلاثين سنة، وقيل أقلّ من ذلك.

ثم ملك بعده بُخْتَنَصَّر الجبّار. فكان ملكه خمسًا وأربعين سنة، وقد تقدّم أن بختنصّر لم يكن ملكًا وإنما كان مَرْزُبانًا لملوك الفُرْس الأُوَل، إلا أن يكون هذا غير ذاك. والله أعلم.

ثم ملك بعده بيطسقر. فكانت مدّة ملكه نحوًا من ستّين سنة، وقيل أقل من ذلك.

ثم ملك بعده دارنوس. فكان مُلْكه إحدى وثلاثين سنة، وقيل أكثر من ذلك.

ثم ملك بعده كشرخوش فكان ملكه عشرين سنة.

ثم ملك بعده قرطاسية تسعة أشهر.

ثم ملك بعده فيجسمنه. فكان ملكه إحدى وأربعين سنة.

ثم ملك بعده أجرست. فكان ملكه ثلاثًا وستين سنة.

ثم ملك بعده شعيا. فكان ملكه ثلاثين سنة، وقيل تسعة أشهر.

ثم ملك بعده داريوس. فكان ملكه عشرين سنة، وقيل تسع عشرة سنة.

ثم ملك بعده أنطجست. فكان ملكه تسعًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده اليسع. فكان ملكه خمس عشرة سنة، وقيل عشرين سنة.

قال المسعوديّ: فهؤلاء الملوك الذين أتينا على أسمائهم، وذكرنا مدّة ملكهم، هم الذين شيّدوا البنيان، ومدّنوا المدن، وكوّروا الكُوَر، وحفروا الأنهار، وغرسوا الأشجار، وٱستنبطوا[١] المياه، وأثاروا[٢] الأرض، وٱستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك، وطبعوا[٣] السيوف، واتّخذوا عدّة الحرب، ونصبوا قوانين الحروب، ورتّبوا الميمنة والميسرة والأجنحة، وجعلوا ذلك مثالاً لأجزاء أعضاء الإنسان، ورتّبوا الأعلام؛ فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيلة والنسور وما عظُم من أجناس الحيوان؛ وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع؛ وجعلوا في الأجنحة أمثال ما لطف منها كالنمر والذئب؛ وجعلوا في الطلائع كصُوَر الحيّات وما خَفيَ فعله من هوامّ الأرض؛ وتغلغل القوم في هذه المعاني.

قال: والذي ذكرناه من أخبارهم هو المشهور. والله تعالى أعلم.

ذكر أخبار ملوك الروم وأنسابهم

قال المسعوديّ: قد تنازع الناس في الروم ولأيّ عِلّة سُمّوا بهذا الاَسم، فقيل لإضافتهم لمدينة رُومِيَة[٤] وٱسمها بالرومية روماس. فعُرّب هذا الاَسم فسُمِّي مَن كان بها روما، والروم لا يسمّون أنفسهم في لغتهم إلاّ رومس. ومنهم مَن رأى أن هذا الاَسم ٱسم الأب الأوّل، وهو روم بن شماخلين بن هُوبان بن علفا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومنهم مَن رأى أنهم سُمّوا بٱسم جدّهم رومس بن لبطى بن نويفل بن روميّ بن الأصغر بن النفر بن العيص، وقيل غير ذلك. وقد ذكرنا في الأنساب شيئًا من ذلك.

قال المسعوديّ: وغلبت الروم على ملك اليونانيين، فكان أوّل مَن ملك منهم طوخاس وهو جانيوس الأصغر بن روم بن شماخلين، فكان مُلْكه ٱثنتين وعشرين سنة.

---

(١) استنبط الماء: أي استخرجه. (٢) أثار الأرض: حرثها للزراعة.

(٣) طبع الشيء: صنعه، أو نقشه ورسمه، أو صاغه.

(٤) رومية: هي مدينة رياسة الروم، حسب قول الأصمعي؛ قيل: هي مسماة باسم رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام، وقيل: إنما سمي الروم رومًا لإضافتهم إلى مدينة رومية واسمها رومانس بالروميّة، وهي شمالي وغربي القسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يومًا أو أكثر... (معجم ياقوت).

وقيل إنّ أوّل مَن ملك من ملوم الروم قَيْصَر، واسمه غالوس أوليوس. فكان مُلْكه ثماني عشرة سنة.

وقيل أوّل مَن ملك منهم بعد ملوك اليونانيين برومية بوليس. فكان مُلْكه سبع سنين ونصفًا. قال: وَرومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه أغسطس قَيْصَر. وكان مُلْكه ستًّا وخمسين سنة، وهو أوّل مَن تَسمَّى بقَيْصَر، وإنما سُمِّي بذلك لأنّ أمّه ماتت وهي حامل به فشُقّ بطنُها عنه، ومعنى قَيْصَر بقر[1]، وكان يفتخر بأنّ النساء لم تلده، وحقيقة هذه اللفظة بالعجمية جَيْشَر، قيل إنما سمي جيشر لأنه ولد بشعر يبلُغ عينيه، وٱسم الشعر بالعجميّة حساريه وقيل جشايره، فعرِّب فقيل قَيْصَر، وهو صاحب قُلُوبَطْرَة ملكة اليونان على ما ذكرناه. وٱحتوى هذا الملك على مَقْدُونية وهي مصر والإسكندرية، وحاز ما فيهما من الخزائن، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ، وكان يعبد الأوثان. وبنى بأرض الروم مُدُنًا تنسب إليه، وكوّرَ كُورًا. فمن مُدُنه قَيْسارية[2]. ولأثنتين وأربعين سنة خلت من مُلْكه ولد المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، وعاش هذا الملك بقيّة عمره وقد بطل شقّه لما ثقُلت عليه الحيّة على ما قدّمناه في أخبار قُلُوبَطْرَة.

ثم ملك بعده طياريس. فكان مُلْكه ٱثنتين وعشرين سنة. قال: ولثلاث سنين بقيتْ من ملكه رُفِع المسيح عليه السلام. قال: ولمّا هلك هذا الملك برُومِيَة اختلفت الروم وتحزّبت وأقاموا على ٱختلاف الكلمة والتنازُع مائتَيْ سنة وثمانيًا وأربعين سنة لا نظام لهم ولا ملك يجمعهم.

ثم ملَّكوا عليهم طباريس عابس بمدينة رُومِيَة. فكانت مُدّة ملكه أربع سنين.

ثم ملك بعده قلورس برومية. فكان ملكه أربع عشرة سنة، وهو أوّل مَلِك من ملوك الروم شرع في قتل النصارى وأتباع المسيح عليه السلام، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكانت الروم تعبد التماثيل.

---

(١) بقر الشيء: أي شقه.

(٢) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، وهي كرسي بني سلجوق ملوك الروم أولاد قليج أرسلان وبها موضع يقولون إنه حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب وجامع أبي محمد البطال وفيه الحمام الذي ذكروا أن بليانس الحكيم عمله للملك قيصر يحمى بسراج... (معجم البلدان).

ولما هلك هذا الملك ملك بعده نيرون. قال: وٱستقام مُلْكه ورغب في عبادة التماثيل والأصنام، وكان ملكه أربع عشرة سنة وشهورًا.

ثم ملك بعده ططس واسبابوس مشتركَيْن في المُلْك. فكان ملكهما ثلاث عشرة سنة، ولسنة من ملكهما سارا إلى الشام، فكانت لهما حروب عظيمة مع بني إسرائيل قتل فيها من بني إسرائيل ثلاثمائة ألف وخرّبا بيت المقدس وأزالا رسمه، وكانا يعبدان الأصنام.

قال المسعوديّ: وذكر في بعض التواريخ أنّ الله تعالى عاقب الروم من ذلك اليوم الذي خرّبوا فيه بيت المقدس أن يُسبى منهم في كلّ يوم سَبْيٌ فلا يومٌ إلاّ والسَّبْيُ واقعٌ فيهم قلّ ذلك أو كَثُر.

ثم ملك بعدهما ذو مطيانس. فكانت مدّة ملكه خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده تبرنوس. فكانت مدّة ملكه سنة واحدة.

ثم ملك من بعده طومانوس. فكانت مدّة ملكه تسع عشرة سنة.

ثم ملك بعده أذربالس. فكانت مدّة ملكه إحدى عشرة سنة، وخرَّب سائر ما بَقِيَ بالشام لبني إسرائيل.

ثم ملك بعده أبطونيس. فكان ملكه ثلاثًا وعشرين سنة. قال: وبنى بيت المقدس وسمّاه إيلياء.

ثم ملك بعده قرمودس. فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك بعده سيريرس. فكانت مدّة ملكه ثماني عشرة سنة.

ثم ملك بعده ولده أنطويس. فكانت مدّة ملكه تسع سنين.

ثم ملك بعده أنطويس الثاني. فكانت مدّة ملكه أربع سنين، وفي آخر ملكه مات جالينوس الطبيب.

ثم ملك بعده الإسكندر مامياس، وتفسير مامياس العاجز. فكانت مدّة ملكه ثلاث عشرة سنة.

ثم ملك بعده عردياس. فكانت مدّة ملكه ستّ سنين.

ثم ملك بعده ديقيوس وقيل فيه دقيوس. فكانت مدّة ملكه ستين سنة. قال: فأمعن في قتل النصارى، ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف.

ذكر خبر أصحاب الكهف

قال الشيخ عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطيّ[١] في كتاب المبتدإ يرفعه إلى وَهْب بن مُنَبِّه[٢]: إنّ أصحاب الكهف كانوا فِتْيَة من الروم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣] الآيات التي في سورة الكهف. قال: وكان في إيمانهم عِبْرةٌ وتفكُّر منهم في عِظَم الله وجلالِه ومُلْكه وسلطانِه وأصنافِ خَلْقه، لم يأتهم بذلك وَحْي ولم يقرؤوا كتابًا، ولم يُدْرِكوا زمانَ نبوّة، وكانوا في زمن فترة قبل أن يبعث الله عزّ وجل عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذا القول مخالفٌ لما ذكرناه آنفًا، فإنّ المساق الذي قدّمناه من أخبار ملوك الروم يقتضي أن بين رفع عيسى عليه السلام وبين مُلْك دقيوس ما يزيد على مائتي سنة. والله عزّ وجلّ أعلم.

قال: وكانوا شبّانًا متقاربين في السنّ قلّما يتفاوتون، وكانوا من فصيلة[٣] واحدة يجمعهم النسَب، وكانوا في حَسَبٍ عظيم من أحساب الروم، من ولد عظمائهم وملوكهم وأشرافهم، وكان للروم فيهم هوى وصبابةٌ شديدةٌ. وكان مُلْك الروم الأوّل في آباء أولئك الفتْية ويُنقَل في فَصِيلتهم التي كانوا منها أكثر من أربعمائة عام حتى ٱنقرضت تلك الفصيلة وزال الملك عنهم، فكان أولئك الفِتْيةُ عَقِبَ أولئك الملوك وبقيَّتهم، وكان الروم يتمنَّوْنَ مُلْكهم ويمدُّون إليهم أعناقهم لما قد بلغهم ما كان الناس فيه في زمن أسلافهم من الخَفْض[٤] والدعة والعافية والبَسْط والأمن والسَّعة، فكانوا يؤمِّلونهم ويرجونهم، وكانت ملوك الروم قد جَفَوْهم وحرموهم وأقصوهم وأضرُّوا بهم مخافةً منهم على مُلْكهم لما يعلمون من رأي الروم فيهم، وكانوا مع ذلك يكفُّون عنهم أذاهم، ويعرفون أنهم مَفْزَعُ[٥] الروم إن ٱختلفوا ومُعَوّلهم عليهم، فلم تزل تلك

---

(١) هو عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد بن الحسين الأنماطي البغدادي (أبو البركات) محدث، حافظ. توفي ببغداد في ١١ المحرم سنة ٥٣٨ هجرية. من آثاره: تخاريج في الحديث، فوائد في الحديث، وكتاب في الإجازات.

(٢) وهب بن منبّه: هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء (ص) وسير الملوك. رأى له ابن قتيبة، على حدّ قوله تصنيفًا في مجلد واحد يذكر فيه الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم... (وفيات الأعيان ٦: ٣٥).

(٣) الفصيلة: عشيرة الرجل ورهطه الأدنون وأقرب آله إليه.

(٤) الخفض: الدّعة وسعة العيش.

(٥) المفزع: من يُلجأ إليه عند نزول الخطب. (للواحد والجمع والمذكر والمؤنث).

حالهم فيما بينهم وبين ملوكهم وقومِهم حتى أراد الله تعالى بهم ما أراد من هُدَاهم والإيمانِ الذي نوّره الله في قلوبهم.

قال قائلٌ منهم: إني قد رأيتُ رأيًا وقع في قلبي وأمرًا ثبت فيه، فلستُ أبصِرُ غيرَه، وليس يُخْرِجُه من قلبي شيء، اسمعوا أعرِضُ عليكم، إني فكّرتُ في خلق السماواتِ والأرضِ، واختلافِ الليل والنهارِ، والشمسِ والقمرِ، والنجومِ والسحابِ والمطرِ، والأحياءِ والأمواتِ، والنباتِ، والصِّغار والكِبَار، والبقاءِ والفناءِ، والشدّةِ والرخاءِ، وتقلُّبِ الدنيا بأهلِها، والأطباقِ[1] التي تنصرف عليها الخلق طَبَقًا بعد طَبَق، وقومًا عن قوم: من مَوْتٍ وحياةٍ، ونَقْصٍ وزيادة، وخَفْضٍ ورَفع، وغِنًى وفقرٍ، وطُولِ عُمْر ونَقْصِ آخر، ومَوْتِ صغير وهَرَم كبير، وأشباهٍ لذلك كثيرة. وهي أكثر من أن تُعَدّ وتُوصَف أو تحصَى؛ فلمّا نَظرتُ فيها وأعملتُ الرأي والنظرَ أجمع رأيي على أنّ لها خالقًا بديعًا ابتدعها؛ وربًّا يملكها ويُدَبِّرها، ويخلقها ويرزقها، ويُغْنِيها ويُفْقِرُها، ويَرْفعها ويَخْفِضُها، ويُحْيِيها ويُمِيتها ويُفْنِيها، تتقلّب في قَبْضته وتعيش برزقه؛ فلمّا تمّ لي الرأي نظرتُ في عظمة هذا الربّ الذي ابتدع هذا الخلقَ وضَبَطَه، ودبَّره وأحكم أمرَه، فإذا قُدْرتُه تأتي من وراء ذلك كلِّه، ليس من هذا الخلقِ شيءٌ يفُوتها ولا يخرج منها، وإذا هي محيطةٌ بكلّ شيء ومن وراء كلّ شيء، ثم نظرتُ في عظمة الربّ هل أصفها كما وصفتها القُدرة، وهل أعلم كُنْهَهَا[2]؟ فتحيّرتُ فيها، وعجز عنها الحلم والعلم، وحَسَر عنها العقلِ والنظر، وما بَقِيَ مما لم أذكره لكم معرفة القلب ولا نَصِفُه إلاّ أنه قد أُلهم بمعرفته وأُسرّ بها أكثر وأعظم وأعجب مما وصفتُ وشرحتُ لكم، فماذا تقولون، وماذا تعرفون، وماذا تفعلون؟.

قالوا: قد قُلتَ قولاً عظيمًا ووصفتَ أمرًا عجيبًا، وما نَحسَبك إلاّ قد أصبتَ فيه الرأيَ والنظرَ، وقد صدّقناك وتابعناك ورأينا رأيكَ وواقعُ قلوبَنا منه ومن معرفته مثلَ الذي عرفتَ وواقعُ قلبَك، وإن كنّا لنرى مثلَ الذي رأيتَ من أعاجيب هذا الخَلْق وعظمة هذا الخالق، وإن كان ليكثُر أن يخطُر على قلوبنا منه مثلُ ما خطرَ على قلبك، ولكنّا لم نشرح منه ما شرحتَ ولم نصف منه ما وصفت، ولم نعمل الرأيَ والنظرَ في معرفته مثلَ ما أعملتَ وعرفتَ. ولكنّ اللّهَ أراد هُداك وتفضيلكَ وإكرامك بما سبقتَ إليه من هذا القول وهذا العلم وهذه المعرفة، ولكن حدِّثنا عمّا نسألك

---

(١) الأطباق: جمع الطبق، وهي الحال والمنزلة.

(٢) الكنه: الحقيقة.

عنه. وإنما نظرنا فيه بعدَما سمعنا قولَك؛ هل ينبغي لهذا الربّ الذي وَصفتَه بما وَصفتَه من العظمة أن يكون له شريكٌ في مُلْكه، أو حاجةٌ إلى شيء من خَلْقه، أو هل يَغْلبه شيءٌ يستعين عليه بغيره؟

قال لهم: لو كان له شريكٌ في شيء من أمره لضَبَط[١] ما ضَبَط، ولو كانت به حاجةٌ إلى أحدٍ من خَلْقه لكان مثلَهم. ولو كان يستعين على شيء يغلبه بغيره إذًا ما بَلَغَتْ قُدْرتُه ما بَلَغتْ، ولا أحاطتْ بما أحاطتْ به، ولا وَسع ما اتّسع له من أمر خَلْقه، وتدبير ما خَلَقَ ورَزَق وأماتَ وأحيا.

قالوا له: صدقت وعرفنا ما تقول وثبت في قلوبنا، ولكن حدّثنا ما بال خلقه يشركون به وهم يعرفونه حقّ معرفته. قال: لأنه خلق فيهم الأهواء وطبع فيهم الشهوات، وجبَلهم[٢] على الضَّعف، وثَبّتَ معهم الشيطان. فمن قِبَلَ هذا عدلُوا به وهم يعرفون أنّ الذين يدعون من دونه لا يُحيُونهم ولا يُميتونهم، ولا يخلقونهم ولا يرزقونهم، ولا يضرُّونهم ولا ينفعونهم. إذا مسّهم الضُرُّ فإيّاه يدْعون وإليه يَجْأرون، فعند ذلك اجتمع رأيهم على أن يأووا إلى الكهف، وأن يعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، فعندها قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] إلى قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥] قال: فلما اعتزلوهم وما يعبُدون من دون الله آوَوْا إلى الكهف رجاءَ أن ينشُر لهم ربهم من رحمته ويهيِّىء لهم من أمرهم مِرْفقا[٣]. قال: وأرادوا أن يكونوا في عُزْلة من قومهم وشِرْكهم حتى يفرق لهم رأيُهم، فألقى الله عليهم السُّبَات.

قال: وهم من مدينة من مدائن الروم يقال لها أفْسُوس[٤]، ومِلِك الروم يومئذ دقيوس، ويقال ـ والله أعلم ـ إنّ عدّتهم سبعة، كان عبد الله بن عباس يسمّيهم بأسمائِهم ويقول: ما يعلمهم إلا قليل وأنا من أولئك القليل، منهم مرطالوس، ونونوس، ودانيوس، وسراقيون، وأسطاطالوس، ومكسلميس، وتمليخا، وهو الذي بعثوه بِوَرَقِهم[٥] إلى المدينة ليرتادَ[٦] لهم. هذا قول ابن عباس، قال: وكانوا قومًا

---

(١) ضبط الشيء: أحكمه وأتقنه. (٢) جبلهم على الضعف: طبعهم عليه.

(٣) المرفق: حسن الصنيع، أو ما يرتفق به من غذاء أو عشاء، وهو المراد.

(٤) أفسوس: مدينة في جزيرة باسمها في البحر الأبيض على مقربة من ساحل آسيا الصغرى.

(٥) الورق: المراد بها النقود المضروبة من الفضّة.

(٦) المراد: ليطلب لهم الغذاء.

يطلبون الصَّيد لِمَا مسَّهم من الضُّرّ والحاجة ليس لهم كبيرُ معيشةٍ غيرَه، فقالوا قولهم هذا ونظروا ما نظروا، وهم يومئذ في الجبل الذي فيه كَهْفُهم يطلبون الصيد ومعهم كلابهم وبُزاتُهم وقِسِيُّهم[١] ونَبْلُهم. فلمّا أجمع رأيُهم أن يأوُوا إلى الكَهْف ليأتمروا[٢] فيه، هل يُقيمون مع قومهم على شِرْكهم، أم يفارقونهم فينتجعون[٣] ناحيةً من الأرض يحِلُّون فيها ويوحِّدون فيها ربَّهم. فبينا هُمْ على ذلك ألقَى الله عليهم السُّباتَ وأخفَى على جميع خَلْقه مكانهم، وصَرَف عنهم الأبصار والعقول، فليس يُبصرهم أحدٌ ولا يَفْطِن بمكانهم، فلَبِثوا في كَهْفهم ثلاثمائةِ سنينَ وٱزدادوا تِسْعًا، حتى ٱنقرَضَتِ الأمّةُ التي كانوا فيها والمَلِك الذي كان عليهم، وظهر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وآمنَ به الناس وٱتّبعوا ملّته ورفعه الله إليه وذهب زمانُه وزمانُ أهل ملّته وهم في كهفهم.

قال: وقد كان عيسى ابن مريم عليه السلام قبلَ أن يرفعه الله يحدّث عنهم وعن إيمانهم وبصيرتهم[٤]، وكيف تفكّروا في عظمة إلٰههم، وكيف ألقَى الله عليهم السُّباتَ في كهفهم، وكيف أخفَى مكانهم عن الناس، ولا ينبغي لأحد أن يَهْتدي إليهم ولا يعرفَ مكانهم، وكان يخبر أنّ الله سيردّ إليهم أرواحهم ويدلّ على كهفهم ليكونوا عِبْرة لمن خَلْفهم إن أراد أن يعتبر بهم.

قال: فردّ الله إليهم أرواحهم بعد أن لَبِثوا في كهفهم العِدّة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في القرآن ولَزِمَهم كلبُهم، فلبِثَ سِنِيهم كلّها، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: ١٨] والوصيد: فناء الكَهْف الذي فيه موضع الباب، وكان الكلب من كلاب صَيْدهم ولم يطعم ولم يشرب ليجعله الله آية من آياتهم.

قال: فلمّا ردّ الله عليهم أرواحهم ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٢٠] وهم حينئذ يظنون أنّ قومهم أحياء، وأنهم على ما يَعهَدون من حالهم وشِركهم وعُتُوّ مَلِكهم، فٱنطلق رجل منهم يقال له تمليخا، وكان أشدّهم وأنجدَهم[٥]، فتوجّه حتى إذا خالط رَبَضَ[٦]

---

(١) القسيّ: جمع القوس، وهو آلة على هيئة هلال ترمى بها السهام (تذكر وتؤنث).

(٢) ليأتمروا فيه: أي ليتشاوروا.

(٣) انتجع: قصد.

(٤) البصيرة: العقيدة والرأي.

(٥) أنجدهم: أي أشجعهم.

(٦) ربض المدينة: ما حولها.

المدينة أنكره وأنكر ما وجد به من الناس والدوابّ والبُنيان وغير ذلك، ووجد الناس على حال لم يكن يَعْهدها وسُنَّةٍ لم يكن يَعْرفها، ووجدهم يبتاعون بوَرِقٍ لا يُشْبِه الوَرِق الذي معه. فتحيَّر وأنكر وأقبلَ وأدبر، وأبطأ على أصحابه حتى خافوا عليه، وظنّوا أنه فُطِن به وقُدِر عليه. فلمّا طال عليه ذلك دخل المدينةَ من ناحيةٍ أخرى من نواحيها خِفْيَةً فوجد حالَ أهل المدينة على حال أهل الرَّبَضِ في كلّ شيء، فلمّا شكّ وٱرتاب وٱلتبس عليه رأيُه عَمِد إلى مشيخةٍ من أهل المدينة توسَّم فيه الخير ليتجسّس ويسمعَ قولهم. فوجد معهم الإنجيل يقرؤونه، فسمع ما فيه من توحيد الله وعظمته وعذابه وسُنّته وشرائِعه وحلاله وحرامِه، فعرف ذلك وأذعَنَ إليه وأنصتَ يسمع حتى إذا فَرَغوا من قراءتهم سألهم عن كتابهم فقالوا: هذا كتاب الله الإنجيل الذي أُنزِل على عيسى ابن مريم عليه السلام نبيّه. قال: وأين عيسى؟ قالوا: قد رفعه الله تعالى إليه. قال: وكم لبث فيكم؟ قالوا: ثلاثًا وثلاثين سنة. قال: وهل رأيتموه وأتيتموه وأدركتم زمانه؟ قالوا: لا، كان قبل أن نُولَد، ووجدنا كتابه في أيدي آبائنا. قال: أفكلّ هذه المدينة تؤمن بهذا النبيّ وبهذا الكتاب وتعمل بما فيه مما أسمع من حلاله وحرامه؟ قالوا: نعم، إلاّ مستحقًّا بذنب أو ظالمًا لنفسه. قال: فهل سمعتم بالملِك الذي يقال له دقيوس؟ قالوا: نعم. قال: فكم له منذ هلك؟ قالوا: أكثر من ثلاثمائة عام. قال: فهل بَقِيَ له عَقِبٌ، أو لأحدٍ من أهل مملكته يعمل بعمله؟ قالوا: لا. قال: فلو أراد أحد أن يعمل بمثل عمله ما كنتم تفعلون به؟ قالوا: نقتله أو نخرجه من بين[(١)] أظهرنا.

فلمّا آمنهم واطمأنّ إليهم ورأى سَمْتَ[(٢)] الإسلام وهَدْيَه عليهم وفّقه الله وهداه لمسألة سألهم عنها. قال: أخبروني، هل كان نبيّكم عيسى عليه السلام يخبركم عن سبعة رَهْط خرجوا من هذه المدينة في زمن دقيوس وقومه، وهربوا إلى الله بأنفسهم ودينهم فرارًا من دقيوس وقومه، وما كانوا يعبُدون من دون الله حتى آوَوْا إلى الكهف في هذه الجبال فٱستخفُوا فيها. فلمّا قال لهم هذا أوجسوا[(٣)] في أنفسهم أنه منهم، قالوا: نعم، قد كان يخبرنا عنهم فلعلك منهم فإنّا ننكر حالك كلّه. قال: فهل كان عيسى عليه السلام فيما بلّغكم سَمَّى أصحاب الكهف؟ قالوا: نعم؛ قال: فسمّوهم لي

---

(١) من بين أظهرنا: أي من بيننا.

(٢) السّمت: المذهب، أو الطريق الواضح.

(٣) أوجسوا في أنفسهم: أي أحسّوا.

بأسمائهم، فسمّوهم حتى إذا ذكروا اسمه تمليخا قال: فأنا تمليخا وأنا أحدهم، فخرُّوا له سجَّدًا كما صنع إخوة يوسف بيوسف يوم دخلوا عليه؛ وكانت تحيّتهم فيما بينهم السجودَ يومئذ، ثم أدخلوه مسجدهم وعظّموه ووقّروه وأكرموه ورفعوه وجمعوا له أهلَ مدينتهم وقرّاءهم وفقهاءهم، فتبرّكوا به، وجعلوا له عيدًا عظيمًا، وأقام أيامًا بين أظهرهم ثم قال لهم: إنّ أصحابي الذين يحدّثكم عنهم عيسى عليه السلام لا أراهم إلاّ وقد خافوا عليّ وساء ظنّهم وهم يظنّون أنّ دقيوس حيّ؛ وأنّ الزمان زمانُه، وأنّ الدين دينُه، فانطلقوا بنا نُعلمهم كيف أهلكه الله وقومَه وطهَّر الأرض منهم، وكيف اَستبدل الله به وبأهل ملّته أمّة يوحّدونه ويعرفونه ويَهدون بالحقّ وبه يَعدِلون. فانطلقوا معه حتى انتهَوْا إلى الكهف فوجدوا كلبَهم باسطًا ذراعَيْه بالوصيد فقالوا حين رأَوْه: وهذا الكلبُ أيضًا من علاماتكم التي كان يحدّثنا عنها عيسى عليه السلام، وقد كان يحدِّث أنّ أصحاب الكهف لا ينظر إليهم أحدٌ من خلق الله من يوم يدخلون الكهف إلى أن ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام إلا رجلٌ واحدٌ منهم، وهو الذي يدلّ عليهم وعلى مكانهم، وأنت هو؛ فدخل على أصحابه فأخبرهم بما رأى وما لَقِيَ، ثم كان آخر العهد بهم. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١]. قال: فبنوه حول الكهف وجعلوا الكهف في وسطه وكتبوا القصّة على حيطانه.

قال وهب: فبلغني ـ والله أعلم ـ أنّ النبيّ ﷺ قال: إنّ نزول أخي عيسى ابن مريم عليه السلام عِلْمٌ للساعة، وإنّ الله يبشّرهم عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنه يحجّ في سبعين ألفًا فيهم أصحابُ الكهف لأنهم لم يموتوا، ثم تُقبل ريحٌ صفراءُ يمانيّة، ألين من الحرير، ورِيحُها رِيحُ المسك فتقبِض روح عيسى عليه السلام وأرواحَ مَنْ معه. انتهى خبر أصحاب الكهف، فلنرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار ملوك الروم.

قال: ثم ملك بعد دقيوس جالش. فكانت مدّة ملكه ثلاث سنين. ثم ملك بعده قليطانس. فكانت مدّة ملكه عشرَ سنين. ثم كانت بعده ملوك الروم المتنصِّرة.

ذكر أخبار ملوك الروم المتنصِّرة وهم ملوك القسطنطينية

قال المسعوديّ: لمّا هلك قليطانس ملك بعده قسطنطين برُومِيَة، وهو أوّل من انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بِيزَنْطِيَا، وهي القسطنطينية، فبناها هذا الملك وسمّاها بهذا الاسم. قال: وكان خروجه من رومية ودخوله في دين النصرانية لستّ[١] خلتْ من مُلْكه، وذلك أنّ أمّه هلانا خرجتْ إلى أرض الشام وبنت الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي تزعُم النصارى أنّ عيسى عليه السلام صُلِبَ عليها، فلمّا ظفِرتْ بها حَلَّتها[٢] بالذهب والفضة واتّخذت يومَ وجودها عيدًا، وهو عيدُ الصليب، لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول. وهي التي ابتنت كنيسة حِمْص على أربعة أركان، واستخرجت الدفائن بمصر والشام، وصرفت ذلك في بناء الكنائس وتشييد دين النصرانية، فكلّ كنيسة بالشام ومصر من بناء هذه الملكة هلانا.

قال: ولسبع عشرة سنة خَلَتْ من مُلْك قُسْطَنطين اجتمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقُفًا بمدينة نِيقْيَة[٣] بأرض الروم فأقاموا دين النصرانية. وهذا الاجتماع أوّل الاجتماعات الستة التي تذكرها الروم في كلامهم وتسمِّيها القوانين، ومعنى هذه الاجتماعات السُنودسات واحدها سونودس. فالأوّل بنِيقْيَة وكان الاجتماع فيه على أرنوس، وهذا اتفاق من سائر أهل دين النصرانية. والسُنودس الثاني بقسطنطينية على مقدونس، وعِدّة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلاً. والثالث بأفسيس وعِدّة مَن اجتمع فيه من الأساقفة مائة رجل. والرابع بخلقدونية وعددهم ستمائة وستون رجلاً. والخامس بقسطنطينية وعددهم مائة وستة وأربعون رجلاً. والسادس كان في ملكة المدن، وعِدّتهم مائتان وثمانون رجلاً.

قال: وكان السبب في دخول قسطنطين في دين النصرانية أنه خرج في بعض حروب أبرجان أو غيرهم من الأمم، فكانت الحرب بينهم سجالاً نحوًا من سنة، ثم كانت عليه في بعض الأيام فقُتل من أصحابه خلق كثير وخاف البوار فرأى في نومه

---

(١) أي لست سنوات. (٢) حلّتها: أي زينتها.

(٣) نيقية: مدينة من أعمال إسطنبول على البرّ الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية.

كأنّ رماحًا نزلت من السماء فيها عَذَب[١] وأعلامٌ على رأسها صُلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب، وقيل له: خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوّك تنتصر، فجعل يحارب في النوم فرأى عدوّه قد أنهزم، فأستيقظ من نومه ودعا بالرماح وركّب عليها الصُّلبان مثل ما رأى، ورفعها في عسكره وزحف إلى عدوّه فكسرهم وأخذهم السيف، فرجع إلى مدينة نِيقْيَة وسأل عن تلك الصُّلبان وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنِّحَل؟ فقيل له: إنّ بيت المقدس من أرض الشام يجمع هذا المذهب، وأخبروه بما فعله مَنْ قبله من الملوك من قتل النصارى، فبعث إلى الشام وبيت المقدس وحشر له ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا فأتَوْه بنِيقْيَة فقصّ عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانيّة؛ فهذا هو السُّنودس[٢] الأوّل.

وقيل: إنّ أمّه كانت قد تنصّرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا. وكان ملكه إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة، وقيل خمسًا وعشرين.

ثم ملك بعده قُسْطنطين بن قُسْطنطين. فكانت مُدّة ملكه أربعًا وعشرين سنة. وابتنى كنائس كثيرة وشيّد دين النصرانيّة.

ثم ملك بعده ابن عمه بوليانس المعروف بالحُنَيفي ويسمّى البِرْباط. قال: ولمّا ملك رجع عن دين النصرانية وغيّر رسومها وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير فأتاه سَهْم غَرْب[٣] فذبحه. ولمّا هلك جَزَع مَن كان معه من الملوك والبطارقة ففزعوا[٤] إلى بِطْريق كان معظَّمًا عندهم يقال له يونياس، وقيل: إنه كان كاتبًا للملك الماضي، فأبى عليهم إلاّ أن يرجعوا إلى دين النصرانية، فأجابوه إلى ذلك فملّك عليهم يونياس المذكور.

قال: ولمّا ملَك كان له مراسلات مع سابور ومُهادنة وأجتماع، ثم أنصرف بجيوش النصرانيّة موادعًا لسابور وأخلفَ عليه ما أتلفَ الملك الماضي من أرضه بأموال حَمَلها إليه وهدايا من ألطاف الروم، وشيّد النصرانيّة وأعاد معالمها، ومنع من عبادة الأصنام والتماثيل. وقَتَلَ مَن كان على عبادتها. فكان مُلْكه سنة.

ثم ملك بعده أوالس قال: ولمّا ملك كان على دين النصرانيّة ثم رجع عنه، وهلك في بعضِ حروبه، فكان مُلْكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة. وقيل: إن في أيامه أستيقظ أهل الكهف.

---

(١) عذب: جمع عذبة، وعذبة الرمح خرقة تشدّ على رأسه.

(٢) المراد بالسنودس: الاجتماع.

(٣) سهم غرب: أي لا يدرى راميه.

(٤) فزع إليه: أي لجأ واستغاث.

ثم ملك بعده غراطيانس. فكانت مدّة مُلْكه خمس عشرة سنة، ولسنةٍ من مُلْكه كان ٱجتماع النصرانيّة، وهو آخر الاَجتماعات، فأتمّوا القول في روح القدس، وهو السُّنودس الثاني.

ثم ملك بعده بدرسيس الأكبر، وتفسير هذا الاَسم عطيّة الله. قال: ولما ملك قام بدين النصرانية وعظّم أمرها وٱبتنى الكنائس، ولم يكن من أهل بيت المقدس ولا من الروم؛ بل كان أصله من الأشبان، وهم بعض الأمم السالفة. قال: وقد كانت ممن ملكت الشام ومصر والمغرب والأندلس. وقد تنازع الناس فيهم، فذكر الواقديّ[1] في كتاب فتوح الأمصار أنّ بدءهم من أهل أصبهان، وأنهم ناقلة من هنالك، وهذا يُوجِب أنهم من قِبَل ملوك فارس.

قال: وذكر عُبَيد الله[2] بن خُرّدَاذْبَه نحو ذلك، وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السِّير والأخبار.

قال المسعوديّ: والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح، وهم اللذارقة ملوك الأندلس واحدهم لَذْرِيق، وقد تُنُوزع في دياناتهم، فمنهم من رأى أنهم على دين المجوس، ومنهم مَن رأى أنهم على مذهب الصابئة وغيرهم من عَبَدَة الأصنام. قال: وكان مُلْك بدرسيس إلى أن هلك تسعَ عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده أوقاديس. فكان مُلْكه أربعَ عشرةَ سنة وكان على دين النصرانية.

ثم ملك بعده بدرسيس الأصغر، وذلك بمدينة أقسس، وجمع مائتي أسقف وهو الاَجتماع الثالث من الأسنودسات، ولعن فيه نسطورس البطرك، وإليه تنسب النسطوريّة من النصارى. وكان مُلْك هذا الملك إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة.

ثم ملك بعده مرقياقس وزوجته بلجاريا. فكانت ملكة معه. وكان مُلْكهما سبع سنين، وفي أيامهما كان خبر اليعاقبة ووقوع الخلاف بينهم في الثالوث. قال: وأكثر

---

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هشام، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ ومحاربة الصحابة رضي الله عنهم، لطليحة بن خويلد الأزدي والأسود العنسي ومسيلمة الكذاب، وما أقصر فيه... (وفيات الأعيان ٤: ٣٤٨).

(٢) هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه الخراساني (أبو القاسم) مؤرخ، كاتب، راوية للأخبار والآداب. توفي في حدود سنة ٣٠٠ هجرية. من مصنفاته: المسالك والممالك، الندماء والجلساء، اللّهو والملاهي، كتاب الطبيخ، وأدب السماع.

اليعاقبة من النصارى بالعراق وتكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم مَلَكيّة، والنوبة والأرمن يعاقبة؛ ومطران اليعاقبة بين الموصل وبغداد وتكريت، وكان لهم بالقرب من رأس[١] عَيْن واحد فمات، وانتقل مطرانها إلى بلاد حلب وقِنّسْرِين[٢] والعواصم.

قال المسعوديّ: وكرسي اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية، وكذلك لهم كرسي بمصر.

ثم ملكا بعدهما ليون الأصغر بن ليون. فكان ملكه ستَّ عشرةَ سنة، وفي أيامه أحرم مسعدة اليعقوبيّ بطرك الإسكندرية، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفًا. وفي تاريخ الروم أنّ عدّة المجتمعة ستمائة وستون رجلًا، وذلك بخلقدونية، وهذا الاجتماع هو السُّنودس الرابع عند الملكية. واليعاقبة لا تعتدّ بهذا السنودس.

قال: واليعاقبة أضيفتْ إلى يعقوب البرذعيّ وبه عُرفت، وكان من أهل أنطاكية، وكان يعمل البراذع[٣] بها.

ثم ملك بعده ابنٌ له على دين الملكية. فكانت مدّة مُلْكه إلى أن هلك سنة.

ثم ملك بعده بير وهو من بلاد الأَرْمِينان، وكان ملكه سبعَ عشرةَ سنة، وكان يميل إلى رأي اليعاقبة، وكان له حروب مع خَوارجَ خرجوا عليه في دار مُلْكه فظفِر بهم.

ثم ملك بعده نسطاس، وكان يذهب إلى مذهب اليعاقبة، وهو الذي بنى مدينة عَمُّورِيّة[٤]، وأصاب كنوزًا ودفائن عظيمة. وكان ملكه تسعًا وعشرين سنة.

---

(١) رأس عين: هي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخًا وقريب من ذلك بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب، بينهما نحو عشرة فراسخ، وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نحو الخابور... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قنسرين: كانت مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، وبعض يدخل قنسرين في العواصم، وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١، وغلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع ما كان بربضها فخاف أهل قنسرين وتفرقوا في البلاد... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) البراذع: جمع البرذعة، وهي ما يوضع على الحمار أو البغل، ليركب عليه، كالسرّج للفرس.

(٤) عمورية: هي المدينة التي فتحها المعتصم سنة ٢٢٣؛ وعمورية: بليدة على شاطىء العاصي بين فامية وشيزر فيها آثار خراب لها دخل وافر ولها رحى تغل مالاً... (معجم البلدان لياقوت).

ثم ملك بعده نوسطيانس تسع سنين.

ثم ملك بعده سطيانس. فكان ملكه تسعًا وثلاثين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشيّد دين النصرانيّة وأظهر مذاهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها[١]، وهي إحدى عجائب مباني العالَم.

قال: وقد كان في هذه الكنيسة مِنديل يعظّمه أهل دين النصرانية، وهو أن اليسوع الناصريّ حين أُخرج من ماء المعموديّة نُشِّف به، فلم يزل هذا المنْديل يُتداوَل إلى أن قرّر على كنيسة الرُّها؛ فلمّا اشتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أعطي هذا المنديل للروم فوقعت الهدنة عليه، وفرح الروم به فرحًا عظيمًا.

ولما هلك هذا الملك ملك بعده قوسطيس وهو ابن أخيه، وكان ملكه إلى أن هلك ثلاث عشرةَ سنة.

ثم ملك بعده طباريس. فكان ملكه أربع سنين، وأظهر في مدّة ملكه أنواعًا من اللباس والآلات وآنيةِ الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك.

ثم ملك بعده مورقيس، وقيل فيه موريقس. فكانت مدّة ملكه عشرين سنة، وهو الذي نصَّر كِسْرى أبرويز على بَهْرام جُوبِين على ما قدّمناه، ثم قُتل وانتصر أبرويز لولده وبعث بجيوش الفرس، وكانت له حروب ذكرناها.

ثم ملك بعده قرقاس. فكان ملكه إلى أن قُتل أيضًا ثماني سنين.

ثم ملك بعده هِرَقْلُ وكان بطريقًا في بعض الجزائر قبل ذلك. قال: ولمّا ملك عمّر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف[٢] الفرس عن الشام، وبنى الكنائس. ولسبع سنين خلت من ملكه كانت هجرة سيدنا رسول الله ﷺ.

ذكر ملوك الروم بعد ظهور الإسلام

قال المسعوديّ: وجدتُ في كتب التواريخ تنازُعًا في مولد النبيّ ﷺ وفي عصر مَن كان من ملوك الروم؛ فمنهم من ذهب إلى ما قدّمناه، ومنهم من رأى أنّ مولده ﷺ كان في مُلْك نوسطينوس. وكان ملكه سبعًا وعشرين سنة.

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر... (معجم البلدان).

(٢) أي بعد انهزامهم منها.

ثم ملك بعده نوسطينوس الثاني، وكان ملكه عشرين سنة.

ثم ملك بعده هِرَقْلُ بن نوسطينوس، وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم الهِرَقْلِيّة. وكان ملكه خمس عشرة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه مورق بن هِرقْل، وهو الذي كتب الزِّيجات في النجوم، وعليه يَعمَل أهل الحساب. وفي تواريخ ملوك الروم فيمن سلف وخلف أنّ المَلِك للروم كان في وقت ظهور الإسلام وخلافة أبي بكر وعمر هِرَقْلُ. وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب تواريخ أهل السِّيَر. وفي تواريخ أصحاب السِّيَر أنّ رسول الله ﷺ هاجر وملك الروم قيصر بن فوق.

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر، وذلك في أيام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

ثم ملك بعده هرقل بن قيصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي حاربه أمراء الإسلام الذين فتحوا الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى في خلافة عمر رضي الله عنه.

ثم ملك بعده مورق بن هِرَقْل في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

ثم ملك بعده فوق بن مورق في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأيام معاوية بن أبي سفيان.

ثم ملك بعده فلقط بن مورق بقيّة أيام معاوية بن أبي سفيان، وكانت بينهما مراسلات ومُهادنات، وكان مُلْكه في آخر أيام معاوية وأيام يزيد ٱبنه ومعاوية بن يزيد ومَرْوان بن الحكم وصَدْرًا من أيام ٱبنه عبد الملك بن مَرْوان.

ثم ملك بعده لاوِي بن فلقط في بقيّة أيام عبد الملك بن مروان.

ثم ملك بعده جيرون بن لاوِي في أيام الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك أخيه وعمر بن عبد العزيز، ثم ٱضطرب مُلْك الروم لما كان من أمر مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان وغَزْو المسلمين لهم في البرّ والبحر، فملّكوا عليهم رجلًا من غير أهل بيت المُلْك من أهل مَرْعَش[1] يقال له جرجس. فكان مُلْكه تسع عشرة سنة. ولم يزل مُلْك الروم في ٱضطراب إلى أن مَلَك عليهم قسطنطين بن اليون، وذلك في خلافة أبي العباس السفّاح وأبي جعفر المنصور.

---

(١) مرعش: بلدة من الشام.

ثم ملك بعده اليُون بن قُسطنطين، وكانت أمّه أرسى ملكةً معه ومشاركةً له في المُلْك لصغر سنّه. وملك في أيام المهدي والهادي.

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون بن قسطنطين، وكانت أمّه مشاركة له وسملت عيناها بعد موته.

ثم ملك بعده نقفور بن استبراق، وكان لهذا الملك مراسلاتٌ وحروبٌ مع الرشيد، وغزاه الرشيد فأعطى القَوَد[1] من نفسه من بعد بَغْي كان منه في بعض مراسلاته، فانصرف الرشيد عنه ثم غدر ونَقَض ما كان أعطاه من الانقياد، فكتم الرشيد أمره لعارض عِلّة كان وَجَدَها بالرَّقَّة، ثم تجهّز وغزاه فنزل على هِرَقْلَة[2]؛ وذلك في سنة سبعين ومائة، فحاصرهما سبعةَ عشرَ يومًا فأصيبَ خلقٌ من المسلمين وفَنِيتْ الأزواد والعلوفات، ثم فتحها عَنْوة. وقيل: إنهم بادروا لمّا فَتَحها بطلب الأمان فأُمِّنوا. والأشهر أنه فتحها عَنْوة.

ثم ملك بعده استبراق بن نقفور بن استبراق. وكان مُلْكه في أيام الأمين، ولم يزل ملكًا حتى غَلَب على المُلْك قسطنطين بن فلقط، وكان مُلْكه في خلافة المأمون.

ثم ملك بعده توقيل وذلك في خلافة المعتصم، وهو الذي فتح زِبطرة[3] وغزاه المعتصم بعد فتح عَمُّورِية.

ثم ملك بعده ميخائيل بن توقيل، وذلك في خلافة الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين، ثم كان بين الروم تنازُعٌ في الملك، فملّكوا عليهم توقيل بن ميخائيل بن توقيل.

ثم غلب على الملك بسيل الصقلبيّ ولم يكن من أهل بيت الملك. وكان مُلْكه في أيام المعتزّ والمهتدي وبعضِ أيام المعتمد.

(١) القود: أي القصاص.

(٢) هرقلة: مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم بن أليفز بن سام بن نوح عليه السلام، وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد ورمي بالنار والنفط حتى غلب عليها. . . (معجم البلدان).

(٣) زبطرة: هي أرض مستوية والجبال تحيط بها والشعرة من جميع جهاتها على القرب منها وهي في الجنوب عن ملطية على نحو مرحلتين، وهي في جهة الغرب عن حصن منصور على مرحلتين أيضًا، وبينها وبين حصن منصور الجبل والدربند. . .

ثم ملك بعده اليون بن بسيل. فكان مُلْكه بقيّة أيام المعتمد وصَدْرًا من أيام المعتضد إلى أن هَلَك.

ثم ملك بعده الإسكندروس فلم تَحمد الروم أمره فخلعوه.

وملّكوا عليهم أخاه لاوي بن اليون بن بسيل الصقلبيّ. فكان ملكه بقيّة أيام المعتضد وأيام المكتفي وصَدْرًا من أيام المقتدر.

ثم هلك وخلّف ولدًا صغيرًا يقال له قسطنطين فملك وغلب على مشاركته في الملك أرمنوس بطْريق البحر صاحب حربه. قال: فزوّج قسطنطين الصبيّ بأبنته، وذلك في بقيّة أيام المقتدر وأيام القاهر والراضي والمتقي، وذلك في سنة آثنين وثلاثين وثلاثمائة.

قال المسعوديّ: فملوك الروم في هذا الوقت ثلاثة، فالأكبر منهم والمدبّر للأمور أرمنوس المتغلّب على المُلْك، ثم قسطنطين بن لاوي بن اليون بن بسيل، والثالث آبنٌ لأرمنوس يُخاطَب بالمَلِك آسمه أسطفانس وجعل أرمنوس آبنًا له آخر صاحب الكرسيّ بالقسطنطينية، وهو البطريك الأكبر الذي يأخذون عنه دينهم، وقد كان خصاه قبل ذلك أبوه وقرّبه إلى الكنيسة. وهذا آخر من ذكره المسعوديّ من ملوك الروم ولم نجد من ضبط أمرهم بعده على آتساق فنذكره.

قال: فعدّة ملوك الروم المتنصِّرة من قسطنطين بن هلاي الذي أظهر دين النصرانيّة بالروم إلى هذا الوقت أحد وأربعون ملكًا، ولم يعدّ ابن أرمنوس. وسنيهم خمسمائة سنة وسبع سنين.

وقال في ملوك رُومِيَة: والذي وجدت في أكثر كتب التواريخ مما آتفقوا عليه أن عدّة ملوك الروم الذين ملكوا مدينة رُومِيَة، وهم الذين ذكرهم في كتابه وذكرناهم نحن في كتابنا هذا، تسعة وأربعون ملكًا، وجميع عدد سني مُلْكهم، من أوّل مَن مَلَكهم على حسب ما ذكرناه من الخلاف في صدر هذا الفصل إلى قسطنطين بن هلاي، أربعمائة سنة وثلاثون سنة وسبعة أشهر وستة أيام. والله أعلم.

ذكر أخبار ملوك الصَّقَالِبَة والنُوكَبَرْد

قال المسعوديّ: الصقالبة من ولد ماراي بن يافث بن نوح، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة وبه يُلْحَقُون في أنسابهم. ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانيّة اليعاقبة، ومنهم من لا كتابَ له ولا ينقاد إلى شريعة. وهم أجناس: فمنهم جنس كان المُلْك

فيهم قديمًا في صَدْر الزمان، وكان مَلِكهم يُدعَى ماجك، وهذا الجِنْس يدعى لبنانا، كان يتلو هذا الجنس قديمًا في صَدْر الزمان سائر أجناس الصقالبة وهم اصطبرانة، ومَلِكُهم يُدعَى بصقلائح. وجنسٌ يقال له نامجين، ومَلِكُهم يدعى عرابة، وهذا الجنس أشجعُ الصقالية، وجنس يدعى مَنَاي، وملكهم رتبيل، ثم جنْس يقال له سِرْتين، وهو جِنْسٌ مَهيبٌ عندهم، ثم جِنْسٌ يقال له مراوة، ثم جروانيق وصَاصِين وخشانين ونرانجابين.

قال: والجِنْس الذي يُدعَى سِرتين يحرقون أنفسهم بالنار، وإذا مات لهم ملك أو رئيس يحرقونه ويحرقون دوابّه، ولهم أفعالٌ كأفعال الهند.

قال: ومن الصقالية جِنْسٌ ٱلتحق بالخَزَر والروس. قال: والأوّل من ملوك الصقالية ملك الدير، وله مُدُن واسعة وعمائر كثيرة، وهو يحارب الروم والفرنج والنوكبرد وغيرهم من الأمم، والحرب بينهم سِجَال: ثم يلي هذا الملك من بلاد الصقالية ملوك الترك. قال: والصقالية أجناس كثيرة، ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وملَّك كلّ جِنْس منهم عليهم ملكًا.

هذا ما أورده المسعودي من أخبار الصقالية. والله أعلم.

* * *

وأما النُوكَبَرْد فقال المسعوديّ فيهم: إنهم أيضًا من ولد يافث وبلادهم متّصلة ببلاد المغرب، ولهم جزائر كثيرةٌ فيها أممٌ من الناس. وهم ذو بأس شديد ومَنَعَة[1]، ولهم مُدُنٌ كثيرةٌ ويجمعهم بلدٌ واحدٌ.

قال: وأسماء ملوكهم في سائر الأعصار أريكس، والمدينة العُظْمَى من مُدُنهم ودار مملكتهم تُبَّت وهي مدينةٌ عظيمةٌ يخترقها نهر عظيم من أعظم الأنهار ٱسمه سابيط والمدينة على جانبيه.

قال: ومن مُدُنهم التي كان المسلمون ببلاد الأندلس قد غلبوهم عليها وسلبوها منهم وسكنوها ثم ٱستعادها النُوكَبَرْد بعد ذلك من المسلمين مدينة تارة ومدينة طارينو ومدينة سيرنية، ولم يذكُر من أمرهم خلافَ ذلك فنذكره.

(١) المنعة: القوة التي يمتنع بها على من يريده.

ذكر خبر ملوك الإفرنجة والجلالقة

قال المسعوديّ: لا خلافَ أنّ الإفْرِنْجةَ والجلالِقَة والصقاليَة والنُوكَبَرْد والأسبان والترك والخَزَر وبُرْجان واللان ويأجوج ومأجوج وغيرَ مَن ذكرنا ممن سكن بلاد الشمال من ولد يافث بن نوح.

قال: والإفرنجةُ أشدّ هؤلاء الأجناس بأسًا، وأمنعُهم وأكثرُهم عُدّة، وأوسعُهم مُلْكًا، وأحسنُهم نظامًا، وأنقيادًا لملوكهم، وأكثرُهم طاعةً.

قال: والجلالقةُ أشدُّ من الإفرنجة وأعظمُ منهم نِكايةً. والرجلُ الواحدُ من الجلالقة يقاوم عِدّة من الإفْرِنْجَة. ثم قال: وكلمة الإفرنجة متّفقةٌ على ملك واحد لا تنازع بينهم في ذلك، ومُدُنهم تزيد على مائة وخمسين مدينة غير الكُور. وكانت أوائل بلادهم قبل ظهور الإسلام في البحر في جزيرة رودس وجزيرة إقريطش[(١)]، ثم ملكوا بلاد الغرب وأستولوا عليها.

قال: وأوّل ملوك الإفرنجة قلويا وكان مجوسيًا فنصّرته أمرأته عرضلة.

ثم ملك بعده أبنه لذريق.

ثم ملك بعده أبنه دفسوت.

ثم ملك بعده أبنه قادله.

ثم ملك بعده أبنه بيبق.

ثم ملك بعده قادله. وكانت ولايته ستًّا وعشرين سنة، وذلك في أيّام الحَكَم صاحب الأندلس، وتدافع أولادُه بعده ووقع الأختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة بسببهم.

وسار لذريق بن قادله فملك ثمانيًا وعشرين سنة وستة أشهر، وهو الذي أقبل إلى طرطوشة[(٢)] فحاصرها.

---

(١) إقريطش: بفتح الهمزة وتكسر، والقاف ساكنة، والراء مكسورة، وياء ساكنة، وطاء مكسورة، وشين معجمة: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من برّ إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء... (معجم البلدان).

(٢) طرطوشة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر أيره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها تحلها التجار وتسافر منها إلى سائر الأمصار... (معجم ياقوت).

ثم ملك بعده قادله بن لذريق تسعًا وثلاثين سنة وستّة أشهر.

ثم ملك بعده أبنه لذريق ستّة أعوام، ثم خرج عليه قائدٌ للإفرنجة يسمَّى يُوسَة فملك الإفرنجة وأقام في الملك ثماني سنين. وهو الذي صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهبًا وستمائة رطل فضّة يؤدّيها صاحب الإفرنجة إليهم.

ثم ولي بعده قادله وأقام في الملك إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر.

ثم ولي بعده لذريق بن قادله وأستمرّ في الملك إلى سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة.

هذا ما أورده المسعوديّ من أخبارهم في كتابه المترجم بمروج الذهب ومعادن الجوهر.

ثم اتسعت بعد ذلك ممالكهم وأنبسطت أيديهم وأستولوا على أكثر بلاد الغرب وغيرها.

ذكر طوائف السودان وشيء من أخبارهم ونسبهم

قال المسعوديّ: لمّا تفرّق ولدُ نوح في الأرض سار ولدُ كُوش بن كَنْعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر. ثم أفترقوا فسارتْ طائفةٌ منهم ميمّمين[1] المشرق، وهم النُّوبة والحَبَشة والزنج. وسار فريقٌ منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة: الزغاوَة والكانِم ومَرْنَك وكَوْكَوْ والحِمَى وغانَة وغير ذلك من أنواع الأحابش والدمادِم، ثم افترق الذين يمّموا بين المشرق والمغرب، فصارت الزَّنْج من المكمين والمسكو ودبرا وغيرهم من أنواع الزَّنْج.

قال: ومن مدنهم بَرْبَرا وهي مدينة على خليج من البحر الحبشيّ يسمَّى الخليج البربريّ، طوله خمسمائة ميل وعرضه مائة ميل.

قال: وليستْ هذه بَرْبَرَا هي التي تُنسَب إليها البرابرة الذين بالمغرب من أرض إفريقية. قال: ولباسُ هؤلاء الزَّنْج جلود النمورة، وهي جلودٌ كبيرةٌ تُحمَل من أرضهم إلى بلاد الإسلام. قال: وأقاصِي بلاد الزنج بلاد سفالة وأقاصيه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرةُ الذهب كثيرةُ العجائب والخصب، حارّة. وأتّخذ بها الزنج دار مملكة وملّكوا عليهم مَلِكًا أسمه «وَقْلِيمِي» وهي نسبةٌ لسائر ملوكهم في سائر الأعصار.

---

(١) يمّ الناحية: قصدها، أو توخاها وتعمدها دون من سواها.

قال: ويركب وَقْلِيمِي وهو ملك من ملوك الزنج في ثلاثمائة ألف راكب، ودوابّهم البقر، وليس في أرضهم خيلٌ ولا بغالٌ ولا إبِلٌ ولا يعرفونها، وإنما يركبون البقر بالسروج واللُّجُم[(١)]، ويقاتلون عليها وهي تعدو بهم كالخيل.

قال المسعوديّ: رأيتُ بالريّ نوعًا من هذه البقر تبرِك كما يبرِك الجملُ وتحمِل وتثُور بأحمالها، وتحمل عليها الميتة من الخيل والإبل وغيرها فتنهض بحملها. والغالبُ على هذا النوع من البقر حُمْرة الحدَق وسائر البقر تنفِر منها. قال: ولا يقع البردُ في بلاد الزَّنْج. قال: ومنهم ناسٌ مُحدَّدو الأسنان يأكل بعضُهم بعضًا. قال: ومساكن الزَّنْج من حدّ الخليج المشعَّب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق، ومقدار مسافة مساكنهم واُتصالها في الطول والعرض سبعمائة فرسخ[(٢)]: بَرٌّ وأودِيَةٌ وجبالٌ ورِمالٌ.

قال المسعوديّ: ومعنى تسمية ملك الزنج «وَقْلِيمِي» أي ٱبن الربّ الكبير؛ لأنه ٱختارهم لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حُكمه أو حادَ عن الحقّ قتلوه وحرَّموا عَقِبَه المُلْك. وزعموا أنه إذا فعل ذلك فقد بَطَل أن يكون ٱبن الربّ الذي هو ملك السماء والأرض، ويسمّون الخالق عزّ وجلّ (مكليجو) وتفسيره الربّ الكبير.

قال: والزَّنْج أولو فصاحةٍ في ألسنتهم وفيهم خطباءُ بلغتهم؛ يقف الرجلُ الزاهدُ منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم يرغِّبهم في القُرْب من ربِّهم ويَبْعثهم على طاعته، ويُرْهبهم من عقابه، ويذكِّرهم مَن سَلَف من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعةٌ يرجعون إليها بل رسومٌ لملوكهم، وأنواعٌ من السياسات يرجعون إليها ويَسُوسُون بها رعيَّتهم، وأكثرُ أكلهم المَوْز، وهو كثيرٌ ببلدهم، وغالبُ أقواتهم الذُّرَة ونَبْتٌ يقال له الكلاري[(٣)] يُقتلَع من الأرض كالكَمأة[(٤)] والراسِن[(٥)]، ويأكلون العسلَ واللحم.

---

(١) اللجم: جمع اللجام، واللجام: الحديدة في فم الفرس، ثم سمّوها مع ما يتصل بها من سيور وآلة لجامًا.

(٢) الفرسخ: يراد به مقدار طول الفرسخ الذي هو علم لهذه المسافة المحدودة. وقيل: الفرسخ: سبعة آلاف خطوة؛ وقيل: الفرسخ ثلاثة أميال.

(٣) الكلاري: ثمر يشبه القلقاس الذي يكون بالشام ومصر.

(٤) الكمأة: جمع الكمء: وهو فطر من الفصيلة الكمشية، وهي أرضية تنتفخ حاملة أبواغها، فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

(٥) الراسن: نبات يشبه الزنجبيل.

قال: ومَن هَوَى منهم شيئًا من نباتٍ أو حيوانٍ أو جمادٍ عَبَدَه. وجزائرُهم لا تُحصَى كثرةً وفيها النارْجِيل(١).

وأمّا النّوبة وما قيل فيها فٱفترقَتْ فرقتين في شرقيِّ النيل وغربيِّه وأناخت على شطِّيه وٱتَّصلتْ ديارُها بديار مصر، وٱتَّسعتْ مساكنُها على شاطىء النيل مُصعدةً. ومدينتهم دُنْقُله. والفريق الآخر من النوبة يقال له عَلْوة وينزل مدينة الملك وٱسمها سُرْتة.

وأمّا البُجَة وما قيل فيها فإنّها نزلتْ بينَ بحر القُلْزُم ونِيلِ مصر وتشعَّبوا فِرَقًا وملَّكوا عليهم ملوكًا، وفي أرضهم معادن الذهب. قال: وٱنضافَ إلى البُجَة طائفةٌ من العرب من ربيعة بن نزار بن معدّ بن عَدْنان وتزوّجوا من البُجَة.

وأمّا الحبَشَة وما قيل فيها فإنّ دارَ مُلْكهم كَعْبُر، وهي مدينة عظيمة، وهي دارُ مملكة النجاشيّ. وللحبَشة مُدُنٌ كثيرةٌ وعمائرُ واسعةٌ، ويتّصل مُلْك النجاشيّ بالبحر الحَبَشِيّ، وله ساحلٌ فيه مدينةٌ كبيرةٌ، وهو مقابلٌ لبلاد اليمن. فمن مُدُن الحبشة على الساحل: الزَّيْلَع والدَّهْلَك وناصِع، وفي هذه المُدُن جماعةٌ من المسلمين إلاّ أنهم في ذمّة الحبشة.

قال: وبين ساحل الحبشة ومدينة غَلافقة، وهي ساحل زبيد من أرض اليمن، ثلاثة أيام عرض البحر. قال: ومنه عَبَرت الحبشة إلى اليمن حين ملكته في أيام ذي نُوَاس، وهذا الموضع هو أقلّ هذا البحر عرضًا.

قال: وهنالك جزائر بين الساحلين منها: جزيرة العقل فيها ماء يُشرب فيفعَل في القرائح والذكاء فعلاً جميلاً، وبها جزيرة أسقطرة. وأما غير هؤلاء من الحبشة فمنهم من أمعن في المغرب مثل: الزَّغاوَة والكَوْكَوْ والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطين ودُوَيْلة والقرمة. قال: ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف وغيرهم ملكٌ يرجعون إليه.

* * *

(١) النارجيل: جنس شجر من الفصيلة النخلية، فيه أنواع للتزيين، وفيه نوع مثمر، ومن أسمائه: الشعصور، والرانج، ويزرع لثمره المسمى: جوز الهند، ويستخرج منه دهن من أجود الأدهان المسماة: سمونًا نباتية.

الباب الرابع
من القسم الرابع من الفنّ الخامس
في أخبار ملوك العرب ويتّصل بهذا الباب خبر سَيْل العَرِم

ذكر أخبار ملوك قَحْطان

قال المؤرّخون: لم يكن للعرب مُلْك حقيقيّ، وإنما كان من مَلَك حِمْير في بلاد اليمن سُمِّي مَلِكًا، وقد كانوا في بعض الأوقات يخرجون من بلادهم ويَسِيحون[(١)] في الأرض حتّى بلغوا أقصى المغرب، وبلغوا من حدود المشرق سَمَرْقَند[(٢)]، وبلغوا باب الأبواب، ودخلوا بلادَ الهند ولم يستقرّوا في غير بلادهم، فلا يُعدّ ذلك مُلْكًا، وإنما هو غارة.

فأوّلُ ملوك قَحْطانَ عبدُ شمس، وهو سبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وإنما سُمِّي سبأ لأنه أوّل مَن أدخل بلاد اليمن السَّبْي. قال عبد الملك بن عَبْدون في كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرّ: إنّ عبد شمس هذا ملك أربعمائة سنة وأربعًا وثمانين سنة. قال: وقد اختلف في أوّل مَن ملك منهم، فقيل يَعْرُب بن قَحْطان. قال: وهو أوّل من نطق بالعربية، وأوّل مَن حيّاه ولده بتحية الملك: أبَيْتَ اللّعن، وأَنْعِم صباحًا[(٣)]. والأشهر أنّ عبد شمس سبأ هو أوّل ملوكهم. والله أعلم.

ثم ملك بعده ابنه حِمْير بن سبأ، قال: وكان أشجعَ الناس في وقته، وأفرسَهُم وأجملهم. وقيل: إنه إنما سُمِّي حِمْير لكثرة لباسه الأحمر من الثياب، وكان يلقَّب بالعَرَنْجَج، وهو أوّل مَن وضع تاجَ الذهب على رأسه من ملوك اليمن. وكان مُلْكه خمسين سنة، وذلك في عصر قَيْذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ثم ملك بعده أخوه كَهْلاَن بن سبأ. فكان مُلْكه إلى أن هلك ثلاثمائة سنة.

---

(١) ساح في الأرض: أي ذهب وسار؛ أو ذهب فيها للتعبّد والذهب.

(٢) سمرقند: هو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه؛ قال الأزهري: بناها شمر أو كرب فسميت شمر فأعربت فقيل سمرقند. وبالبطيحة من أرض كسكر قرية تسمى سمرقند أيضًا، ذكره المفجع في كتاب المنقذ من الإيمان في أخبار ملوك اليمن... (معجم ياقوت).

(٣) يقال: نعم به: إذا سرّ واستمتع.

وٱختلف فيمن مَلَك بعده، فقيل: ملك بعده أبو مالك بن عسكر بن سبأ. فكان ملكه ثلاثمائة سنة. وقيل ملك بعد كَهْلانَ الرائشُ وهو الحارث بن شدّاد، وكان الحارث أوّلَ مَن غزا منهم، وأصاب الغنائم، وأدخلها اليمن، وبينه وبين حِمْير خمسة عشر أبًا، وسُمِّي الرائشَ لأنه لمّا أدخل الغنائمَ والأموالَ والسَّبْي بلادَ اليمن فراش[١] الناسَ في أيامه. وفي عصره مات لقمانُ النسور. قال: وذكر الرائشُ هذا نبيَّنا ﷺ في شعره، فقال من قصيدته: [من الوافر]

ويملك بعدَهم رجلٌ عظيمٌ نبيّ لا يرخِّص في الحرام[٢]
يسمَّى أحمدًا يا ليتَ أنّي أعمَّر بعد مخرجه بعام

قال: وكان مُلْكه مائةً وخمسًا وعشرين سنة. هكذا نقل عبد الملك بن عبدون وذكر الخلاف في أبي مالك والرائش على ما ذكرناه. وأمّا غيرُه فإنه لم يذكر كَهْلان بن سبأ ولا أبا مالك، بل قال: إنّ حِمْير عهد إلى ٱبن ٱبنه المِلْطاط بن عمرو بن حمير. قال: وفي أيامه ٱنقرض مُلْك صحار وجاسم ٱبْنَيْ دارم وبادوا.

قالوا: ثم ملك بعده ٱبنه أَبْرَهَة ويقال له ذو المنار. قالوا: سُمِّي بذلك لأنه أوّل مَن أقام المنار في مغازِيه على الطريق، وذلك أنه أوغَلَ في بلاد المغرب والسودان، وٱتّخذها ليهتديَ بذلك في قُفوله. وكان مُلْكه مائةً وثلاثين سنة، وقيل مائة وثلاثًا وثمانين سنة. هكذا ذكر ٱبن قتيبة في كتاب المعارف أن الذي ملك أبرهة. وقال المسعوديّ: إنّ الذي ملك بعد الرائش جبّار بن غالب بن زيد بن كهلان وقال: إنّ مُلْكه كان مائة وعشرين سنة. والله أعلم.

ثم ملك بعد أبرهة على ما ذكر ٱبن حمدون في تذكرته ٱبنه إفْرِيقِش، وهو ذوا الأذعار. قال: سُمِّي بذلك لأنه خرج نحو بلاد المغرب وأوقع بقوم لهم خِلَقٌ منكرةٌ فذُعر الناس منهم وفرّقوا. قال ٱبن عبدون: وغزا إفريقش بلاد المغرب حتى أتى طَنْجة ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم ببلاد المغرب. وكان البربر بقيّة مَن قَتَل يوشع بن نون. قال: وإفريقش هو الذي بنى إفريقية وبه سُمِّيت.

(١) راش فلان: أي استغنى.

(٢) يقال: رخص له في كذا: أي أذن له فيه بعد النهي عنه.

ثم ملك بعده ٱبنه العبد ويلقَّب ذا الشناتر، وهي الأصابع في لغة حِمْير. قال: وخرج نحو العراق فٱحتُضِر في طريقه. هكذا ذكر ٱبن حمدون. وقال عبد الملك: إنّ الذي ملك بعد إفريقش أخوه العبد بن أبرهة. قال: وهو ذو الأذعار، سُمّي بذلك لأنه كان فيما ذكر أهلُ الأخبار غزا بلاد النسناس فقتل منهم مقتلةً عظيمةً، ورجع إلى اليمن من سَبْيهم بقوم وجوههم في صدورهم فذُعر الناسُ منهم فسُمّي بذي الأذعار. وكان مُلْكه خمسًا وعشرين سنة. وقد قدّمنا أنّ ذا الأذعار هو إفريقش. والله أعلم.

ثم ملك بعده الهدهاد بن عمرو بن شُرَحْبِيل. هكذا قال ٱبن حمدون والمسعوديّ، إلاّ أنّ المسعوديّ لم يذكر عمرًا وقال الهدهاد بن شُرَحْبيل. وسمّاه ابن قتيبة هدّاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش، وهو أبو بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام. وكانت مُدّة ملكه عشرين سنة، وقيل سبعة، وقيل ستة. وقد قدّمنا خبر بلقيس وأنها ٱبنة ذي أَشْرَح، وأنّ والدها لم يكن ملكًا وإنما كان وزيرًا لملك حمير وهو شراحي الحمْيَرِيّ. والله تعالى أعلم.

وٱختُلِفَ فيمن ملك بعد الهدهاد، قال المسعوديّ: تُبّع الأوّل. وكان مُلْكه أربعمائة سنة. وقال ٱبن قتيبة أقلّ من ذلك، وقال: ملك بعد الهدهاد ٱبنته بلقيس وهي صاحبة سليمان بن داود عليهما السلام. وكان مُلْكُها مائةً وعشرين سنة. وقد أتينا على أخبارها فيما سلف من هذا الكتاب في قصّة سليمان عليه السلام.

ثم ملك بعدها ياسر بن عمرو بن شُرحبيل وهو ناشِر النِّعم، قالوا: سُمّي بذلك لإنعامه على العرب، وكان شديد السلطان، وسار غازيًا أوغلَ في بلاد المغرب حتى بلغ وادي الرمل ولم يبلغه أحدٌ قبلَه، وهو رَمْلٌ جارٍ، ولم يجد وراء ذلك مجازًا لكثرة الرمل وجَرَيانه، فبينما هو مُقيم إذ ٱنكشف الرمل فأمرَ بعضَ أهلِ بيته أن يعبُر هو وأصحابُه فعبروا فلم يعودوا إليه وهلكوا عن آخرهم، فأمر بصنم من نحاس فنُصِبَ على صخْرة عظيمة على شفير الوادي وكتَب على صدره بقلم المسنَد(١): هذا الصنمُ لناشِر النِّعَم الحِمْيَريّ ليس وراءه مذهبٌ(٢) ولا يتكلّفَنَ أحدٌ ذلك فيعطَب(٣)، ورجع من هناك. وكان مُلْكه خمسًا وثمانين سنة على رواية ٱبن قتيبة. وقال المسعوديّ: خمسًا وثلاثين.

---

(١) المراد بالمسند: الخط الحميري. (٢) المراد بالمذهب: الطريق.

(٣) فيعطب: فيهلك.

ثم ملك بعده أبو كرب شَمِر بن إفريقش، ويسمَّى يرعش لٱرتعاشٍ كان به. قال: وخرج نحو العراق في زمن بستاسف أحد ملوك الفرس فأعطاه بستاسف الطاعة، وسار نحو الصين حتى نزل في طريقه ببلاد الصغد، فٱجتمع أهل تلك الأرض بمدينة سَمَرْقَنْد فأحاط بهم شَمِر وٱفتتحها عَنْوة وأسرف في القتل وخرَّب المدينة وهدَمها فسمِّيت شَمِرْكَنْد، وعُرِّبت بعد ذلك فقالوا: سَمَرْقَنْد. ومعنى شمركند، أي خرّبها شَمِر. وفيه يقول دِعْبِل[1] بن عليّ يفتخر باليمن من قصيدة: [من الوافر]

هموا كتبوا الكتاب بباب مَرْوٍ ... وبابِ الشاش كانوا كاتبينا[2]
وهم سَمُّوا بشَمْرٍ سَمَرْقَنْدًا ... وهم غَرَسُوا هناك التُّبَّتِينا[3]

قال: ولما فرغ من بلاد الصُّغْد سار نحو الصين فأيقن مَلِكُهَا بالبَوَار، فٱحتال وزيرٌ له بأن جَدَع أنفه وأتى إلى شَمِر، وهو بمفازة بينها وبين الصين عشر مراحل، ومتّ[4] إليه بأن ملك الصين فعل به ذلك لأنه نصحه ألاّ يحارب شمر وخالف رأيه، فسأله شمر عن الطريق والماء، فقال له: بينك وبين الماء ثلاث مراحل، فتزوّد لثلاثة أيام، فلمّا قطعها أعوزه الماء وكشف له الرجل أمره فمات هو وأصحابه عطشًا.

قال ٱبن قتيبة: وكانت مدّة مُلْكه مائةً وسبعًا وثلاثين سنة. وقال المسعوديّ: ثلاثًا وخمسين سنة.

ثم ملك بعده ٱبنه أبو مالك بن شمر، قال: وتأهّب للأخذ بثأر أبيه فبلغه أنّ بالمغرب واديًا من الزبرجد، فحمله الشَّرَه على طلبه وترك ما عَزَم عليه فمات في طريقه.

ثم ملك بعده ٱبنُه تُبَّع الأقرن بن أبي مالك بن شمر. قال: وطلب ثأر جدّه وأتى سمرقند فعمَّرها وجدّد بناءها، ثم أتى الصين وأخرب مدينتها وٱبتنى هناك مدينة أسكن فيها ثلاثين ألف رجل. قال الحمدونيّ في كتابه المترجم بالتذكرة: هم إلى

---

(١) هو أبو علي دعبل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي الشاعر المشهور. أصله من الكوفة، ويقال من قرقيسيا وأقام ببغداد. كان شاعرًا مجيدًا، إلا أنه كان بذيّ اللسان مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء فمن دونهم. كانت وفاته سنة ٢٤٦ هجرية بالطيب، وهي بلدة بين واسط والعراق وكور الأهواز. . . (وفيات الأعيان ٢: ٢٦٨).

(٢) الشاش: مدينة جليلة من عمل سمرقند، وهي في أرض سهلة وعامة دورها يجري فيها الماء، وهي من أنزه بلاد ما وراء النهر. .

(٣) التبتينا: أي مدينة التبت التي يفخر بها الشاعر، وقد تقدم وصف هذه المدينة وتفسيرها.

(٤) متّ: أي توسّل.

اليوم هناك في زيّ العرب، ولهم بأس وشدّة ـ يعني يوم صنّف كتابه وهو في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أو نحو ذلك ـ قال: وفي أوانه كان بَوَار طَسْم وجَدِيس على ما نذكره في وقائع العرب.

قال: وفي أوانه أيضًا كان سَيْلُ العَرِم وتفرُّقُ سبأ. وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ٱبن قُتَيبة: وكان مُلك تُبَّع الأَقْرَن ثلاثًا وخمسين سنة. قال المسعوديّ: إنّ مُلكه كان مائةً وثلاثًا وستّين سنة. ولم يذكرا المَلِك الذي كان قبله، ونسبا هذا الملِك أنه ٱبن شَمِر.

ثم ملك بعده على ما رواه ٱبن حَمْدون[١] ـ وهو إن شاء الله أشبه بالصواب ـ أسعد بن عمرو. قال: وملك والمُلْك متشتّت فٱستفزّ قومه فنهضوا معه في ملوك اليمن حتى قتلهم مَلِكًا مَلِكًا، وٱنتظم له مُلْك اليمن، فوجّه بٱبن عمّ له يقال له القَيْطون إلى الحجاز فبغى وظلم فقتله اليهود. ولمّا بلغ أسعد ذلك غضب وحلف ليقتلنّ كلّ يهوديّ في الأرض، وتجهّز في مائة ألف حتّى وَرَد يَثْرِبَ، فٱجتمعَ الأَوْسُ والخَزْرَجُ وأخبروه بقصّة ابن عمّه وفُجْره وظُلْمه فعفا عن اليهود وقال: لستُ أرضَى بالظلم ولو علمتُ ذلك منه لقتلتُه، وأتاه بنو هُذَيل بن مدركة فرغّبوه في الكعبة وما فيها من الذهب والجَوْهر، فقدِمَ مكّة لذلك، فٱجتمع إليه أخبارُ اليهود وقالوا: إنّ هذا البيتَ العتيقَ الذي ليس لله عزّ وجلّ بيتٌ في الأرض غيرُه وقد رامَ إفسادَه كثيرٌ من الملوكِ فأبادهم الله. وفي هذه البلدة يكون مَوْلدُ نبيٍّ آخرِ الزمان ٱسمُه محمدٌ وأحمدُ من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو خاتَم الرسُل، وإنّما أراد مَن دلّك على ذلك هلاكَك، فضرب أعناقَ الهُذَليّين وأقام بمكة ستّة شهور يَنْحَر في كلّ يوم ألفَ ناقة، وكسا البيت وعلّق عليه بابًا من الذهب.

ولمّا هَلَك مَلَك بعده ٱبنُ عمّه مَرْثَد بنِ عَبْدِ كَلاَل بن تُبَّع الأَقْرَن المعروف بذي الأعواد. قال: وكان مُلْكه أربعين سنة. ولمّا هَلَك مَلَك بعده أولاده وكانوا أربعةً مشتركين في المُلْك على كلّ واحد منهم تاجٌ. قال: وخرجوا إلى مكة ليقلعوا الحجرَ الأسودَ ويبتنوا بيتًا بصنعاء يكون حجّ الناس إليه؛ فاجتمعتْ كِنَانةُ وقلّدوا أمرهم فِهْرَ بنِ مالك وٱلتقَوْا فقُتِل ثلاثةٌ من الملوك وأُسِرَ الرابع.

---

(١) ابن حمدون: هو الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون البغدادي (أبو سعد تاج الدين) عالم، أديب، من آثاره «التذكرة» كانت وفاته سنة ٦٠٨ هجرية.

ولمّا أُسِر هؤلاء ملكتْ بعدهم أختهم أبضعةُ ٱبنةُ ذي الأعواد. قال: وكانت فاجرة فقتلها قومُها.

ثم ملك بعد أولاد ذي الأعواد مَلْكِيكَرب بن عمرو بن سعد بن عمرو، وكانت مُدّة مُلْكه عشرين سنة، وتحرَّج عن سَفْكَ الدماء فلم يَغْزُ ولم يخرُج من اليمن.

ثم ملك بعده تُبّع أسعد بن ملكيكرب. قال: ولمّا ملك غزا بني معدّ بتهامة في ثلاثمائة ألفِ طالبًا لدماء الملوك الأربعة، وٱجتمع بنو معدّ وعَقَدوا الرِّياسة لأميّة بن عَوْف الكِنانيّ المعروف بالعنسيّ، ثم نَفِسَتْ[١] ربيعةُ أن تكون الرِّياسة في مُضَر فقعَدَت عنهم، فضَعُفَتْ مُضَر عن تُبّع وسألوه الصلح على أن يؤدّوا إليه عقلَ[٢] الملوك الأربعة، عن كلّ ملكٍ ألفَ ناقة. وكذلك كانت دِيَة الملوك في الجاهليّة. ودِيَاتُ مَن قُتِل معهم من الجنود لكلّ رجُلٍ مائة ناقة، فقبِلَ تُبّع ما بذلوه وٱنصرف إلى أرضه ووقع الشرّ بين الحيّين: ربيعة ومُضَر، فأرسلَتْ ربيعةُ إلى تُبّع رُسُلاً فعقَد بينهم حِلْفًا وعَقْدًا، وهو الحِلْف الباقي بين ربيعةَ واليمن إلى أن جاء الإسلام. وأقام تُبّع هذا بأرض الشام ما شاء الله، ثم سار إلى الهند في البحر وباشرَ الحربَ بنفسه فبرَزَ إليه مَلِك الهند، وهو ٱبنُ فَوْز الذي قتل الإسكندر أباه فقتله تُبّع بيده، وتحصّنت اليهود بمدينتهم وحاصرَهم تُبّع شهرًا حتى سألوه الأمان فآمنهم وقَفَل إلى بلاده.

ثم ملك بعده ٱبنُه حسّان بن تُبّع. قال: فغزا العراق في ثلاثمائة ألف وأتى في طريقه مكة، وقد عادت إليها خُزاعة عند وفاة فِهرِ بنِ مالك، فأعطاه بنو نِزار الطاعة. ورُوِيَ عنه شعر يخبر فيه ببعثة نبيّنا ﷺ:

شَهِدْتُ على أحمدٍ أنّه ... رسولٌ من الله بارِي النَّسَمْ
فلو مُدّ عُمْرِي إلى عُمْرِه ... لكنتُ وزيرًا له وٱبنَ عَمّ

قال: ولمّا وَرَد العراق وَجَد الفُرْس وسلطانَهم واهٍ[٣] وقد مات هُرْمُز وولدت ٱمرأته غلامًا، وهو سابور ذو الأكتاف، ومُرَبِّيه أحدُ عظماء الفُرْس، فلم يقُم بضبط المُلك؛ فٱستقبلوه بالطاعة وأقرُّوا له بالخراج، فأقام بالعراق حَوْلاً وعزم على غَزْو الصين فساء ذلك حِمْير وقالوا: نَغِيب عن أولادنا وعيالنا ولا ندري ما يحدُث بهم، فمشَوْا إلى عمرو أخي حسّان الملك وبعثوه على قتل أخيه على أن يملّكوه عليهم

---

(١) أي حسدت مضر على الرياسة ورأت أنها ليست أهلاً لها.
(٢) العقل: أي الدّية.
(٣) واه: أي ضعيف.

ويعود بهم إلى بلادهم، وأعطوه العهود والمواثيق إلاّ رجلٌ يقال له ذو رُعَين، فقال لهم: إنكم إن قتلتم مَلِكَكم ظلمًا خرج الأمرُ منكم فلم يحفِلوا به، فأقبل بصحيفة مختومة وقال لعمرو بن تُبّع: لتكن هذه الصحيفةُ وديعةً لي عندك إلى وقت حاجتي إليها، وأقبل عمرو ليلاً إلى أخيه حسّان وهو نائمٌ في فراشه فقتله وٱنصرفتْ حِمْير إلى بلادها. هكذا نقل ٱبن حمدون في تذكرته.

وقال أبو عليّ أحمد بن محمد بن مِسْكويه في كتابه المترجم بتجارب الأمم في أخبار الفرس: إنّ ملك الفُرْس يومَ ذاك هو قُبَاذ بن فَيْروز وهو أبو كِسْرَى أنو شروان، وإنّ الملك الذي غزاه من ملوك حمير هو تُبّع والد حسّان، وكان معه لما غزا الفُرْسَ ٱبنُه حسّان وٱبنُ أخيه شَمِر. قال: فسار تُبّع حتى نزل الحِيرَة ووجّه ٱبنَ أخيه شَمِرًا ذا الجناح إلى قُبَاذ فقاتله فهزمه شَمِر حتى لحق بالريّ، ثم أدركه بها فقتله.

قال: ثم إنّ تُبّعًا أمضى[١] شَمرًا ذا الجناح وٱبنَه حسّان إلى الصُّغْد وقال: أيّكما سبق إلى الصين فهو عليها. وكان كلّ واحد منهما في جيش عظيم يقال إنهما ستمائة ألف وأربعون ألفًا، وبعث ٱبن أخيه - وٱسمه يَعْفُر - إلى الروم.

قال: فأمّا يَعْفُر فإنه سار حتى أتى القسطنطينية، فأعطَوْه الطاعةَ والأتاوَة ومضى إلى رُوميَة فحاصرها، ثم أصابهم جوعٌ ووقع فيهم الطاعون فتفرّقوا، وعلم الروم بذلك فوثَبوا عليهم فلم يُفْلِت منهم أحدٌ.

وأمّا شَمِرٌ ذو الجناح فإنه سار حتى ٱنتهى إلى سَمَرْقَنْد فحاصرها فلم يَظْفَر منها بشيء، فلمّا رأى ذلك طاف بالحَرَس حتى أخذ رجلاً من أهلها فٱستمالَ قلبَه ثم سأله عن المدينة ومَلِكَها فقال: أمّا مَلِكُها فأحمقُ الناس ليس له همّ إلاّ الأكل والشرب والجماع، ولكن له بنتٌ هي التي تقضي أمر الناس، فمنّاه ووعده حتى طابتْ نفسُه، ثم بعث معه هديّة إليها وقال: أخبرها أني إنما جئتُ من أرض العرب للذي بلغني من عقلها لتنكحني نفسَها، فأصيب منها غلامًا يملك العرب والعجم، وإنّي لم أجىء ألتمسُ مالاً، وإنّ معي من المال أربعةَ آلاف تابوت ذهبًا وفضّة هاهنا، وأنا أدفعها إليها وأمضي إلى الصين، فإن كانت لي الأرض كانت ٱمرأتي، وإن هلكتُ كان المال لها. فلمّا ٱنتهت رسالته إليها قالت: قد أجبته فليبعث بالمال، فأرسل إليها بأربعة آلاف تابوت، في كلّ تابوت رجلان، وكان بسَمَرْقَنْدَ أربعةُ أبواب على كلّ باب منها

---

(١) أمضى الأمر: أي أنفذه؛ وأمضى فلانًا: أي أرسله.

أربعةُ آلاف رجل. قال: وجعل شَمِرٌ العلامة بينه وبينهم أن يضرب لهم بالجُلْجُل[١]، وتقدّم بذلك إلى رُسُله الذين وجّههم، فلمّا صاروا بالمدينة ضرب لهم بالجُلْجُل فخرجوا وأخذُوا بالأبواب، ونَهِد[٢] شَمِرٌ في الناس فدخل المدينة وقتل أهلها، وٱحتوى على ما فيها. ثم سار إلى الصين فلقِيَ التركَ فهزمهم، وٱنتهى إلى حسّان بن تُبّع بالصين فوجده قد سبقه إليها بثلاث سنين.

قال: وفي بعض الروايات وهي المجتمع عليها: إنّ حسّان وشَمِرًا ٱنصرفا في الطريق الذي كانا أخذا فيه حتى قَدِما على تُبّع بما حازا من الأموال بالصين وصنوف الجوهر والطِّيب والسَّبْي، ثم ٱنصرفوا جميعًا إلى بلادهم، فكانت وفاة تُبّع باليمن. وكان مُلْكه مائة سنة وإحدى وعشرين سنة.

قال: وأمّا في الرواية الأخرى فإنّ تُبّعًا أقام وواطأ ٱبنَه حسّان وابنَ أخيه شمر أن يملكا الصين ويحملا إليه الغنائم، ونَصَب بينه وبينهم المنار، فكان إذا حَدَثَ حَدَثٌ أوقَدوا النار، فأتى الخبر في ليلة.

قال: وقد ذكر بعضُ الرُّواة أنّ الذي سار في المشرق من التبابعة تُبّع الأخير؛ وهو تُبّع تبّان أسعد أبو كَرِب بن مليك بن زَيد بن عمرو بن ذي الأذعار، وهو أبو حسّان. ٱنتهى ما أورده ابنُ مِسكويه من أخبارهم، فلنرجع إلى مساق ما قدّمناه مما نقله ٱبن حمدون.

قال: ثم ملك بعده حسّان بن تُبّع أخوه، فقتله عمرو بن تُبّع. قال: وٱنصرفَ بالقوم إلى بلادهم فسلّط الله عليه السَّهَر فكان لا ينام، فجمع الكَهَنة والقِيَاف[٣] والعرّافين فسألهم عن ذلك فلم يعرفوه، فقال له رجلٌ منهم: إنه يقال مَن قتل أخاه ظلمًا سلّط الله عليه السهر وحُرِمَ النومَ، فأحال بالذنب على حِمْير وجعل يقتل مَن أشار عليه بقتل أخيه واحدًا بعدَ واحد، ثم أرسلَ إلى ذي رُعَين ليُلْحِقَه بمَن قُتِل من أصحابه، فقال: أيّها الملك إنّي خالفتُ القوم فيما زيّنوا لك من قتل أخيك. قال: ومَن يعلم ذلك؟ قال: الصحيفةُ التي أودعتُها عندك، فأخرجها فقرأها فإذا فيها: [من الوافر]

ألاَ مَـنْ يَـشْـتَـرِي سَـهَـرًا بـنَـوْمٍ   خَـلـيٌّ مَـنْ يَـبِـيـتُ قَـرِيـرَ عَـيْـنِ[٤]
فـإنْ تَـكُ حِـمْـيَـر غَـدَرَتْ وخـانَـتْ   فَـمـعـذرةُ الإلـٰه لِـذِي رُعَـيْـنِ

(١) الجلجل: الجرس الصغير.
(٢) نهد: نهض ومضى.
(٣) القياف: الذين يتتبعون الآثار.
(٤) قرير العين: الذي سرّ ورضي.

قال: فخلّى عمرو سبيلَه.

قال: ولمّا قَتَل عمرو أشرافَ قومه وصناديدَهم[١] تضعضع أمرُ حِمْير وَوَهَى مُلْكُها، فطَمِعَ فيه بنو كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، فوثبَ ربيعةُ بنُ نصر بن الحارث بن عمرو بن عديّ بن مُرّة بن زَيْد بن مُذْحِج بن كَهْلان في قومه وجمعهم من أقطار الأرض، وجمع له عمرو بن تُبّع وٱلتقَوْا فقُتِلَ عمرو بنُ تُبّع.

وملك بعده ربيعةُ بن نصر المقدّم ذكره قال: وكان قد رأى رؤيا أزعجتْه وعُبِّرت له أنّ الحبشةَ تملِك بلادَه؛ فوجّه ٱبنَ أخيه جَذِيمةَ بن عمرو بن نصر ومعه ٱبنُه عديُّ بنُ ربيعة وهو صبيّ، ووجّه معهما حَرَمَه وخزائنه، وكتب لهم إلى سابور ذي الأكتاف، فأسكنهم سابورُ الحِيرَة وملّكهم ما حَوْلها.

قال: ولمّا بلغ عَدِيُّ بنُ ربيعة الحُلُم زوّجه جَذِيمةُ أختَه رَقّاش فولدت له عمرو بنَ عديّ. وهؤلاء ملوك الحِيرةَ على ما نذكره في أخبارهم.

قال: ولمّا مات ربيعةُ بنُ نصر تجمّعت حِمْير فآذنتْ كَهْلانَ بحربٍ أو إعادة المُلْك فيهم، ودخل بينهم السفراءُ فسلّموا المُلْك إلى حِمْير فملّكتْ حِمْيرُ عليها أبرهة ابن الصّبّاح بن لَهِيعة بن شَيْبةَ الحَمْد بن مَرْثَد بن الحَيْر بن سيف بن مصلح بن عمرو بن مالك بن زَيْد بن سعد بن عَوْف بن عديّ بن مالك بن زيد بن سعد بن زُرْعة بن ذي المنار.

قال: فملك عليهم ومكث طولَ أيّام سابور ذي الأكتاف ثم مات.

فملك بعده ابن عمه صُهْبان بن محرّث. قال: فبعث عمّاله على أرض العرب، وٱستعمل على ولد سعد بن عدنان ٱبنَ خاله الحارثَ بن عمرو بن معاوية بن كِنْدة بن عَديّ بن مُرّة بن زَيْد بن مَذْحِج بن كَهْلان، وكان الحارث يلقَّب بآكل المرار، وهو جدّ ٱمرىء القيس الشاعر بن حُجْر بن الحارث، وهو جدّ الأشعث بن قيس بن مَعْدِيكرب بن جَبَلَة بن عَدِيّ بن الحارث المذكور؛ فقسّم الحارث مملكته بين ولده، وكانوا ثلاثة: فملّك ٱبنُه حُجْرًا على أَسَدٍ وكِنَانةَ، وملّك شُرَحْبيل على قَيْس وتميم، وملّك سَلَمة على ربيعة، فمكثوا كذلك حينًا حتى مات أبوهم الحارث فوثبتْ بنو أَسَد على حُجْر فقتلوه، ووثبتْ قيس وتميم على شُرَحْبيل فطردوه، فغضب صُهْبان وتجهّز للمسير إلى مُضَر، فٱستغاثت مُضَر بربيعة وجاءت وفودهم إليهم وٱستنصروهم،

(١) الصناديد: جمع الصنديد، وهو الشريف الشجاع.

ورئيسُهم كُلَيب بن ربيعة بن الحارث بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حَبِيب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب بن وائل، وٱجتمعتْ ربيعة ومُضَر والرياسة على الحيَّين لكُلَيب؛ فقاتلوا صُهْبان وعظماءَ قومه، وهو اليومُ المشهور في العرب، فقُتِل صُهْبان. وفي هذا اليوم يقول عمرو بن كُلْثوم: [من الوافر]

ونحنُ غداةَ أُوقِد في خَزَازٍ رَفَدْنا فوقَ رِفْدِ الرافِدينا[1]
فكُنّا الأَيْمَنِينَ إذا ٱلتَقَيْنَا وكان الأيسرين بنوا أَبينا[2]
فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبَايا وأُبْنَا بالملوك مُصَفَّدِينَا[3]

قال: ولمّا قُتل صُهْبان بن مُحَرِّث ملك بعده الصَّبَّاح بن أبرهة بن الصَّبّاح. قال: وكان نَجْدًا[4] جَلَدًا، فسار إلى مَعَدّ في مئتَيْ ألف يطلب ثأر صُهْبان. قال: وتجمَّعت مَعَدّ ورئيسهم كُلَيب أيضًا، وكانت الحرب بينهم بموضع يسمَّى الكُلاَب، فانهزمت اليمن. وهذان اليومان من مفاخر نِزَار على اليمن، وامتنعتْ معدّ بعد ذلك على اليمن حتى قتل كُلَيب بن ربيعة.

قال: ولما مات الصَّبّاح ملك بعده ٱبنُ عمّ له فاسقٌ، وقيل: إن الذي ملك لَخْنِيعة ذو شناتر، قال: ولم يكن من أهل بيت المُلْك، فأغرِيَ بحبّ الأحداث[5] من أبناء الملوكِ، فكان يطالبهم بما يُطالَب به النسوان، وكان لا يسمع بأحد من فتْيان العرب وأولادِ الملوك حَسَن الصورة إلاّ ٱستدعاه وطالبه بهذا الفعل القبيح، ولم يزل على هذه الطريقةِ المذمومةِ حتّى نشأ غلامٌ من أبناء ملوك حِمْير ٱسمُه زُرْعة. ابن كعب ويُدعَى ذا نواس؛ سُمِّي بذلك لأنه كان له ذؤابتان تَنُوسان[6] على عاتقه، وكان وضيئًا[7]، فٱستدعاه لمثل ما كان يدعو إليه غيرَه، فجعل تحتَ إخْمِصِه[8] سِكِّينًا، فلمّا خلا به الملك واثبَه ذو نُوَاس فقتله ثم حَزَّ رأسَه، وكان له كُوّة يُشرِف منها على عَبِيده إذا قَضَى حاجتَه من الغلام الذي يكون عنده ويضع مِسْواكًا في فيهِ، فلمّا قتلَه

(١) خزاز: جبل لغنيّ أحمر وله هضبات حمر، وفي أصله ماء لغنيّ يقال له خزازة، وهو في ناحية منعج دون أمرة وفوق عاقل على يسار طريق البصرة إلى المدينة.
(٢) الأيمنون: أي المتقدمون؛ والأيسرون: أي المتخلفون.
(٣) آبوا: عادوا؛ والمصفَّد: المقيّد.
(٤) النجد: الكرّاب لصعاب الأمور.
(٥) الأحداث: صغار السنّ.
(٦) تنوس: تتحرك وتتذبذب.
(٧) الوضيء: الذي نظف وجمل وحَسُن.
(٨) الأخمص: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض.

ذو نواس جعل السواك في فِيهِ، وجعل رأسه في تلك الكُوّة التي كان يُشْرِف منها على عَبيده، ثم خرج على العبيد فقالوا له: ذو نُوَاس، أَرْطَبٌ أم يَبَاس؟ فقال لهم: سل نخماس، استرطبان ذو نواس. استرطبان لاباس. وتفسير ذلك: سلوا الرأس التي في الكُوّة تخبركم وٱتركوا ذا نواس، قال: فأجمعت حِمْير عليه أمرها وقالوا: ينبغي أن نملّكه لأنه أراحنا من هذا الفاسق.

فملك عليهم ذو نُوَاس زُرْعة هذا. قال: ولمّا ملك وٱستتبّ له الأمرُ فارق عبادةَ الأوثان ودخل في دين اليهوديّة وقتل مَنْ كان في بلاد اليمن على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ممن ٱمتنع من موافقته، ثم قصد نَجْران وبها عبد الله بن الثامر وأصحابُه وهم على دين عيسى عليه السلام، فسألهم الدخولَ في الهيوديّة فٱمتنعوا، فقَتَلَ عبدَ الله بن الثامر بالسيف وأضرمَ للباقين نارًا عظيمةً فألقاهم فيها، وهم أصحابُ الأُخدود الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٤ ـ ٨]. قال: ولم ينجُ منهم إلا نفرٌ قليلٌ.

وكان سببُ تَهوُّده أنّ حِمْير كان لها بيتُ نارٍ فيه أصنامهم، وكان يخرج من تلك النار عُنُقٌ يُمَدّ مقدار فرسخين، فحضر عنده قومٌ من اليهود وقالوا: أيها الملك إنّ هذا العنقَ من النار شيطانٌ، فطلب منهم تبيان ذلك، فنشروا التوراةَ وقرؤوها فتراجع ذلك العُنُق وطُفِئت تلك النار، فأعظم ذو نُوَاس ذلك ودخل في دين اليهوديّة.

قالوا: ثم إنّ أحدَ الناجِين من نَجْرانَ ـ ويُعْرف بدوس بن ذي ثعلبان ـ قصد قَيْصرَ ملك الروم مُستنجدًا به، ومُعظِّمًا عنده ما جَرَى على قومه وهم على دينه، فاعتذر إليه ببُعد دياره وقال: سأكتب لك إلى ملكٍ على دينك قريبٍ من ديارك، فكتب إلى النجاشيّ ملك الحبشة، فلمّا عَرَض عليه الكتاب وحدّثه بما جرى على أهل ملّته غضِب وحَمِيَ لأهل دينه، وندَب[1] من جنوده سبعين ألف رجل مع ابن عمّه أرياط، وتقدّم إليه بأن يقتل كلَّ مَن باليمن على دين اليهوديّة، فركب أرياط في البحر حتى ٱنتهى إلى عَدَن فأحرق السفنَ وقال: يا معشرَ الحبشة، العدوّ أمامكم، والبحرُ وراءكم، ولا مَنْجى لكم إلاّ الصبر حتى تظفَروا أو تموتوا كرامًا. قال: وٱلتقَوْا وٱقتتلوا فٱنهزمتْ حِمْير بعد حربٍ عظيمةٍ وقَتَل منهم خلقًا كثيرًا.

---

(١) ندب، أي انتدب واختار.

قال: وٱقتحم ذو نُوَاس البحر بفرسه وقال: واللّهِ الغَرَقُ أفضلُ من أَسر السُّودان، فغَرِق. وكان مُلْكه مائتي سنة وستين سنة، وهو آخر مَن ملك اليمن من قَحْطان. فجميع ما ملكوا من السنين ثلاثةُ آلاف سنة واثنتان وثمانون سنة.

وٱستولت الحبشة على مُلك اليمن ففرّق أرياط الأموالَ على أشراف الحبشة وحَرَم الضعفاء، فجمع أَبْرَهَةُ أحدُ قوّاد الحبشة جمعًا منهم وخرج على أرياط وحاربه فقتله أبرهةُ بيده وٱستولَى أبرهة على مُلْك اليمن.

ولمّا بلغ خبرهما النجاشيّ غضب لقتل أرياط وحَلَف لأَطأنّ أرضَ أبرهة سَهْلَها وجَبَلَها برجلي، ولأَجُزّنّ[١] ناصيتَه بيدي، ولأُهرِقَنّ دمَه بكفّي، وتجهّز للمسير إلى أرض اليمن، فبلغ ذلك أبرهة فملأ جِرَابَيْن[٢] من تراب السَّهْل والجَبَل، وعمد إلى ناصيته فجزّها ووضعها في حُقّ[٣]، وٱحتجم وجعل دمَه في قارورة وختَمَ عليه وعلى الحقّ الذي فيه ناصيته بالمسك، وبعث بذلك إلى النجاشيّ وكتب إليه يعتذر مما فعله أرياط وأنه خالف سيرتك في العدل، وقد بلغني ما حلفت، وقد بعثتُ إليك بجِرَابَيْن من تراب السهل والجبل، فطأْها هنالك برِجلك، وجُزّ ناصيتي بيدك، وأهرقْ دَمِي بكفّك، وبرّ في يمينك، ولطِّفْ غضبك عنّي فإنما أنا عبدٌ من عبيدك، وعاملٌ من عمّالك. فأعجبَ النجاشيّ عقل أبرهة وأقرّه على مكانه ورضِيَ عنه؛ فبقيَ إلى زمان كسْرَى أنو شِرْوانَ وهو صاحبُ الفيل.

وكانت قصّته أنه نظر إلى أهل اليمن يتأهّبون للحجّ، فسأل عن أمرهم، فأخبر أنهم يخرجون حجّاجًا إلى مكة فقال: أنا أكفِيهم تجشُّم هذا السفر البعيد ببيعةٍ[٤] أبنِيها بصنعاء فيكون حِجُّ اليمن إليها، وأمر ببنائها فبُنِيتْ. وقد تقدّم وصفها في الفنّ الأوّل في المباني، ونصبَ عند المذبح دُرّةً عظيمةً تُضيء في الليلة الظلماء كما يُضيء السِّراج، ثم نادى في أهل مملكته بالحجّ إليها، فغضِب العرب لذلك، فٱنطلق رجُلان من خَثْعَم فأحدثا في البيت الذي بناه ولطّخاه بالعَذِرة.

وقيل: إنّ الذي فعل ذلك رجلٌ من كِنَانة، فٱتّهم أَبْرَهَةُ قريشًا بذلك، وكان حينئذ بصنعاء تجّارٌ من قريش فيه هشامُ بنُ المغيرة، فأحضرهم وسألهم عمّن أحدَث في بيعته، فأنكروا أن يكونوا عَلِمُوا بشيء من ذلك، فقال أبرهة: ظننتُ أنكم فعلتم

(١) لأجزن: أي لأقطعن.
(٢) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد.
(٣) الحقّ: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.
(٤) البيعة: معبد النصارى.

ذلك غضبًا لبيتكم الذي يحجّ إليه العرب، فقال هشام بن المغيرة: إنّ بيتنا حِرْزٌ[١] تجتمع فيه السِّباع مع الوُحُوش، وجوارحُ الطير مع البُغَاث[٢]، ولا يعرض منها شيءٌ لصاحبه، وإنما ينبغي أن يحجّ إلى بيعتك هذه مَن كان على دينك، فأمّا من كان على دين العرب فلا يؤثر على ذلك شيئًا. فأقسم أبرهةُ ليسيرنّ إلى البيت فيهدِمَه حَجَرًا حَجَرًا. فقال له هشام بن المغيرة: إنه قد رام ذلك غيرُ واحدٍ من الملوك فما وصَلوا إليه لأنّ له ربًّا يمنعُه. فخرج أَبْرَهَةُ في أربعين ألفًا وسار بالفيل، فغضبت لفعله هَمْدان وجمعتْ إليها قبائل من اليمن ـ وكان ملكهم رجلًا من أشراف اليمن يقال له ذو نفر ـ فٱستقبلوه فحاربوه فهزمهم وظفر بذي نفر ملك هَمْدان ونُفَيل بن حبيب سيِّد خَثْعَم أسيرين فأمر بضرب عنقهما. فقالا: أيها الملك، استبقنا لندُلّك على الطريق فإنّا من أدلّ العرب، ففعل ذلك. فلمّا صاروا في مَفْرَق الطريقَيْن: مكة والطائف، قال ذو نفر لٱبن حبيب: كفى بنا عارًا أن ننطلق بهذا الأسود إلى بيت الله تعالى فيهدِمَه! قال ٱبن حبيب: هلمّ بنا لنأخذ به طريق الطائف فيشتغل بثُقِيف ولعلّه يرى ما يسوءه، فلم يشعُر أهلُ الطائف صباحًا إلاّ والجيوشُ قد وَرَدَت عليهم، فخرج أبو مسعود الثقفيّ في نَفَر منهم، فأعلم أبرهة أنها ليست طريقَهُ، وسار أبرهةُ حتى أتى مكة وٱستاق السوائم[٣] ونزل على حدّ الحَرَم؛ فكان فيما ساق مائتا ناقةٍ لعبد المطّلب بن هاشم، فركب عبدُ المطّلب فرسَه وقصد العسكر ودخل على أبرهة فأعجبَه جماله وأكرمه ونزل عن سرير كان عليه وجلس دُونه حتى لا يرفع عبد المطلب إليه، ثم قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يَرُدّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلمّا قال له ذلك، قال له أبرهة: قد كان بلغني شرفك في العرب وفضلك فأحببتك، ثم دخلتَ عليّ فرأيتُ من جمالك ووسامتك ما زادني حبًّا، فنقصتَ عندي في سؤالك إيايَ مائتي ناقة وتركتَ أن تسألني في الرجوع عمّا هممتُ به من هَدْم هذا البيت الذي هو شرفُك وعزُّك! قال عبد المطلب: أيها الملك، إنّ لهذا البيتِ ربًّا سيمنعه منك وأنا ربّ إبِلِي، وقد رامَ هَدْمَه مَن لا يُحصَى من الملوك فرجعوا بين أسيرٍ وقَتِيل، فردّ إبلَه؛ وٱجتمع إلى عبد المطّلب أشرافُ قومه فقالوا: اجعل له مالاً نجمعه له ليرجع عمّا هَمّ

(١) الحرز: المكان المنيع يلجأ إليه.

(٢) البغاث: طائر أبغث اللون، أي فيه بقع بيض وسود، أصغر من الرخم بطيء الطيران.

(٣) السوائم: جمع السائمة: وهي كل إبل أو ماشية ترسل للرعي ولا تعلف.

به من هَدْم هذا البيت. قال لهم عبد المطلب: وما عسى أن نجعل له من المال مع عِظَم ما هو فيه من المُلْك والسلطان! اطمئنُّوا، الله أمددكم(١)، فوالله لا يصل إليه أبدًا. ثم أنشد عبد المطلب يقول: [من مجزوء الكامل]

يـــا ربّ إنّ الـــمـــرءَ يـــمـــ ـــنعُ جـارَه فـامْـنَـعْ حِـلالَـكْ(٢)
لا يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهـم بَـغْـيًـا ومـا جـمـعـوا مِـحـالَـكْ(٣)
إن كـنـتَ تـاركـهـم وقِـبْـ ـلَـتَـنـا فـأمـرٌ مـا بَـدَا لَـكْ

ثم عَلاَ جبلَ أبي قُبَيس هو وحَكِيمُ بنُ حِزَام ونفرٌ من سادات قُرَيش، وهَرب الناس فلحقوا برؤوس الجبال، وأمّ أبْرَهَةُ البيتَ وقدّم أمامه الفيل، وكان أكبرَ فيل رآه الناس كالجبل العظيم، واسمه بلسان الحَبَشة محمود؛ فلمّا انتهى الفيلُ إلى طَرَف الحَرَم بَرَك(٤)، فكانوا ينخسونه، فإذا أخذوا به يمينًا وشمالاً هَرْوَل، وإذا أقْحموه بَرَك. فلم يزل كذلك بقيّة يومهم. فلمّا قاربَ المساء نظروا إلى طَيْرٍ قد أقبلتْ من نحو البحر لا تُحْصَى كثرةً أصغرُ من الحمام، فعجِبُوا من كثرتها ولم يعرفوها ولا رَأَوْا على خِلْقتها طيورًا، وكان مع كلّ طَيْر ثلاثةُ أحجار: حَجَران في رجلَيْه، وحجرٌ في مِنْقاره، على مقدار الحمص، فرفرفت على رؤوسهم وأظلّت عسكرَهم، ثم قذفت بالحجارة عليهم، وهبَّتْ ريحٌ شديدةٌ فزادت الحجارة صعوبةً وقوّة، فكان الحجر منها إذا وقع على رأس الرجل منهم نَفَذ حتى يخرُج من دُبُره، فإذا سقط على بطنه خرج من ناحية ظهره؛ فكان ما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم في سورة الفِيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٥]. وخرج عبدُ المطّلب وأصحابُه فملؤوا أيديَهم من المال، وأرسل إلى قريش فجاؤوه من الجبال وغَنِموا ما شاؤوا، فعظُمَت قريش في أعيُن العرب وسمَّوْهم آلَ الله، وازدادَ عبدُ المطّلب وأصحابُه شرفًا. ووُلِد رسول الله ﷺ بعد قدومهم بخمس وخمسين ليلةً. وكان ذلك بعد عشرين سنة من مُلْك أنو شِرْوَان.

وملك اليمن بعد أبْرَهَةَ ابْنه يَكْسُوم.

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة، وهو الذي زال مُلْكه عَلى يد سَيْفِ بنِ ذي يَزَن على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(١) يقال: أمدّ فلانًا: أي أعانه وأغاثه؛ وأمدّ الجيش: أي أعانه بمدد يقويه.
(٢) منعه: أي حماه وصيّره منيعًا. (٣) محالك: أي قوتك، وعقابك.
(٤) المراد بقبلتنا: الكعبة، لأن المسلمين يستقبلونها في صلاتهم.

ذكرُ خبرِ سَيْفِ بنِ ذي يَزَنٍ وعَوْدُ المُلْك إلى حِمْيَر

وذلك أنّ حِمْيَرَ لمّا رأتْ مُلْك الحَبَشة قد دام عليهم وتوارَثُوه فيهم، اجتمع ساداتُهم إلى سَيْف بن ذي يَزَن ـ وهو من أولاد ذي نُوَاس الذي غَلَب الحبشةَ على اليمن في أيام مُلْكه ـ وبذلوا له أن يجمعوا له نفقةً تُقيمه ليسير إلى بعض الملوك فيستنجدَه ففعل ذلك، وسار حتى وافَى القُسْطَنْطينية إلى قَيْصر ملك الروم، فٱستنجدَه فقال له قَيْصر: إنّ الجيش على دِيني، وما كنتُ لأُعِينَك عليهم، وأمرَ له بعشرة آلاف درهم، فأبَى أن يقبلها وقال: إذا لم تنصُرْني فلا حاجةَ لي إلى مالك. وٱنصرف إلى كِسْرَى وٱستنجدَه، فقال له كِسْرَى: بَعُدَت بلادُك عن بلادنا مع قِلّة خيرها، إنما فيها الشاءُ والبعيرُ وما لا حاجةَ لي فيه. فقال له سَيْف: لا تزهَدَن أيها الملك في بلادي فإنها فُرْضَة[١] العرب، وأرضُ التبابعة الذين مَلَكوا أقطار أقاليم الأرض، ودانَ لهم أهلُ الشرق والغرب. قال كِسْرَى: ما كنتُ لأغرِّرَ بجُنْدي فيما لا ينفعني وأمرَ له بعشرة آلاف درهم. فلمّا ٱنتهى إلى باب القصر نَثَرَها في الناس حتى أتَى عليها، فبلغ ذلك كسرى فغَضِب وقال له: ما الذي حملك على ٱستخفافك بصِلَتي[٢] حتى نثرتَها في الناس؟ قال: ما أصنعُ بالمال وترابُ أرضي ذهبٌ وفضّة! ثم خَنَقَتْه العَبْرة، فرقّ له كسرى ووعده بالٱنتصار له، فأشار عليه بعضُ وزرائه فقال: إنّ في سجونك بشرًا كثيرًا ممن ٱستوجَبَ القَتْل، فمُرْ بإطلاقهم، وقوّهم بالمال والكُرَاع[٣] والسِّلاح، ووجِّههم مع هذا العربيّ، فإن ظَفِروا كان ذلك زيادةً في مُلْكك، وإن قُتِلوا كان ذلك جزاءً عن جرائمهم. فأعجبَ كِسْرَى هذا الرأي وعَمِل به وقدّم عليهم وَهْرِزَ بنَ كامخان، وكان من فُرسان العَجَم وأهلِ البيوتات، وقد أناف[٤] على المائة من السنين، وكانت عِدّتهم ثلاثةَ آلاف وستمائة رجُل، فركبوا البحر في سبع سُفُن، وأرسل سَيْفٌ إلى اليمن ومخَالِيفها[٥]، فأتَوْه من أقاصي اليمن وأدانيها حتى صاروا في عشرين ألفًا، وتجهَّز إليهم مَسْروقٌ، فلمّا التقيَا قال وَهْرِز لسيف: أَرِني مَلِكَهم، فأراه إيّاه؛ وهو على فِيلٍ وعلى رأسه التاجُ وفيه ياقوتةٌ حمراءُ مدلاةٌ على جبينه، فلبِث

---

(١) فرضة النهر: ثلمته التي منها يستقى، والفرضة من البحر: محط السفن؛ ومن الدواة: محلّ المداد.

(٢) الصلة: العطية، أو الجائزة.

(٣) الكراع: المراد بها الخيل.

(٤) أناف على الماء المائة: أي زاد عليها.

(٥) المخاليف: جمع المخلاف، وهي الكورة.

ساعةً ثم تحوّل إلى فرس ثم تحوّل إلى بَغْلة، فقال وَهْرز: ذلّ الأسودُ وباد مُلْكُه، وأنا أرْمِيه فتأمّل الرَّمْية، فإن رأيتَ أصحابه تصدّعوا عنه وحاصُوا[١] يمينًا وشمالاً فأعلم أنّي قتلتُه، وإن لم يتحرّكوا من منازلهم فلم أصنع شيئًا؛ ورماه، ففلَقَ السهمُ الياقوتةَ نصفَيْن وخرج من مؤخَّر رأس مسروق، واضطربت الحَبَشة وماجُوا، وحمِلَ عليهم وَهْرِز ومَن معه والعربُ فولّوا منهزمين، ودخلوا صَنْعاء وقتلوا كلّ أسود يُوجد في اليمن. وكتب وَهْرِز إلى كسرى بالفتح، فكتب إليه كسرى أن يسأل عن سَيْفِ بنِ ذي يَزَن، فإن كان من أبناء الملوك فأقرّه على مُلْكه وانصرِفْ عنه، وإن لم يكن من أبنائهم فاضْرِب عنقَه وأقم في الأرض متولّيًا لهم.

قال: فسلّم وَهْرِز إليه مُلْكَه وخلف من كان معه منَ العجم بصنعاء وانصرف إلى كسرى، وملك سَيْفٌ اليمن لكسرى، وتداولتها الوُلاة بعده من قبل كسرى. وكان مُلْك الحبشة على اليمن اثنتين وسبعين سنة ثم انتزع عنهم.

ذكر أخبار ملوك الشام من ملوك قحطان

قال عبد الملك بن عَبْدون في كتابه المترجم بكُمَامة الزهر وصَدَفَة الدرّ: ومن أهل اليمن مَن خرج منها فملك الشام، وهم آل جَفْنَة وأوّلهم: الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن مازِن بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زَيْد بن كَهْلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، ويكنى الحارث بأبي شَمِر. ثم تداولها منهم سبعٌ وثلاثون ملكًا. ومُدّة ما ملكوا من السنين ستمائة سنة وست عشرة سنة إلى أن كان آخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم، وهو الذي تنصّر في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن كان قد أقبل إلى عمر وأسلم.

ثم إنه كان في الطواف فداس رجلٌ طَرْفَ ردائه فلطمه جَبَلَةُ، فأتى الرجلُ عمرَ رضي الله عنه فطلب جَبَلَةَ ليقِيدَه[٢] منه فتنصّر جبلةُ ولحق بهِرَقْل صاحب القسطنطينية، فأقطعه هِرَقْل الأموال والضياع والرباع، ثم نَدِم جبلة على ما كان منه وقال: [من الطويل]

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من أجل لَطْمةٍ ... ما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تكنّفني منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ ... فبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ[٣]

(١) يقال: حاص عنه: أي حاد وعدل.
(٢) ليقيده منه: أي ليقاصصه.
(٣) اللجاج: التمادي في الخصومة.

فيا ليتَ أمّي لم تلدني وليتني رجعتُ إلى القول الذي قاله عُمَرْ
ويا ليتني أرعَى المخاضَ بقفرةٍ وكنتُ أسيرًا في ربيعة أو مُضَرْ(١)
ويا ليتَ لي بالشام أدنَى معيشةٍ أجالسُ قومي ذاهب السَّمع والبَصَرْ

وحُكي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى هِرَقْل رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجِزْية فأجاب إلى الجزية، فلمّا أراد الرسول الأنصراف قال له هرقل: ألَقِيتَ ٱبنَ عمّك هذا الذي عندنا ـ يعني جَبَلة ـ الذي أتانا راغبًا في ديننا؟ فقال: ما لَقيتُه. قال ألْقِه، قال الرسول: فذهبتُ إلى باب جَبَلة فإذا عليه من القهارمة(٢) والحجّاب والبهجة وكَثْرةِ الجمع مثل ما على باب هرقل. قال: فتلطّفت في الدخول عليه حتى أذِنَ لي، فدخلتُ فرأيتُه أصْهَبَ(٣) اللحية، وكان عهدي به أسودَ اللحية والرأسِ، فأنكرتُه وإذا هو قد ذرّ سُحَالة(٤) الذهب على لحيته حتى صار أصْهَبَ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير، قوائمُه أربعةُ أسود من الذهب. قال: فلمّا عَرَفني رفعني معه على السرير. قال: وجعل يسألني عن المسلمين وعن عُمَر رضي الله عنه؛ فذكرتُ خيرًا وعرّفته أنّ المسلمين كَثُرُوا. ثم ٱنحدرتُ عن السرير فقال لي: لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؛ قلتُ: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن هذا. قال: نعم! ﷺ، ولكن نَقِّ قلبك من الدنَس ولا تُبالِ على ما قعدتَ. فلمّا سَمِعتُه يصلّي على النبيّ ﷺ طمعتُ فيه فقلتُ له: ويْحَك يا جبَلة! ألا تُسْلِمُ وقد عرفتَ الإسلامَ وفضلَه؟ قال: أبعدَ ما كان منّي؟ قلتُ: نعم. قال: إن كنتَ تضمن لي أن يزوّجني عمرُ ٱبنتَه ويُوَلِّيني الإمْرةَ بعدَه رجَعْتُ إلى الإسلام. قال الرسول: فضَمِنْتُ له التزويج ولم أضمَن له الإمْرة. قال: ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه فذهب مُسْرعًا فإذا خدّامٌ قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوُضِعَتْ ونُصِبَتْ موائدُ الذهب وصِحَاف الفضّة، وقال لي: كُلْ. فقبضتُ يدي وقلتُ: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن الأكل في آنية الذهب والفضّة. قال: نعم! ﷺ، ولكن نَقِّ قلبَك وكُلْ فيما أحببتَ. قال: فأكل في الذهب وأكلت في الخَلْنج(٥)، ثم جيء بطسّات الذهب وأباريقَ الفضّة فغَسَل يده فيها وغَسَلتُ في الصُّفر، ثم أومأ إلى خادم فمرّ مُسْرعًا فإذا خَدَمٌ معهم كراسيّ الذهب مُرَصَّعةٌ

---

(١) المخاض: الإبل التي ترد الماء.
(٢) القهارمة: جمع القهرمان، وهو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.
(٣) الأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.
(٤) السحالة: ما سقط من برادة الذهب.
(٥) الخلنج: شجر بين صفرة وحمرة يكون بأطراف الهند والصين، ورقه كالطرفاء، وزهره أحمر وأصفر وأبيض.

بالجواهر، فوُضِعَت عشرةٌ عن يمينه وعشرةٌ عن شماله، ثم جاءت الجواري عليهنّ تِيجانُ الذهب مُرَصَّعةٌ بالجواهر، فقَعَدْنَ عن يمينه وعن شماله على تلك الكراسي، ثم جاءت جاريةٌ كأنها الشمس حُسْنًا على رأسها تاج، على ذلك التاج طائرٌ وفي يدها اليمنى جامةٌ[1] فيها مِسْك فَتِيت، وفي يدها اليسرى جامةٌ فيها ماء ورد؛ فأومأتِ الجاريةُ أو صَفَّرت بالطائر الذي على تاجها فوقع في جام ماءِ الوردِ فٱضْطرب فيه، ثم أومأتْ إليه أو صَفَرت فوقع في جام المسك فتمرّغ فيه، ثم أومأتْ فطار حتى نزل على تاج جَبَلة، فلم يزل يُرَفْرِف حتى نفض ما عليه في رأسه، فضحك جَبَلَةُ سرورًا به، ثم ٱلتفتَ إلى الجواري اللواتي عن يمينه وقال لهنّ: بالله أضحِكْننا، فٱندفعْنَ يغنِّين بخَفْق عيدانهنّ ويَقُلْنَ: [من الكامل]

لِـلّـهِ دَرُّ عِـصَـابـةٍ نـادَمْـتُـهُـمْ ... يـومًا بِـجِـلِّـقْ فـي الـزَّمـان الأوّلِ[2]
يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّق بالرَّحِيقِ السَّلْسلِ[3]
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهرّ كِلابُهُمْ ... لا يَسْأَلُونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ[4]
بيضُ الوُجُوهِ كَريمةٌ أحسابُهُمْ ... شُمُّ الأُنُوفِ من الطِّرَازِ الأوّلِ
أولادُ جَفْنَةَ عندَ قَبْرِ أبيهِمُ ... قَبْرِ ٱبنِ ماريَةَ الكريمِ المُفْضِلِ[5]

قال: فضحك حتى بَدَت نواجذُه[6] ثم قال: أتدري مَنْ يقول هذا؟ قلت لا؛ قال: حسّان بنُ ثابت، ثم أشار إلى الجواري اللواتي عن يساره فقال لهنّ: بالله أبكِيننا، فٱندفعْنَ يغنِّين بخَفْق عيدانهنّ ويَقُلْن: [من الخفيف]

لمن الدار أقْفَرَتْ بمُعَانِ ... بين أعلَى اليَرْمُوكِ فالخَمّانِ[7]
ذاك مَغْنًى لآل جَفْنَةَ في الدهـ ... ـر وحَقٌّ تَعَاقُبُ الأزمانِ
قد أراني هناك دهرًا مَكِينًا ... عندَ ذي التاج مَقْعَدِي ومكاني[8]

---

(١) الجامّ: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة؛ وقد غلب استعمالها في قدح الشراب. وكذلك الجامّة.
(٢) جلّق: اسم لكورة الغوطة كلها؛ وقيل: بل هي دمشق نفسها؛ وقيل: موضع من قرى دمشق.
(٣) البريص: اسم غوطة دمشق.
(٤) هرّ الكلب: أي نبح وكشّر عن أنيابه.
(٥) ابن مارية: هو الحارث بن أبي شمّر الغساني.
(٦) النواجذ: جمع الناجذ، وهو الضرس؛ ويقال: ضحك حتى بدت نواجذه: أي استغرق في الضحك.
(٧) معان: حصن كبير من أرض فلسطين؛ واليرموك: واد بناحية الشام؛ والخمان: موضع بالشام.
(٨) المكين: أي العظيم.

قال: فبكى حتى سالت دموعه على لحيته، ثم قال: أتدري مَن يقول هذا؟ قلت: لا، قال: حسّان، ثم أنشد: تنصّرت الأشراف الأبيات ثم سألني عن حسّان أحيٌّ هو؟ قلت: نعم، فأمر له بكسوة ولي بمثلها، وأمر بمالٍ لحسّان ونُوقٍ مُوقَرة[١] بُرًّا ثم قال: إنْ وجدتَه حيًّا فادْفَعْ الهديّة إليه، وإنْ وجدتَه ميتًا فادفعها إلى أهله وانْحَرِ النُّوق على قبره.

قال: فلمّا أخبرتُ عُمَرَ بخبره وما اشترط عليّ وما ضَمَنْتُ له قال: فهلاّ ضَمَنْتَ له الأمر فإذا أفاء الله به قَضَى الله علينا بحكمه! ثم جهَّزني عُمَرُ إلى القسطنطينية إلى هِرَقْل ثانيةً وأمرني أن أضمن له ما اشترط، فلمّا دخلتُ القسطنطينية وجدتُ الناس قد انصرفوا من جنازته، فعلمتُ أنّ الشقاء غَلَبَ عليه في أمّ الكتاب.

ذكر أخبار ملوك الحيرَة
وهم من آل قحطان

وأوّلهم مالكُ بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس بن الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان. وكان قد خرج من اليمن مع عمرو بن عامر حين أحسُّوا بسَيْل العَرِم، وقد ذكرنا أنّ الملك ربيعةَ بن نصر كان قد بعثهم إلى سابور فأسكنهم الحيرة ومَلَكُوا ما حَوْلها. والله أعلم. قال: وكان مُلْك مالك على الحيرة عشرين سنة.

ثم ملك بعده ابْنُه جَذِيمةُ وهو الوضّاح. قال: وكان يقال له ذلك لبَرَصٍ[٢] كان به؛ ويقال أيضًا فيه الأبرش، وكان ينزِل الأنبار، وكان لا يُنادِم أحدًا من الناس ذهابًا بنفسه على الندماء، وكان ينادِم الفَرْقَدَيْن[٣] فإذا شَرِبَ قدحًا صَبَّ في الأرض لهذا قدحًا ولهذا قدحًا. ويقال: إنه أوّل مَن عَمِلَ المِنْجَنِيق[٤] من الملوك، وأوّل من حُذِيتْ له النِّعال. وأوّل مَن وُقِدَ بين يديه الشمع، وهو الذي قتلته الزَّبّاء بحيلة.

ثم ملك بعده ابْنُ أخته عمرو بن عَدِيّ بن ربيعة. قالوا: وعمرو هذا هو الذي

---

(١) الموقرة: أي تحمل حملاً ثقيلاً.

(٢) البرص: بياض يقع في الجسد لعلّة.

(٣) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبًا، ولذا يهتدى به، وبقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه؛ وهما الفرقدان.

(٤) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحصار، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها.

استهوته الجنّ دهرًا طويلاً ثم رَجَع؛ فبينما مالك وعَقِيل ابنا فارح وقيل ـ قالح ـ يَقْصدان جَذِيمَة الملِك بهديّة إذ نزلا على ماء ومعهما قَيْنة[١] يقال لها: أمّ عمرو، فتعرّض لهما عمرو، وقد طالت أظفارُه وشعرُه وساءتْ حالتُه وهيئتُه، فجلس إليهما ـ وكانا يأكلان ـ فمدّ إليهما يَدَه مُستطعمًا فناولتْه تلك الجاريةُ طعامًا فأكله، ثم مدّ يده ثانية فقالت: إنْ يُعطَ العبدُ كُرَاعًا[٢] يَبْتَغ ذراعًا! ثم ناولتْ صاحبيها من شرابها وأوكأت[٣] سقاءها، فقال عمرو: [من الوافر]

صَـدَدْتِ الـكـأسَ عـنّـا أمّ عَـمْـرو ... وكـان الـكأسُ مَـجْـرَاها الـيـمـينـا[٤]
ومـا شَـرُّ الـثـلاثـةِ أمّ عَـمْـرو ... بـصـاحِـبِـكِ الـذي لا تَـصْـبَـحِـيـنـا[٥]

فقالوا له: مَنْ أنت؟ فانتسب لهما، ففرِحا به وأقبلا على خاله ـ وقد كان جعل الجعائل[٦] لمن يأتيه به ـ فلمّا أتياه به قال جَذِيمة لهما: لكما حُكْمكما. فقالا: مُنادمتك. فكانا كما اختارا، وسار بهما المثل. ويقال: إنهما نادَماه أربعين سنة، فما أعادا عليه حديثًا ما حدّثاه به مرّة أخرى، بل كانا يحدّثانه بحديث جديد لم يسمعه منهما قَبْلُ.

وعَمْرٌو هذا هو الذي أخذ بثأر خاله جَذِيمة من الزّبّاء وقَتَلَها. وذلك أنّ قَصِيرَ ابنَ سعد كان من غِلْمان جَذِيمة قال لعمرو: اضرِبْ ظهري واقطَعْ أرنبةَ أنفي واتركني والزّبّاء، فإنّي سأحتال لك عليها، ففعل به ذلك، ففرّ قَصِيرٌ إلى الزّبّاء وصار في جملة رجالها وأراها النصح والاجتهاد في حوائجها، وأنه غاشٌّ لعمرو بن عَدِيّ؛ وجعل يتّجر لها ويذهب لعمرو في السرّ فيُعطيه الأموال فيأتيها بها، كأنّ ذلك من اجتهاده وحِذْقِه في التجارة حتى اطمأنّتْ له؛ فذهب إلى عمرو وأخذه وأخذ معه ألفَيْ رَجُلٍ وجعلهم في جَوَالق[٧] على ألف جمل، ومعهم دروعُهم وسيوفُهم وجاء بهم على طريق يقال له الغُوَير[٨]، ولم يكن يسلكه قبل ذلك، فلمّا قَرُبَ من حصنها تقدّم إليها وأعلمها أنه قد أتاها بمالٍ صامتٍ، فأشرفتْ من أعلى قصرها تنظر إلى الجمال، فرأتْها

---

(١) القينة: المغنية.
(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٣) أوكأت سقاءها: شدت فمه بسير أو خيط، أي ربطته.
(٤) صدّ: أعرض.
(٥) تصبحين: أي تسقينه الصبوح، وهو شراب الصباح.
(٦) الجعائل: جمع الجعالة، وهي ما جعل على العمل من أجر أو رشوة.
(٧) الجوالق: أي الغرائر؛ والغرائر: جمع الغرارة، وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح.
(٨) الغوير: موضع على الفرات.

وكأنّها تَنْزع أَرْجُلَها من أوحالٍ لِثِقَل ما عليها، فقالت: «عَسَى الغُوَيْر أَبْؤُسًا». فذهبتْ مثلاً. ثم قالت: [من الرّجز]

مـا لِـلْـمَـطَـايَـا مَـشْـيُـهـا وَئِـيـدَا   أَجَـنْـدَلاً يَـحْـمِـلْـنَ أَمْ حَـدِيـدَا[1]
أم صَـرَفـانًـا بـارِدًا شَـدِيـدَا   أَمْ الـرِّجـالَ جُـثَّـمًـا قُـعُـودَا[2]

وقد كان قَصِيرٌ قال لها قبل ذلك كالناصح: ما ينبغي لمثلك إلا أن يكون له موضع ليوم، فإنه لا يَدْري ما تُحدِثه الأيام؛ فأرته سِرْبًا في ناحيةِ قَصْرِها قد نفذت فيه إلى حصن أختها ـ وكانا على ضَفَّتي الفُرَات ـ قال: فلما دخلتْ الإبل على البوّاب ضجر لكثرتها، حتى إذا كان آخرها طَعَن في جوالق بعُود كان في يده، فقابلتْ الطعنة خاصرةَ الرجُل الذي كان في الجوالق فحنق فقال البوّاب: لشنا لشنا؛ أي شيء في الجوالق، فثارت الرجال من الجوالق بأيديهم السيوف، فهربت الزّبّاء إلى ذلك السِّرْب فإذا هي بقَصِير عند النفق ومعه عمرو بنُ عديّ، والسيف في يده، فمصَّتْ خاتَمًا كان في يدها فيه سمّ ساعة وقالت: «بِيَدِي لا بِيَدِ عمرو». وفي ذلك يقول المُتَلَمِّسِ[3]: [من الطويل]

وفـي طَـلَـبِ الأوتـارِ مـا حَـزَّ أنْـفَـهُ   قَصِيرٌ ورَامَ الموتَ بالسيف بَيْهَسُ[4]

وعمروٌ هذا هو الذي يقال فيه: «شَبَّ عمروٌ عن الطَّوْق». وكانت مدّة مُلْكه مائة سنة.

ثم ملك بعده ٱبنُه ٱمرؤ القيس. فكان مُلْكه ستين سنة.

ثم ملك بعده ٱبنُه عمرُو بنُ ٱمرىء القيس وهو مُحَرِّق[5] العرب. وكان مُلْكه خمسًا وعشرين سنة، وكانت أمّه مَارِيَة التي يُضْرب المثلُ بقُرْطَيْها.

---

(١) الجندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر، والمراد هنا: الحجارة.
(٢) الصرفان: الرصاص القلعي؛ وقيل: هو النحاس.
(٣) المتلمس: هو جرير بن عبد المسيح من بني ضبيعة وأخواله بنو يشكر، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو الذي كان كتب له إلى عامل البحرين مع طرفة بقتله. وكان دفع كتابه إلى غلام بالحيرة ليقرأه، فعرف فحواه، فنبذ الصحيفة في نهر الحيرة... (الشعر والشعراء لابن قتيبة).
(٤) البيهس: الأسد، أو الشجاع؛ أو المتبختر؛ ويقال رجل بيهس وامرأة بيهس. جمع بياهس.
(٥) سمّي محرقًا لأنه أول من عاقب بالنار.

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر فارس حليمة، وهو الذي بنى الخَوَرْنَق وَكَرْدَس[١] الكراديس. وكان أعور، ويقال: إنه أشرف في بعض الأيّام على ما حَوْل الخَوَرْنَق فقال: أكلّ ما أرى إلى نَفَاد[٢]؟ قيل: نعم. قال: فأيُّ خير في مُلْك يكون آخره إلى نَفَاد! ثم ٱنخلع من مُلْكه ولبس المَسُوح[٣] وسار في الأرض. وقد ذكره عديّ بن زَيْد فقال: [من الخفيف]

وتَـفَـكَّـرْ رَبَّ الـخَـورْنَـقِ إذ أَشْـ ... ـرَفَ يـومًـا وَلِـلْـهُـدَى تـفـكِـيـرُ
سَـرَّهُ حـالُـهُ وكَـثْـرَةُ مـا يَـمْـ ... ـلِك والبحرُ مُعْرِضًا والسَّديرُ[٤]
فـٱرْعَـوَى قـلـبُـه وقـال: فـمـا غِـبْـ ... ـطَةُ حَيٍّ إلى المَمَات يَصِيرُ[٥]؟

وكان مُلْكه خمسًا وثلاثين سنة.

ثم ملك الأسودُ بنُ النعمان. فكان ملكه عشرين سنة. ويقال: إنّ الأسودَ هذا هو الذي ٱنتصر على غَسّانَ وأَسَر عِدّةً من ملوكهم، وأراد أن يَعْفُوَ عنهم، وكان للأسود ٱبنُ عمٍّ يقال له: أبو أُذَيْنة، قد قَتَلَ آلُ غَسّانَ له أخًا في بعض الوقائع، فقال قصيدته المشهورة يُغْرِي بهم الأَسْودَ بن النعمان: [من البسيط]

ما كلُّ يوم ينال المرءُ ما طَلَبَا ... ولا يُسَوّغُهُ المِقْدارُ ما وَهَبَا[٦]
وأحزَمُ النَّاسِ مَنْ إن فُرْصَةٌ عَرَضَتْ ... لم يجعل السببَ المَوْصُولَ مُقْتضبَا
وأنصفُ الناسِ في كلّ المواطن مَنْ ... سَقَى المُعَادِين بالكأس الذي شَرِبَا
وليس يَظْلِمُهم مَنْ رَاحَ يَضْرِبُهم ... بحدّ سَيْفٍ به مَنْ قَبْلَهم ضُرِبَا
والعفوُ إلاّ عن الأكفاءِ مَكْرُمَةٌ ... مَنْ قال غير الذي قد قُلْتُه كَذِبَا
قتلتَ عمرًا وتَسْتَبْقي يَزِيدَ لقد ... رأيتَ رأيًا يجرُّ الوَيْلَ والحَرَبَا
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتُرْسِلَها ... إن كنتَ شَهْمًا فأَتْبِعْ رأسَها الذَّنَبَا
هُمُ جَرَّدُوا السيفَ فٱجعَلْهُم له جَزَرًا ... وأَوْقَدُوا النارَ فٱجْعَلْهم لها حَطَبًا[٧]
إن تَعْفُ عنهم تقول الناسُ كلُّهُمُ ... لم يَعْفُ حِلْمًا ولكن عَفْوُهُ رَهَبَا[٨]

---

(١) الكراديس: جمع الكردس، وهو الواحد من الخيل؛ وكردس الكراديس: أي جعلها كتيبة كتيبة.
(٢) النفاد: الزوال.
(٣) المسوح: جمع المسح، وهو الكساء من الشعر؛ أو ثوب الراهب، وهو المراد.
(٤) المعرض: أي المتسع. والسدير: قصر، وقد تقدم وصفه وتفسيره.
(٥) ارعوى: كفّ وارتدع.
(٦) المراد بالمقدار: أي القدر.
(٧) جزرًا: أي قطعًا.
(٨) رهبًا: أي خوفًا.

وكان أَحْسَنَ مِنْ ذا العفو لو هربوا ... لكنَّهم أنِفُوا مِنْ مِثْلِكَ الهَرَبَا[١]
هُمُو أهِلّةُ غَسّانَ ومَجْدُهُمُ ... عال فإن حالوا مُلْكًا فلا عَجَبَا[٢]
وعَرَضُوا بِفِدَاءٍ واصِفِين لنا ... خَيْلًا وإبلًا يَرُوقُ العُجْمَ والعَرَبَا
أيَحْلِبُونَ دَمًا منّا ونَحْلِبُهُمْ ... رِسْلًا لقد شَرَّفُونَا في الوَرَى حَلَبَا[٣]
عَلامَ تَقْبَلُ منهم فِدْيَةً وهُمُو ... لا فِضَّةً قَبِلُوا منّا ولا ذَهَبَا

فلمّا أنشده هذه القصيدة رجع عن رأيه في العفو عنهم وقَبُولِ الفِدَاء منهم وقَتَلَهُم. والله أعلم.

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ الأسود؛ وكانت أمُّه ماء السماء. وكانت مدّة مُلْكه أربعًا وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده عمرُو بنُ المنذر. فكان مُلْكه أربعًا وعشرين سنة.

ثم ملك بعده المنذرُ بنُ عمرو بن المنذر. وكان مُلْكه ستّين سنة.

ثم ملك بعده قابوسُ بنُ المنذر. فكانت مدّة ملكه ثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أخوه المنذرُ بنُ المنذرِ بنِ ماء السماء.

ثم ملك بعده النعمانُ بنُ المنذِر؛ وهو الذي قيل له: «أبيتَ اللَّعْنَ» وهو آخر مَنْ ملك من آلهم. وكان مُلْكه اْثنتين وعشرين سنة. وها نحن نذكر ما قيل في سبب مُلْكه وزواله.

قالوا: وكان عديّ بنُ زَيْد العُبَّاديّ واْبنُه زيد بن عديّ سَبَبَ ولايته وسَبَبَ هلاكه. وذلك أنّ عديًا وأخَوَيْه، وهما عَمّار وعمرو، كانوا في خدمة الأكاسرة ولهم من جهتهم قطائع[٤]، وكان قابوسُ الأكبر عمّ النعمان بعث إلى كسرى أبرويز بعديّ بن زَيْد وأخَوَيْه ليكونوا في كتّابه يترجمون له، فلمّا مات المنذِر ترك من الأولاد اْثنَيْ عشر رجلًا، وهُمُ الأشاهِبُ[٥]، سُمُّوا بذلك لجمالهم، وفيهم يقول الأعشى: [من الخفيف]

وبنو المنذرِ الأشاهِبُ بالحِـ ... ـيرة يَمْشُونَ غُدْوَةً كالسيوفِ[٦]

---

(١) أنف: استنكف واستكبر؛ أو تنزّه عنه وكرهه.

(٢) حال الملك: أي أنيط به.

(٣) الرسل: اللبن. والحلب: استخراج ما في الضرع من اللبن.

(٤) القطائع: جمع القطيعة، وهي الجزء من الأرض يملكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحة.

(٥) سمّوا الأشاهب لبياض وجوههم.

(٦) الغدوة: الغداة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

فجعل المنذرُ ٱبنَه النعمان في حجر عديّ بن زيد هذا، وجعل ٱبنه الأسود في حجر رجل يقال له: عديّ بن أوْس بن مَرِينا، وبنو مَرِينا[١] قومٌ لهم شَرَف، وهم من لَخْم، وترك المنذر بقيَّةَ بنِيهِ، وهم عشرة، يستقلّ كلّ واحد منهم بنفسه، وجعل المنذر على أمره كلّه إياس بن قَبِيصة الطائيّ، فلمّا مات قابوس طلب كسرى مَنْ يملّكه على العرب، فدعا عديّ بن زيد فقال له: مَنْ بَقِيَ من بني المنذر، وما هم؟ وهل فيهم خيرٌ؟ فقال: بقيتهم في ولد هذا الميّت، يعني المنذر، وهم رجالٌ نجباء[٢]؛ فكتب إليهم بالقدوم عليه، فقَدِمُوا فأنزلهم، على عديّ بن زيد، وكان عديّ يرى موضع النعمان لأنه في حِجْره ويختاره على بقيّة إخوته في الباطن، وهو يُظهر لهم خلاف ذلك ويفضّلهم عليه في الظاهر، ويكرم نُزُلَهم ويخلو بهم ويريهم أنه لا يرجو النعمان، كلّ ذلك، ليطمئنّوا إليه ويرجعوا إلى رأيه، ثم خلا بكلّ منهم على ٱنفراده وقال لهم: إنّ سألكم المَلك: أتكفوني العرب فقولوا: نكفيهم إلاّ النعمان، وقال للنعمان: إن سألك الملك عن إخوتك فَقُل له: إنْ عجزتُ عنهم فإنّي عن غيرهم أعجز.

قال: وكان عديُّ بن أوْس بن مَرِينا داهيةً أريبًا، وكان يُوصي الأسود بن المنذر ويقول: قد عرفتُ أنّي لك راجٍ، وأنّ طُلْبتي إليك ورغبتي أن تخلف عديّ بنُ زيد فيما يشير به عليك، فإنه والله لا ينصح لك أبدًا، فلم يلتفت الأسودُ إلى قوله. فلمّا أمر كسرى عديّ بن زَيْد أن يُدْخلهم عليه قدّمهم رجلاً رجلاً، وكسرى يرى رجالاً قلّما رأى مثلهم، فإذا سألهم هل تكفوني العرب قالوا: نكفيك العرب كلّها إلاّ النعمان. فلمّا دخل النعمان عليه رأى رجلاً دميمًا قَصيرًا أحمرَ الشعر فكلّمه وقال: هل تستطيع أن تكفيني العرب؟ قال نعم، قال: فكيف تصنع بإخوتك؟ قال: أيّها الملك إن عجزتُ عنهم فإنّي عن غيرهم أعجز. فملكه وكساه وألبسه تاجًا قيمته ستّون ألف درهم. فلمّا خرج وملك على العرب قال عديّ بن أوْس بن مَرِينا للأسود بن المنذر: دونك فإنك خالفتَ الرأي.

قال: ثم إنّ عديّ بن زيد صنع طعامًا في بَيْعة وأرسل إلى ابن أوْس أن ٱئتني مع مَن أحببتَ فإن لي حاجةً، فأتاه في أناس فتغدّوْا في البَيْعة، فقال عديّ بن زَيْد لعديّ بن أوْس: يا عديّ إنّ أحق مَن عَرَف الحق ثم لم يَلُم عليه مَن كان مثلك، إنّي

---

(١) بنو مرينا: قوم من أهل الحيرة من قبائل العباد.

(٢) النجباء: جمع النجيب، وهو الفاضل على مثله النفيس في نوعه.

عرفتُ أنّ صاحبك الأسودَ كان أحبّ إليك أن يُمَلَّك من صاحبي النعمان، فلا تَلُمني على شيء كنتَ على مثله، وأنا أحبّ ألاّ تَحْقِد عليّ شيئًا لو قَدِرْت عليه ركبتَه، وأحبّ أن تعطِيَني من نفسك ما أعطيك من نفسي، فإنّ نصيبي من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك. فقام عديّ بن زَيْد إلى البيعة وحلف ألاّ يهجُوَه ولا يبغِيه غائلةً أبدًا، ولا يَرْوِي عنه خيرًا، وحلف عديّ بن أوس على مثل يمينه ألاّ يزال يهجوه أبدًا ويبغيه الغوائل ما بَقِيَ. وخرج النعمان حتى أتى منزله بالحيرة، وافترق العديّان على وحشة، فقال عديّ بن أوس للأسود: إن لم تظفَر أفلا تعجَز أن تطلب بثأرك من هذا المعدِّيّ الذي عَمل بك ما عَمل؟ فقد كنتُ أخبرتك أن معدًّا لا تنام عن مكرها، وأمرتُك أن تخالفه فعصيتني. قال: فما تريد؟ قال: ألاّ تأتيك فائدة من مُلْكك ولا أرضك إلاّ عرضتها عليّ، ففعل. وكان عديُّ بنُ أوْس كثير المال، فلم يمرّ به يومٌ إلاّ بعث فيه إلى النعمان هديّة أو تُحْفة. فلمّا توالَى ذلك وكثُرت هداياه عند النعمان صار من أكرم الناس عليه، وصار لا يقضي في مُلْكه شيئًا إلاّ برأي عديّ بن أوس. فلمّا رأى مَن يطيف بالنعمان منزلة ابن أوس عنده تابعوه ولَزِمُوه؛ فكان يقول لمن يثق به من أصحاب النعمان: إذا رأيتموني أذكر عديًّ بنَ زيد عند الملك بخير فقولوا: إنه لكما يقول ولكنّه لا يُسَلِّم عليه أحد، وإنه يقول: إن الملك ـ يعني النعمان ـ إنما هو عاملُه، وإنه هو الذي ولاّه ما ولاّه.

فلم يزالوا بهذا وأشباهه حتى أضغنوا النعمان عليه. ثم إنهم كتبوا كتابًا عن عديّ إلى قَهْرمان كان له، ودسّوا مَنْ أخذ الكتاب وأتى به النعمان فقرأه فغضِب، وأرسل إلى عديّ بن زيد يقول: عزمتُ عليك إلاّ زرتَني فإني قد اشتقتُ إليك، وكان عند كسرى، فاستأذنه في زيارة النعمان فأذِنَ له، فلمّا أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه، فجعل يقول الشعر ويستعطفه به، فكان مما قاله: [من الرّمل]

أَبْلِغِ النُّعمانَ عنّي مَألُكًا ... إنه قد طالَ حَبْسِي وانْتِظَارِي(١)
لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ ... كنتُ كالغصّان بالماء اعْتِصَارِي(٢)

وقال أشعارًا كثيرةً كانت تبلُغ النعمان فندِمَ على حبسه وعَلِمَ أنه كِيدَ فيه، فكان يُرْسِل إليه ويَعِدُه ويُمَنّيه، فلمّا طال سجنُه وأعياه التضرُّع إلى النعمان كتب إلى أخيه أُبيّ ـ وهو عَمّار ـ وهو مع كِسْرَى يخبره بحاله، ويبعثه على السعي في خلاصه،

(١) المألك: الرسالة.
(٢) الاعتصار: أن يغصّ الإنسان بالطعام فيعتصر الماء، أي أن يشربه قليلاً قليلاً ليسيغه.

فدخل أُبَيّ على كسرى وكلَّمه، فكتب إلى النعمان في أمره وبعث رسولاً بكتابه، فقال له أُبَيّ: ابدأ بعديّ وٱنظُره قبل أن تجتمع بالنعمان، ورشاه على ذلك، ففعل الرسولُ ذلك ودخل إلى الحبس وٱجتمع بعديّ وقال له: ما تحبّ أن أصنع؟ قال: أُحِبّ ألاّ تخرُج من عندي، وأعطِني كتاب كسرى لأُرسله من قِبَلِي. قال: لا أستطيع ذلك. قال: فإنك إن خرجتَ من عندي قُتِلتَ. فقال: لا بدّ أن آتِيَ النعمانَ وأُوَصِّله الكتابَ من يدي، فٱنطلَقَ إلى النعمان وأوصله الكتابَ فقَبَّله وقال: سمعًا وطاعةً، ووَصَلَه بأربعة آلاف مثقال ذهبًا وجاريةٍ حسناء وقال: إذا كان من غدٍ فٱدخُل عليه وأخرِجْه بنفسك. وكان أعداء عَدِيّ أتَوْا النعمان وأخبروه أنّ رسول كسرى دخل إلى عديّ وأنه إن خرج من الحبس لم يَسْتبِق منّا أحدًا، ولم تنجُ أنتَ ولا غيرُك، فأمرَهم النعمانُ بقتله، فدخلوا عليه لمّا خرج الرسولُ من عنده وغَمُّوه[1] حتى مات، فلمّا أصبح الرسولُ دخل السجن فقال له الحَرَس: إنّ عديًّا قد مات منذ أيام، ولم نجرؤ أن نُخبر النعمان فَرِقًا[2] منه لعلمنا بكراهيته لذلك، فرجع الرسولُ إلى النعمان فقال: إنّي كنتُ بدأتُ به فدخلتُ عليه وهو حيٌّ. فقال له النعمان: يبعثك الملك إليّ فتدخُلَ إليه قبلي، كذبتَ! ولكنّك ٱرتشَيْتَ وتهدّده، ثم ٱستدعاه بعد ذلك وزاده جائزةً وكسوةً وٱستوثَق منه وصَرَفَه إلى كِسْرَى. فلمّا رجع إليه قال له: قد مات قبل مقدَمِي على النعمان.

قال: ثم نَدِم النعمان على قَتْل عديّ ندمًا شديدًا وٱجترأ أعداءُ عديّ على النعمان وهابهم، ثم ركب النعمانُ في بعض أيّامه للصَّيد فلقِيَ ٱبنًا لعديّ بنِ زيد، فكلّمه فإذا هو غلامٌ ظريفٌ ففرِحَ به النعمان وقرَّبه ووَصَلَه وٱعتذر إليه، ثم جهّزه[3] إلى كسرى وكتب إليه: إنّ عَدِيًّا كان ممن أُعِينَ به الملك في نصيحته ورأيه، فٱنقضت مُدَّتُه وٱنقطع أجله، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدّ من مصيبتي، وإنّ المَلِك لم يكن ليَفقِدَ رجلاً من عبِيده إلاّ جعل الله له منه خَلَفًا، وقد أدرك له ٱبنٌ ليس هو دُونه، وقد سرَّحته إلى المَلِك فإن رأى أن يجعله مكانَ أبيه ويصرِفَ عمَّه إلى عَمَلٍ آخر فَعَل. فأجابه كسرى إلى ذلك ورتَّبه في وظيفة أبيه، وسأله عن النعمان فأحسن الثناء عليه، فمكث سنوات على منزلة أبيه وأُعجِبَ به كسرى. وكان لصاحب هذه الرُّتْبة على

(١) المراد بقوله: غموه، أي أنهم غطوا وجهه بشيء حتى اختنق.

(٢) فرقًا منه: فزعًا منه.

(٣) جهّزه: أعدّ له معدات السفر.

العرب وظيفةٌ في كلّ سنةٍ من الأفراس والمهارة[١] والكَمْأة[٢] والأَقِطِ[٣] والأُدْمِ[٤] وغير ذلك، وهو يلي ما يُكتَب عن كسرى إلى العرب.

قال: ثم تمكّن زَيْدُ بنُ عديّ بن زَيْد عند كسرى حتى كان يجتمع به في أوقات خَلَوَاته، فدخل عليه في بعض الأيّام فكلّمه فيما دخل بسببه؛ ثم جرى ذكر النساء. وكانت عند الأكاسرة صفاتُ امرأة، ومن رَسْمهم أن يطلبوا للملك مَنْ هي متّصفةٌ بتلك الصفات وكانت الصفةُ أنّ المنذرَ الأكبرَ أهدى إلى أَنُو شِرْوَانَ جارية كان أصابها[٥] لمّا أغار على الحارث الأكبر الغَسّانيّ، فكتب إلى أَنُو شِرْوَانَ بصفة الجارية فقال: هي معتدلةُ الخَلْق، نقيّةُ اللّوْن والثّغر، بيضاءُ قمراءُ[٦] وَطْفاءُ[٧] دعْجاءُ[٨] حَوْراءُ[٩] عَيْناءُ قَنْواءُ[١٠] شَمّاءُ[١١] بَرْجاءُ[١٢] زَجّاءُ[١٣] أَسِيلةُ الخدّ، شهيّةُ المقبّل جَثْلَةُ[١٤] الشَّعْر، عظيمةُ الهامة، بعيدةُ مَهْوَى القُرْط عَيْطاءُ[١٥]، عريضةُ الصدر، كاعبُ الثدي، ضخمةُ مُشَاشِ[١٦] المَنْكِب والعضِد، حسنةُ المِعْصَم، لطيفةُ الكفّ، سَبْطَةُ البَنَان، لطيفةُ طيّ البطن، خَمِيصةُ[١٧] الخَصْر، غَرْثَى[١٨] الوِشاح، رَدَاحُ[١٩] الأقبال، رابيةُ الكفَل، مُفْعَمَةُ الساق[٢٠]، لَفَّاءُ الفَخِذين. رَيّا الروادِف، ضخمةُ المَأْكِمَتَيْن[٢١]،

---

(١) المهارة: جمع المهر، وهو أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية وغيرها.
(٢) الكمء: فطر من الفصيلة الكمشية، وهي أرضية تنتفخ حاملة أبواغها، فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع. جمع الكمأة.
(٣) الأقط: الذي انسحقت أسنانه حتى ظهرت درادرها.
(٤) الأدم: جمع أدماء أو آدم، وهو الذي اشتدت سمرته.
(٥) المراد: أخذها من جملة السبايا. (٦) القمراء: التي يشبه وجهها القمر في إشراقه.
(٧) الوطفاء: غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين.
(٨) الدعجاء: التي في عينها دعج، والدعج شدة سواد العين وشدة بياض بياضها.
(٩) الحوراء من النساء البيضاء، ولا يقصد بذلك حور عينيها.
(١٠) القنواء التي في أعلى أنفها ارتفاع وفي وسطه احديداب وفي طرفه سبوغ.
(١١) الشماء: التي ارتفعت قصبة أنفها وحسنت. (١٢) البرجاء: الجميلة الحسنة الوجه.
(١٣) الزجاء: دقيقة الحاجبين في طول. (١٤) جثلة الشعر: كثيفة الشعر سوداؤه.
(١٥) العيطاء: الطويلة العنق.
(١٦) المشاش: رؤوس العظام مثل المنكبين والمرفقين.
(١٧) الخميصة التي ضمر خصرها. (١٨) غرثى الوشاح: يراد دقة الخصر.
(١٩) الرداح: الثقيلة الأوراك التامة الخلق. (٢٠) مفعمة الساق: ممتلئتها.
(٢١) المأكمة: اللحمة التي على رأس الورك.

عظيمةُ الركبة، مُشبَعَةُ[١] الخَلْخال، لطيفةُ الكعب والقدم، قَطُوف[٢] المشي، مِكسَالُ[٣] الضُّحى، بَضَّةُ[٤] المتجرِّد، سَمُوعٌ للسيّد، ليست بخَنْسَاءَ[٥] ولا سَفْعَاءَ[٦]، رقيقةُ الأنف، عزيزةُ النفس، لم تُغْذَ في بؤسٍ، حَيِيَّةٌ رَزِينةٌ، حليمةٌ رَكينةٌ[٧]، كريمةُ الخال، تقتصر بنسب أبيها، وبفصيلتها دون جِمَاع قبيلتها، قد أحكمتها التجارِبُ في الأدب، رأيها رأيُ أهل الشرف، وعملُها عملُ أهل الحاجة، صَنَاعُ الكفَّين، قَطِيعةُ[٨] اللسان، رَهْوَةُ[٩] الصوت ساكنته، تَزِينُ البيتَ وتَشينُ العدوَّ إن أردتَها اشتهتْ، وإن تركتَها انتهتْ، تُحَمْلِقُ[١٠] عيناها، وتحمرُّ وجنتاها، وتَذَبْذَبُ[١١] شفتاها، وتبادِرُكَ الوثبةُ إذا قمتَ، ولا تجلسُ إلا بأمرك إذا جلستَ. فقبِلَها أَنُو شِرْوَانُ وأمر بإثبات هذه الصفة في ديوانه، فكانت تتوارثُ حتى انتهى المُلْك إلى كِسْرى أَبْرَوِيز بن هُرْمُز. فلمّا قُرِئتْ هذه الصفة عليه قال له زَيْد بن عديّ: أيها الملك، أنا أخبر بآل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمّه وأهله أكثرُ من عشرين امرأة على هذه الصفة. فقال له كسرى: اكتب فيهنّ إليه. فقال: أيها الملك، إنّ شرّ شيء في العرب وفي النعمان خاصّةً أنهم يتكرّمون[١٢] ـ زعموا في أنفسهم ـ عن العجم، فابعثني إليه وابعثْ معي رجلاً من ثِقاتك يفقه العربية. فبعث معه رجلاً جَلْدًا فَهِمًا، فخرج به زيد حتى أتى الحِيرة ودخل على النعمان؛ فلما دخل عليه عظّم الرسول أمر كسرى وقال له: إنه قد احتاج إلى نساء لأهله وولده فأراد كرامتكَ بصِهْره وبعث إليك فيهنّ. فقال النعمان: وما صفةُ هؤلاء النِّسوة؟ قال: هذه صفتهُنَّ قد جئناك بها، وقرأها على زَيْد بن عديّ، فشقّ ذلك على النعمان وقال لزيد وللرسول: أمَا في مَهَا[١٣] السَّواد وعِين[١٤] فارسَ ما تبلُغون به حاجتَكم؟ فقال الرسولُ لزيد: ما المَهَا والعِينُ؟ قال: البقر. فقال زيد للنعمان: إنما أراد الملِكُ كرامتَكَ، ولو عَلِمَ أنّ

---

(١) المشبعة الخلخال: الملأى سُمنًا. (٢) القطوف: أي تقارب الخطو.
(٣) المكسال: المرأة التي لا تكاد تبرح مجلسها.
(٤) بضّة المتجرد: أي ناعمة عند التجرد.
(٥) الخنساء: التي تأخر أنفها إلى الرأس وارتفع عن الشفة وليس بطويل ولا مشرف.
(٦) السفع: السواد والشحوب. (٧) الركينة: الساكنة الوقورة.
(٨) قطيعة اللسان: أي ليست سليطة. (٩) رهوة الصوت: رقيقته سهلته.
(١٠) المحملق من الأعين: ما حول مقلتيها بياض لم يخالطه سواد.
(١١) تذبذب شفتاها: تحركهما في اضطراب. (١٢) يتكرمون عن العجم: يتنزهون عنهم.
(١٣) المها: جمع المهاة، وهي البقرة الوحشية.
(١٤) العين: جمع عيناء، وهي التي اتسعت عينها وحسنت، والمراد بها هنا البقرة الوحشية.

ذلك يشُقُّ عليكَ لَمَا كَتَبَ إليكَ، فأنزلهما يومين عنده ثم كتب إلى كسرى: إنّ الذي طلب الملكُ ليس عندي. ثم قال لزيد: أعذِرْني عنده. فلمّا رجعا إلى كِسْرَى قال لزيد: أين ما كنتَ أخبرتَني به؟ قال: قد كنتُ أخبرتكَ بضِنَّتِهم[١] بنسائهم على غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم، فسَلْ هذا الرسول عن مقالة النعمان فإني أكره أن أواجه الملك بما قاله، فقال للرسولَ: وما قال؟ قال إنه قال: أما في بقَرِ السواد وفارِسَ ما يكفي الملك حتى يطلبَ ما عندنا! فعُرِفَ الغضبُ في وجه كسرى ثم قال: رُبَّ عبدٍ قد قال هذا فصار أمره إلى التَّبَاب[٢]، فبلغ كلامُه النعمانَ. وسكتَ كسرى على ذلك أشهُرًا، وهو يستعدّ ويتوقَّعُ حتى أتاه كتابُ كسرى يستدعيه، فانطلق النعمانُ حتى أتَى جبال طَيِّيء وهو متزوِّج منهم، فأرادهم أن يمنعوه فأبوْا ذلك وقالوا: لولا صِهْرُكَ لقتلناكَ، فإنه لا حاجة لنا في مُعَاداة كسرى، فأقبل يَعرِض نفسه على العرب فلا يقبلوه، حتى نزل بذِي قَارٍ[٣] ببَنِي شَيْبانَ سِرًّا فلقِيَ هانىءَ بن قَبِيصة بن هانىء بن مسعود فأودعه سلاحه وتوجه إلى كسرى فلقِيَ زَيْد بن عديّ على قنطرة سَابَاطَ[٤]، فقال له: انجُ نُعَيمُ! فقال: أنت يا زيدُ فعلتَ هذا! أمَا والله لئن أُفلت لأَسقينَّك بكأس أبيك! فقال له زَيْد: اِمضِ نُعيم، فقد والله وضعتُ لك عنده أُخَيَّةً[٥] لا يقطَعُها المُهْرُ الأرِنُ[٦]. قال: فلما بلغ كسرى أنه بالباب أمر به فقُيِّد وأبعده إلى خَانِقِين[٧]، فلم يزل بالسجن حتى مات بالطاعون.

قال ابن مِسْكَوَيْه في كتاب تجارب الأمم: والناس يظنون أنه مات بسَابَاطَ لبيتٍ قاله الأعشى. والصحيح ما قلناه.

وقال ابن عَبْدون: إنّ النعمان لمّا أقبل إلى المدائن[٨] صفَّ له كِسْرَى ثمانية آلاف جارية عليهنّ المصبَّغات وجعلهنّ صَفَّيْن، فلمّا صار النعمان بينهنّ قُلْنَ له: أمَا فينا للملك غِنىً عن بقر السَّوَاد؟ وأنّ كِسْرَى أمر بالنعمان فحُبِسَ بسَابَاط المدائن، ثم

---

(١) ضنتهم: أي بخلهم. (٢) التباب: الهلاك والخسران.

(٣) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط.

(٤) ساباط: موضع بالمدائن، وقد تقدم وصفه وتفسيره.

(٥) الأخيّة: عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة وتشد إليه الدابّة.

(٦) الأرن: النشيط.

(٧) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ وبها عين للنقط عظيمة كثيرة الدخل.

(٨) المدائن: تقدم تفسيرها.

أمر به فرمِي بين أرجلِ الفِيلة فوطئته حتى مات. وفي ذلك يقول سَلامَة بن جَنْدَل[١] وذكر قَتْلَ كِسْرَى أبرويز للنُّعمان فقال:

هـو الـمُدْخِل الـنُّعـمان بَيْتًا سَماؤُه   نُحُورُ الفُيولِ بَعْدَ بَيْتٍ مُسَرْدَقِ[٢]

ثم ملك بعده إياسُ بنُ قَبِيصة وأتى الله تعالى بالإسلام. فهؤلاء ملوك العرب باليمن والشام والحِيرَة.

ذكر خبر سَدّ مَأرب وسَيْل العَرِم

قد ذكر الله عزّ وجلّ ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٥ و١٦] الآية. رُوِيَ عن فَرْوَة بن مُسَيك[٣] عن رسول الله ﷺ أنه لمّا أنزل في سبأ ما أنزل قال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ أرضٌ أو امرأة؟ فقال: «ليس بأرضٍ ولا امرأةٍ، ولكنّه رجلٌ وَلَدَ عشرة من العرب فتيامَنَ[٤] منهم ستّة وتَشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تشاءموا فلَخْم وجُذام وغَسّان وعامِلَة، وأمّا الذين تيامَنُوا فالأزْد والأشعرون وحِمْير وكِنْدة ومَذْحِج وأنمار» فقال رجلٌ: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعم وبَجِيلة». أخرجه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه.

وكانت أرض مأرِبَ من بلاد اليمن متّصلةَ العمارةِ مسيرةَ ستّة أشهر، وقيل أزيد من شهرين للراكب المجدّ، وكانوا يَقتَبِسون النار بعضهم من بعض مسيرةَ ستّة أشهر؛ فكانت المرأة إذا أرادت أن تَجْتَنِيَ من ثمارها شيئًا وَضَعتِ المِكْتَل[٥] على رأسها وخرجت تمشِي بين الأشجار وهي تَغزِل وتعمَل ما شاءت، فلا ترجع إلاّ وقد امتلأ مِكْتَلُها مما يتساقط فيه من الثمار.

---

(١) سلامة بن جندل: هو من بني عامر بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، جاهلي قديم وهو من فرسان تميم المعدودين وأخوه أحمر بن جندل من الشعراء والفرسان... (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٢) المسردق: هو الذي يكون أعلاه وأسفله مشدودًا كله.

(٣) هو فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة بن الحارث بن كريت بن مالك بن منبه بن عطيف المرادي روى عن النبي ﷺ.

(٤) تيامن: ذهب ذات اليمين، أو تبرّك، ضدّ تطيّر وهو المعنى المراد.

(٥) المكتل: زنبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره.

واختُلِف في مأرِب، فقيل: إنه اَسمُ مَلِك تلك الأرض فسُمِّيت به، قال الشاعر[١]:

مِنْ سَبَأَ الحاضِرِين مأرِبَ إذ ... يَبْنُون مِن دُونِ سَيْلِهِ العَرِما[٢]

وقيل: هو اَسمٌ لقصر الملك، وفيه يقول أبو الطَّمَحان[٣]:

ألم تَرَوْا مأرِبًا ما كان أَحْصَنَهُ ... وما حَوالَيْهِ من سُورٍ وبُنيانِ

قال: وكان أوّل مَنْ خرج من اليمن بسبب سَيْل العَرِم عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا، وقد ذكرناه في الأنساب، وإنّ سببَ تسميته مُزَيْقِيَا أنه كان يلبس في كلّ يوم حُلّة وقيل حُلّتين، وهو الأشهر، ثم يمزّقهما عشيَّة نهاره لئلاّ يلبسهما غيره، فكان هذا دأبه في كلّ يوم.

وكان سببُ خروجه من اليمن واَطّلاعه على خبر سَيْلِ العَرِم قبلَ حدوثه دُونَ غيره من الناس أنه كان له اَمرأةٌ كاهنةٌ يقال لها: طُرَيف الخير، وكانت قد رأتْ في منامها أنّ سحابةً غَشِيتْ أرضَهم فأرعَدَتْ وأبرقَتْ ثم أصعَقَتْ[٤] فأحرقَتْ كلّ ما وقَعَتْ عليه، ففَزِعَتْ طُرَيفةُ الخيرِ لذلك فَزَعًا شديدًا وأتتْ إلى زوجها عمرو بن عامر وقالت: ما رأيتُ اليومَ أزال عني النوم. فقال لها: ما رأيتِ؟ قالت: رأيتُ غَيمًا أرعدَ وأبرقَ طويلاً ثم أصعَقَ فما وقع على شيء إلاّ اَحترق. قال: فلمّا رأى ما داخَلَها من الرَّوْع والفَزَع سكّنها.

ثم إنّ عَمرًا بعد ذلك دخل حديقةً له ومعه جاريةٌ من بعض جوارِيهِ، فبلغ ذلك اَمرأتَه طُرَيفةَ فخرجتْ إليه ومعها وَصِيفٌ[٥] لها اَسمه سنان، فلمّا برزت من بيتها عَرَض لها ثلاثَ مناجد[٦] منتصباتٍ على أرجلها، واضعاتٍ أيديها على أعينها. قال:

---

(١) هو النابغة الجعدي، شاعر إسلامي.

(٢) العرم: جمع العرمة وهي السكر والمسناة التي تسدّ بها المياه؛ وقيل العرم اسم واد بعينه؛ وقيل: العرم: اسم للجرذ الذي نقب السكر عليهم وهو الذي يقال له الخلد؛ وقيل: العرم ماء أحمر حفر في الأرض حتى ارتفعت عنه الجنان فلم يسقها فيبست وليس الماء الأحمر من السدّ ولكنه كان عذابًا أرسل عليهم... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أبو الطمحان: هو حنظلة بن الشرقي. كان نديمًا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الإسلام. وهو أحد المعمرين (الأغاني ١١: ١٢٥).

(٤) أصعقت: أي أحدثت صاعقة، وهي نار تسقط من السماء.

(٥) الوصيف: الخادم.

(٦) المناجد: جمع الخلد، وهو ضرب من الفترة، أو هو الفأرة العمياء.

والمناجد: دوابّ تشبه اليرابيع(١). فلمّا نظرت طُريفة إليها قعدت إلى الأرض ووضعت يديها على عينيها وقالت لغلامها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني، فلمّا ذهبت أعلمها فأنطلقتْ مسرعة، فلمّا عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو وثبت سُلَحفاةٌ من الماء فوقعتْ في الطريق على ظهرها وجعلتْ تَرُوم الأنقلاب ولا تستطيع، وتَسْتعفِر بيديها وتحثُو التراب على بطنها من جَنَباته وتَقذِف بالبَوْل. فلمّا رأتْها طُرَيفة الخير جلست إلى الأرض. فلمّا عادتِ السُلَحفاةُ إلى الماء مَضَتْ طُرَيفة حتى دخلَتِ الحديقة على عمرو حين أنتصَفَ النهار في ساعةٍ شديدةِ الحرّ فإذا الشجرُ يتكافأ من غير ريح، فلمّا رآها عمرو أستحيى منها وأمر الجارية بالتنحّي ثم قال لها: ما أتى بكِ يا طُرَيفة؟ فكَهِنَتْ وقالت: والنورُ والظلماء، والأرضُ والسماء، إنّ الشجرَ لهالك، وليعودنّ الماء كما كان في الزمن السالك. قال لها عمرو: ومَن خبَّركِ بهذا؟ قالت: أخبرني المناجيدُ بسنين شدائد، يقطع فيها الولدُ الوالد. قال: فما تقولين؟ قالت: أقول قولَ النُّدمان لَهْفًا، لقد رأيتُ سُلَحفاةً تَجرِف التراب جَرْفًا، وتَقذِفُ بالبَوْل قَذْفًا، فدخَلَتِ الحديقة فإذا الشجرُ من غير ريح يتكافأ. قال عمرو: وما تَرَيْنِ في ذلك؟ قالت: هي داهيةٌ(٢) دهياءُ من أمورٍ جسيمة، ومصائبَ عظيمة. قال: وما هو وَيْلك؟ قالت: أجل، إنّ فيه الويل، وما لك فيه من نيل، وإنّ الويل فيما يجيء به السيل. فألقى عمرو نفسه على فراشه وقال: ما هذا يا طُرَيفة؟ قالت: هو خَطْبٌ جليل، وخِزْيٌ طويل، وخَلَفٌ قليل، والقليلُ خيرٌ من تركه. قال: وما علامةُ ما تذكُرِينَ؟ قالت: اذهبْ إلى السدّ فإن رأيتَ جُرَذًا يكثر بيديه في السدّ الحَفْر، ويَقْلِب برجليه مَرَاجِلَ(٣) الصَّخْر، فأعلم أن الغُمر(٤) غمر، وإن قد وقع الأمر. قال: وما هذا الذي تذكُرِينَ؟ قالت: وَعْدٌ من الله نَزَل، وباطلٌ بطَل، ونكالٌ بنا نكَل. قال: فأنطلق عمرو إلى السدّ فحرسه(٥) فإذ الجُرَذ يَقْلِب برجليه صخرةً ما يَقْلِبها خمسون رجلاً، فرجع إليها وهو يقول: [من الرّجز]

أبصرتُ أمرًا عادني منه أَلَمْ ... وهاجَ لي من هوله برحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفَحْل خنزير الأجَمْ ... أو كَبْشٍ صَرم من أفاويق الغَنَمْ(٦)

---

(١) اليرابيع: جمع اليربوع، وهو حيوان من الفصيلة اليربوعية، صغير على هيئة الجرذ الصغير، وله ذنب طويل ينتهي بخصلة من الشعر، وهو قصير اليدين طويل الرجلين.

(٢) قوله: (مراجل الصخر) المراجل القدور التي يطبخ فيها وقد تكون من حجارة فكأنه يريد الصخر الذي تتخذ منه مراجل. وفيه من التكلف ما فيه. فلعل كلمة (مراجل) محرّفة عن جلامد ونحوها.

(٣) الداهية: الأمر المنكر العظيم. (٤) الغمر: الماء الكثير.

(٥) حرسه: أي حفظه.

(٦) الأفاويق: جمع الفيقة، وهي اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين.

يَقْلِبِ صَخْرًا من جلاميد العَرِمْ   له مخاليبٌ وأنيابُ قُضُمْ[١]

* ما فاته صَخْرٌ من الصخر قَصَمْ *[٢]

فقالت طُرَيفة: وإنّ من علامة ما ذكرتُ لك أن تجلس فتأمرَ بزجاجة بين يديك؛ فإنّ الريح تملؤها بتراب البَطْحاء[٣] من سهل الوادي ورَمْله، وقد علمتُ أنّ الجنانَ مُظَلّلةٌ ما يدخلها شمسٌ ولا ريحٌ. فأمر عمرو بزُجاجةٍ فوُضِعَتْ بين يديه فلم تمكُث إلاّ قليلاً حتى ٱمتلأتْ من تراب البطحاء. فقال لها عمرو: متى يكون هلاكُ السدّ؟ فقالت: فيما بينك وبين سبع سنين. فقال: ففي أيّها يكون؟ فقالت: لا يعلم ذلك إلاّ اللّهُ، ولو علمه أحدٌ لعلمتُه، ولا تأتي عليّ ليلةٌ فيما بيني وبين السبع سنين إلاّ ظننتُ أنّ هلاكنا في غَدِهَا أو مَسائها.

ثم رأى عمرو بعد ذلك في منامه سَيلَ العَرِمِ وقيل له: آيةُ ذلك أن ترى الحَصْباء[٤] قد ظَهَرت في سَعَف النخل وكَرَبِه[٥]، فنظر إليها فوجد الحَصْباءَ قد ظَهَرتْ فيها فعَلِم أنّ ذلك واقعٌ، وأنّ بلادَهم ستُخْرَب لا محالةَ؛ فكتم ذلك وأخفاه وأجمع على بيع كلّ شيء له بأرض مَأْرِب ويخرج منها هو وولَدُه، ثم خَشِيَ أن ينكر الناسُ حاله فصنع وليمة جمع الناس لها وقرّر مع أحد أولاده أنه يأمره بأمر في ملأ القوم فيخالفه فإذا لطَمَه عمرو فيلطمَه الآخر، ففعل ذلك. فلمّا لطمه ٱبنُه ـ وكان اسمه مالكًا ـ صاح عمرو: واذُلاّه! يومَ فَخْرِ عمرو يُهِينُه صبيّ ويَضرِبُ وجهه! وحلف ليقتلنّه، فسأله القوم ألاّ يفعل، فحلف ألاّ يقيم بموضع صُنِع به فيه هذا، وليبيعَنّ أموالَه حتى لا يُورَث بعدَه. فقال الناس بعضُهم لبعض: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو وٱشتروا منه قبل أن يرضَى، فابتاع الناسُ منه جميعَ ما هو له بأرض مأرِبَ، وفشا بعضُ حديثه فباع أُناس من الأزْد، فلما كثُر البَيْع ٱستنكر الناسُ ذلك فأمسكوا عن الشراء، فلمّا ٱجتمعت لعمرو أموالَه أخبر الناسَ بشأن سَيْل العَرِم وخرج من اليمن، وخرج لخروجه منها خَلْقٌ كثيرٌ فنزلوا أرضَ عَكّ[٦] حتى مات عمرو بن عامر وتفرّقوا بعده في البلاد؛ فمنهم مَن صار إلى الشام، وهم أولادُ جَفْنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من صار إلى يَثْرِبَ، وهم أبناء قيلة الأوْس والخَزْرَج، وأبوهما حارثةُ بنُ ثعلبة بن عمرو بن عامر،

---

(١) الجلاميد: جمع الجلمود، وهو الحجر الكبير.

(٢) قصم: كسر. (٣) البطحاء: المكان المتّسع يمر به السيل.

(٤) الحصباء: حمى حادة طفحية، يصحبها زكام وسعال وغيرهما من علامات النزلة.

(٥) الكرب: أصول السعف الغلاض العراض التي تقطع معها.

(٦) عك: قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك.

وصارت أَزْدُ الشَّرَاة إلى أرض الشَّراة، وأزْدُ عُمَان إلى عُمَان، ومالك بن فهم إلى العراق.

ثم خرجتْ بعدَ عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّىء فنزلت بجبلَيْ طيِّىء: أجَا وسَلْمَى، ونزل ربيعةُ بنُ حارثة بن عمرو بن عامر تِهَامة، وسُمُّوا خُزَاعة لانخزاعهم[١] من أخواتهم، وتمزَّقوا في البلاد كما أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٧] ثم أرسل الله عزّ وجلّ السيلَ على السدّ فهدمه.

واُختُلِفَ في العَرِم ما هو؟ فقيل: السدّ واحدتُه عَرِمَة، وقيل: هو الجُرَذ. وكان السدّ فيما يُذكَر قد بناه لُقْمانُ الأكبرُ بن عاد، وكان صفّه لحجارة السدّ بالرّصاص فرسخًا في فرسخ. ويقال: إنّ الذي بناه كان من ملوك حِمْير. وقد ذكر ذلك ميمون بن قيس الأعشى فقال: [من المتقارب]

وفي ذاك لِلْمُؤْتَسِي أُسوةٌ ... ومأرِبُ عفَّى عليها العرِمْ[٢]
رُخامٌ بَنَتْهُ لهم حِمْيرٌ ... إذا جاء مَوّاره لم يُرَمْ[٣]
فصاروا أيادي ما يقدرو ... ن منه على شُرْب طِفْلٍ فُطِمْ
فأروَى الزروعَ وأعنابَها ... على سعةٍ ماؤها إذ قُسِمْ

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

في أيام العرب ووقائعها في الجاهليّة، وأنها لمن مآثرها السنيّة، وإذا تأمّلها المتأمِّل دلَّته على مكارم أخلاقهم وكَرَمِ نجارهم[٤]، وحقَّقتْ عنده أنهم ما أحجموا عن طلبِ أوتارهم، وعلم مكافأتهم للأقران، وسماحتهم بالنفوس والأبدان، وإقدامهم على الموت، ومبادرتهم عند الإمكان خشيةَ الفَوْت

وقيل لبعض الصحابة رضي الله عنهم: ما كنتم تتحدّثون به إذا خَلَوتم في مجالسكم؟ فقال: نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليّتنا.

---

(١) انخزع: انقطع.
(٢) عفّى: زال وامحى.
(٣) لم يرم: أي لم يبرح.
(٤) النجّار: الأصل والحسب.

وقال بعضهم: وددت أنّ لنا مع إسلامنا كَرَمَ أخلاق آبائنا في الجاهليّة. ألا ترى أنّ عنترةَ الفوارس جاهليّ لا دينَ له، والحسَنَ بنَ هانىء إسلاميّ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع ٱبن هانىء دينه، فإنّ عنترة يقول: [من الكامل]

وأغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لي جارتي حتى يُوَارِي جارتي مأواها[١]

وقال أبو نُوَاس الحسن بن هانىء: [من الكامل]

كأنّ الشباب مَطيّةُ الجهل ومُحَسِّن الضَّحَكَاتِ والهَزْلِ
والباعِثِي والناسُ قد هَجَعُوا حتى أبيتَ خليفةَ البَغْلِ[٢]

وسأذكر من وقائعهم ما يُقَوِّي الجَنَان[٣]، ويبعث الجبان.

ذكر وقعة طَسْم وجَدِيس

وطَسْمُ بنُ لاَوَذ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بن نُوحٍ عليه السلامُ، وجَدِيسُ بنُ عابِر بنِ إرَمَ بنِ سام بنِ نُوحٍ عليه السلام، وهم العربُ العاربة، على ما ذكر بعض المؤرّخين. وكان منزلهما اليمامة[٤]، وٱسمُها في وقتهم جَوّ؛ وكان الملك عليهما رجلاً من طَسْم يقال له: عِمْلِيق، وكان غَشومًا ظَلومًا. وكان سبب فنائهما أنّ عِمْليقًا أتته ذاتَ يوم ٱمرأةٌ ٱسمُها هُزَيْلة بنت مازِن مع زوج لها ٱسمه ماش، وكان قد طلّقها وأراد أخذ ولده منها، فترافعا إليه ليحكم بينهما، فقالت هُزَيْلة: «أيها الملك، هذا ٱبني حملته تسعًا، ووضعته دَفْعًا، وأرضعته شَفْعًا، ولم أنل منه نفعًا، حتى إذا تَمَّت أوصالُه، واستوَتْ خِصالُه، أراد أن يأخذه منّي قَهْرًا[٥] ويَسْلُبنِيه سرًّا، ويترك يدي منه صِفْرًا». فقال الزوج: «قد أخذتِ المَهْرَ كاملاً، ولم أنَلْ منكِ طائلاً، إلاّ ولدًا جاهلاً، فٱفعلْ ما كنتَ فاعلاً». فأمر الملك أن يجعل الولد في غلمانه، فقالت هُزَيْلة: [من الطويل]

أتينا أخا طَسْم ليَحْكُمَ بيننا فأبرمَ حُكْمًا في هُزَيْلَةَ ظالما
لَعَمْرِي لقد حُكِّمْتَ لا مُتَوَرِّعًا ولا فَهِمًا عندَ الحكومةِ عالما[٦]

---

(١) واراه: أخفاه. (٢) هجعوا: رقدوا.
(٣) الجنان: القلب.
(٤) اليمامة: مدينة بالبادية من بلاد العوالي، وبها قد تبنى مسيلمة الكذاب، وتبعد عن البصرة ست عشرة مرحلة، وعن الكوفة مثل ذلك.
(٥) قهرًا: أي كرهًا. (٦) حكّمت: أي جُعلت حكمًا.

نَدِمْتُ فلم أقدِر على مُتَزَحْزَحٍ   وأصبح زَوْجِي عاثرَ الرأي نادما[١]

فلمّا بلغ عِمْليقًا ذلك غَضِبَ وأقسم أنه لا تُهْدَى عَرُوسٌ في جَدِيس لبعلها حتى يكون هو الذي يبدأ بها قبل زَوْجها. فلم يزل على ذلك دهرًا حتى أُهْدِيت عُفَيرةُ بنت عَفَار الجَدِيسيّة أخت الأَسْوَد بن عَفَار سيِّد جَدِيس إلى بعلها، ويقال: إنّ اسمها الشَّمُوس، فحُمِلَتْ إلى عِمْليقٍ، فلمّا آفترعها وخلّى سبيلَها خرجتْ على قومها في دمائها شاقّةً جيبها[٢] عن قُبُلِها ودُبُرِها وهي تقول: [من الرجز]

لا أحدٌ أذَلّ من جَدِيسِ   هكذا يُفْعَلُ بالعَرُوسِ
يرضَى بهذا يا لَقَوْمِي حُرُّ   أَهْدَى وقد أعطَى وسِيقَ المَهْرُ
لأخذةُ الموتِ كذا لنفسه   خيرٌ مِنَ أنْ يُفْعَلَ ذا بعِرْسِهِ

ثم قالت تحرِّض جَدِيسًا على طَسْم: [من الطويل]

أيَصْلُحُ ما يُؤْتَى إلى فَتَيَاتِكم   وأنتم رجالٌ فيكُمُ عَدَدُ الرَّمْلِ
أيَصْلُحُ تَمْشِي في الدِّما فتياتُكم   صَبِيحةَ زُفَّتْ في النساء إلى البعل
فإن كنتمو لا تغضَبُوا عند هذه   فكونوا نساءً لا تَفِيق من الكُحْل
ودونكم طِيبُ العروس فإنّما   خُلِقتم لأثواب العرائس والغِسْل
فلو أننا كُنّا رجالاً وكنتم   نساءً لَكُنّا لا نُقِرّ على الذُّلِّ[٣]
فقُبْحًا وسُحْقًا للذي ليس دافعًا   ويختال يَمْشِي بيننا مِشْيَةَ الفَحْل
فموتُوا كِرامًا وآصبِرُوا لعدوّكم   لحربٍ تلظَّى بالضِّرام من الجَزْل[٤]
ولا تجزَعُوا في الحرب يا قومُ إنها   تقوم بأقوامٍ كرامٍ على رِجْل

فآجتمعتْ جَدِيسٌ فقال لهم الأسود بن عَفَار، وكان مُطاعًا فيهم: لتُطِيعُنّني فيما آمركم به أو لأتَّكِئَنّ على سيفي حتى يخرُج من ظهري. قالوا: فإنّا نُطِيعك. قال: إنّ طَسْمًا ليسوا بأعزَّ منكم، ولكن مُلْك صاحِبهم هو الذي يُذْعِنُنا[٥] إليهم بالطاعة، ولو آمتنعتم منهم لكان لكم النَّصَفُ[٦]. قالوا: إنّ القوم أكثرُ منّا عَدَدًا وعُدَدًا. قال:

---

(١) تزحزح: تنحى وتباعد.
(٢) جيب القميص: ما يدخل منه الرأس عند لبسه.
(٣) نقر: نرضى.
(٤) الجزل: ما عظم من الحطب ويبس.
(٥) أذعن: انقاد وسلس.
(٦) النصف: إعطاء الحق.

إنّي صانعٌ طعامًا فأدعوهم إليه، فإذا جاؤوكم متفضِّلين[١] في الحُلَلِ نهضنا إليهم بأسيافنا. فقالت عَفِيرة لأخيها: لا تفعل! فإنّ الغَدْر ذِلّة وعارٌ، ولكن كاثروا القومَ في ديارهم فتظفَروا أو تموتوا كِرامًا. قال: بل نمكُر بهم فنكون أمكنَ منهم. ثم صنع الأسودُ طعامًا وأمر قومه أن يخترِطُوا[٢] سيوفَهم ثم يدفنوها في الرمل. ودعا عِمْلِيقًا وقومه، فلمّا أتَوْا ٱستثارتْ جَدِيسٌ السيوفَ وشدُّوا عليهم فما أفلت منهم إلاّ رِيَاح بن مُرّة، ففرّ إلى حسّان بن تُبَع فٱستغاث به وأخبره بما صنعتْه جَدِيس بطَسْم فوعده النصرة، ثم نادى حسّان في حِمْير بالمسير وأخبرهم بما صَنَعَتْ جَدِيسُ بطَسْم؛ فقالوا: وما جَدِيسٌ وطَسْم؟ قال: هما أخَوَان. قالوا: فما لنا في هذا من أَرَب[٣]. قال حسّان: أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حَسَنًا لملِكِكُم أن يُهْدِر دماءكم. وما علينا في الحُكْم إلاّ أن نُنْصف بعضَهم من بعض. فقالوا: الأمرُ أمرُك أيّها الملك فمُرْنا بما أحْبَبْتَ. فأمرَهم بالمسير، فساروا حتى إذا كانوا من اليمامة على ثلاث ليالٍ قال رِيَاحُ بن مرّة لحسّان بن تُبَّع: أبيتَ اللعن! إنّ لي أختًا متزوِّجةً في جَدِيس تنظُر الراكب على مسيرة ثلاثِ ليالٍ وأخاف أن تُنذِر قومَها، فأمُر كلَّ إنسان أن يقتلع شجرةً من الأرض ويجعلَها أمامَه، فأمرَهم حسّان بذلك. ثم ساروا، فنظرتْ أختُ رِيَاح فقالت: يا جَدِيس! لقد سارتْ إليكم الشَّجَر. فقالوا لها: وما ذاك؟ قالت: أرَى شَجَرًا، من ورائه بَشَرًا، وإنّي لأَرى رجُلاً من وراء شجرة يَنْهَشُ كَتِفًا أو يَخْصِفُ[٤] نَعْلاً، فكذّبوها وغَفِلُوا عن أَخْذِ أُهْبَةِ الحرب حتى صبَّحتهم حِمْير. ففي ذلك تقول زَرْقاءُ اليمامة: [من البسيط]

خُذُوا لهم حِذْرَكُمْ يا قَوْمُ يَنْفَعُكُمْ ... فليسَ ما قد أراه اليومَ يُحْتَقَرُ
إنّي أرَى شَجَرًا من خَلْفه بَشَرٌ ... فكيفَ تَجْتَمِعُ الأشجارُ والبَشَرُ
صُفُّوا الطوائفَ منكم قبلَ داهيةٍ ... من الأمور التي يُخْشَى وتُنْتَظَرُ
إنّي أرَى رَجُلاً في كَفِّهِ كَتِفٌ ... أو يَخْصِفُ النَّعْلَ خَصْفًا ليس يُعْتَذَرُ[٥]
ثُورُوا بأَجْمَعِكُمْ في وَجْهِ أوّلِهِمْ ... فإنّ ذلك منكم ـ فٱعْلَمُوا ـ ظَفَرُ

---

(١) تفضل: لبس الفضال، وهو الثوب الواحد المتبذل يلبسه الرجل أو المرأة في بيته للخدمة والنوم.
(٢) اخترط السيف: استلّه من غمده.
(٣) الأرب: الحاجة الشديدة؛ أو البغية والأمنية.
(٤) خصف النعل: خرزها بالمخصف.
(٥) ليس يعتذر: المراد لا عذر له في خصفها.

وغَـوِّرُوا كـلَّ مـاءٍ دُونَ مَـنْـزِلِـهِـمْ فليس من دُونه نَحْسٌ ولا ضَرَرُ(١)
أو عاجِلُوا القومَ عندَ الليل إنْ رَقَدُوا ولا تَـخَـافُـوا لـهـا حَـرْبًـا وإن كَـثُـرُوا

فلمّا كان حسّانٌ على مسيرة ليلةٍ عبَّأَ جيشه ثم صبحَّهم فٱستباح اليمامةَ قَتْلاً وسَبْيًا، وهرب الأَسْودُ حتى نزل بطيّيء فأجاروه مِن كلّ مَنْ يطلبه وهم لا يعرفونه. وقبيلتُه في طيّيء مذكورة. ثم إنّ حسانًا أمر باليمامة فنزع عينَيْها فإذا في داخلها عروقٌ سُودٌ، فسألها عن ذلك فقالت: حَجَرٌ أَسْوَدُ كنتُ أكتحل به يقال له الإثْمِد فثبَّت لي بصري. وقيل: إنها أوّل مَن ٱكتحَلَ بالإثْمِد؛ فأمر بها فصُلِبَتْ على باب جَوّ. وقيل: سُمِّي جَوّ باليمامة من ذلك الوقت. وفي ذلك يقول رِيَاح بن مُرّة لمّا أخذ بثأره: [من الخفيف]

غَـدَرَ الـحَـيُّ مـن جَـدِيـسٍ بـطَـسْـم آلَ طَـسْـم كـمـا تُـدَانَـى تُـدِيـنِـي
قـد أتـيـنـاهـم بـيـوم كـيـوم تُـركُـوا فـيـهِ مِـثْـلَ مـا تَـرَكُـونِـي
لـيـتَ طَـسْـمًـا عـلـى مـنـازلـهـا تَـعْـ لَـمُ أنّـي قَـضَـيْـتُ عَـنّـي دُيُـونِـي

وقد كرّرت الشعراء قصة هذه المرأة وجَوّ. فمن ذلك قول الأعشى على رواية ٱبن قُتَيبة: [من البسيط]

قـالـتْ أرَى رجُـلاً فـي كـفِّـه كَـتِـفٌ أو يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِي آيةً صَنَعَا(٢)
فـكـذَّبـوهـا بـمـا قـالـتْ فَـصَـبَّـحَـهُـمْ ذُو آلِ حَسّانَ يُزْجِي السمّ والسَّلَعا(٣)
فٱسْتَنْزَلُوا آلَ جَوٍّ من مساكنهم وهـدَّمُـوا رافِعَ الْـبُـنْـيَـانِ فـٱتَّـضَـعَـا

وروى ٱبن إسحاق: [من البسيط]

كُوني كمثل التي إنْ غاب واحدُها أهـدتْ لـه مـن بـعـيـدٍ نـظـرةً جَـزَعَـا

ثم أتى بالأبيات التي ذكرها ٱبن قتيبة. وقال المُسَيَّبُ بنُ عَلَس: [من الطويل]

لقد نَظَرَتْ عينٌ إلى الجِزْع نَظْرةً إلى مثل مَوْج المُفْعَم المتلاطِم(٤)

---

(١) يقال: غار الماء: أي ذهب في الأرض وسفل فيها.
(٢) الكتف: السناد والدعامة.
(٣) السلع: شجر مر وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار، فإذا أينع اسودّ فتأكله القرود ولا تأكله الناس. ولا السائمة.
(٤) المفعم: الممتلىء.

إلى حِمْير إذ وُجِّهوا من بلادهم ... تَضيقُ بهم لأْيًا فروجُ المخارِمِ[١]

وفيها يقول النَّمِرُ بنُ تَوْلَب: [من الكامل]

وفتاتُهم عَنْزٌ غَداةَ تبيَّنتْ ... من بعد مَرْأى في الفضاء ومَسْمَع

قالتْ أرى رَجُلاً يُقلِّبُ نَعْلَهُ ... تَقْليبَ ذي وَصْلٍ له ومُشَسَّع[٢]

ورأتْ مقدّمة الخَميسِ ودُونها ... رَكْضَ الجيَاد إلى الصَّباح يُتَّبَع[٣]

ذكر حروب قيس في الجاهلية

يومُ مَنْعِجٍ لِغَنِيّ على عَبْس

يومُ مَنْعِج[٤]. هو يوم الرَّدْهَة وفيه قُتِلَ شأس بن زُهَير بن جَذِيمة بن رَواحة العَبْسيّ؛ قتله رِيَاح بن الأَشَلّ الغَنَوِيّ. وذلك أنّ شأسًا أقبلَ من عند النعمان بن المنذر وقد أجزل حِبَاءَه. وكان من حِبَائه قَطيفةٌ حمراءُ ذات هُدْب[٥] وطيبٌ؛ فورد مَنْعِجًا ـ وهو ماء لغنيّ ـ فأناخ راحلتَه إلى جانب الرَّدْهة وعليها خباء[٦] لرياح بن الأشلّ، وجعل يغتسل وٱمرأةُ رِيَاح تنظُر إليه، وهو كالثَّوْر الأبيض، فٱنتزعه رِيَاح بسهم فقتله، وضمَّ متاعه ونحر ناقتَه وأكلها وغيَّب أثره. وفُقِدَ شأس بن زُهَير، حتى وجدوا القطيفةَ[٧] الحمراء بسوق عُكَاظ قد باعتها ٱمرأةُ رياح، فعلمُوا أنّ رياحًا صاحبَ ثأرهم، فَغَزَتْ بنو عَبْس غَنِيًّا قبل أن يطلبوا قَوَدًا أو دِيَةً، مع الحُصَين بن زُهَير بن جَذِيمة والحُصَين بن أُسِيد بن جَذِيمة. فلمّا بلغ ذلك غَنيًّا قالوا لرِيَاح: انْجُ، لعلّنا نُصالح القومَ على شيء أو نرضيهم بدية. فخرج رياح رَدِيفًا[٨] لرجل من بني كِلاَب، وهما يظنّان أنهما قد خالفا وجهةَ القوم؛ فمرّ صُرَدٌ[٩] على رؤُوسهما فصَرْصَرَ[١٠]، فما راعهما إلاّ خيلُ بني عَبْس، فقال الكِلاَبيّ لرِيَاح: انحدرْ من خَلْفي وٱلتمسْ نَفَقًا

(١) المخارم: جمع المخرم، وهو منقطع أنف الجبل.

(٢) شسع النعل، أي جعل لها شسعًا، والشسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم.

(٣) الخميس: الجيش الجرار؛ سمّي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب والميمنة، والميسرة، والساق.

(٤) منعج: واد يأخذ بين جفر أبي موسى والنباج ويدفع في بطن فلج.

(٥) الهدب: أطراف الثوب مما يلي طرفه.

(٦) الخباء: بيت من وبر أو شعر أو صوف، يكون على عمودين أو ثلاثة.

(٧) القطيفة: كساء له أهداب.

(٨) الرديف: الراكب خلف الراكب.

(٩) الصرد: طائر أبقع ضخم الرأس يكون في الشجر، نصفه أبيض ونصفه أسود، وهو من سباع الطير، ضخم المنقار عظيم البرثن.

(١٠) صرصر: صاح بصوت شديد متقطع.

في الأرض فإني شاغلٌ القومَ عنك، فأنحدر ريَاح من عَجُز الجمل حتى أتى ضَفَّةً(١) فأحتفر تحتها مثل مكان الأرنب ووَلجَ فيه، ومضى صاحبُه، فسألوه فقال: هذه غَنِيٌّ جامعة، وقد أستمكنتم منهم، فصدّقوه وخَلَّوْا سبيله، فلمّا وَلّى رأوْا مركب الرجل خلفه فقالوا: مَنِ الذي كان خلفك؟ فقال: لا كَذِبَ! رياح بن الأشلّ، وهو في أولئك الصُّعُدَات(٢). فقال الحُصَيْنان لمن معهما: قد مكّننا اللّهُ من ثأرنا ولا نريد أن يَشْرِكَنا فيه أحد، فوقفوا عنهما، ومضيَا فجعلا يُريغَان رياحًا بين الصُّعُدات، فقال لهما: هذا غزالكما الذي تُريغانه، فأبتدراه فرمَى أحدَهما بسهم فأَقْصَدَه(٣)، فطعنه الآخر فأخطأه، ومرّت به الفَرَس، فاستدبره رِيَاحٌ بسهم فقتله ثم أتى قومه. ففي ذلك يقول الكُمَيْتُ بنُ زَيْدٍ الأَسَديُّ، وكانت له أُمَّان من غَنِيٍّ: [من الطويل]

أنـا أَبـنُ غَـنِـيٍّ والـدايَ كـلاهـمـا ... لأَمَّيْنِ منهم في الفُروع وفي الأَصْل

هم أستودعوا زهرا نسيب بن سالم ... وهـم عدَلوا بين الحُصَيْنِين بالنَّبْل

وهـم قَتَلوا شَأسَ الملوك ورَغَّمُوا ... أبـاه زُهَـيْـرًا بـالـمَـذَلَّـة والـثُّـكْـل(٤)

يوم النَّفْرَاوات
لبني عامر على بني عبس

فيه قُتِل زُهَيْر بنُ جَذِيمَة بن رَوَاحة العَبْسيّ. وكانت هَوَازنُ تُؤَدِّي إليه إتاوة، فأتته عَجُوزٌ رَهيش(٥) من بني نَصْر بن معاوية بَسَمْن في نِحْي(٦)، وَشَكَتْ سنين تتابعتْ على الناس، فذاقه فلم يَرْضَ طَعْمَه، فدعّها(٧) بقَوْسٍ في يده عُطُلٍ(٨) في صدرها، فأستلْقَتْ على قفاها مُنْكشفةً(٩)، فتألّى(١٠) خالدُ بن جعفر وقال: والله

---

(١) قوله (حتى أتى ضفّةً فاحتفر تحتها) الضفّة جانب الوادي. قال المصحح: وفي الأصل (حتى أتى صُعُدة) أقول: والصعدة هو الصواب وهي بضمتين أو بضم فسكون ضرب من الشجر وجمعها صُعُدات وإنما رجحنا (الصُّعُدة) لما يأتي من قوله بعد (وهو في أولئك الصُّعُدات) وقوله (فجعلا يريغان رياحًا بين الصُّعُدات) فرياح خَرَج من حفرته وأفلت بين الشجرات التي احتفر تحتها. وقوله (تحتها) يناسب الاحتفار تحت الشجرات لا تحت الضفة يقال احتفر في الضفّة واحتفر تحت الشجرة.

(٢) الصعدات: مفردها الصعدة، وهي القناة تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف؛ أو القصبة.

(٣) يقال: أقصدت الرجل: إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقاتلة.

(٤) الثكل: فقد الحبيب.

(٥) عجوز رهيش: ضعيفة أو مهزولة.

(٦) النحى: الزق الذي يجعل فيه السمن.

(٧) دعّ الشيء: دفعه بعنف.

(٨) القوس العطل: التي لا وتر فيها.

(٩) المراد انكشاف العورة.

(١٠) تألى: أقسم.

لأجعلنَّ ذراعي في عُنُقه حتى يُقْتَل أو أُقْتَل. وكان زُهَير مقْدامًا فتفرّد من قومه ببنِيه وبني أخوَيْه أَسيدٍ وزنْباعٍ يُرِيغ[١] الغيثَ في عُشَرَاوَاتٍ[٢] له وشَوْل[٣]؛ فأتاه الحارث بن عمرو بن الشَّرِيد، وكانت تُمَاضرُ ابْنَةُ عمرو بن الشَّرِيد تَحْتَ زُهَير، فلمّا عَرَف الحارث مكانه أنذر عليه بني عامر بن صعصعة رَهْط خالد بن جعفر، فركب منهم ستَّةُ فوارسَ فيهم خالدُ بنُ جعفر وصَخْر بن الشَّرِيد وحُنْدُجُ بنُ البَكّاء ومعاويةُ بنُ عُبَادة بن عُقَيْل فارس الهَرّار. ويقال لمعاوية: الأَخْيَل، وهو جَدّ ليلى الأخيليّة. فقال أَسِيدٌ لزُهَير: أَعْلَمَتني راعيةُ غَنَمي أنها رأتْ على رأس الثنيّة[٤] أشباحًا ولا أحسبها إلاّ خيلَ بني عامر، فألحقْ بنا بقومنا. فقال له زُهَير: «كُلُّ أَزَبٍّ[٥] نَفُورٌ» وكان أشعر القفا، فذهبتْ مثلاً، فتحمَّل أسيد بمن معه وبقي زُهَير وابناه ورقاءُ والحارثُ. وصبَّحتهم الفوارس فأرمدّت[٦] بزهير فرسُه القَعْساءُ ولحقه خالد ومعاوية الأَخْيَل، فطعَن معاويةُ القعساءَ فقلبت زهيرًا، وخرّ خالدٌ فرفع المغْفَرَ[٧] عن رأس زهير وقال: يا لَعَامرٍ اقتلونا جميعًا! وأقبل معاويةُ فضرب زُهَيرًا على مَفْرق رأسه ضربةً بلغتْ الدِّماغ، وأقبل ورقاءُ بنُ زهير فضرب خالدًا وعليه دِرْعَان فلم تُغْنِ شيئًا، وأجهض[٨] أبنا زهير القوم عن زهير واحتملاه وقد أثخنتْه الضربةُ فمنعوه الماء فقال: اسقُوني وإن كانت نفسي فيه، فسَقَوْه فمات بعد ثالثة من الأيام، فقال في ذلك ورقاءُ بن زُهَيْر: [من الطويل]

رأيتُ زُهَيْرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ ... فأقبلتُ أسعَى كالعَجُولِ أُبادِرُ[٩]
فشَلَّتْ يَميني يومَ أضرِبُ خالدًا ... ويمنعه منِّي الحديدُ المُظَاهِرُ
فيا ليتَ أني قبلَ أيام خالدٍ ... ويوم زُهَيْر لم تَلِدني تُمَاضِرُ
لَعَمْرِي لقد بُشِّرتِ بي إذ وَلَدْتِني ... فماذا الذي رَدّتْ عليكِ البشائرُ

وقال خالد بن جعفر في قتله زهيرًا: [من الكامل]

بل كيف تكفُرني هوازنُ بعدما ... أعتقْتُهم فتَوَالَدُوا أحرارا

---

(١) يريغ الغيث: يطلبه.
(٢) العشراوات: واحدتها العشراء، وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر.
(٣) الشول: واحدتها شائلة؛ وهي الناقة التي أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فخفّ لبنها وارتفع ضرعها.
(٤) الثنية: الطريق في الجبل.
(٥) البعير الأزب: الذي يكثر شعر حاجبيه.
(٦) ارمدّت: عدت عدو الرمد، وهو النعام.
(٧) المغفر: زرد ينسج من الدروس على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.
(٨) يقال: أجهضه عن فلان: إذا نحاه عنه.
(٩) العجول: الواله التي فقدت ولدها، الثكلى لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعًا.

وقتلتْ رَبَّهُمُ زهيرًا بعدما جَدَعَ الأُنوف وأكثر الأوتارا(١)
وجعلتْ مَهْرَ بناتهم ودياتهم عَقْلَ الملوك هجائنًا وبكارا(٢)

يومُ بطنِ عاقل(٣)
لذُبْيانَ على بني عامر

فيه قُتِل خالدُ بنُ جعفر ببطنِ عاقل. وذلك أنه قدِمَ على الأسود بنِ المُنذِر أخي النعمان ومعه عُرْوةُ الرَّحال بن عتبةَ بن جعفر، فالْتقَى خالدُ بنُ جعفر والحارثُ بن ظالم بن غيط بن مُرّة بن سعد بن ذُبْيان عند الأسود بنِ المنذر، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم: يا حارِ، أما تشكر يدي عندك أنْ قتلتُ عنك سيّد قَومِك زهيرًا وتركتُك سيِّدَهم؟ فقال: سأَجزيك شكرَ ذلك. فلمّا خرج الحارثُ قال الأسودُ لخالد: ما دعاك إلى أن تتحرّش بهذا الكلبِ وأنتَ ضيفي؟ فقال: إنما هو عبدٌ من عبيدي، ولو وَجَدَني نائمًا ما أيقظني. وانْصرف خالد إلى قُبَّته فلامه عُرْوةُ الرّحال، ثم ناما وأشْرَجَت(٤) عليهما القُبّةُ، وكان مع الحارثِ تبيع له من بني مُحارِب يقال له خِرَاش، فلمّا هدأت العيونُ أخرج الحارث ناقتَه وقال لخِرَاش: كن لي بمكان كذا، فإن طلع كوكبُ الصبح ولم آتك فانْظُر أحبَّ البلادِ إليك فاْعْمِد لها؛ ثم انْطلق الحارثُ حتى أتى قُبّةَ خالدٍ فهتكَ شَرجَها ثم وَلجَها وقتله، فنادى عُرْوةُ عند ذلك: واجوَارَ الملك! فأقبل إليه الناسُ، وسمع الأسود الهُتّافَ وعنده امْرأةٌ من بني عامرٍ يقال لها: المُتَجرِّدة، فشقَّتْ جَيْبَها. ففي ذلك يقول عبد الله بنُ جَعْدَةَ: [من الكامل]

شَقّتْ عَلَيْكَ العامِرِيّةُ جَيْبَها أَسَفًا وَمَا تَبْكِي عليك ضَلالاَ(٥)
يا حارِ لو نَبَّهتَه لَوَجَدْتَهُ لا طائشًا رَعِشًا ولا مِعْزَالاَ(٦)
واغْروْرَقَتْ عينايَ لمّا أُخبِرَتْ بالجَعْفَرِيّ وأسْبلت إسْبالاَ(٧)
فلنقتُلَنَّ بخالدٍ سَرَوَاتِكم ولَنَجْعَلَنْ للظالمين نَكَالاَ(٨)
فإذا رأيتُمْ عارِضًا متهلِّلاً منّا فإنّا لا نُحاوِلُ مالاَ

---

(١) الوتر: قتل الحميم. جمع أوتار. (٢) العقل: الدية.
(٣) بطن عاقل: موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وإمرة.
(٤) أشرجت: جمعت.
(٥) جيب القميص: ما يدخل منه الرأس عند اللبس.
(٦) المعزال: من لا رمح له. والرعش: الجبان.
(٧) أسبلت العين: إذا سال دمعها.
(٨) النكال: العقاب أو النازلة.

يومُ رَحْرَحان[١]
لعامر على تميم

ولمّا هَرَب الحارثُ بنُ ظالم ونَبَتْ به البلادُ لجأ إلى مَعْبَد بنِ زُرَارة فأجاره؛ فقالت بنو تميم لمعبد: ما لك أوَيْتَ هذا المشؤومَ الأنكد وأغْرَيْتَ بنا الأسْوَد؟ وخذلوه غير بني ماوِيَة وبني عبد الله بن دارِم. وبلغ الأحوصَ بنَ جعفر بن كلاب مكان الحارث بن ظالم، وأنه عند مَعْبَد بنِ زُرَارة، فغزا مَعْبَدًا فالْتقَوْا برَحْرَحان فانْهزمت بنو تميم وأُسِرَ مَعْبَدُ بنُ زُرَارة، أسره عامر والطُّفَيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب، فوفد لَقِيط بن زُرَارة عليهما في فدائه فقال لهما: لكما عندي مائتا بعير، فقالا: أبا نَهْشَل، أنتَ سيِّد الناس، وأخوك مَعْبَدٌ سيِّدُ مُضَر فلا تقبل فيه إلا دِيَة ملك، فأبى أن يزيدهم وقال: إنّ أبانا أوصانا ألا نزيد أحدًا في ديتنا على مائتي بعير، وقال: لا توكلوا العرب أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، ورحل لقيط عن القوم.

قال: فمنعوا معبدًا الماءَ وضَارُوه[٢] حتى مات هُزَالاً. وقيل: بل أبَى معبدٌ أنْ يُطْعَمَ شيئًا أو يُشْرَبَ حتى مات هُزَالاً. ففي ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل: [من الوافر]

قَضَيْنَا الجَوْنَ عَنْ عَبْسٍ وكانتْ ... مَنِيّةُ مَعْبَدٍ فينا هُزَالاَ[٣]

وقال جرير: [من الطويل]

ولَيْلَةَ وادِي رَحْرَحانَ رَفَعْتُمُ ... فِرارًا ولم تَلْوُوا رَفِيقَ النَّعائِمِ[٤]
تَرَكْتُمْ أبا القَعْقَاع في الغُلّ مَعْبَدًا ... وأيّ أخٍ لم تُسْلِموا للأداهِمِ[٥]

وقال أيضًا: [من الكامل]

وبِرَحْرَحَانَ غَدَاةَ كُبِّلَ مَعْبَدٌ ... نُكِحَتْ فَتَاتُكُمْ بِغَيْرِ مُهُورِ

---

(١) رحرحان: جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.

(٢) ضارّه: ضامه وضايقه، أو ألحق به الأذى.

(٣) الجون: من الأضداد، وهو الأبيض أو الأسود، والنور أو الظلمة.

(٤) النعائم: جمع النعامة: طائر كبير الجسم طويل العنق والوظيف، قصير الجناح، شديد العدو؛ وهو مركب من خلقة الطير والجمل.

(٥) الأداهم: جمع الأدهم، وهو القيد.

يومُ شِعْبِ جَبَلَةَ(١)
لعامرٍ وعَبْسٍ على ذُبْيان وتميم

قال أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى: يومُ جَبَلة أعظمُ أيام العرب، وذلك أنه لمّا أنقضتْ وَقْعة رَحْرَحان جمع لَقِيطُ بنُ زُرارةَ لبني عامر وألّب عليهم. وبينَ يوم رَحْرَحان ويوم جَبَلة سنة. ويومُ جَبَلَة قبل الإسلام بأربعين سنة، وهو عامُ مَوْلِدِ رسول الله ﷺ. وكانت بنو عَبْسٍ يومئذ في بني عامر حُلَفاءَ لهم، فأستعدَى(٢) لَقِيطٌ بني ذُبْيان لعَدَاوتهم لبني عَبْس من أجل حَرْب داحِس، فأجابته غَطَفانُ كلّها غيرَ بني بدر، وتجمَّعت لهم تميمٌ كلُّها غيرَ بني سعد، وخرجت معه بنو أسَد لحِلْف كان بينهم وبين غَطَفان، ثم أتى لَقِيطٌ الجَوْنَ الكَنْدِيّ وهو ملك هَجَر(٣) وكان يَجبِي مَن بها من العرب فقال له: هل لك في قوم عادِين قد ملؤوا الأرض نَعَمًا(٤) وشاءً، فأرسل معي أبْنَيك فما أصبنا من مالٍ وسَبْيٍ فَلهما، وما أصبنا من دَم فلي، فأجابه الجَوْن إلى ذلك وجعل له موعدًا رأسَ الحَوْل، ثم أتى لَقِيطٌ النعمانَ بنَ المُنْذِر فأستنجده وأطمعه في الغنائم، وكان لَقيطٌ وجيهًا عند الملوك، فلمّا كان على قَرْن(٥) الحَوْل من يوم رَحْرَحان أقبلتْ الجيوش إلى لَقيط، وأقبل سِنَان بن أبي حارثة المُرّيّ في غَطَفان وجاءت بنو أسَد، وأرسل الجَوْنُ أبْنيه معاويةَ وعَمْرًا، وأرسل النعمانُ أخاه لأمّه حسّانَ بن وَبْرة الكَلْبيّ. فلمّا توافَوْا خرجوا إلى بني عامر وقد أنذروا بهم وتأهّبوا لهم، فقال الأحوصُ بنُ جعفر، وهو يومئذ رَحَى(٦) هَوَازِن لقيس بن زُهَير: ما ترى؟ فإنك تزعُم أنه لم يُعرَض لك أمران إلاّ وجدتَ في أحدهما المَخْرَج! فقال قيس بن زُهَير: الرأي أن نَرْحَل بالعِيال والأموال حتى تدخُل شِعْبَ جَبَلة فتقاتل القوم دونها من وجه واحد، فإنهم داخلون عليك الشِّعْب، وإنّ لَقِيطًا رجلٌ فيه طَيْش فسيقتحم عليك الجبل. فأرَى أن تأمر بالإبل فلا ترعَى ولا تُسْقَى وتُعْقَل(٧)، ثم تجعل الذراري وراءَ ظهورنا وتأمر بالرجّالة فتأخذ بأذناب الإبل، فإذا دخلوا علينا الشِّعب حلّت الرجّالةُ عُقُلَ الإبل ثم لَزِمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتَحِنّ إلى مراعِيها ووِرْدِها، ولا يرُدّ وجوهها شيء، ويخرج الفُرْسان في أثر الرجّالة الذين خَلْف الإبل فإنها تُحَطِّم ما

---

(١) جبلة: هضبة حمراء بنجد بين الشريف والشرف.
(٢) استعداه: استعانه واستنصره.
(٣) هجر: مدينة بالبحرين.
(٤) النعم: الإبل خاصة.
(٥) قرن الحول: أوله.
(٦) رحى هوازن: سيدها، ورحى القوم: سيدهم.
(٧) عقل البعير: ضمّ رسغ يده إلى عضده وربطهما معًا بالعقال ليبقى باركًا.

لَقِيَتْ وتُقبِل عليهم الخيل وقد حُطِّموا من عَلٍ. فقال الأحوص: نِعْمَ ما رأيتَ وأخذ برأيه، وكان مع بني عامرٍ يومئذٍ بنو عَبْس، وغَنِيٌّ في بني كلاب، وباهلةٌ في بني صَعْب، والأبناء أبناء صَعْصَعة. وكان رَهْط المُعَقِّر البارقيّ يومئذ في بني نُمَير بن عامر، وكانت قبائل بَجِيلة كلّها فيهم غير قيس.

قال أبو عُبَيدة[1]: وأقبل لَقِيطٌ والملوكُ ومَن معهم فوجدوا بني عامرٍ قد دخلوا شِعْبَ جَبَلَة فنزلوا على فَمِه، فقال لهم رجلٌ من بني أَسَد: خذوا عليهم فَمَ الشِّعْب حتى يَعْطَشُوا ويجوعوا، فأتَوْا حتى دخلوا عليهم الشِّعْب، وكانوا قد عَقَلوا الإبل وعطَّشوها ثلاثة أخماس، وذلك ٱثنتا عشرة ليلة لم تُطعَم شيئًا، فلمّا دنَوْا حلّوا عُقُلَها فأقبلتْ تَهوِي[2]، فظنّ القوم عند ذلك أنّ الشِّعْب قد هُدَّ عليهم، والرجّالة في آثارها آخذين بأذنابها فدقَّت كلّ ما لَقيت، فٱنهزموا لا يَلْوُون على أحد، وقُتِلَ لَقِيطٌ وأُسِر حاجِبُ بنُ زُرَارة، أسره ذُو الرُّقَيْبة، وأُسِر سِنَان بن أبي حارثة المُرِّيّ أسره عُرْوة الرحَّال، فحزّ ناصيته وأطلقه، وأُسر عمرو بنُ أبي عمرو بن عُدُس، أسره قيس بن المُنْتَفق، فجزّ ناصيَتَه وخلاّه طمعًا في المكافأة فلم يفعل، وقُتِل معاويةُ بنُ الجَوْن ومُنقذُ بن طُرَيف الأَسَديّ، ومالك بن رِبْعِيّ بن جَنْدَل بن نَهْشَل، فقال جرير في ذلك: [من الطويل]

كأنّكَ لم تَشْهَد لَقيطًا وحاجبًا ... وعمروَ بنَ عمرٍو إذ دَعَوْا يالَ دَارِمِ
ويَوْمَ الصفا كنتم عَبِيدًا لعامرٍ ... وبالحَزْن أصبحتم عَبِيدَ اللهازمِ

يعني بالحَزْن يوم الوَقيط. وقال أيضًا في بني دارم: [من الوافر]

ويَوْمَ الشِّعْب قد تَرَكوا لَقيطًا ... كأنَّ عليه خَمْلَةَ أُرْجُوَان[3]
وكُبِّل حاجِبٌ بِشَمَامِ حَوْلاً ... فحَكَّمَ ذا الرُّقَيْبَة وَهْوَ عَانِي[4]

وقالت دَخْتَنوس أختُ لَقيطٍ ترثي لَقيطًا: [من مجزوء الكامل]

فَرَّتْ بنو أَسَدٍ فرا ... رَ الطَّيْرِ عن أربابها[5]

---

(١) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى، التيميّ بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة، قيل عنه: «كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها». . كانت وفاته سنة ٢٠٩ هجرية. (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٢) تهوي: تسير سيرًا شديدًا.

(٣) الخملة: القطيفة، وهي كساء له أهداب.

(٤) العاني: الأسير.

(٥) الربّ: الغيم، أو المالك، أو السيد.

عن خَيْرِ خِنْدفَ كلِّها ... من كَهْلِها وشبابِها
وأتَمِّها حَسَبًا إذا ... ضُمَّتْ إلى أحسابِها

يوم الخُرَيْبة
وفيه قُتِل الحارث بن ظالم

قال أبو عبيدة: لما قَتَل الحارثُ بنُ ظالم خالدَ بنَ جعفر الكلاَبيّ أتَى صديقًا له من كِنْدَةَ. فالْتفّ عليه وطلبَه الملك فخفيَ ذكرَه، ثم شخص من عند الكِنْديّ وأضمرَتْه[1] البلادُ حتى ٱستجار بزياد أحد بني عِجْل بن لُجَيم، فقام بنو ذُهْل بن ثعلبةَ وبنو عمرو بن شَيْبان فقالوا لعجل: أخرجوا هذا الرجلَ من بين أظهركم فإنه لا طاقةَ لنا بالشَّهْباء ودَوْسَر، وهما كَتِيبتان للأَسْود بن المنذر، فأبتْ عِجْلٌ ذلك عليهم، فلمّا رأى الحارثُ بنُ ظالم ذلك كَرِهَ أن تقع الفتنةُ بينهما بسببه، فارتحل من بني عِجْل إلى جَبَلَيْ طيِّىء فأجاروه، فقال في ذلك: [من الطويل]

لَعَمْرِي لقد حَلَّتْ بِيَ اليومَ ناقتِي ... إلى ناصرٍ من طَيِّىءٍ غَيْرِ خاذلِ
فأصبحتُ جارًا للمَجَرَّةِ فيهمُ ... على باذخٍ يَعْلُو يَدَ المُتَطاوِلِ[2]
إذا أَجَأُ لَفَّتْ عليَّ شِعَابَها ... وسَلْمَى فأنّى أنتم مِنْ تَنَاوُلِي[3]

فمكث عندهم حينًا. ثم إن الأسود بن المنذر لمّا أعجزه أمرُه أرسل إلى جاراتٍ كُنَّ للحارث بن ظالم استاقهنّ وأموالَهنّ، فبلغ ذلك الحارث، فخرج من الجبلين فٱندسّ في الناس حتّى عَلِمَ مكانَ جاراته ومَرْعَى إبِلِهنّ فأتاهنّ وٱستنقذهنّ وٱستاق إبِلَهُنّ فألحقهنّ بقومهنّ. وٱندسّ في بلاد غَطَفَان حتّى أتى سِنَان بن أبي حارثة المُرّيّ وهو أبو هَرم بن سِنَان ممدوح زُهَير. وكان الأسود بن المنذر قد استرضع ٱبنَه شُرَحْبيلَ عند سَلْمَى ٱمرأة سِنَان، وهي من بني غَنْم بن دُودان بن أَسَد، فكانت لا تأمن على ٱبن الملك أحدًا، فاستعار الحارث بن ظالم سَرْجَ سِنَان، وهو في ناحية الشَّرَبَّة، فأتى به سَلْمَى ٱمرأة سِنَان وقال لها: يقول لك بَعْلُك: ابعثي ٱبنَك مع الحارث فإني أريد أن أستأمِنَ له الملك، وهذا سَرْجُه لك آيةٌ. قال: فزيّنته ودفعته إليه، فأتى به ناحية من الشَّرَبَّة فقتله وهرب من فوره، وهرب سِنَان بن أبي حارثة. فلمّا بلغ الأسودَ قَتْلُ ٱبنه شُرَحْبِل غزا بني ذُبْيان فقَتَل وسَبَى، وأخذ الأموال، وأغار

---

(١) يقال: أضمرت الأرض الرجل: إذا غيبته بسفر أو بموت.

(٢) الباذخ: العالي.

(٣) أجأ وسلمى: جبلان لطيّىء وقد ذكرهما المؤلف.

على بني دُودان رهط سَلْمَى، فقتلهم وسباهم، ثم وجد بعد ذلك نعلَيْ شُرَحْبِيل في جانب الشَّرَبّة عند بني مُحَارِب بن خَصَفة، فغزاهم وأسرهم وأحمى لهم الصَّفا[١] وقال: إني أحذيكم نِعَالاً، فأمشاهم عليها، فسقطت أقدامهم. ثم إن سَيَّار بن عمرو بن جابر الفَزَارِيّ احتمل للأسود دِيَةَ ٱبنه ألف بعير ورهَنَه بها قوسه، فوفاه بها وقال في ذلك: [من الطويل]

ونحن رَهَنَّا القَوْسَ ثُمَّتْ فُودِيتَ   بألْفٍ على ظَهْرِ الفَزَارِيِّ أَقْرَعَا[٢]
بعَشْرِ مِئِينٍ للملوكِ وَفَى بها   لِيُحْمَدَ سَيَّارُ بنُ عمرٍو فأسْرَعَا

قال: ثم هرب الحارث فلحق بمعبد بن زُرَارة فٱستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة رَحرَحان التي تقدّم ذكرها. ثم هرب حتى لحق بمكة وقريش لأنه يقال: إنّ مُرّة بن عَوْف بن سعد بن ذُبْيان إنما هو مُرّة بن عوف بن لؤيّ بن غالب، فتوسّل إليهم بهذه القرابة وقال في ذلك: [من الوافر]

إذا فارَقْتُ ثعلبةَ بنَ سَعْدٍ   وإخْوَتَهُمْ نُسِبْتُ إلى لُؤَيّ
إلى نَسَبٍ كريم غيرِ وَغْلٍ   وحَيٌّ من أكارِمِ كلِّ حَيّ[٣]
فإنْ يَكُ منهم أصلي فمنهم   قوانينُ الإلٰهِ بنو قُصَيّ

فقالوا له: هذا نَسَب رَحِم كرِشَاء[٤] إذا ٱستغنيتم عنها أدبرتم. قال: فشَخَص الحارث عنهم غَضْبانَ وقال في ذلك: [من الطويل]

ألاَ لستُم منّا ولا نحنُ منكُمُ   برئنا إليكم من لُؤَيّ بنِ غالِبِ
غَدَوْنا على نَشْرِ الحجاز وأنتمُ   بمُنْشَعَبِ البَطْحاء بين الأخاشِبِ[٥]

وتوجّه إلى الشام فلَحِقَ بيزيد بن عمرو الغسّانيّ فأجاره وأكرمه. وكانت ليزيد ناقةٌ مُحْماة، في عُنُقها مُدْيَةٌ وزِنَاد وصُرَّة مِلْح، يمتَحِن بها رعيّتَه لينظر مَن يجترىء عليه، فوَحِمتْ ٱمرأةُ الحارث فٱشتهت شَحْمًا فٱنطلق إلى الناقة فٱنتحرها وأتاها بشَحْمها وفُقِدَتْ الناقة فأرسل إلى الخِمْس التغْلِبيّ، وكان كاهنًا، فسأله عنها، فأخبره

(١) الصفاة: الحجر العريض الأملس. جمع صفا.
(٢) الأقرع: الصلب الجيد في المقارعة؛ أو الشديد الصلب.
(٣) الوغل: دعيّ النسب.
(٤) الكرشاء: التي عظم بطنها؛ أو التي كثر عيالها.
(٥) انشعب الطريق: تفرّق. البطحاء: تقدم تفسيرها. الأخاشب: جبال بمكة.

أنّ الحارث صاحبها، فهمَّ به الملك ثم تَذَمَّم[١] من ذلك، فأوجسَ الحارثُ في نفسه شرًّا فأتى الخِمْس التغلبيّ فقتله، فلمّا فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله، فقال: إنك قد أجرتَني فلا تَغْدُرْني، قال الملك: لا ضَيْرَ إن غَدَرْتُ بك مرّةً فقد غَدَرْتُ بي مِرارًا، وأمرَ ٱبنَ الخِمس فقتله به، وأخذ ٱبنُ الخِمْس سيفَ الحارثِ، فأتَى به سُوقَ عُكَاظَ في الأشهُر الحُرُم، فأراه قيسَ بنَ زهير العبسيّ فضربه به قيسٌ فقتله.

ذكر حَرْبِ داحِسٍ والغَبْراء وهي من حروب قيس

قال أبو عُبَيدة: حربُ داحسٍ والغَبرَاء بين عَبْسٍ وذُبْيان ٱبنَيْ بَغِيض بن رَيْث بن غَطَفان. وكان السبب الذي هاجها أنّ قيسَ بنَ زُهَير وحَمَلَ بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيّهما يكون له السَّبْق. وكان داحسٌ فَحْلاً لقيس بن زهير. والغَبْراء حِجر[٢] لحَمَل بن بدر، فتواضعا الرِّهان على مائة بعير، وجعلا مُنْتهى الغاية مائة غَلْوة[٣]، والمضمار أربعين ليلةً، ثم قاداهما إلى رأس المَيْدان بعد أن ضَمَراهما أربعين ليلةً. وكان في طَرَف الغاية شِعَاب كثيرةٌ، فأكمن حَمَلُ بنُ بدر في تلك الشِّعاب فِتْيانًا على طريق الفَرَسَيْن وأمرهم إن جاء داحسٌ سابقًا أن يردّوه عن الغاية، ثم أرسلوهما، فلما أُحضِرا خرجتِ الأنثى عن الفحل فقال حَمَل بن بدر: سبقتُك يا قيس، فقال قيس: رُوَيْدًا يَعْدُوَانِ الجَدَدَ[٤] إلى الوَعْث[٥] وترشَح أعطاف[٦] الفَحْل، فلمّا أوْغَلا عن الجَدَد وخرجا إلى الوَعْث بَرَزَ داحِسٌ عن الغبراء فقال قيس: «جَرْيُ المَذَكِّياتِ[٧] غِلاَب»[٨] فذهبتْ مثلاً. فلمّا شارف داحِسٌ الغايةَ ودنا من الفِتْية وثبوا في وجه داحِسٍ فردّوه عن الغاية، ففي ذلك يقول قيسُ بنُ زُهَير: [من الوافر]

وما لاقَيْتُ من حَمَلِ بنِ بَدْرٍ ... وإخْوتِهِ على ذاتِ الإصَادِ[٩]
هُمو فَخَرُوا عليّ بغير فَخْرٍ ... وردّوا دُون غايتِهِ جَوَادِي

(١) تذمم: استنكف.
(٢) الحجر: الفرس الأنثى. وأحجار الخيل: ما يتخذ منها للنسل لا يفرد لها واحد.
(٣) الغلوة: مقدار رمية سهم. (٤) الجدد: الأرض المستوية.
(٥) الوعث: الطريق الخشن الغليظ العسير.
(٦) الأعطاف: جمع العطف، وهو من كل شيء جانبه.
(٧) المذكيات: واحدتها المذكية، وهي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.
(٨) الغلاب: جمع الغالبة، التي تغلب لقوتها.
(٩) ذات الإصاد: موضع ببلاد بني فزارة.

وثارت الحرب بين عبس وذُبيان ٱبنَيْ بغيض، فركدت أربعين سنة لم تُنْتَج ناقةٌ ولا فرسٌ فيها لٱستغالهم بالحرب. فبعث حُذَيفةُ بنُ بدر ابنَه مالكًا إلى قيس بن زهير يطلب منه حقّ السَّبْق، فقال قيس: كلاّ لا مطلتك[١] به، ثم أخذ الرمح فطعنه فدقّ صُلْبه، ورجعت فرسُه غائرة، وٱجتمع الناس فحملوا دِيّة مالك مائة ناقة عُشَراء[٢] وزعموا أنّ الرَّبيع بن زِيَاد العبسيّ حملها وحدَه فقبضها حُذَيفة وسَكَن الناس.

ثم إن مالك بن زهير نزل اللقاطة من أرض الشَربّة[٣] فأُخبِرَ حُذَيفةُ بمكانه، فعدا عليه فقتله، ففي ذلك يقول عنترة: [من الطويل]

فـلـلّـهِ عَـيْـنَـا مَـنْ رأى مـثـلَ مـالـكٍ ... عَـقِـيـرةَ قـومٍ أن جَـرَى فَـرَسـانِ[٤]

فـلـيـتـهـمـا لـم يَـجْـرِيَـا قِـيـدَ غَـلْـوَةٍ ... ولـيـتـهـمـا لـم يُـرْسَـلاَ لِـرِهَـانِ

فقالت بنو عبس: مالك بن زُهَير بمالك بن حُذَيفة ورُدّوا علينا مالنا، فأبى حُذَيفةُ أن يردّ شيئًا، وكان الربيع بن زياد مجاورًا لبني فَزارة.

قال: فلمّا قُتِل مالك بن زهير جعل بنو فَزارة يتساءلون ويقولون: ما فعل حِمارُكم؟ قالوا: صِدْناه، فقال لهم الربيع: ما هذا الوحي؟ قالوا: قتلنا مالك بن زُهَير، قال: بئس ما فعلتم بقومكم! قَبِلتم الدِّية ورَضِيتم بها ثم غدرتم! فقالوا: لولا أنك جارُنا لقتلناك، وكانت خَفَرة الجار ثلاثًا، فقالوا له: بعدَ ثلاث ليال أُخرج عنّا، فخرج وٱتّبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه، وأتاه قيس بن زهير فعاقده. ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان إلى بني فَزَارة وذُبْيان ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بني فزارة حذيفة بن بدر.

يوم المُرَيْقِب[٥]
لبني عَبْس على بني ذُبْيان

فٱلتقَوْا بذي المُرَيْقِب من أرض الشَّرَبَّة فٱقتتلوا، فكانت الشوكة في بني فَزَارة قُتل منهم عوفُ بن بدر بن عمرو بن أبي الحصين، أحد بنيّ عديّ بن فزارة وجماعةٌ كثيرة. وفي هذه الوقعة يقول عَنْترة الفوارس: [من الكامل]

ولـقـد عَـلِـمْـتَ إذ ٱلـتـقـتْ فُـرسـانُـهـا ... يـومَ الـمُـرَيْـقِـبِ أنّ ظـنَّـك أحـمـقُ

---

(١) مطل فلانًا حقه: أجل موعد الوفاء به مرة بعد مرة.
(٢) العشراء: التي أتى على حملها عشرة أشهر من ملقحها.
(٣) الشربة: موضع بين السليلة والربذة. (٤) العقيرة: ما عقر من صيد أو غيره.
(٥) المريقب: موضع من الشربة.

يوم ذي حُسَى
لذُبيان على عَبْس

ثم إن ذُبيان تجمّعت لِمَا أصابتْ بنو عبس منهم يوم المُرَيْقِب فَزارة بن ذُبيان ومرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافهم، فنزلوا فتوافَوْا بذي حُسَى، وهو وادي الصفا من أرض الشَّرَبَّة، فهُزِمت بنو عبس وخافت ألاّ تقوم بجماعة بني ذبيان واتّبعوهم حتى لحقوهم، فقالوا: التفاني أو تُقِيدونا[(١)]، فأشار قيسُ بنُ زهير على الربيع بن زياد ألاّ يناجزهم، وأن يُعطوهم رهائنَ من أبنائهم حتى ينظروا في أمرهم، فتراضَوْا أن يكون رهنهم عند سُبَيع بن عمرو أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذُبْيان، فدفعوا إليه ثمانية من الصِّبْيان، فانصرفوا وتكافأ الناس، فمكث رهنهم عند سُبَيع حتى حضرته الوفاة، فقال لابنه مالِكِ بنِ سُبَيع: إنّ عندك مكْرُمةً لا تَبِيد[(٢)] إن أنت احتفظتَ بهؤلاء الأغَيْلمة، وكأني بك لو مُتَّ قد أتاك خالُك حُذَيفة بن بدر فعصر لك عينيه وقال: هلك سيّدُنا ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تَشْرُفُ بعدها أبدًا، فإن خِفْتَ ذلك فاذهب بهم إلى قومهم. فلما هلك سُبَيع أطاف حُذَيفة بابنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه، فأتى بهم اليَعْمَرِيَّة[(٣)]، فجعل يُبْرِز كلّ يوم غلامًا فينصبه غَرَضًا ويقول له: نادِ أباك، فينادي أباه حتى يقتله.

يوم اليَعْمَرِيَّة
لعبس على ذبيان

قال: فلما بلغ ذلك من فعله بني عبس أتوهم باليَعْمَرِيَّة فلقوهم بحَرّتها[(٤)] فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً، منهم مالكُ بن سبيع الذي نبذ[(٥)] بالغلمة إلى حذيفة، وأخوه يزيد بن سبيع، وعامر بن لوذان، والحارث بن زيد، وهرم بن ضمضم أخو حُصَين. ويقال ليوم اليعمريّة: يوم ذي نفر لأنهما متجاوران.

---

(١) يقال: قاد القاتل بالقتيل: إذا قتله به قودًا.
(٢) لا تبيد: لا تذهب ولا تنقطع.
(٣) اليعمرية: ماء بواد من بطن نخل من الشربة لبني ثعلبة.
(٤) الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت.
(٥) نُبذ: أي طُرد وعزل.

يوم الهَباءة
لعبس على ذبيان

قال: ثم ٱجتمعوا فٱلتَقَوْا في يوم قائظ إلى جنب جَفر الهباءة[١] وٱقتتلوا من أوّل النهار إلى أن ٱنتصف، وحجز الحرُّ بينهم، وكان حُذَيفة بن بدر يحرق فخذيه الركضُ، فقال قيس بن زهير: يا بني عبس، إن حُذَيفة غدًا إذا ٱحتدمت الوديقة[٢] مُستنقِعٌ في جَفْر الهباءة فعلكيم بها، فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارِف: فرس حذيفة، والحيفاء: فرس حَمَل بن بدر، فقفَوْا أثرهما حتى توافَوْا مع الظهيرة على الهباءة، فبصُر بهم حَمَلُ بن بدر فقال: هذا قيسُ بنُ زهير قد أتاكم، فوقف قيس وأصحابُه على جَفْر الهباءة وهو يقول: لَبّيكم لَبّيكم! يعني إجابةَ الصِّبْيَةِ الذين كانوا ينادونهم إذ يُقْتَلُون! وفي الجَفْر حُذَيْفةُ وحَمل وبدر ومالك بنو بدر، وورقاء بن بِلال من بني ثعلبة بن سعد. وحنشُ بنُ عمرو، فوقف عليهم شدّاد بن معاوية العبسيّ، فحالَ بينهم وبين خيلهم، ثم توافَتْ فُرسانُ بني عَبْس فقال حَمَل: ناشدتُك بالرحِم يا قيسُ، فقال: لَبّيكم لَبّيكم! فعرف حذيفةُ أنه لن يدعَهم فٱنتهرَ حَمَلاً فقال: إيّاك والمأثورَ من الكلام، فذهبتْ مثلاً، وقال لقيس: لئن قتلتني لا تصلُح غَطَفان بعدها أبدًا! فقال: أبعدَها الله ولا أصلحها، وجاءه قرواشٌ بِمِغْبلةٍ[٣] فقصَم[٤] صُلْبه، وقتل الربيعُ بنُ زياد حَمَلَ بن بدر، فقال قيس بن زهير يرثيه: [من الوافر]

تَعَلَّمْ أنّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ ... على جَفْرِ الهَباءةِ ما يَرِيمُ[٥]
ولولا ظُلْمُه ما زِلْتُ أبكِي ... عليه الدهرَ ما بَدَتِ النجومُ
ولكنّ الفتى حَمَلَ بنَ بَدْرٍ ... بَغَى والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ[٦]
أظُنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومِيَّ ... وقد يُسْتَجْهَلُ الرَّجلُ الحَلِيمُ
ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسُونِي ... فمُعْوَجٌّ وآخَرُ مُستقِيمُ

ومثّلوا بحذيفة بن بدر كما مثّل بالغِلْمة، فقطعوا مذاكيره وجعلوها في فِيهِ وجعلوا لسانه في ٱسته، ففي ذلك يقول قائلهم: [من الطويل]

فإنّ قتيلاً بالهباءة في ٱستِهِ ... صَحِيفَتُهُ إنْ عاد للظُّلْم ظالمُ
متى تقرؤوها تَهْدِكم من ضَلالكم ... وتُعْرَف إذا ما فُضَّ عنها الخواتمُ

(١) الهباءة: أرض ببلاد غطفان؛ وجفر الهباءة: مستنقع في هذه الأرض.
(٢) الوديقة: شدة الحرّ.
(٣) المعبلة: نصل عريض طويل.
(٤) قصم: قطع.
(٥) ما يريم: أي ما يبرح.
(٦) الوخيم: المضرّ.

وقال عمرو بن الأسلع: [من البسيط]

إنّ السماءَ وإنّ الأرض شاهِدةٌ والله يَشهَدُ والإنسانُ والبَلَدُ
أني جَزَيْتُ بني بدرٍ ببَغْيِهمُ على الهباءة قتلاً ما له قَوَدُ
لمّا ٱلتَقَيْنا على أرجاء جَمَّتِها والمَشْرَفيَّةِ في أيمانِنا تَقِدُ
عَلَوْتُهُ بحُسَامٍ ثم قلتُ له: خُذْها حُذَيْفُ فأنت السيِّد الصَّمَدُ

فلمّا أصيب أهلُ الهباءة وٱستعظمت غَطَفانُ قَتْلَ حُذَيفةَ، تجمَّعوا، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مُقَام بأرض غطفان، فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا بأخوالهم من بني حنيفة، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببني سعد بن زَيْد مَنَاة.

يوم الفَرُوق
لبني عبس

ثم إنّ بني عبس غدروا بجوارهم فأتَوْا معاويةَ بنَ الجَوْن فٱستجاسوا عليهم وأرادوا أكلهم، فبلغ ذلك بني عبس ففرّوا ليلاً، وقدّموا ظُعُنَهم، ووقفت فُرْسانهم بموضع يقال له الفَرُوق، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلّتهم فلم يجدوا إلاّ مواقد النيران فٱتبعوهم حتى أتوا الفَرُوق، فإذا بالخيل والفُرْسان وقد توارت الظُّعُن عنهم، فانصرفوا عنهم؛ ومضى بنو عبس فنزلوا ببني ضَبَّة فأقاموا فيهم. وكان بنو حذيفة من بني عبس يسمَّون بني رواحة، وبنو بدر من فَزَارة يسمَّون بني سودة، ثم رجعوا إلى قومهم وصالحوهم، فكان أوّل مَنْ سَعَى في الحمالة[١] حَرْملة بن الأشعر بن صرمة بن مرّة، فمات، فسعى فيها ابنُه هاشمُ بن حرملة، وإليه أشار الشاعر: [من الرجز]

أحْيَا أباه هاشمُ بنُ حرملَهْ يومَ الهبائين ويومَ اليَعْمَلَهْ
ترى الملوكَ حَوْلَهُ مُرَغْبَلَهْ يَقْتُلُ ذا الذنبِ ومَن لا ذنب له![٢]

يوم قَطَن[٣]

فلمّا توافَوْا للصلح وقَفَتْ بنو عبس بقَطَن وأقبل حُصَينُ بنُ ضَمْضَم فلقي تيحان أحد بني مخزوم بن مالك فقتله بأبيه ضمضم. وكان عنترة بن شدّاد العبسيّ قتله بذي المُرَيْقب، فأشارت بنو عبس وحُلفاؤهم بنو عبد الله بن غَطَفان وقالوا: لا نصالحكم

---

(١) الحمالة: يراد بها ما يحمل من الدية ونحوها.
(٢) المرعبلة: المضطربة، أو الممزقة. (٣) قطن: جبل لبني أسد.

ما بلّ البحر صُوفةً وقد غدرتم بنا غير مرّة، وتناهض الناس: عبسٌ وذبيان، فالتقَوْا بقَطَن، فقَتَل يومئذ عمرُو بنُ الأسلع عُتبةَ، ثم سفرت[(١)] السفراء، بينهم، وأتى خارجةُ بنُ سنان أبا تيحان بابنه فدفعه إليه وقال: في هذا وفاءٌ من ٱبنك! فأخذه فكان عنده أيامًا، ثم حمل خارجةُ لأبي تيحان مائةَ بعير فأدّاها إليه وٱصطلحوا وتعاقدوا.

يومُ غَدِير قَلَهَى

قال أبو عبيدة: فاصطلح الحيّان إلاّ بني ثعلبة بن سعد بن ذُبيان، فإنهم أبَوْا ذلك وقالوا: لا نرضى حتى يَدوُا قتلانا أو يُهدَرَ دمُ مَن قتلها، فخرجوا من قَطَن حتى وَرَدُوا غَدِير قَلْبي، فسبقتهم بنو عبس إلى الماء فمنعوهم حتى كادوا يموتون عَطَشًا، فأصلح بينهم عَوْفٌ ومَعقِل ٱبنا سُبَيع من بني ثعلبة وإياهما يعني زُهير بقوله: [من الطويل]

تَـدَارَكْـتُـمَـا عَـبْـسًـا وذُبْـيَـانَ بَـعْـدَمَـا تَفَانَوْا وَدَقُّوا بينهـم عِطْرَ مَنْشِمِ[(٢)]

فوردوا حربًا وخرجوا عنه سلمًا. تمّ خبر داحسٍ والغبراء.

يومُ الرقَم[(٣)]

لغَطَفان على بني عامر

غزتْ بنو عامر فأغاروا على بلاد غَطَفان بالرَّقم - وهو ماء لبني مُرّة - وعلى بني عامر: عامرُ بنُ الطُّفَيل - ويقال يزيد بن الصَّعِق - فركب عُتبة بن حُصَين في بني فَزَارة، ويزيد بن سِنَان في بني مرّة - ويقال الحارث بن عَوْف - فانهزمت بنو عامر، فزعمتْ غَطَفان أنهم أصابوا من بني عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلاً، فدفعوهم إلى أهل بيت من أَشْجَع، كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم، فقتلوهم أجمعين.

وٱنهزم الحكَم بن الطُّفَيل في نَفَرٍ من أصحابه، فيهم خوّات بن كعب حتى ٱنتهَوْا إلى ماء يقال له: المرورات، فقطع العطش أعناقهم فماتوا، وخَنَق الحكَم بن الطفيل نفسَه مخافةَ المُثْلة، فقال في ذلك عُرْوَة بن الوَرْد:

عَـجِبتُ لـهـم إذ يَـخْـنُـقُـون نُـفـوسَـهـم وَمَقْتَلُهُمْ تحتَ الوَغَى كان أعْذَرَا[(٤)]

---

(١) السفير: المصلح؛ وسفرت بينهم: أصلحت.

(٢) منشم: امرأة من خزاعة كانت تبيع عطرًا، فإذ حاربوا اشتروا منها كافورًا لموتاهم، فتشاءموا بها، وكانت تسكن مكة.

(٣) الرقم: موضع بالحجاز قريب من وادي القرى.

(٤) أي كان أعذر لهم من خنقهم أنفسهم.

يوم النُّتاءة[١]
لعبس على بني عامر

يقال: خرجت بنو عامر تريد أن تُدرِك بثأرها يومَ الرَّقَم، فهجموا على عبس بالنُّتاءة وقد أُنذِروا بهم، فالتقَوْا، وكان على بني عامر: عامرُ بنُ الطُّفَيل، وعلى بني عبس: الربيع بن زِياد، فاْقتتلوا قتالاً شديدًا، فاْنهزمتْ بنو عامر، وقُتِل منهم هزار بن مُرّة، قتله الأحنف بن مالك، ونهشل بن عُبَيدة بن جعفر، قتله أبو زغبة بن حارث وعبد الله بن أنس بن خالد، وهُزِمت بنو عامر هزيمة قبيحة.

يومُ شُوَاحِط[٢]
لبني مُحارب على بني عامر

غَزَتْ سَرِيَّةٌ من بني عامر بن صَعْصَعَة بلادَ غسّان، فأغاروا على إبل لبني مُحَارب بن خَصَفَة، فأدركهم الطلبُ، فقتلوا من كلاب تسعة نفر واْرتدّوا إبلَهم فلما رجعوا وثَبَتْ بنو كلاب على جَسْرٍ ـ وهم من بني مُحَارِب، وكانوا حاربوا إخوتهم، فخرجوا من عندهم فحالفوا بني عامر بن صَعْصَعَة ـ فقالوا: نَقْتُلُهم بقَتْل بني مُحَارِب مَنْ قَتَلُوا مِنّا، فقام خِدَاشُ بنُ زُهَير دُونهم حتى منعهم من ذلك وقال: [من الطويل]

أيَا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ ... عقيلاً وأبلِغْ إنْ لَقِيتَ أبا بَكْرِ
فيا أخَوَيْنَا مِنْ أبِينَا وأُمِّنا ... إليكم إليكم لا سبيلَ إلى جَسْرِ
دَعُوا جانِبي إنّي سأترك جانبًا ... لكم واسعًا بين اليمامة والقَهر[٣]
أنا فارسُ الضحياءِ عمرُو بنُ عامرٍ ... أبَى الذمَّ واْختار الوفاء على الغَدْرِ[٤]

يوم حَوْزَة[٥] الأوّل
لسُلَيم على غَطَفان

قال أبو عُبَيدة: كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حَرْمَلة أحد بني مُرّة: ـ مُرّة غطفان ـ كلام بعكاظ، فقال معاوية: والله لَوَدِدْتُ أني قد سمعتُ

(١) النتاءة: نخيلات لبني عطارد.
(٢) شواحط: جبل بين مكة والمدينة.
(٣) القهر: موضع باليمامة.
(٤) أبى الذم: كرهه ولم يرضه.
(٥) حوزة: واد بالحجاز.

بظعائن[١] يَنْدُبْنَكَ، فقال هاشم: والله لَوَدِدْتُ أني قد ترَبْتُ الرطبة ـ وهي جُمّة[٢] معاوية، وكانت الدهرَ تنطف ماءً ودُهْنًا وإن لم تُدهَن ـ فلمّا كان بعد حينٍ تهيّأ معاوية ليغزو هاشمًا، فنهاه أخوه صخر، فأبى وغزاهم يومَ حَوْزة، فرآه هاشم بن حَرْملةَ قبل أن يراه معاوية، وكان هاشم ناقهًا من مرضٍ أصابه، فقال لأخيه دُرَيد بن حَرْملة: إنّ هذا إن رآني لم آمَنْ أن يشُدّ عليّ، وأنا حديثُ عهد بشكيّة[٣]، فاستطرِدْ له دوني حتى تجعلَه بيني وبينك، ففعل، فحمل عليه معاويةُ وأَرْدَفه هاشم، فاختلفا طعنتين فأردى معاويةُ هاشمًا عن فرسه الشمّاء، وأنفذ هاشم سنانَه عانة معاوية، وكرّ عليه دُرَيد وظنّه قد أرْدَى هاشمًا، فضرب معاوية بالسيف فقتله، وشدّ خُفاف بن عمرو على مالك بن حِمَار الفَزَاريّ فقتله.

قال: وغارت الشمّاء فرس هاشم حتى دخلت في جيش بني سُليم فأخذوها وظنوا أنها فرس الفزاريّ الذي قتله خُفاف، ورجع الجيش، فلما دنَوْا من صخر أخي معاوية قال لهم: ما صنع معاوية؟ قالوا قتل! قال: فما هذه الفرس؟ قالوا: قتلنا صاحبها! قال: إذًا قد أدركتم ثأركم، هذه فرس هاشم بن حرملة.

قال: فلما دخل رجبٌ ركب صخرُ بنُ عمرو الشمّاء صبيحة يومِ حَرَام، فأتى بني مُرّة، فلمّا رأَوْه قال لهم هاشم: هذا صخر فحيّوه وقولوا له خيرًا، وهاشم مريضٌ من الطعنة التي طعنَه معاويةُ، فقال: مَن قتل أخي؟ فسكتوا، فقال: لمن هذه الفرسُ التي تحتي؟ فسكتوا، فقال هاشم: هلمّ أبا حسّان إلى مَنْ يُخبرك! قال: مَن قتل أخي؟ فقال [هاشم]: إذا أصبتني أو دُريدًا فقد أصبتَ ثأرك! فقال: هل كفّنتموه؟ قال: نعم، في بُرْدين: أحدهما بخمس وعشرين بكرة وأرَوه قبره، فلمّا رأى القبر جزع[٤] عنده ثم قال: كأنكم أنكرتم ما رأيتم من جزعي، فوالله ما بتّ منذ عقلت إلاّ واترًا أو موتورًا[٥]، وطالبًا أو مطلوبًا حتى قُتِل معاوية، فما ذقتُ طعمَ نوم بعده.

يوم حَوْزة الثاني

قال: ثم غزاهم صخر فلما دنا منهم مضى على الشمّاء، وكانت غرّاء مُحجّلَة[٦]، فسوّد غُرّتها وتحجيلها، فلما رأته بنتٌ لهاشم قالت لعمّها دُرَيد: أين

(١) الظعائن: جمع الظعينة، الزوجة.
(٢) الجمة: مجتمع شعر الناصية.
(٣) الشكيّة: ما يشكى منه.
(٤) جزع: لم يصبر على ما نزل به.
(٥) الموتور: الذي قتل حميمه.
(٦) المحجّلة: ما كان البياض منها في موضع الخلاخيل والقيود وفوق ذلك.

الشمّاء؟ قال: هي في بني سُلَيم. قالت: ما أشبهَها بهذه الفرس! فقال: هذه بَهِيم والشمّاءُ غرّاء مُحَجّلة، ثم اَضْطَجَع فلم يشعُر حتى طعنه صَخْر، قال: فثاروا وتنادَرُوا، وولّى صَخْرٌ وطلبتْه غَطَفان عامّةَ يومها، وعارض دُونه أبو شجرة بن عبد العُزّى، وكانت أمّه خنساء أخت صخر، وصخرٌ خاله، فردّ الخيلَ عنه حتى أراح فرسَه ونجا إلى قومه، فقال خُفاف بن نُدْبة لمّا قتل معاوية: قتلني الله إن برحت من مكاني حتى أثأر به! فشدّ على مالك سيّد بني شَمْخ فقتله، وقال صَخْرٌ في قتله دُرَيدًا: [من الكامل]

ولقد دفعتُ إلى دُرَيدٍ طَعْنَةً ... نَجْلاءَ تُزْغِلُ مثل غَطّ المِنْخَرِ(١)
ولقد قتلتكم ثُناءَ ومَوْحِدًا ... وتركتُ مُرّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

قال أبو عبيدة: وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعًا(٢) فلقيه عمرو بن قيس الجُشَميّ، فتبعه وقال: هذا قاتل معاوية، لا وَأَلَتْ نفسي إن وَأَلَ(٣)، فلما دنا منه أرسل عليه معْبَلَةً(٤) فَفَلَقَ قحفه فقتله.

يومُ ذات الأَثْلِ

قال أبو عبيدة: ثم غزا صَخْرُ بنُ عمرو بن الشَّريد بني أسد بن خزيمة فاكتسح إبلَهم، فأتى الصريخُ بني أسد، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأَثْل، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فطعن ربيعة الأسديّ صخرًا في جنبه وفات القومُ بالغنيمة، ومرض صخر من الطَّعْنَة قريبًا من الحَوْل حتى ملّه أهلُه، فسمع اَمرأة من جاراته تسألُ سَلْمى اَمرأتَه: كيف بَعْلُك؟ قالت: لا حَيٌّ فيُرْجَى، ولا مَيّتٌ فيُنْسَى، لقد لَقِينا منه الأمَرَّين! وكانت أمّه إذا سئلت عنه تقول: أرجو له العافية إن شاء الله! فقال في ذلك: [من الطويل]

أرَى أُمَّ صَخْرٍ لا تَمَلُّ عِيَادتي ... ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعي ومكاني(٥)
فأيُّ اَمرئٍ ساوَى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاشَ إلاّ في أذًى وهَوَانِ(٦)
وما كنتُ أخشَى أن أكون جِنَازةً ... عليكِ ومَنْ يَغْتَرُّ بالحَدَثَانِ(٧)

---

(١) تزغل: تخرج الدم قطعًا قطعًا.

(٢) المنتجع: الموضع يقصد لما فيه من كلأ وماء.

(٣) وأل: نجا.

(٤) المعبلة: نصل طويل عريض.

(٥) عيادتي: زيارتي وأنا مريض.

(٦) الهوان: الذلّ.

(٧) الحدثان: الليل والنهار. وحدثان الدهر: نوائبه وحوادثه.

لَعَمْرِي لقد نبَّهتُ مَنْ كان نائمًا ... وأسمعتُ مَن كانت له أذُنانِ
أهُمُّ بأمْرِ الحَزْمِ لو أستطيعه ... وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوانِ[1]

قال: فلمّا طال عليه البلاء ـ وقد نتأتْ قطعةٌ من جنبه مثلَ اليد في موضع الطعنة ـ قالوا له: لو قطعتَها لرجَوْنا أن تبرأ، فقال شأنكم! فقطعوها فمات، فقالت أخته الخنساء ترثيه: [من الطويل]

وقائلَةٍ والنعشُ قد فات خَطْوُها ... لِتُدْرِكَهُ يا لَهْفَ نَفْسي على صَخْرِ!
ألاَ ثَكِلَتْ أمُّ الذين غَدَوْا به ... إلى القبر ماذا يَحمِلُون إلى القبر!

يومُ اللِّوَى[2]
لغَطَفان على هَوَازِن

قال أبو عُبَيدة: غزا عبد الله بن الصِّمَّة ـ وأسمُ الصِّمَّة: معاويةُ الأصغر ـ من بني غزيَّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوَازن ـ وكان لعبد الله ثلاثةُ أسماء وثلاث كُنًى، فأسمُه: عبدُ الله، وخالد، ومعبد، وكنيته أبو فرعان، وأبو دُفافة، وأبو وفاء، وهو أخو دُرَيد بن الصِّمَّة لأبويه ـ فأغار على غَطَفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة فاطَّردها، فقال له أخوه دُرَيد: النجاء فقد ظَفِرْتَ، فأبى عليه وقال: لا أبرحُ حتى أنتقع نقيعتي ـ والنقيعة: ناقةٌ ينحرها من وَسَط الإبل فيصنع منها طعامًا لأصحابه، ويقسم ما أصاب عليهم ـ فأقام وعصى أخاه، فتبعتْه فَزَارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللِّوَى، فقُتل عبد الله، وأرتُثَّ[3] دريد فبقي في القتلى، فلما كان في بعض الليل أتاه فارسان، فقال أحدُهما لصاحبه: إني أرى عينه تبصّ[4]، فأنزل فأنظُر إلى سُبَّتِه[5]، فنزل فكشف ثوبه فإذا هي ترمَزُ[6]، فطعنه، فخرج دمٌ قد أحتقنَ.

قال دريد: فأفقتُ عندها، فلمّا جاوَزُوا نهضتُ، فما شعرتُ إلاّ وأنا بين عرقوبَيْ[7] جَمَل أمرأةٍ من هَوَازن، فقالت: مَن أنتَ؟ أعوذ بالله من شرّك! قلتُ: لا، بل مَنْ أنتِ؟ ويلك! قالت: أمرأةٌ من هَوَازِنَ سيّارةٌ. قلتُ: وأنا من هَوَازِنَ، أنا دُرَيْدُ بن الصِّمَّة. قال: وكانت في قوم منحازين لا يشعرون بالوَقْعة، فضمَّته وعالجتْه حتى أفاق.

---

(١) النزوان: السورة والحدة. (٢) اللوى: واد من أودية بني سليم.
(٣) أرتت: أي حمل من المعركة وهو جريح وبه رمق.
(٤) تبصّ العين: تنظر بتحديق. (٥) السبة: الأست.
(٦) ترمز: تضطرب.
(٧) العرقوب من الدابة: ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها.

يوم الظعينة
بين دُرَيد بن الصِّمَّة وربيعة بن مُكَدَّم

قال أبو حاتم[١] عن أبي عبيدة قال: خرج دُرَيدُ بنُ الصِّمَّة في فوارسَ من بني جُشَمَ حتى إذا كانوا في وادٍ يقال له: الأخْرَم، وهم يريدون الغارة على بني كنانة، إذ رُفع له رجلٌ في ناحية الوادي ومعه ظَعينة[٢]، فلمّا نظر إليه قال لفارس من أصحابه: صَحْ به: خَلِّ الظَّعِينة وٱنْجُ بنفسك، فٱنتهى إليه الفارسُ، فصاح به وألحَّ عليه، فألقَى زِمامَ الراحلة وقال للظعينة: [من الرّجز]

سِيري على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمِنِ   سَيْرَ رَدَاحٍ ذاتِ جَأْشٍ ساكِنِ[٣]
إنّ ٱنْثنائي دُونَ قِرْني شائِنِي   أبلِي بَلائِي وٱخْبُري وَعَابِني[٤]

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه للظَّعِينة، فبعث دُرَيد فارسًا آخر لينظُرَ ما صنع صاحبُه، فلمّا ٱنتهى إليه ورآه صَريعًا صاح به فتصامّ عنه، فظنّ أنه لم يسمع، فغَشِيَهُ، فألقَى زِمام الراحلة إلى الظَّعينة ورجع وهو يقول: [من الرّجز]

خَلِّ سبيلَ الحرّة المَنِيعَهْ   إنّكَ لاقٍ دُونَها رَبِيعَهْ
في كَفِّهِ خَطِّيَّةٌ مُطِيعَهْ   أوْ لاَ فَخُذْها طَعْنَةً سَرِيعَهْ[٥]
* والطَّعْنُ مِنِّي في الوَغَى شَرِيعَهْ *

ثم حمل عليه فصرعه، فلمّا أبطأ على دُرَيد بعث فارسًا ثالثًا لينظُرَ ما صنعا، فلما ٱنتهى إليهما رآهما صَريعَيْن ونظر إليه يقُودُ ظَعينته ويجُرّ رُمْحَه، فقال له: خَلِّ سبيلَ الظَّعينة، فقال للظعينة: اقصِدِي قَصْدَ البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تُرِيدُ من شَتِيم عابِسِ   ألم تَرَ الفارِسَ بعدَ الفارِسِ
* أرْداهما عامِلُ رُمْحٍ يابِسِ *

---

(١) هو أبو حاتم السجستاني واسمه سهل بن محمد. وكان كثير الرواية عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي. عالمًا باللغة والشعر.
(٢) الزوجة: أو المرأة المرتحلة في هودج. (٣) رداح: ثقيل الحمل.
(٤) القرن: المثل في الشجاعة والشدة والعلم والقتال وغير ذلك.
(٥) الخطيّ: الرمح المنسوب إلى الخط، وهو موضع ببلاد البحرين.

ثم حَمَلَ عليه فصرَعه وٱنكسر رمحُه، وٱرتاب دُرَيدٌ وظنّ أنهم قد أخذوا الظَّعِينة وقتلوا الرجل، فلَحِقَ ربيعةَ وقد دنا من الحيّ، فوجد أصحابَه قد قُتلوا، فقال: أيها الفارس، إنّ مثلَك لا يُقتَل، ولا أَرَى معك رُمْحًا والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها، فدُونَك هذا الرُّمْحَ فإنِّي منصرفٌ إلى أصحابي فمُثَبِّطُهم[1] عنك، فٱنصرف دُرَيدٌ وقال لأصحابه: إنّ فارسَ الظَّعِينة قد حماها وقَتَل فُرْسانَكم وٱنتزعَ رُمْحِي، ولا مَطْمَعَ لكم فيه فٱنْصَرِفُوا، فٱنصَرَفَ القوم، فقال دُرَيد: [من الكامل]

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... حامِي الظَّعينةِ فارسًا لم يُقْتَلِ
أرْدَى فَوارسَ لم يَكُونُوا نُهْزَةً ... ثم ٱستَمَرَّ كأنه لم يَفْعَلِ
مُتَهَلِّلاً تَبْدُو أَسِرَّةَ وَجْهِهِ ... مثلَ الحُسام جَلَتْه كَفُّ الصَّيْقَلِ
يُزْجِي ظَعِينَتَه ويَسْحَبُ رُمْحَه ... مُتَوَجِّهًا يُمْنَاهُ نَحْوَ المَنْزِلِ
وتَرَى الفَوَارِسَ من مَخافة رُمْحِهِ ... مِثْلَ البُغاث خَشِينَ وَقْعَ الأَجْدَلِ[2]
يا ليتَ شِعْرِي مَنْ أبوه وأمُّه ... يا صاحِ مَنْ يَكُ مِثْلَه لا يُجْهَلِ

وقال ربيعةُ بنُ مُكَدَّم: [من الكامل]

إن كان يَنْفَعُكِ اليقينُ فسائلِي ... عنِّي الظعينةَ يومَ وادِي الأَخْرَمِ
إذْ هِي لأَوّلِ من أتاها نُهْبَةٌ ... لولا طِعَانُ رَبِيعةَ بنِ مُكَدَّمِ
إذْ قالَ لي أدْنَى الفوارسِ مِيتةً ... خَلِّ الظَّعِينةَ طَائعًا لا تَنْدَمِ
فصرَفْتُ راحلةَ الظَّعِينةِ نحوَه ... عَمْدًا ليَعْلَم بعضَ ما لم يَعْلَمِ
وهَتَكتُ بالرُّمْحِ الطويلِ إهابَهُ ... فهَوَى صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللفَمِ[3]
ومَنَحْتُ آخَرَ بعدَه جَيّاشَةً ... نَجْلاءَ فاغِرةً كشِدْقِ الأضجمِ[4]
ولقد شَفَعْتُهما بآخَرَ ثالثٍ ... وأَبَى الفِرار ليَ الغَداة تَكَرُّمِي

ثم لم تلبث بنو كِنانة أن أغارتْ على بني جُشم، فقَتلوا وأسروا دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة فأخفَى نفسه، فبينما هو عندهم محبوسٌ إذ جاءه نسوةٌ يتهادَيْنَ، فصَرَخَتْ إحداهنّ وقالت: هلكتُم وأهلكتُم! ماذا جرّ علينا قومُنا! هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رُمحَه يومَ الظَّعِينة! ثم ألقتْ عليه ثوبَها وقالت: يا آل فِرَاس، أنا جارةٌ له منكم، هذا صاحبُنا يوم الوادي! فسألوه: مَنْ هو؟ فقال: أنا دُرَيدُ بن الصِّمَّة فمَنْ صاحبي؟ قالوا: ربيعةُ بنُ مُكَدَّم،

---

(١) يقال: ثبّطه عن الشيء: إذا عوّقه وبطأ به. (٢) الأجدل الصقر. البغاث: نوع من الطيور.
(٣) هتك الشيء: جذبه فأزاله من موضعه. (٤) الأضجم: الذي اعوجّ ومال.

قال: فما فعل؟ قالوا: قتلتْه بنو سُلَيم! قال: فما فَعَلتِ الظَّعِينة؟ قالتِ المرأة: أنا هِيَهْ، وأنا أمرأته، فحبسه القوم وآمَرُوا أنفسهم، فقال بعضهم: لا ينبغي لدُرَيدٍ أن تُكفَر نعمتُه على صاحبنا! وقال آخرون: والله لا يخرج من أيدينا إلاّ برضا المُخارق(١) الذي أسره، فانبعثت المرأةُ في الليل. وهي رَيْطة بنتُ جِذْلِ الطِّعَان، تقول: [من الطويل]

سَنَجْزِي دُرَيدًا عن ربيعةَ نِعْمَةً ... وكلُّ آمرىءٍ يُجْزَى بما كان قَدَّما
فإن كان خيرًا كان خيرًا جَزاؤُه ... وإن كان شَرًّا كان شَرًّا مُذَمَّمَا
سنَجْزِيه نُعْمَى لم تكن بصَغِيرةٍ ... بإعطائه الرُّمْحَ الطويلَ المُقَوَّما(٢)
فقد أدركتْ كفّاه فينا جَزاءه ... وأهلٌ بأن يُجْزَى الذي كان أنْعَمَا
فلا تَكْفُروه حَقَّ نُعْمَاهُ فِيكُم ... ولا تَرْكَبُوا تلكَ التي تَمْلأُ القَمَا(٣)
فلو كان حَيًّا لم يَضِقْ بثوابه ... ذِرَاعًا غَنِيًّا كان أو كان مُعْدما
فَفُكُّوا دُرَيْدًا من إسَارِ مُخَارِقٍ ... ولا تَجْعَلُوا البُؤْسَى إلى الشَّرِّ سُلَّمَا

فلما أصبحوا أطلقوه، فكَسَتْه وجهّزته ولَحِقَ بقومه، فلم يزل كافًّا عن غَزْو بني فِراسٍ حتى هَلَك.

يومُ الصَّلْعاء(٤)
لهَوَازِن على غطَفان

قال: فلمّا كان في العام المقبل غزاهم دُرَيد بن الصِّمَّة بالصَّلْعاء، فخرجت إليه غَطَفان فقال دريد لصاحبه: ما ترى؟ قال: أرى خيلاً عليها رجال كأنهم الصبيان، أسنّتها عند آذان خيلها. قال: هذه فَزارة، ثم قال: أُنظر ما ترى؟ قال: أرى قومًا كأنّ عليهم ثيابًا غُمِست في لِجَاب(٥) المِعْزَى، قال: هذه أشجع، ثم قال: أنظر ما ترى؟ قال: أرى قومًا يجرّون رماحهم سودًا، يخدّون(٦) الأرض بأقدامهم، قال: هذه

(١) المخارق: الرجل الذي يتحرق ويتصرف في وجوه الخير، وقد يراد الفارس المتصرف في ألوان القتال وأساليبه.
(٢) المقوّم: المستوي الذي لا اعوجاج فيه.
(٣) يقال: قمّت البيت ونحوه: إذا كنسته؛ ويقال: أقمى الرجل: سمن بعد هزال.
(٤) الصلعاء: أرض لبني عبد الله بن غطفان وبني فزارة بين النقرة والحاجر.
(٥) اللجاب: المعزى إذا أتى عليها بعد نتاجها أربعة أشهر فجفّ لبنها وقلّ.
(٦) خدّ الأرض: حفرها.

عَبْس، أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا، فألتقَوْا بالصلعاء فاقتتلوا، فكان الظفر لهوازن على غطفان، وقَتَل دُرَيدٌ ذُؤابَ بنَ زيد بن قارب.

ذكر حرب قيس وكنانة

يومُ الكَدِيد[١] لسُليمَ على كِنانة

فيه قُتِل ربيعةُ بنُ مُكَدَّم فارسُ بني كِنانة، وهو من بني فِرَاسِ بنِ غَنْم بن مالك بن كِنانة، وهم أنجدُ العرب، كان الرجل منهم يَعْدِل بعشرة من غيرهم، وكان ربيعةُ بن مكدَّم يُعقر على قبره في الجاهليّة، ولم يُعْقَر على قبر أحدٍ غيره، وقتلته بنو سُلَيم يوم الكَدِيد، ولم يحضر يوم الكَدِيد أحدٌ من بني الشَّريد.

يومُ فَزَارة لكنانة على سُلَيم

قال أبو عبيدة: لمّا قتلت بنو سُلَيْم ربيعةَ بنَ مُكَدَّم فارسَ كنانة ورجعوا، أقاموا ما شاء الله، ثم إنّ ذا التاج مالكَ بنَ خالد بن صَخْر بن الشَّريد ـ وٱسم الشَّرِيد عمرو، وكانت بنو سُلَيْم قد توّجوا مالكًا وأمّروه عليهم ـ فغزا بني كِنَانة، فأغار على بني فِرَاس ببُزْرَة[٢]، ورئيسُ بني فِرَاس عبد الله بن جِذْل، فدعا عبد الله إلى البراز، فبرز إليه هِنْدُ بن خالد بن صَخْر بن الشَّرِيد، فقال له عبد الله: مَن أنت؟ قال: أنا هِندُ بنُ خالد، قال عبد الله: أخوك أسنّ منك، يريد مالك بن خالد، فرجع فأخبر أخاه، فبرز له، فشَدّ عبد الله على مالك بن خالد فقتله، فبرز إليه أخوه كُرْزُ بنُ خالد بن صخر، فشَدّ عليه عبد الله أيضًا فقتله، فشدّ عليه أخوهما عمرو بن خالد بن صخر، فتجالدا[٣] طَعْنتين، فجرح كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه وتحاجزا.

يومُ الفيفاء لسُلَيْم على كِنَانة

قال أبو عبيدة: ثم إنّ بني الشَّرِيد حرَّموا على أنفسهم النساءَ والدُّهْن أو يُدْرِكوا ثأرَهم من كنانة، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بن الشَّرِيد بقومه حتى أغار على بني فِرَاس، فقتل منهم نفرًا؛ منهم: عاصم بن المُعَلَّى، ونَضْلة، والمعارك، وعمرو بن

---

(١) الكديد: موضع بين مكة والمدينة. (٢) البزرة: موضع في ديار بني كنانة.
(٣) تجالدا: تضاربا.

مالك، وحِصْن، وشُرَيح؛ وسبى سبيًا فيهم ابنة مُكَدَّم أخت ربيعة، فقال عباسُ بنُ مِرْداس في ذلك: [من الطويل]

ألاَ أَبْلغنْ عنِّي ٱبنَ جِذْل ورَهْطَه فكيف طلبناكم بكُرْزٍ ومالكِ
غداةَ فَجَعناكم بحِصْن وبٱبنه وبٱبنِ المعلَّى عاصم والمعارك
ثمانية منهم ثأرناهم به جميعًا وما كانوا بَواء بمالك[1]
نُذِيقكم ـ والموتُ يَبْني سُرَادِقًا عليكم ـ شَبَا حدِّ السيوف البواتِك[2]
تلوح بأيدينا كما لاحَ بارقٌ تلألأ في داجِ من الليل حالِكِ[3]

ذكر حرب قيس وتميم

يومُ السُّؤبان لبني عامر على بني تميم

قال أبو عبيدة: أغارت بنو عامر على بني تميم وضبّة فاقتتلوا، ورئيسُ ضبّة حسّان بن وَبْرة، وهو أخو النعمان بن المنذر لأمّه، فأسره يزيد بن الصَّعِق، وٱنهزمت تميم؛ فلمّا رأى ذلك عامرُ بنُ مالك بن جعفر حسده، فشدّ على ضِرَار بن عمرو الضبّيّ، وهو الرُّدَيْم، فقال لٱبنه: إذا همَّ أغنِه عنّي، فشدّ عليه فطعنه، فتحوّل عن سَرْجه[4] إلى جَنْب أبدانه، ثم لحقه، فقال لأحد بنيه: أغنِهِ عنّي؛ ففعل مثلَ ذلك، ثم لحقه، فقال لٱبنٍ له آخر، ففعل مثلَ ذلك، فقال: ما هذا إلاّ مُلاعِبُ الأسنّة! فسُمِّيَ عامر من يومئذ مُلاعِبَ الأسنّة فلما دنا منه قال له ضِرَار: إني لأعلم ما تريد، أتريد

(١) البوّاء: الكفء.
(٢) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب؛ أو الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما.
(٣) الداج: الذي عمت ظلمته وألبس كل شيء.
(٤) قوله: (فتحوّل عن سرجه إلى جنْب أبدانه) ضبط المصحح جنب بسكون النون ولم يفسر المراد منه وفي (العقد) طبعته المصرية الأخيرة (أبدائه) بالهمزة مكان النون وفسر مصححوه (الأبداء) بالمفاصل. ولكن يفهم من كتب اللغة أن المراد بمفاصل الجزور أو عظامه التي عليها اللحم ما كان منها مُعَضًّى مجزأ مقسمًا إلى أنصباء توزع على المقامرين. وما معنى تحول الفارس عن فرسه إلى جنب مفاصله؟.. والذي أراه أن (جَنَب) بفتح النون لا سكونها وهو الخيل التي تُجنب إلى جنب الفارس يتحول إليها حين الحاجة. وفي القاموس (خيل جنائب وجَنَب محركة) والأبدان جمع بدَن وبدن جمع بدنة الدرع. فعامر لما طُعِن تحول عن سرجه والتحول عن السرج تحول عن الفرس نفسها وكان في جنبه خيل معدة لتحميل الدروع عليها وهي التي سماها (جَنَب الأبدان) فركب إحداها ثم لحق ضرارًا الضبي إلى آخر القصة. هذا ما أمكن حمل عبارة المؤلف عليه ما لم يعثر على نص أصح فيرجع إليه.

اللَّبَب[١]؟ قال نعم! قال: إنك لن تَصِلَ إليّ ومن هؤلاء عين تَطرف، كلهم بنو عامر، قال له عامر: فأحلني على غيرك، فدلّه على حُبَيْش بن الدُّلَف وقال: عليك بذلك الفارس، فشدّ عليه فأسره، فلما رأى سوادَه وقِصَرَه، جعل يتفكّر، وخاف ٱبن الدُّلَف أن يقتله، فقال: ألستَ تريد اللَّبَب؟ قال بلى، قال: فأنّى لك به. وفادي حسّانُ بنُ وَبْرة نفسه من يزيد بن الصَّعِق بألف بعير، فداءَ الملوك فكثر مال يزيد ونبه[٢].

قال أبو عبيدة: ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصَّعِق على عصافير النعمان بذي لُبَان، وذو لبان: عن يمين العرنيين.

يوم أقرن
لبني عَبْس على بني دارم

قال: غزا عمرُو بنُ عُدُس من بني دارِم، وهو فارسُ بني مالك بن حنظلة، فأغار على بني عَبْس، فأخذ إبلاً ونساءً ثم أقبل، حتى إذا كان أسفل من ثَنِيَّة أَقْرُن نزل فٱبتنى بجارية من السَّبْي، ولَحِقَه الطلب فٱقتتلوا، فقتل أَنَسُ الفوارسُ بن زِيَاد العَبْسيّ عمرًا: وٱنهزمتْ بنو مالك بن حنظلة، وقتلتْ بنو عبس أيضًا حَنْظلةَ بن عمرو ـ وقال بعضهم: قُتِل في غير هذا اليوم ـ وٱرتدّوا ما كان في أيدي بني مالك.

يومُ المَرُّوت[٣]
لبني العَنْبَر على بني قُشَير

أغار بَجِيرُ بنُ سَلَمة بن قُشَير على بني العَنْبَر بن عمرو بن تميم، فأتى الصريخُ بني عمرو بن تميم حتى لحقوه وقد نزل المَرّوت، وهو يَقْسم المِرْبَاع ويُعطِي مَن معه، فتلاحق القوم وٱقتتلوا، فطَعَن قَعْنَبُ بنُ عتّاب المثلَّمُ بنَ عامر القُشَيْرِي فصرعه فأسره، وحمل الكَدّام، وهو يزيد بن أُزَيهر المازِني على بجير بن سَلَمَة فطعنه فأرداه عن فرسه، ثم أسره، فأبصره قَعْنَبُ بنُ عتّاب، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله، وٱنهزم بنو عامر.

يومُ دارَةَ مَأْسَل
لتميم على قَيْس

غزا عُتْبَةُ بنُ شُتَيْر بن خالد الكِلاَبيّ بني ضَبَّة، فاستاقَ نعَمَهم[٤]، وقتل حُصَينَ

---

(١) اللبب: موضع المنحر من كل شيء. (٢) نبه فلان: شرف وعلا ذكره.
(٣) المروت: واد بالعالية بين ديار بني قشير وديار بني تميم.
(٤) النعم: أي الإبل. جمع أنعام وأناعيم.

ابنَ ضِرَار الضبيّ زيدَ الفوارس، فجمع أبوه ضِرَار قومَه وخرج ثائرًا بأبنه حُصَينَ، وزيدُ الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدرِك، فأغار على بني عمرو بن كِلاب، وأفلت منه عُتبة بن شُتَير وأسر أباه شتير بن خالد وكان شيخًا كبيرًا، فأتى به قومَه فقال: يا شُتَير، اختَرْ واحدةً من ثلاث، قال: اعرِضها عليّ، قال: إمّا أن تَرُدّ أبني حُصَينًا! قال: إنّي لا أنشُرُ(١) الموتَى! قال: وإمّا أن تدفع إليّ أبنَك عُتْبةَ أقتله به! قال: لا يَرْضَى بذلك بنو عامر، قال: وإمّا أن أقتلك. قال: أما هذه فنعم! فأمر ضِرَارٌ أبنَه أدْهَمَ أن يقتله، فلمّا قدّمه ليضرب عنقه نادى شُتَير: يا آل عامر، صَبْرًا بصبيّ! كأنه أنِفَ أن يُقتلَ بصبيّ، فقال في ذلك شمعلة: [من الوافر]

وخـيَّـرنـا شُـتَـيـرًا مِـنْ ثـلاثٍ ... ومـا كـان الـثـلاثُ لـه خِـيَـارَا
جَعَلْتُ السيف بين اللّيتِ منه ... وبين قُصَاصِ لِمَّتِهِ عِذَارَا(٢)

أيامُ تميم على بكر

يومُ الوَقِيط

قال فِرَاس بن خِنْدِف: تجمّعت اللّهازِم لتُغير على تميم وهم غارُّون(٣)، فرأى ذلك ناشِبُ بنُ بَشَامة العَنبريّ الأعْوَر، وهو أسيرٌ في بني سعد بن مالك من بني ثعلبة، فقال لهم: أعطوني رسولاً أُرسِله إلى بني العنبر أوصيهم بصاحبكم خيرًا ليُولوه ما تُولونني من البِرّ. وكان حَنْظَلة بن طُفَيل المَرْثَديّ أسيرًا في بني العَنْبَر، فقالوا: على أن تُوصِيَه ونحن حضُور، قال نعم، فأتَوْه بغلام، فقال: أتيتموني بأحْمق، وما أراه مُبَلِّغًا عنّي! قال الغلام: لا والله ما أنا بأحمق، وقُلْ ما شئتَ فإنّي مُبَلِّغه، فملأ الأعْور كفّه من الرمل فقال: كم في كفّي منه؟ قال: شيء لا يُحْصَى كثرةً، ثم أومأ إلى الشمس فقال: ما تلك؟ قال: هي الشمس. قال: فاذهبْ إلى أهلي فأبلِغْهم عنّي التحيّة وقُلْ لهم: ليُحْسِنوا إلى أسيرهم ويكرموه فإني عند قوم مُحسنين إليّ مُكرمين لي وقُلْ لهم ليُعْرُوا جَمَلي الأحمر: ويركبوا ناقتي العَيْساء(٤)، ويَرْعُوا حاجتي في بني مالك، وأخبرهم أن العَوْسَجَ(٥) قد أوْرَق، وقد أشتكت النساء، ولْيَعْصُوا همّام بن بَشَامة فإنه مشؤوم مَحْدُود(٦). ويُطيعوا أبنَ الأخْنَس فإنه حازمٌ مَيمُونٌ.

(١) نشر الله الموتى: أي بعثهم وأحياهم. (٢) اللّيت: صفح العنق.
(٣) الغارون: جمع الغار، وهو الغافل. (٤) العيساء: الناقة يخالط بياضها شقرة.
(٥) العوسج: جنس نبات شائك من الفصيلة الباذنجانية، له ثمر مدور كأنه خرز العقيق. واحدته عوسجة.
(٦) المحدود: الممدود، وهو الممنوع.

قال: فأتاهم الرسول فأبلغهم، فقال بنو عمرو بن تميم: ما نعرفُ هذا الكلام، ولقد جُنَّ الأعور، والله ما نعرف له ناقةً عَيْساءَ، ولا جَمَلاً أحمر! فشخص الرسول، ثم ناداهم هُذَيل: يا بني العنبر، قد بيَّن لكم صاحبكم، أمّا الرملُ الذي قبض عليه فإنه يُخبركم أنه أتاكم عددٌ لا يُحْصَى، وأمّا الشمسُ التي أومأ إليها فإنه يقول: إن ذلك أوضح من الشمس، وأمّا جملُه الأحمرُ فهو الصَّمَّان[١]: يأمركم أن تُعْرُوه[٢]، وأما ناقتُه العَيْساء فهي الدَّهْنَاء[٣]، يأمركم أن تتحرزوا[٤] فيها، وأما أبناء مالك فإنه يأمركم أن تُنْذِروا بني مالك بن زَيْد مَنَاة، وأن تمسكوا الحِلْف بينكم وبينهم، وأما العَوْسَج الذي أورق، فيخبركم أنّ القومَ قد لبسوا السلاح، وأمّا تشكّي النساء فيخبركم إنهنّ قد عَمِلْنَ شِكاءً يغزون به.

قال: فتحرَّزت عمرو فركبت الدَّهناء وأنذَرُوا بني مالك فقالوا: ما ندري ما تقول بنو عمرو، ولسنا مُتَحَوِّلين لما قال صاحبُهم. قال: فصبَّحت اللّهازِم بني حنظلة فوجدوا عمرًا قد جَلَتْ، وكان على الجيش أبجر بن جابر العِجْليّ، وشهدها ناسٌ من بني تَيْم اللات، وشهدها الفِرز بن الأسود بن شريك في بني شيبان، فٱقتتلوا، فأسِر ضِرَار بن القَعقاع بن زُرَارة، وتنازع في أسْره بِشْر بن العَوْراء من تيم اللات، والفِرْز بن الأسود فجزّوا ناصيته وخلوا أسره من تحت الليل، وأسر عمرو بن قيس من بني ربيعة بن عِجْل عَتْجَل بن المأموم بن شيبان بن عَلْقَمة من بني زُرَارة، ثم منَّ عليه، وأُسِرتْ غَمامةُ بنت الطَّوْد بن عُبَيد بن زُرارة، وٱشترك في أسْرها الخطيم بن هِلال، وظَربان بن زياد، وقَيْس بن خُلَيد، فردّوها إلى أهلها، وأُسر حنظلة بن المأموم بن شَيْبان بن عَلْقمة، أسره طلبةُ بن زياد أحد بني ربيعة بن عجْل، وأُسِرَ حَوْثرة بن بدر من بني عبد الله بن دارم، فلم يزل في الوثاق حتى قال أبياتًا يمدح فيها بني عجل فأطلقوه، وأُسِرَ نُعَيْم بن القعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة، وعمرو بن ناشب، وأُسِرَ سِنَان بن عمرو أحد بني سلامة من بني دارم، وأُسِرَ حاضر بن ضَمْرة، وأُسرَ الهيثم بن صعصعة، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته، وقُتِلَ حَكِيم النهشليّ، وكان يقاتل ويرتجز:

كُلُّ ٱمرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهْلِهِ والموتُ أدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وفيه يقول عنترة: [من الوافر]

وغادَرْنا حَكِيمًا في مَجَالٍ صَرِيعًا قد سَلَبْنَاهُ الإزَارَا[٥]

---

(١) الصّمّان: جمل أحمر في أرض بني تميم. (٢) تعروه: أي ترتحلوا عنه.

(٣) الدهناء: سبعة أجبل من الرمل، وهي ديار لعامة تميم.

(٤) تحرز منه: احترز، أي توقاه.

(٥) الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

يوم النِّباج(١) وثَيْتَل(٢)
لبكر على تميم

قال أبو عُبَيد مَعْمَر بن المثنَّى: غدا قيسُ بن عاصم في مُقَاعِس وهو رئيسٌ عليها ـ ومُقَاعس هم: صريم، وربيع، وعبيد، بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ـ ومعه سَلاَمة بن ظَرِب بن نمر الحماني في الأَجارِب وهم: حمان، وربيعة، ومالك، والأعرج، بنو كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم، فغَزَوْا بكر بن وائل فوجدوا بني ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة، واللهازم وهم: بنو قيس وتَيْم اللات بن ثعلبة، وعِجْل بن لُجَيْم، وعنزة بن أسد بن ربيعة بالنِّبَاج وثَيْتل، وبينهما روحة، فتنازع قيسٌ بن عاصم وسلامةُ بن ظَرِب في الإغارة، ثم ٱتفقا على أن يُغِيرَ قيس على أهل النِّباج، ويُغِيرَ سلامةُ على أهل ثَيْتَل. قال: فبعث قيسُ بن عاصم الأهتم سبقةً له ـ والسبقةُ: الطليعة ـ فأتاه الخبرُ فلما أصبح قيس سقى خيله، ثم أطلق أفواه الروايا(٣) وقال لقومه: قَاتِلوا فإنّ الموتَ بين أيديكم، والفلاةَ من ورائِكم. فلما دنَوْا من القوم صُبْحًا سَمِعوا ساقيًا يقول لصاحبه: يا قيسُ، أورد، فتفاءلوا به، فأغاروا على النِّبَاج قبل الصبح، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، ثم إنّ بكرًا ٱنهزمت، فأسر الأهتمُ حُمْرانَ بنَ بشر بن عمرو بن مرثد، وأصابوا غنائم كثيرةً، فقال قيس لأصحابه: لا مقام دون الثيتل، فالنجاةَ، فأتوا ثيتل ولم يغزوا سلامةَ وأصحابه بعد، فأغار عليهم قيسُ بن عاصم، فقاتلوه ثم ٱنهزموا، فأصاب إبلاً كثيرةً، فقال ربيعة بن طَرِيف: [من الطويل]

فلا يُبْعِدَنْك الله قَيْسَ بنَ عاصم ... فأنتَ لنا عز عزيزٌ ومَوْئِلُ
وأنتَ الذي حَرَبْتَ بكر بن وائلٍ ... وقد عضَّلَت منها النِّبَاج وثَيْتَلُ(٤)
غَدَاةَ دعَتْ يا آلَ شيبانَ إذْ رأَتْ ... كَرَادِيسَ يُزْجِيهِنَّ وَرْدٌ مُحَجَّلُ(٥)

وقال قُرّة بن قيس بن عاصم: [من الطويل]

أَنا ابْنُ الذِي شَقَّ المزادَ وَقَدْ رَأَى ... بِثَيْتَلَ أَحْيَاءَ اللَّهَازِم حُضَّرَا(٦)

---

(١) النباج: موضع قريب من ثيتل.
(٢) ثيتل: ماء على عشر مراحل من البصرة.
(٣) يقال: حربه: أي سلب ماله.
(٤) عضلت الأرض بأهلها: أي ضاقت بهم لكثرتهم.
(٥) الكراديس: كتائب الخيل، واحدها: الكردوس.
(٦) المزادة: الرواية. جمع المزاد.

فَصَبَّحَهُمْ بالجيش قَيْسُ بنُ عَاصم ... فَلَمْ يَجِدُوا إلاَّ الأَسِنَّةَ مَصْدَرَا
عَلَى الجُرْدَ يعْلُكْنَ الشَّكيمَ عَوَابِسًا ... إِذَا الماءُ مِنْ أعطَافِهِنَّ تَحَدَّرَا[1]
فَلَمْ يَرَهَا الراؤونَ إلا فُجاءَةً ... نَثَرْنَ عَجَاجًا بالسَّنَابِكَ أَكْدَرَا[2]
سقاهُمْ بهَا الذِّيفَانَ قَيْسُ بنُ عاصم ... وَكَانَ إذَا مَا أَوْرَدَ الأمْرَ أَصْدَرا
وَحُمْرَانَ أَدَّتْهُ إلينَا رِمَاحُنَا ... فَنَازَعَ غُلاً فِي ذِرَاعَيْهِ أَسْمَرَا[3]
وجثَامَةَ الذُّهْليِّ قُدْنَاهُ عَنْوَةً ... إلَى الحيِّ مَصْفُودَ اليدَينِ مُفَكَّرَا[4]

يوم زَرُود[5] الثاني
لبني يربوع على بني تغلب

أغار خُزَيمةُ بنُ طارق التغلبيّ على بني يربوع وهم بزَرُود، فاْقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم اْنهزمت بنو تغلب، وأسِرَ خُزَيمةُ بن طارق، أسره أنيف بنُ جَبلةَ الضبِّيّ - وهو فارسُ السليط، وكانَ يومئذ نقيلاً[6] في بني يربوع - وأَسِيدُ بنُ حِنَّاءة السليطي، فتنازعا فيه، فحكَّما بينهما الحارث بن قراد، فحكم بناصية خزيمة للأنيف، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل. قال: فَفَدَى خُزَيمةُ نفسَه بمائتي بعير وفرسٍ، فقال أنيف: [من الطويل]

أَخَذْتُك قَسْرًا يا خُزَيمَ بنَ طارقٍ ... وَلاَقَيْتَ مِنِّي الموتَ يَوْمَ زَرُودِ
وعانَقْتُه والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها ... فأَنزلتُهُ بِالقَاعِ غَيْرَ حَمِيدِ

يوم ذي طُلوح[7]
لبني يربوع على بكر

كان عَمِيرةُ بنُ طارق بنِ حصينةَ بنِ أريم بن عبيد بن ثعلبة، تزوّج مَريَّة بنت جابر، أخت أبجر بن جابر العِجْليّ، فاْبتنى بِها في بني عجل، فأتى أبجر أختَه اْمرأةَ

---

(١) الفرس الأجرد: قصير الشعر؛ الشكيم: الحديدة المعترضة في فم الفرس.
(٢) العجاج: الغبار.
(٣) الغل: طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو في أيديهما.
(٤) الذهلي: نسبة إلى بني ذهل.
(٥) زرود: رمال بطريق الحاج من الكوفة.
(٦) النقيل: الغريب.
(٧) ذو طلوح: موضع في حزن بني يربوع بين الكوفة وفير.

عَميرة يَزُورُها فقال لها: إني لأرجو أن آتِيَك ببنتِ النِّطف أمرأةِ عَمِيرة التي في قومها، فقال له عَمِيرةُ: أترضى أن تحارِبَني وتسبيني؛ فَنَدِمَ أبجرُ وقال لِعَمِيرَةَ: ما كنتُ لأَغْزُوَ قومَك، ثم غزا أبجر والحوْفَزَان متساندين، هذا فيمن تبعه من بني شيبان، وهذا فيمن تبعه من اللهازم، وساروا بعميرةَ معهم قد وكل به أبجرُ أخاه حُرْقُصةَ بن جابر، فقال له عَمِيرةُ: لو رجعتُ إلى أهلي فأحتملتُهم، فقال حُرْقُصَةُ: افعل، فكَّر عميرةُ على ناقته، فسار يومين وليلةً من أتى بني يَرْبوع، فأنذرهم الجيشُ، فأجْتَمَعُوا حتى ٱلتقَوْا بأسفل ذي طُلوح، فكان أوّل فارسٍ طلع عليهم عَمِيرةُ، فنادى: يا أَبْجَرُ، هلمَّ! فقال مَنْ أنت؟ قال: أنا عَمِيرةُ، فَكَذَّبه، فسفر[١] عن وجهه، فعرفه، فأقبل إليه، وٱلتفَّتْ الخيلُ بالخيل، فأُسِرَ الجيشُ إلا أقلَّهم، وأَسَر حنظلةُ بنُ بشر بن عمرو بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم ـ وكان في بني يربوع ـ الحَوْفزانَ بنَ شَريك، أخذه معه أبو مُلَيل، وأخذ ٱبنُ طارق سوادةَ بنَ يحيى بن عمّ أبجر، وأُخِذ أبو عَنَمَةَ الضَّبّيُّ الشاعِرُ مع بني شيبان، فٱفتكَّه متمِّمُ بنُ نويرةَ[٢]، وأُسِر شريكُ بنُ الحوفزان، وأسودُ وفَلْحَسُ، وهما من بني سعد بن همَّام، فقال جرير يذكر يوْمَ ذِي طُلوح: [من الكامل]

ولـمَّـا لَقَيْنَـا خَيْـلَ أَبْجَـرَ تَـدَّعِي ... بِدَعْوَى لُجَيم قَبْلَ مَيْلِ الْعَوَاتِقِ
صَبَـرْنَا وكَـانَ الـصَّبْرُ مِـنَّـا سَجِيَّةً ... بأسيافنا تحتَ الظِّلالِ الخوافِقِ[٣]
فَـلَـمَّـا رَأَوْا أنْ لاَ هَـوادةَ عِـنـدَنَـا ... دَعَوْا بعدَ كربٍ يَا عَمِيرَ بنَ طارقِ

يَوْمُ الخائرِ وهو يومُ مَلْهَم[٤]
لبني يربوع على بني بكر

وذلك أنّ بني مُلَيْل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن عُبَيْد، وعلقمة أخاه ٱنطلقا يطلبان إبلاً لهما حتى وردا ملهمَ من أرض اليمامة، فخرج عليهما نفرٌ من بني يشكر، فقتلوا علقمةَ وأخذوا أبا مُلَيْل، فكان عندهم ما شاء الله ثم خَلُّوا سبيلَه، وأخذوا عليه عهدًا وميثاقًا ألا يُخْبِرَ بأمر أخيه أحدًا، فأتى قومَه فسألوه عنه فلم يخبِرهمْ، فقال

(١) سفر عن وجهه: كشف عنه.
(٢) متمم بن نويرة، هو أخو مالك بن نويرة؛ وهما من ثعلبة بن يربوع. وترجمتهما في طبقات الشعراء لابن قتيبة ص١٥٨.
(٣) الخوافق: جمع الخافق، وهو العلم.
(٤) ملهم: قرية باليمامة لبني يشكر وأخلاط من بكر.

وَبْرةُ بنُ حمزة: هذا قد أُخِذَ عليه عهدٌ وميثاق، فخرجوا يقصُّون الأثر وبينهم شهابُ بنُ عبدِ القيس حتى وردوا مَلْهَم، فلما رآهم أهلُ مَلْهَم تحصّنوا، فحرّقت بنو يربوع بعضَ زرعِهم، وعقروا بعضَ نَخْلِهم، فلمّا رأى ذلك القومُ نزلوا إليهم فقاتلوهم، فَهُزِمت بنو يشكر، وقُتِل عَمرُو بنُ صابر صَبْرًا[١]، ضربوا عنقَه، وقَتَل عيينةُ بنُ الحارث بن شهاب بن مُثَلَّم بن عُبَيْد بن عمرو رجلاً آخر منهم، وقَتَل مالكُ بنُ نُوَيرة حُمْرانَ بن عبد الله وقال: [من الطويل]

طلبنا بيوم مثلَ يومكِ عَلْقَمَا ... لَعَمْري لِمَنْ يَسْعَى بها كان أكرمَا
قتلنا بِجنبِ العِرْضِ عمروَ بنَ صابر ... وحُمْرانَ أقْصَدْنَاهمَا والمثَلَّمَا[٢]
فَلِلّه عينَا مَنْ رَأى مِثْلَ خَيْلِنَا ... وما أدركتْ من خَيْلِهِم يومَ مَلْهَمَا

يوم القحقح وهو يوم مالة
لبني يربوع على بكر

أغارت بنو أبي ربيعة بن ذُهْل بن شيبان على بني يربوع ورئيسهم مجبة بنُ ربيعة بن ذهل، فأخذوا إبلاً لعاصم بن قرط أحد بني حميد، وانطلقوا، فطلبهم بنو يربوع، فناوشوهم، فكانت الدائرة على بني ربيعة، وقَتَل المنهالُ بنُ عصمة المَجبَّةَ بن ربيعة، فقال في ذلك ابنُ حُمْرانَ الرياحيّ: [من الكامل]

وإذا لَقيْتَ القومَ فاطعنْ فيهم ... يومَ اللِّقَاءِ كَطَعْنَة المِنْهَالِ
تَركَ المَجَبَّةَ للضباعِ مجدّلاً ... والقومُ بين سوافلٍ وعوالِ

يوم رأس العين
لبني يربوع على بكر

أغارت طوائف من بني يربوع على بني أبي ربيعة برأس العين فاطّردوا النَّعَم، واتّبعهم معاوية بن فِرَاس في بني أبي ربيعة فأدركوهم، فقُتِل معاويةُ وفاتوا[٣] بالإبل، فقال سُحيم[٤] في ذلك: [من الوافر]

أَليسَ الأكرمون بنو رياحٍ ... نَمَوْني منهم عمِّي وخالي

---

(١) قتله صبرًا: حبسه حتى مات.
(٢) يقال: أقصد فلانًا: أي طعنه فلم يخطىء مقاتله.
(٣) فاتوا بالإبل: أي سبقوا بها.
(٤) سحيمَ: هو سحيم بن الأعرف، وهو من بني الهجيم بن عمرو بن تميم. (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

هُـمـو قـتـلـوا الـمـجـبّـةَ وابـنَ تـيِّـم   تَـنُـوحُ عـلـيـهـمـا سُـودُ الـمـآلـي
وهُـمْ قَـتَـلُـوا عـمـيـدَ بـنـي فِـرَاسٍ   بِرَأْسِ العَيْن في الحِجَج الخوَالِي
وذادوا يـوم طـخـفـةَ عـن حِـمَـاهـم   ذِيَـادَ غَـرائِـبَ الإبـلِ الـنّـهـالِ

يوم العظالى(١)

لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: وهو يوم أعشاش ويوم الأُفاقة ويوم الإباد ويوم مُلَيْحَة. قال: وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، فكانوا يجيرونهم ويجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائةِ فارس متساندين، يتوقعون انحدارَ بني يربوع في الحَزْن - قال: وكانوا يشتون خفافًا فإذا انقطع الشتاء انحدروا إلى الحزن - قال: فاحتمل بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد من بني سليط، أوَّل الحيّ، حتى أسهلوا ببطن مُلَيْحَة، فطلعت بنو زبيد في الحَزْن حتى حَلّوا الحُدَيْقة بالأُفاقة، وحلَّت بنو عبيد وبنو عتيبة بروضة الثمد. قال: وأقبل الجيشُ حتى نزلوا هضبةَ الخصيّ، ثم بعثوا رَئِيسَهم فصادفوا غلامًا شابًّا من بني عبيد يقال له قرط بنُ أضبط، فعرفه بسطام فقال له: أخبرني ما ذاك السواد الذي أرى بالْحُدَيقة؟ قال: هم بنو زبيد. قال: أَسِيد بن حِنّاءة؟ قال: نعم، قال: كم هم؟ قال خمسون بيتًا، قال: فأين بنو عتيبة وبنو أريم؟ قال: نزلوا روضةَ الثّمد. قال: فأين سائرُ الناس؟ قال هم محتجزون بجفاف(٢). قال: فمن هناك من بني عاصم؟ قال: الأُحَيْمِرُ وقَعْنَب ومُعْدان أبناء عصمة. قال: فمن فيهم من بني الحارث بن عاصم؟ قال: حصينُ بنُ عبد الله. فقال بسطام لأصحابه: أطيعوني تقبضوا على هذا الحيّ من زبيد، وتصبحوا سالمين غانمين. قالوا: وما يغني عنّا بنو زبيد لا يودون رحلتنا. قال: إن السلامةَ إحدَى الغنيمتين. فقال له مغروق: انتفخ سحرك يا أخا الصهباء، قال له هانىء: أجبنا. قال: ويلكم إنّ أَسِيدًا لم يظلّه بيتٌ قط شاتيًا ولا قائظًا(٣)، إنما بيتُه القفرُ، فإذا أحسّ بكم أحال على الشقراء، فركضَ حتى يُشرف مُلَيحةَ(٤)، فينادي: يا آلَ يربوع! فيركب فيلقاكم

---

(١) سمي يوم العظالى لأنه تعاظل على الرياسة بسطام وهانىء بن قبيصة ومفروق بن عمرو في هذا اليوم.

(٢) جفاف: أرض لأسد وحنظلة واسعة فيها أماكن يكون فيها الطير.

(٣) قاظ القوم بالمكان: أقاموا به أيام الحر، وهو قائظ.

(٤) مليحة: موضع في بلاد بني تميم.

طعنٌ ينسيكم الغنيمة، ولا يبصر أحدُكم مصرعَ صاحبه، وقد جئتموني وأنا تابعكم، وقد أخبرتكم ما أنتم لاقون غدًا. فقالوا: نلتقط بني زبيد، ثم نلتقط بني عبيد وبني عتيبة كما نلتقط الكمأة[١]، ونبعثُ فارسين فيكونان بطريق أَسِيد، فيحولان بينه وبين بني يربوع، ففعلوا. فلما أحسّ بهم أسيد ركب الشقراء وخرج نحو بني يربوع، فأبتدره الفارسان فطعنه أحدهما فألقى نفسه في شقّ فأخطأه، ثم كرَّ راجعًا حتى أشرف مُلَيحَة، فنادى: يا صباحاه! يا آل يربوع، غشيتم، فتلاحقت الخيل حتى توافَوْا بالعظالى، فأقتتلوا، فكانت الدائرةُ على بكر، قُتِل منهم مغروقٌ بن عمرو، فدُفِن بثنيّة[٢] مغروق، وبه سُمِّيت، وغيره. وأما بسطام فألحّ عليه فارس من بني يربوع، وكان دارعًا[٣] على ذات النسوع[٤]، وكانت إذا أجدّت[٥] لم يتعلق بها شيء من خيلهم، ففاتت الطلب حتى أتى قومه.

يوم الغبيط
لبني يربوع على بكر

ويقال له يومُ الثعالِب. قال: غزا بسطامُ بنُ قيس، ومغروق بن عمرو، والحارثُ بنُ شريك ـ وهو الحوفزان ـ بلادَ بنِي تميم، وهذا اليوم قبل يوم العظالى، فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع، وثعلبة بن سعد بن ضبة، وثعلبة بن عديّ بن فَزَارة، وثعلبة بن سعد بن ذبيان، فلذلك قيل له يومُ الثعالب. وكان هؤلاء جميعًا متجاورين بصحراء فلج[٦] فأقتتلوا، فأنهزمتْ الثعالبُ، فأصابوا فيهم وأستاقوا إبلاً من نعمهم، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة لأنه كان نازلاً يومئذ في بني مالك بن حنظلة. قال: ثم أسروا على بني مالك، وهم بين صحراء فلج وبين الغبيط، فأكتسحوا إبلَهُم، فركبت عليهم بنو مالك، فيهم عتيبة بن الحارث بن شهاب، ومعه فارسان من فرسان بني يربوع، وتأثّف[٧] إليهم الأحيمرُ بنُ عبد الله، وأسيدُ بنُ

(١) الكمأة: جمع الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية، وهي أرضية تنتفخ حاملة أبواغها: فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

(٢) الثنيّة: الطريق.

(٣) الدارع: الفارس الذي لبس الدرع.

(٤) ذات النسوع: فرس بسطام.

(٥) أجدت: سلكت الطريق الوعر، وهو الجدد.

(٦) صحراء فلج: واد لبني العنبر بن تميم، يقع أول الدهناء.

(٧) المراد بقوله تأثف: تتبعهم وتحوطهم مثل تأثف الأثافي الرماد.

حنَّاءة، وأبو مرحب، وجزء بن سعد الرياحيّ - وهو رئيس بني يربوع - وربيع، والحليس، وعمارة، بنو عتيبة بن الحارث، ومَعْدان وعصمة أبنا قعنب، ومالك بن نُوَيْرة، والمنهال بن عصمة أحد بني رياح بن يربوع، وهو الذي يقول فيه متمِّم بنُ نُوَيْرة في شعره الذي يرثي به أخاه مالكًا:

لقد كفَّن المنهالُ تحتَ رِدَائهِ فتى غَيرَ مِبْطَانِ العَشِيات أَرْوَعَا(١)

فأدركوهم بغبيط المَدَرة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا آستاقوا من أموالهم، وأُسِر بسطامٌ، أَسره عتيبةُ، فلم يزل عنده حتى فادى نفسَه. قيل: إنه فدى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرسًا، ولم يكن غيره عُكَاظيّ أعلى فداءً منه، على أن جزَّ ناصيتَه وعاهده ألا يغزُو بَني شهاب أبدًا.

يومُ مُخَطَّط
لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: غزا بسطامُ بنُ قيس والحَوْفَزان الحارثُ متساندَيْن يقودان بكرَ بنَ وائل، حتى وردوا على بني يربوع بالفِرْدَوْس، وهو بطن لإياد، وبينه وبين مخطط ليلة، وقد نَذِرت بهم بنو يربوع فآلتقَوْا بالمُخَطَّط، فآقتتلوا، فآنهزمت بكر، وهرب الحَوْفَزَان وبسطام ففاتا ركضًا، وقُتِل شَرِيك بن الحَوْفَزان، قتله شِهابُ بنُ الحارث أخو عتيبة، وأسر الأُحَيمر بن عبد الله بن الضريس الشَّيْبانيّ.

يوم جدود(٢)

غزا الحَوْفَزَان وهو الحارثُ بن شَرِيك فأغار على مَنْ بالقاعة من بني سعد بن زيد مناة، فأخذ نَعَمًا كثيرًا ونساء فيهنّ الزرقاء من بني ربيع بن الحارث، فأُعجب بها وأُعجبت به، فلم يتمالك أن وقع بها، فلما آنتهى إلى جدود منعهم بنو يربوع بن حنظلة أن يَرِدُوا الماء، ورئيسُهم عتيبةُ بنُ الحارث بن شهاب، فقاتلوهم، فلم يكن لبني بكر بهم يدٌ، فصالحوهم على أن يُعطوا بني يربوع بعض غنائمهم حتى يَرِدُوا

(١) المنهال: هو ابن عصمة الرياحي. غير مبطان العشيات: لا يعجل بالعشاء، ينتظر الضيفان. الأروع: الذي إذا رأيته راعك بجماله وحسنه.

(٢) الجدود: اسم موضع في بلاد بني تميم قريب من حزن بني يربوع على سمت اليمامة؛ فيه الماء الذي يقال له الكلاب.

الماء، فقبلوا ذلك منهم وأجازوهم، فلما أتى الصريخُ بني سعد، ركب قيسُ بنُ عاصم في أثر القوم حتى أدركهم بالأشميَيْن[١]، فألحّ قيسُ على الحَوْفَزَان، وقد حمل الزرقاء خَلفه رديفًا على فرسه الزَّبِد، وعقد شعرَها على صدره، فأخذ قيس بن عاصم يدنو بحيث يكلّم الحوفزان، فقال له قيس: يا أبا حمّاد، أنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش، قال له: ما يشاء الزبد. فلما رأى قيس أنّ فرسَه لا يلحقُه نادى الزرقاءَ فقال: ميلي به يا جعار[٢]، فجزَّ الحوفزان قرونَها بالسيف ودفعها بمرفقه وألقاها عن عجز فرسه فردّها قيسُ بن عاصم إلى بني ربيع.

يومُ سَفَوَان

قال أبو عبيدة: التقت بنو مازن وبنو شَيْبان على ماء يقال له سَفَوَان، فزعمت بنو شيبانَ أنه لهم، وأرادوا أن يُجلوا تميمًا عنه، فٱقتتلوا قتالاً شديدًا، فظهرت عليهم بنو تميم وشلوهم حتى بلغوا المحدث، وكانوا قبل ذلك يتوعّدون بني مازن، فقال في ذلك الودّاك المازنيّ: [من الطويل]

رُوَيْدًا بَني شَيْبانَ بعضَ وَعِيدِكمْ ... تُلاقُوا غدًا خَيْلِي عَلَى سَفَوَانِ
تُلاَقُوا جِيادًا لاَ تَحيدُ عن الوَغَى ... إذَا الخيْلُ جَالَتْ في القنَا المُتَدَانِي
عَليهَا الكُماةُ الغُرُّ من آلِ مَازِنٍ ... لُيوثُ طِعانٍ كلَّ يوم طِعَانِ[٣]
تُلاَقُوهُمْ فَتَعْرفُوا كيفَ صَبْرُهُمْ ... عَلَى ما جَنَتْ فيهم يَدُ الحَدَثَانِ
مَقَادِيمِ وصَّالُونَ في الروْع خَطْوَهُمُ ... بِكلّ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْن يَمَانِ
إذا ٱستُنْجِدُوا لم يَسْألُوا مَن دَعَاهُمُ ... لأيَّةِ حَرْبٍ أمْ لأيِّ مكَانِ

يوم نقا الحَسَن
وهو يوم الشَّقيقة[٤] لبني ضبّة على بني شَيْبان

فيه قتل بسطام. قال أبو عبيدة: غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ـ وقيسُ بنُ مسعود هو ذو الجدَّين، وأخوه السليل بنُ قيس من بني ضبة بن أدّ بن طابخة ـ فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلُها قد فقأ عينه، وكان

---

(١) الأشيمان؛ في بلاد بني سعد بالبحرين دون هجر.
(٢) اسم للضبع.
(٣) الكميّ: جمع الكماة، وقد تقدم تفسيرها.
(٤) الشقيقة: كل جمد بين جبلي رمل. والجمد: الغلظ والصلابة.

في الإبل مالك بن المنتفق، فركب فرسًا له ونجا ركضًا حتى إذا دنا من قومه نادى: يا صَبَاحَاه، فركبت بنو ضبّة، وتداعت بنو تميمْ، فتلاحقوا بالنقا، فقال عاصم بنُ خليفة لرجل من فرسان قومه: أيُّهم رئيسُ القوم؟ قال: حاميتُهم صاحب الفرس الأدهم - يعني بسطامًا - فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فطعنه، فلم تخطىء صماخ(١) أُذُنِه حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى وخرَّ. فلما رأى ذلك بنو شيبان خَلُّوا سبيل النَّعَم وولّوْا الأدبارَ، فمن قتيل وأسير، وأَسَر بنو ثعلبة نجادَ بن قيس أخا بسطام في سبعين من بني شيبان: وقال شَمْعلة بنُ الأخضر بن هُبيرة: [من الوافر]

ويـومَ شـقـائِـقِ الـحَـسَـنَـيْـنِ لاَقـتْ   بـنُـو شَـيْـبـانَ آجـالاً قِـصَـارَا
شَـكَـكْـنَـا بـالـرِّمـاحِ وهُـنَّ زُورٌ   صِمَاخَيْ كَبْشِهِم حتى ٱسْتَدَارَا(٢)

أيام بكر على تميم

يوم الزُّوَيْرين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل تنتجع أرضَ بني تميم في الجاهلية ترعى بها إذا أجدبوا، فإذا أرادوا الرجوعَ لم يدعوا عودة يصيبونها ولا شيئًا يظفرون به إلا اكتسحوه، فقال بنو تميم: امنعوا هؤلاء القومَ من رَعْي أرضكم، فحشدت تميم، وحشدت بكر وٱجتمعت، فلم يتخلّف عنهم إلا الحَوفَزَان بن شريك في أناس من بني ذُهل بن شيبان، وكان غازيًا، فقدّمت بكر عليهم عمرًا الأصمّ أبا مفروق - وهو عمرُو بنُ قيس بن مسعود بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذُهل بن شيبانَ - فحسد سائرُ ربيعة الأصمَّ على الرياسة، فأتَوه فقالوا: يا أبا مفروق، إنّا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنّا وكانوا قط. قال: فما تريدون؟ قالوا: نريد أن نجعل كلّ حيّ على حياله، ونجعل عليهم رجلاً منهم، فنعرف غناء كل قبيلة، فإنه أشدّ لاَجتهاد الناس. قال: والله إني لأبغض الخلاف عليكم، ولكن يأتي مفروق فينظر فيما قلتم. فلما جاء مفروق شاوره أبوه، فقال له مفروق: ليس هذا أرادوا، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك، والله لئن لقيتَ القوم فظفرت لا يزال لنا الفضلُ بذلك أبدًا، ولئن ظُفر بك لا تزال لنا رياسة نُعرف بها، فقال الأصمُّ: يا قوم، قد ٱستشرتُ مفروقًا فرأيتهُ مخالفًا لكم، ولستُ مخالفًا رأيَه وما أشار به. فأقبلت تميم بجملين مجلّلين مقرونين مقيّدين وقالوا: لا نولّي حتى يولي هذان الجملان، وهما الزُّوَيْران،

(١) الصماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبلته.
(٢) المراد بقوله: رماح زور، أي مقوّمة.

فأخبرت بكر بقولهم الأصمّ فقال: وأنا زُوَيْركم إن خشُوهما[١] فخشوني، وإن عقروهما فاْعقروني، قال: واْلتقى القوم فاْقتتلوا قتالاً شديدًا. فأسرت بنُو تميم حراثَ بن مالك أخا بني مرّة بن همام، فركض به رجلٌ منهم وقد أردفه، فاْتبعه اْبنه قتادة بن حراث حتى لحق الفارس الذي أسر أباه، فطعنه فأرداه عن فرسه، واستنقذ أباه، ثم اْنهزمت بنُو تميم. وقال رجلٌ من بني سدوس: [من البسيط]

يا سَلْمُ إنْ تسألي عنّا فلا كُشُفٌ ... عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَسْنَا بالْمَقارِيفِ[٢]
نحنُ الذين هَزَمْنا يَوْمَ صَبَّحْنَا ... جيشَ الزُّوَيْرين في جَمْع الأحالِيف
ظلُّوا وظلنا نَكِرُ الخَيْلَ وَسْطَهُمُ ... بالشِّيبِ مِنّا وبالمُرْد الغطَارِيفِ[٣]

يوم الشَّيِّطَيْن[٤]
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: لمّا ظهر الإسلامُ ـ قبل أن يسلم أهلُ نجد والعراق ـ سارت بكر بنُ وائل إلى السواد وقالت: نُغِير على بني تميم بالشَّيِّطَيْن، فإنّ في دِين اْبن عبد المطلب أنه مَنْ قتل نفسًا قُتِل بها، فنُغِير هذه الغارة ثم نُسْلِم عليها.

فاْرتحَلُوا من لَعْلَع بالذّراريّ والأموال، فأتَوا الشَّيِّطَيْن في أربع، وبينهما مسيرةُ ثمانية أميال فسبقوا الخبر فصبَّحوهم وهم لا يَشْعُرون، ورئيسهم يومئذ بِشْرُ بنُ مسعود بن قَيْس بن خالد ذي الجدّين، فقتلوا بني تميم قتلاً ذريعًا وأخذوا أموالهم. قال: قُتل من بني تميم يوم الشَّيِّطَيْن ولعَلْعَ ستمائة رجل، قال: فوفد وفدٌ من بني تميم إلى النبيّ ﷺ فقالوا: اُدعُ الله على بكر بن وائل! فأبى ﷺ.

يومُ صَعفوق
لبكر على تميم

أغارت بنو ربيعة على بني سليط بن يربوع يومَ صَعفوق، فأصابوا منهم أسرى، فأتى طَريفُ بن تميم العنبريّ فروةَ بن مسعود، وهو يومئذ سيّدُ بني ربيعة، ففدى منهم أسرى بني سليط ورهَنَهم اْبنَه، فأبطأ عليهم فقتلوا اْبنه.

---

(١) خشّ فلانًا: طعنه.
(٢) المقاريف: واحدها المقرف، وهو النذل الخسيس.
(٣) الغطاريف: جمع الغطريف، وهو السيد الكريم.
(٤) الشيطان: واديان.

يومُ مُبَايِض
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: كانت الفُرسان إذا كانت أيام عُكَاظ في الشهر الحرام، وأمِنَ بعضُهم بعضًا، تقنَّعوا كي لا يُعرفوا، فكان طَرِيف بن تميم لا يتقنَّع، فوافى عُكَاظ وقد كشفت بكر بن وائل، وكان طَريف قد قَتل شَرَاحِيل الشيبانيّ أحد بني عمرو بن ربيعة، فقال خميصة: أروني طَريفًا، فأروه إيّاه، فتأمّله ونظر إليه، ففَطن له طريف فقال: ما لك تنظر؟ فقال: أتَوَسَّمُك لأعرفك، فللّه عليّ إن لقيتُك أن أقتُلكَ أو تقتُلَني.

قال: فمضى لذلك ما شاء الله، ثم إن بني عائدة حُلَفاء بني ربيعة بن ذُهْل، خرج منهم رجلان يصيدان، فعرض لهما رجلٌ من بني شيبان، فذعر عليهما صيدَهما، فوثبا عليه فقتلاه، فثارت بنو مُرّة بن ذُهْل بن شيبان يريدون قَتلَهما، فأبت بنو ربيعة ذلك عليهم، فقال هانىء بن مسعود: يا بني ربيعة، إنّ إخوتكم قد أرادوا ظُلْمَكم فأنمازوا[1] عنهم، ففارقوهم، وساروا حتى نزلوا بمبايض: ـ ماء لهم ـ فأَبَقَ[2] عبدٌ لرجل من بني ربيعة، وسار إلى بلاد تميم، فأخبرهم أن حيًّا جديدًا، أي منتقًى من قومه، من بكر بن وائل نُزُولٌ على مُبَايِض وهم بنو ربيعة، فقال طَريف العنبريّ: هؤلاء ثأري يا آل تميم، وأقبل معه أبو الجدعاء أخو بني طُهَيَّة، وجاءه فَدَكِيّ بن أَعْبَدَ المِنْقَرِيّ في جمع من بني سعد بن زَيْد مَنَاة، فأنذرت بهم بنو ربيعة؛ فأنحاز بهم هانىء بن مسعود، وهو رئيسُهم، إلى عَلَم مُبَايض، وأقام عليه وشرَّفوا بالأموال والسرح[3]، وصبَّحتهم تميم، فقال لهم طريف: أطيعوني وافرغوا من هؤلاء الأكلُب يَصْفُ لكم ما وراءهم، فقال لهم أبو الجدعاء ـ رئيس حنظلة ـ وَفَدَكِيّ ـ رئيس بني سعد بن زيد مناة ـ: أنقاتل أكلبًا أحرزُوا أنفسَهم ونترك أموالهم؟ ما هذا برأي! وأبَوْا عليه. وقال هانىء لأصحابه: لا يقاتل رجلٌ منكم، ولحقت تميم بالنَّعم والبغالِ فأغاروا عليها، فلمّا ملؤوا أيديَهم من الغنيمة قال هانىء بنُ مسعود لأصحابه: احملوا عليهم، فهزموهم. وقُتِل طَريف العنبريّ، قتله خميصة الشيبانيّ.

---

(١) انمازوا: انفصلوا. (٢) أبق: هرب.

(٣) السرح: المال الراعي.

يومُ فَيْحان

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة: لمّا فدى نفسَه بسطامُ بنُ قيس من عتيبة بنِ الحارث إذ أسره يومَ الغبيط بأربعمائة بعير فقال: لأدركنّ عقرَ إبلي، فأغار بفَيْحان، فأخذ الربيعَ بنَ عتيبة واستاقَ مالَه، فلمّا سار يومين شُغلوا عن الربيع بالشراب، فبال على قيده حتى لأنَ؛ ثم خَلَعه وانحلَّ منه، ثم أجال في متن ذات النسوع ـ فرس بسطام ـ وهرب، فركبوا في أثره، فلمّا يَئسُوا منه ناداه بسطامُ: يا ربيعُ، هَلُمَّ طليقًا، فأبى، وأتوه في نادي قومه يحدّثهم، فجعل يقول في أثناء حديثه: إيهًا يا ربيع! انج يا ربيع! وأقبل ربيع حتى انتهى إلى أدنى بني يربوع فإذا هو براع فاستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت، فسُمّي ذلك المكانُ هبير الفرس، فقال له أبوه عتيبة: أما إذ نجوتَ بنفسِك فإني مخلفٌ لك مالَكَ.

يومُ ذِي قار(١) الأوّل

لبكرٍ على تميم

قال: فخرج عتيبةُ في نحو من خمسة عشر فارسًا من بني يربوع، فكمن في جنبي ذي قار حتى مرَّت بهم إبلُ بني الحُصَين، وهي بالعدوانة: اسم ماء لهم، فصاحوا بمن فيها من الحامية والرعاة، ثمّ استاقوها، فأخلف للربيع ما ذهب له وقال: [من الوافر]

أَلَـم تَـرَنِـي أفـأْتُ عَـلـى رَبِـيـعٍ ... جِـلادًا فـي مَـبَـارِكِـهَـا وَخُـورَا(٢)
وأنّـي قـد تـركـتُ بَـنـي حُـصَـيـنٍ ... بـذي قـار يَـرُمُّـون الأمُـورَا(٣)

يَوْمُ الحاجز

لبكرٍ على تميم

قال أبو عبيدة: خرج وائلُ بنُ صُرَيم اليشكريّ من اليمامة، فلقيه بنو أُسَيْد بن عمرو بن تميم، فأسروه وجعلوا يغمسونه في الماء في الركيّة(٤) ويقولون: [من الرجز]

* يـا أيّـهـا الـمـاتـحُ دَلْـوي دُونـكَـا *(٥)

---

(١) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وصنو ذي قار: على ليلة منه وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر وائل والفرس.

(٢) الخور: سهلة المعطف لينة كثيرة الجري.

(٣) رمّ إلى الشيء: مال إليه. والمراد بالأمور: الصعاب.

(٤) الركيّة: البئر لم تطو.

(٥) متح الدلو: أي جذب رشاءها. ومتح الماء: نزعه واستخرجه.

حتى قتلوه، فغزاهم أخوه باعث بن صُرَيم يوم حاجز، فأخذ ثمامة بن باعث بن صُرَيم رجلاً من بني أُسَيد وجيهًا فيهم فقَتَله، وقَتَل على الظِّنة مائةً منهم.

يومُ الشقيق
لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: أغار أبجرُ بنُ جابر العِجْليّ على بني مالك بن حنظلة، فسبى سليمى بنت محصن، فولدت له أبجر، ففي ذلك يقول أبو النجم: [من الكامل]

ولقد كَرَرْتُ على طُهَيّةَ كَرّةً   حتّى طَرَقْتُ نِسَاءَهَا بِمساءِ

ذكر حرب البسوس
وهي حرب بكر وتغلب ٱبني وائل

قال أبو المنذر هشامُ بنُ محمد بنِ السائب: لم تجتمع مَعَدّ كلُّها إلاّ على ثلاثة من رؤساء العرب، وهم: عامر بنُ الظَّرِب بن عمرو بن بكر بن يشكُر بن الحارث. وعامر هو قائد معدّ يوم البيداء حين تَمَذْحَجِت مَذْحِج[١] وسارت إلى تهامة، وهي أوّل واقعة كانت بين تهامة واليمن.

والثاني: ربيعةُ بنُ الحارث بن مرّة بن زُهَير بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن كلب وهو قائد معدّ يومَ السُّلاَّن، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن.

والثالث: كليبُ بنُ ربيعة، وهو الذي يقال فيه: أعزّ من كُلَيب وائل، وقاد معدًّا كلَّها يوم خَزَاز، ففضّ جُموعَ اليمن وهزمهم، واجتمعت عليه مَعَدّ كلُّها وجعلوا له قسْم الملك وتاجَه وتحيته وطاعته، فغَبَرَ[٢] بذلك حينًا من الدهر، ثم دخلَه زَهوٌ شديدٌ وبَغَى على قومه حتى بلغ من بَغْيه أنه كان يحمي مواقعَ السحاب فلا يُرعَى حِمَاه ويقول: وَحْشُ أرض كذا في جواري فلا يُهاج، ولا تُورَدُ إبلُ أحد مع إبله، ولا تُوقَد نارٌ مع ناره.

وكانت بنو جُشَم وبنو شَيْبان في دار واحدة بتهامة، وكان كُلَيبٌ قد تزوّجَ جليلةَ ابنةَ مرّة بن ذُهْل بن شيبان أخت جسّاس بن مُرّة، وكانت لها ناقةٌ يقال لها: السرابُ،

---

(١) يقال: أذحجت المرأة على ولدها: أقامت. ومذحج: مالك وطيّىء، سمّيا بذلك لأن أمهما لما هلك بعلها أذحجت على ابنيها طيّىء ومالك هذين، فلم تتزوج بعد أدد.

(٢) غبر: مكث وبقي.

وبها يُضرب المثلُ في التشاؤم، فيقال: «أشأمُ من السراب» و«أشأم من البسوس» وهي معقولة بفناء بيتها في جوار جسّاس بن مُرّة، فمرّت بها إبلٌ لكليب، فلما رأت السرابُ الإبلَ تازعت عِقالَها حتى قطعته، وتبعت الإبلَ وٱختلطت بها حتى ٱنتهت إلى كُلَيب، وهو على الحوض، ومعه قوسٌ وكنانةٌ[١]، فلمّا رآها أنكرها، فٱنتزعها بسهم فخرم ضَرْعَها، فنفرت وهي تَرغُو، فلما رأتها البَسُوس قَذَفَتْ خمارها عن رأسها وصاحت: واذُلاّه! واجاراه.

ذكر مقتل كليب وائل

قال: فأجمشت[٢] جسّاسًا، فركب فرسًا له مغرورًا به، وتبعه عمرُو بنُ الحارث بنِ ذُهل بن شيبان على فرسه، ومعه رمحُه، حتى دخلا على كليب الحِمَى، فطعنه جسّاس فقصم[٣] صُلْبَه، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع قَطَنَه[٤]، فوقع كُلَيب وهو يفحص برجله وقال لجسّاس: أغِثْني بشَرْبةٍ من ماء، فقال له: تجاوزتَ شُبَيثًا[٥] والأَحَصّ[٦]، ففي ذلك يقول عمرُو بنُ الأهتم: [من الطويل]

وإنّ كُلَيبًا كان يَظْلِمُ قَوْمَه ... فَأدركَهُ مثلُ الذي تَرَيَانِ
فلمّا حَشَاهُ الرمْحَ كفُّ ٱبن عَمِّه ... تَذَكّر ظُلْمَ الأهل أيَّ أوانِ
وَقالَ لجسّاسٍ أغِثْنِي بشَرْبَةٍ ... وإلاّ فَخَبِّرْ مَنْ رَأَيتَ مكَانِي
فقال تجاوَزتَ الأحَصَّ وماءَه ... وَبَطْنَ شُبَيثٍ وهُوَ غَيرُ دِفانِ

وقال نابغةُ بني جعد: [من الكامل]

أبلغْ عقالاً أنَّ خُطَّةَ داحسٍ ... بكَفَّيْك فٱسْتَأْخِرْ لها أو تَقَدَّمِ
كُلَيْبٌ لَعَمْري كانَ أكثرَ ناصرًا ... وأيسَرَ ذَنْبًا مِنك ضُرِّج بالدَّمِ
رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فٱسْتَمرّ بِطَعْنَةٍ ... كحاشِيَةِ البُرْد اليَمَاني المُسَهَّمِ
وقال لجسّاسٍ أغِثْني بشَرْبةٍ ... تَدَارَكْ بها مَنًّا عَليَّ وأنْعِمِ
فقال تجاوَزْتَ الأحَصَّ ومَاءَه ... وَبَطْنَ شُبَيْثٍ وهُو ذُو مُتَوسَّمِ

---

(١) الكنانة: جعبة صغيرة من أدم للنبل.

(٢) قوله: (فأجمست أي البسوس جسّاسًا) صوابه فأحمشت بالحاء المهملة لا الجيم ومعناه هيجت وأغضبت، وحمش غضب.

(٣) قصم: قطع.

(٤) القطن من الأنسات: أسفل ظهره.

(٥) شبيث: ماء معروف لبني تغلب.

(٦) الأحص: واد لبني تغلب.

قال: فلما قُتِل كُلَيْبٌ ٱرتحلت بنُو شيبانَ حتى نزَلوا بماء يقال له النِّهْي، وتشمَّر[(١)] المهلهلُ أخو كليب ـ وٱسمه عَدِيُّ بنُ ربيعة، وإنما قيل له المهلهل لأنه أوّل من هَلْهَل الشعر، أي أرقَّه ـ فٱستعدّ المهلهلُ لحرب بكر، وترك النساءَ والغزل، وحرَّم القمارَ والشرابَ، وجمع إليه قومَه، فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر، فأتوا مرّةَ بنَ ذهل بنِ شيبان وهو في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كُلَيبًا بنابٍ من الإبل، فقطعتم الرَّحِم، وٱنتهَكتم الحُرْمَة، وإنَّا كرهنا العَجَلة عَليكم دون الإعذارِ إليكم، ونحن نَعرِض عليكم خِلالاً أربعًا، لكم فيها مخرجٌ ولنا مقنعٌ، قال مرّةُ: ما هي؟ قالوا: تُحيي لنا كُلَيبًا أو تدفع لنا جسّاسًا قاتله فنقتله به، أو همّامًا فإنه كفءٌ له، أو تمكِّننا من نفسك فإنّ فيك وفاءً من دمه، فقال: أمّا إحيائي كُلَيبًا فهذا ما لا يكون. وأمّا جسّاسٌ فإنه غلام طعن طعنةً على عَجَل ثم ركب فرسه فلا أدري أيّ البلاد ٱحتوت عليه. وأمّا همّام فإنه أبو عَشَرة وأخو عَشَرة وعمّ عَشَرة، كلّهم فرسانُ قومهم فلن يُسلِّموه لي فأدفَعَه إليكم يُقتَل بجريرة غيره. وأمّا أنا فما هو إلاّ أن تجولَ الخيلُ جَوْلةً غدًا فأكونَ أوّل قتيلٍ بينهما، فما أتعجّلُ من الموت، ولكن لكم عندي خصلتان: أما إحداهما فهؤلاء بَنيّ الباقون فعلِّقوا في عُنُق أيِّهم شئتم نسعةً[(٢)] فٱنطلقوا به إلى رحالكم فٱذبحوه ذبح الجزور[(٣)] وإلاّ فألفُ ناقةٍ سوداء المُقَل أقيم لكم بها كفيلاً من بكر بن وائل، فغضب القوم وقالوا: لقد أسأتَ، تبذُل لنا صغار ولدك وتسُومنا اللبن من دم كليب.

ووقعت الحرب بينهم، ولحقتْ جليلةُ زوجة كُلَيب بأبيها وقومها، وٱعتزلت قبائل بكر بن وائل، وكرِهوا مُجامعةَ بني شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم، وأعظموا قتل جسّاس كُلَيبًا بنابٍ من الإبل، فظعنت[(٤)] لُجَيم عنهم، وكفّت يشكُر عن نصرتهم، وٱنقبض الحارث بنُ عُبَاد في أهل بيته، وهو أبو بُجَير وفارس النعامة. وقال المهلهلُ يرثي كليبًا من أبيات: [من الخفيف]

بـاتَ لَيْـلـي بـالأنْـعَـمَـيْـن طَـويـلاَ ... أرقُبُ النَّـجْـم سـاهـرًا أنْ يـزولا[(٥)]

كـيـفَ أهـدَا ولا يـزالُ قـتـيـلٌ ... مـنْ بَـنـي وائـل يُـنَـسِّـي قَـتـيـلاَ

في قصيدة طويلة.

---

(١) تشمّر: خفّ ونهض.

(٢) النسعة: القطعة من النسع، وهو سير عريض طويل تشد به الحقائق أو الرحال أو نحوها.

(٣) الجزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل. (ولفظه مؤنث).

(٤) ظعنت عنهم: ارتحلت.

(٥) الأنعمان: موضع بناحية نعمان، وهو واد التنعيم.

وقال أيضًا يرثيه من أخرى: [من البسيط]

نَعَى النّعاةُ كُلَيبًا لِي فقلتُ لَهُمْ مَالَتْ بنَا الأرضُ أو زَالَتْ رَوَاسِيهَا
القائدُ الخَيْلَ تَرْدى في أعنَّتِها زَهْوًا إذا الخيلُ لَجّتْ في تعادِيها[١]
مِنْ خَيْل تغلبَ ما تُلْقَى أسِنّتها إلاّ وقَدْ خَضَّبُوها من أعاديها
يُهَزْهِزُون من الخطّيِّ مُدْمجَةً كُمْتًا أنابيبُهَا زُرْقًا عَوَاليها[٢]
تُرَى الرِّمَاحَ بأيدينا فنُوردُها بيضًا ونُصْدرُها حُمْرًا أعَالِيها[٣]
لا أصْلَحَ اللّهُ يَوْمًا مَنْ يُصَالِحكُمْ ما لاحَتِ الشّمْسُ في أعْلَى مَجارِيها

يومُ النِّهْي[٤]

فالتقَوْا بماء يقال له: النِّهْي، كانت بنو شيبان نازلةً عليه، ورئيسُ تغلب المهلهلُ، ورئيسُ شَيْبان الحارثُ بنُ مُرَّةَ، فكانت الدائرةُ لبني تغلب، ولم يُقتل في ذلك اليوم أحدٌ من بني مرّة.

يومُ الذنائب

ثم ٱلتقَوا بالذنائب، وهي أعظم وقعة كانت لَهم، فظفرت بنو تغلب وقُتل من بكر مقتلة عظيمة، وفيه قُتل شَراحيل بن مرة بن همّام بن مرّة بن شيبان، وهو جدّ الحَوْفَزان، قتله عتّاب بن سعد بن زهير بن جشم، وقُتل من بني ذُهْل بن ثعلبة عمرُو بنُ سدوس بن شيبان، وقُتل من بني قيس بن ثعلبة سعدُ بنُ ضبيعة بن قيس وتيم بن قيس بن ثعلبة، وهو أحد الحرقيّين[٥]، وكان شيخًا كبيرًا، فحمل في هَوْدج، فلحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس بن جشم فقتله.

يومُ واردات

ثم ٱلتقَوْا يوم واردات وعليهم رُؤساؤُهم الذين تقدّم ذكرُهم، فظفرت بنو تغلب، وٱستحرّ[٦] القتلُ في بني بكر، فيومئذ قُتِلَ الشعثمان: شعثم وعبدُ شمس ٱبنا معاوية بن عامر بن ذُهْل بن ثعلبة وسيّار بن الحارث بن سيّار، وفيه قتل همّام بنُ مرّة أخو جسّاس لأبويه، فمرّ به مهلهل مقتولاً فقال: والله ما قُتِل بعد كُليبٍ قتيلٌ أعزّ عليّ فقدًا منك يومَ عُنَيزة.

---

(١) يقال: ردى الفرس: إذا رجم الأرض بحوافره في سيره وعدوه.
(٢) الكُمن: التستر والتخفي. (٣) أصدر الشيء: صرفه.
(٤) النُّهي: الغدير، أو الموضع الذي له حاجز ينهي الماء أن يفيض منه.
(٥) الحارقة: عصبة متصلة بالورك. (٦) استحرّ: اشتدّ.

يوم عُنَيزة

ثم ٱلتقَوْا بعُنَيزة، فظفرت بنو تغلب، ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك كانت الدائرة فيها لبني تغلب على بني بكرٍ، فمنها يوم الحِنْو، ويوم عويرضات، ويوم أنين، ويوم ضرية، ويوم القُمصيبات، كلها لتغلب على بكر، أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن لن يستقبلوا أمرهم.

وقال المهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر في قصيدة طويلة أوّلها: [من الوافر]

أَلَـيْـلَـتَـنَـا بِـذي حُـسُـمٍ أَنِـيـرِي ... إِذَا أَنْتِ ٱنْقَضَيْتِ فَلاَ تَحُوري[1]

فَـإِنْ يَـكُ بِـالـذنـائـب طَالَ لَيْلِي ... فَقَدْ أبكِي مِنَ اللَّيْلِ القَصِيرِ[2]

فَلَوْ نُبِشَ المقَابرُ عن كُلَيبٍ ... لأُخْبِرَ بِالذنائبِ أيّ زِيرِ[3]

وإنّي قَدْ تركتُ بِوَارِدَاتٍ ... بُجَيْرًا في دَمٍ مِثْلِ العَبِيرِ[4]

هَتكْتُ بِهِ بُيوتَ بَنِي عُبَادٍ ... وبَعْضُ القَتْلِ أشفَى لِلصدُورِ

عَلَى أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيبٍ ... إِذَا بَرزَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدورِ

وقال المهلهل أيضًا وقد أسرف في الدماء: [من البسيط]

أكثرتُ قَتْلَ بَني بكرٍ بِربِّهِمُ ... حتَّى بكَيْتُ وما يَبْكي لَهم أحدُ

آلَيتُ بالله لا أرضَى بِقَتْلِهِمُ ... حتّى أُبَهْرِجَ بكرًا أينَما وُجِدُوا

أُبهرجُ: أي أدعهم بهرجًا، لا يُقْتَل بهم قتيلٌ، ولا تُؤخَذُ بهِم ديةٌ.

وقال أيضًا: [من الكامل]

قَتَلُوا كُليْبًا ثمّ قالُوا أربِعُوا ... كَذَبُوا ورَبِّ الحِلِّ والإِحْرَامِ

حتى تَبِيدَ قَبِيلَةٌ وقَبِيلَةٌ ... ويَعَضّ كُلُّ مُثَقَّفٍ بالهامِ[5]

ويُقمْنَ ربّاتُ الخدُور حَوَاسِرًا ... يَمْسَحْنَ عَرْضَ ذَوائِبِ الأيتامِ

حتى يَعَضّ الشيخُ بعدَ حَمِيمِهِ ... مِمّا يَرى نَدَمًا على الإبهامِ

---

(١) تحوري: ترجعي. وذو حسم: اسم موضع.

(٢) الذنائب: ثلاث هضبات بنجد.

(٣) الزير: الذي يكثر زيارة النساء ويحب محادثتهن ومجالستهن.

(٤) الواردات: مكان عن يسار مكة. والمراد بالعبير: الزعفران.

(٥) نبيد: نهلك. والرمح المثقف: المقوّم.

يومُ قِضَة

قال: ثم إنّ المهلهل أسرف في القتل ولم يُبَالِ بأيّ قبيلة من قبائل بكر وقع، وكانت أكثر بكر قَعَدت عن نصرة بني شَيْبان لقتلهم كُلَيبًا، وكان الحارث بنُ عُبَاد قد اَعتزل تلك الحروبَ، حتى قُتِل اَبنُه بُجَيرُ بن الحارث بن عُبَاد، فلمّا بلغه قتله قال: نعم القتيلُ قتيلٌ أصلح بين ابنَيْ وائل، وظنّ أنّ المهلهل قد أدرك به ثأر كُلَيب وجعله كفوًا له، فقيل له: إنما قتله بشِسْع(١) نَعْل كُلَيب. وكان المهلهل قال لمّا قَتَل بُجَير بن الحارث: بُؤْ بشسْع نَعْلِ كُلَيب، فلمّا سمع الحارث ذلك غضب، وكان له فرس يقال له النعامة، فركبها وتولّى قتال تغلب بنفسه، فكانت الدائرة فيه على تغلب، فتفرّقت قبائل تغلب وهرب المهلهلُ. وقال الحارث بن عُبَاد: [من الخفيف]

قـرِّبـا مـربَـطَ الـنـعـامَـةِ مِـنِّـي ... لَـقِـحَـتْ حَـرْبُ وَائِـل عَـنْ حِـيَـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبِـطَ الـنـعـامَـةِ مـنِّـي ... شـابَ رَأْسـي وأنـكـرتْـنـي رِجَـالـي
لـم أكـنْ مـن جُـنـاتـهـا عَـلِـم الـلْـ ... ـهُ وإنِـي بِـحَـرّهـا الـيـومَ صَـالـي

في قصيدة طويلة نحو المائة بيت كرّر فيها:

* قــرّبــا مــربــط الــنــعــامــة مــنّــي *

في خمسين بيتًا.

وكان أوّل يوم شهده الحارثُ يومَ قِضَة، وهو يومَ تَحْلاق اللمم، وفيه يقول طَرَفة: [من الرمل]

سَـائِـلُـوا عـنَّـا الَّـذي يَـعْـرِفُـنَـا ... بِـقُـوَانـا يـومَ تَـحْـلاَقِ الـلِّـمَـمْ
يـوم تُـبْـدِي الـبِـيـضُ عـنْ أَسْـؤُقِـهَـا ... وَتَـلُـفُّ الـخـيـلُ أعـراجَ الـنَّـعَـمْ(٢)

يوم تَحْلاَقِ اللِّمَم

ويوم تَحْلاَق اللِّمم، إنما سُمِّي بذلك لأن الحارثَ بن عُبَاد لمّا تولّى الحربَ قال لقومه: احْمِلوا معكم نساءكم يكُنّ من ورائكم، فإذا وَجَدْنَ جريحًا منهم قتلوه، وإذا وجَدْنَ جريحًا نّا سَقَيْنَه وأطْعَمْنَه، فقالوا: ومن أين يتميّز لهنّ؟ فقال: احلقوا رؤوسكم

---

(١) الشسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم.

(٢) الأسؤق: السيقان؛ والمراد يوم تكشف النساء البيض عن سيقانها من الفزع. تلفّ: تجمع. والنعم: الإبل. والأعراج: جمع عرج، وهو القطيع من الإبل.

لتمتازوا بذلك، ففعلوا، فسُمِّي به، فقال جَحْدَر بن ضُبَيْعة ـ وكان من شجعانهم ـ: اتركوا لِمَّتِي وأقتل لكم أوّل فارس يقدمهم، فتركوه، وهو الذي قتل عمرًا وعامرًا التغلبيّان، طعن أحدهما بسنان رمحه، والآخر بزجّه(١)، ثم صرع بعد ذلك، فلمّا رأته نساء بكر دون حَلق ظنّوه من تغلب فأجهزوا عليه.

وفي هذا اليوم أَسَر الحارثُ بنُ عُبَاد المهلهلَ عَدِيَّ بنَ ربيعة وهو لا يعرفه فقال له: دُلّني على عَدِيّ وأُخْلِي عنك، فقال له عَدِيّ: عليك العهدُ بذلك إن دللتك عليه، قال نعم، قال فأنا عَدِيٌّ، فجزّ ناصيتَه وتركه وقال فيه:

لَهْفَ نَفْسِي عَلى عدِيّ ولم أعـ ... ـرِفْ عَدِيًا إذ أَمْكَنَتْنِي اليَدَانِ

وكان الحارث آلى ألاّ يصالحَ تغلبًا حتى تكلّمه الأرض، فلمّا كثُرت وقائعه في تغلِب ورأت تغلب أنها ما تقوم له حفروا سربًا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلًا وقالوا له: إذا مرَّ بك الحارثُ فغنّ بهذا البيت: [من الطويل]

أَبَا مُنْذرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بعضَنا ... حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ منْ بعض

فلما مرَّ الحارثُ اندفع الرجلُ وغنّى بالبيت، فقيل للحارث قد برّ بقسمك فأبقِ بقيّة قومك، فأمسك، فاصطلحت بكر وتغلب.

ثم إنّ المهلهلَ فرّ بنفسه فنزل بمَذْحِج في بني جَنْب، فخطبوا إليه لابنته، وقيل أخته، فمنعهم، فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه جُلودًا من أَدَم، فقال في ذلك: [من المنسرح]

أعْزِزْ على تَغْلِب بما لَقِيَتْ ... أختُ بَنِي الأكْرمينَ مِنْ جُشَم
أنكحها فَقْدُها الأراقِمَ في ... جَنْب وكانَ الحِبَاءُ من أَدَمِ(٢)
لَوْ بأبانَيْن جاء يخطُبُها ... ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِدَمِ(٣)
لَيسُوا بأكْفائِنا الكرام ولاَ ... يُغْنُون في ذلَّةٍ ولاَ عَدَمِ

ثم اشترى المهلهل عبدَيْن يغزوان معه، فغزا بهما حتى طال علَيهما ذلك، فاختارا الراحةَ منه، فأجمعا على قتله بموضع قفرٍ، فلمّا شعر بما همّا به ولم ير لنفسه ملجأ قال لهما: أبلغا عنّي هذه المراسلة، فقالا هات، فقال: [من الكامل]

مَنْ مبلغٌ عنّي بأنّ مهَلْهِلاً ... لله درّكُمَا ودرّ أبيكُمَا

---

(١) زجّ الرمح: حديدة في أسفله.

(٢) جنب: حيّ من مذحج. الأراقم حيّ من تغلب. والأدم: الجلد.

(٣) أبانين: جبلان، يقال لأحدهما: أبان الأبيض، وللآخر: أبان الأسود.

فلمّا قتلاه وأنصرفا نحو بيته فقالا: ماتَ بأرض كذا وذكرا وصيّته، فلم يدر أحد ما أراد، فقالت أبنته: والله ما كان أبي رديَّ الشعر، ولا سَفْسَاف الكلام، وإنما أراد أن يخبركم أنّ العبدَيْن قتلاه، وإنما معنى البيت: [من الكامل]

مَـنْ مُـبْـلِـغٍ عـنِّـي بـأنّ مُـهَـلْـهِـلاً أضْـحَـى قَـتـيـلاً بـالـفَـلاَ مُـجَـدَّلاَ
لله درّكـمـا ودرُّ أبـيـكُـمـا لا يـبـرح الـعـبـدان حـتَّـى يُـقـتَـلاَ

فقتل العبدان بعد أن أقرّا بذلك. وقيل: إنه أصبح قتيلاً بين رجلي جمل هاج. والله تعالى أعلم بالصواب.

الكلابُ الأوّل

قال أبو عبيدةَ: لمّا تسافهت بكر بنُ وائل وغلبها سفهاؤُها، وتقاطعت أرحامُها؛ ارتأى رؤساؤهم فقالوا: إنّ سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا، فأكل القويُّ الضعيفَ، فنرى أن نملِّكَ علينا مَلِكًا نُعطيه الشاةَ والبعيرَ، فيأخذ للضعيف من القويّ، ويردّ على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكونَ من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون، فيفسد ذات بَيْننا، ولكنّنا نأتي تُبّعًا فنملّكه علينا، فأتَوْه فذكروا له أمرهم فمَلَّك عليهم الحارثَ بن عمرو آكلَ المرار الكِنْديّ، فقدم فنزل بطنَ عاقِلٍ[(١)].

ثم غزا ببكر بن وائل حتى أنتزع عامَّة ما في أيدي ملوك الحِيرة اللخميِّين، وملوكَ الشام الغسانيّين، وردّهم إلى أقاصي أعمالهم، ثم طُعِن في نِيطة[(٢)] فمات فدُفن ببطن عاقِلٍ. وأختلف أبناه شُرَحبيل وسلَمَة في المُلْك، فتواعدا الكُلاب[(٣)]، فأقبل شُرَحبيل في ضبّة والرِّباب كلّها، وبني يربوع، وبكر بن وائل. وأقبل سَلَمة في تَغْلِب والنَّمِر وبَهْراء ومَن تبعه من بني مالك بن حنظلة، وعليهم سُفيان بنُ مُجاشع، وعلى تغلب السفّاحُ، وإنما قيل له السفّاحُ لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم: اندروا إلى ماء الكُلاَب، فسبقوا ونزلوا عليه، وإنما خرجت بكر مع شُرحبيل لعداوتها لبني تغلب،

---

(١) عاقل: واد بنجد، وقيل: اسم جبل.

(٢) قوله: (ثم طعن في نيطةٍ فمات) صوابه (في نَيْطه) بفتح النون وضمير الغائب والنَّيْط قيل هو نياط القلب وهو علاقته. وإذا وقع طعن الرمح فيه مات صاحبه. ولذا قال هنا معقّبًا (فمات) والأكثرون على أن قول العرب (طعن (مبنيًا للمعلوم أو المجهول) في نَيْطه) تعبير يراد به الموت. واختلفوا في أصله. وفي العقد (ثم طُعن في نيطه أي مات) فقوله أي مات تفسير لا تفريع وهو يؤيد ما قلنا ومنه قول سيدنا علي (لَوَدَّ معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمة إلا طعن في نَيْطِهِ).

(٣) الكلاب: ماء بين الكوفة والبصرة. وقيل: ما بين جبلة وشمام على سبع ليالٍ من اليمامة.

فٱلتقوا على الكُلاَب، وٱستحرَّ القتل في بني يربوع، وشدّ أبو حَنَش على شُرَحْبيل فقتله، وكان شُرَحبيل قد قتل ٱبنَه حَنَشًا، فأراد أبو حنش أن يأتيَ برأسه إلى سلمة، فخافه فبعثه مع عسيف[١] له، فلما رآه سَلَمة دمعت عيناه وقال له: أنت قتلته؟ قال لا، ولكن قتله أبُو حَنَش، فقال: إنما أدفع الثواب إلى قاتله، فهرب أبو حَنش منه، فقال سلمة في ذلك: [من الوافر]

ألا أبـلـغْ أبَـا حَـنَـشٍ رَسُـولاً فـمـا لـك لا تـجـيءُ إلـى الـثـوابِ
تَـعـلَّـم أنّ خـيـرَ الـنـاسِ طـرًّا قَـتِـيـلٌ بـيْـنَ أحـجـار الـكُـلاَب

يومُ الصَّفْقة[٢]
وهو يومُ الكُلاب الثاني

قال أبو عبيدة: كان يومُ الكُلاب متّصلاً بيوم الصَّفقة. وكان من حديث الصفقة أنّ كسرى كان قد أوقع ببني تميم، فأخذ الأموال وسبى الذراريّ بمدينة هَجَر[٣]، وذلك أنهم أغاروا على لطيمةٍ[٤] له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير، فسمِّيت تلك الوقعة يوم الصَّفْقة، ثم إنّ بني تميم أداروا أمرهم، وقال ذو الحجى منهم: إنكم قد أغضبتم الملك، وقد أوقع بكم حتى وهنتم، وتسامعت بما لقيتم القبائل، ولا تأمنون ذؤبان العرب.

فجمعوا سبعةً من رؤسائهم وشاوروهم في أمرهم، وهم: أكثم بنُ صيفيّ الأسديّ، والأُحَيْمِر بنُ يزيد بن مرّة المازنيّ، وقيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِيّ، وأُبير بن عصمة التيميّ، والنعمان بن جسّاس التيميّ، وأُبين بن عمرو السعديَّ، والزبرقان بن بدر السعديّ فقالوا لهم: ماذا تَرَوْن؟ فقال أكثم بن صيفيّ، وكان يكنى أبا حنش: إنّ الناس قد بلغهم ما لقينا، ونخاف أن يطمعوا فينا وإني قد نيّفت على التسعين، وقد نحل قلبي كما نحل جسمي، وأخاف ألاّ يدرك ذهني الرأيَ لكم، فليعرض عليَّ كلُّ رجل منكم رأيَه وما يُحضره فإني متى أسمع الحزمَ أعرفه، فقال كلٌّ منهم ما عنده، وأكثم ساكتٌ لا يتكلّم، حتى قام النعمانُ بن الجسّاس فقال: يا قومُ، أنظروا ماءً يجمعكم ولا يعلم الناس بأيّ ماء أنتم حتى تنفرجَ الحلقةُ عنكم، وقد صَلُحَت أحوالكم، وٱنجبرَ كَسِيرُكم، وقَويَ ضعيفُكم، ولا أعلم ماءً يجمعكم إلاّ قِدّة، فقال أكثم: هذا هو الرأي، فٱرتَحلوا

(١) العسيف: المستهان به.
(٢) سمّي الصفقة، لأن كسرى أنو شروان أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر، وهو حصن بالبحرين.
(٣) هجر: اسم الأرض بالبحرين.
(٤) اللطيمة: وعاء المسك.

حتى نزلوا الكُلابَ، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق. فنزلت سعد والرِّباب بأعلى الوادي، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال: وكانوا لا يخافون أن يَغزوا في القَيْظ، لبُعْد تلك الصحاري وشدّة الحرّ بها وقلة المياه، فأقاموا بقيّة القيظ لا يعلم أحدٌ بمكانهم، حتى إذا تهوّر[١] القيظ بعث الله ذا العُيَيْنَتَيْن، وهو من أهل مدينة هَجَر، فمرّ بقِدّة وصحاريها، فرأى ما بها من النّعم، فانطلق حتى أتى أهلَ هَجَر فقال: هل لكم في جارية عَذرَاء، ومُهْرة شَوْهَاء[٢]، وبَكْرة حمراء، ليس دونها نكبة؟ قالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألْقاءً[٣] مطروحون بقِدّة. فمشى بعضهُم إلى بعض وقالوا: اغْتنِموها من بني تميم. فأخرجوا معهم أربعةَ أملاكٍ يقال لهم اليزيديون: يزيد بنُ هَوْبَر، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأموم، ويزيد بن المخرِّم، وهم كلّهم حارثيّون ومعهم عبد يغُوث الحارثيّ، وكان كلُّ واحد منهم على ألفَيْن، فمضَوْا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة قال جرير بن جزء الباهليّ لابنه: يا بنيّ، هل لك في أكرومة لا يُصاب أبدًا مثلُها؟ قال: وما ذلك؟ قال: هذا الحيُّ من تميم قد لجأوا هاهنا مخافة كسرى، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم، فاركبْ جملي الأَرْحَبيّ، وسِرْ سيرًا رُوَيدًا عقبةً[٤] من الليل، ثم حلّ عنه حبليه وأنْخِهُ وتوسَّدْ ذراعه، فإذا سمعتَه قد أفاض بِجرَّتِهِ وبال فاستنقعت ثِفناته[٥] في بَوْله، فشدَّ حبليه ثم ضع السَّوْطَ عليه، فإنك لا تسأل جملك شيئًا من السير إلا أعطاكه حتى تصبّحَ القوم. ففعل ما أمره به.

قال الباهليُّ: فحللتُ بالكُلاب قبل الجيش فناديت: يا صباحاه! فإنهم لَيَثِبون إليَّ ليسألوني مَن أنت؟ إذ أقبل رجلٌ منهم من بني شقيق على مُهر قد كان في النّعم فنادى: يا صباحاه، قد أُتي على النَّعم، ثم كرّ راجعًا نحو الجيش، فلقيه عبد يغوث الحارثيّ وهو أوّل الرعيل، فطعنه في رأس مَعِدته فسبق اللّبنُ الدم، فقال عبدُ يغوث: أطيعوني وامضوا بالنَّعم وخلُّوا العجائز من تميم ساقطة أفواهُها، فقالوا: أما دون أن تُنْكَح بناتُهم فلا.

وقال ضَمْرة بن لبيد الحماسيّ ثم المذحجيّ الكاهن: أنظروا إذا سُقْتُم النَّعَم فإن أتتكم الخيل عُصَبًا عُصَبًا تنتظر العصبة أن تنتظم الأخرى حتى تلتحقَ بها فإن أَمْرَ القوم هيّنٌ، وإن لحق بكم القومُ ولم ينتظر بعضُهم بعضًا حتى يردّوا وجوهَ النَّعَم فإن أمرهم شديدٌ.

(١) تهوّر القيظ: ذهب. (٢) الشوهاء من الخيل: الطويلة الرائعة.
(٣) القاء: جمع لقى، وهو ما طرح على الأرض.
(٤) عقبة من الليل: أي ساعة. (٥) الثفنة: الكربة؛ جمع ثفنات.

وتقدّمت سعد والرِّبابُ في أوائل الخيل وٱلتقَوْا بالقوم فلم يلتفتوا إليهم، وٱستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضُهم بعضًا. ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الجسّاس، ورئيسُ بني سعد قيسُ بنُ عاصم، فٱلتقى القومُ، فكانَ النعمانُ أوّلَ صريع، وٱقتتل الفريقان حتى حجز بينهم الليلُ، ثم أصبحوا على راياتهم، فنادى قيسُ بنُ عاصم: يا آل سعد! يريد سعدَ بن زيد، ونادى عبدُ يغوث: يا آل سعد! يريد سعد العشيرة، فلما سمع قيس ذلك نادى: يا آلَ كعب! يريد كعب بنَ سعد، ونادى عبد يغوث: يا آل كعب! يريد كعب بن عمرو، فلما رأى ذلك نادى: يا آل مُقَاعِس! فلما سمع وَعْلة بن عبد الله الجِرْميّ - وكان صاحبَ لواء أهل اليمن - نادى: يا آلَ مُقَاعِس، تفاءل به فطرح له اللواء، وكان أوّل من ٱنهزمَ، فحملت عليهم سعد والرباب فهزموهم، ونادى قيسُ بنُ عاصم: يا آلَ تميم، لا تقتلوا إلاّ فارسًا فإنّ الرجّالة لكم، ثم جعل يرتجز ويقول:

لـمّـا تَـولّـوا عُـصَـبًـا شَـوَازِبَـا أَقْـسَـمْـتُ لاَ أَطْـعَـنُ إلاَّ راكِـبَـا[1]

* إنِّـي وَجَـدْتُ الـطَّـعْـنَ فـيـهـمْ صَـائِـبَـا *

وأمر قيسُ بنُ عاصم أن يتبعوا المنهزمةَ، ويعرقبوا مَنْ لحقوه، ولا يشتغلوا بالقتل عن اتباعهم، فحزُّوا دوابرهم، وفي ذلك يقول وَعْلة: [من الطويل]

فِـدًى لـكـم أهْـلـي وأمِـي وَوَالـدِي غَـداةَ كُـلاَب إذْ تُـحَـزُّ الـدوابِـرُ

وأسِر عبد يغوث، أسره معصاد بن ربيعة بن الحارث وكتّفه وأردفه[2] خلفه، وكان مَصاد قد أصابته طعنة في مأبضهِ[3]، وكان عِرْقه يهمى[4]، فنزفه الدم، فمال عن فرسه مقلوبًا. فلما رأى ذلك عبدُ يغوث قطع كتافه وأجهز عليه وٱنطلق على فرسه، وذلك أوّلُ النهار، ثم ظفر به بعد في آخره، ونادى مناد: قتل اليزيدون، وشدّ قَبيصة بن ضِرار الضَّبّيّ على ضَمْرَة بن لَبيد الحِماسيّ الكاهن فطعنه فخرّ صريعًا، فقال له قَبيصة: ألا أنبأَك تابعُك بمصرعك اليوم، ثم أُسر عبدُ يغوث، أسره عصمةُ بن أُبَير التيميّ.

---

(١) الشوازب: الضوامر.

(٢) أردفه خلفه: أي جعله يركب خلفه على الراحلة.

(٣) المأبض: باطن الركبة والمرفق. (٤) يهمى: يسيل.

قال أبو عبيدة: انتهى عصمةُ بن أُبَير إلى مَصاد فوجده صريعًا، وكان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيرًا في يديه، فعلم أنه الذي أجهز عليه فاقتصّ أثرَه فلحقه وقال: ويحك! إني رجل أُحبّ اللين[١]، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش. قال: ومَن أنت؟ قال: عصمةُ بنُ أُبير، فانطلق به عصمة حتى خَبَأه عند الأهتم على أن جعل له من فدائه جُعْلاً، فتركَه الأهتم عند امرأته العبشميّة، فأعجبها جمالُه وكمالُ خلقتِه، وكان عصمةُ الذي أسره غلامًا نحيفًا، فقالت له: مَن أنت؟ قال: أنا سيّدُ القوم، فضحكت وقالت: قبّحك الله سيّدُ قوم حين أسَرَك مثلُ هذا، ففي ذلك يقول عبدُ يغوث: [من الطويل]

وتَضْحَكُ مِنّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كأنْ لم تَريْ قَبْلي أسيرًا يمَانِيَا[٢]

فاجتمعت الرِّبابُ إلى الأهتم وقالت: ثأرنا عندك، وقد قُتل مَصاد والنعمان فأخرِجه إلينا، فأبى الأهتم أن يُخرجه إليهم، فكاد أن يكون بين الحيَّيْن: الرِّباب وسعد، فتنة حتى أقبل قيسُ بنُ عاصم المِنْقَرِيّ فقال: أيؤتَى قطع حلْف الرِّباب من قِبَلنا؟ فضرب فاه بقوس فهتَّمه[٣] فسمِّي الأهتم، فقال الأهتم: إنما دفعه إلى عصمة بن أُبير، ولا أدفعه إلاّ لمن دفعه إليَّ، فليجيء فيأخذْه، فأتوا عصمة فقالوا: يا عصمة، قُتل سيّدُنا النعمانُ وفارسُنا مَصاد، وثأرُنا أسيرُك، فما كان ينبغي لك أن تستحييه! فقال: إني مُمْحِل وقد أصبتُ الغنى، ولا تطيب نفسي عن أسيري، فاشتراه بنو جسّاس بمائة بعير، فدفعه إليهم، فخشوا أن يَهْجُوَهم، فشدّوا على لسانه نِسعة، فقال: إنكم قاتلي لا محالة، فدعوني أذمّ أصحابي وأنوح على نفسي! فقالوا: إنك شاعرٌ ونخاف أن تهجُوَنا، فعقد لهم ألاّ يفعلَ، فأطلقوا لسانه، فقال قصيدته التي أوّلها: [من الطويل]

ألاَ لاَ تَلُومانِي كَفَى اللَّومَ مَا بِيَا ... فَمَا لكُمَا فِي اللَّومِ خَيْرٌ ولاَ لِيَا

ومنها: [من الطويل]

أقولُ وقدْ شَدُّوا لسَانِي بِنِسْعَةٍ ... أَمَعْشَرَ تَيْم أَطْلِقُوا لِي لِسانِيَا[٤]

أَمَعْشَرَ تَيْم قدْ مَلَكْتُمْ فأسجحُوا ... فإنّ أساريَ لم يكُنْ مِنْ تواِنيَا[٥]

وقد عَلِمَتْ عِرْسي مُلَيكةُ أنني ... أنا اللَّيْثُ مَعْدِيًّا عليه وعَادِيَا

---

(١) قوله: (إني رجل أحب اللين) صوابه (اللبن) بباء موحدة كأنه يقول له استسلم لآخذ فديتك نياقًا ذات لبن فإني أحبه.

(٢) عبشمية: نسبة إلى عبد شمس. (٣) هتّمه: كسر ثناياه.

(٤) النسعة: القطعة من النسع، وهو سير يضفر من جلد.

(٥) اسجحوا: سهلوا أو يسروا في أمري.

ومنها: [من الطويل]

كـأنّيَ لـم أركَـبْ جَـوَادًا ولَـمْ أقُـلْ   لِخَيْلِيَ كُرِّي قَاتِلي عن رجَالِيا
ولـم أسـبأِ الـزِّقّ الـرَّوِيَّ ولـم أقُـلْ   لأيسَارِ صِدْقٍ أعظِمُوا ضَوْء نَارِيَا(١)

قال: فلما ضُربت عنقه قالت ٱبنةُ مَصاد: بُؤ(٢) بمَصَاد! فقال بنو النعمان: يا لكاع! نحن نشتريه بأموالنا ونبؤ بمَصَاد، فوقع بينهم في ذلك الشرّ، ثم ٱصطلحوا.

يومُ طِخْفَةَ(٣)

قال: كانت الرِّفادة، وقيل الردافة(٤)، ردافة الملوك لعتّاب بن هَرْمِيّ بن رِيَاح، ثم كانت لقيس بن عتّاب، فسأل حاجبُ بن زرارة النعمانَ أن يجعلَها للحارث بن مرط بن سفيان بن مُجاشع، فسألها النعمانُ بني يربوع وقال: أعقبوا إخوتَكم في الرفادة، قالوا: إنهم لا حاجة لهم فيها، وإنما سألها حاجبٌ حسدًا لنا وأبَوْا عليه، فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان: إنّ بني يربوع لا يسلِّمون ردافتَهم إلى غيرهم. وقال حاجب: إن بعث الملك إليهم جيشًا لم يمنعوه ولم يمتنعوا. فبعث النعمانُ إليهم قابوسًا ٱبنَه، وحسّانَ بن المنذر؛ فكان قابوس على الناس، وحسّان على المقدّمة، وبعث معهم الصنائع والوضائع ـ فالصنائع: مَنْ كان يأتيه من العرب، والوضائع: المقيمون بالحيرة ـ فالتقَوْا بطِخْفَة، فٱنهزم قابوس ومَن معه، وضَرب طارقُ بنُ عميرة فرسَ قابوس فعقره، وأخذه ليجزّ ناصيتَه، فقال قابوس: إنّ الملوك لا تُجَزّ نواصيها، فجهّزه وأرسله إلى أبيه، وأما حسّان بنُ المنذر فأسره بشرُ بنُ عمرو الرياحيّ، ثم منّ عليه وأرسله، ففي ذلك يقول مالك بنُ نُوَيْرة: [من الطويل]

ونـحـنُ عَـقَـرْنَـا مُـهْـرَ قـابـوسَ بَـعْـدَمَـا   رأى القومُ منه الموتَ والخيلُ تُلْحَبُ(٥)
عـلـيـه دِلَاصٌ ذاتُ نَـسْـجٍ وسَـيْـفُـه   جُـرَازٌ مـن الـهـنـديّ أبـيـضُ مِـقْـضَـبُ(٦)

(١) لم أسبأ: لم أشتر الخمر. والرويّ: الممتلىء. والأيسار: الذين يضربون القداح.
(٢) بؤ بفلان: أي اذهب به؛ يقال ذلك للمقتول بمن قتل.
(٣) طخفة: موضع بعد النباج وبعد إمرة في طريق البصرة إلى مكة.
(٤) الردافة: فعل ردف الملك، وهو رديفه.
(٥) تلحب: أي تجهد وتلقي ما يؤذيها.
(٦) الدلاص: من الدوع: اللينة البراقة الملساء. والجراز من السيوف: الماضي النافذ. ومقضب: أي قطاع.

يومُ فيف الريح[١]

قال أبو عبيدة: تجمّعت قبائل مَذْحِج وأكثرها بنو الحارث بن كعب، وقبائل من مراد وجُعْفِيّ وزُبَيْد وخَثْعم، وعليهم أَنَسُ بن مُدْرك، وعلى بني الحارث الحُصَيْنُ، فأغاروا على بني عامر بن صعصعة بفَيْف الرِّيح، وعلى بني عامر، عامرُ بنُ مالك مُلاعبُ الأسِنّة.

قال: فاْقتتل القومُ، فكسروهم، واْرفضت قبائل من بني عامر، وصبرت بنو نمير، وأقبل عامرُ بنُ الطُّفَيل وخَلْفه دعِيُّ بني جعفر فقال: يا معشرَ الفتيان، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليشهدني فكان الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنةً، قال عند ذلك: أبا علي، فبينما هو كذلك إذ أتاه مُسْهِر بن يزيد الحارثيّ، فقال له من ورائه: عندك يا عامر والريح عند أذنه[٢] فوهصه ـ أي طعنه ـ، فأصاب عينه، فوثب عامر عن فرسه ونجا على راحلته، وأخذ مسهر رمحَ عامر، ففي ذلك يقول عامرُ بنُ الطفيل من أبيات: [من الطويل]

لعَمْري وما عَمْري عليٌّ بهَيِّنِ ... لقد شانَ حُرَّ الوَجْهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ[٣]

وقال مُسْهر ـ وقد زعم أنهم أخذوا اْمرأة عامر ـ: [من الطويل]

وهَصْتُ بخُرص الرمح مُقْلَةَ عامرٍ ... فأضحَى نحيفًا في الفَوارِس أَعْوَرَا[٤]
وغَادَرَ فينَا رُمْحَه وسِلاَحَه ... وأدْبَر يَدعُو في الهَوالك جَعفرَا
وكنّا إذا قَيْسِيَّةٌ ذهبَتْ بِنَا ... جَرَى دَمْعُهَا مِنْ عَينهَا فتحدَّرَا
مخافةَ ما لاقَتْ حَليلةُ عامرٍ ... من الشرِّ إذ سِرْبالُها قد تَعَفَّرَا

قال: وكانت هذه الوقعةُ وقد بُعث رسول الله ﷺ بمكة، وأدرك مُسْهِرُ بنُ يزيد الإسلام فأسلم.

يومُ زَرُود الأوّل

غزا الحَوْفَزانُ حتى اْنتهى إلى زَرُود خلف جبل من جبالها، فأغارُوا على نَعَم كثير لبني عَبْس فاْجتازوها، وأتى الصريخُ[٥] لبني عبس فركبوا، ولحق عمارةُ بن زيادَ العبسيّ الحَوْفَزان فعرفه ـ وكانت أمُّ عمارة قد أرضعت مُضَرَ بنَ شَريك، وهو أخو

---

(١) فيف الريح: بأعالي نجد.
(٢) قوله: (والريح عند أذنه) صوابه والرمح.
(٣) شان: شوّه أو عاب.
(٤) خرص الرمح: سنانه.
(٥) الصريخ: المستغيث.

الحَوْفَزان ـ فقال: يا بني شَرِيك، قد علمتم ما بيننا وبينكم، قال الحوفزان ـ وهو الحارثُ بنُ شَرِيك ـ: صدقتَ يا عمارة، فانظر كلّ شيء هو لك فخُذْه، فقال عمارةُ: لقد علمتْ نساءُ بني بكر بن وائل أنّي لن أملأ أيديَ أزواجهنّ وأبنائهنّ شفقةً عليهنّ من الموت، فحمل عمارة ليعارض النَّعَم ليردَّه، وحال الحَوْفَزان بينه وبين النَّعَم، فعثرت بعمارة فرسُه فطعنه الحَوْفَزان، وطعنه نعامةُ بنُ عبد الله بن شَرِيك: وأَسِر ٱبنا عمارة: سِنان وشدّاد، وكان في بني عبس رجلان من طيىء: ٱبنان لأوس بن حارثة، مجاورين لهم، وكان لهما أخٌ أسيرٌ في بني يشكُر، فلمّا فقدته بنو شيبان نادوا: يا ثارات معدان! فعند ذلك قتلوا ٱبنَيْ عمارة وهرب الطائيّان بأسيرهما. فلما برىء عمارة من جراحه أتى طيئًا فقال: ادفعوا إليّ هذا الكلب الذي قُتلْنا به، فقال الطائيّ لأوس: ادفع إلى بني عبس صاحبَهم، فقال لهم: تأمرنني أن أعطِيَ بني عبس قطرةً من دمي، وإن ٱبني أسير في بني يشكُر؟ فوالله ما أرجو فكاكه إلاّ بهذا. فلما قفل الحَوْفَزان من غزوه بعث إلى بني يشكُر في ٱبن أوس، فبعثوا به إليه، فٱفتدى به معدان، وقال نعامةُ بنُ شريك: [من الرّجز]

اسْـتَـنْـزَلَـتْ رِمـاحُـنـا سِـنَـانَـا ... وشَـيْـخـنـا بـطِـخْـفَـةٍ عـنـانـا
ثـم أخـوه قـد رَأى هـوَانَـا ... لـمّـا فـقَـدْنَـا بـيـنـنـا مَـعْـدانـا

يومُ غَوْل الأوّل
وهو يومُ كِنْهِل

قال أبو عبيدة: أقبل ٱبنا هجيمة ـ وهما من غسّان ـ في جيش فنزلا في بني يربوع، فجاوَرَا طارقَ بنَ عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له: كِنْهِل، فأغار عليهما أناسٌ من ثعلبة بن يربوع، فٱستاقوا نَعَمهما وأسروا من كان في النَّعَم، فركب قيسُ بنُ هُجَيْمَة بخيله حتى أدرك بني ثعلبة، فكرَّ عليه عُتَيْبَة بن الحارث، فقال له قيس: هل لك يا عُتَيْبة إلى البراز؟ قال: ما كنتُ لأسألَه وأدعه، فبارزه، قال عُتَيْبة: فما رأيتُ فارسًا أملأ لعيني منه، فطعنَني فأصاب قربوس سَرْجي، حتى وجدتُ مسَّ السِّنان في باطن فخذي، ثم أرسل الرمْحَ وهو يرى أن قد أثبتَنِي وٱنصرف فأتبعته الفرس، فلما سمع زَجَلَها رجع جانحًا على قربوس سَرْجه، وبدا لي فرج الدِّرع فطعنتُه بالرمح، فقتلتُه وٱنصرفتُ فلحقتُ النَّعَم، وأقبل الهِرْماسُ بنُ هُجَيْمة فوقف على أخيه قتيلاً، ثم اتبعني فقال: هل لك في البراز؟ فقلت: لعلّ الرجعة خيرٌ لك، قال: أبعدَ قيس؟ ثم شدّ عليّ وضربني على البيضة، فخلص السيف إلى رأسي، فضربتُه فقتلتُه، فقال جرير:

وسـاقَ ٱبـنَـيْ هُـجَـيْـمَـةَ يَـوْمَ غَـوْلٍ ... إلـى أسْـيـافِـنـا قَـدَرُ الـحِـمَـامِ

يومُ الجُبّات[1]

قال أبو عبيدة: خرج بنو ثعلبةَ بن يربوع فمرُّوا بناس من طوائف بكر بن وائل بالجُبات، خرجوا سُفّارًا، فنزلوا وسرَّحوا إبلهم ترعى، وفيها نفرٌ منهم يرعونها، منهم: سَوَادةُ بنُ يزيد بن بُجَير العِجْليّ، ورجلٌ من بني شَيْبَان، وكان محمومًا، فمرَّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل فأطّرَدُوها وأخذوا الرجلَين من بني شيبان، فسألوهما: مَنْ معكما؟ قالا: معنا شيخُ بن يزيد بن بُجَير العِجْليّ في عِصابةٍ من بكر بن وائل خرجوا سُفّارًا يريدون البحرين، فقال الربيعُ ودَعموص أبنا عُتَيْبة بن الحارث بن شهاب: أنذهب بهذين الرجلين وهذه الإبل ولم يعلموا مَنْ أخذها، ارجعوا بنا حتى يَعلموا من أخذ إبلهم وصاحبيهم لنُعنيهم بذلك، فقال عَمِيرة لهما: ما وراءكما إلا شيخ ابن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما إبلَه، دعاه، فأبَيَا ورجعا إليه وأخبراهم وتسمَّيا لهم، فركب شيخ ابنُ يزيد فأتبعهما وقد ولَّيا، فلحِق دَعْموصًا فأسره، ومضى ربيعٌ حتى أتى عَمِيرةَ فأخبره أن أخاه قد قُتِل، فرجع على فرس له يقال لها الخنساء حتى لحقَ القومَ، فأفتَكَّ منهم دَعْموصًا على أن يردَّ عليهم أخاهم وإبلَهم، فردَّها إليهم، فكَفَر[2] بنُو عُتَيبة ولم يشكروا عَمِيرةَ، فقال عَميرةُ في ذلك: [من الطويل]

ألم تَرَ دَعمُوصًا يَصُدّ بوجهِهِ ... إذَا مَا رآنِي مُقْبِلاً لَم يُسَلِّمِ
أَلَمْ تَعلَمَا يا ابْنَيْ عُتَيْبَة مَقْدَمي ... عَلَى ساقطٍ بيْنَ الأَسِنَّةِ مُسْلِمِ
فعارضْتُ فِيه القومَ حتّى انتزعتُهُ ... جِهَارًا ولم أنظُرْ له بالتَّلَوُّمِ

يوم الشِّعْب

غزا قيسُ بنُ شرقاء التغلبيّ، فأغار على بَنِي يربوع بالشِّعْب، فاقتتلوا، فانهزمتْ بنُو يربوع، فأُسِر سُحَيْمُ بنُ وَثِيل الرِّياحيّ، فقال سُحَيْم في ذلك: [من الطويل]

أقولُ لهم بالشِّعْبِ إذْ يأسِرونَنِي ... ألم تَعْلَمُوا أنّي ابنُ فارِسِ زَهْدَمِ[3]

ففدى نفسَه، وأُسِر أيضًا مُتَمّمُ بنُ نُوَيْرة، فوفد مالك بنُ نُوَيْرة على قيسِ بن شرقاء في فدائه فقال: [من الطويل]

هَلْ أنْتَ يا قَيْسُ بنُ شرقاء مُنْعِمٌ ... أو الجهْدَ إنْ أعطيتهُ أنْتَ قابِلُهْ

فلما رأى وسامَتَه قال: بل مُنْعِم، فأطلقَه له.

(١) الجبّات: موضع قريب من ذي قار. (٢) كفر: تبرأ.
(٣) زهدم: فرس لوالد سحيم.

يومُ غَوْل[١] الثاني
فيه قَتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ وعمرَو بنَ مَرْثَد المُحَلِّميّ

غزا طَرِيفُ بنُ هشيم في بني العنبر بن تميم، فأغار على بكر بن وائل بغَوْل، فاْقتتلوا، ثم إنّ بكرًا اْنهزمت، فقَتَل طَرِيفٌ شَراحيلَ أحد بني ربيعة، وقَتَل أيضًا عمرَو بنَ مَرْثَد، وقتل المُجَشَّر.

يومُ الخَنْدَمة[٢]

كان رجلٌ من مُشْرِكي قُرَيش يُحِدّ حربةً يومَ فَتْح مكة، فقالت له اْمرأتُه: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتُها لمحمد وأصحابه! فقالت له: ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء فقال: والله إني لأرجو أن أُخدِمَك بعضَ نِسَائِهم، وأنشأ يقول: [من الرّجز]

إنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فما بيَ عِلَّةْ   هَذَا سِلاَحٌ كامِلٌ وَأَلَّهْ[٣]
* وذو غِرَارَيْن سَرِيعُ السَّلَّةْ *[٤]

فلما لقبهم خالد بن الوليد يوم الخَنْدَمة اْنهزم الرجلُ لا يلوِي على شيء، فلامته اْمرأتُه في ذلك، فقال: [من الرجز]

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ   إذ فرَّ صَفْوَانٌ وفرَّ عِكْرِمَهْ
ولَقِيْتَنَا بِالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ   يَفْلِقْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وجُمْجُمَهْ
ضَرْبًا فلا تُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَهْ   لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ

وهذه القصّة نذكرها ـ إن شاء الله ـ في أثناء السيرة النبويّة في يوم فتح مكة.

يَوْمُ اللُّهَيْماءَ[٥]

قال أبو عبيدة: كان سببُ الحربِ التي كانت بين عمرو بنِ الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيل، وبين عمرو بن عديّ بن الدُّئل بن بكر بن عبد مَنَاة، أنّ قيسَ بنَ عامر بن غريب أخا بني عمرو بنِ عديّ وأخاه سالمًا، خرجا يريدان بني عمرو بنِ

(١) غول: ماء معروف للضبات بجوف طخفة. (٢) الخندمة: جبل بمكة.
(٣) الأله: الحربة. (٤) ذو الغرارين: يراد به السيف.
(٥) اللهيماء: موضع بنعمان الأراك بين الطائف ومكة.

الحارث، على فرسَيْن، يقال لأحدهما: اللّعّاب، والآخر: عَفْزَر، فباتا عند رجل من بني نُفَاثة، فقال النُّفَاثيّ لقيسٍ وأخيه: أطيعاني وارجعَا، لأعرفنّ رماحَكما تُكسر في قتاد[1] نعمان[2]، قالا: إنَّ رِمَاحَنا لا تُكسَر إلاّ في صدور الرجال! قال: لا يضرّكما؛ وستحمدان أمري، فأصبحا غاديين. فلما شارفا مَتْن اللُّهَيْمَاء. من نَعمان، وبنو عمرو بن الحارث فُوَيق ذلك بموضع يقال له أدَيْمة[3]، وأغارا على غنم لجندب بن أبي أعيبس، وفيها جندب، فتقدّم إليه قيسٌ، فرماه جندب على حلمةِ ثديه وبعجه قيسٌ بالسيف فأصابت ضبّةُ[4] السيف وجهَ جندب، وخَرَّ قيس ونفرت الغنمُ نحوَ الدارَ فتبعها وحملَ سالم على جندب بفرسه عفزر، فضرب جندب خطم الفرس بالسيف فقطعه، وضربه سالم بالسيف فقطع إحدى يديه، فخرَّ جندب ووقف عليه سالم، وأدرك العشي سالمًا، فخرج وترك سيفَه في المعركة وثوبَه بحقِويه، ولم ينج إلا بجفن سيفه ومئزرِه فقال حذيفةُ بنُ أنيس في ذلك من أبيات: [من الطويل]

كَشَفَتْ غِطَاء الحرب لَمَّا رَأيتُهَا ... تَمِيلُ عَلَى ضَفْوِ من اللَّيْل أعسَرَا[5]
أَخُو الحرْب إنْ عضَّت به الحربُ عَضَّهَا ... وإنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحربُ شمَّرَا[6]
وَيَمْشي إِذَا مَا المَوْتُ كانَ أَمَامَهُ ... كَذَا الشِّبْلُ يَحمي الأنْفُ أنْ يَتأخَّرَا[7]
نَجَا سَالِمٌ والنفسُ مِنه بِشَرْقَةٍ ... وَلَمْ يَنْجُ إلاّ جَفْنَ سَيْفٍ وَمِئْزَرَا[8]
وَطَابَ عَنْ اللّعَابِ نَفْسًا وَرِمَّةً ... وغَادَرَ قيسًا فِي المَكَرِّ وَعَفْزَرَا

يومُ خَزَاز

قال أبو عُبيدة: تَنازع عامرٌ ومسمعٌ أبنا عبد الملك، وخالدُ بنُ جَبَلة، وإبراهيم بنُ محمد بن نوح العطاردي، وغسّان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سالم الباهليّ، ونفرٌ من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يومَ الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون في الرياسة يومُ خَزَاز. فقال خالدُ بنُ جَبَلة: كان الأحوصُ بنُ جعفر

---

(١) القتاد: شجر صلب له شوك. يحذرهم ألا تطيش رماحهم.
(٢) المراد نعمان الأراك.
(٣) أديمة: على صيغة التصغير: جبل بالحجاز.
(٤) ضبّة السيف: حدّه.
(٥) الضفو: الجانب.
(٦) عضها: أي لم يفتر لغمزها إن غمزته. وشمّرت: قلصت ولقحت واشتد أمرها.
(٧) يحمي الأنف: أي يأنف من التأخر، أي لا يهرب.
(٨) أي نحا بجفن سيف ومئزر.

الرئيس. وقال عامرٌ ومسمعٌ: كان الرئيس كليب وائل. وقال ابنُ نوح: كان الرئيس زرارة بن عدس، وهذا في مجلس أبي عمرو بن العلا، فتحاكموا إليه فقال: ما شهدها عامرُ بن صعصعة، ولا دارمُ بنُ مالك، ولا جشم بن بكر، اليوم أقدم من ذلك، غير أن أهلَ اليمنِ كان الرجلُ منهم يجيءُ ومعه كاتبٌ وطنفسة يقعدُ عليها، فيأخذ من أموالِ نزار ما شاء، كعمّال صدقاتهم اليوم، وكان أوّلُ يوم ٱمتنعتْ مَعَدٌّ عن الملوكِ: ملوكِ حمْيَر، وكانت نزارُ لم تكثر بعد، فأوقَدُوا نارًا على خَزَاز ثلاثَ ليال، ودخَّنوا ثلاثة أيام، فقيل له: وما خَزَاز؟ قال: هو جبلٌ قريبٌ من أَمَرَة على يسار الطريق خلفه صحراء مَنْعِج[1]، ففي ذلك اليوم ٱمتنعت نزار من أهلِ اليمن، قال عمرُو بنُ كلثوم: [من الوافر]

ونــحــنُ غَــدَاة أوْقَــدَ فــي خَــزَازٍ ... رَفَـدْنـا فَـوْقَ رِفْـد الـرَّافِـديـنَـا[2]
فَـكُـنَّـا الأيْـمَـنِـيـنَ إذا ٱلـتَـقَـيْـنَـا ... وكـانَ الأيـسَـريـن بـنُـو أَبـيـنَـا[3]
فـصَـالُـوا صَـوْلَـةً فـيـمـنْ يَـلـيـهـمْ ... وصُـلْـنَـا صَـوْلَـةً فـيـمَـنْ يـلـيـنَـا
فـآبُـوا بـالـنـهَـاب وَبـالـسـبـايَـا ... وأُبْـنَـا بـالـمـلُـوكِ مُـصَـفَّـدِيـنَـا

قال أبو عمرو بن العلاء: ولو كان جدّه كليبُ وَائل قائدهم ورئيسهم ما أدّعى الرفادة وترك الرياسة.

يومُ النِّسار[4]

قال أبو عبيدة: تحالفت أسَدٌ وطيىء وغَطَفان، ولحقت بهم ضبّةُ وعَدِيّ، فغزوا بني عامر فقتلوهم قتلاً شديدًا، فغضبت بنو تميم لمقتل بني عامر، فتجمّعوا حتى لحقوا طيئًا وغطفان وحلفاءَهم من ضبّة وعَدِيّ يومَ الفِجار، فقتلت تميم طيِّئًا أشدّ مما قُتِلَتْ عامرٌ يوم النِّسار، فقال بشرُ بنُ أبي خازم: [من الكامل]

غَـضِـبَـتْ تـمـيـمٌ أنْ تـقـتَّـل عَـامـرٌ ... يومَ الـنِّـسَـارِ فـأعْـقِـبُـوا بـالـصَّـيْـلَـمِ[5]

---

(١) منعج: واد يأخذ بين جفر أبي موسى والنباج ويدفع في بطن فلج.
(٢) رفدنا فوق رفد الرافدين: أي أعنا فوق من أعان.
(٣) الأيمنون: أي المتقدمون؛ والأيسرون: أي المتخلفون.
(٤) النّسار: جبال صغيرة، وقيل ماء لبني عامر بن صعصعة.
(٥) الصّيلم: السيف. والمراد كانت عاقبتهم الصّيلم.

يومُ ذات الشقُّوق[1]

قال: فحلف ضَمْرةُ بنُ ضَمْرةَ النهشَلِيِّ وقال: الخمرُ عليَّ حرامٌ حتى يكونَ لنا يومٌ يكافئه، فأغار عليهم يومَ ذاتِ الشقوق فقتلَهم وقال في ذلك: [من الكامل]

أَلآنَ سَاغَ لِي الشَّرَابُ ولَم أكُنْ ... آتي الفِجَارَ ولاَ أشدُّ تَكلمي
حَتّى صَبَحْتُ علَى الشُّقُوق بغَارَةٍ ... كالتَّمْر تُنْثَرُ في جَرِين الجرَّم[2]
وأفأْتُ يومًا بالجِفَارِ بمِثْلهِ ... وأجرتُ نصْفًا مِنْ حَديثِ المَوْسم
وَمَشَتْ نِسَاءٌ كالنِّسَاءِ عَوَاطِلاً ... مِنْ بَيْن عَارِفَة السِّباء وأَيِّم
ذهَبَ الرِّماحُ بِزَوْجِهَا فتركْنَهُ ... فِي صَدْرِ مُعْتَدِل القَناةِ مُقَوَّمِ

يوم خَوّ[3]

قال أبو عبيدة: أغارت بنو أَسَد على بني يربوع فاكتسَحُوا إبلَهُم، فأتى الصّريخُ الحيَّ فلم يتلاَحَقُوا إلاّ مساءً بموضع يقال له خَوٌّ، وكان ذُؤاب بنُ ربيعةَ الأسَدِيّ على فرس أنثى، وكان عُتَيبةُ بنُ الحارث بن شهاب على حصان يستنشي ريحَ الأنثى في سواد الليل ويتبعُها، فلم يعلم عُتَيبة إلاّ وقد أقحم فرسه على ذُؤاب بنِ ربيعة، وعُتَيبةُ غافلٌ لا يبصر ما بين يديه، فرآه ذؤاب فطعنه في نحره فقتله، ولحق الربيعُ بنُ عُتَيبة فشدّ على ذُؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتِلُ أبيه، فلم يزل عنده أسيرًا حتى فاداه أبوه ربيعة بإبلٍ قاطعه عليها، وتواعدا بسوق عُكَاظ في الأشهُر الحُرُم أن يأتيَ هذا بالإبل وهذا بالأَسير، فأقبل أبو ذؤاب بالإبل، وشُغل الربيع بن عُتَيبة فلم يحضر سوقَ عكاظ، فظنّ ربيعة أبو ذؤاب أن ذؤابًا قُتِلَ بعتيبة، فقال يرثيه: [من الكامل]

أبلِغْ قَبَائلَ جعفَرٍ مخصُوصَةً ... مَا إنْ أُحَاولُ جَعْفَرَ بنَ كِلاَبِ
إنّ المَوَدَّةَ والهَوَادَة بينَنَا ... خَلَقٌ كسَحْقِ الرَّيْطةِ المُنْجابِ[4]
ولقد عَلِمْتُ عَلَى التجلّد والأسَى ... أنّ الرَّزِيّة كان يومَ ذُؤابِ
إنْ يَقْتُلُوكَ فقدْ هتكتَ بُيُوتَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بن الحَارث بن شَهابِ
بِأَحبِّهِم فقْدًا عَلَى أعدَائهِ ... وأشدِّهِمْ فقدًا على الأَصحابِ

فلما بلغ إليهم الشعر قتلوا ذؤابَ بنَ ربيعة.

---

(١) الشقوق: من مياه ضبّة بأرض اليمامة. (٢) الجرين: موضع التمر الذي يجفف فيه.
(٣) خوّ: واد لبني أسد. وقيل: كثيب معروف بنجد بين ديار بني أسد وديار بني يربوع.
(٤) الريطة: كل ثوب لين رقيق.

أيامُ الفِجَار[١]

الفِجارُ الأوّل

قال أبو عبيدة: أيامُ الفِجَار عدّةٌ، فأوّلها بين كنانة وهَوَازن. وكان الذي هاجه أنّ بدْر بنَ معشر أحد بني عقال بن مُلَيك بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة جعل له مجلسًا بسوق عُكَاظ، وكان منيعًا في نفسه، فقامَ في المجلس وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول: [من الرجز]

نَحْنُ بنُو مُدْرِكة بنِ خِنْدِفِ مَن يَطْعَنُوا في عَيْنه لا يَطْرِف
ومَنْ يكُونُوا قومَه يُغَطْرِف كأنّهُمْ لُجّةُ بَحْرٍ مُسْدِفِ[٢]

قال: ومدّ رجله وقال: أنا أعزّ العرب، فمن زعم أنه أعزُّ منّي فليَضربها، فضربها الأحَيمرُ بنُ مازِن أحد بني دُهْمان بن نضر بن معاوية، فأندرها[٣] من الركْبة وقال: خذها إليك أيها المخندِفُ! قال أبو عبيدة: إنما خرصها[٤] خُرَيصية يسيرة وقال في ذلك: [من الرجز]

نَحْنُ بنُو دُهْمَانَ ذُو التَّغَطْرُفِ بحرٌ لِبحْرٍ زَاخِرٍ لم يُنْزَفِ
* نَبْني على الأحياء بالمُعَرّف *

قال أبو عبيدة: فتحاور الحيّان عند ذلك حتى كاد يكون بينهم قتالٌ، ثم تراجعوا ورأَوْا أنّ الخطبَ يسيرٌ.

الفِجَارُ الثاني

قال: كان الفجارُ الثاني بين قُرَيش وهَوَازِن، وكان الذي هاجه أنّ فِتْيةً من قريش قَعَدوا إلى أمرأةٍ من بني عامر بن صعصعة وضيئةٍ بسوق عُكَاظ. وقالوا: بل أطاف بها

---

(١) سميت الفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرمونها ففجروا فيها، كما سيأتي.

(٢) الغطريف: السيد الشريف السخيّ الكثير الخير. والمسدف: المظلم.

(٣) أندرها: أي قطعها.

(٤) قوله: (وقال أبو عبيدة: إنما خَرَصها خُرَيْصِيةً يسيرة) هكذا بالخاء المعجمة وبتصغير (خُرَيْصِية). ومثله في العقد غير أن (خريصة) فيه غير مصغر. والصواب (حَرَصَهَا حَرِيصة) بالحاء المهملة فيهما وتكبير حريصة، ففي اللسان: (والحرص الشق... والحارصة والحريصة أول الشجاج وهي التي تحرص الجلد أي تشقه قليلاً). وقد ذكرت الحارصة في الحديث كما في النهاية.

شبابٌ من بني كنانة وعليها برقع فأعجبهم ما رأَوْا من هيئتها، فسألوها أن تسفر عن وجهها، فأبت عليهم، فأتى أحدُهم من خلفها فشدّ دُبُرَ دِرْعها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تَدْري، فلما قامت تقلّص الدِّرعُ عن دُبُرها، فضحكوا وقالوا: منعْتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دُبُرَها، فنادتِ المرأةُ: يا آلَ عامر! فتحاور الناسُ، وكان بينهم قتالٌ ودماء يسيرة، فحملها حربُ بنُ أُميّة وأصلح بينهم.

الفِجَارُ الثالثُ وهو بين كِنانةَ وهَوَازِن

وكان الذي هاجه أنّ رجلاً من بني كنانة كان عليه دَيْنَ لرجل من بني نضر بن معاوية، فأعدم الكنانيّ، فوافى النضريّ بسوق عُكَاظ بقرد، فأوقفه في سوق عكاظ فقال: مَنْ يبيعني مثلَ هذا بما لي على فلان حتى أكثر في ذلك. وإنما فعل ذلك تعبيرًا للكنانيّ ولقومه، فمرّ رجلٌ من بني كنانة فضرب القردَ بالسيف فقتله، فهتف النضريُّ: يا آلَ هوازن! وهتف الكنانيُّ: يا آلَ كِنانة! فهاج الناسُ حتى كاد أن يكونَ بينهم قتالٌ، ثم رأوا الخطبَ يسيرًا فتراجعوا.

قال أبو عبيدة: إنما سُميتْ هذه الأيامُ بالفجَار لأنها كانت في الأشهر الحُرُم، وهي الشهور التي يحرّمونها، وهذه يقال لها أيامُ الفجار الأوّل.

الفجار الآخر وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هَوَازِن

وإنما هاجها البَراضُ بقتله عُرْوَة الرحّال بن عُتْبة بن جعفر بن كِلاب، فأبت أن تقتل بعُرْوة البرّاض لأن عُرْوةَ سيّدُ هوازن، والبرّاضُ خليعٌ من بني كِنَانة، وأرادوا أن يقتلوا به سيِّدًا من قريش.

وهذه الحربُ كانت قبل مبعث النبيّ ﷺ بستّ وعشرين سنة، وقال رسول الله ﷺ: «كنتُ أنبُلُ على أعمامي يومَ الفِجَار وأنا ابنُ أربع عشرة سنة» يعني أناوِلهم النبل.

وكان سببُ هذه الحرب أنّ النعمانَ بنَ المنذر اللَّخْميّ ملكُ الحيرة كان يبعث إلى سوق عُكَاظ في كلّ عام لَطِيمة[1] في جوار رجل شريف من أشراف العرب يُجيرها له، حتى تباعَ هنالك ويشتري له بها من أَدَم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم في أوّل يوم من ذي القعدة، فيتسوّقون إلى حضور الحجّ، ثم يحجُّون، فجهّز النعمان عِير اللطيمةِ ثم قال: مَنْ يُجِيرُها؟ فقال البرّاضُ بنُ قيس الضمريّ: أنا أُجِيرها على بني كنانة، فقال النعمان: ما أريد إلاّ رجلاً يُجيرها على

(١) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب.

أهل نجد وتهامة، فقال عُرْوة الرحّال ـ وهو يومئذ رجل هوازن ـ أكلبٌ خليع يجيرها لك؟ أبيتَ اللعن! أنا أُجيرها لك على أهل الشِّيح[١] والفَيْصوم[٢] من أهل نجد وتهامة! فقال البرّاض: أعلى بني كنانة تُجيرها يا عُرْوةُ؟ قال: وعلى الناس كلّهم! فدفعها النعمانُ إلى عُروةَ، فخرج بها وتَبِعه البرّاضُ، وعُرْوةُ لا يخشى منه شيئًا، إلى أن نزل بأرض يقال لها أوَارَة[٣]، فشرب من الخمر وغنّته قَيْنةٌ[٤]، ثم نام، فجاء البرّاض فدخل عليه، فناشده عُرْوة وقال: كانت منّي زلّة، وكانت الغَفْلة مني ضَلّة، فقتله وخرج وهو يرتجز ويقول:

قَدْ كانتِ الغفلةُ مِنّي ضَلَّهْ هَلاّ علَى غَيْري جَعلْتَ الزَّلَّهْ

* فسوفَ أعلُو بالحُسَامِ القُلَّهْ *

وقال: [من الوافر]

وَدَاهيةٍ يُهَالُ الناسُ مِنْهَا شَدَدْتُ لَهَا بَنِي بكْرٍ ضُلوعِي

هَتَكْتُ بها بيوتَ بَنِي كِلاَبٍ وأرْضَعتُ المَوَالِي بالضُّرُوعِ

جَمَعْتُ له يَدَيَّ بِنَصْلِ سَيْفٍ أفلَّ فخرَّ كالجِذْعِ الصَّرِيعِ[٥]

وٱستاق اللطيمةَ إلى خَيْبر، وٱتّبعه المُسَاوِرُ بنُ مالك الغَطَفانيّ، وأسَدُ بنُ خَيْثم الغَنَوِيّ حتى دخلا خيبرَ، فكان البرّاضُ أوّلَ مَن لقيهما، فقال لهما: مَن الرجلان؟ قالا: من غَطَفانَ وغَنِيّ. قال البرّاض: ما شأنُ غَطَفان وغَنِيّ بهذا البلد؟ قالا: ومَن أنت؟ قال: من أهل خيبر. قالا: ألك علمٌ بالبرّاض؟ قال: دخل علينا طريدًا خَلِيعًا فلم يُؤْوِه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتًا. قالا: فأين يكون؟ قال: وهل لكما به طاقةٌ إن دللتكما عليه؟ قالا: نعم. قال: فأنزلا، فنزلا وعقلا راحلتيْهما. قال: أيّكما أجرأ عليه وأمضى مقدَمًا وأحدُّ سيفًا؟ قال الغَطَفانيّ: أنا. قال: فٱنطلقْ أدلّك عليه، فٱنطلقا حتى ٱنتهيا إلى خَرِبَة في جانب خيبر خارجةٍ عن البيوت، فقال البرّاض: هو في هذه الخربة وإليها يأوِي، فأنظِرْني حتى أنظر أثَمّ هو أم لا، فوقف له ودخل البرّاض ثم خرج إليه وقال: هو قائمٌ في البيت الأقصى خلف هذا الجدار، فهل عند سيفك صَرَامةٌ؟ قال: نعم. قال: هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو؟ فأعطاه سيفه، فهزّه

---

(١) الشيح: نبات سهلي يتخذ منه بعض المكانس.
(٢) الفيصوم: نبات طيب الرائحة، وورقه هدب وله نورة صفراء، وهي تنهض على ساق. والمراد بأهل الشيح والفيصوم العرب جميعًا.
(٣) أوارة: ماء في بلاد بني تميم.
(٤) القينة: المغنية.
(٥) أفل: أي ذو فلال، وهو كسور في حده من كثرة الضرب به.

البرّاض ثم ضربه فقتله، ووضع السيفَ خلف الباب وأقبل إلى الغَنَوِيّ فقال: ما وراءك؟ قال: أَجْبَنُ من صاحبك، تركتُه قائمًا في البيت الذي فيه الرجل، والرجل نائمٌ لا يتقدّم إليه ولا يتأخّر عنه، قال الغَنَوِيّ: يا لهفاه! لو كان لي من ينظر راحلتينا، قال البرّاض: هما عليّ إن ذَهَبْتا، فأنطلق الغنويّ والبرّاض خلفه حتى إذا جاور الغنويّ باب الخَرِبة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب ثم ضربه حتى قتله وأخذ سلاحَيْهما وراحِلَتَيْهما وأنطلق.

وبلغ قُرَيشًا خبرُ البرّاض بسوق عُكَاظ، فخلصوا نَجِيًا، وأتبعتهم قيسٌ لمّا بلغهم أنّ البرّاض قتل عُرْوةَ الرحّال، وعلى قيس أبو براءٍ عامر بن مالك، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم، فنادوهم: يا معشرَ قريش، إنّا نعاهد الله ألاّ نُبطل دَمَ عُرْوة أبدًا، أو نقتُل به عظيمًا منكم، وميعادُنا معكم هذه الليلة من العام القابل، فقال حرب بن أميّة لأبي سفيان ابنه: قل لهم: إنّ موعدكم قابلٌ في هذا اليوم، فقال خِدَاش بن زُهَير في هذا اليوم، وهو يوم نخلة، من أبيات أوّلها: [من البسيط]

يـا شَـدَّةً مـا شَـدَدْنـا غـيـرَ كـاذِبَـةٍ   علـى سَخِينَـةَ لـولا الليـلُ والـحُـرَمُ

وكانت العرب تسمّي قريشًا سَخِينة لأكلها السَّخينة.

يومُ شَمْظَة[1] وهو يومُ نَخْلَةَ من الفجَار الآخر

قال: فجمعتْ كِنَانةُ قُرَشيّها وعبدَ مَنَافِها والأحابيشَ ومَنْ لحق بهم من بني أَسَد بن خُزَيمة، وأَلبس يومئذ عبدُ الله بنُ جَدْعان مائةَ كَمِيّ السلاح بأداة كاملة، سوى ما أَلبس من قومه، والأحابيشُ بنو الحارث بنِ عبدِ مَنَاة بن كنانة. قال: وجمعت سُلَيم وهَوَازن وجموعهما وأخلافهما، غيرِ كلاب وبني كعب، فإنهما لم يشهدا يومًا من أيام الفِجَار غيرَ يوم نَخْلة، فأجتمعوا بشَمْظَةَ من عُكَاظ في هذه الأيام التي تواعدوا فيها على قَرْن[2] الحَوْلَ، وعلى كلّ قبيلة من قُرَيش وكنانة سيِّدُها، وكذلك على قبائل قيس، غيرَ أنّ أمرَ كنانة كلّها إلى حرب بن أميّة، وعلى إحدى مجنبتيها عبدُ الله بنُ جَدْعان، وعلى الأخرى كُرَيْز بن ربيعة، وحرب بن أميّة في القلب، وأمرُ هَوَازن كلّها إلى مسعود بن معتب الثقفيّ، فزحف بعضهم إلى بعض، فكانت الدائرة في أوّل النهار لكنانة على هَوَازِن، حتى إذا كان من آخر النهار تداعت هَوَازن وصابرت، وأنكشفت كنانة فأستحرّ القتل فيهم، فقُتِل منهم تحت رايتهم مائةُ رجل، ويقال ثمانون، ولم يُقتَل من قريش أحدٌ يذكر، فكان هذا اليومُ لهوازن على كنانة.

---

(١) شمطة: موضع قريب من عكاظ.   (٢) قرن الحول: أوله.

يوم العَبْلاء(١)

قال: ثم رجع هؤلاء وأولئك فٱلتقَوْا على قَرْن الحَوْل من يوم عُكَاظ، والرؤساء عليهم الذين ذكرناهم في يوم شَمْطَة، فكان هذا اليومُ أيضًا لهَوَازِن على كِنانة. وفي هذا اليوم قُتِل العوّام بن خُوَيلد والد الزبير، قتله مُرّة بن معتب الثقفيّ، وقال رجلٌ من ثقيف: [من الكامل]

منّا الذي ترك العوام مُنْجَدِلا   تنتابه الطيرُ لحمًا بين أحجار

يومُ شَرِب(٢)

ثم جمع هؤلاء وأولئك فٱلتقَوْا على قَرْن الحَوْل في اليوم الثالث من أيام عُكَاظ، فٱلتقَوْا بشَرِب، وهو أعظمُ أيامهم والرؤساء عليهم وعلى المجنبتَيْن مَنْ ذكرنا، وحَمل ٱبنُ جَدْعان يومئذ مائةَ رجل على مائة بعير ممن لم تكن له حمولة، فٱلتقَوْا، وقد كان لهَوَازِن على كنانة يومان متواليان: يوم شَمْطة والعَبْلاء، فحمشت قريش وكنانة، وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر، فٱنهزمت هوازن وقُتلت قتلاً ذريعًا، فقال عبدُ الله بن الزِّبعْرَى يمدح بني المغيرة: [من الهزج]

ألاَ لِلّهِ يا قَوْمُ   لِدَتْ أُخْتُ بني سَهْم(٣)
هِشَامٌ وأبو عبد   مَنافِ مِدْرَهُ الخَصْم(٤)
وذو الرُّمْحَيْن أشْبَالَ   مِنَ القُوَّة والحَزْمِ(٥)
فهٰذانِ يَذُودَانِ   وذَا مِنْ كَثَبٍ يَرْمِي

وأبو عبد مناف: هاشم بن المغيرة. وذو الرُّمحين: أبو ربيعة بن المغيرة، قاتل يومَ شَرِب برمحين. وأمُّهم رَيْطة بنت سعد بن سَهْم، فقال في ذلك جذْل الطعان: [من البسيط]

جاءتْ هَوَازِنُ أَرْسالاً وإخْوَتُها   بنو سُلَيْم فهابُوا المَوْتَ وٱنْصَرَفُوا
فٱسْتُقْبِلُوا بضِرَابٍ فَضَّ جَمْعَهُمُ   مِثْلِ الحَرِيق فما عاجُوا ولا عَطَفُوا

---

(١) العبلاء: علم على صخرة بيضاء، جانب عكاظ.
(٢) شرب: موضع قرب مكة.. (معجم البلدان).
(٣) أخت بني سهم: هي ريطة بنت سعيد (الأمالي).
(٤) المدرة: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلّم عنهم.
(٥) يقال: أشباك لفلان، كما يقال حسبك لفلان.

يومُ الحُرَيْرة(١)

ثم جمع هؤلاء وأولئك وٱلتقَوْا على رأس الحَوْل بالحُرَيْرة، وهي حَرَّة إلى جَنْب عُكَاظ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك هم الذين كانوا في سائر الأيام، وكذلك على المجنبتَيْن إلاّ أنّ أبا مُسَاحِق بن قيس اليَعْمُرِيّ قد كان مات، فكان بعده على بكر بن عَبْدِ مَنَاة بن كِنانة أخوه جُثَّامة بن قيس، فكان يوم الحُرَيْرة لهَوَازِن على كِنانة، وهو آخرُ الأيام الخمسة التي تزاحفوا فيها، فقُتِل يومئذ أبو سُفيان بن أميّة أخو حرب بن أميّة، وقُتِل من بني كنانة ثمانية نَفَر، قتلهم عثمان بن أُسَيد بن مالك من بني عامر بن صعصعة، وقُتِل جماعة أخر، فقال خِدَاش بن زُهَيْر: [من البسيط]

إنِّي مِنَ النَّفَرِ المُحْمَرِّ أَعْيُنُهُمْ ... أَهْلِ السَّوَامِ وأَهْلِ الصَّخْرِ واللُّوبِ(٢)
الطَّاعِنِينَ نُحُورَ الخَيْلِ مُقْبِلَةً ... بِكُلِّ سَمْرَاءَ لم تُعْلَبْ ومَعْلُوبِ(٣)
وقدْ بَلَوْتُمْ وَأَبْلُوكُمْ بَلاءَهُمُ ... يَوْمَ الحُرَيْرَةِ ضَرْبًا غَيْرَ تَكْذِيبِ
لاقَيْتُمُ مِنْهُمُ آسَادَ مَلْحَمَةٍ ... لَيْسُوا بِزَرّاعَةٍ عُوجِ الْعَرَاقِيبِ
فالآنَ إن تَقْبَلُوا نَأْخُذْ نُحُورَكُمُ ... وإنْ تُبَاهُوا فإنِّي غَيْرُ مَغْلُوبِ

وقال الحارثُ بنُ كَلْدَةَ الثَّقَفيّ: [من الوافر]

تركتُ الفارِسَ البذَّاخَ مِنْهُمْ ... تَمُجُّ عُرُوقُهُ عَلَقًا عَبِيطَا(٤)
دَعَسْتُ لَبَانَهُ بالرُّمْحِ حتّى ... سَمِعْتُ لِمَتْنِهِ فِيه أَطِيطَا(٥)
لقدْ أَرْدَيْتَ قَوْمَكَ بابْنَ صَخْرٍ ... وقدْ جَشَّمْتَهُمْ أمرًا سَلِيطَا
وكَمْ أَسْلَمْتُ مِنْكُمْ مِنْ كَمِيٍّ ... جَرِيحًا قدْ سَمِعْتُ لهُ غَطِيطَا

مَضَتْ أيّام الفِجَار الآخِر، وهي خمسة أيام في أربع سنين.

قال أبو عبيدة: ثم تَدَاعَى الناسُ إلى السِّلْم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا.

---

(١) الحريرة: موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة (معجم البلدان).
(٢) اللوب: واحدتها اللوبة، وهي الحرّة.
(٣) سمراء: أي قناة. والمعلوب: الرمح.
(٤) العبيط: الطريّ غير الناضج.
(٥) الأطيط: الصوت من ثقل الحمل.

يومُ عَيْن أُباغ[1]

قال أبو عبيدة: كان ملك العرب المُنْذِر الأكبر بن ماء السماء، ثم مات فملك ٱبنه عمرو، ثم هلك فملك بعده أخوه قابوس، ثم مات فملك أخوه المنذر بن المنذر ابن ماء السماء. وذلك في مملكة كِسْرى بن هُرْمُز، فغزاه الحارث الغسّانيّ، وكان بالشام من جهة قَيْصر، فٱلتقَوْا بعَيْن أُبَاغ، فقُتِل المُنْذِرُ، فولّى كِسْرَى النعمان بن المُنْذِر، ثم سُعِيَ إلى كِسْرى في النعمان فقتله، وقد تقدّم ذكر سبب ولايته ومقتله.

وكان النعمان لمّا تحقّق غَضَبَ كِسْرَى عليه هرب، ثم علم أنه لا مَنْجَى له من يَدِ كسرى فقَدِم إليه فقَتَله. وٱستعمل كِسرى على العرب إيَاس بن قَبِيصة الطائيّ. وكان النعمان لمّا شَخَص إلى كسرى أَوْدَعَ حَلقته، وهي ثمانمائة دِرْع وسلاحًا كثيرًا، هانىءَ بن مسعود الشَّيْبانيَّ، وجعل عنده ٱبنته هندًا التي تُسَمَّى حُرَقة، فلمّا قُتِل النعمانُ قالت فيه الشعراء، فقال زُهَير بن أبي سُلْمَى من أبيات: [من الطويل]

أَلَم تَرَ لِلنُّعمان كان بِنَجْوَةٍ ... من الشرِّ لَوْ أنّ ٱمْرَأً كان ناجِيَا
فلم أَرَ مَخْذُولاً له مثلَ مُلْكِهِ ... أَقَلَّ صديقًا باذلاً أو مُوَاسِيَا

يومُ ذي قارٍ

قال أبو عبيدة: يومُ ذي قار هو يومُ الحِنْو، ويوم قُرَاقِر، ويومُ الجُبابات، ويومُ ذات العُجْرُم، ويومُ بَطْحاء ذي قار، وكلُّها حول ذي قار.

قال أبو عبيدة: لم يكن هانىءُ بنُ مسعود المستودَع حَلقة النعمان، وإنما هو ٱبنُ ٱبنِه، وٱسمه هانىء بن قَبِيصة بن هانىء بن مسعود، لأنّ وقعة ذي قار كانت وقد بُعِثَ النبيّ ﷺ وخبَّر أصحابه بها فقال: «اليومُ أوّلُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نُصِروا».

ولما قُتِل النعمانُ كتب كسرى إلى إيَاس بن قَبِيصة يأمره أن يضمّ ما كان للنعمان، فأبى هانىء بن قَبيصة أن يسلِّم ذلك إليه، فغَضِبَ كسرى وأراد ٱستئصال بكر بن وائل، فقَدِمَ عليه النعمانُ بنُ زُرْعَة التغلبيّ فقال: يا خَيْرَ الملوك، ألا أَدُلُّك على غِرَّة بكْر بن وائل، قال نعم، قال: أَقِرَّها وأظهر الإضراب عنها حتى يُجْليها

(١) أباغ: موضع بطرف أرض العراق ما يلي الشام.

القَيْظ ويُدْنِيها منك، فأقرّهم، حتى إذا قاظوا نزلت بَكْر حِنْو ذي قار، فأرسل إليهم كسرى النعمانَ بنَ زُرْعة يخيِّرهم بين ثلاث خِصَال: إمّا أن يُسَلِّموا الحَلقة، وإمّا أن يُعَرُّوا الدِّيَار، وإمّا أن يَأذَنوا بحَرْب. فتنازعتْ بكر بينها، فهمّ هانىءُ بنُ قَبِيصة بركوب الفَلاة، وأشار به على بكر وقال: لا طاقةَ لكم بجموع الملك، فلم تُرَ من هانىء سقطة قبلها.

وقال حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ: لا أرى غيرَ القتال، فإنّا إن ركبنا الفَلاة مُتنا عَطَشًا، وإن أعطينا بأيدينا تُقتَل مقاتلتُنا وتُسبَى ذراريّنا، فراسلت بكر عنها وتوافت بذي قار، ولم يشهدها أحدٌ من بني حنيفة، ورؤساء بكر يومئذ ثلاثةُ نَفَر: هانىء بن قَبِيصة الشيبانيّ، ويزيد بن مُسْهر الشَّيْبانيّ، وحنظلة بن ثعلبة العِجْلِيّ.

فقال حنظلة بن ثعلبة لهانىء بن قَبِيصة: يا أبا أُمامة. إن ذمَّتكم ذِمَّتنا عامّة، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تَفْنَى أرواحنا، فأخرِج هذه الحلقة ففرّقْها بين قومك، فإن تظفر فستُردّ عليك، وإن تهلك فأهون مفقود، ففَرّقَها فيهم. وقال للنعمان: لولا أنك رسولٌ ما أُبتَ[١] إلى قومك سالمًا.

قال: فعقد كسرى للنعمان بن زُرْعة على تغلب والنَّمِر. وعقد لخالد بن يزيد البهرانيّ على قُضاعة وإياد. وعقد لإياس بن قَبِيصة على جميع العرب، ومعه كتيبتاه: الشهباء ودَوْسَر. وعقَد للهامَرْز التُّسْتَرِيّ على ألف من الأساورة[٢]، وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجَدَّيْن ـ وكان عاملَه على طفّ[٣] سَفَوَان ـ يأمره أن يوافي إياس بن قَبِيصة، فسار إليه.

وسار إياس بمَنْ معه من الجُنْد وغيرهم، فلما دنَوْا من بكر أقبل قيس بن مسعود إلى قومه ليلاً، فأمرهم بالصبر ثم رَجَع.

فلما ٱلتقَى الزَّحْفان وتقرّب القوم، قام حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلِيّ فقال: يا معشر بكر، إنّ نُشّابَ الأعاجم يفرّقكم، فعاجلوهم إلى اللِّقاء وابدؤوهم بالشدّة.

---

(١) أبت: عدت.

(٢) الأساورة: جمع الأسوار، وهو من رماة الحدق من الفُرس. أو الفارس الجيد الثبات على ظهر الفَرس.

(٣) الطفّ: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق.

وقال هانىء بن مسعود: يا قوم، مَهْلَكٌ مقدور، خيرٌ من منجىً مغرور. إنّ الجزع لا يَرُدّ القَدَر، وإنّ الصبرَ من أسباب الظفَر، المنيّة خيرٌ من الدنيّة، وٱستقبال المنيّة خيرٌ من ٱستدبارها، فالجدّ الجدّ، فما من الموت بدّ.

ثم قام حنظلةُ بنُ ثعلبة فقطَع وُضُنَ[١] النساء فسَقَطْنَ إلى الأرض وقال: ليقاتل كلّ رجل عن حَلِيلته، فسُمِّيَ مُقَطِّع الوُضُنَ.

قال: وقطع يومئذ سبعمائة من بني شيبان أيدِي أَقْبِيَتهم من مناكبها لتخفّ أيديَهم لضرب السيوف فتجالد القوم، وقَتَل يزيد بن حارثة اليَشكُرِيّ الهامَرْزَ مبارزة، ثم قُتِل يزيد بعد ذلك. فضرب الله وجوه الفُرْس فٱنهزموا، وٱتبعتهم بكر حتى دخلوا السوَادَ في طلبهم، وأُسِرَ النعمان بن زُرْعة التغلبيّ. ونجا إيَاس بن قَبِيصة على فرسه الحمامة، فكان أوّل من ٱنصرف إلى كسرى بالهزيمة هو[٢]. وكان لا يأتيه أحدٌ بهزيمة جيش إلاّ نزع كتفيه. فلمّا أتاه إياس بن قَبِيصة سأله عن الجيش فقال: هَزَمْنا بكرَ بنَ وائل وأتيناك ببناتهم. فأَعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم استأذنه إياس فقال: أخي قيس بن قَبِيصة مريض بعَيْن التَّمْر، فأردتُ أن آتِيَه، فأذِنَ له.

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخَوَرْنَق[٣] فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقالوا: إياس، فظنّ أنه قد حدّثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم وقَتْلهم، فأمر به فنُزِعَتْ كتفاه. وقد أكثرت الشعراء في يوم ذي قار. فمن ذلك ما قاله أعشى بكر من قصيدة له: [من البسيط]

لَوْ أنّ كُلَّ مَعَدٍّ كان شارَكَنا ... في يومِ ذِي قارٍ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ
لمّا أمالُوا إلى النُّشّاب أيديَهُمْ ... مِلْنا بِبيضٍ لمثْلِ الْهام تَخْتطِفُ[٤]
بَطارِقٌ وبنو مَلْك مَرَازِبَةٍ ... من الأعاجِم في آذانها النُّطُفُ[٥]
كأنما الآلُ في حافاتِ جَمْعِهِمُ ... والبِيضُ بَرقٌ بدا في عارضٍ يَكِفُ[٦]
ما في الخُدُودِ صُدُودٌ عن سيوفِهِمُ ... ولا عَنِ الطَّعنِ في اللَّبَاتِ مُنْحَرِفُ

---

(١) الوضن: حزم الرحال.
(٢) ضمير الفصل يعود على إياس بن قبيصة.
(٣) الخورنق: اسم قصر، وقد تقدم تفسيره.
(٤) قوله: (ملنا ببيض لمثل الهام نختطف) صوابه كما في بعض النسخ (فظلّ الهامُ تُختَطَفُ).
(٥) النطف: جمع نطفة، وهي القرط.
(٦) الآل: الأهل والعيال.

وقال الأعشى يلوم قيسًا من أبيات: [من الطويل]

أقيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بن خالدِ وأنتَ آمْرؤٌ ترجو شَبَابَكَ وائلُ[١]
رَحَلْتَ ولم تنظُرْ وأنتَ عَمِيدُهُمْ فلا يَبْلُغَنّي عنكَ ما أنتَ فاعِلُ
فعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتُهُ كما عُرِّيتَ ممّا تُمِرُّ المغازِلُ
شَفَى النفسَ قَتْلَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها وِسادًا ولم تُغْضَض عليها الأناملُ
بعينيكَ يوم الحَنْو إذ صبّحتهموا كتائب موتٍ لم تعقلها العواذلُ

قال: ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود بما فعل مع قومه حبسه حتى مات في حبسه، ففيه قال الأعشى:

* وَعُرِّيتَ من أهلٍ ومالٍ جَمَعْتَهُ *

تمّ ـ بعونه تعالى ـ الجزء الخامس عشر،
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء السادس عشر،
وأوله: القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار الملّة الإسلامية

(١) قيل: كان قيس كل يوم يطعم على مائة نطع، وله مائة ناقة للضيافة يسقي ألبانها، فإذا احتاج إلى واحدة منها نحرها ووضع مكانها أخرى.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء السادس عشر

تحقيق

الأستاذ علي محمد هاشم

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا

القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار الملّة الإسلاميّة

لمّا أنتهى الغَرَض في التاريخ إلى الغاية التي ذكرتُها، والقَصَص في الأخبار التي أوردتُها، والدول والوقائع التي أنتخبتُها، مما طالعتُه وحررتُها؛ عَمَدتُ إلى ذكر الملّة الإسلاميّة التي فضّلها الله تعالى على سائر المِلَل، ورفع أهلها بالعمَل الصالح ووفّقهم لصالح العمَل، ووعَدهم برحمته، فهم من وَعْدِهِ في أمن، وحذّرهم عقابه؛ فهم من وعيده على وَجَل، وبعث فيهم رسولاً من أنفُسِهم فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونَصَح الأمّة وعَدَل، وجعله شافعًا لذنوبهم في يوم أحجم فيه مَن سواه عن الشفاعة وبنفسه آشتغل، وجعلهم به خير أمّة أخرِجت للناس يأمرون بالمعروف ويَنْهوْن عن المنكر، ويؤمنون بالله؛ إذ جَحَد غيرهم ونَكَل؛ فهم الشهداء على الناس لأنبيائهم، وناهيك بها رُتبة تَقدّم بها أواخرُ القوم على الأُوَل. وقلتُ: بالله التوفيق، ومنه الإعانة وعليه المُتكَل.

الباب الأوّل

من القسم الخامس من الفن الخامس
في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ

وهي السيرة التي ظهرتْ آياتُها، وٱشتهرتْ مُعجِزاتُها، وأشرقتْ أنوارُها، وٱنتشرتْ أخبارُها، وعَمّت فضائلُها، وطابتْ بُكَرُها وأَصائلُها، وحسُنتْ أوصافُها، وكثُر إنصافُها، وجاءت في ظُلْمة الضّلالة تتَّقد، وما أنكَر العدو فضائلَها بل شهدَ: [من الكامل]

وفضائلٍ شهِدَ العدوُّ بفضلها   والفضلُ ما شَهِدت به الأعداءُ

تالله لقد عجز الواصِفون عن وصفها، وٱعترف المادحون بالتقصير عن بلوغ اليسير من مَدَى مدحها: [من الكامل]

وإذا أَرَدْتُ لك الثناء فَمَا الّذي   واللّهُ قد أَثْنَى عليكَ ـ أقولُ

ولنبدأ بذكر نَسَبه الطاهر ﷺ، وإن كنا قدّمناه مُستوفًى في باب الأنساب[1]، فلا غُنْية عن سَرْده ههنا.

هو أبو القاسم محمد ﷺ بن عبد الله، بن عبد المطّلب ـ واسم عبد المطّلب: شَيْبة الحمد ـ بن هاشم ـ وٱسم هاشم عمرو ـ بن عبد مَنَاف ـ واسمه المُغيرة ـ بن قُصَيّ ـ وٱسمه زَيْد ـ بن كِلاب، بن مُرَّة بن كَعب، ابن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر. وإلى فِهْر جُمّاع قُرَيْش، ومَن كان فوقَ فِهْر فليس هو بقُرَشيّ. وفهر هو ٱبن مالك بن النَّضْر بنِ كِنانة، بن خُزَيمة، بن مُدْرِكة ـ وٱسم مُدرِكة عامر[2] ـ بن إلْياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عدنان.

رُوي عن ٱبن عباس[3]، رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ كان إذا ٱنتسب لم

---

(١) ٢: باب الأنساب.

(٢) سيذكر المؤلف في صحفة ١٢ عن ابن السائب: أن مدركة يسمى «عمرًا» أيضًا.

(٣) ابن عباس: (٣ ق. هـ ـ ٦٨ هـ = ٦١٩ ـ ٦٨٧م). عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة. ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ. وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في =

يُجاوِز في نَسَبه مَعَدّ بن عَدنان بن أدَد، ثم يمسك ويقول: «كَذبَ النّسابون». قال الله عز وجل: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]. قال ابن عباس: لو شاء رسول الله ﷺ أن يعلمه لعلمه.

وعن هشام بن محمد[١] قال: سمعتُ مَن يقول: «كان مَعَدّ على عهد عيسى ابن مَريَمَ عليه السلام».

وقد تقدم في باب الأنساب، وهو الباب الرابع من القسم الأول من الفنّ الثاني من كتابنا هذا، في السفر الثاني من هذه النسخة، ما اختاره الشريف أبو البركات[٢] محمد بن أسعد بن عليّ بن مَعْمَر الحُسَينيّ الجَوّانيّ النسابة في «مقدّمته»[٣] بعد معدّ: ابنَ عدنان بن أدّ بن أدَد[٤] بن اليَسَع بن الهَمَيْسَع بن سَلامانَ بن نَبْت بن حَمَل بن قَيْذارَ بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل ﷺ بن تارَح وهو آزَر بن ناحُور بن سارُوغَ بن أَرْغُو، بن فالَغَ بن عابَر، وهو هود النبيّ عليه السلام - وهو جُمَّاع قَيْس ويَمَن ونِزار وخِنْدِف بن شالَخ بن أرْفَخْشَذَ بن سام بن نوح النبي عليه السلام بن لَمك بن مَتُوشَلَخ بن أَخنُوخَ، وهو إدريس النبيّ عليه السلام بن داود بن مَهْلائيلَ بن قَيْنانَ بن أنُوش بن هبة الله شِيث بنِ أبي البشَر آدم عليه السلام.

هذا ما أورده الشريف الجَوّاني قال: وعليه أكثر أئمة الأنساب.

وسنزيد إن شاء الله تعالى، في أخبار آباء رسول الله ﷺ، زيادةً حسنة يحتاج إلى إيرادها من عدنان فَمن بعدَه، تقف عليها[٥] قريبًا، إن شاء الله تعالى، بعدَ ذِكرِنا لأمهاته ﷺ.

= آخره عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. (أعلام: ٤ ـ ٩٥).

(١) هشام بن محمد: هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي النسابة والكوفي المتوفى سنة ٢٠٤، على خلاف. انظر وفيات الأعيان ٢: ٢٥٨ والأعلام ٨: ٨٧.

(٢) أبو البركات محمد بن أسعد بن علي بن مَعْمَر الحسيني الجَوَّاني النسابة: عالم بالأنساب. أصله من الموصل. ومولده ووفاته بمصر. ولي نقابة الأشراف فيها مدة. وصنف «طبقات الطالبيين» و«تاج الأنساب» انظر: أعلام ٦: ٣١.

(٣) سماها مرتضى الزبيدي «المقدمة الفاضلية»، لأنّ الجَوَّاني ألفها باسم القاضي الفاضل، وجعلها مقدمة لكتابه الجوهر المكنون، في القبائل والبطون.

(٤) علماء النسب في «أد» و«أدد» فريقان: الأول أنهما شخصان ابن ووالد، وهو الذي حكاه المؤلف هنا عن الجوَّاني. . . وقالت به طائفة؛ والفريق الثاني أن مسماهما شخص واحد، يقال فيه «أد» مرة، و«أدد» مرة أخرى.

(٥) في الأصل: «تقف عليه».

ذكر أمهات رسول الله ﷺ

قال أبو عبد الله محمد بن سعد(١) رحمه الله تعالى في طبقاته(٢) الكبرى:

«أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه قال:

أمّ رسول الله ﷺ آمنة بنت وَهْب بن عبد مَنَاف بن زُهْرة بن كِلاب بن مُرّة، وأمّها بَرَّة بنت عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدّار بن قُصَيّ بن كلاب. وأمّها أمّ حَبِيب، بنت أَسَد بن عبد العُزَّى، بن قُصَيّ بن كِلاب. وأمّها بَرّة بنت عَوْف بن عَبِيد بن عَوِيج بن عَدِيّ بن كعب بن لُؤَي، وأمّها قِلابة بنت الحارث بن مالك بن حُبَاشة بن غَنْم بن لِحْيان بن عادية بن صَعْصَعَة بن كعْب بن هِند بن طابخة بن لِحيان بن هُذَيل بن مُدْركة بن إلياس بن مُضَر. وأمّها أُمَيْمَة بنت مالك بن غَنْم بن لِحْيان بن عادِية بن صَعْصَعة. وأمّها دُبّ بنتُ ثَعلَبَةَ بن الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيل بن مُدْركة. وأمّها عاتكة بنت غاضرة بن حُطَيط بن جُشَم بن ثَقِيف بن مُنَبّه(٣) بن بكر بن هَوازِن بن مَنصور بن عِكْرِمة بن خَصْفَة بن قيس بن عَيْلان ـ واسمه إليّاس بن مُضَر. وأمّها لَيْلَى بنت عَوْف بن ثَقِيف(٤). وأمّ وَهب بن عبد مَنَاف بن زُهْرة بن كِلَاب قَيْلة. ويقال: هند بنت أبي قَيْلة».

وقال ابن الكلبيّ(٥): «كتبت للنبيّ ﷺ خمسمائة أم، فما وجدتُ فيهنّ سِفاحًا، ولا شيئًا مما كان من أمر الجاهلية».

وعن محمد بن عليّ بن الحسين(٦) أن النبيّ ﷺ قال: «إنما خرجتُ من نِكاح ولم أخرجِ من سِفاح(٧) من لَدُنْ آدم؛ لم يُصبني من سِفاح أهل الجاهلية شيء؛ لم أخرُج إلاّ من طُهْرَة(٨)». والله الفعّال.

---

(١) محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبد الله: مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث. ولد في البصرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها.. أشهر كتبه «طبقات الصحابة ـ ط» اثنا عشر جزءًا، يعرف بطبقات ابن سعد. أعلام: ٦: ١٣٦ (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ = ٧٨٤ـ ٨٤٥ م).

(٢) ١: ٣٠ ـ ٣١ (قسم أول).

(٣) في طبقات ابن سعد ١: ٣٠ (قسم أول): «ثقيف، وهو قسي بن منبه».

(٤) في طبقات ابن سعد ١: ٣٠ (قسم أول): «عوف بن قسي، وهو ثقيف».

(٥) انظر ترجمته ص ٣.

(٦) هو أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. مدني تابعي، في مولده ووفاته خلاف. انظر تهذيب التهذيب ٩: ٣٥٠.

(٧) السفاح: الزنا والفجور.

(٨) هذه رواية ابن سعد ١: ٣٠، وهي تنفرد بزيادة «إنما» في أول الحديث، وزيادة «لم أخرج إلا من =

ذكر نُبذة من أخبار آباء رسول الله ﷺ فَمنْ بعده إلى أبيه عبد الله بن عبد المطّلب

قد تقدّم ذكر آباء رسول الله ﷺ في باب الأنساب، وذكَرنا كلّ أب من آبائه وأولاده ومَن أعقَب منهم، وجعلنا العُمْدَة على سَرْد عمود النسب الشريف على ما تقف عليه هناك في السفر الثاني من كتابنا[1] هذا من هذه النسخة، وسردنا النسَب أيضًا آنفًا. وقد رأينا أن نذكر في هذا الموضع نُبذةً أخرى زيادة على ذلك نذكر فيها الأسماءَ، والكُنَى، والأمّهات، وبعض الوقائع والأخبار، مما لم يتقدّم ذكره، فنقول وبالله التوفيق:

أمّا عَدْنان فإليه آنقطع علمُ أهل الأنساب حقيقة؛ لِمَا رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا انتهى في النسَب إلى مَعَدّ بن عَدْنان أمسَك، ثم قال: «كَذَبَ النسّابون». قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] وقد رُوِي أنه قال: «عدنان بن أُدَد». والله أعلم.

وأمّا مَعَدّ بن عدنان، فكنيَتُه أبو قُضاعة، كُنِّيَ بولده قُضاعة وهو بِكْره. ومَعَدّ (بتحريك العين وتشديد الدال)، وفي طَيّيء مَعْد (بتسكين العين) بنُ مالك بن قَمِيئة، وفي خَثْعم أيضًا مَعْد (بتسكين العين) بن الحارث بن تَميم بن كَعب بن مالك بن قُحافة. وأمّ معدّ بن عدنان: مَهْدَد، بنت اللَّهِم بن جَلْحَب الجُرْهَمية. وقيل فيها: مهاد بنت لَهِم. وقيل: اللّهم بنت جَلْحَب، وفي رواية خُلَيد بن طَسْم بن يَلْمع، بن عابر بن اسليخيا بن لاوِذ بن سام بن نوح، حكاه الزُّبَير بن بكّار.

وذكر عبدُ الملك[2] بن حَبيب أنَّ وُلْد مَعدّ بن عَدنان سبعةَ عشرَ رجلاً، دَرَج منهم بلا عَقِب[3] تسعة، أو أعقَب ثمانية.

= طهرة» في آخره، وقد رواه الطبراني في معجمه الأوسط، وابن عساكر، وابن عدي في الكامل، وابن كثير في البداية والنهاية ٢: ٢٥٦ باختلاف في الرواية، وقال عقبة: «هذا غريب من هذا الوجه ولا يكاد يصح».

(١) ٢: ٣٥٨ ـ ٣٧٧.

(٢) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الإلبيري القرطبي، أبو مروان (١٧٤ ـ ٢٣٨ هـ = ٧٩٠ ـ ٨٥٣ م) عالم الأندلس وفقيهها في مصر. ولد في إلبيرة وتوفي في قرطبة.. له تصانيف كثيرة قيل تزيد على ألف... وكان ابن لبابة يقول: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها. أعلام: ٤: ١٥٧.

(٣) بلا عقب: بلا أولاد، بلا نسل.

وقال أبو الربيع بن سالم[١]: ذكر الزُّبَير بن أبي بكر، أن بُخْتَنَصَّر لمّا أمَرَ بغزو بلاد العرب، وإدخال الجنود عليهم وقتلهم لقتلهم[٢] أنبياءَ الله تعالى، وردّهم رسالاتهم، أمَرَ إرْمِيا بن حِلقِيا ـ وكان فيما ذكر نِبيّ بني إسرائيل في ذلك الزمان ـ أن ائْتِ مَعَدّ بن عدنان الذي من ولده خاتم النبيين واحمِله معك إلى الشام، وتولَّ أمرَه.

وقال السُّهيليّ: «أوحى الله تعالى إلى إرْمِيَا أن احمل مَعَدّ بن عَدْنان على البُراق إلى أرض العراق[٣]، فإني مُستخرجٌ من صُلبه نبيًّا اسمه محمد؛ فحمل مَعَه مَعدًّا وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان مع بَنِي إسرائيل إلى أن كبر وتزوّج امرأة اسمها مُعَانة». قال أبو الرَّبيع[٤] بن سالم: «ويقال المحمول عَدنان، والأول أكثر. قال: وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله تعالى بعث مَلَكين فاحتملا معدًّا، فلما رفع الله تعالى بأسَه عن العرب، ردّاه إلى موضعه من تهامَة، فكان بمكة ونواحيها مع أخواله من جُرْهم».

وقال الزُّبير: «حدّثني عليّ بن المغيرة قال: لمّا بلغ بنو مَعَدّ عشرين رجلاً، أغاروا على عَسكر موسى عليه السلام، فدعا عليهم ثلاثَ مرّات فقال: يا رب، دعوتُك على قوم فلم تُجبني فيهم بشيء. قال: يا موسى، دعوتَ على قوم فيهم خِيرتي في آخر الزمان».

وفي هذه الرواية ما فيها من المنافاة لما تقدّم من أنه كان مع إرمْيَا، ومن قال إنه كان على عهد عيسى عليه السلام[٥]. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع.

وأمّا نِزَار بن مَعَدّ، فكنيته[٦] أبو إياد، وقيل: أبو ربيعة. ونزار (بكسر النون). قال السهيليّ[٧]: «من النَّزْر وهو القليل. وكان أبوه حين وُلِد له، ونظر إلى النور بين عينيه، وهو نور النُّبُوّة الذي كان ينتقل في الأصلاب إلى محمد ﷺ فَرحَ به فَرَحًا شديدًا، ونحرَ وأطعَم وقال: إنّ هذا كلّه نَزْر لحقّ هذا المولود، فسمّي نزاراً لذلك». وأمّ نزار: مُعَاية بنت جَوْشَم[٨] بن جُلْهُمة بن عمرو بن هُلَينيّة بن دوّة بن جُرهُم. قال

---

(١) سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي الأندلسي (٥٦٥ ـ ٦٣٤)، من مؤلفاته كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازي المصطفى.

(٢) في الأصل: «وقتلهم، لقتل». والمثبت عن الاكتفاء.

(٣) سقط من السهيلي ١: ٩ «إلى أرض العراق». وقد تصرف المؤلف في النص.

(٤) انظر ترجمته ص ٧.

(٥) تقدم ذلك في ص ٣.

(٦) في الأصل: «وكنيته».

(٧) الروض الأنف ١: ٨.

(٨) هكذا ورد هذا العلم في تاريخ ابن الأثير. وفي البداية والنهاية ٢: ١٩٤ والروض الأنف «جوشن» وفي الخبر عن البشر ٣: ١٧ قسم أول: «عنة ابنة جوشن».

السهيليّ: «ويقال اسمها ناعمة».

وأمّا مُضَر بن نِزار فأمه[(١)] أم إياد: سَوْدة بنت عَكّ بن الذِّيب، بن عَدْنان. وقال محمد بن الحسين في كتاب «التحفة»: إنّ أم مُضَر اسمها سَوْدة بنت عكّ، قال: وقيل: حُبّية بنت عكّ. وقاله الزبير بن بكّار. وروي أن أم مضر خاصةً سَودة بنت عكّ؛ وربيعةُ وأنمارُ وإيادُ أمهم شقيقة بنت عكّ، وإلى مضر تنتسب مضر الحمراء لسكناها قِباب الأدم، ومضر السَّوداء سُمِّيت بذلك لسكناها المظالّ.

وقال الزبير عن غَير واحد من أهل العلم بالنَّسَب: إنهم قالوا: لما حَضَرت نزارًا الوفاة، آثر إيادًا بولاية الكعبة، وأعطى مُضَر ناقة حمراء فسُمّي مضَر الحمراءِ، وأعطى ربيعة فرسَه، فسُمّوا ربيعة الفَرَس، وأعطى أنمارًا جارية له تسمى بجيلة فحضنت بنيه[(٢)]، فسُمِّي بجَيلة أنمار.

وقد تقدم ذكر خبر أولاد نزار في الأمثال عند قولهم: «إن العصا من العصَية»[(٣)]، و«إن خُشَينا من أخشن[(٤)]»، وقصتهم مع الأَفعَى الجُرهُميّ[(٥)]، وهو في الباب الأوّل من القسم الثاني من الفن الثاني في السّفر الثالث من هذه النسخة من كتابنا هذا[(٦)].

قال ابن الأثير الجَزَريّ[(٧)]: «ومُضَر أوّل من حَدا، وكان سببُ ذلك أنه سقط عن بعيره، فانكسرت يدُه فجعل يقول: يا يدَاه! يا يدَاه! فأتته الإبل من المرعَى، فلما صلح وركِب حدَا، وكان من أحسن الناس صوتًا، وقيل: بل انكسرت يد مولى له فصاح، فاجتمعت الإبل، فوضع مُضَر الحُداء وزاد الناس فيه».

قال السُّهيلي: وفي الحديث: «لا تَسبُّوا ربيعة ولا مُضَر فإنهما كانا مؤمنين[(٨)]» وروى عبد الملك بن حَبيب بسنده إلى سعيد بن المسَيّب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَسبُّوا مضَر فإنه كان مسلمًا على ملة إبراهيم[(٩)]». وعن عبد الملك بن حَبيب والزبير

---

(١) في الأصل: «وأمه».
(٢) في الأصل: «نبته» تصحيف، والتصحيح عن مقدمة الجواني (الورقة ٢٢ ب).
(٣) مجمع الأمثال: ١: ١٣.
(٤) مجمع الأمثال: ١: ١١، ومعجم البلدان ٣: ٤٤٣.
(٥) هو الأفعى بن حصين بن غنم، أحد حكام العرب. انظر المحبر لابن حبيب ص ١٣٢ ومجمع الأمثال: ١: ١٠.
(٦) ٣: ٧.
(٧) في الكامل: ٢: ١١.
(٨) الروض الأنف: ١: ٨، وفي الاكتفاء (الورقة ٢ ب): «كانا مسلمين». والحديث رواه الديلمي في مسند الفردوس.
(٩) رواه ابن سعد في الطبقات بلفظ: «لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم» انظر الجامع الصغير: ٢: ٤٤٦.

وجماعة: أن رَبيعة ومُضَر الصَّريحُ من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام. قال: وحدثني أبو مُعاوية، عن ابن جُرَيج، عن عَطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ماتَ أَدَد والد عَدْنان، وعَدْنان، ومَعَدّ بن عدنان، وربيعة، ومضَر، وقيس عَيلان، وتَميم، وضَبَّة، وأسَد، وخُزَيمة على الإسلام على ملّة أبيهم إبراهيم، فلا تَذكروهم إلا بما يُذكر به المسلمون». والله الموفق.

وأما إلياس بن مُضَر، فكنيته[١] أبو عمرو. وقال صاحب الاشتمال[٢]: قال الزبير: ولَد مُضَر بن نِزار إلياسَ بنَ مُضر، فلما أدرك الياس أنكر على بني إسماعيل ما غيّروا من سُنن آبائهم وسِيرهم، وبانَ فضلهُ فيهم، ولاَن جانبُه لهم، حتى جمعَهم رأيهُ ورضوا به، فردّهم إلى سُنن آبائهم، حتى رجعت سُنّتهم تامة على أوّلها.

وهو أوّلُ من أهدى البُدْن[٣] إلى البيت، وهو أوّل من وضع حجر الرُّكن للناس بعد غَرَق البيت وانهدامه زمن نوح، فكان الياس أوّل من ظفِر به، فوضعه في زاوية البيت.

وبعض الناس يقولون: إنما كان ذهب بعد إبراهيم وإسماعيل. قال: وفي هذا كله نظر. قال: وقال الزبير: ولم تزل العرب تعظّم الياس بنَ مُضَر تعظيمَ أهل الحكمة، كتعظيمها لُقمان وأشباهَه. قال ابن دِحْية[٤]: وهو وَصيّ أبيه، وكان ذا جمال بارع ودين، تعظمه العرب قاطبة، وهو أوّل من مات بالسُّلّ. قال السُّهيليّ[٥]: «وإنما سُمي السُّلّ داء ياسٍ وداء[٦] الياس لأن الياس بن مُضَر مات به».

ولما مات أسِفت امرأته خِندِف عليه أسفًا شديدًا. وكانت نَذَرت، إن هلك ألاّ تُقيمَ في بلدٍ مات فيه، ولا يُظلّها بيت، وتَسيح في الأرض، وحرّمت الرجالَ والطِّيب بعده. فلما هلك خرجت سائحة حتى هلكت. وكانت وفاته يوم الخميس، فنذَرت أن تَبكِيَه كلما طلعت شمس يوم الخميس حتى تغيب الشمس. قال السهيليّ: «ويُذكَر عن النبي ﷺ أنه قال: لا تسبوا الياس فإنه كان مؤمنًا». وذكر أنه كان يسمع في صُلبه تلبيةَ

---

(١) في الأصل: «وكنيته».

(٢) لعل صحة الكلمة «صاحب الاكتفاء»، وقد ورد هذا النص في الاكتفاء (الورقة ٢٤).

(٣) البُدْن: البَدَنة من الإبل والبقر، كالأُضحية من الغنم، تهدى إلى مكة، والذكر والأنثى في ذلك سواء (اللسان: بَدَنَ).

(٤) أبو الخطاب، عمر بن الحسن بن علي المعروف بذي النسبين الأندلسي (٥١٤ - ٦٣٣)، وفيات الأعيان: ١: ٤٨١.

(٥) الروض الأنف: ١: ٧.

(٦) في الأصل: «دواء الياس» تصحيف.

النبيّ ﷺ بالحج[١]. والله أعلم.

وأما مُدْرِكَة بن الياس فقال[٢] ابن السائب: وٱسمه عَمرو. وقال ابن إسحاق والزبير: عامر، وكنيته أبو الهُذَيل، وقيل: أبو خُزَيمة. وأمه خِنْدِف، وٱسمها ليلى بنت حُلوان بن عِمْران بن الحافِ بن قُضاعة. واسم أمها ضَرِيَّة بنت ربيعة بن نِزار، وبها سمي «حِمى ضَريَّة[٣]».

وأمّا خُزَيمة بن مُدْرِكَة فكنيته[٤] أبو أسد، وأمه سَلْمَى بنت أسلمُ بن الحافِ ابن قُضاعة. وقيل: سَلْمَى بنتَ أسدَ بن ربيعة، وخُزَيْمَة هذا هو الذي نصب هُبَل على الكعبة، فكان يقال: هُبَل خُزَيْمَة، هكذا ذكره ابن الأثير[٥]. وروي عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن خزيمة مات على ملة إبراهيم عليه السلام.

أمّا كُنانَةُ بنُ خُزَيْمة، فكنيتُه[٦] أبو النَّضْر، وأمّه عَوانَة بنت سَعد بن قَيس بن عَيلان، ويقال: بل هِند بنت عمرو بن قيس بن عَيْلان. قال أبو الحسن سلّام بن عبد الله بن سلام الإشبيليّ: وقال أبو عمرو العدواني لابنه في وصيته: يا بني أدركتُ كِنانَة ابن خُزَيمة ـ وكان شيخًا مُسِنًا عظيمَ القدر، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله ـ فقال: «إنه قد آن خُروج نبيّ بمكة يُدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فٱتَّبِعوه تزدادوا شرفًا إلى شرفكم، وعِزًّا إلى عِزِّكم، ولا تتعدوا ما جاء به، فهو الحق». والله الموفق.

وأما النَّضْر بن كنانة: فكنيته أبو يَخْلُد، كُنِّي بابنه يَخْلُد[٧]. وٱسم النَّضر قيس. قال أبو ذَرّ الخُشَنِيّ: النَّضر: الذَّهب الأحمر[٨]. وهو النُّضار؛ سُمِّي النَّضْر بذلك لوَضاءته وإشراق وجهه. وأمّه بَرَّة بنت مُر بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر أختُ تَميم بن مُرّ. والذي عليه أكثرُ أهل السِّيَر والمؤرخين أن كِنانة خَلَف على بَرَّة بعد أبيه خُزيمة، على ما كانت الجاهلية تفعله؛ إذا مات الرجل خَلَف على زوجته بعدَه أكبرُ بنيه

(١) الروض الأنف: ١: ٨.
(٢) في الأصل: «قال».
(٣) قرية بين البصرة ومكة، وهي إلى مكة أقرب. انظر معجم البلدان: ٥: ٤٣٣ وتاج العروس (ضرى).
(٤) في الأصل: «وكنيته».
(٥) في الكامل: ٢: ١١.
(٦) في الأصل: «وكنيته».
(٧) في الأصل: «بأبيه» تصحيف.
(٨) انظر شرح السيرة للخشني: ١: ٣.

من غيرها[١]. ويردّ هذا ما رُوي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «ما ولدني من سِفاح أهل الجاهلية شيء؛ ما ولدني إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام»، وقول ٱبن الكلبيّ: «كتبتُ لرسول الله ﷺ خمسمائة أمّ، فلم أجد فيها شيئًا مما كان من أمر الجاهلية». وقد تقدّم ذكر ذلك آنفًا.

وقد ٱعتذر القائلون هذا القول عنه بأعذار، وأقاموا أدلّة على أنه ليس بسفاح ولا من أمر الجاهلية. وفي أعذارهم وأدلّتهم بعض تكلُّف. وقد حصل الظفر ـ ولله الحمد والمنّة ـ بما يُزيل هذا الإشكال، ويَرفع هذا الاحتمال، ويخلّص من مَهاوِي هذه الشُّبَه؛ وهو الصحيح، إن شاء الله تعالى، وسنذكره بعدَ ذكر أعذارهم وأدلّتهم.

أما ما ٱستدلوا به على تقدير أن يكون كِنانة خلَف على بَرّة بنتِ مُرّ بن أُدّ بعدَ أبيه، فقال السُّهيليّ[٢]، رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ [النساء: ٢٢]؛ أي إلا ما قد سَلف من تحليل ذلك قبل الإسلام، قال: وفائدة الاستثناء ألا يُعابَ نَسَبُ رسول الله ﷺ وليُعلمَ أنه لم يكن في أجداده بغيّة[٣] ولا سِفاح؛ ألا ترى أنه لم يَقُل في شيء نهى عنه في القرآن (إلا ما قد سَلَف) نحو: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]؛ ولم يقل (إلا ما قد سَلَف) ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ١٥١] ولم يقل (إلا ما قد سَلَفَ)، ولا في شيء من المعاصي التي نَهَى عنها إلا في هذه الآية، وفي الجَمع بين الأختين؛ لأن الجمعَ بينهما قد كان مُباحًا في شَرْع من قَبْلَنا؛ وقد جَمع يعقوبُ عليه السلام، بين راحِيل وأختِها لِيا؛ فقوله: (إلا ما قَدْ سَلَف) التفاتٌ إلى هذا المَعنَى وتَنبيه على هذا المغزى. ونقَل السُّهَيْليّ هذه النكتة عن القاضي أبي بكر بن العربيّ. وٱعْتذارُ من اعتذرَ عن هذه الواقعة على هذا المنوال.

وأمّا ما ٱرتفع به هذا الإشكال، فَهو ما نقَله أبو عثمان عَمرو بن بَحر الجاحظ[٤] ـ رحمه الله ـ في كتاب له سماه «كتاب الأصنام» قال فيه: «وخَلفَ كِنانةُ ابن خُزَيْمة على زوجة أبيه بعدَ وفاته، وهي بَرّة بنتُ أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر،

---

(١) وكان الذي يخلف أبان على زوجته يسمى الضيزن (لسان العرب: ضزن).

(٢) نقل هذا الاستدلال عن السهيلي، الدميري في حياة الحيوان: ٢: ٢١٥، والزرقاني في شرح المواهب ١: ٩٣.

(٣) البغيَّة: نقيض الرِّشدة في الأولاد (اللسان: بغا).

(٤) عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ. رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته في البصرة. فلج في آخر عمره وكان مشوه الخلقة. . له تصانيف كثيرة منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء. (الأعلام: ٥: ٧٤).

وهي أمّ أسَد بنِ الهُون؛ ولم تَلد لكنانة ولداً ذكرًا ولا أنثى، ولكن كانت أبنة أخيها، وهي بَرّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة أخت تَميم بن مُرّة عند كنَانة بن خُزَيمة، فولدت له النَّضر بنَ كِنانة». قال: «وإنما غلِط كثير من الناس لما سمعوا أن كِنانة خلفَ على زوجة أبيه لاتّفاق اسمهما[1] وتقارُب نَسَبهما». قال: «وهذا الذي عليه مشايخُنا وأهلُ العلم بالنسب». قال: «ومعاذ الله أن يكون أصاب نَسَبَ رسول الله ﷺ مَقْت نكاح؛ قال رسول الله ﷺ: «ما زلتُ أخرُج من نكاحٍ كنكاح الإسلام، حتى خَرجتُ من أمي وأبي». قال: «ومن أعتقدَ غيرَ هذا فقد كفرَ وشكّ في هذا الخبر. قال: والحمد لله الذي طهَّره من كل وَصْم وطهَّرَ به».

وأما مالك بنُ النَّضر، فكنيتُه أبو الحارث، وأمّه عاتكة بنتُ عَدْوان، وهو الحارث بن عَمرو بن قَيس عَيلان، ولقبُها عِكْرِشة، وقيل: عَوَانة بنت سَعد القَيسية، وقيل غير ذلك. ومالك هو أبو قُرَيش كلها.

وأمّا فهْر بن مالك ـ وهو قُرَيْش، وفِهْر لقَب غلَب عليه ـ فكنيتُه أبو غالب، وهو جُمَّاع قُرَيش في قول هشام بن الكلبيّ. وأم فِهْر جَنْدلة بنت عامر بن الحارث ابن مُضَاض الجُرْهُمي؛ ومن جاوز فِهْرًا فليس هو من قُريش.

وقد أختلف في تسمية قُرَيش قُرَيشًا، ومَن أوّل من تَسمى به، فقال محمد بن كعْب[2]: إنما سُميت قُرَيش قُرَيشًا لتجمّعها بعد تفرُّقها، وقال محمد بن سلام: لما جمع قُصَيّ قبائلَ النَّضر، وحاربَ بهم خُزاعة، وغلَب على الحَرَم، سُمُّوا قُرَيشًا لاجتماعهم. وقيل: إنما سُمُّوا قُرَيشًا لأنهم يتقرّشون[3] البضاعات فيَشترونها. وقيل: جاء النَّضر بنِ كنانة في ثَوب له فقالوا: قد تقَرّشَ في ثوبه كأنه جَمَل قَريش، أي شديد مُجتمع. وقيل: أوّلُ من سَماهم بهذا الاسم قُصَيّ بن كِلاب. قاله المبرّد[4]. وقال الشَّعبيّ[5]: النَّضر بنِ كنانة هو قُريش، وإنما سُمي قُريشًا لأنه كان يقَرِّش عن خَلّة الناس وحاجتهم فيسُدّ ذلك بماله، والتقريش: هو التفتيش، وكان بنوه يقرّشون أهل

---

(١) في الأصل: «ولاتفاق اسمهما» تصحيف.

(٢) محمد بن كعب بن سليم القرظي، تابعي مقرىء. في تحديد وفاته خلاف. انظر طبقات القراء: ٢: ٢٣٣.

(٣) يتقرشون: يجمعون. (راجع سبب التسمية في اللسان مادة: قرش).

(٤) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه الكامل (الأعلام: ٧: ١٤٤).

(٥) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشَّعبي الحميري، أبو عمرو: رواية من التابعين يضرب المثل بحفظه. ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة. وهو من رجال الحديث الثقات. (الأعلام: ٣: ٢٥١).

الموسم فيُزوِّدونهم بما يُبَلِّغُهم، فسموا بذلك مِن فِعلِهم.

وقال الزبير بن بكّار قال عميّ: قُرَيش بن بَدْر بن يَخْلُد بن النَّضر كان دليلَ بَني كِنانة في تجارتهم، فكان يقال: «قدمت عِير قريش»، وأبوه بَدْر بن يَخْلُد صاحب بَدر الموضع الذي كانت به الوَقعة المشهورة، وذكر عن عمه أن فِهرًا هو قُرَيش، قال: وقد اجتمع النُسّاب من قُريش وغيرهم أن قُرَيشًا إنما تفرقت عن فهْر. والذي عليه من أدركتُ من نسّاب قريش أن وَلَد فهر بن مالك قُرَيش، ومن جاوز فِهرًا فليس من قُرَيْش.

ورويِ عن هشام بن السائب: أن النَّضر بن كِنانة هو قُريش. وقيل عنه في موضع آخر: ولَد مالكُ بن النَّضر فِهرًا وهو جُمَّاع قُريش. وقال أبو عُبيدة مَعْمَر بن المثنَّى[(١)]: أوّلُ من وقع عليه اسم قُريش النَّضر بن كِنانة فولدُه قُريش دون سائر بَني كنانة. وقل أبو عُمر محمد بن عبد الواحد الزاهد[(٢)]: قُريش مأخوذ من القَرْش، وهو وَقْع الإسِنّة بعضها على بعض[(٣)]؛ لأن قُرَيشًا أحذقُ الناس بالطِّعان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأل عمرو بن العاص[(٤)]: لم سميت قُريش قُريشًا؟ قال: بالقِرْش، دابّة في البحر تأكل الدوابّ لشدّتها. وقال: المطرّزيّ[(٥)]: هي مَلِكة الدواب، وسيّدة الدواب وأشدّها، فكذلك قُرَيش سادات الناس.

وكان فِهْر رئيسَ الناس بمكة. والله أعلم.

وأما غالب بن فِهر، فكنيته أبو تَيْم، وأمه لَيلَى بنت الحارث، بن تميم[(٦)] بن سعْد بن هُذَيل بن مُدْرِكة؛ ولغالب هذا من الولد: لُؤيّ، وتَيم الأدرم، وكان تَيم كاهنًا، وإنما قيل له تيم الأَدْرَم لأن أحد لِحْيَيه كان أنقص من الآخر: وفي قريش

---

(١) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي: (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ = ٧٢٨ ـ ٨٢٤ م) من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان إباضيًا شعوبيًا، من حفاظ الحديث. (الأعلام: ٧: ٢٧٢).

(٢) محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد ا لمطرز الباوَرْدِي المعروف بغُلام ثعلب (٢٦١ ـ ٣٤٥ هـ = ٨٧٥ ـ ٩٥٧ م). صحب ثعلبًا النحوي زمانًا حتى لقب «غلام ثعلب» وتوفي ببغداد. أملى من حفظه في اللغة نحو ثلاثين ألف ورقة. (الأعلام ٦: ٢٥٤).

(٣) انظر لسان العرب: قَرَش.

(٤) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله فاتح مصر. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان عمرو مع معاوية. أخباره كثيرة، وهو أحد دهاة العرب. (٥٠ ق هـ ـ ٤٣ هـ = ٥٧٤ ـ ٦٦٤ م)، (الأعلام: ٥: ٧٩).

(٥) في الأصل: «وقال الطرز»، والتصحيح عن حياة الحيوان: ٢: ٢١٥.

(٦) في الكامل لابن الأثير ٢: ١٠ «الحارث بن تميم».

تَيْمان: تَيْم بن مُرَّة، وتَيْم الأدْرَم. قال ابن قُتيبة[١]: «بنو الأَدْرَم من أعراب قُريش ليس بمكّة منهم أحد» والله أعلم.

وأمّا لُؤَيّ بن غالب، فكنيته أبو كعب، وأمه عاتكة بنت يَخْلُد، بن النَّضْر بن كِنانة، وهي إحدَى العواتك[٢] اللّاتي وَلدن رسول الله ﷺ؛ وقيل: بل أمه سَلْمَى بنت عمرو بن رَبيعة (وهو لُحَيّ بن حارثة[٣]) الخُزاعية.

وأما كعب بن لُؤيّ، فكنيته أبو هُصَيْص، وأمه ماوية[٤] بنت كَعب بن القَيْن ابن جَسْر القُضاعية. قيل: إنما سُمي كَعب كعبًا لارتفاعه على قومه، وشرفه فيهم. وكان عظيمَ القدر عند العرب؛ فلهذا أرّخوا بموته إلى عام الفيل، ثم أرّخوا بالفيل؛ رَوَى أبو نُعَيْم[٥] في «الدلائل» عن الطَّبَرانيّ[٦] بسنده إلى عبد العزيز بن أبي ثابت قال: «أرّخت كِنانةُ من موت كعب بن لُؤَيّ، وأرخَت قُرَيش بعدَ موته مِن عام الفيل؛ وبين موت كعب والفيل خمسمائة سنة وعشرون سنة[٧]».

«وكَعب هذا أوّلُ من سَمى الجُمعة الجُمعة، وكانت العرب تسمِّي يوم الجمعة العَرُوبَة»؛ قاله السهيلي. ومعنى العَروبة الرحمة فيما بلغني عن أهل العلم، وإنما سماه الجمعة لاجتماع قُرَيش فيه وخطبته فيهم.

وأوّل من قال: «أما بعد» كَعب، فكان يقول: «أما بعد، فاستمعوا وافهموا». ثم قال: «حَرَمكم عظِّموه وتمسَّكوا به، وسيأتي لكم نبأ عَظيم، وسيخرج له نبيّ كريم».

قال السُّهيليّ: «وكان يخطبهم ويُذكِّرهم[٨] بمَبعَث رسول الله ﷺ، ويُعلِمْهم أنه من ولده، ويأمرهم باتّباعه والإيمانِ به، وينشد ويقول: [من البسيط]

يا ليتني شاهدٌ فَحواء دَعوتِه إذا قريشٌ تُبَغِّي الحقَّ خِذْلانا[٩]»

---

(١) المعارف ص: ٣٢.

(٢) امرأة عاتكة: مُخمرة من الطيب. والعواتك من سُليم ثلاث: عاتكة بنت هلال وعاتكة بنت مرة، وعاتكة بنت الأوقص. وهن جدات رسول الله ﷺ (اللسان: عتك).

(٣) في الأصل: وابن الأثير: ٢: ١٠ «وهو يحيى بن حارثة» تصحيف.

(٤) كأنها نسبت إلى الماء لصفائها. الروض الأنف: ١: ٦١.

(٥) محمود بن الربيع، الأنصاري الخزرجي، صحابي ومحدث، مات سنة تسع وتسعين (الإصابة: ٣: ٣٨٦ الرقم ٧٨١٨).

(٦) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم، من كبار المحدثين، أصله من طبريا الشام. توفي سنة ٣٦٠ هـ.

(٧) في الوافي بالوفيات: ١: ١٠ «والفيل مئة سنة».

(٨) في الأصل: «ويذكر بمبعث» والمثبت عن الروض الأنف: ١: ٦.

(٩) في الخبر عن البشر، ٣: ٤٥ (القسم الأول): حين العشيرة بتغي الحق خذلانا.

وأمّا مُرَّةُ بن كَعْب، فكنيته أبو يَقْظَة، وأمه مَخْشِية، وقيل وَحْشِية بِنت شيبان بنُ مُحارب بن فهرٍ. وفي مُرّة يجتمع نَسَب رسول الله ﷺ، ونَسَب أبي بكر الصِّديق، وطلحة بن عُبيد الله رضي الله عنهما.

وأما كِلاَبُ بنُ مُرَّة، فكنيته أبو زُهْرَة، واَسمُه حَكيم. وكِلاب لقَب غلبَ عليه، وسبب ذلك أنه كان مُحِبّاً للصيد مولَعًا به وكان أكثرُ صيده بالكِلاب، وجمع منها شيئًا كثيرًا، فكان إذا مَرّ بقوم بِكلابه قالوا: هذه كِلاب اَبن مرة، فغلب ذلك عليه؛ وفيه يقول الشاعر: [من المتقارب]

حكيمُ بنُ مُرَّةَ سادَ الورَى ... بِبَذل النَّوالِ وكَفُّ الأذَى

وأُمُّ كِلاب هند بنت سُرَير بن ثَعلبة بن الحارث بن فِهْر بن مالك بن كِنانة. ويقال: إن كِلابًا هذا أوّلُ من جَعل في الكعبة السيوف المحلاّة بالذهبَ والفضة ذخيرةً للكعبة.

وأمّا قُصَيّ بنِ كلاَب فاسمه(١) زيد، وكنيته أبو المُغِيرة، وقُصَيّ لَقَبه، ويلقّب أيضًا مُجَمِّعا. قال السُّهيليّ، في قُصَيّ «تصغير قَصِيّ: أي بعيد». وقال الرُّشاطيّ(٢): «وإنّما قيل له قُصَيّ لأن أباه كلاب بن مُرّة كان قد تزوج فاطمة بنتَ سَعْد بن سَيل، واَسم سَيَل، خَيْر بن حَمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو(٣) الجادر(٤)) بن جُعْثُمة، وهو يَشْكُر، وهم من الأزد فولدت له زُهْرَة وزَيْدًا، ثم هلك كِلاب وزَيد صغير فَطِيم»، وقال السُّهيلي(٥): إنه كان رضيعًا «فتزوّج فاطمة أمَّ قُصَيّ ربيعةُ بن حَرام بن ضِنّة بن عبد بن كَبير، بن عُذرة بن سَعْد بن زيد بن قضاعة، فاحتملها ربيعةَ ومعها زيد، فربِي زيد في حجر ربيعة، فسُمِّي قُصَيًّا لبُعده عن دار قومه».

وقال الخطَّابي: سُمّي قُصَيا لأنه قَصَّى قومَه، أي تقصّاهم بالشام فنقلهم إلى مكة». قال الرُّشَاطي: «ثم إن زيدًا وقع بينه وبين ربيعة شر، فقِيل له: ألا تلحقُ بقومك؟ وعُيِّر بالغُربة، وكان لا يعرف لنفسه أبًا غير رَبيعة، فرجع قُصَيّ إلى أمه،

---

(١) في الأصل: «واسمه».

(٢) عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الأندلسي، أبو محمد المعروف بالرّشاطي عالم بالأنساب والحديث. توفي ٥٤٢ هـ. (الأعلام: ٤: ١٠٥).

(٣) في الأصل: «عامر بن الجادر»، وهي إحدى روايتي الإكمال، والمثبت رواية الروض الأنف: ١: ٨٤، وتوافق رواية الإكمال الثانية.

(٤) سمي الجادر لأنه أول من جدر الكعبة.

(٥) عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي: حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير، أندلسي، من كتبه الروض الأنف. توفي ٥٨١ هـ. (الأعلام: ٣: ٣١٣).

وشكا لها ما قيل له، فقالت له: يا بنيّ، أنت أكرم منه نفسًا وأباً، أنت ابنِ كلاب بن مُرّة، وقومُك بمكة عند البيت الحرام. فأجمع[١] قُصَيّ على الخروج، فقالت له أمه: أَقِم حتى يدخُل الشّهر الحرام، فتخرج في حاجّ العرب، فلما دخَل الشهر الحرام خرج مع حاجّ قُضَاعة حتى قدِم مكة، فحجَّ وأقام بمكة».

وكان الذي يلي أمر البيت يومئذٍ حُلَيل، بن حُبْشِيةَ ابن سَلول بن كعب بن عمرو الخُزَاعي. فخطب إلى حُلَيْل بن حُبْشِية ابنتَه حُبَّى. فعرفَ حُلَيل نَسَبه فزوّجه، وأقام قُصيّ معه، فولدت له حُبَّى أولادَه، وهم: عبد مَناف، وعبد العُزَّى، وعبد الدار، وعبد، وبَرّة، وتَخْمُر (وهي بالتاء المثناة من فوق وخاء معجمة ساكنة وميم مضمومة وراء).

فلما انتشر ولده، وكثُر ماله، وعظُمَ شَرَفه هلك حُلَيل، وأوصى بولاية البيت لابنته حُبَّى. فقالت: إني لا أَقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعلت ذلك إلى سُلَيم بن عمرو بن بُوَي بن مِلْكان، وهو أبو غُبْشَان، ويقال له المحترش، فاشترى قُصَيّ منه ولايةَ البيت بزقّ خمر وقعود[٢]، فضربت به العرب المثل، فقالوا: «أخسَر من صَفْقة أبي غُبْشان[٣]». فنازعته خُزاعة البيت فانتزعه منهم. والله الناصر.

ذكر خبر ٱنتزاع قُصَيّ البيت ومكّة من خُزاعة ومن ولِي البيت بعد إسماعيل عليه السلام إلى أن ٱنتزعه قُصَيّ بنِ كلاَب

قال محمد بن إسحاق بن يَسَار[٤]: «لما تَوفى الله تعالى إسماعيلَ بن إبراهيم عليهما السلام، ووَلِي البيتَ بعده ٱبنهُ نابِت بن إسماعيل ما شاء الله أن يليَه، ثم ولي البيتَ بعده مُضاض بن عَمُرو الجُرْهُمي، وبنو نابِت مع جدّهم مِضاض بن عمرو وأخوالهم من جُرهُم، وجُرهُم وقَطُوراء يومئذٍ أهل مكة، وهما أبنا عمّ، وكانا ظعنا[٥] من اليمن، فأقبلا سَيّارة[٦]، وعلى جُرهم مِضاض بن عمرو، وعلى قَطُوراء السَّمَيْدَع،

---

(١) في الأصل: «فاجتمع» والمثبت عن الطبري: ٢: ١٨٢.

(٢) القَعود: البكر من الإبل حين يمكن ظهره من الركوب، وأدنى ذلك أن يأتي عليه سنتان.

(٣) أورد الميداني المثل بصيغة: «أحمق من أبي غبشان» (١: ١٤٦). وحكى رواية النويري أيضًا، انظر تاج العروس (غبش).

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المطّلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة، له السيرة النبوية، هذبها ابن هشام، توفي ٦٥١ هـ (الأعلام: ٦: ٢٨).

(٥) الظعن: التحول من بلد إلى بلد (اللسان: ظعن).

(٦) السيارة: القافلة.

رجل منهم . فلما نزلا مكة رأيا بلدًا ذا ماءٍ وشَجر، فأعجبهما فنزلا به، فنزل مُضاض بمن معه من جُرْهم أعلى مكة بقُعَيقعانَ(١) فما حاز، ونزل السَّمَيْدَع بقَطُوراء أسفلَ مكة بأَجْيَاد(٢) فما حاز، وكان كل منهما يَعْشُر(٣) من دخل مكة ممّا يليه، وكلٌّ منهما في قومه لا يدخل على صاحبه».

«ثم إن جرهمًا وقَطُوراء بغَى بعضُهم على بعض، وتنافسوا الملك بها، ومع مِضاض بنو إسماعيل وبنو نابِت، وإليه ولاية البيت دون السَّمَيْدَع، فسار بعضهم إلى بعض؛ فخرج مُضاض بن عمرو من قُعَيْقِعان في كتِيبته سائرًا إلى السَّمَيْدَع ومع كتيبته عُدَّتها من الرّماح والدَّرَق(٤) والسيوف والجِعاب، يُقَعْقِع بذلك فيقال ما سمِّي قُعَيْقِعَانَ إلا لذلك. وخرج السَّمَيْدَع من أَجْياد ومعه الخيل والرجال، فيقال ما سمِّي أجيادُ أجيادًا إلا لخروج الجِياد من الخيل(٥) منه مع السَّمَيْدَع. فٱلتقوا بفاضِح(٦) واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتِل السَّمَيْدَع، وفُضِحت قَطُورَاء؛ فيقال ما سُمِّي فاضِحُ فاضحًا إلا لذلك».

ثم إن القوم تداعوا إلى الصُّلح، فساروا حتى نزلوا المَطابخ: شِعْبًا بأعلى مكة، فٱصطلحوا به، وأسلموا الأمر إلى مُضاض، فلما اجتمع إليه أَمرُ مكة، وصار مُلكُها له، نحرَ للناس فطبخوا وأكلوا، فيقال: ما سميت المَطَابخَ إلا لذلك». وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت المطابخ لِما كان تُبَّع نحرَ به وأطعم وكانت منزله. والله أعلم».

«فكان الذي كان بين مِضاض والسَّمَيْدَع أوّلَ بغْي كان بمكة. ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة، وأخوالُهم من جُرْهُم وُلاةُ البيت والحكَّامُ بمكة، لا ينازعهم ولد إسماعيلَ في ذلك لخئولتهم وقَرابتهم، وإعظامًا للحُرمة أن يكون بها بَغْي أو قتال؛ فلما ضاقت مكةُ على ولدَ إسماعيل ٱنتشروا في البلاد، فلا يناوئون قومًا إلا أظهرَهم الله عليهم بدينهم».

«ثم إنّ جُرهماً بغوْا بمكة، وٱستحلّوا خِلالاً من الحُرمة، وظلموا مَن دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدَى لها، فرقَّ أمرُهم، فلما رأت بنو بَكر بن عبد

---

(١) قعيقعان: بضم القاف الأولى، وكسر الثانية، وفتح العين: جبل بمكة. معجم البلدان: ٧: ١٣٣.

(٢) أجياد: موضع بمكة مما يلي الصفا. معجم البلدان ١: ١٢٧.

(٣) يعشر: يأخذ عشر أموالهم.

(٤) الواحدة: دَرَقَه، ضرب من التِّرسَة تتخذ من الجلود (اللسان: درق).

(٥) أجياد: جمع جواد؛ يقال: فرس جواد: بين الجودة والجمع أجياد.

(٦) فاضح: موقع قرب مكة عند جبل «أبي قبيس». معجم البلدان: ٦: ٣٣٢.

مَناة بن كِنانة، وغُبْشان من خُزَاعة [illegible] معوا لحربهم وإخراجهم من مكة؛ فآذنوهم بالحرب فٱقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر وغُبشان، فنفوهم من مكة؛ وكانت مكةُ في الجاهلية لا تُقِر فيها ظلمًا ولا بَغْيًا».

قال ٱبن إسحاق: «فخرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرْهُميّ بغَزالَي الكعبة[1] وبحَجَر الركن، فدفنها في زمزَم؛ وانطلق هو ومن معه من جُرهُم إلى اليمن. فحزِنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلْكِها حزنًا شديدًا؛ فقال عمرو بن الحارث بن مُضَاض في ذلك، وليس بمُضاض الأكبر». والله المعين: [من الطويل]

وقـائـلـةٍ والـدَّمـعُ سَـكْـبٌ مُـبـادرُ ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأذن لم يكن بين الحجون[2] إلى الصفا ... أنِـيـسٌ ولـم يَـسْـمُـر بـمـكـةَ سـامِـر
فـقـلـتُ لـهـا والـقـلـب مـنّـي كـأنّـمـا ... يُـلَـجـلِـجُـه بـيـنَ الـجـنـاحـيـن طـائـر
بَـلَـى! نـحـن كـنّـا أهـلَـهـا فـأزالـنـا ... صُروفُ الليالي والجدُود[3] العواثِر
وكنا وُلاة البيت[4] من بعد نابتٍ ... نـطـوف بـذاك الـبـيـت والـخـيـرُ ظـاهـر
ونحن وَلِينا البيت من بعد نابتٍ ... بـعـزٍّ فـمـا يَـحـظَـى لـديـنـا الـمُـكـاثِـر
مَـلَـكـنـا فـعـزَّزنـا فـأعـظِـم بـمُـلْـكِـنـا ... فـلـيـس لـحـيٍّ غـيـرِنـا ثـمَّ فـاخِـر
ألم تُنكِحوا مِن خير شخصٍ[5] علمتُه ... فـأبـنـاؤه مـنّـا ونـحـن الأصـاهِـر
فإن تَنثنِ الدنيا علينا بحالها[6] ... فـإن لـهـا حـالاً وفـيـهـا الـتـشـاجـرُ
فـأخـرجَـنـا مـنـهـا الـمـلـيـك بـقُـدرةٍ ... كـذلـك يـا لَـلـنّـاس تـجـري الـمـقـادر
أقـولُ إذا نـام الـخَـلِـيّ ولَـم أَنَـم: ... أذَا الـعـرشِ لا يَـبْـعَـد سُـهَـيـل وعـامـر
وبُـدِّلْـتُ مـنـهـا أوجُـهًـا لا أُحِـبّـهـا ... قـبـائـلَ مـنـهـا حِـمْـيَـر ويُـحـابِـر[7]
وصِـرنـا أحـاديـثًـا وكُـنّـا بِـغِـبـطـةٍ ... بذلك عَضَّتنا السِّنونُ الغوابر[8]

---

(١) هما تمثالان لغزالين من ذهب، دفنهما عمرو بن الحارث في زمزم. انظر الروض الأنف: ١: ٩٧، ١٠١، وشرح المواهب١: ١: ٩٢.
(٢) الحجون: بفتح الحاء جبل بأعلى مكة، معجم البلدان: ٣: ٢٢٧.
(٣) الجد: الحظ، والعواثر: السيئة.
(٤) البيت: الكعبة الشريفة.
(٥) يريد إسماعيل عليه السلام. الخشني: ١: ٣٨.
(٦) الحال: مذهب خير أو شر.
(٧) يحابر: بوزن (يقاتل): قبيلة من اليمن، أو قبيلة مراد. انظر تاج العروس (حبر)، الخشني: ١: ٣٨.
(٨) الغوابر: الماضية.

وبـدّلـنـا كـعـبٌ بـهـا دارَ غُـربـة ... بها الذئب يَعْوِي والعدوُّ المكاشرُ
فَسحَّت[(١)] دموعُ العين تَبكِي لبَلْدة ... بها حرم أمنٌ وفيها المشاعِر[(٢)]
وتَبكِي لبيتٍ ليس يُؤذَى حَمامُه ... يَظَلُّ به أمنًا وفيه العصافِر
وفيه وُحوشٌ لا تُرام أنيسةٌ ... إذا خَرَجت منه فليست تُغادَر

وقال أيضًا يشير إلى بَكْرٍ وغُبْشان الذين خلَفوا مكة بعدهم: [من البسيط]

يا أيها الناسُ سيروا إنّ قَصْرَكم[(٣)] ... أن تُصبِحُوا ذاتَ يوم لا تَسِيرونا
حُثّوا المِطيَّ وأرخُوا من أزِمَّتِها[(٤)] ... قبلَ الممات وقَضّوا ما تُقضُّونا
كُنّا أُناسًا كما كنتمُ فغيَّرنا ... دَهرٌ فأنتم كما كُنّا تَكونونا

قال ٱبن هشام[(٥)]: «حدّثني بعض أهل العلم بالشعر؛ أن هذه الأبيات أوّلُ شعرٍ قيل في العربَ، وأنها وُجدَت مكتوبة في حَجَر باليَمَن، ولم يُسَمّ لي قائلها».

قال ٱبن إسحاق: «ثم إنّ غُبْشان من خُزاعة وَلِيَتْ البيت دون بني بَكر بن عبد مَناة، وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحارث الغُبْشاني، وقُرَيش إذ ذاك حُلول وصرم[(٦)]، وبيوتات متفرّقون في قومهم من بني كنانة، فوليت خُزاعة البيت يَتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرَهم حُلَيل بن حُبْشية ابن سَلول بن كَعْب بن عمرو الخُزَاعيّ. فخطب قُصَيّ بن كِلَاب إلى حُلَيل ٱبنته حُبّى، فرغِب فيه حُليل فزوّجه، فولدت له عبدَ الدار، وعبد مَناف، وعبدَ العُزّى وعبدًا».

«فلما انتشر وَلَدُ قُصَيّ وكثُر مالُه، وعظُم شرفُه هلك حُلَيل، فرأى قُصَيّ أنه أولَى بالكعبة، وبأمْرِ مكة من خُزاعة وبني بَكر، وأنّ قريشًا مَزعةُ[(٧)] إسماعيل بن إبراهيم وضريح وَلَده، فكلَّم رجالاً من قُرَيش وبَني كنانة، ودَعاهم إلى إخراج خُزاعة وبني بكر من مكة، فأجابوه».

(١) سحت: سالت، واشتد انصبابها (اللسان: سحح).
(٢) المشاعر: مواضع مشهورة يتعبد فيها. الخشني: ١: ٣٨.
(٣) قصركم: نهايتكم وغايتكم.
(٤) الأزمة: واحدها: زمام، وهو الحبل.
(٥) ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، مؤرخ. كان عالمًا بالأنساب واللغة وأخبار العرب. ولد ونشأ في البصرة، وتوفي بمصر، أشهر كتبه «السيرة النبوية ـ ط» المعروف بسيرة ابن هشام (الأعلام: ٤: ١٦٦).. ٢١٣ هـ = ٨٢٨ م.
(٦) الحلول: جماعة البيوت المجتمعة، والصرم الجماعة ينزلون بإبلهم ناحية على الماء.
(٧) في سيرة ابن هشام: ١: ١٢٣ «قرعة» بالقاف، والقرعة بضم القاف: نخبة الشيء، وخياره، والمقصود بالقرعة هنا أن قريشًا أعلى ولد إسماعيل.

وكان ربيعة بن حرام من عُذْرة بن سَعْد بن زيد مَناة قد قَدِم مكة بعد هلاك كِلاب، فتزوّج فاطمةَ بنت سَعد بن سَيَل - وزُهْرَةُ يومئذٍ رجل، وقُصَيّ فَطيم - فاحتملها إلى بلاده، فحملت قُصَيًّا معها وأقام زُهْرة، فولدت لربيعة رِزاحًا، فلما بلغ قُصَيٌّ وصار رجلاً أتى مكة فأقام بها، فلما أجابه قومه إلى ما دعاهم إليه كتب إلى أخيه من أمه رِزَاح بن ربيعة، يدعوه إلى نُصْرته والقيام معه؛ فخرجَ رِزاح بنُ ربيعة ومعه إخوته: حُنّ بن ربيعة، ومحمود بن رَبيعة، وجُلْهُمة بن رَبيعة، وهم لغير فاطمة، فيمن تَبِعهم من قُضاعة في حاجّ العرب، وهم مُجمِعون لنُصْرة قُصَيّ».

«وكان الغَوْثُ بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياسِ بن مُضَر يَلي الإجازة للناس بالحج من عَرَفَةَ، ووَلدهُ مِن بَعدِهِ، وكان يقال له ولولده صُوفة[1]. وإنما وَلِي الغَوْثُ ذلك لأنّ أُمه كانت من بني جُرْهم، وكانت لا تَلِد، فنذرت لله إن هي وَلَدت رجلاً أن تَصَدَّق به عِلى الكعبة عبدًا لها يخدمُها، ويقوم عليها؛ فولدت الغَوْث، فكان يقوم على الكعبة في الدَّهر الأوّل مع أخواله من جُرْهُم، فولي الإجازةَ بالناس من عَرَفة لمكانه الذي كان به من الكعبة، وولدُه مِن بعدِه حتى انقرضوا».

«وكان الغَوْث بن مُرّ إذا دفع بالناس قال: [من الرجز]

لا هُـمَّ إنـي تـابـع تَـبَـاعَـهْ إن كـان إثـم فـعـلَـى قُـضَـاعَـهْ»[2]

قال ابن إسحاق: «كانت صُوفَة تدفع بالناس من عَرَفة، وتُجيز بِهم إذا نفَروا مِن منًى، حتى إذا كان يومُ النَّفر[3] أَتَوا لرَمْي الجِمار، ورجل من صُوفَةَ يَرْمِي للناس، لا يَرمُون حتى يَرْمي، فكان ذوو الحاجات المتعجّلون يأتونه فيقولون له: قم فأرم حتى نرمي مَعَك فيقول: لا والله، حتى تَميلَ الشمس؛ فَيَظَلّ ذوو الحاجات يرمونه بالحجارة ويقولون له: ويلك! قم فأرمِ، فيأبَى عليهم؛ حتى إذا مالت الشمس قام فرمَى، ورمَى الناسُ معه».

«فإذا فرغوا من رَمْي الجِمار، وأرادوا النّفر من مِنًى أخذت صُوفةَ بجانبَي العَقَبة، فحبسوا الناسَ وقالوا: أجِيزي صُوفة، فلم يَجُز أحد من الناس حتى يَمُرّوا، فإذا نفَرت صُوفَة ومَضت خلّي سبيل الناس فأنطلقوا بعدَهم؛ فكانوا كذلك حتى أنقرضوا، فورِثهم

---

(١) في سبب تسميته صوفه أقوال ذكرها السهيلي في الروض الأنف: ١: ٨٥.

(٢) التباعة: ما يتبعه الإنسان ويقتدي به، وإنما قال: «إن كان أثم». لأنه كان في قضاعة من يستحل الأشهر الحرم، فجعل إثم ذلك عليهم الخشني ١: ٤٠.

(٣) يوم النّفر: قال ابن الأثير: هو اليوم الثامن من أيام التشريق. ويقال: يوم النفر وليلة النفر لليوم الذي ينفر الناس فيه من منى. (اللسان: نَفَرَ).

في ذلك بنو سَعدِ بن زيد مَناة، من تميم، وكانت من بني سعدٍ في آل صَفوان بن الحارث بن شِجْنَة؛ فكان صَفوان هو الذي يُجيز الناس بالحج من عَرَفة، ثم بنوه مِن بعده، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام كرِب بن صَفوان؛ وفي ذلك يقول أَوس ابن مَغْراء من قصيدة: [من البسيط]

لا يبرح الناسُ ما حجُّوا مُعَرَّفهم حتّى يُقالَ أَجيزوا آلَ صَفْوانا»[1]

«وكانت الإفاضة في عَدْوان يَتوارثون ذلك كابِرًا عن كابر، حتى كان آخرَهم الذي قام عليه الإسلام أبو سَيّارة عُمَيْلة بن الأعزل، وكان أبو سَيّارة يدفع بالناس على أَتانٍ له[2]، وبه ضُرب المَثَل: «أصبر من عَيْر أبي سَيّارة»[3]؛ لأنّه دَفع بأهل الموسم عليه أربعين عامًا».

نعود إلى أخبار قُصَيّ بن كِلاَب، «فلما كان ذلك العام، فعَلت صُوفةَ كما كانت تفعل، وقد عَرَفت ذلك لها العَرب، وهو دينٌ في أنفسهم من عَهد جُرهُم وخُزاعةَ وولايتِهم، فأتاهم قُصَيّ بمن معه من قومه من قُرَيش وكنانة وقُضاعة عند العَقَبة فقال: لا تَجُزْ ـ لَنحن أولَى بهذا منكم ـ، فقاتلوه، فاقْتتل الناس قتالاً شديدًا، ثم انهزمت صُوفةُ، وغلبهم قُصَيّ على ما كان بأيديهم من ذلك».

«وانحازت عند ذلك خُزاعة وبنو بَكْر عن قُصَيّ، وعرفوا أنه سَيحول بينهم وبين الكعبة وأَمْرِ مكة، فلما انحازوا عنه باداهم[4] وأجمع لحربهم، وخرجت إليه خُزاعة وبنو بَكر، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثُرت القتلَى في الفريقَين، ثم تداعوا إلى الصلح وأن يُحكِّموا بينهم رجلاً من العرب، فحكموا يَعْمَر بن عَوْف بن كَعب بن عامر بن لَيْث بن بَكْر بن عبد مَناة بنِ كنانة، فقضَى أن قُصَيًّا أولَى بالكعبة وأَمْرِ مكة من خُزاعة، وأن كلّ دَم أصابه قُصَيّ من خُزاعة وبني بَكر موضوعٌ يَشْدَخُه تحت قدَميه، وأن ما أصابت خُزاعة وبنو بكر من قُرَيش وكنانة وقُضاعة ففيه الدِّيَة مُؤَدّاة، وأن يُخَلِّي بين قُصَيّ وبين الكعبة ومكة، فسُمِّي يَعْمَر بن عَوْف يومئذ الشَّدَّاخ، لما شَدَخ من الدِّماء ووضع منها».

قال[5]: «فولي قُصيّ البيتَ وأمرَ مكّة، وجمعَ قومَه من منازلهم إلى مكة، وتَملّك

(١) المعرَّف: الموقف بعرفات. ورواية اللسان (صوف ـ عرف): ولا يريمون في التعريف موقفهم.
(٢) الأتان: أنثى الحمار.
(٣) رواية الميداني: ١: ٢٧٧، ولسان العرب (سير): «أصبح من عير أبي سيارة».
(٤) باداهم: كاشفهم.
(٥) قال الأزهري: كان يعمر الشَّداخ أحد حكام العرب في الجاهلية، سمي شداخًا لأنه حكم بين خُزاعة وقُصَي حين حكموه فيما تنازعوا فيه من أمر الكعبة، وكثر القتل فشدخ دماء خزاعة تحت قدمه وأبطلها وقضى بالبيت لقُصَي. (اللسان: شدخ).

على قومه وأهلِ مكة فملَّكوه، إلا أنه أقرّ للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه دِينًا في نفسه لا ينبغي تغييرُه؛ فأقرّ آلَ صَفْوان، وعَدْوان[١]، والنَّسَأَة، ومُرَّة بن عَوْف على ما كانوا عليه، حتى جاء الإسلام، فهدم الله به ذلك كلَّه».

«فكان قُصَيّ أولَ من أصاب مُلْكًا من بني كَعْب بن لُؤَيّ، وكانت إليه الحِجابة، والسِّقاية، والرِّفادة، والنَّدْوة، واللِّواء، فحاز شرفَ مكة كلَّه، وقطع مكّة رِباعًا بين قومه، فأنزل كلَّ قوم من قُرَيش منازلَهم من مكة، فسمّته قُرَيش مُجمِّعًا لما جمع من أمرها، وتيمنت بأمره؛ فما تُنكح امرأة، ولا يتزوج رجل من قُرَيش، ولا يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعَقدون لواءً لحرب قوم غيرهِم إلا في داره؛ يعقده لهم بعضُ ولده، وما تَدَّرع[٢] جاريةٌ إذا بلغت أن تَدَّرِع من قُرَيش إلا في داره، يُشَق عليها فيها دِرعها ثم تَدَّرِعه، ثم يُنطلقَ بها إلى أهلها».

«فكان أمره في قومه من قِرَيش في حياته وبعدَ موته، كالدِّين المتَّبَع لا يُعمل بغيره، واتّخذ لنفسه دار النَّدْوة، وجعل بابَها إلى مسجد الكعبة؛ ففيها كانت قُرَيش تَقضِي أمورها» قال الشاعر: [من البسيط]

قُصَيٌّ لَعَمْري كان يُدعَى مُجَمِّعًا به جَمَّع اللهُ القبائلَ من فِهرِ[٣]

قال ابن إسحاق[٤]: «فلما فرغ قُصَيّ من حَربه انصرف أخوه رِزاح بنُ رَبيعة بمن معه إلى بلاده». قال: «فلم يزل قُصيّ على ذلك، فلما كبر ورقّ عظمه ـ وكان عبد الدار بِكْرَه، وكان عبدُ مَنَاف قد شَرُف في زمان أبيه وذهب كُلَّ مذهب، وعبدُ العُزَّى وعبدٌ ـ قال لابنه عبد الدار: أمَا والله يا بني لألْحِقنَّك بالقوم وإن كانوا قد شَرُفوا عليك؛ لا يدخل رجلٌ منهم الكعبة حتى تكون أنت تَفْتَحها له، ولا يَعْقِد لقريش لواءً لحربِها إلا أنت بيدك، ولا يَشرب رجل بمكة إلا مِن سِقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك، ولا تَقطع قُرَيش أمرًا من أمورها إلا في دارك، فأعطاه دارَه: دار النَّدْوة التي لا تَقضِي قُرَيش أمرًا إلا فيها، وأعطاه الحِجابة واللِّواء والسِّقاية والرِّفادة».

«وكانت الرِّفادة خَرجًا تُخرِجه قريش في كل مَوْسِم من أموالها إلى قُصَيّ بن

(١) النَّسأَة: جمع ناسيء. وهم قوم من كنانة كان العرب إذا صدروا عن «منى» يقولون لأحد النسأة: «أنسئنا شهرًا»، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر، وبذلك تصبح الإغارة في شهر المحرم حلالاً لهم.

(٢) دُرِّعت الصبية: إذا لبست الدرع، درع المرأة قميصها.

(٣) رواية اللسان (جمع): ـ أبوكم قصي كان يدعى مجمعا ـ والبيت لحذافة بن غانم العذري.

(٤) سيرة ابن هشام: ١: ١٣٣، ١٣٦.

كِلَاب، فيصنع به طعامًا للحاجّ، فيأكله من لم تكن له سَعة ولا زاد، وقُصَيّ هو الذي فرض ذلك، فقال لهم حين أمَرَهم به: يا معشر قُرَيش، إنكم جِيران الله وأهلُ بيته وأهلُ الحَرَم، وإن الحاجّ ضيف الله وزُوّار بيته، وهم أحقّ الضَّيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيامَ الحجّ، حتى يَصدِروا عنكم، ففعلوا. قال[1]: «فلما هلك قُصَيّ ابنِ كلَاب أقام أمْرَه في قومه مِن بَعدِه بنوه، فاختطّوا مكة رِبَاعًا، بعد الذي كان قد قَطعَ لقومه[2] بها، فكانوا يعطونها في قومهم وفي غيرهم من حُلفائهم، ويَبيعونها، فأقامت قُرَيش على ذلك معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع»، إلى أن كان ما نذكره إن شاء تعالى في هاشم بن عبد مَنافِ.

وحَكى أبو عبد الله محمد بن عائذ[3] الدمشقي في «مغازيه» زيادةً في خبر قُصَيّ نذكرها في هذا الموضع، وإن كان قد نَقَص في غيره، فقال في أثناء ما حكاه:

«إن البيت كان حوله غَيضَة[4] والسَّيْل يدخله، ولم يُرفعَ البيتُ حينئذٍ، فإذا قدم الحاجُّ وَطِئوه حتى تَذهبَ الغَيْضة، فإذا خرجوا نَبتت». قال: «فلما قدم قُصَيّ قطع الغَيْضة، وابتنى حول البيت دارًا، ونكح حُبَّى بنت حُلَيْل».

وقال أيضًا: «إن قُصَيًّا قال لامرأته حَبَّى: قولي لجدّتك تَدُلُّ بنتك على الحجر، فلم تزل بها حتى قالت: إني أَعقِل أنهم حين خرجوا إلى اليمن سرقوه، ونزلوا مَنزلاً وهو معهم، فبرك الجمل الذي كان عليه الحجر، فضربوه فقام، ثم ساروا فبرك، فضربوه فقام، ثم برك الثالثة فقالوا: ما بَرك إلا من أجل الحجَر، ودفنوه، وذلك أسفلَ مكة، وإني لأعرف حيث بَرك، فخرجوا بالحديد وخرجوا بها معهم، فأرَتْهم حيثُ بَرَك أوّلاً وثانيًا وثالثًا، فقالت: احفروا ههنا. فحفَروا حتى يئسوا منه، ثم ضربوا فأصابوه وأخرجوه، فأُتِي به قُصَيّ، فوضعه في الأرض، فكانوا يتمسحون به وهو في الأرض، حتى بَنَى قُصَيّ البيت». قال: «ومات قُصَيّ ودفن بالحَجُون». والله أعلم بالصواب.

وأما عبد مناف بن قصيّ فكنيته أبو عبد شمس، واسمه المغيرة، وعبد مَناف لقبه، وسبب ذلك أنّ أمه حُبَّى بنت حُلَيل الخُزاعية أَخدَمته مَناة، وكان مَناة صنمًا عظيمًا لهم، فسمي عبدُ مَناة به. ثم نظر قُصَيّ، فرآه يوافق عبد مَناة بن كنانة، فحوَّله

(١) القائل: ابن إسحاق، وانظر سيرة ابن هشام: ١: ١٣٨.
(٢) في الأصل: «قد وقع لقومه».
(٣) محمد بن عائذ بن أحمد القرشي، الدمشقي: كاتب من حفاظ الحديث، كان ثقة. له كتب منها: «الصوائف»، و«السِّير»، و«المغازي». (١٥٠ ـ ٢٣٣ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٤٧ م). (الأعلام: ٦: ١٧٩).
(٤) غيضة: المغيض، ماء يجتمع، فينبت فيه الشجر (اللسان: غيض).

عبد مناف. قاله السُّهَيْلِيّ. [و] مَناف «مَفْعَل» من أناف يُنيف إنافة، إذا ٱرتفع. وقال المفضَّل: الإنافة الإشراف والزيادة، وبه سُمّي عبد مَناف لطوله، ومنه تقول: مائة ونَيِّف، أي شيء زائد على المائة.

وكان قُصَيّ يقول: لي أربعة بنين سَميتُ ٱبنين بإلهي، وهما عبد مَناف وعبد العُزَّى، وواحدًا بداري، وهو عبد الدار، وواحدًا بي، وهو عبد قُصَيّ. حكاه محمد بن عائذ في «مغازيه» عن أمّ سلمة(١).

وقال محمد بن سعد(٢): «أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه قال: لما هلك قُصَيّ بن كِلاب قام عبد مَناف بن قُصَيّ على أمْر قُصَيّ بعدَه وأمْرُ قُرَيش إليه، وٱختطَّ بمكة رِباعًا بعدَ الذي كان قُصَيّ قطع لقومه».

قال: «وولد عبد مَناف ستة نَفر، وست نسوة، وهم: عبد المُطَّلب بن عبد مَناف وكان أكبرهم، وهو الذي عَقَد الحِلْف لقُرَيش من النَّجاشي في مَتْجرها إلى أرضه، وهاشم، وٱسمه عمرو، وهو الذي عَقَد الحِلف لقُرَيش من هِرَقْل لأن تختلفَ إلى الشأم آمنة، وعبد شَمْس بن عبد مَناف، وتُمَاضِر بنت عبد مَناف، وحَيّة، وقِلابة، وبَرَّة، وهالةَ، وأمّهم عاتكة الكُبْرَى(٣) بنت مُرّة بن هِلال بن فالج بن ثَعلبة بن ذَكْوان بن ثَعْلبة بن بُهْثَة بن سُلَيم بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان بن مُضَر. ونَوفل بن عبد مَناف، وهو الذي عَقَد الحِلف لقُرَيش من كِسْرَى إلى العراق، وأبو عمرو بن عبد مَناف، واسمه(٤) عبيد، دَرَج ولا عقب له، وأمهم وَاقدة بنت أبي عَدِيّ، وهو عامر، بن عبد نُهم بن زيد بن مازِن بن صَعْصَعَة؛ ورَيْطة بنت عبد مَناف، ولدَت بَني هلال بن مُعَيط من بني كنانة بن خُزَيمة، وأمّها الثقفية».

وأما هاشم بن عبد مَناف، فكنيته أبو نَضْلة، وقيل: أبو يزيد، وقيل: بل كان يُكَنَّى بٱبنه أَسدَ، وٱسمه عمرو، وهاشم لَقَب لُقِّب به. رُوي عن ٱبن عباس(٥) رضي الله عنهما أنه قال: «كان ٱسم هاشم عَمرًا، وكان صاحبَ إيلاف قُرَيش، وإيلاف قُرَيش:

---

(١) أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأوسية، ثم الأشهلية، من أخطب نساء العرب ومن ذوات الشجاعة والإقدام. وفدت على رسول الله ﷺ في السنة الأولى للهجرة فبايعته وسمعت حديثه. (... نحو ٣٠ هـ = نحو ٦٥٠ م). (الأعلام: ١: ٣٠٦).

(٢) الطبقات: ١: ٤٢ (قسم أول).

(٣) هي إحدى النسوة اللواتي كنّ يشترطن لشرفهن إذا تزوجن، أن يكون أمرهن بيدهن في المقام والرواح. انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٩٩.

(٤) في الأصل: «ابن عبد مناف، وأبا عبيد» تصحيف.

(٥) في الأصل: «ابن عثمان» تصحيف.

دأب قُرَيش، وهو أوّل من سَنَّ الرحلتين لقُرَيش، تَرحل إحداهما في الشتاء إلى اليَمن وإلى الحبشة إلى النَّجاشي، فيُكرمه ويَحبوه، ورحلةً في الصَّيف إلى الشام إلى غَزَّة وربما بلَغ أَنْقَرة، فيدخل على قَيْصَر فيُكرمه ويَحبوه؛ فأصابت قُرَيشًا سنواتٌ ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام، فأَمَرَ بخُبز كثير فخُبِز له، وحمله في الغَرائر[١] على الإبل حتى وافَى مكة، فهَشَم ذلك الخبز، يعني كَسَره وثرده[٢] ونحر تلك الإبل، ثم أَمَر بطبخها، ثم كَفأ القدور على الجِفان، فأشبَع أهلَ مكة؛ فكان ذلك أوّلَ الحيَا بعد السَّنة التي أصابتهم؛ فسُمِّي بذلك هاشمًا، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزِّبْعرى[٣]: [من الكامل]

عمرو العلى هَشَم الثَّريد لقومه ورجالُ مَكّةَ مُسْنِتون عِجافُ[٤]

قال: «فحَسده أُمَيَّةُ بن عبد شمس بن عبد مَناف، وكان ذا مال، فتكلّف أن يَصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قُرَيش، فغضِب ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكرِه هاشم ذلك لسِنِّه وقَدرِه، فلم تَدعْه قُريش وأحفظوه[٥]» قال: «فإني أُنافِرك على خمسين ناقةً سُودَ الحَدَق تنحرها بَبطْن مكّة، والجلاءِ عن مكة عشرَ سنين، فرضي أُمَيَّة بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخُزَاعيّ، فنفَّر[٦] هاشمًا عليه، فأخذ هاشمُ الإبل فنحَرها وأطعَمها مَن حَضره، وخرج أُمَيَّة إلى الشام، فأقام بها عشرَ سنين؛ فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأُميَّة ثم وَلِيَ. هاشم الرِّفادة والسِّقاية».

ذكر ولاية هاشم الرِّفادة والسِّقاية

قال: «إن هاشمًا، وعبدَ شمس، والمُطَّلب، ونَوْفلاً: بني عبد مَناف أَجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قُصَيّ مما كان قُصَيّ جعَل إلى عبد الدار من

(١) الغرائر: الجوالق، أي الأوعية (اللسان: غرر، جلق).

(٢) ثرد: كسر.

(٣) عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس السهمي القرشي أبو سعد (... نحو ١٥ هـ = نحو ٦٣٦ م). شاعر قريش في الجاهلية. كان شديدًا على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه «حسان» أبياتًا، فلما بلغته عاد إلى مكة، فأسلم واعتذر، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة (الأعلام: ٤ : ٨٧).

(٤) رواية ابن هشام في السيرة: ١ : ١٤٤، والروض الأنف: ١ : ٩٤: «لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف». وهي التي تتفق مع قافية الأبيات ـ قبلها وبعدها ـ المكسورة. ومسنتين: أصابتهم سنة قحط.

(٥) احفظوه: أغضبوه.

(٦) نفر الحكم: قضى لأحد المتنافرين بالغلبة على الآخر.

الحِجابة، واللِّواء، والرِّفادةِ، والسِّقاية، والنَّدوة، ورأوا أنهم أحقُّ به منهم لشَرَفهم عليهم، وفضلهم في قومهم، وكان الذي قام بأمرهم هاشم، فأبت بنو عبد الدار أن تُسلم ذلك إليهم، وقام بأمرهم عامرُ بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار؛ فصار مع بني عبد مَناف بن قُصَيّ بنو أَسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، وبنو زُهْرة اْبن كِلاب، وبنو تَيْم بن مُرّة، وبنو الحارث بن فِهْر؛ وصار مع بني عبد الدار بنو مَخزوم وسَهْم، وجُمَح، وبنو عَدِيّ بن كعب؛ وخرجت من ذلك بنو عامِر بن لُؤَيْ، ومُحارب بن فِهر؛ فلم يكونوا مع واحد من الفريقَيْن، فعقد كلُّ قوم على أمرِهم حلفًا مؤكّدًا: ألا يتخاذلوا، ولا يُسلِمَ بعضُهم بعضًا، «ما بَلَّ بَحْرٌ صوفة»[١].

فأخرجت بنو عبدَ مناف، ومن صار معهم، جَفنةً[٢] مملوءة طِيبًا، فوضعوها حول الكعبة، ثم غَمَس القومُ أيديَهم فيها، وتعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا، ومَسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم، فسُمُّوا المَطيِّبين، وأخرجت بنو عبد الدار ومن كان معهم جَفْنةً مِن دم، فغِمسوا أيديَهم فيها، وتعاقدوا وتحالفوا: ألا يتخاذلوا ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفة؛ فسُمُّوا الأحلاف، ولَعَقه الدَّم[٣]، وتهيئوا للقتال، وعبِّئت كلُّ قبيلة لقبيلة؛ فبينما الناس على ذلك، إذ تَداعوا إلى الصُّلح على أن يُعطوا بني عبد مَناف بن قُصَيّ السِّقاية والرِّفادة، وتكونَ الحِجابةُ واللِّواءُ ودارُ النَّدوة إلى بَني عبد الدار كما كانت، ففعلوا، وتحاجز الناس؛ فلم تزل دار النَّدوة في بني عبد الدار، حتى باعَها عِكْرِمة بن عامِر، بن هاشم، بن عبد مَناف بن عبد الدار بن قُصَيّ، من مُعاوية بن أبي سُفيان؛ فجعلها مُعاوية دارَ الإمارة».

قال: ووليَ هاشم بن عبد مَناف بن قُصَيّ السِّقاية والرِّفادة، وكان رجلاً مُوسرًا، فكان يُخرج في كل عام مالاً كثيرًا، وكان قوم من قُريش أهلَ يَسار يترافدون، فيرسل كل إنسان بمائة مثقال هِرَقْلية، وغيرُهم يرسل بالشيء اليسير على قدر حالهم، فكان هاشم، إذا حضر الحج، يأمر بحياضٍ من أَدَم، فتُجعل في موضع زَمزَم، ثم يُستَقى فيها الماء من البئار التي بمكة فيشربه الحاجّ، وكان يُطعمهم قبل التَّرْوية[٤] بيوم بمكة، وبمِنًى، وجَمْع[٥]، وعَرَفة؛ وكان يَثْرُد لهم الخبز واللحم، والخبز والسَّمن،

---

(١) يقصدون بمثل هذا التعبير تأبيد الحكم؛ جاء في اللسان: «ومن الأبديات قولهم: لا آتيك ما بل بحر صوفة، ويقال: ما بل البحر الصوفة».

(٢) الجفنة: أعظم ما يكون من القصاع (اللسان: جَفَنَ).

(٣) سموا بذلك لأنهم لعقوا من ذلك الدم. انظر المحبر لابن حبيب ص ١٦٦.

(٤) التروية: يوم قبل يوم عرفة، وهو الثامن من ذي الحجة سمي به، لأن الحجاج يتروّون فيه من الماء، وينهضون إلى منى ولا ماء بها.. (اللسان: روي).

(٥) جمع: علم للمزدلفة، معجم البلدان: ٣: ١٣٨.

والسويق[١] والتمر، ويحمل لهم الماء، فيستقون بمنًى، والماءُ يومئذٍ قليل، في حياض الأَدَم، إلى أن يَصدُروا من مِنًى، ثم تنقطع الضيافة ويتفرق الناس إلى بلادهم».

قال: «وهاشم بنُ عبد مَناف هو الذي أخذ الحِلْف لقُرَيش من قَيْصر أن تختلف آمنة، فكتب له كتابًا، وكتب إلى النَّجاشي أن يُدخِل قُرَيْشًا أرضَه وكانوا تُجّارًا، فخرج هاشم في عِير لقُرَيش فيها تِجارات، وكان طريقُهم على المدينة، فنزلوا بسُوق النَّبَط، فصادفوا سُوقًا تقوم بها في السنة يَحشِدون لها، فباعوا واشتروا، ونظروا إلى امرأة على موضع مُشرِف من السوق، فرأى امرأة تأمُر بما يُشترى ويُباع لها، فرأى امرأةً حازمة جَلْدة مع جَمَال، فسأل هاشم عنها[٢] أأَيِّم هي أم ذات زوج؟ فقيل له أيِّم كانت تحت أُحَيْحَة بن الجُلَاح، فولدت له عَمرًا ومعبدًا ثم فارقها، وكانت لا تنكح الرجال، لشَرفها في قومها، حتى يَشرِطوا لها أنّ أمرها بيدها، فإذا كرِهت رجلاً فارقته؛ وهي سَلْمى بنت عمرو، بن زيد بن لَبيد بن خِدَاش، بن عامر بن غَنْم بن عديّ بن النّجار، فخطبها هاشم، فعرفت شرفه ونَسَبه فزوّجته نفسها، ودخل بها وصنع طعامًا، ودعا من هناك من أصحاب العير الذين كانوا معه، وكانوا أربعين رجلاً من قُرَيش، ودعا من الخَزرَج رجالاً، وأقام بأصحابه أيامًا؛ فعلِقتِ[٣] سَلْمَى بعبد المطّلب، وولدته وفي رأسه شَيْبة، فسُمِّي شَيْبة. وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام حتى بلغ غَزَّة فمات، ودفِن بِغَزَّة[٤] وله عشرون سنة، وقيل خمس وعشرون سنة، ورَجَعوا بتركته إلى وَلَده، وأَوصَى هاشم إلى أخيه المطَّلب بن عبد مَناف».

«وحكى ابن الأثير أنه لما تزوّج سَلْمَى شرط لها أبوها ألا تَلِدَ وَلَدًا إلا في أهلها، فحمَلها هاشم إلى مكَّة فحملت منه، فلما أَثقَلَت[٥] ردّها إلى أهلها ومضى إلى الشام؛ وقيل: إنه لما ينقُلها، وإنه خرج إلى الشام هو وعبد شَمس، فماتا جميعًا بغَزَّة في عامٍ واحد، وبقي مالُهما إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام؛ فلما غزا رسول الله ﷺ آخِر غزوةٍ غزاها جاءه قيس بمالِهما، فدفع رسول الله ﷺ مالَ هاشم إلى العبَّاس بن عبد المطَّلب، ففرّقه على كُبَراء بنِي هاشم، ودفع مالَ عبد شمس إلى سُفْيان بن حَرْب، ففرّقه على كُبَراء بني عبد شمس».

(١) السويق: ما يتخذ من الحنطة والشعير.
(٢) الأيم: التي لا زوج لها.
(٣) علقت: حملت.
(٤) ولذلك تضاف إليه فيقال: غزة هاشم. وتقع في أقصى الشام من ناحية مصر. (معجم البلدان: ٦: ٢٩).
(٥) أثقلت: شارفت على الولادة.

وقد حكى ابن الأثير[١]: أن عبد شمس مات بمكة فقُبِر بأَجْياد، وذلك بعد وفاة هاشم بِغَزَّة. قال: ثم مات نوفل بسَلْمان[٢] من طريق العراق، ومات المطلب برَدْمان[٣] من أرض اليمن والله أعلم.

وقيل[٤]: إن هاشماً وعبْدَ شَمس توأمان، وإن أحدَهما وُلد قبل الآخر، قيل: إنّ الأوّل هاشم، وقيل: إنهما وُلدا وأُصبع أحدِهما ملتصقةٌ بجَبْهة صاحبه فنُحِّيت، فسال دَمٌ فقيل يكون بينهما دَمٌ. والله تعالى أعلم.

قال ابن الكلبي: وولَد هاشم بن عبد مَناف أربعة نَفَر وخمسة نسوة، وهم: شَيْبَة الحَمْد، وهو عبد المطّلب، ورُقَيَّة ماتت وهي جارية لم تَبْرُز[٥]، وأُمُّهما سَلْمَى بنت عمرو، وأبو صَيْفِيّ واسمه عمرو وهو أكبَرهم، وأُمه هند، بنت عمرو، بن ثَعلَبة بن الحارث بن مالك بن سالم بن غَنْم بن عَوْف بن الخَزْرَج، وأَسَد بن هاشم وأُمُّه قَيْلة، وكانت تُلقَّب الجزُور[٦]، بنت عامر بن مالك، بن جَذِيمة، وهو المُصطَلِق بن خُزاعة، ونَضْلَة بن هاشم، والشّفاء، وأمهما أُمَيمةَ بنت عديّ، ابن عبد الله بن دينار بن مالك بن سَلَامان بن سَعد بن قُضَاعة. والضَّعيفة بنت هاشم، وخالدة بنت هاشم، وأمهما أمّ عبد الله، وهي واقدة بنت أبي عَدِيّ، ويقال عديّ، وهو عامر بن عبد نُهْم بن زيد بن مازِن بن صَعْصَعَة؛ وحَيّة بنت هاشم، وأمها أم عَديّ بنت حَبيب بن الحارث بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم بن قِسيّ وهو ثقيف. والله عزّ وجلّ أعلم بالصواب.

ذكر أخبار عبد المطلب بن هاشم

قال ابن قتيبة[٧]: «واسمه عامر». والصحيح عندهم ما ذكره محمد بن

---

(١) في الكامل: ٢: ٧.
وهو: علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن، عز الدين ابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ = ١١٦٠ ـ ١٢٣٣ م). المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب. ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل. وتوفي بها. من تصانيفه «الكامل ـ ط» وأسد الغابة في معرفة الصحابة. (الأعلام: ٤: ٣٣١).

(٢) سلمان: ماء قديم، وهو في طريقهم ـ أيام الجاهلية ـ من العراق إلى تهامة. معجم البلدان: ٥: ١١١.

(٣) رَدمان: بفتح الراء بلد باليمن. (معجم البلدان: ٤: ٢٤٥) وفي الأصل «بريمان» تصحيف.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير: ٢: ٧، والطبري: ٢: ١٨٠.

(٥) تَبْرُز: تبلغ مبلغ النساء.

(٦) في الأصل: «الحزور» بالحاء، تصحيف.

(٧) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ = ٨٢٨ ـ ٨٨٩ م). من أئمة =

إسحاق بن يَسار وغيرُه أن اسمه شيبة، وكنيته أبو الحارث، كُنِّي باسم ولَده الحارث، وهو أكبر ولده.

ولعبد المطَّلب كنيةٌ أخرى، وهي أبو البَطْحاء؛ ولتَسْمِيته بهذين الاسمين، وتَكْنِيَته بأبي البَطْحاء أسباب نَذكُرها قريبًا إن شاء الله تعالى. وأُمُّ عبد المطلب سَلْمَى بنت عمرو بن زيد بن لَبيد بن خِداش بن عامر بن غنْم بن عَديّ بن النّجار.

وقال ابن إسحاق: سَلْمَى بنت زيد بن عمرو بن لَبيد بن [حرام بن][١] خِدَاش بن جُنْدُب بن عَدِيّ بن النّجّار.

وقد تقدم آنفًا خبر زواج هاشم بها.

ذكرُ ما قيل في سَبب تَسمِيته وكُنيته

أمّا سبب تسميته شَيْبة فقيل إن أُمّه ولدته وفي رأسه شَيْبَة[٢]، وكانت ظاهرةً في ذُؤابته، فسمَّته شَيْبَة، وذلك في غَيْبة أبيه. وقيل: إن أباه أوصاها إذا ولدت ذكرًا أن تُسَمِّيه شَيْبَة، فهو شَيْبَةَ الحَمْد.

وفي تَسميته[٣] عبد المطلب أنه لما مات هاشم أقام شَيْبَة بالمدينة عند أمه إلى أن بلغ سبع سنين، فمرّ رجل من بني الحارث[٤] بن عبد مَناف بالمدينة[٥]، فإذا غِلمان يَنتصلون[٦]، فجعل شَيْبَة إذا أصاب قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البَطْحاء[٧]، فقال له الحارثيّ[٨]: من أنت قال: أنا شَيْبَة بن هاشم بن عبد مَناف. فلما أتى الحارثيّ مكّة قال للمطلب، وهو بالحِجر[٩]: يا أبا الحارث، رأيت ابن أخيك هاشم بيَثْرِب، وأخبره بحاله، ولا يَحْسُن بك أن تَترُك مثله، فقال المطّلب: والله لا أرجع إلى أهلي حتى آتي

= الأدب، ومن المصنفين المكثرين، ولد ببغداد وسكن الكوفة، توفي ببغداد من كتبه «أدب الكاتب» و«المعارف» و«عيون الأخبار». (الأعلام: ٤: ١٣٧).

(١) التكملة عن الطبري: ٢: ١٧٦.
(٢) تقدم ذلك عن ابن الأثير: ٢: ٤.
(٣) في الأصل: «وفي تسمية عبد المطلب»، ولعل الصواب ما أثبت.
(٤) في الخبر عن البشر: ٣: ٦٦ (قسم أول): «رجل من أهل تهامة».
(٥) في الطبري: ٢: ١٧٧: «عبد مناة بيثرب».
(٦) ينتضلون: يستبقون في رمي الأغراض بالسهام.
(٧) يريد بطحاء مكة وهي متسع سهل بها. انظر معجم البلدان: ١: ٢١٣.
(٨) في الأصل: «الحارث» تصحيف.
(٩) الحجر بالكسر: حجر الكعبة، وهو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام. وحجرت على الموضع ليعلم أنه من الكعبة. معجم البلدان: ٣: ٢٢١، تاج العروس (حجر).

به؛ فأعطاه الحارثيّ ناقته فركِبها وقدِم المدينة عشاء، فإذا غلمان يضربون كُرَة، فعرف ٱبنَ أخيه، فقال للقوم: هذا[١] ٱبنِ هاشم؟ قالوا: نعم، فبلغ أُمَّه أنه جاء ليأخذه فقالت: والله لو أنّ لك مالاً[٢] مثل أُحُد ما أعطيتك إياه، فقال: لا أنصرف حتى أَخرُجَ به؛ إنّ ابن أخي قد بَلَغ، وهو غريب عن قومه. فيقال: إنها دفعته إليه فأخذه بإذنها. وقيل: إنه أَخَذَه ٱختلاسًا، وأعانه على أخْذِه رجل من خُزَاعة.

وقال ٱبن سعد في طبقاته[٣] عن محمد بن واقِد الأسلَميّ[٤]: إن ثابت بن المُنذِر ابن حَرام، وهو أبو حسّان بن ثابت[٥] الشاعر، قدم مكّة مُعتَمِرًا، فلقي المطّلب، وكان له خليلاً، وكان المطّلب قد ولي السِّقاية والرِّفادة بعد موت هاشم، فقال له ثابت: لو رأيتَ ٱبنَ أخيك شَيْبة فينا لرأيتَ جَمالاً وهَيْبةً وشَرَفًا؛ لقد نظرتُ إليه، وهو يناضل[٦] فِتيانًا من أخواله، فيُدْخِل مِرْمَاتَيْه[٧] جميعًا في مثل راحتي هذه، ويقول كلما خَسَق[٨]: أنا ابن عَمْرو العُلَى! فقال المطّلب: لا أُمْسي حتى أَخرُجَ إليه فأَقدَم به، فخرج فورد المدينة، فنزل في ناحية، وجعل يَسأل عنه حتى وجده يَرمي في فِتيان من أخواله، فلما رآه عرف شَبَه أبيه فيه، ففاضت عيناه، وضَمَّه إليه وكساه حُلَّةً يمانية، وأنشأ يقول: [من البسيط]

عَرَفْتُ شَيْبَةَ والنّجّار قد حَفَلت ... أبناؤها حولَه بالنَّبْل تَنتَضِلُ
عَرَفتُ أَجلاده منا وشِيمتَه ... ففاضَ منّي عليه وابلٌ سَبِلُ[٩]

---

(١) في الطبري: «أهذا ابن هاشم».
(٢) الكلمة في الأصل غير واضحة؛ ولعل ما أثبت أقرب إلى الأصل.
(٣) في الطبقات: ١: ٤٨ (قسم أول).
(٤) محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني أبو عبد الله الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ = ٧٤٧ ـ ٨٢٣ م): من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث ولد بالمدينة انتقل إلى العراق سنة ١٨٠ هـ في أيام الرشيد. واستمر إلى أن توفي فيها. من كتبه: «المغازي النبوية ـ ط» و«تفسير القرآن» (الأعلام: ٦: ٣١١).
(٥) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو اليد، الصحابي، شاعر النبي ﷺ. وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام. فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام (. . . ـ ٥٤ هـ = . . . ـ ٦٧٤ م) (الأعلام: ٢: ١٧٥).
(٦) يناضل إخوانًا: يباريهم في الرمي.
(٧) المرماتان: سهمان يرمي بهما الرامي فيحرز سبقه.
(٨) خسف الهم: أصاب الغرض.
(٩) أجلاد الإنسان: جماعة شخصه، ومن كلامهم: «ما أشبه أجلاده بأجلاد أبيه، أي شخصه وجسمه». أسبل الدمع: هطل.

فأَرسلَتْ سَلْمَى إلى المطَّلِب، فدعَتْه إلى النُّزُول عليها فقال: شَأنِي أَخَفُّ من ذلك؛ ما أريد أن أَحُلَّ عُقدةً حتى أقبِض ٱبنَ أخي فألحِقَه ببلده وقومه فقالت: لستُ بمُرسِلَته معك، وغلَّظَت عليه فقال: لا تفعل فإني غيرُ منصَرِف حتى أَخرُجَ به معي، فإنّ المُقام ببلده خيرٌ له من المُقام ههنا، وهو ابنِك حيث كان؛ فلما رأتْ أنه غير مقصّر حتى يَخرُجَ به استنظَرْته ثلاثةَ أيام، وتحوَّل المطَّلب إليهم ونزَل عندهم، وأقام ثلاثًا ثم ٱحتمَله وانطلقَا جميعًا، ودخل به إلى مكّة فقالت قُرَيش: هذا عبد المطَّلب! فقال: ويحَكُم إنما هو ٱبن أخي شَيْبَةَ بن عَمرو.

وقيل: إنه لما دخَل إلى مكّة دخلها وشَيْبَةُ معه على ما عَجُز ناقته، وذلك ضُحَى[١]، والناسُ في أسواقهم ومَجالسهم، فقاموا: يُرحِّبون بقُدوم المطَّلب ويقولون له: مَن هذا معك؟ من هذا وَراءك؟ فيقول: هذا عَبْدي، وفي رواية هذا عبدٌ ٱبْتعته بيَثْرِب، فأدخَلَه المطَّلب منزِلَه على ٱمرأته خَديجة بنتَ سعيد بن سَهْم، فقَالت: مَن هذا معك، قال: عبدٌ لي؛ وٱشتَرَى له حُلَّةً[٢] فلبِسها، ثم خَرج به العشيَّ إلى مَجلس بني عبد مَنَاف وأَعلمهم أنه ٱبن أخيه؛ فجعل شَيْبَةُ يطوف بمكّة، فإذا مَرَّ بقوم قالوا: هذا عبد المطَّلب، فغلب ذلك عليه.

وفي تَكنيتِه بأبي البَطْحاء أنه ٱستَسْقَى[٣] لأهل مكّة فسُقُوا لوَقْتهم، فقال له مشايخ قُرَيش عند ذلك: هنيئًا لك أبا البَطْحاء. وسنذكر إن شاء الله تعالى هذه القصّة بطولها في المُبَشِّرات برسول الله ﷺ. فهذه أسباب تَسميته وتكنيته. والله أعلم.

وكان عبد المطلب جَسيمًا، أبيضَ، وسيمًا، طُوَالاً، فصيحًا؛ ما رآه أَحَدٌ قَطُّ إلا أحبَّه. قال الواقدي: وأقام عبدُ المطَّلب بمكّة حتّى أدرك[٤]. وخرج المطَّلب بن عبد مَنَاف تاجرًا إلى أرض اليَمَن، فهلك برَدْمان من أرض اليمن، فولِي عبدُ المطَّلب بعدَه الرِّفادة والسِّقاية؛ فلم يزل ذلك بيده وهو يُطعِم الحاجّ ويَسْقِيهم في حِياض الأَدَم حتى حَفَر زَمْزَم، فترَكَ السَّقْي في الحِياض، وسقاهم من زَمزَم، وكان يَحمِل الماء من زَمزَم إلى عرفة فيَسقيهم. والله أعلم.

ذكر حَفْر عبد المطَّلب زَمْزَم وما وُجِد فيها

قال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله بسنَدٍ رَفعه إلى عليّ بن أبي طالب

(١) كذا في طبقات ابن سعد: ١: ٤٨ (قسم أول)، وفي كامل ابن الأثير: ٢: ٥: «فقدمها ضحوة».
(٢) حلة: ثوبًا.
(٣) استقى: صلى لله كي تمطر السماء بعد انحباس المطر.
(٤) أدرك: بلغ مبلغ الرجولة.

رضي الله عنه قال[١]: قال عبد المطَّلب؛ إني لَنائم في الحِجْر، إذ أتاني آتٍ فقال: أحفِر طيبة[٢] قال: قلت: وما طِيبَة؟ قال: ثم ذهَب عني؛ فلما كان الغَد رجعت إلى مَضجعِي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفِر زَمزَم، قال: قلت: وما زَمزَم؟ قال: لا تُنزَف أبدًا ولا تُذم[٣] تَسْقِي الحَجيجَ الأعظم، وهي بينَ الفَرث[٤] والدَّم، عند نُقرة الغُراب الأَعْصَم[٥]، عندَ قَرية النمل[٦]. قال[٧]: فلما بُيّن له شأنُها، ودُلّ على موضَعها، وعَرَف أنه قد صُدِق، غَدا بِمعْوله[٨]، ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذٍ ولدٌ غيرُه فحفَر، فلمّا بدَا لعبد المطَّلب الطي كَبَّر، فعرَفَت قُرَيْش أنه قد أدرك حاجَتَه، فقاموا إليه فقالوا: يا عبدَ المطَّلب، إنّها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًّا فأشركنا مَعك فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دونَكم، وأعطِيتُه من بينكم، قالوا له: فأَنصِفنا، فإنا غير تاركيك حتى نُخاصِمَك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينَكم مَن شئتُم أحاكِمْكُم إليه، قالوا: كاهنة بَني سَعْدِ بن هُذيم، قال: نَعم، وكانت بمَعان[٩] من أشراف الشّام فركِب عبدُ المطَّلب ومعه نَفَر من بني أبيه من بَني عبد مَنَاف، ورَكِب[١٠] من كُل قبيلة من قُرَيش نَفرٌ والأرضُ إذ ذاك مُفاوِز[١١]، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المَفاوز بين الحجاز والشّام، فَنِي ماءُ عبد المطَّلب وأصحابِه، فظمِئُوا حتى أيقَنُوا

---

(١) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ١٥١ ـ ١٥٣.

(٢) طيبة بكسر الطاء: علم على بئر زمزم، انظر تاج العروس (طيب). لا تنزف: أي لا يفنى ماؤها على كثرة الاستقاء، وفي طبقات ابن سعد ٢: ٤٩ (قسم أول): «لا تنزح ولا تذم». وفي ابن الأثير: ٢: ٥: «قال: تراث من أبيك الأعظم لا تنزف ولا تذم».

(٣) لا تذم: لهم في معنى «لا تذم» ثلاثة أقوال، أحدها: لا تعاب، والثاني لا تلفى مذمومة، والثالث: لا يوجد ماؤها قليلاً.

(٤) الفرث: تفتيت الكبد من الغم والأذى (اللسان: فرث).

(٥) الأعصم: الأحمر الرجلين والمنقار، وهو الذي في أحد جناحيه، أو في إحدى رجليه ريشة بيضاء (انظر تاج العروس: عصم).

(٦) قرية النمل: الموضع الذي يجتمع في النمل.

(٧) القائل هو ابن إسحاق، انظر السيرة: ١: ١٥١.

(٨) المعول: الفأس.

(٩) معان: بفتح الميم وضمها: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز: معجم البلدان: ٣: ٩٣، تاج العروس (معن).

(١٠) في الأصل: «من بني أمية، وركب»، والتصويب والتكملة عن سيرة ابن هشام: ١: ١٥٢، وطبقات ابن سعد ١: ٩ (قسم أول). وفي ابن الأثير: ٢: ٥ وشرح المواهب للزرقاني: ١: ٩٣ «ومعه نفر من بني عبد مناف».

(١١) مفاوز: البراري المقفرة.

بالهَلَكة، فاْستسقَوا مَن مَعَهُم من قبائل قُرَيش فأَبوا عليهم، وقالوا: إنّا بمَفازة، ونحن نَخْشَى على أنفسُنا مثلَ ما أصابكم؛ فلما رأى عبد المطَّلب ما صَنَع القوم، وما يتخَوّف على نفسه وأصحابِه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأيُنا إلا تَبَعُ رأيك، فمُرْنا بما شئت، قال: فإني أرى أن يَحفِر كلّ رجل منكم حفرتَه لنفسه بما بكم الآن من القوّة، فكلّما مات رجل دفَعه أصحابُه في حُفْرته، ثم وارَوه، حتى يكونَ آخرُكم رجلاً واحدًا، فيموتَ ضِيعَة[١]، فضيعة رجلٍ واحد أيسَرُ من ضيعَة ركْبٍ جميعًا، قالوا: نِعْمَ ما أمَرتَ به، فقام كل رجل منهم فحفر حُفرتَه، ثم قعَدوا ينتظرون الموت عطشًا؛ ثم إن عبد المطَّلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءَنا بأيدينا هكذا لِلْموتِ عجز[٢]، ألا نَضربُ في الأرض، ونَبتَغي لأنفسِنا؟ فعسَى اللهُ أن يرزُقنا ماءً ببعض البلاد. ارتحِلوا! فاْرتَحَلُوا حتى إذا فرَغوا، ومَن مَعَهم مِن قبائل قُرَيش يَنظُرون إليهم ما هُم فاعلون تقدَّم عبدُ المطّلب إلى ناقته فركِبها، فلمّا اْنبَعَثت به اْنفجَرَت مِن تحتِ خفِّها عينٌ من ماءٍ عَذْب فكبَّر عبدُ المطَّلب وكبر أصحابُه، ثم نزلَ فشرِب، وشرِب أصحابُه، واْستَقوا حتى ملأوا أسقِيَتهم، ثم دعَا القبائل من قُرَيش فقال: هَلمُوا إلى الماء، فقد سقانا الله، فاْشرَبوا واْستَقُوا، فجاءوا فشربوا واْستَقوا ثم قالوا: قد والله قُضِي لك علينا يا عبدَ المطّلب، والله لا نُخاصمُك في زَمزَم أبدًا، إن الذي سقاك هذا الماءَ بهذه الفَلاة لهو الذي سقاك زَمزَم، فاْرجِع إلى سِقايتك راشدًا، فرجع ورجَعوا معه، ولم يصِلوا إلى الكاهنة، وخلَّوا بينَه وبينَها.

هذا أحد ما قيل في حفر زمزم.

وفي رواية أخرَى: أنه قيل له: احفِر زَمزَم، إنك إن حَفَرتَها لم تَندَم، وهي تُراثٌ من أبيك الأعظم، لا تُنزَف أبدًا، ولا تُذَمّ، تَسْقِي الحَجيجَ[٣] الأعظم، مثل نعام جافلٍ[٤] لم يُقْسَم. يَنذر فيها ناذرٌ لمنْعِمْ، تكون ميراثَه وعقدًا مُحْكم، ليسَت كبعض ماَ قد تَعْلَم، وهي بينَ الفرث والدَّمْ[٥].

قال اْبن إسحاق: فزعَموا أنه حين قيل له ذلك قال: فأين هي؟ قيل له: عند قَرية

(١) مات ضيعة: بكسر الضاد، أي غير مفتقد ولا متعهد.
(٢) في سيرة ابن هشام: ١: ١٥٢، وابن الأثير: ٢: ٦ «... للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز».
(٣) الحجيج: جمع حاج.
(٤) جافل: شارد.
(٥) قال ابن هشام (١: ١٥٤) «وهذا الكلام، والكلام الذي قبله من حديث علي رضي الله عنه في حفر زمزم، من قوله: «لا تنزف ولا تذم»» إلى قوله: «عند قرية النمل» عندنا سجع وليس شعرًا.

النَّمل، حيث يَنقُر الغُراب غدًا. فغدا عبدُ المطَّلب ومعه ٱبنه الحارث، فوجَد قرية النَّمل، ووجد الغُراب ينقرُ عندَها بين الوثَنَيْن: إسَافَ ونائلة[١]: اللَّذَيْن كانت قُرَيش تنحَر عندَهما ذَبائحَها، فجاء بالمِعْوَل، وقام ليَحْفِر حيثُ أُمِر، فقامت إليه قُرَيْش حين رأوا جدَّه[٢] فقالوا: والله لا نتركك تحفِرُ بين وَثَنَيْنا هذَيْن اللَّذَيْن ننحَر عندهما؛ فقال عبد المطَّلب لابنه الحارث: ذُدْ عنّي حتى أَحْفِر، فوالله لأَمْضِيَنَّ لما أُمِرتُ به، فلمّا عَرفوا أنه غير نازع[٣] خلَّوا بينَه وبينَ الحفْر وكَفُّوا عنه، فلم يَحفِر إلا يسيرًا، حتّى بدَا له الطَّيّ، فكبَّر وعرَف أنه قد صُدِق، فلما تَمادَى به الحفْر وجد فيها غزالَيْن[٤] من ذَهَب، وهما الغزَالان اللذَان دفنتْ جُرْهُم فيها حين خَرجَت من مكّة، ووجَد فيها سُيُوفًا قَلْعِيَّة[٥] وأَدْرَاعًا، فقالت له قُرَيش: لنا معك في هذا شِرْكٌ[٦] وحَقّ، قال: لا. ولكن هَلُم إلى أَمْرٍ نَصَفٍ[٧] بيني وبينَكم؛ نَضرِبُ عليها بالقِدَاح[٨]، قالوا: وكيف نَصنَع؟ قال: أجعلُ للكعبة قِدْحَيْن، ولِي قِدْحَيْن، ولكم قدْحَيْن، فمَن خَرج قِدحاه على شيءٍ كانَ له، ومن تخلّف قِدْحاه فلا شيءَ لَه، قالوا: أنصفْت، فجعل قِدْحَيْن أصفَرَيْن للكعبة، وقدْحَيْن أسودَيْن له، وقِدْحَيْن أبيضين لقُرَيْش، ثم أعطَوها صاحبَ القداح الذي يَضرب بها عند هُبَلُ وهبل صَنَم في جوف الكَعبة، وهو أعظم أصنامهم، وقام عبد المطّلب يدعو، وضَرب صاحبُ القِداح، فخرج الأصفران على الغَزَالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطّلب، وتخلّف قدحَا قُرَيْش، فضرب عبدُ المطَّلب الأسيافَ بابًا للكعبة، وضربَ في الباب الغزالَيْن، فكان أول ذَهَب حِلّيَته الكعبة. وقيل: إنه جعل القُفل والمفتاح من ذَهَب الغزالَيْن. وعن محمّد بن عَمرو بن[٩] واقد قال: كانت جُرْهُم حين أحسُّوا بالخروج من مكة دفَنوا غزالَيْن وسبعة

(١) إساف «بوزن كتاب، وسحاب»: صنم وضعه عمرو بن الحي الخزاعي على الصفا، ووضع نائلة (صنم أيضًا) على المروة، وحولهما قصة تجدها في كتاب الأصنام، وفي تاج العروس: (أسف).

(٢) جده: تصميمه وعزمه.

(٣) فزع عن الأمر: كفّ عنه.

(٤) في الأصل: «فيها عين البئر من ذهب»، تحريف.

(٥) القلعية: نسبة إلى القلعة بفتح فسكون، والمسمى بالقلعة موضعان أحدهما بالهند، والثاني باليمن، وإليهما معًا تنسب السيوف القلعية. وفي ابن سعد: ١: ٥٠ (قسم أول): «سيوفًا قلعية وأظفارًا».

(٦) الشركة: الحصة والنصيب.

(٧) النصف: أن تعطي غيرك من الحق كالذي تأخذ لنفسك؛ العدل.

(٨) القداح: جمع قدح (بكسر فسكون)؛ وهو سهم بغير نصل كانوا يستقسمون به. انظر كتاب الميسر والقداح لابن قتيبة ص ٣٨.

(٩) سبقت ترجمته.

أسياف قَلْعِيّة، وخمسة أذراعٍ سوابغ، فوجدها عبد المطّلب.

هذا خبر حفر زَمزَم وما وُجد فيها، وقد تقدَّم ذكر سَبب خبر رَدْمها في أثناء أخبار قُصَيّ بن كِلاب؛ فلنَذكرُ من أخبار عبد المطّلب خلافَ ذلك. والله الموفق للصواب.

ذكر خبر استسقاء عبد المطلب لبني قَيْس عَيلان[١] وهذيل ومن معهم

حكى الزُّبَير بن بكّار[٢] في أنساب قُرَيْش وبَني هاشم، وبَني عبد المطّلب قال: روَى إبراهيم بن محمد الشافعي عن أبيه، عن الوليد بن خالد المخزوميّ عن سَعد بن حُذَافة الجُمَحِيّ، عن محمد بن عَطِية العَوْفي، عن رجل من هُذَيل قال: قَحطتْ بلادُ قَيس، وأجدبت فلم تُصبهم سَماء يعقد بها الثَّرَى، ولا ينبُت بها الكَلأَ[٣]، فذاب الشّحم، وذهب اللحم، وتهافتوا ضُرًّا[٤] وهَزْلاً، فٱجتمعوا للمشورَة وإجالة الرأي، وقد عزموا على الرّحلة وٱنتجاع البلاد، فقالت فرقة منهم: ٱنتجعوا بلادَ سَعد وبَطْن العُشر[٥]، وقالت فِرقَةٌ أُخرَى: إنّ تَميمًا عددٌ كثير لا يفضُل منهم ما يكفيكم، وقالت فرقة أُخرى: لينتجع كلُّ ولدِ أبٍ منكم ولدَ أبٍ من غَيركم، وٱعقِدوا معهم حِلفًا تَشركونهم به في رَبعهم[٦]؛ فقام رجل حَسن الوَجه، مجتمع الخَلْق، جيِّد الرأي، فقال: يا بَنِي عَيلان[٧]، إنكم قد أصبحتُم في أمرٍ ليس بالهَزْل؛ هذا أمرٌ عظيمٌ خَطَرُه، متباعِدٌ أمرُه، قد بَلَغنا أن عبد المطّلب بن هاشم سيّد البَطْحاء ٱستَسْقَى فسُقي، ودَعا فأُجيب، وٱستُجِيرَ به فأَجار، فٱجعَلوا قَصدَكم إليه، ووفَادَتكم عليه، فإن ذلك أوكَدُ للسّبَب[٨]، وأوجَهُ في الطّلَب، قالوا: أحسَن الرّأي، فرحلت قيس وهُذَيل، ومَن دنَا

(١) في الأصل: «غيلان» بالمعجمة، تصحيف.

(٢) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي. عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية، ولد في المدينة وتوفي فيها. له تصانيف منها «أخبار العرب، وأيامها» و«نسب قريش وأخبارها». (١٧٢ - ٢٥٦ هـ = ٧٨٨ـ ٨٧٠ م) (الأعلام: ٣: ٤٢).

(٣) الكلأ: العشب.

(٤) الضُر: سوء الحال.

(٥) العُشر: العُشَر بضم ففتح: شعب لهذيل قرب مكة، أو وادٍ في ديار تميم بين البصرة ومكة. اللسان: عشر.

(٦) الربع: المنزل. وفي الأصل: «ريعهم».

(٧) في الأصل: «غيلان» بالمعجمة، تصحيف.

(٨) للسبب: للغاية.

منهم حتّى أتَوا عبدَ المطّلب، فقالوا: أفلَحَ الوجهُ أبا الحارث! نحن ذَووا أرحامك الواشِجات[١]، أصابتنا سِنُون مُجْدِبات، أَهزَلن السّمين، وأنفَذن[٢] المَعِين، وقد بَلَغَنا خبرُك، وبان[٣] لنا أمرُك، وكلامًا نحوَ هذا.

فقال: موعدكم جبلُ عَرَفَات، ثم خرج في بَنِيه وبَني أُمَيَّة حتى أَتَى جَبَل عَرَفَات، فصعِد الجبل فقال: اللّهم ربَّ الريح العاصف، والرّعد القاصف، والبرق الخاطف، مُنشِيء السّحاب، ومالك الرّقاب، ذي المنَن العِظام، والأيادي الجِسام؛ هذه مُضَر خيرُ البشَر، تشكو سوءَ الحال، وشدَّة الإمحال، قد ٱحدَوْدَبت ظهورُها، وغارَت عيونُها، وشَعِثَت شعورُها، وقد خلّفوا نساء ضُلْعًا، وصِبيانًا رُضَّعًا، وبهائم رُتَّعًا. فآتهم اللهم ريحًا جَرّارة، وسحابًا درّارة، تُضحِك أرضَهم، وتكشِف ضُرَّهم، فما فرغ من كلامه حتى نشأت سَحابة دَكْناء فيها وذق[٤] شَديد، فقال: هي هي، ثم قال: يا معشرَ مُضَر، أرجِعوا فقد سُقِيتُم، فَرَجَعوا وٱخضرَّت أرضُهم، وكثُرت مياهُهم.

هذا ما أورده الزُّبَير بن بكّار راوِي هذه القصّة، والله أعلم. [و] كانت بعد أن ٱستسقى لقُرَيش، وذلك بعد مَوْلد رسول الله ﷺ، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى مُستَوفًى في المُبَشِّرات برسول الله ﷺ بعد هذا. والله تعالى عز وجل أعلم.

ذكر نَذْر عبد المطّلب نحرَ ٱبنه
وخروج القِداح على عبد الله والد رسول الله ﷺ وفدائه

قال محمد بن سَعد في طبقاته الكُبْرَى[٥]، عن محمد بن عمرُ بن واقد الأَسلَميّ بسنَد رَفعه إلى عبد الله بن عبّاس وغيره رضي الله عنهم: إن عبدَ المطّلب بنَ هاشم لما رأى قلّة أعوانه في حَفْر زَمزَم نَذَر لئن أكمل الله له عشَرَة ذكور حتّى يراهم - أن يذبَح أحدَهم، فلما تكاملوا عشرَة وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبد الله، وحَمْزَةُ، وأبو لَهَب، والغَيْداق،[٦] والمُقَوّم[٧]، وضِرارَ، والعبّاس». هكذا نقلَ محمد ابن سَعْد، وعد من العشرة حَمْزَة والمُقَوّم؛ ويردّ[٨] هذا العددَ ما رُوِي أن عبد المطّلب

(١) أرحام واشجة: متصلة متآلفة.
(٢) وأنفذن: في الأصل: «وانفذنا»، تصحيف.
(٣) في الأصل: «وبار لنا» ولعل الصواب ما أثبت.
(٤) الودق: المطر كله، شديده وهينه (اللسان: ودق).
(٥) ١: ٥٣ (قسم أول).
(٦) اسم الغيداق: حجل، ولقب بالغيداق لكثرة خيره وسعة ماله.
(٧) المقوّم: بكسر الواو المشددة وفتحها.
(٨) أورد الزرقاني في شرح المواهب: ١: ٩٤ هذا الاعتراض وناقشه.

لم يتزوج أمّ حَمْزة إلا بعد الفِداء، وقد عدّ محمد بن السائب الكَلْبيّ أولادَ عبد المطلب الذكور اثْنَي عشَر، فيهم المُغِيرة، وقُثَم؛ وعدّهم الزُّبير بن بكّار ثلاثةَ عشَر فيهم عبدُ الكَعبة، وحَمْزة، والمُقَوّم، والمُغِيرة؛ هؤلاء الثلاثة إخوةٌ أشقّاء، كلُّهم لهالةَ بنت وُهيب، وزواجُ عبدِ المطلّب هالةَ هذه كان بعد الفِداء على ما حكاه ابن سعد أيضًا عن الواقدي، ولعلّ العشرة تَكمُل بُقثَم وعبدِ الكعبة. والله تعالى أعلم.

فلنرجع إلى سِياقة خبر محمد بن سَعد قال: «فلما تَكاملوا عَشرةً جمعهم، ثم أخبرَهم بنَذره، ودَعاهم إلى الوَفاء لله به، فما اختَلفَ عليه منهم أحَد، وقالوا: أَوْفِ بنَذْرك، وافعَل ما شئت، فقال: ليكتُبْ كل رجل منكم اسمَه في قِدْحِه ففعلوا، فدخل عبدُ المطّلب في جَوْف الكعبة وقال للسادن[١]: اضرب بقِداحهم فضرب فخرج قِدْح عبد الله أولَها، وكان عبدُ المطّلب يحبُّه، فأخذَ بيده يقوده إلى المذبَح ومعه المُدْيَة، فبكَى بناتُ عبد المطّلب وكنَّ قيامًا، وقالت إحداهنّ لأبيها: أعذِر فيه بأن تَضرب في إبلك السَّوائم التي في الحَرَم، فقال للسّادن: اضرب عليه بالقِداح، وعلى عَشَرة من الإبل، وكانت الديّة يومئذٍ عشرة من الإبل، فضَرب فخرج القِدْح على عبد الله، فجعل يزيد عشرًا عشرًا، كلُّ ذلك يخرج القِدْح على عبد الله حتى كَملَت مائة، فضرب بالقِدَاح فخرج على الإبل فكبَّر عبد المطّلب والناسُ معه، واحتمَلَ بناتُ عبد المطّلب أخاهنّ عبد الله، وقدَّم عبدُ المطّلب الإبلَ فنحرها بين الصَّفا والمروَة، وخلّى بينَها وبين كلّ من وَرَدها من إنسيٍّ أو سَبُعٍ أو طائر، لم يَذُبّ[٢] عنها أحدًا، ولم يأكل منها هو ولا أحدٌ من ولده شيئًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الديّة يومئذٍ عشرًا من الإبل، وعبدُ المطّلب أوّلُ من سَنَّ ديةَ النّفس مائةً من الإبل، فجرت في قُرَيش والعرب مائة، وأقرّها رسولُ الله ﷺ على ما كانت عليه.

هذا ما أورده محمد بن سَعَد في طَبقاته. وقال أبو محمد عبد الملك[٣] بن هشام في السّيرة: قال ابن إسحاق: وكان عبدُ المطّلب قد نَذَر حين لِقِي من قُرَيش ما لَقِي عند حَفر زَمزَم: لئن وُلِد له عشرَة نفَر، ثم بلَغُوا معه حتّى يَمنعوه[٤]، ليَنْحَرنّ أحدَهم لله تعالى عند الكعبة، فلمّا تَوافى بنوه عَشَرة، وعَرَف أنهم سَيمنعُونه جَمَعهم ثم

(١) السادن: خادم بيت الأصنام.
(٢) يذب: رواية ابن سعد: ١: ٥٤ (قسم أول): «أو طائر، لا يذب». ويذب: يدفع.
(٣) السيرة: ١: ١٦٠. وانظر الطبري: ٢: ١٧٣.
(٤) يمنعوه: يحموه.

أَخبَرَهم بنَذْره، ودعَاهم إلى الوَفاء لله بذلك، فأَطاعوه وقالوا كيف نَصنَع؟ قال: ليأخذ كلُّ رجل منكُم قِدْحًا، ثم ليَكْتُبْ فيه ٱسمَه، ثم ٱئتوني، ففَعلوا ثم أتوه، فدَخل بهم على هُبَل[(١)] في جَوف الكعبة، وكان هُبَل على بئر في جَوْف الكعْبة، وكانت تِلك البئْر هي التي يُجمَع فيها ما يُهدَى للكعبة، وكان عند هُبَل قِدَاحٌ سبعة، كلُّ قِدْح منها فيه كتاب، قدح فيه «العَقْل» إذا ٱختلفوا في «العَقل»[(٢)] من يَحمله منهم ضربوا بالقِداح السبعة، فعَلَى مَنْ خَرَجَ قدْح «العَقْل» حَمله؛ وقدح فيه «نعم» للأمر إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قِدح «نعم» عملوا به؛ وقِدْحٌ فيه «لا»، فإن خَرَج ذلك القِدْح لم يفعَلوا ذلك الأمر؛ وقِدْح فيه «منكم»؛ وقِدْح فيه «مُلْصَق»؛ وقِدح فيه «مِن غَيْركم»؛ وقِدْح فيه «المياه» إذا أرادوا أن يَحْفِروا للماء ضَربوا بالقِدَاح فيها ذلك القِدْح، فحيثُما خرج عَمِلوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يَختِنوا غلامًا أو يُنْكِحوا مَنكَحًا أو يَدفِنوا مَيّتًا، أو شَكّوا في نَسب أحدهم، ذهبوا إلى هُبَل بمائة درهم وجَزُور[(٣)]، فأعطوها صاحبَ القِداح الذي يَضْرِب بها، ثم قَرّبوا صاحبَهم الذي يُريدون به ما يُريدون، ثم قالوا: يا إلٰهنا! هذا فُلانُ قد أردنا به كذا وكذا، فأَخرج الحقَّ فيه، ثم يقولون لصاحب القِداح: اضرب! فإن خَرَج عليه «منكم» كان منهم وسيطًا[(٤)]، وإن خَرَج عليه «من غيركم» كان حَليفًا، وإن خَرَج عليه «مُلْصَق» كان على منزلته فيهم، لا نَسَبَ له ولا حِلْف، وإن خرج[(٥)] في شيء مما سِوَى هذا ممّا يعمَلون به «نَعَم» عَمِلوا به، وإن خَرَج عليه «لا» أخّروه عامَه ذلك حتى يأتوه به مرّة أُخْرَى، ينتَهون في أُمورهم إلى ذلك ممّا خَرَجت به القِدَاح؛ فقال عبد المطّلب لصاحب القِدَاح: ٱضرب على بَنيَّ هؤلاء بِقِدَاحهم هذه، وأَخْبَره بنَذْرِه الذي نَذَره، فأعطاه كلُّ رجل منهم قِدْحَه الذي فيه ٱسمُه، وكان عبد الله بن عبد المطّلب أصغَرَ بني أبيه[(٦)]، وهو أحبُّ ولَده إليه، وهو أبو رسول الله ﷺ، فلمّا أَخَذَ صاحب القِدَاح القداح ليضربَ بها قام عبد المطّلب عند هُبَل يدعُو الله، ثم ضَرَب

(١) هبل: في الطبري: ٢: ١٧٣: «وكانت هبل أعظم أصنام قريش، وكانت على بئر في جوف». انظر الزرقاني: ١: ٩٥.
(٢) العقل: الدية.
(٣) الجزور: الناقة.
(٤) الوسيط: الخالص النسب.
(٥) في الأصل: «وخرج فيه شيء»، تصحيف، والتصويب عن الطبري: ٢: ١٧٣.
(٦) لعله يريد كان أصغر بنيه حين أراد الوفاء بنذره، ويوجب هذه التوجيه أنه قد سلف له أن عبد المطلب لم يتزوج أم حمزة إلا بعد الفداء، فيكون بذلك ولده منها أصغر من عبد الله.

صاحبُ القِدَاح فخرج القِدْح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشُّفْرة، ثم أقبل إلى إسَاف ونَائِلة ليذبَحه، فقامت إليه قُرَيش من أَندِيتها فقالوا: ماذا تريد يا عبدَ المطّلب؟ قال: أَذبَحُه، فقالت له قُرَيْش وبَنُوه: والله لا تذبحه حتى تُعذِر[1] فيه؛ لئن فعلتَ هذا لا يزال الرّجل يأتي بابنه حتى يذبَحه، فما بَقَاء الناس على هذا؟ وقال له المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخْزوم بن يَقَظَة ـ وكان عبد الله آبن أخت القومَ ـ: لا تَذْبَحه حتى تُعذِرَ فيه، فإن كان فِداؤه بأموالنا فَدَيْناه، وقالت له قُرَيش وبَنُوه: لا تفعلَ، وآنطلِق به إلى الحجاز فإنّ به عَرّافةً لها[2] تَابعٌ فسَلْها، ثم أنت[3] على رأس أمرِك، إن أَمَرَتك بذبحه ذبحتَه، وإن أمَرتك بأمرٍ لك وله فيه مخْرَج قَبِلتَه، فانطلَقُوا، حتى قَدِموا المدينةَ فوجدُوها ـ فيما يزعُمون ـ بخَيْبَرَ فركبوا إليها حتى جاءوها فسألوها، وقصّ عليها عبدُ المطّلب خَبَره وخَبَر ابنه، فقالت لهم: قد جاءني الخبرَ كم الدّيَةُ فيكم؟ قالوا: عشْرٌ من الإبل، قالت: فارجِعوا إلى بلادكم وقرِّبوا عشْرًا من الإبل، ثم آضرِبوا عليها وعلَيه بالقِدَاح، فإن خَرجَت على صاحِبكم فزيدُوا من الإبل حتى يرضى ربُّكم، وإن خَرجَت على الإبل فانحَرُوها عنه، فقد رضي ربُّكم ونَجا صاحبُكم، فخرجوا حتى قدِموا مَكّة، وفعلوا ذلك، والقِداحُ تقعَ على عبد الله، وعبدُ المطّلب يزيد عَشْرًا عَشْرًا، وهو قائم يدعُو حتّى بلغت الإبلُ مائة، فخرج القِدْح على الإبل، فقالت قُرَيش ومن حضَر: قد آنتهى رَضي ربّك يا عبد المطّلب، فقال عبدُ المطّلب: لا والله! حتى أضرِبَ عليه بالقِدَاح ثلاثَ مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وعبدُ المطّلب قائمٌ يدعُو، فخَرج القِدْح في كلّ مَرّة على الإبل فنُحِرت عند ذلك. وذَكَر نَحوَ ما تقدّم.

ذكر زواج عَبد الله بن عَبد المطّلب آمنةَ بنتَ وَهْب أمّ النبي ﷺ

رَوى محمد بن سَعْد عن محمد بن عمر بن واقد بسَندٍ يرفعه، قال: كانت آمنةُ بنتُ وَهْب بن عَبد مَنَاف بن زُهْرَة[4] بن كِلاب، في حِجْر عَمّها وُهَيْب بن عبد مَنَاف،

---

(١) في الأصل: «تعذر عنه»، تصحيف.

(٢) اسمها قطبة في قول، وسجاح في قول آخر. انظر السهيلي ١: ١٠٣، والبداية: ٢: ٢٤٨.

(٣) في الأصل: «ثم أيت»، والمثبت عن ابن هشام: ١: ١٦٢، والطبري: ٢: ١٧٤، والبداية: ٢: ٢٤٨.

(٤) زهرة: بضم الزاي وسكون الهاء، وفي صحاح الجوهري «زهر» أن زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة. قال السهيلي: ١: ٧٩: «وهذا منكر غير معروف، وإنما زهرة جدهم كما قال ابن إسحاق»، وقال: اسم زهرة المغيرة. وانظر الزرقاني ١: ١٠٣، وتاج العروس (زهر).

فمشى إليه عبد المطلب بابنه عبدِ الله أبي النبيّ ﷺ، فخطب عليه آمنةَ فزوّجها عبدَ الله، وخطَب إليه عبدُ المطّلب بنُ هاشم في مجلسه ذلك ٱبنتَه هالةَ بنت وُهَيب على نفسه، فزوّجَه إياها، فكان تزوّجهما في مجلسٍ واحد، فوَلدت هالةُ لعبد المطّلب حمزة، وكان حَمزةُ عمّ رسول الله ﷺ في النَّسب، وأخاه من الرّضاعة.

ونقَل أبو عُمَر[1] يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر[2] رحمه الله: أن عبد الله بن عبد المطّلب تزوج آمنةَ وهو ابن ثلاثين سنَة. قال: وقيل: بل كان يومئذٍ ابن خمس وعشرين سنة.

وعن محمد بن السائب الكَلبيّ عن أبيه، وعن أبي الفَيّاض الخَثْعَمي[3] قالا: لما تزوّج عبدُ الله آمنةَ أقام عندها ثلاثًا، وكانت تلك السُّنّة عندهم.

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام[4] عن محمد بن إسحاق: إن عبد المطلب لما فَدَى ٱبنه عبد الله أَخَذَ بيده، وخَرَج به حتى أتى وَهْبَ بنَ عبد مَنَاف بن زُهْرةَ، وهو يومئذٍ سيّد بني زُهرة نَسَبًا وشَرَفًا، فزوّجه ٱبنتَه آمنة، وهي يومئذٍ أفضلُ ٱمرأةٍ في قُرَيش نَسَبًا ومَوْضِعًا، قال: فزَعَموا أنه دَخَل عليها حينَ أُمْلِكَها[5] مكانَه فوقَع عليها، فحملت برسول الله ﷺ.

ذكر خبرَ المرأة التي عَرَضَت نفسها على عبد الله بن عبد المطّلب وما أبدَتْه من سَبب ذلك

قد ٱختُلف في هذه المرأة، فمنهم من يقول: هي قُتَيلة، بنتُ نَوْفَل، بن أسَد، بن عَبد العُزّى بن قُصَيّ وهي أخت[6] وَرَقَة بن نَوْفَل. قال السُّهيليّ: اسمها رُقَيقة[7] بنت

(١) ابن عبد البر: هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر (٣٦٨ ـ ٤٦٣ هـ = ٩٧٨ ـ ١٠٧١ م) من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب بحاثة يقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة وتوفي بشاطبة. من كتبه «الدرر في اختصار المغازي والسير ـ ط» و«الاستيعاب» مجلدان. (الأعلام: ٨: ٢٤٠).

(٢) الاستيعاب: ١: ١٦.

(٣) العباس بن سفيان الخثعمي (... نحو ١٥٠ هـ = ... نحو ٧٦٧ م) (الأعلام: ٣: ٢٦١).

(٤) السيرة: ١: ١٦٤.

(٥) أملكها: أملك المرأة بالبناء للمجهول: تزوجها.

(٦) وفي الأصل: «قصي بن أخت ورقة»، تصحيف والمثبت عن الطبري: ٢: ١٧٣، وانظر السهيلي: ١: ١٠٢.

(٧) في الأصل: «رفيقة»، تصحيف. انظر الزرقاني: ١: ١٢٣ (بولاق).

نَوْفَل تُكنَّى أم قتال، وهي أختُ وَرَقة بن نَوْفَل. ومنهم من يقول: هي فاطمة بِنتُ مُرّ الخَثْعَمية، وقيل غيرُها، ونحن نذكر ما قالوه في ذلك.

فأما عبد الملك بن هشام فقال[١]: لما انصَرف عبد المطلب يوم الفِداء آخذًا بيد ٱبنه عبد الله، فمرَّ به على ٱمرأةٍ من بني أَسَد، وهي أختُ وَرَقَة بن نَوْفَل، وهي عند الكعبة، فقالت له حين نظَرت إلى وَجْهه: أين تذهَب يا عبدَ الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك مثلُ الإبل التي نُحرت عنك وَقَع عليّ الآن. قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خِلافَه ولا فِراقَه، فخرج به عبد المطّلب حتى أتى وَهْب بنَ عبد مَناف. وذكر خبر زواجه بآمنة وأنه وقَع عليها كما ذكرناه آنفًا.

قال: ثم خرج من عندها، فأتَى المرأة التي عَرَضَت عليه ما عَرَضت، فقال لها: ما لكِ لا تَعرِضِين عليّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليّ بالأمس؟ قالت له: فارقَك النُّور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بكَ اليوم حاجة.

وقال الواقديّ: هي قُتَيْلَةُ بنتُ نَوْفَل. وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما: أنها ٱمرأةٌ من بني أَسَد، وهي أخت وَرَقة.

قال الواقديّ: كانت تنظرُ وتَعْتاف[٢]، فمرّ بها عبدُ الله فدعته يستَبْضِع[٣] منها، ولزمت طَرَف ثوبِه فأبى وقال: حتى آتيك، وخَرَج مُسرِعًا حتى دخَل على آمنة فوقع عليها، فحملت برسول الله ﷺ، ثمّ رجَع إلى المرأة وهي تنتظره فقال: هل لكِ في الذي عَرَضتِ عليّ؟ فقالت: لا، مررتَ وفي وجهكَ نورٌ ساطع، ثم رجعتَ وليس فيه ذلك النور.

قال[٤]: وقال بعضُهم قالت: مررتَ وبين عينكَ غُرّة مثلُ غُرّة الفَرَس، ورجعتَ وليس هي في وجهك.

وقال محمد بن عُمر بن واقد، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي الفيّاض الخَثْعَميّ، قال: مرّ عبد الله بٱمرأة من خَثْعَم يُقال لها: فاطمة بنتُ مُرّ[٥]، وكانت من أجمل الناس وأشَبّه وأعَفّه[٦]، وكانت قد قَرأت الكتب، وكان

---

(١) في السيرة: ١: ١٦٤. وانظر الطبري: ٢: ١٧٤، البداية: ٢: ٢٤٩.
(٢) تعتاف: تصرف النظر عن الرجال.
(٣) يستبضع منها: طلب المرأة جماع الرجل لتنال منه الولد فقط (اللسان: بضع).
(٤) القائل: الواقدي.
(٥) في الطبري: ٢: ١٧٤: «كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر متهودة من أهل تبالة، قد قرأت الكتب». انظر: البداية: ٢: ٢٥٠، وابن الأثير: ٢: ٤.
(٦) كذا في الأصل، وطبقات ابن سعد، انظر السيرة الحلبية: ١: ٣٩.

شَبابُ قُريش يتحدثون إليها، فرأت نور النبوّة في وجه عبد الله فقالت: يا فتَى! من أنت؟ فأخبرَهَا، قالت: هل لك أن تقع عليّ وأُعطيك[١] مائةً من الإبل؟ فنظر إليها وقال: [من الرجز]

أمّا الحرامُ فالمماتُ دونَه ... والحِلُّ لا حلَّ فأستَبينَه

* فكيفَ بالأمر الذي تَنوينَه[٢] *

ثم مضَى إلى امرأته آمنة، فكان معها، ثم ذكر الخَثْعَمِيّة وجمالَها، وما عرضت عليه، فأقبل عليها فلم يَرَ منها من الإقبال عليه آخرًا كما رآه منها أولاً، فقال: هل لكِ فيما قلتِ لي؟ فقالت: «قد كان ذاك مَرَّةً فاليومَ لا»، فذهبت مَثَلاً، وقالت: أيّ شيء صنعتَ بعدي؟ قال: وقعت على زوجتي آمنة، قالت: إني والله لست بصاحبة زنية[٣]، ولكني رأيتُ نور النبوّة في وجهك، فأردت أن يكون ذلك فيّ، وأبَى الله إلا يجعله حيث جعله.

وبلغ شبابَ قُريش ما عرضَت على عبد الله وتأبّيه عليها، فذكروا ذلك لها، فأنشأت تقول: [من الكامل]

إني رأيتُ مُخيلة[٤] عرضَت ... فتلألأَت بحناتم[٥] القطر

فلَمأتُها[٦] نورًا يضيء له ... ما حولَه كإضاءةِ الفجْر

ورأيته شَرفاً أبوءُ به ... ما كلُّ قادح زنده يُوري

لله ما زُهريةٌ سلَبتْ ... ثوبَيْك ما استَلَبَت وما تَدْرِي

وقالت أيضًا: [من الطويل]

بَني هاشمٍ قد غادَرَتْ من أخيكُمُ ... أمِينة إذ للباه يعتلجان[٧]

كما غادَرَ المصباحَ بعد خُبوّه ... فتائلُ قد مِيثَت[٨] له بدهَان

(١) في دلائل النبوة لأبي نعيم: ١: ٣٩، والبداية: ٢: ٢٥٠ «تقع على الآن».
(٢) في الطبري: ٢: ١٧٤، وابن الأثير: ٢: ٤: «ريبة».
(٣) المخيلة بالضم: السحابة التي إذا رأيتها حسبتها ماطرة. والمخيلة بالفتح: السحابة.
(٤) الحناتم: السحاب الممطر.
(٥) لمأ: أبصر، لمح.
(٦) في الأصل: «وقال» تصحيف.
(٧) رواية الطبري، وابن الأثير، وابن كثير: «للباه يعتركان».
(٨) ميثت: بللت.

وما كلُّ ما يَحوي الفتَى من تِلادِهِ[١] بِحَزْمٍ ولا ما فاتَه لِتَوانِ

فأجْمِل إذا طالبتَ أمرًا فإنه سيَكفيكَه جدّانِ يصطرعانِ

ستكْفيكَه أمّا يدٌ مُقْفَعِلَّة[٢] وإمّا يدٌ مبسوطَةٌ ببيانِ

ولما قَضَت منه أمينة ما قضَت نبا بَصَري عنه وكَلَّ لساني[٣]

وعن أبي يَزيد المدَني[٤] قال: نُبِّئتُ أن عبدَ الله أبا رسول الله ﷺ أتى على امرأة من خَثْعَم فرأت بينَ عينيه نورًا ساطعًا إلى السماء فقالت: هل لك فيّ؟ قال: نعم حتى أرمي الجَمْرة، فانطلق فرَمَى الجَمْرة، ثم أتى امرأتَه آمنةَ بنتَ وَهْب، ثم ذكر الخَثْعَمية فأتاها فقالت: هل أتيتَ امرأةً بعدي؟ قال: نعم، امرأتي آمنةَ بنتَ وهْب، قالت: فلا حاجةَ لي فيك، إنك مررتَ وبينَ عينيك نور ساطعٌ إلى السماء، فلما وقعْتَ عليها ذهَب؛ فأخبِرها أنها قد حَملت بخير أهل الأرض.

وقال محمد بن إسحاق: حدّثني أبي إسحاقُ بن يَسار، أنه حُدِّث أن عبد الله إنما دَخَل على امرأة كانت له مع آمِنةَ بنتِ وَهْب، وقد عَمِل في طين له، وبه آثار من الطّين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت عليه من آثار الطّين، فخَرج من عِندها فتوضّأ وغسَل ما كان به من ذلك الطّين، ثم خَرج عامِدًا إلى آمنة فمرّ بها، فدعَتْه فأبى عليها، وعمد إلى آمِنة فدخل عليها؛ فأصابَها فحملت بمحمد رسول الله ﷺ، ثم مَرّ بامرأته تلك فقال لها: هل لكِ؟ قالت: لا، مَررتَ بي وبينَ عينيك غُرة، فدعوتُك فأبيت، ودخلتَ على آمنة فذَهَبتْ بها.

قال ابنُ إسحاق: وزَعموا أن امرأتَه تلك كانت تُحَدِّث: أنّه مرّ بها وبينَ عَينيْه مثلُ غُرة الفَرَس، قالت: فدعوتُه رجاءَ أن تكون تِلكَ بي، فأبى عليّ، ودخل على آمنة فأصابها، فحمِلَتْ برسول الله ﷺ، أوسَطَ[٥] قومه نَسَبًا، وأعظمَهُم شَرَفًا من قِبَل أبيه، وأُمّه. والله الفعال.

ذكرُ حَمْل آمنَةَ برسول الله ﷺ وما رأته وما قيل لها

حملت به ﷺ أيام التّشريق[٦] في شِعْبِ أبي طالب عند الجَمْرة الوُسْطَى، رواه

(١) رواية الميداني: ٢: ٣٥: «وما كل ما نال الفتى من نصيبه».
(٢) مقفعلة: منقبضة، متشنجة.
(٣) رواية ابن الأثير، والطبري: «حوت منه فخرًا ما لذلك ثاني».
(٤) في الأصل: «المديني»، والمثبت عن طبقات ابن سعد: ١: ٦٠ (قسم أول).
(٥) أوسط: من خيارهم.
(٦) أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر، لأن لحم الأضاحي يشرق فيها للشمس (اللسان ـ شرق).

أبو عُمر بن عبد البرّ[١] عن الزبير بن بَكّار، وحكاه غيرُه أيضًا.

وقيل: حَمَلتْ به في دار وُهَيب[٢] بن عبد مَنَاف بن زُهْرة بن كِلاب.

ورَوَى محمد بن عُمر بن واقد الأسْلَمي قال: حدّثني عليّ بنُ يزيد، بن عبد الله بن وَهْب بن زمعة عن أبيه، عن عمته، قالت: كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لمّا حَمَلَت به آمنةُ بنت وَهْب كانت تقول: ما شَعَرتُ أني حَمَلت به، ولا وجدتُ له ثَقَلة[٣] كما تجد النساء، إلا أني قد أنكرتُ رفعَ حِيضتي، فربما كانت تَرْفَعُني وتعود؛ وأتاني آت، وأنا بين النائم واليَقظان فقال: هل شَعَرتِ أنّكِ حَمَلتِ؟ فكأني أقول ما أدري، فقال: إنكِ قد حَملتِ بسيّد هذه الأمّة ونبيّها، وذلك يومَ الاثنين، قالت: فكان ذلك مما يَقّن عندي الحَمْل، ثم أمهلَني، حتى إذا دَنَت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي: «أُعِيذه بالواحد الصَّمَد، من شَرّ كلِّ حاسِد». قالت: فكنتُ أقول ذلك.

وفي رواية محمد بن إسحاق[٤] أنه قيل لها: إنك قد حَملتِ بسيِّد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: «أُعِيذُه بالواحد، من شر كل حاسد ثم سميه محمدًا».

وفي رواية أُخرى: أُمِرت أمُّه وهي حامِلٌ برسول الله ﷺ أن تُسمِّيه أحمد. قالت أمه: فذكرتُ ذلك لنسائي، فقلن لي: تُعَلِّقي حديدًا في عَضُدَيك وفي عُنُقك، قالت: ففعلتُ، فلم يكن يُترَك عليّ إلا أيامًا، فأجدَه قد قُطِع، فكنت لا أتعلقه.

وعن الزّهرِيّ قال: قالت آمنة: لقد عَلِقْت[٥] به، فما وجَدتُ له مَشَقّة حتى وضعتُه.

قال ابن إسحاق[٦]: ورأت حين حَمَلت به أنه خَرَج منها نورٌ رأت به قُصُور بُصْرَى من أرض الشام. قد تواتَرتْ الأخبارُ الصحيحةُ بذلك.

وحكَى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطبي في[٧] كتاب «الأعلام»

---

(١) الاستيعاب: ١: ١٦.
(٢) في الأصل: «وهب بن عبد مناف» تصحيف والتصويب عن الاستيعاب: ١: ١٦.
(٣) الثَقَلة: بفتح المثلثة والقاف: الثقل.
(٤) نقله ابن هشام: ١: ١٦٦.
(٥) علقت به: حملت.
(٦) سيرة ابن هشام: ١: ١٦٦.
(٧) القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله القرطبي (... - ٦٧١ هـ = ... - ١٢٧٣ م) من كبار المفسرين، صالح متعبد من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق، واستقر بمنية ابن خصيب، بمصر وتوفي فيها (الأعلام: ٥: ٣٢٢).

له عن ابن عباس رضي الله عنهما[١] أنه قال: وكان من دلائل حَمْل آمنةَ برسول الله ﷺ أن كُلَّ دابّة كانت لقُرَيش نطقت تلك الليلة وقالت: حُمِل بمحمد ورَبِّ الكعبة، وهو إمامُ الدنيا وسِراج أهلها؛ ولم تَبقَ كاهنةٌ في قُريش ولا في قبيلة من قبائل العَرَب، إلا حُجبت عن صاحِبها؛ وانتُزِع عِلْمُ الكَهَنة منهم ولم يَبقَ سريرٌ لِمَلِك من ملوك الدُّنيا إلا أصبحَ منكوسًا[٢].

قال: وقال كعبُ الأحبار[٣]: وأصبحَتْ يومئذٍ أصنامُ الدنيا كلُّها منكوسةً مضْغوطة فيها شياطينُها، وأصبحَ عرشُ إبليسَ عدوِّ الله منكوسًا.

قال: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وأصبح كلُّ مَلِكٍ أخرس لا ينطق يومَه ذلك، وفرّت[٤] وحُوش المشرق إلى وُحوش[٥] المغرب بالبِشارات، وكذلك أهل البِحار صار يبشِّر بعضُهم بعضًا؛ وله في كلّ شهر من شهوره نداءٌ في الأرض، ونداءٌ في السماء: إن أبشِروا، فقد آن لأبي القاسم أن يَخرُج إلى الأرض ميمونًا مباركًا. والله الموفِّق الفعّال.

ذكر وفاة عبد الله بن عبد المطّلب

روَى أبو عبد الله محمد بن سَعْد، بسنَدٍ يرفعه إلى محمد بن كعب، وأيوبَ بن عبد الرحمٰن بن أبي صَعْصَعَة، قالا: خرج عبد الله بن عبد المطّلب إلى الشام إلى غَزّة في عِير من عِيرَات قُريش يَحمِلون تِجارات، ففَرَغوا من تجاراتهم ثم انصرَفُوا فمرّوا بالمدينة وعبدُ الله يومئذٍ مريضٌ فقال: أنا أتخلّف عند أخوالي بني عديّ بن النجّار، فأقام عندَهم مريضًا شهرًا، ومضَى أصحابُه فقَدِموا مكة، فسَألَهم عبدُ المطّلب عن عبد الله، فقالوا: خلّفناه عند أخواله وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب ولَدَه الحارث[٦]، فوجَده قد تُوفّيَ ودُفِن في دار النابغة[٧]، وهو رجل من بني عَديّ بن

(١) انظر الزرقاني: ١: ١٠٨.

(٢) منكوساً: مقلوباً.

(٣) كعب الأحبار: كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر. فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها عن مئة وأربع سنين (الأعلام: ٥: ٢٢٨).

(٤) فرت: أسرعت.

(٥) في الأصل: «وحش» تصحيف.

(٦) في ابن الأثير: ٢: ٣ أن المبعوث كان الزبير لا الحارث.

(٧) هذه إحدى روايتي الطبري؛ وفي ابن الأثير: ٢: ٤ «النابغة الجعدي»؛ ورواية الطبري الأخرى وعليها اقتصر الزرقاني: ١: ٢١٠: «التابعة»... والتابعة رجل من بني عدي بن النجار.

النّجار، فرَجع إلى أبيه فأخبَره، فوجد عليه عبدُ المطلب وإخوانه وأخَواته وجدًا شديدًا، ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ حَمْلٌ.

ولعبد الله يوم تُوفّي خمس وعشرون سنة.

قال الواقدي: هذا هو أثبتُ الأقاويل. والرواية في وفاةِ عبد الله وسنّه عندنا.

وعن هشام بن السائب الكلبيّ عن أبيه، وعن عَوانة بن الحَكَم(١) قالا: توفي عبدُ الله بن عبد المطّلب بعدما أتَى على رسول الله ﷺ ثمانيةٌ وعشرون شهرًا، ويقال سبعةُ أشهر، وقيل: شهران.

قال محمد بن سَعْد: والأول أثبت. وقال السُّهَيليّ(٢): «وأكثر العلماء على أنه كان في المهد»، قال: «ذكره الدّولابي(٣) وغيرُه». والله تعالى أعلم.

قال الواقدي: وترك عبدُ الله بن عبد المطّلب أُمّ أيْمَن، وآسمُها بَرَكة، وخَمْسَة أجمالٍ أوَارِك يعني تأكل الأراك، وقطعة غنم؛ فورِث ذلك رسول الله ﷺ. والله خير الوارثين.

ذكر مَولِد رسول الله ﷺ

وُلد رسول الله ﷺ بمكة شرفها الله تعالى؛ قال الزُّبَير بن بكار(٤): ولد ﷺ في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجّاج. قال القُرطبي رحمه الله في كتاب «الأعلام» له: إنّ الدار كانت في الزُّقاق المعروف بزُقاق المولِد(٥) وكانت في مُهاجَر رسول الله ﷺ في يد عَقيل بن أبي طالب(٦) ثم في أيدي ولده، ثم آشتراها محمد بن

(١) عوانة بن الحكم: عوانة بن الحكم بن عوانة بن عياض، من بني كلب، أبو الحكم (. . . ـ ١٤٧ هـ = . . . ـ ٧٦٤ م) مؤرخ من أهل الكوفة. ضرير. كان عالمًا بالأنساب والشعر، فصيحًا، واتهم بوضع الأخبار لبني أمية. قال ياقوت: وعامة أخبار المدائني عنه. له كتاب في «التاريخ» و«سيرة معاوية». (الأعلام: ٥: ٩٢).

(٢) الروض الأنف: ١: ١٠٧.

(٣) الدولابي: محمد بن أحمد بن حماد بن سعد بن مسلم، أبو بشر الأنصاري بالولاء الرازي الدولابي الوراق: (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ = ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م) مؤرخ من حفاظ الحديث. . من أهل الري نسبته إلى «الدولاب» من أعمالها. رحل في طلب الحديث واستوطن مصر، وتوفي في طريقه إلى الحج، بين مكة والمدينة، له تصانيف، منها «الكنى والأسماء ـ ط جزءان» (الأعلام: ٥: ٣٠٨).

(٤) انظر البداية والنهاية: ٢: ٢٦١، وعيون الأثر: ١: ٢٦.

(٥) في شرح الزرقاني على المواهب: ١: ١٣٦: «. . . بزقاق المدكك» بدال مهملة.

(٦) عقيل بن أبي طالب: عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، وكنيته أبو يزيد: (. . . ـ ٦٠ هـ = . . . ـ ٦٨٠ م). أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، صحابي =

يوسف الثَّقَفيّ من ولد عَقيل، فأدخل البيت[1] في دارٍ بناها وسمّاها البيضاء، فكان البيت في الدار إلى أن حجّت الخَيْزُرَان أمّ الهادي والرشيد، فأخرجتْ البيت وجعلته مسجِدًا يشرع في زُقاق المولد.

وكان مولده ﷺ عام الفيل بعد قُدوم أصحاب الفيل بخمس وخمسين ليلة، في يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّلد قيل لليلتين خلتا منه، وقيل: أوّل اثنين منه من غير تعيين، وقيل: وُلِد في شهر رمضان لاثنتَي عشرةَ ليلةً خلت منه[2]، وهو العشرون من نيسان سنةَ ثمانمائة واثنتين للإسكندر ذي القرنين.

والمشهور أنه ولد في شهر ربيع الأوّل؛ فيقول القائل: كيف يمكن أن تكون حملت به في أيام التَّشريق، وولِد في شهر ربيع الأوّل، والمدّة بينهما إمّا أربعة أشهر، أو ستة عشر شهرًا، ولـم يُنقل إلينا أنه ﷺ وُلِد لأقل من تسعة أشهر ولا أكثر منها؟ فالجواب أن الحج إذ ذاك لـم يكن محصورًا في ذي الحجّة، بل قد ثبت أنّ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه حج بالناس في السنة التاسعة من الهِجرة، ووافق الحج في ذي القِعْدة، فلما حجّ رسول الله ﷺ حجّة الوداع في السنة العاشرة، خطب فقال في خطبته: «ألا إنّ الزمان قد ٱستدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض[3]، السنة اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعة حرم: ثلاثةٌ متواليات، ذو القِعدة، وذو الحجّة، والمُحَرّم، ورجبُ مُضر[4] الذي بين جُمادى وشعبان»، فيمكن أن يكون الحجُّ لمّا حملت آمنة برسول الله ﷺ وافق في جُمادى الآخرة، ولا يمتنع هذا والله أعلم.

ورُوي عن ٱبن عباس رضي الله عنهما أن آمنة بنتَ وَهْب قالت: لقد علِقْتُ به، تعني رسول الله ﷺ، فما وجدتُ له مشقّة حتى وضعتُه؛ فلما فَصَل منّي خرج منه نورٌ

= فصيح اللسان، أخو «علي» و«جعفر» لأبيهما. برز اسمه في الجاهلية، بقي على الشرك إلى أن كانت وقعة بدر. أسره المسلمون ففداه العباس بن عبد المطلب. فرجع إلى مكة ثم أسلم، بعد الحديبية... عمي في آخر أيامه، وتوفي في أول أيام يزيد، وقيل في خلافة معاوية (الأعلام: ٤: ٢٤٢).

(١) في شرح المواهب: ١: ١٣٦: «فادخل البيت الذي ولد فيه المصطفى في داره التي يقال لها البيضاء»، وسميت البيضاء لأنها بنيت بالجص وطليت به. السيرة الحلبية: ١: ٦٢.

(٢) في شرح الزرقاني على المواهب: ١: ١٣٠ ـ ١٣٢، تفصيل لهذه الأقوال مع نسبتها لقائليها.

(٣) في الروض الأنف: ٢: ٣٥١: «والأرض، وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا».

(٤) في لسان العرب (رجب): «إنما قيل رجب مضر إضافة إليهم، لأنهم كانوا أشد تعظيمًا له من غيرهم، فكأنهم اختصوا به». وفي الروض الأنف: ٢: ٣٥١: «إنما قال رجب مضر، لأن ربيعة كانت تحرم في رمضان وتسميه رجبًا. فبيّن ﷺ أنه رجب مضر، لا رجب ربيعة، وأنه الذي بين جمادى وشعبان».

أضاء له ما بين المشرِق إلى المغرِب، ثم وقع على الأرض على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها، ورفع رأسه إلى السماء.

وقال بعضهم: وقع جاثِيًا على ركبتيه رافعًا رأسه إلى السماء، وخرج معه نورٌ أضاءت له قصور الشّام وأسواقُها، حتى رأيت أعناق الإبل ببُصْرَى. وعن حسّان ابن عطية: أن النبيّ الله لمّا وُلِدَ وقع على كَفّيْه وركبتيه شاخصًا بصرُه إلى السماء.

قالت أمُّه: فولدتُه نظيفًا والله كما يولد السَّخْل[١] ما به قَذَر. وقالت فاطمة بنتُ عبد الله أمّ عثمان بن أبي العاصي[٢]، وكانت شهِدتْ وِلادة رسول الله ﷺ حين وضعته أمّه آمنة وذلك ليلاً، قالت: فما شيءٌ أنظر إليه من البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النُّجوم تَدنُو حتى إني لأقول لَتَقَعنّ[٣] عليّ.

وذكر الخطيب أبو بكر بن ثابت رحمه الله، عن آمنةَ قالت: لمّا ولدت محمدًا ﷺ ثم خرج من بطني نظرت إليه، فإذا هو ساجد لله عزّ وجلّ رافعٌ يديه إلى السماء كالمتضرِّع المبْتَهِل، ثم رأيت سحابة بيضاءَ قد أقبلتِ تنزِل من السماء حتى غشِيَتْه، فغيَّبَتْه عن عيني برهَة، فسمعت قائلاً يقول: طوفوا بمحمد مشارقَ الأرض ومغارِبها، وأَدخلوه البِحار كلَّها ليعرِف جميعُ الخلائق كلها باسمه وصفته، ويَعرفوا بركتَه، إنه حبيب لي، لا يَبقَى شيءٌ من الشِّرك إلا ذهب به. قالت[٤]: ثم انجلَت عني في أسرعَ من طَرْفة عين، فإذا أنا به مُدرجٌ في ثوب أبيض أشدَّ بياضًا من اللبن، وتحتَه حريرة خضراءُ قد قَبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرَّطْب الأبيض، وإذا قائلٌ يقول: قد قبض محمدٌ ﷺ مفاتيحَ النُّصْرَة، ومفاتيح الدنيا، ومفاتيح النبوّة.

وذكر الخطيب أيضًا عنها في شأن المَوْلِد: قالت: رأيت سَحابة أعظمَ من الأولى ولها نور، أسمَعُ فيها صهِيل الخيل، وخَفَقَان الأجنحة، وكلامَ الرجال[٥] حتى غَشِيتْه، قالت: وغيبت عني وجهَه أطوَل وأكثر من المرة الأولى، فسمعتُ مناديًا ينادي: طوفوا بمحمد جميع الأرضِين، وعلى مَوالد النبيّين، واعرضوه على كل روْحانيّ من الجنّ، والإنس، والملائكة، والطير، والوحوش؛ وأعطوه خَلْقَ آدم، ومعرفَة شيث، وشجاعةَ

(١) السَّخل: مفرده سخلة، وهو ولد الشاة من المَعَز والضأن.
(٢) في الأصل: «عثمان بن العاص»، والمثبت عن عيون الأثر: ١ : ٢٧، والسيرة الحلبية: ١ : ٥٨، وشرح المواهب: ١ : ١١٦.
(٣) في صحة هذا الحديث كلام لهم. انظره في إنسان العيون: ١ : ٥٨.
(٤) قالت: في الأصل: «وقال».
(٥) تريد الملائكة المتشكلين بصفة الرجال.

نوح، وخُلَّة إبراهيم[1]، ولسان إسماعيل، ورِضا إسحاق وفصاحة صالح، وحكمة لوط، وبُشْرَى يعقوب، وجمال يُوسف، وشِدّة موسَى، وطاعة يونس، وجهاد يوشَع، وصوت داود، وحُبَّ دانيال، ووقار إلياس وعصمة يحيَى، وزُهْد عيسى، واْغمِسوه في جميع أخلاق النبيّين عليه وعليهم السلام. ثم انجلتْ عنّي في أسرعَ من طَرْفَة العين، فإذا به قد قَبَض على حَريرَةٍ خضراء مطويّةٍ طَيًّا شديدًا، ينبع من تلك الحَريرةِ ماءٌ مَعِين[2]، وإذا قائل يقول: بَخٍ بَخٍ! قبض محمدٌ ﷺ على الدنيا كلِّها، لم يَبقَ خلقٌ كثيرٌ من أهلها إلا دخَل في قبضته طائعًا بإذن الله. ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبيه، قال: ولد رسولُ الله ﷺ مَختُونًا مَسْرورًا[3]، قال: وأعجب ذلك عبدَ المطّلب، وحَظِي عنده، فقال: ليكوننّ لابني هذا شأن.

وفي رواية: لمّا ولَدت آمنةُ رسولَ الله ﷺ، أرسلتْ إلى جدّه عبدِ المطّلب، فجاء البشيرُ وهو جالس في الحِجْر مع وَلَده ورِجالٍ من قومه، فأخبره أن آمنة ولَدت غلامًا، فسُرَّ بذلك، وقام هو ومن معه، فدخل عليها، فأخبرته بكل ما رأت، وما قِيل لها فيه، وما أُمِرتْ أن تُسَمِّيَه. قال: فأخذه عبدُ المطلب فأدخله الكعبة، وقام عندها يدعو الله، ويشكر ما أعطاه. قال الواقديّ: وأخْبرت أنّ عبد المطلب قال يومئذٍ: [من الرجز]

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلامَ الطيِّبَ الأردانِ[4]
قد ساد في المهدِ على الغِلمانِ ... أُعيذُه بالبيت ذِي الأركانِ
حتى أراه بالغَ البنيان ... أعيذُه مِن شرّ ذي شَنانِ

* من حاسِدٍ مُضْطربِ العِنانِ *

وقال القُرطبيّ: وقال أبو طالب: كنت تِلك الليلة التي وُلد فيها محمد في الكعبة أُصلِح فيها ما تَهدَّم منها، فلما انتصف الليل، إذا أنا بالبيت الحرام قد مال بجوانبه الأربعة، فخرّ ساجدًا في مقام إبراهيم عليه السلام، كالرجُل الساجد، ثم استوَى قائمًا، وأنا أسمع له تكبيرًا عجيبًا ينادي: الله أكبر! الله ربُّ محمد المصطفى! الآن طهَّرني

---

(١) في الأصل: «وحكمة إبراهيم» تصحيف، والتصويب عن الزرقاني: ١: ١١٣، والإشارة إلى الآية: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.
(٢) الماء المعين: الماء الجاري على وجه الأرض.
(٣) مسرورًا: أي مقطوع السرة.
(٤) الأردان: واحدها ردن: كم القميص.

ربي من أنجاس المشركين، وحَمِيّة الجاهلية! ونظرت إلى الأصنام كلها تنتَفِض كما ينتفض الثوب، ونظرت إلى الصنم الأعظم «هُبَل» قد انكبّ في الحِجْر، وسمعت مناديًا ينادِي: ألا إن آمنة قد وَلَدت محمدًا! وقد سُكِبتْ عليها سحائبُ الرحمة، هذا طسْتُ الفِردوس قد أنزِلَ ليُغسَل فيه الثّانية.

وعن حسّان بن ثابت الأنصاريّ، قال: والله إني لَغلامٌ يَفَعَةٌ[١] ابن سبع سنين أو ثمان، أعقِل كلَّ ما سمِعت، إذ سمعتُ يهوديًا يَصرُخ على أُطَمَة[٢] يَثْرب: يا معشَرَ يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلَك! مالَك؟ قال: طلع الليلة نجمُ أحمدَ الذي وُلِد به.

ذكر أسماءِ رسول الله ﷺ وكُناه

وأسماؤه ﷺ كثيرة، منها ما جاء بنصّ القرآن، ومنها ما نُقل إلينا من الكتب السالفة والصُّحُف المنزّلة، ومنها ما جاء في الأحاديث الصحيحة ومنها ما ٱشتهر على ألسنةِ الأئمة من الأمّة رضوانُ الله عليهم.

رُوِي عن جُبَيْر بن مُطْعَم[٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لي[٤] خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يَمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناس على قَدمي[٥]، وأنا العاقب». قيل: لأنه عقَب غيرَه من الأنبياء.

ورُوي عنه عليه السلام: «لي عشرة أسماء»، فذكر الخمسةَ هذه، قال: «وأنا رسول الرحمة، ورسول الرّاحَة، ورسول المَلاَحم، وأما المقفّى[٦]؛ قَفَّيت النبيّين، وأما قَيِّم».

قال القاضي عياض[٧]: والقَيِّم: الجامع الكامل، قال: كذا وجدته، ولم أروه

---

(١) يَفَعَه: من يافع.

(٢) أطمة: الأطمة: الحصن، أنث على معنى البقعة.

(٣) جُبير بن مُطْعِم: جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي أبو عدي، (. . . ـ ٥٩ هـ = . . . ـ ٦٧٩ م). صحابي كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسابين. له ستون حديثًا. (الأعلام: ٢: ١١٢).

(٤) هي رواية مالك في الموطأ، والبخاري عن طريقه؛ وفي رواية الأكثر: «إن لي خمسة أسماء». انظر الزرقاني: ٣: ١١٥.

(٥) روى «قدمي» بكسر الميم، وبفتحها على التثنية، ومعناه على الروايتين: يحشرون بعد الزمان الذي بعث فيه، وفي رواية: يحشرون على عقبي. انظر الزرقاني: ٣: ١١٦.

(٦) المقفيّ: آخر الأنبياء.

(٧) القاضي عيَّاض: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم =

وأُرَى صوابَه: قُثَم[١] بالثاء، ورَوَى النقاش[٢] عنه عليه الصلاة والسلام[٣]: «لي في القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد، ويس وطه، والمدَّثِّر والمزمِّل، وعبدُ الله».

وفي حديث أبي موسى الأشعَريّ رضي الله عنه: أنه كان عليه السلام يسمِّي لنا نفسَه أسماء؛ فيقول: أنا محمد، وأحمد والمقَفِّي، والحاشِر، ونبيُّ التوبة ونبيّ المَلْحَمَة، ويروى المَرْحَمَة، والرحمة؛ ومعنى المقَفِّي: معنى العاقب.

وقد جاءت من ألقابه وأسمائه ﷺ في القرآن عدّةٌ كثيرة سوى ما ذكرناه، منها النُّور؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، والسِّراج المنير، والشاهد، والمبَشِّر، والنذِير، وداعِي الله؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] والبشير لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، والمنذِر لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات: ٤٥]، والمذكِّر لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ [الغاشية: ٢١]، والشهيد لقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والخبير لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] قال القاضي بكر ابن العلاء[٤]: المأمورُ بالسؤال غيرُ النبيّ ﷺ، والمسؤول الخبير هو النبيّ ﷺ؛ والحق المبين لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ [الحجر: ٨٩]، وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥] قيل: محمد، وقيل: القرآن، والرؤوف الرحيم؛ لقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والكريم، والمَكِين، والأمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، والرسول، والنبي الأمِّي؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والوليّ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥] والفاتح؛ لقوله ﷺ في حديث الإسراء عن ربه تعالى: «وجعلتك فاتحًا

= المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. توفي بمراكش مسمومًا (٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ ـ ١١٤٩ م) (الأعلام: ٥: ٩٩).

(١) قُثَم: فسره الزرقاني: ٣: ١٢٠ نقلاً عن القاضي عياض بأنه الجامع للخير، أو الجواد.

(٢) النقاش: هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي المتوفى سنة ٣٥١. متروك الحديث. انظر الزرقاني: ٣: ١١٨.

(٣) عن شرح المواهب، حيث يروى هذا الحديث: ٣: ١١٨.

(٤) القاضي بكر بن العلاء: هو بكر بن محمد بن العلاء بن زياد القشيري أبو الفضل البصري ثم المصري المتوفى سنة ١٣٤٤ انظر شرح المواهب: ٣: ١٦٧.

وخاتِمًا»، وفيه من قول النبي ﷺ فاتحًا وخاتمًا، وقدم الصدق؛ قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]؛ قال قَتادةُ والحسَن وزيد بن أَسلَم: قَدَمُ صِدق هو محمد ﷺ؛ والعُرْوَةُ الوثقَى قيل: محمد، وقيل: القرآن، والهادي، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ذكر ما جاء في تسميته ﷺ محمد وأحمد ومن تسمّى بمحمد قبله ﷺ من العرب، وٱشتقاق ذلك

أما ٱشتقاق هذه التسمية، فمحمد ٱسمُ عَلَم، وهو منقول من صفة من قولهم: رجلٌ محَمّد؛ وهو الكثير الخصال المحمودة؛ والمحمَّد في لغة العرب: هو الذي يُحمَد حمدًا بعدَ حمد مرةً بعد مرة. قال السهيلي[١]: «لم يكن محمد حتى كان أحمد حمد ربَّه فنبّأه، وشرّفه؛ فلذلك تقدّم ٱسم أحمد على [الاسم الذي هو][٢] محمد فذكره عيسى عليه السلام باسمه أحمد».

وهو ﷺ أولُ من سُمّي بأحمد، ولم يُسَمَّ به أحد قبلَه من سائر الناس؛ وفي هذا حكمة عظيمة باهرة؛ لأن عيسى عليه السلام قال: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فَمَنَع اللَّهُ تعالى بحكمته أن يُسَمَّى أحدٌ به ولا يُدعَى به مَدْعُوٌ قَبْلَه، حتى لا يَدْخُلَ لَبس على ضعيف القلب.

وأما محمد[٣]، فإن الله تعالى حَمَى أن يُسمّى به أحدٌ من العَرب، ولا من غيرِهم إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده ﷺ: أن نَبِيًّا يُبعَث ٱسمُه محمد قد قَرُب إبّانُ مولده، فسَمَّى قوم من العرب أبناءهم.

قال أبو جعفر محمد بن حبيب[٤]: وهم سِتة لا سابع لهم: محمد بن سُفيان بن مُجاشِع جَدُّ الفَرَزْدَق الشاعر[٥]، وهو أوّل[٦] من سُمّي محمدًا، ومحمد بن أُحَيْحَة[٧]

---

(١) الروض الأنف: ١: ١٠٦.

(٢) عن السهيلي: ١: ١٠٦.

(٣) هذا قول للقاضي عياض، نقله عنه البغدادي في الخزانة ٢: ٢٤.

(٤) ابن حبيب: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (. . . ـ ٢٤٥ هـ = . . . ـ ٨٦٠ م) من موالي بني العباس، مولده ببغداد ووفاته بسامراء. . كتبه صحيحة منها: «كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء ـ ط» (الأعلام: ٦: ٧٨).

(٥) الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق (. . . ـ ١١٠ هـ = . . . ـ ٧٢٨ م) شاعر من أهل البصرة، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. كان يكنى في شبابه بأبي مكية، وهي ابنة له. ولقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه. وتوفي في بادية البصرة، وقد قارب المائة (الأعلام: ٨: ٩٣).

=

ابن الجُلَاح الأوسيّ، ومحمد بن حسَّان الجُعْفِيّ، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصاري[١]، ومحمد بن براء البَكرِيّ، ومحمد بن خُزَاعِيّ السُّلَمي، وذكَر فيهم أيضًا محمد بن اليَحْمَدِيّ من الأَزد، واليمنُ تقول: إنه أوّل من تَسَمَّى بمحمد. وذكر أبو الخطّاب بن دحية فيهم: محمد بن عِتْوَارة اللَّيثيّ الكِناني، ومحمدَ بن حرْماز بن مالك التَّميميّ[٢] المَعْمَرِيّ، وقال أبو بكر بن فورَك: «لا يُعْرَف في العرب من تَسَمَّى قبله بمحمد سِوى محمد بن سُفْيَان، ومحمد بن أُحَيْحَةَ، ومحمد بن حُمْران[٣]، وإن آباء هؤلاء الثلاثة وَفَدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم من الكتاب الأوّل، فأخبرهم بمَبعَث النبي ﷺ وباسمِه، وكان كل واحدٍ منهم قد خلّف امرأته حاملاً، فطمِع في ذلك فنذَر كل واحد منهم إن وُلد له ولد ذكر أن يُسَمِّيه محمدًا».

وذكر ابن سعدٍ فيهم: محمد الجُشَميّ. وقال ابن الأثير: محمد بن عَدِيّ بن ربيعة بن سعد بن سَواد بن جُشَم بن سعد؛ عداده في أهل المدينة. وروى عبد الملك ابن أبي سُوَيد المِنقَريّ عن جد أبيه خليفة، قال: سألت محمد بن عَدِيّ كيف سمّاك أبوك محمدًا؟ فضحك، ثم قال: أخبرني أبي عَدِيُّ بن ربيعة، قال: خرجت أنا وسفيان بن مُجاشع، ويزيد بن ربيعة[٤] بن كِنانةُ، بن حُرقُوص بن مازن، وأسامة بن مالك بن العَنْبَر[٥] نريد ابنَ جَفنة، فلما قربنا منه نزلنا إلى شجرات وغدير، فأشرف علينا ديرانيّ[٦] فقال: إني لأَسمع لغة ليست لغة أهلِ هذه البلاد فقلنا: نعم! نحن من مُضَر، قال: أي المُضَرَيْن؟ قلنا: خِندِف، فقال: إنه يُبعَث وَشيكًا نبيّ منكم، فخذوا نصيبكم منه تَسعَدوا، قلنا ما اسمه؟ قال: محمد فأتينا ابن جَفنَة، فلما انصرفنا وُلِد منا ابن فسمّاه محمدًا.

---

(٦) في خزانة الأدب للبغدادي: ٢: ٢٤: «وذكر عبدان المروزي أن محمد بن أحيحة بن الجلاح أول من سمي محمدًا في الجاهلية».

(٧) ذكر البلاذري منهم: محمد بن عقبة بن أحيحة، وهو محمد بن أحيحة، ينسب إلى أبيه مرة، وإلى جده مرة أخرى. انظر الخزانة: ٢: ٢٤، والمحبر ص ١٣٠.

(١) يقول ابن حجر: إن محمد بن مسلمة ولد بعد ميلاد النبي ﷺ؛ فعده من بين هؤلاء خطأ، وقال زين الدين العراقي العد صحيح من حيث إن النبوة لم تكن ظهرت بعد. انظر خزانة الأدب: ٢: ٢٤.

(٢) في الأصل: «التيمي»؛ والتصويب من نص المحبر ص ١٣٠.

(٣) في الخزانة: ٢: ٢٤: «محمد بن حمران بن أبي حمران؛ واسمه ربيعة بن مالك الجعفي».

(٤) في خزانة الأدب: ٢: ٢٤: «ويزيد بن عمرو بن ربيعة».

(٥) في الخزانة أيضًا: «ابن مالك بن حبيب بن العنبر».

(٦) الديراني: صاحب الدير.

وقال محمد بن سعد: «أخبرنا محمد بن علي، عن مَسلمَة، عن عَلْقَمَة، عن قَتادة بن السَّكَن، قال: كان في بني تميم محمد بن سُفيان بن مُجاشِع، ومحمد الجُشَمِيّ في بني سَواد، ومحمد الأسَيِّديّ[١]، ومحمد الفُقَيميّ؛ سمَّوهم طمَعًا في النبوّة، ثم حَمى الله تعالى كل من تَسمَّى بمحمد أن يدَّعي النبوّة، أو يدَّعيها أحد له، أو يَظهرَ عليه سبب يُشَكِّك أحدًا في أمره، حتى تحقق ذلك لرسول الله ﷺ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع».

ومن أسمائه في الكتب المنزلة ﷺ

«العظيم»، وقع في أوّل سِفر من التوراة عن إسماعيل: وسيلد عظيمًا لأمّة عظيمة[٢].

و«الجبّار»، سُمّي بذلك في كتاب داود عليه السلام، فقال: تَقلَّد أيها الجبّار سيفك فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينِك. قالوا[٣]: ومعناه في حق النبي ﷺ: إما لإصلاحه الأمة بالهِداية والتعليم، أو لِقهرِه أعداءه، أو لعلو منزلته على البشر، وعظيم خَطَره، ونَفَى الله عز وجل عنه جَبْرِية التكبُّر في القرآن فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

ومن أسمائه فيها[٤]: «المتوكِّل»، و«المختار»، و«مُقِيم السُّنَّة»، و«المقدّس»، و«روح الحق»، وهو معنى البارَقْلِيط[٥] في الإنجيل، وقال ثعلب: البارَقْلِيط: الذي يفرق بين الحق والباطل.

ومنها مَاذ ماذ[٦]؛ ومعناه طيّب طيّب، وحَمْطايا[٧]، والخاتَم والخَاتِم؛ حكاه كعب الأحبار، قال: فقلت فالخاتم الذي خُتِم به الأنبياء، والخاتَم أحسن الأنبياء خَلْقًا

---

(١) في شرح المواهب: ٣: ١٦٠: «محمد بن الأسيدي»، قال: «وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر التحتية الثقيلة».

(٢) انظر شرح المواهب: ٣: ١٦٧ و١٦٨.

(٣) نسب هذا القول في شرح المواهب ٣: ١٢٥ إلى القاضي عياض، وابن دحية وعنهما نقله.

(٤) أي التوراة.

(٥) البارقليط: وقع في إنجيل يوحنا ومعناه روح الحق. وفي النهاية لابن الأثير أن اسمه في الكتب السالفة بارقليطا. انظر الزرقاني: ٣: ١٣٢، ١٧٨.

(٦) بميم مفتوحة، فألف غير مهموزة، فذال معجمة منونة، ثم ميم فألف فذال معجمة، انظر الزرقاني ٣: ١٤٠ و١٦٩ و١٩٠.

(٧) حَمْطايا: قال الهروي: معناه حامي الحرم.

وخُلُقًا، ويُسَمَّى بالسريانية مُشَفَّح[١]، والمُنْحَمِنَّا[٢]، واسمه أيضًا في التوراة: أحيِّد[٣]، ورُوي ذلك عن ابن سِيرين رحمه الله.

ومن أسمائه ونعوته عليه السلام التي جرت على ألسنة أئمّة الأمّة.

المصطَفى، والمجتَبَى، والحبيب، ورسول ربّ العالمين، والشفيع المشَفّع والمتّقِي، والمُصلِح، والطاهر، والمُهَيْمِن، والصادق، والضَّحوك، والقَتَّال[٤]، وسيّد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المُحَجَّلِين[٥]، وحبيب الله وخليل الرحمٰن، وصاحب الحوض المورود، واللواء المعقود والشفاعة والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرَّفيعة، وصاحب التاج والمِعراج والقَضيب، وراكب البُرَاقِ والناقة والنَّجِيب[٦]، وصاحب الحجّة والسلطان، والخاتَم والعلامة والبُرهان، وصاحب الهِرواة والنّعلَين ﷺ.

قالوا: ومعنى صاحب القضيب: السَّيف، وقع ذلك مفسّرًا في الإنجيل؛ قال: معه قضيب من حديدٍ يقاتِل به، وأُمّته كذلك[٧]؛ وأما الهِراوة التي وصف بها، فهي في اللّغة العَصا، ولعلها القضيب الممشوق الذي انتقل إلى الخلفاء؛ وأما صاحب التاج، فالمراد به العِمامة، ولم تكن حينئذٍ إلا للعرب.

وكانت كُنيته المشهورة أبا القاسم، وعن أنسٍ أنه لما ولِد له إبراهيم، جاءه جِبريل فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم[٨].

ذكر مَراضع رسول الله ﷺ وإخوته من الرّضاعة، وما ظهر من معجزاته في زمن رضاعه وحال طفوليته ﷺ

قال محمد بن عمر بن واقد الأسلَميّ: أوّل من أرضع رسولَ الله ﷺ ثُوَيْبَة[٩]،

---

(١) مُشَفَّح: يروى بالقاف بدل الفاء مفتوحة ومكسورة. انظر الزرقاني: ٣: ١٨٨ و١٨٩.

(٢) المُنْحَمِنَّا: ومعناه كما في الزرقاني: ٣: ١٨٨ روح القدس.

(٣) أُحَيِّد: في تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١: ٢٢: «أن النبي ﷺ قال: وإنما سميت أحيد لأني أحيد عن أمتي نار جهنم». انظر الزرقاني: ٣: ١٨٨.

(٤) القَتَّال: قال ابن فارس: سمي به لحرصه على الجهاد، ومسارعته إلى القتال. انظر الزرقاني: ٣: ١٤٠.

(٥) الغر المحجلين: بيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام.

(٦) النجيب: الفاضل من كل حيوان.

(٧) انظر شرح المواهب للزرقاني: ٣: ١٨٤.

(٨) للرسول ﷺ كنى أخر. انظرها في شرح المواهب: ٣: ١٥١.

(٩) توفيت سنة سبع من الهجرة، وفي إسلامها خلاف مذكور في شرح المواهب: ١: ١٣٧.

وهي جارية أبي لَهَب، أرضَعتْه بلبن ابنها مَسْروح أيامًا قبل أن تَقدمَ حَليمة السَّعدية[١]، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبد المطّلب، وأرضَعَتْ بعده أبا سَلَمة بن عبد الله بن عبد الأسد المخزومي؛ وكان رسول الله ﷺ يصلها[٢] وهو بمكّة، وكانت خَديجة تُكرمها، وهي يومئذٍ مملوكة، وطَلَبت إلى أبي لَهَب أن تبتاعها منه لتُعْتِقَها فأبى أبو لهب، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أعتقها أبو لَهَب، وكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بصلةٍ وكسوة، حتى جاء خبرها أنها قد ماتت سنةَ سبع عند مَرجِعه من خَيْبَر، فقال: ما فَعَل ابنُها مَسْروح؟ فقيل: مات قبلها ولم يبقَ من قَرابتها أحد.

ثم أرضَعته حَليمة بنت أَبي ذُؤَيب، وأبو ذُؤَيب عبد الله بن الحارث بن شِجنة، ابن جابر بن رِزام بن ناصرة بن فصَيّة بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عِكرمة بن خَصفة بن قيس عيلان بن مُضَر؛ واسم أبيه الذي أرضعه: الحارث بن عبد العُزَّى بن رِفاعة بن مَلّان بن ناصرة؛ يقال: هلال بن ناصرة بن فُصَية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن.

وإخوتُه من الرضاعة منها: عبد الله بن الحارث، وأُنَيسة بنت الحارث، وحُذافة بنت الحارث، وهي الشَّيماء، وكانت الشَّيماء تحضن رسول الله ﷺ مع أمها.

قال أبو عبد الله محمد بن إسحاق[٣] كانت حَليمة بنت أبي ذُؤَيب تُحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابنٍ لها تُرضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرُّضعاء[٤]. قال الواقدي: إنهن كنّ عشرًا، قالت: في سنة شهباء[٥] لم تُبقِ شيئًا، فخرجتُ على أتان لي قمراء[٦] معنا شارف[٧] لنا، والله ما تُبِضُّ[٨] بقطرة، وما تنام لنا ليلتنا أجمع مع صَبِيّنا الذي معي من بكائه من الجوع، ما في ثدييّ ما يُغنيه، وما في

---

(١) حليمة السعدية: حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شِجنة بن جابر السعدي البكري الهوازني (. . . ـ بعد ٨ هـ = . . . ـ بعد ٦٣٠ م) من أمهات النبي ﷺ في الرضاع قدمت حليمة على مكة بعد أن تزوج رسول الله ﷺ بخديجة، وشكت إليه الجدب، فكلم خديجة بشأنها فأعطتها أربعين شاة. وقدمت مع زوجها بعد النبوة فأسلما. (الأعلام: ٢: ٢٧١).

(٢) يصلها: يساعدها.

(٣) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ١٧١.

(٤) الرُّضعاء: واحدها رضيع. وهو الطفل الصغير الذي ما يزال يرضع.

(٥) شهباء: ذات جدب وقحط.

(٦) قمراء: لونها بياض فيه كدرة.

(٧) الشارف: الناقة المسنة.

(٨) تبض: ترشح.

شارفنا ما يغَذِّيه، ولكنا نرجو[١] الغيث والفرج، فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد أذَمَّت[٢] بالرَّكْب حتى شَقّ ذلك عليهم ضعفًا وعَجفًا[٣] حتى قِدمنا مكة، فما منّا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصَّبيّ؛ فكنا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمُّه وجدّه؟ فما بقيت امرأة قدِمتْ معي إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صَواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذَنّه؛ قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قال: فذَهَبْتُ إليه فأخَذْتُه، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره؛ فلما أخذتُه رجعت به إلى رحلي، فلما وضعتُه في حِجري، أقبل عليه ثدياي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى رَوِي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا بها حافل[٤]، فحلب منها ما شرب وشربتُ حتى ٱنتهينا رِيًّا وشِبعًا، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تَعلَمي والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمةً مباركة، قالت: قلت والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا فركبتُ أتاني وحملتُه عليها معي، فوالله لقطَعْت بالرّكب ما يقدر عليها شيء[٥] من حُمُرهم حتى إن صواحبي ليقُلْن لي: ويْحكِ يا بنتَ أبي ذؤيب، ويحك! اربعي علينا. أليسَت هذه أتانك[٦] التي كنتِ خرجتِ عليها؟ فأقول لهن: بلى والله! إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها لشأنًا، قالت: ثم قدِمنا منازلنا من بلاد بَني سَعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غَنَمي تروح على حين قدمنا به معنا شِباعًا لُبّنًا، فنحلُب ونشرب، وما يحلُب إنسان قطرة لبن وما يجدها في ضَرع حتى كان الحاضرُ من قومنا يقولون لرُعْيانهم: ويلكم! اسرَحوا حيث يسرَح راعي بنت أبي ذُؤَيب، قالت: فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخيرة حتى مضت سنتاه وفصَلته[٧]، وكان يشِبّ شبابًا لا يُشبه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جَفْرًا[٨]، قالت: فقدِمنا به على أمه ونحن أحرَصُ شيء

---

(١) رواية ابن هشام: «ولكنا كنا نرجو»، ٢: ١٧١.
(٢) أذمت: أي جاءت بما تُذم عليه.
(٣) العجف: الهزال.
(٤) حافل: غزيرة الحليب.
(٥) في الأصل: «ما لا يقدر عليَّ شيء»، والمثبت عن سيرة ابن هشام: ١: ١٧٣.
(٦) الأتان: أنثى الحمار.
(٧) فصل: بمعنى فطم.
(٨) الجفر: الشديد الغليظ.

على مكثه فينا لما كنّا نرى من بركته، فكلّمنا أمّه. وقلت لها: لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلُظ، فإني أخشى عليه وَباءَ[١] مكة، قالت: فلم[٢] تزل به حتى ردّته معنا فرجعنا به فوالله إنه بعد مَقدَمنا بأشهر مع أخيه لَفِي بَهْم[٣] لنا خلْفَ بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ[٤]، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشيّ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه[٥] فشقّا بطنه، فهما يَسُوطانه[٦]، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوَه، فوجدناه قائمًا منتَقَعًا[٧] وجهُه، فالتزمتُه والْتَزَمَه أبوه، فقلنا: ما لك يا بنيّ؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني فشقًّا بطني، فالتَمَسا فيه شيئًا لا أدري ما هو؟ قالت: فرجعْنا إلى خِبائنا، فقال لي أبوه: يا حَليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أُصيب، فألحِقِيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به، قالت: فاحتملناه فقدِمنا به على أمّه، فقالت: ما أقدَمَك يا ظئر[٨] وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني، وقضَيْتُ الذي عليّ، وتخوّفت الأحداث عليه، فأدّيتُه عليك[٩] كما تحبِّين، قالت: ما هذا شأنُك فأصدُقيني خبرَك! فلم تدعني حتى أخبرتها؛ قالت: أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلاّ والله! ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لُبنَيّ لشأنًا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى! قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء له قصورُ بُصْرَى[١٠] من أرض الشام، ثم حملتُ به، فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ورافعٌ رأسهَ إلى السّماء؛ دعيه عنك وانطلقي راشدة. هكذا نقل ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق.

وقال محمد بن سعد في كتابه المترجَم بالطّبقات عن الواقديّ: كان عمره يوم شُقَّ بطنُه أربع سنين، وإن حَلِيمة أتت به أمّه آمنة بنتَ وَهْب وأخبرتها خبره وقالت: إنا لا نردّه إلاّ على جَدْع[١١] أنفِنا، ثم رَجَعَت به أيضًا، فكان عندها سنة أو نحوها، لا

---

(١) الوباء: المرض الخطير.
(٢) في سيرة ابن هشام: ١: ١٧٣: «قالت: فلم نزل بها».
(٣) البَهْم: الصغار من أولاد الضأن.
(٤) يشتد: يسرع.
(٥) فأضجعاه: جعلا جنبه إلى الأرض.
(٦) يسوطانه: يدخلان يديهما في بطنه.
(٧) انتقع لونه: تغيرت جلدة وجهه من خوف أو مرض.
(٨) الظئر: المرضعة.
(٩) في سيرة ابن هشام: ١: ١٧٤: «فأديته إليك».
(١٠) في الأصل: «أضاء له قصرى وبصرى من أرض الشام». والمثبت عن شرح الموهب: ١: ١٥٠؛ وفي سيرة ابن هشام: ١: ١٧٤: «أضاء لي قصور بصرى».
(١١) جَدْع أنفنا: مرغمين.

تَدَعُه يذهب مكانًا بعيدًا، ثم رأت غمامة تُظِلّه، إذا وقفَ وقَفَتْ، وإذا سار سارت فأفزَعها ذلك من أمره، فقدِمت به إلى أمّه لتردّه وهو ٱبن خمس سنين، فأضلها[١] في الناس، فالتَمَسَتْه فلم تجده، فأتت عبد المطلب فأخبرته، فالتمسه فلم يجده، فقام عند الكعبة فقال: [من الرجز]

لا هُـمَّ رُدّ راكـبـي مـحـمّـدَا أَرْدُدْه ربّي وٱصطَنِع[٢] عندي يَدا

أنت الذي جعلتَه لي عَضُدا[٣] لا يبعد الدهرُ به فيبعدا

* أنت الذي سمّيته محمّدا *

قال ٱبن إسحاق: يزعمون أنه وجده وَرَقَةُ بن نَوفَل[٤] بن أسد ورجل آخر من قُرَيش، فأتيا به عبد المطّلب، فقالا: هذا ٱبنك وجدناه بأعلى مكّة، فأخذه عبد المطلب فجعله على عُنقه، وهو يطوف بالكعبة يعوّذه[٥] ويدعو له، ثم أرسل به إلى أمّه آمنة. وعن خالد بن مَعْدان الكَلاَعيّ[٦]: أن نفرًا من أصحاب النبيّ ﷺ قالوا له: يا رسول الله! أَخْبِرنا عن نفسك، قال: نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى ورأت أمي حين حملَت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، وٱسترضعتُ في بني سَعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خَلْف بيوتنا نرعَى بَهْمًا[٧] لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بِيضٍ بطِسْت من ذهب مملوءة ثلجًا، فأخذاني فشَقّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه علَقَةً سوداء، فطرحاها، ثم غسلا بطني وقلبي بذلك الثّلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه بعشرَة من أمّته، فوزنني بهم فوزَنْتُهم، ثم قال: زِنْه بمائة من أمّته، فوزنني بهم فوزَنْتُهم، ثم قال: زِنْه بألف من أمّته، فوزنني بهم فوزَنتُهم، فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمّته لوزَنَها.

---

(١) أضلها: ضاع منها.

(٢) اصطناع اليد: الجميل والمعروف.

(٣) عضدًا: معينًا، مساعدًا.

(٤) وَرَقَة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، (. . . نحو ١٢ ق. هـ = . . . نحو ٦١١ م) من قريش: حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام. وتنصر، وقرأ كتب الأديان. وهو ابن عم خديجة أمّ المؤمنين. ولورقة شعر سلك فيه مسلك الحكماء، وفي وفاته روايتان. وعن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ سئل عن ورقة، فقال: يبعث يوم القيامة أمة وحده (الأعلام: ٨: ١١٤).

(٥) لاذ: اعتصم ولجأ.

(٦) خالد الكلاعي: خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي أبو عبد الله: تابعي، ثقة، ممن اشتهروا بالعبادة. أصله من اليمن وإقامته في حمص (بالشام). قال ابن عساكر في ترجمته: كان إذا أمر الناس بالغزو وكان فسطاطه أول فسطاط يضرب. (الأعلام: ٢: ٢٩٩).

(٧) البَهْم: صغار الضأن.

قال محمد بن إسحاق[١]: وحدّثني بعض أهل العلم أن مما هاج أمّه السَّعدية على ردّه إلى أمه، مع ما ذكرتْ لأمه مما أخبرتْها عنه، أن نفرًا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فِطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه ثم قالوا لها: لنأخُذَنّ هذا الغلام فلنذهبن به إلى مَلِكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، فلم تكد تَنفَلِت به منهم.

ونقل محمد بن سعد[٢]: أن آمنة أمّ النبي ﷺ لمَا دفعتْه لحليمة السعديّة قالت لها: إحفظي ابني، وأخبرتْها بما رأت، فمرّ بها اليهود فقالت: ألا تحدّثوني عن ابني هذا؟ فإنّي حملته كذا، ورأيتُ كذا، كما وصفت آمنة[٣]، فقال بعضهم لبعض: أُقتلوه! ثم قالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا هذا أبوه وأنا أمه فقالوا: لو كان يتيمًا لقتلناه[٤] قالت: فذهبت به.

وحَضَنَتْه ﷺ أمّ أيمن بركة الحبشيّة حتى كَبِرَ، فأعتقها وزوّجها زيد بن حارثة[٥]، فولدتْ له أسامة بن زيد[٦]؛ وكان رسول الله ﷺ ورِثها من أبيه. والله أعلم.

ذكر وفاة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ

قال الواقديّ وغيره من أهل العلم: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، فلما بلغتْ سنُّه سِتَّ سنين خرجتْ به إلى أخواله بني عَديّ بن النّجّار بالمدينة تزورهم به، ومعه أمّ أَيْمَن تحضنُه، وهم على بعيرَيْن، فنزلتْ به في دار النابغة[٧]، فأقامت به

(١) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ١٧٧.
(٢) الطبقات: ١: ٧١ (قسم أول) انظر السيرة الحلبية: ١: ٩٠.
(٣) في السيرة الحلبية: ١: ٩٥: «لها أمه».
(٤) في السيرة الحلبية: ١: ٩٥: «يتيمًا قتلناه».
(٥) زيد بن حارثة: زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرىء القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة. زارت سعدى أم زيد بن حارثة قومها، وزيد معها. فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على أبيات بني معن فاحتملوا زيدًا وهو غلام يفعة فأتوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة. فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له. (الإصابة في تمييز الصحابة ـ رقم ٢٨٩٠).
(٦) أسامة بن زيد: أسامة بن زيد بن حارثة. يكنى أبا محمد ويقال أبو زيد، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ. ولد في الإسلام ومات النبي ﷺ وله عشرون عامًا، وكان أمره على جيش عظيم. اعتزل الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية. وصحح ابن عبد البر أنه مات سنة أربع وخمسين. (الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم ٨٩).
(٧) في الأصل وطبقات ابن سعد: «النابغة» بالنون وفي شرح المواهب للزرقاني: ١: ١٦٣: «التابعة». . . رجل من بني عدي.

عندهم شهرًا، فكان رسول الله ﷺ يذكر أمورًا كانت في مُقامه ذلك لمّا نظر إلى أُطُم بني عَدِيّ بن النجّار عرفَه وقال: كنت ألاعب أنيسَة جاريةً من الأنصار على هذا الأُطُم[١]، وكنتُ مع غِلمانٍ من أخوالي؛ ونظر إلى الدار فقال: ها هنا نزلتْ بي أمّي، وفي هذه الدار قبرُ أبي عبد الله، وأحسنتُ العَوْمَ في بئر بني عديّ بن النجّار، وكان قوم من اليهود يختلفون[٢] ينظرون[٣] إليه، فقالت أمّ أيمن: فسمعتُ أحدُهم يَقول: هذا نَبيُّ هذه الأمّة، وهذه دارُ هِجْرَتِهِ، فوَعَيْتُ ذلك كلَّه من كلامه؛ ثم رجعتْ به إلى مكّة، فلمّا كانوا بالأَبواء[٤] [تُوفِّيتْ آمنةُ بنتُ وهب فقبرُها هناك، فرجعتْ به أمّ أيمن على البعيرين اللّذَين قدموا عليهما، إلى مكّة، وكانت تحضنه مع أمّه، ثم بعد أن ماتت فلما مرّ رسول الله ﷺ][٥] في عمرة الحُدَيْبية قال: «إن الله أذِن لمحمدٍ في زيارة قبر أمّه»، فأتاه ﷺ فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه، فقيل له[٦]: فقال: أدركتْني رحمتُها فبكيتُ. والله الرحمٰن.

ذكر كفالة عبدِ المطّلب رسولَ الله ﷺ

قال: ولما تُوُفِّيَتْ أمّه قبضه إليه جدُّه عبدُ المطلب وضَمَّه إليه ورَقَّ عليه رِقّة لم يرِقَّها على وَلَدِهِ، وكان يقرِّبه منه ويدنيه، ويَدخُل عليه إذا خلا وإذا نام، ويجلس على فراشه؛ وكان يوضَع لعبد المطلب فراشٌ في ظِلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فِراشِه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بَنيه إجلالاً له، وكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلامٌ حتى يجلس عليه، فيأخذُه أعمامُه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد ألمطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ٱبني، فوالله إنّ له لشأنًا، ثم يُجلسه معه عليه، ويمسَح ظهرَه بيدِه، ويَسُرُّه ما يراه يصنع.

وقال قوم من بني مُدْلج[٧] لعبد المطلب: إحتفظ به، فإنّا لم نَر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام مِنه؛ فقال عبد المطلب لأبي طالب[٨]: إسمع ما يقول هؤلاء.

---

(١) الأطم: بيت أو حصن من الحجارة (اللسان: أطم).
(٢) يختلفون: يتردّدون.
(٣) في الزرقاني: ١ : ١٤٦ : «ينظرون إليّ، قالت أم».
(٤) الأبواء: موضع بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب، معجم البلدان: ١ : ٩٢.
(٥) ما بين المربعين عن الزرقاني: ١ : ١٦٤. وطبقات ابن سعد: ١ : ٧٣ (قسم أول).
(٦) في السيرة الحلبية: ١ : ١٠٥ : «فقيل له في ذلك».
(٧) بنو مُدْلج: قبيلة من بني كنانة، وهم القافة العارفون بالآثار والعلامات، انظر السيرة الحلبية: ١ : ١٠٩.
(٨) أبو طالب: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش، أبو طالب (٨٥ ق هـ ٣ هـ = ٥٤٠ =

وسنذكر إن شاء الله خبرَ سيف بنِ ذي يَزَن[١] مع المطلب، وما بَشَّره من أمر النبي ﷺ.

قالوا: وكان عبد المطلب لا يأكل طعامًا إلا قال: عليّ بِأَبني فيؤتَى به إليه فلما بلغ رسولُ الله ﷺ ثماني سنين، هلك عبدُ المطلّب بنُ هاشم؛ ولما حضرتْه الوَفاة أوصَى أبنَه أبا طالب بحفظِه وكَفالِتَه؛ [وكانت][٢] وفاة عبد المطّلب بن هاشم لثمانٍ مضين من عمر رسول الله ﷺ بالحجون[٣]، وهو يومئذٍ ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل ابن مائة وعشر سنين[٤] حكاه السُّهيليّ[٥]؛ قال: «وهو أوّل من خَضَب[٦] بالسّواد من العَرَب»[٧].

قال ابن قُتيبة: إنّه كَبِر وعَمِيَ، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، ويقال له الفيّاض لجُوده، ومُطْعِم طيرِ السماء. قال ابن الأثير[٨]: «وهو أوّل من تحنّثَ بِحِراء[٩]، فكان إذا دخل شهر رمضان صعِد حراءَ وأطعمَ المساكين». وسُئِل رسول الله ﷺ: أتذكر موتَ عبد المطّلب؟ قال: نعم. أنا يومئذ ابن ثمانِي سنين، قالت أمّ أيمن: رأيتُ رسول الله ﷺ يومئذٍ يَبكي خَلْفَ سريرِ عبد المطّلب.

قال: ولما هلك عبد المطلب وَلِيَ زمزمَ والسقايةَ عليها بَعده أبنُه العبّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ من أحدث إخوته سنًا، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهي بيده،

= ـ ٦٢٠ م) والد علي (رضي الله عنه) وعم النبي ﷺ. وكافله ومربيه وناصره كان من أبطال بني هاشم ورؤسائهم. في الحديث: ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب. مولده ووفاته بمكة. (الأعلام: ٤: ١٦٦).

(١) سيف بن ذي يزن: سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري: (نحو ١١٠ ـ ٥٠ ق هـ = نحو ٥١٦ ـ ٥٧٤ م) من ملوك العرب اليمانيين ودعاتهم. ولد ونشأ بصنعاء. وفدت عليه أمراء العرب. مكث في الملك نحو خمس وعشرين سنة. وائتمر به بقايا الأحباش، فقتلوه بصنعاء. وهو آخر ملك من ملوك اليمن من قحطان. (الأعلام: ٣: ١٤٩).

(٢) سقطت من الأطل.

(٣) الحجون: موضع بمكة من ناحية البيت.

(٤) في عمر عبد المطلب أقوال أخرى تجدها في السيرة الحلبية: ١: ١١٢، وشرح المواهب: ١: ١٨٩.

(٥) الذي حكاه السهيلي: ١: ٥، ونقله منه الزرقاني: ١: ١٨٩: أنه عاش مائة وأربعين سنة. فلعل هذا القول سقط من نص النويري.

(٦) خضب: صبغ

(٧) في المعارف ص: ٣٣.

(٨) الكامل: ٢: ٦.

(٩) حراء: جبل بمكة معروف، فيه غار. تحنّث: تعبد.

فأقرّها رسولُ الله ﷺ على ما مضى.

وعن عبد الله بن عبّاس وغيره، قالوا: لما تُوفّي عبد المطلب قَبَض رسولَ الله ﷺ عمُّه أبو طالب، قيل بوصيةٍ من عبد المطلب، فأحبّه حبًّا شديدًا، وكان لا يفارقه، وكان يَخُصّه بالطعام، وكان إذا أكل عيالُ أبي طالب جميعًا أو فُرَادى لم يَشبَعوا[١]، وإذا أكل معهم النبيّ ﷺ شَبِعوا؛ فكان إذا أراد أن يغذّيهم قال: كما أنتم حتّى يَحْضر ٱبني؛ فيأتي رسولُ الله ﷺ فيأكل معهم، فيُفضِلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يَشبَعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمُبارَك؛ وكان الصِّبيان يُصبِحون رُمْصًا شُعْثًا، ويُصبح عليه السلام دَهِينًا كَحِيلاً[٢].

ذكر خروج رسول الله ﷺ إلى الشام مع عمّه أبي طالب، وخبر بَحِيرا الراهب

قالوا: لما بلغ رسول الله ﷺ ٱثنتي عشرةَ سنةً وعشرةَ أيّام، خرج أبو طالب في رَكْبٍ تاجرًا إلى الشام، فلما تهيّأ للرحيل تعلّق به رسولُ الله ﷺ؛ فرقّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنَّ به، ولا يفارقُني ولا أفارقُه أبدًا، فخرج به معه، فلما نزل الرَّكْب بُصْرَى من أرض الشام، وبها راهبٌ يقال له بَحِيرَا[٣] في صَوْمَعَةٍ[٤] له، وكان إليه عِلمُ أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصَّومعَة راهبٌ إليه يصير علمُهم عن كتابٍ فيها يتوارثونه كابرًا عن كابرٍ، فلما نزلوا ذلك العام ببَحيرا وكانوا كثيرًا ما يمرون به قبل ذلك، وهو لا يكلمهم، فصنع[٥] لهم طعامًا كثيرًا، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ، وهو في صومعته في الرَّكْب حين أقبلوا، وغمامةٌ تظِلُّه من بين القوم، فلما نزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، نظر إلى الغَمامة، وقد أظلّت الشجرة، وتهصّرت[٦] أغصانُها على رسول الله ﷺ حتى استَظَلّ تحتها[٧]، فلما رأى بَحيرا ذلك نزل من صَوْمَعته، وقد أمر

---

(١) ذلك لأن أبا طالب كان مقلاً من المال.

(٢) في النهاية لابن الأثير: ٣: ١٧١: «يصبحون غمصًا رمصًا، ويصبح رسول الله ﷺ صقيلاً، دهينًا كحيلاً» انظر الزرقاني: ١: ١٨٩.

(٣) بحيرا الراهب: أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب (الإصابة في تمييز الصحابة - رقم الترجمة ٥٩٨).

(٤) الصومعة: منار الراهب.

(٥) في السيرة الحلبية: ١: ١١٨: «حتى كان ذلك العام صنع لهم».

(٦) تهصرت: تدلت، تهدلت.

(٧) في السيرة الحلبية: ١: ١١٨: «وكان ﷺ وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه».

بذلك الطعام فصُنع، ثم أرسل إلى القوم فقال: إني قد صنعتُ لكم طعامًا يا معشر قريش، فأنا أحِب أن تَحضرُوا كلّكم؛ صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحُرّكم؛ فقال له رجل منهم: يا بَحيرا إنّ لك لشأنًا اليوم: قال له بحيرا: صدقتَ، قدْ كان ما تقول فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسولُ الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنّه في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بَحِيرا في القوم لم يَرَ الصِّفة التي يعرِف، فقال: يا معشر قُرَيش لا يتخلّف منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلّف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سِنًّا تخلف في رحالهم، قال: لا تفعلوا أُدْعوه فليَحْضر، فقال رجل من قريش: واللاّت والعُزَّى إن كان لَلُؤمًا بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بَحيرا جعل يَلحَظه لحظًا شديدًا، وينظرُ إلى أشياءَ من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللاّتَ والعُزّى إلا ما أخبرتَني عما أسألك عنه، فقال: لا تسألني بهما! فوالله ما أبغضت شيئًا قط بُغْضَهما، فقال له: فبِاللّهِ إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه! فقال: سَلْني عمّا بدا لك، فجعل يسأل عن أشياء من حاله في نومه[١]، وهيئته، وأموره، ورسول الله ﷺ يُخبره، فيوافق ذلك ما عند بَحيرا من صفته، ثمّ نظر إلى خاتم النبوّة بين كتفَيه، وكان مثل أَثر المِحْجَم[٢]، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغُلامُ منك؟ قال: ابني؟ قال له بَحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا؛ قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمّه حُبْلَى به، قال: صدقتَ ارجع بابن أخيك إلى بلده فاحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأَوه وعرَفوا منه ما عرَفت، ليَبغُنَّه[٣] شَرّا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأَسرِعْ به إلى بلاده، فخرج أبو طالب سريعًا حتّى أقدمه مكّة حين فرغ من تجارته بالشام.

ورُوي أنّ زُرَيْرًا وثَمّامًا ودَرِيسًا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأَوا من رسول الله ﷺ مثلَ ما رأى بَحِيرًا في ذلك السَّفَر الّذي كان فيه مع عمّه أبو طالب، فأرادوه، فردَّهم[٤] عنه بَحِيرا، وذكَّرهم اللّهَ ما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لا يخلُصوا إليه، فعرَّفهم ما قال لهم فتركوه وانصرفوا عنه، قال: فَشبّ رسولُ الله ﷺ يكلؤه الله ويَحفظُه ويَحوطُه لما يريد به من كرامته

---

(١) في شرح المواهب: ١: ١٩٦: «عن أشياء عن حاله ونومه».
(٢) المحجم: مشرط الحجام (اللسان: حجم).
(٣) يبغي: يضمر له.
(٤) كذا في عيون الأثر: ١: ٤٢. وفي السيرة الحلبية: ١: ١١٩: «وأرادوا به سوءًا فردهم عنه بحيرا».

وأصطفائه إنّه خيرُ الحافظين. والله المُعِين.

ذكرُ رَعْيَتِه ﷺ الغَنَم

عن عبد الله بن عُمير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبيّ إلا قد رَعَى الغنم، قالوا: وأنتَ يا رسول الله؟ قال: وأنا». وعن أبي هُرَيرة رضي[1] الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيًا إلا راعي غَنَم»، قال له أصحابه: وأنت يا رسولَ الله؟ قال: وأنا، رعيتُها لأهل مكّة بالقراريط[2].

وعن أبي سَلَمة بن عبد الرحمٰن، قال: مَرّوا على النّبي ﷺ بثَمَر الأَراك[3] فقال: عليكم بما اسودّ منه، فإنّي كنتُ أجتنيه إذ أنا راعي الغنم، قالوا: يا رسول الله، رعيتَها، قال: نعم. وما من نبيّ إلاّ قد رَعاها.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه نحوه.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام[4]: ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وقيل: ابن عشرين، هاجت حرْب الفِجار[5]، فشَهِدها ﷺ، وكان يُنَبل على أعمامه، أي يردّ عليهم النَّبْل.

وقد تقدم ذِكْرُ حرْب الفِجار في وقائع العَرَب، وذلك في الباب الخامس من القسم الرابع من الفن الخامس من كتابنا هذا، وهو في السفر الثالث عشر من هذه النسخة والله الموفّق للصّواب وإليه المَرْجِع.

ذكر حضور رسول الله ﷺ حِلف الفُضُول

قال محمّد بنُ عمَر بن واقد بسند يرفعه إلى حَكيم بن حِزام[6]: كان حِلفُ

(١) أبو هريرة: عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة (٢١ ق هـ ـ ٥٩ هـ = ٦٠٢ ـ ٦٧٩ م) صحابي. كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث. أسلم سنة ٧ هـ. ولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها. (الأعلام: ٣: ٣٠٨).

(٢) في معنى «القراريط» في هذا الحديث خلاف: انظر السيرة الحلبية: ١: ١٢٦.

(٣) الأراك: نبات صحراوي.

(٤) السيرة: ١: ١٩٥.

(٥) حرب الفجار: قال ابن هشام: ١: ١٩٨، نقلًا عن ابن إسحاق: «وإنما سمي يوم الفجار بما استحل هذان الحيان، كنانة وقيس عيلان، فيه من المحارم».

(٦) حكيم بن حزام: حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزّى، أبو خالد (. . . ـ ٥٤ هـ = . . . ـ ٦٧٤ م) صحابي، قرشي. وهو ابن أخي خديجة أمّ المؤمنين، مولده بمكة في (الكعبة) شهد =

الفضولِ مُنصرَف قُرَيش من حرْب الفِجار، ورسولُ الله ﷺ يومئذٍ ابن عشرين سنة، وكان الفِجار في شوّال، وهذا الحِلفُ في ذِي القعدة، وكان أشرفَ حِلْفٍ كان قطّ، وأوّل من دعا إليه الزُّبَيْر بن عبد المطّلب، فاْجتمعتْ بنو هاشِم وزُهْرة، وبنو أَسَد بن عبد العُزّى، وبنو تَيْم في دار عبد الله بن جُدعان[1]، فصنعَ لهم طعامًا، فَتعاقَدوا وتَعاهَدوا بالله لَيَكُونَنّ مع المظلوم حتى يؤدّى إليه حقُّه «ما بَلّ بحرٌ صُوفَةً»، فسَمَّت قريشٌ ذلك الحِلْفَ حِلْفَ الفُضول.

وقال اْبن[2] هشام: تَعاقَدوا وتَعاهدوه على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها، وغيرهم ممن دَخَلها من سائر الناس إلاّ قاموا معه؛ وكانوا على مَن ظَلَمه حتى تُرَدَّ عليه مظلمتُه.

وعن جُبَير بن مُطْعِم، قال: قال رسول الله ﷺ: ما أحبُّ أنّ لي بحِلفٍ حَضَرتُه في دار اْبنِ جُدْعانَ حُمْرَ النَّعَم، وأنّي أغدِر[3] به، هاشمٌ وزُهرة وتَيْم تحالَفوا أن يكونوا مع المظلوم «ما بلّ بحرٌ صُوفة»، ولو دُعيتُ به لأجبت[4]، وهو حلْفُ الفُضول.

قال الواقديّ: ولا نعلم أحدًا سَبق بني هاشم بهذا الحِلف. وحكى أبو الفرج الأصفهانيّ[5] في سبب تسمية هذا الحِلْف حِلْفَ الفُضول: أنّ قومًا من قريش قالوا في هذا الحلف. هذا والله فضل من الحِلف. فسْمي حِلفَ الفُضول، قال: وقال آخرون: تحالفوا مِثل حِلْفٍ تحالف عليه قوم من جُرْهُم[6] في هذا الأمر لا يقرون ظُلْمًا ببطن مكّة إلا غيّروه؛ وأسماؤهم: الفَضْل بن شراعة، والفَضْل بن قضاعة، والفضل بن سماعة.

= حرب الفجار، وكان صديقًا للنبي ﷺ قبل البعثة وبعدها. وكان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، وعالماً بالنسب، أسلم يوم الفتح. توفي بالمدينة (الأعلام: ٢: ٢٦٩).

(١) عبد الله بن جدعان: عبد الله بن جدعان التيمي القرشي أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة. وسماه اليعقوبي بين حكام العرب في الجاهلية (الأعلام: ٤: ٧٦).

(٢) السيرة: ١: ١٤١.

(٣) أي أني لا أحب الغدر به وإن أعطيت حمر النعم في ذلك.

(٤) يعني لو قال قائل من المظلومين في الإسلام: بآل حلف الفضول لأجبتَ.

(٥) أبو الفرج الأصبهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي أبو الفرج الأصبهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ = ـ ٩٦٧ م) من أئمة الأدب، والأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. ولد بأصبهان، ونشأ وتوفي ببغداد. من كتبه الأغاني. لم يعمل في بابه مثله جمعه في خمسين سنة. (الأعلام: ٤: ٢٧٨).

(٦) في السيرة الحلبية: ١: ١٣١: «هم ثلاثة من جرهم كل واحد منهم يقال له الفضل، وهم الفضل بن أبي فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث» (راجع اللسان: فضل).

وروي أيضًا بسنده[١] إلى أبي إسحاق بن الفضل قال: إنّما سَمَّتْ قريش هذا الحِلْفَ حِلْفَ الفُضُول لأنّ نَفَرًا من جُرْهم يقال لهم الفضل والفضال والفضيل تحالفوا على مثل ما تحالفتْ عليه قريش، قال: وقال الواقديّ[٢]: والصحيح أن قومًا من جُرْهم يقال لهم فضل وفضالة وفضال ومفضل تَحالَفوا على مِثل هذا فلما تحالفت قريشٌ بهذا الحِلْف سَمَّوه بذلك. والله الموفّق للصواب.

ذكر خروج رسول الله ﷺ إلى الشام المرة الثانية في التجارة وحديث نسطور

قال: ولمّا بلغ رسولُ الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة قال له عمّه أبو طالب: أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا. وهذه عِيرُ قومك قد حضَر خروجُها إلى الشام، وخديجةُ بنت خُوَيْلِد[٣] تبعَثُ رجالاً من قومك في عِيرَاتها[٤]، فلو جئتَها فعرضتَ نفسَكَ عليها لأسرَعتْ إليك؛ وبلغ خديجةَ ذلك، فأرسلتْ إليه تقول: أنا أعطيك ضِعفَ ما أُعطي رجلًا من قومك، فقال أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك، فخرج رسولُ الله ﷺ ومعه مَيْسَرة غلام خديجة، وجعل عُمومتُه يُوصُون به أهلَ العِير، فساروا حتى قَدِموا بُصْرَى[٥]، فنزَلا في ظلّ شجرة، فقال نَسْطُورَا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلاّ نبيّ. ثم سأل مَيْسَرةَ عن رسول الله ﷺ فقال: أفي عينيه حُمْرة[٦]؟ قال: نعم لا تفارقه؛ قال: هو نبيّ، وهو آخر الأنبياء، ثم باع رسولُ الله ﷺ سلعةً فوقع بينه وبين رجل تلاح[٧]، فقال له: احلفْ باللاّتِ والعُزَّى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفتُ بهما قطّ، وإنّي لأمُرّ فأعرض عنهما»، فقال الرجل القولُ قولُك، ثم قال لميسرة: هذا والله نبيّ تجده أحبارنا[٨] منعوتًا في كتبهم؛ وكان مَيْسَرة إذا كانت

---

(١) الأغاني: ١٦: ٦٧.

(٢) الأغاني: ١٦: ٧٠.

(٣) خديجة بنت خويلد: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى (٦٨ ـ ٣ ق هـ = ٥٥٦ ـ ٦٢٠ م) من قريش: زوجة رسول الله ﷺ الأولى. ولدت بمكة. تزوجها رسول الله ﷺ قبل النبوة فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. كانت تكنى بأم هند (وهند من زوجها الأول). (الأعلام: ٢: ٣٠٢).

(٤) جمع الجمع لعير.

(٥) مدينة حوران، فتحت صلحًا سنة ١٣ هـ، وهي أول مدينة فتحت بالشام.

(٦) كانت هذه الحمرة في بياض عينه، وهي الشكلة، وجاء في وصفه أنه كان أشكل العينين.

(٧) تلاح: تلاح خلاف، تلاسن.

(٨) الحبر: هو العالم من أهل الكتاب، ذميًا كان أم مسلمًا.

الهاجرة واشتدَّ الحرّ يرى مَلكين يُظِلان رسول الله ﷺ من الشمس، فوعَى ذلك كلّه، وباعوا تجارتَهم، وربِحوا ضِعفَ ما كانوا يَربحون؛ فلما رجعوا وكانوا بمَرِّ الظَّهران[١] قال ميسرة: يا محمَّد! انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنعَ الله على وجهك، فإنّها تعرف لك ذلك، فتقدّم رسول الله ﷺ حتى دخل مكّة في ساعة الظَّهيرة وخديجة في عُلية[٢] لها، فرأت رسولَ الله ﷺ وهو على بعيره، ومَلَكان يُظِلّان عليه، فأرَتْه نساءَها، فعجبن لذلك، ودخل رسول الله ﷺ فخبَّرها[٣] بما رِبحوا في وَجْهِهِم ذلك، فسُرّت به، فلما دَخَلَ مَيْسَرة عليها أخبرتْه بما رأت، فقال: قد رأيت هذا مذ خرجنا من الشام، وأخبرها بما قال نَسْطُورا، وبما قال الآخَر الذي حالفَه[٤] في البيع، وقَدِم رسول الله ﷺ بتجارتها، فربحتْ ضعفَ ما كانت تَربح، وأَضعفتْ له ما سَمَّت له. والله المعين.

ذكر تزويج رسولِ الله ﷺ خديجةَ بنت خُوَيْلِد

قال الواقدي بسندٍ يرفعه إلى نَفِيسة بنت مُنْية[٥]؛ قالت: كانت خديجة بنتُ خُويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ امرأةً حازمة جَلْدة شريفة لبيبة؛ وهي يومئذٍ أوسَط[٦] قريش نَسَبًا، وأعظمُهم شَرَفًا، وأكثرُهم مالاً، وكُلُّ قومها كان حريصًا على نكاحها لو قَدَر على ذلك، قد طلبوها وبَذلوا[٧] لها الأموال؛ فأرسلتْني دسِيسًا[٨] إلى محمد بعد أن رجع في عِيرها من الشام، فقلتُ: يا محمد، ما يمنعُك أن تتزوّج؟ فقال: ما بِيَدي ما أتزوّج به، قلتُ: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعِيتَ إلى الجَمال والمال، والشَّرَف والكَفاءةِ ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلِك؟ قلت: عليّ، فأنا أفعل، فذهبتُ فأَخْبَرتُها، فأرسلتْ إليه: أن ائْتِ لساعةِ كذا وكذا، وأرسلَتْ إلى عمّها عمرو بن أَسد ليُزوّجها. وقيل: إنها أرسلتْ إلى رسول الله ﷺ

---

(١) مر الظهران: وادٍ بين مكة وعسفان، وهو الذي تسميه العامة بطن مرو، وهو المعروف الآن بوادي فاطمة، السيرة الحلبية: ١: ١٣٥.

(٢) العُلية: الغرفة.

(٣) في الأصل: «يخبرها» والمثبت عن ابن سعد، والسيرة الحلبية: ١: ١٣٥، وفي شرح المواهب: ١: ١٩٩: «فأخبرها».

(٤) حالفه: استحلفه.

(٥) في الأصل: «بنت منبه»، تصحيف.

(٦) أوسط: أشرف.

(٧) في السيرة الحلبية: ١: ١٣٧: «وذكروا لها الأموال فلم تقبل».

(٨) الدسيس: من تدسه ليأتيك بالأخبار.

تقول: يا بن العمّ! إني قد رغِبتُ فيك لقرابتك منّي، وشرفِك في قومك، وسِطَتِك[١] وأمانتِك عندهم، وحُسْنِ خُلُقك، وصدقِ حديثِك؛ ثم عرضتْ نفسَها عليه، فذكر رسُول الله ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بنُ عبد المطّلب حتى دخل على خُوَيلِد بن أَسَد، وقيل: بل عمرو بن خُوَيلد بن أَسَد، وقيل: بل عمرو بن أُمَيَّة عمِّها، وكان شيخًا كبيرًا وهو الصحيح، فخطَبَها إليه. وقيل: وحضر أبو طالب ورؤساء مُضر، فخطب أبو طالب فقال:

«الحمد لله الذي جعلَنا من ذرّية إبراهيم، وزرعِ إسماعيل، وضِئضِيء[٢] معَدّ، وعُنْصر مُضَر، وجَعَلَنا حَضَنة بيته، وسُوّاس حَرَمه، وجعل لنا بيتًا محجُوجًا، وحَرَمًا آمِنًا، وجعلنا الحكّام على الناس؛ ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله، لا يوزَن به رجل إلا رجحَ به، فإن كان في المال قُلٌّ[٣] فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل[٤]، ومحمد مَن[٥] قد عرفتُم قَرابتَه؛ وقد خطَب خديجةَ بنت خُوَيْلِد، وبذَل لها من الصَّداق[٦] ما آجِلُه وعاجِله من مالي كذا، وهو واللّهِ بعدَ هذا له نبأ عظيم، وخَطْب جليل»، فتزوجها ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام، وخديجةُ يومئذٍ بنت ثمان وعشرين سنة، وقيل: بنت أربعين سنة، وأصدَقَها ﷺ ثِنْتَي عشرة أُوقِيَة ونَشًّا ذهبًا، الأوقية أربعون، والنَّشُّ عشرون، فذلك خمسمائة درهم.

وروى ابن هشام[٧]: أنه أصدقها ﷺ عشرين بَكْرَةً.

ذكرُ حضورِ رسول الله ﷺ هَدْمَ الكعبة وبناءَها

قالوا: ولما بلَغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنة شهِد هَدْم الكعبة وبناءَها، وتَراضَت قريش بحُكمه فيها؛ وكان سببُ هدم الكعبة وبنائها ما رُوِي عن ابن عباس، ومحمد بن جُبير بن مُطْعِم، قالا: كانت الجُرُوف[٨] مُطِلَّة على مكة، وكان السَّيل يدخل من أعلاها حتى يدخُل البيت فانصدع، فخافوا أن يهدم، وسُرِق منه حَلْيُه وغَزَال

---

(١) السطَة: الشرف.
(٢) ضئضيء: أصل، وكذلك عنصر: أصل.
(٣) قلٌّ: من قليل: شح.
(٤) حائل: متغير ـ متقلب.
(٥) في شرح المواهب: ١: ٢٠١: «ومحمد ممن قد عرفتم».
(٦) الصداق: المهر.
(٧) السيرة: ١: ٢٠١.
(٨) في الأصل وطبقات ابن سعد: ١: ٩٣ (قسم أول): «الجرف مطلة».

من ذَهب كان عليه دُرٌّ وجوهر.

قال محمد بن إسحاق: وكان كنز الكعبة في بئرٍ في جوفها، فوُجِد عند دُوَيْك مولًى لبني مُلَيح بن عمرو من خُزاعة. قال ابن هشام: فقطعَت قريش يده، وزَعمت قريش أن الذين سَرَقوه وضَعوه عند دُوَيك.

وكانت الكعبة فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وكانوا يهمّون بذلك ويهابون هَدمَها، فلما سُرق الكنز حَمَلهم ذلك على هدمها وبنائها؛ قال[١]: وكان البحر قد رَمَى بسفينةٍ إلى جُدّة لرجل من تجّار الروم فتحطمَت. قال الواقدي: كان رأسُ أصحاب السفينة رجلاً روميًا اسمع بَاقُوم[٢]، فخَجَّتها[٣] الريح إلى الشُّعَيبة، وكانتِ مرفأ السُّفن قبل جُدَّة فتحطّمت؛ فخرج الوليد بن المغيرة[٤] في نفَر من قريش فابتاعوا خَشَبها، وقدم معهم بَاقُوم الروميّ.

قال ابن إسحاق[٥]: فأعدّوا الخشب لتسقيفها، وكان بمكة رجل قِبطيّ نجار، فتهيأ لهم في أنفسهم بعضُ ما يُصلِحها؛ وكانت حيةٌ تخرج من بئر الكعبة التي كان يُطرَح فيها ما يُهدَى لها، فتتَشرَّق[٦] كل يوم على جدار الكعبة، ولا يدنو منها أحد إلا احْزَأَلَّت[٧] أي رفعت رأسها وكَشّت[٨] وفتحت فاها، فكانوا يهابونها؛ فبينَا هي يوم تَتَشرَّقُ بعث اللَّهُ طائرًا فاختَطَفَها فذَهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردْنا؛ عندنا عاملٌ رفيق، وعندنا خشَب، وقد كفانا الله عز وجل الحية.

فلما أَجْمَعُوا أمْرَهم على هدمها وبنائها، قام أبو وَهب بن عمرو بن عائذ بن عِمران بن مَخزوم، وهو خال أبي رسول الله ﷺ، فتناول من الكعبة حجَرًا، فوثَب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشرَ قريش، لا تُدخُلوا في بنائها من كَسْبكم إلا

---

(١) القائل ابن إسحاق، وانظر سيرة ابن هشام ١: ٢٠٥.

(٢) باقوم: ويقال: باقول باللام، وهو نجار قبطي، وقيل: رومي انظر الزرقاني: ١: ٢٠٣.

(٣) خَجتُها: أي دفعتها.

(٤) الوليد بن المغيرة: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس (٩٥ ق هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م) من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش ومن زنادقتها. أدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون. وهو والد سيف الله خالد بن الوليد (الأعلام: ٨: ١٢٢).

(٥) سيرة ابن هشام: ١: ٢٠٥.

(٦) تتشرق: تبرز للشمس.

(٧) أحزألت: رفعت ذنبها.

(٨) كشّت: صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض.

طيبًا، لا يدخل فيها مَهر بَغِيّ، ولا بيع رِبًا، ولا مَظلَمَة أحد من الناس. ويقال: إن الوليد بن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم هو الذي قال هذا القول.

قال الواقديّ: فأمَروا بجمع الحجارة، وببناء الكعبة منها، فبينَا رسولُ الله ﷺ ينقل معهم، وكانوا يَضعون أُزُرَهم على عواتقهم ويحملون الحجارة، ففعل ذلك رسولُ الله ﷺ فلُبِط به: أي سقَط من قيام، ونودي: عورتَكَ! فكان ذلك أوّلَ ما نُودِي، فقال له أبو طالب: يا بنَ أخي اجعل إزارك على رأسك، فقال: ما أصابني [ما أصابني][(١)] إلا من التّعَرِّي؛ فما رؤيت لرسول الله ﷺ عورةٌ بعد ذلك.

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا جَزَّأت[(٢)] الكعبة، فكان شق[(٣)] الباب لبني عبد مَناف وزُهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانيّ لبني مَخزوم وقبائلَ من قُريش انضمّوا إليهم، وكان ظَهْرُ الكعبة لبني جُمَح وَسهم، وكان شقّ الحجر لبني عبد الدّار ابن قُصَيّ وبني أَسَد بن عبد العُزَّى، وبني عَدِيّ بن كعب، وهو الحَطِيم[(٤)].

وقال الواقديّ: وقَع لبني عبد مَناف وزُهرة وجهُ البيت، وهو ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر، ووقع لبني أسَد بن عبد العُزَّى وبني عبد الدار ما بين ركن الحِجْر إلى ركن الحِجْر الآخر، ووقَع لَتيْم ومَخزوم ما بين ركن الحِجر إلى الرّكن اليمانيّ، ووقع لسَهْم وجُمَح وعَدِيّ وعامر بن لُؤيّ ما بين الركن إلى الركن الأسود.

قال ابن إسحاق: ثمّ إن الناس هابوا هَدْمَها، وفَرِقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأكم في هدمها، فأخذ المِعْوَل؛ ثم قام عليها هو يقول: اللهم لم تُرَع[(٥)] ويقال: لم نَزِغْ[(٦)]، اللّهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس به تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يُصبْه شيء فقد رضي الله ما صنعنا فنهدم، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله، فهدَم وهدَم الناس معه حتى انتهى الهدم بهم إلى أساس إبراهيم عليه السلام، فأفضَوا إلى حجارة خُضْر كالأسِنَّة[(٧)] آخذٍ بعضُها بعضًا، فأدخل رجل من

---

(١) في الأصل: «ما أصابني إلا في تعرى»، والتكلمة والتصويب عن الزرقاني: ١: ٢٠٦، والسيرة الحلبية ١: ١٤٣.

(٢) في الأصل، والطبري: ٢: ٢٠٠: «تجزأت» والمثبت عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٠٧.

(٣) الشق: الناحية.

(٤) الحطيم: سمي حطيمًا لأن الناس يزدحمون فيه حتى يحطم بعضهم بعضًا.

(٥) تُرع: ترع: تفزع.

(٦) لم نزغ: لم نمل عن دينك.

(٧) الأسنة: جمع سنان، شبهها بأسنة الرماح في الخضرة.

قريش عتلة[١] بين حجَرَيْن منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقَّضَت[٢] مكة بأسرها، فانتهوا على ذلك الأساس.

قال: ثم[٣] إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها، كلُّ قبيلة تجمع على حدة، وبنَوا حتى بلغ البنيان موضع الركن[٤]. والله المستعان.

ذكر اختلاف قريش في رفع الرُّكن وتراضيهم بالنبي ﷺ وخبر النَّجْديّ

قال ابن إسحاق[٥]: ولما بلغ البنيان إلى موضع الركن اختصموا فيه، كلُّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأُخْرَى، حتى تحاوزوا[٦] وتخالفوا واعتدّوا للقتال، فقرّبت بنو عبد الدار جَفنةً مملؤة دَمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عَدِيّ بن كعب بن لُؤيّ على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، فسُمُّوا لعَقَة الدَّم؛ فمكثت قُريش على ذلك أربعَ ليال أو خمسًا، ثم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فقال أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم، وكان إذ ذاك أسَنَّ قريش كلِّها: يا معشَر قُرَيش! اجعَلوا بينَكم فيما تَختلفون فيه أوّلَ داخل يدخل[٧]؛ فدخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، هذا محمد، رضينا به؛ فلما انتهى إليهم وأَخبَروه الخبر، قال ﷺ: هَلُمَّ إليّ ثوبًا فأُتِيَ به، وقيل: بل بَسَط رداءه في الأرض، وأخذ الركن فوَضعه فيه بيده، ثم قال: ليأت[٨] من كل رُبع من أرباع قريش رجل، فكان من رُبع بني عبد مَناف عُتْبَة بن رَبيعة، وفي الربع الثاني أبو زَمْعَة، والربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، والربع الرابع قيس بن عَدِيّ.

هكذا نقل الواقدي، ثم قال رسول الله ﷺ: ليأخذْ كلُّ رجل منكم بزاوية من زوايا الثّوب ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا، ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه، فذهب رجل من أهل نجد لُيناول النبيّ ﷺ حَجرًا يُشدُّ به الركن، فقال العباس بن عبد

---

(١) عتلة: عمود بن حديد تهدم به الحيطان.

(٢) تنقَّضت: اهتزت.

(٣) القائل ابن إسحاق.

(٤) يريد الحجر الأسود لأنه مبين بالركن فسمي ركنًا.

(٥) سيرة ابن هشام: ١: ٢٠٩.

(٦) تحاوزوا: انحاز كل فريق إلى فريقه.

(٧) في سيرة ابن هشام: ١: ٢٠٩: «.... فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا، فكان أول داخل». انظر الطبري: ٢: ٢٠١.

(٨) في الأصل وطبقات ابن سعد: ١: ٩٤ (قسم أول): «ليأتي» تصحيف.

المطلب: لا. ونحّاه، وناول العباس رسولَ الله حجرًا، فشَدّ به الركنَ، فغضب النّجديّ حين نُحّي، فقال النبي ﷺ: إه ليس يَبْنِي معنا في البيت إلا مِنّا؛ فقال النّجديّ: يا عَجَبًا لقوم أهل شَرَف، وعقول، وسِنّ، وأموال، عمدوا إلى أصغرهم سِنًّا، وأقلِّهم مالاً، فرأسوه عليهم في مَكرُمَتهم وجُودِهم كأنهم خَدَم له، أما والله ليُفرقنهم شِيَعًا[١]، وليقسِمَنّ بينهم حظوظًا وجدودًا[٢]. ويقال إن النَّجديَّ إبليسُ العنه الله. فقال أبو طالب: [من الرجز]

إن لـنـا أولَـه وآخـرَه   في الحكم والعدل الذي لا ننكرَهْ

وقـد جـهِـدنـا جـهـده لـنـعـمُـرَه   وقـد عـمـرنـا خـيـرَه وأكـثـره[٣]

* فـإن يـكـن حـقًّا فـفـيـنـا أوفـرَه *

قال: ثم بنوا حتى انتهَوْا إلى موضع الخشَب، وكان خمسة عشر جائزًا[٤] سَقَفوا البيت عليه، وبَنوه على ستة أعمِدة؛ وأخرجوا الحِجْر من البيت، قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ إن قومك استقصروا[٥] في بنيان الكعبة، ولولا حَداثة عهدهم بالشِّرك أعدتُ فيه ما تركوا منه، فإن بدَا لقومك من بعدي أن يبنوه، فهلُمَّ أريك ما تركوا منه، فأَراها قريبًا من سبعة أذرع في الحِجر، وقال ﷺ: ولجعلت لها بابَين شَرقيًا وغربيًا، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت: فقلت: لا أدري. قال: تعزُّزًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا.

قال ابن هشام[٦]: وكانت الكعبة على عَهد النبيّ ﷺ ثماني عشرةَ ذراعًا، وكانت تُكسَى القَباطِيّ[٧] ثم كسيت البرود[٨]، وأوّلُ من كساها الديباج الحجّاج بن يوسف.

وحيث انتهينا إلى هذه الغاية من أخبار رسول الله ﷺ، فلنذكر من بشّر به.

ذكر المبشِّرات برسول الله ﷺ قبلَ مولده ومبعثه وبعدَ ذلك

جاءت البشائر برسول الله ﷺ في كتب الله تعالى المنزَلة على أنبيائه صلواتُ الله

---

(١) شيعًا: فرقًا.

(٢) جدودًا: واحدها جد وهو الحظ.

(٣) في طبقات ابن سعد: «وأكبره».

(٤) الجائز: هو الخشبة التي توضع عليها أطراف العوارض في سقف البيت. وفي الأصل: «حابرًا» تصحيف.

(٥) في الأصل: «استعصروا من». انظر صحيح البخاري: ٢: ١٤٦.

(٦) السيرة: ١: ٢١١.

(٧) القباطي: ثياب بيض كانت تصنع بمصر.

(٨) البرود: ثياب يمنية.

عليهم، وفيما[١] نُقِلَ إلينا من كلامهم، ووُجد بخطّهم، وبشّر به أحبارُ يهود، وعلماءُ النّصارَى، عما انتهى إليهم من العلوم التي تلقَّوها عن الأنبياء صلوات الله عليهم، ونَقلوها من صُحُفهم، ومُخبَّئات كتبهم، وذخائر أسرارهم، حتى اعترف قوم بنبوّته ﷺ قبلَ مَولِدِه وظهوره بما شاء الله من السنين، وَأَوْصَوا به مَن بَعدَهم؛ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]؛ وبشّر به أيضًا قبلَ مَبْعَثِه كُهّان[٢] العرب، عما كان يأتيهم من أخبار السّماء على لِسان شياطينهم الذين كانوا يَستَرِقون السَّمْع ومُنِعوا بالشُّهُب، كما أخبرنا الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩] ونطَق الجانُّ من أجواف الأصنام[٣] بالبِشارة به، فكان ذلك سببًا لإسلام من سمِع أصواتها ممن سبقت له من الله الحُسْنَى، وهداه وأَرشده إلى اتّباع الحق، والإيمان برسول الله ﷺ، وبما جاء به مِن عند الله، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في مواضعه.

فأما ما جاءت به الكتب المنزلة من الله تعالى مما يدل على نبوّة سيدنا رسول الله ﷺ فقد جاء ذلك في القرآن العزيز، وفي التوراة والإنجيل وزبور داود، وكتُب الأنبياء: شِعْيَا، وشَمْعُون وحزقيل عليهم السلام.

فأما ما جاء في القرآن العزيز فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٨١]. قال أهل التفسير: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًا إلا ذكَر له محمدًا ونَعته، وأخذ عليه[٤] ميثاقه: إن أدركَه ليؤمِنَنّ به؛ وقيل: أن يُبيِّنه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبيّنوه لمن بعدَهم؛ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: لم يبعث الله نبيًا من آدم فَمَن بعدَه، إلا أخذ عليهم العهود في محمد ﷺ: لئن بُعِث وهُو حَيّ ليؤمنَنّ به ولينصُرَنّه،

---

(١) في الأصل: «وما نقل».

(٢) كهّان: واحدها كاهن، وهو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار (اللسان: لكن).

(٣) الصنم: ما ينحت من خشب، ويصاغ من فضة ونحاس (اللسان: صنم).

(٤) في الأصل: «عليهم». انظر شرح المواهب ٦: ١٦٣.

ويأخذ العهد بذلك على قومه، ونحوُه عن السُدِّي وقتادة[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]. وروي عن قتادة: أن النبيّ ﷺ قال: كنتُ أولَ الأنبياء في الخلق، وآخِرَهم في البَعث. قال القاضي عياض: فلذلك وقع ذِكره مقدّمًا هنا قبل نوح وغيرِه، صلى الله عليهم أجمعين.

قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبَشّر بي عيسَى»، الحديث. يشير بدعوة إبراهيم عليه السلام إلى قوله تعالى إخبارًا عنه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

وأما ما جاء في كتب الله السالفة، فقد علِمنا قطعًا أن أهل الكتاب بدّلوا في كُتب الله تعالى المنزّلة على أنبيائهم، وحَرّفوا كَلِمها عن مواضعه، وحذَفوا منها أشياء فيها صريح ذكر رسول الله ﷺ بَغيًا منهم وحسَدًا وجُحودًا ونَكالاً[٢] وافتراء على الله تعالى. هذا لَا مِريةَ[٣] عندنا فيه ولا خلاف، وقد اتّفقوا على أشياء في كتُبهم وتَرجَموا عنها بالعربية، تدل على نبوّة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ونحن نذكرها إن شاء الله، وكتموا فيها ما أخبَر به من أسلَم من أحبار يهود وغيرهم، وعُرِضَ ذلك على من استَمرّ على كفره، فلم يسَعه إنكارُه بل أقرّ به، على ما نذكر إن شاء الله تعالى في مواضعه.

فأما ما اتفقوا عليه مما جاء في التوراة وترجموه بالعربية ورَضُوا ترجمته فمن ذلك قوله: «جاء الله من طور سيناء، وأشرق لنا من سَاعير، واستَعْلَن من جبال فَارَان». وفي ترجمة[٤] أخرى كذلك: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من سَاعِير، واستعلن من جبال فاران». قال العلماء: وفي هذا تَصريح بنبوَّة محمد ﷺ، لأنَّ الطور[٥] هو الجبل الذي اصطفى الله تعالى موسى عليه بتكليمه، وسَاعِير: جبل بالشام منه ظهرت نبوّة عيسى ابن مَريم، وبالقرب منه قرية الناصرة التي ولد فيها، وفَاران: هي مكة شرفها الله تعالى.

---

(١) قتادة: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري (٦١ ـ ١١٨ هـ = ٦٨٠ ـ ٧٣٦ م) مفسر حافظ ضرير أكمه. (الأعلام: ٥: ١٨٨).

(٢) نكالاً: عقوبة.

(٣) مرية: شك.

(٤) معجم البلدان: ٦: ٣٢٣ ـ وفاران: جبال بمكة.

(٥) في الأصل: «الطور وهو». وانظر «خير البشر» لابن ظفر ص ٩.

قال الشيخ حجة الدين أبو هاشم[١] محمد بن ظَفَر في كتابه المترجم بخير البِشر[٢]: لا يخالف في هذا أحد من أهل الكتاب. قال: «وأما قوله: جاء الله من طور سيناء فإن مجيء الله هو مجيء كتابِه وأمرِه كما قال الله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]؛ أي أتاهم أمرُه. وقوله: «وأشرق لنا من سَاعير» كنايةٌ عن ظهور أمرِه[٣] وكلامه، قال: وكذلك قوله: «واستعلن من جبال فاران»، أي ظهر أمره، وكتابه، وتوحيده، وحمدُه، وما شرعه رسولُه من ذكره بالأذان والتلبية وغير ذلك؛ قال ابن ظَفر[٤]: «وقرأت في ترجمةٍ للتوراة خطابًا لموسى عليه السلام، والمرادُ به الذين اختارهم لميقات ربه فأخذتهم الرَّجفة خصوصًا ثم سائر بني إسرائيل عمومًا: والله ربك يقيم نبيًا من إخوتك، فاستمع له كالذي سمعت ربّك في حُوربت يوم الاجتماع حين قلت: لا أعود أسمع صوت الله ربي لئلا أموت، فقال الله لي: نِعْمَ ما قالوا، وسأقيم لهم نبيًا مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، فيقول لهم كلَّ شيء آمره به، وأيُّما رجلٍ لم يُطِع من تكلم باسمي فإني أنتقم منه».

وفي هذا[٥] أدلّة على نبوّة نبيّنا ﷺ، منها قوله: «من إخوتهم»، وموسى وقومُه من بني إسحاق، وإخوتهم بنو إسماعيل، ولو كان الموعود[٦] من بني إسحاق، لكان من أنفسِهم، لا من إخوتهم، كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم في دعوته: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ ومنها قوله: «نبيًا مثلك»، وقد قال في التوراة: «لا يقوم في بني إسرائيل أحدٌ مثلُ موسى»، وفي ترجمةٍ أخرى: «مثلُ موسَى لا يقوم في بني إسرائيل أبدًا»؛ ومنها قوله: «أَجعلُ كلامي في فمه»، فهو واضح أن المقصود به محمد ﷺ، لأن معناه: أوحِي إليه بكلامي فينطق به؛ وقوله: «أيُّما رجلٍ لم يُطِع من تكلّم باسمي فإني أنتقم منه» دليل على كذب اليهود في قولهم: إن الله أمرنا بمعصية كلِّ نبي دعا إلى دين سُمّي نسخًا لبعض ما شرعه موسى ﷺ. والله تعالى أعلم.

وأما ما اتفقوا عليه، ورضوا ترجمته مما في الإنجيل فمن ذلك ما ترجموه في

---

(١) محمد بن ظَفَر: محمد بن عبد الله أبي محمد بن محمد بن ظفر الصقلي المكي، أبو عبد الله حجة الدين (٤٩٧ ـ ٥٦٥ هـ = ١١٠٤ ـ ١١٧٠ م) أديب رحالة مفسر ولد في صقلية، ونشأ بمكة تنقل في البلاد. وعاد إلى الشام فاستوطن «حماه» وتوفي بها. (الأعلام: ٦: ٢٣٠).

(٢) خير البشر ص٩.

(٣) في الأصل: «ظهور أنوار كلامه»، والمثبت عن ابن ظفر.

(٤) خير البشر ص ١٠.

(٥) خير البشر (ق ٥ ب): «وفي هذا الكلام أدلة».

(٦) في خير البشر (ق ٥ ب): «ولو كان هذا النبي الموعود».

الإنجيل: أن عيسى عليه السلام قال: «إن أحْبَبتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم بَارَقْلِيط آخر يكون معكم الدهرَ كلَّه»، فهذا تصريح بأن الله سيبعث إليهم من يقوم مَقامه، وينوب عنه في تبليغ رسالات ربه، وسياسة خلقه مَنابَه، وتكون شريعته باقيةً مخلَّدة أبدًا، ولم يأت بذلك بعد عيسى إلا محمد ﷺ.

ومنه ما ترجموه: «إن هذا الكلام الذي سمعتمُوه ليس هو لي، بل للأب الذي أرسلني، كَلَّمكم بهذا وأنا معكم، فأما البَارَقْلِيط: روحُ القدس الذي يُرسِل أبي باسمي، فهو يعلّمكم كلّ شيء، ويُذَكِّركم جميعَ ما أقول لكم».

قال ابن ظَفَر: قولهم: «أبي»: فهذه اللفظة عندنا مبدلة محرَّفة، وليست مُنكَرة الاستعمال عند أهل الكتابَين إشارةً إلى الرب سبحانه، لأنها عندهم لفظة تعظيم يخاطِب بها المتعلّم مُعَلِّمه الذي يستمد العلمَ منه؛ قال: ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماءَ دينهم بالآباء الروحانية؛ قال: وأما قوله: «يرسله أبي باسمي» فهو إشارة إلى شهادة رسول الله ﷺ له بالصّدق والرسالة، وما تضمَّنَه القرآن من مَدحه وتنزيهه عما افتراه اليهودُ في أمره.

ومما ترجموه ورَضوُا ترجمته قولهم: إنه قال: «إذْ قال البَارَقْلِيط الذي أرسل إليكم من عند أبي، روح الحق الذي يخرج من الأب، فهو يشهَد لي، وأنتم تشهدون لي أيضًا لكينونتكم معي من أوّل أمري».

قال: قوله: «روح الحق الذي يخرج من الأب» كنايةٌ عن كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: «يشهد لي» تصريح بنبوّة محمد ﷺ، إذ لم يشهد للمسيح عليه السلام بالنبوّة، والنزاهة عما افتُري عليه، وبأنه روحُ الله وكلمتُه وصفيُّه ورسولُه، كتابٌ سوى القرآن، ولم تزل الأممُ تكذِّب المتَّبِعين للمسيح، واليهودُ يفترون العظائم من البهتان[١]، حتى بعث الله محمدًا ﷺ فشهِد للمسيح بما شهِدَ به حَوارِيُّوه الذين كانوا معه من أوّل أمره، والمهتدون من أمته.

قال: ومما رَضُوه من الترجمة أيضًا عن الإنجيل قوله فيه: «إن انطلاقي خير لكم، لأني إن لم أنطلق لم يأتكم البَارَقْلِيط؛ فإذا انطلقتُ أرسلتُ به إليكم، فإذا جاء فنَّد أهلَ العلم». قال: فهذا ظاهر، وقولُه: «أرسلت بهِ إليكم» إن كان سالمًا من التحريف، فمعناه مثل معنى قوله: «إن لم أنطلق لم يأتكم»، وقوله: «فنّد» وصفٌ صريح للنبيّ ﷺ، فهو الذي فنّد علماءَ اليهود والنَّصارَى فيما أطبقوا عليه من أن

(١) البهتان: الافتراء.

المسيح قُتِلَ وصُلب بعد أن عُذِّب، وما انفرد به علماءُ اليهود من بُهتانهم في الطّعن على المسيح، وما انفرد به علماءُ النَّصارى من الدعوة إلى ألوهية المسيح، فرسول الله ﷺ فنّد جميعَهم. والتَّفنيدُ: التخطئةُ وتقبيحُ القول والرأي.

قال ابن ظَفَر: وقرأت في ترجمة أخرى للإنجيل: أنه قال: «البَارَقْلِيط لا يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاءِ نفسه، ولكنه ما يَسمع يكلِّمهم به، ويَسوسُهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث والغيوب». ورسول الله ﷺ هو الذي وبخ العلماءَ من أهل الكتاب على كتمان الحق، وتَحريف الكَلِم عن مواضعه، وبيع الدين بالثَّمن البَخْس من عَرَض[1] الدنيا، وهو الذي أخبر بالحوادث والغيوب.

وقال ابن ظفر: والذي صح عندي في معنى البَارَقْلِيط: أنه الحكيم الذي يَعرِف السِّر؛ وقد تقدم ما يدلّ على أنه الرسول.

وأما ما جاء في زَبور داود عليه السلام ممّا ترجمه أهل الكتاب، فمن ذلك قوله: «اللّهم اَجعل جاعلَ السُّنة يحيَا، يعلِّم الناسَ أنه بشر»؛ ويفهم من هذا: أن داود عليه السلام أطلعه الله تعالى على ما سيقوله النصارَى في المسيح إذا أرسله، من أنه إلهٌ معبود، فدعا الله سبحانه بأن يبعث محمدًا ﷺ فيعلِّمهم أن المسيح بشَر.

وفيه أيضًا مما ترجموه: «أنه فاضت الرحمةُ على شفتَيك، من أجل ذلك أُبارك عليك، إلى الأبد، فتقلَّد السَّيف، فإن بهاءَك وحمدَك الغالب، واركَب كلمة الحق، فإن ناموسك وشرائعَك مقرونةٌ بهيبة يمينك، والأممَ يخرون تحتَك»؛ قال: فالذي قُرنت شريعته بهيبة يمينه، وخرّت الأمم تحتَه، هو رسول الله ﷺ.

ومنها، وذكر رجلاً فقال: «فإذا قام جاز من البحر إلى البحر، ومن عند الأنهار إلى مُنقطَع البرّ، وخرّ أهل الجزائر قدّامه على وجوههم ورُكَبهم، ولحس أعداؤه التراب لهيبته، وجاءته الملوك بالقرابين[2]، ودانت له الأمم بالطاعة؛ لأنه يخلّص الضعيف المغلوب البائس ممن هو أقوَى منه، ويقوِّي الضعيف الذي لا ناصر له، ويرحَم المساكين، ويصلِّي ويبَارَكُ عليه في كلّ وقت، ويدوم ذكرُه إلى الأبد».

فهذا في غاية الظّهور أن المراد به رسول الله ﷺ.

وأما ما ترجموه من كتاب شعيا[3] عليه السلام ورَضُوا ترجمتَه فقوله[4]: «عبدي

---

(١) عَرَضَ: في الأصل: «مواضعه، وسطه بغض»، انظر الزرقاني: ٦: ٢٠٢. والعَرَض: المغريات الزائفة.

(٢) القرابين: واحدها القربان (بالضم) وهو ما قرب إلى الله عزّ وجلّ.

(٣) شعيا: ويقال أيضًا «سعيا»، و«اشعياء». انظر السيرة الحلبية: ١: ٢١٣، ٢١٨، وتاج العروس: ١٠: ١٨٨.

(٤) في الأصل: «قوله».

الذي سُرَّت به نفسي أنزِلُ عليه وحيي، فيُظْهِر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يُسمَع صوتُه في الأسواق(١)؛ يفتح العيون العُور، والآذان الصُّمّ، ويحيي القلوب الغُلْف(٢)؛ وما أُعطيه لا أُعطي أحدًا، مُشَقَّح(٣) يَحمد الله حمدًا جديدًا، يأتي من أقصى الأرض. تَفْرح البرية وسكانها يهلّلون الله على كلّ شَرَف، ويكررونه على كل رابية، ولا يضعُف ولا يُغلَب، ولا يميل إلى الهَوى ولا يُذِلّ الصالحين الذين هم كالقصَبة الضعيفة، بل يقوِّي الصّديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، أَثَرُ سلطانِه على كتِفَيه».

قال ابن ظَفَر: هذه ترجمة السريانيين، وعبّر العبرانيون عنه بأن قالوا: «على كتفيه علامة النبوّة»، فهذا كلّه صريح في البشارة به ﷺ، مع ما فيه من ذكر قيام دولة العرب بقوله: «تفرَح البريّة وسكّانها»؛ وأما قوله: مُشَقَّح(٤) فهو محمد، لأن الشَّقْح بلُغَتهم الحمد.

ومما ترجموه منه أن شعياء عليه السلام قال(٥): «قم نَظَّارًا فانظر ما ترى، فأخبِر به، فقلت: أرى ركبَين مقبلين، أحدهما على حمار، والآخر على جَمَل؛ يقول أحدهما لصاحبه: سقطَت بابِلَ وأصنامُها» فهذه بشارة صريحة بمحمد ﷺ؛ لأنه راكب الجَمَل لا محالة، ولأن مُلْك بابلَ إنما ذهب بنبوّته ﷺ وعلى يد أصحابه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال(٦): وقد كان على باب من أبواب الإسكندرية صورة جَمَل من نحاس، عليه راكب من نحاس، في هيئة العرب مؤتزر مُرتدٍ، عليه عمامة، وفي رجليه نعلان، كلُّ ذلك من نحاس؛ وكانوا إذا تظالموا يقول المظلوم للظالم: أعطني حقّي قبل أن يخرج هذا فيأخذَ لي بحقّي منك، شئت أو أبيت، ولم يزل الصَّنَمُ على ذلك حتى اُفتتح عمرو ابن العاص أرضَ مصر، فغيّبوا الصنم.

ومنه: «أيَّتُها العاقر(٧)! افرحي واُهتزّي وانطلقي بالتسبيح، فإن أهلَك يكونون أكثر من أهلي». قال: فالعاقر مكة، لأنها بوادٍ غير ذي زَرْع، أو لأن الله لم يبعث بها

---

(١) في السيرة الحلبية: ١: ٢١٩: «. . . ولا يسمع صوته في الأصوات لأن ضحكه كان التبسم».

(٢) الغُلْف: المغشاة ـ المغطاة.

(٣) مُشقَّح: زاهي.

(٤) في الأصل: «وأما قوله فهو محمد» والتكملة عن خير البشر لابن ظفر.

(٥) ورد هذا الخبر في السيرة الحلبية: ١: ٢١٨ بصورة تختلف عما هنا.

(٦) القائل: ابن ظفر في خير البشر ص ١٧.

(٧) العاقر: التي لا تنجب.

نبيًا في ذلك الزمن دون غيرها، فهي عاقر، وقوله: «انطلقي بالتسبيح» إشارة إلى عمارتها بأهل ذكر الله، وقوله: «يكون أهلك أكثر من أهلي»، قال: إن سلِم من التحريف وسوء العبارة «فمِنْ» زائدة، والمعنى أن المسلمين يكونون أكثر أهل طاعة الله وتوحيده[1]، وقد أخبر النبيّ ﷺ أن أمّته أكثر أهل الجنة. والآل والأهلُ يُكنّى بهما عن الجماعة الخاصة[2]، قال عبد المطلب بن هاشم: [من الرمل]

نحن آلُ الله في بلدَتنا ... لم نزل آلاً[3] على عهد إرِم

ولمّا روجع أبو بكر الصديق رضي الله عنه في استخلافِهِ عُمَر بن الخطّاب وقيل له: ما تقول لربك وقد استخلفتَ علينا فظًا غليظًا؟ فقال أقول: تركتُ على أهلك خيرَ أهلك. والله الفعّال.

ومن كتاب شمعون عليه السلام ممّا ترجموه ورَضُوا ترجمته قوله: «جاء الله بالبيّنات[4] من جبال فاران، وامتلأت السمٰواتُ والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته». وقد تقدم أن جبال فاران هي جبال مكّة شرّفها الله، ومجي الله هو مجيء كتابه.

ومن كتاب حزقيل عليه السلام مما ترجموه من قصة ذُكر فيها ظهورُ اليهود وعزّتُهم، وكفرانُهم للنعم، فشبّههم فيها بالكَرْمة حيث قال: «لم تلبث تلك الكرمة أن قُلِعت[5] بالسخطة[6]، ورُمي بها على الأرض، فأحرقَت السمائمُ أثرها، فعند ذلك غُرِس غرس في البدو، وفي الأرض المهملة العَطْشَى، فخرجت من أغصانه الفاضلة نارٌ فأكلت تلك الكرمة حتى لم يوجد فيها قضيب».

قال: فلا شك أن أرض البدو المهملة العَطْشَى هي أرض العرب، وغَرْسُ الله الذي غَرَسه فيها هو محمد ﷺ، وقد أخزى الله به اليهود والله أعلم.

وممّا نقل من كلام خَيْقُوق، وهو الذي زعمت اليهود أنه ادَّعى النبوة في عهد بُخْتُنَصّر، وحكَوا عنه أنه قال: «إذا جاءت الأمة الآخِرة يسبِّح بهم صاحبُ الجَمَل - أو قال: راكبُ الجَمَل - تسبيحًا جديدًا في الكنائس الجُدُد، فافرحوا، وسيروا إلى صَهْيون بقلوب آمنة، وأصوات عالية، بالتسبيحة الجديدة التي أعطاكم الله في الأيام الآخرة، أُمّة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شُفرتين، فينتقمون من الأمم الكافرة في جميع

---

(١) في خير البشر: «يكونون أكثر طاعة لله وتوحيدًا له».
(٢) في الأصل: «بهما عن الخاصة»، والتكملة عن خير البشر.
(٣) في الأصل: وخير البشر ص ٩. «إلا».
(٤) لا يزال المؤلف ينقل عن ابن ظفر، والرواية عنده «جاء الله بالبيان».
(٥) في خير البشر: «أن قطعت».
(٦) السخطة: الكراهية.

الأقطار». ولا شكّ أن رَاكِب الجَمَل أو صاحب الجَمَل من الأنبياء هو محمد ﷺ، والأمة الجديدة هي العرب، والكنائس الجدد هي المساجد، وصهيون: مكة، والتسبيحة الجديدة: «لبّيك اللّهم لبّيك».

ونقل أيضًا عن خَيْقُوق هذا أنه قال: «جاء الله من اليَمَن، وظهر القُدس على جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، وملك بيمينه رقاب الأمم، وأضاءت الأرض لنوره، وحُمِلت خيلُه في البحر». والله أعلم.

ومما وجد بخط موسى بن عمران عليه السلام ما رَوَى مَعمر عن الزُّهري أنه قال: أشخصني هشام بن عبد الملك(١) إلى الشام، فلما كنتُ بالبَلْقَاء(٢) وجدتُ حجرًا مكتوبًا عليه بالخط العِبرانيّ، فطلبتُ مَنْ يقرؤه، فأُرشِدت إلى شيخ، فانطلقتُ به إلى الحجر، فقرأه وضحك، فقلت: ممّ تضحك؟ قال: أمر عجيب، مكتوب على هذا الحجر: باسمك اللهم جاء الحقُّ من ربّك، لسان عربيّ مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتبه موسى بن عمران بخطّ يده.

وإنما ألحقنا هذا الخبر بما قبله لأن موسى ﷺ إنما يكتب بخطه ما تلقّاه عن الله تعالى، أو عن كُتبه المنَزَلة؛ وهذا الذي أوردناه مما جاء في كتب الله السالفة هو الذي أبداه أهل الكتاب وأثبتوه، وترجموه ورضُوا ترجمتَه في تحريفهم وتبديلهم.

وأما ما كَتمه أهلُ الكتاب ممّا فيه صريح ذِكر النبي ﷺ ودلّنا عليه وأخبرنا به من أسلم(٣) منهم ممّن جاز لنا أن نروي عنه ونَقبَل روايته؛ مثل وَهْب، وكَعب الأحبار، وأبي ثعلبة بن أبي مالك.

فأما ما جاء عن وَهْب بن منبّه. فإنه رُوِي عنه أنه قال: قرأت في بعض كتب الله المنزلة على نبيّ من بني إسرائيل: «أن قم في قومك، فقل: يا سماء اسمعي، ويا أرض أنصتي؛ لأن الله يريد أن يقصَّ شأن بني إسرائيل: أني ربَّيْتُهم بنِعمتي، وآثرتُهم بكرامتي، واخترتُهم لنفسي، وأني وجدتُ بني إسرائيل كالغَنَم الشاردة التي لا راعي لها، فردَدتُ شارِدَها، وجمعتُ ضالّتها(٤)، وداويتُ مريضها، وجبرتُ كسيرها،

---

(١) هشام بن عبد الملك: هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ ـ ١٢٥ هـ = ٦٩٠ ـ ٧٤٣ م) من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد (سنة ١٠٥ هـ). واجتمع في خزائنه ما لم يجتمع في خزانة أحد من ملوك بني أمية في الشام (الأعلام: ٨: ٨٦).

(٢) البلقاء: أرض بالشام، وقيل: مدينة.

(٣) في الأصل: «به ابن أسلم» تصحيف.

(٤) ضالتها: الضال، الضائع، التائه.

وحفظت سمينها؛ فلما فعلت بها ذلك بَطِرت[١]، فتناطَحت كباشُها، فقتل بعضها بعضًا. فويل لهذه الأمّة الخاطئة، ويل لهؤلاء القوم الظالمين؛ إني قضيت يومَ خلقتُ السمٰوات والأرض قضاء حتمًا، وجعلت له أجلاً مؤجّلاً لا بد منه، فإن كانوا يعلمون الغيب فليخبروك متى حتفُه، وفي أي زمان يكون ذلك، فإني مُظهِره على الدين كله، فليخبروك متى يكون هذا ومن القيِم به. ومَن أعوانه وأنصاره، إن كانوا يعلمون الغيب فإني باعث بذلك رسولاً من الأمّيين ليس بفَظّ[٢] ولا غليظ، ولا صخّاب[٣] في الأسواق، ولا قوّال بالهُجْر والخنى[٤]، أُسَدّده بكل جميل، وأَهَب له كلَّ خلق كريم، وأجعل السكينة على لسانه، والتقوَى ضَميرَه، والحكمة منطقَه، والصدقَ والوفاء طبيعته، والعفو والمعروفَ خُلُقه والحقَّ شريعَته، والعدل سيرته، والإسلام ملّته، أرفع به من الوضيعة، وأُغْني به من العَيْلة، وأهدي به من الضلالة، وأؤلّف به بين قلوب متفرّقة، وأهواء مختلفة، وأجعل أمّته خير الأمم إيمانًا بي وتوحيدًا[٥] لي، وإخلاصًا بما جاء به رسولِي، أُلهِمُهم التسبيح والتحميد والتمجيد لي في صلواتهم[٦] ومساجدهم ومقلَبهم[٧] ومثواهم، يخرجون من ديارهم وأموالهم أبتغاء مرضاتي يقاتلون في سبيلي صُفوفًا، ويصلّون[٨] لي قيامًا وركوعًا وسجودًا، يكبّرونني على كلّ شَرَف، رهبان بالليل، أُسد بالنهار؛ ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم».

ومنه ما روي عنه أنه قال: قرأت في بعض الكتب القديمة: «قال الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجَلالي لأُنزِلَنّ على جبال العرب نورًا يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأُخرِجن من ولد إسماعيل نبيًا عربيًا أُميًا يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي ربًا، وبه رسولاً، ويكفرون بمِلَل آبائهم، ويفرّون منها. قال موسى: سبحانك وتقدّست أسماؤك! لقد كرّمت هذا النبي وشرّفته، قال الله عز وجل: يا موسى إني أنتقم من عدوّه في الدنيا والآخرة، وأُظهِر دعوته على كل دعوة، وسلطانَه ومن معه[٩] على البر والبحر، وأُخرج لهم من كنوز الأرض، وأُذِلّ من خالف شريعَته؛ يا

---

(١) بطرت: أشرت.
(٢) الفض: القاسي ـ الخشن الكلام.
(٣) صخاب: شديدالصخب.
(٤) الخنا: السيىء البذيء.
(٥) في خير البشر لابن ظَفر: «. . . وتوحيدًا بي، وإخلاصًا لما جاء به».
(٦) في الأصل: «والتمجيد في صلواتهم». والمثبت عن خير البشر.
(٧) منقلبهم: مصيرهم.
(٨) في الأصل: «ويصلون قيامًا». والتكملة عن ابن ظفر.
(٩) في خير البشر: «ومن اتبعه».

موسى: بالعدل ربَّيته، وبالقسط أخرجتُه؛ وعِزّتي لأستنقذَنّ به أممًا من النار، فتحتُ الدنيا بإبراهيم، وختمتُها بمحمد، مثل كتابه الذي يجيء به، فاعقلوه يا بني إسرائيل مثل السِّقاء[١] المملوء لبنًا يُمْخَضُ فيخرج زُبْدًا، بكتابه أختِم الكتب، وبشريعته أختِم الشرائع، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من الله بريء، أجعل أمّته يبنون في مشارق الأرض ومغاربها مساجد، إذا ذكر اسمي فيها ذكر اسم ذلك النبيّ معي، لا يزول ذكره من الدنيا حتى تزول».

وأما ما جاء عن كعب الأحبار رحمه الله، فمن ذلك ما رُوِي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا كعب، أدركتَ النبيّ ﷺ، وقد علمت أن موسى بنَ عمران تمنّى أن يكون في أيامه فلم تُسلم على يده، ثم أدركتَ أبا بكر وهو خيرٌ منّي فلم تسلم على يده، ثم أسلمتَ في أيّامي، فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ، فإني كنت أتثبَّتُ حتى أنظر كيف الأمر؟ فوجدته كالذي هو في التوراة. قال عمر: كيف هو فيها؟ قال: رأيت في التوراة أن سيد الخلق، والصفوة من ولد آدم، يظهر من جبال فاران من منابت القَرَظ من الوادي المقدّس، فيُظهر التوحيد والحق، ثم ينتَقِل إلى طيبة، فتكون حروبه وأيامه بها، ثم يُقبَض فيها، ويُدْفَن بها، قال عمر: ثم ماذا يا كعب؟ قال كعب: ثم يلي بعده الشيخ الصالح. قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يموت متَّبِعًا. قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يلي بعده القرن الحديد ـ وفي لفظ: مدرع من حديد ـ قال عمر: وادَفْراه[٢] ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يُقتل شهيدًا؛ قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يلي صاحب الحِباء[٣] والكرم، قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يُقتل مظلومًا، قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يلي صاحب المحجّة البيضاء، والعدل والسواء، صاحب الشَّرَف التامّ، والعلم الجام[٤]، قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم يموت شهيدًا سعيدًا، قال عمر: ثم ماذا؟ قال كعب: ثم ينتقل الأمر إلى الشام؛ قال عمر: حَسبُك يا كعب.

ومما جاء عنه ما رويَ عن عبد الله بن عمر[٥] رضي الله عنهما: أن رجلاً جاء

---

(١) السقاء: القربة.

(٢) الدفر: الدفر: النتن، وقصد عمر التواضع: فذكر رائحة الحديد وأعرض عن صفاته الحسنة من القوة والقطع.

(٣) الحباء: ما يحبو به الرجل صاحبه، يكرمه به.

(٤) كذا في خير البشر ص ٢٧. والمعروف: «الجم».

(٥) عبد الله بن عمر: عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمٰن (١٠ ق هـ ـ ٧٣ هـ = ٦١٣ ـ ٦٩٢ م) صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية، نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة =

إلى كعب الأحبار من بلاد اليَمَن فقال له: إن فلانًا الحبر اليهوديّ أرسلني إليك برسالة، قال كعب: هاتها! فقال: إنه يقول لك: ألم تكن فينا سيّدًا شريفًا مطاعًا؟ فما الذي أخرجك من دينك إلى أمّة محمد؟ فقال له كعب: أتراك راجعًا؟ قال: نعم، قال: فإن رجعت إليه فخذ بَطَرف ثوبه لئلا يفرَّ منك وقل له: يقول لك كعب: أسألك بالذي ردّ موسى إلى أمّه، وأسألك بالذي فلق البحر لموسى، وأسلك بالذي ألقَى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علْم كلّ شيء، ألست تجد في كتاب الله أن أمّة محمد ثلاثة أثلاث، فثلث يدخلون الجنّة بغير حساب، وثلث يدخلون الجنة برحمة الله، وثلث يحاسَبون حسابًا يسيرًا ثم يدخلون الجنة؛ فإنه سيقول لك: نعم، فقل له: يقول لك كعب: اِجعلني في أيّ هذه الثلاثة شئت.

ومنه ما رواه عطاء بن يسار وأبو صالح عنه[1] أنه قال: أجد في التوراة: أحمد عبدي المختار، لا فَظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا مُجْزِ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، أمّته الحمّادون؛ يحمدون الله على كلّ حال، ويسبّحونه في كلّ منزلة، ويكبّرونه على كلّ شَرَف، يأتزرون على أوساطهم، ويصونون أطرافهم[2]، وهم رُعاة الشمس، ومؤذّنهم ينادي في جوّ السماء، وصفُّهم في الصلاة سواء؛ رهبان بالليل، أُسدٌ بالنهار، لهم بالليل دَوِيٌّ كدويّ النحل، يصلّون الصلاة حيثما أدركتهم من الأرض؛ مولده مكّة، مُهاجرَه طابة، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الأمّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح الله به أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا.

ومنه ما روي أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب: دُلَّني على أعلم الناس بما أنزل الله على موسى لأسمع كلامك معه، فذكر له رجلًا من اليهود باليمن، فأشخصه إليه، فجمع معاوية بينهما، فقال له كعب: أسألك بالذي فرق البحر لموسى أَتجِد في كتاب الله المُنزَل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد أمة مرحومة، وهي خير أمّة أخرِجت للنّاس، يأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأوّل[3]،

= مع أبيه، وشهد فتح مكة ومولده ووفاته فيها. كف بصره في آخر حياته وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة (الأعلام: ٤: ١٠٨) في خير البشر: «فرق البحر لموسى» ص ٢٥.

(١) في خير البشر ص ٢٨: «أبو صالح عن كعب الأحبار».

(٢) في شرح المواهب: ١: ٣٦١: «يشدون أوساطهم، ويطهرون أطرافهم»، وشد الوسط عبارة عن الاجتهاد في العبادة، وتطهير الأطراف كناية عن الوضوء.

(٣) قيل: الكتاب الأول هو التوراة، وقيل: المراد جنس الكتب السابقة. انظر السيرة الحلبية: ١: ٢١٧.

ويؤمنون بالكتاب الآخِر[١]، ويقاتلون أهل الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذّاب، فاْجعلهم يا ربّ أمّتي، قال: هم أمّة أحمد؟ قال الحبر: نعم أجد ذلك، ثم قال كعب للحبر: أنشدك الله الذي فرق البحر لموسى، أتجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شَرَف[٢] كبّر، وإذا هبط واديًا حمد الله، والصعيد لهم طهور، يتطهّرون به من الجنابة[٣] كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، حيث كانوا فلهم مسجد، غُرٌّ مُحَجَّلون[٤] من الوضوء، فاجعلهم أمتي. قال: هم أمة أحمد؟ فقال الحبر: نعم أجد ذلك؛ قال: أنشدك الله الذي فرق البحر لموسى، أتجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: رب إني أجد أمّة إذا هَمَّ أحدُهم بحسنة ولم يعملها كُتبتْ له حسنة مِثلُها، وإذا عملها أُضعِفَت له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتَب عليه، فإذا عَملها كُتبت عليه سيئة مِثلُها، فاجعلهم أمّتي، قال: هم أمّة أحمد؟ قال الحبر: نعم، أجد ذلك؛ قال كعب: أنشدك الله الذي فرق البحر لموسى، أتجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة فقال: يا رب إني أجد أمّة يأكلون كفّاراتهم وصدقاتهم، إنهم يُطعمونها مساكينَهم ولا يُحرقِونها كما كان غيرهم من الأمم يفعل؟ وجاء في حديث آخر غير هذا ممّا هو منسوب إلى كتب الله السالفة: «يأكلون قرابينهم[٥] في بطونهم». والمراد الضحايا.

ومنه ما روي عنه أنه قال: كان لأبي سِفرٌ من التوراة يجعله في تابوت ويختم عليه، فلما مات أبي فتحتُه، فإذا فيه: إن نبيًا يخرج في آخر الزمان هو خير الأنبياء[٦]، وأمّته خير الأمم، وهم يشهدون أن لا إلٰه إلا الله، يكبّرون الله على كل شَرَف، ويصفُّون في الصلاة كصفوفهم في القتال، قلوبهم مصاحفهم، يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلين، إسمُه أحمد، وأمّته الحمّادون، يحمدون الله على كل شِدّة ورخاء، مولدُه مكة، ودارُ هجرته طابَة، لا يَلقَون عدوًّا إلا وبينَ أيديهم ملائكةٌ معهم رِماح، تَحنَّن الله عليهم كتَحنُّن[٧] الطير على فِراخها، يدخلُون الجنّة؛ يأتي ثُلث منهم يدخلون الجنة

(١) هو القرآن: السيرة الحلبية: ١: ٢١٧.
(٢) شرف: مكان عالٍ.
(٣) الجنابة: المني.
(٤) الغر المحجلون: بيضٌ مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام.
(٥) في خير البشر: «قرباتهم».
(٦) في الأصل: «آخر الأنبياء».
(٧) في الأصل: «كحنين».

بغير حساب، ثم يأتي ثُلث منهم بذنوب وخَطايا؛ فيُغفَر لهم، ويأتي ثلث بذنوب وخَطايا عظام، فيقول الله: اذهَبوا بهم فزِنوهم وانظروا إلى أعمالهم، فيزِنونهم[١] ويقولون: ربنا! وجدناهم قد أَسرَفوا على أنفُسهم، ووَجدنا أعمالهم من الذنوب أمثالَ الجبال، غير أنهم كانوا يشهدون أن لا إلٰه إلا الله فيقول الله: وعزَّتي لا أجعلَ من أخلص لي الشهادة كَمن كفَر بي، قال كعب: فأنا أرجو أن أكون مِن هذه الثلاثة إن شاء الله تعالى.

ومنه ما روي أن رجلَين جلسا يتحدّثان وكعبُ الأحبار قريبٌ منهما، فقال أحدهما: رأيت فيما يرى النائم كأن الناس حُشِروا، فرأيت النبيّين كلَّهم لهم نوران نوران، ورأيت لأشياعهم[٢] نورًا نورًا، ورأيتُ محمدًا ﷺ وما من شَعرة في رأسِهِ ولا جسدِه إلا وفيها نور، ورأيت أتباعَه ولهم نوران نوران، فقال له كعب: اتق الله تعالى يا عبدَ الله! وانظر ما تتحدّث به، فقال الرجل: إنما هي رؤيا مَنام أَخبَرتُ بها على ما أُرِيتُها، فقال كعب: والذي بعث محمدًا بالحق ﷺ، وأَنزل التوراة على موسى بنِ عمران، إنّ هذا لفي كتاب الله المنزل على موسى بنِ عمران كما ذكرت.

وأما[٣] ما جاء عن أبي ثَعْلَبة وهو أبو مالك، وكان من أحبار يهود، فقد رَوَى الواقديّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له: يا أبا مالك! أخبِرني بصفَة النبيّ ﷺ في التّوراة، فقال: إن صفتَه في توراة بني إسرائيل التي لم تُبَدَّل ولم تُغَيَّر أحمدُ، من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وهو آخر الأنبياء، وهو النبيّ العربيّ، يأتي بدين إبراهيمَ الحنيف، يأتزر على وسَطه، ويغسل أطرافَه، في عينَيه حُمْرة، وبين كتفيه خاتمُ النبوّة، ليس بالقصير ولا بالطويل، يلبَس الشّملة[٤]، ويجتزىء بالبلْغة[٥] ويركب الحمار[٦]، ويمشي في الأسواق، سيفُه على عاتقه، ولا يبالي مَن لَقِي من الناسِ، معه صلاةٌ لو كانت في قوم نوح ما أُهلِكوا بالطُّوفان، ولو كانت في قوم عادٍ ما أُهلِكوا بالرّيح، ولو كانت في ثمودَ ما أُهلِكوا بالصَّيحة[٧]، مَولِدُه مكّة، ومَنشَؤه وبدءُ نبوّته بها، ودارُ هجرته يَثرِب بين لابَتَي حَرَّة ونخلٍ وسبخة، وهو أُمِّيٌّ لا يكتُب ولا يقرَأ

(١) في الأصل: «فيزنوهم» تصحيف.
(٢) في خير البشر: «لأتباعهم».
(٣) انظر خير البشر لابن ظفر ص ١٠.
(٤) الشملة: نوع من الكساء.
(٥) البلغة: ما يُتبلغ به من العيش.
(٦) في خير البشر: «ويحارب على البغلة، ويركب الجمل».
(٧) الصيحة: العذاب.

المكتوب، وهو الحمَّاد يحمدُ الله على كلّ شدّة ورخاء، سلطانُه بالشام، وصاحبُه من الملائكة جبريلُ، يَلقَى من قومه أذًى شديدًا، ثم يُدَال[1] عليهم فيحصُدهم حَصْدًا، تكون له وقَعَات بيَثْرِب، منها له ومنها عليه، ثم له العاقِبة[2]، معه قومٌ هم إلى الموت أسرعُ من الماء من رأس الجبل إلى أسفلِه، صدورُهم أناجيلُهم، وقُربانُهم دماؤهم، لُيوثُ النهار رهبانُ الليل، يُرعَب عدوّه منه مسيرَة شهر، يباشر القتال بنفسه حتى يُجْرَح ويُكْلَم، لا شُرطةَ معه ولا حَرَس، الله يحرسه.

وكان من هؤلاء أيضًا عبد الله بن سَلام[3] ومُخَيْرِيق[4]؛ وسَنذكر أخبارهما إن شاء الله تعالى عند ذكر إسلامهما بعد الهجرة على ما تقف عليه هناك.

هذه روايةُ من أسلَم من أهل الكتاب.

وأما مَن بشَّر به ﷺ من أهل الكتابين ممّن لم يسلم ظاهرًا، ولا عُلِم لهم إسلام، ومن أقرَّ بنبوّته ﷺ ولم يُدرَ له مكان.

فمن[5] هؤلاء من بَشَّر به وأَخبَر بنبوّته قبل مَولِدِه، ومنهم من ذكر ذلك حالَ مَولِده لقرائنَ كان يَرقُب وقوعها تدلّ على مَولِده فوقعت؛ ومنهم من بَشَّر به في حال طفوليّته، ومنهم من بشَّر به قبل مَبعَثِهِ، ومنهم من ذكر صِفتَه بعدَ مبعثِه ورُؤيته له، وذكّر قومه بها وحقّق عندهم أنه هو، ودليلُ كلّ منهم ما كان يجده عندَه من أخباره في الكُتب السالفة التي تلقَّاها على أسلافه، ومنهم من أظهرَ صُحفًا كانت عنده فيها صريحُ ذكره وصفتِه، ومنهم من أظهرَ تِمثَالَ صورته، وصُورَ بعض أصحابه وهيئتهم، وكان ذلك مصوّرًا في بيوتٍ في بِيَعهم[6]، على ما نذكر ذلك مُسْهَبًا[7] إن شاء الله.

فأما من بشّر به وأخبر بنبوّته وصفته ﷺ قبل مولدِهِ؛ فمن ذلك ما حكاه ابن

---

(١) يدال عليهم: دال: دار.

(٢) العاقبة: النتيجة الحسنة.

(٣) عبد الله بن سَلَام: بتخفيف اللام كما في الروض الأنف: ٢: ٢٥. وهو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف (. . . ـ ٤٣ هـ = . . . ـ ٦٦٣ م) صحابي. أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وكان اسمه «الحصين» فسماه رسول الله ﷺ عبد الله. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، اتخذ سيفًا من خشب، واعتزلها وأقام في المدينة إلى أن مات. (الأعلام: ٤: ٩٠).

(٤) مُخَيْرِيق: مخيريق النضري (. . . ـ ٣ هـ = . . . ـ ٦٢ م) صحابي كان من علماء اليهود. أسلم وأوصى بأمواله للنبي ﷺ. استشهد بأحد (الأعلام ٧: ١٩٤).

(٥) في الأصل: «من».

(٦) البيعة: كنيسة النصارى، وقيل كنيسة اليهود.

(٧) في الأصل: «سبيا».

إسحاق في خبر تُبَّع الأوّل، قال: وكان من الخمسة الذين كانت لهم الدنيا بأسرها، وكان له وزراء، واختار منهم واحدًا، وأخرجه معه، وكان يسمّى عماريشا[١]، وأخذه لينظر في مملكته، وخرج معه مائة ألف من الفرسان، وثلاثة وثلاثون ألفًا، ومائة ألف وثلاثة عشر ألفًا من الرَّجّالة، وكان إذا أتى بلدةً يختار منها عشرة رجال من حكمائها، حتى جاء إلى مكة، فكان معه مائة ألف رجل من العلماء والحكماء الذين اختارهم من البلدان، فلم يَهَبْه أهل مكة ولم يعظّموه، فغضِب لذلك، ثم دعا وزيره عماريشا وقال: كيف شأن أهل هذه البلدة؟ فإنهم لم يهابوني، ولم يخافوا عسكري، فقال: أيها الملك إنهم قوم عَرب[٢] جاهلون لا يعرفون شيئًا، وإن لهم بيتًا يقال له كعبة، وهم مُعجَبون بهذا البيت، وهم قوم يعبدون الطّواغيت[٣]، ويسجدون للأصنام، فقال الملك: وهم مُعْجَبون بهذا البيت؟ قال: نعم، فنزل بعسكره ببطحاء مكّة، وفكر في نفسه دون الوزير، وعزَم على هدم الكعبة، وتسميتها خِربة، وأن يقتلَ رجالهم، ويَسبي نساءهم، فأخذه الله بالصُّداع، وتفجَّر من عينَيه وأُذنَيه ومُنخُرَيه وفمه ماء مُنتِن، فلم يَصبِر عنه أحد طرَفة عين من نتن الريح، فاستيقظ لذلك وقال لوزيره: اِجمع العلماء والحكماء والأطِبّاء وشاورْهم في أمري، فاجتمع عنده الأطبّاء والعلماء والحكماء، فلم يقدروا على المقام عنده، ولم يمكنهم مداواته، فقال: إني جمعت الأطِبّاء والعلماء والحكماء من جميع البلدان، وقد وقعتُ في هذه الحادثة ولم يقدِروا على مُداواتي، فقالوا بأجمعهم: إنا نَقدِر على مُداواة ما يعرِض من أمور الأرض، وهذا شيء من السماء لا نستطيع ردّ أمر السماء، ثم اشتدّ أمرُه، وتفرّق الناس عنه، ولم يزل أمرُه في شِدّة حتى أقبل الليل، فجاء أحَدُ العلماء إلى الوزير وقال: إن بيني وبينك سرًا، وهو إن كان الملك يَصْدُقني في حديثه عالجته، فاستبشر الوزير بذلك وأخذ بيده، وحمله إلى الملك، وأخبره بما قال الحكيم، وما التمسه من صِدق الملك، حتى يعالجَ علّته، فاستبشر الملك بذلك، وأذن له في الدُّخول، فلما دخل قال: أريد الخلوة، فأُخلي له المكان، فقال: نويتَ لهذا البيت سوءًا؟ قال: نعم؛ إني نويتُ خرابه، وقتل رجالهم، وسبيَ ذَراريِّهم[٤]، فقال له: إنّ وجعك وما بُليت به من هذا. اعلم أن صاحب هذا البيت قَويٌّ يعلم الأسرار، فبادر وأَخرج من قلبك ما هممتَ به من أذى هذا البيت ولك خيرُ الدنيا والآخرة، قال الملك: أفعل، قد أخرجتُ من قلبي جميع المكروهات،

---

(١) في ثمرات الأوراق هنا وفيما يأتي: «عماريا».

(٢) في الأصل: «عربيون»، والتصويب عن ثمرات الأوراق.

(٣) الطاغوت: كل معبود من دون الله. . . (اللسان: طغي).

(٤) ذراريهم: أولادهم ونسلهم.

ونويت جميع الخيرات، فلم يخرج العالِم من عنده حتى بريء من عِلّته، وعافاه الله بقدرته، فآمن بالله من ساعته، وخرج من منزِله صحيحًا على دين إبراهيم عليه السلام، وخلع على الكعبة سبعة أثواب، وهو أوّل من كسا الكعبة، ودعا أهلَ مكة، وأَمَرهُهم بحفظ الكعبة، وخرجَ إلى يَثرِب، وهي يومئذٍ بُقعةٌ فيها عينُ ماء ليس فيها بيتٌ مبنيّ ولا بناء، فنزل على رأسِ العين هو وعسكرُه وجميعُ العلماء الذين كانوا معه، ومعهم رئيسُهم عماريشا الذي كان يَرى برأيه.

ثم إن العلماءَ والحكماء اجتمعوا، وكانوا أربعة آلاف، فأخرجوا من بينهم أربعمائة هم أعلمهم، وبايَع كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه أن لا يَخرجُوا من ذلك المقام وإن ضَرَبهم الملِك أو قَتلهم، فلما علِم الملكُ ما قد عَزَموا عليه، قال للوزير: ما شأنُهم يَمتنعون عن الخُروج معي، وأنا محتاجٌ إليهم؟ وأيّ حِكمة في نزولهم في هذا المكان، واختيارِهم إياه على سائر النّواحي، فلما آتاهم الوزير وسألَهم عما عَزَموا عليه، واختيارِهم المقام بهذه البُقعة، قالوا له: أيها الوزير! إن شَرَف ذلك البيت، وشَرَف هذه البُقعة التي نحن فيها بِشَرَف رجل يُبعَث في آخر الزمان، يقال له محمد ووصفوه، ثم قالوا: طُوبَى لمن أدركه وآمن به، وقد كنا على رجاء أن نُدرِكَه أو يُدرِكه أولادُنا، فلما سمع الوزير مقالتَهم هَمَّ بالمُقام معهم، فلما جاء وقت الرحيل أَمَرهم الملك أن يرتحلوا، فقالوا: لا نفعل، وقد أعلَمْنا الوزيرَ بحكمة مُقامنا، فدعا الوزيرَ فأخبره بما سمع منهم، فتفكّر الملك وهَمّ أن يقيم معهم سنةً رجاءَ أن يدرك محمدًا ﷺ، فأقام وأمر الناس أن يبنوا أربعمائة دار، لكل رجل من العلماء دار، واشترى لكل واحد منهم جارية وأعتقها وزوَّجها برجل منهم، وأعطى كلَّ واحد منهم عطاءً جزيلًا، وأمرهم أن يُقيموا في ذلك الموضع إلى أن يجيء زمانُ النبي ﷺ، ثم كتب كتابًا وختَمه بخاتَم من ذهب، ودفعه إلى العالِم الكبير، وأمره أن يدفع الكتاب إلى محمد ﷺ إن أدركه، وإلا أوصَى به أولادَه بمثل ما أوصاه به، وكذلك أولاده حَتّى ينتهي أمرُه إلى محمد ﷺ.
وكان في الكتاب: أما بعد فإني آمنتُ بك وبكتابك الذي أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسُنَّتك، وآمنتُ بربك وربِّ كلّ شيء، وآمنتُ بكل ما جاء من ربِّك من شرائع الإيمان والإسلام، فإن أدركتُك فبِها وَنِعْمت، وإن لم أُدركك فاشفَع لي، ولا تنسَني يومَ القيامة، فإني من أمّتك الأوّلين؛ وتابعيك[1] قبلَ مجيئك، وأنا على مّلتك وملّة أبيك إبراهيم عليه السلام. ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] وكتب على عنوانه إلى محمد بن عبد الله نبيّ الله ورسوله، وخاتم النبيين،

(١) في ثمرات الأوراق: «وقد بايعتك».

ورسول رب العالمين ﷺ، من تُبَّع الأوّل حِمْيَر بن حِمْيَر بن وردع[١] أمانةً لله في يد من وقع إليه إلى أن يوصِله إلى صاحبه، ودفع الكِتابَ إلى الرجل العالم الذي أبرأه من علّته. وصار تُبَّع من يَثرب حتى مات بقلسان[٢] من بلاد الهند.

وكان في اليوم الذي مات فيه تُبَّع إلى اليوم الذي بُعِث فيه النبي ﷺ ألف سنةٍ لا تزيد ولا تنقص، وكان الأنصار الذين نصروا النبي ﷺ من أولاد أولئك العلماء والحكماء، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، سأله أهلُ القبائل أن يَنزِل عليهم على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى؛ فكانوا يتعلّقون بناقته، وهو يقول: خَلّوا الناقة فإنها مأمورة، حتى جاءت إلى دارَ أبي أيّوب، وكان من أولاد العالم الذي أبرأ تُبَّعًا برأيه.

قال ابن إسحاق: واستشار الأنصارُ عبدَ الرحمٰن بنَ عوف[٣] في إيصال الكتاب إلى النبي ﷺ لَمّا ظهر خبره قبلَ هجرته، فأشار عبد الرحمٰن أن يدفعوه إلى رجل ثقة، فاختاروا رجلاً يقال له أبو لَيْلَى وكان من الأنصار، فدفعوا الكتاب إليه وأوصَوْه بحفظه، فأخذ الكتاب وخرج من المدينة على طريق مكة، فوجد النبيّ ﷺ في قبيلة من بني سُليم، فعرفه رسول الله ﷺ، فدعاه وقال: أنت أبو لَيلَى؟ فقال: نعم، قال: معك كتاب تُبَّع الأول؟ قال: نعم، فبقي الرجل متفكّرًا، وقال في نفسه: إن هذا من العجائب، ثم قال له أبو لَيلَى: مَن أنت، فإني لست أعرفك؟ إن في وجهك أثر السحر، وتوهَّم أنه ساحر، فقال له: بل أنا محمد رسول الله، هات الكتاب، فأخرجه ودفعه إلى رسول الله ﷺ، فأخذه النبي ﷺ ودفعه إلى عليّ كرم الله وجهه، فقرأه عليه، فلما سمع النبي ﷺ كلام تُبَّع قال: مرحبًا بالأخ الصالح ثلاثَ مرّات، ثم أمرَ أبا لَيْلَى بالرجوع إلى المدينة، فرجع وبشَّر القوم بقدوم النبي ﷺ.

ومن ذلك ما روي أن أبا كَرِب تبان بن أسعد ملك اليمن[٤] أحد التبابعة لما قصد بلاد الشرق، جعَل طريقه على يَثرب، فلم يهِج أهلَها وخلّف بين أظهرهم ابنًا له، فقُتل غِيلَة، فقدِمها وهو مُجمع لإخراجها، واستئصال أهلِها وقطع نخلِها، فجمَع له أهل المدينة ورئيسُهم يومئذٍ عمرو بنُ طَلّة أحد بني النجار؛ وهو عَمرو بن مُعاوية بن

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) عبد الرحمٰن بن عوف: عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف، أبو محمد، الزهري القرشي (٤٤ ق هـ - ٣٢ هـ = ٥٨٠ - ٦٥٢ م) صحابي من أكابرهم. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة؛ وأحد الستة أصحاب الشورى. . . ولد بعد الفيل بعشر سنين، وأسلم، وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها. (الأعلام: ٣: ٣٢٠).

(٤) انظر الكامل لابن الأثير في «ذكر حوادث العرب أيام قباذ».

عمرو بن عامر بن زُرَيق بن عبد حارثة بن مالك بن النَّجار، وطَلَّة أمّه؛ وهي بنت عامر بن زُرَيق بن عامر بن زُرَيق بن عبد حَارثة[١].

قال محمد[٢] بن إسحاق:

وكان رجل من بني عَدِيّ بن النّجار ويقال له أحمر، عَدا على رجل من أصحاب تُبّع حين نزل بهم فقتله، وذلك أنه وجدَه في عَذْقٍ له يَجُدُه[٣]، فضربه بمنجَله فقتله، وقال: إنما التَّمر لمن أبّره، فزاد ذلك تُبّعًا حَنَقًا عليهم فاقتتلوا، فكان أهلُ المدينة، وهم هذا الحيّ من الأنصارِ يقاتلونه بالنهار، ويَقْرُونَه بالليل، فيُعجبه ذلك منهم ويقول: والله إن قَومنا لَكِرام. وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت من قصيدة لم يذكُر فيه قومَه: [من الطويل]

فَرَوْا تُبَّعًا بيضَ المواضِي ضَحاة وكَوم عشار بالعشِيّات نهَض

قال: فبينما تُبّع على ذلك من حربهم إذ جاءه حَبْران من أحبار يهود من بني قُريظة عالمان راسخان، حين سمعا بما يُريد من إهلاك يَثرب وأهلها، فقالا له: أيها الملك، لا تفعَل، فإنك إن أبيتَ إلا ما تريد حِيلَ بينَك وبينها، ولم نأمنَ عليك عاجلَ العقوبة، فقال لهما: ولم ذلك؟ قالا: هي مُهاجَر نبيّ يخرج من هذا الحَرَم من قُرَيش آخرَ الزمان، تكون دارَه وقرارَه، فرأى تُبّع أن لهما علْمًا، فانصرف عن المدينة واتّبَعهما على دينهما.

ومن ذلك خبر سلمان الفارسيّ وقصته في سبب إسلامه[٤] وهجرته إلى المدينة. رُوي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. قال: حدثني سَلمان الفارسيّ من فِيه، قال: كنتُ رجلاً فارسيًا من أهل أصْبَهان، من أهل قريةٍ يقال لها جَيّ، وكان أبي دَهْقَان[٥] قريته، وكنت أحَبَّ خلق الله إليه، ثم لم يزل به حبُّه إياي حتى حَبَسني في بيته كما تُحبَس الجارية، واجتهدتُ في المجوسية حتى كنت قَطنَ النار[٦] الذي يوقِدُها

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٠.
(٢) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٢١، وانظر الخميس للديار بكري: ١: ٢٧.
(٣) يجد العذق: يقطع النخل (العذق: النخل، يجده: يقطعه).
(٤) سلمان الفارسي: سلمان الفارسي (. . . ـ ٣٦ هـ = . . . ـ ٦٥٦ م) صحابي: من مقدميهم. عاش عمرًا طويلاً. قالوا: نشأ في قرية جيان ورحل إلى الشام. وقصد بلاد العرب. علم سلمان بخبر الإسلام فقصد النبي ﷺ بقباء. . . فأظهر إسلامه. . . وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق. . . (الأعلام: ٣: ١١٢).
(٥) الدهقان: رئيس الإقليم، أو مقدم القرية (التاج ـ دهقن).
(٦) قطن النار: خادمها.

لا يتركها تخبُو ساعة؛ قال: وكان لأبي ضَيْعَة عظيمة، فشُغِل في بنيان له يومًا، فقال: يا بني: إني قد شُغِلْت في بنياني هذا اليوم عن ضَيْعَتي، فاذهب إليها، فأمَرني فيها ببعض ما يريد ثم قال: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبستَ عنّي كنتَ أهمّ إلي من ضيعتي وشغلتَني عن كل شيء من أمري؛ فقال: فخرجت أريدُ ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلُّون، وكنت لا أدري ما أمر الناس بحَبس أبي إياي في بيته، فلما سمعتُ أصواتهم دخلت عليهم أنظرُ ما يصنعون، فلما رأيتُهم أعجبتني صلاتهم، ورغبتُ في أمرهم وقلت: هذا والله خيرٌ من الدين الذي نحنُ عليه، فوالله ما بَرِحتُهم حتى غرَبت الشمس، وتركت ضَيعة أبي فلم آتِها، ثم قلتُ لهم: أين أصل هذا الدِّين؟ قالوا: بالشام، فرجعتُ إلى أبي وقد بعثَ في طلبي، وشغلتُه عن عَمله كلّه، فلما جئتُه قال: أي بُنَيّ! أين كنت؟ ألم أكن عهِدتُ إليك ما عهِدت؟ قلت: يا أبت! مررتُ بأناس يُصلُّون في كَنيسة لهم، فأعجَبني ما رأيتُ من دينهم، فوالله ما زلتُ من عِندهم حتى غَربت الشَّمس، قال: أي بُني! ليس في ذلك الدين خير، دينُك ودينُ آبائك خيرٌ منه، قلتُ له: كلا والله! إنه لخَيرٌ من ديننا، قال: فخافني فجعل في رجلي قَيْدًا ثم حبَسني في بيته، فبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدِم عليكم رَكْب[1] من الشام تجّارًا فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم رَكب من الشام تجار من النَّصارى فأخبَروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجَهم، وأرادوا الرّجعة إلى بلادهم، فآذِنُوني بهم، فلما أرادوا الرّجعة أخبَروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام، فلما قدِمتها قلتُ: مَن أفضلُ أهل هذا الدين عِلْمًا؟ قالوا: الأُسْقُفُ في الكَنيسة، فجئتُه فقلت: إني رغِبت في هذا الدين، وأحببتُ أن أكون مَعَك وأخدمُك وكنيسَتَك، وأتعلمَ منك، وأصلِّي مَعك، قال: ادخل، فدخلت معه، فكان رجُلَ سُوء، يأمرهم بالصَّدقَة ويُرغِّبهم فيها، فإذا جَمعوا إليه شيئًا منها اكتَنَزه لنفسه ولم يُعْطِه المساكين، حتى جَمَعَ سَبْع قِلالٍ من ذهب ووَرِق[2]، قال: وأبغضتُه بُغضًا شديدًا لما رأيتُه يصنع، ثم مات واجتَمَعَتْ له النّصارى ليدفنوه فقلت لهم: إن هذا رجل سُوء، يأمركم بالصّدقَة ويرغّبكم فيها، فإذا جئتموه بها أكتنزها لنفسه، ولم يُعطِ المساكين منها شيئًا، فقالوا لي: وما علمُك بذلك؟ قلت: أنا أدلّكم على كنزه، قالوا: فدُلَّنا عليه، فأريتُهم موضعَه، فاستخرجوا سبعَ قلال مملوءة ذهبًا ووَرِقًا، فلما رأوها قالوا: والله لا نَدفنُه أبدًا، فَصَلَبوه ورَجَموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر فجعَلوه مكَانه. قال: يقول سَلْمان: فما رأيت رجلاً لا يصلِّي الخمسَ أرَى أنه أفضلَ منه، وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب

---

(١) ركب: مسافرون.

(٢) الوَرِق: الدراهم.

ليلاً ونهارًا منه، قال: فأحببتُه حبًا لم أحبّه شيئًا قبلَه، فأقمتُ معه زمانًا، ثم حضرَتْه الوفاة فقلت له: يا فلان إني قد كنتُ معك وأحببتُك حبًا لم أُحبّه شيئًا قبلك، وقد حضَركَ ما تَرى من أمر الله فإلى مَنْ تُوصِي بي وبم تَأْمُرُني؟ قال: أي بُنَيّ، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنتُ عليه، لقد هلك الناس، وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه، فالْحَق به. قال: فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب الموصِل فقلت له: يا فلان إن فلانًا أوصاني عندَ موته أن ألحقَ بك، وأخبَرَني أنك على أمره، فقال لي: أقِم عندي، فأقمت عنده فوجدتُه خير رجل على أثَر[1] صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرتْه الوفاة قلت له: يا فلان إنّ فلانًا أوصَى بي إليك، وأمَرني باللُّحوق بك، وقد حضركَ من أمر الله ما تَرَى، فإلى من توصي بي وبِمَ تأمرني؟ قال: يا بُنَي والله ما أعلم رجلاً على مِثْل ما كنّا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان، فالْحق به، فلما مات وغُيِّب لحِقتُ بصاحب نِصيبين، فأخبرتُه خبري، وما أمَرَني به صاحبي، فقال: أقِم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِر[2] قلت له: يا فلان إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من تُوصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بُنَيّ والله ما أعلَمُه بقي أحد على أمرنا[3]، فلما مات وغُيِّبَ لحقتُ بصاحب عَمّورية، فأخبرته خَبَري، فقال: أقِم عندي، فأقمتُ عند خيرِ رجل على هَدْي أصحابه وأمْرِهم، قال: واكتسبتُ حتى كانت لي بقَرات وغُنَيْمة، قال: ثم نزل به أمرُ الله، فلما حُضِر قلت له: يا فلان إني كنتُ مع فلان فأوصَى بي إلى فلان، ثم أوصَى بي فلان إلى فلان، ثم أوصي بي فلان إلى فلان، ثم أوصَى بي فلان إليك، فإلى من تُوصِي بي وبِمَ تأمُرُني؟ قال: يا بُنَيّ واللّهِ ما أعلَمه أصبحَ أحدٌ على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك أن تأتيَه، ولكنه قد أظلَّ زمانُ نبيّ هو مبعوثٌ بدِين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجرَهُ إلى أرضٍ بين حَرَّتين[4] بينهما نخل، به علامات لا تَخفَى؛ يأكل الهَدِية ولا يأكل الصّدَقة، بين كتفَيْه خاتَم النبوّة، فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغُيِّب، ومكثتُ بعَمُّورية ما شاء الله أن أمْكُث ثم مرّ بي نفر من كلْب تُجّار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العَرَب، وأُعطيكم بَقَراتي هذه، وغُنَيمتي هذه، قالوا: نعم، وأعطيتُهُموها وحملوني معهم،

(١) في السيرة لابن هشام: ١: ٢٣١: «على أمر».
(٢) حضر: شارف على الموت.
(٣) أمرنا: مذهبنا.
(٤) الحرة: الأرض الصلبة الشديدة.

حتى إذا بلغوا وادي القُرَى ظلموني فباعوني من رجل يَهُوديّ عبدًا، فكنت عنده، ورأيتُ النخل؛ ورجوت أن يكون البلد الذي وَصَف لي صاحبي، ولم يَحِقّ في نفسي؛ فبينا أنا عنده، إذ قِدم عليه ابنُ عمٍّ له من بني قُرَيظة من المدينة، فابتاعني منه، فحملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيْتُها فعرفتُها بِصفَة صاحبي، فأقمت بها، وبُعث رسولُ الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمَعُ له بذِكرٍ معَ ما أنا فيه من شُغْل الرِّق، ثم هاجرَ إلى المدينة، فوالله إني لَفِي رأس عَذْقٍ[1] لسيدي أعْمل له فيه بعضَ العَمَل، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابنُ عمٍّ له، حتى وقَف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قَيْلة[2]، إنهم والله الآن لَمُجتمعون بُقَباء[3]، على رَجُل قدِم عليهم من مكة اليوم يزعمُون أنه نبيّ، قال: فلما سمعتُه أخذتني العُرواءُ[4] حتى ظننتُ أني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي ولَكَمني لَكمةً شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبِل على عملك، فقلت: لا شيءَ إنما أردتُ أن أستَثبته عما قال: قال سَلْمان: وكان عندي شيء قد جَمعتُه، فلما أمسَيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُبَاء، فدخلت عليه فقلتُ له: إنه قد بَلَغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غُرَباء ذَوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصّدقَة، فرأيتكم أحقّ به من غيركم، قال: فقرّبتُه إليه، فقال لأصحابه: كلوا! وأمسَك يده فلم يأكل. قال: قلتُ في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفتُ عنه فجمعتُ شيئًا، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئتُه به، فقلت: إني قد رأيتُك لا تأكل الصّدقَة، وهذه هَدية أكرمتُك بها، قال: فأكَل منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: قلت في نفسي: هاتان ثنتان. قال: ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ، وهو ببَقيع الغَرْقَد[5] قد تبع جنازَة رجل من أصحابه، عليَّ شَمْلتان لي، وهو جالس في أصحابه، فسلّمت عليه ثم استدَرت أنظر إلى ظَهره، هل أرَى الخاتَم الذي وُصِف لي، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرتُه، عرف أني استَثبت من شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظَهره فنظرتُ إلى الخاتَم فعرفتُه فأكبَبت عليه أُقبّله وأَبكي، فقال رسول الله ﷺ: تحوّل! فتحولتُ فجلستُ بين يديه، فقَصَصت عليه حديثي كما حدثتُك يا بن عباس، فأَعجَب

---

(١) العذق: النخل.

(٢) بني قيلة: يريد الأوس والخزرج، لأن قيلة بنت كامل أم الأوس والخزرج. انظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٢٣.

(٣) قُباء: قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة.

(٤) العُرَوَاء: الرعدة والانتفاض من الحمى والبرد.

(٥) بقيع الغرقد: بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

رسولَ الله ﷺ أن يسمَع ذلك أصحابُه.

ثم شغَل سلمانَ الرِّق[١] حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُد. قال سَلمان: ثم قال لي رسولُ الله ﷺ: كاتِبْ يا سَلْمان، فكَاتَبتُ صاحِبي على ثَلاثِمائة نخلَةٍ أُحْييها له بالفقير، يعني الآبار الصِّغار، وأربعين أُوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنَّخل؛ الرجلُ بثلاثين وَديّة[٢] والرّجل بعشرين وَديّة، والرجل بخمسَ عَشْرة وَدِيّة، والرجلُ بعشْرٍ؛ يُعين الرجُلُ بقدر ما عنده، حتى اجتمعَتْ لي ثلاثُمائةَ ودِيّة، فقال رسول الله ﷺ: «اَذهب يا سَلْمان فَفَقِّر[٣] لها، فإذا فرِغت فأتني، أكن أنا أضعُها بيدي». قال: ففقّرت وأعانني أصحابي حتى إذا فرغتُ جئتُه فأخبرتُه، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلْنا نَقرّب إليه الوَدِيّ، ويضعُه رسولُ الله ﷺ بيده حتى إذا فَرَغنا، فوالذي نفسُ سَلْمان بيده ما مات منها وَدِية واحدة، فأدّيتُ النخل، وبقي عليَّ المال، فأَتى رسول الله ﷺ بمثل بَيْضةِ الدَّجاجة من ذَهب من بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارِسيّ المُكَاتِب؟ قال: فدُعيت، فقال: خذ هذه فأَدِّها مما عليك يا سَلْمان، قال: وقلت وأين تقع هذه يا رسول الله مما عَليّ؟ فقال: خذها، فإن الله سيؤدّي بها عنك، وفي رواية: فأخذَها رسول الله ﷺ فقَلّبها على لسانه ثم قال: خذها فأوفهم منها. قال: فأخذتُها فوزنتُ لهم منها ـ والذي نَفسُ سَلْمان بيده ـ أربعين أُوقيّة، فأوفَيتُهم حقّهم منها، وعتَق سَلمانُ. فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخَندَقَ[٤] حُرًّا، ثم لم يفُتني معه مَشْهد.

قال محمد بن إسحاق[٥] بسند رفعه إلى عُمر بن عبد العزيز[٦]، أنه قال: حدِّثتُ عن سَلمان أنه قال لرسول الله ﷺ حين أخبره: إن صاحب عَمُّورية قال له: ائتِ كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلاً بين غَيْضَتَيْن[٧] يخرج في كل سنة من هذه الغَيْضة

---

(١) الرِّق: لأنه كان عبدًا مملوكًا.

(٢) الودى: صغار النخل، واحدتها ودية.

(٣) فقر لها: احفر لها.

(٤) معركة الخندق.

(٥) نقله ابن هشام: ١: ٢٣٦.

(٦) عمر بن عبد العزيز: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي. أبو حفص (٦١ ـ ١٠١ هـ = ٦٨١ ـ ٧٢٠ م). وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهًا له بهم. ولد ونشأ بالمدينة. ولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ. فمنع سب علي بن أبي طالب. توفي بدير سمعان من أرض المعرة ومدة خلافته سنتان ونصف (الأعلام: ٥: ٥٠).

(٧) الغيضة: الشجر الملتف.

يعترضه ذَوو الأسقام[١]، فلا يدعو لأَحَدٍ منهم إلا شُفِي، فأسأله عن هذا الدِّين الذي تَبْتَغي، فهو يُخبرك عنه، قال سَلمان: فخرجتُ حتى جئت حيثُ وصف لي، فوجدتُ النَاسَ قد اجتمعوا بمرضاهم هناك، حتّى يخرج لهم تلك الليلة مُستجيزًا[٢] من إحدى الغَيْضتين إلى الأُخْرَى، فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شُفِي، وغلَبوني عليه، فلم أَخلُص إليه حتى دخَل الغَيْضة التي يريد أن يدخل إلى مَنكِبه[٣] قال: فتَناولتُه، فقال: من هذا؟ والتفت إليّ، قلت: يرحمُك الله أَخبِرني عن الحنِيفيّة دين إبراهيم، قال: إنك لتسألُني عن شيء ما يَسأل عنه الناسُ اليوم، وقد أظلَّ زمانُ نبيٍّ يُبعَث بهذا الدين من أهل الحَرَم، فأته، فهو يَحْملُك عليه، ثم دخل. قال: فقال رسول الله ﷺ إن كنت صدقتَني يا سَلمان، لقد لقيت عيسى ابنَ مريم[٤].

وقد رُوي حديثُ إسلام سَلْمان على غير هذا الوجه، إلا أنه غير مُنَافٍ له فيما هو مختصٌّ برسول الله ﷺ. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع.

وأما مَن بشّر به عند مَولده ﷺ للقرائن التي كان يَتوقَّع وقوعها تَدل على مَولِده، فوقعت.

فمن ذلك ما رُوي أن يهوديًا قال لعبد المطّلب جدِّ رسول الله ﷺ: يا سيدَ البَطْحاء إن المولود الذي كنتُ حدَّثتكم عنه قد وُلد البارحة، فقال عبدُ المطلب: لقد وُلد لي البارحةَ غلام، قال اليهوديّ: ما سميتَه؟ قال: سميتُه محمدًا، قال اليهوديّ: هذه ثلاثٌ يشهدن عليَّ بنبوّته؛ إحداهن: أن نجمَه طلع البارحة، والثانية: أن اسمه محمد، والثالثة: أنه يُولَد في صُبَابة قومه، وأنت يا عبدَ المطّلب صبابتهم[٥].

ومنه ما رُوي أن حسّان بن ثابت قال: والله إني لعلى أُطُمِي[٦] فارع في السَّحر إذ سمِعت صوتًا لم أسمع قط صوتًا أنفذَ[٧] منه، وإذا[٨] هو صوت يهوديّ على أُطُم من آطام اليهود معه شُعلة نار، فاجتمع الناس إليه وأنكروا صُراخه فقالوا: ما لك ويلك!

---

(١) ذوو الأسقام: المرضى.
(٢) مستجيزًا: منتقلاً.
(٣) رواية ابن هشام: ١: ٢٣٦، والبداية: ٢: ٢١٤: «إلا منكبه».
(٤) لهم في هذا الحديث كلام تجده في البداية لابن كثير: ٢: ٣١٤.
(٥) في الأصل: «صباتهم» مع صبابة القوم: خالصتهم وخيارهم: وهي حاشية أدخلت في المتن على ما يبدو.
(٦) الأطم: حصن مبني بحجارة، أو كل بيتٍ مربع مسطح.
(٧) في خير البشر ص ٥٥: «أنفذ منه».
(٨) في الأصل: «وإذا صوت يهودي»، والمثبت عن ابن ظفر ص ٥٥.

قال حسّان: فسمعتُه يقول: هذا كوكبٌ أحمر قد طلَع، وهو كوكب لا يطلُع إلاّ بالنبوّة، ولم يبق من الأنبياء إلا أحمد، قال حسّان: فجعل الناس يضحَكون منه ويعجبون لما أتَى به، قال: وكان أبو قَيْس أحدُ بني عديّ بن النّجار قد ترهّب ولبس المُسوح[1]، فقيل له يا أبا قيس! أنظر ما قال هذا اليهودي! قال: صدَق وإن انتظار أحمد هو الذي صنَع به ما صنَع، ولعلّي أن أُدركَه فأومنَ به، فلما بلغه ظهور النبي ﷺ بمكّة آمن به، وقدم النبيُّ ﷺ المدينة وقد نالَت السنّ من أبي قَيْس.

وقد أشرنا إلى خبَر حسّان هذا عند ذكرنا لمولد رسول الله ﷺ. والأخبار في هذا الباب كثيرة، فلا نطوّل بسردها.

وأما من بشّر به ﷺ بعد موْلِدِه في حال طفوليته وحَداثة سنه.

فمن ذلك خبر سَيف بن ذِي يَزَن، وقصّته مع عبد المطلب؛ وكان من خَبَره ما رواه الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهَقِي[2] رحمه الله في كتابه المترجم بدلائل النبوّة قال: أخبرنا أبو سهل محمد بن نَصْرَوَيْه بن أحمد المَرْوِزيّ بنيسابور، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن صالح المَعَافِريّ، قال: حدثنا أبو يَزَن الحِمْيَريّ إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن عُفَير بن زَرْعة بن سيف بن ذِي يزَن، قال: حدّثني عمّي أحمد بن حبيش بن عبد العزيز، قال: حدّثني أبي عُفير، قال: حدّثني أبي زرْعَة بن سيف بن ذي يَزَن، قال: لما ظهر سيف بن ذي يَزَن على الحبشة، وذلك بعد مولد رسول الله ﷺ بسنَتَين أتَتْه وفود العرب وأشرافُها وشعراؤها لتهنئته، وتذكرُ ما كان من بَلائه وطلَبه بثأر قومه، وأتاه وَفدُ قريش، منهم: عبد المطّلب بن هاشم، وأُمَيّةُ بن عبد شمس، وعبد الله بن جُدْعان، وأسَد بن عبد العُزَّى، ووَهْب بن عبد مَناف، وقُصَيّ بن عبد الدار، فدخل عليه آذِنُه، وهو في قَصرٍ يقال له غُمْدان، والملكُ مُضَمَّخ[3] بالعَبِير، وعليه بُردان أخضَران، مُرتدٍ بأحدهما متَّزرٌ بالآخر، سيفُه بين يدَيه، وعن يمينه وشِماله الملوك، فأخبر بمكانهم فأذن لهم، فدخلوا عليه، فدنا منه عبد المطّلب، فاستأذنه في الكلام، فقال: إن كنتَ ممن يتكلّم بين يدي الملوك فقد أذِنا لك، فقال: إن الله عز وجل أحَلّك أيها الملك مَحلاً رفيعًا شامخًا

(١) المسوح: واحدها مِسح: الكساء من الشعر.

(٢) أحمد بن الحسين البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر (٣٨٤ ـ ٤٥٨ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٦ م) من أئمة الحديث، ولد في خسرو جرد ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها إلى أن مات. ونقل جثمانه إلى بلده. (الأعلام: ١: ١١٦).

(٣) مضمخ: مدهون.

منيعًا، وأنبَتك نباتًا طابت أُروَمتُه، وعظُمت جُرثومتُه، وثَبت أصله، وبَسق(١) فرعُه، في أطيب موضع وأكرم مَعدن؛ وأنت ـ أبيتَ اللّعن ـ مَلكُ العرب الذي عليْه الاعتماد، ومعقلِها الذي تلجَأ إليه العباد، سلفُك خير سَلف، وأنت لنا منهم خيرُ خلَف، فلن يَهلِك ذِكر(٢) من أنتَ خلفُه، ولن يخمُل ذكرُ من أنت سلفُه، نحن أهل حَرَم الله وسَدَنَة بيت الله، أشخَصَنا(٣) إليك الذي أبهجَنا من كشفِك الكَرْب الذي فدَحَنا، فنحن وَفد التَّهنئة، ولا وَفدُ المَرزِئة(٤).

قال له الملك: من أنت أيها المتكلّم؟ فقال: أنا عبدُ المطّلب بن هاشم، قال: ابنُ أخينا؟ قال: نعَم، قال: اُدنُهْ، ثم أقبلَ عليه وعلى القوم فقال: مرحَبًا وأهلًا [وأرسلها مثلًا](٥)، وكان أوّل من تكلّم بها، وناقةً ورِحلًا، ومُسْتَناخًا سهلًا، ومَلِكًا رِبحلًا(٦)، يُعطي عطاءً جزلًا، قد سمِع الملكُ مقالَتكم، وعَرَف قرابتَكم، وقبِل وَسِيلتَكم، فإنكم أهلُ الليل والنّهار، ولكم الكرامة، ما أقَمتم، والحِباء(٧) إذا ظعنتُم، ثم أنهَضوا إلى دار الضِّيافة والوفود، وأُجريت عليهم الأنْزال(٨)، فأقاموا بذلك شهرًا لا يصلون إليه، ولا يُؤذَن لهم في الانصراف، ثم انتبه لهم انتباهةً فأرسل إلى عبد المطّلب، فأدناه ثم قال له: يا عبدَ المطّلب، إني مُفْضٍ(٩) إليكَ من سِرّ عِلْمي أمرًا لو غيرُك يكون لم أبح به، ولكنّني رأيتُك مَعْدِنَه، فأطلعتكَ عليه، فليكن عندكَ مُخبًأ حتى يأذن الله عز وجل فيه؛ إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون الذي ادّخرناه لأنفسنا، واحتَجنّاه(١٠) دون غيرنا، خبرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة للناس عامّة ولرهطك(١١) كافة، ولك خاصّة، فقال له عبد المطلب: مِثلك أيها الملك سَرّ وبَرّ، فما هذا فَداكَ أهلُ الوبَر زُمَرًا بعد زُمر؟ قال: إذا وُلد بتهامة، غلام بين كتفيه شامة(١٢)، كانت له الإمامة، ولكم به الزَّعامة، إلى يوم القيامة.

---

(١) بسق: سما وعلا.
(٢) في دلائل النبوة للبيهقي (ق ٩٥ د): «ولن يخمل من».
(٣) أشخصنا إليك: قادنا إليك ـ حملنا إليك.
(٤) الرزئة: الذي ألمت به مصيبة.
(٥) عن دلائل النبوة للبيهقي.
(٦) الربحل: الكثير العطاء.
(٧) الحباء: الأفضلية.
(٨) الإنزال: جمع نزل، وهو قري الضيف وإكرامه.
(٩) مفض: أفضى: أطلع.
(١٠) في الأصل: «واحتجبناه»، والمثبت عن البداية: ١: ٣٢٩.
(١١) في الأصل: «وإن يطل» تصحيف.
(١٢) في البداية: ١: ٣٢٩: «وغلام به علامة، بين كتفيه».

قال عبد المطلب: أيُّها الملك، لقد أُبتُ[١] بخبرٍ ما آب بمثله وافِد قوم، ولولا هيبةُ الملك وإجلالُه وإعظامُه، لسألته من بشارته[٢] إيايَ ما أزداد به سرورًا. قال له الملك: هذا حينه الذي يولَد فيه أَوْ قَدْ وُلد؛ اسمه محمد يموت أبوه وأمه، ويكفُله جدّه وعمه، قد ولدنَاه مرارًا، والله باعثه جِهارًا، وجاعلٌ له منا أنصاراً يُعِزُّ بهم أولياءَه، ويُذِل بهم أعداءَه، ويَضرب بهم الناس عن عَرض[٣]، ويستفتح[٤] بهم كرائم الأرض، يَعبُد الرحمٰن، ويَدْحَض أو يدحر الشيطان، وتخمد النيران وتكسر الأوثان، قولُه فَصْل، وحكمُه عَدْل، يأمر بالمعروف، ويفعلُه، وينهَى عن المُنْكَر ويُبطِله. قال له عبد المطلب: عز جدّك، ودام مُلكُك، وعَلا كعبُك، فهل الملك سارّني[٥] بإفصاح؟ فقد أوضح لي بعض الإيضاح، قال له سيف بن ذي يَزَن: والبيت ذي الحُجُب، والعلامات على النُّصُب، إنك لجدّه يا عبدَ المطلب غير كذب، قال: فخرّ عبدُ المطلب ساجدًا، فقال له سيف ارفع رأسك، ثَلجَ صدرُك، وعَلا كعبُك[٦]، فهل أحسستَ بشيء مما ذكرتُ؟ قال: نعم أيها الملك، إنه كان لي ابن وكنت به مُعجبًا، وعليه رفيقًا، وإني زوّجته كريمةً من كرائم قومي آمنةَ بنتَ وَهْب بن عبد مَناف، فجاءت بغلام وسميتُه محمدًا، مات أبوه وأمه، وكفلتُه أنا وعمُّه. قال له ابن ذي يَزَن: إن الذي قلتُ لك كما قلتُ، فاحتفِظ بابنك[٧] واحذر عليه اليهود، فإنهم أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلًا، واطْوِ ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمَنَ أن تُداخلهم النَّفاسَة[٨]، من أن تكون لكم الرياسَة، فينصِبون لَه الحبائل، ويَبغون له الغوائل[٩]، وهم فاعلون ذلك أو أبناؤهم من غير شك[١٠]، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبلَ مَبعثِه، لسِرت بخيْلي ورَجْلي حتى أجيء يثربَ دارَ مُلكه[١١]، فإني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن بيثرب استحكام أمرِه، وأهلَ نُصْرَته، وموضعَ قِبره، ولولا أني أقيه الأفات[١٢]، وأحذَر عليه العاهات، لأعليتُ على - حداثة

(١) آب: عاد.
(٢) في الأصل: «من سارّه».
(٣) العَرض: الجيش الضخم.
(٤) في البداية ٢: ٣٢٩: «ويستبيح بهم».
(٥) سارني: أفصح لي عن سره.
(٦) في البداية: ١: ٣٣٠: «وعلا أمرك».
(٧) في الأصل: «فاحتفظ من ابنك».
(٨) النفاسة: الرغبة، الطمع.
(٩) الغوائل: مفردها غائلة، النكبة، المصيبة.
(١٠) في الأصل: «وأبناؤهم عن شك».
(١١) في دلائل النبوة للبيهقي: «حتى أصير يثرب دار ملكي». وفي الأصل: «حتى حي ثرب».
(١٢) الآفات: مفردها آفة: مصيبة.

سنّه ـ أمرَه، ولأوطأتُ على أسنان العرب كَعبَه[١]، ولكن سَأَصرفُ ذلك إليك من غير تَقصير بمن معك، ثم دعا بالقوم، وأمر لكل رجل منهم بعشرة أعْبُدٍ سود، وعشر إماء[٢] سود، وحلّتين[٣] من حلل البرود، وخمسة أرطال ذهَب، وعَشرة أرطالٍ فضة، ومائة من الإبل، وكرش[٤] مملوء عنبرًا، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال [له][٥]: إذا حال الحولُ[٦] فأتني بخبَره، قال: فمات سيف بن ذي يَزَن قبل أن يَحولَ عليه الحَوْل، وكان عبدُ المطلب كثيرًا ما يقول: يا معشر قريش، لا يَغبِطني رجلٌ منكم بجزيل عطاء المَلِك، وإن كَثُرَ، فإنه إلى نَفاد ولكن يَغبطني بما يَبقَى لي ولعَقبي ذِكرُه وفخره، فإذا قيل: وما هو؟ قال: سيُعلَم ما أقول ولو بعد حين.

قال البيهقي وقد رُوِي هذا الحديث أيضًا عن الكلبيّ أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن ذلك رؤيا رقيقة بنت أبي صيفيّ وقصة استسقاء عبد المطلب بن هاشم وكان من خبرها ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي[٧] رحمه الله بسند عن مَخْرَمة بن نَوْفل عن أمه رقيقة بنت أبي صَيفيّ بن هاشم، وكانت لِدةَ عبد المطلب، قالت: تتابعت على قريش سنون أقحلت الضرع، وأرّقت العظيم، قالت: فبينما أنا نائمة اللهم أو مُهَوِّمة[٨] إذا هاتفٌ يصرخ بصوت صَحِلٍ[٩] صَيِّت يقول: معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظلّكم أيامه، وهذا إبان نجومِه، وفي رواية عنها: مبعوث منكم، وهذا إبان مَخرجِه فَحيَّهلا بالخير والخصْب، وفي رواية بالحياة والخِصْب، ألا فانظروا رجلًا منكم وَسِيطًا عُظَّامًا جُسَّامًا أبيض بَضًّا[١٠]، أوطَف[١١] الأهداب، سهل الخدّين، أشم العرنين[١٢]، له فخر يكظم عليه، وسنة تهدي إليه، ألا فليخلُص هو

(١) في البداية: ١: ٣٣٠: «ولأوطأت أسنان العرب عقبه».
(٢) الأمة: العبدة.
(٣) الحلة: الثوب الجيد.
(٤) الكرش: وعاء الطيب.
(٥) عن البداية: ١: ٣٣٠.
(٦) الحول: العام ـ السنة.
(٧) دلائل النبوة (ورقة ٩٧ و).
(٨) الهوام: النوم الخفيف.
(٩) صَحِل: صحل الصوت: بُحّ. وصيت: قوي.
(١٠) البَض: كثير اللحم.
(١١) أوطف الأهداب: كثير شعر الأهداب.
(١٢) العرنين: الأنف.

وولدُه وليَهبِط إليه من كل بطن رجلٌ فليَشِنُّوا[١] من الماء، وليَمسُّوا من الطيب، ثم ليستلموا الركن. وفي رواية وليَطُوفوا بالبيت سبعًا، ثم ليرتقوا أبا قُبَيس[٢] فليَسْتَسْق الرجل، وليؤمِّن القوم [ألا وفيهم الطاهر والطيب لذاته، ألا بُعِثتم إذا شئتم وعشتم][٣]، قالت: فأصبحتُ ـ علم الله ـ مذعورةً قد اقشَعَرَّ جلدي، ووَلِه عَقلِي، واقتصصْتُ رؤياي، فوالحُرْمَةِ والحَرَم ما بقِي أبطحيٌّ إلا قال: هذا شَيْبَة الحمد، هذا شيبة، وتنامَّت إليه رجالات قُريش، وهَبَط إليه من كل بَطْن رجل، فشَنُّوا وطيَّبوا، واستلموا وطافوا، ثم ارتَقَوا أبا قُبَيس، وطفَقوا جَنابَيْه ما يَبْلغ سَعيُهم مَهْلَة، حتى إذا استَوَى بِذْروة الجبل، قال عبد المطلب ومَعه رسول الله ﷺ غلام قد أيفَعَ أو كَرِب[٤]، فقال عبد المطلب: اللهم سادَّ الحلَّة، وكاشف الكُرْبَة، أنت مُعْلِم وفي رواية عالم غير مُعَلَّم ومسؤول غير مُبَخَّل، وهذه عِبداؤك وإماؤك عذرات حرمك يشكون إليك سَنَتَهم أذهبت الخفَّ والظلف، اللهم فأمطرن غَيْثًا مُغدِقًا مريعًا[٥] فوالكعبة ما رامُوا حتى تفجَّرت السماء بمائها، واكتض الوادي بتَجيجة، فسمعتُ شيخانَ[٦] قريش وجِلَّتها: عبدَ الله بن جُدْعان، وحَرْبَ بن أمية، وهشامَ بن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئًا لك أبا البطحاء أي عاش بك أهل البطحاء، وفي ذلك تقول رُقَيْقَة: [من البسيط]

بشيبةَ الحمدِ أسقَى الله بلدتَنا ... لما فقدنا[٧] الحيا واجلوَّد المطر[٨]

فجادَ بالماء جَونيٌّ له سَيَل ... دانٍ فعاشت به الأنعام والشّجر[٩]

منًّا من الله بالميمون طائرُه ... وخيرِ من بُشِّرت يومًا به مُضَرُ[١٠]

مبارَكُ الأمرِ يُستَسقَى الغمامُ به ... ما في الأنام له عِدْل ولا خَطَر

وأما مَن بشّر به ﷺ قبيل مَبعثه، فمن ذلك خبر اليهوديّ الذي هو من بني عبد الأشهَل، وكان من خَبره ما رواه أبو بكر أحمد بن الحسين البيْهَقِي بسنَده عن سَلَمة بن

---

(١) الشن: الصب المتقطع. وفي رواية البيهقي أيضًا: «فليشربوا من الماء».
(٢) أبو قبيس: جبل مشرف على مكة.
(٣) عن دلائل النبوة للبيهقي (ورقة ٩٦ ظ).
(٤) أيفع وكرب: أصبح يافعًا، وكرب: كاد.
(٥) المريع: كثير الخصب.
(٦) في الأصل: «شيخان من» والمثبت عن البيهقي (ورقة ٩٦ ظ).
(٧) رواية البيهقي (ق ٩٧ و): «وقد فقدنا».
(٨) اجلوَّد: انحبس وانقطع.
(٩) رواية البيهقي: «به الأمصار». والأنعام: الحيوانات.
(١٠) رواية البيهقي: «سيل من».

سلامة بن وقش، قال: كان بين أبياتنا يهوديّ، فخرج على نادِي قومه بني عبد الأَشهَل ذات غداةٍ، فذكَر البعثَ والقيامة والجنةَ والنارَ والحسابَ والميزان، فقال ذلك لأصحاب وثَنٍ لا يرَون أنّ بعثًا كائن بعدَ الموت، وذلك قبلَ مَبعثِ النبي ﷺ، فقالوا: ويحك يا فلان، وهذا كائن؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنة ونار، يُجْزَوْن من أعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به، لوددتُ أن حَظّي من تلك النار أن تُوقِدوا أعظم تَنُّورٍ في داركم فتَحْمونَه، ثم تَقذِفونني فيه، ثم تُطبِقوا عليّ، وأنّى أنجو من النار غدًا فقيل له يا فلان، فما علامة ذلك؟ قال: نبي يُبعَث من ناحية هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكّة واليمن. قالوا: فمتى تُراه؟ فرمى بطرفه، فرآني وأنا مضطجع بفناءِ باب أهلي، وأنا أحدث القوم فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركْه. فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ، وإنه لحيّ بين أظهرهم فآمَنّا به وصدّقناه، وكفَر به بغيًا وحسَدًا، فقلنا له: يا فلان، ألستَ الذي قلتَ ما قلت وأخبرتنا؟ فقال: بلى. ولكن لا أومن به.

ومنه خبر إسلام أَسِيد وثَعْلَبة ابنَي سَعْية وراشد بن عُبَيد.

روَى البيهقي[(١)] رحمه الله عن عاصم بن عُمر بن قَتادة، عن شيخ من بني قُرَيظَة، قال: هل تدرون عَم كان إسلام أَسِيد وثَعْلَبة ابني سعْيَة، وأسد[(٢)] بن عُبيد، نَفَرٍ من بني هَدَل لم يكونوا من بني قُرَيْظَة، ولا النَّضِير، كانوا فوق ذلك؟ فقلت: لا، قال: فإنه قدِم علينا رجل من الشام من يَهودَ يقال له[(٣)] ابن الهَيَّبان وكنيته أبو عُمير، كذا ذكره الواقدي، فأقام عندنَا، والله ما رأينا رجلاً قطُّ لا يُصلِّي الخمسَ خيرًا منه، فقدِم علينا قبل مَبعَث رسول الله ﷺ بسنتين، فكُنّا أَقْحطنا وقلَّ علينا المطر نقول: يا ابن الهَيَّبان، أخرج فاستَسْقِ لنا، فيقول: لا واللّهِ حتى تُقدِّموا أمامَ مَخْرجكم صَدَقة؛ فنقول: كم؟ فيقول: صاعٌ من تَمر أو مُدَّين[(٤)] من شَعير فنُخرِجه ثم يخرجُ إلى ظَاهر حَرَّتنا ونحن معه، فيستَسقِي، فوالله ما يقوم من مجلِسه حتى يمرّ السَّحاب؛ قد فعَل ذلك غيرَ مَرَّة ولا مَرَّتين، ولا ثلاثة، فحضرَتْه الوفاة، واجتمعنا إليه، فقال: يا معشَرَ يهود، ما تُرَوْنَهُ أخرجني، من أرض الخَمرَ[(٥)] والخميرِ إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إنه إنما أخرجني [أني][(٦)] أتوقَّع خروجَ نبيّ قد أظَلَّ زمانُه،

---

(١) روى حديث إسلامهما ابن هشام في السيرة: ١: ٢٢٦ بالسند نفسه.

(٢) في الأصل: «وراشد بن عبيد» تصحيف. والتصويب عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٦٦.

(٣) يبدو أنها ساقطة من الكلام، ولا يستقيم المعنى إلا بها.

(٤) المد: من المكاييل.

(٥) في السيرة الحلبية: ١: ١٨٥: «من أهل الخمر» بالتحريك وبإسكان الميم، وهو الشجر الملتف.

(٦) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٢٧.

هذه البلاد مُهاجَرهُ، وكنت أرجو أن يبعث فاتَّبِعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسْبقُنَّ إليه إذا خرجَ يا معشَرَ يهود، فإنه يُبعَث بسفك الدِّماء، وسَبْيِ الذَّراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعُكم ذلك منه، ثم مات؛ فلما كانت الليلة التي فُتِحَت فيها قُرَيظَة قال أولئك الثلاثة الفتية، وكانوا شبابًا أحداثًا: يا معشر يهود: والله إنه لَلنَّبيُّ الذي ذكر لكم ابن الهَيَّبان، فقالوا: ما هو به، قالوا: بلى والله! إنها لصِفته، ثم نزلوا فأسلموا، وخلَّوا أموالَهم وأولادَهم وأهاليهم؛ فلما فَتح رسول الله ﷺ الحصن ردَّ ذلك عليهم.

ومنه ما روي أن عبدَ الله بن مسعود كان يُحدّث عن أبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنهما، قال: خرجتُ إلى اليمنِ في تجارة قبل أن يُبعث النبي ﷺ، فنزلتُ على شيخ من الأزد عالم، قد قرأ الكُتُب وحوَى علمًا كثيرًا، وأتى عليه من السن ثلاثمائة وتسعون[١] سنة، فلما تأملني قال: أحسَبك تيميًا[٢] فقلت: نعَم، أنا من تَيم بن مُرَّة، أنا عبدُ الله بن عُثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سَعد بن تَيم بن مُرَّة، قال: بَقيت لي فيك واحدة، قلت: ما هي؟ قال: اكشِف لي عن بَطنك، قلت: لا أفعل أو تُخبرَني لم ذلك، فقال: إني لأجد في العلم الصَّحِيح الصادق أن نَبيًّا يُبعَث بالحَرَم يُعاوِنه على أمره فَتًى وكهْل، فأما الفتَى فخواض غَمَرات، وكَشّاف مُعضِلات، وأما الكَهْل فأبيض نحيف، على بطنه شامة، وعلى فخذه اليُسْرَى علامة، ولا عليك أن تُرِيَني ما خفي عليّ؛ قال أبو بكر رضي الله عنه: فكشفتُ له عن بَطني، فرأى شامةً سوداء فوق سُرَّتي، فقال: هو أنت وربِّ الكَعْبة، إني مُتقدِّم إليك في أمرٍ فاحذره، قلت: وما هو؟ قال: إياك والميلَ عن الهُدَى وتمسَّك بالطريقة المُثْلَى، وخَفِ الله عزَّ وجلّ فيما أعطاك وخوَّلك.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فقضَيتُ باليمن أَرَبي[٣]، ثم أتيتُ الشيخَ لأوَدِّعَه، فقال: أحامِلٌ أنت مِنِّي أنباءَ إلى ذلك النَّبيّ؟ قلت: نعم، فأنشأ يقول: [من الطويل]

ألَم تَرَ أنّي قد سئمت مَعاشِري ... ونفسِي وقد أصبحتُ في الحيِّ راهنا[٤]
حَيِيتُ وفي الأيام للمرء عِبرةٌ ... ثلاث مئين ثم تسعين آمِنا[٥]

---

(١) ابن ظفر: «من السن ثلاثة وتسعون».
(٢) في خير البشر لابن ظفر: «أحسبك حرميًا، فقال أبو بكر: فقلت»، وفي السيرة الحلبية: ١: ٢٧٥: «أحسبك حرميًا، أحسبك قرشيًا، أحسبك تيميًا».
(٣) أربي: غايتي، حاجتي.
(٤) الراهن: المقيم الثابت.
(٥) رواية ابن ظفر: «ثلاث سنين ثم تسعين».

وصاحَبتُ أحبارًا أَناروا بعلمِهم ... غياهِب جَهلٍ ما تَرى فيه طابِنا(١)
وكم راهب فوق عنشبيل(٢) قائمٍ ... لقيت وما غادرتُ في البحث كاهِنا
وكلُّهم لما تعطَّشت قال لي ... بأن نَبيًّا سوف تلقَاه دائنا
بمكةَ والأوثانُ فيها عزيزةٌ ... فيركسَها حتى تراها كَوامِنا(٣)
فما زلتُ أدعو الله في كل حاضرٍ ... حَلَلتُ به سِرًّا وجهرًا معالنا
وقد خمدَت منّي شرارة قُوّتي ... وأُلفيتُ شيخًا لا أُطيق الشّواجنا(٤)
وأنتَ وربِّ البيتِ تلقَى محمدًا ... بعامِك هذا قد أقام البَراهنا
فحيّ رسولَ الله عنّي فإنني ... على دينهِ أحيًا وإن كنتُ واهنا(٥)
فيا ليتَني أدركتُه في شبِيبتي ... فكنتُ له عبدًا وإلا العُجَاهنا(٦)
عليه سلام الله ما ذَرَّ شارقٌ ... تألّق هنَّافًا من النور هافنا(٧)

قال أبو بكر رضي الله عنه: فحفِظتُ وصيتَه وشِعرَه وقدِمتُ مكة، فجاءني شَيْبَةُ ابن ربيعة، وأبو جَهل بن هشام، وأبو البَخْتَريّ، وعُقبَةُ بن أبي مُعَيط، ورِجالاتُ قريش مسَلِّمين عليّ، فقلت: هل حدَثَ أمر؟ فقالوا: حدَث أمر عظيم؛ هذا محمد بن عبد الله يَزعمُ أنه نبيّ أرسله الله إلى النّاس، ولولا أنتَ ما أنتظرنا به، فإذْ جئتَ فأنتَ البغية والنُّهية(٨)، قال: فأظهرتُ لهم تعجُّبًا وصرفتُهم على أحسن شيء(٩)، وذهبتُ أسأل عن رسول الله ﷺ، فقيل لي: هو في مَنزِل خَديجة، فقَرعتُ الباب عليه فخرج إليّ فقلتُ: يا محمّد، فقدت من نادِي قومك، فاتهموك بالغيبة، وتركت دين آبائك، فقال: أيا أبا بكر، إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم فآمِن بالله، فقلتُ: وما آيَتُك؟ قال: الشيخ الذي لقيتَه باليمن، قلت: وكم من شيخ قد لقيت، وبعت منه واشتريت، وأخذت وأعطيت! قال: الشيخ الذي أخبرك عني، وأفادك الأبيات، قلت: من أخبرك بهذا يا

(١) الطابن: العارف بالشيء.
(٢) كذا في الأصل.
(٣) ركس: قلب ـ حطم.
(٤) الشواجن: الطرق المتداخلة المخالفة، أي لا أطيق السير في هذه الأرض، عن ابن ظفر.
(٥) الواهن: الضعيف.
(٦) العجاهن: الخادم.
(٧) هافنا: الهفنى: المطر الشديد ولعله قصد النور المتدفق كالمطر؟!
(٨) في السيرة الحلبية: ١: ٢٧٥: «فأنت الغاية والكفاية».
(٩) في الأصل: «فصرفتهم في حس مس»، والمثبت عن السيرة الحلبية: ١: ٢٧٥.

حبيبي؟ قال: الملك العظيم الذي كان يأتي الأنبياءَ قبلي، فقلت: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأنك رسول الله. قال أبو بكر رضي الله عنه: فانصرفت وما أحد أشدّ سرورًا من رسول الله ﷺ بإسلامي.

وأما من ذكر صفة رسول الله ﷺ بعد مَبعَثِه ورؤيته له، وذكَّر قومه بها، وحقَّق عندهم أنه هو، لِما كان يجد عنده من العلم بصفته ﷺ.

فمن ذلك ما رُوِي[1] أن صفية بنت حُيَيّ بن أَخطَب قالت: كنت أحبَّ الناس إلى أبي، وكان عَمي أشدَّ حُبًّا لي، فأتيا النبيّ ﷺ بقُبَاء[2]، ثم رَجَعَا من عنده ثقيلَيْن لا يلتفتان نحوي، ولا يَنظرن إليّ، فسمعتُ عَمّي يقول لأبي: هل تعرفُه؟ قال: نعم، قال: فماذا عندك فيه؟ قال: عَداوتُه إلى آخر الدهر، قال عمي لأبي: أُنشِدُكَ اللّهَ أن تطيعني يا أخي في هذا، ثم اعصني فيما سواه، هلم نتبعه، فقال أبي: لا، والله لا أراك له عدوًّا، فقال عمي: إنك تُهلِكنا، وتُهلِك نفسك، إن هذا نبيّ السيَّف، وجعل عَمي يكلّمه وهو يأبى إلا كلامَه الأوّل، قالت صفية: فلما كان الليل، وجدت نسوةً من بني النّضير جالسات يقلن: والله ما أحسن حُيَيّ بن أخطب بخلاف أخيه، إنا لنعلم أن هذا نبيّ مذكور في الكتب، وقالت عَجوز منهنّ: سمعتُ أبي يقول لإخوتي: إن نبيًا من العرب يقال له أحمد، مولده بمكة ودار هجرته يثرب، وهو خير الأنبياء، فإن خرج وأنتم أحياء، فاتّبِعوه؛ قالت صَفِية: وإذا هن كلهنّ يُزرِين[3] على أبي، ويتعتَّبن عليْه فعلَه.

ومنه ما قاله كعب بن عمرو لبني قُرَيظة عند حِصارهم. وسنذكر ذلك إن شاء الله في الغزوات، وقد تقدّم خبر بحِيرا، ونَسْطُور، فلا فائدة في إعادته هنا.

وأما من أظهر صُحُفًا كانت عنده فيها صريح ذكره ﷺ، فمن ذلك ما رُوِيَ أن رجلًا أتى النبيّ ﷺ بورَقةٍ ورِثها عن أبيه عن جدّه، وذكر أن سلَفه كانوا يتوارثونها على وجه الدهر؛ فإذا فيها: «اسمُ الله وقوله الحق، وقول الظالمين في تَبارٍ، هذا ذكرٌ لأمّةٍ تأتي في آخر الزّمان، يأتزرون على أوسَاطهم، ويغسلون أطرافَهم، ويخوضُون البَحر إلى أعدائهم، فيهم صلاة لو كانت في قَوم نُوح ما هَلكوا في الطوفان؛ أو في ثمود ما أهلكوا بالصَّيْحة»، قال: فقُرِئت الورقةُ على الناس، وأمَر رسول الله ﷺ بحِفظها.

ومنه ما رُوي أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه نزل بالبَلِيح[4] إلى جانب ديرٍ،

---

(١) روى ابن هشام هذا الخبر بمعناه مختصرًا في السيرة: ٢: ١٦٥.

(٢) قُباء: موضع بالمدينة.

(٣) يزرين: يأخذن عليه، يعبن.

(٤) معجم البلدان: ٢: ٢٨٢.

فأتاه قَيِّم الدير فقال يا أمير المؤمنين: إني وَرِثت عن آبائي كتابًا قديمًا كتَبه أصحابُ المسيح عليه السلام؛ فإذا شئتَ قرأتُه عليك؛ قال: نَعَم، هات كتابك؛ فجاء بكتاب فإذا فيه: الحمد لله الذي قضَى ما قضى، وسَطَّر ما سَطَّر، إنّه باعث في الأمّيين رسولاً يعلِّمهم الكتابَ والحكمة، ويَدُلُّهم على سبيل الجنة، لا فَظٌّ ولا غَليظ، ولا صَخَّاب في الأسواق، ولا يَجْزِي السيئةِ بالسّيئة، ولكن يعفو ويصفَح، أمتُه الحمادون لله في كلّ هُبوطٍ ونَشْرٍ[1] وصُعود، تذلل ألسنتهم بالتكبير والتهليل، يُنصَر دينهم على كل من ناوأه.

ومنه ما روي أن أبا ذُؤيب الزَّاهد قال: دخلت في سياحتي ديرًا فقلت للراهب القَيِّم عليه: أعندك فائدة؟ قال: نعم. لك يا عربيّ، قلت: هاتها! قال: فأخرج لي ورقةً فيها أربعةُ أسطر، فذكر أنها من الكتب المنْزَلة؛ ففي السطر الأوّل منها: يقول الجبّار تبارك وتعالى: أنا الله لا إلٰه إلا أنا وَحْدي لا شريك لي؛ والسطر الثاني: محمد المختار عبدي ورسولي؛ والسطر الثالث: أمته الحمَّادون، أمته الحمّادون، أُمَّتُه الحمَّادون والسطر الرابع: رعاة الشمس، رعاة الشمس، رعاة الشمس.

وأما من أظهر تِمثال صُورته ﷺ وصُوَر بعض أصحابه رضي الله عنهم، وذلك مصوّر عندهم في بيوت في بِيَعهم.

فمن ذلك ما روي عن دِحية بن خليفة الكلبيّ[2] رسول رسول الله ﷺ إلى قيصر أنه قال: لقيت قيصَر بكتاب رسول الله ﷺ وهو بدمَشق، فأُدخِلت عليه خاليًا، فناولتُه الكتاب فقبَّل خاتَمَه وفَضَّه وقرأه، ثم وضَعه على وسادةِ أمامَه، ثم دعا بَطارقته[3] وزُعماء دينِه فقام فيهم على وَسائد بُنيت له، ثم خَطَبَهم فقال: هذا كتاب النبيّ الذي بشّر به عيسى المسيح، وأخبر أنه من وَلد إسماعيل، قال: فنَخروا[4] نَخْرة عظيمة، وحاصُوا[5] فأومَى إليهم بيده أن اسكتُوا، ثم قال: إنما جَرَّبْتُكم لأرى غضبَكم لدينكم، ونصركم له، وصرفهم، ثم استدعاني من الغَد فأخلاني، وأنَّسني بحديثه، وأدخَلَني بيتًا عظيمًا فيه ثلاثمائة وثلاثةَ عشَر صورة، فإذا هي صورة الأنبياء المرسلين ﷺ فقال:

---

(١) النشر: الانبعاث.

(٢) دحية بن خليفة الكلبي: دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي (... نحو ٤٥ هـ = ... نحو ٦٦٥ م) صحابي، بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى «قيصر» يدعوه للإسلام. كان يضرب به المثل في حسن الصورة. عاش إلى خلافة معاوية. (الأعلام: ٢: ٣٣٧).

(٣) البطريق: القائد.

(٤) نخر: مدَّ بصوته من أنفه.

(٥) حاص: ضاقت عينه.

انظر مَن صاحبُك مِن هؤلاء، فنظرتُ فإذا صورة النبيّ ﷺ كأنما ينطق، فقلت: هو هذا، فقال: صدقت، ثم أراني صورة عن يمينه فقال: من هذا؟ قلت: هذه صورة رجل من قومه اسمه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فأشار إلى صورة أخرى عن يساره، فقلت: هذه صورة رجل من قومِه يقال له عمر رضي الله عنه، فقال: إنا نجد في الكتاب أن بصاحبيه هذين يُتِمُّ الله أمرَه. قال دِحْية: فلما قدمتُ على النبيّ أخبرتُه، قال: صدق، بأبي بكر وعمر يُتمّ الله هذا الأمرَ بعدي. والله الموفق.

ومنه ما رُوِي عن حَكيم[١] بن حِزام قال: دخلتُ الشام للتجارة قبل أن أسلم، ورسولُ الله ﷺ بمكّة، فأرسل قيصرُ إلينا فجئناه ومعنا أميَّةُ بن أبي الصَّلت الثَّقَفِيّ[٢]، فقال: من أي العرب أنتم؟ وما قرابتُكم من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ فقال حكيم: فقلت أنا ابن عمه، يجمعني وإياه الأب الخامس، فقال: هل أنتم صادقيَّ فيما أُرِيكُمُوه وأسألكم عنه؟ قلنا: نعم، نَصدقُك أيها المَلك، فقال: أنتم ممن اتَّبعه أو ممن ردّ عليه؟ قلنا: ممن ردّ عليه ما جاء به وعاداه، ولكنّا نَصْدُقك مع هذا، قال: احلفوا لي بآلهتكم لتَصدُقُنّي في جميع ما أسألكم عنه وأَعرِضه عليكم، فحلفنا له وأعطيناه من المواثيق ما أرضاه، فسألنا عن أشياء مما جاء به رسول الله ﷺ فأخبرناه بها، ثم نهض واستنهَضَنا معه، فأتى كنيسة في قصره، فأمر بفتحها ودخل ونحن معه، وجاء إلى سترٍ وأمر بكشفه فإذا صورة رجل، قال: أتعرفونَ من هذه صورتُه؟ قلنا: لا. قال: هذه صورة آدم، ثم تتبَّع أبوابًا يفتحُها ويكشِف عن صور الأنبياء واحدًا بعد واحد، ويقول: هذا صاحبكم؟ فنقول: لا، حتى فَتح بابًا وكشف لنا سترًا عن صورة محمد ﷺ، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، هذه صورة صاحبنا، فقال: أتدرون منذ كم صُوِّرت؟ قلنا: لا، قال: منذ أكثر من ألف سنة، فإن صاحبكم نبيٌّ مرسل فاتَّبِعوه، ولوددِت أني عنده فأشرب ما يغسِل[٣] من قدمَيه.

وقد ورد في الصحيحين[٤] خبرُ قيصرَ مع أبي سُفيان لـمّا سأله عن رسول

(١) حديث حزام هذا روي في السيرة الحلبية: ١: ١٨٦.

(٢) أمية بن أبي الصَّلت: أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: (. . . ـ ٥ هـ = . . . ـ ٦٢٦ م) شاعر جاهلي حكيم قدم دمشق قبل الإسلام وكان مطلعًا على الكتب القديمة، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية، رحل إلى البحرين. وعاد إلى الطائف فسأل عن خبر محمد بن عبد الله ﷺ. وخرج إلى الشام وهاجر رسول الله إلى المدينة وحدثت وقعة بدر، وعاد أمية من الشام، يريد الإسلام فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له، فامتنع، وأقام في الطائف إلى أن مات. (الأعلام: ٢: ٢٣).

(٣) في الأصل: «قدميه».

(٤) صحيح البخاري: ١: ٨، ٤: ٤٥.

الله ﷺ. وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ومنه ما روي عن جُبَير بن مُطْعِم[١] أنه قال: لما بعث الله النبي ﷺ: خرجتُ تاجرًا إلى الشام، فأرسل إليّ عظيمُ الأساقفة، فأتيته فقال: هل تعرف هذا الرجل الذي ظهر بمكة، يزعم أنه نبيّ؟ قال: فقلت هو ابن عمي، فأخذ بيدي وأدخلَني بيتًا فيه تماثيلُ وقال: انظر ترى صورته ههنا؟ فنظرتُ فلم أر شيئًا فأخرجني من ذلك البيت، وأدخلني بيتًا أكبرَ منه فيه مثلها، وقال: انظر هل تراه ههنا، فنظرت فإذا صورة النبيّ ﷺ، وإذا صورة أبي بكر وهو آخذٌ بعَقِب النبي ﷺ، وإذا صورة عُمر وهو آخِذٌ بِعَقب أبي بكر، فقال: هل رأيته؟ فقلت: نعم هوذا، قال: أتعرف الذي أخذ بعقبه؟ قلت: نعم، هو ابن أبي قُحَافة[٢]، قال: وهل تعرف الذي هو آخِذٌ بِعَقبه؟ قلت: نَعم، هذا عمر بن الخطاب ابن عَمّنا، فقال: أشهَد أنه رسول الله، وأن هذا هو الخليفة من بَعدِه، وأن هذا هو الخليفة من بعدِ هذا.

وهذا باب متسع لو استقصيناه لطال، ولو سطرنا ما وقفنا عليه منه لانبسطت هذه السيرة، وخرجت عن حدّ الاختصار، وفيما أوردناه كفاية.

فلنذكر بشائر كُهّان العرب والله أعلم.

وأما من بَشَّر به ﷺ من كُهّان العرب فقد قدمناه في الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الثاني من كتابنا هذا أخبارَ الكهنة، وذكرنا طَرفًا من إخبارهم برسول الله ﷺ، مما نَستَثْنيه في هذا الموضع، ونَذكرُ ما عداه، ولا يُشتَرط الاستيعاب لتَعذُّره، ولا إثباتُ جميع ما وقَفنا عليه أيضًا من ذلك لأنه يُوجب البَسط والإطالة، بل نذكرُ من ذلك ما نقف إن شاء الله تعالى عليه مما فيه الكفاية، وإن كانت نبوّة نبيّنا ﷺ أظهَرَ وأشهر وأقطع من أن يُحتاج فيها إلى ذكر ما ذكرناه، وما نذكره، وإنما نُورد ما أوردناه ليقف عليه من لم يتتبع أحوالَه ﷺ، ولا طالعَ سِيرَه، وليعلم أن أمره ﷺ لم يَفجأ الناس، بل جاءهم على بيّنةٍ واستبصار، وآثار وأخبار، ومعجزات ظهرت، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى.

فمِن بَشائر الكُهّان رؤيا رَبيعة بن نصر وتأويل سَطيح وشِق لها.

قال محمد بن إسحاق بن يَسار المطَّلبيّ[٣]: كان ربيعة بن نصر ملكِ اليمن بين أضعاف ملوك التَّبابعة، فرأى رؤيا هالته [وفَظِع بها][٤]، فلم يدَع كاهنًا ولا ساحرًا ولا

(١) نقله في السيرة الحلبية مختصرًا: ١: ١٨٦.
(٢) المقصود: أبو بكر.
(٣) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ١٥، وانظر دلائل أبي نعيم ص ٨٦.
(٤) زيادة عن ابن هشام: ١٠: ١٥. وفظع بالأمر: اشتد عليه.

عائفًا ولا مُنجّمًا من أهل مملكته إلا جمعَه إليه، فقال لهم: إني قد رأيت رؤيا هالتني، وفظِعتُ بها، فأخبروني بها وبتأويلها، قالوا له: اقصُصها علينا نخبرْك بتأويلها، قال: إني إن أخبرتُكم بها لم أطمئنّ إلى خَبَرِكم عن تأويلها، فإنه لا يعرفُ تأويلها إلا من عَرفَها قبلَ أن أُخبره بها، فقال له رجل منهم: فإن كان المَلِك يريد هذا فليبعث إلى سَطيح وشِقّ، فإنه ليس أحدٌ أعلم منهما[١]، فإنهما يُخبرانه بما سأل عنه.

قال ابن هشام: واسم سَطِيح: رَبيع بن رَبيعة بن مسعود بن مَازن بنِ ذئب بن عَدِيّ بن مَازن بن غَسّان. وشَقّ بن صَعْب بن يَشكُر بن رُهم بن أفرَك بن قَيْس بن عَبْقَر بن أنْمار بن نزار.

قال ابن إسحاق:

فبعَث إليهما، فقدم عليه سَطِيح قبلَ شِقّ، فقال له: إني رأيتُ رؤيا هالتني وفظِعت بها فأخبرني بها، فإنك إن قضيتها أصبتَ[٢] تأويلها، قال: أفعل، رأيتَ حُمَمة[٣]، خرجت من ظُلُمَة، فوقعت بأرض تَهَمَة[٤]، فأَكَلَتْ منها كلَّ ذات جُمْجُمة[٥]؛ فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئًا يا سَطِيح، فما عندك في تأويلها؟ قال: أَحْلِفُ بما بين الحَرَّتَين من حَنَش[٦]، لتهبِطُنَّ أرضَكم الحَبَش[٧]، فليَمْلكُنَّ ما بين أَبْيَنَ[٨] إلى جُرَش[٩]، فقال الملك: وأبيك يا سَطِيح إن هذا لنا لغَائظٌ مُوجِع، فمتى هو كائن، أفي زَماني، أو بعدَه؟ قال: لا. بل بعدَه بحين، أكثر من ستّين أو سبعين، يمضين من السنين، قال: أفَيَدوم ذلك من مُلكهم أم يَنقطِع؟ قال: لا، بل ينقطع لبِضع وسَبعين[١٠] من السنين، ثم يُقتَلون ويُخرَجون منها هاربين، قال: ومن يلي ذلك من قَتلِهم وإخراجهم؟ قال: يليه إِرم ذي يَزَن، يخرُج عليهم من عَدَن، فلا يَتركُ منهم أحداً

---

(١) يذكر عن وهب بن منبه أنه قال لسطيح: أنى لك هذا العلم، فقال: لي صاحب من الجن استمع إلى أخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله موسى، فهو يؤدي إليَّ من ذلك ما يؤديه. انظر الروض الأنف: ١: ١٨.

(٢) في سيرة ابن هشام: ١: ١٦: «فإنك إن أصبتها أصبت».

(٣) الحمة: قطعة من نار، وفي الأصل: «جمجمة» تصحيف.

(٤) التهمة: الأرض المنخفضة.

(٥) الجمجمة: الرأس.

(٦) الحرة: أرض فيها حجارة سود.

(٧) المقصود أهل الحبشة.

(٨) أبين: بلد باليمن.

(٩) جُرَش: من مخاليف اليمن من جهة مكة، وقيل: مدينة باليمن.

(١٠) في دلائل أبي نعيم ص ٨٧: «ولبضع وستين».

باليمن، قال: أفيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع، قال: ومن يقطعه؟ قال: نبيّ زكيّ، يأتيه الوَحي من قِبَل العليّ، قال: وممن هذا النبيّ؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر، يكون المُلك في قومه إلى آخر الدَّهر، قال: وهل للدهر من آخِر؟ قال: نعم، يوم يُجمَع فيه الأوّلون والآخِرون، يَسعَد فيه المُحسنون، ويَشقَى فيه المسِيئون، قال: أحقٌّ ما تُخبِرني؟ قال: نَعَم، والشَّفَق، والغَسَق، والفَلَق إذا اتَّسق؛ إن ما أنبأتك به لحَقّ.

ثم قدم عليه شِقّ فقال له كقوله لسَطِيح، وكتَمه ما قال سَطِيح، لينظر أيتَّفقان أمْ يختلفان؟ فقال[1]: نعم، رأيت حُمَمَة، خرجت من ظُلُمة، فوقعت بين روضةٍ وأكمة، فأكلت منها كل ذات نسَمَة[2].

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتَّفقا، وأن قولهما واحدٌ، فقال له الملك: ما أخطأتَ يا شِقّ منها شيئًا، فما عندك في تأويلها؟ فقال: أَحلِفُ بما بين الحرَّتين من إنسان، لينزلُنَّ أرضكم السودان، فلَيغلُبنَّ على كلِّ طَفلَة[3] البَنَان، ولَيَملُكنّ ما بينَ أَبيَنَ إلى نَجْرَان، فقال له الملك: وأبيك يا شِقّ، إن هذا لنا لغائظٌ موجع، فمتى هو كائن أفي زماني أم بعدَه؟ قال: لا، بل بعدَه بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذُو شأن، ويذيقهم أشدَّ الهوان، قال: ومن هذا العظيم الشأن؟ قال: غلام ليس بِدَنيٍّ[4] ولا مُدنٍ[5] يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن، قال: أفيدوم سلطانُه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مُرسَل، يأتي بالحق والعَدْل بين أهل الدين والفضْل، يكون المُلْك في قَومه إلى يوم الفَصْل، قال: وما يومُ الفَصْل؟ قال: يوم تُجزَى فيه الوُلاة، يدعَى فيه من السماء بدَعَوات، يُسمع فيها الأحياء والأموات، ويُجمَع فيها الناس للميقات، يكون فيه لمن اتَّقى الفوزُ والخيرات، قال: أَحَقٌ ما تقول؟ قال: إِي وربِّ السماء والأرض، وما بينهما من رَفْع وخَفْض، إنّ ما أنبأتُك به لحق ما فيه أَمَض[6]، قال: فوقع في نفس رَبيعةَ بن نَصر ما قالا، فجهّز بنِيه وأهلَ بيته إلى العراق بما يُصلِحهم، وكتب إلى مَلِكٍ من ملوك فارس يقال له سابور، فأسكنهم في الحيرة، فمن بقيةِ ولد رَبيعة بن نَصر النُّعمانُ بن المنذر.

---

(١) في الأصل: «قال».

(٢) ذات نسمة: ذات روح.

(٣) الطفلة: الناعمة، الرخصة.

(٤) الدني: المقصر في الأمور.

(٥) المدني: الذي جمع الضعف مع الدناءة.

(٦) الأمض: الشك أو الباطل.

ومن ذلك ما رُويَ أن مَرْثَد بن عبد كَلال قفَل من غَزاة غزاها بغنائمَ عظيمة، فوفَد عليه زعماء العَرَب وشعراؤها وخطباؤها يُهنّونه؛ فرفع الحجاب عن الوافدين، فأوسَعَهم عطاءً، واشتدّ سرورُه بتقريظ الخطباء والشعراء، فبينا هو على ذلك أُرِيَ في المنام رؤيا أَخافته وذعرَتْهُ وهالَتْه في حال مَنامه، فلما انتَبه أُنسِيهَا حتى ما تذكَّر منها شيئًا، وثَبت ارتياعُه في نفسه لها، فانقلب سرورُه حزنًا، فاحتجَب عن الوفود حتى أساءوا الظن به، ثم حشَد الكُهّان، فجعل يخلو بكاهن كاهن ثم يقول: أخبِرْني عما أريد أن أسألك، فيجيبُه الكاهن بأن لا علمَ عندي، حتى لم يدَع كاهنًا علمه، فتضاعف قلقُه، فقالت له أمُّه، وكانت قد تكهّنت: أبيتَ اللعن! إن الكواهن أَهدَى إلى ما تسألُ عنه، لأن أتباع الكواهن من الجن ألطَف من أتباع الكُهّان، فأمَرَ بحَشر الكواهن إليه، وسألهن كما سأل الكُهّان فلم يجد عند واحدة منهن علمَ ما أراد علمَه، فلما يئس من طَلِبته سلا عنها؛ ثم إنه بعد ذلك ذَهب يتصيّد فأوغَل في الصيد، وانفرد عن أصحابه، فرُفِعت[1] له أبياتٌ في ذُرَى جبل وقد لَفَحه الهجير[2]، فعدل إلى الأبيات، وقصَد بيتًا منها كان مُنفردًا عنها، فبرزَت إليه منه عجوزٌ فقالت: انزل بالرَّحب والسَّعَة، والأمن والدَّعَة، والجفنة المدغدعة، والعلبة المترعة، فنزل عن جواده ودخل البيت، فلما احتجب عن الشمس وخفَقَت عليه الأرواح نام فلم يستيقظ حتى تَصرَّم الهجير، فجلس يمسح عينيه فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها جمالاً وقوامًا، فقالت له: أَبَيتَ اللَّعن أيها الملك الهُمام! هل لك في الطعام؟ فاشتدّ إشفاقه، وخاف على نفسه لما رأى أنها قد عرفَتْه، وتَصامم[3] عن كلمتها، فقالت له: لا حذَر، فِداك البشر، فجدّك[4] الأكبر، وحظّنا بك الأوفر، ثم قرّبت إليه ثريدًا وقديدًا وحَيْسًا[5]، وقامت تذب عنه حتى انتهى أكله ثم سَقته لبنًا صريفًا وضَرِيبًا[6] فشرب ما شاء، وجعل يتأمّلها مقبلة ومدبرة فملأت عينيه حُسنًا، وقلبَه هَوًى، ثم قال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: اسمي عُفيراء، قال لها: من الذي دعوته الملِك الهمام؟ قالت: مرثد العظَيم الشأن، الحاشرُ الكواهِن والكُهّان، لمعضله يُعلّ بها الجان، قال: يا عُفَيراء: أتعلمين ما تلك المعضلة؟ قالت: أجل أيها الملك الهُمام، إنها رؤيا مَنان، ليست بأضغاث أحلام، قال: أصبت يا

(١) رفعت: بدت، ظهرت، لاحت.
(٢) الهجير: حرّ الظهيرة.
(٣) تصامم: تظاهر بالصمم وعدم السماع.
(٤) الجد: الحظ.
(٥) الحيس: ضرب من الطعام.
(٦) الضريب: الشهد.

عُفيراء، فما تلك الرؤيا؟ قالت: رأيت أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دُخان ساطع، يقفوها نهر مُتدافع، وسمعتَ فيما أنت سامع، دعاء ذي جرس صادع[١]: هلمّوا إلى المشارع[٢]، هَلمّوا إلى المشارع، رَوِيٌّ جارع[٣]، وغَرَق كارع[٤]. قال الملك: أجل هذه رؤياي! فما تأويلها يا عفيراء؟ قالت: الأعاصير الزوابع، ملوكُ تَبابع، والنهر علم واسع، والداعي نبي شافع، والجارع وليّ له تابع، والكارع عدوّ له منازع، قال: يا عفيراء أَسَلْمٌ هذا النبيّ أم حرب؟ قالت: أَقسِم برافع السماء، ومُنزل الماء[٥] من العماء، إنه لمُبطِل الدماء، ومُنطق العقائل نطق الإماء. قال الملك: إلام يدعو يا عُفَيْراء؟ قالت: إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام[٦]، واجتناب آثام، قال الملك: يا عفيراء، مَن قومُه؟ قالت: مضر بن نِزار، ولهم مِنه ولهم مِنه نقع[٧] مثار، يتَجَلّى عن ذَبح وإسار، قال: يا عُفيراء: إذا ذَبح قومه فمن أَعضادُه؟ قالت: أعضادُه غطارِيف يمانون، طائرهم به ميمون يعز بهم فيعزّون، ويُدمِّث بهم الحزون[٨]، فإلى نَصره يعتزون، فأطرق الملك يؤامر نفسه في خطبتها، فقالت: أبيتَ اللّعن! إن تابعي غيور، ولأمري صبور، وناكحي مقبور، والكَلف بي ثُبور[٩]. فنهَض الملك مُبادرًا، فجال في صهوة جَواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كوماء[١٠].

ويشبه ما ذكرناه رؤيا الموبِذان وقد تقدّمت في أخبار الكهان.

ومن ذلك ما روي عن لهيب بن مالك اللّهبيّ[١١] أنه قال: حضرتُ عند رسول الله ﷺ، فذكِرت الكهانة فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! نحن أوّلُ من عرف حِراسة السماء وزجر الشياطين، ومنعَهم من استراق السمع عند القذف بالنجوم، وذلك

---

(١) صادع: مسموع الكلمة.
(٢) المشارع: منابع المياه.
(٣) جارع: من جرع.
(٤) الكارع: الذي يخوض الماء، شرب أم لم يشرب (اللسان: كرع).
(٥) في الأصل «ومنزل العماء»، والذي أثبت عن تاريخ الخميس: ١: ٢٩.
(٦) الأزلام: السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها.
(٧) نقع مثار: الغبار المتطاير.
(٨) الحزون: المكان الصعب الخشن.
(٩) الثبور: الويل.
(١٠) ناقة كوماء: عظيمة السنام طويلته (اللسان: كوم).
(١١) لُهَيب بن مالك: اللهبي، ويقال لهب: روى خبرًا عجيبًا في الكهانة. وأعلام النبوة، وفيه قال رسول الله ﷺ. وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده. (راجع الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٣: ٣٣٠).

أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خَطَر بن مالك، وكان شيخًا كبيرًا قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة، وكان أعلم كُهّاننا، فقلنا له: يا خطر، هل عندك علم من هذه النجوم التي يُرْمَى بها، فإنا قد فزعنا لها، وقد خفنا سوءَ عاقبتها، فقال: ائتوني بسَحر[١] أخبرُكم الخبرَ، بخيرٍ أم ضرر، وأمْنٍ أم حَذَر؛ قال: فانصرفنا عنه يومَنا، فلما كان من غدٍ في وجه السَّحَر أتيناه، فإذا هو قائم على قدَميه شاخص إلى السماء بعينَيه. فناديناه يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسِكوا فأمسكنا، فانقضَّ نجم من السماء عظيم؛ فصرخَ الكاهن: أصابَه إصابهُ[٢]، خامَره عقابُه، عاجله عذابه، أحرقَه شهابُه، زايلَه جوابُه، يا ويله ما حالُه، بَلْبَلَه بَلْبَالُه[٣] عاوده خَبالُه[٤]، تقطعت حِباله، وغيرت أحواله؛ ثم أمسك طويلًا، ثم قال: يا معشَر بني قَحطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسمتُ بالكعبة ذاتِ الأركان، والبلدَ المؤتمن السكان[٥]. قد منع السمعَ عتاةُ الجان، بثاقبٍ بكفّ ذي سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشأن، يبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهُدَى وفاضل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان. قال: قلنا يا خَطَر، إنك لتذكر أمرًا عجيبًا، فماذا تَرى لقومك؟ فقال: [من الرجز]

أرى لقومي ما أرى لنفسي — أن يتبعوا خير بني الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس — يبعث من مكّة دار الحُمِس[٦]
* بمحكم التنزيل غير اللبس[٧] *

قلنا: يا خطر، وممّ هو؟ فقال: والحياةِ والعيْش، إنه لمن قُريش. ما في حكمه طيش، ولا في خُلُقه هيش[٨]، يكون في جيش وأيّ جيش، من آل قحطان وآل رَيْش[٩]، قال: قلنا بيّن لنا من أيّ قريش هو؟ قال: والبيت ذي الدَّعائم، والرُّكن والأحائم[١٠]،

(١) في السيرة الحلبية: ١: ٢٠٨: «ائتوني قبيل الفجر».
(٢) إصابة: جمع وصب، كجمل، وجمال، فالهمزة بدل من الواو. عن السيرة الحلبية: ١: ٢٠٨. والمعروف أن جمع وصب أوصاب. وهو التعب.
(٣) البلبال: الغم.
(٤) الخبال: الوهم.
(٥) في السيرة الحلبية: ١: ٢٠٨: «السدان»، والسدان: الخدم.
(٦) الحُمْس: هم قريش.
(٧) اللبس: الغامض.
(٨) أي ليس في طبيعته وسجيته قول قبيح، السيرة الحلبية: ١: ٢٠٩.
(٩) آل رَيْش: قبيلة من الجن، السيرة الحلبية: ١: ٢٠٩.
(١٠) الأحائم: جمع الجمع لـ «حوم»، ويريد بها بئر زمزم.

إنه لمن نَجل هاشم، من معشرٍ أكارم، يُبعث بالملاحم، وقتلِ كلّ ظالم؛ ثم قال: هذا هو البيان، أخبرَني بي رئيس الجانُّ، ثم قال: الله أكبر، جاء الحق وظهَر، وانقطع عن الجنّ الخبَر، ثم سكَت فأُغمى عليه، فما أفاق إلا بعد ثلاث فقال: لا إلٰه إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «لقد نطق عن مثل نُبوّة، وإنه ليُبْعث يوم القيامة أمةً وحده»، والله أعلم.

ومنه ما روِي أن سفيان بن مُجاشع بن دارِم احتمل دياتِ دماءٍ كانت من قومه، فخرج يستعين فيها، فدفع إلى حَيّ من تميم، فإذا هم مجتمعون إلى كاهنة تقول: «العزيزُ من وَالاه، والذَّليل من خالاه، والموفور من مَالاه، والموتُور من عَاداه»؛ قال سفيان: من تذكُرين لله أبوك؟ فقالت: «صاحبَ حِلّ وحرم، وهدي وعلم وبطشٍ وحِلم، وحرب وسَلْم، رأس رؤوس، ورائض يموس[1]، وماحي بوس، وماهد وُعُوس»، و«ناعِشٍ منعوس»، قال سفيان: من هو لله أبوك؟ قالت: «نبيّ مؤيّد، قد آن حين يوجد، ودنا أوان يولد، يبعث إلى الأحمر والأسود، بكتاب لا يفنّد، اسمه محمد»؛ قال سفيان: لله أبوك أعربيّ هو أم أعجميّ؟ قالت: «أما والسماء ذات العَنان، والشجر ذاتِ الأفنان، إنه لمن مَعَدّ بن عدنان، فقدْك يا سفيان»؛ فأمسك سفيان عن سؤالها، ثم إن سفيان وُلِد له غلام فسماه محمدًا لِما رجاه من أن يكون النبيَّ الموصوف.

ومنه ما رُوي أن عَمرو بن مَعد يكرب[2] عوتب على ارتداده عن الإسلام فقال: واللّهِ ما هو إلا الشَّقاء، ولقد علِمت أن محمدًا رسولُ الله قبل أن يوحَى إليه، قيل: وكيف كان ذلك يا أبا ثور؟ قال: حدثَ بين بني زُبَيد تَناجُش[3] وتَظالُم، ونما إلى أن سفك بعضهم دماء بعضٍ، ففزع[4] حلماؤهم إلى كاهنٍ لهم رجَوا أن يكون عنده المخرَج مما نزل بهم، فقال الكاهن: «أُقسِم بالسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الأدراج، والريح ذات العَجاج[5]، والبِحار ذات الأمواج، والجبال ذات الفجاج[6]، إنّ

---

(١) كذا، ولعله «يسوس».

(٢) عمر بن معد يكرب: بن عبد الله بن عمر بن عاصم. الزبيدي، الشاعر الفارس المشهور، يكنى أبا ثور. قدم على رسول الله ﷺ في وفد زبيد فأسلم. ولما مات النبي ﷺ ارتد عمرو، ثم عاود الإسلام، وشهد فتوح الشام وفتوح العراق. . (الإصابة في تمييز الصحابة، رقم الترجمة ٥٩٧٠).

(٣) تناجُش: تنافس.

(٤) فزع: لجأ.

(٥) العجاج: الغبار.

(٦) الفجاج: الأودية.

هذا الإمراج والارتجاج، لِلَقاح ذو نتَاج»؛ قالوا: وما نَتاجُه؟ قالت: «ظهور نبيّ صادق، بكتاب ناطق، وحسام والق»، قالوا: أين يظهر؟ وإلاَم يدعو؟ قال: «يظهر بصلاح؛ ويدعو إلى الفَلاح، ويُعطِّل القداح، وينهَى عن الرَّاح[1] والسِّفاح، وعن كل أمر قُباح»؛ قالوا: ممن هو؟ قال: «من وَلد الشيخ الأكرم، حافِر زَمزَم، ومُطعم الطير الحُوَّم، والسباع الصُوَّم»؛ قالوا: وما اسمه؟ قال: «اسمه محمد، وعزّه سَرمَد[2]، وخَصمه مُكمَد».

فهذه جملة كافية من أخبار الكُهّان. فلنذكر ما نطق به الجانّ من أجواف الأصنام، وما سُمِع من الهواتف، والله المستعان.

وأما مَن بشّر به عليه الصلاة والسلام من الجانّ الذين نطقوا من أجواف الأصنام وما سمع من العتائر[3].

فمن ذلك ما رُوِي عن عبد الله بنَ عباس رضي الله عنهما في سبب إسلام عمر، وأنه كان قد ضمِن لقريش قتلَ النبيّ ﷺ، وخرج لذلك، فمرّ بقوم من خُزاعة وقد اعتمدوا صنَمًا لهم يريدون أن يتحاكموا إليه، فقالوا لعمر: أُدخل لتشهَدَ الحكم، فدخل معهم، فلما مثلوا بين يدي الصّنَم سمعوا هاتفًا من جوفه يقول: [من الرجز]

يــا أيــهــا الــنــاس ذوو الأجــســامِ ... مــا أنــتُــم وطــائــش الأحــلامِ[4]
ومُــســنــد الــحــكــم إلــى الأصــنــامِ ... أصــبــحــتُــم كــراتِــع الأنــعــامِ[5]
أمــا تــرون مــا أرى أمــامِــي ... مــن ساطِــع يــجــلــو دُجَــى الــظــلامِ
قــد لاحَ لــلــنــاظــر مــن تــهــامِ ... وقــد بــدا لــلــنــاظــر الــشــآمــي
مــحــمــد ذو الــبِــرّ والإكــرام ... أكــرَمــه الــرحــمٰــن مــن إمــامِ
قــد جــاء بــعــدَ الــشّــرك بــالإســلامِ ... يــأمــر بــالــصــلاة والــصــيــامِ
والــبِــرّ والــصِّــلات لــلأرحــام ... ويــزجُــر الــنــاسَ عــن الآثــام
فــبــادِروا سَــبــقًــا إل الإســلام ... بــلا فــتــورٍ وبــلا إحــجــام

قال: فتفرّق القوم عن الصنم ولم يحضُره يومئذٍ أحد إلاّ أسلم؛ ثم ذكر ابن

---

(١) الراح والسفاح: الراح الخمر، والسفاح: سفك الدم.

(٢) سرمد: دائم، أبدي.

(٣) العتائر: واحدتها: عتيرة، وهي الشاة التي تنذر وتذبح (اللسان: عتر).

(٤) رواية الأبيات بهذه الصورة في شرح المواهب: ١: ٢٧٦، وفي السيرة الحلبية: ١: ٢٠٣. تختلف روايتها عما هنا زيادة ونقصًا، انظر دلائل أبي نعيم ص ٧٨.

(٥) أي كالبهائم.

عباس انطلاقَ عمر إلى منزلِ أخته على ما نذكر ذلك أو نحوَه عِند ذكرنا إسلامَ عمر رضي الله عنه.

قال: ثم خرج لقصدِ النبيّ ﷺ، فلقيه رجال من بني سُليم[١] قد تنافروا إلى صَنَم لهم ليحكم بينهم اسمه الضِّمار، فدعَوا عمر إلى الدخول معهم إليه ففعل، فلما وقَفوا بين يدي الصَّنَم سمِعوا هاتفًا من جوفه يقول: [من الكامل]

أودَى الضِّمار وكان يُعبَد مرّةً ... قبلَ الكتاب وقبلَ بعث محمد[٢]
إن الذي ورِث النبوّة والهدَى ... بعد ابن مريمَ من قُريش مهتدِي
سَيقُول من عَبَد الضِّمار ومثله ... ليت الضِّمار ومثله لم يُعبَد
أبشر أبا حفصٍ بدينٍ صادقٍ ... تهدى إليه بالكتاب المرشِد
واصبر أبا حفصٍ قليلاً إنه ... يأتيك عن فَرَق أعزُّ بني عدِي[٣]
لا تعجلنّ فأنت ناصرُ دِينه ... حقًّا يقينًا باللسان وبِاليدِ

قال: فعجِب القوم منه ونكّسه عمر، وغيَّر الله ما في صدره من عدَواة رسول الله ﷺ.

ومنه ما روِي أو وائل بن حُجْر وكان ملِكًا مُطاعًا، وكان له صنَم من العقِيق الأحمر يعبده ويحبّه حبًّا شديدًا، ولم يكن يُكَلَّم منه، إلا أنه كان يرجو ذلك، فيكثِر له السجود، ويَعْتر له العتائر، فبينا هو نائم في الظهيرة أيقظه صوت مُنكَر من المخدع الذي فيه الصّنَم، فقام من مضجعه وأتاه فسجد أمامه، فإذا قائل يقول: [من الرجز]

يا عجبًا لوائِلِ بن حُجْرِ ... يُخَالُ يدرِي وهو ليس يدرِي
ما يرجّى من نَحيت صخرِ ... ليس بذِي عُرْفٍ ولا ذي نكرِ[٤]
ولا بذِي نفع ولا ذي ضرِّ ... لو كان ذا حِجْرٍ أطاع أمري[٥]

قال وائل: فرفعت رأسي واستويتُ جالسًا، ثم قلت: قد أسمعتَ أيها الناصِح، فماذا تأمرني؟ فقال: [من الرجز]

---

(١) في السيرة الحلبية: ١: ٢٠٠: «... عباس بن مرداس قال: كان لمرداس السلمي وثن يعبده يقال له خمار».
(٢) أودى: لم تعد ترجى عودته.
(٣) الفَرَق: الخوف.
(٤) أي لا يفقه ولا يعي.
(٥) الحجر: العقل.

ارحـل إلـى يـثـرب ذات الـنّـخـلِ وسِـر إلـيـهـا سـيـرَ مُـشـمـعِـلِّ
تـدِن بـدِيـن[1] الـصـائـم الـمـصـلّـي مـحـمـدِ الـمـرسَـل خـيـرِ الـرُّسْـلِ

قال وائل: ثم خرّ الصنم بوجهِه فانكسر أنفه، واندقّت عنقه، فقمت إليه فجعلته رُفاتًا، ثم سرت مسرعًا حتى أتيت المدينة؛ وذكر إسلامَه بين يدي النبي ﷺ. والله المعين.

ومنه خبر مازن الطائي في سبب إسلامه

رواه البيهقي في دلائل النبوّة بسندٍ قال: كان مازن الطائيّ بأرض عمان بقرية تدعى سمايل[2]، وكان يسدن الأصنام لأهله، وكان له صنَم يقال له بَاجَر، قال مازن: فعتَرت ذات يوم عَتِيرة، والعَتيرة: الذبيحة، فسمعتُ صوتًا من الصنم يقول: يا مازن: أقبِل إليّ أقبل، تسمع ما لا يجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق منزل، فآمِنْ به كي تعدل، عن حرّ نار تُشعل، وقودها بالجندل[3].

قال مازن: فقلت والله إن هذا لعَجَب، ثم عترت بعد عشرة أيام عتيرة أخرى، فسمعت صوتًا آخر أبينَ من الأوّل وهو يقول: يا مازن اسمع تسرّ، ظَهَر خير وبَطَن شرّ، بعث نبيّ من مضر، بدين الله الكَبر، فدع نَحيتًا من حجر، تسلم من حرّ سَقَر[4]؛ قال مازن: فقلت: إن هذا والله لعجَب، إنه لخَيرٌ يُراد بي؛ وقدم علينا رجل من أهل الحجاز فقلنا: ما الخبر وراءك؟ قال: خرج رجل بتهامة يقول لمن أتاه: أجيبوا داعي الله عز وجلّ، يقال له أحمد، قال: فقلت: هذا والله نبأُ ما سمعت، فثرت إلى الصنم فكسّرته أجذاذًا[5]، وشدَدت راحلتي ورحلت، حتى أتيت رسول الله ﷺ، فشرح إليّ الإسلام فأسلمت، وأنشأت أقول: [من البسيط]

كـسـرتُ بـاجـر أجـذاذًا وكـان لـنـا ربًّـا نـطـيـف بـه ضـلًّا بـتـضـلالِ
فـالـهـاشـمـيّ هـدانـا مـن ضـلالـتـنـا ولـم يـكـن ديـنـه مـنّـي عـلـى بـال
يـا راكـبًـا بـلِّـغـن عـمـرًا وإخـوتـه أنـي لـمـا قـال رَبّـي بَـاجَـرٌ قـالـي[6]

---

(١) في السيرة الحلبية: «تدين دين». ١: ٢٠٦.
(٢) سحائل: اسم قرية، ويقال بالشين، وهي من أرض عمان.
(٣) الجندل: صخرة مثل رأس الإنسان، وقيل: الشديد من كل شيء. (اللسان: جندل).
(٤) سقر: من أسماء جهنم.
(٥) أجذاذًا: قطعًا.
(٦) في دلائل أبي نعيم ص ٧٧. والسيرة الحلبية ١: ٢٠١. عمرا وأخوتها، ويعني بعمرو وأخوتها بني الصامت وبني خطامة، وهي بطن من طيء.

قال: مازن: فقلت: «يا رسول الله، إني امرؤ مولَع بالطَرب وشرب الخمر، وبالهلوك[١] من النساء، وألحَّت علينا السنون[٢] فأذهبن الأموال، وأهزان الذراري والرجال، وليس لي ولد، فادْعُ الله أن يذهب عني ما أجد، ويأتيني بالحيا، ويهب لي ولدًا، فقال النبي ﷺ: «اللهم أبدله بالطَّرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، وبالخمر رِيًّا لا إثم فيه، وبالعُهْرِ عِفّة الفَرْج[٣] وائته بالحيا، وهب له ولدًا». قال مازن: فأذهب الله عني كل ما أجد، وأخصبت عمان، وتزوجت أربع حرائر، ووُهب لي حيان بن مازن، وأنشأت أقول: [من الطويل]

إليك رسولَ الله خبَّت مطيّتي | تجوب الفَيافِي من عُمانَ إلى العَرْج[٤]
لتشفع لي يا خيرَ من وطِيء الحصا | فيغفرَ لي ربي فارجَع بالفُلْج[٥]
إلى معشَرٍ خالفتُ في الله دينَهم | فلا رأيهم رأيي ولا شَرجُهم شَرْجي[٦]
وكنت أمرأً بالعُهْر والخمر مولَعًا | شبابيَ حتى آذنَ الجسم بالنّهج[٧]
فبدّلني بالخمر خوفًا وخشية | وبالعُهْر إحصانًا وحَصَّن لي فرجي[٨]
فأصبحتُ همِّي في جهادٍ ونيّتي | فللّه ما صَومي والله ما حَجّي

قال مازن: فلما رجعت إلى قومي أنّبوني وشتموني، وأمروا شاعرهم فهجاني، فقلت إن هجوتهم فإنما أهجو نفسي، فتركتهم، قال: ثم إن القوم ندموا وكنت القيِّم بأمورهم، فقالوا: ما عسى أن نصنَع به، فجاءني منهم أَزفَلة[٩] عظيمة فقالوا: يا بن عمّ، عِبْنا عليك أمرًا فنهيناك عنه، فإذا أبيتَ فنحن تاركوك، ارجع مَعنا، فرجعتُ معهم، فأسلمُوا بعدُ كلّهم.

ومازن هذا هو الذي أقطعه رسول الله ﷺ أرض عمان.

ومنه ما روي عن جبير بن مُطْعِم عن أبيهِ قال: كنا جلوسًا عند صنَم لنا، فإذا

---

(١) ألحت علينا السنون: دامت علينا أيام القحط.
(٢) الهلوك: الهلوك من النساء الفاجرة.
(٣) عن عيون الأثر: ١: ٧٦، والسيرة الحلبية ١: ٢٠١.
(٤) العرج: موضع بين مكة والمدينة.
(٥) الفلج: الفوز والظفر.
(٦) الشرج: الشكل والطريق.
(٧) النهج: البلى.
(٨) الإحصان: العفة.
(٩) الأزفلة: الجماعة من الناس.

صائح يصيح من جوفه: اسمعوا إلى العَجَب، وتوقّعوا حادثًا قد اقترب، استراق السمع ذهب، وتُرمَى الجنُّ بالشُّهب، لنبيّ من العرب، هاشميّ النسب؛ مولده بمكّة، ومُهاجَره يَثرب؛ قال: وهذا قبل أن يظهر أمر رسول الله ﷺ.

ومنه ما روي عن عبد الله بن ساعدة الهذلي أنه قال: كنا نعبد صنمًا يقال له سُواع، وكانت لي غَنَم، فجرِبت، فسقتُها إليه وأدنيتها منه أرجو بركته، فسمعت مناديًا من جوف الصَّنم يقول: العجب كل العجَب، سُدِلت الحجب، ورميت الجن بالشُّهب، وسقطت النُّصُب[١]، ونزل خير الكُتب، على خير العرب؛ قال: فسقت غنمي وعدتُ إلى أهلي، وقد بُغّضَت إليّ الأوثان، فجعلت أنقّب عن الحوادث حتى بلَغني ظهور رسول الله ﷺ، فأتيته فأسلمت.

وسنذكر إن شاء الله تعالى في خبر إسلام الجن ما هتفوا به فأسلم بسببه من أسلَم لمّا سمِعوا ـ ما تَقِف عليه هناك.

وحيث ذكرنا ما ذكرنا من المبشّرات، فلنذكر مبعثه ﷺ.

ذكر مَبعَث رسول الله ﷺ وما بدىء به من النبوّة

روِي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوّة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يَرَى رسول الله ﷺ رُؤيا في نوم إلا جاءت كَفَلَق الصُّبح[٢]، وحبب الله إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

وروَى محمد بن إسحاق بن يسار المطّلبي عن عبد الملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن حارثة الثقفيّ، وكان واعية[٣]، عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوّة؛ كان إذا خرج لحاجته أبعَدَ حتى تحسر عنه البيوت[٤]، ويُفضي إلى شعاب[٥] مكّة وبطون أوديتها، فلا يمرّ بحَجَرٍ ولا شجرٍ إلا قال: السلام عليك يا رسولَ الله، فيلتفتُ حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة؛ فمكث ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحِراء في شهر رمضان.

---

(١) النصب: صنم أو حجر.
(٢) فلق الصبح: ضياؤه.
(٣) الواعية: الحافظ الفقيه.
(٤) تحسر عنه: تبعد عنه.
(٥) الشعاب: المواضع الخفية بين الجبال.

وعن البَراء بن عازب رضي الله عنه قال: بعث اللّهُ محمدًا ﷺ وله يومئذٍ أربعون سنة ويوم، فأتاه جبريل ليلةَ السبت وليلةَ الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان في حِراء، وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن.

وحكى أبو عمر بن عبد البرّ أن محمدَ بن موسى الخُوارزميّ قال: بُعث نبينا ﷺ يوم الاثنين لثمانٍ خلت من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. فكان من مَولِدِه إلى أن بعثه الله عز وجلّ أربعون سنة ويوم.

وعن عبد الله بن الزبير وغيره: كان رسول الله ﷺ يجاور في حِراء [شهرًا](١) من كل سنة، يطعم مَنْ جاءه من المساكين، فإذا قضَى ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أولَ ما يبدأ به ـ إذا انصرَف من جِواره ـ الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه من كرامته ما أراد، من السنة التي بَعَثه فيها، وذلك في شهر رمضان، خرج ﷺ إلى حِراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهلُه، حتى إذا كانت الليلةُ التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العبادَ بها، جاءه جبريل بأمر الله؛ قال رسول الله ﷺ: «جاءني وأنا نائم بنمطٍ(٢) من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ؛ قال(٣): قلت: ما أقرأ؟ قال: فغَتَّنِي(٤) به حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال فغَتَّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ؛ قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]». قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني، وهَببت من نومي، فكأنّما كُتب في قلبي كتابًا؛ قال: فخرجت حتى إذا كنتُ في وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي أنظر [إلى السماء](٥)؛ فإذا جبريل في صورة رجُل صافّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، [قال](٦): فوقفتُ أنظر إليه، فما أتقدّم وما أتأخر، وجعلتُ أصرف وجهي [عنه](٧) في آفاق السماء، فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما

---

(١) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٠. وحراء جبل على ثلاثة أميال من مكة. (معجم البلدان: ٣: ٢٣٩).
(٢) نمط من ديباج: ضرب من الثياب المصبغة.
(٣) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٢.
(٤) فغتني: وفي رواية فغطني، أي عصرني عصرًا شديدًا.
(٥) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٣.
(٦) و(٧) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٢، ٢٥٣.

أتقدّم أمامي، وما أرجع ورائي حتى بَعَثت خديجة رُسلَها في طلبي، فبلغوا [أعلى][(١)] مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك؛ ثم انصرف عني.

وانصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها [مضيفًا إليها][(٢)] فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا [أعلى][(٣)] مكة ورجعوا إليّ، فحدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا بنَ عمّ واثبُت، فوالذي نفسُ خديجةَ بيده إني لأرجونّ أن تكون نبيّ هذه الأمة.

ثم قامت فجمعتْ عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى وَرَقَة بن نَوفل بن أَسَد بن عبد العُزَّى، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبَرَتْه بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمِع، فقال ورقة: قُدُّوس قُدُّوس، والذي نفسُ ورقَةَ بيده، لئن كنتِ صَدَقْتِني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسَى، وإنه لنبيّ هذه الأمة، فقولي له فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورَقة بن نَوفَل، فلما قضَى رسول الله ﷺ جِواره وانصرف صنع كما كان يصنع؛ بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: يأبن أخي، أخبرني بما رأيتَ وسمعت، فأخبَره رسول الله ﷺ؛ فقال له وَرَقَة: والذي نفسي بيده إنك لنَبيُّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكَذِّبَنّه، وَلَتُؤْذَيَنَّهْ، وَلَتُخْرَجَنَّهْ، وَلَتُقَاتَلَنَّهْ[(٤)]، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم، لأنصُرَنَّ الله نصرًا يعلمُه، ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخَه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

وذكر الإمام العدل سليمان التَيميّ في سِيرَه أن النبي ﷺ حين أخبر خديجةَ عن جبريل، ولم تكن سَمِعت باسمه قطّ، ركِبت[(٥)] إلى بَحِيرا الرّاهب إلى الشام، قال الزهريّ: هو حَبر من يهود تيماء، فسألته عن جبريل، فقال لها: قدّوس قدّوس، يا سيدة نِساء قُرَيش، أنَّى لك بِهذا الاسم؟ فقالت: بَعْلِي ابن عمّي أخبرني أنه يأتيه، فقال: قدّوس قدّوس ما عَلِم به إلا نبيّ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشياطين لا تجترىء أن تتمثَّل به ولا تتسمَّى به.

وكان غلامٌ لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس اسمه عدّاس من أهل نِينَوَى[(٦)] مدينة

(١) و(٢) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٢، ٢٥٣.
(٣) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٢، ٢٥٣.
(٤) الهاء المتصلة بهذه الأفعال للسكت.
(٥) في السيرة الحلبية: ١: ٢٤٤: «كتبت إلى بحيرا».
(٦) معجم البلدان: ٨: ٣٦٨.

يونس عليه السلام، عنده عِلم من الكتاب أرسلت تسأله عن جبريل فقال: قدّوس [قدّوس][١] أنّى لهذه البلاد بِذكر جبريل يا سيدةَ قُريش؟ فأخبرته بقول النبي ﷺ، فقال عدّاس مثلَ قول الراهب.

وروى البخاريّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه[٢] بإسناد عن هِشام بنِ عُروة عن أبيه، عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: أنّ الحارث بن هِشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَة[٣] الجَرَس وهو أشدّه عليّ، فيفصِم[٤] عني وقد وَعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي المَلك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد[٥] عَرَقًا.

وبسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أوّلُ ما بدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يَرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يلحق بغارِ[٦] حراء، فيتحنَّث فيه، وهو التعبُّد الليالي ذواتِ العدد قبل أن ينزِع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلِها، حى جاء الحق وهو في غار حِراء، فجاءه المَلَك فقال: اِقرأ، قال: قلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٤] فرجع بها رسول الله ﷺ يَرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خُويلد، فقال: زمّلوني زمّلوني[٧]، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلاّ والله، ما يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصِل الرَّحِم، وتحمِل الكَلّ[٨]، وتكسِب المعدوم، وتَقرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى

(١) عن السيرة الحلبية: ١: ٢٤٣.
(٢) صحيح البخاري: ١: ٦.
(٣) الصلصلة: صوت الحديد.
(٤) يفضم عني: يقلع.
(٥) يتفصد: يسيل عرقًا.
(٦) غار حراء: غار في جبل حراء.
(٧) زملوني: لفوني بالثوب.
(٨) الكلّ: الإعياء والتعب.

أتت به ورقةَ بن نوفَل بن أسَد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة، وكان أمرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبرانيّ، فيكتب من الإنجيل بالعِبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمِي، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسَى، يا ليتني فيها جذعاً[١]، ليتني أكون حيًا إذ يُخرجك قومُك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مُخرِجيّ هم»؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي وإن يُدركْني يومُك أنصُرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشَب[٢] ورقة أن تُوفي، وفتَر[٣] الوحي.

قال ابن شهاب[٤]: وأخبرني أبو سلَمة بن عبد الرحمٰن أن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال وهو يحدّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعت بصري فإذا الملَك الذي جاءني بِحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، فرعِبت منه، فرجعت فقلت: زَمّلوني زَمّلوني، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] فحمي الوحي وتتابع.

قال محمد بن إسحاق:

وحدّثني إسماعيل بن أبي حكيم مولى آل الزُّبَير أنه حُدِّث عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ: أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني قالت: قم يا بن عم فاجلِس على فخذي اليُسْرَى، فقام فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل فاْقعد على فخذي اليمنى، قال: فتحَوَّل فقعد على فخذِها اليمنَى، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوَّل فاجلس في حِجري، فتحوَّل فجلس في حِجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: نعم: قال: فَحَسَرتْ[٥] وألقت خِمارها ورسولُ الله ﷺ جالس في

(١) جذعًا: حدثًا ـ صغيرًا.
(٢) لم ينشب: لم يلبث.
(٣) فتر: سكن، انقطع.
(٤) ابن شهاب: الحسن بن شهاب بن الحسن بن علي بن شهاب العكبري، أبو علي (٣٣٥ ـ ٤٢٨ هـ = ٩٤٦ ـ ١٠٣٧ م).. من أهل عكبرا مولدًا ووفاة، له مصنفات في «الفقه» و«الفرائض» و«النحو»، وله شعر جيد (الأعلام: ٢: ١٩٣).
(٥) فحسرت: كشفت.

حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا بن عمّ: أُثبُت وأبشِر، فوالله إِنه لملَك، ما هذا بشيطان.

وكانت خديجة رضي الله عنها أوّل من آمن بالله وبرسوله وصدّق بما جاء به. وحكى أبو عمر بن عبد البر أن رسول الله ﷺ أسرّ أمره ثلاث سنين ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه والدعاء إليه، فأظهره بعد ثلاث سنين من مبعثه. قال: وقال الشعبي: أُخْبِرتُ أن إسرافيل تراءى له ثلاثَ سنين. وروَى ابن عبد البر بسنده إلى الشعبيّ قال: بُعث رسول الله ﷺ لأربعين، ووُكّل به إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين، ثم وُكّل به جبريل عليه السلام. وفي روايةٍ عنه: ثم بُعث إليه جبريل بالرسالة. وعنه أيضًا قال: أنزلت عليه النبوّة وهو ابن أربعين، فقرن نبوّتَه إسرافيل عليه السلام ثلاثَ سنين، وكان يعلّمه الكلمةَ والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل عليه السلام، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة.

ذكر فترة الوحي عن النبيّ ﷺ وما أُنزل بعد فترته

قال[(١)]: وفتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة حتى شَقّ ذلك عليه وأحزنه. واختُلف في مدة فترة الوَحي، فقال ابن جُرَيج[(٢)]: احتَبَس عنه الوحي اثني عشر يومًا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خمسةَ عشر يومًا، وقيل: خمسة وعشرين، وقال مُقاتل: أربعين يومًا، والله أعلم.

رَوَى البخاريّ[(٣)] ـ رحمه الله ـ عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وساق الحديث بنحو ما تقدّم، قال: وفترة الوحي فترة حتى حزِن النبي ﷺ فيما بلغنا حزنًا غدا منه مِرارًا كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أَوفَى بِذروة جبل لكي يُلقي نفسه منه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه،

(١) القائل: ابن إسحاق. وانظر سيرة ابن هشام: ١: ٣٥٧.

(٢) ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد وأبو خالد (٨٠ ـ ١٥٠ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) فقيه الحرم المكي. وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة. رومي الأصل، من موالي قريش، مكي المولد والوفاة.. (الأعلام: ٤: ١٦٠).

(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، البخاري، أبو عبد الله (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ = ٨١٠ ـ ٨٧٠ م): حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ. صاحب «الجامع الصحيح» المعروف: بصحيح البخاري. ولد في بخارى، ونشأ يتيمًا وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ م في طلب الحديث. مات في سمرقند، وكتابه في الحديث أوثق الكتب الستة المعول عليها (الأعلام: ٦: ٣٤).

وتقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفَى بذِروة جبل تبدَّى له جبريل وقال له مثل ذلك. قال: وتكلم المشركون عنده فَترة الوحي بكلام، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١ـ ٣] السورةَ بكمالها؛ وقيل في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان تَركَ قيام الليل ليلَتَيْن أو ثلاثًا لشكوى(١) أصابتْه، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانُك قد تَركك لم أره قَرَبَك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله تعالى السورة.

قال القاضي أبو الفضْل عياض بن موسى رحمه الله في كتابه المترجَم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى): تضمّنت هذه السّورة من كرامة الله تعالى لنَبِيِّه وتنويهه به وتعظيمه إياه ستّة وجوه:

الأول ـ القَسَم له عما أخبر به من حاله بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي وربِّ الضحى، وهذا لَمِنْ عِظَمِ درجات المبرّة.

الثاني ـ بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ أي ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهمَلَك بعد أن ٱصطفاك.

الثالث ـ قوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

قال ابن إسحاق: أي ما لك في مَرجعك عند الله أعظم مما أعطاك الله من كرامة الدنيا. وقال سهل: أي ما ذخرتُ لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع ـ قوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدّارين والزّيادة.

قال ابن إسحاق: يُرْضِيه بالفَلْج(٢) في الدّنيا والثواب في الآخرة. وقيل: يُعْطيه الحوضَ والشفاعة، ورُوِي عن بعضِ آل النبي ﷺ(٣) أنه قال: «ليس في القرآن آية أرجَى منها، ولا يَرضى رسولُ الله ﷺ أن يدخلَ أحد من أُمّته النار».

الخامس ـ ما عدّه الله تعالى عليه من نِعمه، وقَرَّره من آلائه قِبَله في بقِية السورة، من هدايته إلى ما هداه له، أو هدايةِ الناس به على ٱختلاف التفاسير، ولا مالَ

---

(١) الشكوى: المرض.
(٢) الفلح: الظفر والفوز.
(٣) هو علي بن أبي طالب، أو الحسن بن محمد ابن الحنفية. انظر نسيم الرياض: ١: ٢٠٧.

له فأغناه بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، ويتيمًا فحدِب عليه عمُّه وآواه إليه، وقيل: آواه إلى الله، وقيل: يتيمًا لا مثالَ لك فآواك إليه، وقيل: المعنى ألم يَجِدْك فهدى بك ضالاً، وأغنى بك عائلاً، وآوى بك يتيمًا، ذكَّره بهذه المِنن، وأنه ـ على المعلوم من التفسير ـ لم يهمِله في حالِ صغره وغَيلته، ويُتْمه، وقبل معرفتِه به ولا ودّعه ولا قَلَاه، فكيف بعد اختصاصِه واصطفائه. والله أعلم.

السادس ـ أمْرُه بإظهار نعمته عليه، وشكر ما شرّفه به بِنشره وإشادة ذكره بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، فإنّ مِنْ شكر النعمة التحَدُّثَ بها، وهذا خاصّ له، عامّ لأمتهِ.

وقال ابن إسحاق[١]: أي بما جاءك مِن الله من نعمته وكرامتِه من النبوّة، فحدّث بها أي اذكرها وادْعُ إليها، قال: فجعل رسولُ الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوّة سِرًّا[٢] إلى من يَطمئِنُّ إليه من أهله. قال: ثم فُرضت الصلاة عليه ﷺ. والله الموفِّق لطاعته.

ذكر فَرض الصلاة على رسول الله ﷺ

روِيَ عن عائشة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: افتُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ أوّل ما افتُرضت ركعتين ركعتَين كلَّ صلاة، ثم إن الله تعالى أتمّها في الحضَر أربعًا، وأقرها في السَّفَر على فرضها الأوّل ركعتين.

قال محمد ابن إسحاق:

وحدّثني بعضُ أهل العلم أن الصلاة حين افتُرضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكّة، فَهَمَزَ[٣] له بعِقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عينٌ فتوضّأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر [إليه][٤] ليُريَه كيف الطُّهور للصلاة، ثم توضّأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريلَ توضّأ، ثم قام به جبريل فصَلّى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسولُ الله ﷺ إلى خَديجة فتوضَّأ لها ليُريَها كيف الطُّهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضّأ [لها][٥] رسول الله ﷺ، ثم صلَّى

(١) سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٩.
(٢) في الأصل: «النبوة بسري» والتصويب عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٩.
(٣) همز: ضغط.
(٤) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٦٠.
(٥) عن السيرة الحلبية: ١: ٢٦٤.

بها كما صلى به جبريل، فصلَّت بصلاته[(١)].

وعن عبد الله بن عباس[(٢)] رضي الله عنهما قال: «لما فُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل فصلَّى به الظُّهر حين مالت الشمس، ثم صلَّى به العصر حين كان ظلُّه مثلَه، ثم صلّى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشَفَق، ثم صلّى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاء فصلّى به الظهر من غدٍ حين كان ظِلّه مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظِلّه مثلَيْه، ثم صلّى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلثُ اللَّيل الأوّل، ثم صلّى به الصبح مُسفِرًا غير مشرِقٍ، ثم قال: يا محمد الصلاة فيما بين صلاتِك اليومَ وصلاتِك بالأمس»[(٣)].

ذكر أوّل من أسلم وآمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ وصدّق بما جاء به من عند الله

قد تقدّم أنّ أوّل من آمن خديجة رضي الله عنها، وذهب محمد بن إسحاق[(٤)] إلى أن أوّل من آمن برسول الله ﷺ وصلَّى وصدّق بما جاء به من الله تعالى عليّ بن أبي طالب، ثم زيد بن حارثة مولَى رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم. وسنذكر إن شاء الله إسلام كل واحد منهم.

أما إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه فالذي عليه الأكثرون أنه أوّل من أسلم من الذكور، وقد روى أبو الفَرج بن الجَوْزيّ[(٥)] رحمه الله في كتابه المترجم (بصفة الصفوة)[(٦)] عن ابن عبّاس، وحسّان بن ثابت، وأسماءَ بنت أبي بكر، وإبراهيم النَّخَعيّ، قالوا كلُّهم: أوّل من أسلم أبو بكر، قال: وقال يوسف بن يعقوب بن الماجشون: أدركت أبي ومَشيختنا محمدَ بن المنكدر، وربيعةَ بن أبي عبد الرحمٰن،

---

(١) للسهيلي في الروض الأنف: ١: ١٦٢، كلام في هذا الحديث وسنده يحسن الوقوف عليه. انظر السيرة الحلبية: ١: ٢٦٤.

(٢) رواه ابن هشام: ١: ٢٦١.

(٣) ناقش السهيلي في الروض الأنف: ١: ١٦٣ إيراد هذا الحديث هنا، لأن هذه القصة كانت في الغد من ليلة الإسراء، وذلك بعد ما نبيء النبي ﷺ، بخمسة أعوام. ثم ذكر كلامهم في ذلك.

(٤) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٢٦٢.

(٥) ابن الجوزي: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ = ١١١٤ ـ ١٢٠١ م) علّامة عصره في التاريخ الحديث. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى «مشرعة الجوز» من محالها. له نحو ثلاث مئة مصنف». (الأعلام: ٣: ٣١٦).

(٦) ١: ٨٩.

وصالح بن كَيْسان، وسعد بن إبراهيم، وعثمان بن محمد الأخنسي، وهم لا يشكّون أن أوّل القوم [إسلامًا][(١)] أبو بكرٍ.

وروَى أبو الفرج[(٢)] بسنده عن ابن عباس أنه قال: «أوّل من صلى أبو بكرٍ رضي الله عنه»، ثم تمثّل بأبياتِ حسّان بن ثابت: [من البسيط]

إذا تـذكَّـرت شـجـوًا مـن أخـي ثِـقَـةٍ   فـاذكُـر أخـاك أبـا بـكـرٍ بـمـا فَـعَـلا
خـيـرَ الـبـريـة أتـقـاهـا وأعـدلَـهـا   إلا الـنـبـيّ، وأولاهـا بـمـا حـمـلا
الـثـانـي الـتـالـي الـمـحـمـود مـشـهـدُه   وأوّل الـنـاس حـقًـا صـدَّق الـرسُـلا

والله يهدي من يشاء.

وأما إسلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ فقد اختلف في سنِّه حالَ إسلامه؛ فقيل: أسلَم وهو ابن عشر سنين[(٣)]، وقيل: تِسع سنين، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: أكثر من ذلك إلى عشرين سنة، وهو بعيد، لأنه آمن في ابتداء الأمر وظهور النبوّة. والله أعلم.

وكان من حديث إسلامه ما رواه محمد بن إسحاق[(٤)] عن عبد الله بن أبي نَجيح عن مُجاهد بن جَبْر بن أبي الحجّاج، قال: كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب ومما صنع الله له وأراده به من الخير أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عِيال كثير، فقال رسول الله ﷺ لعمِّه العباس، وكان من أيسر بني هاشم: يا عبّاس، إن أخاك أبا طالب كثيرُ العيال، وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفِّف[(٥)] عنه من عياله؛ آخُذُ من بنيه رجلًا، وتأخذ أنت رجلًا فنكفلهما[(٦)] عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى لقيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد[(٧)] أن نخفِّف عنك من عيالك حتى ينكَشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب[(٨)]: إذا تركتُما لي عَقِيلًا، فاصنعا ما شئتما؛ ويقال قال: عقيلًا وطالبًا؛ فأخذ رسول الله ﷺ عليًا فضمه

---

(١) عن سيرة ابن هشام: ١:٢٦٦.
(٢) صفة الصفوة: ١: ٨٩.
(٣) نقل ابن عبد البر في الاستيعاب ص ٢٧١ هذا القول عن ابن إسحاق، ثم ذكر بقية الأقوال يوم أسلم.
(٤) ابن هشام، السيرة: ١: ٢٦٢.
(٥) «فلنخفف من عياله»، والذي أثبت عن ابن هشام: ١: ٢٦٣.
(٦) في الأصل: «وتأخذ رجلًا»، والمثبت عن ابن هشام: ١: ٢٦٣.
(٧) في الأصل: «فقالا إنا نريد»، والمثبت عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٦٣.
(٨) في الأصل: «فقال لهما إذا» والمثبت عن ابن هشام: ١: ٢٦٣.

إليه، وأخذ العبّاس جعفرًا [فضمّه إليه][١]، فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا فاتَّبعه عليّ وآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم.

قال ابن إسحاق:

وذَكَر بعضُ أهل العلم أن رسولَ الله ﷺ كان إذا حضَرت الصلاة خرج إلى شِعاب مكّة وخرج معه عليّ بن أبي طالب مُستخفيًا من عمه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أمسَيا رجعا؛ فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكُثا، ثم إن أبا طالب عثَر عليهما يومًا وهما يصَلّيان، فقال لرسول الله ﷺ: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أَراك تَدِين به؟ قال: أي عَمّ، هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أَيْ عمّ أحق من بذَلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهُدَى، وأحقّ من أجابني إليه، وأعانني عليه، أو كما قال. فقال أبو طالب: أي ابنَ أخي، إني والله لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن واللّهِ لا يخْلصُ[٢] إليك شيءٌ تكرهه ما بقيت.

وذكروا أنه قال لابنه عليّ: أي بُنيّ ما هذا الدين الذي أنتَ عليه؟ فقال: يا أبت، آمنت برسول الله ﷺ وصدّقتُه بما جاء به، وصليت معه لله واتَّبعته، فزعموا أنه قال له: أَمَا إنه لم يدعُك إلا إلى خيرٍ فالزمْه.

وأما إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه ـ فقال محمد بن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة بن شُرَحْبِيل بن كعب بن عبد العُزَّى بن امرىء القيس الكلْبي مولَى رسول الله ﷺ، وقد نسبه ابن الكلبيّ فقال: زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العُزَّى بن يزيد[٣] بن امرىء القيس بن عامر بن النُعمان بن عبدُ ودّ بن امرىء القيس بن نعمان بن عمران بن عبد عوف بن عوف بن كِنانة بن بكر بن عوف بن عُذرة بن زَيد اللّات بن رُفَيدة بن ثَور بن كلب بن وَبْرة بن تَغلِب بن حُلوان بن عِمران بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن عمر بن مرة بن مالك بن حِمْيَر بن سَبأ بن يَشْجُب بن يَعرُب بن قحطان.

قال أبو عمر: وربّما اختلفوا في الأسماء وتقديم بعضها على بعض وزيادة شيء فيها. قال[٤]: ولم يتابَع ابن إسحاق على قوله: «شرحبيل» وإنما «شَراحيل».

(١) في الأصل: «جعفراً فلم يزل»، والتكلمة عن ابن هشام: ١: ٢٦٣.
(٢) يخلص إليك: يصيبك.
(٣) هذه رواية ابن عبد البر في الاستيعاب، وفي سيرة ابن هشام: ١: ٢٦٤: «العزى بن امرىء القيس».
(٤) القائل ابن عبد البر.

وقال ابن الكلبي: وأمّ زيد سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت، من بني معن من طيء[١].

قال ابن إسحاق[٢]: وصلّى زيد بعد عليّ بن أبي طالب. قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: وكان حكيم بن حِزام بن خُوَيلد قدِم من الشام برقيق منه زيد بن حارثة، وصيفٌ، فدخلتْ عليه عمّتُه خديجة بنت خُوَيلد، وهي يومئذٍ عند رسول الله ﷺ، فقال لها: اختارِي يا عمّة، أيّ هؤلاء الغِلمان شِئتِ فهو لكِ، فاختارت زَيدًا، فرآه رسول الله ﷺ عندها، فاستوهَبه منها، فوهبتْه له، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبنّاه، وذلك قبل أن يوحَى إليه، وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جَزعًا شديدًا وبكى عليه حين فَقده، ثم قدِم عليه وهو عند رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئتَ فأقِم عندي، وإن شئتَ فانطلق مع أبيك»؛ قال: بل أُقيم عندك؛ فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله، فصدّقه وأسلم وصلّى معه، فلما أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥] قال: أنا زيد بن حارثة، وقد روَى أبو عمر وغيرُه أن حارثة لما فقد ابنَه زيدًا قال: [من الطويل]

بكيت على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ ... أحيّ يرجى أم أتى دونه الأجلْ[٣]
فوالله ما أدري وإن كنتُ سائلاً ... أغالَك سَهْلُ الأرض أم غالك الجبلْ[٤]
فيا ليت شعري هل لك الدهرَ رجعةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بَجَلْ[٥]
تذكّرنيهِ الشمسُ عند طلوعها ... وتَعرِض ذِكراه إذا قارَبَ الطَّفلْ[٦]
وإن هبّت الأرواح هيّجن ذكرَه ... فيا طولَ ما حُزني عليه وما وجلْ
سأُعملُ نَص العِيس في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التَّطْوافَ أو تسأَم الإبْل[٧]
حياتيَ أو تأتي عليّ منيّتي ... وكلّ امرىء فانٍ وإن غرّه الأملْ
سأُوصي به قيسًا وعمْرًا كليهما ... وأُوصِي يزيدًا ثم من بعدِه جَبَلْ[٨]

(١) في الأصل: «معن بن طيء»، والذي أثبت عن أسد الغابة: ٢: ٢٢٤.
(٢) نقله ابن هشام: ١: ٢٦٤.
(٣) كذا في الاستيعاب ص ١٩٢، وفي سيرة ابن هشام: ١: ٢٦٥: «أنى فيرجى».
(٤) غالك: قتلك.
(٥) بجل: بمعنى حسب. وفي أسد الغابة: ٢: ١٩٥: «لي علل».
(٦) الطفل: الغروب.
(٧) العيس: الجمال.
(٨) هذا البيت لم يورده ابن هشام. ويعني بجبل: جبلة بن حارثة أخا زيد.

يعني جبلة بن حارثة أخا زيد، ويزيدَ أخا زيد لأمّه، وهو يزيد بن كعب بن شَراحيل.

قال: فحج ناسٌ من كَلب فرأوا زيدًا فعرفَهم وعرفوه، وقال لهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات، فإني أعلم أنهم قد جزِعوا عليّ فقال: [من الطويل]

أحِنُّ إلى قومي وإن كنتُ نائيًا فإنّي قَعيدُ البيتِ عند المشَاعِر
فكفُّوا من الوجْد الذي قد شجاكُم ولا تُعمِلوا في الأرضِ نَصَّ الأباعر[1]
فإنّي بحمد الله في خير أُسْرَةٍ كرام مَعَدٍّ كابرًا بعد كابر

فأنطلق الكلبيّون فأعلَموا أباه، فقال: ابني ورب الكعبة، فوصفوا له موضعَه وعند مَنْ هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شَراحيل لفدائه وقدِما مكة، فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هُوَ في المسجد، فدخَلا عليه فقالا: يا بن عبد المطّلب، يا بن هاشم، يا بن سيّد قومه، أنتم أهلُ حرم الله وجيرانُه، تفكّون العانِي[2]، وتُطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنُنْ علينا وأحسِن إلينا في فدائه؛ قال: ومن هو؟ قالا: زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «فهَلاّ غير ذلك»؟ قالوا: وما هو؟ قال: «ادعوه فأخيّره[3]، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فهو لِي، فوالله ما أنا بالذي أختار على مَن اختارني أحدًا». قالوا: قد زِدْتنا على النَّصَف[4] وأحسنت إلينا، فدعاه فقال: «هل تعرف هؤلاء»؟ قال: نعم، قال: «مَنْ هذا»؟ قال: أبي، وهذا عمي، قال: «فأنا مَنْ قد علمت، وقد رأيتَ صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما»، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنتَ مني مكان الأب والعمّ، فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرِّية، وعلى أبيك وعمك وأهلِ بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت مِنْ هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجر فقال: «يا معشر مَنْ حضر، اشهدوا أنّ زيدًا ابني يرثني وأرِثه»، فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه طابت نفوسُهما وانصرفا.

ودُعِيَ زيدَ بنَ محمد حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، فدُعِيَ يومئذٍ زيدَ بنَ حارثة، ودُعي الأدعياء[5] إلى آبائهم. والله أعلم.

---

(١) الأباعر: واحدها بعير وهو الجمل.
(٢) العاني: المقهور.
(٣) في الأصل: «فأخيروه».
(٤) النصَّف: العدل.
(٥) الأدعياء: من كان لهم أباء معروفون.

ذكر من أسلم بدعاء أبي بكر الصدّيق - رضوان الله عليهم -

قال محمد بن إسحاق[١]:

لما أسْلم أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه أظهر إسلاَمه، ودعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، وكان أبو بكر رجلاً مأْلَفًا[٢] لقومه محببًا سهلاً، وكان أنسب[٣] قريش لقريش، وأعلَمَ قريش بها وبما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجلاً تاجرًا ذا خُلُق ومعروف، وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلْمِه وتجارته وحُسن مجالسته.

فجعل يدعو إلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه ممَّنْ يَغشاه ويجلس إليه، فأسْلَم بدعائه رضي الله عنه، عثمانُ بن عفان، والزُّبَير بن العوّام[٤]، وعبد الرحمٰن بن عَوف وسَعد بن أبي وقاص[٥] وطلحةُ بن عُبيد الله، فجاء[٦] بهم إلى رسول الله ﷺحتى استجابوا له، فأسلموا وصلّوا، فكان رسول الله ﷺ يقول: «ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوة ونظر وتردّد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قُحافة، ما عَكم[٧] عنه حين ذكرته له وما تردّد فيه».

قال ابن إسحاق: فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا بالإسلام الناسَ فصلّوا وصدَّقوا بما جاء من الله.

ثم أسلم أبو عُبيدة، واسمه عامر بن عبد الله بن الجرّاح[٨]، وأبو سلَمة، واسمه عبد الله بن عبد الأسَد[٩]، والأَرقم بن أبي الأَرقم، واسم أبي الأَرقم عبدُ مَنَاف بن

---

(١) ابن هشام: ١: ٢٦٥.

(٢) مألفًا: المألف: الموضع الذي يألفه الناس، ووصف أبي بكر به على نوع من التجوز.

(٣) أنسب قريش: أكثر أهلها علماً بالنسب.

(٤) الزبير بن العوام: ابن عمة رسول الله ﷺ، توفي سنة ٣٦ بعد وقعة الجمل.

(٥) سعد بن أبي وقاص: آخر العشرة المبشرين موتًا، مات بالعقيق بقصره على عشرة أميال من المدينة سنة ٥٦ على خلاف.

(٦) طلحة بن عبيد الله: أحد العشرة أيضًا، وكان الرسول يسميه طلحة الجود، وطلحة الخير. مات يوم الجمل سنة ٣٦.

(٧) ما عَكَم: ما تلبَّث.

(٨) أبو عبيدة: أحد العشرة توفي سنة ١٨ في طاعون عمواس (الاستيعاب ٤٦٠).

(٩) أبو سلمة: ابن عمة النبي ﷺ برة بنت عبد المطلب، وأخوه من الرضاعة. توفي بعد مرجعه من بدر (الاستيعاب ٣٧٩).

أسد بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم[١]، وعثمان بن مَظعون[٢]، وأخواه قُدامة[٣]، وعبد الله[٤] ابنا مَظعون، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مَناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرّة بن كَعب بن لُؤيّ[٥]، وسعيد بن زيد[٦]، وامرأته فاطمة[٧] بنت الخطّاب أخت عمر، وأسماء[٨]، وعائشة[٩] بنتَا أبي بَكر، وكانت عائشة صغيرة، وخَبّاب بن الأرت[١٠] حلِيف بني زُهرة، وعُمَير بن أبي وقّاص[١١] أخو سعد، وعبد الله بن مَسعود[١٢]، ومَسْعود بن القارِي[١٣]، وهو مسعود بن رَبيعة، أو الربيع، وسَلِيط بن عَمرو بن عبد شمس[١٤]، وعَيّاش بن أبي ربيعة بن المُغيرة[١٥]، وامرأته أسماء بنت سلامة ابن مُخرِّبة التميمية[١٦]، وخُنَيس بن حُذافة بن قيس[١٧]، وعامر بن رَبيعة

---

(١) الأرقم بن أبي الأرقم: هو سابع من أسلم، وهو من البدريين، توفي سنة ٥٥ على خلاف. انظر الاستيعاب ٥٠، والإصابة: ١: ٢٨.

(٢) عثمان بن مظعون: أسلم بعد ثلاثة عشر رجلًا، وهاجر إلى الحبشة، وتوفي في السنة الثانية من الهجرة (الإصابة: ٢: ٤٦٤، الاستيعاب ٤٩٤).

(٣) قدامة بن مظعون: يكنى أبا عمرو، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا: مات في خلافة علي، واختلفوا في تحديد سنة وفاته. (الإصابة: ٣: ٢٢٩).

(٤) عبد الله بن مظعون: أبو محمد، هاجر إلى الحبشة، انظر (الإصابة: ٢: ٤٦٤، ٢: ٣٧١).

(٥) عبيدة بن الحارث: كان رأس بني عبد مناف، هاجر، وشهد بدرًا، واستشهد بها. (الإصابة: ٢: ٤٤٩، الاستيعاب: ٤٢٢).

(٦) سعيد بن زيد: المتوفى بالعقيق سنة ٥١ هـ، وهو أحد العشرة. الاستيعاب: ٥٥٢.

(٧) فاطمة بنت الخطاب: تكنى أم جميل، ولها أثر في إسلام الخليفة عمر. (الإصابة: ٤: ٣٨١، والاستيعاب: ٧٧٤).

(٨) أسماء بنت أبي بكر: كانت تسمى ذات النطاقين. توفيت بمكة سنة ٧٣ عن سن عالية.

(٩) عائشة بنت أبي بكر: زوج النبي ﷺ، روي عنها كثير من الأحاديث، توفيت سنة ٥٧ هـ (الاستيعاب: ٧٦٤).

(١٠) خباب بن الأرت: أبو عبد الله التميمي، عذب في سبيل الله، ومات بالكوفة سنة ٣٧.

(١١) عمير بن أبي وقاص: قتل يوم بدر شهيدًا، وله من العمر ١٦ سنة (الاستيعاب: ٤٣٦).

(١٢) عبد الله بن مسعود: أبو عبد الرحمٰن، من زهاد الصحابة، توفي بالمدينة سنة ٣٢.

(١٣) مسعود بن القاري: يكنى أبا عمير، وهو من القارة، وهم الهون بن خزيمة بن مدركة. مات سنة ٣٠ (الاستيعاب: ٢٨١).

(١٤) سليط بن عمرو: بن عبد شمس، من المهاجرين الأولين، شهد بدرًا وسافر عن النبي ﷺ إلى اليمامة، وقتل سنة ١٤ (الاستيعاب: ٥٩٦).

(١٥) عياش بن أبي ربيعة: بن المغيرة، في الأصل: «وعياد» والتصويب عن ابن هشام ١: ٢٧٣، والاستيعاب: ٢: ٥٠٨.

(١٦) أسماء بنت سلامة: في الأصل: «ابن حجر»، والتصويب عن ابن هشام: ١: ٢٧٣. انظر الإصابة: ٨: ٧.

(١٧) خُنيس بن حذافة بن قيس: من المهاجرين الأولين، مات بأحد (الاستيعاب: ١٦٩).

حلِيف آل الخطاب[١]، وعبد الله بن جحش[٢] وأخوه أبو أحمد بن جَحْش[٣] حلِيفا بني أمية، وجعفَر بن أبي طالب[٤]، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس[٥]، وحاطب بن الحارث بن مَعْمَر، وامرأته فاطمة بنت المجلّل بن عبد الله[٦]، وأخوه خطّاب بن الحارث، وامرأته فُكَيْهة بنت يسار[٧]، ومَعْمَر بن الحارث بن معمر[٨]، والسائب بن عثمان بن مظعون[٩]، والمطّلِب بن أزهَر بن عبد عوْف[١٠]، وامرأته رَملَة بنت أبي عوف بن صَبْرة، والنّحام واسمه نُعَيم بن عبد الله [١١] وعامر بن فُهَيْرة[١٢] مولى أبي بكر الصديق، وخالد بن سعيد بن العاص ابن أُمَيَّة[١٣]، وقد رُوي أن خالد بن سعيد كان خامس من أسلم، وأن إسلامه كان بعد سعد بن أبي وقّاص، حكاه أبو عُمر[١٤]،

---

(١) عامر بن ربيعة: كان حليف عمر بن الخطاب حسبما قال أبو عبيدة. شهد بدرًا وسائر المشاهد. توفي سنة ٣٣ هـ على خلاف. انظر (الاستيعاب: ٤٦١). وفي الأصل: «حليف الخطاب».

(٢) عبد الله بن جحش: حليف لبني عبد شمس، أو لحرب بن أمية، وهو من المهاجرين الأولين. مات يوم أحد، ومثّل به. ودفن مع حمزة في قبر واحد. (الاستيعاب: ٣٥٢).

(٣) أبو أحمد بن جحش: في اسمه، عبد جحش، وكان شاعرًا. (الاستيعاب: ٦٤١).

(٤) جعفر بن أبي طالب: مات يوم مؤتة، وله من العمر ٤١ سنة (الاستيعاب: ٨١).

(٥) أسماء بنت عُميس: هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها، انظر أخبارها في الاستيعاب: ٧٢٥. وسيرة ابن هشام: ٢: ٢٧٥.

(٦) الاستيعاب: ١٣٣، وفي ترجمته ذكرت امرأته فاطمة وذكر إسلامها، انظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٥.

(٧) الاستيعاب ١٤٩، وقد ذكرت معه أيضًا امرأته وذكر إسلامها، انظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٥.

(٨) مَعْمَر بن الحارث: هو ابن أخت عثمان بن مظعون، آخى النبي ﷺ بينه وبين معاذ بن عفراء، وتوفي في خلافة عمر (الاستيعاب: ٢٧٨).

(٩) السائب بن عثمان بن مظعون: هاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا، انظر (الاستيعاب: ٥٨٨، وسيرة ابن هشام: ١: ٢٧٦).

(١٠) المطلب بن أزهر بن عبد عوف: مات بالحبشة مهاجرًا (الاستيعاب: ٢٦٨، الإصابة: ٨: ٨٦، سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٦).

(١١) النحام: أسلم قبل عمر، وكان يكتم إسلامه، واختلف في وفاته فقيل بأجنادين، وقيل باليرموك. (الاستيعاب: ٣١١، سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٦).

(١٢) عامر بن فُهَيرة: كان مملوكًا للطفيل بن عبد الله، فأسلم وهو مملوك، فاشتراه أبو بكر وأعتقه، ورافق النبي وأبا بكر في هجرتهما. انظر الاستيعاب: ٤٦٢، سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٧.

(١٣) خالد بن سعيد بن العاص: أسلم مع أبي بكر، وهاجر إلى الحبشة، واستعمله النبي ﷺ على صدقات مذحج، وعلى صنعاء اليمن. وفي مكان وفاته خلاف. (الاستيعاب: ١٥٤، سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٧).

(١٤) في الاستيعاب: ١٥٤، وانظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٧.

وامرأته أمينة[١] بنت خَلَف بن أَسْعد، وحاطِب بن عَمرو بن عبد شمس[٢]، وأبو حُذَيفة واسمه مهشم[٣] بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مَناف؛ ويقال في اسمه هشيم؛ ويقال هاشم، وواقد[٤] بن عبد الله بن عبد مناف ابن عرين بن ثَعلبَة، وخالد[٥]، وعامر[٦]، وعاقل[٧] وإياس[٨] بنو البُكَيْر بن عبد يالِيل وعمّار[٩] بن ياسر حليف بني مخزوم، وصُهَيْب[١٠] بن سِنان.

قال ابن إسحاق[١١]:

ثم دخل الناس [في الإسلام][١٢] أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذِكر الإسلام [بمكّة وتُحدّث به][١٣].

ولنذكر من كانت له سابقة في الإسلام غير من ذكرنا والله الموفّق للصواب.

ذكر تسمية من كانت لهم سابقة في الإسلام من العرب من غير قريش

كانت لجماعة سابقةُ إسلام، وهم من غير قريش، فرأينا أن نَذكرهم في هذا الموضع لسابقتهم في الإسلام.

---

(١) الاستيعاب: ٧٢٦، واسم امرأته عند ابن عبد البر: «أميمة». انظر أسد الغابة: ٥: ٤٠٢.

(٢) حاطب بن عبد شمس: هاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا، (الاستيعاب: ١٣٣).

(٣) مهشم بن عتبة: نقله ابن عبد البر في (الاستيعاب: ٦٥٣) في ترجمة أبي حذيفة هذا. انظر الروض الأنف: ١: ١٦٧.

(٤) واقد بن عبد الله: (الاستيعاب: ٦٢٣).

(٥) خالد بن البُكير: حالف في الجاهلية نفيل بن عبد العزى، جد عمر بن الخطاب، فهو وولده حلفاء بني عدي، قتل سنة أربع من الهجرة (الاستيعاب: ١٥٦).

(٦) عامر بن البكير: يقال فيه أيضًا: ابن أبي البكير. انظر (الاستيعاب: ٤٦١).

(٧) عاقل بن البكير: كان اسمه غافلاً، فسماه النبي عاقلاً، قتل ببدر وسنه ٣٤ سنة (الاستيعاب: ٥٢٤).

(٨) إياس بن البكير: يقال فيه أيضًا: إياس بن أبي البكير، اسلم في دار الأرقم، له ترجمة في (الاستيعاب: ٤٧).

(٩) عمار بن ياسر: هو عنسي النسب وحالف بني مخزوم، عذب في الله، وشهد المشاهد كلها، وفيه ورد الأثر: «تقتل عمارًا الفئة الباغية». انظر (الاستيعاب: ٤٣٤).

(١٠) صُهيب بن سنان: يقال فيه ابن سنان الرومي، لأنه تعلم لسان الروم، حيث سبوه وهو صغير، وهو من الثمر بن قاسط، وكان أبوه عاملاً لكسرى على الأبلة. (الاستيعاب: ٣٢٥).

(١١) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٢٨٠.

(١٢)، (١٣) عن ابن هشام: ١: ٢٨٠.

منهم: أبو ذَرّ[١] جُندُب بن جُنادة الغِفاريّ، واختُلف في اسمه اختلافًا كثيرًا، والمشهور ما ذكرناه، واختُلف أيضًا فيما بعدَ جُنادة، فقيل: جُنادة بن قيس بن عمرو ابن صُعيْر بن حرام بن غِفار، وقيل: جنادة بن صُعَير بن عَبيد بن حرام بن غِفار، ويقال: جُنادة بن سُفيان بن عبيد بن [صُعَير][٢] بن حرام بن غِفار؛ أسلم أبو ذَرّ بعد ثلاثة، وقيل: بعد أربعة؛ فكان خامسًا، وله في سبب إسلامه حديث حَسَن، نذكره إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لأخبارِ وفود العرب على رسول الله ﷺ في وفد غِفار على ما تَقف عليه، وهو في السّفر السادس عَشر من كتابنا هذا. وأسْلمَ بسبب إسلامه أخوه أُنَيس[٣] بن جُنادة وأُمُّهما رملة بنت الوقيعة الغِفَاريّة.

ومنهم: عمرو بن عَبسة بن عامر بن خالد بن غاضرة بن عتّاب بن امرىء القيس ابن بُهْثَة بن سليم، يكَنى أبا نجيح، ويقال أبو شعيب. قال أبو عمرو بن عبد البر: روينا عنه من وجوه أنه قال: أُلقي في روعي أن عبادة الأوثان باطل، فسمعني رجل وأنا أتكلم بذلك، فقال: يا عمرو، إن بمكة رجلاً يقول كما تقول، قال: فأقبلت إلى مكة أولَ ما بُعث النبي ﷺ وهو مُستخْفٍ[٤]، فقيل لي: إنك لا تقدر عليه إلا باللّيل حين يطوف، فقمت بين يدي الكعبة فما شعرت إلا بصوته يهلّل، فخرجت إليه فقلت من أنت؟ قال: أنا نبيّ الله، فقلت: وما نبيُّ الله؟ قال: رسول الله، قلت: وبم أرسلك؟ قال: بأن يُعبد الله وحدَه لا يُشرَك به شيء، وتُكسَرَ الأوثان وتُحقنَ الدماء، [وتُوصَل الأرحام][٥]، قلتُ: ومن مَعك على هذا؟ قال: حرٌّ وعبد، يعني أبا بكر وبِلالاً، فقلت: أبسط يدك أبايعْك، فبايعتُه على الإسلام، قال: فلقد رأيتُني وأنا رُبع الإسلام، قال: قلت: أقيم معك يا رسول الله؟ قال: «لا. ولكن الحق بقومك فإذا سمعتَ أني قد خرجت فاتبعني»، قال: فلحقتُ بقومي، فمكثت دهرًا منتظرًا خبره حتى أتت رفقة من يثرب فسألتهم الخبر، فقالوا: خرج محمد من مكة إلى المدينة، قال: فارتحلت فأتيتُه فقلت: أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الرجل الذي أتيتنا بمكّة».

(١) أبو ذر الغفاري: جُندب بن جُنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غفار. أبو ذر (... ٣٢ هـ = ... ٦٥٢ م) صحابي، من كبارهم، قديم الإسلام، يقال: أسلم بعد أربعة، وكان خامسًا. هاجر بعد وفاة النبي ﷺ إلى بادية الشام. فسكن دمشق وجعل ديدنه تحريض الفقراء على مشاركة الأغنياء في أموالهم، شكاه معاوية إلى الخليفة، فاستقدمه عثمان إلى المدينة. فأمره بالرحلة إلى الربذة (من قرى المدينة) فسكنها إلى أن مات. ولعله أول اشتراكي طاردته الحكومات (الأعلام: ٢: ١٤٠).

(٢) عن تاج العروس: «صعر».

(٣) أنيس بن جُنادة: كان أكبر من أخيه أبي ذر، انظر (الإصابة: ١: ٨٨).

(٤) هكذا في (الاستيعاب: ٤٤٣، وفي أسد الغابة: ٤: ١٢٠): «مختف».

(٥) عن أسد الغابة: ٤: ٨٢٠.

ورَوى أبو عمر أيضًا بسنده إلى أبي أُمامة الباهلي أنه حدث عن عمرو بن عَبسة[١] قال: «رغبتُ عن آلهة قومي في الجاهلية ورأيت أنها آلهة باطلة؛ يعبدون الحجارة، وهي لا تضرّ ولا تنفع، قال: فلقيتُ رجلًا من أهل الكتاب فسألته عن أفضل الدين، فقال: يخرج رجل من مكّة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، وهو يأتي بأفضل الدين، فإذا سمعتَ به فاتّبعه، فلم يكن لي همّ إلا مكّة أسأل هل حدث فيها حَدَث؟ فيقولون: لا. فأنصرف إلى أهلي، وأهلي من الطريق غيرُ بعيد، فأعترض الركبان خارجين من مكة فأسألهم هل حدث فيها حدث؟ فيقولون: لا، فإني لقاعد على الطريق يومًا إذ مرّ بي راكب فقلت: من أين أنت[٢]؟ قال: من مكّة، قلت: هل فيها من خَبَر؟ قال: نعم، رجل رغِب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها، قلت: صاحبي الذي أريد فشدَدْت راحلتي، وجئت مكة، ونزلت منزلي الذي كنت أنزل فيه، فسألت عنه، فوجدته مستخفيًا، ووجدت قريشًا إلْبًا[٣] عليه، فتلَطّفتُ حتى دخلتُ عليه، فسلّمت ثم قلت: من أنت؟ قال: «نبيّ الله»، قلت: وما النبي؟ قال: «رسول الله»، قلت: من أرسلك؟ قال: «الله»، قلت: بم أرسلك؟ قال: «أن تُوصَلَ الأرحامُ، وتحقَنَ الدماءُ وتُؤْمن السبلُ، وتكسَر الأوثان، ويُعبدَ الله وحده لا يشرك به شيء». فقلت: نعمَ ما أُرسِلتَ به؛ أُشْهدك أني قد آمنت بك وصدّقْتك، أَمْكث معك أم ما تأمرني؟. قال: «قد رأيتَ كراهة الناس لِما جئتُ به، فامكُث في أهلك، فإذا سمعتَ أني خرجت مخرجًا فاتّبعني». فلما سمعت به خرج إلى المدينة سرتُ حتى قدمتُ عليه فقلت: يا نبيَّ الله هل تعرفني؟ قال: «نعم، أنت السُّلَميّ الذي جئتني بمكّة فقلتَ لي كذا، وقلتُ لك كذا».

ومنهم: عتبة بن غَزْوان بن جابر، ويقال عُتْبة بن غَزْوان بن الحارث بن جابر ابن وهب بن نَسيب بن زيد بن مالك بن الحارث بن عَوف بن الحارث بن مازن بن مَنصور بن عِكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار المازني حليف لبني نوْفل بن عبد مَناف، يكنى أبا عبد الله، وقيل أبا غَزْوان، كان إسلامُه بعد ستّة رجال، فهو سابعُ سبعة في إسلامه، وقد قال ذلك في خطبته بالبصرة: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وآله سابعَ سبعةٍ، ما لنا طعامٌ إلا ورق الشَّجَر حتى قَرِحَت[٤] أشداقُنا». رضي الله عنهم أجمعين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) في الأصل: «عنبسة»، انظر (الاستيعاب: ٤٤٤).
(٢) في الأصل: «من أين قال».
(٣) إلبا: ضده.
(٤) قرحت: اهترأت وتشققت.

ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام

قال محمد بن إسحاق[١]:

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا في الشِّعاب، فاستخفوا بصَلاتِهم من قومهم، فبينا سعدُ بن أبي وقّاص في نَفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْب من شِعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلّون، فناكروهم[٢]، وعابوا عليهم ما يَصْنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقّاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بِلَحْي[٣] بعيرٍ، فشجَّه[٤]، فكان أولَ دم هُرِيقَ في الإسلام.

ثم أمر[٥] الله تعالى رسوله ﷺ أن يَصْدَع[٦] بما جاء به من عند الله وأن ينادِيَ الناس بأمره، وأن يَدْعوَهم إلى الله تعالى، فكان[٧] يدعو ثلاث سنين مستخفيًا، إلى أن أمر الله بإظهار الدعاء.

قال محمد بن سعد: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت: ٣٣] هو رسول الله ﷺ.

وقال أبو بكر أحمد بن الحسين البَيهقي[٨]: لما أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يُعلم الناس نزولَ الوحي عليه، ويدْعوَهم إلى الإيمان به، كبر ذلك عليه، فنزل قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يُحرَس حتى نزلت هذه الآية، فأَخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبّة، فقال [لهم][٩]: «أيها الناس، انصرِفوا فقدْ عصمني الله»؛ قيل: يعصمك من قَتلهم أن يقتلوك، فبلَّغ عند ذلك الرسالة.

وعن الزهريّ: قال: دعا رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام سرًا وجهرًا، فاستجاب لله

---

(١) نقله ابن هشام: ١: ٢٨١.
(٢) ناكروهم: أنكروا عليهم صلاتهم.
(٣) اللحي: العظم الذي على الخد.
(٤) شجه: جرحه في وجهه ورأسه.
(٥) انظر طبقات ابن سعد: ١: ١٣٢ (قسم أول).
(٦) يصدع: يظهر - يكشف.
(٧) رواية ابن سعد في الطبقات: ١: ١٣٢ (قسم أول).
(٨) في دلائل النبوة: ١٤١.
(٩) عن دلائل النبوة للبيهقي.

تعالى مَنْ شاء من أحْداث الرجال وضعفاء الناس حتى كَثُرَ من آمن بالله؛ وكفارُ قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مرَّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه: إنّ غلامَ بني عبد المطلبُ ليُكلَّم من السماء، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونَه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فعند ذلك عادَوْا رسول الله ﷺ وناكَروه؛ وأجمعوا عَلاقة[١].

قال ابن عباس[٢] رضي الله عنه: لما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعِد رسول اللّهِ ﷺ على الصَّفا[٣] فقال: «يا معشر قريش»، فقالت قريش: محمد على الصَّفا يهتِف، فأقبلوا واجتمعوا، فقالوا: ما لك يا محمد؟ فقال: «أرأيْتَكُمْ لو أخبرتكم أن خيلاً بسفْح هذا الجبل أكنتم تصدّقونني»؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير مُتَّهم، وما جرَّبنا عليك كذِبًا قط، قال: «فإني نذير لكن بين يدي عذاب شديد يا بني عبد المطلب يا بني عبد مَناف يا بني زُهرة»، حتى عدَّد الأفخاذ من قريش «إن الله أمرني أن أُنذِر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملِك لكم من الدُّنيا منفَعة، ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله» قال: فقال أبو لهب: تبًا[٤] لك سائر اليوم، ألِهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] السورةَ كلَّها. قال الواقدي: لما أظهر رسولُ الله ﷺ الإسلام ومن مَعه، وفشا أمره بمكّة، ودعا بعضُهم بعضًا، فكان أبو بكر يدعو ناحيةً سرًّا، وكان سعيد بن زيد مثله، وعثمانُ مثلَ ذلك، وكان عُمر يدعو علانيةً وحمزةُ بن عبد المطلب، وأبو عُبيدة بن الجرّاح، فغضِبتْ قريش من ذلك، وظهر منهم لرسول الله ﷺ الحسَدُ والبَغي، وأشخص[٥] به منهم رجالٌ فبادَوه، وتستَّر آخرون وهم على ذلك الرّأي، إلا أنهم يُنزِّهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله ﷺ.

ذكر أعداء رسول الله ﷺ الذين جاهروا بالعداوة

قالوا: كان[٦] أهل العداوة والمباداة لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين يَطلبون

---

(١) العلاقة: الخصومة.
(٢) نقله ابن سعد في الطبقات: ١: ١٣٣ (قسم أول)، وابن كثير في البداية: ٣: ٣٨، على خلاف في الرواية.
(٣) الصفا: جبل بين بطحاء مكة والمسجد.
(٤) تبًا: الثب: الخسران والهلاك (اللسان: ثبب).
(٥) أشخص: اشخصوا به: اقلقوه.
(٦) انظر طبقات ابن سعد: ١: ١٣٣، (قسم أول).

الجدَل والخصومة: أبو جهل بن هشام، وأبو لَهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يَغوث، والحارث بن قيس بن عَدِيّ، والوليد بن المُغيرة [وأمية وأُبَيّ ابنا خَلَف، وأبو قيس بن الفاكِه بن المغيرة][١]، والعاص بن وائل، والنَّضر بن الحارث، ومُنبِّه بن الحجاج، وزُهير بن أبي أُمَيَّة، والسائب بن صيفيّ [بن عابد][٢]، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هشام، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وأبو الأَصْدَى، وهو الذي نطحته الأَروَى[٣]، والحكَم بن أبي العاص، وعَدِيّ بن الحمرَاء؛ وذلك أنهم كانوا جيرانَه؛ والذين[٤] كانت تنتهي عداوةُ رسول الله ﷺ إليهم: أبو جهلٍ، وأبو لَهب، وعُقْبة بن أبي مُعَيط؛ وكان عُتبة وشَيبة ابنا ربيعة وأبو سُفيان بن حَرب أهلَ عداوة، ولكنهم لم يُشخِصوا بالنبي ﷺ؛ كانوا كنحو قريش، ولم يسلم من هؤلاء إلا أبو سُفيان والحكَم بن أبي العاص.

ذكر دخولِ قريش على أبي طالب في أمر رسول الله ﷺ وما كان بينهم من المحاورات

قال محمد بن إسحاق[٥]:

لما رأَتْ قُريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتِبهم[٦] من شيءٍ أنكروه عليه، ورأوا أن عمَّه أبا طالب قد حدِب عليه، وقام دونه فلم يسلِمه لهم، مشَى رجال من أشراف قُريش إلى أبي طالب، وهم: عُقْبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو سُفيان صَخر بن حرب، وأبو البختريّ العاص بن هشام، والأسود بن المطّلب بن أسَد، وأبو جهل عمرو بن هشام، ونبيه ومُنَبّه ابنا الحجّاج ابن عامر، والعاص بن وائل، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سَبَّ آلهتنا وعاب دينَنا وسفّه أحلامَنا وضلَّل آباءنَا، فإما أن تكفَّه عنا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه، فإنك على سبيل ما نحن عليه من خِلافه فنَكفيكَه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردّهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظهِر دينَ الله ويدعو إليه ثم شَرَى[٧]

---

(١) عن ابن سعد: ١: ١٣٣ (قسم أول).
(٢) عن ابن سعد أيضًا.
(٣) الأروى: واحدتها: الأُروية، وهي أنثى الوعل.
(٤) في الأصل: «والذي» تصحيف.
(٥) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٢٨٢، وانظر عيون الأثر: ١: ٩٩.
(٦) لا يعتبهم: لا يرضيهم، يقال استعتبني فأعتبته، أي أرضيته وأزلت العتاب عنه.
(٧) شرى: اشتد واستفحل، وفي الأصل: «سرى» تصحيف.

الأمرُ بينه وبينهم حتى تَباعد الرّجال وتضاغنوا[١]، وأكثرت قريش ذِكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا[٢] فيه، وحضَّ بعضُهم بعضًا عليه، ثم مشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى فقالوا: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنهَه عنّا، وإنا والله لا نصبِر على هذا، من شَتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا، أو ننازلَه، وإيّاك في ذلك حتى يهلِك أحدُ الفريقَين؛ ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتُهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خِذلانِه. فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقِ عليّ وعلى نفسك ولا تُحَمِّلني من الأمر ما لا أطيق؛ قال: فظَنَّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه[٣] فيه، وأنه خاذِله ومسلِمُه، وأنه قد ضَعف عن نُصرته والقيامِ معه، فقال له: «يا عمّ، واللّهِ لو وضعوا الشَّمس في يميني والقمرَ في يساري علىَ أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِره الله أو أهلك فيه ما تركتُه»؛ ثم استعبر[٤] رسول الله ﷺ وقام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبِل يا بن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلِمك لشيءٍ أبدًا.

قال: ثم إن قُريشًا لما عرفوا أن أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد أنهَدُ[٥] فتى في قُريش وأجملُه، فخذه فلك عَقلُه ونصْرُه، واتّخذه ولدًا فهو لك خير، وأَسلِم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجلٌ برجل، قال: والله لبئس ما تَسومونني، أتعطونني[٦] ابنكم أَغذُوه[٧] لكم وأُعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا، فقال له المطعِم[٨] بن عَدِيّ بن نوفل بن عبد مَناف بن قُصيّ: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومُك، وجهدوا على التخلّص مما

(١) الضغينة: الحقد، الكره.
(٢) تذامروا: تلاوموا على فوات الفرصة.
(٣) في الأصل: «قد بذل».
(٤) استعبر: جرى دمعه.
(٥) أنهد: أشد وأقوى.
(٦) في الأصل: «أتعطوني».
(٧) أغذوه: أُربيه.
(٨) في الأصل: «فقال له المعظم» تصحيف. انظر (الطبري: ٢: ٢٢٠).

تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا؛ فقال له أبو طالب: واللَّهِ ما أَنصفوني، ولكنك أجمعت خِذلاني ومظاهرة[١] القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، فحَقَب[٢] الأمرُ، وحَميت الحربُ، وتنابذ[٣] القوم، وبادَى[٤] بعضُهم بعضًا.

قال الواقدي:

لما أجابهم أبو طالب بما قدّمناه من أنهم ما أنصفوه قالوا له: فأَرسِل إليه فلنُعْطِه النّصفَ، فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: يا بن أخي، هؤلاء عُمومتك، وأشرافُ قومِك وقد أرادوا ينصفونك، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا أَسمعَ» قالوا: تَدعُنا وآلهتنا، وندعُك وإلٰهَك، قال أبو طالب: قد أنصفَك القوم فاقبَل منهم، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتكم إن أعطيتكم هذه هل أنتم مُعطِيّ كلمةً إن أنتم تكلّمتم بها، ملكتم بها العرَب، ودانت لكم بها العَجم»؟ فقال أبو جهل: إنّ هذه لكلمةٌ مربِحة، نعم، وأبيك لنَقولنّها وعشرَ أمثالها، قال: «قولوا لا إلٰه إلا الله»، فاشمأزُّوا ونَفَروا منها وغضِبوا، وقاموا وهم يقولون: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، ويقال: إن الذي تكلّم بها عُقبَة بن أبي مُعَيط، وقالوا: لا نَعود إليه أبدًا، وما خيرٌ من أن نَغتال محمدًا، فلما كان من تلك الليلة، قعَد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعُمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فِتيانًا من بني هاشم وبني المطّلب، ثم قال: ليأخُذ كلُّ واحدٍ حديدةً صارمة، ثم ليتبَعْني إذا دخلت المسجد فليجلس كلُّ فتًى منكم إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظَليّة، يعني أبا جهلٍ، فإنه لم يغِب عن شرّ إن كان محمد قد قُتِل، فقال الفِتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة، فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زَيد، أَحْسَسْت، ابنَ أخي؟ قال: نعم، كنت معه آنفًا، فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبدًا حتى أراه، فخرج زيد مسرعًا حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو في بيتٍ عند الصَّفا، ومعه أصحابه يتحدّثون، فأخبرَه الخبر، فجاء رسولُ الله ﷺ إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، أين كنت؟ أكنتَ في خير؟ قال: نعم، قال: ادخل بيتَك، فدخل رسول الله ﷺ فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيدِه فوقف على أندية قُريش ومعه الفِتيان الهاشميّون والمطّلِبيّون، فقال: يا معشر قُريش، هل تدرون ما هَممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشِفوا عما في أيديكم، فكشَفوا فإذا كلُّ رجل معه حَديدة صارمة، فقال: والله لو قتلتموه ما بقيتُ

(١) مظاهرة: مساعدة، مؤازرة.
(٢) حقب الأمر: زاد، واشتد.
(٣) تنابذ: تفرق.
(٤) بادى: قاتل.

منكم أحدًا حتى نتفانَى نحن وأنتم، فانكسر القوم، وكان أشدَّهم انكسارًا أبو جهل.

ذكر تحزّب قُريش على رسول الله ﷺ وأذاهم له ولأصحابه

قال ابن إسحاق[١]:

لما أيِست قُريش من أبي طالب، وأنه لا يَخذُل رسول الله ﷺ ولا يُسلِمه أبدًا، تآمروا بينهم على من في القبائل مِن أصحاب رسول الله ﷺ [الذين أسلموا معه][٢]، فوثبت كلُّ قبيلةٍ على من فيهم من المسلمين يُعذّبونهم ويَفتنونهم عن دينهم، فقام أبو طالب حين رأى قُريشًا يصنعون ذلك في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من مَنْع رسول الله ﷺ والقيامِ دونه، فقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لَهَب فإنه تمادَى على غِيّه وكُفره.

قال: ثم اجتمع نَفَر من قريش إلى الوليد بن المُغيرة، وكان ذا سِنّ فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشرَ قريش؛ إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإنّ وفود العرب ستفِد عليكم فيه، وقد سمِعوا بأمر صاحبكم هذا، فأَجْمعُوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلِفوا فيكذِّبَ بعضُكم بعضًا ويردَّ قولُكم بعضُه بعضًا؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شَمس فقل، وأَقِم لنا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أَسْمَعْ؛ قالوا: نقول كاهن؛ قال: لا، واللّهِ ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهّان فما هو بزَمْزَمة[٣] الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقِهِ ولا تَخالُجه ولا وسوستِه؛ قالوا: فنقول شاعر؛ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلَّه رَجزَه وهزَجه، وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطَه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول: ساحِر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُحار وسحرهم، فما هو بِنَفْثه ولا عقدِه؛ قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لِقولِه لحَلاوة، وإن أصله لعَذْق[٤]، وإن فرعه لجَناة[٥]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء بقولٍ هو سحر يُفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء [وأخيه وبين المرء][٦] وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٨٧.
(٢) عن سيرة ابن هشام: ١: ٢٨٧، وانظر الزرقاني: ١: ٢٤٨.
(٣) الزمزمة: الصوت البعيد تسمع له دويًا.
(٤) يروى أيضًا: «الغدق» بغين معجمة وكسر الدال، وفي الأصل: «لغدقه» انظر (شرح المواهب: ١: ٢٥١).
(٥) جناه: كل ما يجتنى.
(٦) عن ابن هشام في السيرة: ١: ٢٨٩، وعيون الأثر: ١: ١٠١.

الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروا له أمره، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ أي خصيمًا مخالفًا ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾. قال ابن هشام: بَسَرَ أي كرّه وجهه، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ١١ـ ٢٥].

قال ابن إسحاق[1]:

وأنزل الله في النَّفَر الذين كانوا معه يصَنِّفون القَول في رسول الله ﷺ، وفيما جاء به من عند الله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١] أي أصنافًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

قال ابن إسحاق[2]:

وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمرِ رسول الله ﷺ، فانتشر ذِكرُه في بلاد العرب كلها، قال[3]: ثم ابتدأت قُريش في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأَغروا به ﷺ سفهاءهم، فكذّبوه وآذوه، ورسول الله ﷺ مُظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به، مُباهٍ لهم[4] بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانِهم، وفِراقه إياهم على كفرهم.

قال محمد بن إسحاق:

حدّثني يحيى بن عُروة عن الزُّبير عن أبيه عن عبد الله[5] بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قلت له ما أكثرُ ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظْهِرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثلَما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قَطّ؛ سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا؛ لقد صَبَرنا منه على

---

(١) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٢٩٠.

(٢) نقله ابن هشام: ١: ٢٩١، انظر عيون الأثر: ١: ١٠١.

(٣) نقله ابن هشام: ١: ٣٠٨.

(٤) لعلها: مُبادٍ لهم.

(٥) يحيى بن عروة: يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عمرو (... نحو ١١٤ هـ = ... نحو ٧٣٢) ناسب عالم من أعيان المدينة. وهو ابن أخي عبد الله بن الزبير. قال الجاحظ، بعد ثنائه على يحيى: «ضربه إبراهيم بن هشام المخزومي والي المدينة، حتى مات، لبعض القول». (الأعلام: ٨: ١٥٦).

أمرٍ عظيم، أو كما قالوا؛ فبينما هم في ذلك إذْ طَلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشِي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفًا بالبيت، فغَمزوه ببعض القول، قال: فعرفتُ ذلك في وجهِه ﷺ، ثم مضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتُ ذلك في وجهه، ثم مرَّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذَّبح[(١)]». قال: فأخذَت كلمتُه القوم حتى ما منهم رَجُل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدَّهم فيه وَصاة[(٢)] قبل ذلك لَيَرْفَؤُه[(٣)] بأحسن ما يجِد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنتَ جهولاً، فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا دنا منكم وباداكم بما تكرهون وتركتُموه، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وَثبَةَ رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا لِما كان يقول مِن عيب آلهتهم ودينهم، فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك». قال: فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجمَع ردائه، فقام أبو بكر دونَه وهو يبكي ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأَشدُّ ما رأيتُ قريشًا نالوا منه قطّ.

قالت أم كلثوم بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما: لقد رجع أبو بكر يومئذٍ وقد صدَعوا فرق[(٤)] رأسه ممّا جَبَذوه[(٥)] بلِحْيته، وكان رجلاً كثير الشعر.

وخرَّج الترمذيّ الحكيم في «نَوادر الأصول»، من حديث جعفر بن محمد عن أبيه[(٦)] عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاثٍ فأرادوا قتل رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يَجَأه[(٧)] وهذا يُتَلْتِله، فاستغاث النبيّ ﷺ فلم يغِثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ ذا ويُتَلْتِل ذَا، ويقول بأعلى صوته:

---

(١) في الأصل: «بالريح» والمثبت عن ابن هشام: ١: ٣٠٩.

(٢) الوصاة: الوصية.

(٣) يرفأ: يهدىء.

(٤) فرق: ما بين الحاجبين إلى الدائرة (اللسان: فرق).

(٥) جبذوه: جذبوه.

(٦) جعفر بن محمد: جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي، القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق (٨٠ _ ١٤٨هـ = ٦٩٩ _ ٧٦٥ م) سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة منهم الإمامان: أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس. وكان جريئًا عليهم صداعًا بالحق. مولده ووفاته بالمدينة. (الأعلام: ٢: ١٢٦).

(٧) يجأه: يضربه.

ويلَكم، ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، واللَّهِ إنه لرسول الله، فقُطِعت إِحدى ضَفيرتي أبي بكرٍ يومئذٍ، فقال عليّ: واللَّهِ ليَومُ أبي بكر خيرٌ من مؤمن آلِ فرعون، ذاك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذَل ماله ودمه لله عز وجل.

قال ابن هشام(١):

حدّثني بعضُ أهل العلم: أن أشدّ ما لقي رسولُ الله ﷺ من قريش: أنه خرج يومًا فلم يلقه أحد من الناس إلاّ كذَّبه وآذاه [لا](٢) حُرٌّ ولا عبد، فرجع ﷺ إلى منزله فتدثَّر من شِدّة ما أصابه، فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر: ١ ـ ٢].

ذكرُ إسلام حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ

قال محمد بن إسحاق(٣):

حدّثني رجلٌ مِن أَسلَم كان واعيةً: أن أبا جَهل بن هشام مر برسولِ الله ﷺ عند الصَّفا فآذاه وشتمه، ونال منه بعضَ ما يكره من العيب لدِينه، والتضعيفِ لأمره، فلم يكلِّمه رسولُ الله ﷺ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان تسمعُ ذلك، ثم انصرف أبو جهل عنه عامدًا إلى نادِي قريش عند الكعبة، فلم يَلبث حمزةُ بن عبد المطلب أن أقبل متوشِّحًا قوسه، راجعًا من قَنَص(٤) له، وكان حمزة أعزَّ فتًى في قريش وأشدّه شكِيمة(٥)، فلما مرّ بمولاة ابن جُدْعان قالت له: يا أبا عُمارة: لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي جَهْل بن هشام؛ وجَدَه ههنا جالسًا فآذاه وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلِّمه محمد، فغضِب حمزة، فخرج يسعَى حتى دخل المسجد فنظر إلى أبي جهلٍ جالسًا في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها، فشجَّه شَجَّة منكرة، ثم قال: أتشتُمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت، فقامت رجال بني مخزوم إلى حمزة لِيَنصُروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سَبَبت ابن أخيه سبًّا قبيحًا، وتَمَّ حمزةُ

---

(١) في السيرة: ١: ٣٨٠.

(٢) في الأصل: «وآذاه حر ولا».

(٣) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٣١١. انظر شرح المواهب: ١: ٢٥٥.

(٤) القنص: الصيد.

(٥) الشكيمة: الأنفة ـ الإباء.

على إسلامه، وعلى ما بايع عليه رسول الله ﷺ من قوله؛ فلما أسلم حمزة عرفت قُريش أن رسول الله ﷺ قد عَزَّ وامتنع، وأن حمزةَ سيمنعه، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه قبلُ، قال: وكان إسلام حمزةَ قبل إسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ بثلاثة أيام[١].

ذِكرُ مشي عُتبة بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ المغيرة إلى رسول الله ﷺ، وسماعهما القرآن، واعترافِهما أنه لا يشبه شيئًا من كلامهم، وما أشار به عُتبة على أشراف قُريش في أمر رسول الله ﷺ

قال محمد بن إسحاق[٢]:

حدّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظيّ قال: حُدِّثت أن عُتبة بن ربيعة ـ وكان سيّدًا ـ قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، والنبيُّ ﷺ جالس في المسجد وحدَه: يا معشر قُريش، ألا أقوم إلى محمدٍ فأكلّمَه وأَعرِضَ عليه أمورًا، لعلّه يقبل بعضَها فنعطيه أيّها شاء ويكَف عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحابَ رسول الله ﷺ يزيدون ويَكثرُون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقُم إليه فكلِّمه، فقام إليه عُتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا بن أخي، إنّك منّا حيث قد علِمتَ من السِّطة[٣] في العشيرة، والمكانِ في النسب، وإنّك قد أتيت قومَك بأمرٍ عظيم فرَّقتَ به جماعَتهم، وسفَّهت به أحلامَهم، وعِبتَ[٤] به آلهتهم ودينَهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمَع مني أَعْرِض عليك أُمورًا تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها، قال: «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: يا بن أخي، إن كنتَ إنما تريد ممّا جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالِنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك[٥] علينا حتى لا نقطعَ أمرًا دونك، وإن كنت تريد مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًا[٦] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبْنا لك الطِّبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرِئك

---

(١) في شرح المواهب: ١: ٢٥٦: «سنة ست من النبوة وقيل في السنة الثانية»، انظر أسد الغابة: ٢: ٤٦ ـ ٥٠.

(٢) نقله ابن هشام في السيرة: ١: ٣١٣، وابن سيد الناس في عيون الأثر: ١: ١٠٥.

(٣) أي توسط العشيرة.

(٤) في الأصل: «عييت»، والمثبت رواية ابن هشام.

(٥) سودناك: جعلناك سيدًا.

(٦) الرئي: التابع من الجن، وقيل: التابع المحبوب من الجن. انظر النهاية (رأى)، وشرح المواهب: ١: ٢٥٨.

منه، فإنه ربَّما غلب التابع على الرجل حتى يداوَى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عُتبة ورسولُ الله ﷺ يسمع منه قال: «أقد فرغتَ يا أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال: «فاستمع مني»، قال: أفعل، قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ [فصلت: ١ ـ ٤]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها عُتبة أنصَت لها، وألقى يديه خلفَ ظهره معتمدًا عليهما[١] يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السَّجدة فسَجد، ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمِعتَ، فأنت وذاك».

فقام عُتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهَب به، فلما جلَس إليهم قالوا: ما وراءَك يا أبا الوليد؟ قال: ورَائي أني سمِعتُ قولاً واللّهِ ما سمعت مثلَه قطّ، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسِّحر ولا بالكَهانة[٢]، يا معشر قريش، أَطِيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاْعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لِقَوله الذي سمعتُ نبأٌ [عظيم][٣]، فإن تصبْه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم، وإن يَظهَر على العرب فملكه ملككُم، وعزُّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به؛ فقالوا: سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدَا لكم.

وروى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ[٤] بسنده إلى جابر بن عبد الله، قال: قال أبو جهلٍ والملأُ من قُريش: لقد انتشر علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالمًا بالسحر والكَهانة والشِّعر فكلَّمه، ثم أتانا ببيان أمره؟ فقال عتبة: لقد سمعتُ بقول السحَرة والكهانة والشعر، وعلِمت من ذلك علمًا، وما يخفَى عليَّ إن كان كذلك، فأتاه عُتبة فقال: يا محمد أنت خيرٌ أَم هاشم؟ أنت خيرٌ أم عبد المطّلب؟ أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فلم يجبه رسول الله ﷺ، قال: فبِم تشتم آلهتنا، وتضلّل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عَقَدْنا ألويَتَنا لك، فكنتَ رأسَنا ما بقيت، وإن كان بك الباه[٥] زوّجناك عشرَ نسوةٍ تختارُ من أيّ بنات قريش شئت، وإن كان بك المالُ جمعْنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعَقِبك من بعدك، ورسولُ الله ﷺ ساكت لا يتكلَّم؛ فلما فرغ مِن

(١) في الأصل: «معتمدًا عليها» والمثبت رواية ابن هشام.
(٢) الكهانة: تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان (اللسان: كهن).
(٣) في الأصل، وعيون الأثر: ١: ١٠٦: «نبأ فإن»، والرواية المثبتة عن ابن هشام: ١: ٣١٤.
(٤) دلائل النبوة، ورقة: ١٤٦.
(٥) الباه: النكاح.

حديثِه قال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ١ ـ ٣] حتى بلغ قوله تعالى: ﴿صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسك عُتبة علَى فِي النبيّ ﷺ، وناشَده الرَّحِم[١] أن يكفَّ، ولم يخرج إلى أهله واحتبَس عنهم؛ فقال أبو جهل: يا عُتْبة، ما حسِبنا إلا أنك صَبَوْت[٢] إلى محمد وأعجبك أمرُه، فإن كانت بك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يُغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لا يكلِّم محمدًا أبدًا، وقال: لقد علمتم أنّي مِن أكثر قريش مالاً، ولكنّي أتيته، وقصّ عليهم القِصّة، قال: فأجابني بشيءٍ والله ما هو بسحرٍ ولا شعر ولا كَهانة، قرأ عليّ: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفِيه وناشدتُه الرحم أن يَكفّ، وقد علمتُم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذِب فيه، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

وأما الوليد بن المغيرة فقد روَى أبو بكر أحمد بن الحسين البَيْهقيّ[٣] بسنده عن عِكرمة[٤] عن ابن عباس أن الوَليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يَرَوْن أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ؟ قال: ليُعطوكَه، فإنك أتيت محمدًا لتعرُض لما قِبَله، قال: قد علِمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يَبْلُغ قومَك أنك مُنْكِرٌ له، وأنك كاره له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برَجَزه ولا بقَصِيده منّي ، ولا بأشعار الجنّ؛ والله ما يُشبِه الذي يقول شيئًا من هذا، [و][٥] والله إن لقوله الذي يقول لحَلاوة، وإن عليه لطَلاوة، وإنه لمثمِر أعلاه، مُغدِقٌ أسفلُه، وإنه ليَعلُو وما يُعلَى، وإنه ليَحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومُك حتى تقول فيه. قال: فدَعْني حتى أُفكّر فيه، فلما فكّر قال: هذا سِحْر يُؤثَر، يأثره عن غيره، فنزل قوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾﴾ الآيات.

وعن عِكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: اقرأ عليَّ فقرأ

---

(١) ناشده الرحم: بحق القرابة.

(٢) صبوت: أي اعتنقت الإسلام.

(٣) دلائل النبوة ورقة: ١٤٥.

(٤) عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله (٢٥ ـ ١٠٥ هـ = ٦٤٥ ـ ٧٢٣ م) مولى عبد الله بن عباس: تابعي. كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي.. خرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه أهلها رأي «الصفرية» وعاد إلى المدينة، فطلبه أميرها، فتغيب عنه حتى مات. وكانت وفاته بالمدينة... (الأعلام: ٤: ٢٤٤).

(٥) تكملة من دلائل النبوة.

علـــيـــه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، قال: أعِد عليّ، فأعاد عليه النبيّ ﷺ فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطَلاوة، وإن أعلاه لمثمِر، وإن أسفله لَمغدِق، وما يقول هذا بَشرٌ.

ذِكر اجتماع أشراف قريش إلى رسول الله ﷺ

وما عرضوا عليه وما طلبوا منه أن يُريَهم ويُخبرَهم به من القصص، وأخبار مَن سَلف وغير ذلك من غيّهم، وما أُنزل عليه في ذلك ممّا سنذكره إن شاء الله تعالى، ويُترجِم على بعض ما انطوت عليه هذه الترجمة من القَصص بما يدل عليها، ويبينها من التراجِم وإن كانت داخلة فيها.

قال محمد بن إسحاق[١]:

ثم إن الإسلام جعل يفشُو بمكّة في قبائل قريش، في الرجال والنساء، وقُريش تحبِس من قَدَرتْ على حبسه، وتفتِن من استطاعت فِتنَته من المسلمين، ثم اجتمعت أشرافُ قريش من كلّ قبيلةٍ، كما رُوي عن سعيد بن جُبير وابنِ عباس، قالا: اجتمعَ عُتبة بن ربيعة، وشَيْبة بن رَبيعة، وأبو سُفيان بن حَرب، والنَّضر بن الحارث بن كَلَدة، وأبو البَخْتريّ بنِ هشام، والأسود بن المطّلب بن أسَد، وزَمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جَهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أميّة، والعاص بن وائل، ونُبيه ومُنَبّه ابنا الحجّاج السَّهْمِيّان، وأمية بن خَلَف، أو من اجتمع منهم، فاجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظَهْر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: اِبعَثوا إلى محمد فكلّموه وخاصِموه حتى تُعذِروا[٢] فيه، فبعثوا إليه: إن أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأتِهم؛ فجاءهم رسولُ الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بَداء[٣]، وكان حريصًا عليهم، يحبّ رُشدَهم، حتى جَلس إليهم فقالوا: يا محمد إنّا قد بَعثنا إليك لنكلّمك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخلَ على قومِه ما أدخلتَ [على قومك][٤]، لقد شتمت الآباء، وعِبْت الدِّين وسَببْتَ الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرّقت الجَماعة، فما بَقِي أمر قَبيح إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا له، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك، وكلّموه بنحو ما كلّمه به عُتبة بن

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١: ٣١٥.
(٢) تعذروا فيه: أي لا تلامون.
(٣) بداء: أمر سيىء.
(٤) تكملة عن ابن هشام: ١: ٣١٥.

رَبيعة على ما قدّمناه آنفًا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي [ما][1] تَقُولون، ما جئتُ بما جئتُكم أطلُب به أموالَكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً وأَنزل عليكم كتابًا، وأمَرَني أن أكون بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتُ لكم رسالاتِ ربّي ونصحتُ لكم، فإن تَقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّه عليّ أصبرْ لأمر الله حتّى يحكمَ الله بيني وبينكم» أو كما قال ـ ﷺ ـ. [قالوا يا محمد][2]: فإن كنت غير قابل منّا شيئًا ممّا عَرَضناه عليك فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدًا، ولا أقلَّ ماء ولا أشدَّ عيشًا منّا، فسلْ لنا ربَّك الذي بعثك به فليسيِّر عنّا هذه الجبالَ التي ضيّقتْ علينا، وليَبسُط لنا بلادنا، وليَخرق لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليَبْعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخَ صدق، فنسألهم عما تقول: أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعتَ لنا ما سألناك عرفْنا به منزلتَك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتُكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلتُ به إليكم، فإن تَقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتّى يَحكم اللّهُ بيني وبينكم». قالوا له: فإذا لم تَفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سَلْ ربّك أن يَبعثَ معك مَلَكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْه فليجعل لك جِنانًا وقُصورًا وكُنوزًا من ذهب وفضّة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنّك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاشَ كما نَلتمِس، حتى نعرف فضلَك ومنزلَتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يَسأل ربَّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا»، ـ أو كما قال ـ: «فإن تَقبلوا ما جئتُكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكُمَ الله بيني وبينكم». قالوا: فأَسقِط السماءَ علينا كِسَفًا[3] كما زعمتَ أن ربَّك إن شاء فَعَل، فإنّا لا نؤمن لك إلاّ أن تفعل، فقال ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء يفعلُه بكم فَعَل» قالوا: يا محمد، أفما علم ربُّك أنّا سنجلس معك ونسألُك عمّا سألناك عنه ونطلب، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك بما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نَقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلَغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة[4] يقال له الرحمٰن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمٰن أبدًا، فقد أعْذرنا إليك يا

(١) تكملة عن ابن هشام.
(٢) تكملة عن ابن هشام يقتضيها سياق الكلام.
(٣) كسفا: قطعا.
(٤) اليمامة: الصقع المعروف شرقي الحجاز (اللسان: يمم).

محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغتَ منّا نُهلِكَك أو تُهْلِكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بَناتُ الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتيَ بالله والملائكة قَبيلاً؛ فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ـ وهو اْبن عمّته ـ فقال له: يا محمد، عرض عليك قومُك ما عرضوا فلم تَقبلْه منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتَك من الله كما تقول: ويتصدّقوك ويتّبعوك فلم تَفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به من فضلكَ عليهم، ومنزلتَك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعضَ ما تخوّفهم به من العذاب فلَم تفعل ـ أو كما قال له ـ فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتّخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصكٍّ[١]، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأَيم الله لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أصدّقك؛ ثم اْنصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أَسِفًا لما فاته ممّا كان يطمع به من قومه حين دَعَوه[٢].

ذكر قصّة أبي جَهْل في الحَجَر الذي قَصد قَتلَ رسول الله ﷺ، وما شاهَدَه من حماية الله تعالى لنبيِّه، وكفايتِه إيّاه ورجوعِه إلى قومه وإخبارِهم بما شاهد

قال ابن إسحاق: ولمّا قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش، إنّ محمدًا قد أبى إلاّ ما تَرَوْن من عيبِ ديننا، وشتم آبائنا، وتسفِيه أحلامنا، وسبِّ آلهتنا؛ وإني أعاهد اللّهَ لأَجلسنّ له غدًا بحَجَر ما أطيق حَمْلَه، فإذا سجد فَضَخْتُ[٣] به رأسَه، فأسلِموني عند ذلك أو اْمنَعوني، فليصنعْ بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم؛ قالوا: والله لا نُسلِمك لشيء أبدًا، فاْمض لما تريد، فلمّا أصبح أخذ حَجَرًا كما وصف، ثم جلس ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان رسول الله ﷺ يصلّي إلى بيت المَقدِس: وكان إذا صلّى صلّى بين الركن اليمانيّ والحجرِ الأسوَد: وجعل الكعبةَ بينه وبين الشام، وقام يصلّي وقريشٌ في أندِيتهم ينتظرون ما أبو جَهْل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ اْحتمَلَ أبو جهل الحَجَر ثم أتى نحوَه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقِعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حَجَرِه حتى قذف الحجر من

(١) بصكّ: بدليل.
(٢) في الأصل: «عن دعوة» والتصويب عن ابن هشام ج ١، ص ٣١٩.
(٣) فَضَخَ: كسر.

يدِه، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحَكَم؟ فقال: قمتُ إليه لأفعل [به](١) ما قلتُ لكم البارحة، فلمّا دنوتُ منه عَرَض لي دونَه فحلٌ(٢) من الإبل؛ واللَّهِ ما رأيت مثلَ هامتِه ولا قَصَرَتِه(٣) ولا أنيابِه لفحلٍ قطّ، فهمّ أن يأكلني، قال رسول الله ﷺ: «ذاك جبريل لو دنا لأَخَذَه».

ومثل هذه القصة أيضًا، ما رواه ٱبن إسحاقَ قال: قدم رجل من إراش - ويقال إراشة(٤) - بإبلٍ له مكّة فٱبتاعها منه أبو جهل، فمَطَلَه(٥) بأثمانها، فأقبل الإراشيّ حتى وقف على نادٍ من أندية قريش، ورسولُ الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال الإراشيّ: يا معشر قريش، مَن رجل يُؤْدِيني(٦) على أبي الحَكَم بن هِشام، فإنّي رجلٌ غريبٌ ٱبنُ سبيل، وقد غلبني على حقّي؛ فقال له القوم: أترى ذلك الرجلَ الجالسَ؟ - يريدون رسول الله ﷺ وهم يهزءون به - اذهب إليه فهو مُؤْدِيكَ عليه؛ فأَقبلَ الإراشيُّ حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله، إن أبا الحَكَم قد غلبني على حقٍّ لي قِبَلَه(٧)، وأنا غريبٌ وٱبنُ سبيل، ولقد سألتُ هؤلاء القومَ عن رجل يُؤْدِيني عليه فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقِّي منه يرحمك الله، قال: «ٱنطَلِق إليه»، وقام معه ﷺ فلمّا رأَوْه قام معه قالوا لرجل ممّن معهم: اِتبعه فانظر ماذا يصنع؟ قال: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فَضَرب عليه بابه، فقال: مَن هذا؟ قال: «محمدٌ فٱخْرُج إليّ» فخرج وما في وجهه رائحة(٨) (أي دم) قد ٱنتقِع(٩) لونُه فقال: أعطِ هذا الرجلَ حقَّه قال: نعم، لا يبرح حتّى أعطِيَه [الّذي له](١٠)، ودخل فخرج إليه بحقّه فدفعه إليه، ثم ٱنصرف رسولُ الله ﷺ وقال للإراشيّ: اِلْحَقْ بشأنك؛ فأقبل الإراشيّ حتّى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرًا، فقد والله أخذ لي حقّي، وجاء الرجل الّذي بعثوه معه فأخبرهم الخبر، قال: ثمّ لم يَلْبَث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: وَيْلَك! والله ما رأينا مِثلَ ما صنعتَ قطّ! قال: وَيْحَكُم! واللَّهِ ما هو إلاّ أن ضَرَب عليّ

---

(١) تكملة عن ابن هشام.
(٢) الفحل: الذكر من كل حيوان (اللسان: فحل).
(٣) القَصَرَة: أصل العنق.
(٤) إراشة: بطن من خثعم.
(٥) مطل: راوغ - تباطأ.
(٦) يؤديني: يساعدني على أخذ حقي منه.
(٧) قِبَله: عنده.
(٨) أي أنه مصفر من الخوف.
(٩) انتقع: تغير لما أصابه.
(١٠) تكملة عن ابن هشام: ١: ٢٣٨.

بابي، وسمعتُ صوته، فمُلِئتُ رُعْبًا، ثم خرجتُ إليهِ وإنّ فوق رأسه لَفَحْلاً من الإبل ما رأيتُ مثل هامَتِه ولا قَصَرَته، ولا أَنيابِهِ لِفحل قطّ، والله لو أَبيتُ لأكلني.

ذكرُ خبرِ النَّضر بن الحارث، وما قال لقريش، وإرسالهم إيّاه إلى يثربَ إلى أَحبار يهودَ وعُقبَة بنِ أبي مُعَيط وما عادا به

قال: ولمّا رجع أبو جهل إلى قريش، وألقى الحَجَرَ من يده وقصّ عليهم ما شاهد قال النضرُ بنُ الحارث بنِ كَلَدَة فقال: يا معشر قريش، إنه واللّهِ قد نزل بكم أمرٌ ما أَتيتم له بحيلة بعدُ، قد كان محمّدٌ فيكم غلامًا حَدَثًا، أرْضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمَكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدْغَيه الشيبَ ـ وقد جاءكم بما جاءكم به ـ قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السَّحرة، نَفْثَهم وعقدَهم وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكَهنَة؛ تَخالجهم، وسمعنا سجَعهم. وقلتم: شاعر، والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافَه كلَّها؛ هَزَجَه ورَجَزَه. وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، ما هو بخَنْقِه، ولا وَسْوَسَتِه، ولا تخلِيطه[1]، يا معشر قريش، فأنظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

قال أبن إسحاق: وكان النضرُ بنُ الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ ويَنصب له العداوة، وكان قد قَدِم الحِيرة وتعلّم بها أحاديثَ ملوكِ الفُرْس ورستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسولُ الله ﷺ مجلسًا فذكّر فيه بالله وحذّر قومَه ما أصاب مَن قَبْلَهم من الأمم من نِقْمة الله، خَلَفه في مجلسه إذا أقام، ثم قال: والله يا معشر قريش أنا أحسنُ حديثًا منه، فهلمّ فأنا أحدّثكم أحسنَ من حديثه، ثم يحدّثهم عن ملوك فارسَ ورستم، وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني!.

قيل: والنضر هذا هو الذي قال فيما بلغني: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قال أبن عباس: نزل فيه ثَمانُ آياتٍ من القرآن: قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: ١٥]، وكلّ ما ذُكر فيه الأساطيرُ من القرآن. قال: فلما قال لهم النضر بنُ الحارث ما قال بعثوه، وبعثوا معه عقبةَ بنَ أبي مُعَيْط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد، وصِفَا لهم صفَته وأخبراهم بقوله: فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علمٌ حسن ـ ليس عندنا ـ من علم الأنبياء؛ فخرجا حتى

---

(١) التخليط: غير الواضح.

قَدِما المدينة فسألاَ أَحبارَ يهودَ عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمرَه، وأخبرَاهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنّكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهما أَحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول[1]، فَرَوْا فيه رأيكم، سلُوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان من أمرِهم؟ فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيب، وسَلُوه عن رجل طوّافٍ قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها؛ ما كان نَبؤهُ؟ وسلُوه عن الرُّوح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فاتَّبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فَروا فيه رأيكم. فجاءوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد أَخبِرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوّل قد كانت لهم قصّة عَجَب؛ وعن رجل كان طوّافًا قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها؛ وأخبِرْنا عن الرُّوح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتمْ عنه غدًا»، ولم يستثن بالمشيئة، فانصرَفوا عنه، فمكث رسولُ الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلةً لا يُحدث اللّهُ في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريلُ حتى أرجفَ[2] أهلُ مكّة وقالوا: وَعَدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا[3] بشيء ممّا سألناه عنه، وحتى أحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ[4] الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهلُ مكة، ثم جاءه جبريل من ٱلله بسورة الكهف فيها خبرُ ما سألوه عنه، فيقال: إنه ﷺ قال لجبريل حين جاءه: لقد أحتبستَ عنّي حتى سؤتُ ظنّا، فقال له جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤].

ذكر ما ٱشتملت عليه سورةُ الكهف ممّا سألوه عنه

قال أبو محمد عبدُ الملك بنُ هشام رحمه الله تعالى: افتتح اللّهُ عزّ وجلّ السورةَ بحمده، وذكر نبوّة رسوله ﷺ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني محمدًا. قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي معتدلاً لا ٱختلاف فيه. قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي عاجل عقوبته في الدنيا وعذاباً أليماً في الآخرة. قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ أي دار الخُلد لا يموتون فيها، الّذين صدّقوك بما جئتَ به ممّا كذّبك به غيرُهم، وعملوا بما أمرتَهم من الأعمال. قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ يعني قريشًا في قولهم:

---

(١) متقول: مدع.
(٢) أرجف: يقال: أرجف القوم، إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.
(٣) كذا في ابن هشام، وهو الصواب. والذي في الأصل: «ولا تخبروا»؛ وهو تحريف.
(٤) مُكْث: انحباس.

إنّا نعبد الملائكةَ وهي بناتُ الله. قوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ الذين اعظموا فراقهم. قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي قولهم: إنّ الملائكة بناتُ الله. قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ أي مُهلكٌ نفسك لحزنه ﷺ عليهم حين فاتّه ما كان يرجو منهم، أي لا تفعل. قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ أي أيّهم أَتبع لأمري، وأعملُ لطاعتي. قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ١ ـ ٨] أي الأرض، وإنّ ما عليها لفانٍ وزائل، ولكنْ المرجعُ إليّ فأجزي كلاً بفعله، فلا تأسَ، ولا يَحزُنك ما ترى وتسمع فيها، ثم اُستقبل القصّة فيما سألوه عنه من شأن الفِتْيَةِ.

فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حجَّتي ما هو أعجب من ذلك. قال اُبن هشام: والرقيم الكتاب الذي يرقم فيه بخبرهم، وجمعه رُقُم. ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي لم يشركوا بي كما أشركتم [بي][(١)] ما ليس لكم به علم. قال: والشَّطَطُ، الغُلُوُّ[(٢)] ومجاوزرة الحق. قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾، أي بحجّة بالغة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾. قال اُبن هشام: تَزاوَرُ، تميل، وهي من الزَّوَر، ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي تجاوزهُم وتتركُهم عن شمالها. والفَجوة: السعة، وجمعها الفجاء. قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في الحجّة على مَن عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتابِ ممّن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم في صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم. قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٨] الوصيد: الباب. قال عبيد بنُ وهب العبسيّ منشدًا: [من الطويل]

بأرضِ فلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها ... عليّ ومعروفي بها غير مُنْكَرِ

والوصيد أيضًا الفِناء، وجمعه وصائد ووُصد ووُصْد ووُصْدان قوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أهل الملكُ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ يعني أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم، فإنهم لا علم لهم بهم. قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى

(١) تكملة عن ابن هشام، والجامع لأحكام القرآن: ١٠: ٣٤٩.
(٢) في الأصل: «العلو»، والتصويب عن ابن هشام.

فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿رَشَدًا﴾ أي لا تقولنّ لِشيء سألوك عنه كما قلت في هذا: إني مخبرُكم غدًا واَستثْنِ بمشيئةِ الله ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ لخير مما سألتموني عنه رَشَدا. فإنّك لا تدري ما أنا صانع في ذلك. قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ أي سيقولون ذلك. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ أي لم يخف عليه شيء مما سألوا عنه، وقال الله عزّ وجلّ، فيما سألوه عنه من أمر الطّواف، وهو ذو القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ١٨- ٨٣] الآيات، إلى آخر خبرِه، وقد ذكرنا قصة ذي القرنين في الباب الأوّل من القسم الرابع من الفنّ الخامس من كتابنا هذا، وهي في الجزء الثاني[١] عشر من هذه النسخة، ولا فائدة في إعادتها.

وقال تعالى فيما سألوه عنه من [أمر][٢] الرّوح[٣]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥] رُوي عن عبد الله بنِ عبّاس رضي الله عنهما قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينةَ قال أحبارُ يهودَ: يا محمد، أرأيت قولك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] إيّانا تريد أم قومَك؟ قال: كلاّ. قالوا: فإنّك تتلو فيما جاءك إنّا قد أُوتينا التوراة فيها بيانُ كلّ شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنّها في عِلم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه» فأنزل اللّهُ تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]، أي أن التوراة في هذا مِن علم الله قليل.

ذكر ما أنزل على رسول الله ﷺ من القرآن فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال، وتقطّع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى، وما سألوه لنفسه، وما قالوه له بعد ذلك

أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ فيما سأله قومُه لأنفسهم فيما قدّمنا ذكره؛ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أي لا أصنع من ذلك إلاّ ما شئت، وأنزل عليه في قولهم:

(١) من تجزئة المؤلف.
(٢) تكملة عن ابن هشام ص ١٩٦.
(٣) في تفسير معنى الروح أقوال كثيرة أوردها القرطبي في جامعه: ١٠: ٣٢٣.

خذ لنفسك ما سألوه أن يأخذ لنفسه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، أي من أن تمشيَ في الأسواق وتلتمسَ المعاش ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق: ١١]. وأنزل عليه في ذلك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، أي جعلتُ بعضَكم لبعض بلاءً لتصبروا، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رُسُلي ولا يخالَفُوا لفعلتُ. وأنزل عليه فيما قال عبدُ الله بنُ أميّة: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ـ ٩٣]، وأنزل عليه في قولهم: إنّا قد بلَغنا [أنك][1] إنّما يعلّمك رجل باليمامة يقال له الرحمٰن، ولن نؤمن به أبدًا؛ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠]. وأنزل عليه فيما قال أبو جهل وما هَمَزَ به قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ [العلق: ٩ـ ١٢] إلى آخر السورة. قال ابن هشام: لنسفعنْ: لنجذبنْ ولنأخذنْ. والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم ويقضون فيه أمورَهم، وجمعُه أندية: يقول: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: ١٧] أي أهلَ ناديه، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أيْ أهل القرية، وأنزل عليه فيما عرضوه عليه من أموالهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: ٤٧].

ذكر ما كان من عناد قريش بعد ذلك وعقودِهم[2]

قال: فلمّا جاءهم رسولُ الله ﷺ بما عرفوا من الحقّ، وعرفوا صدقَه فيما حدّث، وموقعَ نبوّته فيما جاءهم به من علم الغُيوب حين سألوه عمّا سألوه عَتَوْا[3]

---

(١) الزيادة عن ابن هشام: ١: ٣٢٢.

(٢) عقودهم: عهودهم، من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ أي بالعهود.

(٣) عَتَوْا: استكبروا.

على الله واستمرّوا في طغيانهم وعلى كفرهم، فقال قائلهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإنكم إن ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم. فقال أبو جهل يومًا ـ وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحقّ ـ: يا معشر قريش، يزعم محمد أنّما جنودُ الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً [وكثرة][١]، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم. فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ النَّارِ إِلَّا مَلَٰئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] إلى آخر القصّة. قال: ولمّا قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو في صلاته يتفرّقون عنه، ويأبون أن يسمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعضَ ما يتلو من القرآن وهو يصلّي اْسترق[٢] السمعَ دونَهم فَرَقا[٣] منهم، فإن رأى أنّهم قد عرفوا به أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم أن يستمع؛ وإن خفض ﷺ صوتَه ظَنَّ الّذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئًا من قراءته؛ وسمع هو شيئًا دونَهم أصاخَ له يستمع منه، فأنزل الله تعالى قولَه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] يقول: لا تجهر بصلاتك فيفرّوا عنك، ولا تخافت بها، فلا يَسمعها من يحبّ أن يسمعها ممّن يسترقُها دونَهم لعلّه يَرعَوِي إلى بعض ما يسمع فينتفع به.

ذكر أوّل من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ

رُوي عن عروة بنِ الزّبير عن أبيه قال: كان أوّلَ مَنْ جهر بالقرآن بعد رسولِ الله ﷺ عبدُ الله بنُ مسعود. قال: اجتمع يومًا أصحابُ رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعتْ قريش هذا القرآنَ يُجهَر لها به قطّ مِن رجل يُسْمِعُهُمُوه. فقال عبد الله بن مسعود: أنا؛ قالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني، إن الله سيمنعني؛ قال: فغدا اْبن مسعود حتى أتى المقَام في وقت الضُّحى وقريشٌ في أنديتها، ثم قال رافعًا صوته: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٢] ثم اْستقبلها يقرؤُها، وتأمّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال اْبنُ أمِّ عَبْد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعضَ ما جاء به محمّد؛ فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يَبْلُغ، ثم اْنصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا بوجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك. قال: ما كان أعداءُ الله

---

(١) الزيادة عن ابن هشام: ١: ٣٣٥.
(٢) استرق السمع: تنصت خفية.
(٣) فرقًا: خوفًا.

أهوَنَ عليّ منهم الآن، وإن شئتم لأغادينّهم بمثلِها غدًا؛ قالوا: لا، حَسْبُك، قد أسمعتَهم ما يكرهون. والله الموفّق.

ذكر ما نال أصحاب رسول الله ﷺ من أذى قريشٍ وعذابِهم ليفتنوهم عن دينهم

قال محمّد بن إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم واتّبع رسولَ الله ﷺ من أصحابِه، فوثبتْ كلُّ قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضَّرْب والجوع والعطش، وبِرَمْضَاءِ[(١)] مكّة إذا اشتد الحرّ؛ من استَضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يَفتتن[(٢)] من شدّة البَلاء الذي يصيبه، ومنهم مَن يعصمه الله، فكان بلالُ بنُ رَباح[(٣)] مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما لبعض بني جُمَح مولّدًا[(٤)] من مولّدِيهم، وكان صادقَ الإسلام، طاهرَ القلب، فكان أميّة بن خلف[(٥)] يخرجه إذا حَميت الظَّهيرة فيَطرحه على ظهره في بطحاء مكّة، ثم يأمر بالصَّخْرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد، وتعبدَ اللّاتَ والعُزّى؛ فيقول ـ وهو في ذلك البلاء ـ أَحَد أَحَد، فكان ورقةُ بنُ نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك وهو يقول: أَحَد أَحَد، فيقول: أَحَد أَحَد والله يا بلال؛ ثم يقبل على أميّة بن خلف وهو يصنع به ذلك فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذه لأتخذنّه حنانا[(٦)]؛ حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يومًا وهم يصنعون به ذلك، فقال لأميّة: ألا تتقي الله في هذا المسكين، حتّى متى! فقال: أنت أفسدتَه فأنقِذه ممّا ترى. قال: أفعَل، عندي غلام أسوَد أجلدُ منه وأقوى، وهو على دينك، أُعْطِيكه به. قال: قد قبلتُ؛ قال: هو لك. فأعطاه أبو بكر غلامَه ذلك، وأخذه فأعتَقَه، ثم أَعتَقَ معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة سِتَّ رِقاب؛ وهم عامرُ بنُ فُهَيْرة، شهد بَدْراً وأُحدًا[(٧)]، وأمّ عُمَيس وزِنِّيرة ـ وكانت روميّة لبني عبد الدار ـ فأصيب

---

(١) الحجارة الحارة.

(٢) في الأصل: «فمن يفتتن» وما أثبت عن ابن هشام: ١: ٢٠٥.

(٣) في الأصل: ما يفيد أن بلالاً كان من موالي رسول الله ﷺ، وليس كذلك، فإن بلالاً هذا كان من خدم رسول الله ﷺ لا من مواليه. انظر: المعارف ص ٨٨، وابن كثير ج ٣ ص ٥٧.

(٤) مولّدًا: المولد: من كان عربيًا غير محض، لكنه عربي المنشأ.

(٥) أمية بن خلف: أمية بن خلف بن وهب. (. . . ـ ٢ هـ = . . . ـ ٦٢٤ م)، من بني لؤي: أحد جبابرة قريش في الجاهلية، ومن ساداتهم أدرك الإسلام، ولم يسلم. وهو الذي عذب بلالاً الحبشي في بداءة ظهور الإسلام، أسره عبد الله بن عوف يوم بدر. الأعلام: ٢: ٢٢.

(٦) لأتخذنه حنانًا: لأجعلن قبره موضع حنان، فأزوره وأتبرك به.

(٧) زاد في ابن هشام ٢٠٣ «وقتل يوم بئر معونة شهيدًا».

بصرُها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهبَ بصرَها إلاّ اللاّت والعُزّى، وما ينفعان. فردّ الله إليها بصرَها؛ وأَعتقَ النهديّة وابنتَها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدّار، فمرّ بهما وقد بعثتهما سيّدتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتِقكما أبدًا؛ فقال أبو بكر: حِلٍّ[1] يا أم فلان؛ فقالت: حلٌّ أنت؛ أفسدتَهما، فأعتِقْهما، قال فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا؛ قال: أخذتُهما وهم حرّتان، اِرجِعا إليها طحينَها؛ قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها؛ قال: وذاك إن شئتما. ومرّ بجارية من بني مؤمل (حيّ من بني عديّ ابنِ كعب) ـ وكانت مسلمة ـ وكان عمرُ يعذِّبها لتترك الإسلام، وعمرُ يومئذٍ مشرك، وهو يضربها حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليكِ، لم أتركْكِ إلاّ ملالة[2]، فيقول: كذا يفعلِ الله بك. فأبتاعها فأعتقَها، فقال أبو قُحافة لأبي بكر: يا بنيّ، أراك تُعتِق رِقابًا ضِعافًا، فلو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْدًا يَمنعونَك، ويقومون دونك؛ فقال أبو بكر: يا أبتِ إنّي إنما أريد لله عزّ وجلّ ما أريد؛ فيقال: إنّ هذه الآيات أنزلت فيه رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ٥، ٦ـ ٢١].

قال محمد بن إسحاق: وكان بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمّه ـ وكانوا أهل بيتِ إسلام ـ إذا حَمِيت الظَّهيرة يعذّبونهم برَمْضاء مكّة، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ، فيقول: «صبرًا آل ياسر موعدُكم الجنّة»، فأما أمّه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام. قال أبو عمر: وهي سُمَيَّة، كانت أَمَةً لأبي حُذَيْفة بن المغيرةِ بنِ عبد الله بن عَمرو بن مخزوم، فزوّجها من حليفهِ ياسر بن عامر بن مالك العبسي، فولَدت له عمّارًا، فأعتقه أبو حذيفة. وسميّة هذه أوّل شهيدةٍ في الإسلام. وجاءها أبو جَهْل بحرْبة في قُبلها[3] فقتلها، فقال عمّار: يا رسول الله، بُلِغ منا ـ أو بُلِغ منها كلّ مبلغ ـ فقال رسول الله ﷺ: «صبرًا يا أبا اليقظان، اللهم لا تُعَذِّب أحدًا من آل ياسر بالنار».

قال ابن إسحاق: وكان أبو جهل هو الذي يُغري بهم في رجال قريش إذا سمع برجل قد أسلم، فإن كان له شرف ومَنَعَة أنّبه وخزّاه[4]: فيقول: تركتَ دين أبيك وهو خير منك، لنسفّهن حِلْمك وَلَنُفَيِّلَنَّ[5] رأيك، ولنضعنّ شرفك؛ وإن كان تاجرًا، قال:

(١) أي تحللي من يمينك.
(٢) ملالة: سأمًا.
(٣) القبل: خرج المرأة.
(٤) خزاه: أذله وحقره.
(٥) لنفيلن: فيل رأيه: خطأه.

والله لنُكسِدنّ[١] تجارتك، ولنهلكن مالك؛ وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به. وروي عن سعيد بن جُبير قال: قلت لابن عبّاس رضي الله عنهما: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليَضربون أحدَهم ويُجيعونه ويُعطشونه؛ حتى ما يقدر أن يستويَ جالسًا من شدّة الضرّ الذي به، حتى يعطيَهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: اللات والعزّى إلٰهان من دون الله، فيقول: نعم، حتى إن الجُعَل[٢] ليمرّ بهم فيقولون له: هذا الجعَل إلهُك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداءً منهم ممّا يَبلغون من جهده. والله المعين.

ذكرُ هجرةِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ إلى الحبشة، وهي الهجرة الأولى

قال محمد بن إسحاق: لما رأى رسولُ الله ﷺ ما يصيب أصحابَه من البلاء والعذاب، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله تعالى ومن عمّه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلكًا لا يُظلم عنده أحد - وهي أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك من خرج منهم مخافةَ الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة كانت في الإسلام.

قال الواقديّ: خرجوا متسلّلين سرًّا، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتى اْنتَهوا إلى الشُّعَيْبةِ[٣] منهم الراكب والماشي، ووفّق الله لهم ساعةَ جاءوا سفينتين للتّجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مَخرجُهم في نصف رجب من السنة الخامسة من حين تنبّأ رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوهم.

قال ابن إسحاق: كان أولَ من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبد شمس عثمان بن عفان معه امرأته رقيّة بنت رسول الله ﷺ، ومن بني عبد شمس: أبو حذيفة ابن عُتْبة، معه اْمرأته سَهْلة اْبنة سُهَيل، ولدتْ بأرض الحبشة محمدَ بنَ أبي[٤] حذيفة. ومن بني أسد بن عبد العزّى: الزبير بن العوّام. ومن بني عبد الدار: مصعب بن عُمَير بن هاشم. ومن بني زُهرة بن كلاب: عبد الرحمٰن بن عوف. ومن بني مخزوم:

---

(١) في الأصل: «ولنكسرن». تصحيف. والتصويب عن ابن هشام: ١: ٣٤٢، وابن كثير: ٣: ٥٧.
(٢) الجعل: دابة سوداء من دواب الأرض (اللسان: جعل).
(٣) الشعيبة، كجهينة: مرسى السفن من ساحل بحر الحجاز، كان مرسى سفن مكة قبل جدة.
(٤) ساقطة من الأصل: والتكملة عن ابن هشام: ١: ٣٤٤.

أبو سَلَمة بن عبد الأَسَد، معه امرأته أُم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، ومن بني جُمَح: عثمان بن مَظْعون بن حبيب. ومن بني عديّ بن كعب: عامرُ بن ربيعة امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة بن غانم؛ ومن بني عامر بن لؤيّ: أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزّى[١]؛ ومن بني الحارث بن فهر: سُهيل بنُ بَيْضاء، وهو سهيل بن وهب بن ربيعة. قال: هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، وكان عليهم عثمانُ بن مظعون. وزاد الواقديّ: حاطب بن عمرو بن عبد شمس، فجعلهم أحد عشر رجلًا وأربع نسوة. قال: فقدمْنا أرضَ الحبشة، فجاوزْنا بها خَير جارٍ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدْنا الله تعالى لا نُؤذَى، ولا نُسمع شيئًا نكرهه. والله أعلم.

ذكرُ رجوع أهل هذه الهجرة إلى مكّة، وما قيل في سبب رجوعهم

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه: لمّا رأى رسول الله ﷺ من قومه كفًّا عنه، جلس خاليًا[٢] فتمنّى فقال: ليته لا ينزل عليّ شيء ينفرّهم عني، وقارب رسول الله صلى الله [عليه وسلم][٣] قومَه ودنا منهم ودَنوا منه، فجلس يومًا مجلسًا في نادٍ من تلك الأندية حول الكعبة، فقرأ عليهم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ حتى بلغ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١ ـ ٢٠]. ألقى الشيطان على لسانه كلمتين: «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى» ولما بلغ «الغرانيق العلا»، وفي أخرى: «والغرانقة[٤] العلا، تلك الشفاعة تُرتجى». قال الواقديّ: فتكلّم رسول الله ﷺ بهما[٥]، ثم مضى فقرأ السورة كلَّها، وسجد وسجد القومُ جميعًا، ورفع المغيرة بنُ الوليد ترابًا إلى جَبْهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود. ويقال: إن أبا أُحَيْحَة سعيدَ بنَ العاص أخذ ترابًا فسجد عليه، ورفعه إلى جَبهته ـ وكان شيخًا كبيرًا ـ فرضوا بما تكلّم به رسول الله ﷺ، وقالوا: قد

---

(١) ذكر ابن كثير عن ابن إسحاق أن أبا سبرة كانت معه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو (٣: ٦٧). وابن هشام (١: ٣٥٢).

(٢) خاليًا: منفردًا مرتاحًا.

(٣) ساقطة من الأصل.

(٤) كذا في الكشاف للزمخشري: ٢: ٥٨. بولاق.

(٥) قال صاحب الجامع لأحكام القرآن: ١٢: ٨١، إن هذا الحديث الذي فيه الغرانيق العلا وقع في كتب التفسير ونحوها ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكر في عمله، مصنف مشهور وذكر القاضي عياض أن رسول الله ﷺ معصوم من الإخبار عن شيءٍ بخلاف ما هو عليه لا قصدًا ولا سهوًا ولا غلطًا. . . الخ.

عرفنا أن الله يُحيي ويُميت ويخلق ويَرزق، ولكنّ آلهتنا هذه تَشفع لنا عندَه، فأمّا إذا جعلتَ لها نصيبًا عندك فنحن معك، فكبُر ذلك على رسول الله ﷺ من قولهم حتى جلس في البيت فلمّا أمسى أتاه جبريلُ فعرض عليه السورةَ، فقال جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فقال رسول الله ﷺ: «قلتُ على الله ما لم يَقُل» فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥].

وقال: ففشت تلك السّجدة في الناس حتى بلغتْ أرضَ الحبشة، فبلغ أصحابُ رسول الله ﷺ أن أهل مكّة قد سجدوا فأسلموا، حتى إن الوليد بنَ المغيرة وأبا أحيحة قد سَجدا خلفَ النبيّ ﷺ، فقال القوم: فَمن بقيَ بمكّة إذا أسلم هؤلاء! قالوا: عشائرنا أحبُّ إلينا؛ فخرجوا راجعين، حتى إذا كانوا دون مكة بساعةٍ من نهار لَقوا رَكْبًا من كنانة، فسألوهم عن قريش وعن حالهم، فقال الركب: ذكر محمد آلهتَهم بخير، فتابعه الملأ، ثم ارتدّ عنهم، فعاد يشتم آلهتهم، وعادوا له بالشر، فتركناهم على ذلك، فأْتمر القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا، ندخل فننظر ما فيه قريش، ويحدث عهدًا من أراد بأهله، ثم نرجع. قال: فدخلوا مكة، ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار، إلا أبن مسعود فإنه مكث يسيرًا، ثم رجع إلى أرض الحبشة. قال الواقديّ: فكان خروجهم في شهر رجب سنة خمس (يريد من النبوّة[1])؛ فأقاموا شعبان ورمضان وقدِموا في شوال من السنة.

وحيث ذكرنا هذا الحديث فلنذكر ما جاء في تَوْهِينِهِ.

ذكر ما ورد في تَوْهين هذا الحديث والكلامِ عليه في التوهين والتسليم

قال القاضي عياض بن موسى بن عياض رحمه الله، في كتابه المترجم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى) ﷺ:

اعلم أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخَذَيْن: أحدهما في توهين أصله، والثاني [على][2] تسليمه.

أمّا المأخذ الأوّل فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نَقَلَتِه، وأضطراب رواياته وانقطاع إسناده،

(١) هذه من قول المؤلف. انظر الذخائر والأعلاق لابن سلام الباهلي ص ٢٠٤ (الطبعة الوهبية).
(٢) هذه الكلمة ساقطة من الأصل، والمثبت عن الشفاء للقاضي عياض: ٢: ٢٨.

واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أُنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنة[١]؛ وآخر يقول: بل حدّث نفسها فسها؛ وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتُك؛ وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها؛ فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت» إلى غير ذلك من اختلاف الرواة، ومن حُكِيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية[٢]، والمرفوع فيه حديث شعبة[٣] عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير[٤]، عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أحسب ـ الشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة ـ وذكر القصة. قال أبو بكر البزار[٥]: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه.

وأما حديث الكلبيّ فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره، لقوة ضعفه وكذبه كما أشار البزار إليه، قال: والذي منه في الصحيح أن النبيّ ﷺ قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ وهو بمكة، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. هذا توهينه من طريق النقل، والله أعلم بالصواب.

---

(١) السنة: السهو.

(٢) كذا في الشفاء للقاضي عياض: ٢: ١١٨ والذي في الأصل: «فاتنة».

(٣) شعبة: شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي، مولاهم، الواسطي ثم البصري، أبو بسطام (٨٢ ـ ١٦٠ هـ = ٧٠١ ـ ٧٧٦ م): من أئمة رجال الحديث.. ولد ونشأ بواسط، وسكن البصرة إلى أن توفي. وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين. وجانب الضعفاء والمتروكين. (الأعلام: ٣: ١٦٤).

(٤) سعيد بن جبير: سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله (٤٥ ـ ٩٥ هـ = ٦٦٥ ـ ٧١٤) تابعي، كان أعلمهم عن الإطلاق، وهو حبشي الأصل. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس... ولما خرج عبد الرحمٰن بن الأشعث، على عبد الملك بن مروان، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمٰن، فذهب سعيد إلى مكة. فقبض عليه واليها (خالد القسري) وأرسله إلى الحجاج فقتله بواسط. (الأعلام: ٣: ٩٢).

(٥) أبو بكر البزار: أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار: (... ـ ٢٩٢ هـ = ... ـ ٩٠٥ م): حافظ من العلماء بالحديث من أهل البصرة... توفي في الرملة. (الأعلام: ١: ١٨٩).

وأما من جهة المعنى: فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرّذيلة. أما من تَمَنّيه أن يُنزل عليه مِثلُ هذا من مدح آلهةٍ غير الله وهو كفر، أو أن يتسور عليه الشيطان، ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أنّ من القرآن ما ليس منه، حتى يُنَبّه جبريل عليهما السلام، وذلك كله ممتنع في حقّه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قِبل نفسه عمدًا ـ وذلك كفر ـ أو سهوًا، وهو معصوم من هذا كله، وقد تقرر بالبرهان والإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يتشبه عليه ما يلقيه المَلَك مما يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقوّل على الله؛ لا عمدًا ولا سهوًا، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: ٤٤] الآية، وقال: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] الآية.

ووجه ثانٍ، وهو استحالة هذه القصة نظراً وعُرفاً، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام[١]، متناقض الأقسام، ممتزَج المدح بالذم، متخاذلَ التأليف والنظم؛ ولما كان النبي ﷺ، ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ـ وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ـ فكيف بمن رَجَح حلمه، واتّسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟!

ووجه ثالث، أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندي المشركين، وضَعَفَةِ القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، وارتداد مَنْ في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة، ولم يَحْكِ أحد في هذه القصة شيئًا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصّوْلة[٢]، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا في قصة الإسراء وقصة القضية[٣]، ولا فتنة أعظم من هذه البليّة لو وجِدَت، ولا تَشْغيب[٤] للمعادي حينئذٍ أشدّ من هذه الحادثة لو أمكنت؛ فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة؛ فدل على بُطلها، واجتثاث أصلها.

قال القاضي عياض: ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفّلي المحدّثين، ليلبّس به على ضعفاء المسلمين.

---

(١) في الأصل: «ألا ليئام» تصحيف.
(٢) الصولة: مُستمسكًا ـ حجة.
(٣) راجع شرح الشفاء: ٤: ١١٢ في قصة القضية.
(٤) تشغيب: أي ولا تهييع للفتنة والشر.

ووجه رابع، ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] الآيتين، وهاتان الآيتان ترددان الخبر الذي رَوَوْه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم، فمضمونه هذا.

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفتري، وثبّته حتى لم يركن إليهم قليلاً، فكيف كثيرًا! وهم يَرْوُون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال عليه السلام: «افتريت على الله وقلت ما لم يقل»؛ وهذا ضد مفهوم الآية، وهي تضعّف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له! وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون، قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]، ولم يذهب. قال القاضي القشيريّ[١]: ولقد طالبه قريش وثقيف إذا مرّ بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها، ووعدوه الإيمان به إن فعل، فما فعل ولا كان ليفعل ﷺ.

وأما المأخذ الثاني - وهو مبنيّ على تسليم الحديثِ لو صحّ، وقد أعاذنا الله من صحته - فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاضي عِياض[٢] وضعّف بعضها، واستحسن بعضًا، نذكر منها ما استحسنه وجوّزه إن شاء الله.

منها: ما ذكره القاضي أبو بكر في أجوبته عن هذا الحديث، قال: لعلّ النبيّ ﷺ قال ذلك أثناء تلاوته؛ على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار، لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] على أحد التأويلات، يريد: أَهَذَا رَبِّي؟! ولقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد، وأنه ليس من المتلوّ[٣]. قال القاضي عياض: ولا يُعترض على هذا بما روي أنه كان في الصلاة، فقد كان الكلام فيها قبل [غير][٤] ممنوع، قال: والذي يظهر ويترجح في تأويله عند القاضي أبي بكر، وعند غيره من المحققين على تسليمه، أن النبي ﷺ كان كما أمره ربّه يرتّل القرآن ترتيلاً، ويفصّل الآيَ تَفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيًا نغمة النبي ﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى، وتحقّقهم من

---

(١) في الأصل: «القشتري» وهو تصحيف صوابه كما في القاضي عياض ص ١٢١.
(٢) الشفاء: ٢: ١١٦ - ١٢٣.
(٣) المتلو: المقروء.
(٤) ساقطة من الأصل، والتكلمة عن الشفاء: ٢: ١٢٢.

حال النبي ﷺ في ذمّ الأوثان وعيبها ما عرِف منه. وقد حكى موسى بن عقبة[١] في مغازيه نحو هذا، وقال: إن المسلمين لم يسمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم.

قال القاضي عِياض: ويكون ما روي من حُزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] الآية، فمعنى ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ تلا، قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوةً، وقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢] أي يذهبه ويزيل اللبس به، ويحكم آياته، قال: ومما يظهر في تأويله أيضًا أن مجاهدًا روى هذه القصة: «والغرانقة العلا». فإن سلمنا القصة قلنا: لا يبعد أنَّ هذا كان قرآنًا، والمراد بالغرانِقة العلا، وأن شفاعتهنّ لترتجى: الملائكة على هذه الرواية، وبهذا فسر الكلبيّ الغرانِقة أنها الملائكة، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم وردّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ٢١]، فأنكر الله كل هذا من قولهم؛ ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأوّله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم، ولبّس عليهم الشيطان ذلك، وزينه في قلوبهم، وألقاه إليهم؛ نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما للتلبيس سبيلاً، كما نسخ كثيرًا من القرآن ورفعت تلاوته. قال: وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة، وفي نسخه حكمة، ليضلّ به من يشاء، ويهدي من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين، وَ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [الحج: ٥٣ ـ ٥٤].

وقيل: إنّ النبيّ ﷺ لما قرأ هذه السورة، [وبلغ إلى ذكر اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمّها، فسبقوا إلى][٢] مدحها بتلك الكلمتين؛ ليخلطوا تِلاوة النبيّ ﷺ ويشغبوا عليه على عادتهم، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٣٦]، ونُسِبَ هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأنّ النبيّ ﷺ حزن لذلك من كِذبهم وافترائهم

---

(١) موسى بن عقبة: موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي بالولاء، أبو محمد، مولى آل الزبير (.... ـ ١٤١ هـ = ... ـ ٧٥٨ م) عالم بالسيرة النبوية، من ثقات رجال الحديث، من أهل المدينة مولده ووفاته فيها. له كتاب «المغازي». (الأعلام: ٧: ٣٢٥).

(٢) ساقطة من الأصل، والتكملة عن الشفاء: ٢: ١٢٤.

عليه، فسلّاه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ [النحل: ٤٣] الآية، وبين للناس الحقّ من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن وأحكم آياته، ودفع ما لبّس به العدوّ؛ كما ضَمنه الله تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ الآية، هذا ما ورد في الجواب عن هذا الحديث. فلنرجع إلى تتمة أخباره وسِيَره ﷺ تسليمًا كثيرًا.

ذكر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة ومن هاجر إليها من أصحاب رسول الله ﷺ

قال الواقديّ: لما قدم أصحاب النبيّ ﷺ من الهجرة الأولى اشتدّ عليهم قومهم، ونيطت[١] بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله؛ فهجرتنا الأولى، وهذه الآخرة إلى النجاشيّ ولستَ معنا، فقال ﷺ: أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ لكم هاتان الهجرتان جميعًا، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

قال ابن سعد: وكان عدّة من خرج من هذه الهجرتين الرجال ثلاثة وثمانون ومن النساء إحدى عشر امرأة قرشية، وسبع غرائب. وقد عدّهم أبو محمد عبد الملك بن هشام حسبما رواه عن محمد بن إسحاق بن يسار - رحمهم الله تعالى - فلم يزد على ذلك. وأورد أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمريّ[٢] رحمه الله في كتاب (الاستيعاب)؛ في تراجم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، أنهم ممن هاجروا إلى أرض الحبشة ممن لم يذكرهم ابن هشام، نحن نذكرهم إن شاء الله تعالى ونُنَبِّه عليهم.

قال ابن هشام: كان منهم من بني هاشم بن عبد مناف، جعفر بن أبي طالب معه امرأته أسماء بنت عُميس[٣] وَلدت بأرض الحبشة عبدَ الله بن جعفر، ومن بني أميّة بن عبد شمس عثمان بن عفان رضي الله عنه، معه امرأته رُقَيّة بنت رسول الله ﷺ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أميّة، معه امرأته فاطمة بنت صفوان، وأخوه خالد بن سعيد، معه امرأته أُمَينة بنت خلف بن أسعد الخزاعية، ويقال فيها هُمَينة، وولدت بأرض الحبشة سعد[٤] بن خالد، وآمنة بنت خالد. ومن حلفائهم من بني أسد بن

---

(١) نيطت: كادت تميتهم.

(٢) المتوفى سنة ٤٦٣ هـ.

(٣) في الأصل: «عبس».

(٤) رواية ابن هشام: «سعيد بن خالد».

خزيمة عبد الله بن جحش بن رئاب؛ وأخوه عبيد الله بن جحش، معه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب. وذكر أبو عمر في ترجمة عبد الله بن جحش أنه هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه أبي أحمد وعبد الله، فعلى هذا يكون أبو أحمد ممن هاجر إلى الحبشة؛ واسمه عبد بن جحش، وكان أعمى، وعدّ أيضًا محمد بن عبد الله بن جحش أنه هاجر مع أبيه وكان صغيرًا.

قال ابن هشام: وقيس بن عبد الله رجل من بني أسد بن خزيمة، معه امرأته بَرَكة بنت يسار [مولاة][1] أبي سفيان بن حرب، ومُعَيْقِيب بن أبي فاطمة؛ [وهؤلاء][2] آل سعيد بن العاص.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. قال أبو عمر: معه امرأته سهلة بنت سَهيل بن عمرو، وَلدت له هناك محمَد بن أبي حذيفة. قال ابن هشام: وأبو موسى الأشعريّ واسمه عبد الله بن قيس: قال أبو عمر في ترجمة عبد الله بن قيس: الصحيح[3] أن أبا موسى رجع بعد قدومه مكة، ومخالفته من حالف من بني عبد شمس إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى قدم مع الأشعريين نحو خمسين رجلًا في سفينة، فألقتهم الريح إلى النجاشيّ بأرض الحبشة فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها، فأتوا معهم، وقدمت السفينتان معًا: سفينة الأشعريين، وسفينة جعفر وأصحابه. والله تعالى أعلم بالصواب.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عُتبة بن غَزْوان حليف لهم من بني مازن؛ ومن بني زَمْعة بن ربيعة[4] وعمرو بن أمية بن الحارث مات بالحبشة.

قال أبو عمر بن عبد البر في ترجمة خالد بن حزام بن خويلد بن أسد: إنه هاجر إلى أرض الحبشة في المرّة الثانية. فنهشته حيّة، فمات في الطريق قبل وصوله. والله المستعان وإليه المردّ.

ومن بني عبد [الدار][5] بن قُصَي مُصعب بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وسُويبط[6] بن سعد بن حُريملة بن مالك بن عُمَيلة بن السباق بن عبد

---

(١) ساقطة من الأصل، والتكملة عن ابن هشام.

(٢) ساقطة من الأصل، والتكملة عن ابن هشام. وفي ابن كثير: ٣: ٦٧ «وهو من موالي سعيد بن العاص».

(٣) (الاستيعاب: ١: ٣٩٢).

(٤) لعل «الواو» زائدة.

(٥) الزيادة عن ابن هشام: ١: ٣٤٧.

(٦) في الأصل: «سوسط» تصحيف.

الدار، وَجَهْم بن قيس بن عبد بن شرحبيل بن هاشم بن عبد الدار معه امرأته [أمّ][١] حرملة بنت عبد بن الأسود الخزاعية - ويقال: حُريمِلة وابناه عمرو بن جهم، وخُزيمة بن جهم؛ وأبو الروم بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصي أخو مصعب، وفِراس بن النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار. وقال أبو عمر في ترجمة أبي بكر[٢]: مولى لبني عبد الدار؛ قال يقال: إنه من الأزد كان ممن عذب في الله فلم يزل كذلك حتى كانت الهجرة الثانية مع أصحاب رسول الله ﷺ.

ومن بني زهرة بن كلاب عبد الرحمٰن بن عوف، وعامر بن أبي وقّاص، وأبو وقاص مالك بن وهيب، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف، معه امرأته رملة بنت أبي عوف، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب. قال أبو عمر بن عبد البر: وطليب بن أزهر بن عبد عوف وأخوه المطلب، هاجر مع أخيه إلى أرض الحبشة وبها ماتا جميعًا.

قال ابن هشام: ومن حلفائهم من هذيل: عبد الله بن مسعود، وأخوه عتبة بن مسعود.

ومن بَهراء المقداد بن عَمرو بن ثَعلبة، وكان يقال له: المِقْداد بن الأسود بن عبد يغوث بن عبد مناف بن زُهرة، ذلك أنه كان تبنّاه في الجاهلية وحالفه. حكاه ابن إسحاق.

ومن بني تَيم بن مرّة الحارث بن خالد بن صخر، معه امرأته رَيْطة بنت الحارث بن جبيلة، ولدت له بأرض الحبشة موسى بن الحارث، وزينب بنت الحارث، وفاطمة بنت الحارث[٣]، وعمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد بن هلال، معه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة، ولدت له بأرض الحبشة زينب، وشماسًا واسمع عثمان بن عثمان بن الشريد، وهبّار بن سفيان بن عبد الأسد، وأخوه عبد الله بن سفيان، وهشام بن أبي خذيفة بن المغيرة، وسَلَمة بن هشام بن المغيرة وعيّاش بن أبي ربيعة بن المغيرة. ومن حلفائهم معتّب بن عوف بن عامر - وهو الذي يقال له

(١) الزيادة عن ابن هشام: ١: ٣٤٧، والاستيعاب، وابن كثير.
(٢) كذا بالأصل، ولم يعثر على هذا القول لابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» في ترجمة أبي بكر.
(٣) زاد ابن هشام: «عائشة بنت الحارث».

عَيهامة ـ ونسبه أبو عمر فقال: معتب بن عوف بن عمر بن الفضل بن عَفيف بن كُليب ابن حبشية. قال ابن هشام، ويقال: حُبْشية ابن سلول، وهو الذي يقال له: معتب بن حمراء، وعمّار بن ياسر. ذكره أبو عمر، وشك فيه ابن هشام.

ومن بني جُمح عثمان بن مَظْعون، وابنه السائب بن عثمان، وأخواهُ قُدامة وعبد الله ابنا مظعون. قال أبو عمر: والسائب بن مظعون ممن هاجر إلى أرض الحبشة، وهو أخو عثمان لأبويه، حكاه عن العدوي، قال ابن هشام: وحاطب بن الحرث بن مَعْمَر، معه امرأته فاطمة بنت المجلِّل بن عبد الله، وابناه محمد والحارث، وقيل وُلدا هناك، وأخوه حطاب[1] بن الحارث معه امرأته فكِيهة بنت يسار، وقيل: ولدت له ابنه محمدًا هناك؛ وسفيان بن مَعْمر بن حبيب معه ابناه: جابر وجنادة، ومعه امرأته أمهما حَسَنة، وابنها شُرَحْبيل ابن حسنة، وهو شُرحبيل بن عبد الله أحد بني الغَوث بن مُرّ، وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: هو شرحبيل بن عبد الله من بني جُمح، وعثمان بن ربيعة بن أُهبان بن وهب بن حذافة بن جمح. قال الواقدي: ونبيه بن عثمان بن ربيعة. والله أعلم.

ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص: خُنيس بن حذافة، وعبد الله بن الحارث، وهشام بن العاص بن وائل، وقيس بن حذافة، وأبو قيس بن الحارث بن قيس، وعبد الله بن حذافة بن قيس، والحارث بن الحارث بن قيس، ومعمر بن الحارث بن قيس، وبشر بن الحارث بن قيس، وأخ له من أمّه من بني تميم، يقال له: سَعيد بن عمرو، وسعيد بن الحارث بن قيس، والسائب بن الحارث بن قيس. وقال أبو عمر: وتميم بن الحارث بن قيس، والحارث بن قيس بن عَدِيّ، وهو والد بِشْر والحارث، وعُمَير بن رئاب بن حُذيفة، ومحمية بن جزء[2] حليف لهم من زُبَيْد.

ومن بني عديّ بن كعب معمر بن عبد الله بن نَضلة، وعُروة بن عبد العزّى، وعَدي بن نَضْلة وابنه النعمان، فمات عديّ بالحبشة، فورثه ابنه النعمان، وهو أول وارث في الإسلام، وعامر بن ربيعة حليف لآل الخطاب، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة.

ومن بني عامر بن لؤي أبو سبرة بن أبي رُهْم بن عبد العزّى معه امرأته أم كلثوم بنت سُهيل بن عمرو، وعبد الله بن مَخْرمة بن عبد العزى، وعبد الله بن سُهيل بن عمرو بن عبد شمس، وسَليط بن عمرو بن عبد شمس، وأخوه السكران بن عمرو،

---

(١) في الأصل: «خطاب» ويوافقه ابن كثير ـ والصواب عن ابن هشام والاستيعاب، وأسد الغابة.
(٢) في الأصل: «الحارث»، والتصويب عن ابن عبد البر.

معه امرأته سودة بنت زمعة، ومالك بن ربيعة بن قيس معه امرأته عمرة بنت السعديّ، وأبو حاطِب بن عمرو بن عبد شمس، وسعد بن خولة حليف لهم من اليمن.

ومن بني الحارث بن فهر أبو عُبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وسُهيل بن وهب وهو ابن بَيضاء، وعمرو بن أبي سَرح بن ربيعة، وعِياض بن زهير بن أبي شداد، وعمرو بن الحارث بن زُهير، وعثمان بن عبد غَنْم بن زهير، وسعد بن عبد قيس بن لَقيط بن عامر، والحارث بن عبد قيس بن لَقيط. وقال أبو عمر بن عبد البر: إن عبد الله بن عُرفطة بن عديّ بن أمية بن خدارة بن عوف بن النجار بن الخزرج الأنصاري هاجر إلى أرض الحبشة مع جعفر بن أبي طالب، وهو حليف لبني الحارث بن الخزرج، وذكره ابن مَنْده[١] أيضًا فجميع من هاجر على هذا الحكم بما فيه من زيادات ابن عبد البرّ؛ خلا أبناءهم الذين خرجوا معهم صغارًا، ومن ولد هناك اثنان وتسعون رجلًا، وثماني عشرة امرأة، والأبناء الصغار سبعة. والله أعلم.

ذكر إرسال قريش إلى النجاشيّ في شأن من هاجر إلى الحبشة، وطلبهم منه وإسلامه

عن أمّ سَلَمة رضي الله عنها قالت: لمّا نَزلْنا أرض الحبشة جاورْنَا بها خيرَ جار، النجاشيّ [أَمِنّا][٢] على ديننا، وعبدنا الله لا نُؤْذَى، ولا نَسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فِينا رجلينِ جَلْدين[٣]، وأن يهدوا للنجاشيّ هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أَدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بِطريقًا[٤] إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بِطْرِيق هديته، قبل أن تكلّما النجاشيّ فيهم، ثم قدّما إلى النجاشيّ هداياه، ثم سلاه أن يسلّمهم إليكما قبل أن يكلّمهم، قالت: فخرجا حتى قدِما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلّما النجاشيّ، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوى[٥] إلى بلد الملك منّا غلمان سُفهاء فارقوا دين قومهم،

(١) ابن مَنْدَه: أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن منده الأصفهاني، ولد سنة ٤٣٤، ومات سنة ٥١٢ بأصفهان. ابن خلكان (٥: ٢١٧).
(٢) الزيادة عن ابن هشام: ١: ٣٥٨.
(٣) الجَلَد: القوة والصبر.
(٤) البطريق: القائد.
(٥) ضوى: لجأ.

ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم لنردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملكَ فيهم فأَشيروا عليه أن يسلّمهم إلينا ولا يكلمهم، فقالوا: نعم، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشيّ فقبلها، ثم كلّماه فقالا: أيها الملك، إنه قد ضَوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، جاءوا بدينٍ ٱبتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأَعمامِهم وعشائِرهم لتردّهم عليهم؛ فهم أعلى بهم عيْناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله وعمرو من أن يسمع إلى كلامهم النجاشيّ، فقالت بطارقته: صَدقَا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فأَسْلِمْهُمْ لهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم، قالت[١]: فغضب النجاشيّ وقال: لاها والله إذًا لا أسلّمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي؛ حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب النبي ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا أجبتموه، قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرَنا نبيُّنا؛ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا وقد دعا النجاشيّ أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله؛ سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومَكم، ولم تدخلوا به في ديني؛ ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب فقال: أيها الملك، كنّا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحشَ، ونقتطع الأرحامَ، ونُسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبَه وصدقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة [و][٢] الأوثان، وأمرنا بِصدْق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلة الرّحم، وحُسْن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكْل مال اليتيم، وقذْف المحصنة[٣]، وأمرنا أن نعبدَ الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنّا به واتّبعناه على ما جاء به من الله،

(١) في الأصل: «قال». والصواب عن (ابن هشام: ١: ٣٥٩).
(٢) ساقطة من الأصل.
(٣) المحصنة: المتزوجة.

فعبدنا الله وحدَه فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا [ما][1] حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومُنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورَجَونا ألا نُظْلم عندك أيها الملك، فقال النجاشي، هل معكم مما جاء به عن الله من شيء، قال: نعم، قال: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صَدْرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ [مريم: ١]، قال: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت[2] لحيته، وبكت أساقفتُه حتى اخضلّت مصاحفُهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشيّ: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشْكاة واحدة اِنطلِقا فلا والله لا أسلّمهم إليكما، ولا يُكادون[3].

قالت: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينّه غدًا عنهم بما أستأصلُ به خَضْراءهم[4]، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تَفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عَبْدٌ. قالت: ثم غدا عليه [من] الغد فقال: يا أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فاسألهم عَمّا يقولون فيه، فأرسل إليهم فسألهم عنه. قالت أمّ سلمة: لم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القومُ، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله كما قال الله، وما جاءنا به نبينا؛ كائنًا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينَا، نقول هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول[5]، قالت: فضرب النجاشيّ بيده إلى الأرض، ثم أخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ممّا قلتَ هذا العود، فناخرت[6] بطارقته من حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم، والله أنتم شُيوم بأرضي ـ والشُّيوم: الآمنون ـ من سبّكم غَرِم، من سبّكم غَرِم، من سبّكم غرِم! وما أحب أن لي دَبْرًا من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم ـ والدَّبْر بلسان الحبشة الجبل ـ ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد

---

(١) في الأصل: «مما» والصواب عن ابن هشام.
(٢) اخضلت: تبللت.
(٣) يُكادون: يقهرون.
(٤) خضراءهم: حياتهم.
(٥) البتول: المنقطعة عن الرجال، لا أرب لها فيهم (اللسان: بتل).
(٦) فناخرت: تكلمت بلغتهم.

عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين[١] مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة.

قال الزهريّ: فحدثتُ عروة بن الزبير حديث[٢] أمّ سلمة قال: هل تدري ما قوله: «ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه»؟ قلت: لا، قال: فإن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها حدّثتني أن أباه كان ملك قومه، ولم يكن له ولد إلا النجاشيّ، وكان للنجاشيّ عمّ له من صلبه اثنا عشر رجلا، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشيّ، وملّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلًا يتوارثون[٣] ملكه من بعده، فغدوا على أبي النجاشيّ فقتلوه وملّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينًا، ونشأ النجاشيّ مع عمه، وكان لبيبًا حازمًا، فغلب على أمر عمه، ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه، قالت: والله لقد غلب[٤] هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا، وإنّ ملّكه علينا قتلنا أجمعين، لقد عرف أننا نحن قتلنا أباه. فمشوا إلى عمّه فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنّا قد خفناه على أنفسنا، قال: ويلكم! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم! بل أُخرجه من دياركم، فخرجوا به إلى السوق؛ فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه في سفينته وانطلق به حتى إذا كان العشاء من ذلك اليوم؛ هاجت سحابة من سحائب الخريف، فخرج عمّه يستمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته، ففزع الحبشة إلى وَلَده، فإذا هو محمّق ليس في ولده خير، فمرِج[٥] على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ما هم فيه من ذلك قال بعضهم لبعض: تَعلّموا واللّهِ أن ملككم الذي لا يقيم أمركم غيره للذي بعتم غدوة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه، قال: فخرجوا في طلبه، فأخذوه من الرجل الذي باعوه له، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير الملك وملكوه، فجاءَهم التاجر الذي باعوه منه، فقال: إما أن تعطوني مالي، وإما أن أكلمه في ذلك، قالوا: لا نعطيك شيئًا، قال: فإذًا والله أكلمه، قالوا: فدونك. فجاء فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعتُ غلامًا من قوم في السوق

(١) مقبوحين: محقرين.
(٢) في الأصل: «حدثت»، والصواب ما أثبت.
(٣) في الأصل: «يتوارثوا» وهو تحريف.
(٤) في الأصل: «علمت»، والصواب عن (ابن هشام: ١: ٢٢٢).
(٥) حرج: التبس واختلط.

بستمائة درهم، فأسلموا إليَّ غلامي، وأخذوا دراهمي، حتى إذا سِرت بغلامي، أدركوني فأخذوه منّي، ومنعوني دراهمي، فقال لهم النجاشيّ: لتعطَنّه دراهمه أو ليضعن غلامُه يده في يده؛ فليذهبن به حيث شاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه. قالت: فلذلك يقول: «ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردّ عليّ مُلكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناسَ فيه». قال: وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه، وعدله في حكمه.

قال ابن إسحاق، وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشيّ: إنك فارقت ديننا وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنًا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإنْ هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظَفِرتُ فاثبتوا، ثم عمد إلى كتابٍ فكتب فيه: هو يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعلها[(١)] في قَبائه[(٢)] عند المنكِب الأيمن[(٣)]، وخرج إلى الحبشة وصفّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحقّ الناس بكم؟ قالوا: بلى؛ قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سِيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمتَ أنّ عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله فقال النجاشيّ ووضع يده على صدره على قَبائه: هو يشهد أن عيسى ابنَ مريم، لم يزد على هذا شيئًا، وإنما يعني ما كتب، فرضُوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشيّ صلى عليه، واستغفر له. وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إسلامه.

ذِكْر إسلامِ عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه

رُوي عن عبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: «اللهم أَعِزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك: بعمر بنِ الخطاب، أو أبي جهلِ بنِ هشام»[(٤)]. وعن سعيد بن

---

(١) كذا في الأصل والذي في ابن هشام «جعله» وهو أظهر.

(٢) القباء: الثوب، وهو يشبه القمباز أو الزبون.

(٣) في الأصل: «اللاتي» وهو تحريف؛ والتصويب عن ابن هشام.

(٤) أبو جهل: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي (. . . ـ ٢ هـ = . . . ـ ٦٢٤ م) أشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام، واحد من سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. سودت قريش أبا جهل ولم يطر شاربه. فأدخلته دار الندوة مع الكهول. أدرك الإسلام. وكان يقال له «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبا جهل». استمر على عناده، يثير الناس على محمد رسول الله ﷺ وأصحابه حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها. (الأعلام: ٥: ٨٧).

المسيّب[١] قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى عمرَ بن الخطاب أو أبا جَهل بن هشام قال: «اللهم اشدد دينك بأحبهما إليك» فشدّد دينه بعمر، وعنه ﷺ: «اللهم أعِزّ الدين بعمر بن الخطاب».

قال ابن إسحاق ومحمد بن سعد في طبقاته: ليس بينهما تَنافٍ إلا في مغايرةٍ[٢] بعض الألفاظ، أو زيادةٍ أوردها أحدُهما دون الآخر، ونحن نورد ما يتعين إيراده منها.

قالا: خرج عمر بن الخطاب متوشّحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا، وهم قريب أربعين من بين رجالٍ ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة، وعلي بن أبي طالب في رجالٍ من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله النّحّام، وهو رجل من قومه من بني عديّ بن كعب كان قد أسلم وهو يخفِي إسلامه عن عمر، فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدًا، هذا[٣] الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ ألهتها فأقتله. فقال له نُعَيم: لقد غرّتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تارِكيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا فقال عمر: ما أراك إلا قد صبوتَ وتركت دينك الذي أنت عليه؛ قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن ختنك[٤] وأختك قد صَبَوا وتركا دينك الذي أنت عليه.

قال ابن إسحاق: فقال له نعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأيّ أهل بيتي؟ قال: خَتَنُك وابن عمِّك سعيد بن زيد بن عمرو. وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمر عامدًا إلى أخته وخَتَنِه، وعندهما خباب بن الأرتّ[٥]، معه صحيفة فيها: ﴿طه ①﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حِسّ عمر تغيب خبّاب في مَخْدع لهم - أو في بعض البيت - وأخذت فاطمة الصحيفة فجلعتها تحت فخذِها، فلما دخل عمر قال: ما هذه

---

(١) سعيد بن المسيب: سعيد بن المسيب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي القرشي (١٣ - ٩٤ هـ = ٦٣٤ - ٧١٣ م)، أبو محمد، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. توفي بالمدينة. (الأعلام: ٣: ١٠٢).

(٢) مغايرة: اختلاف.

(٣) رواية ابن هشام: «هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش».

(٤) الختن: الصهر.

(٥) خباب بن الأرت: خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي أبو يحيى أبو عبد الله: (. . . - ٣٧ هـ = . . . - ١٥٧ م). صحابي من السابقين، قيل أسلم سادس ستة، وهو أول من أظهر إسلامه.. شهد المشاهد كلها، ونزل الكوفة فمات فيها وهو ابن ٧٣ سنة. (الأعلام: ٢: ٣٠١).

الهَيْنَمَةُ[١] التي سمعتُ؟ قالا: ما سمعتَ شيئًا، قال: بلى والله، لقد أخبِرت أنكما اتبعتما محمدًا على دينه، فقال له خَتَنَهُ: أرأيت يا عمر إن كان الحقّ في غير دينك! فوثب عمر على خَتَنِه فبطش به ووطئَهُ وطْئًا شديدًا، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجَّها[٢]، فلما فعل ذلك قالا: نعم قد أسلمنا وآمنّا بالله ورسولِه، فاْصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأختِه من الدم ندم على ما صنع فارْعَوَى[٣]، وقال [لأخته][٤]: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ـ وكان عمر كاتبًا ـ فقالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردّنّها إذا قرأها إليها، فطمعت في إسلامه وقالت له: يا أخي إنك نَجس على شِرْكِك، وإنه لا يمسُّها إلا الطاهر، فقام عمر فاْغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه ﴿١﴾﴾، فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خَبّاب بن الأرتّ خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه، فإني سمعته أمسِ يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بنِ هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فالله اللّهَ يا عمر! فقال له عمر: فدلّني على محمد حتى آتيه فأُسلِم؛ فقال له خَباب: هو في بيتٍ عند الصفا معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابِه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خَلل الباب، فرآه وهو فَزِع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «اِيذن له» فأذِن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحُجْزَتِه ـ أو بمجمع ردائِه ـ ثم جَبَذه جبذة شديدة، وقال: «ما جاء بك يا بن الخطاب؟، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزِل الله بك قارعة»[٥]، قال أنس بن مالكٍ[٦] في روايته: «حتى ينزل الله بك من الخزي ما أنزل بالوليدِ بنِ المغيرة». فقال عمر: يا

---

(١) الهينمة: الكلام الخفي الذي لا يفهم.

(٢) شج: شق.

(٣) ارعوى: كف.

(٤) التكملة عن ابن هشام (١: ٣٦٩).

(٥) قارعة: داهية.

(٦) أنس بن مالك: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي، الأنصاري، أبو ثمامة أو أبو حمزة (١٠ ق هـ ٩٣ هـ = ٦١٢ ـ ٧١٢ م) صاحب رسول الله ﷺ وخادمه.. مولده بالمدينة وأسلم صغيرًا وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. (الأعلام: ٢: ٢٤).

رسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله، فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف بها أهل البيت أن عمر قد أسلم.

قال محمد بن سعد بن منيع في طبقاته: أسلم عمر بن الخطاب بعد أن دخل رسول الله ﷺ دار ابن الأرقم[١] بعد أربعين أو نيّف وأربعين من رجالٍ ونساء قد أسلموا قبله.

وقال ابن المسيّب: أسلم عمر بعد أربعين رجلاً وعشرِ نسوة.

وعن عبد الله بنِ ثعلبة قال: أسلم بعد خمسةٍ وأربعين رجلاً وإحدى عشر امرأة.

ويردّ هذه الأقوال أن إسلام عمر كان بعد الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة؛ وقد تظافرت الروايات أنّ أهل الهجرة كانوا أكثر من ثمانين رجلاً، ولعل إسلامه وقع وفي مكة ممن أسلم هذه العِدّة التي ذكرت؛ خلاف من هاجر إلى أرض الحبشة. والله أعلم.

قال ابن إسحاق: حدّثني نافع[٢] عن ابن عمر رضي الله عنهم قال: لما أسلم عمر بن الخطاب قال: أي قريش أنقل للحديث؟ قيل: جميل بن مَعْمر الجُمحيّ[٣] قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: وغدوت معه أتبع أثره وأنظر ماذا يفعل وأنا غلام أعقِل[٤] كلَّ ما رأيت، حتى جاءه، فقال: أعلمتَ يا جميل أني أسلمت ودخلتُ في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجَعه حتى قام يجرّ رداءه، واتبعه عمر واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرَخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إنّ ابن الخطاب قد صبا[٥]، فيقول عمر مِن خلفه: كذبتَ، ولكنّي

(١) ابن الأرقم: في الأعلام: ١: ٢٨٨، أن الرسول دخل دار الأرقم وهو: الأرقم بن عبد مناف بن أسد المخزومي، أبو عبد الله صحابي رفيع الشأن، لم يسبقه إلى الإسلام غير ستة من الصحابة. كانت داره بمكة عند الصفا. تسمى «دار الإسلام» وفيها كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام، وممن أسلم فيها عمر بن الخطاب. وشهد الأرقم المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ... توفي بالمدينة.

(٢) نافع: نافع المدني، أبو عبد الله (... - ١١٧ هـ = ... - ٧٣٥ م) من أئمة التابعين بالمدينة. وهو ديلمي الأصل، مجهول النسب، أصابه عبد الله بن عمر صغيرًا في بعض مغازيه، ونشأ في المدينة. (الأعلام: ٨: ٥).

(٣) جميل بن معمر: جميل بن معمر هذا هو الذي يقال له: «ذو القلبين، وفيه نزلت: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ وفيه يقول الشاعر: [من الطويل]

وكيف تراني بالمدينة بعدما ... قضى وطرًا منها جميل بن معمر»

(٤) في الأصول: «أغيل» وهو تصحيف، والمثبت عن ابن هشام وابن كثير (٣: ٨١)، والمواهب (١: ٣٣٢).

(٥) صبأ: خرج من دين إلى دين. وكانت تستعمل نعتًا للذين يعتنقون الإسلام.

أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إلٰه إلا الله، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطَلَح - يعني أعيا - وقاموا على رأسه وهو يقول: اِفعلوا ما بدا لكم، فأحلِف بالله لو قد كنا ثلاثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حُلّة حِبرة[١] وقميص موشًّى، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، قال: فَمَهْ! رجل اَختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بني عديّ بنِ كعب يسلِمون لكم صاحبهم هكذا! خلّوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كشط[٢] عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبَهْ، مِن الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك، جزاه الله خيرًا؟ قال: ذاك العاص بن وائل السَّهميّ[٣]، لا جزاه الله خيرًا.

قال عبد الله بن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلّي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا عند الكعبة وصلينا معه، وقال: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإنّ هجرته كانت نصرًا، وإنّ إمارته كانت رحمة.

وعن صُهيب بن سِنانٍ قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودُعِي إلى الله علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا[٤] ممن غلظ علينا ورددنا عليه بعضَ ما يأتي به.

وكان إسلام عمر في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوّة، وهو اَبن ست وعشرين سنة.

ذكر تعاقد قريش على بني هاشم وبني المطلب وانحياز بني هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب ودخولِهم في شِعبه

قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل السِّيَر: لما رأت قريش أن أصحاب رسول

---

(١) الحبرة: ضرب من برود اليمن.

(٢) كشط: سقط.

(٣) العاص: العاص (العاصي) بن وائل بن هاشم السهمي، من قريش أحد الحكام في الجاهلية. . أدرك الإسلام وظل على الشرك. وكان على رأس بني سهم في حرب الفجار - ٣٣ ق هـ، ٥٥١ م. . . . وهو الذي منع عمر بن الخطاب من قريش حين أظهر عمر الإسلام. وهلاك العاص حوالي سنة ٦٢٠ م وكان ذلك في الأبواء بين مكة والمدينة. وهو والد عمر بن العاص (الأعلام: ٣: ٢٤٧).

(٤) اتصفنا: أخذنا حقنا.

الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا فيه أمْنًا وقَرارًا، وأنّ النجاشيّ قد أكرمهم، ومنع من [لجأ إليه](١) منهم، وأنّ عمر قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، إجتمعوا وأئتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب؛ على ألا ينكِحوا إليهم ولا يُنكِحوهم(٢)، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم. فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة، ثم تعاهدوا وتعاقدوا وتوافقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفةَ في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة(٣) منصور بنِ عكرمة بن عامر بن هاشم بنِ عبد مناف بنِ عبد الدار بنِ قصيّ، ويقال: عمه بغيض ابن عامر، قاله الزبير وأبن الكلبيّ؛ ـ ويقال: النضر بن الحارث ـ فَشلّتْ يدُه.

قال محمد بن عمر بن واقد: وحصروا بني هاشم في شِعب(٤) أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من نبوّة رسول الله ﷺ، وأنحاز بنو المطلب إلى أبي طالب في شِعبه مع بني هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش، وظاهرهم(٥) على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم المِيرة(٦) والمادّة، فكانوا لا يخرجون إلا من مَوْسِم إلى مَوْسم، حتى بلغهم الجَهْد، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشِّعْب، فمن قريشٍ مَنْ سرّه ذلك، ومنهم من ساءه، وقال: انظروا ما أصاب كاتب الصحيفة! فأقاموا في الشِّعب ثلاث سنين، ثم أطلع الله نبيه ﷺ على أمر صحيفتهم، وأن الأرَضة(٧) قد أكلت ما فيها من جور وظلم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله.

قال: فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب، فذكر ذلك أبو طالب لإخوته، وخرجوا إلى المسجد، فقال أبو طالب لكفّار قريش: إن أبن أخي قد أخبرني ـ ولم يَكْذبني قَطّ ـ أن الله سلّط على صحيفتكم الأرَضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعةِ رحِم، وبقي فيها ما ذكر به الله، فإن كان أبن أخي صادقًا نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذبًا دفعته إليكم فقتلتموه أو أستحْيَيْتُمُوه. قالوا: قد أنْصَفْتنا،

(١) الزيادة عن ابن هشام.
(٢) ينكحوهم: يزوجوهم.
(٣) أكثر المصادر على أن كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة. وفي المواهب: أنه هشام بن عمرو بن الحارث، وقيل: طلحة بن أبي طلحة، وقيل: منصور بن شرحبيل. راجع ابن هشام (١ : ٣٧٥)، والسيرة الحلبية (١ : ٣٦٦)، وعيون الأثر: (١ : ١٢٦)، والديار بكري (١ : ٢٩٧)، والبداية (٣: ٩٦)، والمواهب: (١ : ٣٣٥).
(٤) ويعرف بشعب أبي يوسف، انظر معجم البلدان.
(٥) ظاهرهم: ساعدهم.
(٦) الميرة: الطعام.
(٧) الأرضة: دودة بيضاء شبه النملة تظهر في أيام الربيع (اللسان: أرض).

فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها. فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فَسُقِط في أيديهم، ونُكِسوا على رؤوسهم، فقال أبو طالب: علام نُحْبس ونُحصر وقد بان الأمر؟! ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة، فقال: اللهم انصرنا على مَنْ ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا. ثم انصرفوا إلى الشِّعب. وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم: فيهم مُطْعِم بن عدِيّ، وعَدي بن قيس، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو البَخْتريّ بن هِشَام، وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح؛ ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، وكان خروجهم من الشِّعب في السنة العاشرة من النبوّة، وقيل: كان مُكْث رسول الله ﷺ وأصحابه في الشِّعب سنتين.

وحكى أبو محمد عبد الملك بن هشام، عن أبي عبد الله محمد بن إسحاق - رحمهم الله - في سبب نَقْض الصحيفة غير ما قدّمناه مما حكاه محمد بن سعدٍ عن الواقديّ.

قال ابن إسحاق بعد أن ذكر من شدّة ما لاقاه أصحاب رسول الله ﷺ في الشِّعب من الضائقة ما ذكر: ثم إنه قام في نقض الصحيفة - التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب - نَفَر من قريش، ولم يُبْلِ فيها أحد أحسن من بلاء هشام بنِ عمرو[1] بن ربيعة بنِ الحارث بنِ حبيب بنِ نصر بنِ مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، وذلك أنه كان ابن أخي نَضلة بنِ هاشم بن عبد مناف لأمّه، وكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرفٍ في قومه، فكان يأتي بالبعير وبنو هاشِم وبنو المطلب في الشعب ليلاً، وقد أوْقَره[2] طعامًا، حت إذا أقبله فَمَ الشِّعب خلع خِطامه[3] من رأسِه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشِّعب عليهم، ويأتي به قد أوقره بُرًّا[4]، فيفعل به مثل ذلك.

قال: ثم إنه مشى إلى زُهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزوميّ - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - فقال: يا زُهير، وقد رضيت أنّا نأكل الطعام ونلبس الثياب، وننكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يُبْتاع منهم، ولا يَنكِحُون ولا يُنكَح إليهم، أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوتَه إلى

(١) في الأصل: «عمر» والصواب عن ابن هشام، والمواهب، وعيون الأثر، والاستيعاب.
(٢) أوقره: حمله.
(٣) الخطام: المقود.
(٤) البر: القمح.

مِثلِ ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ أنا رجل واحِد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نَقْضِها حتى أنقضها[١]؛ قال: قد وجدتَ رجلًا، قال: من هو؟ قال: أنا؛ قال له زهير، اِبغِنا ثالثًا، فذهب إلى المطعِم ابن عدِيّ فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلِك بطنانِ من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنّهم إليها منكم سِراعًا؛ قال: ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: اِبغنا ثالثًا، قال: قد فعلتُ، قال: من هو؟ قال: زهير، قال: اِبغنا رابعًا، قال: فذهب إلى أبي البَخْتَرِيّ بنِ هشام فقال له نحوًا مما قال لمُطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: فمن هو؟ قال زهير والمطعِم وأنا معك، قال: اِبغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بنِ الأسود بن المطلب، فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقَّهم، فقال: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سَمَّى له القوم، فاتّعدوا خَطْم الحَجون[٢] ليلًا بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينْقُضوها.

وقال زُهير: أنا أبدؤكم فأكون أوّل من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أندِيتهم، وغدا زهير عليه حُلّة، فطاف بالبيت سَبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم! والله لا أقعد حتى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فقال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت، والله لا تُشَقّ! قال[٣] زَمعة بن الأسود: أنت واللّهِ أكذب، ما رضينا كتابتَها حيث كُتبتْ، قال أبو البَخْتَرِيّ: صدق زَمعة، لا نرضى ما كتِب فيها ولا نقِرّ به، قال المطعم: صدقتما وكذب من قال غير ذلك؛ نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها!

وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضِيَ بليل، وتشوِور فيه بغير هذا المكان[٤] ـ وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ـ وقام المطعم إلى الصحيفة ليشُقّها فوجد الأَرَضة قد أكلتها، إلا «باسمِك اللهم».

ثم حكى ابن هشام نحوًا ممّا ذكره الواقديّ من خبرها على ما قدّمناه، وأن

(١) أنقضها: ارتد عنها.

(٢) هكذا في الأصل. وخطم الحجون: أنفه النادر منه؛ والذي في ابن هشام والبداية بالمهملة. والحطم: الموقع الذي حطم منه، أي ثلم فبقي منقطعًا.

(٣) في الأصل: «على» وهو تحريف.

(٤) في الأصل: «تشور فيه»؛ وهو تحريف.

أولئك الرهط الذين ذكرناهم صنعوا ما صنعوا مما ذكرناه بعد كلام أبي طالب. والله تعالى أعلم.

ذِكر من عاد من أرض الحبشة ممن هاجر إليها، وكيف دخلوا مكة

قال ٱبن إسحاق رحمهما الله: وبلغ أصحابُ رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دَنَوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدّثوا به من إسلامهم كان باطلًا، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مُستخفيًا. فكان من قدم عليه مكة منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة فشهد بَدْرًا وأُحدًا، ومن حبِس عنه حتى فاته ذلك.

ومن مات منهم بمكة من بني عبد شمس: عثمان بن عفان معه ٱمرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، معه ٱمرأته سَهْلة بنت سُهيل.

ومن حلفائهم عبد الله بن جَحْش بن رِئاب.

ومن بني نَوْفَل بن عبد مناف عُتبة بن غَزْوان حليف لهم.

ومن بني أسد بن عبد العُزّى الزبير بن العوّام.

ومن بني عبد الدار مُصْعب بن عمير، وسُوَيْبِط بن سعد.

ومن بني عبد [بن] قصيّ طُلَيب بن عمير.

ومن بني زُهرة بنِ كلاب عبد الرحمٰن بن عوف، والمِقداد بن عمرو؛ حليف لهم، وعبد الله بن مسعود؛ حليف لهم.

ومن بني مَخْزوم أبو سَلَمة بن عبد الأسد؛ ومعه ٱمرأته أمّ سَلَمة، وشمّاس بن عثمان، وسَلمة بنِ هشام، حبسه عمه بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق، وعَيّاش بن أبي ربيعة بن المغيرة، ومن حلفائهم عَمّار بن ياسر[1]، ومُعتب بن عوف من خزاعة.

ومن بني جُمَح عُثمان بن مظعون وٱبنه السائب بن عثمان، وقُدامة وعبد الله ٱبنا مظعون.

ومن بني سَهْم خُنَيس بن حُذافة، وهشام بن العاص بن وائل؛ حبِس بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق.

ومن بني عَدِيّ بن كعب عامر بن ربيعة حليف لهم، معه ٱمرأته ليلى بنت أبي حَثْمة.

---

(١) في ابن هشام ما نصه: «إن عمارًا يشك فيه، أكان خرج إلى الحبشة أم لا».

ومن بني عامر بن لُؤي عبد الله بن مَخْرمة، وعبد الله بن سهيل بن عمرو. حبس بعد الهجرة، فلما كان يوم بدر انحاز من المشركين إلى رسول الله ﷺ، وأبو سَبْرَة بن أبي رُهم، معه امرأته أمّ كلثوم، والسّكران بن عمرو معه امرأته سَودة بنت زَمْعة؛ مات بمكة قبل الهجرة، ومن حلفائهم سعد بن خولة.

ومن بني الحارث بن فِهر أبو عُبيدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح، وعمرو بن الحارث بن زهير، وسُهيل بن بَيضاء، وعمرو بن أبي سَرْح بن ربيعة بن هلال.

فجميع من قدم مكة ثلاثة وثلاثون رجلاً، فكان من دخل منهم بجوار عثمان ابن مظعون دخل بجوار من الوليد بن المغِيرة، فلما رأى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد، قال: والله إنّ غدُوّي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشّرْكِ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصِيبني لنَقْصٌ كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغِيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وَفتْ ذمّتك، وقد رددت إليكَ جوارك؛ فقال له: يا بن أخي، لعله آذاك أحد من قومي، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلِقْ إلى المسجد فردّ عليّ جواري علانية، كما أجرتك علانية، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري، قال: صدق، وجدته كريمًا وفيّ الجوار، ولكنني أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددتُ جواره، ثم انصرف عثمان.

وأبو سَلمة بن عبد الأسد دخل بجوارٍ من أبي طالب بن عبد المطلب، فمشى إليه رجال من بني مَخزوم فقالوا: يا أبا طالب، منعت منا ابن أخيك محمدًا؛ فما لك ولصاحبنا تمنعه مِنّا! قال: إنه استجارَ بي؛ وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون توَثّبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهنّ عنه أو لتقومنّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد، فقالوا: بل ننصرِف عما تكره يا أبا عُتبة. قال: وأقام بقيتهم بأرض الحبشة إلى سنة سبع من الهجرة، فقدموا بعد فتح خيبر، وقد رأينا أن نذكرهم في هذا الموضع؛ لتكون أخبارهم متوالية.

ذكر من قدم من أرض الحبشة إلى رسول الله ﷺ وهو بخَيْبَر، ومن قدم بعد ذلك ومن هلك منهم هناك

قال ابن إسحاق: كان من قدم منهم إلى خيبر في سنة سبع من الهجرة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في السفِينتيْن ستة عشر رجلاً، وهم من بني هاشم بن عبد مناف: جعفر بن أبي طالب، معه امرأته أسماء بنت عُمَيس، وابنه عبد الله؛ ولد بأرض الحبشة.

ومن بني عَبْد شمس خالد بن سعيد بن العاص، معه امرأته أمينة بنت خلف، وابناه سعيد بن خالد، وأمة بنت خالد؛ ولدتهما بأرض الحبشة، وأخوه عمرو بن سَعيد، ومعيقيب[١] بن أبي فاطمة، وأبو موسى الأشعرِيّ؛ واسمه عبد الله بن قيس.

ومن بني أسد الأسود بن نَوْفل بن خُويلد.

ومن بني عبد الدار [بن][٢] قُصَيْ جَهْم بن قيس، معه ابناه عمرو بن جَهْم وخُزيمة بنت جَهْم، وكانت معه امرأته أمّ حَرْملة بنت عبد الأسود؛ هلكت بأرض الحبشة.

ومن بني زُهرة بنِ كلاب عامر بن أبي وقّاص، وعُتبة بن مسعود حليف لهم من هُذيل.

ومن بني تيم بن مُرّة الحارث بن خالد بن صَخْر، هلكت امرأته رَيْطَة بالحبشة.

ومن بني جُمح عثمان بن ربيعة بن أهبان.

ومن بني سَهم مَحمِية بن الجَزْء حليف لهم من بني زُبيد.

ومن بني عَدِيّ بنِ كعب مَعْمر بن عبدِ الله بنِ نَضْلة.

ومن بني عامر بن لؤيّ أبو حاطب بن عمرو، ومالك بن ربيعة: معه امرأته عَمرة بنت السعديّ.

ومن بني الحارث بن فِهْر الحارث بن [عبد][٣] قيس بن لَقيط، وحمِل معهم نساء من نساءِ من هلك هناك.

هؤلاء الذين قدِموا مع جعفر في السفينتين. وقدم بعد ذلك ستة وعشرون رجلاً، وهم:

من بني أمية قيس بن عبد الله الأسديّ، أسدِ خزيمة، حليف لهم.

ومن بني أسد يزيد بن زَمعة بنِ الأسود، قتل يوم حُنينٍ شهيدًا.

ومن بني عبد الدار: أبو الروم بن عُمَير، وفِراس بن النضر بنِ الحارث بن كَلَدة.

ومن بني تَيم بن مرة عمرو بن عثمان بن عمرو.

ومن بني مخزوم هَبّار بن سفيان، وأخوه عبد الله، وهشام بن أبي حُذيفة بن المغيرة.

---

(١) في الأصل: «معيثيب» والمثبت عن ابن هشام (٤ : ٤).
(٢) ساقطة من الأصل: وما أثبتناه عن ابن هشام.
(٣) الزيادة عن ابن هشام.

ومن بني جُمح سفيان بن مَعْمر، وأبناه جُنَادة وجابر، وأمّهما حَسَنة، وأخوهما لأبيهما شُرَحْبيل ابن حَسَنة.

ومن بني سهم قيس بن حذافة بن قيس، وأبو قيس بن الحارث بنِ قيس، وبشر بن الحارث بن قيس، وأخ له من أمّه من بني تميم يقال له: سعيد بن عمرو. وسعيد بن الحارث بن قيس، والسائب بنِ الحارث بنِ قيس، وعُمير بن رئاب بن حُذيفة.

ومن بني عامر بن لؤيّ سَلِيط بن عمرو.

ومن بني الحارث بن فهر عثمان بن عبد غَنْم، وسعيد[١] بن عبد قيس بنِ لَقِيط، وعِياض بن زُهير بن أبي شدّاد.

وهلك بأرض الحبشة ممن هاجر إليها ثمانية، وهم:

من بني عبد شمس، من حلفائهم عبيد الله بن جحش بنِ رِئاب، تنصّر ومات بأرضِ الحبشة نصرانيًا، وكانت معه أمرأته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فخلف عليها رسولُ الله ﷺ.

ومن بني أسد عمرو بن أمية بن الحارث.

ومن بني زهرة بن كلاب المطلب بن أزهر بن عوف، ومعه أمرأته رملة بنت أبي عوف، فولدت له هناك عبد الله بنِ المطلب.

ومن بني جُمح حاطب بن الحارث بنِ مَعْمر، وكانت معه أمرأته فاطمة بنت المحلل[٢] بنِ عبد الله، وابناه محمد والحارث، فقدمت امرأته وابناه مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في أحد[٣] السفينتين، وأخوه حطاب بن الحارث، وكان معه أمرأته فُكيهة بنت يَسار قدمن مع جعفرٍ أيضًا.

ومن بني سهم عبد الله بن الحارث بن قيس.

ومن بني عديّ بن كعب عُروة بن عبد العزّى بن حُرثان، وكان مع عديّ ابنه النعمان، فقدِم مع من قدِم من المسلمين.

فهؤلاء الذين ذكرناهم هم الذين ذكرهم أبن إسحاق، وعدّهم أنهم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، وحصر عِدّتهم كما تقدّم. وأمّا من ذكرنا ممن ذكر أبو عمر

---

(١) ويقال فيه: «سعد» كما في ابن هشام والاستيعاب.

(٢) في بعض نسخ ابن هشام وأسد الغابة «المجلل» بالجيم.

(٣) إحدى.

يوسف بن عبد البرّ في كتابه أنهم ممن هاجر إلى أرض الحبشة فلم نقف على تاريخ عودِهم فنذكره.

ذِكر من أنزِل فيه القرآن من مشركي قريش وما أنزِل فيهم

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: ولمّا حَمى الله تعالى رسوله ﷺ من قريش ومنعه منها، وقام عمه أبو طالب وقومه من بني هاشم وبني عبد المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، جعلت قريش يهمِزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، والقرآن ينزل فيهم، منهم من سماه الله تعالى، ومنهم من نزل فيه في عامّة من ذكر الله من الكفار.

فكان من سمي ممن نزل فيه القرآن أبو لهب بن عبد المطلب، وٱمرأته أمّ جميل بنت حَرب بن أُميّة، حمالة الحطب، فأنزل الله فيهما قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ١ ـ ٥]، قال: وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ.

[قال ابن إسحاق: فذكر لي أن أمّ جميل حمالة الحطب، حين سمعت ما أنزل فيها، وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ][١] وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفي يدها فِهر[٢] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبُك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه، أما والله إني لشاعرة: [من الرجز]

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرَه أَبَيْنَا

* ودِينَه قَلَينا[٣] *

ثم ٱنصرفت.

قال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني.

---

(١) الزيادة عن ابن هشام: (١ : ٣٨١).
(٢) الفهر: الحجر.
(٣) قلينا: تنكرنا له.

وأمية بن خلف بنِ وهب الجُمحيّ؛ كان إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزه ولَمَزه، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهمزة: ١٠٤]، السورة كلها.

قال ابن هشام: الهُمَزَة: الذي يَشْتُم الرجل علانية، ويكسِر عينه عليه ويغمِز به. واللُّمَزة: الذي يعيب الناس سِرًّا ويؤذيهم.

والعاص بن وائل السَّهمي؛ كان إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه فإنما هو رجل أبْتَر لا عقِب له، لو قد مات ٱنقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾ [الكوثر: ١ـ ٣].

والكوثر: ماء هو خير من الدنيا وما فيها؛ وقيل: الكوثر: العظيم، وقيل: ٱلخير الكثير.

وسئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر الذي أعطاك الله؟ فقال: نهر في الجنة كما بين صَنْعاء إلى أيْلة[1]، آنيته كعدد نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبدًا، وأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ⑦⑦﴾، إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ـ ٨٠]، وكان سبب ذلك أن خَبّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله ﷺ كان نشأ بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بنِ وائل السّهمي سيوفًا عمِلها له؛ حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال: يا خَبّاب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ٱبتغى أهلها من ذهب أو فِضّة أو ثياب أو خدم! قال خباب: بلى، قال: فأنظرني إلى يوم القيامة حتى أرجع من تلك الدار؛ فأقْضيك هناك حقّك، فوالله لا تكون أنت وأصحابك آثر عند الله مني، ولا أعظم حظًّا في ذلك، فأنزل الله ذلك فيه.

وأبو جهل بن هشام؛ لقي رسول الله ﷺ فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلِهتنا أو لنسبنّ إلٰهك الذي تعبده، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فكفّ رسول الله ﷺ عن سبّ ألهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله.

ولما ذكر الله شجرة الزّقوم تخويفًا لهم قال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزّقوم التي يخوّفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عُجوة[2] يثرب

(١) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: من أول الحجاز وآخر الشام؛ سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام (معجم البلدان).

(٢) العجوة: الغذاء.

بالزُّبد، والله لئن استمكنا منها لنزقمنها، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣ـ ٤٦]، أي ليس كما يقول.

والنضر بن الحارث بنِ كَلَدة بنِ عَلقمة بنِ عبد مناف بنِ عبد الدار بنِ قُصَيْ؛ كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فدعا فيه إلى الله، وتَلا فيه القرآن وحذّر فيه قريشًا ما أصاب الأمم الخالية، خَلَفه في مجلسه إذا قام فحدّثهم عن رستم وملوك الفرس وإسفِنديار، ثم يقول: والله ما محمد بأحسنَ حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأوّلين أكتتبها كما أكتتبتها، فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾. [الفرقان: ٥ـ ٦]. وأنزل فيه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٥]. ونزل فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: ٧ـ ٨]، والأفّاك: الكذّاب.

قال: وجلس رسول الله ﷺ يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النّضْر ابن الحارث حتى جلس معهما، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ؛ فعرض له النَّضْر فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ـ ١٠٠]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهميّ حتى جلس، فقال له الوليد بن المغيرة: والله ما قام النَّضْر بن الحارث لابنِ عبد المطلب آنفًا وما قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم! فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى: أمَا والله لو وجدته لخصمته، فسألوا محمدًا: أكلُّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عَبَده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزَيرًا، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان حضر معه في المجلس من قول عبد الله، ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم، فذكِر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كلّ من أحَبّ أن يُعبد من دون الله فهو مع مَنْ عَبَده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ـ ١٠٢]، أي عيسى ابن مريم، وعُزَير ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله.

ونزل فيما ذكروا أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ

ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ ٢٩].

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى عليه السلام أنه يُعْبَد مِن دون الله، وعَجب الوليد ومن حضر من حجته: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧]، أي يصدّون عن أمرك، ثم ذكر عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٥٩ـ ٦١]، أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على عِلم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

والأخنَسْ بن شَرِيق بن عمرو بن وَهْب الثقفيّ، حليف بني زُهرة، وكان من أشراف القوم، وممن يستمع منه، فكان يُصيب من رسول الله ﷺ ويردّ عليه، فأنزل الله فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ١٠ـ ٣١]، والزَّنيم: العديد[1] للقوم.

والوليد بن المغيرة قال: أيُنزل على محمد وأُترَك! وأنا لبيب قريش وسيّدها! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفيّ سيد ثقيف، ونحن عظِيما القريتين! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١ـ ٣٢].

وأُبيّ بن خلَف بن وهب بن حُذَافة بن جُمَح، وعُقْبَة بن أبي مُعَيْط ـ وكانا متصافيين حَسنًا ما بينهما ـ فجلس عُقبَةُ إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أُبيًا، فأتى عُقبةَ فقال: ألم يبلغني أنك جالستَ محمدًا وسمعتَ منه! ثم قالَ: وَجْهي من وجهك حرام أن أكلمك ـ واستغلظ من اليمين ـ إن أنت جلست أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل[2] في وجهه. ففعل عدوّ الله عُقبة بن أبي مُعَيط، فأنزل الله فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ـ ٢٩]. ومشى أُبيّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بالٍ قد أرفتَّ[3]؛

---

(١) العديد: الرجل يدخل نفسه في قبيلة ليعد منها، وليس له فيها عشيرة.
(٢) تفل: بصق. (٣) ارفتَّ: تكسر وتفتت.

فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرى؟ ثم فته بيده ونفخه في الريح نحو النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار»، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٨ـ ٨٠].

واعترض رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الأسودُ بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل - وكانوا ذوي أسنان[1] في قومهم - فقالوا: يا محمد؛ هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد؛ فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا كنا قد أخذنا بحظّنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذتَ بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١، ٢]. . . السورة.

ودعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ، فقال له زَمْعة بن الأسود، والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يَغُوث، وأبيّ بن خلف، والعاص بن وائل: لو جعل معك يا محمد ملَك يحدّث عنك الناس؛ ويرى معك! فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨، ٩]. والله المستعان.

ذكر خروج أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى الهجرة وعوده، وجواره وردّه الجوار

قال: وكان أبو بكر رضي الله عنه كما روى الزهري عن عُروة عن عائشة رضي الله عنها حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها ما أصابه من الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرًا حتى إذا سار من مكة يومًا أو يومين لقِيه ابن الدّغُمّة[2]، ويقال فيه: الدُغَيْنة - أخو بني الحارث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، والهُون بن خُزَيمة بن مُدرِكة، وبني المُصْطَلِق بن خُزاعة، تحالفوا جميعًا فسمّوا الأحابيش[3]

(١) أسنان: مقام ـ مكانة.
(٢) هو مالك بن الدغنة سيد الأحابيش.
(٣) يقال: إنهم تحالفوا عند جبل يقال له حبشي، فاشتق لهم منه هذا الاسم. راجع الروض الأنف: ١: ٢٣١.

للحِلْف ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليّ، قال: ولِم؟ فوالله إنك لتَزِين العشِيرة، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتَكْسِب المعدوم، ارجع وأنت في جِواري، فرجع معه حتى إذا دخل مكة، قام ٱبن الدّغُنَّة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت بن أبي قحافة فلا يعرضنّ له أحد إلا بخير؛ فكفّوا عنه.

قال: وكان لأبي بكر مسجد على باب داره في بني جُمَح، فكان يصلي فيه، وكان رجلًا رقيقًا؛ إذا قرأ القرآن ٱستبكى، فتقف عليه الصبيان والعبيد والنساء فيعجبون لما يرون من هيئته، فمشى من قريش إلى ٱبن الدّغُنَّة رجال فقالوا: إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يَرِقّ، ونحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضَعَفَتِنا[١] أن يَفْتِنهم، فأْتِهِ فَمُرْهُ أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

قالت: فمشى ٱبن الدّغُنَّة إليه فقال: يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به، وتأذَّوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت. قال: أوَ أردّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟ قال: فارددْ عليّ جواري، قال: قد رددته عليك، فقام ٱبن الدغنة، فقال: يا معشر قريش، إن ٱبن أبي قحافة قد ردّ عليّ جواري فشأنكم بصاحبكم.

ذكر وفاة أبي طالب بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ ومَشْي أشراف قريش إليه في مرضه، وما قالوه وأنزل فيهم

كانت وفاة أبي طالب بعد نقضِ الصحيفة، وخروج بني هاشم وبني المطلب من الشِّعْب بثمانية أشهرٍ وأحدٍ وعشرين يومًا، وماتت خديجة بعده بثلاثة أيام. حكاه الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلَف الدمياطيّ[٢] رحمه الله في مختصر السيرة النبوية.

وقال محمد بن سعد: كان بينهما شهر وخمسة أيام[٣].

قال[٤] محمد بن إسحاق: لما ٱشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا ثقله، فمشى إليه أشراف قريش وهم: عُقْبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن

---

(١) ضعفتنا: بسطائنا.

(٢) عبد المؤمن بن خلف: عبد المؤمن بن خلف الدمياطي أبو محمد، شرف الدين: (٦١٣ ـ ٧٠٥ هـ = ١٢١٧ ـ ١٣٠٦ م) حافظ للحديث من أكابر الشافعية، ولد بدمياط وتنقل في البلاد؛ وتوفي فجأة في القاهرة. (الأعلام: ٤ : ١٦٩).

(٣) ابن سعد: ١ : ١٤١.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢ : ٥٨.

خَلَف، وأبو سفيان بن حرب[١] في رجالٍ من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك مِنا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى، وتخوّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ٱبن أخيك، فٱدعه فخذ له مِنا، وخذ لنا منه، ليكفّ عنا ونكفّ عنه، وليدعْنا وديننا، وندعه ودينه.

فبعث إليه فجاءه فقال له: يا بن أخي هؤلاء أشراف قومك قد ٱجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: «كلمة[٢] واحدة يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم» فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات، فقال: «تقولون لا إلٰه إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه»، قال: فصفّقوا بأيديهم، وقالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلٰهًا واحدًا؛ إن أمرك لعجب! ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلِقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرّقوا. فقال أبو طالب: والله ما رأيتك سألتهم شططًا.

قال: فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله ﷺ فيه[٣]، فجعل يقول له: «يا عمّ فأنت فقلها؛ استحل بها لك الشفاعة يوم القيامة»، قال: يا بن أخي لولا مخافة السُّبَّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظنّ قريش أني قلتها جزعًا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها.

قال ابن عباس: فلما تقارب من أبي طالب الموت، نظر العباس إليه يحرّك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه، فقال: يا بن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «لم أسمع» ثم هلك أبو طالب.

والذي ورد في الصحيح: أن آخر ما سمع من أبي طالب؛ هو على دين عبد المطلب.

قال ٱبن إسحاق: وأنزل الله في الرهط الذين ٱجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا ما قالوا، قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ

(١) أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ - ٣١ هـ = ٥٦٧ - ٦٥٢ م) صحابي، من سادات قريش في الجاهلية وهو والد معاوية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره. أسلم يوم فتح مكة (سنة ٨ هـ). توفي بالمدينة، وقيل: بالشام. (الأعلام: ٣: ٢٠١).

(٢) في ابن هشام: ٢: ٥٩، «نعم، كلمة واحدة تعطونيها؛ تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم».

(٣) في ابن هشام: ٢: ٥٩: «في إسلامه».

كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ١ ـ ٧]. قال: يريدون بالمِلّة الآخرة النصارى؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

ذكر وفاة خديجة بنت خُوَيْلِد زوج النبيّ ﷺ ورضي الله عنها

كانت وفاة خديجة رضي الله عنها بعد وفاة أبي طالب كما تقدم، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين على ما صححه الشيخ شرف الدين الدمياطيّ رحمه الله في مختصر السيرة النبوية، قال:

وبقيت عند رسول الله ﷺ قبل الوحي خمس عشرة سنة، وبعده تسع سنين وثمانية أشهر، وهي أوّل من أسلم من النساء بلا خلاف، ولعلّها أوّل من أسلم من الناس، وكانت لرسول الله ﷺ وزير صدق. روي أن آدم عليه السلام قال: «إني لَسيد البشر يوم القيامة إلا رجل من ذرّيتي فضل عليّ باثنين؛ كانت زوجته عونًا له، وكانت زوجتي عونًا عليّ، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، وكفر شيطاني». وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أبشر خديجة ببيتٍ في الجنة من قَصَبٍ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب»، قالوا: والقَصَب ها هنا: اللؤلؤ. ودفنت خديجة بالحَجُون، ولم تكن شرعت الصلاة على الميت بعد. والله أعلم.

ذكر خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف، وعوده إلى مكة

قال: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تناله في حياه عمه.

قال محمد بن سعد(١): فبلغ ذلك أبا لهب، فجاءه فقال: يا محمد، اِمض لما أردت وما كنتَ صانعًا إذا كان أبو طالب حَيًّا فاصنعه، لا واللاّت، لا يُوصل إليك حتى أموت. قال: وسبَّ ٱبن الغَيْطَلة النبيّ ﷺ، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولّى وهو يصيح: يا معشر قريش، صَبَأَ أبو عُتبة، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقتُ دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يُضام، حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرّحم، فلبث رسول الله ﷺ كذلك أيامًا يذهب ويأتي، ولا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب إلى أن جاء عُقْبة بن أبي مُعيط،

---

(١) الطبقات: ١: ١٤١.

وأبو جهل بن هشام إلى أبي لهب فقالا: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقالا[١] له: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: «مع قومه»، فخرج أبو لهب إليهما فقال: قد سألته فقال: «مع قومه»، فقالا: يزعم أنه في النار، فقالا: يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال «نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار». فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدوًّا أبدًا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، فاشتدّ عليه هو وسائر قريش، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف[٢].

قال محمد بن سعد: خرج ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليال بقين من شوّال سنة عشر من حين النبوّة، فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدَع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم[٣]، فقالوا: يا محمد، اخرج من بلدنا والحق بمجابك[٤] من الأرض. وأغرَوْا به سفهائهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلي رسول الله ﷺ لتَدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه. حتى لقد شُجّ في رأسه شِجاجًا[٥]، فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكة وهو محزون، لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة.

وقال ابن إسحاق[٦]: لما أغروا به سفهاءهم، لجأ رسول الله ﷺ إلى حائط[٧] لعُتبة وشيبة ابني ربيعة، فجلس في ظل حَبَلة[٨]، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فتحركت له رحمتهما، فدعَوَا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عَدّاس، فقالا له: خذ قِطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس، ثم أقبل حتى وضعه بين يديه ﷺ، وقال له: كُلْ فقال رسول الله ﷺ: «بسم الله» فأكل، فنظر عَدّاس إليه ثم قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له ﷺ: «ومن أهل أيّ البلاد أنت يا عَدّاس؟ وما دينك»؟ قال: نصرانيّ، وأنا رجل من أهلِ نِينَوى[٩]، فقال له: «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى»؟ فقال عَدّاس: وما يدريك ما يونس؟ قال: «ذاك أخي، كان نبيًا

---

(١) في الأصل: «فقال» والمثبت عن ابن سعد: ١: ١٤٢.
(٢) اسم مدينة، وهي بلاد ثقيف.
(٣) الحدث: الطفل الذي لم يبلغ.
(٤) في السيرة الحلبية: ١: ٣٨٥: «بمنجاتك».
(٥) شجاجًا: جروح.
(٦) ابن هشام: ٢: ٦١.
(٧) الحائط: البستان إذا كان عليه جدار.
(٨) الحَبَلَة: شجرة العنب.
(٩) نينوى: من قرى الموصل.

وأنا نبيّ»، فأقبل عَدّاس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه وقدميه ويديه، فقال أحد ٱبنيْ ربيعة لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عَدّاس قالا له: ويلك! ما لك تُقبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه! قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا العبد، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيّ، قالا: ويحك يا عَدّاس! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينَك خير من دينه.

قال: ثم ٱنصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنَخْلَة[١] أتاه جنّ نَصِيبِين[٢]، على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الوفود على رسول الله ﷺ على ما تقف عليه هناك، وهو في آخر وفادات العرب.

قال: وأقام رسول الله ﷺ بنَخْلة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك؟ فقال: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فَرَجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه»، ثم ٱنتهى إلى حِرَاء، فأرسل رجلًا من خُزاعة إلى مُطْعِم بن عديّ يقول: «أدخل في جوارك»؟ فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: تَلَبّسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإني قد أجرت محمدًا، فدخل رسول الله ﷺ، ومعه زيد بن حارثة حتى ٱنتهى إلى المسجد الحرام، فقام مُطْعِم بن عديّ على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا؛ فلا يَهْجُه أحد منكم، فٱنتهى ﷺ إلى الرّكن فٱستلمه، وصلى ركعتين، وٱنصرف إلى بيته، ومُطْعِم وولده مُطِيفون به، فلذلك قال حسان بن ثابت الأنصاريّ في رثائه لمطعِم من قصيدته: [من الطويل]

فلو كان مجدٌ يُخْلِد الدهرَ واحِدًا ... مِن الناسِ، أبقى مَجْدُه اليومَ مُطعِما[٣]

أجَرْتَ رسولَ اللَّهِ مِنهم فأصبحوا ... عبيدَكَ ما لَبَّى مُهِلٌّ وأَحْرَما

وحكى محمد بن إسحاق: أن رسول الله ﷺ بعث إلى الأخنس بن شَرِيق[٤] ليُجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يُجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو[٥] فقال: إن

---

(١) نخلة: محلة ما بين مكة والطائف.

(٢) نصيبين: قاعدة ديار ربيعة.

(٣) رواية الديوان بشرح البرقوقي: ٣٩٨.

ولو أن مجدًا أخلد الدهر واحدًا ... من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

(٤) الأخنس بن شريق: الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب. بن شقيف الثقفي أبو ثعلبة حليف بني زهرة. أسلم فكان من المؤلفة وشهد حنينًا ومات في أول خلافة عمر. (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٢٥، ورقم الترجمة ٦١).

(٥) سهيل بن عمرو: سهيل بن عمرو بن عبد شمس، القرشي العامري من لؤي (. . . ـ ١٨ هـ = . . . ـ ٦٣٩ م) خطيب قريش وأحد سادتها في الجاهلية، أسره المسلمون يوم بدر. أسلم وسكن مكة ثم =

بني عامر[1] لا تُجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عديّ فأجابه.

ذكر خبر الإسراء برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المَقدس، وخبر المعراج به ﷺ إلى السّمٰوات العلا، وإلى سِدرة المنتهى، وما شاهد في ذلك من الكرامة والاصطفاء والمناجاة، وفرض الصلاة، وغير ذلك مما يراه من آيات ربّه الكبرى ﷺ

وخبر الإسراء برسول الله ﷺ صحيح متفق على صحته بنص الكتاب والأحاديث الصحيحة. أما الكتاب العزيز، فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]. وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

وأما الأحاديث الواردة في ذلك فسنذكرها إن شاء الله تعالى.

وكان الإسراء برسول الله ﷺ ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا، وقد أتت عليه إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر.

وقال ابن سعد في طبقاته عن عائشة أمّ المؤمنين وأمّ هانىء وابن عباس قالوا: أُسريَ برسول الله ﷺ ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة من شِعب أبي طالب [إلى بيت المقدس][2]. والله أعلم.

والأحاديث الصحيحة بصحة الإسراء قد جاءت من طرق كثيرة، وقد رأينا أن نبدأ منها بأكملها وأجمعها، وهو حديث ثابت البُنانيّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه ثم نذكر زيادات عن غيره يتعين ذكرها.

= سكن المدينة. وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية. مات بالطاعون في الشام. (الأعلام: ٣: ١٤٤).

(١) في الأصل: «أني من بني عمر» وهو تحريف، والتصويب عن ابن هشام: ٢: ٢٠، والسيرة الحلبية: ١: ٣٩١.

(٢) التكملة عن ابن سعد: القسم الأول من الجزء الأول ص ١٤٣.

أما حديث ثابت البُنانيّ(١) فهو مما رويناه بإسناد متصل عن مسلم بن الحجّاج، قال: حدّثنا شيبان بن فرّوخ، قال: حدّثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا ثابت البنانيّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيتُ بالبُراق وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طَرْفه». قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يَرْبط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمرٍ وإناءٍ من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفِطرة، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتِح لنا فإذا بآدم ﷺ، فرحّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابْنَي الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما وسلم، فرحّبا بي ودعوا لي بخير، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة، وذكر مثل الأوّل ففتُح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسنِ، فرحّب بي، ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الرابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس فرحّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون فرحّب بي، ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فرحّب بي، ودعا لي بخير، ثم عُرِج بي إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سِدْرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفِيَلة، وإذا ثمرها كالقِلال». قال: «فلما غَشِيها من أمر الله ما غَشِي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنِها، فأوحى الله إليّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمّتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمّتك لا يُطِيقون ذلك، فإني قد بلوت(٢) بني إسرائيل». قال: «فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف عن أمّتي فحطَّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حَطَّ عني خمسًا»، قال(٣): إن أمّتك لا يُطِيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: «فلم أزل أراجع بين ربي تعالى، وبين موسى حتى قال: يا محمد، إنهنّ خمس صلوات، كل يوم وليلة

---

(١) الحديث في الشفاء: ١: ١٤١ وما بعدها.

(٢) بلوت: امتحنت.

(٣) في الأصل: «فقلت» وهو تحريف.

بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومَنْ همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة». قال: «فنزلت[١] حتى أنتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: أرجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال رسول الله ﷺ: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى أستحييت منه».

وروى يونس عن ابن شهاب عن أنس قال: كان أبو ذرّ يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِج سقف بيني، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بِطَسْتٍ من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء». فذكر القصة.

وروى قَتَادة عن أنس عن مالك بن صَعْصَعَة الحديث بمثله، وفيه تقديم وتأخير، وزيادة ونقص، وخلاف في ترتيب الأنبياء والسمٰوات؛ وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود. وهذان الحديثان يدلان على أن رسول الله ﷺ شُقَّ جوفُه عند الإسراء، وقد تقدم الخبر أنه شُقَّ جوفه وهو عند ظِئْره[٢] في حال طفوليته، فيكون على هذا شُقَّ جوفُه مرتين، والله أعلم بالصواب.

ونقل عن الشيخ عبد القادر محمد بن أبي الحسن الصعبيّ في مختصر السيرة له قال: روى أبو داود الطيالسيّ[٣] ومسنده، قال: حدّثنا حماد بن سلمة[٤] قال: أخبرني أبو عمران الجَوْنيّ عن رجل عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ اعتكف هو وخديجة شهرًا، فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله ﷺ، وسمع: السلام عليكم، قالت: فظننت أنه فجِئَه الحقُّ[٥]، فقال: «انشروا فإنّ السلام خير»، ثم رأى يومًا آخر جبريل عليه السلام على الشمس جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، قال: فبهتّ منه، قالت[٦]: فانطلق يريد أهله، فإذا هو بجبريل عليه السلام بينه وبين الباب، قال:

---

(١) في الأصل: «فتركت» والمثبت عن الشفاء: ١: ١٤٣، وعيون الأثر: ١: ١٤٥.

(٢) الظئر: المرضعة.

(٣) الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود مولى قريش، أبو داود الطيالسي (١٣٣ ـ ٢٠٤ هـ = ٧٥٠ ـ ٨١٩ م) من كبار حفاظ الحديث. فارسي الأصل. سكن البصرة وتوفي فيها. (الأعلام: ٣: ١٢٥).

(٤) حماد بن سلمة: حماد بن سلمة بن دينار البصري الرَّبَعي، أبو سلمة (... ـ ١٦٧ هـ = ... ـ ٧٨٤ م) مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث، ومن النحاة، كان حافظًا، ثقة، مأمونًا. إلا أنه لما كبر ساء حفظه. (الأعلام: ٢: ٢٧٢).

(٥) في مسند الطيالسي «فجأه الجن»، والحق هنا: الموت.

(٦) في الأصل: «قال» والمثبت عن مسند الطيالسي: ٣١٥.

«فكلمني حتى أنست به ثم وعدني موعدًا، فجئت لموعده، واحتبس عليّ جبريل، فلما أراد أن يرجع إذا هو وميكائيل عليهما السلام، فهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض، وبقي ميكائيل بين السماء والأرض»، قال: «فأخذني فسلقني لِحلاوة القفا[1]، وشَقّ عن بطني، فأخرج منه ما شاء الله، ثم غسله في طَستٍ من ذهب ثم أعاده، ثم كفأني كما يكفأ الإناء، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مَسَّ الخاتم، ثم قال لي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ ولم أقرأ كتابًا قط، فأخذ بحلقي حتى أجهشت بالبكاء، ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]». قال: «فما نسيت بعد، فوزنني برجل فَوزنته، ثم وزنني بآخر فوزنته، ثم وزنني بمائة، فقال ميكائيل: تبِعتْه أمته وربِّ الكعبة». قال: «ثم جئت إلى منزلي، فما يلقاني حجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، حتى دخلت على خديجة فقالت: السلام عليك يا رسول الله».

فيدل هذا الحديث على أنه شُقّ جوفه أيضًا عند الوحي، فيكون شُقَّ جوفُه ثلاث مرات؛ مرة وهو عند ظِئره، ومرة عند الوحي في أوّل النبوّة، كما يقتضي هذا الحديث، ومرة ثالثة عند الإسراء؛ كما روي عن أبي ذرّ، ومالك بن صَعْصَعَة. والله أعلم.

وإنما أوردنا حديث الطيالسيّ في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، لأن موضعه يصلح أن يكون عند ذكر حديث المبعث، وقد أثبتنا هناك الأحاديث الصحيحة؛ فلنرجع إلى ما نحن فيه من حديث الإسراء.

وأمّا ما ورد في الأحاديث الأخر من الروايات التي يتعيّن ذكرها:

فمنها حديث ابن شهاب وفيه قول كل نبيّ: «مرحبًا بالنبيّ الصالح، والأخ الصالح إلا آدم وإبراهيم فقالا له: والابن الصالح».

وفيه من طريق ابن عباس رضي الله عنهما: «ثم عُرِج بي حتى ظهرت بمستوًى أسمع فيه صَرِيف[2] الأقلام».

وعن أنس: «ثم انطلق بي حتى أتيت سِدْرة المنتهى، فغشيها ألوان لم أدرِ ما هي»، قال: «ثم أُدْخِلت الجنة».

وفي حديث مالك بن صَعْصَعَة: «فلما جاوزته ـ يعني موسى ـ بكى، فنودي: ما يبكيكَ؟ قال: ربِّ هذا غلام بعثته بعدي، يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمّتي».

---

(١) سلقني لحلاوة القفا: أي ألقاني على ظهري.
(٢) الصريف: صوت القلم عند الكتابة.

وفي حديث أبي هريرة: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة فأممتهم فقال قائل: يا محمد، هذا مالِك خازن النار فَسَلِّمْ عليه، فالتفت فبدأني بالسلام».

وفي حديث أبي هريرة: «ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة وصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة، قالوا: يا جبريل من هذا معك؟، قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حيّاه من أخ وخليفة! فنعم الأخ ونعم الخليفة! ثم لَقَوْا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم». وذكر كلام كل واحد منهم؛ وهم إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: وإن محمدًا ﷺ أثنى على ربه، فقال: «كلكم أثنى على ربه، وأنا أثني على ربي؛ الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليّ الفرقان[١] فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة، وجعل أمّتي أمة وَسَطًا[٢]، وجعل أمّتي هم الأولون وهم الآخِرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وِزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا». فقال إبراهيم: بهذا فَضَلكم محمد، ثم ذكر أنه عُرِج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء؛ نحو ما تقدم.

وفي حديث ابن مسعود: «وانتهى بي إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة؛ إليها ينتهي ما يُعْرَج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط[٣] من فوقها فيُقبض [منها]». قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦]، قال: فَرَاش من ذهب.

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه، من طريق الربيع بن أنس: «فقيل لي: هذه سِدرة المنتهى، ينتهي إليها كل أحدٍ من أمتك خَلاَ على سبيلك». وهي السِّدْرة المنتهى يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن[٤]، وأنهار من لبنٍ لم يتغيّر طعمُه، وأنهارٌ من خمر لذّة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًى. وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا، وإن ورقة منها مظلّة الخلق. فغشيها نور، وغشيتها الملائكة.

قال: فهو قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾؛ فقال تبارك وتعالى له:

---

(١) الفرقان: القرآن.

(٢) وسطا: خيرة.

(٣) في الأصل: «يقبض» والمثبت عن صحيح مسلم ١: ١٠٩.

(٤) الأسن: الفاسد.

«سل»، فقال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيتَه مُلكًا عظيمًا، وكلّمت موسى تكليمًا، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا، وألنتَ له الحديد، وسخّرتَ له الجبال، وأعطيتَ سليمان مُلكًا عظيمًا؛ سخّرت له الجنّ والإنس والشياطينَ والرياح، وأعطيته ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلّمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرىء الأكْمَه(١) والأبرص(٢)، وأَعَذْتَه وأمَّه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل».

فقال له ربّه: «قد اتخذتك حبيبًا» فهو مكتوب في التوراة: «محمد حبيب الرحمٰن، وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك [هم](٣) الأولون وهم الآخرون، وجعلت أمّتَك لا تجوز لهم خُطْبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أوّل النبيّين خَلقًا، وآخرهم بَعْثًا، وأعطيتك سبعًا من المثاني ولَم أُعطِها نبيًّا قبلَك، وأعطيتك خواتيمَ سورة البقرة من كنزٍ تحت عرشي، لم أعطها نبيًّا قبلك، وجعلتُك فاتحًا وخاتَمًا».

وفي الرواية(٤) الأخرى، قال: فأُعطِيَ رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطِيَ الصلوات الخمس، وأعطِيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات(٥).

وقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١]؛ الآيتين. قيل: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح. وفي حديث شَرِيك: «أنه رأى موسى في السابعة» قال: بتفضيل كلام الله، قال: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلم إلا الله، فقال موسى: لم أظن أن يُرفع عليّ أحد».

وقد روي عن أنس أنه ﷺ صلّى بالأنبياء ببيت المَقدِس. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا قاعد ذات يوم إذ دخل عليّ جبريل عليه السلام فوكزَ بيْن كتفيّ، فقمت إلى شجرة فيها مثل وَكْرَي الطائرِ، فقعد في واحدة، وقعدت في الأخرى فَنَمَتْ حتى سدّت الخافقين، ولو شئتُ لمسستُ السماء، وأنا أقلّب طَرْفِي، ونظرتُ جبريلَ كأنه حِلْس لاطىء(٦)، فعرفتُ فضلَ علمه بالله عليّ؛ وفُتِح لي باب السماء، ورأيت

---

(١) الأكمه: الذي يولد أعمى.
(٢) الأبرص: الذي فيه بقع بيضاء في جسده.
(٣) ساقطة من الأصل.
(٤) عن ابن مسعود؛ انظر صحيح مسلم: ١: ١٠٩.
(٥) المقحمات: الكبائر من الذنوب.
(٦) حلس لاطىء: الحلس: كساء رقيق يوضع تحت القتب أو البرذعة، ولاطىء: لاصق بالأرض، والمراد أن جبريل لما قرب من السماء غشيته مهابة حتى خضع والتصق بالأرض وكتب في الأصل: «لاطئًا»؛ وهو تحريف.

النور الأعظم، وإذا دوني الحجاب وفُرَجه الدرّ والياقوت، ثم أوحى الله إليّ ما شاء أن يوحي».

وذكر البزّار عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لمّا أراد الله أن يعلّم رسولَه الأذان جاءه جبريل بدابة يقال لها البُراق، فذهب يركبها، فٱستصعبتْ عليه فقال لها جبريل: أسكني، فوالله ما ركِبَك عبد أكرم على الله من محمد ﷺ؛ فركبها حتى أتى بها إلى الحجاب الذي يلي الرحمٰن تعالى، فبينا هو كذلك إذ خرج مَلَك من الحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل، من هذا؟». قال: والذي بعثك بالحقّ إني لأقرب الخلق مكانًا، وإنّ هذا الملَك ما رأيته منذ خُلِقت قبل ساعتي هذه، فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل مِن وراء الحجاب: صدق عبدي؛ أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فقيل من وراء الحجاب: «صدق عبدي، أنا لا إلٰه إلا أنا»، وذكر مثل هذه في بقيّة الأذان، إلا أنه لم يذكر جوابًا عن قوله: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، وقال: ثم أخذ الملك بيد محمد فقدّمه، فأمّ أهلَ السماء فيهم آدمُ ونوحٌ(١).

قال القاضي عياض بن موسى رحمه الله: ما في هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو في حقّ المخلوق لا في حقّ الخالق؛ فهم المحجوبون، والبارِي جل ٱسمُه منزَّه عما يحجبه؛ إذ الحُجُب إنما تُحيط بمقدّر محسوس(٢)، ولكنّ حُجُبَه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء ومتى شاء، كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. قال: فقوله في هذا الحديث: «الحجاب» يجب أن يقال: إنه حجاب حُجِب به مَنْ وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجبروته. ويدل عليه من الحديث قول جبريل عن الملَك الذي خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيتُه منذ خلقتُ قبل ساعتي هذه، فدلّ [على](٣) أن هذا الحجاب لم يختص بالذات.

ويدل عليه قول كعب في تفسيره: سِدْرَة الْمُنْتَهَى، قال: إليها ينتهي علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله لا يجاوزها علمُهم.

قال: وأما قوله: «الذي يلي الرحمٰن»، فيُحمل على حذف المضاف أي الذي يلي عرشَ الرحمٰن، أو أمرًا ما من عظيم آياته، أو مبادىء حقائق معارفه مما هو أعلم

(١) زاد في هامش الشفاء ج١ ص ١٤٩: «إبراهيم».
(٢) في الأصل: «محبوس».
(٣) ساقطة من الأصل.

به، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها.

وقوله: «فقيل من وراء الحجاب، صدق عبدي، أنا أكبر»، فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلامَ الله ولكن من وراء حجاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] [أي][١] وهو لا يراه؛ حجب بصره عن رؤيته، فإن صَحّ القول بأن محمدًا ﷺ رأى ربه فيحتمل أنه في غير هذا الموطن بعد هذا أو قبلُه رُفِع الحجاب عن بصره حتى رآه. والله أعلم بالصواب.

ذكرُ من قال: إن الإسراء كان بالجسد وفي اليَقَظَة

قد اختلف العلماء على ثلاث مقالات؛ فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيَا منام. وذهبتْ طائفة إلى أنّ الإسراء كان بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، والذي عليه الأكثرون ـ قال به معظم السلف ـ أنه إسراء بالجسد، وفي اليقظة.

قال القاضي عياض بن موسى بن عياض: وهذا هو الحق، وهو قول ابن عبّاس، وجابر، وأنس، وحُذيفة، وعمر، وأبو هريرة، ومالك بن صَعْصَعَة، وأبي حَبّة البدريّ، وابن مسعود، والضحاك، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، وابن المسيب، وابن شِهاب، وابن زيد، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعِكرمة، وابن جُرَيج؛ وهو قول الطبريّ، وابن حنبل، وغيرهما، وقد أبطلوا حُجَج من قال خلافَ ذلك بأدلّة يطول علينا شرحُها.

قال القاضي عياض: والحقّ [من هذا] والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية، وصحيح الأخبار والاعتبار ـ ولا يُعدَل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل [إلا][٢] عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحالِ يَقظته استحالة، إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده، ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ـ وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧]. ولو كان منامًا لَمَا كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولَمَا استبعده الكفّار ولا كذّبوه فيه، ولا ارتدّ به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، إذ مثلُ هذا من المنامات لا يُنكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أنّ خبره إنما كان عن جِسمه، وحالِ يقظته إلى ما ذُكِر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس، أو في السماء على ما رَوى غيرُه، وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المِعراج

(١) الزيادة عن الشفاء: ١: ١٥٠.
(٢) ساقطة من الأصل.

وآستِفتاح السماء، فيقال[١]: ومن معك؟ فيقول: محمد، ولقائِه الأنبياء فيها، وخبرِهم معه، وترحِيبِهم به، وشأنِه في فرض الصلاة ومراجعتِه مع موسى في ذلك، وفي بعض هذه الأخبار: «فأخذ - يعني جبريل - بيدي؛ فَعَرج بي إلى السماء» إلى قوله: «ثم عَرَج بي حتى ظهرتُ بمستوًى أسمعُ فيه صوت[٢] الأقلام؛ وأنه وصل إلى سِدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكَره».

قال آبن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عينٍ رآها النبي ﷺ لا رؤيا منام، والآيُ في ذلك كثيرة، والأدلة واضحة، فلا نطوّل بسردها، وفيما أوردناه منها فيما قدّمنا ذكره كفاية. والله أعلم.

ذكر ما ورد في رؤية رسول الله ﷺ ربَّه تبارك وتعالى، ومناجاتِه له، وكلامِه ودنوّه وقربِه من ربّه عزّ وجلّ، ومن جوّز ذلك ومن مَنَعه، وما قيل في مشكِل حديث الدّنوّ والقرب

أما الرؤية فقد آختلف السلف في رؤيته ﷺ لربّه عزّ وجلّ، فأنكرته عائشة.

رُوي عن مسروق[٣] أنه قال لعائشة رضي الله عنها: يا أمّ المؤمنين، هل رأى محمد ربَّه؟ فقالت: لقد قَفّ[٤] شعري مما قلت؛ ثلاث من حدّثك بهنّ فقد كذب، [من حدّثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب][٥]، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] الآية [ثم ذكر الحديث][٦]. وقالت جماعة بقول عائشة، وهو المشهور عن آبن مسعود.

ومثله عن أبي هريرة: إنما رأى جبريل، وآختلِف عنه. وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيته في الدنيا [جماعةٌ][٧] من المحدثين والفقهاء والمتكلّمين.

وعن آبن عباس رضي الله عنهما أنه رآه بعينه. وروى عطاء عنه: رآه بقلبه، وعن أبي العالية [عنه][٨] رآه بفؤاده مرتين.

---

(١) في الأصل: «فيقول».

(٢) في الشفاء: «صريف» وهو يوافق ما في عيون الأثر وصحيح مسلم.

(٣) مسروق: مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة (. . . - ٦٣ هـ = . . . - ٦٨٣ م) تابعي ثقة، من أهل اليمن. قدم المدينة في أيام أبي بكر. وسكن الكوفة. وشهد حروب علي. (الأعلام: ٧: ٢١٥).

(٤) قفّ الشعر: وقف من الفزع.

(٥) الزيادة عن الشفا: ١: ١٥٨.

(٦)(٧) (٨) الزيادة في الشفا: ١: ١٥٨.

وذكر ابن اسحاق: أن ٱبن عمر رضي الله عنهما أرسل إلى ٱبن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمدٌ ربَّه؟ قال: نعم، والأشهر [عنه][١] أنه رأى ربه بعينيه. وقال: إن الله اختصّ موسى بالكلام، وإبراهيم بالخُلّة، ومحمدًا بالرؤية. وحجّته قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم: ١١ـ ١٣].

وقال الماوردي[٢]: قيل إنّ الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فرآه محمّد مرتين، وكلّمه موسى مرتين.

وحكى أبو الفتح الرّازيّ[٣]، وأبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ[٤] ذِكْرها[٥] عن كعب، وروى عبد الله بن الحارث[٦]، قال: ٱجتمع ٱبن عباس وكعب، فقال ٱبن عباس: أمّا نحن بني هاشم فنقول: إنّ محمدًا قد رأى ربه مرتين، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال، وقال: إنّ الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلمه موسى، ورآه محمد بقلبه.

وحكى السَّمَرْقَنْدِيّ عن محمد بن كعب القُرَظِيّ، وربيع بن أنس: أنّ النبيّ ﷺ قال: «رأيت ربي» ـ وذكر كلمة ـ فقال: «يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى». الحديث.

وحَكَى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه، وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنكيّ[٧] عن عِكرمة، وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ٱبن مسعود،

---

(١) الزيادة في الشفا: ١: ١٥٨.

(٢) الماوردي: علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ ـ ١٠٥٨ م): أقضى قضاة عصره. ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد. وكان يميل إلى مذهب الاعتزال. نسبته إلى بيع ماء الورد ووفاته ببغداد. (الأعلام: ٤: ٣٢٧).

(٣) أبو الفتح الرازي: سليم بن أيوب بن سليم الرازي (٣٦٥ ـ ٤٤٧ هـ = ٩٧٥ ـ ١٠٥٥ م) فقيه أصله من الري. تفقه ببغداد. غرق في البحر عند ساحل جدة. (الأعلام: ٣: ١١٦).

(٤) أبو الليث السمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث الملقب بإمام الهدى (. . . ـ ٣٧٣ هـ = . . . ـ ٩٨٣ م) علامة، من أئمة الحنفية، من الزهاد المتصوفين. (الأعلام: ٨: ٢٧).

(٥) أي الحكاية التي ذكرها الماوردي.

(٦) عبد الله بن الحارث: عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي القرشي (٩ ـ ٨٤ هـ = ٦٣٠ ـ ٧٠٣ م) : والٍ، من أشراف قريش. من أهل المدينة. لما قامت فتنة ابن الأشعث، خرج إلى عمان هاربًا من الحجاج فتوفي فيها (الأعلام: ٤: ٧٧).

(٧) الطلمنكي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى المعافري الأندلسي الطلمنكي، أبو عمر (٣٤٠ ـ ٤٢٩ هـ = ٩٥١ ـ ١٠٣٨ م) أول من أدخل علم القراءات إلى الأندلس وكان عالمًا بالتفسير والحديث. أصله من طلمنكة. سكن قرطبة، ورحل إلى المشرق. (الأعلام: ١: ٢١٢).

وحكى ٱبن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

وحكى النّقاش عن أحمد بن حنبل[١] أنه قال: أنا أقول بحديث ٱبن عباس، بعينه رآه رآه، حتى ٱنقطع نَفَسُ أحمد.

وقد ٱختلف في تأويل الآية عن ٱبن عباس وعِكرمة والحسن وٱبن مسعود، فحكى عن ٱبن مسعود، وعِكرمة: رآه بقلبه.

وعن الحسن وٱبن مسعود: رأى جبريلَ، وعن ٱبن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الانشراح: ١]، قال: شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام.

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعريّ وجماعة من أصحابه: إنه رأى الله ببصره وعينيّ[٢] رأسه وقال: كل آية أوتيها نبيّ من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتيَ مثلَها نبيُّنا، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية.

قال القاضي أبو الفضل عياض بن موسى رحمه الله: والحق الذي لا ٱمتراء[٣] فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبيّ ما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزًا غير مستحيل، ولكنه وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علّمه الله، فقال له الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي لن تطيق ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثالاً بما هو أقوى من نبيّه موسى وأثبت وهو الجبل. قال: وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع على ٱستحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غيرُ مستحيلة.

قال: ولا حجة لمن يستدلّ على منعها بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لاختلاف التأويلات في الآية، وقد ٱستدل بعضهم بهذه الآية نفسِها على جواز الرؤية، وعدم ٱستحالتها على الجملة. وقد قيل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي لا تُحيط به، وهو قول ابن عباس، وقد قيل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وإنما يدركه

---

(١) أحمد بن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني الوائلي (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة أصله من مرو. ولد ببغداد سافر أسفارًا كبيرة. توفي وهو على تقدمه عند المتوكل. (الأعلام: ١: ٢٠٣).

(٢) في الأصل: «وعين رأسه».

(٣) الامتراء: الشك.

المبصِرون. قال وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا ٱستحالتها، وحيث تتطرّق التأويلات وتتسلط الاحتمالات، فليس للقطع سبيل، وكذلك وجوب الرؤية لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه. فليس فيه قاطع أيضًا ولا نصّ، إذ المعوّل فيه على آيتي النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك. والله تعالى أعلم بالصواب.

وأما المناجاة والكلام والقرب والدنوّ وما جاء من الكلام على مشكل هذا الحديث؛ فقد اختلف في الوحي إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠]، وهل كان ذلك الوحي بواسطة أو بغير واسطة؟ فأكثر المفسرين على أن الموحي اللّٰهُ إلى جبريل، وجبريل إلى رسول الله ﷺ. [فذكر عن] جعفر بن محمد الصادق، قال: أوحى الله إليه بلا واسطة. ونحوه عن الواسطي، وإليه ذهب بعض المتكلمين وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس، وأنكره آخرون. وحكى النقاش عن ابن عباس عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿دنا فتدلى﴾ [النجم: ٨]، قال: «فارقني جبريل، وٱنقطعت الأصوات عني فسمعت كلام ربي، وهو يقول: ليهدأ روعُك يا محمد، أُدنُ ٱدن». وقد تقدم ذكر حديث الأذان، وقول الملك: الله أكبر الله أكبر، فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر، أنا أكبر.

وقد احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]، فقالوا: هي ثلاثة أقسام؛ من وراء حجاب كتكليم موسى، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء، وأكثر أحوال نبينا ﷺ، الثالث قوله: ﴿وَحْيًا.﴾. قالوا: ولم يبق من تقسيم صور الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة، وقد قيل: الوحي هنا ما يلقيه في قلب النبيّ ﷺ دون واسطة، وكلام الله تعالى لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨، ٩] فأكثر المفسرين أن الدنوّ والتدلّي منقسم ما بين محمد وجبريل عليهما السلام، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من سِدْرة المنتهى. وقال ابن عباس: هو محمد دنا فتدلى من ربه، وقيل: معنى دنا قرب، وتدلّى: زاد في القرب، وقيل: هما بمعنى واحد، أي قرب. وحكى مكيّ والماورديّ عن ابن عباس، هو الربّ دنا من محمد فتدلى إليه، أي أمرُه وحكمه. وحكى النقاش عن الحسن، قال: دنا من عبده محمد ﷺ، فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته. قال: وقال ٱبن عباس: هو مقدّم ومؤخر، تدلّى الرفرف[1] لمحمد ﷺ ليلة المعراج، فجلس عليه، ثم رفع

(١) الرفرف: البساط الأخضر.

فدنا من ربه. وفي الصحيح عن أنس بن مالك: «عرج بي جبريل إلى سِدْرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزّة فتدلّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة». الحديث. وعن محمد بن كعب: هو محمد دنا من ربه، فكان قاب قوسين. وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه، حتى كان منه كقاب قوسين، قال جعفر: والدنوّ من الله لا حدّ له، ومن العباد بالحدود. وقال أيضًا: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حَجَب جبريلَ عن دنوّه، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلّى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب!

وقد تكلموا على مشكل هذا الحديث، فقال القاضي عياض رحمه الله: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب هنا من الله وإلى الله فليس بدنوّ مكان ولا قرب مدى، بل كما ذكرنا[1] عن جعفر الصادق ليس بِدنوّ حدّ، وإنما دنوّ النبيّ ﷺ من ربه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مسرة وتأنيس، وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأوّل في قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» على أحد الوجوه، نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان. وقال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمّ مسافة، بل كل ما دنا بنفسه من الحق تدلّى بعدًا، يعني عن درك حقيقته، إذ لا دنوّ للحقّ ولا بعد.

وقوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، فمن جعل الضمير عائدًا إلى الله لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب، ولطفِ المحلّ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارةً عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار[2] التحفّي، وإنافة[3] المنزلة والمرتبة من الله له، ويتأوّل [فيه] ما يتأوّل في قوله: «من تقرّب مني شِبرًا تقرّبت منه ذراعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، قربٌ بالإِجابة والقبول، وإتيانٌ بالإحسان وتعجيل المأمول.

وقد أخذ الكلام في هذا المعنى حقَّه، فلنذكر ما كان بعد الإسراء [من][4] الأخبار.

(١) في الأصل: «بل كان ذكر». والمثبت عن الشفاء: ١: ١٦٧.
(٢) التحفي: الإكرام.
(٣) إنافة المنزلة: الحصول على المرتبة العالية.
(٤) زيادة يقتضيها المقام.

ذكر ما كان بعد الإسراء من إنكار قريش لذلك وما أخبرهم رسول الله ﷺ، من وصفه لهم البيت المقدَّس، وإخباره لهم بخبر عِيرهم، وارتداد من ارتدّ

روى الشيخ الإمام أبو بكر أحمد البيهقيّ بسنده عن شدّاد بن أوس[١] رضي الله عنه، قال: قلنا: يا رسول الله كيف أُسرِيَ بك؟ فذكر نحو ما تقدّم من خبر الإسراء، وفيه زيادة ونقص، قال: وفيه أن جبريل عليه السلام أنزله فصلى بيثرب، ثم صلى بمدين عند شجرة موسى عليه السلام، ثم صلى ببيتِ لحم حيث ولد عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم صلى في المسجد الأقصى، وأنه ﷺ مرَّ بعير لقريش بمكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيرًا قد جمعه فلان، قال: «فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد». قال: «ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر فقال: يا رسول الله، أين كنت الليلة فقد التمستك في مظانِّك[٢]» فقلت: علمتَ أنّي أتيتُ بيت المقدس الليلة؟ فقال: يا رسول الله، مسيرة شهر! فصفه لي، قال: «ففتح لي صراط[٣] كأني أنظر إليه، لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه»، فقال: أشهد أنك رسول الله حقًا، فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة[٤] يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، فقال: «إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعِير لكم بمكان كذا وكذا، ينزلون بكذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم[٥] عليه مَسْح[٦] أسود، وغِرارتان[٧] سوداوان»، وإنهم أشرفوا ينظرون. فأقبلت العير نصفَ النهار على ما وَصَف لهم ﷺ.

وفي رواية يونس بن بُكير[٨] في زيادة المغازي: أنه ﷺ لما أخبر قومه بالرفقة

---

(١) شداد بن أوس: شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري، أبو يعلى (... ـ ٥٨ هـ = ... ـ ٦٧٧ م) صحابي من الأمراء، ولاه عمر إمارة حمص، ولما قتل عثمان اعتزل، وعكف على العبادة. كان فصيحًا حليمًا، حكيمًا. توفي في القدس عن ٧٥ سنة. (الأعلام: ٣: ١٥٨).

(٢) مظانك: أماكن تواجدك.

(٣) الصراط: الطريق.

(٤) يقصدون الرسول ﷺ.

(٥) جمل آدم: أبيض مع سواد المقلتين.

(٦) المسح: الكساء من الشعر.

(٧) الغرارة: نوع من النوق.

(٨) يونس بن بُكَيْر: يونس بن بكير بن واصل الشيباني، أبو بكر (... ـ ١٩٩ هـ = ... ـ ٨١٥ م) مؤرخ، من حفاظ الحديث، من أهل الكوفة. (الأعلام: ٨: ٢٦٠).

والعلامة التي في العير، قالوا: متى يجيء؟ قال: «يوم الأربعاء». فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون، وقد ولى النهار ولم تجىء، فدعا رسول الله ﷺ، فزِيدَ له في النهار ساعة، وحبستْ عليه الشمس.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْر وقريش تسألني عن مَسْرَايَ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس، لم أثْبِتها[١] فكَرِبت كربًا ما كَرِبتُ مثلَه قطّ، فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك، فأرتد ناس ممن آمنوا به وصدّقوه، وسعوا إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل الصبح! قال: نعم، إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك؛ أصدقه بخبر السماء في غَدْوة أو رَوحة، فلذلك سمي أبو بكر رضي الله عنه الصدّيق.

ذكر دعاء رسول الله ﷺ قبائل العرب في المواسم

قال محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه إلى غير واحد، قالوا: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أوّل نبوّته يدعو مستخفيًا، ثم أعلن في الرابعة، فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين؛ يوافي المواسم كل عام يتبع الحاجّ في منازلهم بعُكاظ ومَجَنّة، وذي المجاز[٢] يدعوهم؛ حتى بلّغ رسالة ربه تعالى، وأبو لهب يمشي وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء، كاذب، فيقولون: أُسرتُك وعشيرتُك أعلم بك حيث لم يتبعوك، فيقول: «اللهم لو شئتَ لم يكونوا هكذا»، قال الواقديّ فكان من سُمِّيَ لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خَصَفَة[٣]، وفزارة، وغسّان[٤]، ومرّة، وحنيفة، وسُلَيم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البَكّاء، وكندة، وكلب[٥]، والحارث بن كعب، وعُذْرة، والحَضارمة، فلم يستجبْ منهم أحد.

قال محمد بن إسحاق: حدّثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال:

---

(١) لم أثبتها: لم أحفظها، لاشتغالي بأهم منها، والكرب: الغم.
(٢) عكاظ ومجنة وذو المجاز: أسماء أسواق كانت للعرب في الجاهلية.
(٣) في الأصل: «خفصة»، وهو تصحيف.
(٤) في الأصل: «حسان»، وهو تصحيف.
(٥) في شرح المواهب: «كعب».

سمعت ربيعة بن عبّاد يحدّث أبي قال: إنّي لَغلام شابّ مع أبي بِمِنًى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما يُعْبَدُ من دونه من هذه الأنداد(١)، وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به»، قال: وخلفَه رجل أحول وضيء له غديرتان(٢)، عليه حُلّة عَدَنيّة، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تَسلخُوا اللات والعزّى من أعناقكم، وحلفاءَكم من الجنّ من بني مالك بن أُقَيْش(٣)؛ إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه، قال: فقلت لأبي: يا أبت من هذا الرجل [الذي] يتبعه ويردّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب.

قال ابن إسحاق: حدّثني الزهريّ أنه ﷺ أتى بني عامر بن صعصعَة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فِراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيتَ إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على مَنْ خالفك أيكون لنا الأمر بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف(٤) نحورنا [للعرب دونك]؛ فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه، فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السنّ، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه في ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش؛ ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبيّ يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ! هل لذناباها من مطلب(٥)! والذي نفس فلان بيده، ما تقوّلها إسماعيل قطّ، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم.

قال: وحدّثني عاصم بن عمر(٦)، عن قتادة الأنصاري عن أشياخ من قومه قالوا:

---

(١) الند: الضد والشبه.
(٢) غديرتان: جديلتان.
(٣) إلى هذا الحي تنسب الإبل الأقيشية.
(٤) أي نجعلها هدفًا لسهامهم.
(٥) هذا مثل مشهور يضرب لما فات. وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به.
(٦) عاصم بن عمر: في الأصل، وعيون الأثر: ١٠٤، «عمرو» والمثبت عن ابن هشام. وشذرات الذهب: ٥: ٥٣. وهو عاصم بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي (٦ ـ ٧٠ هـ = ٦٢٧ ـ ٦٩٠ م): شاعر. كان من أحسن الناس خلقًا. وكان طويلاً جسيمًا. وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه. مات بالربذة. (الأعلام: ٣: ٢٤٨).

قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف [مكة] حاجًا أو معتمرًا؛ وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم: الكامل لجلده[١] وشرفه ونسبه وشعره، فتصدّى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك»؟ قال: مجلة[٢] لقمان (يعني حكمة لقمان) فقال له رسول الله ﷺ: إعرضها عليّ؛ فعرضها عليه، فقال: «إن هذا لكلام حسن، لكن الذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله عليّ هو هدى ونور». فتلا رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال: إنّ هذا لَقول حسن؛ ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، قال: فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم، وكان قتلُه قبل بُعاث[٣].

قال ابن إسحاق أيضًا: وحدّثني الحصين بن عبد الرحمٰن بن عمرو بنِ سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد، قال: لما قدم أبو الحَيْسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلْف من قريش على قومهم من بني الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، وأتاهم فجلس إليهم فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ فقالوا: وما ذلك؟ قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب». قال: ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال لهم إياس بن معاذ ـ وكان غلامًا حدثًا ـ: أيْ قوم، هذا والله خير ممّا جئتم له، فأخذ أبو الحَيْسر حَفْنة من [تراب][٤] البطحاء، فضرب بها وَجهَ إياس بن معاذ؛ وقال: دعْنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة، فكان وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني مَنْ حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره، ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون أنه قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ما سمع. والله أعلم.

(١) الجَلَد: الشدة والصبر.

(٢) المجلة: الصحيفة.

(٣) قبل بعاث: أي قبل يوم بعاث.

(٤) تكملة عن ابن هشام: ٢: ٦٩.

ذكر خبر مفروق بن عمرو[١] وأصحابه وما أجابوا به رسول الله ﷺ عند دعائه قبائل العرب

روى الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي بسنده عن عبد الله بن عباس، قال: حدّثني عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم من فيه، قال: لما أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر رضي الله عنه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر، وكان مقدَّمًا في كل خير، وكان رجلًا نسابة[٢]، فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم؟ من هامِها[٣] أم من لهازمها؟ قالوا: بل من الهامة العظمى، فقال أبو بكر: وأيّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذُهْلِ الأكبر، قال: منكم عوف الذي يقال[٤] [له]: «لا حُرّ بوادي عوف»؟ قالوا: لا، قال: فمنكم جَسّاس بن مرّة، حامي الذمار، ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: فمنكم بِسطام بن قيس، أبو اللواء، ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: فمنكم الحوفزان[٥] قاتل الملوك، وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة، قالوا: لا؛ قال: فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال أبو بكر: فلستم من ذُهْل الأكبر، أنتم من ذُهْل الأصغر. قال: فقام إليه غلام من بني شيبان يقال له دَغْفَل حين بَقَل[٦] وجهه، فقال: [من الرجز]

إنّ علــى سائِلنــا أن نسألــهْ والعبء لا نعرفه أو نحملَهْ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئًا، فممن الرجل؟ قال أبو بكر: أنا من قريش، فقال الفتى: بَخ بَخ! أهل الشرف والرياسة، فمن أيّ القرشيين أنت؟ قال: من ولد تيم بن مُرة. فقال الفتى: أمكنت والله الرّاميَ من سواء الثُّغرة،

---

(١) مفروق بن عمرو: مفروق بن عمرو (الأصم) بن قيس بن مسعود الشيباني (... ـ نحو ٨ هـ = ... نحو ٦٣٠ م): فارس شاعر جاهلي. أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ مع جماعة من بني شيبان. قال أبو نعيم: ولم أعرف له إسلامًا. (الأعلام: ٧: ٢٧٨).

(٢) النسابة: العالم بالأنساب.

(٣) في الأصل: «من أهلها» وهو تصحيف. واللهازم: جمع لهزم: وهو في أصل اللغة: العظم الناتىء تحت الأذن.

(٤) في الأصل: «يقول» والمثبت عن دلائل النبوة؛ انظر مجمع الأمثال: ٢: ١٥٧.

(٥) الحوفزان: لقب الحارث بن شريك الشيباني.

(٦) بقل وجهه: أي أول ما نبتت لحيته.

أمنكم قصيّ الذي جمع القبائل من فِهْر؟ فكان يدعى في قريش مُجَمعًا؟ قال: لا، قال: فمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه، ورجال مكة مسنِتون عجاف[١]؟ قال: لا، قال: فمنكم شيبة الحمد عبد المطلب، مطعم طير السماء، الذي كأنّ وجهه القمر يضيء في الليلة الداجية؟ قال: لا، قال: فمن أهل الإفاضة[٢] بالناس أنت؟ قال: لا، قال: فمن أهل الحجابة[٣] أنت، قال: لا، قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا، قال: فمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا، قال: فمن أهل الرِّفادة[٤] أنت؟ قال: لا، واجتذب أبو بكر زمام ناقته راجعًا إلى رسول الله ﷺ، فقال الغلام: [من الرجز]

صَادَفَ دَرُّ السيل درءًا[٥] يَدْفَعُهْ يهِيضه حِينًا وحينًا يصرعهْ

أما والله لو شئت لأخبرتك من قريش، فتبسم رسول الله ﷺ، قال عليّ: فقلت: يا أبا بكر، لقد وقعت من الأعراب على باقعة[٦]، قال: أجل يا أبا الحسن، «ما من طامّة إلا وفوقها طامّة»، و«البلاء موكل بالمنطق».

قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدّم أبو بكر فسلم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر[٧] الناس! وفيهم مفروق بن عمرو، وهانيء بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مفروق قد غلبهم جمالاً ولسانًا، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبتيه[٨]، وكان أدنى القوم مجلسًا، فقال أبو بكر: كيف العددُ فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر: فكيف المنعَة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد، ولكل قوم جِدّ، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُّ ما نكون غضبًا حين نلقى، وإنا لأشدُّ ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجيادَ على الأولاد،

---

(١) يشير إلى قول ابن الزبعرى (من الكامل)

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

(اللسان: سنت).

(٢) الإفاضة: طواف الإفاضة، يوم النحر، يفيض من منى إلى مكة ثم يرجع (اللسان: فيض).

(٣) أهل الحجابة: الذي بأيديهم مفاتيح الكعبة.

(٤) أهل الرفادة: الذي يدفعون المال لمساعدة الحجاج (اللسان: رفد).

(٥) في الأصل: «صادف در تسيل درة» وهو تصحيف.

(٦) الباقعة: الرجل الذكي العارف لا يفوته شيء.

(٧) غرر: خيرة.

(٨) التربية: أعلى صدر الإنسان.

والسلاح على اللِّقاح[١]، والنصرُ من عند الله، يُدِيلنا[٢] مرة، ويُدِيل علينا أخرى، لعلّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: قد بلَغكم أنه رسول الله ﷺ، ألا هو ذا، قال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، وإلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدّم رسول الله ﷺ فجلس، وقام أبو بكر يُظِلّه بثوبه، فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإلى أن تأووني وتنصروني، فإنَّ قريشًا قد ظاهرت[٣] على أمر الله، وكذبت رسلَه، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنيّ الحميد». فقال مفروق بن عمرو: وإلام تدعونا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ـ ١٥٣]، فقال مفروق: وإلامَ تدعونا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، قال: فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفِك[٤] قوم كذبوك وظاهروا عليك ـ وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانىء بن قبيصة فقال: وهذا هانىء شيخنا وصاحب ديننا. قال هانىء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى إن تركنا واتبعناك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أوّل ولا آخر، إنه زلل[٥] في الرأي، وقلة نظر في العاقبة[٦]، وإنما تكون الزلّة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر في العاقبة، وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنّى شيخنا وصاحبُ حربنا، فقال المثنّى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانىء بن قبيصة في تركنا ديننا، ومشايعتك على دينك، وإنا إنما نزلنا بين صِيرين[٧]: اليمامة والسَّمامة، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذان الصِّيران»؟ فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأمّا ما كان من أنهار كسرى؛ فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان مما يلي مياه العرب، فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا

(١) اللقاح: الإبل، واحدته: لقوح: بالفتح.
(٢) يديلنا: ينصرنا.
(٣) ظاهرت: ساعدت، أعانت ضد أمر الله.
(٤) الإفك: الكذب.
(٥) الزلل: الخطل.
(٦) العاقبة: النتيجة.
(٧) الصير: الصير بالكسر: الماء يحضره الإنسان.

على عهد أخذه علينا؛ إنا لا نحدِث حَدَثًا[١]، ولا نأوي محدثًا، فإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما يكره الملوك، فإن أحببت أن نأوِيك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأْتُم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دينَ الله لن ينصرَه إلاّ مَنْ حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورِّثكم الله أرضَهم وديارهم وأموالهم ويفرِشكم نساءهم، أتسبّحون الله وتقدّسونه»؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك، قال: فتلا رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ثم نهض قابضًا على يد أبي بكر وهو يقول: «يا أبا بكر، أيّةُ أخلاق في الجاهلية ما أشرفها! بها يدفع الله عز وجل بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجَزون[٢] فيما بينهم»، قال: فدفعنا إلى مجلس الأوْس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ، قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ قد سُرَّ بما كان من أبي بكر، ومعرفته بأنسابهم.

ذكر بيعة العقبة الأولى

قال محمد بن إسحاق: فلما أراد الله تعالى إظهارَ دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ [في][٣] الموسم الذي لقي فيه الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فقال لهم: «من أنتم»، قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمِنْ موالي يهود»؟ قالوا: نعم، قال[٤]: «أفلا تجلسون أكلمكم»؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرَض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان يهودُ معهم في بلادهم، وكانوا أهلَ كتاب وعِلم، وكانوا هم أهل شِرْك وأوثان، وكانوا قد غزوْهم ببلادهم؛ فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتّبِعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تَعَلَّموا والله أنه للنّبيّ الذي توعد به يهود، فلا تسبِقَنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقبِلوا منه ما عرَض [عليهم] من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وعسى

---

(١) الحدث: الفعلة السيئة ـ الشنيعة.
(٢) يتحاجزون: المحاجزة: المسالمة (اللسان: حجز).
(٣) ابن هشام: ٢: ٧٠.
(٤) في الأصل: «قالوا» وهو تحريف.

أن يجمَعهم الله بك، فتقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك، وتعرِض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدّقوا.

قال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى(١): فاختلِف علينا في أول مَنْ أسلم من الأنصار وأجاب. فذكروا الرجل بعينه، وذكروا الرجلين، وذكروا أنه لم يكن أحد أوّلَ من الستة، وذكرهم.

وقال محمد بن عمر بن واقد: هذا عندنا أثبتُ ما سمعنا فيهم، وهو المجمَع عليه، وهم من بني النّجار: أسعد بن زُرارة بن عُدَس، وعوف بن الحارث [وهو](٢) ابن عفراء. ومن بني زريق: رافع بن مالك. ومن بني سلمة بن سعد: قطبة بن عامر بن حديدة. ومن بني حرام بن كعب: عقبة بن عامر بن نابي. ومن بني عبيد بن عدي بن ساعدة: جابر بن عبد الله؛ ولم يذكر ابن إسحاق وغيرهم.

قال: ثم قدموا المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام، فأسلمَ مَنْ أسلم ولم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: وأوّل مسجد قرىء به القرآن بالمدينة مسجد بني زريق. والله أعلم.

ذكر بيعة العقبة الثانية
(وقد ترجم عليها بعضهم بالأولى)

قال: فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً.

قال محمد بن سعد: ليس فيهم عندنا خلاف، فلقوه بالعقَبة، وهي العقبة الأولى فبايعوا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يُفْرَض عليهم الحرب، وكان من هؤلاء خمسة ممّن حضر البيعة الأولى من الستة المجمع عليهم، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وعُقْبة بن عامر، وقُطْبة بن عامر بن حديدة، ومنهم من وقع الاختلاف فيه: هل شهد البيعة الأولى أو لم يشهدها؟ وهم ستة نفر: معاذ بن الحارث [وهو](٣) ابن عفراء، أخو عوف، وذكوان بن عبد [قيس] بن خلدة، وعبادة بن الصامت بن قيس، وأبو عبد الرحمٰن يزيد بن ثعلبة، وأبو

(١) الطبقات: ١: ١٤٦.
(٢) تكملة عن ابن هشام؛ وعفراء هي أمه (انظر: أسد الغابة ٤: ١١٥).
(٣) عن ابن هشام: ٢: ٧١.

الهيثم بن التيهان، واسمه مالك، وعويم بن ساعدة، وهما من الأوس.

وممن لم يشهد البيعة الأولى بلا خلاف: العباس بن عبادة بن نَضْلة.

روى محمد بن إسحاق عن عبادة بن الصامت قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن تفترض الحرب ـ على ألاّ نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفّارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله؛ إن شاء عذب، وإن شاء غفر. قال: فلما أنصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف[1]، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرىء بالمدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة.

قال محمد بن سعد: ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وكان أسعد ابن زرارة يُجَمِّع[2] بالمدينة بمن أسلم، وروى أن مصعب كان يُجَمِّع بهم. والله أعلم.

ذكر بيعة العقبة الثالثة
وهم السبعون (وترجم عليها ابن سعد بالثانية)

قال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى، عن محمد بن عمر بن واقد، بإسناد إلى عبادة بن الصامت، وسفيان بن أبي العوجاء، وقَتادة، ويزيد بن رومان، قال الواقدي: دخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: لما حضر الحج مشى أصحابُ النبيّ ﷺ الذين أسلموا بعضُهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج، وموافاة رسول الله ﷺ، والإسلام يومئذٍ فاشٍ بالمدينة، فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين في خَمر[3] الأوس والخزرج، وهم خمسمائة حتى قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، فسلّموا عليه، ثم وعدهم مِنى، وسط أيام التشريق ليلة النَّفْر الأوّل؛ إذا هدأت الرِّجْل أن[4] يوافوه في الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من مِنى بأسفل العقبة، وأمرهم الاّ ينبهوا

---

(١) مُصعب بن عُمير: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، القرشي من بني عبد الدار (. . . ـ ٣ هـ = . . . ـ ٦٢٥ م) شجاع، من السابقين إلى الإسلام، أسلم في مكة، وهرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة وهاجر إلى المدينة. شهد بدرًا، وحمل اللواء يوم أحد. (الأعلام: ٧: ٢٤٨).

(٢) يُجمِّع: يؤمهم في صلاة الجمعة.

(٣) الخمر: جماعة الناس وكثرتهم.

(٤) الزيادة عن ابن سعد ج ١ ق ١: ١٤٩.

نائمًا، ولا ينتظروا غائبًا. قال: فخرجَ القوم بعد هدءة يتسلّلون، الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع، معه العباس بن عبد المطلب، ليس معه غيره.

وقال محمد بن إسحاق: إنهم سبَقوه إلى الشِّعب وانتظروه، وهم ثلاثة وسبعون رجلًا وٱمرأتان: نَسِيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عديّ، حتى أقبل ومعه عمُّه العباس.

قال ابن سعد: فكان أوّلُ مَن طلع على رسول الله ﷺ: رافع بن مالك الزّرقيّ، ثم توافَى السبعون، ومعهم ٱمرأتان، فكان أوّل من تكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزْرج، إنكم قد دعوتُم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعزِّ الناس في عشيرته، يمنعه والله مِنا مَنْ كان على قوله، ومَنْ لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناسَ كلَّهم غيركم، فإن كنتم أهلَ قوّة وجلَد وبَصَرٍ بالحرب؛ واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة، فارتئُوا رأيكم، ولا تَفَرَّقوا إلا عن ملأ منكم وٱجتماع، فإنَّ أحسن الحديث أصدقُه.

وقال ابنُ إسحاق[١]: إن العبّاس قال: يا معشر الخزرج، إنّ محمدًا منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مثلِ رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه، ومنعَة في بلده، وإنّه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللّحوق بكم؛ فإن كنتم تَروْن أنكم وافون له بما دعوْتموه إليه، ومانِعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم تروْن أنّكم مسلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومَنَعَة من قومه وبلده.

قال ابن سعد فقال البَراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت، وإنا والله لو كان في أنفسنا غيرُ ما نَنطق به لقلناه، ولكنّا نريد الوفاء والصدق، وبَذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق ـ فيما رواه بسنده عن كعب بن مالك: فقلنا له: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلّم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني فيما تمنعونَ نساءكم وأبناءكم». قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزرنا[٢] ـ يعني نساءنا ـ فبايِعنا يا رسول الله، فنحن

(١) انظر ابن هشام: ٢: ٨٤، إمتاع الأسماع: ٣٥.

(٢) الأزر: جمع إزار، وهو الثوب، وكثيرًا ما يكنون عن المرأة بالإزار، كما يكنون عنها بالثياب، والفراش.

والله أهل الحروب، وأهل الحَلْقة ورثناها كابرًا عن كابر.

قال ابن سعد: ويقال: إن أبا الهيثم بن التَّيهان كان أوّل من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقالوا: نقبَله على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف؛ قال: ولَغَطوا[١]، فقال العباس وهو آخذ بيدِ رسول الله ﷺ: أخفوا جَرسكم[٢] فإن علينا عيونًا، وقدّموا ذوِي أسنانكم هم الذين يلُون كلامنا منكم، فإنا نخاف قومَكم عليكم، ثم إذا بايعتم فتفرّقوا إلى محالكم. فتكلّم البراء بن معرور، فأجاب العباس، ثم قال ابسط يدك يا رسول الله، وكان أوّل مَنْ ضرب على يد رسول الله البراء بن معرور ـ ويقال: أبو الهيثم بن التيهان، ويقال: أسعد بن زرارة ـ ثم ضرب السبعون كلُّهم على يده، وبايعوه، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيبًا فلا يجِدنّ منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره، فإنما يختار لي جبريل». ثم قال للنقباء: «أنتم كُفَلاء على غيركم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي»، قالوا: نعم، قال: فلما بايعوا وكمِلوا، صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوت سمع: يا أهل الأخاشب[٣]، هل لكم في محمد والصَّبَأَة[٤] معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «انفضّوا إلى رحالكم»، فقال العباس بن عُبادة بن نَضْلة: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ لئن أحببت لنميلنّ على أهل مِنى بأسيافنا، وما أحدٌ عليه سيف تلك الليلة غيره، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك فانفضُّوا إلى رحالكم»، فتفرقوا إلى رحالهم فلما أصبح القوم غدت عليهم جِلَّة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شِعب الأنصار، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنا بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة، وواعدتموه أن تُبايعوه على حربنا، وأَيمُ اللَّهِ ما حيّ من العرب أبغضُ إلينا إن شَبَّت بيننا وبينه الحرب منكم، قال: فانبعث مَنْ كان هناك من الخزْرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا، وجعل ابن أبيّ يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا[٥] عليّ بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني، فلما رجعت قريش مِنْ عندهم رحل البراء بن معرور؛ فتقدّم إلى بطن يأجج[٦]، وتلاحق أصحابُه من المسلمين، وجعلت قريش تطلبهم في كل وجه، ولا

(١) لغطوا: اللغط: الأصوات المبهمة المختلطة.
(٢) الجرس: الصوت الخفي.
(٣) الأخاشب: جبال الصَّمَّان، في محلة بني تيم.
(٤) الصبأة: الذين اعتنقوا الإسلام.
(٥) ليفتاتوا: الافتئات: الكذب والافتراء.
(٦) يأجج: اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.

تَعَدَّوا طريق المدينة، وحزّبوا عليهم، فأدركوا سعد بن عبادة، فجعلوا يده إلى عنقه بنِسعة(١)، وجعلوا بضربونه ويجرّون شعره، وكان ذا جُمّة(٢) حتى دخلوا مكة، فجاءه مطعِم بن عديّ، والحارث بن أمية بن عبد شمس فخلصاه من أيديهم، وائتمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يكرُّوا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم، فرحَل القوم جميعًا إلى المدينة.

ذكر تسمية من شهد العقَبة وبايع رسول الله ﷺ

قال محمد بن إسحاق: كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فكان مَنْ شهدها من الأوس أحد عشر رجلاً، وهم أُسَيد بن الحُضَير، وأبو الهيثم بن التَّيهان، وسلمة بن سلامة بن وقْش، وظهير بن رافع بن عديّ، وأبو بردة هانىء بن نِيار، ونهير بن الهيثم بن نابي، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر، وعبد الله بن جبير بن النعمان، ومعن بن عدِيّ بن الجدّ بن عَجْلان، وعُوَيْم بن ساعدة. وشهدها من الخزرج أحدٌ وستون رجلاً: مهم من بني النّجار أحدَ عشر رجلاً، وهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة، وأخوه عوف بن الحارث، وأخوه معوّذ بن الحارث، وعُمارة بن حزم بن زيد، وأسعد بن زُرارة بن عُدَس، وسهل بن عَتِيك بن العمان، وأوْس بن ثابت بن المنذر بن حرام، وأبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود، وقيس بن أبي صعصعة، وعمرو بن غُزَيَّة بن عمرو بن ثعلبة.

ومن بني الحارث بن الخزرج سبعة نفر، وهم: سعد بن الربيع بن عمرو، وخارِجة بن زيد بن أبي زهير، وعبد لله بن رواحة، وبشير بن سعد بن ثعلبة، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، وخَلاّد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو، وعُقْبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة.

ومن بني بياضة بن عامر بن زُرَيق ثلاثة نفر، وهم: زياد بن لَبيد بن ثعلبة ابن سِنان، وفروة بن عمرو بن وَذْقَة، وخالد بن قيس بن مالك بن العجلان.

ومن بني زريق بن عامر بن زريق ثلاثة نفر: رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو، وذَكْوان بن عبد قيس بن خَلَدة بن مخلَّد بن عامر بن زريق - وكان خرج إلى رسول الله ﷺ فكان معه بمكة فهاجر، فكان يقال له: مهاجريّ أنصاري - وعبّاد بن قيس بن عامر بن خالد.

---

(١) النسعة: سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره.
(٢) الجمة: الجمة من شعر الرأس، ما سقط على المنكبين، وهي أكثر من الوفرة.

ومن بني سلِمَة بن سعد بن عليّ بن أسد أحد عشر رجلاً: البراء بن معرور بن صخر، وابنه بِشر بن البَراء، وسِنان بن صيفيّ بن صخر، والطفيل بن النعمان بن خنساء، ومعقل بن المنذر بن سرح، ويزيد بن المنذر بن سرح، ومسعود بن يزيد بن سبيع، والضحاك بن حارثة بن زيد، ويزيد بن حرام بن سُبيع، وجَبّار بن صخر بن أمية بن خنساء، والطفيل بن مالك بن خنساء.

ومن بني سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة: كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن القَيْن بن كعب بن سواد، وهو الشاعر.

ومن بني غَنْم بن سواد بن غَنْم خمسة نفر، وهم: سليم بن حديدة، ويزيد بن عامر بن حديدة، وهو أبو المنذر[١]، وأبو اليسر، واسمه كَعْب بن عمرو، وصيفيّ بن سواد بن عباد، وقُطْبَة بن عامر بن حديدة، أخو يزيد.

ومن بني نابي بن عمرو بن سواد بن غَنْم خمسة نفر: ثعلبة بن غنمة بن عديّ ابن نابي، وعمرو بن غنمة بن عديّ، وعبس بن عامر بن عديّ، وعبد الله بن أنيس حليف لهم من قضاعة، وخالد بن عمرو بن عديّ.

ومن بني حرام بن كعب سبعة[٢] نفر، وهم: عبد الله بن عمرو بن حرام، وابنه جابر بن عبد الله، ومعاذ بن عمرو بن الجموح، وثابت بن الجِذع - والجذع ثعلبة بن زيد -، وعمير بن الحارث بن ثعلبة، وخديج بن سلامة بن أوس، ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، مات بعِمْواس[٣] عام الطاعون.

ومن بني عوف بن الخزرج أربعة نفر، وهم: عُبادة بن الصامت بن قيس، والعباس بن عبادة بن نضلة - وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة فأقام فكان يقال له: مهاجريّ أنصاري، قتل يوم أُحد - وأبو عبد الرحمٰن يزيد بن ثعلبة حليف لهم من بني عُصَيّة من بَليّ، وعمرو بن الحارث بن لَبْدة بن عمرو.

ومن بني سالم بن غَنْم بن عوف - وهم بنو الحُبَليّ - رجلان: رفاعة بن عمرو بن ثعلبة بن مالك، وعقبة بن وهب بن كلدة بن الجعد حليف لهم، وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى مكة، فكان يقال له مهاجري أنصاريّ.

ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج رجلان: سعد بن عبادة بن دُلَيْم بن حارثة، والمنذر بن عمرو بن خُنَيْس، وامرأتان، وهما: نسِيبة ابنة كعب بن عمرو،

---

(١) كذا في ابن هشام، والذي في الأصل: «ابن».
(٢) في الأصل: «خمسة» والمثبت عن ابن هشام: ٢: ١٠٧.
(٣) عمواس: اسم مكان في الشام.

وهي أم عمارة، وأم منيع، واسمها أسماء بنت عمرو بن عديّ بن نابِي، ولم يصافحهنّ رسول الله ﷺ، فإنه كان لا يصافح النساء، وإنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن قال: أذهبن، وكان النقباء من هؤلاء اثني عشر رجلاً، وهم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع بن عمرو، وعبد الله بن رواحة بن أمرىء القيس، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت بن قيس، وسعد بن عبادة بن دُلَيم، والمنذر بن عمرو بن حنيس[١] ويقال: ابن خنيس، هؤلاء من الخزرج.

ومن الأوس ثلاثة نفر: أسيد بن حُضَير، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: وأهل العلم يعدّون أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدّون رفاعة. والله أعلم بالصواب.

ذكر أوّل آية أنزلت في القتال

قال محمد بن إسحاق: كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقَبة الأولَى لم يؤذن له في الحرب، ولم تُحللْ له الدماء، وإنما أمِر بالدعاء إلى الله، والصبرِ على الأذى، والصفحِ عن الجاهل، وكانت قريش قد اْضطهدت من اتبعه من قومه حتى فتنوهم عن دينهم، وأخرجوهم من بلادهم، فلما عَتَتْ قريش على الله؛ أذن الله تعالى لرسوله ﷺ في القتال، فكانت أوّل آية أنزلت في إذنه تعالى له في الحرب، قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾. ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي حتى يعبد الله لا يعبد غيره.

ذكر أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق: لما أذن الله تعالى لنبيّه ﷺ في الحرب، وبايعه الأنصارُ على الإسلام، والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر النّبي ﷺ

---

(١) كذا في الأصل، والذي في ابن هشام «خنش».

أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللُّحوق بإخوانهم من الأنصار؛ وقال: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها»، فخرجوا أرسَالاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكّة ينتظر الإذنَ من الله في الهجرة إلى المدينة، فكان أوّل من هاجر من المهاجرين من قريش: أبو سلَمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله المخزوميّ، وكانت هجرته قبل بيعةَ العقبة بسنَة، وكان قد قدِم من أرض الحبشة، فلما آذتْه قريش، وبلَغه إسلامُ مَنْ أسلم من الأنصار هاجر إلى المدينة، فنزل بقرية بني عمرو بن عوف بقُباء على أحمد بن مبشِّر ابن عبد المنذر، ثم كان أوّل من قدمها بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة حليف بني عديّ بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة بن غانم، ثم عبد الله بن جَحْش بن رِئاب، حليف بني أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد، وكان رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكّة بغير قائد، وكانت عنده الفَرْعة بنت أبي سفيان بن حرب، نزل هؤلاء كلهم بقُبَاء على أحمد بن مبشر أيضًا، ثم قدِم المهاجرون أرسالاً، ثم خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعياش بن أبي ربيعة في عشرين من المسلمين، منهم: زيد بن الخطّاب أخو عمر، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وخُنَيْس بن حذافة السهميّ، وواقد بن عبد الله التميميّ حليف بني عديّ، وعبد الله وعمرو ابنا سراقة بن المعتمر - ويقال: عمر بدل عمرو - وخوليّ بن أبي خوليّ، حليف الخطاب، وأخوه مالك - ويقال: هلال بن أبي خوليّ بدل مالك - وبنو البُكَير الأربعة: إياس، وعاقل، وخالد، وعامر. ويقال: وكان مع عمر ابنه عبد الله بن عمر.

قال ابن إسحاق: فنزل عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعة في بني عمرو ابن عوف بقُباء، فجاء أبو جهل والحارث ابنا هشام إلى عَيَّاش إلى المدينة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فكلماه في الرجوع، وقالا: إن أمك قد نَذَرت أن لا يُمشط رأسها مُشط، ولا تستظلّ من شمس حتى تراك، فرقّ لها. قال عمر بن الخطاب: فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم [ليفتنوك][1] عن دينك فاحذرهم، فوالله لو آذى أمَّك القملُ لامتشطت، ولو اشتد عليها حرّ مكة لاستظلّت. فقال: أبرّ قَسَم أمي، وليس هناك مال فآخذه. قال عمر: فقلت له: يا عياش، والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالاً، فلك نصفُ مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبَى إلا أن يخرج معهما، فقلت: أما إذْ فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالْزم ظهرها، فإن رابك من

(١) الزيادة عن ابن هشام ٢: ١١٨.

القوم ريب، فأنج عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعقِبني[١] على ناقتك؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض أوثقاه[٢] رباطًا، ثم دخلا به [مكة][٣]، وفتناه فافتتن. رواه ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر.

قال ابن إسحاق: ودخلا به مكة نهارًا موثقًا، وقالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا. قال ابن عمر في حديثه فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صَرْفًا[٤] ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣ـ ٥٥]، قال عمر: فكتبتُها بيدي في صحيفة، وبعثتُ بها إلى هشام بن العاص، فلما قرأها لحق برسول الله ﷺ بالمدينة.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدّثني مَنْ أثق به أنّ رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «مَنْ لي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن أبي العاص»؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقدِمها مستخفيًا، فلقي امرأة تحمل طعامًا فقال لها: أين تريدين يا أمةَ الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسَيْن ـ تَعنيهما ـ فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا قد حُبسا في بيت لا سقْف له، فلما أمسى تسوَّر عليهما[٥]، ثم أخذ مَروة[٦] فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، ثم حملهما على بعيره وسار بهما، فعثر فدمِيت إصبعه فقال: [من الرجز]

هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيت   وفي سبيل الله ما لقيت

نعود إلى تتمة أخبار عمر في هجرته ـ قال بن إسحاق: ونزل عمر بن الخطاب

---

(١) تعقبني على ناقتك: أي أن نركب مداورة.
(٢) في ابن هشام: ٢: ١١٩ «عدوا عليه فأوثقاه وربطاه».
(٣) الزيادة عن ابن هشام.
(٤) الصرف: بمعنى، الدية.
(٥) تسوَّر: تسلق السور.
(٦) المروة: المروة، واحدة المرو، وهي حجارة بيض رقيقة توري النار.

حين نزل المدينة ومن لحق به من أهله وقومه، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله أبنا سُراقة بن المعتمرُ، وخُنيس بن حُذافة السهميّ ـ وكان صهرَه على أبنته حفْصة خلف عليها رسولُ الله ﷺ بعده ـ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل وواقد بن عبد الله التميميّ، حليف لهم، وخوليّ بن خوليّ، ومالك بن خوليّ، حليفان لهم، وبنو البكير الأربعة: إياس، وعاقل، وعامر، وخالد، حلفاؤهم، وهم من بني سعد بن ليث، على رفاعة بن المنذر بقُبَاء(1)، ثم تتابع المهاجرون(2)، فنزلَ طلحة بن عبيد الله، وصهيب بن سنان على خُبَيب بن إساف(3) أخي بلحارث بن الخزرج، ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة، ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مَرْثَد كَنّاز بن حصين، وأبنه مرثَد الغنويّان حليفا حمزة بن عبد المطلب، وأَنَسَة وأبو كبشة موليا رسول الله ﷺ على كلثوم بن هِدم أخي بني عمرو بن عوف بقُباء ـ ويقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويقال: بل نزل حمزة على أسعد بن زُرارة ـ ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطّفيل والحُصَين، ومِسْطَح بن أُثَاثة بن عبّاد بن المطلب، وسُوَيْبط بن سعد بن حُرَيْملة، أخو بني عبد الدار، وطُليب بن عمير أخو بني عبد بن قصيّ، وخبّاب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخي بلْعجلان بقُباء، ونزل عبد الرحمٰن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج في دار بلحارث، ونزل الزبير بن العوام، وأبو سبْرة بن أبي رُهم بن عبد العزّى على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجُلاَح بالعُصَبة(4) دار بني جَحْجَبَى(5)، ونزل مصعب بن عمير بن هاشم أخو بني عبد الدار على سعد بن مُعاذ بن النعمان في دار بني عبد الأشهل. ونزل أبو حذيفة بن عُتْبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعُتْبة بن غزوان بن جابر على عباد بن بِشر بن وقْش أخي بني عبد الأشهل في دار بني عبد الأشهل. ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار. وكان يقال: نزل العزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عَزَبًا.

---

(١) على فرسخ من المدينة.

(٢) في الأصل: «المهاجرين»؛ وهو خطأ من الناسخ.

(٣) ويقال فيه: «يساف» بياء مفتوحة: وهو ابن عتبة، ولم يكن حين نزل المهاجرون عليه مسلماً، بل أخر إسلامه حتى خرج رسول الله ﷺ إلى بدر (عن الاستيعاب ملخصًا).

(٤) كذا ضبطه ياقوت، وذكر أنه حصن بقباء.

(٥) جد أحيحة بن الجلاح اليثربي.

ذكر اجتماع قريش في دار الندوة، وتشاورهم في شأن النبي ﷺ، واتفاقهم على قتله، وحماية الله تعالى له، وخبر الشيخ النجديّ، وهو إبليس، خزاه الله

قال محمد بن إسحاق، يرفعه إلى عبد الله بن عباس وغيره قالوا: لمّا[١] رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شِيَعٌ وأصحاب من غيرهم من غير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنَعَة، فحذروا خروجَ رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاْجتمعوا في دار الندوة - وهي دار قصيّ بن كِلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها - يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، فلما اْجتمعوا لذلك، واتّعدوا له، غدوا في يوم الموعد، وهو اليوم المسمى يوم الزَّحمة[٢]، فاعترضَهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بَتّ[٣] - قال الواقدي: مشتمل[٤] الصماء في بَتّ - قال: فوقف على باب الدار، فلما رأوه قالوا: مَن الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتّعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألاّ يُعدِمكم منه رأيًا ونُصحًا، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع أشراف قريش، وهم: عُتْبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وطُعيمة بن عديّ، وجُبير بن مطعِم، والحارث بن عامر بن نوفل، والنّضر بن الحارث بن كَلَدة، وأبو البخْتَريّ بن هشام، وزَمْعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حِزام، وأبو جهل ابن هشام، ونُبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وأُمية بن خلف، وغيرهم ممن لا يعدّ من قريش، فقال بعضُهم لبعض: إنّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمَنُه على الوثوب علينا ممن قد اْتّبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: اْحبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله: زهير[٥] والنابغة[٦]، ومَنْ مضى منهم حتى

---

(١) ابن هشام: ٢: ١٢٤.

(٢) سمي يوم الزحمة لتزاحم أشراف القبائل القرشية في دار الندوة.

(٣) البت: في ابن هشام: «بتلة»، والبتلة والبت: الكساء الغليظ.

(٤) واشتمال الصماء هو أن يشتمل الرجل بالثوب حتى يجلل به جسده، ولا يرفع منه جانبًا، فيكون فيه فرجة يخرج منها يده، وهو التلفع (اللسان: شمل).

(٥) زهير بن أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى، ربيعة بن رياح المزني، من مضر (. . . - ١٣ ق هـ = . . . - ٦٠٩ م) حكيم الشعراء في الجاهلية. . . ولد في بلاد «مزينة» بنواحي المدينة. وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد). (الأعلام: ٣: ٥٢).

(٦) النابغة الذبياني: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة (. . . - نحو ١٨ =

يصيبَه ما أصابهم، فقال الشيخ النجديّ: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون لَيخرُجَن أمرُه من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، ولأوشكوا أن يَثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برَأي، فانظروا في غيره، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله [ما][1] نبالي أينَ ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجديّ: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسْنَ حديثه، وحلاوة مَنْطِقه، وغَلَبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لَئِن فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم ليسير بهم إليكم حتى يطأكم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد؛ دبِّروا فيه رأيًا غير هذا. فقال أبو جهل بن هشام: إنّ لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذَ من كل قبيلة فتى شابًا جَليدًا نَسيبًا وَسيطًا فَتيًا، ثم نعطي كلَّ فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمُه في القبائل جميعًا [فلم يقدِرْ بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا][2]، فرضوا منا بالعقل[3]، فعقلناه لهم. فقال النجديّ: القول ما قال الرجل؛ هذا الرأي لا أرى غيره.

وحكي أن هذا الرأي كان رأي الشيخ النجديّ، وأنه لما أشار به قالوا: كلّهم: صدق النجديّ، صدق النجديّ! والله أعلم.

فأتى جبريل إلى رسول الله ﷺ وأخبره بالخبر، وقال له: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشِك الذي كنت تبيت عليه، قال: فلما كانت عَتمة من الليل اجتمعوا على باب رسول الله ﷺ يرصدُونه حتى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانَهم قال لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «نَمْ على فراشي، وتَسَجَّ[4] ببرْدِي هذا الحضرميّ الأخضر، فنَمْ فيه فإنه لن يخلُصَ إليك شيء تكرهه منهم».

قال: فقال أبو جهل ومَنْ معه على الباب: إن محمدًا يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتِكم، فجعلت لكم جنان

= ق هـ = . . . ـ نحو ٦٠٤ م). شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. وهو أحد الأشراف في الجاهلية. عاش عمرًا طويلًا. (الأعلام: ٣: ٥٤).

(١) عن ابن هشام.
(٢) عن ابن هشام.
(٣) العقل: الدية.
(٤) تسجى: تغطى.

كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تحرقون فيها، قال: فخرج رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدُهم»، وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه، فجعل ينثُر التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من سورة يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾. إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ١ ـ ٩].

ولم يبق منهم رجل إلا وضعَ على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا، قال: خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضعَ على رأسه ترابًا وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كلُّ رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا ينظرون فيه فيروْن عليًا على الفراش متسجّيًا ببُرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه بُردُه، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ عن الفراش؛ فقالوا: والله لقد كان صدَقنا الذي حدّثنا.

قال ابن إسحاق: فكانَ مما أنزل من القرآن في ذلك اليوم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ [الطور: ٣٠، ٣١].

ذكر ابتداء هجرة رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه

قال محمد بن إسحاق: لمّا هاجر أصحابُ رسول الله ﷺ إلى المدينة، أقام هو بمكة بعدهم ينتظر الإذنَ من الله تعالى في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة إلا أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، ومن حُبس أو فُتن. وكان أبو بكر يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة كثيرًا فيقول له: «لا تَعجل لعلّ الله أن يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله ﷺ إنما يَعني نفسَه.

وروي عن عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتيَ بيت أبي بكر أحد طَرفَي النهار إما بُكْرة وإما عَشيّة [حتى][1] إذا كان اليوم الذي أذن الله تعالى فيه لرسوله في الهجرة والخروج من مكة، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر

(١) الزيادة عن ابن هشام.

قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حَدَث، فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرج عنّي مَن عندك» قال: يا رسول الله، إنما هما ٱبنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: «إن الله أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله! قال: «الصحبة». قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفَرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، ثم قال: يا نبيّ الله، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا. فٱستأجرا عبد الله بن أرقط ـ وقيل: الأريقط ـ الليثي وكان مشرِكًا، يدلُّهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. قال ابن إسحاق: ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا أبو بكر وآل أبي بكر، وعلي بن أبي طالب، أخبره رسول الله ﷺ بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس.

ذكر خبر الغار وما قيل فيه

قال: لما أجمع رسول الله ﷺ الخروجَ أتى أبا بكر فخرجا من خَوْخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور ـ جبلٍ بأسفل مكة ـ فدخلاه، وأمر أبو بكر ٱبنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فُهيرة مولاه أن يرعى غنمَه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار، وكانت أسماءُ بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلِحهما.

قال ٱبن هشام: حدّثني بعضُ أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن، قال: لما انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً دخل أبو بكر قبل رسول الله ﷺ يلتمس الغار لينظر أفيه سبع أو حيّة يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

قال ٱبن إسحاق: فأقام رسولُ الله ﷺ ثلاثًا، ومعه أبو بكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائةَ ناقة لمن يردّه عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن النبيّ ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فُهيرة مولَى أبي بكر يرعى في رعاء من أهل مكة، فإذا أمسى أراحَ عليهما غنم أبي بكر فٱحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة أتبع عامر بن فهيرة أثرَه الغنم حتى يعفّي عليه.

وقال محمد بن سعد بسنده إلى زيد بن أرقم وأنس بن مالك، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم: إنّ النبي ﷺ ليلة الغار أمَر الله شجرة فنبتت في وجه النبيّ ﷺ

فسترته، وأمر العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته، وأمر حمامتين وحْشِيَّتين فوقفتا بفم الغار، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بأسيافهم وعِصيِّهم وهَراواتهم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ قَدْر أربعين ذراعًا، نظر أوّلُهم فرأى الحمامتين فرجع فقال له أصحابه: ما لك لم تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشِيتين بفم الغار، فعرفت أنْ ليس فيه أحد. فسمع رسول الله ﷺ قوله، فعرف أنّ الله عز وجل درأ عنه بهما، وقال بعض من حضر في طلبه: إن عليه من العنكبوت ما هو قبل ميلاد محمد. وقال أبو بكر رضي الله عنه: فنظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنُّك بٱثنين الله ثالثهما»! قال: ومكثا في الغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر.

قال محمد بن سعد: قالت عائشة رضي الله عنها: وجهزناهما أحبَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفْرة في جِراب، فقطعت أسماء قطعة من نِطاقها فأوكأَتْ(١) به الجِراب، وقطعةً أخرى صيرتها عِصامًا(٢) لفم القربة؛ فلذلك سميت أسماء ذات النّطاقيْن.

قال محمد بن سعد بسند يرفعه إلى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: لما خرج رسولُ الله ﷺ وخرج أبو بكر معه ٱحتمل ماله كلّه معه، ـ خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ـ فانطلق بها معه، فدخل علينا جدّي أبو قحافة وقد ذهب بَصَرُه، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قال: فقلت: كلَّا يا أبت، إنه ترك لنا خيرًا كثيرًا، قالت أسماء: فأخذت أحجارًا فوضعتها في كُوّةِ(٣) البيت حيث كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده فقلت: ضع يا أبت يدَك على هذا المال، فوضع يده عليه وقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم؛ فلا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك. والله أعلم.

ذكر خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه من الغار، وتوجههما إلى المدينة، وما كان من أمر سُراقة بن مالك، وأم معبد وغير ذلك إلى أن انتهيا إلى ٱلمدينة

كان خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه من الغار ليلة الاثنين لأربعِ خَلَوْن من شهر ربيع الأوّل، وذلك أنه لما مضت الأيام الثلاثة، وسكنَ عنهما

(١) أوكأت: ربطت. (٢) عصامًا: غطاء. (٣) الكوة: الطاقة.

الناس أتاهما عبد الله بن الأُرَيقِط براحلتيْهما وبعير له، فقرّب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى رسول الله ﷺ، وقدّم له أفضلَهما[١] ثم قال: اركب فداك أبي وأمي يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيرًا ليس لي»، قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي! قال: «لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتهما به»؟ قال: كذا وكذا، قال: «قد أخذتها بذلك».

قال محمد بن سعد: وكان أبو بكر ٱشتراهما بثمانمائة درهم من نعم بني قُشَيْر، فأخذ رسول الله ﷺ إحداهما وهي القَصْواء.

قال ٱبن إسحاق: فركبا وٱنطلقا، وأردفَ أبو بكر رضي الله عنه مولاه عامر بن فُهيرة خلْفه، ليخدمهما في الطريق.

قال أبو بكر رضي الله عنه: أسريْنا ليلَتنا ويومنا حتى إذا قام قائم الظهيرة وٱنقطع الطريق، ولم يمرّ أحد، رُفعت لنا صخرة لها ظلّ لم تأت عليه الشمس. قال: فسويت للنبيّ ﷺ مكانًا في ظلها، وكان معي فَرْو ففرشته، وقلت للنبيّ ﷺ: نم حتى أنفضَ ما حولك، فخرجت فإذا أنا براعٍ قد أقبل يريد من الصخرة مثلما أردنا، وكان يأتيها قبل ذلك فقلت: يا راعي، لمن أنت؟ قال: لرجل من أهل المدينة يعني مكة، قال: قلت: هل في شائِك من لَبن؟ قال: نعم، قال: فجاءني بشاة فجعلت أمسح الغُبار عن ضَرْعها وحلبت في إداوةَ[٢] معي كِثبة[٣] من لبن، وكان معي ماء للنبيّ ﷺ في إداوة فصببتُ على اللبن من الماء لأبرده، فوافيت رسول الله ﷺ حين قام من نومه فشرب وقال: «ما آن الرحيل»؟ قلت: بلى، قال: فأرسلنا حتى إذا كنا بأرض صَلبة جاء سُراقة بن مالك بن جُعشُم، فبكى أبو بكر، وقال: يا رسول الله قد أُتينا، قال: «كلا»، ودعا رسول الله ﷺ، فٱرتطم فرس سراقة - أي احتبس إلى بطنه - فقال: قد أعلم أن قد دعوتما عليّ فٱدعوَا لي، ولكما عليّ أن أردّ الناس عنكما ولا أضرُّكما. قال: فدعا له فرجع ووفى وجعل يردّ الناس ويقول: قد كفيتم ما ها هنا. وقد روي عن سراقة أنه قال لأبي جهل بن هشام: [من الطويل]

أبا حَكَمٍ والله لو كنتَ شاهدًا ... لأمرِ جوادي إذ تسوخُ قوائِمُهْ[٤]

علمتَ ولَم تشكك بأنّ محمدًا ... رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاوِمُهْ

(١) في الأصل: «لغسلهما» والصواب ما أثبت. كما في ابن هشام: ٢: ١٣١.

(٢) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

(٣) كثبة: قليل.

(٤) ساخ: غاص في الأرض.

عليك بكف القوم عني فإنني أرى أمرَه يومًا ستبدو معالِمُهْ
بأمر يودّ الناس فيه بأسرِهم بأنّ جميع الناس طُرا[١] تسالِمُهْ

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدّثني الزُّهري أنّ عبد الرحمٰن بن مالك بن جعشم حدّثه عن أبيه عن عمه سراقة بن مالك قال: لما خرج رسولُ الله ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة، جعلت فيه قريش مائةَ ناقة لمن يردّه عليهم، فبينما أنا جالسٌ في نادي قومي أقبَل رجلٌ منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيتُ رَكَبة[٢] ثلاثة مرّوا عليّ آنفًا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه، قال: فأومأتُ إليه بعيني أن اُسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبتغون ضالّة لهم، قال: لعله. ثم قمت فدخلت بيتي وأمرت بفرسي فقيدَ إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحِي فأخرج من دُبُر[٣] حُجْرَتي، ثم أخذت قِداحي[٤] التي[٥] أستقسِم بها، ثم اَنطلقت فلبست لأْمتي[٦]، ثم أخرجتُ قِداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره: «لا يضره»، قال: وكنت أرجو أن أردّه على قريش فآخذ المائة، فركبت الفرس في أثره، فبينما فرسي يشتدّ بي عثر فسقطت عنه، فقلت: ما هذا؟ ثم أخرجت قِداحي فاَستقسمت بها فخرج السَّهم الذي أكره «لا يضره»، قال: فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبتْ يداه في الأرض وسقطتُ عنه، ثم اَنتزع يده من الأرض وتبعهما دُخَانٌ كالإعصار، فعرفتُ حين رأيتُ ذلك أنه قد منِع منّي وأنه ظاهر، فناديتُ القوم: أنا سراقة بن جعشم، أَنْظِروني أكلّمكم، فوالله لا يأتينكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قلْ له وما تبتغي منا»؟ فقال لي ذلك أبو بكر، قلت: تكتب لي كتابًا يكون بيني وبينك، قال: «اكتب له يا أبا بكر»، فكتب لي كتابًا في عَظْم أو في رقعة أو في خرقة ثم ألقاه إليّ فأخذته فجعلته في كنانتي[٧]، ثم رجعتُ فلم أذكر شيئًا مما كان، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ، وفَرَغ من حُنَيْن والطائف، فرحت ومعي الكتاب لألقاه فلقيته، بالجِعْرّانة[٨]، فدخلتُ في كتِيبة من خيل الأنصار

---

(١) في الأصل: «طورًا» وهو تصحيف.
(٢) رَكَبَة: جمع راكب.
(٣) دُبُر: داخل ـ مؤخر.
(٤) القداح: السهام.
(٥) في الأصل: «الذي»، والمثبت عن ابن هشام: ٢: ١٣٤.
(٦) اللأمة: الدرع.
(٧) الكنانة: جعبة السهام.
(٨) الجعرانة: ما بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة.

فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله إني لأنظر إلى ساقه في غرزة[١] كأنها جمارة، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابُك أنا سراقة بن جعشم فقال رسول الله ﷺ: «يوم وفاء وبرّ، ادنُه»، قال: فدنوت منه فأسلمت. والله الهادي للصواب.

ومروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وٱسم أمّ معبد عاتِكة بنت خالد بن منقذ ابن ربيعة، ويقال: عاتكة بنت خالد بن خليف، وكانت بَرْزة[٢] جلدة تجلس بفناء القبة[٣] تَسقي وتُطعم، فسألوها تمرًا ولحمًا يشترونه منها، فلم يصيبوا عندها من ذلك شيئًا، وكان القوم مُرْمِلين مُسْنِتِين[٤]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كِسْر[٥] الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أمّ معبد»؟ قالت: شاة خلّفها الجهْد عن الغنم، قال: «هل بها من لبن»؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال: «أتأذنين أن أحلبها»؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلبًا فٱحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمّى الله، ودعا لها في شاتها، فتفاجّت عليه ـ أي فتحت ما بين رجليْها ـ ودَرَّت، ودعا بإناء يُرْبِض الرّهْط ـ أي يُرويهم ـ فحلب فيه ثَجاً[٦] ثم سقاها حتى رَوِيَت، ثم سقى أصحابه حتى رَوُوا، ثم شرب آخرَهم، ثم حلب إناءً حتى ملأه ثم غادره عندها، وبايعها وٱرتحلوا عنها، وأصبح صوتٌ بمكة عالٍ يسمعونه، ولا يدرون مَن صاحبُه وهو يقول: [من الطويل]

جزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائه ... رَفيقيْن قالا[٧] خيمتيْ أمِّ مَعْبَدِ
هما نزلا بالبرِّ وٱرتحلا به ... فأفلحَ مَن أمسى رفيقَ محمدِ
فيا لَقُصَيٍّ ما زَوى الله عنكم ... به من فعَال لا تُجارَى وسُودَدِ[٨]
لِيَهِنْ بني كعبٍ مكانُ فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصَدِ

(١) غرزه: الغرز للرحل، هو كالركاب للسرج.
(٢) البرزة: التي تظهر للناس.
(٣) في الأصل: «الهنة» وهو تصحيف. والتصحيح عن السيرة الحلبية، وفي الدلائل وغيرها: «الخيمة».
(٤) مرملين مستنين: مرملين: نفد زادهم، ومستنين: مجدبين.
(٥) كسر الخيمة: الشقة السفلى من الخباء.
(٦) ثجا: لبنًا كثيرًا.
(٧) قالا: نزلا وقت القيلولة.
(٨) زوى: صرف، لا تجارى: لا مثيل لها، سؤدد: مجد.

سَلُوا أختَكم عن شاتِها وإنائها فإنكُم إن تسألوا الشاة تَشهَدِ
دعاها بشاة حائل فتحلّبَتْ له بصَريح ضَرةُ الشاة مُزْبِدِ[١]
فغادَرَها رَهْنًا لديها لحالب تَدِرّ بها في مَصْدر ثم مَوْرِدِ[٢]

قال ابن إسحاق: ولما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أريْقط سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل أسْفَلَ من عُسْفَان[٣]، ثم سلك بهما أسفل أمج[٤] ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعد أن أجاز قُدَيْدًا[٥]، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخَرّار[٦]، ثم سلك بهما ثنية المَرَة[٧]، ثم سلك بهما لِقْفًا[٨]. ويقال: لِفْتا[٩] - ثم أجاز بهما مَدْلَجَة[١٠] لَقْفٍ، ثم استَبْطَن بهما مَدْلَجة مجَاج[١١]، ثم سلك بهما مَرْجح مَجَاج، ثم تَبَطْن بهما [مَرْجِح][١٢] من ذي الغَضَوَيْن[١٣]، ويقال: العَصَوين، ثم بطن ذي كَشْر[١٤]، ثم أخذ بهما على الجَدَاجِد[١٥]، ثم على الأجرد[١٦]، ثم سلك بهما ذا سلم[١٧] من بطن أَعْدَاءِ مَدْلَجَة تَعْهِن[١٨]، ثم على

---

(١) الصريح: اللبن الخالص. الضرة: أصل الضرع.
(٢) في مصدر ثم مورد: أي يحلبها مرة ثم أخرى، والمعنى: ترك الشاة عندها ذات لبن.
(٣) عسفان: موضع بين مكة والمدينة.
(٤) أمج: موضع بين مكة والمدينة فيه مزارع.
(٥) قديد: موضع قرب مكة.
(٦) الخرار: موضع قرب الجحفة.
(٧) ثنية المرة: تخفيف المرأة، وهو اسم موضع.
(٨) لقفا: موضع كثير الماء لا زرع فيه.
(٩) لفت: وادٍ في طريق المدينة، وقد وقع الخلاف في لقف ولفت في حديث الهجرة، وكلاهما صحيح، وهذا موضع، وذلك آخر.
(١٠) المدلجة: الحوض الذي يفرغ فيه الساقي دلوه.
(١١) مجاج: موضع، وفيه خلاف. راجع ياقوت.
(١٢) ساقطة من الأصل. والمثبت عن ابن هشام: ٢: ١٣٦.
(١٣) ذو الغضوين: تثنية الغضا.
(١٤) ذي كشر: في الأصل: «كشد» وهو تحريف. وكشر: موضع بين مكة والمدينة.
(١٥) الجداجد: جمع جدجد، بضم الجيمين، وهي البئر القديمة. ياقوت.
(١٦) الأجرد: أحد جبلي جُهينة، بين المدينة والشام.
(١٧) ذو سلم: وادٍ من أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة.
(١٨) تعهن: عين ماء، على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة والأعداء: النواحي.

العَبَابِيد، ويقال: العَبَابِيب. ويقال: العِثْيانة ـ ثم أجاز بهما الفاجّة[١]، ويقال: القاحّة، ثم هبط بهما العَرْج[٢]، وقد أبطأ عليهم بعضُ ظهرهم، فحمل رسول الله ﷺ رجلٌ يقال له: أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة، بعث معه غلامًا له يقال له: مسعود بن هُنَيْدة، ثم خرج بهما دليلهما من العرْج، فسلك ثنية العائر عن يمين رَكُوبَة[٣] ـ ويقال الغابِر ـ حتى هبط بهما [بطن] رِئم، ثم قدم بهما قُبَاء على بني عمرو بن عوف. قال الشيخ شرف الدين الدمياطي: وكان عبد الله بن الأريقط على كفره، ولم يعلم له إسلامٌ.

ذكر قدوم رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق: كان مقدم رسول الله ﷺ قُباء يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين الضّحا، وكادت الشمس تعتدل، وهو ﷺ ابن ثلاث وخمسين سنة، وذلك بعد أن بعثه الله تعالى بثلاث عشرة سنة. وقال الخوارْزميّ: قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجرًا يوم الاثنين، وهو اليوم الثامن من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين من عام الفيل، ويوم عشرين من أيلول، فكان من مبعثه إلى يوم هاجر ودخل المدينة ثلاث عشرة سنة كاملة. قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا بخروجه من مكة وتَوَكّفوا[٤] قدومه، يخرجون إذ صلوا الصبح إلى ظاهر الحرّة ينتظرونه، فلا يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيدخلون، وذلك في أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذي قدِم فيه رسول الله ﷺ جلسوا على عادتهم، حتى إذا لم يبق ظل دخلوا بيوتهم، فقدم رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت، فكان أول من رآه رجل من يهود، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلَة[٥] هذا جدكم قد جاء، قال: فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثلِ سِنّه، وأكثر الأنصار لم يكن يعرف رسول الله ﷺ قبل ذلك، فأقبل الناس وما يعرفونه من أبي بكر، حتى إذا زال الظل عن رسول الله ﷺ قام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفوه عند ذلك، قال: فنزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن هِدْم أخي بني عمرو بن عوف، وهو الأصح، وكان إذا خرج من منزل كلثوم جلس للناس

---

(١) الفاجة: الفاجة والقاحة: مدينة على ثلاث مراحل من المدينة قبل السقيا، بنحو ميل.

(٢) العَرْج: مكان بين مكة والمدينة على جادة الحاج، تذكر مع السقيا.

(٣) ركوبة: ثنية بين مكة والمدينة عند العرج.

(٤) توكفوا: استشعروا قدومه، وانتظروه.

(٥) بنو قيلة: هم الأنصار، وقيلة: اسم جدة كانت لهم.

في بيت سعد بن خَيْثَمة، وذلك أنه كان عَزَبًا لا أهل له، وكان منزل العُزّاب من المهاجرين، ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خُبَيْب بن إِساف أحد بني الحارث بن الخزْرَج بالسُّنْح. وقيل: بل نزل على خارجة بن زيد. وأقام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال، حتى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، ثم لحِق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن هِدم، فأقام رسول الله ﷺ بقُباء من يوم الاثنين إلى آخر يوم الخميس أربعة أيام.

ذكر خروج رسول الله ﷺ من قباء وتحوله إلى المدينة، وصلاته الجمعة، ونزوله على أبي أيوب خالد بن زيد

قال محمد بن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ يوم الجمعة من منزل كلثوم فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناء[١]، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. قال محمد بن سعد: صلاها بمن كان معه من المسلمين وهم مائة. قال ابن إسحاق: فأتاه عِتْبان بن مالك، وعباس بن عبادة بن نضلة، في رجال من بني سالم بن عوف، فقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة، اعترضه سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة، فقالوا مثل ذلك، وقال مثل ما قال لأولئك، فخلوا سبيلها، فانطلقت، حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة في رجال من بلحارث من الخزرج، فقالوا مثل ذلك، وقال مثل ما قال، فخلوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا مرت بدار بني عديّ بن النجار وهم أخواله اعترضه سليط بن قيس، وأبو سليط أُسَيْرة بن أبي خارجة[٢] في رجال من بني عديّ بن النجار، فقالوا: يا رسول الله هَلُم إلى أخوالك، إلى العدد والعُدّة والمنعة، فقال كما قال لأولئك، فخلوا سبيلها فانطلقت، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجد رسول الله ﷺ، وهو يومئذٍ مِرْبَد[٣] لغلامين يتيمين من بني النجار، في حجر معاذ بن عَفْراء وهم سهل وسُهيل ابنا عمرو، فلما بركت ثبت رسول الله ﷺ ولم ينزل، فسارت غير بعيد، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تَحَلْحَلَت[٤] ورَزَمت ووضعت جِرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ،

(١) رانوناء: بين قباء والمدينة يلتقي مع بطحان في دار بني زريق.
(٢) الذي في أسد الغابة: «أسيرة بن عمر بن قيس بن مالك».
(٣) المربد: الموضع الذي يجمع فيه الزرع والثمر للتجفيف.
(٤) في الأصل: «تجلجلت» وما أثبتناه عن ابن هشام؛ وقال السهيلي: إن ابن قتيبة فسره بتلحلحت ـ =

وٱحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ.

قال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى: لما بركت الناقة جعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب فحطّ رحلَه فأدخله منزله، فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع رحله»، وجاء أسعد بن زُرارة، فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده، قال زيد بن ثابت فأول هدية دخلتْ على رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب هديةٌ دخلتُ بها إناءُ قَصْعَة مَثْرُود فيها خبز وسمن ولبن، فقلت: أرسلتْ بهذه القصعة أُمّي، فقال: «بارك الله فيك»، ودعا أصحابه فأكلوا، فلم أرِم[1] الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة؛ ثريد وعُرَاق[2]، وما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة يحملون الطعام، يتناوبون ذلك حتى تحول رسول الله ﷺ من منزل أبي أيوب، وكان مقامه فيه سبعة أشهر.

وقال ٱبن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بني له فيها مسجده ومساكنه. والله أعلم.

وبعث رسولُ الله ﷺ من منزل أبي أيوب زيدَ بن حارثة وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، فقدما إلى مكة لفاطمة وأم كلثوم عليهما السلام ٱبنتي رسول الله ﷺ، وسَوْدة بنت زَمْعة زوجته، وأسامة بن زيد، وحمل زيد بن حارثة ٱمرأته أمّ أيمن مع ٱبنها أسامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشة فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان، وكانت رُقَيّة بنت رسول الله ﷺ بالحبشة مع زوجها عثمان بن عفان، قال ابن إسحاق بسنده إلى أبي أيوب قال: لما نزل رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفْل، وأنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت له: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت وكن في العُلْو، وننزل نحن ونكون في السُّفْل، فقال: «يا أبا أيوب، إن أرْفَق بنا ومن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت»، قال: فلقد ٱنكسر حُبّ[3] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة[4] لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشّف بها الماء؛ تخوّفًا أن يقطُر على رسول الله ﷺ فيؤذيه، قال: وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضلة

= بتقديم اللام ـ لزمت مكانها، وكذا فسره في النهاية: تلحلحت: أقامت ولزمت مكانها ولم تبرح ضد تحلحل. ورزمت الناقة: إذا أقامت من الكلال، وجرانها: عنقها.

(١) لم أرم: لم أبرح.

(٢) عراق: جمع عرق، وهو جمع نادر، والعرق (بالسكون): العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم.

(٣) الحب: جرة كبيرة.

(٤) القطيفة: الغطاء المخمل.

تَيَمَّمْتُ أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه، وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثومًا، قال: فردّه ولم أر ليده فيه أثرًا، فجئته فَزِعًا، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟ فكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك للبركة، قال: «فإني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجِي[1] فأما أنتم فكلوه»، فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة. والله المستعان.

ذكر بناءِ مسجدِ رسولِ الله ﷺ وبيوتِه بالمدينة

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد قال: حدّثني مَعْمَر بن راشد عن الزهريّ، قال: بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع المسجد، وهو يومئذٍ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبدًا لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار، وكانا في حِجْر أبي أُمامة أسعد بن زُرارة، فدعا رسول الله ﷺ بالغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجدًا فقالا: بل نهبُه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ حتى ابتاعه منهما. قال ابن سعد: وقال غير مَعمرٍ عن الزهري: فابتاعه بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك، فكان جدارًا مجدّرًا ليس عليه سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان أسعد بن زرارة بناه، فكان يصلي بأصحابه فيه، ويجمّع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل الذي بالحديقة، وبالغَرْقَد الذي فيه أن تقطع، وأمر باللبِن فضُرب، وكان في المِرْبَد قبور جاهلية فأمر بها فنُبِشَت، وبالعظام أن تُغَيَّب، وكان في المِرْبد ماء مُسْتَنْجِل[2] فسيَّروه حتى ذهب. فأسَّس رسول الله ﷺ المسجد وأسسوا معه، فجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخَّره، مائة ذراع، وفي هذين الجانبين مثل ذلك فهو مُربَّع، ويقال: كان أقل من المائة، وجعلوا الأساس قريبًا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة، ثم بنوه باللَّبِن، وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه، ويقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرين، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار» قال: وقال قائل من المسلمين يرتجز:

لَئِن قَعَدْنَا والنبيُّ يعملُ   لذاك مِنّا العملُ المُضَلّلُ

قال ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبِن فقال: يا رسول الله، قتلوني؛

---

(١) أناجي: من المناجاة: وهي أن يحدث الإنسان غيره.

(٢) مستنجل: مستنقع، والنجل: الماء الذي يخرج من الأرض نزًا.

يحملون عليّ ما لا يحملون، قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وَفْرته[١] بيده، وكان رجلاً جَعْدًا، ويقول: «ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية»، قال ابن سعد: وجعل رسول الله ﷺ قِبْلَة المسجد إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: بابًا في مؤخره، وبابًا يقال له: باب الرحمة، وهو الباب الذي يدعى باب عاتكة، والباب الثالث الذي يدخل منه رسول الله ﷺ، وجعل طول الجدار بسطةً، وعمده الجذوع، وسقفه جريدًا[٢]، فقيل له: ألا تسقّفه؟ فقال: «عرِيش[٣] كعريش موسى خشيبات وثُمَام[٤] الشأن أعجل من ذلك» قال: وبنى بيوتًا إلى جنبه باللبِن، وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء، بَنَى لعائشة رضي الله عنها [في البيت الذي يليه شارع إلى المسجد][٥] على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أرسل رسول الله ﷺ بالنخل فقُطِع، وبقبور المشركين فنُبِشَت، وبالخِرَب فسويت، قال: فصفوا النخل قِبله، وجعلوا عِضادتيه[٦] حجارة.

ذكر بناء المسجد الذي أسّس على التقوى وهو مسجد قُباء

قال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى بسنده إلى سهل بن سعد وأبي غَزِيّة وأبي سعيد الخدريّ رضي الله عنهم قال: لما صُرِفت القبلة أتى رسول الله ﷺ مسجد قباء فقدّم جِدار المسجد إلى موضعه اليوم وأسّسَه، وقال: «جبريل يؤمّ بي البيت»، ونقل رسول الله ﷺ وأصحابه الحجارة لبنائه. وكان رسول الله ﷺ يأتيه كل سبت ماشيًا، وقال ﷺ: «من توضأ فأسبغ الوضوء، ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه كان له أجر عُمرة»، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس، وقال: لو كان بطَرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل. قال: وكان أبو أيوب يقول: هذا المسجد الذي أسس على التقوى. وكان أبيّ بن كعب وغيره يقولون: بل هو مسجد رسول الله ﷺ.

---

(١) أي وفرة عمار؛ والوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن.

(٢) الجريد: قضبان النخل.

(٣) العريش: كل ما يستظل به. سئل الحسن عن معنى «عريش موسى» فقال: إذا رفع يده بلغ العريش، أي السقف.

(٤) الثُّمام: نبت ضعيف يسد به خصاص البيوت.

(٥) الزيادة عن ابن سعد، وفي الأصل: «بنى بعائشة» وهو خطأ. (راجع ابن سعد ج ١ ق ٢: ٢).

(٦) العضادة: جانب العتبة من الباب، والضمير للمسجد.

ذكر ما أصاب المهاجرين من حُمّى المدينة، ودعاء رسول الله ﷺ لهم

روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدِمها وهي أَوْبَأُ[١] أرض الله من الحمّى، فأصاب أصحابه منها بلاءٌ وسقمٌ، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ. قالت: فكان أبو بكر رضي الله عنه، وعامر بن فهيرة وبلال، موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلتُ عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا [الحجاب][٢] وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدّة الوعكِ، فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبتِ؟ فقال: [من الرجز]

كلُّ ٱمرىء مُصَبَّح في أهله ... والموتُ أدنى من شِراكِ نَعْلِهِ

قالت: فقلت والله ما يدري أبي ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فُهيرة، فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وَجَدتُ الموتَ قبلَ ذَوْقِه ... إنّ الجَبان حَتْفُه من فوقِهِ[٣]

كلّ ٱمرِىء مُجاهد بطَوْقِهِ ... كالثَّور يحمي جِلْدَه بِرَوْقِهِ[٤]

فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول؛ قالت: وكان بِلال إذا تركته الحمّى ٱضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته[٥]، فيقول: [من الطويل]

ألا لَيْتَ شعري هَلْ أبيتَنّ ليلةً ... بفَجٍّ وحَوْلي إذخِرٌ وجَليلُ[٦]

وهل أرِدَنْ يوماً مِياهَ مَجَنّةٍ ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيلُ[٧]

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم، فقلت: إنهم ليهْذُون، وما يعقلون من شدّة الحمّى، فقال: «اللهم حَبِّب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة وأشدّ، وبارك لنا في مُدّها وصاعها[٨]، وٱنقل وباءها إلى مَهْيَعَة»؛ وهي الجحفة.

---

(١) أوبأ: الأكثر وباءً. والوباء: المرض المعدي.

(٢) الزيادة عن الديار بكري: ١: ٣٥٠، ودلائل النبوة.

(٣) الحتف: الهلاك. (٤) الروق: القرن.

(٥) العقيرة: الصوت.

(٦) فج: موضع خارج مكة فيه ماء اغتسل فيه رسول الله ﷺ وهو محرم: الأدخر: من نبات مكة طيب الرائحة الجليل: الثمام، وهو نبت ضعيف.

(٧) مجنة: موضع أسفل مكة على أميال، كانت تقام فيها سوق للعرب. شامة وطفيل: قيل: هما جبلان بنواحي مكة، وقيل: هما عينان.

(٨) المد والصاع: من المكاييل.

ذكر مؤاخاة رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار

كان ذلك بعد مَقْدَم رسول الله ﷺ؛ روى محمد بن سعد عن الزهريّ وغيره قال: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحقّ والمواساة، يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً؛ خمسة وأربعون من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، قال ويقال: مائة؛ خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار، فلما كانت وقعة بَدْر وأنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: ٧٥] فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وٱنقطعت المؤاخاة في الميراث.

ذكر كتاب رسول الله ﷺ الذي أمر بكتبه بين المهاجرين والأنصار، وموادعة يهود، وإقرارهم على دينهم، وما ٱشترطه فيه عليهم ولهم

كان مضمون الكتاب على ما أورده ٱبن هشام عن ٱبن عباس عن ٱبن إسحاق: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتاب من محمّد النبيّ [صلى الله عليه وسلم] بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويَثْرِب، ومن تبعهم ولَحِق بهم وجاهد معهم، إنهم أمّة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبَعَتهم[١] يتعاقلون بَيْنَهم، وهم يَفْدُون عانِيَهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على رِبَعَتِهم يتعاقلون معاقلهم[٣] الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدِي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة

---

(١) رِبَعَة: حالة حسنة، أو أمرهم الذي كانوا عليه، وفي النهاية: «أنهم أمة واحدة على رباعتهم، يقال: القوم على رباعتهم ورباعهم أي على استقامتهم، يريد أنهم على أمرهم الذي كانوا عليه». وقوله: «يتعاقلون»: العقل: الدية التي تجب على العاقلة، وهي دية الخطأ، والعاقلة: عصبة القاتل.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) معاقلهم الأولى: أي يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها، والمعاقل: الديات.

تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين [وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين][١] وبنو الأَوْس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[٢] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فِداء أو عَقْل، وإنه لا يُحالِف[٣] مؤمنٌ مولَى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بَغَى منهم، أو ٱبتغى دسيعة[٤] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا يَنْصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم مَوَالي بعضٍ دون الناس، وإنه مَن [تَبِعنا من][٥] يهود فإن له النصر والأَسْوَة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن[٦] سِلْم المؤمنين واحدةٌ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله عزّ وجلّ إلا على سَواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غَزَت معنا يُعْقب بعضها بعضًا، وإن المؤمنين يُبيء[٧] بعضهم عن بعض؛ بما نال دماءهم في سبيل الله عزّ وجل، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يُجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن، وإن من ٱعْتَبَطَ[٨] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به، إلا أن يرضى وليُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافةٌ، ولا يحل لهم [إلا] القيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثًا ولا يؤوِيه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ، وإنكم مهما ٱختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله تعالى وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم؛ إلا من ظَلَم وأَثِم فإنه لا يُوتِغ[٩] إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما

---

(١) الزيادة عن ابن هشام: ٢: ١٤٨.

(٢) المفرح: المثقل بالدين، والكثير العيال.

(٣) المحالفة: المؤاخاة، والمعاقدة.

(٤) الدسيعة: العطية، أي طلب أن يدفعوا له عطية على سبيل الظلم.

(٥) الزيادة عن ابن هشام، وفي الأصل: «وأنه من تهود فإن له النصر». وهذا خطأ.

(٦) السلم: بالكسر والفتح. الصلع: يذكر ويؤنث.

(٧) يبيء: هو من البواء: أي المساواة.

(٨) اعتبط: قتل بلا جناية، ولا جريرة توجب القتل، القَوَد: القصاص. وفي الأصل: «قوديد» وهو تصحيف.

(٩) يوتغ: يهلك.

ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظَلَم وأَثِم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جَفْنَة بطن من بني ثعلبة [كأنفسهم] وإن لبني الشُطُنَّة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البرّ دون الإثم، وإن مَوالي ثعلبة كأنفسهم، وإنّ بِطانة[١] يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وإنه لا ينْحَجِز على ثأرِ جُرْح، وإنه مَن قَتَل فبنفسه [فَتَك، وأهل بيته]، إلا من ظلم، وإن الله على أبرِّ هذا[٢]، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، [وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم، وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة]، وإن الجار كالنفس غير مُضَارّ ولا آثم، وإنه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو أشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهِم يثربَ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أُناس[٣] حِصّتهم من جانبهم الذي قِبلَهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البِرّ المحْض من أهل هذه الصحيفة - ويقال مع البر المحسن - وإن البِرّ دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبَرِّه، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم، وإنه من خرجَ آمِنٌ، ومن قعد آمِنٌ بالمدينة إلا من ظَلَم وأَثِم، وإن الله جارٌ لمن بَرّ واتّقى ومحمد رسول الله».

ذكر أخبار المنافقين من الأوس والخزرج وما أُنْزل فيهم من القرآن

وقد رأيت أن أجمع ما فرقه أهل السير من أخبار المنافقين، وأضم بعضه إلى بعض، وأورده جملة واحدة، فإن ذلك لم يكن في وقت واحد ولا في سنة بعينها، بل أورده أهل السير بحسب ما وقع، وفرقوه في الغزوات وغيرها، فآثرت جمعه في هذا

---

(١) البطانة: باطنة الرجل: خاصته وأهل بيته.
(٢) أبر هذا: أي على الرضا به.
(٣) في الأصل: «أسنان» والمثبت عن ابن هشام.

الموضع، وما كان قد وقع في غزاة أو حادثة نبهت عليه في موضعه على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: كان رجال من الأوس والخزرج ممن أسلم وهو على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعثة، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنَّة[1] من القتل، ونافقوا في السِّر، وكان هواهم مع يهود؛ لتكذيبهم وجحودهم الإسلام، فكان منهم من الأوس من بني عمرو بن عوف، ثم من بني لَوْذان بن عمرو بن عوف: زُوَيّ بن الحارث، ومن بني حُبَيْب بن عمرو: جُلَاس بن سُوَيْد بن صامت؛ وأخوه الحارث بن سويد، قال: وجُلَاس هو الذي قال عند تخلفه عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شَرّ من الحمير، فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ عُمَيْر بن سعد، وكان في حجر جُلَاس خَلف على أمه بعد أبيه، فلما تكلم جُلَاس بهذا قال له عُمير: والله يا جُلاس، إنك لأحبّ الناس إليّ، وأحسنهم عندي يدًا، وأعَزّهم عليّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلتَ مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك، ولئن صمتُّ عليها ليهلكنّ دِيني، ولإحداهما أيسر عليّ من الأخرى، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال، فحلف جلاس لرسول الله ﷺ لقد كذب عليّ عمير، وما قلت ما قال، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٧٤]، قال ابن إسحاق: فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير. والله أعلم بالصواب.

وأما أخوه الحارث بن سُوَيد فإنه قتل المجذَّر بن ذيادٍ البَلَوِيّ في يوم أُحُد ولحق بقريش، وكان المجذَّر قتل سُوَيد بن صامِت في بعض الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج، فلما كان يوم أُحُد قتله بأبيه، قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتله إن هو ظَفِر به ففاته، وكان بمكة ثم بعث إلى أخيه جُلَاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه، فأنزل الله فيه ـ فيما حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إلى آخر القصة. وكان من المنافقين من بني ضُبيعة بن يزيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بِجَاد بن

(١) جنة: ملاذًا، منجاة.

عثمان بن عامر ونَبْتَل بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ فيما حكي: «من أحبّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبْتل بن الحارث»، وكان رجلاً جسيمًا أدلَم[(١)]، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسْفَع[(٢)] الخدّين، وكان يأتي رسول الله ﷺ ويتحدث إليه ويسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال: إنما محمد أُذُنٌ[(٣)]، من حدثه شيئًا صدقه. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١]، وأخبر جبريل رسول الله ﷺ به وبصفته فيما حكاه ابن إسحاق، وأبو حَبيبَة بن الأزعَر، وكان ممن بنى مسجد الضِّرار. وثعلبة بن حاطب، ومُعَتِّب بن قُشَيْر، وهما اللذان عاهدا الله ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومُعَتِّب هو الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ها هنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٤] إلى آخر القصة. وهو الذي قال يوم الأحزاب: كان محمد يعِدنا أن نأكل كنوز كِسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط، فأنزل الله فيه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢]. والحارث بن حاطب ـ وقال ابن هشام: ثعلبة والحارث أبنا حاطب، هما من بني أمية بن زيد من أهل بدر، وليسا من المنافقين ـ والله أعلم. ومنهم عَبّاد بن حُنَيْف أخو سهل، وبَحْزَج؛ وهو ممن بنى مسجد الضِّرار، وعمرو بن خِذَام، وعبد الله بن نَبْتَل، وجارية بن عامر بن العَطّاف وأبناه زيد ومُجَمّع؛ وهم ممن بنى مسجد الضِّرار. وكان مُجَمّع غلامًا حَدَثًا قد جمع من القرآن أكثره، فكان يصلي بهم فيه، فلما كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كُلِّم عمر في مُجمّع ليصلي ببني عمرو بن عوف في مسجدهم، فقال عمر: لا، أو ليس بإمام المنافقين في مسجد الضِّرار! فقال: يا أمير المؤمنين والله الذي لا إله إلا هو ما علمت بشيء من أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا؛ فزعموا أن عمر تركه يصلي بقومه. ومن بني أمية بن زيد بن مالك ودِيعة بن ثابت وهو ممن بنى مسجد الضِّرار، وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيه وفيمن قال بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥] إلى آخر القصة.

ومن بني عُبَيْد بن زيد بن مالك خِذام بن خالد، وهو الذي أخرج مسجدُ الضِّرار

---

(١) الأدلم: الأسود، الطويل.

(٢) السفع: اسوداد مشرب بحمرة.

(٣) أذن: يأخذ بما يقال له.

من داره، وبِشْر ورافع ابنا زيد، ومن بني النَّبيت مِرْبَع بن قَيْظِيّ وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز[1] حائطه، ورسول الله ﷺ عامدٌ إلى أُحُد: لا أُحِلّ لك يا محمد إن كنت نَبيًّا أن تمرّ بحائطي، وأخذ في يده حَفْنة من تراب ثم قال: والله لو أعلم أني لا أُصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به؛ فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصيرة»، وضربه سعد بن زيد بالقوس فشَجّه، وأخوه أَوْسُ بن قَيْظيّ، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق: إن بيوتنا عَوْرَةٌ، فأْذَنْ لنا أن نرجع إليها، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. ومن بني ظَفَر ـ واسم ظفر كعب ـ حاطب بن أمية بن رافع، وبُشَيْر بن أُبَيْرِق، وهو أبو طُعْمَة سارق الدِّرْعَين الذي أنزل الله فيه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧]. وقُزْمَان حليفٌ لهم. قال ابن إسحاق بسنده: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «إنه لمن أهل النار»، فلما كان يوم أُحُد قاتل قتالاً شديدًا حتى قتل تسعة من المشركين، وأَثْبَتَتْه الجراحة، فحمل إلى دار بني ظَفَر، فقال له رجل من المسلمين: أَبْشِر يا قُزْمَانُ، فقد أَبْلَيْت اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله، قال: بماذا أُبْشر، والله ما قاتلت إلا حميَّة عن قومي، فلما ٱشتدّت به جراحه أخذ سهمًا من كنانته، فقطع به رَوَاهِش[2] يده فقتل نفسه. قال ابن إسحاق: ولم يكن في بني عبد الأَشْهَل منافقٌ ولا منافقة إلا أن الضحاك بن ثابت أحد بني كعب رهط سعد بن زيد قد كان يُتّهم بالنفاق وحُبِّ يهود. قال ابن إسحاق: وكان جُلاَس بن سُوَيْد قبل توبته، ومعتب بن قُشَيْر، ورافع بن زيد، وبِشْرٌ هم الذين دعاهم رجالٌ من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوهم إلى حُكّام الجاهلية فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠] إلى آخر القصة. فهؤلاء الذين ذكرناهم من الأوس.

ومن الخزرج من بني النجار رافع بن وَدِيعَة، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو بن سهل. ومن بني جُشَم بن الخزرج الجَدّ بن قيس، وهو الذي يقول: يا محمد ائذن لي ولا تَفْتِنِّي، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩]؛

(١) أجاز: مرَّ، والحائط: البستان.

(٢) رواهش: عروق.

وكان رسول الله ﷺ قد قال له وهو في جهازه إلى تبوك: «يا جَدّ، هل لك العامَ في جلاد[١] بني الأصفر»؟ قال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تَفْتِنّي؟ فوالله لقد عرف قومِي أنه ما من رَجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «أذنت لك»، فأنزل الله تعالى فيه ما أنزل. ومن بني عوف بن الخزرج عبد الله بن أبيّ ابن سَلُول، وكان رأس المنافقين وكانوا يجتمعون إليه. قال محمد بن إسحاق: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وسيد أهلها عبد الله بن أُبيِّ ابن سَلُول[٢]، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين - حتى جاء الإسلام - غيرِه؛ قال: ومعه رجل من الأوس هو في قومه شريف مطاع، وهو أبو عامر عبد الله بن عمرو بن صَيْفِيّ بن النعمان، أحد بني ضُبَيْعَة بن زيد، وهو أخو حنظلة الغَسِيل[٣] وكان قد ترهّب في الجاهلية ولبس المُسُوح، وكان يقال له: الراهب، فشقيا بشرفهما. فأما عبد الله بن أُبَيّ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه ثم يملِّكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضَغِن[٤]، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلْكًا، فلما رأى قومَه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مُصِرًّا على نفاق. وقد روي عن أسامة بن زيد بن حارثة قال: ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عُبادة يعوده من شكوى أصابته، على حمار عليه إكَافٌ[٥] فوقه قَطِيفة فَدَكِيّة مختطمة بحبل من ليف، وأردفني ﷺ خلفه، قال: فمر بعبد الله بن أبيّ ابن سلول، وهو في ظلّ مُزاحم[٦] أُطُمِه، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله ﷺ تَذَمّم[٧] من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلّم ثم جلس فتلا القرآن، ودعا إلى الله عزّ وجلّ، وذَكّرَ بالله وحَذَّر وبشّر وأنذرَ، قال: وهو زامّ[٨] لا يتكلم،

---

(١) جلاد: قتال.

(٢) عبد الله بن أبي ابن سلول: عبد الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحُباب، المَشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه من خزاعة (... - ٩ هـ = ... - ٦٣٠ م) رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة. كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر، تقية، ولما تهيأ النبي ﷺ لوقعة أحد، انخزل ابن أبيّ وكان معه ثلاثمائة رجل، فعاد بهم إلى المدينة، وفعل ذلك يوم التهيؤ لغزوة تبوك. (الأعلام: ٤: ٦٥).

(٣) سمي الغسيل لأن الملائكة غسلته؛ وذلك أنه خرج جنبًا حين سمع الصيحة يوم أحد فمات وهو يقاتل في سبيل الله.

(٤) ضغن: حقد.

(٥) إكاف: جلال.

(٦) مزاحم: مزاحم: اسم الأطم، والأطم: الحصن.

(٧) تذمم: استنكف.

(٨) زام: رافع رأسه لا يقبل عليه كبرًا.

حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته، قال: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًّا، فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدّثه إياه، ومن لم يأتك فلا تَغْشَه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه. فقال عبد الله بن رَوَاحَة في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى فاغْشنا به وأتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله ما نحِبّ، وما أكرمنا الله به وهدانا له، فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى: [من الطويل]

متى ما يَكُنْ مولاك خَصْمك لم تَزلْ تَـذِلّ ويَـصْـرَعْـك الـذيـن تُـصـارِعُ
وهـل يَـنْـهَـضُ الـبـازِي بغير جَناحِه وإنْ جُذّ يـومًـا ريشُـه فـهـو وَاقِـعُ[1]

قال: فقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عُبادة وفي وجهه ما قال عدوّ الله، فقال سعد: والله يا رسول الله، إني لأرى في وجهك شيئًا؛ لكأنك سمعت شيئًا تكرهه. قال: «أجل»، ثم أخبره بما قال ابن أبيّ، فقال: يا رسول الله ارْفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرَزَ لنتوّجه، فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكًا. وكانت مقالة عبد الله بن أبيّ هذه قبل تلفظه بالإسلام، وسنورد إن شاء الله تعالى من أخباره في الغزوات، وانحيازه عن المسلمين بثُلُث الناس يوم أُحُد، وما قاله في غزوة المرَيْسِيع[2] وغيرها ما تقف عليه في مواضعه، مما تستدل به على صحة نفاقه، وإصراره في الباطن على كفره، وأما أبو عامر فإنه أبى إلا الإصرار على كفره، وفارق قومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وهو أوّل من أنشب الحرب يوم أُحُد على ما نذكره إن شاء الله تعالى. قال: وكان أبو عامر قد أتى النبي ﷺ حين قدم المدينة فقال: ما هذا الذي جئت به؟ قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، قال: فأنا عليها، قال له رسول الله ﷺ: «إنك لست عليها»، قال: بلى، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: «ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية»، قال: الكاذب أماته الله طريدًا غريبًا وحيدًا - يُعَرِّض برسول الله ﷺ: أي إنك ما جئت بها كذلك! فقال رسول الله ﷺ: «أجَلْ، فمن كذب يفعل الله به ذلك»، فكان هو ذاك؛ خرج إلى مكة، فلما افتتحها رسول الله ﷺ خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات به طريدًا غريبًا وحيدًا.

ومن المنافقين من أحبار يهود

ممن تعوّذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق: سعد بن

(١) جُذّ: نتف.
(٢) غزوة المريسيع: إحدى غزوات الرسول ﷺ.

حُنَيْف، وزيد بن اللُّصَيْت، ونُعْمان بن أَوْفَى، وعثمان بن أبي أوفى. وزيد بن اللُّصَيْت هو الذي قاتل عمر بن الخطاب بسوق بني قَيْنُقاع، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، ولا يدري أين ناقته! فقال رسول الله ﷺ ـ وجاءه الخبر بما قاله ودَلّه الله عليها ـ: «إن فلانًا قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته، وإني والله لا آتيكم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الشِّعْب، قد حبستها شجرة بزِمامها»، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف. ومنهم رافع بن حُرَيْمِلة وهو الذي قال رسول الله ﷺ حين مات: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين». ورفاعة [بن زيد] بن التابوت، وهو الذي قال رسول الله ﷺ حين هبت ريح وهو قافل من غزوة بني المصطلق واْشتدّت، حتى أشفق منها المسلمون: «لا تخافوا، فإنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار»، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد رفاعة بن زيد مات ذلك اليومَ الذي هبت فيه الريح، وسِلْسِلة بن بِرْهَام، وكِنَانَة بن صُوريا.

وكان هؤلاء يحضرون المسجد يسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم. قال اْبن إسحاق: فاْجتمع يومًا منهم في المسجد ناس، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدّثون بينهم بأقصى أصواتهم(١) قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا؛ فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بني النجار ـ وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية ـ فأخذ برجله يسحبه حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مِرْبَد بني ثعلبة! ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلى رافع بن وَدِيعَة أحد بني النجار فلبّبه بردائه، ثم نتره(٢) نترًا شديدًا، ولطم وجهه وأخرجه، وهو يقول: أُفٍّ لك منافقًا خبيثًا! أدرَاجَك(٣) يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ. وقام عُمارة بن حَزْم إلى زيد بن عمرو ـ وكان رجلًا طويل اللحية ـ فأخذ بلحيته فقاده بها قَوْدًا عنيفًا حتى أخرجه، ثم جمع عَمارة يديه فلدَمَه(٤) بها في صدره لدمة خَرّ منها، فقال: خدَشْتَني يا عُمارة، قال: أبعدك الله يا منافق، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ. وقام أبو محمد مسعود بن أَوْس من بني النجار إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلامًا

(١) في ابن هشام: «خافضي أصواتهم».
(٢) نتر: جذب.
(٣) أدراجك: أي ارجع من الطريق التي جئت منها.
(٤) اللدم: الضرب ببطن الكف.

شابًا ولا يُعلم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه. وقام عبد الله بن الحارث من بَلْخُدْرَة[1] رهط أبي سعيد الخدريّ إلى الحارث بن عمرو، وكان ذا جُمَّة[2]، فأخذ بجُمّته فسحبه بها سحبًا عنيفًا على ما مرّ به من الأرض حتى أخرجه، فقال له: لقد أغلظت يا بن الحارث، فقال له: إنك أهل لذلك ـ أي عدوّ الله ـ لما أنزل فيك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ فإنك نجس. وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُويّ بن الحارث فأخرجه إخراجًا عنيفًا، وأفّفَ[3] منه، وقال: غلب عليك الشيطانُ وأمْرُه.

قال: فهؤلاء من حضر المسجد يومئذٍ من المنافقين؛ وفي هؤلاء من المنافقين، وفي أحبار يهود أنزل الله تعالى صدر سورة البقرة إلى المائة منها؛ واللهأعلم.

فالذي منها مما يختص بالمنافقين قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨] إلى قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. وقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] أي شك فزادهم الله شكًا. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة: ١١] لأنهم كانوا يقولون: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب، وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي من تهود ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] أي إنما نستهزىء بالقوم ونلعب بهم. ثم ضرب الله لهم مثلاً فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] الآية؛ أي يبصرون الحقّ ويقولون به، حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر فيهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حقّ. ثم قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة: ١٨] أي عن الخير، لا يرجعون إلى هدى. وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [البقرة: ١٩] الصّيِّب: المطر. قال ابن إسحاق: أي هم من ظلمة ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل، على الذي هم عليه من الخلاف والتخوف لكم، على مثل ما وُصِف، من الذي هو في ظلمة الصّيِّب، يجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حَذَرَ الموت. ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أي منزل ذلك بهم من النقمة، وقوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي لشدة ضوء الحقّ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي يعرفون الحقّ

(١) بَلْخُدْرَة: يريد بني الخدرة.
(٢) الجمة: شعر الرأس الكثيف.
(٣) أفف منه: أي قال له أف.

ويتكلمون به، فهم من قولهم على ٱستقامة، فإذا ٱرْتَكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] أي لما تركوا الحقّ بعد معرفته. والله تعالى أعلم بالصواب.

وحيث ذكرنا ما ذكرنا من أخبار المنافقين، فلنذكر أخبار يهود، ونجمع ما تفرق منها على نحو ما تقدّم.

ذكر شيء من أخبار يهود الذين نصبوا العداوة لرسول الله ﷺ، وما أنزل فيهم من القرآن

قال: لما أظهر الله تعالى دينه، وٱطمأنَّ رسول الله ﷺ بالمدينة، ٱجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار، وٱستحكم أمر الإسلام، نصبت أحبار يهود العداوة لرسول الله ﷺ بغيًا وحسدًا، مع تحققهم نبوته، وصحة رسالته، وأنه الذي نصّ الله تعالى عليه في التوراة، فكانوا يسألون رسول الله ﷺ ويتعنّتونه، وهم من بني النَّضير: حُييّ بن أخطب، وأخواه أبو ياسر وحُدَيّ، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جِحَاش، وكعب بن الأشرف، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، وكَرْدَم بن قيس حليفه أيضًا. ومن بني ثعلبة بن الفِطْيَوْن[1] - ويقال فيه الفِطْيَوس - عبد الله بن صُوريا الأعور، وهو أعلم أهل زمانه بالحجاز بالتوراة، وٱبن صَلُوبا، ومُخَيْرِيق، وكان حبرهم. ومن بني قَيْنُقاع: زيد بن الصُّلَيْت - ويقال فيه اللُّصَيْت - وسعد بن حُنَيْف، ومحمود بن سَيْحان، وعُزَيْر بن أبي عُزَيْر، وعبد الله بن صَيْف - ويقال ابن ضَيف - وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفِنْحاص، وأَشْيَع، ونُعمان بن أضَا، وبحريّ بن عمرو، وشاس بن عديّ بن قيس، وزيد بن الحارث، ونُعمان بن عمرو، وسُكَيْن بن أبي سُكَيْن، وعَدِيّ بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى، أبو أنس، ومحمود بن دحْية، ومالك بن صَيْف، وكعب بن راشد، وعازر، ورافع بن أبي رافع، وخالد، وأزار بن أبي أزار - ويقال فيه: آزر بن أبي آزر - ورافع بن حارثة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد، وعبد الله بن سَلَام بن الحارث؛ وكان حبرهم وأعلمهم، وكان ٱسمه الحُصَيْن، فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله.

ومن بني قريظة: الزبير بن باطا بن وهب، وعَزّال بن سَمْوَال، وكعب بن أسد، وشَمْوِيل بن زيد، وجبل بن عمرو، والنّحّام بن زيد، وقَرْدَم بن كعب، ووهب بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وأبو نافع، وعديّ بن زيد، والحارث بن عوف، وكَرْدَم بن

(١) الفطيون: كلمة عبرانية، وهي عبارة عن كل من ولي أمر اليهود وملكهم.

زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن رُمَيْلة، وجبل بن أبي قُشَيْر، ووهب بن يهوذا.

ومن يهود بني زُرَيْق لَبيد بن أعْصَم الساحر. ومن يهود بني الحارثة: كنانة ابن صُوريا. ومن يهود بني عمرو بن عوف قَرْدَم بن عمرو. ومن يهود بني النجار: سِلسِلة بن بِرْهام؛ هؤلاء أحبار يهود، وأهل العداوة لله تعالى ولرسوله، لم يستثن منهم إلا عبد الله بن سَلَام ومُخَيْرِيق، فإنهما أسلما. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع.

ذكر إسلامِ عبدِ الله بنِ سلام[١]، ومخيريق

أمّا عبد الله بن سلام فإنه كان عالمًا حبرًا من أحبار يهود؛ حكى محمد بن إسحاق عن خبر إسلامه رواية عن بعضِ أهله عنه قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته وإسلامه وزمانه الذي كنا نَتَوَكّف[٢] له، فكنت مُسِرًّا لذلك صامتًا عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقُباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه، وأنا على رأس نَخْلة أعمل فيها، وعمتي خلدة[٣] بنت الحارث تحتي جالسةً، فلما سمعتُ الخبر كَبَّرْتُ؛ فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله! والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادمًا ما زدت. قال: قلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعث بما بُعث به؛ قالت: أي اَبن أخي، هذا النبي الذي كنا نخبر به أنه يبعث مع نفسِ الساعة؟ قلتُ: نعم؛ قالت: فذاك إذًا؛ قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمت؛ فلما رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمتُ إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنّ يهود قوم بُهتٌ[٤]، وإني أحبّ أن تدخلني بعض بيوتك فتغيِّبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني؛ قال: فأدخلني رسول الله ﷺ بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم: «أيّ رجل الحصين بن سَلَام فيكم»؟ فقالوا: سيدنا واَبن سيدنا وعالمنا؛ فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اَتقوا الله واَقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأصدقه وأعرفه؛ فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي،

---

(١) يلاحظ أنه لا يوجد من اسمه سلام بالتخفيف في المسلمين، سلام بالتخفيف في اليهود. راجع الروض الأنف: ٢: ٢٥. سبقت ترجمته هو ومخيريق.

(٢) نتوكف: أي ننتظر وقوعه.

(٣) ويقال: «خالدة».

(٤) بهت: جمع بهوت، والبهوت: من البهتان وهو الكذب.

فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خلدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

وأمّا مُخَيْرِيق - قال ابن إسحاق: كان حبرًا عالمًا، وكان غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يَجِد في علمه، وغلب عليه إلْفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد وهو يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنّ نصر محمد عليكم لحقّ، قالوا: إنّ اليوم يوم السبت، قال: لا سَبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأُحُد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت في هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه الله؛ فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِل، فكان رسول الله ﷺ فيما حكي يقول: «مُخَيريق خير يهود»، وقَبَض رسول الله ﷺ أمواله، فعامّة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

قال: وكان مما أنزل الله تعالى في أمر اليهود صدرًا من سورة البقرة؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦] أي إنهم قد كفروا بما عندك من ذِكرٍ لهم، وجحدوا ما أُخِذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يستمعون منك إنذارًا أو تحذيرًا!

وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ أي عن الهدى لن يصيبوه أبدًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] أي بما هم عليه من خلافك.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤٢]، أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمونَ من الكتب التي بأيديكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤] أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من التوراة، وتتركون أنفسكم، وأنتم تكفرون بما فيها من عهدِي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي. ثم عدّد عليهم أحداثهم فيما سلف، فذكر لهم العجل، وقولهم لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وصَعْقَتَهم عند ذلك، ثم إحياء اللّهِ لهم وإظلالهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنّ والسَّلوَى، وقوله لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] أي قولوا ما آمركم به أحطّ به ذنوبكم عنكم؛

وتبديلَهم ذلك، إلى ما ذكره الله تعالى من أخبارهم مع موسى.

ثم قال الله تعالى والخطاب لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]. قال الفريق الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه؛ وهم الذين قالوا لموسى ﷺ: يا موسى، قد حِيل بيننا وبين رؤية ربّنا، فأسمِعنا كلامه حين يكلمك، فطلب موسى ذلك من ربه لهم، فقال تعالى: مرهم فليتطهَّروا ويطهِّروا ثيابهم، ويصوموا، ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتى الطور، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى فوقعوا سُجودًا وكلمه ربه، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقلوا ما سمِعوا، ثم انصرف بهم موسى إلى بني إسرائيل، فلما جاءهم حرَّف فريق ممن سمع ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إنّ الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق: إنما قال كذا وكذا خلافًا لما قال الله تعالى لهم، فهم الذين عنى الله تعالى، ثم قال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤] أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدِّثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦] أي تقرون بأنه نبيّ، وهو يخبرهم أنه النبيّ الذي كنا ننتظره ونجده في كِتابنا، أجحدوه فلا تُقرُّوا لهم به، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٧، ٧٨] أي إلا تلاوة، والأميّ هو الذي يقرأ ولا يكتب، معناه أنهم لا يعلمون الكتاب فلا يدرون ما فيه، فهم يجحدون نبوّتك بالظن.
وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠] قال ابن عباس رضي الله عنهما: قدِم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تقول: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذِّب الله تعالى الناس في النار بكل ألفِ سنةٍ من أيام الدنيا يومًا واحدًا في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام، ثم ينقطع العذاب؛ فأنزل الله تعالى ذلك، ثم قال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي من عمل مِثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]. ثم قال تعالى يذُمُّهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]

أي تركتم ذلك كله. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٨٤]. قال ابن إسحاق: أقررتم على أنّ هذا حقّ من ميثاقي عليكم، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥] أي أهل الشرك، حتى يسفكوا دماءهم معهم، ويُخرجوهم من ديارهم معهم، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم، ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي أتفادونهم مؤمنين بذلك وتخرجونهم كفارًا بذلك ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦] فأنبهم بذلك مِن فعلِهم، وقد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسرائهم فكانوا فريقين، منهم بنو قَيْنُقاع ولَفُّهم[(١)] حلفاء الخزرج، والنَّضِير وقُريظة، ولَفُّهم حلفاء الأوْس، وكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قَيْنُقاع مع الخزرج، وخرجت بنو النَّضِير وقُريظة مع الأوس يظاهر كلُّ واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون منها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شِرك يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنة ولا نارًا، ولا بعثًا ولا قيامة، ولا كتابًا، ولا حلالاً، ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب [أوزارها] افتدوا أساراهم تصديقًا لما في التوراة وأخذًا به، يفتدي بنو قَيْنُقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، [و] يَفْتدي بنو النَّضير وقُريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويُطِلّون[(٢)] ما أصابوا من الدماء، وقتلى من قُتِلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] أي تفاديه بحكم التوراة وتقتله، وفي حكم التوراة: ألا تفعل: [تقتله]، وتخرجه من داره، وتظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان ابتغاء عَرَض الدنيا. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الآيات التي كانت له من إبراء الأكمه والأبرص وإحياءِ الموتى بإذن الله، والخبر بكثير من الغيوب مما يأكلون وما يدّخِرون في بيوتهم، ثم ذكر كفرهم بذلك كله، فقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ثم قال: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا

(١) لفُّهم: أي من عدَّ فيهم.
(٢) في الأصل: «ويطلبون»؛ والصواب: ما أثبت عن ابن هشام، ويطلون هنا: يبطلون.

مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٨ـ ٨٩]؛ وذلك أنهم كانوا يقولون للأنصار لما كانوا على جاهليتهم: إنّ نبيًا يبعث الآن قد أظَلّ زمانهُ، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم، فلما بعث الله رسوله ﷺ اتبعه الأنصار وكفر به يهود، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾، ثم قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة: ٩٠]، غضِب الله عليهم فيما صنعوا من مخالفتهم حكم التوراة، وغضِب عليهم بكفرهم بهذا النبيّ الذي أُرسل إليهم، ثم أنّبهم برفع الطور، وٱتخاذ العجل إلٰهًا من دون الله؛ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي ٱدعوا بالموتِ على أيّ الفريقين أكذب، فأبوا ذلك، فأعلمهم أنهم لم يتمنّوه فقال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥] أي بما عندهم من العِلم بك والكفرِ بذلك، فيقال: لو تمنوه يومَ قال لهم ذلك ما بقِي على الأرض يهوديّ إلا مات، ثم ذكر رغبتهم في الحياة فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦] أي ما هو بمُنْجيه؛ وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأنّ اليهوديّ قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع فيما عنده من العلم. والله تعالى الهادي للصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذِكر سؤال أحبار يهود رسول الله ﷺ وٱشتراطهم على أنفسهم أنه إن أجابهم عما سألوه آمنوا به، ورجوعهم عن الشرط

وذلك أنّ نفرًا من أحبار يهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ، فإن فعلت ٱتبعناك وصدّقناك وآمنا بك؛ فقال: «عليكم بهذا عهد الله وميثاقه إن أخبرتكم بذلك لتصدقُنّني»؟ قالوا: نعم؛ قال: «فاسألوا عما بدا لكم» قالوا: أخبرنا كيف يُشبه الولد أمّه، وإنما النطفة من الرجل؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَنشُدُكم بالله وبأيّامه عند بني إسرائيل هل تعرفون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه»؟ قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا كيف نومك، قال: «أنشدكم بالله وبأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان»؟ قالوا: [اللهم نعم، قال: «فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان»] قالوا: فأخبرنا عما حَرّم إسرائيل على نفسه؟ قال:

«أَنْشُدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها، فحرم على نفسه أحبّ الطعام والشراب إليه شكرًا للَّهِ تعالى، فحرم على نفسه لحوم الإبل وألبانها»؟ قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبِرنا عن الرُّوح؟ قال: «أَنْشُدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذي يأتيني»؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد، لنا عدوّ، وهو ملَك، إنما يأتي بالشدّة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتَّبعناك، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وذلك أنّ النبيّ ﷺ لما ذكر سليمان في المرسلين قال بعض أحبار يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًا، ووالله ما كان إلا ساحرًا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي باتباعهم السحر وعملهم به ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، قال ابن إسحاق: وحدّثني من لا أتهم عن عِكرمة، عن ابن عباس أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسِه: زائدتا الكِبد، والكُلْيتان، والشحم، إلا ما على الظَّهر، فإن ذلك كان يُقرّب للقربان فتأكله النار. والله أعلم بالصواب.

ذكر كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه إلى يهودِ خيبر

عن ابن عباس رضي الله عنهما: كتب رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، مِن محمد رسول الله صاحبِ موسى وأخيه، والمصدّق بما جاء به موسى، ألا إنّ الله قد قال لكم: يا معشر أهل التوراة ـ وإنكم تجدون ذلك في كتابكم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾؛ وإنّي أَنْشُدكم بالله، وأَنْشُدكم بما أنزل عليكم، وأَنْشُدكم بالذي أطعم مَنْ كان قبلكم من أسباطكم[1] المَنَّ والسَّلوَى،

(١) أسباطكم: أهلكم.

وأَنْشُدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعملِه إلا أخبرتمونا هل تجدون فيما أُنْزِل عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم؛ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه».

ذكر ما قاله أحبار يهود في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾، و﴿الٓرۚ﴾، و﴿الٓمٓرۚ﴾

حكي محمد بن إسحاق أنّ أبا ياسر[١] بن أخطب مرّ برسول الله ﷺ وهو يتلو: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، فأتى أخاه حُييّ بن أخطب في رجالٍ من يهود. فقال: تَعَلَّموا، والله لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزِل عليه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم، فمشى حُيَيّ في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألم تذكر لنا أنك تتلو فيما أنزِل عليك: ﴿الٓمٓ ۝١﴾؟ فقال: «بلى»، قالوا: أجاءك بها جبريل مِن عند الله؟ قال: «نعم»، فقالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بَيّن لنبيّ منهم ما مدّة ملكه، وما أُكل أمته غيرك. فأقبل حُيَيّ بن أخطب على من معه، فقال لهم: الإلِف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون فِي دينٍ إنما مدة ملكه وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف: ١] قال: فهذه أثقل وأطول، الألِف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون[٢] ومائة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم ﴿الٓرۚ﴾». قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان، هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: «نعم ﴿الٓمٓرۚ﴾» قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة، ثم قال: لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيرًا؟ ثم قاموا عنه؛ فقال أبو ياسر لأخيه حُيَيّ ولمن معه من الأحبار: ما يُدريكم، لعله قد جُمع هذا كلّه لمحمد؛ سبعمائة وأربع [وثلاثون][٣] سنة، قالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيقال: إن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

---

(١) في الأصل: «إياس»؛ صوابه ما أثبت، كما في ابن هشام: ٢: ١٩٤.

(٢) في الأصل: «وثلاثون» وهو خطأ صوابه ما أثبت.

(٣) في الأصل: «وأربع سنين» والتصويب عن ابن هشام.

ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] نزلت فيهم، وقيل: إنما نزلت في وفد نَجْران، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر شيء من مقالات أحبارِ يهود، وما أنزل من القرآن في ذلك

كان من مقالاتهم ما قاله مالك بن الصَّيْف حين بُعِث رسول الله ﷺ وذكر لهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عُهِد إليهم فيه، فقال: واللّهِ ما عُهِد إلينا في محمدٍ عهد، وما أُخذ له علينا ميثاق، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: ١٠٠]. وقال ٱبن صَلُوبا الفِطْيوني[١] لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٩٩].

وقال رافع بن حُرَيْملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد، ائتنا بِكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفَجِّر لنا أنهارًا نتبعك، ونصدّقك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ١٠٨] قال: وكان حُيَيّ بن أخطب [وأخوه أبو ياسر بن أخطب][٢] من أشدّ يهود للعرب حسدًا؛ فكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام بما ٱستطاعا، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩] قال: ولما قدم أهل نَجْرانَ من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حُرَيْملة: ما أنتم على شيء، وكَفَر بعيسى وبالإنجيل، فقال رجل من أهلِ نَجْران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى، وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣]. وقال رافع لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله يكلمنا تكليمًا حتى نسمع كلامه

---

(١) قال في الروض الأنف: «الفطيوني كلمة عبرانية، وهي عبارة عن كل من ولي أمر اليهود، وملكهم، كالنجاشي لمن ملك الحبشة».

(٢) هذه التكملة أثبتت عن ابن هشام ٢: ١٩٧.

فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾. وقال عبد الله بن صُوريا الفِطْيونيّ الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد؛ وقالت النصارى مِثل ذلك، فأنزل الله تعالى في أقوالهم: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥ـ ١٤١]، وتكلموا عند صرف القبلة بما نذكره إن شاء الله في حوادث السنة الثانية.

قال: وسأل معاذ بن جبل(١)، وسعد بن معاذ(٢)، وخارجة بن زيد(٣)، نفرًا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]. ودعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغّبهم فيه، وحذّرهم عذاب الله، فقال رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم منا، وخيرًا مِنا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

قال: ولما رجع رسول الله ﷺ من غزاة بدر جمع يهود في سوق بني قَيْنُقاع، وقال لهم: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشًا»، فقالوا: يا محمد، لا يغرّنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغْمارًا(٤) لا

(١) مُعاذ بن جَبَل: مُعاذ بن جَبَل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمٰن (٢٠ ق هـ ـ ١٨ هـ = ٦٠٣ ـ ٦٣٩ م) صحابي جليل... وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ أسلم وهو فتى، وآخى النبي ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب. وشهد العقبة مع الأنصار السبعين. وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله ﷺ، بعد غزوة تبوك، قاضيًا، ومرشدًا، لأهل اليمن: (الأعلام: ٧: ٢٥٨).

(٢) سعد بن مُعاذ: سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس، الأوسي الأنصاري (... ـ ٥ هـ = ... ـ ٦٢٦ م) صحابي من الأبطال، من أهل المدينة. كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر، وشهد أحدًا، فكان ممن ثبت فيها. رمي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه ودفن بالبقيع، وعمره سبع وثلاثون سنة. وحزن عليه النبي ﷺ. (الأعلام: ٣: ٨٨).

(٣) خارجة بن زيد: خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري، أبو زيد، (٢٩ ـ ٩٩ هـ = ٦٥٠ ـ ٧١٧ م) من بني النجار أحد الفقهاء السبعة في المدينة. تابعي، أدرك زمان عثمان وتوفي بالمدينة. (الأعلام: ٢: ٢٩٣).

(٤) الأغمار: جمع غمر. وهو الذي لم يجرب الأمور.

يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مِثلنا، فأنزل الله عزّ وجل في ذلك من قولهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [آل عمران: ١٢ـ ١٣].

قال: ودخل رسول الله ﷺ بيت[1] المِدرَاس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: وعلى أي دين [أنت] يا محمد؟ قال: «على ملة إبراهيم ودينِه» قالا: فإن إبراهيم كان يهوديًا؛ فقال لهما رسول الله ﷺ: «فهلم إلى التوراة فهي بيننا وبينكم»؛ فأنزل الله فيهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ [آل عمران: ٢٣ـ ٢٤]. وقال أحبار يهود ونصارى نجران حين اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وتنازعوا، فقال الأحبار: كان إبراهيم يهوديًا، وقالت النصارى: كان نصرانيًا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران: ٦٥ـ ٦٨]. وقال عبد الله بن صَيْف[2]، وعديّ بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)﴾ [آل عمران: ٧١ـ ٧٣]. وقال أبو رافع القُرَظيّ حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نَجران عند رسول الله ﷺ: يا محمد، تريد منا أن نعبدك كما يعبدالنصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل من أهل نجران يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال

---

(١) بيت المدراس: بيت لليهود يتدارسون فيه كتابهم.

(٢) قال ابن هشام: «ويقال: ابن ضيف».

رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني ولا أمرني» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾، والربانيون هم العلماء والفقهاء؛ ثم ذكر تعالى ما أخذ عليهم وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه إذا هو جاءهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] إلى آخر القصة. والله أعلم.

ذكر ما ألقاه شأس بن قيس اليهوديّ بين الأوس والخزرج من الفتنة، ورجوعهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ

قال محمد بن إسحاق: مرّ شأس بن قيس، وكان شيخًا عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، قد اَجتمعوا في مجلس يتحدثون، فغاظه ما هم عليه من الألفة والجماعة وصلاح ذات البيْن على الإسلام، بعدما كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اَجتمع[١] ملأ بني قَيْلة[٢] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اَجتمع ملؤهم بها من قرار؛ فأمر شابًا من يهود كان معه أن يجلس معهم[٣]، ثم يذكر يوم بُعَاث[٤] وما كان قبله، وأن ينشِدهم بعض ما كانوا قالوه من الأشعار يوم بُعاث، وهو يوم اَقتتلت فيه الأوس والخزرج، فكان الظَّفر فيه للأوس، وكان عليهم يومئذٍ حُضَير بن سِماك الأشهليّ، أبو أسيد بن حُضَير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَياضيّ، فقُتِلا جميعًا، ففعل الشاب ذلك، فتكلم القوم، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب؛ أَوْس بن قَيْظيّ الأوسيّ، وجَبّار بن صخر الخزرجيّ، فتقاولا، ثم قال أحدهما للآخر: إن شئتم رددناها الآن[٥] جَذَعَة؛ فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة، وهي الحَرّة، وقالوا: السلاحَ السلاحَ، وخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله! أبِدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى

---

(١) الملأ: القوم.
(٢) قيلة: هي أم الأوس والخزرج.
(٣) في الأصل: «معه»، والتصويب عن ابن هشام: ٢: ٢٠٤.
(٤) يوم بُعَاث: من أيام العرب، معروف.
(٥) رددناها الآن جذعة: أي رددنا الآخر إلى أوله.

الإسلام وأكرمكم به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، وٱستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم!» فعرف القوم أنها نَزْعة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فبكوا، وعانق بعضهم بعضًا، ثم ٱنصرفوا مع رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٨ـ ٩٩] وأنزل في أوس بن قَيظيّ وجبّارِ بن صخر، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠ـ ١٠٥].

ذكر ما تكلم به يهود في شأن من أسلم منهم وما أنزل الله تعالى في ذلك

قال(١): لما أسلم عبد الله بن سَلَام، وثعلبة بن سَعْيَةَ، وأُسَيْد بن سَعْية، وأَسَد ابن عُبيد، ومن أسلم معهم من يهود وآمنوا وصدّقوا، قال أهل الكفر من أحبار يهود: ما آمن بمحمد وٱتبعه إلا شِرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ـ ١١٤]، قال: وكان رجال من المسلمين يواصِلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾، [أي تؤمنون بكتابكم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم،

---

(١) هو ابن إسحاق.

فأنتم كنتم أحقّ بالبغضاء لهم منهم لكم](١)، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠]، قال: ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى بيت المِدْرَاس(٢) على يهود، فوجد جماعة كثيرة منهم قد أجتمعوا إلى حِبْر من أحبارهم يقال له فِنْحاص، ومعه آخر يقال له أشْيَع؛ فقال أبو بكر لفِنْحاص: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا لرسول الله، قد جاءكم بالحقّ من عندِه، تجِدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال لأبي بكر: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله مِن فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وهو هو عنّا بغنيّ، ولو كان عنّا غنيًا ما أستقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الرِّبا، ويُعطيناه، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فِنْحاص ضربًا شديدًا وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك، أي عدوّ الله. فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت»؟. فقال: يا رسول الله، إنّ عدوّ الله قال قولاً عظيمًا ـ وذكر قوله ـ فلما قال ذلك غضبت لله وضربت وجهه، فجحد(٣) فِنْحاص ذلك، وقال: ما قلتُ [ذلك]، فأنزل الله في ذلك تصديقًا لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١]، وأنزل الله تعالى في أبي بكر وغضبه في ذلك: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. قال: وكان كَرْدَم بن قيس، وأسامة بن حبيب ونافع بن أبي نافع، وبَحْرِيّ بن عمرو، وحُييّ بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التّابُوت، يأتون رجالاً من الأنصار يتنصحون لهم فيقولون: لا تُنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارِعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون علامَ يكون، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي من التوراة التي فيها تصديق ما جاء به رسول الله ﷺ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ

(١) التكملة عن ابن هشام: ٢: ٢٠٧.
(٢) انظر هامش رقم ١ من ص ٢٦٦.
(٣) جحد: أنكر.

ٱلْآخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٧ـ ٣٩] قال: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء يهود، إذا تكلم(١) رسول الله ﷺ لَوَى لسانه وقال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نُفْهِمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٤ـ ٤٦]. قال: وكلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم عبد الله بن صُوريا الأعور، وكعب بن أسد، فقال: «يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلِموا، فوالله إنكم لتعلمون أنّ الذي جئتكم به لحقّ»، قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وأصرّوا على الكفر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧]. قال: وقال سُكَيْن، وعديّ بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله نزل على بشر مِن شيءٍ بعد موسى، فأنزل الله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ـ ١٦٥]. ودخلت طائفة منهم على رسول الله ﷺ فقال لهم: «أما والله إنكم لتعلمون أنّي [رسول إليكم من الله]»! قالوا: ما نعلمه: وما نشهد عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]. وجاء إلى رسول الله ﷺ نعمان بن أَضا، وبَحْرِيّ بن عمرو، وشأس بن عديّ(٢)، فكلموه وكلّمهم، ودعاهم إلى الله وحذّرهم نِقمته، فقالوا: ما تُخوفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨]. قال: ودعا رسول

---

(١) كذا في الأصل، وفي ابن هشام: «كلم رسول الله».

(٢) في الأصل: «على» والتصويب عن ابن هشام: ٢: ٢١٢.

الله ﷺ يهود إلى الإسلام، ورغّبهم فيه، وحذّرهم عقوبة الله، فأبوا وكفروا وجحدوا، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عُبادة، وعقبة بن وهب: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه بصفته، فقال رافع بن حُرَيملة، ووهب بن يهود: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب من بعدِ موسى ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: ١٩].

ذكر قصة الرَّجْم

رُوي عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنه قال: إن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المِدْرَاس حين قدِم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بينهم[1] بعد إحصانه بامرأةٍ من يهود قد أحصنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد، فاسألوه كيف الحُكْم فيهما، وولّوه الحُكْم عليهما، فإن عمل فيهما بعملكم من التَّجْبية - والتجبية: الجَلْد بحبلٍ من ليفٍ قد طُلِيَ بقارٍ، ثم تُسَوَّد وجوههما، ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل أدبارِ الحمارين - فاتبعوه فإنّما هو مَلِك، وصدّقوه، وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبيّ، فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه، فأتوه فقالوا: يا محمد هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما، فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم في بيت المدْراس فقال: «يا معشر يهود أخرجوا إليّ علماءكم»، فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا، فقالوا: هؤلاء علماؤنا، فسألهم رسول الله ﷺ، ثم قالوا: هذا عبد الله بن صوريا أعلَمُ من بقي بالتوراة فخلا به رسول الله ﷺ، وكان غلامًا شابًا مِنْ أحدثهم سِنًّا، فقال له: «يا بن صوريا، أنشُدك الله، وأذكِّرك بأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حَكَم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة»؟ قال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم لَيعرفون أنك لَنبيٌّ مرسل، ولكنهم يحسدونك، فخرج رسول الله ﷺ فأمر برجمهما، فرُجِما عند بابِ مسجدِه، ثم كَفَر بعد ذلك ابن صوريا، وجَحَدَ نبوّة رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾، أي الرجم: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) في ابن هشام: «منهم».

ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِۚ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤١ - ٤٤] إلى آخر القصة.

ورُوي عن ٱبن عباس رضي الله عنه أنه قال: أمر رسول الله ﷺ برَجْمهما، فرُجما بباب مسجِده، فلما وَجَدَ اليهوديّ مَسَّ الحجارة وقام إلى صاحبته فجَنأَ(١) عليها يقيها مسّ الحجارة حتى قُتلا جميعًا.

وعن عبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما قال: لما حكّموا رسول الله ﷺ فيهما دعاهم بالتوراة، وجلس حَبْرٌ منهم يتلوها، وقد وضع يده على آية الرّجْم، فضرب عبد الله بن سَلَام يد الحبر، ثم قال: هذه يا نبيّ الله آية الرَّجْم، يأبى أن يتلوها عليك؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «ويحكم يا معشر يهود! ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم»؟! فقالوا: أمَا إنه كان فينا يُعْمَل به، حتى زنى رجل منا بعد إحصانه من بيوت الملوك وأهل الشرف فمنعه الملك من الرجم، ثم زنى رجل من بعده فأراد أن يرجمه فقالوا: لا والله، حتى ترجم فلانًا، فلما قالوا ذلك ٱجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التَّجْبِيَةِ، وأماتوا ذكر الرَّجْم والعمل به، فقال رسول الله ﷺ: «فأنا أوّل من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به». ثم أمر بهما فرجُما عند باب مسجده، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [كنت] فيمن رجمهما. قال: وٱجتمع كعب بن أسد وابن صَلُوبا، وعبد الله بن صُوريا، وشأس بن قيس. وقال بعضهم لبعض: ٱذهبوا إلى محمد؛ لعلّنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن ٱتبعناك ٱتّبعك يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدّقك؟ فأبى رسول الله ﷺ ذلك؛ فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

---

(١) جنأ عليها: أي أكب عليها، ويروى: «حنأ».

قال: وأتى رسول الله ﷺ من أحبار يهود أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وخالد بن زيد، وأزار بن أبي أزار[(١)]، وأشيَع، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال ﷺ: «نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوّته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩]. قال: وأتاه ﷺ رافع بن حارثة، وسَلام بن مِشْكَم، ومالك بن الصَّيْف، ورافع ابن حُرَيْملة فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حقّ؟ قال: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمِرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من أحداثكم». قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحقّ، ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨].

قال: وأتاه ﷺ النَّحّامُ بن زيد، وقَرْدَم بن كعب، وبَحْرِيّ بن عمرو، فقالوا: يا محمد، أما تعلم مع الله إلٰهًا غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا إله غيره، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو»؛ فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٩- ٢٠].

قال: وكان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسُوَيْد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، فكان رجال من المسلمين يوادّونهما، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ٥٧- ٦١]. وقال جبل بن أبي قشير[(٢)]، وشَمْويل بن زيد لرسول الله ﷺ: أخبِرنا متى الساعة إن كنت نبيًا كما تقول؟ فأنزل الله تعالى:

---

(١) قال ابن هشام: «ويقال: آزر بن أبي آزر».

(٢) في الأصل: «جبل بن بشير»، والتصويب عن ابن هشام.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال محمود بن سَيْحان ونُعْمان بن أضَاء، وبَحْريّ بن عمرو، وعُزَير بن أبي عُزير، وسَلَام بن مِشْكَم، وفِنْحاص، وعبد الله بن صُوريا، وابن صَلُوبا، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وأشيع، وكعب بن أسد، لرسول الله ﷺ: أحقّ يا محمد أن هذا الذي جئت به حقّ من عند الله؟ فإنا لا نراه متسقًا كما تتسق التوراة؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أمَا والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم، ولو اجتمعت الإنس والجن، على أن يأتوا به ما جاءوا به» فقالوا عند ذلك: يا محمد، أمَا يعلمك هذا إنس ولا جِنٌّ؟ فقال: «أمَا والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإني لرسول الله؛ تجدون ذلك مكتوبًا عندكم في التوراة» قالوا: يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء، ويَقْدِر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتابًا من السماء نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به. فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، والظهير: العَوْن.

قال: وأتى رَهْط من يهود إلى[1] رسول الله ﷺ، قالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق فمن خَلَقه؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انْتُقِعَ[2] لونُه، فجاءه جبريل عليه السلام فَسَكّنَه، فقال: خَفِّض عليك يا رسول الله، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٥]، فلما تلاها عليهم قالوا: فصفْ لنا كيف خَلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عَضُده؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله بجواب ما سألوه فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، وكانت سؤالات يهود وَعَنَتهم وبغيهم وتحريفهم وتبديلهم كثيرة؛ قد نطق بذلك كله القرآن، وجاء بالرّد عليهم وبتكذيبهم وتفريقهم، ثم سلط الله عليهم المسلمين، وحكّم فيهم سيوفهم فقتلوهم وأجلوهم واستأصلوا شأفتهم[3]، وأَسَرُوا وسَبَوْا منهم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في الغزوات والسرايا، فلما

(١) في ابن هشام: «أتى رسول الله».
(٢) انتقع: تغير.
(٣) استأصلوا شأفتهم: قضوا عليهم.

أيسوا وأُبْلسوا[١] عمدوا إلى تخَيُّلات أُخَر من السِّحر والسّم.

ذكر ما ورد من أن يهود سحروا رسول الله ﷺ

قالوا: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الحُدَيبية سنة ست من مُهاجَره، ودخل المحرمُ سنة سبع، جاءت رؤساء يهود الذين بقوا بالمدينة ممن يظهر الإسلام وهو منافق، إلى لبِيد بن الأعْصَم اليهوديّ حليف بني زُرَيق، وكان ساحرًا، قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسِّحر وبالسُّموم، فقالوا له: يا أبا الأعصم أنت أسحر منا، وقد سَحَرنا محمدًا، فسحره منا الرجال والنساء فلم نصنع شيئًا، وأنت ترى أثره فينا، وخلافه ديننا، ومن قتل منا وأَجْلَى[٢]، ونحن نجعل لك على ذلك جُعلاً على أن تسحره لنا سحرًا يَنْكَؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ؛ فعمد إلى مشط وما يُمْشَط من الرأس من الشعر فعقد فيه عُقَدًا وتَفل فيه تَفْلاً، وجعله في جُفِّ[٣] طَلْعَةِ ذكرٍ، ثم أنتهى به حتى جعله تحت أُرْعُوفَة[٤] البئر، فوجد رسول الله ﷺ أمرًا أنكره، حتى يُخَيّل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وأنكر بصره حتى دَلَّه الله على ذلك؛ فدعا جُبَير بن إياس الزُّرقيّ وكان ممن شهد بدرًا فدله على موضع في بئر ذَرْوَان[٥] تحت أُرْعُوفة البئر، فخرج جُبير حتى أستخرجه، ثم أرسل إلى لبيد بن الأعصم، فقال: «ما حملك على ما صنعت، فقد دلني الله على سحرك وأخبرني بما صنعت»؟ فقال: حُبّ الدنانير يا أبا القاسم. قال محمد بن سعد، قال إسحاق بن عبد الله: فأخبرت عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك بهذا الحديث، فقال: إنما سحره بنات أعصم أخوات لَبِيد، وكنّ أسْحَرَ من لبيد وأخْبَثَ، وكان لَبِيد هو الذي ذهب به فأدخله تحت أُرْعُوفة البئر، قال: فلما عَقَدوا تلك العقد أنكر رسول الله ﷺ تلك الساعة بصره، ودَس بناتُ أعصم إحداهنّ، فدخلت على عائشة فخبّرتها عائشة - أو سمعت عائشة تذكر ما أنكر رسول الله ﷺ من بصره - ثم خرجت إلى أخواتها وإلى لبيد فأخبرتهم، فقالت إحداهنّ: إن يكن نبيًا فسيُخْبَر، وإن يك غير ذلك فسوف يدَلِّهُه[٦] هذا السحر حتى يذهب عقله، فيكون بما نال من قومنا وأهل ديننا. فدله الله عليه:

(١) أُبلسوا: يئسوا.
(٢) في الأصل: «راجلاً» وهو تحريف، والتصويب عن ابن سعد.
(٣) الجف: وعاء الطلع، وهو الغشاء الذي يكون فوقه. و«ذكر» صفة لجف.
(٤) الأرعوفة والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت، تكون ناتئة، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها. وقيل: هي حجر يكون على رأس البئر يقوم المستقي عليها.
(٥) بئر ذروان: بالمدينة في بستان بني زريق من اليهود.
(٦) دَلَّهه: حيره وأدهشه، وفي الأصل: «يدله» وهو تصحيف.

وفي الصحيح عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ سُحِر، حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء ولم يصنعه، حتى إذا كان ذات يوم رأيته يدعو، فقال: «أشَعَرتِ [١] أن الله قد أفتاني فما ٱستفتيته[٢]، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما: ما وجع الرجل؟ فقال الآخر: مَطْبُوب[٣]، فقال: من طَبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فيم قال: في مُشْط ومُشاطة في جُفِّ طَلْعَةِ ذكرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في ذي[٤] ذَرْوَان»، فانطلق رسول الله ﷺ، فلما رجع أخبر عائشة فقال: «كأنّ نخلها رؤوس الشياطين، وكأن ماءَها نُقَاعة الحِنّاء»، قالت فقلت: يا رسول الله، فأخرجه للناس، قال: «أمّا واللهُ قد شفاني، وخَشيت أن أثوِّر على الناس منه شرًّا»[٥].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: مرض رسول الله ﷺ وأُخِذ[٦] عن النساء وعن الطعام والشراب، فهبط عليه مَلكان وهو بين النائم واليقظان فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه؛ فقال أحدهما لصاحبه: ما شكواه؟ قال: طُبّ ـ يعني[٧] سُحر ـ قال: ومن فعله؟ قال: لَبِيد بن أعْصَم اليهوديّ، قال: ففي أي شيء جعله؟ قال: في طَلْعَة، قال: فأين وضعها؟ قال: في بئر ذَرْوَان تحت صخرة، قال: فما شفاؤه؟ قال: تُنزح[٨] البئر، وتُرفع الصخرة وتُستخرج الطَّلْعَة. وٱرتفع الملكان؛ فبعث النبي ﷺ إلى عليّ وعَمّار فأمرهما أن يأتيا الرَّكيّ فيفعلا الذي سمع، فأتياها وماؤها كأنه قد خُضِبَ بالحِنّاء فنزحاها، ثم رفعا الصخرة فأخرجا طَلْعَة، فإذا فيها إحدى عشرة عُقْدة، ونزلت هاتان السورتان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾ [الناس: ١]، فجعل رسول الله ﷺ كلما قرأ آية ٱنحلت عُقْدة، حتى ٱنحلت العُقَد وٱنتشر[٩] نبيّ الله ﷺ للنساء والطعام والشراب.

وجاء في حديث آخر أن جبريل وميكائيل عليهما السلام أخبرا رسول الله ﷺ بشأن السِّحر، وأنه ﷺ أخذ لَبيدًا، فاعترف فعفا عنه، رُوي عفوه عنه عن غير واحد؛

---

(١) أشعرت: أعلمت، والخطاب للسيدة عائشة رضي الله عنها.
(٢) المعنى: أجابني عما سألته عنه.
(٣) مطبوب: مسحور؛ عبر عن السحر بالطب، كما عبروا عن اللديغ بالسليم تفاؤلاً.
(٤) في الصحيح: «في بئر ذروان»، وهما روايتان.
(٥) قال القسطلاني: «الشر تذكر السحر وتعلمه، وهو من باب ترك المصلحة خوف المفسدة».
(٦) أُخِذ: حبس بالسحر.
(٧) قال في اللسان: «كنوا بالطب عن السحر تفاؤلاً بالبر، كما كنوا عن اللديغ فقالوا: سليم».
(٨) تنزح البئر: أي تفرغ من مائها.
(٩) انتشر: استعاد قدرته.

قال عِكرمة: ثم [كان] يراه بعد عفوه فيعرض عنه، وحيث ذكرنا حديث السِّحر فلا بأس أن نصله بالكلام على مشكله. والله أعلم بالصواب.

ذكر الكلام على مشكل حديث السِّحر

وقد تكلم القاضي عِياض بن موسى بن عِياض على هذا الحديث فقال: هذا الحديث صحيح متفق على صحته، وقد طعنت فيه الملْحدة، وتذَرعت به لسخف عقولها، وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك في الشَّرع، وقد نزَّه الله الشَّرع والنبي ﷺ عما يُدخل في أمره لَبْسًا، وإنما السِّحر مرض من الأمراض وعارض من العِلَل يجوز عليه كأنواع الأمراض، مما لا ينكر ولا يَقْدحُ في نبوته، وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يُدخِل عليه داخلةً[1] في شيء من تبليغه وشريعته، ويقدح في صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طُرُوُّه عليه في أمر دنياه التي يبعث بسببها، ولا فُضِّل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يُخَيّل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم يتجلى عنه كما كان.

وأيضًا فقد فسر هذا الحديث الآخر من قوله: «حتى يُخَيّل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهنّ». وقد قال سفيان[2]: وهذا أشدّ ما يكون من السحر، ولم يأت في خبر منها أنه نقل عنه في ذلك قول، بخلاف ما أخبر أنه فعله ولم يفعله، وإنما كانت خواطر وتخيلات، وقد قيل: إن المراد بالحديث أنه كان يتخيّل لشيء أنه فعله، وما فعله لكنه تخييل لا يعتقد صحته، فتكون اعتقاداته كلها على السّدَاد، وأقواله على الصحة. قال: هذا ما وقفت عليه لأئمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث. قال: لكنه قد ظهر لي في هذا الحديث تأويل أجلى وأبعد من مطاعين[3] ذوي الأضاليل، يستفاد من نفس الحديث، وهو أن عبد الرزاق قد روى هذا الحديث عن ابن المسيّب، وعُروة بن الزبير، وقال فيه عنهما: سحر يهود بني زُرَيق رسول الله ﷺ، فجعلوه في بئر حتى كاد رسول الله ﷺ أن يُنْكر بصره[4]. ثم دله الله على ما صنعوا، فاستخرجه من البئر.

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما يُسلّط على ظاهره وجوارحه، لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما يأتي في بصره، وحبسه عن وَطْء

(١) الداخلة: النقيصة، العيب والفساد.

(٢) سفيان: هو ابن عيينة كما صرح به في سنده، في البخاري.

(٣) مطاعين: تهم.

(٤) أي ما أبصره، أو ينكر نفس رؤيته لتأثير السحر فيه. (شرح الشفاء).

نسائه، ويكون معنى قوله: «يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهنّ»، أي يظهر له من نشاطه ومتقدّم عادته القُدرة على النساء، فإذا دنا منهنّ أصابته أُخْذَةٌ[١] بالسِّحر، فلم يقدر على إتيانهنّ، كما يَعْتَري من أُخِّذ وٱعتُرِض، قال: ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: وهذا أشدّ ما يكون من السِّحر. والله أعلم بالصواب.

ذكر خبر الشاة التي سُمّ فيها رسول الله ﷺ

كان ذلك في غَزاة خَيْبر، بعد أن ٱفتتحها رسول الله ﷺ، وذلك أنه لما ٱفتتح خَيْبَر وحصونها وٱطمأنَّ، أهدت إليه زينب ابنة الحارث امرأة سَلاَم بن مِشْكَم وهي ٱبنة أخي مَرْحَبَ الذي بارز يوم خيبر، وقتل ـ على ما نذكره إن شاء الله ـ شاة مَصْلِيَّة[٢]، وقد سألت: أيّ عضو من الشاة أحَبّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذِّراع، وأكثرت فيها السّمّ، ثم سَمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع، فَلاَك منها مُضْغة فلم يُسِغها، وكان معه بِشْر بن البَراء بن مَعْرُور، فأخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها.

وروى الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ في دلائل النبوّة أنه ﷺ أساغها، ثم قال لأصحابه: «ٱرفعوا أيديَكم فإنّ كتِف هذه الشاة يخبرني أنها قد بُغِيتُ فيه»[٣]، قال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت، فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن أنغصك طعامك. فلما أسغْتَ ما في فيك لم أكن لأرغب بنفسي عن نفسك، ثم دعا بها رسول الله ﷺ فٱعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك»؟ قالت: بلغتَ من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان مَلكًا ٱسترحت منه، وإن كان نبيًّا فسَيُخْبَر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء. والصحيح أن رسول الله ﷺ قتلها، قيل: سلّمها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها، والله تعالى أعلم.

وحيث ذكرنا من سيرته ﷺ ما ذكرناه، فلنذكر هنا حوادث السنين بعد الهجرة خلا الغزوات والسّرَايا والوفود، فإنا نورد ذلك إن شاء الله تعالى فيما بعد على ما تقف عليه.

---

(١) أخذة: حبسة.

(٢) مصلية: مشويّة.

(٣) الحديث في الدلائل نصه: «يخبرني أن قد بغيت فيها». بغيت: طلبت، من بغى يبغي بغا، بالضم، إذا طلب (نهاية ابن الأثير).

ذكر الحوادث بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة النبوية على حكم السنين؛ من السنة الأولى إلى السنة العاشرة خلا ما ٱستثنيناه، وقدّمناه

حوادث السنة الأولى

فيها جعلت صلاة العصر أربع ركعات، وكانت ركعتين وذلك بعد مَقْدَمه ﷺ بشهر. وفيها صلى رسول الله ﷺ الجمعة حين ٱرتحل من قُبَاء إلى المدينة، صلاها في طريقه ببني سالم على ما تقدّم، وهي أوّل جمعة صلاها، وأوّل خطبة خطبها في الإسلام، وفيها بَنَى ﷺ مسجده ومساكنه، ومسجد قُباء على ما تقدّم. وفيها آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد مقدمه بثمانية أشهر، وقد تقدّم ذكر ذلك. وفيها أسلم عبد الله بن سَلَام. وفيها ولد عبد الله بن الزبير بالمدينة. وفيها مات أبو قيس كلثوم بن الهدهد، وهو أوّل من مات من المسلمين بالمدينة. ومات سعد بن زُرارة أبو أمامة. وفيها أعرس ﷺ بعائشة رضي الله عنها.

حوادث السنة الثانية

في هذه السنة توفيت رُقَيّة بنت النبي ﷺ زوج عثمان بن عفان، ورسولُ الله ﷺ ببدر، وتوفي عثمان بن مظعون بعد [رجوع][(١)] رسول الله ﷺ من غَزاة بدر وشهدها عثمان، وفيها صُرِفت القبلة.

ذكر صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة وما تكلم به اليهود وما أنزل تعالى في ذلك من القرآن

كان رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة يصلي إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، كما ورد في صحيح البخاري وغيره، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت، فقال: «يا جبريل وددت أن الله تعالى صرف وجهي عن قِبلة يهود»، فقال جبريل: إنما أنا عبد فٱدع ربك وسَلْه. وجعل رسول الله ﷺ إذا صلى إلى

(١) زيادة يقتضيها السياق.

بيت المقدس ورفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال محمد بن سعد: صلى رسول الله ﷺ ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أُمِر أن يوجّه إلى المسجد الحرام، فٱستدار إليه، ودار معه المسلمون، قال: ويقال: بل زار رسول الله ﷺ أمّ بِشْر بن البراء بن معرور في بني سَلِمَة، فصنعت له طعامًا، وحانت الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أُمِر أن يُوَجّه إلى الكعبة، فٱستدار إلى الكعبة، واستقبل الميزاب فسمي المسجد مسجد القبلتين، وذلك يوم الاثنين للنصف من شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من مُهاجَره ﷺ.

وروى البخاريّ أن أوّل صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة العصر، وصلى معه قومٌ، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قِبل البيت.

قال ٱبن إسحاق: ولما صُرفت القبلة أتى رسولَ الله ﷺ رفاعةُ بن قيس، وقَرْدم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، فقالوا: يا محمد ما وَلاّك عن قِبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟! ٱرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتّبعك ونصدّقك ـ وإنما يريدون فتنته عن دينه ـ فأنزل الله: ﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢ـ ١٤٣] أي: إيمانكم بالقِبْلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، وٱتباعكم إياه إلى القبلة الأخرى، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٤ـ ١٤٧].

والله أعلم.

ذكر خبر الأذان

قال محمد بن سعد بسنده إلى نافع[١] بن جبير، وعُروة بن الزبير، وزيد بن أسلم، وسعد بن المسيّب، قالوا: كان الناس في عهد النبي ﷺ قبل أن يؤمر بالأذان ينادِي منادي النبي ﷺ: «الصلاة جامعة»؛ فيجتمع الناس فلما صُرِفت القبلة إلى الكعبة أمِر بالأذان، وكان رسول الله ﷺ قد أهَمّه أمر الأذان، وأنهم ذكروا أشياء[٢] يجمعون بها الناس للصلاة، فقال بعضهم: البُوق، وقال بعضهم: الناقوس؛ فبينما هم على ذلك إذْ نام عبد الله بن زيد الخزرجيّ، فأري في المنام أن رجلاً مَرّ وعليه ثَوْبان أخضران وفي يده ناقوس، قال فقلت: أتبيع الناقوس؟ قال: ماذا تريد به؟ فقلت: أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماعة الناس، قال: فأنا أحدثك بخير لكم من ذلكْ؛ تقول: الله أكبر، أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حَيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إلٰه إلا الله. فأتى عبد الله بن زيد رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك ولْيؤذّن بذلك»، ففعل. وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: لقد رأيت مثل الذي رآه، فقال رسول الله ﷺ: «فللّه الحمد» فذلك أثبت. قالوا: وأُذّنَ بالأذان وبقي يُنادى في الناس: «الصلاة جامعة»؛ للأمر يحدث، فيحضرون له يُخبَرون به، مثل فَتْحٍ يُقرأ، أو أمر يؤمرون به، فينادَى: «الصلاة جامعة»، وإن كان في غير وقت الصلاة. وقد قدّمنا خبر الأذان من رواية علي بن أبي طالب في قصة الإسراء، والله أعلم.

وفي هذه السنة فُرِض صوم رمضان في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من الهجرة، وفُرِضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين، وفيها ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أحدهما عن أمته، والآخر عن محمد وآله، وفيها وُلد النعمان بن بشير، وفيها أعرس عليّ بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ورضي عنهما. والله أعلم.

---

(١) نافع بن جبير: في الأصل: «رافع بن جبير». وهو تصحيف، والتصويب عن ابن سعد، وتهذيب التهذيب. وهو: نافع بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل من قريش (... ـ ٩٩ هـ = ... ـ ٧١٧ م) من كبار الرواة للحديث. تابعي. ثقة من أهل المدينة. وكان ممن يؤخذ عنه ويفتى بفتواه. (الأعلام: ٧: ٣٥٢).

(٢) في الأصل: «شيئًا» والمثبت عن ابن سعد.

حوادث السنة الثالثة

فيها تزوّج رسول الله ﷺ حَفْصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وفيها توفي عثمان بن مظعون عند بعضهم. وفيها تزوّج عثمان بن عفان رضي الله عنه أمّ كُلثوم بنت النبي ﷺ في جمادى الآخرة. وفيها ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما في النصف من رمضان.

حوادث السنة الرابعة

فيها حُرِّمت الخمر في شهر ربيع الأول، وقيل: حرّمت في السنة الثالثة، وفيها صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في غزوة ذات الرِّقاع. وفيها قُصِرت الصلاة. وفيها ولِد الحسين بن علي رضي الله عنهما. وفيها ماتت زينب بن خُزيمة الهلالية أم المؤمنين. وفيها تزوّج رسول الله ﷺ أمّ سَلَمة في شوال، وتزوّج زينب بنت جحش في ذي القعدة على الصحيح. وفيها نزل الحجاب.

ذكر نزول الحجاب على أزواج رسول الله ﷺ

كان سبب نزول الحجاب ما رواه البخاريّ عن ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك، قال: كان أول ما أنزل الحجاب في مُبْتَنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش؛ أصبح رسول الله ﷺ عَروسًا، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي منهم رَهْط عند رسول الله ﷺ فأطالوا المكث، فقام رسول الله ﷺ فخرج فخرجتُ معه كي يخرجوا، فمشى ﷺ ومشيتُ معه، حتى جاء عَتَبة حُجْرة عائشة رضي الله عنها، ثم ظنّ رسول الله ﷺ أنهم خرجوا، فرجع رسول الله ﷺ، ورجعتُ معه حتى دخل على زينب، فإذا هم جلوس لم يتفرقوا، فرجع رسول الله ﷺ ورجعتُ معه حتى بلغ عَتَبة حُجْرة عائشة، فظنّ أن قد خرجوا فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فأنزل الله الحجاب، فضرب بيني وبينه سِتْرًا، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية. وعن عُروة بن الزُّبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عمر رضوان الله عليه يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك يا رسول الله، قالت: فلم يفعل. وكان أزواج النبيّ ﷺ يخرجن لَيْلاً إلى لَيْل قِبَل المَناصِع(١) فخرجت سَوْدَة بنت زَمْعَة وكانت امرأة طويلة،

(١) المناصع: (جمع منصع): صعيد واسع آخر المدينة جهة البقيع.

فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس، فقال: عرفتك يا سَوْدَة ـ حرصًا على أن ينزل الحجاب ـ فأنزل الله [الحجاب](١). وفي هذه السنة فُرضت الزكاة في المال.

حوادث السنة الخامسة

فيها تزوّج رسول الله ﷺ ريحانة بنت زيد النَّضْرية، وجُوَيرية بنت الحارث المُصْطَلِقيَّة. وفيها زلزلت المدينة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله يَستعتِبكم فأعتِبوه»(٢). وفيها سابق رسول الله ﷺ بين الخيل. وقد تقدم ذكر ذلك في الباب الأول من القسم الثالث من الفن الثالث في الجزء التاسع من هذه النسخة. وفيها كانت غزوة بني المُصْطَلِق بالْمُرَيْسِيع. وحدث في هذه الغزوة وقائع نذكرها في هذا الموضع؛ فيها ما وقع بين المهاجرين والأنصار، وحديث الإفك، وخبر التَّيمُّم.

ذكر ما وقع بين المهاجرين والأنصار(٣) في غزوة المريسيع وما قاله عبد الله بن أبيّ ابن سلول المنافق

قال محمد بن إسحاق: لما كان رسول الله ﷺ على المُرَيْسِيع ـ وهو ماء لبني المصطلق(٤) ـ في نزوله عن غزوته إياهم، وَرَدت واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار، يقال له جَهْجَاهُ بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جَهْجَاه وسِنان ابن وَبَر الجهنيّ ـ حليف بني عوف بن الخزرج ـ على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنيّ: يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين! فغضب عبد الله بن أُبيّ، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم ـ غلام حَدَث ـ فقال: أوَ قَدْ فَعَلوها! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدُّنا وجلابيب قريش(٥) هذه إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكُلْك؛ أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعَزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبل على من حضره من قومه وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم(٦) أموالكم، والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

---

(١) الزيادة من البخاري، وبالأصل بياض.

(٢) استعتب: طلب أن يعتب أي يسترضي؛ تقول: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني.

(٣) في الأصل: «والأراء» ولا معنى له.

(٤) بنو المصطلق: هم بنو جذيمة بن كعب، من خزاعة.

(٥) جلابيب قريش: لقب من كان أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب الأزر الغلاظ، وكانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

(٦) في الأصل: «أحللتموه بلادكم وقاسمتموه أموالكم» وما أثبتناه عن ابن هشام.

قال: فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر: مُرْ به عباد بن بِشْر فليقتله؛ فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يَا عمر إذا تَحدَّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه! لا، ولكن أذِّنْ بالرحيل»، فأرتحل الناس في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، وجاء عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ فحلف بالله: ما قلت ما قال زيد بن أرقم عنّي، وما تكلمت به، فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أَوْهَم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما أستَقَلّ رسول الله ﷺ لقيه أُسَيْد بن حُضَيْر فقال: يا نبيّ الله، والله لقد رُحْتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. قال: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم»؟ قال: أيّ صاحب؟ قال: «عبد الله بن أبيّ» قال: وما قال يا رسول الله؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذل» قال: فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، أرْفُقْ به، فوالله لقد جاء الله بك وإنّ قومه لينْظِمون له الخَرزَ ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك أستَلَبْتَه مُلْكًا. قال: ثم مَتَنَ[1] رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذاك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم[2] الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا إلا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا. قال: وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان من عبد الله بن أبيّ.

قال: ثم هبت ريح شديدة تخوَّفها الناس، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَخوَّفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار». فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قَيْنُقاع ـ وكان من عظماء يهود، وكهفًا للمنافقين ـ مات ذلك اليوم.

ونزلت السورة التي ذكر الله تعالى فيها المنافقين في أبن أبيّ ومن قال بقوله، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأُذُن زيد بن أرقم ثم قال: «هذا الذي أوفى لِلَّه بأُذُنه». وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول ما كان من أمر أبيه، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، إني أخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «نترفَّق به ونحسن صحبته ما بقِي معنا»، وكان بعد ذلك إذا أحدث حَدَثًا كان قومه هم

(١) متن بالناس: أي سار بهم يومه أجمع.

(٢) في الأصل: «آذته» وما أثبت عن ابن هشام.

الذين يعاتبونه ويُعنِّفُونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي ٱقتله لأرْعِدَت [له] آنُفٌ لو أمرتُها اليوم [بقتله] لقتَلَتْه»، فقال عمر: قد والله علمتُ لأمْرُ رسولِ الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

ومن الحوادث في هذه الغزوة حديث الإفْك.

ذكر حديث الإفك وما تكلم به من تكلم من المنافقين وغيرهم فيه وما أنزله الله تعالى من براءة عائشة، وفضل أبيها رضوان الله عليهما

هذا الحديث قد تداوله الرواة وأهل الأخبار والسِّيَر، فمنهم من زاد فيه زيادات كثيرة، وذكر تحامُلَ من تحامَلَ في أمر الإفك، وتعصُّبَ من تعصَّبَ، فعلمت أن إيراد ذلك من أقوالهم يقتضي أن يصير في نفس من سمعه من أهل السنّة شيئاً ممن تكلم عليه بما تكلَّم، ولعل ذلك لم يقع، فرأيتُ أن أقتصر منه على ما ثبت في صحيح البخاريّ، وٱتَّصَل لنا بالرواية الصحيحة، وذكرتُ زيادات ذكرها ٱبن إسحاق ـ رحمه الله ـ ويحتاج إلى إيرادها مما لا ضرر فيه، نبهت عليها بعد مساق الحديث على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى. ولنبدأ بحديث البخاريّ[١]:

حدّثنا الشيخان المسندان المعمَّران؛ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب نعمة الصالحيّ الحجّار، وسِتّ الوزراء أمّ محمد وزيرة بنت القاضي شمس الدين عمر ابن أسعد بن المنجا التَّنُوخيّة الدِّمشقيان قراءة عليهما وأنا أسمع، بالمدرسة المنصورية التي هي بين القصرين بالقاهرة المعزِّية، في جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة، قالا: حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزّبيديّ، في شوّال سنة ثلاثين وستمائة، بدمشق بالجامع المظفَّريّ بسفح جبل قاسِيُون[٢]، قال: حدّثنا أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شُعيب السِّجْزِيّ[٣] قراءة عليه ونحن نسمع ببغداد، في آخر سنة ٱثنتين وأوّل سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال: حدّثنا الشيخ أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفَّر الداوديّ[٤] في شوّال وذي القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة، قال: أخبرنا أبو محمد

(١) الحديث عن صحيح البخاري: ٦ : ٥.
(٢) قاسيون: جبل قرب دمشق.
(٣) السِّجْزِيّ: نسبة إلى سجستان على غير قياس، وفي الأصل: «المنجري» وهو تصحيف.
(٤) في الأصل: «الداوردي» والتصويب عن السمعاني.

عبد الله بن أحمد بن حمويه السَّرَخْسيّ في صفر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفَرَبْريّ بفَرَبْر[١] سنة ستّ عشرة وثلثمائة، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاريّ قراءة عليه بتِبْريز سنة ثمان وأربعين ومائتين، ومرة في سنة اثنتين وخمسين، قال: حدّثنا يحيى بن بُكَير، قال: حدّثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني عُروة بن الزُّبير، وسعيد بن المسيّب، وعَلْقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبيّ ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكلٌّ حدّثني طائفةً من الحديث، وبعضُ حديثهم يُصدِّق بعضًا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض؛ الذي حدّثني عُروة عن عائشة زوج النبيّ ﷺ؛ أن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع[٢] بين أزواجه، فأيتهنّ خرج سهمُها خرج [بها] رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غَزوة[٣] غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحِجاب، فأنا أُحْمَل في هَوْدَجي وأُنزَل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غَزْوته تلك وقَفَل، ودنونا من المدينة قافلين، آذنَ ليلةً بالرّحيل، فقمت حين آذنُوا بالرّحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأنيَ أقبلتُ إلى رَحْلي فإذا عِقْد لي من جَزْع ظَفَارِ[٤] قد انقطع، فالتَمست عِقْدي وحبسني ابتغاؤه[٥]، وأقبل الرهط الذين كانوا يَرْحَلون لي، فاحتملوا هَوْدَجي فرَحَلوه على بعيري الذي كنتُ ركبتُ، وهم يحسبون أنّي فيه، وكان النساءُ إذ ذاك خِفافًا لم يُثقلهنّ اللحم، إنما تأكل العُلْقة[٦] من الطعام، فلم يستنكر القوم خِفّة الهودَج حين رفعوه، وكنتُ جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدتُ عِقْدي بعدما استمرّ الجيش، فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأممتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صَفْوان بن المعطَّل السُّلَميّ ثم الذَّكْوانيّ من وراء الجيش، فأَدْلَجَ فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحِجاب، فاستَيقظتُ باسترجاعه[٧] حين عرفني، فخَمَّرت[٨] وجهي بجِلبابي، ووالله ما

(١) فربر: بلد قرب بخارى.

(٢) أقرع: أي يجري القرعة.

(٣) هي غزوة بني المصطلق من خزاعة.

(٤) جزع ظفار: خرز معروف في سواده بياض كالعروق. وظفار مدينة باليمن. ويروى «أظفار».

(٥) حبسني ابتغاؤه: أخر في البحث عنه.

(٦) العُلْقَة: القليل.

(٧) الاسترجاع: أن نقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٨) خمرت وجهي: غطيته.

كلَّمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ ٱسترجاعه حتى أناخ راحلته، فوطىء على يدها فركبتها، فٱنطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُوغرين(١) في نَحْر الظهيرة، فَهَلك من هَلَكَ(٢) ـ وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبيّ ابن سلول، فقدِمنا المدينة، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهرًا، والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني(٣) في وجعي، أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلّم ثم ينصرف، فذلك الذي يريبني، ولا أَشْعر بالشّر حتى خرجتُ بعدما نَقَهتُ(٤)، فخرجت معي أمّ مِسْطَح قِبَل المناصع ـ وهو مُتبرَّزنا(٥) ـ وكنا لا نخرج إلاّ ليلاً إلى لَيْل، وذلك قبل أن نَتّخذ الكُنُف(٦) قريبًا من بيوتنا، وأَمْرُنا أَمْرُ العرب الأُوَل في التبرز [قِبَل] الغائط، فٱنطلقت أنا وأمّ مِسْطح، وهي بنت أبي رُهْم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بنْ عامر خالةُ أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وٱبنُها مِسْطح بن أثاثَة، فأقبلت أنا وأمّ مِسْطح قِبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثَرت أمُّ مِسْطح [في مِرْطها]، فقالت: تَعِس مِسْطح؛ فقلتُ لها: بئس ما قلت: أتسبِّين رجلاً قد شَهد بدرًا؟ قالت: أيْ هَنْتاهْ، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فٱزددتُ مرضًا على مرضي، قالت: فلما رجعتُ إلى بيتي، ودخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قِبلهما؛ قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويّ، فقلت لأُمّي: يا أُمّتاه، ما يتحدّث الناس؟ قالت: يا بُنيّة، هَوِّني عليك، فوالله لقلَّما كانت امرأة قَطّ وضيئةً(٧) عند رجل يحبها ولها ضرائر(٨) إلا أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا؟! قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرْقأ(٩) لي دَمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد

(١) موغرين: داخلين. نحر الظهيرة: حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع.
(٢) أي بسبب الإفك.
(٣) يريبني: يشككني ويوهمني.
(٤) نقهت: تماثلت للشفاء.
(٥) المتبرز: المكان المخصص لقضاء الحاجة: كالمرحاض.
(٦) الكنف: المراحيض، واحدها كنيف.
(٧) وضيئة: جميلة.
(٨) الضرائر: الزوجات الأخريات لزوجها، واحدتها: ضرة.
(٩) يرقأ: ينقطع.

رضي الله عنهما حين ٱستلبث الوحي[١] يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أُسامة ابن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الوُدّ، فقال: يا رسول الله، أهلَك وما نعلم إلا خيرًا. وأما عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله، لم يُضيِّق الله عليك، والنساء سواها كثير[٢]، وإن تسأل الجارية تَصدقْك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بَرِيرة فقال: «أي بَريرة هل رأيتِ من شيء يريبك»؟ قالت بَريرة: لا والذي بعثك بالحقّ، إن رأيتُ عليها أمرًا أَغمِصُه[٣] عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجِنُ[٤] فتأكله. فقام رسول الله ﷺ فٱستعذَرَ من عبدالله بن أبيّ بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يَعْذِرني[٥] مِن رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي! فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما كان يَدخُل على أهلي إلاّ معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاريّ فقال: يا رسول الله، أنا أَعِذرك منه؛ إن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخَزْرج أمرتَنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عُبادة وهو سيّد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحَمِيَّة[٦]. فقال لسعد: كذبتَ، لعَمْرُ الله[٧] لا تقتله، ولا تقدر على قتله، وقام أُسَيْد بن حُضَيْر ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لسعد بن عُبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل في المنافقين. فتثاور الحيّان: الأوسُ والخزرجُ حتى هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفِّضهم[٨] حتى سكتوا وسَكتَ. قالت: فبكيتُ يومي ذلك لا يَرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويومًا لا أكتحل بنوم ولا يَرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كَبِدي، فقالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فٱستأذنتْ عليّ ٱمرأةٌ من الأنصار فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم ثم

---

(١) استلبث الوحي: أي طال لبث نزوله.

(٢) في الأصل: «كثيرون تسأل... الخ» والمثبت عن البخاري.

(٣) إن رأيت: ما رأيت، أغمصه: أعيبه.

(٤) الدواجن: الشاة التي تألف البيوت، ولا تخرج إلى المرعى.

(٥) من يعذرني: من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعله، ولا يلومني، أو من ينصرني.

(٦) احتملته الحمية: أغضبته.

(٧) لعمر الله: أي وبقاء الله.

(٨) يخفضهم: يسكنهم ويهون عليهم الأمر.

جلس، قالت: لم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أمّا بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنّ العبد إذا أعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه». قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ[١] دمعي حتى ما أحِسُّ منه قَطْرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمّي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إنّي والله لقد علمتُ؛ لقد سمعتم هذا الحديث حتى أستقرّ في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت لكم إنّي بريئة لا تُصدِّقوني بذلك، ولئن أعترفت بأمرٍ واللّهُ يعلم أنّي بريئة منه لتصدقنّي، واللّهِ ما أجد لكم مَثَلًا إلا قولَ أبي يوسف، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تَحولتُ فاضطجعتُ على فراشي، قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئة، وأن الله يبرئني ببراءتي، ولكن والله ما كنتُ أظن أنّ الله مُنزلٌ في شأني وحيًا يُتلى، ولَشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلّم الله فيّ بأمر يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما رَامَ[٢] رسولُ الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما يأخذه من البُرَحاء[٣]، حتى إنه ليتَحدَّر منه مثلُ الجُمَان[٤] من العرَق - وهو في يوم شاتٍ - من ثقل القول الذي ينزل عليه، قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، سُرِّيَ عنه وهو يضحك، فكانت أوّل كلمة تكلّم بها: «يا عائشة، أمّا اللهُ فقد برّأك»، فقالت أمّي: قومي إليه، قالت فقلت: واللّهِ لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عزّ وجل، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا

---

(١) قلص دمعي: جف.
(٢) ما رام: أي: ما فارق.
(٣) البرحاء: العرق من شدة ثقل الوحي.
(٤) الجمان: اللؤلؤ.

إن كنتم مؤمنين ﴿١٧﴾ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴿١٨﴾ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿١٩﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ١١- ٢٠]، قالت عائشة: فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي، قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وكان ينفق على مِسْطح بن أثاثة لقرابته وفقره: والله لا أنفق على مِسْطَح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ ما قال، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكر رضي الله عنه: بلى واللَّهِ إني أحبّ أن يغفر الله لي، فرَجَع إلى مِسْطح النفقةَ التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جَحْش عن أمري فقال: «يا زينب ماذا علمتِ أو رأيتِ»؟ فقالت: يا رسول الله، أَحْمي سمعي وبصري، ما رأيتُ إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تُسامِيني(١) من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطَفِقت أختها حَمْنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك. انتهى حديث البخاريّ.

وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى عُروة بن الزُّبير، وعبد الله بن عبد الله بن عُتْبة، وعبد الله بن الزبير، وعَمْرة بنت عبد الرحمٰن، كلهم يُحدِّث عن عائشة ـ رضي الله عنهم ـ بنحو هذا الحديث، وزاد فيه من قول أُسامة بن زيد؛ فأثنى خيرًا، وقاله؛ ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وهذا هو الكذب والباطل. قال: وأمّا عليّ بن أبي طالب فإنه قال: يا رسول الله، إنّ النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تَستخلِف، واسأل الجارية فإنها ستَصْدقُك. قال: فدعا رسول الله ﷺ بَريرة ليسألها، فقام إليها عليّ بن أبي طالب فضربها ضربًا شديدًا، وقال: اصْدُقِي رسول الله. وساق نحو ما تقدم. وقال في خبر الوحي: قالت فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تَغشّاه من الله ما كان يتغشّاه، فسُجِّي بثوبه، ووُضِعت له وِسادة من أدَم تحت رأسه، فأمّا أنا حين رأيت ما رأيت فوالله ما فزِعتُ ولا باليتُ؛ قد عرفت أني منه بريئة، وأنّ الله غير ظالمي، وأمّا أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ حتى ظننتُ لتخرجنّ أنفسُهما فَرَقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس. وساق الحديث بنحو ما تقدم. ثم قال: قالت: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمِسْطح بن

---

(١) تساميني: أي تضاهيني، وتفاخرني بجمالها ومكانتها عند النبي ﷺ.

أُثاثة، وحسّان بن ثابت، وحَمْنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُرِبوا حدّهم؛ فقال رجل من المسلمين في ذلك: [من الطويل]

لَقد ذاقَ حسّانُ الذي كان أهلَه ... وَحَمْنةُ إذ قالوا هَجيرًا ومِسْطَحُ(١)

تَعاطَوْا برجم الغيبِ زوجَ نَبِيِّهمْ ... وسَخْطةَ ذي العَرْش الكريم فأتْرِحُوا(٢)

وآذَوْا رسولَ الله فيها فَجُلِّلوا ... مَخازي تَبْقَى عُمِّموها وفُضِّحُوا(٣)

وصُبّتْ عليهم مُحْصداتٌ كأنها ... شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرَى المُزْنِ تَسْفَحُ(٤)

وحكى أبو عمر بن عبد البر في ترجمة مِسْطح ـ وهو عوف بن أُثاثة بن عبّاد بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصيّ، وأمه سلمى بنت صخر بن عامر خالة أبو بكر الصدِّيق. قال: وذكر الأموي عن أبيه عن ابن إسحاق قال: قال أبو بكر يذكر مِسطحًا: [من البسيط]

يا عوفُ ويحكَ هَلاَّ قلتَ عارِفةً ... من الكلام ولم تُتبع بها طَمَعا

وأدركتك حُمَيّا مَعْشَرٍ أُنُفٍ ... ولم تكن قاطعًا يا عَوْفُ مَنْ قَطَعا

هلاَّ حَرِبْتَ من الأقوام إذ حسدوا ... فلا تقولُ ولو عاينته قَذَعَا(٥)

لمّا رَمَيْتَ حَصانًا غيرَ مُقْرِفَةٍ ... أمِينَةَ الجَيْبِ لم نعلم لها خَضَعًا(٦)

فيمن رماها وكنتم مَعْشَرًا أُفُكًا ... في سَيِيءِ القول من لفظ الخَنَا شَرَعًا(٧)

فأنزل الله وَحْيًا في براءتها ... وبين عَوفٍ وبين الله ما صَنَعَا

فإن أَعِشْ أَجْزِ عَوْفًا عن مقالته ... شَرَّ الجزاءِ إذا أَلْقَيْتُه تَبِعَا

ولعل هذا الشِّعر إن صحَّ عن أبي بكر فيكون قاله قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٢] الآية. فإنه قد صح أن أبا بكر قال عند نزولها: والله إنّي أُحِبّ أن يغفر الله لي، ورجَعَ إلى مِسْطح النفقةَ التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبدًا.

---

(١) الهجير: الفحش من القول. (٢) الرجم: الظن. أترحوا: أحزنوا.

(٣) عمموها وفضحوا: أي لحقت بهم وفضحتهم.

(٤) محصدات: يعني سياطًا محكمة الفتل شديدات. شآبيب: جمع شؤبوب، وهو الدفعة من المطر. الذري: الأعالي، وتسفح: تسيل.

(٥) القذع: الفاحش من الكلام.

(٦) الحصان: الشريفة، مقرفة: مذنبة. أمينة الجيب: شريفة.

(٧) أفكا: كاذبين، الخنا: الكلام البذيء السيىء.

وقال محمد بن إسحاق: حدّثني أبي إسحاق بن يَسَار عن بعض رجال بني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد، قالت له ٱمرأته أمّ أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنتِ يا أمّ أيوب فاعلة؟ قالت: لا واللّهِ ما كنتُ لأفعله؛ قال: فعائشة والله خيرٌ منكِ. فلما نزل القرآن بذكر من قال من أهل الفاحشة ما قال أهل الإفك، ثم قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، أي فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته.

قال ابن إسحاق: وكان حسّان بن ثابت قال شعرًا يُعرِّض فيه بصفوان بن المعَطّل(١)، فٱعترضه صفوان فضربه بالسيف، ثم قال: [من الطويل]

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عنكَ فإنّني غلامٌ إذا هُوجيتُ لستُ بشاعرِ(٢)

فوثب ثابت بن قيس بن شَمّاس على صفوان بن المعطّل حين ضرب حسّان فجمع يديه إلى عنقه بحبل، ثم ٱنطلق به إلى دار بني الحارث بن الخَزْرَج، فلقيه عبد الله بن رَواحة فقال: ما هذا؟ قال: أما أَعجَبك(٣)! ضربَ حسّانَ بالسيف والله ما أراه إلا قد قتله؛ فقال له عبد الله بن رَوَاحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيء مما صنعت؟ قال: لا والله؛ قال: لقد ٱجترأتَ، أطلق الرجل، فأطلقه، ثم أتوا رسول الله ﷺ، فذكروا ذلك له، فدعا حسّان وصفوان، فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني، فحملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ: «يا حسّان، أَتَشَوَّهْتَ(٤) على قومي أن هداهم الله للإسلام»؟ ثم قال: «أَحْسِن يا حسّان في الذي قد أصابك» قال: هي لك؛ فأعطاه رسول الله ﷺ عِوضًا عنها بَيْرحَا ـ وهي قصر بني حُدَيْلَة ـ كانت مالا لأبي طلحة وتصدّق بها إلى رسول الله ﷺ، فأعطاها حسّانَ في ضربته، وأعطاه سِيرين ـ أَمَةً قِبْطِيَّة ـ فولدت له عبد الرحمٰن بن حَسّان(٥). قال: وكانت عائشة رضي الله عنها

---

(١) صفوان بن المعَطّل: صفوان بن المعطّل بن رحضة السُلمي الذكواني أبو عمرو (. . . ـ ١٩ هـ = . . . ـ ٦٧٠ م) صحابي، شهد الخندق والمشاهد كلها، وحضر فتح دمشق. . . وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي عائشة ما قالوا. (الأعلام: ٣: ٢٠٦).

(٢) ذباب السيف: حدّ السيف.

(٣) قال السهيلي: «معناه: أما جعلك تعجب، تقول: عجبت من الشيء وأعجبني الشيء إذا كان ذلك العجب من مكروه أو محبوب».

(٤) أتشوّهتَ: أقبحت ذلك من فعلهم حين سميتهم بالجلابيب من أجل هجرتهم إلى الله ورسوله.

(٥) عبد الرحمٰن بن حسان: عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي (٦ ـ ١٠٤ هـ = ٦٢٧ ـ ٧٢٢ م) شاهر ابن شاعر، كان مقيمًا في المدينة، وتوفي فيها. اشتهر بالشعر زمن أبيه. . وفي تاريخ وفاته خلاف. (الأعلام: ٣: ٣٠٣).

تقول: لقد سُئل عن ابن المعطَّل فوجوده رجلاً حَصورا[١] ما يأتي النساء، ثم قُتِلَ بعد ذلك شهيدًا رضي الله عنه.

وقال حسّان بن ثابت يعتذر من الذي كان منه في شأن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: [من الطويل]

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحوم الغَوَافلِ[٢]

عِقيلةُ حَيٍّ من لُؤَيِّ بن غالبٍ ... كِرام المساعِي مجدُهم غير زائلِ[٣]

مُهَذَّبَةٌ قد طَيَّبَ اللَّهُ خِيمَها ... وطَهَّرَها مِن كلِّ سُوءٍ وباطلِ[٤]

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمْتُم ... فلا رَفعتْ سَوْطِي إليّ أنامِلي

وكيف ووُدّي ما حَيِيتُ ونُصرتي ... لآلِ رسول الله زَيْنِ المحافِلِ

له رَتَبٌ عالٍ على الناس كلِّهمْ ... تَقَاصَر عنها سَوْرَةُ المتطاولِ[٥]

فإنّ الذي قد قِيل ليس بِلائِطٍ ... ولكنه قولُ امرىءٍ بِيَ ماحِلِ[٦]

وقد روينا عن البخاريّ رحمه الله بالإسناد المتقدم، قال: حدّثنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء حسّان بن ثابت يستأذن عليها، قلت: أتأذنين لهذا؟ قالت: أو ليس قد أصابه عذاب عظيم؟ قال سفيان: تعني ذهاب بصره، فقال:

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبةٍ ... وتُصبحُ غَرْثَى مِن لُحوم الغَوافِل

قالت: لكن أنتَ[٧].

وعن مسروق أيضًا قال: دخل حسّان على عائشة فَشبَّب فقال: حَصانٌ رَزانٌ... البيت. قالت: لستَ كذلك، قلت: تَدعِين هذا يدخل عليك وقد أنزل الله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ [النور: ١١]؟ قالت: وأيُّ عذاب أشدُّ من العمى! وقد كان يَرُدُّ عن رسول الله ﷺ.

---

(١) حصورًا: لا يأتي النساء.

(٢) الحصان: العفيفة، الرزان: الملازمة موضعها، التي لا تتصرف كثيرًا، ما تُزَن: ما تتهم. غرثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة، أي لا ترتع في أعراض الناس.

(٣) العقيلة: الكريمة، المساعي: جمع مسعاة، وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم.

(٤) الخيم: الطبع الأصيل.

(٥) السورة: المنزلة والرتبة.

(٦) اللائط: اللاحق اللازق، هكذا ورد هذا البيت في الأصل والذي في ديوان حسان: الدهر بل قول امرىء بي ماحل. الماحل: المشّاء بالنميمة.

(٧) إشارة إلى أنه اغتابها في قصة الإفك.

ذكر خبر التيمم

من أهل العلم من ذهب إلى أن آية التيمم أنزلت في غزوة المُرَيْسِيع[١]، ومنهم من ذهب إلى أنها أنزلت في غيرها. روى أبو عبد الله محمد البخاريّ رحمه الله بسنده عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبَيْداء ـ أو بذات الجيش ـ آنقطع عِقْد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناسُ معه وليسوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبي بكر الصّدِّيق فقالوا: أَلا تَرَى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ والناسِ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التَّيمّم فتيمّموا، فقال أُسَيْد بن الحُضَيْر: ما هي بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه، فأصبنا العِقْد تحتَه.

حوادث السنة السادسة[٢]

فيها كانت غزوة الحُدَيْبية، وبيعة الرِّضوان، وهُدنة قريش، على ما نذكر ذلك كله في الغزوات إن شاء الله تعالى، وفيها قُحِطَ[٣] الناسُ، فآستسقى رسول الله ﷺ بالناس في شهر رمضان فسُقوا، وفيها هاجرت أمّ كلثوم.

ذكر هجرة أمّ كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط، وما أنزل الله تعالى في هجرة النساء

لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة الحُدَيْبيّة، بعد أن حلت الهُدْنة، وتقررت القَضِيّة، وكان فيما وقع عليه الصُّلْح: أنه من جاء إلى رسول الله ﷺ من قريش بغير إذن وَليِّه ردَّه إليهم، وردَّ من ردَّ من رجال المسلمين، على ما نذكر ذلك إن شاء الله

---

(١) المريسيع: ماء لبني خزاعة بينه وبين الفُرُع مسيرة يوم، وهذه الغزوة هي غزوة بني المصطلق.
(٢) في الأصل: «الثالثة» وهو تحريف.
(٣) قُحِط الناس: أصابهم القحط.

في الغزوات. ثم هاجرت أمّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط إلى رسول الله ﷺ في تلك المدة، فخرج أخواها عُمارة والوليد، ابنا عقبة، حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردّها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش، فلم يفعل ذلك؛ وذلك أن الله عزّ وجل أنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [الممتحنة: ١٠ ـ ١١]، فمنع رسول الله ﷺ النساء لذلك، وأمر بردّ صَدُقاتهنّ إليهم إن هم ردّوا على المسلمين صدُقات من حَبسوا عنهم من نسائهم.

قال ٱبن إسحاق: ولما أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، كان ممن طَلّق عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، طلّق ٱمرأتيه قُرَيْبَة ابنة أبي أميّة بن المغيرة، فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وأمّ كلثوم بنت جَرْوَل أمّ عُبيد الله ابن عمر الخُزَاعيّة، فتزوّجها أبو جَهْم بن حُذَيفة بن غانم، وكانوا إذ ذاك على شركهم. والله أعلم.

[حوادث السنة السابعة(١)]

فيها تزوج رسول الله ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وصَفيّة بنت حُيَيّ بن أَخطب، وميمونة بنت الحارث الهلالية. وفيها أسلم أبو هُرَيْرة ـ وٱسمه في الجاهلية عُمَيْر بن عامر بن عبد ذي الشَّرَى، وفي الإسلام عبد الرحمٰن بن صخر الدَّوْسيّ، وأسماؤه كثيرة بحسب ما ورد من ٱختلاف أقوال الرواة، وقد صححوا ما ذكرناه، والله أعلم ـ وعمران بن حُصَيْن. وفيها حُرِّمت الحُمُر الأهلية، ومُتْعة النساء على ما نذكر ذلك إن شاء الله في غزوة خَيْبر. وفيها بعث رسول الله ﷺ الرُّسل إلى الملوك، وقدم حاطب بن أبي بَلْتَعة(٢) من عند المُقَوْقِس بمارِيّة بنت شَمْعُون القِبْطيّة أمّ إبراهيم عليه السلام وأختها شِيرين. وفيها قدم جعفر بن أبي طالب ومن كان قد بقي من المهاجرين بأرض الحبشة، وقد تقدم ذكرهم.

---

(١) العنوان ساقط من الأصل.

(٢) حاطب بن أبي بلتعة: ابن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى. وهو صاحب قصة مكاتبة أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله ﷺ. شهد بدرًا واعتذر. فقبل عذره، مات في سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله خمس وستون سنة. انظر: (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٣٠٠، رقم الترجمة ١٥٣٨).

حوادث السنة الثامنة

فيها وُلد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية. وفيها توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ. وفيها وَهَبَت سَوْدَة زوج النبي ﷺ يومها لعائشة رضي الله عنها حين أراد طلاقها. وفيها عُمِل منبر رسول الله ﷺ وخطب عليه.

ذكر اتخاذ رسول الله ﷺ المنبر وخطبته عليه

روى محمد بن سعد في طبقاته الكبرى بسنده عن أبي هُريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جِذْع في المسجد قائمًا، فقال: «إن القيام قد شَقَّ عليّ»، فقال له تميم الداريّ: ألا أعمل لك مِنْبرًا كما رأيتُ يُصنع بالشام؟ فشاور رسولُ الله ﷺ المسلمين في ذلك، فرأوا أن يتخذه، فقال العباس بن عبد المطلب إن لي غلامًا يقال له كِلاب أعْمَلُ الناس، فقال رسول الله ﷺ: «مُرْه أن يعمله»، فأرسله إلى أَثْلَة[١] بالغابة فقطعها، ثم عمل منها درجتين ومقعدًا، ثم جاء به فوضعه في موضعه [اليوم]، فجاء رسول الله ﷺ فقام عليه وقال: «مِنْبَري هذا على تُرعة[٢] من تُرع الجنة، وقوائم مِنْبَري رواتب في الجنة». وعن سهل بن سعد وقد سئل عن مِنْبر رسول الله ﷺ من أي عُود هو؟ فقال: أرسل رسول الله ﷺ إلى فلانة ـ امرأة سماها ـ فقال: «مُري غلامَكِ النجار يعمل لي أعوادًا أكلّم الناس عليها»، فعمل هذه الثلاث درجات من طَرْفَاء[٣] الغابة، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في هذا الموضع. وقد رُوي عن باقُوم الروميّ أنه قال: صنعت لرسول الله ﷺ منبرًا من طرفاء، ثلاث درجات: القعدة ودرجتيه؛ رواه عنه صالح مولى التَّوْأمة[٤] حكاه أبو عمر في ترجمة باقوم. ولما انتقل رسول الله ﷺ إليه كان من حِنين الجِذْع ما نذكره إن شاء الله تعالى في معجزاته ﷺ.

وفي هذه السنة أسلم عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، على ما نشرح ذلك.

ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

كان سبب إسلامهم على ما حكاه محمد بن إسحاق بسنده يرفعه إلى عمرو بن

---

(١) الأَثْلَة: نوع من الشجر منه صنع منبر الرسول ﷺ (اللسان: أثل).

(٢) الترعة: الباب (اللسان: ترع).

(٣) طَرْفَاء الغابة: نوع من الشجر.

(٤) التوأمة: هي بنت أمية بن خلف الجمحي، وإنما قيل لها التوأمة لأنها كانت معها أخت لها في بطن (انظر أسد الغابة).

العاص، قال عمرو: لمّا أنصرفنا مع الأحزاب عن الخَنْدَق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون منّي، فقلت لهم: تَعلموا والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمورَ عُلوًّا مُنكرًا، وإنّي قد رأيت أمرًا فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نَلْحق بالنّجاشيّ[1] فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النَّجاشيّ، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدَيْ محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا لرأيٌ، قلت: فاجمعوا ما يُهدَى له، وكان أحبَّ ما يُهدَى إليه من أرضنا الأدَم، فجمعنا أدَمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه. فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضَّمْري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النَّجاشيّ وسألته إياه فأعطانيه فضربتُ عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأيت قريش أني قد أجْزَأْت[2] عنها، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال لي: مرحبًا بصديقي، أهديتَ لي من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدَمًا كثيرًا، ثم قرّبته إليه فأعجبه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو أنشقت الأرض لدخلت فيها فَرَقًا[3] منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النّاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ﷺ لتقتله! فقلت: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: وَيْحَكَ يا عمرو، أطعني وأتّبِعه، فإنه والله لعلى الحقّ، وليظهرنّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يداه فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمتهم إسلامي.

ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ، فلقيت خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة، فقلت: إلى أين يا أبا سليمان؟ فقال: لقد أستقامَ المِنْسَم[4]، وإنّ الرجل لنبيّ، أذهب والله فأسلم فحتى متى! قال قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد، فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول

(١) النجاشي: لقب ملك الحبشة.
(٢) أجزأت عنها: قمت مقامها.
(٣) فرقًا: خوفًا.
(٤) استقام المنسم: معناه: تبين الطريق، ووضح، وفي الأصل: «المبسم» وفي ابن هشام: «الميسم» والتصويب عن الخشني وابن الأثير.

الله، إني أبايعك على أن يُغفَر لي ما تقدَّم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر، فقال: يا عمرو: بايع فإن الإسلام يَجُبُّ[١] ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها»، فبايعت ثم ٱنصرفت.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما فأسلم حين أسلما.

حوادث السنة التاسعة

فيها آلى[٢] رسول الله ﷺ من نسائه، وأقسم ألاّ يدخل عليهنّ شهرًا. وكان سبب الإيلاءِ ما رواه البخاريّ بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يحبّ العسل والحلواء، وكان إذا ٱنصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهنّ، فدخل على حَفْصة بنت عمر فاحتبس[٣] أكثر ما كان يحتبس فغِرْتُ، فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها ٱمرأة من قومها عُكَّة عسل، فسقت النبيّ ﷺ منه شَرْبة، فقلت: أمَا والله لنحتالنّ له، فقلت لسَوْدة بنت زَمْعة: إنه سيدنو مِنك، فإذا دنا منك فقولي له: أكلتَ مَغَافِير[٤]، سيقول لكِ: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لكِ: سقتني حفصة شَرْبة عسل، فقولي له: جَرَسَت[٥] نحلُه العُرْفُطَ، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفية ذلك، قالت: تقول سَوْدَة فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أبادئه بما أمرتني به فرقاً منك. ومن رواية مسلم قالت: تقول سَوْدة: فوالذي لا إلٰه إلا هو لقد كدتُ أبادئه بالذي قلت لي، وإنه لعلى الباب فَرَقًا منك. قال البخاريّ: فلما دنا منها قالت له سَوْدة: يا رسول الله، أكلت مَغَافِير؟ قال: «لا»، قلت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقَتْنِي حَفْصةُ شَرْبة عسل» فقالت: جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُط، فلما دار إليّ قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حَفْصة قالت له: ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه» قالت: تقول سَوْدة والله لقد حَرَمْناه[٦]، قالت لها: ٱسكتي[٧]. وفي

---

(١) يَجُبُّ: يقطع ويمحو. (٢) آلى: هجر، اعتزل.
(٣) احتبس: لبث.
(٤) المغافير: نوع من الصمغ ينضحه شجر العرفط (اللسان: غفر).
(٥) جرست: أكلت: يقال للنحل: الجوارس، والعرفط: شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحل حصل في عسلها من ريحه.
(٦) حرمناه: منعناه من العسل.
(٧) قلت لها: اسكتي: أي قالت السيدة عائشة لسودة، اسكتي لئلا يظهر ما دبرته لحفصة.

رواية عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحَفْصَة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مَغَافِير، قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تُخبري بذلك أحدًا»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ [التحريم: ١].

وروى مسلم بن الحجاج في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطَفِق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعَوَالي، فتغضَّبت يومًا على امرأتي، فإذا هي تُراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبيّ ﷺ ليراجِعْنَه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فانطلقت فدخلت على حَفْصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ فقالت: نعم، [فقلت: أتهجره إحداكنّ إلى الليل؟ قالت: نعم، فقلت][1]: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر، أفتأمَنُ إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ؟ فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئًا، وسليني ما بدا لك، ولا يغرّنك أن كانت جارتك هي أوْسمُ وأحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك، يريد عائشة.

ومن رواية البخاريّ قال: خرجت حتى دخلتُ على أمّ سلَمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أمّ سَلَمة: عجبًا لك يا بن الخطّاب! دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه، فأخذتني والله أَخْذًا كَسَرَتْني عن بعض ما كانت أجِد، فخرجت من عندها.

رجعنا إلى حديث مسلم: قال عمر: وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوَحْي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غسّان تُنعِل الخيل لِغزونا[2]، فنزل صاحبي، ثم أتاني عِشاء فضرب بابي، ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمرٌ عظيم، فقلت: ماذا، أجاءت غَسّان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طَلَّق النبيُّ ﷺ نساءَه، فقلت: قد خابت حَفْصة وخَسِرت، وقد كنت أَظُنّ هذا كائنًا، حتى إذا صلّيتُ الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكنّ رسول الله ﷺ؟

(١) الزيادة من صحيح مسلم: ٤: ١٩٣.
(٢) في مسلم: لتغزونا.

فقالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في هذه المَشْرُبَة، فأتيت غلامًا له أسود فقلت: اْستأذِن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتُك له فصَمتَ فانطلقتُ حتى اْنتهيتُ إلى المِنبر، فجلستُ، فإذا عنده رهطٌ[١] جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجِد، ثم أتيتُ الغلام فقلت: اْستأذِنْ لعمر، فدخل ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرتك له فصمَتَ، فَوَلَّيْتُ مدبرًا، فإذا الغلام يدعوني، فقال: اْدْخُل فقد أَذِن لك، فدخلتُ فسلّمتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو مُتَّكِىءٌ على رَمْل[٢] حصير قد أثَّر في جنبه فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: «لا»، فقلت: الله أكبر، لو رأيتَنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قَدِمْنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تُنكر أن أراجعك؟ فوالله إنّ أزواج النبيّ ﷺ ليراجعْنَه وتهْجُره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهنّ وخَسِر، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلكت، فتبسَّم رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد دخلت على حَفْصة فقلت: لا يغُرَّنكِ إن كانت جارَتُكِ هي أوْسَمُ مِنكِ وأحبُّ إلى رسول الله منكِ، فتبسم أخرى.

ومن رواية البخاريّ - قال عمر: فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث، فلما بلغت حديث أمّ سَلَمة، تبسم رسول الله ﷺ، ولم يذكر التّبسم فيما قبلها.

قال مسلم في حديثه: فقلت أستأنس[٣] يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلستُ فَرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر إلا أَهُبًا[٤] ثلاثة، فقلت: اْدع الله يا رسول الله أن يُوَسِّع على أمتك، فقد وَسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسًا ثم قال: «أفي شك أنت يا بن الخطاب، أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله، قال: وكان أقسم ألاّ يدخل عليهنّ شهرًا من شدة مَوْجِدَته[٥] عليهنّ حتى عاتبه الله عزّ وجل.

وعن عُرْوة عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما مضى تسع وعشرون ليلة دخل عليَّ رسول الله ﷺ - بدأ بي - فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت الاّ تدخل علينا شهرًا، وإنك دخلت من تسع وعشرين، أعدّهُن؟ فقال: «إنّ الشهر تسع وعشرون»، ثم

(١) رهط: جماعة.
(٢) رمل حصيد: ليس له وطاء غيره.
(٣) المراد بهذه الكلمة الاستئذان في الأنس والمحادثة، كما يستفاد من الشرح.
(٤) الأهب: الجلود.
(٥) الموجدة: الغضب.

قال: «يا عائشة، إني ذاكر لكِ أمرًا فلا عليك ألاّ تَعْجَلِي حتى تَستأمري أَبويْك» ثم قرأ عليّ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ـ ٢٩] فقالت عائشة: قد علِم واللّهِ أن أبويّ لم يكونا ليأمراني بفراقه، فقلت: أو في هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وفيها هَدَم رسولُ الله مسجد الضِّرَار.

ذكر خبر مسجد الضرار وهدمه ومن ٱتخذه من المنافقين

وكان هدم مسجد الضِّرار عند مُنصَرَف رسول الله ﷺ من غزوة تَبُوك، وكان أصحابه الذين بنوه ٱثني عشر رجلاً: وهم خذَام بن خالد ومن داره خرج، وثَعْلَبَة بن حاطب، ومُعَتب بن قُشَيْر، وأبو حَبِيبة بن الأزْعَر، وعبَّاد ٱبن حَنِيف، وجارية بن عامر، وٱبناه مجمِّع وزيد، ونَبْتَل بن الحارث، وبَحْزَج من بني ضُبَيعة، وبِجَاد بن عثمان من بني ضُبَيْعة، ووَدِيعَة بن ثابت، فأتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهَّز إلى تَبُوك، فقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجدًا لذِي العِلَّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إنّي على جَناح سَفَر وحال شُغل ـ أو كما قال ﷺ ـ ولو قد قَدِمْنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه» فلما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تَبُوك نزل بذِي أَوَانٍ ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف، ومَعْن بن عديّ، أو أخاه عاصم بن عديّ، فقال: «ٱنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحَرِّقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم، فقال مالك لِمَعْن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله فأخذ سَعَفًا من النَّخل فأشعل فيه نارًا، ثم [خرجا][1] يشتَدّان حتى دخلاه وفيه أهله فحرّقاه وهدماه وتفرّقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ـ ١١٠].

---

(١) الزيادة عن ابن هشام.

وفيها لاعَنَ رسولُ الله ﷺ بينَ العَجْلانيّ وبين امرأته في مسجده بعد صلاة العصر في شعبان، وكان عُوَيْمِر قدِم من تَبُوك فوجدها حُبْلَى. وفي شوّال منها مات عبد الله بن أبيّ ابن سَلُول المنافق، وصلى عليه رسول الله ﷺ، ولم يصلّ بعدها على منافق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] الآية.

وفيها ماتت أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ. وفيها نَعَى رسولُ الله ﷺ النجاشيَّ في اليوم الذي مات فيه بالحبشة، وقيل: في شهر رجب، وفيها أسلم كعب بن زُهير. والله أعلم بالصواب.

ذكر إسلام كَعْب بن زُهَيْر بن أبي سُلْمَى(١) وامتداحه رسول الله ﷺ

كان سبب إسلامه أنّ رسول الله ﷺ لما انصرف عن الطائف كتب أخوه بُجَيْر بن زُهَيْر(٢) إليه يخبره أن النبي ﷺ قتل رجلاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش كابن الزِّبْعَرَى، وهُبَيْرة بن أبي وَهْب قد هربوا في كل وَجْه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فَطِر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وإن أنت لم تَفْعَل فانجُ إلى نَجَائك من الأرض، وكان كعب قد كتب إلى أخيه بُجَيْر لمّا بلغه إسلامه: [من الطويل]

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّي بُجَيْرًا رسالَةً ... فهل لك فيما قُلْتُ وَيْحَك هل لَكا
شَرِبْتَ مع المَأْمُونِ كأْسًا رَوِيَّةً ... فأَنْهَلَك المأمونُ منها وعَلَّكا(٣)
وخالفتَ أسْبَاب الهُدى وَاتَّبَعْتَه ... على أيِّ شيءٍ وَيْبَ غَيْرِك دَلَّكا(٤)

---

(١) كعب بن زهير: كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المضرَّب: (. . . ـ ٢٦ هـ = . . . ـ ٦٤٥ م) شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد. كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ فهدر النبي ﷺ دمه، فجاءه «كعب» مستأمنًا وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة. وهو من أعرق الناس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير، وابنه عقبة، وحفيده العوام، كلهم شعراء. . (الأعلام: ٥: ٢٢٦).

(٢) بجير بن زهير بن أبي سلمى: المزني الشاعر، أخو كعب. أسلم قبل أخيه. (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ١٣٨. رقم الترجمة ٥٩٠).

(٣) المأمون: يعني النبي ﷺ وكانت قريش تسميه المأمون والأمين. والنهل: الشرب الأول، والعلل: الشرب الثاني.

(٤) ويب غيرك: ويح غيرك.

عـلـى خُـلُـقٍ لـم تُـلْـفِ أُمًّـا ولا أبًـا   عـلـيـه ولـم تُـدرك عـلـيـه أخًـا لَـكَـا

ويروى:

عـلـى خُـلُـقٍ لـم تُـلْـفِ يـومًـا أبًـا لـه   عـلـيـه ومـا تُـلْـفِـي عـلـيـه أبًـا لَـكَـا

فـإن أنـتَ لَـم تـفـعـلْ فـلـسـتُ بـآسِـفٍ   ولا قـائـل إمَّـا عَـثَـرتَ: لَـعًـا لَـكَـا[١]

وبعث بها إليه، فلما أتت بُجَيْرًا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ [لما سمع قوله]: «سقاك بها المأمون»: «صَدَق وإنه لكذوب، [أنا المأمون]»، ولما سمع قوله: «على خُلُق لم تُلْفِ أمًّا ولا أبًا عليه» قال: «[أَجَلْ] لم يُلفِ عليه أباه ولا أمه»، فكتب بُجَيْر إلى كعب: [من الطويل]

مَنْ مُـبْـلِـغٌ كَـعْـبًـا فـهـل لـكَ فـي الـتـي   تَـلُـومُ عـلـيـهـا بـاطـلًا وهـي أحْـزَمُ[٢]

إلى الله - لا العُزَّى ولا اللَّات - وَحْدَه   فـتَـنْـجُـو إذا كـان الـنَّـجَـاءُ وتَـسْـلَـمُ

لـدى يـومِ لا يَـنْـجُـو ولـيـس بـمُـفْـلِـتٍ   من الـنـاس إلا طـاهـرُ الـقـلـب مُـسْـلِـمُ

فـدِيـنُ زُهَـيْـرٍ وهـو لا شـيءَ دِيـنُـه   ودِيـنُ أبـي سُـلْـمَـى عـلـيَّ مُـحَـرَّمُ[٣]

قال: فلما بلغ كَعْبًا كتابُ أخيه ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأَرْجَف به من كان في حاضره[٤] من عَدُوِّه، فقالوا: هو مقتول، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفَه، وإرْجافَ[٥] الوُشاة به من عدوّه، وخرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهَيْنَة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلّى الصبح فصلّى معه، ثم أشار الجُهَنِيّ لكَعْب إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاْستَأْمِنْه، فقام حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إنّ كَعْبَ بن زُهَيْر قد جاء ليستأمن منك تائبًا مُسْلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: أنا يا رسول الله كعب بن زُهير، فوثب رجل من الأنصار وقال: يا رسول الله، دعني وعدوَّ الله أَضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازِعًا[٦]. قال:

---

(١) لعًا: كلمة تقال لمن عثر، دعاء له أن ينتعش من سقطته.

(٢) احزم: الحق.

(٣) ابن أبي سلمى: والد زهير، ويريد معتقد الجاهليين.

(٤) حاضره: حيه.

(٥) الإرجاف: التخويف.

(٦) نازعًا: أي مائلًا إلى الإسلام.

فغضب كعب على هذا الحيِّ من الأنصار لِمَا صَنَع به صاحبُهم، وأنشد كعب قصيدته، وهي: [من البسيط]

بانَتْ سُعادُ فقلبي اليوم مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ عندها لم يُجْزِ مَكْبُولُ(١)

وما سعادُ غَدَاةَ البَيْنِ إذ بَرَزَتْ ... إلا أغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْف مَكْحُولُ(٢)

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاء مُدْبِرَةً ... لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منها ولا طُولُ(٣)

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْم إذا ٱبْتَسَمَتْ ... كأنه مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلُولُ(٤)

شُجَّتْ بذي شَبَمٍ من ماء مَحْنِيَةٍ ... صافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وهو مَشْمُولُ(٥)

تَنْفِي الرِّياحُ القَذَى عنه وأَفرَطَه ... من صَوْبِ غادِيَةٍ بيضٌ يَعَالِيلُ(٦)

وَيْلَ امِّها خُلَّةً لو أنّها صَدَقَتْ ... بِوَعْدِها أو لَو أنَّ النُّصْحَ مقبولُ(٧)

لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دمِها ... فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإخْلافٌ وتَبْدِيلُ(٨)

فما تقومُ على حالٍ تكونُ بِهِ ... كما تَلَوَّنُ في أثوابِها الغُولُ(٩)

كانت مَواعيدُ عُرْقوبٍ لها مَثَلاً ... وما مَواعِيدُها إلاّ الأباطِيلُ(١٠)

---

(١) بانت: فارقت: متبول: غلبه الحب وهيمه. متيم: ذلله الحب. مكبول: مقيد، يروى: لم يفد من الفداء، ولم يجز من الجزاء.

(٢) البين: الفراق. ويروى غداة البين إذ رحلوا. والأغن: الذي في صوته غنة. غضيض الطرف: فاتر الطرف أراد التشبيه.

(٣) الهيف: ضمر البطن ورقة الخاصرة.

(٤) العوارض: الأسنان ما بين الثنية والضرس. الظلم: ماء الأسنان وبريقها. ومنهل: قد أنهل بالخمر. والنهل: أول شربة. والمعلول: قد سقي مرتين، والعلل: الشرب الثاني.

(٥) شجت مزجت بالماء. الشبم: الماء البارد. المحنية: منعطف الوادي. الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. مشمول: أصابته ريح الشمال فبردته.

(٦) عنه: أي عن الماء الصافي. أفرطه: ملأه. الصوب: المطر، الغادية: السحابة التي تأتي بالغداة. اليعلول: الغدير. ويروى «من صوب سارية».

(٧) يروى: «أكرم بها خلة». وفي الديوان: «يا ويحها خلة».

(٨) سيط: خلط. الفجع: المصيبة. الولع: الكذب. يريد أنها قد خلط بدمها الفجع بالمصائب، والكذب في الأخبار وإخلاف الموعد، وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها.

(٩) الغول: السعلاة. وهي أنثى الشياطين، سميت بذلك لأنها فيما زعموا تغتالهم، أو لأنها تتراءى لهم في الفلوات، وتتلون بألوان شتى، وتظلهم عن الطريق.

(١٠) عرقوب: رجل يضرب به المثل في خلف الوعد، وكان بالمدينة.

وما تَمَسُّكُ بالعهد التي زَعمتْ ... إلاّ كما يُمْسِكُ الماءَ الغَرَابيلُ(١)

أَرْجُو وآمُلُ أن يَعْجَلْنَ في أَبَدٍ ... وما لَهُمَّ إخالُ الدهرَ تعجيلُ(٢)

فلا يَغُرَّنْكَ ما مَنَّتْ وما وَعدتْ ... إنّ الأَمَانيَّ والأَحْلاَمَ تَضْلِيلُ

أَمْسَتْ سُعَاد بأرضٍ ما يُبلّغُها ... إلا العِتاقُ النَّجيباتُ المَراسِلُ(٣)

ولا يُبلّغُها إلا عُذافِرةٌ ... فيها على الأَيْنِ إرْقَالٌ وتَبْغيلُ(٤)

من كل نَضّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ ... عُرْضَتُها طامِسُ الأَعْلامِ مجهولُ(٥)

تَرْمِي النِّجادَ بِعَيْنَيْ مُفْرِدٍ لَهِقٍ ... إذا تَوَقَّدَتِ الحُزَّانُ والمِيلُ(٦)

ضَخْمٌ مُقَلَّدُها فَعْمٌ مُقَيَّدُها ... في خَلْقِها عن بَنَاتِ الفَحْلِ تَفْضِيلُ(٧)

حَرْفٌ أخوها أبوها من مُهَجَّنَةٍ ... وعَمُّها خالُها قَوداءُ شِمْلِيلُ(٨)

---

(١) يروى: «تمسك بالوصل».

(٢) أبَدِ: زمن. يريد أنه يتمنى الوفاء بما وعدن على عجل ولو مرة في الدهر. تعجيل: تصديق، ويروى:

أرجو وآمل أن تدعو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل

(٣) المراسيل: الخفاف. يقول: لا يبلغني سعاد إلا مثل هذه النوق لبعدها.

(٤) عذافرة: شديدة غليظة. والأين: الإعياء. والأرقال: أن تعدو وتنفض رأسها، التبغيل: ضرب من الهملجة المختلطة بالعنق.

(٥) نضاخة: فوارة، يصفها بكرم الأصل. الذفرى: النقرة خلف أذن الناقة والبعير. أول ما يعرف منهما: عرضتها: همتها؛ أي قوية على السفر. طامس: دارس، الأعلام: العلامات، أي قوية على قطع الأعلام المندرسة المجهولة.

(٦) النجاد: المشرف من الأرض، ويروى: «الغيوب»: ما غاب من الأرض. المفرد: الذي خذل عن صواحبه. اللهق: الشديد البياض. الحزان: جمع حزين: المكان الغليظ الصلب. الميل: جمع ميلاء: العقدة الضخمة من الرمل، وقيل: هو مد البصر. يقول: إنها لا تكسل ولا تفتر في الهاجرة.

(٧) مقلدها: رقبتها. فعم: ممتلىء، ويروى: «عبل»: وهو الضخم. المقيد: الرسغ: بنات الفحل: النوق. أي لها فضل عليهن في شرح ابن هشام بيتان بعد هذا البيت بالأصل:

غلباء وجناء علكوم مذكرة ... في دفعها سعة قدامها ميل

وجلدها من أطوم لا يؤيسه ... طلح بضاحية المتنين مهزول

(٨) الحرف: القطعة البارزة من الجبل، أي مثله في القوة والصلابة، أو حرف الخط في الرقة والضمورة. أخوها أبوها: أي جمل حمل على أمه فوضعت ناقة فصار الجمل أخاها وأباها. المهجنة من النوق: الكريمة، والتهجين اختلاف الأبوين، وهو مدح في الإبل، وذم في بني آدم. عمها خالها: يعني أن عمها وخالها من جنس واحد. أي أنها كريمة الطرفين من أبيها وأمها، قوداء: طويلة الظهر والعنق. الشمليل: الخفيفة السريعة.

يَمْشِي القُرَاد عليها ثم يُزْلِقُه ... منها لَبَانٌ وأَقْرابٌ زَهَالِيلُ(١)
عَيْرانةٌ قُذِفَتْ بالنَّحْضِ عن عُرُضٍ ... مِرْفَقُها عن بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ(٢)
قَنْوَاءُ في حُرَّتَيْها للبصير بها ... عِتْقٌ مُبِينٌ وفي الخَدَّيْن تَسْهيلُ(٣)
كأن ما فات عَيْنَيْها ومَذْبَحها ... من خَطْمِها ومن اللَّحْيَيْنِ بِرْطيلُ(٤)
يُمِرُّ مثلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذا خُصَلٍ ... في غارِزٍ لم تَخَوَّنْه الأَحَالِيلُ(٥)
تَهْوِي على يَسَراتٍ وهْيَ لاهِيَةٌ ... ذَوَابِلٌ وَقْعُهُنَّ الأرض تَحْلِيلُ(٦)
سُمْرُ العُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ الحَصَى زِيمًا ... لَمْ يَقِهِنّ سَوَادَ الأُكْمِ تَنْعِيلُ(٧)
يَوْمًا يَظَلُّ به الحِرْباءُ مُرْتَبِئًا ... كأنَّ ضاحيَه في النار مَمْلولُ(٨)
وقال للقَوْم حادِيهم وقد جَعَلتْ ... بُقْعُ الجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الحَصَى قِيلُوا(٩)
كأنَّ أَوْبَ ذراعيْها وقد عرِقتْ ... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيلُ(١٠)

---

(١) اللبان: الصدر. الأقراب: الخواصر، الزهاليل: الملس.
(٢) عيرانة: تشبه العير في صلابتها، قُذفت بالنحض: كاملة الخلق لم ينقصها الحلب، والنحض اللحم. العُرُض: الجوانب، بنات الزور: الأضلع المقدمات. المفتول: المدمج المحكم.
(٣) قنواء: في أنفها كالحدب. حرتاها: أذناها. العتق: الكرم. سهلة الخدين: سائلتهما غير مرتفعة الوجنتين.
(٤) المذبح: المنحر: الخطم: الأنف. البرطيل: حجر أو حديد طويل صلب. . . تنقر به الرحى وقد يشبه به خطم النجيبة، وصفها بكبر الرأس.
(٥) عسيب النخل: جريدها. والغارز: الضرع، . قد غرز وقل لبنه. لم تخونه: تنقصه. الأحاليل: مجاري اللبن، يريد: تمر ذنبها على ضرعها.
(٦) تهوي: تسير بسرعة. ويروى: «تخذي» ومعناهما واحد. اليسرات: القوائم الخفاف. ذوابل: ليست برهلة. وقعهن الأرض: إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها، وتحليل: مثل تحلة اليمين أي كما يحلف الإنسان على الشيء ليفعلنه، فيفعل منه اليسير ليتحلل من قسمه.
(٧) سمر: في ألوانها، وهي اليسرات في البيت السابق. العجايات: عصب باطن اليدين. زيما: متفرقة، يقول: لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ الأخفاف.
(٨) الحرباء: ذكر أم حبين، وهو حيوان يتلون ألوانًا بحر الشمس. مرتبئًا: مرتقبًا، وذلك إذا كان فوق شرف، ويروى: «مصطغمًا» منتصبًا، ويروى: «مصطخدًا»: تصلى بحر الشمس الضاحي: البارز للشمس. مملول: من مللت الخبز: جعلته في الملة (بفتح الميم) وهي الحفرة المحماة، أو الرماد الحار.
(٩) الحادي: سائق الإبل. بقع: ذات اللون الأبقع. الجنادب: جراد صغير في أشد ما تكون الهاجرة يكون ذلك. قيلوا: من القيلولة، وهي الإبراد عند الهاجرة، وفي الديوان: «ورق الجنادب» الورق: جمع أورق، وهو الأخضر إلى سواد، أو على لون الرماد.
(١٠) أوب: رجع، تلفع: تلحف، القور: جمع قارة: الأكمة، وقيل: جبل يرتفع طولاً ولا يرتفع عرضًا. العساقيل: السراب.

أَوْبُ يَدَيْ فاقِدٍ شَمْطَاءَ مُعْوِلَةٍ قامتْ فَجَاوَبَها نُكْدٌ مثَاكِيلُ(١)
نَوَّاحَةٌ رِخْوةُ الضَّبْعَيْن ليس لها لما نَعَى بِكْرها الناعون مَعْقولُ(٢)
تَفْرِي اللَّبَان بكفَّيْها ومِدْرَعُها مُشَقَّقٌ عن تَراقِيها رَعَابِيلُ(٣)
تَسْعَى الوُشَاةُ بجَنْبَيْها وقولُهُم إنك يا بن أبي سُلْمَى لمَقتولُ(٤)
وقال كلُّ صَديقٍ كنتُ آمُلُه لا أُلْهِيَنَّكَ إنّي عنكَ مَشْغُولُ(٥)
فقلتُ خَلُّوا طريقي لا أَبا لكُم فكلُّ ما قَدَّر الرحمٰنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنثَى وإن طالت سلامتُه يومًا على آلةٍ حَدْباءَ مَحمولُ(٦)
نُبِّئْتُ أنّ رسولَ اللَّهِ أوْعَدَني والعَفْوُ عندَ رسولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هداكَ الذي أعطاك نافِلَةَ الـ ـقُرآن فيها مواعيظٌ وتَفْصيلُ(٧)
لا تأخُذَنّي بأقوالِ الوُشَاةِ ولم أذنبْ ولو كَثُرَتْ فِيَّ الأقاويلُ
لقد أقُومُ مَقامًا لو يقومُ به أرَى وأَسمعُ ما لو يَسْمعُ الفِيلُ
لظَلَّ تُرْعَدُ مِن وَجْدٍ بوادِرُه إن لم يَكُنْ مِنْ رسول الله تَنْوِيلُ(٨)
حتى وَضَعْتُ يَمِيني ما أنازِعها في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قَوْلُهُ القِيلُ(٩)

(١) شمطاء: العجوز التي لا ترجو ولدًا. معولة: من العويل، إنما أراد امرأة نعي لها ولدها. نكد: جمع نكداء: التي لا يعيش لها ولد. مثاكيل: جمع مثكال: التي فقدت أولادًا كثيرة، ويروى الشطر الأول:

* شدَّ النهار ذراعًا عيطل نصف *

(٢) رخوة: مسترخية، الضبع (بسكون الباء): العضد، يريد شديدة الحركة، المعقول: العقل.
(٣) تفري: تشق، اللبان: الصدر، مدرعها: قميصها. شبه الناقة بالمرأة التي تشق الثياب عن صدرها، الرعابيل: المتخرقة المتمزقة.
(٤) تسعى: من السعاية، وفي الوشاية: بجنبيها: حولها، ويروى جنابيها.
(٥) لا ألهينك: لا أشغلك عما أنت فيه، ويروى: «لا ألفينك» أي لا أكون معك.
(٦) الآلة: النعش، حدباء: معوجة.
(٧) النافلة: قال ابن هشام: النافلة: العطية المتطوع بها زيادة على غيرها وذلك إشارة إلى أن القرآن مع ما أنعم الله على نبيه به من العلوم العظيمة زيادة على تلك العلوم.
(٨) لظل ترعد: جواب «لو» الأولى وهو دال على جواب لو الثانية، الوجد: شدة الحزن. البوادر: اللحم الذي بين العنق والكتف. والذي في الشروح:

لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل

تنويل: من النائل: وهو العطاء، والمراد هنا: العفو والأمان وفي السيرة الهاشمية بعد هذا البيت:

ما زلت أقتطع البيداء مدّرِعًا جنح الظلام وثوب الليل سدول

(٩) أنازعها: أي وضعت يميني في يمينه وضع طاعة لا أنازعه، ويريد بصاحب النقمات: النبي ﷺ لأنه كان ينتقم من الكفار. القيل: القول الصادق.

فَلَهُوَ أخوفُ عندي إذْ أُكَلِّمه وقيل إنَّك مَنسُوبٌ ومَسْؤولُ(١)
من ضَيْغَم بُضراء الأرضِ مُخْدَرهُ في بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيلُ(٢)
يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرغامَيْن عيْشُهما لحمٌ من الناس مَعْفُورٌ خَرَاذيلُ(٣)
إذا يُساوِرُ قِرْنًا لا يَحِلُّ له أَنْ يَتْرك القِرْنَ إلاّ وَهْوَ مَفْلولُ(٤)
منه تَظَلُّ حَميرُ الجَوِّ نافِرَةً ولا تُمَشِّي بِوَادِيه الأَرَاجِيلُ(٥)
ولا يَزالُ بِوادِيه أخُو ثِقَةٍ مُطَرَّحُ البَزِّ والدِّرْسِينَ مأكولُ(٦)
إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ به مُهَنَّدٌ من سُيُوف اللّهِ مَسْلولُ(٧)
أغَرُّ أَبْلَجُ يُسْتَسْقَى الغَمامُ به كأنَّ طَلْعَته في الليلِ قِنْدِيلُ(٨)
في عُصْبةٍ من قريشٍ قال قائلُهم ببطن مكةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا(٩)
زالوا فما زال أنْكاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللِّقَاءِ ولا مِيلٌ مَعازِيلُ(١٠)
يمشُون مَشْيَ الجِمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهمْ ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنابِيلُ(١١)

---

(١) منسوب: مسؤول عما صدر منك، ويروى: مسبور.

(٢) الضيغم: الأسد، ضراء: جمع ضار: من ضرى بكذا ولع به، والمشهور كما في الشروح: «بضراء الأسد محدره». عثر: موضع باليمن كثير الأسد، والغيل: الشجر الملتف. ويروى: من خادر من ليوث الأسد مسكنه.

(٣) يلحم ضرغامين: يطعمهما لحم الناس، معفور: ملقى في العفر وهو التراب. خراذيل: قطعاً.

(٤) القرن: مقاومك في الشجاعة أو العلم. يساور: يواثب، مغلول: منهزم. ويروى «مجدول»: ملقى في الجدالة وهي الأرض. الجو، هنا: الوادي، والبر الواسع، ويروى: «ضامزة» ساكتة، مكان «نافرة».

(٥) الأراجيل: جمع أرجال جمع رجل.

(٦) البز: الثياب والسلاح، الدرسان: الثياب الخلقة، ويروى «مضرج»، ومقتول.

(٧) الرواية المشهورة: «لسيف» وهذه الرواية أحسن؛ لأن النور هو الذي يستضاء به، مهند: مطبوع من حديد الهند.

(٨) أغر: أبيض الوجه بالنور، أبلج: مشرق الوجه. يستقي: يطلب الغيث من الغمام وهو السحاب. طلعته: أول ما يبدو منه. القنديل: السراج.

(٩) يروى: «فتية» والمعنى واحد، زولوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة، العصبة: أراد به الجماعة لا العدد الذي هو من عشرة إلى أربعين.

(١٠) أنكاس: جمع نكس (بكسر النون): الرجل الضعيف المهين، كشف: جمع أكشف: الذي لا ترس معه، ميل: جمع أميل: الذي لا سيف معه، أو الذي لا يحسن الركوب ولا يستقر على السرج. والمعازيل: جمع معزال: الذي لا سلاح معه.

(١١) الزهر: النيض: يعصمهم: يمنعهم. عَرَّد: فرَّ، ونكل، وجبن. التنابيل: جمع تنبال: القصير.

شُمُّ العَرَانِينِ أبْطالٌ لَبُوسُهُم مِن نَسْجِ داود في الهيجا سَرَابِيلُ(١)
بِيضٌ سَوابغُ قَدْ شُكَّتْ لها حَلَقٌ كأنَّها حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْدولُ(٢)
ليسوا مَفَارِيحَ إن نالتْ رِمَاحُهم قَوْمًا وليسوا مَجازيعًا إذا نِيلُوا(٣)
لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلاّ في نُحُورِهُم وما لهم عن حِياضِ الموت تَهْلِيلُ(٤)

قال ابن إسحاق: فلما قال كعب في قصيدته: «إذا عَرَّد السُّودُ التنابيل»، وإنما أراد معشر الأنصار، وخصَّ المهاجرين من قريش بمدحته، غضبت الأنصار عليه، فقال بعد ذلك يمتدح الأنصار من قصيدة له: [من الكامل]

من سَرَّهُ كَرمُ الحياةِ فلا يَزَلْ في مِقْنَبٍ مِنْ صالِحي الأنصارِ(٥)
ورِثوا المكارمَ كابرًا عن كابرٍ إنّ الخيَار هُمُ بنو الأخيارِ(٦)
المُكْرِهِين السَّمْهَرِيَّ بأذرعٍ كَسَوالِف الهِنْدِيِّ غيرِ قِصَارِ(٧)
والناظرين بأعْينٍ مُحْمَرَّةٍ كالجَمْر غيرِ كَلِيلةِ الإبْصارِ(٨)
والبائعين نفوسهم لنبيِّهم للموتِ يومَ تَعَانُقٍ وكِرارِ(٩)
يتطهَّرون يَرَوْنه نُسُكًا لهم بدماء مَن عَلِقوا من الكفّارِ(١٠)

---

(١) العرانين: الأنوف. الشم: حدّة في طرف الأنف مع تشمير. لبوسهم: لباسهم. نسج داود: الدرع. الهيجاء: الحرب. سرابيل: جمع سربال: القميص.

(٢) بيض: مجلوة صافية. سوابغ: جمع سابغ: الطويل التام. شكت: أدخلت بعض حلقها في بعض وسمرت. ويروى: «سكت» ضيقت. القفعاء: شجر له ورق وثمر مثل حلق الدروع، مجدول: مفتول.

(٣) مفاريح: جمع فرح، نالت: أصابت. مجازيع: حزانى. نيلوا: أصيبوا.

(٤) التهليل: الهروب من الحرب.

(٥) المقنب: ألف وأقل، قاله أبو عمرو. وقال الأصمعي: هم الجماعة من الفوارس، نحو الثلاثين أكثر أو أقل، واحتج أبو عمرو يقول الجعدي: «بألف يكتب أو يقنب». يكتب: يجمع.

(٦) رواية الديوان: «الكرام».

(٧) السمهري: الرمح. سوالف: كذا في الأصل. وعبارة الديوان، رواية السكري: «كصوافل» وفي رواية «كسوافل». الهندي: سيف هندي.

(٨) كليلة: منحسرة، منكفئة.

(٩) كذا في الأصل، وابن هشام ورواية ابن سلام: «يوم الهياج وسطوة الجبار» وفي الأغاني: «عند الهياج وسطوة الجبار» وفي ابن الأثير:

والباذلين نفوسهم ودماءهم يوم الهياج وسطوة الجبار

(١٠) رواية الديوان: «يتطهرون كأنه نسك لهم».

دَرِبُوا كما دَرِبَتْ ببطنِ خَفِيَّةٍ غُلْبُ الرِّقابِ مَن الأسُودِ ضَوَارِي(١)
وإذا حَلَلْتَ ليمنعوك إليهمُ أصبحتَ عند مَعاقِل الأَغْفَارِ(٢)
ضَربوا عَلِيًّا يومَ بَدْرٍ ضربةً دانت لوَقْعَتِها جميعُ نِزارِ(٣)
لو يَعْلَمُ الأقْوامُ علمي كلَّه فيهم لَصدَّقني الذين أُمارى(٤)
قومٌ إذا خَوَت النجومُ فإنهم للطارِقين النازِلين مَقَارِي(٥)

قال ابن هشام: ويقال: إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشد بانت سعد فقلبي اليوم متبول: «لولا ذكرتَ الأنصار بخير، فإنّ الأنصار لذلك أهل».

ذكر حج أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه بالناس وأذان عليّ رضي الله عنه بسورة براءة

قال: وفي ذي القعدة سنة تسع من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه أميرًا على الحاج ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر رضي اللهعنه ومن معه المسلمين، ثم نزلت سورة براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينهم وبينه، ألاّ يُصَدّ عن البيت أحدٌ جاءه ولا يُخاف أحدٌ في الشهر الحرام، وكان عهدًا عامًا بينه وبين الناس من أهل الشرك، فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «أخرج بهذه القصة مِن صدر براءة، فأذِّنْ في الناس يوم النَّحْر إذا اجتمعوا بمنًى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدّته» فخرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺالعَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه بالطريق، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال: أمير أو مأمور؛ قال: بل مأمور،

---

(١) خفية: موضع كثير الأسد.
(٢) في الديوان: «نزلت» والأغفار: أولاد الأروى، واحدها غُفْر (بضم فسكون)، والأروى: أنثى الوعل.
(٣) علي: قالوا: هو علي بن بكر بن وائل. ويقال: علي أخو عبد مناة بن كنانة بن خزيمة من أمه. (شرح ديوان كعب للسكري) وفي هامش الأصل. «علي هذا الذي ذكره، هو علي بن أمية بن خلف».
(٤) أماري: أكذب.
(٥) المقاري: الذين يقرون الضيف. ويروى في الديوان:
وهم إذا خوت النجوم فإنهم للطائفين السائلين مقاري

ثم مضيا، فأقام أبو بكر رضي الله عنه للناس حجهم، وذلك في ذي القعدة، حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذن في الناس بما أمره به رسول الله ﷺ؛ فقال: «يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجُ بعد العام مُشرِك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عَهد فهو له إلى مدته» وأجّل الناس أربعة أشهرَ مِن يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مَأْمَنهم وبلادِهم[1]، ثم لا عهد لمشرِك ولا ذمّة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدّة فهو له إلى مدّته، فلم يحج بعد ذلك العامِ مشرِك، ولم يطف بالبيت عُريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ.

حوادث السنة العاشرة

فيها كانت حَجّة الوداع، سنذكرها إن شاء الله تعالى في حجّ رسول الله ﷺ. وفيها نزل في يوم جمعة قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وفيها نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ [النور: ٥٨] الآية. وكانوا لا يفعلونه قبل ذلك. وفيها مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول. وفي كل سنة من هذه السنين العشر غزوات وسرايا ووقائع تُذكر إن شاء الله تعالى في مواضعها؛ والله المستعان الهادي.

تمّ بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» ويليه الجزء السابع عشر، وأوله: «ذكر غزوات رسول الله ﷺ».

(١) في ابن هشام: «أو بلادهم».

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

١٧ - ١٨

تحقيق

الأستاذ علي محمد هاشم | الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9 782745 138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه التوفيق والإعانة

ذكرُ غزوات رسول الله ﷺ وما يتصل بذلك من الوقائع التي لم تُذكر في حوادث السنين لتعلقها بالغزوات

كانت غزوات رسولِ اللَّهِ ﷺ التي حضرها بنفسه سبعاً وعشرين غَزاة، كلّها بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وهي:

غزوة الأبْواء، وهي غزوة وَدَّان، ثم غزوة بُواط، ثم غزوة بدْر الأولى، ثم غزوة ذي العُشَيْرة، ثم غزوة بدْرِ الكبرى، ثم غزوة بني قَيْنُقاع، ثم غزوة السَّوِيق، ثم غزوة قَرْقَرة الكُدْر، وهي غزوة بني سُلَيْم، ثم غزوة غَطَفان إلى نجد، وهي غزوة ذي أَمَر[1]، ثم غزوة بني سُلَيم بِنجْران، ثم غزوة أُحُد، ثم غزوة حَمْراء الأسدِ، ثم غزوة بني النَّضير، ثم غزوة بَدْر الموعِد[2] ثم غزوة ذاتِ الرِّقاع، ثم غزوة دُومة الجَنْدل، ثم غزوة بني المصْطَلِق بالمُرَيْسيع، ثم غزوة الخَنْدق، وهي غزوة الأحزاب، ثم غزوة بني قُرَيْظة، ثم غزوة بني لحْيان، ثم غزوة الغابة، وهي غزوة ذي قَرَد، ثم غزوة الحُدَيْبِيَة، ثم غزوة خَيْبَرَ، ثم غزوة الفَتح، ثم غزوة حُنين، ثم غزوة الطّائف، ثم غزوة تَبُوك؛ ومنهم من عدّ عُمْرة القضَاء مع الغزوات، وكانت بعد خَيْبر وقبل الفتْح.

قاتل رسول الله ﷺ من هذه الغزوات في تسع، وهي: بدر الكُبرى، وأُحُد، والخَنْدق، وقُرَيْظة والمصْطَلِق، وخَيْبَر، وحُنَين، والطّائف؛ وقيل: إنه قاتل في بني النَّضير، والغابَة.

---

(١) ذو أمر: موضع بناحية النخيل بنجد من ديار غطفان.

(٢) غزوة بدر الموعد: هي بدر الآخرة، وسميت بذلك للمواعدة عليها مع أبي سفيان يوم أحد.

وسَراياه ﷺ نحو من ستين سريّة[١].

ذكر أوّل لِواء عقده ﷺ

كان أوّلُ لواء عَقَده رسولُ الله ﷺ لعمِّه حمزة[٢] بن عبد المطلب في شهر رَمضان على رأس سبعة أشهر من مُهاجَرِه لواءً أبيض، حمله أبو مَرْثَد كَنَّاز بن الحُصَين الغَنَويّ[٣]، حليف حمزة، وبعثه رسولُ الله ﷺ في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يَعْتَرِضُ لعِير قريش وقد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل بن هشام[٤] في ثلثمائة رجل، فبلغوا سِيف[٥] البحر من ناحية العِيص[٦]، فالتَقوا، وصفّوا للقتال، فمشى مجديّ بن عمرو الجهنيّ، وكان موادعاً[٧] للفريقين جميعاً، إلى هؤلاء مرة، وإلى هؤلاء مرة، حتى حَجز بينهم.

ذكر سرية عُبَيدةَ بن الحارث بن المطّلب[٨] إلى بطْن رابغ

بعثه رسول الله ﷺ في شوّال على رأس ثمانية أشهر من مُهاجَرِه في ستين رجلاً

---

(١) جرت عادة المحدثين وأهل السير أن يسموا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه غزوة، وما لم يحضره، بل أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو، سرية وبعثاً. (راجع كتاب المغازي من كتاب المواهب اللدنية ١ : ٤٦٧).

(٢) حمزة بن عبد المطلب: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم، أبو عمارة، من قريش (٥٤ ق هـ ـ ٣ هـ = ٥٥٦ ـ ٦٢٥ م) عم النبي ﷺ وأحد صناديد قريش في الجاهلية والإسلام. ولد ونشأ بمكة... ولما ظهر الإسلام تردد في اعتناقه، ثم علم أن أبا جهل تعرض للنبي ﷺ... فقصده الحمزة وضربه وأظهر إسلامه، فقالت العرب: اليوم عزّ محمد وأن حمزة سيمنعه... هاجر مع النبي ﷺ وحضر وقعة بدر وغيرها. قتل يوم أحد فدفنه المسلمون في المدينة. (الأعلام: ٢ : ٢٧٨).

(٣) كنّاز بن الحصين الغنوي: كناز بن الحصين بن يربوع الغنوي، أبو مرثد (٠٠٠ ـ ١٢ هـ = ... ـ ٦٣٣ م) صحابي من السابقين إلى الإسلام، كان ترباً لحمزة بن عبد المطلب. شهد بدراً والخندق وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. توفي بالمدينة. وهو ابن ٦٦ سنة (الأعلام: ٥ : ٢٣٤).

(٤) أبو جهل: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي (... ـ ٢ هـ = ... ـ ٦٢٤ م) أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. سودت قريش أبا جهل ولم يطر شاربه فأدخلته دار الندوة مع الكهول. أدرك الإسلام. وكان يقال له «أبو الحكم»، فدعاه المسلمون «أبا جهل»، استمر على عناده، يثير الناس على محمد رسول الله ﷺ وأصحابه حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها (الأعلام: ٥ : ٨٧).

(٥) سيف البحر: ساحله.

(٦) العيص: موضع بناحية ذي المروة على ساحل البحر، بطريق قريش التي كانوا يأخذون إلى الشام.

(٧) موادعاً: مسالماً، مهادناً.

(٨) عبيدة بن الحارث: عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، أبو الحارث (٦٢ ق هـ ـ ٢ هـ = =

من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وعقد له لواء أبيض، حمله مِسْطَح بن أُثاثة بن المطَّلب بن عبد مناف. حكاه محمد بن سعد. قال ابن إسحاق: أو ثمانين رجلاً من المهاجرين، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثَنِيَّة المَرَةِ، فلَقِيَ به جمعاً عظيماً من قريش.

قال الشيخ شرف الدين الدمياطيّ[١] رحمه الله: فلقي أبا سفيانَ بن حرب[٢]، وهو في مائتين على ماء يقال له أحْياء، من بطن رابغ على عشرة أميال من الجُحفة، فكان بينهم الرّميُ ولم يسُلّوا السيوف، ولم يصطفّوا للقتال، وكان سعد بن أبي وقّاص[٣] أوّل من رمَى بسهْم في سبيل الله، ثم انصرف الفريقان على حاميتهم[٤]؛ وكان على القوم عِكرِمةُ بن أبي جهل. وقال أبو محمد بن هشام: كان عليهم مِكْرَز بن حفْص بن الأَخْيَف.

قال ابن إسحاق: وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقدادُ بن عمرو البَهْرَانيّ حلِيفُ بني زُهْرة، وعُتْبة بن غَزْوان بن جابر المازنيّ حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمَيْن، ولكنهما جاءا مع القوم ليتوصّلا[٥] بهم.

وقدّم ابن إسحاق هذه السّريّة على سرِية حمزة.

ذكر سَريّة سعد بن أبي وقّاص إلى الخَرَّار[٦]

بعثه رسول الله ﷺ في ذي القعدة على رأس تسعةِ أشهر من مُهاجَرِه في عشرين

= ٥٦٢ ـ ٦٢٤ م) من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام، ولد بمكة وأسلم قبول دخول النبي ﷺ دار الأرقم وعقد له النبي ﷺ ثاني لواء عقده بعد أن قدم المدينة. شهد بدراً وقتل فيها. (الأعلام: ٤: ١٩٨).

(١) شرف الدين الدمياطي: عبد المؤمن بن خلف الدمياطي أبو محمد، شرف الدين: (٦١٣ ـ ٧٠٥ هـ = ١٢١٧ ـ ١٣٠٦ م) حافظ للحديث من أكابر الشافعية، ولد بدمياط وتنقل في البلاد؛ وتوفي فجأة في القاهرة. (الأعلام: ٤: ١٦٩).

(٢) أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ ـ ٣١ هـ = ٥٦٧ ـ ٦٥٢ م) صحابي من سادات قريش في الجاهلية وهو والد معاوية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره. أسلم يوم فتح مكة (سنة ٨ هـ). توفي بالمدينة، وقيل بالشام. (الأعلام: ٣: ٢٠١).

(٣) سعد بن أبي وقاص: آخر العشرة المبشرين بالجنة، مات بالعقيق بقصره على عشرة أميال من المدينة سنة ٥٦ على خلاف.

(٤) حاميتهم: وجههم.

(٥) ليتوصلا: ليتمكنا من الوصول حيث جعلا خروجهما مع الكفار وسيلة للوصول إلى المسلمين.

(٦) الخرار: موضع بالحجاز.

رجلاً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيضَ حمله المِقداد بن عمرو البهْرانيّ، وساروا يعترضون لِعِير قريش، وعهِد إليه رسول الله ﷺ ألاّ يُجاوزَ الخرّار.

قال سعد: فخرجنا على أقدامنا، فكنا نكمُن النهار ونسير الليل، حتى صبّحناها صبحَ خمس، فنجد العير قد مرّت بالأمس.

ذكر غزوة الأَبْواء(١) وهي غزوة وَدّان(٢) وبينهما ستة أميال

وهذه الغزوةُ أول غَزَاة غزاها رسولُ الله ﷺ بنفسه، وكانت في صفَر على رأس اثني عشر شهراً من مُهاجَره، وحملَ لواءَه حمزةُ بن عبد المطلب، وكان أبيضَ، واستخلف على المدينة سعدَ بن عُبادة(٣)، وخرج في المهاجرين ليس فيهم أنصاريّ حتى بلغ الأبواء يعترض لعير قريش، فلم يلقَ كيداً.

وفي هذه الغزاة وادعَ مَخْشِيَّ بن عمرو الضَّمْرِيّ، وكان سيِّدَهم في زمانه، على ألاّ يغزو بني ضَمْرَة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً.

وكانت غيبتُه ﷺ خمسَ عشرةَ ليلة.

ذكر غزوة بُواط

غزاها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل على رأس ثلاثةَ عشرَ شهراً من مُهاجرِه وحمل لواءَه سعد بن أبي وقّاص وكان أبيض، واستخلف على المدينة سعد بن مُعاذ(٤). وقال ابن هشام: استعمل عليها السائبَ بن عثمان بن مَظْعون. وخرج في مائتين من أصحابه يعترض لعير قريش، فيها أُمَيَّة بن خلف الجُمحيّ ومائة رجل من

---

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة بينها وبين الجحفا مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

(٢) ودان: قرية جامعة من نواحي الفرع على طريق الحاج.

(٣) سعد بن عُبادة: سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، الخزرجي، أبو ثابت (. . . ـ ١٤ هـ = . . . ـ ٦٣٥ م) صحابي من أهل المدينة كان سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وشهد أحداً والخندق وغيرهما. ولما توفي رسول الله ﷺ طمع بالخلافة ولم يبايع أبا بكر. ولم يلبث أن خرج إلى الشام مهاجراً فمات بحوران. (الأعلام: ٣: ٨٥).

(٤) سعد بن مُعاذ: سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس، الأوسي الأنصاري (. . . ـ ٥ هـ = . . . ـ ٦٢٦ م) صحابي من الأبطال، من أهل المدينة. كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر. وشهد أحداً، فكان ممن ثبت فيها. رمي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه، ودفن بالبقيع، وعمره سبع وثلاثون سنة، وحزن عليه النبي ﷺ. (الأعلام: ٣: ٨٨).

قريش وألف وخمسمائة بعير، فبلغ بُواطاً، وهي من جبال جُهَينة من ناحية رَضْوَى، وهي قريب من ذي خُشُب مما يلي طريق الشام، وبين بُواط والمدينة نحوٌ من أربعة بُرُد، فلم يلْق كيداً، فرجع ﷺ.

ذكر غزوة بدر الأُولى

غزاها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثةَ عشرَ شهراً من مُهاجَرِه، لطلب كَرْز بن جابر الفِهْرِيّ(١)، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، وكان أبيضَ، واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة(٢)، وكان كرز قد أغار على سَرْح(٣) المدينة فاستاقه، وكان يرعى بالجَماء(٤)، فطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ وادياً يقال له سَفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يلحقه، فرجع إلى المدينة.

ذكر غزوة ذي العُشَيرة

العُشَيرة بالشين المعجمة، وقيل: بالسين المهملة، وقيل: العُشَيرا بالألف.

غزاها رسول الله ﷺ في جمادي الآخرة، على رأس ستة عشر شهراً من مُهاجَرِه، وحمل لواءَه حمزةُ بن عبد المطلب، وكان أبيضَ، واستخلف على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسَد المخزوميّ.

وخرج في خمسين ومائة، ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتَدَب، ولم يُكرِه أحداً على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعْتَقِبونها(٥)، وخرج يعترض لعير قريش حين ابتدأت إلى الشام، فبلغ ذا العُشَيرة، وهي لبني مُدْلج بناحية يَنْبُع، فوجد العيرَ التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام، وهي العير التي خرج أيضاً يُريدُها حين رجعت من الشام، فكانت فيها وقعةُ بدر الكبرى.

---

(١) كرز بن جابر الفهري: كرز بن جابر بن حسيل، ويقال ابن حسيل بن لاحب بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب. الفهري. . . أسلم بعد الهجرة. وحسن إسلامه. وقتل كرز يوم الفتح وذلك سنة ثمان من الهجرة في رمضان. (الاستيعاب، هامش الإصابة في تمييز الصحابة، ٣: ٣١٠).

(٢) زيد بن حارثة: زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرىء القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبد ود بن عوف بن كنانة. أسر وهو غلام يفعة، وأتي به إلى سوق عكاظ، فعرض للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة. فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له. انظر: (الإصابة في تمييز الصحابة رقم الترجمة ٢٨٩٠).

(٣) السرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

(٤) الجمّاء: موضع على ثلاثة أميال من المدينة (اللسان: جمم).

(٥) يعتقبونها: يتناوبون ركوبها.

وفي هذه الغزاة وادَعَ رسول الله ﷺ بني مُدْلج وحلفاءَهم من بني ضَمْرة. وفيها كَنّى رسولُ الله ﷺ علياً رضي الله عنه أبا تُراب[(١)]، وقيل في غيرها.

ذكر سريّة عبدِ الله بن جَحْش[(٢)] الأسَدي إلى نَخْلة

بعثه رسول الله ﷺ في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مُهاجَرِه في اثني عشر رجلاً من المهاجرين. كل اثنين يعتقِبان بعيراً.

قال ابن إسحاق: وكتب له رسول الله ﷺ كِتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، ويمضي لما أمره به، ولا يستكرِه أحداً من أصحابه.

قال: وكان معه أبو حُذَيفة بن عُتْبة بن ربيعة، وعُكّاشة بن مِحْصَن، وعُتبة بن غَزْوان بن جابر، وسعد بنُ أبي وقّاص، وعامرُ بن ربيعة، وواقدُ بن عبد الله التَّمِيميّ، وخالدُ بن البُكَيْر أحد بني سعد بن لَيث، وسُهَيْلُ بن بَيضاء. هؤلاء الذين عدّهم ابن إسحاق؛ وكان معهم المِقدادُ بنُ عمرو، حكاه محمد بن سعد.

قال ابن إسحاق: فلما سار عبدُ الله بن جحش يومين فتح الكتابَ فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نخلة، بين مكة والطائف، فترصَّدْ بها قريشاً، وتعلَّمْ لنا من أخبارهم». فلما نظر عبد الله في الكتاب قال: سَمْعٌ وطاعةٌ. ثم ذكر ذلك لأصحابه وقال لهم: قد نهاني رسول الله ﷺ أن أستكرهَ أحداً منكم، فمن كان يريد الشّهادة ويرغب فيها فلْيَنطَلِقْ، ومن كرِه ذلك فليرجعْ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضوْا كلُّهم، وسلك على الحجازِ حتى إذا كان بمَعْدن[(٣)] فوقَ الفُرُع يقال له بَحْران، أضلّ سعدُ بن أبي وقّاص وعُتبة بن غَزْوان بعيرَهما، فتخلّفا في طلبه، ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيباً وأَدَماً[(٤)] وتجارة من تجارة قريش ـ قال ابن سعد: وخمراً ـ وفيها عمرو بن الحضْرميّ، وعثمان بن عبد الله بن المُغيرة، وأخوه نَوْفل، والحكَم بن كَيْسان مولى هشام بن المُغِيرة.

---

(١) قال السهيلي: في الروض الأنف: ٣: ٥٨، إن أصح الأقوال في تكنية علي بأبي تراب ما رواه البخاري في جامعه وهو: أن رسول الله ﷺ وجده في المسجد نائماً وقد ترب جنبه، فجعل يحث التراب عن جنبه، ويقول: قم أبا تراب. وكان قد خرج إلى المسجد مغاضباً لفاطمة.

(٢) عبد الله بن جحش: حليف لبني عبد شمس، أو لحرب بن أمية، وهو من المهاجرين الأولين، مات يوم أحد، ومثّل به، ودفن مع حمزة في قبر واحد. انظر سيرة ابن هشام: ١: ٢٧٤.

(٣) المعدن: المكان الذي يقيم فيه سكانه بشكل دائم، صيفاً وشتاءً (اللسان: عدن).

(٤) الأدم: الجلد.

فلما رآهم القوم هابوهم؛ وكان عُكّاشة حلَق رأسه ليطمئن القومُ[١]، فأَمِنوا.

وقال[٢] لهم عثمان: لا بأس عليكم منهم. قال: فسرّحوا ركابَهم، وصنعوا طعاماً. قال: فتشاور القوم فيهم، وذلك آخر يوم من شهر رجب فقالوا: والله لئن تركْتموهم في هذه الليلة ليدخُلُنّ الحرمَ فليمتَنعُنّ منكم به، وإن قتلتموهم لتَقْتُلُنّهم في الشهر الحرام. فتردّد القوم وهابوا الإقدامَ عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قَدروا عليه منهم وأخذِ ما معهم، فخرج واقِد، بن عبد الله يقدمُ المسلمين، فرمَى عَمرو بن الحضرميّ بسهم فقتله، واستأسر عثمانَ بن عبد الله، والحكَم بن كَيْسان، وأفلتَ نوْفَل بن عبد الله فأعجزهم. وأقبل عبد الله وأصحابُه بالعير والأسيرَيْنِ حتى قدِموا على رسول الله ﷺ.

فلما قدموا عليه قال: ما أمرتُكم بقتال في الشهر الحرام. ووقّف[٣] العِيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً؛ فأُسقِط[٤] في يَدِ القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنّفهم المسلمون فيما صنعوا.

وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدّم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال؛ وأكثرَ الناسُ في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم «والفتنة أكبر من القتل» أي قد كانوا يفتِنون المسلمين في دينهم حتى يردّوهم إلى الكفر بعد إيمانهم، فذاك أكبرُ عند الله من القتْل.

قال: فلما نزلت الآياتُ قبض رسول الله ﷺ العيرَ والأسيرَيْن، وبعثتْ إليه قريش في فدائهما، فقال: لا، حتى يقدِمَ صاحبانا، يعني سعد بن أبي وقّاص، وعُتْبة بن غَزْوان، فإنّا نخْشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتُلْ صاحبيْكم. فقدِم سعد وعُتْبة، فأفداهما رسول الله ﷺ.

فأما الحَكَم بن كَيْسان فأسلمَ وحسُن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتِل

---

(١) انظر شرح المواهب: ١: ٤٧٩.

(٢) في طبقات ابن سعد: ٢: ٥: «وقالوا هم عمار».

(٣) وقّف: لم يحتفظ.

(٤) أسقط في يد القوم: «زلوا وأخطؤوا وندموا وتحيروا».

يوم بئر مَعُونة(١) شهيداً، وأما عثمان فلحِق بمكة، فكان بها حتى مات كافراً.

قال: فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابِه ما كانوا فيه طمِعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطَى فيها أجرَ المجاهدين؟ فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨]، قال: وقسم رسول الله ﷺ الفَيْءَ فجعل أربعة أخماسه لمَنْ أفاءَه، وخُمسه إلى الله ورسوله.

قال ابن هشام: وهي أوّل غنيمة غنِمها المسلمون، وعمرو بن الحضْرمِيّ أولُ من قَتَل المسلمون، وعثمانَ والحكَم أول من أسرَ المسلمون. وفي هذه السريّة سُمي عبدُ الله بن جَحْش أميرَ المؤمنين.

وقال عبد الله بن جحش في هذه الواقعة، ويقال إنها لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه؛ والذي صحّحه ابن هشام أنها لعبد اللَّهِ بن جحش، أبياتاً يخاطب بها قريشاً: [من الطويل]

تَعُدُّون قتْلاً في الحرام عظيمةً ... وأعظَمُ منه لو يَرى الرُّشد راشِدُ
صُدودُكُم عمّا يقول محمدٌ ... وكُفرٌ به واللَّهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجكُمْ مِن مسجد الله أهلَهُ ... لئلاَّ يُرى لِلَّهِ في البيت ساجدُ
فإنّا وإنْ عيَّرتُمونا بقتلِه ... وأَرْجَف بالإسلام باغٍ وحاسدُ(٢)
سَقَينا مِنِ ابنِ الحَضْرمِيّ رماحَنا ... بنخلةَ لمّا أَوقد الحربَ واقدُ(٣)
دماً وابنُ عبدِ الله عثمانُ بيننا ... يُنازعه غُل من القِدّ عاندُ(٤)

ذكر غزوة بدر الكبرى، ويقال فيها بدر القتال، وما يتّصِل بها(٥)

كان سبب هذه الغزوة أن رسولَ الله ﷺ سمع بإقبال أبي سُفيان بن حرْب من

---

(١) بئر معونة: المكان الذي توجهت إليه سرية المنذر بن عمر الساعدي.
(٢) أرجف: تقوَّل. اختلق.
(٣) الحضرمي: المقصود: عمرو بن الحضرمي.
(٤) القد: شرك يقطع من الجلد. وفي شرح المواهب: ١: ٤٨١ «عاقد».
(٥) وتسمى هذه الغزوة أيضاً غزوة بدر العظمى، والثانية، وبدر الفرقان. وبدر قرية بين مكة والمدينة على نحو أربع مراحل من المدينة، وقيل: ماء مشهور أسفل وادي الصفراء، ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد. وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنسب إليه. راجع: شرح المواهب اللدنية: ١: ٤٨٩، ومعجم البلدان مادة «بدر».

الشام في العير التي لقريش، وهي التي خرج إليها في غزوة ذي العُشَيرة، وكان فيها أموالُ قريش وتجاراتهم، وفيها منهم ثلاثون أو أربعون، منهم مَخْرَمة بن نَوْفل، وعمرو بن العاص(١) بن وائل، فندبَ رسولُ الله ﷺ المسلمين إليهم، وقال: هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلكُمُوها(٢)، فانتدب الناسُ، فخفّ بعضُهم وثقُل بعض.

وكان أبو سفيانَ حين دنا من الحجاز يتَحسّس(٣) الأخبار، ويسأل من لقي من الرّكبان عن أمر رسول الله ﷺ تخوّفاً على ما معه؛ فأخبره بعض الركبان: أن رسول الله ﷺ قد استنفرَ أصحابَه لقصده، فحذِر عند ذلك، واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفَاريّ؛ فبعثه إلى مكة وأمره أن يستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرَهم أن محمداً قد عرَض لها في أصحابه؛ فأسرع ضمضم إلى مكة.

ذِكر رؤيا عاتِكة بنت عبد المطلب وخروج قريش إلى بدر

قال محمد بن إسحاق رحمه الله بسنده إلى عبد الله بن عبّاس، وعُروة بن الزبير(٤) رضي الله عنهم.

قالا: ورأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضَمضَم مكة بثلاث رؤيا أفزعتها، فبعثتْ إلى أخيها العباس، فقالت له: والله لقد رأيت رؤيا أفظعتْني وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرًّا أو مصِيبة؟ فاكتم عني ما أحدّثك به، قال: وما رأيتِ؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير حتى وقف بالأبطح(٥)، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غُدُر(٦)! لمصَارِعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا، ثم دخل المسجدَ

(١) عمرو بن العاص: عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله فاتح مصر. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية كان عمرو مع معاوية. وهو أحد دهاة العرب (٥٠ ق هـ ـ ٤٣ هـ = ٥٧٤ ـ ٦٦٤ م) انظر: (الأعلام: ٥: ٧٩).

(٢) ينفلكموها: يمكنكم منها.

(٣) يتحسس: يتسمع بنفسه.

(٤) عروة بن الزبير: عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (٢٢ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٣ ـ ٧١٢ م) أحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً بالدين، صالحاً كريماً، لم يدخل في شيءٍ من الفتن. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر، فتزوج وأقام بها سبع سنين وعاد إلى المدينة فتوفي فيها. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. و«بئر عروة» بالمدينة منسوبة إليه. (الأعلام: ٤: ٢٢٦).

(٥) الأبطح: مسيل واسع فيه دقيق الحصى.

(٦) في اللسان: غدر معدول عن غادر للمبالغة، ويقال للذكر: غدر، والأنثى غدار، وهما مختصان بالنداء في الغالب، وقد ضبطه السهيلي بضم الغين والدال (راجع الروض الأنف: ٢: ٦١).

والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مَثَل به بعيرُه على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غُدَر! لمصَارِعكم في ثلاث، ثم مثَل به بعيرُه على رأس أبي قُبَيس(١) فصرخَ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها مكة فلا دارٌ منها إلا دخلتها منها فِلْقة؛ قال العباس: والله إن هذه لرؤيا! وأنتِ فاكتميها.

ثم خرج العباس فلقي الوليدَ بن عُتبة بن رَبيعة(٢)، وكان صديقاً له؛ فذكرَها له واستكْتَمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عُتبة؛ ففشا الحديث حتى تحدّثت به قريش.

قال العباس: فغدوْت لأطوفَ بالبيت، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قُعُود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغتَ من طوافك فأت إلينا، فلما فرغتُ أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب، متى حَدَثَتْ فيكم هذه النبيّة؟ قلتُ: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة، فقلت: وما رأت؟ فقال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رِجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! فقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربّص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتبْ عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب؛ قال العباس: فوالله ما كان مني إليه كبيرٌ إلا أنّي جحدْت ذلك وأنكرتُ أن تكون رأتْ شيئاً، قال: ثم تفرّقنا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررْتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساءَ وأنتَ تسمع؛ ثم لم تكن عندك غِيرة لشيء مما سمعت! قال: قلت: قد والله فعلتُ، ما كان منّي إليه من كبير؛ وأيمُ الله لأتعرّضنّ له، فإن عاد لأكفِيَنْكُنّه.

قال: فغدوتُ في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديدٌ(٣) مُغضَب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدرِكه منه، فدخلت المسجد فرأيتُه، فوالله إني لأمشي نحوَه أتعرضُ له ليعود لبعض ما قال، فأُوقِعَ به، إذ خرج نحو باب المسجد يشتد(٤)، فقلت في نفسي: ما له لعنه الله! أكلُّ هذا فرَق(٥) مني أن أشاتمه! وإذا هو قد سمع ما لم

---

(١) أبو قبيس: جبل مشرف على مكة.

(٢) الوليد بن عتبة: الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب الأموي (. . . ـ ٦٤ هـ = . . . ـ ٦٨٤ م) أمير من رجالات بني أمية، ولي المدينة (سنة ٥٧ هـ) في أيام معاوية. عزله يزيد (سنة ٦٠ هـ)، ثم أعاده (سنة ٦١ هـ) وثورة عبد الله بن الزبير في إبانها. . . ثم عزله يزيد وظل الوليد في المدينة. وحجّ بالناس سنة ٦٢ وتوفي بالطاعون. (انظر الأعلام: ٨: ١٢١).

(٣) حديد: من الحدة: أي الغضب.

(٤) يشتد: يعدو. (٥) الفرق: الفزع، الخوف.

أسمع؛ صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرُخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، قد جدّع[١] بعيره وحوّل رحله، وشقّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللَّطِيمةَ[٢] اللّطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوْثَ الغوثَ! قال العباس: فشغلني عنه، وشغله عنّي ما جاء من الأمر.

فتجهّز الناس سِراعاً وقالوا: أيظنّ محمد وأصحابه أن تكون كعِير ابن الحضْرَمِيّ؟ كلّا! واللّه ليعلمَنّ غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إمّا خارج، وإما باعث رجلاً مكانه، وأوْعَبت[٣] قريش فلم يتخلّف من أشرافها أحدٌ، إلا أن أبا لهب بن عبد المطّلب تخلّف، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغِيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم وكانت لأبي لهب عليه، فخرج عنه.

وروَى أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانيّ[٤] في كتابه المترجم بالأغاني[٥] بسند يرفعه إلى مُصعَب بن عبد الله[٦] قال: فأَمَرَ أبو لهب العاصيَ بن هشام في عشرة من الإبل فقمره[٧]، ثم في عشرة فقمَره، ثم في عشرة فقمَره، إلى أن خلعه من ماله فلم يُبق له شيئاً، فقال له: إني أرى القِداح[٨] قد حالفتْك يا بن عبد المطلب، فهل أُقامرك يا بن عبد المطلب، فأيُّنا غُلب كان عبداً لصاحبه. قال: افعل، ففعلَ، فقمَره أبو لهب فكرِه أن يسترِقَّه فتغضب بنو مخزوم، فمشى إليهم فقال: افْتَدوه مني بعشرة من الإبل، فقالوا: لا والله ولا بِوَبرَة. فاسترقّه، فكان يرعى له إبلَه إلى أن خرج المشركون إلى بدر. قال: وقال غيرُ مصعب: فاسترقه واحتبسَه قَيْناً[٩] يعمل الحديد.

---

(١) جدَّع: قطع أنفه أو أذنيه.

(٢) اللطيمة: الإبل التي تحمل الطيب والبر.

(٣) أوعبت قريش: يقال: أوعب القوم: إذا خرجوا كلهم إلى الغزو.

(٤) أبو الفرج الأصبهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ = ٨٩٧ ـ ٩٦٧ م) من أئمة الأدب والأعلام، في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي، ولد بأصبهان، ونشأ وتوفي ببغداد. من كتبه الأغاني. لم يعمل في بابه مثله جمعه في خمسين سنة. (الأعلام: ٤؛ ٢٧٨).

(٥) راجع الأغاني: ٤: ١٧٤، طبع دار الكتب. والنص فيه يختلف عن رواية المؤلف هنا.

(٦) مصعب بن عبد الله: مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، أبو عبد الله (١٥٦ ـ ٢٣٦ هـ = ٧٧٣ ـ ٨٥١ م) علامة بالأنساب غزير المعرفة بالتاريخ. كان أوجه قريش مروءة وعلماً وشرفاً. وكان ثقة في الحديث شاعراً. ولد بالمدينة، وسكن بغداد وتوفي بها. (الأعلام: ٧: ٢٤٨).

(٧) قمره: غلبه في المقامرة.

(٨) القداح: سهام المقامرة.

(٩) القين: الحداد.

فلما خرج المشركون إلى بدر أخرجه أبو لهب عنه لأنه كان عليلاً، على أنه إن عاد أعتقه، فقبل العاصي.

قال ابن إسحاق: وكان أميّةُ بن خلف قد أجمعَ القُعودَ[1] وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه عُقْبة بن أبي مُعَيط وهو جالس في المسجد بين قومه بِمِجْمَرَة، فوضعها بين يديه، وقال: يا أبا عليّ، استجْمِر، فإنما أنت من النساء. فقال: قَبّحَكَ الله وقبحَ ما جئت به. ثم تجَهّز وخرج مع الناس.

قال: ولما فرغوا من جِهَازهم، وأجمعوا المسيرَ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بَكْر بن عبد مَنَاة بنِ كنانة من الحرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خَلْفنا. فكادوا ينْثَنون؛ فتبدّى لهم إبليس في صورة سُرَاقة بن مالك المُدْلجِيّ، وكان من أشراف كنانة، فقال: أنا جارٌ لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء مما تكرهونه فخرجوا سراعاً.

هذا ما كان من أمر قريش.

ذكْر خروج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين إلى بدر

قال محمد بن إسحاق خرج رسول الله ﷺ من المدينة لثمانٍ خلوْن من شهر رمضان.

وقال محمد بن سعد: خرج يوم السبت لاثنتي عشرةَ ليلة خلتْ من شهر رمضان على رأس تسعةَ عشرَ شهراً من مُهاجَرِه، واستعمل على المدينة عَمرَو ابن أم مَكْتوم، واسمه عبد الله، ليصلّي بالناس، ثم ردّ أبا لُبابةَ من الرَّوْحاء[2] واستعمله على المدينة، وخرج ﷺ في ثلثمائة رجل وخمسةَ عشرَ رجلاً، كان من المهاجرين منهم أربعة وسبعون، وسائرُهم من الأنصار بعد أن رَدّ من أصحابه من استصغرَهم، ولم يكن غزا بالأنصار قبلها.

قال محمد بن سعد: وتخلّفَ من أصحاب رسول الله ﷺ ثمانيةٌ لعلّة، ضَرب لهم رسول الله ﷺ بسِهامهم وأجُورهم؛ ثلاثة من المهاجرين: وهم عثمان بن عفان، خلّفه رسول الله ﷺ على امرأته رُقيّة بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فأقام عليها حتى ماتت، وطلْحةُ بن عُبيد الله، وسَعيد بن زيد، بعثهما يتحسّسان خبر العِير، وخمسةٌ من الأنصار، وهم: أبو لُبابة بن عبد المنذر، خلّفه على المدينة، وعاصم بن

(١) راجع (اللسان: قعد).
(٢) الروحاء: موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة.

عديّ، خلّفه على أهل العالية، والحارث بن حاطِب رده من الرَّوحاء إلى بني عمرو بن عَوْف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الصِّمة، وخَوَّات بن جُبَيْر، كُسرا بالرَّوحاء.

وكانت إبِلُ أصحابِ رسول الله ﷺ يومئذٍ سبعين بعيراً يعْتَقِبونها[١]، فكان رسول الله ﷺ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنويّ يعتقبون بعيراً.

قال محمد بن سعد يرفعه إلى ابن مسعود قال: كُنا يوم بدر كلّ ثلاثة على بعير، وكان أبو لُبابةَ، وعليّ، زميليْ رسول الله ﷺ، فكان إذا كانت عُقْبةُ النبي ﷺ قالا له: اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك، فيقول: «ما أنتما بأقْوى على المشي منّي، وأما أنا أغْنَى عن الأجْر منكما».

قال ابن إسحاق: وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو كَبْشَة، وأنسَة مولى رسول الله ﷺ يعتقِبون بعيراً؛ وكان أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمٰن بن[٢] عوف، يعتقبون بعيراً.

قال ابن سعد: وكانت الخيل فرسيْن: فرس للمِقْداد بن عمرو[٣]، وفرس لمرْثد بن أبي مرْثَد الغنَويّ[٤]. قال ابن إسحاق: وفرس للزُّبَيْر بن العوّام[٥].

قال: ودفَع رسول الله ﷺ اللّواء إلى مُصْعَب بن عُمير بن هاشم بن عبد مَناف بن عبد الدار، وكان أبيضَ، قال: وكان أمامَ رسول الله ﷺ رايتان سوْداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع الأنصار.

---

(١) يعتقبونها: يتناوبون على ركوبها.

(٢) عبد الرحمٰن بن عوف: عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف، أبو محمد، الزهري القرشي (٤٤ ق هـ ـ ٣٢ هـ = ٥٨٠ ـ ٦٥٢ م) صحابي من أكابرهم. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. ولد بعد الفيل بعشر سنين، وأسلم، وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها. (الأعلام: ٣: ٣٢٠).

(٣) المقداد بن عمرو: المقداد بن الأسود الكندي: هو ابن عرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود النهراني، وقيل: الحضرمي. وقيل كنيته أبو عمرو وقيل: أبو سعيد. أسلم قديماً، وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ هاجر الهجرتين وشهد بدراً وأحداً والمشاهد بعدها. واتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان. قيل: وهو ابن سبعين سنة انظر: (الإصابة في تمييز الصحابة ٣: ٤٥٥ رقم الترجمة ٨١٨٣).

(٤) مرثد بن أبي مرثد: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، صحابي، وكان مرثد يحمل الأسرى. استشهد في صفر سنة ثلاث في غزوة الرجيع. انظر: (الإصابة في تمييز الصحابة ٣: ٣٩٨ رقم الترجمة ٧٨٧٨).

(٥) الزبير بن العوام: ابن عمة رسول الله ﷺ، توفي سنة ٣٦ بعد وقعة الجمل.

قال ابن سعد: وكان لواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوْس مع سعد بن مُعاذ، وجعل رسول الله ﷺ على السّاقة قيْسَ بن أبي صعْصعة أخا بني مازن بن النجار. قال: ولما كان رسول الله ﷺ قريباً من الصَّفْراء[١] بَعث بَسْبَسَ بنَ عمرو، وعديَّ بنَ أبي الزّغباء الجُهَنِيَّيْن إلى بدر يَتحسَّسان له الأخبار عن أبي سفيان وعِيره.

ثم ارتحل ﷺ إلى ذَفران ـ وادٍ يَسارَ الصَّفراء ـ وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عَيرَهم، فاستشار الناسَ وأخبرهم، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسَن، ثم قام عمر فقال وأحسَن، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أمرك الله! فنحن معك فوالله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكِنْ نقول: اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتِلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سِرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد[٢] لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغَه؛ فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له.

ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس ـ وإنما يريد الأنصار لأنهم عدد الناس ـ فقال له سعد بن مُعاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجلْ؛ قال: فقد آمنّا وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقَى عدوّنا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللّقاء، لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينُك، فسِر بنا على بركة الله، فقال ﷺ: «سيروا وأبشِروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتَين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

ثم ارتحل ﷺ من ذَفران[٣] حتى نزل قريباً من بدر، فركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقفا على شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابِهِ، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مَنْ أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتَنا أخبرناك. قال: أو ذَاك بذاك؟ قال: نعم. قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدَق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي تركَ به رسول الله ﷺ أصحابَه ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا

(١) الصَّفراء: وادٍ من ناحية المدينة، كثير النخل والزرع في طريق الحاج، وبينه وبين بدر مرحلة. وقيل: قرية فوق ينبع مما يلي المدينة.
(٢) برك الغِماد: (بكسر الغين المعجمة، وقال ابن دريد: بالضم، والكسر أشهر) موضع في أقاصي أرض هجر، وقيل: موضع أقصى اليمن. وقال الهمذاني: موضع بالحبشة.
(٣) ذَفران: وادٍ قرب وادي الصفراء.

وكذا، فإذا كان الذي أخبرني صدَقَني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به قريش ـ ثم قال: من أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء». ويقال: إن الشيخ سُفيان الضَّمْريّ قال: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسَى بعث عليَّ بن أبي طالب، والزُّبَير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له عليه الخبر، فأصابوا راوية(١) لقريش فيها أسْلَم، غلام بني الحجاج، وعَرِيض أبو يَسار، غلام بني العاص، فأتَوا بهما؛ فسألهما رسول الله ﷺ عن قريش، فقالا: هم وراء هذا الكثِيب الذي تَرَى بالعُدْوة القُصْوى، فقال لهما: كم القوم؟ قالا: كثير؛ قال: ما عِدّتهم؟ قالا: لا ندري. قال: كم ينحرونَ كل يوم؟ قالا: تسعاً، ويوماً عشراً؛ فقال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسعمائة والألف، ثم قال لهما: فمَن فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عُتبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وحَكِيم بن حِزام، ونوْفل بن خُويْلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنصر بن الحارث، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأُميَّة بن خلف، ونُبَيْه ومُنبّه ابنا الحجاج، وسُهَيْل بن عمرو، وعمرو بن عَبْدِ وُدّ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقَتْ أفلاذ كبِدها.

قال: وبلغ أبا سفيان الخبرُ بمقدَم رسول الله ﷺ، وقد ورد ماء بدر، فرجع إلى أصحابه سريعاً وصرفَ وجهَ عِيرِه عن الطريق، فساحل بها(٢)، وترك بدراً يسارَه، وانطلق. وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجُحْفَةَ(٣)، ورأى جُهَيْم بن الصَّلْت مَخْرَمة بن عبد المطلب رؤيا فقال: إنّي فيما يرى النائم، أو إني لبين النائم والْيقظان، إذ نظرتُ إلى رجل أقبل على فرسٍ حتى وقف، ومعه بعيرٌ له، ثم قال: قُتل عُتْبة بن ربيعة، وشَيْبَةُ ابن ربيعة، وأبو الحَكَم بنُ هِشام، وأمية بنُ خَلَف، وفلانٌ وفلان، فعدد رجالاً مِمَّنْ كان قُتِل يوم بدر من أشرافِ قريش، ورأيته ضرب في لَبَّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خِباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْحٌ(٤) من دمه.

قال: فبلغتْ أبا جهل بن هشام فقال: وهذا أيضاً نبيٌّ آخر من بني عبد المطلب! سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا.

قال: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيرَه أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم

---

(١) الراوية: الإبل التي يستقى عليها الماء.
(٢) ساحل بها: أي أخذ بها جهة الساحل.
(٣) الجُحْفة: قرية على ثلاث أو أربع مراحل من مكة.
(٤) النضح: الرّش.

لتمنعوا عيرَكم ورجالَكم وأموالَكم، فقد نجّاها الله فارجعوا! فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرِد بدراً، ـ وكان بدرٌ موسِماً من مواسم العرب يجتمع لهم فيه سوق في كل عام، ـ فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجَزور، ونُطعَم الطعام، ونُسقَى الخمر، وتعزفَ علينا القيان[١]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعِنا، فلا يزالونَ يهابوننا أبداً بعدها، فامضُوا.

فمضت قريش حتى نزلوا العُدْوَةَ[٢] القُصْوَى من الوادي، والقُلُب[٣] ببدر في العدوة[٤] الدنيا؛ قال: وبعث الله السماء، وكان الوادي دَهْساً[٥]، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير.

وقال ابن سعد: كان المسلمون يومئذٍ يَميدون من النعاس ونزلوا على كَثِيبٍ[٦] أهْيَل، فمَطَرت السماءُ فصار مثلَ الصَّفا[٧] يسعَوْن عليه سعياً. وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ يَـغْـشـاكُـمُ[٨] ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١].

قال ابن إسحاق: وأصابَ قريشاً منها ما لم يَقدِروا على أن يرتَحِلُوا معه، فخرج رسولُ الله ﷺ يبادِرُهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من ماء بدر نزل به، فأتاه الحُبَابُ بن المنذر بن الجَمُوح فقال: يا رسول الله، هذا المنزلُ منزلٌ أنزلَكه اللَّهُ، ليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل الرأيُ والحربُ والمكيدةُ». قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم فتنزلَه، ثم نُعَوّر[٩] ما وراءه من القُلُب، ثم نبتني عليه حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرتَ بالرأي»، فنهض بالناس وسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم، نزل عليه؛ ثم أمر بالقلُب فعوّرت، وبنى حوضاً على القَليب الذي نزل عليه، فمُلىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

---

(١) القيان: الجواري المغنيات.
(٢) العدوة القصوى: أي جانب الوادي القريب من مكة.
(٣) القُلُب: جمع قليب، وهو البئر.
(٤) العدوة الدنيا: أي بالجانب الأدنى من المدينة.
(٥) الدهس: كل مكان سهل، ليس برملٍ ولا تراب.
(٦) كثيب أهيل: أي: رمل سائل.
(٧) الصفا: الحجارة الصلدة.
(٨) في قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.
(٩) نُعَوِّر القُلُب: ندفنها.

فقال سعد بن معاذ: يا نبيّ الله، نبْتَنِي لك عَريشاً[١] تكون فيه، وتكون عندك ركائبك، ثم نلقَى عدوّنا، فإن أعزّنا الله وأظْهَرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك، فلحِقْت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلّف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حُبًّا منهم، ولو ظنّوا أن نلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعُك الله بهم يُناصِحونك ويجاهدون معك؛ فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيراً، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريشٌ، فكان فيه.

قال: وارتحلت قريش حين أصبحتْ فأقبلت، فلمّا رآها رسول الله ﷺ قال: «اللّهمَّ هذه قريشٌ قد أقبلت بخُيَلائها[٢] وفَخْرِها، تُحادّك[٣] وتكذب رسولَك، اللهم فنصْرَكَ الذي وعَدتَني، اللهم أَحِنْهم[٤] الغداة».

قال ابن سعد: كانت قريش تسعمَائة وخمسين، وخيلُهم مائةَ فرس، وكان لهم ثلاثةُ ألوية؛ لواء مع أبي عَزيز بن عُمير، ولواء مع النَّضْرِ بن الحارث، ولواء مع طلحةَ بن أبي طلحة.

قال ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يَسار وغيره، عن أشْياخ من الأنصار، قال: لما اطمأنَّ القوم بعثوا عُمير بن وهب الجُمَحيّ فقالوا: احزُر[٥] لنا أصحاب محمد، فجالَ بفرسه حول العَسْكَر؛ ثم رجع إليهم، فقال: ثلثمائة رجل يَزيدون قليلاً أو يَنقُصونه، ولكن أمهلوني حتى أنظر، ألِلْقَوم كَمينٌ أو مَدد؟ قال: فضرب في الوادي حتى أبعَد، فلم يَرَ شيئاً؛ فرجع إليهم، فقال: ما رأيتُ شيئاً، ولكني رأيتُ يا معشرَ قريش البَلايا[٦] تحمِل المنَايا، نواضح[٧] يَثْرِبَ تحمل الموتَ الناقِع[٨]، قوم ليس معهم مَنَعَة ولا ملجأ إلا سيوفُهم تَروْنهم خُرْصاً لا يتكلّمون، يتلَمَّظون[٩] تَلمُّظ الأفاعي؛ واللَّهِ ما أَرَى أن يُقتَل رجلٌ منهم حتى يُقتَل رجلٌ منكم، فإذا أصابوا منكم

(١) العريش: شبه الخيمة، يستظل به.
(٢) الخيلاء: الكبر والإعجاب.
(٣) تحادك: تعاديك.
(٤) أحنهم: أهلكهم.
(٥) الحزر: التقدير بالحدس والظن.
(٦) البلايا: جمع بلية، وهي الناقة، تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت. وكان بعض العرب ممن يقر بالبعث يقول: إن صاحبها يحشر عليها.
(٧) النواضح: الإبل التي يستسقى عليها.
(٨) الناقع: الثابت البالغ في الإفناء.
(٩) يتلمظون: تلمظت الحية: إذا أخرجت لسانها (اللسان: لمظ).

أعْدادَهم، فما خيرُ العيشِ بعد ذلك؟ فرَوْا رأيَكم.

فلما سمع حَكِيم بن حِزام ذلك مشى في الناس؛ فأتَى عُتبَةَ بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبيرُ قريش وسيّدها، والمطاعُ فيها، هل لك ألاّ تزال تُذكَر منها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: تَرجعُ بالناس وتحملُ أمرَ حليفِك عمرو بن الحَضْرَمِيّ. قال: قد فعلتُ، عليّ عَقْله[1]؛ فأتِ ابنَ الحَنظَليّة، يعني أبا جهل بن هشام، قال: فأتيته فقلتُ: يا أبا الحكم، قد أرسلني إليك عُتبة بكذا وكذا، فقال: انتفخ واللّهِ سَخره[2] حين رأى محمداً وأصحابَه، كلا والله لا نَرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، ثم بعثَ إلى عامر بنِ الحضرمي فقال: هذا حليفُك يريد أن يَرجع بالناس، وقد رأيتَ ثأرَك بعينِك، فقم فانشُد خُفرَتك[3]، ومَقْتَلَ أخيك، فقام عامر فاكتشف[4] ثم صرَخ: واعَمْراه، واعَمْراه! فحميت الحرْب وحَقِب[5] أمر الناس، واستوْسقوا[6] على ما هم عليه من الشر. قال: فخرج الأسودُ بن عبد الأسد المخزوميّ، وكان رجلاً شرساً سيِّءَ الخُلق، فقال: أُعاهد اللّهَ لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه، أو أموتَنّ دونَه، فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ[7] قدمَه بنصفِ ساقه، وهو دونَ الحوض، فوقع على ظهره، ثم جاء إلى الحوض يريد أن يُبِرّ يمينه، وأتْبعه حمزة فضربه حتى قتله. ثم خرج بعده عتبةُ بنُ ربيعة، بين أخيه شَيْبة بن رَبيعة، وابنِه الوليد بن عتبة، حتى إذا بَرَز من الصفّ دعا إلى المبارزة، فخرج إليه ثلاثةٌ من الأنصار، وهم: عَوْف ومُعَوِّذ ابنا الحارث، وعبدُ الله بن رَواحة، فقالوا: مَن أنتم؟ فقالوا: رَهْطٌ من الأنصار؛ قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمدُ، أَخرِج إلينا أكفاءَنا من قومنا، فأخرج لهم رسولُ الله ﷺ عمّه حمزةَ بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، وعِبيدةَ بن الحارث، فلما دَنَوا منهم قالوا: مَنْ أنتم؟ فسمَّى كل رجل منهم نفسه، قالوا: نعَم أكفّاء كِرام؛ فبارز عبيدةُ ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبةَ، وبارز حمزة شيبَة، وبارز عليّ الوليدَ بن عتبة، فأما حمزةُ وعليّ فإنهما لم يُمهلا مُبارزَيْهما أن قتلاهما، واختلف عُبيدة وعُتبة بينهما ضربتين كلاهما

---

(١) عقله: ديته.

(٢) انتفخ سحره: يقال: للجبان الذي ملأ الخوف جوفه، والسحر: الرئة.

(٣) انشد خُفرتك: أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك، لأنه كان حليفاً لهم وجاراً.

(٤) اكتشف: تعرى من ثيابه. وفي الطبقات: «فكشف عامر وحثا على استه التراب».

(٥) حَقب: اشتد.

(٦) استوسقوا: اجتمعوا.

(٧) أطنّ: أطار.

أَثْبَتَ[١] صاحبه، وكَرَّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فَذَفَّفا[٢] عليه، واحتملا صاحبَهما فحازاه[٣] إلى أصحابه.

قال محمد بن سعد: وفي عُبيدةَ وعُتبةَ نزل قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. قال: ثم زحَف الناس ودنا بعضُهم من بعض.

وكانت وقعةُ بدر يومَ الجمعة صَبيحةَ سَبْعَ عَشرةَ من شهر رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة.

وعدّل رسول الله ﷺ الصفوفَ، ورجع إلى العَريش، فدخَلَه هو وأبو بكر الصدّيق ليس معه غيرُه فيه، وهو ﷺ يناشد ربه[٤] ما وعدَه من النصر، ويقولُ فيما يقول: اللهمّ إن تَهْلِكْ هذه العصابةُ اليومَ لا تُعبد، وأبو بكر يقول: يا نبيّ الله، بعضَ مناشدتِك ربّك، فإن الله مُنجزُك ما وعدَك. وخَفقَ[٥] رسول الله ﷺ خَفْقَةً ثم انتبه، فقال: أَبْشِر يا أبا بكر، أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذٌ بعِنان فرسِه يقودُه، على ثناياه النَّقع[٦].

قال ابن إسحاق: ورُمي مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقُتِل، وكان أولَ قتيل قُتل من المسلمين، ثم رُمي حارثةُ بن سُراقة، أحدُ بني عَدِيّ بن النجّار، وهو يشربُ في الحوض بسهم، فأصاب نَحْرَه، فقُتِل.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس يُحرِّضُهم، وقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يقاتلُهم اليومَ رجل فيقتَلُ صابراً محتسِباً مُقبِلاً غيرَ مُدبر، إلا أدخله الله الجنة»، فقال عُميْر بن الحُمام أخو بني سَلمة، وفي يده تمراتٌ يأكلهُن: بَخ بَخ[٧]! أفما بيني وبين أن أدخلَ الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التَّمرات من يدِه، وأخذ سيفَه وقاتل حتى قُتِل.

وقال عَوْفُ بن الحارث ـ وهو ابنُ عَفْراء ـ يا رسول الله: ما يُضحِك[٨] الربَّ من

---

(١) أثبت صاحبه: جرحه جراحة لم يقم معها.
(٢) ذففا عليه: أسرعا قتله.
(٣) حازاه: سارا به في رفق.
(٤) يناشد ربه: يسأله ويرغب إليه.
(٥) خفق: نام نوماً يسيراً.
(٦) النقع: الغبار.
(٧) بخ: كلمة تقال في موضع الإعجاب.
(٨) يضحك الرب: يرضيه غاية الرضا.

عبده؟ قال: غَمْسُه يدَه في العدوّ حاسِراً[١]. فنزع دِرْعاً كانت عليه، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتِل.

قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حَفْنة من الحَصْباء فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: شاهَت[٢] الوجوه، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شُدُّوا؛ فكانت الهزيمةُ على قريش، فقتَل الله من صناديد قريش مَن قَتل، وأسرَ مَن أسر.

قال محمد بن سعد: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥]، قلت: وأيّ جمع يُهزَم ومَن يَغلِب؟ فلما كان يوم بدر نظرت إلى رسول الله ﷺ يَثِب في الدرع وثباً وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾، فعلمت أن الله تعالى سيَهزمهم.

قال: ولمّا وضع القومُ أيديَهم يأسرون، ورسول الله ﷺ في العريش، وسعد بن مُعاذ قائم على باب العريش، مُتوشّح السيفَ، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ، يخافون عليه كَرّة العدوّ، فرأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكَراهِية لما يصنع الناس فقال له: لَكأنّي بك يا سعدُ تكره ما يصنعَ القوم؛ قال: أجَل: والله يا رسول الله، كانت أوّلَ وقْعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثْخان[٣] في القتل أحبَّ إليّ من استبقاء الرجال.

وفي هذا اليوم أنزل الله تعالى الملائكة فقاتلوا مع المسلمين.

قال محمد بن سعد: لما صَفَّ رسول الله ﷺ أصحابَه وعبّأهُم للحرب، جاءت ريح لم يُرَ مثلُها شدّة، ثم ذهبت، فجاءت ريح أخرى ثم ذهبت، فجاءت ريح أخرى، فكانت الأولى جبريل عليه السلام في ألف من الملائكة مع رسول الله ﷺ، والثانية ميكائيل عليه السلام في ألف من الملائكة عن مَيْمَنَة رسول الله ﷺ، والثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله ﷺ، وكان سِيما[٤] الملائكة يومئذٍ عمائم قد أرخوْها بين أكتافهم: خُضْر وصُفْر وحُمْر من نور، والصُّوف في نواصي خيلهم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إنّ الملائكة قد سَوَّمت[٥] فسوِّموا، فأَعلَموا بالصوف في مَغافرهم[٦] وقلانِسهم.

---

(١) حاسراً: مكشوفاً.
(٢) شاهت: قبحت.
(٣) الإثخان: المبالغة.
(٤) سيما: علامة.
(٥) سوَّمت: حملت علامتها المميزة.
(٦) المغافر: المغفر: وهو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه.

قال: وكانت الملائكة يوم بدر على خيل بُلْق[١].

وقال ابن إسحاق: حدّثني عبدُ الله بن أبي بكر أنه حُدِّث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدّثني رجل من بني غِفَار قال:

أقبلتُ أنا وابن عمّ لي حتى أَصعدَنا في جبل يُشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظُر الوَقْعة على من تكونُ الدائرةُ؛ ننتهب مع من ينتهب، فبينما نحنُ في الجبل إذ دَنت منا سحابةٌ، فسمعنا فيها حَمْحَمَةَ الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أَقدِمْ[٢] حَيْزُوم. قال: فأمّا ابنُ عمي فانكشف قِناعُ قلبه، فمات مكانه. وأما أنا فكدت أَنْ أهلِك، ثم تَماسكْت.

وروى ابن إسحاق عن أبي أُسَيْد مالك بن ربيعة ـ وكان شهد بدراً ـ قال ـ بعد أن ذهب بصره ـ: لو كنتُ اليوم ببدر ومعي بصري لأَرَيْتُكم الشِّعْب[٣] الذي خرجت منه الملائكة، لا أشُكّ ولا أتمارى[٤].

وعن أبي داود المازِنيّ، قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسُه قبل إن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قتله غيري.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كانت سيما الملائكة يومَ بدر عمائمَ بِيضاً قد أرسلوها في ظُهورهم، ويوم حُنَينٍ عمائمَ حُمراً، وفي حديث آخر عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائمَ بِيضاً قد أرخوْها على ظهورهم، إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامةٌ صفراء.

وعن ابن عباس[٥] رضي الله عنهما، قال: لم تُقاتل الملائكة في يوم سوى يومِ بدر، وكانوا فيما سواه من الأيام عَدداً ومَدَداً لا يَضربون.

قال: وكان شِعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: أَحَدٌ أَحَدٌ.

قال ابنُ إسحاق: وأقبل أبو جهل يومئذٍ يرتجز وهو يقاتل ويقول:

---

(١) بُلق: لونها أسود وأبيض.
(٢) أَقدِم: كما صوبه صاحب اللسان: كلمة تزجر بها الخيل. وحيزوم: اسم فرس جبريل عليه السلام.
(٣) الشعب: الطريق في الجبل.
(٤) أتمارى: أشك.
(٥) عبد الله بن عباس: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (٣ ق هـ ٦٨ هـ = ٦١٩ ـ ٦٨٧ م) حبر الأمة الصحابي الجليل. ولد بمكة. ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ. وروى عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره فسكن الطائف، وتوفي بها. (الأعلام: ٤: ٩٥).

مـا تَـنْـقِـم الـحـرب الـعَـوان مـنّـي بـازِلُ عـامَـيـن حـديـثٌ سـنّـي[١]

* لِـمِـثْـلِ هـذا ولَـدَتْـنـي أمّـي *

قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من عَدوه أمَر أن يُلتَمس أبو جهل بن هشام في القتْلى، فمرّ به عبدُ الله بن مسعود، قال: فوجدته بآخر رَمق فعرفْتُه، فوضعت رجلي على عنُقه، فقال لي: لقد ارتَقَيْت يا رُوَيْعِيَ[٢] الغنم مُرتقًى صعباً، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ فقلْت: لِلَّهِ ولرسوله؛ ثم احتَرزْت رأسه، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدوِّ الله أبي جهل؛ فقال[٣]: آللَّهِ الذي لا إلٰه غيره؟ قلت: نعم واللَّهِ الذي لا إلٰه غيره، ثم ألقيت رأسَه بين يدي رسول الله ﷺ.

وعن عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنه قالت: لما أمَر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يُطرَحوا في القَليب، طرحوا فيه إلا أميّة بن خلف فإنه انتفخ في دِرعه فملأَها فذهبُوا ليُحَرِّكوه فتَزايَل[٤]، فأقَرُّوه وألقَوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة، قالت: ولما أُلقُوا في القَليب، وقف رسول الله ﷺ فقال: «يا أهلَ القليب، هل وجدتُم ما وعدَ ربكم حقاً، فإني قد وجدتُ ما وَعدني ربي حقاً»، قالت: فقال له أصحابه: يا رسولَ الله، أتكلم قوماً مَوتى؟ فقال لهم: «لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حق». وعن أنس رضي الله عنه نحوُه، إلا أنّ فيه: فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جَيَّفوا[٥]؟ قال: «ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم[٦]، ولكن لا يَستطيعون أن يُجيبوني».

قال ابن إسحاق: وكان الفِتية الذين قُتِلوا ببدرٍ ـ فنزل فيهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧] ـ الحارثُ بنُ زَمْعَة بن الأسود، وأبو قَيْس بن الفاكه بن المغيرة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أميّة بن خَلَف، والعاصُ بن منبّه.

---

(١) الحرب العوان: هي التي قوتل قبلها مرة. البازل: أصله في البعير، يقال: بعير بازل، إذا استكمل السنة الثامنة، وطعن في التاسعة، والكلام هنا على التشبيه. يريد أن يقول: أنا مستجمع الشباب مستكمل القوة.

(٢) رويعِي: تصغير راعٍ.

(٣) كانت يمين رسول الله ﷺ، راجع الروض الأنف: ٢: ٧٢.

(٤) تزايل: تفرّق.

(٥) جَيَّفوا: صاروا جيفاً.

(٦) الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، تجده واضحاً في الروض الأنف: ٢: ٧٤. وفي شرح المواهب اللدنية: ١: ٥٢٢.

وذلك أنهم كانوا أسلموا بمكة، فلما هاجر رسول الله ﷺ حبسَهم آباؤهم وعشائرُهم بمكة وفَتَنُوهم فافتتَنوا، ثم خرجوا مع قومهم إلى بدر، فأُصِيبوا كلُّهم.

قال: ثم أمر رسولُ الله ﷺ بما في العسكر ممّا جمع الناسُ فجُمع، واختلف المسلمون فيه، فقالَ من جمعه: هو لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون العدوَّ: والله لولا نحن ما أصبْتموه، لنحن شَغلْنا عنكم القومَ حتى أصبتم ما أصبتم؛ وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافةَ أن يُخالف إليه العدوّ: ما أنتم بأحقّ منّا، لقد رأينا أن نقتل العدوّ إذ منَحنا الله أكتافَهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه مَن يمنعه، ولكِنّا خِفْنا على رسول الله ﷺ كرّة العدوّ فقمنا دونه، فما أنتم أحقّ به منا. فـأنـزل الله تـعـالـى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ١]، نزلت السورة بجملتها في غزوة بدر.

قال: ثم أقبل رسول الله ﷺ قافِلاً إلى المدينة ومعه الأُسارَى من المشركين والنَّفَل[١]، وجعل على النَّفَل عبد الله بن كعب المازِنيّ، فلما خرج رسول الله ﷺ من مضيق الصفراء، نزل على كَثِيب بين المضيق وبين النازِيَة[٢]، يقال له: سَيَر، إلى سَرْحة[٣] به وهو من المدينة على ثلاث ليال، فقسم هناك النَّفل الذي أفاء اللّهُ على المسلمين على السواء.

قال ابن سعد: وتنفّل رسول الله ﷺ سيفَه ذا الفَقَار، وكان لمنبّه بن الحجّاج، فكان صفيّه يومئذٍ؛ وأخذ رسول الله ﷺ سهمَه مع المسلمين، وفيه جَمل أبي جهل بن هشام، وكان مَهْرِياً[٤]، وبعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة بشيراً إلى المدينة، وبعث عبدَ الله بن رَوَاحة إلى أهل العالية.

قال ابن سعد يرفعُه إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر بثلثمائة وخمسةَ عشرَ من المقاتِلة، كما خرج طالوتُ فدعا لهم رسول الله ﷺ حين خرجوا، فقال: «اللهم إنهم حُفاةٌ فاحْملهم، اللهم إنهم عُراةٌ فاكسُهم، اللهم إنهم جِياعٌ فأَشْبِعهم».

ففتح الله يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا، وما فيهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، فاكتسوْا وشبِعوا.

---

(١) النَّفَل: الغنيمة.

(٢) النازية: عين على طريق الآخذ من مكة إلى المدينة، قرب الصفراء.

(٣) السرحة: الشجرة العظيمة.

(٤) مهري: نسبته إلى قبيلة مهرة بن حيدان باليمن.

وقال يرفعه إلى عِكرمةَ قال: قيل لرسول الله ﷺ لما فرغ من أهل بدر: عليك بالعِير ليس دونَها شيء، فناداه العباس: إنه لا يصلح ذلك لك، قال: لِمَ؟ قال: لأنّ الله تعالى وَعدك إحدى الطائفتين، فقد أعطاك ما وعدك.

ذِكر ورود الخبر بمُصاب أهل بدر على من بمكة من كفار قريش وهلاك أبي لهب بن عبد المطلب(١)

قال ابنُ إسحاق: كان أوّل من قدم مكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخُزاعيّ، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قُتِل عُتبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو الحَكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزَمْعَةَ بن الأسود، ونُبَيْه ومَنَبِّه ابنا الحجّاج، وأبو البَخْتَرِيّ، وجعل يعدّد أشراف قريش، فقال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحِجر،: والله إن يعْقِل هذا فاسألوه عني، قالوا: ما فعل صَفْوان بن أمية؟ قال: هو ذاك جالس في الحِجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتِلا.

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد داخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمتْ أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه، ويكره خِلافهم، وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرّق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص ابن هشام بن المغيرة وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً. فلما جاء الخبر عن مُصاب أصحابِ بدر كبته(٢) الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوّة، وعزاً، وكنتُ رجلاً ضعيفاً، وكنت أنحت الأقداح في حُجْرة زمزم، فوالله إني لجالسٌ فيها أنحت أقداحي وعندي أمّ الفضل جالسةٌ، وقد سَرّنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجرُّ رِجليه بشرّ، حتى جلس على طُنُب(٣) الحجرة، وكان ظهرِي إلى ظهره، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. فقال أبو لهب: هلمّ إليّ، فعِندك لَعَمري الخبر. قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا بن أخي، أخبِرْني

---

(١) أبو لهب: عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم من قريش (... ـ ٢هـ = ... ـ ٦٢٤ م) عم رسول الله ﷺ وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام. كان غنياً عتياً. كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه، فآذى أنصاره، وحرض عليهم، وقاتلهم. وفي الآية ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ كان أحمر الوجه مشرقاً، فلقب في الجاهلية بأبي لهب. مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها. (الأعلام: ٤: ١٢).

(٢) كبته: أذلّه.

(٣) طنب الحجرة: طرفها. والطنب أيضاً: حبل طويل يشد به سرادق البيت.

كيف أمْر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لَقِينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لُمتُ الناس، لقِينا رجالاً بِيضاً، على خيل بُلْق بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق[١] شيئاً ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعْتُ طُنُب الحُجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، فَثاورتُه[٢] فاحتَمَلني، فضرب بي الأرض، ثم برك على صدري، وكنتُ رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحُجرة فأخذَتهُ فضربته به ضربة فلَقَت رأسه شجَّة منكرة، وقالت: أتستضعفه أن غاب عنه سيده؟ فقام مولِّياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبعَ ليال حتى رماه الله بالعدَسة[٣] فقتلته.

وقالت قريش في قتلى بدر مراثي كثيرة ذكرها ابن هشام وغيره، تركنا إيرادَها رغبة في الاختصار، ولأنه ليس تحت ذلك كبيرُ فائدة فيما نحن بصدده، إلا أنها تشهد بقتل من قتِل ممن نذكره إن شاء الله تعالى.

ذِكرُ تسميةِ من شَهِد بدراً من المهاجرين والأنصار مع رسول الله ﷺ

كان جميع مَنْ شهد بدراً مع رسول الله ﷺ من المسلمين ومن ضُرب له فيها بسهمه وأجره ثلثمائة رجل وأربعةَ عشرَ رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون، ومن الأَوْس أحدٌ وستون، ومن الخزرج مائةٌ وسبعون.

فأما من شهِد بدراً من المهاجرين، ومن ضُرب له بسهمه وأجْرِه، فشهدها من بني هاشم بن عبد مناف اثنا عشر رجلاً، وهم: سيدنا رسول الله ﷺ، وحمزةُ بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، وزيدُ بن حارثة، وأَنَسَةُ الحبَشيّ، وأبو كَبْشَة الفارسي، مَوالي رسول الله ﷺ، وأبو مَرْثَد كنّاز بن حُصَيْن، وابنُه مَرْثَد، حليفا حمزة بن عبد المطلب، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخواه: الطفَيلُ، والحصين، ومِسطح، واسمُه عَوفُ بن أُثاثة بن عبّاد بن المطَّلب.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف وحلفائهم خمسةَ عشرَ رجلاً، وهم: أبو حُذَيفة بن عُتبة بن ربيعة، وسالمٌ مولاه. ومن حلفائهم من بني أسَد بن خُزَيمةَ عبد

---

(١) ما تليق: ما تبقي.

(٢) ثاورته: واثبته.

(٣) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون. وكان العرب يتشاءمون بها، ويرون أنها شديدة العدوى.

الله بن جحش بن رِئاب، وعُكّاشةُ بن مِحْصَن، وشُجاع بن وهب بن رَبيعة، وأخوه عُقْبة، ويزيد بن رُقَيْش[١] بن رئاب، وأبو سِنان بن مِحْصَن بن حُرْثان أخو عُكّاشة، وابنه سِنان، ومُحْرِز بن نَضْلة بن عبد الله وربيعة بن أكثم بن سَخْبَرة بن عمرو. ومن حلفائهم من بني كبير بن غَنْم بن دُودان بن أسد: ثَقْفُ بن عمْرو، وأخواه مالك، ومُدْلِج، وهم من بني حَجْر آل بني سُلَيم، وأبو مَخْشي، حَليف لهم.

ومن بني نوفل بنِ عبد مناف رجلان، وهما: عُتْبة بن غَزْوان، وخَبّاب مولاه.

ومن بني أسد بن عبد العُزَّى ثلاثةُ نفر، وهم: الزبير بن العوّام وحاطبُ بن أبي بَلْتَعة، وسعد مولاه.

ومن بني عبد الدار رجلان، وهما: مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار، وسُوَيْبط بن سعد بن حُرَيْملَة، ويقال: ابن حرملة بن مالك بن عُمَيْلة بن السَّبَّاق بن عبد الدار.

ومن بني زُهْرة بن كِلاب وحلفائهم تسعةُ نفر،وهم: عبد الرحمٰن بن عوْف، وسعدُ بن أبي وقّاص، وأبو وقاص مالكُ بن أُهَيْب، وأخوه عُمَير بن أبي وقّاص، ومن حلفائهم: المِقْدادُ بن عمرو بن ثَعْلَبة، وعبد الله بن مسعود بن الحارث، ومسعود بنُ ربيعة بن عمرو، وذو الشِّمالين[٢] عُمَير بن عبد عمرو بن نَضْلة وخَبَّاب بن الأَرَتّ.

ومن بني تَيْم بن مرّة ومواليهم أربعةُ نفر، وهم: أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، ومواليه، بلالُ بن رَباح، وعامرُ بن فُهَيْرة، وصُهَيْب بن سِنان.

ومن بني مخزوم خمسةُ نفر، وهم: أبو سَلَمة عبدُ الله بن عبد الأَسَد وشَمَّاس بن عثمان بن الشَّريد، واسم شمَّاس عثمان، والأَرْقَم بن أبي الأَرقم، وأبو الأرقم هو عبد مناف بن أسد، وعمَّار بن ياسر، ومُعتِّب بن عوْف بن عامر حليفٌ لهم.

ومن بني عديّ بن كعب وحلفائهم اثنا عشر رجلاً، وهم: عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وأخوه زيد، ومِهْجَع مولى عمر، وعمر بن سُرَاقة بن المُعْتَمِر، وأخوه عبد الله، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عُرَين، حليف لهم، وعامر بن البُكَير، وأخواه خالد وإياس، حلفاء بني عديّ، وخَوْليّ بن أبي خَوْليّ، وأخوه مالك، حليفان لهم - ومنهم من عدّ هلال بن أبي خَوْليّ - وعامرُ بن أبي ربيعة، حليف لهم.

ومن بني جُمَح خمسةُ نفر، وهم: عثمان بن مَظْعون، وابنه السَّائب وأخواه قُدَامة، وعبد الله: ابنا مظعون، ومَعْمَر بن الحارث بن معمر.

---

(١) هذه رواية ابن هشام. وفي الاستيعاب، والإصابة، وأسد الغابة «رقيش بن رباب». وفي الأصول: «قيس بن رئاب».

(٢) قال ابن هشام: إنما قيل له: «ذو الشمالين» لأنه كان أعسر.

ومن بني سهم بن عمرو: خُنَيْس بن حُذَافة بن قيس.

ومن بني عامر بن لؤيّ خمسة نفر، وهم: أبو سَبْرَة بن أبي رُهْم بن عبد العُزّى، وعبد الله بن مَخْرمة بن عبد العزّى، وعبد الله بن سُهَيل بن عمرو ـ وكان قد خرج مع أبيه سُهيل، فلما نزل الناس بدراً فرّ إلى رسول الله ﷺ فشهدها معه ـ وعُمَير بن عَوْف، مولى سُهَيل بن عمرو، وسعد بن خَوْلَة، حليف لهم.

ومن بني الحارثِ بن فهر خمسةُ نفر، وهم: أبو عُبيدة عامرُ بن عبد الله بن الجراح، وعمْرو بن الحارث بنْ زُهَير، وسُهَيْل بن ربيعة بن هلال، وأخوه صَفْوان بن وَهب، وهما ابنا بيضاء، وعمرو بن أبي سرح بن ربيعة.

هؤلاء الذين شهدوا بدراً مَن المهاجرين.

وأما من ضرب له بسهمه وأجره، فثلاثة نفر، وهم: عثمان بن عفّان ـ وقد تقدّم خبره ـ وطلْحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانا قد بعثهما رسول الله ﷺ إلى الشام يتحسَّسان له خبر العير، فقدما بعد غزوة بدر، فضَرَب لهما رسول الله ﷺ بسهميهما، قالا: يا رسول الله، وأَجْرنا؛ قال: وأجركما.

وأما من شهدها من الأوس ومن غاب وضُرِب له فيها بسهمه وأجره، فهم أحد وستون رجلاً، شَهِدها منهم ستة وخمسون رجلاً، وهم: سعد بن مُعاذ بن النعمان، وأخوه عمرو بن معاذ، والحارث بن أَنَس بن رافع، وسعد بن زيد بن مالك، وسَلَمَة بن سَلامة بن وَقْش، وعبَّاد بن بشر بن وَقْش، وسلَمة بن ثابت بن وَقْش، ورافع بن يزيد بن كُرْز، والحارث بن خَزَمة بن عديّ، حليف لهم، ومحمد بن مَسْلمة بن خالد، حليف لهم، وسَلَمَة بن أسلم بن حَرِيش، حليف لهم، وأبو الهَيْثم بن التَّيِّهان، وأخوه عُبَيد بن التيهان ـ قال ابن هشام: ويقال: عَتيك بن التيهان ـ وعبدُ الله بن سُهَيل، وقَتادةُ بن النعمان بن زيد، وعُبيد بن أوس بن مالك ـ وعبيد هو الذي يقال له: مُقرِّن، لأنه قرنَ أربعة أسرى في يوم بدر، وهو الذي أسر عَقيل بن أبي طالب يومئذٍ، ونصر بن الحارث بن عبد بن رِزَاح بن كعب، ومُعَتِّب بن عبيد وعبد الله بن طارق حليف لهما من بَليّ، ومسعود بن سعد بن عامر، ويقال فيه: مسعود بن عبد سعد، وأبو عَبْس بن جَبْر بن عمرو، وأبو بُرْدة بن نِيَار، واسمه هانىء، حليف لهم من بليّ، وعاصم بن ثابت بن قيْس، ومُعتِّب بن قُشَير، وأبو مُلَيل بن الأزعر بن زيد، وعمرو بن معْبد بن الأزعر، وقيل فيه: عُمَير بن معْبد، وسهْل بن حُنَيف بن واهب، ومُبشِّر بن عبد المُنذر بن زَنْبَر[1]، وأخوه رفاعة، وسعد بن عُبيد بن النعمان، وعُوَيم بن ساعدة بن

(١) كذا في الإصابة والسيرة. وفي الأصول: «زبير»، تصحيف.

عُنْجُدة، وعبيد بن أبي عُبَيد، وثَعْلَبة بن حاطب، وأُنَيْس بن قَتادة بن ربيعة، ومَعنُ بن عَديّ بن الجدّ من حلفائهم، وثابت بن ثَعْلبة، وعبد الله بن سَلَمة، وزيد بن أسلم بن ثعلبة، وربعيّ بن رافع بن زيد، هؤلاء الخمسة من حلفائهم من بَليّ، وعبد الله بن جُبَيْر بن النعْمان، وعاصم بن قيس بن ثابت، وأبو ضَيَّاح ثابت بن النعمان وأخوه أبو حَنة ـ ويقال: أبو حبّة ـ وسالم بن عُمير بن ثابت بن النعمان، والحارث بن النعمان بن أمية، ومُنذر بن محمد بن عُقبة، وأبو عُقَيل بن عبد الله بن ثعلبة من حلفائهم، وسَعْد بن خَيثَمَة بن الحارث، ومُنذر بن قُدامة، ومالك بن قُدامة بن عَرْفَجة، والحارث بن عَرْفَجة، وتَميم مولى بني غَنْم، وجبْر بن عَتيك بن الحارث ومالك بن نُمَيلة، حليف لبني معاوية من مُزينة، والنعمان بن عَصَر(١)، حليف لبني معاوية من بليّ. هؤلاء الذين شهدوها من الأوس.

وأما من ضُرب له بسهمه وأجره منهم فخمسة نفر، وهم: أبو لُبابة واسمه بَشير بن عبد الله، والحارث بن حاطب، وحاطِب بن عمرو بن عُبيد وعاصم بن عَدِيّ بن الجدّ بن العَجْلان، وخَوَّات بن جُبير بن النعمان.

وأما من شهدها من الخزرج ومواليهم وحلفائهم فمائة وسبعون رجلاً: خارِجةُ بن زيد بن أبي زُهَير، وسعد بن ربيع بن عمرو بن أبي زهير وعبد الله بن رَواحة بن امرىء القيس، وخلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عمرو وبَشير بن سعد بن ثعلبة، وأخوه سِماك بن سعد، وسُبَيع بن قيس بن عَيْشة بن أمية، وأخوه عَبّاد بن قيس، وعبد الله بن عَبْس، ويزيدُ بن الحارث بن قيس وخُبَيْب بن إسَاف بن عتبة، وعبد الله بن زيد بن ثَعْلبة، وأخوه حُرَيث بن زيد، وسفيان بن نَسْر(٢) بن عمرو بن الحارث، وتَميم بن يَعار(٣) بن قيس، وعبد الله بن عُمير بن عديّ، وزيد بن المُزَيْن(٤) بن قيس، وعبد الله بن عُرْفطة بن عديّ، وعبد الله بن ربيع بن قيس، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ [بن](٥) مالك، وأوس بن خوْلي بن عبد الله بن الحارث، وزيد بن وديعة بن عمرو بن قيس بن جَزْء وعُقبة بن وَهْب بن كَلَدَة، حليف لهم من بني عبد الله بن غَطَفَان، ورفاعة بن عمرو بن ثعلبة، وعامر بن سلَمة بن عامر، حليف لهم من اليمن، وأبو حميضة عبّاد بن قُشَيْر بن المُقدَّم، وعامر بن البُكَير، حليف لهم، وَنَوْفَل بن عبد الله بن نَضْلة، وعُبادة بن

(١) في الأصول: «عيصر» وهو تحريف.
(٢) في الأصول: «بشر»، تصحيف.
(٣) في الأصل: «معاذ»، وهو تصحيف.
(٤) كذا ضبطه الدارقطني بضم الميم وفتح الزاي وتسكين الياء. راجع أسد الغابة: ٢: ٢٤١.
(٥) زيادة عن جميع المراجع.

الصامت بن قيس بن أَصْرم، وأخوه أَوْس بن الصّامت والنعمان بن مالك بن ثعلبة بن دعد، وهو الذي يقال له: قَوْقَل[١]؛ وثابت بن هَزّال بن عمرو بن قُرْيُوش، ويقال: قُرْيوس، ومالك بن الدّخْشم بن مالك، وربيع بن إياس، حليف لبني لَوْذان من اليمن، والمُجَذَّر بن زياد بن عمرو؛ واسم المجذر، عبد الله حليف لهم من بلِيّ، وعُبَّاد[٢] بن الخَشْخاش بن عمرو، حليف، ونجاب بن ثعلبة بن خَزمة[٣]، ويقال: بَحّاث، وعبد الله بن ثعلبة بن خَزمة، وعتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية، حليف لهم، وهو من بني سُليم، وأبو دُجانة سماك بن خَرَشة.

قال ابنِ هشام: سماك بن أوسِ بنِ خرشة، والمنذر بن عمرو بن خُنَيس بن حارثة، وأبو أُسَيدِ مالك بن ربيعة، ومالك بن مسعود البَدِيّ[٤]، وعبد ربه بن حَقّ بنِ أوس بن وَقْش بن ثعلبة بن طَرِيف.

ومن حلفائهم من جهينة: كعب بن جَمّاز بن ثعلبة ـ ويقال: حِمار، وهو من غُبْشان ـ وضَمرة، وبَسْبَس، وزياد، بنو عمرو.

وعبد الله بن عامر من بَلِيّ، وخراش بن الصِّمة بن عمرو بن الجَمُوح، وتَميم مولى خراش بن الصِّمة، وعبد الله بن عمرو بن حَرام، ومُعاذ بن عمرو بن الجَمُوح، ومُعَوِّذ بن عمرو بن الجموح، وخَلّاد بن عمرو بن الجَموح، وعُقبة بن عامر بن نَابي، وحَبيب بن أسود، مولى لهم، وثابت بن ثَعلبة بن زيد بن الحارث، وثعلبة الذي يقال له: الجِذْع، وعمير[٥] بن الحارث بن ثعلبة بن الحارث، وبِشْر بن البَراء بن مَعْرور بن صخر، والطُّفَيل بن مالك بن النعمان، وسِنَان بن صَيْفيّ بن صخر وعبد الله بن الجَدّ بن قيس بن صَخر، وخارِجة بن حُمَيِّر، وعبد الله بن حمير، حليفان لهم من أشجع من بني دُهْمان، وجَبّار بن صخر بن أمية بن خُنَاس، ويزيد بن المُنذر بن سَرح، وأخوه معقِل بن المُنْذِر، وعبد الله بن النُّعمان بن بَلْدَمة، ويقال: بُلْذُمة وبُلْذُمة، والضحّاك بن حارثة بن زيد بن ثَعلبة، وسَواد بن زُرَيق بن ثَعلبة؛ ومَعْبد بن قَيْس بن صخر، وأخوه

---

(١) قال في الاستيعاب: «إن النعمان هذا كان ذا عزة ومنعة، فكان يقال للخائف إذا جاءه: «قوقل حيث شئت فأنت آمن». فقيل لبني غنم وبني سالم لذلك. قواقلة، وفي القاموس: القوقل: اسم أبي بطن من الأنصار، لأنه كان إذا أتاه إنسان يستجير به أو بيثرب قال له: «قوقل في هذا الجبل وقد أمنت»، أي أرتق.

(٢) كذا في الأصول، وهو ما يوافق ما في سيرة ابن هشام وابن كثير وفي أسد الغابة: «عبادة». وفي رواية: «الحسحاس».

(٣) في الأصول: «حزمة»، وهو تصحيف. والتصويب عن القاموس والإصابة.

(٤) كذا في الأصول، وفي أسد الغابة والإصابة: «البدن».

(٥) كذا في سيرة ابن هشام، والروض الأنف، والإصابة، وأسد الغابة. وفي الأصل: «عمر».

عبد الله بن قيس، وعبد الله بن عبد مناف بن النعمان، والنعمان بن يَسار مولى لبني النعمان، وأبو المُنذر بن يزيد بن عامر بن حَديدة، وسُلَيم بن عمرو بن حَديدة، وقُطْبة بن عامر بن حدِيدة، وعَنْتَرة[١] مولى سليم بن عمرو وعبس بن عامر بن عدي، وثعلبة بن غنمة بن عدي، وأبو اليسر وهو كعب بن عمرو بن عَبّاد بن عمرو، وسهل[٢] بن قيس بن أبي كعب، وعمرو بن طلق بن زيد بن أمية، ومعاذ بن جبل بن عمرو، وحارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشم، وقَيْس بن مِحْصَن بن خالد بن مُخَلَّد، ويقال: قيس بن حِصْن، وأبو خالد، وهو الحارث بن قيس بن خالد بن مُخلَّد، وجُبَير بن إياس بن خالد بن مخلد وأخوه عُقبة بن عثمان بن خَلَدة بن مُخلَّد، وذَكْوان [بن عبد][٣] قيس بن خَلَدَة بن مخَلَّد، ومسعود بن خلدة بن عامر بن مخلد، وعبّاد بن قيس بن عامر بن خالد، وأسعد بن مَزيد بن الفاكِه بن زيد بن خَلَدة، والفاكه بن بِشر بن الفاكه بن زيد، ومُعاذ بن ماعِص بن قيس بن خلدة، وأخوه عائذ بن ماعِص، ومسعود بن سعد بن قيس بن خَلَدة، ورِفاعة بن رافع بن مالك بن العَجْلان، وأخوه خلّاد بن رافع، وعُبَيد بن زيد بن عامر، وزِياد بن لَبِيد بن ثَعلبة بن سنان، وفَرْوة بن عمرو بن وذفة بن عُبَيد، وخالد بن قيس بن مالك بن العَجلان، ورُجَيلة بن ثَعلبة بن خالد بن ثعلبة، وعطيةُ بن نُوَيْرة بن عامر بن عطية، ورافع بن المُعَلَّى بن لَوْذان، وأبو أيوب خالد ابن زَيد بن كُلَيب بن ثعلبة، وثابت بن خالد بن النُّعمان، وعُمارة بن حزم بن زيد بن لَوْذان بن عمرو، وسُراقة بن كعب بن عبد العُزَّى بن غَزِيَّة، وحارثة بن النعمان بن زيد بن عُبيد، وسُلَيم بن قيس بن قَهْد، وسُهَيل بن رافع بن أبي عمرو بن عائذ، وعدي بن أبي الزَّغْباء، حليف لبني عائذ من جُهينة، ومسعود بن أَوْس بن زيد، وأبو خُزَيْمة بن أوس بن زيد، ورافع بن الحارث بن سَواد بن زَيد، وعَوف، ومُعوِّذ، ومعاذ، بنو الحارث بن رفاعة، وهم بنو عَفراء بنت عُبيد بن ثعلبة، والنعمان بن عمرو بن رِفاعة بن سَواد، ويقال: نُعَيمان؛ وعامر بن مخلَّد بن الحارث بن سَواد، وعبد الله بن قَيس بن خالد بن خَلَدة بن الحارث بن سَواد، وعُصَيمة، حليف لبني سواد من أَشجع، ووديعة بن عمرو، حليف لهم من جُهَينة، وثابت بن عمرو بن زيد بن عديّ بن سواد ـ قال ابن هشام: وزعموا أن أبا الحمراء مولى الحارث ابن عَفراء شهد بدراً ـ وثعلبة بن عمرو بن مِحْصَن بن عمرو بن عتيك، والحارث بن الصِّمة بن عمرو بن عتيك، كُسِر بالرَّوْحاء، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه، وأُبَيّ بن

(١) في الأصول: «عنيزة» وما ذكر هو الصواب.
(٢) في الأصول: «سهيل».
(٣) زيادة عن الإصابة، وأسد الغابة، والاستيعاب.

كعب بن قَيس، وأَنَس بن مُعاذ بن أنس بن قَيس، وأَوس بن ثابت بن المُنذر بن حَرام، وأبو شَيْخ أبيّ بن ثابت[١] بن المنذر بن حرام.

قال ابن هشام: أبو شيخ أبيّ بن ثابت أخو[٢] حسان بن ثابت، وأبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حَرام، وحارِثة بن سُراقة بن الحارث بن عدِيّ، وعمرو بن ثعلبة بن وَهب بن عدي، وسَليط بن قَيس بن عمرو بن عتيك بن مالك، وأبو سَليط ـ وهو أُسَيْرة بن عمرو ـ وثابت بن خَنساء بن عمرو بن مالك بن عديّ، وعامر بن أمية بن زيد بن الحَسْحاس بن مالك، ومحرز بن عامر بن مالك بن عَدِيّ، وسواد بن غَزِيَّة بن أُهَيب، حليف لبني عديّ بن النجار.

وأبو زيد قيْس بن سَكَن بن قيس، وأبو الأَعور بن الحارث بن ظالم بن عبس ابن حَرام، ويقال: أبو الأعور الحارث بن ظالم، وسُلَيم بن مِلْحان، وأخوه حرام ـ واسم مِلْحان: مالِك بن خالد بن زَيد ـ وقَيْس بن أبي صَعْصَعَة ـ واسم أبي صعصعة: عمرو بن زيد بن عَوْف ـ وعبد الله بن كَعب بن عمرو بن عَوف، وعُصَيْمة، حلِيف لبني مازِن بن النجار من بني أَسَد بن خُزَيمة، وأبو داود عُمَيْر بن عامر بن مالك ابن خَنساء، وسُراقة بن عمرو بن عَطيّة ابن خَنساء، وقَيس بن مُخَلَّد بن ثَعلبة بن صخر بن حَبيب، ومسعود بن عبد الأَشْهل بن حارثة بن دِينار، وأخواه لأمه الضَّحّاك، والنُّعمان، ابنا عبد عمرو، وجابر بن خالد بن عبد الأشهل بن حارثة، وسعد بن سُهَيل بن عبد الأشهل، وكَعب بن زَيد بن قَيس بن مالك، وبُجَيْر بن أبي بُجَير، حليف لبني قَيس بن مالك.

هؤلاء الذين عدّهم محمد بن إسحاق.

قال ابن هشام: وأكثر أهلِ العلم يذكرون في الخَزْرج ممن شهد بدراً عِتبان ابن مالك بن عمرو بن العَجْلان، ومُلَيْل بن وَبَرة بن خالد بن العَجْلان، وعِصْمة بن الحُصَين بن وَبَرة بن خالد بن العَجْلان، وهلال بن المُعلَّى بن لَوْذان بن حارثة.

ذِكْرُ تسمية من استُشهد من المسلمين في غزاة بدر

كان من استُشهِد من المسلمين في غزاة بدر أربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ستة نفر، وهم: عُبَيدة بن الحارث بن المطلب، قتله عُتبة بن ربيعة، قطع رجله فمات بالصفراء في قُفول رسول الله ﷺ إلى المدينة، وعُمير[٣] بن أبي وَقّاص، وهو أخو

---

(١) كذا في سيرة ابن هشام. وفي الأصول: «أبو شيخ بن أبي ثابت». راجع الاستيعاب ص: ٧١٥.

(٢) كذا في سيرة ابن هشام، وفي الأصل: «أبو».

(٣) ذكر الواقدي أن النبي ﷺ كان ردّ عميراً هذا في ذلك اليوم، لأنه استصغره، فبكى عمير، فلما رأى =

سعيد، وذو الشِّمالَين بن عبد عمرو بن نَضلة الخُزاعي، حليف لبني زُهْرة، وعاقلُ بن البُكَيْر، حليف لبني عديّ بن كَعب من بني سعد بن ليث، ومِهْجَع، مولى عمر بن الخطاب، وصَفوان بن بَيْضاء، من بني الحارث بن فِهر.

ومن الأنصار ثمانية، وهم: سعد بن خَيْثمة، ومُبَشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر، ويزيد بن الحارث، وعُمَير بن الحمام، ورافع بن المُعَلّى، وحارثة بن سُراقة بن الحارث، وعَوف، ومُعَوِّذ، ابنا الحارث بن رفاعة.

ذكرُ تسمية من قُتل من المشركين في غزوة بدر

كانت عدّة من قتل من المشركين في غزوة بدر سبعين رجلاً

من بني عبد شمس ومواليهم وحلفائهم أربعة عشر رجلاً، وهم: عُقبة بن أبي مُعَيط، قُتِلَ صَبْراً[١] بعِرق الظُّبْية[٢] عند قُفول رسول الله ﷺ إلى المدينة وقال ـ حين أمر رسول الله ﷺ بقتله ـ: فمن للصِّبْية يا محمد؟ قال: النار! فقتله عاصم بن ثابت بن الأَقْلح، وحَنْظَلة بن أبي سفيان بن حرب قتله زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، ويقال: اشترك فيه حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، والحارث بن الحَضْرَمِيّ، وعامر بن الحضرمي، حليفان لهم. قتل عامراً عَمَّار بن ياسر، وقتل الحارثَ النُّعمان بن عَصر، حليف الأوس، وعُمير بن أبي عمير، وابنه، مَوْليان لهم. قتل عُميراً سالم مولى أبي حُذَيفة، وعُبيدة بن سعيد بن العاص بن أُميَّة بن عبد شمس، قتله الزبير بن العوّام، والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية، قتله عاصم بن ثابت بن الأَقْلح، صبراً، وقيل: قتله عليّ بن أبي طالب، وعُتبة بن رَبيعة بن عبد شمس، اشترك فيه عُبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب؛ وشَيْبة بن ربيعة بن عبد شمس، قتله حمزة بن عبد المطلب، والوليد بن عُتبة بن ربيعة، قتله علي بن أبي طالب، وعامر بن عبد الله، حليف لهم من بني أنمار، قتله عليّ، ووهب بن الحارث، حليف لهم من بني أنمار، وعامر بن زيد، حليف لهم من اليمن.

ومن بني نَوْفَل بن عبد مناف رجلان، وهما: الحارث بن عامر بن نوفل، قتله خُبَيب بن إساف، وطُعَيمة بن عديّ بن نوفل قتله علي، ويقال: حمزة؛ وروى أبو

= النبي ﷺ بكاءه أذن له في الخروج معه، فقتل وهو ابن ست عشرة سنة (راجع المغازي للواقدي والروض الأنف).

(١) يقال للرجل إذا حُبس على القتل حتى يقتل: قتل صبراً.

(٢) عرق الظبية: بين مكّة والمدينة قرب الروحاء.

عُمر بن عبد البر بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قتل طُعَيمة بن عدي صبراً هو وعُقبة بن أبي مُعَيط والنَّضر بن الحارث.

ومن بني أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ سبعة نفر: زَمعة بن الأَسْود بن المطلب بن أَسَد، قتله ثابت بن الجِذْع، وقيل: اشترك فيه حمزة وعليّ مع ثابت، والحارث بن زَمعة قتله عمار بن ياسر، وعُقيل بن الأسود بن المطلب قتله حمزة وعليّ، وأبو البَخْتَرِيّ ـ وهو العاص بن هشام ـ قال بن هشام: العاص بن هاشم بن الحارث بن أسد، قتله المُجَذَّر البَلَوِيّ، وكان رسول الله ﷺ قد نهى عن قتله، لأنه كان أَكَفَّ الناسِ عن رسول الله ﷺ، لما كان بمكة، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نَقض الصحيفة كما تقدَّم، فلما لقيه المجذَّر قال له: إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، وكان مع أبي البَخْتري زميل له قد خرج معه من مكة، وهو جُنادة بن مُليحة ـ رجل من بني ليث ـ فقال أبو البَخْتري: وزميلي، فقال المجذَّر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك. فقال: لا والله إذاً لأموتنّ أنا وهو جميعاً! لا تَحدّثُ عنّي نساء مكة أني تركت زميلي حِرصاً على الحياة، وقال يرتجز:

لــن يُســلِــم ابــنُ حُــرّةٍ زمــيــلَــه حــتــى يــمــوتَ أو يــرى سَــبــيــلَــه

ثم اقتتلا، فقتل المجذر أبا البختريّ، ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحقّ، لقد جهِدْت عليه أن يستأسِر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته. ونوفل بن خويلد بن أسد قتله عليّ بن أبي طالب، وعقبة بن زيد، حليف لهم من اليمن، وعمير، مولى لهم.

ومن بني عبد الدار بن قصيّ أربعة نفر وهم: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة، قتله عليّ صبراً بالصَّفراء[1]، ولما بلغ ابنته قُتيلة بنت النضر خبر مقتله كتبت إلى رسول الله ﷺ شعراً: [من الكامل]

يـا راكـبـاً إن الأُثـيـل مَـظِـنَـة مِن صبح خامسةٍ وأنت مُوفق[2]
بـلِّـغ بـه مـيْـتـاً بـأن تـحـيّـةً ما إن تزال بها النجائب تخفِق[3]

---

(١) الصفراء: وادٍ من ناحية المدينة كثير النخل والزرع، وهو على مرحلة من بدر.

(٢) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء. ومظنة الشي: موضعه ومألفه الذي يظن كونه فيه.

(٣) النجائب: الإبل الكريمة.

مِـنـي إلـيـه وعـبْـرةً مـسـفـوحـةً   جادت لـمائحـهـا وأخرى تـخنُق(١)
هـل يـسـمـعـنّ الـنـضـر إن ناديتُه   بـل كـيـف يـسـمـع ميّت لا ينطِق
ظـلـت سـيـوفُ بـنـي أبـيـه تَـنـوشُـه   لـلّـهِ أرحـامٌ هـنـاك تـشـقّـق(٢)
قـسـراً يـقـاد إلـى الـمـنيَّة مُـتـعـباً   رَسْف المقيَّدِ وهْو عانٍ موثَق(٣)
أمحـمـد أو لـسْـت ضِـنْءَ نـجـيـبـةٍ   في قومها والفحل فحل مُعرِق
مـا كـان ضـرَّك لـو مـنـنْـت وربـمـا   منّ الفتى وهو المَغِيظ المُحنِق(٤)
الـنـضـر أقـربُ مـن قـتـلـت قـرابـةً   وأحقّهم إن كان عتْق يُعتق(٥)
أو كـنـت قـابـلَ فـديـة فَـلْـيُـنْـفـقَـنْ   بأعزّ ما يغلو به ما يُنفق(٦)

فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك بكى حتى اخضلّت(٧) لحيته وقال: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه» حكاه أبو عمر عن عبد الله بن إدريس، وحكاه الزبير بن بكّار، وقال: فرقّ لها رسول الله ﷺ حتى دمعَت عيناه، وقال لأبي بكر: «يا أبا بكر لو كنتُ سمعت شعرها ما قتلت أباها» وزيد بن مُلَيص، مولى عُمَير بن هاشم، قتله بلال بن رَباح، مولى أبي بكر، ويقال: قتله المِقداد بن عمرو، ونُبيه بن زيد بن مليص، وعبيد بن سَلِيط، حلِيف لهم من قيس.

ومن بني تَيْم بن مرّة أربعة نفر وهم: عمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، قتله علي بن أبي طالب، ويقال: قتله عبد الرحمٰن بن عوف، وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب، قتله صُهَيب بن سنان. ومالك بن عبيد الله بن عثمان، أسر فمات من الإسار، فعدّ في القتلى، وعمرو بن عبد الله بن جُدْعان.

ومن بني مخزوم بن يَقَظة بن مرة أربعة وعشرون رجلاً: أبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح فقطع رجله، وضرب ابنهُ عِكرمة يد معاذ فطرحَها، ثم ضربه معوّذ بن عَفراء،

(١) مسفوحة: جارية، منسابة. جادت لمائحها: تعني أباها لأنه هو الذي يستبكيها ويستنزف دمعها.
(٢) تنوشه: تتناوله. أرحام تشقق: أي: أقارب تقتتل مع بعضها.
(٣) قسراً: مرغماً.
(٤) الضن: الأصل: المعرق: الكريم.
(٥) المحنق: الغاضب.
(٦) العتق: تحرير العبد وإطلاقه.
(٧) اخضلت: تبللت بالدمع.

حتى أثبته، وتركه وبه رمق، ثم وقف عليه عبد الله بن مسعود واحتزّ رأسه كما تقدّم، والعاص بن هِشام بن المغيرة، قتله عمر بن الخطاب، وكان خالَ عمر. ويزيد بن عبد الله، حليف لهم من بني تميم، قتله عمّار بن ياسر. وأبو مُسافع الأشعريّ، حليف لهم، قتله أبو دُجانة الساعديّ، وحَرْملة بن عمرو حلِيف لهم، قتله خارجة بن زيد، ويقال: بل عليّ بن أبي طالب ومسعود بن أبي أميّة بن المُغيرة، قتله عليّ بن أبي طالب. وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، قتله حمزة بن عبد المطلب، ويقال: عليّ؛ وأبو قيس بن الفاكِه بن المغيرة، قتله عليّ، ويقال عمّار بن ياسِر، ورِفاعة بن أبي رِفاعة بن عابِد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله سعد بن الربيع، والمنذر بن أبي رِفاعة بن عابد، قتله معْن بن عديّ، وعبد الله بن المنذر بن أبي رِفاعة، قتله عليّ بن أبي طالب، والسّائب بن أبي السائب بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم على ما حكاه ابن إسحاق.

وقال ابن هشام بسند يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إن السائب هذا ممن بايع رسول الله ﷺ من قريش، وأعطاه يوم الجِعرانة[١] من غنائم حنين، فقد وقع فيه الخلاف. والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله حمزة، وحاجب، ويقال: حاجز بن السائب بن عويمر بن عمرو بن عائذ، قتله علي بن أبي طالب، وعويمر بن السائب بن عويمر، قتله النعمان بن مالك القَوقليّ مبارزة، وعمرو بن سفيان، وجابر بن سفيان، حليفان لهم من طيىء، قتل عمراً يزيدُ بن رُقَيْش، وقتل جابراً أبو بُردة بن نَيار، وحُذيفة بن أبي حُذيفة بن المغيرة، قتله سعد بن أبي وقاص، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله صُهَيب بن سِنان، وزُهير بن أبي رفاعة، قتله أبو أُسَيد مالك بن أبي ربيعة، والسائب بن أبي رفاعة، قتله عبد الرحمٰن بن عَوف. وعائذ بن السائب بن عُويمر، أُسِر ثم افتدي فمات في الطريق من جراحة جرحه إياها حمزة بن عبد المطلب، وعُمير، حليف لهم من طيّىء، وخِيار، حليف لهم من القارة[٢].

ومن بني سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤيّ سبعة نفر وهم: مُنبّه بن الحجاج بن عامر بن حُذَيفة بن سعد بن سهم، قتله أبو اليَسَر، أخو بني سَلمة وابنه العاص بن مُنبّه، قتله عليّ، ونُبيْه بن الحجاج، قتله حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن أبي وقاص، اشتركا فيه، وأبو العاص بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم، قتله عليّ،

---

(١) الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ لما قسم غنائم هوازن وهو راجع من غزوة حنين. (معجم البلدان).

(٢) القارة: قبيلة تتألف من عضل والدبش ابنا الهون بن خزيمة.

ويقال: النعمان القوقَليّ، ويقال: أبو دُجانة، وعاصم بن أبي عَوف بن صُبَيرة بن سُعَيد بن سعد بن سهم، قتله أبو اليَسَر أخو بني سلمة. والحارث بن مُنبّه بن الحجاج، قتله صُهَيب بن سِنان، وعامر بن أبي عَوْف بن صُبيرة أخو عاصم، قتله عبد الله بن سلمة، ويقال: أبو دُجَانة.

ومن بني جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤيّ أربعة نفر، وهم: أميّة ابن خلف بن وهْب بن حُذافة بن جُمَح، قتله رجل من الأنصار من بني مازن ويقال: قتله معاذ بن عَفراء، وخارجة بن زيد، وخُبَيْب بن إساف، اشتركوا فيه. وابنه عليّ بن أميّة بن خلف، قتله عمّار بن ياسر، وأوْس بن مِعْير بن لَوْذان بن سعد بن جُمح، قتله عليّ بن أبي طالب، ويقال: قتله الحُصين بن الحارث بن المطلب وعثمان بن مَظْعون، اشتركا فيه، وسَبْرة بن مالك، حليف لهم.

ومن بني عامر بن لؤيّ من حلفائهم رجلان، وهما: معاوية بن عامر حليف لهم من عبد القيْس، قتله عليّ، ويقال: عُكّاشة بن مِحصَن. ومَعْبد بن وهب، حليف لهم من بني كلب، قتله خالد وإياس ابنا البُكَير، ويقال: أبو دُجانة.

فجميع من انضبط لنا بالأسماء ممن قُتل من المشركين يوم بدر ثمانية وستون على الشك في السائب بن أبي السائب، والذي ثبت في صحيح البخاريّ أن رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين في يوم بدر أربعين ومائة؛ سبعين أسيراً، وسبعين قتيلاً.

ذكر تسمية من أُسِر من المشركين في غزوة بدر

كانت عدّة من أسِر من المشركينَ في يوم بدر سبعين رجلاً على ما ورد في الصحيح ودلّت عليه الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] يعني يوم أحد، وكان قد قُتل من المسلمين يوم أحد سبعون رجلاً، والذي انضبط لنا بالأسماء من أسرى بدر ستة وستون رجلاً.

من بني عبد المطلب بن هاشم أربعة نفر، وهم: العباس بن عبد المطلب بن هاشم، أسره أبو اليَسر كعب بن عمرو بن عبّاد بن عمرو الخزرجيّ، وكان رجلاً قصيراً، والعباس رجلاً طويلاً ضخماً، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم». وعَقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، أسره عُبيد بن أوْس بن مالك الأوسي، ونوْفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعُتبة، حليف لهم من بني فِهْر، قال: وكان العباس وعَقيل خرجا مُكْرَهين.

ومن بني عبد المطلب بن عبد مناف خمسة نفر، وهم: السائب بن عُبيد بن عبد

يزيد بن هاشم بن المطلب، ونُعمان بن عمرو بن عَلْقمة بن المطلب، وعَقِيل بن عمرو حليف لهم، وأخوه تميم بن عمرو، وابنه عمرو بن تميم.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف تسعة نفر، وهم: عمرو بن أبي سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس، والحارث بن أبي وَجْرة ـ ويقال: وحْرة بن أبي عمرو ـ بن أمية، وأبو العاص بن نَوْفل بن عبد شمس، وأبو العاص بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس، وخالد بن أَسِيد بن أبي العِيص. ومن حلفائهم: أبو ريشة بن أبي عمرو، وعمرو بن الأزرق، وعُقبة بن عبد الحارث بن الحضْرمي، وأبو العريض يَسار، مولى العاص بن أمية.

ومن بني نوفل بن عبد مناف أربعة نفر، وهم: عدِيّ بن الخيار بن نوفل وعثمان بن عبد شمس حليف لهم من بني مازِن بن منصور، وأبو ثَوْر، حليف لهم ونَبْهان، مولى لهم.

ومن بني عبد الدار بن قصيّ ثلاثة نفر، وهم: أبو عزيز بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والأسود بن عامر حليف لهم، وعَقيل، حليف لهم من اليمن.

ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصيّ أربعة نفر، وهم: السّائب بن أبي حُبَيْش بن المطلب بن أسد، والحُوَيرث بن عبّاد بن عثمان بن أسد. قال ابن هشام: هو الحارث بن عائذ بن عثمان بن أسد، وعبد الله بن حُمَيد بن زُهير بن الحارث، وسالم بن شمّاخ، حليف لهم.

ومن بني تيم بن مُرّة رجلان وهما: مُسافع بن عياض بن صَخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، وجابر بن الزبير، حليف لهم.

ومن بني مخزوم بن يَقَظة بن مرة عشرة نفر، وهم: خالد بن هِشام بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزُوم، أسره سواد بن غَزِيّة، وأميّة بن أبي حُذَيفة بن المُغيرة، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وصَيْفيّ بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخْزوم، وأبو المنذر بن أبي رفاعة بن عابد، وأبو عطاء عبد الله بن السائب بن عابد، وقَيْس بن السائب، والمطلب بن حَنْطب بن الحارث بن عُبيد بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الأعلم، حليف لهم من خُزَاعة، ويقال: عُقَيلِيّ. وزعموا أنه أوّل من فرَّ منهزماً، وهو الذي يقول: [من الطويل]

ولَسْنا على الأدبار تَدْمَى كُلُومُنا ولكنْ على أعقابنا تقطر الدّما[1]

(١) وصوابه هكذا:

=

ومن بني سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب خمسة نفر، وهم: أبو وَداعة ابن صُبَيرة بن سعيد بن سعد بن سهم، وهو أوّل أسير افتُدِي من أسرى بدر، افتداه ابنُه المطلب بن أبي وداعة، وفَرْوة بن قيس بن عديّ بن حُذافة بن سُعيد بن سهم، وحَنْظَلة بن قبيصة بن حُذافة بن سُعيد بن سهم، والحجّاج[1] بن الحارث بن قيس بن عدي بن سُعيد[2] بن سهم، وأسْلَم، مولى نُبَيه بن الحجاج.

ومن بني جمح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب أحد عشر نفراً وهم: عبد الله بن أبيّ بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمح وأخوه عمرو بن أبيّ، وأبو عزّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن وهْب بن حذافة بن جمح، والفاكِه، مولى أمية بن خلف ووهْب بن عُمير بن وهْب بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جمح، وربيعة بن دَرّاج بن العنْبس بن أُهْبان بن وهب بن حُذافة بن جمح، وأبو رُهْم بن عبد الله حليف لهم، ومولَيان لأميّة بن خلف، أحدهما: نِسْطاس، وأبو رافع غلام أمية بن خلف. قال ابن هشام: وحليف لهم ذهب عني اسمه.

ومن بني عامر بن لُؤيّ خمسة نفر، وهم: سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وَدّ بن نَضْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، أسره مالك بن الدُّخْشُم أخو بني سالم بن عَوْف، وعبد بن زَمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وَدّ، وعبد الرحمٰن بن مَشنوء بن وَقْدان بن قيْس بن عبد شمس بن عبد ودّ، وحبيب بن جابر، والسائب بن مالك.

ومن بني الحارث بن فِهْر أربعة نفر، وهم: الطُّفيل بن أبي قُنَيع، وعُتْبة بن عمرو بن جَحْدَم، وشافع وشفيع، حليفان لهم من اليمن.

= فلسْنَا على الأعقابِ تدمَى كلومُنا ولكن على أقدامنا تقطرُ الدِّما

وهو للحُصَيْن بن الحُمام المُرّي من قصيدة له أوّلها:

تأخّرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

يقول: نحن لا نولّي فنخرج في ظهورنا فتقطر دماؤنا على أعقابنا؛ ولكن نستقبل السيوف بوجوهنا؛ فإن أصابتنا جراح قطرت دماؤنا على أقدامنا. انظر لسان العرب (مادة دمي)، والحماسة للتبريزي ص ٩٣، والشعر والشعراء ص ٦٣٠.

(١) قال السهيلي في الروض الأنف: ٢: ١٠٧ «وأحسب ذكر الحجاج في هذا الموضع وهماً، فإنه من مهاجرة الحبشة، وقدم المدينة بعد أحد، فكيف يعد في أسرى المشركين يوم بدر».

(٢) لم يوافق الواقدي ولا غيره ابن إسحاق على قوله: «سعيد بن سهم». وقالوا إنما هو سعد.

ذكر خبر أسارى بدر وما كان من فدائهم، ومن منّ عليه رسول الله ﷺ (وأطلقه منهم)، ومن أسلم بسبب ذلك

قال: لما قَفَل رسول الله ﷺ من غزاة بدر ومعه الأسارَى سمع العباس(١) وهو يئنّ ويتأوّه، قد آلمه الوَثَاق، فقلِق رسول الله ﷺ تلك الليلة لذلك، فاستأذنه أصحابه رضي الله عنهم، في أن ينفِّسوا عن العباس وَثاقه، فقال ﷺ: «إن فعلتُم ذلك بجميع الأسرى فنِعْم وإلا فلا»، أو كما قال: فنفَّسوا عن جميع الأسرى.

ولما قدِم رسول الله ﷺ وفرَّق الأسارى بين أصحابه وقال: «استوصوا بهم خيراً». ثم جاءه جبريل عليه السلام في أمر الأسارى فقال: إن شئْتم قتلتموهم، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء، واستشهد قابلاً منكم سبعون. قال: فنادى رسول الله ﷺ في أصحابه، فجاءوا ـ أو من جاء منهم ـ فقال: «هذا جبريل يخيّركم بين أن تقدّموهم فتقتلوهم، وبين أن تُفادُوهم ويستشهد قابِلاً منكم بعدّتهم». فقالوا: بل نُفاديهم ويدخل قابلاً منا الجنة سبعون. ففادوهم. رواه محمد بن سعد.

وروى ابن قُتَيبة(٢) عن ابن إسحاق(٣) أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «افدِ نفسَك وابنَيْ أخويْك: عَقيل بن أبي طالب(٤)، ونَوْفَل بن الحارث بن عبد المطلب(٥)،

---

(١) العباس بن عبد المطلب: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل (٥١ ق هـ ـ ٣٢ هـ = ٥٧٣ ـ ٦٥٣ م) من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام وجدّ الخلفاء العباسيين. عم الرسول ﷺ كان سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه. هاجر إلى المدينة وشهد وقعة «حنين». وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره. كانت وفاته في المدينة. (الأعلام: ٣: ٢٦٢).

(٢) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ = ٨٢٨ ـ ٨٨٩ م) من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين. ولد ببغداد، وسكن الكوفة. وتوفي ببغداد من كتبه: «أدب الكاتب» و«المعارف» و«عيون الأخبار». انظر (الأعلام: ٤: ١٣٧).

(٣) ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المطَّلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة، له السيرة النبوية، هذبها ابن هشام توفي سنة ٦٥١ هـ. (الأعلام: ٦: ٢٨).

(٤) عقيل بن أبي طالب: عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، وكنيته أبو يزيد (. . . ـ ٦٠ هـ = . . . ـ ٦٨٠ م). أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، صحابي، فصيح اللسان. أخو «علي» و«جعفر»، لأبيهما؛ برز اسمه في الجاهلية. بقي على الشرك إلى أن كانت وقعة بدر. أسره المسلمون ففداه العباس بن عبد المطلب، فرجع إلى مكة، ثم أسلم بعد الحديبية. عمي في آخر أيامه، وتوفي في أول أيام يزيد، وقيل: في خلافة معاوية. (الأعلام: ٤: ٢٤٢).

(٥) نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، الهاشمي، القرشي: صحابي (. . . ـ ١٥هـ = . . . ـ ٦٣٦م). =

وحليفك، فإنك ذو مال». فقال: يا رسول الله، إني كنت مسلماً ولكنّ القوم استكرهوني، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تقول حقاً فالله يجزيك به، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا». قال: فإنه ليس لي مال، قال: «فأين المال الذي وضعته عند أمّ الفضْل بمكة حين خرجتَ وليس معكما أحد؟ ثم قلتَ: إن أصِبتُ في سفري هذا فللفضل كذا، ولعبد الله كذا». قال: والذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحدٌ غيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، ففدى نفسَه بمائة أوقيّة، وكل واحد بأربعين أوقية، وقال: «تركتني أسأل الناس في كفّي». قال: «وأسلم العباس، وأمرَ عَقيلاً فأسلم».

وروى محمد بن سعد[1] قال: لما أُسر نوفل بن الحارث ببدر قال له رسول الله ﷺ: «افدِ نفسك». قال: ما لِي شيء أفتدي به. قال: «افد نفسك برماحك التي بجُدّة». فقال: والله ما علم أحد أن لي بجدّة رماحاً غيري بعد الله، أشهد أنك رسول الله. ففدى نفسه بها، وكانت ألفَ رمح، وقيل: كان إسلام نوفل وهجرتُه أيام الخنْدق.

قال ابن إسحاق: وكانت قريش حين ورد عليهم الخبر بمصرَع أصحاب بدرِ ناحُوا على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغَ محمداً وأصحابه فيشمَتوا بكم، ولا تَبعثوا في أسراكم حتى تستأنُوا[2] بهم لا يأْرَب[3] عليكم محمد وأصحابُه الفداء. فقال المطلب بن أبي وَداعة: صدقتم، لا تعجَلوا؛ وانسلّ من الليل فقدم المدينةَ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم، وانطلق به.

ثم بعثت قريش في فِداء الأُسارى، فكان أعلى ما فُدِي به أسير أربعةَ آلاف درهم فما دونها إلى ألف درهم.

وقال محمد بن سعد في طبقاته: كان فِداء أُسارى يوم بدر أربعة آلاف إلى ما دون ذلك، فمن لم يجد عنده شيئاً أُعطِي عشرة من غِلمان المدينة فعلّمَهم الكتابة، فإذا

= كان من أغنياء قريش. أخرجه قومه يوم «بدر» لقتال المسلمين، وهو كاره فأسر، ثم أسلم. رجع إلى مكة، ثم هاجر إلى رسول الله ﷺ أيام الخندق، وشهد فتح مكة، حضر حنيناً والطائف... عاش إلى خلافة عمر بن الخطاب (الأعلام: ٨: ٥٤).

(١) محمد بن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ = ٧٨٤ ـ ٨٤٥ م). مولاهم، أبو عبد الله: مؤرخ ثقة من حفّاظ الحديث. ولد في البصرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها. أشهر كتبه: «طبقات الصحابة ـ ط» اثنا عشر جزءاً، يعرف بطبقات ابن سعد. (الأعلام: ٦: ١٣٦).

(٢) تستأنوا بهم: تنتظروا بهم، أي تأخروا فداءهم.

(٣) لا يأرب: لا يشتد.

حذَقوا فهو فداؤه. وكان أهل مكّة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، قال: فكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم.

ذكرُ خبر أبي سفيان في أمر ابنه عمرو بن أبي سفيان وإطلاقه

قال محمد بن إسحاق: وكان عمرو بن أبي سفيان في الأسارى، فقيل لأبي سفيان: افدِ ابنَك عَمْراً؛ فقال: أَيُجمَع عليّ دمي ومالي! قتلوا حَنظلة، وأفدي عمراً! دعُوه في أيديهم يُمسكوه ما بدا لهم. فلم يزل كذلك حتى قدم سعد بن النعمان بن أكّال، أخو بني عمرو بن عَوف معتمراً، وكان شيخاً مسلماً، في غَنَم له بالبقيع[1]، وقد كانت قريش عهدوا أنهم لا يَعرضون لحاج أو معتمر إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بمكة فحبسه بابنه عمرو، ثم قال أبو سفيان: [من الطويل]

أرهـطَ ابـنِ أكّـالٍ أجـيـبـوا دُعـاءَه ... تَفاقدتُم لا تُسلِموا السيّد الكَهْلا[2]

فـإنَّ بـنـي عـمـرو لـئـامٌ أذلّـة ... إذا لم يَفُكّوا عن أسيرهم الكَبْلا[3]

قال: فمشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبَره، وسألوه أن يعطيَهم عمرو بن أبي سفيان فيَفتكُّوا به صاحبهم، ففعل رسول الله ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سفيان، فخلّى سبيلَ سعد بن النعمان.

ذكر خبر أبي العاص بن الربيع في فدائه وإرساله زينب بنت رسول الله ﷺ من مكّة إلى المدينة وإسلامه بعد ذلك، وردّ زينب عليه بغير نكاحٍ جديد

قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس، خَتَن رسول الله ﷺ، وزوْجُ ابنته زينب. أسره خِراش بن الصِّمة، أحد بني حَرَام.

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان لهالة بنت خويلد أخت خديجة، فسألت خديجةُ رسولَ الله ﷺ أن يزوجه زينب، فزوجه بها، وذلك قبل أن ينزل الوحْي على رسول الله ﷺ، فكان معها وهو على شِرْكه وهي مسلمة.

(١) البقيع: مكان مقبرة أهل المدينة.
(٢) تفاقدتم: يدعو عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً.
(٣) الكبل: القيد.

فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقِلادةٍ لها كانت خديجة أدخلتها[١] بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقّة شديدة وقال: «إن رأيتم أن تُطلِقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا». قالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردّوا عليها الذي بعثت به، وأخذ رسول الله ﷺ عليه أن يخلّي سبيل زينب، ولم يُظهر ذلك، ثم بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يَأجج[٢] حتى تمرّ بكما زينب، فتصحباها حتى تأتياني بها». فخرجا وذلك بعد بدر بشهر، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فتجهّزت لذلك، وقدّم لها حموها كنانةُ بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكِنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هَوْدج لها، وتحدّث بذلك رجال قريش، فخرجوا في طلبها، حتى أدركوها بذي طُوى[٣]، فكان أوّل من سبق إليها هَبّار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزّى الفهريّ، فروّعها بالرمح وهي في هودجها، وكانت حاملاً فطَرحت، فنثر حموها كنانته ثم قال: والله ليدنو مني رجل إلا وضعتُ فيه سهماً، فتَكْركَر[٤] الناس عنه، ثم جاء أبو سفيان بن حرب في جِلّة من قريش فقال: أيها الرجل، كُفّ عنا نبلَك حتى نكلّمك، فكفّ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تُصِب، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجْتَ له ببنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهُرنا أن ذلك على ذُلّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووَهْن، ولعَمْري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثُؤْرة[٥]، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فسُلّها سراً وأَلْحِقْها بأبيها. قال: ففعل.

فأقامت لَيالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ، فأقامت عنده بالمدينة وفرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قُبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام ـ وكان رجلاً مأموناً ـ بمال له وأموال رجال من قريش، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لَقِيَته سريّة لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزَهم هارباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله

---

(١) أدخلتها بها: منحتها إياها ليلة زفافها.

(٢) يأجج: موضع على ثمانية أميال من مكة.

(٣) ذو طوى: وادٍ عند مكة.

(٤) تكركر: رجع.

(٥) الثؤرة: الثأر.

أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح وكبّر وكبر الناس معه خرجت زينب من صفّة النساء وقالت: أيها الناس، إني قد أَجَرْت أبا العاص بن الربيع. فلمّا سلّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ»؟ فقالوا: نعم، قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يجيرُ على المسلمين أدناهم»، ثم انصرف رسول الله ﷺ ودخل على ابنته وقال: «أي بُنيّة، أكرمي مثْواه، ولا يخلُص إليك فإنك لا تُحِلّين له».

قال: وبعث رسول الله ﷺ إلى السريّة الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: «إن هذا الرجلَ منّا حيث قد علمتم، وقد أصبْتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذي له فإنّا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فَيْء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقّ به». قالوا: يا رسول الله، بل نردّه عليه، فردّوه عليه، حتى إنّ الرجل ليأتي بالدَّلو، ويأتي الرجل بالشَّنَّة[1] والإداوة[2]، حتى إنّ أحدهم ليأتي بالشِّظَاظ[3]، حتى ردّوا عليه ماله بأسره لم يفقد منه شيئاً، ثم احتمل إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش مالَه، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقيَ لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيًا كريماً؛ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوّف أن يظنّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ، فردّ عليه رسول الله ﷺ زينبَ على النكاح[4] الأوّل، ولم يُحدِث شيئاً.

نرجع إلى تتمة أخبار أسارى بدر:

---

(١) الشنة: السقاء البالي.

(٢) الإداوة: إناء صغير من جلد.

(٣) الشِّظَاظ: خشبة عقفاء تدخل في عروتي الجوالقين، والجمع: أشظة.

(٤) قال في الروض الأنف: ٢: ٨٣: «وذكر عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ ردَّ زينب على أبي العاص على النكاح الأول، لم يحدث شيئاً بعد سنين. ويعارض هذا الحديث ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ ردها عليه بنكاح جديد. وهذا الحديث هو الذي عليه العمل. وإن كان حديث داود بن الحصين أصح إسناداً عند أهل الحديث. لأن الإسلام كان قد فرق بينهما، قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ومن جمع بين الحديثين قال في حديث ابن عباس: معنى ردها عليه على النكاح الأول أي على مثل النكاح الأول في الصداق والحباء، لم يحدث زيادة على ذلك من شرط ولا غيره».

ذكر خبر الوليد بن الوليد بن المُغيرة

قد تقدّم أنه كان ممن أُسِر يوم بدرٍ، وكان الذي أسره عبد الله بن جحش ويقال: أسره سَليط بن قَيس المازنيّ الأنصاريّ، فقدم في فدائه أخواه: خالد وهشام، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى افتكّاه بأربعة آلاف درهم. فجعل خالد يريد ألا يبلغ ذلك، فقال هشام لخالد: إنه ليس بابن أمّك، والله لو أبَى فيه إلا كذاوكذا لفعلتُ. ويقال: إنّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن جحش: لا تقبل في فِدائه إلا شِكّةَ أبيه الوليد ـ وكانت درعاً فَضْفَاضة وسيفاً وبَيْضة ـ فأبى ذلك خالد وأطاع هشام لأنه أخوه لأبويْه، فأُقيمَت الشكة بمائة دينار، فطاعا بها وسلّماها إلى عبد الله، فلما افتُدِيَ أسلَم، فقيل له: هلاّ أسلمت قبل أن تُفتَدى وأنت مع المسلمين؟ قال: كرهت أن تظنوا أني جزعت من الإسار فحبسوه بمكة، فكان رسول الله ﷺ يدعو له فيمن دعا له من مستضْعَفِي المؤمنين، ثم أفلت ولحق برسول الله ﷺ وشهد عُمرة القَضِيّة(١). حكاه ابن عبد البر(٢).

ذكر من منّ عليه رسول الله ﷺ من أسارى بدرٍ وأطلقه بغير فداء

قال ابن إسحاق: وكان ممن منَّ عليه رسول الله ﷺ بغير فداء: أبو العاص بن الربيع هذا الذي تقدم خبره. والمطّلب بن حَنْطَب بن الحارث بن عُبيد المخزوميّ، وكان لبعض بني الحارث بن الخزرج، فتُرك في أيديهم حتى خلَّوْا سبيله، فلحق بقومه، وصَيفيّ بن أبي رفاعة المَخزوميّ، تُرِك في يد أصحابه فلم يأت أحد في فدائه، فأخذوا عليه العهد ليبعثَنَّ إليهم بفدائه وخلّوا سبيله، فلم يَفِ لهم بشيء، وأبو عَزَّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن وهب بن حُذافة بن جُمَح(٣) كان محتاجاً ذا بنات فقال:

---

(١) عُمرة القَضِية: هي عمرة القضاء، ويقال لها عمرة القصاص؛ سميت بذلك لأن النبي ﷺ قاضى قريشاً عليها. (انظر الروض الأنف: ٢: ٢٥٤).

(٢) ابن عبد البر: هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، القرطبي المالكي، أبو عمر: (٣٦٨ ـ ٤٦٣ هـ = ٩٧٨ ـ ١٠٧١ م) من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب بحاثة يقال له: حافظ المغرب. ولد بقرطبة وتوفي بشاطبة. من كتبه: «الدرر في اختصار المغازي والسير»، و«الاستيعاب» مجلدان. (الأعلام: ٨: ٢٤٠).

(٣) عمرو بن عبد الله الجمحي: عمرو بن عبد الله بن عثمان الجمحي، (... ـ ٣ هـ = ... ـ ٦٢٥ م). شاعر جاهلي، من أهل مكة، أدرك الإسلام وأصر على الشرك يوم بدر، فأتي به إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لقد علمت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وعيال، فامنن علي، ولك أن لا أظاهر عليك أحداً. فامتنَّ عليه، فنظم قصيدة يمدحه بها، منها البيت المشهور:

فإنك من حاربته لمحارب شقي، ومن سالمته لسعيد

ثم خرج وسار في بني كنانة، واشترك مع عمرو بن العاص (قبل إسلامه) في استنفار القبائل، ونظم =

يا رسول الله، لقد عرفتَ ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عِيال، فامنُن عليّ، فمنّ عليه وأخذ عليه ألاّ يظاهر عليه أحداً؛ فقال أبو عَزّة في ذلك: [من الطويل]

مَن مبلِغٌ عنّي الرسولَ محمداً ... فإنك حقٌّ والمليكُ حَميدُ
وأنت امرؤٌ تدعو إلى الحقّ والهدَى ... عليك من الله العظيم شهيدُ
وأنت امرؤٌ بُوّئتَ فينا مَباءَةً ... لها درجاتٌ سهلةٌ وصُعودُ[١]
فإنك مَنْ حاربتَه لمحارَبٌ ... شقيٌّ ومن سالَمتَه لَسعيدُ
ولكنْ إذا ذُكِّرتُ بدراً وأهلَه ... تأوّب ما بِي حَسْرةٌ وقُعودُ[٢]

ومنهم وهب بن عُمير الجُمحي، ولإطلاقه سبب نذكره.

ذكرُ خبرِ عُمَير بن وهْب وإسلامه، وإطلاق ولده وهب بن عمير

قال ابن إسحاق في سبب إطلاق وهب بن عمير: إنّ أباه عمير بن وهب بن خلَف بن حُذافة بن جُمح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب جلس مع صَفوان بن أمية في الحِجْر بعدُ مصاب أهل بدر بيسير ـ قال: وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، ممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابَه، ويَلْقَوْن منه عَناء وهو بمكة ـ فذكر أصحاب القَلِيب[٣] ومُصابَهم. فقال صفوان: والله إنْ في العيش بعدهم خير، فقال عمير: صدقتَ والله، أما والله لولا دَيْن عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضَّيْعة[٤] بعدي، لركبْت إلى محمد حتى أقتلَه، فإن لي قِبلهم عِلة؛ ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان فقال: عليّ دَينُك، أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي أواسيهم ما بقُوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم، قال له عمير: فاكتُم عليّ شأني وشأنك؛ قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحذ[٥] له، ثم سُمّ، ثم انطلق حتى قدِم المدينة، فبينما

= شعراً يحرض به على قتال المسلمين. ثم أسره المسلمون. فقال: يا رسول الله منَّ علي فقال النبي ﷺ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. وأمر به عاصم بن ثابت، فضرب عنقه. (الأعلام: ٥: ٨٠).

(١) بوِّئت فينا مباءة: نزلت فينا منزلة.
(٢) تأوب: رجع.
(٣) القليب: البئر القديمة التي لا يعلم لها حافر.
(٤) الضَّيعة: الهلاك.
(٥) شحذ السيف: سنّه.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، إذ نظر إلى عُمير حين أناخ على باب المسجد متوشّحاً السيف، فقال عمر: هذا الكلب عدوّ الله عُمير بن وهب ما جاء إلا لشرّ، وهذا الذي حرّش[(١)] بيننا وحَزرنا[(٢)] للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله، هذا عدوّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشّحاً بسيفه، قال: فأدخلّه عليّ، فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه في عنقه فلبّبه[(٣)] بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ. فلما رآه قال: أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير، فدنا ثم قال: انعمُوا صباحاً ـ وكانت تحيَّةَ أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحيّة خير من تحيّتك يا عمير، بالسلام تحيّة أهل الجنة؛ قال: أما والله إنْ كنتَ يا محمد بها لحديثَ عهد؛ قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأَحسِنُوا فيه؛ قال: فما بالُ السيف في عنقك؟ قال: قبَحَها الله من سيوف! وهل أغنت شيئاً! قال: اصدُقني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك؛ قال: بل قعدتَ أنت وصفوانُ بن أميّة في الحِجْر فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريش ثم قلتَ: لولا دَين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمَّل لك صفوان بدَينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله تكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد الله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المَساق، ثم شهِدَ شَهادة الحقّ. فقال رسول الله ﷺ: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحبّ أن تأذن لي فأقدمَ مكة، فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يَهديهم، وإلا آذيتُهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابَك في دينهم. قال: فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية يقول لقريش: أبشروا بوقْعة تأتيكم الآن في أيام، تُنْسِيكم وقعة بدر، وكان يسأل عنه الرُّكبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع.

---

(١) حرّش: أفسد.

(٢) الحزر: تقدير العدد تخميناً.

(٣) لببه: حزمه.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويُؤذي مَنْ خالفه أذًى شديداً، فأسلم على يديْه ناس كثير.

قال ابن إسحاق: وعُمير بن وهب أو الحارث بن هشام، قد ذُكر أن أحدهما الذي رأى إبليس حين نَكص[١] على عَقِبيه يوم بدر، كما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨] وكان إبليس قد تشبّه لقريش بِسُراقة بن مالك بن جُعْشُم وقال: أنا جارٌ لكم من بني بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة، كما قدّمنا ذكرَ ذلك، قال: وكانوا يَروْنه في كل منزل في صورة سُرَاقة لا يُنكرونه. فلما التقى الجمعان يوم بدر ورأى إبليسُ الملائكة نكَص على عقبيه وقال لهم ما قال.

وقد أخذت هذه الغزوة حقَّها من البسْط والإطالة وإن كان ذلك على سبيل الاختصار، فلْنذكرْ غيرها من الغزوات والسّرايا. والله المستعان.

ذكر سرية عُمير بن عديّ بن خَرَشَة الخَطْمِيّ إلى عَصماء بنت مروان من بني أميّة بن زيد[٢]

قال محمد بن سعد: كانت سريّة عُمير لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان على رأس تسعةَ عَشَرَ شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ، قال: وكانت عصماء عند يزيد بن زيد بن حصن الخطْمي، وكانت تعيب الإسلام وتُؤذي النبيّ ﷺ وتحرّض عليه، وتقول الشعر، فجاءها عُمير بن عَدِيّ في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نَفَر من ولَدها نيام، منهم من تُرضعه في صدرها، فجَسَّها بيده - وكان ضريرَ البصر - ونَحَّى الصّبيّ عنها، ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، ثم صلى الصبح مع النبيّ ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: قتلْتَ بنتَ مرْوان؟ قال: نعم، فهل عليّ في ذلك شيء؟ قال: لاَ ينْتَطِح فيها عنزان[٣].

---

(١) نكص: رجع عما كان عليه، أحجم.

(٢) عمير بن عدي: عمير بن عدي بن خرشة بن أمية بن عامر بن خطمة. ذكره ابن السكن في الصحابة. كان أول من أسلم من بني خطمة وهو الذي قتل عصماء بنت مروان، وهي من بني أمية بن زيد، كانت تعيب الإسلام وأهله فقتلها عمير بن عدي ومن يومئذٍ عز الإسلام وأهله بالمدينة. ولما قتلها عمير قال النبي ﷺ: «لا ينتطح فيها عنزان»، فكان أول من قالها فسار بها المثل. وكان ذلك لخمس بقين من رمضان من السنة الثانية. (الإصابة ٣: ٣٣ رقم الترجمة ٦٠٤٣) نسبتها إلى بني أمية بن زيد الأنصاري؛ قيل لأنها حليفتهم أو لكون زوجها منهم. انظر الزرقاني: ١: ٥٤٦.

(٣) هذا مثل مشهور، أراد أن هذا الفعل لا يكون له تغيير، ولا له نكير، أي لا يختلف فيه اثنان. انظر مجمع الأمثال: ٢: ١٤٨.

قال محمد بن إسحاق: فرجع عمير بن عديّ إلى قومه، وبنو خطْمة يومئذ كثيرٌ مَوْجهم[(١)] في شأن ابنة مرْوان، ولها يومئذٍ بنون خمسة رجال، فقال: يا بني خطمة، أنا قتلت ابنةَ مروان، فَكِيدُوني جَميعاً ثم لا تُنْظِرون[(٢)]. قال: فذلك اليوم أوّلُ ما عزّ الإسلامَ في دار بني خطمة، وكانَ من أسلمَ منهم يَستخفِي بإسلامه، وعمير هو أوّل من أسلم من بني خطمة. قال: وأسلم يوم قتلها رجالٌ من بني خطمة لما رأوا من عزّ الإسلام.

ذكر سريّة سالم بن عُمَير العَمْريّ إلى أبي عَفَك اليهوديّ

قال ابن سعد: كانت سريّة سالم في شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة، وكان أبو عَفَك من بني عمرو بن عوف شيخاً كبيراً قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يحرّض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، فقال سالم بن عمير - وهو أحد البكّائين[(٣)] وقد شهد بدراً -: عليّ نَذرٌ أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه؛ فجاء وقد نام أبو عفك بالفناء في ليلة صائفة، فوضع السيف على كبده، ثم اعتمد عليه حتى خَشَّ في الفراش، فصاح عدوّ الله، فثار إليه ناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله وقَبروه.

ذكر غزوة بني قَيْنُقاعَ (وهي بضم النوم وقيل بكسرها)

غزاها رسول الله ﷺ في يوم السبت النصف من شوّال على رأس عشرين شهراً من مهاجَره.

قال ابن سعد: وكانوا حلفاء عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُول، وكانوا أشجعَ يهود، وكانوا صاغةً، فوادعوا رسول الله ﷺ، فلما كانت وقعةُ بدر أظهروا البغْي والحسد ونبذوا العَهد والمدّة، فأنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال أبو عبد الله محمد بن إسحاق في سبب غزوة بني قَينقاع: إن رسول الله ﷺ جَمَعهم بسوق بني قَينقاع[(٤)] ثم قال: يا معشر يهودَ، احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش

---

(١) موجهم: اضطرابهم وتحيرهم.

(٢) تنظرون: تؤخرون.

(٣) البكاءون: سبعة نفر أتوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً. فسموا البكائين. راجع القرطبي: ٨: ٢٢٨.

(٤) بنو قينقاع: اسم لشعب من اليهود الذي كانوا بالمدينة أضيفت إليهم سوق كانت بها، فيقال: سوق بني قينقاع.

من النّقمة، وأَسلِموا، فإنكم قد عَرفتم أنّي نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهدِ الله إليكم؛ قالوا: يا محمد، لا يَغُرَّنّك أنك لقِيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحرب فأصبتَ منهم فُرصة، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّا نحن الناس. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣]. حكاه ابن إسحاق بسندٍ يرفعه إلى ابن عباسٍ.

وقال ابن هشام في سبب هذه الغزاة: إنّ امرأة من العرب حَلّت بجَلَبٍ[١] لها، فباعتْهُ بسوق بني قَينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كَشف وجهِها، فأبت، فعمَد الصائغ إلى طَرف ثوبها فعقَدَه إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتُها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثَب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرَخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضبهم، فوقع الشر بينهم وبين بني قَينقاع.

عُدنا إلى مَساق حديث ابن سعد؛ قال: فسار رسول الله ﷺ إليهم، وحمل لواءَه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر، ثم سار إليهم فحاصرهم خمسَ عشرة ليلة إلى هِلال ذي القعدة، وكانوا أوّلَ من غدر من اليهود، وحاربوا وتَحصّنوا في حِصنهم، فحاصرهم أشدّ الحصار، حتى قَذَف الله في قلوبهم الرعب ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وأن لرسول الله ﷺ أموالَهم، وأن لهم النساءَ والذُّرِّيّة، فأمر بهم فكُتِّفوا، واستعمل على كِتافهم المنذر بن قُدامة السَّلْمي. فكلّم عبد الله بن أُبيّ فيهم رسولَ الله ﷺ وألَحّ عليه، فقال: خذهم، لعنهم الله؛ وتركهم من القتل، وأمرَ بهم أن يُجْلوا من المدينة، وولّى إخراجَهم منها عُبادة بن الصامت، فَلحِقُوا بأَذْرِعات[٢]، فما كان أقلَّ بقاءَهم فيها.

وقال ابن إسحاق في خبر عبد الله ابن أُبَيّ بن سلول: إنه قام إلى رسول الله ﷺ حين أمكنه الله من بني قَينقاع، فقال: يا محمد، أَحْسِن في مَواليَّ. وكانوا حلفاءَ الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ. قال: فأعرَض عنه. قال: فأدخلَ يده في جيب دِرع النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أَرسلني، وغضِب حتى ظهر ذلك في وجهه، ثم قال: ويحك! أرسلني، قال: لا والله

(١) الجلب: ما جلب من خيل وإبل ومتاع.
(٢) أذرعات: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء.

لا أُرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر[١] وثلاثمائة دارع[٢]، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غَداةٍ واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ: هم لك.

وحكي أيضاً قال: كان لبني قَينقاع من عُبادة بن الصامت من الحِلفِ مثل الذي لهم من عبد الله بن أبيّ، فمشى عبادة إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حِلفهم، وقال: أتولّى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار ووِلايتهم. فأنزل الله تعالى فيه وفي عبد الله بن أبيّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥] وذلك لعبادة بن الصامت.

قال محمد بن سعد: وأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسِيّ: الكَتُوم، كُسِرت بأُحد، والرَّوْحاء، والبَيْضاء، وأخذ دِرْعَين: الصُّغْديّة، وأخرى فضّة؛ وأخذ ثلاثة أسياف: سيف قَلَعِيّ[٣]، وسيف يقال له: بتّار، وسيف آخر؛ وثلاثة أرماح، ووجد في حصنهم سلاحاً كثيراً وآلة الصّياغة، فأخذ ﷺ صفِيه[٤] والخمسَ، وفضّ[٥] أربعة أخماس على أصحابه، وكان الذي تولى قبض أموالهم محمدُ بن مَسْلَمة.

ذكر غزوة السَّوِيق

قال محمد بن سعد: خرج رسول الله ﷺ من المدينة لخمسٍ خلَوْن من ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً من مهاجره، واستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبد المنذر، وذلك أن أبا سفيان بن حرب لما رجع المشركون من بدر إلى مكة حرّم الدُّهن حتى يثأر من محمد وأصحابه.

قال ابن إسحاق: نذر ألا يمسّ رأسَه ماء من جنابة[٦] حتى يغزو محمداً ﷺ.

---

(١) الحاسر: الذي لا درع له.
(٢) الدارع: الذي عليه الدرع.
(٣) سيف قلعي: منسوب إلى القلعة، وهي موضع بالبادية تنسب السيوف إليه.
(٤) الصفي: ما اختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة.
(٥) يقال: فض الشيء على القوم أي قسمه وفرّقه بينهم.
(٦) قال السّهيلي في الروض الأنف: «إن الغسل من الجنابة كان معمولاً به في الجاهلية بقية من دين إبراهيم وإسماعيل، كما بقي معهم الحج والنكاح».

قال ابن سعد: فخرج في مائتي راكب، وقيل: في أربعين راكباً، فمرّ بالعُرَيْض[١]، ـ بينه وبين المدينة نحو من ثلاثة أميال ـ فقتل رجلاً من الأنصار، وأَجِيراً له، وحرّق أبياتاً هناك وتِبْناً، ورأى أن يمينَه قد حُلّت، ثم ولّى هارباً، وبلغ ذلك النبيّ ﷺ، فخرج في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار في أثرهم، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفّفون للهرب فيلقون جُرب السويق[٢] وهي عامّة أزوادهم، فأخذها المسلمون، فسمِّيت غزوة السويق، ولم يلحقهم وانصرف. وكانت غيبته عن المدينة خمسة أيام.

قال محمد بن إسحاق: بلغ قَرْقَرة الكُدْر[٣] ثم انصرف راجعاً، فقال المسلمون حين رجع بهم: يا رسول الله، أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال: نعم.

ذكر غزوة قَرْقَرة الكُدْر ويقال قَرارة الكُدْر وهي غزوة بني سُلَيم

غزاها رسول الله ﷺ للنّصف من المحرّم على رأس ثلاثة وعشرين شهراً من مهاجَره، وهي ناحية معدِن بني سليم، وبينه وبين المدينة ثمانية بُرُد، واستخلف على المدينة عبد الله ابن أمّ مكتوم، وحمل لواءه عليّ بن أبي طالب، وكان قد بلغ رسول الله ﷺ أن بهذا الموضع جمعاً من بني سُلَيم وغطفان، فسار إليهم فلم يجد في المحالّ أحداً، ووجد رِعاء[٤] منهم غلام يقال له: يسار، فانصرف رسول الله ﷺ وقد ظفر بالنعم فانحدر به إلى المدينة، فاقتسموا غنائمهم بصِرَار، على ثلاثة أميال من المدينة، وكانت النّعم خمسمائة بعير، فأخرج خَمسَة وقسم أربعة أخماس على المسلمين، فأصاب كلَّ رجل منهم بعيران، وصار يسار في سهم النبيّ ﷺ، فأعتقه حين رآه يصلي. وكانت غيبة رسول الله ﷺ عن المدينة خمس عشرة ليلة.

ذكر مقتل كعب بن الأشرف اليهوديّ وخبر سريّته

قال أبو عبد الله محمد بن إسحاق وأبو عبد الملك بن هشام ومحمد بن سعدٍ ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ: كانت سريّة قتل كعب بن الأشرف لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل على رأس خمسة وعشرين شهراً من هجرة

---

(١) العُرَيض: وادي المدينة.

(٢) السويق: قمح أو شعير، يقلى ثم يطحن.

(٣) قَرْقَرة الكُدْر: قال الواقدي: «بناحية المعدن، بينها وبين المدينة ثمانية برد». وقال غيره: «ماء لبني سليم». راجع معجم البلدان، مادة: «كدر».

(٤) رعاء: جمع راع.

رسول الله ﷺ. وذلك أنه كان رجلاً شاعراً يهجو النبي ﷺ وأصحابَه ويحرّض عليهم ويؤذيهم، وكان لما بعث رسول الله ﷺ زيدَ بن حارثة إلى أهل السافلة وعبدَ الله بن رَواحة إلى أهل العالية بشيرين إلى مَن بالمدينة من المسلمين بخبر بدر، فقال كعب بن الأشرف ـ وكان رجلاً من طيىء، ثم أحدَ بني نَبْهان، وكانت أمّه من بني النَّضِير[(١)] ـ: أحَقٌّ هذا؟ أترَوْن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبَطْن الأرض خيرٌ من ظهرها.

فلما تيقّن الخبرَ خرج حتى قدِم مكة فنزل على المطّلب بن أبي وَداعة السَّهْميّ، وجعل يحرِّض على رسول الله ﷺ ويُنشد الأشعار[(٢)] ويبكي أصحابَ القَلِيب من قريش.

ثم رجع إلى المدينة فشبَّب[(٣)] بنساء المسلمين حتى آذاهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت»؛ وقال: «من لي بابن الأشرف فقد آذاني»؟ فقال محمد بن مسلمة، أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله؛ قال: «فافعلْ إن قدرتَ على[(٤)] ذلك». فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُمسِك رمقَه؛ فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال له: «لِمَ تركتَ الطعامَ والشّراب»؟ فقال: يا رسول الله؛ قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أو لا؟ قال: «إنما عليك الجَهْد» قال: يا رسول الله؛ لا بدّ لنا من أن نقول، قال: «قُولوا ما بدا لكم، فأنتم في حلّ من ذلك». فاجتمع على قتله محمد بن مَسْلمة، وأبو نائِلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش ـ وكان أخا كعب من الرّضاعة ـ وعبّاد بن بِشْر بن وقش، والحارث بن أوس بن مُعاذ، وأبو عبْس بن جَبْر، أخو بني حارثة، فقدّموا إليه سِلْكان بن سلامة، فجاءه فتحدّث معه ساعة، وتناشدا شعراً، ثم قال أبو نائلة سِلكان: ويحك يا بن الأشرف! إني قد جِئتك لحاجة أريد ذكرَها لك، فاكتم عني؛ قال: أفعلُ، قال: قد كان قدومُ هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوسٍ

---

(١) كعب بن الأشرف: قال صاحب الأغاني: ١٩: ١٠٦. طبع بولاق: «كعب بن الأشرف مختلف في نسبه، فزعم ابن حبيب أنه من طيىء، وأمه من بني النضير، وأن أباه توفي وهو صغير، فحملته أمه إلى أخواله، فنشأ فيهم، وساد وكبر أمره، وقيل: بل هو من بني النضير، وكان شاعراً فارساً» الخ.

(٢) راجع هذه الأشعار في سيرة ابن هشام: ٣: ٥٥ ـ ٥٧ طبعة الحلبي، بمصر.

(٣) يروى أنه شبب بأم الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب. راجع الطبري: ٣، ٤ ص ١٣٦٩.

(٤) قال السهيلي في الروض الأنف: ٢: ١٢٣: «في هذه من الفقه وجوب قتل من سب النبي ﷺ وإن كان ذا عهد، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، فإنه لا يرى قتل الذمي في مثل هذا».

واحدة، وقُطِعَت عنا السُّبُل حتى ضاع العِيال، وجُهِدت الأنفس، وأصبحنا قد جُهدنا وجهد عيالنا؛ فقال كعب: أنا ابن الأشرف، والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول؛ فقال له سِلكان: إنّا نريد التّنحيَ منه، ومعي رجال من قومي على مثل رأيي، وقد أردتُ أن آتيكَ بهم، فنبتاع منك طعاماً وتمراً، ونرهنك ما يكون لك فيه ثِقة ووفاء؛ فقال: أترهنوني نساءكم؟ قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشبّ[١] أهل يثْرِب وأعْطرُهم؛ فقال: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردتَ أن تفضحنا وأن يُعيّر أبناؤنا؛ فيقال: هذا رهِينة وَسْقٍ[٢]، وهذا رهِينة وسقين، ولكنّا نرهنُك سلاحنا وقد علمتَ حاجتنا إلى السلاح؛ فقال: نعم إن في الحلقة[٣] لوفاء، وإنما أراد سِلْكان ألا يُنكرَ السلام إذا جاءوا بها، ثم رجع سِلكان إلى أصحابه، وأخبرهم الخبر وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه عند رسول الله ﷺ، ففعلوا.

ومشى معهم رسول الله ﷺ إلى بَقِيع[٤] الغَرْقَد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أَعِنْهم. ورجع ﷺ إلى بيته، وتوجّهوا، وكانت ليلة مقمرة، حتى انتهوا إلى حِصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان ابن الأشرف حديث عهدٍ بعرسٍ، فوثب في مِلْحفَته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة؛ قال: إنّه أبو نائلة، لو وجدني نائماً ما أيقظني؛ فقالت: والله لأعرفُ في صوته الشّر، فقال لها: لو يُدعى الفتى لطعْنة لأجاب.

وفي حديث البخاريّ[٥] من رواية سُفيان عن عمرو عن جابر بن عبد الله قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم؛ فقال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورَضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بِلَيل لأجاب؛ قالوا: ونزل إليهم فتحدّثوا معه ساعة، ثم قالوا: هل لك يا بن الأشرف أن نتماشى إلى شِعب[٦] العجوز فنتحدّث به بقية ليلتنا. فقال: إن شئتم، فخرجوا يتماشوْن، فمشوا ساعة، ثم وضع أبو نائلة يده

(١) أشب: أفضلهم شباباً.
(٢) الوسق: حمل البعير.
(٣) يريد «بالحلقة»: السلاح كله، وقيل: هي الدرع خاصة.
(٤) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.
(٥) البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، البخاري، أبو عبد الله (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ = ٨١٠ ـ ٨٧٠ م): حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ. صاحب «الجامع الصحيح» المعروف: بصحيح البخاري. ولد في بخارى، ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث. مات في سمرقند، وكتابه في الحديث أوثق الكتب الستة المعول عليها. (الأعلام: ٦: ٣٤).
(٦) شعب العجوز: بظاهر المدينة.

في فود رأس ابن الأشرف، ثم شمّ يده فقال: ما رأيت كالليلة طِيباً أعْطَرَ قَطّ من هذا! فقال: هذا عِطْر أمّ فلان، يريد امرأته، ثم مشى قليلاً وعاد لمثلها حتى اطمأن، ثم عاد لمثلها، فأخذ بفَوْد رأسه وقال: اضربوا عدوّ الله. فضربوه، فاختلفت عليه أسيافُهم فلم تُغن شيئاً.

قال محمد بن مسلمة: فذكرت مِغولاً[١] في سيفي حين رأيت أسيافنا لم تغن، فأخذته وقد صاح عدوّ الله صيحة لم يبْق حولنا حِصن إلا أوقِدت عليه نار، فوضعته في ثُنَّته[٢] ثم تحاملت عليه حتى انتهى إلى عانته[٣]. ثم حزّوا رأسه وحملوه معهم؛ وأصيب الحارث بن أوس، فجرح في رأسه أو رِجله، أصابه بعض أسياف أصحابه قال محمد بن مسلمة: فخرجنا حتى سَلَكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قُريظة ثم على بُعَاث[٤] حتى استندنا في حَرّة العُريض[٥]، وقد أبطأ علينا الحارث، ونزَفه[٦] الدم فوقفنا له ساعة حتى أتانا فاحتملناه وجئنا به.

قال ابن سعد: فلما بلغوا بقيع الغرقد كبّروا، وقد قام رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم كبّر، وعرف أن قد قتلوه، ثم انتهوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أفلحتِ الوجوه» قالوا: وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله.

قال ابن إسحاق، قال محمد بن مسلمة: وتفلَ رسول الله ﷺ على جرح صاحِبنا فبرأ، فرجعنا إلى أهلينا، فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعَتِنا بعدوّ الله، فليس بها يهوديّ إلا وهو خائف على نفسه.

وفي مقتل كعب بن الأشرف يقول عبّاد بن بِشْر[٧]: [من الوافر]

---

(١) المغول: شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه.

(٢) الثنة: ما بين السرة والعانة.

(٣) في الأصول: «غايته»، وهو تصحيف. انظر شرح المواهب: ٢: ١٥.

(٤) بُعاث: موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية. وفي رواية أخرى: «بعاث».

(٥) حرة العريض: الأرض الصلبة الغليظة التي البستها حجارة سود نخرة والعريض: وادي المدينة.

(٦) نزفه الدم: خرج منه كثيراً حتى ضعف.

(٧) عباد بن بشر: عباد بن بشر بن وقش الأشهلي الخزرجي الأنصاري: (٣٣ ق هـ ١٢ هـ = ٥٩١ - ٦٣٣ م) صحابي من أبطالهم أسلم في المدينة، وشهد المشاهد كلها. وكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى القبائل يصدّقها (يجمع الصدقات) وجعله على مقاسم حنين، واستعمله على حرسه بتبوك. استشهد يوم اليمامة. (الأعلام: ٣: ٢٥٧).

صرختُ به فلم يَعرض لصوتي ... وأوفى طالعاً من رأس جَذْرٍ[١]
فعُذْتُ له فقالَ من المنادي ... فقلت أخوك عبّاد بن بِشْرِ
وهَذي درعُنا رهْناً فخذْها ... لشهر إن وفى أو نصفِ شهرِ
فقال معاشرٌ سَغِبوا وجاعوا ... وما عدِموا الغنى من غير فقرِ[٢]
فأقبل نحونا يهوِي سريعاً ... وقال: أما لقد جِئتم لأمرِ
وفي أَيمانِنا بيضٌ حِدادٌ ... مجرّبة بها الكفارَ نفري[٣]
فعانقَه ابنُ مسلمة المردّى ... به الكفارُ كالليث الهِزَبرِ[٤]
وشدّ بسيفه صَلْتاً عليه ... فَقَطَّره أبو عبْس بن جَبْرِ[٥]
فكان الله سادسَنا فأُبْنا ... بأنْعَم نعْمةٍ وأعزّ نصْرِ[٦]
وجاء برأسه نَفَرٌ كرامٌ ... هُمُ ناهيك من صِدْق وبِرِّ

ذكر غزوة غَطَفان إلى نجد
(وهي غزوة ذي أَمَر[٧]؛ ناحية النُّخَيل، وقصة دُعْثُور بن الحارث[٨])

غزاها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل[٩] على رأس خمسة وعشرين شهراً من مُهاجَرِه، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب بذي أَمَر تجمَّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ. جمعهم رجل منهم يقال له: دُعْثُور بن الحارث من بني محارب، فندب رسول الله ﷺ الناس، وخرج لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل في أربعمائة وخمسين رجلاً، ومعهم أفراس،

(١) الجدر: الحائط.
(٢) معاشر: أناس. سغبوا: لم يعد عندهم ما يأكلونه.
(٣) البيض الحداد: السيوف القاطعة.
(٤) أرداه: قتله، الهزبر: من أسماء الأسد.
(٥) قطره: أسال دمه.
(٦) أبنا: عدنا.
(٧) سمى ابن إسحاق هذه الغزوة «غزوة ذات الرقاع». وقال في سبب هذه التسمية: «إنما قيل لها غزوة ذات الرقاع، لأنهم رقعوا فيها راياتهم؛ ويقال: ذات الرقاع: شجرة بذلك الموضع، يقال لها: ذات الرقاع».
(٨) في سيرة ابن هشام: «غورث بن الحارث». وفيه روايات أخرى. راجع المواهب اللدنية: ٢: ١٧.
(٩) في طبقات ابن سعد أنها كانت في المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً من مهاجره.

واستخلف على المدينة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأصابوا رجلاً منهم بذي[١] القَصَّة يقال له جَبّار من بني ثعلبة، فأُدخِل على رسول الله ﷺ فأخبره من خبرهم وقال: لن يُلاقوك، لو سمِعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك. فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأسلم وضمّه إلى بلال، ولم يلاق ﷺ أحداً.

قال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد البيْهقيّ[٢]، رحمه الله: وهربت منه الأعراب فوق ذِرْوة من الجبال، ونزل رسول الله ﷺ ذا أمرَ وعسكرَ به فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله ﷺ لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبَلَّ ثوبه، وقد جعل رسول الله ﷺ واديَ ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجفّ، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله ﷺ، فقالت الأعراب لدُعثور، وكان سيّدَها وأشجعَها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه حيث إن غوّث[٣] بأصحابه لم يُغث حتى تقتلَه؛ فاختار سيفاً من سيوفهم صارماً، ثم أقبل مشتملاً على السيف حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمد، من يمنعك منّي اليوم؟ قال: الله. ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقام على رأسه، فقال: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، لا أكثر عليك جمعاً أبداً، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه ثم قال: والله لأنت خير مني. قال رسول الله ﷺ: أنا أحق بذلك منك. فأتى قومه، فقالوا: أين ما كنت تقول وقد أمكنك والسيف في يدك؟ قال: قد كان والله ذلك رأيي، ولكن نظرت إلى رجل أبيض[٤] طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه مَلَك، وشهدت أن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليه؛ وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ونزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١] الآية. ثم أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولم يلق كيداً، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

ذكر غزوة بني سُلَيْم ببُحْران[٥]

غزاها رسول الله ﷺ لستّ خلون من جمادي الأولى على رأس سبعة وعشرين

---

(١) ذو القَصَّة: موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة.

(٢) البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر (٣٨٤ ـ ٤٥٨ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٦ م) من أئمة الحديث، ولد في خسرو جرد ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها إلى أن مات، ونقل جثمانه إلى بلده. (الأعلام: ١: ١١٦).

(٣) غوث: قال: واغوثاه. (٤) أراد جبريل.

(٥) بحران: موضع بناحية الفرع. وفي الأصل: «بنجران».

شهراً من مُهاجَرِه ـ وبحران من ناحية الفُرع[١]، وبين الفرع وبين المدينة ثمانية برد ـ وذلك أنه بلغه أن بها جمعاً كثيراً من بني سليم، فخرج في ثلثمائة رجل من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم وأغَذّ[٢] السير حتى ورد بحران فوجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع ولم يلق كيداً، وكانت غيبته عشر ليال.

ذكر سريّة زيد بن حارثة إلى القَرَدَة (بالقاف، وضبطه ابن الفرات بالفاء وكسر الراء المهملة)

بعثه رسول الله ﷺ لهلال جمادي الآخرة، على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة، وهي أوّل سريّة خرج زيد فيها أميراً يعترض لعير قريش فيها صَفْوان بن أميّة، وحُوَيْطب بن عبد العزّى، وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعه مال كثير، وكان دليلَهم فراتُ ابن حَيّان العِجْليّ، فخرج بهم على ذاتِ عِرْق[٣]، طريق العراق.

قال ابن إسحاق: وفيها أبو سفيان بن حرب، وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذي كانوا يسلكون إلى الشام حين وقعة بدر فكانوا يسلكون طريق العراق، فخرج منهم تُجّار، وفيهم أبو سفيان بن حرب معه فضّة كثيرة، وهي أعظم تجارتهم.

قال ابن سعد: فبلغ النبيّ ﷺ ذلك، فوجّه زيد بن حارثة في مائة راكب، فاعترضوا لها، فأصابوا العِير وأفلت أعيانُ القوم، وقدموا بالعير على رسول الله ﷺ فخمّسها، فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم، وقسم ما بقي بين أهل السريّة، وأُسِر فُرات بن حيّان، فأسلم، فتُرِك من القتل.

والقَرِدة: من أرض نجد بين الربذة والغَمْرَة.

ذكر غزوة أحد

قال محمد بن سعد في طبقاته: كانت غزوة رسول الله ﷺ أحداً يوم السبت لسبع خلون من شوّال، على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مُهاجَرِه ﷺ.

وقال ابن إسحاق: كانت يوم السبت للنصف من شوّال.

وذلك أن قريشاً لما أُصِيب من أصِيب منهم يوم بدر، ورجع من نجا منهم إلى مكة، وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة، فمشت

---

(١) الفرع: قرية من ناحية المدينة، ويقال: هي أول قرية مارت إسماعيل وأمه التمر بمكة.

(٢) أغذّ: أسرع.

(٣) ذات عرق: هو منزل معروف من منازل الحاج، يحرم أهل العراق بالحج منه سمي به لأنه فيه عرقاً وهو الجبل الصغير. (اللسان: عرق).

أشراف قريش إلى أبي سُفيان، فقالوا: نحن طيِّبو أنفس أن تجهّزوا برِبْح هذه العِير جيشاً إلى محمد؛ فقال أبو سفيان: وأنا أوّل من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد مناف معي؛ فباعوها فكانت ألف بعير، والمالُ خمسين ألف دينار، فسلّم إلى أهل العير رؤوس أموالهم وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً.

قال ابن سعد وغيره: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦] وبَعثت قريشُ رُسلَهم إلى العَرب يَدعُونهم[١] إلى نَصرِهم فأَوْعَبُوا[٢] وألَبُوا[٣].

قال ابن سعد: وكتب العبّاس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ بخبر قريش، فأخبر رسولُ الله ﷺ سعدَ بن الربيع بكتاب العباس. وأرْجَفَ[٤] المنافقون واليهود بالمدينة، وخرجت قريش من مكة بِحَدِّها[٥] وجَدِّها وأحابيشها[٦]، ومن تابَعها من كنانة وأهل تهامة، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل، فيهم سبعمائة دارع، ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير، وخرجوا معهم بالظُّعن[٧] التماسَ الحفيظة[٨]، وألا يفرّوا، وكان معهم خمسَ عشرة امرأة، فخرج أبو سفيان بن حرب - وهو قائد الناس - معهم هند بنت عتبة، وخرج عِكْرمة بن أبي جهْل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صَفوان بن أميّة ببرة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثَّقفيّة، وهي أم عبد الله بن صفوان، وخرج عمرو بن العاص بريْطة بنت مُنبّه بن الحجّاج، وهي أم عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة - عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار - بسُلافة بنت سعد بن شُهَيد[٩] الأنصاريّة، وخرجت خُنَاس بنت مالك بن المُضرِّب[١٠] مع ابنها أبي

(١) في الأصول: «يدعوهم».
(٢) أوعبوا: خرجوا كلهم إلى الغزو.
(٣) ألبوا: أتوا من كل جانب.
(٤) أرجف القوم: اختلقوا أخباراً كاذبة يكون معها اضطراب في الناس.
(٥) بحدها وجدها: بغضبها وعظمتها.
(٦) أحابيش قريش: قوم من بني المصطلق والهون بن خزيمة، اجتمعوا وحالفوا قريشاً عند حبشي، وهو جبل بأسفل مكة، فسموا به.
(٧) الظُّعن: جمع ظعينة، وهي المرأة ما دامت في الهودج.
(٨) الحفيظة: الحمية والغضب.
(٩) كذا في السيرة، والطبري في «الأصول»: «سهيل». وفي رواية الطبري: «سهيد».
(١٠) ما ذكر رواية السيرة والطبري. وفي الأصول: «النضر».

عزيز بن عُمير، وخرجت عَمْرة بنت عَلقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مَناة.

قال محمد بن إسحاق: ودعا جُبير بن مُطعم غلاماً له حَبشيًا، يقال له: وحشيّ، يقذف بحرْبة له قذْف الحبشة، قَلّما يُخطىء بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلتَ حمزة عمّ محمد بعمّي طُعيمة بن عدي فأنت عتيق.

فكانت هند بنت عتبة كلّما مرّت بوحشيّ أو مر بها، قالت: وَيْهاً[١] دُسْمة؛ اشْف واستشْفِ، وكان وحشيّ يكنى بأبي دسمة.

قال ابن سعد: وشاع خبرهم ومسيرهم في الناس حتى نزلوا ذا الحُلَيْفة، فبعث رسول الله ﷺ أَنَساً ومُؤْنِساً ابنَي فَضَالة، ليلة الخميس لخمس مضين من شوّال عيْنَين له، فأتيا رسول الله ﷺ بخبرهم، وأنهم قد خلّوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بالعُرَيض[٢] حتى تركوه ليس به خضراء، ثم بعث الحُبابَ بن المنذر بن الجموح فدخل فيهم فحزَرهم[٣]، وجاءه بعلمهم، وبات سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضير، وسعد بن عُبادة في عِدَّة ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله ﷺ، وحُرِست المدينة حتى أصبحوا، ورأى رسول الله ﷺ تلك الليلة كأنَّه في دِرعٍ حَصِينة، وكأنّ سيفَه ذا الفَقار قد انقصم من عند ظُبته[٤]، وكأن بقراً تُذبَح، وكأنه مُرْدِفٌ كَبْشاً فأخبر بها أصحابه وأوّلها[٥]، فقال: أما الدّرع الحصينة فالمدينة، وأما انْقِصام سيفي فمصيبة في نفسي، وأما البقر التي تذبح فقتل في أصحابي، وأما مُردِف كبْشاً، فكبْش الكَتيبة يقتله الله إن شاء الله: فكان رأي رسول الله ﷺ ألا يخرج مِن المدينة لهذه الرؤيا، فأحبّ أن يُوافق على رأيه، فاستشار أصحابه في الخروج. فأشار عبد الله بن أبيّ بن سلول ألا يخرج، وكان ذلك رأي الأكابرِ من المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله ﷺ: امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراريّ في الآطام[٦]. فقام فِتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، فطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوّهم ورغِبوا في الشهادة، وقالوا: اخرج بنا إلى عدوّنا لا يروْن أنّا قد جبُنّا عنهم وضعُفْنا. فغَلبوا على الأمر، فصلى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس، ووعظهم وأمرهم بالجدّ والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيُّؤ لعدوّهم، ففرح الناس بالشخوص،

---

(١) ويها: كلمة معناها الإغراء والتحضيض. والدسمة: السواد.

(٢) العريض: وادٍ بالمدينة.

(٣) الحزر: العد بالظن والتخمين.

(٤) ظبطه: طرفه.

(٥) أوّلها: فسرها.

(٦) الآطام: الحصون المبنية بالحجارة، والبيوت المربعة المسطحة.

ثم صلى بالناس العصر، وقد حَشَدوا، وحضر أهلُ العَوالي[١]، ثم دخل رسول الله ﷺ بيته ومعه أبو بكر وعمر، فعمَّماه وأَلْبَساه[٢]، وصفّ[٣] الناس له ينتظرون خروجه، فقال لهم سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء، فرُدّوا الأمر إليه. فخرج رسول الله ﷺ قد لبس لأْمَتَه[٤]، وأظهر الدرع وحزم وسطها بمِنْطَقة من أَدَم من حمائل سيفه، واعتمّ وتقلّد السيف، وألقى التُّرْس في ظهره، فندموا جميعاً على ما صنعوا، وقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك. فقال ﷺ: لا ينبغي لنبيّ إذا لبس لأْمَتَه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، فانظروا ما آمركُم به فافعلوا وامْضُوا على اسم الله، فلكم النصر ما صَبَرتم. ثم دعا بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء المهاجرين إلى عليّ بن أبي طالب، ويقال: إلى مصعب بن عُمَير[٥]، ودفع لواء الأوس إلى أُسيد بن حُضَير[٦]، ودفع لواء الخزرج إلى الحُبَاب بن المنذر[٧]، ويقال: إلى سعد بن عُبادة، واستخلف على المدينة عبد الله بن أمّ مَكتوم، ثم ركب فرسه وتنكّب[٨] القَوس، وأخذ قناة بيده، والمسلمون عليهم السلاح قد أظهروا الدروع، فيهم مائة دارع، وخرج السَّعدانِ أمامه، يعدُوان، سعدُ بن معاذ، وسعد بن عُبادة، كل منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله، فمضى حتى إذا كان بالشَّيْخيْن ـ وهما أُطمان، كان يهودي ويهودية يقومان عليهما يتحدّثان، فلذلك سمّيا بالشيخينِ، وهما في طرف المدينة ـ التفت فنظر إلى كتيبة خَشْناء[٩] لها

---

(١) العوالي: قرى بظاهر المدينة.

(٢) في الأصول: «لبان» وهو تحريف.

(٣) صف: اصطف.

(٤) اللأمة: الدرع، أو السلاح كله.

(٥) مصعب بن عُمير: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، القرشي من بني عبد الدار (. . . ـ ٣ هـ = . . . ـ ٦٢٥ م) شجاع، من السابقين إلى الإسلام، أسلم في مكة. وهرب مع من هاجر إلى الحبشة. وهاجر إلى المدينة. شهد بدراً؛ وحمل اللواء يوم أحد. (الأعلام: ٧: ٢٤٨).

(٦) أُسَيْد بن حُضير: أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك الأسدي، أبو يحيى: (. . . ـ ٢٠ هـ = . . . ـ ٦٤١ م) صحابي، كان شريفاً في الجاهلية والإسلام. يعد من عقلاء العرب وذي الرأي فيهم. شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد أحداً فجرح سبع جراحات. وشهد الخندق والمشاهد كلها. توفي في المدينة. (الأعلام: ١: ٣٣٠).

(٧) الحُباب بن المنذر: الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، الخزرجي، ثم السلمي؛ صحابي، من الشجعان الشعراء، قال له: «ذو الرأي» هو صاحب المشورة يوم أحد. وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة. مات في خلافة عمر، وقد زاد على الخمسين. (الأعلام: ٢: ١٦٣).

(٨) تنكب القوس: ألقاه على منكبه.

(٩) كتيبة خشناء: كثيرة السلاح، خشنته.

زَجَل[١]، فقال: ما هذه؟ قالوا: حلفاء ابن أبيّ من يهود. فقال ﷺ: لا تستنصِروا بأهل الشّرك على أهل الشرك. وعرض من عرض بالشيخين، فردّ من ردّ، وأجاز من أجاز.

قال محمد بن إسحاق: أجاز رسول الله ﷺ يومئذٍ سَمُرة[٢] بن جُنْدُب الفزاري، ورافع بن خَديج أحدَ بني حارثة، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردّهما، فقيل له: يا رسول الله إن رافعاً رام، فأجازه، فقيل له: إن سمرة يصرع رافعاً، فأجازه. وردّ رسول الله ﷺ أُسامةَ بن زيد[٣]، وعبد الله بن عمر بن الخطاب[٤]، وزيد بن ثابت[٥]، والبراء بن عازب[٦]، وعمرو بن حَزم[٧]، وأُسَيْد بن ظُهَيْر[٨]، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة، وردّ عَرَابة بن أوس وهو الذي يقول فيه

(١) الزجل: الجلبة والضوضاء.

(٢) في الأصل: «تمرة» وهو تحريف.

(٣) أسامة بن زيد: أسامة بن زيد بن حارثة. يكنى أبا محمد ويقال أبو زيد، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ. ولد في الإسلام، ومات النبي ﷺ وله عشرون عاماً. وكان أمره على جيش عظيم. اعتزل الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية. وصحح ابن عبد البر أنه مات سنة أربع وخمسين (الإصابة في تمييز الصحابة، ترجمة رقم: ٨٩).

(٤) عبد الله بن عمر بن الخطاب: العدوي، أبو عبد الرحمٰن (١٠ ق هـ ـ ٧٣ هـ = ٦١٣ ـ ٦٩٢ م)، صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة، ومولده ووفاته فيها. كف بصره في آخر حياته وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة. (الأعلام: ٤: ١٠٨).

(٥) زيد بن ثابت: زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، أبو خارجة: (١١ ق هـ ـ ٤٥ هـ = ٦١١ ـ ٦٦٥ م) صحابي من أكابرهم. كان كاتب الوحي. ولد في المدينة ونشأ بمكة. وهاجر مع النبي ﷺ، وهو ابن ١١ سنة، وتعلم وتفقه في الدين. وكان ابن عباس يأتيه إلى بيته للأخذ عنه. وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار. (الأعلام: ٣: ٥٦).

(٦) البراء بن عازب: البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة: (. . . ـ ٧١ هـ = . . . ـ ٦٩٠ م) قائد صحابي من أصحاب الفتوح. أسلم صغيراً وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشر غزوة، أوّلها غزوة الخندق. عاش إلى أيام مصعب بن الزبير فسكن الكوفة. واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه. (الأعلام: ٢: ٤٦).

(٧) عمرو بن حزم: عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري أبو الضحاك (. . . ـ ٥٣ هـ = . . . ـ ٦٧٣ م) والٍ، من الصحابة، شهد الخندق وما بعدها. واستعمله النبي ﷺ على نجران وكتب له عهداً مطولاً، فيه توجيه وتشريع. (الأعلام: ٥: ٧٦).

(٨) أسيد بن ظُهَير: أُسَيْد بن ظُهَيْر بن رافع بن عدي بن زيد بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة الأنصاري الحارثي ابن عم رافع بن خديج يكنى أبا ثابت له ولأبيه صحبة. قال البخاري: مدني يماني. مات في خلافة عبد الملك بن مروان. (الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ رقم الترجمة ١٨٨).

الشَمّاخ[١]: [من الوافر]

إذا ما رايةٌ رفِعت لمجدٍ   تَلقّاها عَرابة باليمين

قال ابن سعد: وبات رسول الله ﷺ بالشيخين، وكان نازلاً في بني النّجار، واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مَسْلَمة في خمسين رجلاً، يُطيفون بالعسكر، وأدلج[٢] رسول الله ﷺ في السَّحَر، ودليله أبو خَيْثَمة، فانتهى إلى أُحُد، فحانت الصلاة، وهو يرى المشركين، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، فصلّى بأصحابه الصبح صفوفاً.

قال ابن إسحاق: ولما كان رسول الله ﷺ بالشَّوْط[٣] بين المدينة وأحد، انخزل[٤] عنه عبد الله بن أُبيّ[٥] بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نَقتل أنفسَنا ها هنا أيها الناس! فرجع بمن اتّبعه من قومه مِن أهل النّفاق، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حَرَام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكّركم الله أن تخذلوا قومَكم ونَبيّكم عندما حضَر عدوّهم؛ قالوا: لو نعلم أنّكم تُقاتلون لَما أسْلمناكم، ولكن لا نرى أنّه يكون قتال. قال: فلما استَعْصَوا عليه وأَبَوْا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداءَ الله، فسيُغني الله عنكم نبيّه ﷺ.

قال ابن سعد: انخزل عبد الله بن أبيّ بثلثمائة، وبقي رسول الله ﷺ في سبعمائة ومعه فرسه وفرس لأبي بُرْدة بن نيار. وأقبل يصفّ أصحابَه ويسوّي الصّفوفَ على رجليه، وعليه دِرْعان ومِغْفَر[٦] وبَيْضَة، وجعل له مَيْمَنَةً ومَيْسرةً، وجعل أُحُداً وراء ظهره، واستقبل المدينة؛ وجعل عيْنَين[٧] - جبلاً - عن يساره، وجعل عليه خمسين من

---

(١) خرج الشماخ يريد المدينة فلقيه عرابة بن الأوس، فسأله عما أقدمه المدينة، فقال: أردت أن أمتار لأهلي وكان معه بعيران. فأوقرهما له عرابة تمراً وبراً، وكساه وأكرمه، فخرج عن المدينة وامتدحه بالقصيدة التي منها هذا البيت.

(٢) أدلج: سار ليلاً.

(٣) الشوط: قال في معجم البلدان: «اسم حائط، يعني بستاناً بالمدينة».

(٤) انخزل: ارتد.

(٥) عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد، الخزرجي، أبو الحباب، المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه من خزاعة (. . . ـ ٩ هـ = . . . ـ ٦٣٠ م) رأس المنافقين في الإسلام من أهل المدينة. كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر، تقية. ولما تهيأ النبي ﷺ لوقعة أحد، انخزل ابن أبي وعاد إلى المدينة. وفعل ذلك يوم التهيؤ لغزوة تبوك. (الأعلام: ٤: ٦٥).

(٦) المغفر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح.

(٧) عينان: جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة.

الرّماة، واستعمل عليهم عبد الله بن جُبير، وقال: قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، فإن رأيتُمونا قد غنِمْنا، فلا تَشْركونا، وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تنصرونا.

وأقبل المشركون، وقد صفّوا صفوفَهم، واستعملوا على الميمَنة خالد بن الوليد، وعلى الميَسرة عِكرمة بن أبي جَهْل، ولهم مُجَنِّبَتان[١] مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صَفوان بن أميّة، ويقال: عمرو بن العاص. وعلى الرّماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام، ودفعوا اللّواء إلى طلحة بن أبي طلحة ـ واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدار ـ فسأل رسول الله ﷺ: من يحمل لواء المشركين؟ فقيل: عبد الدار، فقال: نحن أحقّ بالوفاء منهم، أين مُصعَب بن عُمَير؟ قال: هأَنَذا؛ قال: خُذِ اللّواء؛ فأخذه مصعب، فتقدّم به بين يدي رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ: من يأخذ هذا السيفَ بِحَقِّه؟ فقام رجالٌ، فأمسَكَه عنهم، حتى قام أبو دُجَانَة سِمَاك بن خَرَشة[٢] أخو بني سَاعدة، فقال: وما حقّه يا رسول الله؟ قال: تضرب به في العدوّ حتى ينحني؛ قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه. فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة إذا اعلم بعصابة له حمراء، علم الناس أنه سيقاتِل، فلما أخذ السيفَ من يد رسول الله ﷺ، أخرج عِصابتَه تلك فعَصب بها رأسَه، وجعل يتبختر بين الصّفين. فقالرسول الله ﷺ حين رآه: إنها لمِشْية يُبغِضها الله ورسوله، إلا في هذا الموطن.

قال ابن هشام[٣]: إنّ الزّبير بن العوّام قال: وَجدْت[٤] في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنَعنِيه وأعطاه أبا دُجانة، فقلت: والله لأنظرنّ ما يصنع. فاتّبعته، فأخرج عِصابة حمراء فعصَب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة عَصابة الموت. وجعل يقول: [من الرجز]

---

(١) المجنبتان: الميمنة والميسرة.

(٢) سماك بن خرشة: سماك بن خَرَشة الخزرجي البياضي الأنصاري، المعروف بأبي دجانة: (. . . . ـ ١١ هـ = . . . ـ ٦٣٢ م) صحابي، شهد بدراً وثبت يوم أحد وأصيب بجراحات كثيرة. واستشهد باليمامة. وكان يقال له: «ذو المشهرة» وهي درع يلبسها في الحرب. و«ذو السيفين» لقتاله يوم أحد بسيفه وسيف رسول الله ﷺ. (الأعلام: ٣: ١٣٨).

(٣) ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (. . . . ـ ٢١٣ هـ = . . . ـ ٨٢٨ م). مؤرخ كان عالماً بالأنساب واللغة وأخبار العرب. ولد ونشأ في البصرة، وتوفي بمصر. أشهر كتبه: «السيرة النبوية ـ ط» المعروف بسيرة ابن هشام. (الأعلام: ٤: ١٦٦).

(٤) وجدتُ: حزنتُ.

أنـا الـذي عـاهَـدَنـي خَـلِـيـلـي ونـحـنُ بـالـسَّـفْـح لـدَى الـنّـخيـلِ

أَلاَّ أقـومَ الـدهـرَ فـي الـكَـيُّـولِ أضـربْ بـسيْـفِ الـلّـهِ والـرّسـولِ[١]

قال الزّبير: فجعل لا يَلْقَى أحداً إلا قَتله. وكان من المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا ذفَّف[٢] عليه، فدعْوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دُجانة، فاتَّقاه بَدَرَقته[٣]، وضربه أبو دُجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفْرِق رأس هند بنت عُتبة، ثم عدله عنها، قال الزّبير، فقلت: الله ورسوله أعلم.

قال أبو دُجانة: رأيت إنساناً يحمش الناس حَمْشاً[٤]، فصمَدتُ له، فلما حملت عليه السيف وَلْوَل، فإذا امرأة. وأكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

قالوا: وكان أول من أنشب الحرب يوم أُحُد أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان، أحد بني ضبيعة بن زيد، وكان قد خرج إلى مكة مُباعِداً لرسول الله ﷺ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس، وكان يعد قريشاً أن لو قد لقي قومَه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعُبْدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. قالوا: فلا أنعَم الله بك عيناً يا فاسق ـ وكان في الجاهلية يُسمَّى الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، كما قدمنا من خبره ـ قال: فلما سمع ردّهم عليه، قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ. ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ثم راضَخهم[٥] بالحجارة فراضخوه، حتّى ولّى هو وأصحابه هاربين.

قال: وكان أبو سفيان قد قال لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرّضهم بذلك على القتال: يا بني عبد الدّار، إنكم قد وَلَيتم لِواءَ يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتَى الناسُ من قِبَل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإمّا أن تَكْفونا لواءنا، وإمّا أن تُخلُّوا بيننا وبينه فَنَكْفِيكموه؛ فهمُّوا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نُسْلِم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نَصْنع! وذلك أراد أبو سفيان.

قال: ولما التقى الناس، ودنا بعضُهم من بعض، قامت هِند بنت عُتبة في النّسوة

---

(١) الكَيُّول: آخر الصفوف في الحرب، وهي رواية اللسان وإحدى روايتي ابن هشام. وفي الأصول: «الكبول»: جمع كبل: وهو القيد الضخم. وقد ذكر هذين البيتين صاحب لسان العرب.

(٢) ذفَّف: أجهز.

(٣) الدرقة: الترس المصنوع من الجلد.

(٤) يحمش الناس: يسوقهم بغضب، أي يحرضهم على القتال ويغضبهم.

(٥) راضخهم: راماهم.

اللاتي معها، وأخذْن الدّفوف يضْرِبن بها خلف الرجال ويحرّضْنهم، فقالت هند فيما تقول: [من مجزوء الرجز]

وَيْـهـاً بـنـي عـبْـد الـدّار　　ويــهــاً حُـمـاةَ الأَدْبـار

* ضـرْبـاً بـكـلِّ بَـتّـار[1] *

وقالت أيضاً:

نـحـن بـنـاتُ طـارق[2]　　نـمْـشي عـلـى الـنّـمارق[3]

إن تُـقـبـلـوا نُـعـانـق　　أو تُـدْبِـروا نُـفـارق

* فـراق غَـيـر وامـقْ[4] *

قال: وكان شِعار المسلمين يوم أحد. أَمِت، أَمِت. ودنا القوم بعضُهم من بعض، والرّماة يرشُقون خيل المشركين بالنّبل، فَتُوَلِّي هوارب، فبرز طلحة بن أبي طلحة، صاحب لواء المشركين، وقال: مَن يُبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، فالتقيا بين الصفّين، فبدَره عليّ بضربة على رأسه حتى فلَق هامته، فوقع وهو كَبْش الكتيبة، فسُرّ رسول الله ﷺ بذلك وكبّر، وكبّر المسلمون، وشدّوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى نغضَت[5] صفوفهم، ثم حمل لواءَ المشركين عثمان بن أبي طلحة، وجعل يرتجز وهو أمام النّسوة:

إنّ عـلـى أهـلِ الـلـواءِ حـقّـا　　أن يَـخْـضِـبوا الـصَّـعْـدة أو تَـنْـدَقّا[6]

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه بالسيف على كاهِله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مُؤْتَزَرِه، وبدا سَحْره[7]، ثم رجع حمزة وهو يقول: أنا ابن ساقِي

---

(١) البتار: القاطع.

(٢) «قولها: بنات طارق. تريد النجم؛ أي نحن، شريفات رفيعات كالنجم، وقيل: الشعر لهند بنت طارق بن بياضة الإيادية، قالته في حرب الفرس لإياد، فتمثلت به هند هذه». وقال لسان العرب: «... إن هنداً بنت عتبة هي هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادي. وذكر الأبيات برواية أخرى، وهي تخالف رواية المؤلف وروايتي الطبري وابن إسحاق. راجع لسان العرب مادة (طرق)».

(٣) النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة والطنفسة فوق الرحل.

(٤) الوامق: المحب.

(٥) النغض: التحريك والاضطراب.

(٦) الصعدة: القناة التي تنبت مستقيمة.

(٧) السحر: الرئة.

الحجيج. فحمل اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته، فأدلعَ[١] لسانه ادلاع الكلب، فقتله، ثم حمله مُسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فقتله، ثم حمله كِلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله الزّبير بن العوّام. ثم حمله الجُلاس بن طلحة بن أبي طلحة فقتله طلحة بن عُبيد الله. ثم حمله أَرْطاة بن شُرَحْبِيل، فقتله عليّ بن أبي طالب. ثم حمله شُرَيح بن قاسط[٢]، فقُتِل، ثم حمله صُؤاب غلامهم، وهو حبشِيّ، فقاتل يومئذٍ حتى قُطِعَت يده، فاعتنق اللواء حتى قُتِل عليه، وهو يقول: اللهمّ هل أعذرْت، واختُلف في قاتله، فقيل: قتله سعد بن أبي وقاص، وقيل: علي بن أبي طالب، وقيل: قتله قُزْمان على الأصح.

قال: فلما قُتل أصحابُ اللواء صار مُلقى، حتى أخذته عَمْرة بنت عَلْقمة الحارِثيّة فدفعته لقريش، فلاثُوا[٣] به. ثم انكشف المشركون وانهزموا لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويْل، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم[٤] عن العسْكر، ووقعوا ينهبون العسكر، ويأخذون ما فيه من الغنائم.

قال ابن إسحاق بسند يرفعه إلى الزّبير بن العوّام، أنه قال: والله لقد رأيتُني أنظر إلى خدمِ هندٍ وصواحبِها مشمّراتٍ هوارب، ما دون أخذِهنّ قليلٌ ولا كثير.

قال ابن سعد: وتكلّم الرّماة الذين على الجبل واختلفوا بينهم، وثبت أميرهم عبد الله بن جُبير[٥] في نفرٍ يسير دون العشرة، وقال: لا أُجاوِز أمرَ رسول الله ﷺ، ووعظ أصحابَه وذكّرهم أمر رسول الله ﷺ، فقالوا: لم يُرِد رسولُ الله هذا، قد انهزم المشركون فما مُقامنا هاهنا؟ فانطلقوا يتبعون العسكر يَنْتَهبون معهم، وتركوا الجبل. فنظر خالد بن الوليد إلى خُلوّ الجبل وقِلة أهله، فكرّ بالخيل، وتبعه عِكْرمة بن أبي جَهل، فحملوا على المسلمين، واستدارت رَحاهم، وحالت الريح فصارت دَبُورا، وكان قبل ذلك صَباً[٦]، ونادى إبليس ـ لعنه الله ـ: إن محمداً قد قُتِل. واختلط

---

(١) ادلع: أخرج.

(٢) كذا في الأصول. وفي سيرة ابن هشام: «القاسط بن شريح بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار».

(٣) لاثوا به: اجتمعوا حوله.

(٤) أجهضوهم: أزالوهم.

(٥) عبد الله بن جبير: عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري (... ـ ٣هـ = ... ـ ٦٢٥ م) صحابي، شهد العقبة وبدراً، وكان أمير الرماة يوم أحد، فاستشهد فيها. (الأعلام: ٤: ٧٦).

(٦) الدبور والصبا: الصبا: ريح تهب من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وهي تقابل الدّبور: (اللسان: صبا).

المسلمون فصاروا يقتتلون على غير شِعَار، ويضرب بعضُهم بعضاً، ما يشعرُون به من العَجلة والدَّهَش، وقُتل مُصعب بن عُمير، فأخذ اللواءَ ملَك في صورة مُصعب، وحضرت الملائكة يومئذٍ ولم تقاتل، ونادى المشركون بشعارهم: يا لَلْعُزَّى يا لَهُبَل(١). فقُتل من أكرمه الله بالشهادة من المسلمين حتى خلَص العدوّ إلى رسول الله ﷺ، وثبت ﷺ معه عِصابة من أصحابه أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين، فيهم أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، وسبعة من الأنصار، ورمَى رسول الله ﷺ عن قوسه حتى اندقّت سِيَتها(٢)، فأخذها قتَادة بن النعمان، فكانت عنده، ثم ذبّ بالحجارة، وكُسِرت يومئذٍ رَباعِيته(٣) ﷺ، وكُلِمت شَفَته، وشُجّ في وجهه، وجُرح في وجْنته، وكسِرت البيضة على رأسه، فسال الدم على وجهه، فجعل يمسحه ويقول: كيف يُفلح قوم خَضَبوا وجه نَبِيّهم، وهو يدعُوهم إلى ربّهم؟ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى أبي سعيد الخُدري: أن عتبة بن أبي وقّاص رمى رسولَ الله ﷺ يومئذٍ، فكسر ربَاعِيته اليمنى السّفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شِهاب الزُّهريّ شجّه في جبهته، وأن ابن قمِئة جَرح وجنته، فدخل حلْقتان من حلَق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حُفْرة من الحُفَر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، فأخذ عليّ بن أبي طالب بيده، ورفعه طلحة بن عُبيد الله حتى استوى قائماً، ومَصَّ مالك بن سِنان أبو أبي سعيد الخدريّ، الدّم من وجه رسول الله ﷺ ثم ازدَرَدَه، فقال ﷺ: «من مسّ دمُه دمي لم تَمسّه النار».

قال ابن إسحاق بسند يرفعه إلى محمود بن عمرو: لما غَشِي القومُ رسول الله ﷺ قال: من رجل يشتري لنا نفسه؟ فقام زياد بن السَّكَن في خمسة من الأنصار، وبعضهم يقول: إنما هو عُمارة بن يزيد بن السَّكن. فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً يُقتَلون دونه، حتى كان آخرَهم زياد أو عُمارة، فقاتل حتى أثْبتته الجِراحة. ثم قامت فئة المسلمين فأجهَضوهم عنه، فقال رسول الله ﷺ: أدنوه مني، فأدْنَوْه منه، فوسَّده قدَمه، فمات وخدُّهُ على قدم رسول الله ﷺ.

قال: وقاتلت أمُّ عُمارةَ نَسِيبة بنت كعب المازنيّة يومئذٍ، فحدّثت وقد سئلت عن خبرها، فقالت: خرجت أوّل النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت

---

(١) العزى وهبل: صنمان لقريش.

(٢) السية: طرف القوس.

(٣) الرباعية: السن التي بين الثنية والناب.

إلى رسول الله ﷺ، والدولة والريّح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزْت إلى رسول الله ﷺ فقلت: أباشر القتال وأذبّ[١] عنه بالسيف، حتى خلَصت الجراحة إليّ، وكان على عاتقها جرح أجوف له غَوْر[٢]، فقيل لها: من أصابك بهذا؟ فقالت: ابن قمِئة، أَقْمَأَه[٣] الله، لما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلّوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عُمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات[٤]، ولكنّ عدوّ الله كان عليه دِرعان.

قال ابن إسحاق: وترّس[٥] دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه، يقع النَّبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثُر فيه النّبل. ورمى سعد بن أبي وقّاص دون رسول الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيته يناولني النبل ويقول: اِرمِ فداك أبي وأمي، حتى إنه ليناولني السهم ما له من نَصل، فيقول: ارمِ به، قال: وأُصيبت يومئذٍ عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنته، فردّها رَسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسنَ عينيه وأحدّهما. قال: وانتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عُبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقَوْا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قُتِل رسول الله ﷺ؛ قال: فما تصنعون بالحياة بعده، قُوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل. قال أنس بن مالك: لقد وجدنا به سبعين ضربة، وأصيب عبد الرحمٰن بن عوف في فمه فهُتِمَ[٦]، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، فأصابه بعضها في رجله فعرَج.

قال ابن إسحاق: وكان أوّلَ من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، وقولِ الناس: قتل رسول الله ﷺ، كعبُ بن مالك، قال كعب: عرفت عينيه تُزهران[٧] تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ؛ فأشار إليّ: أن أنْصِت، قال: فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ونهض معهم نحوَ الشعب، معه أبو بكر، وعمر، وعليّ، وطلحة بن عبيد الله[٨]، والزُّبير بن العوّام،

---

(١) أذب: أدافع. (٢) غور: عمق وفجوة.
(٣) أقمأه: أذله.
(٤) في الأصول: «ولقد عنى ذلك ضربته ضربات». وفيها تقديم وتأخير وصوابه عن الطبقات.
(٥) ترس: جعل نفسه ترساً. (٦) هُتم: سقطت ثناياه.
(٧) تزهران: تضيئان، المغفر: الخوذة.
(٨) طلحة: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان الرسول يسميه طلحة الجود، وطلحة الخير. مات يوم الجمل سنة ٣٦.

والحارث بن الصِّمة، ورهطٌ من المسلمين، فلما أسند(١) رسول الله ﷺ في الشِّعب أدركه أبيّ بن خلف، وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجال منّا؟ قال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحرْبة من الحارث بن الصمة، قال: فلما أخذها انتفض منا انتفاضة تَطَايرنا عنه تطاير الشّعراء(٢) عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه بها طعنة في عنقه، تَدَأْدَأَ(٣) منها عن فرسه مراراً؛ وكان أبيّ بن خلف قبل ذلك يلقى رسول الله ﷺ فيقول: إنّ عندي العَوْد ـ فرساً ـ أعلفه كل يوم فَرْقاً(٤) من ذُرة أقتلك عليه. فيقول رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله. فلما رجع إلى قريش، وقد خدشه في عنقه، خدشاً غير كبير، فاحتقن الدّم فيه، فقال: قتلني والله محمد؛ قالوا: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك بأس؛ قال: إنه قد قال لي بمكة: أنا أقتلك والله لو بصق عليّ لقتلني. فمات عدوّ الله بسَرِف(٥) وهم قافلون إلى مكة، وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت(٦): [من الوافر]

لقد وَرِث الضَّلالةَ عن أبيه ... أُبَيٌّ يوم بارزه الرسولُ
أتيْتَ إليه تحمِل رِمَّ عظْم ... وتُوعِدُه وأنت به جَهول(٧)
وقد قتلت بنو النّجّار منكم ... أميَّة إذ يُغَوِّث: يا عَقيل(٨)
وتَبَّ ابنا ربيعة إذا أطاعا ... أبا جهل، لأمّهما الهبول(٩)
وأفْلت حارث لما شغلنا ... بأسر القوم، أسْرته قَليل

وقال حسان أيضاً فيه: [من الوافر]

ألا مَن مُبلغٌ عنّي أُبَيًّا ... فقد أُلقيتَ في سُحق السّعير(١٠)

---

(١) أسند: صعد.
(٢) الشعراء: ذباب له لذع.
(٣) تدأدأ: تدحرج.
(٤) الفرق: مكيال بالمدينة يسع ستة عشر رطلاً.
(٥) سرف: موضع على ستة أميال من مكة، وقيل سبعة، وقيل غير ذلك؛ تزوج به رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث.
(٦) حسان بن ثابت: حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد، الصحابي (. . . ـ ٥٤ هـ = . . . ـ ٦٧٤ م) شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام. فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في النبوة، وشاعر اليمانيين في الإسلام. (الأعلام: ٢: ١٧٥).
(٧) الرم: البالي.
(٨) يغوّث: يقول: واغوثاه.
(٩) تبّ: هلك، والهبول: الفقد.
(١٠) السحق: البعد والعمق.

تـمـنّـي بـالـضّـلالـة مـن بـعـيـدٍ … وتُـقـسـم أن قَـدرْت مـع الـنّـذورِ
تَـمـنّـيـك الأمـانـي مـن بـعـيـد … وقـولُ الـكُـفْـرِ يـرجـع فـي غُـرور
فـقـد لاقـيْـتَ طـعْـنـةَ ذي حِـفـاظ … كـريـم البيـت لـيس بـذي فُـجورِ[١]
لـه فـضـلٌ عـلـى الأحـيـاء طُـرًّا … إذا نـابـتْ مُـلِـمّـات الأمـورِ[٢]

قال: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى فَم الشِّعب خرج عليّ بن أبي طالب حتى مَلأ دَرَقَته[٣] من الماء، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له رِيحاً، فعَافه وغسل عن وجهه الدّم.

قال: وبينما رسول الله ﷺ بالشِّعب، معه أولئك النّفر من أصحابه، إذ علَت عالية من قُريش الجبلَ، وكان على تلك الخيل خالد بن الوليد[٤]، فقال رسول الله ﷺ: اللّهمّ إنه لا ينبغي لهم أن يعلُونا! فقاتل عمر بن الخطاب ورهْط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل. ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوَها، وقد كان بدَّن[٥] وظاهَر بين دِرعين، فلم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها.

قال ابن هشام: وصلى رسول الله ﷺ الظهر يوم أُحُد قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قُعوداً.

قال ابن إسحاق: ولما أراد القوم الانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أَنْعَمتْ[٦] فعَال، إن الحرب سِجال، يوم بيوم بدر. فقال رسول الله ﷺ: قم يا عمر فأجِبه، فقيل: الله أعلى وأجلّ، لا سَواء[٧]، قتلانا في الجنّة،

(١) الحفاظ: الذب عن المحارم. (٢) نابت ملمات الأمور: حلت الدواهي والمصائب.
(٣) الدرقة: الترس إذا كان من جلود ليس فيه خشب.
(٤) خالد بن الوليد: خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي (... - ٢١ هـ = ... - ٦٤٢ م) سيف الله، الفاتح الكبير، الصحابي، كان من أشراف قريش في الجاهلية. أسلم قبل فتح مكة. سنة ٧ هـ. ولما ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام. مات بحمص، وقيل: بالمدينة. انظر (الأعلام: ٢: ٣٠٠).
(٥) بدَّن: ضعف. ظاهر: طابق.
(٦) أنعمت فعال: كان الرجل من قريش إذا أراد ابتداء أمر عمد إلى سهمين، فكتب على أحدهما «نعم» وعلى الآخر «لا» ثم يتقدم إلى الصنم ويجيد سهامه، فإن خرج سهم «نعم» أقدم، وإن خرج سهم «لا»، امتنع، وكان أبو سفيان لما أراد الخروج إلى أحد استفتى «هبل» فخرج له سهم الأنعام، فذلك قوله لعمر رضي الله عنه: أنعمت فعال، أي أجابت بنعم، فتجاف عنها، ولا تذكرها بسوء، يعني آلهتهم. هذا ما ذكره صاحب اللسان. انظر المواهب اللدنية: ٢: ٥٧.
(٧) لا سواء: لا تكافىء بيننا.

وقتلاكم في النار؛ فقال له أبو سفيان: هَلُمّ إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: إيته فانظر ما شأنُه؛ فأتاه، فقال له أبو سفيان: أنشُدك الله يا عمر، أقَتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهمّ لا، وإنه ليَسمع كلامك الآن، قال: أنتَ أصدق عندي من ابن قَمِئة وأبرّ ـ لقول ابن قمئة لهم: إني قتلت محمداً ـ قال: واسم ابن قمئة عبد الله.

وروى البخاريّ عن البَراء قال: وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن أبي قُحافة[١]؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عُمر ـ رضوان الله عليه ـ نفسه، فقال: كذبتَ يا عدوّ الله، أبقى الله لك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَل[٢]، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، فقالوا: ما نقول: قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ؛ قال أبو سفيان: لنا العزى[٣] ولا عُزّى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم؛ قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجال، وتجدون مُثْلة[٤] لم آمر بها ولم تَسؤني.

قال ابن سعد: ثم نادى أبو سفيان عند انصرافه: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل له: نعم هو بيننا وبينك موعد. ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال: اخرُج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جَنَبوا[٥] الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرَنّ إليهم فيها، ثم لأُناجِزَنّهم[٦]. قال علي: فخرجت في آثارهم فرأيتهم قد جَنَبوا الخيل وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكّة.

ذكر خبر مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وما فعلته هند بنت عتبة، وما قالته من الشعر، وما أجيبت به

كان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، قد قتَل من ذكرنا من المشركين آنفاً،

(١) يعني أبا بكر.
(٢) هُبَل: اسم صنم كان في الكعبة.
(٣) العزى: اسم صنم كان لقريش.
(٤) يقال: «مثلت» بالقتيل، إذا جدعت أنفه وأذنه أو شيئاً من أطرافه.
(٥) جنبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.
(٦) أناجزنّهم: المناجزة في القتال: المبارزة والمقاتلة، وهو أن يتبارز الفارسان حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يقتل أحدهما.

ومرّ به سِباع بن عبد العزّى الغُبشانيّ، وكان يكنى بأبي نيار، فقال له حمزة: هلمّ إليّ يا بن مقْطعة البُضُور[١] ـ وكانت أمّه أم أنمار مولاةَ شريق بن عمر بن وهب الثقفيّ، وكانت ختّانةً بمكة ـ فلما التقيا ضربه حمزة فقتله. فقال وحشيّ غلام جبير بن مطعم[٢]: والله إني لأنظر إلى حمزة يهُدّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سِباع، فلما رآه حمزة قال له ما قال، فضربه حمزة فقتله، فهززْت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثُنّته[٣]، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب ليَنُوء[٤] نحوي فتركته فغُلب وإيّاها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، فلم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأُعتق.

قال ابن إسحاق: ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يَجْدَعْن[٥] الآذان والآنُف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم قلائد وخَدَماً[٦]، وأعطت قلائدها وخدمها وقُرْطها وحشِيًّا، وبقَرت عن كبِد حمزة فلاكتْها فلم تسطع أن تُسيغها، فلفَظَتْها، ثم علَت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها، ثم قالت: [من الرجز]

نحن جَزيناكم بيوم بدرِ ... والحرْب بعد الحرب ذاتُ سُعر[٧]
ما كان عن عُتبة لي من صبْرِ ... ولا أخي وعمِّه وبكْري
شَفيتُ نفسي وقَضَيتُ وَتْري[٨] ... شفيتَ وحْشي غليل صدري
فشُكْر وحْشِيٍّ عليّ عُمْرِي ... حتى تَرِمَّ أَعظُمي في قبري[٩]

فأجابتها هند بنت أُثاثة بن عَبّاد بن المُطلب فقالت: [من الرجز]

(١) البضور: لغة في البظر.
(٢) جبير بن مطعم: جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي أبو عدي، (... ـ ٥٩ هـ = ... ـ ٦٧٩ م) صحابي كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسابين. له ستون حديثاً. (الأعلام: ٢: ١١٢).
(٣) الثنة: أسفل البطن.
(٤) ينوء: ينهض بجهد ومشقة.
(٥) يجدعن: يقطعن.
(٦) الخدم: الخلاخيل.
(٧) سعر: تأجج واشتعال.
(٨) الوتر: الثأر.
(٩) ترم: تبلى.

خَـزِيـتِ فـي بـدرٍ وبـعـد بَـدْرِ   يـا بـنـتَ وقَّـاع عـظـيـم الـكُـفْـر[١]
صـبَّـحـك الله غَـداة الـفـجْـر   بـالـهـاشـميّـيـن الـطُّـوال الـزُّهـر
بـكـل قـطَّـاع حُـسَـامٍ يَـفْـرِي   حـمـزةُ لَـيْـثـي وعـلـيّ صَـقْـرِي[٢]
إذ رام شَـيْـبٌ وأبـوك غَـدْرِي   فـخـضَّـبـا مـنـه ضـواحـي الـنَّـحْـر[٣]
* ونَـذْرك الـسُّـوءَ فـشـرُّ نَـذْر *

وقالت هند غير ذلك من الشعر وأجيبت بمثله، وتركنا ذلك اختصاراً.

قال ابن إسحاق: ومرّ الحُلَيس بن زَبَّان أخو بني الحارث بن عبد مناة، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش بأبي سفيان، وهو يضرب في شدْق حمزة بزُجّ الرمح، ويقول: ذُقْ عُقَق[٤]. فقال الحُليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يَصنع بابن عمه ما تَرون لحماً[٥]؛ قال: ويحَك! اكتُمْها عنّي، فإنها كانت زلة. قال: ولما فرغ الناس لقتلاهم خرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي قد بُقِر بطنه عن كبده، وجُدع أنفه وأذناه. فقال حين رآه: لولا أن تحزن صَفيّة ويكون سنّة من بعدي لتركتك حتى تكون في بطون السِّباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجلاً منهم، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمّه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنُمثّلن بهم مُثْلة لم يُمثّلها أحدٌ من العرب، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦ـ ١٢٨] قال: فعفا رسول الله ﷺ وصبر. ونهى عن المَثْل[٦].

قال ابن هشام: ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال: لن أُصابَ بمثلك أبداً! ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا! ثم قال: جاءني جبريل عليه السلام فأخبر

---

(١) الوقاع: الذي يغتاب الناس.
(٢) يفري: يقطع.
(٣) شيب: تريد.. شيبة: ضواحي النحر: ما ظهر من الصدر.
(٤) عُقق: أي يا عاق.
(٥) لحماً: أي ميتاً.
(٦) المثل: التنكيل. فإن قيل: لقد مثل رسول الله ﷺ بالعرنيين، قلنا: في ذلك جوابان، أحدهما: أنه فعل ذلك قصاصاً. وثانيهما، أن ذلك كان قبل تحريم المثلة. راجع الروض الأنف: ٢: ١٤٢.

أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السمٰوات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله. قال ابن إسحاق يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسُجِّي[١] ببُرْد، ثم صلى عليه وكبّر سبْع تكبيرات، ثم أُتي بالقتلى يُوضعون إلى حمزة، فصلّى عليهم وعليه معهم، حتى صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة[٢]. قال: وأقبلت صفيّة بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها حمزة، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزّبير بن العوام: اِلقِها فارجعها لا ترى ما بأخيها. فقال لها: يا أمّاه: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله عزّ وجلّ، فما أرضاني أنا بما كان من ذلك! لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله تعالى. فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك قال: خلّ سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، وصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن. قال: واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة، فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: ادفنوهم حيث صُرِعوا.

ذكر تسمية من استُشهد من المسلمين يوم أُحد

قال ابن إسحاق: استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون رجلاً، كان منهم من المهاجرين من بني هاشم: حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وقد تقدم خبر مقتله، ومن بني أمية: عبد الله بن جحش، حليف لهم من بني أسد بن خُزَيمة[٣] قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شَريق. ومن بني عبد الدار بن قُصيّ: مصعب بن عُمَير، وقتله عبد الله بن قمئة الليثيّ، ومن بني مخزوم بن يَقَظة: شَمّاس بن عثمان قتله أبي بن خلف.

لم يذكر ابن إسحاق غير هؤلاء الأربعة.

وقال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى: وعبد الله، وعبد الرحمٰن، ابنا الهُبيب، من بني سعد بن ليث، ووهب بن قابوس المُزنيّ، وابن أخيه الحارث بن عُقبة بن قابوس، وزاد الثعلبي سعداً مولى عتبة، ولم يذكر الأربعة الذين ذكرهم ابن سعد، بل عدّ المهاجرين خمسة.

---

(١) سُجّي: غطي.

(٢) لم يأخذ بهذا الحديث فقهاء الحجاز ولا الأوزاعي لوجهين: أحدهما: ضعف إسناد هذا الحديث. وثانيهما: أنه حديث لم يصحبه العمل، ولا يروى عن رسول الله ﷺ أنه صلى على شهيد في شيء من مغازيه إلا هذه الرواية. راجع: الروض الأنف: ٢: ١٤٢.

(٣) في الأصول: «خزيم» تحريف.

واستشهد من الأنصار، من بني عبد الأشهل اثنا عشر رجلاً، وهم عمرو بن مُعاذ بن النُّعمان أخو سعد، والحارث بن أنس بن رافع[١]، وعُمارة بن زياد بن السَّكَن، وسَلَمة بن ثابت بن وَقْش، وأخوه عمرو بن ثابت، وأبوهما ثابت، ورِفاعة بن وَقْش، واليَمان أبو حُذَيفة بن اليمان، واسمه حُسَيل بن جابر، أصابه المسلمون في المعركة ولا يدرون، وأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه[٢]، فتصدّق ابنه حُذَيفة بدِيَته على المسلمين، وصيفيّ بن قَيْظيّ وخُباب بن قيظيّ، وعَبّاد بن سَهْل، والحارث بن أوس بن مُعاذ.

ومن أهل راتِج[٣] ثلاثة نفر، وهم: إياس بن أوس بن عَتِيك، وعُبيد بن التَّيهان، ويقال: عتيك بن التيّهان، وحبيب بن زيد بن تَيْم. ومن بني ظَفَر: يزيد بن حاطب بن أميّة بن رافع، ومن بني عمرو بن عوف، رجلان، وهما: أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد، وحنظلة بن أبي عامر بن صيفيّ بن النعمان، وهو غَسِيل الملائكة، وكان قد اْلتقى هو وأبو سفيان، فلما استعلاه حنظلة رآه شدّاد بن الأسود فقتله، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم لتغسله الملائكة، فسألوا أهله: ما شأنه؟ فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جُنب حين سمع الهاتفة، فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسّلته الملائكة. وقال شدّاد بن الأسود حين قتل حنظلة: [من الرجز]

لأَحمِينّ صاحبي ونفسي بطَعنة مثل شُعاع الشمس

ومن بني عبيد بن زيد[٤]: أُنَيس بن قتادة. ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عوف رجلان، وهما: أبو حية بن عمرو بن ثابت، وعبد الله بن جُبير بن النّعمان، وهو أمير الرّماة. ومن بني السَّلْم بن امرىء القيس بن مالك: خَيْثَمة أبو سعد بن خيثمة. ومن حلفائهم من بني العَجْلان: عبد الله بن سَلمة. ومن بني معاوية بن مالك رجلان، وهما سُبَيع بن حاطب بن الحارث، ويقال: سُوَيبِق[٥] بن الحارث. ومالك بن نُمَيلة، حليف لهم من مُزَينة. ومن بني النّجار ثم من بني سواد بن مالك خمسة نفر، وهم: عمرو بن قيس بن زيد بن سواد، وابنه قيس بن عمرو، وثابت بن عمرو بن زيد، وعامر بن مَخْلد، ومالك بن إياس. ومن بني مبذول رجلان، وهما: أبو هُبيرة بن الحارث بن علقمة، وعمرو بن مُطرف بن علقمة. ومن بني عمرو بن مالك بن النجار رجلان،

(١) في الأصل: «الربيع».
(٢) يديه: يدفع ديته.
(٣) راتج: أطم من آطام المدينة (أي حصن).
(٤) في الأصول: «عبد زيد».
(٥) في الأصل: «سويق» وهو تحريف.

وهما: أوْس بن ثابت بن المنذر، وهو أخو حسان وإياس بن عديّ. ومن بني عديّ بن النّجار رجل واحد، وهو: أنس بن النّضْر بن ضَمْضَم بن زيد بن حرام بن جُندب بن عامر بن عديّ بن النجّار، وقد تقدّم خبره. ومن بني مازن بن النّجار رجلان، وهما: قَيْس بن مُخلَّد، وكَيْسان عبد لهم. ومن بني دينار بن النّجار رجلان، وهما: سُلَيم بن الحارث، ونعمان بن عبد عمرو. ومن بني الحارث بن الخزرج ثلاثة نفر، وهم: خارجة بن زيد بن أبي زُهير، وسعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير - حكى محمد بن سعد في طبقاته أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد: مَن رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رَمق[١]، قال الأنصارِيّ: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغْ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنا خير ما جزى نَبيًا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيّكم وفيكم عين تَطرِف[٢]. قال الأنصاريّ: ثم لم أبرح حتى مات، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته خبره، وأوْس بن الأرقم بن زيد. ومن بني الأبْجر، وهم بنو خُدْرة، ثلاثة نفر، وهم: مالك بن سنان بن عُبيد بن ثعلبة بن عبد [بن][٣] الأبجر، وهو أبو أبي سعيد الخُدريّ، وسعيد بن سُوَيْد بن قيْس بن عامر بن عبّاد بن الأبجر، وعُتبة بن ربيع بن رافع بن معاوية. ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج رجلان، وهما: ثعْلبة بن سعد بن مالك بن خالد، وثقيف بن فروة بن البديّ. ومن بني طَرِيف، رهْط سعد بن عُبادة رجلان، وهما: عبد الله بن عمرو بن وَهب، وضمْرة حليف لهم من جُهينة. ومن بني عوف بن الخزرج خمسة نفر، وهم: نوفل بن عبد الله، وعبّاس بن عُبادة بن نَضلة، ونعمان بن مالك بن ثعلبة، والمُجذَّر بن زياد، حليف لهم من بَلِيّ، وعُبادة بن الحَسْحاس. ومن بني الحبْلى: رفاعة بن عمرو. ومن بني سَلمة ثم من بني حرام أربعة نفر، وهم: عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجَموح بن زيد بن حرام، وخلّاد بن عمرو بن الجموح، وأبو أَيْمن مولى عمرو بن الجموح. ومن بني سَواد بن غَنم ثلاثة نفر، وهم: سُليم بن عمرو بن حديدة، ومولاه عنترة، وسهل[٤] بن قَيس بن أبي كعب بن القين.

(١) الرمق: بقية الروح.
(٢) تطرف: تطبق أحد جفنيها على الآخر.
(٣) الزيادة من ابن هشام، وفي أسد الغابة والاستيعاب: «عبيد بن الأبجر».
(٤) في الأصول: «سهيل».

ومن بني زُرَيق بن عامر رجلان، وهما: ذَكوان[١] بن عبد قَيس، وعُبيد بن المعلّى بن لَوْذان. ومن بني خَطْمة من الأوس: الحارث بن عَديّ بن خَرَشة بن أمية، ومن بني سالم بن عوف: عمرو بن إِياس.

ذكرُ تسميةِ من قُتل من المشركين يوم أُحد

قُتل من المشركين يوم أحد اثنان وعشرون رجلاً: من بني عبد الدار بن قصيّ أحد عشر رجلاً ـ وهم أصحاب اللواء ـ طلحة بن أبي طلحة، قتله علي بن أبي طالب، وأبو سعيد بن أبي طلحة، قتله سعد بن أبي وقّاص، ويقال: علي. وعثمان بن أبي طلحة، قتله حمزة بن عبد المطلب، ومسافع بن طلحة بن أبي طلحة، قتله عاصم بن ثابت بسهم، والجِلاَس بن طلحة، قتله عاصم أيضاً كما تقدّم، وكِلاَب بن طلحة والحارث بن طلحة، قتلهما قُزمان حليف لبني ظَفَر، وأَرْطاة بن عبد بن شُرَحْبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، قتله حمزة، ويقال: قتله علي، وأبو زيد[٢] بن عمير بن هاشم، قتله قزمان، وصؤاب غلام لهم حبشيّ، قتله قزمان، والقاسط بن شُريح بن هاشم، قتله قزمان. ومن بني أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ: عبد الله بن حُميد بن زُهير بن الحارث بن أسد: قتله علي بن أبي طالب. ومن بني زُهْرة بن كِلاب رجلان، وهما: أبو الحكم بن الأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف لهم، قتله علي بن أبي طالب، وسِبَاع بن عبد العُزّى ـ واسم عبد العزى عمرو بن نضلة بن غُبْشان ـ حليف لهم من خزاعة، قتله حمزة كما تقدم. ومن بني مخزوم أربعة نفر، وهم: هشام بن أبي أمية بن المغيرة، قتله قزمان، والوليد بن العاص بن المغيرة، قتله قزمان أيضاً، وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله علي بن أبي طالب، وخالد بن الأعلم حليف لهم، قتله قزمان. ومن بني جُمَح رجلان، وهما: عمرو بن عبد الله بن عُمير بن وهب بن حذافة بن جمح، وهو أبو عزّة، قتله رسول الله ﷺ صبراً ـ وكان قد أسر يوم بدر، فمن عليه رسول الله ﷺ وأطلقه كما ذكرنا، فقال: لا أكثر عليك جمعاً؛ فلم يف، وخرج يوم أحد مع المشركين فأُسر، ولم يؤسر يومئذٍ غيره، فقال: مُنَّ عليّ يا محمد؛ فقال رسول الله ﷺ: إن المؤمن لا يُلدَغ من جحر مرتين، لا ترجع إلى مكة تمسح عارِضَيْك، تقول: سحرت[٣] محمداً مرتين، ثم أمر عاصم بن ثابت ابن الأقلح فضرب عنقه ـ وأُبيّ بن خلف بن حذافة بن جُمح، قتله

(١) في الأصول: «عامر بن ذكوان».
(٢) كذا في الأصول. وفي ابن هشام: «أبو يزيد».
(٣) في الطبقات: «سخرت بمحمد».

رسول الله ﷺ بيده كما تقدم، ومن بني عامر بن لؤي رجلان، وهما: عبيدة[١] بن جابر وشَيْبة بن مالك بن المُضرّب، قتلهما قُزمان، ويقال: قتل[٢] عبيدة بن جابر عبدُ الله بن مسعود.

قال محمد بن سعد في طبقاته: ثم انصرف رسول الله ﷺ يومئذٍ من أُحد، فصلى المغرب بالمدينة، وشَمِت عبد الله بن أبيّ بن سَلول والمنافقون بما نيل من رسول الله ﷺ في نفسه وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: لن ينالوا منّا مثلَ هذا اليوم حتى نستلم الرُّكْن. قال: وبكت الأنصار على قتلاهم، فسمع رسول الله ﷺ البكاء فبكى، وقال: لكنّ حمزةَ لا بواكي له، فلما رجع سعد بن مُعاذ وأُسيد بن حُضَير إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتَحزَّمْن، ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ، فلما سع رسول الله ﷺ بكاءهنَّ على حمزة خرج عليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكين، فقال: ارجعْن يرحمكنّ الله، فقد آسيتُنّ بأنفسكن ونهى رسول الله ﷺ يومئذٍ عن النوْح.

ورُوي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخواها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أَرُونيه حتى أنظر إليه؛ قال: فأشِير لها إليه ﷺ؛ حتى إذا رأته قالت: كل مُصيبة بعدك جَلَل؛ رضي الله عنها.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت فاطمة ـ رضي الله عنه ـ تغسلُ جُرحه؛ وعليّ يسكب الماء عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدّم إلا كثرة، عَمدت إلى قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقت ذلك على الجُرح فاستمسك الدّم، ولم يبت رسول الله ﷺ بالمدينة إلا تلك الليلة، ثم أصبح فخرج في طلب العدوّ إلى حمراء الأسد، على ما نذكره إن شاء الله.

ولنصل غزوة أحد بتفسير ما أنزل الله تعالى فيها من القرآن.

ذكر ما أُنزل على رسول الله ﷺ من القرآن في غزوة أحد، وما ورد في تفسير ذلك

قال محمد بن إسحاق، رحمه الله: وكان مما أنزل الله تعالى في غزوة أحد من القرآن ستون آية من سورة آل عمران، أول ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ

(١) كذا في سيرة ابن هشام. وفي الأصول: «عبيد».

(٢) في الأصول: «قتل عبيدة بن جابر بن عبد الله بن مسعود» وما أثبت رواية ابن هشام.

تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾(١) [آل عمران: ١٢١].

قال أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ـ رحمه الله ـ في تفسير المترجم بالكشف والبيان عن تفسير القرآن: إن المشركين أقاموا بأحد يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وذكر نحو ما قدمناه من خروج رسول الله ﷺ ليلة السبت للنصف من شوّال، وأنه ﷺ جعل يَصفُّ أصحابَه للقتال كما يقوِّمُ القِدْح، إذا رأى صدراً خارجاً قال: تأخر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢] تفشلا، أي تَجبُنا وتَضعُفا وتتخلّفا عن رسول الله ﷺ، وهما بنو سلمة بن الخزرج، وبنو حارثة بن الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن عبد الله بن أبيّ ابن سلول(٢) لما انخزل بثلث الناس كما قدمنا وقال هو ومن وافقه من أصحابه: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾؛ همَّ بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف معه، فعصمهم الله تعالى فلم ينصرفوا، ومضوا مع رسول الله ﷺ، فذكّرهم الله تعالى عظيم نعمته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي ناصرهما وحافظهما ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم ذكّرهم الله مِنّته عليهم إذ نصرهم ببدر، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾، «لِيَقْطَعَ طَرَفاً» أي يهلك طائفة «أَو يَكْبِتَهُمْ» أي يهزمهم «فينقلبوا خائبين» أي لم ينالوا شيئاً مما كانوا يرجون من الظفر بكم.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨].

اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية، فقال عبد الله بن مسعود: أراد رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين عنه من أصحابه يوم أحد، وكان عثمان بن عفان منهم، فنَهاه الله تعالى عن ذلك، وتابَ عليهم، وأنزل هذه الآية. وقال عِكرمة(٣)،

---

(١) تبوىء المؤمنين: تتخذ لهم مقاعد ومنازل.

(٢) في الأصل: «ابن سلام»، وهو خطأ، إذ أن الذي انخزل بثلث الناس هو عبد الله بن أبي ابن سلول، وأما عبد الله بن سلام فهو بريء من ذلك. راجع تاريخه في الاستيعاب: ١: ٣٩٥.

(٣) عكرمة: عكرمة بن عبد الله البربري، المدني، أبو عبد الله (٢٥ ـ ١٠٥ هـ = ٦٤٥ ـ ٧٢٣ م) مولى عبد الله بن عباس: تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. خرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه أهلها رأي «الصفرية» وعاد إلى المدينة، فطلبه أميرها، فتغيب عنه حتى مات. وكانت وفاته بالمدينة. (الأعلام: ٤: ٢٤٤).

وقَتادة[(١)]، ومِقْسَم: أدمى رجلٌ من هُذيل يقال له: عبد الله بن قمئة وجه رسول الله ﷺ يوم أحد، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فكان حتفه أنْ سّلط الله عليه تَيْساً فنطحه حتى قتله، وشَجَّ عُتبة بن أبي وقاص رأسَه وكسر رَبَاعيته ﷺ، فدعا عليه وقال: اللهم لا يَحل عليه الحَوْل حتى يموت كافراً قال: فما حال الحول حتى مات كافراً فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية. وقال الربيع والكلبيّ: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم أحد، وقد شُجَّ في وجهه وأُصِيبت رَباعيتُه، فهمّ رسول الله ﷺ أن يَلعَن المشركين ويدعوَ عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، لعلمه فيهم أن كثيراً منهم سيُؤْمِنون.

قولهُ تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ قِيل: أمثال. وقيل: أُمَم. والسُّنَّة الأُمّة، قال الشاعر: [من الشاعر]

ما عايَن الناسُ من فضلٍ كفضْلِهِمُ ... ولا رأَوْا مثلَهم في سالِف السُّنَنِ

وقيل: أهل سُنَن؛ وقيل: أهل شرائع؛ قال: معنى الآية: قد مضت وسَلَفت منّي فيمن قبلكم من الأمم الماضية المكذبة الكافرة سُنَنٌ بإمهالي واستدراجي إيّاهم حتى بلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلت ـ لإِدَالة[(٢)] أنبيائي ـ وأهلكْتهم. ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] أي منهم، فأنا أُمهلهم وأَستدرجهم حتى يبلغ الكتابُ أجلي الذي أجلت في نُصرة النبيّ وأوليائه وهَلاك أعدائه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] قال: هذه الآية تعزية من الله تعالى لنبيّه ﷺ وللمؤمنين على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد، وحثٌّ منه إيّاهم على قتال عدوّهم، ونَهْيٌ عن العَجْز والفشل، فقال تعالى: «ولا تَهِنُوا» أي لا تضعفوا ولا تجبنوا من جهاد أعدائكم بما نالكم يوم أحد من القتل والقَرْح. «وَلاَ تَحْزَنُوا» على ظهور أعدائكم ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة «وأَنْتُمُ الأَعْلَونَ» أي لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر «إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي جرح يوم أُحد فقد مَسَّ القومَ جرح مثله يوم بدر. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] يعني إنما كانت هذه المداولة ليرى الله الذين آمنوا ـ يعني منكم ـ ممن نافَق، فيميز بعضَهم من بعض.

---

(١) قتادة: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطاب، السدوسي البصري (٦١ ـ ١١٨ هـ = ٦٨٠ ـ ٧٣٦ م) مفسر، حافظ، ضرير أكمه. (الأعلام: ٥: ١٨٨).

(٢) الإدالة: الغلبة والنصرة، أي غلبة أنبيائي ونصرتهم.

وقيل: المعنى: «ولِيعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» بأفعالهم موجودة كما عَلِمها منهم قبل أن كلّفهم، «وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ» يُكرِمُ أقواماً بالشهادة، وذلك أن المسلمين قالوا: أرِنا يوماً كيوم بدرٍ نقاتل فيه المشركين ونلتمس الشهادة. فلقُوا المشركين يوم أُحُد، فاتخذ اللَّهُ منهم شهداء.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤١] يعني يطهّر الذين آمنوا من ذنوبهم «ويَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» يفنيهم ويهلكهم وينقصهم. ثم عزّاهم الله تعالى فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وذلك أنه لما قَتل عبدُ الله بن قمئةُ مصعبَ بن عُمير، وصرخ صارخ - يقال: هو إبليس، لعنه الله - ألا إن محمداً قد قُتل. وانهزم الناس، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبَيّ فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وجلس بعض الصحابة وألقوا بأيديهم. وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمد قد قُتل فالحقوا بدينكم الأوّل، فقال أنس بن النضر: يا قوم، إن كان قد قُتِل محمد فإن ربّ محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ فقاتلوا على ما قاتَل عليه، ومُوتوا على ما مات عليه؛ ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المنافقين - ثم قاتل حتى قُتل. ثم إنّ رسول الله ﷺ انطلق إلى الصخرة، وهو يدعو الناس، فانحدر إليه طائفة من أصحابه، فلامهم ﷺ على الفرار، فقالوا: يا نبيّ الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قُتلت فرُعِبت قلوبنا فوليّنا مدبرين. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ أي على فراشه ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي رجعتم إلى دينكم الأوّل الكفر ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فيرتدّ عن دينه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده، وإنما يضرّ نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦] قيل: الربِّيُّون الألوف والرُّبّة[1] الواحدة عشرة آلاف. وقيل: الربِّيون العلماء والفقهاء. وقيل: الأتباع. وقيل:

---

(١) الرُّبة: كذا في لسان العرب. وفي الأصل: «الربية». ولم نعثر في المراجع التي بأيدينا على هذا اللفظ بهذا المعنى. وفي القرطبي: ٤: ٢٤٠. عن أبان بن ثعلب: «الربى عشرة آلاف» وعليه فربيون جمع ربي.

الرّبانيون الوُلاة، والربِّيون الرعِيّة. وقيل: الرِّبِّيون الذين يعبدون الرَّب تعالى. قال: ومعنى الآية، فما ضَعفُوا عن الجهاد ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لما نالهم من الجراح وقتل الأصحاب، وما عجزوا بقتل نبيهم ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ قال قتادة والربيع: يعني ما ارتدوا عن بصيرتِهم[1] ودينهم، ولكنهم قاتلوا على ما قاتل عليه نبيُّهم حتى لحقوا بالله تعالى. قال السُّدّي: وما ذَلُّوا. وقال عطاء: وما تضرّعوا. وقال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوّهم، ولكنهم صبروا على ما أمر ربّهم، وطاعة نبيّهم، وجهاد عدوّهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ قال: معنى الآية ﴿قَوْلَهُمْ﴾ عند قتل نبيهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ يعني خطايانا ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ لئلا تزول ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني النصر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الجنة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال عليّ رضي الله عنه: يعني المنافقين في قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى إخوانِكم، وادخلوا في دِينكم. ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي ترجعوا إلى أوّلِ أمركم الشّرك ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] أي فتصيروا مغبونين ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي ناصركم وحافظكم على دِينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ قال السدِّي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحدٍ متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق ثم إنهم ندموا، وقالوا: بئس ما صنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشّريد تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب، حتى رجعوا عما همّوا به، فأنزل الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ يعني الخوف ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي حجة وبياناً وعذراً وبرهاناً، ثم أخبر الله تعالى عن مصيرهم، فقال: ﴿ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١] أي مقام الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ قال محمد بن كعب القرظِيّ[2]: لما

(١) وفي تفسير الطبري عن قتادة والربيع: «نصرتهم».

(٢) محمد بن كعب: محمد بن كعب بن سليم القرظي، تابعي، مقرىء، في تحديد وفاته خلاف. انظر طبقات القراءة: ٢: ٢٣٣.

رجع رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وقد أصابهم ما أصابهم بأحدٍ قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي الذي وعد بالنصر والظفر، وهو قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الآية. وقول رسول الله ﷺ للرّماة: «لا تبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم» وقوله [تعالى][1]: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً شديداً، وذلك عند هزيمتهم كما تقدّم. قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ «فَشِلتُم»: أي جبنتم وضعفتم «وتَنَازَعْتُم» أي اختلفتم. وهو ما وقع بين الرّماة، ونزول أكثرهم لتحصيل الغنيمة كما تقدّم، فكانت الهزيمة بسبب ذلك، قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهو الظفر والغنيمة، قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني الذين ثبتوا مع عبد الله بن جُبير أمير الرماة حتى قتلوا. قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي ردّكم عنهم بالهزيمة ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ يعني ولقد عفا عنكم إذ تصعدون هاربين ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾. ثم رجع إلى الخطاب، فقال: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ قال يقال: أصعَدَت إذا مضيت حِيال وجهك، وصعِدت إذا ارتقيت في جبل أو غيره، والإصعاد: السير في مستوى الأرض وبطون الأودية والشّعاب، والصعود: الارتفاع على الجبال وغيرها. وقال المبرد: أصعَد إذا أبعد في الذهاب. قال الشاعر: [من الطويل]

ألا أيّهذا السائِلي أين أصعَدت[2] فإن لها في أهل يثربَ موعِدا

وقال الفرّاء: الإصعاد الابتداء في كل سفرٍ، والانحدار الرجوع منه. وقوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ يعني لا تعرجون ولا تقيمون على أحد منكم، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض هرباً وفراراً، قال الكلبي: ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ يعني محمداً ﷺ. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ يعني في آخركم ومن ورائكم: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، فأنا رسول الله، من يكرّ فله الجنة. ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾ أي فجازاكم؛ جعل الإثابة بمعنى العقاب، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ معنى الآية: أي جعل مكان الثواب الذي كنتم ترجون ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ قال الحسن: يعني بغمّ المشركين يوم بدر. وقال

---

(١) زيادة للإيضاح.

(٢) هذا البيت من قصيدة لأعشى قيس. وفي ديوانه: «أين يممت».

غيره: غماً على غمّ. وقيل: غماً متصلاً بغم، فالغم الأوّل ما فاتهم من الغنيمة والظفر، والغم الثاني ما نالهم من القتل والهزيمة. وقيل: الغم الأوّل ما أصابهم من القتل والجراح، والغم الثاني ما سمعوا أن محمداً ﷺ قد قتل، فأنساهم الغمّ الأوّل، وقيل: غير هذه الأقوال. والله أعلم. قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي من الفتح والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ من القتل والهزيمة؛ هذا أنساكم ذلك الغمّ، وهَمَّكُم ما أنتم فيه عما كان قد أصابكم قبل. وقال: المفضّل: «لا» صلة، معناه: لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبة لكم في خلافكم إياه، وترككم المركز ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

رُوي عن عبد الله بن الزبير[١] عن أبيه، رضي الله عنهما، قال: لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتدّ الخوف علينا أرسل الله تعالى علينا النوم، والله إنّي لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير والنُّعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحُلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا، فأنزل الله عز وجلّ الآية. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. أَمنهم يومئذٍ بنعاسٍ يغشاهم بعد خوف، وإنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام. وعن أنس[٢] عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أُحد ما أرى أحداً من القوم إلا وهو يَميد تحت حَجَفَته[٣] من النعاس. قال أبو طلحة: وكنت ممن ألقى الله تعالى عليه النعاس يومئذٍ، فكان السيف يسقط من يدي فآخذه، ثم يسقط السوط من يدي فآخذه من النوم. ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ يعني المنافقين معتب بن قُشير وأصحابه ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ

(١) عبد الله بن الزبير: (١ - ٧٣هـ = ٦٢٢ - ٦٩٢ م) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو بكر، فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة. بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ. فجعل قاعدة ملكه المدينة. وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة. انتهت بمقتل ابن الزبير بمكة. (الأعلام: ٤ : ٨٧).

(٢) أنس بن مالك: (١٠ - ٩٣ هـ = ٦١٢ - ٧١٢ م) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة أو أبو حمزة: صاحب رسول الله ﷺ. مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم رسول الله ﷺ إلى أن قبض. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. (الأعلام: ٢ : ٢٤).

(٣) الحَجَفَة: الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب.

﴿أَنفُسُهُمْ﴾ أي حملتهم على الهمّ ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا ينصر محمداً، وقيل: ظنوا أن محمداً ﷺ قد قتل. ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي كظن أهل الجاهلية والشّرك ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾ أي ما لنا، لفظة استفهام ومعناه جَحْد ﴿مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ يعني التّصرف ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وذلك أن المنافقين قال بعضُهم لبعض: لو كانت لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة، ولم يُقتل رؤساؤنا، فذلك قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ أي لخرج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي مصارعهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ أي ليختبر الله ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ﴾ أي يخرج ويظهر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما في القلوب من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ أي انهزموا منكم يا معشر المؤمنين ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي حملهم على الزّلل. وقال الكلبي: زين لهم أعمالهم ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أي بشؤم ذنوبهم. قال المفسرون: بتركهم المركز. وقال الحسن: بما كسبوا قبولهم من إبليس ما وسوس إليهم من الهزيمة. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النفاق، وقيل: في النسب. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ساروا وسافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ غُزاة فقتلوا ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ يعني قولهم وظنّهم ﴿حَسْرَةً﴾ وحزناً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والحسرة: الاغتمامُ على فائت كان يُقْدَر بلوغُه.

قال الشاعر: [من الطويل]

فوا حسرتي لم أقض مِنك لُبَانتِي ولم نتمتّع بالجوار وبالقُرب

ثم أخبر تعالى أن الموت والحياة إلى الله سبحانه، لا يتقدّمان لسفر ولا يتأخران لحضر فقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي في العاقبة ﴿وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧] أي من الغنائم ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٥٨] أي في العاقبة.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي سهلت لهم أخلاقك، وكثرة احتمالك فلم تسرع إليهم فيما كان منهم يوم أحد ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ أي جافياً سَيِّئ الخلق قليل الاحتمال. ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قال الكلبي: فظًّا في القول، غليظ القلب في

الفعل ﴿لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لتفرّقوا عنك، وأصل الفضّ الكسر، ومنه قولهم: لا يَفْضُض الله فَاكَ. قال أهل الإشارة في هذه الآية: منه العطاء ومنه الثناء[1] ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي عمّا أتوا يوم أحد ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ حتى أشفعك فيهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم، وهو مأخوذ من قول العرب: شُرْت الدابّة وشَوْرتُها إذا استخرجْت جريَها، وعلمت خبرَها، قال: ومعنى الآية وشاوِرهم فيما ليس عندك فيه من الله عهد، ويدل عليه قراءة ابن عباس «وشَاوِرْهُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ». قال الكلبي[2]: يعني فأظهرهم في لِقاء العدوّ، ومُكايدَة الحرب عند الغزوة. رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: «وشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ» قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يُشاوروا في الأمر شقّ عليهم، فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يشاورهم في الأمر، فإذا ذلك أعطف لهم عليه، وأذهب لأضغانهم، وأطيب لأنفسهم، فإذا شاورهم عليه السلام عرفوا إكرامه لهم. قال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا على مشاورتهم. وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد: «فَإِذَا عزمْتُ» بضم التاء، أي عزمتُ لك ووفقتك وأرشدتك فتوكّل على الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ أي يعنكم ويمنعكم من عدوّكم ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ مثل يوم بدر ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي يترككم ولا ينصركم. والخذلان القعود عن النصر، والإسلام[3] للهلكة والمكروه، قال: وقرأ عبيد بن عمير «وإن يُخْذِلكم» بضم الياء وكسر الذال، أي يجعلكم مخذولين، ويحملكم على الخذلان والتخاذل، كما فعلتم بأحدٍ ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ أي بعد خِذلانه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي بأُحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ ببدرٍ؛ وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحدٍ سبعين رجلاً، وقتل المسلمون منهم يوم بدرٍ سبعين، وأسروا سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي من أين لنا هذا القتل والهزيمة، ونحن مسلمون، ورسول الله ﷺ فينا، والوحي ينزل عليه، وهم مشركون؟ وقد تقدّم في قصة أسارى بدرٍ خبر التخيير قتلهم أو مفاداتهم، ويقتل منهم مثلهم في العام القابل، واختيارُهم الفداء، وذلك قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي بأخذكم الفداء واختياركم

---

(١) المعنى: أن الله تعالى هو الذي أعطى رسوله الرحمة، وهو الذي مدحه بها.

(٢) الكلبي: هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن الكلبي النسابة الكوفي المتوفى سنة ٢٠٤ على خلاف، انظر: وفيات الأعيان: ٣: ٢٥٨، والأعلام: ٨: ٨٧.

(٣) الإسلام: من أسلمه إذا ألقاه في الهلكة.

القتل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي بأحدٍ من القتل والجرح والهزيمة والمصيبة ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي بقضائه وقدره وعلمه ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ أي ليميز، وقيل: ليرى. وقيل: لتعلموا أنتم أن الله قد علم نفاقهم، وأنتم لم تكونوا تعلمون ذلك. ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لأجل دين الله وطاعته ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ أي عن أهلكم وبلدكم وحريمكم، وقيل: أي كثّروا سَواد المسلمين ورابطوا إن لم تقاتلوا، ليكون ذلك دفعاً وقمعاً للعدوّ ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ وهو قول عبد الله بن أبيّ وأصحابه الذين ٱنصرفوا معه، كما تقدّم من خبرهم عند ٱتباع عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة لهم ومناشدته لهم في الرجوع. قال الله تعالى: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ وذلك أنهم كانوا يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، فبين الله تعالى نفاقهم ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ـ ١٦٧].

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ قيل: في النسب لا في الدين، وهم شهداء أحد ﴿وَقَعَدُواْ﴾ يعني وقعد هؤلاء القائلون عن الجهاد ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ وانصرفوا عن محمد، وقعدوا في بيوتهم ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾ قال تعالى: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾ أي فادفعوا ﴿عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] أن الحذر يغني عن القدر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ـ ١٧١]. روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: لما أُصيب إخوانُكم يوم أحدٍ جعل الله أرواحهم في أجوافِ طيور خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتسرح من الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش، فلما رأَوا طيب مَقيلهم[1] ومطعمِهم ومشربِهم، ورأوا ما أعدّ الله لهم من الكرامة، قالوا: يا ليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم، وما صنع الله عز وجل بنا، كي يرغبوا في الجهاد ولا ينكُلوا عنه. فقال عز وجل: أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم. ففرحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيات، إلى قوله ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وقال قتادة والربيع: ذُكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: يا ليتنا

(١) مقيلهم: إقامتهم.

نعلم ما فعل إخواننا الذين قتلوا بأحدٍ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعن مسروق[١] قال: سألنا عبد الله بن مسعود[٢] عن هذه الآية فقال: جعل الله تعالى أرواح شهداء أحد في أجواف طير خُضْر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، فاطّلع الله عز وجل إليهم اطّلاعةً فقال: هل تشتهون شيئاً فأزيدكموه؟ قالوا: ربنا، ألسنا نسرح في الجنة في أيها شئنا؛ ثم اطلع إليهم الثانية، فقال: هل تشتهون من شيء فأزيدكموه؟ فقالوا: ربنا، ألسنا نسرح في الجنة في أيها شئنا؛ ثم اطلع إليهم الثالثة، فقال: هل تشتهون من شيء فأزيدكموه؟ فقالوا: ليس فوق ما أعطيتنا شيء إلا أنا نُحب أن تعيدنا أحياء، ونرجع إلى الدنيا فنقاتل في سبيلك، فنقتل مرة أخرى فيك، قال: لا؛ قالوا: فتقرىء نبيّنا منا السلام، وتخبره بأن قد رضينا، ورُضي عنا؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري[٣] قال: قُتل أبِي يوم أحدٍ، وترك عليّ بناتٍ، فقال لي رسول الله ﷺ: ألا أبشرك يا جابر؟ قلت: بلى يا رسول الله؛ قال: إن أباك حيث أصيب بأحدٍ أحياه الله تعالى وكلّمه كِفاحاً[٤]؛ فقال: يا عبد الله سلني ما شئت؛ فقال: أسألك أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانياً؛ فقال: يا عبد الله، إني قضيت ألا أُعيد إلى الدنيا خليقة قبضتها؛ قال: يا رب، فمن يبلغ قومي ما أنا فيه من الكرامة؟ قال: الله تعالى: أنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في أصحاب بئر معُونة؛ وقيل: في شهداء بدرٍ. والأحاديث الواردة والأخبار تدل على أنها في شهداء أحد، والله أعلم.

---

(١) مسروق: مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة (. . . ـ ٦٣ هـ = . . . ـ ٦٨٣ م) تابعي، ثقة، من أهل اليمن. قدم المدينة في أيام أبي بكر. وسكن الكوفة. وشهد حروب علي. (الأعلام: ٧: ٢١٥).

(٢) عبد الله بن مسعود: (. . . ـ ٣٢هـ = . . . ـ ٦٥٣ م) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمٰن، صحابي من أكابرهم. وهو من أهل مكة. وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة وكان خادم رسول الله ﷺ الأمين وصاحب سره. قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً. (الأعلام: ٤: ١٣٧).

(٣) جابر بن عبد الله الأنصاري: (١٦ ق هـ ـ ٧٨ هـ = ٦٠٧ ـ ٦٩٧ م) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي: صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ. غزا تسع عشرة غزوة وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. (الأعلام: ٢: ١٠٤).

(٤) كفاحاً: مواجهة، ليس بينهما حجاب ولا رسول.

ذكر غزوة حمراء الأَسَد(١)

غزاها رسول الله ﷺ عند منصَرفه من أحد، قال ابن سعد: لثمان خلون من شوّال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مُهاجَرِه. وقال ابن إسحاق: كانت يوم الأحد لست عشرة خلت من شوّال. وهذا الخلاف مرتب على ما تقدّم في غزوة أُحد.

قال ابن سعد وغيره: لما انصرف رسول الله ﷺ من أحد مساء يوم السبت بات تلك الليلة على بابه ناس من وجوه الأنصار، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم، فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأَحد أمر بلالاً(٢) أن ينادي أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوّكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس. فقال جابر بن عبد الله: إن أبي خلفني يوم أحد على أخوات لي، فلم أشهد الحرب، فأذن لي أسير معك؛ فأذِن له، فلم يخرج معه أحد ممن لم يشهد أُحداً غيره. ودعا رسول الله ﷺ بلوائه، وهو معقود لم يحلّ، فدفعه إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، ويقال: إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. وخرج رسول الله ﷺ، وهو مجروح، وحشد(٣) أهلُ العوالي حيث أتاهم الصّريح، فركب رسول الله ﷺ فرسه وخرج الناس معه، فبعث ثلاثة نفر من أَسلمَ طَليعةً في آثار القوم، فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد ـ وهي من المدينة على عشرة أميال ـ وهم يأتمرون بالرجوع، وصفوان بن أميّة ينهاهم عن ذلك، فبصرُوا بالرجلين، فقطعوا عليهما فقتلوهما، ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكر بحمراء الأسد، فدفن الرجلين في قبرٍ واحد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليلة خمسمائة نارٍ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجهٍ، فكَبت الله تعالى عدوّهم، وانصرف رسول الله ﷺ، إلى المدينة فدخلها يوم الجمعة، وقد غاب خمس ليالٍ، وكان قد استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

وقال محمد بن إسحاق، ورفع الحديث إلى أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان: إن رجلاً من بني عبد الأشهل قال: شهدت أُحُداً مع رسول الله ﷺ، أنا وأخ

---

(١) كذا ضبط في الأصل، والقاموس، والطبري، وطبقات ابن سعد وفي معجم البلدان: «حمراء الأُسْد» بضم الهمزة، وسكون السين.

(٢) بلال الحبشي: (. . . ـ ٢٠ هـ = . . . ـ ٦٤١ م) بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله، مؤذن الرسول ﷺ وخازنه على بيت ماله. من مولدي السراة، وأحد السابقين إلى الإسلام. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال، ولم يؤذن بعد ذلك. توفي في دمشق. (الأعلام: ٢: ٧٣).

(٣) حشد أهل العوالي: أجابوا مسرعين.

لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدوّ، قلت لأخي، وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ ما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكان إذا غُلب حملته عُقبة[1] ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

قال: وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] هم الذين ساروا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، على ما بهم من ألم الجراح إلى قوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

ذكر سريّة أبي سَلمة بن عبد الأسد المخزومي

بعثه رسول الله ﷺ إلى قطَن ـ وهو جبل بناحية فَيْد به ماء لبني أسد بن خُزيمة ـ في هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من مُهاجَرِه.

وذلك أنه بلغه ﷺ أن طُليحة وسلَمة ابني خُوَيلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوانهم إلى حرب رسول الله ﷺ، فبعث أبا سلمة وعقَد له لِواء، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فأصابوا إبِلاً وشاء[2]، ولم يلقوا كيداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة.

ذكر سريّة عبد الله بن أُنَيس[3] إلى سُفيان بن خالد الهذَلي

بعثه رسول الله ﷺ، فخرج من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة.

وذلك أنه بلغ النبيّ ﷺ، أن سُفيان بن خالد بن نُبَيح الهذَليّ ثم اللِّحياني ـ هكذا سماه محمد بن سعد في طبقاته.

وقال ابن إسحاق: خالد بن سُفيان بن نُبَيْح قد جمعَ الجموعَ لرسول الله ﷺ، فبعث إليه عبد الله بن أنيس وحدَه فقتله وجاء برأسه. وكانت غيبته ثماني عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم. قاله ابن سعد.

---

(١) عُقبة: نوبة.

(٢) شاء: جمع شاة. الكيد: الحرب.

(٣) عبد الله بن أنيس: (. . . ـ ٥٤هـ = . . . ـ ٦٧٤ م) عبد الله بن أنيس، أبو يحيى، من بني وبرة، من قضاعة، ويعرف بالجهني. صحابي من أهل المدينة. صلى إلى القبلتين، وشهد العقبة، رحل إلى مصر، وإفريقية، وتوفي بالشام. (الأعلام: ٤: ٧٣).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قال عبد الله بن أنيس: دعاني رسول الله ﷺ فقال: إنه قد بلغني أن ابن سفيان الهذليّ جمع الناس ليغزوني وهو بنخلة أو بِعُرَنَة[١] فأتِه فاقتله. فقلت: يا رسول الله انْعَته لي حتى أعرفه؛ قال: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة. قال: فخرجت متوشحاً بسيفي، حتى دفعت إليه، وهو في ظُعن يرتاد لهن منزلاً، وذلك وقت العصر، فلما رأيته وجدت له ما قال رسول الله ﷺ، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه، أُومىء برأسي، فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك. قال: أجل، أنا في ذلك. قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف فقتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مُنْكَبّات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ، قال: أفلح الوجه، قلت: قد قتلته؛ قال: صدقت. ثم قام بي فأدخلني بيته فأعطاني عصاً، فقال: أمسك هذه العصا عندك. قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها عندي؛ فقالوا: أفلا ترجع إليه فتسأله لِمَ ذلك؟ قال: فرجعت إليه فقلت: يا رسول الله، لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصّرون[٢] يومئذٍ، قال: فَقَرنها عبد الله بن أنيس بسيفه، فلم تزل معه حتى مات، ثم أمر بها فضُمَّت في كفنه، ثم دُفِنا جميعاً.

قال ابن هشام: وقال عبد الله بن أنيس في ذلك: [من الطويل]

تـركْـتُ ابـنَ ثـور كـالـحُـوَار وحـوْلَـه ... نـوائـحُ تَـفْـرِي كـلَّ جَـيْـبٍ مُـقـدّدِ[٣]
تـنَـاوَلْـتَـه والـظُّـعْـنُ خـلـفِـي وخـلـفَـه ... بـأبـيـض مـن مـاء الـحـديـد مُـهـنَّـدِ[٤]
عَـجُـومٍ لِـهـامِ الـدّارعـيـنَ كـأنّـه ... شِـهـاب غـضًـى مـن مُـلْـهَـب مُـتـوقِّـدِ[٥]
أقـولُ لـه والـسـيـفُ يـعـجـمُ رأسـه ... أنـا ابـنُ أُنَـيْـس فـارسـاً غـيـرَ قُـعْـدُدِ[٦]

---

(١) عُرنة: قال في المواهب اللدنية: موضع بقرب عرفة أو قرية بوادي عرفة.
(٢) المتخصرون: المتوكئون على المخاصر، وهي العصيّ، واحدتها مخصرة.
(٣) الحوار: ولد الناقة. تفري: تقطع.
(٤) أبيض: سيف. مهند: مطبوع من حديد الهند.
(٥) عجوم: عضوض. الهام: الرؤوس. الشهاب: القطعة من النار. الغضى: شجر خشبه من أجود الوقود.
(٦) القعدد: الجبان اللئيم، القاعد عن المكارم.

أنـا ابنُ الـذي لـم يُـنْـزل الـدهـر قِـدْرَه رحِـيـبُ فِـنـاءِ الـدَّار غـيـرُ مُـزَنَّـدِ(١)
فـقـلـت لـه خُـذْهـا بـضـربـة مـاجـدٍ حنيف على دِين النبيّ محمدِ(٢)
وكـنـتُ إذا هـمّ الـنـبـيّ بـكـافـرٍ سبقتُ إليه بـالـلـسـانِ وبـالـيـدِ(٣)

ذكر سَريّةِ المُنْذر بن عمرو السَّاعِديّ(٤) إلى بئر مَعُونة

كانت في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من مُهاجَرِه.

وذلك أن عامر بن مالك بن جعفر أبو براءٍ ملاعب الأسنة(٥) الكِلابي وفد على رسول الله ﷺ، فأهدى(٦) له فلم يقبل منه، وعرض عليه الإسلام فلم يُسلم، ولم يَبْعُد، وقال: لو بعثتَ معي نفراً من أصحابك إلى قومي لرجوتُ أن يجيبوا دعوتك. قال: أخاف عليهم أهل نجد؛ قال: أنا لهم جار. فبعث معه رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من الأنصار شَبَبَة(٧) يسمون القُرّاء(٨)، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو، فساروا حتى نزلوا بئر مَعُونة ـ وهِي بين أرض بني عامر وحرّة بني سُلَيم. كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرّة بني سُليم أقرب ـ فلما نزلوها سرحوا ظهرهم، وقدّموا حرام بن مِلْحان بكتاب رسول الله ﷺ، إلى عامر بن الطُّفَيل(٩)، فوثب على حرام فقتله؛ واستصرخ

---

(١) المزنّد: الضيق، البخيل.
(٢) الحنيف: الذي مال عن دين الشرك إلى دين الإسلام.
(٣) همَّ بكافر: قرر معاقبته.
(٤) المنذر بن عمرو: (... ـ ٤هـ = ... ـ ٦٢٥ م) المنذر بن عمرو بن خنيس الأنصاري، الخزرجي، الساعدي، أحد نقباء النبي ﷺ الاثني عشر، شهد العقبة وبدراً، واستشهد يوم «بئر معونة». (الأعلام: ٧: ٢٩٤).
(٥) الأسنة: جمع سنان، وهو نصل الرمح، وسمي ملاعب الأسنة لأن أخاه طفيلاً الذي كان يقال له: فارس قرزل، أسلمه وفرَّ في يوم سوبان، وهو يوم كان بين قيس وتميم، فقال شاعر:
فـررت وأسـلـمـت ابـن أمـك عـامـراً يـلاعـب أطراف الـوشـيـج الـمـزعـزع
فسمي ملاعب الرماح، وملاعب الأسنة.
(٦) في رواية أنه أهدى إلى النبي ﷺ فرسين وراحلتين فقال ﷺ لا أقبل هدية مشرك.
(٧) شَبَبَة: شبان.
(٨) سموا القراء لأنهم كانوا أكثر قراءة من غيرهم، وفي شرح المواهب: أنهم كانوا يصلون بعض الليل، ويدرسون بعضه، ويحتطبون، ويبيعون بعضه يشترون به طعاماً لأهل الصفة والفقراء. وبعضه يأتون به الحجر الشريفة.
(٩) عامر بن الطُّفَيل: (٧٠ ق هـ ـ ١١ هـ = ٥٥٤ ـ ٦٣٢ م) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري. فارس قومه، وأحد فتاك العرب، وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، كنيته أبو علي، ولد ونشأ بنجد. أدرك الإسلام شيخاً، فوفد على رسول الله ﷺ وهو في المدينة، بعد فتح مكة، يريد =

عليهم بني عامر فأبَوا، وقالوا: لا نُخفِر[١] جوار أبي براء، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُلَيم، عُصَيَّة ورِعلاً وذَكْوَان، فنفروا معه. واستبطأ المسلمون حراماً، فأقبلوا في أثره، فلقيهم القوم فأحاطوا بهم، وكاثروهم[٢] فاقتتلوا، فقُتل أصحاب رسول الله ﷺ، وفيهم سليم بن مِلحان والحَكَم بن كَيْسان.

قال ابن إسحاق: فقتلوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار فإنهم تركوه، وبه رمق بين القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق. قال: وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضَّمْري، ورجل من الأنصار ـ قال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عُقبة بن أُحَيْحة بن الجُلاَح ـ فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله إن لهذا الطير لشأناً؛ فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، والخيل التي أصابتهم واقفة. فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر؛ قال الأنصاري: ما كانت لأرغب بنفسي عن موطن قتِل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل القوم حتى قُتِل، وأُخذ عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزّ ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمّه.

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة[٣] من صدر قناة[٤] أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه، وكان معهما عَقْد من رسول الله ﷺ وجِوار لم يعلم به عمرو، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤرة من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ.

قال محمد بن سعد: وقدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ، فأخبره بقتل أصحاب بئر معونة، فقال ﷺ: «أُبَت من بينهم»! ثم أخبره بقتل العامريين، فقال: «بئس ما صنعت، قد كان لهما مني أمان وجوار، لأَدِيَنَّهما»! وبعث بدِيّتهما إلى قومهما، وقنت رسول الله ﷺ شهراً في صلاة الصبح يدعو على رِعلٍ وذَكْوان وعُصَيّة وبني لِحيان.

= الغدر به، فلم يجرؤ. كان أعور، أصيبت عينه في إحدى وقائعه، عقيماً لا يولد له. وهو ابن عم لبيد الشاعر. انظر (الأعلام: ٣: ٢٥٢).

(١) لا نخفر: لا ننقض.

(٢) كاثروهم: كانوا أكثر منهم.

(٣) هي قرقرة القدر، قال الواقدي: موضع بناحية المعدن، قريب من الأرحضية، بينه وبين المدينة ثمانية برد. وقال غيره: ماء لبني سليم (راجع معجم البلدان في كدر).

(٤) قناة: وادٍ يأتي من الطائف ويصب في الأرحضية وقرقرة الكدر.

وروي عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قرأنا بهم قرآناً زماناً، ثم إن ذلك رفع أو نسي: «بلّغوا عنا قومنا أنا لقِينا ربنا فرضي عنها وأرضانا»، وقال أنس ابن مالك: ما رأيت رسول الله ﷺ وَجَد[١] على أحد ما وَجَد على أصحاب بئر معونة.

قال ابن سعد: وجاء رسول الله ﷺ، في تلك الليلة التي وصل إليه فيها خبر أصحاب بئر معونة مصابُ خُبَيب بن عديّ ومن معه، فدعا رسولُ الله ﷺ على قتلتهم بعد الركعة من الصبح، فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنين كسِنِي يوسف، اللهم عليك ببني لِحيان وعَضَل والقارَة وزِغب ورِعل وذَكْوان وعُصَيَّة، فإنهم عصوا الله ورسوله».

ذكر سَريّة مَرثَد بن أبي مرثد الغَنَويّ إلى الرّجيع

كانت في صفر على رأس سنة وثلاثين شهراً من هجرة رسول الله ﷺ.

وذلك أنه قدم على رسول الله ﷺ، رَهط من عَضَل والقارة، وهم إلى الهُون بن خُزَيمة، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقّهونا، ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام. فبعث ﷺ معهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنوي، وخُبَيب بن عديّ؛ وزيد بن الدَّثنة، وخالد بن البُكَير الليثي، وعبد الله بن طارق، ومعتِّب بن عبيد أخو عبد الله[٢] لأمّه. وأمّر عليهم عاصماً، وقيل: مَرْثداً، فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - وهو ماء لهُذيل بناحية الحجاز - غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً، فلم يَرُع القوم، وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا، فقالوا: إنا ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، ومعتّب بن عبيد؛ فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً. وقاتلوا حتى قُتلوا، رضي الله عنهم. وأما زيد بن الدَّثنة وخُبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، فرغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بمرّ[٣] الظّهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران[٤]، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم،

---

(١) وجد: حزن.

(٢) هو عبد الله بن طارق كما في الطبقات.

(٣) مرُّ الظهران: الظهران، وادٍ قرب مكة، وعنده قرية يقال له: مر، تضاف إلى هذا الوادي، فيقال: مر الظهران. (معجم البلدان).

(٤) القران: الحبل الذي يشد به الأسيران.

فرموه بالحجارة حتى قتلوه؛ بقُبر هناك. وأما خُبيب بن عدي وزيد بن الدَّثنة فقدموا بهما مكة فأباعوهما[١] من قريش بأسيرين من هُذيل كانا بمكة فابتاع خُبيباً حُجر بن أبي إهاب التميمي، حليف بني نوفل، لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه. وابتاع زيد بن الدَّثنة صفوانُ بن أميّة، ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعثه مع مولى له يقال له: نسطاس؛ إلى التّنعيم[٢]، فأخرجوه من الحرم ليقتله، واجتمع لذلك رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أَنْشُدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً؛ ثم قتله نِسطاس. وأما خُبيب بن عدي فرُوي عن ماويَة[٣] مولاة حُجر بن أبي إهاب. وكانت قد أسلمت، قالت: كان خُبيب قد حبِس في بيتي، فقد اطلعت عليه يوماً وإن في يده لقِطْفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل، قالت: وقال لي حين حضره القتل: ابعثي إليّ بحديدة أتطهّر بها للقتل؛ فأعطيت غلاماً من الحيّ المُوسى، فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل؛ قالت: فوالله ما هو إلا أن قد ولّى الغلام بها إليه؛ فقالت: ما صنعتُ! أصاب والله الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل؛ فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدرتي حتى بعثتك بهذه الحديدة! ثم خلّى سبيله. ويقال: إن الغلام ابنها.

قال ابن إسحاق: ثم خرجوا بخُبيب، حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه قال: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا: دونك فاركع ركعتين، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، فكان خُبيب أول من سّن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. قال: ثم رفعوه على خشبته، فلما أوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصِهم[٤] عدداً، واقتلهم بدداً[٥]، ولا تغادر منهم أحداً. ثم قتلوه، رحمه الله ورضي عنه.

---

(١) أباعوهما: عرضوهما للبيع.
(٢) التنعيم: موضع بمكة.
(٣) كذا في الأصول: وفي روايات كثيرة: «مارية».
(٤) احصهم عدداً: أهلكهم واستأصلهم بحيث لا يبقى من عددهم أحد.
(٥) بدداً: في الأصول: «مددا» وهو تحريف. والمعنى أقتلهم واحداً بعد واحد، من التبديد.

قال ابن هشام: أقام خبيب في أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم، ثم قتلوه.

وروى ابن إسحاق أنه قال حين صلب(١): [من الطويل]

لقد جمّع الأحزابُ حولي وألّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كل مجمع(٢)
وقد قرّبوا أبناءَهم ونساءَهم ... وقُرِّبتُ من جِذع طويل مُمنّع
وكلّهمُ يُبدي العداوَة جاهداً ... عليّ لأني في وِثاق بمضيع(٣)
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما جمّع الأحزاب لي عند مَصْرعي
فذا العرش صبّرني على ما أصابني ... فقد بضّعوا الحمى وقد ضَلَّ مَطمَعِي(٤)
وذلك في ذاتِ الإله وإن يشأ ... يبارك على أَوْصال شِلْوِ مُمزَّع(٥)
وقد عرّضوا بالكفر والموتُ دونه ... وقد ذَرفت عيناي من غير مَدْمَعِ(٦)
وما بي حِذارُ الموتِ، إني لميّتٌ ... ولكن حذاري حرُّ نارٍ تلفع(٧)
فلست بمبدٍ للعدوّ تَخشّعاً ... ولا جَزَعاً إنّي إلى الله مرجِعي
ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً ... على أي حال كان في الله مضجعي

وفي رواية ابن شهاب(٨):

* على أي جنب كان في الله مصرعي *

قالوا: وصُلب بالتّنعيم، وكان الذي تولى صلبه عقبة بن الحارث، وأبو هبيرة العدويّ(٩).

---

(١) قال ابن هشام: «بعض أهل العلم بالشعر ينكرها له».

(٢) ألبوا: جمعوا وحضوا.

(٣) ويروى البيت:

وكلهم مبدي العداوة جاهد ... عليَّ لأني في وثاقٍ مضيع

(٤) بضعوا: قطعوا. (٥) أوصال: أعضاء. شلو: جسد.

(٦) ذكر هذا البيت في سيرة ابن هشام، وفي المواهب اللدنية كما يأتي:

وقد خيروني الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناي من غير مجزع

(٧) كذا في الأصول، وعليه فهي تتلفع بحذف إحدى التاءين أي تشتمل، يقال: تلفع بالثوب إذا اشتمل به، وفي ابن هشام والمواهب: «جحم نار ملفع» والجحم: الملتهب، ومنه الجحيم.

(٨) ابن شهاب: (٣٣٥ ـ ٤٢٨ هـ = ٩٤٦ ـ ١٠٣٧ م) الحسن بن شهاب بن الحسن بن علي بن شهاب العكبري، أبو علي، نساخ، من العلماء العارفين بالعلم والأدب، من أهل عكبرا مولداً ووفاة. (الأعلام: ٢: ١٩٣).

(٩) راجع شعر حسان بن ثابت في بكاء خبيب في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦، طبع الحلبي.

ذكرُ غزوةِ بني النَّضِير

غزاهم رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل، سنة أربع، على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مُهاجَرِه.

وكان سبب هذه الغزوة على ما حكاه محمد بن سعد، ومحمد بن إسحاق، وعبد الملك بن هشام، دخل حديث بعضهم في بعض، أن رسول الله ﷺ، خرج إلى بني النضير يستعينهم في ديّة الكِلابِيّين أو العامِريّين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضّمْري، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك بما أحببت. وكان رسول الله ﷺ، قد جلس إلى جنب جدار من بيوتهم، وهو في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعليّ، رضوان الله عليهم، فخلا بعض بني النضير إلى بعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمَن رجل يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بن كَعْب، أحدُهم، فقال: أنا لذلك؛ فقال سلاّم بن مِشْكَم: لا تفعلوا، والله ليُخبَرنّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. وجاء رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فنهض مسرعاً كأنه يريد الحاجة فتوجه إلى المدينة، فلما أبطأ على أصحابه قاموا في طلبه، فلقُوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه ﷺ، فقال: رأيته قد دخل المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوه، فقالوا: يا رسول الله، قمت ولم نشعر. قال: همّت يهود بالغدر فأخبرني الله بذلك فقمت. ثم بعث رسول الله ﷺ إليهم محمد بن مَسْلمة: «أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً أي من الأيام فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه». فمكثوا أيّاماً يتجهّزون، وأرسلوا إلى ظَهْر لهم بذي الجَدْرِ[١] وتَكارَوا[٢] إبلاً من ناس من أشْجَع، فأرسل إليهم عبد الله بن أُبيّ: أن أقيموا في حصونكم، ولا تخرجوا من دِياركم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون من عند آخرهم، وتمدّكم قُريظة وحلفاؤكم من غطفَان. ووافقه على ذلك وِديعة بن مالك بن أبي قوقل[٣]، وسُوَيْد ودَاعِس، وقالوا لهم: إن قوتلتم نصرناكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فطمع حُييّ بن أخطب فيما قال ابن أُبيّ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبّر رسول الله ﷺ، فكبّر المسلمون لتكبيره، وقال: حاربت يهود، واستخلف على المدينة

---

(١) ذو جدر: مسرح على ستة أميال من المدينة بناحية قباء.

(٢) تكاروا: استأجروا.

(٣) كذا في الأصل، وفي المواهب، والروض الأنف. وفي الطبري: «ووديعة ومالك بن أبي قوقل».

ابن أمّ مكتوم، وسار في أصحابه، وعلي بن أبي طالب يحمل لواءه، فصلى العصر بفناء بني النضير، فلما رأوه تحصنوا بحصونهم، وقاموا عليها معهم النبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة فلم تُعنهم، وخذلهم عبد الله بن أبيّ ومن وافقه فلم ينصروهم، فحاصرهم رسول الله ﷺ ست ليال، ثم أمر بقطع النّخيل وتحريقها، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها! وكان الله عز وجل أمر رسوله ﷺ بذلك، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وقالوا: نخرج من بلادك. فقال: لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها، ولكن دِماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلْقة[١]. فنزلوا على ذلك.

وكانت مدّة حصرهم خمسة عشر يوماً، وولي إخراجهم محمد بن مسلمة، فحملوا النساء والصبيان وتحملوا على سبعمائة بعير، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف[٢] بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خَيْبر، ومنهم من سار إلى الشام، وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحُقَيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق، وحُيَيّ بن أخطب، فقال رسول الله ﷺ: هؤلاء في قومهم بمنزلة بني المغيرة في قريش. وحزن المنافقون عليهم حزناً شديداً، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والحلْقة، فوجد من الحلْقة خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلثمائة سيف وأربعين سيفاً، وكانت بنو النضير صفِيًّا[٣] لرسول الله ﷺ، خالصة له حُبساً[٤] لنوائبه، لم يخمّسها ولم يُسهم منها لأحد، إلا أنه أعطى ناساً من أصحابه، ووسّع في الناس، فكان ممن أعطاه رسول الله ﷺ من المهاجرين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أعطاه بئر حجر، وعمر بن الخطاب، بئرِ جرم، وعبد الرحمٰن بن عوف سوالة، وصُهيب بن سنان[٥]، الصراطة، والزبير بن العوّام وأبو سلمة بن عبد الأسد البُويلة[٦]، وسهل بن حُنيف وأبو دُجانة مالاً، يقال له: مال ابن خَرَشة، حكاه محمد بن سعد في طبقاته.

---

(١) الحلقة: الدروع، وقيل السلاح كله، وهو المراد هنا.

(٢) النجاف: العتبة.

(٣) صفيا: مختارة.

(٤) حبساً: وقفاً.

(٥) صُهيب بن سنان: (٣٢ ق هـ ٣٨ هـ = ٥٩٢ ـ ٦٥٩ م) صهيب بن سنان بن مالك من بني النمر بن قاسط صحابي من أرمى العرب سهماً. وهو أحد السابقين إلى الإسلام كان أبوه من أشراف الجاهليين. أسلم ولم يتقدمه غير بضعة وثلاثين رجلاً، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها. انظر (الأعلام: ٣: ٢١٠).

(٦) البويلة: مكان معروف بين المدينة وبين تيماء من جهة مسجد قُباء إلى جهة الغرب. ويقال لها أيضاً: «البويرة»، شرح المواهب اللدنية: ٢: ٩٩.

قال: ولما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير، قال: امضوا فإن هذا أوّل الحشر وإنا على الأثر.

وأنزل الله عز وجل في بني النضير سورة «الحشر» بكمالها.

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: ٢].

قال الأستاذ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري[١]، رحمه الله: «أهْل الكتابِ» بنو النضير «مِنْ دِيَارِهم» التي كانت بيثرب «لأوّلِ الحَشْر» قال الزّهري: كانوا من سِبط[٢] لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا، قال: وكانوا أوّل حشر في الدنيا حشر[٣] إلى الشام. وقال الكلبي: إنما قال: «لأوّلِ الحَشْرِ» لأنهم أوّل من حُشِر من أهل الكتاب، ونفوا من الحجاز. وقال مُرّة الهمْدانيّ: كان هذا أوّل الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيْبر، وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحا من الشام في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى يديه. وقال قتادة: كان هذا أوّل الحشر، والحشر الثاني: نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل[٤] معهم حيث قالوا، وتأكل منهم من تخلّف. «ما ظَنَنْتم» أيها المؤمنون «أن يَخْرُجوا» من المدينة «وظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهم مِنَ اللَّهِ». حيث درّبوها وحصنوها «فأَتَاهُمُ اللَّهُ» أي أمر الله وعذابه «من حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وقَذَفَ فِي قُلُوبِهِم الرُّعْبَ» قيل: بقتل سيدهم كعب بن الأشرف[٥]. «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ» قال ابن إسحاق: وذلك لهدمهم

---

(١) أحمد بن محمد الثعلبي: (... ـ ٤٢٧ هـ = ... ـ ١٠٣٥ م) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق: مفسر من أهل نيسابور له اشتغال بالتاريخ. (الأعلام: ١: ٢١٢).

(٢) السبط: ولد الولد. والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب.

(٣) كذا في الأصول، ولعل صواب العبارة كما في القرطبي: «وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام».

(٤) تقيل: من القائلة، وهي الظهيرة (اللسان: قيل).

(٥) كعب بن الأشرف: (... ـ ٣ هـ = ... ـ ٦٢٤ م) كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان: شاعر جاهلي كانت أمه من بني النضير. فدان باليهودية كان يقيم في حصن له قرب المدينة ما زالت بقاياه إلى اليوم... أدرك الإسلام، ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه. خرج إلى مكة، بعد وقعة بدر، فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله. (الأعلام: ٥: ٢٢٥).

بيوتهم عن نُجُف أبوابهم. وقال ابن زيد: كانوا يقتلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب، حتى الأوتاد، يخربونها لئلا يسكنها المسلمون حسداً منهم وبغضاً. وقال ابن عباس: كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها لتتسع لهم المقاتل، وجعل أعداء الله ينقبون دورهم من أدبارهم فيخرجون إلى التي بعدها، فيتحصّنون فيها ويكسرون ما يليهم منها، ويرمون بالتي خرجوا منها أصحاب رسول الله ﷺ. وقال قتادة: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها، وتخربها اليهود من باطنها، فذلك قوله عز وجل: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الآية. «الْجَلَاء» عن الوطن ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل وبالسَّبْي كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾[1] [الحشر: ٣، ٤].

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر: ٥] قال ابن إسحاق: اللينة: ما خالف العجوة من النخل. وقال ابن هشام: ما لم تكن بَرْنِيّة[2]، ولا عجوة. وقال عِكرمة وزيد بن رومان وقتادة: النخل كله لينة ما خلا العجوة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، اللينة: النخلة والشجرة. وقال سفيان: هي كرام النخل. وقيل: هي النخلة القريبة من الأرض. وقال مقاتل: هو ضرب من النخل، يقال لثمرها: اللون، وهو شديد الصفرة، يرى نواه من خارج، يغيب فيه الضّرس، وكان من أجود ثمرهم وأعجبها إليهم، وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف[3]، وأحب إليهم من وصيف، فلما رأوا ذلك يقطع شق عليهم. وقال: وجمع اللينة لِين. وقيل: لِيان[4].

قال الثعلبي: لما نزل رسول الله ﷺ ببني النضير، وتحصنوا في حصونهم، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا: يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخيل، وعَقْر الشجر؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أُنزل عليك الفسادَ في الأرض؟ فشق ذلك على النبي ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم من قولهم، وخشوا أن يكون ذلك فساداً، واختلف المسلمون في ذلك، فقال بعضهم: لا

---

(١) شاقوا الله: عادوه وخالفوا أمره.
(٢) البرنية: واحدة البرني، وهو ضرب من التمر، أصفر، مدور، وهو أجود التمر.
(٣) الوصيف: العبد، الخادم.
(٤) في الأصل: «اليان». وفي لسان العرب. جمع اللينة، لين ولون وليان.

تقطعوا، فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعها، فأنزل الله تعالى الآية بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذنه تعالى.

وفي قطع نخيل بني النضير يقول حسان بن ثابت: [من الوافر]

وهان على سَراة بني لُؤيّ   حَريقٌ بالبُوَيْرةِ مستطيرُ

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وليذل اليهود ويخزيهم ويغيظهم. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحشر: ٦] «أَفَاءَ اللّـهُ» أي رَدَّ على رسوله ورجع إليه، ومنه فَيْء الظّلّ مِنْهُمْ أي من بني النضير من الأموال «فَمَا أَوْجَفْتُمْ» أوضَعْتُم[١] «عَلَيْه مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَاب» وهي الإبل، يقول: لم تقطعوا إليها شُقّة، ولم تنالوا فيها مشقة، ولم تكلفوا مؤُنَة[٢]، ولم تلقوا حرباً. وإنما كانت بالمدينة فمشوا إليها مشيئاً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً إلا النبي ﷺ، فإنه ركب حملاً فافتتحها صلحاً، وأجلاهم عنها وخزن أموالهم فسأل المسلمون النبي ﷺ القسمَة، فأنزل الله عز وجلّ الآية، فجعل أموال بني النضير خاصة لرسول الله ﷺ، يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم أبو دُجانة سِمَاك بن خرشَة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمّة. قال: ولم يُسلم من بني النضير إلا رجلان، أحدهما سفيان بن عمير بن وهب، والثاني سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إن أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصاً، فكان رسول الله ﷺ، ينفق على أهله منه نفقة سنته، وما بقي جعله في الكُراع[٣] والسلاح عُدّة في سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: القرى هي قُرَيظة والنّضير، وهما بالمدينة، وفدَك، وهي في المدينة على ثلاثة أميال، وخَيْبر، وقُرَى عُرَينة، ويَنْبع جعلها الله تعالى لرسوله ﷺ، يحكم فيها ما

---

(١) أوضعتم: أسرعتم.
(٢) المؤنة: القوت.
(٣) الكراع: جماعة الخيل.

أرَاد، فاحتواها كلها، فقال ناس: هلا قسمها؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية. قال: «والقربى» قرابة رسول الله ﷺ، وهم: بنو هاشم وبنو المطلب. وقوله: «كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» أي بين الرؤساء والأغنياء والأقوياء، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه، وهو المرْباع، ثم يصطفي منها أيضاً بعد المِرْباع ما شاء، وفيه يقول شاعرهم: [من الوافر]

لك المِرْباعُ منها والصَّفايا وحكمُك والنَّشِيطَةُ والفُضول[1]

فجعل الله تعالى هذا[2] لرسوله عليه السلام يقسمه في المواضع التي أمر بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي ما أعطاكم من الفيء والغنيمة ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ من الغُلول وغيره «فانتهوا».

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يعني كي لا يكون ما أفاء الله على رسوله دولة بين الأغنياء منكم ولكن يكون: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨] أي في إيمانهم. قال قَتادة: هم المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر، وخرجوا حبّاً لله ورسوله، واختاروا الإسلام على ما كانت فيه من شديدة، حتى ذُكر لنا أن الرجل كان يعْصِب الحجر على بطنه ليقيم به صُلبه[3] من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة[4] في الشتاء ما له دثار غيرها.

وعن سعيد بن جُبَير[5]، وسعيد بن عبد الرحمٰن بن أَبْزَى، قالا: كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة، يحج عليها ويغزو، فنسبهم الله تعالى إلى أنهم فقراء، وجعل لهم سهماً في الزكاة.

---

(١) النشيطة: ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل البلوغ إلى الموضع الذي قصدوه. الفضول: ما فضل من الغنائم حين تقسم.
(٢) زيادة عن القرطبي، يتطلبها المعنى.
(٣) صلبه: جذعه.
(٤) الحفيرة: الحفرة الواسعة.
(٥) سعد بن جبير: (٤٥ ـ ٩٥ هـ = ٦٦٥ ـ ٧١٤ م) سعيد بن جبير الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق وهو حبشي الأصل. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. ولما خرج عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، على عبد الملك بن مروان، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمٰن، فذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه واليها (خالد القسري) وأرسله إلى الحجاج فقتله بواسط. (الأعلام: ٣: ٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩] قال: قوله: «تَبَوَّءُوا» توطنوا «الدَّارَ» اتخذوا المدينة دار الإيمان والهجرة، وهم الأنصار، أسلموا في ديارهم وابتَنوا المساجد قبل قدوم النبيّ ﷺ، فأحسن الله الثناء عليهم. وقوله: «مِنْ قَبْلِهِمْ» أي من قبل قدوم المهاجرين عليهم، وقد آمنوا «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً» أي حزازة وغيظاً وحسداً «مِمَّا أُوتُوا» أي مما أعطى المهاجرين من الفيء، وذلك أن رسول الله ﷺ، قسم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا الثلاثة الذين ذكرناهم، فطابت أنفس الأنصار بذلك «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» إخوانهم من المهاجرين بأموالهم ومنازلهم «وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» أي فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون، وذلك أنهم قاسموهم ديارهم وأموالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم عليكم شيء من الغنيمة فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة ولم نشاركهم فيها». فأنزل الله عز وجل «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ». والشحّ في كلام العرب: البخل ومنع الفضل.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠] قال ابن أبي ليلى[١]: الناس على ثلاث منازل: الفقراء المهاجرون، والذين تبوّءوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم، فاجهد ألا تكون خارجاً من هذه المنازل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر الله عز وجل بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، وهو يعلم أنهم سيفتنون. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد عليه السلام فسببتموهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرُها أوّلها».

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

---

(١) ابن أبي ليلى: (٧٤ ـ ١٤٨ هـ = ٦٩٣ ـ ٧٦٥ م) محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى يسار (وقيل: داود) ابن بلال الأنصاري الكوفي. قاضٍ فقيه من أصحاب الرأي. مات بالكوفة. (الأعلام: ٦: ١٨٩).

ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١١ـ ١٣] نزلت هذه الآيات في شأن عبد الله بن أبيّ ومن وافقه في إرسالهم لبني النضير وقعودهم عنهم، كما تقدم آنفاً، وقوله: «لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ» يقول: يرهبونكم أشدّ من رهبتهم الله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ».

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ[1] بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[2] [الحشر: ١٤] أعلم الله تعالى المؤمنين أن اليهود لا يبرزون لهم بالقتال، ولا يقاتلونهم إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدار «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» يعني بعضهم فظّ على بعض، وبعضهم عدوّ لبعض، وعداوتهم بعضهم بعضاً شديدة. وقيل: بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله. «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» قال قتادة: أهل الباطل مختلفة أهواؤهم، مختلفة شهاداتهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقال مجاهد: أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود. «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ».

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحشر: ١٥] يعني مثل هؤلاء اليهود «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» وهم مشركو مكة «ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ» يوم بدرٍ. قال مجاهد[3] وقال ابن عباس: يعني بني قَيْنُقاع؛ وقيل: مثل قريظة كمثل بني النضير، ثم ضرب مثلاً للمنافقين واليهود في تخاذلهم فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦] وهي قصّة بَرْصِيصَا العابد مع الشيطان.

ذكرُ قصة بَرْصِيصَا

روى أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي بسند يرفعه إلى ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ الآية. قال:

---

(١) في الأصل: «جدار». وهي قراءة ابن عباس: ومجاهد، وابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو.

(٢) مجاهد: (٢١ ـ ١٠٤ هـ = ٦٤٢ ـ ٧٢٢ م) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر، من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس. تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة. ويقال: إنه مات وهو ساجد. (الأعلام: ٥: ٢٧٨).

كان راهب في الفَتْرة يقال له برصيصا، وقد تعبد في صومعة له سبعين سنة، لم يعص الله فيها طرفة عين، وإن إبليس أعياه في أمره الحيل، فلم يستطع له بشيء فجمع ذات يوم مَردة الشياطين، فقال: ألا أحد منكم يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض، وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي تصدّى لرسول الله ﷺ، وجاءه في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه بالوحي، فجاء جبريل حتى دخل بينهما، فدفعه بيده دفعة هينة، فوقع من دفعة جبريل إلى أقصى الهند، فقال الأبيض لإبليس: أنا أكفيك. فانطلق فتزيّن بزينة الرهبان، وحلق وسط رأسه، ثم مضى حتى أتى صومعة برصيصا، فناداه فلم يجبه برصيصا، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في عشرة أيام، ولا يفطر إلا في عشرة أيام، فكان يواصل الصوم الأيام العشرة والعشرين والأكثر، فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته، فلما انفتل برصيصا اطلع من صومعته، فرأى الأبيض قائماً منتصباً يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فلما رأى ذلك من حاله تدبر في نفسه حين لَهَى عنه فلم يجبه. فقال له: إنك ناديتني وكنت مشغولاً عنك فحاجتك؟ قال: حاجتي أني أحببت أن أكون معك فأتأدب بك، وأقتبس من علمك، ونجتمع على العبادة، فتدعو لي وأدعو لك؛ قال: إني لفي شغل عنك، فإن كنت مؤمناً فإن الله عز وجل سيجعل لك فيما أدعوه للمؤمنين والمؤمنات نصيباً إن استجاب لي، ثم أقبل على صلاته وترك الأبيض، فأقبل الأبيض يصلي، فلم يلتفت إليه برصيصا أربعين يوماً بعدها، فلما انفتل رآه قائماً يصلي، فلما رأى برصيصا شدّة اجتهاده، وكثرة تضرعه وابتهاله إلى الله عز وجل كلّمه، وقال له: حاجتك؟ قال: حاجتي أن تأذن لي فأرتفع إليك، فأذن له، فارتفع في صومعته، فأقام الأبيض معه حولاً يتعبد، لا يفطر إلا في كل أربعين يوماً، ولا ينفتل عن صلاته إلا في كل أربعين يوماً مرة، وربما مدّ إلى الثمانين؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت[1] إليه نفسه، وأعجبه شأنه، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا: إني منطلق، فإن لي صاحباً غيرك، ظننت أنك أشدّ اجتهاداً مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذي رأيت. قال: فدخل على برصيصا أمر عظيم، وكره مفارقته للذي رأى من شدّة اجتهاده، فلما ودعه قال له الأبيض: إن عندي دعواتٍ أعلمكها تدعو بهن، فهن خير لك مما أنت فيه، يشفي الله بها السقيم، ويعافي بها المبتلي والمجنون؛ قال برصيصا: إني أكره هذه المنزلة، لأن لي في نفسي شغلاً، وإني أخاف إن علم بهذا الناس شغلوني عن العبادة، فلم يزل به الأبيض حتى علمه. ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال: قد والله أهلكت الرجل. قال: فانطلق الأبيض

---

(١) تقاصرت نفسه: تضاءلت.

فتعرض لرجل فخنقه، ثم جاءه في صورة رجل متطبب، فقال لأهله: إن بصاحبكم جنوناً فأعالجه؟ فقالوا: نعم، فقال لهم: إني لا أقوى على جنّيته، ولكني سأرشدكم إلى من يدعو الله فيعافى؛ فقالوا له: دلّنا. قال: انطلقوا إلى برصيصا، فإن عنده اسم الله الذي إذا دعى به أجاب. قال: فانطلقوا إليه فسألوه ذلك، فدعا بتلك الكلمات فذهب عنه الشيطان. وكان يفعل الأبيض بالناس مثل هذا الذي فعل بالرجل، ثم يرشدهم إلى برصيصا فيدعو لهم فيعافَون. قال: فانطلق الأبيض فتعرض لجارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكاً فمات فاستخلف أخاه، وكان عمها ملك بني إسرائيل، فعذبها وخنقها، ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبب، فقال لهم: أعالجها؟ قالوا: نعم. فعالجها فقال: إن الذي عرض لها مارد لا يُطاق، ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تدعونها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها، حتى تعلموا أنها قد عوفيت وتردّونها[(١)] صحيحة، قد ذهب عنها شيطانها؛ قالوا: ومن هو؟ قال: برصيصا؛ قالوا: وكيف لنا أن يقبلها منا ويجيبنا إلى هذا؟ هو أعظم شأناً من ذلك. قال: انطلقوا وابتنوا صومعة إلى جانب صومعته حتى تشرفوا عليه، ولتكن هذه الصومعة التي تبنون لزيقة صومعته، فإن قبلها وإلا تضعونها[(٢)] في صومعتها، ثم قولوا له: هي أمانة عندك، فاحتسب فيها. قال: فانطلقوا إليه فسألوه ذلك، فأبى عليهم، فبنوا صومعة على ما أمرهم الأبيض، ثم اطلعوا عليه ووضعوا الجارية في صومعتها، وقالوا له: يا برصيصا، هذه أختنا قد عرض لها عدوّ من أعداء الله، فهي أمانة عندك فاحتسب فيها. ثم انصرفوا، فلما انفتَلَ برصيصا عن صلاته عاين تلك الجارية وما بها من الجمال، فأسْقِط[(٣)] في يده، ودخل عليه أمر عظيم، قال: فجاءها الشيطان فخنقها؛ فلما رأى برصيصا ذلك انفتل عن صلاته، فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته، ثم جاءها الشيطان فخنقها، وكان يكشف عن نفسها ويتعرّض [بها][(٤)] لبرصيصا، وجاءه الشيطان، فقال: ويحك! واقعها فلن تجد مثلها، فستتوب بعد، فتدرك ما تريد من الأمر الذي تريد، فلم يزل به حتى واقعها، فافترشها، فلم يزل على ذلك يأتيها حتى حملت وظهر حملها، فقال له الشيطان: ويحك! قد افتضحت، فهل لك أن تقتل هذه وتتوب؟ فإن سألوك فقل: جاء شيطانها فذهب بها ولم أقوَ عليه. قال: ففعل. فقتلها ثم انطلق بها فدفنها إلى جانب الجبل، فجاءه

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «تردونها صحيحة، وقد ذهب عنها شيطانها»، بتأخير الواو.

(٢) كذا في الأصل. ورفع الجزاء هنا جائز على ضعف.

(٣) أسقط في يده: تحير.

(٤) الزيادة من تفسير القرطبي (١٨ ـ ٣٨).

الشيطان وهو يدفنها ليلاً فأخذ بطرف إزارها، فبقي طرف إزارها خارجاً في التراب، ثم رجع برصيصا إلى صومعته وأقبل على صلاته، فجاء إخوتها يتعاهدون أختهم، وكانوا يجيئون في بعض الأيام يسألون عنها، ويطلبون إلى برصيصا ويوصونه بها، فقالوا: يا برصيصا، ما فعلت بأختنا؟ قال: جاء شيطانها فذهب بها ولم أُطقه. قال: فصدّقوه وانصرفوا. فلما أمسوا وهم مكروبون(١)، جاء الشيطان إلى كبيرهم في المنام، فقال له: ويحك! إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا، وإنه دفنها في موضع كذا وكذا من جبل كذا وكذا. فقال الأخ: هذا حُلم وهو من عمل الشيطان، برصيصا خير من ذلك. قال: فتتابع عليه ثلاث ليال فلم يكترث، فانطلق إلى الأوسط بمثل ذلك، فقال الأوسط مثلما قال الأكبر، فلم يخبر به أحداً، فانطلق إلى أصغرهم بمثل ذلك، فقال أصغرهم لإخوته: والله لقد رأيت كذا وكذا. فقال الأوسط: وأنا والله لقد رأيت مثله. وقال الأكبر: وأنا والله لقد رأيت كذا وكذا، فانطلقوا بنا إلى برصيصا؛ فأتوه، فقالوا: يا برصيصا، ما فعلت أختنا؟ قال: أليس قد أعلمتكم بحالها وحال شيطانها! فكأنكم اتهمتموني. فقالوا: لا والله لا نتهمك. فاستحيوا منه وانصرفوا عنه، فجاءهم الشيطان فقال: ويحكم! إنها لمدفونة في موضع كذا، وإن طرف إزارها خارج من التراب. قال: فانطلقوا فرأوا أختهم على ما رأوا في نومهم، قال: فمشوا في مواليهم، ومواليهم معهم الفؤس والمساحي(٢)، فهدموا صومعته وأنزلوه ثم كتفوه وانطلقوا به إلى الملك، فأقرّ على نفسه؛ وذلك أن الشيطان أتاه فقال: تقتلها ثم تكابر، يجتمع عليك أمران قتل ومكابرة، اعترف. فلما اعترف أمر الملك بقتله وصلبه على خشبة، فلما صلب أتاه الأبيض عياناً، وذلك أن إبليس لعنه الله، قال للأبيض: وما يغني عنك ما صنعت؟ إن قُتل فهو كفارة لما كان منه. فقال الأبيض: أنا أكفيكه. فأتاه فقال: يا برصيصا، أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا صاحبك الذي علمك الدعوات فاستُجيبَ لك، ويحك! أما اتقيت الله في أمانة خنت أهلها، وأنك أعبد بني إسرائيل! أَمَا استحيت! أما راقبت الله في دينك! فلم يزل يعيره ويوبخه، ثم قال له في آخر ذلك: ألم يكفك ما صنعت حتى أقررت على نفسك وفضحت أشباهك من الناس! فإن متّ على هذه الحال لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. قال: فكيف أصنع؟ قال: تطيعني في خطة واحدة حتى أنجيك مما أنت فيه، وآخذ بأعينهم، وأخرجك من مكانك. قال: وما هي؟ قال: تسجد لي. قال: أفعل. فسجد له، فقال: يا برصيصا، هذا الذي أردت منك، صارت عاقبة أمرك إلى أن كفرت بربك، إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين.

---

(١) الكرب: الغم.

(٢) المساحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة من الحديد.

يقول الله تعالى: ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ﴾ يعني الشيطان وذلك الإنسان. ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فضرب الله هذا المثل ليهود بني النضير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أن الله تعالى أمر نبيّه ﷺ، أن يحل بني النضير من المدينة، فدسّ المنافقون إليهم فقالوا: لا تجيبوا محمداً إلى ما دعاكم ولا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلكم كنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. قال: فأطاعوهم؛ فدرّبوا على حصونهم وتحصنوا في ديارهم رجاء نصر المنافقين حتى جاءهم النبيّ ﷺ، فناصبوه[1] الحرب، يرجون نصر المنافقين، فخذلوهم وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا وخذله.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحشر: ١٨] قوله: «اتَّقُوا اللَّهَ» أي في أداء فرائضه واجتناب معاصيه «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» يعني يوم القيامة.

قـــولـــه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩] «نَسوا اللَّهَ» أي نسوا حق الله وتركوا أوامره «فأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» يعني حظ أنفسهم أن يقدموا لها خبراً ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ١٩ ـ ٢٠].

فقد أتينا ـ أكرمك الله ـ على تفسير ما أنزل من القرآن في شأن بني النضير مما يتعلق بشرح أخبارهم خاصة على حكم الاختصار، ولم نتعرض إلى ما سوى ذلك من التفسير.

ذكر غزوة بدر الموعِد

غزاها رسول الله ﷺ، لهلال ذي القعدة، على رأس خمسة وأربعين شهراً من مهاجره ﷺ. حكاه محمد بن سعد.

وقال محمد بن إسحاق: كانت في شعبان. وجعلها بعد غزوة ذات الرقاع، فتكون على رأس اثنين وأربعين شهراً من الهجرة، والأشبه ما قاله ابن سعد، لأن الميعاد كان على رأس الحول من غزوة أحد، وغزوة أحد كانت في شوّال على ما اتفقا عليه، ولم يختلفا في الشهر وإنما في أيام ذكرناها هناك.

قال محمد بن سعد: لما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج، وقدم نُعَيم بن

(١) ناصبوه الحرب: أظهروها له.

مسعود الأشجعيّ[١] مكة، فقال له أبو سفيان: إني قد واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي ببدرَ، وقد جاء ذلك الوقت، وهذا عام جدب[٢]، وإنما يصلحنا عام خصب غَيْداق[٣]، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترىء علينا، فنجعل لك عشرين فريضة[٤] يضمنها إليك سُهَيل بن عمرو على أن تقدم المدينة فتخذل أصحابَ محمد. قال: نعم. فحملوه على بعير، فأسرع السير حتى قدم المدينة، فأخبرهم بجمع أبي سفيان لهم وما معه من العدّة والسلاح، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأخرجنّ وإن لم يخرج معي أحد.

واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة[٥]، وسار بالمسلمين وهم ألف وخمسمائة والخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه عليّ بن أبي طالب، وخرج المسلمون ببضائع وتجارات لهم، وكانت بدر الصغرى مجتمعاً يجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان تخلو منه، ثم يتفرّق الناس إلى بلادهم.

فانتهى رسول الله ﷺ وأصحابه إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة؛ وقامت السوق صبيحة الهلال فأقاموا بها ثمانية أيام، وباعوا ما خرجوا به من التجارات، فربحوا للدرهم درهماً، وانصرفوا، وقد سمع الناس بمسيرهم، وخرج أبو سفيان بن حرب من مكة في قريش، وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً حتى انتهوا إلى مَجنَّة ـ وهي[٦] مرّ الظهران ـ ومنهم من يقول: بلغوا عُسْفان[٧]. ثم قال: ارجعوا فإنه لا يصلحنا إلا عام

---

(١) نُعَيم بن مسعود: (... نحو ـ ٣٠ هـ = ... نحو ـ ٦٥٠ م) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي، من ذوي العقل الراجح. قدم على رسول الله ﷺ سراً أيام الخندق واجتماع الأحزاب، فأسلم وكتم إسلامه وعاد إلى الأحزاب المجتمعة لقتال المسلمين، فألقى الفتنة بين قبائل قريظة وغطفان، وقريش. سكن المدينة. مات في خلافة عثمان، وقيل: قتل يوم «الجمل» قبل قدوم علي إلى البصرة. (الأعلام: ٨: ٤١).

(٢) عام جدب: عام قحط.

(٣) غيداق: مخصب.

(٤) الفريضة: البعير المأخوذ في الزكاة، سمي فريضة، لأنه فرض واجب على رب المال، ثم اتسع فيه حتى سمي البعير فريضة في غير الزكاة.

(٥) عبد الله بن رواحة: (... ـ ٨ هـ = ... ـ ٦٢٩ م) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري، من الخزرج، أبو محمد، صحابي يعد من الأمراء والشعراء الراجزين كان يكتب في الجاهلية. وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار. وكان أحد النقباء الاثني عشر. وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية. وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة. فاستشهد فيها. (الأعلام: ٤: ٨٦).

(٦) كذا في الأصل. وفي المواهب اللدنية: «مجنة: ناحية الظهران» وفي معجم البلدان: «وقال الأصمعي: وكانت مجنة بمر الظهران».

(٧) عُسْفان: موضع على مرحلتين من مكة.

خصب غَيْدَاق، نرعى فيه الشجر ونشرب اللبن، وعامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا. فسمي أهل مكة هذا الجيش جيش السّويق، يقولون: خرجوا يشربون السويق. قال: وقدم معبد بن أبي معبد الخُزاعي مكة بخبر مسير رسول الله ﷺ ـ وأصحابه، فقال صفوان بن أميّة لأبي سفيان: قد نهيتك يومئذَ أن تعِد القوم وقد اجترءوا علينا ورأوا أن قد أخلفناهم.

وقال عبد الله بن رواحة: [من الطويل]

وعدنا أبا سفيان وعدا فلم نجد ... لمِيعاده صِدقاً وما كان وافيا[١]
فأُقسِم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأُبتَ ذميماً وافتقدْتَ الموَاليا[٢]
تركنا به أوصال عُتبة وابنَه ... وعمْراً أبا جهْلٍ تركناه ثاوِيا[٣]
عَصيتم رسولَ الله أُفٍّ لدِينكم ... وأمركم السَّيِّىء الذي كان غاويا[٤]
فإني وإن عنفتموني لقائلُ ... فدًى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نَعْدِله فينا بغيره ... شِهاباً لنا في ظُلْمة الليل هاديا

وانصرف رسول الله ﷺ والمسلمون، ورجعوا إلى المدينة.

وأنزل الله عز وجل في شأن هذه الغزوة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ـ ١٧٤].

قال السُّدِّي[٥]: لما تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه للمسير إلى بدر لميعاد أبي سفيان أتاهم المنافقون فقالوا: نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم فعصيتمونا، وقد أتوكم في دياركم، فقاتلوكم، وظفروا، فإن أتيتموهم في ديارهم لا يرجع منكم أحد. فقالوا: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». فالناس في هذه الآية أولئك المنافقون. وقال أبو معشر: دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة، فسألهم أصحاب رسول الله ﷺ عن أبي سفيان، فقالوا: قد جمعوا لكم جموعاً كثيرة

---

(١) وعداً: في سيرة ابن هشام: «بدراً».
(٢) الموالي: جمع مولى، وهو القريب والجار والحليف.
(٣) ثاوياً: مقيماً أي مقتولاً.
(٤) السَّيِّىء: المنكر.
(٥) السُّدِّي: (. . . ـ ١٢٨ هـ = . . . ـ ٧٤٥ م) إسماعيل بن عبد الرحمٰن السدي: تابعي حجازي الأصل، سكن الكوفة. . وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس. (الأعلام: ١ : ٣١٧).

فاخشوهم؛ فقالوا: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». فأنزل الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه: ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ يعني تصديقاً ويقيناً وجرأة وقوّة. وقوله: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ فانصرفوا ورجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بعافية لم يلقوا بها عدواً، وبرأت جراحتهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي ربح وتجارة، وهو ما أصابوا من السوق فربحوا ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾ لم يصبهم قتل ولا جرح ولم ينلهم أذى ولا مكروه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وذلك أنهم قالوا: هل يكون هذا غزواً؟ فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضي عنهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥] يعني ذلك الذي قال لكم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم؛ من فعل الشيطان ألقى في أفواههم لترهبوهم وتجبنوا عنهم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي يخوفكم بأوليائه، يعني يخوف المؤمنين بالكافرين، قال السديّ: يعظم أولياءه في صدوركم لتخافوهم. وقرأ عبد الله بن مسعود «يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَه» قال: وكان أبيّ بن كعب[1] يقرأ: «يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِه» «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ» في ترك أمري «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» مصدقين بوعدي فإني متكفل لكم بالنصر والظفر.

ذكر غزوة ذات الرِّقاع[2]، وخبر صلاة الخوف وقصة غورث بن الحارث المحاربي، وخبر جابر بن عبد الله

واختلف في تسمية ذات الرقاع، فقيل: جبل فيه بقع حمر وبيض وسود. وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم. وقيل: ذات الرقاع، شجرة بذلك الموضع. وفي صحيح البخاري أنهم نقبت[3] أقدامهم، فلفّوا عليها الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع. والله أعلم.

قال محمد بن سعد: كانت في المحرم على رأس سبعة وأربعين شهراً من مهاجره ﷺ. وقال ابن إسحاق: كانت غزوة ذات الرقاع بعد غزوة بني النضير في

---

(١) أبي بن كعب: (... ـ ٢١ هـ = ... ـ ٦٤٢ م) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج أبو المنذر: صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود. ولما أسلم كان من كتاب الوحي وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان يفتي على عهده. اشترك في جمع القرآن. مات بالمدينة انظر (الأعلام: ١ : ٨٢).

(٢) غزوة ذات الرقاع: هي غزوة محارب، وغزوة بني ثعلبة وغزوة بني أنمار، وغزوة صلاة الخوف، لوقوعها فيها، وغزوة الأعاجيب، لما وقع فيها من الأمور العجيبة.

(٣) نقبت أقدامهم: رقت جلودها من المشي.

جمادي الأولى، فتكون على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة، واستعمل على المدينة أبا ذرّ الغفاري، ويقال: عثمان بن عفان. ولم يقل ابن سعد غير عثمان رضي الله عنه.

وذلك أن قادماً قدم المدينة بجَلب[١]، فأخبر أصحاب رسول الله ﷺ، أن أنماراً وثعلبة قد جمعوا لهم الجموع. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج ليلة السبت لعشر خلون من المحرم في أربعمائة. ويقال: سبعمائة من أصحابه؛ فمضى حتى أتى محالّهم بذات الرقاع ـ وهو جبل فيه بقع فيها حمرة وسواد وبياض ـ فلم يجد في محالّهم أحداً إلا نسوة، فأخذهن وفيهن جارية وضيئة، وهربت الأعراب إلى رؤوس الجبال، وحضرت الصلاة، فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف.

روى أبو محمد عبد الملك بن هشام بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: صلى رسول الله ﷺ بطائفة ركعتين، ثم سلم وطائفة مقبلون على العدوّ، فجاءوا فصلى بهم ركعتين أخريين، ثم سلم. وروى عنه أيضاً من طريق آخر، قال: صفنا رسول الله ﷺ صفين، فركع بنا جميعاً، ثم سجد رسول الله ﷺ، وسجد الصفّ الأوّل، فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم، ثم تأخّر الصف الأوّل وتقدّم الصف الآخر حتى قاموا مقامهم، ثم ركع النبي ﷺ بهم جميعاً، ثم سجد رسول الله ﷺ وسجد الذين يلونه معه، فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون بأنفسهم سجدتين، وركع النبي ﷺ بهم جميعاً، وسجد كل واحد منهما بأنفسهم سجدتين، هكذا روي عن جابر في صلاة الخوف بذات الرقاع.

وروى ابن هشام أيضاً بسنده إلى عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، في صلاة الخوف، ولم يذكر ذات الرقاع، قال: يقوم الإمام وتقوم معه طائفة، وطائفة مما يلي عدوهم، فيرجع بهم الإمام ويسجد بهم، ثم يتأخرون فيكونون مما يلي العدوّ، ويتقدّم الآخرون فيركع بهم الإمام ركعة ويسجد بهم، ثم تصلي كل طائفة بأنفسهم ركعة، فكانت لهم مع الإمام ركعة ركعة وصلوا بأنفسهم ركعة ركعة.

ذكر خبر غَوْرَث بن الحارث المحاربيّ لما أراد أن يفتك برسول الله ﷺ فحماه الله منه وأمكن نبيه ﷺ من عدوّه وعفوه عنه

وكان من خبر غورث بن الحارث أنه قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل

---

(١) الجلب: ما جلب من خيل وإبل ومتاع.

لكم محمداً؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله قال: أفتك به، وكان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها، فأتاه فاخترط[١] سيفه، ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: الله. فأُرعدت يد غورث، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فعفا رسول الله ﷺ عنه، فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس.
ومن رواية الخطابيّ[٢]: أن غورث بن الحارث المحاربيّ أراد أن يفتك برسول الله ﷺ، فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه، منتضياً[٣] سيفه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفنيه بما شئت». فانكبّ غورث من وجهه من زُلْخة[٤] زُلِّخها بين كتفيه، وندر[٥] سيفه من يده، وقيل: فيه نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١] الآية. وقيل: نزلت في غير هذه القصة.

ذكر خبر جابر بن عبد الله في جَمَله، واستغفار النبي ﷺ لأبيه

روى محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي عن وهْب بن كيْسان عن جابر بن عبد الله قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى ذات الرقاع من نَخْل[٦] على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ، جعلت الرّفاق تمضي، وجعلت أتخلّف حتى أدركني رسول الله ﷺ، فقال: «ما لك يا جابر»؟ قلت: يا رسول الله، أبطأ عليّ جملي هذا؟ قال: «أنخه» فأنخْته، وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك، أو اُقطع لي عصا من شجرة؛ قال: ففعلت. فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه[٧] بها نخساتٍ، ثم قال: اركب. فركبت، فخرج ـ والذي بعثه بالحق ـ يُواهق[٨] ناقته مواهقة.

قال: وتحدّثت مع رسول الله ﷺ فقال: «أتبيعني جملك هذا يا جابر»؟ قلت: يا

---

(١) اخترط السيف: استله من غمده.
(٢) الخطابي: (٣١٩ ـ ٣٨٨ هـ = ٩٣١ ـ ٩٩٨ م) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، أبو سليمان: فقيه محدث، من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب).. توفي في بست. انظر (الأعلام: ٢: ٢٧٣).
(٣) منتضياً: مستلاً.
(٤) الزلخة: وجع الظهر.
(٥) ندر: سقط.
(٦) نخل: موضع بنجد.
(٧) نخسه: وخزه بالعود.
(٨) يواهق: يباريها في السير ويماشيها.

رسول الله، بل أهبه لك؛ قال: «لا، ولكن بِعْنِيه»؛ قال: قلت: فسُمْنيه؛ قال: «قد أخذته بدرهم»؛ قلت: لا، إذا تغبنِّي يا رسول الله! قال: «فبدرهمين»؛ قلت: لا. فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية؛ قلت: فقد رضيت؟ قال: «نعم»؛ قلت: هو لك؛ قال: «أخذته» ثم قال: «يا جابر، هل تزوجت بعد»؟ قلت: نعم يا رسول الله؛ قال: «أثيّباً[1] أم بكراً»؟ قلت: بل ثيّباً؛ قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك»؟ قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بناتٍ له سبعاً، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهنّ؛ قال: «أصبت إن شاء الله، أما إنّا لو جئنا صراراً[2] أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذلك، وسَمِعتْ[3] بنا، فنَفَضتْ نمارقها[4]». قلت: يا رسول الله ما لنا من نمارق؛ قال: «إنها ستكون، فإذا أنت قدِمت فاعمل عملاً كَيِّساً[5]» فلما جئنا صِراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومَنا ذاك، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلْنا؛ قال: فحدّثت المرأة الحديث وما قال لي رسول الله ﷺ، قالت: فدونك فسمعٌ وطاعة. قال: فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل، فأقبلتُ به حتى أنختـه على باب مسجد رسول الله ﷺ، ثم جلستُ في المسجد قَريباً منه، وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل، فقال: «ما هذا»؟ قالوا: هذا جمل جاء به جابر؛ قال: «فأين جابر»؟ فدُعيتُ له، فقال: «يا بن أخي خذ برأس جملك فهو لك» ودعا بلالاً فقال له: «اذهب بجابر فأعطه أوقيّة». قال: فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً. قال: فوالله ما زال ينْمى عندي ونرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا؛ يعني يوم الحرّة[6].

وقال محمد بن سعد: إن رسول الله ﷺ سأل جابراً عن دَين أبيه فأخبره، فاستغفر له رسول الله ﷺ في تلك الليلة خمساً وعشرين مرة. قال: وبعث رسول الله ﷺ جعال[7] بن سُراقة بشيراً إلى المدينة بسلامته وسلامة المسلمين، وقدم صِراراً يوم الأحد لخمس بقين من المحرّم ـ وصِرار على ثلاثة أميال من المدينة، وهي بئر جاهلية على طريق العراق ـ وغاب رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة.

---

(١) الثيب: التي أصبحت بلا رجل، لأي سبب كان.

(٢) صرار: بئر على ثلاثة أميال من المدينة، كما سيأتي للمؤلف.

(٣) الضمير يعود على زوجة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) النمارق: الوسائد.

(٥) عملاً كيساً: عملاً صالحاً.

(٦) يوم الحرة: يشير إلى وقعة الحر التي كانت بالمدينة أيام يزيد بن معاوية على يد مسلم بن عقبة المري. راجع الروض الأنف: ٢: ١٨٤.

(٧) في الأصول: «جوال» وهو تحريف.

ذكر غزوة دُومة الجَنْدل

وهي بضم الدال؛ سميت بدُومى[١] بن إسماعيل لأنه كان نزلها، وهي غير دَومة التي بفتح الدال.

غزاها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل على رأس تسعة وأربعين شهراً من مُهاجَرِه، وذلك أنه بلغه ﷺ أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة ـ وهي طَرَف من أفواه الشام بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة ـ فندب رسول الله ﷺ الناس، واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغفاري، وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأوّل في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويَكمَنُ النهار، ومعه دليل من بني عُذرة، يقال له: مذكور؛ فلما دنا منهم إذا هم مغرِّبون، وإذا آثار النّعم[٢] والشاء، فهجم على ماشيتهم ورِعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب. وجاء الخبرُ أهلَ دومة الجندل، فتفرقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجد بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السريا وفرّقها، فرجعت ولم تصب منهم أحداً وأخذ منهم رجل واحد، فسأله رسول الله ﷺ عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نَعَمَهم؛ فعرض عليه الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة لعشر بقين من شهر ربيع الآخر، ولم يَلْق كيداً.

وفي هذه الغزوة وادع رسول الله ﷺ عُيَيْنة بن حِصْن أن يرعى بتغلَمين[٣] وما والاه إلى المراض، والمراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة على طريق الرّبذَة.

ذكر غزوة بني المُصْطَلِق[٤]، وهي غزوة المُرَيْسيع

غزاها رسول الله ﷺ في شعبان سنة خمس من الهجرة. حكاه محمد بن سعد.

وقال ابن إسحاق: كانت في شعبان سنة ست؛ وجعلها بعد غزوة ذي قَرَد.

---

(١) كذا في الأصول، والمواهب اللدنية، وفي معجم البلدان: «سميت بدوم بن إسماعيل، وقال الزجاجي: «دومان بن إسماعيل. وقيل: كان لإسماعيل ولد اسمه دما، ولعله مغير منه. وقال ابن الكلبي: دوماء بن إسماعيل».

(٢) النعم: الإبل.

(٣) كذا في الطبري، وطبقات ابن سعد، ومعجم البلدان، والقاموس. وفي الأصل: «بثعلبين». وهو تحريف. و«تغلمين» من المراض على ميلين.

(٤) المصطلق: لقب جذيمة بن سعد بن عمرو، لقب بذلك لحسن صوته وكان أول من غنى من خزاعة.

وكان سبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ بلغه أن الحارث بن أبي ضرار سيّد بني المُصْطَلق، سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، ودعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه وتهيئوا للمسير، فبعث رسول الله ﷺ بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي للوقوف على حقيقة الخبر، فأتاهم وكلم الحارث ورجع إلى رسول الله ﷺ بالخبر، فندب ﷺ الناس فأسرعوا في الخروج، وقادوا الخيول، وهي ثلاثون فرساً، عشرة منها للمهاجرين وعشرون للأنصار، وخرج معه خلق كثير من المنافقين، لم يجتمعوا في غزاة قط مثلها، واستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة. وقال ابن هشام: استعمل عليها أبا ذرّ الغفاريّ[١]. قال: ويقال: نُميلة بن عبد الله الليثي. قال ابن سعد: وكان معه ﷺ فرسان: لِزاز، والظَّرِب، وخرج يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان، فبلغ الحارثَ بن أبي ضرار ومن معه مسيرُ رسول الله ﷺ، فتفرّق عنه من كان معه من العرب، وخافوا خوفاً شديداً، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسيع ـ وهو ماء لبني المصطلق بينه وبين الفُرْع نحو من يوم، وبين الفرع والمدينة ثمانية بُرُد ـ فنزل به وضرب قُبّته، ومعه ﷺ من نسائه أمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ عائشة، وأم سلمة، وتهيئوا للقتال، وصفّ رسول الله ﷺ أصحابَه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وراية الأنصار إلى سعد بن عُبادة، فترامَوا بالنَّبْل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا حملةَ رجلٍ واحد، فما أفلت من القوم إنسان، قتل منهم عشرة، وأسر سائرهم، وسُبِيت النساء والذّراري، وغنمت النعم والشاء، ولم يَستشهد من المسلمين إلاّ رجل واحد، وأمر رسول الله ﷺ بالأسارى فكتّفوا، واستعمل عليهم بُريدة بن الحُصيب، وأمر بجمع الغنائم فجمعت، واستعمل عليها شُقْران مولاه، وقسم السبي والنعم والشاء، فعُدلت الجزور بعشر من الغنم، وبيعت الرِّثَّة[٢] فيمن يريد[٣]، قال: وكانت الإبل ألفي بعير والشاء خمسة آلاف شاة، والسبي مائي أهل بيت، وصارت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له فكاتباها على تسع أواق من ذهب، فسألت رسول الله ﷺ في

---

(١) أبو ذر الغفاري: (. . . ـ ٣٢هـ = . . . ـ ٦٥٢ م) جُندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد من بني غفار . . . أبو ذر، صحابي، من كبارهم، قديم الإسلام يقال أسلم بعد أربعة وكان خامساً. هاجر بعد وفاة النبي ﷺ إلى بادية الشام. فسكن دمشق وجعل ديدنه تحريض الفقراء على الأغنياء في أموالهم. أمره عثمان بالرحلة إلى الربذة (من قرى المدينة) فسكنها إلى أن مات. ولما مات لم يكن في داره ما يكفن به. انظر (الأعلام: ٢: ١٤٠).

(٢) الرِّثة: رديء المتاع، وإسقاط البيت من الخلقان.

(٣) في الطبقات: «فيمن يزيد».

كتابتها فأدّى عنها، وتزوّجها على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار أزواجه ﷺ.

قال ابن سعد: وكان من السبي من منّ عليه رسول الله ﷺ بغير فداء، ومنهم من أُفدي، فافتديت[1] المرأة والذرّية بست فرائض، وقدموا المدينة ببعض السبي، فقدم عليهم أهلوهم فافتدوهم، فلم تبق امرأة من بني المصطلق إلاّ رجعتْ إلى قومها. وكان شعار المسلمين يوم بني المصطلق: يا منصور أمت أمِت؛ وغاب رسول الله ﷺ في غزاته هذه ثمانية وعشرين يوماً، وقدم المدينة لهلال رمضان.

وفي هذه الغزاة تكلم عبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق بما تكلم به من قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا﴾. ووقع حديث الإفك، وقد قدّمنا ذكر ذلك كلّه في حوادث السنين بعد الهجرة، في حوادث السنة الخامسة.

ذكر غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب

وكانت في ذي القعدة سنة خمس من مهاجر رسول الله ﷺ. حكاه ابن سعد. وقال ابن إسحاق: كانت في شوّال.

قال محمد بن سعد ومحمد بن إسحاق وعبد الملك بن هشام، رحمهم الله تعالى، دخل حديثُ بعضهم في حديث بعض، قالوا: لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير وساروا إلى خيبر، خرج نفر من أشرافهم ووجوههم، منهم سلام بن أبي الحُقَيق، وحُيَيّ بن أخْطب، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمّار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فقدموا مكّة على قريش، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؛ فقالت قريش لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ[2] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥١-٥٥] قالوا: فلما

(١) كذا في ابن سعد، وفي الأصول: «فافتدت».
(٢) الجبت والطاغوت: كل معبود من دون الله.

قالت اليهود: ذلك لقريش سرّهم ونشِطوا لما دعَوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاْجتمعوا لذلك، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غَطفان وسُلَيماً، ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأعلموهم أن قريشاً قد بايعوهم على ذلك، فأجابوهم واجتمعوا معهم، فتجهزت قريش وجمعوا أحابيشَهم ومن تبعهم من العرب، وكانوا أربعة آلاف، وعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وقادوا معهم ثلثمائة فرس، وكان معهم ألف وخمسمائة بعير، وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب، ووافتهم بنو سليم بمَرّ الظَّهْران، وهم سبعمائة، يقودهم سفيان بن عبد شمس، حليف حرب بن أمية، وهو أبو أبي الأعور السُّلَمي الذي كان مع معاوية بصفّين، وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدي، وخرجت غطفان وفزارة، معهما ألف بعير، يقودهم عُيَينة[١] بن حِصْن بن حذيفة بن بدر، وخرجت بنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبي حارثة المريّ، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مِسْعَر بن رُخيلة بن نُويرة بن طَريف، وخرج معهم غيرهم.

فكان جميع من وافى الخندق عشرة آلاف، وهم الأحزاب، وكانوا ثلاثة عساكر، ومرجع أمرهم إلى أبي سفيان بن حرب، فلما بلغ رسول الله ﷺ فُصولُهم[٢] من مكة ندب الناس[٣]، وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورَهم في أمرهم، فأشار عليه سَلْمان الفارسيّ بالخندق، فأعجب ذلك المسلمين، وعسكر بهم رسول الله ﷺ إلى سفح سَلْع[٤]، وجعل سلْعاً خلف ظهره، وكان المسلمون يومئذٍ ثلاثة آلاف، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ثم ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، فعملوا وجدّوا في العمل ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في ذلك العمل رجالٌ من المنافقين، وجعلوا يورّون[٥] بالضعف من العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير إذن رسول الله ﷺ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة، ذكرها لرسول الله ﷺ واستأذنه، فيأذن له، فإذا قضى حاجَته رجع إلى عمله في الخندق، فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين قوله تعالى: ﴿إنّما

---

(١) عيينة هذا هو الذي قال فيه ﷺ: «الأحمق المطاع» لأنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة. وقال فيه أيضاً: «إن شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره». وسمي عيينة لشعر كان بعينيه، واسمه حذيفة. راجع المواهب اللدنية ٢: ١٢٥.

(٢) فصولهم: خروجهم.

(٣) في الأصول: «نذر» وهو تحريف.

(٤) سلع: جبل بسوق المدينة.

(٥) يورون: يخفون مقصودهم من خذلان المسلمين بإظهار الضعف.

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢] ثم قال تعالى في المنافقين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا[(١)] ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] ثم قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٤].

قال: وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه. وروى محمد بن سعد بسند يرفعه إلى سهل بن سعد قال: جاءنا رسول الله ﷺ، ونحن نحفر الخندق وننقل التراب على أكتافنا، فقال ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجِرة[(٢)]». وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل معنا التراب. وقد وارى التراب بياض بطنه، وهو يقول: [من الرجز]

لاَ هُمَّ[(٣)] لولا أنت ما اهتدَيْنا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا
فأَنْزِلَنْ سكينةً علينا ... وثَبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا
إنَّ الأُولَى لقد[(٤)] بغَوا علينا ... إذا أرادوا فتنةً أبَيْنا

أبينا يرفع بها صوته ﷺ.

وكان لرسول الله ﷺ في حفر الخندق معجزات نذكرها إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لمعجزاته، ومنها ما يتعيّن ذكره ها هنا، وهو ما حكاه محمد بن إسحاق عن جابر بن عبد الله قال:

اشتدت على الناس في بعض الخندق كُدْية[(٥)]، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو، ثم نضح ذلك الماء على

---

(١) اللواذ: الاستتار بالشيء عند الهرب.

(٢) وهذا القول من كلام عبد الله بن رواحة، تمثل به عليه الصلاة والسلام. راجع الروايات المختلفة في صيغته، وفي كونه شعراً أو غير شعر في المواهب اللدنية: ٢: ١٢٧.

(٣) كذا في ابن سعد الذي نقل عنه المؤلف. وفي الأصول: «اللهم» والشعر لعبد الله بن رواحة. ارتجز به النبي ﷺ.

(٤) وفي الأصول: «قد» وما أثبتناه رواية ابن سعد الذي نقل عنه المؤلف. وفي هذه الأبيات روايات كثيرة تجدها في المواهب اللدنية: ٢: ١٢٨.

(٥) الكدية: الحجر الصلد، الضخم، والشيء الصلب من الحجارة والطين والأرض الغليظة.

تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق لانهالت حتى عادت كالكثيب، لا تردّ فأساً ولا مِسحاة.

قالوا: وفرغوا من حفر الخندق في ستّة أيام، وكانوا يعملون فيه نهاراً وينصرفون ليلاً، ورفع رسول الله ﷺ النساء والصبيان في الآطام، وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثمان مضين من ذي القعدة، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة، ويحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة. وأقبلت قريش ومن شايعها وتابعها، وٱجتمع إليها بعد فراغ الخندق، فصار الخندق بين رسول الله ﷺ وبينهم، وظهور المسلمين إلى سَلْع وخرج حُييّ بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظيّ، صاحب عقد بني قريظة، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده، فأغلق كعب دون حُييّ باب حصنه، وأبى أن يفتح له، فناداه حييّ: ويْحك يا كعب! افتح لي. قال: ويحك! إنك ٱمرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً فعاوده مراراً، وهو يأبى عليه حتى قال له حُييّ: والله إن أغلقت دوني إلا عن جَشِيشتك[١] أن آكل معك. فأحفظه[٢] ذلك، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعزّ الدهر وببحرٍ طام[٣]، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال، ومن دونه[٤] غطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذنَب نَقَمى على جانب أُحُد، وقد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذلّ الدهر، وبجهَام[٥] قد هَرَاق ماءَه، يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، ويحك يا حُييّ! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل به حُيي حتى سَمح له، أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد[٦] عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين وصحّ ذلك عنده كبّر وقال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قال: ونَجَم النفاق وفَشِل الناس، وعظم البلاء، وٱشْتَدَّ الخوف، وخِيفَ على الذراريّ

---

(١) الجشيشة: واحدة الجشيش، وهو أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً، ثم تنصب به القدر، ويلقى عليها لحم أو تمر فيطبخ، ويقال لها: دشيشة.

(٢) احفظه: أغاظه، أغضبه.

(٣) طام: مرتفع، يريد كثرة الرجال.

(٤) التصويب من المواهب، وفي الأصول: «من رومة» وهو تحريف.

(٥) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(٦) كذا في الطبري وابن هشام. وفي الأصل: «راشد».

والنساء، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب: ١٠] قال: وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلثمائة يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قُريظة، وكان عباد بن بشر[١] على حرس قبة رسول الله ﷺ، مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة، ورسول الله ﷺ والمسلمون وِجاهَ العدوّ لا يزولون يعتقبون خندقهم ويحرسونه، والمشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوماً، ويغدو ضرار بن الخطّاب الفهريّ[٢] يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلَهم، ويجتمعون مرّة ويتفرّقون أخرى، ويناوشون أصحابَ رسول الله ﷺ، ويقدّمون رماتهم فيرمون، فرمى حِبَّانُ بن العَرِقة سعدَ بنَ معاذ بسهم فأصاب أَكْحَلَه[٣]، فقال: خذها وأنا ابن العَرِقة. ويقال: رماه أبو أسامة الجُشَمي.

قال ابن هشام: ولما اشتدّ على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عُيينة بن حِصن بن حُذَيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أمر تحبّه فتصنعه، أم شيء أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم[٤] من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم

---

(١) عباد بن بشر: (٣٣ ق هـ ـ ١٢ هـ = ٥٩١ ـ ٦٣٣ م) عباد بن بشر بن وقش الأشهلي الخزرجي الأنصاري: صحابي من أبطالهم. أسلم في المدينة، وشهد المشاهد كلها. استعمله الرسول ﷺ على حرسه بتبوك، واستشهد يوم اليمامة (راجع الأعلام: ٣: ٢٥٧).

(٢) ضرار بن الخطاب: (... ـ ١٣ هـ = ... ـ ٦٣٤ م) ضرار بن الخطاب بن مرداش القرشي الفهري: فارس شاعر، صحابي من القادة من سكان الشراة، فوق الطائف، قاتل المسلمين يوم أحد والخندق أشد قتال، وأسلم يوم فتح مكة، ولم يكن في قريش أشعر منه. استشهد في وقعة أجنادين. (الأعلام: ٣: ٢١٥).

(٣) الأكحل: عرق في وسط الذراع يكثر فصده.

(٤) كالبوكم: اشتدوا عليكم.

لا يطعمون أن يأكلوا منها تمرة إلا قراء[١] أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعْطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب؛ ثم قال: لِيَجْهدوا علينا.

قال ابن سعد: ثم اجتمع رؤساؤهم أن يغدو يوماً، فغَدَوْا جميعاً ومعهم رؤساء سائر الأحزاب، وطلبوا مَضِيقاً من الخندق يقتحمون خيلهم إلى النبي ﷺ وأصحابه فلم يجدوا ذلك وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها؛ فقيل لهم: إن معه رجلاً فارسياً، فهو أشار عليه بذلك؛ قالوا: فمِن هناك إذاً، فصاروا إلى مكان ضيّق أغفله المسلمون، فعَبَر منه عكرمةُ بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطّاب، وهُبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد وُدّ[٢] فجعل عمرو بن عبد ودّ يدعو إلى البراز، ويقول: [من الوافر]

ولـقـد بـحِـحْـتُ مـن الـنـدا لـجـمـعـهـم هـل مـن مُـبـارِزْ

وكان ابن تسعين سنة، فبرز إليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: يا عمرو، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلّتين[٣] إلاّ أخذتها منه؛ قال له: أجل. قال له: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام؛ قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النِّزال، قال: يا بن أخي، فوالله ما أحبّ أن أقتلك، فقال له عليّ: ولكني والله أحبّ أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهَه، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتَجاوَلا، فقتله عليّ رضي الله عنه، وخرجت خيلهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق. وألقى عِكْرمة بن أبي جهل يومئذٍ رمحه وهو منهزم عن عمرو. فقال حسّان بن ثابت: [من المتقارب]

فـرّ وألـقـى لـنـا رمـحَـه لـعـلـك عـكـرمَ لـم تَـفـعـلِ[٤]
وولّـيـتَ تـعـدو كـعَـدْوِ الـظّـلِـيـ ـمِ ما إن تَـجـورُ عـن الـمَـعْـدلِ[٥]

---

(١) القراء: ما يقدم للضيف من الطعام.
(٢) عمرو بن عبد ود: (. . . ـ ٥ هـ = . . . ـ ٦٢٧ م) عمرو بن عبد ود العامري. من بني لؤي، من قريش: فارس قريش وشجاعها في الجاهلية. أدرك الإسلام ولم يسلم. قتله علي بن أبي طالب. (الأعلام: ٥: ٨١).
(٣) الخلة: المأثرة.
(٤) يبدو أن الكلمة الأولى من صدر البيت سقط منها حرف، ولا يستقيم الوزن إلا به كقولك: «فغرّ»، مثلاً.
(٥) الظلِم: ذكر النعام.

ولـم تـلـق ظـهـرَك مـسـتـأنـسـاً كـأنّ قَـفـاك قَـفـا فُـرْعُـلِ[١]

قال ابن سعد: وحمل الزبير بن العوّام على نوفل بن عبد الله بالسيف فضربه فشقّه باثنتين، ثم اتّعدوا أن يغدوا من الغد، فباتوا يعبّئون أصحابهم، وفرّقوا كتائبهم، ونحَوا إلى رسول الله ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد فقاتلوهم يومهم ذاك إلى هُويّ[٢] من الليل، ما يقدرون أن يزولوا من موضعهم، ولم يصلّ رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً، ولا عشاء، حتى كشفهم الله تعالى، فرجعوا متفرّقين إلى منازلهم وعسكرهم، وانصرف المسلمون إلى قبّة رسول الله ﷺ، وأقام أُسيد بن حُضير على الخندق في مائتين من المسلمين، وكرّ خالد بن الوليد في خيل المشركين يطلبون غِرّة[٣] من المسلمين فناوشوهم ساعة ومع المشركين وَحْشِيّ، فزرقَ[٤] الطفيلَ بن النعمان بمِزراقه فقتله، وانكشفوا، وصار رسول الله ﷺ إلى قبّته فأمر بلالاً فأذّن وأقام للظهر فصلّى، ثم بعد ذلك لكل صلاة إقامة إقامة، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات، وقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى ـ صلاة العصر ـ ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً». ولم يكن لهم بعد ذلك قتال جميعاً حتى انصرفوا، إلا أنهم لا يَدعون الطلائع[٥] بالليل طمعاً في الغرّة، قال: وحُصر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة. وقال ابن إسحاق: أقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر.

ثم إن نُعيم بن مسعود بن عامر بن أُنَيْف بن ثعلبة بن هلال بن حلاوة[٦] بن الأشجع بن رَيْث بن غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرْني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل[٧] عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة». فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصّةَ ما بيني وبينكم؛ قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم؛ فقال: إن

(١) الفرعل: صغار الضباع.
(٢) هُوي من الليل: ساعة منه، أو نحو ثلثه أو ربعه.
(٣) غرة: فرصة.
(٤) زرق: طعن، المزراق: الرمح القصير.
(٥) الطلائع: المراقبة.
(٦) كذا في الأصول وفي أسد الغابة، والإصابة. وفي ابن هشام «خلاوة». وجاءت الروايتان في الطبري.
(٧) فخذّل عنا: أي أدخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً.

قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تجلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهْزة[١] أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم[٢] رهْناً من أشرافهم، ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه؛ قالوا: لقد أشرت علينا بالرأي. ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمّداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت منه عليّ حقاً أن أبلّغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني؛ قالوا: نفعل، فما هو؟ قال: تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين: قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم، ونعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي، وأحبّ الناس إليّ، ولا أراكم تتّهموني[٣]، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم؛ قال: فاكتموا عني؛ قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثلما قال لقريش، وحذّرهم ما حذّرهم. فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمَة بن أبي جهل[٤]، في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخفّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ فيما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم[٥] الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا[٦] إلى بلادكم

---

(١) النهزة: انتهاز الشيء، وهو اختلاسه.
(٢) الرهن: جمع رهينة.
(٣) حذفت نون الرفع هنا. وهو جائز على قلة.
(٤) عكرمة بن أبي جهل: (... ـ ١٣هـ = ... ـ ٦٣٤ م) عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي: من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام. أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه، فشهد الوقائع. واستشهد في اليرموك أو يوم مرج الصفر وعمره ٦٢ سنة. (الأعلام: ٤: ٢٤٤).
(٥) ضرستكم: أي نالت منكم.
(٦) تنشمروا: تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم.

وتتركونا، والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغَطَفان: والله إن الذي حدّثكم نُعيم بن مسعود لحَقّ، فأرسَلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا؛ فقالت بنو قُرَيْظَة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذَكر لكم نُعيم بنُ مسعود لحقّ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشَمَروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل. فأرسلوا إلى قريش وغَطَفان: إنّا والله لا نقاتل معكم حتى تُعطونا رهناً. فأَبَوْا عليهم، وقال أبو سفيان: ألا أراني أستعين بإخوة القِرَدة والخنازير! فوقع الاختلاف والخُذْلان بينهم، وبعث الله عزّ وجلّ ريحاً في ليلة شاتية شديدة البَرْد، فكفأَتْ[1] القدور وطرحت الأبنية.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما وقع بينهم من الاختلاف أَرسل حُذيفة بن اليمان[2] إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً. قال حذيفة: دعاني رسول الله ﷺ فقال: يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تُحدِثَنَّ شيئاً. فذهبتُ فدخلتُ فيهم، والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقِرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسُه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: فلان ابن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، ولقد هلك الكُراع[3] والخُفّ، وأخلفنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقِينَا من شدة الرِّيح ما ترون، فارتحِلوا فإنّي مرتحِل. ثم قام إلى جَمَله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوَثَب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ ألاّ أحدث شيئاً حتى آتيه، ثم لو شئت، لقتلته بسهم. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر. وسمعتُ غَطَفان ما فعلتْ قريش، فانشَمَروا راجعين إلى بلادهم وأصبح رسول الله ﷺ فانصرف راجعاً إلى المدينة هو والمسلمون ووضعوا السلاح. وكان شعار المسلمين في غزوة الخندق (حَمَ لا ينصرون).

ولما انصرف رسول الله ﷺ وأصحابه عن الخندق قال لأصحابه: لن تغزوَكم

(١) كفأت: قلبت.

(٢) حذيفة بن اليمان: (. . . ـ ٣٦ هـ = . . . ـ ٦٥٦ م) حذيفة بن حِسل بن جابر العبسي أبو عبد الله، واليمان لقب حِسل: صحابي، كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين. توفي في المدائن. (الأعلام: ٢: ١٧١).

(٣) الكُراع: الخيل.

قريش بعد عامكم هذا، ولكنّكم تغزوهم[١]. فكان كذلك.

قال ابن سعد: وكانت مدّة الحصار خمس عشرة ليلة، وانصرف رسول الله ﷺ لسبع ليال بقين من ذي القعدة سنة خمس. وقد ذكرنا ما قاله غيرُه في ذلك.

ذكر تسمية من استُشهد من المسلمين في غزوة الخندق ومن قُتِل من المشركين

قال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى: واستشهد من المسلمين في غزوة الخندق أنس بن أوس بن عتيك من بني الأشهل، قتله خالد بن الوليد؛ وعبد الله بن سهل[٢] الأشهليّ، وثعلبة بن غَنَمة بن عديّ، قتله هبيرة بن أبي وهب؛ وكعب بن زيد من بني دينار، قتله ضرار بن الخطّاب، وسعد[٣] بن معاذ مات من جراحة بعد بني قريظة، والطُّفَيل بن النعمان بن جُشم.

وقتل من المشركين أربعة نفر وهم: عثمان بن أميّة بن مُنبّه بن عُبيد بن السبّاق من بني عبد الدار بن قصيّ، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة، وعمرو بن عبد وُدّ، ويقال: وابنه حِسْل بن عمرو، قتلهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذكر ما أُنزِل على رسول الله ﷺ من القرآن في غزوة الخندق وما ورد في تفسير ذلك

أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ في أمر الخندق والأحزاب قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب: ٩] قال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي رحمه الله: قوله: «إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ» يعني الأحزاب: قريش وغَطَفان ويهود قُرَيْظة والنّضير. «فأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً» قال: وهي الصَّبا[٤]. قال عكرمة: قالت

---

(١) حذف المؤلف نون الرفع من الفعل، وهو جائز على قلة. وقال الدماميني: إنه شاذ. وقال في الهمع: لا يقاس عليه في الاختيار.

(٢) كذا في أسد الغابة، والاستيعاب، والطبقات وفي كلا الأصلين: «سهيل».

(٣) رمى حبان بن العرقة سعد بن معاذ يوم الخندق بسهم فقطع أكحله، فحسمه رسول الله ﷺ، فانتفخت يده ونزفه الدم، فلما رأى ذلك قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني في بني قريظة. فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة، حتى نزل بنو قريظة على حكمه، وكان حكمه فيهم أن تقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتسبى نساؤهم وذريتهم. فقال رسول الله ﷺ: أصبت حكم الله فيهم. فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات رحمه الله.

(٤) الصَّبا: الصبا هي الريح الشرقية، ويقال لها: القبول، لأنها تقابل الشمال، والشمال: الريح العقيم التي لا خير فيها.

الجَنوب للشَّمال ليلةَ الأحزاب: انطلقي بنُصرة رسول الله ﷺ فقالت الشَّمال: إن الحرّة[١] لا تسري بالليل، وكانت الريح التي أرسلت عليهم الصَّبا، قال رسول الله ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبا وأُهلِكتْ عاد بالدَّبور». قوله: «وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا» هي الملائكة، ولم تقاتل يومئذٍ، قال المفسرون: بعث الله تعالى عليهم باللّيل ريحاً باردة، وبعث الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطّعت أطناب الفَساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضُها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيد كلّ حيّ يقول: يا بني فلان، هلمّ إليّ؛ فإذا اجتمعوا عنده قال: النَّجاء النَّجاء، أُتيتم. لِما بعث الله عليهم من الرعب، فانهزموا من غير قتال.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠] قال: قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني من فوق الوادي من قبل المشرق، عليهم مالك بن عوف النَّصريّ، وعيينة بن حصن الفَزاري في ألف من غَطَفان، ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وحُييّ بن أخطب في يهود بني قُرَيظة. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب، وهو أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعه، وأبو الأعوار السّلمي من قبل الخندق. وقال ابن إسحاق: والذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة، والذين جاءوا من أسفل منهم قريش وغطفان. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي مالت وشخصت ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ قال: أما المنافقون فظنوا أن محمداً ﷺ وأصحابه سيُغلبون ويُستأصلون، وأما المؤمنون فأيقنوا أن ما وعدهم الله حقّ، وأنه سيظهر دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١] قال: أي اختُبروا ومُحّصوا، ليُعرَف المؤمن من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: حُرّكوا وخُوّفوا ﴿زِلْزَالًا﴾ تحريكاً ﴿شَدِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢] قال: يعني معتِّب بن قشير وأصحابه ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شَكٌّ وضَعفُ اعتقاد، وقد قدّمنا في أخبار المنافقين ما تكلم به معتِّب بن

---

(١) وفي المواهب: ٢: ١٤٦: «إن الحرائر لا تهب بالليل» وفي القرطبي: ١٤: ١٤٤: «إن محوة لا تسري بالليل» ومحوة من أسماء الشمال؛ لأنها تمحو السحاب وتذهب به.

قشير في هذه الغزوة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣]. ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من المنافقين، وهم أوْس بن قيظيّ وأصحابه؛ قال مقاتل: هم بنو سالم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود لعبد الله بن أُبيّ وأصحابه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه! فارجعوا إلى المدينة. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة بن الحارث ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي خالية ضائعة، وهي مما يلي العدوّ، وإنا لنخشى عليها العدوّ والسُّرّاق، قال: وقرأ ابن عباس وأبو رجاء العُطارديّ «عوِرة» بكسر الواو، يعني قصيرة الجدران فيها خلل وفُرجة. وأخبر تعالى أنها ليست بعورة، إن يريدون إلا الفرار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا[1] وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الأحزاب: ١٤] قال: يقول: لو دخل عليهم هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم المدينة ﴿أَقْطَارِهَا﴾ جوانبها ونواحيها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الشرك ﴿لَءَاتَوْهَا﴾ أي لجاءوها وفعلوها ورجعوا عن الإسلام وكفروا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟﴾ وما احتسبوا عن الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ولأسرعوا إلى الإجابة إليها طيبة بها أنفسهم، قال: هذا قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن والفرّاء: وما أقاموا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى هَلَكوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥] قال: ﴿عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي من قبل غزوة الخندق ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ عدوّهم ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ قال يزيد بن رومان[2]: هم بنو حارثة همّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألاّ يعودوا لمثلها، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم.

وقال قتادة: هم ناس كانوا قد غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدرٍ من الكرامة والفضيلة، فقالوا: لئن أشهدَنا الله قتالاً لنقاتلنّ. فساق الله تعالى ذلك إليهم في ناحية المدينة.

---

(١) «لأتوها» من غير مد قراءة نافع، وعليها تفسير المؤلف (لجاؤها).

(٢) يزيد بن رومان: (... ـ ١٣٠هـ = ... ـ ٧٤٧ م) يزيد بن رومان الأسدي، أبو روح، مولى آل الزبير بن العوام: عالم بالمغازي، ثقة. من أهل المدينة. ووفاته بها. (الأعلام: ٨: ١٨٢).

وقال مقاتل[١] والكلبي: هم السبعون رجلاً الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العَقَبة وقالوا له: اشترط لربك ولنفسك ما شئت؛ فقال النبي ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأولادكم وأموالكم». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا رسول الله؟ قال: «لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة». قالوا: قد فعلنا. فذلك عهدهم ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ﴾ أي عنه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦] قال: أي الذي كتب عليكم ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى آجالكم، والدنيا كلّها قليل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي نصرة ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

قوله تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ١٨] قال: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين منكم للناس عن رسول الله ﷺ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ ودَعوا محمداً فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ دفعاً وتعذيراً. قال قتادة: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أَكَلَة[٢] رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك. وقال مقاتل: نزلت في المنافقين، وذلك أن اليهود أرسلوا إلى المنافقين وقالوا: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه! فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يستبْقوا منكم أحداً، وإنا لنُشفِق عليكم، أنتم إخواننا وجيراننا، هَلُمَّ إلَيْنَا. فأقبل عبد الله بن أبيّ وأصحابه على المؤمنين يعوّقونهم ويخوّفونهم بأبي سفيان ومن معه، وقالوا: ما ترجون من محمد؟ فوالله ما يرْفِدُنا[٣] بخير، وما عنده خير، ما هو إلا أن يقتلنا ها هنا، انطلقوا إلى أخواننا وأصحابنا. يعني اليهود، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً.

وقال ابن زيد: لما كان يوم الأحزاب انطلق رجل من عند رسول الله ﷺ، فوجد

---

(١) مقاتل: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي، أبو الحسن (. . . ـ ١٥٠ هـ = . . . ـ ٧٦٧ م) من أعلام المفسرين. أصله من بلخ، انتقل إلى البصرة، ودخل بغداد فحدث بها، وتوفي بالبصرة، كان متروك الحديث. (الأعلام: ٧: ٢٨١).

(٢) أكلة راس: أي هم قليل يشبعهم رأس واحد. (القاموس: أكل).

(٣) يرفدنا: يعيننا.

أخاه، بين يديه شِواء ورغيف ونبيذ، فقال: أنت ها هنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف! فقال: هلم إلى هذا، والذي يحلف به لا يستقبلها محمد أبداً؛ فقال: كذبت والذي يُحلف به ـ وكان أخاه من أبيه وأمه ـ أما والله لأخبرن النبيّ ﷺ أمرك. فذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٩] قال: ﴿أَشِحَّةً﴾ عليكم بالخير والنفقة في سبيل الله، وصفهم الله تعالى بالجبن والبخل ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في رؤوسهم من الخوف والجبن، أي كدَوَران أعين الذي يُغْشى عليه من الموت ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ أي عضوكم ورموكم بألسنة حداد ذَربة[1]، وأصل السلق: الضرب قال قتادة: يعني بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسم الغنيمة، يقولون: أعطونا أعطونا، فإنا قد شهدنا معكم القتال، ولستم بأحقّ بالغنيمة منا؛ وأما عند الغنيمة فأشحّ قوم وأسوا مقاسمة، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق. ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يعني الغنيمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ يعني هؤلاء يحسبون الجماعات لم ينصرفوا عن قتالهم، وقد انصرفوا جُبْناً منهم وفَرَقاً ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي يرجعوا إليهم كرّة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟﴾ من الخوف والجبن ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ عائدون إلى البادية ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي معهم ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ يسألون بعضهم بعضاً عن أخباركم، وما آل إليه أمركم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠] أي رياء من غير حِسبة، ولو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً.

ثم قال تعالى مشيراً إلى المؤمنين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢١ـ ٢٢] قال: قوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي سنّة صالحة أن تنصروه وتؤازروه، ولا تتخلّفوا عنه، ولا ترغبوا بأنفسكم عن نفسه وعن مكان نصرته كما فعل هو؛ إذ كُسرت رَباعيته وجُرح، وقتِل عمّه حمزة، وأُوذِي بضُروب الأذى، فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم أيضاً كذلك، واستنّوا بسنّته، ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي

(١) ذربة: جميلة الكلام.

في الرخاء والبلاء، ثم ذكر المؤمنين بوعود الله تعالى فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ الآية، قال: ووعْد الله إيّاهم قولُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: قوله: ﴿صَدَقُوا۟﴾ أي وفوا به. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يعني فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد. والنحب: النذر، والنحب أيضاً: الموت، قال ذو الرمّة[(١)]: [من الطويل]

عَشيّة فرَّ الحارثيّون بعد ما قَضى نَحْبَه في ملتقى القومِ هَوْبَرُ[(٢)]

أي مات، قال مقاتل: قضى نحبه، أي أجله، فقتل على الوفاء، يعني حمزة وأصحابه الذين استُشهدوا بأُحد، رضوان الله عليهم. وقيل: قضى نحبه، أي بذل جهده في الوفاء بعهده، من قول العرب: نَحَب فلان في سيره يومه وليلته؛ إذا مدّ فلم ينزل قال جرير[(٣)]: [من الطويل]

بِطخْفَةَ جالَدْنا الملوكَ وخَيْلُنا عشِيَّةَ بِسْطَامٍ جَرَيْن على نَحْبِ[(٤)]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قال ابن إسحاق: ينتظر ما وعد الله به من نصره، والشهادة على ما مضى عليه أصحابه. ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي ما شكّوا وما تردّدوا في دينهم، وما استَبدلوا به غيرَه.

ثم قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ يعني قريشاً

---

(١) ذو الرُّمة: (٧٧ ـ ١١٧ هـ = ٦٩٦ ـ ٧٣٥) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة. شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره. كان شديد القصر، دميماً يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. توفي بأصبهان، وقيل بالبادية. (الأعلام: ٥: ١٢٤).

(٢) قال ابن هشام: «هوبر من بني الحارث بن كعب، أراد: يزيد بن هوبر».

(٣) جرير: (٢٨ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٠ ـ ٧٢٨ م) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم: أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة. كان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً وقد جمعت نقائضه مع الفرزدق في ثلاثة أجزاء. وكان يكنى بأبي حرزة. (الأعلام: ٢: ١١٩).

(٤) طخفة: بكسر الطاء، وفتحها: جبل أحمر طويل حذاءه آبار ومنهل، قال صاحب اللسان: «ويقال: جرين على نذر».

وغطفان ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي بالملائكة والريح ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٤ـ ٢٥]، وبيده الفضل والمنّة.

ذكر غزوة بني قُرَيْظة

غزاها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. وقال ابن إسحاق: في شوّال منها.

قال محمد بن إسحاق، ومحمد بن سعد، دخل حديث بعضهما في بعض، قالا: لما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق إلى المدينة هو والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريلُ ـ عليه السلام ـ النَّبي ﷺ معتجراً(١) بعمامة من إستَبْرق، على بغلة عليها رِحالة(٢) عليها قطيفة من ديباج، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم؛ قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعتُ إلا من طلب القوم: إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذّن في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم ألاّ تصلّوا العصرَ إلاّ في بني قريظة. واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم، ودعا رسول الله ﷺ عليًّا، فأعطاه لواءه، وقدّمه إلى بني قريظة، فسار عليّ حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: أظنّك سمعتَ منهم لي أذَى؛ قال: نعم يا رسول الله؛ قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً. فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال لهم: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نِقْمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جَهولاً. ثم نزل ﷺ على بئر من آبار بني قريظة من ناحية أموالهم يقال لها: بئر أَنَّا؛ ويقال: بئر أُنَّي(٣)؛ وتلاحق به الناس، فأتى رجال من بعد العشاء الآخرة لم يصلّوا العصر لقول رسول الله ﷺ «ولا يصلّينّ أحد العصر إلا ببني قريظة». فشغلهم ما لم يكن منه بدٌّ في حربهم وأبوا أن يصلّوا لقول رسول الله ﷺ حتى يأتوا بني قريظة، فصلوا العصر بها بعد العشاء الآخرة، وتخوّف ناس من فوت الصلاة فصلّوا، فما عنّف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين، ولا عابهم الله تعالى في كتابه.

---

(١) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها الرجل على رأسه، ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه.

(٢) الرحالة: سرج من جلود، لا خشب فيها تتخذ للركض الشديد.

(٣) هكذا ضبط في سيرة ابن هشام، وفي شرح المواهب اللدنية أقوال في ضبطه. انظر: ٢: ١٥٤.

قال: وسار رسول الله ﷺ إليهم في المسلمين، وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرساً، فحاصرهم خمسة عشر يوماً. قاله ابن سعد.

قال ابن إسحاق: خمساً وعشرين ليلة أشد حصار حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب. وكان حُييّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيَّها شئتم؛ قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبيّ مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره؛ قال: فإذا أبيتم هذه فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نُخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثَقَلاً حتى يحكم الله بيننا وبينه، فإن نهْلِك نهلِك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وأن نَظْهَرْ فلعمري لنجدنّ النساء والأبناء؛ قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإذا أبيتم عليّ هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة؛ قالوا: تفسد علينا سَبْتَنا، وتحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المسخ؛ قال: ما بات منكم رجل منذ ولدتْه أمّه ليلة واحدة من الدهر حازماً. ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لُبابة(١) بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا؛ فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهَش(٢) إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زلّت(٣) قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عَمَده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ. قال: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو كان جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]. قالت أم سلمة رضي الله

---

(١) اختار بنو قريظة أبا لبابة لأن ماله وولده وعياله فيهم.

(٢) جهش: فزع وأسرع.

(٣) كذا في الأصول. وفي ابن هشام والمواهب اللدنية والطبري: «ما زالت».

عنها: سمعت رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك، فقلت: ممّ تضحك أضحك الله سنك يا رسول الله؟ قال: تِيب على أبي لبابة. قالت: فقلت: أفلا أبشّره يا رسول الله؟ قال: بلى، إن شئت. فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرَب عليهنّ الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا والله، حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده، فلما مرّ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطاً في الجِذْع ستَّ ليال، تأتيه امرأته في كلّ وقت صلاة، فتحلّه للصلاة، ثم تعود فتربطه.

هذا ما كان من أمر أبي لبابة؛ وأما يهود فإن ثعلبة بن سَعْية، وأُسيد بن سعْية، وأسد بن عبيد، وهم نفر من هَدَل، قال ابن إسحاق: ليسوا من بني قريظة ولا النضير، نسبهم فوق ذلك، هم بنو عم القوم، أسلموا في الليلة التي نزل بنو قريظة في صبيحتها على حكم رسول الله ﷺ، وخرج تلك الليلة عمرو بن سُعدَى القرظيّ فمرّ بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة[1]، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سُعدَى ـ وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمد أبداً ـ فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني عثرات الكرام؛ ثم خلّى سبيله، فخرج على وجهه، فلم يُدْرَ أين توجّه من الأرض إلى آخر الدهر، فذكِر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: ذاك رجل نجّاه الله بوفائه؛ ومنهم من يزعم أنه أوثق. والله أعلم.

ذكر نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ وسؤال الأوس فيهم؛ وتحكيم سعد بن معاذ وحكمه فيهم بحكم الله تعالى وقتلهم

قال: ولما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت. يعنون بني قينقاع لما أطلقهم ﷺ لعبد الله بن أبيّ بن سلول، فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: فذاك سعد بن معاذ. وكان سعد في مسجد رسول الله ﷺ، في خَيْمة لامرأة من أسْلم

(١) محمد بن مسلمة: (٣٥ ق هـ ـ ٤٣ هـ = ٥٨٩ ـ ٦٦٣ م) محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي، أبو عبد الرحمٰن: صحابي، من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدراً وما بعدها إلا غزوة تبوك. اعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين. مات بالمدينة. (الأعلام: ٧: ٩٧).

يقال لها: رُفَيدة، كانت تداوي الجرحى محتسبة، فأتاه قومه فحملوه على حمار، ووطئوا له بوسادة من أدَم(١)، ثم أتوا به رسول الله ﷺ، وهم يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك لتحسن فيهم؛ فلما أكثروا عليه قال: لقد أنّى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنَعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، لكلمته التي سمع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيّدكم». فأمّا المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، والأنصار يقولون: قد عمَّ بها رسول الله ﷺ؛ فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لَمَا حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ها هنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: نعم؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسْبَى الذراريّ(٢) والنساء. فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة(٣) أرْقِعة. أي من فوق سبع سماوات، ويقال: إن اليهود سألوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ. والله تعالى أعلم.

قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة وأمر بهم فأُدْخِلوا المدينة، فحبسهم في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فحفر بها خنادق، وجلس هو وأصحابه وبعث إليهم فأُخرجوا إليه أَرْسالاً(٤)، فضُربت أعناقهم، وفيهم حُييّ بن أخطب(٥)، وكعب بن أسد(٦)، واختلف في عددهم فقيل: كانوا ستمائة أو سبعمائة. وقيل: بين

---

(١) الأدم: الجلد.

(٢) الذراري: الأولاد الذين لم يبلغوا الحلم.

(٣) قال ابن دريد: أرقعة: (جمع رقيع) بتذكير العدد على معنى السقف، إذا السماء مؤنث سماعي فقياسه سبع أرقعة بتأنيث العدد، وسميت السماء رقيعاً لأن بعضها كان يرفع بعضاً وبعضهم يجعل الرقيع السماء الدنيا لا غير، وكأنها رفعت بالنجوم.

(٤) أرسالاً: أفواجاً وفرقاً.

(٥) حُيي بن أخطب: (... ـ ٥ هـ = ... ـ ٦٢٦ م) حيي بن أخطب النضري، جاهلي من الأشداء العتاة. كان ينعت بسيد الحاضر والبادي. أدرك الإسلام وآذى المسلمين، فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه. (الأعلام: ٢: ٢٩٢).

(٦) كعب بن أسد: كعب بن أسد بن سعيد القرظي، من بني قريظة: شاعر جاهلي له مناقضات مع «قيس بن الخطيم» في يوم بعاث. (الأعلام: ٥: ٢٢٥).

الثمانمائة والتسعمائة؛ قال: وقالوا: لكعب بن أسد، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب، ما تراه يُصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذُهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل! قال: وأُتِي بِحُيَيّ بن أخطب، وعليه حلّة له فُقّاحية[١] قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبَها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكن من يَخْذِلِ الله يُخذل، ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقَدَر ومَلحَمة كُتبت على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه، فقال جَبَل بن جَوّال الثعلبيّ[٢]: [من الطويل]

لعمرك ما لام ابن أخطبَ نفسَه ... ولكنه من يَخذُلِ الله يُخذَلِ
لجَاهَد حتى أبلغ النفس عُذرَها ... وقَلْقل يبغي العزّ كلّ مُقَلْقَلِ[٣]

وروى محمد بن إسحاق بسند يرفعه إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: لم يُقْتَل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تَحدّث معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله؛ قلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أُقْتل؛ قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته؛ قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل. قال الواقديّ: واسم تلك المرأة: بُنَانة امرأة الحكم القرظيّ، وكانت قتلت خلّاد بن سُويد، طرحت عليه رَحًى، فضرب رسول الله ﷺ عنقَها بخلاد بن سويد. قال: وكان عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام رضي الله عنهما يضربان أعناق بني قريظة، ورسول الله ﷺ جالس هناك.

وروى محمد بن إسحاق عن الزهري أن الزَبِير بن باطا القرظيّ، وكان يكنى أبا عبد الرحمٰن ـ وكان قد منّ على ثابت بن قيس بن شمّاس في الجاهليّة يوم بُعَاث أخذه فجزّ ناصيته ثم خلّى سبيله ـ فجاءه ثابت يوم قريظة، وهو شيخ كبير فقال: يا أبا عبد الرحمٰن، هل تعرفني؟ فقال: وهل يجهل مثلي مثلك؛ قال: إني قد آن أن أجزيَك

---

(١) فقاحية: بلون الورد حين هم أن يتفتح. وفي الأصل: «تفاحية»، وهو تحريف.

(٢) جبل بن جوّال الثعلبي: جبل بن جوال بن صفوان بن بلال بن صارم بن إياس بن عبد غنم. الذبياني ثم الثعلبي. كان يهودياً مع بني قريظة، فأسلم ورثا حيي بن أخطب بأبيات منها: لعمرك... وبالنسبة لصحة هذه الأبيات راجع ترجمة جبل في: الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٢٢٢، رقم الترجمة: ١٠٧١.

(٣) قلقل كل مقلقل: تحرك كثيراً.

بيدك عندي؛ قال: إن الكريم يجزي الكريم؛ ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، فقد كانت للزبير عندي يد، وله عليّ منّة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه؛ فقال رسول الله ﷺ: هو لك؛ فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك؛ قال: شيخ كبير لا أهل ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أهله وولده؛ قال: هم لك. فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد أعطاني امرأتك وولدك، فهم لك؛ قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ماله، فقال: هو لك؛ فأتاه، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أعطاني مالك فهو لك؛ قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأنّ وجهه مرآة صينية يتراءى فيه عذارى الحيّ كعب بن أسد؟ قال: قتل؛ قال: فما فعل سيِّد الحاضر والبادي حُييّ بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مُقدّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا كررنا عَزَّال بن سموءل؟ قال: قتل؛ قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؛ قال: ذهبوا وقتلوا، قال: فإني أسألك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، وما أنا بصابر لله قَبْلة[1] دلْو ناضح حتى ألقى الأحبّة. فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله: «ألقى الأحبة» قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً أبداً.

وفي هذه الواقعة يقول ثابت بن قيس[2]: [من الطويل]

وفَتْ ذِمّتي أنّي كريمٌ وأنني ... صبور إذا ما القوم حادوا عن الصبرِ

وكان زَبيرٌ أعظمَ الناس مِنّةً ... عليّ فلمّا شُدّ كُوعاه بالأسر

أتيت رسولَ الله كيما أفكّه ... وكان رسول الله ﷺ بحراً لنا يجري

قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل من أَنْبَت[3] منهم؛ فسألته سلمى بنت قيس بن المنذر أخت سَلِيط بن قيس ـ وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، وكانت قد صلّت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء على رفاعة بن سموءل القرظيّ، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفها، فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمّي، هب لي رفاعة بن

---

(١) قبلة دلو: أي بمقدار ما يقبل الرجل الدلو ليصبها في الحوض، ثم يصرفها وهذا كله لا يكون إلا عن استعجال وسرعة. وذكر أبو عبيد الحديث فقال: «قال الزبير: يا ثابت، الحقني بهم، فلست صابراً عنهم إفراغة دلو».

(٢) ثابت بن قيس: (. . . ـ ١٢ هـ = . . . ـ ٦٣٣ م) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري: صحابي، كان خطيب رسول الله ﷺ وشهد أحداً، وما بعدها من المشاهد. قتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر. (الأعلام: ٢: ٩٨).

(٣) أنبت: ظهر شعر لحيته.

سموءَل، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل. فوهبه لها، فاستَحْيَتْهُ[(١)].

قال: ثم أمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجُمعت، فاصطفى لنفسه رَيْحانة بنت عمرو بن خُنَافة إحدى نساء عمرو بن قريظة، ثم أخرج الخمس من المتاع والسبي، ثم أمر بالباقي فبيع فيمن يزيد وقسمه بين المسلمين، وكان السُّهمان على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً، للفرس سهمان، ولصاحبه سهم، وصار الخمس إلى مَحْمِيَةَ[(٢)] بن جَزْء الزُّبَيْدي، فكان رسول الله ﷺ يعتق منه، ويهب، ويخدم منه من أراد، وكذلك صنع بما صار إليه من الرِّثّة، وهي السَّقَط من متاع البيت.

وقال محمد بن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاريّ أحد بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع له بهم خيلاً وسلاحاً.

واستُشهد يوم بني قريظة من المسلمين: خلّاد بن سُويد بن ثعلبة بن عَمرو الأنصاري الخزرجي، طُرحت عليه رحًى فشدخَتْه شدخاً شديداً، ومات أبو سنان بن مِحصن بن حُرثان، أخو بني أسد بن خزيمة.

وأنزل الله عزّ وجلّ في شأن بني قريظة قولَه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦ـ ٢٧] قال: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ يعني قُرَيظةَ ظاهروا قريشاً وغطفان ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي حصونهم ومعاقلهم، واحدتها صِيصِية ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذراريّ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ قال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل: يعني خيبر. وقال قتادة: كنا نحدث أنها مكة. وقال الحسن: فارس والروم. وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

ذكر سرية عبد الملك بن عَتِيك[(٣)] إلى أبي رافع سلّام ابن أبي الحُقَيق النضريّ بخيبر

قال محمد بن سعد في طبقاته: كانت في شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

---

(١) استحيته: وهبته الحياة.

(٢) كان من مهاجرة الحبشة، فاستعمله رسول الله ﷺ على الأخماس.

(٣) عبد الله بن عتيك: (... ـ ١٢هـ = ... ـ ٦٣٣ م) عبد الله بن عتيك بن قيس بن الأسود الخزرجي الأنصاري، صحابي، من القادة. شهد أحداً وما بعدها. واستشهد يوم اليمامة في خلافة أبي بكر. (الأعلام: ٤: ١٠٢).

وقال ابن إسحاق: كانت هذه السريّة بعد غزوة بني قريظة. فتكون في ذي الحجّة سنة خمس من الهجرة، وهو الصحيح إن شاء الله، ويدلّ عليه أن محمد بن سعد لما ذكر عبد الله بن عَتِيك في الطبقات قال في ترجمته: إن رسول الله ﷺ بعثه في ذي الحجّة سنة خمس إلى أبي رافع سلّام بن أبي الحقيق بخيبر.

قال محمد بن إسحاق: لما أصابت الأوسُ كعبَ بنَ الأشرف قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً. فتذاكروا: من رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله، فأذن لهم، فخرج إليه من الخزرج خمسة نفر، وهم: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سِنان، وعبد الله بن أُنَيس، وأبو قتادة الحارث بن ربْعي، وخُزَاعيّ بن أسود، حليف لهم من أسلم.

قالوا: وكان أبو رافع بن أبي الحُقيق قد أجلب[١] في غطفان ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجُعْل العظيم لحرب رسول الله ﷺ، فأمّر رسول الله ﷺ عليهم عبد الله بن عتيك، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة، فخرجوا حتى قدموا خيبر فكمنوا، فلما هدأت الرِّجْل جاءوا إلى منزله فصعدوا درجة له، وقدّموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن[٢] باليهوديّة، فاستفتح وقال: جئت أبا رافع بهديّة. ففتحت له امرأته، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشار إليها بالسيف فسكتت، فدخلوا عليه فَعَلَوْه بأسيافهم، قال ابن أنيس: وكنت رجلاً أعشى لا أبصر، فاتّكأْتُ بسيفي على بطنه حتى سمعت خَشَّه في الفراش، وعرفت أنه قد قضى، وجعل القوم يضربونه جميعاً، ثم نزلوا وصاحت امرأته، فتصايح أهل الدار. قال ابن إسحاق: وكان عبد الله بن [عتيك][٣] سيىء البصر، فوقع من الدرجة فوَثِئت[٤] يده وَثْئاً شديداً، قال ابن هشام: ويقال: رِجْله؛ قالوا: فحملناه حتى أتينا منهراً من عيونهم ـ والمناهر؛ واحدتها مَنْهرة، وهو فضاء يكون بين أفنية القوم يلقون فيها كُنَاستهم ـ فدخلنا فيه.

قال محمد بن سعد: وخرج الحارث أبو زينب في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران، فلم يَرَوْهم، فرجعوا، ومكث القوم في مكانهم يومين حتى سكن الطلب. قال ابن إسحاق: فقلنا: فكيف لنا أن نعلم بأن عدوّ الله قد مات؟ فقال رجل منا: أنا ذاهب فأنظر لكم. فانطلق حتى دخل في الناس، فوجده ورجال من يهودَ

---

(١) أحلب: جمع.

(٢) يرطن: يتحدث.

(٣) في الأصول: «عبد الله بن أنيس». والتصويب عن ابن هشام، وأسد الغابة، والمواهب اللدنية، والطبري.

(٤) الوثء: صدع يصيب اللحم ولا يبلغ العظم فيرم، وقيل: هو توجع في العظم من غير كسر.

حوله، وامرأته في يدها مصباح تنظر في وجهه وتحدّثهم وتقول: أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك، ثم أكذبت نفسي وقلت: ابن عتيك بهذه البلاد! ثم أقبلت تنظر في وجهه وتقول: فاظ[١] وإلٰهِ يهود. قال: فما سمعت كلمة كانت ألذّ في نفسي منها؛ وجاء فأخبرهم بالخبر، قالوا: فاحتملنا صاحبنا، وقدمنا على رسول الله ﷺ، فأخبرناه بقتل عدوّ الله، واختلفنا عنده في قتله، كلّنا يدّعيه، فقال: هاتوا أسيافكم، فجئناه بها، فنظر إليها، فقال لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام.

قال الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدّمياطي رحمه الله في سيرته: وفي حديث آخر أن الذي قتله عبد الله بن عتيك وحدَه، قال: وهو الصواب. والله أعلم.

وقال حسان بن ثابت الأنصاريّ في قتل سلام بن أبي الحقيق وابن الأشرف: [من الكامل]

لله درّ عِصَابَةٍ لاقَيْتَهُمْ ... يا بن الحُقيقِ وأنت يا بن الأشرف
يسرون بالبِيض الخفاف إليكُم ... مرَحاً كأُسْدٍ في عَرِين مُغْرِفِ[٢]
حتى أتَوْكم في محلّ ديارِكم ... فسقَوْكُمُ حَتْفاً بِبيض ذُفَّف[٣]
مستنصرين لنصر دين نبيّهمْ ... مستصغِرين لكلّ أمرٍ مُجحِف[٤]

ذكر سرية محمد بن مسلمة إلى القُرْطاء، وهم بنو قُرط وقُرَيط من بني كلاب

بعثه رسول الله ﷺ لعشر خلون من المحرم، على رأس تسعة وخمسين شهراً من مُهاجَرِه في ثلاثين راكباً إلى القُرْطاء[٥]، وهم ينزلون بناحية ضَرِيّة[٦] وبين ضريّة والمدينة سبع ليال، فقتل نفراً منهم، وهرب سائرهم، واستاق نعماً وشاءً، ولم يعرض

---

(١) فاظ: مات.
(٢) في رواية: «بالبيض الرقاق»، يعني السيوف مدحاً: نشاطاً.
عرين مغرف: قال أبو ذر الخشني في شرح السيرة: ٢: ٣٢٦ «العرين: غابة الأسد. ومغرف: ملتف الأغصان.
(٣) دفف: سريعة القتل.
(٤) في ديوان حسان: «مستبصرين لنصر». مُجحف: ذاهب بالنفوس والأموال.
(٥) كذا ضبطه صاحب المواهب اللدنية، انظر ٢: ١٧٣.
(٦) ضرية: قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة، وهي إلى مكة أقرب.

للظّعن، وانحدر إلى المدينة، فخمس رسول الله ﷺ ما جاء به، وفَض ما بقي على أصحابه، فعدلوا الجزور بعشرين من الغنم، وكانت النعم مائة وخمسين بعيراً، والغنم ثلاثة آلاف شاة. وغاب سبع عشرة ليلة، وقدم لليلة بقيت من المحرّم.

ذكر غزوة بني لَحْيان بناحية عُسفان(١)

غزاها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل سنة ست من مهاجره على ما أورده محمد بن سعد. وقال محمد بن إسحاق: في جمادي الأولى سنة ست.

وذلك أن رسول الله ﷺ وَجَد(٢) على عاصم بنِ ثابت وأصحابه أصحاب الرَّجيع ـ وَجْداً شديداً، فأظهر أنه يريد الشام.

قال ابن سعد: وعسكر لغرّة هلال شهر ربيع الأوّل في مائتي رجل، معهم عشرون فرساً، واستخلف على المدينة عبد الله بنَ أمّ مكتوم، ثم أسرع المسير حتى انتهى إلى بطن غُرَان، وبينها وبين عُسفان خمسة أميال، حيث كان مصاب أصحابه، فترحّم عليهم ودعا لهم، فسمعتْ بهم بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يوماً أو يومين، فبعث السرايا في كلّ ناحية، فلما يقدروا على أحد، ثم خرج حتى أتى عسفان، ثم انصرف ﷺ إلى المدينة، وهو يقول: «آيبون تائبون عابدون لربّنا حامدون، أعوذ بالله من وَعْثاء(٣) السفر وكآبة المنقلَب وسوء المَنظَر في الأهل والمال». وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة.

ذكر غزوة الغابة، وهي غزوة ذي قَرَد(٤)
وهي على بريد من المدينة في طريق الشام

غزاها رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل سنة ستة من مُهاجَرِه.

قالوا: كان لرسول الله ﷺ عشرون لَقْحَة(٥) ترعى بالغابة، وكان أبو ذرّ فيها، فأغار عُيَينة بن حِصن ليلة الأربعاء في أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا ابن أبي ذرّ.

وقال محمد بن إسحاق: وكان فيهم رجل من غِفار وامرأة له، فقتلوا الرجل

---

(١) عسفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة.
(٢) وجد: غضب.
(٣) وعثاء: مشقات، متاعب.
(٤) قَرَد: بفتح القاف والراء، وحكي الضم فيهما، وحكي ضم أوله وفتح ثانيه.
(٥) اللقحة: الناقة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة.

وحملوا المرأة في اللقاح. وجاء الصّريخ، فنودي: الفزعَ الفزعَ! فنودي: «يا خيل الله اركبي»؛ وكان أوّل ما نودي بها؛ وركب رسول الله ﷺ، فخرج غداة الأربعاء، فكان أوّل من أقدم المِقداد بن عمرو، وعليه الدرع والمِغفر شاهراً سيفه، فعقد له رسول الله ﷺ لواء في رمحه، وقال: امضِ حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخلّف سعد بن عبادة في ثلثمائة من قومه يحرسون المدينة. قال المقداد: فخرجت فأدركت أخريات العدوّ، وقد قتَل أبو قتادة الحارثُ بن رِبعيّ حبيبَ بن عُيينة بن حِصْن، وغشّاه برده، فلما أقبل رسول الله ﷺ والناس، فرأوا حبيباً مسجّى[1] ببُرد أبي قتادة، فاسترجع الناس، وقالوا: قتِل أبو قتادة؛ فقال رسول الله ﷺ: ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة وضع عليه برده، لتعرفوا أنه صاحبه. وقال ابن سعد: إن الذي قتل حبيباً هو المقداد بن عمرو، قتله وقتل قِرفة بن مالك بن حُذَيفة بن بدر؛ وإن أبا قتادة قتل مسعدة، فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه، وأدرك عكاشة بن مِحصن أوْباراً وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد، فقتلهما. واستشهد من المسلمين يومئذٍ مُحرِز بن نضلة، قتله مَسعدة، وأدرك سلمة[2] بن الأكوع القوم وهو على رجليه، فجعل يُراميهم بالنبل ويقول: [من مجزوء الرجز]

خذها وأنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرُّضّع[3]

حتى انتهى إلى ذي قرد ـ وهي ناحية خَيْبر ممّا يلي المُستناخ ـ قال سلمة: فلحقنا رسول الله ﷺ والناس والخيول عشاء، فقلت: يا رسول الله، إن القوم عِطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح[4]، وأخذت بأعناق القوم. فقال النبيّ ﷺ: «ملكتَ فأسجِح»[5]؛ ثم قال: «إنهم الآن ليُقْرَون[6] في غَطَفان». وذهب الصريخ إلى بني عمرو بن عوف، فجاءت الأمداد فلم تزل الخيل تأتي والرجال

(١) مسجى: مغطى.
(٢) كان شجاعاً رامياً يسبق الفرس، وما كذب قط.
(٣) يوم الرضع: يعني يوم هلاك اللئام، من قولهم: لئيم راضع، أي رضع اللؤم في بطن أمه. وقيل: معناه اليوم يعرف من ارتضعته الحرب من صغره، وتدرب بها، ويعرف غيره (راجع المواهب: ٢: ١٨٢).
(٤) السرح: المال السائم المرسل في المرعى.
(٥) ملكت فاسجح: أي قدرت عليهم، فارفق وأحسن العفو.
(٦) يقرون: من القرى، وهي الضيافة. وقيل: يجمعون الماء واللبن لذلك تقرأ بفتح الراء وضمها حسب المعنى.

على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بذي قرد، فاستنقذوا عشر لِقاح، وأفلت القوم بما بقي، وهي عشرة، وصلّى رسول الله ﷺ بذي قرد صلاة الخوف، وأقام يوماً وليلة يتحسّس الخبر، وقسم في كلّ مائة من أصحابه جَزوراً ينحرونها، وكانوا خمسمائة، وقيل: سبعمائة.

ذكر سرية عُكاشة بن مِحصَن الأسديّ(١) إلى الغَمْر غمر(٢) مرزوق، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فَيْد

قالوا: بعث رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن إلى الغمر في أربعين رجلاً، فخرج سريعاً، فَنذر(٣) به القوم فهربوا، فنزلوا عُلْيا بلادهم، ووجدوا دارهم خُلوفاً(٤)، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعة، فرأى أثر النعم، فتحمّلوا فأصابوا رَبيئة(٥) لهم، فأمّنوه فدلّهم على نَعَم لبني عمّ له، فأغاروا عليها فاستاقوا مائتي بعير، وأرسلوا الرجل، وحَدَروا(٦) النعم إلى المدينة، وقدموا على رسول الله ﷺ ولم يلقوا كيداً.

ذكر سرية محمد بن مَسْلمة إلى بني ثعلبة بذي القَصّة

قالوا: بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة، وهم بذي القَصّة في شهر ربيع الآخر سنة ستّ من مُهاجَرِه، وبين ذي القصة وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، طريق الرَّبذَة، بعثه في عشرة نفر فوردوا عليهم ليلاً فأحدق به القوم وهم مائة رجل، فترامَوا ساعة من الليل، ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، يُضرب كعبُه فلا يتحرك، وجردوهم من الثياب، ومر رجل من المسلمين بمحمد بن مسلمة فحمله حتى ورد به المدينة، فبعث رسول الله ﷺ أبا عُبيدة بن الجرّاح(٧) في أربعين رجلاً إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نَعَماً وشاء، فساقه ورجع.

---

(١) عكاشة بن مِحصَن: (... ـ ١٢هـ = ... ـ ٦٣٣ م) عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي من بني غنم، صحابي من أمراء السرايا. شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ وقتل في حرب الردة. قتله طلحة بن خويلد الأسدي. (الأعلام: ٤: ٢٤٤).

(٢) في الأصول، وكذا في المواهب: «غمرو مرزوق»، والمثبت عن الطبقات وفي معجم البلدان: غمرة، فقد جاء فيه ما نصه: «وقال ابن الفقيه: غمرة من أعمال المدينة على طريق نجد أغزاها النبي ﷺ عكاشة بن محصن».

(٣) نذر: علم.

(٤) خلوفاً: أي أصحاب ديارهم غائبين.

(٥) ربيئة: طليعة.

(٦) حدروا: ساقوا.

(٧) أبو عبيدة بن الجراح: (٤٠ ق هـ ـ ١٨ هـ = ٥٨٤ ـ ٦٣٩ م) عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي: الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، والصحابي، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. =

ذكر سرية أبي عُبيدة بن الجرّاح إلى ذي القَصّة

بعثه رسول الله ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ستّ من مُهاجَرِه في أربعين رجلاً من المسلمين، وسبب ذلك أن بلاد بني ثعلبة وأنمار أجدبت، ووقعت سحابة بالمِراض إلى تَغلَمَيْن، والمِراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، فسارت بنو محارب وثعلبة وأنمار إلى تلك السحابة، واجتمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى بهيْفا ـ موضع على سبعة أميال من المدينة ـ فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة ومن معه حين صلّوا المغرب، فمشوا ليلتهم حتى وافَوا ذا القصّة مع عَمَاية[1] الصبح ـ وهي موضع في طريق العراق ـ فأغاروا عليهم فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصاب رجلاً واحداً فأسلم فتركه، وأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه ورِثة[2] من متاعهم. وقدم المدينة بذلك، فخمسه رسول الله ﷺ، وقسم ما بقي عليهم.

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى بني سُلَيم بالجَمُوم

قالوا: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة إلى بني سليم، فسار هو ومن معه حتى ورد الجَموم ـ ناحيةَ بطن نخْل عن يسارها، وبطن نخل من المدينة على أربعة بُرُد ـ فأصابوا عليه امرأة من مُزينة يقال لها: حليمة، فدلَّتهم على محلَّة من محالّ بني سُلَيم، فأصابوا فيها نَعَماً وشاء وأَسْرَى، فكان فيهم زوج حليمة المُزَنيّة، فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزنيّة نفسَها، وزوجَها، فقال بلال بن الحارث المُزنيّ[3] في ذلك: [من الطويل]

لَعمركَ ما أخنى المَسُول ولا ونَتْ حليمة حتى راح ركبُهما معًا[4]

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى العِيص لعِير قريش

بعثه رسول الله ﷺ في جمادي الأولى سنة ستّ من مُهاجَرِه في سبعين ومائة

= ولد بمكة، شهد المشاهد كلها. وولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الزاحف إلى الشام بعد خالد بن الوليد. توفي بطاعون عمواس ودفن في غور بيسان. (الأعلام: ٣: ٢٥٢).

(١) عماية الصبح: يقال: لقيته في عماية الصبح، أي في ظلمته قبل أن أتبينه.

(٢) الرِّثة: السقط من متاع البيت.

(٣) بلال بن الحارث المزني: (. . . ـ ٦٠ هـ = . . . ـ ٦٨٠ م) بلال بن الحارث المزني، أبو عبد الرحمٰن صحابي، شجاع، من أهل بادية المدينة. أسلم سنة ٥ هـ. وكان من حاملي ألوية «مزينة» يوم الفتح. توفي في آخر خلافة معاوية عن ٨٠ عاماً. (الأعلام: ٢: ٧٢).

(٤) أخنى: أفحش.

راكب إلى العِيص ـ وبينها وبين المدينة أربع ليال، وبينها وبين ذي المَرْوَة ليلة ـ وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعثه ومن معه ليتعرض لها، فأخذوها وما فيها، وأخذ يومئذٍ فِضّة كثيرة لصَفْوان بن أمية، وأسروا ناساً ممّن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم المدينة، فاستجار أبو العاص بزينب بنت رسول الله ﷺ، فأجارته، ونادت في الناس حين صلّى رسول الله ﷺ: إني قد أجرت أبا العاص. فقال رسول الله ﷺ: «ما علمت بشيء من هذا، قد أجرنا من أجرت». ورد عليه ما أُخذ له كما تقدّم.

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى الطّرِف إلى بني ثعلبة

بعثه رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة سنة ستّ من مُهاجَرِه إلى الطَّرِف ـ وهو ماء قريب من المراض، دون النُّخيل، على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، طريق البَقَرة على المحجّة ـ فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً فأصاب نعَماً وشاء، وهربت الأعراب، وصبَّح زيد بالنّعم المدينة، وهي عشرون بعيراً، ولم يلق كيداً، وغاب أربع ليال، وكان شعارُهم «أمِت أمِت».

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى، وهي وراء وادي القُرَى

قالوا: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في جمادي الآخرة أيضاً، وذلك أن دَحْية بن خليفة الكلبي أقبل من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه إليه رسول الله ﷺ بكتابه، وقد أجازه[١] وكساه، ومع[٢] دَحية تجارة له، حتى إذا كان بوادٍ يقال له: شَنَار أو شِنَان[٣]؛ أغار عليه الهُنَيد بن عارض، وقيل: ابن عُوص؛ وابنه عارض بن الهُنيد، وقيل: عُوص بن الهُنَيد الضُّلَعِيَّان[٤] في ناس من جُذام بحسمى، فقطعوا عليه الطريق وأخذوا ما معه، فلم يتركوا عليه إلا سَمَل[٥] ثوب، فسمع بذلك نفر من بني الضُّبَيب ـ رهط رفاعة بن زيد ممن كان أسلم وأجاب ـ فنفروا إلى الهنيد وابنه، وفيهم من بني الضُّبَيب النعمان بن أبي جِعال حتى لقُوهم فاقتتلوا، وانتمى يومئذٍ قُرّة بن أشقر الضِّفاريّ ثم الضُّلَعي، فقال: أنا ابن لُبنى؛ ورمى النعمان بسهم فأصاب ركبته، وقال:

---

(١) أجازه: أعطاه جائزة. وذلك لأنه قارب الإسلام ولم يسلم خوفاً على ملكه.
(٢) كلمة ساقطة من المتن. والأقرب للمعنى (ومع دحية).
(٣) كذا في معجم البلدان والطبري. وفي الأصل: «شيار».
(٤) الضليع: بطن من جذام.
(٥) سمل ثوب: أي الخلق من الثياب. البالي منها.

خذها وأنا ابن لُبنى؛ ولُبنَى أمّه، ثم استنقذوا لدِحِية متاعَه، وقدم دِحية على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل وردّ معه دِحية، فكان زيد يسير الليل ويكمُن النهار ومعه دليل من بني عُذرة، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم، فأغاروا عليهم، فقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيد وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونعمِهم ونسائهم، فأخذوا ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة، فرحل رِفاعة[١] بن زيد الجذامي في نفر من قومه إلى رسول الله ﷺ، فدفع إليه كتابه الذي كان كتب له ولقومه ليالي قدم عليه فأسلم، وقال: يا رسول الله، لا تحرّم علينا حلالاً ولا تحلّ لنا حراماً. فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقال أبو يزيد بن عمرو: يا رسول الله، أطلق لنا من كان حيًّا، ومن قتل فهو تحت قدميّ هاتين، فقال رسول الله ﷺ: صدق أبو يزيد؛ فبعث معهم علياً إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلّي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فتوجّه عليّ رضي الله عنه، فلقي رافع بن مكِيث الجُهَني بشير زيد بن حارثة على ناقة من إبل القوم، فردها عليّ عليهم، ولقي زيداً بالفحلتين[٢] ـ وهي بين المدينة وذي المروة ـ فأبلغه أمر رسول الله ﷺ، فرد عليهم كلَّ ما كان أخذ منهم.

ذكر سرية زيد بن حارثة إلى وادي[٣] القُرى

قال محمد بن سعد في طبقاته الكبرى: بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى وادي القرى أميراً في شهر رجب سنة ست من الهجرة. ولم يذكر غير ذلك.

ذكر سَرِيّة عبد الرحمٰن بن عَوْف إلى دُومة[٤] الجندل

قال محمد بن سعد رحمه الله: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه في شعبان سنة ست من مُهاجره، فأقعده بين يديه وعمّمه بيده وقال: اغز بسم

---

(١) قدم رفاعة هذا على النبي ﷺ في هدنة الحديبية في جماعة من قومه فأسلموا، وعقد له رسول الله ﷺ على قومه. وكتب له كتاباً إلى قومه فأسلموا. وهذا نص الكتاب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب محمد رسول الله إلى رفاعة بن زيد. إني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل ففي حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين». راجع شرح المواهب اللدنية: ٢: ١٩٢.

(٢) كذا في الطبقات، ومعجم البلدان. وفي الأصل: «بالنخلتين»، وهو تحريف.

(٣) وادي القرى: وادٍ بين الشام والمدينة فيه قرى كثيرة.

(٤) دومة الجندل: حصن وقرى من طرف الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة.

الله، وقاتل في سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تغلّ(١) ولا تغدر، ولا تقتل وليداً. وبعثه إلى كَلْب بدومة الجندل، وقال: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم. فسار عبد الرحمٰن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأَصْبَغ بن عمرو الكلبيّ، وكان نصرانياً وهو رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمٰن تُماضَر بنت الأصْبغ وقدم بها المدينة، وهي أم أبي سَلَمة بن عبد الرحمٰن.

ذكر سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى بني سعد بن بكر بفَدَك

قالوا: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في شعبان سنة ست من الهجرة إلى بني سعد بن بكر بفَدَك في مائة رجل، وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهودَ خيبر، فسار علي رضي الله عنه بمن معه، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى انتهى إلى الهَمَج(٢) ـ وهو ماء بين خيبر وفدك، وبين فدك والمدينة ست ليال ـ فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم فقال: أخبركم على أن تؤمّنوني؟ فأمّنوه فدلّهم، فأغاروا عليهم فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظّعن ورأسهم وبر بن عُليم، فعزل عليّ رضي الله عنه صفيّ(٣) رسول الله ﷺ لَقُوحاً تدعى الحَفِدة(٤)، ثم عزل الخمس وقسم الغنائم على أصحابه، وقدم المدينة ولم يلق كيداً.

ذكر سَرِيّة زيد بن حارثة إلى وادي القُرى وقتل أم قِرْفة

كانت هذه السرية في شهر رمضان سنة ست من مهاجَر رسول الله ﷺ، وذلك أن زيد بن حارثة خرج في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ﷺ، فلما كان دون وادي القُرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم، ثم استبلّ(٥) زيد بن حارثة، وقدم على النبي ﷺ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم. حكاه محمد بن سعد في طبقاته.

---

(١) غلّ: خان.
(٢) الهمج: في الأصول: «الغمج»، وصوابه من الطبقات. انظر معجم البلدان.
(٣) الصفي: ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة.
(٤) الحفدة: السريعة.
(٥) استبل: عوفي.

وقال محمد بن إسحاق: إن الذي أصاب زيد بن حارثة كان عند غزوة وادي القرى، فإنه أصيب بها ناس من أصحابه، وارتُثَّ[١] زيد من بين القتلى، ولعل هذه السرية هي التي كانت في شهر رجب من السنة.

قال ابن سعد: فخرج زيد بن حارثة بمن معه فكمنوا النهار وساروا الليل، ونَذِرت[٢] بهم بنو بدر، ثم صحبهم زيد وأصحابه وكبّروا وأحاطوا بالحاضر[٣]، وأخذوا أم قرفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وابنتها جارية بنت مالك بن حُذيفة ابن بدر، فكان الذي أخذ الجارية سلمة بن الأكوع، فوهبها لرسول الله ﷺ، فوهبها ﷺ لحزْن بن أبي وهب، وقال: وعمد قيس بن المُحَسِّر إلى أم قرفة، وهي عجوز كبيرة، فربط بين رجليها حبلاً، ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرهما، فذهبا فقطّعاها[٤]، وقتل النعمان وعبد الله ابنا مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر، وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك، فقرع باب النبي ﷺ فقام إليه عُرياناً يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله، وسأله فأخبره بما ظفّره الله به.

ذكر سَرِيّة عبد الله بن رواحة إلى أُسَير[٥] ابن رِزام[٦] اليهوديّ بخيبر

كانت هذه السريّة في شوّال سنة ستّ من مهاجَر رسول الله ﷺ، وذلك أنه لما قُتِل أبو رافع سلّام بن أبي الحقيق كما ذكرنا أَمّرت يهود عليها أُسَيْر بن رِزام، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ، فوجه عبدَ الله بن رَواحة في ثلاثة نفر من المسلمين في شهر رمضان سراً سأل عن خبره وغِرّته[٧]، فأُخبر بذلك، فقدم على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فندب رسول الله ﷺ الناس، فانتَدَبَ له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة فقدموا على أُسَير فقالوا له: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك؟ قالوا: نعم، فقالوا له: إن رسول

(١) ارتث: حمل من المعركة جريجاً وبه رمق.
(٢) نذرت بهم: علمت بهم، فحذرتهم.
(٣) الحاضر: من حضر هناك من فزارة.
(٤) في شرح المواهب اللدنية: ٢: ١٩٧ ما يأتي: «ذكر الدولابي: أن زيداً إنما قتلها كذلك لسبها رسول الله ﷺ قيل: لأنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها، وولد ولدها وقالت: اغزوا المدينة، واقتلوا محمداً».
(٥) في رواية أخرى: «يسير» بضم الياء وفتح السين.
(٦) في الأصول: «زارم» والتصويب من المواهب وابن هشام.
(٧) غرته: غفلته.

الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك. فطمع أُسير في ذلك، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، مع كل رجل رَديف[١] من المسلمين، حتى إذا كانوا بقَرْقَرة[٢] ثِبَار ندم أُسير، قال عبد الله ابن أُنيس - وكان في السريّة: فأهوى بيده إلى سيفي، ففطنت له ودفعت بعيري فقلت: غدراً أي عدوّ الله! فعل ذلك مرتين، فنزلت فسبقت القوم حتى انفردت إلى أسير فضربته بالسيف، فأندَرْت[٣] عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره وبيده مخرش[٤] من شَوْحط[٥]، فضربني به فشجّني مأمومة[٦]، ومِلنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شدًّا، ولم يُصَب من المسلمين أحد، ثم أقبلنا على رسول الله ﷺ فحدّثناه الحديث، فقال: قد نجاكم الله من القوم الظالمين. وتفَل ﷺ على شجّة عبد الله بن أنيس فلم تقِح[٧] ولم تُؤذه.

ذكر سريّة كُرْز بن جابر الفِهريّ[٨] إلى العُرَنيّين

كانت هذه السرية في شوّال سنة ست من مهاجَر رسول الله ﷺ، قالوا: قدم نفر من عُرَينة ثمانية على رسول الله ﷺ فأسلموا واسْتَوْبَؤوا[٩] المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ إلى لِقاحه، وكانت ترعى بذي الجِدر - ناحية قُباء قريباً من عَيْر، على ستة أميال من المدينة - فكانوا فيها حتى صحّوا وسمنوا، فعَدوا على اللقاح فاستاقوها، فأدركهم يسار مولى رسول الله ﷺ ومعه نفر، فقاتلهم، فقطعوا يَده ورجله وغرزوا الشَّوْك في لسانه وعينيه حتى مات، فبلغ رسولَ الله ﷺ الخبر، فبعث في أثرهم عشرين فارساً،

---

(١) الرديف: الذي يركب خلف الراكب.
(٢) قرقرة ثبار: موضع على ستة أميال من خيبر.
(٣) أندرت: قطعت.
(٤) المخرش والمخراش: عصا معوجة الرأس.
(٥) شوحط: من شجر الجبال، تتخذ منه القسي.
(٦) شجة مأمومة: بلغت أم الرأس.
(٧) تقح: يتحول الدم فيها إلى قيح، أي عمل.
(٨) كُرْز بن جابر الفهري: كرز بن جابر بن حسل بن لاحب... القرشي الفهري، كان من رؤساء المشركين قبل أن يسلم. أغار على سرح المدينة مرة فخرج النبي ﷺ في طلبه حتى بلغ سفوان وفاته كرز وهذه هي غزوة بدر الأولى. ولما عدا العرنيون على غلام النبي ﷺ بعث النبي ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين أميرهم كرز بن جابر. انظر الإصابة في تمييز الصحابة: ٣: ٢٩٠ رقم الترجمة (٧٣٩٤).
(٩) استوبؤوا: استوخموا.

واستعمل عليهم كُرْز بن جابر الفِهريّ، فأدركوهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة، وكان رسول الله ﷺ بالغابة، فخرجوا بهم نحوه، فلقُوه بالزّغابة[١] بمجتَمع السّيول، فأمر بهم فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسُملَتْ أعينهم، وصُلبوا هنالك، وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣]. فلم يسمل بعد ذلك عيناً، وكانت اللقاح خمس عشرة لِقْحة غِزاراً فردوها إلى المدينة، ففقد منها لِقحة تدعى الحناء، فسأل رسول الله ﷺ عنها، فقيل: نحروها.

ذكر سرية عمرو بن أميّة الضَّمْري وسلمة بن أسلم إلى أبي سفيان بن حرب بمكة

قال محمد بن سعد في طبقاته: وذلك أن أبا سفيان بن حرب قال لنفر من قريش: ألا أحد يَغْتَرُّ[٢] محمداً فإنه يمشي في الأسواق؟ فأتاه رجل من الأعراب فقال: قد وَجَدْتَ أجمع الرجال قلباً، وأشدّه بطشاً، وأسرعه شدًّا، فإن أنت قوّيتني خرجت إليه حتى أغتاله، ومعي خنْجَر مثل خافية[٣] النسر؛ قال: أنت صاحبنا؛ فأعطاه بعيراً ونفقة، وقال: اطوِ أمرك؛ فخرج ليلاً فسار على راحلته خمساً وصبّح ظهر الحرّة صبح سادسة، ثم أقبل فسأل عن رسول الله ﷺ حتى دُلّ عليه، فعقل راحلته، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد بني عبد الأشهل، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا ليريد غدراً». فذهب ليجني على رسول الله ﷺ فجذبه أُسَيْد بن الحضير بداخلة[٤] إزاره، فإذا بالخنجر، فسُقِط[٥] في يده، وقال: دمِي دمِي! وأخذ أسيد بلبّته فذَعته[٦]، فقال له رسول الله ﷺ: «أصْدُقني، ما أنت»؟ قال: وأنا آمن؟ قال: نعم، فأخبره بخبره، فخلّى عنه ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة الضمريّ[٧]، وسلمة بن أسلم بن أبي

---

(١) ضبطت في القاموس بضم الزاي، وفي معجم البلدان بفتحها.

(٢) يغتر: يأتيه على غفلة. وفي الأصول: «يغر» وطوابه عن المواهب فيما نقله عن الطبقات.

(٣) خافية النسر: ريشة صغيرة في جناح النسر دون العشر ريشات التي في مقدم الجناح.

(٤) داخلة الإزار: طرفه وحاشيته من الداخل.

(٥) سقط في يده: ندم.

(٦) ذعته: خنقه أشد الخنق.

(٧) عمرو بن أمية الضمري: (... ـ نحو ٥٥ هـ = ... ـ نحو ٦٧٥ م) عمرو بن أمية بن خويلد بن =

حَريس[1] إلى أبي سفيان بن حرب، وقال: إن أصبتما منه غِرة فاقتلاه؛ فدخلا مكة، ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه، وأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، وقالوا: لم يأت عمرو لخير، فحشد له أهل مكة وتجمعوا، فهرب عمرو وسلمة، فلقي عمرو عُبيد الله بن مالك بن عبد الله التيمي فقتله، وقتل آخر من بني الدّيل، سمعه يتغنى ويقول: [من الوافر]

ولست بمسلم ما دمت حيًّا ... ولست أدِين دينَ المسلمينا

ولقي رسولين لقريش بعثتهما يتحسّسان الخبر، فقتل أحدهما وأسر الآخر فقدم به المدينة فجعل يخبر رسول الله ﷺ، ورسول الله يضحك هكذا حكى محمد بن سعد.

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله: إن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أميّة الضَّمْريّ، ومعه جَبّار بن صخر الأنصاريّ، وذلك بعد مقتل خُبَيب بن عديّ وأصحابه، قال: فخرجا حتى قدما مكة، وحبسا جمليهما بِشعبِ من شعاب يَأْجَج[2]، ثم دخلا مكة ليلاً، فقال جبّار بن صخر لعمرو: لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين؛ قال عمرو: فطفنا وصلينا، ثم خرجنا نريد أبا سفيان، فوالله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إليّ رجل فعرفني فقال: عمرو بن أمية، والله إنْ قَدِمها إلا لشرّ؛ فقلت لصاحبي: النجاء؛ فخرجنا نشتدّ حتى أصعدنا في جبل، وخرجوا في طلبنا، حتى إذا علونا الجبل يئسوا منا، فدخلنا كهفاً في الجبل فبتنا، وقد رَضَمْنا[3] دوننا الحجارة، فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرساً له، فغشَينا ونحن في الغار، فقلت: إن رآنا صاح بنا فنؤخذ فنقتل؛ قال: فخرجت إليه فضربته على ثدييه بخنجر كنت قد أعددته لأبي سفيان فصاح صيحة أسمع أهل مكة، ورجعت فدخلت مكاني، وجاءه الناس يشتدّون وهو بآخر رَمق، فقالوا: مَنْ ضربك؟ قال: عمرو بن أمية. ومات لوقته، ولم يدلّ علينا، فاحتملوه، فقلت لصاحبي لما أمسينا: النجاء، فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة،

= عبد الله الضمري: شجاع من الصحابة. اشتهر في الجاهلية وشهد مع المشركين بدراً وأحداً، ثم أسلم. وحضر بئر معونة. عاش في أيام الخلفاء الراشدين، وشهد وقائع كثيرة. مات بالمدينة في خلافة معاوية (الأعلام: ٥: ٧٣).

(١) سلمة بن أسلم: (٤٩ ق هـ ـ ١٤ هـ = ٥٧٥ ـ ٦٣٥ م) سلمة بن أسلم بن حريش الخزرجي الأنصاري، أبو سعد، صحابي من الشجعان. شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها. وخرج في جيش أسامة بن زيد لغزوة الروم. استشهد يوم جسر أبي عبيد. (الأعلام: ٣: ١١٢).

(٢) يأجج: اسم موضع بمكة.

(٣) رضم الحجارة: جعل بعضها على بعض.

فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خُبيب، فقال أحدهم: والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية، لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو؛ قال: فلما حاذى عمرو الخشبة شدّ عليها واحتملها، وخرجا شدًّا، وخرجوا وراءه، حتى أتى جُرْفاً بمهْبط مَسِيل يأْجَج، فرمى بالخشبة في الجُرف، فغيّبه الله عنهم، فلم يقدروا عليه. قال عمرو: وقلت لصاحبي: النجاء، حتى تأتي بعيرك فتقعد عليه، فإني سأشغل عنك القوم؛ قال: ومضيت حتى خرجت على ضَجْنان[1]، ثم أويت إلى جبل فدخلت كهفاً، فبينا أنا فيه إذ دخل عليّ شيخ من بني الدِّيل أعور، في غُنَيمة له؛ فقال: مَنِ الرجل؟ قلت: من بني بكر، فمَنْ أنت؟ قال: من بني بكر؛ فقلت: مرحباً؛ فاضطجع، ثم رفع عقيرته فقال: [من الوافر]

ولست بمسلم ما دمت حيًّا ولست أدينُ دينَ المسلمينا

فقلت في نفسي: ستعلم؛ فأمهلته حتى إذا نام أخذت قوسي فجعلت سِيَتَها[2] في عينه الصحيحة، ثم تحاملت عليها حتى بلَغت العظم، ثم خرجت حتى جئت العَرْج[3]، ثم سلكت رَكُوبة[4]، حتى إذا هبطت النّقيع[5] إذا رجلان من قريش من المشركين، كانت قريش بعثتهما عيناً إلى المدينة يتحسّسان؛ فقلت: استأسرا، فأبيا، فرميت أحدهما بسهم فقتلته، ثم استأسر الآخر فأوثقته رباطاً، وقدمت به المدينة.

ولم يذكر أحد منهما تاريخ هذه السريّة، في أي شهر كانت، فأذكُرَه.

ذكر غزوة الحُدَيْبِيَة[6] وما وقع فيها من بيعة الرِّضوان ومهادنة قريش وغير ذلك

كانت غزوة الحُدَيْبِيَة في ذي الحُجة سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

قال محمد بن سعد: استنفر رسول الله ﷺ أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيؤوا، ولبس رسول الله ﷺ ثوبين، وركب راحلته القَصْواء[7] وخرج، وذلك يوم

---

(١) ضجنان: اسم جبل بمكة.
(٢) سية القوس: ما عطف من طرفها.
(٣) العَرْج: اسم منزل بطريق مكة، أو وادٍ بالحجاز.
(٤) ركوبة: ثنية بين مكة والمدينة عند العرج.
(٥) النقيع: موضع ببلاد مزينة على ليلتين من المدينة.
(٦) الحديبية: بئر سمي المكان بها، وقيل: شجرة حدباء يسمى المكان بها، وقيل: قرية متوسطة قريبة من مكة.
(٧) القصواء: لقب ناقة لرسول الله ﷺ.

الاثنين لهلال ذي القعدة، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم. وقال ابن إسحاق: استعمل على المدينة نُمَيلة بن عبد الله اللَّيثي. قال ابن سعد: ولم يُخرج رسول الله ﷺ معه[١] بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القُرُب، وساق بُدناً[٢] وساق أصحابه بدناً، فصلى الظهر بذي الحُلَيفة: ثم دعا بالبدن التي ساق فجُلِّلت[٣]، ثم أشعرها[٤] في الشقّ الأيمن وقلّدها[٥]، وأشعر أصحابه أيضاً، وهي مَوجّهات إلى القبلة، وهي سبعون بَدَنة، فيها جمل أبي جهل الذي غَنِمه رسول الله ﷺ يوم بدر، وأحرم رسول الله ﷺ ولبّى، وقدَّم عبَّاد بن بشر أمامه طليعةً في عشرين فارساً من خيل المسلمين، وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار، وخرج معه ﷺ من المسلمين ألف وأربعمائة على الصحيح، وقيل: ألف وستمائة؛ ويقال: ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً؛ وأخرج معه من أزواجه أم سلمة رضي الله عنها، وبلغ المشركين خروجه، فأجمع رأيهم على صدّه عن المسجد الحرام، وعسكروا بِبَلْدَح[٦] وقدّموا مائتي فارس إلى كُرَاع[٧] الغَميم، عليهم خالد بن الوليد، ويقال: عكرمة بن أبي جهل.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهريّ: لما كان رسول الله ﷺ بعُسْفان لقيه بشر بن سُفيان الكعْبي ـ قال ابن هشام: ويقال: بُسْر ـ فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذ[٨] المَطافِيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوًى، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: «ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة، فما تظن قريش؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[٩]». قال محمد بن سعد: ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب

---

(١) حذف المؤلف المفعول هنا، والتقدير لم يخرج معه أحداً.
(٢) البدن: جمع بدنة، وهي الناقة أو البقرة تنحر بمكة.
(٣) جللت: ألبست ما تصان به.
(٤) اشعرها: اعلمها، وذلك بأن ضرب صفحة السنام اليمنى بحديدة فلطخها بدمها إشعاراً بأنها هدي.
(٥) قلدها: علق في عنقها شيئاً ليعلمَ أنها هدي.
(٦) بلدح: وادٍ قبل مكة من جهة الغرب.
(٧) كراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة.
(٨) العوذ المطافيل: النوق التي وضعت أولادها حديثاً، يريد أنهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان.
(٩) السالفة: صفحة العنق، وكنى بانفرادها على الموت.

رسول الله ﷺ، فأمر رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر فتقدم في خيله، فأقام بإزائه وصفّ أصحابه، وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فلما أمسى ﷺ قال لأصحابه: تيامنوا في هذا الموضع العَضْل[١] - موضع منعطف في الوادي - فإن عيون قريش بمرّ الظّهران وبضَجْنان. فسار حتى دنا من الحديبية، وهي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة، فوقعت يدا راحلته على ثنيّة تهبط على غائط[٢] القوم، فبركت.

وقال ابن إسحاق أحمد بن محمد الثعلبيّ في تفسيره: إن رسول الله ﷺ لما كان بغدير الأشطاط[٣] قريباً من عُسْفان أتاه عيْنُه[٤] الخزاعيّ، فقال: إني تركت كعب بن لُؤيّ وعامر بن لؤي قد جمعا لك الأحابيش[٥]، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت؛ فقال النبي ﷺ: أشيروا عليّ، أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين، وإن يحبئوا تَكُنْ عنقاً قطعها الله، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه؟ فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إنا لم نأت لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال رسول الله ﷺ: فرُوحوا إذاً؛ فراحوا، حتى إذا كان بعُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، وذكر من قوله ومن جواب رسول الله ﷺ ما قدمناه إلى قوله: أو تنفرد هذه السالفة. ثم قال رسول الله ﷺ: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل مِن أسلَم: أنا يا رسول الله. فخرج بهم على طريق وعر حَزْن[٦] بين شِعاب، فلما خرجوا منه، وقد شق ذلك على المسلمين وأفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه، ففعلوا، فقال: والله إنها لَلْحِطّة[٧] التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقبلوها؛ ثم قال رسول الله ﷺ للناس: اسلكوا ذات

(١) العضل: «العضل: موضع بالبادية كثير الغياض». وفي ابن سعد وإمتاع الأسماع: «في هذا العصل». والعصل: الرمل الملتوي المعوج.
(٢) غائط القوم: متسع من الأرض (اللسان: غوط).
(٣) غدير الأشطاط: موضع تلقاء الحديبية.
(٤) عينه: الذي يأتيه بالأخبار.
(٥) الأحابيش: هم بنو الهون بن خزيمة، وبنو الحارث بن عبد مناة وبنو المصطلق من خزاعة، كانوا تحالفوا مع قريش، وقيل: تحت جبل يقال له: الحبشي أسفل مكة. وقيل: سموا بذلك لتحبشهم، أي تجمعهم.
(٦) حزن: غليظ، صعب.
(٧) الحطة: يشير إلى قول الله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ ومعناه: اللهم حط عنا ذنوبنا.

اليمين في طريق يخرجه على ثنية المُرَار[١] على مهبِط من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قَترة[٢] الجيش، وأن رسول الله ﷺ قد خالفهم عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش ينذرونهم، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنيّة المرار بركت به ناقته، فقال الناس: حَلْ[٣] حَلْ؛ فقال: ما حل؛ قالوا: خَلأت[٤] القَصْواء؛ فقال ﷺ: «ما خلأت وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس[٥] الفيل»؛ ثم قال: «والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش إلى خُطة يعظمون بها حرمات الله، وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»؛ ثم قال للناس: «انزلوا» فنزلوا بأقصى الحديبية على بئر قليلة الماء، إنما يتبرّضه[٦] الناس تبرّضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكا الناس إلى النبي ﷺ العطش، فنزع سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه، يقال له: ناجية بن عُمير بن يَعْمَر بن دارِم، وهو سائق بُدْن رسول الله ﷺ، فنزل في تلك البئر فغرزه في جوفها فجاش[٧] الماء بالرّي، حتى صدروا[٨] عنه؛ ويقال: إن جارية من الأنصار أقبلت بدلوها، وناجية في القَليب يميح[٩] على الناس، فقالت: [من الرجز]

يا أيها المائح دَلوي دُونَكا ... إني رأيت الناس يَحمدونكا
يثنون خيراً ويمجدونكا ... أرجوك للخير كما يرجونكا

فقال ناجية: [من الرجز]

قد علمت جاريةٌ يَمانِيه ... أنّي أنا المائح واسمي ناجيه
وطعنة ذات رشاش واهيه ... طعنتها تحت صدور العاديه[١٠]

قال ابن إسحاق: ناجية بن جندب بن عُمَير الأَسلمي؛ قال: وزعم بعض أهل العلم أن البراء بن عازب[١١] كان يقول: أنا الذي نزلت بسهم رسول الله ﷺ. قال

---

(١) ثنية المرار: في الأصل: «المران» وهو تحريف.
(٢) قترة الجيش: غباره.
(٣) حل حل: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير. (راجع شرح المواهب اللدنية: ٢: ٢٢١).
(٤) الخلأ: جران الإبل.
(٥) حابس الفيل: أي حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها.
(٦) يتبرّضه الناس: أي: يأخذونه قليلاً قليلاً.
(٧) جاش: فار.
(٨) صدروا: رجعوا.
(٩) الميح: أن تدخل البئر فتملأ الدلو لقلة مائها.
(١٠) العادية: القوم الذين يعدون. أي: يسرعون العدو.
(١١) البراء بن عازب: (. . . ـ ٧١ هـ = . . . ـ ٦٩٠ م) البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو =

محمد بن إسحاق والثعلبي: روي عن الزُّهري عن عُروة بن الزبير عن المسْور بن مَخْرمة ومروان بن الحكم: فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بُدَيل بن ورقاء[١] الخُزاعي في نفر من قومه، وكانت خزاعة عَيْبَةَ[٢] نُصِح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلا أَعْداد[٣] مياه الحديبية، معهم العُوذ[٤] المطافيل، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: إنا لم نأت لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددناهم[٥] مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[٦]، فوالله لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتيّ، أو ليُنْفذنّ الله أمره. قال بُدَيل: سنبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً؛ فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا؛ فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا في أن تحدّثنا عنه بشيء؛ وقال ذوو الرأي منهم: هات كما سمعته يقول؛ قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، وقال لهم: إنه لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموه وجَبَهوه[٧] وقالوا: إن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة[٨] أبداً، ولا يحدّث بذلك عنا العرب؛ ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص بن الأخيَف أخا بني عامر بن لؤيّ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: هذا رجل غادر. وفي رواية: «فاجر». فلما انتهى إليه وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبُديل بن ورقاء وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال النبي ﷺ، ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن عَلْقمة أو ابن زَبَّان[٩]،

= عمارة: قائد صحابي من أصحاب الفتوح، أسلم صغيراً، وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة أولها غزوة الخندق. عاش إلى أيام مصعب بن الزبير فسكن الكوفة واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه. (الأعلام: ٢: ٤٦).

(١) بديل بن ورقاء الخزاعي: بدل بن ورقاء بن عمر بن ربيعة بن عبد العزى بن ربيعة الخزاعي. له صحبة، سكن مكة، ويقال: إنه قتل بصفين. كان إسلامه قبل الفتح، وقيل يوم الفتح. انظر الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ١٤١. رقم الترجمة ٦١٤.

(٢) عيبة نصح: موضع نصح.

(٣) أعداد: جمع عد، وهو الماء الذي لا انقطاع له. ويطلق أيضاً على الكثرة في الشيء.

(٤) العوذ المطافيل: النساء والصبيان (اللسان: عوذ).

(٥) ماددناهم مدة: جعلنا بيننا وبينهم مدة نترك الحرب فيها.

(٦) جمُّوا: استراحوا.

(٧) جبهوه: لقوه بما يكره.

(٨) عنوة: قسراً، رغماً.

(٩) كذا في ابن هشام، والطبري، وفي الأصل: «ابن ريان».

وكان يومئذ سيّدَ الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هذا من قوم يتألّهون(١)، فابعثوا الهدي(٢) في وجهه حتى يراه. فلما رأى الهَدْيَ يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوباره(٣) من طول الحبس عن مَحِلِّه(٤) رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك؛ فقالوا له: يا حُلَيس، إنما أنت أعرابي لا علم لك، فقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاهدناكم، أيُصَدّ عن بيت الله من جاءه معظِّماً له؟ والذي نفس الحُليس بيده لتُخَلُّنّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد؛ فقالوا له: مَهْ، كف عنا يا حليس، ودعنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به؛ قال: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عُروة بن مسعود الثقفيّ(٥) فقال لهم: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد ـ وكان عروة لِسُبَيعة بنت عبد شمس ـ وقد سمعت بالذي نابكم(٦)، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي؛ قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتّهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد، أَجَمعتَ أَوْشَابَ(٧) الناس ثم جئت بهم إلى بَيْضَتك(٨) لتفضّها بهم؟ يا محمد، أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإنها قريش قد خرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عَنْوة أبداً، وإني لأرى وجوهاً وأوشاباً من الناس خليقاً(٩) أن يفرّوا ويدَعوك، وأيم الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا غداً عنك. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال لعُروة: امصَصْ بَظْر

(١) التأله: التعبد، قال رؤبة: ضحكن واستهزأن من تألهي».
(٢) الهدي: المواشي التي تضحى في الحج.
(٣) أوباره: جمع وبر، وهو صوف الإبل.
(٤) محل الهدي: الموضع أو الوقت الذي يحل فيه نحره.
(٥) عروة بن مسعود: (. . . ـ ٩هـ = . . . ـ ٦٣٠ م) عروة بن مسعود بن معتب الثقفي. صحابي مشهور. قيل إنه المراد بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ولما أسلم استأذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني! فأذن له، فرجع، فدعاهم إلى الإسلام، فخالفوه، ورماه أحدهم بسهم فقتله. (الأعلام: ٤: ٢٢٧).
(٦) نابكم: أصابكم.
(٧) أوشاب الناس: أخلاط الناس، وأوشاب: مثل أوباش.
(٨) بيضتك: أصلك وعشيرتك.
(٩) في الأصول: «خلقا» والتصويب من المواهب.

اللات، أنحن ننكشف عنه؟ واللات طاغية ثقيف التي كانوا يعبدونها ـ فقال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قُحافة؛ قال: أما والله لولا يد[١] كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها. قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمُغيرة بن شُعبة[٢] واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ، ويقول: اكفُف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك؛ قال: فيقول عروة: ويحك! ما أفظّك وما أغلظك! قال: فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المُغيرة بن شُعبة» قال: أي غُدَر، وهل غسلتَ سوأتك إلا بالأمس؟ ـ وكان المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، صحبهم فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «أما الإسلام فقد قبلناه، وأما المال فإنه مال غَدْر، ولا حاجة لنا فيه». قال: ولما قتلهم المغيرة تهايج[٣] الحيّان من ثقيف: رهط القتلى ورهط المغيرة، فودَى[٤] عُروة المقتولين ثلاثة عشرة دِية، وأصلح ذلك الأمر، فلذلك قال للمغيرة ما قال ـ قال: ثم كلم رسول الله ﷺ عُروة بنحو ما كلم به أصحابه، فقام من عند رسول الله ﷺ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضوءه، ولا يبصق بُصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون[٥] النظر إليه تعظيماً له. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، والله لقد وفَدتُ على الملوك؛ وفدت على قَيْصَر في مُلكه، وكسرى في مُلكه، والنجاشيِّ في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخّم نُخامة[٦] إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلَك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم، وما يُحِدّون النظر إليه تعظيماً له، ولقد رأيت قوماً لا يُسْلمونه

---

(١) كان عروة قد تحمل بدية فأعانه فيها أبو بكر بعشر خلائص، وكان غيره يعينه بالاثنين والثلاث.

(٢) المغيرة بن شعبة: (٢٠ ق هـ ـ ٥٠ هـ = ٦٠٣ ـ ٦٧٠ م) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبو عبد الله، أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم. صحابي يقال له: «مغيرة الرأي» ولد في الطائف. فلما ظهر الإسلام تردد في قبوله إلى أن كانت سنة ٥ هـ، فأسلم. وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام. ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها المغيرة، وحضر مع الحكمين. ثم ولاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها إلى أن مات. (الأعلام: ٧: ٢٧٦).

(٣) تهايج: اضطرب.

(٤) وَدَى: دفع الدية.

(٥) يحدون: يحدقون.

(٦) نُخامة: ما يخرج من الخيشوم عند التنخم (المخط): اللسان: نخم.

لشيء أبداً، فَرَوا رأيكم. وفي رواية قال: وإنه قد عرض عليكم خطة رُشْد فاقبلوها.

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ خراش بن أميّة الخُزاعيّ، إلى قريش بمكة، وحمله على بعير يقال له: الثّعلب، ليبلِّغ أشرافهم ما قد جاء له، فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش، فمنعتْه[١] الأحابيش، فخلّوا سبيله. قال: وبعثت قريش أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأُخِذوا وأُتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم، وخلّى سبيلهم، وكانوا رَموا في العسكر بالحجارة والنَّبل. ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، فيبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفتْ قريش عداوتي إيّاها، وغلظتي عليها، ولكنّي أدلّك على رجل أعزّ بها منّي، عثمان بن عفان، فدعاه رسول الله ﷺ وبعثه إلى أبي سفيان بن حرب وأشرافِ قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته. فخرج حتى أتى مكة، فلقيه أبَان بن سعيد بن العاص[٢] حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ؛ فلما فرغ عثمان من الرسالة قال له: إن شئت أن تطُوف بالبيت فطُفْ؛ فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبستْه قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قُتل. فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرحُ حتّى نناجزَ القوم». ودعا الناس إلى البيعة.

ذكر بَيْعة الرِّضْوان

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، قال الثعلبيّ: وكانت سُمرة[٣]. قال: وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن عثمان بن عفّان قُتل قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»؛ ودعا الناس إلى البيعة، قال: فكان الناس يقولون: بايَعَهم رسول الله ﷺ على الموت. وقال عبد الله بن مُغَفَّل: كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم وبيدي غصن من السَّمُرة أذبّ عنه وهو يبايع الناس، فلم يبايعهم على الموت وإنما

(١) منعته: حمته.

(٢) أبان بن سعيد بن العاص: (. . . ـ ١٣ هـ = . . . ـ ٦٣٤ م) أبان بن سعيد بن العاص الأموي أبو الوليد: صحابي من ذوي الشرف كان في عصر النبوة شديد الخصومة للإسلام والمسلمين، ثم أسلم سنة ٧ هـ. استشهد في وقعة أجنادين على الأرجح، وقيل مات في خلافة عثمان. انظر (الأعلام: ١ : ٢٧).

(٣) السمرة: شجرة الطلح.

بايعهم على ألا يفرّوا. قال جابر بن عبد الله: فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس أخو بني سلمة، لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، مستتراً بها عن الناس.

وكان أول مَنْ بَايع بيعة الرضوان من بني أسد يقال له: أبو سِنان بن وهب. ثم أتى رسولَ الله ﷺ أن الذي ذكروا من أمر عثمان باطل. واختلف في عدد أهل بيعة الرضوان، وهو مبنيّ على الاختلاف في عدد أصحاب عمرة الحديبية كما تقدم؛ لم يتخلف منهم إلا الجَدّ بن قيس، قالوا: ولما بايع رسول الله ﷺ الناس بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى. وروي أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فسأله عن عثمان رضي الله عنه، أكان شهد بدراً؟ قال: لا؛ قال: أكان شهد بيعة الرضوان؟ قال: لا؛ قال: فكان من الذين تولّوا يومَ الْتقى الجمعان؟ قال: نعم. قال: فانطلق الرجل؛ فقيل لعبد الله بن عمر: إن هذا يرى أنك قد عبته، قال: عليّ به؛ فأُتي به فقال: أمّا بدر فإن رسول الله ﷺ قد ضرب له بسهمه وأجره؛ وأما بيعة الرضوان فقد بايع له رسول الله ﷺ فيَدُ رسول الله ﷺ خير من يد عثمان، وأما الذين تولّوا يوم التقى الجمعان فقد عفا الله عنهم، فاجْهَدْ عليّ جَهْدَك[١].

وأنزل الله عزّ وجلّ في الّذين بايعوا رسولَ الله ﷺ هذه البيعة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. قال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة. وقال ابن كيسان: قوة الله ونُصرته فوق قوّتهم ونصرتهم. ثم قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] وهو الجنة. وقوله تعالى في السورة أيضاً: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. قيل: فتح خيبر؛ رَوى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

ذكر هُدنة قريش وما وقع فيها من الشروط

قال: ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ سُهَيل بن عمرو[٢] أخا بني عامر بن لؤيّ، فقالوا: إيتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صُلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا.

---

(١) اجهد جهدك: ابلغ غايتك.

(٢) سهيل بن عمرو: (... ـ ١٨ هـ = ... ـ ٦٣٩ م) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري، من لؤي: خطيب قريش، وأحد سادتها في الجاهلية، أسره المسلمون يوم بدر. وافتدي =

فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد سهل أمرُكم، القوم ماتُّون[1] إليكم بأرحامكم، وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهدْي وأظهروا التلبية، لعلّ ذلك يُلين قلوبَهم». فلبّوا من نواحي العسكر حتى ارتجت أصواتُهم بالتلبية، قال: وانتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وتكلم فأطال، وتراجعا، ثم جرى الصلح بينهما، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله ﷺ حقاً؟ قال: بلى؛ قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى؛ قال: أو ليسوا المشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نُعْطِي الدّنِيّة[2] في ديننا؟ قال أبو بكر: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس نعصي رأيه، فاستمسك بغَرْزه[3] حتى تموت، فوالله إنه لعلَى الحق؛ قال عمر: أو ليس كان يحدّثنا أنا سنأتي البيت نطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: ثم جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ألست رسول الله؟ قال: «بلى» قال: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: «بلى» فلَم نعطي الدنيّة في ديننا إذاً؟ قال رسول الله ﷺ: «إني رسول الله ولست أعصِيه وهو ناصري». وفي رواية قال: «إني عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيّعني». قال عمر: ألستَ تحدّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، هل أخبرتك أنك تأتيه العام؟» قال عمر: لا؛ قال: «فإنك آتيه ومطوّف به». قال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلاّ يومئذٍ، فما زلت أصوم وأتصدّق وأصلّي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت خيراً. قالوا: ثم دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم»؛ فقال سهيل: أما الرحمٰن فلا أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، قال المسلمون: لا والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمٰن الرحيم؛ فقال رسول الله ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم»، فكتبها، ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني»؛ ثم قال

= فأقام على دينه إلى يوم الفتح، بمكة، فأسلم. وهو الذي تولى أمر صلح الحديبية. مات بالطاعون في الشام. راجع (الأعلام: ٣: ١٤٤).

(١) ماتون إليكم بأرحامهم: متشفعون بصلة القربى.

(٢) الدنية: الخصلة الخسيسة.

(٣) استمسك بغرزه: أي تمسك بأمره، فلا تخالفه، كالذي يتمسك بركاب الراكب والغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس.

لعليّ: «امحُ رسول الله». فقال: والله لا أمحوك أبداً. فأخذه رسول الله ﷺ، وليس يحسن يكتب فمحاه؛ ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سُهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قدم مكّة من أصحاب محمّد حاجًّا أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله، ومَنْ قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، وعلى أنه من أتى رسول الله ﷺ من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردّوه عليه». فاشتد ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم ورددناه إليهم فإن علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً. وأن بيننا عَيْبة[١] مكفوفة، وأنه لا إسلال[٢] ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه». فتواثبت خُزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. فقال رسول الله ﷺ: «وعلى أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضُغْطَة[٣]، ولكن لك ذلك من العام المقبل؛ فكتب: وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القُرب، وسلاح الراكب، وعلى أنّ هذ الهديَ حيثما حبسناه محلّه، لا تقدّمه علينا؛ فقال رسول الله ﷺ: «نحن نسوقه وأنتم تردّون وجوهه»! قال: فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو؛ إذ جاء أبو جَنْدل بن سهيل بن عمرو يرسُف في قيوده، وقد انفلت وخرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلْبيبه، وقال: يا محمد، قد تمّت القضيّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، وهذا أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إلينا؛ ثم جعل يجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ليفتنوني عن ديني؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذّب عذاباً شديداً في الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، احتَسِب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا

(١) عيبة مكفوفة: أي: أموراً مطوية في صدور سليمة، إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها.

(٢) لا إسلال ولا إغلال: لا سرقة ولا خيانة.

(٣) الضغطة: الإكراه والشدة.

قد عاقدنا بيننا وبين القوم عقداً وصلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهداً، وإنّا لا نَغدِر». قال: فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب ـ ويدني قائم السيف منه ـ قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضنّ الرجل بأبيه.

قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ذلك دخل الناسَ أمر عظيم حتى كادوا يَهلكون، وزادهم أمرُ أبي جندل شرًّا إلى ما بهم، قالوا: فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب، وفرغت القضيَّة أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين: أبا بكر، وعمر، وعبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الله بن سُهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقّاص، ومحمود بن مسلمة أخا بني عبد الأشهل، ومكْرَزَ بن حَفْص بن الأخيف، وهو مشرك، وعلي بن أبي طالب، وكان هو كاتب الصحيفة. قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته سار مع الهَدْي، وسار الناس، فلما كان الهدي دونَ الجبال التي تطلع على وادي الثّنية عرض له المشركون، فردّوا وجوهه، فوقف النبي ﷺ حيث حبسوه، وهي الحديبية، وقال لأصحابه: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرّات؛ فلما لم يقم منهم أحد قام رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس؛ فقالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، اخرج ولا تكلّم منهم أحداً كلمةً حتى تنحر بَدَنتك، وتدعوَ حلاّقك فيحلقك. فقام ﷺ فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنَته ودعا حلاّقه فحلقه، وكان الذي حلقه ذلك اليوم خِراش بن أمية بن الفضل الخزاعيّ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا. قال عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلّقين». قالوا: يا رسول الله، والمقصّرين؟ قال: «يرحم الله المحلقين»؛ قالوا: يا رسول الله، والمقصّرين؟ قال: «يرحم الله المحلقين»؛ قالوا: يا رسول الله، والمقصّرين؟ قال: «يرحم الله المقصّرين» قالوا: يا رسول الله، فَلِمَ ظاهرت الترحّم على المحلّقين دون المقصّرين؟ قال: «لأنهم لم يشكّوا». قال ابن عمر: وذلك أنه تربّص قوم قالوا: لعلّنا نطوف بالبيت.

ذكر رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة ونزول سورة الفتح

قال الزُّهري: وانصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً حتى كان بين مكّة والمدينة نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١].

روى قَتادة عن أنس قال: لما رجعنا من غزوة الحديبية قد حِيل بيننا وبين نُسُكنا[١]، فنحن بين الحزن، والكآبة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآية كلها، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أنزلتْ عَلَيَّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا كلها».

وعن زيد بن أسلم[٢] عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، قال عمر رضي الله عنه: فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس، وخشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: «لقد أُنزلت عليّ الليلة آية لَهِيَ أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس». ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وقد اختلف في الفتح، ما هو؟ فقال قتادة عن أنس: فتح مكة، وقال مجاهد والعَوْفيّ: فتح خيبر، وقال آخرون: فتح الحديبية، ويدل عليه ما روي عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري[٣]، ـ وكان أحد القراء الذين قرءوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزُّون[٤] الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أُوحي إلى رسول الله ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف[٥]، فوجدْنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كُراع الغَميم[٦]، فلما اجتمع إليه الناس قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فقال عمر: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح». وقال الشعبيّ رحمه الله: فتح الحديبية، غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، واطعموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْيُ محَلّه، وظهرت الروم على فارس، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال مقاتل بن حيّان: يسَّرنا لك يُسْراً بَيِّناً وقال مقاتل بن سليمان: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] فرح بذلك المشركون والمنافقون وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به وبأصحابه، ما أمْرُنا وأمرُه إلا واحد، فأنزل الله عز وجل بعدما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ أي قضينا لك قضاء بيناً ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ

---

(١) الطاعة والعبادة، وهي هنا بمعنى الذبائح.

(٢) زيد بن أسلم: (. . . ـ ١٣٦ هـ = . . . ـ ٧٥٣ م) زيد بن أسلم العدوي العمري مولاهم. أبو أسامة أو أبو عبد الله، فقيه، مفسر من أهل المدينة. وكان ثقة كثير الحديث. (الأعلام: ٣: ٥٦).

(٣) مجمع بن جارية: (. . . ـ نحو ٥٠ هـ = . . . ـ نحو ٦٧٠ م) مجمع بن جارية أو ابن يزيد بن جارية) بن عامر، أحد من جمع القرآن إلا يسيراً منه، عن النبي ﷺ) وكان ذلك في صباه. مات في المدينة، في خلافة معاوية. (الأعلام: ٥: ٢٨٠).

(٤) يهزون الأباعر: ينشطونها بالحداء لتخف وتسرع في سيرها.

(٥) الإيجاف: سرعة السير.

(٦) كُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.

﴿مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فنسخت هذه الآية تلك. قال سفيان الثوريّ(1): ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ ما عملت في الجاهلية، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ كل شيء لم يعمله. وقال عطاء بن أبي مسلم الخراساني: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ يعني ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ذنوب أمتك بدعوتك. وقال الزياديّ: أي لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه. ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ أي بالنبوّة والحكمة ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ أي ويثبتك عليه، وقيل: يهدي بك، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ٣] غالباً، وقيل: معزًّا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤]، قال الثعلبيّ: أي الرحمة والطمأنينة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث الله عز وجل نبيّه عليه السلام بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدّقوه زادهم الصلاة، فلما صدّقوه زادهم الزكاة، فلما صدّقوه زادهم الصيام، فلما صدّقوه زادهم الحجّ، ثم زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ أي تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الضحّاك: يقيناً مع يقينهم. وقال الكلبي: هذا في أمر الحديبية. وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما قرأ على الناس قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بين الله ما يفعل بك، فما يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾ [الفتح: ٥] ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ إن لم يُنصر محمد والمؤمنون ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ بالذّل والعذاب ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح: ٦] إلى قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] ثم ذكر الله تعالى قصة البيعة، وقد تقدّمت.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ۝١١﴾ [الفتح: ١١] قال ابن عباس ومجاهد: يعني أعراب غِفار ومُزَينة وجُهينة، وأشجع وأسلم والدِّيل، وذلك أن رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر مَن حول المدينة من الأعراب وأهل

---

(١) سفيان الثوري: (٩٧ ـ ١٦١ هـ = ٧١٦ ـ ٧٧٨ م) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة خرج من الكوفة (سنة ١٤٤ هـ) فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً. (الأعلام: ٣: ١٠٤).

البوادي، ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ بالعُمرة وساق معه الهَدْي، ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثير من الأعراب وقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟ فتخلفوا عنه واعتلوا بالشغل، فأنزل الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، الآية. أي إذا انصرفت إليهم فعاتبتهم على التخلف عنك ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ثم كذبهم في اعتذارهم واستغفارهم، وأخبر عن أسرارهم وإضمارهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢] وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ رأس، فلا يرجعون، فأين تذهبون؟ انتظروا ما يكون من أمرهم. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين، لا تصلحون لشيء من الخير. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الفتح: ١٣].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: ١٥] قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ يعني غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ معناه يريدون أن يغيّروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهن غنائم خيبر عوضاً عن غنائم أهل مكة، إذ انصرفوا عنها عن صلح ولم يصيبوا منها شيئاً. وقال ابن زيد: هو قوله عزّ وجل: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] قال: والأول أصوب، لأن قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ نزلت في غزوة تبوك. قال: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل مرجعنا إليكم: إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي أن نصيب معكم من الغنائم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح وعطاء الخراسانيّ وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى ومجاهد: هم فارس. وقال كعب الأحبار: الروم. وقال الحسن: فارس والروم. وقال عكرمة: هوازن. وقال سعيد بن جُبير: هوازن وثقيف. وقال قتادة: هوازن وغطفان يوم حنين. وقال الزهريّ ومقاتل: بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب. وقال رافع بن خديج: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ

﴿قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ولا نعلم مَنْ هم حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قال أهل الزّمانة[١]: فكيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ يعني عن التخلف عن الجهاد والقعود عن الغزو ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني في ذلك ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ برضاه عن أهل بيعة الرضوان، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وقد تقدّم ذكر ذلك آنفاً. ثم قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾. وهي الفتوح التي تفتح لهم إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠] يعني خيبر. وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لغزوة خيبر. ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح: ٢١] قال: معناه ووعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها لكم حتى يفتحها عليكم. واختلفوا فيها، فقال ابن عباس وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى والحسن ومقاتل: هي فارس والروم، وقال الضحاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وعدها الله تعالى نبيه ﷺ قبل أن يصيبها، ولم يكونوا يذكرونها ولا يرجونها حتى أخبرهم الله بها. وهي رواية عطية وباذان عن ابن عباس. وقال قتادة: هي مكة. وقال مجاهد: ما فتحوا حتى اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح: ٢٢]، قال: يعني أسد وغطفان وأهل خيبر. وقال قتادة: يعني كفار قريش: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٢٤]؛ واختلفوا في هؤلاء، فقال أنس: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم[٢] عند صلاة الفجر عام الحديبية ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ سلماً[٣]

---

(١) ذوو العاهات. (٢) موضع بمكة في الحل، بين مكة وسرف.

(٣) سلما: قال ابن الأثير: «يروى بكسر السين وفتحها، وهما لغتان للصلح». وقال الخطابي: «إنه السَلَم بفتح السين واللام، يريد الاستسلام والإذعان».

فأعتقهم، فأنزل الله عز وجل الآية. وقال عكرمة عن ابن عباس: إن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ: وقد قدّمنا ذكرهم.

وقال عبد الله بن مغفل: كنا مع النبي ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة، وعلى ظهره غصن من أغصان تلك الشجرة، فرفعته عن ظهره، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه يكتب كتاب الصلح وسهيل بن عمرو، فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فخلى عنهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل الآية. وقيل: غير ذلك. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الآية. وهي قصة الحديبية وقد تقدم شرحها. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا﴾ [الفتح: ٢٥] قال: قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ أي تقتلوهم: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾، قال ابن زيد: إثم. وقال ابن إسحاق: غُرْم الدّية. وقيل: الكفارة، لأن الله عز وجل إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم قاتلُه إيمانه الكفارة دون الدية. وقيل: هو أن المشركين يعيبونكم ويقولون: قتلوا أهل دينهم. والمعرّة المشقة، وأصلها من العُرّ وهو الحرب. وقال: فلولا ذلك لأذن لكم في دخول مكة، ولكنه حال بينكم وبين ذلك. ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في دين الإسلام «مَنْ يَشَاءُ» من أهل مكة قبل أن تدخلوها. قال: وقال بعض العلماء: قوله: «لَعَذَّبْنَا» جواب لكلامين أحدهما «وَلَوْلاَ رِجَالٌ» والثاني «لَوْ تَزَيَّلُوا» أي تَميّزوا. وقال قتادة في قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي أن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: «هم المشركون من أجداد رسول الله ﷺ وممن كان بعدهم في عصره، كان في أصلابهم المؤمنون، فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله الكافرين عذاباً أليماً».

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، قال ابن إسحاق: يعني سهيل بن عمرو حين حمي[1] أن تكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم. وأن

(١) حمي: أنف.

محمداً رسول الله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، قال: كلمة التقوى يعني الإخلاص؛ وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: «لا إلٰه إلا الله». وهو قول ابن عباس وعمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة والضحاك وسلمة بن كُهيل وعبيد بن عمير وعكرمة وطلحة بن مُصرِّف والربيع والسدّيّ وابن زيد. وقال عطاء الخراسانيّ: هي لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله. وعن عليّ رضي الله عنه قال: كلمة التقوى: لا إلٰه إلا الله والله أكبر، وهو قول ابن عمر. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وعن الزهريّ: كلمة التقوى هي بسم الله الرحمٰن الرحيم.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]، قال: الرؤيا التي أراها إياه في مَخْرَجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام. قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي أن الصلاح كان في الصلح. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قيل: صلح الحديبية.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]. أي أنك نبيّ صادق فيما تخبر.

ثم وصف تعالى رسوله ﷺ وأصحابه فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]. قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى: قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ تم الكلام ها هنا، يعني الكلام الأول، ثم قال مبتدئاً. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي غلاظ لا تأخذهم فيهم رأفة: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي متعاطفون متوادُّون بعضهم مع بعض. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يُدخلهم جنّته. ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ يرضى عنهم. ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم. ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ واختلف العلماء في هذه السيماء، فقال قوم: هو نور وبياض في وجوههم يوم القيامة، يعرفون بتلك العلامة أنهم سجدوا في الدنيا؛ وهي رواية العَوفي عن ابن عباس. وقال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس: استنارت وجوههم من كثرة ما صلّوا. وقال شَهْر بن حَوْشَب: يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر. وقال آخرون: هو السَّمْت[1]

(١) السَّمْت: النهج القويم.

الحسن والخشوع والتواضع. وقال منصور: سألت مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهو الأثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكْبَة البعير، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع. وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء. وقال شَمر بن عطية: هو التهيّج وصُفرة الوجه وأثر السهر. وقال الحسن: إذا رأيتَهم حسبتَهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال عكرمة وسعيد بن جبير: هو أثر التراب في جباههم. وقال عطية الخراسانيّ: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ﴾ أي ذلك الذي ذكرت ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ قال: وها هنا تم الكلام. ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾؛ قال أنس: «شَطْأَه» نباته. وقال ابن عباس: سنبله. وقال مجاهد والضحاك: ما يخرج تحت الحِقْلة[1] فينمو ويتم. وقال مقاتل: هو نبت واحد، فإذا خرج ما بعده فَقَد شَطأه. وقال السدّي: هو أن يخرج معه الطاقة الأخرى. وقال الفراء: الأشطاء: الزرع إذا نبت سبعاً أو ثمانياً أو عشراً. وقال الأخفش: فراخه، يقال: أشطأ الزرع فهو مشطيء إذا فَرَّخَ، قال الشاعر: [من الرمل]

أخرج الشطء على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

قال: وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب محمد ﷺ، يعني أنهم كانوا يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون ويقوون. قال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ﴿فَآزَرَهُ﴾ قوّاه وأعانه وشدّ أزره. ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾، فغلظ وقوي. ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ تم وتلاحق نباته وقام ﴿عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أصوله. ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يعني أن الله تعالى فعل ذلك بمحمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ليغيظ بهم الكفار. قال الثعلبيّ بسند يرفعه إلى الحسن في قوله عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ قال: محمد رسول الله. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، أبو بكر ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر بن الخطاب. ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ عثمان بن عفان. ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ علي بن أبي طالب. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ طلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد وسعيد وأبو عبيدة. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال: هم المبشَّرون، أولهم أبو بكر وآخرهم أبو عبيدة. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ قال: نعتُهم في التوراة والإنجيل كمثل زرع. قال: الزرع: محمد ﷺ. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أبو بكر الصديق. ﴿فَآزَرَهُ﴾ عمر بن الخطاب. ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ عثمان، يعني استغلظ عثمان للإسلام. ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ علي بن أبي طالب، يعني

(١) الحِقلة: بالفتح والكسر: ما يبقى من الماء الصافي في الحوض.

استقام الإسلام بسيفه. ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ قال: المؤمنون. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ قال: قول عمر لأهل مكة: لا نعبد اللّه سِرًّا بعد اليوم. رضوان الله عليهم أجمعين.

ذكرُ خبر أبي بَصير ومن لحق به وانضم إليه

قد اختُلف في اسمه، فقيل: عُبَيد بن أَسِيد بن جارية. وقال ابن إسحاق: عُتْبة بن أسيد بن جارية، وعن أبي معشر قال: اسمه عتبة بن أسيد بن جارية بن أسيد بن عبد الله بن سلمة بن عبد الله بن غِيَرة بن عوف بن قسيّ، وهو ثقيف بن منبّه بن بكر بن هوازن، حليف لبني زهرة، وخبره وإن لم يكن داخلاً في جملة الغزوات والسرايا فليس هو منافٍ لها، وموجب إيرادنا إياه في هذا الموضع لتعلقه بغزوة الحديبية، ولأنّ ردّه كان من شروط الهدنة، ونحن نورده ها هنا على ما أورده الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، رحمه الله تعالى، في كتابه المترجم بدلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، وما أورده أبو محمد عبد الملك بن هشام عن محمد بن إسحاق رحمهم الله تعالى، يدخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا:

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة انفلتَ رجل من أهل الإسلام من ثقيف، يقال له: أبو بصير بن أَسِيد بن جارية الثقفيّ منْ المشركين، فأتى رسول الله ﷺ مسلماً مهاجراً، وكان ممن حُبس بمكة، فكتب فيه أزهر بن عبد عوف بن الحارث[(١)] بن زهرة، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفيّ[(٢)] إلى رسول الله ﷺ، وبعثا رجلاً من بني عامر بن لؤيّ، ومعه مولى لهم، ويقال: كانا من بني منقذ، أحدهما مولى والآخر من أنفسهم، اسمه جحش بن جابر، وكان ذا جلَد ورأي في أنفس المشركين، وجعل لهما الأخنس في طلب أبي بصير جُعلاً[(٣)]، فقدما على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك». فقال: يا رسول الله، أتردُّني إلى المشركين يفتنونني في

---

(١) أزهر بن عبد عوف: أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري بن الحارث بن زهرة: عم عبد الرحمٰن بن عوف. راجع (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٢٩. رقم الترجمة: ٧٢).

(٢) الأخنس بن شريق: الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج. أبو ثعلبة، حليف بني زهرة أسلم فكان من المؤلفة، وشهد حنيناً ومات في أول خلافة عمر. راجع (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٢٥ رقم الترجمة: ٦١).

(٣) جُعلاً: مكافأة.

ديني؟ قال: «انطلق، فإن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً»، ودفعه إليهما، فخرجا به، حتى إذا كانا بذي الحُلَيْفة[١] سلّ جحش سيفه، ثم هزّه وقال: لأضربنّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل، فقال له أبو بصير: أوَ صارم سيفك هذا؟ قال: نعم؛ قال: ناولنيه أنظر إليه. فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربه به حتى برَد، ويقال: بل تناول أبو بصير سيف جحش بفيه، وهو نائم فقطع به إساره[٢]، ثم ضربه به حتى برد؛ وطلب الآخَر فجمز[٣] مذعوراً مستخفياً، حتى دخل المسجد إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعْراً»؛ فأقبل واستغاث برسول الله ﷺ، فقال: «ويحك! ما لك»؟ فقال: قتل صاحبُكم صاحبي. وجاء أبو بصير يتلوه، فسلم على رسول الله ﷺ وقال: وَفَت ذمتُك يا رسول الله، وأدّى الله عنك، دفعتني إليهما فتعرفت أنهم سيعذبونني ويفتنونني عن ديني، فقتلت المنقذيّ، وأفلتني هذا. فقال رسول الله ﷺ: «ويلُ أمّةِ مِسْعَر[٤] حرب لو كان معه رجال»، وجاء أبو بصير بسلَبه[٥] فقال: خمس يا رسول الله؛ فقال رسول الله ﷺ: «إني إن خمَّسته لم أوفِ لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلَب صاحبك، واذهب حيث شئت». فخرج أبو بصير معه خمسة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث قدم، ولم يطلبهم أحد، وساروا حتى نزلوا بين العِيص وذي المَرْوة من أرض جُهينة، على طريق عَيرات قريش مما يلي سِيف البحر، لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها، وانفلت أبو جندل ابن سُهَيْل بن عمرو - واسم جندل العاص بن سهيل على ما أورده الزبير بن بكار - في سبعين راكباً أسلموا، فلحقوا بأبي بصير حين بلغهم أن رسول الله ﷺ قال: «ويلُ أمه مِسْعَر حرب لو كان معه رجال»، فقطعوا مادة قريش من طريق الشام. وكان أبو بصير يصلي لأصحابه، فلما قدم عليه أبو جندل كان هو يؤمهم، واجتمع إلى أبي جندل ناس من بني غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس، حتى بلغوا ثلثمائة مقاتل، وهم مسلمون، فأقاموا مع أبي جندل وأبي بصير، لا تمرُّ بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها، وقال أبو جندل في ذلك: [من الرجز]

---

(١) ذو الحُليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة. ومنها ميقات أهل المدينة.
(٢) الإسار: القيد.
(٣) جمز: عدا وأسرع.
(٤) مسعر الحرب: موقدها، يقال: فلان سعر حرب إذا كان يؤرثها، أي تحمى به الحرب، يتعجب النبي ﷺ من شجاعته وجرأته وإقدامه.
(٥) سلبه: غنائمه.

أبـلـغ قـريـشـاً عـن أبـي جَـنـدل　　أنَـا بـذي الـمَـرْوة بـالـسـاحـل
فـي مـعـشـرٍ تـخـفـق راياتُـهـم　　بـالـبِـيض فـيـهـا والـقَـنـا الـذُّبَّـلِ[١]
يـأبَـون أن تـبـقـى لـهـم رفـقـة　　مـن بـعـد إسـلامـهـم الـواصـلِ
أو يـجـعـل الـلّـهُ لـهـم مـخـرجـاً　　والـحـق لا يُـغـلـب بـالـبـاطـلِ
فـيـسـلـم الـمـرء بـإسـلامـه　　أو يـقـتـل الـمـرء ولـم يـأتَـلِ[٢]

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامهم إلا آواهم، وقالوا: لا حاجة لنا بهم. قال البيهقي: وقالوا: من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره. فلما كان ذلك من أمرهم، علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة رسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا وكرهوا. وحكى البيهقي: أن هؤلاء هم الذين مرّ بهم أبو العاص بن الربيع فأخذوا ما معه، فلما بلغهم ما قاله رسول الله ﷺ أطلقوا من أسروا من أصحاب أبي العاص، وردّوا إليهم جميع ما أخذوه حتى العِقال[٣]، وقد تقدم خبر أبي العاص، وقيل: إنما أُخذ في غير هذه السَّرِيّة. والله أعلم.

قال: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى أبي بصير وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه، ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، ولا يعترضوا لأحد مرّ بهم من قريش وعيرَاتهم. فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي جندل وأبي بصير، وأبو بصير قد أشرف على الموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه، ورجع سائرهم إلى أهليهم، وأمنت عيرات قريش.

ذكر غزوة خيبر وفتحها وما يتصل بذلك

قال محمد بن سعد: غزاها رسول الله ﷺ في جمادى الأولى سنة سبع من مُهاجَرِه. وقال محمد بن إسحاق وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ: في المحرم من السنة. وخيبر على ثمانية بُرُد من المدينة.

قالوا: أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزاة خيبر، وَأَجْلَبَ[٤] من حوله

---

(١) البيض: السيوف. والقنا: الرماح. الذبل: الدقيقة. اللاصقة القشر.
(٢) لم يأتل: لم يقصر.
(٣) العقال: الحبل الذي يستعمل وثاقاً.
(٤) أجلب القوم: إذا صاحوا واختلطت أصواتهم.

يريدون الغزاة معه، فقال: رسول الله ﷺ: «لا يخرجنّ معنا إلا راغب في الجهاد»، وشقّ ذلك على من بقي بالمدينة من اليهود، فخرج واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة الغفاريّ، قاله ابن سعد والبيهقي. وقال ابن إسحاق: استخلف نُمَيْلة بن عبدالله الليثي؛ وأخرج معه من أزواجه أم سلمة[١] رضي الله عنها.

قال ابن إسحاق: لما سار رسول الله ﷺ إلى خيبر قال في مسيره لعامر بن الأكوع - وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع سِنان - «انزل يا بن الأكوع، فخذ لنا من هَناتك»[٢]، فنزل يرتجز برسول الله ﷺ، فقال:

والـلَّـهِ لـولا الله مـا اهـتـديْـنـا ... ولا تـصـدّقْـنـا ولا صـلَّـيـنـا
إنـا إذا قـوم بـغَـوْا عـلـيـنـا ... وإن أرادوا فِـتـنـة أبَـيْـنـا
فـأنـزِلَـنْ سَـكـيـنـةً عـلـيـنـا ... وثـبِّـتْ الأقـدامَ إن لاقـيـنـا[٣]

فقال له رسول الله ﷺ: «يرحمك ربُّك». ومن رواية البيهقي: «غفر لك ربُّك». قال: وما خص بها رسول الله ﷺ أحداً قط إلا استُشهِد. قال ابن إسحاق: فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجبتْ والله يا رسول الله، لو متّعتنا بعامر؛ فقتل يوم خيبر شهيداً، رجع سيفه عليه وهو يقاتل، فكلَمه[٤] كَلماً شديداً فمات.

قال: ولما خرج رسول الله ﷺ من المدينة سلك على عصْر[٥] فبنى له فيه مسجداً، ثم على الصهباء[٦]، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بوادٍ يقال له: الرَّجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر، وكانوا لهم مُظاهرين على رسول الله ﷺ، قال: فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا مَنقلَةً[٧] سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًّا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

---

(١) أم سلمة: (... - نحو ٣٠ هـ = ... - نحو ٦٥٠ م) أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية. من أخطب نساء العرب، ومن ذوات الشجاعة والإقدام وفدت على الرسول في السنة الأولى للهجرة فبايعته وسمعت حديثه وحضرت وقعة اليرموك (سنة ١٣ هـ) فكانت تسقي الضماء وتضمد جراح الجرحى. وتوفيت بعد ذلك بزمن طويل. انظر (الأعلام: ١: ٣٠٦).

(٢) هناتك: أي من أخبارك وأمورك وشعرك.

(٣) راجع بشأن هذا الرجز، شرح المواهب اللدنية: ٢: ٢٦٢.

(٤) كلمه: جرحه.

(٥) عصر: جبل بين المدينة ووادي الفرع، ورواه بعضهم بالتحريك.

(٦) الصهباء: موضع قرب خيبر.

(٧) المنقلة: المرحلة من مراحل السفر.

قال: ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه: «قِفوا» فوقفوا، ثم قال: «اللّهم ربّ السمٰوات وما أظْلَلْن، وربّ الأرضين وما أقْلَلْن، وربّ الشياطين، وما أضلَلْن، وربّ الرياح وما ذَرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله». قال: ولما نزل بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة، ولم يَصحْ لهم ديك حتى طلعت الشمس، وأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم، وغدَوا إلى أعمالهم، معهم المَساحي[(١)]، والكَرازِن ـ وهي الفُؤوس ـ والمكَاتِل ـ وهي الزنابيل ـ فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قالوا: محمد والخمِيس[(٢)] ـ يعنون الجيش ـ فولوا هاربين إلى حصونهم، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»، ووعظ رسول الله ﷺ الناس، وفرّق فيهم الرايات، ولم تكن الرايات إلا يوم خيبر، إنما كانت الألوية[(٣)]، فكانت راية رسول الله ﷺ السوداء من بُرْد لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تدعى العُقاب، ولواؤه أبيض، ودفعه إلى عليّ بن أبي طالب، وراية إلى الحُباب بن المنذر[(٤)]، وراية إلى سعد بن عبادة؛ وكان شعارهم: «يا منصور أمِت»، وكانت حصون خيبر حصوناً ذوات عدد منها النَّطاة، وحصن الصّعب بن مُعاذ، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير، هذه حصون النطاة. والشقّ وبه حصون منها: حصن أبيّ، وحصن النّزار، وحصون الكتيبة منها: القَمُوص، والوطيح، وسُلالم. وسنذكر إن شاء الله فتحها حصناً حصناً. قال: وخرج مرْحب اليهوديّ من حصنهم، قد جمع سلاحه وهو يقول: [من الرجز]

قد علمت خيبر أنّي مَرْحَبُ   شاكي السلاح بطَل مُجرَّبُ[(٥)]

أطعن أحياناً وحيناً أضرِب   إذا الليوثُ أقبلت تُجَرِّبُ[(٦)]

* إن حِمَايَ لِلْحِمى لا يُقرَب *

---

(١) المساحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة من الحديد.

(٢) الخميس: سمي الجيش خميساً لأنه خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة والميسرة والقلب.

(٣) لواء الجيش: علمه.

(٤) الحباب بن المنذر: (. . . ـ نحو ٢٠ هـ = . . . ـ نحو ٦٤٠ م) الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري. صحابي من الشجعان الشعراء، يقال له: «ذو الرأي» هو صاحب المشورة يوم بدر. وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة. مات في خلافة عمر، وقد زاد على الخمسين. انظر (الأعلام: ٢: ١٦٣).

(٥) شاكي السلاح: حاد السلاح.

(٦) تجرب: تغضب.

ثم يقول: هل من مبارز؟ فأجابه كعب بن مالك وهو يقول: [من الرجز]

قد علمت خيبرُ أني كعبُ مفرِّج الغُمَّى جريءٌ صُلْبُ

إذ شبَّت الحرب تليها الحربُ معي حسام كالعقيق عَضْبُ[1]

نطاكُم حتى يُذال الصعبُ نعطي الجزاء أو يفيء النَّهب[2]

* بكفِّ ماضٍ ليس فيه[3] عَتْبُ *

فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا»؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس؛ قال: «فقم إليه، اللهم أعنه عليه». فخرج إليه حتى دنا منه، فحمل مرحب عليه فضربه، فاتَّقاه بالدَّرَقة[4]، فأمسكَت سيفَه، وضربه محمد بن مسلمة فقتله. وقد روي أن الذي قتل مرحباً علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونهض من نهض معه من الناس، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه، فرجعوا إلى رسول الله ﷺ، يُجَبِّنه أصحابه، ويُجَبِّنهم، وكان رسول الله ﷺ قد أخذته الشقيقة[5] فلم يخرج إلى الناس، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه راية رسول الله ﷺ، ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع، فأخذها عمر رضي الله عنه فقاتل قتالاً شديداً أشدّ من القتال الأوّل، ثم رجع، فأخبر رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «أما والله لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، يأخذها عَنوة». وفي رواية قال: «يفتح الله على يديه»، فبات الناس يذكرون ليلتهم أيّهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال رسول الله ﷺ: «أين علي بن أبي طالب»؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه؛ قال: فأرسل رسول الله ﷺ إليه سلمة بن الأكوع فدعاه، فجاء على بعير له حتى أناخ قريباً من رسول الله ﷺ وهو أرمد، قد عصب عينيه بشِقَّة بُرد قَطَرِيّ[6]، قال سلمة: فجئت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما لك»؟ قال: رمِدت؛ فقال: «رمِدت»؛ فقال: «ادن مني» فدنا منه فتفل في عينيه، ودعا

---

(١) قال أبو ذر الخشني: «العقيق هنا جمع عقيقة، وهي شعاع البرق شبه السيف به» شرح السيرة: ٣٤٦. عضب: قاطع.

(٢) الجزاء: جمع جزية. النهب: ما انتهب من الأموال.

(٣) ليس فيه عتب: ليس فيه ما يلام عليه.

(٤) الدَّرَقَة: الترس المتخذ من الجلد فقط.

(٥) الشقيقة: نوع من صداع يعرض في مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه.

(٦) القَطَرِي: نوع من البرود، ينسب إلى قرية يقال لها قطر، وهي بين عمان والعقير.

له فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع، وما وَجعَهما حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية وقال: «امضِ حتى يفتح الله عليك» قال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «انفُذ على[1] رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النَّعَم». روى هذا الحديث أو نحوه أهل الصحة. ومن رواية ابن إسحاق عن سلمة بن الأكوع قال: فنهض عليّ بالراية وعليه حلّة أرجوان حمراء، وقد أخرج خملها[2]، فأتى مدينة خيبر، وخرج مرحب صاحب الحصن، وعليه مُغْفَر[3] مُعصْفر، وحجرٌ قد ثقَبه مثل البيْضة على رأسه، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحبُ　　شاكِي السلاح بطَلٌ مُجَرَّبُ

أطعن أحياناً وحيناً أضِربُ　　إذا الحروبُ أقبلت تَلَهَّب

* كانَ حِماي كالحِمَى لا يُقْرَبُ *

فبرز له عليّ بن أبي طالب فقال: [من الرجز]

أنا الذي سمّتنيَ أمّي حَيْدَرَة　　كليث غاباتٍ شديدِ قَسْوره[4]

* أَكِيلُكم بالسّيف كيلَ السَّندَرهْ[5] *

فاختلفا ضربتين، فبدره عليّ رضي الله عنه فضربه، ففد الحجر والمِغفر وفلق رأسه، حتى أخذ السيف في الأضراس، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبرُ أني ياسرُ　　شاكِي السلاح بطلٌ مُغاورُ[6]

إذَا الليوثُ أقبلت تُبادِرُ　　إن حمايَ فيه موتٌ حاضرُ

وهو يقول: هل من مبارز؟ فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهو يقول: [من الرجز]

---

(١) أنفذ على رسلك: امض على هينتك.

(٢) الخمل: هدب القطيفة ونحوها مما ينسج وتفضل له فضول.

(٣) المغفر: ما يلبسه الفارس تحت البيضة.

(٤) الحيدرة: في الأصل: الأسد. وقال ابن الأعرابي: «الحيدرة في الأسد مثل الملك في الملك». القسورة: العزيز، يقتسر غيره، أي: يقهره.

(٥) السندرة: مكيال كبير.

(٦) المغاور: الكثير القتال والغارات.

قـد عـلـمـت خـيـبـر أنـي زبّـاز قَـرمٌ لـقـوم غـيـر نِـكـسٍ فـرّاز[١]
أيـن حـمـاة الـمـجـد؟ أيـن الأخـيـار؟ يـاسـرُ، لا يَـغـررك جـمـع الـكـفّـار
* فـجـمـعـهـم مـثـل الـسّـراب الـخـتّـار[٢] *

فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: أيقتل ابني يا رسول الله؟ قال: «بل ابنك يقتله إن شاء الله»، ثم التقيا، فقتله الزبير. ومن رواية أخرى عن سلمة قال: فخرج عليّ رضي الله عنه يهرول هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رَضْم[٣] حجارة تحت الحصن، فاطّلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب؛ فقال اليهودي: علوتم وما أنزل الله على موسى. وقال ابن إسحاق أيضاً من رواية أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: خرجنا مع عليّ رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح تُرْسه من يده، فتناول عليّ باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتُني في نفر معي سبعة، أنا ثامنهم، نجهد على أن نَقْلِب ذلك الباب، فما نقلبه.

قال محمد بن إسحاق وأبو بكر البيهقي وغيرهما: إن بني سهم من أسلم أتَوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، جهدنا وما بأيدينا من شيء؛ فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ شيئاً يعطيهم إياه؛ فقال: «اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوّة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها غَناء، وأكثرها طعاماً ووَدَكاً»[٤] فغدا الناس، ففتح الله عليهم حصن الصّعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر منه طعاماً وَوَدَكاً. قال البيهقي: وافتتح رسول الله ﷺ حصن ناعم، فانتقل مَن كان من يهود بحصن مصعب بن معاذ وحصن ناعم إلى قلعة الزّبير، ويقال: حصن ناعم أوّل ما افتتح من حصونهم، وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه رحًى[٥] منه فمات. قال: وحصن الزبير حصن منيع في رأس[٦] قُلَّة، فحاصرهم رسول الله ﷺ به ثلاثة أيام، فجاءه رجل من اليهود يقال له: غزال؛ فقال: يا أبا القاسم،

---

(١) القرم: السيد. النكس: الضعيف.
(٢) الختار: الخداع.
(٣) الرضم: الحجارة المكدسة فوق بعضها.
(٤) الودك: الدسم.
(٥) الرحى: حجر الطاحون.
(٦) في الأصلين: «في رأسه قلة». والتصويب من دلائل النبوة. وجاء في شرح المواهب اللدنية: ٢: ٢٧٤ في هذا الحصن: «وكان اسمه حصن قلة، لكونه كان على رأس جبل».

تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النَّطاة، وتخرج إلى أهل الشَّق؟ فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك، فأمّنه رسول الله ﷺ على أهله وماله، فقال اليهودي: إنك لو أقمت شهراً ما بالوا، لهم دُبُول[١] تحت الأرض، يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإذا قطعت مشربهم عليهم أَصْحروا لك[٢]. فسار رسول الله ﷺ إلى دُبولهم فقطعها، فلما قطع عليهم مشاربهم خرجوا فقاتلوا أشدّ قتال، وقُتل من المسلمين يومئذٍ نفر، وأُصيب من يهود في ذلك اليوم عشرة، وافتتحه رسول الله ﷺ، فكان آخرَ حصون النطاة؛ فلما فرغ رسول الله ﷺ من النطاة تحوّل إلى أهل الشّق، وبه حصون، فكان أوّل حصن بدأ به ﷺ حصنُ أُبَيّ، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سَمْوان؛ فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً، وخرج رجل من اليهود يقال له غزول؛ فدعا إلى البراز، فبرز له الحُباب بن المنذر فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فسقط السيف من يده وهرب إلى الحصن، فتبعه الحباب فقطع عُرْقوبَيه، فوقع، فذفّف[٣] عليه، فخرج آخر فصاح: من يبارز؟ فبرز له رجل من المسلمين من آل جحش، فقتل الجحشيّ، وقام مكانه يدعو إلى البراز، فبرز له أبو دُجانة، قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغْفَر، يختال في مشيته، فبدره أبو دجانة[٤] فضربه فقطع رجليه، ثم ذفّف عليه وأخَذَ سلبه؛ درعه وسيفه: فنفله[٥] رسول الله ﷺ ذلك، وأحجموا عن البراز، فكبّر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، يقدُمهم أبو دجانة الأنصاريّ، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجُدُر كأنهم الظُّبيّ إلى حصن النِّزار، فغلّقوه وامتنعوا فيه، وزحف رسول الله ﷺ في أصحابه فقاتلهم، فكانوا أشدّ أهل الشّق رمياً بالنبل والحجارة، حتى أصاب النبل ثياب رسول الله ﷺ وعلِقت به، فأخذ النبل فجمعها، ثم أخذ كفّاً من حصباء[٦]، فحَصب به حصنهم فرجف الحصن بهم، ثم ساخ في الأرض حتى جاء المسلمون، فأخذوا أهله أخذاً، ثم تحوّل رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة، فافتتح القَمُوص، حصن

---

(١) الدبول: جمع دبل، وهو الجدول.

(٢) اصحروا: برزوا في الصحراء.

(٣) ذفف عليه: أجهز عليه.

(٤) أبو دجانة: (... - ١١ هـ = ... - ٦٣٢ م) سِماك بن خَرَشَة الخزرجي، المعروف بأبي دجانة: صحابي، كان شجاعاً بطلاً. له آثار جميلة في الإسلام. شهد بدراً، وثبت يوم أحد، وأصيب بجراحات كثيرة. استشهد باليمامة. وكانت له مشية عجيبة في الخيلاء. انظر (الأعلام: ٣: ١٣٨).

(٥) نفله: وهبه.

(٦) الحصباء: الحصى.

أبي الحُقَيق، وأتى رسول الله ﷺ منه بصفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب.

قالوا: ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حِصنيهم: الوَطِيح والسُّلالِم، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُسَيِّرهم، وأن يحقن دماءهم. قال البيهقيّ: حصرهم أربعة عشر يوماً وهم لا يطلعون من حصونهم، حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب المَنْجَنيق[1] عليهم، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا الصلح، وأرسل ابن أبي الحُقَيق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلمك؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فنزل كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء مَن في حصونهم من المقاتلة، وترك الذريّة لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلُّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء والكُراع والحَلْقة[2]، وعلى البزّ[3] إلا ثوباً على ظهر إنسان؛ فقال رسول الله ﷺ: «وبرئت منكم ذمّة الله وذمّة رسوله إن كتمتموني شيئاً» فصالحوه على ذلك. وكان عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق كنز بني النضير، فسأله رسول الله ﷺ عنه، فجحد أن يكون يعلم مكانه، وقال: نفذ في النفقة والحروب؛ فقال رسول الله ﷺ: «كان أكثر من ذلك»، ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رأيت كنانة يُطيف بهذه الخِربة[4] كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك»؟ قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفِرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤدّيه، فأمر رسول الله ﷺ الزّبير بن العوام به، فقال: «عذّبه حتى تستأصل ما عنده»، فكان الزبير يقدح بزَنْد في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد ابن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة. ويقال: كان ذلك بعد فتح حصن القَمُوص، وقبل فتح الوَطيح والسّلالم.

قال محمد بن إسحاق: ولما نزل أهل خيبر على الصلح سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النِّصف؛ «على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»، قال: ولما سمع أهل فَدَك أن رسول الله ﷺ افتتح حصون خيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ، يسألونه أن يُسيِّرهم وأن يحقن دماءهم، ويخلّوا له الأموال، ففعل؛ وكان ممن مشى

---

(١) المنجنيق: التي ترمى بها الحجارة.

(٢) الصفراء والبيضاء: هنا الذهب والفضة. الكراع: الخيل. الحلقة: بمعنى السلاح.

(٣) البز: الثياب.

(٤) الخربة: مكان قديم مهجور.

بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك مُحَيصة بن مسعود أخو بني حارثة، ثم سألوا أن يعاملهم رسول الله ﷺ على النِّصف كما عامل أهل خيبر، فأجابهم إلى ذلك؛ «على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»؛ فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدَك خالصة لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

ولما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قدم عليه جعفر بن أبي طالب[1] رضي الله عنه من أرض الحبشة ومَن كان بقي بها من المسلمين، فقبَّله رسول الله ﷺ بين عيْنيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسرّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»!.

ذكر تسمية من استُشهد من المسلمين في غزوة خيبر

قالوا: استُشهد من المسلمين في غزوة خيبر تسعة عشر رجلاً. من قريش وحلفائهم خمسة نفر، وهم رِفاعة بن مَسْروح، من بني أمية بن عبد شمس، ومن حلفائهم ربيعة بن أكثم بن سَخْبَرة، وثَقْف بن عمرو بن سُمَيْط، ومن حلفاء بني أسد ابن عبد العُزّى أبو عُمَير عبد الله بن الهُبَيْب ـ ويقال ابن الهَبِيب ـ بن أهَيْب الليثيّ، ومسعود بن ربيعة، حليف لبني زُهرة، من القارة. ومن الأنصار أربعة عشر رجلاً، وهم: بشر بن البَراء بن معرور، مات من الشاة المسمومة، وفُضَيل بن النعمان، ومسعود بن سعد بن قيس، ومحمود بن مسلمة، وأبو ضَيَّاح النعمان بن ثابت، والحارث بن حاطب، ممن شهد بدراً، وعُروة بن مُرّة بنُ سراقة، وأوس بن الفائد، وأُنَيف بن حَبيب، وثابت بن إِثْلة، وطلحة، ومبشر، وعُمارة بن عقبة، وعامر بن الأكوع الأسلميّ، وكان قد برز له يهودي، فبرز إليه وهو يقول: [من الرجز]

قد علمت خيبر أني عامرُ شاكي السلاح بطلٌ مغامرُ

واختلفا ضربتين، فوقع سيف اليهوديّ في تُرس عامر، ووقع سيف عامر عليه، فأصاب ركبة نفسه وساقه، فمات منها. قال سلمة بن الأكوع: فمررت على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وهم يقولون: بطل عمل عامر، فأتيت نبيّ الله ﷺ وأنا شاحب أبكي، فقلت: يا رسول الله، أبطل عمل عامر؟ فقال: «ومن قال ذلك»؟ قلت: بعض أصحابك؛ قال: «كذب من قاله، بل أجره مرّتين، إنه لجاهدٌ مُجاهِد».

واستُشهد الأسود الراعي ـ واسمه أسلم، وهو من أهل خيبر ـ وكان من حديثه

---

(١) جعفر بن أبي طالب: جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو عبد الله ابن عم النبي ﷺ. أحد السابقين إلى الإسلام. آخى النبي ﷺ بينه وبين معاذ بن جبل. وكان الرسول ﷺ يكنيه: أبا المساكين. استشهد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان، وقد استوفى أربعين سنة. انظر (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٢٣٧ رقم الترجمة ١١٦٦).

حكاه محمد بن إسحاق وأبو بكر البيهقي رحمهما الله: أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصِر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم كان فيها أجيراً لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله، اعرض عليّ الإسلام؛ فعرضه عليه، فقال: فماذا لي إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال: «لك الجنة إن أنت مت على ذلك»؟، فأسلم وقال: يا رسول الله، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم، وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال رسول الله ﷺ: «أَخرِجها من عسكرنا، واحصِب[١] وجوهها، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، وسترجع إلى ربّها». ففعل الأسود وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن. ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاةً قطّ، فأتي به رسول الله ﷺ فوُضع خلفه، وسجّى بشملة كانت عليه، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم أعرض عنه، فقالوا: يا رسول الله، لم أعرضت عنه؟ قال: «إن معه الآن زوجته من الحور العين».

وقتل من يهود ثلاثة[٢] وأربعون، منهم: الحارث أبو زينب، ومَرْحَب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبي الحقيق وأخوه.

ذكر قسْم غنائم خيبر

قال محمد بن سعد: أمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجمعت، واستعمل عليها فَرْوة بن عمرو البَياضِيّ، وأمر بذلك فجزّىء خمسة أجزاء، وكتب في سهم منها لِلّه، وسائر السُّهْمان أغفال، فكان أوّل ما خرج سهم النبي ﷺ، وأمر ببيع الأربعة أخماس فيمن يزيد، فباعها فروة، وقسم ذلك بين أصحابه؛ وكان الذي ولي إحصاء الناس زيد بن ثابت، فأحصاهم ألفاً وأربعمائة رجل، والخيل مائتي فرس، فكانت السُّهْمان على ثمانية عشر سهماً، لكل مائةٍ سهم، وكان الخمس الذي صار إلى رسول الله ﷺ يعطى منه على ما أراه الله.

وقال محمد بن إسحاق: كانت المقاسم على أموال خيبر، على الشّق ونَطاة والكُتَيْبَة، فكانت الكتيبة خُمسَ الله، وسهم النبي ﷺ وذوي القربى واليتامى والمساكين، وطُعَم أزواج النبي ﷺ، وطُعْم رجال مشوْا بين رسول الله ﷺ، وبين أهل فَدَك بالصلح، منهم مُحيصة بن مسعود، أعطاه رسول الله ﷺ منها ثلاثين وَسْقاً[٣] من

---

(١) حصبه: رماه بالحصباء.

(٢) في ابن سعد: «ثلاثة وتسعون».

(٣) الوَسْق: ستون صاعاً، أو حمل بعير.

شعير، وثلاثين وسقاً من تمر، وكانت الشق ونطاة في سُهمان المسلمين؛ قال: وقسمت خيبر على أهل الحُدَيْبِية، من شهد منهم ومن غاب، ولم يغب عنها إلاّ جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرام، فقسم له رسول الله كسهْم من حضرها. وقال: وكان وادياها: وادي السُّرَير ووادي خاص، وهما اللذان قسمت عليهما خيبر، فكانت نَطاة والشِّق ثمانية عشر سهماً، نطاة خمسة أسهم، والشق ثلاثة عشر سهماً، فقسمت الشق ونطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم، فكان لكلِّ سهم رأسٌ جُمع إليه مائة رجل؛ قال: ثم قسم رسول الله ﷺ الكتيبة ـ وهو وادي خاص ـ بين قرابته ونسائه ورجال من المسلمين ونساء أعطاهم منها. وروى بشير بن يسار قال: لما افتتح النبي ﷺ خيبر أخذها عنوة، فقسمها على ستة وثلاثين سهماً، فأخذ لنفسه ولنوائبه وما ينزل به ثمانية عشر سهماً، وقسم بين الناس ثمانية عشر سهماً. والله أعلم.

وروى أبو داود في سُننه بسنده إلى عُقْبة بن عامر[1] أن النبي ﷺ قال لرجل: «أترضى أن أزوّجك فلانة»؟ قال: نعم؛ وقال للمرأة: «أترضين أن أزوّجك فلاناً»؟ قالت: نعم. فزوّج أحدهما صاحبه، فدخل بها الرجل، ولم يَفرِض لها صداقاً[2] ولم يعطها شيئاً، وكان ممن شهد الحديبية، وكان من شهد الحديبية له سهم بخيبر، فلما حضرته الوفاة قال: إن رسول الله ﷺ زَوّجني فلانة، ولم أَفرض لها صداقاً، ولم أعطها شيئاً، وإنّي أُشهدكم أنّي أعطيتها من صداقها سهمي بخيبر. فأخذت سهماً فباعته بمائة ألف.

ذكر تسمية من قَسم لهم رسول الله ﷺ من الكُتَيْبَة التي خرجت للخمس وما أعطاهم منها

قسم رسول الله ﷺ من الكُتَيْبَة ـ وهو وادي خاص[3] ـ لفاطمة ابنته رضي الله عنها مائتي وسق ولعليّ بن أبي طالب مائة وسق، ولأسامة بن زيد مائتي وسق، وخمسين وسقاً نَوَى[4]، ولعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مائتي وسق، ولأبي بكر الصديق رضي الله عنه مائة وسق، ولِعَقِيل بن أبي طالب مائة وسق وأربعين وسقاً،

---

(١) عقبة بن عامر: (. . . ـ ٥٨ هـ = . . . ـ ٦٧٨ م) عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني: أمير، من الصحابة. شهد صفين مع معاوية وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص. مات بمصر. وهو أحد من جمع القرآن. انظر (الأعلام: ٤: ٢٤٠).

(٢) الصداق: المهر.

(٣) خاص: من أودية خيبر.

(٤) النوى: التمر.

ولبني جعفر خمسين وسقاً، ولربيعة بن الحارث مائة وسق، وللصلت بن مخرمة وابنيه مائة وسق؛ للصلت منها أربعون وسقاً. وقال أبو عمر بن عبد البر في ترجمة قاسم بن مخرمة بن المطلب: أعطاه رسول الله ﷺ ولأخيه الصلت مائة وسق من خيبر، ولأبي نَبْقة خمسين وسقاً، ولرُكانة بن عبد يزيد خمسين وسقاً، ولابن القاسم بن مخرمة أربعين وسقاً، ولبنات عبيدة بن الحارث وابنه الحصين بن الحارث مائة وسق، ولبني عبيد بن عبد يزيد ستين وسقاً، ولابن أوس بن مخرمة ثلاثين وسقاً، ولِمِسْطَح بن أثاثة وابن إلياس خمسين وسقاً، ولأم رُمَيثة أربعين وسقاً، ولنُعَيم بن هند ثلاثين وسقاً، ولبُحَينة بنت الحارث ثلاثين وسقاً، ولعُجَير بن عبد يزيد ثلاثين وسقاً، ولأم الحكم[١] بنت الزبير بن عبد المطلب ثلاثين وسقاً، ولجُمانة بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً، ولعبد الله بن الأرقم الزهري خمسين وسقاً، ولعبد الرحمٰن بن أبي بكر أربعين وسقاً، ولحَمْنة بنت جحش ثلاثين وسقاً، ولأم الزبير أربعين وسقاً ولضُباعة بنت الزبير أربعين وسقاً، ولابن أبي خُنَيس ثلاثين وسقاً، ولأم طالب أربعين وسقاً، ولأبي نَضْرة عشرين وسقاً، ولنُمَيْلة الكلبيّ خمسين وسقاً، ولعبد الله بن وهب وابنيه تسعين وسقاً، لابنيه منها أربعون وسقاً، ولأم حبيب بنت جَحْش ثلاثين وسقاً، ولمَلْكو بن عَبْدة ثلاثين وسقاً، ولنسائه ﷺ سبعمائة وسق.

وقال ابن إسحاق أيضاً: وقسم رسول الله ﷺ لنسائه من فتح خيبر مائة وسق وثمانين وسقاً، ولفاطمة ابنة رسول الله ﷺ خمسة وثمانين وسقاً، ولأسامة بن زيد أربعين وسقاً، وللمِقداد بن الأسود خمسة عشر وسقاً، ولأم رُمَيْثة خمسة أوسق.

شهد عثمان بن عفان وعباس وكتب.

قال: وكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر خارصاً[٢] بين المسلمين ويهود فيخرص عليهم، فإذا قالوا: تعديت علينا؛ قال: إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا؛ فتقول يهود: بهذا قامت السمٰوات والأرض. ولم يخرص عليهم عبد الله إلا عاماً واحداً ومات.

وروى أبو داود رحمه الله في سننه بسنده عن جابر بن عبد الله من رواية ابن جريج عن أبي الزبير عنه، قال: خرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق، وإن اليهود لما خيرهم ابن رواحة أخذوا التمر وعليهم عشرون ألف وسق، ثم خرص عليهم بعده جَبَّار بن صخر بن أمية ابن خنساء، أخو بني سلمة، فأقامت يهود على ذلك لا يرى

---

(١) كذا في الأصلين. وفي ابن هشام: ولأم حكيم.
(٢) خارصاً: حازراً ومقدراً.

بهم المسلمون بأساً في معاملتهم، حتى عدوا على عهد رسول الله ﷺ على عبد الله بن سهل، أخي بني حارثة، فقتلوه، وكان قد خرج إليها في أصحاب له يمتار(١) منها تمراً، فوُجد في عين قد كسرت عنقه، فاتهمهم رسول الله ﷺ بقتله، وجاء أخوه عبد الرحمٰن بن سهل، وابنا عمه حُوَيِّصة ومُحَيِّصة إلى رسول الله ﷺ، فتكلم عبد الرحمٰن ـ وكان أصغرهم، وهو صاحب الدم ـ فقال رسول الله ﷺ: «كبّر كبّر»(٢) فسكت، وتكلم حويصة ومحيّصة، ثم تكلم بعدهما، فذكروا قتل صاحبهم، فقال رسول الله ﷺ: «أَتُسَمُّون قاتلكم ثم تحلفون عليه خمسين يميناً فنسْلمه إليكم» قالوا: يا رسول الله، ما كنا لنحلف على ما لا نعلم؛ قال: «أفيحلفون بالله خمسين يميناً ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلاً، ثم يبرءون من دمه؟»، فقالوا: يا رسول الله، ما كنا لنقبل أيمان يهود، ما هم فيه من الكفر أعظم أن يحلفوا على إثم. قال: فوَدَاه رسول الله ﷺ بمائة ناقة. قال(٣): واستقرت خيبر بيد يهود على ما عاملهم عليها رسول الله ﷺ مدة حياته، ثم أقرها أبو بكر رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ بأيديهم على المعاملة، ثم أقرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه صدراً(٤) من خلافته، ثم بلغه أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»؛ ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبْت، فأرسل إلى يهود، فقال: إن الله قد أذن في إجلائكم، فقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن له عهد منه فليتجهز للجلاء. فأجلى عمر بن الخطاب من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ.

هذا ما كان من أمر خيبر على سبيل الاختصار، فلنذكر ما اتفق بعد فتح خيبر مما يتعين إلحاقه بهذه الغزوة لتعلقه بها، فمن ذلك خبر الشاة التي سُمّ فيها رسول الله ﷺ، وقد قدّمنا ذكر ذلك في أخبار يهود، وهو في الجزء الرابع عشر من هذه النسخة(٥)، ومنه خبر الحجاج بن عِلاط.

ذكر خبر الحجاج بن عِلاط(٦) وما أوصله إلى أهل مكة عن رسول الله ﷺ حتى استوفى أمواله

قالوا: وكان الحجاج بن عِلاط السُلميّ ثم البَهْزِيّ أسلم وشهد خيبر مع رسول

(١) يمتار: يجلب.
(٢) ويروى: «الكبر الكبر» بضم الكاف وسكون الباء، أي قدموا الأكبر.
(٣) أي ابن إسحاق. (٤) صدراً: مدة.
(٥) من تجزية المؤلف.
(٦) الحجاج بن عِلاط: الحجاج بن عِلاط بن خالد بن ثويرة بن هلال. الفهري يكنى: أبا كلاب. =

الله ﷺ، فلما فتحت خيبر قال: يا رسول الله، إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيْبة بنت أبي طلحة، ومال مفرّق في تجار أهل مكة، فأذن لي يا رسول الله. فأذن له، فقال: إنه لا بدّ لي يا رسول الله من أن أقول. قال: «قل»، قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثَنيّة البيضاء[١] رجالاً من قريش يستمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز؛ ريفاً ومنعة ورجالاً، فهم يتحسسون الأخبار، ويسألون الرُّكبان، فلما رأوني قالوا: الحجاج بن علاط عنده والله الخبر؛ قال: ولم يكونوا قد علموا بإسلامي، فقالوا: أخبرنا يا أبا محمد، فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود وريف الحجاز؛ قال: قلت: قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم، فالْتَبَطوا[٢] بجنْبَي ناقتي يقولون: إِيهِ يا حجاج! قال: قلت: هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقُتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وَأُسر محمداً أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكّة، فيقتلوه بين أَظْهرهم بمن أصاب من رجالهم. فقاموا وصاحوا بمكة، وقالوا: لقد جاءكم الخبر، وهذا محمد، إنما تنتظرون أن يُقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم. قال: قلت: أعينوني على جمع مالي بمكة على غُرمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من فَلِّ[٣] محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك. قال: فقاموا فجمعوا لي مالي كأحثّ[٤] جمع سمعت به. قال: وجئت صاحبتي فقلت: مالي ـ وقد كان لي عندها مال موضوع ـ لعلّي ألحق بخيبر، فأصيب من فُرص البيع قبل أن يسبقني التجار؛ قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنّي، أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من مخيم التجار، فقال: يا حجاج، ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: قلت: وهل عندك حفظ لما وضعتُ عندك؟ قال: نعم، قلت: فاستأخر عني حتى أفرغ. قال: فلما فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، وأَجمعتُ[٥] الخروج لقيت العباس فقلت: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت. قال: أفعل؛ قلت: فإني والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم ـ يعني صفية بنت حُيَيّ بن أخطب ـ ولقد افتتح خيبر،

= ويقال: كنيته أبو محمد وأبو عبد الله. قدم على النبي ﷺ وهو بخيبر. فأسلم وسكن المدينة واختط بها داراً ومسجداً. انظر (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٣١٣ رقم الترجمة ١٦٢٢.

(١) في معجم البلدان: «البيضاء: ثنية التنعيم بمكة، لها ذكر في كتاب السيرة.

(٢) فالتبطوا: أي عدوا إليها مطيفين بها.

(٣) الفل: القوم المنهزمون.

(٤) كأحت جمع: كأسرع جمع.

(٥) أجمعت: قررت.

وانتثل[١] ما فيها، وصارت له ولأصحابه؛ قال: ما تقول يا حجاج! قلت: إي والله، فاكتم عني، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي فَرقاً[٢] من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك، فهو والله على ما تحب. قال: وسرت حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلّة له، وتخلّق[٣] وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة؛ قال: كلا، والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وتُرك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ ماله، وانطلق ليَلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه؛ قالوا: يا لَعباد الله! انفلت عدوّ الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن. ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك.

ذكر انصراف رسول الله ﷺ عن خيبر إلى وادي القرى، ونومهم عن صلاة الصبح

قالوا: ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى، فنزل به مع غروب الشمس، ومعه غلام له يقال له: مِدْعَم؛ أهداه إليه رفاعة بن زيد الجُذاميّ، فبينا هو يضع رَحْل رسول الله ﷺ أتاه سهمُ غَرْب[٤] فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة؛ فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفس محمد بيده إن شَملته[٥] لتحترق عليه في النار». كان غَلّها[٦] من فَيْءِ المسلمين يوم خيبر، فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصبتُ شِراكَين لنَعلين لي؛ فقال: «يقَدُّ لك مثلهما من النار».

قال أبو بكر أحمد البيهقيّ رحمه الله بسند يرفعه إلى أبي هريرة رضي الله عنه، وساق نحو الحديث في قتل مِدْعم، ثم قال: وكانت يهود قد ثَوَى إليها ناس من العرب، فاستقبلونا بالرّمي حيث نزلنا، ولم نكن على تعبئة، وهم يصيحون من آطامهم، فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفّهم للقتال، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة،

---

(١) انتثل: استخرج.
(٢) فرقاً: خوفاً، خشية.
(٣) تخلق: طلي بالخلوق، وهو ضرب من الطيب.
(٤) سهم غَرْب: سهم مجهول الرامي.
(٥) الشملة: كساء غليظ يلتحف به.
(٦) غلّها: حصل عليها.

وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حُنَيف، وراية إلى عبّاد بن بِشر، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله. فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر، فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ثم برز آخر، فبرز إليه أبو دُجانة الأنصاريّ رضي الله عنه فقتله، حتى قُتل منهم اثنا عشر رجلاً، كلما قُتل رجل منهم دعى من بقي إلى الإسلام. قال: ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذٍ فيصلي بأصحابه، ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله، فقاتلهم ﷺ حتى أمسى، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قِيدَ رُمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنم أموالهم، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً، فأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها، فلما بلغ يهود تَيْماء ما كان من أمر خيبر وفَدَك ووادي القرى صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل: «مَنْ رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام»؟ وجاء في الحديث: «من رجل يكلأ لنا الليل»؟. فقال بلال: أنا يا رسول الله. فنزل رسول الله ﷺ ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ما شاء الله أن يصلي، ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمُقه فغلبته عينه فنام، فلم يوقظهم إلا مَسُّ الشمس، وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه استيقاظاً، فقال: «ماذا صنعت بنا يا بلال»؟ فقال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك. قال: «صدقت»، ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير ثم أناخ، فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فلما سلّم أقبل على الناس فقال: «إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها، فإن الله عز وجلّ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾» [طه: ١٤]. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ حين استيقظ واستيقظ أصحابه أمرهم أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادي، وقال: «إن هذا وادٍ به شيطان» فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادي، ثم أمرهم أن ينزلوا وأن يتوضؤوا. . . الحديث بنحو ما تقدم.

ذكر سريّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تُرَبة

بعثه رسول الله ﷺ في شعبان سنة سبع من مُهاجَرِه في ثلاثين رجلاً إلى عَجُز هوازن بتُرَبة ـ وهي ناحية العَبْلاء على أربع ليال من مكة، طريق صنعاء ونجران ـ فأتى الخبر هوازن فهربوا، جاء عمر محالّهم فلم يلق بها أحداً. فانصرف راجعاً إلى المدينة.

ذكر سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني كلاب بنجد

بعثه رسول الله ﷺ في شعبان سنة سبع من مُهاجَرِه.

روي عن سلمة بن الأكوع[١] قال: غزوت مع أبي بكر رضي الله عنه إذ بعثه رسول الله ﷺ علينا، فسبى ناساً من المشركين فقتلناهم، وكان شعارنا: أَمِت أَمِت. قال: فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين. وعنه أيضاً قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى فزارة. وهذا الذي صححه مسلم. وعن إياس بن سلمة بن الأكوع قال: حدثني أبي قال: غزونا فَزارة وعلينا أبو بكر رضي الله عنه، أمّره رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بينه وبين القوم ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا[٢]، ثم شَنَّ الغارة فورد الماء فقتل من قتل وسبى من سبى. ثم قال[٣] سلمة: فرأيتُ عُنقاً[٤] من الناس فيهم الذراريّ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة، معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر رضي الله عنه فنفلني ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «يا سلمة، هب لي المرأة». فقلت: يا رسول الله، فقد أعجبتني وما كشفتُ لها ثوباً، ثم لقيني من الغد في السوق، فقال: «يا سلمة، هب لي المرأة، لله أبوك!». فقلت: هي لك يا رسول الله؛ فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة. روى هذا الحديث مسلم.

ذكر سريّة بَشير بن سعد الأنصاري[٥] إلى فَدَك

بعثه رسول الله ﷺ في شعبان سنة سبع من مُهاجَرِه في ثلاثين رجلاً إلى بني مُرّة

---

(١) سلمة بن الأكوع: (. . . ـ ٧٤هـ = . . . ـ ٦٩٣ م) سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع، الأسلمي. صحابي، من الذين بايعوا تحت الشجرة. غزا مع النبي ﷺ سبع غزوات، منها الحديبية، وخيبر وحنين. توفي في المدينة (الأعلام: ٣: ١١٣).

(٢) عرّسنا: نزلنا في آخر الليل للاستراحة.

(٣) هنا بياض بالأصلين والتكملة من دلائل النبوة للبيهقي، وطبقات ابن سعد، وصحيح مسلم.

(٤) عُنقا: جماعة من الناس.

(٥) بشير بن سعد الأنصاري: (. . . ـ ١٢ هـ = . . . ـ ٦٣٣ م) بشير بن سعد بن ثعلبة بن الجلاس، الخزرجي الأنصاري، صحابي، شهد بدراً. كان يكتب بالعربية في الجاهلية، وهو أول من بايع أبا بكر الصديق من الأنصار قتل يوم «عين التمر» وكان مع خالد بن الوليد منصرفه من اليمامة. (الأعلام: ٢: ٥٦).

بفدك، فخرج فلقي رِعاء الشاء، فسأل عن الناس فقيل: في نواديهم؛ فاستاق النَّعَم والشاء، وانحدر إلى المدينة، فخرج الصريخ فأخبرهم فأدركهم الدُّهْم(١) منهم عند الليل، فباتوا يرمونهم بالنبل حتى فَنيت نبل أصحاب بشير وأصبحوا، فحمل المرّيون عليهم فأصابوا أصحاب بشير، وقاتل بشير حتى ارْتُثَّ(٢) وضرب كعبه، وقيل: قد مات. ورجعوا بنَعَمِهم وشائهم، وقدم عُلْبَة بن زيد الحارثي بخبرهم على رسول الله ﷺ، ثم قدم بعده بشير بن سعد.

ذكر سريّة غالب بن عبد الله الليثيّ(٣) إلى المَيْفَعَة

بعثه رسول الله ﷺ في شهر رمضان سنة سبع من مُهاجَرِه إلى بني عُوال، وبني عبد بن ثعلبة، وهم بالميفَعة، وهي وراء بطن نخل إلى النَّقْرة قليلاً بناحية نجد، وبينها وبين المدينة ثمانية بُرُد.

بعثه في مائة وثلاثين رجلاً، ودليلهم يسار، مولى رسول الله ﷺ، فهجموا عليهم جميعاً، ووقعوا وسط محالّهم، فقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاء فحدروه إلى المدينة، ولم يأسروا أحداً. وفي هذه السريّة قتل أُسامةُ بن زيد الرجلَ الذي قال: لا إلٰه إلا الله، وهو نَهيك بن مِرداس بن ظالم من بني ذبيان بن بَغيض، وقال ابن إسحاق: مِرداس بن نهيك؛ حليف لهم من الحُرقة من جُهينة. ونقل أبو عمر بن عبد البر أنه عامر بن الأضبط الأشجعيّ، وأن رسول الله ﷺ وَدَاه. قال أسامة: أدركتُه أنا ورجل من الأنصار، فلمّا شَهَرنا عليه السلاحَ قال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله؛ فلم نَنزع عنه حتى قتلناه. فلمّا قدمنا على رسول الله ﷺ أخْبرناه خَبره؛ فقال: «يا أسامة، مَنْ لك بلا إلٰه إلا الله»؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنه إنما قالها تعوّذاً من القتل؛ قال: «فمن لك بها يا أسامة»؟ قال: فوالّذي بعثه بالحقّ إنه ما زال يردّدها عليّ حتّى لَوددْتُ أنّ ما مضى من إسلامي لم يكن، وكنتُ أسلمتُ يومئذٍ، وأنّي لم أقتلْه. قال: قلت: أَنظِرني يا رسول الله، إني أعاهد الله ألاّ أقتل رجلاً يقول: «لا إلٰه إلا الله» أبداً. قال: «يقول بعدي يا أسامة»، قلت: بعدك. وفي بعض طرق هذا الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأسامة حين قال: «يا رسول الله، إنما قالها تعوّذاً من القتل» «هلاّ شققت عن قلبه فَتعلَمَ أصادقٌ هو أم كاذب»!.

---

(١) الدهم: العدد الكثير.

(٢) ارتُثَّ: صرع في الجنوب، وبه رمق.

(٣) غالب بن عبد الله: (... بعد ـ ٤٨ هـ = ... بعد ـ ٦٦٨ م) غالب بن عبد الله بن مسعر الكلبي الليثي: صحابي، من الولاة. شهد القادسية وقتل هرمز ملك الباب. (الأعلام: ٥: ١١٤).

ذكرُ سَرِيّة بَشير بنِ سعد الأنصاريّ إلى يمْن[(١)] وجبَار[(٢)]

كانت هذه السريّة في شوّال سنة سبع من مهاجِر رسول الله ﷺ. وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن جمعاً من غَطَفان بالجِناب[(٣)] قد واعدهم عُيَيْنة بن حِصْن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله ﷺ، فدعا بشيرَ بنَ سعد فعقَدَ له لواءً، وبعث معه ثلثمَائة رجل، فساروا حتى أتوا يَمْن وجَبار، وهو نحو الجِناب ـ والجِناب يعارض سَلاح[(٤)] وخيبرَ ووادي القُرَى ـ فدنَوا من القوم فأصابوا لهم نَعَماً كثيراً، وتفرّق الرِّعاء فحذّروا الجمع، فتفرقوا ولحقوا بعَلْياء بلادهم، وخرج بشيرُ بنُ سعد في أصحابه حتى أتى محالّهم فلم يجد فيها أحداً، فرجع بالنَّعَم، وأصاب منهم رجلين، فأسرهما وقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ، فأسلما، فأرسلهما ﷺ.

ذكر سَرِيّة ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيّ إلى بني سُلَيم

بعثه رسولُ الله ﷺ في ذي الحجّة سنة سبع من مُهاجَرِه في خمسين رجلاً إلى بني سُلَيم، وذلك بعد انصراف رسول الله ﷺ من مكة بعد عمرة القضاء، فخرج إليهم وتقدّمه عَيْنٌ[(٥)] لهم كان معه، فحذّرهم، فتجمّعوا، فأتاهم ابن أبي العوجاء وهم مُعدّون له، فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعَوتَنا إليه. فترامَوا ساعةً بالنَّبل، وجعلت الأمدادُ تأتي حتى أحدقوا بهم من كلّ ناحية، فقاتل القومُ قتالاً شديداً حتى قُتل عامّتُهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القَتْلى، ثم تحامل حتّى بلغ رسولَ الله ﷺ، فقدموا المدينةَ في أوّل يوم من صَفر سنة ثمان من الهجرة.

ذكر سريّة غالب بنِ عبد الله اللّيْثِيّ إلى بني المُلَوح بالكَدِيد[(٦)]

كانت في صفر سنة ثمانٍ من مهاجَر رسول الله ﷺ. رُوِي عن جُنْدَب بن مَكِيث الجُهَنِيّ قال: بعث رسول الله ﷺ غالبَ بنَ عبد الله الليثيّ، ثم أحد بني كلب بن عوف في سريّة، فكنتُ فيهم، وأمرهم أن يشُنّوا الغارة على بني المُلوّح بالكَدِيد ـ وهم من بني ليث ـ قال: فخرجنا حتى إذا كنا بقُدَيد[(٧)] لقينَا الحارثُ بنُ البرصاء، فأخذناه.

---

(١) يمن: بفتح الياء، وقيل: بضمها، وقيل: بهمزة مفتوحة وسكون الميم. (الزرقاني: ٢: ٣٠٢).

(٢) جبار: ضبطه الزرقاني بفتح الجيم. وضبط في معجم البلدان بضمها.

(٣) الجناب: من أرض غطفان.

(٤) سلاح: موضع أسفل خيبر.

(٥) العين: الجاسوس.

(٦) الكديد: موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة، ويوم الكديد من أيام العرب.

(٧) قُدَيد: بالتصغير، موضع بين مكة والمدينة.

فقال: إنما جئت أريد الإسلام. قلنا: إن تكن مسلماً لم يَضرُرْك رباطُنا يوماً وليلة. قال: فشددناه وَثاقاً، وخلّفنا عليه رُوَيْجِلاً[١] منّا أسودَ، وسِرْنا حتى أتينا الكَدِيد عند غروب الشمس، فكمِنّا في ناحية الوادي، وبعَثني أصحابي رَبِيئَةً[٢]، فخرجت حتى آتيَ تلاًّ مشرفاً على الحاضر[٣]، فاستندتُ فيه، فعلوتُ في رأسه، فنظرتُ إلى الحاضر، فوالله إنّي لَمُنبَطِح على التلّ إذ خرج رجلٌ منهم من خِبائه، فقال لامرأته: إني لأرى على التلّ سواداً ما رأيتُه في أوّل يومي، فانظري إلى أوعِيَتِك، هل تَفقدِين منها شيئاً؟ لا تكون الكلاب جرّت بعضَها، قال: فنظرتْ، فقالت: لا واللَّهِ ما أفقِد شيئاً. قال: فناولِيني قوسي وسَهمين. فناوَلْته، فأرسل سهماً فوالله ما أَخطأَ جنْبي، فأنزِعه فأضعه، وثبتُّ مكاني، ثم أَرسل الآخرَ فوضعه في مَنكبي، فأنزِعه فأضعه، وثبتُّ مكاني، فقال لامرأته: لو كان ربيئةً لقد تحرّك ـ لقد خالطه سهمايَ لا أبا لَكِ! فإذا أصبحت فابتغيهما فخذيهما لا تَمضُغهما الكلاب؛ قال: ثمّ دخل، وأمهلناهم حتى اطمأنّوا وناموا ـ وكان وجه السَّحَر ـ شننّا عليهم الغارة، واستْقنا النَّعَم، فخرج صريخُ القوم في قومهم، فجاء ما لا قِبَل لنا به، فخرجْنا بها نَحدُرها حتى مررنا بابن البرصاء فاحتملْناه، واحتملنا صاحبَنا، وأدرَكنا القومُ حتّى نظروا إلينا، ما بيننا وبينهم إلاّ الوادي ـ وادي قُدَيد ـ فأَرسل الله تعالى الواديَ بالسَّيل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سحابةٍ نراها ولا مطر، فجاء بشيءٍ ليس لأحد به قوّة، ولا يقدر على أن يُجَاوِزَه. فلقد رأيتُهم وقوفاً ينظرون إليه، وإنّا لنسوق نعَمَهم ما يستطيع رجلٌ منهم أن يُجيزَ إلينا، ونحن نَحدُوها سِراعاً حتى فُتناهم، فلم يقدروا على طلبنا، قال: فقدمْنا بها على رسول الله ﷺ.

قال ابن سعد: وكانوا بضعةَ عشرَ رجلاً، وكان شعارُهم يومئذٍ: أَمِتْ أَمِتْ!

ذكر سَرِيّة غالب بنِ عبد الله اللّيثي أيضاً إلى مُصَاب أصحاب بشير بن سعد بفَدَك

كانت في صفر سنةَ ثمانٍ من هجرة رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ قد هيّأَ الزبيرَ بنَ العوّام رضي الله عنه، وقال له: «سِرْ حتى تنتَهي إلى مُصاب أصحابِ بَشير بنِ سعد، فإنْ أظفَرَكَ الله بهم فلا تبق فيهم»، وهيّأ معه مائتي رجل، وعقَدَ له لِواءً، فقدِم غالبُ بنُ عبد الله من الكَديد، وقد أظفره الله، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اجلس». وبَعث غالبَ بنَ عبد الله في مائتي رجل، فيهم أُسامةُ بنُ زيد، فسار حتى انتهى إلى مُصاب أصحاب بشير، فأصابوا نعماً، وقتلوا قَتْلَى.

---

(١) رويجلاً: تصغير رجل.

(٢) ربيئة: عيناً لهم.

(٣) الحاضر: الحي العظيم.

ذكر سريّة شُجاع بن وهب الأسديّ[١] إلى بني عامر بالسِّيّ

بعثه رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان من الهجرة في أربعة وعشرين رجلاً إلى جَمْع من هوازن بالسِّيّ[٢]، من ناحية رُكبة[٣]، مِن وراء المَعدِن[٤]، وهي من المدينة على خمس ليال، وأمَرَه أن يُغير عليهم، فسار حتى صبّحهم وهي غارُّون، فأصابوا نَعَماً كثيراً وشاءً، فاستاقوا ذلك حتى قدِموا المدينة، وغابت هذه السريّة خمس عشرةَ ليلةً.

ذكر سريّة كعب بنِ عُمَير الغفاريّ[٥] إلى ذات أَطْلاح

بعثه رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل سنة ثمانٍ من الهجرة في خمسةَ عشر رجلاً، فساروا حتى انتَهوا إلى ذات أطلاح، من أرض الشام، وهي من وراء وادي القُرى، فوجدوا جَمْعاً كثيراً من جمعهم، فدعَوْهم إلى الإسلام: فلم يستجيبوا لهم ورشَقُوهم بالنَّبْل، فلمّا رأى ذلك أصحابُ رسول الله ﷺ قاتَلوهم أشدَّ القتال حتى قتلوا، وأفلت منهم رجلٌ جريحٌ، فأَتَى رسولَ الله ﷺ فأخبَرَه الخبر، فشَقّ ذلك عليه، وهَمّ بالبَعْث إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا إلى مواضع أُخَر، فتركهم.

ذكر سريّة مُؤْتة

ومؤتة بأدنى البَلْقاء بالقرب من الكَرَك[٦].

كانت هذه السريّة في جمادى الأولى سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وسببُ بعثِ هذه السريّة أنّ رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عُمَير الأزديَّ إلى مَلِك بُصْرَى بكتاب، فلمّا نزل مُؤتة عرض له شُرَحبِيل بن عمرو الغسّاني، فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيرُه، فاشتدّ ذلك عليه، وندب الناسَ فأسرعوا وعسكَروا بالجُرْف[٧]، وهم ثلاثة

---

(١) شجاع بن وهب الأسدي: (... - ١٢ هـ = ... - ٦٣٣ م) شجاع بن وَهْب بن ربيعة الأسدي، من بني غنم: صحابي، شجاع من أمراء السرايا. قديم الإسلام. شهد المشاهد كلها. قتل شجاع يوم اليمامة. (الأعلام: ٣: ١٥٨).

(٢) السِّيّ: ماء بين ذات عرق إلى وجرة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة.

(٣) رُكْبَه: (بضم السكون ففتح): موضع بالطائف.

(٤) المَعدِن: يريد معدن بني سليم، وهو من أعمال المدينة على طريق نجد.

(٥) كعب بن عمير: (... - ٨ هـ = ... - ٦٢٩ م) كعب بن عمير الغفاري: من كبار الصحابة. بعثه النبي ﷺ أميراً على سرية نحو «ذات أطلاح» في البلقاء، فقتل فيها. (الأعلام: ٥: ٢٢٨).

(٦) الكرك: قلعة حصينة في طرف الشام من نواحي البلقاء.

(٧) الجُرْف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

آلاف، فقال رسول الله ﷺ: «أمير القوم زيدُ بنُ حارثة، فإن قُتل فجعفرُ بنُ أبي طالب، فإن قُتل فعبدُ الله بنُ رَواحة، فإن قُتل فلْيرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيَجعلوه عليهم»، وعقَدَ لهم رسولُ الله ﷺ لواءً أبيضَ وسلمه إلى زيد بنِ حارثة، وأوصاهم رسولُ الله ﷺ أن يأتوا مَقتلَ الحارث بن عُمَيْر، وأن يَدْعوا من هناك إلى الإسلام «فإن أجابوا وإلاّ فاستَعِينوا عليهم بالله وقاتلوهم»، وخرج رسول الله ﷺ مشيِّعاً لهم حتّى بلغ ثنيّة الوداع[1]، فوقف وودّعهم وانصرَفَ عنهم، فقال عبد الله بن رَوَاحة: [من الكامل]

خلَفَ السلامُ على إمرىءٍ ودَّعْته في النَّخْل خيرَ مُوَدِّعٍ[2] وخليلِ

فلمّا ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم، وردَّكم صالحين غانمين!. فقال ابن رواحة: [من البسيط]

لكنّني أسألُ الرحمٰنَ مغفرةً وضربةً ذات فَرْغٍ تَقْذف الزَّبَدَا[3]

في أبيات[4] أُخَر.

قال: فلمّا فَصَلوا[5] من المدينة سمع العدوّ بمسيرهم، فجمعوا لهم، وقام فيهم شُرَحْبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف، وقدّم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون مَعان[6] من أرض الشام، وبلغ الناسَ أن هِرَقْل قد نزل مَآب[7] من أرض البلقاء في مائة ألف من بَهْراء ووَائل وبَكْر ولَخْم والقَيْن، عليهم رجل من بَليّ ثم أحد إراشة؛ يقال له: مالك بن زافلة[8]، فأقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فشجّعهم عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إنّ التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتِل الناس بعددٍ ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتِلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرَمَنا الله به، فانطلِقوا فإنّما هي إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا ظهورٌ[9]، وإمّا

---

(١) ثنية الوداع: هي ثنية مشرفة على المدينة، يطؤها من يريد مكة. قيل في سبب تسميتها بذلك، إنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة.
(٢) في ابن هشام: ٤: ١٦: «مشيع».
(٣) ذات فرغ: أي واسعة، وأراد بالزبد هنا رغوة الدم؛ (الزرقاني ٢: ٣٢٣).
(٤) الأبيات في ابن هشام ٤: ١٥ ـ ١٦.
(٥) فصلوا: خرجوا.
(٦) معان: ضبطه الزرقاني بفتح الميم، وضبطه البكري، بضمها: حصن كبير من أرض فلسطين على خمسة أيام من دمشق في طريق مكة.
(٧) مآب: موضع بالشام.
(٨) زافلة: كذا ورد هذا الاسم بالزاي في الأصلين وابن هشام: ٤: ٢٣، والذي في الزرقاني ٢: ٣٢٣ «رافلة» بالراء المهملة.
(٩) الظهور: الغلبة.

شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رَواحة. قال: فمضى الناسُ حتّى إذا كانوا بتُخوم[١] البَلْقاء لقيتهم جموعُ هِرَقْل من الروم والعرب بقرية من قرى البَلْقاء يقال لها المشَارِف، ثم دنا العدوّ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤتة[٢]، ووافاهم المشركون، فجاء مِنهم ما لا قِبَل لأحد به من العَدَد والسلاح والكُراع[٣] والدّيباج والحريرِ والذهب فعبأَ المسلمون، فجعلوا على مَيمنتهم رجلاً من بني عُذْرة يقال له: قُطْبة بنُ قَتادةَ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عُبَايةُ بنُ مالك ـ ويقال: عُبادة ـ ثم التقوا واقتَتَلوا، فقاتل زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه برايةِ رسولِ الله ﷺ حتى قُتِلَ طَعْناً بالرماح، ثم أخذ الرايةَ جعفرُ بن أبي طالب، فنزل عن فرس له شَقْرَاء فعَرْقَبَها[٤]، فكانت أوّلَ فرس عُرْقِبتْ في الإسلام، وقاتَل حتى قُتل، ضربه رجل من الرومِ فقطعه نصفَين فوُجد في أحد نصفيه بضعةٌ وثمانون جُرحاً، ووجدْنا فيما أقبل من بدنه اثنتين وسبعين ضربةً بسيف وطعنةً برمح.

وحَكَى أبو محمد عبدُ الملك بنُ هشام أنّ جعفر بنَ أبي طالب أخذ اللّواء بيمينه فقُطِعتْ يده، فأخَذَه بشماله فقُطعتْ، فاحتَضَنَه بعَضُدَيه، حتى قُتِل وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، فأثابه اللّهُ تعالى بذلك جَناحَين في الجنّة يطير بهما حيث شاء.

وقال محمد بن إسحاق: كان جعفر يقاتل وهو يقول: [من الرجز]

يـا حـبّـذا الـجـنّـة واقـترابُـهـا ... طـيـبـةً وبـارِداً شَـرابُـهـا
والـرُّوم رُومٌ قـد دنـا عـذابُـهـا ... كـافـرة بـعـيـدة أنـسـابُـهـا
* عـلـيَّ إن لاقـيـتُـهـا ضِـرابُـهـا *

قال: ولمّا قُتل جعفر أَخذ عبدُ الله بن رُوَاحة الرّاية، ثم تقدّم بها وهو على فَرسه، فجعل يستنزِل نفسه[٥]، ويتردّد بعض التردّد، ثم قال: [من الرجز]

أقـسـمْـتُ يـا نـفـس لـتَـنْـزِلـنَّـهْ ... لَـتَـنْـزِلِـنَّ أو لَـتُـكْـرِهَـنّـهْ
إنْ أجْـلَـبَ الـنـاسُ وشَـدُّوا الـرّنّـهْ ... مـا لِـي أراكِ تَـكـرَهـيـن الـجَـنّـهْ[٦]

(١) التخوم: الحدود الفاصلة بين أرض وأرض.
(٢) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام. وقيل إنها من مشارف الشام (معجم البلدان).
(٣) الكُراع: في الزرقاني: ٢: ٣٢٤: أن الكراع جماعة الخيل خاصة.
(٤) عرقبها: قطع عرقوبها، وهو الوتر الذي بين مفصل الساق والقدم.
(٥) يستنزل نفسه: أي يطلب نزولها عما أرادته وهمت به.
(٦) أجلب الناس: اختلطت أصواتهم وضجوا. الرنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.

قد طال ما قد كنتِ مطمئنّهْ هل أنتِ إلاّ نُطْفة في شَنّهْ[١]

وقال أيضاً رضي الله عنه: [من الرجز]

يا نفس إلاّ تُقتلي تموتِي هذا حمام الموتِ قد صَلِيت

وما تمنَّيت فقد أعطِيتِ إنْ تفعلي فِعلَهما هُدِيتِ

* وإنْ تَوَلَّيْتِ فقد شَقِيتِ *

يريد بقوله: «فِعلَهما» صاحبَيه زيداً وجعفراً؛ ثم نزل. فأتاه ابنُ عمٍّ له بعَرْقٍ[٢] من لحم، فقال: شُدَّ بهذا صُلْبَك، فإنّك قد لقيتَ في أيّامك هذه ما لَقيت، فأخَذَه من يده فانتَهَس[٣] منه نَهْسَةً، ثم سمع الحَطْمة[٤] من ناحية الناس، فقال: وأنتَ في الدنيا، ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفَه وتقدّم، فقاتَل حتى قُتِل.

ثم أَخذ الراية ثابتُ بنُ أرقم، وقال: يا معشر الناس[٥]، اصطلِحوا على رجل منكم؛ فقالوا: أنتَ؛ قال: ما أنا بفاعل. فاصطَلَحَ الناسُ على خالد بنِ الوليد، فلمّا أخذ الرايةَ دافَع القوم وحاشَى بهم[٦]، ثم انحاز وانحيز عنه، وانكشف، فكانت الهزيمة، فتبِعهم المشركون، فقُتل من قتِل من المسلمين، ورُفعت الأرضُ لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معتَرَك القوم، فلما أَخذ خالدُ بنُ الوليد اللواءَ قال رسول الله ﷺ: «الآن حَمِيَ الوَطِيس[٧]».

قال محمد بنُ إسحاق: ولمّا أصيب القومُ قال رسول الله ﷺ: «أَخَذَ الرايةَ زيدُ بنُ حارثةَ فقاتَلَ بها حتى قُتِل شهيداً، ثم أخذَهَا جعفرٌ فقاتَلَ بها حتى قُتِل شهيداً»، ثم صَمَت حتى تغيّرت وجوهُ الأنصار، وظنّوا أنّه قد كان في عبد الله بن رَواحة بعض ما يكرهون؛ فقال: «ثم أخَذَها عبدُ الله بنُ رَواحة فقاتَلَ بها حتى قتِل شهيداً».

قال ابن إسحاق: وكان قُطبةُ بنُ قَتادة العُذْرِيّ[٨] حَمَل على مالكِ بنِ زافلة فقتَلَه

---

(١) النطفة: القليل من الماء الصافي. الشنة: القربة الخلق.
(٢) العرق: العظيم الذي عليه بعض اللحم.
(٣) انتهس: أخذ منه بفمه يسيراً.
(٤) الحَطْمة: زحام الناس، وحطم بعضهم بعضاً.
(٥) في الزرقاني: ٢: ٣٢٦ عن ابن إسحاق: «المسلمين».
(٦) حاشى بهم: انحاز بهم، من الحشى، وهي الناحية. وفي ابن هشام: ٢: ٢٥٨: «وخاشى بهم» من المخاشاة، وهي المحاجزة. من الخشية، لأنه خشي على المسلمين لقلة عددهم. وفي الزرقاني: ٢: ٣٢٧: «فحاش خالد الناس ودافع وانحاز وانحيز عنه».
(٧) حمي الوطيس: حمي الضرب وجدَّت الحرب واشتدت.
(٨) قطبة بن قتادة: (. . . ـ بعد ١٤ هـ = . . . ـ بعد ٦٣٥ م) قُطْبَة بن قَتَادة بن جرير السدوسي الشيباني. أبو الحويصلة: شجاع، من القادة. أسلم بعد فتح مكة. (الأعلام: ٥: ٢٠٠).

وهو على المائة ألف التي اجتمعتْ من العرب، فقال في ذلك: [من المتقارب]

طَعنتُ ابنَ زافلةَ بنِ الإراش ... برمحٍ مضى فيه ثمّ انحطَمْ[١]

ضَربتُ على جِيدِهِ ضربةً ... فمال كما مالَ غصنُ السَّلَمْ[٢]

قال: ولمّا سمع أهل المدينة بإقبال جيشِ مُؤْتة تلقَّوْهم بالجُرْف، فجعل الناسُ يَحْثُون في وجوههم التراب ويقولون: يا فُرّار، فررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بفُرّار، ولكنّهم كُرّار إن شاء الله».

ذكر تسمية من استُشهد من المسلمين يومَ مُؤْتة

استُشهِد من قريشٍ ومَوالِيهم أربعةُ نفر، وهم: جعفر بنُ أبي طالب، وزيدُ بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، ومسعودُ بنُ الأسود بنِ حارثة بن نضلة، ووهب بنُ سعد بن أبي سرْح، واستُشهِد من الأنصار: عبدُ الله بنُ رَواحة، وعبّادُ بنُ قيس، والحارث بنُ النعمان بن إِساف، وسُراقةُ بنُ عمرو وأبو كُلَيب وجابر ابنا عَمرو بنِ زيد، وعَمرووعامر ابنا سعد بنِ الحارث بنِ عبّاد، رضوان الله عليهم أجمعين.

ذكر سرِيّة عمرو بن العاص إلى ذات السَّلاسِل[٣]

وهي وراءَ وادي القُرَى، وبينها وبين المدينة عشرةُ أيام، وكانت في جمَادى الآخرة سنة ثمانٍ من الهجرة. وسبب بَعْثِ هذه السريّة أنّ رسول الله ﷺ بلغه أنّ جمْعاً من قُضَاعةَ قد تجمّعوا يريدون أن يَدْنُوا إلى أطراف[٤] رسول الله ﷺ، فدعا عمرَو بن العاص فعَقَدَ له لواءَ أبيضَ، وجعل معه رايةَ سوداء، وبعَثَه في ثلاثمائة من سَراةِ[٥] المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمَرَه أن يستعين بمن يَمُرّ به من بلِيٍّ[٦] وعُذْرةَ وبَلْقَيْن، فسار الليل وكَمِنَ النهار، فلمّا قرُب من القوم بلغه أنّ لهم جمعاً كثيراً، فبعَثَ رافع بنَ مَكِيث الجُهنيّ إلى رسول الله ﷺ يستمدّه، فبعَث إليه أبا عُبيدةَ بنَ الجرّاح في مائتين، وعَقَد له لِواء، وبعَثَ معه سَراة المهاجِرين والأنصار، وفيهم أبو

---

(١) انحطم: انكسر.

(٢) الجيد: العنق. والسَّلَم: شجرة العضاة، الواحدة: سلمة.

(٣) بالنسبة لضبط هذه الكلمة راجع الزرقاني: ٢: ٣٣٢.

(٤) كذا في الأصلين وابن سعد: ٢: ٩٥ قسم أول، وفي عيون الأثر: ٢: ١٥٧ يريدون أن يدنو إلى أطراف المدينة.

(٥) سراة القوم: أصحاب الشرف فيهم.

(٦) لأن عمراً كان ذا رحم فيهم، فإن جدته لأبيه كانت بلويه، فأراد عليه السلام أن يتألفهم بعمرو.

بكر وعمر، وأمرَه أن يلحق بعَمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو؛ فأراد أبو عُبيدة أن يؤمّ الناسَ، فقال عمرو: إنما قدمتَ عليّ مَدَداً، وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عُبيدة[١]، وسار حتى وطىء بلادَ بليّ، ودوّخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عُذرَة وبَلْقَيْن، ولقيَ في آخر ذلك جَمْعاً، فحَمَل عليهم المسلمون، فهَرَبُوا في البلاد وتفرّقوا، ثم قَفَل وبعَثَ عوفَ بن مالك الأشجعيّ[٢] بريداً إلى رسول الله ﷺ؛ فأخبَرَه بقُفولهم وسلامتِهم وما كان في غَزاتهم.

ذكرُ سريّة أبي عُبيدة بنِ الجرّاح، وهي سريّة الخَبَط[٣]

بعَثَ رسولُ الله ﷺ أبا عُبيدة بنَ الجرّاح في شهر رجب سنة ثمانٍ من الهجرة في ثلثمائة من المهاجرين والأنصار، وفيهم عُمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى حيٍّ من جُهَيْنَةَ بالقَبَلِيّة مما يلي ساحل البحر، وبينها وبين المدينة خمسُ ليالٍ، فأصابهم في الطريق جوعٌ شديد، فأكَلُوا الخَبَط، وابتاع قيسُ بنُ سعد جَزُوراً ونحرَها لهم.

رُوي عن عُبادة بنِ الصامت قال: بعثَ رسولُ الله ﷺ سَرِيّةً إلى سِيف[٤] البحر، عليهم أبو عبيدة بنُ الجرّاح، وزوّدَهم جِراباً من تَمْر، فجعل يقوتهم إيّاه حتى صاروا إلى أن يعدّه لهم عدّاً، ثم نفِد التمر حتى كان يعطِي كلّ رجل منهم كلّ يوم تمرة، فقَسمها يوماً بيننا، فنقصتْ تمرةٌ عن رجل، قال: فوجدنا فقدَها ذلك اليوم، فلمّا جَهَدنا[٥] الجوع أخرج الله لنا دابّةً من البحر فأصَبنا من لَحمِها وَوَدَكِها[٦]، فأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سمِنّا وابتَلَلْنا[٧]، وأخَذَ أميرُنا ضِلَعاً من أضلاعها فوضعه على طريقه، ثم أمر بأجسم بعيرٍ معنا فحمل عليه أجسم رجلٍ منّا، فخرج من تحتها وما مسّت رأسه، فلمّا قدِمْنا على رسول الله ﷺ أخبرْناه خَبرَها، وسألناه عمّا صنعنا في ذلك من أكلِنا إيّاها، فقال: «رِزْقٌ رزَقَكُموه الله».

قال ابن سعد: وانصرفوا ولم يلقوا كيداً.

---

(١) زاد في ابن سعد: ٢: ٩٥ بعد هذه الكلمة قوله: «وكان عمرو يصلي بالناس».

(٢) عوف بن مالك: (. . . ـ ٧٣ هـ = . . . ـ ٦٩٢ م) عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني: صحابي من الشجعان الرؤساء. أول مشاهده خيبر. وكان معه راية «أشجع» يوم الفتح. نزل حمص وسكن دمشق. (الأعلام: ٥: ٩٦).

(٣) الخَبَط: (بالتحريك) ورق العضاة، من الطلح ونحوه من الشجر، يضرب بالعصا فيتناثر.

(٤) سيف البحر: ساحله.

(٥) جهدنا: أضعفنا.

(٦) الودك: (بالتحريك) الشحم.

(٧) ابتللنا: حسنت حالنا بعد الهزال، وأفقنا من ألم الجوع الذي كان أصابنا.

ذكْر سريّة أبي قتادةَ بن رِبْعيٍّ الأنصاريّ إلى خُضْرة وهي أرضُ مُحارِب بنجْد

قالوا: بَعَثه رسولُ الله ﷺ في شعبان سنة ثمانٍ من الهجرة ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غَطَفَان، وأمَرَه أن يشنّ عليهم الغارة، فسار الليلَ وكَمِن النهار، فهجَمَ على حاضِرٍ منهم عظيم، فأحاط به، فصرَخَ رجلٌ منهم: يا خُضْرة وقاتَلَ منهم رجال، فقَتلوا من أشرافهم(١)، واستاقوا النَّعَم، فكانت الإبلُ مائتي بعير، والغنمُ ألفَيْ شاة، وسَبَوْا سَبْياً كثيراً، وجمعوا الغنائم، فأخرجوا الخُمس، وقسموا ما بقي على السريّة، فأصابَ كلَّ رجلٍ منهم اثنا عشَرَ بعيراً وعُدل البعيرُ بعشرٍ من الغنم، وصارت في سَهْم أبي قَتادةَ جاريةٌ وضيئةٌ، فاستوهَبَها منه رسولُ الله ﷺ، فوهَبَها له، فوهَبَها ﷺ لمَحْمِيَّة بن جَزْء. وغابوا في هذه السريّة خمسَ عشرةَ ليلةً.

ذكرُ سريّة أبي قتادةَ ربْعيّ الأنصاريّ إلى بطن إضَم

كان هذه السريّة في أوّل شهر رمضانَ سنة ثمانٍ من هجرة رسول الله ﷺ.

قالوا: لمّا هَمَّ رسولُ الله ﷺ بغَزْوِ أهلِ مكّة بعثَ أبا قتادة في ثمانية نفر سريّةً إلى بطن إضم ـ وهي فِيما بين ذي خُشُب وذي المَرْوة، وبينها وبين المدينة ثلاث بُرُد ـ ليظنَّ ظانٌّ أنّ رسول الله ﷺ توجّه إلى تلك الناحية، ولأنْ تَذهبَ بذلك الأخبار، وكان في السريّة محلِّم بنُ جَثّامة اللّيثيّ، فمرّ عامر بنُ الأضبط الأشجعيّ، فسلّم بتحيّة الإسلام، فأمسَكَ عنه القوم، وحمل عليه محلِّم بنُ جَثّامة فقتَلَه لشيء كان بينهما، وسلَبَه بعيرَه ومتاعَه، فلمّا لحقوا بِرسول الله ﷺ نزل فيهم من القرآن قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤] الآية. فمضَوا ولم يلْقَوْا جمعاً فانصرَفوا حتى انتهوْا إلى ذي خُشُب، فبَلَغهم أنّ رسولَ الله ﷺ قد توجّه إلى مكّة، فأخذوا على يَيْن(٢) حتى لقوا النبيَّ ﷺ بالسُّقْيا.

ذكرُ غزوةِ رسولِ الله ﷺ عامَ الفَتْح والسببِ الّذي أوجبَ نقضَ العهد وفسْخَ الهُدْنة

كانت هذه الغَزْوة في شهر رمضانَ سنةَ ثمانٍ من مهاجَرِ رسولِ الله ﷺ، وعلى

---

(١) كذا في الأصلين. والذي في الزرقاني: ٢: ٣٤٠ وابن سعد: ٢: ٩٦: «فقتلوا من أشرف لهم» أي ظهر.

(٢) يَيْن: بفتح فسكون: ناحية من أعراض المدينة على بريد منها (معجم البلدان).

رأس اثنين وعشرين شهراً من صُلح الحُدَيْبية.

وسببُ ذلك أنّه لمّا دخل شعبانُ من هذه السنة كلّمتْ بنو نُفَاثة ـ وهم من بني بكر ـ أشرافَ قريش أن يعينوهم على خُزاعَة بالرّجال والسلاح، وكانت خزاعة قد دخلت في عَقد رسول الله ﷺ وعهدِه يومَ الحُدَيْبية، كما قدّمْنا ذكرَ ذلك. ودخلت بنو بكر في عَقْد قريش وعهدِها، قالوا: فلمّا سألوهم ذلك وَعَدوهم ووافَوْهم بالوَتِير[(١)] متنكِّرين متنقِّبين[(٢)]، فيهم صَفْوان بنُ أميّة، وحُوَيْطب بنُ عبد العُزَّى، ومِكْرَز بنُ حَفص بنِ الأَخْيَف، فَبيّتُوا خُزاعة ليلاً، وهم غارّون[(٣)] آمنون، فقَتَلوا منهم عشرين رجلاً، ثم ندمتْ قريش على ما صنعتْ، وعلموا أن هذا نقضٌ للمُدّة والعهد الّذي بينهم وبين رسولِ الله ﷺ، وخرج عمرو بنُ سالم[(٤)] الخُزاعيّ في أربعين راكباً من خُزاعة، فقدِموا على رسول الله ﷺ يُخبرونَه بالّذي أصابهم ويستنصرونه.

قال ابن إسحاق: قدِم عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف ورسولُ الله ﷺ جالس في المسجد بين ظَهْراني الناس، فقال: [من الرجز]

يــا ربِّ إنّــي نــاشِــدٌ مــحــمّــدا ... حِــلْــفَ أبِــيــنــا وأبــيــهِ الأتْــلَــدا[(٥)]
قــد كــنــتُــمُ وُلْــداً وكــنّــا والِــدا ... ثُــمّــتَ أَسْــلَــمْــنــا فــلَــم نــنــزِع يــدَا[(٦)]
فــانــصــرْ هــداكَ الــلّــهُ نَــصْــراً أبــدَا ... وادعُ عــبــاد الله يــأتــوا مَــدَدَا[(٧)]
فــيــهــم رســولُ الله قــد تَــجَــرَّدا ... إن سِــيــمَ خَــسْــفــاً وجــهــه تَــرَبَّــدا[(٨)]
فــي فَــيْــلَــقٍ كــالــبــحــر يَــجــرِي مُــزبِــداً ... إن قــريــشــاً أخــلــفــوكَ الــمــوعِــدا[(٩)]
ونــقَــضــوا مــيــثــاقَــك الــمــؤكَّــدا ... وجَــعــلــوا لــي فــي كَــداءٍ رُصَّــدا[(١٠)]
وزَعَــمــوا أنْ لــســتُ أدعــو أحــداً ... وهــــمْ أذَلُّ وأقَــــلُّ عــــدَدَا

---

(١) الوتير: ماء قريب من مكة.
(٢) متنقبين: النقاب: غطاء الوجه.
(٣) غارون: غافلون.
(٤) عمرو بن سالم الخزاعي: عمرو بن سالم بن حضيرة بن سالم الخزاعي. كان أحد من يحمل ألوية خزاعة يوم الفتح. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٣: ١٧٤ رقم الترجمة ٦٨٤٢).
(٥) ناشد: طالب. والحِلف: المناصرة.
(٦) الوُلْد: لغة في الولد. وثمت: حرف عطف أدخل عليه تاء التأنيث.
(٧) نصراً أبداً: في ابن هشام: ٤: ٣٦ «أعتدا».
(٨) سيم خسفاً: شعر بالذل. تربد: تغير.
(٩) الفيلق: العسكر الكثير.
(١٠) رصد: جمع راصد. وهو الذي يرقب الشيء.

هـم بَيَّتُـونَـا بـالـوَتـيـرِ هُـجَّـدا وقَـتَّـلـونـا وكُـنَّـا سُـجَّـدا[١]

يقول: قُتلْنا وقد أَسْلَمنا، ويُروَى بدل قوله: * قد كنتُم وُلْداً وكنَّا والدا *

* نـحـن ولـدنـاك فـكـنـتَ وَلَـدَا *

قال: فقال رسول الله ﷺ: «نصرتَ يا عمرو بن سالم».

وَرَوَى محمد بنُ سعد في طبقاته، قال: فقام رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: «لا نُصرتُ إن لم أنصرْ بني كعب مما أنصر منه نفسي». ثم عَرَضَ له سحاب، فقال: إنّ هذا السحاب لَيَسْتَهِل بنصر بني كعب.

قال محمد بنُ إسحاق: وقدِم بُدَيل بنُ وَرْقاء في نفر من خُزاعة على رسول الله ﷺ، فأَخبَرَه بمن أصيب منهم وبمظاهرةِ قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجِعين إلى مكّة، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كأنّكم بأبي سُفْيان قد جاءكم ليَشُدّ العَقْد ويزيد في المدّة»، ومضى بُدَيل بنُ وَرْقاء وأصحابُه حتى لَقوا أبا سُفيان بن حرب بعَسْفَان[٢]، قد بعثْته قريشٌ إلى رسول الله ﷺ ليشُدّ العَقْد، ويزيد في المدّة، فقال له أبو سُفيان: مِن أين أقبلتَ يا بُدَيل؟ قال: تَسَيّرتُ[٣] في خُزاعةَ في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي؛ قال: أو ما جئتَ محمّداً؟ قال: لا، وفارَقَه، فقال أبو سُفيان: لئن كان بُدَيل جاء إلى يَثْرِبَ لقد عَلَفَ النوى[٤] بها، فأَتَى مَبرَكَ راحلته، فأخذ من بَعْرها ففَتّه، فرأى فيه النوى، فقال: أَحلِفُ بالله لقد جاء بُدَيل محمّداً؛ ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على محمّد ﷺ، فدخل على ابنته أمِّ حبيبة، وذهب ليجلس على فراش النبيّ ﷺ، فطوَتْه، فقال: يا بُنَيّة، ما أدري أرغِبتِ بي عن هذه الفراشِ، أم رغِبتِ به عنّي، قالت: بل هو فراشُ رسولِ الله ﷺ، وأنت رجلٌ مشرِك نجس، فلم أحبَّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ؛ فقال: والله لقد أصابَكِ بعدي يا بُنيّة شرٌ، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ، فكلّمه، فلم يردَّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر وكلّمه أن يُكلّم رسولَ الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل؛ ثم أتى عمرَ بنَ الخطّاب فكلّمه، فقال: أنا أشفعُ لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلاّ الذَّرَّ لجاهدتُكم به؛ ثم دخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ، وعندها الحسنُ ابنها غلامٌ يَدِب بين يديها، فقال: يا عليّ إنّكَ أمسّ القومِ بي رَحِماً، وإني قد جئتُ في حاجةٍ فلا

(١) التهجد: التعبد ليلاً.
(٢) عسفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة (معجم البلدان).
(٣) تسيرت: سرت.
(٤) النوى: بذور التمر.

أرجعَنّ[1] كما جئتُ خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سُفْيان، والله لقد عَزَمَ رسولُ الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتَفَتَ إلى فاطمة فقال: يا بنتَ محمّد، هل لكِ أن تأمري بُنَيّك هذا فيُجيرَ بين الناس فيكون سَيّدَ العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنَيَّ ذاك أن يُجير بين الناس، وما يجيرُ أحدٌ على رسول الله ﷺ؛ فقال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدّت عليّ، فانصحني، قال: والله ما أَعلم شيئاً يُغني عنك، ولكنّك سيّد بني كنانة. فقم فأَجِرْ بين الناس، ثم الحقْ بأرضك، قال: أو ترى ذلك مُغْنياً عنّي شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنّه، ولكن لا أجد لك غيرَ ذلك، فقام أبو سُفيان في المسجد فقال: أيّها الناس، إنّي قد أجَرْتُ بين الناس، ثم ركب بعيرَه وانطلقَ، فلما قدِم مكّة على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلّمتُه، فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئتُ ابنَ أبي قُحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابنَ الخطّاب فوجدتُه أعدى العدوّ، ثم جئتُ علياً فوجدتُه أَلْيَنَ القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعتُه، فوالله ما أدري هل يعني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أَمَرَكَ؟ قال: أمَرَني أن أجير بين الناس، ففعلتُ، قالوا: فهل أجازَ ذلك محمّد؟ قال: لا؛ قالوا: ويلك، والله إنْ زادَ الرجلُ على أن لِعب منك، فما يغني عنك ما فعلت، ثم تجهّز رسولُ الله ﷺ وأخفَى مَقصِده، ثم أعلمَ الناسَ أنه سائر إلى مكّة وأمَرهُم بالجدّ والتّهيؤ، وقال: «اللّهمّ خذ العُيون والأخبار عن قريشٍ حتى نَبْغَتها[2] في بلادها». والله المعين.

ذكرُ خبر حاطب بن أبي بَلتَعَة[3] في كتابه إلى أهل مكّة، وإعلام الله تعالى نبيّه ﷺ بذلك، وأَخْذِه الكتاب، وما أنزلَ اللّهُ عزّ وجلّ في ذلك من القرآن

قال: ولمّا أجمع رسولُ الله ﷺ المسيرَ إلى مكّة كتب حاطب بنُ أبي بَلْتَعَة كتاباً إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمَع عليه رسولُ الله ﷺ في المسير إليهم، ثم أعطاه امرأةً يقال إنها من مُزَيْنة ـ وقيل: هي سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ـ وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في رأسها ثم فتلتْ عليه قرونها[4] وخرجتْ به، وأتى

(١) في كلا الأصلين: «فلأرجعن»؛ وهو تحريف؛ والتصويب عن ابن هشام.
(٢) نبغتها: نفاجئها.
(٣) حاطب بن أبي بلتعة: حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير. اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى. شهد بدراً. كان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها. مات في سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله خمس وستون سنة (راجع: الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٣٠٠ رقم الترجمة ١٥٣٨).
(٤) القرون: جمع قرن، وهو: الضفيرة.

رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صَنَع حاطب، فبعثَ عليَّ بنَ أبي طالب، والزبيرَ بن العوّام رضي الله عنهما، وقال: أَدْرِكا امرأةً قد كَتب معها حاطبٌ كتاباً إلى قريش يحذّرهم ما قد أجمعْنا في أمرهم، فخَرَجا فأدرَكاها بالخَليقة، خَليقة بني أبي أحمد، فاستنزَلاها والتَمَسا في رَحْلها فَلم يجدا شيئاً، فقال لها عليّ: أحلِف بالله لتُخْرِجنّ لنا هذا الكتاب أو لنفتّشَنّك، فقالت: أَعرِض عنّي، فأَعرَضَ، فحِلّت قرونَ رأسِها فاستخرجت الكتابَ ودفعتْه إليه، فأَتَيا به رسولَ الله ﷺ، فدعا حاطباً فقال: «ما حَمَلك على هذا»؟ قال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، ما غيّرتُ وما بدّلتُ، ولكنّني امرؤٌ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، ولي بين أظهُرهم ولَدٌ وأهل، فصانعتُهم عليهم، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضربْ عنقَه، فإنّ الرجل قد نافَقَ، فقال رسول الله ﷺ: «وما يُدريك يا عمر، لعلّ الله قد اطّلع على أصحاب بدرٍ يوم بدر، فقال: اعمِلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم».

هذه رواية محمد بن إسحاق.

وقال الشيخ أبو إسحاق أحمدُ بنُ محمد بن إبراهيم الثعلبيّ رحمه الله: إن المرأة سارةُ مولاةُ عمرو بن صيفيّ بن هاشم بن عبد مناف، وأنها أتت رسولَ الله ﷺ من مكّة إلى المدينة ورسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة، فقال لها رسول الله ﷺ: «أمسلِمة جئتِ»؟ قالت: لا، قال: «أمهاجِرةً جئتِ»؟ قالت: لا؛ قال: «فما حاجتُك»؟ قالت: كنتُ كثيرةَ العشيرة والأصل والمَوالي، وقد ذهبتْ مواليَّ، واحتجتُ حاجةً شديدة، فقدِمتُ عليكم لتُعطوني وتَكسوني وتَحملوني. قال لها: «فأين أنتِ من شباب أهلِ مكّة»، وكانت مغنّيةً نائحة، قالت: ما طُلب منّي شيء بعد وقعة بدر: فحثّ رسولُ الله ﷺ بني عبد المطّلب وبني المطّلب فكسَوْها وحملوها وأعطَوْها نفقةً؛ فأتاها حاطب بنُ أبي بلتعةَ حليفُ بني أَسَد بنِ عبد العُزّى، فكَتب معها إلى أهل مكّة كتاباً، وأعطاها عشرةَ دنانير.

قال الثعلبيّ: هذه رواية زاذَانَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: وقال مقاتلُ بنُ حيّان: أعطاها عشرة دراهمَ وكساها بُرْداً على أن توصِل الكتابَ إلى أهل مكّة، وكَتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بَلتَعَة إلى أهل مكّة، إن رسولَ الله يريدكم، فخذوا حِذْرَكم». فخرجتْ سارة، ونزل جبريل، فأَخْبَرَ النبيَّ ﷺ بما فعل حاطب، فبعَثَ رسولُ الله ﷺ عليّاً، وعمرَ، والزبيرَ، وطلحةَ وعَماراً، والمِقدادَ بنَ الأسودَ، وأبا مَرْثَد، وكانوا كلُّهم فُرساناً، وقال لهم: «انطلِقوا حتّى تأتوا روضةَ خاخ[١]

(١) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة (معجم البلدان).

فإنّ بها ظعينةً معها كتاب من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى المشركين، فخذوه منها، وخلُّوا سبيلَها، وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقَها» فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الّذي قال رسولُ الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفتْ بالله ما معها كتاب، فبحَثوها، وفتَّشوا متاعَها فلم يجدوا معها كتاباً، فهَمُّوا بالرجوع، فقال عليٌّ رضي الله عنه: والله ما كُذِبْنا ولا كَذَبْنَا، وسلَّ سيفَه، وقال لها: أخرجِي الكتابَ وإلاّ والله لأجرِّدَنّكِ، ولأضربنّ عنقكِ، فلمّا رأت الجدَّ أخرجتْه من دوائبها قد خَبَّأتْه في شَعرها، فخلّوا سبيلَها، ولم يتعرضوا لما معها، ورجعوا بالكتاب إلى رسولِ الله ﷺ، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب»؟ قال: نعم، قال: «ما حمَلَك على ما صنعتَ»؟ فقال: يا رسول الله، ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت غريباً فيهم، وكان أهلِي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله يُنزِل بهم بأسه، وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً؛ فصدّقه رسول الله ﷺ وعَذَره، فقام عمر بن الخطّاب فقال: يا رسول الله: دعني أضربْ عنق هذا المنافق؛ فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهلِ بدرٍ يوم بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم يوم بدر».

وأنزل الله عزّ وجلّ في شأن حاطب ومكاتبته المشركين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، قال: أي من مكّة لِأَنَّ آمنتم بالله ربّكم؛ قال: في الكلام تقديم وتأخير، ونظم الآية: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ قال: يثقفوكم يروكم ويظهروا[1]، ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بالقتل، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي بالشتم، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فلا تناصحوهم فإنهم لا يُناصحوكم ولا يُوادّونكم.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: ٣] قال: معنى الآية: لا تدعُونَّكُمْ قراباتكم ولا أولادكم التي بمكة إلى خيانة رسولِ الله ﷺ والمؤمنين، وتركِ مناصحتهم وموالاةِ أعدائهم،

---

(١) كذا في الأصلين: والذي في القرطبي: «يثقفوكم: يظفروا بكم ويتمكنوا منكم».

ومظاهرتِهِم، فلن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم التي عصيتم الله لأجلهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيُدخل أهلَ طاعته والإيمانِ به الجنة، ويدخِل أهل معصيتِه والكفرِ به النارَ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية. ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة: ٦] قال: قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ يعني في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء؛ قال: فلما نزلت هذه الآية عادى المؤمنون أقرباءهم من المشركين في الله، وأظهروا لهم العداوة والبراءة، فعلم الله تعالى شدّة وجدِ المؤمنين بذلك، فأنزل: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧]؛ قال: ففعل الله عزّ وجل ذلك بأن أسلم كثير من مشركي مكّة، فصاروا للمؤمنين أولياءَ وإخواناً، وخالَطوهم وناكَحوهم[1].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨] معناه: أن تعدِلوا فيهم بالإحسان والبرّ، واختلف العلماء فيمن نزلت فيهم هذه الآية، فقال ابن عباس: نزلت في خُزاعة، منهم هلال بنُ عُوَيمِر وخُزَيمة، وسُراقة بنُ مالك بنِ جُعْشَمُ، وبنو مُدْلج، وكانوا صالَحوا النبيّ ﷺ على ألاّ يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً.

وقال عبد الله بن الزّبير: نزلتْ في أسماءَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنهم، وذلك أنّ أمّها قُتيلة بنت عبد العزّى بن عبد أسعدَ من بني مالك بنِ حسْل قَدِمتْ عليها المدينةَ بهدايا وهي مُشركة، فقالت أسماء: لا أقبل منك هديّة، ولا تدخلي عليّ بيتي حتى أستأذن رسول الله ﷺ؛ فسألت لها عائشةُ رضي الله عنها رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، فأمَرها رسولُ الله ﷺ أن تُدخِلها منزلَها، وتقبل هديّتها، وتحسنَ إليها، وتكرمَها. وقال مرّة الهَمَذانيّ وعطيةَ العَوْفيّ: نزلتْ في قوم من بني هاشم، منهم العباس. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٩] قال: وهم مشركو مكّة. فلنرجع إلى أخبار غزوة الفتح.

---

(١) ناكحوهم: تزاوجوا من بعضهم.

ذكر خروج رسولِ الله ﷺ من المدينة إلى مكّة، ومن جاءه في طرِيقه قبل دخول مكّة

قال: ولمّا تهيّأ رسولُ الله ﷺ للغَزاة بعث إلى مَن حوله من العرب فجلَبهم، وهم أسلمَ، وغِفَار، ومُزَينة، وجُهَينة، وأَشجَع، وسُلَيم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه في الطريق، وكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف، واستخلَف رسولُ الله ﷺ على المدينة عبدَ الله بن أمّ مكتوم؛ قاله محمد بن سعد.

وقال محمد بن إسحاق وأبو بكر أحمد البيهقيّ: إستخلَف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حُصَين بن عُتبة بن خلف الغِفاري، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الأربعاء لعشرِ ليالٍ خلون من شهر رمضان بعد العصر، فلمّا انتهى إلى الصلْصُل[١] قدّم أمامه الزبير بن العوّام في مائةٍ من المسلمين، وصام رسول الله ﷺ وصام الناسُ حتّى إذا كان بالكَدِيد[٢] بين عُسْفان[٣] وأَمَجَ[٤] أفطر. ونادى مناديه: من أحبّ أن يُفْطِر فليفطر، ومن أحبّ أن يصوم فليصم.

قال ابن سعد: فلما كان رسول الله ﷺ بقُدَيد[٥] عقد الألْوِيَة والراياتِ ودفعَها إلى القبائل.

قال محمد بن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل مَرّ الظَّهْران[٦] وهو في عشرة آلافٍ من المسلمين، فسبّعتْ[٧] سُلَيم، وبعضهم يقول: أَلَّفَتْ مُزَيْنة، وفي كلّ القبائل عدد وإسلام، وأوعب معه المهاجرون والأنصار. قال: ولما كان رسول الله ﷺ في بعض الطريق لقيَه عَمّه العباس بنُ عبد المطلب.

قال ابن هشام: لقيه بالجُحْفَة[٨] مهاجراً بعياله، وكان قبل ذلك بمكّة على سِقايته، وقد قدّمنا أنّه أسْلَم عند انصراف رسول الله ﷺ من غزوة بدر، قال: ولقيه أبو سفيان بن الحارث بنِ عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، لقِياه بِنِيقِ

(١) الصلصل: موضع بنواحي المدينة على سبعة أميال منها.
(٢) الكَدِيد: موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة.
(٣) عُسْفان: قرية جامعة على ثلاث مراحل من مكة.
(٤) أمج: بلد من أعراض المدينة.
(٥) قُدَيْد: (بالتصغير) موضع قرب مكة.
(٦) مرّ الظهران: موضع على مرحلة من مكة.
(٧) سبعت: أي كانت سبعمائة، وألفت: كانت ألفاً.
(٨) الجُحْفَة: موضع على أربع مراحل من مكة.

العُقَاب[(١)] بين مكة والمدينة، والتمسا الدخول عليه، وكلّمته أمّ سَلَمة رضي الله عنهما فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابنُ عمك، وابن عمتك وصهرُك. فقال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فَهَتك عِرْضي، وأما ابن عَمتي وصِهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال»، فلما خرج الخبر بذلك إليهما ومع أبي سفيان[(٢)] بُنَيّ له قال: والله لتأذننّ لي أو لآخذنّ بيدِ بُنيّ هذا، ثم لنذهبنّ في الأرض حتى نَموت عَطشاً وجوعاً؛ فلمّا بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقّ لهما، ثم أذِن لهما فدخلا عليه، فأسلما، وأنشد أبو سفيان بن الحارث يعتذر ممّا كان قد مضى مِن فعلِه فقال: [من الطويل]

لعمرك إنّي يوم أحملُ رايةً ... لِتغلبَ خَيْلُ اللاّت خيلَ محمدِ[(٣)]
لكالمُدْلِجِ الحَيْران أظلَمَ لَيلُه ... فهذا أواني حين أَهدَى وأهتدي[(٤)]
هداني هادٍ غيرُ نفسي ودلّني ... على الحقّ مَنْ طَرّدتُ كلّ مطرّدِ[(٥)]
أصدّ وأنأى جاهداً عن محمدٍ ... وأُدعَى وإن لم أنتسبِ من محمدِ
همُ ما هُمُ من لم يقل بهواهُمُ ... وإن كان ذا رأي يُلَمْ ويَفنّد[(٦)]
أريد لأُرضِيهم ولستُ بلائطٍ ... مع القوم ما لم أُهد في كلّ مقعدِ[(٧)]
فقل لثقيفٍ: لا أريد قتالَها ... وقل لثقيف تلك: غيريَ أوعِدِي
فما كانت في الجيش الذي نال عامراً ... وما كان عن جَرًا لساني ولا يدِي
قبائلُ جاءت من بلادٍ بعيدةٍ ... نزائع جاءت من سَهام وسُردد[(٨)]

---

(١) نيق العقاب: موضع قرب الجحفة.

(٢) أبو سفيان بن الحارث: (. . . - ٢٠ هـ = . . . - ٦٤١ م) المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، أبو سفيان، الهاشمي القرشي: أحد الأبطال الشعراء في الجاهلية والإسلام. وهو أخ رسول الله ﷺ من الرضاع كان يألفه في صباهما. ولما أظهر النبي ﷺ الدعوة إلى الإسلام عاداه المغيرة وهجاه وهجا أصحابه. أسلم وشهد مع النبي ﷺ فتح مكة ثم وقعة حنين. له شعر كثير في الجاهلية هجاء بالإسلام، وشعر كثير في الإسلام هجاء بالمشركين مات بالمدينة وصلى عليه عمر. انظر (الأعلام: ٧: ٢٧٦).

(٣) اللات: من أصنام الجاهلية.

(٤) الإدلاج: السير ليلاً.

(٥) رواية هذا البيت كما في ابن هشام: ٤: ٤٣، والبداية: ٤: ٢٨٧:

هداني هادٍ غير نفسي ونالني ... مع الله من طردت كل مطرد

(٦) يفند: تنقض حججه.

(٧) لائط: ملصق.

(٨) النزائع: الغرباء: سهام وسردد: موضعان من أرض عك.

قال: ولمّا بلغ إنشاده قوله: «من طرّدت كل مطرّد» ضرب رسولُ الله ﷺ في صدره وقال: «أنت طرّدتني كل مطرّد».

قال: ولمّا نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظَّهْران نزلها عَشِيًّا، وأمر أصحابه فأَوقَدوا عشرة آلاف نار، وقد عميت الأخبارُ عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ، فقال العباس بن عبد المطلب: واصَبَاحَ قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكّة عَنْوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنّه لهَلاكُ قريشٍ إلى آخر الدهر.

قال العبّاس: فجلستُ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجتُ عليها حتى جئت الأراك[1]، فقلت: لعليّ أجد بعض الحطّابة أو صاحبَ لَبَن، أو ذا حاجة يأتي مكّة، فيخبرهم بمكان رسولِ الله ﷺ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عَنْوة.

ذكر مجيء العبّاس بأبي سُفْيان بنِ حرب إلى رسول الله ﷺ، وإسلام أبي سفيان، وخبر الفتح

قال العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه: وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبُدَيل بن وَرْقاء قد خرجوا في تلك الليالي يتحسّسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به، فوالله إنّي لأسير على بغلةِ رسولِ الله ﷺ، التمس ما خرجتُ له، إذ سمعتُ كلام أبي سفيان، وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان[2]، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قطّ ولا عسكراً، فيقول له بديل: هذه والله خزاعة قد حَمَسَتْها[3] الحرب، فيقول أبو سفيان: خُزاعة أذَلّ وأقلّ أن تكون هذه نيرانُها وعسكرُها، قال العباس: فعرفتُ صوتَه، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: يا أبا الفضل، قلت: نعم، قال: ما لك فِداك أبي وأمّي! قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله في الناس، واصباحَ قريش واللّهِ! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمّي!، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقَك، فاركب في عَجُز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنَه لك، قال: فركب خَلْفي، ورجع صاحباه؛ قال: فجئتُ به، كلّما مررتُ بنار من نِيران المسلمين قالوا: مَن هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسولِ الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطّاب.

---

(١) الأراك: وادٍ قرب مكة.
(٢) يتراجعان: يتحادثان.
(٣) حمستها: اشتدت عليها.

قال ابن سعد: وكان رسول الله ﷺ قد استعمل عمرَ تلك الليلة على الحَرَس؛ قال العبّاس: فقال عمر: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عَجُز الدابّة قال: أبو سفيان عدوّ الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عَقْد ولا عَهْد، ثم خرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلةَ فسبقتُه، فاقتحمتُ عن البغلة، ودخلتُ على رسول الله ﷺ ودخل عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أُمكِن منه بغير عَقْد ولا عهد، فدعني أضْرب عنقَه. قال العبّاس، قلت: يا رسول الله، قد أجرته، ثم جلستُ إلى رسول الله ﷺ وأخذتُ برأسه وقلتُ: والله لا يناجيه الليلةَ رجلٌ دوني، فلمّا أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من رجال بني عديّ بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفتَ أنّه من رجال بني عبد مناف؛ فقال عمر: مهلاً يا عبّاس، فوالله لإسلامك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أَسلَم، وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامَك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسولُ الله ﷺ: «اذهب به يا عَبّاس إلى رَحْلِك، فإذا أصبحتَ فأتني به»؛ قال: فذهبتُ به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوتُ به إلى رسول الله ﷺ، فلمّا رآه رسولُ الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ[1] لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله»، قال: بأبِي أنت وأمّي! ما أحلَمك وأكرمَك وأوصَلَك، والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلٰه غيره، لقد أغنى شيئاً بعد؛ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأْنِ لك أن تعلم أني رسول الله»؟ قال: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أمَا والله هذه فإنّ في النفس منها حتى الآن شيئاً؛ فقال له العبّاس: ويحَك! أَسلِم واشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ قبل أن تُضْرب عنقُك؛ قال: فشهد شهادة الحقّ، فقلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحبّ هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»؛ فلمّا ذهب لينصرفَ قال رسول الله ﷺ: «يا عبّاس، احتبِسْه بمَضيق الوادي عند خَطْم الجبل[2] حتى تمرّ به جنود الله فيراها». قال: فخرجت به حتى حبستهُ حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه؛ قال: ومرّت القبائل على راياتها كلّما مرّت قبيلة قال: يا عبّاس، من هذه؟. فأقول: سُليم، فيقول: ما لي ولسُلَيم، ثم تمرّ القبيلة، فيقول: من هذه؟ فأقول: مُزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى مرّت القبائل، فما تمرّ قبيلة إلاّ سألني عنها، فإذا أخبرتُه بهم، قال: ما لي ولبني فلان! حتى مرّ رسولُ الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار - وإنّما سمّيت بالخضراء

---

(١) ألم يئن: ألم يحن.

(٢) خطم الجبل: أنفه النادر منه.

لكثرة الحديد وظهورِه فيها ـ وهم لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عبّاس! من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء من قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبحَ مُلكُ ابن أخيك الغَداة عظيماً، قلت: ويحك! إنها النبوّة قال: فنعم إذاً، ثم قلت: النَّجاءَ[1] إلى قومك، فسار حتى إذا جاءهم صَرَخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سُفيان فهو آمن، فقامت إليه هندُ بنتُ عتبة فأخذتْ بشاربه، فقالت: أُقتلُوا الْحَميتَ[2] الدّسِمَ الأَحْمَسَ، قُبّح من طَليعة قوم! قال: ويلكم لا تغرّنّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فمن دخل داري فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنّا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرّق الناسُ إلى دُورهم وإلى المسجد. والله يؤيّد بنصره من يشاء.

ذكر دخول رسول الله ﷺ وأصحابه مكّة شرّفها الله تعالى صُلْحاً، ودخول خالد بن الوليد ومن معه من القبائل عَنوة

قال: ولما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى ذي طُوًى[3]، وقف على راحلته مُعْتَجِراً[4] بشُقّة بُرد حِبْرة حمراء وإنه ليضع رأسَه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إنّ عَثنونَه[5] ليكاد يمسّ واسِطَ الرحل، ثم فرّق رسولُ الله ﷺ الجيش من ذي طُوًى، وكانت راية رسول الله ﷺ يومئذٍ مع سعد بن عُبادة رضي الله عنه، فأمر رسول الله ﷺ الزبيرَ بن العوّام، وكان على المجنَّبة اليسرى أن يدخل في بعض الناس من كُدًى[6]، وأمر سعدَ بنَ عُبادة أن يدخل ببعض الناس مِنْ كَداء[7]، فلمّا وجّه سعدٌ للدخول قال: اليومَ يومُ المَلْحَمَة، اليومَ تُستحلّ الحرمة، وفي رواية تُستحلّ الكعبة؛ فسمعها عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بنُ عُبادة، ما نأمن من أن يكون له في قريش صَوْلة، فقال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي

---

(١) النجاء: السرعة.

(٢) الحميت: في الأصل: زق السمن. الدسم: الكثير الودك. الأحمس: الذي لا خير عنده. من قولهم: عام أحمس إذا لم يكن فيه مطر.

(٣) ذو طوى: موضع قرب مكة.

(٤) الاعتمار: التعمم بغير ذؤابة. الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

(٥) العثنون: اللحية (اللسان: عثن).

(٦) كُدًى: جبل بأسفل مكة.

(٧) كداء: جبل بأعلى مكة.

طالب: «أدرِكْه فخذ الرايةَ منه، فادخلْ أنت بها». حكاه ابن إسحاق.

وقال محمد بن سعد: إنّ رسول الله ﷺ أخذ الراية من سعد ودفَعَها لابنه قيس بن سعد.

وذكر يحيى بنُ سعيد الأُمويّ[1] في السِّيَر: أن سعد بن عُبادة لمّا أخذ الراية مرّ على أبي سفيان، فقال سعد إذ نظر إليه. اليوم يومُ المَلْحَمة، اليومُ تُستحلّ الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً، فأقبلَ رسول الله ﷺ في كتيبة الأنصار حتى إذا حاذَى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله، أمرتَ بقتل قومِك؟ فإنه زَعَم سعدٌ ومن معه حين مرّ بنا أنه قاتِلُنا، وقال: اليوم يومُ المَلْحَمة، اليوم تُستحَلّ الحُرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً؛ وإني أَنشُدُك اللّهَ في قومك، فأنت أبرّ الناس وأوصلُهم وأرحمُهم.

وقال عثمان وعبد الرحمٰن بن عوف: يا رسول الله، والله ما نأمن سعداً أن تكون منه في قريش صَوْلة؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا سفيان، اليوم يومُ المَرْحَمَة، اليوم أعزَّ الله فيه قريشاً». وقال ضِرار بنُ الخطّاب الفِهْرِيّ يومئذٍ: [من الخفيف]

يا نبيَّ الهدى إليك لجا حَيّ ... قريش ولات حين لجاءِ[2]
حين ضاقت عليهُم سعةُ الأر ... ضِ وعاداهُم إلٰهُ السّماء
والتقت حَلْقَتَا البِطانِ على القو ... م ونُودوا بالصَّيْلَم الصَّلْعاءِ[3]
إنّ سعداً يريد قاصمةَ الظهـ ... ـرِ بأهل الحَجُون والبَطْحاء
خَزْرَجِيّ لو يستطيع من الغيـ ... ـظ رمانا بالنَّسْر والعَوَّاءِ[4]
وغِرُ الصّدر لا يهمّ بشيء ... غير سَفْك الدِّما وهَتك النساءِ[5]
قد تلظّى على البِطاح وجاءت ... عنه هندٌ بالسَّوْءة السَّوآءِ[6]
إذ ينادي بذلّ حيّ قريشٍ ... وابن حرب بدا من الشّهداءِ

(١) يحيى بن سعيد: (... ـ ١٤٣ هـ = ... ـ ٧٦٠ م) يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري، أبو سعيد، قاضٍ من أكابر أهل الحديث، من أهل المدينة، توفي بالهاشمية راجع (الأعلام: ٨: ١٤٧).

(٢) لجا: مهموز، وتركه هنا للوزن.

(٣) التقت حلقتا البطان: مثلٌ في بلوغ الأمر. البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير. الصيلم: الداهية الشديدة.

(٤) النسر والعواء: كوكبان.

(٥) وَغِرُ الصدر: الحاقد المبغض.

(٦) السوءة السّوآء: الفعلة الشنيعة.

فـلـئـن أقـحـمَ الـلـواءَ نـادَى ... يـا حـمَـاةَ الـلِّـواء أهـل الـلّـواء
ثـم ثـابـت إلـيـه مَـن بِـهِـم الـخَـزْ ... رج والأوس أنـجـمَ الـهَـيْـجـاء
لـتـكـونَـنّ بـالـبـطـاح قـريـشٌ ... فـقْـعـة الـقـاع فـي أكـفّ الإمـاءِ[١]
فـانْـهَـيْـنَـهُ فـإنّـه أَسَـدُ الأُسْـ ... ـدِ لـدى الـغـاب والـغٌ فـي الـدمـاء[٢]
إنّـه مُـطـرِق يـريـد لـنـا الأمـ ... ـر سـكـوتـاً كـالـحـيـة الـصـمّـاءِ[٣]

قال: فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى سعد بن عُبادة فنزع اللواء من يده، وجعله بيد قيس ابنِه، ورأى رسولُ الله ﷺ أنّ اللواء لم يخرج عنه إذا صار إلى ابنه، وأبى سعد أن يُسلِّم اللواء إلاّ بأمارة[٤] من رسول الله ﷺ، فأَرْسَلَ إليه رسولُ الله ﷺ بعمامته، فعرفَهَا سعد، فدفَعَ اللواءَ إلى ابنِه قيس.

قال: وأَمَرَ رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد، وكان على المُجنَّبة اليمنى، أن يدخل ببعض الناس من اللِّيط أسفل مكّة، وكان معه: أَسلَم، وسُلَيم وغِفار، ومُزينة، وجُهَينة، وقبائل من العرب، وأقبل أبو عبيدة بن الجرّاح بالصفّ من المسلمين ينصب لمكّة بين يدي رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر[٥]، حتى نزل بأعلى مكّة، وضُربت له هناك قُبّة، ونَهَى عن القتال، وعَبر أصحابُ رسولِ الله ﷺ من الأماكن التي أمرهم ﷺ أن يدخلوا منها، لم يَلْقُوا كيداً، إلاّ خالد بن الوليد فإن صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو جمعوا جَمْعاً من قريش، ووقفوا بالخندمة[٦] ليقاتلوا خالد بن الوليد، ويمنعوه من الدخول، وشهروا السلاح ورَموا بالنّبل، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم، فقُتل أربعة وعشرون رجلاً من قريش، وأربعة نفر من هُذيل، وانهزموا أقبح هزيمة، فلما ظهر رسول الله ﷺ على ثَنِيّة أَذاخِرَ رأس البارقة[٧] فقال: «ألم أَنْهَ عن القتال»؟ فقيل: يا رسول الله، إنّ خالدَ بن الوليدَ قوتل، فقاتَل؛ فقال: «قضاء الله خير»، وقتل من المسلمين رجلان كانا سَلَكا طريقاً غيرَ طريق خالد فقُتِلا، وهما كُرْز بن جابر الفِهْرِيّ، وحُبَيْش بنُ خالد الخُزاعيّ. قاله محمد بنُ سعد.

---

(١) الفِقعة: ضرب من الكمأة، وهي البيضاء الرخوة، يشبه بها الرجل الذليل. وفقعة القاع: مثل يضرب في الذل لأن الفقعة أردأ القمأة.
(٢) والغ في الدماء: كثير سفك الدماء.
(٣) الحية الصماء: التي لا تنفع معها الرقية، وهي أخبث الحيات وأضرها.
(٤) إمارة: دليل.
(٥) أذاخر: ثنية بين مكة والمدينة «البكري: ١ : ١٢٨».
(٦) الخندمة: جبل بمكة له يوم معروف.
(٧) البارقة: السيوف.

وقال ابن إسحاق: قتل من المشركين يومئذٍ اثنا عشر أو ثلاثة عشر رجلاً. وقال: وقد كان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعِدّ سلاحاً ويُصلح منه قبل دخول رسول الله ﷺ، فقالت له امرأته: لماذا تعدّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما أراه يقوم لمحمّد وأصحابه شيء؛ قال: والله إني لأرجو أن أخدِمَك بعضهم. ثم قال: [من الرجز]

إن يُقبلوا اليوم فما لي عِلّهْ ... هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّهْ[١]

* وذو غِرارَين سريعُ السَّلّهْ[٢] *

ثم شهد يوم الخَنْدَمَة، فلما انهزَم القوم دخل على امرأته وقال: أغلقي عليّ بابي، قالت: فأين الذي كنت تقول؟ فقال: [من الرجز]

إنّك لو شَهِدتِ يوم الخَنْدَمَهْ ... إذ فرّ صفوانُ وفرّ عِكْرِمهْ

وأبو يزيدَ قائمٌ كالمُوتِمهْ ... واستقبلتْهم بالسيوف المسلِمهْ[٣]

يَقطَعْن كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمهْ ... ضَرْباً فلا تَسمع إلا غَمْغمه[٤]

لهمْ نهيتٌ خَلفَنا وهَمْهَمهْ ... لا تنطقي في اللّوم أدنى كلمه[٥]

قال ابن هشام: ويروى للرّعاش الهُذَليّ.

وكان ممن فرّ يومئذٍ هُبَيرة بنُ أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وهو زوج أمّ هانىء بنت أبي طالب أخت عليّ لأبويه، فأسلمتْ، وهرب هُبيرةُ إلى نجران، وقال معتذراً من فراره: [من الطويل]

لعمرُك ما ولّيت ظَهري محمّداً ... وأصحابَه جُبْناً ولا خيفةَ القتلِ

ولكنني قَلّبت أمري فلم أجد ... لسيفي غَناء إن ضَربتُ ولا نَبْلي

وقفت فلمّا خفت ضَيعة موقفي ... رجعتُ لعَوْدٍ كالهَزْبرِ إلى الشِّبل

قال ابن هشام: وكان شعار أصحابِ رسولِ الله ﷺ يوم فتح مكة وحُنين والطائف: شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمٰن، وشِعار الخَزْرج: يا بني عبد الله، وشِعار الأَوْس: يا بني عبيد الله، وكان الفتح يوم الجمعة لعشر بقِين من رمضان.

---

(١) الألة: جميع أداة الحرب.
(٢) ذو غرارين: ذو حَدَّين.
(٣) المُؤتِمة: الثكلى.
(٤) الغمغمة: الأصوات غير المعروفة.
(٥) النهيت: زئير الأسد. الهمهمة: تردد الزئير في الصدر.

ذكرُ من أمر رسولُ الله ﷺ بقتلهم يوم فتح مكّة وسبب ذلك، ومن قتل منهم، ومن نجا بإسلامه

قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه بقتل ستّة نفر وأربع نسوة، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة: وهم: عِكْرمة بنُ أبي جهل، وهبَّار بن الأسود، وعبد الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح، ومِقْيَس بنُ صُبابة الليثي، والحويرث بن نُقَيْذ بن وهب، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدرميّ، وهند بنت عُتبة، وسارةُ مولاة عمرو بن هشام، وَفَرْتَنَى، وقُرَيْبة.

فأمّا عِكْرمة بن أبي جهل فإنه هرب إلى اليمن، وأسلمت امرأتهُ أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنتْ له رسول الله ﷺ، فأمّنه، فخرجتْ في طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسولَ الله ﷺ فأسلَم وحسن إسلامه.

حَكى الزبير بنُ بكّار[1] قال: لما أسلم عكرمة قال: يا رسول الله، علِّمني خيرَ شيء تَعلمه أقوله؛ فقال له النبي ﷺ: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله»، فقال عِكرمة: أنا أشهد بهذا، وأُشهد بذلك مَنْ حضرني، وأسألك يا رسول الله أن تستغفر لي؛ فاستغفرَ له رسولُ الله ﷺ؛ فقال عكرمة: والله لا أدع نفقةً كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلاّ أنفقتُ ضِعفَها في سبيل الله، ولا قتالاً قاتلتُه إلاّ قاتلتُ ضِعفَه؛ ثم اجتهد في الجهاد والعبادة حتى استُشهِد رحمه الله في خلافة عمر بن الخطّاب بالشام؛ وقيل: استُشهِد في آخر خلافة أبي بكْر، قيل: في يوم اليَرْموك. وقيل: في يوم مَرْج الصُّفَّر[2]، وقيل: أَجْنَادِين[3]. والله أعلم.

وأما عبد الله بنُ سعد بن أبي سَرْح، فإنه كان قد أسلم، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتدّ ورجع إلى قريش، فلما كان يوم الفتح فرّ إلى عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وهو أخوه من الرضاعة، فغَيّبه حتى أَتَى به رسولَ الله ﷺ فاستأمَن له بعد أن اطمأنَّ الناس؛ فزعموا أن رسول الله ﷺ صَمَت طويلاً، ثم قال: «نعم»؛ فلما انصرف عنه عثمان قال لمن حوله من أصحابه: «لقد صَمَتُّ ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عنقَه»، فقال رجل من الأنصار: فهلاّ أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال: «إن النبيّ لا يَقتل بالإشارة»، ثم أسلم عبد الله بن سعد بعد ذلك.

---

(١) الزبير بن بكار: (١٧٢ ـ ٢٥٦ هـ = ٧٨٨ ـ ٨٧٠ م) الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي، من أحفاد الزبير بن العوام، أبو عبد الله: عالم بأنساب وأخبار العرب راوية. ولد في المدينة وولي قضاء مكة فتوفي فيها. (الأعلام: ٣: ٤٢).

(٢) مرج الصفر: موضع بالشام كانت به وقعة للمسلمين مع الروم، وهو بالغرب من غوطة دمشق.

(٣) أجنادين: موضع بالشام كانت به وقعة مشهورة بين المسلمين والروم.

وأمّا مِقْيَس بنُ صُبابة، فإن أخاه هشام بن صبابة كان قد صحب رسول الله ﷺ في غزوة بني المُصْطَلِق بالمُرَيْسيع، فأصابه رجل من الأنصار من رهط عُبادة بن الصامت وهو يرى أنه من العدوّ، فقتله خطأ، فقدم مِقْيَس هذا على رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وأظهر الإسلام، وقال: يا رسول الله، جئتُك مسلِماً، وجئتُك أطلب ديةَ أخي، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه، فأقام غيرَ كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتَلَه، ثم خرج إلى مكّة مرتدًا، فنذَرَ رسول الله ﷺ قتلَه لذلك، فقتله نُمَيلة بنُ عبدِ الله؛ رجل من قومه.

وأما الحويرث بن نُقيذ فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لأنه كان يؤذي رسول الله ﷺ، وكان العباس بن عبد المطلب حمل بنتَيْ رسول الله ﷺ فاطمةَ وأمَّ كلثوم من مكّة يريد بهما المدينة، فرمى بهما الحويرث إلى الأرض.

وأمّا عبدِ الله بن خَطَل، فأَمَرَ رسولُ الله ﷺ بقتله لأنّه كان مسلماً، فبعثه رسولُ الله ﷺ مُصدِّقاً[١]، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولًى له يخدمه وهو مسلم، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تَيْساً، فيصنع له طعاماً، فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فقتله ثم ارتدّ، وكانت فَرْتَنَى وقُرَيْبة قَيْنَتَاه تُغَنِّيان بهجاء رسول الله ﷺ، فقتل ابنَ خَطَل سعيدُ بن حُريث المخزوميّ، وأبو برزة الأسلميّ، اشتَرَكَا في دمه، وقُتلتْ إحدى قَيْنَتَيه وهربت الأخرى، حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ، فأمّنها.

وهند بنت عُتبَة أسلمتْ. ولما أخذ رسول الله ﷺ البيعة على النساء؛ ومن الشرط فيها إلاّ يسرفن ولا يزنين، قالت: وهل تزني الحرّة أو تسرق يا رسول الله؟ فلما قال: «ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغاراً، وقَتَلْتَهم ببدرٍ كباراً، أو نحو هذا من القول، وشكت إلى رسول الله ﷺ أنّ زوجها أبا سفيان شَحيح لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وولدَها، فقال: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفِيكِ أنتِ وولدك».

وأما سارة فاستُؤْمن لها، فأمّنها رسولُ الله ﷺ.

وأما هبّار فإنه هرب فلم يوجد، ثم أسلم بعد الفتح وحَسُنَ إسلامه.

ذكر إسلام أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تَيْم بن مرّة بن كعب[٢]

روى محمد بن إسحاق بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما

---

(١) مصدِّقاً: جامعاً للصدقات، وهي الزكاة.

(٢) أبو قحافة: (٨٣ ق هـ ١٤ هـ = ٥٤٢ ـ ٦٣٥ م) عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التميمي =

قالت: لما وقف رسول الله ﷺ على ذي طُوًى قال أبو قحافة لابنَة له من أصغر ولده: أي بُنيّة، اِظهرِي بي على جبل أبي قُبَيس ـ قالت: وكان قد كُف بصره ـ فأشرفَتْ به عليه فقال لها: أي بنيّة؛ ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً، قال: تلك الخيل؛ قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومدبراً؛ قال: أي بُنَيْة، ذلك الوازع ـ يعني الذي يأمر الخيل ويتقدّم إليها ـ ثم قالت: قد والله انتشر السواد؛ فقال: قد والله إذاً دفعت الخيل، فأسرعي بي إلى بيتي؛ قالت: فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته؛ قالت: وفي عنق الجارية طَوْق من وَرِق[1]، فتلقّاها رجل فاقتطعه من عنقها، فلما دخل رسول الله ﷺ إلى المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركتَ الشيخَ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه»؟ قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم»، قالت: فأسلم؛ قالت: فدخل به أبو بكر وكأنّ رأسَه ثَغامة[2]، فقال رسول الله ﷺ: «غيّروا هذا من شَعره»، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلام طوقَ أختي؛ فلم يجبه أحد؛ قالت: فقال: أي أخيّة، اِحتسِبي طَوْقَك، فوالله إنّ الأمانة في الناس اليوم لقليل.

وأسلم عبد الله بنُ الزِّبَعْرى[3] عام الفتح وحسن إسلامه، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ أشدّ الأذى في الجاهلية، فأسلم واعتذر إلى رسول الله ﷺ، فقبل عذرَه، وكان شاعراً مجيداً، فقال يمدح رسول الله ﷺ: وله في مدحه أشعاراً كثيرة يَنسَخ بها ما قد مضى في كفره، منها قوله: [من الكامل]

مَـنَـع الـرقـادَ بـلابـلٌ وهـمـومُ ... والـلـيـل مُـعـتـلِـج الـرِّواق بـهـيـمُ[4]
مـمّـا أتـانـي أنّ أحـمـدَ لامـنـي ... فـيـه فـبـت كـأنـنـي مـحـمـومُ

= القرشي، أبو قحافة: والد أبي بكر الصديق. كان من سادات قريش في الجاهلية. وأسلم يوم فتح مكة، وتوفي ولده أبو بكر قبله. (الأعلام: ٤: ٢٠٧).

(١) الورق: الفضة، وقيل: الذهب والفضة. (اللسان: ورق).

(٢) الثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر، يشبه بياض الشيب به.

(٣) عبد الله بن الزبعرى: (... ـ نحو ١٥ هـ = ... ـ نحو ٦٣٦ م) عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي، أبو سعد، شاعر قريش في الجاهلية. كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة. فهرب إلى نجران. ثم عاد إلى مكة فأسلم واعتذر، ومدح النبي ﷺ في: فأمر له بحلة. (الأعلام: ٤: ٨٧).

(٤) البلابل: الوساوس المختلطة، معتلج: مضطرب، يركب بعضه بعضاً. رواق الليل: مقدمه وجانبه. البهيم: الذي لا ضياء فيه.

يا خيرَ من حَملتْ على أوْصالها ... عَيْرانةٌ سُرُح اليدين غَشُومُ(١)
إني لمعتذِرٌ إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضّلال مُقيمُ(٢)
أيام تأمرني بأغْوى خُطّةٍ ... سَهمٌ وتأمرني بها مخزومُ(٣)
وأمدّ أسباب الردَى ويقودُني ... أمرُ الغُواة، وأمرهمْ مَشؤومُ
فاليوم آمنَ بالنبيّ محمّدٍ ... قلبي ومُخطئُ هذه محرومُ
مضت العداوة وانقضتْ أسبابُها ... وأتَتْ أواصِرُ بيننا وحُلُومُ(٤)
فاغفر فدًى لك والدَيّ كلاهما ... وارحم فإنك راحم مرحومُ
وعليك من سِمَة المليك علامةٌ ... نورٌ أغرُّ وخَاتَمٌ مختومُ
أعطاك بعد محبّةٍ برهانَه ... شَرَفاً وبرهانُ الإلٰه عظيمُ

ذكر دخولِ رسولِ الله ﷺ المسجد، وطوافِه بالبيت ودخولِه الكعبة، وما فعل بالأصنام

قال: ولما نزل رسول الله ﷺ مكة واطمأنّ النّاس، خرج حتى جاء البيتَ، فطافَ به سَبعاً على راحلته يستلم الرّكن بمِحْجَن(٥) في يده، فلما قضى طوافَه دعا عثمان بن طلحة(٦) فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحتْ له، فدخلها، فوجد فيها حَمامةً من عيدانٍ، فكَسَرها بيده وطرَحَها، ثم وقف على باب الكعبة فقال: «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزابَ وحدَه ألا كلّ مأثرةٍ(٧) أو دم أو مالٍ يُدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سِدانة(٨) البيت وسِقاية الحاجّ؛ ألا وقتيل الخَطأ شبه العمْد بالسوط والعصا، ففيه الديةُ مغلّظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها

(١) العِيرانة: الناقة السريعة في نشاط. سرح اليدين: سريعتهما، غشوم: لا يثنيها عن مرادها شيء.
(٢) أسديت: ما صنعت من جميل.
(٣) أغوى خطة: أضل خطة.
(٤) الأواصر: العلاقات المتينة، علاقة القربى.
(٥) المحجن: العصا المعوجة (اللسان: حجن).
(٦) عثمان بن طلحة: (. . . ـ ٤٢ هـ = . . . ـ ٦٦٢ م) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة عبد الله القرشي العبدري، من بني عبد الدار: صحابي. كان حاجب البيت الحرام. أسلم مع خالد بن الوليد في هدنة الحديبية وشهد فتح مكة. فدفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إليه وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة. ثم سكن المدينة ومات بها، وقيل: بمكة. (الأعلام: ٤: ٢٠٧).
(٧) المأثرة: المكرمة المتوارثة.
(٨) سدانة البيت: خدمة البيت.

أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظُّمَها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]؛ ثم قال: «يا مَعْشَرَ قُريش، ما ترون أنّي فاعل فيكم»؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم؛ قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء»؛ ثم جلس رسولُ الله ﷺ في المسجد، فقام إليه عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه ومفتاحُ الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اِجمعْ لنا الحجابةَ مع السِّقاية؛ فقال: «أين عثمان بن طلحة»؟ فدُعِي له، فقال: «هاكِ مِفْتَاحُك يا عثمان، اليوم يوم برٌّ ووفاء»؛ حكاه محمد بن إسحاق.

وقال محمد بن سعد: دفع إليه رسولُ الله ﷺ المفتاحَ وقال: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدةً[1] خالدةً، لا ينزِعها منكم إلاّ ظالم»؛ ودفع السقاية إلى العبّاس بن عبد المطّلب.

قال عبد الملك بن هشام: حدّثني بعض أهل العِلم أنّ رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صُوَر الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيمَ عليه السلام مصوّراً في يده الأزلام[2] يستقسِم بها، فقال: «قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسِم بالأزلام، ما شأن إبـراهـيـم والأزلام، ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾» ثم أمر بتلك الصور كلِّها فَطُمست.

قال: ودخل الكعبة ومعه بلال بن رَبَاح، فأمره أن يؤذّن، فأذّن وأبو سفيان بنُ حرب وعتّاب بنُ أَسِيد والحارث بنُ هشام جلوسٌ بِفناء الكعبة، فقال عتّاب بن أَسِيد: أكرم الله أَسِيداً ألاّ يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه؛ فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه مِحقّ لاتّبعته؛ فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرتْ عنّي هذه الحَصَى؛ فخَرج عليهم رسولُ الله ﷺ فقال: «قد علمتُ الذي قلتم»، ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعَتّاب: نشهد أنك رسول الله ﷺ ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أَخبَرَك.

وقال أبو محمد بن هشام بسند يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ رسول الله ﷺ دخل مكّة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرَّصاص، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١]، فما أشار ﷺ إلى صنم منها في وجهه إلاّ وقع لِقفاه، ولا لِقفاه إلاّ وقع لوجهه: حتى ما بقي منها صنم إلاّ وقع.

---

(١) تالدة: قديمة موروثة.

(٢) الأزلام: السهام التي كان يستقسم بها الجاهليون.

قال محمد بن سعد: كان حول الكعبة ثلثمائة وستُّون صنماً، وكان أعظمها هُبَل، وساق الحديث نحو ما تقدّم، فقال تميم بن أسد الخزاعيّ[١] في ذلك: [من الوافر]

وفي الأصنام معتبَر وعِلمٌ لمن يرجو الثوابَ أو العِقابا

قال: ولما كان من الغد يوم الفتح خطب رسول الله ﷺ بعد الظهر فقال: «إن الله قد حرّم مكّة يوم خَلَق السمٰوات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، ولم تحلّ لي إلاّ ساعة من نهار، ثم رجعتْ لِحرمتِها بالأمس، فليبلَغ شاهدُكم غائبَكم، ولا يحلّ لنا من غنائمها شيء»، وأقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلةً يصلّي ركعتين ركعتين، وبثّ السرايا، ثم خرج إلى حُنين.

ذكر سَرِيّة خالد بن الوليد إلى العُزَّى[٢] وهَدْمِها

قالوا: بعث رسولُ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد إلى العُزَّى ليَهدِمَها، وذلك بعد الفتح، لخمس ليالٍ بَقِين من شهر رمضان سنة ثمانٍ، فخرج في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوْا إليها فهدموها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «هل رأيتَ شيئاً»؛ قال: لا، قال: «فإنّك لم تهدِمها، فارجع إليها فاهدِمْها»؛ فرجع خالد وهو متغيّظ، فجرّد سيفه، فخرجتْ إليه امرأة عُرْيانة سوداء ثائرة الرأس[٣] فجعل السادِن[٤] يصيح بها، فضربها خالد فجزَلها[٥] اثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره؛ فقال: «نعم، تلك العُزَّى، وقد يئستْ أن تُعبد ببلادكم أبداً»، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامِهم، وكان سَدَنَتَها بنو شَيْبَان من بني سُلَيم.

ذكر سريّة عمرو بن العاص إلى سُواع[٦] وكسرِه

بَعَثه رسول الله ﷺ في شهر رمضان بعد الفتح أيضاً إلى سُواع، وهو صنم هُذيل ليهدمه؛ قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السّادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك؛ قلت: لِمَ؟ قال: تُمنَع؛ قلت: حتى الآن

---

(١) تميم بن أسد الخزاعي: تميم بن أسيد، وقيل بن أسد بن عبد العزى بن كعب بن عمرو الخزاعي. أسلم وصحب قبل فتح مكة. (الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ١٨٣ رقم الترجمة ٨٣٤).

(٢) العُزَّى: صنم كانت تعبده قريش (اللسان: عزز).

(٣) ثائرة الرأس: منتشرة شعر الرأس.

(٤) السادن: خادم الكعبة، وبيت الأصنام.

(٥) جزلها: قطعها.

(٦) سواع: راجع (اللسان: سواع).

أنت في الباطل وَيْحَك! وهل يَسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته، وأمرتُ أصحابي فهدموا بيت خِزانته فلم يجدوا فيه شيئاً؛ ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

ذكر سريّة سعد بنِ زيد الأشهليّ إلى مَنَاة[١]

بَعَثه رسولُ الله ﷺ في شهر رمضان أيضاً إلى مَنَاة ـ وكانت بالمشلّل[٢] للأوس والخزرج وغسّانَ ـ ليهدمها، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن، فقال له السادن: ما تريد؟ قال: هَدْم مناة؛ قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالوَيْل وتَضرِب صدرَها؛ فقال السادن: مناة دونك بعضَ غضَباتك؛ ويضربها سعد بن زيد فيقتلها، ويقبل إلى الصنم معه أصحابه، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً، وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ، وكان ذلك لست بقين من شهر رمضان.

ذكر سريّة خالد بن الوليد إلى بني جذَيمة بن عامر ابن عبد مناةَ بنِ كنانة، وهو يوم الغُمَيْصاء

قالوا: لما رجع خالد بن الوليد من هَدم العزّى، ورسولُ الله ﷺ مقيم بمكّة، بعثه في شوّال إلى بني جذَيمة بن عامر، وكانوا أسفل مكة على ليلة منها بناحية يَلَمْلَم؛ داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتِلاً، فخرج في ثلثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سُليم، فانتهى إليهم خالد بن الوليد، فقال: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون، قد صَلَّينا وصدّقْنا بمحمد، وبنيْنَا المساجد في ساحاتنا، وأذَّنَّا فيها؛ قال: فما بال السلاحِ عليكم؟ فقالوا: إن بَيْنَنَا وبين بعض العرب عداوة، فخفنا أن تكونوا هُم، فأخذنا السلاح؛ قال: فضعوا السلاح؛ قال: فوضعوه، فقال لهم: استأْسِروا، فاستأسَر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرّقهم في أصحابه، فلما كان في السّحَر نادى خالد: من كان معه أسير فليُدافّه؛ أي فليُجهِز عليه بالسيف.

فأمّا بنو سُلَيم فقتلوا من كان بأيديهم، وأمّا المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم، فبلغ النبيَّ ﷺ ما صنع خالد، فقال: «اللهم إني أبرأُ إليك مما صنع خالد»؛ وبعث عليّ بن أبي طالب فوَدى[٣] لهم قَتْلاهم وما ذهب منهم.

---

(١) مناة: صنم كان لهُذيل وخزاعة بين مكة والمدينة. يعبدونه من دون الله.
(٢) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر.
(٣) ودى: دفع ديات القتلى.

وقد حكى أبو الفرج علي بن الحسين الأصفَهانيّ[١]، خبرَ هذه السريّة في قصة عبد الله بن علقمة أحد بني عامر بن عبد مناة بنِ كنانة، وخبر مقتلِه، وذَكَرَ خبرَه مع حُبَيشة، فروى بسند رفعه إلى ابن دأب قال: كان من حديث عبد الله بنِ علقمة أنه خرج مع أمه وهو إذ ذاك يَفَعَة[٢]: دون المحتَلِم، لتزور جارةً لها، وكانت لها بنت يقال لها: حُبيشة إحدى بنات عامر بن عبد مناة، فلما رآها عبد الله بن علقمة أعجبتْه ووقعتْ في نفسه؛ فانصرف وترك أمّه عند جارتها، فبقيتْ عندها يومين، ثم أتاها لِيرجِعَها إلى منزله، فوجد حُبَيشة قد زُيِّنت لأمرٍ كان في الحيّ، فازداد بها عجباً، وانصرف بأمّه في غداةٍ تمطِر، فمشى معها وجعل يقول: [من الوافر]

فما أدرِي بلى إنّي لأدري ... أصَوْبُ القَطر أَحْسَنُ أم حُبَيشُ
حُبيشة والذي خلق الهدايا ... وما إن عندها للصبِّ عيش[٣]

قال: فسمعتْ ذلك حبيشة، فتغافلت عنه، وكرهتْ قولَه، ثم مشى مَلِيًّا فإذا هو بظبي على ربوة من الأرض، فقال: [من البسيط]

يا أمَّتا خَبِّريني غيرَ كاذبةٍ ... وما يريد مَسُولُ الحق بالكذبِ
أأنت أحسنُ أم ظبيٌ برابيةٍ ... لا بل حُبيشة في عيني وفي أرَبي[٤]

قال: فزجرته أمّه، وقالت: ما أنت وهذا، أنا مزوِّجتك، بنتَ عمّك؟، فهي أجمل من تلك، وأتت امرأةَ عمِّه فأخبرتْها خَبره وقالت: زيّني ابنَتِك له، ففعلت وأدخلتْها عليه، فلما رآها أطرق، فقالت له أمّه: أيهما الآن أحسن؟ فقال: [من الطويل]

إذا غُيّبتْ عنّي حُبيشة مرّةً ... من الدهر لم أملِك عزاءً ولا صَبرَا
كأنّ الحشا حَرُّ السعير يَحُشُّه ... وقود الغضى فالقلب مضطرمٌ جَمرا[٥]

قال: وجعل يراسل الجارية وتراسله حتى علِقتْه كما علقها، وكثر قولُه الشعرَ فيها، فمن ذلك قولُه: [من الطويل]

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ = ٨٩٧ ـ ٩٦٧ م) علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني: من أئمة الأدب، والأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي، ولد في أصبهان، ونشأ وتوفي ببغداد. من كتبه «الأغاني ـ ط» واحد وعشرون جزءاً. لم يعمل في بابه مثله. (الأعلام: ٤ : ٢٧٨) والخبر في الأغاني: ٧: ٢٨٠ دار الكتب.

(٢) يَفَعَة: في أول فتوته.

(٣) رواية الأغاني: «وما عن بعدها للصب عيش».

(٤) أربي: غايتي.

(٥) حش النار: أوقدها.

حُبيشة هل جدّي وجَدّك جامعٌ ... بشملكم شَملي وأهلِكُم أهلي[(١)]

وهل أنا ملتفٌ بثوبك مرّةً ... بصحراءَ بين الأيْكَتَين إلى النّخل

ومرتشفٌ من رِيق ثغرِك مرّةً ... كراحٍ ومِسْكٍ خالَطَا عَسَلَ النّحل[(٢)]

فلما بلغ أهلَها خبرُه، حجبوها عنه مدّة، وهو يزيد غراماً بها، ويكثر قولَه الشعر فيها، فأتَوْها فقالوا لها: عِدِيه السّرحة[(٣)]، فإذا إتاكِ فقولي له: نَشدتك الله إن أحببتني فما على الأرض شيء أبغض إليّ منك، ونحن قريب نسمع ما تقولين؛ فواعدته، وجلسوا قريباً يسمعون، وجلست عند السرحة، وأقبل عبد الله لموعِدها، فلمّا دنا منها دمعتْ عينُها، والتفتت حيث أهلها جلوس، فعرف أنهم قريب، فرجع وبلغه ما أمروها به أن تقوله، فأنشأ يقول: [من الطويل]

فلو قلتِ ما قالوا لزِدْتِ جَوًى جوٍ ... على أنه لم يبق سِتر ولا صبرُ[(٤)]

ولم يك حبّي عن نوالٍ بذلته ... فيُسْلِيني عنكِ التجلّد والهجر

وما أنس مِ الأشياءِ لم أنس دمعَهَا ... ونظرتَها حتى يُغَيِّبَني القبر

قال: وبعث النبيّ ﷺ على أثر ذلك خالدَ بن الوليد إلى بني عامر، وأمره أن يدعوَهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلاّ قاتلهم، فصَحَبَهم خالد بالغُميصاء وقد علموا به وخافوه، وكانوا قد قتلوا الفاكه بنَ الوليد وعمّه الفاكه بن المغيرة في الجاهلية، فلمّا صبحهم خالد ومعه بنو سليم وهم يطلبونهم بمالك بن خالد بن صخر بن الشريد، وإخواته كُرْز وعَمرو والحارث، وكانوا قتلوهم في موطن واحد. فلما صبحهم خالد ورأوا معه بني سليم زادهم ذلك نُفوراً، فقال لهم خالد: أسلِموا، فقالوا: نحن مسلمون؛ قال: فألقوا سِلاحكم وأنزلوا، قالوا: لا والله؛ فقال لهم جِذْيَم بنُ الحارث أحد بني أَقْرم: يا قوم، لا تُلقُوا سِلاحَكم، فوالله ما بعد وضْع السلاحِ إلاّ القتل؛ قالوا: والله لا نُلقِي سِلاحنا ولا ننزل، فما نحن لك ولا لمن معك بآمنين؛ قال خالد: فلا أمان لكم؛ فنزلت فرقةٌ منهم فأسروهم، وتفرّق بقيّة القوم فرقتين، فأَصعدتْ فرقة وسفلتْ أخرى.

قال ابن دأب: فأخبرني من لا أتّهم عن عبيد الله بن أبي حَدْرَد الأسلميّ قال:

---

(١) الجد: الحظ.

(٢) الراح: الخمرة.

(٣) السرحة: نوع من الشجر الكبير. وقد يكون المقصود أن توافيه إلى هذا المكان الذي ينبت فيه هذا الشجر (اللسان ـ سرح).

(٤) الجوى: العشق، جوٍ: عاشق.

كنت يومئذ في جُند خالد، فبعثنا في إثر ظُعُنٍ[١] مُصْعدة يسوق بها فتية، فقال: أدرِكوا أولئك؛ فخرجنا في إثرهم حتى أدركناهم، فمَضوا، ووقف لنا غلام على الطريق، فلما انتهينا إليه جعل يقاتلنا ويرتجز ويقول:

أَرْخِيـنَ أطـرافَ الـذُّيـول وارتَـعـنْ مـشـي حَـيِـيّـات كـأن لـم يَـفـزعـنْ
* إن يُـمـنـع الـيـوم نـسـاء تُـمْـنَـعْـن *

فقاتلنا طويلاً، فقتلناه ومضينا، حتى لحقْنا الظّعن، فخرج إلينا غلام كأنه الأوّل، فجعل يقاتِلْنا ويقول: [من الرجز]

أقْـسِـمُ مـا إنْ خـادِرٌ ذو لِـبْـدَهْ يَـرزِم بـيـن أَيـكـة وَوَهْـدَهْ[٢]
يَـفـرِس ثُـنْـيـانَ الـرجـالِ وحـدَهْ بـأصـدقَ الـغـداةَ مـنّـي نَـجْـدَهْ[٣]

فقاتلناه حتى قتلناه، وأدركنا الظُّعُن، وإذا فيهن غلام وضيء به صُفْرة في لَوْنه كالمَنهوك[٤]، فربطناه بحبل، وقدّمناه لنقتله، فقال: هل لكم في خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بي الظعن أسفلَ الوادي ثم تقتلوني؛ قلنا: نفعل؛ فخرجنا حتى نعارض الظُّعُن بأسفل الوادي، فلمّا كان بحيث يسمعون الصوت، نادى بأعلى صوته: اِسلَمي حُبَيش، عند فقد العيش؛ فأقبلتْ إليه جاريةٌ بيضاءُ حسناء؛ فقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء، وشِدّة البلاء؛ قال: سلام عليكِ دهراً، وإن بقيت عصراً؛ فقالت: وأنتَ سلامٌ عليك عشراً، وشَفْعاً، ووَتراً، وثلاثة تَتْرَى، فقال: [من الكامل]

إنْ يـقـتـلـونـي يـا حُـبـيـش فـلَـم يَـدَعْ هـواكِ لـهـم مِـنّـي سـوى غُـلّـة الـصـدرِ
فـأنـت الّـتـي أخـلـيـتِ لـحـميَ مِـن دمِـي وعظمي وأسبلتِ الدموعَ على نحري

فقالت له: [من الطويل]

ونـحـن بـكـيـنـا مـن فـراقِـك مـرَّةً وأخرى وآسيناكَ في العسرِ واليسرِ
وأنـت فـلا تَـبْـعَـدْ فـنِـعـم فـتـى الـهـوى جـمـيـلُ الـعَـفـاف والـمـودّةِ فـي سـتـر

فقال لها: [من الطويل]

أريـتـكِ إن طـالـبـتـكـم فـوجـدتـكـم بـحَـرّة أو أدركـتُـكـم بـالـخـوانِـق[٥]

(١) الظعن: الجمال التي تحمل النساء.
(٢) الخادر: الأسد. يرزم: يرقد، يجثم.
(٣) نجدة: مساعدة، دفاعاً.
(٤) المنهوك: المرهق.
(٥) الخوانق: موضع بتهامة.

ألـم يـك حـقًّـا أن يُـنَـوَّل عـاشـقٌ   تـكـلّـفَ إدلاجَ الـسُّـرى والـوَدائـق[١]

فقالت: بلى والله، فقال: [من الطويل]

فلا ذَنب لي قَد قلتُ إذ نحن جيرةٌ   أثيبي بـودّ قبـل إحدى الصَّـفائِق[٢]

أثيبي بـودّ قبـل أن تَـشْـحَـطَ الـنّـوى   وَيَنأَى الخَليطُ بالحبيب المفارِق[٣]

قال ابن أبي حَدْرَد: فقدّمناه فضربْنا عنقَه، فاقتحمت الجارية من خِدْرها حتى أهوتْ نحوه، فالتقمتْ فاه، فنزعنا منها رأسَه، وإنها لتتبَّعُ نفسها حتى ماتت مكانَها، وأفلت من القوم غلام من بني أَقْرَم يقال له السَّمَيْدَع حتى اقتحم على رسول الله ﷺ، فأخبره ما صنع خالد وشكاه. قال ابن دَأْب: فأخبرني صالح بنُ كيسان أن رسول الله ﷺ قال: «هل أنكر عليه أحد ما صنع»؟ قال: نعم، رجل أصفر رَبْعَة[٤]، ورجل طويل أحمر؛ فقال عمر رضي الله عنه: أنا والله يا رسول الله أعرفهما، أما الأوّل فهو ابني، وأمّا الآخر فمولى أبي حُذيفة، وكان خالد قد أمر كلَّ من أَسَر أسيراً أن يقتلَه، فأَطلَقَ عبدُ الله بن عمر وسالمٌ مولى أبي خذيفة أسيرَيْن كانا معهما، فبعث رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب بعد فراغه من حُنَين، وبعث معه بإبلٍ وورِق، وأمره أن يدِيَهم، فودَاهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: قدمتُ عليهم فقلتُ لهم: هل لكم أن تقبلوا هذا بما أصيبَ منكم من القتلى والجَرْحَى، وتحلّلوا رسول الله ﷺ ممّا عَلِم وممّا لم يعلم؟ فقالوا: نعم، قال: فدفعتُه إليهم، وجعلت أديهم[٥] حتى إنّي لأدي مِيلَغَ[٦] الكلْب. وفضلتْ فضلةٌ فدفعتُها إليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أَقبِلوها»؟ قلت: نعم؛ قال: «فوالذي أنا عبدُه لذلك أحبّ إليّ من حُمر النَّعَم».

وروَى أبو الفرج أيضاً[٧] بسند رفعه إلى عمر بن شبة، قال: قالوا: يُروَى أن خالداً أتى النبيَّ ﷺ فسئِل عن غَزاته بني جذَيمة، فقال: إن أذِن رسولُ الله ﷺ تحدَّثْ، فقال: «تحدَّثْ»، فقال: لقيناهم بالغُمَيصاء بعد وجه الصبح، فقاتَلْناهم حتى كاد قَرْن الشمس يغيب، فَمَنَحنا الله عز وجل أكتافَهم، فاتبعناهم نطلبهم، فإذا غلام له ذوائبُ

---

(١) ادلاج السرى: السير ليلاً. الودائق: جمع وديقة وهي شدة الحر في الظهيرة.
(٢) الصفائق: الخطوب، واحدتها: صفيقة.
(٣) الخليط: الجماعة المتحابون.
(٤) الربعة من الرجال: الذي بين الطويل والقصير.
(٥) أديهم: ادفع الديات.
(٦) مِيلَغ: الإناء الذي يلغ فيه الكلب.
(٧) الأغاني ٧: ٨٩.

على فرس في أخريات الناس، فبوّأتُ[١] له الرمحَ فوضعتُه بين كتِفيه. فقال: لا إلٰه، فقبضتُ الرمحَ، فقالَ: إلاّ اللّات أحسنتْ أو أساءتْ، فهشمته[٢] هشمةً أرديتُه بها، ثم أخذته أسيراً، فشددته وَثاقاً، ثم كلّمته فلم يكلّمني،د واستخبرتُه فلم يخبرني؛ فلما كان ببعض الطريق رأى نسوةً من بني جَذيمة يسوق بهنّ المسلمون، فقال: يا خالد، فقلت: ما تشاء؟ فقال: هل أنت واقفي[٣] على هذه النسوة؟ فأَبيتُ، فآلى[٤] عليّ أصحابي، ففعلت، وفيهنّ جارية تدعى حُبَيشة، فقال لها: ناوليني يدك، فناوَلَتْه يدَها في ثوبها، فقال: اِسلَمي حُبيش، قبل نفاد العيش. فقالت: حُيّيتَ عَشراً، وتسعاً تَتْرَى، وثمانياً أخرى، فقال: [من الطويل]

أريتكِ إذ طالبتكم فوجدتكمْ بِنَخْلَةَ أو أدركتكمْ بالخوانِق[٥]
ألم يك حقًّا أن ينوّلَ عاشقٌ تكلّفَ إدلاجَ السُّرَى والوَدائق

فقالت: بلى، فقال: [من الطويل]

فقد قلت إذ أهلي وأهلك جيرةٌ أثيبي بوُدّ قبل إحدى الصَّفائقِ
أثيبي بودّ قبل أن تَشحَطَ النّوى وينأى الأميرُ الحبيب المُفارق
فإنيَ لا ضَيّعتُ سرَّ أمانةٍ ولا راق عيني بعد عينك رائقُ[٦]

قال خالد: فغاظني ما رأيت من غَزَله وشعرِه في حاله تلك، فقدّمته فضربت عنقَه، فأقبلت الجارية تسعى حتى أخذت برأسه فوضعتْه في حجرها، وجعلت ترشُفُه وتقول: [من الطويل]

لا تَبعدَنْ يا عمرو حيًّا وهالكاً ولا يبعدنَّ المدح مثلك من مِثلي
ولا تبعدنْ يا عمرو حيًّا وهالكاً فقد عشتَ محمودَ الثّنا ماجدَ الفِعْل
فمن لِطراد الخيل تُشْجَر بالقَنَا وللنّحر يوماً عند قَرقرة البُزْل[٧]

فما زالت تبكي وتردّد هذه الأبيات حتى ماتت، وإنّ رأسه لفي حجرها، فقال

(١) بَوّأ له الرمح: سدده.
(٢) هشمته: جذبته.
(٣) واقفي: تجعلني أطلع وأتأكد.
(٤) آلى عليَّ أصحابي: حلفوا.
(٥) نخلة: هي نخلة اليمانية.
(٦) في هذا البيت إقواء.
(٧) تشجر: تطعن. البزل: جمع بازل وهو البعير في السنة التاسعة. القرقرة: دعاء الإبل، وهي أيضاً هدير الفحل.

رسول الله ﷺ: «لقد وُقِفتَ لي يا خالد وإن سبعين مَلكاً لمطيفون بك يحضّونك على قتل عمرو حتى قتلته». والله أعلم.

ذكر غزوة حُنين، وهي إلى هوازنَ وثَقيف

غزاها رسول الله ﷺ في شوّال سنة ثمان من مُهاجَرِه. وذلك أن رسول الله ﷺ لما فتح مكّة، مشت أشراف هوَازِنَ وثَقيف بعضها إلى بعض، وحشدوا وأوعبوا[١] وبَغَوْا، وجمع أمرَهم مالكُ بن عوف النَّضْري، وهو يومئذٍ ابن ثلاثين سنة، وأمرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم حتى نزلوا بأَوْطاس[٢]، وجعلت الأمدادُ تأتيهم.

قال محمد بن إسحاق: اجتمع إليه مع هوازنَ ثقيفٌ كلُّها، ونصر، وجُشَم كلها، وسعد بكر، وناس من بني هلال، وهم قليل. قال: ولم يشهدها من قيس عيلان إلاّ هؤلاء، وغابت عنها من هوازن كعب وكلاب، ولم يشهدها منهم أحد له اسم؛ قال: وفي بني جُشَم دريد بن الصِّمّة، وهو شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التَّيَمُّن برأيه ومعرفته بالحرب. قال: وفي ثقيف سيّدان لهم في الأحلاف: قارب بن الأسود ابن مسعود بن معتّب، وفي بني مالك ذو الخمار سُبَيع بن الحارث بن مالك، وأخوه[٣].

وقال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي: كان على ثقيف كنانة ابن عبد يا ليل بن عمرو بن عُمَير الثقفيّ. قال: وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف.

قال ابن إسحاق: وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف، قال: ولما نزل مالك بأوطاس، اجتمع إليه الناس وفيهم دُرَيد بن الصِّمَّة الصِّمَّة: معاوية الأصغر بن بكر بن عَلَقة، وقيل: علقمة بن خُزاعة بن غَزيّة بن جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن، في شِجار له يقاد به ـ والشّجار الهودج ـ فلما نزل دريد قال: بأيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْم مجالُ الخيل، لا حَزْن ضِرْس، ولا سَهْل دَهْس[٤]، ثم قال: ما لي أسمعُ رغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار[٥] الشاء؟ قالوا: ساقَ مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قيل: هذا

---

(١) أوعبوا: لم يدعوا شيئاً.
(٢) أوطاس: وادٍ في بلاد هوازن.
(٣) في ابن هشام: ٤: ٨٠: «وأخوه أحمر بن الحارث».
(٤) الحزن: ما غلظ من الأرض. الضرس: الصعب من الحجارة. الدهس: المكان السهل.
(٥) يُعار الشاء: صوتها.

مالك، فقال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كان له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، قال: فَأَنْقَضَ به، ـ أي صاح ـ ثم قال: راعي ضأنٍ والله! وهل يردّ المنهزمَ شيء! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد، قال: غاب الحَدُّ والجدُّ؛ ولو كان يومَ علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددِتُ أنكم فعلتم كمَا فَعلت، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، قال ذانِكَ الجَذَعان من عامر[1] لا ينفعان ولا يضرّان، يا مالك: إنك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة[2] هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، اِدفعهم إلى متمنع بلادهم، وعُلْيَا قومهم، ثم الْقَ الصُّبّاء[3] على مُتون الخيل، فإن كانت لك لَحِق بك مَن وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك، قد أحرزت أهلكَ ومالَكَ، قال: لا والله، لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلُك، والله لتطيعُنّني يا معشر هوازن أو لأتّكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد بن الصِّمَّة فيها ذكر ورأي، قالوا: أطعناك، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتني: [من مجزوء الرجز]

يا ليتني فيها جَذَعْ ... أَخُبّ فيها وأَضَعْ[4]
أقودُ وُطْفاء الزَّمَعْ ... كأنها شاة صدعْ[5]

ثم قال مالك بن عوف للناس: إذا رأيتموهم فاكسِروا جفون سيوفِكم، ثم شدوا شَدّة رجلٍ واحد؛ قال: وبعث مالك بن عوف عُيوناً من رجاله فأتوْه وقد تفرّقت أوصالهم من الرّعْب، فقال: وَيْلكم! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بِيضاً، على خَيلٍ بُلْق، فوالله ما تماسكنا أنْ أصابنا ما ترى، فلم يردّه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

---

(١) الجَذَع: الشاب الحدث.

(٢) بيضة هوازن: أصلهم ومجتمعهم.

(٣) في الأصلين: «الظبا» تحريف. والصبا، في الأصل: جمع صابىء، وهو من خرج من دين إلى دين. وكان المشركون يسمون المسلمين بهذا. وفي اللسان في حديث هوازن: «والف الصُبَّى» (بضم الصاد وتشديد الباء المفتوحة) أي الذين يشتهون الحرب، ويميلون إليها.

(٤) الخب والوضع: ضربان من السير.

(٥) الوطفاء: الطويلة الشعر. الزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة، يريد فرساً صفتها هكذا، والمراد بالشاة: الوعل. صدع: أي وعل بين الوعلين ليس بالعظيم ولا بالحقير (الخشني).

قال ابن إسحاق: ولما سمع رسول الله ﷺ بخبرهم بعث إليهم عبد الله بن أبي حَدْرد الأسلميّ، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم عِلْمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل؛ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فأجمع رسول الله ﷺ المسيرَ إلى هوازنٍ لِقتالِهم، وذكِر له أن عند صفوان بن أمية أدْراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه وهو يومئذٍ مشرك فقال: «أعرنا سِلاحك نَلْقَ به عدوّنا»؛ فقال: أَغصْباً يا محمد؟ فقال: «بل عاريّة[1] مضمونة حتى نؤدّيها إليك»؛ قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة دِرع بما يكفيها من السلاح، ثم خرج رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لستّ ليال خلون من شَوّال في اثني عشر ألفاً من المسلمين: عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح بهم مكة، وألفان من أهل مكة.

قال الثعلبيّ: قال مقاتِل: كانوا أحد عشرة ألفاً وخمسمائة.

وقال الكلبيّ: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذٍ أكثر ما كانوا قطّ، فقال رسول الله ﷺ: «لن نُغلب اليومَ مِن قِلّة»، حكاه ابن إسحاق.

وقال محمد بن سعد: قال ذلك أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، قال الثعلبيّ: ويقال: بل قال ذلك رجل من المسلمين يقال له: سلمة بن سلامة.

قال ابن سعد: وخرج مع رسول الله ﷺ ناس من المشركين كثير، منهم صفوان ابن أمية.

قال محمد بن إسحاق بسند يرفعه إلى الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حديثو عهدٍ بالجاهلية، وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب سِدْرةٌ[2] عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة يعلّقون أسلحَتهم عليها، ويذبحون عندها ويعكُفون عليها يوماً؛ قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سِدْرة خضراءَ عظيمة، فتنادينا من جَنَبات الطريق: يا رسول الله، اِجعلْ لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال: «الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إنها السُّنَن، لتركبن سَنَنَ، من كان قبلكم»، قالوا: وانتهى رسول الله ﷺ إلى حُنَينٍ مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوّال، فلما كان من الليل عَمَد مالكُ بنُ عوف إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين، وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حَملةً واحدة، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه في السّحَر، وصفّهم صُفوفاً، ووضع الألوِية

---

(١) عارية: مستعارة.

(٢) السدرة: شجرة النبق.

والرايات في أهلها مع المهاجرين: لواء يحمله عليّ بن أبي طالب، وراية يحملها سعد بن أبي وقّاص، وراية يحملها عمر بن الخطّاب، ولواء الخزرج يحمله حُباب بن المنذرِ ـ ويقال: سعد بن عبادة ـ ولواء الأوس مع أُسيد بن حُضَير، وفي كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم مسمًّى، وكذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها قوم منهم مسمَّوْن، وكان رسول الله ﷺ قد قدم سُلَيْماً من يوم خرج من مكة، واستعمل عليهم خالد بن الوليد، فلم يزل على المقدّمة حتى قدِم الجِعِرَّانة، قال: وانحدر رسول الله ﷺ في وادي حنين على تعبئته، وركب بغلته البيضاء «دُلْدُل»، ولبس دِرعين والمِغْفَر والبيضة، فاستقبلهم من هوازن شيء لم يَرَوْا مِثْله قطّ من السواد والكثرة، وذلك في غَبَش[١] الصبح وخرجت الكتائب من مضيق الوادي وسعتِه، فحملوا حملة، وانكشفت الخيل خيل بني سليم مولّية، وتبعهم الناس منهزمين، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، وجعل يقول: يا أنصار الله وأنصار رسوله، أنا عبد الله ورسوله، وثبت معه يومئذٍ أبو بكر، وعمر، والعباس بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان واسمه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن أمّ أيمن بن عبيد في أناسٍ من أهل بيته وأصحابه.

قال الكلبيّ: كان حول رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلثمائة من المسلمين، وانهزم سائر الناس عنه، وجعل رسول الله ﷺ يقول للعباس: نادِ، يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرة[٢]، يا أصحاب سورة البقرة، فنادى ـ وكان صيّتاً[٣] ـ فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حَنَتْ على أولادها يقولون: يا لبّيك يا لبّيْك! فحملوا على المشركِين، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم فقال: «الآن حَمِيَ الوَطِيس[٤]»: [من مجزوء الرجز]

أنا النبيُّ لا كَذِبْ ... أنا ابنُ عبد المطّلبْ

ثم قال للعباس بن عبد المطلب: ناولني حَصَيات، فناوله حصيات من الأرض، ثم قال: «شاهت الوجوه» ورمى بها وجوه المشركين، وقال: «انهزموا وربّ الكعبة»، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وانهزموا لا يَلوِي أحد منهم على أحد.

قال محمد بن إسحاق: لما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من

---

(١) غبش الصبح: ظلمة آخر الليل، وفي ابن هشام: «عماية الصبح».
(٢) السَّمُرة: شجرة الطلح، وهي التي كان عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.
(٣) صَيّتاً: قوي الصوت.
(٤) الوطيس: التنور يخبز فيه. وقيل: هو حجارة توقد العرب تحتها النار ويشوون فيها اللحم.

جُفاة مكّة الهزيمة، تكلّم رجال بما في أنفسهم من الضّغْن[١]، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وأن الأزلام[٢] لمعه في كنانته، وصرخ جَبَلَة بن الحَنْبَل وهو مع أخيه صفوان بن أمية: ألا بَطَل السّحْرُ اليوم! فقال له صفوان: أُسكت فَضّ الله فاك! فوالله لأن يَرُبّني[٣] رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يَرُبّني رجل من هوازن؛ وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة[٤]: اليوم أُدرِك ثأري من محمد ـ وكان أبوه قتل يوم أُحد ـ اليوم أقتل محمداً. قال: فبادرت لأقتله، فأقبل شيء حتى غَشّى فؤادي، فلم أُطق ذلك، فعلمت أنه ممنوع منّي.

وفي رواية أخرى، قال شيبة بن عثمان: استدبرت رسول الله ﷺ يوم حنينٍ وأنا أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان، وعثمان بن طلحة، فأطلعَ الله رسولَه على ما في نفسي، فالتفتَ إليّ وضرب في صدري وقال: «أعيذك بالله يا شَيبة»، فأُرعدتْ فرائصي، فنظرت إليه وهو أحبّ إليّ مِن سمعي وبصري فقلت: أشهد أنك رسول الله ﷺ، وأنّ الله أطلعك على ما في نفسي.

وروى محمد بن إسحاق بسنده إلى العبّاس قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخِذٌ بحَكَمةِ[٥] بغلتِه البيضاء وقد شَجرتها[٦] بها، وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت، ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: «أين أيها الناس»، فلم أر الناس يَلْوُون على شيء، فقال: «يا عباس، اصرخ، يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السَّمُرة» قال: فأجابوا لبّيك لبّيك، قال: فيذهب الرجل لِيثني بعيره فلا يقدِر على ذلك، ويأخذ دِرعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله، فيؤمّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا؛ فأشرف رسولُ الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مُجتلد[٧] القوم، فقال: «الآن حَمِيَ الوَطِيس».

---

(١) الضّغن: الحقد.

(٢) الأزلام: السهام التي يستقسم العرب بها.

(٣) يربني: يكون رباً لي، أي مالكاً علي.

(٤) شيبة بن عثمان: (... ـ ٥٩ هـ = ... ـ ٦٧٩ م) شيبة بن عثمان بن أبي طلحة القرشي، من بني عبد الدار: صحابي من أهل مكة. أسلم يوم الفتح. وكان حاجب الكعبة في الجاهلية. ورث حجابتها عن آبائه، وأقره النبي ﷺ على ذلك، ولا يزال بنوه حجابها إلى اليوم. (الأعلام: ٣: ١٨١).

(٥) الحَكَمَة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه.

(٦) شجرتها بها: أي وضعتها في شجرها، وهو مجتمع اللحيين.

(٧) مجتلد القوم: مكان جلادهم بالسيوف.

قال جابرُ بن عبد الله: فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناسِ من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: والتفت رسول الله ﷺ فرأى أمّ سليم ابنة مِلْحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة، وهي حازمة وسطها ببُرد لها، وإنها لحامِل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جَمَل أبي طلحة، فقال رسول الله ﷺ: «أمّ سليم»؟ قالت: نعم، بأبي وأمّي يا رسول الله! أُقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل؛ فقال رسول الله ﷺ «أو يكفي الله يا أمّ سليم»؟ قال: ومعها خِنْجَر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أمَّ سُلَيم؟ قالت: خنجرٌ أخذتُه إن دنا منّي أحد من المشركين بعَجْتُه[١] به.

وقال محمّد بنُ إسحاق: حدّثني أبي إسحاق بن يسار أنه حدّث عن جُبير بن مُطعِم قال: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مِثل البِجادِ[٢] الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرتُ، فإذا نملٌ أسودُ مبثوث قد ملأ الوادي، لم أشكَّ أنها الملائكة، ولم تكن إلاّ هزيمة القوم.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكَرَ بعضُهم بأَوْطاس، وتوجّه بعضهم نحو نَخلة[٣]، وتَبعتْ خيلُ رسول الله ﷺ مَن سَلَك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سَلَك الثَّنايا، فأدرك ربيعةُ بنُ رُفَيع بن أُهْبان ـ وهو ابن الدُّغُنَّة ـ دُرَيْدَ بن الصِّمّة وهو في شجارٍ له أي هَوْدج، فأخذ بخِطَام[٤] جَمَلِه وهو يظنّ أنه امرأة، فأناخ به، فإذا هو شيخ كبير والغلام لا يعرفه، فقال له دُرَيْد: ما تريد بي؟ قال: أقتلك؛ قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بنُ رُفَيع السُّلَميّ، ثم ضربه بسيفه فلم يُغن فيه شيئاً، فقال: بئس ما سلّحَتْك أمُّك! خذ سيفي هذا من مُؤخر الرَّحْل في الشِّجار، ثم اضرب به، وارفع عن العِظام، واخفض عن الدِّماغ، فإنّي كذلك كنتُ أضرِبُ الرجال، ثم إذا أتيتَ أمّك فأخبِرها أنك قتلتَ دُرَيدَ بنَ الصِّمة، فرُبَّ واللّهِ يوم قد منعتُ فيه نساءَك؛ فقتَلَه، ولمّا رجع ربيعة إلى أمّه أخبرَهَا بقتله إيّاه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمّهات لك ثلاثاً.

قال ابن هشام: ويقال أن الذي قَتَل دُرَيْد بنَ الصِّمّة هو عبد الله بن قُنَيْع بن

---

(١) بعج بطنه: شقه.

(٢) البجاد: الكساء، وجمعه: بُجُد بضمتين.

(٣) يريد نخلة اليمامة.

(٤) الخطام: الحبل الذي يقاد به البعير.

أُهْبان بن ثعلبة بن ربيعة؛ قال: وبعَثَ رسولُ الله في آثار من توجّه قبَل أَوْطاس أبا عامر الأشعريّ، فأدركَ بعضَ من انهزم، فناوَشوه القتال، فقَتَلَ منهم أبو عامر تسعةً مُبارزَةً وهو يدعو كلّ واحد منهم إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد؛ ثم برز له العاشر مُعلَماً بعمامة صفراء، فضرب أبا عامر فقتله. واستخلف أبو عامر أبا موسى الأشعريّ[1]، فقاتلهم حتى فتح الله عليه، وقُتل قاتل أبي عامر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لأبي عامر واجعله من أعلى أمّتي في الجنّة»، ودعا لأبي موسى.

وقال ابن هشام في خبر أبي عامر: إنه قتل تسعةً مبارزة يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فيقتله أبو عامر، وبقي العاشر، فحمل كلٌّ منهما على صاحبه، فدعاه أبو عامر إلى الإسلام وقال: اللهم اشهد عليه، فقال الرجل: اللهم لا تشهد عليّ، فكفّ عنه أبو عامر، فأفلت، ثم أسلم بعدُ فحسنَ إسلامه، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: «هذا شَرِيد أبي عامر»، ورَمَى أبا عامر أخوان: العلاء وَأَوْفَى ابنا الحارث من بني جُشم بن معاوية، فأصاب أحدهما قلبه. والآخر ركبته، فقتلاه، ووَليَ الناسَ أبو موسى فحمل عليهما فقتلهما.

وقال أبو الفرج الأصفهاني: إن الذي رمى أبا عامر فأصاب ركبته هو سَلَمة ابن دريد[2] بن الصِّمَّة. وإنه ارتجز فقال:

إنْ تَسْأَلوا عنّي فإنّي سلمهْ ... اِبنُ سَمَادِيرَ[3] لمن توسّمهْ

* أضربُ بالسيف رءوسَ المُسْلِمهْ *

قال: وخرج مالك بن عوفٍ عند الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثَنيّةٍ من الطريق، وقال لأصحابه: قفوا حتى تمضي ضعفاؤُكم وتلحق أخراكم، فوقف حتى مضى من لحق بهم من منهزِمة الناس.

قال ابن هشام: وبلغني أنّ خيلاً طلعتْ ومالكٌ وأصحابُه على الثنيّة، فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قوماً واضعِي رماحهم بين آذان خيلهم، طويلة بوَادّهم[4] فقال: هؤلاء بنو سُليم، ولا بأس عليكم منهم؛ فلمّا أقبلوا سلكوا بطن

---

(١) أبو موسى الأشعري: (٢١ ق هـ ٤٤ هـ = ٦٠٢ ـ ٦٦٥ م) عبد الله بن قيس بن سليم. أبو موسى، من بني الأشعر من قحطان، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين. وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد باليمن، وفد مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم وهاجر إلى أرض الحبشة. توفي بالكوفة. (الأعلام: ٤: ١١٤).

(٢) في كلا الأصلين: «زيد».

(٣) سمادير: امرأة دريد بن الصِّمة.

(٤) البوادّ: جمع باد، وهو باطن الفخذ.

الوادي، ثم طلعت خيلٌ أخرى تتبعها، فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قوماً عارضي رِماحهم أغفالاً[١] على خيلهم، فقال هؤلاء الأوس والخزرج، ولا بأس عليكم منهم؛ فلما انتهوا إلى أصل الثنيّة سلكوا طريق بني سُليم، ثم طلع فارس فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى فارساً طويل البادّ واضعاً رمحَه على عاتقه، عاصباً رأسَهُ بملاءةٍ حَمْراء، فقال: هذا الزبير بن العوّام، وأحلِف باللات ليخالطنّكم، فاثبُتوا له، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية، أبصر القومَ فصمَد لهم، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها.

قالوا: ولما انهزم القوم أمر رسول الله ﷺ بقتل من قُدِر عليه، فَحنِق المسلمون عليهم؛ فقتلوا الذرّيّة والنساء، فمرّ رسول الله ﷺ يومئذٍ بامرأة قد قتلها خالد بنُ الوليد، فقال: «ما هذه»؟ قالوا: امرأة قتلها خالد بنُ الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه: «أدرِك خالد بنَ الوليد فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة»؛ وأنزل الله تعالى في يوم حُنين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥ـ ٢٦].

قال الثعلبيّ: قال سعيد بن جُبير: أمدّ الله تعالى نبيّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مُسوِّمين[٢].

وقال الحسن ومجاهد: كانوا ثمانية آلاف.

وقال الحسن: كانوا ستة عشر ألفاً؛ قال سعيد بن جبير: حدثني رجل كان في المشركين يوم حُنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقِفوا لنا جَلْبةَ شاة، فلمّا كشفناهم جعلنا نسُوقهم، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة الشُّهْباء ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ فتلقّانا رجال بِيض الثياب حِسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه، ارجعوا فرجعنا، وركبوا أكتافنا، فكانت إيّاها. يعني الملائكة.

قال: وفي الخبر أن رجلاً من بني نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البُلْق، والرجال عليهم ثياب بِيض؟ ما كنا نراكم فيهم إلاّ كهيئة الشامة، وما كان قَتْلنا إلاّ بأيديهم، فأخبروا النبي ﷺ بذلك فقال: «تلك الملائكة».

وقال محمد بن سعد: كان سِيما الملائكة يوم حنين عمائِم حمر قد أرْخَوْها بين أكتافهم.

---

(١) الأغفال: جمع غفل، وهو الذي لا علامة له، يريد أنهم لم يعلموا أنفسهم بشيء يعرفون به.

(٢) مسومين: معلمين.

قال ابن إسحاق: واستُشهِد من المسلمين يوم حُنين من بني هاشم أَيْمَن بن عُبيد، ومن بني أسد يزيد بن زمعة بنِ الأسود، ومن الأنصار سراقة بن الحارث بن عدِيّ، ومن الأشعريين أبو عامر.

وقال ابن سعد: ورُقَيْم بن ثعلبة بن زيد بن لَوْذان، واستحرّ القتل في بني نصر ابن معاوية، ثم في بني رئاب، فقال عبد الله بن قيس، وكان مسلماً. هلكت بنو رئاب، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجبر مصيبتهم». قال: وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال، فجُمِعتْ وحُدِرت إلى الجِعرانة، وعليها مسعود بن عمرو الغِفاريّ، فوقف بها بالجعرانة حتى انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف وهم في حظائرهم يستظلّون بها من الشمس، ثم قسمها ﷺ بعد ذلك، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر سرية الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسيّ[1] إلى ذي الكَفَّيْن

بعثه رسول الله ﷺ في شوّال سنة ثمانٍ عند منصرَفه من غزوة حُنينٍ، وتوجُّهِه إلى الطائف ليهدم ذا الكَفَّين صنم عمرو بن حُممة الدَّوْسِيّ، وأمره أن يستمدّ قومه ويأتيَه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكَفَّين وجعل يَحُشُّ النار في وجهه ويقول: [من الرجز]

يا ذا الكَفَّين لستُ من عبّادكا ميلادنا أقدم من ميلادِكا

* إني حَشَشْتُ[2] النارَ في فؤادكا *

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً، فوافَوا رسول الله ﷺ بالطائف بعد مَقدَمِه بأربعة أيام، وقدم الطفيل معه بدَبّابةٍ[3] ومَنْجَنِيق.

ذكرُ غزوة الطائف

غزاها رسول الله ﷺ في شوّال سنة ثمانٍ من مُهاجَرِه، وذلك أنه لمّا انهزمت هوازن وثَقيفٌ يوم حُنين، وجمِعت السبايا والغنائم، سار رسول الله ﷺ من حنينٍ يريد

---

(١) الطفيل الدَّوسي: (. . . ـ ١١هـ = . . . ـ ٦٣٣ م) الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص الدوسي الأزدي. صحابي من الأشراف، في الجاهلية والإسلام. كان شاعراً، غنياً، كثير الضيافة، مطاعاً في قومه. استشهد في اليمامة. (الأعلام: ٣: ٢٢٧).

(٢) حش النار: أوقدها.

(٣) الدبابة: آلة تتخذ في الحروب يدخل في جوفها الرجال، ثم تدفع في أصل الحصن. فينقبونه وهم في جوفها.

الطائف، وقدّم خالدَ بن الوليد على مقدّمته، وقد كانت ثقيف رَمُّوا[١] حِصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة، فلما انهزموا من أَوْطاس، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيؤوا للقتال، وسار رسول الله ﷺ وسلك على نخلة اليمانيّة، ثم على قَرْن، ثم على المُلَيح، ثم على بُحْرة الرُّغاء من لِيَة[٢]، فابتَنَى بها مسجداً يُصَلِّي فيه.

قال ابن إسحاق: وأقاد[٣] رسول الله ﷺ يومئذٍ ببحرة الرّغاء حين نزلها بدم، وهو أوّل دم أقيدَ به في الإسلام رجل من بني أَسَد قتل رجلاً من هُذَيل، فقُتل به؛ قال: وأمر رسول الله ﷺ وهو بِلِيّةَ بحصنِ مالك بنِ عوف، فهدِم، ثم سلك في طريق يقال لها: الضَّيْقَة، فسأل عن اسمِها. فقال: «ما اسم هذه الطريق»؟ فقالوا: الضَّيْقَة، فقال: «بل هي اليسرى»، ثم خرج منها على نَخِب[٤] حتى نزل تحت سِدْرة[٥] يقال لها: الصادرة، قريباً من مالِ رجل من ثقيف، فأرسل إليه رسولُ الله ﷺ، يقول: «إمّا أن تخرج وإمّا أن نخرّب عليك حائطك»؛ فأبى أن يخرج، فأمر رسول الله ﷺ بإخراجه؛ ثم مضى حتى نزل قريباً من حِصن الطائف وعسكر هناك، فَرَمَوْا المسلمِين بالنّبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً.

قال ابن إسحاق: وهم سعيد بن سعيد بن العاص، وعُرْفُطة بن جناب، حليف لهم من أسد بن الغوث.

وعبد الله بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما، رُمي فاندمل جُرحُه، ثم انتقَضَ[٦] بعد ذلك فماتَ منه في خلافة أبيه.

ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة.

ومن بني كعب عبد الله بن عامر بن ربيعة، حليف لهم.

ومن بني سعد بن ليث جليحة بن عبد الله.

ومن الأنصار ثابت بن الجِذْع، والحارث بن سهل بن أبي صعصعة، والمنذر بن عبد الله، ورُقَيم بن ثابت بن ثعلبة الأوسيّ.

قال: فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضِع مسجدِ الطائف اليوم، وكان معه ﷺ من

---

(١) رموا حصنهم: أعادوه إلى وضعه الجيد.
(٢) أسماء مواضع بالطائف.
(٣) أقاد: القود: قتل القاتل مقابل القتيل.
(٤) نَخِب: وادٍ بالطائف.
(٥) السدْرة: نوع من الشجر.
(٦) انتقض: يقال: انتقض الجرح: إذا فسد.

نسائه أم سَلمة وزينب، فضرب لهما قُبَّتَين، وحاصرهم رسول الله ﷺ ثمانية عشر يوماً، ويقال: خمسة عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق، ورَمَى عليهم به، وأهل الطائف أوّل من رُمي بالمنجنيق في الإسلام.

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشَّدْخة(١) دخل نفر من المسلمين تحت دبّابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليَخرِقوه، فأرسلتْ عليهم ثقِيف سِككَ الحديد مُحماةً بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنَّبل، فقتِل منهم رجال، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعاً ذرِيعاً، ثم سألوه أن يَدَعها لِلّه وللرحم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أدعُها لله وللرَّحِم»، ونادى منادِي رسولِ الله ﷺ: «أيّما عبدٍ نزل من الحصنِ وخرج إلينا فهو حرّ»؛ فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم: أبو بَكْرة، فأعتقهم رسولُ الله ﷺ، ودفع كلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يَمُونه، فشقّ ذلك على أهل الطائف، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، فاستشار نوفَل بن معاوية الدِّيليّ، فقال: «ما ترى»؟ فقال: ثعلبٌ في جُحر، إن أقمتَ عليه أخذتَه، وإن تركتَه لم يضررك.

قال محمد بن إسحاق: وبلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «يا أبا بكر، إني رأيت أنّي أُهدِيتْ لي قَعْبَةٌ مملوءةٌ زُبْداً، فنقرها دِيك فهَراقَ ما فيها»، فقال أبو بكر: ما أظنّ أن تُدرِك منهم يومك هذا ما تريد؛ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أرى ذلك».

قال: ثم إن خُوَيْلة بنت حكيم بن أميّة السُلَميّة، وهي امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله، [أعطِني](٢) إن فتح الله عليك الطائفَ حُليَّ بادية بنت غَيْلان بن سلمة، أو حُلِيَّ الفارعة بنت عُقَيل، وكانتا من أحلى نساءِ قريش. قال: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال لها: «وإن كان لا يؤذن لي في ثقيفٍ يا خُوَيلة»؟ فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فدخل على رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حديث حدَّثَتْنِيه خويلة فزعمتْ أنك قد قلته؟ قال: «قد قُلْتُه». قال: أو ما أذِن فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»، قال: أفلا أؤذَن بالرحيل؟ قال: «بلى»، قال: فأذّن عمر في الناس بالرحيل، فضجّ الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم تفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال»؛ فغَدَوا، فأصابت المسلمين

(١) يوم الشَّدخة: سمي يوم الشدخة، لما شدخ فيه من الناس. والشدخ: كسر كل شيءٍ أجوف (المواهب: ٣: ٣٧).

(٢) التكملة عن ابن هشام: ٤: ١٢٧.

جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون إن شاء الله»؛ فسرّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرتحلون ورسول الله ﷺ يضحك، وقال لهم: «قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»؛ فلما ارتحلوا واستقلوا قال: «قولوا آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»؛ وقيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ادعُ على ثقيف؛ فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وأتِ بهم».

ذكر مسير رسول الله ﷺ إلى الجِعرانة وقسم مغانم حُنين، وما أعطاه المؤلَّفة

قال ابن إسحاق: ولمّا انصرف رسول الله ﷺ من الطائف رجع إلى الجِعْرانة فانتهى إليها ليلة الخميس لثلاثٍ خلون من ذي القعدة، فأقام بها ثلاثة عشر يوماً، وقسم الفيءَ.

قال محمد بن سعد: كان السَّبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، والوَرِق أربعة آلاف أوقية فضّة، فاستأْنَى[1] رسول الله ﷺ بالسَّبْي أن يقدم عليه وفدهم، وبدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم أوّل الناس.

قالوا: فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل. قال: وابني يزيد؟ قال: «أعطوه أربعين أوقيّة ومائة من الإبل»؛ قال: وابني معاوية؟ فأعطاه أربعين أوقيةً ومائةً من الإبل، وأعطى حكيم بنَ حزام مائةً من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها، وأعطى النُّضَير بنَ الحارث بنِ علقمة بنِ كَلَدَة مائةً من الإبل، وأَعطى أَسِيدَ بنَ جارية الثَّقَفِيَّ مائةً من الإبل، وأعطى العَلاء ابن جارية الثقفيّ خمسين بعيراً، وأعطى مَخرَمة بن نوفل خمسين بعيراً، وأعطى الحارث بن هشام مائةً من الإبل، وأعطى سعيد بنَ يربوع خمسين من الإبل، وأعطى صفوان بنَ أميّة مائةً من الإبل، وأعطى قيس بنَ عديّ مائة من الإبل، وأَعطى عثمانَ بن وهب خمسين من الإبل، وأَعطى سُهيل بنَ عمرو مائةً من الإبل، وأعطى حُوَيطِب بنَ عبد العُزَّى مائةً من الإبل، وأَعطى هشامَ بنَ عمرو العامريَّ خمسين من الإبل، وأعطى الأقرعَ بنَ حابس التميميَّ مائةً من الإبل، وأَعطى عُيينة بن حصن مائةً من الإبل، وأعطى مالك بنَ عوف مائةً من الإبل، وأعطى العبّاس بنَ مِرْداس[2] أربعين من الإبل، وقيل: أربعة، فقال في ذلك: [من المتقارب]

---

(١) استأنى: انتظر.

(٢) العباس بن مرداس: (. . . ـ نحو ١٨ هـ = . . . ـ ٦٣٩ م) العباس بن مرداس بن أبي عامر =

كانت نِهاباً تلافيتُها بكَرِّي على المُهْرِ في الأَجْرَعِ[١]
وإيقاظيَ القومَ أن يَرقدوا إذا هجَعَ الناسُ لم أَهجَعِ
فأصبَحَ نَهْبِي ونَهْب العُبَيْـ ـدِ بين عُيَيْنة والأقرعَ[٢]
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَإٍ فلم أُعطَ شيئاً ولم أمنَعِ[٣]
ألاّ أَفائلَ أُعطِيتُها عديدَ قوائمها الأربعِ[٤]
وما كان حِصنٌ ولا حابِسٌ يفوقان مِرْدَاسَ في المَجْمَعِ[٥]
وما كنتُ دون امرىءٍ منهما ومن تَضعِ اليومِ لا يُرفعِ

فقال رسول الله ﷺ: «اقطعوا عني لسانَه»، فأَعطَوْه حتى رضي، قيل: أعطاه مائةً من الإبل.

قال ابن سعد: أَعطى رسولَ الله ﷺ ذلك كلَّه من الخُمس، وهو أثبت الأقاويل عندنا، ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم، ثم فَضّها[٦] على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل، وأربعون شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل، أو عشرين ومائة شاة، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد.

ذكر قدوم وفد هوازِن على رسول الله ﷺ وإسلامهم وردّ السبايا إليهم

قال: وقدِم وفد هوازن على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسُهم زُهَير بن صُرَد[٧]، وفيهم أبو بُرْقان، عمّ رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يمنّ عليهم بالسّبي.

= السلمي، من مضر، أبو الهيثم: شاعر فارس، من سادات قومه. أمه الخنساء الشاعرة. أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم قبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم وكان بدوياً قحاً لم يسكن مكة ولا المدينة، وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه. وكان ممن ذم الخمر وحرمها في الجاهلية. ومات في خلافة عمر. (الأعلام: ٣: ٢٦٧).

(١) النهاب: جمع نهب، وهو ما ينهب ويغنم. الأجرع: المكان السهل.

(٢) العُبيد: اسم فرس عباس بن مرداس.

(٣) ذا تُدْرإٍ: ذا دفع عن قومي.

(٤) الأفائل: الصغار من الإبل، الواحد: أفيل.

(٥) يعني أباه مرداساً.

(٦) فضّ: يقال: فضّ الشيء على القوم: إذا فرّقه وقسمه.

(٧) زهير بن صُرد: زهير بن صرد السعدي الجشمي أبو جرول. ويقال: أبو صرد. راجع الإصابة في تمييز الصحابة: ١: ٥٥٣ رقم الترجمة ٢٨٢٦.

قال ابن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن عمرو: إنّ وفد هوازنَ وفدوا على رسول الله ﷺ وقد أسلَموا، فقالوا: يا رسول الله، إنّا أصلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فامننْ علينا.

قال وقام رجل من هوازن، أحد بني سعد بن بكر يقال له: زهير، يُكنّى بأبي صُرَد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر[١] عمّاتُك، وخالاتك وحواضنك اللآتي كنّ معك يكفلنك، ولو أنا مَلَحْنَا[٢] للحارث بن أبي شمِر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمِثل الذي نزلتَ به، رجونا عطفَه وعائدَته علينا، وأنت خير المكفولين.

وحكى أبو عمر بنُ عبد البرّ أن أبا صُرَد زهير بن صرد أنشد عند ذلك: [من البسيط]

أُمنُنْ علينا رسولَ الله في كرمٍ ... فإنّك المرءُ نرجوه وننتظِرُ
أُمننْ على بَيْضَةٍ قد عاقها قَدَرٌ ... ممزّق شملها، في دهرها غِيَرُ[٣]
يا خير طِفلٍ ومولودٍ ومنتجَبٍ ... في العالمين إذا ما حصّل البَشَرُ
إن لم تَداركهم نَعماء تنشُرها ... يا أرجح حِلماً حين يُختبرُ
فامنن على نسوة قد كنت تَرضَعها ... إذ فُوك يملؤه من مَحضها دِرَرُ[٤]
إذ كنت طفلاً صغيراً ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تَذَرُ
لا تجعلنّا كمن شالت نَعامتُه ... واستبقِ مِنّا فإنّا معشر زُهُرُ[٥]
يا خير من مَرِحت كُمْتُ الجِياد به ... عند الهِياج إذا ما استوقد الشررُ
إنا لنشكر آلاءً وإن كُفِرتْ ... وعندنا بعد هذا اليوم مدَّخَرُ
إنا نؤمِّل عفواً منك تلبسه ... هذِي البريّة إذ تعفو وتنتصرُ
فاغفر عفا الله عما أنت واهبه ... يوم القيامة إذ يُهدَى لك الظَّفَرُ

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم»؟ فقالوا: يا رسول الله، خيّرتَنا بين أموالِنا وأحسابنا، فردّ إلينا أبناءنا ونساءنا

---

(١) الحظائر: جمع حظيرة وهي الزرب الذي يصنع للإبل والغنم ليكفها.
(٢) ملحنا: يقال: ملحنا لفلان أي أرضعناه (اللسان: ملح).
(٣) البيضة هنا: مجتمع الناس، الغير: المصائب.
(٤) إشارة إلى حليمة السعدية، مرضعة الرسول ﷺ.
(٥) يقال: شالت نعامتهم: إذا ماتوا وتفرقوا، كأنهم لم يبق منهم إلا بقية. والنعامة: الجماعة انظر (اللسان: شول).

فهو أحبّ إلينا؛ فقال لهم: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صلّيت الظهر فقوموا فقولوا: إنا نستشفِع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا؛ فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم»، ففعلوا ما أمرهم به، فقال: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلّب فهو لكم»، وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ؛ وقالت الأنصار مثلَ ذلك؛ فقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حِصن: أمّا أنا وبنو فَزارة فلا، وقال عباس بن مِرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال: يقول عباس لبني سليم: وَهَّنْتُموني[1]؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت بسبْيهم، وخيّرتهم فلم يَعدِلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده منهم فطابت نفسُه أن يردَّه فسبيل ذلك، ومن أبى فليردّ عليهم، وليكن ذلك قرضاً علينا، فله بكل إنسان ستّ فرائض من أوّل ما يُفيء الله علينا»، قالوا: رَضينا وسلّمنا، فرَدّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلّف منهم أحد غير عُيَينة بن حِصن، فإنّه أبى أن يردّ عجوزاً صارت في يده منهم، ثم ردّها بعد ذلك.

وقد حكى محمد بن إسحاق سببَ تمسّك عيينة بها وردّها، قال: فقال حين أخَذَها: أرى عجوزاً إني لأحسب لها في الحيّ نسباً، وعسى أن يعظم فِداؤها؛ فلما ردّ الناس السَّبايا بستّ فرائض أبى أن يرُدّها، فقال له زهير بن صُرد: خذها عنك، فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديُها بناهِد، ولا بطنُها بوالد، ولا زوجُها بواجِد ولا دَرُّها[2] بماكِد؛ فردّها بستّ فرائضَ حين قال له زهير ما قال. وكان رسول الله ﷺ قد كسا السبيَ قُبْطيّة قُبْطيّة، والقَباطي: ثياب بيض تُتّخذ من الكتّان بمصر.

وحكى محمد بن سعد في طبقاته الكبرى في ترجمة عيينة بن حِصن في هذِه القصة قال: لمّا قدم وفدُ هَوازن على رسول الله ﷺ، وردّ عليهم السبي، كان عيينة قد أخذ رأساً منهم، فنظر إلى عجوزٍ كبيرة، فقال: هذه أمّ الحيّ، لعلّهم أن يُغلُوا بفدائها، وعسى أن يكون لها في الحيّ نسب. فجاء ابنها إلى عيينة فقال: هل لك في مائةٍ من الإبل؟ قال: لا، فرجع عنه، فتركه ساعة، وجعلت العجوز تقول لابنها: ما إربُك[3] فيّ بعد مائةِ ناقةٍ، أُتركه فما أسرع ما يتركني بغير فداء؛ فلما سمِعها عيينة قال: ما رأيت كاليوم خدعة، والله ما أنا مِن هذه إلا في غرور؛ ولا جرم والله لأبعِدنّ أثرك منّي؛ قال: ثم مرّ ابنها فقال له عيينة: هل لك فيما دعوتني إليه؟؛ فقال: لا أزيدك

(١) وهنتموني: أضعفتموني.
(٢) الدَّر: اللبن. الماكد: الغزير.
(٣) إربك فيَّ: حاجتك بي.

على خمسين؛ فقال عيينة: لا أفعل، ثم لبث ساعة، فمرّ به وهو معرِض عنه، فقال له عيينة: هل لك في الذي بذلت لي؟، قال له الفتى: لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة؛ قال عيينة: والله لا أفعل، فلما تخوّف عيينة أن يتفرّق الناس ويرتحلوا قال: هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت؟: فقال الفتى: هل لك إلى عشر فرائض؟ قال: لا أفعل؛ فلما رحل الناس ناداه عيينة: هل لك إلى ما دعوتني إليه إن شئت؟؛ قال الفتى: أرسلْها وأحمدُك، قال: لا والله ما لي حاجة بحمدك؛ فأقبل عيينة على نفسه لائماً لها ويقول: ما رأيتُ كاليوم أمراً أنكد، قال الفَتى: أنت صنعتِ هذا بنفسك، عمدتَ إلى عجوز كبيرةٍ، والله ما ثديُها بناهد، ولا بطنُها بوالد، ولا فُوها ببارد، ولا صاحبُها بواجد، فأخذَتها من بين من ترى؛ فقال له عُيينة: خذها لا بارك الله لك فيها؛ قال: فيقول الفتى: يا عيينة، إن رسول الله ﷺ قد كسا السبيَ فأخطأها من بينهم الكسوة، فهل أنت كاسيها ثوباً؟ قال: لا والله ما لَها ذاك عندي، قال: لا تفعل، فما فارقه حتى أخذ منه سَمَل ثوبٍ(١). ثم ولّى الفتى وهو يقول: إنك لغَير بصيرٍ بالفَرْض، قال: وكان رسول الله ﷺ قد كسا السبي قُبْطِيّة قُبْطِيّة، والقَباطي: ثياب بِيض تُتّخذ من الكتّان بمصر.

قال محمد بن إسحاق: وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بنِ عوفٍ ما فعل(٢)؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف؛ فقال: «أخبروا مالكاً إن هو أتاني مسلماً رددتُ إليه أهله وماله، وأعطيته مائةً من الإبل»، فأخبر بذلك. فخرج من الطائف فأدرك رسول الله ﷺ بالجعرانة أو بمكّة، فردّ عليه أهلَه وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. وقال حين أسلم منشِداً: [من الكامل]

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمِثلِه ... في الناس كلِّهمُ بمثل محمَّد
أَوفَى وأَعطَى للجزيل إذا اجْتُدِي ... ومتى تشأ يخبرْك عمّا في غدِ
وإذا الكَتِيبةُ عَرَّدتْ أنيابها ... بالسَّمْهَرِيِّ وضَربِ كلِّ مهنَّدِ(٣)
فكأنه ليثٌ على أشباله ... وَسْط الهَباءَة خادِرٌ في مَرْصَدِ(٤)

---

(١) سمل ثوب: الثوب القديم.
(٢) مالك بن عوف: (... ـ نحو ٢٠ هـ = ... ـ نحو ٦٤٠ م) مالك بن عوف بن سعد بن يربوع النصري من هوازن: صحابي من أهل الطائف. كان رئيس المشركين يوم حنين... ثم أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم، وشهد القادسية وفتح دمشق وكان شاعراً رفيع القدر في قومه. راجع: (الأعلام: ٥: ٢٦٤).
(٣) السمهري: الرمح. المهند: السيف الهندي.
(٤) الهباءة: الغبار يثور عند اشتداد الحرب. الخادر: الأسد في عرينه، وهو حينئذٍ أشد ما يكون بأساً لخوفه على أشباله، يصفه بالقوة. المرصد: المكان يرقب منه، يصفه باليقظة.

فاستَعمَلَه رسولُ الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل: ثُمالة، وسلمة، وفَهْم، فكان يقاتِل بهم ثقيفاً؛ لا يخرج لهم سَرْحٌ[1] إلا أغار عليه، حتى ضَيّق عليهم، فقال أبو مِحْجَن بنُ حبيب بن عمرو الثقفيّ[2] في ذلك: [من المديد]

هابت الأعداءُ جانبَنا ثم تغزُونا بنو سَلِمَهْ
وأتانا مالِكٌ بِهِم ناقِضاً للعهد والحُرُمَه
وأتَوْنا في منازلنا ولقد كنّا أولي نَقِمَه

ذكر تسمية من بايع رسول الله ﷺ من قريش وغيرها عند قسم مغانِم حنين

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله: بايع رسول الله ﷺ من قريش وغيرهم وأعطاهم يوم الجِعرانة من غنائم حنين: أبو سفيان بن حرب، ومعاوية بن أبي سفيان، وطُلَيق بنُ سفيان بن أميّة، وخالد بن أَسِيد بن أبي العِيص[3]، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وأبو السنابل بن بَعكَك بن الحارث، وعكرمة بن عامر بن هاشم، وزهير بن أبي أميّة بن المغيرة، والحارث بن هشام بن المغيرة، وخالد بن هشام بن المغيرة، وهشام بن الوليد بن المغيرة، وسفيان بن عبد الأسد بن عبد الله، والسائب بن أبي السائب بن عائذ، ومطيع بن الأسود بن حارثة بن نَضْلة، وأبو جَهْم بن حُذَيفة بن غانم، العَدويّان، وصفوان بن أميّة بن خلف الجُمَحيّ، وأُحَيحة بن أميّة بن خلف، وعُمَير بنُ وهب بن خلف، وعديّ بن قيس بن حُذافة السَّهْمِي، وحُوَيْطِب بنُ عبد العُزّى، وهشام بن عمرو بن ربيعة، ونوفل بن معاوية بن عروة بن صخر الدِّيلي، وعلقمة بنُ عُلاثة بن عوف، ولَبيد بن ربيعة بن مالك، وخالد بن هَوْذة بن ربيعة بن عمرو بن عامر، وحرمة بن هَوْذة بن ربيعة، ومالك بن عوف بن سعيد بن يربوع، وعبّاس بن مِرداس السُّلَميّ وعيينة بنِ حصن بن حذيفة بن بدر الفزاريّ، والأقرع بن حابس بن عقال المُجاشعيّ.

---

(١) السرح: المال السائم.

(٢) أبو محجن الثقفي: (. . . ـ ٣٠ هـ = . . . ـ ٦٥٠ م) عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير أبو عوف: أحد الأبطال الكرماء في الجاهلية والإسلام. أسلم سنة ٩ هـ وروى عدة أحاديث. توفي بأذربيجان أو بجرجان. (الأعلام: ٥: ٧٦).

(٣) كذا في ابن هشام: ٤: ١٣٧ والاستيعاب. والذي في الأصلين: «العاص».

ذكر مقالة الأنصار في أمر قسم الفَيءِ، وما أجابهم به رسولُ الله ﷺ، ورَضّاهم به

قال ابن إسحاق بسند يرفعه إلى أبي سعيد الخُدْرِيّ[١] رضي الله عنه أنه قال: لما أَعطَى رسول الله ﷺ ما أَعطَى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدوا[٢] في أنفسهم حتى كثرتْ بهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسولُ الله قومَه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحيّ من الأنصار قد وجَدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أَصبتَ؛ قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلاّ من قومي؛ قال: «فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة»، فخرج سعد فجمعهم فيها، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحَمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتْني عنكم، وجِدةٌ وجَدْتُموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءاً فألّف الله بين قلوبكم»! قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل ثم قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟»، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لِلّه ولِرسوله المنّ والفضل، قال رسول الله ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم: أتينا مكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسِكم مِن لُعاعةٍ[٣] من الدنيا تألفتُ بها قوماً لِيُسْلِموا، ووكلتُكُم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رِحالكم! فوالذي نفس محمدٍ بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلكت الناسُ شِعباً[٤] وسلكت الأنصارُ شِعباً لسلكتُ شِعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناءِ الأنصار»؛ قال: فبكى القوم حتّى أخضلوا[٥] لِحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظًّا؛ ثم انصرف رسول

---

(١) أبو سعيد الخدري: (١٠ ق هـ ٧٤ هـ = ٦١٣ - ٦٩٣ م) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ. وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثنتي عشرة غزوة. توفي في المدينة. (الأعلام: ٣: ٨٧).

(٢) وَجَد: حنق.

(٣) اللعاعة: الجرعة من الماء يريد الشيء اليسير.

(٤) الشعب: الطريق بين الجبلين.

(٥) أخضلوا: أي بلوها بدموعهم.

الله ﷺ وتفرّقوا، ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمِراً، وذلك ليلة الأربعاء لثنتي عشرة ليلةً مضت من ذي القعدة؛ فأحرم بعُمرة، ودخل مكّة فطاف وسعى وحلق رأسه، ورجع إلى الجِعرانة من ليلته.

ذكر استِخلافِ رسول الله ﷺ عتّابَ بنَ أَسِيد[1] على مكّة ورجوعِه إلى المدينة

قال محمد بن إسحاق: ولما فرغ رسول الله ﷺ من عُمرته استَخلف عتّاب بن أَسِيد على مكّة، وخلّف معه مُعَاذَ بنَ جَبَل يفقّه الناس في الدّين ويعلّمهم القرآن.

قال ابن هشام: لما استَعمل رسولُ الله ﷺ عتّاب بنَ أَسِيد على مكة رَزَقه كلّ يومٍ درهماً، فقام فخطب الناس فقال: أيها الناس، أجاع الله كبِد من جاع على دِرهمٍ، قدْ رزقني رسول الله ﷺ درهماً كلّ يوم، فليست بي حاجةٌ إلى أحد.

قال: وحجّ عتّاب بالناس في سنةِ ثمانٍ على ما كانت العرب تحجّ عليه.

قال ابن سعد: ولما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة سلك في وادي الجِعرانة، حتى خرج على سَرف[2]، ثم أخذ الطريق إلى مَرّ الظَّهْران[3]، ثم إلى المدينة، فقدِمها ﷺ في بقية ذي القعدة أو في أوّل ذي الحجّة.

قال ابن هشام: لستٍّ بقين من ذي القعدة. والله أعلم.

ذكر سريّة عُيَيْنَةَ بنِ حِصْن الفزاريّ إلى بني تميم

بعثه رسول الله ﷺ في المحرم سنة تسع من مُهاجَرِه إلى بني تميم في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مهاجريّ ولا أنصاريّ، وكان يسير الليل ويَكمَنُ النهار، فهجم عليهم في صحراء ـ وكانوا فيما بين السُّقْيا وأرض بني تميم، وقد حلّوا وسرّحوا ماشِيتهم، فلما رأوا الجمع ولّوا ـ وأَخَذَ منهم أحد عشر رجلاً؛ ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًّا، فجلبهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ فحُبِسوا في دار رملة بنت الحارث، فقدِم فيهم عدّة من رؤسائهم: عُطارِد بن حاجب،

---

(١) عتاب بن أسيد: (١٣ ق هـ ـ ١٣ هـ = ٦١٠ ـ ٦٣٤ م) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمٰن: والٍ أموي، قرشي مكي، من الصحابة، كان شجاعاً، عاقلاً من أشراف العرب في صدر الإسلام. أسلم يوم فتح مكة. مات يوم مات أبو بكر. (الأعلام: ٤: ١٩٩).

(٢) سَرِف: موضع على ستة أميال من مكة (ياقوت).

(٣) مر الظّهران: موضع على مرحلة من مكة.

والزِّبْرِقان بن بدر، وقيس بنُ عاصم، ورَباح بنُ الحارث بن مجاشِع، والأقرع بنِ حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، وربيعة بن رُفَيع، وسَبْرة بنُ عمرو، والقَعْقاع بنُ معبد، ووردان بن مُحرِز، ومالك بن عمرو، وفِراس بن حابس، وكان من شأنِهم وكلام خطيبهم وشاعرهم ما نذكر ذلك في أخبارهم في وفادات العرب إن شاء الله تعالى، وذلك في السفر السادس عشر من كتابِنا هذا من هذه النسخة(١).

قال: وردّ عليهم رسولُ الله ﷺ الأسرى والسّبي.

قال ابن إسحاق: وكان ممّن قُتل يومئذٍ من بني العنبر: عبد الله وأخوان له: بنو وهب، وشدّاد بن فراس، وحنظلة بن دارِم، وكان ممّن سبي يومئذٍ أسماءُ بنتُ مالك، وكأس بنت أريّ، ونَجْوة بنت نَهْد، وجُميعة بنت قيس، وعَمْرة بنت مطر.

ذكر خبر الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط(٢) مع بني المُصْطَلق

قال محمد بن سعد: بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خُزاعة يُصدِّقهم، وكانوا قد أسلموا وبَنوا المساجد، فلما سمعوا بدنوّ الوليد خرج منهم عشرون رجلاً يتلقّونه بالجَزور والغنم فرحاً به، فلما رآهم ولّى راجعاً إلى المدينة، فأخبر رسول الله ﷺ أنهم لَقُوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصّدقة، فهمّ رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وبلغ ذلك القوم، فقدِم الرَّكْب الّذين لقُوا الوليد إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر على وجهه، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦]، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القُرآن، وبعث معهم عبّاد بن بِشر يأخذ صدقاتِ أموالهم، ويعلّمهم شرائعَ الإسلام، ويقرئهم القرآن، ففعل، وأقام عندهم عشراً، ثم انصرف إلى المدينة.

ذكر سريّة قُطْبة بن عامر بن حديدة إلى خَثْعَم

بعثه رسول الله ﷺ في صفر سنة تسعٍ من مُهاجَرِه إلى حيّ من خثعم بناحية تَبالة

---

(١) من تجزئة المؤلف، ويوافق ج ١٨: ٣٢ (طبع الدار).

(٢) الوليد بن عقبة: (... - ٦١ هـ = ... - ٦٨٠ م) الوليد بن عقبة بن أبي معيط. أبو وهب، الأموي، القرشي، والٍ من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم فيه ظرف ومجون ولهو. وهو أخ عثمان بن عفان لأمه أسلم يوم فتح مكة. ولاه عثمان الكوفة سنة ٢٥ هـ. فشهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر، فعزله، وحده وحبسه. ولما قتل عثمان، اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية. مات بالرقة. (الأعلام: ٨: ١٢٢).

في عشرين رجلاً، وأمره أن يشُنّ الغارة عليهم، فخرجوا على عشرة أبعرةٍ يعتقبونها، فأخذوا رجلاً، فسألوه فاستعجم عليهم، وجعل يصيح بالحاضر ويحذّرهم، فضربوا عنقَه، ثم امهلوا حتى نام الحاضر، فشنّوا عليهم الغارة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وساق المسلمون النَّعَم والشاءَ والنساءَ إلى المدينة وجاء سيلٌ فحالَ بينهم وبين قطبة؛ فما يجدون إليه سبيلاً، وكانت سِهامهم بعد الخمس لكلّ رجل أربعة أبعِرة يُعدَل بعشرة من الغنم.

ذكر سريّة الضحّاك بن سُفْيان الكلابيّ(١) إلى بني كلاب

كانت في شهر ربيع الأوّل سنة تسع من الهجرة.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى القُرْطاء(٢) عليهم الضحّاك بن سفيان بن عوف الكلابيّ، ومعه الأَصْيَدَ بن سلمة بن قُرْط، فلَقُوهم بالزُّج(٣)، زُجّ لاوَة، فدعَوْهم إلى الإسلام فأبَوا، فقاتَلوهم فهزِمُوا، فلحِق الأصيد أباه سلمة، وسلمة على فرس له في غدير الزُّجّ، فدعا أباه إلى الإسلام، وأعطاه الأمان، فسبّه وسبَّ دِينه، فضرب الأصيدُ عُرقوبَي فرسِ أبيه، فلمّا وقع الفرسُ على عُرْقوبيه ارتكز سلمة رمحَه في الماء، ثم استَمسك به، حتى جاءه أحدُهم فقتَلَه، ولم يقتله ابنُه، وفي هذه السريّة وفي الضحّاك بن سفيانَ يقول عبّاس بنُ مِرْداس: [من الكامل]

إن الـذّيـن وفَـوا بـمـا عـاهـدتَـهـمْ ... جيشٌ بـعـثـتَ عـلـيـهـمُ الـضّـحّـاكَـا

أمّــرْتَــه ذَرِبَ الــلِّــســان كــأنــه ... لــمّــا تــكــنَّــفــه الــعــدوّ يــراكــا(٤)

طَـوْراً يُـعـانِـق بـالـيَـدَيْـن وتـارةً ... يَـفْـرِي الـجَـمـاجـمَ صارِماً بَـتّـاكـا(٥)

ذكر سريّة عَلْقمةَ بن مُجزِّز المُدْلِجيّ(٦) إلى الحَبشة

كانت هذه السريّة في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة، وذلك أنّ رسول

---

(١) الضحاك الكلابي: (. . . ـ ١١ هـ = . . . ـ ٦٣٢ م) الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب الكلابي، أبو سعيد، شجاع صحابي، اتخذه النبي ﷺ سيفاً فكان يقوم على رأسه متوشحاً بسيفه. قيل: استشهد في قتال أهل الردة من بني سليم راجع (الأعلام: ٣: ٢١٤).

(٢) القرطاء: بطن من بني بكر، واسمه عبيد بن كلاب.

(٣) زج ولادة: موضع بنجد.

(٤) في ابن هشام: ٤: ١٠٣: «رجل به ذرب السلاح».

(٥) البتاك: البتاك والفتاك بمعنى واحد.

(٦) علقمة بن مُجزِّز: (. . . ـ ٢٠ هـ = . . . ـ ٦٤١ م) علقمة بن مجزز بن الأعور الكناني المدلجي: =

الله ﷺ بلغه أنّ ناساً من الحبشة تراآهم أهلُ جُدّة، فبعث إليهم علقَمةَ بنَ مجزِّز في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر وقد خاض إليهم، فهربوا منه، فلمّا رجع تعجل[1] بعض القوم إلى أهليهم، فأذن لهم، وفيهم عبد الله بن حُذافة السَّهْميّ، فأمّره علقمة على من تعجّل، وكانت فيه دُعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يَصْطَلون عليها، فقال لهم: عزمتُ عليكم إلاّ تَواثبتم في هذه النار، فقام بعض القوم حتى ظُنَّ أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا، إنما كنتُ أضحك معكم؛ فذَكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «مَن أمَرَكم بمعصية فلا تطيعوه».

ذكر سريّة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفُلْس صنم طيّىء

بعثه رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة تسع في خمسين ومائة رجل من الأنصار إلى الفُلْس (صنم طيّىء) ليهدمه ـ (والفُلْس بضمّ الفاء وسكون اللام) ـ بعثهم على مائةِ بعير وخمسين فرساً، ومعه رايةٌ سوداء ولواءٌ أبيض، فشَنّوا الغارة على محلّة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفُلس وخرّبوه ومَلأوا أيديَهم من السَّبي والنَّعَم والشاء، وفي السبي أخت عديّ بن حاتم، وهرب عديّ إلى الشام؛ وكان من خبره ما نذكره إن شاء الله في أخبار الوفود. قال: ووجدوا في خِزانة الفلس ثلاثة أسياف: رَسُول، والمِخْذَم، واليمان، ؛ وثلاثة أدرُع، فلمّا نزلوا رَكَك[2] اقتسموا الغنائم، وعزل لرسول الله ﷺ صَفِيّه[3]: رَسوب، والمُخذَم، ثم صار له بعدُ السيفُ الآخر، وعزل الخُمس وَعَزل آل حاتم فلم يقسمهم، حتى قدِم بهم المدينةَ على رسول الله ﷺ.

ذكر سريّة عُكاشة بن مِحْصَن الأَسَديّ إلى الجِناب

بعثه رسول الله ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة تسع من مُهاجَرِه إلى الجِناب، أرضِ عُذْرة وبَلِيّ، ولم يذكر ابنُ سعد من خبره غير ذلك.

ذكر غَزْوة تَبوك

كانت غزوة تبوك في شهر رجب ستة تسعٍ من مهاجَرِ رسول الله ﷺ، وكان سببها

= قائد من الصحابة، شهد اليرموك، وحضر الجابية. مات غريقاً في طريقه إلى الحبشة غازياً على رأس جيش بعثه به عمر. (الأعلام: ٤: ٢٤٨).

(١) أرادوا الرجوع قبل بقية الجيش.

(٢) ركك: (بالتحريك): محلة من محالّ سلمى أحد جبلي طيء.

(٣) صفية: الصفي: ما يأخذه الرئيس لنفسه من الفيء قبل القسمة.

أنّ رسول الله ﷺ بلغه أنّ الروم قد جمعتْ جموعاً كثيرةً بالشام، وأنّ هِرَقْل قد رَزَق أصحابَه لِسنة، وأجلبتْ معه لَخْم، وجُذام، وعامِلة، وغَسّان، وقدّموا مقدماتهم إلى البَلْقاء، فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم المكانَ الذي يريد ليتأهّبوا لذلك، وبعث إلى مكّة وإلى قبائل العرب يستنفِرُهم، وذلك في حرّ شديد، وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقاتٍ كثيرة، وقَوُوا في سبيل الله.

قال ابن هشام: أنفق عثمان بنُ عفّان رضي الله عنه في جيش العُسْرة في غزوة تَبوك ألفَ دينار، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمانَ فإنّي عنه راضٍ».

وجاء البكّاءون وهم سبعة: سالم بن عُمَير، وهَرَميّ بن عبد الله أخو بني واقف، وعُلْبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمٰن بن كعب المازنيّ، وعمرو بنَ عَنمة، وسلمة بن صخر، والعِرباض بن سارية الفزاريّ.

قال: وفي بعض الرُّواة من يقول: إنّ فيهم عبد الله بن مغفَّل المُزَنيّ، ومعقل ابن يسار، وبعضهم يقول: البكاءون بنو مقرِّن السبعة، وهم من مزينة، فأتوا رسولَ الله ﷺ يستحمِلونه، فقال: «لا أجِد ما أحمِلكم عليهِ»؛ فتولوا وأعينهم تفِيض من الدمعِ ألاّ يجِدوا ما ينفِقون، فعذرهم الله تعالى.

قال: وبلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سُوَيلم اليهوديّ، يثبّطون الناسَ عن رسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ إليهم طلحة بنَ عبيد الله في نفرٍ من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضّحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرتْ رِجلُه، واقتحم أصحابه فأفلتوا، فقال الضحّاك في ذلك: [من الكامل]

كادت وبيتِ الله نارُ محمّدِ يَشِيطُ بها الضحّاك وابن أبَيرِق
فَظِلْتُ وقد طبّقتُ كِبْسَ سويلم أنوءُ على رِجلي كَسيراً ومِرْفَقي(١)
سلامٌ عليكمْ لا أعود لمِثلِها أخاف، ومن تَشْمَل به النارُ يُحرَقِ

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله ﷺ في التخلّف من غير عِلّة، فأذن لهم، وهم بضعة وثمانون رجلاً.

وَجاءَ الْمُعذِّرُون مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لهم، فاعتَذَروا إليه، فلم يعذِرهم، وهم اثنان وثمانون رجلاً؛ ذكر أنهم نفر من بني غِفار، وكان عبد الله بن أبيّ بنِ سَلول قد عسكر على ثَنِيّة الوَداع في حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلّ

(١) طبقت: علوت. الكبس: البيت الصغير.

العسكرين، وكان رسول الله ﷺ يستخلف على عسكره أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه، فصلّى بالناس، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة، فلمّا سار رسول الله ﷺ تخلّف عبد الله بنُ أُبيّ، ومن كان معه، وتخلّف نفر من المسلمين من غير شكّ ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، وهلال بنُ أميّة، ومُرارة بنُ الرّبيع، وأبو خيثمة مالك بنُ قيس السَّالِميّ، وأبو ذرّ الغِفاريّ؛ وأمر رسول الله ﷺ كلَّ بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتّخذوا لواءً أو راية، ومضى ﷺ لوجهِه يسير بأصحابه حتى قدم تَبوك في ثلاثين ألفاً من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، فأقام بها عشرين ليلة يصلّي ركعتين ركعتين، ولحقه بها أبو خيثمة وأبو ذرّ.

قال محمد بن إسحاق في سبب مسيرِ أبي خيثمة إلى رسول الله ﷺ: إنه جاء يوماً إلى أهله بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أيّاماً في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عَرِيشَين(١) لهما في حائطه، قد رَشّتْ كلُّ واحدة منهما عَرِيشَها وبرّدتْ له فيه ماء، وهيّأتْ طعاماً، فلمّا دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسولُ الله في الضِّحِّ(٢) والرّيح والحرّ، وأبو خيثمة في ظلّ بارد، وطعامٍ مهيّأ، وامرأةٍ حسناء، في مالِه مقيم، ما هذا بالنَّصف!، ثم قال: والله لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فَهَيِّئا لي زاداً، فَفَعَلتا، ثم قدّم ناضحَه(٣) فارتحَلَه، ثم خرج في طلب رسولِ الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

قال: ولمّا دنا مِن رسول الله ﷺ قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبِل؛ فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة؛ فلمّا أناخ أقبل فسلّم على رسول الله ﷺ فقال له: «أَوْلَى لك يا أبا خيثمة»!، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال: خيراً ودعا له.

وأمّا أبو ذرّ الغِفاريّ، فإنه أدرك رسول الله ﷺ في أثناء الطريق، وكان بعيرُه قد أبطأ عليه، فحمل متاعه على ظهره، ثم خرج يَتْبَع أثَر رسول الله ﷺ حتّى أدركَه، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذرّ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه» فكان كذلك.

قال: وقدم رسول الله ﷺ تبوك وهِرقل يومئذٍ بحمص، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر.

---

(١) العريش: شبيه بالخيمة. الحائط: بمعنى البستان.
(٢) الضح: الشمس.
(٣) الناضح: البعير يستقى عليه. ارتحله: شد عليه الرحل.

ذكر سرية خالد بنِ الوليد إلى أُكَيْدِر بن عبد الملك[(١)]

قالوا: بعث رسولُ الله ﷺ بتبوك خالدَ بن الوليد في أربعمائةٍ وعشرين فارساً سَرِيَّةً إلى أكيدِر بنِ عبد الملك بدُومة الجَندل، وأكيدِر مِن كِندة، قد مَلَكهم، وكان نصرانياً، فقال رسول الله ﷺ لخالد بنِ الوليد: «إنك ستجِده يصيد البقر». فخرج خالدٌ في شهر رجبَ سنة تسع من الهجرة حتى كان مِن حِصن أكيدِر بمنظَر العين في ليلة مقمِرة وصائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحكّ بقرونها بابَ القصر، فقالت له امرأته: ما رأيتُ مِثلَ هذا قط؟ قال: لا والله؛ قالت: فمن يترك هذا؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأُسرِج له، وركب وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ له يقال له: حسّان، وخرجوا لمطاردة البقر، فلما خرجوا تلقّتْهم خيلُ رسول الله ﷺ، فشدّت عليه، فاستأسر أكيدر، وامتنع أخوه حسان، وقاتل حتى قتل، وكان عليه قَباء[(٢)] من ديباج مخوَّص[(٣)] بالذهب، فاسْتَلَبه خالد، وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، فجعل المسلمون يلمِسونه بأيديهم، ويتعجّبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون مِن هذا؟ فوَالذي نفسي بيده لمنَادِيل سعدِ بن مُعاذٍ في الجنة أحسن من هذا». قال: ولما أسِر أكيدِر وقتِل حسان، هرب من كان معهما، فدخل الحصن، وأجاز خالدٌ أكيدَر من القتل حتى يأتيَ به رسولَ الله ﷺ على أن يفتح له دُومة الجَنْدل، ففعل، وصالَحه على ألفي بعير، وثمانمائة فَرَس، وأربعمائة دِرع وأربعمائة رمح، فعزل للنبي ﷺ صَفيًّا خالِصاً، ثم أخرج الخُمس، وقسم ما بقِي بين أصحابه، ثم خرج خالدٌ بأكيدر وبأخيه مُصاد ـ وكان في الحصن ـ وبما صَالَحه عليه قافلاً إلى المدينة، فقدِم على رسولِ الله ﷺ بأكيدر، فأهدى له هديّة، وصالَحه على الجِزْية، وحَقَنَ دمَه، ثم خلّى سبيله، فرجع إلى قريتِه، فقال بُجير بن بَجْرة[(٤)]: [من الوافر]

تبارك سائقُ البَقَرات إنّي ... رأيتُ الله يهدِي كلَّ هاد

---

(١) أُكيدر بن عبد الملك: (. . . ـ ١٢ هـ = ... ـ ٦٣٣ م) أكيدر بن عبد الملك الكندي: ملك دومة الجندل (الجوف) في الجاهلية. له حصن وثيق. قيل أسلم. ولما قبض رسول الله ﷺ نقض أكيدر العهد. فأمر أبو بكر خالداً أن يسير إليه، فقصده خالد وقتله وفتح دومة الجندل. (الأعلام: ٢ : ٦).

(٢) القباء: نوع من الثياب.

(٣) التخويص بالذهب: التخويص بالذهب: أن يجعل للشيء صفائح من الذهب على قدر عرض خوص النخل وفي صورته.

(٤) بجير بن بَجْرة: بجير بن بجرة (بفتح أوله وسكون الجيم) الطائي. له في قتال أهل الردة آثار وأشعار ذكرها ابن سحاق. وذكر أنه استشهد بالقادسية انظر (الإصابة في تمييز الصحابة: ١ ـ ١٣٨، رقم الترجمة ٥٨٩).

فمن يك حائداً عن ذي تبوكٍ   فإنّا قد أُمرنا بالجهادِ

قال محمد بن إسحاق: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوكَ أتاه يُحَنّة بن رؤبة صاحب أَيْلة[1]، فصالح رسولَ الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهلُ جَرْباء[2]، وأذرُح[3]، فأَعْطَوه الجِزية، وكتب رسولُ الله ﷺ ليُحَنَّة كتاباً، وهو: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذه أَمَنَة[4] مِن الله ومحمدِ النبيّ رسولِ الله ليُحَنّة بنِ رؤبة وأهلِ أَيْلَة؛ سُفُنهم وسيّارتهم في البر والبحر، ولهم ذِمَّة الله ومحمدِ النبيّ، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنّه لا يَحول ماله دُون نفسه، وإنه طيّب لِمن أخذه من الناس، وإنه لا يَحلّ أن يُمنَعُوا ماءً يردونه، ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر».

قال: وكان رسول الله ﷺ قد استعمل على حرَسِه بتبوكَ عبّاد بن بشر، ثم انصرف رسول الله ﷺ ولم يَلْقَ كيداً.

وقدِم المدينة في شهر رمضان من السنة وجاءه من كان قد تخلّف عنه، فحلفوا له، فعذرهم، واستغفَرَ لهم، وأرجأ أمرَ كعب بنِ مالك وصاحبيه، حتى نزلتْ توبتُهم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله في آخر هذه الغزوة.

قال: وجعل المسلمون يبيعون أسلحَتهم ويقولون: قد انقطع الجهاد، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فنهاهم، وقال: «لا تزال عِصابةٌ من أمّتي يجاهدون على الحقّ حتى يخرج الدجّال».

وكان في غزوة تبوك وقائع غير ما قدّمناه، قد رأينا إيرادَها في هذا الموضع. منها خبر مرور رسول الله ﷺ بالحِجْر.

ومنها ما أُنْزِلَ في أمر المنافقين.

ومنها خبر الثلاثة الّذين خُلِّفوا، وما أنزل من توبتهم.

ذكر خبرِ مرورِ رسولِ الله ﷺ بالحجْر وما قاله لأصحابه

قال محمد بن إسحاق: لمّا مرّ رسول الله ﷺ في سفره إلى تبوك بالحِجْر من مَدْيَن، نزلها واستقى الناس من بئرها، فلمّا راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من

---

(١) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام.
(٢) جَرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام (ياقوت).
(٣) أذرح: بلد من أعمال الشراة من نواحي البلقاء (ياقوت).
(٤) أَمَنَة: عهد.

مائها شيئاً، ولا يُتوضأ منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه للأبل ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنْ أحد منكم الليلة إلاّ ومعه صاحب له»، ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ، إلاّ أنّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيرٍ له، فأما الّذي ذهب لحاجته فإنه خُنِقَ على مَذْهبِه[١]؛ وأما الذي ذهب في طلب بعيرِه فاحتملتْه الرِّيح حتى طرحتْه بجبلِ طيىء، وأخبر رسولُ الله ﷺ بذلك فقال: «ألم أنهكم ألاّ يخرجَ منكم أحد إلاّ ومعه صاحبُه»! ثم دعا للّذي أصيب[٢] فشُفِي، وأمّا الآخر فإن طيّئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

قال ابن هشام: بلغني عن الزُهريّ أنه قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر سَجَّى[٣] ثوبَه على وجهِه، واستَحثَّ راحلته، ثم قال: «لا تَدخلوا بيوتَ الّذين ظلموا إلاّ وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مِثل ما أصابهم».

قال ابن إسحاق: لمّا أصبح الناسُ ولا ماءَ معهم شكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا، فأرسل الله تعالى سحابةً فأمطرتْ حتّى ارتوى الناس واحتملوا حاجتَهم من الماء.

وفي هذه الغزوة ضلّت ناقة رسولِ الله ﷺ، وقال زيد بنُ لُصَيْب[٤] ما قال، وأُخبِر رسولُ الله ﷺ بما قال: فأَخْبر بشأنها ووُجِدت كما وَصَف ﷺ على ما قدّمنا ذلك في أخبار المنافِقين.

ذكر أخبار المنافِقين وما تكلموا به في غزوة تَبوك وما أنزل الله عز وجل فيهم من القرآن

كان ممّن أَنزل الله عزّ وجلّ فيه من القرآن ما أَنزل في غزوة تبوك الجدّ بن قيس، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ: ائذن لي ولا تفْتِنّي؛ وقد تقدّم خبره مع أخبار المنافِقين.

وقال قوم منهم: لا تنْفِروا في الحرّ زهادةً في الجهاد، فأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٢]، وقال رهط من المنافقين: منهم

(١) خنق: صرح. المذهب: هنا، الموضع الذي يقضي فيه المرء حاجته.

(٢) عبارة الزرقاني: ٣: ٨٧: «ثم دعا للذي خنق على مذهبه».

(٣) سجّى: غطى ثوبه، وضمنه معنى وضع فقال: على وجهه.

(٤) ويقال فيه: «اللصيت» بالتاء. والخبر في ابن هشام: ٤: ١٦٦.

وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ورجل من أشجع، حليف لبني سلمة يقال له: مُخَشّ بنُ حُمَير - وقيل: مَخْشِيٌّ - وغيرهما بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضِهم بعضاً، والله لكأنكم غداً بهم مقرّنين في الجبال، يقولون ذلك إرجافاً[1] وترهيباً للمؤمنين.

فقال مَخْشي: والله لودِدت أن أقاضيَ على أن يضرب كلّ رجل منّا مائة جلدة، وأنا ننفلِت أو ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه؛ فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر[2]: «أدرِكْ القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل لهم: بلى قد قلتم كذا وكذا»، فانطلق إليهم عمّار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. وقال مَخْشي: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]. فكان مَخْشِيّ بن حمير ممن عفِي عنه، فتسمى عبد الرحمٰن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة، ولم يوجد له أثر. والله الموفق للصواب.

ذكر خبرِ الثلاثةِ الذين خُلّفوا، وما أنزِل فيهم وفي المعذِّرين من الأعراب

والثلاثة الذين خُلِّفوا لم يتخلّفوا عن شكّ ولا نِفاق، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكان من خبرهم ما حدّثنا به الشيخان المعمَّران المسندان شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب نعمة الصالحيّ الحجّار، وست الوزراء أمّ محمد وزيرة بنت القاضي شمس الدين عمر بن أسعد بن المنجي التَّنوخيّة الدِّمشْقيّان قراءةً عليهما، وأنا أسمع في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وسبعمائة بالمدرسة المنصورية بالقاهرة المعزّيّة، قالا: حدّثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدي، قال: حدَّثنا أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السِّجْزي قراءةً عليه ونحن نسمع، قال: حدّثنا الشيخ أبو الحسن عبد

---

(١) إرجافاً: تهويلاً.

(٢) عمار بن ياسر: (٥٧ ق هـ - ٣٧ هـ = ٥٦٧ - ٦٥٧ م) عمار بن ياسر بن عامر الكناني. أبو اليقظان: صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي. وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به: هاجر إلى المدينة وشهد بدراً والخندق وبيعة الرضوان. وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام. شهد الجمل وصفين مع علي وقتل في الثانية وعمره ثلاث وتسعون سنة. (الأعلام: ٥: ٣٦).

الرحمٰن بن محمد بن المظفر الداوديّ، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمّويه السَّرَخْسِيّ، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفَرَبْرِيّ، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاريّ، قال: حدّثنا يحيى بن بكير، قال: حدّثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أنّ عبد الله بن كعب بن مالك، ـ وكان قائد كعبٍ من بنيه حين عَمِيَ ـ قال: سمعتُ كعب بنَ مالك(١) يحدّث حين تخلّف عن قصّة تبوك قال كعب: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلّفت في غزوة بدر، ولَم يعاتبْ أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد؛ ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدرَ أذكَرَ في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قطّ أقوى ولا أيسَر منّي حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله يريد غزوةً إلاّ ورّى(٢) بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سَفَراً بعيداً ومفازاً(٣) وعَدوّاً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبةَ غَزوِهم، فأخبرهم بوجهِه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان.

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّبَ إلاّ ظنّ أنّه سيَخفَى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحي الله عزّ وجلّ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال، وتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فَطَفِقت أغدو لكي أتجهّزَ معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى شَمَّرَ بالناس بالجِدّ. فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز، ورجعت

---

(١) كعب بن مالك: (. . . ـ ٥٠ هـ = . . . ـ ٦٧٠ م) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري، السَلَمي الخزرجي: صحابي من أكابر الشعراء. من أهل المدينة. اشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي، وشهد أكثر الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان. ولما قتل عثمان قعد عن نصرة علي فلم يشهد حروبه. وعمي في آخر عمره وعاش سبعاً وسبعين سنة راجع. (الأعلام: ٥: ٢٢٨).

(٢) ورّى: أوهم.

(٣) المفازة: الأرض التي لا يسكنها إنسان.

فلم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت، ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفرّط[١] الغزو، وهممت أن أرتحل فأدرِكهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم أحزنني أنّي لا أرى إلاّ رجلاً مغموصاً[٢] عليه بالنفاق، أو رجلاً ممّن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب»؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرْداه ونظرُه في عِطفيه[٣]. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله، ما علمتُ عليه إلاّ خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني هَمّي، وطفِقت أتذكّر الكَذِب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطه غداً، واستعنت على ذلك بكل ذي رأيٍ من أهلي، فلما قيل إنّ رسول الله ﷺ قد أظل[٤] قادماً راح عني الباطل، وعرفت أنّي لم أخرج منه أبداً بشيء فيه كذِب، فأجمعت صِدقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدِم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم يجلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفِقوا يعتذرون إليه ويحلِفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم، واستغفر لهم، وَوَكَل سرائرَهم إلى الله، فجئته، فلما سلّمت عليه تبسّم تبسّمَ المغضَب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ فقلت: بلى واللّهِ، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سَخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جدَلا[٥]، ولكنّي والله لقد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عنّي ليوشِكن اللّهُ أن يُسخطك عليّ، ولئن حدّثتك حديث صدقٍ تجد[٦] عليّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، لا والله ما كان لي من عذر، واللّهِ ما كنت قطّ أقوى ولا أيسَر منّي حين تخلّفت عنك؛ فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضيَ الله فيك»، فقمت وثار رِجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزتَ ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه

---

(١) تفرط: فات وسبق.
(٢) مغموصاً: مطعوناً عليه في دينه، متهماً بالنفاق. وفي ابن هشام: ٤: ١٧٦: «في النفاق».
(٣) عطفيه: كنى هنا عن إعجابه بنفسه وزهوه وتكبره.
(٤) أظل: قرب وأشرف.
(٥) أعطيت جدلاً: أي فصاحة وقوة كلام بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلي ولا يرد.
(٦) تجد: تغضب.

المتخلِّفون، قد كان كافِيك ذنبَك استغفارُ رسولِ الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معِي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مِثل ما قلت، فقيل لهما مِثل ما قيل لك؛ فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة ابن الربيع العَمْري[1]، وهلال بن أمية الواقفيّ[2]، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهِدا بدراً فيهما أسوة؛ فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيهّا الثلاثةُ ـ من بين من تخلّف عنه، فاجتَنَبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي بالتي أعرف، فلبِثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمّا أنا فكنت أشبَّ القومِ وأجلَدَهم، فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتِي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّكَ شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرضَ عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيتُ حتى تسوّرت[3] جِدَارَ حائط أبي قتادة، وهو ابن عمّي، وأحبّ الناسِ إليّ، فسلّمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشُدُك بالله، هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتولّيتُ حتى تسوّرت الجِدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطيّ من أنباط أهلِ الشام ممن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من مَلك غسّان، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحِبك قد جفاك، ولم يجعلْك الله بدارِ هوان ولا مَضْيعة، فالحق بنا نُواسِك». فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمتُ[4] بها التنور، فسَجَرْتُه[5] بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن

---

(١) مرارة بن الربيع: مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي من بني عمرو بن عوف. صحابي مشهور، شهد بدراً، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. (الإصابة في تمييز الصحابة: رقم الترجمة ٧٨٦٥).

(٢) هلال بن أمية: هلال بن أمية بن عامر بن قيس. الواقفي. شهد بدراً وما بعدها. وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. (الإصابة في تمييز الصحابة: رقم الترجمة ٨٩٧٨).

(٣) تسورت: تسلقت.

(٤) تيممت: توخيت، قصدت.

(٥) سجرته بها: أوقدته بالصحيفة.

تعتزِل امرأتك. فقلْت: أطلّقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربنّها، وأرسل إلى صَاحِبي مثلَ ذلك، فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أميّة رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أميّة شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمَه؟ فقال: «لا، ولكن لا يقربَنّك» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي مذ كان من أمرِه ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك، كما أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه، فقلت: والله لا أستأذِن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ! فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا؛ فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحُبَت، سمعت صوت صارخ أوْفَى(١) على جبل سلْع(٢) بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذَنَ رسول الله ﷺ بتوبةِ الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ(٣) صاحبيّ مبشِّرون، وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساع مِنْ أَسْلم فأَوفَى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، واللّهِ ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنّئوني بالتوبة، يقولون: لِيَهْنِك توبةُ الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحةُ بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيرُه، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يَبرُق وجهه من السرور: «أبشر بخيرِ يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك»؛ قال: قلت: أمِن عندِك يا رسول الله أم من عندِ الله؟ قال: «لا، بل من عندِ الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قَمَر، وكنّا نعرِف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت:

---

(١) أوفى: أشرف.

(٢) سلع: جبل بالمدينة.

(٣) قبل صاحبي: نحو صاحبي.

يا رسول الله، إن مِن توبتي أن أنخلِع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله؛ قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك»، قلت: فإني أمسِك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجّاني بالصدق، وإنّ من توبتي ألا أحدّث إلاّ صِدقاً ما بَقِيت، والله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صِدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعَمّدت منذ ذكرت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي[1]، فأنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ـ ١١٩].

قال كعب: فواللّهِ ما أنعم الله عليّ مِن نعمةٍ قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظَم في نفسي مِن صِدق رسول الله ﷺ ألا أكون كذبتُه فأهلِك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحيَ شرّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥ـ ٩٦]

قال كعب: وكنا تخلفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا[2] فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾.

وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنا تخلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبِل منه.

انتهت غزوة تبوك، فلنذكر ما سواها من السرايا.

ذكر سريّة خالد بن الوليد إلى بني عبد المَدان بنَجْران

بعثه رسول الله ﷺ إليهم في شهر ربيع الأوّل سنة عشرٍ من مُهاجَرِه، ولم يذكر من خبرِ هذه السرية غير هذا فنذكره.

---

(١) في كلا الأصلين: «بقيت» وما أثبتناه عن ابن هشام.

(٢) عبارة ابن هشام ٤ : ١٨١ : «حين حلفوا له فعذرهم».

ذكر سرِيّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن

يقال: بعثه رسول الله ﷺ مرتين: إحداهما في شهر رمضان سنة عشرٍ من مُهاجَره ﷺ، وعقد له لواءً، وعمّمه بيدِه، وقال: «إمضِ لا تلتفِت، فإذا نزلتَ بساحتِهم، فلا تقاتِلهم حتى يقاتِلوك»، فخرج في ثلثمائة فارس، وكانت أوّل خيل دخلت إلى تلك البلاد، وهي بلاد مَذحِج، ففرق أصحابه، فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونَعمَ وشاءٍ وغير ذلك، وجعل على الغنائم بُريدة بن الحُصَيب[١] الأسلميّ، فجمع إليه ما أصابوا، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام، فأَبَوْا ورموا بالنَّبل، ثم حَمل عليهم عليٌّ رضي الله عنه بأصحابه، فقتل منهم عشرين رجلاً، فتفرّقوا وانهزموا، فكفّ عن طلبهم، ثم دعاهم إلى الإسلام، فأسرعوا وأجابوا، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام، وقالوا: نحن على مَنْ وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حقّ الله، وجمع عليّ الغنائم فخمّسها، وقَسّم على أصحابه بقية المغنم، ثم قفل، فوافى رسول الله ﷺ بمكة حين قدِمها للحج سنة عشرٍ. حكاه ابن سعد[٢].

وقال محمد بن إسحاق، لما رجع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن إلى مكة، دخل على فاطمة بنت رسولِ الله ﷺ، فوجدها قد حَلّت فقال: مالَكِ يا بنت رسولِ الله[٣]؟ قالت: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نحلّ بعُمرة فحللنا، ثم أتى رسولَ الله ﷺ، فلما فرغ من الخبر عن سفره، قال له رسول الله ﷺ: «انطلق فطفْ بالبيت وحلّ كما حلّ أصحابك» قال: يا رسول الله، إني أهللتُ بما أهلَلت[٤]؛ قال: «فارجِع فاحلل كما حلّ أصحابك» قال: يا رسول الله، إنّي قلت حين أحرمت: اللهم إنّي إهِلّ بما أهلّ به نبيّك، وعبدُك ورسولُك محمد، قال: «فهل معك مِن هَدْي»؟ قال: لا؛ فأشركه رسولُ الله ﷺ في هَدْيه، وثبت على إحرامه مع رسول الله ﷺ حتى فرغا من الحج، ونحر رسول الله ﷺ الهَدْي.

قال: ولما أقبل عليّ من اليمن تعجّل إلى رسول الله، واستخلف على جندِه الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجلُ فكَسا كلّ رجل من القوم حُلة من

---

(١) بريدة بن الحصيب: (. . . ـ ٦٣ هـ = . . . ـ ٦٨٣ م) بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي: من أكابر الصحابة، أسلم قبل بدر، ولم يشهدها. وشهد خيبر وفتح مكة. انتقل إلى البصرة، ثم إلى مرو فمات بها. (الأعلام: ٢: ٥).

(٢) ٢: ١٢٢ (قسم أول).

(٣) يعني أنه أنكر عليها ما فعلت.

(٤) أهللت: الهل: التلبية.

البزّ[١] الذي كان مع عليّ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم، فإذا عليهم الحلل؛ قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجمّلوا إذا قدِموا في الناس؛ قال: انزعها ويلك! قبل أن تنتهي بهم إلى رسول الله ﷺ، قال: فانتزع الحلل من الناس فردّها في البزّ، فاشتكى الناس عليًا، فقام رسول الله ﷺ خطيباً، فقال: «أيها الناس، لا تشتكوا عليًا، فوالله إنه لأخشن في ذات الله» أو «في سبيل الله[٢]».

ذكر سريّة أسامة بن زيد بن حارثة إلى أرض الشَّراة[٣] ناحية البَلْقاء

وهذه السريّة هي آخر سريّة جهّزها رسول الله ﷺ، ومات قبل إنفاذِها، وكانت لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من هجرة رسولِ الله ﷺ، وكان فيها أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقَتادة بن النعمان، وسَلْم بن أسلم بن حَريش، فتكلم قوم وقالوا: نستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عِصابة وعليه قطيفة[٤]، فصعد المِنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فما مقالةٌ بلغتْني عن بعضكم في تأمِيري أسامة؟ ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإنّ ابنه من بعدِه لخليق للإمارة وإن كان لَمِن أحبِّ الناس إليّ، وإنهما لمخِيلان لكلّ خير، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم»، ثم نزل فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأوّل، وخرج الناس إلى الجُرْف، فتوفّي رسول الله ﷺ قبل خروج هذه السريّة، فلما وُلّي أبو بكر الصّديق رضي الله عنه. كان أوّل ما بدأ به بعث أُسامة.

هذا ما أمكن إيراده من غَزَواتِ رسولِ الله ﷺ وسراياه. فلنذكر حجّه وعُمَرَه ﷺ.

ذكر حجّ رسول الله ﷺ وعُمَرِه

قالوا: حج رسول الله ﷺ قبل هجرته إلى المدينة حجّتين، ولم يحجّ بعد الهِجرة إلاّ حجّة الوداع، وهي في السنة العاشرة، وكانت فريضة الحجّ نزلت في السنة السادسة من الهجرة، وفتحت مكّة في سنة ثمان، فاستخلف رسول الله ﷺ عتّابَ بنَ أَسِيد، فحجّ بالناس تلك السنة، وفي السنة التاسعة حج أبو بكر الصّديق رضوان الله عليه

---

(١) حلة من البز: نوع من الثياب.

(٢) في ابن هشام: ٤ : ٢٥٠ : «في سبيل الله من أن يشتكي».

(٣) الشراة: شراة الشام، وهي أرض معروفة، وبها الكهف والرقيم. (معجم البلدان).

(٤) قطيفة: دثار.

بالناس، كما قدّمنا ذِكر ذلك في مواضعه، فلما كان في السنة العاشرة أذّن في الناس أنّ رسول الله ﷺ حاجّ، فقدم المدينة بَشَرٌ كثير كلّهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله ﷺ، ويعمَل مِثل عمله، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة مغتسِلاً مدّهناً مترجّلاً متجرّداً في ثوبين صُحارِيّين[(١)]: إزارٌ[(٢)] ورداء، وذلك يوم السبت لخمس ليالٍ بَقين من ذي القعدة سنة عشرٍ من مهاجره، واستعملَ على المدينة أبا دُجانة الساعديّ - ويقال: سِباع بن عُرفُطة الغِفاريّ - قالوا: وصلى الظهر بذِي الحُليفة ركعتين، وأخرج معه نساءه كلّهن في الهوادج، وأشعر[(٣)] هديه وقلّده، ثم ركب ناقته، فلما استوى عليها بالبيداء أحرم من يومه، وكان على هديه ناجية بن جُندب، وقيل: إنه أهلّ بالحج مفرداً، وقيل: قَرنَه بعُمرة، ومضى ﷺ يسير المنازل ويؤمّ أصحابَه في الصلاة في مساجدَ له قد بناها الناس، فكان يوم الاثنين بمَرِّ الظَّهْران، فغربت له الشمس بسَرِف، ثم أصبح فاغتسل ودخل مكة نهاراً وهو على راحلته القَصْواء، وكان تحته ﷺ رحْل رثّ عليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: «اللهم اجعله حجًا لا رياءَ[(٤)] فيه ولا سُمْعة»، فدخل من أعلى مكة من كَداء حتى انتهى إلى باب بني شَيبة، فلما رأى البيت رفع يديه فقال: «اللهم زِد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزِدْ مَن شَرَّفَه وعظَّمه ممّن حجّه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبرًّا»؛ ثم بدأ فطاف بالبيت، ورَمَل[(٥)] ثلاثةَ أشواط من الحِجر إلى الحِجر، وهو مضطبع[(٦)] بردائه، ثم صلى خلف المقام ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة على راحلته من فَوْرِه ذلك، وكان قد اضطرب بالأبطح، فرجع إلى منزله، فلما كان قبل يوم التروية[(٧)] بيومٍ خطب بمكة بعد الظهر، ثم خرج يوم التروية إلى مِنًى، فبات بها، ثم غدا إلى عرفاتٍ، فوقف بالهضاب منها وقال: «كلُّ عرفةٍ [موقفٌ إلاّ بطن عُرَنَة][(٨)]»، فوقف على راحلته يدعو، فلما غربت الشمس دفع فجعل يسير العَنَق[(٩)] حتى جاء المزدلِفَة، فنزل قريباً من الغارِ، فصلى المغرب

---

(١) ثوب صحاري: نسبة إلى قرية في اليمن اسمها: «صحار».
(٢) إزار: ملحفة.
(٣) أشعر هديه: الهدي: الأضحيات، وأشعرها: جعل لها علامة مميزة.
(٤) رياء: خداع.
(٥) رمل: هرول.
(٦) اضطبع بالرداء: أدخله تحت إبطه الأيمن، ورد طرفه على يساره وأبدى منكبه الأيمن وغطى الأيسر.
(٧) التروية: يوم قبل يوم عرفة. الثامن من ذي الحجة راجع (اللسان: روي).
(٨) الزيادة عن ابن سعد: ٢: ١٢٥.
(٩) العَنَق: ضرب من السير.

والعَشاء، بأذان وإقامتين، ثم بات بها، فلما برق الفجر صلّى الصبح، ثم ركب راحلته، فوقف على قُزَح[١] وقال: «كلّ المزدلِفة موقِفٌ إلاّ بطن محسّر»[٢]، ثم دفع قبل طلوع الشمس، فلما بلغ إلى محسر أوضع[٣]، ولم يزل يلبّي حتى رَمى جَمرة العَقَبة، ثم نحر الهَدْي وحَلَق رأسه، وأخذ من شارِبه وعارِضَيه، وقلم أظفاره، وأمر بشَعره وأظفاره أن تُدفن، ثم أصاب الطِّيبَ، ولبس القميص، ونادى مناديه بمنًى؛ إنها أيّام أكلٍ وشرب وباءة[٤]، وجعل يرمي الجِمار في كل يوم عند زوال الشمس، ثم خطب الغد من يوم النّحر بعد الظهر على ناقته القَصْواء، ثم صَدَر يومَ الصّدَر الآخر، وقال: «إنما هنّ ثلاث يقيّمهنّ المهاجر بعد الصَّدَر»، يعني بمكة، ثم ودّع البيت، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة.

ذكر الخُطْبة التي خطبها رسولُ الله ﷺ

قال محمد بن إسحاق: خطب رسول الله ﷺ خطبته التي بيّن فيها ما بيّن فحمِد الله وأَثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، اِسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلْقَوا ربّكم كَحُرمْة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقَون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغتُ، فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ كلّ رِباً موضوع، وإن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون، قضى الله أنه لا رِبا، وأن رِبا العبّاس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كلّ دمٍ في الجاهليّة موضوع، وأنّ أوّل دمائكم أَضَعُ دَمَ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضَعاً في بني ليث، فقتلتْه هُذَيل ـ فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهلية».

«أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبداً، ولكنّه إن يُطَع فيما سوى ذلك فقد رضيَ به، ممّا تَحقِرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم».

«أيها الناس، إن النَّسِيءَ[٥] زيادةٌ في الكفر يُضَلّ به الّذين كفروا يُحِلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً لِيواطئوا عِدة ما حرم الله فيُحِلّوا ما حَرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خَلَقَ الله السموات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا

(١) قزح: جبل بالمزدلفة.
(٢) بطن محسّر: وادٍ بالمزدلفة.
(٣) أوضع: من الوضع (محركة) وهو أهون سير الدواب.
(٤) الباءة: الاعتراف (اللسان ـ بوأ).
(٥) النّسِيء: شهر كانت العرب تؤخره في الجاهلية (اللسان: نسأ).

عشَرَ شَهْراً منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثةٌ متوالية، ورجب مُضَر الّذي بين جُمادَى وشعبان».

«أما بعد أيّها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًّا، ولهنّ عليكم حقّا، عليهنّ أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألاّ يأتين بفاحشةٍ مبيِّنة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غيرَ مبرِّح، فإن انتهين فلهُنّ رزقُهنّ وكِسوتُهنّ بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنّهنّ عندكم عَوان، لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجَهنّ بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإنّي قد بلّغتُ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، أمراً بيّناً: كتاب الله وسنّة نبيّه».

«أيّها الناس، اسمعوا قولي، واعقلوه، تعلّمن أن كلّ مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طِيب نفس، فلا تظلِمُنّ أنفسكم، اللهم هل بلّغتُ»، فقال الناس: اللهم نعم، فقال: «اللّهم اشهد».

وقال ابن إسحاق أيضاً: حدّثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة ربيعةُ بنُ أميّة بن خلف. قال: يقول له رسول الله ﷺ: «قل يا أيّها الناس إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أيُّ شهر هذا؟ فيقوله لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول لهم: «إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تَلْقَوْا ربَّكم كحرمة شهرِكم هذا». ثم يقول: «قل يا أيّها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أيُّ بلد هذا»؟ قال: فيصرخ به، قال: فيقولون: البلد الحرام، قال: فيقول: «قل لهم: إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدِكم هذا»، ثم يقول: «قل يا أيّها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول هل تدرون أيَّ يومٍ هذا»؟ فيقولون: يوم الحجّ الأكبر؛ قال: فيقول: «قل لهم: إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربَّكم كحرمة يومِكم هذا».

وعن عمرو بن خارجة قال: بعثني عتّاب بن أَسِيد إلى رسول الله ﷺ في حاجة، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة، فبلغته، ثم وقفت تحت ناقةِ رسول الله ﷺ، وإنّ لُغامَها[1] ليقع على رأسي، فسمعته وهو يقول: «أيها الناس؛ إن الله قد أدى إلى كل ذي حقّ حقّه، وإنه لا تجوز وصيّة لوارث، والولد للفِراش، وللعاهِر الحَجَر، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غيرَ مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناسِ أجمعين، لا يقبل الله منه صَرفاً ولا عَدلاً».

(١) لغم الجمل: رمى بلغامه، أي بزبده.

وأمّا عُمَرُه ﷺ

فقد رَوَى عِكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: اعتمر النبيّ ﷺ أربع عُمر: عُمرة الحديبية، وهي عُمرة الحصر، وعُمرة القضاء مِن قابِل، وعُمرة الجِعرانة، والرابعة التي مع حجّته.

وعن قتادة، قلت لأنس بن مالك: كم اعتمر النبيّ ﷺ؟ قال: أربعاً عَدّ منها عُمرته مع حجّته، وقد قدّمنا ذكر عُمرةِ الحديبية مع الغزوات، وذَكَرْنَا عمرةَ الجِعِرانة عند ذكرنا لقسم مغانم حُنين وعُمرته مع حجّته قد اختلف فيها.

وأمّا عُمرة القضاء

فقد أوردها بعض أهل السِّيَر في الغزوات وترجَم عليها: «عُمرة القضيّة» وحُجّة من أوردها في الغزوات أنه ﷺ خرج معه السلاح، ولم يخرج به ﷺ لقصد الغزاة، وإنما خرج به احتياطاً. وكان من خبر هذه العمرةَ أن رسول الله ﷺ لما استهل هلال ذي القعدة سنة سبع من مُهاجَرِه أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدّهم المشركون عنها بالحديبية، وألا يتخلف أحد ممن شهِد الحديبية، فلم يتخلف منها إلا من مات أو قتِل بخيبر، وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمّاراً ممن لم يشهد الحديبية، فكانوا في عُمرة القضيّة ألفين، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذَر الغِفاريّ، حكاه ابن سعد ـ وقال ابن إسحاق: عويف بن الأضبط الدِّيليْ ـ وساق ﷺ ستّين بَدَنَة، وجعل على هَدْيه ناجيةَ بنَ جُنْدَب الأسلميّ.

قال ابن سعد: وحمل رسول الله ﷺ السلاحَ والبيض والدُّروع والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى إلى ذي الحُلَيفة، قدّم الخيل أمامه، عليها محمد بن مسلمة، وقدم السلاح، واستعمل عليه بشير بن سعد، وأحرم ﷺ من باب المسجد، ولبّى والمسلمون معه يلبون. ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مَرِّ الظَّهْران فوجد بها نفراً من قريش، فسألوه، فقال: هذا رسول الله ﷺ يُصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله، فأتوا قريشاً بالخبر، ففزعوا، ونزل رسول الله ﷺ بمرّ الظهران، وقدّم السلاح إلى بطن يأجُج حيث [ينظر][(١)] إلى أنصاب[(٢)] الحَرَم، وخلّف عليه أوسَ بن خَوَليّ الأنصاري في مائتي رجل، وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال، فقدّم رسولُ الله ﷺ الهَدْيَ أمامه، فحُبس بذي طُوًى، وخرج على راحلته القصواء والمسلمون متوشّحون السيوفَ، محدِقون به ﷺ يلبّون، فدخل على الثنيّة التي تطلِعه على الحَجُون، وعبد

---

(١) التكملة عن الزرقاني: ٢: ٣٠٥ وابن كثير: ٤: ٢٣١.

(٢) الأنصاب: الأصنام.

الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول: [من الرجز]

خلوا بني الكفّار عن سَبيلِه   خلّوا فكلّ الخير في رسوله
يا ربِّ إنّي مؤمنٌ بِقيلِه   أَعرفُ حقّ الله في قبولِهِ[١]
نحن قتلناكمْ على تأويلِهِ   كما قتلناكمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يزيل الهام عن مقيلِه   ويُذهل الخليلَ على خَليلِهِ[٢]

قال ابن هشام: قوله: «نحن قتلناكم على تأويله» إلى آخر الأبيات، لعمّار بن ياسِر في غير هذا اليوم.

قال ابن سعد: ولما ارتجز ابنُ رَواحة قال له عمر بن الخطّاب: إيهاً[٣] يا بن رَواحة! فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إني أسمع»؛ فأسكتَ عمر، وقال رسول الله ﷺ: إيهاً يا بن رواحة!، قل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده»، فقالها ابنُ رواحة. ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمِحْجَنه مُضْطَبعاً بثوبه، وطاف على راحلته، والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم، ثم طاف بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهَدْيُ عند المروة قال: «هذا المَنْحر[٤]، وكلّ فِجَاج مكّة مَنحَر»، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، وأمر رسول الله ﷺ ناساً منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضوا نُسكَهم؛ ففعلوا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، وتزوج ميمونةَ بنت الحارث الهلاليّة، فلما كان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سُهَيل بن عمرو وحُوَيطب بنُ عبد العزّى فقالا: قد انقضى أجلُك، فاخرج عنّا، فأمر أبا رافع فنادى بالرحيل وقال: لا يُمسِينّ بها أحد من المسلمين، وأخرج عَمارةَ بنت حمزة بن عبد المطلب من مكة، وركب رسول الله ﷺ حتى نزل سَرِف وتتامَّ الناسُ إليه، وأقام أبو رافع بمكّة حتى أمسَى، فحمل إليه ميمونةَ فبَنَى[٥] عليها ﷺ بسَرِف، ثم أَدْلَجَ[٦] فسار حتى قدم المدينة صلّى الله عليه وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

كمل الجزء السابع عشر من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويريّ رحمه الله. ويليه الجزء الثامن عشر وأولّه: (وفادات العرب على رسول الله ﷺ).

---

(١) قيله: دعواه.
(٢) الخليل: الحبيب.
(٣) إيهاً: كلمة استزادة واستنطاق.
(٤) المنحر: المكان الذي تنحر عنده الأضحيات.
(٥) بنى عليها: تزوجها.
(٦) أدلج: سار ليلاً.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثامن عشر

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ وما يتّصل بذلك

كانت أكثر وفادات العرب على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة؛ ولذلك سُمّيت سنةَ الوفود. وذلك أنّ العرب إنما كانوا ينتظرون فتح مكة وإسلام هذا الحيّ من قريش؛ فلما فتح الله عزّ وجل على رسوله ﷺ مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ وأسلم مَنْ أسلم من قريش، وفدت عند ذلك وفادات العرب من كل قبيلة وجِهة، ودخلوا في دين الله أفواجًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وقد رأيْنا إيراد ذلك على نحو ما أوْرَدَه أبو عبد الله محمد بن سعد بن منِيع في طبقاته الكبرى، ونذكر ما أوْرَدَه ابن سعد ممّن ذكرهم أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله، إلا أنّا نَبْدأ من ذلك بذكر مَن وَفَد على رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة، ثم نذكر مَن وَفَد عليه ﷺ بعد هجرته إلى المدينة وقبل فتح مكّة، نقدّمهم على حسب السابقة، ثم نذكر مَن عدا هؤلاء من الوفُود الذين وَفَدوا في سنة تسعٍ وما بعدها؛ نرتّبهم على ما رتّبهم محمد بن سعد في طبقاته في التقديم والتأخير، ونستثني منهم من تقدّم ذكره؛ فنقول وبالله التوفيق:

ذكر من وَفَد على رسول الله ﷺ وهو بمكة قبلَ الهِجْرَة

وَفَد عليه ﷺ وهو بمكة غِفَارٌ، وأَزْدُ شَنُوءَةَ، وهَمْدان، والطُّفَيل بن عَمْرو الدَّوْسيّ، ونصارى الحبشة.

ذكر وَفْدِ غِفار وقِصّة أبي ذَرٍّ الغِفَارِيّ في سبب إسلامه

رَوَى الشَّيخ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي رحمه الله في كتابه المترجم بـ«دلائل النبوّة» بسنده إلى عبد الله بن الصَّامت، قال: قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: خرجنا عن قَوْمنا غِفار، وكانوا يُحِلّون الشّهر الحرام، فخرجت أنا وأخي أُنَيْس وأمُّنا، فانطلقنا حتى نزلنا على خالٍ لنا ذي مال وذي هيئة، فأكرمَنا وأحسن إلينا، فحسَدَنا قومُه، فقالوا له: إنك إذا خرجت عن أهلك خالفَ إليهم أُنيس، قال: فجاء خالُنا فَنَثَا[1] علينا ما قيل له؛ فقلت له: أمّا ما مضى من معروفك فقد كدّرتَه، ولا جِماع[2] لك فيما بعد. قال: فقرّبْنا صِرْمتنا[3] فاحتمَلْنا عليها ويغطّي خالَنا ثوبَه فجعل يبكي وانطلقنا حتى نزلنا بحَضْرة مكّة، فنافَر أُنَيسٌ عن صِرْمتنا وعن مِثْلها، فأتينا الكاهن فخبّر أُنَيسًا، فأتانا بصِرْمتنا ومِثْلِها معها. قال أبو ذرّ: وقد صلّيْتُ يا بن أخي قبل أن ألْقَى رسولَ الله ﷺ بثلاث سنين. قال ابن الصّامت: فقلت لمن؟ قال: لله. قلت: فأين تَوَجَّهُ؟ قال: أتوجّه حيث وَجَّهني الله؛ أصلّي عِشاء حتى إذا كان من آخر الليل أُلْقِيتُ كأني خِفَاءٌ[4] ـ يعني الثوب ـ حتى تعلوني الشمسُ. فقال أُنَيس: إنّ لي صاحبًا بمكة فاكْفِني حتى آتيك. فانطلق أُنَيسٌ حتى أتى مكة فراثَ[5] عليّ، ثم أتاني فقلت: ما حبَسَك؟ قال: لَقيتُ رجلًا بمكة يزعم أن الله أرسله على دينك. قال: ماذا يقول الناس فيه؟ قال: يقولون إنه شاعرٌ وساحرٌ وكاهنٌ. قال: وكان أُنَيس أحد الشُّعراء ـ وفي رواية عنه: والله ما سمعت بأشعر من أخي أُنَيس ـ لقد ناقض اثني عشر شاعرًا في الجاهلية أنا أحدهم. قال فقال أُنَيس: لقد سمعتُ قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقْراء[6] الشِّعر فلم يَلْتَئِم، وما يلتئم والله على لسان أحد بعدي أنه شِعْرٌ، ووالله إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون. قال: قلت له هل أنت كافيّ حتى أنطلق فأنظر؟ فقال: نعم! وكُنْ من أهل مكة على حَذَر، فإنهم قد شَنِفُوا[7] له وتَجَهّموا. فانطلقت حتى قدمت مكة، فَتَضَعَّفْتُ[8] رجلًا منهم فقلت:

---

(١) أي حدثنا به.
(٢) الجماع: الاجتماع.
(٣) الصرمة: القطعة من الإبل.
(٤) الخفاء بالكسر: الكساء، وكل شيء غطيت به فهو خفاء.
(٥) راث: أبطأ.
(٦) أقراء الشعر: طرقه وأنواعه.
(٧) شنف له: أبغضه وتنكره.
(٨) تضعفت: أي استضعفت.

أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟ قال: فأشار إليّ، الصابىء! فمال عليّ أهل الوادي بكل مَدَرة[١] وعَظْم حتى خَرَرتُ مغشيًا عليّ. قال: فارتفَعت حين ارتفعت كأنّي نُصُبٌ[٢] أحمر، فأتيت زَمْزَم فشربت من مائها، وغسلت عنّي الدّم، ودخلت بين الكعبة وأستارها، ولقد لبثت يأبن أخي ثلاثين من بَيْن ليلة ويوم وما لي طعام إلا ماء زمزم، فسمِنْتُ حتى تكسّرت عُكَنُ[٣] بطني، وما وجدت على كَبدي سُخْفَة جوع[٤]. قال: فبينما أهل مكة في ليلة قَمْراءَ[٥] إضْحيان[٦]، قد ضرب الله على أصْمِخَة[٧] أهل مكة فما يطوف بالبيت أحدٌ غير أمرأتين وهما تدعوان إسافًا[٨] ونائلةَ، فأتتا عليّ في طوافهما فقلتُ: أنكحا إحداهما الأخرى، فما ثناهما ذلك عما قالتا. فأتتا عليّ فقلتُ: هَنٌ مثل الخشبة غيرَ أنّي لا أَكْنِي، فأنطلقتا تُوَلْوِلانِ وتقولان: لو كان هاهنا أحدٌ من أنفارنا! قال: فأستقبلهما رسول الله ﷺ وأبو بكر وهما هابطان من الجبل، فقال لهما: ما لكما؟ قالتا: الصّابىء بين الكعبة وأستارها. قالا: ما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمةً تملأ الْفَمَ. فجاء رسول الله ﷺ هو وصاحبه فأستلم الحجر ثم طاف بالبيت هو وصاحبه ثم صلّى، فلما قضى صلاته قال أبو ذرّ: فأتيته فكنتُ أوّل من حيّاه بتحيّة الإسلام؛ فقال: «وعليك ورحمة الله»، ثم قال: «ممن أنت»؟ قلتُ: من غِفَار، قال: فأهوى بيده فوضع يده على جبينه، فقلت في نفسي: كره أني أنتميت إلى غِفَار، قال: فأهْوَيْت لآخذ بيده، فقَدَعَني[٩] صاحبُه وكان أعلم به منّي، ثم رفع رأسه فقال: «متى كنت هاهنا»؟ قلت: منذ ثلاثين من ليلة ويوم، قال: «فمن كان يطعمك»؟ قلت: ما كان لي من طعام إلا ماء زمزم، فسَمِنْت حتّى تكَسَّرت عُكَنُ بطني، وما وجدت على كبدي سَخْفَة جوع، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مباركةٌ، إنها طعامُ طُعْمٍ[١٠]، وشفاء سُقْم» فقال أبو بكر: يا رسول الله! ايذن لي في إطعامه الليلة،

(١) المدرة: جمع المدر، وهو الطين اللزج المتماسك.
(٢) النصب: الصنم، والمراد صار كالنصب المحمر بدم الذبائح.
(٣) العَكن: واحدتها العكنة، وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.
(٤) سخفة الجوع: رقته وهزاله.
(٥) قمراء: مقمرة. (٦) إضحيان: مضيئة.
(٧) الأصمخة: جمع الصماخ، وهي قناة الأذن التي تغطي إلى طبلته؛ وضرب الله على صماخه: أي أنامه.
(٨) إساف ونائلة: صنمان. (٩) قدع: منع.
(١٠) الطعام الطعم: أي يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام.

ففعل، فٱنطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وٱنطلقت معهما حتى فتح أبو بكر بابه، فجعل يقبض لنا من زبيب الطّائف، فكان ذاك أوّل طعام أكلته بها، قال: فَغَبَرْتُ[١] ما غَبَرْت، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إني وُجِّهتُ إلى أرض ذات نخلٍ لا أحسبها إلا يَثْرِبَ، فهل أنت مبلغ عنّي قومَك لعل الله أن ينفعهم بك، ويأجرك فيهم»؛ قال: فٱنطلقت حتى أتيت أخي أُنَيْسًا فقال لي: ما صنعت؟ قلت: أسْلَمْتُ وصدّقتُ. قال: فما بي رغبةٌ عن دينك، فإني قد أسلمت وصدّقت. ثم أتينا أُمَّنا، فقالت: ما بي رغبة عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدقت، قال: ثم ٱحتملنا حتى أتينا قومنا غِفارًا، فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يؤمُّهم خُفافُ بن إيماء بن رَحَضَة الغِفاريّ، وكان سيِّدَهم يومئذ، وقال بقيتُهم: إذا قدِم رسول الله ﷺ أسلمنا؛ فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم بقيّتهم؛ وجاءت أَسْلَمُ، فقالوا: يا رسول الله! إخواننا؛ نُسْلِم على الذي أسلموا عليه. فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «غِفَار غَفَر الله لها وأَسْلَمُ سالمها الله».

وهذه الرواية في خبر إسلام أبي ذرّ؛ قد روى مسلم في صحيحه نحوها، وهي تخالف رواية البخاريّ.

وروى البيهقيّ عن أبي ذَرٍّ قال: كنت رُبُع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثَةُ نفر وأنا الرابع؛ أتيت النبيّ ﷺ فقلت: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله، فرأيت الاَستبشار في وجه رسول الله ﷺ.

وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى ٱبنِ عباس رضي الله عنهما، قال: لما بلغ أبا ذر مَبْعَثُ رسول الله ﷺ بمكة قال لأخيه أُنَيس: ٱركب إلى هذا الوادي، فٱعلم لي عِلم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، وٱسمع من قوله، ثم ٱيتني؛ فٱنطلق حتى قدِم مكة وسمع مِن قوله ثم رجع، فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وسمعت منه كلامًا ما هو بالشعر. قال: ما شفَيْتني فيما أردت، فتزوّد وحمل شَنَّة[٢] له فيها ماءٌ حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبيّ ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فٱضطجع فرآه عليّ بن أبي طالب؛ فقال: كأنّ الرجل غريبٌ، قال: نعم، قال: ٱنطلق إلى المنزل، قال: فٱنطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أسأله، فلما أصبحت من الغد رجعت إلى المسجد، وبقيتُ يومي حتى

(١) غبرت: مكثت.

(٢) الشنّة: القربة الخلق الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها.

أمسيتُ وصرت إلى مَضْجَعي، فمرّ بي عليّ بن أبي طالب، فقال: أما آن للرّجل أن يعرف منزله؟ فأقامه وذهب به معه، وما يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثم قال: ألا تحدِّثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عَهْدًا ومِيثاقًا لَتُرشِدني فعَلْتُ؛ ففعل؛ فأخبره عليّ أنه نَبِيٌّ، وأنّ ما جاء به حَقٌّ، وأنّه رسول الله، قال: فإذا أصبحتَ فاْتبعني، فإني إن رأيتُ شيئًا أخاف عليك قُمْتُ كأنّي أُرِيق الماء، فإن مَضيتُ فاْتبعني حتى تدخل مَدْخلي، قال: فاْنطلقت أقْفُوه حتى دخل على رسول الله ﷺ، ودخلت معه وحييت رسول الله ﷺ بتحيَّة الإسْلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله! فكنت أوّل من حيّاه بتحية الإسلام، فقال: «وعليك السلام، مَن أنت»؟ قلت: رجل من غِفار، فعرض عليّ الإسلام، فأسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقال لي رسول الله ﷺ: «اْرجع إلى بلاد قومك، وأخبرهم، واْكتُم أمرَك عن أهل مكة، فإني أخشاهم عليك»، فقلت: والذي نفسي بيده لأصرحنّ بها بين أظهرهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فثاب[1] القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباسُ فأكَبَّ عليه وقال: ويلكم! أولستم تعلمون أنّه من غِفار، وأنّ طريق تجاركم إلى الشام عليهم! وأنقذه منهم، ثم عاد إلى مثلها، وثاروا[2] إليه فضربوه، فأكب عليه العباسُ فأنقذه، ثم لَحِق بقومه. وكان هذا أوّل إسلام أبي ذرٍّ.

ومن رواية اللّيث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب قال: قدم أبو ذرٍّ على النبي ﷺ وهو بمكة فأسْلَم، ثم رجع إلى قومه، فكان يسخر بآلهتهم، ثم إنه قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة، فلمّا رآه وَهِم في اْسمه، فقال: «أنت أبو نَمْلة»؟ قال: أنا أبو ذرّ، قال: «نَعَم أبو ذرّ».

ذكر وفدِ أزدِ شَنُوءَةَ وكيف كان إسْلامُ ضِمادٍ

روى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ ـ رحمه الله ـ بسنده إلى سعيد بن جُبَير عن اْبن عباس رضي الله عنهم، قال: قدم ضِمَاد مكة، وهو رجلٌ من أزْدِ شَنُوءة، وكان يَرْقِي من هذه الرياح، فسمع سُفهاءَ الناس يقولون: إنّ محمدًا مجنونٌ، فقال: آتي هذا الرجل لعل الله أن يَشْفيه على يديّ، قال: فلقيت محمدًا، فقلت: إني أرْقِي من هذه الرياح، وإن الله يَشْفي على يدي من يشاء، فهَلُمَّ؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ

(١) ثاب القوم: أي أقبل القوم.
(٢) يقال: ثار إلى الشيء، إذا نهض إليه.

الحمد لله نحمده ونستعينه، مَن يهده الله فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله» ثلاث مرات، فقال: تالله لقد سمعت قول الكَهَنَة، وقول السَّحَرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلمّ يَدكَ أبايعك على الإسلام، فبايعه رسول الله ﷺ، وقال له: «وعلى قومك»؟ فقال: وعلى قومي، فبعث رسول الله ﷺ سرّية فمرّوا بقوم ضماد، فقال صاحب الجيش للسريّة: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ فقال رجل منهم: مِطْهَرَة[١]، فقال: «ردّوها عليهم فإنهم قوم ضِماد». رواه مسلم في صحيحه.

وروى القاضي عِياض بن موسى في كتابه المتَرْجَم بـ(الشِّفا، بتعريف حقوق المصطفى): أن ضِمادًا قال لرسول الله ﷺ: أعِدْ عليّ كلماتك هؤلاء فلقد بَلَغْن قَامُوسَ البحر[٢]، هات يديك أبايعك.

ذكر وفد هَمْدان

قال محمد بن سعد رحمه الله تعالى: أخبرنا هشام بن محمد، قال: حدثنا حِبّان بن هانِىء بن مسلم بن قَيْس بن عمرو بن مالك بن لأْيِ الهَمْدانيّ ثم الأرْحَبِيّ عن أشياخهم، قالوا: قدِم قيسُ بن مالك بن سعد بن مالك بن لأْيِ الأرْحَبيّ على رسول الله ﷺ وهو بمكة، فقال: يا رسول الله أتيتُك لأومِنَ بك وأنصُرَك؛ فقال له: «مَرحبًا بك، أتأخذوني بما فيّ يا معشر هَمْدان»؟ قال: نعم؛ بأبي أنت وأمّي، قال: «فاذهب إلى قومك، فإن فعلوا فارجع أذهب معك»، فخرج قيس إلى قومه، فأسْلموا واغْتَسَلوا في جَوْف[٣] المحورة - وهو ماءٌ يغتسلون فيه - وتوجّهوا إلى القِبلة، ثم خَرَج بإسْلامهم إلى رسول الله ﷺ، فقال: قد أسلم قومي وأمروني أن آخذك، فقال رسول الله ﷺ: «نِعْم وافدُ القوم قيسٌ»، وقال: «وفَيْتَ وفّى الله بك»، ومسَحَ بناصيته، وكتب عهدَه على قومه هَمْدان: أحمورِها[٤] وعَرَبها وخَلائِطِها ومَوَاليها أن يسمعوا له ويُطيعوا، فإنّ لهم ذمّة الله وذمّة رسوله ما أقَمتم الصّلاَة وآتيتُم الزّكاة؛ وأطْعَمَه ثلاثمائة فَرَق[٥]، من خَيْوَانَ[٦] مائتان: زبيبٌ وذُرَةٌ شِطْران، ومن عُمْران[٧] الجَوْف مائةُ فَرَق بُرّ، جاريةً أبدًا من مال الله.

---

(١) المطهرة: كل ما يتطهر به ويتوضأ مثل سطل أو ركوة.

(٢) قاموس البحر: قعره.

(٣) جوف المحورة: موضع ببلاد همدان.

(٤) أحمورها: أهل القرى، سموا بذلك لأنهم بيض. وعربها: أهل البادية.

(٥) الفرق: مكيال يقال: إن سعته ستة عشر رطلاً.

(٦) خيوان: بلد باليمن.

(٧) عمران: قرية من بلاد مراد باليمن.

ومن طريق آخر له قال: عَرضَ رسولُ الله ﷺ نَفسَه بالمَوْسم على قبائل العرب، فمرّ به رجلٌ من أرْحَب يقال له: عبد الله بن قيس ابن أمّ غَزال. فقال: «هل عند قومك من منعة»؟ قال: نعم، فعرض عليه الإسلام، فأسلَمْ، ثم إنه خاف أن يُخْفِره[1] قومه فوعده الحجّ من قابِل، ثم وجّه الهَمْدانيّ يريد قومه، فقتله رجلٌ من بني زُبيد يقال له ذُباب، ثم إن فتية من أرْحَب قتلوا ذُبابًا الزُّبَيديّ بعبد الله بن قيس. هذا قبل الهجرة.

وأما بعد الهجرة، فقد روى محمد بن إسحاق رحمه الله، قال: قدم وَفْدُ هَمْدان على رسول الله ﷺ، منهم مالك بن نَمَط، وأبو ثور وهو ذو المِشْعار، ومالك بن أيْفَع، وضِمام بن مالك السَّلْماني، وعَميرة بن مالك الخارقيّ، فلقُوا رسولَ الله ﷺ مَرْجِعَه من تَبُوك[2]. وعليهم مُقَطَّعات الحبرَات[3] والعمَائم العَدَنيّة[4]، برحال المَيْس[5] على المَهْرِيّة[6] والأرْحَبِيّة[7]، ومالك بن نَمَط، ورجل آخر يرتجِزان بالقوم؛ يقول أحدهما: [من الرجز]

هَمْدانُ خَيْرُ سُوقَةٍ وأقْيالْ ليس لها في العالمين أمْثالْ[8]
مَحَلُّها الْهَضْبُ ومنها الأبْطالْ لها إطَاباتٌ بها وآكالْ[9]

ويقول الآخر: [من الرّجز]

إلَيْك جَاوَزْنَ سَوادَ الرِّيفِ في هَبَواتِ الصَّيْفِ والْخريفِ[10]
* مُخَطَّماتٍ بِحِبال اللِّيفِ[11] *

---

(١) يخفر: ينقض العهد والذمام.

(٢) تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة.. وقيل: هي بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبيّ ﷺ... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الحبرات: جمع حبرة. (٤) العدنية: نسبة إلى عدن.

(٥) الميس: الشجر الذي يصنع منه الرحال. (٦) المهرية: نسبة إلى مهرة، وهي قبيلة عربية.

(٧) الأرحبية: نسبة إلى أرحب، وهي بطن من همدان.

(٨) الأقيال: واحدها القيل، وهو الملك في لغة أهل اليمن.

(٩) الإطابات: الأطعمة الطيبة؛ وآكال: مآكل الملوك.

(١٠) الهبوات: جمع هبوة، وهي الغبرة. (١١) المخطمات: التي لها خطام.

فقام مالك بن نَمَط بين يديه، ثم قال: يا رسول الله! نَصِيَّة[١] من هَمْدان من كل حاضر وبادٍ، أتَوْكَ على قُلُصٍ[٢] نَوَاجٍ[٣]، مُتَّصِلة بحبائل الإسْلام، لا تأخذهم في الله لَوْمةُ لائم، من مِخْلَافِ[٤] خارِفٍ[٥] ويَام وشاكِر، أهل السُّودِ[٦] والقود[٧]، أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا آلهَاتِ الأنصابِ، عهدهم لا يُنْقَض ما أقامت لَعْلَعُ[٨]، وما جرى اليَعْفُورُ[٩] بِضَلَع[١٠]. فقال رسول الله ﷺ: «نِعم الحيُّ هَمْدان، ما أسرعَها إلى النّصر، وأَصبَرها على الجُهد، ومنهم أبدال[١١]، وفيهم أوتاد[١٢] الإسلام»، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا؛ فيه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. كتابٌ من محمد رسول الله لمِخْلاف خارِفٍ وأهل جَناب[١٣] الهَضْب وحِقافِ[١٤] الرَّمْل، مع وَافِدها ذي المِشْعار مالك بن نَمَط، ومَن أسْلَم من قَوْمه، على أن لهم فِراعَها[١٥] ووِهاطَها[١٦] وعَزازَها[١٧]، يأكلون عِلافَها[١٨]، ويَرعَوْن عافِيهَا[١٩]، لنا منهم من دَفْئهم[٢٠] وصرامهم[٢١] ما سَلَّموا بالمِيثاقِ والأمانة، ولهم من الصّدقة الثِّلْبُ[٢٢] والنّابُ[٢٣] والفَصِيل[٢٤] والفَارِضُ[٢٥] والدّاجِن[٢٦] والكَبْش الحَوَرِيّ[٢٧]، وعليهم فيها الصّالِغُ[٢٨]

---

(١) النصيّة: الأخيار الأشراف.
(٢) القلوص: الفتي من الإبل.
(٣) نواج: جمع ناجية، وهي السريعة.
(٤) المخلاف: المدينة بلغة أهل اليمن.
(٥) خارف: من قبائل اليمن.
(٦) السود: الإبل.
(٧) القود: الخيل.
(٨) لعلع: اسم جبل.
(٩) اليعفور: الظبي الذي يشبه لونه لون التراب.
(١٠) الضلع: القوة والشدة.
(١١) الأبدال: جمع البدل، وهو الولي أو العابد.
(١٢) الأوتاد: جمع وتد، وهو الرئيس.
(١٣) جناب الهضب: اسم موضع.
(١٤) الحقاف: الرمل المستطيل المشرف.
(١٥) الفراع: الأعالي.
(١٦) الوهاط، أي الوهاد، وهو من الأرض المنخفض المطمئن.
(١٧) عزاز الأرض: ما صلب منها وخشن واشتد.
(١٨) العلاف: ما تعلفه الدواب.
(١٩) العافي: النبات الكثير.
(٢٠) المراد بالدفء: الإبل والغنم.
(٢١) الصرام: قطع النخل.
(٢٢) الثلب: الجمل الذي تكسرت أنيابه من الهرم.
(٢٣) الناب: الهرمة من الإناث.
(٢٤) الفصيل من الإبل: الصغير الذي فصل عن أمه.
(٢٥) الفارض: المسنّ الهرم.
(٢٦) الداجن: الحلوبة الملازمة للإنسان.
(٢٧) الحوري: منسوب إلى الحور.
(٢٨) الصالغ من البقر والغنم: الذي كمل سنّه.

والقَارحُ[١]، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزّكاة، لهم بذلك عهد الله وذِمامُ رسول الله عليه السلام، وشاهدهم المهاجرون والأنصار».

ذكر وفادة الطُّفَيل بن عمرو الدَّوْسيّ وإسلامه

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: كان الطُّفَيْل بن عَمْرو الدَّوْسي يُحدِّث أنه قدم مكّة ورسولُ الله ﷺ بها، فمشى إليه رجالٌ من قريش ـ وكان الطُّفَيل رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبًا ـ فقالوا له: يا طُفَيْلُ! إنك قدِمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بَيْن أظْهُرنا قد أعْضَل[٢] بنا، قد فرّق بين جماعتنا، وشَتَّتَ أمْرَنا، وإنما قوله كالسِّحْر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نَخْشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه، ولا تسمعن منه شيئًا. قال الطُّفَيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجْمَعتُ على ألاّ أسمعَ منه شيئًا ولا أكلِّمه، حتى حَشَوْت في أذني حين غَدوْت إلى المسجد كُرْسُفًا[٣] فَرَقًا[٤] من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه! قال: فغَدَوْتُ إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائمٌ يصلِّي عند الكعبة، فقمت منه قريبًا، فأبى الله إلاّ أن يُسْمِعني بعضَ قوله، فسمعت كلامًا حَسَنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمِّي؛ والله إنِّي لرجلٌ لبيبٌ شاعر، وما يخفى عليّ الحَسَن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبِلتُه، وإن كان قبيحًا تركتُه، قال: فمكثت حتى أنصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فأتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلتُ: يا محمد إنّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا ـ للذي قالوا ـ فوالله ما برحوا يخوِّفونني أمرَك حتى سَدَدْتُ أذني بكرسُف ألا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسْمِعني قولك، فسمعت قولاً حسنًا، فأعْرِضْ عليّ أمرَك. قال: فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قَطُّ أحْسَنَ منه، ولا أمْرًا أعْدلَ منه، فأسلمتُ، وشهدت شهادة الحقّ، فقلت: يا نبيّ الله! إني امرؤ مُطاعٌ في قومي، وأنا راجع إليهم فداعِيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آية تكون لي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال: «اللهم اجعل له آية»، فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بِثَنِيّة[٥] تطلعني على[٦] الحاضِر وقع نورٌ

---

(١) القارح من الخيل: الذي دخل في سن الخامسة.
(٢) أعضل بنا: أعيانا أمره.
(٣) الكرسف: القطن.
(٤) الفرق: الخوف.
(٥) الثنيّة: الطريق في الجبل.
(٦) الحاضر: أي الحيّ العظيم.

بين عيني مثل المِصْباح؛ قلت: اللهم في غير وجهي! إنّي أخْشَى أن يظنوا أنها مُثْلَة[١] وقعتْ في وجهي لفِراقي دينَهم، قال: فتحوّل النّور فوقع في رَأس سَوْطي، فجعل الحاضِرُ يَتَراءَوْن ذلك النّور في سَوْطي كالقِنْديل المعَلّق، وأنا أهبط إليهم من الثَّنِية حتى جئتهم، فأصْبحتُ فيهم، قال: فلما نزلتُ أتاني أبي وكان شيخًا كبيرًا، فقلتُ: إليك عنّي يا أبتِ، فلستُ منكَ ولستَ منّي، قال: لِمَ يا بنيّ؟ قلت: أسلمتُ وتابعت دين محمد، قال: أي بنيّ! فدِيني دِينُك، قلت: فأذهب وأغتسل، وطهِّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أُعلِّمك مما عُلِّمت، فذهب فأغتسل وطهَّر ثيابه ثم جاء، فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتْني صاحِبتي، فقلتُ: إليكِ عنّي فلستُ منكِ ولستِ منّي، قالت: لم؟ بِأبي أنت وأمّي! قلت: فرّق بيني وبينكِ الإسلام، وتابعتُ دين محمد عليه السلام. قالت: فديني دِينُك، قلت: فأذهبِي إلى حِنَاذِي الشَّرَى ـ قال ابن هشام: ويقال حِمَى ذِي الشَّرَى ـ فتطهَّرِي منه.

قال: وكان ذو الشَّرَى صنمًا لدَوْس، وكان الحِنَا حِمًى حَمَوْه له، وبه وَشَلٌ[٢] من ماء يهْبط من جبل، قال فقالت: بأبي أنت وأمّي، أتخشى على الصّبيّةِ[٣] مِن ذي الشَّرَى شيئًا؟ قلت: لا، أنا ضامن لكِ، قال: فذهبتْ فأغتسلتْ، ثم جاءت، فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعوتُ دَوْسًا إلى الإسلام فأبطؤوا عليّ، ثم جئتُ رسول الله ﷺ بمكة، فقلت له: يا نبيّ الله! إنّه قد غَلَبني على دَوْسٍ الزِّنى، فادعُ الله عليهم، فقال: «اللَّهُمّ اهدِ دَوْسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»، قال: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم أسلموا بعد ذلك، ووَفَدوا على رسول الله ﷺ على ما نذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ فيمن وفد بعدَ الهجرة.

ذِكر وفد نصارى الحبشة
على رسول الله ﷺ وإسلامهم

قال محمد بن إسحاق: قَدِم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عِشرون رجلًا أو قريبٌ من ذلك من النّصارى حين بلغهُم خبرُه من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه، وسألوه ـ ورجالٌ من قُرَيش في أنديتهم حول الكعبة ـ فلما

---

(١) المثلة: العقوبة والتنكيل.
(٢) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.
(٣) الصبيّة: المراد بها زوجة الطفيل.

فرغوا من مسألته ﷺ دعاهم إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمِعوه فاضَت أعينهم من الدّمع، ثم ٱستجابوا لِلّه تعالى وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصَف لهم في كتابِهم من أمْرِه، فلمّا قاموا عنه ٱعترضَهُم أبو جهل بن هشام في نَفَر مِن قريش، فقالوا لهم: خيّبكُم الله من رَكْب! بعثَكُم مَنْ وراءكم من أهل دينكم تَرْتادون لهم لتأتوهم بخَبَر الرّجل، فلم تَطْمَئِنّ مجالسُكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدّقتموه بما قال، ما نعلم رَكْبًا أحمقَ منكم! فقالوا لهم: سلامٌ عليكم لا نجاهِلكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خَيْرًا. ويقال: إن النّفر من أهل نَجْران. والله أعلم. فيقال فيهم أنزل الله قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾ [القصص: ٥٢]. إلى قوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٣]: وقيل: إنما نزلتْ هذه الآياتُ في النّجاشي وأصحابه، والآيات التي في سورة «المائدة» قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢] إلى ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وكان مِمّن وفد على رسول الله ﷺ وهو بمكة الأوْسُ والخَزْرَجُ، وقد تقدم ذكرهم في بَيْعة العَقَبة.

ذكر من وفد على رسول الله ﷺ
بعد الهجرة وقبل الفتح

وَفَد على رسول الله ﷺ بعد الهجرة وقبل فَتْح مكّة: عَبْسٌ، وسَعْدُ العَشيرة، وجُهَيْنَة، ومُزَيْنَة، وسعدُ بن بَكْر، وأشْجَع، وخُشَيْن، والأشْعَرون، وسُلَيْم، ودَوْسٌ، وأسْلَم، وجُذامُ.

ذكر وفد عَبْس

قال محمد بن سعد: وفد على رسول الله ﷺ تِسْعة رَهْط من بني عَبْس فكانوا من المهاجرين الأوّلين، منهم مَيْسَرة بن مسروق، والحارث بن الربيع - وهو الكامل - وقَنان بن دارم، وبِشْر بن الحارث بن عُبادة، وهِدْم بن مَسْعدة، وسِباعُ بن زَيْد، وأبو الحِصْن بن لُقْمان، وعبد الله بن مالك، وفَرْوة بن الحُصَين بن فَضالة فأسلموا؛ فدعا لهم رسول الله ﷺ بخَيْر، وقال: «أبغوني رجلاً يَعْشِركم أعقِدْ لكم لِواءً» فدخل طلحة بن عُبيد الله فعقد لهم لِواء، وجعل شعارَهم: يا عشرة.

وقال من طريق آخر: بلغ رسول الله ﷺ أن عِيرًا لقريش أقبلت من الشام فبعث بني عبس في سرِية وعقد لهم لِواء، فقالوا: يا رسول الله! كيف نقسم غنيمة إن أصبناها ونحن تسعة؟ قال: «أنا عاشركم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم ثلاثة نفرٍ من بني عَبْس على رسول الله ﷺ، فقالوا: إنه قدِم علينا قوم فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هِجرة له، ولنا أموالٌ ومواشٍ هي مَعاشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بِعناها وهاجرنا. فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حيث كنتم، فلن يلِتكم من أعمالكم شيئًا، ولو كنتم بِصَمْدٍ[١] وجازان[٢]».

ذكر وفد سَعْد العَشِيرة

قال محمد بن سعد بسنده إلى عبد الرحمٰن بن أبي سَبْرة الجُعْفيّ قال: لمّا سَمِعتُ سعدُ العشِيرة بخروج النبي ﷺ وثَب ذُباب - رجلٌ من بني أَنسِ الله بن سعد العَشِيرة - إلى صنم يقال له فَرّاص فحطمه، ثم وفد إلى النبيّ ﷺ فأسلم، وقال: [من الطويل]

تَبِعتُ رسولَ الله إذْ جاء بالهُدى ... وخَلَّفْتُ فَرّاصًا بِدارِ هَوانِ
شَدَدْتُ عليْه شَدَّةً فتركْتُه ... كأنْ لم يَكُنْ والدّهْرُ ذو حَدَثانِ[٣]
فلَمّا رأيتُ الله أظْهَرَ دينَه ... أجَبْتُ رسولَ الله حِينَ دَعانِي
فأصبَحْتُ لِلإِسْلام ما عِشْتُ ناصِرًا ... وألْقَيْتُ فيها كَلْكَلي وجِرانِي[٤]
فَمَنْ مُبْلِغٌ سَعْدَ العشِيرةِ أنّني ... شَرَيْتُ الّذي يَبْقى بآخَرَ فانِي

ذكر وفد جُهَيْنَةَ

قال ابن سعد: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة، وَفَد إليه عبد العُزّى بن بدر بن زيد بن معاوية الجُهَنيّ، ومعه أخوه لأمه أبو رَوْعَة وهو ابن عم له، فقال رسول الله ﷺ لعبد العُزّى: «أنت عبد الله» وقال لأبي رَوْعة: «أنت رُعْتَ العَدوّ إن شاء الله» وقال: «من أنتم»؟ قالوا: بنو غَيّان، قال: «أنتم بنو رَشْدان» وكان اسم واديهم غَوى فسماه رسول الله ﷺ رُشْدًا، وقال لجَبَلَيْ جُهينة الأشْعَر والأجْرَد: «هما من جبال الجنة لا

---

(١) الصمد: اسم ماء للضباب.
(٢) جازان: موضع في طريق الحاج من صنعاء.
(٣) حدثان الدهر: نوائبه وحوادثه.
(٤) الكلكل: الصدر. والجران: باطن العنق من ثغرة النحر إلى منتهى العنق في الرأس.

تطؤهما فتنةٌ»، وخَطّ لهم مسجدَهم، وهو أوّل مسجد خُطّ بالمدينة، وجاء من جُهَينة عمرو بن مُرّة الجُهَنيّ. روى عنه محمد بن سعد بسنده إليه قال: كان لنا صَنَمٌ، وكنا نعظِّمه، وكنتُ سادنه(١)، فلما سمعت برسول الله ﷺ كسرتُه، وخرجتُ حتى أقدم المدينة على النبيّ ﷺ، فقدِمْت فأسلَمْتُ وشهدت شهادة الحقّ، وآمنت بما جاء به من حلال وحرام، فذلك حين أقول: [من الطويل]

شَـهِـدتُ بـأنّ الله حَـقٌّ وأنَّـنِـي ... لآلِـهـةِ الأحْـجـارِ أوّلُ تـارِكِ
وشَمَّرْتُ عَنْ ساقِي ٱلإزارَ مُهَاجِرًا ... إلَيْكَ أجُوبُ الوَعْثَ بَعْدَ الدّكادكِ(٢)
لِأَصْحَبَ خَيْرَ النَّاسِ نَفْسًا ووَالِدا ... رَسُولُ مَلِيكِ النَّاسِ فَوْقَ الْحَبائِكِ(٣)

قال: فبعثَه رسول الله ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فأجابوه إلاّ رجلاً واحدًا ردّ عليه قوله، فدعا عليه عمرو بن مُرّة فسَقَط فُوهُ، فما كان يَقدِرُ على الكلام، وعَمِيَ وٱحْتاجَ.

ذكر وفد مُزَيْنَة

وهذا الوفْد هو أوّلُ ما بدأ به محمد بن سَعْد من الوُفُود في طبقاته، فقال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مُضَر أربَعَمائة من مُزَيْنة، وذلك في شهر رَجب سنةَ خمسٍ، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهِجْرة في دارهم وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم فٱرجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم. وقال محمد بن سعدٍ بسنَدٍ يرفعه إلى أبي مِسْكين، وأبي عبد الرحمٰن العَجْلانيّ، قالا: قدِم على رسول الله ﷺ نفرٌ من مُزَيْنة، منهم خُزاعيّ بن عبد نُهْم فبايعه على قومه مزينة، وقدِم معه عشرةٌ منهم، فيهم بِلالُ بن الحارث، والنعمان بن مُقَرّن، ثم خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظنّ فأقام، فدعا رسول الله ﷺ حسّان بن ثابت، فقال: «ٱذكر خُزاعيًا ولا تهجه» فقال حسّان: [من الوافر]

ألاَ أبْـلِـغْ خُـزَاعِـيـا رَسُـولا ... بـأنّ الـذّمَّ يَـغْـسِـلُـهُ الْـوفـاءُ
وأنَّـك خَـيْـرُ عُـثْـمـانَ بْـنِ عَـمْـرِو ... وأسْـنـاهـا إذا ذُكِـرَ الـسَّـنَـاءُ(٤)

---

(١) السادن: خادم المعبد.
(٢) الوعث: الطريق العسر. والدكادك: واحدها دكدك، وهو الغليظ من الأرض.
(٣) الحبائك: واحدتها حبيكة، وهي الطريق إلى النجوم.
(٤) السناء: العلو والرفعة.

وبـايَـعْـتَ الـرّسـول وكـان خَـيْـرًا إلَـى خَـيْـرٍ وآدَاكَ الـثَّـنـاءُ[١]
فـمـا يُـعْـجِـزْكَ أو مـا لا تُـطِـقْـهُ مِـنَ الأشْـيـاءِ لا تَـعْـجِـزْ عِـدَاءُ

قال: و«عِداء» بَطْنُه الذي هو مِنْه. فقام خُزاعيٌّ فقال: يا قومُ! قد خَصّكم شاعرُ الرجل، فأنشُدُكم[٢] الله. قالوا: فإنّا لا نَنْبو[٣] عليك؛ فأسلَموا ووَفَدوا على النبي ﷺ. فدفع رسول الله ﷺ لواء مُزَيْنَة يوم الفتح إلى خُزاعيّ، وكانوا يومئذ ألْفَ رجل.

ذكر وَفْد سَعْد بن بَكْر

قال محمد بن إسحاق: بعثَتْ بنو سعد بن بَكْر إلى رسول الله ﷺ رجلاً منهم يقال له ضِمام بن ثَعْلَبة ـ قال ابن سعْد: في شهر رجب سنة خمس ـ قال ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس: فقَدِم وأناخَ بعيرَه على باب المسْجد ثم عَقَله[٤]، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه. قال: وكان ضِمام رجلاً جَلْدًا[٥] أشْعَرَ ذا غَدِيرتيْن، فأقبلَ حتّى وقَف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيُّكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا ابنُ عبد المطلب». قال: أمُحمَّدٌ؟ قال: «نعم». قال: يا بن عبد المطلب! إني سائلك ومُغْلظٌ عليك في المسألة، فلا تجِد[٦] في نفسك. قال: «لا أجد في نفسي، فاسأل عما بدا لك» قال: أنْشُدكَ اللّهَ إلَهك وإلَهَ من كان قبلك، وإلَهَ مَن هو كائنٌ بعدك، آللّهُ بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللّهمّ نعم» قال: فأنشدُك الله إلهك وإلَه من كان قَبْلك، وإلهَ من هو كائنٌ بعدَك، آلله أمرك أن تأمُرَنا أن نعبدَه وحدَه، لا نشرك به شيئًا، وأن نَخْلَعَ هذه الأنْدادَ التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «اللّهمّ نعم». قال: فأنْشُدُك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائنٍ بعدك، آلله أمرك أن نُصَلِّي هذه الصلاة الخمسَ؟ قال: «نعم»، قال: ثم جعل يذكُر فرائضَ الإسلام فريضةً فريضةً: الزّكاةَ، والصّيام، والحج وشرائعَ الإسلام كلّها، يَنشُده عن كلِّ فريضة منها كما يَنْشدُه في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإنِّي أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وسأُؤدِّي هذه الفرائضَ، وأجتنِبُ ما نهيتَني عنه، ثم لا أزيدُ ولا أنقُصُ، ثم انصرف إلى بعيره راجعًا. فقال رسول الله ﷺ:

(١) آدى الشيء: كثر.
(٢) أنشدكم الله: أي أسألكم وأقسم عليكم.
(٣) لا تنبو عليك: أي لا تمتنع عما تريده منّا.
(٤) عقل البعير: أي شدّ على ساقه حبلاً بعد ثني ركبته.
(٥) الجلد: الصلب الشديد.
(٦) لا تجد: أي لا تغضب.

«إنْ صَدَق ذو العَقِيصَتَينِ[١] دخل الجنة» قال: فأتى بعيره فأطلق عِقَالَه، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أوّل ما تكلم به: بِئْسَت اللاّتُ والعُزّى! فقالوا: مَهْ يا ضِمامُ! اتّقِ البرصَ، اتقِ الجُذام، اتّقِ الجُنون! قال: وَيْلَكم! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران، إن الله قد بعثَ رسولاً وأنزل عليه كتابًا، فاَستَنْقذكم به مما كنتُم فيه، وإني أشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأن محمّدًا عبدُه ورسوله، وقد جئتُكم من عنده بما أمرَكُم به، ونهاكم عنه، قال: فواللّهِ ما أمْسَى من ذلك اليومِ في حاضِرِه رجلٌ أو امرأةٌ إلا مُسْلمًا.

قال: يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوَافِد قَوْم كان أفضلَ من ضِمامِ بن ثَعْلَبَة.

ذكر وفدِ أشْجَعَ

قال: وقَدِمَتْ أشْجَعُ على رسول الله ﷺ عام الْخَنْدَق، وعامُ الْخَنْدَق سنةَ خمْسٍ من الهِجْرة، وهم مائةٌ، رأسُهم مسعود بنُ رُخَيْلَة بن نُوَيْرَة بن طَرِيفٍ، فنزلوا شِعْبَ سَلْع[٢]، فخرج إليهم رسولُ الله ﷺ، وأمر لهم بأحْمال التمر، فقالوا: يا محمد! لا نعلم أحدًا من قومنا أقْرَبَ دارًا منك منّا، ولا أقَلّ عَددًا، وقد ضِقْنا بحَرْبك وبحَرْب قومك، فجئنا نُوَادِعُك، فوادَعَهم.

ويقال: بل قدِمَتْ أشْجَع بعدما فَرَغ رسولُ الله ﷺ من بني قُرَيْظَة، وهم سبعمائة فوادعهم. ثم أسلموا بعد ذلك.

ذكر وفد خُشَيْن

قال أبو عبد الله محمد بن سعد: قَدِمَ أبو ثَعْلَبة الخُشَنِيُّ على رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى خَيْبَر، فأسْلَم وخرج معه فشهد خَيْبَر، ثم قدم بعد ذلك سبعةُ نَفَرٍ من خُشَيْن فنزلوا على أبي ثعلبةَ، فأسلموا وبايعوا ورجعوا إلى قومهم.

---

(١) العقيصتان: الضفيرتان من الشعر.
(٢) سلع: بفتح أوله وسكون ثانيه: جبل بسوق المدينة، وقيل: موضع بقرب المدينة. وقيل أيضًا: حصن بوادي موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر وَفْد الأشْعَرِين

قالوا: وقدم الأشْعَرون على رسول الله ﷺ، وهم خمسون رجلًا؛ منهم أبو موسى الأشْعَري، ومعهم رجلان من عَكّ. وقدموا في سُفُنٍ في البحر، وخرجوا بِجُدَّة، فلما دَنوا من المدينة جَعَلوا يقولون: [من الهزج]

غَـدًا نَـلْـقَـى الأحِـبَّـهْ مُـحَـمَّـدًا وحِـزْبَـهْ

ثم قدموا فوجدوا رسول الله ﷺ في سفره بخَيْبر، فلقُوه ﷺ فبايعوه وأسلموا؛ فقال رسول الله ﷺ: «الأشعرون في الناس كصُرَّة فيها مِسك».

ذِكر وَفْدِ سُلَيْم

قالوا: وقدم على رسول الله ﷺ رجلٌ من بني سُلَيْم، يقال له قَيْس بن نُسَيْبَة، فسمع كلامه، وسأله عن أشياء فأجابه، وَوَعى ذلك كلّه، ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسْلام، فأسلم ورجع إلى قومه، فقال: قد سمعتُ بَرْجَمة[1] الروم، وهَيْنمة[2] فارس، وأشعار العرب، وكَهانة الكاهِن، وكلام مَقاوِل حِمْيَر، فما يُشبه كلامُ محمد شيئًا من كلامهم، فأطيعوني وخذوا بنصيبكم منه. فلما كان عامُ الفتْح خرجتْ بنو سُلَيْم إلى رسول الله ﷺ، فلقُوه بقُدَيْد[3] وهم سبعمائة. ويقال: كانوا ألفًا. وفيهم العباس بن مِرْداس السُّلَمي، وأنَس بن عبّاس بن رِعْل، وراشد بن عبد ربه، فأسلموا وقالوا: اْجعلنا في مقدّمتك، واْجعلْ لِواءَنا أحْمرَ، وشعارُنا مُقدّم، ففعل ذلك بهم. وأعطى رسول الله ﷺ راشدًا رُهاطًا[4] وفيها عَيْنٌ يقال لها عين الرَّسول. قال: وكان راشدٌ يَسْدُنُ[5] صَنَمًا لبني سُلَيْم، فرأى يومًا ثُعْلَبين يبولان عليه، فقال: [من الطويل]

أَرَبٌّ يَـبُـولُ الـثُّـعْـلَـبـان بـرَأْسِـه لقَـدْ ذَلَّ مَـنْ بـالَـتْ عـلـيـه الثَّـعالِـبُ

ثم شدّ عليه فكسره. وأتى النبي ﷺ، فقال له: «ما اسمك»؟ قال: غاوي بن عبد العُزَّى، فقال: «أنت راشد بن عبد ربّه» فأسلم وحَسُن إسلامه وشَهِد الفَتْح. فقال رسول الله ﷺ: «خير بني سليم راشد» وعَقَد له على قومه.

---

(١) برجمةُ الروم: رطانتهم وكلامهم. (٢) الهينمة: الكلام الخفيّ لا يفهم.

(٣) قديد: موضع قرب مكة.

(٤) رهاط: موضع على بعد ثلاث ليال من مكة.

(٥) يسدن الصنم: يخدمه. والسادن: خادم المعبد.

وروى محمد بن سعد أيضًا، عن هشام بن محمد، قال: حدّثني رجلٌ من بني سُلَيم من بني الشَّريد، قال: وَفَد رجل منا يقال له قُدَد بن عمّار على النبي ﷺ، وعاهده على أنْ يأتيه بألف من قومه على الخَيْل؛ وأنْشأ يقول: [من الطويل]

شَدَدت يَمينِي إذْ أَتَيْتُ مُحمّدًا ... بِخَيْرِ يَدٍ شَدّتْ بِحُجْزَةِ مِئْزَرِ[١]
وذاك ٱمْرُؤٌ قاسَمْتهُ نِصْفَ دِينِهِ ... وَأَعْطَيْتُه كَفَّ ٱمْرِىءٍ غَيْرِ أَعْسَرِ

ثم أتى قومَه فأخبرهم الْخبَر، فخرج معه تِسْعُمائة، وخَلّف في الحيِّ مائةً، وأقْبلَ يريد النبيّ ﷺ فنزل به الموتُ، فأوْصى إلى ثلاثة رَهْطٍ من قومه؛ وهم: عباس بن مِرداس وأمَّره على ثلاثمائة، وجَبَّارُ بن الحكم وأمّره على ثلاثمائة، والأخْنَسُ بن يزيد وأمّره على ثلاثمائة. وقال: ٱيتوا هذا الرجل حتى تَقْضوا العَهْد الذي في عنقي ثم مات، فمضوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فقال: «أين الرجل الحسن الوجه، الطويل اللسان، الصادق الأيمان»؟ قالوا: يا رسول الله! دعاه الله فأجابه، وأخبروه خبرَه؛ فقال: «أين تكملة الألف الذين عاهدني عليهم»؟ قالوا: خَلّف مائةً في الحيِّ مخافةَ حرب كان بيننا وبين بني كِنانة، قال: «ٱبعثوا إليها فإنه لا يأتيكم في عامِكم هذا شيءٌ تكرهونه» فبعثوا إليها فأتته بالهَدّة[٢] وعليها المُنقَع بن مالك بن أمية، فشهدوا مع رسول الله ﷺ الفتح وحُنَيْن. وللمنقع يقول العباس بن مِرْداس: [من الكامل]

القائِدُ المائةِ التي وَفَّى بِها ... تِسْعَ المِئِينِ فَتَمّ ألْفٌ أقْرَعُ[٣]

وحكى أبو عمر بن عبد البر في ترجمة خَنْساء بنت عمرو بن الشّريد السُّلَمِيّة الشّاعرة ـ وٱسمها تُماضِر بنت عمرو بن الشَّرِيد بن رَبَاح بن ثَعلبة بن عُصَيّة بن خُفاف بن ٱمرىء القيس بن بُهْثَة بن سُليم ـ أنها قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها من بني سليم فأسلمت معهم. قال: فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يسْتَنْشدها، ويُعجبه شعْرُها، فكانت تُنْشِدُه، وهو يقول: «هِيَهِ يا خُناسِ» ويُومِىء بيده. وشهدت الخَنْساءُ القادِسيَّة مع بنيها الأربعَة. وسنذكر إن شاء الله خبرها معهم يوم القادسية، ووَصيتَها لهم في الحرب في خلافة عمر بن الخطاب، عند ذكرنا لفتح القادسية.

(١) الحجزة: موضع شدّ الإزار من الوسط: أو موضع التكة من السراويل.
(٢) الهدّة: موضع بين مكة والطائف.
(٣) الألف الأقرع من الخيل: أي التامّ.

ذكر وَفد دَوْسٍ

قالوا: لمّا أسلم الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوْسيّ ـ كما تقدم ـ دعا قومه فأسلموا، وقدِمَ معه منهم المدينةَ سبعون أو ثمانون أهْلَ بَيْت. وفيهم أبو هريرة وعبد الله بن أُزَيْهِر الدَّوْسيّ، ورسول الله ﷺ بخَيْبر، فساروا إليه فلقوه هناك، فيقال: إنه قَسَم لهم من غَنائم خَيْبَر، ثم قدموا معه المدينة. فقال الطُّفَيْل بن عمرو: يا رسول الله! لا تُفَرِّق بيني وبين قومي، فأنزلهم حَرَّة الدَّجاج، فقال أبو هريرة حين خرج من دار قومه: [من الطويل]

يـا طُـولَـهـا مِـنْ لَـيْـلَـةٍ وعَـنـائِـهـا ... عـلـى أنّـهـا مِـنْ بَـلْـدَةِ الْـكُـفْـرِ نَـجّـتِ

وقال عبد الله بن أُزَيْهِر: يا رسول الله! إن لي في قومي سُلْطة ومكانًا فاْجعلني عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أخا دوس، إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غَريبًا، فمن صدَق الله نجا، ومن آلَ إلى غير ذلك هلك. إن أعظَم قومِك ثوابًا أعظمُهم صِدْقًا، ويوشِك الحقّ أن يَغْلب الباطلَ».

وروى أبو عمر بسنده إلى محمد بن سِيرِين أنه قال: بلغني أنّ دوسًا إنّما أسلمتْ فَرَقًا[١] من قول كعب بن مالك الأنصاري الخَزْرَجي: [من الوافر]

قَـضَـيْـنـا مِـنْ تِـهـامَـةَ كُـلَّ وَتْـرٍ ... وخَـيْـبَـرَ ثـم أغْـمَـدْنـا الـسُّـيُـوفـا[٢]
نُـخَـيِّـرهـا ولَـوْ نَـطَـقَـتْ لَـقـالَـتْ ... قَـواطِـعُـهُـنَّ: دَوْسًـا أَوْ ثَـقِـيـفَـا[٣]

فقالت دَوْسٌ: انْطَلِقوا فَخُذوا لأنْفُسِكم لا يَنْزِلُ بِكُم ما نَزَل بثَقِيف.

ذكر وفد أسْلَم

قالوا: قَدِم عُمَيْر بن أفْصَى في عِصابة من أَسْلم، فقالوا: لقد آمنا بالله ورسوله، واتّبعنا مِنْهاجك، فاْجعلْ لنا عندك منزلة، تعرفُ العربُ فضيلَتنا، فإنّا إخْوَةُ الأنصار، ولك علينا الوَفاءُ، والنَّصر في الشِّدّة والرَّخاء، فقال رسول الله ﷺ: «أسْلَم سالَمها الله، وغِفارٌ غفر الله لها». وكتب رسول الله ﷺ لأسْلَم، ومَنْ أسْلَمَ من قبائل العَرب ممن يسْكُن السِّيفَ[٤] والسَّهْل كتابًا؛ فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي. وكتب الصّحيفة ثابت بن قَيس، وشهد أبو عبيدة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

---

(١) الفرق: الفزع.
(٢) تهامة: ما انخفض من أرض الحجاز.
(٣) الضمير في «نخيرها» يعود إلى السيوف؛ والمراد لو نطقت السيوف لاختارت حرب دوس أو ثقيف.
(٤) السيف: بكسر السين وتشديدها: ساحل البحر.

ذكر وفْدِ جُذام

قالوا: قدِم رِفاعةُ بن زيد بن عُمَيْر بن مَعْبَد الجُذاميّ، ثم أحد بني الضُّبَيْب على رسول الله ﷺ في الهدنة قبل خيبر، وأهْدَى له عبدًا وأسلم، فكتب له رسول الله ﷺ كتابًا؛ فيه: «هذا كتاب من محمد رسول الله، لرفاعة بن زيد إلى قومه، ومن دخل معهم، يدعوهم إلى الله، فمن أقبل ففي حِزْب الله، ومن أبَى فله أمانُ شهرين» فأجابه قومُه وأسلموا. قال ابن إسحاق وغيره: وبعث فَرْوة بن عمرو بن النَافِرة الجُذَّاميّ، ثم النُّفَاثيّ إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بَغْلة بيضاء، واسم رسوله مسعود بن سعد وهو من قومه، فقرأ رسول الله ﷺ كتابَه، وقبل هديتَه، وأجاز رسوله باثنتي عشرة أُوقيةً ونَش(١)، وكتب إلى فَرْوة جواب كتابه. وكان فَرْوة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله مُعَان(٢) وما حولها من أرض الشام، فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه فحبسوه عندهم؛ فقال: في مَحْبِسه ذلك: [من الكامل]

طَرَقَتْ سُلَيْمى مَوْهِنًا أصحابِي ... والرُّومُ بين البابِ والقِرْوانِ(٣)
صَدَّ الخيالُ وساءه ما قد رأى ... وهَمَمْتُ أن أُغْفِي وقد أبكانِي(٤)
لا تَكْحُلِنّ العينَ بعديَ إثمِدًا ... سَلْمَى ولا تَدْنِنَّ للإتيانِ(٥)
ولقد عَلِمتَ أبا كُبَيْشَةَ أنّني ... وَسْطَ الأعزَّةِ لا يُحَصُّ لسانِي(٦)
فلَئِنْ هَلَكْتُ لتَفقِدُنّ أخاكمُ ... ولئن بَقِيتُ لَتَعرِفُنَّ مكانِي
ولقد جَمَعتُ أجلَّ ما جَمَعَ الفتى ... من جَوْدةٍ وشَجاعةٍ وبيانِ

قال: فلما أجمعت الرُّومُ لصَلْبه على ماء لهم بفِلَسْطِين يقال له عَفْراء قال: [من الطويل]

أَلا هل أتَى سَلْمَى بأنّ حَلِيلَها ... على ماء عَفْرَا فوق إحدى الرَّواحلِ(٧)
على ناقة لَمْ يَضرِبِ الفَحْلُ أمَّها ... مُشَذَّبة أطرافُها بالمناجِلِ

---

(١) النشّ: نصف الأوقية.
(٢) معان: هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء... (معجم البلدان لياقوت).
(٣) الموهن: نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه.
(٤) أغفى: نام نومًا خفيفًا.
(٥) الإثمد: نوع من الكحل.
(٦) حصّ: قطع.
(٧) الرواحل: واحدتها الراحلة، وهي الناقة.

قال: ولما قدّموه ليضربوا عنقه قال: [من الكامل]

أبْلِغْ سَرَاةَ المؤمنين بأنَّني سَلْمٌ لِربِّي أعْظُمِي ومَقَامِي

فضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء.

هذا ما تلخص لنا من أخبار مَن وَفَد بعد الهجرة وقبل الفتح، فلنذكر من وَفَد بعد الفتح.

ذكر من وفد على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة شَرَّفها الله تعالى وعظّمها

ولنبدأ من ذلك بذكر وفد ثَعْلَبة؛ لأنه أوّل وفد كان بعد الفتح. ثم نذكر من وفد في سنة تسعٍ من الهجرة وما بعدها، ونورده نحو ما أورده أبو عبد الله محمد بن سعد في طبقاته، إلا أنا نستثني منهم من قدّمنا ذكره بحكم سابقتهم، وتقدّم إسلامهم.

ذكر وفد ثَعْلَبة

قال أبو عبد الله محمد[١] بن سعد رحمه الله: لمّا قدِم رسول الله ﷺ من الجِعْرانة[٢]، في سنة ثمانٍ من الهجرة، قدِم عليه أربعة نَفَر، وقالوا: نحن رُسل مَن خَلْفنا من قومنا، ونحن وهم مُقِرّون بالإسلام، فأمر لهم رسول الله ﷺ بضيافةٍ، وأقاموا أيامًا ثم جاؤوا ليودّعوه فأمر بلالاً أن يُجِيزهم، كما يُجيز الوفد، فجاء بنُقَرٍ[٣] من فِضّة فأعطى كل رجل منهم خمسَ أواقٍ، وقال: «ليس عندنا دراهم» وانصرفوا إلى بلادهم.

ذكر وفد أسَد

قال محمد بن سعد: قدِم عشرة رَهْط من بني أسَد بن خُزَيمة على رسول الله ﷺ، في أوّل سنة تسع من الهجرة، فيهم حَضْرميّ بن عامر، وضِرار بن

(١) محمد بن سعد: هو ابن منيع الزهري مولاهم، البصري، كاتب الواقدي (أبو عبد الله) محدّث، حافظ. ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وحدث وروى كتب الحديث والغريب والفقه، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هجرية... (معجم المؤلفين ١٠:٢١).

(٢) الجعرانة: موضع ما بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب.

(٣) النقر: السبيكة من الذهب أو الفضة.

الأزور، فقال حَضْرَميّ: يا رسول الله! أتيناك نَتَدرّع[١] الليلَ البهيم[٢]، في سنة شَهْباء[٣]، ولم تَبْعث إلينا بَعْثًا، فنزل فيهم قوله عزّ وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

قال: وكان معهم قوم من بَنِي الزِّنْية وهم بنو مالك بن مالك بن ثَعْلبة بن دُودان بن أسَد، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم بنو الرِّشْدة».

وقال أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبيّ رحمه الله: إنّ نفرًا من بني أسَد، ثم من بني الحلاف بن الحارث بن سعيد، قدِموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جَدْبة، فأظهروا شهادة أن لا إله إلا الله، ولم يكونوا مؤمنين في السِّر، وأفسدوا طرق المدينة بالعَذِرات، وأغْلَوا أسعارها، وكانوا يَغْدون ويَرُوحون على رسول الله ﷺ، ويقولون: أتتك العربُ بأنفسها، على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذَّراريّ - يَمنُّون على رسول الله ﷺ - ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان. ويريدون الصَّدَقة، ويقولون: أعطِنا. فأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] الآيات. وقيل: نزلت في الأعراب: مُزَيْنة، وجُهَيْنة، وأسْلَم، وأشْجَع، وغِفَار. وكانوا يقولون: آمنّا بالله؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى الحُدَيْبية تخلّفوا، فأنزل الله فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي أنقدنا وأستسلمنا مخافة القتل والسَّبْي ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فأخبر تعالى أن حقيقة الإيمان التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللسان، وإظهار شرائعه بالأبدان، لا يكون إيمانًا دون الإخلاص الذي مَحلّه القلب.

ذكر وفد تَمِيم

قال أبو عبد الله محمد بن سعد: كان رسول الله ﷺ قد بعث بِشْر بن سفيان. ويقال: النَّحّام العَدَويّ على صَدَقات بني كعب من خُزَاعة، فجاء وقد حَلَّ بنواحيهم بنو عمرو بن جُنْدب بن العنبر بن عمرو بن تميم، فجمعت خُزَاعة مواشيها للصدقة، فاستنكرت ذلك بنو تميم، وأبوا وأبتدروا القِسِيّ، وشهروا السّيوف، فقدِم المُصدِّق[٤]

---

(١) تدرّع: وصل في الليل يسري. (٢) البهيم: الأسود.
(٣) يقال: سنة شهباء: أي ذات قحط وجدب.
(٤) المصدق: عامل الزكاة يستوفيها من أربابها.

على رسول الله ﷺ فأخبره؛ فقال: «مَن لهؤلاء القوم»؟ فانتدب لهم عُيَيْنة بن حِصْن، فبعثه رسول الله ﷺ في خمسين فارسًا من العرب، ليس فيهم مهاجريّ ولا أنصاريّ فأغار عليهم، فأخذ منهم أحد عشر رجلًا، وإحدى عشرة أمرأة، وثلاثين صبيًا، فجلبهم إلى المدينة، فقدم فيهم عِدّة من رؤساء بني تميم، منهم عُطَارد بن حاجب، والزِّبْرِقان بن بَدْر، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، والأقرع بن حابس، ورياح بن الحارث، وعمرو بن الأهتم، وغيرهم كما ذكرنا ذلك في الغَزَوات في خبر سَرِيّة عُيَيْنة. قال: ويقال: كانوا تسعين أو ثمانين رجلًا.

قال ابن إسحاق: والحُتَات بن يزيد أحد بني دَارِم. قال: ومعهم عُيَينة بن حِصْن بن حُذَيفة بن بَدْر الفَزَارِيّ، قالوا: فدخلوا المسجد وقد أذّن بلالٌ بالظهر؛ والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، فعجِلوا واستبطؤوه، فنادوا رسول الله ﷺ من وراء حُجُراته: يا محمد! اخرج إلينا. فخرج رسول الله ﷺ، وأقام(١) بلال، فصلّى رسول الله ﷺ الظهر، ثم أتَوه؛ فقال الأقرع بن حابس: يا محمد، ائذن لي، فوالله إنّ حَمْدي لَزَينٌ، وإنّ ذَمّي لشَيْنٌ. فقال له رسول الله ﷺ: «كَذبتَ، ذاكَ الله تبارك وتعالى». حكاه ابن سعد.

وحكى محمد بن إسحاق أنهم قالوا: يا محمد، جئناك لنفاخرك، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «قد أذِنتُ لخطيبكم فليقل»، فقام عُطَارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضلُ والمنُّ؛ وهو أهله الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عِظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهلِ المشرق وأكثرَه عددًا، وأيسرَه عُدّة، فمَنْ مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلِهم؟ فمن فاخرنا فليعدِّد مثل ما عَدَّدنا، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا(٢) من الإكثار فيما أعطانا، وإنّا نُعرف بذلك. أقول هذا لأن تأتونا بمثلِ قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا. ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قَيس بن الشَّمّاس أخي بني الحارث بن الخَزْرج: «قُم فأجب الرجل في خُطْبته». فقام ثابت فقال:

الحمد لله الذي السموات والأرضُ خَلْقُه، قضى فيهنّ أمرَه، ووَسِع كرسيُّه علمَه، ولم يك شيء قطّ إلا من فضله، وكان من قُدْرته أن جَعَلنا ملوكًا، واصطفى من خير خَلْقه رسولاً، أكرمه نَسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حَسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه فكان خِيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن

(١) أي أقام الصلاة.

(٢) المراد بقوله «نحيا» نستحي.

برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوي رحِمِه؛ أكرم الناس أحسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فِعالاً. ثم كان أوّلَ الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن؛ فنحن أنصار الله، ووزراء رسول الله ﷺ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله مَنع مالَه ودمَه، ومن كَفَر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قَتلُه علينا يسيرًا.

أقول هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات. والسلام عليكم.

فقام الزِّبْرِقان بن بَدْر، فقال: [من البسيط]

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا ... مِنّا الملوكُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ[1]

ويروى: «وفينا يُقْسَمُ الرُّبُعُ»[2]، بدل «تُنْصب البِيَعُ».

وكَمْ قَسَرْنا من الأحياءِ كُلِّهمُ ... عند النِّهابِ وفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ
ونحن يُطْعِم عند القَحْطِ مُطْعِمُنا ... من الشِّوَاءِ إذا لم يُؤْنس القَزَعُ[3]
بما تَرَى الناسَ تأتينا سَرَاتُهمُ ... من كلِّ أرضٍ هُوِيًّا ثم نَصْطَنِعُ[4]

ويروى:

* مِن كلِّ أرضٍ هَوَانًا ثم نُتَّبَعُ *

فَنَنْحَرُ الْكُومَ عُبْطًا في أرُومَتِنا ... للنّازِلين إذا ما أُنزِلوا شَبِعُوا[5]
فلا تَرانا إلى حَيٍّ نُفاخِرُهمْ ... إلاّ استقادوا وكانوا الرأسَ يُقْتَطَعُ
فمَنْ يُفاخِرُنا في ذاكَ نَعْرِفُهُ ... فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُسْتَمعُ
إنّا أبَيْنا ولم يَأْبَ لنا أحدٌ ... إنّا كذلك عند الفخرِ نَرْتفِعُ

قال محمد بن إسحاق: وكان حسانُ بن ثابت غائبًا، فبعث إليه رسولُ الله ﷺ، فقال حسان: جاءني رسولُه فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول: [من الطويل]

مَنَعْنا رسولَ اللّهِ إذ حَلَّ وَسْطَنا ... على أَنْف راضٍ من مَعَدٍّ وراغم
مَنَعْناه لَمَّا حَلَّ بين بُيوتِنا ... بأسيافِنا مِن كلِّ باغٍ وظالمِ

---

(١) البيع: واحدتها البيعة، وهي كنيسة النصارى، أو مكان العبادة.
(٢) الربع: ربع الغنيمة التي كان يأخذها الرئيس في الجاهلية.
(٣) القزع: قطع من السحاب رقاق. (٤) الهويّ: الإسراع في السير.
(٥) الكوم: جمع الكوماء، وهي الناقة العظيمة السنام. والعبط: التي تنحر لغير علّة.

بِـبَـيْـتِ حَـرِيـدٍ عِـزُّه وثَـرَاؤُهُ بجابيةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأعاجِمِ(١)
هل المجدُ إلاّ السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدَى وجاهُ المُلوكِ واحتمالُ العَظَائمِ(٢)

قال: فلما أنتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، وقام شاعرُ القوم فقال ما قال، عَرضتُ في قوله وقلتُ على نحو ما قال. قال: ولما فرغ الزِّبْرِقان من إنشاده، قال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت: «قُمْ فأجب الرجلَ» فقام حسّان فقال: [من البسيط]

إنّ الذَّوَائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للناسِ تُتَّبَعُ(٣)
يَرْضَى بها كُلُّ من كانت سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الإلهِ وكُلَّ الخيرِ يَصْطَنِعُ(٤)

ويروى:

يَرْضَى بها كُلُّ مَنْ كانت سَرِيرتُهُ تَقْوَى الإلهِ وبالأمر الذي شَرَعُوا(٥)
قَومٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدوَّهُمُ أو حاولُوا النَّفْعَ في أشْياعِهِمْ نَفَعُوا(٦)
سَجِيَّةٌ تلكَ منهم غيرُ مُحْدَثَةٍ إنَّ الخلائقَ فاْعلم شَرُّها البِدَعُ(٧)
إنْ كان في الناسِ سَبَّاقُون بَعْدَهُمُ فكُلُّ سبقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لا يَرْقعُ النَّاسُ ما أوْهَتْ أكُفُّهُمُ عند الرِّقاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا(٨)
إنْ سابَقُوا الناسَ يومًا فاز سَبْقُهمُ أو وَازَنُوا أهلَ مَجْدٍ بالنُّدَى مَتَعُوا(٩)
أعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهمْ لا يَطْبَعُونَ ولا يُرْدِيهِمُ طَمَعُ(١٠)
لا يَبْخَلُون على جارٍ بفضلِهِمُ ولا يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ(١١)
إذا نَصَبْنَا لِحيٍّ لا نَدِبُّ لَهُمْ كما يَدِبُّ إلى الوحْشِيَّةِ الذَّرَعُ(١٢)
نَسْمُو إذا الحربُ نالتنا مَخَالِبُها إذا الزَّعانِفُ من أظفارها خَشَعُوا(١٣)
لا يَفْخَرُون إذا نالوا عَدوَّهُمُ وإنْ أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ(١٤)

(١) البيت الحريد: المنفرد عن البيوت. (٢) السؤدد العود: القديم.
(٣) الذوائب: الأعالي. وذوائب القوم: ساداتهم.
(٤) السريرة: أي ما تسرّ وتخفيه. (٥) شرعوا بالأمر: بدأوا به.
(٦) الأشياع: الأتباع والأنصار.
(٧) البدع: جمع بدعة، والمراد بها هنا مستحدث الأخلاق.
(٨) أوهت: شقت وفتقت. (٩) متعوا: زادوا.
(١٠) يطبعون: يتدنسون. (١١) الطبع: العيب والدنس.
(١٢) الذرع: ولد البقرة الوحشية. (١٣) الزعانف من الناس: السفلة.
(١٤) الخور: الضعفاء.

كأنهم في الوَغَى والموتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِحَلْيَةَ في أرْسَاغِها فَدَعُ[١]
خُذْ مِنْهُمُ ما أتَى عَفْوًا إذا غَضِبُوا ... ولا يَكُنْ هَمُّكَ الأمْرَ الذي مَنَعُوا[٢]
فإنَّ في حَرْبِهِمْ فاترك عَداوتَهُمْ ... شَرًّا يُخَاضُ عليهِ السَّمُّ والسَّلَعُ[٣]
أكْرِم بِقومٍ رسولُ اللّهِ شِيعَتُهُمْ ... إذا تَفَاوَتَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ
أهْدَى لهم مِدْحَتِي قَلْبٌ يُؤازِرُهُ ... فيما أحِبُّ لِسانٌ حائكٌ صَنَعُ[٤]
فإنَّهم أفْضَلُ الأحياءِ كلِّهِمُ ... إنْ جَدَّ بالناسِ جِدُّ القولِ أو شَمَعُوا[٥]

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام[٦] رحمه الله: حدّثني بعض أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزِّبْرقان بن بَدْرٍ لمّا قدِم على رسول الله ﷺ في وفدِ بني تميم، قام فقال: [من الطويل]

أتيناكَ كَيْما يَعْلَمَ الناسُ فَضْلَنا ... إذا ٱختلفوا عِند ٱحتِضارِ المواسِم
بِأنّا فروعُ الناسِ في كلِّ مَوْطِنٍ ... وأنْ ليس في أرضِ الحجازِ كَدَارِمِ[٧]
وأنّا نَذُودُ المُعْلِمينَ إذا ٱنتخَوْا ... ونَضرِبُ رأسَ الأصْيَدِ المتفاقِمِ[٨]
وأنَّ لنا المِرْباعَ في كلِّ غارةٍ ... نُغِيرُ بنجدٍ أو بِأرضِ الأعاجِمِ[٩]

فقام حسان بن ثابت فأجابه، فقال: [من الطويل]

هَلِ المَجْدُ إلاّ السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وجاهُ الملوكِ وٱحتمالُ العَظَائِمِ
نَصَرْنا وآوَيْنا النَّبيَّ محمدًا ... على أنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
بِحَيٍّ حَرِيدٍ أصلُه وثَراؤهُ ... بِجابِيَةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأعاجِمِ
نَصَرْناه لَمَّا حَلَّ وَسْطَ دِيارنا ... بِأسيافِنا مِن كلِّ باغٍ وظالِمِ

---

(١) الموت مكتنع: دان قريب. والفدع: عوج وميل في المفاصل.

(٢) عفوًا: أي من غير مشقة. (٣) السلع: شجر مرّ.

(٤) اللسان الصنع: يراد به الذي يحسن القول.

(٥) شمعوا: ضحكوا وهزلوا.

(٦) عبد الملك بن هشام: هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. مشهور يحمل العلم، متقدم في علم النسب والنحو، وهو من مصر وأصله من البصرة، وله كتاب في أنساب حمير وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب. توفي في سنة ٢١٣هـ. . . (وفيات الأعيان ٣: ٢٧٧).

(٧) دارم: حيّ من تميم.

(٨) المعلمون: الذين يتخذون لأنفسهم علامة في الحرب يعرفون بها.

(٩) والمراد بنجد: أرض العرب.

جَعَلْنَا بَنِينَا دُونَهُ وبَنَاتِنَا وطِبْنَا له نَفْسًا بِفَيْءِ المَغَانِم(١)
ونحن ضَرَبْنَا الناسَ حتّى تَتَابَعُوا على دِينِهِ بالمُرْهَفاتِ الصَّوارِمِ(٢)
ونحن وَلَدْنا من قريشٍ عظيمَها وَلَدْنا نبيَّ الخير مِنْ آلِ هاشِمِ
بَنِي دارِمٍ لا تَفْخَرُوا إنّ فخرَكُمْ يَعودُ وَبَالاً عند ذِكرِ المكارِمِ
هَبِلْتم، علينا تَفْخَرُون وأنتُم لَنَا خَوَلٌ من بَيْنِ ظِئْرٍ وخادِمِ(٣)
فإنْ كُنتُمُ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمائِكُمْ وأموالِكُمْ أن تُقْسَمُوا في المقاسِمِ
فلا تَجعلُوا لِلّهِ نِدًّا وأسْلِمُوا ولا تَلْبَسُوا زِيًّا كَزِيّ الأعاجِمِ
وأفْضَلُ ما نِلتُمْ مِن المجدِ والعُلاَ رِدافَتُنا عِند ٱحْتضارِ المَوَاسِمِ(٤)

قالوا: فلما فرغ حسّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأَبِي، إنّ هذا الرجلَ لَمُؤَتًّى له، لَخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولَشاعرُه أشعرُ من شاعرنا، ولَأصواتهم أعلى من أصواتنا، ولَهم أحلمُ مِنّا. ونزل في وفدِ بني تميم قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

قال محمد بن سعد: وقال رسول الله ﷺ في قيس بن عاصم: «هذا سيّدُ أهلِ الوَبَرِ» وردّ عليهم الأسرى والسَّبْي، وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد؛ ثنتي عشرة أوقِية ونَشًّا، وهي خمسمائة درهم.

قال ٱبن إسحاق: وكان عَمرو بن الأهتم قد خَلَّفه القومُ في ظَهْرِهم(٥)، وكان أصغرَهم سِنًّا، فقال قيس بن عاصم، وكان يبغض عمرو بن الأهتم: يا رسول الله! إنه قد كان رجل منّا في رِحالنا وهو غلام حَدَث، وأزْرى به، فأعطاه رسولُ الله ﷺ مثل ما أعطى القوم، فبلغ عَمرو بن الأهتم ما قاله قيس فيه؛ فقال: [من البسيط]

ظَلِلْتَ مُفْترِشَ الْهَلْباءِ تَشْتُمنِي عِندَ النبيِّ فلَمْ تَصْدُقْ ولَمْ تُصِبِ(٦)
إنْ تَنْقُصونَا فإنَّ الرُّومَ أصلُكُمُ والرُّومُ لا تَمْلِكُ البغضاءَ للعَرَبِ
وإنَّ سُودَدَنَا عَوْدٌ وسُودَدكم مُؤَخَّرٌ عندَ أصلِ العَجْبِ والذَّنَبِ(٧)

(١) الفيء: الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة.
(٢) الصوارم: السيوف التي تصرم الأعمار.
(٣) الخول: الرعاة والأتباع. والظئر: التي ترضع ولد غيرها.
(٤) ردافة القوم: الذين هم تبع لهم.
(٥) المراد بالظهر: الإبل.
(٦) الهلباء: يراد بها أسته.
(٧) العجب: أصل الذنب.

وروي أن الزِّبْرقان فَخَر يومئذ فقال:

يا رسول الله، أنا سيّدُ تميم، والمطاعُ فيهم، والمجابُ منهم، آخذُ لهم بحقوقهم، وأمنعُهم من الظّلم، وهذا يعلم ذلك. وأشار إلى عَمرو بن الأهتم. فقال عَمرو: إنه شديدُ العارضة، مانعٌ لجانبه، مطاعٌ في أدَانِيه. فقال الزِّبْرِقان: والله لقد كَذَب يا رسول الله، وما منعه من أن يتكلم إلا الحسد.

فقال عَمرو: أنا أحسدك؟! فوالله إنّكَ لَئيمُ الخال، حديثُ المال، أحمقُ الولد، مُبغضٌ في العشيرة، واللّهِ ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية.

فقال رسول الله ﷺ: «إنّ من البيان لَسِحْرًا».

ذكر وفد فَزَارة
وٱستسقاء رسول الله ﷺ لهم

قال ٱبن سعد: لمّا رجع رسولُ الله ﷺ من تَبُوك، قدِم عليه وفدُ بني فَزَارة، بضعة عشر رجلًا؛ فيهم خارجةُ بن حِصْن، والحُرُّ بن قيس بن حِصْن، وهو أصغرهم، على رِكابٍ عِجافٍ، فجاؤوا مُقرِّين بالإسلام. وسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقالوا: يا رسول الله، أسْنَتَتْ[1] بلادُنا، وهَلَكتْ مواشينا، وأجْدبَ جَنابُنا، وغَرِث[2] عِيالُنا، فادع لنا ربك. فصعد رسولُ الله ﷺ المِنبر ودعا، فقال: «اللّهمّ ٱسْقِ بلادَكَ وبهائمَكَ، وٱنشر رحمتَكَ، فأَحْيِ بلدَكَ الميت، اللهم ٱسقنا غَيْثًا[3] مُغِيثًا، مَرِيئًا[4] مَرِيعًا[5]، مُطْبِقًا[6] واسعًا، عاجلًا غيرَ آجل، نافعًا غيرَ ضارّ. اللّهمَّ ٱسْقِنا سُقْيَا رَحمةٍ، لا سُقْيا عذابٍ ولا هَدْمٍ ولا غَرَقٍ ولا مَحْقٍ. اللّهمَّ ٱسْقِنا الغيثَ وٱنصرنا على الأعداء» فَمَطرت، فما رَأوا السماء سِتًّا، فصَعِد رسولُ الله ﷺ الْمِنبر، فدعا، فقال: «اللّهمَّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا، على الآكام والظِّرَابِ[7]، وبُطونِ الأودية، ومَنابتِ الشَّجَر». قال: فانجابت[8] السماءُ عن المدينة ٱنجياب الثوب.

وفي صحيح البخاريّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصابت الناسَ سَنَةٌ على عهد رسول الله ﷺ، فبينا رسولُ الله ﷺ يخطب على المِنبر يوم الجمعة، قام

(١) أسنتت: أجدبت.
(٢) غرث العيال: جاعوا.
(٣) الغيث: المطر بقدر ما ينفع.
(٤) مريء: هنيء.
(٥) المريع: المخصب.
(٦) المطبق: العام.
(٧) الظراب: المرتفعات.
(٨) انجابت السماء: أي انكشفت.

أعرابي فقال: يا رسول الله، هَلَك المالُ، وجاع العيالُ، فٱدع الله لنا أنْ يَسْقينَا، فرفع رسول الله ﷺ يديه، وما في السماء قَزَعةٌ[(١)] سحابٍ، قال: فثار سحابٌ أمثالُ الجبال، ثم لَمْ ينزل عن مِنبره حتى رأيتُ المطر يَتَحادر على لحيته، قال: فمُطِرنا يومَنا ذلك، ومن الغد، ومن بعد الغَد والذي يليه إلى الجمعة الأخرى. فقام ذلك الأعرابي ـ أو رجلٌ غيره ـ فقال: يا رسول الله، تَهدّمَ البناءُ، وغَرق المالُ، فٱدع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «اللّهمّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا» قال: فما جعل يُشِير بيديه إلى ناحية من السماء إلاّ تَفرَّجت، حتى صارت المدينة في مثل الجَوْبة[(٢)]، حتى سال الوادي وادي[(٣)] قَنَاة شهرًا. قال: فلم يأت أحدٌ من جهة إلا حَدَّث بالجَوْد[(٤)].

ذكر وفد مُرَّة

قال: قدِم وفدُ بني مُرَّة على رسول الله ﷺ عند مَرْجِعه من تَبُوك في سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلًا، رأسهم الحارث بن عوف؛ فقالوا: يا رسول الله، إنّا قومُكَ وعشيرتُك، ونحن قوم من لُؤيّ بن غالب. فتبسّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «أين تركتَ أهلَك»؟ قال: بسَلاَح[(٥)] وما والاها. قال: «كيف تركتَ البلاد»؟ قال: واللّهِ إنّا لَمُسْنِتون[(٦)]، فٱدع الله لنا. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ أسقِهم الغيثَ» وأمر بِلالاً أنْ يُجيزهم، فأجازهم بعشرة أواقٍ، عشرةِ أواقِ فضّة، وفَضَّل الحارثَ بن عوف، أعطاه ثنتي عشرة أوقيةً، فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مُطِرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﷺ.

ذكر وفد مُحَارب

قال: قَدِم وفد مُحَارب على رسول الله ﷺ في سنة عشر، في حجّة الوَداع، وهم عشرة نَفَر، منهم سَواء بن الحارث، وٱبنه خُزَيمة بن سَواء، فأُنزلوا دارَ رَمْلةِ بنت الحارث، وكان بلال يأتيهم بغَداء وعَشَاء؛ فأسلموا وقالوا: نحن على مَن وراءنا، ولم يكن أحد في تلك المواسم أفظَّ ولا أغلظَ على رسول الله ﷺ من بني مُحَارب. قال: ومَسَح رسولُ الله ﷺ وجهَ خُزَيمة بن سَواء، فصارت له غُرّة بيضاء، وأجازهم كما يُجيز الوفد، وٱنصرفوا إلى أهليهم.

---

(١) القزعة: القطعة من الغيم.
(٢) الجوبة: الحفرة المستديرة الواسعة.
(٣) وادي قناة: واد من أودية المدينة عليه حرث ومزارع.
(٤) الجود: المطر الكثير.
(٥) سلاح: ماء لبني كلاب.
(٦) المستون: الذين أصابهم القحط والجدب.

ذكر وفد كِلاب

قال: قَدِم وفدُ كِلاب على رسول الله ﷺ في سنة تسع من الهجرة، وهم ثلاثة عشر رجلاً، فيهم لَبِيد بن ربيعة، وجَبَّار بن سَلْمى، فأنزلهم دارَ رَمْلة بنت الحارث، فقالوا: يا رسول الله، إنّ الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله، وبسنّتك التي أمرتَه، وإنّه دعانا إلى الله، فاستجبنا لله ولرسوله، وإنّه أخذ الصَّدَقة من أغنيائنا فردّها على فقرائنا.

ذكر وفد رُؤاس بن كلاب

رُوِي عن أبي نُفَيْع طارق بن عَلْقمة الرؤاسيّ أنه قال: قَدِم رجلٌ منّا يقال له عمرو بن مالك بن قيس الرُّؤاسيّ على النبي ﷺ فأسلم، ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا: حتى نُصِيب من بني عُقَيل بن كعب مثل ما أصابوا منّا، فخرجوا يريدونهم، وخرج معهم عمرو بن مالك فأصابوا فيهم، ثم خرجوا يسوقون النَّعَم[1]، فأدركهم فارسٌ من بني عُقَيل، يقال له ربيعة بن الْمُنْتَفِق بن عامر بن عُقَيل، وهو يقول:

أقْسَمْتُ لا أطْعَنُ إلاّ فارسَا ... إذا الكُماةُ لَبِسُوا القَوانِسَا[2]

قال أبو نُفَيع: فقلتُ نجوتُم يا معشر الرَّجَّالة سائرَ اليوم، فأدرك العُقَيْليُّ رجلاً من بني عبيد بن رُؤَاس: يقال له المُحَرِّش بن عبد الله بن عمرو بن عبيد بن رُؤَاس، فطعنه في عَضُده فأخبلها[3]، فاعتنق المُحَرِّش فرسه، وقال: يا آل رؤاس! فقال ربيعة: رُؤاسٌ خيلٌ أو أُناس؟! فعَطَف على ربيعة عَمرو بن مالك فطعنه فقتله. قال: ثم خرجنا نسوق النَّعَم، وأقبل بنو عُقَيل في طلبنا حتى انتهينا إلى تُرَبَة[4]، فقطع ما بيننا وبينهم وادي تُرَبَة، فجعل بنو عُقَيل ينظرون إلينا فلا يصلون إلى شيء فمضينا. قال عمرو بن مالك: فأسقط في يدي، وقلت: قَتلتُ رجلاً، وقد أسلمتُ وبايعتُ النبي ﷺ! فشددتُ يدي في غُلٍّ[5] إلى عنقي، ثم خرجت أريد النبي ﷺ، وقد بلغه ذلك، فقال: «لئن أتاني لأضربنّ ما فوق الغُلّ من يده» قال: فأطلقت يدي، ثم أتيتُه

(١) النعم: الإبل.
(٢) القوانس: بيضات الحديد تلبس في الحرب.
(٣) الخبل: فساد الأعضاء.
(٤) تربة: واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها.
(٥) الغلّ: القيد.

فسلّمتُ عليه فأعرض عنّي فأتيته عن يمينه فأعرض عنّي، فأتيته عن يساره فأعرض عنّي، فأتيته من قبل وجهه، فقلت: يا رسول الله، إن الربَّ ليُتَرضَّى فيَرْضَى، فأَرض عنّي رضي الله عنك. قال: «قد رَضِيتُ عنك».

ذِكر وفدِ عُقيلِ بنِ كعبٍ

قال محمد بن السّائب: حدّثنا رجل من بني عُقَيل بن كعب، عن أشياخ قومه، قالوا: وَفَد منّا من بني عُقَيل بن كعب على رسول الله ﷺ ربيعُ بن معاوية بن خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل، ومُطَرِّف بن عبد الله، وأنس بن قيس بن المُنْتَفِق، فبايعوا وأسلموا، وبايعوه على مَن وراءهم من قومهم، فأعطاهم رسول الله ﷺ العَقِيق عَقِيق بني عُقَيل، وهي أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابًا في أديم[١] أحمر: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما أعطى محمد رسول الله رَبيعًا ومُطَرِّفًا وأَنَسًا؛ أعطاهم العَقِيق ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وسمعوا وأطاعوا». ولم يعطهم حقًّا لمسلم، وكان الكتاب في يد مُطَرِّف. ووفد عليه أيضًا لَقِيط بن عامر بن المُنْتَفِق بن عامر بن عُقَيل، فأعطاه ماء يقال له النَّظيم وبايعه على قومه.

قال: وقدِم عليه أبو حرب بن خُوَيلد بن عامر بن عُقَيل، فقرأ رسولُ الله ﷺ عليه القرآن، وعَرَض عليه الإسلام، فقال: أَمَا وَايمُ اللّهِ لقد لَقِيتَ اللّهَ أو لقيتَ من لَقِيه، فإنّك لتَقولُ قولاً لا نُحْسن مثلَه، ولكن سوف أضرب بقِداحي هذه على ما تدعوني إليه، وعلى دِيني الذي أنا عليه، وضَرَب بالقِداح، فخرج على سهم الكفر، ثم أعاد فخرج عليه ثلاث مَرّات. فقال لرسول الله ﷺ: أَبَى هذا إلاّ ما تَرَى، ثم رجع إلى أخيه عِقَال بن خُوَيلد، فقال له: قَلَّ خَيْسُكَ. أي قَلَّ خَيرُك. فقال: هل لك في محمد بن عبد الله؟ يدعو إلى دين الإسلام، ويقرأ القرآن، وقد أعطاني العَقِيق إن أنا أسلمتُ، فقال له عِقَال: أنا والله أَخُطُّك أكثرَ مما يَخُطُّك محمد، ثم ركب فرسه وجَرَّ رُمْحَه على أسفل العَقِيق، فأخذ أسفله وما فيه من عَيْن، ثم إنّ عِقَالاً قَدِم على رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام، وجعل يقول له: «أتشهد أن محمدًا رسول الله»؟ فيقول: أشهد أن هُبيرة بن النُّفَاضة نِعم الفارسُ يوم قَرْني لَبَان[٢]. ثم قال: «أتشهد أن محمدًا رسول الله»؟ قال: «أشهد أنّ الصَّريح[٣] تَحتَ الرُّغْوة»[٤]، ثم قال له الثالثة: «أتشهد»؟ قال: فشهد وأسلم.

---

(١) الأديم: الجلد.
(٢) لبان: بلدة بأرض مهرة بأقصى اليمن.
(٣) الصريح من اللبن: المحض الخالص.
(٤) الرغوة: الزبد. والمراد أن الأمر مغطى عليك وسيبدو لك.

قال: ثم قَدِم على رسول الله ﷺ الحُصَين بن المُعَلَّى بن ربيعة بن عُقَيل، وذو الْجَوْشَن الضِّبَابِيّ فأسلما.

ذكر وفدِ جَعْدة

قال محمد بن سعد: وَفَد على رسول الله ﷺ الرُّقَاد بن عمرو بن ربيعة بن جَعْدة بن كعب، فأعطاه ﷺ بالفَلَج[١] ضَيْعة، وكتب له كتابًا وهو عندهم.

ذكر وفدِ قُشَيْر بن كعبٍ

قال: وَفَد على رسول الله ﷺ نَفَرٌ من بني قُشَيْر، قبل حجة الوَداع وبعد حُنَين، فيهم ثَوْر بن عَزْرة بن عبد الله بن سَلَمة بن قُشَيْر فأسلم، فأقطعه رسولُ الله ﷺ قطيعةً[٢]، وكتب له بها كتابًا. وفيهم حَيْدة بن معاوية بن قُشَير، وفيهم قُرَّة بن هُبَيرة بن سَلَمة الخيرِ بن قُشَير فأسلم، فأعطاه رسول الله ﷺ، وكساه بُرْدًا، وأمره أن يَتصدّق على قومه؛ أي يَلِي الصدقة.

ذكر وفدِ بني البَكّاء

قال: وَفَد ثلاثة نَفَر من بني البَكّاء على رسول الله ﷺ في سنة تسع، فيهم معاوية بن ثَوْر بن عُبَادة بن البَكّاء، وهو يومئذ ابن مائة سنة، ومعه ابن له يقال له بِشْر، والفُجَيْع بن عبد الله، ومعهم عبد عمرو البَكَّائي وهو الأصمّ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن، وكتب له بمائه الذي أسلم عليه «ذِي القَصَّة»[٣]. وكان عبد الرحمٰن من أصحاب الصُّفَّة[٤]، فأنزلهم رسول الله ﷺ بمنزلٍ وضيافة، وأجازهم ورجعوا إلى قومهم.

وقال معاوية للنبي ﷺ: إني أتبرك بِمسِّك وقد كبرتُ، وابني هذا بَرٌّ بي فامسح وجهه، فمسح رسولُ الله ﷺ وجهَ بِشر بن معاوية، وأعطاه أعْنُزًا عُفْرًا[٥]، وبَرَّك

---

(١) الفلج: مدينة بأرض اليمامة.

(٢) القطيعة: الجزء من الأرض يملكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحة. جمع قطائع.

(٣) القصّة: الماء.

(٤) الصفّة: الظلة؛ وأصحاب الصفة: الفقراء منهم الذين كانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة.

(٥) العفراء: الخالصة البياض.

عليهنّ، وكانت السَّنة[١] تُصِيب بني البَكَّاء ولا تُصِيبهم، وفي ذلك يقول محمد بن بِشْر بن معاوية: [من الكامل]

وأبِي الذي مَسَح الرسولُ برأسه ودعا له بالخير والبركات
أعطاه أحمدُ إذ أتاه أعْنُزًا عُفْرًا نواجل لَسْنَ باللَّجَباتِ[٢]
يَملأْنَ رِفْدَ الحيّ كلَّ عَشِيَّةٍ ويعودُ ذاكَ المَلْءُ بالغَدواتِ[٣]
بُوركْنَ مِنْ مَنْحٍ وبُورِكَ مانحًا وعليه مِنّي ما حَييتُ صَلاتِي

ذكر وفد كنانة وبني عبد بن عديّ

قالوا: وَفَد واثِلَةُ بن الأسْقَع الليثيّ على رسول الله ﷺ بالمدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تَبُوك، فصلّى معه الصّبح، فقال: «مَن أنت؟ وما جاء بك؟ وما حاجتك»؟ فأخبره عن نَسَبه، وقال: أتيتك لأؤمن بالله ورسوله؛ فقال رسول الله: «فبايعْ على ما أحْببتَ وكرِهتَ». فبايعه ورجع إلى أهله فأخبرهم؛ فقال أبوه: واللّهِ لا أكلّمك كلمةً أبدًا، وسمعت أخته كلامَه فأسلمت وجَهَّزته، فخرج راجعًا إلى رسول الله ﷺ، فوجده قد سار إلى تَبُوك. فقال: مَنْ يَحملُني عُقْبةً[٤] وله سَهْمي؟ فحمله كَعْب بن عُجْرة حتى لحق برسول الله ﷺ، وشهد معه تَبُوك. وبعثه رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِر، فجاء بسهمه إلى كَعْب بن عُجْرة، فأبى أن يقبله وسَوَّغه إياه، وقال: إنما حملتك لله تعالى.

قال: وقَدِم على رسول الله ﷺ وَفْد بني عبد بن عَدِي، وفيهم الحارث بن أُهْبان، وعُوَيْمر بن الأخْرَم، وحبيب وربيعة ابْنا مَلَّة، ومعهم رَهْط من قومهم؛ فقالوا: يا محمد، نحن أهل الحَرَم وساكنوه، وأعزّ من به، ونحن لا نريد قتالك، ولو قاتلتَ غير قريش قاتلنا معك، ولكنا لا نقاتل قريشًا. وإنا لنحبك ومَن أنت منه، فإن أصبت منّا أحدًا خطأ فعليك ديته، وإن أصبنا أحدًا من أصحابك فعلينا ديته. فقال: «نعم» فأسلموا.

---

(١) السنة: الجدب والقحط.
(٢) نواجل: كريمة النسب. واللجبات: واحدتها لجبة، وهي النعجة أو العنز التي قلّ لبنها.
(٣) الرفد: القدح الضخم.
(٤) العقبة: النوبة، وتعاقب المسافران على الدابة، إذا ركب كل منهما عقبة.

ذكر وفد باهِلة

قال: وقَدِم على رسول الله ﷺ مُطَرِّف بن الكاهِن الباهليّ بعد الفتح وافدًا لقومه، فأسلم وأخذ لقومه أمانًا، وكتب له رسول الله ﷺ كتابًا فيه فرائض الصّدقات.

ثم قدم نَهْشَل بن مالك الوائليّ من باهِلة على رسول الله ﷺ وافِدًا لقومه، فأسلم وكتب له رسول الله ﷺ، ولمن أسلم من قومه كتابًا فيه شرائع الإسلام. كتبه عثمان بن عفّان.

ذكر وفد هلال بن عامر

قالوا: قَدِم على رسول الله ﷺ نَفَرٌ من بني هلال، فيهم عبد عوف بن أصْرَم بن عمرو بن شُعَيْثة فأسلم؛ فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله. وفيهم قُبَيصة بن المُخارق، فقال: يا رسول الله، إنّي حملت عن قومي حَمَالة[1] فأعِنِّي فيها؛ قال: «هي لك في الصَّدَقات إذا جاءت».

قالوا: ووَفَد زياد بن عبد الله بن مالك، فلما دخل المدينة، توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ، وكانت خالة زياد ـ أمّه عَزَّة بنت الحارث، وهو يومئذ شاب ـ فدخل النبيّ ﷺ وهو عندها، فلما رآه غضب ورجع، فقالت: يا رسول الله، هذا ٱبن أختي، فدخل إليها ثم خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد، فصلّى الظهر، ثم أدنى زيادًا فدعا له، ووضع يده على رأسه، ثم حَدَرها[2] على طَرَف أنفه. فكانت بنو هلال تقول: ما زلنا نَتعرَّف البركة في وجه زياد. قال الشاعر لعليّ بن زياد: [من الكامل]

يـاٱبـن الـذي مَـسَـح الـنـبـيُّ بـرأسِـهِ ودعـا لـه بـالـخـير عـنـدَ الـمـسـجـدِ
أَعْـنِـي زيـادًا لا أريـدُ سـواءهُ مـن غـائـرٍ أو مُـتْـهِـم أو مُـنْـجِـدِ[3]
مـا زال ذاك الـنـورُ فـي عِـرْنـيـنـهِ حـتـى تَـبـوَّأ بـيـتَـهُ فـي الـمَـلْـحَـدِ[4]

---

(١) الحمالة: الكفالة. (٢) حدرها: أنزلها.
(٣) يقال: غار الرجل: إذا سار في بلاد الغور، وأتهم: إذا أتى أرض تهامة، وأنجد: إذا أتى أرض نجد.
(٤) العرنين: أول كل شيء. أو ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.

ذكر وفد عامر بن صَعْصَعة
وخبر عامر بن الطفيل وأرْبَد بن قيس

قال محمد بن سعد: قدِم عامر بن الطُّفَيل بن مالك بن جعفر بن كلاب، وأرْبَد بن ربيعة بن مالك بن جعفر. قال ٱبن إسحاق: وأربَد بن قيس بن جَزْء بن خالد بن جعفر، وجَبَّار بن سَلْمَى بن مالك بن جعفر على رسول الله ﷺ. قال ٱبن سعد: فقال عامر بن الطُّفَيل: يا محمد، ما لي إنْ أسلمتُ؟ قال: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذلك لك ولا لقومك» قال: أفتجعل لي الوَبَر[1] ولك المَدَر[2]؟ قال: «لا، ولكنّي أجعل لك أعِنّة الخيل، فإنك ٱمرؤ فارس» قال: أوَليست لي؟! لأملأنها عليك خَيْلاً ورَجْلاً. ثم وَلَّيَا؛ فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ ٱكفنيهما، اللهمّ وٱهدِ بني عامر وأغن الإسلام عن عامر» - يعني ٱبن الطُّفَيل -.

وقال ٱبن إسحاق: قَدِم عامر بن الطُّفَيْل على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم، فقال: والله لقد كنت آلَيْتُ ألاّ أنتهيَ حتّى تتبعَ العربُ عَقِبي، وأنا أتبع عَقِب هذا الفتى من قريش! ثم قال لأرْبَد بن قيس: إذا قدِمنا على الرجل فإني سأشغَل عنك وجهَه، فإذا فعلتُ ذلك فٱعْلُه بالسيف. فلما قَدِموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطُّفَيل. يا محمد، خالّني[3]. قال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحدَه»، فجعل يكرر هذا القول ورسول الله ﷺ يعيد عليه مقالته، وهو في ذلك ينتظر من أرْبَد ما أمره به، فلم يصنع أرْبَد شيئًا، وكان آخر ما قال لرسول الله ﷺ: أما والله لأملأنّها عليك خَيْلاً ورَجْلاً، فلما وَلَّى قال رسول الله ﷺ: «اللهم ٱكفِني عامر بن الطُّفَيل» فلما خرجوا من عنده قال عامر لأرْبد: ويلك! أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وايمُ اللّهِ لا أخافك بعد اليوم أبدًا. قال له أرْبَد: لا أبَا لكَ! لا تَعْجَل عليّ، والله ما هَمَمْتُ بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلتَ بيني وبين الرجل، حتى لا أرى غيركَ! أفأضربك بالسيف! قال: وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطُّفَيل الطاعون في

(١) الوبر: عنى بها أهل البوادي.
(٢) المدر: المراد بها أهل المدن والقرى.
(٣) خاله: أي اتخذه خليلاً وصاحبًا.

عنقه، فمال إلى بيت أمرأة من بني سَلُول، فجعل يقول: يا بني عامر، غُدَّة[١] كغُدَّة البِكْر[٢]، وموتٌ في بيت سَلُولِيّة! قال: ومات فواراه أصحابه، وخرجوا حتى قدِموا أرض بني عامر، فأتاهم قومُهم فقالوا: ما وراءك يا أرْبَد؟ فقال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لودِدْتُ أنه عندي الآن فأرميه بالنَّبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوْم أو يومين معه جمل له يبيعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

وقال أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبيّ في هذه القصة، بسند يرفعه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: أقبل عامر بن الطُّفَيل وأرْبَد بن ربيعة يريدان رسول الله ﷺ، وهو بالمسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف[٣] الناسُ لجمال عامر، وكان أعور، وكان من أجمل الناس، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، هذا عامر بن الطُّفَيل قد أقبل نحوك، فقال: «دعه فإنْ يُرِدِ اللّهُ به خيرًا يَهْدِه» فأقبل حتى قام عليه. فقال: يا محمد، ما لي إن أسلمت؟ فقال: لك ما للمسلمين، وعليك ما على المسلمين». قال: تجعل لي الأمرَ بعدك؟ قال: «ليس ذلك إليّ، إنما ذلك إلى الله عزّ وجل، يجعله حيث يشاء». قال تجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: «لا» قال: فماذا تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أعِنّة الخيل تغزو عليها» قال: أوليس ذلك لي اليوم؟! قُمْ معي أكلِّمْك. فقام معه رسول الله ﷺ، وكان أوصى إلى أرْبَد بن ربيعة إذا رأيتَني أُكلّمه فَدُرْ مِن خَلْفه فأضربه بالسيف؛ فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه، فدار أرْبَد خَلْف النبيّ ﷺ، فاخترط[٤] من سيفه شِبرًا، ثم حبسه الله عزّ وجلّ عنه فلم يقدِر على سَلّه، وجعل عامر يومىء إليه، فالتفت رسول الله ﷺ، فرأى أرْبَد وما يصنع بسيفه، فقال: «اللهم اكْفِنيهما بما شئت» فأرسل الله عزّ وجلّ على أرْبَد صاعقة في يوم صائف فأحرقته، وولّى عامرٌ هاربًا، وقال: يا محمد، دعوتَ ربّك فقتل أرْبَد، والله لأملأنّها عليك خيلًا جُرْدًا[٥]، وفتيانًا مُرْدًا[٦]؛ فقال رسول الله ﷺ: «يمنعك الله ذلك وأبناء قَيْلة» يعني الأوس والخزرج. فنزل عامر بيت أمرأة سَلُوليّة وأنشأ يقول: [من الطويل]

تَخَيَّرْ أبَيْتَ اللَّعْنَ إنْ شِئْتَ وُدَّنا ... وإنْ شِئْتَ حربًا ذاتَ بأسٍ ومَصْدَقِ

---

(١) الغدة: الطاعن من الإبل. (٢) البكر: الفتى من الإبل.

(٣) يقال: استشرف الشيء: إذا رفع بصره إليه.

(٤) اخترط السيف: استله من غمده.

(٥) الجرد: واحدها الأجرد، وهو من الخيل القصير الشعر.

(٦) المرد: جمع أمرد، وهو الشاب الذي لم تبد لحيته.

وإنْ شِئتَ فِتيانًا بكفّيَ أمرُهُم ... يَكبُّون كَبْشَ العارضِ المتألّقِ[(١)]

فلما أصبح ضَمَّ عليه سلاحَه، قود تغيّر لونه، وهو يقول: [من الطويل]

لَعَمْري وما عَمْري عليّ بهيّنٍ ... لقد شانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنَةُ مُسْهرِ[(٢)]

وقد عَلِم المَزْنُوقُ أنّي أكُرُّهُ ... على جَمْعِهِمْ كَرّ الْمَنِيحِ المُشهَّرِ[(٣)]

إذا ٱزْوَرَّ مِن وقعِ السِّنانِ زجرتُهُ ... وأخبرتُه أنّي ٱمرؤ غيرُ مُقْصِرِ[(٤)]

وأخبرته أنّ الفِرار خزايةٌ ... على المرء ما لم يُبْدِ عُذْرًا فيُعذرِ[(٥)]

لقد عَلِمت عُلْيَا هَوازنَ أنّني ... أنا الفارس الحامِي حَقِيقَةَ جعفرِ

فجعل يَركُض في الصحراء ويقول: ٱبرز يا ملك الموتِ! ثم أنشأ يقول: [من الطويل]

ألاَ قَرِّبَ ٱلمَزْنوقَ إذ جَدَّ ما أرَى ... لِتعريضِ يوم شرُّه غيرُ حامدِ

ألاَ قرِّباه إنّ غايَةَ جَرْينا ... إذا قَرُبَ المَزْنوقُ بين الصَّفَائدِ[(٦)]

بنو عامرٍ قومي إذا ما دعوتُهم ... أجابوا ولَبّي منهمُ كلُّ ماجِدِ[(٧)]

ويقول: واللاّتِ لئن أصْحَر[(٨)] إليّ وصاحبه ـ يعني مَلَك الموت ـ لأنْفَذتُهما برُمْحي.

قال: فلما رأى اللّهُ عزّ وجلّ ذلك منه، أرسل مَلَكًا فلَطَمه بجناحه، فأرْداه في التراب، وخرجت على ركبته غُدَّة عظيمة في الوقت، فعاد إلى بيت السَّلُوليّة وهو يقول: غُدَّة كغُدَّة البعير، وموتٌ في بيت سَلُولية. ثم دعا بفرسه فركبه. ثم أجراه حتى مات على ظهره.

قال: فرثى لبيدُ بن ربيعة أخاه أرْبَدَ بجملة من المراثي؛ فمنها هذه الأبيات: [من الكامل]

قَضّ اللّبانَةَ لا أبَا لكَ وٱذْهَب ... وٱلْحَق بِأسْرَتِكَ الكرامِ الغُيّبِ[(٩)]

---

(١) يقال: كبّ فلانًا: أي صرعه.

(٢) مسهر: هو ابن يزيد الحارثي الذي غدر بعامر بن الطفيل وطعنه بالرمح.

(٣) المزنوق: اسم فرس. والمنيح: يراد به القدح الذي يكثر به القداح..

(٤) ازورّ: عدل ومال إلى ناحية أخرى. (٥) خزاية: أي استحياء.

(٦) الصفائد: واحدها الصفاد، وهو الوثاق. (٧) الماجد: الشريف الخيّر.

(٨) أصحر: خرج إلى الصحراء.

(٩) اللبانة: بقية الحالة. الغيب: أي الغائبون عنه.

ذَهب الذين يُعاشُ في أكْنافِهِمْ وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأجربِ(١)
يَتَلَذَّذُون مَلاذَةً ومَجانَةً ويُعابُ قائلُهُمْ وإنْ لم يَشْغَبِ(٢)
فَتَعَدَّ عن هذا وقُلْ في غَيْرِهِ واذْكُرْ شَمائِلَ مِنْ أخٍ لك مُعْجِبِ(٣)
إنّ الرَّزِيَّةَ لا رزيَّةَ مِثْلُها فِقْدانُ كُلِّ أخٍ كضَوْءِ الكَوْكَبِ(٤)
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آباؤُهُمْ والعِزُّ لا يأتي بِغَيْرِ تَطَلُّبِ
يا أرْبدَ الخَيْرِ الكريمَ جُدُودُهُ أفردْتَنِي أمْشِي بِقَرْنٍ أعْضَبِ(٥)

وقال أيضًا فيه: [من المنسرح]

ما إنْ تُعَدِّي المَنُونُ مِنْ أحَدِ لا وَالِدٍ مُشْفِقٍ ولا وَلَدِ(٦)
أخْشَى على أرْبَد الحُتُوفَ ولا أرْهَبُ نَوْءَ السِّماكِ وَالأسَدِ(٧)
يا عينِ هَلاَّ بَكَيْتِ أرْبَدَ إذْ قُمْنا وقام الخُصُومُ في كَبِدِ(٨)
فَجَّعَنِي الرَّعْدُ والصَّواعِقُ بالْفا رِسِ يَوْمَ الكَرِيهةِ النَّجُدِ(٩)

قال: وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القِصّة: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠، ١١] يعني رسول الله ﷺ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ يعني تلك المعقبات ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. ثم قال تعالى مشيرًا لهذين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] أي ملجأ يلجؤون إليه. وقد قيل: ﴿وَالٍ﴾ يلي أمرهم، ويمنع العذاب عنهم. ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] قال: ﴿خَوْفًا﴾ للمسافر يخاف أذاه ومشقته ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم يرجو بركته ومنفعته ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد: ١٣] قال الحسن: شديد الحقد.

---

(١) في أكنافهم: أي في رعايتهم. والخلف: البدل.
(٢) يراد بقوله: وإن لم يشعب: أي لم يفسد. والشعب: التفريق والصدع.
(٣) الشمائل: الطبائع. والمعجب: الذي يعجب من رآه وعاشره.
(٤) الرزية: المصيبة. (٥) الأعضب: المكسور أحد قرنيه.
(٦) تعدّى: تترك.
(٧) النوء: المطر. والسماك: منزلة من منازل النجوم.
(٨) الكبد: المشقة.
(٩) فجّعه: أصابه فجيعة، وهي المصيبة. ويوم الكريهة: أي يوم الشدة.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: شديد الأخذِ. وقد روى الثعلبيّ أيضًا، عن إسحاق الحَنْظَليّ، عن رَيْحان بن سعيد الشّامِي، عن عبّاد بن منصور، قال: سألت الحسن عن قوله عزّ وجل: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الآية.

قال: كان رجلٌ من طَواغِيت العرب، فبعث إليه النبيُّ ﷺ نفرًا ليدعُوه إلى الله عزّ وجل ورسوله أن يؤمن، فقال لهم: أخبروني عن ربّ محمدٍ هذا الذي تدعوني إليه ما هو؟ ومِمَّ هو؟ من ذهب أم فِضّة أم حديد أم نُحاس؟ فاستعظم القومُ مقالَته، وانصرفوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا رجلًا أكفرَ قلبًا، ولا أعْتَى[1] على الله منه! فقال رسول الله ﷺ: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مِثل مقالتِه الأولى وأخبث، فقال رسول الله ﷺ: «ارجعوا إليه» فرجعوا، فبينا هم عنده ينازِعونه ويدعونه ويُعظمون عليه، وهو يقول هذه المقالة؛ إذ ارتفعت سحابةٌ فكانت فوق رؤوسهم، فرَعَدَت وبَرَقَت فرمت بصاعِقة فاحترق الكافرُ وهم جلوس، فجاؤوا يَسعَوْن ليخبروا النبيّ ﷺ فاستقبلهم قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا لهم: احترق صاحبكم. قالوا لهم: من أين علمتم؟ قالوا: أُوحِي إلى النبيّ ﷺ الساعةَ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣] الآية. والله أعلم في أيهما نزلت.

ولنرجع إلى تتمةِ خبرِ وفدِ عامر بن صَعْصَعَةَ.

قال محمد بن سعد في طبقاته: وكان في الوفد عبد الله بن الشِّخِّير، فقال: يا رسول الله، أنت سيدنا، وذو الطَّوْل علينا. قال: «السيِّد اللّهُ، لا يَستهوينّكم الشيطان».

قالوا: وقدِم على رسول الله ﷺ عَلْقَمَةُ بن عُلاثَةَ بن عَوْف، وهَوْذَة بن خالد بن ربيعة وابنه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالسًا إلى جنبِ رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أوسِع لعَلْقمة» فأوْسَع له، فجلس إلى جنبِه، فقصّ عليه رسولُ الله ﷺ شرائعَ الإسلام، وقرأ عليه قرآنًا، فقال: يا محمد، إن ربّك لكريم، وقد آمنتُ بك، وبايعتُ على عِكْرِمَة بن خَصَفَة أخي قَيْس، وأسلم هَوْذَة وابنه وابن أخيه.

وروى ابن سعد عن عون بن أبي جُحَيْفَة السُّوائيّ عن أبيه قال: قدِم وفد بني عامر وكنت معهم إلى النبي ﷺ، فوجدناه بالأبْطَح في قُبَّة حمراء، فسلّمنا عليه، فقال: «من أنتم»؟ قلنا: بنو عامر بن صَعْصَعة. قال: «مرحبًا بكم أنتم منّي وأنا منكم».

---

(١) العتوّ: الاستكبار وتجاوز الحد.

ذكر وفد ثَقِيفٍ وإسلامها وهدم اللاّت

كان قدوم وفد ثقِيفٍ على رسول الله ﷺ، وإسلامها في شهر رمضان سنة سبع من مُهَاجره[١].

قال أبو عبد الله محمد بن إسحاق، وأبو محمد عبد الملك بن هشام، وأبو عبد الله محمد بن سعد رحمهم الله، دخل حديث بعضهم في حديث بعض: لمّا حاصر رسولُ الله ﷺ الطائفَ لم يَحضُر عُرْوَة بن مسعود، ولا غَيْلان بن سلَمة الحصَار، بل كانا بجُرَش[٢] يتعلّمان صنعة العَرَّاداتِ[٣] والمِنْجَنِيق والدَّبّابات[٤]، فقَدِما وقد أنصرف رسول الله ﷺ عن الطّائف، فنصبا المِنْجَنيق والعَرَّادات والدبّابات وأعتدّا للقتال، ثم ألقى الله في قلب عُرْوة الإسلام، فخرج إلى رسول الله ﷺ يتبع أثره، حتى أدركه قبل أن يصل المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «إنّهم قاتِلوك» فقال عُرْوة: يا رسول الله، أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم. قال: فكرر عليّ رسول الله ﷺ ذلك ثلاثًا، فقال: «إن شئتَ فأخرج» فخرج، وكان فيهم كذلك محبَّبًا مُطَاعًا، فسار إلى الطائف، فسار خَمْسًا فقدِم عِشاءً، فدخل منزله، فجاء قومُه يُحيّونه بتحيَّة الشِّرْك، فقال: عليكم بتحية أهل الجنة «السّلام» ودعاهم إلى الإسلام فخرجوا من عنده يأتَمِرون به، فلمّا طلع الفجر أوفى على غُرْفة له فأذّن بالصلاة، فخرجت ثَقيفٌ من كل ناحية، فرماه رجل يقال له أوْسُ بن عَوْف أخو بني سالم بن مالك ـ وقيل: بل هو وَهْبُ بن جابر رجلٌ من الأحْلاف ـ بسهم فأصاب أكْحَلَه[٥] فلم يرقأ[٦] دمُه، فقام أشراف قومه؛ وهم: غَيْلان بن سَلَمَة، وكِنانَة بن عَبْد يَالِيل، والحَكَم بن عمرو بن وهب، ووجوه الأحْلاف، فلبِسوا السِّلاح وحَشَدوا، فلما رأى عُرْوة ذلك قال: قد تصدّقتُ بذمي على صاحبه؛ لأصلحَ بذلك بينكم، وهي كَرامَة أكرمني الله بها، وشَهادةٌ ساقها اللّهُ إليّ. وقال: أدفنوني مع الشهداء الذين قُتِلوا مع رسول الله ﷺ، ومات فدفنوه معهم، وبلغ رسول الله ﷺ خبرُه فقال فيه: «إنّ مَثَله في قومه لكَمثَل صاحب «يس» دعا قومه إلى الله فقتلوه».

---

(١) المهاجرة: أي موضع هجرته والمراد هجرته إلى المدينة.

(٢) جرش: مخلاف باليمن منه الأديم والإبل.

(٣) العرادات: واحدتها عرادة، وهي شبه المنجنيق صغيرة.

(٤) الدبابات: مفردها الدبابة، وهي آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها..

(٥) الأكحل: عرق في وسط الذراع يكثر فصده.

(٦) يقال: رقأ الدمع والدم ونحوهما: أي سكن وجفّ وانقطع بعد جريانه.

قالوا: ولحق أبو الْمُلَيْح بن عُروة، وقارِبُ بن الأسْوَد بن مسعود برسول الله ﷺ فأسلما، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تَوَلَّيا من شئتما» فقالا: نَتَوَلّى اللّهَ ورسولَه؛ فقال رسول الله ﷺ: «وخالكما أبا سُفيان بن حَرْب» فقالا: وخالنا أبا سُفيان.

قال ٱبن إسحاق: ثم أقامت ثَقِيف بعدما قُتِل عُرْوة أشهرًا، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا. وكان مالك بن عَوْف قد أسلم كما قدّمنا في غزوة حُنَين، وجعل يُغِير على سَرْحِهم[١]. قال: وكان عمرو بن أمية أخا بني عِلاَج مُهاجِرًا[٢] لعبد يَالِيلَ بن عمرو، وكان من أدْهَى العرب، فمشى إلى عبد يَالِيل بن عمرو حتى دخل داره، ثم أرسل إليه أن اخرج إليّ، فٱستعظم عبدُ يَالِيل مشيَه إليه، وقال للرسول الذي جاءه: ويلك! أعمرو أرسلك إليّ؟ قال: نعم، وها هوذا واقفًا في دارك، فقال: إن هذا لشيء ما كنت أظنه، لَعَمْرو كان أمنَعَ في نفسه من ذلك، وخرج إليه، فلمّا رآه رَحَّب به، فقال عَمرو له: إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هِجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتَ، وقد أسلمت العربُ كلها، وليست لكم بحربهم طاقة، فٱنظروا في أمركم. فعند ذلك ائتمرت ثَقِيف بينها، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سَرْبٌ[٣]، ولا يخرج منكم أحد إلا ٱقتطع. فأجمعوا رأيهم أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً منهم، كما أرسلوا عُرْوة بن مسعود، فعرضوا ذلك على عبد يالِيل بن عمرو بن عُمَير، فأبى أن يفعل، وخشي أن يُصنَع به إذا رجع كما صُنِع بعُرْوة، فقال: لست فاعلاً حتى يرسلوا معي رجالاً، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحْلاف، وثلاثة من بني مالك، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وَهْب بن مُعَتِّب، وشَرَحْبِيل بن غَيْلان بن سَلَمَة بن مُعَتِّب، ومن بني مالك عثمان بن أبي العاص بن بِشْر أخا بني يَسَار، وأوْس بن عَوْف أخا بني سالم، ونُمَيْر بن خَرَشَة بن ربيعة أخا بني الحارث، فخرج بهم عبد يالِيل وهو نابُ[٤] القوم وصاحب أمرهم.

وقال ٱبن سعد: كانوا بضعة عشر رجلًا، وهو أثبت.

قال ٱبن إسحاق: فلما دَنَوْا من المدينة ونزلوا قَنَاةَ[٥]، ألْفَوْا بها المغيرة بن شُعْبَة يرعى في نَوْبَته رِكاب أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت رِعْيَتُها نُوَبًا على أصحابه، فلما رآهم ترك الرِّكاب عند الثَّقَفيين، وخرج يَشْتَدّ[٦] ليبشِّر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه،

---

(١) السرح: السائمة ترعى بنفسها.
(٢) المهاجر: المقاطع.
(٣) السرب: الماشية كلها.
(٤) ناب القوم: سيدهم.
(٥) قناة: واد بالمدينة عليه حرث ومال.
(٦) يشتد: يعدو.

فلقيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ، فأخبره عن رَكْب ثَقِيف أن قد قَدِموا يريدون البَيْعة والإسلام، فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ، حتى أكون أنا أُحدِّثه؛ ففعل المغيرة. فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة إليهم فعلَّمهم كيف يُحيُّون رسولَ الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية.

قال: ولما قَدموا على رسول الله ﷺ، ضَرَب عليهم قُبَّة في ناحية مسجده ـ كما يزعمون ـ، وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ، حتى كتبوا كتابهم، وكتبه خالد بيده، وهو:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم مِن محمد النبيّ رسول الله، إلى المؤمنين: إنّ عِضاه[1] وجٍّ[2] وصَيْدَه حرام لا يُعْضَد[3]، مَن وُجِد يفعل شيئًا من ذلك فإنه يُجلَد وتُنزَع ثيابُه، فإن تعدّى ذلك فإنه يُؤخَذ فيُبلغ به النبيَّ ـ محمدًا ﷺ ـ وأن هذا أمرُ النبيِّ محمدٍ رسول الله. وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله فلا يتَعدَّه أحدٌ فيظلم نفسه فيما أمرَ به محمدٌ رسولُ الله ﷺ».

قال ابن إسحاق: وكانوا لا يَطْعَمون طعامًا يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

قال: وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يَدَع لهم الطّاغِيَةَ وهي اللاّتُ؛ لا يَهْدِمها ثلاثَ سنين، فأبى رسولُ الله ﷺ ذلك عليهم، فما بَرحوا يسألونه حتى سألوه شهرًا واحدًا بعد مَقْدَمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مُسَمًّى. وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويَكْرهون أن يُرَوِّعوا قومَهم بهدمها حتى يدخلَهم الإسلامُ. فأبى رسولُ الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبَة فهدماها. وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفِيهم من الصلاة، وألاّ يَكْسِروا أوثانهم بأيديهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «أمّا كَسْر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصّلاة فإنه لا خير في دِين لا صلاة فيه» فقالوا: يا محمد، فسنؤتيكها وإن كانت دناءة. فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم، أمّر عليهم عثمانَ بن أبي العاصِ، وكان من أحدثهم سِنًّا، وكان أحرصَهم على التَّفَقُّه في الإسلام وتعلّم القرآن، فقال أبو بكر الصدّيق ذلك لرسول الله ﷺ.

---

(١) العضاه: جمع عضه، وهي الشجرة العظيمة.

(٢) وجّ: موضع بناحية الطائف.

(٣) عضد الشجرة: قطعها.

روي عن عثمان بن أبي العاص قال: كان من آخر ما عَهِد إليّ رسول الله ﷺ حين بعثني على ثَقِيفٍ أن قال: «يا عثمان؛ تجاوز[١] في الصلاة واَقْدُر الناسَ بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصّغير والضّعيف وذا الحاجة».

قال ابن إسحاق: ولما توجهوا إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبة في هَدْم الطاغية، فخرجا مع القوم، حتى إذا قَدِموا الطائِف أراد المغيرةُ أن يُقدِّم أبا سفيان فأبى ذلك عليه، وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بمالِه بذي الهَدِم[٢]، فلما دخل المغيرة بن شُعْبة عَلاَهَا يضربها بالمِعْوَل، وقام قومه بنو مُعَتِّب دونه خشية أن يُرْمَى أو يُصَاب كما أصيب عُرْوَة بن مسعود، وخرج نِساء ثَقِيف حُسّرًا[٣] يبكين ويَقُلْن:

لَتُبْكَيَنَّ دُفَّاعْ أَسْلَمَهَا الرُّضَّاعْ[٤]
* لَمْ يُحْسِنُوا الْمِصَاعْ[٥] *

قال: ويقول أبو سفيان بن حرب، والمغيرة يَضرِبها بالفأس: واهًا لكِ! أهْلاً لكِ! فلما هدمها المغيرةُ بن شُعْبة وأخذَ مالَها وحُلِيَّها، أرسل إلى أبي سفيان، وحُلِيُّها مجموعٌ، وما لها من الذّهب والجَزْع[٦].

وقد كان أبو مُلَيْح بن عُرْوة سأل رسول الله ﷺ أن يقضي عن أبيه عُرْوة بن مسعود دَيْنًا كان عليه من مال الطاغية، فقال رسول الله ﷺ: «نَعَم» فقال له قارِب بن الأسوَد: وعن الأسود: يا رسول الله فاْقضِه، ـ وعُرْوة والأسْود أخوان لأبٍ وأمّ ـ فقال رسول الله ﷺ: «الأسود مات مشركًا»، فقال قارِب: يا رسولَ الله، لكن يَصِلُ مُسْلِمًا ذا قرابة ـ يعني نفسَه ـ إنّما الدَّين عليّ وأنا الذي أُطْلَب به. فأمر رسولُ الله ﷺ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال الطّاغية؛ فلمّا جمع المغيرةُ مالَها قال لأبي سفيان: إنّ رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقضي عن عُرْوة والأسود دَينَهما. فقضى عنهما.

---

(١) تجاوز في الصلاة: تساهل بعد الإطالة فيها.
(٢) الهدم: ماء وراء وادي القرى. (٣) الحسّر: مكشوفات الرؤوس.
(٤) الدفاع: اللات، لأنها في اعتقادهم تدفع عنهم الضير. والرضاع: اللئام، أو الذين رضعوا اللؤم من أثداء أمهاتهم.
(٥) المصاع: الضرب بالسيف.
(٦) الجزع: الخرز اليماني وهو الذي فيه بياض وسواد تشبه به الأعين.

قال المغيرة: فدخلت ثَقِيف في الإسلام، فلا أعلم قومًا من العرب بني أبٍ ولا قبيلة كانوا أصحَّ إسلامًا، ولا أبعدَ أن يوجد فيهم غِشٌّ لله ولكتابه منهم.

ذكر وفد عبد القيس

قال محمد بن سعد: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يَقدُم عليه منهم عشرون رجلًا، فقَدِموا؛ رأسهم عبد الله بن عَوْف الأشَجّ، وفيهم الجارود بن عمرو بن حَنَش، ومُنْقِذ بن حَبَّان وهو ابن أخت الأشجّ، وكان قدومهم عامَ الفَتْح، فقيل: يا رسول الله، هؤلاء وفد عبد القيس، فقال: «مَرْحبًا بهم نِعْم القومُ عبد القيس». قال: ونظر رسول الله ﷺ إلى الأفُق صبيحةَ ليلة قَدِموا، فقال: «ليأتينّ ركبٌ من المشرق لم يُكْرَهوا على الإسلام، قد أنْضوا الرِّكاب، وأفْنَوا الزاد، بصاحبهم علامة، اللّهمّ اْغفر لعبد القيس، أتَوْني لا يسألون مالاً، هم خيرُ أهل المشرق».

قال: فجاؤوا في ثيابهم، ورسول الله ﷺ في المسجد، فسلّموا عليه، فقال: «أيكم عبد الله الأشجّ»؟ فقال: أنا يا رسول الله. وكان رجلاً دَمِيمًا، فنظر إليه رسولُ الله ﷺ، فقال: «إنه لا يُسْتَقى في مُسُوك[1] الرجال، إنما يُحتَاج من الرَّجُل إلى أصغَرَيْه لسانِه وقلبِه». فقال رسول الله ﷺ: «فيك خَصْلَتان يُحبّهما الله تعالى» فقال عبد الله: وما هما؟ قال: «الحِلْم والأناة»[2]. قال: أشيء حَدَث أم جُبِلْتُ عليه؟ قال: «بل جُبِلتَ عليه» قال: وكان الجارود نصرانيًا، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ورَغَّبه فيه.

قال اْبن إسحاق: فقال يا محمد، إنِّي قد كنت على دِين، وإني تاركٌ دِيني لدِينك: أفتضْمَن لي دِيني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نَعَم، أنا ضامنٌ لك أن قد هداك الله إلى ما هو خيرٌ منه» فأسلم وأسلم أصحابه.

قال اْبن سعد: وأنزل رسول الله ﷺ وفد عبد القيس في دار رَمْلَة بنت الحارث، وأجرى عليهم ضيافة، وأقاموا عشرة أيام، وكان عبد الله الأشجّ يسائل رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن، وأمر لهم رسول الله ﷺ بجوائز، وفَضَّل عليهم عبد الله الأشجّ؛ فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا، ومَسَح ﷺ وجهَ مُنْقِذ بن حَبَّان.

---

(١) المسوك: الجلود.

(٢) الأناة: الوقار والتثبت في الأمور.

ذكر وفد بَكْر بن وائل

قال ٱبن سعد: قَدِم وفد بَكْر بن وائل على رسول الله ﷺ، وكان في الوفد بشير بن الخُصَاصِيّة، وعبد الله بن مَرْثَد، وحَسّان بن خَوْط؛ ولذلك يقول رجلٌ من ولد حسّان:

أنـا ٱبـنُ حسّـانَ بـن خَـوْطٍ وأبـي ... رسـولُ بَـكْـرٍ كـلِّـهـا إلـى الـنَّـبـي

قالوا: وقَدِم معهم عبد الله بن أَسْوَد بن شِهاب بن عَوْف بن عمرو بن الحارث بن سَدُوس، وكان ينزل اليَمَامَة، فباع ما كان له من مال باليمامة، وهاجر وقَدِم على رسول الله ﷺ بجِراب من تَمْر، فدعا له رسول الله ﷺ بالبركة. وحيث ذكرنا وفد بكر بن وائل فلنذكر خبر الأعشى.

ذكر خبر أعْشَى بني قيس
وٱمتداحه رسول الله ﷺ ورجوعه قبل لقائه

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدّثني خَلاد بن قُرّة بن خالد السَّدُوسيّ، وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم، أنّ أعشى بني قيس بن ثَعْلَبَة بن عُكَابة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل، خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام، فقال يمدح رسول الله ﷺ: [من الطويل]

ألَـمْ تَـغْـتَـمِـضْ عيـنـاكَ لَـيْـلـةَ أرْمَـدَا ... وبِـتَّ كـمـا بـاتَ الـسَّـلِـيـمُ مُـسَـهَّـدَا(١)
ومـا ذاكَ مِـن عِـشْـقِ الـنِّـسـاءِ وإنَّـمـا ... تَـنـاسَـيْـتُ قبـلَ الـيوم صُـحْـبَـةَ مَـهْـدَدَا(٢)
ولـكِـنْ أرَى الـدَّهْـرَ الّـذي هـو خـائـنٌ ... إذا أصْـلَـحَـتْ كَـفّـايَ عـاد فـأفـسَـدَا
كُـهُـولاً وشُـبّـانًـا فَـقَـدتُ وثَـرْوَةً ... فـلـلّـهِ هـذا الـدّهْـرُ كـيـف تَـرَدّدَا(٣)
ومـا زِلْـتُ أبْـغِـي الـمـالَ مُـذْ أنـا يـافِـعٌ ... وَلِـيـدًا وكَـهْـلاً حِـيـن شِـبْـتُ وأمْـرَدَا(٤)
وأبْـتَـذِلُ الـعِـيـسَ الـمَـرَاقِـيـلَ تَـغْـتَـلِـي ... مسـافَـةَ مـا بَـيْـنَ الـنُّـجَـيْـرِ فَـصَـرْخَـدَا(٥)

---

(١) السليم: اللديغ. والمسهد: القليل النوم أرقًا.
(٢) مَهْدَدُ: اسم امرأة. (٣) تردد: رجع مرة بعد أخرى.
(٤) اليافع: الغلام الذي قارب الحلم. والوليد: الصبيّ. والأمرد: الذي لا شعر على وجهه.
(٥) العيس: الإبل. والمراقيل: المسرعة. والنجير: حصن قرب حضرموت. وصرخد: موضع بالشام.

ألاَ أيُّـهَـذَا الـسَّـائِـلـي أيْـنَ يَـمَّـمَـتْ ... فإنَّ لـهـا فِـي أهْـلِ يَـثْـرِبَ مَـوْعِـدَا[(١)]
فـإنْ تَـسْـألِـي عَـنِّـي فـيـا رُبَّ سـائِـلٍ ... حَفِيٍّ عنِ الأعْشَى بِهِ حَيْثُ أصْعَدَا[(٢)]
أجَدَّتْ بِـرِجْـلَـيْـهـا الـنَّـجـاءَ وراجَـعَـتْ ... يـداها خِـنَـافًـا لَـيِّـنًـا غَـيْـرَ أحْـرَدَا[(٣)]
وفِـيـهـا إذا مـا هَـجَّـرَتْ عَـجْـرَفِـيَّـةٌ ... إذا خِلْتَ حِرْبَاءَ الظَّهِيرَةِ أصْيَدَا[(٤)]
وأمَّـا إذا مـا أدْلَـجَـتْ فـتَـرَى لـهـا ... رَقيبَيْنِ جَدْيًا ما يَغِيبُ وفَرْقَدَا[(٥)]
فـآلَـيْـتُ لا آوِي لـهـا مِـن كَـلالَـةٍ ... ولا مِنْ حَفًى حتّى تُلاقِي مُحَمَّدَا[(٦)]
مَتَى ما تُناخِي عِنْدَ بابِ ابنِ هاشِمٍ ... تُراحِي وتَلْقَى مِنْ فَواضِلِهِ نَدَا[(٧)]
نَـبِـيٌّ يَـرَى مـا لا تَـرَوْنَ وذِكْـرُه ... أغارَ لَعَمْرِي في البِلادِ وأنْجَدَا[(٨)]
لـه صَـدَقـاتٌ مـا تُـغِـبُّ ونـائِـلٌ ... ولَـيْسَ عَـطـاءُ الـيَوْمِ مانِعَهُ غَـدَا[(٩)]
أجَـدَّكَ لـم تَـسْـمَـعْ وَصـاةَ مـحـمـدٍ ... نبيُّ الإلهِ حَيْثُ أوْصَى وأشْهَدَا[(١٠)]
إذا أنتَ لـم تَـرْحَـلْ بِـزادٍ مِن الـتُّـقَى ... ولاقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوّدَا[(١١)]
نَـدِمْـتَ عـلـى ألاَّ تَـكـونَ كَـمِـثْـلِـهِ ... فَتُرْصِدَ لِلأمرِ الذِي كان أرْصَدَا[(١٢)]
فَـإيّـاكَ والـمَـيْـتَـاتِ لا تَـقْـرَبَـنَّـهَـا ... ولا تَأْخُذَنْ سَهْمًا حَدِيدًا لِتَفْصِدَا[(١٣)]
ولا الـنُّـصُبَ الـمَـنْـصوبَ لا تَـنْـسُـكَـنَّـهُ ... ولا تَعْبُدِ الأوْثانَ واللّهَ فاعْبُدَا[(١٤)]

(١) يمم: قصد. ويثرب: المدينة المنورة.
(٢) الحفيّ: الذي يكثر السؤال في إلحاح.
(٣) أجدّت: سلكت. والنجاء: السرعة في السير. والخناف: لين في أرساغ البعير. والأمرد: الذي يخبط بيديه إذا سار.
(٤) العجرفية: التي لا تبالي في سيرها لنشاطها. والأصيد: الذي به الصيد، وهو داء يأخذ الإبل في رؤوسها فلا تزال رافعة رأسها منه.
(٥) أدلجت: سارت في الليل. والجدي والفرقد: نجمان.
(٦) آليت: أقسمت. والحفى: انسحاج القدم من كثرة المشي.
(٧) أناخ الجمل: برك. الفواضل: الأيادي الجسيمة أو الجميلة. والندى: الجود.
(٨) أغار: من الغور، وهو المنخفض من الأرض. وأنجد: من النجد، وهو ما ارتفع من الأرض.
(٩) تغب: تأتي مرة وتتخلف مرة. والنائل: العطاء الذي ينالك.
(١٠) الوصاة: الوصاية.
(١١) الزاد: المدخر الزائد على ما يحتاج إليه. والتزود: أخذ الزاد.
(١٢) أرصد: أعد للأمر عدته. والرصد: الاستعداد للترقب.
(١٣) الفصد: قطع عرق يشخب الدم.
(١٤) النصب: الأصنام. والنسك: الذبح للأصنام.

ولا تَـقْـرَبَـنّ جـارَةً إنّ سِـرَّهـا علـيكَ حَرامٌ فَانْكِحَنْ أو تَأبَّدَا(١)
وذا الرَّحِمِ القُرْبَى فلا تَقْطَعَنَّهُ لِعَاقِبَةٍ وَلاَ الأسِيرَ المُقَيَّدَا
وسَبِّحْ على حِينِ العَشِيّاتِ والضُّحَى ولا تَحْمَدِ الشَّيْطانَ واللّهَ فاحْمَدَا
ولا تَسْخَرَنْ من بائِسٍ ذِي ضَرارةٍ ولا تَحْسَبَنّ المالَ لِلْمَرْءِ مُخْلِدَا(٢)

فلما كان بمكة أو قريبًا منها، اعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليُسْلِم، فقال له: يا أبا بصير إنه يحرِّم الزِّنَى. فقال الأعشى له: والله إن ذلك لأمْرٌ ما لي فيه من أرَبٍ(٣). فقال: يا أبا بصير فإنه يحرّم الخمر. فقال: أمّا هذه فوالله إنّ في النفس منها لَعُلالاَتٍ(٤)، ولكنّي منصرف فأتَرَوَّى منها عامِي هذا ثم آتيه فأسْلِم. فانصرف فمات من عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ.

ذكر وفد تَغْلِب

قال: وقَدِم على رسول الله ﷺ وفد بني تَغْلِب، وهم ستة عشر رجلاً مسلمين، ونصارى عليهم صُلُب الذَّهَب، فنزلوا دار رَمْلَة بنت الحارث، فصالح ﷺ النّصارى على أن يُقِرَّهم على ذِمَّتهم، على ألاّ يَصْبُغوا أولادهم في النّصرانية، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم.

ذكر وفد حنيفة(٥)

قالوا: قَدِم وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ وهم بضعة عشر رجلاً، فيهم رَجّال بن عُنْفُوَة، وسَلْمَى بن حَنْظَلة، وطَلْق بن عليّ بن قيس، وحُمْران بن جابر، وعليّ بن سِنان، والأقْعَس بن مَسْلَمة، وزيد بن عمرو، ومُسَيْلِمَة بن حبيب، وهو الكَذّاب. وعلى الوفد سَلْمَى بن حَنْظَلة، فأنزلوا دار رَمْلَة بنت الحارث، وأجرِيت عليهم ضيافة. فأتَوْا رسول الله ﷺ في المسجد، فسلّموا عليه وشهدوا شهادة الحقّ،

(١) سرّها: وطأها. وتأيد: تعفف عن النساء.
(٢) الضرارة: الضرر، وهو سوء الحال في البدن أو النفس أو المال. والخلد: البقاء والدوام.
(٣) الأرب: الحاجة، أو الحاجة الشديدة.
(٤) العلالات: واحدتها: العلالة، وهي البقية.
(٥) بنو حنيفة: هي من بكر بن وائل، من العدنانية، كانت منازلهم اليمامة... منهم: مسيلمة الكذاب الذي خرج باليمامة زمن النبيّ ﷺ وادعى النبوة... (أنساب العرب للقلقشندي).

وخَلَّفوا مُسَيْلِمَة في رِحالهم. وأقاموا أيامًا يختلفون إلى رسول الله ﷺ. وكان رَجّال بن عُنْفُوَة يتعلّم القرآن من أُبيّ بن كعب، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم، أمر لهم رسول الله ﷺ بجوائزهم: خمسِ أواقٍ لكل رجل، فقالوا: يا رسول الله، خَلَّفنا صاحبًا لنا في رِحالنا يبصرها لنا، وفي رِكابنا يحفظها علينا، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر لأصحابه. وقال: «ليس بشَرِّكم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم»[1] فقيل ذلك لمُسَيْلمة فقال: عَرَف أنّ الأمر إليّ من بعده.

وأعطاهم رسول الله ﷺ إداوَةً[2] من ماء فيها فَضْلُ طَهُوره، فقال: «إذا قَدِمتم بلدكم فاكسروا بَيْعتكم[3]، وانْضَحوا مكانها بهذا الماء، واتخذوا مكانها مسجدًا» ففعلوا، وصارت الإدَاوَةُ عند الأقْعَس بن مَسْلَمَة، وصار المؤذِّن طَلْق بن عليّ، فأذّن فسمعه راهب البَيْعة، فقال: كلمةُ حقٍّ. وهرب فكان آخر العهد به.

ثم ادّعى مُسَيْلِمَةُ الكذّابُ بعد ذلك النبوّةَ، وشهد له الرَّجّال أنّ رسول الله ﷺ أشركه في الأمر، فافْتَتَن الناسُ به، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى في خلافة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ذكر وفد شَيْبان

قال: وقَدِم من بني شَيْبان حُرَيْث بن حسّان الشَّيْباني، فبايع رسولَ الله ﷺ على الإسلام وعلى قومه، وصَحِبَه في مَسِيره إلى رسول الله ﷺ قَيْلةُ بنت مَخْرَمَة التَّمِيميَّة، وهي التي أُرْعِدَت من الفَرَقِ[4] لمّا أتت رسولَ الله ﷺ، فقال لها: «يا مِسكينة عليك السَّكِينة» فهدأت.

رُوِي عن قَيْلَة بنت مَخْرَمة أنها قالت: إنّ حُرَيْث بن حسّان قال: يا رسول الله، اكتب بيننا وبين بني تميم بالدَّهْناء[5] لا يجاوزها إلينا منهم إلاّ مسافر أو مجاور. فقال رسول الله ﷺ: «يا غلام اكتب له بالدَّهْناء»، قالت قَيْلةُ: فلما رأيته أمر له بأن يكتب له بها، قلت: يا رسول الله، إنه لم يسألك السويّة من الأرض إذ سألك، إنما هذه الدَّهْناء عندك؛ مُقَيَّد[6] الجمَل، ومَرْعَى الغنَم، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك. فقال رسول الله: «أمسِكْ يا غلام، صَدَقت المِسكينةُ، المسلمُ أخو المسلم يَسعُهما الماءُ

(١) الرحال: جمع الرحل، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب. أو كل شيء يعدّ للرحيل من وعاء للمتاع وغيره.

(٢) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء.

(٣) البيعة: مكان العبادة عند النصارى، أو عند المشركين.

(٤) الفرق: الخوف.

(٥) الدهناء: ديار بني تميم.

(٦) مقيد الجمل: أي أنها مخصبة ممرعة، والجمل يقيد فيها ويخلى لا يتعدى مرتعه.

والشجرُ، ويتعاونان على الفتَّان»(١). فلما رأى حُرَيْث أن قد حِيل دون كتابه، ضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: كنتُ أنا وأنتِ كما قيل: «حَتْفَها تَحمِلُ ضَأْنٌ بأظْلافها»(٢) فقلت: أمَا واللّهِ أن كنتَ لدليلاً في الظَّلْماء، جَوَادًا بذي الرَّحْل، عفيفًا عن الرَّفِيقَة، حتى قَدمتُ على رسول الله ﷺ، ولكن لا تلمني على حَظِّي إذ سألتَ حظَّكَ. فقال: وما حَظُّكِ في الدَّهْناء لا أبَا لكِ؟! قلت: مُقَيَّد جَمَلي تسأله لجمل ٱمرأتك! قال: لا جَرَم، إنِّي أُشهِد رسولَ الله ﷺ أنِّي لك أخٌ ما حييتُ إذ أثبت هذا عليّ عنده. فقلتُ: أمَا إذ بدأتَها فلن أضيعها. وحديثُ قَيْلَة فيه طُولٌ ليس هذا موضعه.

ذكر وفادات أهل اليمن

ذكر وفد طيِّىءٍ وخبر زيد الْخَيْل وعَديّ بن حاتم

قالوا: وَفَد على رسول الله ﷺ وفد طيِّىء خمسة عشر رجلًا، رأسهم، وسيِّدهم زَيْد الخَيْل بن مُهَلْهِل، من بني نَبْهان، وفيهم وَزَر بن جابر بن سَدُوس النَّبْهانيّ، وهو قاتل عَنْتَرَة، وقَبِيصَة بن الأسْوَد بن عامر من جَرْم طَيِّىء، ومالك بن عبد الله بن خَيْبَرَى من بني مَعْنٍ، وقُعَيْن بن خَلَف من جَدِيلة، ورجل من بني بَوْلان، فدخلوا المدينة ورسول الله ﷺ في المسجد، فعَقَلوا رواحلَهم بفِناء المسجد، ثم دخلوا فدَنَوا من رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا وأجازهم بخمس أواق فضة لكل رجل منهم، وأعطى زيد الخيل ٱثنتي عشرة أوقيةً ونَشًّا(٣). وقال ﷺ: «ما ذُكِر لي رجلٌ من العرب إلا رأيتُه دون ما ذُكِر لي إلاّ ما كان من زيد الخيل، فإنه لم يَبْلغ كلّ ما كان فيه».

وسَمّاه رسولُ الله ﷺ «زيد الخير» وقَطَع له فَيْدَ(٤) وأرَضِين معه، وكتب له بذلك كتابًا، فخرج مع قومه راجعًا، فقال رسول الله ﷺ: «إنْ يُنْجَ زيدٌ من حُمَّى المدينة فإنَّهُ»، فلما ٱنتهى زيد من بلد نجْد إلى ماء من مياهه يقال له قَرَدَة(٥) أصابته الحُمَّى فمات، فعمدت ٱمرأته إلى ما كان النبيّ ﷺ كتب له فحرقته بالنار.

هذا ما كان من خبر زيد الخيل.

---

(١) الفتّان: الشيطان، لأنه يفتن الناس عن الدين.

(٢) هذا المثل يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة.

(٣) النشّ: النصف.

(٤) فَيد: منزل في نجد بطريق مكة من العراق.

(٥) قردة: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة، تأنيث الفرد، وهو ما كان وحده. ورواه نصر بالقاف وفتح الراء، والله أعلم: وهو اسم جبل بالبادية سمي بذلك لانفراده عن الجبال. والقردة: ماء بالثلبوت لبني نعامة... (معجم البلدان لياقوت).

وأمّا عَدِيّ بن حاتم فكان من خبره أنّ رسول الله ﷺ بعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الْفِلْس ـ صَنَمُ طيِّىء ـ ليهدمه ويَشُنّ الغارات، فخرج فأغار على حاضِر آل حاتم، وأصابوا ابنة حاتم، كما قدّمنا ذكر ذلك في الغزوات والسَّرايا(١)، فقُدِم بها على رسول الله ﷺ في سبَايا طيّىء. وقيل: إنما سَبَاها من خيل رسول الله ﷺ خيلٌ كان عليها خالد بن الوليد، وهرب عَدِيّ بن حاتم حتى لحق بالشام.

حكى محمد بن إسحاق رحمه الله قال: كان عَدِيّ بن حاتم يقول ـ فيما بلغني ـ: ما من رجل من العرب كان أشدّ كراهيةً لرسول الله ﷺ حين سمع به منّي، أمّا أنا فكنت آمرأً شريفًا، وكنت نصرانيًا، وكنت أسِيرُ في قومي بالْمِرْباع، أي آخذ منهم رُبْع مَغانمهم التي يغنمونها، وكنت في نفسي على دِين، وكنت مَلِكًا في قومي لما كان يُصْنَع بي، فلما سمعتُ برسول الله ﷺ كرهتُه، فقلت لغلام كان لي عربيّ، وكان راعيًا لإبلِي: لا أبَا لكَ! اعدد لي من إبلي جمالاً ذُلُلاً سِمَانًا فاَحتبسها قريبًا منّي، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذِنّي. ففَعَل، ثم إنه أتاني ذات غَدَاة فقال: يا عَدِيّ، ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيلُ محمد فاَصنعه الآن، فإني رأيتُ راياتٍ فسألتُ عنها فقالوا: هذه جيوش محمد. فقلتُ: فقرِّبْ إليّ أجْمالي. فقَرَّبها فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألْحَقُ بأهل ديني من النّصارى بالشام، فسلكت الجُوشِيّة ـ ويقال الحُوشِيّة(٢) ـ وخلّفتُ بِنْتًا لحاتم في الحاضِر، فلمّا قدمتُ الشام أقمت بها، وتُخالِفني خيل لرسول الله ﷺ، فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت، فقُدِمَ بها على رسول الله ﷺ في سبايا طيّىء، وقد بلغ رسول الله ﷺ هَرَبي إلى الشام، قال: فجُعِلت اَبنة حاتم في حظيرة(٣) بباب المسجد كانت السَّبايا تُحبَس فيها، فمرّ بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه، وكانت اَمرأة جَزْلَة(٤)، فقالت: يا رسول الله، هَلَك الوالدُ، وغاب الوافدُ، فاَمنُنْ عليّ، مَنَّ الله عليك. قال: «ومَنْ وافدُك»؟ قالت: عَدِيّ بن حاتم. قال: «الفارّ من الله ورسوله»؟! قالت: ثم مضى وتركني، حتى إذا كان من الغد مَرّ بي فقلت له مثل ذلك، فقال مثل ما قال بالأمس، قالت: حتى إذا

---

(١) السرايا: واحدها السريّة، وهي قطعة من الجيش، ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة.

(٢) الحوشيّة: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق بين جبل لبنان وجبل سنير، فيها عيون تسقي أكثر ضياعها سيحًا، وهي كورة من كور حمص... وقال الحازمي: جوشيّة... وهي موضع بين نجد والشام، عليها سلك عديّ بن حاتم حين قصد الشام هاربًا من خيل رسول الله ﷺ... (معجم البلدان).

(٣) الحظيرة: ما أحيط بالشيء سواء أكان من خشب أو قصب.

(٤) الجزلة: التامة الخلق.

كان بعد الغَدِ مَرّ بي وقد يَئِسْتُ، فأشار إليّ رجلٌ من خلفه أنْ قُومِي فكلِّميه، قالت: فقمتُ إليه، فقلت: يا رسول الله، هَلَك الوالدُ، وغاب الوافدُ، فَٱمْنُنْ عليّ، منّ الله عليك. فقال: «قد فعلتُ فلا تَعْجَلي بخروجٍ حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذِنيني» فسألتُ عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلِّميه، فقيل عليّ بن أبي طالب، قالت: فأقمت حتى قَدِم ركب من بَليّ أو قُضَاعة، قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهْطٌ من قومي، لي فيهم ثقة وبَلاغٌ، قالت: فكَساني رسول الله ﷺ وحَملني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام، قال عَدِيّ: فوالله إنّي لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظَعِينَة[1] تَصُوب[2] إليّ تَؤمّنا، قال: قلت ٱبنة حاتم، فإذا هي هي، فلما وقفت عليّ ٱنسَلَخت تقول: القاطع الظّالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقِيّة والديك عورتك! قال: قلت: أي أُخَيَّةُ! لا تقولي إلاّ خيرًا، فوالله ما لي من عذر، لقد صنعت ما ذكرتِ. قالت: ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا تَرَيْن في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن نلحق به سريعًا، فإن يكن الرّجلُ نبيًا فللسّابق إليه فضله، وإن يكن ملِكًا فلن تذِل في عِز اليمن، وأنت أنت. قال: قلت والله إن هذا الرَّأي. فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه فقال: «مَنِ الرّجل»؟ فقلت: عدِي بن حاتم. فقام رسول الله ﷺ فٱنطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامِدٌ بي إليه إذ لقيته ٱمرأةٌ ضعيفة كبِيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملِك. قال: ثم مضى حتى إذا دخل بي بَيْته تناول وِسادة من أدم محشوّة لِيفًا فقذفها إليّ فقال: «ٱجلس على هذه» قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: «بل أنت» فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملِك. ثم قال: «إيهِ يا عديّ بن حاتم ألم تك رَكُوسِيًّا؟»[3] قلت: بَلَى، قال: «أو لم تك تسير في قومك بالمِرباع»؟ قلت: بلى؛ قال: «فإنّ ذلك لم يك يَحِلّ لك في دينك». قال: قلت أجَلْ واللّهِ، وعَرَفتُ أنه نبيّ مرسل يعلم ما يُجْهَل، ثم قال: «لعلّك يا عَدِيّ إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدِّين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشِكَنّ المالُ يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخولِ

(١) الظعينة: الراحلة يرتحل عليها، أو الهودج، أو الزوجة.

(٢) تصوب: تقصد.

(٣) الركوسية: دين بين النصارى والصابئين.

فيه ما ترى من كثرة عدوّهم، وقلّة عددهم، فوالله ليوشكن أن يسمع بالمرأة تخرج من القادِسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وَايْمُ الله ليوشِكنّ أن يُسمع بالقصور البيض من أرض بابِل[١] قد فتِحت عليهم». قال عدِيّ: فأسلمت. فكان عدِيّ يقول: قد مضت ٱثنتان وبقيت الثالثة، واللّهِ لتكونَنّ؛ قد رأيت القصور البيض من أرض بابِلَ قد فُتِحت عليهم، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايْمُ الله لتكونَنّ الثالثة؛ ليفِيضَنّ المالُ حتى لا يوجد من يأخذه.

ذكر وفدِ تُجِيب

قال ٱبن سعد: قدِم وفد تُجِيب[٢] على رسول الله ﷺ في سنة تسع من مُهاجَره، وهم ثلاثة عشر رجلاً، وساقوا صَدقاتِ أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرَّ رسول الله ﷺ بهم، وقال: «مَرْحبًا بكم» وأكرم منزلهم وحَيَّاهم، وأمر بِلالاً أن يُحسِن ضيافتهم وجوائزهم، وأعطاهم أكثر مما كان يُجِيز به الوفد، وقال: «هل بقي منكم أحد» قالوا: غلام خلفناه على رِحالنا وهو أحدثنا سِنًّا. قال: «أرسِلوه إلينا»، فأقبل الغلام إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني ٱمرؤ من بني أبناء الرَّهْط الذين أتوك آنِفًا، فقضيت حوائجهم فٱقضِ حاجتي، قال: «وما حاجتك»؟ قال: تسأل الله أن يغفِر لي ويرحمني ويجعل غِناي في قلبي. فقال: «اللهم ٱغفر له وارحمه وٱجعل غِناه في قلبه». ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافَوْا رسول الله ﷺ في الموسِم بِمنًى[٣] في سنة عشرٍ، فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام، فقالوا: ما رأينا مثلَه أقنع مِنه بما رزقه الله.

---

(١) بابل: اسم ناحية منها الكوفة والحلة، ينسب إليها السحر والخمر. ويقال: إن أول من سكنها نوح عليه السلام، وهو أول من عمرها، وكان قد نزلها بعقب الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدفء، فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا من بعد نوح... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) بنو تجيب: بضم التاء وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحت ثم ياء موحدة: بطن من كندة، وأمهم هي تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رهاء بن مذحج؛ ومن تجيب: بحرية بن حيوة، الذي قتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه... (أنساب العرب للقلقشندي).

(٣) منى: قرية بين مكة وعرفات فيها رمي الجمرات والذبح في مناسك الحج والمبيت ليلة عرفة وهي ليلة الوقوف.

ذِكر وفدِ خَوْلان

قال: قَدِم وَفْدُ خَوْلان على رسول الله ﷺ، في شعبان سنة عشر، وهم عشرة نفر، فقالوا: يا رسول الله، نحن مؤمنون بالله مصدّقون برسوله، ونحن على من وراءنا مِن قومنا، وقد ضربنا إليك آباط[1] الإبل. فقال رسول الله ﷺ: «ما فَعَل عَمُّ أنسٍ» صَنَمٌ لهم؛ فقالوا: بشَرٌ وعَرٌ[2]، أبدلنا الله به ما جئت به، ولو قد رجعنا إليه هدمناه. وسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء من أمر دينهم، فجعل يخبرهم بها، وأمر من يُعلِّمهم القرآن والسُّنن، وأُنزِلوا في دار رَمْلة بنت الحارث، وأُجرِيت عليهم الضيافةُ، ثم جاؤوا بعد أيام يُودّعونه، فأمر لهم بجوائزِ ثنتي عشرة أوقية ونَشٍّ، ورجعوا إلى قومهم، فلم يَحُلُّوا عقدة حتى هدموا عَمَّ أنسٍ. وممن أسلم من خَوْلان أبو مسلم الخَوْلاَنيّ العابد، واسمه عبد الله بن ثُوَب، ولم يرَ رسول الله ﷺ، وإنما قدِم المدينة بعد وفاته، وله خبر عجيب مع الأسود العَنْسيّ، نذكره في أخباره في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

ذِكر وفد جُعْفِي

قال ابن سعد: وفد إلى رسول الله ﷺ رجلان من جُعْفِيّ، وهما قيس بن سلمة بن شَراحيل، وسَلَمة بن يزيد، وهما أخوان لأم، وأمهما مُلَيْكَة بنت الحلو بن مالك، فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ: «بلغني أنكم لا تأكلون القلب» وكانوا يُحرِّمون أكلَه، فقالا: نَعَم، قال: «فإنه لا يكمل إسلامكم إلا بأكله» ودعا بقلب فَشُوِي، ثم ناوله سَلَمة فلما أخذه أُرعِدت يده فقال له: «كُلْه» فأكله، وقال: [من الوافر]

عَـلـى أنِّي أكَـلْـتُ الْـقَـلْـبَ كَـرهًـا ... وتُـرْعَـدُ حِـيـنَ مَـسَّـتْـهُ بَـنـانِـي[3]

ثم قالا: يا رسول الله، إنّ أُمَّنا مُلَيكة بنت الحلو كانت تَفُكّ العاني[4]، وتُطْعِم البائس، وترحم المسكين، وأنها ماتت وقد وَأَدَت[5] بُنية لها صغيرة، فما حالها؟ قال: «الوائِدة والموؤودة في النار» فقاما مُغْضَبَيْن، فقال: «إليّ فارجعا» فقال: «وأمّي

(١) آباط الإبل: جمع الإبط، وهو باطن المنكب والجناح.
(٢) العر: الجرب، وهو أبغض داء إلى نفوس العرب لذا عطفوه على الشر.
(٣) البنان: أطراف الأصابع. (٤) العاني: الذليل الأسير.
(٥) الوأد: قتل الجارية دفنًا وهي حيّة.

مع أمّكما» فأبَيَا ومَضَيَا، وهما يقولان: والله إنّ رجلاً أطعمنا القلب، وزعم أنّ أمّنا في النار لأهل ألاّ يُتَّبع، فلما كانا ببعض الطريق، لقيا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، معه إبل من إبِلِ الصَّدقة، فأوثقاه وطردا الإبِل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فلعنهما فيمن كان يلعن في قوله: «لعن الله رِعْلاً وذَكْوان وعُصَيَّة ولحيان وٱبنا مُلَيْكَة».

قال محمد بن سعد: وقَدِم أبو سَبْرة وهو يزيد بن مالك بن عبد الله الجُعْفِيّ على النبي ﷺ ومعه ٱبناه سَبْرة وعزيز فأسلموا. وسمّى رسول الله ﷺ عَزِيزًا عبد الرحمٰن. وقال له أبو سَبْرة: يا رسول الله: إن بظهر كَفّي سِلْعَةً(١) قد منعتني من خِطام(٢) راحلتي، فدعا بقدح، وجعل يضرب به على السِّلعة ويمسحها فذهبت، ودعا له رسول الله ﷺ ولاٌبنيه، فقال: يا رسول الله، أقْطِعني وادي قومي باليمن، وكان يقال له جُرْدان(٣) ففعل، قال: وعبد الرحمٰن هذا هو أبو خَيْثَمة عبد الرحمٰن.

ذِكر وفد مُراد(٤)

قالوا: قدم فَرْوَة بن مُسَيْكِ المراديّ على رسول الله ﷺ مُفارقًا لملوك كِنْدة ومُباعدًا لهم، وقال في ذلك: [من الكامل]

لـمَّـا رَأيْـتُ مُـلـوكَ كِـنْـدَةَ أعْـرَضَـتْ ... كالرِّجْلِ خانَ الرِّجْلَ عِرْقُ نَسَائِها(٥)
قَـرَّبْـتُ راحِـلَـتـي أؤمُّ مـحـمـدًا ... أرجُو فَـواضِـلَـها وحُـسْـنَ ثَـرائِـهـا(٦)

وبايع النبيّ ﷺ، ونزل على سعد بن عبادة، وكان يتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه، فأجازه رسول الله ﷺ بٱثنتي عشرة أوقية، وحمله على بعير وأعطاه حُلَّة من نَسْج عُمان، وٱستعمله على مُراد وزُبَيْد ومَذْحِج، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصَّدَقات، وكتب له كتابًا فيه فرائض الصَّدقة، فلم يزل على الصَّدَقة حتى تُوفي رسول الله ﷺ.

---

(١) السلعة: خراج كهيئة الغدة تتحرك بالتحريك. وقيل: هي ورم غليظ غير ملتزق باللحم يتحرك عند تحريكه وله غلاف.

(٢) الخطام: ما وضع على خطم الراحلة لتقاد بها.

(٣) جردان: واد بين عمقين.

(٤) مراد: بطن من كهلان، من القحطانية. وجعل في العبر مرادًا بطنًا من مذحج؛ منهم الجراح بن الحصين، الذي قال له ابن الزبير: أكلت تمري وعصيت أمري... (أنساب العرب للقلقشندي).

(٥) النسا: عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ.

(٦) أؤمّ: أقصد.

ذكر وفد زُبَيد[(١)]

قال ٱبن سعد: قَدِم وفد عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ الزُّبيديّ على رسول الله ﷺ المدينة، في عشرة نفر من زُبيد، فنزل على سعد بن عُبادة فأكرمه سعد وراح به إلى رسول الله ﷺ فأسلم هو ومن معه، وأقام أيامًا، ثم أجازه رسول الله ﷺ، وٱنصرف إلى بلاده، فأقام مع قومه على الإسلام، وعليهم فَرْوَةُ بن مُسيك، فلما توفِّي رسول الله ﷺ ٱرْتَدّ، ثم رجع إلى الإسلام، وأبْلَى يوم القادِسِية وغيرها.

قال محمد بن إسحاق: كان عمرو بن مَعْدِي كَرب قد قال لقَيْس بن مَكْشُوح المراديّ حين ٱنتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أنّ رجلًا من قريش يقال له محمد خرج بالحجاز، يقال إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نَعْلم عِلْمه، فإن كان نبيًّا كما يقول فإنه لن يخفى عليك، إذا لقيناه ٱتبعناه، وإن كان غير ذلك عَلِمنا عِلْمه، فأبى عليه قيس، فركب عمرو بن مَعْدِي كَرِبَ حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم، فلما بلغ ذلك قَيْس بن مَكْشُوح أوعد عمرًا وتَحَطَّم[(٢)] عليه، وقال: خالفني وترك رأيي، فقال عمرو في ذلك: [من مجزوء الوافر]

أمَــرْتُــكَ يَــوْمَ ذِي صَــنْــعــا ... ء أمــرًا بَــيِّــنًــا رشَــدُهْ[(٣)]
أمَــرْتُــك بِــاْتِّــقــاء الــلَّــ ... ـهِ تــأتــيــهِ وتَــتَّــعِــدُهْ[(٤)]
فــكُــنــت كَــذِي الــحُــمَــيِّــر غَــرْ ... رَه مِــمَّــا بِــهِ وَتِــدُهْ[(٥)]
تَــمَــنَّــانِــي عــلــى فَــرَسٍ ... عــلــيــه جــالــسًــا أَسَــدُهْ[(٦)]
عــلــيَّ مُــفــاضَــةٌ كــالــنِّــهْــ ... ــي أخْــلَــص مــاءَهُ حَــدَدُهْ[(٧)]
تــردُّ الــرُّمْــحَ مَــثْــنــيّ الــسِّــ ... ــنــان عَــوائِــرًا قِــصَــدُهْ[(٨)]
فَــلَــوْ لاقَــيْــتَــنــي لَــلَــقِــيــ ... ــتَ لَــيْــثًــا فَــوْقَــه لِــبَــدُهْ[(٩)]

---

(١) بنو زبيد: بطن من زبيد الأكبر، من سعد العشيرة، من القحطانية... (أنساب العرب للقلقشندي).

(٢) تحطم عليه: تلظى غيظًا. (٣) ذي صنعا: اسم موضع.

(٤) تتعدّه: تلتزمه.

(٥) الوتد: ما ثبت في الأرض أو الحائط من الخشب.

(٦) تمنّاني: أرادني.

(٧) المفاضة: الدرع الواسعة. والنهي: الغدير من الماء. والحدد: المنع والحبس.

(٨) القصد، واحدتها القصدة، وهو ما تكسر من الرمح.

(٩) لبد: واحدتها لبدة، وهو ما على كتفي الأسد من الشعر.

تُلاقِي ضَيْغَمًا شَثْنَ الْـ ... بَراثِنِ نَاشِزًا كَتِدُهْ[١]
يُسامي الْقِرْنَ إنْ قِرْنٌ ... تَيَمَّمَهُ فَيَعْتَضِدُهْ[٢]
فيأخذه فَيرفعُهُ ... فيخْفِضُهُ فيَقْتَصِدُهْ[٣]
فيدْمَغُهُ فيخْطِمُهُ ... فيَخْضِمُهُ فيَزْدَرِدُهْ[٤]
ظَلُومُ الشِّرْكِ فيما أحْـ ... ـرَزَتْ أنيابُهُ ويَدُهْ[٥]

ذكر وفد كِنْدَة

قالوا: قَدِم الأشعث بن قيس على رسول الله ﷺ في بضعة عشر راكبًا من كِنْدَة. قاله ابن سعد ـ وقال ابن إسحاق: في ثمانين راكبًا ـ فدخلوا على رسول الله ﷺ المسجد، وقد رَجَّلوا[٦] جُمَمهم وتَكَحَّلوا، عليهم جُبَب الحِبرة[٧] قد كَفَفُوها بالحرير، وعليهم الدِّيباج[٨] ظاهرٌ مُخَوَّص[٩] بالذَّهب، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألم تُسلموا»؟ قالوا: بَلَى، قال: «فما بال هذا عليكم» قال: فَشقّوه وألقوه، ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله، نحن بنو آكل المُرَار، وأنت ابن آكل المرار. فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «نَاسِبُوا بهذا النَّسب العبّاسَ بن عبد المطلب ورَبِيعةَ بن الحارث» قال: وكانا تاجرين، وكانا إذا شاعا في بعض العرب، فسئلا ممن هما، قالا: نحن بنو آكل المُرَار: يَتعزَّزان بذلك. وآكُل المُرَار هو الحارث بن عمرو بن حُجْر بن عمرو بن معاوية، وقد تقدم خبره في وقائع العرب. قال: ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «لا، نحن بنو النَّضْر بن كنانة، لا نَقْفو[١٠] أُمَّنا ولا نَنْتفِي من أبِينا» فقال الأشعث بن قيس: يا مَعْشر كِنْدة، والله لا أسمع رجلًا يقولها إلا ضربته ثمانين.

قال محمد بن سعد: فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشرة أواقٍ، وأعطى الأشعث ثنتي عشرة أوقية.

---

(١) الضيغم: الأسد. والشثن: الغليظ الأصابع. والناشز: المرتفع. والكند: ما بين الكتفين.
(٢) اعتضده: احتضنه. (٣) اقتصده: قتله.
(٤) يدمغه: يخرج دماغه. ويخطمه: يكسره. ويخضمه: يأكله.
(٥) الشرك: النصيب والحصة. (٦) رجّل: سرّح.
(٧) الحبرة: ثوب يماني مخطط من قطن أو كتان.
(٨) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير... (فارسي معرب).
(٩) مخوص: مزين بصفائح من الذهب على قدر خوص النخيل.
(١٠) نقفو: أي ننتسب إلى أمنا ونترك الانتساب إلى أبينا.

ذكر وفد الصَّدِف

قال ابن سعد: وَفَد وَفْدُ الصَّدِف على رسول الله ﷺ، وهم بضعة عشر رجلاً، على قَلائص[1] لهم، في أُزُر وأرْدية، فصادفوا رسول الله ﷺ فيما بين بيته وبين المِنْبر، فجلسوا ولم يُسَلِّموا فقال: «أمسلمون أنتم»؟ قالوا: نعم. قال: «فهلاَّ سَلَّمتم»، فقاموا فقالوا: السّلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله، فقال: «وعليكم السلام، أجلسوا» فجلسوا، وسألوا رسول الله ﷺ عن أوقات الصلوات فأخبرهم بها.

ذكر وفد سعد هُذَيْم[2]

قال ٱبن سعد يرفعه إلى أبي النعمان عن أبيه قال: قدِمت على رسول الله ﷺ وافدًا في نَفَر من قومي، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نَؤُم المسجد، فنَجِد رسول الله ﷺ يُصلِّي على جنازة في المسجد، فانصرف فقال: «من أنتم»؟ قلنا: من بني سعد هُذَيْم، فأسلمنا وبايعنا، ثم ٱنصرفنا إلى رِحالنا، فأمر بنا فأُنزِلنا وضُيِّفنا فأقمنا ثلاثًا، ثم جئناه نودِّعه، فقال: «أمِّروا عليكم أحدَكم» وأمَرَ بِلالاً، فأجازَنا بأواقٍ من فضَّة، ورجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام.

ذكر وفد بَلِيّ[3]

روي عن رُوَيْفِع بن ثابت البَلَويّ قال: قَدِم وفدُ قومي في شهر ربيع الأول سنة تسع، فأنزلتهم عليَّ في منزلي ببني جَدِيلة، ثم خرجتُ بهم حتى ٱنتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، وهو جالس مع أصحابه في بقية من الغَدَاة، فتقدم شيخ الوفد أبو الضُّبَيْب، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ فتكلم وأسلم، وأسلم القوم، وسألوا رسول الله ﷺ عن الضِّيافة، وعن أشياء من أمر دينهم فأجابهم، ثم رجعت بهم إلى منزلي، فإذا رسول الله ﷺ يأتي منزلي يحمل تَمْرًا يقول: «ٱستعن بهذا التَّمْر» فكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثًا، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يُودِّعونه، فأمر لهم بجوائز كما كان يُجِيز الوفد، ثم رجعوا إلى بلادهم.

---

(١) القلائص: واحدتها قلوص، وهي الناقة الشابة.

(٢) بنو هذيم: بطن من قضاعة.. وهذيم: عبد حبشي حضنه سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، فعرف به... (أنساب العرب للقلقشندي).

(٣) بنو بلي: بفتح الباء وكسر اللام وياء آخر الحروف: بطن من قضاعة، من القحطانية. النسبة إليهم بلوى. وهم بنو بلي بن عمرو بن الحافي بن قضاعة... (أنساب العرب للقلقشندي).

ذكر وفد بَهْراءَ[١]

قال ٱبن سعد: قَدِم وفدُ بهراءَ من اليمن، وهم ثلاثة عشر رجلًا، فأقبلوا يقودون رواحلهم، حتى ٱنتهوا إلى باب المِقْداد بن عمرو ببني جَدِيلة فخرج إليهم، فرحَّب بهم وأنزلهم، وأتَوا النبيّ ﷺ فأسلموا وتعلَّموا الفرائض وأقاموا أيامًا، ثم جاؤوا يُودِّعونه فأمر لهم بجوائزهم، وٱنصرفوا إلى أهلهم.

ذِكر وفد عُذْرة

قالوا: قَدِم على رسول الله ﷺ وفد عُذْرة، في صَفَرٍ سنة تسع من مُهَاجَره، وهم ٱثنا عشر رجلًا، فيهم حمزة بن النعمان العُذْرِيّ، وسليم وسعد ٱبنا مالك، ومالك بن أبي رِياح، فنزلوا دار رَمْلة بنت الحارث، ثم جاؤوا النبيّ ﷺ فسلَّموا بسلام الجاهلية، وقالوا: نحن إخوة قُصيّ لأمه، ونحن الذين أخرجوا خُزَاعة وبني بكرٍ عن مكة، ولنا قَرابات وأرحام، فقال رسول الله ﷺ: «مَرْحبًا بكم وأهلًا، ما أعرفَني بكم، ما منعكم من تحية الإسلام»؟ قالوا: قدِمنا مرتادين[٢] لقومنا. وسألوا النبيّ ﷺ عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها، فأسلموا وأقاموا أيامًا، ثم ٱنصرفوا إلى أهليهم، وأمر لهم بجوائز كما كان يُجِيز الوفدَ، وكَسَا أحدهم بُرْدًا.

قال: ووَفَد زَمْل بن عمرو العُذْريّ على رسول الله ﷺ، وأنشأ يقول حين وَفَد: [من الطويل]

إليكَ رسولَ الله أعملتُ نَصَّها ... أُكَلِّفها حَزْنًا وقَوْزًا من الرَّملِ[٣]
لأنصرَ خيرَ النَّاسِ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ... وأعْقِدَ حَبْلًا من حِبالكَ في حَبْلي[٤]
وأشهدَ أنّ اللّهَ لا شيءَ غيرُه ... أدِينُ له ما أثقلتْ قَدَمِي نَعْلي[٥]

قال: وأخبر رسول الله ﷺ بما سمع من صَنَمه، فقال: «ذلك مؤمن الجن» وعقد له رسول الله ﷺ لِواءً على قومه، فشهد به بعد ذلك صِفِّين مع معاوية، ثم شَهِد به المَرْج[٦] فقُتِل.

---

(١) بنو بهراء: بفتح الباء وسكون الهاء وبالراء المهملة: بطن من قضاعة، من القحطانية. النسبة إليهم بهرائي.
(٢) المرتاد: الطالب للشيء.
(٣) نصّ الناقة: أي استخرج أقصى ما عندها من السير. والحزن: ما غلظ من الأرض. والقوز: المستدير من الرمل. والكثيب: المشرف.
(٤) المؤزر: الشديد. والحبل: العهد.
(٥) المراد بقوله: ما أثقلت قدمي نعلي، أي ما دمت حيًا.
(٦) المراد بالمرج، مرج راهط، وهو موضع في الغوطة من دمشق.

ذِكر وفدِ سَلاَمان[١]

قال ابن سعد: وفد سبعة من سَلاَمان على رسول الله ﷺ في شوّال سنة عشر، فصادفوه وهو خارج من المسجد إلى جنازة؛ فقالوا: السلام عليك يا رسول الله، قال: «وعليكم السلام من أنتم»؟ قالوا: نحن من سَلاَمان، قدِمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على مَنْ وراءَنا مِن قومنا. فأمَر ثَوْبان فأنزلهم حيث ينزل الوفد، فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الظُّهر جلس بين بيتِه وبين المِنبر، فقَدِموا إليه فسألوه عن أشياء من أمر الصّلاة وشرائع الإسلام، وعن الرُّقَى فأجابهم وأسلموا، وأجاز كلَّ رجلٍ منهم خمسَ أواقٍ، ورجعوا إلى بلادهم.

ذكر وفدِ كَلْبٍ

قال محمد بن سعد بسنده إلى عبد بن عمرو بن جَبَلة بن وائل بن الجُلاَح الكلبيّ، قال: شَخَصتُ[٢] أنا وعِصام ـ رجلٌ من بني رَقَاش من بني عامر ـ حتى أتينا النبيّ ﷺ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا.

وقال بسند آخر إلى ربيعة بن إبراهيم الدمشقي قال: وَفَد حارِثةُ بن قَطَن بن زابِر بن حِصْن بن كَعْب بن عُلَيْم الكلبيّ، وحَمَل بن سَعْدانة بن حارثة بن مُغَفَّل بن كعب بن عُلَيْم إلى رسول الله ﷺ فأسلما، فعقد لحَمَل بن سَعْدانة لواء، فشهد به صِفِّين مع معاوية، وكتب لحارثة بن قَطَن كتابًا فيه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لأهل دُومَة الجَنْدل[٣] وما يليها من طوائف كَلْب مع حارثة بن قَطَن، لنا الضَّاحِية[٤] من البَعْل[٥]، ولكم الضَّامِنة[٦] من النَّخْل؛ على الجارِية العُشْر، وعلى الغائِرةِ[٧] نِصفُ العُشْر، لا يُجْمَع سارِحُكم[٨]، ولا تُعَدُّ فارِدَتكم[٩]، تُقِيمون الصلاةَ لوقتها، وتُؤْتون الزكاة

(١) بنو سلامان: بطن من قضاعة، من القحطانية. أو بطن من طيء، من القحطانية أيضًا.
(٢) يقال: شخص من بلده: أي خرج.
(٣) دومة الجندل: حصن مشهور حوله قرى.
(٤) الضاحية: الظاهرة البارزة من العمارة. (٥) البعل: النخل.
(٦) الضامنة من النخل: ما كان داخلاً في العمارة وتضمنته أمصارهم وقرارهم.
(٧) الجارية: التي تسقى بالماء الجاري. والغائرة: التي تسقى بالماء الغائر في الأرض كالآبار.
(٨) السارح: الماشية التي تسرح إلى الرعي.
(٩) الفاردة: الزائدة على الفريضة، أي لا تضم إلى غيرها فتعد معها وتحسب... (النهاية لابن الأثير).

بحقِّها، ولا يُحْظَر عليكم النَّبَاتُ، ولا يُؤخَذ منكم عُشْر البَتَات[١]، لكم بذلك العهد والميثاق، ولنا عليكم النُّصْحُ والوفاء، وذِمّة الله ورسوله، شهد الله ومَنْ حضر من المسلمين».

ذِكر وفدِ جَرْم[٢]

قال ابن سعد: وَفَد على رسول الله ﷺ رجلان من جَرْم، يقال لأحدهما: الأسْقَع بن شُرَيْح بن صَريم بن عمرو بن رِيَاح بن عوف بن عمِيرة بن الْهُون بن أعْجَب بن قُدَامة بن جَرْم بن رَبّان بن حُلْوَان بن عِمْران بن الْحافِ بن قُضَاعة. والآخر: هَوْذَة بن عمرو بن يزيد بن عمرو بن رِيَاح، فأسلما وكتب لهما رسول الله ﷺ كتابًا.

وروي عن أبي يزيد ـ وقد قيل فيه بالباء الموحَّدة أبو بُرَيْد ـ عمرو بن سَلِمة الجَرْميّ أن أباه ونفرًا من قومه، وفدوا إلى النبي ﷺ حين أسلم الناس، وتعلّموا القرآن وقَضَوا حوائجهم، فقالوا: يا رسول الله من يُصلّي بنا؛ أوْ لَنا؟ فقال: «لِيصل بكم أكثرُكم جَمْعًا ـ أو أخْذًا ـ للقرآن» قال: فجاؤوا إلى قومهم فلم يجدوا فيهم أحدًا أكثر أخذًا، أو جَمَع من القرآن ما جمعتُ، أو أخَذْتُ، قال: وأنا يومئذ غلامٌ عليّ شَمْلةٌ[٣]، فقدّموني فصلّيتُ بهم، فما شهدتُ مَجمعًا من جَرْم إلا وأنا إمامهم إلى يومي هذا.

وعن عمرو بن سَلِمة أيضًا قال: كنا بحضرة ماءٍ مَمَرُّ الناس عليه، وكنا نَسْألهم، ما هذا الأمر؟ فيقولون: رجلٌ يزعم أنه نبيٌّ، وأنّ الله أرسله، وأنّ الله أوحى إليه كذا وكذا، فجعلتُ يومئذ لا أسمع شيئًا من ذلك إلاّ حَفظته، كأنما يُغْرَى[٤] في صدري بغِراء، حتى جمعتُ فيه قرآنًا كثيرًا، وكانت العرب تَلَوَّم[٥] بإسلامها الفتْحَ، يقولون: أنظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق، وهو نبيٌّ. فلما جاءتنا وقْعَةُ الفَتْح بادر كل قوم بإسلامهم، فانطلق أبي بإسلام حِوائِنا[٦] ذلك، وأقام مع رسول الله ﷺ ما شاء الله أن

---

(١) البتات: المتاع الذي ليس عليه زكاة مما لا يكون للتجارة.
(٢) بنو جرم: بطن من قضاعة، من القحطانية. قال أبو عبيد: هم بنو جرم بن زبان بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة. . . (أنساب العرب للقلقشندي).
(٣) الشملة: كساء صغير يؤتزر به.
(٤) يغرى: يلصق به.
(٥) تلوّم: أي تنتظر.
(٦) الحواء: بيوت مجتمعة من الناس على ماء.

يُقيم، ثم أقبل فلمّا دَنا منّا تلقَّيْناه، فقال: جئتكم والله من عند رسول الله ﷺ حقًّا، ثم قال: إنه يأمركم بكذا وكذا، وينهاكم عن كذا وكذا، وأن تصلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، إذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدُكم، وليؤمّكم(١) أكثركم قرآنًا. فنظر أهلُ حِوَائنا فما وجدوا أحدًا أكثر قرآنًا منِّي للّذي كنت أحفظه من الرُّكبان(٢)، فقدّموني بين أيديهم، فكنتُ أصلّي بهم وأنا ٱبن سِتّ سنين، وكان عليّ بُرْدَة كنتُ إذا سجدتُ تَقَلَّصت(٣) عني، فقالت ٱمرأة من الحيِّ: ألا تغطون عنّا ٱسْتَ قارئكم؟ فكَسَوْني قميصًا من مُعَقَّد(٤) البَحْرَيْن، فما فَرِحتُ بشيء أشدَّ من فرحي بذلك القميص.

ومن رواية أخرى عنه: فعلّموني الركوعَ والسجودَ، فكنتُ أصلّي بهم.

ذِكر وفدِ الأزدِ وأهلِ جُرَش

قالوا: قدم صُرَد بن عبد الله الأزْديّ في بضعة عشر رجلًا من قومه، وَفْدًا إلى رسول الله ﷺ، فنزلوا على فَرْوَةَ بن عَمْرو، وأتوا رسول الله ﷺ فأسلموا، وأقاموا عشرة أيام، وكان صُرَد أفضلَهم، فأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمرَه أن يجاهد بهم مَنْ يليه، من أهل الشِّرك من قبائل اليمن؛ فخرج حتى نزل جُرَشَ(٥) وهي مدينة حَصِينة مُغْلَقة، وبها قبائل من قبائل اليمن. وقد ضَوَت(٦) إليهم خَثْعَم؛ فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصرهم صُرَد ومن معه فيها شهرًا، ثم رجع قَافِلًا، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شَكْر، ظَنّ أهلُ جُرَش أنه إنما وَلّى عنهم منهزمًا، فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه صَفّ صُفوفَه، وحمل عليهم هو والمسلمون، ووَضَعوا سيوفهم فيهم حيث شاؤوا، وأخذوا من خيلهم عشرين فرسًا، فقاتلوهم عليها نهارًا طويلًا.

وكان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عَشِيةً بعد العصر؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «بأيّ بلاد الله شَكْر»؟ فقام الجُرَشِيّان فقالا: يا رسول الله، ببلادنا جبل يقال له كَشْر، وكذلك نسمّيه أهلَ جُرَش، فقال: «إنه ليس بكَشْر ولكنه شَكْر»، قالا: فما شأنه يا

(١) يؤمكم: يصلّي بكم إمامًا. (٢) الركبان: الراكبون، العشرة فما فوق.
(٣) تقلت: انزوت.
(٤) المعقّد: ضرب من برود هجر، وهي من قرى البحرين معروفة بهذه البرود.
(٥) جرش: مدينة ينسب إليها جلود ونوق. (٦) يقال: ضوى إليه: إذا انضم ولجأ.

رسول الله؟ قال: «إنّ بُدْن اللّهِ لَتُنْحَر عنده الآن» قال: فجلس الرجلان إلى أبي بكر، أو إلى عثمان، فقال لهما: وَيْحَكُما! إن رسول الله ﷺ الآن لَيَنْعَى لكما قومَكما، فقوما إلى رسول الله فَسَلاَه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما. فقاما إليه فسألاه ذلك. فقال: «اللهم ارفع عنهم» فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا من صُرَد في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال في تلك الساعة، فقصّا على قومهما القِصَّة، فخرج وفدهم حتى قَدِموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، فقال: «مرحبًا بكم، أحسن الناس وجوهًا، وأصدقه لقاءً، وأطيبه كلامًا، وأعظمه أمانةً، أنتم مني وأنا منكم» وجعل شعارهم مبرورًا، وحَمَى لهم حِمًى حول قريتهم، على أعْلاَم[1] معلومة للفرس والراحلة وللْمُثيرة ـ بقرة الحرث ـ فمن رعاه من الناس فمالُهُ سُحْتٌ[2].

ذكر وفد غسّان

قال محمد بن سعد بسنده إلى محمد بن بُكَير الغَسَّاني، عن قومه من غَسّان، قالوا: قَدِمنا على رسول الله ﷺ في شهر رمضان سنةَ عشر، المدينةَ ونحن ثلاثة نفرٍ، فنزلنا دار رَمْلَة بنت الحارث، ثم أتينا رسول الله ﷺ فأسلمنا وصَدَّقنا، فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا راجعين، فقَدِموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم، فكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان مسلمين، وأدرك الثالث عمر بن الخطاب عامَ اليَرْمُوك، فلقي أبا عبيدة فخبّره بإسلامه فأكرمه.

ذكر وفد الحارث بن كعب
وما كتب به رسول الله ﷺ إليهم

قال ابن سعد: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة من المسلمين، في شهر ربيع الأوّل سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنَجْرانَ[3]، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثًا قبل أن يقاتلهم ففعل، فاستجاب له مَن هناك مِن بَلْحارث بن كعب، ودخلوا في الإسلام، ونزل خالد بن الوليد بين[4] أظهرهم، فعلمهم الإسلام

(١) أعلام: جمع علم، وهو الفصل بين الأرضين.
(٢) ماله سحت: هدر.
(٣) نجران: موضع من ناحية مكة، وقد سميت بنجران بن زيد بن سبأ لأنه نزل بها.
(٤) بين أظهرهم: أي بينهم.

وشرائعه، وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فكتب رسول الله ﷺ إلى خالد: «أن بشِّرهم وأنْذِرهم واقدُم ومعك وفدُهم»، فقدم خالد ومعه وفدهم؛ فيهم قيس بن الحُصَيْن، ويزيد بن عبد المَدَان، وعبد الله بن عبد المَدَان، ويزيد بن المُحَجَّل، وعبد الله بن قُرَادٍ، وشَدّاد بن عبد الله القَنَانِيّ، وعمرو بن عبد الله، وأنزلهم خالد عليه، ثم جاء بهم إلى رسول الله ﷺ فقال: «من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند»؟ فقيل: بنو الحارث بن كعب، فسلَّموا على رسول الله ﷺ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأجازهم بعشر أواق، وأجاز قيس بن الحُصَيْن بآثنتي عشرة أوقية ونَشٍّ، وأمَّره رسول الله ﷺ على بني الحارث، ثم آنصرفوا إلى قومهم في بقية شوّال. هذا ما حكاه لابن سعد في طبقاته.

وقال آبن إسحاق: لما وقفوا على رسول الله ﷺ سلَّموا عليه، وقالوا: نشهد أنك لرسول الله، وأنه لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أنتم الذين إذا زُجِروا آستقدموا»[(١)]؟ فسكتوا، فلم يراجعه منهم أحد، فأعادها عليهم الثانية والثالثة، فلما أعادها الرابعة قال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زُجِروا آستقدموا، قالها أربعَ مِرار، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنّ خالدًا لم يكتب إليّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقِيت رؤوسكم تحت أقدامكم» فقال يزيد بن عبد المَدَان: أمَا والله ما حَمِدناك ولا حَمِدنا خالدًا، قال: «فمن حمِدتم»؟ قالوا: حمِدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله. قال: «صدقتم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «بِمَ كنتم تغلِبون من قاتلكم في الجاهلية»؟ قالوا: لم نكن نغلب أحدًا. قال: «بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم» قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم، قال: «صدقتم». وأمّر رسولُ الله ﷺ على بني الحارث قيسَ بن الحصين، وأجازهم بعشرِ أواقٍ عشرِ أواقٍ، وأجاز قيسَ بن الحُصَين باثنتي عشرة أوقيةً ونَشٍّ، ثم انصرفوا إلى قومهم في بقية شوّال، أو في صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ.

قال: وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حَزْم ليفقِّهَهم في الدِّين ويعلِّمهم السُّنة، ويعلّمهم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتِهم. وكتب له كتابًا وهو:

---

(١) المراد بقوله: إذا زجروا استقدموا، أي إذا حثوا وحملوا على القتال تنادوا وتجمعوا وتقدموا.

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا بيان من الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] عهد من محمد النبي رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله ف﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وأمره أن يأخذ الحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلِّم الناس القرآن ويفقِّههم فيه، وينهى الناس، ولا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق، ويشتدّ عليهم في الظُّلم، فإنّ الله كره الظُّلم، ونهى عنه، فقال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ويبشِّر الناس بالجنة وبعملها، ويُنْذر الناس النارَ وعملَها، ويَسْتأْلِف[١] الناس حتى يُفَقَّهوا في الدِّين، ويعلِّم الناس معالِم الحج وسنَّتَه وفريضتَه، وما أمر الله به، والحج الأكبر: الحج الأكبر، والحج الأصغر هو العُمرة، وينهى الناس أن يصلِّيَ أحدٌ في ثوب واحد صغير، إلا أن يكون ثوبًا يُثْنِي طرفَيْه على عاتقيه، وينهى أن يحتبى[٢] أحد في ثوب واحد يفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يعْقِص[٣] أحد شعر رأسه في قَفاه، وينهى إذا كان بين الناس هَيْج[٤] عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فلْيُقْطَفوا[٥] بالسَّيف، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء[٦] وجوههم وأيديهم إلى المرافق، وأرجلهم إلى الكعبين، ويَمْسحون برؤوسهم كما أمرهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والخشوع، يُغَلِّس[٧] بالصّبح، ويُهَجِّر[٨] بالهاجرة حين تَميل الشّمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مُدْبِرة، والمغرب حين يُقبِل الليل، لا تؤخَّر حتى تَبْدو النجومُ في السماء، والعِشاء أوّل الليل، وأمر بالسَّعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغُسْل عند الرَّواح[٩] إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خُمس اللّهِ، وما كتِب على المؤمنين في الصَّدقة من العَقَار[١٠] عُشر ما سقت العينُ وسقت السماء، وعلى ما سقى الغَرْب[١١] نصف

---

(١) يستألف الناس: يكتسب مودتهم وإلفتهم وإيناسهم.
(٢) الاحتباء: هو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به مع ظهره ويشد عليها.
(٣) عقص شعره: أي ضفره. (٤) الهيج: الثورة.
(٥) القطف؛ القطع.
(٦) أسبغ وضوءه: أي وفي كل عضو حقه في الغسل.
(٧) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. وأغلس: دخل في أملس.
(٨) هجّر: سار في الهاجرة. (٩) الرواح: أي الذهاب.
(١٠) العقار: الضيعة والنخل والأرض ونحو ذلك.
(١١) الغرب: الدلو العظيمة.

العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل عِشرين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع[١]: جَذَع أو جَذَعة، وفي كل أربعين من الغنم سائِمَة[٢] وحدها شاةٌ، فإنها فريضة الله التي اُفترض على المؤمنين في الصَّدقة، فمن زاد خيرًا فهو خير له، وأنه من أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ إسلامًا خالصًا من نفسه، ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نَصْرانيته أو يَهُوديته، فإنه لا يُردّ عنها، وعلى كل حالم[٣] ذكرٍ أو أنثى حُرٌّ أو عبدٍ دينارٌ وافٍ، أو عِوضه ثيابًا، فمن أدّى ذلك فإن له ذِمّة الله وذِمّة رسوله، ومَن مَنع ذلك فإنه عدوّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعًا، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

ذكر وفدِ عَنْسٍ[٤]

قال محمد بن السّائب الكلبيّ: حدّثنا أبو زُفَرَ الكلبيّ عن رجل من عَنْس، قال: كان مِنّا رجل وَفَد على النبيّ ﷺ فأتاه وهو يتَعشّى، فدعا به إلى العَشَاء فجلس، فلما تَعشّى أقْبَل عليه رسول الله ﷺ فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله» فقال العَنْسيّ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فقال: «أراغبًا جئتَ أم راهِبًا» فقال: أمّا الرَّغبة فوالله ما في يديك مالٌ، وأمّا الرَّهْبة فوالله إني لببلدٍ ما تبلغه جيوشك، ولكنّي خُوّفتُ فخِفتُ، وقيل لي: آمِنْ بالله فآمنتُ. فأقبل رسول الله ﷺ على القوم فقال: «رُبَّ خَطيبٍ من عَنْس» فمَكَث يختلف إلى رسول الله ﷺ، ثم جاء يُوَدّعه، فقال له رسول الله ﷺ: «اُخرج» وبَتَّته[٥]، أي أعطاه شيئًا، وقال: «إن أحْسَسْتَ شيئًا فوَائِلْ[٦] إلى أدْنى قرية». فخرج فوُعِك[٧] في بعض الطريق، فوَأَلَ إلى أدْنى قرية فمات رحمه الله، واُسمه ربيعة.

---

(١) التبيع: ولد البقرة لسنة، وسمي تبيعًا لأنه يتبع أمه.
(٢) السائمة: التي تركت ترعى وحدها للنمو والزيادة.
(٣) الحالم: الذي بلغ الحلم.
(٤) بنو عنس: بسكون النون: بطن من كهلان، من القحطانية. وهم بنو عبس بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. وإليهم ينسب الأسود العنسي... (أنساب العرب للقلقشندي).
(٥) بتّه: أي أعطاه بتًّا، وهو كساءٌ غليظ مهلهل مربّع أخضر.
(٦) وائل: أي التجيء. (٧) وعك: أي مرض.

ذِكر وفدِ الدارِيّين[١] وما كتب لهم بهِ رسول اللّهِ ﷺ وما آختَصّ بهِ تميم الدارِيّ وإخوته

قال محمد بن سعد بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله، ورَوْح بن زِنْباع الجُذاميّ عن أبيه قالا: قدِم وفد الدّارِيِّين على رسول الله ﷺ مُنْصَرَفه من تَبُوكَ وهم عشرة نَفَر؛ فيهم تَميم ونُعَيْم آبنا أوْس بن خارِجة بن سُود بن جُذَيمة بن ذراع بن عَديّ بن الدّار بن هانِىء بن حبيب بن نُمَارة بن لَخْم، ويزيد بن قيس بن خارجة، والفاكِه بن النُّعمان بن جَبَلة بن صَفَّارة بن ربيعة بن ذِراع بن عَديّ بن الدّار، وجَبَلَة بن مالك بن صَفَّارة، وأبو هِنْد والطَّيِّب آبنا ذَرٍّ - قال آبن إسحاق: بَرّ - وهو عبد الله بن ذَرّ بن عِمِّيت بن ربيعة بن ذِراع، وهانِىء بن حبيب، وعَزِيز ومُرّة آبنا مالك بن سَوَاد. قال آبن إسحاق: عَرْفة. وقال آبن هشام: عَزَّة. وقال آبن إسحاق في مُرّة: مَرْوان.

قال آبن سعد: فأسلموا وسَمَّى رسول الله ﷺ الطيب عبد الله، وسَمَّى عَزيزًا عبد الرحمٰن.

قال: وأهدى هانِىءُ بن حبيب لرسول الله ﷺ راوية[٢] خَمْر وأفْراسًا وقَباء[٣] مُخَوَّصًا[٤] بالذهب، فقبل الأفراس والقَبَاء وأعطاه العباس بن عبد المطلب، فقال: ما أصنع به؟ قال: «تنزع الذهب فتحليه نساءك، أو تَسْتَنْفقه، ثم تبيع الدِّيباج[٥] فتأخذ ثمنه»، فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم.

قال وقال تميم: لنا جِيرَةٌ من الرُّوم، لهم قريتان يقال لإحداهما حَبْرَى[٦] والأخرى بيت عَيْنُون[٧]، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي، قال: «فهما لك» فلما قام أبو بكر رضي الله عنه أعطاه ذلك، وكتب له به كتابًا، وأقام وفد الدّاريِّين حتى تُوفِّي رسول الله ﷺ، وأوصى لهم رسول الله ﷺ بِجَادِّ[٨] مائةِ وَسْقٍ من خَيْبر، هكذا حكى آبن سعد في طبقاته.

---

(١) الداريون: نسبة إلى جدهم الدار بن هانىء بن ثمارة بن لخم بن عديّ بن الحرث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبلر.

(٢) الراوية: المزادة فيها الماء.

(٣) القباء: ضرب من الثياب.

(٤) المخوص: المطرز بالذهب.

(٥) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٦) حبرى: هي مدينة الخليل إبراهيم عليه السلام وفيها قبره يزار.

(٧) عينون: قرية من قرى بيت المقدس (لفظ عبري).

(٨) يقال: أرض جاد مائة وسق: أي مخرج مائة وسق، إذا زرعت.

وشاهدتُ أنا عند ورثة الصاحب الوزير فخر الدين أبي حفص عمر، ابن القاضي المرحوم الرئيس مجد الدين عبد العزيز المعروف بابن الخليلي التميميّ رحمه الله، كتابًا يتوارثونه كابرًا عن كابر، يقولون: هو كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه لتميم الداريّ وإخوته، وهو في قِطْعة من أدَم مُربَّعة دون الشِّبْر قد غُلِّفت بالأطْلَس[1] الأبيض، يزعمون أن ذلك من خُفٍّ كان لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد بقي بهذه القِطْعة الأدَم آثارُ أحْرُف خافِية، لا تكاد تَبِين إلا بعد إمعان التأمُّل، وتحقيق النظر، وعلى هذه القطعة الأدَم من الجَلالة ولها من الموقع في النفوس والمَهابة ما يقوّي أنها صادرة عن المحل المُنِيف[2]، وقرين هذه القِطْعة الأدَم قِرْطاس أبيض قديم، يزعمون أن أسلافهم نقلوا ما فيه من الكتابة من كتاب رسول الله ﷺ، قبل أن تزول حروفه. وفيه تسعة أسطر بما في ذلك من البَسْملة، وقد رأينا أن نضع ذلك في هذا الكتاب على هيئته في العدد، وإن لم يوافق الخط، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما انْطَا[3] محمد رسول الله لتميم

الداريّ وإخوته حَبْرُون والمَرْطُوم[4]

وبيت عيْنون وبيت إبراهيم وما فيهن

نِطِيه بَتٍّ بذِمتِهم ونفذت وسلمت ذلك

لهم ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه

الله فمن آذاهم لعنه الله شهد عَتِيق

ابن أبو[5] قُحافَة وعُمر بن الخطاب وعثمان بن عَفّان

وكتب علي بن أبو[6] طالب وشهد.

هكذا شاهدت تلك الورقة التي هي قَرِين الكتاب، والكتاب بأيديهم إلى وقتنا هذا؛ وهو العشر الآخر من ذي القعْدة سنة ستّ عشرة وسبعمائة. وهذه الضِّيَاع الأربعة المذكورة بأيديهم إلى وقتنا هذا، لا يُنازَعُون فيها. وكان الصاحب الوزير

(١) الأطلس: الحرير.
(٢) المنيف: المرتفع المشرف.
(٣) أنطى: أي أعطى. . . (لغة أهل اليمن).
(٤) مرطوم، أو مرطهوم: اسم أرض.
(٥) كذا بالأصل، والصواب أبي قحافة.
(٦) كذا بالأصل، والصواب أبي طالب.

فخر الدين عمر بن الخليلي رحمه الله، إذا نابَتْه[١] نائبة، أو صُودِر أو أوذِي بوجه من وجوه الأذى، توَسّل إلى الله تعالى بكتاب نبيه ﷺ، وأظهره للملوك، فكفوا عن طلبه، وأفْرَجوا عنه. ولنرجعْ إلى أخبار الوفود.

ذكر وفد الرَّهاويِّين

والرَّهاوِيّون حَيّ من مَذْحِج، قال ابن سعد: وفد خمسة عشر رجلاً من مَذْحِج على رسول الله ﷺ سنة عشرٍ، فنزلوا دار رَمْلة بنت الحارث، فأتاهم رسول الله ﷺ، فتحدّث عندهم طويلاً. وأهدوا الرسول ﷺ هدايا؛ منها فرس يقال له المِرْواح، فأمر به فشُوِّر[٢] بين يديه فأعجبه. فأسلموا وتعلّموا القرآن والفرائض. وأجازهم كما يجيز الوفد؛ أرفعهم ثنتي عشرة أوقيةً ونَشًّا، وأخفضهم خمسَ أواقٍ. ثم رجعوا إلى بلادهم.

ثم قدم منهم نفر فحجّوا مع رسول الله ﷺ، فأوصى لهم بِجَادِّ مائة وَسْقٍ من خَيْبر في الكَتِيبة جارية عليهم، وكتب لهم بها كتابًا، فباعوا ذلك في زمن معاوية.

ذكر وفد غامِد[٣]

قال: قدم وفد غامِد على رسول الله ﷺ في شهر رمضان وهم عشرة، فنزلوا ببَقِيع[٤] الغَرْقَد، ثم لبسوا من صالح ثيابهم، ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ، فسلّموا عليه وأقرّوا بالإسلام. وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فيه شَرائعُ الإسلام، وأتوا أُبَيَّ بن كعب فعلّمهم قرآنًا. وأجازهم رسول الله ﷺ كما كان يُجيز الوفد وانصرفوا.

ذكر وفد النَّخَع[٥]

قالوا: بعث النَّخَع رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ وافِدَيْن بإسلامهم، وهما أرْطاة بن شَرَاحيل بن كعب، من بني حارثة بن سعد بن مالك بن النَّخَع، والجُهَيْش واسمه الأرْقَم، من بني بكر بن عَوْف من النَّخَع، فخرجا حتى قَدِما على

---

(١) نابته نائبة: أي أصابته مصيبة.
(٢) شوّر: أجرى بين يديه ليعرف قوته.
(٣) غامد: بطن من الأزد باليمن، نسبة إلى جدهم غامد واسمه عبد الله.
(٤) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.
(٥) بنو النخع: حيّ من كهلان، من القحطانية؛ غلب عليهم اسم أبيهم. قال أبو عبيدة: سمي النخع لأنه نخع عن قومه، أي بعد... (أنساب العرب للقلقشندي).

رسول الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام فقَبِلاه وبايَعا عن قومهما، فأعْجبَ رسولَ الله ﷺ شأنُهما، وحسْنُ هيْئَتهما؛ فقال: «هل خَلَّفتما وراءَكما من قومكما مثْلَكما»؟ قالا: يا رسول الله، قد خَلَّفْنا وراءَنا من قومنا سبعين رجلاً كلهم أفضل منا، وكلهم يَقْطَع الأمر ويُنفِّذ الأشياء، ما يشارِكوننا في الأمر إذا كان، فدعا لهما رسول الله ﷺ ولقومهما بخير، وقال: «اللهمّ بارك في النَّخع». وعَقَد لأرْطاة لِواءً على قومه، وكان في يده يوم الفتح، فشهد به القادِسيّة فقُتِل يومئذ، فأخذه أخوه دُرَيْد فقُتِل - رحمهما الله - فأخذه سيف بن الحارث من بني جُذَيمة، فدخل به الكوفة.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر الأسلميّ، قال: كان آخر من قدم من الوفد على رسول الله ﷺ وفد النَّخع، وقَدِموا من اليمن للنِّصف من المحرم، سنة إحدى عشرة، وهم مائتا رجل، فنزلوا دار رَمْلة بنت الحارث، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ مُقِرِّين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل باليمن، وكان فيهم زُرارَةُ بن عمرو.

وحكى أبو عمر بن عبد البر في ترجمة زُرارة بن عمرو، والد عمرو بن زُرارة، قال: قدِم على رسول الله ﷺ في وفد النَّخع، فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي رؤيا هالتني. قال: «وما هي»؟ قال: رأيتُ أتانًا خلَّفْتها في أهلي ولَدَت جَدْيًا أسْفَعَ[1] أحْوَى[2]، ورأيتُ نارًا خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابنٍ لي - يقال له عمرو - وهي تقول: لَظَى لَظَى، بصيرٌ وأعْمَى. فقال النبيّ ﷺ: «أخلَّفتَ في أهلك أمَةً مُسِرّة ولدًا» قال: نَعَم. قال: «فإنها قد ولدت غلامًا وهو ابنك» قال: فما باله أسْفَع أحْوَى؟ قال: «ادن منّي، أبك بَرَص تكتمه»؟ قال: والذي بعثك بالحق، ما عَلِمه أحدٌ قبلك. قال: «فهو ذاك، وأما النار فإنها فتنة تكون بعدي» قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يقتل الناسُ إمامَهم، يَشْتَجِرون اشْتِجار أطْباق[3] الرأس - وخالف بين أصابعه - دم المؤمن عند المؤمن أحلى من الماء، يحسب المسيء أنه محسن، إن مِتَّ أدركتْ ابنَك، وإن مات ابنك أدركتك» قال: فادع الله لي ألاّ تدركني. فدعا له. قال: وكان قدوم زُرارة بن عمرو هذا على رسول الله ﷺ في النِّصف من شهر رجب سنة تسع.

---

(١) الأسفع: الأسود المشرب بحمرة. (٢) الأحوى: الحمرة إلى سواد.
(٣) أطباق الرأس: عظامه.

وقال الطبري[١]: قَدِم على رسول الله ﷺ وفد النَّخع وهم مائتا رجل، وفيهم زُرارة بن قيس بن الحارث بن عَدِيّ بن الحارث بن عَوْف بن جُشَم بن كعب بن قيس بن مُنْقِذ بن مالك بن النَّخع فأسلموا.

ذكر وفد بَجِيلَة[٢]

قال ابن سعد: قدم جَرير بن عبد الله البَجَليّ سنة عَشْرٍ المدينة، ومعه من قومه مائة وخمسون رجلًا، فقال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الفَجّ[٣] من خَيْرِ ذِي يَمَن على وجهه مَسْحَةُ[٤] مُلْك» فطلع جَرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا. قال جَرير: فبسط رسول الله ﷺ يده فبايعني، وقال: «على أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ثم تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتنصح للمسلم، وتطيع الوالي وإن كان عبدًا حبشيًا» فقال: نَعَم، فبايعه.

وقدم قيس بن أبي غَرْزَة الأَحْمَسِيّ - وقيل غَرْزة بن قيس البَجَليّ - في مائتين وخمسين رجلًا من أَحْمَس، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم»؟ فقالوا: نحن أَحْمَسُ[٥] الله. وكان يقال لهم ذاك في الجاهلية. فقال لهم: «وأنتم اليوم لله». وقال رسول الله ﷺ لبِلال: «أعطِ ركْب بَجِيلَةَ وابْدَأْ بالأَحْمَسِيِّين» ففعل. وسأل رسول الله ﷺ جَرِيرَ بن عبد الله «ما فعل ذو الْخَلَصَة»[٦]؟ قال: هو على حاله، قد بَقِيَ واللّهِ، يُزِيحُ منه إن شاء الله، فبعثه رسول الله ﷺ إلى هَدْمِه، وعقَد له لِواءً فقال: إني لا أثبت على الخيل فمسح صدره، وقال: «اللهم اجعله هاديًا مَهْدِيًا» فخرج في قومه وهم زُهاء مائتين، فما أطال الغيبة حتى رجع؛ فقال له رسول الله ﷺ: «هَدَمْتَه»؟ قال: نَعَم، والذي بعثك بالحقّ، وأخذتُ ما عليه وأحرقته بالنار، فتركته كما يَسُوء مَنْ يَهْوى هَواه، وما صَدّنا عنه أحدٌ. قال فَبَرَكَ[٧] رسول الله ﷺ يومئذ على خيل أَحْمَس ورجالها.

---

(١) الطبري: هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إمامًا في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. وله مصنفات في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله... (وفيات الأعيان ٤: ١٩١).

(٢) بجيلة: قبيلة من أنمار بن أراش، من كهلان، من القحطانية. قال أبو عبيد: وهم بنو عبقر، والغوث، وصهيبة، وحزيمة، بنو أنمار بن أراش... (القلقشندي).

(٣) الفجّ: الطريق الواسع البعيد. (٤) مسحة ملك: أي أثر ظاهر منه.

(٥) الحمس: قبائل من العرب سموا بذلك لأنهم تحمسوا في دينهم، أي تشددوا.

(٦) ذو الخلصة: صنم لدوس، وخثعم وبجيلة وغيرهم.

(٧) برّك: دعا له بالبركة.

ذكر وفدِ خَثْعَم(١)

قالوا: وفد عَثْعَثُ بن زَحْر، وأَنَس بن مُدْرِك، في رجال من خَثْعَم إلى رسول الله ﷺ بعدما هدم جَرِير بن عبد الله ذا الْخَلَصَة، وقتل من خَثْعَم، فقالوا: آمنا بالله ورسوله، وما جاء من عند الله، فاْكتب لنا كتابًا نتبع ما فيه؛ فكتب لهم كتابًا شهد فيه جَرِير بن عبد الله ومن حضر.

ذكر وفدِ حَضْرَمَوْت(٢)

قالوا: قَدِم وفد حَضْرَمَوْت مع وفد كِنْدة على رسول الله ﷺ وهم بنو وَلِيعَة ملوك حَضْرَمَوْت؛ جَمْد، ومِخْوَس، ومِشْرَح، وأَبْضَعَة، فأسلموا، وقال مِخْوَس: يا رسول الله، اْدع الله أن يذهب عني هذه الرُّتَّة(٣) من لساني. فدعا له، وأطعمه طُعْمَة من صدقة حَضْرَمَوْت.

وقدم وائِل بن حُجْر الحَضْرَميّ وافدًا على رسول الله ﷺ، وقال: جئت راغبًا في الإسلام والهِجرة، فدعا له ومسح رأسه ونُودِيَ: «الصلاة جامعة» سرورًا بقدوم وائِل بن حُجْر. وأمر رسول الله ﷺ معاوية بن أبي سفيان أن ينزله بالحَرّة(٤)، فمشى معه، ووائِلُ راكب، فقال له معاوية: أَلْق إليّ نعليك أتوَقّى بهما الرَّمْضَاء(٥). قال: لا، إني لم أكن لألبسَهُما وقد لبسْتهما. ومن رواية: لا يبلغ أهل اليمن أن سُوقة(٦) لَبِس نَعْل مَلِك. قال: فأرْدِفْني، قال: لست من أرْداف الملوك، قال: إنّ الرمضاء قد أحرقت قدمي، قال: اْمش في ظِلّ ناقتي، كفاك به شرفًا.

ويقال: إن وائل بن حُجْر هذا وفد بعد ذلك إلى معاوية في خلافته فأكرمه معاوية.

---

(١) خثعم: بطن من أنمار، من أراش، من القحطانية. قال في العبر: وبلاد خثعم مع إخوتهم «بجيلة» بسودات اليمن والحجاز إلى تباله... (أنساب العرب).

(٢) حضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السلام، وبقربها بئر برهوت، ولها مدينتان يقال لإحداهما تريم وللأخرى شبام، وعندها قلاع وقرى... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الرتة: عقدة وحبسة في اللسان.

(٤) الحرّة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. والمراد هنا موضع بعينه.

(٥) الرمض: شدة حر الشمس على الرمل وغيره.

(٦) السوقة: الرعيّة.

قال: ولما أراد وائل بن حُجْر الشُّخُوص إلى بلاده، كتب له رسول الله ﷺ كتابًا وهو:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبيّ لوائل بن حُجْر قَيْل[١] حَضرَمَوْتَ، إنك أسلمتَ وجعلتُ لك ما في يدك من الأرضين والحصون، وأن يؤخذ منك من كل عشرة واحد. ينظر في ذلك ذَوُو عَدْل وجعلتُ لك ألا تُظْلَم فيها ما قام الدّين. والنبيّ ﷺ والمؤمنون عليه أنصار».

قال القاضي[٢] عياض بن موسى بن عيَاض رحمه الله وفيه:

«إلى الأقيال العبَاهِلة[٣]، والأرواع[٤] المَشَابيب»[٥]. وفيه:

«وفي التِّيعَةِ[٦] شاةٌ لا مُقَوّرَةُ الألْياطِ[٧] ولا ضِنَاكٌ[٨]، وأنْطُوا الثَّبَجة[٩]، وفي السُّيُوب[١٠] الخُمْس ومن زَنَى منَ اَمْبِكْرٍ فاَصْقَعُوه مائةً واسْتَوْفِضُوه[١١] عامًا، ومن زَنَى من اَمْثيِّب[١٢] فضَرِّجوه بالأضَامِيم[١٣]، ولا تَوْصِيم[١٤] في الدِّين، ولا غُمّة[١٥] في فرائض الله؛ وكل مُسْكِر حرام، ووائل بن حُجْر يَتَرَفَّل[١٦] على الأقْيال».

قال محمد بن سعد بسنده إلى أبي عُبَيدة من ولد عَمّار بن ياسِر قال: وَفَد مِخْوَس بن مَعْدِي كَرِبَ بن وَلِيعة فيمن معه على رسول الله ﷺ، ثم خرجوا من عنده

---

(١) الأقيال: الملوك الذين دون التبابعة.

(٢) عياض: هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة... (وفيات الأعيان ٣:٤٨٣).

(٣) العباهلة: الذين أقروا على ملكهم فلم يزالوا عنه.

(٤) الأرواع: الحسان الوجوه.

(٥) المشابيب: واحدها مشبوب، وهو من اسود رأسه وابيض وجهه.

(٦) يراد بقوله: التيعة شاة: أي أن الأربعين من الغنم فيها شاة زكاة.

(٧) مقورة الألياط: أي غير مسترخية الجلود لهزالها.

(٨) الضناك: السمينة.

(٩) الثبجة: الوسط في الصدقة.

(١٠) السيوب: عروق من الذهب توجد في باطن الأرض.

(١١) استوفضوه: غربوه وأنفوه.

(١٢) امثيب: أي الثيب، وذلك لأن أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميمًا.

(١٣) الأضاميم: الحجارة، واحدتها إضمامة.

(١٤) المراد بقوله: لا توصيم في الدين: أي لا تفتروا في إقامة الحدود ولا تحابوا فيه.

(١٥) الغمّة: التستر والتخفي.

(١٦) يترفل: يراد بها يتسود ويترأس.

فأصاب مِخْوَسَ اللَّقْوَةُ[1] فرجع منهم نَفر، فقالوا: يا رسول الله، سيّد العرب ضربته اللَّقْوَةُ، فأدللنا على دوائه، فقال رسول الله ﷺ: «خذوا مِخْيَطًا فأحموه في النار، ثم اقلبوا شُفْر عينيه، ففيها شفاؤه، وإليها مصيره، فالله أعلم ما قلتم حين خرجتم من عندي» فصنعوه به فبرىء.

ذكر وفدِ أزْدِ عُمَان

قالوا: أسلم أهل عُمَان، فبعث إليهم رسولُ الله ﷺ العَلاَء بن الْحَضْرَمِيّ ليعلِّمهم شرائع الإسلام، ويُصدِّق أموالهم، فخرج وفدُهم إلى رسول الله ﷺ، فيهم أسد بن بَيْرَح الطاحيّ، فلقُوا رسولَ الله ﷺ فسألوه أن يبعث معهم رجلًا يقيم أمرهم، فقال مَخْرَمة العبديّ واسمه مُدْرِك بن خُوطٍ: ابعثني إليهم فإن لهم عليّ مِنَّةً؛ أسَروني في يوم جَنُوب[2] فمنُّوا عليّ. فوجّهه معهم إلى عُمَان، وقدِم بعدهم سَلَمَة بن عَبَّادٍ الأزْديّ في ناس من قومه، فسأل رسول الله ﷺ عما يعبد وما يدعو إليه، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: ادع الله أن يجمع كلمتنا وأُلفتنا. فدعا لهم، وأسلم سَلَمَة ومن معه.

ذِكر وفدِ غافِقٍ[3]

قالوا: وقدِم جُلَيْحَة بن شَجّار بن صُحَار الغافِقيّ، على رسول الله ﷺ في رجال من قومه، فقالوا: يا رسول الله، نحن الكَوَاهِل[4] من قومنا، وقد أسلمنا وصَدَقاتُنا محبوسةٌ بأفنِيتنا[5]. فقال: «لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم» فقال عَوْذُ بن سُرَيْر الغافقيّ: آمنا بالله واتبعنا رسول الله.

ذكر وفدِ بارِق[6]

قالوا: قدِم وفدُ بارِقٍ، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا، وكتب لهم رسول الله ﷺ:

---

(١) اللقوة: داء يكون في الوجه يعوج منه الشدق.

(٢) جنوب: اسم موضع، وبه سمي يوم من أيام العرب.

(٣) بنو غافق: بطن من عك، من القحطانية. قال أبو عبيد: كان منهم في الإسلام وزراء وأمراء.

(٤) الكواهل: الذين يعتمد عليهم في القيام بشؤون من خلفوهم وراءهم.

(٥) الأفنية: واحدتها الفناء، وهي الساحة في الدار أو بجانبها.

(٦) بنو بارق: بطن من خزاعة، من بني عمرو مزيقياء، من الأزد، من القحطانية. منهم أم الخير التي وردت على معاوية، بعدما كان منها في حقه يوم صفين، فأحسن جائزتها. . . (أنساب العرب للقلقشندي).

«هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبارِق ألا تُجَذّ ثمارُهم، ولا تُرْعى بلادُهم في مَرْبَع ولا مَصِيفٍ إلا بمسألة من بارِق. ومن مَرّ بهم من المسلمين في عرك[١] أو جَدْب فله ضيافة ثلاثة أيام. وإذا أَيْنَعَت ثمارُهم فلابن السّبيل اللّقاط[٢] بِوُسْع بطنه من غير أن يَقِيَه». ثم شهد أبو عبيدة بن الجرّاح، وحُذَيفة بن اليمان، وكتب أُبَيُّ بن كعب.

ذكر وفد ثُمالَة[٣] والحَدّانِ[٤]

قالوا: قدم عبد الله بن غَلَس الثُّماليّ ومَسْلَمة بن هَارَان الحَدّانِي على رسول الله ﷺ في رَهْط من قومهما بعد فتح مكة، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على قومهم، وكتب لهم كتابًا بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم، كتبه ثابِت بن قَيس بن شَمّاس، وشهد فيه سعد بن عُبَادة ومحمد بن مَسْلَمة.

ذكر وفدِ مَهْرة[٥]

قالوا: قدِم وفد مَهْرَة على رسول الله ﷺ، عليهم مَهْريّ بن الأبيض، فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فأسلموا، وكتب لهم:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا الكتاب من محمد رسول الله لمَهْريّ بن الأبيض على من آمن به من مَهْرَة ألاّ يُؤكَلوا[٦] ولا يُعْرَكوا[٧]. وعليهم إقامة شَعائر الإسلام، فمن بدّل فقد حارب، ومن آمن به فله ذمَّة الله وذِمّةُ رسوله. اللُّقَطَة[٨] مؤَدّاة، والسّارِحَة مُنَدّاة، والتَّفَثُ[٩] السَّيِّئة، والرَّفَثُ[١٠] الفُسُوق».

وكتب محمد بن مَسْلَمة الأنصاري.

---

(١) العرك: من عركتهم الحرب، أي دارت عليهم.

(٢) اللقاط: ما يوجد من الثمار ساقطًا فيلتقط.

(٣) بنو ثمالة: بضم الثاء، بطن من شنوءة، من الأزد، من القحطانية. منهم الحكم بن عمرو الثمالي، شهد بدرًا.

(٤) بنو حدان: بفتح الحاء وتشديد الدال: بطن من شنوءة، من الأزد. منهم صبرة بن شيبان، كان رأس الأزد يوم الجمل، وقتل يومئذ.

(٥) مهرة: حي من قضاعة، نسبة إلى مهرة بن حيدان.

(٦) يؤكل: يغار عليه.

(٧) يعرك: يؤكل نباته.

(٨) اللقطة: ما التقط من مال ضائع.

(٩) التفث: أي الدرن والوسخ.

(١٠) الرفث: الفحش في القول. والفسوق: العصيان.

قالوا: ووفد إلى رسول الله ﷺ رجل من مَهْرَة، يقال له زُهَير بن قِرْضِم بن الجُعَيْل من الشِّحْر[١]، فكان رسول الله ﷺ يُدْنيه لبعد مسافته، فلما أراد الانصراف بَتَّته، وحمله، وكتب له كتابًا.

ذِكر وفد حِمْيَر[٢]

قالوا: قدِم على رسول الله ﷺ مالك بن مُرَارة الرَّهاوِي، رسول ملوك حِمْير بكتابهم وإسلامهم، وذلك في شهر رمضان سنة تِسع عند مَقْدَمه من تَبُوكَ، وهم: الحارث بن عَبْد كُلاَل، ونُعَيْم بن عَبْد كُلاَل، والنُّعْمان قيل ذِي رُعَيْن، ومَعَافِر، وهَمْدان.

قال ابن إسحاق: وبعث إليه زُرْعَةُ ذُو يَزَنٍ مالكَ بن مُرَّة الرَّهاويّ فكتب إليهم رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن عَبْد كُلاَل وإلى نعَيْم بن عَبْد كُلاَل، وإلى النعمان قَيْل ذِي رُعَيْنٍ ومَعَافِر وهَمْدان ـ أما بعد ذلكم ـ فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ـ أما بعد ـ فإنه قد وقَعَ بنا رسولكم مُنْقَلَبنا من أرض الروم، فلقِينَا بالمدينة، فبلّغ ما أرسلتم به، وخبَّر ما قِبلَكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأنّ الله قد هداكم بهُداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خُمُسَ الله، وسهمَ النبيّ وصَفِيّه، وما كُتب على المؤمنين من الصّدقة، من العَقَار عُشْر ما سقت العينُ وسقت السماءُ، وعلى ما سَقى الغَرْبُ نِصفُ العُشْر، وإن في الإبل الأربعين ابنةَ لبُون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تَبِيع: جَذَع أو جذَعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدَها شاةٌ، وأنّها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصّدقة، فمن زاد خيرًا فهو خير له، ومن أدّى ذلك، وأشهد على

(١) الشحر: ناحية على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن.

(٢) حمير: بالكسر ثم السكون وياء مفتوحة، وراء؛ قال الهمذاني: هو حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير بن سباء الأصغر بن لهيعة بن حمير بن سبأ بن يشجب، وهو حمير الأكبر، وحمير الغوث هو حمير الأدنى... (معجم البلدان لياقوت).

إسلامه، وظَاهَر[١] المؤمنين على المشركين، فهو من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم وله ذِمّة الله وذِمّة رسوله، وإنّه من أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ فإنّه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُردّ عنها، وعليه الجِزْية على كل حالم ذكرٍ أو أنثى، حرٍّ أو عبدٍ دينارٌ وافٍ، من قيمة المَعَافر[٢] أو عِوَضه ثيابًا، فمن أدّى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذِمّة الله وذِمّة رسوله، ومن منعه فإنه عدوّ لله ولرسوله ﷺ.

أما بعد ـ فإن رسولَ الله محمدًا النبيّ أرسل إلى زُرْعة ذي يَزَن أنْ إذا أتاكم رُسلي فأوصيكم بهم خيرًا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عُبَادة، وعُقْبة بن نمر، ومالك بن مُرَّة، وأصحابهم، وأن اجمعوا له ما عندكم من الصّدقة، والجِزْية من مخالفيكم، وأبلغوها رُسلي، وأنّ أميرهم معاذ بن جَبَل فلا يَنْقلِبنّ إلا راضيًا.

أما بعد ـ فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنّه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مُرّة الرَّهاويّ قد حدّثني أنك أسلمتَ من أوّل حِمير وقتلتَ المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيرًا، ولا تَخونوا ولا تَخاذلوا، فإنّ رسولَ الله ﷺ هو مَوْلى غَنِيّكم وفقيركم، وأنّ الصدقة لا تَحِل لمحمدٍ ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يُزكّى بها على فقراء المسلمين ولابن السبيل، وأن مالكًا قد بَلّغ الخبرَ، وحفِظ الغيبَ وآمركم به خيرًا، وأنّي أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأُولي دِينهم وأُولي عِلْمهم، وآمركم بهم خيرًا، فإنهم مَنظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ذكر وفد جَيْشَان[٣]

قال محمد بن سعد: قَدِم أبو وَهْب الجَيْشانيّ على رسول الله ﷺ في نَفَر من قومه، فسألوه عن أشربة تكون باليمن، فسَمُّوا له البِتْع[٤] من العَسَل، والمِزْر[٥] من الشَّعير، فقال رسول الله ﷺ: «هل تسكرون منهما» قالوا: إنْ أكثرنا سَكِرنا، قال: «فحرامٌ قليلُ ما أسكرَ كثيرُه»، وسألوه عن الرجل يتخذ الشراب فيسقيه عُمَّالَه، فقال: «كُلُّ مُسكرٍ حرام».

---

(١) يقال: ظاهر فلانًا: أي عاونه وقوّاه. (٢) المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

(٣) جيشان: مخلاف جيشان باليمن كان ينزلها جيشان بن غيدان بن حجر بن ذي رعين... (معجم البلدان).

(٤) البتع: نبيذ يتخذ من عسل. (٥) المزر: نبيذ الشعير.

ذكر وفد سَلُول(١)

قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النَّمَريّ رحمه الله: قَدِم قَرَدة بن نُفَاثة السَّلُوليّ، من بني عمرو بن مُرّة بن صَعْصَعة بن معاوية بن بَكْر بن هَوَازن على رسول الله ﷺ في جماعة من بني سَلُولٍ، فأمّره عليهم بعدما أسلم وأسلموا؛ فأنشأ يقول: [من البسيط]

بَانَ الشَّبابُ فلم أحْفِلْ به بالاَ ... وأقْبَلَ الشَّيبُ والإسلامُ إقْبالاَ
وقد أُرَوِّي نَدِيمي من مُشَعْشَعَة ... وقد أُقَلِّبُ أوْرَاكًا وأكْفَالاَ(٢)
الحمدُ لله إذ لم يأتِني أجَلِي ... حتى اكتسيتُ من الإسلامِ سِرْبالاَ

قال: وقد قيل: إن البيت الثالث للَبِيد، قال أبو عُبيدة(٣): لم يقل لَبِيدُ في الإسلام غيره، وكان قد عُمِّر مائة وخمسين سنة.

قال أبو عمر: وقَرَدة هذا هو الذي يقول: [من البسيط]

أصبحتُ شيخًا أرى الشَّخصيْن أربعةً ... والشَّخصَ شخصين لَمّا مَسَّنِي الكِبَرُ
لا أسمعُ الصّوتَ حتى أسْتَدِيرَ له ... وحَالَ بالسَّمْعِ دُونِي المنظَرُ القَصَرُ
وكنتُ أمشِي على السّاقَيْنِ مُعْتَدِلاً ... فصِرتُ أمْشِي على ما تُنْبتُ الشَّجَر
إذا أقُومُ عَجَنْتُ الأرضَ مُتَّكَا ... على البَرَاجِمِ حَتى يَذْهَبَ النَّفَرُ(٤)

ذكر وفد نجران وسؤالهم رسول الله ﷺ، وما أنزل الله عزّ وجلّ فيهم من القرآن

قال محمد بن إسحاق: قدِم على رسول الله ﷺ وفدُ نصارى نَجْران سِتُّون راكبًا، فيهم أربعةَ عشرَ رجلاً من أشرافهم، وهم: العاقِبُ عبدُ المسيح، والسيّد وهو

---

(١) بنو سلول: بطن من هوازن، من العدنانية... وسلول أمهم عرفوا بها. وهي سلول بنت ذهل بن شيبان.

(٢) المشعشعة: الخمر.

(٣) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة. قال عنه ابن قتيبة: كان الغريب أغلب عليه، وأخبار العرب وأيامها، وكان مع معرفته ربما لم يقم البيت إذا أنشده حتى يكسره، وكان يخطىء إذا قرأ القرآن الكريم نظرًا، وكان يبغض العرب، وألّف في مثالبها كتبًا، وكان يرى رأي الخوارج... (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٤) عجن الأرض: اعتمد عليها بجمعه إذا أراد النهوض من الكبر. والبراجم: مفاصل الأصابع. والنفر: الجماعة من الناس.

الأَيْهَم، وأبو حارثة بن عَلْقَمة، وأوْس، والحارِث، وزيدُ، وقيسُ، ويَزيدُ، ونُبَيه، وخُوَيلد، وعمرو، وخالد، وعبد الله، ويُحنّس. ومن هؤلاء الأربعة عشر ثلاثةُ نفرٍ إليهم يؤول أمرُهم، وهم العاقِب أميرُ القوم وذو رأيهم، وصاحب مَشُورتهم، والذي لا يُصْدِرون إلا عن رأيه، واسمه عبدُ المسيح.

قال محمد بن سعد: هو رجل من كِندة والسيّد ثِمالهم[١]، وصاحبُ رَحلهم ومُجْتَمعهم، واسمه الأيْهَم، وأبو حارثة بن عَلْقَمة أحد بكر بن وائل أُسْقُفهم وحَبْرهم وإمامهم، وصاحب مِدْرَاسِهم[٢].

قال ابن سعد: وكان من الأربعة عشر كُوز وهو أخو الحارث بن عَلْقَمة، وأوْس أخو السيّد.

قال: فتقدمهم كُوز وهو يقول: [من الرّجز]

إليكَ تَغْدُو قَلِقًا وَضِينُها مُعْتَرِضًا في بطنِها جَنِينها[٣]

* مُخالِفًا دِينَ النَّصارَى دِينُها *

وقدِم على النبيّ ﷺ، ثم قدِم الوفدُ بعده، فدخلوا عليه المسجد، عليهم ثياب الحِبَرَة[٤] وأرْدِيةٌ مَكْفوفة بالحرير، فقاموا يصلّون في المسجد نحو الشّرق، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوهم»، ثم أتوا النبيّ ﷺ، فأعرض عنهم ولم يكلّمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زِيّكم هذا، فانصرفوا يومَهم ذلك، ثم غَدَوا عليه، بزِيّ الرُّهْبان فسلَّموا عليه فردّ عليهم.

قال محمد بن إسحاق[٥]: وكان أبو حارثة قد شَرُف فيهم، ودَرَس كتبَهم، حتى حَسُن عِلْمُه في دينهم، فكانت ملوكُ الرّوم من أهل النّصرانية قد شرَّفوه ومَوَّلوه وأخْدموه، وبَنَوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكَرَامات؛ لِمَا يَبلغهم عنه من عِلْمه واجتهاده في دينهم، فلما وَجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نَجْران، جلس أبو حارثة على بَغْلة له، وإلى جَنْبه أخوه كُوز - ويقال فيه كُرْز - فعثَرَت بغلةُ أبي حارثة، فقال كُوز:

---

(١) الثمال: الغياث الذي يفزع إليه.
(٢) المدراس: بيت يدرس فيه الكتاب.
(٣) الوضين: الحزام.
(٤) الحبرة: ضرب من برود اليمن.
(٥) محمد بن إسحاق: هو أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، المديني، صاحب المغازي والسير؛ كان جده مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي، سباه خالد بن الوليد من عين التمر. وكان محمد بن إسحاق ثبتًا في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته فيها. . . (وفيات الأعيان ٤: ٢٧٦).

تَعِس الأبعدُ، يريد رسولَ الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تَعِست. فقال: ولم يا أخي؟ قال: واللّهِ إنَّه للنبيُّ الذي كنا ننتظره. فقال له كُوز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم؛ شَرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا، وقد أبَوْا إلاّ خِلافَه، فلو فعلتُ نزعوا منا كل ما ترى. فأضمر عليها منه كُوز بن عَلْقَمة حتى أسلم بعد ذلك، فكان يحدِّث عنه هذا الحديث.

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: وبلغني أنّ رؤساء نَجْرانَ كانوا يتوارثون كُتبًا عندهم، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرياسة إلى غيره، خَتَم على تلك الكُتب خاتمًا مع الخَوَاتم التي قبله ولم يَكْسِرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعَثَر، فقال ٱبنه: تَعِس الأبعد ـ يريد النبيَّ ﷺ ـ فقال له أبوه: لا تفعل فإنه نبيّ وٱسمه في الوضائع ـ يعني الكتب ـ فلما مات لم يكن لٱبنه هِمّة إلا أن كَسَر الخَوَاتم، فوجد في الكُتب ذِكْر النبيّ ﷺ، فأسلم وحَسُن إسلامه فحجّ، وهو الذي يقول:

* إلـيـكَ تَـعْـدُو قَـلِـقًـا وَضِـيـنُـهَـا *

قال ٱبن إسحاق: ولما قَدِموا صَلّوا في المسجد نحو الشّرق، وكَلَّم رسولَ الله ﷺ منهم الثلاثةُ نَفَر: العاقِب، والسيّد، وأبو حارِثة، وهم من النصرانية على دين الملك، مع ٱختلاف من أمرهم، يقولون في المسيح: هو الله، ويقولون: هو ٱبن الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، فهم يَحتجُّون في قولهم: هو الله بأنه كان يحيي الموتى، ويبرىء من الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا، ويحتجون في قولهم إنه ٱبن الله بأنهم يقولون: لم يكن له أبٌ يُعلَم، وقد تكلم في المهد، وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله. ويحتجون في قولهم إنه ثالث ثلاثة، بقول الله فَعَلْنا، وأمَرْنا، وخَلَقْنا، وقَضَيْنا، فيقولون: لو كان واحدًا ما قال إلا فَعلتُ وقَضيتُ وأمرتُ وخلَقتُ، ولكنه هو، وعيسى، ومريم.

قال: فلما كلّم رسولُ الله ﷺ الحبْران قال لهما: «أسْلِما»، قالا: قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاكما لله وَلَدًا، وعبادتكما الصَّلِيب، وأكلكما الخِنزير» قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصَمتَ رسولُ الله ﷺ فلم يجبهما، فأنزل الله تعالى عليه في ٱختلاف أمرهم كلّه صَدْر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية منها.

فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١، ٢]. قال: ٱفتتح السورة بتنزيه نفسه عما قالوا وتوحيده، ليس معه شريك في أمره: «الْحَيُّ» أي الذي لا يموت، وقد مات عيسى وصُلِب في قولكم. «الْقَيُّوم» القائم على مكانه من سلطانه في خَلْقه لا يزول، وقد زال عيسى. ثم قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٢] أي بالصدق فيما ٱختلفوا فيه ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ٣، ٤] أي الفصل بين الحقّ والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: ٤] أي إنّ الله مُنتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ومعرفته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: ٥] أي قد علِم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم في عيسى؛ إذ جعلوه إلهًا وعندهم من عِلْمه غيرُ ذلك. ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: ٦] أي قد كان عيسى ممن صُوِّر في الأرحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه، كما صُوِّر غيرُه من ولد آدم، فكيف يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل.

ثم قال تعالى تنزيهًا لنفسه وتوحيدًا لها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] أي «العزيز» في ٱنتصاره ممّن كفر به إذا شاء «الحكيم» في حجته وعذره إلى عباده. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] أي فيهنّ حجة الربّ وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهنّ تصريف ولا تحريف عما وُضِعن عليه. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧] أي لهنّ تصريف وتأويل، ٱبتلى الله فيهنّ العباد، كما ٱبتلاهم في الحلال والحرام، ألا يُصْرَفْنَ إلى الباطل ولا يُحَرَّفْنَ عن الحق.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ [آل عمرن: ٧] أي مَيْلٌ عن الهدى. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧] أي ما تصرّف منه؛ ليُصدِّقوا به ما ٱبتدعوا وأحدثوا لتكون لهم حُجّة وشبهة على ما قالوا. ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ [آل عمران: ٧] أي اللَّبْس ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ٧] أي تأويل ذلك على ما رَكِبوا من الضلالة في قولهم: خَلَقْنا وقَضَيْنا. يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧] فكيف يختلف وهو قولٌ واحدٌ، من ربٍّ واحد. يقول: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] أي في مثل هذا. ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨]. ثم قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾

[آل عمران: ١٨] يشهدون بذلك. ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨] أي بالعدل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩] أي ما أنت عليه يا محمد من التوحيد للربّ والتصديق للرسل. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] أي العلم الذي جاءك أنّ الله الواحد الذي ليس له شريك. ثم قال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] يقول تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ [آل عمران: ٢٠] أي فيما يأتون به من الباطل من قولهم: خَلَقْنا وفعَلْنا وأمَرْنا، فإنما هي شُبهة باطلٍ قد عرفوا ما فيها من الحق ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٢٠] أي الذين لا كتاب لهم ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ثم جمعَ تعالى أهلَ الكتابين من اليهود والنصارى فيما أحدثوا وابتدعوا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: ٢١] إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي ربّ العباد والملك الذي لا يقضي فيهم غيره ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦] أي لا يَقدِرُ على هذا غيرُك بسلطانك وقُدرتك ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [آل عمران: ٢٧] أي بتلك القدرة. ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٧] أي لا يَقدِر على ذلك غيرُك ولا يصنعه إلاّ أنت، أي إن كنتُ سلّطتُ عيسى على الأشياء التي بها يزعمون أنه إلهٌ، من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، والخَلْق من الطّين، والإخبار عن الغيوب؛ لأجعله به آيةً للناس، وتصديقًا له في نبوّته التي بعثته بها إلى قومه، فإن من سُلْطاني وقُدْرتي ما لم أعطه؛ من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وإخراج الحيّ من الميّت، وإخراجِ الميت من الحيّ؛ ورزق من شئتُ من برٍّ أو فاجرٍ بغير حساب، فكلّ ذلك لم أسلّط عيسى عليه، ولم أملّكه إياه، أفلم يكن لهم في ذلك عبرة وبينة! أن لو كان إلهًا كان ذلك كلّه إليه، وهو في قولهم يَهرُب من الملوك وينتقل منهم في البلاد، من بلد إلى بلد.

ثم وعظ المؤمنين وحذّرهم فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٣١] أي ما مضى من كفركم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢] يقول: أطيعوا الله والرسول فأنتم تعرفونه وتجدونه في كتابكم، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي على كفرهم.

ثم استقبل أمر عيسى عليه السلام، وكيف كان بدء ما أراد الله تعالى به فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٤]. ثم ذكر أمر امرأة عِمْران فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أي جعلته عَتيقًا يعبد الله عزّ وجل، لا ينتفع به لشيء من الدنيا ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران: ٣٦] أي ليس الذكر كالأنثى لما جعلتها مُحَرَّرًا لك نذيرة ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. يقول الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧] أي كفلها بعد أبيها وأمها؛ يذكرها باليتم، ثم قَصّ خبرها وخبر زكريا، وما دعا به وما أعطاه؛ إذ وهب له يحيى، ثم ذكر مريم، وقول الملائكة لها، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢] قال الثعلبيّ: القائل من الملائكة جبريلُ وحدَه، «اصطفاكِ» بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، «وَطَهَّرَكِ» مِن مَسِيس الرجال. وقيل: كانت مريم عليها السلام لا تحِيض و«اصْطَفَاكِ» بالتحرير في المسجد «على نِساءِ الْعالَمِينَ» قال: على عالمي زمانها، ولم تُحرَّر أنثى غيرها. ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣] قال الثعلبي: قوله «اقْنُتِي» أطيعي وأطيلي الصلاة لربك، قال: كلّمتها الملائكة شِفَاهًا. قال الأوزاعيّ: لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاة حتى وَرِمت قدماها وسالتا دمًا وقَيْحًا.

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] قال ابن إسحاق: كفلها هاهنا جُرَيْج الراهب رجلٌ من بني إسرائيل نجّار، خرج السَّهْمُ عليه فحملَها، وكان زكريّا قد كفلها قبل ذلك، فأصابت بني إسرائيل أزمةٌ شديدة، فعجز زكريا عن حَمْلها، فاستهموا عليها، فخرج السَّهْمُ على جُرَيج الراهب فكفلها. يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] أي ما كنت معهم إذ يختصمون في كفالتها، فخبّره تعالى بخفيّ ما كَتَموا منه من العلم عندهم؛ لتحقيق نبوّته، والحجة عليهم بما يأتيهم به مما أخْفَوا منه.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي هكذا كان أمره، لا كما يقولون فيه. ﴿وَجِيهًا فِى

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] «وَجِيهًا» أي شريفًا ذا جاه وقَدْر «وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» عند الله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: ٤٦] يخبرهم بحالاته التي يتقلب فيها في عُمره؛ كتقلب بني آدم في أعمارهم صغارًا وكبارًا، إلاَّ أنّ الله تعالى خصّه بالكلام في مَهْده آيةً لنبوّته وتنزيهًا لأمّه. وقوله: «وكَهْلًا» قال مقاتل: إذا اجْتَمَع[1] قبل أن يُرفَع إلى السماء. وقال الحسين بن الفضل: «كَهْلًا» بعد نزوله من السماء. وقال ابن كَيْسان: أخبرها أنه يبقى حتى يَكْتهِل. وقيل: يُكلِّم الناسَ في المهد صبيًا وكهْلًا؛ بَشَّرها بنبوّته، فلأُمه في المهد مُعْجِزة وفي الكهولة دَعْوة. وقال مجاهد: «وَكَهْلًا» أي حَلِيمًا.

قال تعالى إخبارًا عن مريم: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: ٤٧] ثم أخبرها بما يريد به فقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: ٤٨] قوله «الكِتَابَ» أي الكتابة والخطّ. «والْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ» التي كانت فيهم من عهد موسى قبله «وَالْإِنْجِيلَ» كتابًا آخر أنزله الله إليه، لم يكن عندهم إلاّ ذكره أنه كائن. يقول تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي يُحقِّق بها نبوّتي أنّي رسول منه إليكم. ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٤٩] قال الثعلبيّ: قراءة العامة بالجمع؛ لأنه خَلق طيرًا كثيرة، وقُرّاء أهل المدينة «طائِرًا» ذهبوا إلى أنه نوع واحد من الطَّيْر؛ لأنه لم يَخْلُق غير الخُفَّاش، قال: وإنما خَصّ الخُفَّاش لأنه أكمل الطير خَلْقًا؛ ليكون أبلغ في القدرة؛ لأن لها ثديًا وأسنانًا وهي تحيض وتطير، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا. ليتميز فعل الخَلْق من فِعل الله عزّ وجل؛ وليعلم أن الكمال لله. ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩] «الأكمه» الذي يولد أعمى وجمعه كُمْه. وقيل: هو الأعمى وهو المعروف من كلام العرب؛ قال سُوَيْد بن أبي كاهِل[2]:

كَمِهَتْ عيناهُ حتّى ابيضَّتا … فهو يَلْحَى نفسَه حتى نزَعْ[3]

(١) اجتمع الرجل: أي بلغ غاية شبابه.

(٢) هو سويد بن غطيف من بني يشكر، كان الحجاج قد تمثل بأبيات من قصيدة له... (طبقات الشعراء).

(٣) يقال: كمه الرجل: أي عمي، أو صار أعشى.

والأبرص الذي فيه وَضَحٌ، قال: وإنما خَصّ هذين؛ لأنهما عَياءانِ وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطِّبّ؛ فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك.

قال وهب: ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى في اليوم الواحد خمسون ألفًا، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يُطق أتاه عيسى عليه السلام، وإنما كان يداويهم بالدعاء، على شرط الإيمان. ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] قال الثعلبيّ: أحيا أربعةَ أنفسٍ العازَر وكان صدِيقًا له، فأرسلت أختُه إلى عيسى: إنّ أخاك العازَر يموت فأته، وكان بيْنَه وبَيْنَه مَسيرةُ ثلاثة أيام، فأتاه هو وأصحابه، فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره. فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مُطْبقة، فقال عيسى عليه السلام: «اللّهمّ ربّ السموات السّبع، إنك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك، وأخبرهم أني أحيي الموتى بإذنك، فأحْيِ العازَر»، قال: فقام عازَرُ ووَدَكُه[1] يَقْطُر، فخرج من قبره وبقي ووُلِد له. وأحيَا ابنَ العجُوز، مُرَّ به ميتًا على عيسى عليه السلام، وهو يُحمَل على سَرِير، فدعا الله تعالى عيسى، فجلس على سريره، ونزل عن أعناق الرجال، ولبس ثيابه، وحَمَل السَّرير على عنقه، ورجع إلى أهله، فبقي ووُلِد له، وابنَة العاشِر[2] قيل له: أتحييها وقد ماتت بالأمس؟ فدعا الله عزّ وجلّ فعاشت وبقيت وولدت، وسامَ بن نوح عليهما السلام، ودعا عيسى باسم الله الأعظم، فخرج من قبره وقد شاب نصفُ رأسه، فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا، ولكنّي دعوتك باسم الله الأعظم، ثم قال له: مُتْ، قال: بشرط أن يُعِيذنِي اللّهُ من سكرات الموت، فدعا الله سبحانه ففعل.

قال الكلبيّ: كان يُحيي الأمواتَ بـ«يا حَيُّ يا قَيُّوم».

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي آية لكم أني رسولٌ من الله إليكم.

يقول تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [آل عمران: ٥٠] أي لما سبقني منها. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] أي أخبركم أنه كان عليكم حرامًا فتركتموه، ثم أحَلّه لكم تخفيفًا عنكم، فتصيبون يُسْرَه وتخرجون من تباعَته.

يقول تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥٠ و٥١] أي هذا الهدى قد

(١) الودك: شحم الألية والجنبين.
(٢) العاشر: الذي يأخذ العشور.

حملتكم عليه وجئتكم به. يقول تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣] أي هكذا كان قولهم وإيمانهم، لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجّونك، ثم ذكر تعالى رَفْعه عيسى إليه حين ٱجتمعوا لقتله، فقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤] قال أهل المعاني: المكر السَّعيُ بالفساد في سَتْر ومُداجاة. وقال الفرّاء: المكر من المخلوقين الخِبُّ والخديعة والحِيلة، وهو من الله ٱستِدراجُه العِباد. ثم أخبرهم تعالى، وردّ عليهم فيما أقرّوا به لليهود من صَلْبه، وأنّ الله عَصَمه منهم، ورَفَعه إليه، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٨] قال الثعلبيّ: ٱختلفوا في معنى التوفي هاهنا؛ فقال كَعْب والحسن والكلبيّ ومَطَر الورّاق ومحمد بن جعفر بن الزبير وٱبن جُرَيْج وٱبن زيد: معناه إني قابضك ورافعك من الدنيا إليّ من غير موت. قال: وعلى هذا القول تأويلان:

أحدهما: إني رافعك إليّ وافيًا لم ينالوا منك شيئًا؛ من قولهم تَوفَّيتُ هذا، وٱستوفيتُه أي أخذته تامًّا.

والآخر: إني مُسلِّمُكَ؛ من قولهم تَوفَّيتُ منه كذا أي تَسلَّمته. وقال الربيع بن أنس: معناه إني مُنِيمك ورافعك إليّ في نومك؛ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي يُنيمكم؛ لأنّ النوم أخو الموت. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] الآية. وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: إني مُميتك. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦] قال: وله على هذا القول تأويلان:

أحدهما: ما قال وهب: تَوفّى اللّهُ تعالى عيسى عليه السلام ثلاثَ ساعات من النهار ثم رفعه إليه. وقال ٱبن إسحاق: النصارى يزعمون أنّ الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار، ثم أحياه ورَفعه.

والآخر: ما قال الضحاك وجماعة من أهل المعاني: إنّ في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، معناه إنّي رافعك إليّ ومُطهِّرك من الذين كفروا، ومُتوفِّيك بعد أنْ أنزِلكَ من السماء. وقال أبو بكر بن محمد بن موسى الواسطيّ: معناه «إنّي مُتوفِّيكَ» عن شهواتك وحظوظ نفسك. قال: وذلك أنه لمّا رُفِع إلى السماء صار حالُه حالَ الملائكة. وقوله: «وَرَافِعُكَ إِلَيَّ» قال البُنانيّ والشَّيْبانيّ: كان عيسى عليه السلام على طُورِ زيتًا فهبّت رِيحٌ، فهرْوَل عيسى، فرفعه الله عزّ وجلّ في هَرْولَته، وعليه مِدْرَعة[1] من شَعْر. وقيل: معناه ورافعك بالدرجة في الجنة، ومقرّبك إليّ بالإكرام.

وقوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] أي مُخرِجُك من بينهم ومُنجيكَ منهم. وقوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] قال قتادة والربيع والشَّعْبيّ ومقاتل والكلبيّ: هم أهل الإسلام الذين اتبعوا دينه وسُنّته من أمّة محمد ﷺ، فوالله ما اتبعه من دعاه ربًّا. ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ظاهرين قاهرين بالعِزّ والمنَعة والدليل والحُجّة. وقال الضحاك وعليّ ومحمد بن أبان: يعني الحواريين فوق الذين كفروا. وقيل: هم الرُّوم. وقال ابن زيد: وجاعل النصارى فوق اليهود، فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود، واليهود مُستذَلُّون مقهورون. قال: وعلى هذين القولين يكون معنى الاتباع: الادّعاء والمحبة لا اتباع الدِّين والمِلّة. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٥] أي في الآخرة. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥] أي من الدِّين وأمر عيسى.

قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ٥٦] بالقتل والسَّبْي والجِزية والذِّلّة. ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦]. قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٧] الآية ظاهرة المعنى. قوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران: ٥٨] أي هذا الذي ذكرته لك، قال النبيّ ﷺ: «هو القرآن». وقيل؛ هو اللَّوحُ المحفوظ، وهو مُعلَّق بالعَرْش، من دُرَّة بيضاء، و«الحكيم» هو المحكَم من الباطل؛ قاله مقاتل. وقال ابن إسحاق: أي القاطعُ الفاصلُ، الحقُّ الذي لا يخالطه الباطل، من الخبر عن عيسى، وعما اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلنّ خبرًا غيره. فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠] أي قد جاءك الحقّ فلا تَمترينّ فيه، وإن قالوا

---

(١) المدرعة: ثوب من صوف؛ أو جبة مشقوقة المقدم.

خُلِق عيسى من غير ذَكر، فقد خلقت آدم من تُراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذَكر؛ فكان لحمًا ودمًا وعظمًا وشعرًا وبشرًا، كما كان عيسى، فليس خلق عيسى من غير ذَكر بأعجب من هذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١] أي من بَعد ما قصصت عليك من خبره ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] قوله: «نَبْتَهِل» أي نتضرع في الدعاء. وقيل: نخلص في الدعاء. وقيل: نجتهد ونبالغ فنقول لعن الله الكاذب منّا ومنكم. قال ٱبن إسحاق: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جئت به من الخبر عن عيسى ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ من أمره ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ [آل عمران: ٦٢، ٦٣] أي إن أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣] أي الذين يعبدون غير الله تعالى، ويدعون الناس إلى عبادة غير الله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] فدعاهم إلى النَّصَف[1]، وقطع عنهم الحُجّة، قال: فلما أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من الله عزّ وجلّ عن عيسى، والفَصْلُ من القضاء بينه وبينهم، وأمره بما أمره به من مُلاَعنتهم إن رَدُّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك؛ فقالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتَنا إليه، فٱنصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقِب، فقالوا: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: واللّهِ يا مَعْشَر النَّصارَى لقد عرفتم أنّ محمدًا لنبيٌّ مُرْسَلٌ، لقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاَعَنَ قومٌ نبيًا قطّ فبقي كبيرُهم، ولا نَبتَ صغيرُهم، وأنه الاَستئصال منكم إنْ فَعَلْتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلْفَ دِينكم، والإقامةَ على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادِعوا الرجلَ، ثم ٱنصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألاّ نلاعنَك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ٱبعث معنا رجلًا من أصحابك، ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء ٱختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رِضًا. فقال رسول الله ﷺ: «ٱئتوني العَشِيَّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمين» فكان عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه يقول: ما أحببتُ الإمارة قطّ حُبّي إياها يومئذ رجاءَ أن أكون صاحبها، فخرجتُ إلى الظُّهْر

(١) النصف: الإنصاف.

مُهَجِّرًا[١]، فلمّا صلّى بنا رسول الله ﷺ الظهر، سَلَّم ثم نظر عن يمينه ويساره، فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عُبَيدة بن الجَرّاح فدعاه له، وذلك قبل الهجرة. فقال: «ٱخرج فاقض بينهم بالحقّ فيما ٱختلفوا فيه» قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة. هذا ما رواه ٱبن هشام عن ٱبن إسحاق.

وقال محمد بن سعد في طبقاته: إن رسول الله ﷺ لما عَرَض عليهم المباهلة ٱنصرفوا عنه، ثم أتاه عبد المسيح ورجلان من ذوي رأيهم، فقال: قد بَدَا لنا ألا نُبَاهِلَك، فٱحكم علينا بما أحببت نُعطِك ونصالحك. فصالحهم على ألفي حُلّة: ألْف في شهر رجب، وألْف في صفر، أو قيمة كل حُلَّة من الأواقي، وعلى عارية ثلاثين دِرْعًا، وثلاثين رُمْحًا وثلاثين بعيرًا، وثلاثين فرسًا: إن كان باليمن كَيْد[٢] ولنَجْرانَ وحاشيتهم جوارُ الله وذمة محمد النبيّ رسول الله، على أنفسهم ومِلَّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبِيعهم، لا يُغيَّر أُسْقُفٌ من سِقِّيفاه، ولا راهب من رَهْبانيّته، ولا واقِفٌ[٣] من وَقْفانيّته، وفي بعض الروايات لا يُغيَّر واقِهٌ مِن وَفْهِيَّته، ولا قسيس من قِسِّيسِيَّته. والْوَاقِهُ: قَيِّم الكَنيسة.

قال: وأشهد على ذلك شهودًا. منهم أبو سفيان بن حَرْب، والأقْرَع بن حابِس والمُغيرة بن شُعْبة، ورجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث السيّد والعاقِب إلاّ يسيرًا حتى رَجَعا إلى النبيّ ﷺ، فأسلما وأنزلهما في دار أبي أيوب الأنصاريّ، وأقام أهلُ نَجران على ما كتب لهم به رسول الله ﷺ حتى قَبَضه الله تعالى. ثم وُلِّي أبو بكر فكتب بالوَصَاة بهم عند وفاته، ثم أصابوا رِبًا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم، وكتب لهم:

«هذا ما كتب عمرُ أميرُ المؤمنين لنَجْرانَ. من سار منهم إنه آمِنٌ بأمان الله، لا يَضرُّهم أحدٌ من المسلمين؛ وفاءً لهم بما كتب لهم رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ـ أما بعد ـ فمن وقعوا[٤] به من أُمَراء الشام وأُمَراء العِراق فلْيُوسِعهم من جَرِيب[٥] الأرضِ، ما ٱعْتَملُوا[٦] من ذلك فهو لهم صَدَقة، وعُقْبة لهم بمكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحدٍ ولا مَغْرَم ـ أمّا بعد ـ فمن حضرهم من رجلٍ مسلم فلينصرهم على من ظلمهم،

(١) المهجّر: الذي يسير في الهاجرة. (٢) الكيد: الحرب.
(٣) الواقف: خادم البيعة، لأنه وقف على خدمتها.
(٤) وقعوا: نزلوا.
(٥) المراد بالجريب: القطعة المتميزة من الأرض.
(٦) اعتملوا الأرض: استعملوها في الزراعة.

فإنهم أقوام لهم الذِّمّة. وجزيتهم عنهم متروكة أربعةً وعشرين شهرًا بعد أن يَقْدموا، ولا يُكلَّفوا إلاّ مِن ضَيْعتهم، غير مظلومين ولا مَعْنُوف[(١)] عليهم. شَهِد عثمانُ بن عفان ومُعَيْقِيب بن أبي فاطمة.

قال: فوقَعَ ناسٌ منهم بالعِراق، فنزلوا النَّجْرانيّة التي هي ناحية الكوفة.

وحيث ذكرنا وِفادات العرب، فلا بأس أن نصل هذا الفصل بما يناسبه من خبر الجنّ في إسلامها، ونلحق ذلك بما يتعلق به من إخبار الجنّ أصحابَهم بأمر رسول الله ﷺ، ومن أسلم بسبب ذلك، فإنا عند ذكرنا للمبشِّرات برسول الله ﷺ، ذكرنا من ذلك طَرَفًا، وأخَّرنا بقيته لنذكره في هذا الفصل، ونبهنا عليه هناك.

ذكر خبر إسلام الجنّ ودعائهم قومهم إلى الإيمانِ عند سماعهم القرآن

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

وكان من خبر الجنّ ما رُوِي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سُوق عُكَاظ[(٢)] وقد حيل بين الشّياطين وبين خبر السماء، وأُرسِلت عليهم الشُّهُب[(٣)]، فرجعت الشياطينُ، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: قد حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهُب، قالوا: ما حَالَ بينكم وبين خبر السماء إلا ما قد حَدَث، فاضربوا مَشارق الأرض ومَغَارِبَها، فانظروا ما هذا الأمر الذي قد حَدث، فانطلقوا فضَرَبوا مَشارِقَ الأرض ومغارِبَها،

(١) لا معنوف عليهم: أي لا يشتد عليهم في المعاملة.
(٢) عكاظ: بضم أوله، وآخره ظاء معجمة... وقد سمي عكاظًا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضًا بالفخار أي يدعك. وعكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون... (معجم البلدان).
(٣) الشهب: واحدها الشهاب، وهو النجم المضيء الساطع، أو هو جرم سماوي يسبح في الفضاء فإذا دخل في جو الأرض اشتعل وصار رمادًا.

ينظرون ما هذا الأمر الذي حَالَ بينهم وبين خبر السماء، وانطلق الذين توَجَّهوا إلى نحو تِهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة[١] وهو عامد إلى سُوق عُكَاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمِعوا القرآن تَسمَّعوا له فقالوا: هذا الذي حَالَ بينكم وبين خبر السماء. فهنالك رجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ [الجن: ١ و٢]. وأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن: ١] وإنما أوحي إليه قولُ الجنّ، رواه البخاريّ في صحيحه عن موسى بن إسماعيل، عن أبي عَوَانة، عن أبي بِشْر عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس.

وذهب محمد بن سعد إلى أن استماع الجنّ كان بنخلة، عند عود رسول الله ﷺ من الطّائف، لما تَوجّه يدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا له، وذلك قبل الهجرة.

وقال الشيخ أبو بكر أحمد بن الحسين[٢] البَيْهقيّ في كتابه المترجَم «بدلائل النبوّة، ومعرفة أحوال صاحب الشريعة» بعد أن ساق حديث البخاريّ قال: وهذا الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجنّ قراءة النبيّ ﷺ، وعَلِمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجنّ مرّةً أخرى، فذهب معه، وقرأ عليهم القرآن، كما حكاه عبد الله بن مسعود.

وقد روى البَيْهقيّ بسنده إلى عبد الله بن مسعود خبر الجنّ في القِصَّتَيْن: أمّا الأولى فإنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نَخْلَة، فلما سَمِعوه قالوا: أنصِتوا - قالوا صَهْ - وكانوا سبعة، أحدهم زَوْبَعة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]. وعن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ آذَنته بالجنّ شجرةٌ؛ رواه البخاريّ ومسلم في الصحيحين.

---

(١) نخلة: اسم موضع يعرف بنخلة اليمانية بواد يأخذ إلى قرن والطائف.

(٢) البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي الخسروجردي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور، واحد زمانه وفرد أقرانه في الفنون، من كبار أصحاب الحاكم أبي عبد الله بن البيّع في الحديث... أخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي، غلب عليه الحديث واشتهر به، ورحل في طلبه إلى العراق والجبال والحجاز... (وفيات الأعيان ١:٧٥).

وأما القصة الثانية، فرواها عن الشَّعْبِيّ عن عَلْقَمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود هل صحِب رسولَ الله ﷺ ليلةَ الجنّ منكم أحدٌ؟ فقال: ما صحبه منّا أحدٌ، ولكنا فقدناه ذاتَ ليلة بمكةَ فقلنا: اُغتيلَ؟ اُستُطِيرَ؟ ما فَعلَ؟ قال: فبِتْنَا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ، فلما كان في وَجْه الصُّبْح أو قال في السَّحَر، إذا نحن به يجيء من قبل حِرَاء[1]، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا الذي كانوا فيه، فقال: «إنه أتاني داعي الجنِّ فأتيتُهم فقرأتُ عليهم» قال: فانطلق فأرانا آثارَهم، وآثارَ نيرانهم، قال: وقال الشَّعْبيّ فسألوه الزَّادَ، وقال ابن أبي زائدة: قال عامر سألوه لَيْلتئِذٍ الزَّادَ، وكانوا من جِنّ الجزيرة، فقال: «كلُّ عَظْمٍ ذُكِرِ اسمُ الله عليه يقع في أيديكم أوْفرَ ما كان لحمًا، وكلُّ بَعْرةٍ أو رَوْثَةٍ عَلَفٌ لدوابِّكم ـ قال ـ فلا تَستَنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجنّ» رواه مسلم في صحيحه. وكان فيما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمٰن: ١ و٢] السورة؛ ويدل على ذلك ما رواه محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسولُ الله ﷺ «الرَّحْمَنُ» على الناس سكَتُوا فلم يقولوا شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ جوابًا منكم لمّا قرأتُ عليهم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمٰن: ١٣، ١٦، ١٨، ...] قالوا لا ولا بشيء من آلاء ربّنا نكذِّب». ومن رواية أخرى عنه: «قالوا لا ولا بشيء من نِعَمكَ ربّنا نكذِّب فلكَ الحمد».

وعن أبي الْمُلَيْح الهُذَليّ أنه كتب إلى عُبَيدة بن عبد الله بن مسعود: أين قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ؟ فكتب إليه: إنه قرأ عليهم بشِعْب يقال له الحَجُون[2]. وروي عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ «أنّ نفرًا من الجنّ خمسة عشر بني إخوةٍ وبني عمٍّ يأتونني الليلة فأقرأ عليهم القرآن». وقيل: كانوا أكثر من هذا. وقد جاء عنه: أنه ذهب إلى موضعهم، قال: فرأيتُ موضع مَبْرَكِ ستين بَعِيرًا. ولما رأى عبدُ الله بن مسعود رجالَ الزُّطِّ[3] قال: ما رأيتُ شبههم إلا الجنّ ليلة لاجنّ، وكانوا مُسَتَنْفرين يتبع بعضُهم بعضًا.

---

(١) حراء: بالكسر، والتخفيف، والمد: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال، وهو معروف، وكان النبيّ ﷺ قبل أن يأتيه الوحي يتعبد في غار من هذا الجبل... (معجم البلدان).

(٢) الحجون: جبل بأعلى مكة، عنده مدافن أهلها. وقيل: هو مكان من البيت على ميل ونصف، وقيل: الحجون هو الجبل المشرف الذي بحزاء مسجد البيعة على شعب الجزارين... (معجم البلدان).

(٣) الزط: جنس من السودان والهنود.

ذكر إخبار الجنّ أصحابهم بأمر رسول الله ﷺ وإسلامهم بسبب ذلك

روى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله في صحيحه، بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعتُ عمرَ رضي الله عنه لِشيءٍ قطُّ يقول، إني لأظنّه كذا إلا كان كما يَظنّ؛ بينا عمر جالس إذ مَرَّ رجلٌ جميل، فقال: لقد أخطأ ظني أو إنّ هذا على دينه في الجاهلية، ولقد كان كاهنَهم؛ عليّ الرجلَ، فدُعِي له، فقال له عمر: لقد أخطأ ظنّي أو إنّك على دينك في الجاهلية أو لقد كنت كاهنَهم، فقال: ما رأيت كاليوم أُستقبِل به رجلٌ مُسلِم. قال: فإني أعْزِم[1] عليك إلا ما أخبرتَني. قال: كنتُ كاهنَهم في الجاهلية. قال: فما أعجَبُ ما جاءتك به جِنّيَتُكَ؟ قال: بينا أنا يومًا في سوق جاءتني أعرِف فيها الفَزَع، قالت:

أَلَــمْ تَــرَ الـجِــنَّ وإبْــلاسَــهَــا ... ويـأسَـهـا بَـعْـدُ وإبْـلاسَـهـا[2]

ولُـحُـوقَـهـا بـالـقِـلاَصِ وأحـلاَسِـهـا ... ويَـأسَـهـا بَـعْـدُ مِـنْ أنْـسَـاكِـهـا[3]

قال عمر: صَدَق، بينا أنا نائمٌ عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصَرخ منه صارخٌ لم أسمع صارخًا قَطُّ أشدَّ صوتًا منه يقول: يا جَلِيح[4]، أمرٌ نَجِيح[5]، رجلٌ يصِيح، يقول لا إله إلا اللّهُ، فوثَب القومُ، قلتُ: لا أبرحُ حتى أعْلَمَ ما وراء هذا، ثم نادى: يا جَلِيح، أمْرٌ نَجِيح، رجل يَصِيح، يقول لا إله إلا اللّهُ، فقلت لا أبرحُ حتى أعْلَم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جَلِيح، أمرٌ نَجِيح، رجلٌ يَصِيح، يقول لا إله إلا اللّهُ. فقمتُ فما نَشِبْتُ أنْ قِيل هذا نبيّ.

قال الْبَيْهَقيّ: ظاهر هذه الرواية يُوهِم أنّ عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصّارِخ يَصرُخ من العِجْل الذي ذُبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر في إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله تعالى أعلم.

ذكر خبرِ سَوَادِ بنِ قاربِ

روى الْبَيْهَقيّ رحمه الله تعالى بسنده عن البَرَاء، قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب الناس على مِنبر النبيّ ﷺ؛ إذ قال: أيها الناس، أفيكم سَوَادُ بن

---

(١) أعزم عليك: أي ألزمك.
(٢) الإبلاس: التحير والدهشة.
(٣) أحلاس الناقة: أكسيتها.
(٤) الجليح: المكافح والمكاشف بالعداوة.
(٥) النجيح: الظفر بالبغية.

قارِب؟ قال: فلم يُجِبه أحدٌ تلك السَّنَة، فلما كانت السَّنَة المقبلة، قال: أيها الناس، أفيكم سَوَاد بن قارِب؟ قال فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سَوَاد ابن قارب؟ فقال: إن سواد بن قارِب كان بدء إسلامه شيئًا عجيبًا! قال: فبينا نحن كذلك؛ إذ طلع سَوَادُ بن قارِب، فقال له عمر: يا سَوادُ، أخبرني ببَدْءِ إسلامك كيف كان؟ قال سَوَاد: فإنّي كنتُ نازلاً بالهِنْد وكان لي رَئِيٌّ من الجِنّ، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم؛ إذ جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم واعقل إن كنت تَعقِل، قد بُعِث رسول من لُؤَيّ بن غالب، ثم أنشأ يقول: [من السريع]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وأَنْجَاسِها ... وشَدِّها العِيسَ بِأَحْلاسِها
تَهْوِي إلى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... ما مُؤْمِنُوها مِثْلُ أرْجاسِها
فانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِن هَاشِم ... واسْمُ بعَيْنَيْك إلى رَاسِها

ثم أنْبهَني وأفزعني، وقال: يا سَواد بن قارِب، إنّ الله عزّ وجل بعث نبيًا فانهض إليه تَهتدِ وتَرْشُد، فلما كان في الليلة الثانية أتاني فأنبهني، ثم أنشأ يقول كذلك: [من السّريع]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وتَطْلابِها ... وشَدِّها العِيسَ بِأقْتابِها(١)
تَهْوِي إلى مكة تَبْغِي الهُدَى ... لَيسَ قُدَاماها كأذْنابِها
فانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِنْ هاشِم ... واسْمُ بعَيْنَيكَ إلى نَابِها(٢)

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبهني، ثم قال كذلك: [من السريع]

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وتَخْبارِها ... وشَدِّها العِيسَ بأكْوارِها(٣)
تَهْوِي إلى مكة تَبْغي الهُدَى ... لَيسَ ذَوُو الشَّرِّ كأخْيَارِها
فانْهَضْ إلى الصَّفْوَة من هاشِم ... ما مُؤمِنُو الجِنّ ككُفّارِها

قال: فلما سمعته يكرر ليلةً بعد ليلةٍ وقع في قلبي حُبّ الإسلام من أمر النبيّ ﷺ ما شاء الله، فانطلقتُ إلى رَحْلي فشددتُه على راحِلتي، فما حَلَلْتُ نِسْعَةً(٤) ولا عَقَدتُ أخرى حتى أتيت النبيّ ﷺ، فإذا هو بالمدينة والناس عليه كعُرف(٥)

---

(١) الأقتاب: الحبال. (٢) ناب القوم: سيدهم.
(٣) الأكوار: واحدها الكور، وهو الرّحل، أو الرحل بأداته.
(٤) النسعة: سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره، وتشدّ به الرحال.
(٥) عرف الفرس: منبت الشعر من العنق.

الفَرَس، فلما رآني قال: «مرحبًا بك يا سَواد بن قارِب، قد علمنا ما جاء بك» قال قلتُ: يا رسول الله قد قلتُ شِعرًا فاْسمعه مني، قال سَوَاد فقلت: [من الطويل]

أتـانِـي رئـيٌّ بـعـد لَـيْـلٍ وهَـجْـعَـة ... ولـم يَـكُ فِـيمـا قد بَلَوْتُ بكـاذِبِ[1]
ثَـلاثَ لـيـالٍ قَـوْلُـه كـلَّ لـيـلـةٍ ... أتـاكَ نـبـيٌّ مـن لُـؤيِّ بـنِ غـالِـبِ
فَشَمَّرْتُ عن ساقِي الإزارَ وَوَسَّطَتْ ... بِيَ الذِّعْلِب الوَجناءُ عِنْد السَّباسِبِ[2]
فـأشْـهَـدُ أنّ الله لا شَـيءَ غَـيْـرُه ... وأنَّـك مَـأمُـونٌ عـلـى كُـلِّ غـائـبِ
وأنّـك أدْنَـى الـمُـرْسَـلـيـن شَـفـاعـةً ... إلـى الله يـا ٱبْـنَ الأكْـرَمِـيـن الأطـايِـبِ
فَمُرْنا بما يأتِيكَ يا خَيْرَ مَن مَشَى ... وإن كان فِيما جاء شَيْبُ الذَّوائِبِ[3]
فكُـنْ لِـي شَـفـيـعًـا يَـوْمَ لا ذو شَـفـاعـةٍ ... سِـواكَ بِـمُـغْـنٍ عـن سَـوادِ بـنِ قـارِبِ

قال: فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بَدَتْ نَواجِذه[4]. وقال لي: «أفلحتَ يا سواد» فقال عمر: هل يأتيك رَئيُك الآن؟ فقال: مُنْذ قرأتُ القرآن لم يأتني، ونِعْم العِوض كتابُ الله عزّ وجلّ من الجِنّ.

قال البيهقيّ: ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن، الذي لم يذكر ٱسمه في الحديث الصحيح، وهو الحديث الذي ذكرناه آنِفًا قبل خبر سَوَاد.

وقد روي أيضًا عن سَوَاد بن قارِب، من رواية سعيد بن جُبَيْر بنحو هذا، إلا أنه قال: كان سَواد في جبلٍ من جبال الشَّرَاة[5]، وقال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو بمكة، وقد ظهر، فأخبرته الخبر، وبايعته.

قال البيهقيّ رحمه الله: وقوله أتيت مكة أقرب إلى الصِّحة مما رويناه في الروايتين الأوليين. والله تعالى أعلم.

ذِكر خبرِ خُفَافِ بن نَضْلَة الثَّقفيّ

رَوَى أبو بكر البيهقيّ رحمه الله بسنده إلى ذابِل بن طُفَيْل بن عمرو الدَّوْسِيّ، أن النبيّ ﷺ قعد في مسجده ذات يوم، فقدم عليه خُفافُ بن نَضْلَة بن عمرو بن بَهْدَلة الثَّقفيّ، فأنشد رسولَ الله ﷺ: [من الكامل]

---

(١) الرئيّ: التابع من الجن. والهجعة: الطائفة من الليل.
(٢) الذعلب: الناقة السريعة الغليظة الصلبة. والسباسب واحدتها السبسب، وهي الأرض القفر البعيدة.
(٣) الذوائب: واحدتها ذؤابة، وهي الضفيرة من الشعر إذا كانت مرسلة.
(٤) النواجذ: الأنياب؛ أو الأضراس كلها.
(٥) الشراة: جبل شامخ عن يسار عسفان، وبه سلسلة تذهب إلى ناحية الحجاز.

كَمْ قَدْ تَحَطَّمَتِ القَلُوصُ بيَ الدُّجى ... في مَهْمَهٍ قَفْرٍ من الفَلَواتِ[١]
فِلٍّ مِن التَّوْرِيسِ ليس بِقاعِهِ ... نَبْتٌ من الإِسْناتِ والأَزَماتِ[٢]
إنِّي أتانِي في المنام مُساعِدٌ ... من جِنٍّ وَجْرَةَ كان لِي ومُوَاتِ[٣]
يَدْعُو إليكَ ليالِيًا وليالِيًا ... ثُمّ احْزَأَلَّ وقال لَسْتُ بِآتِ[٤]
فرَكِبْتُ ناجِيَةً أضرّ بِنَيِّها ... جَمْرٌ تَخُبّ به على الأكَمَاتِ[٥]
حتَّى وَرَدتُ إلى المدينةِ جاهِدًا ... كَيما أراكَ فتَفْرِجَ الكُرُباتِ

قال: فاستحسنها رسول الله ﷺ، وقال: «إنّ من البيان كالسِّحر، وإن من الشِّعْر كالحِكَم».

ومن ذلك ما روي عن عليّ بن حسين، قال: أول خبر قدم المدينة، أن امرأة من أهل يَثْرِب تُدعَى فاطمة، كان لها تابع من الجنّ فجاءها يومًا فوقع على جدارها، فقالت: ما لكَ لا تدخل؟ فقال: إنه قد بُعِث نَبيٌّ يحرِّم الزِّنَى، فحدثت بذلك المرأة عن تابعها من الجنّ، وكان أول خبر يُحدَّث به بالمدينة عن رسول الله ﷺ.

وعن جابر قال: أول خبر قدم المدينة عن النبي ﷺ، أن امرأة من أهل المدينة كان لها تابع، فجاء في صورة طائر حتى وقع على حائط دارهم، فقالت له المرأة: أنزلْ نُخبرْكَ وتُخبِرْنا، قال: لا، إنه بُعِث بمكة نبيٌّ مَنَع منا القَرار، وحَرّم علينا الزِّنى.

ومنه ما رُوِي عن محمد بن عمر بن واقد، عن تَمِيم الدّاريّ أنه قال: سِرتُ إلى الشّام فأدْركني الليل، فأتيتُ واديًا فقلت: أنا في جِوارِ عظيم هذا الوادي اللّيلةَ، فلما أخذتُ مَضْجَعي إذا قائلٌ لا أراه يقول: عُذْ بالله الأحد، فإنّ الجنّ لا تُجِير على الله أحدًا، وأنه قد بعِث رسولُ الأمّيين، وصَلَّينا خلفَه بالحَجُون، وأسلمنا واتبعناه، وآمنا به وصدّقناه، فأسْلِمْ تَسْلم. قال تميم: فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى دَيْر أيوب[٦]، فسألت راهبه عما سمعتُ من الهاتف، فقال: صَدَق. وكان ذلك سبب إسلام تميم.

---

(١) القلوص: الناقة الفتية. والدحى: سواد الليل مع غيم. والفلاة: الصحراء الواسعة.

(٢) الفلّ: الخالية. والتوريس: صبغ أصفر.

(٣) وجرة: موضع بين مكة والبصرة موحش.

(٤) احزألّ: ارتفع.

(٥) الناجية: الناقة السريعة. نيّ الناقة: شحمها ولحمها. والجمر: السير السريع.

(٦) دير أيوب: قرية بحوران من نواحي دمشق، بها كان أيوب عليه السلام، وبها ابتلاه الله، وبها العين التي ركضها الله برجله والصخرة التي كانت عليها، وبها قبره... (معجم البلدان لياقوت).

ومنه ما روي عن أبي خُرَيْم فَاتِك أنه قال: خرجتُ في الجاهلية أطلب إبِلاً أضللتها، فلما كنت بأبْرَق[١] العَزّاف، عَقلتُ ناقتي وتوَسّدتُ ذِراعها، وقلت: أعوذ بعظيم هذا المكان، فسمعت هاتفًا يقول: [من الرّجز]

تَعَوّذَنْ بالله ذِي الْجَلاَلِ ووَحِّدِ اللّهَ وَلاَ تُبَالِي

* ما هَوّلَ الجِنُّ مِنَ الأَهْوَالِ *

قال فقلتُ: بَيِّنْ لي يَرْحمكَ الله، فقال: [من الرّجز]

هذا رسولُ الله ذُو الخيراتِ يَدْعُو إلى الجنّةِ والنّجاةِ

* يأمُرُ بالصّومِ وبالصّلاةِ *

قال: فوقع في قلبي الإسلام، فقلت: مَن أنت أيها الهاتِف؟ فقال: أنا مالك بن مالك، إنْ أردتَ الإسلامَ فأنا أكفيك طلب ضالّتك حتى أردّها إلى أهلك، قال: فركبتُ راحلتي وقصدتُ المدينة، فقدِمتها في يوم جمعة، فأتيتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ يخطب، فأنختُ بباب المسجد قلتُ ألبثُ حتى يفرغ من خطبته، وإذا أبو ذَرّ قد خرج فقال لي: إنّ رسول الله ﷺ أرسلني إليك وهو يقول لك: «مرحبًا قد بلغني إسلامك فأدخل فصلِّ مع الناس» قال: فتطهرتُ ودخلت فصلّيتُ، ثم دعاني رسول الله ﷺ، فبايعني وأخبرني بالخبر قبل أن أذكره له، وقال لي: «أمّا إبِلُكَ فقد بَلَغَتْ أهلَكَ، وقد وَفَى لك صاحبك» فقلت: جزاه الله خيرًا ورَحمه، فقال رسول الله ﷺ: «آمين».

ومنه ما روي عن مالك بن نُفَيْع أنه قال: «ندّ[٢] بعيرٌ لي، فركبتُ نَجِيبةً[٣] وطلبته، حتى ظَفِرتُ به، فأخذتُه وٱنكفأتُ راجعًا إلى أهلي، فأسريتُ ليلةً حتى كِدتُ أصبِح، فأنختُ النّجيبةَ والجملَ وعَقَلْتُهما، وٱضطجعتُ في ذُرَى كَثِيب رملٍ، فلما كحلني الوسَنُ[٤] سمعت هاتفًا يقول: يا مالِك، يا مالِك، لو فحصتَ عن مَبْرَك العَوْد[٥] البارِك، لَسَرَّك ما هنالك، قال: فثُرْتُ وأثرتُ البعيرَ عن مَبْرَكه، وٱحتفرت[٦]،

(١) أبرق العزاف: ماء لبني أسد بن خزيمة سموه بذلك لأنهم يسمعون فيه عزيف الجن أي صوتهم..

(٢) ندّ البعير: أي نفر وشرد.

(٣) النجيبة: جمع النجائب، وهي من الإبل، خيارها.

(٤) الوسن: النعاس.

(٥) العود: الجمل الكبير المسن المدرب.

(٦) احتفر: أخرج التراب من الأرض.

وإذا صنم بصورة أمرأة، من صَفاةٍ صفراء كالوَرْسِ، مجلوة كالمرآة، فأستخرجتها ومسحتها بثوبي ونصبتها، فأستوت قائمة، فما تمالكتُ أن خررتُ ساجدًا لها، ثم قمتُ فنحرتُ البعير لها ورششتها بدمه، وسميتها غَلاَب، ثم حملتها على النَّجِيبة وأتيتُ بها أهلي، فحسدني كثير من قومي عليها، وسألوني نَصْبها لهم ليعبدوها معي، فأبيتُ عليهم، فانفردتُ بعبادتها، وجعلتُ لها على نفسي كل يوم عَتِيرة، وكانت لي ثَلَّة[١] من الضأن فأتيت على آخرها، وأصبحت يومًا وليس لي ما أعْتِره، وكرهتُ الإخلاف بنَذْري، فأتيتها فشكوتُ إليها ذلك، فإذا هاتفٌ من جوفها يقول: يا مالِ يا مالِ[٢]، لا تأس على المال؛ سِرْ إلى طَوِيّ[٣] الأرْقَم[٤]، فخذ الكلب الأسْحَم[٥]، الوالِغ في الدّم، ثم صِدْ به نَعَم. قال مالك: فخرجت من فوري إلى طَوِيّ الأرْقم، فإذا كلب أسحم هائل المنظر، قد وَثَب على قَرْهبٍ ـ يعني ثورًا وحشيًا ـ فَصَرعه وأنا أنظر إليه، ثم بَقَر بطنه، وجعل يَلِغ في دمه، قال: فتهيبته، ثم أقدمتُ عليه وهو مقبل على عَقِيرتِه لم يلتفت إليّ، فشددت في عنقه حبلًا، ثم جذبته فتبِعني، فأتيت راحِلتي فأثرتها، وقُدْتها إلى القَرْهَبِ، فأنختها وجررته وحملته عليها، ثم قُدْتُها قاصدًا إلى الحيّ، والكلب يلوذ بي فعَنَّت لي ظبيةٌ، فجعل الكلب يَثِب ويجاذِبني المَرَس[٦]، فتردّدت في إرساله ثم أرسلته، فمرّ كالسهم حتى أختطفها، فأتيته فجاذبته إياها فأرسلها في يدي، فأستفزني السُّرور، وأتيتُ أهلي فعَتَرْت الظبيةَ لغَلاَب، ووزعت لحم القَرْهَبِ، وبِتُّ بخير ليلة، ثم باكرتُ به الصّيد، فلم يفته حمار، ولا ماطله ثور، ولا أعتصم منه وَعْل، ولا أعجزه ظبيٌ، فتضاعف سروري به، وبالغت في إكرامه، وسميته سُحَامًا، فلبث بذلك ما شاء الله، فإني لَذاتُ يوم أصِيد به، فبَصُرت بنعامة على أُدْحيِّها[٧]، وهي قريبة مني، فأرسلته عليها، فأجفلت أمامه، وأتّبعتها على فرس جواد، فلما كاد الكلب يَثِب عليها، أنقضَّت عليه عُقَاب من الجوّ فكرّ راجعًا نحوي فصِحتُ به فما كَذَّب[٨]، وأمسكت الفرس فجاء سُحَام حتى دخل بين قوائمها، ونزلت العُقَاب أمامي على صخرة، وقالت: سُحَام، قال الكلب: لَبَّيْكِ، قالت: هَلَكت الأصنام، وظهر الإسلام، فأسْلِم تَنجُ بسلام، وإلا فليست بدار مقام. ثم طارت العُقَاب، وتَبصَّرتُ سُحَامًا فلم أره، وكان آخر عهدي به.

---

(١) الثلة: جماعة الغنم.
(٢) يا مالِ: أي يا مالك.
(٣) الطويّ: البئر.
(٤) الأرقم: حي من أحياء العرب.
(٥) الأسحم: الشديد السواد.
(٦) المرس: الحبل.
(٧) الأدحيّ: الموضع الذي تبيض فيه النعامة وتفرخ.
(٨) فما كذّب: أي فما انثنى وما رجع.

ومنه مما يشبِه هذه القصة ما رُوي عن قَتادة عن عبد الله بن أبي ذُباب عن أبيه، أنه قال: كنتُ مولَعًا بالصيد، وكان لنا صنم اسمه فَرَّاض، كنت كثيرًا ما أذبح له، ولم أكن أتخِذ جارِحًا للصيد إلاّ رُمِي بآفة، قلَّمَا أُدْخِلُ الحيَّ صيدًا حيًا؛ لأني كنت لا أدركه إلا وقد أشفى على الهلاك، فلمّا طال بي ذلك أتيت فَرَّاضًا، فعَتَرتُ له عَتِيرة، ولطَّختُه من دمها، وقلت: [من الرّجز]

فَـرَّاض أشْـكـو نَـكَـدَ الـجـوارِح ... مِـنْ طـائِـرٍ ذي مِـخـلـبٍ ونَـابـحِ[١]
وأنـتَ لـلأمـر الـشَّـديـد الـفـادح ... فـأفـتـح فـقـد أسـهـلـت الـمـفـاتـح

فأجابني مُجيبٌ من الصّنم؛ فقال: [من الرّجز]

دُونـكَ كـلـبًـا جـارِحًـا مـبـارَكَـا ... أعـدَّ لـلـوحـش سـلاحًـا شـابـكَـا[٢]
* يَـفْـرِ حُـزُون الأرض والـدَّكـادِكَـا[٣] *

قال: فأنقلبت إلى خِبائي، فوجدت به كلبًا خِلاسِيًّا[٤] بهيمًا[٥] عظِيمًا؛ أهْرَتَ[٦] الشِّدقين، شابِك الأنيابِ، شَثْن[٧] البراثِنِ، أشعر مَهُول المنظر، فصفرت به فأتاني، فلاذ بي وبَصْبَص[٨]، فسميته حياضًا، فأتخذت له مَرْبِطًا بإزاء فراشي وأكرمته، ثم خرجت به إلى الصيد، فإذا هو أبصر بالصَّيْد مِنّي، وكان لا يثبت له شيء من الوحش، فقلتُ فيه: [من البسيط]

حـيـاضُ إنّـكَ مـأمـولٌ مَـنـافـعُـهُ ... وقـد جَـعَـلْـتُـكَ مـوقـوفًـا لِـفَـرَّاضِ

وكنت أعْتز لِفَرّاض من صيده، وأقْرِي الضَّيْف، فلم أزل به من أوسع العرب رَحْلاً، وأكثرها ضَيْفًا، إلى أن ظهر رسول الله ﷺ، فنزل بي ضيفٌ كان زار رسول الله ﷺ، وسمع منه القرآن، فحدّثني عنه، ورأيت حياضًا كأنه يُنْصِت لحديثه، ثم إنّي غدوت أقتنص بحياض، فجعل يجاذبني ويأبى أن يتبعني فأجذبه وأمسحه، إلى أن عَنَّ لي تَوْلَب ـ يعني جحشًا من حِمير الوحش ـ قال: فأرسلته عليه فقصده، حتى إذا قلت قد أخذه حَادَ عنه، فساءني ذلك، ثم أرسلته على رَأْلٍ ـ يعني فرخ نعامة ـ

---

(١) النكد: الشؤم. (٢) الشابك: الناشب.
(٣) حزون الأرض: ما غلظ منها. والدكدك من الرمل: ما تكبس بالأرض أو التبد بها.
(٤) الخلاسي: من كانت أمه سوداء وأبوه أبيض أو العكس.
(٥) البهيم: الأسود. (٦) أهرت الشدقين: واسعهما.
(٧) شثن البراثن: غليظها. (٨) بصبص الكلب: حرك ذنبه.

فصنع مثل ذلك، ثم أرسلته على بقرة، ثم على خِشْف[١]، كل ذلك لا يأتي بخير، فقلت: [من الطويل]

ألا ما لحيّاضٍ يَحِيدُ كأنما رَأى الصَّيدَ ممنوعًا بزُرْق اللَّهاذِمِ[٢]

قال: فأجابني هاتِف لا أراه: [من الطويل]

يَحِيدُ لأمرٍ لو بدا لك عَينُه لكنتَ صَفُوحًا عاذِلاً غيرَ لائِمِ

قال: فأخذت الكلب وانكفأت راجعًا، فإذا شخص إنسانٍ عظيم الخلق، قد ركب حمارًا وحشيًا، فتربع على ظهره، وهو يساير شخصًا مثله راكبًا على قَرْهَب[٣]، وخلفهما عبد أسود يقود كلبًا عظيمًا بساجورٍ[٤]، فأشار أحد الراكبين إلى حياض وأنشد: [من الرّجز]

وَيْلكَ يا حياضُ لِمْ تَصِيدُ أخنِسْ وحِدْ عمّا حَوَته البِيدُ[٥]
الله أعلَى وله التوحيدُ وعبدُه محمدُ السَّدِيدُ
سُحْقًا لَفرّاضٍ وما يَكِيدُ قد ظَلّ لا يُبدِي ولا يُعِيدُ

قال: فملِئت رُعْبًا، وذَلَّ الكلبُ فما يرفع رأسًا، وأتيت أهلي مغمومًا كاسِف البال، فبِتُّ أتململ على فراشي، ثم خَفَتُّ من آخر الليل فإذا نَغْمة[٦]، ففتحت عيني فرأيت الكلب الذي كان الأسود يقوده، وإذا حياض يقول له: أحسِب صاحبي يقظان، قال: فتناومت، ثم قصدني فتأمّلني ورجع إليه، فقال: قد نام، فلا عينٌ ولا سمعٌ، قال: أرأيت العِفريتين؟ وسمعت ما قالا، قال حياض: نعم، قال: إنهما قد أسلما وأتبعا محمدًا، وقد سُلِّطا على شياطين الأوثان، فما يتركان لوثن شيطانًا، وقد عذّباني عذابًا شديدًا، وأخذا عليّ موثِقًا ألاّ أقرب وثني، وأنا خارج إلى جزائر الهند، فما رأيك لنفسك؟ قال حياض: ما أمرنا إلا واحد. وذهبا، فقمت أنظر فلا عين ولا أثر، فلما أصبحت أخبرتُ قومي بما رأيتُ وسمعتُ، وقلت لهم: تخيّروا من ينطلق معي إلى هذا النبيّ من حُلَمائكم وخُطبائكم؛ فقالوا لي: أترغب عن دين آبائك؟ فقلت لهم: إذا كرهتم شيئًا كرِهته، فما أنا إلا واحد منكم، ثم انسللت منهم فكسرت

(١) الخشف: ولد الظبي أول ما يولد.
(٢) اللهاذم: واحدها اللهذم، وهو القاطع من الأسنة.
(٣) القرهب: الثور الوحشي.
(٤) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب.
(٥) أَخْنَسَ: تأخر. والبيد: الصحراء.
(٦) النغمة: الكلام الخفيّ.

الصنم، ثم قصدت المدينة فأتيتها ورسول الله ﷺ يخطب، فجلست بإزاء مِنبره فعقَّب خطبته بأن قال: «بإزاء منبري رجلٌ من سعد العَشِيرة، قَدِم علينا راغبًا في الإسلام، ولم يرني ولم أره إلا ساعتي هذه، ولم أكلّمه ولم يكلّمني قَطُّ، وسيخبركم خبرًا عجيبًا» ونزل فصلّى، ثم قال: «أَدنُ يا أخا سعد العشِيرة» فدنوت فقال: «أخبرنا عن حياض وفَرّاض وما رأيتَ وسمعتَ» قال: فقمتُ على قدميّ وقصصتُ القِصّة، والمسلمون يسمعون، فسرّ النبيّ ﷺ، ودعاني إلى الإسلام، وتلا عليّ القرآن فأسلمتُ، وقلتُ في ذلك: [من الطويل]

تَبِعتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى ... وخَلَّفتُ فَرّاضًا بدارِ هَوَانِ
شَدَدْتُ عليه شَدَّةً فتركتُهُ ... كأن لم يكن والدَّهرُ ذو حَدَثانِ[1]
رأيتُ له كلبًا يقومُ بأمرِهِ ... فهَدَّدَ بالتَّنكيلِ والرَّجَفانِ
ولما رأيتُ اللّهَ أظهر دِينَهُ ... أجَبتُ رسولَ الله حِينَ دعانِي
وأصبحتُ للإسلام ما عِشتُ ناصرًا ... وألقيتُ فيه كَلْكَلِي وجِرَانِي[2]
فمَنْ مُبلِغٌ سعدَ العشِيرةِ أنني ... شَرَيْتُ الذي يَبقَى بما هو فانِي

وقد تقدم في خبر وفد سعد العشِيرة ذكر هذه الأبيات، وأنها لذُبابٍ، وأنه الذي كسر الصّنم، إلا أنه لم يذكر البيت الذي فيه ذكر الكلب، والله تعالى أعلم.

ومنه: ما رُوِي أن ربيعة بن أبي بَراءٍ، قال أخبرني خالي فقال: لما أظهرَ الله علينا رسوله ﷺ بحُنَيْن انشعبنا في كل مَشْعَب، لا يَلْوِي حَمِيم على حَمِيم، فبينا أنا في بعض الشِّعاب، رأيت ثعلبًا قد تَحَوَّى[3] عليه أرْقَم[4]، والثعلب يعدو عَدْوًا شديدًا، فانتحيت[5] له بحجر فما أخطأه، وانتهيت إليه، فإذا الثعلب قد سبقني بنفسه ـ أي هلك قبل أن أصل إليه ـ وإذا الأرقم قد تقَطَّع وهو يضطرب، فقمت لأنظر إليه، فهتف هاتفٌ ما سمعت أفظع من صوته يقول: تَعْسًا لك وبؤسًا، فقد قتلت رَئِيسًا، وورثت بئِيسًا[6]، ثم قال: يا داثِر يا داثِر، فأجابه مجيب من العدوة[7] الأخرى بلَبَّيْكَ لَبَّيكَ، فقال: بادِر بادِر، إلى بني العُذَافِر، وأخبرهم بما صنع الكافر، فناديت: إني لم

(١) حدثان الدهر: نوائبه وحوادثه.
(٢) الكلكل: الصدر. والجران: باطن العنق من البعير وغيره.
(٣) تحوّى: التف واستدار.
(٤) الأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها.
(٥) انتحيت له: عرضت له وقصدت.
(٦) البئيس: الشجاع.
(٧) العدوة: شاطىء الوادي؛ أو المكان المرتفع.

أشعر، وأنا عائذ بك فأجِرني. قال: كلاّ، والحرمِ الأمِين، لا أجير من قاتل المسلمين، وعَبَدَ غيرَ ربِّ العالمين. قال: فناديت؛ إنّي أُسْلِم، فقال: إن أسلمت سقط عنك القصاص، وألْبَثكَ الخلاصُ، وإلاّ فلا مَناص. قال فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، فقال: نَجوتَ وهُدِيت، لولا ذاك لرديت[(١)]، فارجع من حيث جِيت. قال: فرجعت أقفو أدراجي[(٢)]، فإذا هو يقول: اُمتط السِّمْع[(٣)] الأزَلّ[(٤)]، يَغلُ بك التّلّ، فهناك أبو عامر يتبع الفَلّ. قال: فألتفت فإذا سِمْع كالأسد النَّهْد[(٥)]، فركبته ومَرَّ يَنسِلُ[(٦)]، حتى اُنتهى إلى تَلّ عظيم، فتَوقَّل[(٧)] فيه إلى أن تَسنَّمه، فأشرفت منه على خيل المسلمين، فنزلت عنه وصَوَّبت الحُدُور[(٨)] نحوهم، فلما دنوت منهم خرج إليّ فارس، كالفَالج[(٩)] الهائج، فقال: ألقِ سلاحك لا أُمَّ لك، فألقيت سلاحي. فقال: ما أنت؟ قلت: مُسلمٌ، قال: فسلام عليك ورحمة الله، قلت: وعليك السّلام والرحمة والبركة، مَن أبو عامر؟ قال: أنا هو، قلت: الحمد لله، قال: لا بأس عليك؛ هؤلاء إخوانك المسلمون، أمَا رأيتك بأعلى التّل فارسًا فأين فرسُك؟ قال: فقصصت عليه القصّة، فأعجبه ما سمع مني: وسِرتُ مع القوم أقفو بهم آثار هَوَازن حتى بلغوا من ذلك ما أرادوه.

والأخبار في مثل ذلك كثيرة، وقد أتينا منها بما نكتفي به، فلنذكر خلاف ذلك من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ.

ذكر رسلِ رسول الله ﷺ الذين بعثهم إلى الملوك وغيرهم، وما كتب به إليهم، وما أجابوا به

كانت رُسل رسول الله ﷺ، على ما أورده الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي رحمه الله، أحد عشر رجلاً؛ وهم: عمرو بن أمية الضَّمْريّ، ودِحية بن خليفة الكلبيّ، وعبد الله بن حُذافة السَّهميّ، وحاطب بن أبي بَلْتَعة اللخميّ، وعمرو بن العاص، وسَلِيط بن عمرو العامريّ، وشجاع بن وهب الأسديّ، والمهاجر بن أبي أمية المخزوميّ، والعَلاَء بن الحضرميّ، وأبو موسى الأشعريّ، ومعاذ بن جبل. هؤلاء الذين أثبتَهم.

---

(١) رديت: أهلكت.
(٢) الأدراج: الطرق.
(٣) السمع: سبع تلده الضبع وأبوه الذئب.
(٤) الأزل: الصغير العاجز.
(٥) النهد: العظيم الخلق.
(٦) ينسل: يمشي مسرعًا.
(٧) توقل: تصعد في الجبل.
(٨) الحدور: أي الانحدار.
(٩) الفالج: الجمل الضخم ذو السنامين.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عُمَيْر الأزدي إلى ملكِ بُصْرى بكتاب، فلما نزل مُؤْتة[١] قتله شُرَحْبِيل بن عمرو الغَسَّانيّ، وبسبب قتله بعث رسول الله ﷺ سَرِيّة مُؤْتة على ما قدمنا ذكره.

ولعل الشيخ رحمه الله، إنما أثبت من الرسل من بَلّغ الرسالة، وهذا لم يُمْهَل حتى يُبلِّغها، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيرُه. وقد ورد أن رسول الله ﷺ بعث غير هؤلاء، ممن نذكرهم إن شاء الله تعالى.

فكان أوّل ما بعث رسولُ الله ﷺ الرسل في المحرم، سنة سبع من مُهاجَره؛ أرسل ستّةً من هؤلاء الرسل إلى ستّة ملوك، وذلك أنه ﷺ لما رجع من الحُدَيْبِية في ذي الحجة سنة خمس جَهّز الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كُتبًا، فقيل له: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرؤون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتمًا من فضّة فَصُّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: «محمد» سطر «رسول» سطر «الله» سطر. وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه رسول الله ﷺ إليهم؛ حكاه محمد بن سعد في طبقاته بسنده.

وقال أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يَسَار: حدّثني يزيد بن أبي حبيب المصريّ أنه وجد كتابًا فيه ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البُلْدان، وملوك العرب والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم، قال: فبَعثتُ به إلى محمد بن شهاب الزُهْريّ، فعرفه، وفيه: إن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال لهم: «إن الله بعثني رحمةً وكافةً، فأدُّوا عنّي يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم» قالوا: يا رسول الله، وكيف كان اْختلافهم؟ قال: «دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأمّا من قَرَّبَ[٢] به فأحبَّ وسَلَّم، وأمّا من بَعَّدَ به فكَره وأبى، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وُجِّه إليهم».

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدّثني من أثق به عن أبي بكر الهُذَليّ، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه. وساق نحو الحديث.

---

(١) مؤتة: بالضم ثم واو مهموزة ساكنة، وتاء مثناة من فوقها. قرية من قرى البلقاء في حدود الشام. وقيل: موتة من مشارف الشام وبها كانت تطبع السيوف وإليها تنسب المشرفية من السيوف... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قرّب به: بعثه بعثًا قريبًا.

ذكر إرسال عمرو بن أمية الضَّمْريّ[١] إلى النَّجاشي ملك الحبشة وإسلامه

بعثه رسول الله ﷺ إلى النجاشيّ، وكتب معه كتابين، يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، فأخذ النجاشيّ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم وشَهِد شهادة الحقّ، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته، وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب لله رب العالمين. وكان جعفر ممن هاجر إلى الحبشة كما قدّمنا ذكر ذلك. وفي الكتاب الثاني، يأمره أن يزوّجه أمّ حَبِيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الأسديّ، فتنصر هناك ومات، وأمره رسول الله ﷺ أن يبعث إليه مَن قِبَله من أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وأن يَحْمِلهم، ففعل، وزوّج رسول الله ﷺ أمّ حَبِيبة، وأصدقها أربعمائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية، وجعل كتابيَ رسول الله ﷺ في حُقٍّ من عاجٍ، وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها.

ذكر إرسال دِحْية بن خلِيفة الكلبيّ إلى قيصر ملك الروم

بعثه رسول الله ﷺ إليه، وكتب إليه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم، سلامٌ على من اتّبع الهدى - أما بعد - فإنّي أدعوك بِدِعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم يُؤْتِك الله أجركَ مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم اليَرِيسِيين، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وبإسنادنا المتقدّم، إلى أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاريّ، قال: حدّثنا الحكم بن نافع أبو اليَمَان، قال حدّثنا شعيب، عن الزهريّ، قال أخبرنا عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره، أنّ هِرَقْلَ أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام، في

---

(١) نسبة إلى بني ضمرة، وهم بطن من كنانة من العدنانية.

المدّة(١) التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفّارَ قريش، فأتوه وهم بإيليا، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بتَرْجُمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نَسبًا، فقال: ادنوه مني، وقرّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لتَرْجُمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبَني فكذِّبوه، فواللّهِ لولا الحياء من أن يأثِرُوا عليّ كذبًا لكَذَبتُ عنه. ثم كان أوّل ما سألني عنه أن قال: كيف نَسَبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نَسَبٍ، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قطّ قبلَه؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه مَنْ ملَكَ؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يَتَّبِعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطةً لدينه بعد أن يدخلَ فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يَغْدِر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعلٌ فيها، قال: ولم تمكنّي كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نَعَم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحربُ بيننا وبينه سِجال(٢)؛ ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اُعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واُتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصَّلاة، والصِّدق، والعفاف، والصِّلة، فقال لترْجُمانه: قال له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فكيم ذو نَسب، وكذلك الرسل تبعث في نَسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أنْ لا، فقلتُ: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلتُ رجلٌ يأتَسِي(٣) بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه مَنْ مَلَكَ، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه مَنْ مَلَكَ، قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعْرِفُ أنه لم يكن ليَذَر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءَهم اتّبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يَتِمّ، وسألتك أيَرْتَدّ أحد منهم سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أنْ لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بَشاشَتُه القلوب، وسألتك هل يَغْدر، فذكرت أنْ لا، وكذلك الرسل لا تَغْدِر، وسألتك بِم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن

(١) هي مدة صلح الحديبية على وضع الحرب عشر سنين.
(٢) سجال: نوب، أي نوبة عليه ونوبة علينا.
(٣) يأتسي: يقتدي.

تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصَّلاة والصِّدق والعفاف، فإن كان ما يقول حقًا، فسيَمْلك موضع قدميّ هاتَيْن، وقد كنت أعلم أنه خارجٌ، فم أكن أظُنّ أنّه منكم، فلو أني أعلم أنّي أخْلُص إليه لتَجَشَّمْت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميْه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ، الذي بَعث به دِحْيَةَ إلى عظيم بُصْرى، فدفعه إلى هِرَقْل فقرأه، فإذا فيه «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وذكره كما تقدّم.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصَّخَب، وٱرتفعت الأصوات، وأُخرِجنا، فقلت لأصحابي حين أُخرِجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ٱبن أبي كَبْشةَ[١]، إنه ليخافه ملِك بني الأصفر[٢]، فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

قال: وكان ابن النَّاطُور صاحب إيلِياء وهِرَقْلَ أسْقفًا على نصارى الشام يحدّث أن هِرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد ٱستنكرنا هيئتك، فقال ٱبن الناطور، وكان هِرقل حَزّاءً[٣]: ينظر في النّجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيتُ الليلة حين نَظَرتُ في النجوم مَلِك الخِتان قد ظهر، فمن يَخْتَتِن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يُهِمَّنْك شأنُهم، وٱكتب إلى مَدائن مُلكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، إذ أتى هِرقل برجل، أرسل به مَلك غَسّان، يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: ٱذهبوا فانظروا أمختتنٌ هو أم لا، فنظروا إليه، فحدّثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هِرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هِرقل إلى صاحب له برُومِيَةَ[٤]، وكان نظيره في العلم، وسار هرَقْل إلى حِمْص، فلم يَرِمْ[٥] حِمْصَ حتى أتاه كتاب من صاحبه، يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نَبيٌّ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دَسْكرة[٦] له بحِمْص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثم ٱطَّلعَ فقال: يا

---

(١) أبو كبشة: كنية أبي النبيّ ﷺ من الرضاع، واسمه الحارث بن عبد العزى.
(٢) بنو الأصفر: أي الروم.
(٣) الحزّاء: الكاهن؛ أو الذي ينظر في النجوم.
(٤) رومية: وهما روميتان: إحداهما بالروم والأخرى بالمدائن وسميت باسم ملك.
(٥) لم يرم: أي لم يبرح منها أو لم يصل إليها.
(٦) الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي، يكون للملوك؛ أو القرية العظيمة.

معشر الروم هل لكم في الفلاح والرُّشْد؟ وأن يثبت مُلْكُكم فَتُبايعُوا لهذا النبيّ، فحاصُوا حَيْصَة[١] حُمُر الوَحْش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هِرقل نَفْرَتهم، وأيِسَ من الإيمان، قال: رُدّوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شِدّتكم على دينكم فقد رأيت. فسجدوا له ورَضُوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هِرقل. رواه صالح بن كَيْسان ويونس ومَعْمَر عن الزُّهْري.

وقد قدّمنا من خبر هِرقل في شأن رسول الله ﷺ، وتحقيق نبوءته عنده، في فصل مَنْ بَشّر برسول الله ﷺ ما تقِف عليه هناك.

ذكر إرسال عبد الله بنِ حُذَافَة السَّهمِيّ[٢] إلى كِسْرَى مَلِك الفُرْس

بعثه رسول الله ﷺ إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا؛ قال عبد الله: فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فَقُرِيء عليه ثم أخذه فمزّقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «اللهم مَزِّقْ مُلْكه». وكتب كِسْرَى إلى بَاذَانَ عامِلِه على اليَمَن: أن ٱبعث من عندك رجلين جَلْدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فليأتيا بخبره. فبعث بَاذَانُ قَهْرَمانَه[٣]، ورجلاً آخر، وكتب معهما كتابًا، فقدما المدينة، فدفعا كتاب باذان إلى رسول الله ﷺ، فتبسّم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، وفَرائِصُهما تُرعَد، قال: «ٱرجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغَدَ فأخبركما بما أريد» فجاءاه الغَدَ، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربِّي قد قتل رَبَّه كِسْرَى في هذه الليلة لسبع ساعات مَضَتْ منها ـ وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جُمادى الأولى سنة سبع من الهجرة ـ وأن الله تعالى سَلّط عليه لابنه شِيرَوَيْه فقتله» فرجعا إلى بَاذَان بذلك، فأسلم هو والأَبْنَاء الذين باليمن.

ذكر إرسال حاطِب بن أبي بَلْتَعَة إلى المُقَوْقِس صاحب الإِسْكَنْدَرِيّة عظِيم القِبْطِ، وٱسمه جُرَيْج بن مِينَا

بعثه رسول الله ﷺ إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا فأتاه، وأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه، وقال خيرًا، وجعل الكتاب في حُقّ من عاج، وختم

(١) حاصوا: نفروا.
(٢) نسبة إلى بني سهم، وهم بطن من باهلة من القحطانية.
(٣) القهرمان: خازن الملك ووكيله، والقائم بأموره.

عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى رسول الله ﷺ: قد علمت أن نبيًا قدْ بَقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها.

ولم يزد على هذا، ولم يُسلم المُقَوْقِس، فقبل رسول الله ﷺ هَدِيَّته، وأخذ الجاريتين، وهما مارِية أمّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وأختها شِيرِينُ، وبَغْلة بَيْضاء، لم يكن في العرب يومئذ غيرها، وهي دُلْدُلُ، وقال رسول الله ﷺ في المقوقس: «ضَنّ الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه». قال حاطِب: كان المقوقس مُكْرِمًا لي في الضِّيافة، وقِلّة اللُّبْث ببابه، وما أقمت عنده إلا خمسة أيام.

وقال أبو عمر بن عبد البر: إن المقوقس أهدى لرسول الله ﷺ خَصِيًّا ٱسمه مَأْبُورُ، وذكر ذلك في ترجمة مَارِية، ويقال: هو ٱبن عمّ مارِية، والله أعلم.

وقد ذكرنا في (الحُجّة البالِغَة، والأَجْوِبَة الدّامِغَة) ما كان بينهما من المحاورات، وذلك في الباب الرابع عشر، من القسم الخامس، من الفنّ الثاني، في السِّفر الثّامن من هذه النسخة.

ذكر إرسال شُجاع بن وَهْب الأَسَدِي إلى الحارث بن أبي شِمْر

قالوا: بعث رسول الله ﷺ شُجاع بن وَهْب الأسَدِي، إلى الحارث بن أبي شِمْر الغَسّاني، مَلك البَلْقاء من أرض الشام، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، قال شجاع: فأتيته وهو بغُوطَة دِمَشْق، وهو مشغول بتَهْيِئَةِ الأنْزال[1] والألْطافِ[2] لقَيْصَر، وهو جاءٍ من حِمص إلى إيلِيَاء، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا. وجعل حاجبه - وكان رُومِيًّا ٱسمه مُري - يسألني عن رسول الله ﷺ، فكنت أحدّثه عن صِفتِه، وما يدعو إليه، فيَرِقّ حتى يغلبه البُكاء، ويقول: إني قرأت الإنجِيل فأجد صِفَةَ هذا النبيِّ بعينه، فأنا أومِنُ به وأصدِّقه، وأخاف من الحارث أن يقتلني، وكان يكرمني ويحسن ضِيافتي، وخرج الحارث يومًا فجلس، ووضع التّاج على رَأْسِه، فأذِنَ لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه ثم رمى به، وقال: من يَنْتَزِع منِّي مُلكي؟ أنا سائر إليه،

---

(١) الأنزال: واحدها نزل، وهو مكان النزول.
(٢) الألطاف: وسائل الراحة.

ولو كان باليمن جئتُه، عليّ بالناس! فلم يزل يَفرِضُ(١) حتى قام، وأمر بالخيول تُنعَل، ثم قال: أخبِر صاحبك ما ترى. وكتب إلى قَيْصَر يخبره خَبَرِي وما عَزَم عليه، فكتب إليه قيصر: ألا تسير إليه، وأَلْهَ عنه، ووافِنِي بإيلِيَاء. فلما جاءه جواب كتابه دعاني فقال لي: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غدًا، فأمر لي بمائة مثقال ذهب، ووصلني مُري، وأمر لي بنفقة وكُسْوَة، وقال: أَقْرأ على رسول الله ﷺ مِنِّي السلام. فقدِمت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «بَادَ مُلْكه» وأقرأته من مُري السلام، وأخبرته بما قال، فقال ﷺ: «صَدَق» ومات الحارث بن أبي شِمْر عام الفتح.

ذكر إرسال سَلِيط بن عمْرو العامِري
إلى هَوْذَةَ بن عليّ الحَنَفي باليَمَامة

بعثه رسول الله ﷺ إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، فقدِم عليه فأنزله وحَبَاه، وقرأ كتاب رسول الله ﷺ، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجْمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تَهاب مكاني، فأجعل لي بعض الأمر أَتبِعْك. وأجاز سَلِيطَ بن عمْرو بجائزة وكساه أثوابًا من نسْج هَجَر(٢)، فقدم بذلك كله على رسول الله ﷺ، وأخبره عنه بما قال، فقرأ كتابه وقال: «لو سألني سَيَابَةً(٣) من الأرض ما فعلتُ، بَادَ وبَادَ ما في يديْه» فمات عام الفتح. فهؤلاء السِّتَّة الذين بعثهم رسول الله ﷺ في المحرم سنة سبع.

وبعث ﷺ العَلاء بن الحَضْرَمي إلى المُنْذِرِ بن سَاوَى العَبْدِيّ مَلك البَحْرَيْن.

قال محمد بن سعد: بعثه عند مُنْصَرفه من الجِعْرانَة(٤) إليه، يدعوه إلى الإسلام، وكتب إليه كتابًا. فكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه، و«أني قرأت

(١) يفرض: يعطي الجند عطاءهم من المال ويأمرهم بالتأهب للحرب.

(٢) هجر: منها هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان وهجر حصنة من مخلاف مازن. وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين. وقيل: هجر ناحية البحرين كلها. وقيل: هجر بلاد قصبتها الصفا، بينها وبين اليمامة عشرة أيام... (معجم البلدان).

(٣) السيابة: قال الأصمعي: إذا تعقد الطلع حتى يصير بلحًا، فهو السياب، واحدته سيابة... وقال أبو سعيد: السيوب عروق من الذهب والفضة، تسيب في المعدن، أي تتكون فيه وتظهر، سميت سبوبًا لانسيابها في الأرض... (اللسان مادة سيب).

(٤) الجعرانة: هي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبيّ ﷺ لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين وأحرم منها ﷺ، وله فيها مسجد، وبها بئار متقاربة... (معجم البلدان لياقوت).

كتابك على أهل هَجَر، فمنهم من أحَبَّ الإسلام، وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مَجُوسٌ ويَهُودٌ، فأحدِث إليّ في ذلك أمْرَك» فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إنك مهما تُصْلِح فلن نَعْزِلَك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجِزية، وبألا تُنكح نساؤهم ولا تُؤكل ذبائحهم».

وكان رسول الله ﷺ بعث أبا هُريرة مع العَلاء بن الحَضْرَمي، وأوصاه به خيرًا، وكتب رسول الله ﷺ إلى العلاء فرائض الإبل، والبقر والغنم، والثمار والأموال، فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم.

وبعث ﷺ عمرو بن العاصِ إلى مَلكَيْ عُمَان.

قال محمد بن سعد: بعثه رسول الله ﷺ في ذي القعدة، سنة ثمان من مُهاجَره، إلى جَيْفَر وعَبْدٍ أبني الجُلُندى، وهما من الأزْد، والملِك منهما جَيْفَر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتابًا، قال عمرو: لما قدمتُ عُمَان عمدتُ إلى عبدٍ، وكان أحْلَم الرجلين وأسهلهما خُلُقًا، فقلت: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدّم عليّ بالسِّنّ والملك وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك، فمكثت أيامًا ببابه، ثم دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مَخْتُومًا، ففَضّ خاتَمه وقرأه حتى أنتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنّي رأيت أخاه أرَقّ منه، فقال: دَعْني يومي هذا وأرجع إليّ غدًا، فلما كان من الغد رجعت إليه، فقال: إني فَكّرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضْعَف العرب إن مَلّكْتُ رجلاً ما في يدي، قلت: فإني خارج غدًا، فلما أيْقَن بمَخْرَجي أصبح فأرسل إليّ، فدخلت عليه فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدّقا بالنبيّ ﷺ، وخَلّيَا بيْني وبين الصّدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم، فرددتها في فقرائهم، ولم أزل مقيمًا بينهم حتى بلغنا وفاةُ رسول الله ﷺ.

وبعث ﷺ المُهاجِر بن أبي أمية المخْزُومِي إلى الحارث الحِمْيَري، وهو الحارِث بن عبد كُلاَل ملِك اليَمن.

وبعث ﷺ أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل[1] إلى اليمن. وكانا جميعًا داعِيين إلى الإسلام، فأسلم عامّة أهل اليمن، ملوكهم وعامّتهم طوعًا. هؤلاء الرسل الذين ذكرهم الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف الدمياطي في مختَصَر السيرة.

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عديّ بن كعب بن عمرو بن أديّ.

وقد ذكر محمد بن سعد بن مَنِيع في طبقاته الكبرى، أن رسول الله ﷺ بعث جَرِير بن عبدِ اللّهِ البَجَلِي إلى ذِي الكُلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حَسّان بن تُبَّع، وإلى ذي عَمْرو يدعوهما إلى الإسلام، فأسلما وأسلمت ضريبة بنت أبْرَهَة بن الصَّبّاح. وتوفي رسول الله ﷺ وجرير عندهم، فأخبره ذو عمرو بوفاة رسول الله ﷺ، فرجع جَرِير إلى المدينة.

ولم يذكر محمد بن سعد المُهَاجِر، وقال: إن رسول الله ﷺ بعث إلى اليمن مع معاذ بن جبل مالك بن مُرَارَة.

وذكر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمريّ(١)، في كتابه المتَرْجَم بالاستيعاب، في ترجمة ابن أبي أمية، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى الحارث كما قدّمنا.

قال ابن سعد: وكتب رسول الله ﷺ إلى جَبَلَة بن الأيْهَم مَلك غسّان يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ، وأهدى له هدية، ولم يذكر اسم المرسل إليه، ثم كان من أمر جَبَلة بن الأيهم، وخبر ارتداده ما نذكره إن شاء الله تعالى، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: وكان رسول الله ﷺ قد بعث أُمَراءَه وعمّاله على الصّدقات، إلى كل ما أوْطَأ الإسلام من البلدان.

فبعث المهاجر بن أبي أميّة بن المُغِيرَة إلى صَنْعَاء، فخرج عليه العَنْسيّ وهو بها. وبعث زياد بن لبِيد، أخا بني بَيَاضَة الأنصاري، إلى حَضْرَمَوْت وعلى صدقاتها. وبعث عديّ بن حاتِم على طيِّىء وصدقاتها، وعلى بني أسد. وبعث مالك بن نُوَيْرَة اليَرْبُوعِي على صدقات بني حَنْظَلَة، وفرّق صدقات بني سَعْد على رجلين منهم؛ فبعث الزِّبْرقان بن بَدْر على ناحية منها، وقَيْس بن عاصم على ناحية.

قال: وكان قد بعث العلاء بن الحضرميّ على البحرَيْن، وبعث عليّ بن أبي طالب إلى أهل نَجْران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم.

هذا ما وقفنا عليه من أخبار رسلِ رسول الله ﷺ، فلنذكر من أخباره ﷺ خلاف ذلك.

---

(١) هو إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وغيرهم. وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وأبو ذر الهروي وغيرهم... قيل إنه مات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة... (وفيات الأعيان ٧:٦٦).

ذكر أزواج رسول الله ﷺ

وهنّ: خدِيجة بنت خُوَيْلد، وسَوْدَة بنت زَمْعَة، وعائِشة بنت أبِي بكر الصِّدِّيق، وحَفْصَة بنت عمر بن الخطاب، وزَيْنَب بنت خُزَيمة بن الحارِث، وأمُّ سَلَمَة هِنْد بنت أبِي أمية، وزينب بنت جَحْشٍ، وجُوَيْرِيَة بنت الحارِث، ورَيْحانَة بنت زيدٍ، وأم حَبِيبَة رَمْلَة بنت أبِي سُفْيان بن حَرْب، وصَفِيّة بنت حُيَيّ بن أخْطَب، ومَيْمُونَة بنت الحارِث؛ هؤلاء المدخول بهِنّ، وهنّ ثنتا عشرة أمرأة رضوان الله عليهنّ. وسنذكر إن شاء الله تعالى، بعد أن نذكر أخبار هؤلاء، مَن تزوّجهنّ ﷺ، ولم يدخل بهنّ، ومَن وهَبَت نفسها له، ومَن خَيَّرَها فآختارت الدُّنيا، ومَن فارقها ﷺ، ولنذكر أخبارهنّ على حسب أتصالهنّ به ﷺ.

فأوّل أمرأة تزوّج رسول الله ﷺ:

خَدِيجة بنت خُوَيْلد

أبن أسَد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بنِ كلابِ القُرَشِية، رضي الله عنها، وكانت تدعى في الجاهلية الطّاهِرة، وأمُّها فاطِمَة بنت زائِدَة بن الأصَمّ، وأسم الأصَمّ جُنْدُب بن هَرِم بن رَوَاحَة بن حُجْرِ بن مَعِيص بن عامِر بن لُؤَيّ. وكانت خدِيجة عند أبِي هالة بن زُرارَة بن نَبّاشِ بن عَدِيّ بن حبِيب بن صُرَدِ بن سَلامة بن جَرْوة بن أُسَيّد بن عَمْرو بن تَمِيم التّمِيمي. قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النّمَري: هكذا نسبه الزُّبَيْر، وأمّا الجُرْجانِيّ[1] النّسّابة فقال: كانت خَدِيجة قبلُ عند أبِي هالة هِنْد بن النّبّاش بن زُرارة بن وَقْدان بن حبيب بن سلامة بن عدِي بن جَرْوَة بن أسَيّد بن عمرو بن تميم، فولدت له هِنْدًا، قال: ثم أتفقا فقالا: ثم خلف عليها بعد أبِي هَالَةَ عُتَيقُ بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم، ثم خلف عليها بعد عُتَيق المخزومي رسول الله ﷺ.

وقال قتادة: كانت خَدِيجة تحت عُتَيق بن عابد المخزومي، ثم خلف عليها بعده أبو هالة هِنْد بن زُرارة، قال أبو عمر: والأوّل أصَحّ.

---

(١) الجرجاني: هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي؛ كان فقيهًا أديبًا شاعرًا... شعره كثير وطريقه فيه سهل، وله كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه أبان فيه عن فضل غزير واطلاع كثير ومادة متوفرة... مات بالريّ سنة ٣٩٢ هجرية... (وفيات الأعيان ٣:٢٧٨).

وقال أبو محمد عبد المؤمن[(١)] بن خَلَف: إنها ولدت لعُتَيق جارية تدعى هِنْدَ، ثم هلك عنها فخلف عليها أبو هالة فولدت له ٱبنًا وبنتًا. وقال ٱبن إسحاق: ولدت هِنْدَ بن أبي هالة، وزَيْنَبَ بنت أبي هَالَة، وولدت لعُتَيق عبدَ الله وجاريةً، قال: ثم هلك فتزوّجها رسول الله ﷺ، وقد قدّمنا ذكر زواجه ﷺ بها، فلا حاجة إلى إعادته. وولدت لرسول الله ﷺ جميع أولاده، إلا إبراهيم. وقال أبو عمر: لا يختلفون أن رسول الله ﷺ لم يتزوّج في الجاهلية غير خَدِيجَة، ولا تزوّج عليها أحدًا من نسائه حتى ماتت، وهي أوّل من آمن بالله عزّ وجلّ، وبرسوله ﷺ على الإطلاق.

قال ٱبن إسحاق رحمه الله: كان رسول الله ﷺ لا يسمع من المشركين شيئًا يكرهه، من ردٍّ عليه وتَكْذِيب له إلا فرّج الله عنه بخدِيجة، تَثَبِّته وتصَدِّقه وتخفِّف عنه وتهوِّن عليه ما يَلْقَى من قومه، وقد تقدّم من أخبارها في ٱبتداء الوحي وٱمتِحانها الأمر، وقولها لرسول الله ﷺ: إن الذي يأتيه مَلَك، وغير ذلك ما تقف عليه هناك، مما يستدل به على أنها رضي الله عنها أوّل من آمن بالله تعالى وبرسوله، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة المنتشرة، بفضل خديجة رضي الله عنها؛ فمن ذلك ما رُوي عن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيِّدة نساء أهل الجنة بعد مَرْيَم بنت عمران فاطِمة وخدِيجة وآسِيَة امرأة فرعون». وعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: ما غِرْت على ٱمرأة ما غِرْت على خديجة، وما بِي أن أكون أدركتها، ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها، وإن كان ليَذْبَح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة يُهديها لهنّ. وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يَكاد يخرج من البيت حتى يذكر خَديجة فيحسن عليها الثناء، فذكرها يومًا من الأيام فأدركتني الغَيْرة فقلت: هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها؟ فغضب حتى ٱهتز مُقَدّم شَعْره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أَبْدَلني اللّهُ خيرًا منها، آمنتْ بي إذْ كفر الناس، وصدّقتْني إذ كذَّبني الناس، وواستني في مالها إذ حَرَمني الناس، ورزقني الله منها أولادًا إذ حَرَمني أولاد النساء» قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسيِّئة أبدًا.

---

(١) هو عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى الدمياطي، التوني (شرف الدين، أبو محمد، أبو أحمد)، فقيه، أصولي، محدث، حافظ، نسابة، إخباري، مقرىء، أديب، نحوي، لغوي، شاعر. ولد بتونة من أعمال دمياط بمصر، في آخر سنة ٦١٣ هجرية، ورحل إلى الحجاز ودمشق وحلب وحماة والجزيرة وبغداد وأخذ عن كثير من الشيوخ، وتوفي فجأة بالقاهرة في ١١ ذي القعدة سنة ٧٠٥ هجرية. له تصانيف كثيرة... (معجم المؤلفين).

وقد قدّمنا من فضلها وما بَشَّرها به جبريل عليه السلام، وذكر وفاتها عند ذكرنا لزواج رسول الله ﷺ لها ما يستغني عن إيراده في هذا الموضع، وهو في الجزء الرابع عشر من كتابنا هذا من هذه النسخة.

ولما ماتت خَدِيجَة تزوّج رسول الله ﷺ بعد وفاتها بأيام:

سَوْدَة بنت زَمْعَة بن قَيس

اَبن عبد شَمْس بن عبد وُدّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤَيّ، ويقال في حِسْل: حُسَيْل. وأمها الشَّمُوس بنت قَيس بن زيد بن عمرو بن لَبِيد بن خِداش بن عامر بن غَنْم بن عدِيّ بن النَّجّار، تزوّجها رسول الله ﷺ بمكة، بعد موت خديجة، وقبل العقد على عائشة على المشهور، وكانت قبلُ عند اَبن عمٍّ لها يقال له السَّكْران بن عمرو، وهو أخو سُهَيْل بن عمرو، من بني عامر بن لُؤَيّ. وأَسَنَّت سَوْدَة عند رسول الله ﷺ فهَمَّ بطلاقها، فقالت له: لا تطلقني وأنت في حِلٍّ من شأني، فإنما أريد أن أُحْشَر في أزواجك، وإنّي قد وَهَبْتُ يومي لعائشة، وإني ما أريد ما تريد النساء. فأمسكها رسول الله ﷺ وصار يقسم لبقية أزواجه دونها، ونَوْبتها لعائشة، فكانت كذلك حتى تُوفّي عنها رسول الله ﷺ مع من تُوفّي عنهن من أزواجه.

قال أبو عمر: وفي سَوْدَة نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾ [النساء: ١٢٨]. وقيل: نزلت في عَمْرَةَ، ويقال: خَوْلَةَ بنت محمد بن مَسْلَمَة، وفي زوجها سَعْد بن الرَّبِيع. ويقال في غيرها. والله أعلم. وكانت وفاة سَوْدَة في آخر زمان عمر بن الخطاب، ثم تزوّج رسول الله ﷺ بعد سَوْدَة:

عَائشة بنت أبي بَكْر الصِّدّيق رضي الله عنهما

وأمها أمُّ رُومَان اَبنة عامر بن عُوَيْمر بن عبد شَمْس بن عَتّاب بن أُذَيْنَة بن سبيع بن دُهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كِنانة، تزوّجها رسول الله ﷺ بمكة، في شوّال سنة عشر من النبوّة، قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي بنت سِتٍّ أو سبع، وبنى بها بالمدينة على رأس سبعة أشهر من الهجرة، وهي اَبنة تسع سنين، وتوفي عنها رسول الله ﷺ، وهي بنت ثماني عشرة سنة، ولم يتزوّج ﷺ بِكْرًا غيرها، وكانت عائشة رضي الله عنها تذكر لجُبَيْر بن مُطْعِم بن عَدِيّ وتُسَمّي له، وكان رسول الله ﷺ

قد أُرِي عائشة في المنام في سَرَقَة[١] من حرير مُتَوَفَّى خَديجَةَ، فقال: «إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ» فتزوّجها رسول الله ﷺ في شوّال وٱبْتَنَى بها في شوّال، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحِبّتها في شوّال على أزواجهنّ، وتقول: هل كان في نسائه عنده أحْظَى مِنّي، وقد نكحني وٱبتنى بي في شوّال.

قال أبو عمر: فكان مكْثُها مع رسول الله ﷺ تِسع سنين، رُوي عنها أنها قالت: تزوّجني رسول الله ﷺ وأنا بنت سَبْع سنين، وبَنَى بي وأنا بنت تِسع، وقُبِض عَنِّي وأنا بنت ثماني عشرة.

قال أبو عمر: وٱستأذنتْ رسولَ الله ﷺ في الكُنْيَة فقال لها: «ٱكْتَنِي بٱبنك عبد الله بن الزبير» يعني ٱبن أختها، وكان مَسْرُوق إذا حدّث عن عائشة يقول: حدّثتْني الصّادقة ٱبنة الصِّدّيق، البريئة المبرّأة بكذا وكذا. ذكره الشَّعْبي عن مسروق. وقال أبو الضُّحا عن مسروق: رأيت مَشْيَخَة أصحاب محمد ﷺ الأكابِر يسألونها عن الفرائض. وقال عطاء بن أبي رَبَاح: كانت عائشة أفْقَه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامّة. وقال هشام بن عُرْوَة عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بفِقهٍ ولا بِطِبّ ولا بشِعر من عائشة. وعن عبد الرحمٰن بن أبي الزِّناد عن أبيه، قال: ما رأيت أحدًا أرْوَى لشِعر من عُروة، فقيل له: ما أرواك يا أبا عبد الله! قال: وما روايتي في رواية عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا. قال الزهريّ: لو جمع علم عائشة إلى جميع علم أزواج رسول الله ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل. وروي عن عمرو بن العاص قال: قلت لرسول الله ﷺ أيّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: فمِن الرجال؟ قال: «أبوها». ومن حديث أبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد[٢] على سائر الطعام». ومن فضل عائشة أن الله عزّ وجل أنزل في براءتها ما أنزل، وقد ذكرنا ذلك في حديث الإفْكِ، في حوادث سنة خمسٍ من الهجرة، وهو في الجزء الرابع عشر من كتابنا هذا، من هذه النسخة. ورُوي عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: من سَبّ أبا بكر جُلِد، ومن سَبّ عائشة قُتِل، فقيل له: لِم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ [النور: ١٧] فمن عاد لمثله فقد كفر. وعن القاضي أبي بكر بن الطيّب

(١) سرقة: جمع السّرق: شقق الحرير، أو أجوده.
(٢) الثريد: ما يثرد من الخبز. وثرد الخبز، أي فته ثم بله بمرق.

قال: إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سَبّح نفسَه لنفسِه؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء: ٢٦] في آي كثير. وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ﴾ [النور: ١٦] سبح نفسه في تنزيهها من السُّوءِ، كما سبّح نفسه في تنزيهه من السّوء. وفضائلها رضي الله عنها كثيرة مشهورة.

وسنذكر إن شاء الله تعالى، عند ذكرنا لوفاة سيدنا رسول الله ﷺ ما خصَّها به ﷺ، في مرضه الذي مات فيه، من تمريضه في بيتها، وأنه مات ﷺ في بيتها وفي نَوْبتها، وبيْن سَحْرِها[1] ونَحْرِها، وآخر ما دخل فمَه رِيقُها، وناهِيك بها فضيلة وخُصُوصية. وكانت وفاة عائشة رضي الله عنها بالمدينة، في سنة سبع وخمسين، وقيل: في سنة ثمان وخمسين، ليلة الثلاثاء، لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وأمرت أن تُدْفن ليلاً، فدفِنت بعد الوتْر بالبَقِيع[2]، وصلّى عليها أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة: عبد الله، وعُرْوَة أبنا الزّبير، والقاسِم بن محمد، وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر، والله أعلم.

وتزوّج رسول الله ﷺ بعد زواج عائشة:

حَفْصَة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها

وهي أخت عبد الله بن عمر لأبيه وأمه، وأمّها زَيْنب بنت مَظْعُون بن حبِيب بن وَهْب بن حُذافَة بن جُمَح، وكانت حَفْصَة من المهاجرات، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند خُنَيْس بن حُذافة بن قَيْس بن عَدِيّ السَّهْميّ، وكان بَدْريًا، فلما مات عنها وتأيّمَت، ذكرها عمر لأبي بكر وعَرَضها عليه، فلم يُرجِع إليه أبو بكر كلمة، فغضب من ذلك عمر، ثم عَرَضها على عثمان حين ماتت رُقَيّة بنت رسول الله ﷺ، فقال عثمان: ما أريد أن أتزوّج اليوم، فانطلق عمر إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه عثمان، وأخبره بعرضه حفصة عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يتزوّج حَفْصَة من هو خير من عثمان، ويتزوّج عثمان من هي خير من حفصة» ثم خطبها رسول الله ﷺ إلى عمر فتزوّجها، فلقي أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب فقال: لا تَجِد[3] عليّ في نفسِك، فإن رسول الله ﷺ كان ذكر حفصة، فلم أكن لأفشِي سِرّ رسول الله ﷺ، ولو تركها

---

(١) السّحر: الرئة. والنحر: أعلى الصدر.
(٢) البقيع: مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة.
(٣) لا تجد عليّ: أي لا تغضب.

لتزوّجتها. وتزوّجها رسول الله ﷺ على رأس ثلاثين شهرًا من مُهاجَره. قال أبو عمر: وطلقها رسول الله ﷺ تطليقة ثم ٱرْتَجَعها؛ وذلك أن جِبْرِيل عليه السلام قال له: «راجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، وأنها زوجتك في الجنة». وروِي عن عقبة بن عامر قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر، فبلغ ذلك عمر فحثى على رأسه التراب، وقال: ما يَعْبَأ الله بعمر وٱبنته بعد هذا، فنزل جبريل من الغد على رسول الله ﷺ، وقال: «إنّ الله يأمرك أن تراجِع حفصة بنت عمر رحمة لعمر».

قال أبو عمر: وأَوْصَى عمر بعد موته إلى حفصة، وأوصت حفصة إلى عبد الله بن عمر بما أوصى به إليها عمر، وبصدقة تصدّقت بها بمال وَقَفَتْه بالغابَة. وٱختلف في وفاتها، فقال الدُّولابيّ: عن أحمد بن محمد بن أيوب، توفيت في سنة سبع وعشرين، وقال أبو مَعْشَر: توفيت في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، وقال غيره: توفيت في شعبان سنة خمس وأربعين بالمدينة، وصلّى عليها مَرْوان بن الحَكَم، وحمل سريرها، وهو إذ ذاك أمِير المدِينة لمعاوِية بن أبي سُفيان، وهذا الذي أشار إليه الشيخ أبو محمد الدمياطي في مختصر السيرة. قال: ثم تزوّج رسول الله ﷺ بعد زواج حفصة بنت عمر:

زينب بنت خُزيمَة بن الحارث

ٱبن عبد الله بن عمرو بن عبد مَناف بن هِلال بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هَوَازِن القَيْسِيّة الهَوازِنية العامِرية الهلالية، وكانت تدعى في الجاهلية أمّ المساكين، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند الطفيل بن الحارث بن المطلِب بن عبد مَناف فطلّقها، فخلف عليها أخوه عُبَيْدة بن الحارث فقتل عنها يوم بدر شهيدًا، فخلف عليها رسول الله ﷺ في شهر رمضان على رأس أحد وثلاثين شهرًا من مُهاجَره. وقيل: كانت تحت عبد الله بن جَحْش فقتل عنها يوم أُحُدٍ، فتزوّجها رسول الله ﷺ. وعلى الأول ٱعتمد الشيخ أبو محمد، قال: ومكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في آخر شهر ربيع الآخر، وصلّى عليها رسول الله ﷺ، ودفنها بالبَقيع، وقد بلغت ثلاثين سنة أو نَحوها، ولم يمت من أزواجه في حياته غيرها، وغير خدِيجة، قال: وفي رَيْحانَة[1] خلاف. وقال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني النّسّابة: كانت زَيْنَب بنت خُزَيْمة أخت مَيْمُونة لأمها، قال أبو عمر: ولم أرَ ذلك لغيره، والله أعلم.

ثم تزوّج رسول الله ﷺ بعد زينب بنت خُزَيْمة:

---

(١) المراد بقوله: «وفي ريحانة خلاف»: أي وفي وفاة ريحانة خلاف، وريحانة: هي بنت شمعون إحدى زوجات النبيّ ﷺ.

أمّ سَلَمَة هِنْد بنت أبي أمية

حُذَيْفَة المعروف بزاد الرّاكب بن المغِيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم بن يَقَظَة بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَيّ القرشية المخزومية. وكان أبوها أحد أجْواد قريش المشهورين بالكرم. وأمها عاتِكة بنت عامر بن رَبِيعة بن مالك بن خُزَيْمة بن عَلْقَمَة بن فَرّاس. وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي سَلَمَة عبد الله بن عبد الأسَد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم، وهو ٱبن بَرَّة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وولدت له عمر وزينب، فكانا ربيبي رسول الله ﷺ، قال أبو عمر: وَلَدت له عمر وسلمة ودُرّة وزينب. قال: وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة، ويقال أيضًا: أمّ سَلَمة أول ظَعِينة دخلت المدينة مهاجرة، وقيل: بل لَيْلَى بنت أبي حَثْمَة زوج عامر بن ربيعة.

تزوج رسول الله ﷺ أمّ سلمة في ليالٍ بقين من شوّال سنة أربع من مُهاجرِه، وقال أبو عمر: تزوّجها في سنة ٱثنتين من الهجرة بعد وقعة بَدْر، عقد عليها في شَوّال، وٱبْتَنى بها في شَوّال، وقال لها: «إن شئت سبّعْت عندك، وسبعت لنسائي، وإن شئت ثَلّثت ودُرْت» فقالت: ثَلّث. قال ٱبن هشام: زوجه إياها ٱبنها سَلَمَة بن أبي سَلَمَة، وأصْدَقها رسول الله ﷺ فِراشًا حشوُه لِيفٌ وقدحًا وصَحْفة[1] ومِجَشّة[2]. وقد ٱختلف في وفاتها؛ فقيل: توفيت في سنة ستين من الهجرة، وقيل: في شهر رمضان أو شوال سنة تسع وخمسين، وقال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن: توفيت في سنة ٱثنتين وستين. قال أبو عمر: وصلّى عليها أبو هريرة، وقيل: سعيد بن زيد بوصية منها، ودخل قبرها عمر وسَلَمَة ٱبنا أبي سَلَمَة، وعبيد الله بن عبد الله بن أبِي أُمية، وعبد الله بن وهب بن ربيعة، ودفنت بالبقِيع رحمها الله، وهي آخر أزواج رسول الله ﷺ موتًا، وقيل: بل مَيْمُونَة آخرهن. والله أعلم.

ثم تزوّج ﷺ بعدها:

زينب بِنت جَحْش بن رِئَاب

ٱبن يَعْمَر بن صَبْرَة بن مرّة بن كَبِير ـ بالباء الموحّدة ـ ٱبن غَنْم بن دُودَان بن أسَد بن خُزَيْمَة.

(١) الصحفة: إناء من آنية الطعام، جمع صحاف.
(٢) المجشة: الرحى.

وكان ٱسم زينب بَرَّة، فسماها رسول الله ﷺ زينب، وأمها أَمَيْمَة بنت عبد المطلب بن هاشم، عَمّةُ رسول الله ﷺ؛ قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن: تزوجها رسول الله ﷺ لِهِلال ذي القعْدة سنة أربع على الصّحيح، وهي يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة، وكانت قبل ذلك عند زيد بن حارثة مَوْلَى رسول الله ﷺ، ثم فارقها، فلما حَلَّت[1] زوّجه الله إياها، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولما تزوجها رسول الله ﷺ تكلم في ذلك المنافقون، وقالوا حرّم محمد نِساء الوَلَد وقد تزوج ٱمرأة ٱبنه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، فدعي زيد يومئذٍ زيد بن حارثة، وكان قبل ذلك يدعى زيد بن محمد. قالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن أحد من نساء النبي ﷺ يُسَامِينِي[2] في حسن المنزلة عنده غير زَيْنَب بنت جَحْش، وكانت تفْخَر على نساء النبيّ ﷺ؛ تقول: إن آباءكنّ أنكحوكنّ وأن الله أنكحني إياه من فوق سبع سموات. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن حارثة: «ٱذكرها عليّ» قال زيد: فٱنطلقت فقلت لها: يا زينب، أبشري، فإن رسول الله ﷺ أرسل يذكرك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوَامِر[3] ربي؛ فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بِغير إذْن. وعن عبد الله بن شَدّاد أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «إن زينب بنت جَحْش أوّاهَة» فقال رجل: يا رسول الله، ما الأوّاهُ؟ قال: «الخاشع المتضرع» و﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥]. وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا لنسائه: «أسرعكنّ لحَاقًا بي أطولكنّ يدًا»؛ قالت: فكنّ يتطاولن أيهنّ أطول يدًا، قالت: فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيديها وتتصدق. وعن عائشة رضي الله عنها أيضًا، قالت: كانت زينب بنت جحش تسامِيني في المنزلة عند رسول الله ﷺ، وما رأيت ٱمرأة قطّ خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثًا؛ وأوصل للرحِم، وأعظم صدقة. ومن رواية أخرى عنها أنها ذكرت زينب فقالت: ولم تكن ٱمرأة خيرًا منها في الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد تبذلاً في نفسها في العمل الذي تتصدق به

---

(١) المراد بقوله: حلت؛ أي انقضت عدتها فحلت للزواج.

(٢) يساميني: يضاهيني ويفاخرني بالجمال والمكانة.

(٣) أوامر: أستخير.

وتتقرب إلى الله عزّ وجل. وكانت وفاة زينب بالمدينة في سنة عشرين من الهجرة، في خلافة عمر، وقيل: في سنة إحدى وعشرين، ودفِنت بالبقَيع رضي الله عنها.

ثم تزوّج رسول الله ﷺ بعد زينب:

جُوَيْرِية بنت الحارث

ٱبن أبي ضِرار بن حبيب بن عائِذ بن مالك بن جَذيمَة، وهو المصْطَلِق بن سعد بن كعب بن عمرو بن ربيعة، وهو لُحَيّ بن حارثة بن عمرو مُزَيْقِيَاء بن عامر ماء السّماء؛ الأزدية الخزاعية المصطلقية. سباها رسول الله ﷺ يوم المُرَيْسِيع[1] فوقعت جُوَيْرِيَة في سهم ثابت بن قَيْس بن شَمّاس، وكاتَبَها على تسع أواقٍ، فأدّى رسول الله ﷺ عنها كِتابتها وتزوّجها. وقيل: جاء أبوها فٱفتداها، ثم أنكحها رسولَ الله ﷺ في سنة ست من الهجرة. وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المُصْطَلِق، وقعت جُوَيْرِيَةُ بنت الحارث في السّهم لثابت بن قيس بن شَمّاس ـ أو لأبن عم له ـ فكاتبته على نفسها، وكانت ٱمرأة حُلْوَةً مُلاَحَةً، فلا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبي ضِرَار سيِّد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في السّهم لثابت بن قيس بن شَمّاس ـ أو لأبن عَمّ له ـ فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: «فهل لك في خير من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «اقض عنك كتابتك وأتزوجك»، قالت: نعم يا رسول الله، قال: «قد فعلت»؛ قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بجويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم، فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيتٍ من بني المُصْطَلق، فما أعلم ٱمرأة كانت أعْظَمَ بَرَكَة على قومها منها.

قال أبو عمر: وكانت جويرية قبلُ تحت مُسَافِع بن صَفْوَان المصطلقي، قال: وكان ٱسمها برَّة، فغيّر رسول الله ﷺ ٱسمها وسماها جُوَيْرِيَة، وحفظت جويرية عن رسول الله ﷺ، وروت عنه، وتوفيت بالمدينة في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين، وصلّى عليها مَرْوَان بن الحَكَم وهو والي المدينة وقد بلغت سبعين سنة؛ لأنه ﷺ تزوجها وهي بنت عشرين سنة. وقيل: توفيت في سنة خمسين. والله أعلم.

---

(١) المريسيع: ماء لبني خزاعة من الأزد.

ثم تزوج رسول الله ﷺ بعد جويرية:

رَيْحَانَة بنت زيد بن عمر بن خُنَافَة بن شَمْعُون

قال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النّمري رحمه الله: هي رَيْحَانَة بنت شَمْعُون بن زيد بن خُنَافَة من بني قُرَيْظَة، وقيل من بني النَّضِير. قال: الأكثر من بني قُرَيْظَة. قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف رحمه الله: وكانت متزوجة رجلاً من بني قريظة، يقال له الحَكَم، وكانت قد وقعت في السبي يوم بني قريظة، وذلك في ليال من ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، فكانت صَفِيّ[1] رسول الله ﷺ فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها، وأمهرها اثنتي عشرة أوقية ونَشًا، وأعرس بها في المحرّم سنة ستّ، في بيت أمّ المنذِر سلمى بنت قيسٍ من بني النجار، وضرب عليها الحِجاب، فغارت عليه غيْرة شديدة، فطلقها تطليقة، فأكثرت البكاء فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت بعد رجعته من حَجّة الوَدَاع، فدفنها بالبقِيع. وقيل: إنه لم يتزوّجها وكان يطؤها بملك اليمين، وأنه خيَّرها بين العِتق والتزوج، أو تكون في ملكه، فقالت: أكون في ملكك أخف عليّ وعليك، فكانت في ملكه حتى توفّي عنها. قال: والأوّلُ أثبت.

ثم تزوّج ﷺ:

أمّ حبِيبة رَمْلَة بنت أبي سُفْيان

صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ القرشية الأموية، وأمها صَفِيَّة بنت أبي العاص بن أمية عمة عثمان بن عفان، هاجرت أمّ حبِيبة مع زوجها عُبيد الله بن جَحْش إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فولدت له هناك حبِيبة فكنيت بها، وتَنصّر عبيد الله زوجها، وأرتَدّ عن الإسلام، ومات على ذلك، وثبتت أمّ حبيبة على دين الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمريّ إلى النجاشيّ، كما قدّمنا ذكر ذلك فزوّجه إياها، وكان الذي عقد عليها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية على الأصح، وأصدقها النجاشيّ عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار، وبعث بها مع شُرَحْبِيل ابن حَسَنَة وجهّزها إلى المدينة، وذلك في سنة سبع من الهجرة، وهذا هو المعروف المشهور. وقيل: إن الذي زوّجها عثمان بن عفان، وأن العقد كان بالمدينة بعد رجوعها من أرض الحبشة. والأوّل أثبت.

---

(١) صفيّ رسول الله: أي ما يختاره الرسول من الغنيمة.

وروى الزبير بن بَكّار[١] قال: حدّثني محمد بن حسن عن عبد الله بن عمرو بن زُهَيْر، عن إسماعيل بن عمرو أن أمّ حبِيبة قالت: ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي جارية يقال لها أبْرَهَة، كانت تقوم على ثيابه ودُهْنِه، فاستأذنت عليّ فأذنت لها، فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ قد كتب إليّ أن أزوِّجَكِه فقلت: بَشَّركِ الله بخير، وقالت: يقول لك الملك وَكِّلي من يزوّجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكّلته، وأعطيت أبْرَهَة سِوارَيْ فِضّة كانتا عليّ، وخَواتِم فضة كانت في أصابعي سُرورًا بما بَشَّرتْني، فلما كان العَشِيّ أمر النجاشيّ جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون، وخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدّوس، السلام المؤمِن المهيمِن، العزيز الجبّار، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم ـ أمّا بعد ـ فإنّ رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار. ثم سَكَب الدنانير بين يدي القوم، فتكلم خالد بن سعيد، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهِره على الدين كله ولو كره المشركون ـ أما بعد ـ فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوّجْتُه أمَّ حَبِيبَة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله. ودفع النجاشي الدّنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها؛ ثم أرادوا أن يقوموا، فقال النجاشي: اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوّجوا أن يُؤكل طعامٌ على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرّقوا. وماتت أمّ حبيبة سنة أربع وأربعين. وروي عن عليّ بن حسين قال: قدمت منزلي في دار عليّ بن أبي طالب، فحفرنا في ناحية منه فأخرجنا منه حجرًا فإذا فيه مكتوب، هذا قبر رَمْلَة بنت صَخْر، فأعدناه مكانه، حكاه أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أم حبيبة.

ثم تزوّج رسول الله ﷺ بعد أم حبيبة:

صَفِيَّة بنت حُيَيّ بن أخْطَب

ابن سَعْيَة بن ثَعْلَبَة بن عُبَيْد بن كعْب بن الحارث بن أبي حَبيب بن النَّضِير بن النّحّام بن نَحُوم، من بني إسرائيل من سبِط هارون بن عِمران عليه السلام.

---

(١) هو الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي، الأسدي، الزبيري (أبو عبد الله)، عالم، نسابة، أخباري، من أهل المدينة. ولي قضاء مكة، وقدم بغداد، وحدث بها وتوفي بمكة وهو قاض عليها لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٢٥٦هـ. من تصانيفه الكثيرة: أنساب قريش وأخبارها، أخبار العرب وأيامها، وفود النعمان على كسرى، الأوس والخزرج... (معجم المؤلفين).

كان أبوها سَيِّد بني النَّضِير، وأمّها بَرَّة بنت سَمَوْءَل، أخت رِفاعَة، وكانت صَفِيّة عند سَلاَم بن مِشْكَم القُرَظِيّ الشاعر، ففارقها فخلف عليها كِنانة بن الربِيع بن أبي الحُقَيْق النَّضرِيّ الشاعر، فقتل يوم خَيْبر، ولم تلد لأحد منهما شيئًا، فاْصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فأعتقها وتَزوَّجَها وجعل عِتْقَها صداقها، ولم تبلغ يومئذ سبع عشرة سنة.

وحكى محمد بن إسحاق في مَغازيه، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة، في غزاة خيبر: أن رسول الله ﷺ لما اْفتتح القَمُوص: ـ حصن اْبن أبي الحُقَيْق ـ أتى بصَفيّة بنت حُيَيّ بن أخْطَب، وبأخرى معها، فمر بهما بِلال على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصَكّت[1] وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «أغربوا[2] عني هذه الشيطانة» وأمر بصفية فحِيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اْصطفاها لنفسه، وكانت صفية قد رأت في المنام، وهي عروس بكِنانة بن الربيع، أن قمرًا وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنكِ تَمَنَّين ملك الحجاز محمدًا: فلطم وجهها لَطْمَة خَضّر[3] عينها منها، فأُتِي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه، فسألها ما هو فأخبرته هذا الخبر.

وروي عن أنس بن مالك من رواية صُهَيْب، أن رسول الله ﷺ لما جمع سَبْيَ خَيْبَر جاءه دِحْيَة فقال: أعطني جارية من السَّبْي، قال: «اذهب فخذ جارية» فأخذ صَفيّة بنت حُيَيّ، فقيل: يا رسول الله، إنها سيّدة قريظَة والنّضير، ما تصلح إلا لك، فقال له النبيّ ﷺ: «خذ جارية من السَّبْي غيرها». وقال اْبن شهاب: كانت مما أفاء الله عليه، حَجَبها وأولَمَ عليها بتَمْر وسَويق، وقسم لها، وكانت إحدى أمهات المؤمنين، قال أبو عمر: روي أن رسول الله ﷺ دخل على صفية وهي تبكي، فقال لها: «ما يبكيك؟» قالت: بلغني أن عائشة وحَفْصَة تنالان مني، وتقولان نحن خير من صفية، نحن بنات عمّ رسول الله وأزواجه، قال: «ألا قلت لهنّ كيف تكنّ خيرًا منِّي وأبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد ﷺ». وكانت صفية حليمة عاقلة فاضلة؛ روي أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالت: إن صفية تحب السَّبْت وتصل اليهود، فبعث إليها عمر يسألها، فقالت: أما السَّبْت فإني لم أُحِبَّه مُنْذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحِمًا فأنا أصِلُها، ثم قالت للجارية: ما حملكِ على ما صنعتِ؟ قالت: الشيطان، قالت: فاْذهبي فأنت حرة.

---

(١) صكّت: ضربت.

(٢) أغربوا: أي أبعدوا.

(٣) خضّر: أي ترك به أثرًا أسود.

وتُوفِّيت صفية في شهر رمضان سنة خمسين، وقيل: سنة ٱثنتين وخمسين. ودفنت بالبقِيع، وورثت مائة ألف دِرهم بقيمة أرض وعَرَض[١]، وأوْصَت لٱبن أختها بِثُلثِها، وكان يهوديًا.

ثم تزوج رسول الله ﷺ بعدها:

مَيْمُونَة بنت الحارِث

ابنُ حَزْن بن بُجَيْر بن هُزَم بن رُوَيْبَة بن عبد الله بن هِلال بن عامِر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هَوازِن بن منصور بن عِكرِمة بن خَصَفَة بن قَيْس عَيْلان بن مُضَر.

وأمها هِنْد بنت عَوْف بن زُهَيْر بن الحارث بن حَمَاطَة بن حِمْيَر، وقيل: من كِنانة، وأن زهير بن الحارث بن كِنانة.

وأخوات مَيْمُونة لأبيها وأمها: أمُّ الفَضْل لُبابة الكُبْرى بنت الحارث، زوج العباس بن عبد المطلب. ولُبَابَة الصُّغرى زوج الوليد بن المغيرة، أمّ خالد بن الوليد. وعَصْماءُ بنت الحارث، كانت تحت أُبَيّ بن خَلَف الجُمحيّ، وعَزّة بنت الحارث، كانت عند زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي.

وأخواتها لأمها: أسْمَاء بنت عُمَيْس؛ كانت تحت جعفر بن أبي طالب، فولدت له عبد الله، وعَوْنًا ومحمدًا، ثم خَلَف عليها أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فولدت له محمدًا، ثم خلف عليها علي بن أبي طالب، فولدت له يحيى، وقيل: إن أسْمَاء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمَة الله بنت حمزة، ثم خَلَف عليها بعده شدّاد بن أُسَامة بن الْهادِ اللَّيْثيّ، فولدت له عبد الله، وعبد الرحمٰن. وسَلاَمَة بنت عُمَيْس أخت أسماء. وسَلْمَى بنت عُمَيْس كانت تحت عبد الله بن كعب بن مُنَبِّه الخَثْعَمِي[٢]. وزَيْنب بنت خُزَيْمة أخت مَيْمُونة لأمِّها.

قال أبو عمر بسنده إلى ٱبن عباس رضي الله عنهما: كان اسم مَيْمُونة بَرّة، فسماها رسول الله ﷺ ميمونة، وقال: لما توجه رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا في سنة سبع؛ وهي عمرة القَضاء، خطب جعفر بن أبي طالب عليه ميمونة بنت الحارث الهلاَلِيّة، وكانت أختها لأمها أسماء بنت عُمَيس عند جعفر، وسَلْمَى بنت عُمَيس عند حمزة، وأم الفضل عند العباس، فأجابت جعفر بن أبي طالب إلى رسول الله ﷺ، وجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، فأنكحها النبيّ ﷺ وهو مُحْرِمٌ، فلما

---

(١) العرض: متاع الدنيا قلّ أو كثر.

(٢) نسبة إلى بني خثعم، وهم بطن من أنمار، من أراش، من القحطانية.

رجع بَنَى بها بسَرِفٍ[١] حلالاً، وكانت قبله عند أبي رُهْم بن عبد العُزّى بن أبي قَيْس بن عبد وُدٍّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، ويقال: بل كانت عند سَبْرَة بن أبي رُهْم. حكاه أبو عبيدة، وقال عبد الله بن محمد بن عَقيل: كانت ميمونة قبل النبي ﷺ عند حُوَيْطب بن عبد العُزّى، وقيل: كانت في الجاهلية عند مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي ففارقها، وخَلَف عليها أبو رُهْم أخو حُوَيْطب فتوفّي عنها، فتزوجها رسول الله ﷺ. قال ابن شهاب[٢]: وهي التي وهَبَت نفسها للنبي ﷺ، وكذلك قال قتادة، قال: وفيها نزلت ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآية، وقد قيل: إن الواهبة خَوْلَة وقيل: أمّ شريك. قال قتادة: وكانت ميمونة قبله عند فَرْوَة بن عبد العُزّى بن أسد بن غَنْم بن دُودَان، قال أبو عمر: هكذا قال قتادة وهو خطأ، والصواب ما تقدم. والله أعلم. قال الشيخ أبو محمد الدمياطي: وماتت ميمونة بسَرِف في سنة إحدى وخمسين على الأصح؛ وقد بلغت ثمانين سنة.

فهؤلاء نساؤه المدخول بهنّ، ومات ﷺ عن تسع منهنّ؛ وهُنّ: عائشة بنت أبي بكر الصِّدّيق، وحَفْصَة بنت عُمَر، وسَوْدَة بنت زَمْعَة، وأمّ سَلَمَة بنت أبي أمية، وزَيْنَب بنت جَحْش، وجُوَيْرية بنت الحارث وأمّ حَبِيبَة بنت أبي سُفْيان؛ وصَفيَّة بنت حُيَيّ بن أَخْطَب، ومَيْمُونَة بنت الحارث رضوان الله عليهم أجمعين.

ذكر من تزوجهنّ رسول الله ﷺ من النساء ولم يدخل بهنّ ومن دخل بهنّ وطَلّقهنّ ومن وَهَبَتْ نفسها له ﷺ

فاطِمة بنت الضَّحّاك

ابن سفيان بن عَوْف بن كَعْب بن أبي بكر، وهو عُبَيْد بن كِلاب بن رَبِيعة بن عامر الكلابية.

تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة، سنة ثمان من الهجرة مُنْصَرفَه من الجِعْرَانَة، فلما دنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عُذت بعظيم

(١) سرف: موضع قرب التنعيم من ضواحي مكة.

(٢) ابن شهاب: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة. . . كانت وفاته في سنة ١٢٤ هجرية وقيل سنة ١٢٥ ودفن في ضيعته أدامى. . . (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧).

الحقي بأهلك»[(١)] فكانت إذا استأذنت على أزواج النبي ﷺ تقول: أنا الشّقِيّة إنما خُدِعتُ. ودَلِهَت[(٢)] وذهب عقلها، وماتت سنة ستين. وروي عن ٱبن إسحاق أن رسول الله ﷺ تزوجها بعد وفاة ابنته زَيْنَب، وخَيّرها حين أنزلت آية التخيير فٱختارت الدنيا ففارقها، فكانت بعد تَلْقُط البعر، وتقول: أنا الشّقية ٱختَرْت الدنيا. قال أبو عمر بن عبد البرّ: وهذا عندي غير صحيح؛ لأن ٱبنِ شهاب يروي عن أبي سَلمَة وعُرْوة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ حين خَيّر أزواجه بدأ بها فاختارت الله ورسوله قالت وتتابع أزواج النبي ﷺ على ذلك، قال قتادة وعكرمة: كان عنده حين خيّرهن تِسْعُ نِسوة وهنّ اللواتي تُوفّي عنهن، قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن: وقيل إنما طلقها لبياض[(٣)] كان بها. وقيل: إنما فارقها لأنه كان إذا خرج طلعت إلى المسجد. وقيل: إن الضحّاك عَرَض ٱبنته فاطمة على رسول الله ﷺ وقال: إنها لم تُصَدَّع[(٤)] قَطُّ، فقال: «لا حاجة لي بها». وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان في نساء رسول الله ﷺ سَنَاءُ بنت سُفيان بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب. ومنهن:

عَمْرَةُ بنت يَزِيد بن الْجَوْن الكلابية

وقيل: عَمْرَة بنت يزيد بن عُبَيْد بن رُوَاس بن كِلاب الكلابية، وهو أصَحّ. وفي رواية قال أبو عمر: تزوجها رسول الله ﷺ، فبلغه أن بها بَرصًا فطلّقها، ولم يدخل بها. وقيل: إنها التي تعوذت منه حين أدخلت عليه. وقيل غيرها. ومنهن:

الْعَالِيَة بنت ظِبْيَان بن الْجَوْن

ٱبن عَوْف بن كعب بن أبي بكر بن عُبَيْد بنِ كلاب الكلابية. قال أبو عمر: تزوجها رسول الله ﷺ وكانت عنده ما شاء الله ثم طلّقها، قال: وقلّ من ذكرها. هؤلاء اللاتي ذُكرن من بني كِلاب بن ربيعة بن عامر. قال أبو محمد[(٥)]: ومن الناس من جعل التي تزوجها من بني عامر واحدة، ٱختلف في ٱسمها، وأنه لم يتزوج من بني عامر غيرها، قال: ومنهم من جعلهن جَمْعًا، وذكر لكل احدة منهن قِصّة، وهؤلاء اللاتي ذكرناهن، هن المشهورات من بني عامر.

---

(١) المراد بقوله الحقي بأهلك: أي طلقتك. (٢) دلهت: أي ذهب عقلها.
(٣) المراد بالبياض: البرص. (٤) لم تصدّع: أي لم يصبها صداع.
(٥) أبو محمد: هو عبد المؤمن بن خلف الدمياطي وقد تقدمت ترجمته.

وممن ذُكِرن في أزواجه ﷺ فاطمة بنت شُرَيح. ذكرها أبو عبيدة[١] في أزواج رسول الله ﷺ. ومنهن:

أَسْمَاء بنت النُّعْمان بن أبي الْجَوْن

ابن الأسود بن الحارث بن شَراحِيل بن الْجَوْن بن آكل المُرَار الكِنْدي، تزوج بها رسول الله ﷺ في سنة تسع من الهجرة، زوجه إياها أبوها حين قدم، على ٱثنتي عشرة أوقية ونَشّ، وبعث معه أبا أُسَيد؛ فحملها من نَجْد حتى نزل بها في أُطُم[٢] بني ساعدة، فقالت عائشة: قد وضع يده في الغرائب يوشِك أن يصرِفن وجهه عنا، وكانت من أجمل النساء، فقالت حفصة لعائشة، أو عائشة لحفصة: ٱخضِبيها أنت وأنا أمشطها، ففعلتا، ثم قالت لها إحداهما: إنه يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول: أعوذ بالله منك؛ فلما دخلت عليه وأغلق الباب، وأرخى الستر، مدّ يده إليها، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عُذتِ بمَعاذ ٱلحقي بأهلك» وأمر أبا أُسَيد أن يردّها إلى أهلها؛ وقال: «مَتِّعْها برازِقيتين»[٣] يعني كِرْبَاسَيْن، فكانت تقول: ٱدعوني الشّقِية، وإنما خُدِعت؛ لما رؤي من جمالها وهَيْئتها، وذكر لرسول الله ﷺ مَنْ حملَها على ما قالت، فقال: «إنهنّ صواحِب يوسف وكيدهنّ عظيم» قال: فلما طلع بها أبو أُسَيْد على أهلها تصايَحوا؛ وقالوا: إنكِ لغير مباركة، ما دَهَاك؟ فقالت: خُدِعت، وقيل لي كَيْتَ وكَيْتَ، فقالوا: لقد جعلتِنا في العرب شُهْرَة، فقالت: يا أبا أُسَيد قد كان ما كان فما الذي أصنع؟ قال: أقِيمي في بيتك وٱحتجِبي إلا من ذي رحِم، ولا يطمع فيك طامع بعد رسول الله ﷺ، فإنك من أمهات المؤمنين؛ فأقامت لا يطمع فيها طامع، ولا تُرى إلا لذي مَحْرم، حتى توفّيت في خِلافة عثمان بن عفّان عند أهلها بنَجْد.

وقال أبو عمر: أجمعوا على أن رسول الله ﷺ تزوّجها، وٱختلفوا في قِصّة فِراقه لها، فقال بعضهمْ: لما دخلت عليه دعاها فقالت: تعالَ أنت، وأبت أن تجيء، هذا قول قتادة وأبي عبيدة. وزعم بعضهم أنها قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عُذتِ

(١) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء، تيم قريش، البصري النحوي العلامة؛ قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وقال ابن قتيبة: كان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامها. . . وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام لأنه كان يتهم بالميل إلى الغلمان. . . (وفيات الأعيان ٥: ٢٣٥).

(٢) الأطم: بناء مرتفع كالحصن.

(٣) الرازقية: ثوب كتان أبيض.

بمَعاذ، وقد أعاذكِ الله منّي» فطلقها، قال قتادة: وهذا باطل إنما قال هذا لأمرأة جميلة تزوّجها من بني سُلَيم. وقال أبو عُبَيدة: كِلتاهما عاذتا بالله عزّ وجل منه ﷺ. والله تعالى أعلم. وروى البخاريّ في صحيحه حديث أبي أُسَيد السّاعِديّ قال: تزوّج رسول الله ﷺ:

أُمَيمَةَ بنت شَرَاحِيل

فلما دخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين، وفي لفظ آخر، قال أبو أُسَيد: أتى رسول الله ﷺ بالجَوْنية[1]، فلما دخل عليها قال: «هبي لي نفسك» فقالت: وكيف تهب الملكة نفسها للسّوقة؟ فأهوى بيده إليها ليسكتها فقالت: أعوذ بالله منك، قال: «قد عُذتِ بمَعاذ» ثم خرج عليه السلام فقال: «يا أبا أُسَيد أكسها رازِقيتين وألحقها بأهلها». وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خَلَف عليها المُهاجِر بن أبي أمَيّة بن المُغِيرَة؛ فأراد عمر أن يعاقبهما، فقالت: والله ما ضُرِب عليّ الحِجاب ولا سميت بأمّ المؤمنين، فكف عنهما، وقيل: تزوّجها عِكرِمة بن أبي جهل في الرِّدة، وقيل: خَلَف عليها بعد المُهاجر قَيْس بن مَكْشُوح المرادِي، وقال ابن أبْزَى: الجَوْنِيّة التي استعاذت من رسول الله ﷺ، ولم تستعِذ منه امرأة غيرها.

قال أبو عمر رحمه الله: الاختلاف في الكِنْدية كبير جدًا، منهم من يقول: هي أسْماء بنت النعمان، ومنهم من يقول: أُمَيْمة بنت النّعمان، ومنهم من يقول: أُمَامة بنت النّعمان، قال: واختلافهم في سبب فراقها على ما رأيت، والاضطراب فيها وفي صواحباتها اللواتي لم يجتمع عليهنّ من أزواجه ﷺ عظيم. ومنهنّ:

قُتَيلة بنت قَيس

أخت الأشْعَث بن قَيس بن مَعْدِيَكرِب بن معاوية الكِنْدية. رُوي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما استعاذت أسْماء بنت النعمان من النبي ﷺ خرج والغضب يُعْرَف في وجهه، فقال له الأشعث بن قيس: لا يسوؤك الله يا رسول الله، ألاَ أزوّجك من ليس دونها في الجمال والحسب؟ قال: «مَن»؟ قال: أختي قُتَيْلَة، قال: «قد تزوجتها» قال: فانصرف الأشْعَث إلى حَضْرَمَوْت، ثم حملها حتى إذا فَصَل

(١) الجونية: سيأتي تفسيرها للمؤلف.

من اليَمَن، بلغه وفاة رسول الله ﷺ فردّها إلى بلاده وارتدّ وٱرتدّت معه فيمن ارتد؛ فلذلك تزوجت؛ لفساد النكاح بالأرتداد. قال الشيخ أبو محمد: وكان تزوجها قَيْس بن مَكْشُوح المُرادِيّ، وقيل: تزوجها عِكرمة بن أبي جهل، فوَجَد أبو بكر من ذلك وَجْدًا شديدًا، وقال: لقد هَمَمْت أن أحرق عليهما بيتهما. فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها والله ما هي من أزواجه، ما خَيّرها ولا حَجَبها، ولقد بَرَّأها الله منه بالأرتداد الذي ٱرتدت مع قومها. وكان تزوّجه إياها سنة عشر، وقيل: قبل موته بشهرين، وقيل: تزوّجها في مرضه. وقال قائلون: إنه ﷺ أوصى أن تُخيّر، فإن شاءت ضُرِب عليها الحِجابُ وتحرم على المؤمنين، وإن شاءت طلقها فلتنكح من شاءت، فٱختارت النكاح، فتزوجها عِكرمة بن أبي جهل. وكان عُرْوَة بن الزُّبَيْر ينكر ذلك، ويقول: لم يتزوج النبي ﷺ قُتَيْلة بنت قَيْس، ولا تزوج كِنْدية إلا أخت بني الجَوْن؛ مَلَكَها، وأُتي بها فلما نظر إليها طلّقها، ولم يَبْنِ بها ﷺ. ومنهنّ:

عَمْرَة بنت معاوية الكِنْدِية

تزوّجها رسول الله ﷺ، قال الشعبيّ: تزوّج ٱمرأة من كِندة، فجيء بها بعد وفاته ﷺ. ذكر ذلك أبو الفرج بن الجَوْزِيّ في التلقيح. ومنهن:

أسْماءُ بنت الصَّلْت

وقيل: سَناءُ بنت الصَّلْتِ، قال أبو عمر: وهو الصواب؛ قال: وقال عليّ بن عبد العزيز بن علي بن الحسن الجرجاني النسّابة: هي وَسْنَاءُ بنت الصَّلْت بن حبِيب بن حارِثة بن هِلال بن حَرام بن سِمَاك بن عَوْفِ بن ٱمرِىء القيس بن بُهْثَة بن سُلَيْم السُّلَمِية؛ تزوجها رسول الله ﷺ، فماتت قبل أن تصِل إليه. وقال غيره: فلما بُشِّرت بذلك ضَحِكت، وماتت من الفَرَح. وقال ٱبن إسحاق: سَنَاءُ بنت أسْماء بن الصَّلْت السُّلَميّ، تزوّجها رسول الله ﷺ ثم طلقها. وقال أبو نصر ابن ماكولا[1]: سَنَاء بنت أسْماء ماتت قبل أن يدخل بها. وقيل: لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، قالت أسماء: لو كان نبيًا ما مات حبيبه، فخلّى سبيلها. وقال عبد الله بن عبيد بن عمير

(١) ابن ماكولا: هو الأمير سعد الملك أبو نصر علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علكان بن محمد بن دلف بن أبي دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير العجلي، المعروف بابن ماكولا . . . أصله من جرباذقان من نواحي أصبهان، ووزر أبوه أبو القاسم هبة الله للإمام القائم بأمر الله . . . (وفيات الأعيان ٣: ٣٠٥).

الليثي: جاء رجل من بني سُلَيم إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ٱبنة من جمالها وعقلها ما إني لأحسد الناس عليها غيرك، فهَمّ النبيّ ﷺ أن يتزوّجها، ثم قال: وأخرى يا رسول الله، لا والله ما أصابها عندي مَرضٌ قَطّ، فقال له النبي ﷺ: «لا حاجة لنا في ٱبنتك، تجيئنا تحمل خطاياها! لا خير في مال لا يُرْزَأ[١] منه، ولا جسم لا يُنال منه». وقال أبو عمر بن عبد البر: وفي سبب فِراقها ٱختلاف، ولا يثبت فيها شيء من جهة الإسناد. ومنهنّ:

مُلَيكة بنت كَعْب الليثيّ

روى محمد بن عمر الواقدي، عن أبي مَعْشر، قال: تزوّج النبيّ ﷺ مُلَيْكة بنت كَعْب، وكانت تذكر بجمال بارع، فدخلت عليها عائشة فقالت: أما تستحيين أن تنكحي قاتل أبيك؟ فٱستعاذت من رسول الله ﷺ فطلقها، فجاء قومها إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنها صغيرة ولا وليّ لها، وأنها خُدِعت فٱرتجِعها، فأبى رسول الله ﷺ، فاستأذنوه أن يزوّجوها قريبًا لها من بني عُذْرة، فأذن لهم فتزوّجها العُذْريّ، وكان أبوه قُتل يوم فتح مكة، قَتله خالدُ بن الوليد بالخَنْدَمَة[٢]. قال محمد بن عمر: مما يضعف هذا الحديث، ذكر عائشة أنها قالت: ألا تستحيين، وعائشة لم تكن مع النبيّ ﷺ عام الفتح، وعن عطاء بن يزيد الجُنْدُعي قال: تزوّج رسول الله ﷺ مُلَيْكة بنت كعب الليثي في شهر رمضان، سنة ثمان، ودخل بها فماتت عنده، قال محمد بن عمر: وأصحابنا ينكرون ذلك، ويقولون لم يتزوّج كنانية قطّ، وعن الزُّهْري مثل ذلك. ومنهنّ:

ٱبنة جُنْدب بن ضَمْرَة الجُنْدُعي

قال أبو محمد الدمياطي رحمه الله: روي أن رسول الله ﷺ تزوج ٱبنة جُنْدب بن ضَمْرة الجُنْدُعيّ، وأنكر ذلك الواقِدي، وقال: لم يتزوّج كِنانية قط. ومنهنّ:

---

(١) يقال: رزأه ماله: أي أصاب منه شيئًا فنقصه.

(٢) خندمة: بفتح أوله: جبل بمكة، كانت به وقعة يوم فتح مكة، وله يوم يعرف به، هزم فيه خالد ابن الوليد المشركين.. ومنها حجارة بنيان مكة ومنها شعب بن عامر، وجبال مكة الخندمة وجبال أبي قبيس.

الغِفَارِية

قال أبو محمد الدمياطي: قال بعضهم تزوّج النبي ﷺ آمرأة من غفَار[١]، فأمرها فنزعت ثيابها، فرأى بها بياضًا، فقال: «الحقي بأهلك» ويقال: إنما رأى البياض بالكِلابية. ومنهن:

خَوْلَة بنت الهُذَيْل بن هُبَيْرة

آبن قُبَيْصَة بن الحارث بن حَبيب بن حُرَقَة بن ثَعْلَبة بن بَكْر بن حَبيب بن عمرو بن غَنْم بن ثَعْلَبة[٢].

وأمها خرنِق بنت خليفة بن فَرْوَة بن فَضَالة بن زيد بن آمرِىءِ القيس الكلبيّ، أخت دحْيَة بن خليفة. تزوجها رسول الله ﷺ، فهلكت في الطريق قبل وصولها إليه. حكاه أبو عمر بن عبد البر عن الجُرْجانيّ النسّابة. ومنهنّ:

شَرَافُ بنت خلِيفة بن فَرْوَة الكلبية، أخت دِحْيَة بن خلِيفة الكلبيّ

قال أبو محمد الدمياطي: قال ابن الكلبي حدّثنا الشَّرْقيّ بن القَطَامِي قال: لما هلكت خَوْلَة بنت الهُذَيْل، تزوج رسولُ الله ﷺ شَرَافَ بنت خليفة أخت دِحْيَة، ثم لم يدخل بها. وقال أبو عمر بن عبد البر: فهلكت قبل دخوله بها. وروي عن عبد الرحمٰن بن سابِط، قال: خطب رسول الله ﷺ آمرأة من كلب، فبعث عائشة تنظر إليها، فذهبت ثم رجعت، فقال لها: «ما رأيت»؟ فقالت: ما رأيت طائلاً. فقال ﷺ: «لقد رأيتِ خَالاً بِخدّها اقشعرت كل شعرة منك» فقالت: يا رسول الله، ما دونك سِرٌّ. ومنهنّ:

خَوْلَة بنت حَكِيم

آبن أُمَيّة بن حارِثة بن الأوْقَص بن مُرّة بن هِلال بن فالح بن ثَعْلَبة بن ذَكْوان بن آمرِىء القيس بن سُلَيْم. ويقال فيها: خُوَيْلَة بنت حكِيم، وأمها صَفِيّة بنت العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ. قال آبن الكلبيّ: كانت خولة بنت حكيم

---

(١) بنو غفار: بطن من جاسم، من العماليق. وهم بنو غفار بن جاسم بن عمليق.

(٢) بنو ثعلبة: بطن من تغلب بن وائل من العدنانية.

من اللائي وَهَبْن أنفسهنّ للنبيّ ﷺ فأرْجَأها وكانت تخدم النبيّ ﷺ، وكانت عند عثمان بن مَظْعُون فمات عنها. وعن عُرْوَة قال: خَوْلَة بنت حَكيم ممن وهبت نفسها للنبي ﷺ. وقال أبو عمر بن عبد البر: خولة تُكنى أمّ شريك، وهي التي وهبت نفسها للنبيّ، في قول بعضهم، وكانت آمرأة فاضِلة صالِحة، روى عنها سعد بن أبي وَقّاص، وسعِيد بن المسيّب، وهي التي قالت لرسول الله ﷺ: إن فتح الله عليك الطائِف فأعطني حُليّ بَادِيَة بنت غَيْلان، أو حُليّ الفَارِعَة بنت عُقَيْل كما تقدّم. ومنهنّ:

لَيْلَى بنت الْخَطِيم بن عَدِيّ

آبن عمرو بن سَوَاد بن ظَفَر بن الحارث بن الخَزْرَج بن عمرو، وهو النَّبِيت بن مالك بن ألأوْسِ، وهي أخت قيس بن الخطِيم(١)، وآسم الخطِيم ثابِت، وآسم ظَفَر كعب.

قال محمد بن سعد: عن عاصِم بن عمر بن قَتادة قال: كانت ليلى بنت الخطِيم وهبت نفسها للنبيّ ﷺ فقَبِلها، وكانت تركب بُعُولَتها ركوبًا(٢) شديدًا، وكانت سيئة الخلق، فقالت: لا واللّهِ، لأجعلنّ محمدًا لا يتزوّج في هذا الحيّ من الأنصار، والله لآتينّه، ولأهبنّ نفسي له، فأتت النبي ﷺ وهو قائم مع رجل من أصحابه، فما راعه إلا بها واضِعة يديها عليه، فقال: «من هذا؟ أكله الأسد» فقالت: أنا لَيْلَى بنت سَيِّد قومها، قد وهبت نفسي لك، قال: «قد قَبِلتك؛ آرجِعِي حتى يأتيك أمري» فأتت قومها فقالوا: أنت آمرأة ليس لك صبر على الضّرائِر، وقد أحل الله لرسوله أن ينكح ما شاء، فرجعت فقالت: إنّ الله أحل لك النّساء، وأنا آمرأة طويلة اللسان لا صبر لي على الضّرائر، وآستقالته فقال: «قد أقلتكِ».

وروي عن آبنِ عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت لَيْلَى بنت الخَطِيم إلى النبي ﷺ، وهو مُولٍ ظهره إلى الشمس، فضربت على مَنْكِبيه، فقال: «من هذا؟ أكله الأسد» وكان كثيرًا ما يقولها، فقالت: أنا بِنت مُطعِم الطّير ومُبارِي الريح، أنا ليلى

---

(١) هو قيس بن الخطيم بن عديّ بن عمرو بن سواد... كان شاعر الأوس، وبينه وبين حسان بن ثابت منافسات، وذكر أصحاب المغازي أنه قدم مكة فدعاه النبيّ ﷺ وتلا عليه القرآن فقال: إني لأسمع كلامًا عجيبًا فدعني أنظر في أمري هذه السنة ثم أعود إليك؛ فمات قبل الحول... (الأغاني ٢: ١٥٤).

(٢) المراد بقوله: تركب بعولتها: أي أنها شديدة التسلط على أزواجها.

بنت الخطِيم، جئتك لأعرض عليك نفسي، تزوّجني، قال: «قد فعلت» فرجعت إلى قومها، فقالت: قد تزوّجني النبي ﷺ، فقالوا: بئس ما صنعت، أنتِ أمرأة غَيْرَى، والنبيّ ﷺ صاحب نِساء، تغارِين عليه فيدعو الله عليك، فاستقِيليه نفسك، فرجعت فقالت: يا رسول الله، أقِلْنِي، قال: «قد أقلتك» قال: فتزوّجها مسعود بن أوْس بن سَوَاد بن ظَفَر، فولدت له، فبينا هي في حائط من حيطان المدينة تغتسل، إذ وثَب عليها ذِئب فأكل بعضها، وأدركت فماتت. ومنهنّ:

لَيْلى بنت حَكِيم الأنصارِية

الأوْسِية، التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ، قال أبو عمر بن عبد البر: ذكرها أحمد بن صالح المصري في أزواج النبي ﷺ؛ ولم يذكرها غيره فيما علمت. والله تعالى أعلم. ومنهنّ:

أمّ شريك وٱسمها غُزَيَّة

بنت دُودَان بن عوف بن عمرو بن عامر بن رَوَاحة بن مُنْقِذ بن عُمَيْر بن مَعِيص بن عامر بن لُؤَيّ. وقال أبو عمر: غُزَيْلة الأنصارية من بني النجّار.

قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله: ٱختلِف فيها، فكان محمد بن عمر يقول: هي من بني مَعِيص بن عامر بن لُؤَيّ، وكان غيره يقول: هي دَوْسِيّة من الأزد، وقيل: هي أنصارِية. وروى ٱبن سعد، عن محمد بن عمر، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كانت أمّ شريك ٱمرأة من بني عامر بن لؤيّ، مَعِيصية وهبت نفسها لرسول الله ﷺ فلم يقبلها، فلم تتزوّج حتى ماتت. وروي عن وَكِيع عن زكريًا عن عامر في قوله عزّ وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]؛ قال: كل نساء وهبن أنفسهن للنبيّ ﷺ، فدخل ببعضهنّ وأرجأ بعضًا فلم ينكحن بعده، منهنّ: أمّ شريك. وعن الشَّعْبي قال: المرأة التي عَزَل[١] رسول الله ﷺ أمّ شريك الأنصارية. وعن علي بن الحسين: أن النبيّ ﷺ تزوّج أمّ شريك الدَّوسِية، ومثله عن عِكرمة. وروى محمد بن سعد عن محمد بن عمر قال: حدّثني الولِيد بن مسلم، عن مُنِير بن عبد الله الدَّوْسيّ قال: أسلم زوج أمّ شريك ـ وهي غُزَيّة بنت جابر بن حَكِيم الدَّوْسية من الأزد ـ وهو أبو العَكر، فهاجر إلى النبيّ ﷺ مع أبي هريرة، ومع دَوْس حين هاجروا، قالت أمّ شريك: فجاءني أهل أبي العَكَر فقالوا: لعلكِ على دينه، قلت: إي

(١) عزل: فارق.

والله، إني لعلى دينه، قالوا: لا جَرَم، والله لنعذبنكِ عذابًا شديدًا، فارتحلوا بنا من دارنا، ونحن كنا بذِي الخَلَصَة[1]، فساروا يريدون منزلاً، وحملوني على جمل ثَفَال[2]، شرّ رِكابهم وأغلظه، يطعموني الخبز بالعسل، ولا يسقوني قطرة من ماء، حتى إذا انتصف النهار وسخنت الشمس، ونحن قائِظون، فنزلوا فضربوا أخبيتهم وتركوني في الشمس حتى ذهب عقلي وسمعي وبصري، ففعلوا بي ذلك ثلاثة أيام، فقالوا لي في اليوم الثالث: اتركي ما أنت عليه، قالت: فما دَرَيْت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة، فأشير بإصبعي إلى السماء بالتوحِيد، قالت: فوالله إني لعلى ذلك، وقد بلغني الجَهْد، إذْ وجدت بَرْد دَلْوِ على صدري، فأخذته فشربت منه نَفَسًا[3] واحدًا، ثم انتُزِع منّي، فذهبت أنظر فإذا هو معلّق بين السماء والأرض، فلم أقدر عليه، ثم دُلّيَ الثانية فشربت منه نَفَسًا، ثم رفع، فذهبت أنظر، فإذا هو بين السماء والأرض، ثم دُلّي الثالثة فشربت منه حتى رَوِيت، فأهرقت على رأسي ووجهي وثِيابي، قالت: فخرجوا فنظروا، فقالوا: من أين لك هذا يا عدوّة الله؟ قالت فقلت لهم: إنّ عدوّ الله غيري؛ مَنْ خالف دِينَه، فأما قولكم من أين هذا فمن عند الله رزقًا رزقنيه الله، قالت: فانطلقوا سِراعًا إلى قِربِهم فوجدوها مُوكَأة لم تُحَلْ، فقالوا: نشهد أن ربك هو ربنا، فإن الذي رزقك ما رزقك في هذا الموضع بعد أن فعلنا بِك ما فعلنا، هو الذي شرع الإسلام، فأسلموا وهاجروا جميعًا إلى النبيّ ﷺ، وكانوا يعرفون فَضْلِي عليهم، وما صنع الله إليّ، قال: وهي التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ، وكانت جَمِيلة وقد أسَنّت، فقالت: إني وهبت نفسي لك، وأتصدّق بها عليك، فقبلها النبيّ ﷺ، فقالت عائشة: ما في امرأةٍ حين تهب نفسها لرجل خيرٌ، قالت أمّ شريك: فأنا تلك؛ فسماها الله مؤمِنة، فقال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. فلما نزلت هذه الآية قالت عائشة: إنّ الله ليسرع لك في هَوَاكَ يا رسول الله. ومنهنّ:

الشَّنْبَاء

ذكرها الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف الدّمياطي رحمه الله، في أزواج النبيّ ﷺ، ولم يذكر لها ترجمة. فلنذكر من خطبهنّ ﷺ.

---

(١) ذو الخلصة: بفتح أوله وثانيه، ويروى بضم أوله وثانيه، والأول أصح: وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، وهو صنم لهم فأحرقه جرير بن عبد الله البجلي حين بعثه النبيّ ﷺ. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) جمل ثفال: أي بطيء. (٣) النفس: الجرعة.

ذِكر من خَطَبَهُنّ رسول الله ﷺ من النساء ولم يتّفِق تَزْوِيجُهنّ

منهنّ:

أمّ هانِيء بنت أبي طالب

ابن عبد المطلِب بن هاشم، وأسمها فَاخِتَة، وقال ٱبن الكلبي: اسمها هِنْد، وهي أخت علي بن أبي طالب، وعَقِيل وجعفر وطالب، شقِيقتهم، وأمهم فاطِمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: خطب النبيّ ﷺ إلى أبي طالب ٱبنته أمّ هانِيء في الجاهلية، وخطبها هُبيرة بن أبي وَهْب بن عمرو بن عائِذ بن عِمران بن مخزوم، فزوجها هُبَيرة، فقال النبي ﷺ: «يا عم، زوّجتَ هُبيرة وتركتني»! فقال: يأبن أخي إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافِيءُ الكريم. ثم أسلمتْ ففرّق الإسلام بينها وبين هُبَيرة فخطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها فقالت: والله إن كنت لأحِبك في الجاهلية، فكيف في الإسلام، ولكني ٱمرأة مُصْبِية[١] وأكره أن يؤذوك. فقال رسول الله ﷺ: «خيرِ نساء ركِبن المطايا نِساء قريش، أحْنَاه[٢] على وَلَدٍ في صِغره، وأرْعاه[٣] على زوج في ذات يده». ومنهنّ:

ضُباعَة بِنت عامِر بن قُرْط

ٱبن سَلَمة بن قُشَيْر بن كَعْب بن رَبِيعَة بن عامر بن صَعْصَعَة.

روى هشام بن محمد الكلبي، عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كانت ضُبَاعَة بنت عامر عند هَوْذَة بن علي الحَنَفي، فهلك عنها فورّثها مالاً كثيرًا، فتزوجها عبد الله بن جُدْعان التَّيْميّ، وكان لا يولد له فسألته الطلاق فطلقها، فتزوجها هِشام بن المغيرة فولدت له سَلَمة، وكان من خِيار المسلمين، فتوفي عنها هِشام، وكانت إذا جلست أخذت من الأرض شيئًا كثيرًا، وكانت تغطي جسدها بشعرها، فذُكِر جَمالُها عند النبي ﷺ، فخطبها إلى ٱبنها سَلَمَة بن هِشام بن المغِيرة، فقال: حتى أستأمِرها، وقيل للنبي ﷺ: إنها قد كبِرت فأتاها ٱبنها فقالت: ما قلتَ له؟ قال: قلت حتى أستأمرها، فقالت: وفي النبي ﷺ يُسْتأمَر! ٱرجع فزوِّجه، فرجع إلى النبي ﷺ فسكت عنه. ومنهنّ:

---

(١) مصبية: أي كثيرة الصبية.
(٢) أحناه: أشفقه.
(٣) أرعاه: أحفظه.

صَفِيّة بنت بَشَامَة بن نَضْلَة العَنبريّ

قال أبو محمد: كان أصابها سَبَاءٌ، فخَيّرها رسول الله ﷺ، فقال: «إن شئتِ أنا، وإن شئت زَوْجكِ» فقالت: بل زوجي، فأرسلها فلَعَنَتْها بنو تميم. ومنهنّ:

جَمْرَة بنت الحارِث بن عَوْفٍ المُزَنِيّ

خطبها رسول الله ﷺ، فقال أبوها: إن بها سُوءًا ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد بَرِصَت، وهي أمّ شَبِيب بن البَرْصَاء الشاعر. ومنهنّ:

سَوْدَةُ القُرَشِيّة

خطبها رسول الله ﷺ، وكانت مُصْبِية فقالت: أكره أن تَضْغُوَ[1] صِبْيَتِي عند رأسِك، فحمِدها ودعا لها، ذكرها والتي قبلها ٱبن الجَوْزِيّ في التّلقِيح. ورُوي عن مجاهد قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب فَرُدّ لم يعد، فخطب ٱمرأة، فقالت: حتى أستأمِر أبي، فلقيت أباها فأذِن لها، فلقيت رسول الله ﷺ فقالت له، فقال: «قد ٱلتحفنا لِحافًا غيركِ» ولم يسم مجاهد ٱسم هذه المرأة.

وعُرِض على رسول الله ﷺ:

أُمَامَة بِنت عَمِّه حَمْزَة

ٱبن عبد المطلب، وقيل: ٱسمها عِمَارة، فأتاها رسول الله ﷺ، وقال: «تلك ٱبنة أخي من الرضاعة». وعُرِضت عليه أمّ حبِيبة أختها.

فجميع من ذكِر من أزواج النبي ﷺ المدخول بهنّ، وغير المدخول بهنّ، ومن وهبت نفسها له، أو خطبها ولم يتفق تزويجها، أو عُرِضت عليه فأباها، نحوُ أربعين ٱمرأة على ما ذكرناه من الٱختلاف، ومن أهل العلم من ينكر بعضهنّ، ويقول: إنما تزوج رسول الله ﷺ أربع عشرة ٱمرأة، سِت منهنّ قرشِيات لا شك فيهنّ، وهنّ: خَدِيجة، وعائِشة، وسَوْدَة، وأم سَلَمَة، وأم حَبِيبة، وحَفْصَة.

ومن العرب: زينب بنت جَحْشٍ، ومَيْمُونة بنت الحارث، وجُوَيْرِية بنت الحارث، وأَسْمَاء بنت النُّعْمان، وفَاطِمة بنت الضّحّاك، وزينب بنت خُزَيْمَة.

---

(١) تضغو الصبية: أي يصيحون ويبكون ويضجون.

ومِن غيرهم: رَيْحَانَة بنت زيد من بني النَّضِير، وصَفِيّة بنت حُيَيّ بن أَخْطَب.

وعن محمد بن يحيى بن حِبّان قال: تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة امرأة، فسمى هؤلاء، وزاد مُلَيْكَة بنت كَعْب اللَّيْثية. وقال أبو عبيدة: تزوج رسول الله ﷺ ثماني عشرة امرأة.

وقال محمد بن عمر الواقِديّ: المجمع عليه أن رسول الله ﷺ تزوج أربع عشرة امرأة، وهنّ اللائِي سُمِّين، وفارق منهن الجَوْنِيّة والكِلابِية، ومات عنده خدِيجة، وزينب بنت خُزَيمة، ورَيْحانة بنت زيد، وقُبِض عن تِسع، وهنّ المذكورات اللاتي قدمنا ذكرهنّ.

وقال أبو سعيد في شرف النبوّة: إن جملة أزواج النبي ﷺ إحدى وعشرين امرأة، طَلّق منهنّ سِتًّا، ومات عنده خمسٌ، وتُوفّي عن عَشْر؛ واحدة لم يدخل بها، وكان صَدَاقه لِنِسائه لكل واحدة خمسمائة دِرهم، إلا صَفيّة فإنه جعل عِتْقَها صَداقَها، وأمّ حبِيبة أصْدَقها عنه النجاشِيّ.

ذكر سَرَارِي رسول الله ﷺ

وهنّ:

مارِية بنت شَمْعون القِبطِية

وهي أم ولده إبراهيم، وكانت من جَفْن من كورة أنْصِنَا[1] من صعِيد مصر، أهداها له المُقَوْقِس جُرَيْج بن مِينَا، ولما ولدت مارِية لرسول الله ﷺ ابنه إبراهيم قال: «أعتقها ولدها». وتوفيت مارية في المحرم سنة ست عشرة، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها، وصلّى عليها عمر، ودُفِنت بالبقِيع.

ورَيْحَانَة بنت زَيْد النَّضْرية، وقد تقدّم خبرها في الزوجات. وقال أبو عبيدة: كان له أربع؛ وهنّ مارِية وريحانة، وأخرى جَمِيلة أصابها في السَّبْي، وجارِية وهبتها له زينب بنت جَحْش. وقال قَتادة: كان للنبي ﷺ وَلِيدَتَان مارِية وريحانة، وبعضهم يقول: رُبَيْحَة القُرَظِية.

(١) أنصنا: بالفتح ثم السكون، وكسر الصاد المهملة، والنون مقصور: مدينة أزلية من نواحي الصعيد على شرقي النيل وفيها برابي وآثار كثيرة... ولا ينبت اللنج إلا بأنصنا، وهو عود تنشر منه الألواح للسفن... (معجم ياقوت).

ذكر أولادِ رسول الله ﷺ

روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان أول من وُلِد لرسول الله ﷺ بمكة قبل النبوّة القاسِم وبه كان يكنى، ثم ولدت له زينب، ثم رُقيّة، ثم فَاطِمة، ثم أمّ كُلثُوم، ثم ولد له في الإسلام عبد الله فسمي الطّيّب والطّاهِر، وأمهم كلهم خَدِيجَة رضي الله عنها. وكان أول من مات من ولده القاسِم، ثم عبد الله ماتا بمكة، فقال العاصِي بن وائِل السَّهْمِيّ: قد ٱنقطع ولده فهو أبتر؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣] وقيل: الطّيّب والطّاهِر اثنان سوى عبد الله. وقيل: كان له الطّاهِر والمطَهَّر ولدا في بطن. وقيل: كان له الطّيّب والمطَيَّب وُلدا أيضًا في بطن. وقيل: إنهم كلهم ماتوا قبل النبوّة، وكان بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضِع لهم. وأمّا البنات فكلهن أدركن الإسلام، وأسلمن وهاجَرْن، وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبارهنّ ومَن تزوجهنّ، وما ولدن على ما تقِف عليه، وهؤلاء كلهم أولاد خدِيجة وُلِدوا بمكة، ثم ولدت له مارِية القِبطِية:

إبراهِيم ابن رسول الله ﷺ

ولِد في ذي الحِجة، سنة ثمان من الهِجرة؛ قال أبو عمر بن عبد البر: ذكر الزُّبَيْر عن أشياخه، أن أمّ إبراهيم مارِية ولدته بالعالية[١]، في المال الذي يقال له اليوم (مَشْرَبَةُ إبراهيم) بالقُفّ[٢]، وكانت قابلتها سَلْمَى مولاة النبيّ ﷺ، ٱمرأة أبي رافِع، فبَشَّر به أبو رافِع النبيّ ﷺ، فوهب له عبدًا، فلما كان يوم سابِعِه عَقّ[٣] عنه بكَبْشٍ وحلق رأسه؛ حلقه أبو هِنْد، وسماه يومئذٍ، وتصدق بوزن شعره وَرِقًا على المساكين، وأخذوا شعره فدفنوه في الأرض. وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «ولِد لي الليلة غلام فسميته بٱسم أبي إبراهيم» هذا يدل على أنه سَمّاه في وقت وِلادته، قال الزبير: ثم دفعه إلى أمّ سَيْف ٱمرأة قَيْنٍ[٤] بالمدينة، يقال له: أبو سَيف، قال الزبير: وتنافست الأنصار فيمن يُرْضِعه، فجاءت أمّ بُرْدَة بنت المنذِر بن زيد الأنصاريّ، زوجة البَرَاء بن أوْسٍ، فكلمت رسول الله ﷺ في أن تُرضِعه، فكانت تُرضعه بلبن ابنها في بني

---

(١) العالية: موضع على ثلاثة أميال من المدينة المنورة.
(٢) القفّ: واد بالمدينة.
(٣) عقّ: ذبح عقيقة، وهي الشاة التي تذبح يوم أسبوع الولد.
(٤) القين: الحداد.

مازِن بن النجار، وترجع به إلى أُمِّهِ، وأعطى رسول الله ﷺ أمّ بُرْدَة قِطعة من نَخْل، فناقلت بها إلى مال عبد الله بن زَمْعَة. وتوفي إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة عشر، وقد بلغ سِتة عشر شهرًا؛ مات في بني مازِنٍ عند ظِئْرِه(١) أمّ بُرْدَة، وهي خَوْلَة بنت المنذِر بن لَبيد، وغَسَّلته ودُفِن بالبقِيع. وقال رسول الله ﷺ: «لو عاش لوضعت الجزية عن كل قبطيّ». وقال أيضًا: «لو عاش إبراهيم ما رَقّ له خالٌ». وفي حديث أنس بن مالك تصريح أن إبراهيم إنما مات عند ظئره أمّ سَيْف؛ فإنه يقول: فانطلق رسول الله ﷺ وانطلقت معه، فصادَفْنا أبا سَيْف ينفخ في كِيرِه، وقد امتلأ البيت دُخَانًا، فأسرعتُ في المشي بين يدي رسول الله ﷺ، حتى انتهيت إلى أبي سَيْف فقلت: يا أبا سَيف، أمسكْ، جاء رسول الله ﷺ، فأمسك، فدعا رسول الله ﷺ بالصَّبي فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول، قال: فلقد رأيته يَكِيدُ(٢) بنَفْسه، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال: «تدمع العين ويحزَن القلب ولا نقول إلا ما يُرضي الربّ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» وقال أبو عمر بن عبد البر: ثبت أن رسول الله ﷺ بكى على ابنه إبراهيم من غير رفع صوت، وقال: «تدمَع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الربّ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». وعن عطاء، عن جابر قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمٰن بن عوف، فأتى به النخل(٣)، فإذا ابنه إبراهيم في حجر أُمِّه وهو يَجُود بنَفْسه، فأخذه رسول الله ﷺ فوضعه في حِجْره، ثم قال: «يا إبراهيم إنا لا نغني عنك من الله شيئًا»؛ ثم ذَرَفَتْ عيناه، ثم قال: «يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حَقٌّ ووَعْد صِدْقٌ، وأن آخرنا سيلحق أوّلنا لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزَن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ». قالوا: ووافق موت إبراهيم كُسُوف الشمس، فقال قوم: إن الشمس انكسفت لموته، فخطبهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يَخْسِفان لموت أحد ولا لحياته؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة». وقال ﷺ حين تُوفِّي إبراهيم: «إن له مُرْضِعًا في الجنة تُتم رضاعه». وصلّى عليه رسول الله ﷺ، وكَبَّر أربعًا، قال ابن عبد البر: هذا قول جمهور العلماء، وهو الصحيح، قال: وقد قيل إن الفضل بن عباس غَسّل إبراهيم، ونزل في قبره مع أُسَامَة بن زيد،

(١) الظئر: المرضع.
(٢) يكيد بنفسه: أي يجود بها.
(٣) النخل: بالفتح ثم السكون: منزل من منازل بني ثعلبة من المدينة على مرحلتين، وقيل: موضع بنجد من أرض غطفان مذكورة في غزاة ذات الرقاع، وهو موضع في طريق الشام من ناحية مصر... (معجم البلدان لياقوت).

ورسول الله ﷺ جالس على شَفِير القبر، قال الزبير[1]: ورُشّ قبره، وأُعْلِم فيه بعلامة، وهو أول قبر رُشّ عليه.

فلنذكر بنات رسول الله ﷺ، ومن تزوجهنّ، وما ولدن ووفاتهنّ، وهنّ أربع:

زينب بنت رسول الله ﷺ

هي أسَنّ بناته رضي الله عنهنّ. قال أبو عمر بن عبد البر: وُلِدت زينب بنت رسول الله ﷺ في سنة ثلاثين من مولد النبيّ ﷺ، حكاه عن محمد بن إسحاق السّرّاج عن عبيد الله بن محمد بن سليمان الهاشمي، وتزوج زينب أبو العاص بن ربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس، وهو ٱبن خالتها ـ أمه هالة بنت خُوَيْلد ـ قبل أن يُنَزَّل[2] على رسول الله ﷺ، وفرّق بينهما الإسلام.

وقد ذكرنا من خبر ٱبن العاص وأسْره في غزوة بَدْر وإطلاقه، وسقنا ذلك كله هناك، وخبر إسلامه، وأنّ رسول الله ﷺ ردّ زينب عليه بغير مهر جديد، ولا نكاح جديد. وقيل: بل بمهر جديد ونكاح جديد ـ والله تعالى أعلم ـ وولدت له عليًا مات صغيرًا، وأُمَامَة وهي التي حملها رسول الله ﷺ في الصلاة، وعاشت أُمَامَة حتى تزوجها علي بن أبي طالب بعد موت فاطمة، فكانت عنده حتى أُصِيب، فخلف عليها المغيرة بن يزيد بن الحارث بن عبد المطلب، فتوفيت عنده، وماتت زينب في سنة ثمان من الهجرة.

قال أبو عمر: وكان سبب موتها أنها لما خرجت من مكة إلى رسول الله ﷺ، عَمِد لها هَبّار بن الأسْوَد ورجل آخر فدفعها أحدهما فيما ذكروا، فسقطت على صخرة فَأَسْقَطَت وأَهْرَاقت الدماءُ، فلم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت رضي الله عنها.

ورُقَيّة بنت رسول الله ﷺ

قال أبو عمر بن عبد البر[3]: ذكر أبو العباس محمد بن إسحاق السرّاج، قال:

---

(١) المراد الزبير بن بكار وقد تقدّمت ترجمته.

(٢) أي قبل أن ينزل القرآن على النبيّ ﷺ بتحريم المسلمات على الكفار... (سورة الممتحنة آية ١٠).

(٣) أبو عمر: هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، المالكي، (أبو عمر) محدث، حافظ، مؤرخ، عارف بالرجال والأنساب، مقرىء، فقيه، نحوي. ولد بقرطبة في رجب سنة ٣٦٨هـ. وروى عن خلف بن القاسم وسعيد بن نصر وعبد الله بن أسد وغيرهم... من تصانيفه: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو. كانت وفاته في سنة ٤٦٣ هجرية... (معجم المؤلفين ١٣ : ٣١٥).

سمعت عبيد الله بن محمد بن سليمان بن جعفر بن سليمان الهاشمي يقول: ولدت رُقَية بنت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ ٱبن ثلاث وثلاثين سنة، وكانت رقية عند عُتْبَة بن أبي لَهَب، وأختها أمّ كُلْثُوم عند عُتَيْبَة بن أبي لهب؛ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ ـ السورة ـ قال لهما أبوهما أبو لهب وأمهما أُمّ جَمِيل بنت حَرْب بن أمية، حَمّالة الحطب: فارقا ٱبْنَتَيْ محمد، وقال أبو لهب: رأسي من رَأسَيْكما حرام إن لم تفارقا ٱبنتي محمد، ففارقاهما، فتزوّج عثمان بن عَفّان رقية بمكة، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، وولدت له هناك ٱبنًا فسماه عبد الله وبه كان يُكنى، فبلغ الغلام ستّ سنين، فنقر عينَه دِيكٌ وتَوَرّمَ وجهه فمرض ومات. وماتت رقية رضي الله عنها في شهر رمضان، على رأس تسعة عشر شهرًا من مُهاجَر رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ في غزوة بَدْر، ودفنت عند وصول زيد بن حارثة بالبشارة بوقعة بدر، وكانت قد أصابتها الحَصْبَة، وتخلّف عثمان بن عَفّان رضي الله عنه عن غزوة بَدْر بسبب مرضها، بأمر رسول الله ﷺ.

وفاطمة بنت رسول الله ﷺ

قال أبو عمر بن عبد البر: كانت فاطمة هي وأختها أمّ كُلْثُوم أصغر بنات رسول الله ﷺ، وٱختلف في الصُغْرى منهما. وقال ٱبن السَّراج: سمعت عبيد الله الهاشمي يقول: ولدت فاطمة رضي الله عنها في سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ، وزَوَّجها رسولُ الله ﷺ من عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد وقعة أُحُد. وقيل: إنه تزوجها بعد أن ٱبتنى رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها، بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجه إياها بتسعة أشهر ونصف، وكانت سِنّها يوم تزوجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف. قال أبو عمر: وٱختلف في مَهْرِه إياها، فروى أنه مَهَرَها دِرْعه، وأنه لم يكن له ذلك الوقت صفراء ولا بيضاء، وقيل: تزوجها على أربعمائة وثمانين درهمًا فأمر رسول الله ﷺ أن يجعل ثلثها في الطِّيب، قال: وزعم أصحابنا أن الدِّرْع قدَّمها عليٌّ من أجل الدخول، بأمر رسول الله ﷺ إياه بذلك، فولدت رضي الله عنها له حَسَنًا وحُسَيْنًا ومُحْسِنًا فذهب مُحْسِن صغيرًا. وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى عليّ رضي الله عنه قال: لما وُلِد الحسن جاء رسول الله ﷺ فقال: «أروني ٱبني ما سمّيتموه»؟ قلت: سميته حَرْبًا، قال: «بل هو حسن» فلما وُلِد الحسين قال: «أروني ٱبني ما سمّيتموه»؟ قلت: سميته حربًا، قال: «بل هو حُسَيْن» فلما وُلِد الثالث جاء النبي ﷺ فقال: «أروني ٱبني ما سميتموه»؟ قلت سميته حربًا، قال: «بل مُحْسِن»، ثم قال: «إني سميتهم بأسماء ولد هارون شَبَّر

وشُبَيْر ومُشَبِّر». وولدت له رُقَيّة وزينب وأمّ كُلثُوم، فهلكت رُقَيّة، ولم تبلغ، وتزوج زينب عبد الله بن جعفر فماتت عنده، وولدت له علي بن عبد الله بن جعفر، وتزوج أمّ كُلثُوم عمر بن الخطاب فولدت له زيد بن عمر، ثم خلف عليها بعده عون بن جعفر فلم تلد له حتى مات، وخلف عليها بعده محمد بن جعفر فولدت له حارثة ومات عنها. فخلف عليها عبد الله بن جعفر فلم تلد له شيئًا وماتت عنده، وقيل: بل تُوفّي عنها، وماتت فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ بثلاثة أشهر، وقيل: بستة أشهر، وقيل: بثمانية.

وأُمّ كُلثُوم بنت رسول الله ﷺ

قد ذكرنا الآختلاف في أيهما أصغر سِنًّا هي أو فاطمة، وكانت عند عُتَيْبة بن أبي لَهَب، فلما قال له أبواه ولأخيه ما قالا طَلّقا بنتي رسول الله ﷺ ولم يبنيا بهما، وجاء عُتَيْبَة حين فارق أمّ كُلثُوم إلى النبيّ ﷺ وقال: كفرت بدينك وفارقت آبنتك وسطا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا إني أسأل الله أن يسلط عليك كلبًا من كلابه» وكان خارجًا إلى الشام تاجرًا مع نَفَر من قريش، حتى نزلوا مكانًا من الشام يقال له الزَّرْقاء ليلًا، فأطَافَ بهم[1] الأسد تلك الليلة، فجعل عُتَيْبَة يقول: يا ويل أُمِّه، هو والله آكله بدعوة محمد، قاتلي آبن أبي كَبْشَة وهو بمكة وأنا بالشام. وقال أبو لهب: يا معشر قريش، أعينونا هذه الليلة، فإني أخاف دعوة محمد، فجمعوا أحمالهم وفرشوا لعُتَيْبَة في أعلاها وناموا حَوْلَه، فقيل: إن الأسد آنصرف عنهم حتى ناموا وعتيبة في وسطهم، ثم أقبل يتخطّاهم ويتَشَمّمهم حتى أخذ برأس عُتَيْبة ففَدَغه[2]. قال أبو عمر: ولما ماتت رقية تزوج عثمان بن عَفّان بأمّ كُلثوم في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة، وبنى عليها في جمادى الآخرة من السنة، وتوفيت أمّ كُلثوم رضي الله عنها في السنة التاسعة من الهجرة، ولم تلد لعثمان شيئًا، وكانت وفاتها في شعبان، وقال رسول الله ﷺ لعثمان: «لو كانت عندنا ثالثة زوّجناكها يا عثمان» وصلّى عليها رسول الله ﷺ ونزل في حفرتها علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس وأسامة بن زيد. وقد رُوي أن أبا طلحة الأنصاري آستأذن رسول الله ﷺ أن ينزل معهم في قبرها فأذن له. وغسّلتها أسماء بنت عُمَيْس وصَفِيّة بنت عبد المطلب، وهي التي شهدت أمّ عَطِيّة غُسْلها، وحكت قول رسول الله ﷺ: «آغسلنها وترًا ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك» الحديث. قال: وجلس رسول الله ﷺ على قبر أم كُلثُوم.

---

(١) أطاف بهم: أحاط بهم. (٢) فدغه: شدخه وكسره.

ذكر أعمام رسول الله ﷺ

كان لرسول الله ﷺ من العمومة أحد عشر، أولاد عبد المطلب بن هاشم، وهم:

الحارث

وبه كان يُكنى؛ لأنه أكبر ولده، ومن ولد الحارث وولد ولده جماعة لهم صحبة من النبيّ ﷺ، منهم أبو سفيان بن الحارث، أسلم عام الفتح كما ذكرنا في غزوة الفتح وشهد حُنَيْنًا، ونَوْفَل بن الحارث هاجر وأسلم أيام الخَنْدَق، وعبد شمس وسماه رسول الله ﷺ عبد الله.

قُثَم بن عبد المطلب

وهو أخو الحارث لأبويه؛ مات صغيرًا.

الزبير بن عبد المطلب

وكان من أشراف قريش. وٱبنه عبد الله بن الزبير شهد حُنَيْنًا وثبت يومئذ واسْتُشهِد بأَجْنَادِين(١)، وضُبَاعة بنت الزبير، لها صحبة، وأمّ الحكم بنت الزبير، روت عن النبيّ ﷺ.

حمزة بن عبد المطلب

كان يقال له: أسد الله وأسد رسوله، ويكنى أبا عمارة وأبا يَعْلى. وهو أخو رسول الله ﷺ من الرّضاع. وقد قدّمنا في أنباء هذه السيرة خبر إسلامه ومقتله في غزوة أُحُد. ولم يكن له إلا ٱبنةٌ واحدة. وقيل: ٱبنتان. وقد ذكرناهما فيمن عُرض على رسول الله ﷺ من النساء فأباهنّ.

---

(١) أجنادين: بالفتح ثم السكون، ونون وألف، وتفتح الدال فتكسر معها النون، فيصير بلفظ التثنية، وتكسر الدال وتفتح النون بلفظ الجمع: موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين... وقيل: إن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين، كانت به وقعة، بين المسلمين والروم مشهورة... (معجم البلدان).

العبّاس بن عبد المُطّلِب

كان يكنى أبا الفضل بابنه الفضل بن العبّاس، وكان العباس أسَنّ من رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بثلاث سنين، وأمُّه نَتْلة، ويقال: نُتَيْلَة بنت جَناب بن كُلَيْب بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مَناة بن عامر وهو الضَّحْيَان بن سعد بن الخَزْرَج بن تَيْم الله بن النَّمِر بن قاسِط. وهي أوّل عربية كَسَت البيت الحرام الحريرَ والدِّيباج[١] وأصناف الكُسْوَة. وذلك أن العباس ضَلّ وهو صَبيٌّ، فنذرتْ إن وَجدَتْه أن تكسو البيت الحرام، فوجدته ففعلت.

وقد تقدّم من خَبَر العباس في غزوة بَدْر عند أسره، وقوله لرسول الله ﷺ: إنّي كنتُ مُسْلمًا، وإن القوم استكرهوني على الخروج.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أسلم العباس قبل خَيْبَر وكان يكتم إسلامه. قال: ويقال إنه أسلم قبل بَدْر، وكان يكتب إلى رسول الله ﷺ بأخبار المشركين، وكان يُحِبّ أن يَقْدم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إن مُقامَك بمكة خيرٌ» فلذلك قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه أُخرج كرهًا». وكان العباس أنْصَر الناس لرسول الله ﷺ بعد أبي طالب، ووَلِي السِّقايَة بعد أبي طالب وقام بها، وكان رسول الله ﷺ يُكْرم العباس بعد إسلامه ويُعَظِّمه ويُجِلّه، ويقول: «هذا عمي وصِنْو أبي». وكان العباس جَوَادًا مُطعِمًا، وَصُولاً للرَّحِم، ذا رَأْي حسن، ودَعْوَة مَرْجُوّة.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس في سنة سبع عشرة وذلك عام الرَّمَادَة[٢]، وكانت الأرض أجْدَبَت إجْدابًا شديدًا. فقال كَعْب لعمر: يا أمير المؤمنين، إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعُصْبَة الأنبياء. فقال عمر رضي الله عنه: هذا عَمُّ النبيّ ﷺ وصِنْوُ أبيه، وسَيِّد بني هاشم. فمشى إليه عمر فشكا إليه ما فيه الناس. ثم قال: اللهم إنا قد تَوَجَّهْنا إليك بعَمِّ نبينا وصِنْو أبيه، فاسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانِطِين. ثم قال: يا أبا الفَضْل قم فادْعُ. فقام العباس فقال بعد حمد الله والثناء عليه: اللهم إن عندك سَحابًا وعندك ماء، فانْشُر السحاب، ثم أنزل الماء منه علينا، فاشْدُد به الأصل، وأطِل به الفَرْع، اللهم إنك لم تنزل بَلاء إلا بذنب، ولم تَكْشِفه إلا بتَوْبَة، وقد توَجَّه القوم بي إليك فاسقنا الغَيْث، اللهم شفِّعنا

---

(١) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير (فارسي معرب).

(٢) عام الرمادة: سمي عام الرمادة لتتابع الجدب حتى صير الأرض والشجر مثل لون الرماد.

في أنفسنا وأهلينا، اللهم إنا شُفَعاء عمن لا يَنْطق من بَهائمنا وأنعامنا، اللهم أسقنا سقيًا وَادِعًا، نافِعًا طَبَقًا(١) سَحًا(٢) عامًا. اللهم لا نرجو إلا إيّاك، ولا ندعو غيرك، ولا نرْغَب إلا إليك. اللهم إليك نشكو جُوع كل جائع، وعُرْيَ كل عارٍ، وخوف كل خائف، وضَعْف كل ضعيف. في دعاء كثير.

قال ٱبن عبد البر: وهذه الألفاظ كلها لم تجىء في حديث واحد، ولكن جاءت في أحاديث جمعتها وٱختصرتها ولم أخالف شيئًا منها، وفي بعضها: فسقوا والحمد لله. وفي بعضها قال: فأَرْخَتِ السماء عَزَالِيَها(٣) فجاءت بأمثال الجبال، حتى استَوَت الجُفَرُ(٤) بالآكَام، وأَخْصَبَت الأرض، وعاش الناس. فقال عمر: هذا والله الوَسِيلَة إلى الله والمكان منه. وقال حَسّان بن ثابت في ذلك: [من الكامل]

سَأَل الإمامُ وقَدْ تَتابع جَدْبُنا ... فسقى الغمامُ بغُرَّة العَبّاسِ
عَمُّ النبي وصِنْو والده الذي ... وَرِثَ النّبِيّ بذاك دُون النّاسِ
أحْيَا الإلهُ به البلاد فأصْبَحَت ... مُخْضَرَّة ٱلأجْنابِ بعد الْيَاسِ

وقال الفضل بن عباس بن عُتْبَة بن أبي لَهَب: [من الطويل]

بعمِّي سقى الله الحِجازَ وأهلَه ... عَشِيّة يَسْتَسْقِي بشَيْبَتِه عُمَرْ
تَوجّه بالعباس في الجَدْبِ راغبًا ... فما كَرَّ حتّى جاء بالدِّيمَة المَطَرْ(٥)

وتُوفي العباس رضي الله عنه بالمدينة يوم الجمعة لٱثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رَجَب. وقيل: من شهر رَمَضان سنة ٱثنتين وثلاثين في خلافة عُثْمان بن عَفّان وصلّى عليه عثمان، ودفن بالبَقِيع وهو ٱبن ثمان وثمانين سنة. وقيل: تسع وثمانين سنة. وقال خَلِيفَة بن خَيّاط: كانت وفاة العباس سنة ثلاث وثلاثين، ودخل قبره ٱبنه عبد الله. وكان للعباس من الولد: الفَضْل وهو أكبر أولاده وبه كُنّي، وعبد الله، وعُبَيْد الله، وقُثَم. ولهم صحبةٌ. وعبد الرحمٰن ومَعْبَد وُلِدا على عهد رسول الله ﷺ استشهدا بإفْرِيقِيّة في خلافة عُثْمان بن عَفّان، وأمّ حبيب، كلهم من أمّ الفَضْل لُبَابَة بنت الحارث بن حَزْن الهلالية، وهي أخت مَيْمُونَة زوج النبيّ ﷺ، يقال: إنها أول ٱمرأة أسلمت بعد خديجة، وكانت من المُنْجِبَات، وفيها يقول عبد الله بن يزيد الهلالي: [من الرّجز]

---

(١) طبقًا: أي مالئًا للأرض مغطيًا لها. (٢) سحا: أي شديد الانصباب.
(٣) العزالى: واحدتها عزلاء، وهي فم المزادة الأسفل.
(٤) الجفر: واحدتها جفرة، وهي الحفرة الواسعة المستديرة.
(٥) الديمة: المطر يطول زمانه في سكون. جمع ديم.

مَـا وَلَـدَتْ نَـجِـيـبَـةٌ مِـن فَـحْـلِ ... بِـجَـبَـلٍ نَـعْـلَـمُـه وسَـهْـلِ
كَـسِـتَّـةٍ مِـن بَـطْـنِ أُمِّ الـفَـضْـلِ ... أَكْـرِم بِـهَـا مِـن كَـهْـلَـةٍ وكَـهْـلِ
عَـمِّ الـنبي الـمـصـطفى ذي الْفَـضْـلِ ... وخـاتـم الـرُّسْـلِ وخَـيْـرِ الـرُّسْـلِ

وكان له من غير أمّ الفضل أربعة ذكور، وهم: عَوْن، والحارث أمّه من هذيل. وكَثِير وتَمّام أمهما أمُّ وَلَدٍ، وكان أصغر أولاد العباس فكان العباس يحمله ويقول: [من الرّجز]

تَـمّـوا بـتَـمّـام فـصـاروا عَـشَـرَهْ ... يـا رَبِّ فـاْجْـعَـلْـهُـم كِـرَامًـا بَـرَرَهْ
* وٱجـعـل لـهـم ذِكْـرًا وأَنْـمِ الـثَّـمَـرَهْ *

ويقال: ما رؤيت قبورٌ أشد تباعدًا بعضها من بعض من قبور بني العباس، ولدتهم أمهم أمّ الفضل في دار واحدة، استشهد الفَضْل بأجْنَادين، ومات مَعْبَد وعبد الرحمٰن بإفريقية، وتوفّي عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقُثَم بسَمَرْقَنْدَ وكَثِير بيَنْبُع[(١)]. وتُوفّي العباس بعد أن كفَّ بصرُه. ولم يُسلم من أعمام رسول الله ﷺ إلا حَمْزَة والعباس رضي الله عنهما.

والسادس من عمومته ﷺ:

أبو طالب

وٱسمه عبد مناف وهو أخو عبد الله أبي النبيّ ﷺ لأبويه. وعاتِكَةُ صاحبة الرُّؤْيَا في شأن بَدْر، أمهم فاطِمة بنت عَمْرو بن عائِذ بن عِمْران بن مَخْزُوم. وقد تقدّم من أخباره ونصرته لرسول الله ﷺ ما نستغني عن إعادته في هذا الموضع. وكان له من الولد طالبٌ مات كافرًا، وعَقِيل وجَعْفَر وعليّ وأمّ هانىء لهم صحبة، وجُمَانَةُ. وحكى أبو عمر بن عبد البر: كان عليّ بن أبي طالب أصغر من أخيه جعفر بعشر سنين، وكان جعفر أصغر من عَقِيل بعشر سنين، وكان عَقيل أصغر من طالب بعشر سنين.

---

(١) ينبع: هي عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى من المدينة على سبع مراحل، وهي لبني حسن بن عليّ وكان يسكنها الأنصار وجهينة وليث، وفيها عيون عذاب غزيرة، وواديها يليل، وبها منبر، وهي قرية غناء وواديها يصب في غيقه... (معجم البلدان).

والسابع من عمومة رسول الله ﷺ:

أبو لهب

وٱسمه عبد العزى كنّاه أبوه بذلك لحسن وجهه، ومن أولاده عُتْبَة، ومُعَتِّب ثبتا مع رسول الله ﷺ يوم حُنَيْن، وعُتَيْبَة قتله الأسد بالزَّرْقَاء كما تقدّم.

الثامِن:

عبد الكعبة

وقيل: هو المقوّم، ومنهم من جعل المقوّم غير عبد الكعبة فجعل عمومته اثني عشر.

والتاسِع:

حَجْل

وٱسمه المُغِيرة.

والعاشر:

ضِرَار

وهو أخو العباس لأَبَوَيْه.

والحادي عشر:

الغَيْدَاق

سمي بذلك لأنه كان أكرم قريش، وأكثرهم إطعامًا. ومنهم من جعل الغَيْداق حَجْلًا وعدّهم عشرة. حكاه ٱبن عبد البر. وقد عدّ الزبير بن بَكّار أولاد عبد المطلب ثلاثة عشر، وعدّ المقوّم غير عبد الكعبة، وجعله شقيق حمزة وحَجْل وصَفيّة. والله أعلم بالصواب.

ذِكر عمّات رسول الله ﷺ

كان له من العمّات ﷺ سِتٌّ: الأولى:

صَفيّة بنت عبد المطلب

وأمّها هَالَة بنت وُهَيْب بن عبد مَنَاف ابن زُهْرَة، وهي شقيقة حمزة والمقَوّم وحَجْل، كانت صفية في الجاهلية تحت الحارث بن حَرْب بن أمية بن عبد شَمْس، ثم

هلك عنها وتزوّجها العَوّام بن خُوَيْلد بن أسد فولدت له الزُّبَير والسّائِب وعبد الكعبة. وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة ولها ثلاث وسبعون سنة. ودفنت بالبَقِيع بفِناء دار المغيرة بن شُعْبَة، ولها هجْرة.

وعاتِكَةُ بنت عبد الْمُطّلِب

ٱختلف في إسلامها، وهي صاحبة الرؤيا، وكانت عند أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، فولدت له عبد الله أسلم وله صحبة، وزُهَيْرًا، وقُرَيْبَة الكبرى.

وأرْوَى بنت عبد المطلب

وقد ٱختلف أيضًا في إسلامها، وكانت عند عُمَيْر بن وَهْب بن عبد الدّار بن قصيّ، فولدت له طُلَيْب بن عُمَيْر، وكان من المهاجرين الأوّلين، شهد بدرًا وقتل بأجنَادَين شهيدًا.

وأُمَيْمة بنت عبد المطلب

كانت عند جَحْش بن رِيَاب، ولدت له عبد الله بن جَحْش قتل بأُحد شهيدًا، وأبا أحمد الأعمى الشاعر وٱسمه عبد، وزينب زوج النبيّ ﷺ، وأمّ حبيبة وحَمنَة، كلهم له صحبة، وعُبَيْد الله بن جَحْش، أسلم ثمّ تَنَصّر ومات بالحبشة كافرًا.

وبَرّة بنت عبد المطلب

وكانت عند عبد الأسَد بن هِلال بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم، فولدت له أبا سَلَمَة وٱسمه عبد الله، وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول الله ﷺ.

وأُمّ حَكِيم البَيْضاء بنت عبد المطلب

وكانت عند كُرَيْز بن رَبِيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، فولدت له أرْوَى بنت كُرَيْز، وهي أمّ عثمان بن عفان.

هؤلاء أعمامه ﷺ وعمّاته؛ أسلم منهم حمزة والعباس وصفية بلا ٱختلاف، وٱختلف في عاتِكة وأرْوَى، وبقيتهم ماتوا على شركهم. قال أبو عمر بن عبد البر: كان عبد الله أبو رسول الله ﷺ وأبو طالب والزُّبَير وعبد الكعبة وأمّ حكيم وأُمَيْمة وأرْوَى وعاتِكة، أمهم كلهم فاطِمَة بنت عمرو بن عَائِذ بن عمران بن مخزوم، وكان حمزة والمقوّم وحَجْل وصَفِية أمهم هَالة بنت وُهَيْب، وكان العباس وضِرَار وقُثَم أمّهم

نُتَيْلَة، وأمّ الحارث سَمْرَاء بنت جُنَيْدب بن جُنْدُب بن حُرْثَان بن سُوَاءَة بن عامر بن صَعْصَعَة، وقيل: صفية بنت جُنْدب بن حُجَيْر بن رِيَاب بن حبيب بن سُوَاءَةَ، وأمّ أبي لهب لُبْنَى بنت هاجَر بن خُزَاعَة. والله تعالى أعلم.

فلنذكر خدمه ﷺ:

ذكر خدم رسول الله ﷺ الأحرار

وهم أحد عشر رجلاً:

أَنَسُ بن مالك بن النَّضْر

ابن ضَمْضَم بن زيد الأنصاري النجّاري، كان يكنى أبا حمزة، وأمّه أمّ سليم بنت مِلْحَان الأنصارية. خدم رسول الله ﷺ وهو ٱبن عشر سنين، عند مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة للهجرة، وٱختلف في وقت وفاته فقيل: مات في سنة إحدى وتسعين، وقيل: سنة ٱثنتين وتسعين، وقيل: سنة ثلاث وتسعين. قال خليفة بن خياط: مات أنس وله مائة وثلاث سنين، وقيل: كانت سنه إذ مات مائة وعشر سنين، وقيل: غير ذلك. وأقل ما قيل فيه مائة سنة إلا سنة، حكى هذه الأقوال أبو عُمر بن عبد البرّ؛ قال: ويقال إنه آخر من مات بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ، ويقال: إنه قدّم من صُلْبه وولد ولده نحوًا من مائة قبل موته، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللهم ٱرزقه مالاً وولدًا وبارك له» قال أنس: فإني لمن أكثر الأنصار مالاً. ويقال: إنه ولد لِأَنَس ثمانون ولدًا منهم ثمانية وسبعون ذكرًا وأنثيان.

هِنْد وأَسْماءُ ٱبنا حارثة

ٱبن هند الأسْلَمِيان؛ شهدا بيعة الرضوان في إخوة لهما ستةٍ، وهم: هِنْد وأسْماء وخَراش وذُؤَيْب وفَضَالة وسَلَمَة ومالِك وحُمْرَان، ولم يشهدها أخوةٌ في عددهم غيرهم، ولَزِم منهم النبيّ ﷺ هِنْد وأسْماء، وكانا من أهل الصُّفَّة، ومات هِنْد بالمدينة في خلافة معاوية، وتوفي أسْماء في سنة ست وستين. بالبصرة وهو ٱبن ثمانين سنة.

رَبِيعَة بن كَعْب الأسْلَمي

وهو ربيعة بن كعب بن مالك بن يَعْمَر الأسلميّ أبو فِرَاس، وكان من أهل الصُّفَّة، وكان يلزم رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وصحبه قديمًا، ومات في سنة ثلاث وستين بعد الحرّة.

عبد الله بن مسعود

ٱبن غافِل بن حبِيب بن شَمْخ بن فارِ بن مخزوم بن صاهِلَة بن كاهِل بن الحارث بن تَميم الهُذَليّ، وكنيته أبو عبد الرحمٰن، وهو حليف بني زُهْرَة، وأمه: أمّ عَبْد بنت عبد وَدٍّ بن سواء بن قويم بن صاهلة بن كاهل بن هُذَيل. أسلم عبد الله في أوّل الإسلام، وكان سبب إسلامه أنّ رسول الله ﷺ مرّ به وهو يرعى غنمًا لعُقْبَة بن أبي مُعَيْط، فأخذ شاة حائلاً من تلك الغنم فدَرّت عليه لبنًا غزيرًا فأسلم، ثم ضَمّه رسول الله ﷺ إليه، وكان يلبسه نعلَيْه إذا قام، وإذا جلس جعلهما في دُرّاعته[١] حتى يقوم رسول الله ﷺ، وكان يمشي أمام رسول الله ﷺ إذا مشى، ويستره إذا ٱغتسل، ويوقِظه إذا نام، وقال له رسول الله ﷺ: «إذْنُك عليّ أن يُرفَع الحِجابُ وأن تسمع سِوادِي[٢] حتى أنهاك». وكان يعرف في الصحابة بصاحب السِّوَاد والسِّواكِ، وهو أحد من شهِد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، ومات ٱبن مسعود بالمدينة في سنة ٱثنتين وثلاثين، وصلّى عليه عثمان بن عفان، وقيل: عَمَّار، وقيل: الزبير بن العوّام ودفنه بالبقِيع ليلاً بإيصائه إليه بذلك، ولم يعلم عثمان فعاتب الزبير، وكان يوم تُوفّي ٱبن بِضع وسِتين سنة.

عُقْبَة بن عامر بن عَبْس

الجُهَني من جُهَيْنَة بن زيد بن سَوْد بن أسْلَم بن عمرو بن الحافِ بن قُضَاعة، وكان يكنى أبا حَمّاد، وقيل: أبا أسد، وقيل: أبا عمرو، وقيل: أبا سُعاد، وقيل: أبا الأسود، وقيل: أبا عمّار، وأبا عامر. وكان عقبة بن عامر صاحب بغلة رسول الله ﷺ، يقودها به في الأسفار. قال أبو عمر: سكن عقبة بن عامر مصر، وكان واليًا عليها، وٱبتنى بها دارًا، وتوفّي في آخر خِلافة معاوية.

بِلال بن رَبَاح المؤذِّن

مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما، وكان يكنى أبا عبد الله، ويقال: أبا عبد الكريم، وقيل: أبا عبد الرحمٰن، وقيل: أبا عمرو، وقد تقدّم خبره في أوّل السيرة. وأمه حَمَامَة، وكان خازنًا لرسول الله ﷺ، وآخى بينه وبين عُبَيْدة بن

---

(١) الدراعة: ثوب من صوف، أو جبة مشقوقة المقدم.

(٢) يقال: ساودت الرجل: إذا ساررته.

الحارث بن عبد المطلب، وكان بلال رضي الله عنه صادق الإسلام طاهر القلب، وكان من مُوَلَّدِي السَّرَاة[١]. مات بدِمَشْق سنة عشرين، وهو ٱبن ثلاث وستين سنة، ودفن بمقبرتها عند الباب الصغير، وقيل: مات سنة إحدى وعشرين وهو ابن سبعين سنة.

سَعْد مَوْلى أبي بكر الصدّيق

رضي الله عنهما، خدم رسول الله ﷺ، وروى عنه الحسن البصريّ، ويعدّ في أهل البصرة.

ذو مِخْمَر ابن أخي النّجَاشي

ويقال: ٱبن أخته، ويقال فيه: ذو مِخْبَر، خدم رسول الله ﷺ، قال ٱبن عبد البر: وقد عدّه بعضهم في موالي رسول الله ﷺ، له أحاديث خرّجها أهل الشام وهو معدود فيهم.

بُكَيْر بن شَدّاخ اللَّيْثي

وقيل فيه: بَكْر، عدّه الشيخ أبو محمد الدمياطي في خدم رسول الله ﷺ.

أبو ذَرّ الغِفَارِيّ

ويقال: أبو الذرّ، والأوّل أشهر. واختلف في ٱسمه ٱختلافًا كثيرًا، فقيل: جُنْدُب بن جُنَادَة، وهو أصحّ ما قيل فيه إن شاء الله. وذكر أبو عمر بن عبد البر الٱختلاف في ٱسمِه، وترجم عليه بعد ذلك: جُنْدب بن جُنادة بن سفيان بن عبيد بن الواقِفَة بن حَرَام بن غِفَار بن مُلَيْل بن ضَمْرة بن كِنَانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكة بن إلْيَاس بن مُضَر بن نِزار الغِفاريّ، وأمّه رَمْلَة بنت الوَقِيعَة، من بني غِفارَ، تقدّم خبر إسلامه في وفد غِفار في أوّل هذا السِّفْر، وأقام أبو ذرّ عند قومه بعد إسلامه حتى مضت بَدْرٌ وأُحُدٌ والخَنْدَقُ، ثم قدم على رسول الله ﷺ فصحبه إلى أن مات. وقد ذكرنا قِصة أبي ذرّ في غزوة تَبُوكَ، وقول رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذرّ يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» وكان من خبره أنه خرج بعد وفاة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى الشام، فلم يزل به حتى كانت خلافة عثمان بن عفان، فٱستقدمه عثمان لشكوى

(١) السراة: موضع بين مكة واليمن كما سيأتي للمؤلف.

معاوية، وأسكنه الرَّبَذَة[١]، فمات بها وصلّى عليه عبد الله بن مسعود، وكان قد أقبل من الكوفة فدعي إلى الصلاة عليه، فقال: من هذا؟ فقيل: أبو ذرّ، فبكى طويلاً وقال: أخي وخليلي عاش وحده، ومات وحده، ويبعث وحده، طُوبَى له. وذلك في سنة ست وثلاثين من الهجرة. روى عن أبي ذرّ جماعة من الصحابة، وكان من أوْعِية العلم المُبرِّزين في الزهد والورع والقول بالحق؛ سئل عليّ رضي الله عنه عن أبي ذر فقال: ذاك رجل وَعَى علمًا عجز عنه الناس، ثم أوْكأ[٢] عليه ولم يخرج شيئًا منه. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أظَلَّت الخَضْرَاءُ[٣] ولا أقلّت[٤] الغَبْرَاءُ من ذِي لَهْجَة أصدقَ من أبي ذرّ» و«من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى تواضع أبي ذرّ». وفضائله كثيرة رضي الله عنه.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في خدَم رسول الله ﷺ «أسْلَع بن شَرِيك» الأعوَجي التميمي خادم رسول الله ﷺ، وصاحب راحلته، وأبو سَلام الهاشمي، خادم رسول الله ﷺ ومولاه.

ذكر موالي رسول الله ﷺ

قال الشيخ أبو محمد الدمياطي رحمه الله تعالى: ومواليه من الرجال أحد وثلاثون، وهم:

زيد بن حارثة بن شَرَاحيل الكلبي

وكان لخديجة فٱستوهبه رسول الله ﷺ منها وأعتقه، وقد تقدّمت أخباره ومقتله في مُؤْتَة.

أُسَامة بن زيد بن حارثة

وأمه أمّ أيْمَن، بَرَكة مولاة رسول الله ﷺ، ومات أسامة في خلافة معاوية، في سنة ثمان وخمسين، وقيل: سنة تسع، وقيل: سنة أربع وخمسين، وصححه أبو عمر. وكان عمره يوم مات رسول الله ﷺ تسع عشرة سنة، وقيل: عشرين، وقيل:

(١) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة... (معجم البلدان).

(٢) أوكأ: شدّ عليه بوكأ، وهو الحبل الذي يشد به فم القربة.

(٣) الخضراء: أي السماء.

(٤) أقلت: حملت.

ثماني عشرة، وسكن بعد رسول الله ﷺ وادي الْقُرى(١)، ثم رجع إلى المدينة فمات بالجُرْف.

ثَوْبَان بن بُجْدُد

وكنيته أبو عبد الله على الأصح، وهو من أهل السَّرَاة، والسراة موضع بين مكة واليمن، وقيل: من حِمْير، وقيل: إنه من حَكَم بن سَعْد العَشِيرة، أصابه سِبَاء فاشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه، ولم يزل معه في السفر والحضر إلى أن توفي رسول الله ﷺ، فخرج إلى الشام فنزل الرَّمْلَة، ثم انتقل إلى حِمْص فابتنى بها دارًا: وتوفي بها سنة أربع وخمسين، وكان ممن حفظ عن رسول الله ﷺ وأدّى ما وَعَى. روى عنه جماعة من التابعين.

أبو كَبْشَةَ سُلَيْم

شهد بدرًا والمشاهد كلها، قيل: هو من فارس، وقيل: من موَلَّدي أرض دوس، وقيل: من مولَّدي مكة، ابتاعه رسول الله ﷺ وأعتقه، وتوفي في سنة ثلاث عشرة، في اليوم الذي استخلف فيه عمر بن الخطاب، وقيل: توفي في سنة ثلاث وعشرين، في اليوم الذي ولد فيه عُرْوَة بن الزبير. والله تعالى أعلم.

أَنَسَة

ويكنى أبا مِسْرَح، ويقال أبو مَسْرُوح ـ وكان من مولَّدي السَّرَاة ـ اشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه. ذكره موسى بن عقبة فيمن شهد بدرًا، وقال ابن إسحاق: كان يأذَن على النبيّ ﷺ إذا جلس فيما حكاه مصعب الزبيري، ومات في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

شُقْرَان

واسمه صالح، وكان حبشيًا، قيل: ورثه رسول الله ﷺ من أبيه وأعتقه بعد بَدْر، قيل: اشتراه من عبد الرحمٰن بن عوف وأعتقه، وقيل وهبه له فأعتقه وأوصى به رسول الله ﷺ عند موته.

---

(١) وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، والنسبة إليه واديّ... فتحها النبيّ ﷺ سنة سبع عنوة ثم صولحوا على الجزية... (معجم البلدان).

رَبَاحُ

وكان أسود نُوبِيًّا[١] ٱشتراه من وفد عبد القيس وأعتقه، قال أبو عمر: وربما أذِن على النبيّ ﷺ أحيانًا؛ إذا انفرد رسول الله ﷺ كان يأخذ عليه الإذْن.

يَسَارُ

وكان نُوبِيًّا أصابه رسول الله ﷺ في بعض غزواته، وهو الذي قتله العُرَنِيّون كما تقدّم.

أبو رافع

وٱسمه أسْلَم، وقيل: إبراهيم، وكان عبدًا للعباس، فوهبه للنبيّ ﷺ، فلما أسلم العباس بَشّر أبو رافع رسول الله ﷺ بإسلامه، فأعتقه وزوّجه سَلْمَى مولاته، فولدت له عبيد الله، وكان عبيد الله كاتبًا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته كلها، قيل: وخازنًا أيضًا. ومات أبو رافع في آخر خلافة عثمان بالمدينة، وقيل: في خلافة عليّ، قيل: وكان أبو رافع قِبْطِيًّا.

أبو مُوَيْهِبَة

وكان من مُوَلَّدي مُزَيْنَة، ٱشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه.

رافع

قال الشيخ أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله: كان مولًى لسعيد بن العاص، فورثه ولده، فأعتقه بعضهم وتمسّك بعضهم، فجاء رسول الله ﷺ يستعينه فوهب له، فكان يقول: أنا مولى رسول الله ﷺ. وقد حكى أبو عمر ذلك في أحد القولين عن أبي رافع المقدّم ذكره. والله أعلم.

---

(١) نسبة إلى النوبة، وهي بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم نصارى أهل شدة في العيش، أول بلادهم بعد أسوان يجلبون إلى مصر فيباعون بها... ومدينة النوبة اسمها دمقلة وهي منزل الملك على ساحل النيل... (معجم البلدان).

فُضَالَة

وهو مذكور في موالي رسول الله ﷺ؛ قال ٱبن عبد البر: لا أعرفه بغير ذلك، قيل: إنه مات بالشام.

مِدْعَم

أسْوَد، وهبه لرسول الله ﷺ رِفَاعَة بن زيد الجُذامي، وهو الذي قتل بوادي القُرى، وقال فيه رسول الله ﷺ: «إن الشَّمْلَة التي غَلَّها[1] تُشْعَل عليه نارًا».

كَرْكَرَة

وكان على بغلة النبيّ ﷺ وكان نُوبِيًّا أهداه له هَوْذَة بن علي فأعتقه.

زيد

وهو جد بِلال بن يَسَار بن زيد.

عُبَيْد وطَهْمَان

موليا رسول الله ﷺ، واختلف في طَهْمَان، فقيل: طَهْمان، وقيل: طَهْوَان، وقيل: ذَكْوَان، وأما عبيد فروى عنه سليمان التَّيمي.

مَابُور

أهداه إليه المُقَوْقِس، وقيل: كان خصيًّا.

واقِد، وأبو وَاقِد، وهِشام

وهو الذي قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إن ٱمرأتي لا تمنع يد لامِس[2]، قال: «طلقها» قال: إنها تعجبني. قال: «فٱستمتع بها».

---

(١) الغلّ: أخذ شيء من الغنيمة قبل القسمة.

(٢) المراد بقوله: لا ترد يد لامس: أي أنها تعطي من ماله من يطلب منها.

أبو ضُمَيْرة

قيل: اسمه سَعْد الحِمْيَريّ، قال البخاري: وقيل في ٱسمه غير ذلك. وكان مما أفاء الله على رسول الله ﷺ، وهو جد حسين بن عبد الله بن ضُمَيْرَة، وقيل: وكان من العرب فأعتقه رسول الله ﷺ، وكتب له كتابًا يوصي به فهو بيد ولده، قال أبو عمر: وقدم حسين بن عبد الله بن ضُمَيْرة على المهدي بكتاب رسول الله ﷺ بالإيصاء بأبي ضُمَيْرة وولده، فوضعه المهدي على عيْنَيْه، ووصله بثلثمائة دينار.

حُنَيْن

قال أبو عمر بن عبد البر: كان عبدًا وخادمًا للنبيّ ﷺ، فوهبه لعمه العباس فأعتقه العباس قال: وقد قيل إنه مولى علي بن أبي طالب، وعدّه الشيخ أبو محمد في موالي رسول الله ﷺ.

أبو عَسِيب

وٱسمه أحْمَر.

أبو عبَيْدة سَفِينَة

فكان عبدًا لأمّ سَلَمَة زوج النبيّ ﷺ فأعتقته، واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ مدّة حياته، فقال: لو لم تشترطي عليّ ذلك ما فارقته، وكان ٱسمه رَبَاح، وقيل: عُمَيْر، وقيل: رُومَان. وقيل: مِهْرَان. قال الواقدي: وقال أبو عمر: مِهْران مولى رسول الله ﷺ غير سَفِينَةَ.

سمّى رسول الله ﷺ سَفِينَةَ بهذا الٱسم؛ لأنه كان معه في سفر؛ فكان كل من أعيا ألقى عليه متاعه سيفًا أو تُرْسًا، فمرّ النبيّ ﷺ به فقال: «أنت سفينة» وكان أسود من مُوَلَّدي الأعْراب.

أبو هِنْد

وهو الذي قال رسول الله ﷺ في حقه زوجوا أبا هند وتزوجوا إليه، قال أبو محمد: ابتاعه رسول الله ﷺ مُنْصَرفه من الحُدَيْبية وأعتقه.

أَنْجَشَة

وكان حادِيًا للجِمال، وهو الذي قال رسول الله ﷺ له «يا أنجَشَةُ رِفْقًا بالقَوَارير»(١).

أُنَيْسَة

وكان حبشيًا فصيحًا شهد بدرًا، وأعتقه رسول الله ﷺ بالمدينة.

أبو لُبَابَة

كان لبعض عَمّات رسول الله ﷺ فأعتقه، وهو معدود في موالي رسول الله ﷺ.

رويفع

سباه رسول الله ﷺ من هَوَازن(٢) فأعتقه.

سَعْد

وهو الذي روى عنه أبو عثمان النهدي. ذكره أبو عمر بن عبد البر.

هؤلاء المشهورون من موالي رسول الله ﷺ، قال أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله: وقد قيل إنهم أربعون، وزاد يوسف بن الجوزي: أبا كِنْدير، وسَلْمَان الفارسي، وسالمًا، وسابقًا ـ ذكره أبو عمر ـ خادم رسول الله ﷺ، وزيد بن رصولا، وعُبَيْد الله بن أسْلَم، ونُبَيْه: وقيل فيه: النَّبِيهُ، وقيل النُّبَيْه، بضم النون وفتحها، ووَرْدَان.

وذكر أبو عمر بن عبد البر في موالي رسول الله ﷺ جماعة أُخَر، منهم أبو الحَمْراء واسمه هلال بن الحارث، ويقال: هلال بن ظَفَر، وأفْلَح، وذَكْوَان، وفي اسمه خلاف، وأبو عُبَيْد، له رِواية، وأبو لَقِيط، وأبو السَّمْح أيَادٍ، وقيل: خادم رسول الله ﷺ، وضُمَيْرة بن أبي ضُمَيْرة، قال أبو عمر: مرّ رسول الله ﷺ بأمّ ضُمَيْرة وهي تبكي فقال: «ما يبكيك أجائعة أنت أم عارية»؟ فقالت: يا رسول الله، فرق بيني وبين ابني، فقال رسول الله ﷺ: «لا يفرق بين والدة وولدها» ثم أرسل إلى الذي عنده ضُمَيْرة فابتاعه منه.

---

(١) القارورة: إناء من زجاج. جمع قوارير، شبهت بها النساء لأنه يسرع إليها الكسر.

(٢) بنو هوازن: بطن من خزاعة من بني مزيقياء، من الأزد، من القحطانية. منهم: عبد الله بن أبي أوفى، صاحب رسول الله ﷺ.

وكَيْسَان، أو مِهْرَان: وٱسمه هُرْمُز يكنى أبا كَيْسَان، ٱختلف فيه على عطاء ابن السائب، فقيل: كيسان، وقيل: طَهْمَان، وقيل: ذَكْوَان، وأبو بَكْرة نُفَيْع بن مَسْرُوح، وهو ٱبن سُمَيّة جارية الحارث بن كَلَدَة الثَّقَفي، معدود في مَوَالي رسول الله ﷺ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ أعتقه لما نزل إليه من حِصْن الطّائف، وأسلم فكان يقول: أنا مولى رسول الله ﷺ فإن أبى الناس إلا أن يَنسبُوني فأنا نُفَيْع بن مَسْرُوح، وكنّاه رسول الله أبا بَكْرة؛ لأنه تدلّى إليه من بَكْرة[1] من الحِصْن.

وأبو سَلْمَى: راعي رسول الله ﷺ، قيل: ٱسمه حارث، فهؤلاء عشرة أُخَر لتكملة خمسين. والله أعلم.

ومن النساء: أمّ عياش، وأُميْمة، وأمّ رافع سلْمى، وبَرَكة أمّ أيْمَن، ومارِيَةَ، ورَيْحانَة، ورُبَيحة، ومَيْمُونة بنت أبي عَسيب، وخَضْرة، ورَضْوَى، وأمّ ضُمَيْرة. وذكر أبو عمر بن عبد البر أُمَيْمة لها رواية، ومَيْمُونة بنت أبي عَنْبسة غير ميمونة المذكورة آنِفًا، والله أعلم.

ذكر حُرّاس رسول الله ﷺ

في غزواته، وهم ثمانية: سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام بالعريش[2]، وذَكْوان بن عبد الله بن قَيْس، ومحمد بن مَسْلَمَة الأنصاري حرسه بأُحُد، والزُّبَير بن العوّام حرسه يوم الخندَق، وعبَّاد بن بِشْر، وسَعْد بن أبي وقّاص، وأبو أيُّوب الأنصاريّ حرسه بخيبر ليلة بَنَى بِصفيّة، وبِلال حرسه بوادي القُرَى. ولما أنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] ترك عند ذلك الحرس.

ذكر كُتّاب رسول الله ﷺ

وهم: أبو بكر الصِّدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعامر بن فُهَيْرة، وعبد الله بن الأرْقَم، وأُبَيّ بن كَعْب، وثابت بن قيس بن شَمّاس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحَنْظَلة بن الربيع الأسدي، وزيد بن ثابت،

---

(١) البكرة: خشبة مستديرة في جوفها محور تدور عليه.

(٢) العريش: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت، وهو ما يستظل به، والعريش للكرم الذي ترسل عليه قضبانه، والعريش شبه الهودج يتخذ للمرأة تقعد فيه على بعيرها: وهي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام. . . (معجم البلدان لياقوت).

ومعاوية بن أبي سُفيان، وشُرَحبيل بن حَسَنَة، وكان معاوية وزيد يكتبان الوَحْي. قال الشيخ الإمام الفاضل محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي رحمه الله تعالى في كتاب الأعلام له: والعَلاء بن الحَضْرمِي، قال: وكان المداويم على الكتابة زيد ومعاوية، قال: ويقال إن معاوية لم يكتب له من الوحي شيئًا، وإنما كان يكتب إلى الأطراف، وكتب له عبد الله بن سرح ثم ارتدّ، فلما كان يوم الفتح أسلم وحسن إسلامه، وذكر القضاعي: وكان الزبير بن العوّام وجَهْم بن سعد يكتبان أموال الصدقة، وكان حُذيفة بن اليَمان يكتب خَرْص[1] النخل، وكان المغيرة بن شعبة والحُصَيْن بن نُمَيْر يكتبان المداينات والمعاملات. وذكر الحافظ أبو الخطاب بن دِحْيَة: أن كتابه عليه السلام ينتهون إلى ستة وعشرين، والله أعلم.

قال: وقد قدّمنا ذكر رسله ﷺ.

ذكر رُفَقاءِ رسول الله ﷺ

النُّجَباء وهم اْثنا عشر: أبو بكر، وعُمر، وحَمزة، وعليّ، وجعفر، وأبو ذَرٍّ، والمِقْداد، وسَلْمان، وحُذيفة، وابن مَسعود، وعمّار بن ياسر، وبِلال بن رَبَاح.

وكان علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومحمد بن مَسْلَمَة وعاصِم بن أبي الأقْلَح والمِقْداد، رضوان الله عليهم أجمعين يضربون الأعناق بين يديه ﷺ، وحيث ذكرنا من سيرته ﷺ ما ذكرنا، فلنأخذ الآن في ذكر صفاته الذاتية والمعنوية وأحواله ﷺ.

ذكر صفة رسول الله ﷺ الذاتية

قد وردت الأخبار الصحيحة والمشهورة من حديث عليّ بن أبي طالب وأنس بن مالك وأبي هُرَيرة والبَرَاء بن عازِب وعائشة أمّ المؤمنين وابن أبي هَالة وأبي جُحَيْفَة وجابر بن سَمُرَة وأمّ مَعْبَد وابن عباس، ومُعَرِّض بن مُعَيْقيب وأبي الطُّفَيل، والعدّاء بن خالد وخُرَيْم بن فاتِك وحَكيم بن حِزام، وغيرهم رضوان الله عليهم: أنه كان ﷺ رَبْعَة[2] من القوم: لا بَائِنٌ[3] من طُول، ولا تَقْتَحِمه[4] عين من قِصر، غُصْن بين

(١) يقال: خرص النخل: أي حزر ما عليه من الرطب تمرًا.
(٢) ربعة: أي معتدل.
(٣) المراد بالبائن: المفرط في الطول.
(٤) لا تقتحمه: أي لا تتجاوزه ازدراء له.

غُصْنَين، بعيد ما بين المنكِبين، أبيض اللون، مُشرب حُمْرة، وفي رواية أزهر اللون، ليس بالأبيض الأمْهَق(١)، ولا بالأدَم(٢)، له شعر رَجِل(٣)، يبلغ شَحْمَة أذنيْه إذا طال، وإذا قصر إلى أنصافهما، لم يبلغ شَيْبُه في رأسه ولحيته عشرين شعرة، كأن عنقه جِيد دُمْيَة(٤)، في صَفاء الفِضّة، وظاهر الوَضَاءة(٥) مُبْلَج(٦) الوجه، يتلألأ وجهُه تلألؤ القمر ليلة البدر، حسن الخَلق معتدلُه، لم تَعِبه ثُجْلة(٧) ولم تُزْر به صَعْلَة(٨)، وَسِيمًا قَسِيمًا(٩)، في عينَيْه دَعَج(١٠)، وفي بياضهما عُروق رِقاق حُمْر، وفي أشفاره غَطَف(١١)، وفي صوته صَهَل(١٢)، وروي صَحَل(١٣)، وفي عنقه سَطَع(١٤)، وفي لحيته كثاثة(١٥)، إذا صَمَت فعليه الوَقَار، وإن تكلم سَما وعلاه البَهاء، أجمل الناس وأبْهَاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حُلْو المَنْطق فَصْل(١٦): لا نَزْر(١٧) ولا هَذْر كأنّ منطقه خَرَزات نَظْم يَنْحَدِرْن، واسِع الجَبِينِ، أزجّ(١٨) الحواجب في غير قَرْن، بينهما عِرْق يُدِرّه الغضب، أقْنى(١٩) العِرْنين(٢٠)، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشَمّ(٢١)، سهل(٢٢) الخَدّين، ضليع(٢٣) الفم، أشْنَب(٢٤)، مُفَلّج(٢٥) الأسنان، دقيق المَسْرُبَة(٢٦)، من لَبّتِه(٢٧) إلى سُرّته شعر يجري كالقَضِيب، ليس في بطنه ولا

---

(١) الأمهق: الكريه البياض كلون الجص.
(٢) الأدم: الذي اشتدت سمرته.
(٣) الرَّجل: بين شدة الجعودة وشدة السبوطة.
(٤) الدمية: الصورة المنحوتة من رخام أو عاج.
(٥) الوضاءة: الحسن.
(٦) المبلج: المشرق المضيء.
(٧) الثجلة: عظم البطن.
(٨) الصعلة: صغر الرأس.
(٩) القسيم: جميل الوجه كله.
(١٠) الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها.
(١١) الغطف: أي أن يطول شعر الأجفان.
(١٢) صهل: حدة وصلابة.
(١٣) الصحل: بحة في الصوت وعدم حدته.
(١٤) السطع: طول العنق.
(١٥) الكثاثة: كثافة الشعر في غير دقة ولا طول.
(١٦) المنطق الفصل: البين الظاهر الذي يفصل بين الحق والباطل.
(١٧) النزر: القليل. والهذر: الهذيان.
(١٨) الزجج: تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد.
(١٩) القنى في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حدب في وسطه.
(٢٠) العرنين: الأنف.
(٢١) الشمم: ارتفاع قصبة الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلاً.
(٢٢) سهل الخدين: سائل الخدين غير مرتفع الوجنتين.
(٢٣) ضليع الفم: أي عظيمه.
(٢٤) الشنب: البياض والبريق في الأسنان.
(٢٥) الفلج: فرجة بين الثنايا والرباعيات.
(٢٦) المسربة: ما دق من شعر الصدر سائلاً إلى الجوف.
(٢٧) اللبة: الهزمة التي فوق الصدر وتحت العنق.

صدره شعر غيره، أشْعَر الذراعين والمنكبين، بَادِن[١] متماسك[٢]، سَوَاء الصدر والبطن، سَبِيح[٣] الصدر، ضَخْم الكَرَاديس[٤]، أنْوَر المتَجَرِّد[٥] عريض الصدر، طويل الزَّندين، رَحْب الراحة، شَثْن[٦] الكَفَّين والقدمين، سائل الأطراف، سَبْط القَصَب،[٧] خُمْصان[٨] الأخْمَصَيْن[٩]؛ مَسِيح القدمين، يَنْبو عنهما الماء، إذا زال زال قَلِعا، وفي رواية: إذا مشى يَقْلَع - كناية عن قوّة الخَطْوِ كالذي يمشي في طين - ويخطو تكفِّيًا[١٠] ويمشي هَوْنًا، ذَرِيع[١١] المِشْيَة، إذا مشى كأنما ينحطّ من صَبَب[١٢]، وإذا التفت التفت جميعًا، بين كتفيه خاتم النبوّة كأنه زرّ حَجَلَة[١٣] أو بيضة حمامة، لونه كلون جسده عليه خِيلاَن[١٤]، كأن عرقه اللُّؤلُؤ، ولَرِيح عرقه أطيب من ريح المِسْك الأذْفَر[١٥]، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ، قال البَرَاء: ما رأيت من ذي لِمَّة[١٦] في حُلَّة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ، وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ كأنّ الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجُدُر[١٧]، وقال جابر بن سَمُرَة، وقد قال له رجل كأنّ وجهه ﷺ مثلُ السيف، فقال: لا، بل مثلُ الشمس والقمر. وكان مستديرًا، وكان عمر بن الخطاب ينشد قول زُهَيْر بن أبي سُلْمى في هَرِم بن سِنان: [من الكامل الأحذّ]

لـو كـنـتَ مِـن شـيءٍ سِـوَى بَـشَـرٍ   كـنـتَ الـمُـضِـيءَ لِـلَـيْـلـة الْـبَـدْرِ

ثم يقول عمر وجلساؤه: كذلك كان رسول الله ﷺ، ولم يكن كذلك غيره.

وفيه عليه السلام يقول عمه العباس رضي الله عنه وأرضاه: [من الطويل]

وَأبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوَجْهِه   رَبيعُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأرَامِلِ[١٨]

---

(١) البادن: الضخم.
(٢) المتماسك: الذي يمسك بعض أعضائه بعضًا.
(٣) سبيح الصدر: عريضه.
(٤) الكراديس: رؤوس العظام.
(٥) المتجرد: ما كشف من جسده.
(٦) شثن الكفين والقدمين: أي أنهما يميلان إلى الغلظ والقصر.
(٧) القصب: الساعدان والساقان.
(٨) خمصان: أي مرتفع الأخمصين.
(٩) الأخمصان: أسفل القدمين.
(١٠) تكفيا: تمايلا إلى قدام.
(١١) ذريع المشي: سريعه.
(١٢) ينحط من صبب: من موضع منحدر.
(١٣) الحجلة: بيت كالقبة يستر بالكلل وتكون له أزرار.
(١٤) خيلان: جمع خال، وهو الشامة في الجسد.
(١٥) الأذفر: طيب الريح.
(١٦) اللمة من شعر الرأس دون الجمة.
(١٧) الجذر: أصول الأسنان.
(١٨) العصمة: المانع من الضياع والحاجة.

تُـطِـيـفُ بـه الـهـلاَّكُ مـن آل هـاشـم فـهـم عـنـده فـي نِـعْـمَـة وفَـضـائـل[١]
ومـيـزانُ حـقٍّ لا يَـخِـيـسُ شَـعـيـرَةً ووَزّان عَـدْلٍ وزْنُـه غـيـرُ عـائِـل[٢]

ذكر صفة خاتم النبوّة
الذي كان بين كتفي النبيّ ﷺ

رُوي عن جابر بن سَمُرَة. وقد وصف النبيّ ﷺ، فقال: ورأيت خاتمه عند كتفيه مثل بيضة الحمامة يُشْبِهُ جِسمه، وعن أبي رِمْثَة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا رِمْثة اْدْنُ منّي اْمسحْ ظهري» فدنوت منه فمسحت ظهره، ثم وضعت أصابعي على الخاتم فغمزتها[٣]، فقيل له: وما الخاتم؟ فقال: شعر مجتمع عند كتفيه. وعنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فالتفت فإذا خَلْفَ كتفيه مثل النُفّاخة[٤]، قلت: يا رسول الله، إني أُداوِي فدَعْني حتى أبُطَّها[٥] أداويها، قال: «طَبّبَها الذي خلقها». وعنه من طريق آخر قلت: يا رسول الله إني طبيب من أهل بيت أطِبّاء، وكان أبي طبيبًا في الجاهلية، معروفًا ذلك لنا فأْذَن لي في التي بين كتفيك، فإن كانت سِلْعَة[٦] بَطَطتُها فشفا الله نبيه؛ فقال: «لا طبيب لها إلا الله» وهي مثلُ بيضة الحمامة.

ذكر صفة شعر رسول الله ﷺ وطوله

روي عن أبي إسحاق قال: سمعت البَرَاء يصف شعر رسول الله ﷺ فقال: كان شعره إلى شحمة أذنيه. وعنه قال: سمعت البَرَاء يقول: مَا رأيت أحدًا من خلق الله أحسنَ في حُلّة حَمْراء من رسول الله ﷺ، إن جُمّته[٧] لتضربُ قريبًا من مَنْكِبيْه، وفي لفظ، من عاتقيْه. وعن قَتادة قال: قلت لأنس بن مالك كيف كان شعر رسول الله ﷺ؟ قال: كان شعرًا رَجِلاً ليس بالسَّبْط ولا بالجَعْد بين أذُنَيْه وعاتقه. وعن أنس: كان لا يجاوز شعره أذنيه، وعنه: كان إلى أنصاف أذنيه. وعن عليّ رضي الله عنه قال: كان شعر رسول الله ﷺ فوق الوَفْرَة[٨] ودون الجُمّة. وعن أمّ هانِىء قالت: رأيت في

---

(١) الهلاك: واحدها: الهالك، وهو الذي ينتاب الناس ابتغاء معروفهم.
(٢) العائل: الجائر.
(٣) الغمز: العصر والكبس باليد.
(٤) النفاخة: هنة تكون في بطن السمكة.
(٥) البط: شق الدمل والخراج.
(٦) السلعة: غدة تظهر بين الجلد واللحم إذا غمزت باليد تحركت.
(٧) الجمة: مجتمع شعر الناصية.
(٨) الوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن.

رأس رسول الله ﷺ ضَفَائر أربعًا. وعنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ قدم مكة وله أربع غَدَائر. وعن جابر بن سَمُرة قال: كان رسول الله ﷺ كثير شعر اللحية. وعن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ يسجد على قِصَاص[١] شعره.

ذكر عدد شَيْبِ رسول الله ﷺ ومن قال إنه خَضَب

روي عن حُمَيْد الطويل قال: سُئل أنس بن مالك هل خَضَب رسول الله ﷺ؟ قال: ما شانه[٢] الله بالشَّيْب، وما كان فيه من الشَّيْب ما يُخْضَب، إنما كانت شَعَرات في مقدّم لحيته، ولم يبلغ الشَّيْب الذي كان به عشرين شعرة. وفي رواية عن أنس أيضًا: ما كان في رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثمان عشرة. وعن جابر بن سَمُرة، وقد سُئل عن شيب رسول الله ﷺ فقال: كان إذا دَهَن رأسه لم يتبيّن، وإذا لم يدهنه تَبَيّن. وعن محمد بن واسع؛ قيل: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشَّيْب، فقال: «شيبتني ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١] وأخواتها». وعن أبي سلَمَة؛ قيل: يا رسول الله، نرى في رأسك شيبًا، قال: «ما لي لا أشيب وأنا أقرأ هُودًا و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير: ١] وفي رواية «وما فُعل بالأمم قبلي». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: أراك قد شبت يا رسول الله، قال: «شيبتني هُودٌ والوَاقِعَة والمُرْسَلاَتُ وعَمّ يَتَساءَلُونَ وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» ومن رواية «وأخواتها ٱقْتَرَبَت السّاعَةُ، والمرْسَلاَتُ وإذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ» وفي رواية أخرى عن أنس قال: قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: بأبي وأمي يا رسول الله، وما أخواتها؟ قال: «الواقعةُ والقارعةُ وسأل سائلٌ وإذا الشّمسُ كُوِّرتْ» هذا ما رأيناه مما ورد في شيبه وسببه.

وأما من قال إنه خضب ﷺ

فقد روي عن عبد الله بن مَوْهَبَة قال: دخلنا على أمّ سَلَمة رضي الله عنها، فأخرجت إلينا صُرَّة فيها شعر من شعر رسول الله ﷺ مخْضُوبًا بالحِنّاء والكَتَم[٣]. وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن قال: رأيت شعرًا من شعره - يعني النبيّ ﷺ - فإذا هو أحمر، فسألت عنه فقيل لي: أحْمَر من الطِّيب. وعن أبي جعفر قال: شمِطَ[٤] عارضا رسول الله ﷺ فخضبه بحِنّاء وكَتَم.

---

(١) قصاص الشعر: منتهى شعر الرأس حيث يؤخذ بالمقص.

(٢) شانه: عابه، أو شوّهه.

(٣) الكتم: دهن من أدهان العرب أحمر يجعل فيه الزعفران.

(٤) شمط: شاب.

وعن أبي رِمْثَة أنه وصف رسول الله ﷺ فقال: ذو وَفْرَة وبها رَدْعٌ[١] من حِنّاء، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُصَفِّر لحيته بالخَلوق[٢]، ويحدّث أن رسول الله ﷺ كان يُصَفِّر، وعن عبد الرحمٰن الثُّمَالي قال: كان رسول الله ﷺ يُغيِّر لحيته بماء السِّدْر، ويأمر بتغيير الشَّعر مخالفة للأعاجم.

هذا ما أمكن إيراده من صفاته الذاتية، وسنذكر إن شاء الله بعد ذكر صفاته المعنوية، حديث هِنْد بن أبي هَالَة؛ لجمعه بين صفاته الذاتية والمعنوية.

ذكر صفات رسول الله ﷺ المعنوية

وما ورد في أكله وشربه، ونومه وضحكه وعبادته ونكاحه، وخُلُقه وحِلمه واحتماله، وعفوه وصبره على ما يكره، وجُوده وكرمه، وسخائه وسماحته، وشجاعته ونجدته، وحيائه وإغضائه، وحسن عشرته وأدبه، وبسط خُلقه، وشفقته ورأفته ورحمته، ووفائه وحسن عهده، وصلته للرحم، وتواضعه وعدله وأمانته وعِفّته، وصدق لَهْجته، ووَقاره وصَمته وتؤدته[٣]، ومروءته، وحسن هَدْيه وزهده وخوفه ربه تعالى، وطاعته له وشدة عبادته ﷺ تسليمًا كثيرًا.

فأما ما ورد في أكله وشربه ونومه وضحكه وعبادته

فكان رسول الله ﷺ قد أخذ من الأكل والشرب بالأقل، واعتمد من ذلك على ما يُمْسك الرَّمَق ويَسُدّ الخَلّة[٤]، وقد جاءت الأخبار الصحيحة بذلك، ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النَّهَم والحِرْص والشَّرَه، وقلة ذلك دليل على القناعة وملك النفس وقَمْع الشهوة. وقد روينا بإسناد متصل عن المِقدام بن مَعْدِي كَرِب أن رسول الله ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وِعاءً شرًا من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يُقمْن صُلْبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفسه». ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. وقد

(١) ردعٌ: لطخٌ لم يعمّه كلّه.

(٢) الخلوق: طيبٌ معروف مركب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة، وقد ورد تارة بإباحته، وأخرى بالنهي عنه، والنهي أكثر وأثبت، لأنه من طيب النساء، وهن أكثر استعمالاً له.

(٣) التؤدة: التأني والتمهُّل والرزانة.

(٤) الخلة: الحاجة والفقر.

روي عنه عليه السلام أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضَفَف[١]؛ أي كثرة الأيدي. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يمتلىء جوف النبيّ ﷺ شبعًا قط، وإنه كان في أهله ولا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه، إن أطعموه أكَل، وما أطعموه قَبِل، وما سَقَوه شرب. قال أهل العلم: ولا يُعترض على هذا بحديث بَرِيرَة، وقوله ﷺ: «ألمْ أرَ الْبُرْمة فيها لحم»؟ إذ لعل سبب سؤاله ظنُّه اعتقادهم أنه لا يحل له، فأراد بيان سننه، إذ رآهم لم يقدِّموا إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون به عليه، فصدق عليهم ظنه، وبيّن لهم ما جهلوه من أمره، بقوله: «هو لها صدقة ولنا هدية». وكان جلوسه ﷺ للأكل جلوس المسْتَوْفِز، مُقْعِيًا[٢]، ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد». وفي حديث صحيح قوله ﷺ: «أما أنا فلا آكل متكئًا» وليس معنى الاتّكاء عند المحققين الميل على شِقّ، وإنما الاتّكاء هو التمكن للأكل، والتقَعْدُد في الجلوس له، كالمتربِّع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الْهَيْئَة يستدعي الأكل ويستكثر منه، وكان ﷺ بخلاف ذلك. وكان ﷺ إذا رُفِع الطّعام من بَيْن يديْه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين». وفي رواية يقول: «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه غير مُودَّع[٣] ولا مستغنىً عنه ربّنا». وكان لا يأكل على خِوَان، ولا يمتنع من مباح، ولا يتأنّق في مأكل، يأكل ما وجد، إن وجد تمرًا أكله، أو خبزًا أكله أو شِواء أكله، وإن وجد لبنًا اكتفى به، ولم يأكل خبزًا مرققًا[٤]، وأكل ﷺ الخبز بالخل وقال: «نعم الإدام الخل» وأكل لحم الدجاج ولحم الحُبَارَى[٥]. وكان يحب الدُّبّاء[٦] ويأكله، ويعجبه الذِّراع من الشاة، وقال: «إن أطيب اللحم لحم الظّهر» وقال: «كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة» وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهنّ، وأكل ﷺ خبز الشعير بالتمر، وقال: «هذا أُدْم هذا» وأكل البطيخ بالرُّطَب والقُثَّاء بالرُّطَب والتَّمْر بالزُّبْد، وكان يحب الحلواء والعسل، وكان يشرب قاعدًا، وربما شرب قائمًا، ويتنفس ثلاثًا وإذا فَضَلت منه فَضْلة وأراد أن يسقيها بدأ بمن عن يمينه، وشرب ﷺ لبنًا،

---

(١) الضفف: الأكل دون الشبع.

(٢) مقعيًا: أي أنه كان يجلس على وركيه مستوفزًا غير متمكن.

(٣) غير مودع: أي غير متروك الطاعة. (٤) الخبز المرقق: الأرغفة الواسعة الرقيقة.

(٥) الحبارى: طائر طويل العنق رماديّ اللون على شكل الأوزة، في منقاره طول، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء.

(٦) الدباء: القرع.

وقال: «من أطعمه الله طعامًا فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرًا منه، ومن سقاه الله لبنًا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» وقال: «ليس شيء يجزي مكان الطعام والشراب غير اللبن».

وأما نومه ﷺ

فكان قليلاً، جاءت بذلك الآثار الصحيحة، وقال ﷺ: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي» وكان نومه على جانبه الأيمن آستظهارًا على قِلة النوم لأن النوم على الجانب الأيسر أهنأ؛ لهدوّ القلب وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة؛ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الآستثقال فيه والطول، وإذا نام النائم على الجانب الأيمن تعلق القلب وقلق، فأسرع الإفاقة ولم يغمره الآستغراق. وكان ﷺ ينام أول الليل ثم يقوم من السَّحَر، ثم يوتر ثم يأتي فراشه، فإذا سمع الأذان وثب، وكان إذا نام نفخ، ولا يَغطُّ غَطِيطًا، وإذا رأى في منامه ما يروعه قال: «هو الله لا شريك له» وإذا أخذ مضجعه وضع كفّه اليمنى تحت خدِّه، وقال: «رَبِّ قِني عذابك يوم تَبعث عبادَك» وكان يقول: «اللهم بآسمك أموت وأحيا» وإذا آستيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور».

وأما ضحكه ﷺ

فكان جُلّه التَّبَسُّم، وربما ضحِك من شيء معجِب حتى تبدو نواجِذه من غير قهقهة ﷺ، وأما عبارته ﷺ فكان أفصح الناس، يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، يباريها في منزع بلاغتها، وقد تقدم من كلامه في كتبه إلى ملوك اليمن وغيرها ما يدل على ذلك، وإن كان ذلك لا يحتاج فيه إلى إقامة دليل بعد أن أنزل القرآن بلغته. وكان ﷺ إذا تكلم بيّن كلامه حتى يحفظه من جلس إليه، ويعيد الكلمة ثلاثًا لتُعقَل عنه، ويخزن لسانه لا يتكلم في غير حاجة، ويتكلم بجوامع الكلم، فَصْلٌ لا فُضول ولا تقصير، وكان يتمثَّل بشيء من الشِّعر ويتمثَّل بقوله(١):

* ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ *

وبغير ذلك، ﷺ.

(١) البيت من معلقة طرفة بن العبد، وأوله:
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

وأما النكاح وما يتعلق به

فهو مما يكثر التمدّح بكثرته وذلك لأنه دليل الكمال وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية وسنة مأثورة، قال ٱبن عباس رضي الله عنهما: أفضل هذه الأمة أكثرها نساءً. مشيرًا إلى رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «تناكحوا فإني مباهٍ بكم الأمم» وكان رسول الله ﷺ ممن أقدره الله تعالى على ذلك وحبّبه له، فكان ﷺ يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار، وهنّ إحدى عشرة، رواه أنس، قال: وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين، خرّجه النسَائي. وعن طاوس: أعطي رسول الله ﷺ قوة أربعين رجلاً في الجماع، ومثله عن صفوان بن سُلَيم. وقالت سلمى مولاته: طاف النبيّ ﷺ ليلة على نسائه التسع، ويطّهر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرى. وقال: «هذا أطهر وأطيب».

وأما خلقه ﷺ

فقد قال الله عزّ وجل فيه مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه، وقال ﷺ: «بعثتُ لأتَمِّم مكارمَ الأخلاق» قال عليّ وأنس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا. وكان ﷺ ـ فيما ذكره المحققون ـ مجبولاً على ذلك في أصلِ خلقته وأوّل فِطْرته، لم يحصل ذلك له بٱكتساب ولا رياضة، إلا بجود إلهي وخصوصيّة ربانيّة، ومن طالع سيرته مُنْذُ صِباه وإلى آخر عمره، حَقّق ذلك وكذلك سائر الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

وأما حِلمه وٱحتماله وعفوه

مع القدرة والصبر على ما يكره، فقد جعلوا بين هذه الألقاب فَرْقًا، فقالوا: الحِلْمُ حالة تَوْقير وثبات عند الأسباب المُحَرِّكات، والاْحتمالُ حبسُ النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثله الصبر، ومعانيها متقاربة، وأما العفو فهو ترك المؤاخذة، وهذا كله مما أدّب الله تعالى به نبيه ﷺ فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] رُوِي أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عن تأويلها فقال له: حتى أسأل العالم، ثم ذهب فأتاه فقال: «يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي مَن حرمك وتعفو عمن ظلمك». وقال تعالى مخاطبًا له ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ

﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقد روي في حلمه وٱحتماله وعفوه وصبره أحاديث كثيرة وقصص مشهورة، قد تقدم منها في أخباره، في أثناء هذه السيرة جملة كافية، ونحن نشير الآن في هذا الموضع إليها، وننبِّه في هذه الترجمة عليها، منها قصة أُحُدٍ حين ناله من أذى كفار قريش ما ناله مما قدمنا ذكره، فشقّ ذلك على أصحابه، وقالوا: يا رسول الله، لو دعوت عليهم، فقال: «إني لم أبعث لَعَّانًا ولكني بعثتُ داعيًا ورحمةً اللهم ٱهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون» روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وُطِىءَ ظهرك وأُدْمِي وجهك وكُسِرت رَباعيتك، فأبيتَ أن تقول إلا خيرًا، فقلتَ: «اللهم ٱغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ومنها قصتا غَوْرَث بن الحارث، ودُعْثُور بن الحارث حين أرادا أن يَفْتِكا به، وأظفره الله بهما، وأمكنه منهما فعفا عنهما، كما تقدم ذكر ذلك في غزوتي غَطَفَان وذات الرقاع، ومنها عفوه عن الذين هبطوا عليه في عُمْرة الحُدَيْبية، وأرادوا قتله فأخذوا فأعتقهم ﷺ، ومنها صفحه عن قريش حين أمكنه الله منهم يوم الفتح، وهم لا يشكون في ٱستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم؛ لما تقدم من أذاهم له، فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «ما تقولون إني فاعل بكم» قالوا: خيرًا؛ أخٌ كريمٌ وٱبن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]. ومما لم نذكره فيما أتينا عليه من سيرته ﷺ، ما ورد في الحديث الصحيح من قول الرجل له: ٱعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. فلم يزده ﷺ في جوابه إلا أن بيَّن له ما جهله، ووعظ نفسه وذكَّرها بما قال له، فقال: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خِبتُ وخسرتُ إن لم أعدل» ونهى من أراد قتله من أصحابه. ومنه ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ وعليه بُرْد غليظ الحاشية، فجبَذَه أعرابيّ بردائه جَبْذة شديدة حتى أثَّرت حاشيةُ البُرْد في صفحة عاتقه. ثم قال: يا محمد، ٱحمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبيّ ﷺ ثم قال: «المال مال الله وأنا عبده» ثم قال: «ويقاد[1] منك يا أعرابي ما فعلت بي»؟ قال: لا، قال «لِمَ»؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسَّيئة السَّيئة، فضحك النبي ﷺ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعيرٌ وعلى الآخر تَمْرٌ.

---

(١) يقاد منك: يقتص؛ والقود: القصاص.

ومنه خبر زيد بن سَعْنة حين أتى رسول الله ﷺ قبل إسلامه، وكان من أحبار يهود، فجاءه يتقاضاه دَيْنًا عليه، فجبذ(١) ثوبه عن مَنْكِبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مُطُلٌ فانتهره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشَدّد له في القول، والنبي ﷺ يتبَسّم، فقال رسول الله ﷺ: «أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي» ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث» وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لِما رَوَّعه، فكان سبب إسلامه؛ وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوّة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين؟ لَمْ أخبرهما؛ يسبق حِلْمُه جهلَه(٢)، ولا يزيده شدةُ الجهل إلا حِلْمًا؛ فاختبرته بهذا فوجدته كما وُصِف. والحديث عن حلمه وصبره وعفوه كثير؛ روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مُنتصرًا من مَظْلمة ظُلمِهَا قَطُّ ما لم تكن حُرمةً من محارم الله، وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا ولا امرأة. وجيء إليه برجل فقيل: هذا أراد أن يقتلك، فقال له رسول الله ﷺ: «لن تُرَاع(٣) لن تُراعَ ولو أردت ذلك لم تُسَلَّط عليّ» ﷺ.

وأما جوده وكرمه وسخاؤه وسماحته ﷺ

ومعانيها متقاربة، وقد فرق بعضهم بينها بفروق فجعلوا الكرم: الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه - وسموه أيضًا حُرِّية - وهو ضدّ النَّذَالة. والسَّماحة: التّجَافي عما يستحقه المرء عند غيره بطِيب نفس، وهو ضد النَّكَاسة. والسّخاء: سهولة الإنفاق وتجنُّب اكتساب ما لا يُحْمَد، وهو الجُودُ، وهو ضد التَّقْتير؛ فكان رسول الله ﷺ من ذلك بالمحل الأرفع، بهذا جاءت الأحاديث الصحيحة، منها ما رويناه في صحيح البخاريّ عن ابن المنْكَدِر قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: ما سئل النبيّ ﷺ شيئًا فقال لا. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان النبيّ ﷺ أجْوَد الناس بالخير؛ وأجْوَد ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليهما السلام أجْوَدَ بالخير من الرِّيح المُرْسَلة. وعن أنس أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ فأعطاه غَنَمًا بين جَبَلَيْن، فرجع إلى بلده وقال: أسلموا فإن محمدًا يُعطِي عطاءَ من لا يخشى فاقة. وقد ذكرنا ما أعطاه ﷺ من غنائم هَوازِن. وأخباره ﷺ في ذلك كثيرة، وعطاياه فاشِيَة، لو استقصيناها لطال بها التأليف، وكان لا يَبيت في بَيْته دينارٌ ولا

---

(١) جبذ الشيء: جذبه.
(٢) المراد بالجهل: الغضب.
(٣) لن تراع: أي لا خوف ولا فزع.

درهم. فإن فَضَل ولم يجد مَن يعطيه وفَجِئه الليلُ لم يأوِ إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قُوت أهله عامًا فقط، من أيسر ما يجد من التّمر والشّعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله، ثم يُؤْثِر[١] من قُوت أهله حتى يحتاج قبل ٱنقضاء العام؛ صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين.

وأما شجاعته ونَجْدته ﷺ

فقد قالوا: الشّجاعة فضيلة قوة الغضب، وٱنقيادها للعقل، والنّجْدة: ثِقَة النفس عند ٱسترسالها إلى الموت حيث يُحْمد فعلها دون خَوْف؛ فكان النبيّ ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجهَل، قد شهد المواقف الصّعْبة، وفَرّ الكُماة[٢] والأبطال عنه، وهو ثابت لا يَبْرح، ومُقْبِل لا يُدْبِر، وقد قدّمنا من أخباره وثباته وحملاته في يومي أُحُد وحُنين ما تقف عليه هناك. وقد روينا بإسناد مُتّصل عن البَراء، وقد سأله رجل: أفررتم يوم حُنَيْن عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يَفِرّ، ثم قال: لقد رأيته على بَغْلته البَيْضاء وأبو سُفْيَان آخذ بلِجَامِها، والنبيّ ﷺ يقول: «أنا النبيُّ لا كَذِب» وزاد غيره «أنا ٱبن عبد المطلب» قيل: فما رئي يومئذ أحدٌ كان أشد منه. وقال غيره: نزل النبيّ ﷺ عن بغلته. وذكر مسلم عن العباس قال: فلما ٱلتقى المسلمون والكفار وَلّى المسلمون مُدْبرين فطَفِقَ رسول الله ﷺ يَرْكُض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكُفُّها إرادَةَ ألاّ تُسْرع وأبو سُفْيَان آخذ بركابه، ثم نادى يا للمسلمين. الحديث. وقال ٱبن عمر: ما رأيت أشْجَع ولا أنْجَد ولا أجْوَد ولا أرْضَى من رسول الله ﷺ. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنا كنا إذا حَمِيَ البَأس - ويروى ٱشتدّ البَأْسُ - وٱحمرت الحَدَق، ٱتّقَيْنا برسول الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه، ولقد رأيْتُني يوم بَدْر، ونحن نَلُوذُ بالنبي ﷺ، وهو أقْرَبُنا إلى العدوّ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا. وقيل: كان الشجاع الذي يقرب منه ﷺ إذا دَنَا العدوُّ لقربه منه. وعن أنس قال: كان النبيّ ﷺ أحسنَ الناس وأجودَ الناس وأشجعَ الناس؛ لقد فَزِع أهل المدينة ليلةً فٱنطلق ناسٌ قِبَلَ الصّوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت وٱسْتبْراء[٣] الخبر، على فرس لأبي طَلْحَة عُرْي، والسّيف في عُنقه، وهو يقول: «لن تُرَاعُوا». وقال عِمْران بن حُصَيْن: ما لَقِيَ رسول الله ﷺ كَتِيبَة إلاّ كان أول من يضرب.

---

(١) يؤثر: يعطي.

(٢) الكماة: واحدها الكميّ، وهو الفارس الشجاع المقدام الجريء.

(٣) استبراء الخبر: كشفه والوقوف عليه.

وأما حياؤه وإغضاؤه ﷺ

والحَيَاء: رِقَة تَعْتَري وجه الإنسان عند فعل ما يُتَوَقَّع كراهتُه أو ما يكون تركه خيرًا من فعله. والإغْضَاء: التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته، وكان النبيّ ﷺ أشدّ الناس حَيَاءً، وأكثرهم عن العَوْرات إغْضَاءً، وقد أخبر الله تعالى بحيائه فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وعن أبي سعيد الخُدْريّ: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حَياء من العَذْرَاء في خِدْرِها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه. وكان ﷺ لا يُشَافِهُ أحدًا بما يكره حياءً وكرم نفس. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بَلَغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: «ما بالُ أقوام يصنعون ـ أو يقولون ـ كذا» ينهى عنه ولا يسمِّي فاعلَه. وروى أنس رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل به أثَرُ صُفْرَة، فلم يقل له شيئًا ـ وكان لا يُوَاجِه أحدًا بما يكره ـ فلما خرج قال: «لو قلتم له يغسل هذا» ويروى «ينزعها». وروي عنه ﷺ أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد، وأنه كان يكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره، ﷺ.

وأما حُسْن عِشْرَته وأدَبه وبَسْط خُلُقِه ﷺ

فكان رسول الله ﷺ أكرم الناس عِشْرَة، وأكثرهم أدبًا، وأبسطهم خُلُقًا مع أصناف الخلق، انتشرت بذلك الأخبار الصحيحة، منها ما رويناه بسند متصل عن قيس بن سعد قال: زارنا رسول الله ﷺ وذكر قصة في آخرها، فلما أراد الانصراف قرب له سَعْدٌ حمارًا ووطَّأ عليه بقَطِيفَة[1]، فركب رسول الله ﷺ، ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ، قال قيس: فقال لي رسول الله ﷺ «اركب» فأبَيْتُ، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف» فانصرفت، وفي رواية أخرى: «اركب أمامي فصاحب الدابة أولى بمُقَدَّمها». وكان ﷺ لا يدع أحدًا يمشي معه وهو راكب حتى يحمله، فإن أبى قال: «تقدَّمْني إلى المكان الذي تريد» وركب ﷺ حِمارًا عُرْيًا إلى قُبَاء، وأبو هريرة معه، فقال: «يا أبا هريرة أحملك»؟ فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: «اركب» وكان في أبي هريرة ثِقَلٌ، فوَثَب ليركب فلم يقدر، فاستمسك برسول الله ﷺ فوقعا جميعًا، ثم ركب ﷺ فقال: «يا أبا هريرة أحملك»؟ فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: «اركب» فلم يقدر على ذلك، فتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعًا، ثم قال: «يا أبا هريرة أحملك»؟ فقال: لا، والذي بعثك بالحق لا صَرَعْتُكَ

---

(١) القطيفة: كساء له أهداب. أو نسيج من الحرير أو القطن صفيق أوبر، تتخذ منه ثياب وفرش.

ثالثًا. وكان لا يدع أحدًا يمشي خلفه ويقول: «خلوا ظهري للملائكة». وكان رسول الله ﷺ يُؤلِّف أصحابه ولا ينفرهم، ويُكرِم كَريم كلِّ قوم ويوَلِّيه عليهم، ويَحْذَر الناسَ ويحترس منهم، من غير أن يَطْوِي عن أحد منهم بِشْرَه ولا خُلُقَه، يتفَقّد أصحابه، ويعطي كلّ جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسُه أنّ أحدًا أكرم عليه منه، مَنْ جالسه أو قاربه لحاجة صابَره حتى يكون هو المنصرِف عنه، ومن سأله حاجة لم يَردّه إلا بها، أو بمَيْسُور من القول، قد وَسِع الناسَ بَسْطُه وخُلُقُه فصار لهم أبًا وصاروا عنده في الحق سواء، هكذا وصفه ابن أبي هَالَة، قال: وكان دائمَ البِشْر سَهْلَ الخُلُق لَيِّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سَخّاب[1] ولا فَحّاش، ولا عَيّاب ولا مَدّاح، يتغافل عما لا يُشتهى ولا يُؤْنَس منه. وكان ﷺ يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كُراعًا[2]، ويُكافِيء عليها، قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أُفّ قَطّ، وما قال لشيءٍ صنعتُه لِم صَنعتَه، ولا لشيء تركتُه لِمَ تركتَه، ومن رواية أخرى عنه قال: خدمته نحوًا من عشر سنين فوالله ما صحبته في سفر ولا حضر لأخدمه إلا وكانت خدمته لي أكثر من خدمتي له، وما قال لي أُفٍّ قطّ، ولا قال لشيء فعلتُه لِمَ فعلتَ كذا، ولا لشيء لم أفعله ألاّ فعلتَ كذا؟ وكان ﷺ في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل: يا رسول الله، عليّ ذَبْحُها، وقال آخر: عليّ سَلْخُها، وقال آخر: عليّ طبخُها، فقال رسول الله ﷺ: «وعليّ جَمْعُ الحطب» قالوا: يا رسول الله، نحن نكفيك، فقال: «علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن يراه مميزًا بين أصحابه» وقام فجمع الحَطَب. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان أحد أحسنَ خُلُقًا من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: «لبيك» وكان يُمازِح أصحابه ويُخالطُهم ويُحادثهم ويُداعِب صِبيانهم ويُجلسهم في حِجْره، ويجيب دعوة الحُرِّ والعبد والأمة والمِسكين، ويَعُود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر، قال أنس: ما التَقَم[3] أحد أذن رسول الله ﷺ فينحّي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحّي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ، ولم يُر مقدِّمًا ركبتيه بين يدي جليس له، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى يُضيّق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه، وربما بسَط له ثوبَه، ويؤثره بالوِسادة التي تحته، ويعزِم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكنّي أصحابه،

(١) السخب: الصياح.

(٢) الكراع: مستدق الساق العاري من اللحم.

(٣) المراد بقوله: التقم: جعل فمه يحاذي أذن رسول الله ﷺ.

ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثَه حتى يَتَجوَّز فيقطعه بنهي أو قيام، ويروى: بانتهاء أو قيام، ويروى: أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلّي إلا خَفّف صلاته وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد، إلى صلاته، وكان أكثر الناس تَبَسُّمًا، وأطيبهم نفسًا، ما لم ينزل عليه قرآن أو يَعِظ أو يَخْطُب.

وأما شفقته ورأفته ورحمته ﷺ لجميع الخلق

فقد أخبر الله تعالى بذلك ووصفه بهذه الأوصاف؛ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان من شفقته على أمته ﷺ تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم؛ كقوله ﷺ: «لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسِّواك[(١)] مع كل وُضوء» وخبر صلاة الليل، ونهيهم عن الوِصَال[(٢)]، وكراهيته دخول الكعبة لئلا يُعْنِت أمّته، ورغبته لربه أن يجعل سَبّه ولعنه لهم رحمة، وأنه كان يسمع بكاء الصَّبي فيتجَوَّز[(٣)] في صلاته. ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده فقال: «أيُّما رجلٍ سببتُه أو لعنتُه فاْجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة[(٤)] وطَهُورًا وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة». ومن ذلك أنه لما كذّبه قومُه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد أمر مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه مَلَك الجبال وسلّم عليه، فقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخْشَبَيْن[(٥)]، قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا». وروى ابن المنكدر: أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تُطيعك، فقال: «أُؤَخِّر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم». ومن ذلك ما روي أنه ﷺ قال: «لا يُبلِغني أحدٌ منكم عن أحد من أصحابي شيئًا، فإني أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سَليم الصَّدْر». وقال ابن مسعود: كان رسول الله ﷺ يَتَخوّلنا[(٦)] بالموعظة مخافة السّآمَة علينا، ﷺ تسليمًا كثيرًا.

---

(١) السواك: دلك الأسنان بالسّواك لتنظيفها، والسواك: عود يتخذ من شجر الأراك يستاك به.
(٢) الوصال: أي الوصال في الصوم: ألا يفطر يومين أو أيامًا.
(٣) يتجوز: يخفف. (٤) الصلاة: الدعاء.
(٥) الأخشبان: جبلان مطبقان بمكة، وهما أبو قيس والأحمر.
(٦) يتخولنا: يتعهدنا.

وأما وفاؤه وحسن عهده وصلته للرحم ﷺ

فكان ﷺ قد بلغ من ذلك الغاية التي لا يُدرك شأوُها، ولا يُبلَغ مدَاها، ولا يطمع طامعٍ سواه بالاتِّصاف بها، جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة والأخبار الصريحة، من ذلك ما رويناه بإسناد مُتَّصل عن عبد الله بن أبي الحَمْسَاء قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شققت عليّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك». وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أُتِي بهدية قال: «اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبّ خديجة». وعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: ما غِرتُ على امرأة ما غِرتُ على خديجة؛ لِمَا كنتُ أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها[١]، واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها، ودخلت عليه امرأة فهَشّ لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنّ حُسْن العَهْد من الإيمان». وقال رسول الله ﷺ: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رَحِمًا سأبُلُّها بِبِلالها»[٢]. وعن أبي قتادة قال: وَفَد وَفْدٌ للنجاشي، فقام النبيّ ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك، فقال: «إنهم لأصحابنا مُكْرِمين وإني أحبّ أن أكافئهم». ولما جيء بالشَّيْمَاء أخته من الرضاعة في سبايا هَوَازن وتعرفت له، بسط لها رِدَاءه، وقال لها: «إن أحببت أقمت عندي مكرّمة مُحبّة أو مَتَّعْتك ورجعت إلى قومك» فاختارت قومها فمتعها. وقال أبو الطُّفَيل: رأيت النبي ﷺ وأنا غُلامٌ، إذْ أقبلت امرأةٌ حتى دَنَت منه، فبسط لها رِدَاءه فجلست عليه، فقلت من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته. وعن عمرو بن السائب أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا فأقبل أبوه من الرّضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمّه فوضع لها شِقّ ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يَدَيْه. وكان يبعث إلى ثُوَيبة مولاة أبي لهب مُرْضعته بصِلَة وكُسْوة، فلما ماتت سأل من بقي من قرابتها فقيل: لا أحد. وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له ﷺ في ابتداء النبوّة: أبشر فوالله لا يُخْزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرَّحم، وتَحْمِل الكَلّ[٣]، وتُكسِب المعْدومَ، وتَقْرِي الضّيْف، وتُعِين على نوائب الحقّ.

(١) خلائلها: صواحباتها.

(٢) البلال: كل ما بل الحلق من ماء أو لبن أو غيره.

(٣) الكل: العيال.

وأما تَوَاضعه ﷺ مع علوّ منصبه ورِفْعة مرتبته

فكان ﷺ أشدّ الناس تواضعًا، وأقلهم كِبْرًا، وقد جاء أنه خُيِّر بين أن يكون نَبيًّا مَلِكًا، أو نَبِيًّا عبدًا، فاْختار أن يكون نَبِيًّا عبدًا، فقال له إسْرَافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيِّد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشَقّ الأرض عنه، وأول شافع. ومما رويناه بسند مُتّصل عن أبي أُمَامة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوَكِّئًا على عَصًا، فقمنا له فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعظِّم بعضُها بعضًا». وقال: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» وكان يركب الحمار، ويُرْدِف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيث ما اْنتهى به المجلس جلس. وعن أنس: أن اْمرأة كان في عقلها شيءٌ جاءته فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: «اْجلسي يا أمَّ فلان في أي طُرُق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك» قال: فجلست فجلس النبيّ ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها. قال أنس: حَجّ رسول الله ﷺ على رَحْل[(١)] رَثّ وعليه قَطِيفة ما تساوي أربعة دراهم، فقال: «اللهم اْجعله حَجًّا لا رِيَاء فيه ولا سُمْعة». هذا وقد أهدى في حجه ذلك مائة بَدَنة[(٢)]، ولما فتحت عليه مكة دخلها وقد طَأْطَأَ رأسه على رَحْله حتى كاد يمسّ قادِمَتَه تواضعًا لله تعالى.

ومن تواضعه ﷺ أنه لما دخل مكة جاءه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه بأبيه لِيُسْلِم فقال: «لِمَ عَنَّيْت[(٣)] الشيخَ يا أبا بكر ألا تركته حتى أكون أنا آتيه في منزله» وقد تقدّم ذكر ذلك في الفتح. وعن عائشة والحسن وأبي سعيد وغيرهم رضي الله عنهم، في صفته ﷺ، وبعضهم يزيد على بعض، أنه كان ﷺ في بيته في مَهْنَة[(٤)] أهله، يَفْلِي ثوبَه، ويحلب شاتَه، ويرقّع ثوبه، ويَخْصِف[(٥)] نعله، ويخدم نفسه، ويَقُمّ[(٦)] البيتَ، ويَعْقِل البعير، ويَعْلِف ناضِحه[(٧)]، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها ويحمل بِضَاعَته من السُّوق. وعن أنس: أن كانت الأَمَة من إمَاء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضي حاجتها. ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: «هوّن عليك فإني لست بمَلِك إنما أنا اْبن اْمرأة من قريش تأكل القَدِيد». وعن

(١) الرحل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب.
(٢) البدنة: الناقة أو البقرة، تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمونها لذلك.
(٣) عنيته: كلفته ما يشق عليه.
(٤) المهنة: الخدمة.
(٥) يخصف: يرقع النعل.
(٦) يقمّ: يكنس.
(٧) الناضح: الجمل.

أبي هريرة قال: دخلت السُّوق مع النبيّ ﷺ فاشترى سَرَاوِيل، وقال للوزّان «زِنْ وأرْجِحْ» وذكر القصّة، قال: فوثب إلى يد النبيّ ﷺ يقبّلها فجذَب يده، وقال: «هذا يفعله الأعاجم بملوكها ولست بمَلك إنما أنا رجل منكم» ثم أخذ السّراويل فذهبت لأحمله فقال: «صاحبُ الشيء أحق بشَيْئه أن يحمله». وقد ذكر الأمين العاصميّ بعض ذلك في قصيدة له فقال: [من مجزوء الكامل]

يا جاعلاً سنن النبي ... شِعاره ودِثارَهُ[1]
مُتمسّكًا بحديثه ... متتبّعًا أخبارَهُ
سُننَ الشّريعة خُذْ بها ... متوسّمًا آثارَهُ
وكذا الطريقة فاْقتبسْ ... في سُبْلها أنوارَهُ
قد كان يَقْرِي ضيْفَه ... كرمًا ويحفظ جارَهُ
ويجالس المسكين يؤ ... ثِرُ قربَه وجوارَهُ
الفَقْر كان رِدَاءَه ... والجوع كان شِعارَهُ
يَلْقَى بغُرّة ضاحكٍ ... مستبشرًا زوّارَهُ
بَسَط الرِّداء كرامةً ... لكريم قَوْم زارَهُ
ما كان مُختالاً ولا ... مَرِحًا يَجُرّ إزارَهُ[2]
قد كان يركَب بالرَّدِيـ ... ـفِ من الخُضُوع حِمارَهُ
في مِهْنَة هو أوْ صَلا ... ةِ ليلَه ونهارَهُ
فتراه يَحْلِبُ شاة منـ ... ـزِله ويوقِد نارَهُ
ما زال كَهْف مُهاجريـ ... ـه ومُكرِمًا أنصارَهُ
بَرًّا بمُحسنهم مُقِيـ ... ـلاً لِلْمُسِيء عِثارَهُ
يَهَبُ الذي تَحْوي يدَا ... هُ لطالبٍ إيثارَهُ
زَكّى عن الدنيا الدَّنِـ ... ـيَّة ربُّه مِقدارَهُ
جعل الإله صلاته ... أبدًا عليه نُثَارَهُ[3]
فاْخْتَرْ من الأخلاق ما ... كان الرسولُ اْختارَهُ
لِتُعَدّ سُنّيًا وتُو ... شِك أن تَبوّأ دارَهُ

---

(١) الدثار: الثوب فوق الشعار.
(٢) المرح: الأشر والبطر والتبختر والاختيال.
(٣) النثار: ما يلقى متفرقًا.

وأما عدله وأمانته وعِفَّته وصِدق لَهْجَته ﷺ

فكان ﷺ أعدل الناس، وآمن الناس، وأعَفّ الناس، وأصدق الناس لَهْجَة منذ كان، وكان يسمى قبل نبوّته الأمين، وقد قال ﷺ: «والله إني لأمينٌ في السماء أمينٌ في الأرض» وقد صدّقه عِداه في مواطن كثيرة تقدّم ذكرها، وقد قدّمنا قوله ﷺ للرجل: «ويحك إن لم أعدل فمن يعدل خِبتُ وخَسِرتُ إن لم أعدل». وقال ابن خالويه: جَزَّأ رسول الله ﷺ نهاره ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جَزَّأ جُزْأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامّة، ويقول: «أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمّنه الله يوم الفَزَع الأكبر». وعن الحسن قال: كان رسول الله ﷺ «لا يأخذ أحدًا بقَرْف[1] أحدٍ ولا يُصدِّق أحدًا على أحد» ﷺ، ولم تمس يده امرأة قطّ لا يَمْلِك رِقَّها أو نكاحها أو تكون ذات محرم».

وأما وَقاره وصَمْته وتُؤَدَته ومُروءَته وحسنُ هَدْيِه ﷺ

فقد روينا بإسناد مُتَّصل عن خارجة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ أوْقَر الناس في مجلسه لا يكاد يُخرج شيئًا من أطْرَافه. وروى أبو سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه مُحْتَبيًا[2]. وعن جابر بن سَمُرَة: أنه تَربّع، وربما جلس القُرْفُصَاء، وكان كثير السُّكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يُعرِض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبَسُّمًا وكلامه فَصْلًا لا فُضول ولا تَقْصِير، وكان ضحك أصحابه عنده التَبَسُّم توقيرًا له واقتداء به، مجلسه مجلس حِلْم وحَيَاء وخَيْر وأمَانَة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبَنُ[3] فيه الحُرَم، إذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطّيْر. وفي صفته: يَخْطُو تَكَفُّؤًا[4] ويمشي هَوْنًا كأنما يَنْحطّ من صَبَب[5]. وفي الحديث الآخر: «إذا مشى مشى مجتمعًا، يعرف في مَشْيَته أنه غير غرِضٍ ولا وَكل»؛ أي غير ضَجِر ولا

(١) القرف: التهمة.
(٢) محتبيًا: أي معتمدًا على ساقيه ويديه.
(٣) تؤبن: أي يصان مجلسه من رفث القول ولا تذكر فيه الحرم بقبيح.
(٤) تكفأ: تمايل إلى قدام.
(٥) الصبب: الموضع المنحدر.

كسلان. وقال عبد الله بن مسعود: إنّ أحسن الهَدْي هَدْيُ محمد ﷺ. وعن جابر بن عبد الله: كان في كلام رسول الله ﷺ تَرْتِيل[١] أو تَرْسِيل، قال ٱبن أبي هَالَة: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحَذَر، والتّقْدير، والتفكر. وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحدّث حديثًا لو عَدّه العادُ لأحصاه. وكان ﷺ يحب الطِّيب والرائحة الحسنة ويحض عليها ويقول: «حُبِّب إلي من دنياكم النِّساءُ، والطِّيب وجُعلت قُرّة عَيْني في الصلاة». ومن مُروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب، والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسِّواك، وإنْقاء البَرَاجِم[٢] والرَّواجِب[٣]، وٱستعمال خِصال الفِطرة[٤]. صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا أبدًا دائمًا إلى يوم الدين، آمين.

وأما زُهْده في الدنيا ﷺ

فحسبك من ذلك أنه ﷺ تُوفّي ودِرْعُه مرهونة عند يهوديّ في نفقة عياله، بعد أن فتح الله عليه من الفتوحات ما ذكرناه، وآتاه من الأخماس والصفايا ما قدمناه، فآثر[٥] بذلك كله، وكان يقول: «اللهم ٱجعل رزق آل محمد قوتًا» وسنذكر إن شاء الله تعالى في أحواله ما ناله من شِدّة العَيْش والجوع ما تقف عليه هناك. قالت عائشة رضي الله عنها: لقد مات رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كَبِد إلا شَطْر شعير في رَفّ لي، وقال لي: «إنّي عُرِض عليّ أن تُجْعَل لي بَطْحاء مكة ذهبًا، فقلت لا يا ربّ أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، فأمّا اليوم الذي أجوع فيه فأتضرّع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فأحمدك وأثني عليك». وفي حديث آخر: «إن جبريل عليه السلام نزل عليه فقال له: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبًا، وتكون معك حيثما كنت؟» فأطرق ساعة ثم قال: «يا جبريل، إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له» فقال له جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت. ﷺ.

---

(١) الترتيل: التأني والتمهل.
(٢) البراجم: رؤوس السلاميات من ظاهر الكف إذا قبض القابض كفه نشزت.
(٣) الرواجب: بطون السلاميات.
(٤) المراد بالفطرة هنا: سنة الأنبياء عليهم السلام.
(٥) آثر بذلك: فضل وقدم.

وأما خوفه رَبَّه، وطاعتُه له، وشدّة عبادته ﷺ

فكان ذلك على قدر علمه بربه تبارك وتعالى؛ ولذلك قال فيما رويناه بسنَد متصل عن سعيد بن المسيّب: إن أبا هريرة كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا». ومن رواية عن أبي عيسى الترمذيّ عن أبي ذَرٍّ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّتِ(١) السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها مَلَك ساجد لله واضع جبهته، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا وما تلذّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدَات تَجْأرون(٢) إلى الله، لوددت أني شجرة تُعْضَد»(٣). روي هذا الكلام: «وددت أني شجرة تُعضَد» من قول أبي ذر نفسه وهو أصح. وفي حديث آخر: صلّى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه. وفي رواية: كان يصلي حتى تَرِم قدماه، فقيل له أتَكلفُ هذا وقد غُفِر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا». وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ دِيمَةً(٤)، وأيُّكم يُطيق ما كان يُطيق. وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يُفْطِر، ويُفْطِر حتى نقول لا يصوم. وكان ﷺ يصوم الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر، ويومَ عاشوراء، وقلّ ما كان يُفْطِر يوم الجمعة، وأكثر صيامه في شعبان. وقال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ ثم قام فصلّى فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة» ثم سجد، وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك. وعن حُذيفَة مثله، وقال: سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدتين نحوًا منه، وقال: حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة. وعن عبد الله بن الشِّخِّير قال: أتيت رسول الله ﷺ ولجَوْفه أزيزٌ(٥) كأزيز المِرْجل. قال ابن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة. وقال ﷺ: إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة، وروي سبعين مرة. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن

---

(١) الأطيط: صوت الأقتاب.

(٢) تجأرون: ترفعون.

(٣) تعضد: تقطع.

(٤) الديمة: المطر الدائم في سكون.

(٥) الأزيز: صوت الغليان.

سنته فقال: «المعرفةُ رأسُ مالي، والعقلُ أصل ديني، والحُبُّ أساسي، والشوقُ مَرْكبي، وذكرُ الله أَنِيسي، والثقة كَنْزِي، والحُزْن رَفيقي، والعلم سِلاحي، والصّبر زادي، والرِّضا غَنِيمَتي، والعجزُ فخري، والزهدُ حِرْفتي، واليقينُ قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حَسْبي[1]، والجهاد خُلُقي، وقُرَّة عَيْني في الصلاة». وفي حديث آخر: «وثمرة فؤادي في ذكره، وغَمِّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي». ولنصِل هذه الفصول التي شرحناها في صفاته المعنوية ﷺ بما وَرَد من طِيب رِيحه، وعَرَقه، وما يجري هذا المجرى.

ذكر نبذة مما ورد في نظافة جسمه، وطيب ريحه، وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعَوْرات الجسد ﷺ

كان رسول الله ﷺ قد خصّه الله عزّ وجل من ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ومَنَحَه مِنَحًا لم تكن في سِوَاه؛ من ذلك ما رويناه عن مسلم بن الحجاج بإسناده، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما شَمَمْت عَنبرًا قطّ ولا مِسْكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ. وعن جابر بن سَمُرة أنه ﷺ مسح خدّه، قال: فوجدت لِيَدِه بَرْدًا وريحًا كأنّما أخرجها من جُونَة[2] عطّار. قال غيره: مَسّها بطيب أو لم يمسّها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبيّ فيعرف من بين الصبيان بريحها. وروي أن رسول الله ﷺ نام في دار أَنَس فعرِق، فجاءت أمُّ أنس بقارورة تجمع فيها عَرَقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك فقالت: نجعله في طِيبنا وهو من أطْيَب الطِّيب. وذكر البخاري في تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبيّ ﷺ يمرّ في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه. وذكر إسحاق بن راهويه: أن تلك كانت رائحته بلا طِيبٍ ﷺ. وروى المُزَنِيّ عن جابر قال: أردفني النبيّ ﷺ فٱلتقمت خاتم النبوّة بِفَمِي وكان يَنِمّ عليّ مِسْكًا. ونقل القاضي عياض بن موسى قال: حكى بعض المعتَنِين بأخباره وشمائله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يتغوّط ٱنشقت الأرض فٱبتلعت غائِطه وبَوْلَه، وفاحَتْ لذلك رائِحَة طيبة. وأسند محمد بن سعد في هذا خبرًا عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبيّ ﷺ: إنك تأتي الخَلاَءَ ولا يرى منك شيء من الأذى. فقال: «يا عائشة أو ما علمتِ أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شيء» قال القاضي عياض: وهذا الخبر وإن لم يكن

(١) الطاعة حسبي: أي تكفيني.

(٢) الجونة: التي يعد فيها الطيب ويحرز.

مشهورًا فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحَدَثَيْن منه ﷺ. ومن ذلك حديث عليّ بن أبي طالب في الوفاة وسنذكره إن شاء الله تعالى. وقد جاء عن أمه آمنة أنها قالت: ولدته نظِيفًا ما به قَذَر ﷺ. ولنختم هذه الفصول بحديث هِند بن أبي هالَة لجمعه بين صفاته ﷺ الذاتية والمعنوية. والله أعلم.

ذكر حديث هنْد بن أبي هالَة وما تضمن من أوصاف رسول الله ﷺ الذاتية والمعنوية

حدّثنا الشيخان المحدِّثان شرف الدِّين أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن يعقوب الحلبيّ، وزين الدين أبو محمد عبد الحقّ بن قينان بن عبد المجيد القرشيّ - رحمهما الله - قراءة عليهما وأنا أسمع في شهر رجب عام ثمانية وسبعمائة، قالا: حدّثنا الشيخ أبو الحسن محمد بن أبي عليّ الحسين بن عتِيق بن رشِيقِ الرَّبَعِي المالكي سماعًا في شوّال سنة ثمان وستين وستمائة بمصر، وبقراءة الشيخ زَيْن الدين الثاني على الشيخِ نظام الدين الحسين بن محمد بن الحسن بن الخليلي، وبإجازتهما من الحافظ أبي الحسين يحيى بن علي بن عبد الله القرشيّ، وتاج الدين علي بن أحمد بن القسطلانيّ، قالوا أخبرنا أبو الحسين محمد بن أبي جعفر أحمد بن جبير الكناني، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عيسى التميميّ إجازة، قال أخبرنا القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحْصبيّ رحمه الله تعالى، قال اَبن القسطلانيّ: وأخبرنا أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمٰن بن مَضَاء إجازة، قال أخبرنا أبو الفضل عياض إجازة، قال القاضي أبو الفضل حدّثنا القاضي أبو علي الحسين بن محمد الحافظ رحمه الله بقراءتي عليه سنة ثمان وخمسمائة، قال حدّثنا الإمام أبو القاسم عبد الله بن طاهر التميميّ، قال قرأت عليه: أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن الحسن النيسابوريّ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمديّ، والقاضي أبو عليّ الحسن بن علي بن جعفر الوَخْشِيّ، قالوا: حدّثنا أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعيّ، قال أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة الحافظ؛ قال حدّثنا سفيان بن وَكِيع، قال حدّثنا جُمَيع بن عمر بن عبد الرحمٰن العجليّ إملاء من كتابه، قال حدّثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبد الله عن اَبن لأبي هالة عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال سألت خالي هند بن أبي هالة. قال القاضي أبو عليّ

رحمه الله: وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد بن خذاداذ الكرخي الباقِلّاني، قال وأجاز لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خَيْرون، قالا أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان بن حرب بن مِهْران الفارسيّ، قراءة عليه، فأقرّ به، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوي، قال حدّثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال: حدّثني علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أخيه موسى بن جعفر بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن علي بن الحسين قال قال الحسن بن علي ـ واللفظ لهذا السند ـ: سألت خالي هِند بن أبي هالة عن حِلْيَة[1] رسول الله ﷺ، وكان وَصّافًا، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئًا أتعلق به، قال: كان رسول الله ﷺ فَخْمًا[2] مُفَخَّمًا يَتَلألأ وجهه تَلألُؤ القمر ليلة البدر، أطول من المَرْبُوع، وأقْصَر من المشَذَّب[3]، عظيم الهامَة، رَجِل الشعر، إن انْفَرَقَت عَقِيقَته فَرَق، وإلا فلا يجاوز شعره شَحْمة أُذُنه إذا هو وَفَّر، أزْهَر[4] اللَّوْن، واسع الجَبِين، أزَجّ الحواجب، سَوَابغ[5] من غير قَرَن، بينهما عِرْق يُدِرّه الغضب، أقنى العِرْنين، له نور يعلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشَمّ، كثُّ اللحية، أدْعَج، سهل الخَدّيْن، ضلِيع الفم، أشْنَب مُفَلّج الأسْنان، دقيق المَسْرُبة، كأنّ عنقه جِيدُ دُمْيَة في صفاء الفِضة، معتدل الخلق، بادِنًا متماسكًا، سواء البطن والصَّدر، مُشِيحُ[6] الصَّدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكَراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللَّبّة والسُّرة بشعر يجري كالخطّ، عارِي الثديين، ما سوى ذلك، أشعرُ الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رَحْب الراحة، شثْن الكفّين والقدمين، سائل[7] الأطراف، أو قال سائن الأطراف، سَبْط القَصَب، خُمْصان الأخْمَصين، مَسِيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال[8] زال تَقَلُّعًا، ويخطو تكَفُّؤًا، ويمشي هوْنًا، ذرِيع المِشْيَة، إذا مشى

---

(١) الحلية: الزينة، أو الصفة.
(٢) الفخم المفخم: العظيم المعظم في الصدور والعيون.
(٣) المشذب: الطويل البائن الطول مع نقص في لحمه.
(٤) أزهر اللون: نيّره.
(٥) السوابغ: التامة الطويلة.
(٦) مشيح الصدر: عريضه.
(٧) سائل الأطراف: أي ممتدها.
(٨) المراد بقوله: إذا زال زال تقلعًا: أي يرفع رجليه من الأرض رفعًا قويًا لا كمن يمشي اختيالاً ويقارب خطاه لأن ذلك من مشي النساء.

كأنما ينحطّ من صَبَب، وإذا التفت ٱلتفت جميعًا، خافِض الطَّرْف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة[١]، يَسُوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام. قلت: صف لي منطقه، قال: كان رسول الله ﷺ متواصلَ الأحزان، دائم الفكرة، وليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه[٢]، ويتكلم بجوامع الكلم، فَصْلًا لا فُضُول فيه ولا تقصير، دَمِثًا ليس بالجافِي ولا المُهِين، يعظِّم النّعمة وإن دَقّت، لا يَذُمّ شيئًا لم يكن يُذَمّ ذَوَاقًا ولا يمدحه، ولا يُقام لغضبه إذا تُعُرِّض للحقّ بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفّه كلها، وإذا تعجب قَلَبها، وإذا تحدّث ٱتصل[٣] بها فضرب بإبهامه اليمنى راحتَه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاحَ، وإذا فرح غَضّ طرفه، جُلُّ ضحكه التبسم، ويَفْتَرّ عن مثل حَبّ الغمام. قال الحسن: فكتمتها الحسين بن علي زمانًا، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مَدْخل رسول الله ﷺ ومَخْرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئًا، قال الحسين: سألت أبي ـ عليه السلام ـ عن دخول رسول الله ﷺ، فقال: كان دخوله لنفسه مَأذُونًا له في ذلك، فكان إذا آوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله تعالى، وجزء لأهله، وجزء لنفسه. ثم جزّأ جزءه بينه وبين الناس، فيردّ ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدّخر عنهم شيئًا، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، قِسْمته على قدر فضلهم في الدّين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويُشغِلهم فيما أصْلَحهم والأمةَ من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع أبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة» لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره.

قال في حديث سفيان بن وَكِيع: «يدخلون رُوّادًا[٤]، ولا يتفرّقون إلا عن ذَوَاق[٥]، ويخرجون أدِلة»[٦]، يعني فقهاء، قلت: فأخبرني عن مخرجه كيف كان

(١) الملاحظة: النظر بشق العين الذي يلي الصدغ.
(٢) الأشداق: جوانب الفم. (٣) اتصل: أي وصل إحدى يديه بالأخرى.
(٤) روادًا: أي محتاجين وطالبين لما عنده من النفع لدينهم ودنياهم.
(٥) المراد بقوله: ولا يتفرقون إلا عن ذواق: أي يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم.
(٦) أدلة: جمع دليل وهو معروف.

يصنع فيه، قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم، ويؤلّفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ويولّيه عليهم، ويَحْذَر الناسَ ويحترس منهم من غير أن يَطْويَ عن أحد بِشره وخُلُقه، ويتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويُحسِّن الحسن ويصوِّبه، ويُقبِّح القبيح ويُوهِنُه، معتدِل الأمر غير مُختلِف، لا يَغفُل مخافة أن يَغفُلوا أو يمَلُّوا؛ لكل حال عنده عَتادٌ[1]، لا يُقصِّر عن الحقّ ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارُهم، وأفضلهم عنده أعمُّهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مُواسَاةً ومؤازرة.

فسألتُه عن مجلسه عما كان يصنع فيه، فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يُوطِّن الأماكن، وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، مَن جالسه أو قارَبه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، من سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بمَيْسُورٍ من القول، قد وسِع الناسَ بَسْطُه وخُلُقه فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحقّ متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى. وفي الرواية الأخرى: صاروا عنده في الحقّ سواء، مجلسه مجلس حِلْم وحَيَاء وصبر وأمانة، لا تُرفَع فيه الأصواتُ ولا تُؤبَنُ فيه الحُرَم، ولا تُنثَى[2] فلتَاتُه - وهذه الكلمة من غير الروايتين - يتعاطفون، بالتقوى متواضعين، يُوقِّرون فيه الكبير ويرحمون الصغير، ويرفدون[3] ذا الحاجة ويرحمون الغريب.

فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه، فقال: كان رسول الله ﷺ دائمَ البِشر، سَهْلَ الخلُق، ليّن الجانب، ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا سَخّاب ولا فَحّاش، ولا عَيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عما لا يُشْتَهى ولا يُؤيِس منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحدًا ولا يعيّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثُهم حديثُ أوّلهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الْجَفوة في المنطق، ويقول: «إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه» ولا يطلب الثناء إلا من مكافىء، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام. هنا انتهى حديث سُفيان بن وَكِيع.

---

(١) العتاد: ما يصلح لكل ما ينفع من الأمور.
(٢) لا تنثى: أي لا تشاع ولا تذاع.
(٣) يرفدون: يعينون.

وزاد الآخر؛ قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحلم والحَذَر والتقدير والتفكّر، فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم ﷺ في الصبر، فكان لا يُغضبه شيء يَسْتفِزّه. وجمع له في الحذر أربع: أخذه بالحَسَن، لِيُقتدَى به، وتركه القبيح لِيُنتهَى عنه، واجتهاد الرأي بما أصلح أمّته، والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة. ﷺ. فهذه جملة كافية من أوصافه ﷺ، فلنذكر أحواله.

ذكر أحوال رسول الله ﷺ

في دنياه، وما ناله من شدّة العيش فيها، وما رُوِي من أحواله في تطيُّبه ولباسه وفراشه، ووسادته، وتختّمه وتنعُّله، وخُفّيه. وسِواكه، ومُشْطه، ومُكْحُلته ومرآته وقَدَحه، وما ورد في حِجَامته، وما ملكه من السِّلاح والدّواب وغير ذلك. ﷺ.

أما ما ناله ﷺ من شدة العيش في دنياه

فقد تقدّم من صفاته المعنوية زهده في الدنيا وتقلُّله منها، وأحلنا هناك على ما نورده في هذا الموضع. وسنورد منه ما تقف عليه إن شاء الله.

فمن ذلك ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاءً، وكان عامة خبزهم الشعير. وعن أنس بن مالك أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكِسرة خبز إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه الكسرة»؟ قالت: قُرْصٌ خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكِسرة. فقال: «أمَا إنه أول طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاثة أيام». وعن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يَشُدّ صُلْبه بالحجر من الغَرَث»[(١)]. وعن مسروق قال: بينما عائشة تحدّثني ذات يوم إذ بكت؛ فقلت: ما يبكيك يا أم المؤمنين؟ قالت: ما ملأت بطني من طعام فشئت أن أبكي إلا بكيت؛ أذكرُ رسولَ الله ﷺ وما كان فيه من الجَهْد[(٢)]. وعنه قال: دخلتُ على عائشة أمّ المؤمنين وهي تبكي، فقلت: يا أمّ المؤمنين ما يبكيك؟ قالت: ما أشبع فأشاء أن أبكي إلا بكيت؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُرّ. وعنها رضي الله عنها قالت: ما شَبع آلُ محمد غَداءً وعَشاءً من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات حتى لَحِق

(١) الغرث: الجوع. (٢) الجهد: المشقة.

بالله. ومن رواية عنها: ما رفع عن مائدته كِسْرة فضلاً حتى قُبِض. وعن أبي هريرة قال: كان يمرّ بآل رسول الله ﷺ هِلالٌ، ثم هلال، ثم هلال، لا يُوقَد في شيء من بيوته نارٌ، لا لخبز ولا لطبيخ، قالوا: بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟ قال: بالأسودَيْن التمر والماء. قال: وكان له جيران من الأنصار ـ جزاهم الله خيرًا ـ لهم منائحُ(١) يرسلون إليه بشيء من لبن. وعن الحسن قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات» والله ما قالها ٱستقلالاً لرزق الله، ولكن أراد أن تَأسَّى به أمته. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ في يوم مرتين حتى لحق بالله، ولا رفعنا له فَضْل طعام عن شبع حتى لحق بالله، إلا أن نرفعه لغائب. فقيل لها: ما كانت معيشتكم؟ قالت: الأسودان الماء والتمر. قالت: وكان لنا جيران من الأنصار لهم رَبَائِبُ(٢) يسقونا من لبنها؛ جزاهم الله خيرًا. وعن ٱبن شهاب: أن أبا هريرة كان يمرّ بالمغيرة بن الأخْنَس وهو يطعم الطعام، فقال: ما هذا الطعام؟ قال: خبز النَّقيّ واللحم السَّمِين، قال: وما النَّقِيّ؟ قال: الدقيق. فتعجب أبو هريرة ثم قال: عجبًا لك يا مُغِيرةُ! رسول الله ﷺ قبضه الله عزّ وجل، وما شبع من الخبز والزيت في يوم مرتين، وأنت وأصحابك تَهْذِرُون(٣) هاهنا الدنيا بينكم. وعن قَتادة قال: كنا نأتي أنس بن مالك وخَبَّازُه قائمٌ، فقال يومًا: كلوا فما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مُرَقَّقًا حتى لحق بربه، ولا شاة سَمِيطًا(٤) قطّ. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ٱجتمع في بطن النبيّ ﷺ طعامان في يوم قطّ، إن أكل لحمًا لم يزد عليه، وإن أكل تمرًا لم يزد عليه، وإن أكل خبزًا لم يزد عليه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل أبو بكر رضي الله عنه قائمة شاة ليلاً فقَطَعْتُ، وأمسك عليّ رسولُ الله ﷺ، أو قطع رسولُ الله ﷺ وأمسكتُ عليه، فقيل لها: على غير مصباح؟ قالت عائشة: لو كان عندنا مِصْباح لَأتدمنا به، كان يأتي على آل محمد شهر ما يختبزون خبزًا ولا يطبخون قِدْرًا. وعن عِمْران بن زيد المدِيني قال: حدّثني والدي، قال: دخلنا على عائشة، فقلنا: سلام عليك يا أُمّاه، قالت: وعليك، ثم بكت، فقلنا: ما بكاؤكِ يا أُمّاه؟ قالت: بلغني أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواء، فذكرتُ نبيكم ﷺ، فذلك الذي أبكاني، خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين، كان إذا شبع

---

(١) المنائح: واحدتها المنحة، وهي الناقة أو الشاة ينتفع بلبنها زمانًا ثم يردها.
(٢) الربائب: جمع مربوبة، وهي الغنم التي تكون في البيت وليست بسائمة.
(٣) تهذرون: أي تتوسعون فيها. (٤) سميطًا: مشوية.

من التمر لم يشبع من الخبز، وإن شبع من الخبز لم يشبع من التمر، فذلك الذي أبكاني. وعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ تُوفِّي يوم تُوفِّي، ودِرْعه مرهونة عند رجل من اليهود بوَسْق[١] من شعير. وسُئِل سهل بن سعد: أكانت المناخل على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: ما رأيت مُنْخُلاً في ذاك الزمان، وما أكل رسول الله ﷺ الشعير منخولاً حتى فارق الدنيا. فقيل له: كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نَطْحَنها ثم نَنْفُخ قِشْرها، فيطير ما طار ويستمسك ما استمسك. وعن الأعرج، عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ كان يجوع، قال قلت لأبي هريرة: وكيف ذلك الجوع؟ قال: لكثرة من يغشاه وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك، فلا يأكل طعامًا أبدًا إلا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتبعون من المسجد، فلما فتح الله تعالى خيبر اتّسع الناس بعض الاتّساع، وفي الأمر بعدُ ضيقٌ، والمعاش شديد في بلاد ظَلَفٍ[٢]، لا زرع فيها، إنما طعام أهلها التمر وعلى ذلك أقاموا. قال مَخْرَمَة بن سليمان: وكانت جَفْنة سَعْد تدور على رسول الله ﷺ منذ يوم نزل المدينةَ في الهجرة إلى يوم تُوفّي. وغير سعد بن عُبَادة من الأنصار يفعلون ذلك. وكان أصحاب رسول الله ﷺ كثيرًا يواسون، ولكن الحقوق تكثر والعُدّام يكثرون، والبلاد ضيقة ليس فيها معاش، إنما تخرج ثمرتهم من ماء ثَمَد[٣] يحمله الرجال على أكتافهم، أو على الإبل، والإبل أقل ذلك، وربما أصاب نَخلَهم القُشَام فتذهب ثمرتهم تلك السنة، والقُشَام: شيء يصيب البلح مثل الجدري فيَنْتَثِر؛ فهذه كانت حاله ﷺ في عيشه في غالب أوقاته، وهي سُنَّة الأنبياء صلوات الله عليهم.

وأما تطيبه ﷺ

فكان رسول الله ﷺ يحبّ الطِّيب، وكان يتطيب بالغَالِيَة[٤] وبالمِسْك، حتى يُرَى وَبِيصُه[٥] في مَفَارِقه، ويتبخّر بالعُود[٦] ويَطْرح معه الكافُور، وكان يعرف في الليلة المظلمة بطِيبِ رِيحه ﷺ.

(١) الوسق: مكيلة معلومة، وهي ستون صاعًا، والصاع خمسة أرطال وثلث.
(٢) الظلف: الغليظ الصلب من الأرض، والمراد التي لا زرع فيها.
(٣) الثمد: الماء القليل الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف.
(٤) الغالية: نوع من الطيب مركب من مسك وعود وعنبر ودهن.
(٥) الوبيص: البريق. (٦) العود: ضرب من الطيب يتبخر به.

وأما لباسه ﷺ
وما روي من ألوانه وأصنافه وطوله وعرضه

فقد روي أنه ﷺ كان يتجمَّل لأصحابه، فضلاً عن تجمّله لأهله، ويقول: «إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيَّأ لهم ويتَجَمّل» ولبس ﷺ من الثياب البياضَ والحُمرة والصُّفرة والخُضْرة والسَّواد.

أما البياض وما جاء فيه: فقد روي عن سَمُرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالبياض من الثياب فَلْيَلْبَسها أحياؤكم وكفِّنوا فيها موتاكم فإنها من خير ثيابكم» وفي رواية عنه «اَلبسوا الثياب البيض فإنها أطهر وأطيب وكفّنوا فيها موتاكم». وعن أبي قِلاَبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أحبّ ثيابكم إلى الله البياض، فصلُّوا فيها وكفّنوا فيها موتاكم».

وأما الثياب الحمر: فروي عن البَرَاء قال: ما رأيت أحدًا كان أحسنَ في حُلّة حمراء من رسول الله ﷺ. وعنه: ما رأيت من ذي لِمّة أحسنَ في حُلّة حمراء من رسول الله ﷺ. وعن عَوْن بن أبي جُحَيْفَة عن أبيه قال: أتيت النبيّ ﷺ بالأبْطَحِ، وهو في قُبّة حمراء، فخرج وعليه جُبّة له حمراء وحُلّة عليه حمراء. وعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يلبس بُرْده[١] الأحمر في العيدين والجمعة. وعن أبي جعفر محمد بن عليّ أن رسول الله ﷺ كان يلبس يوم الجمعة برده الأحمر؛ ويَعْتَمّ يوم العيدين، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وأما الثياب الصُّفْر: فقد رُوي عن قَيْس بن سعد بن عُبَادة قال: أتانا رسول الله ﷺ فوضعنا له غسلاً فاغتسل، ثم أتيناه بمِلْحَفة وَرْسِيّة[٢] فاشتمل بها، فكأني أنظر إلى أثر الوَرْس على عُكَنِه. وعن بكر بن عبد الله المزني قال: كانت لرسول الله ﷺ مِلْحَفة مُوَرَّسَة، فإذا دار على نسائه رشّها بالماء. وعن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: ربما صُبِغ لرسول الله ﷺ قميصُه ورِداؤُه وإزارُه بزعفران ووَرْس، ثم يخرج فيها. وعن عبد الله بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يصبغ ثيابه بالزعفران: قميصه ورِداءه وعِمامتَه. وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ عليه رداءٌ وعمامةٌ مصبوغين بالعبِير[٣]، والعبير عندهم الزّعفران. وعن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ يصبغ ثيابه كلها بالزعفران حتى العمامة.

---

(١) البرد الأحمر: برد يماني مخطط بحمرة وسواد.

(٢) الورسية: نسبة إلى الورس، وهو نبت أصفر يصبغ به، والورسية المصبوغة به.

(٣) العبير: أخلاط من الطيب.

وأما الثياب الخُضْر: فقد رُوِي أنّ رسول الله ﷺ كان يعجِبه الثياب الخضر. وعن أبي رِمْثَة قال: رأيت رسول الله ﷺ وعليه بُرْدان أخضران. والله المنعم.

وأما السَّوَاد وما ورد فيه: فقد روي عن جابر أن رسول الله ﷺ دخل مكة، وعليه عمامة سَوْداء. وعن حُرَيْث عن أبيه أن النبيّ ﷺ خطب الناس، وعليه عمامة سوداء. هذا ما وقفنا عليه من ألوان لباسه ﷺ.

فأما أصناف لباسه ﷺ وطولها وعرضها، فإنه عليه الصلاة والسلام لبس الصوف والحِبَرَة[١] والقطن، ولبس السُّنْدُس[٢] والحرير، ثم تركه، وورد في ذلك أخبار نذكر منها ما أمكن.

أما الصوف وما ورد فيه: فقد روي عن أبي بُرْدَة قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فأخرجت إلينا إزارًا غليظًا مما يُصنَع باليمن، وكِسَاء من هذه المُلَبَّدة[٣]، فأقسمت أن رسول الله ﷺ قُبِض فيهما. وعنها رضي الله عنها قالت: جعل للنبيّ ﷺ بُرْدَة سَوْداء من صوف فلبسها. وعن سهل بن سعد قال: جاءت أمرأة إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، فيها حاشيتاها. قال سهل: وتدرون ما البردة؟ قالوا: الشَّمْلَة، قال: نعم، هي الشَّمْلَة، فقالت: يا رسول الله، نسجتُ هذه البردة بيدي فجئت بها أكسوكها، قال: فأخذها رسول الله ﷺ محتاجًا إليها، فخرج علينا وإنها لإزاره، فحسّنها فلان ـ لرجل من القوم سمّاه ـ فقال: يا رسول الله، ما أحسنَ هذه البُرْدَة! اكسنيها، فقال: «نعم» فجلس ما شاء الله في المجلس ثم رجع، فلما دخل رسول الله ﷺ طواها ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، كُسِيَها رسولُ الله ﷺ محتاجًا إليها ثم سألته إياها، وقد علمت أنه لا يرد سائلاً! فقال الرجل: والله ما سألته إياها لألبَسها، ولكن لتكون كَفَني يوم أموت، قال سهل: فكانت كَفَنَه.

وأما الحِبَرَة وهي من بُرُود اليَمَن فيها حُمرة وبياض فكانت من أحبّ اللباس إلى رسول الله ﷺ. ورُوِي عن قَتَادة قال: قلت لأنس بن مالك: أيّ اللباس كان أحبّ وأعْجَب إلى رسول الله ﷺ؟ قال: الحِبَرَة. وعن محمد بن هلال قال: رأيت على هشام بن عبد الملك بُرْد النبيّ ﷺ من حِبَرَة له حاشيتان.

---

(١) الحبرة: من برود اليمن فيها حمرة وبياض.

(٢) السندس: ضرب من رقيق الديباج.

(٣) الملبّدة: ما تداخل ولزق بعضه في بعض.

وأما السُّنْدس والحرير: فإن رسول الله ﷺ لبس ذلك ثم تركه. رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أهدى ملك الروم إلى رسول الله ﷺ مُسْتَقَة[١] من سُنْدُس فلبسها، فكأنِّي أنظر إلى يديها تَذَبْذَبان من طولها. فجعل القوم يقولون: يا رسول الله، أنزلت عليك من السماء؟ فقال: «وما تعجبون منها، فوالذي نفسي بيده إن منديلاً من مناديل سعد بن مُعَاذ في الجنة خير منها» ثم بعث بها إلى جعفر بن أبي طالب فلبسها، فقال النبيّ ﷺ: «إني لم أعطكها لتلبسها» قال: فما أصنع بها؟ قال: «ابعث بها إلى أخيك النجاشيّ». وعن عقبة بن عامر قال: أهدى إلى رسول الله ﷺ فَرُوجٌ - يعني قَبَاء حرير - فلبسه، ثم صلّى فيه، ثم انصرف فَنَزَعَه نَزْعًا شديدًا كالْكَارِه له، ثم قال: «لا ينبغي هذا للمتقين».

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ صلّى في خَمِيصَة[٢] لها أعْلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما سلّم قال: «اذهبوا بخَميصَتي هذه إلى أبي جَهْم فإنها ألْهَتْنِي آنفًا عن صلاتي وأتوني بأنْبِجَانِيّ[٣] أبي جَهْم».

وأما القطن وما ورد في أطْوال ثياب رسول الله ﷺ وعَرْضها فروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت يومًا أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْد بَحْرَانيّ[٤] غليظ الحاشية. وعنه: كان قميص رسول الله ﷺ قُطْنيًا قصير الطول قصير الكُمّين. وعن بُدَيْل قال: كان كُمُّ رسول الله ﷺ إلى الرُّسْغ. وعن عُرْوة بن الزبير رضي الله عنهما: أن طول رداء النبيّ ﷺ أربع أذرع، وعرضه ذراعان وشبْر. وعنه: أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه إلى الوفد - ورداؤه حَضْرميّ - طولُه أربع أذرع، وعرضه ذراعان وشِبْر، فهو عند الخلفاء قد خَلق[٥]، فطوَوْه بثوب يلبسونه يوم الأضحى والفِطر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يلبس قميصًا قصير اليدين والطول. وعن عبد الرحمٰن بن أبي لَيْلَى قال: كنت مع عمر، في حديث رواه عنه قال فقال: رأيت أبا القاسم وعليه جُبّة شَامِيّة ضيقة الكُمَّين.

---

(١) المستقة: فرو طويل الكمين.
(٢) الخميصة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام.
(٣) الأنبجاني: نسبة إلى موضع يقال له أنبجان.
(٤) البحراني: نسبة إلى البحرين.
(٥) خلق: بلي.

ذكر صفة إزْرة رسول الله ﷺ
وما كان يقوله إذا لبس ثوبًا جديدًا

روي عن يزيد بن أبي حبيب أن رسول الله ﷺ كان يرخي الإزار من بين يديْه، ويرفعه من ورائه. وعن عِكْرمة مولى ٱبن عباس، قال: رأيت ٱبن عباس إذا ٱتزرَ أرْخى مقدّم إزاره، حتى تقع حاشيتاه على ظهر قدميه؛ ويرفع الإزار مما وراءه، فقلت له: لِمَ تأْتَزِر هكذا؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ يأْتَزر هذه الإزْرة. وعن أبي سعيد الخدريّ قال: كان رسول الله ﷺ إذا ٱسْتَجَدّ ثوبًا سمّاه بٱسمه؛ قَميصًا أو إزارًا أو عِمامةً، ويقول: «اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنع له». وعن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال: كان رسول الله ﷺ «إذا لبس ثوبًا ـ أو قال ـ إذا لبس أحدكم ثوبًا فليقل الحمد لله الذي كساني ما أُوَاري به عورتي، وأتَجمّل به في حياتي». وكان ﷺ يلبس الكساءَ الصوف وحده فيصلي فيه، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، ويعقد طرفيه بين كتفيه يصلّي فيه. وكان يلبس القَلانِس تحت العمائم، ويلبسها دونها ويلبس العمائم دونها ويلبس القلانس ذات الآذان في الحرب، وربما نزع قَلَنْسُوَته، وجعلها سترة بين يديه وصلّي إليها، وربما مشى بلا قَلَنسوة ولا عمامة ولا رِداء، راجِلًا يعود المرضى كذلك في أقصى المدينة. وكان يَعْتَمّ ويُسْدِل طَرَف عمامته بين كتفيه. وعن عليّ أنه قال: عَمَّمَني رسول الله ﷺ بعمامة، وسدل طرفها على مَنْكِبي، وقال: «إنّ العمامة حاجز بين المسلمين والمشركين».

ذكر فِراش رسول الله ﷺ ووِسادته

روي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: دخلت ٱمرأة من الأنصار عليّ فرأت فراشَ رسول الله ﷺ عَبَاءَةً مَثْنِيَّة، فانطلقت فبعثتْ إليّ بفراش حَشْوه صوفٌ، فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقال: «ما هذا»؟ قلت: يا رسول الله؛ فلانة الأنصارية، دخلت عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت هذا. فقال: «رُدِّيه» فلم أردّه، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: «والله يا عائشة لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة». وعنها: أنها كانت تفرِش لرسول الله ﷺ عَباءة بٱثنتين فجاء ليلة وقد رَبَّعتها فنام عليها، فقال: «يا عائشة ما لفراشي الليلة ليس كما كان يكون»؟ قالت قلت: يا رسول الله، رَبّعتها، قال: «فأعيديه كما كان». وعنها قالت: كان لرسول الله ﷺ وِسادةٌ من أَدَم محشوّة لِيفًا، ودخل عمر بن الخطاب

رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وهو على سرير مَرْمُول[١] بشَريط، وتحت رأسه مِرْفَقَة[٢] من أدَم مَحشوَّة بليف، وقد أثَر الشَّريط بجنبه، فبكى عمر، فقال: «ما يبكيك»؟ قال: يا رسول الله، ذكرتُ كِسْرى وقَيْصَر يجلسون على سُرُر الذّهب ويَلْبَسون السُّنْدُس والإسْتَبْرَق[٣]، فقال: «أمَا تَرضَوْن أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا». وعن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر الحصير بجلده، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه وأقول: يا رسول الله، ألاَ آذَنْتَنا نَبْسُط لك على هذا الحصير شيئًا يقيك منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، وعن المغيرة بن شعبة قال: كان لرسول الله ﷺ فَرْوَة، وكان يستحب أن تكون له فَرْوة مدبوغة يصلّي عليها، وكان رسول الله ﷺ يصلّي على الحصير والخُمْرة[٤]، كما روي في الصحيحين.

ذكر ما لبسه رسول الله ﷺ
من الخواتم، ومن قال لم يَتَخَتّم

قد قدّمنا أن رسول الله ﷺ اتخذ الخاتم في سنة سبع من الهجرة عندما بعث رُسُلَه إلى الملوك، وختم به الكتب التي سَيَّرها إليهم؛ فلنذكر هنا ما لبسه من الخواتِم. وقد روي أنه تختم بالذهب والفضة والحديد الملويّ عليه الفضة، على ما نذكر ذلك من أقوالهم.

روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: اتخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من ذهب، فكان يجعل فصّه في بطن كفه إذا لبسه في يده اليمنى؛ فصنع الناس خواتيم من ذهب، فجلس رسول الله ﷺ على المنبر فنزعه، وقال: «إني كنت ألبس هذا الخاتم وأجعل فصّه من باطن كفي» فرمى به، وقال: «والله لا ألبسه أبدًا» ونبذ النبيّ ﷺ الخاتم، فنبذ الناس خواتيمهم.

ثم اتخذ خاتمًا من فِضّة فَصُّه منه، ونقش عليه «محمد رسول الله» ثلاثة أسطر، كان يختم به الكتب إلى الملوك. وقد روي أن خاتمه كان من حديد، ملويّ عليه فِضّة، وقيل: إنه رآه في يد عمرو بن سعيد بن العاص حين قدم من الحبشة فقال:

---

(١) مرمول بشريط: أي منسوج بما ينسج به الحصير.
(٢) المرفقة: كالوسادة. (٣) الإستبرق: الديباج الغليظ.
(٤) الخمرة: حصير صغير قدر ما يسجد عليه.

«ما هذا الخاتم في يدك يا عمرو»؟ قال: هذه حلقة يا رسول الله، قال: «فما نقشها»؟ قال: محمد رسول الله، فأخذه رسول الله ﷺ منه فتختمه، فكان في يده حتى قُبِض، ثم في يد أبي بكر حتى قُبِض،ثم في يد عمر حتى قُبِض، ثم في يد عثمان ستّ سنين، وفي السابعة وقع في بئر أَرِيس[١]. قال أنس بن مالك: فطلبناه مع عثمان ثلاثة أيام فلم نقدر عليه. وروي عن ابن سِيرين: أن نقشه كان «بسم الله، محمد رسول الله». وقد روى محمد بن سعد في طبقاته قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقيّ، قال حدّثنا عَطّاف بن خالد، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فَرْوَة، عن سعيد بن المسيّب، قال: ما تختم رسول الله ﷺ حتى لقي الله، ولا أبو بكر حتى لقي الله، ولا عمر حتى لقي الله، ولا عثمان حتى لقي الله، هكذا روي. والصحيح أنه تختّم ﷺ، وتختموا رضوان الله عليهم أجمعين كما ذكرنا.

ذكر نعل رسول الله ﷺ وخُفّيه

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبيّ ﷺ كان لنعله قِبالان[٢]. وعن عبد الله بن الحارث قال: كان نعل رسول الله ﷺ لها رُمَالاَن[٣] شِراكهما مَثْنِيّ في العُقْدَة. وعن سَلَمَة عن هِشام بن عُرْوَة قال: رأيت نعل رسول الله ﷺ مُخَصَّرة[٤] مُعَقَّبة[٥] مُلَسَّنة[٦] لها قِبالان. وعن عُبَيْد بن جُرَيْج قال قلت لابن عمر: يا أبا عبد الرحمٰن، أراك تستحب هذه النِّعال السِّبْتِيّة[٧]، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يلبسهما ويتوضأ فيهما. وعن عبد الله بن بُرَيْدَة عن أبيه: أن صاحب الحبشة أهدى إلى رسول الله ﷺ خُفّيْن سَاذَجَيْن[٨] فمسح عليهما، وفي رواية: أن النجاشي أهدى إلى رسول الله ﷺ خفين أسودين ساذَجَيْن فلبسهما ومسح عليهما.

---

(١) بئر أريس: بفتح الهمزة وكسر الراء، وسكون الياء آخر الحروف، وسين مهملة: بئر بالمدينة ثم بقبا مقابل مسجدها... (معجم البلدان).

(٢) القبال: زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الإصبعين.

(٣) رمالان: تثنية رمال: وهو سير من الجلد كالقبال.

(٤) المخصرة: التي لها خصر رقيق.

(٥) المعقبة: التي لها عقب من صبور يضم به الرجل.

(٦) الملسنة: التي فيها طول ولطافة على هيئة اللسان.

(٧) السبتية: التي أنسبت شعرها بالدباغ.

(٨) الساذج: الذي لا شعر عليه.

ذكر سِواك رسول الله ﷺ، ومشطه، ومُكْحُلته، ومِرْآته، وقَدَحه، وغير ذلك من أثاثه

روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ كان لا يَرْقُد ليلاً ولا نهارًا فيستيقظ إلا تَسَوّك قبل أن يتوضأ. وعن قَتَادة عن أنس، قال: استاك رسول الله ﷺ بجريد رطب وهو صائم، فقيل لقتادة: إن أناسًا يكرهونه، فقال: استاك واللّهِ رسولُ الله ﷺ بجريد رَطْب وهو صائم. وعن ابن جريج قال: كان لرسول الله ﷺ مشط عاج يَمْتَشِط به. وعن ثور عن خالد بن مَعْدان قال: كان رسول الله ﷺ يسافر بالمشط والمِرْآة والدُّهْن والمِكْحَل والسِّواك. وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه، ويسرِّح لحيته بالماء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت لرسول الله ﷺ مُكْحُلة يكتحل بها عند النوم ثلاثًا في كل عين. وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يكتحل في عينه اليمنى ثلاث مرات، واليسرى مرتين. وعن أبي رافع قال: كان رسول الله ﷺ يكتحل بالإثمِد وهو صائم. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالإثمِد فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر، وإنه من خير أكحالكم». وعن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود قال: أهدى المُقَوْقِس إلى رسول الله ﷺ قَدَح زُجاج، كان يشرب فيه. وعن عطاء قال: كان لرسول الله ﷺ قَدَح زجاج، فكان يشرب فيه. وعن حُمَيْد قال: رأيت قَدَح النبيّ ﷺ عند أنس فيه فضّة، أو شُدَّ بفضّة. وقد جاء أنه ﷺ كان له رَبْعَة[(١)] فيها مرآة ومشط عاج ومُكْحُلة ومِقْرَاض وسِوَاك. وكان له قَدَح مُضَبَّب[(٢)] بثلاث ضَبّات من فضّة ـ وقيل من حديد ـ وفيه حلقة. يُعلَّق بها، وهو أكبر من نصف المُدّ وأصغر من المدّ، وكان له قدح آخر يُدعَى الرَّيّان، وتَوْر[(٣)] من حجارة يدعى المِخْضَب. ومِخْضَب[(٤)] من شَبَهٍ[(٥)] يكون فيه الحِنّاء والكَتَم توضع عند رأسه إذا وجد فيه حرًّا، ومِغْسَل من صُفْر، وقَصْعَة، وصاع يخرج به فِطْرته، ومُدّ، وكان له سرير، وقَطِيفَة، وكان له كِساء أسود كساه في حياته، وكان له ثوبان للجمعة، غير سائر ثيابه التي يلبسها في سائر الأيام، وكان له مِنْديل يمسح به وجهه من الوضوء، وربما مسح بطرف ردائه ﷺ.

(١) الربعة: إناء مربع كجونة العطار.
(٢) مضبب: مشعب.
(٣) التور: إناء من صفر أو حجارة.
(٤) المخضب: إناء يحضر فيه الخضاب.
(٥) الشبه: النحاس الشبيه بالذهب.

ذكر ما ورد في حجامة رسول الله ﷺ وحَجّامه

روي عن أنس بن مالك قال: ٱحتجم رسول الله ﷺ، وحجمه أبو طَيْبة، وأمر له بصاعين؛ وأمرهم أن يخفِّفوا عنه من ضريبته. وٱختلف في اسم أبي طَيْبة، فقيل: دينار، وقيل: نافع، وقيل: مَيْسَرة، وهو مولى بني حارثة. وعن جابر بن عبد الله قال: أخرج إلينا أبو طَيْبة المحاجم لثمان عشرة من شهر رمضان نهارًا، فقلت: أين كنت؟ قال: كنت عند رسول الله ﷺ أحجمه. وعن أنس قال: ٱحتجم رسول الله ﷺ، حجمه أبو طيبة مولى كان لبعض الأنصار، فأعطاه صاعين من طعام، وكلّم أهله أن يخفِّفوا عنه من ضريبته، وقال: «الحجامة من أفضل دوائكم». وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: ٱحتجم رسول الله ﷺ وهو صائم، فغشي عليه يومئذ، فلذلك: كرهت الحجامة للصائم. وعن سَمُرة بن جُنْدُب قال: كنت عند رسول الله ﷺ فدعا حجّامه فحجمه بمحاجم من قرون، وجعل يشرطه بطرف شفرة، فدخل أعرابيّ فرآه ولم يكن يدري الحجامة، ففزع وقال: يا رسول الله، علام تعطي هذا يقطع جلدك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا الحجم» قال: يا رسول الله، وما الحجم؟ قال: «هو خير ما تداوى به الناس. وعن عطاء وٱبن عباس رضي الله عنهم قالا: ٱحتجم رسول الله ﷺ وهو مُحْرِم من وَجَع. وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثًا، على الأَخْدَعَين(١) ثِنْتَيْن، وعلى الكاهِل(٢) واحدة. وعن سعد بن أبي وقاص: أنه وضع يده على المكان الناتِىء من الرأس فوق اليافوخ، فقال: هذا موضع مَحْجَم رسول الله ﷺ الذي كان يحتجم، وجاء أن رسول الله ﷺ كان يسميها المغيثة. وكان خالد بن الوليد يحتجم على هامته وبين كتفيه، فقيل له: ما هذه الحجامة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ كان يحتجمها، وقال: «من أهراق منه هذه الدماء فلا يضره ألاّ يتداوى بشيء لشيء». وروي: أن الأقْرَع بن حابس دخل على النبيّ ﷺ وهو يحتجم في القَمَحْدُوَة: وهي آخر الرأس، فقال: لِم ٱحتجمت وسط رأسك؟ قال: «يا بن حابس إن فيها شفاء من وجع الرأس والأضراس والنعاس والمرض» وشك الراوي في الجنون. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجامة في الرأس هي المُغِيثَة أمرني بها جبريل حين أكلت طعام اليهودية». وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسرِي بي ما مررت بملأٍ من الملائكة إلا قالوا يا محمد مُرْ أمتك بالحجامة». وعن مَعْقِل بن يَسَار قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجامة يوم الثلاثاء لسبع عشرة في الشهر دواء لِداءِ السَّنة». وقد

---

(١) الأخدعان: عرقان في جانبي العنق. (٢) الكاهل: ما بين الكتفين.

كان ﷺ يحتجم لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين. وعن الأوزاعي، عن هارون بن رِئاب: أن رسول الله ﷺ احتجم، ثم قال لرجل: «ادفنه لا يبحث عنه كلب».

ذكر ما ملكه رسول الله ﷺ من السّلاح

كان لرسول الله ﷺ تسعة أسياف: ذو الفَقَار تَنفّله[١] يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا في غزوة أُحد، وكان قبل رسول الله ﷺ لِمُنَبِّه بن الحجاج السّهمي، وثلاثة أسياف، أصابها من سلاح بني قَيْنُقاع، سيف قَلَعيّ[٢]، وسيف يُدْعَى البَتّار، وسيف يُدْعَى الْحَتف، وسيفان أصابهما من الفُلْس[٣]، سيف يُدعَى المِخْذَم[٤]، وآخر يُدعَى الرَّسُوب[٥]، وسيف ورثه من أبيه، وسيف يقال له العَضْب[٦]، أعطاه إياه سعد بن عُبَادة، وآخر يُدعَى القَضِيب[٧]، وهو: أوّل سيف تَقَلّد به رسول الله ﷺ، قال أنس: كان نَعْل[٨] سيف رسول الله ﷺ فِضّة، وقَبِيعَتُه[٩] فضّة، وما بين ذلك حلَق الفضّة.

وكان له ﷺ أربعة أرماح، ثلاثة أصابها من سلاح بني قَيْنُقاع، وواحد يقال لها المُثْنِيّ. وكان له عَنَزةٌ: وهي حَرْبَة دون الرّمْح يمشي بها في يده، وتحمل بين يديه في العيدين، حتى تُرْكَز أمامه فيتخذها سترة يصلي إليها. وكان له أربعة قِسِيّ: قَوْس من شَوْحَط[١٠] تدعى الرَّوْحَاء، وأخرى من شوحط تدعى البَيْضَاء، وأخرى من نَبع[١١] تُدعَى الصَّفْراء، وقوس تُدعَى الكَتُوم[١٢] كُسِرت يوم بدر. وكان له جَعْبَة تدعى الكافور، وكان له مِخْصَرَة[١٣] تسمى العُرْجُون، وكان له مِحْجَن[١٤] قدر الذراع

---

(١) التنفلة: من النفل وهو الغنيمة.
(٢) القلعيّ: نسبت إلى القلع، وهي قلعة بالبادية بالقرب من حلوان بطريق همذان.
(٣) الفلس: صنم لطيء. (٤) المخذم: المقطع.
(٥) الرسوب: من الرسب، وهو الذهاب إلى أسفل لأن ضربته تغوص في المضروب به.
(٦) العضب: القاطع. (٧) القضيب: يراد به اللطيف من السيوف.
(٨) نعل السيف: حديدة في أسفل جفنه.
(٩) قبيعة السيف: هي التي تكون على رأس قائم السيف.
(١٠) شوحط: شجر جبلي تتخذ منه القسيّ.
(١١) النبع: شجر يتخذ منه الرماح والسهام.
(١٢) الكتوم: سميت بذلك لانخفاض صوتها إذا رمي عنها.
(١٣) المخصرة: ما يختصره بيده، فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، قد يتوكأ عليه.
(١٤) المحجن: عصا معوجة.

أو نحوه يتناول به الشيء، وهو الذي أستلم به الرّكن في حجة الوَدَاع، وكان له دِرْعَان أصابهما من سلاح بني قَيْنُقاع: دِرْع يقال لها السَّعْدية[١]، وأخرى يقال لها فِضة. وعن محمد بن مَسْلَمة قال: رأيت على رسول الله ﷺ يوم أحد دِرعين، دِرعه ذات الفُضول، ودِرعه فِضّة، ورأيت عليه يوم حُنَيْن دِرْعين، ذات الفُضول والسَّعْدية، ويقال: كانت عنده دِرْع داود عليه السلام التي لبسها لما قتل جَالُوتَ، وكان له مِغْفَر يقال له السَّبُوغ[٢]، وكان له ﷺ تُرْس؛ روى محمد بن سعد في طبقاته قال: أخبرنا عَتّاب بن زياد، قال حدّثنا عبد الله بن المبارك، قال أخبرنا عبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر، قال سمعت مَكْحُولاً يقول: كان لرسول الله ﷺ تُرْسٌ فيه تِمْثَال رأس كَبْش، فكره رسول الله ﷺ مكانه، فأصبح وقد أذهبه الله تعالى. وفي رواية أخرى: كان له ﷺ تُرْس عليه تِمْثال عُقَاب، أُهْدِي له فوضع يده عليه فأذهبه الله، وكان له مِنْطَقَة[٣] من أدِيم مَبْشُور[٤] فيها ثلاث حِلَق من فِضّة، والإِبْزِيم[٥] من فِضّة، والطَّرَف من فضّة، وكان له راية سوداءُ مُخْمَلَة، يقال لها العُقَاب، ولواء أبْيَض وربما جعل الألوية من خُمُر نسائه ﷺ، ورضي عنهنّ.

ذكر دَوَابّ رسول الله ﷺ
من الخيل والبغال والحمير

أما خيله ﷺ، فقد ذكرنا في الباب الأول من القسم الثالث من الفَنّ الثالث من كتابنا هذا، وهو في السِّفر التاسع من هذه النّسخة، أن خيل رسول الله ﷺ التي ملكها، على ما ظهر من مجموع الروايات التي أوردناها هناك تسعة عشر فرسًا: وهي السَّكْب[٦]، والمُرْتَجِز[٧]، والبَحْر[٨]، وسَبْحَة[٩]، وذو اللِّمَّة[١٠]، وذو العُقَال[١١]،

---

(١) السعدية: نسبة إلى جبال سعد.
(٢) السبوغ: أي السابغ، وهو الطويل.
(٣) المنطقة: ما يشد به الوسط.
(٤) المبشور: المقشور.
(٥) الأبزيم: الذي في رأس المنطقة وما أشبهه.
(٦) السكب: الصب، سمي بذلك لسرعته في الجري.
(٧) المرتجز: سمي بذلك لحسن صهيله.
(٨) البحر: سمي بذلك لقوله ﷺ له: «ما أنت إلا بحر»، لسرعته.
(٩) السبحة: أي السابح، وهو الفرس إذا كان حسن مد اليدين في الجري.
(١٠) ذو اللمة: سمي بذلك لوفرة شعره.
(١١) ذو العقال: سمي بذلك لظلع في قوائمه. والظلع: العرج اليسير.

واللُّحَيْف[١]، ويقال فيه: اللّخيف بالخاء المعجمة، وقيل: النَّحيف بالنون، واللِّزَاز[٢]، والظَّرِب[٣]، والوَرْد[٤]، والسَّجْل[٥]، والشحَا[٦]، والسِّرْحَان[٧]، والمُرْتَجِل[٨]، والأدْهَم[٩]، ومُلاوِح[١٠]، والعَيْسُوب، واليَعْبُوب[١١]، والمِرْوَاح[١٢]، وقد يكون الأدْهَم هو السَّكْب أو البَحْر، فتكون ثمانية عشر فرسًا.

وذكرنا هناك أخبار هذه الخيل ومن ذكرها. وذهب بعضهم إلى أن خيله ﷺ كانت عشرة أفراس: السَّكْب، والمُرتَجِز، ولزَاز، واللَّخِيفُ، والظَّرِب، والوَرْد، والضَّرِس، ومُلاوِح، وسَبْحَة، والبَحْر، ولم يذكر ما عداها، والله عزّ وجل أعلم.

وأما بغلات رسول الله ﷺ وحُمُره فقد ذكرنا أيضًا في الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الثالث في السفر التاسع من كتابنا هذا، أن بغلات رسول الله ﷺ اللاتي ملكهنّ كُنّ سبعًا، على ما ظهر من مجموع الروايات التي ذكرناها هناك، وهنّ دُلْدُل التي أهداها له المُقَوْقِس، وفِضّة التي أهداها له فَرْوَة بن عمرو، وبغلة أهداها له كِسْرَى، وبغلته الأيْليّة التي أهداها له اَبن العَلْمَاء صاحب أيْلَة، وبغلة بعثها له صاحب دُومَة الْجَنْدل، وبَغْلَة أهداها له يُوحَنّا بن روزيه، وبغلة أهداها له النجاشيّ صاحب الحبشة، وفي البَغْلة التي ذكر أن كِسْرى أهداها له ﷺ نظر، لما قدمناه من أنه مَزَّق كتاب رسول الله ﷺ ولم يجبه. ومن أهل العلم من ذهب إلا أنهنّ كنّ ثلاثة: دُلْدُل التي أهداها له المقوقس، وفضة وهبها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبغلة أهداها له صاحب أيْلَة. وكان له ﷺ من الْحُمُر: يَعْفُور، وعُفَير، وقد ذكرناهما في الباب المقدّم ذكره في السِّفْر التاسع.

---

(١) اللحيف: سمي بذلك لسمنه وكبره. (٢) اللزاز: المجتمع الخلق.
(٣) الظرب: سمي بذلك لقوته وصلابة حافره.
(٤) الورد: لون بين الكميت والأشقر.
(٥) السجل: مأخوذ من سجلت الماء إذا صببته.
(٦) الشحا: البعيد الخطوة. (٧) السرحان: الذئب.
(٨) المرتجل: الذي يخلط بين تباعد خطاه وتوسع جريه، وبين تقاربها وسرعته.
(٩) الأدهم: الأسود.
(١٠) الملاوح: العظيم الألواح، أو السريع العطش.
(١١) اليعبوب: الفرس الجواد.
(١٢) المرواح: مشتق من الرواح لتوسعه في الجري.

ذكر نَعَم رسول الله ﷺ

كان لرسول الله ﷺ عشرون لَقْحَة[١] بالغابة، يراح له منها كل ليلة بقِرْبَتَين عظيمتين من اللّبن، وكانت له لقحة تُدعى بُرْدَة، أهداها له الضحّاكُ بن سفيان، كانت تُحْلَب كما تُحْلَب لقحتان غَزِيرتان، وكانت له مَهْرِيّة أرسلها إليه سعد بن عُبَادة من نَعَم بني عُقَيل، وكانت له القَصْوَاء[٢]، وهي التي هاجر عليها، وكان لا يحمله إذا نزل عليه الوَحْيُ غيرها، وهي العَضْبَاء[٣]، والجَدْعَاء[٤]، وقيل: العَضْبَاء غير القَصْوَاء، وقد ذكرنا في الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثالث نَعَمه بأبسط من هذا.

وكان له ﷺ مائة من الغَنَم. وكانت له سبْع مَنَائِح[٥]: عَجْرة، وزَمْزَم، وسُقْيَا، وبَرَكَة، ووَرِشة، وأطْلال، وأطْرَاف، وكانت أُمّ أيْمَن ترعاهنّ، وكانت له شاة يَخْتَصّ بشرب لبنها، تدعى غَيْثَة، وكان له دِيكٌ أبيض، هذا ما أمكن إيراده في هذه الفصول، وهو بحسب الاْختصار.

وقد آن أن نأخذ في ذكر مُعْجِزاته ﷺ، وإنما أخّرناَ ذكر المعجزات إلى هذه الغاية لأمُور: منها أنّ معجزاته ﷺ كانت في مدة حياته، تقع خلال غزواته، وغالب أوقاته، فلو ذكرناها قبل نهاية ذكر أحواله ﷺ، لكنّا قد قدّمنا منها شيئًا قبل وقته الذي وقع فيه. ومنها أنّا لمّا ذكرنا صفاته ﷺ فيما تقدّم، اُستلزم إيراد أحواله تِلْوَ صفاته، وصار الكلام يتلو بعضه بعضًا، ولو ذكرنا المعجزات في خلال ذلك لاُنقطع الكلام واُنفَرَط النظام، وأهمّ الأسباب في تأخير ذكر المعجزات إلى هذه الغاية، أنا أردنا أن تكون معجزاته ﷺ خاتمةً لهذه السِّيرة الشريفة، وتالية لهذه المناقب المُنيفَة لا يجعل بعدها من أخباره ﷺ إلا أخبار وفاته عليه السلام.

ذكر معجزات رسول الله ﷺ

ومعنى المعجزة أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، ولا تكون معجزة إلا مع وُجُود التّحدي بالنبوّة، وأما مع عدم التحدي فهي كرامة، كأحوال الأولياء.

---

(١) اللقحة: الناقة القريبة العهد بالنتاج. (٢) القصواء: التي قطع طرف أذنها.

(٣) العضباء: المشقوقة الأذنين أو مقطوعتهما.

(٤) الجدعاء: المقطوعة الأنف أو الأذن أو الشفة.

(٥) المنائح: واحدتها منيحة، وهي الشاة التي تعار للبنها.

والمعجزة على ضَرْبين: ضَرْبٌ هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عن الإتيان بمثله؛ كالقرآن على رأي من رأى أن من قدرة البشر أن يأتوا بمثله، ولكن الله تعالى صَرَفهم عن ذلك، فعجزوا عنه، وكصرف يَهُود عن تمنِّي الموت، ونحو ذلك. وضَرْب هو خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى، وتَسْبيح الحَصى، وانْشِقَاق القمر، ونَبع الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام، وحَبْس الشمس، ورَدّها بعد غروبها.

وها نحن نورد في هذا الفصل من مشاهير معجزاته، وباهر آياته، ما تقف إن شاء الله تعالى عليه، وقد تقدم من معجزاته ﷺ في أثناء هذه السيرة ما تقدم، مما نُنَبّه عليه في هذا الفصل، ونُحِيل عليه في مواضعه، ونشرح ونبين ما أدْمَجْناه قبلُ إن شاء الله تعالى.

ومعجزاته ﷺ كثيرة: منها القرآن العظيم، وهو أكبرَها آيةً، وأعظمها دلالة على صدق نبوته ﷺ، ومنها انشقاق القَمَر، وحبس الشمس، وردّها، وتَفْجير الماء وانْبِعاثه ونَبْعه من بين أصابعه وتكثير الطعام، وكلام الشَّجَر، وسَعْيُها إليه، وحَنين الجذْع، وتسبيح الطعام والحصى، وكلام الجمادات، وشهادة الحيوانات له ﷺ بالنبوة، وكلام الموتى، وإبراء المرضى، وإجابة الدعاء، وانقلاب الأعيان، وما أطلعه الله تعالى عليه من علم الغيوب، والإخبار بما كان ويكون، وما جمع له من المعارف والعلوم ومصالح الدنيا والدين، وسياسة العالم، والعِصْمة من الناس، وغير ذلك مما نشرحه ونبيّنه إن شاء الله تعالى.

فأما القرآن العظيم وما انْطَوى عليه من المعجزات، فمعجزاته كثيرة نحصرها في عشرة أوْجُه:

الوجه الأوّل: حُسْن تأليفه والْتِئام كَلِمه وفصاحتُه، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادةَ العرب، وذلك أنهم خُصّوا من البلاغة والحكم ما لم يُخَصّ به غيرهم من الأمم، وحَسْبك أن القرآن أنزل بلغتهم، ومع ذلك فقد قَرّعهم رسول الله ﷺ به، ووَبّخهم وسَفّه أحلامهم، وسبّ آلهتهم، وذمّ آباءهم، وشتت نِظامهم، وفرّق جماعتهم، وأنزل الله تعالى فيهم ما أنزل من قوله عزّ وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣ و٢٤] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] وغير ذلك، فنَكَصُوا عن معارضته،

وأحْجَموا عن مماثلته، ورَضُوا بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] و﴿فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] و﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وأعترف فصحاؤهم عند سماعه أنه ليس من كلام البشر؛ كالوليد بن المُغيرَة وعُتْبَة بن رَبِيعة، على ما قدّمنا ذكر ذلك.

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نظمه العجيب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونَثْرها، وسَجْعها ورَجَزِها وهَزَجِها وقريضها، ومبسوطها[(١)] ومَقبوضها[(٢)]، كما قال الوليد بن المغيرة لقريش عند أجتماعهم كما قدمناه، ومن ذلك جمعه بين الدليل والمدلول، وذلك أنه أحتجّ بنظم القرآن، وحسن وصفه وإيجازه وبلاغته، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعده ووعيده، فالتّالي له يفهم موضع الحجّة والتّكليف معًا من كلام واحد.

الوجه الثالث من إعجازه: ما أنطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوُجد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقوله في الروم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]. وقوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٥٥] الآية. وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] السورة، فكان جميع ذلك: فتح الله مكة، وغلبت الروم فارس، وأظهر الله رسوله، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، واستخلف الله المؤمنين في الأرض، ومَكّن دينهم وملّكهم أقصى المشارق والمغارب، وما فيه من الإخبار بحال المنافقين واليهود، وكشف أسرارهم، وغير ذلك.

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا من مارس العلوم من أهل الكتاب، وأطلع على الكتب المنزلة القديمة، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضِر وذِي القَرْنَيْن ولُقْمان وأبنه وبدء الخلق، وغير ذلك مما في كتبهم القديمة مما أعترف بصحته العلماء من أحبار يهود، فمنهم من آمن به، ومنهم من صدّ عنه مع عدم إنكارهم لصحته، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [المائدة: ١٥].

(١) مبسوطها: مطولات قصائدها.
(٢) مقبوضها: مختصر أوزانها.

الوجه الخامس: الرَّوْعَةُ التي تلحق قلوب سامعيه، وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تِلاوته؛ قال الله عزّ وجل: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] هذا في حق المؤمنين به، وأما من كذّب به فكانوا يستثقلون سماعه، ويَوَدّون ٱنقطاعه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «القرآن صَعْب مُسْتصعب على من كَرهه، وهو الحَكَم» وقد تقدّم أن عُتبة بن رَبيعة لما سمع القرآن من رسول الله ﷺ وبلغ قوله: ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أمسك على فِي النبيّ ﷺ وناشده الرّحِم أن يَكُفّ.

الوجه السادس: كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، وقد تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وسائر معجزات الأنبياء ٱنقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز باق منذ أنزله الله تعالى وإلى وقتنا هذا، وما بعده إن شاء الله إلى آخر الدهر، حجته قاهرة، ومعارضته ممتنعة.

الوجه السابع: أن قارئه لا يَمِلُّ قراءته، وسامعه لا تَمُجُّه مسامعه، بل الإكْبَاب على تلاوته وتَرْديده يزيده حلاوة ومحبة، لا يزال غَضًّا طريًّا، وغيره من الكلام ولو بلغ ما عساه أن يبلغ من البلاغة والفصاحة يُمَلّ مع الترديد، ويسأم إذا أعيد، وكذلك غيره من الكتب لا يوجد فيها ما فيه من ذلك، وقد وصف رسول الله ﷺ القرآن «أنه لا يَخْلُق على كثرة الردّ ولا تنقضي عِبَرُه، ولا تَفْنى عجائبُه، هو الفَصْل ليس بالهَزْل».

الوجه الثامن: أن الله تعالى يسر حِفظه لمتعلّميه، وقرّبه على متحفِّظيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧] فلذلك إن سائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحدُ منها، وإن لازم قراءتها، وداوم مُدارستها، لم يسمع بذلك عن أحد منهم، والقرآن قد يسر الله تعالى حفظه على الغلمان في المدّة القريبة والنِّسوان، وقد رأينا من حفظه على كبر سنه، وهذا من معجزاته.

الوجه التاسع: مشاكلة بعض أجزائه بعضًا، وحسن ائتلاف أنواعها، والتِئام أقسامها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على ٱختلاف معانيه، وٱنقسام السورة الواحدة على أمر ونهي، وخبر وٱستخبار ووعد ووعيد، وإثبات نبوّة وتوحيد، وتقرير وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك، دون خلل

يتخلل فصوله، والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذا ضعفت قوّته، ولانَتْ جَزَالتُه، وقلَّ رَوْنقُه، وتَقَلْقَلت[١] ألفاظُه، وهذا من الأمور الظاهرة التي لا يحتاج عليها إقامةُ دليل، ولا تقرير حجة، ولا بسط مقال.

الوجه العاشر: وجمعه لعلوم ومعارف لم تعهدها العرب، ولا علماء أهل الكتاب، ولا اشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرّد على فرق الأمم بالبراهين الواضحة، والأدلة البينة السهلة الألفاظ، الموجزة المقاصد؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] إلى غير ذلك مما اشتمل عليه من المواعظ والحِكم وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب، وغير ذلك مما لا يحصيه واصفٌ، ولا يعده عادٌ، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧] وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله أنزل عليّ القرآن آمِرًا وزاجِرًا، وسنّةً خالية، ومثلاً مضروبًا، فيه نبأكم وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طُولُ الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الحقّ ليس بالهزْل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فَلَجَ[٢] ومن قَسَم به أقْسَط[٣]، ومن عمل به أُجِر، ومن تمسك به هُدِيَ إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله، ومن حكم بغيره قَصَمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحَبْل الله المتين، والشّفاء النافع، عِصْمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يَعْوَج فيقوّمَ، ولا يَزيغ فيُسْتَعْتَب، ولا تَنْقَضي عجائبُه، ولا يَخلُق على كثرة الرّدّ». وفي الحديث: «قال الله تعالى لمحمد ﷺ: إني منزِّل عليك تَوْراةً حديثة تفتح بها أعْيُنًا عُمْيًا وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا، وفيها ينابيع العلم، وفَهْم الحِكمة، ورَبيع القلوب». وقد عدّوا في إعجازه وجوهًا كثيرة غير ما ذكرناه فلا نطوِّل بسردها.

وأما انشقاق القمر، وحبس الشمس ورجوعها، فكان ذلك من معجزات رسول الله ﷺ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١ و٢]. وقد رويت قصة انشقاق القمر عن ابن

(١) تقلقلت: تحركت.

(٢) فلج: غلب من خاصمه.

(٣) أقسط: عدل.

مسعود، وأنس بن مالك، وٱبن عباس، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وحُذَيْفة، وجُبَيْر بن مطعم رضي الله عنهم، قال ٱبن مسعود: ٱنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «ٱشهدوا» قال ٱبن مسعود: حتى رأيت الجبل بين فُرْجَتي القمر، وفي بعض طرقه: ومن رواية مسروق عنه أنه كان بمكة، وزاد: فقال كفّار قريش سَحَركم ٱبنُ أبي كَبْشَة، فقال رجل منهم: إن محمدًا إن كان قد سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فٱسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوا فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك. وحكى السَّمَرْقَنْدي عن الضحاك نحوه. وقال: فقال أبو جهل هذا سِحْرٌ فٱبعثوا إلى أهل الآفاق حتى ينظروا أرأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقًا، فقالوا ـ يعني الكفار ـ: هذا سِحر مستمِر. وقال علي رضي الله عنه، من رواية أبي حُذَيْفة الأرحبي: ٱنشق القمر، ونحن مع النبي ﷺ. وعن أنس: سأل أهلُ مكة النبيّ ﷺ أن يريهم آية، فأراهم ٱنشقاق القمر مرتين، حتى رأوا حِراءَ بينهما، وفي رواية مَعْمَر، وغيره عن قَتادة عنه: أراهم القمر مرتين ٱنشقاقَه، فنزلت الآية: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾. وحكى الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حلِيم الحلِيميّ الجرجانيّ[(١)] في منهاجه قال: رأيت ببُخَارى الهلال وهو ابن ليلتين منشقًّا بنصفين، عَرْض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع أو خمس، وما زلت أنظر إليهما حتى ٱتصلا، ثم لم يعودا كما كانا، ولكنهما صارا في شكل أُتْرُجَة[(٢)]، ولم أمِل طرفي عنهما إلى أن غاب، قال: وكان معي ليلتئذ جماعةٌ كثِيفة، من بين شريف وفقيه وكاتب وغيرهم من طبقات الناس، وكلٌّ رأى ما رأيت. قال: وأخبرني من وَثِقت به، وكان خبره عندي كعِيَاني أنه رأى الهلال وهو ٱبن ثلاث منشقًا بنصفين، قال: وإذا كان هكذا، ظهر أن قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] إنما هو على الأنشقاق الذي هو من أشراط الساعة، دون الأنشقاق الذي جعله الله تعالى آية لرسوله ﷺ، وحجة على أهل مكة. وبالله التوفيق.

---

(١) الجرجاني هذا شافعي المذهب، رحل إلى بخارى وكتب الحديث عن أبي سهل محمد بن أحمد بن يوسف وغيره، وتفقه على أبي بكر الأودي وأبي بكر القفال، ثم صار إمامًا معظمًا وحدث بنيسابور. كانت وفاته في جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هجرية.

(٢) الأترجة: ثمرة الأترج، وهو شجر يعلو، ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، حامض الماء.

وأما رجوع الشّمس: فقد روي عن أسماء بنت عُمَيْس أن النبيّ ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليٍّ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا علي»؟ قال: لا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فأردد عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصّهْباء في خَيْبر. خرّجه الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء من طريقين، قال وكان أحمد بن صالح يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء؛ لأنه من علامات النبوّة.

وأما حبسها: فقد روى يونس بن بكير في زيادة المغازي عن أبن إسحاق: أن رسول الله ﷺ لما أسرِي به، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العِير، قالوا: متى تجيء؟ قال: «يوم الأربعاء» فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون، وقد ولّى النهار ولم يجيء، فدعا رسول الله ﷺ فزيد له في النهار ساعة، وحبِست عليه الشمس ﷺ.

وأما نَبْعُ الماء من بين أصابعه ﷺ

فقد روي عن أنس بن مالك، وجابر، وعبد الله بن مسعود؛ قال أنسٌ من رواية إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة: رأيت رسول الله ﷺ، وقد حانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوَضوء[1] فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوَضوء[2]، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم. ورواه أيضًا عن أنس قَتَادةُ، وقال: بإناء فيه ماء ما يغمر أصابعه، ولا يكاد يغمر، قال: كم كنتم؟ قال: زُهَاء ثلثمائة، وفي رواية عنه: وهم بالزَّوْراء عند السوق. وأما أبن مسعود، ففي الصحيح عنه من رواية عَلْقَمة: بينما نحن مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أطلبوا مَن معه فضل ماءٍ» فأُتِي بإناءٍ فصبّه في إناءٍ، ثم وضع كفّه فيه، فجعل الماء يَنْبع من بين أصابع رسول الله ﷺ. وفي الصحيح عن سالم بن أبي الجعد عن جابر قال: «عطش الناس يوم الحُديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه رَكْوةٌ[3] فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماءٌ، إلا ما في رَكْوَتك، فوضع النبيّ ﷺ يده في الرّكوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، وفيه:

---

(١) الوضوء: الماء الذي يتوضأ به. (٢) بوضوء: أي بإناء وضوء.
(٣) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

فقلت كم كنتم؟ قالوا: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة. وفي صحيح مسلم في ذكر غَزْوة بُوَاط[١]، قال جابر قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر ناد الوَضوء» وذكر الحديث بطوله: وأنه لم يحد إلا قَطْرة في عَزْلاء[٢] شَجْب[٣]، فأُتِي به النبيّ ﷺ فغَمَزَه، وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: «نادِ بجَفْنَة[٤] الرَّكْب» فأتيت بها فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبيّ ﷺ بسط يده في الجَفْنة، وفرق أصابعه، وصبّ جابر عليه، وقال: «بسم الله» قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجَفْنة، وٱستدارت حتى ٱمتلأت، وأمر الناس بالاْستقاء فٱستقوا حتى رَوُوا، فقلت: هل بقي أحد له حاجة؛ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مَلأى. هذا مختصر ما رُويَ من تفجير الماء من بين أصابعه ﷺ.

وأما تَفْجيره وٱنْبِعاثُه وتكثيره ببركته ودعائه ﷺ

فمن ذلك ما رواه مالك بن أَنَس رحمه الله في الموطأ، عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تَبوك، وأنهم وَرَدُوا العين[٥]، وهي تَبِضّ[٦] بشيء من ماء مثل الشِّرَاك[٧]، فغرفوا من العَيْن بأيديهم حتى ٱجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه، وأعاده فيها فجَرت بماء كثير فاستقى الناس. وفي حديث ٱبن إسحاق: فٱنخرق[٨] من الماء ما له حِسٌّ كحسِّ الصواعق، ثم قال: «يوشك يا مُعَاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مُلِيءَ جِنانًا». ومنه قصة الحُدَيْبية، وقد تقدّم ذكرها في الغَزوات. ومن ذلك خبر صاحبة المزَادتَيْن، وهو مما روي عن عمران بن حُصَيْن، قال: أصاب النبيّ ﷺ وأصحابه عَطَشٌ في بعض أسفارهم، فوَجَّه رجلين من أصحابه، وأعلمهما أنهما يجدان ٱمرأة بمكان كذا، معها بعير عليه مَزَادَتان، الحديث. فوجداها وأتيا بها النبيّ ﷺ، فجعل في إناء من مزادتها، وقال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين، ثم فُتِحت عَزَاليهما[٩]، وأمر الناس فملأوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئًا إلا ملأوه، قال عمْران: ويخيل لي أنهما لم تزدادا إلا

(١) بواط: جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة.
(٢) العزلاء: فم المزادة.
(٣) الشجب: السقاء الذي قد أخلق وبلي وصار شنًا.
(٤) جفنة: يراد بها على سبيل المجاز الذي يطعمهم ويشبعهم.
(٥) العين: المراد عين بتبوك. (٦) تبض: أي تقطر وتسيل.
(٧) الشراك: سير النعل. (٨) انخرق: انفجر.
(٩) عزاليهما: مثنى عزلاء، وقد تقدم تفسيرها.

ٱمتلاء، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزْوَاد حتى ملأ ثَوْبها، وقال: «ٱذهبي فإنا لم نأخذ من مائك شيئًا ولكن الله سقانا». وعن عمرو بن شعيب أن أبا طالب قال للنبيّ ﷺ وهو رَدِيفه بِذِي المَجَاز: عطشت وليس عندي ماء، فنزل النبيّ ﷺ وضرب بقدمه الأرض فخرج الماء فقال: «ٱشرب». وعن سَلَمة بن الأكوع؛ قال نبيّ الله ﷺ: «هل من وَضوء؟» فجاء رجل بإدَاوَة[1] فيها نُطْفَةٌ[2] فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا، نُدَغْفِقه[3] دَغْفَقَةً أربع عشرةَ مائة. وفي حديث غزوة تَبُوك، وما أصاب الناس من العَطَش، ودعا رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى أرسل سَحابة فأمطرت حتّى ٱرْتَوَى الناس، وٱحْتَملوا حاجتهم من الماء، وقد تقدّم ذكره. ومن طريق آخر في هذه القصة عن عمر: وذكر ما أصابهم من العَطَش في جيش العُسْرَة، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرْثَه فيشربه، فرغب أبو بكر رضي الله عنه إلى النبيّ ﷺ في الدّعاء، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت[4] السماء، فانسكبت فملأوا ما معهم من آنية، ولم يجاوز العسكر. والحديث في هذا الباب كثير.

وأما تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ

فقد رَوَيْنا من ذلك أحاديث كثيرة بأسانيد صحيحة متّصلة، رأينا حذفها هاهنا اختصارًا لٱشتهارها وٱنتشارها، منها ما رويناه عن جابر رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ يستطعمه فأطعمه شَطْر وَسْق شعير، فما زال يأكل منه وٱمرأته وضيفه حتى كَالَه[5]، فأتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه وقام بكم». ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور، وإطعام رسول الله ﷺ ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده ـ أي إبْطِه ـ فأمر بها فَفُتَّت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول. وحديث جابر رضي الله عنه في إطعام رسول الله ﷺ يوم الخَنْدَق ألف رجل من صاع شعير، وعَنَاقٍ[6]، قال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وٱنحَرَفوا، وإن بُرْمَتنا[7] لتَغِطّ[8] كما هي، وإن عجيننا ليُخْبَز، وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبُرْمة وبارك. ومن ذلك حديث أبي أيوب الأنصاري: أنه صنع لرسول الله ﷺ

---

(١) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء كالمزادة ونحوها.
(٢) النطفة: القليل من الماء. (٣) الدغفقة: الصب الشديد.
(٤) قالت السماء: غيمت وظهر فيها سحاب. (٥) كاله: قاسه.
(٦) عناق: أنثى المعز لم يتم لها سنة. (٧) البرمة: القدر من الحجارة.
(٨) تغط: تغلي.

ولأبي بكر رضي الله عنه من الطعام زُهَاء ما يكفيهما، فقال له النبيّ ﷺ: «أدع ثلاثين من أشراف الأنصار» فدعاهم فأكلوا حتى تركوه، ثم قال: «أدع ستين» فكان مثل ذلك، ثم قال: «أدع سبعين» فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أحدٌ حتى أسْلَم وبايع، قال أبو أيوب: فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلاً. وعن سَمُرَة بن جُنْدب قال: أتى النبيّ ﷺ بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غدوة حتى الليل يقوم قوم ويقعد آخرون. ومن ذلك حديث عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبيّ ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر في الحديث: عُجن صاعٌ من طعام، وصُنِعت شاة فَشُوي سَوَادُ[1] بطنها، قال: وأيْمُ اللّهِ ما من الثلاثين والمائة إلا وقد حُزّ له حَزّة من سواد بطنها، ثم جُعل منها قَصْعتان فأكلنا أجمعون، وفضل في القصعتين فحملته على البعير. ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب، وأبي هريرة وسَلَمَة بن الأكْوَع رضي الله عنهم، فذكروا مَخْمَصَة[2] أصابت الناس مع النبيّ ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزْوَاد، فجاء الرجل بالحَثْية من الطعام وفوق ذلك، وأعلاهم الذي أتى بالصّاع من التمر، فجمعه على نِطَع، قال سلَمَة: فحزَرْته كرُبْضَة البعير، ثم دعا الناس بأوْعِيتِهم، فما بقي في الجيش وِعاءٌ إلا ملأوه وبقي منه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أدعو له أهل الصُفَّة فتتبّعتهم حتى جمعتهم، فوُضِعت بين أيدينا صَحْفَة فأكلنا ما شئنا وفرغنا، وهي مثلها حين وُضعت، إلا أن فيها أثَرَ الأصابع. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجَذَعة[3] ويشربون الفَرَق[4] فصنع لهم مُدًّا من طعام، فأكلوا حتى شبعوا وبقي كما هو، ثم دعا بعُسٍّ[5] فشربوا حتى رَوُوا وبقي كأنه لم يشرب. وقال أنس بن مالك: إن النبيّ ﷺ لما ابتنى بزينب أمره أن يدعو له قومًا سَمّاهم، وكل من لقيت حتى امتلأ البيت والحُجْرة، وقدّم إليهم تَوْرًا فيه قدر مدّ من تمر جُعِل حَيْسًا[6]، فوضعه قدّامه وغَمَس ثلاثَ أصابعه، وجعل القوم يتغدّون ويخرجون، وبقي التور نحوًا مما كان، وكان القوم أحدًا أو اثنين وسبعين. وفي رواية أخرى في هذه القصة أو مثلها: أن القوم كانوا زُهَاء ثلثمائة، وأنهم أكلوا

---

(١) سواد بطنها: أي الكبد. (٢) المخمصة: اسم بمعنى المجاعة.
(٣) الجذعة من الخيل والدواب: ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة.
(٤) الفرق: مكيال يتسع ستة عشر رطلاً.
(٥) العس: القدح الكبير يروي الثلاثة والأربعة.
(٦) الحيس: خليط من تمر وسمن وأقط.

حتى شبعوا، وقال لي: «ارفع» فلا أدري حين وضعتُ كان أكثر أم حين رَفَعتُ. وفي حديث جعفر بن محمد عن آله، عن علي رضي الله عنهم أن فاطمة رضي الله عنها طبخت قِدْرًا لغَدائها، ووجهت عليًا إلى النبيّ ﷺ ليتغدّى معها، فأمرها فغَرَفتْ منها لجميع نسائه صَحفةً صَحفةً، ثم له عليه السلام ولعليّ، ثم لها، ثم رفعت القدر، وإنها لتفيض، قالت: فأكلنا منها ما شاء الله. ومن ذلك أن رسول الله ﷺ أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزوِّد أربعمائة راكب من أحْمَس، فقال: يا رسول الله، ما هي إلا أصْوُع، قال: «اْذهب» فذهب فزوَّدهم منه، وكان قدر الفَصِيل الرّابض من التمر وبقي بحاله. ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في دَيْن أبيه، وقد كان بَذَل لِغُرَماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه، ولم يكن في ثمرها سنين كَفَافُ دَيْنهم، فأمره النبيّ ﷺ بجَذِّها وجعلها بَيَادِر[1] في أصولها، ثم جاءه فمشى فيها ودعا، فأوْفَى جابر غُرَماء أبيه من ذلك، وفضل مثل ما كانوا يَجُذُّون كل سنة. وفي رواية: مثل ما أعطاهم. قال: وكان الغرماء يهودًا فعجبوا من ذلك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أصاب الناس مَخْمَصَة فقال لي رسول الله ﷺ «هل من شيء»؟ قلت: نعم، شيء من التمر في المِزْوَد، قال: «فأتني به» فأتيته به فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها، ودعا بالبركة، ثم قال: «اْدع لي عشرة» فأكلوا حتى شبعوا، ثم عشرة كذلك، حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا، قال: «خذ ما جئت به وأدخل يدك واْقبض منه ولا تكُبّه» فقبضت على أكثر مما جئت به فأكلت منه وأطْعَمْتُ منه حياةَ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، إلى أن قتل عثمان فاْنْتُهِب مني فذهب. وفي رواية: فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وسق في سبيل الله. وذُكِر مثل هذه الحكاية في غزوة تَبُوكَ، وأن التمر كان بضع عشرة تمرة. ومنه أيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين أصابه الجوع، فاْستتبعه النبيّ ﷺ فوجد لبنًا في قَدَح قد أهدي إليه، وأمره أن يدعو أهل الصُّفّة، قال فقلت: ما هذا اللبن فيهم! كنت أحقّ أن أصيب منه شَرْبة أتقوّى بها، فدعوتهم، وذكر أمر النبيّ ﷺ له أن يسقيهم، قال: فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يأخذ الآخر حتى رَوِي جميعُهم، فأخذ النبيّ ﷺ القَدَح وقال: «بقيتُ أنا وأنت اْقعد فاشرب» فشربت ثم قال: «اْشرب» وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحقّ ما أجد له مَسْلَكًا، فأخذ القَدَح فحمِد الله وسمّى وشرب الفَضْلة، ﷺ.

---

(١) البيادر: مفردها بيدر، وهو موضع تجفيف البر ونحوه ليخلص من تبنه.

وأما كلام الشجر وشهادتها له بالنبوة
وٱنقيادها إليه وإجابتها دعوته ﷺ

فمن ذلك ما رويناه بسند متصل عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابيّ، فقال: «يا أعرابي أين تريد»؟ قال: إلى أهلي، قال: «هل لك إلى خير»؟ قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله» قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: «هذه الشجرة السَّمُرَة»[١] وهي بشاطىء الوادي، فأقبلت تَخُدّ[٢] الأرض حتى قامت بين يديه، فٱستشهدها ثلاثًا فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها. وعن بُرَيْدة قال: سأل أعرابي النبيّ ﷺ آية فقال له: «قل لتلك الشجرة رسول الله ﷺ يدعوك» قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقُها، ثم جاءت تَخُد الأرض، تَجُرّ عروقها مُغِيرَة[٣] حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السّلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى مَنْبتها فٱستوت، فقال الأعرابي: إيذن لي أسجدُ لك، قال: «لو أمرتُ أحدًا أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها» قال: فأذنْ لي أقبِّلْ يديك ورجليك، فأذن له.

ومن ذلك ما روي في الصحيح من حديث جابر بن عبد الله قال: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم يرَ شيئًا يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطىء الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «ٱنقادي عليّ بإذن الله» فٱنقادت معه كالبعير المخْشُوش[٤] الذي يصانع قائده. وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك، حتى إذا كان بالمَنْصَف[٥] بينهما قال: «التئما عليّ بإذن الله» فالتأمَتا. وفي رواية أخرى؛ فقال: «يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما» ففعلت فرجعت حتى لحقت بصاحبتها، فجلس خلفهما، فخرجت أحْضِر[٦]، وجلست أُحَدِّث نفسي، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مُقْبِل والشجرتان قد ٱفترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق، فوقف رسول الله ﷺ وقفة فقال[٧] برأسه ـ هكذا ـ يمينًا وشمالاً.

---

(١) السمرة: شجرة عظيمة ذات شوك من الطلح.
(٢) تخدّ الأرض: تشقها. (٣) مغيرة: مسرعة في مشيها.
(٤) المخشوش: الذي وضع في أنفه خشاش، وهو العود.
(٥) المنصف: وسط المكان. (٦) أحضر: أسرع في العدو.
(٧) المراد هنا أشار برأسه.

وروى أسامة بن زيد نحوه، قال: قال لي رسول الله ﷺ في بعض مغازيه: «هل»؟ يعني مكانًا لحاجة رسول الله ﷺ فقلت: إن الوادي ما فيه موضع بالناس[١]، فقال: «هل ترى من نخل أو حجارة»؟ قلت: أرى نخلات متقاربات، فقال: «ٱنطلق وقل لهن إن رسول الله ﷺ يأمركنّ أن تأتين لمخرج رسول الله ﷺ وقل للحجارة مثل ذلك» فقلت ذلك لهنّ، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى ٱجتمعن، والحجارة يتعاقدن حتى صِرن رُكامًا خلفهنّ، فلما قضى حاجته قال لي: «قل لهنّ يفترقن» فوالذي نفسي بيده لرأيتهن والحجارة يفترقن حتى عُدْن إلى مواضعهنّ. وعن ٱبن مسعود مثله في غَزاة حُنَيْن. وعن يَعْلَى بن مُرّة ـ وهو ابن سَيَّابة ـ وذكر أشياء رآها من رسول الله ﷺ فذكر أن طَلْحَة ـ أو سَمُرَة ـ جاءت فأطافت به، ثم رجعت إلى مَنْبتها، فقال رسول الله ﷺ: «إنها ٱستأذنت أن تسلم عليّ». وفي حديث ٱبن مسعود: آذنت النبيَّ ﷺ بالجنّ ليلة ٱستمعوا له شجرةٌ. وذكر أبو بكر بن فُورَك أن رسول الله ﷺ سار في غزوة الطّائف ليلاً وهو وَسِنٌ، فٱعترضته سِدْرَة[٢] فٱنفرجت له نصفين، حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهي هناك معروفة. وقد روي في مثل ذلك أحاديث كثيرة.

ومن ذلك قِصَّة حَنِين الجِذْع، والخبر بذلك مشهورٌ منتَشر خرّجه أهل الصحيح، ورواه جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مَسْقوفًا على جُذُوع نخل، فكان النبيّ ﷺ إذا خطب يقوم على جِذْع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العِشَار[٣]، وفي رواية أنس: حتى ٱرْتَجّ المسجد بِخُوَاره. وفي رواية سَهْل بن سَعْد: وكثر بكاء الناس لما رأوا به. وفي رواية المطلب بن أبي وَدَاعَة: حتى تَصَدّع وٱنشَقّ، حتى جاء النبيّ ﷺ فوضع يده عليه فسكت. وزاد غيره: فقال النبيّ ﷺ «إن هذا بكى لما فَقَد من الذِّكْر». وزاد غيره: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه[٤] لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تَحزُّنًا على رسول الله ﷺ»، فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر. وفي حديث أُبيّ بن كعب: فكان إذا صلّى النبيّ ﷺ صلّى إليه، فلما هُدِم المسجد أخذه أُبيّ فكان عنده إلى أن أكلته الأرض وعاد رُفَاتًا. وذكر الإسفرايني: أن النبيّ ﷺ دعاه إلى نفسه فجاءه

(١) المراد بقوله: بالناس، أي بسبب الناس.
(٢) السدرة: جمع السدر، وهي شجر النبق.
(٣) العشار: النوق الحوامل التي بلغت عشرة أشهر لحملها، واحدتها عشراء.
(٤) التزمه: اعتنقه.

يخرق الأرض فٱلتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه. وفي حديث بُرَيْدة فقال النبيّ ﷺ: «إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه، تنبت لك عُروقُك، ويكتمل خَلْقُك ويُجَدّد لك خُوص وثمرة، وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك»، ثم أصغى له النبيّ ﷺ يستمع ما يقول فقال: بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه. فسمعه من يليه، فقال النبيّ ﷺ: «قد فعلت - ثم قال - ٱختار دار البقاء على دار الفناء».

ومن معجزاته ﷺ نطق الجمادات

كتسبيح الطعام في جوفه، وتسبيح الحصى في كفّه وكفّ من صبّه في كفّه من أصحابه، وسلام الجبال والأحجار والأشجار عليه، وسجودها له، وغير ذلك مما يلتحق به على ما نشرحه إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك ما رويناه بإسناد متصل عن البخاريّ بسنده، عن عَلْقَمة عن عبد الله قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي غير هذه الرواية عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيحه. وقال أنس بن مالك: أخذ النبيّ ﷺ كفًّا من حصًى فسبَّحنَ في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهنّ في يد أبي بكر فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن. وروى أبو ذَرّ مثله، وذكر أنهنّ سبحن في كفّ عمر وعثمان. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كنا بمكة مع رسول الله ﷺ فخرج إلى بعض نواحيها فما ٱستقبله شجر ولا جبل إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. وعن جابر بن سَمُرَة عنه ﷺ أنه قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ» قيل: إنه الحجر الأسود. وعن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، عنه ﷺ أنه قال: «لما ٱستقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السّلام عليك يا رسول الله». وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له. وفي حديث العباس بن عبد المطلب إذ ٱشتمل(١) عليه النبيّ ﷺ وعلى بنيه بمُلاءَته فأمَّنَتْ أُسْكُفَة(٢) الباب وحوائط البيت آمين آمين. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: مرض النبيّ ﷺ فأتاه جبريل بطبق فيه رُمّان وعِنَب، فأكل منه ﷺ فسبّح. وعن أنس رضي الله عنه قال: صعد النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحُدًا فرَجَف بهم فقال: «ٱثبتْ أحُدُ، فإنما عليك نَبيٌّ وصِديق

(١) اشتمل عليه: أي ضمّه. (٢) الأسكفة: عتبة الباب التي يوطأ عليها.

وشهيدان»، ومثله عن أبي هريرة في حِرَاء، وزاد فيه: ومعه عليّ وطلحة والزُّبَيْر، وقال: «إنما عليك نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيد»، والخبر في حِرَاءَ أيضًا عن عثمان قال: ومعه عشرة من أصحابه أنا فيهم، وزاد عبد الرحمٰن وسعدًا، قال: ونسيت الاثنين. وقد روي أنه ﷺ حين طلبته قريش قال له ثَبير[1]: اْهبط يا رسول الله، فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله، فقال حراء: إليّ يا رسول الله. وقد تقدّم ذكر خبر الأصنام، وسقوطها عندما أشار إليها بالقَضيب، حين فتح الله تعالى مكة عليه، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا أبدًا دائمًا.

ومن معجزاته ﷺ

كلام الحيوانات وسكونها وثباتها إذا رأته؛ كقصة الدّاجن، وكلام الضَّبّ والذِّئب، والطائر والظَّبْية، وسجود الغنم والبعير، وخبر سفينَةَ مولاه مع الأسَدِ، وخبر العنز، وغير ذلك مما نورده إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك ما رويناه بسند متصل عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجِنٌ، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قرّ وثبت مكانه، فلم يجيء ولم يذهب، فإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب.

ومنه ما روي عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان في مَحْفِل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضَبًّا فقال: من هذا؟ قالوا: نبيّ الله، فقال: واللاّت والعُزّى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضَّبّ. وطرحه بين يدي النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «يا ضَبُّ» فأجابه بلسان مُبين يسمعه القوم جميعًا: لَبّيْك وسَعْدَيْك يا زَيْن من وَافَى القيامة، قال: «من تعبد»؟ قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه، قال: «فمن أنا»؟ قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين؛ وقد أفلح من صدّقك، وخاب من كذّبك. فأسلم الأعرابيّ.

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخُدْريّ قال: بينا راع يرعى غنمًا له، عرض الذئب لشاة منها فأخذها الراعي منه، فأقْعَى الذئب وقال للراعي: ألا تتّقي الله، حُلْتَ بيني وبين رزقي! قال الراعي: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؛ رسول الله بين الحرَّتين

(١) ثبير: جبل على يمين الذاهب من منى إلى مكة.

يحدّث الناس بأنْبَاء ما قد سبق، فأتى الراعي النبيّ ﷺ فأخبره، فقال النبيّ ﷺ: «قم فحدِّثهم»؛ ثم قال: «صَدَق». ورُوي حديث الذئب عن أبي هريرة. وفي بعض الطرق عنه قال الذئب: أنت أعجب! واقفًا على غنمك، وتركت نبيًا لم يبعث الله نبيًا قَطُّ أعظم منه عنده قَدْرًا، قد فُتحت له أبوابُ الجنة، وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم، وما بينك وبينه إلا هذا الشِّعْب فتصير في جنود الله، قال الراعي: من لي بغَنَمِي؟ قال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع، فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى، وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبيّ ﷺ يقاتل، فقال له النبيّ ﷺ: «عد إلى غنمك تجدها بوَفْرِها»(١) فوجدها كذلك، وذبح للذئب شاة منها.

وروي أن أهْبان بن أوْس هو صاحب القصة ومُكَلِّم الذئب. وروي أيضًا أن صاحب القصة سَلَمة بن عمرو بن الأكْوَع، وأنها سبب إسلامه. وحكى أبو عمر بن عبد البر في ترجمة رافع بن عُمَيْرة الطائي أنه كلمه الذئب، وهو في ضَأنٍ له يرعاها، فدعاه إلى رسول الله ﷺ واللحاق به. قال: وزعموا أن رافع بن عميرة قال في كلام الذئب إيّاه: [من الوافر]

رَعَيْتُ الضّأن أحْميها بكَلْبِي ... من الضَّبع الحَفِيّ وكل ذِيبِ(٢)
فلمّا أنْ سمعتُ الذئب نادَى ... يبَشِّرني بأحمدَ من قريبِ
سَعَيْتُ إلَيْهِ قد شَمَّرْت ثَوْبِي ... على السّاقَيْنِ قاصِدَة الرّكيبِ(٣)
فَألْفَيْتُ النّبيَّ يقول قَوْلاً ... صَدُوقًا ليس بالقول الكَذُوبِ
يُبشِّرُني بدِينِ الحَقِّ حتى ... تَبَيَّنَتِ الشّرِيعَةُ لِلْمُنِيبِ(٤)
وأبصرتُ الضِّياء يُضيءُ حَوْلِي ... أمَامِي إنْ سَعَيْتُ ومِن جَنُوبِي

في أبيات أخَر.

وروى ابن وهب: أن مثل هذه القصة وقع لأبي سفيان بن حرب، وصَفْوَان بن أميّة مع ذئب وجداه قد أخذ ظبيًا، فدخل الظّبي الحَرَم فانصرف الذئب فعجبًا من ذلك، فقال الذئب: أعجبُ من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار. فقال أبو سفيان: واللاّت والعُزّى لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنا خُلُوفًا(٥). وقد روي أيضًا مثل هذا الخبر، وأنه جرى لأبي جهل وأصحابه.

---

(١) الوفر: التمام والكمال.
(٢) الحفيّ: المبالغ في الطلب.
(٣) الركيب: من يكثر الركوب ويحسنه.
(٤) المنيب: الراجع إلى الله.
(٥) المراد تركها خالية من أهلها.

وعن عباس بن مِرْدَاس السُّلَميّ أنه لمّا تعجّب من كلام صنمه ضِمَار، وإنشاده الشعر الذي ذكرناه، فإذا طائر سقط، فقال: يا عباس، أتعجب من كلام ضِمار، ولا تعجب من نفسك؟ إن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام، وأنت جالس!

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر ورجلٌ من الأنصار حائطَ[1] أنصاريّ، وفي الحائط غنم، فسجدت له فقال أبو بكر: نحن أحقُّ بالسجود لك منها... الحديث. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخل النبيّ ﷺ حائطًا فجاء بَعِيرٌ فسجد له، وذكر مثله. ومثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبد الله، ويَعْلَى بن مُرّة، وعبد الله بن جعفر قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شَدّ عليه الجمل، فلما دخل عليه النبيّ ﷺ دعاه، فوضع مِشْفَره في الأرض وبرك بين يديه فخَطَمَه؛ وقال: «ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصيَ الجنّ والإنسِ». وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه. وفي رواية: أن النبيّ ﷺ قال لهم: «إنه لاشتكى كثرة العمل وقلة العَلَف». وفي رواية: «إنه شكا إليّ أنكم أردتم ذبحه بعد أن اْستعملتموه في شاقّ العمل من صغره» فقالوا: نَعَم: وقد روي في قصة العَضْبَاءِ وكلامِها النبيّ ﷺ، وتعريفِها له بنفسها، ومبادرةِ العُشْب إليها في الرّعي، وتجنّبِ الوحوش عنها، وندائِهم لها أنّكِ لمحمد، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت. ذكره الإسفرائني. وروى اْبن وهب: أن حَمام مكة أظلت النبيّ ﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة. وقد ذكرنا قصة الغار وخبر الحمامَتيْن والعنكبوت.

وعن عبد الله بن قُرْط قال: قُرِّب إلى رسول الله ﷺ بدَنَات خمس أو ستّ أو سبع لينحَرها يوم عيد، فاْزْدَلَفْن[2] إليه بأيّتهنّ يبدأ. وعن أمّ سَلَمَة قالت: كان النبيّ ﷺ في صَحراء فنادته ظَبية: يا رسول الله، قال: «ما حاجتك»؟ قالت: صَادَنِي هذا الأعرابيّ ولي خِشْفَان[3] في ذلك الجبل، فأطلقْني حتى أذهبَ فأرضعَهما وأرجع، قال: «وتفعلين»؟ قالت: نعم، فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها، فاْنتبه الأعرابي. فقال: يا رسول الله، ألك حاجة؟ قال: «تُطلِق هذه الظَّبْية» فأطلقها، فخرجت تعدو في الصحراء وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

---

(١) المراد بالحائط: البستان.
(٢) ازدلفن: تقربن منه.
(٣) الخشف: ولد الظبية.

ومنه ما روي من تسخير الأسَدِ لسَفِينَةَ مولى رسول الله ﷺ

إذ وجّهه إلى مُعاذ باليمن، فلقي الأسدَ فعَرَّفه أنه مولى رسول الله ﷺ ومعه كتابه، فهَمْهَم وتنحّى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك. وفي رواية أخرى عنه: أن سفينة تكسرت به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد؛ قال فقلت: أنا مولى رسول الله ﷺ فجعل يَغْمِزُني[1] بمَنْكِبه حتى أقامني على الطريق. وروي أنه ﷺ أخذ بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصْبَعَيْه ثم خلاّها، فصار لها مِيسَمًا، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها. وقد روي عن إبراهيم بن حمّاد بسنده كلام الحمار الذي أصابه بخيبر، وقال له: ما آسمك قال: آسمي يزيد بن شهاب، فسماه النبيّ ﷺ يَعفُورًا وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم، وأن النبيّ ﷺ لما مات، تَرَدَّى في بئر جَزَعًا وحُزنًا فمات. وخبر الناقة التي شهدت عند النبيّ ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها وأنها ملكه. وخبر العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أصابهم عطش ونزلوا على غير ماء وهم زُهَاء ثلثمائة، فحلبها رسول الله ﷺ فأروَى الجُند، ثم قال لرافع: «املكها[2] وما أُرَاك»[3] فربطها فوجدها قد آنطلقت. رواه آبن قانع وغيره، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها». وقال عليه السلام لفرسه، وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره: «لا تَبرحْ بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا» وجعله قِبْلَته فما حرّك عُضوًا حتى فرغ من صلاته ﷺ.

ومن معجزاته ﷺ ما روي من كلام الأموات والأطفال وشهادتهم له بالنبّوة.

فمن ذلك ما روي عن فَهْد بن عطية: أن النبيّ ﷺ أُتِي بصبيّ قد شَبّ لم يتكلم قطّ، فقال له: «من أنا»؟ فقال: رسول الله. وعن مُعَرِّض بن مُعَيْقِيب قال: رأيت من النبيّ ﷺ عجبًا، جيء بصَبيّ يوم وُلد، فذكر مثله، وهو حديث مُبارك اليَمَامة، ويعرف بحديث شاصُونه آسم راويه، وفيه؛ فقال له النبيّ ﷺ: «صدقت بارك الله فيك» ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شَبّ، فكان يسمى مبارك اليمامة، وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع.

وعن الحسن رضي الله عنه: أتى رجل النبيّ ﷺ فذكر له أنه طَرَح بُنَيّة له في وادي كذا، فآنطلق معه إلى الوادي وناداها بآسمها «يا فلانة آحيي بإذن الله» فخرجت وهي تقول: لَبَّيكَ وسَعْديكَ، فقال لها: «إن أبوَيْك قد أسلما فإن أحببتِ أن أردّك عليهما» قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت الله خيرًا لي منهما.

---

(١) غمزه: ضغط عليه. (٢) أملكها: أي اتخذها ملكًا لك.

(٣) وما أراك: أي لا أظنك تملكها أو تحفظها.

وعن أنس رضي الله عنه أن شابًا من الأنصار/تُوفي وله أمّ عجوز عمياء قال: فسجّيناه وعزّيناها فقالت: مات ابني؟ قلنا: نَعَم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدّة، فلا تُحَمِّلَنَّ[١] عليّ هذه المصيبة، قال: فما برحنا أن كشَفَ الثوب عن وجهه فطَعِم وطَعِمنا. وروي عن عبد الله بن عبيد الله الأنصاري قال: كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شَمّاس ـ وكان قتل باليمامة ـ فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: محمد رسول الله، أبو بكر الصدّيق، عمر الشهيد، وعثمان البرّ الرحيم، فنظرنا فإذا هو مَيِّت. وذكر عن النعمان بن بشِير: أن زيد بن خارجة خرّ ميتًا في بعض أزِقة المدينة، فرفع وسُجِّي إذ سمعوه بين العِشاءين والنساء يصرخن حوله يقول: أنصتوا أنصتوا، فَحُسِر عن وجهه، فقال: محمد رسول الله، النبيّ الأميّ، وخاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الأوّل، ثم قال: صدق صدق، وذكر أبا بكر وعمر وعثمان ثم قال: السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم عاد ميتًا. ومن ذلك قصة الذِّراع وقول رسول الله ﷺ لأصحابه: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة. وقد تقدّم خبر الذراع. والله مُنْجِي المتقين ووليهم.

ومن معجزاته ﷺ إبراء المرضى وذوي العاهات، كردِّ عَيْن قَتَادة، وكشف بصر الضرير، وتَفْله ﷺ على جِراحات فبرأت، وغير ذلك مما نشرحه إن شاء الله تعالى.

أما عَيْن قَتادة بن النعمان فقد روينا بإسناد متّصل عن سعد بن أبي وَقّاص: أن قَتَادة بن النعمان أصِيبت عينه يوم أحد حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينَيْه. وذكر الأصمعي عن أبي معشر المدني قال: أوفد أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم، بديوان المدينة إلى عمر بن عبد العزيز رجلاً من ولد قتادة بن النعمان، فلما قدم عليه قال له: ممن الرجل؟ قال: [من الطويل]

أنا ابن الذي سالَتْ على الخَدِّ عَيْنُه فرُدّتْ بكَفِّ المصطفى أحسنَ الرد
فعادتْ كما كانت لأوّل أمْرِها فيا حُسنَ ما عَيْنٍ ويا حسنَ ما رَدّ

فقال عمر بن عبد العزيز: [من البسيط]

تلك المكارِمُ لا قَعْبانِ مِن لَبَنٍ شِيبًا بِماءٍ فَعادَا بَعْدُ أبْوَالا[٢]

(١) أي لا تكلفني حملها.
(٢) القعب: القدح الضخم، أو الصغير الذي يروي الرجل. شيبا: خلطا.

حكاه ٱبن عبد البر. وروى النَّسائيّ عن عثمان بن حُنَيف أن أعمى قال: يا رسول الله، ٱدع الله أن يكشف لي عن بصري. قال: «فأنْطلق فتوضأ ثم صَلِّ ركعتين، ثم قال اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيِّي محمدٍ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجّه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري اللهم شفِّعه فِيّ» قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وروي أن ٱبن مُلاَعِب الأسِنّة أصابه ٱستسقاء فبعث إلى النبيّ ﷺ، فأخذ بيده حَثْوة من الأرض فتَفَل عليها، ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجبًا - يرى أنه قد هُزِىء به - فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله. وذكر العُقَيْليّ عن حبِيب بن فُدَيْك - ويقال فُوَيك - أن أباه ٱبيضّتْ عيناه، فكان لا يبصر بهما شيئًا، فتفَثَ رسول الله ﷺ في عينَيْه فأبصر، فرأيته يدخل الخيط في الإبْرة وهو ٱبن ثمانين.

وأتته ٱمرأة من خَثْعَم معها صبيّ به بلاءٌ[1] لا يتكلم، فأتِي بماءٍ فمضْمَضَ فاه وغَسَل يديه ثم أعطاها إياه وأمرها بسقْيِه ومسِّه به، فبَرأ الغلام، وعَقَل عَقْلًا، يَفْضُل عقولَ الناس. وعن ٱبن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت ٱمرأة بٱبن لها به جُنُونٌ، فمسح رسول الله ﷺ صدره فَثَعَّ[2] ثَعَّةً فخرج من جوفه مثل الجرْو الأسْوَد فَشُفِي. وكانت في كَفّ شُرَحْبِيل الجُعْفي سِلْعَة[3]، تمنعه القبض على السيف وعِنان الدابة، فشكاها إلى النبيّ ﷺ، فما زال يطْحَنها بكفِّه حتى رفعها ولم يبق لها أثَرٌ. وسألته جاريةٌ طعامًا وهو يأكل، فناولها من بين يديه، وكانت قليلة الحَيَاء، فقالت: إنما أريد من الذي في فِيكَ، فناولها ما في فِيهِ، ولم يكن يسأل شيئًا فيمنعه، فلما ٱستقر في جوفها ألْقِي عليها من الحياء ما لم تكن ٱمرأة بالمدينة أشدّ حياء منها.

وأما الجِراحات التي تَفَلَ عليها فبَرأت فكثير

منها أنه ﷺ بَصَق على أثر سهم في وَجْه أبي قتادة، في يوم ذي قَرَد[4]، قال: فما ضرب[5] عليّ، ولا قَاحَ. ومنها أن كُلْثُوم بن الحُصَيْن رُمِي يوم أُحُد في نحره، فبصق رسول الله ﷺ فيه فبرأ، وتَفَل على شَجّة عبد الله بن أنَيْس فلم تُمِدّ[6]. وتَفل

(١) البلاء: عدم القدرة على الكلام. (٢) ثع: قاء.
(٣) السلعة: ورم غليظ غير ملتزق باللحم يتحرك عند تحريكه، وله غلاف، ويقبل الزيادة لأنه خارج عن اللحم.
(٤) ذو قرد: موضع قرب المدينة. (٥) ما ضرب: أي ما آلمني الجرح.
(٦) لم تمدّ: أي لم تصب بمدّة وقيح.

في رِجْل زيد بن مُعاذ حين أصابها السيف إلى الكعب حين قَتَل ٱبن الأشْرَف فبرئت، وعلى ساق علي بن الحَكَم يوم الخَنْدَق، إذ ٱنكسرت فبرِىء مكانه وما نزل عن فرسه. وقطع أبو جهل يد معوّذ بن عَفْراء في يوم بدر، فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت. رواه ٱبن وهب، ومن روايته: أن خُبيب بن يَسَاف أصِيب يوم بَدْر مع رسول الله ﷺ بضربة على عاتقه حتى مالَ شِقُّه، فردّه رسول الله ﷺ، ونَفَث عليه حتى صح. ونَفَث على ضربة بساق سَلَمَة بن الأكْوَع يوم خَيْبَر فبرئت. وتَفَل في عَينيْ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خَيْبر وكان رَمِدًا فأصبح بارئًا. وٱشتكى عليّ مرة فجعل يدعو، فقال النبيّ ﷺ: «اللهم اشفه أو عافه» ثم ضربه برجله فما ٱشتكى ذلك الوجع بعد ذلك.

ومن معجزاته ﷺ إجابة دعائه

وهذا فصل متسع جدًّا، نذكر منه ما ٱشتهر وٱنتشر، وتواترت به الأخبار وتداولته الرُّواة، ونقله أصحاب السِّيَر، ولا شك ولا خلاف بين أحد من الأمة في إجابة دعائه ﷺ؛ وقد روي عن حُذَيفة أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده. روي عن أنس بن مالك قال: قالت أمي يا رسول الله، خادمُك أنَسٌ ٱدع الله له؛ قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته» قال أنس: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادّون اليوم على نحو المائة، وما أعلم أحدًا أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدي، لا أقول سقطًا ولا ولد ولدٍ. ودعا ﷺ لعبد الرحمٰن بن عوف بالبركة، قال عبد الرحمٰن: فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا، ولما مات حفر الذهب من تَركَته بالفُؤس حتى مَجَلت[1] فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفًا، وكنّ أربعًا، وقيل: مائة ألف، وقيل: بل صولحت إحداهن ـ لأنه طلقها في مرضه ـ على نيف وثمانين ألفًا، وأوصى بخمسين ألفًا بعد صدقاته الفاشية في حياته. ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد فنال الخلافة. ولسعد بن أبي وَقّاص أن يجيب الله دعوته، فما دعا على أحد إلا ٱستجيب له. ودعا أن يعزّ الله الإسلام بعمر أو بأبي جهل فاستجيب له في عمر رضي الله عنه؛ قال ٱبن مسعود: ما زلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر. وقال لأبي قَتادة: «أفلحَ وجهُك، اللهم بارك له في شعره وبَشَره»[2] فمات وهو ٱبن سبعين سنة

(١) المجل: تغير يكون في اليد من كثرة العمل.
(٢) البشر: ظاهر الجلد واليد.

وكأنه ٱبن خمس عشرة. وقال للنابغة: «لا يَفْضُضِ[١] اللّهُ فاك» قال: فما سقطت له سِنّ، وكان، أحسن الناس ثَغْرًا، إذا سقطت له سِنّ نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة، وقيل: أكثر. ودعا لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقِّهْه في الدين وعلمه التأويل» فسمي بعْدُ الحِبْر وتَرْجُمان القرآن. ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صَفْقَة[٢] يمينه؛ فما ٱشترى شيئًا إلا ربح فيه. ودعا للمِقْدَاد بالبركة؛ فكان عنده غَرائر من المال. ودعا كذلك لعُرْوَة بن أبي الجَعْد، قال: فلقد كنت أقوم بالكُنَاسَة[٣] فما أرجع حتى أربح أربعين ألفًا. ودعا لعليّ أن يُكفَى الحرّ والقُرّ، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حَرٌّ ولا برْدٌ. ودعا على مُضَر فأُقحِطوا حتى ٱستعطفته قريش فدعا لهم فسُقوا. وتقدم خبره في دعائه في الاستسقاء والاستضحاء[٤]. ودعا على كِسْرَى أن يُمَزَّقَ ملكُه فلم يبق له باقيةٌ، ولم تَعُدْ لفارس مملكة. وقال لرجل رآه يأكل بشماله: «كُلْ بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال: «لا ٱستطعت» فلم يرفعها إلى فيه بعدُ. وقال في عُتْبَة بن أبي لهب: «اللهم سَلِّط عليه كلبًا من كلابك» فأكله الأسد كما تقدم. ودعا على مُحَلِّم بن جَثَّامَة، فمات لسَبْع فلفَظَتْه الأرض ثم وُورِي فلفظته، فألقوه في صُدَّين ورَضَموا[٥] عليه بالحجارة، والصُّدّ جانب الوادي. ودعواته ﷺ كثيرة عليه أفضل الصلاة والسّلام.

ومن معجزاته ﷺ ٱنقلاب الأعْيَان

فيما لمسه أو باشره؛ كسيف عُكاشَة بن مِحْصِن، وعبد الله بن جَحْش، وغير ذلك، وكان من خبر عكاشة أن سيفه ٱنكسر يوم بدر فأعطاه رسول الله ﷺ جِذل[٦] حَطبٍ، وقال: «ٱضرب به» فعاد في يده سيفًا صارمًا طويلاً أبيض شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن ٱستشهد في قتال أهل الردّة، وكان هذا السيف يسمى العَوْن. ودفع لعبد الله بن جحش ـ وقد ذهب سيفه يوم أُحُد ـ عسيب[٧] نخل فرجع في يده سيفًا. ومن ذلك أنه ﷺ مرّ على ماءٍ فسأل عنه، فقيل له ٱسمه

(١) لا يفضض: أي لا يسقط الله أسنانك. (٢) أي في بيعه وشرائه.
(٣) الكناسة: سوق مشهورة بالكوفة.
(٤) الاستضحاء: بروز الأرض للشمس، وظهورها بعدم النبات فيها.
(٥) الرضم: وضع الصخور بعضها فوق بعض كالبناء.
(٦) الجذل: عود غليظ أو أصل من أصول الشجرة.
(٧) العسيب: جريدة النخل لا خوص عليها.

بَيْسَان وماؤه ملح، فقال: «بل هو نَعْمَان وماؤه طيِّب» فكان كذلك. ومنه أنه ﷺ أعطى قتادة بن النعمان ـ وكان قد صلّى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة ـ عُرْجُونًا(١)، وقال: «انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشرًا(٢)، ومن خلفك عشرًا، فإذا دخلت بيتك فسترى سوادًا فاضربه به حتى يخرج فإنه الشيطان» فانطلق فأضاء له العُرْجون، ووجد السواد فضربه حتى خرج. ومن ذلك أنه ﷺ زوّد أصحابه سِقَاء من ماء بعد أن أوْكَأَه ودعا فيه، فلما حضرتهم الصلاة نزلوا فحلوه فإذا به لبنٌ طيب وفي فمه زبدة. رواه حَمّاد بن سَلَمَة.

ومما يلتحق بهذا الفصل

أنه ﷺ ركب فرسًا لأبي طلحة، كان يقطف(٣) ـ أو ـ به قطاف، فلما رجع قال: وجدنا فرسك بَحْرًا، فكان بعد لا يجارى. ونخس جمل جابر بن عبد الله، وكان قد أعْيَا فنَشِط حتى كان ما يملك زِمامه، وقد تقدم خبره. وخَفَق(٤) فرس جُعَيْل الأشجعي بمِخْفَقه(٥) معه وبَرَّك عليها فلم يملك رأسها نشاطًا، وباع من بطنها باثني عشر ألفًا. وركب ﷺ حمارًا قَطُوفًا لسعد بن عُبادة فرده هِمْلاجًا(٦) لا يُسايَر. ومن ذلك بركة يده ﷺ فيما لمسه كقصة سَلْمَان في كتابته، وما غرس له ﷺ من الوَدِيّ(٧) فأطعمت كلها من عامها، والذَّهَب الذي أعطاه، وقد تقدم ذكر ذلك في إسلام سَلْمَان. ومنه أنه ﷺ مسح على رأس عُمَيْر بن سعد وبَرَّك فمات وهو ابن ثمانين سنة وما شاب. وكذلك السّائب بن يزيد، ومَدْلُوك(٨)، وكان يوجد لعُتْبَة بن فَرْقَد طِيبٌ يغلب طيب نسائه، وذلك أن رسول الله ﷺ مسح بيده على بطنه وظهره. ومسح على رأس قيس بن زيد الجُذاميّ، ودعا له فهلك وهو ابن مائة سنة، ورأسه أبيض، وموضعُ كَفِّ النبيّ ﷺ وما مَرَّت يدُه عليه من شعره أسود، فكان يُدعى الأغَرّ. وروي مثل ذلك لعمرو بن ثَعْلَبة الجُهَنِيّ. ومسح وجه آخر فما زال على وجهه نور. ومسح وجه قَتَادة بن مِلْحَان، فكان لوجهه بريقٌ، حتى كان ينظر فيه كما ينظر في المرآة. ونضح في وجه زينب بنت أمّ سلمة نَضْحة من ماء، فما نعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما بها. ومسح على رأس صبي به عاهة فبرأ واستوى شعره، وعلى غير واحد

---

(١) العرجون من النخل: كالعنقود من العنب.
(٢) عشرًا: يراد بها مقدار عشر أذرع.
(٣) يقطف: يبطىء في السير.
(٤) خفق الفرس: ضربها.
(٥) المخفقة: الدرة؛ أو العصا.
(٦) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة.
(٧) الوديّ: صغار النخل.
(٨) مدلوك: هو أبو سفيان الفزاري.

من الصبيان المرضى والمجانين فبرؤوا. وأتاه رجل به أُدْرَة[١] فأمره أن ينضَحها بماء من عَيْن مَجّ[٢] فيها ففعل فبرأ. وعن طاوس: لم يؤت النبيّ ﷺ بأحد به مَسّ فصَكّ[٣] في صدره إلا ذهب. والمس: الجنون. ومَجَّ في دَلْوٍ من بئر ثم صُبّ فيها ففاح منها ريح المسك. وشكا إليه أبو هريرة النسيان فأمره أن يبسط ثوبه، وغرف بيده فيه ثم أمره بضمه ففعل فما نسي شيئًا بعدُ. ومن ذلك دُرُور الشياه الحَوَائل[٤] باللبن الكثير؛ كقصة شاة أمّ مَعْبَد، وأعْنُز معاوية بن ثور، وشاة أَنَس، وغَنَم حَليمة، وشَارفها[٥]، وشاة عبد الله بن مسعود، وشاة المِقْدَاد، والله أعلم.

ومن معجزاته ﷺ ما أخبر به من الغُيوب، وما يكون قبل وقوعه، فكان كما أخبر به ﷺ؛ روي عن حُذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدّثه، حَفِظه مَنْ حَفِظه ونَسِيَه من نَسِيَه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، ثم قال حذيفة: ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا، يبْلُغُ من معه ثلثمائة فصاعدًا إلا قد سَمّاه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. وقال أبو ذَرٍّ: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه عِلمًا. ومما أخبر به ﷺ مما يكون فكان، ما أخرجه أهل الصحيح والأئمة، مما وعد به رسول الله ﷺ أصحابه من الظُّهُور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعِراق، وظهور الأمن حتى تَظْعَن[٦] المرأة من الحِيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستُغْزَى، وتُفتح خيبر على يدي عليٍّ في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، وما يؤتَون من زَهْرَتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفُتُون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل مَن قَبْلَهم وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة، وأنه ستكون لهم أنْمَاط[٧]، ويغدو أحدهم في حُلّة ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صَحْفة وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تُستر الكعبة، ثم قال آخر الحديث: «وأنتم اليوم خير منكم يومئذ» وأنهم إذا مشوا المُطَيْطاء[٨]، وخَدَمتهم بنات

---

(١) الأدرة: انتفاخ في الخصيتين معروف.
(٢) مجّ فيها: تفل ريقه فيها.
(٣) صكّ: دفع بقوة.
(٤) الحوائل: التي لم تحمل مطلقًا.
(٥) الشارف: الناقة المسنة.
(٦) تظعن: تسافر، ترحل.
(٧) أنماط: واحدها نمط، وهو ضرب من البسط له خمل رقيق.
(٨) المطيطاء: مشية المتبختر ومد اليدين.

فارس والروم، ردّ الله بأسهم بينهم، وسلّط شرارهم على خيارهم، وما أخبر به ﷺ من قتالهم التُّرْك والخَزَر والرُّوم، وذهاب كِسْرى وفارس، حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده، وأن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر، وأخبر بذهاب الأمثل فالأمثل من الناس، وتَقارُب الزمان، وقَبْض العلم، وظهور الفِتَن والهَرْج[١]، وقوله ﷺ: «زُوِيت[٢] لي الأرض فأُرِيتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِي لي منها» فكان كذلك؛ آمتدت في المشارق والمغارب، ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، ولم تمتدّ في الجنوب والشمال مثل ذلك. وقوله ﷺ: «ويل للعرب من شرٍّ قد آقترب». وقوله: «لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحقّ حتى تقوم الساعة» ذهب آبن المديني إلى أنهم العرب؛ لأنهم المختصّون بالسَّقي بالغَرْب وهو الدّلو، وقيل: بل هم أهل المغرب، ومن رواية أبي أُمَامَة: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك» قيل: يا رسول الله وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس». وأخبر ﷺ بملك بني أمية، وولاية معاوية، ووصاه، وآتخاذ بني أمية مال الله دُوَلاً[٣].

وأخبر بخروج ولد العباس بالرايات السود، وملكهم أضعاف ما ملكوا، وأخبر بقتل عليّ رضي الله عنه، وأن أشقاها الذي يَخْضِب هذه من هذه؛ أي لحيته من رأسه. وقال: يُقْتل عثمان وهو يقرأ المصحف، وأن الله عسى أن يلبسه قميصًا، وأنهم يريدون خلعه، وأنه سيقطر دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وأن الفتن لا تظهر ما دام عمر حيًّا، وأخبر بمحاربة الزبير لعليّ، ونُبَاح كِلاب الحَوْأب[٤] على بعض أزواجه، وأنه يقتل حولها قتلى كثيرة، وتنجو بعدما كادت، وأن عَمّارًا تقتله الفئة الباغية، وقال لعبد الله بن الزبير: «ويل للناس منك، وويل لك من الناس» وقال في قُزْمَان[٥] وقد أبلى بلاءً حسنًا مع المسلمين: «إنه من أهل النار» فقتل نفسه. وقال ﷺ: «يكون في ثَقيف كذّاب ومُبِير»[٦] فكان الكذاب المختار بن أبي عبيد، والمبِير الحجاج بن يوسف. وأخبر بالردّة، وأن الخلافة بعده ثلاثون، ثم مُلكا، وقال: «إن هذا الأمر بدأ نبوّة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون مُلكًا

(١) الهرج: الفتنة والاختلاط.
(٢) زويت: أي جمعت.
(٣) دولاً: هو ما يتداول من المال، فيكون لقوم دون قوم.
(٤) الحوأب: ماء في طريق البصرة.
(٥) قزمان: هو ابن الحارث العبسي المنافق.
(٦) المبير: المهلك الذي يسرف في القتل بغير حق.

عَضُوضًا[١]، ثم يكون عُتُوًّا وجَبْرُوَة وفسادًا في الأئمة» فكان كل ذلك كما أخبر. وأخبر أن سيكون في أمته ثلاثون كذّابًا فيهم أربع نسوة، وفي حديث آخر: «ثلاثون دجالاً كذّابًا آخرهم الدّجّال الكذّاب كلهم يكذب على الله ورسوله». وقال ﷺ: «يوشك أن يكثر فيكم العجم يأكلون فَيْئكم، ويضربون رقابكم» فكان كذلك. وقال: «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قَحْطان». وقال: «هلاك أمتي على يدي أُغَيْلِمة من قريش» قال أبو هريرة راوي الحديث: لو شئت سميتهم لكم، بنو فلان وبنو فلان. وأخبر بظهور القَدَرِيّة والرافضة، وسبِّ آخر هذه الأمة أوّلها. وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم، والمُخْدَج[٢] الذي فيهم، وأن سِيمَاهم[٣] التَّحْليق[٤]. وقال: «خيركم قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قوم يَشهدون ولا يُسْتَشْهَدون ويخونون ولا يؤتمنون ويَنْذرون ولا يَفُون». قال: «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه». وأخبر ﷺ بالمُوتان[٥] الذي يكون بعد فتح المقدس. وما وعد من سكنى البصرة، وأن أمته يغزون في البحر كالملوك على الأسرّة؛ فكان في زمن يزيد بن معاوية. وقال: «إن الدِّين لو كان مَنُوطًا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس». وقال ﷺ في الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فِئتين». وأخبر بقتل الحسين بالطَّفّ[٦]، وأخرج بيده تربة، وقال: فيها مَضْجعه. وقال في زيد بن صُوحان: يسبقه عُضو منه إلى الجنة، فقُطِعت يدُه في الجهاد. وقال لسراقة: «كيف بك إذا لبست سُوَارَي كِسْرى» فلما أتى بهما لعمر ألبسهما إياه، وقال: الحمد لله الذي سلبهما كِسرى وألبسهما سُرَاقة. وقال: «تبنى مدينة بين دجلة ودُجَيْل وقَطْرَبُلُّ[٧] والصَّرَاة[٨] تجبى إليها خزائن الأرض يُخْسَف بها». فبنيت بغداد. وقال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل طائفتان دعواهما واحدة». وقال لعمر في سُهَيل بن عمرو: «عسى أن يقوم مقامًا يسرك يا عمر» فقام بمكة مقام أبي بكر يوم بلغهم موت النبيّ ﷺ، وخطب بنحو خطبته، وثَبّت الناسَ وقَوّى بصائرهم، وقال لخالد حين وجهه إلى أُكَيْدِر: «إنك بحده يصيد البقر» فكان كذلك. وقد تقدّم خبره. وأخبر ﷺ بوقائع نحن نترقب وقوعها؛ كقوله: «عمران بيت المقدس خراب يثرِب، وخراب

(١) العضوض: الذي يصيب الرعية فيه عسف وظلم.
(٢) المخدج: الناقص الخلق.
(٣) سيماهم: علامتهم.
(٤) التحليق: أي حلق الرؤوس.
(٥) الموتان: الموت الكثير.
(٦) الطفّ: موضع قرب الكوفة.
(٧) قطربل: قرية بالعراق.
(٨) الصراة: نهر بالعراق.

يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القُسْطَنْطِينِيّة». وأخبر بغير ذلك من الأمور التي وقعت في حياته في أماكن بعيدة، وأخبر بها حال وقوعها كموت النجاشي، وقتل أمراء مُؤتة، وغير ذلك ﷺ.

ومن معجزاته عصمة الله تعالى له من الناس وكفايته إياه مع كثرة أعدائه وتحزبهم واجتماعهم على أذاه

قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٥ و٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبّة، فقال لهم: «يأيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله ربي عزّ وجل». وقيل: كان النبي ﷺ يخاف قريشًا، فلما نزلت هذه الآية استلقى، ثم قال: «من شاء فليخذلني». وقد تقدم من عصمة الله له وكفايته قصتا دُعثُور وغُورَث، وخبر حَمالة الحطب، وأخذ الله تعالى على بصرها حين أرادته بالْفِهر[1]، وخبر أبي جهل حين أراده بالحجر، وغير ذلك.

وها نحن نورد في هذا الموضع من ذلك خلاف ما قدّمناه؛ فمن ذلك ما روي عن الحكم بن العاص أنه قال: تواعدنا على النبيّ ﷺ، حتى إذا رأيناه سمعنا صوتًا خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد، فوقعنا مغشيًا علينا، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله، ثم تواعدنا ليلة أخرى، فخرجنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: تواعدنا أنا وأبو جهم بن حُذيفة ليلةً قَتْل رسول الله ﷺ، فجئنا منزله فسمعنا له، فافتتح وقال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ [الحاقة: ١، ٢] إلى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٨] فضرب أبو جهم على عَضُد عمر وقال: انْجُ، وفرّا هاربين، فكانت من مقدّمات إسلام عمر. ومن ذلك خروجه ﷺ على قريش حين اجتمعوا لقتله، فأخذ الله على أبصارهم حتى

(١) الفهر: الحجر قدر ما يملأ الكف.

ذَرَا الترابَ على رؤوسهم وخلص منهم. وقصة الغار، وأَخْذُ الله على أبصارهم، وخبر سُراقة بن مالك بن جُعْشُم، وقد تقدّم ذكر ذلك. وفي خبر آخر أنّ راعيًا عرف خبر رسول الله ﷺ وأبي بكر حين هاجرا، فخرج يَشْتَدّ(٢) ليعلم قريشًا بشأنهما، فلما دخل مكة ضُرِب على قلبه فما يدري ما يصنع، وأُنسِيَ ما خرج له حتى رجع إلى موضعه. وذكر السَّمَرْقَنْدِيّ: أن رجلًا من بني المغيرة أتى النبيّ ﷺ ليقتله، فطمس الله بصره فلم يرَ النبيّ ﷺ وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه ولم يرهم حتى نادوه، وذكر أنّ فيه وفي أبي جهل نزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⁽٨⁾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⁽٩⁾﴾ [يس: ٨ و٩]. وقد رُوي عن أبي هريرة أن أبا جهل وعد قريشًا: لئن رأى محمدًا ﷺ يُصلّي ليَطَأنّ رقبته، فلما صلّى النبيّ ﷺ أعلموه فأقبل، فلما قرب منه ولّى هاربًا ناكِصًا على عقبيه متّقيًا بيديه، فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارًا كدت أهوي فيه، وأبصرت هَوْلاً عظيمًا، وخَفْقَ أجنحة قد ملأت الأرض. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة لو دنا لاختطفته عُضوًا عُضوًا» ثم أنزل على رسول الله ﷺ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⁽٦⁾﴾ [العلق: ٦] إلى آخر السورة. وقد ذكرنا أيضًا قصة شَيْبَة بن عثمان بن أبي طلحة في غزوة حُنَيْن. وعن فُضالة بن عَمرو قال: أردت قتل النبيّ ﷺ عام الفتح وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال: «أفضالة»؟ قلت: نعم، قال: «ما كنت تُحدِّث به نفسك»؟ قلت: لا شيء، فضَحِك واستغفر لي ووضع يده على صدري فسكن قلبي، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئًا أحَبَّ إليّ منه. ومنه خبر عامر بن الطُّفَيْل، وأرْبَد بن قيس، وقد تقدم ذكر قصتهما.

ومن معجزاته ﷺ

ما جمعه الله تعالى له من المعارف والعلوم، وخصه به من الاطّلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور الشرائع وغير ذلك، كاطلاعه ﷺ على أخبار من سلف من الأمم، وقصص الأنبياء والرسل، وأخبار الجبابرة والقرون الماضية، وحفظ شرائعهم، وسرد أنبائهم، وأيّام الله فيهم، ومعارضة كل فرقة من أهل الكتاب بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيّروه، واحتوائه ﷺ على لغات العرب وغريب ألفاظها، والحفظ لأيامها وأمثالها وحِكَمها، ومعاني أشعارها، وما خصه الله تعالى به من جوامع الكلم، وما علمه من ضروب

(١) يشتد: يسرع في مشيه.

العلوم وفنون المعارف؛ كالطبّ والعبارة[١] والفرائض والحساب والأنساب وغير ذلك، مما جعل أهل هذه العلوم كلامه ﷺ فيها قدوة وحجة وأصولاً يرجعون إليها في علومهم؛ كقوله عليه السلام: «الرؤيَا لأوّل عابر وهي على رِجل طائر» وقوله: «الرؤيا ثلاث: رؤيا حق، ورؤيا يحدّث بها الرجل نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان». وقوله: «إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذِب». وقوله: «أصل كل داء البَرَدَة»[٢] وقوله: «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة» وقوله: «خير ما تداويتم به السَّعُوط، واللَّدُود[٣]، والحِجامة، والمَشِيّ[٤]، وخير الحجامة يوم سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين، وفي العود[٥] الهندي سبعة أشفية» وقوله: «ما ملأ ٱبن آدم وِعاء شرًا من بطنه». وقوله لكاتبه: «ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي». وقد وردت آثار بمعرفته حروف الخَطّ، وحسن تصويرها؛ كقوله: «لا تمدُّوا بسم الله الرحمٰن الرحيم» رواه ٱبن شعبان من طريق ٱبن عباس، وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديه ـ ﷺ ـ فقال له: «ألِقِ[٦] الدّواة، وحرِّف القلم، وأقم الباء، وفَرِّق السين، ولا تُعوِّر[٧] الميمَ، وحَسِّن الله، ومُدّ الرحمٰن، وجَوِّد الرحيم» وإن لم تصح الرواية أنه ﷺ كتب، فلا يبعد أن يكون قد رُزِق علم الخَطّ، ومُنع الكتابة والقراءة. وكذلك حفظه ﷺ لكثير من لغات الأمم؛ كقوله ﷺ: «سَنَهْ سَنَهْ» وهي حسنة بالحبشية، وقوله: و«يكثر الهَرْج» وهو القتل بها، وقوله في حديث أبي هريرة: «اشْكَنْب دَرْدَمْ» أي وجع البطن بالفارسية، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا من دارس العلوم، ومارس الكتب، وداوم المطالعة، وعكف على الاشتغال. وكان ﷺ بخلاف ذلك لا يقرأ ولا يكتب؛ كما أخبر الله تعالى عنه بقوله عزّ وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨] وفي هذا أكبر آية، وأعظم دلالة، وأبين حجة، وأبهر معجزة له ﷺ.

---

(١) العبارة: تعبير الرؤيا.

(٢) البردة: التخمة وثقل الطعام على المعدة.

(٣) اللدود: ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم.

(٤) المشيّ: الدواء المسهل.

(٥) العود الهندي: ضرب من الطيب يتبخر به.

(٦) ألق الدواة: اجعل لها ليقة، وهي صوفة تجعل في الدواة.

(٧) تعوّر: تطمس.

وقد رأينا أن نختم هذه الفصول بذكر

القصيدة التي ٱبتسمت ثُغُورها بوصف معجزاته، وتَحَلّت نُحورُها بجواهر صفاته، ورَفَلت في حُلَل الفَخار من باهر آياته، وسحبت ذُيُول الٱفتخار بإشارات إلى غزواته، وفاح أَرَجُها فأخجل المِسْك الدّارِيّ[(١)]، وأشرقت أنوارها على النيرين فما ظنك بالدراريّ، وهي قصيدة الشيخ الإمام العلامة أبي محمد عبد الله بن زكريا الشّقراطِيسيّ[(٢)] رحمه الله تعالى، وإنما ٱقتصرنا عليها وصرفنا الرغبة دون غيرها إليها لٱشتمالها على جمل من أخباره السنية، ونكت من آثاره التي هي بكل خير مَلِية، وهي: [من البسيط]

الحمد للّه مِنَّا باعِث الرسلِ ... هَدَى بأحمد مَنًّا أحمدَ السُّبُلِ[(٣)]
خير البرية من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ ... وأكرم الخلق من حافٍ ومنتعِلِ
توراة موسى أتت عنه فصدّقها ... إنجيلُ عيسى بحقّ غيرِ مُفْتَعَلِ
أخبار أحبارِ أهل الكتب قد وردت ... عما رأوا ورَوَوْا في الأعصرِ الأُوَلِ
ضاءت لمولده الآفاق وٱتصلت ... بشرى الهواتِفِ في الإشراقِ والطَّفَلِ[(٤)]
وصرحِ كسرى تداعى من قواعده ... وٱنقاضَ منكسِرَ الأرجاء ذا مَيَلِ[(٥)]
ونار فارِس لم تُوقَد وما خَمِدت ... مُذْ أَلِف عام ونهرُ القوم لم يَسِلِ
خرّت لمبعثِه الأوثان وٱنبعثت ... ثواقب الشهب ترمِي الجِنّ بالشُّعَلِ
ومنطِقُ الذئبِ بالتصديق معجِزةٌ ... مع الذراع ونطق العَيْرِ والجملِ
وفي دعائك بالأشجار حين أتت ... تسعى بأمرِك في أغصانِها الذُّلُلِ
وقلتَ عودِي فعادت في منابتِها ... تلك العروقُ بإذن الله لم تَمِلِ
والسَّرح بالشام لما جئتها سجدت ... شُمّ الذوائِبِ في أغصانِها الخضُلِ[(٦)]
والجِذع حَنّ لأنِ فارقته أسَفًا ... حنينَ ثَكْلَى شَجَتها لَوْعَة الثّكَلِ[(٧)]
ما صبرُ مَن صار من عَيْنٍ على أثرٍ ... وحالُ مَن حالَ مِن حالٍ إلى عَطَلِ
حَيِي فمات سُكونًا ثم مات لَدُنْ ... حَيِي حَنِينًا فأضحى غاية المَثَلِ

(١) الداري: نسبة إلى دارين، وهي فرضة بالبحرين ينسب إليها المسك.
(٢) الشقراطيسي: نسبة إلى شقراطيسة من بلاد الجريد بتونس.
(٣) أحمد السبل: الإسلام. والمنّ: التفضل والإحسان.
(٤) الطفل: العشي. (٥) ٱنقاض: ٱنهار.
(٦) السرح: الشجر العظيم. الخضل: الناعمة. (٧) الثكلى: التي فقدت ولدها.

والشاة لمَّا مسحتَ الكفّ مِنك على ... جَهْدِ الهُزَالِ بأوْصالٍ لها قُحُلِ(١)
سَحّت ودَرَّت بِشَكْرِ الضرعِ حافِلةً ... فروَّتِ الركب بعد النَّهْل بالعَلَلِ(٢)
وآيةُ الغارِ إذ وُقِّيتَ في حُجُبٍ ... عن كل رِجْسٍ لرِجسِ الكفر مُنْتَحِلِ
وقال صاحبك الصِّدِّيقُ كيف بنا ... ونحن منهم بمَرْأى الناظِر العَجِلِ
فقلتَ لا تحزن إن الله ثالثنا ... وكنتَ في حُجْب سِتر منه مُنسَدِلِ
حُمَّت لَدَيْكَ حَمامُ الوحشِ جاثِمةً ... كَيْدًا لكل غَوِيِّ القلبِ مُخْتَبلِ(٣)
والعَنْكَبوتُ أجادَتْ حَوْكَ حُلَّتِها ... فما يُخال خلال النَّسْج من خَلَلِ
قالوا: وجاءت إليه سَرْحَةٌ سَترتْ ... وجهَ النبِيّ بأغصان لها هُدُلِ(٤)
وفي سُراقة آياتٌ مُبيَّنة ... إذ ساختِ الحِجْر في وَحْل بلا وَحَلِ(٥)
عرجتَ تخترق السبع الطِّباق إلى ... مَقامِ زُلْفى كريم قمت فيه عَلِ(٦)
عن قابِ قَوْسَيْن أو أدنى هبطتَ ولم ... تَسْتكمِل الليلَ بين المَرِّ والقَفَلِ
دعوتَ للخلق عام المَحْل مبتهلا ... أفدِيك بالخلق مِن داعٍ ومُبْتَهِلِ
صَعَّدت كفَّيْك إذ كَفَّ الغَمامُ فما ... صَوَّبْت إلاّ بصَوْبِ الوَاكِفِ الهَطِلِ(٧)
أراق بالأرضِ ثَجًّا صَوْبُ رَيِّقِهِ ... فَحَلّ بالأرض نَسْجًا رائقَ الحُلَلِ(٨)
زُهر من النُّور حَلّت رَوْض أرضِهم ... زَهْرًا من النَّوْرِ ضافِي النبتِ مُكْتَهِلِ
مِن كل غُصْنٍ نَضِيرٍ مُورِقٍ خَضِرٍ ... وكل نَوْرٍ نَضِيدٍ مُونِقٍ خَضِلِ(٩)
تحيةٌ أحْيَتِ الأحياءَ من مُضَرٍ ... بعد المضرة تَرْوِي السُّبْل بالسَّبَلِ(١٠)
دامت على الأرض سبعًا غير مُقْلِعةٍ ... لولا دعاؤك بالإقلاعِ لم تَزُلِ
ويَوْمُ زَوْرك بالزَّوراءِ إذ صَدَرُوا ... مِن يُمْنِ كفِّك عن أعْجُوبة مَثَلِ(١١)

---

(١) قحل: يابسة.
(٢) سحت: صبت صبًا متتابعًا. النهل: الشرب الأول. العلل: الشرب الثاني.
(٣) حمت: قدرت وأحضرت. المختبل: مختل العقل.
(٤) هدل: أي متدلية.
(٥) سراقة: هو ابن مالك الذي كان دليل المشركين في اقتصاص أثر رسول الله حين هاجر. ساخت: دخلت وغابت قوائمها. الحجر: أنثى الخيل.
(٦) الطباق: السموات.
(٧) الصوب: النازل.
(٨) الثجّ: الاندفاق. الريق من كل شيء أفضله. والمراد برائق الحلل: النبات المختلف الألوان.
(٩) النضيد: المتراكب. الخضل: النديّ المبتل؛ أو الناعم.
(١٠) السُّبل: الطرق. والسَّبل: المطر.
(١١) الزور: الزائر. الزوراء: موضع بالمدينة.

والـمـاء يـنـبـع جَـوْدًا مـن أنـامِـلـهـا ... وسـط الإنـاء بـلا نَـحـرٍ ولا وَشَـلِ(١)
حـتـى تـوضـأ مـنـه الـقـوم واْغـتـرفـوا ... وهـم ثـلاث مِئِـيـن جَـمْـعُ مُـحـتـفِـلِ
أشبعتَ بالصاع ألفًا مُرْمِلِين كما ... رَوَّيْت ألفًا ونِصف الألفِ من سَمَلِ(٢)
وعـاد مـا شـبِـع الألـفُ الـجِـيـاعُ بـه ... كما بَدَوْا فيه لم ينقص ولم يَحُلِ
أعجزتَ بالوَحْيِ أصحاب البلاغةِ في ... عصرِ البيان فضَلَّتْ أوْجهُ الحِيَلِ
سألتهم سُورة في مِثْلِ حِكمتهِ ... فتَلُّهُم عنه حَيْنُ العجزِ حِينَ تُلِي(٣)
ورام رِجْسٌ كـذُوب أن يـعـارضـه ... بِعيٍّ غَيٍّ فلم يُحسِن ولم يطِلِ(٤)
مُـثَـبَّـج بِـركـيـكِ الإفـكِ مـلـتـبِـسٍ ... مُلَجْلَج بزَرِيِّ الزُّورِ والخَطَلِ(٥)
يَـمـجُّ أولَ حـرفٍ مـنـه سـامِـعُـه ... ويَـغْـتَـرِيـهِ كَـلال الـعـجْـزِ والـمَـلَـلِ
كـأنـه مـنـطِـقُ الـوَرْهـاءِ شَـذَّبَـه ... لَبْس من الخَبْلِ أو مَسٌّ من الخَبَلِ(٦)
أَمَـرَّتِ الـبِـئْـرُ واْغْـوَرّتْ لِـمَـجَّـتِـه ... فيها وأعمى بصِيرَ العَيْن بالتَّفَلِ(٧)
وأيـبـس الـضَّـرعَ مـنـه شُـؤْمُ راحتِـه ... من بعد إرسالهِ بالرِّسْل مُنْهَمِلِ(٨)
بـرئـتَ مـن دِيـنِ قـومٍ لا قِـوامَ لـهـم ... عقولُهم من وَثاقِ الغَيِّ في غُلَلِ(٩)
يستخبِرون خفِيَّ الغيبِ من حَجَرٍ ... صَلْدٍ ويرجون غَوْث النصرِ من هُبَلِ(١٠)
نالوا أذًى مِنك ـ لولا حِلْمُ خالقِهم ... وحـجَّـةُ الله بـالإنـذارِ لـم تُـنَـلِ
واْستضعفوا أهل دينِ الله فاْصطبروا ... لـكـل مُـعْـضِـل خَـطْـبٍ فـادِحٍ جَـلَـلِ
لاقـى بِـلالُ بـلاءً مـن أُمـيَّـة قـد ... أحَـلّـه الـصـبـرُ فـيـه أكـرمَ الـنُّـزُلِ
إذ أجهدوه بضَنْكِ الضَّنْكِ وهو على ... شدائدِ الأزْلِ ثَبْتُ الأزْرِ لم يَزَلِ(١١)

---

(١) الوشل: القليل الماء.
(٢) السمل: القليل من الماء يبقى في أسفل الإناء.
(٣) تلّهم: صرعهم. الحين: الهلاك.
(٤) يطل: من طال امتد؛ أو يطل من يطال: أتى بطائل.
(٥) المثبج: المضطرب الفاسد. الملجلج: المتردد في الكلام. الخطل: المنطق الفاحش المضطرب.
(٦) الورهاء: المرأة الحمقاء تتكلم بما لا يفهم. الخبْل: الفساد. الخَبَل: الجنون.
(٧) أمرت: صارت ذات مرارة.
(٨) الرسل: اللبن. المنهمل: الفائض.
(٩) الغلل: جمع غلة، وهي خرقة يشد بها فم الإبريق.
(١٠) هبل: أعظم أصنام قريش.
(١١) الضنك: الضيق. الأزل: الحبس والتضييق. الأزر: القوة. الثبت: ثابت القلب.

أَلْقَوْهُ بَطْحًا بِرَمْضاء البِطاحِ وقد ... عالوا عليه صُخُورًا جَمَّة الثِّقَلِ[١]
فوَحَّدَ اللّهَ إخلاصًا وقد ظهرت ... بظهرِه كنُدُوبِ الطَّلّ في الطَّلَلِ[٢]
إنْ قُدَّ ظَهْر وَليّ الله مِن دُبُرٍ ... قد قُدَّ قلبُ عدوّ الله من قُبُلِ
نَفَرْتَ في نَفَرٍ لم تَرْضَ أنفسُهم ... إذ نافروا الرِّجْسَ إلاّ القُدْسَ مِن نَفَلِ[٣]
بأنْفُسٍ بُذِّلَتْ في الخُلدِ إذ بَذَلَت ... عن صِدقِ بَذْلٍ ببَدْرٍ أكرمَ البَدَلِ
قالوا: محمد قد حَلَّتْ كتائِبُه ... كالأُسْدِ تَزْأَرُ في أنيابِها العُصُلِ[٤]
فويل مكّة مِن آثار وَطْأَتِهِ ... وويل أُمِّ قُرَيْشٍ مِن جَوَى الهَبَلِ[٥]
فجُدْتَ عَفْوًا بِفضل العفوِ مِنك ولم ... تُلِمْ ولا بأليم اللَّوْمِ والعَذَلِ
أضربتَ بالصَّفحِ صفحًا عن طَوائِلِهم ... طَوْلاً أطال مَقِيل القَوْمِ في المُقَلِ[٦]
رحمتَ واشِجَ أرحام أتِيح لها ... تحت الوَشِيجِ نَشِيجَ الرَّوْعِ والوَجَلِ[٧]
عاذوا بِظل كريم العفوِ ذي لَطَفٍ ... مُبارِكِ الوجهِ بالتوفيقِ مُشْتَمِلِ
أحْبِبْ بخَيْلٍ من التَّكْوين قد جُنِبَتْ ... لجانِبٍ عن جَنَاب الحقّ مُعْتَزِلِ[٨]
أعْمَيْتَ جَيْشًا بِكَفٍّ من حَصًى فجَثَوا ... وعُطِّلوا عن حرَاكِ النَّقْلِ بالنَّقَلِ[٩]
ودعوة بِفِناءِ البَيْتِ صادقةً ... غدا أُمَيَّةُ منها شَرَّ مُنْخَزِلِ[١٠]
غادرتَ جهلَ أبي جهل بمَجْهَلَة ... وشاب شَيْبَةُ قبل الموت من وَجَلِ
وعُتْبَةُ الشَّرِّ لم يُعْتِب فتعطِفَه ... منك العواطِف قبل الفَوْتِ في مَهَلِ[١١]
وعُقْبَةُ الغُمْرَ عقباه لِشِقْوَتِهِ ... قد ظَلّ مِن غَمَراتِ الغَيِّ في ظُلَلِ[١٢]
وكلُّ أشْوَسَ عاتِي القلبِ مُنْقَلِبِ ... جعلته بقَلِيبِ البِئْر كالجُعَلِ[١٣]

---

(١) الرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة بالشمس. البطاح: الأودية.
(٢) الطلل: المطر الخفيف. الطلل: ما شخص من آثار الديار.
(٣) نافروا الرجس: جانبوا الأوثان والشرك. القدس: الجنة. النفل: الغنيمة.
(٤) العصل: الشديدة. (٥) الهبل: الثكل.
(٦) طوائلهم: جمع طائلة، وهي العداوة. طولاً: منًا وتفضلاً. المقيل: النوم في القائلة، وهي وقت الهاجرة.
(٧) الوشيج: اشتباك القرابة. النشيج: الغصة بالبكاء في الحلق من غير انتحاب.
(٨) الجناب: الفناء. (٩) النقل: الحجارة.
(١٠) انخزل: انقطع. (١١) مهل: رفق.
(١٢) الغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور. ظلل: جمع ظلة.
(١٣) الشوس: النظر بمؤخر العين. المنقلب: المنصرف. القليب: البئر. الجعل: دويبة سوداء تكون في المواضع الندية.

وجائم بِمُثارِ النَّقْعِ مُشْتَغِلِ بجاجِم من أُوَارِ النارِ مُشتعِلِ(١)
عَقَدْتَ بالخِزْيِ في عِطْفَيْ مُقَلَّدِهم طَوْقَ الحَمامةِ باقٍ غير منتقِلِ(٢)
أمسى خليلَ صَغارٍ بعد نَخْوَتِهِ بالأمسِ في خُيَلاءِ الخَيْلِ والخَوَلِ(٣)
دام يُدِيمُ زَفيرًا في جوانِحِه جُنْحٌ من الشكِّ لم يَجْنَح ولم يَمِلِ(٤)
يُقاد في القِدِّ خَنْقًا مُشْرَبًا حَنَقًا يمشي به الذُّعر مشي الشاربِ الثَّمِلِ(٥)
أوْصالُه من صَلِيل الغُلِّ في عِلَلٍ وقلبه من غَلِيل الغلّ في غُلَلِ(٦)
يَظَلّ يَحْجِل ساجِي الطرْفِ خافِضَه بِمَسْكَة الحجْل لا من مَسْكَة الحجَلِ(٧)
أزَحْتَ بالسيف ظهر الأرض من نَفرٍ أزَحْتَ بالصدق منهم كاذب العلَلِ(٨)
تركتَ بالكفر صَدْعًا غير مُلْتئِم وآبَ منك بقُرْحٍ غيرِ مُنْدَمِلِ
وأفْلَتَ السيفُ منهم كلَّ ذي أسَفٍ على الحِمامِ حَماه آجِلُ الأجَلِ(٩)
قد أعتقته عِتاق الخيل وهو يرى به إلى رِقِّ موتٍ رِقّة الغَزَلِ
فكم بِمكة من باكٍ وباكيةٍ بفَيْضِ سَجْلٍ من الآماقِ مُنْسَجِلِ(١٠)
وكاسِف البالِ بالِي الصبر جُذْتَ له بِوابِلٍ من وَبالِ الخزْيِ مُتَّصِلِ(١١)
فؤاده من سعِير الغيْظِ في غُلَلٍ وعينه من غزِير الدمع في غَلَلِ(١٢)
قد أسعرت منه صدرًا غير مُضطبِر وحَمَّلتْ منه قلبًا غير مُحْتَمِلِ
ويومَ مكة إذ أشْرَفْتَ في أُمَمٍ يضِيق عنها فِجَاج الوَعْرِ والسَّهَلِ

---

(١) النقع: الغبار. الجاحم: الجمر الشديد الاشتعال. الأوار: اللهب.
(٢) عطفا الإنسان: جانباه من لدن رأسه إلى وركه.
(٣) الصغار: الذل والهوان. الخول: الخدم والحشم.
(٤) داميًا: أي جريحًا يسيل دمه. الجوانح: الأضلاع. الجنح: الظلمة.
(٥) القد: السير. الثمل: السكران.
(٦) الغل: القيد. غليله: حرارته والتهابه.
(٧) يحجل: يقفز في الحجل، وهو القيد. ساجي: ساكن. الحجل: الحجال، وهي قباب العروس تزين بالستور.
(٨) أزحت: أزلت وأذهبت.
(٩) أفلت السيف: حملهم السيف على الهرب. الأجل: أمد العمر.
(١٠) السجل: الدلو العظيمة المملوءة ماء. منسجل: منصب.
(١١) الوابل: الشديد الانصباب.
(١٢) السعير: الاشتعال. الغلل: الماء الذي ليس له جري.

خَوافِق ضاق ذَرْعُ الخافِقَيْن بها ... في قاتم من عَجاج الخيل والإبِلِ[١]
وجَحْفَل قَذَفُ الأرجاءِ ذِي لَجَبٍ ... عَرَمْرَم كزُهاءِ الليلِ مُنْسَدِلِ[٢]
وأنت ـ صلّى عليك الله ـ تَقْدمُهُم ... في بَهْوِ إشراقِ نورٍ منك مُكْتَمِلِ
يُنير فوقَ أغَرِّ الوجهِ مُنْتَجَب ... متوّج بعزيز النصرِ مُقْتَبِلِ[٣]
تسمُو أمامَ جنودِ اللّهِ مُرْتَدِيًا ... ثَوْب الوَقَارِ لأمر الله ممتثِلِ
خشعتَ تحت لِواءِ العزِّ حين سمتْ ... بك المهابةُ فِعلَ الخاضِعِ الوَجِلِ
وقد تَباشر أملاكُ السماء بما ... مُلِّكتَ إذ نِلتَ منه غايةَ الأملِ
والأرض تَرْجُف من زَهْوٍ ومن فَرَقٍ ... والجوُّ يَزْهَر إشراقًا من الجَذَلِ[٤]
والخيل تختال مَيْلاً في أعِنَّتِها ... والعِيسُ تَنْثال رَهْوًا من ثُنَى الجُدُلِ[٥]
لولا الذي خَطَّتِ الأقلام من قَدَرٍ ... وسابِقٍ من قَضاءِ غيرِ ذي حوَلِ
أهَلَّ ثَهْلانُ بالتهليلِ من طَرَبٍ ... وذابَ يَذْبُل تكبيرًا من الذُّبُلِ[٦]
الملك للّه هذا عِزُّ من عُقِدت ... له النبوّة فوق العرشِ في الأزَلِ
شَعَبْتَ صَدْع قريشٍ بعدما قَذَفتْ ... بهم شَعُوبُ شِعاب السَّهْل والقُلَلِ[٧]
مِن كل مُهْتَصِرٍ لله منتصِرٍ ... بالسيف مُخْتَصِرٍ بالرُّمْح معتَقِلِ[٨]
يمشي إلى الموت عالِي الكعبِ معتقِلاً ... أظْمى الكُعُوب كمشي الكاعِبِ الفُضُلِ[٩]
قد قاتلوا دونك الأقيال عن جَلَدٍ ... وجالَدوا بجِلاء البِيضِ والجَدَلِ[١٠]
وصلتهم وقطعتَ الأقربين معًا ... في الله لولاه لم تَقْطع ولم تَصِلِ
وجاء جِبريل في جُندٍ لهم عُدَد ... لم يبتذِلها أكُفّ الخلقِ بالعملِ

(١) الخوافق: الألوية والبنود. والخافقان: أفقا المشرق والمغرب.
(٢) اللجب: اشتباك الأصوات. عرمرم: كثير.
(٣) الأغر: الأبيض المنير. المنتجب: المتخير.
(٤) الزهو: خفة الطرب. الفرق: الفزع. الجذل: الفرح والسرور.
(٥) تختال: تتبختر. العيس: الإبل. الرهو: ضرب من السير. الجدل: جمع جديل: الزمام.
(٦) ثهلان ويذبل: جبلان. الذبل: الرماح.
(٧) شعبت: جمعت. الصدع: الشق. شعوب: من أسماء الموت. القلل: أعالي الجبال.
(٨) مهتصر: أي كاسر للأقران. المعتقل: الذي جعل رمحه بين ساقه وركابه.
(٩) الكعوب: الرماح. الكاعب: الفتاة التي نهد ثديها. الفضل: المتفضلة في ثوب واحد من غير قناع.
(١٠) الأقيال: الملوك. الجلاد: المضاربة.

بِيضٌ من العَوْنِ لم تُستَلَّ من غُمُدٍ خيلٌ من الكَوْنِ لم تُستَنَّ في طِيَلِ[1]
أزكى البريةِ أخلاقًا وأطهرها وأكثر الناسِ صفحًا عن ذوِي الزَّلَلِ
زان الخشوعَ وقارٌ منه في خَفَرٍ أرَقّ من خَفَرِ العذراءِ في الكِلَلِ[2]
وطُفتَ في البيت محبُورًا وطاف به من كان عنه قُبَيْل الفتحِ في شُغُلِ
والكفر في ظلماتِ الرِّجْسِ مُرتَكِس ثاوٍ بمنزلةِ البَهْمُوتِ من زُحَلِ[3]
حجزتَ بالأمنِ أقطار الحجاز معًا ومِلت بالخوفِ عن خَيْفٍ وعن مَلَلِ[4]
وحَلّ أمْنٌ ويُمْنٌ منك في يَمَنٍ لما أجابت إلى الإيمان في عجَلِ
وأصبح الدين قد حُفّت جوانِبه بِعِزةِ النصرِ واستعلى على المِلَلِ
قد طاع مُنْحَرِفٌ منهم لِمعترِفٍ وانقاد منعدِلٌ منهم لِمعتدِلِ
أخْبِبْ بِخُلّة أهلِ الحقّ في الخُلَلِ وعِزّ دولتِه الغرّاء في الدوَلِ
أمّ اليمامَة يومٌ مِنه مُصْطَلِم وحَلّ بالشامِ شُؤم غير مرتحِلِ[5]
تَعرّقتْ منه أعراق العِراقِ ولم يترك من التُّركِ عَظْمًا غير مُنْتَثِلِ[6]
لم يبق للفرسِ ليث غير مفترَسٍ ولا مِن الحُبْش جيش غير مُنْجَفِلِ[7]
ولا مِن الصِّينِ صَوْنٌ غير مبتذَل ولا مِن الروم مرمى غير منتَضَلِ[8]
ولا مِن النُّوب جِذْم غير منجَذِمٍ ولا مِن الزِّنْج جِذْل غير منْجَذِلِ[9]
ونِيل بالسَّيفِ سيف النِّيلِ واتصلت دعوى الجنود فكلٌّ بالجِلادِ صَلِي[10]
وسُلّ بالغَرْبِ غَرْبُ السيف إذ شَرِقتْ بالشرقِ قبلُ صدورُ البِيضِ والأَسَلِ[11]
وعاد كل عدوّ عَزّ جانِبه قد عاذ مِنك بِبذلٍ مِنه مُبتذَلِ

---

(١) البيض: السيوف. في طيل: أي في حبل.
(٢) الكلل: جمع كلة، وهو الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض.
(٣) البهموت: الحوت الذي يزعمون أنه يحمل الثور الحامل للأرض.
(٤) الخيف: منى (اسم موضع). ملل: موضع بين مكة والمدينة.
(٥) المصطلم: المستأصل بالهلاك.
(٦) تعرقت: أخذ ما عليها من اللحم. الأعراق: العظام. منتثل: مستخرج.
(٧) المنجفل: المنهزم.
(٨) المنتضل: المرتمي.
(٩) الجذم: الأصل. والمنجذم: المنقطع. منجذل: منقطع.
(١٠) سيف: شاطىء. الجلاد: المضاربة.
(١١) غرب السيف: حده. البيض: السيوف. الأسل: الرماح.

بِـذِمَّـةِ الـلَّـهِ والإيـمـانِ مُـتَّـصِـلٌ أو مِن شَبَا النَّصْلِ بالأموالِ مُنتصِلِ (١)
يا صفوة الله قد صافيتُ فِيك صَفَا صَفْوِ الوِدادِ بِلا شَوْبٍ ولا دَخَلِ (٢)
ألستَ أكرمَ من يمشِي على قدمٍ مِن البرِيةِ فوق السهلِ والجبلِ
وأزْلَف الخلقِ عند الله منزلةً إذ قِيل في مشهدِ الأشهادِ والرسلِ
قم يا محمد فاشفع في العِباد وقُلْ تُسمَع وسَلْ تُعْطَ واشفع عائذًا وسَلِ
والكوثر الحوض يَرْوِي الناس مِن ظمأ بَرحٍ ويُنْقَع منه لاعِجُ الغُلَلِ (٣)
أصفى من الثلج إشراقًا مذاقتُه أحلى من اللبن المضروب بالعسلِ
نَحَلْتُك الوُدَّ عَلِّي إذ نحلتكه أُحْبَى بِفضلِك منه أفضلَ النِّحَلِ (٤)
فما لجِلدِي بِنَضْجِ النار من جَلَدٍ ولا لِقلبِي بِهَوْلِ الحشرِ من قِبَلِ
يا خالق الخلقِ لا تُخْلِق بما اجترمت يداي وجهِيَ مِن حُوبٍ ومن زَلَلِ (٥)
واصحبْ وصَلِّ وواصِلْ كلَّ صالِحةٍ على صَفِيِّك في الإصباحِ والأُصُلِ

ﷺ.

وقد آن أن نأخذ في ذكر أخبار وفاة رسول الله ﷺ، ونبدأ من ذلك بما أنزل عليه عند اقتراب أجله، ثم نذكر ابتداء وجعه والحوادث التي اتفقت في أثناء مرضه إلى حين وفاته ﷺ.

ذكر ما أنزل على رسول الله ﷺ عند اقتراب أجله، وما كان يقوله مما استدِل به على اقترابه

كان مما استدِل به على اقتراب أجل رسول الله ﷺ، نزول سورة الفتح، وتتابع الوحي، وتكرار عرضِ القرآن على جبريل، واستغفار رسول الله ﷺ لأهل البقِيع والشهداء. روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن قول الله عزّ وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١ و٢] فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا الله وفتح علينا. وقال بعضهم:

(١) شبا النصل: حدّه وطرفه. النصل: السيف.
(٢) المراد بقوله: صافيت فيك: صافيتك. الشوب: الخلط. الدخل: الدغل والفساد.
(٣) البرح: الشديد. ينقع: يسكن. اللاعج: الشديدة الحرارة. الغلة: شدة العطش.
(٤) نحل: أعطى. حباه: أعطاه.
(٥) خلق: بلى. الحوب: الذنب.

فتح المدائن والقصور. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، قال عمر: كذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له؛ قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] وذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣] فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلّى النبيّ ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ إلا يقول فيها: «سبحانك ربّنا وبحمدك اللهم اغفر لي». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ داع من الله ووداعٌ من الدنيا. وعنه رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فقال: «إنه نُعِيت إليّ نفسي» قالت: فبكيتُ، فقال: «لا تبكي فإنك أوّل أهلي بي لحوقًا» فضحكتُ. وروى محمد بن سعد بسنده إلى أنس بن مالك: أن الله تبارك وتعالى تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتى توفّي، وأكثر ما كان الوحي في يوم توفّي رسول الله ﷺ. وروى ابن سعد أيضًا بسنده إلى عِكرمة قال قال العباس: لأعلمنّ بقاء رسول الله ﷺ فينا، فقال له: يا رسول الله، لو اتخذت عرشًا فإن الناس قد آذوك، قال: «والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعوني ردائي ويصيبيني غُبارهم حتى يكون الله يريحني منهم» قال العباس: فعرفنا أن بقاء رسول الله ﷺ فينا قليل. وعن واثِلة بن الأسقع قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «أتزعمون أني من آخركم وفاة، ألا وإني من أوّلكم وفاة، وتتبعوني أفْنادًا[1] يُهلك بعضُكم بعضًا». وعن أبي صالح قال: كان جبريل يعرض القرآن كل سنة مرة على رسول الله ﷺ، فلما كان العام الذي قُبِض فيه عرضه عليه مرتين. وكان رسول الله ﷺ يعتكف في شهر رمضان العشر الأواخر، فلما كانت السنة التي قبض فيها اعتكف عشرين يومًا. وعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم نحوه.

ذكر استغفار رسول الله ﷺ
لأهل بَقِيع[2] الغَرْقَد[3] والشُّهداء، وما روي من تخييره بين البقاء ولقاء الله تعالى، واختياره لقاء ربه عزّ وجل

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ ذات ليلة فلبس ثيابه ثم خرج، فأمرت جاريتي بَرِيرَة فتبعته، حتى إذا جاء البقيعَ وقف في أدناه ما شاء الله

(١) أفنادًا: أي جماعات متفرقين قومًا بعد قوم.
(٢) البقيع: المكان المتسع الذي فيه شجر.
(٣) الغرقد: شجر عظيم كان ينبت في المدينة المنورة فزال فسمي المكان باسمه «بقيع الغرقد».

أن يقف، ثم ٱنصرف فسبقته بَرِيرَة فأخبرتني فلم أذكر له شيئًا حتى أصبح، ثم ذكرت ذلك له فقال: «إني بُعثت لأهل البقيع لأصلّي عليهم». وعنها رضي الله عنها قالت: افتقدت النبيّ ﷺ من الليل فتبعته فإذا هو بالبقيع فقال: «السّلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فَرَطٌ[1]، وإنا بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تَفْتِنَّا بعدهم» قالت: ثم التفت إليّ فقال: «وَيْحها لو تستطيع ما فَعلتْ». وعنها رضي الله عنها قالت: وَثَب رسول الله ﷺ من مضجعه من جوف الليل، فقلت: إلى أين بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «أمرت أن أستغفر لأهل البقيع» قالت: فخرج وخرج معه مولاه أبو رافع، وكان أبو رافع يحدّث قال: ٱستغفر رسول الله ﷺ لهم طويلاً ثم انصرف، وجعل يقول: «يا أبا رافع إني خُيِّرت بين خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة، وبين لقاء ربي والجنة فٱخترت لقاء ربي». وعن أبي مُوَيْهبة مولى رسول الله ﷺ قال قال لي رسول الله ﷺ من جوف الليل: «يا أبا مُوَيْهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فٱنطلقْ معي» فخرج وخرجت معه حتى جاء البقيع فٱستغفر لأهله طويلاً، ثم قال: «ليهنِئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفِتن كقِطع الليل المظلم يَتْبع بعضها بعضًا، يَتْبع آخرها أوّلها، الآخرة شر من الأولى» ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا مُوَيْهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة» فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فقال: «لا والله يا أبا مُوَيْهبة لقد ٱخترت لقاء ربي والجنة» ثم ٱستغفر لأهل البقيع وٱنصرف. والجمع بين هذه الأحاديث كلها غير مناف؛ لأن رسول الله ﷺ ربما استغفر لأهل البقيع ليالي، ويؤيد هذا ويَعْضُده ما رواه عطاء بن يَسار عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتها منه يخرج من آخر الليل إلى البقِيع فيقول: «السّلام عليكم دار قوم مؤمنين، أتانا وإياكم ما توعدون، وإنا إن شاء الله بكم للاحِقون، اللهم ٱغفر لأهل بَقِيع الغَرْقَد». وعن عطاء بن يَسار أن رسول الله ﷺ أُتِي فقيل له: ٱذهب فصَلِّ على أهل البقِيع، ففعل ذلك ثم رجع فرَقَد، فقيل له اذهب فصلِّ على الشهداء، فذهب إلى أحُد فصلّى على قتلى أُحُد، فرجع معصوب الرأس، فكان بُدوّ الوجع الذي مات فيه ﷺ.

وعن عُقبة بن عامر الجُهنيّ: أن رسول الله ﷺ صلّى على قتلى أُحُد بعد ثمان سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: «إني بين أيديكم فَرَط وأنا عليكم شهيد، وإنّ موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تَنافسوها».

(١) الفرط: مقدم القوم ليهيىء لهم وسائل الماء.

ذكر ٱبتداء وجع رسول الله ﷺ وٱستئذانه نساءه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها

كان ٱبتداء وجع رسول الله ﷺ في يوم الأربعاء، قيل: لإحدى عشرة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: لليلة بقيت من صفر.

روي عن ٱبن شهاب، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ـ دخل حديث أحدهما في حديث الآخر ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: بدا برسول الله ﷺ شَكْوُه الذي تُوفِّي فيه وهو في بيت ميمونة، فخرج في يومه ذلك حتى دخل عليَّ، قال ٱبن مسعود عنها: رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صُداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: «بل أنا يا عائشة وارأساه» قالت ثم قال: «وما ضَرّكِ لو متّ قبلي فقمتُ عليك وكفّنتِك وصليتُ عليكِ ودفنتكِ» قالت قلت: والله لكأني بك لو قد فعلتَ ذلك لرجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ، وتتامّ[١] به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى ٱستُعِزَّ[٢] بِهِ وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فٱستأذنهن أن يُمَرَّض في بيتي فأذِنّ له، قالت: فخرج يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر، عاصبٌ رأسه تَخُطّ قدماه حتى دخل بيتي، قال عبيد الله: فحدثت بهذا الحديث عبد الله بن عباس فقال: هل تدري مَن الرجل الآخر؟ قال قلت: لا، قال: علي بن أبي طالب قالت عائشة: ثم غُمِر[٣] رسول الله ﷺ، وٱشتدّ به وجعه، فقال: «هَريقوا[٤] عليّ من سبع قِرَب من آبارٍ شَتّى» وفي رواية: «لم تُحْلَل أوكِيتُهنّ[٥] لعلي أعهد إلى الناس» قالت: فأجلسناه في مِخْضَب[٦] لحفصة بنت عمر، ثم طَفِقْنا نصبّ عليه من تلك القِرَب حتى جعل يشير إلينا بيده أن قد فعلتنّ، ثم خرج إلى الناس وصلّى بهم وخطبهم ﷺ.

ذكر خطبة رسول الله ﷺ وما أمر به من سدّ الأبواب التي تشرع إلى مسجده إلا باب أبي بكر الصدّيق ووصيته بالأنصار

روي عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) تتام به: تتابع.

(٢) استعز به: اشتد به المرض وأشرف على الموت.

(٣) غمر: أغمي عليه.

(٤) هريقوا: صبوا.

(٥) الأوكية: واحدتها وكاء، وهي رباط فم القربة.

(٦) المخضب: إناء تغسل فيه الثياب.

«إن الله خَيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله» فبكى أبو بكر فقلت في نفسي: ما يُبْكِي هذا الشيخ أن يكون رسول الله ﷺ يخبرنا عن عبدٍ خُيِّر فاختار؟ قال: وكان رسول الله ﷺ هو المخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا به، قال فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لا تبك، أيها الناس، إنّ أمَنَّ الناسِ عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً كان أبو بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر». وعن قُتيبة بن سعيد عن الليث بن سعد، عن يحيى بن سعيد؛ أن النبيّ ﷺ قال: «إن أعظم الناس عليّ منًّا في صحبته وذات يده أبو بكر، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها في المسجد إلا باب أبي بكر» قال قُتيبة: قال الليث بن سعد، قال معاوية بن صالح، فقال ناس: أغْلقَ أبوابَنا وترك باب خليله، فقال رسول الله ﷺ: «قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر، وإني أرى على باب أبي بكر نورًا، وأرى على أبوابكم ظلمة» رواه محمد بن سعد في طبقاته الكبرى. وروي بسنده إلى عِكرمة عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصبًا رأسه في خرقة، فقعد على المنبر فحمِد الله وأثنى عليه وقال: «إنه ليس أحد أمنَّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قُحافة، ولو كنتُ مُتَّخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خُلَّة الإسلام أفضل، سُدّوا عني كلَّ خَوْخَة[1] في هذا المسجد غير خَوْخة أبي بكر» وعن أبي الحويرث قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالأبواب تُسدّ إلا باب أبي بكر، قال عمر: يا رسول الله، دعني أفتح كُوّة أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا». وعن أبي البَدَّاح بن عاصم بن عديّ، قال قال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله، ما بالك فتحت أبواب رجال إلى المسجد، وما لك سددت أبواب رجال؟ فقال: «يا عباس، ما فتحتُ عن أمري ولا سددتُ عن أمري» قالت عائشة رضي الله عنها في حديثها: وأوصى رسول الله ﷺ بالأنصار، فقال: «يا معشر المهاجرين، إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم، هم عَيْبَتي[2] التي أويت إليها، أكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». ومن رواية: «احفظوني فيهم؛ اقبلوا من مُحسنهم وتجاوزوا عن مُسيئهم».

---

(١) الخوخة: كوة في البيت تؤدي إليها الضوء.

(٢) عيبتي: أي خاصتي وأهل سري.

ذكر ما قاله رسول الله ﷺ
لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفيه

رُوي عن أبي أُمامة، عن كعب بن مالك قال: إنّ أحدث عهدي بنبيّكم ﷺ قبل وفاته بخمس، فسمعته يقول ويُحَرِّك كفّه «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا وقد كان له من أمته خليل، ألا وإنّ خليلي أبو بكر، إنّ الله ٱتخذني خليلاً كما ٱتخذ إبراهيم خليلاً».
وعن أبي مُلَيْكة قال قال النبيّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «ٱدعوا إليّ أبا بكر» فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل يغلبه البكاء، ولكن إن شئت دعونا لك ٱبن الخطاب، قال: «ٱدعوا إليّ أبا بكر» قالت: إن أبا بكر يَرِقّ، ولكن إن شئت دعونا لك ٱبن الخطاب. فقال: «إنكنّ صواحب يوسف، ادعوا إليّ أبا بكر وٱبنه، فليكتب أن يطمع في أمر أبي بكر طامع أو يتمنّى متمنٍّ» ثم قال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون، يأبى الله ذلك والمؤمنون» قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون، فأبى الله ذلك والمؤمنون.
وروى محمد بن سعد بسنده إلى عُروة، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، والقاسم بن محمد، كلهم يحدّث عن عائشة رضي الله عنها ـ دخل حديث بعضهم في حديث بعض ـ قالت: بدىء برسول الله ﷺ في بيت مَيْمُونة فدخل عليّ وأنا أقول: وارأساه، فقال: «لو كان ذلك وأنا حيٌّ فأستغفر لكِ وأدعو لكِ وأكفِّنكِ وأدفنكِ» فقلت: واثكلاه، فوالله إنك لتحبّ موتي، ولو كان ذلك لظللت يومك مُعَرِّسًا ببعض أزواجك. فقال النبيّ ﷺ: «بل أنا وارأساه لقد هممت ـ أو أردت ـ أن أرسل إلى أبيكِ وإلى أخيكِ فأفضي أمري، وأعهد عهدي، فلا يطمع في الأمر، طامع ولا يقول القائلون: أو يتمنى المتمنون». وقال بعضهم في حديثه: «ويأبى الله إلا أبا بكر».
وعن محمد بن جُبَيْر قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ يذاكره في الشيء، فقال: إن جئتُ فلم أجدك؟ قال: «فأت أبا بكر». وعن عاصم بن عمرو بن قَتادة، قال: ٱبتاع النبيّ ﷺ بعيرًا من رجل إلى أجل فقال: يا رسول الله، إن جئت فلم أجدك؟ يعني بعد الموت، قال: «فأت أبا بكر»، قال: فإن جئت فلم أجد أبا بكر، بعد الموت؟ قال: «فأت عمر»، قال: فإن جئت فلم أجد عمر؟ قال: «إن ٱستطعت أن تموت إذا مات عمر فمت».

ذكر أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يصلّي بالناس في مرضه، وخروج رسول الله ﷺ وما كلّم به الناس وكم صلّى أبو بكر بالناس صلاة، وما روي من أن رسول الله ﷺ ائتم بأبي بكر رضي الله عنه

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يُؤذِنه بالصلاة فقال: «مُرُوا أبا بكر يصلّي بالناس» فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أَسِيف[١]، وأنه متى ما يقوم مقامك لا يُسمِع الناس، فلو أمرتَ عمر، فقال: «مُرُوا أبا بكر يصلّي بالناس» فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أَسِيف، وأنه متى يقوم مقامك لا يُسمِع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: «إنكنّ لأنتنّ صواحب يوسف، مُرُوا أبا بكر يصلّي بالناس» فلما دخل أبو بكر في الصلاة وجد رسول الله ﷺ في نفسه خِفة فقام يهادَى[٢] بين رجلين، ورِجلاه تَخُطّان في الأرض حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر حِسَّه ذهب أبو بكر يتأخّر، فأوْمَأ إليه رسول الله ﷺ، فجاء النبيّ ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلّي قائمًا، وكان رسول الله ﷺ يصلّي قاعدًا؛ يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر. رواه البخاري في صحيحه. وروى محمد بن سعد بسنده عن عُبَيْد بن عُمَيْر الليثي نحوه. وقال: فلما فرغا من الصلاة قال أبو بكر: أي رسول الله، أراك أصبحت بحمد الله صالحًا، وهذا يوم ابنة خارِجة ـ امرأة لأبي بكر من الأنصار ـ فأذن له رسول الله ﷺ، وجلس رسول الله ﷺ في مُصلاّه أو إلى جنب المنبر، فحذّر الناس الفِتَن، ثم نادى بأعلى صوته، حتى إن صوته ليخرج من باب المسجد، فقال: «إني واللّهِ لا يُمسك الناسُ عليّ بشيء؛ لا أُحِلّ إلا ما أحلّ الله في كتابه، ولا أحرِّم إلا ما حَرّم الله في كتابه» ثم قال: «يا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة رسول الله اعملا لما عند الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا» ثم قام من مجلسه ذلك، فما انتصف النهار حتى قبضه الله تعالى. وعن سعيد بن المسيّب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد مَنَاف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا، سَلُوني ما شئتم». وعن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود قال: دخلت على عائشة فقلت لها حدّثيني عن مرض

---

(١) الأسيف: الرقيق القلب، البكّاء.

(٢) يهادى بين رجلين: أي يمشي بينهما معتمدًا عليهما من ضعفه وتمايله.

رسول الله ﷺ، قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ فقال: «أصَلَّى الناسُ»؟ فقلت: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: «ضعوا لي ماء في المِخْضَب» قالت: ففعلنا فٱغتسل ثم ذهب لِيَنُوءَ[1] فأغمي عليه ثم أفاق، فقال: «أصَلَّى الناسُ»؟ فقلت: لا، هم ينتظرونك، فقال: «ضعوا لي ماء في المخضب» قالت: ففعلنا فذهب فٱغتسل فقال: «أصَلَّى الناسُ»؟ قلت: لا، هم ينتظرونك، والناس عُكُوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلّي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلّي بالناس، فقال أبو بكر ـ وكان رجلاً رقيقًا ـ: يا عمر، صلِّ بالناس، فقال له عمر: أنت أحقّ بذلك، فصلّى أبو بكر تلك الأيام. ثم إن النبيّ ﷺ وجد في نفسه خِفّة فخرج بين رجلين أحدهما العباس، فصلّى الظهر وأبو بكر يصلّي بالناس، قالت: فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبيّ ﷺ ألاّ يتأخر، وقال لهما: «أجلساني إلى جنبه» فأجلساه إلى جنب أبي بكر فجعل أبو بكر يصلّي، وهو قائم بصلاة النبيّ ﷺ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر، والنبيّ ﷺ قاعد، قال عُبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدّثتني به عائشة عن مرض رسول الله ﷺ؟ قال: هات، فعرضتُ حديثها عليه فما أنكر منه شيئًا غير أنه قال: سَمّت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا، قال: هو عليّ بن أبي طالب.

وروى محمد بن سعد، عن محمد بن عمر، عن عبد الرحمٰن بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن محمد عن عمارة بن غَزِيّة عن محمد بن إبراهيم قال: قال رسول الله ﷺ وهو مريض لأبي بكر: «صلِّ بالناس» فوجد رسولُ الله ﷺ خِفّة فخرج وأبو بكر يصلّي بالناس، فلم يشعر حتى وضع رسولُ الله ﷺ يده بين كتفيه، فنكص أبو بكر، وجلس النبيّ ﷺ عن يمينه، فصلّى أبو بكر وصلّى رسول الله ﷺ بصلاته، فلما ٱنصرف قال: «لم يُقْبَض نبيّ قطّ حتى يَؤُمّه رجل من أمته». وروي نحوه عن أبي معشر، عن محمد بن قيس. وعن أمّ سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان في وجعه إذا خف عنه ما يجد خرج فصلّى بالناس، وإذا وجد ثقله قال: «مُرُوا الناسَ فليصلّوا» فصلّى بهم ٱبن أبي قحافة يومًا الصبح فصلّى ركعة، ثم خرج رسول الله ﷺ فجلس إلى جنبه فأتَمّ بأبي بكر، فلما قضى أبو بكر الصلاة أتمّ رسول الله ﷺ ما فاته. وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صلّى في مرضه بصلاة

(١) ينوء: ينهض.

أبي بكر ركعة من الصبح ثم قضى الركعة الباقية. قال الواقدي: ورأيت هذا الثَّبْتَ عند أصحابنا؛ أن رسول الله ﷺ صلّى خَلْفَ أبي بكر. وروى محمد بن سعد بسنده إلى عبد الله بن زَمْعَة بن الأسود قال: عُدْتُ رسول الله ﷺ في مرضه الذي تُوفّي فيه، فجاءه بلال يُؤْذِنُه بالصلاة، فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِ الناسَ فليصلّوا» قال عبد الله: فخرجت فلقيت ناسًا لا أكلمهم، فلما لقيت عمر بن الخطاب لم أبغِ مَنْ وَرَاءَه، وكان أبو بكر غائبًا فقلت له: صلِّ بالناس يا عمر، فقام عمر في المقام وكان عمر رجلاً مُجهِرًا، فلما كبّر سمع رسول الله ﷺ صوته، فأخرج رأسه حتى أطلعه للناس من حجرته، فقال: «لا، لا، لا، ليصل بهم ٱبن أبي قحافة» قال: يقول ذلك رسول الله ﷺ مُغْضَبًا، قال: فٱنصرف عمر فقال لعبد الله بن زَمْعَة: يٱبن أخي أمرك رسول الله ﷺ أن تأمرني؟ قال فقلت: لا، ولكني لما رأيتك لم أبغِ مَنْ وَرَاءَك، فقال عمر: ما كنت أظنّ حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صلّيتُ بالناس، فقال عبد الله: لَمَّا لم أرَ أبا بكر رأيتك أحقَّ من حضر بالصلاة. وعن عبد الله بن عباس قال: حَضرت الصلاةُ فقال النبيّ ﷺ: «مُرُوا أبا بكر يصلّي بالناس» فلما قام أبو بكر مقام النبيّ ﷺ ٱشتدّ بكاؤه وٱفتتن، وٱشتدّ بكاء من خَلْفه، لفقد نبيهم ﷺ، فلما حَضرت الصلاةُ جاء المؤذّن إلى النبيّ ﷺ فقال: قولوا للنبيّ ﷺ يأمر رجلاً يصلّي بالناس، فإن أبا بكر قد ٱفتتن من البكاء والناس خلفه، فقالت حفصة زوج النبيّ ﷺ: مروا عمر يصلّي بالناس حتى يرفع الله رسوله، قال: فذهب إلى عمر فصلّى بالناس، فلما سمع النبيّ ﷺ تكبيره قال: «من هذا الذي أسمع تكبيره»؟ فقال له أزواجه: عمر بن الخطاب، وذكروا له ما قاله المؤذّن، وما قالت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكنّ لصواحبُ يوسف، قولوا لأبي بكر فليصلّ بالناس» قال: فلو لم يستخلفه ما أطاع له الناس. وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: لم يزل رسول الله ﷺ في وجعه إذا وجد خِفّة خرج، وإذا ثقل وجاءه المؤذّن قال: «مروا أبا بكر يصلّي بالناس» فخرج من عنده يومًا الآمر يأمر الناس يصلّون وٱبن أبي قحافة غائب، فصلّى عمر بن الخطاب بالناس فلما كبّر قال رسول الله ﷺ: «لا، لا، أين ابن أبي قحافة»؟ قال: فٱنتقضت الصفوفُ وٱنصرف عمر، قال: فما برحنا حتى طلع ٱبن أبي قُحافة وكان بالسُّنُح[1] فتقدّم فصلّى بالناس. وعن أنس بن مالك: أن أبا بكر

(١) السنح: موضع قرب المدينة.

رضي الله عنهما كان يصلّي بهم في وجع رسول الله ﷺ الذي تُوفِّي فيه، حتى إذا كان يوم الأثنين وهم صفوف في الصلاة، كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا، وهو قائم كأنّ وجهه ورقة مصحف، ثم تبسّم رسول الله ﷺ ضاحكًا ونحن في الصلاة من الفرح. قال: ونَكَصَ أبو بكر على عقبيه، فأشار إليهم رسول الله ﷺ «أن أتموا صلاتكم» قال: ثم دخل وأرخى الستر، فتوفي من يومه ﷺ. وقال محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عمر، قال سألت أبا بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة: كم صلّى أبو بكر بالناس؟ قال: صلّى بهم سبع عشرة صلاة، قلت: من حدّثك ذلك؟ قال قال: حدّثني أيوب بن عبد الرحمٰن بن صَعْصَعة، عن عبّاد بن تميم، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: صلّى بهم أبو بكر ذلك.

ذكر ما اتفق في مرض رسول الله ﷺ

خلاف ما ذكرناه، من اللَّدُود[١] الذي لُدّ به، والكتاب الذي أراد أن يكتبه، والوصية التي أمر بها، والدنانير التي قسمها، والسواك الذي استَنّ به ﷺ.

فأمّا اللَّدُود الذي لُدّ به ﷺ وما قال فيه

رُوي عن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: تخوّفنا على رسول الله ﷺ ذات[٢] الجَنْب وثَقُل فلَدَدْناه، فوجد خشونة اللّدّ فأفاق، فقال: «ما صنعتم بي»؟ قالوا: لَدَدْناك، قال: «بماذا»؟ قلنا: بالعُود الهِنْدي، وشيء من وَرْس وقَطَرات زيت، فقال: «من أمركم بهذا»؟ قالوا: أسماء بنت عُمَيس، قال: «هذا طِبٌّ أصابته بأرض الحبشة، لا يبقى أحد في البيت إلا الْتُدَّ إلا ما كان من عمّ رسول الله ﷺ» يعني العباس، ثم قال: «ما الذي كنتم تخافون عليّ»؟ قالوا: ذات الجَنْب، قال: «ما كان الله ليسلطها عليّ». وفي رواية عن أمّ بِشْر بن البَرَاء؛ قال: «ما كان الله ليسلطها على رسوله، إنها همزة من الشيطان، ولكنها من الأكلة التي أكلتُها أنا وابنك، هذا أوَانُ قطَعَتْ أبْهَرِي»[٣]. ومن حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فجعل بعضهم يَلُدُّ بعضًا. وعن هشام قال: كانت أمّ سلمة وأسْمَاء بنت عُمَيْس هما لدّتاه، قال: فالْتَدّت يومئذ ميمونة وهي صائمة؛ لِقَسَم النبيّ ﷺ، قال: وكان منه عقوبة لهم.

(١) اللدود: ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم.

(٢) ذات الجنب: هي ورم حار يعرض للحجاب المستبطن للأضلاع.

(٣) الأبهر: عرق إذا انقطع مات صاحبه.

وأما الكتاب الذي أراد رسول الله ﷺ أن يكتبه ثم تركه لما وقع عنده من التنازع

فقد اختلفت الروايات في هذا الحديث عن عبد الله بن عباس وغيره، فمن رواية سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال: اشتكى النبيّ ﷺ يوم الخميس فجعل ـ يعني ابن عباس ـ يبكي ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد بالنبيّ ﷺ وجعه فقال: «ايتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابًا لا تَضِلّوا بعده أبدًا» قال فقال بعض من كان عنده: إنّ نبيّ الله هَجَر[1]، قال فقيل له: ألا نأتيك بما طلبت؟ قال: «أو بعد ماذا»؟ فلم يَدْع به. ومن طريق آخر عن سليمان بن أبي مسلم عن سعيد بن جُبير قال: فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيّ تنازع. فقالوا: ما شأنه أهَجَر؟ استفهِموه، فذهبوا يعيدون عليه. فقال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه». قال: وأوصى بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» وسكت عن الثالثة، فلا أدري قالها فنسيتها، أو سكت عنها عمدًا؟ ومن رواية طلحة بن مُصَرِّف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ايتوني بالكتف والدَّواة أكتب لكم كتابًا لا تَضِلّوا بعده أبدًا». قال فقالوا: إنما يَهْجُر رسول الله ﷺ. هذه الروايات عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود عن ابن عباس قال: لما حضرت رسولَ الله ﷺ الوفاةُ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «هَلُمَّ أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده» فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قَرّبوا يكتُبْ لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر؛ فلما كثر اللَّغَط والاختلاف وغُمِر رسول الله ﷺ قال: «قوموا عني». قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرَّزِيّة كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. وعن عِكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: «ايتوني بدواة وصحيفة أكتبْ لكم كتابًا لن تَضِلُّوا بعده أبدًا». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من لفلانة وفلانة ـ من مدائن الروم ـ إن رسول الله ﷺ لن يموت حتى يفتتحها، ولو مات لانتظرناه كما انتظرت بنو إسرائيل موسى؛ فقالت زينب زوج النبيّ ﷺ: ألا تسمعون للنبيّ ﷺ يعهد إليكم؟ فَلَغطوا

---

(١) هجر: هذى.

فقال: «قوموا» فلما قاموا قبض النبيّ ﷺ مكانه. وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما كان في مرض رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، دعا بصحيفة ليكتب فيها لأمته كتابًا لا يَضِلون ولا يُضِلّون، فكان في البيت لَغَط وكلام، وتكلم عمر بن الخطاب، قال: فرفضه النبيّ ﷺ.

وعن محمد بن عمر الواقديّ عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، وبيننا وبين النساء حجاب، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوني بسبع قِرب وأتوني بصحيفة ودواة أكتبْ لكم كتابًا لن تَضِلُّوا بعده أبدًا» فقال النسوة: ايتوا رسول الله ﷺ بحاجته. قال عمر فقلت: اسكتن فإنكن صواحبه إذا مرض عَصَرْتُنّ أعينكنّ، وإذا صح أخذتن بعنقه. فقال رسول الله ﷺ: «هُنّ خير منكم».

هذا ما وقفنا عليه من الروايات المسندة في هذا الحديث، وقد تذرّعت به طائفة من الروافض، وتكلموا فيه وطعنوا على من لغط عند رسول الله ﷺ حتى امتنع من الكتابة.

وقد تكلم القاضي أبو الفضل عِياض بن موسى بن عِياض رحمه الله على هذا الحديث، وذكر أقوال العلماء وما أبدَوه من الاعتذار عن عمر رضي الله عنه فيما قال، فقال رحمه الله تعالى، قال أئمتنا في هذا الحديث: النبيّ ﷺ غير معصوم من الأمراض، وما يكون من عوارضها من شدّة وجع وغَشْي ونحوه، مما يطرأ على جسمه، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته، ويؤدّي إلى فساد في شريعته، من هذيان أو اختلال في كلام، وعلى هذا لا يصح ظاهر رواية من روى في الحديث «هَجَر» إذ معناه هذى يقال: هَجَر هُجْرًا إذا أفحش، وأهجر تعدية هجر، وإنما الأصح والأولى «أهَجَر»؟ على طريق الإنكار على من قال لا نكتب، قال: وهكذا روايتنا فيه في صحيح البخاري من رواية جميع الرواة في حديث الزهري ومحمد بن سلاّم عن ابن عُيَيْنة، قال: وكذا ضبطه الأصيلي بخطه في كتابه وغيره من هذه الطرق، وكذا رويناه عن مسلم في حديث سفيان وعن غيره، قال: وقد تُحمل عليه رواية من رَواه هجر على حذف ألف الاستفهام، والتقدير: أهجر؟ أو أن يُحملَ قول القائل: «هَجَر» أو أهجَرَ دهشةً من قائل ذلك وحيرةً؛ لعظيم ما شاهد من حال الرسول ﷺ وشدّةِ وجعه، وهول المقام الذي اختلف فيه عليه، والأمر الذي همّ بالكتاب فيه، حتى لم يضْبِط هذا القائل لفظه وأجرى الهجر مجرى شدّة الوجع؛ لأنه اعتقد أنه يجوز عليه الهجر، كما حملهم الإشفاق على حراسته، والله تعالى يقول:

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ونحو هذا. وأما على رواية: «أَهُجْرًا»، وهي رواية أبي إسحاق المستملِي في الصحيح، في حديث ٱبن جُبير، عن ابن عباس من رواية قُتَيْبة، فقد يكون هذا راجعًا إلى المختلفين عنده ﷺ، ومخاطبةً لهم من بعضهم، أي جئتم بٱختلافكم على رسول الله ﷺ وبين يديه هُجْرًا ومنكرًا من القول! والهُجْر بضم الهاء الفحش في المنطق.

وقد ٱختلف العلماء في معنى هذا الحديث، وكيف ٱختلفوا بعد أمره لهم عليه السلام أن يأتوه بالكتاب، فقال بعضهم: أوامر النبيّ ﷺ يفهم إيجابها من ندبها من إباحتها بقرائن، فلعل قد ظهر من قرائن قوله ﷺ لبعضهم ما فهموا أنه لم يكن منه عَزْمَة، بل أمرٌ ردّه إلى ٱختيارهم، وبعضهم لم يَفهم ذلك، فقال: ٱستفهِموه، فلما ٱختلفوا كَفَّ عنه إذ لم تكن عَزْمة[1]، ولِما رأوه من صواب رأي عمر رضي الله عنه. ثم هؤلاء قالوا: ويكون ٱمتناع عمر إمّا إشفاقًا على النبيّ ﷺ من تكليفه في تلك الحال، وإما إملاء الكتاب، وأن يدخل عليه مشقة من ذلك كما قال: إنّ النبيّ اشتدّ به الوجع. وقيل: خشي عمر أن يكتب أمورًا يعجزون عنها فيحصلون[2] في الحَرَج بالمخالفة، ورأى أن الأرفق بالأمة في تلك الأمور سعة الٱجتهاد، وحكم النّظر، وطلب الصواب، فيكون المصيبُ والمخطىء مأجورًا، وقد علم عمر تقرر الشرع وتأسيس الملّة، وأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وقوله ﷺ: «أوصيكم بكتاب الله وعِتْرتي». وقول عمر: حَسْبنا كتاب الله، ردٌّ على من نازعه، لا على أمر النبيّ ﷺ. وقد قيل: إن عمر خشي تَطرّق المنافقين، ومن في قلبه مرض لِما كتب في ذلك الكتاب في الخلوة، وأن يتقوّلوا في ذلك الأقاويل كادّعاء الرافضة الوصية وغير ذلك. وقيل: إنه كان من النبيّ ﷺ على طريق المشورة والٱختبار، هل يتفقون على ذلك أم يختلفون، فلما ٱختلفوا تركه. وقالت طائفة أخرى: إن معنى الحديث أن النبي ﷺ كان مجيبًا في هذا الكتاب لما طلب منه لا أنه ٱبتداء بالأمر به، بل ٱقتضاه منه بعض أصحابه، فأجاب رغبتهم وكره ذلك غيرهم للعلل التي ذكرناها، وٱستدل في مثل هذه القضية بقول العباس لعليّ: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإذا كان الأمر فينا علِمناه، وكراهة عليّ هذا وقوله: «والله لا أفعل» الحديث. واستدل بقوله: «دعوني فإن الذي أنا فيه خير» أي الذي أنا فيه خير من إرسال الأمر وترككم، وكتابَ الله. وأن تَدعوني مما طلبتم. وذُكر أن الذي طُلب كتابه في أمر الخلافة بعده وتعيين ذلك. هذا ما أورده في معنى هذا الحديث. والله تعالى أعلم.

---

(١) عزمة الرجل: أسرته وقبيلته. وعزمة من عزمات الله: أي حق من حقوقه.
(٢) يحصلون: يقعون.

وأمّا ما وصّى به رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه

فقد رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»، حتى جعل رسول الله ﷺ يُغرغر بها في صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه. وعن أمّ سلمة نحوه. وعن كعب بن مالك قال: أغمي على رسول الله ﷺ ساعة ثم أفاق، فقال: «اللّهَ اللّهَ فيما ملكت أيمانكم، ألبسوا ظهورهم، وأشبعوا بطونهم، وألينوا لهم القول». وعن الزهريّ عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة أن رسول الله ﷺ آخر عهده أوصى ألا يُترَك بأرض العرب دينان. وعن مالك بن أنس عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن عمر بن عبد العزيز قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يَبقينّ دِينان بأرض العرب». وعن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة أنه كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أوصى بالرَّهاويين الذين هم من أهل الرَّهاء[1]، قال: وأعطاهم من خَيْبر وجعل يقول: «لئن بقيتُ لا أدع بجزيرة العرب دِينين». وعن عليّ بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم أنه قال: أوصى رسول الله ﷺ بالداريّين وبالرَّهاويّين وبالدَّوْسيين خيرًا. وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث وهو يقول: «ألاَ لا يموت أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظنّ». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نَعَى لنا نبينا وحبيبنا نفسَه قبل موته بشهر، بأبي هو وأمّي ونفسي له الفداء، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمّنا عائشة وتشَدد لنا فقال: «مرحبًا بكم، حيّاكم الله بالسلام، رحمكم الله، حفظكم الله، جَبَركم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، آداكم[2] الله، وقاكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم؛ وأستخلفه عليكم، وأحذركم الله إني لكم منه نذير مبين ألاّ تَعلوا على الله في عباده وبلاده فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. وقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ

---

(١) الرها: بضمّ أوله، والمد، والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر. والنسبة إليها الرهاوي. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) آداكم الله: قوّاكم وأعانكم على عدوكم.

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] قلنا: يا رسول الله متى أجلك؟ قال: «دنا الفراق، والمنقلب إلى الله، وإلى جنة المأوى، وإلى سِدرة المنتهى، وإلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى والحظ والعيش المُهَنَّى» قلنا: يا رسول الله من يَغْسِلك؟ قال: «رجال من أهلي الأدنى فالأدنى» قلنا: يا رسول الله ففيم نُكفِّنك؟ قال: «في ثيابي هذه إن شئتم أو في ثياب مصر أو في حُلّة يمانية» قال قلنا: يا رسول الله، من يصلّي عليك؟ وبكينا وبكى، فقال: «مهلاً رحمكم الله وجزاكم عن نبيكم خيرًا، إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري هذا على شَفَة قبري في بيتي هذا، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلّي عليّ حبيبي وخليلي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت معه جنوده من الملائكة بأجمعهم، ثم ادخلوا عليّ فَوْجًا فَوْجًا، فصلوا عليّ وسلموا تسليمًا، ولا تؤذوني بتزكية ولا برَنّة، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال من أهلي ثم نساؤهم ثم أنتم بعد، وأقرِئوا السلام على من غاب من أصحابي، وأقرِئوا السلام على من يتبعني على ديني من قومي إلى يوم القيامة». قلنا: يا رسول الله، فمن يدخلك قبرك؟ قال: «أهلي مَعَ ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم».

وأما الدّنانير التي قسمها رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه

فقد روي عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: أصاب رسول الله ﷺ دنانير فقسمها إلا ستة، فدفع الستة إلى بعض نسائه، فلم يأخذه النوم حتى قال: «ما فعلت الستة»؟ قالوا: دفعتها إلى فلانة، قال: «ايتوني بها» فقسم منها خمسة في خمسة أبيات من الأنصار، ثم قال: «استنفقوا هذا الباقي» وقال: «الآن استرحت» فرقد. وعن المطلب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال لعائشة، وهي مُسْنِدتُه إلى صدرها: «يا عائشة ما فعلت تلك الذهب»[1]؟ قالت: هي عندي، قال: «فأنفقيها» ثم غشي على رسول الله ﷺ وهو على صدرها، فلما أفاق قال: «هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة»؟ قالت: لا والله يا رسول الله، قالت: فدعا بها فوضعها في كفّه، فعدّها فإذا هي ستة دنانير، فقال: «ما ظنُّ محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده»! فأنفقها كلها، ومات من ذلك اليوم.

(١) المراد بقوله: تلك الذهب: أي تلك الدنانير الذهب.

وأما السِّواك الذي اَستَنّ به رسول الله ﷺ عند موته

فقد روي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: دخل عبد الرحمٰن بن أبي بكر على النبي ﷺ في شكواه، وأنا مسندته إلى صدري، وفي يد عبد الرحمٰن سِواك فأمرها أن تقضمه، فقضمته ثم أعطته رسول الله ﷺ. ومن حديث آخر عنها قالت: فنظر رسول الله ﷺ إليه وهو في يده نظرًا عرفت أنه يريده، فقلت: يا رسول الله، تريد أن أعطيك هذا السّواك؟ فقال: «نعم» فأخذته فمضغته حتى لَيَّنته ثم أعطيته إياه، فاستَنّ به كأشدّ ما رأيته استنّ بسواك قبله ثم وضعه، فكانت عائشة تقول: كان من نعمة الله عليّ وحسن بلائه عندي، أن رسول الله ﷺ مات في بيتي، وفي يومي وبين سَحْري[1] ونَحْري، وجمع بين ريقي وريقه عند الموت. فقال لها القاسم بن محمد: قد عرفنا كل الذي تقولين، فكيف جمع بين ريقِك وريقه؟ قالت: دخل عبد الرحمٰن ابن أمّ رُومان أخي على رسول الله ﷺ يعوده، وفي يده سِواك رطب، وكان رسول الله ﷺ مولعًا بالسّواك، فرأيت رسول الله ﷺ يشخص بصره إليه، فقلت: يا عبد الرحمٰن، اَقضم السواك فناولنيه، فمضغته ثم أدخلته في فِي رسول الله ﷺ فتسوّك به، فجمع بين ريقي وريقه.

ذكر تخيير رسول الله ﷺ
بين الدنيا والآخرة عند الموت

رُوي عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت سمعت أنه لا يموت نبيّ حتى يُخيَّر بين الدنيا والآخرة، فأصابت رسول الله ﷺ بُحّة شديدة في مرضه، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فظننت أنه خُيِّر. وعن المطلب بن عبد الله، قال قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول «ما من نبيّ إلا تُقبض نفسه ثم تُردّ إليه فيخيّر بين أن تُردّ إليه إلى أن يلحق» قالت: فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لَمُسْنِدتُه إلى صدري فنظرت إليه حتى مالت عنقه، فقلت قد قضى وعرفت الذي قال، فنظرت إليه حتى اَرتفع ونظر، قالت: قلت إذًا والله لا تختارنا، فقال: «مع الرفيق الأعلى في الجنة» ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾. وعن سعيد بن المسيّب وغيره أن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت: كان

(١) السحر: الرئة.

رسول الله ﷺ يقول: «إنه لم يُقبض نبيٌّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر» قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي غُشِي عليه ساعة، ثم أفاق فأشخص بصره إلى السَّقْف سَقْفِ البيت، ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» قالت: فقلت الآن لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدّثنا وهو صحيح، فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ. وعن أبي بُرْدة بن أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ قد أسندته عائشة إلى صدرها فأفاق، وهي تدعو له بالشفاء فقال: «لا، بل أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل».

ذكر ما قاله رسول الله ﷺ عند نزول الموت به

رُوي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما نزل بالنبيّ ﷺ الموتُ دعا بقدح من ماءٍ فجعل يمسح به وجهه، ويقول: «اللهم أعنّي على سَكَرات الموت» وجعل يقول: «اُدْنُ منّي يا جبريل، اُدْنُ منّي يا جبريل، اُدْنُ منّي يا جبريل». وعن عبد الله بن عباس وعائشة رضي الله عنهم قالا: لما نزل بالنبيّ ﷺ طَفِق يلقى خَمِيصَته[1] على وجهه، فإذا اُغتمّ بها ألقاها عن وجهه ويقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى اُتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ذكر وفاة رسول الله ﷺ

رُوي عن محمد بن جعفر عن أبيه قال: لما بقي من أجَل رسول الله ﷺ ثلاث نزل عليه جبريل فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكرامًا لك، وتفضيلاً لك، وخاصّة لك، يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغمومًا، وأجدني يا جبريل مكروبًا» فلما كان في اليوم الثاني هبط إليه جبريل فقال له مثل ذلك، وأجابه رسول الله ﷺ بمثل ما أجابه به بالأمس، فلما كان اليوم الثالث نزل إليه جبريل، وهبط معه مَلَك الموت، ونزل معه ملك يقال له إسماعيل، يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قطّ ولم يهبط إلى الأرض منذ يوم كانت الأرض على سبعين ألف مَلَك، ليس منهم مَلَك إلا على سبعين ألف مَلَك، فسبقهم جبريل، فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكرامًا لك، وتفضيلاً لك، وخاصّة لك، يسألك عما هو أعلم به منك، يقول لك: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغمومًا، وأجدني يا جبريل مكروبًا» ثم اُستأذن مَلَك الموت فقال جبريل: يا أحمد،

---

(١) الخميصة: ثوب خز أو صوف معلم.

هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدميّ كان قبلك، ولا يستأذن على آدميّ بعدك، قال: «ائذن له» فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، يا أحمد، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني به، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها، قال: «وتفعل يا ملك الموت»؟ قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني، فقال جبريل: يا أحمد، إن الله قد اشتاق إليك، قال: «فامض يا ملك الموت لما أمرتَ به» قال جبريل: السّلام عليك يا رسول الله، هذا آخر موطِئي الأرضَ إنما كنتَ حاجتي من الدنيا، فتوفّي رسول الله ﷺ، وجاءت التعزية يسمعون الصوت والحسَّ، ولا يرون الشخص: السّلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إن في الله عَزَاءً من كل مصيبة، وخَلَفًا من كل هالك، ودَرَكًا من كل ما فات، فبالله فَثِقوا، وإياه فارجوا، إنما المُصاب من حُرم الثواب، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكانت وفاة رسول الله ﷺ كما جاء في الأحاديث الصحيحة في حِجر عائشة وبين سَحْرها ونَحْرها. وقد قيل: إنه توفّي في حجر عليٍّ، والصحيح الأوّل. وذلك في يوم الاثنين حين اشتدّ الضُّحَى، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل، وقيل: لليلتين خلتا منه. ولما مات ﷺ سُجِّي بثوب حِبَرة، كما روي عن عائشة وأبي هريرة رضي الله عنهما، ودخل أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وقال: بأبي وأمي ما أطيب مَحْياك ومَماتَك. وفي لفظ: طبت حيًا وميتًا. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما توفّي رسول الله ﷺ جاء أبو بكر فدخل عليه فرفعت الحجاب، فكشف الثوب عن وجهه، فاسترجع فقال: مات والله رسول الله، ثم تحوّل من قبل رأسه فقال: وانبياه، ثم حَدَر فمه فقبّل وجهه ثم رفع رأسه، فقال: واخليلاه، ثم حَدَر فمه فقبّل جبْهته ثم رفع رأسه، فقال: واصَفِيّاه، ثم حدر فمه فَقبّل جبهته، ثم سجّاه بالثوب ثم خرج. وعن عبد الرحمٰن بن عوف: أن عائشة أخبرته أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنُح(١) حتى نزل، فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيَمّم(٢) رسولَ الله ﷺ وهو مُسَجًّى ببُرْد حِبَرة فكشف عن وجهه ثم أكَبّ عليه يقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت، والله لا يجمع الله عليك مَوْتَتَيْن أبدًا، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مِتَّها.

---

(١) السنح: موضع بعوالي المدينة فيه منازل بني الحارث بن الخزرج.

(٢) تيمم: قصد.

ذكر ما تكلم به الناس حين شكّوا في وفاة رسول الله ﷺ وخطبة أبي بكر رضي الله عنه

رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تُوفِّي رسول الله ﷺ بكى الناس فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المسجد خطيبًا فقال: لا أسمعَنّ أحدًا يقول إن محمدًا قد مات، ولكنه أُرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عِمران، فلبث عن قومه أربعين ليلة، وإني والله لأرجو أن تُقطع أيدي رجالٍ وأرجلهم يزعمون أنه مات. وعن عِكْرمة قال: لما تُوفِّي رسول الله ﷺ فقالوا: إنما عُرج بروحه كما عرج بروح موسى، قال: وقام عمر خطيبًا فوعد المنافقين، وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن إنما عُرِج بروحه كما عُرِج بروح موسى، لا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم، قال: فما زال عمر يتكلم حتى أزبد شِدْقاه، فقال العباس: إن رسول الله ﷺ يأسَن(١) كما يأسَن البشر، وإن رسول الله ﷺ قد مات فادفنوا صاحبكم، أيُميت أحدَكم إماتة ويُميته إماتتين؟ هو أكرم على الله من ذلك، فإن كان كما تقولون فليس على الله بعزيز أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء الله، ما مات حتى ترك السبيلَ نَهْجًا واضحًا، أحلّ الحلال، وحَرَّم الحرامَ، ونكح وطلّق، وحارب وسالم، وما كان راعي غنم يتبع بها صاحبها رؤوس الجبال، يخبط عليها العِضاة(٢) بمِخْبَطِه ويَمدرُ حوضها بيده، بأنصَب ولا أرْأب(٣) من رسول الله ﷺ كان فيكم. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما توفي رسول الله ﷺ استأذن عمر والمغيرة بن شعبة فدخلا عليه فكشفا الثوب عن وجهه فقال عمر: أغشيًا؟ ما أشَدَّ غشيَ رسول الله ﷺ! ثم قاما فلما انتهيا إلى الباب، قال المغيرة: يا عمر، مات والله رسول الله ﷺ، فقال عمر: كذبت ما مات رسول الله ﷺ، ولكنك رجل تَحُوسُك(٤) فتنةٌ، ولن يموت رسول الله ﷺ حتى يُفني المنافقين، ثم جاء أبو بكر وعمر يخطب الناس فقال له أبو بكر: اسكت؛ فسكت، فصعد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠] ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤] ثم قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت. فقال عمر: هذا في كتاب الله؟ قال: نعم، قال: أيها الناس، هذا أبو بكر وذو شيبةِ المسلمين فبايِعُوه فبايَعه

---

(١) يأسن: يتغير.
(٢) العضاه: كل شجر له شوك صغر أو كبر.
(٣) رأب: أصلح.
(٤) تحوسك: بمعنى تخالطك وتحثك على ركوبها.

الناس. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخل أبو بكر المسجد وعمر بن الخطاب يكلِّم الناس، فمضى حتى دخل بيت النبيّ ﷺ الذي توفّي فيه، وهو بيت عائشة، وكشف عن وجه النبيّ ﷺ بُرْد حِبَرَة، كان مسَجًّى به فنظر إلى وجهه ثم أكبّ عليه فقبَّله، فقال: بأبي أنت؛ واللّهِ لا يجمع الله عليك موتتين، لقد متّ الموتة التي لا تموت بعدها، ثم خرج أبو بكر إلى الناس، وعمر يكلمهم فقال: اْجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فكلمه أبو بكر مرتين أو ثلاثًا، فلما أبى عمر أن يجلس قام أبو بكر فتشهد، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فلما قضى أبو بكر تشهده قال: أما بعد؛ فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال: فلما تلاها أبو بكر أيقن الناس بموت النبيّ ﷺ، وتلقاها الناس من أبي بكر حين تلاها أو كثير منهم، حتى قال قائل من الناس: والله لكأنّ الناس لم يعلموا أن هذه الآية أنزلت حتى تلاها أبو بكر. فزعم سعيد بن المسيّب أن عمر بن الخطاب قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعَقِرت(١) وأنا قائم حتى خررت إلى الأرض، وأيقنت أن النبيّ ﷺ قد مات. وعن الحسن قال: لما قُبض رسول الله ﷺ ائْتمر أصحابه فقالوا: تربصوا بنبيكم ﷺ لعله عُرِج به، قال: فتربصوا به حتى رَبَا بطنه، فقال أبو بكر: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت. وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه أنه لما شك في موت النبيّ ﷺ قال بعضهم: قد مات، وقال بعضهم: لم يمت، وضعت أسماء بنت عُمَيْس يدها بين كتفيه، وقالت: قد توفّي رسول الله ﷺ، قد رُفِع الخاتم من بين كتفيه. وكان من أصحاب رسول الله ﷺ من أُخرس عن الكلام لِما رَاعَه من موت رسول الله ﷺ، فما تكلم إلا بعد الغد، وأُقعد آخرون، منهم علي بن أبي طالب، ولم يكن فيهم أثبت من أبي بكر والعباس رضي الله عنهما، قالوا: وعَزَّى الناس بعضهم بعضًا برسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد ذكر ذلك للناس قبل موته، كما روي عن سهل بن سعد؛ قال قال رسول الله ﷺ: «سيعزِّي الناس بعضهم بعضًا من بعدي التّعْزيةَ بي» فكان الناس يقولون ما هذا؟ فلما قبض رسول الله ﷺ لقِي الناس بعضهم بعضًا يعزِّي بعضهم بعضًا برسول الله ﷺ.

---

(١) العقر: أن تسلم الرجل قوائمه إلى الخوف فلا يقدر أن يمشي من الفرق والدهش.

ذكر غُسْل رسول الله ﷺ ومن غَسّله، وتكْفِينه وحُنوطه

رُوي أن أصحاب رسول الله ﷺ لما ذكروا غسله سمعوا من باب الحجرة: لا تغسلوه فإنه طاهر مطهَّر، ثم سمعوا صوتًا بعده: ٱغسلوه فإن ذلك إبليس وأنا الخضر، وعزّاهم فقال: إن في الله عَزاءً من كل مصيبة، وخَلَفًا من كل هالك، ودرَكًا من كل فائت، فباللّهِ فثِقُوا وإياه فٱرجوا، فإن المُصاب من حُرِم الثواب. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما توفي رسول الله ﷺ ٱختلف الذين يغسلونه، فسمعوا قائلًا لا يدرون من هو، يقول: ٱغسلوا نبيكم وعليه قميصه، فغسل رسول الله ﷺ في قميصه. وعن عَبّاد بن عبد الله عن عائشة قالت: لو ٱستقبلت من أمري ما ٱستدبرت، ما غَسَل رسول الله ﷺ إلا نساؤه، إن رسول الله ﷺ لما قُبض ٱختلف أصحابه في غسله، فقال بعضهم: ٱغسلوه وعليه ثيابه، فبينما هم كذلك إذ أخذتهم نعْسةٌ، فوقع لِحْيُ كل إنسان منهم على صدره، فقال قائل منهم لا يُدْرَى من هو: ٱغسلوه وعليه ثيابه، قالوا: وكان الذي تولى غسل رسول الله ﷺ عليٌّ بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد، وكان عليٌّ يغسله ويقول: بأبي أنت أمي، طِبْتَ مَيتًا وحيًا. وقيل: كان عليّ يغسل النبيّ ﷺ والفضل وأسامة يحجبانه، وقيل: غسل والعباس قاعد والفضل مُحْتَضِنُه، وعليّ يغسله، وأسامة يختلف، وقيل: وليَ غسله العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والفضل بن العباس وصالح مولى رسول الله ﷺ. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أوصى رسول الله ﷺ ألا يغسله أحد غيري، فإنه «لا يرى أحد عورتي إلا طُمست عيناه». قال عليّ: فكان الفضل وأسامة يناولاني الماء من وراء الستر، وهما معصوبا العين. قال عليّ: فما تناولت عضوًا إلا كأنّما يقلبه معي ثلاثون رجلًا حتى فرغت من غسله. وقيل: كان معهم شُقْران مولى رسول الله ﷺ. وعن سعيد بن المسيّب قال: غسل النبيَّ ﷺ، وكفّنه أربعةٌ: عليٌّ والعباسُ والفضلُ وشُقْران، وقيل: لم يحضره العباس، بل كان بالباب، وقال: لم يمنعني أن أحضر غسله إلا أني كنت أراه يستحي أن أراه حاسرًا. وقيل: حضره عَقِيل بن أبي طالب، وأوس بن خَوَلِيّ، وذلك أن أوس بن خَوَلِيّ قال: يا عليّ، أنْشُدك الله في حظّنا من رسول الله ﷺ، فقال له عليّ: ٱدخل، فدخل فجلس، وقيل: إنما دخل لأن الأنصار قالت: نناشدكم الله في نصيبنا من رسول الله ﷺ، فأدخلوا رجلًا منهم يقال له أوس بن خَوَلِيّ يحمل جرّةً بإحدى يديه. والذي أثبته الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي رحمه الله في مختصر

السيرة قال: تولى غسله عليٌّ والعبّاسُ والفضْلُ وقُثَمَ ابنا العباس وأسامة بن زيد وشُقْران موليا رسول الله ﷺ، قال: وحضره أوس بن خَوَلِيّ الأنصاريّ. وعن عليّ رضي الله عنه قال: لما أخذنا في جهاز رسول الله ﷺ أغلقنا الباب دون الناس جميعًا، فنادت الأنصار نحن أخواله، ومكاننا من الإسلام مكاننا، ونادت قريش نحن عصبته، فصاح أبو بكر: يا معشر المسلمين، كل قوم أحقّ بجنازتهم من غيرهم، فنَشدتكم الله فإنكم إن دخلتم أخرتموهم عنه، واللّهِ لا يدخل عليه أحد إلا من دُعي. وعن أبي جعفر محمد بن علي قال: غسل النبيّ ﷺ ثلاث غسلات بماء وسِدْر، وغسل في قميص، وغسل من بئر يقال لها الغَرْس لسعد بن خَيْثَمَة بقُبَاء، وكان يشرب منها وولي غسل سَفِلَته عليّ، والعباس يصبّ الماء، والفضل مُحتَضِنه يقول: أرِحْني أرِحْني، قطعتَ وَتيني[1]! إني أجد شيئًا ينزل عليّ مرتين. وعن عبد الله بن الحارث: أن عليًا غسله، يدخل يده تحت القميص، والفضل يمسك الثوب عليه، والأنصاريّ ينقل الماء وعلى يَدِ عليٍّ خرقةٌ تدخل يدُه وعليه القميص. وعن عبد الله بن جعفر الزهري عن عبد الواحد بن أبي عون، قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ في مرضه الذي توفي فيه: «اُغسلني يا عليُّ إذا متّ» فقال: يا رسول الله، ما غسلت ميتًا قط، فقال رسول الله ﷺ: «إنك سَتُهيّأ، أو تُيَسّر» قال علي: فغسلته فما آخذ عضوًا إلا تبعني، والفضل آخذ بِحُضْنِه يقول: أعجل يا عليّ انقطع ظهري. وعن سعيد بن المسيّب قال: التمس عليٌّ من النبيّ ﷺ عند غسله ما يُلتَمس من الميت فلم يجد شيئًا، فقال: بأبي أنت وأمي؛ طِبْت حيًا وميتًا. هذا ما لخصناه في غسله ﷺ مما أورده محمد بن سعد في طبقاته على سبيل الاختصار وحذف الأسانيد. والله أعلم.

وأما تكفينه ﷺ

فقد اختلف فيه؛ فقيل: كُفّن في ثلاثة أثواب بيض كُرْسُف[2]، وقيل: في ثلاثة أثواب أحدها حِبْرة، وقيل: في رَيْطَتَيْن[3] وبُرْد نَجرانيّ. وقيل: في ثلاثة أثواب بُرُود يمانية غِلاظٌ إزارٌ وَرِدَاءُ ولِفَافَة. وقيل: في حُلّة حمراء وقِبْطية[4]. وقيل: في حُلّة يمانية وقميص. وقيل: في حُلّة حِبَرة وقميص. وقيل: في سبعة أثواب. والذي ورد

(١) الوتين: الشريان الرئيسي الذي يغذي جسم الإنسان بالدم النقي الخارج من القلب.

(٢) الكرسف: القطن.

(٣) الريطة: كل ملاءة ليست بلفقتين؛ أو كل ثوب رقيق لين.

(٤) قبطية: ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض.

في الصحيح أنه ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض سَحُوليّة من ثياب سَحُول - بلدة باليمن - ليس فيها قميص ولا عمامة، بل لفائف من غير خياطة. وحُنِّطَ رسول الله ﷺ، وكان في حَنُوطه المِسْك، وأبقى منه عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه شيئًا ادَّخَره لحنوطه إذا مات.

ذكر الصَّلاة على رسول الله ﷺ

رُوي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أول من صلّى على رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب، وبنو هاشم، ثم خرجوا، ثم دخل المهاجرون والأنصار، ثم الناس رِفَقًا[١] رِفَقًا، فلما انقضى الناس دخل عليه الصبيان صفوفًا، ثم النساء، وقيل: النساء والصبيان. وذكر البيهقي عن الواقديّ عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي قال: وجدت هذا في صحيفة بخط أبي، فيها: لما كُفّن رسول الله ﷺ ووُضِع على سريره، دخل أبو بكر وعمر فقالا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ومعهما نفَرٌ من المهاجرين والأنصار قَدْر ما يسع البيت، فسلّموا كما سلّم أبو بكر وعمر وصَفُّوا صُفُوفًا لا يؤمّهم عليه أحد، فقال أبو بكر وعمر وهما في الصفّ الأول حِيَال رسول الله ﷺ: اللهم إنا نشهد أن قد بَلّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله به دينه، وتَمّت كَلِماته، فأُومِن به وحدَه لا شريك له، فاجعلنا يا إلهنا ممن يتّبع القول الذي أنزل معه، وأجمع بيننا وبينه حتى يعرِفنا ونعرّفه بنا فإنه كان بالمؤمنين رؤوفًا رَحيمًا، لا نبتغي بالإيمان بدَلاً، ولا نشتري به ثمنًا أبدًا. فيقول الناس آمين آمين، ثم يخرجون ويدخل آخرون حتى صَلّوا عليه: الرجال والنساء ثم الصبيان. وعن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن عليّ رضي الله عنهم قال: لما وُضِع رسول الله ﷺ على السرير قال عليٌّ: لا يؤمّ أحدٌ؛ هو إمامكم حيًا وميتًا، فكان يدخل الناس رَسَلاً[٢] رَسَلاً، فيصلّون عليه صَفًّا صَفًّا، ليس لهم إمام ويُكَبِّرون، وعليّ قائم بِحِيال رسول الله ﷺ يقول: سلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أنه قد بَلّغ ما أنزل إليه ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينه وتَمَّت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه، وثبتنا بعده وأجمع بيننا وبينه. فيقول الناس: آمين، آمين. وقد قيل في سبب صلاة الناس عليه أفْذَاذًا: إنما فعلوا ذلك ليكون كل منهم في الصلاة أصلاً لا تابعًا لأحد. وقيل: ليطول وقت الصلاة فيلحق من يأتي من حول المدينة.

(١) رفقًا رفقًا: أي جماعات جماعات.

(٢) الرسل: الرفق والتؤدة، ورسلاً: أي فرقًا.

ذكر قبر رسول الله ﷺ ولَحْده وما فُرش تحته ومَنْ فَرشه، ومَن دخل قبره، ووقت دفنه ومدّة حياته ﷺ

رُوي أن أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته اختلفوا في مكان دفنه؛ فقال بعضهم: ندفنه في مُصلاّه. وقال بعضهم: عند المنبر. وقال بعضهم: ٱدفنوه مع أصحابه بالبقيع. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما دُفن نبيٌّ قط إلاّ في المكان الذي توفّي فيه». وقيل: «قال «ما مات نبيٌّ إلا دفن حيث يُقبَض» فرفع فراش النبيّ ﷺ الذي توفّي عليه وحفر له تحته، وذلك في بيت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها. ثم ٱختلفوا أيلحد له أم لا؟ وكان في المدينة حَفَّاران أحدهما يُلحد وهو أبو طلحة، والآخر لا يلحد وهو أبو عبيدة. فاتفقوا على أن من جاء منهما أوّلاً عَمِل عَمَلَه، فجاء الذي يلحد فلحد لرسول الله ﷺ. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ، كان بالمدينة رجلان: أبو عبيدة بن الجرّاح يَضْرَح حُفَر أهل مكة، وأبو طلحة الأنصاريّ هو الذي يحفِر لأهل المدينة، وكان يُلْحد. فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما: ٱذهب إلى أبي عبيدة، وقال للآخر: ٱذهب إلى أبي طلحة، وقال: اللهم خِرْ لرسولك، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به فلَحَد له. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللّحد لنا والشّقّ لغيرنا». وقيل قال: «والشّقّ لأهل الكتاب». قيل: وكان ﷺ يرى اللحد فيعجبه فألحد له، وأطبق له تسع لَبِنَات وفُرش تحته في قبره قَطِيفَة حمراء كان يُغطَّى بها ﷺ نزل بها شُقْران. وأما من نزل قبره ﷺ فالعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل وقُثَم ٱبنا العباس، وشُقْران مولاه، وقيل: أدخلوا معهم عبد الرحمٰن بن عوف، قيل: وعَقِيل وأسامة بن زيد، وصالح، وأوْس بن خَوَلِيّ. والذي صححه الشيخ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف رحمه الله: العباس وعليّ والفضل وقُثَم وشُقْران. وزعم المغيرة بن شعبة أنه نزل قبر النبيّ ﷺ، وأنه آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ في قبره. روي عن الشعبي قال: كان المغيرة يحدّثنا هاهنا، يعني بالكوفة قال: أنا آخر الناس عهدًا بالنبيّ ﷺ لما دُفن وخرج عليٌّ من القبر ألقيت خاتَمي فقلت: يا أبا الحسن خاتَمي، قال: ٱنزل فخذ خاتمك، فنزلت فأخذت خاتَمي، ووضعت يدي على اللَّبِن ثم خرجت. وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: لما وُضع رسول الله ﷺ في لحده، ألقى المغيرة بن شعبة خاتَمه في القبر، ثم قال: خاتمي، خاتَمي! فقالوا: ٱدخل فخذه، فدخل ثم قال:

أهيلوا عليّ التراب، فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه فخرج، فلما سُوِّي على رسول الله ﷺ قال: اخرجوا عني حتى أغلق الباب، فإنّي أحدَثكم عهدًا برسول الله ﷺ، فقالوا: لعمْري لئن كنتَ أردتَها لقد أصبتَها. وأنكر علي بن عبد الله بن عباس هذا، وقال: كان آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ قُثَم بن العباس، كان أصغر من كان في القبر، وكان آخر من صعِد. والله أعلم.

وأما وقت دفنه ﷺ ومدة مرضه

فقيل: دفن رسول الله ﷺ ليلة الأربعاء، وقيل: ليلة الثلاثاء، وقيل: يوم الثلاثاء حين زاغت الشمس. والله أعلم. وسُنِّم[١] قبره ورُشّ عليه الماء. وكانت مدّة مرضه اثني عشر يومًا. وقيل: أربعة عشر يومًا. وكان مرضه بالصّداع ﷺ.

وأما سِنُّه ﷺ
ومدّة مقامه بالمدينة من حين هجرته إلى يوم وفاته ﷺ

فقد روي أن رسول الله ﷺ توفي، وقد بلغ من السِّن ثلاثًا وستين سنة، وقيل: خمسًا وستين، وقيل: ستين. وروى محمد بن سعد قال: أخبرنا هشام بن القاسم، قال: حدّثنا أبو معشر عن يزيد بن زياد قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة في السنة التي قُبض فيها: «إن جبريل كان يَعْرِض عليّ القرآن في كل سنة مرة، فقد عَرَض عليّ العامَ مرتين، وأنه لم يكن نبيٌّ إلا عاش نصف عمر أخيه الذي كان قبله، عاش عيسى ابن مريم مائة وخمسًا وعشرين سنة، وهذه اثنتان وستون سنة» ومات في نصف السنة. والذي نقلناه أوّلاً هو الذي صححه العلماء. والله أعلم.

وكان مقامه بالمدينة من لدن الهجرة إلى أن توفّي ﷺ عشر سنين.

ذكر ميراث رسول الله ﷺ
وما روي فيه

رُوي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنا لا نُورَث، ما تركناه صَدَقة». وروى محمد بن سعد قال: أخبرنا محمد بن عمر بن واقد، قال حدّثنا مَعْمَر ومالك وأُسامة بن زيد عن الزهريّ عن عروة عن عائشة؛ قال

---

(١) سنّم: أي جعل له سنام، أي رفع عن الأرض.

محمد بن عمر: وحدّثني مَعْمَر وأُسامة بن زيد وعبد الرحمٰن بن عبد العزيز عن الزهري عن مالك بن أَوْس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقّاص وعباس بن عبد المطلب قالوا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركناه فهو صدقة» يريد بذلك رسول الله ﷺ نفسَه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَقْتَسم ورثتي دينارًا ولا درهمًا، ما تركتُ بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فإنه صدقة». وعن عائشة: إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنهما أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ فيما أفاء الله على رسوله، وفاطمة حينئذ تطلب صدقة النبيّ ﷺ التي بالمدينة وفَدَك، وما بقي من خُمس خيبر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقةٌ» إنما يأكل آلُ محمد في هذا المال، وإني والله لا أغيِّر شيئًا من صدقات رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ. فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئًا، فوَجَدتْ[1] فاطمة على أبي بكر، فهجرته ولم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر. وعن أبي جعفر قال: جاءت فاطمة إلى أبي بكر تطلب ميراثها، وجاء العباس بن عبد المطلب يطلب ميراثه، وجاء معهما عليّ بن أبي طالب، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ «لا نورث، ما تركنا صدقةٌ» وما كان النبيّ يَعُول فعليّ، فقال عليٌّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] وقال زكريا: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥] قال أبو بكر: هو هذا، واللّهِ تعلم مثل ما أعلم. فقال عليّ: هذا كتاب الله ينطق، فسكتوا وانصرفوا. وعن زيد بن أسلم عن أبيه، قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: لما كان اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ بويع لأبي بكر في ذلك اليوم، فلما كان من الغد جاءت فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنهما معها عليّ رضي الله عنه فقالت: ميراثي من رسول الله أبِي، ﷺ، فقال أبو بكر: أمن الرِّثّة[2] أو من العُقَد[3]؟ قالت: فَدَك وخَيْبر وصدقاته بالمدينة أرثها كما ترثك بناتك إذا متّ، فقال أبو بكر: أبوك واللّهِ خير مني، وأنت واللّهِ خير من بناتي، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقةٌ» يعني هذه الأموال القائمة، فتعلمين أن أباك أعطاكها؟ فوالله لئن قلتِ نعم لأقبلنّ قولك ولأصدقنك. قالت: جاءتني أمّ أيمن فأخبرتني أنه أعطاني فَدَك. قال: فسمِعته يقول

---

(١) وجدت: غضبت، أو حقدت. (٢) الرثة: الرديء من متاع البيت.

(٣) العقد، جمع عقدة: الأرض الكثيرة النخل.

هي لكِ؟ فإذا قلتِ قد سمعته فهي لك، فأنا أصدِّقكِ وأقبلُ قولكِ. قالت: قد أخبرتكَ ما عندي. وعن عمرو بن الحارث خَتَن رسول الله ﷺ أخي ميمونة قال: والله ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا، ولا عبدًا ولا أمة، ولا شيئًا إلا بغلته البيضاء وسلاحه، وأرضًا تركها صدقة. وعن زِرّ بن حُبَيْش: أن إنسانًا سأل عائشة رضي الله عنها عن ميراث رسول الله ﷺ فقالت: عن ميراث رسول الله ﷺ تسألني؟ لا أبا لك! توفّي رسول الله ﷺ ولم يدع دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أمة ولا شاة ولا بعيرًا. وعن ابن عباس نحوه، قال: وترك دِرعه رَهْنًا عند يهوديّ بثلاثين صاعًا من شعير. وقد رُوي أنه ﷺ ترك يوم مات ثوبي حِبَرة وإزارًا عُمَانيًا، وثوبين صُحَاريين[1]، وقميصًا صُحاريًا، وجُبّة يمنية، وخَمِيصَة وكِساء أبيض، وقَلانس صغارًا لاَطِئة[2] ثلاثًا أو أربعًا، وإزارًا طوله خمسة أشبار، وملحفة مُوَرَّسة. ﷺ. هذا الذي أورده الشيخ محب الدين الطبريّ في مختصر السيرة.

ذكر ما نال أصحاب رسول الله ﷺ وآله من الحزن على فقده، ونبذة مما رَثَوْه به ﷺ

رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ثقل النبيّ ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكَرْبَ أبتاه، فقال لها ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». فلما مات ﷺ قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه جنة الفِرْدوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ينعاه، يا أبتاه من ربه ما أدناه! قال: فلما دفن قالت فاطمة: يا أَنَسُ أطابت أنفسكم أن تَحْثُو على رسول الله ﷺ التراب؟ وعن عِكرمة قال: لما توفّي رسول الله ﷺ بكت أمّ أيمن، فقيل لها أتبكين على رسول الله ﷺ؟ فقالت: أما والله ما أبكي عليه ألاّ أكون أعلم أنه ذهب إلى ما هو خير له من الدنيا، ولكن أبكي على خبر السماء انقطع. وعن عبد الرحمٰن بن سعد بن يربوع قال: جاء عليّ بن أبي طالب يومًا متقنعًا متحازنًا، فقال أبو بكر: أراك متحازنًا، فقال عليّ: إنه عَناني ما لم يَعْنِك، قال يقول أبو بكر: اسمعوا ما يقول! أَنْشُدكم اللّهَ أترون أحدًا كان أحزن على رسول الله ﷺ منّي؟ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: توفّي رسول الله ﷺ فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كاد بعضهم يُوَسْوِس.

---

(١) صحاريان: نسبة إلى صحار: وهي قصبة عمان، بلد عامر أهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه. . . (معجم البلدان).

(٢) اللاطئة: اللاصقة.

وعن القاسم بن محمد: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ذهب بصره فدخل عليه أصحابه يعودونه، فقال: إنما كنت أريدهما لأنظر بهما إلى رسول الله ﷺ، فأمّا إذ قبض الله نبّيه فما يَسُرّني أن ما بهما بظبي من ظِباء تَبَالة[1]. وأمّا عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها فإنها لازمت قبره ﷺ.

ورَثى رسولَ الله ﷺ جماعةٌ من أصحابه وعمّاته رضي الله عنهم فقال أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه: [من المتقارب]

أيا عينُ فأبكي ولا تَسأمِي ... وحُقَّ البُكاءُ على السَّيِّدِ
على خَيْرِ خِنْدِفَ عند البَلا ... ءِ أمْسَى يُغَيَّب في المُلْحَدِ[2]
فصلَّى المليكُ وليُّ العبادِ ... وربُّ البِلادِ على أحْمدِ
فكيف الحيَاةُ لِفقْدِ الحبيب ... وزَيْنِ المعَاشِر في المَشْهَدِ
فَلَيْتَ المماتَ لنا كلِّنا ... وكُنَّا جميعًا مع المُهْتَدِي

وقال أيضًا رضوان الله عليه: [من الكامل]

لمّا رأيتُ نَبِيّنا مُتَجَدِّلاً ... ضاقت عليَّ بعَرضِهِنّ الدُّورُ
وارْتَعْتُ رَوْعَةَ مُسْتَهام وَالِهِ ... والعَظْمُ مِنِّي واهِنٌ مكسورُ[3]
أعَتِيقُ وَيْحَكَ إنّ حِبّك قدْ ثَوَى ... وبقيتَ منفَردًا وأنتَ حَسِيرُ[4]
يا لَيْتَني مِن قبْلِ مَهْلَكِ صاحبي ... غُيِّبتُ في جَدَثٍ عليّ صُخورُ[5]
فَلَتَحْدُثَنّ بَدائعٌ من بعدِه ... تَعْيَا بهنّ جَوَانِحٌ وصُدورُ

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: [من الوافر]

أرِقْتُ فباتَ لَيْلِي لا يَزولُ ... ولَيْلُ أخي المصيبة فيه طُول
وأسْعَدنِي البكاءُ وذاك فيما ... أُصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عَظُمت مصيبتنا وجَلّت ... عَشيَّةَ قيل قد قُبِض الرسولُ
وأضحتْ أرضُنا مما عَرَاها ... تكادُ بنا جوانبُها تمِيلُ
فقدنا الوَحيَ والتنزيل فينا ... يَرُوح به ويغْدُو جِبْرَئيلُ
وذاك أحقُّ ما سالَتْ عليه ... نفوسُ الناس أو كَرِبَت تَسِيلُ

---

(١) تبالة: موضع باليمن خصب.
(٢) خندف: ولد إلياس بن مضر.
(٣) الروعة: الفزعة. المستهام: الذي أسقمه الهم. الوهن: الضعف.
(٤) الحسير: المتلهف.
(٥) الجدث: القبر.

نـبـيٌّ كـان يـجْـلُـو الـشـكّ عـنـهـا ... بـمـا يُـوحَـى إلـيـه ومَـا يَـقـولُ
ويَـهْـدِيـنـا فـلا نَـخْـشـى ضـلالاً ... عـلـيـنـا والـرسُـولُ لـنـا دَلِـيـلُ
أفـاطِـمُ إن جَـزِعْـتِ فـذاكَ عُـذْرٌ ... وإن لـم تَـجْـزَعِـي ذاك الـسّـبـيـلُ
فـقَـبْـرُ أبـيـك سـيّـدُ كـلِّ قَـبْـرٍ ... وفـيـه سَـيِّـدُ الـنّـاس الـرسـولُ

وقال عبد الله بن أُنيس[1]: [من الطويل]

تَطَاولَ لَيْلِي وٱعترتني القَوَارعُ ... وخَطْبٌ جليل للبليّة جامعُ
غداةَ نَعَى الناعي إلينا محمدًا ... وتلك التي تَسْتَكّ منها المَسامعُ[2]
فلو رَدَّ مَيْتًا قتْلُ نفسي قتلتُها ... ولكنّه لا يدفَعُ الموتَ دافعُ
فآليتُ لا آسَى على هُلْك هالكٍ ... من الناس ما أوْفى ثَبِيرٌ وفارعُ
ولكنّني باكٍ عليه ومُتْبِعٌ ... مُصِيبَتُه إنّي إلى الله راجِعُ
وقد قَبَض اللّهُ النبيّين قبلَه ... وَعادٌ أصيبَت بالرُّزَى والتّبابِعُ[3]
فيا ليتَ شِعْري من يقوم بأمرنا ... وهل في قريش من إمام يُنازعُ
ثلاثَةُ رهْط من قريش هُمُ هُمُ ... أزِمَّةُ هذا الأمر واللّهُ صانِعُ[4]
عَليٌّ أو الصِّدّيقُ أو عُمَرٌ لها ... وليس لها بعد الثلاثة رابِعُ
فإن قال مِنَّا قائلٌ غيرَ هذه ... أبَيْنا وقلنا اللّهُ راءٍ وسامعُ
فيا لَقُريشٍ قَلِّدوا الأمرَ بعضَهم ... فإنّ صحيحَ القول للناسِ نافعُ
ولا تُبْطِئوا عنها فُوَاقًا فإنّها ... إذا قُطِعت لم تُمْن فيها المطامِعُ[5]

وقال حسان بن ثابت الأنصاريّ: [من البسيط]

آلَيْتُ حِلْفَةَ بَرٍّ غيرِ ذي دَخَلٍ ... مِنّي ألِيّةَ حقٍّ غيرِ إفْنَادِ[6]
تالله ما حَمَلَتْ أنثى ولا وَضَعَت ... مِثْلَ النّبي نَبيِّ الرَّحْمَة الْهَادِي
ولا مَشَى فَوْق ظهر الأرْض من أحد ... أوْفى بِذِمَّة جارٍ أو بِمِيعَادِ
مِن الذي كان نُورًا يُسْتَضَاء به ... مُبَارَكَ الأمْر ذا حَزْمٍ وإرْشَادِ

---

(١) عبد الله بن أنيس: هو من رجال برك بن وبرة أخي كلب بن وبرة من قبائل قضاعة؛ ورجال برك كانوا حلفاء لبطن من جهينة، فحالف ذلك البطن بني سلمة من الأنصار. وكان عبد الله يلقب بذي المخصرة. والتخصر: أن يأخذ بيده عصا يتكىء عليها. (الاشتقاق).
(٢) تستك منه المسامع: تصمّت.
(٣) التبابع: ملوك اليمن جمع تبع.
(٤) أزمة: جمع زمام.
(٥) الفواق من الزمن: مقدار ما بين الحلبتين.
(٦) الدخل: الخديعة والمكر. الإفناد: الكذب.

مُصدِّقًا للنّبيين الأُلى سلَفُوا وأبْذَلَ الناسِ للمعروف لِلْجادِي(١)
خَيْرَ البريَّة إنّي كنتُ في نَهَرٍ جارٍ فأصبحتُ مثل المُفْرَدِ الصَّادِي(٢)
أمسَى نِساؤك عَطَّلْنَ البيوتَ فما يَضْرِبْن خَلْفَ قَفا سِتْرٍ بأوْتادِ
مثلَ الرَّوَاهب يَلْبَسْنَ المُسُوحَ وقد أيقنّ بالبُؤس بعد النِّعمة البَادِي(٣)

وقال أيضًا: [من الكامل]

ما بَالُ عَيْنكَ لا تنام كأنّما كُحِلَتْ مآقِيها بكُحْلِ الأَرْمَدِ
جَزَعًا على الْمَهْديِّ أصبحَ ثاوِيًا يا خيرَ مَن وَطِىء الحصى لا تبْعُدِ
يا وَيْحَ أنْصارِ النبيِّ ورَهْطِه بعد المغَيَّب في سَوَاءِ المُلْحَدِ
جنْبِي يَقِيك التُّرْبَ لَهْفِي ليْتَنِي غُيِّبْتُ قبلَك في بَقِيعِ الغَرْقَدِ
يا بِكْر آمِنَةَ المبارَك ذِكْرُه وَلَدَته مُحْصَنَةٌ بسَعْد الأسْعُدِ(٤)
نُورًا أضاء على البَرِيّة كلُّها من يُهْدَ للنّورِ المبارَكِ يَهْتَدِي
أأقيمُ بعدَك بالمدينة بيْنَهم يا لَهْفَ نفسي لَيْتَنِي لم أُولَدِ
بأبِي وأمّي من شَهدتُ وَفاته في يوم الاثْنين النّبيُّ المهتَدِي
وظَلِلْتُ بعد وَفاته مُتَبلِّدًا يا ليْتَني صُبِّحتُ سُمَّ الأسْوَدِ(٥)
أو حَلَّ أمرُ الله فينا عاجلاً في رَوْحة من يومنا أو في غَدِ
فتقوم سَاعتُنا فنلْقَى سَيِّدًا مَحْضًا مضاربُه كريمَ المَحْتِدِ(٦)
يا ربِّ فأجمعنا معًا ونبيَّنا في جنة تُفْقِي عُيُونَ الحُسَّدِ(٧)
في جَنّة الفِرْدَوْسِ فاكْتُبْها لنا يا ذَا الجَلالِ وذَا العُلاَ والسُّؤْدَدِ
واللّهِ أسْمَعُ ما حَيِيتُ بهالكٍ إلاَّ بَكَيْتُ على النبيّ محمّدِ
ضاقت بالأنْصار البلادُ فأصبحوا سُودًا وجُوهُهم كَلَون الإثْمدِ
ولقد ولَدْنَاه وفِينَا قبْرُه وفُضُولُ نعمتِه بِنَا لم يُجْحدِ

---

(١) الجادي: طالب الجدوى، وهي العطية.
(٢) الصادي: من الصدى، وهو العطش الشديد.
(٣) البادي: أي الظاهر.
(٤) المحصنة: العفيفة. سعد السعود: منزلة من منازل القمر، والمراد اليمن والبركة.
(٥) المتبلد: المتحير المتلهف. الأسود: الحية العظيمة.
(٦) مضاربه: أصله وقومه وأبوه وشرفه. المحتد: الأصل.
(٧) تفقي: تقلع.

والله أهــداهُ لــنــا وهَــدَى بــه ... أنـصـارَه فـي كـلِّ سـاعَـةِ مَـشْـهَـدِ
صَـلّـى الإلـهُ ومَـنْ يَـحُـفُّ بـعـرشِـهِ ... والـطـيِّـبون عـلـى الـمـبارَك أحْـمَـدِ

ووقفت فاطمة الزَّهْراء رضي الله عنها على قبره ﷺ فقالت:

مـا ضَـرّ مَـن قَـدْ شَـمّ تُـرْبَـةَ أحْـمَـد ... ألا يَـشـمّ مَـدَى الـزّمـان غَـوَالِـيـا[1]
صُـبَّـتْ عـلـيّ مَـصَـائـبٌ لَـوْ أنَّـهـا ... صُـبَّـت عـلـى الأيَّـام صِـرْنَ لـيـالِـيَـا

وقالت رضي الله عنها: [من الكامل]

اغْـبَـرّ آفـاقُ الـسّـمـاءِ وكُـوِّرَتْ ... شَـمْـسُ الـنّـهـارِ وأظْـلَـم الـعَـصْـرَانِ
والأرضُ مِـنْ بـعْـدِ الـنـبـيّ كـئِـيـبَـةٌ ... أسَـفًـا عـلـيـه كَـثِـيـرةُ الـرَّجَـفَـانِ
فـلْـتَـبْـكِـهِ شَـرْقُ الـبِـلادِ وغَـرْبُـهـا ... وَلْـتَـبْـكِـهِ مُـضَـرٌ وكُـلُّ يَـمَـانِـي
ولـيـبْـكِـهِ الـطَّـوْدُ الـمـعَـظّـم جَـوُّه ... والـبَـيْـتُ ذو الأسْـتَـارِ والأرْكَـانِ[2]
يـا خَـاتَـم الـرُّسْـلِ الـمـبـارَك صِـنْـوُه ... صَـلّـى عَـلَـيْـكَ مُـنَـزِّلُ الـفُـرْقـانِ[3]
نـفْـسـي فِـدَاؤك مـا لِـرأسِـك مَـائـلاً ... مـا وَسَّـدُوك وِسَـادَةَ الـوَسْـنَـانِ

وقالت صفية بنت عبد المطلب: [من المتقارب]

أفـاطِـمُ بَـكِّـي ولا تَـسْـأَمِـي ... بـصُـبْـحِـك مـا طـلـع الـكَـوْكَـبُ
هـو الـمَـرْءُ يُـبْـكَـى وحُـقَّ الـبُـكَـا ... عـلـى الـمـاجِـدِ الـسَّـيـدُ الـطـيِّـبُ[4]
فـأوْحَـشَـتِ الأرضُ مِـن فَـقْـدِه ... وأيُّ الـبَـرِيَّـةِ لا يُـنْـكَـبُ
فـمـا لِـيَ بـعْـدَك حـتـى الـمَـمَـا ... تِ إلاّ الـجَـوَى الـدّاخـلُ الْـمُـنْـصِـبُ[5]
فـبَـكِّـي الـرَّسـولَ وحُـقّـتْ لـه ... شُـهُـودُ الـمـديـنَـةِ والـغُـيَّـبُ
لَـتَـبْـكِـيـكَ شَـمْـطـاءُ مَـضْـرورَةٌ ... إذا حُـجِـبَ الـنـاسُ لا تُـحْـجَـبُ[6]
لَـيَـبْـكِـيـكَ شـيْـخٌ أبـو وِلْـدَة ... يـطـوف بـعَـقْـوَتـهِ أشْـهَـبُ[7]
ويَـبْـكِـيـك رَكْـبٌ إذا أرْمَـلُـوا ... فـلـم يُـلْـفَ مـا طَـلَـبَ الـطُّـلَّـبُ[8]

---

(١) الغواليا: جمع غالية، وهي أخلاط من الطيب.
(٢) الطود: الجبل. والمراد بالجوّ: الأودية.
(٣) الصنو: المثل.
(٤) الماجد: الشريف الخيّر.
(٥) المنصب: المتعب.
(٦) المضرورة: التي أصيبت بالضرر.
(٧) العقوة: الساحة. الأشهب: الجدب والفقر.
(٨) أرملوا: نفد زادهم.

وتَبكي الأبَاطِحُ مِن فَقْدِه ... وتَبكيه مَكّةُ والأخْشَبُ(١)
فعيْنيَ مَا لكَ لا تَدْمَعِينَ ... وحُقَّ لدَمْعِكِ يُسْتَسْكَبُ

وقالت صفية أيضًا: [من الخفيف]

عَيْنِ جودِي بدَمْعةٍ تَسْكابِ ... للنبيّ المطهَّر الأوّابِ
عين مَن تنْدُبين بعد نَبيٍّ ... خَصَّه الله ربُّنا بالكِتابِ
فاتحٌ خاتِمٌ رؤوفٌ رحيمٌ ... صادِقُ الْقِيلِ طيِّب الأثوابِ
مُشْفِق ناصِح شفِيق علينا ... رحمة من إلَهِنَا الوَهّابِ
رحمةُ اللّهِ والسّلامُ عليه ... وجزاه المليكُ حسنَ الثوابِ

وقالت أرْوَى بنت عبد المطلب: [من الوافر]

ألاَ يا عيْنِ ويْحَكِ أسعِدِيني ... بدَمْعِك ما بقيتِ وطاوِعيني
ألاَ يا عيْنِ وَيحَكِ واسْتَهلِّي ... على نُور البلادِ وأسْعِدِيني
فإن عَذَلتْكِ عاذلةٌ فقُولِي ... عَلاَمَ وفِيمَ ويْحَكِ تعْذِلينِي(٢)
على نُورِ البلاد معًا جميعًا ... رسولِ الله أحمد فاتْرُكيني
فإلاَّ تُقْصِري بالعَذْل عنّي ... فلُومِي مَا بَدَا لَكِ أو دَعِيني
لِأَمْرٍ هَدَّنِي وأذَلّ رُكْنِي ... وشَيَّبَ بعدَ جِدَّتها قُرُوني

وقالت عَاتِكَةُ بنت عبد المطلب: [من الكامل]

يا عينِ جُودِي ما بَقيتِ بعَبْرةٍ ... سَحًا على خيرِ البريّةِ أحمدِ
يا عيْن فاحتَفِلِي وسُحِّي واسْمَحِي ... فابْكِي على نور البلادِ محمّدِ(٣)
أنَّى لَكِ الوَيلاتُ مثلُ محمّدِ ... في كُلِّ نائِبَةٍ تَنُوبُ وَمَشْهَدِ
فابْكِي المبارَكَ والموفّقَ ذَا التُّقَى ... حامِي الحقيقَةِ ذا الرّشاد المُرْشِدِ
من ذَا يَفُكّ عن المُغَلّل غُلَّهُ ... بعد المُغَيَّب في الضّريح المُلْحَدِ
أمْ مَنْ لكلِّ مُدَفَّعٍ ذي حاجة ... ومُسلسَلٍ يَشْكو الحديد مُقَيَّدِ(٤)
أم مَنْ لِوَحي الله يَنْزِلُ بيننا ... في كلِّ مُمْسَى ليْلةٍ أو في غَدِ
فعليك رحْمَةُ رَبّنا وسلامُه ... يا ذا الفَوَاضِلِ والنّدَى والسُّؤدَدِ

---

(١) الأخشب: جبل مشرف على مكة.
(٢) العاذلة: اللائمة.
(٣) اسمحي: جودي.
(٤) المدفع: الفقير الذليل.

وقالت هند بنت أثاثة بن عَبّاد بن المطّلِب بن عبد مَنَاف أخت مِسْطَح: [من الوافر]

أشَابَ ذوَائبي وأذَابَ رُكْنِي ... بُكَاؤكِ فاطِمُ المَيْتَ الفقيدَا[1]

فأعطيْتَ العَطاء فلم تُكَدّرْ ... وأخْدمْتَ الوَلائِدَ والعَبِيدَا[2]

وكُنتَ ملاذَنا في كلِّ لِزْبٍ ... إذا هَبَّت شآمِيَةٌ بَرُودَا[3]

وإنّك خَيرُ من رَكِبَ المَطايَا ... وأكْرَمُهم إذا نُسِبُوا جُدُودَا

رسولُ الله فارَقَنا وكُنّا ... نُرَجّي أن يكون لنا خُلُودَا

أفاطِم فاصْبِرِي فلقد أصابَتْ ... رزِيّتُكِ التّهَائِمَ والنُّجُودَا[4]

وأهلَ البَرِّ والأبْحَارِ طُرًّا ... فلم تُخْطِئ مصيبتُه وَحِيدَا

وكان الخَيرُ يُصْبِح في ذُرَاهُ ... سَعيدَ الجَدِّ قد وَلَد السُّعُودَا[5]

ورثاه ﷺ غير هؤلاء مما لو ٱستَقْصَيْنا ذلك لطال، واتّسَع فيه المجال، ومَراثيه ﷺ ومدائحه كثيرةٌ تزداد في كل عصر، وتَتَضاعف في كلِّ دهر، صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا.

تمّ الجزء الثامن عشر، ويليه الجزء التاسع عشر،
وأوله: الباب الثاني من القسم الخامس في أخبار الخلفاء الراشدين

---

(١) الركن: الجانب الأقوى.
(٢) الولائد: الجواري.
(٣) اللزب: الطريق الضيق.
(٤) التهائم: المنخفضات من الأرض. والنجود: المرتفعات.
(٥) الجد: الحظ.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

١٩ - ٢٠

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

الأستاذ عماد علي حمزة

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9

9782745138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهمَّ يسّر ولا تعسّر، واختِمْ بخيراتك إِنَّك على كل شيء قدير، وصلَّى الله على سيّدنا محمد.

الباب الثاني
من القسم الخامس
في أخبار الخلفاء الراشدين
أَبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعليّ بن أَبي طالب، وأَيّام الحسن بن عليّ رضوان الله عليهم أَجمعين

ذكر خلافة أبي بكر الصديق وشيء من أخباره وفضائله

هو أبو بكر، واسمه عبدُ الله بن أبي قُحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة بن كعْب بن لؤيّ بن غالب، ومجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ عند مرّة بن كعب. وأُمه سَلْمى - وكنيتها أُمّ الخير - بنت صخر بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة، وهي بنت عمّ أبيه.

وكان رضي الله عنه يُنعَت بعَتِيق، وقد اختُلف في سبب نعته بذلك؛ فقال اللَّيث بن سعد[1]، وجماعة معه: إنَّما قيل له عَتِيق لجماله وعَتاقة وجهه.

---

(١) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمٰن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريًا سخيًا. . . (وفيات الأعيان ٤: ١٢٧).

وقال مصعب الزُّبيريّ وطائفة من أهل النَّسب: إنَّما سُمّيَ عَتيقًا لأنَّه لم يكن في نسبه شيء يُعاب.

وقال آخرون: كان له أخوان: أحدهما يسمّى عَتِيقًا، والآخر عُتيْقًا؛ مات عَتيق قبله، فسمِّيَ باسمِه.

ورُويَ عن مُوسى بن طلْحة، قال: سألتُ أبي طلحة بن عبيد الله، قلت له: يا أبت، بأيّ شيء سُمِّيَ أبو بكر عتيقًا؟ قال: كانت أمّه لا يعيش لها ولد، فلمّا ولدَتْهُ استقبلت به البيت، وقالت: اللهمَّ إنّ هذا عتيقُك من الموت فهبْه لي.

وقال آخرون: إنّما سُمّي عَتِيقًا لأنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ سرّه أن ينظُر إلى عَتِيقٍ مِن النّار فلْينظُرْ إلى هذا»، فسمّيَ عتيقًا بذلك.

وروي عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: إنّي لفِي بيت رسول الله ﷺ، وأصحابه بالفِناء؛ وبينهم الستْر، إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرّه أن ينظر إلى عَتِيقٍ من النار فلْيَنْظُر إلى هذا».

قالت: وإنّ اسمه الذي سمّاه أهلُه لَعبد الله بن عثمان، وسمِّيَ رضي الله عنه بالصِّدّيق؛ لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ في كلّ ما جاء به.

وقيل: بل قيل له الصديق؛ لتصديقه رسولَ الله ﷺ في خبر الإسراء.

وقال أبو مِحْجَن الثقفيّ(١) في أبي بكر رضي الله عنه: [من الطويل]

وَسُمِّيتَ صِدِّيقًا، وكلُّ مهاجِرٍ ... سواك تسَمّى باسْمِه غير منكَرِ
سَبَقْتَ إلَى الإِسْلاَمِ، والله شاهدٌ، ... وكنتَ جليسًا بالعريش المشهَّرِ
وبالغار إذ سُمّيتَ بالغارِ صاحبًا ... وكنت رفيقًا لِلنّبيّ المطهّرِ

يعني بقوله: «بالعريش» في يوم بدر؛ لأنه رضي الله عنه كان معَ رسول الله ﷺ في العرِيش؛ لم يكن معه فيه غيرُه. وبقوله:

* وبالغار إذْ سُمّيت بالغار صاحبا *

قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

* * *

(١) هو من ثقيف وكان مولعًا بالشراب مشتهرًا به وكان سعد بن أبي وقاص حبسه فيه. ولما كان يوم القادسية أطلقته أم ولد لسعد بعد أن أخذت عليه المواثيق، فأبلى بلاءً حسنًا، فقال سعد: «لولا أن أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبو محجن...».. (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ولنبدأ من أخباره رضي الله عنه بذكر شيء من فضائله، والله المستعان، وعليه التّكْلاَن.

ذكر نبذة من فضائل أبي بكر الصديق ومآثره في الجاهلية والإسلام

كان رضي الله عنه في الجاهلية وجيهًا، رئيسًا من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية ـ والأشناق الدِّيات ـ فكان إذ حمل شيئًا قالت فيه قريش: صدِّقوه، وامضُوا حَمالته[1] وحَمالةَ مَنْ قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيرُه خذلوه ولم يصدِّقوه.

وكان رضي الله عنه ممّن حرّم الخمر على نفسه، وتنزَّهَ عنها في الجاهليّة، وكانت أشراف قريش تختلف إليه وتزورُه، وتستشيره وتقتدي برأيه، وتتربص في الأُمور المعضلة إذا غاب إلى أن يقدَم، ويدلُّ على ذلك ما قدّمناه في أوائل السّيرة النبويّة من خبره مع الشيخ الكبير الأزديّ في سفره إلى اليمن، وما بشّره الأزديّ به من مبعث رسول الله ﷺ، وأنّه يعاونه على أمرِه، وأنّ أبا بكر رضي الله عنه لمّا رجع إلى مكّة، جاءه شيْبة بنُ ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البخْترِيّ[2]، وعُقْبة بن أبي مُعَيط، ورجالاتُ قريش مسلمين عليه. وقولهم له: حدث أمر عظيم؛ هذا محمد بن عبد الله يزعم أنه نبيّ أرسله الله إلى الناس، ولولا أنت ما انتظرنا به؛ فإذ جئت فأنت النُّهية، وقد تقدم ذكر هذه القصة في المبشرات برسول الله ﷺ.

ومثل ذلك لا ينتَظرُ به إلا مَنْ لا يمكن أن يُقطع الأمر دونه. وفي هذا أقوى دَلالة على فضله وشرَفه، ومكانته لديهم. وكان أنسبَ قريش لقريش، وأعلم قريش بما فيها من خير وشر.

* * *

وأما فضائله رضي الله عنه ومناقبه في الإسلام فكثيرة جدًا، قد أبانه رسول الله ﷺ بفضائل ومناقب، وخصّه بمزايا لم يخصّ بها غيرَه، وذكره في مواطن لم يُذكر فيها سواه.

---

(١) الحمالة: الدية.

(٢) أبو البختري: وهو وهب بن وهب، والبختري منسوب إلى التبختر في المشي.. وهو من رجال بني عبد العزى بن قصي.. (الاشتقاق لابن دريد).

وقد تقدم من ذلك جملة في أثناء السيرة النبوية فنشير الآن إليها، ونذكر ما سواها ممّا تقف عليه إن شاء الله تعالى.

فمن فضائله التي تقدم ذكرها سابقته في الإسلام، وأنّه رضوان الله عليه أول مَنْ أسلم من الذكور، وأول منْ صلّى مع رسول الله ﷺ.

روى أبو عمر بن عبد البرّ بسنده إلى الشعبيّ[1]، قال: سألت ابنَ عباس - أو سئل ابنُ عباس رضي الله عنهما: أيّ الناس كان أوّلَ إسلامًا؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت: [من البسيط]

إذا تذكّرْتَ شَجْوًا مِنْ أخي ثقةٍ ... فاذكُرْ أخَاكَ أبا بكرٍ بما فَعلا
خيرَ البرية، أتقاها وأعدَلَها ... بعد النبيّ، وأوفاها بما حملا
الثانيَ التاليَ المحمودَ مشهدُهُ ... وأوّلَ الناس حقًّا صدّق الرُّسُلا

ويروى أن رسول الله ﷺ، قال لحسان بن ثابت: هل قلت في أبي بكر شيئًا؟ قال: نعم؛ وأنشده هذه الأبيات، وفيها بيت رابع، وهو:

وثانيَ اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدوّ به إذ صعّدوا الجبلا

فسرّ رسول الله ﷺ، وقال: «أحسنت يا حسان».

وروي أنّ فيها بيتًا خامسًا، وهو:

وكان حِبَّ رسول الله إذ علموا ... خير البرية لم يَعْدِل به رجلا

ومما يؤيد أنه رضوان الله عليه أول من أسلم ما رواه الجَرِيري، عن أبي نضرة، قال: قال أبو بكر لعليٍّ رضي الله عنهما: أنا أسلمت قبلك...، في حديث ذكره، فلم ينكر عليه.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه فَدَى رسول الله ﷺ بنفسه.

رُوِي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: أنها قالت، وقد قيل لها: ما أشدُّ ما رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قُعودًا في المسجدِ الحرام، فتَذَكَّرُوا رسولَ الله ﷺ، وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَقهم،

---

(١) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار.. وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم.. (وفيات الأعيان ٣: ١٢).

فقالوا: ألستَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فتشبّثُوا به بأجمعهم، فأتى الصّرِيخُ[١] إلى أبي بكر، فقيل له: أدرِك صاحبَك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد، فوجد رسولَ الله ﷺ والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم! ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]! فلهوْا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا يضربونه. قالت: فرجع إلينا فجعل لا يمسّ شيئًا من غدائِره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

ومنها، أنه رضي الله عنه أنفق على رسول الله ﷺ ما كان يملكه، طيِّبةً بذلك نفسُه.

روي عن هشام بن عُروة[٢]، عن أبيه، قال: أسلمَ أبو بكر وله أربعون ألفًا، أنفقها كلَّها على رسولِ الله ﷺ، وفي سبيل الله. وقال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مالٌ مثل ما نفعنِي مالُ أبي بكر».

ومن رواية أُخرى عنه قال: أسلم أبو بكر يوم أسلم وله أربعون ألف دينار، وأعتق سبعة كلُّهم يعذَّب في الله، أعتق بلالاً، وعامر بن فُهَيرة، وزنِّيرة، والنَّهْدية وابنتها، وجارية بني نوفل، وأم عُبَيس. وقد تقدّم خبرهم في السيرة النبوية.

ومنها، أنه رضي الله عنه أسلم على يديه بدعائِه نصف العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم: الزُّبير بن العوّام، وعثمان بن عفَّان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمٰن بن عوْف، وسعد بن أبي وقَّاص، رضوان الله عليهم أجمعين.

وأسلم أبواه، وصحبا رسولَ الله ﷺ، وأسلمَ بنوه كلُّهم، وصحبَ رسول الله ﷺ هو وأبوه أبو قُحافة، وابنُه عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وابن ابنه محمد بن عبد الرحمٰن، وليست هذه المنقبة لأحد من الصحابة غيره.

ومن ذلك أنه رضي الله عنه كان مع رسولِ الله ﷺ في الغار، ورفيقه في هجرته، وناهيك بهما! وسمّاه عزّ وجل في كتابه: «صاحبه». فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) الصريخ: الاستغاثة، أو المغيث، أو المستغيث وهو المراد هنا.

(٢) هشام بن عروة: هو أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي.. وكان أحد تابعي المدينة المشهورين المكثرين في الحديث، المعدودين من أكابر العلماء وجلّة التابعين، وهو معدود في الطبقة الرابعة من أهل المدينة رضي الله عنهم.. (وفيات الأعيان ٦: ٨٠).

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه؛ لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلا الغار.

وعن حبيب بن أبي ثابت في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٤٠]. قال: عَلَى أبي بكر؛ فأمّا النبيّ ﷺ فقد كانت عليه السّكِينَة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أنت صاحبِي على الحوض، وصاحبِي في الغار».

وعن سُفيان بن عُيَيْنَة، قال: عاتب الله عزّ وجلّ المسلمين كلّهم في رسول الله ﷺ إلاّ أبا بكر، فإنه خَرَج من المعاتبة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن فضائله ومزاياه رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قدمه للصّلاة بالمسلمين في حياته، وأمر بسدّ الأَبواب الشارعة إلى المسجد، إلاّ باب أبي بكر، وقد تقدّم ذلك.

ومنها ما روي عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «رأيت في المنام أنّي وُزِنْت بأُمّتي فرجَحْت، ثم وُزِن أبو بكر فرجَحَ، ثمّ وزن عمر فرجح». وهذا دليل على أنه رضوان الله عليه أرجح من الأُمة أكثر من مرتين، فإنه رجح الأُمة، وعمر رضي الله عنه فيهم، ورجح عمر الأُمة. ورؤيا رسول الله ﷺ حقٌّ لا محالة.

ورُوِي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما سابقت أبا بكر إلى خير قطُّ إلاّ سبقني إليه؛ ولودِدْت أني شعْرة في صدر أبي بكر.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ النبيّ ﷺ أمر بالصدقة، قال عمر بن الخطاب وكان عندي مال كثير. فقلت: والله لأُفضلَنّ أبا بكرٍ هذه المرّة، فأخذتُ نصف مالي وتركت نصفَه، فأتيت به النبيّ ﷺ، فقال: «هذا مال كثير، فما تركتَ لأَهلك»؟ قال: تركتُ لهم نصفَه؛ وجاء أبو بكر بمال كثير، فقال رسول الله ﷺ: «ما تركتَ لأهلك»؟ قال: تركتُ لهم اللّهَ ورسولَه.

وفي رواية: قلت: لا أُسابقك إلى شيء أبدًا.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥، ٦]؛ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ، وعنده أبو بكر الصديق، وعليه عَبَاءة قد خَلَّها[١] في صدره بخلال، فنزل عليه جبريل، فقال: يا محمد، ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قدْ خَلَّها في صدره بخلال! فقال: «يا جبريل، أنفق ماله عليّ قبل الفتح»، قال: فإنَّ الله عزَّ وجل يقرأُ عليك السّلام، ويقول: قل له: أراضٍ أنت عليّ في فقرك هذا، أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أسخط على ربّي! أنا عن ربّي راض، أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ، قال: هبط عليَّ جبريل وعليه طِنْفِسة[٢]، وهو متخلّل بها، فقلت: يا جبريل، لِمَ نزلْتَ إليّ في مثل هذا الزّيّ؟ قال: إنَّ الله أمر الملائكة أن تتخلَّل في السماء كتخلل أبي بكر في الأرض.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أصبح منكم صائمًا اليوم؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «مَنْ أطعم اليوم مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «مَنْ عاد اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا، فقال: «مَنْ شهد اليوم منكم جنازة؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعت هذه الخِصال في رجلٍ قطّ إلاّ دخل الجنة».

وعن ابن أبي أوفَى، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ، فأقبل على أبي بكر وقال: «إني لأعرف اسم رجلٍ واسم أبيه، واسم أُمّه؛ إذا دخل الجنَّة لم تبق غرفةٌ من غرفها، ولا شُرفة من شُرَفها إلا قال: مرحبًا مرحبًا!»، فقال سَلْمان: «إن هذا لغيرُ خائب»، فقال: «ذاك أبو بكر بن أبي قُحافة».

وعن سليمان بن يسار[٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعُمر خيرُ الأرض إلاّ أن يكون نبيًا».

قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «الخير ثلاثمائة وستون خَصْلة، إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا جعل فيه واحدة منهنّ يدخل بها الجنة»، قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، هل فيّ شيء منهنَّ؟ قال: «نعم، جميعًا من كلٍّ».

---

(١) المراد بقوله خلها أي ربطها.

(٢) الطنفسة: البساط؛ أو النمرقة فوق الرحل.

(٣) سليمان بن يسار: هو أبو أيوب ـ ويقال أبو عبد الرحمٰن، ويقال أبو عبد الله ـ سليمان بن يسار مولى ميمونة زوجة رسول الله ﷺ؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة... وكان سليمان المذكور أخا عطاء بن يسار، وكان عالمًا ثقة عابدًا ورعًا حجة... (وفيات الأعيان ٢:٣٩٩).

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل فأخذ بيدِي، فأراني باب الجنَّة الذي تدخل منه أُمّتي، فقال أبو بكر: وددْت أني كنت معك حتى أنظر إليه! فقال رسولُ الله ﷺ: «إنك يا أبا بكر أوّلُ مَنْ يدخل الجنَّة من أُمّتي».

وعن أبي أُمامة قال: استطال أبو بكر ذات يوم على عُمر، فقام عمر مغضَبًا، فقام أبو بكر فأخذ بطرف ثوبه، فجعل يقول: ارضَ عني، اعفُ عنِّي، عفا الله عنك! حتى دخل عمر الدّار وأغلق الباب دون أبي بكر ولم يكلِّمه؛ فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فغضب لأبي بكر، فلمَّا صلَّى الظهر جاء عُمر، فجلس بين يديه، فصرف النبيّ ﷺ وَجْهَه عنه، فتحوّل يمينًا فصرف وجهَه عنه، فلمّا رأى ذلك ارتعدَ وبكَى، ثم قال: يا رسولَ الله، قد أرى إعراضَك عني، وقد علمت أنك لم تفعل هذا إلاّ لأَمرٍ قد بلغك عني، موجِدة عليّ في نفسك، وما خير حياتي وأنت عليّ ساخط، وفي نفسك عليّ شيء! فقال: «أنت القائل لأَبي بكر كذا وكذا، ثم يعتذر إليك فلا تقبل منه!» ثم قام النبيّ ﷺ، فقال: «إنَّ الله عزّ وجل بعثني إليكم جميعًا، فقلتم: كذبتَ، وقال صاحبي: صدقتَ؛ فهل أنتم تاركون لي صاحبي! فهل أنتم تاركون لي صاحبي! فهل أنتم تاركون لي صاحبي!» ثلاثًا. فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد نبيًا. فقام أبو بكر فقال: والله لأَنا بدأْتُه، ولأَنا كنت أظلم، فأقبل عمر على أبي بكر فقال: ارض عني رضي الله عنك، فقال أبو بكر: يغفر الله لك! فذهب عن رسول الله ﷺ غضبُه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد هممتُ أن أبعثَ رجالاً من أصحابي إلى ملوك الأرض يدعونَهُم إلى الإِسلام كما بَعث عيسى ابن مريم الحواريّين». قالوا: يا رسول الله، أفلا تَبعث أبا بكر وعمر فهما أبلغ! فقال: «لا غنى لي عنهما؛ إنما منزلتهما من الدِّين منزلة السمع والبصر من الجسد».

وعن أبي أروى الدَّوْسِيّ، قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ جالسًا، فطلع أبو بكر وعمر، فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ لله الذي أيّدَني بكما».

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «يا أبا بكْر، إنَّ الله أعطاني ثواب مَنْ آمن بي منذ خَلق آدم إلى أن تقوم الساعة، وإن الله أعطاك يا أبا بكر ثواب مَنْ آمن بي منذ بعثني إلى يوم تقوم الساعة».

وعن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لي وزيران من أهل السماء: جبريل وميكائيل، ووزيران من أهل الأرض: أبو بكر وعمر».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ النبيّ ﷺ قال لأَبي بكر وعمر: «ألا أُخبركما بمثَلِكما من الملائكة، ومثلِكما في الأنبياء؟ أمّا مثلك أنت يا أبا بكر في الملائكة فمثل ميكائيل، ينزل بالرحمة، ومثلُك أيضًا في الأنبياء كمثَل إبراهيم إذْ كذَّبه قومه، وصنعُوا به ما صنعوا، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [نوح: ٢٦]. ومثلُك يا عُمر في الملائكة كمثل جبريل، ينزل بالبأس والشدة والنقمة على أعداء الله؛ ومثلك في الأنبياء كمثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وعن عمّار بن ياسر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أتاني جبريل آنفًا، فقلت له: يا جبريل حدّثني بفضائل عمر بن الخطاب في السماء. فقال: يا محمد، لو حدَّثتك بفضائل عمر بن الخطاب في السّماء مثل ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ما نفدت فضائل عمر، وإنَّ عُمرَ حسنة من حسنات أبي بكر».

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، قال: هبط جبريل على النبيّ ﷺ فوقف ثلاثًا يناجيه؛ فمرّ أبو بكر الصديق فقال جبريل: يا محمّد، هذا ابن أبي قُحافة؛ قال: يا جبريل، وتعرفونه في السماء؟ قال: إي والذي بعثك بالحقّ؛ لهو أشهر في السماء منه في الأرض، وإن اسمه في السماء لَلْحَليم».

وعن ابن عُمر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لَرَجح».

وعن عبد الرحمٰن بن أبي بكر؛ أنَّه كان يوم بدر مع المشركين، فلمّا أسلم قال لأبيه: لقد اهتدفْتَ[1] لي يوم بدر، فصَرِفت، عنك ولم أقتلك؛ فقال أبو بكر: لكنَّك لو اهْتدفت لي لم أنصرف عنك.

وعن ابن غَنْم، أنّ النبيّ ﷺ قال لأبي بكر، وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمّد، إنّ الله يأمرك أن تستشير أبا بكر».

وعن أنس قال: كان رسولُ الله ﷺ خرج إلى المسجد ومعه المهاجرون والأنصار، ما أحد منهم يرفع رأْسه من حبوته إلا أبو بكر وعمر، فإنَّه كان يبتسم إليهما ويبتسمان إليه.

(١) اهتدفت: أي جعلت عرضة للطعن.

وعن الزُّبير بن العوّام، قال: قال رسولُ الله ﷺ في غزوة تَبُوك: «اللَّهمّ بارك لأُمّتي في أصحابي، فلا تسلبهم البركة، وباركْ لأصحابي في أبي بكر، فلا تسلبه البركة، واجمعْهم عليه، ولا تشتّت أمره؛ فإنه لم يزل يؤثر أمرك على أمره. اللهم أعِزْ عمر بن الخطاب، وصبّر عثمان بن عفّان، ووفّق عليّ بن أبي طالب، وثبّت الزبير، واغفر لطلحة، وسلّم سعدًا، ووقّر عبد الرحمٰن، وألحق بي السَّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان.

وقيل: لمّا قدم رسولُ الله ﷺ من حَجّة الوداع صعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يأيّها الناس، إنَّ أبا بكر لم يسؤني قطّ، فاعرفوا ذلك له. يأيّها الناس، إنّي راضٍ عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمٰن بن عوْف والمهاجرين الأولين، فاعرفوا ذلك لهم. يأَيها الناس، إنَّ الله قد غفر لأَهل بدر والحُديبِيَة. يأيّها الناس، احفظوني في أحبابي وأصهاري وفي أصحابي، لا يطلبنّكم الله بمظلمةِ أحدٍ منهم، فإنها ليست فيما يوهب. يأَيّها النّاس، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، إذا مات الرجل، فلا تقولوا فيه إلا خيرًا»، ثم نزل ﷺ.

وعن عَمْرو بن العاص، أنّه أتى النبيّ ﷺ، فقال: أيّ الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: من الرجال، قال: أبوها. قال: ثم مَنْ؟ قال: عمر.

وعن عبد الله بن أبي أوفى، قال: كنّا مع النبيّ ﷺ، فقال: «إنّي مشتاق إلى إخواني»، فقلنا: أوَلَسْنا إخوانَك يا رسول الله! قال: «كلاّ، أنتم أصحابي وإخواني»، فجاء أبو بكر الصديق، فقال عمر: إنه قال: «إني لمشتاق إلى إخواني، فقلنا: ألسنا إخوانَك؟ فقال: لا، إخواني قوم يؤمنون بي ولم يروني. فقال النبي ﷺ: «ألا تُحبّ قومًا بلغهم أنّك تحبني فأحبوك لحبّك إياي، فأحبهم الله»!

وعنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ متّكِئًا على عليّ، وإذا أبو بكر وعمر قد أقبلا، فقال رسولُ الله ﷺ: «أحِبّهما فحبُّهما يدخل الجنّة».

وعن أَنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حبُّ أبي بكر وشكْرُه واجبٌ على أُمتي».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبّ أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهما كفر».

وعن ابن عُمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا ولِد أبو بكر الصّديق أقبل الله تعالى على جنّة عَدْنٍ، فقال: وعزّتي وجلالِي لا أُدخلك إلاّ من يحبّ هذا المولود» ـ يعني أبا بكر ـ.

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في السماء الدنيا ثمانين ألف ملَك يستغفرون الله تعالى لمن أحبَّ أبا بكر وعمر؛ وفي السماء الثانية ثمانين ألف ملك يلعنون مَنْ أبغض أبا بكر وعمر».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: دخل رسولُ الله ﷺ المسجد بين أبي بكر وعمر، وهو معتمد عليهما، فقال: «هكذا ندخل الجنة جميعًا».

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أوّلُ مَنْ يعطَى كتابَه من هذه الأمّة أبو بكر؛ الناس كلهم يحاسَبُون إلا أبا بكر».

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تأتي الملائكة بأبي بكر الصديق مع النبيّين والصّدّيقين تَزُفُّه إلى الجنة زَفًّا».

وعن ثابت، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أوّل مَنْ يعطَى كتابَه من هذه الأُمّة عمر بن الخطاب، وله شُعاع كشُعاع الشمس» فقيل له: فأين أبو بكر يا رسول الله؟ قال: «هيهات! زَفّته الملائكة إلى الجنة».

وعن أَنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كأنّي بك يا أبا بكر على باب الجنّة تشفع لأُمّتي».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ من تحت العرش: ألا هاتوا أصحاب محمد»، قال: فيؤتَى بأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، فيقال لأبي بكر: قِف على باب الجنّة، فأَدخِل الجنة مَنْ شئت برحمة الله، ودَعْ من شئت بعلم الله، ويقال لعمر بن الخطاب: قفْ على الميزان فثقِّل من شئت برحمة الله، وخفِّف من شئت بعلم الله، ويعطى عثمان بن عفّان عصا آس[1]، التي غرسها الله عزَّ وجل في الجنة، ويقال له: ذُدِ النّاس عن الحوض».

وقد ورد في الصحيحين من فضائل أبي بكر رضي الله عنه ما فيه مقنع، وفضائله رضوان الله عليه كثيرة، وقد ذكرنا جملةً كافية، فلنذكر صفته.

---

(١) الآس: شجر دائم الخضر، بيضي الورق، أبيض الزهر أو ورديه، عطري، وثماره لبية سود تؤكل غضة، وتجفف فتكون من التوابل. وهو من فصيلة الآسيات.

ذكر صفة أبي بكر الصديق

كان رجلًا نحيفًا طويلًا أبيض، خفيف العارضين أجْنأ[١]، لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حَقْوَيه[٢]، مَعروق الوجه[٣]، غائر العينين، ناتىء الجبهة، عاري الأشاجع[٤].

هكذا وصفتْه عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها. وكان يخضب بالحِنَّاء والكَتَم[٥].

ذكر ما ورد من أن رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر على أمته من بعده وحجة من قال ذلك

قال الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمريّ[٦] رحمه الله: استخلف رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه على أُمته من بعده؛ بما أظهر من الدلائل البيِّنة على محبّتِهِ في ذلك، وبالتعريض الذي يقوم مقام التَّصريح، ولم يصرّح بذلك لأنه لم يؤمَرْ فيه بشيء.

وكان ﷺ لا يصنع شيئًا في دين الله إلا بوحي، والخلافة ركن من أركان الدين.

قال: ومن الدليل الواضح على ما قلنا، ما حدّثنا سعيد بن نصر وعبد الوارث بن سُفيان، قالا: حدّثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدّثنا أحمد بن زُهير، قال: حدّثنا منصور بن سَلَمَة. وأخبرنا أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا الميمون بن حمزة الحسينيّ بمصر، قال: حدّثنا الطَّحاويّ؛ قال: حدّثنا المزنيّ، قال: حدّثنا الشافعيّ، قال:

---

(١) الأجنأ: الذي أشرف كاهله على صدره. (٢) الحقو: الكشح والإزار أو معقده.

(٣) معروق الوجه: أي قليل اللحم فيه.

(٤) الأشاجع: مفردها الأشجع، وهو عرق ظاهر الكف.

(٥) الكتم: المشهور أنه النيلاء، وقيل نبت له ورق دقيق وزهر أصفر وحمل أسود كالفلفل... يقوي الشعر ويمنع سقوطه... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٦) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان وسعيد نصر وأبي محمد بن عبد المؤمن وأبي عمر الباجي وغيرهم.. وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السقطي المكي وعبد الغني بن سعيد الحافظ وغيرهما... (وفيات الأعيان ٧:٦٦).

حدّثنا إبراهيم بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه عن محمد بن جُبير بن مُطْعِم، عن أبيه، قال: أتت امرأة إلى رسولِ الله ﷺ، فسألها عن شيء، فأمرها أن ترجع إليه. فقالت: يا رسولَ الله، أرأيت إن جئتُ ولم أجدك؟ - تعني الموت - فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجديني فأت أبا بكر».

قال الشافعيّ رحمه الله: في هذا الحديث دليلٌ على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر.

وقد تقدم في السيرة النبويّةِ عن عاصم، عن قتادة[1]، قال: ابتاع النبي ﷺ بعيرًا من رجل إلى أجلٍ، فقال: يا رسولَ الله، إن جئتُ فلم أجدك؟ - يعني الموت - قال: فأت أبا بكر، قال: فإن جئت فلم أجد أبا بكر؟ - يعني بعد الموت - قال: فأت عمر، قال: إن جئتُ فلم أجد عمرَ؟ قال: إن استطعتَ أن تموتَ إذا مات عمر، فمت.

وساق أبو عمر بن عبد البرّ في أدلّته على استخلاف رسول الله ﷺ له أحاديث الصلاة، وكونه استخلفه أن يصلّيَ بالناس في مرضه.

وقد قدمنا ذكر ذلك كلّه في خبر وفاة رسُول الله ﷺ.

وممّا يؤيد ذلك ويعضّده ما قدّمناه من حديث عائشة رضي الله عنها، وقول رسول الله ﷺ لا: «لقد هممتُ - أو أردت - أن أُرسل إلى أبيك، أو أخيك فأقضِيَ أمري، وأعهد عهدي؛ فلا يطمع في الأمر طامع، ولا يقول القائلون، أو يتمنَّى المتمنُّون» ثم قال: «كلا يأبى الله ويدفع المؤمنون»، أو «يدفع الله ويأبى المؤمنون».

وقال بعضهم في حديثه: «ويأبى الله إلا أبا بكر».

وفي الحديث الآخر عن أبي مُليكة، قال: قال النبيّ ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «ادعوا إليّ أبا بكر»، فقالت عائشة: إنّ أبا بكر رجل يغلبه البكاء؛ ولكن إن شئتَ دعونا لك ابن الخطاب؛ قال: «ادعوا إليّ أبا بكر، قالت: إن أبا بكرٍ يرقّ، ولكن إن شئت دعوْنا لك ابن الخطاب، فقال: «إنكنّ صواحبُ يوسف، ادعوا أبا بكر وابنه؛ فليكتب؛ أن يطمع في أمر أبي بكر طامع، أو يتمنى متمنٍّ». ثم قال: «يأْبى الله ذلك والمؤمنون، يأْبى الله ذلك والمؤمنون!».

---

(١) قتادة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس، السدوسي البصري الأكمه، كان تابعيًا وعالمًا كبيرًا.. وكان قتادة أجمع الناس... (وفيات الأعيان ٤:٨٥).

قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون.

وفي هذا الحديث والذي قبله تصريح على أنه الخليفة بعده، ودليلٌ على أن الكتاب الذي أراد رسولُ الله ﷺ أن يكتبه، وتركه لما كثر عنده التنازع؛ إنما كان المرادُ به أن ينصَّ على أبي بكر في الخلافة. والله تعالى أعلم.

وروى أبو عُمر بسنده إلى عبد الله بن مسعود، أنه قال: اجعلوا إمامكم خيركم؛ فإن رسولَ الله ﷺ جعل إمامنا خيرنا بعده.

وروى الحسن البصريّ، عن قيس بن عباد، قال: قال لي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إن رسولَ الله ﷺ مرض لياليَ وأيامًا، ينادَى بالصلاة فيقول: «مرُوا أبا بكر يصلِّي بالناس»؛ فلما قبِض رسولُ الله ﷺ، نظرتُ، فإذا الصّلاة علَم الإسلام، وقِوامُ الدِّين، فرضينَا لدنيانا ما رضيَ رسولُ الله ﷺ لديننا، فبايعنا أبا بكر.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: أنا خليفة رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان يدعى: يا خليفة رسول الله ﷺ.

وروي عن ابن أبي مليكة، قال: قال رجل لأبي بكر يا خليفة الله، قال: لستُ خليفة الله؛ ولكن أنا خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك.

وروى أبو عمر بسنده، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: خيرُ هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: سبق رسولُ الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر، وثلَّث عمر، ثم خبطتْنا فتنة يغفر الله فيها عمّن يشاء. وقال: رحم الله أبا بكر! كان أول من جمع بين اللَّوحين(١).

وقال أبو عمر بن عبد البر: وروينا من وجوه، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أنه قال: ولينا أبو بكر فخير خليفة، أرحمه بنا؛ وأحناه علينا.

وقال مسروق: حبّ أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنّة.

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: لا يفضِّلُني أحدٌ على أبي بكر وعمر إلاَّ جلدته جَلْد المفتري.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

---

(١) اللوح المحفوظ: أي مستودع مشيئات الله تعالى، وإنما هو على المثل... وقوله عزّ وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف: ١٤٥] قال الزجاج: قيل في التفسير إنهما كانا لوحين، ويجوز أن يقال للوحين ألواح، ويجوز أن يكون ألواح جمع أكثر من اثنين... (اللسان مادة ل.و.ح).

ذكر بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخبر السقيفة، وما وقع بين المهاجرين والأنصار من التراجع في الإمارة

بويع أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه بالخلافة في يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل، سنة إحدى عشرَة من الهجرة؛ وهو اليوم الَّذِي مات فيه رسول الله ﷺ، في سقيفة بني سَاعدة، وذلك قبل أن يُشرَع في جهاز رسول الله ﷺ.

وكان من خبر سقيفة بني ساعدة، أنَّه لمّا تُوفِّيَ رسول الله ﷺ، اجتمعت الأنصار في سَقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولِّي هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ سَعد بن عُبادة، وأخرَجوا سعدًا إليهم وهو مريض، فلمّا اجتمعوا قال سعد لأبيه ـ أو لبعض بني عمّه ـ: إني لا أقدر أشكو، أي أن أُسْمِع القوم كلهم كلامي؛ ولكن تَلقَّ مني قولي فأسمِعْهموه، فكان سعد يتكلَّم ويحفظ الرجلُ قولَه، فيرفع به صوتَه، فيسمَعُ أصحابُه، فقال بعد أن حمِد الله وأثنى عليه: يا معشَر الأنصار، إنّ لكم سابقةً في الدين، وفضيلةً في الإسلام ليست لقبيلة من العرب؛ إن محمدًا ﷺ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمٰن، وخلع الأوثان، فما آمن به من قومه إلاَّ رجال قليل؛ واللّهِ ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسولَه، ولا أن يُعزُّوا دينه، ولا أن يَدْفعوا عن أنفسهم فيما عُمُّوا به؛ حتى إذا أراد بكم الفضيلة؛ ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والمنعَ له ولأصحابه، والإعزازَ له ولدينه، والجهادَ لأعدائه. فكنتم أشدَّ الناس علَى عدوِّه من غيركم؛ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيد المقادةَ صاغرًا[(١)] دَاخِرًا[(٢)]؛ وحتى أثخن[(٣)] الله لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب. وتوفَّاه الله إليه وهو عنكم راضٍ، وبكم قرير العين. استبدُّوا بهذا الأمر دون النّاس؛ فإنه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم، أن قد وفِّقتَ في الرأي، وأصبت في القول، ولَنْ نَعْدُو ما رأيت؛ نولِّيك هذا الأمر؛ فإنك فينا رفيع، ولصالح المؤمنين رضًا.

ثم إنهم ترادُّوا الكلام، فقالوا: فإن أبت مهاجرةُ قريش؟ فقالوا: نحن المهاجرون وصحابةُ رسولِ الله ﷺ الأولون، ونحن عشيرتُه وأولياؤه؛ فعلامَ تنازعوننا

(١) الصاغر: الذي رضي بالذل والمهانة. (٢) الداخر: الذليل المهان.

(٣) يقال: أثخن في الأرض: إذا بالغ في قتل أعدائه. وأثخن الشيء: علمه حق العلم.

الأمرَ من بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإنا نقول إذًا فمنًّا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا أبدًا. فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الْوهَن[(١)]!

وأتى عمرَ رضي الله عنه الخبرُ، فأقبل إلى منزل النبيّ ﷺ، فأرسل إلى أبي بكر، وأبو بكر في الدار، وعليّ بن أبي طالب دائب في جهاز النبيّ ﷺ؛ فأرسل إلى أبي بكر، أن اخرج إليّ؛ فأرسل إليه: إنّي مشتغل، فأرسل إليه: إنه قد حَدث أمرٌ لا بدّ لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمتَ أنّ الأنصار قد اجتمعتْ في سقيفة بني ساعدة، يريدون أن يولُّوا هذا الأمر سعد بن عبادة؛ وأحسنُهم مقالة مَنْ يقول: منَّا أميرٌ ومن قريش أمير!

فخرجا مسرعيْن نحوهم، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوْا إليهم ثلاثتُهم، فلقيَهم عاصم بن عديّ وعُوَيم بن ساعدة، فقالا لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. قالا: فارجعوا. فاقضوا أمركم بينكم؛ فإنّه لم يكن إلا ما تحبون، فقالوا: لا نفعل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه: فقلت: والله لنأْتينَّهم! قال: فأتيناهم وهم مجتمعون في سقيفة بني سَاعدة وإذا بين أظهرهم[(٢)] رجل مزمَّل[(٣)]، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: سعد بن عُبادة. قلت: ما شأْنُه؟ قالوا: وَجِع، فقام رجل منهم، فحمد الله وقال: أمّا بعد، فنحن الأَنصار، وكتيبة الإِسلام، وأنتم يا معشر قريش رهطُنا، وقد دفَّت[(٤)] إلينا من قومكم دافَّة.

قال: فلما رأيتُهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر. وقد كنت زوّرت[(٥)] في نفسِي مقالة أقدّمها بين يديْ أبي بكر، وكنت أُداري منه بعض الحدّ، وهو كان أوقرَ مني وأحلم، فلمّا أردتُ أن أتكلَّم قال لي: على رِسْلِك[(٦)]! وكرهت أن أُغضبه، فقام، فحمِد الله، وأثنى عليه، فما ترك شيئًا زوّرت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت، إلا قد جاء به، أو بأحسن منه.

(١) الوهن: الضعف وذبول الحيوية. (٢) بين أظهرهم: أي بينهم.
(٣) الرجل المزمل: الذي تلفف وتغطى.
(٤) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد.
(٥) يقال: زور الكلام: إذا زخرفه وموّهه. وزور الكلام في نفسه: أي هيأه وحضره.
(٦) على رسلك: أي على مهلك.

وقال: أمّا بعد، يا معشرَ الأنصار، فإنّكم لا تذكرون منكم فضلاً إلاّ أنتم له أهلٌ، وإنّ العربَ لا تعرف هذا الأمر إلاً لهذا الحيّ من قريش؛ هم أوسط العرب دارًا ونسبًا، وإنّي قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم. وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح.

يقول عمر وهو على المنبر: وإنّي والله ما كرهتُ من كلامه شيئًا غير هذه الكلمة، أن كنت أُقدّمُ فتضرَب عنقي أحبُّ إليّ مِنْ أن أُؤَمّر عَلَى قوم فيهم أبو بكر.

قال: فلما قضى أبو بكر كلامَه قام منهم رجل، فقال: أنا جُذَيْلُهَا[١] المحكَّك، وعُذيقُها[٢] المرجَّب؛ منّا أميرٌ ومنكم أمير يا معشر قريش.

قال عمر: وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط، فلما أشفقت الاختلاف قلت لأبي بكر: ابْسط يدك نبايعك، فبسط يده فبايعتُه، وبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار، ثمّ نَزَوْا[٣] على سعد؛ حتى قال قائلهم: قتلتم سعد بن عُبادة. فقلت: قتل الله سعدًا! وإنا والله ما وجدنا أمْرًا هو أقوى من مبايعة أبي بكر، إنّا خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يُحْدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعَهم على ما نرضى، أو نخالفهم فيكون فَشل.

ومن رواية عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي عمر الأنصاريّ، وذَكر ما تكلّم به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وما قاله الأنصار، فقال بعد أن ساق ما تقدم أو نحوه، ثم قال: فبدأ أبو بكر، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ الله بعث محَمّدًا ﷺ رسولاً إلى خَلْقه، وشهيدًا على أُمّته؛ ليعبدُوا الله ويوحِّدوه وهم يعبدون من دونه آلهةً شتى، يَزْعمون أنّها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة، وإنّما هي حَجَر منحوت، وخشب منجور. ثم قرأ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فعظم على العرب أن يتركوا دينَ آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به، والمواساةِ له والصبر معه، على شدّة أذى

---

(١) الجذل: عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به. ويقال: هو جذيلها المحكك: لمن يستشفى برأيه.

(٢) رحب النخلة: أي دعمها ببناء تعتمد عليه، أو ضم عذاقها إلى سعفاتها وشدها بالخوص لئلا تنفضها الريح. والعذق: قنو النخلة.

(٣) نزا عليه: أي وثب عليه.

قومهم لهم، وتكذيبهم إيّاهم، وكلّ الناس لهم مُخالف، وعليهم زارٍ[١]، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنَف[٢] النّاس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أوّل مَنْ عَبد الله في الأرض، وآمن بالله والرّسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعُهم ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار، أنتم مَنْ لا ينكر فضلُهم في الدّين، ولا سابقتُهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجْرته، وفيكم جِلّة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحدٌ بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تفاتون بمشورة ولا تقضَى دونكم الأُمور.

قال: فقام الحُباب بن المنذر بن الجَموح، فقال: يا معشرَ الأنصار، املِكوا على أيديكم. فإنّ الناس في فيئكم وفي ظلّكم، ولن يجترىء مجترىءٌ على خِلافكم، ولن يُصدِر الناس إلا عن رأيكم؛ وأنتم أهل العزّ والثّروة، وأُولو العدد والتجربة، وذوو البَأس والنَّجدة؛ وإنما ينظر الناس إلى ما تَصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتنتقض عليكم أُموركم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قرَن[٣]! إنه والله لا يرضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها ﷺ من غيركم؛ ولكن العرب لا تمتنع أن تولّيَ أُمورها من كانت النبوّة فيهم، ووَلِيّ أُمورهم منهم؛ ولنا بذلك علَى من أبى من العرب الحجّة الظاهرة والسلطان المبين. مَنْ ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته؛ ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل، أو متجانف[٤] لإثم أو متورّطٌ في هَلكة!.

فقام الحُبابُ بن المنذر، فقال: يا معشر الأنصار، املِكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوْا عليكم ما سألتموه، فأجلُوهم عن هذه البلاد، وتولّوْا عليهم هذه الأُمور؛ فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم؛ فإنه بأسيافكم دان لهذا الدّين من لم يكن يدِين، أنا جُذيلُها المحكّك وعُذَيقها المرَجّب؛ أما والله لئن شئتم لنعيدنّها جَذَعَةً[٥]! فقال له عمر: إذن يقتلك الله! قال: بل إياك يقتل.

(١) الزار: المختقر.
(٢) يقال: شنف له: أي فطن.
(٣) القرن: الحبل يقرن به البعيران.
(٤) المتجانف: المتمايل.
(٥) جذعة: فتية.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنَّكم أوّل مَنْ نصر وآزر، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر.

فقال بشير بن سعد، أبو النعمان بن بشير:

يا معشر الأنصار، إنَّا والله لئن كنَّا أُولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقةٍ في هذا الدّين، ما أردنا به إلا رضا ربّنا، وطاعة نبيّنا ﷺ، والكدْح لأنفسنا؛ ما ينبغي لنا أن نستطيل بذلك على الناس، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا، فإن الله وليّ المنة علينا بذلك؛ ألا إن محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحقُّ به وأولى. وأيمُ اللّهِ لا يراني الله أُنازعهم هذا الأمر أبدًا! فاتقوا الله ولا تخالفوهم، ولا تنازعوهم.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: هذا عمر وأبو عبيدة، فأيّهما شئتم فبايعوا؛ فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك، وأنت أفضلُ المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصّلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدّمك أو يتولّى هذا الأمر عليك! ابسُط نبايعك.

فلمّا ذهبا ليبايعاه سبَقهما إليه بَشير بن سعد فبايعَه، فناداه المنذر بن الحُباب: يا بشيرَ بن سعد، عققتَ عَقَاقِ! ما أحوجك إلى ما صنعت! أنَفست على ابن عَمّك الإمارة! قال: لا والله، ولكن كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم.

قال: ولـمَّا رأت الأوسُ ما صنع بشير بن سعد، وما تدْعُو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض - وفيهم أُسَيد بن حُضَيْر: والله لئن وليتْها الخزرج عليكم مرّة، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[1] في تاريخه: فروي عن أبي بكر بن محمد الخُزاعيّ: إنّ أسلمَ أقبلت بجماعتها حتى تضايقت بها السكك ليبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هُوَ إلاّ أن رأيتُ أسلمَ، فأيقنت بالنَّصْر.

---

(١) الطبري: هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، الطبري، وقيل يزيد بن كثير بن غالب؛ صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير، كان إمامًا في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين... (وفيات الأعيان ٤:١٩١).

قال عبد الله بن عبد الرحمٰن: فأقبَل النّاس من كلّ جانب يبايعون أبا بكر، وكادُوا يطؤون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعدًا لا تَطؤوه، فقال عمر: اقتلوه، اقتلوه، قتله الله! ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تُنْدَر(١) عِضوُك؛ فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، ثم قال: والله لو حَصَصْتَ(٢) منها شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة(٣).

فقال أبو بكر: مَهْلًا يا عمر، الرفق هاهنا أبلغ! فأعرض عنه عمر؛ وقال سعد: أمَا والله لو أنّ بي من قوتي ما أقوى على النهوض لسمعتم مني في أقطارها وسككها(٤) زئيرًا يُجْحِرك(٥) وأصحابك. أمَا والله إذا لألحقنّك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع. احملوني عن هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره، وتُرِك أيامًا ثم بُعث إليه أن أقبلْ فبايعْ؛ فقد بايع الناس وبايع قومُك؛ فقال: أمَا والله حتّى أرميَكم بما في كنانتي من نَبْل، وأخضب منكم سِنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكتْه يدي، وأقاتكلم بأهل بيتي ومَنْ أطاعني من قومي، فلا أفعل وأيمُ الله: لو أن الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أُعْرَض على ربي وأعلم ما حسابِي.

فلما أُتِيَ أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعْه حتى يبايع؛ فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى وإنه ليس يبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته. فاتركوه، فليس تركه يضارّكم، إنما هو رجل واحد. فتركوه، وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لِمَا بدا لهم منه؛ فكان سعد بن عبادة لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمعَ مَعَهم، ويحجّ ولا يُفيض معهم بإفاضتهم(٦)، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وعن الضحّاك بن خليفة، أنّ سعد بن عبادة بايع.

وعن جابر، قال: قال سعد بن عبادة يومئذ لأبي بكر: إنّكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنّك وقومي أجبرتموني على البيعة؛ فقال أبو بكر: إنّا لو أجْبَرْناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سَعة، ولكنّا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة فيها؛ لئن نزعت يدًا من طاعة، أو فرّقت جماعة لأضربنّ الذي فيه عيناك.

---

(١) يقال: يندر الشيء: أي يزال عن موضعه.
(٢) حصصت: أسقطت.
(٣) الواضحة من الأسنان: التي تبدو عند الضحك.
(٤) السكة: السطر المصطف من الشجر والنخيل، أو الطريق المستوي. جمع سكك.
(٥) يجحرك وأصحابك: أي يدخلكم المضايق.
(٦) الإفاضة: انصراف الحجاج عن الموقف في عرفة.

وحكى أبو عمر بن عبد البرّ رحمه الله؛ أنّ عمر رضي الله عنه قال: نشدتكم الله! هل تعلمون أن رسولَ الله ﷺ أمر أبا بكر أن يصلّيَ بالناس! فقالوا: اللهمّ نعم، قال: فأيّكم تطيب نفسه أن يزيلَه عن مقامٍ أقامه فيه رسول الله ﷺ! فقالوا: كلنا لا تطيب نفسه، ونستغفر الله. وبايعوه.

قال: ثم بويع البيعة العامة يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم، وتخلّف عن بيعته سعد بن عبادة، وطائفة من الخزرج، وفرقة من قُريش، ثم بايعوه بعدُ غير سعد.

وقيل: إنه لم يتخلّف عن بيعته يومئذ أحدٌ من قريش.

وقيل: تخلّف عنه من قريش: عليّ، والزُّبير، وطلحة، وخالد بن سعد بن العاص. ثم بايعوه بعد.

وقد قيل: إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لم يبايعْه إلا بعد موت فاطمة رضي الله عنها، ثم لم يزل سامعًا مطيعًا له، يثني عليه ويفضّله.

وقيل: إنه تخلّف عليٌّ وبنو هاشم والزُّبير وطلحة عن البيعة، وقال الزُّبير: لا أغمِد سيفي حتى يبايع عليّ، فقال عمر: خذوا سيفه، فاضربوا به الحجَر؛ ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة.

وقيل: إنّ عليًا لما سمع ببيعة أبي بكر خرج في قميصٍ، ما عليه إزار ولا رداء، عَجِلاً حتى بايعه، ثم استدعى إزاره ورداءه.

وحكى محمد بن إسحاق رحمه الله؛ عن عبد الله بن أبي بكر، أنّ خالد بن سعيد بن العاص قدِم من اليمن بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، فتربّص ببيعته لأبي بكر شهرين، وكان يقول: قد أمّرني رسول الله ﷺ ولم يعزلني، ثم بايع أبا بكر. فلمّا بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، كان أولَ مَنْ بعث على رُبْع منها خالد بن سعيد، فلم يزلْ به عمر حتى عزله، وأمّر يزيد بن أبي سفيان، وكان عمر رضي الله عنه قد اضطغن عليه تأخره عن بيعة أبي بكر.

وعن عِكْرمة[1]، قال: لمّا بويع لأبي بكر تخلّف عن بيعتِه عليّ، وجلس في بيته، فلقيَه عمر، فقال: تخلّفت عن بيعة أبي بكر، فقال: إنّي أكتب بيمين حين قبض رسول الله ﷺ ألاّ أرتديَ برداء إلاّ إلى الصلاة المكتوبة؛ حتى أجمع القرآن؛ فإني خشيت أن ينفلت، ثم خرج فبايع.

(١) عكرمة: هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أصله من البربر من أهل المغرب، كان لحصين بن الحر العنبري، فوهبه لابن عباس رضي الله عنهما حين ولي البصرة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، واجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن وسماه بأسماء العرب... (وفيات الأعيان ٣: ٢٦٥).

وعن مالك بن مِغول، عن ابن أبجر، قال: لما بُويع لأبي بكر الصديق جاء أبو سفيان بن حرب إلى عليّ، فقال: غَلَبكم علَى هذا الأمرِ أرذلُ بيت في قريش! أمَا والله لأملأنَّها خيلاً ورَجْلاً! فقال له عليّ: ما زلتَ عدوَّ الإسلام وأهلِه، فما ضرّ ذلك الإسلامَ وأهلَه شيئًا. إنَّا رأينا أبا بكر لها أهلاً. ورواه عبد الرزاق، عن ابن المبارك.

وروَى أبو عمر بن عبد البر بسنده، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عليًّا والزبير كانا حين بويع لأبي بكر يدخلان على فاطمة فيشاورانها في أمرهم، فبلغ ذلك عمر، فدخل عليها فقال: يا بنت رسول الله، ما كان من الخلْق أحدٌ أحبَّ إلينا من أبيك، وما أحدٌ أحبّ إلينا بعده منك، وقد بلغني أن هؤلاء النفر يدخلون عليك، ولئن بلغني لأفعلنّ ولأَفعلنّ! ثم خرج وجاؤوها فقالت لهم: إن عمر قد جاءني وحلف إن عدتم ليفعلنّ، وأيمُ الله ليفينّ بها، فانظروا في أمركم، ولا تنظروا إليّ؛ فانصرفوا ولم يرجعوا حتى بايعوا لأبي بكر. رضي الله عنهم أجمعين.

وهذا الحديث يردّ قول من زعم أن عليّ بن أبي طالب لم يبايع إلا بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها.

ولما بُويع لأبي بكر رضي الله عنه، قال ابن أبي عَزَّة[1] القرشي الجُمحيّ: [من الكامل]

شكرًا لمن هُوَ بالثَّناء خَلِيقُ ... ذهب اللَّجاجُ وبويع الصِّدِّيقُ[2]
مِنْ بعد ما ذهبتْ بسعدٍ بغْلُه ... ورجا رجاءً دونَه العَيُّوق[3]
جاءت به الأنصار عاصِبَ رأسِه ... فأتى به الصديق والفاروق
وأبو عبيدة والَّذين إليهمُ ... نفس المؤمّل للبقاء تَتُوق
كنَّا نقول لها عليٌّ والرِّضا ... عمرٌ وأوْلاهم بتلك عَتِيق
فدعت قريش باسمه فأجابَها ... إنّ المنوّه باسمه الموثوقُ

(١) أبو عزة: هو عمرو بن عبد الله بن عمير بن أهيب بن جذافة.. أحد رجال بني جمح، كان يحضض على النبيّ ﷺ، فأسر يوم بدر... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) اللجاج: واحدتها اللجة، وهي اختلاط الأصوات، أو الجلبة.

(٣) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا لا يتقدمها. ويطلع قبل الجوزاء.

وروي عن سعيد بن المسيّب، قال: لما قُبض رسول الله ﷺ ارتجّت مكة، فسمع أبو قُحافة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قُبض رسول الله ﷺ، قال: أمرٌ جَلَلٌ، فمن وَلِيَ بعده؟ قالوا: ابنُك، قال: فهل رضيتْ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله. والله تعالى أعلم، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر ما تكلم به أبو بكر الصديق بعد بيعته وما قاله عمر بن الخطاب بعد البيعة الأولى وقبل البيعة الثانية العامة

روَى أنَس بن مالك[١]، قال: لما بُويع أبو بكر رضي الله عنه في السَّقيفة، وكان الغَدُ، جلس أبو بكر على المِنْبر، فقام عمرُ فتكلَّم قبل أبي بكر، فحمِد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

أيها الناس، إنِّي قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلاَّ عَنْ رأيي، وما وجدتُها في كتاب الله، ولا كانتْ عهدًا عِهَده إلينا رسولُ الله ﷺ، ولكن قد كنتُ أرى أنّ رسولَ الله ﷺ سيُدبِّرُ أمرنا حتى يكون آخِرَنا، وإنّ الله قد أبقى فيكم كتابَه الَّذي هَدَى به رسولَه، فإن اعتصمتم به هَداكم الله لما كان هداه له، وإنَّ الله قد جمعَ أمرَكم على خيركم، صاحِب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار؛ فقوموا فبايعوا. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامّة بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلَّم أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه بالَّذي هو أهله، ثم قال: أمّا بعد؛ أيها النّاس، فإنّي قد وُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوِّموني، الصِّدق أمانة، والكذب خيانة، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله، والقويّ منكم الضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدَع قومٌ الجهادَ في سبيل الله، فإنّه لا يَدَعه قوم إلاَّ ضَرَبهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلاَّ عَمَّهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلاَ طاعة لي عليكم؛ قوموا إلى صلاتكم، يرحمكم الله.

---

(١) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام، صحب رسول الله ﷺ وخدمه.. (الاشتقاق لابن دريد).

- يعني بالصّلاة هنا، الصّلاة على رسول الله ﷺ - فإن خطبته هذه كانت قبل دفنه ﷺ.

وقول عمر بن الخطاب في كلامه: «إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة»، إشارة إلى ما كان قد تكلّم به عند وفاة رسول الله ﷺ من إنكاره أنّه مات، على ما قدّمنا ذكره في خبر وفاة رسول الله ﷺ؛ وإنّما أوضحنا هذا الكلام في هذا الموضع لئلا يتبادَر إلى ذهن من يسمعه مِمّن لم يطالع ما قبله، ولا علِم الواقعة فيتوهّم أن كلامه بذلك رجوعٌ عمّا تكلّم به بالأمس في شأن بَيْعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

وعن عاصم بن عديّ[1]، أنه قال: وقام أبو بكر رضي الله عنه من بعد الغد - يعني من يوم بيعته - فحمِد الله، وأثنَى عليه، ثمّ قال: يأيّها الناس؛ إنما أنا مثلُكم، وإنّي لا أدري لعلكم ستكلّفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إنّ الله اصطفى محمّدًا على العالَمين، وعصَمه من الآفات، فإنّما أنا متّبع ولست بمبتدِع فإن استقمت فاتّبعوني، وإن زغتُ فقوّموني، وإن رسولَ الله ﷺ قُبِضَ، وليس أحَدٌ من هذه الأمة يطلبه بمظلمةٍ؛ ضربةَ سوط فما دونها؛ ألا وإنما لي شَيْطان يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أُؤَثّر في أشعاركم وأبشاركم، وإنكم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غُيِّبَ عنكم علمه، فإن استطعتم ألاّ يَمْضِيَ هذا الأجل إلاّ وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلاّ بالله. فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تُسلِمَكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإنّ قومًا نَسُوا آجالَهم، وجعلوا أعمالَهم لغيرهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهم. الجدّ الجدّ، والوحى الوحَى[2]، والنَّجَاة النَّجاة، وإنَّ وراءكم طالبًا حثيثًا، أجلا مرّه سريع. واحذروا الموتَ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تُغْبَط به الأمواتُ.

وقام أيضًا رضي الله عنه، فحمِد الله وأثْنَى عليه، ثم قال:

إنّ الله لا يقبلُ من الأعمال إلاّ ما أُريدَ به وجهه، فأَريدُوا الله بأعمالكم، واعلموا أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم، فطاعةٌ أتيتموها، وحظٌّ ظفِرتم به، وضرائب أدّيتموها، وسلَفٌ قدّمتموه من أيام فانية لأُخرى باقية، لحين فقْرِكم وحاجتِكم، واعتبرُوا يا عبادَ الله بمن مات منكم، وفكِّروا فيمن كان قبلكم.

---

(١) هو من بني أسماء بهراء بن عمرو واسمه عاصم بن عديّ بن الجد، صحب النبيّ ﷺ. (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) الوحى: الإسراع.

أين كانوا أمس وأين هم اليوم! أين الجبّارون الذين كان لهم ذكرُ القتال والغَلبة ومواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدّهر وصاروا رميمًا، قد تُرِكتْ عليهم القالات(١)؛ الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات.

وأين المُلُوك الَّذين أثاروا الأرض وعمَرُوها، قد بَعُدوا، ونُسِيَ ذكرُهم، وصاروا كلا شيء. ألاَ إنّ الله قد أبقى عليهم التَّبِعاتِ، وقَطَع عنهم الشَّهوات، ومضَوْا والأعمالُ أعمالهم، والدُّنيا دُنْيَا غيرِهم، وبقينا خَلَفًا بعدهم، فإنْ نحنُ اعتبرنا بهم نجوْنا.

أين الوُضاءُ(٢) الحسَنة وجوهُهم، المعجَبُون بشَبابهم! صاروا ترابًا، وصار ما فرَّطُوا فيه حسرةً عليهم.

أينَ الذين بنَوا المدائن؛ وحصّنوها بالحوائط، وجَعَلُوا فيها الأعاجيب! قد تركوها لمَنْ خلْفهم، فتِلْك مساكنُهم خاوية وهُم في ظلمات القبور، هل تحسُّ منهم من أحدٍ، أو تسمع لهم ركْزًا(٣)!

أَيْنَ مَنْ تعرِفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت به آجالهم؛ فوردوا على ما قدّموا، فحلُّوا عليه، وأقاموا للشّقْوة أو السَّعَادة فيما بعد الموت؛ ألا إنَّ الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحدٍ من خلْقه سبب يُعطيه به خيرًا، ولا يصرف به عنه شرًّا إلا بطاعته واتِّباع أمره.

واعلموا أنكم عبيد مذنبون، وأنّ ما عنده لا يُدْرَك إلاَّ بطاعته. ألا وإنَّه لا خير بخير بعده النّار، ولا شرَّ بشرٍّ بعده الجنة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر إنفاذ جيش أسامة

قد ذكرنا في السِّيرة النبويّة في الغَزَوات والسَّرايا؛ أنّ رسول الله ﷺ كان قد جَهَّز أُسامةَ بنَ زيد قبل وفاته، وندب معه جماعة من أعيان المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر.

وذكرنا أيضًا ما تكلَّمَ به من تكلَّم من الصحابة في شأنه، وما قاله رسول الله ﷺ

---

(١) القالة: اسم للقول الفاشي في الناس، خيرًا كان أو شرًا. جمع قالات.
(٢) الوضاء: أي الوضيء: وهو الذي حسن وجمل ونظف.
(٣) الركز: الصوت الخفيّ.

عندما بلغه ذلك، من الثناء على أُسامة بن زيدٍ وعلى أبيه زيد بن حارثة، واستخلافه للإمارة، وأنّ رسولَ الله ﷺ قُبِضَ وجيش أُسامة بالجُرْفِ[١].

فلمَّا بويع أبو بكرِ الصديق رضي الله عنه، كان أوّلَ ما بدأ به أن أمر منادِيَهُ فنادى في الناسِ من بعد الغد من متوفّى رسول الله ﷺ ليتمّم بعثَ أُسامة: ألاَ لا يبقينَّ في المدينة أحدٌ من جُندِ أُسامة إلاَّ خرج إلى عَسْكَرِه بالجُرْفِ.

رُوي ذلك عن عاصم بن عديّ. وعن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: لما بُويع أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه، وجمع الأنصار على الأمر الذي افترقوا عنه، قال: لِيَتمّ بعث أُسامة، وقد ارتدَّتْ العرب، إمّا عامّةً، وإمّا خاصّةً في كلّ قبيلة، ونَجم[٢] النِّفاق، واشرأبّت اليهوديّةُ والنَّصرانية، والمسلمون كالغنم المَطيرة[٣]، في اللَّيلة الشاتية؛ لفقد نبيّهم وقلَّتهم، وكثرةِ عدوّهم.

فقال له النَّاس: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين، والعرب علَى ما ترى؛ قد انتقضَتْ بك، فليس ينبغي لك أنْ تُفَرِّقَ عنكَ جماعة المسلمين.

فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكرٍ بيده، لو ظننتُ أنّ السِّباع تخطفُني لأنفذتُ بعثَ أُسامة كما أَمَر به رسولُ الله ﷺ، ولو لم يبْقَ في القرى غيري لأنفذْتُه.

وعن الحسن بن أبي الحسن، قال: ضربَ رسولُ اللّهِ ﷺ قبل وفاته بعْثًا على أهلِ المدينة ومَنْ حولهم، وفيهم عمر بن الخطابِ، وأمَّر عليهم أُسامةَ بن زيد، فلم يجاوزْ آخِرُهم الخندق حتى قُبِض رسولُ الله ﷺ، فوقف أُسامة بالناس، ثم قال لعمر بن الخطاب: ارجع إلى خليفة رسولِ الله ﷺ، فاستأذِنْه، يأْذَن لي أن أرجع بالناس، فإنّ معي وجوه الناس وحدَهم، ولا آمن على خليفة رسولِ الله ﷺ وثَقَلِ رسول الله وأثقالِ المسلمين أن يتخطّفهم المشركون. وقالت الأنصار: فإنْ أَبَى إلاّ أنْ نمضيَ؛ فأبلغه عَنّا، واطلب إليه أن يُوَلِّيَ أمْرَنا رجلًا أقدمَ سنًا من أُسامة.

فخرج عمر بأمر أُسامة، فأتى أبا بكر، فأخبره بما قال أُسامة، فقال أبو بكر: لو خَطَفَتْنِي الكلاب أو الذِّئاب لم أردَّ قضاءً قضى به رسولُ الله ﷺ، قال: فإنّ الأنصارَ

(١) الجرف: بالضم ثم السكون... موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم وبئر جمل، قالوا: سمي الجرف لا نبعًا مر به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى العرض... (معجم البلدان لياقوت الحموي).

(٢) نجم الشيء: أي طلع وظهر، أو نشأ وحدث.

(٣) المطيرة: التي أصابها المطر.

أمروني أنْ أُبلغَكَ أنَّهُمْ يطلبون إليك أن تولِّيَ أمرهم رجلاً أقدمَ سِنًا من أُسامة. فوثب أبو بكر وكان جالسًا. فأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أُمُّك وعدِمَتْكَ يا بنَ الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعَهُ!

فخرج عمر إلى النَّاس، فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضُوا ثكلتكم أُمّهاتكم! ما لقيت في سببكم اليوم من خليفةِ رسول الله ﷺ!

ثم خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى أتاهم، فأشخصَهُمْ وشيَّعهم وهو ماشٍ؛ وأُسامة راكبٌ، وعبد الرحمٰن بن عوف يقودُ دابّة أبي بكر، فقال له أُسامة: يا خليفةَ رسول الله، والله لتركبَن أو لأنزلَنَّ! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركبُ، وما عَليّ أن أُغَبِّر قدميّ في سبيل الله ساعةً؛ فإنّ للغازي بكلِّ خطوةٍ يخطوها سبعمائة حسنة تكتبُ له، وسبعمائة درجة تُرْفع له، وتُمحى عنه سبعمائة خطيئة؛ حتى إذا انتهى أبو بكر، قال لأُسامة: إنْ رأيتَ أن تعينني بعمر فافعل، فأَذِنَ له. ثم قال:

يأَيها الناس، قفوا أُوصيكم بعشرٍ فاحفظوها عنّي: لا تخونوا ولا تَغُلُّوا[(١)] ولا تغدِروا، ولا تمثّلوا[(٢)]، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأةً، ولا تعقرُوا[(٣)] نخلاً، ولا تحرِقوه، ولا تقطعوا شجرة مُثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلاّ لمأكلةٍ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم بالصوامع فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمُون على أقوامٍ يأتونكم بآنية فيها ألوانُ الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليها. وسوف تلقوْن أقوامًا قد فَحصُوا[(٤)] أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخْفِقوهم[(٥)] بالسيف خفقًا، اندفِعوا باسم الله.

ثم أوصى أُسامَة أن يفعل ما أَمَره به رسولُ الله ﷺ، فسار وأوْقَع بقبائل قُضاعة الّتي ارتدَّت، وغنِم وعاد، وكانت غيبتُه أربعين يومًا، وقيل: سبعين يومًا، وقيل: أربعين؛ سوى مُقامه ومَقْفله راجعًا.

---

(١) غلّ الشيء: أخذه من الغنيمة خفية قبل القسمة.

(٢) مثّل بفلان: أي نكل به بجدع أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من الأعضاء.

(٣) عقر النخلة: أي قطعها من أصلها فسقطت.

(٤) المراد أن الشيطان قد جعلها مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها. والأفحوص: حفرة تحفرها القطاة لتبيض وترقد فيها، جمع أفاحص؛ وكذلك المفحص، جمع المفاحص.

(٥) خفقه بالسيف: أي ضربه به خفيفًا.

وكان إنفاذ جيش أُسامة من أعظم الأُمور نفعًا للمسلمين، فإنّ العرب قالوا: لو لم تكن لهم قوّةٌ ما أرسلوا هذا الجيشَ؛ فكفُّوا عن كثيرٍ مما كانوا عزمُوا على فعله، وذلك ببركة اتِّباع أمر رسول الله ﷺ.

ذكر أخبار من ادعى النبوة من الكذابين وما كان من أمرهم، وتجهيز أبي بكر الصديق الجيوش إليهم، وإلى من ارتدّ من قبائل العرب

قال المؤرّخون: كان ادَّعى النبوّة في حياة رسول الله ﷺ ثلاثة، وهم: الأسود العنسي، وطُلَيْحة الأسدِيّ، ومُسيلمة الكذَّاب، وادّعت النبوّة سَجاح بنت الحارث التميميّة.

فأما الأسود العَنْسِي، واسمه عَبْهلة بن كَعْب بن عوف العنسيّ ـ بالنُّون الساكنة، وعَنْس بطن من مَذْحج ـ فكان يُلَقَّب ذا الخِمار[1] لأنه كان متخمّرًا أبدًا.

وقال أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُرِيّ: إنه كان له حِمارٌ مُعَلِم يقول له: اسجد لربكَ، فيسجد. ويقول له: ابرك فيبرك. فقيل له: ذا الحِمار. والله تعالى أعلم.

وكانتْ رِدّته أوّلَ رِدّةٍ كانتْ في الإسلام، وغلب على صنعاء إلى عُمَان إلى الطائف.

وكان من خبره ما رُوِي عن الضحّاك بن فيروز الدَّيلمي عن أبيه؛ قال: أوّلُ رِدّةٍ كانت في الإسلام باليَمن، رِدّةٌ كانت على عهد رسولِ الله ﷺ، على يد ذي الخمار عَبْهلة بن كَعْب ـ وهو الأسود ـ في عامّة مذحج، خرج بعد الوَدَاع. وكان الأسود كاهنًا مشعبِذًا[2]، وكان يُريهم الأعاجيب، ويَسْبِي قلوبَ مَنْ سمع منطقه، وكان أول ما خرج أن خرج من كهف خُبّان ـ وهي كانت موطنه وداره، وبها ولد ونشأ ـ فكاتبتْه مَذْحِج وواعدوه نَجْران، فوثبوا عليها، وأخرجوا عَمْرو بن حَزْم وخالد بن سعيد بن العاص، ثم أنزلُوه منزلَهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فرْوَة بن مُسَيْك فأجلاه، ونزل منزله، فلم يلبث عَبْهلة بنجران أن سار إلى صنعاء فأخذها، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) الخمار: ما يصيب شارب الخمر من ألمها وصداعها، أو ما خالط الإنسان من سكر الخمر.
(٢) المشعبذ: المشعوذ: الذي يأخذ كالسحر، يجعلك ترى الشيء بغير ما عليه.

وكان رسول الله ﷺ جمع لباذام، حين أسلَم، وأسلمت اليمن كُلُّها على جميع مخالفيها، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيام حياته لم يعزله عنها ولا عن شيء منها، ولا أشرك معه فيها شريكًا حتى مات باذام، ففرّق رسولُ الله ﷺ عمل اليمن على جماعة من أصحابه، وهم: شهر بن باذام، وعامر بن شَهْر الهمْدَانيّ، وعبد الله بن قيس أبو موسى، وخالد بن سعيد بن العاص، والطّاهر بن أبي هالة، ويعلَى بن أُميّة، وعمرو بن حَزْم. وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البَيَاضيّ، وعُكّاشة بن ثور بن أصْغَر الغوْثيّ؛ علَى السَّكاسِك والسَّكون، ومعاوية بن كِنْدة. وبعث مُعاذ بن جبل مُعلِّمًا لأهل البلدين: اليمن وحَضْرموت.

وروي عن عُبَيد بن صَخْر، قال: بينما نحن بالْجُنْد؛ قد أقمناهم على ما ينبغي، وكتبنا بيننا وبينهم الكتب؛ إذ جاءنا كِتابٌ من الأسود: أيها المتورّدُون علينا، أمْسِكُوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفِّروا ما جَمَعتم، فنحن أوْلَى به، وأنتم على ما أنتم عليه، فقلنا للرسول: مِنْ أين جئت؟ قال: من كَهف خُبَّان؛ ثم كان وجهه إلى نجْران حتى أخذها في عشرٍ لمخرجه، وطابقَهُ عوامُّ مذحج؛ فبينا نحن ننظر في أمرنا، ونحن نجمع جَمْعنا إذ أُتِينا. فقيل: هذا الأسود بشَعُوب[١]، وقد خرج إليه شَهْر بن باذام، وذلك لعشرين ليلةً من مَنْجمه؛ فبينا نحن ننتظر الخبر على مَنْ تكون الدَّبْرة[٢]؛ إذ أتانا أنه قتَل شهرًا، وهَزَم الأبناء، وغلَب على صنعاء، لخمس وعشرين ليلةً من مَنْجمه.

وخرج مُعَاذ هاربًا حتى مرّ بأبي موسى وهو بمأْرِب، فاقْتحما حضرموت، فأمَّا مُعاذ فإنَّه نزل في السَّكُون، وأمّا أبو موسى فإنّه نزل في السَّكاسِك، وانحازَ سائرُ أُمراءِ اليمن إلى الطّاهر إلاّ عَمْرًا وخالدًا، فإنَّهما رجعا إلى المدينة، والطّاهرُ يومئذ في وسط بلاد عَكّ[٣] بحِيال صَنْعاء؛ وغلب الأسْود على ما بين صَهيد ـ مفازة حضرموت ـ إلى عمل الطائف، إلى البحرين قِبَل عَدَن، وطابقت عليه اليَمن، وعَكّ بتِهَامة معترضون عليه، وجعل يستطير استطارة الحريق، وكان معه يوم لَقِيَ شهر بن باذام سبعمائة

(١) شعوب: بفتح أوله، وآخره باء موحدة، قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع. . . وقيل: شعوب: بساتين بظاهر صنعاء. . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الدبرة: الهزيمة في القتال.

(٣) عك: بفتح أوله: قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك، قال أبو القاسم الزجاجي: سميت بعك حين نزولها، واشتقاقها في اللغة جائز أن يكون من العك وهو شدة الحر. . . (معجم البلدان).

فارس سوى الرُّكبان، واستغلظ أمرُه، ودانت له سواحل من السواحل وعَدَن والجنَد؛ ثم صنعاء إلى عمل الطائف إلى الأحسية وغيرها.

وعامله المسلمون بالبقيّة، وعامله أهل الرِّدةِ بالكُفر، والرجوع عن الإسلام.

وكان خليفتُه في مَذْحِج عمْرو بن معدي كرب، وأسند أمر جُنْدِه إلى قيس بن عبدِ يَغُوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز وداذَوَيْه. فلمّا أثخن في الأرضِ استخفّ بقيسٍ وبفيروز وبداذَوَيْه. وتزوَّج امرأة شَهْر، وهي ابنة عم فيروز.

قال أبو عبيد بن صخر: فبينا نحن كذلك بحضْرموت، ولا نأمن أن يسير إلينا الأسود، أو أن يبعث إلينا جيشًا، أو يخرج بحضْرموت خارجٌ يَدَّعي بمثل ما ادّعى به الأسودُ، فنحن على ظهرٍ، تزوّج مُعاذ إلى بني بكرة ـ حيٌّ من السَّكون ـ امرأةً يُقَال لها: رَمْلَة، فحدِبوا[1] لصهره علينا ـ وكان معاذ بها معجَبًا ـ فإن كان يقول فيما يدعو الله به: اللَّهم ابعثني يوم القيامة مع السَّكون، ويقول أحيانًا: اللَّهم اغفر للسَّكون؛ إذ جاءتنا كتبُ النبيّ ﷺ، يأمرنا فيها أن نبعث الرجال لمجاولته ومصاولته، وأن نُبْلِغَ كُلَّ من رجا عنده شيئًا من ذلك عن النبي ﷺ.

فقام مُعاذ في ذلك بالَّذِي أمِرَه به، فعرفنا القوّة، ووثقْنا بالنّصر.

وعن جُشَيْش بن الدَّيلميّ، قال: لمَّا قدِم علينا وَبَرُ بن يُحَنِّس بكتاب النبيّ ﷺ يأمُرنا فيه بالقيام على ديننا، والنُّهوض في الحرْب، والعمل في الأسود، إمّا غيلةً، وإمّا مصادمة، وأن نُبلغ عنه مَنْ رأينا أنّ عنده نجْدة ودينًا، فعملنا في ذلك، فرأين أمرًا كثيفًا، ورأيناه قد تغيَّر لقيس بن عبد يغوث ـ وكان على جنده ـ فقلنا: يُخاف على دَمِه فهو لأول دعوة، فدعوناه وأنبَأناه الشأن، وأبلغناه عن النبيّ ﷺ، فكأنّما وقعْنا عليه من السَّماء، وكان في غمٍّ وضيقٍ بأمرِه، فأجابنا إلى ما أحببنا من ذلك، وكاتبْنا النَّاس، ودعوناهم. فأخبره الشيطان بشيء، فأرسل إلى قيس وقال: يا قيس، ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: عمَدت إلى قيس فأكرمتَه؛ حتى إذا دخل منك كل مَدْخلٍ، وصار في العِزِّ مثلَك؛ مالَ مَيْلَ عدوّك، وحاول مُلْكَك، وأضمرَ على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود! يا سوأة، يا سوأة! اقطفْ قُنّتَه[2]، وخُذْ من قيسٍ أعلاه؛ وإلاّ سلبك، أو قطف قُنّتك.

فقال قيس وحلف به؛ كذب وذي الخِمار؛ لأنت أعظم في نفسي، وأرجى عندِي من أن أحدِّث بك نفسي!

---

(١) حدب عليه: انحنى وعطف.

(٢) قنة كل شيء: أعلاه.

فقال: ما أجفاك! أتكذب الملَك! صدق الملَك، وعرفتُ الآن أنّك تائب مما اطَّلع عليه منك، ثم خرج فأتانا فقال: يا جُشَيش، يا فيْروز، يا داذَوَيْه! إنه قد قال وقلت: فما الرأي؟ فقلنا: نحن على حذَرٍ؛ فإنا في ذلك، إذ أرسل إلينا؛ فقال: ألم أشرِّفكم على قومكم! ألم يبلِّغني عنكم! فقلنا: أقِلْنا مرّتنا هذه؛ فنجونا، ولم نكد، وهو في ارتياب من أمرنا وأمر قيس، ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم؛ إذ جاءنا اعتراضُ عامر بن شهر وذي زود وذي مُرّان وذِي الكَلاع وذي ظُلَيْم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا النَّصر، وكاتبناهم؛ وأمرناهم ألا يحرّكوا شيئًا حتى نُبْرِم الأمر، وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتابُ رسول الله ﷺ إليهم. وكتب النبي ﷺ إلى أهل نجران، إلى عربهم وساكني الأرض من غير غربهم، فتنحّوْا، وانضمّوا إلى مكان واحد. وبلغه ذلك، وأحسَّ بالهلاك، وفرَق لنا الرأي، فدخلت على آزاد ـ وهي امرأته ـ فقلت: يا بنت عمٍّ، قد عرفْته بلاء هذا الرجل عند قومك؛ قتل زوجَك، وطأطأ[1] في قومك القتل، وسَفَل[2] بمن بَقِيَ منهم، وفضَح النساء، فهلْ عندكِ من ممالأة[3] عليه؟ فقالت: علَى أيّ أمره؟ قلت: إخراجه، فقالت: أو قتله! قلت: أو قتله، قالت: نعم والله ما خلَق الله شخصًا أبغَض إليّ منه؛ ما يقوم لله على حقّ، ولا ينتهي له عن حُرْمة، فإذا عزمتم فأعلموني أخبرْكم بمأتى هذا الأمر. فأخرُج فإذا فيروز وداذَوَيْه ينتظرانني، وجاء قيسٌ ونحن نريد أن نناهضه، فقال له رجل قبل أن يجلس إلينا: المَلِك يدعُوك، فدخلَ في عشرة من مَذْحِج وهَمْدان فلم يقدِرْ على قتله معهم.

فقال: يا عَبْهلة بن كعب بن غوث، أمِنّي تَحصَّنُ بالرجال! ألم أخبرك الحقَّ وتخبرني الكذابة! إنه يقول: يا سوأة، إلاَّ تقطع من قيس يده، يقطع قُنَّتك العُلْيا، حتى ظنَّ أنه قاتله.

فقال: إنه ليس من الحقّ أن أقتلك وأنت رسول الله؛ فمرني بما أحببتَ، فأمّا الخوف والفزع فأنا فيهما مخافَةَ أن تقتُلَني، وإمّا قتلتَني فموتة أهون عليّ من موتاتٍ أموتها كلَّ يوم. فرقَ له وأخرجه؛ فخرج إلينا، فأخبرنا. وقال: اعملوا عمَلكم، وخرج إلينا في جمعٍ، فقمنا مُثُولاً له، وبالباب مائة ما بين بقرةٍ وبعير، فقام وخطَّ خطًّا، وأقيمتْ من ورائه، وقام من دونها فنحرها غير محبَّسةٍ ولا معقَّلة، ثم خلاَّها ما يقتحم الخطَّ منها شيءٌ، ثمّ خلاها فجالت إلى أن زَهَقت[4].

(١) طأطأ: وضع من قدره.
(٢) سفل: نزل من أعلاه إلى أسفله.
(٣) مالأه عليه ممالأة: ساعده وعاونه.
(٤) زهقت نفسه: خرجت.

فما رأيتُ أمرًا كان أفظع منه، ولا يومًا أوحشَ منه، ثم قال: أحقّ ما بلغني عنك يا فيروز؟ - وبوّأ له الحربة - لقد هممتُ أن أنحرك فأُتْبِعَك هذه البهيمة؛ فقال: اخترتَنا لصِهْرك، وفَضَّلْتَنا على الأبناء، فلو لم تكن نبيًّا ما بعنا نصيبنَا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنَا بك أمرُ آخرةٍ ودنيا! لا تقبلنّ علينا أمثال ما يبلغك؛ فإنّا بحيث تحبّ؛ فقال: اقسمْ هذه، فأنت أعلم بمن هنا.

فاجتمع إليّ أهل صنعاء، وجعلت آمر للرهط بالجَزُور، ولأهل البيت بالبقرة، ولأهل الحِلَّةِ بعدّة، حتى أخذ أهلُ كلّ ناحيةٍ بقسطهم. فلحِق به قبل أن يصل إلى داره - وهو واقف عليّ - رجل يسعى إليه بفيروز، فاستمع له، واستمع له فيروز، وهو يقول: أنا قاتله غدًا وأصحابه، فاغْدُ عليَّ، ثم التفت فإذا به؛ فقال: مَهْ! فأخبره بالّذي صنع؛ فقال: أحسنت، وضرب دابّته داخلًا، فرجع إلينا فأخبرنا بالخبر، فأرسلنا إلى قَيْس، فجاءنا، فأجمع ملؤهم أنْ أعودَ إلى المرأة؛ فأخبرها بعزيمتنا لتخبرنا بما تأمر، فأتيت المرأة، وقلت: ما عندك؟ قالت: هو متحرز متحرِّسٌ، وليس من القَصر شيء إلا والحرسُ محيطون به غير هذا البيت؛ فإن ظَهْره إلى مكان كذا وكذا من الطَّريق، فإذا أمسيتم فانقبُوا عليه، فإنّكم من دُون الحرس؛ وليس دون قتله شيء. وقالت: إنكم سترون فيه سراجًا وسلاحًا، فخرجتُ فتلقّاني الأسود خارجًا من بعض منازله؛ فقال: ما أدخلك عليّ؟ ووجأ[1] رأسي حتى سقطت؛ وكان شديدًا، وصاحت المرأة فأدهشَتْهُ[2] عنّي؛ ولولا ذلك لقتلني؛ وقالت: ابن عمي جاءني زائرًا؛ فقال: اسكتِي لا أبا لك! فقد وهبتُه لك فتزيَّلتُ[3] عني، فأتيت أصحابي، فقلت: النَّجاء! الهرب! وأخبرتُهم الخبر، فإنّا على ذلك حيَارى إذ جاءني رسولُها: لا تدعَنَّ ما فارقتُك عليه، فإني لم أزلْ به حتى اطمأنّ.

فلمّا أمسينا عملنا في أمرنا، وقد واطأْنا أشياعُنا، وعجلْنا عن مراسلة الهَمْدانيّين والحِمْيريّين، فنقبْنا البيتَ من خارج، ثم دخلنا وفيه سراجٌ تحت جفنةٍ[4]، والْتقينا بفيروز - وكان أنجدنا وأشدّنا - فقلنا: انظر ماذا ترى؟ فخرج ونحن بينه وبين الحَرس معه في مقصورته، فلمّا دنا من باب البيت سمع غطيطًا شديدًا، فإذا المرأة جالسةٌ، فلمّا قام على الباب أجلسه الشيطان، فكلَّمَه على لسانه وإنه ليغُطّ جالسًا. وقال أيضًا:

---

(١) وجأ رأسه: ضربه.
(٢) أدهش: أذهب عقله من وله أو فزع أو حياء.
(٣) تزيلت: احتشمت. (٤) الجفنة: القصعة.

ما لي ولك يا فيروز! فخشي إن رجع أن يهلِك وتهلكِ المرأة، فعاجله فخالطه[١] وهو مثل الجمل، فأخذ برأسه فقتله، فدَقَّ عُنُقَه، ووضع ركبتيْه في ظهره فدقَّه، ثمّ قام ليخرج، فأخذت المرأة بثوبه، وهي ترى أنّه لم يقتله، فقالت: أين تَدعُني؟ قال: أُخبر أصحابي بمقتله؛ فأتانا، فقمنا معه، فأردنا حزَّ رأسه، فحرّكه الشيطان فاضطرب فلم يضبطه. فقلتُ: اجلسوا على صَدْره، فجلس اثنان على صَدْره، وأخذت المرأة بشعْرِه، وسمعنا بَرْبَرة[٢]، فأمرّ الشّفرة على حلْقه، فخار كأشدّ خُوار ثور سمعته قطّ.

فابتدر الحرسُ الباب وهم حول المقصورة، فقالوا: ما هذا، ما هذا؟ فقالت المرأة: النبيّ يوحى إليه؛ فخمد، ثم سَمَرْنا ليلتنا ونحن نأْتمر كيف نخبر أشياعنا؛ ليس غيرنا ثلاثتنا فيروز وداذويه وقيس، فاجتمعنا على النداء بشعارنا الذي بيننا أو بين أشياعنا، ثم ينادَى بالأذان فلمّا سمع بذلك، وطلع الفجر، نادى داذَوَيه بالشِّعار، ففزع المسلمون والكافرون، وتجمَّع الحرس فأحاطوا بنا.

ثم ناديت بالأذان، وتوافت خيولهم إلى الحرس، فناديتهم، أشهد أنّ محمدًا رسول الله، وأن عَبْهلة كذّاب، وألقينا إليهم رأسه؛ فأقام وبرٌ الصلاة، وشنَّها القوم غارة، ونادينا: يا أهل صنعاء؛ مَنْ دخل عليه داخل فتعلَّقوا به، ومَنْ كان عنده منهم أحد لم يخرج، فتعلّقوا به، ونادينا بمَن في الطريق: تعلّقوا بمن استطعتم، فاختطفوا صبيانًا كثيرًا، وانتهبوا ما انتهبوا، ثم مضوا خارجين.

فلمّا برزوا فقدوا منهم سبعين فارسًا ركبانًا، وإذا أهل الطريق والدُّور قد وافوْنا بهم، وفَقَدْنا سبعمائة عَيّل، ثم راسلونا وراسلناهم على أن يتركوا لنا ما في أيديهم، ونترك لهم ما في أيدينا، ففعلوا؛ فخرجوا لم يظفروا بشيء.

وتردَّدُوا فيما بين صنعاء ونَجْران، وخلصت صنعاء والجَنَد، وأعزّ الله الإسلام وأهله، وتنافسنا الإمارة، وتراجع أصحابُ النبيّ ﷺ إلى أعمالهم، فاصْطَلَحْنا على مُعاذ بن جبل فكان يصلِّي بنا، وكتبْنا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وذلك في حياة النبيّ ﷺ، فأتاه الخبر من ليلته، وقدمت رُسُلنا، وقد ماتَ النبيُّ ﷺ صبيحة تلك الليلة، فأجابنا أبو بكر رضي الله عنه.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أتى الخبرُ النبيّ ﷺ من السماء الليلةَ التي قتِل فيها العَنْسِيّ ليبشِّرَنا فقال: قتِل الأسود البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين قيل: ومن هو؟ قال: فيروز.

(١) خالطه: اشتبك معه.

(٢) البربرة: الصوت المختلط.

وعن فيروز؛ قال: قتلنا الأسود، وعاد أمرنا كما كان، إلاَّ أنّا أرسلنا إلى مُعاذٍ؛ فتراضينا عليه، فكان يصلِّي بنا في صَنْعاء، فوالله ما صلَّى بنا إلا ثلاثًا ونحن راجعون مؤمّلون، حتى أتى الخبرُ بوفاةِ رسول الله ﷺ، فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيرًا ممّا كنا نعرف، واضطربت الأرض.

وكانت مدّة العنسيّ من حين ظهور أمره إلى أن قتِل ثلاثة أشهرٍ.

وعن الضحاك بن فيروز، قال: كان ما بين خروجه بكهف خُبّان[1] إلى مقتله نحوًا من أربعة أشهر، وقد كان قبل مسْتسرًّا بأمره حتى نادى بعد.

وقال أبو بشر الدّولابيّ: إنّه قتل في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. والله أعلم.

وقيل: أتي الخبر بمقتله إلى المدينة في آخر ربيع الأوّل، سنة إحدى عشرة، بعد إنفاذ جيش أُسامة بنِ زيد، فكان ذلك أول فتح لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

روى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ يرفعُه إلى شُرَحْبيل بن مسلم الخَوْلانيّ أنّ الأسود بعث إلى أبي مسلم عبد الله الخولانيّ، فلما جاءه قال: أتشهدُ أنّي رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أنّ محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، فردّد ذلك عليه؛ كلّ ذلك يقول مثل ذلك. قال: فأمر بنارٍ عظيمة فأُجّجت، ثم ألقى فيها أبا مسلم، فلم تضرّه شيئًا. فقيل له: انفِه عنك وإلاَّ أفسد عليك مَن اتبعك، فأمرَه بالرّحيل، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قبِض رسول الله ﷺ واستُخْلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، وقام فصلَّى إلى سارية، وبَصُر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مِمّن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الذي أحرقه الكذَّاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: أنشدك الله أنت هو! قال: اللهمّ نعم، قال: فاعتنقه عمر، وبكى. ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، ثم قال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى في أمّةِ محمد ﷺ من فُعِل به كما فعل بإبراهيم خليل الله ﷺ.

هذا ما كان من أمر العنسيّ، وأمّا بقية الكذّابين؛ فسنذكر أخبارهم عند ذكرنا تجهيزَ أبي بكر الجيوش إن شاء الله تعالى.

---

(١) خبّان: بضم أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: هي قرية باليمن في واد يقال له وادي خبّان قرب نجران، وكهف خبان: هي دارة الأسود العنسي وبها ولد ونشأ. . . (معجم البلدان).

ذكر غزوة أبي بكر
وقتاله أهل الردة وعبس وذُبيان

قالوا: لما قُبِض رسولُ الله ﷺ، ارتدّت العرب كُلُّها إلا قريشًا وثَقِيفًا، وأتت وفُود العرب إلى أبي بكر الصّديق رضي الله عنه مرتدّين يُقرّون بالصّلاة، ويمنعون الزكاة، فلم يقبل ذلك منهم وردّهم، وقال: والله لو منعوني عِقَالاً[١] كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم عليها. وخرج في جمادى الآخرة منها، واستخلف على المدينة أُسَامة بن زيد، وقيل: سنانًا الضَّمريّ، وسار فنزل بذي القَصَّة[٢].

وكان رسول الله ﷺ بعث نَوْفَل بن معاوية الدّيلميّ على الصَّدقَة، فلقيه خارجة بن حُصين بالشَّربَّة[٣]، فأخذ ما في يديه وردّه على بني فزارة، ورجع نوفل إلى أبي بكر بالمدينة.

فأوّلُ حربٍ كانت في الرّدةِ بعد وفاة رسول الله ﷺ حرب العنسيّ باليمن، ثم حرب خارجة بن حصين ومنظور بن زبّان بن سيار في غَطَفان، والمسلمون غَارُّون[٤]، فانحاز أبو بكر إلى أكَمة فاستتر بها، ثم هزم الله المشركين.

وروي أن أوّل غزاةٍ غزاها أبو بكر، كانت إلى بني عبْس وذبيان، وأنه قاتلهم وهزمهم، وأتبعهم حتى نزل بذِي القَصَّة، وكان ذلك أول الفتح، ووضع أبو بكر رضي الله عنه بها النعمان بن مقَرِّن[٥] في عدد ورجع إلى المدينة، فوَثب بنو عبس وذُبيان على مَنْ فيهم من المسلمين فقتلوهم. فحلف أبو بكر رضي الله عنه: لَيقتُلَنّ في المشركين بمن قتَلوا من المسلمين وزيادة.

وقدمت رسل رسول الله ﷺ من اليمن واليمامة وبلاد بني أسد، ووفود مَنْ كان كاتبه النبي ﷺ.

---

(١) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.

(٢) ذو القصة: جبل في سلمى من جبلي طيىء عند سقف وغضور، وقال نصر: ذو القصة موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهو طريق الربذة... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الشربة: بفتح أوله وثانيه، وتشديد الباء الموحدة، قيل: الشربة موضع بين السليلة والربذة، وقيل: إذا جاوزت النقرة وماوان تريد مكة وقعت في الشربة... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) غارون: غافلون.

(٥) النعمان بن مقرن: هو من رجال مزينة (قبيلة من قبائل الرباب)، له صحبة. وكان على المسلمين يوم نهاوند في خلافة عمر رضي الله عنه، ففتحها وقتل يومئذ... (الاشتقاق لابن دريد).

وأَمِر أمرُه في الأسود ومُسَيلمة وطلحة بالأخبارِ والكُتب، فدفَعُوا كُتُبَهُم إلى أبي بَكرٍ، وأخْبَروه الخبر؛ فقال لهم: لا تَبْرَحُوا حتى تَجيء رسلُ أُمرائِكم وغيرهم بأدهى مما وَصَفْتُم، وأمرّ بانتقاض الأُمور؛ فلم يلبَثوا أن قَدِمَتْ كُتُبُ أُمراء النبي ﷺ من كُلّ مكانٍ بانْتِقاضٍ، عامة أو خاصّة، وتبسّط من ارتدّ على المُسْلِمين بأنواع الميل.

فحاربهم أبو بكر رضي الله عنه بما كان النبيّ ﷺ يحاربهم، حاربهم بالرسل، فردّ رسُلَهُم، وأتبع الرسُلَ رسُلاً، وانتظر بمصادَمتهم قدومَ أُسامة بن زيْدٍ، وطرقَتْ المدينة صدقات نفرٍ كانوا على الصَّدقةِ؛ وهم صَفْوان بن صفْوانٍ، والزِّبرقانِ[1] بن بَدْرٍ، وعديّ بن حاتِمٍ؛ فازداد المسلمون قُوّةَ، ثم قَدِمَ أُسامَةُ بنُ زيدٍ، فاستَخْلَفه أبو بكرٍ على المدينة ومعه جنده ليَسْتَريحوا.

ثم خرج بمن كان معه، فناشدهُ المسلمون ليقيم، فأبى وقال: لأُوَاسِيَنَّكُمْ بنفسي، فسار إلى حُسىً وذي القَصَّةِ حتى نزل بالأبرقِ[2]، فقاتل من به من المشركين فهزمهم، وأخذَ الحطيئة أسيرًا، وأقام بالأبرقِ أيامًا ثم رجع إلى المدينة، ولحقَ مَنْ انهزَمَ من عَبْسٍ وذُبْيانَ وطُلَيْحَة.

ورُوِيَ عن هشام بن عُرْوة عن أبيه أنَّ أوّل مَنْ صادَم أبو بكر رضي الله عنه بني عبسٍ وذُبْيان، عاجَلوه، فَقَاتَلَهُمْ قبل رُجوعِ أُسامة.

ولما قدم أُسامة استُخْلف على المدينةِ، ومضى حتى انتهى إلى الرَّبَذَة[3]، فتلقّى بني عبسٍ وذبيان وجماعةً من بني عبدِ مناة بن كنانة، فلقيهم بالأبرقِ، فَقَاتَلَهُمْ فَهَزَمَهُم اللّهُ عَزَّ وجلّ وَفَلَّهم، ثم رجَعَ إلى المدينة فعَقَد الألْوِيَةَ.

والله سبحانَه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

---

(١) قيل: للزبرقان ثلاث كنى: أبو العباس، وأبو شذرة، وأبو عياش. وثلاثة أسماء الزبرقان، والقمر، والحصين: بن بدر بن امرىء القيس بن خلف بن بهدلة، وسمي بذلك لأنه كان يرفع له بيت من عمائم وثياب، وينضح بالزعفران والطيب. وكانت بنو تميم تحجه... (الروض الأنف للسهيلي ٢: ٣٣٥).

(٢) المراد أبرق الربذة: بالتحريك والذال معجمة: موضع كانت به وقعة بين أهل الردة وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ذكر في كتاب الفتوح: كان من منازل بني ذبيان فغلبهم عليه أبو بكر رضي الله عنه لما ارتدوا وجعله حمى لخيول المسلمين... (معجم البلدان).

(٣) الربذة: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، واسمه جندب بن جنادة... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر عقد أبي بكر رضي الله عنه الألوية وتجهيزه الجيوش لقتال أهل الردة وما كاتب به من ارتد وما عهد

قال أبو جعفر محمدُ بنُ جَريرِ الطبريّ رحمه الله في تاريخه ما مختصره ومعناه: لما رَجع أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى المدينة، وأراح أُسامةُ وجُنْده ظَهْرَهُم وجمّوا(١)، وقد جاءتْ صدقاتٌ كثيرةٌ تفْضُلُ عَنْهم، قطع أبو بكرِ البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً:

عَقَدَ لخالدِ بن الوليد، وأمَره بطُلَيْحة؛ فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُويْرَة بالبُطاحِ إن أقامَ له.

وعقد لعِكْرِمَةَ وأمَره بمسيلِمة الكذّاب باليَمامة.

وعقد للمهاجر بن أبي أُمَيَّةَ، وأمَره بجنود العَنْسي ومعونة الأبناء على قيس بنِ المكْشُوحِ، ومن أعَانَهُ من أهل اليمنِ عليهم، ثم يَمْضي إلى كِنْدَة بحضرمَوْت.

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص، وبعثَهُ إلى الحمْقَتَيْن من مشارِفِ الشام.

وعقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى جِماع قُضاعة ووَديعة والحارثِ.

وعقد لحُذَيْفَة بن محصن الغَلْفانيّ، وأمره بأهلِ دَبَا(٢) لابن هَرْثمة، وأمره بمَهْرة وأمرهما أن يجتمع كل واحد منها في عمله.

وبعثَ شُرَحْبِيل ابنَ حَسَنَةَ في أثرِ عِكْرِمة بن أبي جهلٍ وقال: إذا فُرِغَ من اليمامةِ فالحق بقُضاعةَ؛ وأنت على خَيْلِكَ تُقاتلُ أهل الرِّدّة.

وعقد لمَعْن بنِ حاجزٍ ـ ويقال: لِطُرَيْفة بن حاجزِ ـ وأمره ببني سُلَيْم(٣) ومن مَعَهُمْ مِن هَوَازِن.

---

(١) جمّوا: أي استراحوا فذهب إعياؤهم.

(٢) دبا: بفتح أوله، والقصر، قال الأصمعي: سوق من أسواق العرب بعمان... وبعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأشعارها، وكانت قديمًا قصبة عمان، ولعل هذه السوق المذكورة فتحها المسلمون في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) بنو سليم: هم بنو سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر. أو هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وعقد لسُوَيْدِ بنِ مُقرّن؛ وأمره بتِهامة[1] اليمن.

وعقد للعلاءِ بنِ الحَضرمِيّ، وأمَره بالبَحْرِيْن.

فَفَصَلَتْ الأُمراء من ذِي القَصّةِ، ولحق بكلِّ أمير جُنْده، وعهدَ إلى كلّ أميرٍ منْهم، وكتبَ رضي الله عنه إلى سائرِ من ارتد نُسْخَةً واحدةً، وهي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ الله ﷺ إلى من بَلَغه كِتَابي هذا من عامّةٍ أو خاصةٍ، أقامَ على إسلامه أو رجع عنه.

سلام على مَن اتبع الهدى، ولم يَرْجِعْ بعدَ الهُدَى إلى الضَّلالة والعَمَى، فإني أحْمَدُ الله إليكُم الذي لا إله إلاَّ هو، وأشْهَدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عَبْدُهُ ورسُوله، وأُقِرُّ بما جاء به.

أما بَعْد؛ فإنَّ الله أرسلَ محمدًا بالحقّ من عِنده إلى خَلْقِه بَشِيرًا ونَذيرًا، ودَاعِيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا؛ لينذرَ من كان حَيًّا، ويَحِقَّ القَوْل على الكافرين، فهدَى الله للحقِّ من أجاب إليه، وضَرَب رسولُ الله ﷺ بإذنه من أَدْبَر عنه؛ حتى صار إلى الإسلام طَوْعًا وكَرْهًا، ثم تُوفِّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ وقد نفذ لأمرِ اللّهِ، ونَصَح لأُمّته، وقَضى الذي عليه.

وكان الله قد بَيّن له ذلك ولأهل الإسلام في الكتابِ الذي أنْزَلَهُ؛ فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فمن كانَ إنمَا يَعْبُدُ محمدًا، ﷺ؛ فإنَّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان إنّما يَعْبُد الله وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، فإنَّ الله له بالمرصاد، حَيٌّ قَيُّومٌ لا يموتُ، ولا تأْخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، حافِظٌ لأمْره، منتقم من عدوّه، يجزيه.

وإني أُوصيكُم بتَقْوى اللّهِ، وحَظُّكُم ونَصِيبُكُمْ من اللّهِ، وما جاء به نبيكم، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإنَّ كل من لم يَهْدِه الله ضالٌّ، وكُل من لم يُعَافِه الله مبْتَلَى، وكل مَنْ لم يُعِنْه الله مَخْذُول.

---

(١) تهامة: بالكسر: تهامة تساير البحر، منها مكة.. والحجاز ما حجز بين تهامة والعروض... (معجم البلدان).

فَمَنْ هداه اللَّهُ كان مُهْتَدِيًا، ومن أضَلَّهُ الله كانَ ضالاً، فإنّه قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ولَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ في الدُّنْيَا عمَلٌ حتى يقرّبه، ولم يُقْبَلَ لَهُ في الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْلٌ.

وقد بلَغني رجُوعُ من رَجَع مِنْكُم عن دينه بعد أنْ أقرَّ بالإسلام، وعمِل به اغترارًا بالله وجَهالةً بأمْرِه، وإجابة للشيطان.

وقال الله جَلّ ثناؤُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

وإنّي بعثتُ إليكم فلانًا في جيشٍ من المهاجرينَ والأنصارِ والتَّابعين لهم بإحسان، وأمرتُه ألاّ يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يَدْعُوَهُ إلى داعيةِ الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكَفَّ، وعَمِلَ صَالِحًا قبل مِنْهُ، وأعانَهُ عليه، ومَنْ أبى أمرت أن يُقَاتِلَه على ذَلِكَ، ثم لا يُبْقى على أحدٍ منهم قَدرَ عليه، وأنْ يُحْرِقَهُم بالنيران ويَقْتُلَهُمْ كل قِتْلَةٍ، ويَسْبِيَ النساءَ والذرارِيَّ، ولا يقْبَل مِنْ أحدٍ إلا الإسلامَ.

فمَنْ اتَّبَعَهُ فهو خيرٌ له، ومن تركه فَلَنْ يُعْجِزَ الله، وقد أمرتُ رسُولِي أن يقرأ كِتابي في كلّ مجمعٍ لكم.

والدَّاعيةُ الأذانُ؛ فإذا أذَّن المسلمون فأذّنوا كُفُّوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجِلُوهُم؛ وإن أذَّنوا اسْألوهم ما عِلّتهم، فإن أبَوْا عاجلُوهُم، وإن أقرُّوا قبِلَ منهم وحملهم على ما يَنْبَغِي لهم.

قال: فنَفَذت الرُّسُلُ بالكتبِ أمامَ الجنودِ، وخرجَتْ الأُمراءُ ومعهم العُهُودُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا عهدٌ من أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى فلانٍ؛ حين بعثَهُ فيمَنْ بعثَ لقتالِ مَنْ رجعَ عن الإسلامِ؛ عهِد إليه أنْ يتّقِيَ الله ما استطاعَ في أمرِه كلِّه؛ سرِّه وعلانيتِه، وأمره بالجدِّ في الله ومجاهدَةِ مَنْ تولّى عنهُ، ورجَع عن الإسلامِ، فإن أجابُوه أمْسَكَ عنهم، وإن لم يجيبُوهُ شَنَّ غارتَهُ عليهم حتى يُقِرُّوا له، ثم ينبِّئُهم بالَّذي عليهم والذي لهم، ويأْخذ ما علَيْهم، ويُعْطِيهم الذي لهم؛ لا يُنظِرهم، ولا يردّ المسلمين عن قتالِ عدوِّهم، فمَنْ أجاب إلى أمر الله وأقرَّ له قَبِل ذلك منه، وأعانه

عليه بالمعرُوفِ وإنَّما يقاتلِ من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، وإذا أجاب الدّعوةَ لم يكن عليه سبيلٌ، وكان الله حَسِيبَه فيما استسر به، ومَنْ لم يجب داعية الله قُتِلَ وقُوتِلَ حَيْثُ كان، وحيثُ بلغ مراغِمَهُ[١]؛ لا يقبَل من أحدٍ شيئًا أعطاه إلاَّ الإسلام، فمَنْ أجابَهُ وأقَرَّ قُبِلَ منه وعلَّمه، ومَنْ أبى قاتله؛ فإنْ أظهرَهُ[٢] الله عليه قتل منهم كُلَّ قتلةٍ، بالسلاحِ والنّيرانِ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلاَّ الخُمس، فإنه يبلِّغناه، وأن يمنع أصحابَهُ العجَلة والفساد، وألاَّ يُدخلَ فيهم حَشْوًا حتى يَعْرِفهم ويعلَم ما هم؛ لا يكونوا عيونًا، ولئلاَّ يؤتَى المسلمُون من قِبَلهم وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بِهم في السير والمَنْزِل، ويتفقدَهم ولا يُعْجِل بعضَهم عن بعضٍ، ويستوصِيَ بالمسلمينَ في حسن الصُحْبَةِ ولين القَوْلِ.

والله تعالى أعْلَمُ بالصوابِ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيدنا محمد.

ذكر خبر طليحة الأسدي وما كان من أمره وأمر من اتبعه من قبائل العرب وما آل إليه أمره بعد ذلك

كان خبر طلَيْحة بنِ خوَيْلد الأسديّ؛ أسد خزَيْمةِ، أنَّه ارتدّ في حياة رسول الله ﷺ وادَّعى النُبوّة، فلمّا ظهر أمْرُهُ وجَّه رسولُ الله ﷺ ضِرارَ بنَ الأزور إلى عمَّاله على بني أسَدٍ، وأمرهم بالقيام في أمر طلَيْحة ومَن ارتدَّ معه، ونزلَ المسلمون بوَارِدَات[٣]، ونزلَ المشركون بِسَميرَاء[٤].

فضعفَ أمر طُلَيْحة، وما زال المسلمون في نماءٍ، والمشركون في نُقصان حتى همَّ ضرارُ بن الأزور أن يسير إلى طُلَيْحة، ولم يَبْقَ أحد إلاَّ أخذه سَلَمًا[٥]، فاتَّفَقَ أنَّه ضرب ضَرْبَةً بسيفٍ فنبا[٦] عنه، وشاعَتْ تلك الضربة في النَّاس، وقالوا: إنَّ السلاحَ لا يَعْمَلُ في طُلَيْحة، فبينما الناسُ على ذلك إذ ورد الخبر بوفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فما

---

(١) المراغم: المهرب والمذهب. (٢) أظهره الله عليه: أعانه.

(٣) واردات: موضع عن يسار طريق مكة وأنت قاصدها.

(٤) سميراء: قال أبو عبيد السكوني: الربائع عن يسار سميراء وواردات عن يمينها، ويوم واردات معروف بين بكر وتغلب... (معجم البلدان).

(٥) السلم: الاستسلام. (٦) نبا السيف عن الشيء: لم يصبه.

أمسى المسلمونَ مِنْ ذلك اليوم حتَّى عرفوا النقْصَان، وكَثُرَ جَمْعُ طُلَيْحة واستطار أمْرُهُ، وادَّعى أنَّ جبريل يأتيه، وسجع للناس الأكاذيب فكان مما أتى به قَوْلُهُ: «والحمام واليمام، والصُّردِ[١] الصَّوَّام، قد صَمِنَ قبلكُمْ بأعوام، ليبلُغنَّ ملكنا العِراق والشام». وأمَرَ طُلَيْحة الناس بترك السجود في الصَّلاة، وتبِعَهُ كثيرٌ من العرب، وكان أكثر أتباعه أسدٌ وَغَطفان وطيِّىء، ولما انهزمَتْ عبْسٌ وذبْيان التحقوا به ببُزاخة[٢]، وأرسل طُلَيحة إلى جديلَةَ والغوْثِ ـ وهما حَيَّانِ من طيِّىء ـ أن ينضموا إليه، فتعجَّل إليه أُناسٌ من الحيَّين، وأمروا قومهم باللَّحاقِ بهم، فقدموا على طُلَيْحة وكانوا معه. وبعثَ أبو بكرٍ رضي الله عنه عدِيَّ بن حاتم الطَّائيّ قبْلَ توجيهه خالدَ بن الوليد إلى قوْمِه، وقال: أدْرِكْهُم لا يُؤكَلُوا؛ فخرج عَديّ إليهم؛ ففتَلهم في الذُّرْوة والغارب، وخرج خالدُ بنُ الوليد في أثرهِ، وأمرَه أبو بكر رضي الله عنه أن يَبْدَأَ بطيِّىء على الأكناف؛ ثم يكون وجهه إلى البُزاخَةِ، ثم يُثَلِّث بالبُطاح، ولا يَبْرَحُ إذا فَرَغَ من قومٍ حتى يأذَنَ له، وأظهرَ أبو بكرٍ أنَّه خارجٌ إلى خيْبرَ ومنصبٌّ عليهم مِنْها، حتى يَلاقيَهُ بالأكناف، أكناف سَلْمى.

قال ابن الكلبيّ: وإنَّما قال ذلك أبو بكر مكيدةً حتى يبلغ ذَلك عدوَّه فيُرعِبَهم، وكان قد أَوْعَبَ[٣] مع خالد الناس، فخرج خَالدٌ، فازْوارّ عَنْ البُزاخَةِ وجَنَح إلى أجَأ[٤]، وقدم عَدِيٌّ بن حاتم عليهم؛ ودَعَاهم إلى الإسلام؛ فأجَابُوه بعد امتناع، وقالوا له: أخِّرْ عنَّا الجيش حتى نستخرجَ من أُلحقَ بالبُزاخة مِنَّا، فإنَّا إن خالفْنا طُلَيْحة وهم في يَدَيْه قتلَهُمْ أو ارتهنَهم، فاستقبل عديٌّ خالدًا وهو بالسُّنْح، فقال: يا خالد، أمسِكْ عني ثلاثًا؛ تجتمع لك خمسمائة مقاتلٍ تضرب بهم عدوَّكَ؛ خيرٌ من أن تُعْجِلَهم إلى النَّار. وتشاغَلْ بهم، ففعل وعاد إليْهم وقد أرْسلوا إلى إخوانهم؛ فأتَوْهُم من بُزاخة كالمدَدِ، ولولا ذلك لم يُتْرَكوا، فعاد عدِيٌّ بإسلامهم إلى خالد، وارتحل

---

(١) الصرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون به.

(٢) بزاخة: بالضم والخاء معجمة، قال الأصمعي: بزاخة ماء لطيىء بأرض نجد، وقال أبو عمرو الشيباني: ماء لبني أسد كانت فيه وقعة عظيمة في أيام أبي بكر الصديق مع طليحة بن خويلد الأسدي... (معجم البلدان).

(٣) أوعب الناس: جمعهم.

(٤) أجأ: بوزن فعل، بالتحريك، مهموز مقصور، قال الزمخشري: أجأ وسلمى جبلان عن يسار سميراء، وقد رأيتهما، شاهقان. ولم يقل عن يسار القاصد إلى مكة أو المنصرف منها... (معجم البلدان لياقوت).

خالد يريد جَدِيلة، فقال له عَدِيٌّ: إنَّ طيئًا كالطائر، وإنَّ جَدِيلَةَ أَحَدُ جَنَاحَيْ طيِّىء، فأجِّلْني لعلَّ الله أن يُنقِذ جديلَة لك كما أنقذ الغَوْث؛ ففعل، وأتاهم عديٌّ؛ فلم يَزَلْ بهم حتى بايَعُوهُ؛ فجاء بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألفُ راكبٍ، فكان خيرَ مولودٍ ولد في أرض طيِّىء وأعظمه عليهم بركة.

قال هشام الكَلْبِي: وسار خالدُ بن الوليد إلى طُلَيْحة، وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه قد جعل ثابتَ بن قيسٍ على الأنصار وأمْرُه إلى خالدٍ، فلمّا دنا خالِدٌ من القوم، بَعث عُكَّاشَةَ بن محصن، وثابت بن أقرم بن ثَعْلَبة العَجلانيَّ البَلَوِيَّ حَليفَ الأنصارِ طليعةً؛ حتى إذا دنوْا من القوم خرجَ طُليحة وأخُوهُ سلمة ينظران ويسألانِ، فلقياهما فبرزَ سَلَمة لثابت، وبرز عُكَّاشَة لَطُليحة. فأما سلمة، فلم يُمْهلْ ثابتًا أنْ قتلَه، ونادى طليحةُ أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أنْ أعِنِّي على الرَّجُل فإنّه آكل، فاعتَونا[1] عَلَى عُكَّاشه، فقتلاه ثم رجعا، وأقبل خالدٌ بالناسِ، فمروا بثابتِ بن أقرم قتيلاً، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطيُّ بأخْفافها، فكبُرَ ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هُمْ بعُكَّاشة صَرِيعًا، فجزع لذلك المسلمون وقالوا: قُتِل سيّدان مِنْ ساداتِ المسلمين، وفارسانِ من فرسانهم.

قال: ثمَّ التقى المسلمون بطُليحة ومَنْ معه على بُزاخَة، واقتتلوا أشدَّ قتال، وطليحة متلَفِّف في كسائِه بفِناء بَيْتٍ يتنبَّأ لهم بزَعْمِه، وكان عيَيْنية بن حصْن بن حُذيفة الفزارِيّ مع طليحة في سبعمائة من بني فَزارة يُقَاتِلُ قِتالاً شديدًا، فلما اشتدَّ القتال كرَّ عُيينة على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا؛ فرجع فقاتل حتى إذا ضرِس[2] القتال، وهَزَّته الحربُ كرَّ عليه، فقال له: لا أبا لك! هل جاءكَ جبريلُ بعد؟ فقال: لا، فقال عُيَيْنة: حتى متى؛ قد والله بلغ منَّا! ثم رجع فقاتل؛ حتى إذا بلغ كرَّ عليه فقال: هل جاءك جبريلُ بعد؟ قال: نعم؛ قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: «إنَّ لك رَحًا كرحاه، وحديثًا لا تنساه». قال عُيَيْنة: قد عَلِمَ الله أن سيكونُ لك حديث لا تنساه، ونادى عيينة: يا بنِي فَزارة؛ هكذا فانصرفوا، فهذا والله كذَّاب، فانصرفوا وانهزمَ الناس فغشُوا طليحة، يقولون: ماذا تأمُرُنا؟ وكان طليحة قد أعدَّ فرسه وراحلته عنده، فلمّا غشيه النَّاس قام فَوَثَبَ على فرسه، وحمل امرأته النَّوارَ على الراحلةِ فنجا بها، وقال للناس: مَن استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلْتُ وينجوَ بأهْلِه

(١) اعتونا: تعاونا. (٢) ضرس القتال: اشتد.

فليفعل، ثم سلك الجُوشنيّة[١] ولحِقَ بالشام فارْفَضَّ جمْعُهُ، وقتل الله مَنْ قتل مِنْهُم، وأتت قبائِلُ سُلَيم وهوازن وفزَارَة وأسد وغطفان، وتلك القبائِلُ يقولون: نَدْخُلُ فيما خرجْنا منه، ونُؤْمِنُ بالله وبرسوله ونُسلِّم لحكمه في أموالنا وأنْفُسِنَا.

فبايعهم خالدُ بن الوليد على الإسلام، ثمّ أقبلَتْ بنو عامرٍ بعد هزيمةِ أهل بُزاخة، يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالدٌ على ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيّىء قبلهم، وأعطوْهُ بأيديهم على الإسلام.

قال أبو الحسن عليُّ المعروف بابن الأثير[٢]: وكانت بيعته: عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمِنُنَّ بالله ورسوله، ولتقيمُنّ الصلاة، ولتؤتُنّ الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكُمْ! فيقولون: نعم، ولم يقبل من أحد منهم إلا أن يأْتُوه بالذين حَرَّقوا ومَثَّلُوا، وعَدَوْا على المسلمين في حال رِدَّتِهم، فأتوه بهم، فقبل مِنْهم إلاَّ قُرّة بن هبيرة سيِّد بني عامرٍ ونفرٌ معه أوثقهم، ومثَّل بالذين عَدَوْا على المسلمين فأحرقهم بالنيران بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونَكَّسَهُم في الآبار وأرسل إلى أبي بكر يعلمه ما فعل، ورضخهم، وبعث بقرّة وبالأُسارى إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه وكتب إليه: إنَّ بني عامر أقبلَتْ بعد إعراضٍ، ودخلَتْ في الإسلام بعد تربّص، وإنّي لم أقبل من أحدٍ سألني شيئًا حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتُهم كُلّ قِتْلَة، وبعثتُ إليك بقرّة وأصحابه.

فكتب أبو بكر إليه: ليزِدْكَ ما أنْعَمَ اللّهُ به عليكَ خيرًا، فاتَّقِ الله في أمْرِك، فإنّ الله مع الَّذين اتَّقَوْا والَّذين هم محسنون، جِدَّ في أمر الله ولا تنِيَنَّ ولا تظفرنّ بأحدٍ قتلَ المسلمين إلا قتلْتَه، ونكّلْتَ به غيرَه.

وكان عُيَيْنة بن حِصْنٍ ممن أُسِرَ، روي عَنْ عُبيْدَ الله بن عبد الله بن عتبة بن مَسْعُودٍ. قال: أخْبرني مَنْ نظر إلى عيينة بن حصن مَجْمُوعة يدَاهُ إلى عُنقِه في حبلٍ،

(١) الجوشنية: بزيادة ياء النسب، والهاء: جبل الضباب قرب ضرية من أرض نجد... (معجم البلدان).

(٢) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين؛ ولد بالجزيرة ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع والده وأخويه... كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣: ٣٤٨).

ينخسُه غِلْمان المدينة بالجريد[١] يقولون: أيْ عَدُوّ الله، أكفرتَ بالله بعد إيمانك! فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قطُّ؛ حكاه أبو جَعْفر الطبريّ.

قال: فتجاوَزَ أبو بكرٍ رضي الله عنه، وحقن له دَمَه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأمَّا طُلَيحة وما آل إليه أمْرُهُ؛ فإنّه لَحِقَ بالشام، ثم نزل على كَلْبٍ، فأسلَم حين بلغه إسلامُ أسدٍ وغطفان، ولم يزلْ في بني كلْب حتى مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وخرج في خلافة أبي بكر إلى مكة مُعْتَمِرًا، ومرَّ بجَنَباتِ المدينة. فقِيل لأبي بكرٍ: هذا طُلَيْحة، فقال: ما أصنع به؟ خلُّوا عَنْه، فقد هداه الله للإسلام. فمضى نحو مكة، فقضى عُمْرته، ثم أتى عُمَرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه للبيعة حين استُخْلِفَ، فقال له عمر: أنتَ قاتل عُكَّاشة وثابت! والله لا أُحِبُّكَ أبدًا؛ فقال: يا أمير المؤمنين ما تنقم من رَجُلَيْن أكرمَهُمَا الله بيديَّ، ولم يُهنِّي بأيديهما!

فبايعه عُمَر ورجع إلى دار قومه فأقام حتى خرج إلى العراق.

ذكر خبر تميم وأمر سجاح ابنة الحارث بن سويد

كان من خبر بني تميم أنَّ رسولَ الله ﷺ قبل وفاته فرّق عمَّاله فيهم، فكان الزِّبْرقان بنُ بدرٍ على الرِّباب[٢] وعوف والأبناء؛ وكان سهم بنُ مِنْجاب وقيس بنُ عاصم على مُقَاعِس[٣] والبُطُون، وصفوان بن صفوان وسَبْرة بن عمرو على بني عمرٍو، هذا على بَهْدَى، وهذا على خَضَّم (قبيلتين مِن بني تميم)، ووكيع بن مالك ومالك بن نُوَيْرَة على بني حنظلة، هذا على بني مالكٍ، وهذا على بني يَرْبوع.

فأمّا صفوانُ فإنّه لما أتاه الخبر بوفاةِ رسول الله ﷺ ضرب إلى أبي بكرِ الصِّديق رضي الله عنه بصدَقات بني عمرو وما ولِيَ منها وبما وَلِيَ سبْرة، وأقامَ سبرة في قومه لحدَثٍ إن ناب.

---

(١) الجريد: واحدتها الجريدة، وهي سعفة طويلة تقشر من خوصها.

(٢) الرباب: تيم، وعديّ، وعكل، ومزينة، وضبّة. وإنما سموا الرباب لأنهم تحالفوا فقالوا: اجتمعوا كاجتماع الربابة.. وقال قوم: بل غمسوا أيديهم في ربّ وتحالفوا... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) بنو مقاعس: هم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم.. ومن قبائل مقاعس: عمرو، وصريم، وأصرم، وربيع، وعمير، وعبيد.. ومن رجال مقاعس: سليك بن السلكة.. ومقاعس اسمه الحارث بن عمرو.

وأمّا قيس بن عاصم فإنه قسّم ما وليه من الصَّدقات في مُقاعِس والبطون؛ وإنّما فَعَل ذلك مخالفةً للزِّبْرِقان.

وأمَّا الزبْرِقانُ فإنَّه أتْبعَ صفوان بالصَّدقاتِ التي أخذها مِمَّنْ كانَتْ تليه، وقدم بها إلى المدينة على أبي بكرٍ وهو يقولُ ويُعرِّضُ بقيس بن عاصم(١): [من الطويل]

وَفَيْتُ بأَذْوادِ الرَّسول وقد أبتْ   سُعاةٌ فلم يَرْدُد بعيرًا مُجيرُها

ثم ندم قيسُ بن عاصم على ما كان مِنْهُ، فلما أظلَّه العلاءُ بنُ الحضرمِيّ تلقَّاه بالصَّدقةِ، وخرج معه؛ وقال في ذلك: [من الطويل]

ألا أبْلِغا عنِّي قُريشًا رِسَالةً   إذا ما أتتها بيِّناتُ الودائِعِ

قال: وتشاغَل الناسُ في تلك الحالِ بعضهم ببعض، ونَشِبَ الشَّرُّ، فتشاغلَتْ عَوْفٌ والأبناءُ بالبُطون والرِّباب بمقاعِسٍ، وتشاغلَتْ عمرو وخضَّم بمالك وبَهْدى بيربُوع؛ فبينا الناس في بلاد تميم على ذلك قد شغل بعضهم بعضًا، فَمُسْلِمهم بإزاء مَنْ قدَّم رِجْلًا وأخَّرَ أُخرى، وتربَّص وارتاب؛ إذ فجِئتهم سَجاح ابنة الحارث، قد أقبلَتْ من الجزيرة؛ وكانت ورهْطها في بني تغلِب، فأتت تقود أفناء ربيعة، معها الهُذيلُ بنُ عِمْران في بني تَغْلِب، وعَقَّة بنُ هلالٍ في النَّمِر، وزيادُ ابنُ فلانٍ في إياد، والسَّليلُ بن قَيْسٍ في بني شَيْبَان، فأتاهم أمرٌ دَهِيٌّ؛ هو أعظمُ مما فيه الناس؛ لهجومها عليهم، ولما هُم فيه مِنْ اختلافِ الكلمة والتشاغل بما بينهم. وكانت سَجَاح ابنة الحارث بن سُوَيْد بن عُقْفَان هي وبنو أبيها بنو عُقْفَانَ في بني تغلِب، فاستجاب لها الهُذَيْل، وترك النَّصرانية، فراسلت مالك بن نُوَيْرَة ودعته إلى الموادعَةِ، فأجَابَها وحملها على أحْياء بني تميم، فقالتْ: نعم فشأنك بمن رأيتَ، فإنما أنا امرأة من بني يَربوع، فإن كان مُلْكٌ فالمُلكُ مُلْكُكُم. وأرسلتْ إلى بني مالك وحنظلة تدعوهم إلى الموادعة.

فخرج عُطَارِد بن حاجب، وسَروات بني مالِك، حتى نزلوا في بني العَنْبر على سَبْرة بن عمرو هُرَّابًا، وخرج أشباههم من بني يَرْبُوع حتى نزلوا على الحصين بن نيار

---

(١) قيس بن عاصم المنقري، جده سنان بن خالد بن منقر أحد بني سعد بن زيد مناة بن تميم وقيس يكنى أبا عليّ، وهو شارع فارس شجاع حليم، كثير الغارات مظفر في غزواته أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم وأحسن إسلامه وأتى إلى النبي ﷺ وصحبه في حياته وعمر بعده زمانًا. . . (شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢ : ٢٦٣).

في بني مازنٍ، وقد كرهوا ما صنع مالك، فلما جاءَتْ رسُلُهَا إلى بني مالكٍ تَطْلُب الموادَعَةَ أجَابَها إلى ذلك وكيعُ بن مالكٍ، فاجتمع وكيعٌ ومالك بن نويرة وسَجَاح، وقد وادع بعضُهم بعضًا، واجتمعوا على قتالِ الناسِ، وقالوا: بمَنْ نَبْدَأ؟ بخَضَم أم ببَهْدَى، أم بعَوْفٍ والأبناءِ، أم بالرّباب؟ وكفُّوا عن قيْس بن عاصم لما رأوْا مِنْ تردُّدِه وطمعوا فيه. فقالت سجاح: «أعدُّوا الركاب، واستعدُّوا للنِّهاب، ثم أغِيرُوا على الرِّباب، فليس دونهم حجاب»، وصمدت سجاح للأحفارِ حتى تنزل بها، وقالتْ لهم: «إنَّ الدَّهْناءَ حجازُ بني تميم، ولن تَعْدوَ الرِّباب، إذا شدَّها المُصاب، أنْ تكون بالدّجاني والدّهانِي، فلينْزِلْها بعضُكُم».

فَتَوَجّه مالك بن نُوَيْرَةَ إلى الدَّجاني فنزلها، وسمعت بهذا الرِّبابُ، فاجتمعوا لها: ضَبَّتُها وعبْدُ مَنَاتِها، فَوَلِيَ وكيع وبِشْرٌ بني بكرِ بن ضَبَّةَ، وَوَلِيَ ثعلبةُ بن سعد عقَّة، وَوَلِيَ عَبْدَ مناةِ الهُذَيْلُ، فالتقى وكيعٌ وبِشْرٌ وبنو بكرٍ من بني ضَبَّةَ فهُزما، وأُسِرَ سَمَاعَةُ ووكيعٌ وقعقاع، وقُتِلَتْ قَتْلَى كثيرة، فاجتمع بعد ذلك رؤساءُ أهلِ الجزيرة، وقالوا لسجَاح: ماذا تَأْمُرِيننا؛ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا؟ فقالت: اليمامة؛ فقالوا: إنَّ شَوْكة أهل اليمامةِ شَدِيدةٌ، وقد غَلُظَ أمر مُسيْلَمة فقالت: «عليكم باليمامة، ودُفُّوا[1] دَفيف الحمامةِ، فإنها غزوَةٌ صَرَّامة، ولا يلحقكُمْ بعدها ملامة»، فَنَهدَتْ[2] لبني حنيفة، وبلغ ذلك مُسَيْلمة فهابَها، وخاف إن هو شُغِل بها أن يدهَمُه شُرَحبيل ابن حَسَنة والقبائل، فأهدى لها، ثم أرسل إليها يستأمنُها على نفسه حتى يأتيَها.

فأنزلت الجنود على الأمواه له وأمَّنته، فجاءها في أربعين مِن بني حَنيفة. وكانت سجَاح راسِخَةً في النَّصْرانية، قد عَلِمَتْ مِنْ عِلْم نصارى تَغْلِب، فقال لها مُسَيْلِمةُ: لَنَا نصفُ الأرض، وكان لقريش نصفها لو عَدَلَتْ، وقد رَدَّ الله عليكِ النصف الذي رَدَّتْ قريش، فحباك به، وكان لها لو قبلَتْ؛ فقالت: «لا يَرُدُّ النِّصف إلاَّ مَنْ حنَف، فاحمل النِّصف إلى خيل تراها كالسَّهَف»[3]. فقال مسيلمة: «سَمِعَ اللَّهُ لمَنْ سمعَ، وأطمعه بالخيرِ إذا طَمِعَ، ولا زال أمره في كُلّ ما سرَّ نفسه يجتمع. رآكم ربُّكم فحيّاكم، ومن وحْشَةٍ خَلاَّكم، ويوم دينه أنجاكم فأحْيَاكُمْ، علينا من صلواتِ معْشر أبرارٍ؛ لا أشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربِّكُم الكُبار، ربّ الغيوم والأمطارِ».

---

(١) يقال: دفّ الطائر: إذا ضرب جنبيه بجناحيه، أو حرك جناحيه ورجلاه في الأرض.

(٢) نهدت: نهضت.

(٣) السهف: الذي اشتد عطشه.

وقيل: إنَّ مُسَيْلمة لما نزلتْ به سَجاح أغْلَقَ الحصن دُونَها. فقالت له: انزِلْ. قال: فنحّي عنكِ أصحابَكِ، ففعلَتْ. فقال مسيلمة: اضربوا لها قُبَّة وجمِّروها[١] لعلها تذكرُ الباه[٢]، ففعلوا، فلمَّا دخلت القُبَّةَ نزل مسيْلمة. فقال لأصحابه: ليقف هاهنا عشرةٌ، ثمَّ دارسها. فقالتْ: ما أُوحي إلَيْكَ؟ فقال: «ألم ترَ إلى ربِّك كيف فعلى بالحُبْلى، أخرج منها نسمةً تَسْعَى، من بين صِفاقٍ[٣] وحَشَى» قالت: وماذا أيضًا؟ قال: أوحى إليَّ «إنَّ الله خلق النساء أفراجًا، وجعل الرجال لهن أزواجًا، فنولِجُ فيهنَّ قُعْسًا[٤] إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سخالاً[٥] إنتاجًا». قالت: أشهدُ أنَّك نبيّ. قال: هل لك أن أتزوَّجَكِ، وأذِلّ بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال: [من الهزج]

ألاَ قُومي إلى النَّيْكِ فقد هُيِّي لكِ المضْجَعْ
فإن شئت ففي البيت وإن شئت ففي المخْدَعْ
وإن شئت سَلَقْناكِ وإن شئتِ على أربعْ[٦]
وإن شئت بثلثيه وإن شئتِ به أجمعْ

قالتْ: بل به أجْمَع. قال: بذلك أُوحي إليَّ، فأقامَتْ عنده ثلاثة أيام، ثم انصرفتْ إلى قومها. فقالوا لها: ما عِندكِ؟ قالت: كان عَلَى حَقٍّ، فاتَّبعتُهُ فتزوَّجْتهُ، قالوا: هَلْ أصدقكِ شيئًا؟ قالت: لا. قالوا: فارجِعي إليه، فقبيح على مثلِكِ أن ترجعَ بغير صداق، فرجَعَتْ. فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال: ما لكِ؟ قالت: أصدِقْني صَدَاقًا. قال: مَنْ مؤذِّنُكِ؟ قالت: شبث بن رِبْعِيّ. قال: عليَّ به، فأتاه. فقال: نادِ في أصحابك: إنّ مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتيْن مما أتاكم به محمّد: صلاة الفجر، وصلاة العشاء الآخرة.

قال: وكان من أصحابها الزِّبْرِقان بن بدرٍ وعطارد بن حاجب ونظراؤُهم. فقال: إنّ عامَّةَ بني تميم بالرَّمْلِ لا يصلُّونها، فانصرفت سَجَاح ومعها أصحابها، فقال عُطاردُ بن حاجب: [من البسيط]

أمْسَتْ نبِيَّتُنَا أُنْثَى نطيفُ بها وأصبحتْ أنْبِيَاءُ الناسِ ذُكْرَانا

---

(١) جمروها: أي بخروها بالمجمرة، والمجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.
(٢) الباه: النكاح.
(٣) الصفاق: الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه الشعر.
(٤) القعس: اللواتي بهن قعس. والقعس: دخول الظهر وخروج الصدر.
(٥) السخال: جمع السخلة: الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد؛ والمراد هنا المواليد.
(٦) سلقها: أي بسطها وجامعها.

وقيل: إنَّها صالحت مسيلمة على أنْ يَحْمِل لَها النِّصفَ مِنْ غلاَّت اليمامة: وأبت إلا السنة المقبلة يُسْلفُها، فأعطى لها النصف وقال: خلِّفي على السَّلَف مَنْ يجمعُهُ لكِ، وانصرفي أَنْتِ بنصف العام، فانصرفَتْ بالنِّصف إلى الجزيرة، وخَلَّفَتْ الهذيْل وعَقَّةَ وزيادًا؛ لينجزوا النِّصف الثاني، فلم يفجأْهم إلا دُنوّ خالدِ بنِ الوليد، فارفضُّوا[1].

وكان من أمرِ مُسَيْلمة وقتله ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

قال: ولم تزل سجاح بالجزيرة في أَخْوَالِهَا مِنْ بني تَغْلِب حتى نَقَلَهُمْ معاوية بن أبي سفيان عامَ الجماعة، وجاءت مَعَهُمْ وحَسُنَ إسلامها وإسلامُهُمْ، وانتقلَتْ إلى البصرةِ وماتت بها.

وقيل: بَلْ لمّا قتِلَ مُسَيْلمة سارت إلى أخوالها بالجزيرة، فماتت عندهم، ولم يُسمع لها بذكْر، والله تعالى أعلم.

قال أبو جعفر الطبريّ رحمه الله: وخَرَجَ الزِّبْرِقان والأقرعُ إلى أبي بكر؛ وقالا: اجعل لنا خَرَاج البَحريْن؛ ونضمن لك ألاَّ يرجعَ من قومنا أحدٌ، ففعل. وكتب الكتاب، وكان الذي يختلفُ بينهم طلحة بن عُبَيْد الله، وأشهد شهودًا، منهم عمر بن الخطاب، فلما أُتِيَ عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد، ثم قال: لا والله ولا كرامة! ومزَّقه ومحَاه، فغضب طلحة، وأتى أبا بكرٍ، فقال: أنت الأمير أم عُمَر؟ فقال: عمر؛ غير أن الطاعة لي، فسكتَ.

وشهد الزِّبْرِقان والأقرعُ مع خالدِ المشاهد كلَّها حتى اليمامة، ثم مضى الأقرعُ ومعه شرحبيلُ إلى دُومَة الجَنْدل[2].

ذكر مسير خالد إلى البطاح ومَقْتل مالك بن نُوَيْرة

قال أبو جعفر[3] رحمه الله: لمّا انصرفَتْ سَجاحُ إلى الجزيرة ارْعَوَى مالك بن نُوَيْرة، وندِم وتحيّر في أمره، وعَرَف وكِيعٌ وسَماعة قُبْح ما أتيا، فرجعا رجوعًا حسنًا؛

(١) ارفضوا: تفرقوا وتبددوا.

(٢) دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، وقد أنكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين، وقد جاء في حديث الواقدي دوماء الجندل... قيل: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبليّ طيىء كانت به بنو كنانة من كلب... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أبو جعفر: هو محمد بن جرير الطبري، وقد تقدمت ترجمته.

ولم يتجبّرا، وأخرجا الصَّدقاتِ واستقبلا بها خالد بن الوليد، فقال خالد: ما حملكما على مُوادعة هؤلاء القوم؟ فقالا: ثَأْرٌ كُنَّا نطْلُبه في بني ضبَّة.

فسار خالد يريدُ البُطاحَ دون الحَزْن[1]، وعليها مالك بن نُوَيْرَة، وقد تردَّدَتْ الأنصار على خالد، وتخلَّفتْ عنه. وقالوا: ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنّ الخليفةَ عَهد إلينا إنْ نحن فرغنا مِنْ البُزَاخة واسْتَبْرأنا بلادَ القوم أن نقيم حتى يكْتُبَ إلينا؛ فقال خالد: إنْ يَكُ عَهد إليكُمْ هذا، فقد عهد إليّ أن أمضيَ، وأنا الأمير، وإليَّ تنتهي الأخبارُ، ولو أنَّه لم يأْتني له كتابٌ ولا أمرٌ، ثم رأيتُ فرصة فكنت إن أعلمته فاتَتْني لم أُعلمه حتى أنتهزَهَا، وكذا لَوْ ابتلِينا بأمرٍ ليس منه عَهْدٌ إلَيْنَا فيه لم نَدَعْ أنْ نَرَى أفضلَ ما بحضرتنا ثم نعمل به، وهذا مالك بن نُوَيْرة بِحيالنا، وأنا قاصدٌ له ومن معي من المهاجرينَ والتابعِين بإحسانٍ، ولست أُكرهكم.

ومضى خالد، وندمَت الأنصار وتَذَامروا، وقالوا: إن أصاب القومُ خيرًا، إنَّه لخيرٌ حُرِمتموه، وإنْ أصابتهم مصيبة لَيجتنبنَّكُم الناس، فأجمعوا اللَّحاقَ بخالدٍ، وجرَّدوا إليه رسولاً، فأقام عليهم حتى لَحِقُوا به، ثم سار حتى لَحِقَ البُطاحَ، فلمْ يَجِدوا به أحدًا. ووجد مالك بن نويرة قد فرَّقهم في أموالِهم، ونَهاهُم عن الاجتماع حين تردَّدَ عليه أمْرُه، وقال: يا بني يَرْبُوع، إنَّا قد كُنَّا عَصَيْنَا أُمَرَاءَنَا إذْ دَعَوْنا إلى هذا الدِّين، وبَطَّأْنا الناس عنه فلم نُفْلحْ ولم نُنجِح، وإنِّي قد نظرت في هذا الأمر فوجدتُ الأمر لا يتأتَّى لهم بغير سياسَة، فإيَّاكُمْ ومُنَاوَأَةَ قوم صُنِعَ لهم، فتفرَّقُوا إلى دياركُمْ، وأدخِلُوا في هذا الأمر. فتفرّقُوا على ذلك إلى أمْوالِهم.

وخرج مالك بنُ نُويرةَ حتى رجعَ إلى منْزله. فلمّا قَدِمَ خالدٌ البُطاحَ بثَّ السّرايا وأمرهم بداعية الإسلام، أن يأْتُوهُ بكلِّ من لَمْ يُجِبْ، وإن امتنع أن يَقْتلُوهُ. فجاءتْهُ الخيْلُ بمالك بن نويرةَ في نفر معه من بني ثعلبةَ بن يربوع، من عاصم وعُبَيْد، وعرين وجعفر، فاختلفَتْ السَّريةُ فيهم، وفيهم أبو قتادة - وكان مِمَّنْ شهد أنَّهُمْ قد أذَّنُوا وأقامُوا وصَلُّوا - فلمَّا اختلفوا فيهم أمر بِهم خالد فَحُبِسوا في ليلة باردةٍ لا يقوم لها شيء، وجَعَلَتْ تزْدادُ بردًا، فأمَر خالدٌ مناديًا فنادى: أدفئوا أسراكم. وكانتْ في لُغَةِ كنانة إذا قالوا: دَثِّرُوا الرجل فأدفِئوهُ، كان دِفؤه قَتْلَه، فظنَّ القومُ - وهي في لغتهم القَتْلُ - أنَّهُ أراد القتلَ، فقتلوهم، فَقَتَلَ ضِرارُ بن الأزْور مالكًا، وسمع خالدٌ الواعية[2]، فخرج وقد فَرِغَ منهم فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابَه.

(١) الحزن من الأرض: ما غلظ.

(٢) الواعية: الصراخ والصوت على الميت.

وقد اختلف القومُ فيهم؛ فقال أبو قتادة: هَذَا عَمَلُكَ! فزبَرَه[1] خالدٌ فغضبَ، ومضى حتى أتى أبا بكر، فغضِبَ عليه أبو بكرٍ حتى كلَّمَهُ عُمر فيه، فلم يرضَ إلاَّ أن يرجعَ إلى خالد، فرجع إليه حتى قَدِمَ معه المدينة.

وتزوَّج خالدٌ أُمَّ تميم ابنة المنهال، وتركها لينقضيَ طهرُها، وكانت العربُ تكْرَه النِّساء في الحرب، فقال عمر لأبي بكرٍ: إنّ في سيفِ خالدٍ رَهَقًا[2]، فإنْ لمْ يكنْ هذا حَقًّا حَقَّ عليه أن تُقيده، وأكْثَرَ عليه في ذلك، وكان أبو بكر لا يُقيد من عمَّاله - فقال: هَبْهُ يا عُمَر تأوَّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالدٍ. وَوَدَى مالكًا، وكتب إلى خالد أن يقدم ففعل، فأخبره خبره فعذره وقبل مِنهُ، وعنَّفَهُ في التَّزويج الذي كانت تعيب عليه العرب.

وقيل: إنّ عمرَ بنَ الخطابِ أَلَحَّ على أبي بكر في عَزْلِ خالدٍ. وقال: إنَّ في سيفه رهقًا. فقال: يا عمر، لم أكن أشِيمُ[3] سيفًا سَلَّهُ اللّهُ على الكافرين.

وقيل: ولما أقبل خالدُ قافِلاً دخل المسجد وعليه قَبَاءٌ، عليه صدأ الحديد، مُعتجِرًا[4] بعمامة له، قد غرز فيها أسهمًا، فقام إليه عُمر فانتزعَ الأسْهُمَ مِنْ رأسِه فحطَّمَها، ثم قال: أقتلتَ امرأً مسلمًا ثم نزوْتَ على امرأَتِهِ! والله لأرْجمنَّكَ بأحجارِكَ، وخالد لا يكلِّمُهُ ولا يظنُّ إلاَّ أنَّ رأيَ أبي بكرٍ على مثل رأي عمر فيه، حتى دخلَ على أبي بكرٍ فأخبره الخبر، فاعْتذرَ إليه، فعذره أبو بكرٍ وتجاوزَ عنه ما كان في حَرْبِهِ تلكَ.

وخرج خالد حين رَضِيَ عنه أبو بكرٍ وعمر جالسٌ في المسجِدِ، فقال: هَلُمَّ إليَّ يا بن أمِّ شَمْلة؛ فعرفَ عمرُ أن أبا بكرٍ قَدْ رضيَ عَنْهُ فلم يكلِّمه، ودخل بَيْته.

واللّهُ سبحانَهُ وتعالى أعْلَمُ بالصوابِ، وإليه المرجعُ والمآب، وهو حسبي، ونِعْمَ الوَكيل.

ذكر خبر مسيلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة

كان من خبر مُسَيْلِمَةَ أنَّهُ لما قدِمَ وفد بني حنيفة إلى رسول الله ﷺ؛ كما قدَّمْناهُ في السيرة النبوية في أخبار الوفودِ، وكان مسيلمةُ في رِحَالهم، فلمَّا أجازَهُمْ رسول الله ﷺ. قالوا: يا رسولَ الله، خلَّفْنا صاحبًا لنا في رِحَالنا يُبْصِرُهَا لنا، وفي

(١) زبره: نهره.
(٢) الرهق: السفه والخفة وركوب الظلم.
(٣) شام السيف: أغمده.
(٤) اعتجر: لف العمامة.

ركابنا يَحْفَظُهَا علَيْنا؛ فأمر له رسولُ الله ﷺ بمثل ما أمر لأصحابه، وقال: «لَيْس بشرِّكم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم»، فقيل ذلك لمُسَيْلَمة. فقال: عَرف أنّ الأمر إليَّ من بعده.

ثم ادّعى النبوّة بعد ذلك، وكان الرَّجّال بن عُنْفُوة قد هاجر إلى رسول الله ﷺ، فتعلَّمَ القرآن من أُبيّ بن كعب، وفَقِهَ في الدِّين، فبعَثَهُ رسولُ الله ﷺ مُعَلِّمًا لأهل اليَمامَةِ، وليشغَبَ[1] على مسيْلَمة؛ ويشدِّد من أمر المسلمين، وكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة، شهد له أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنه قد أُشْرِكَ معه؛ فصدَّقُوه واستَجابُوا له، وأمروه بمكاتبةِ النبيّ ﷺ، ووَعَدُوه إنْ هو لم يَقْبَلْ أنْ يُعِينوه عَلَيْه.

وقُبِضَ رسول الله ﷺ؛ والأمر على ذلك، فقويَتْ شوكةُ مُسيْلمة، واشْتَدَّ أمْرُه، وكثُرَتْ جُموعه، وتمكَّن الرَّجّال بن عُنْفُوةَ من مُسَيْلمة، وعَظُمَ شأنُهُ عِنْده، فكان لا يخالِفُه في أمر ولا يقولُ شيئًا إلا تابَعَهُ عليه، وكان مسيلمةُ يُصَانِعُ كلَّ أحدٍ مِمَّنْ اتَّبعه، ويتابِعه على رأيِه، ولا يبالي أن يطَّلع الناس منه على قبيح، وضربَ حَرَمًا باليمامة؛ فكان مُحَرَّمًا، فوقع ذلك الحَرم في الأحاليفِ، (أفخاذٌ من بني أُسيّد كانَتْ دارُهُم اليمامة)، فصارَ مكانُ دارِهِمْ الحرَم، والأحاليف: سيْحانُ ونُمارةُ، وبنو جُرْوةَ، فكانوا يُغيرُون على ثمار أهل اليمامة، فإن نَذِروا[2] بهم فدخَلوا الحرم أحْجَمُوا[3] عنْهم، وإنْ لم ينذِروا بهم فذاك ما يريدون؛ فكثُر ذلك منهم، حتى استعدَوْا عليهم مسيلمة، فقال: انظُروا الذي يأْتي من السماءِ فيكُم وفيهم، ثم قال لهم: «والليل الأطْحَمْ[4]، والذئبِ الأدلم[5]، ما انتهكَتْ أسَيّد من مَحْرَم»، ثم عادوا للغَارة والعُدْوَى[6]، فقال: انتظروا الَّذي يأتيني. ثم قال: «والليلَ الدَّامِس، والذئبِ الهامِسِ[7]، ما قطعتْ أُسَيِّد من رَطْبِ ولا يابسٍ»؛ فقالوا: أمّا النخيل فَمُرطِبةٌ وقد جَدُّوها[8]، وأمّا الجُدْرانُ فيابسَةٌ وقَدْ هَدَمُوها، فقال: اذْهبوا وارجعوا فلا حقَّ لكم.

وكان فيما يقرؤه لهم فيهم: إنَّ بني تميم قوم طُهر لَقاحٌ[9]، لا مكْرُوه عَلَيْهم ولا إتارة، نجاورهم ما حيينا بإحْسانٍ، نمنعهم من كلّ إنسانٍ، فإذا مِتنا فأمْرُهُم إلى الرحمٰن».

---

(١) شغب القوم وعليهم وفيهم وبهم: هيّج الشر بينهم.
(٢) نذروا: علموا.
(٣) أحجموا عنهم: كفوا ونكصوا.
(٤) الليل الأطحم: الأسود.
(٥) الذئب الأدلم: الأسود الطويل.
(٦) العدوى: العدوان.
(٧) الهامس: الشديد.
(٨) جدّ: قطع.
(٩) قوم لقاح: لم يدينوا للملوك.

وكان يقول: والشَّاءِ وألوانِها، وأعجبُها السُّود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض؛ إنَّه لعَجَبٌ محض، وقد حُرِّم المَذْق[١]، فما لكم تمجّعون[٢]!.

وكان يقول: «يا ضِفدع ابنة ضِفْدعٍ، نُقِّي مَا تنِقِّين، أعلاك في الماء وأسْفَلُك في الطين، لا الشاربَ تمنعين، ولا الماء تُكَدِّرين».

وقال أيضًا: «والمبذِّرات زرعًا، والحاصِداتِ حَصْدًا، والزَّارعاتِ قمحًا، والطَّاحناتِ طحْنًا، والخابزاتِ خبزًا، والثَّاردات ثَرْدًا[٣]، واللاَّقماتِ لقمًا، إهالةً[٤] وسمنًا، لقدْ فُضِّلْتُم على الوَبَرِ، وما سبقكُمْ أهل المدَر؛ ريفكم فامنعوهُ، والمُعْترَّ[٥] فآووه، والباغي فناوئوه».

قالوا: وأتته امرأة فقالت: إنَّ نخلنا لَسُحُقٌ[٦]، وإن آبارنا لَجرُزٌ[٧] فادعى الله لمائنا ونخلنا، كما دعا محمّدٌ لأهل هزمان، ففعل كما فعل رسولُ الله ﷺ، ودعا للنخل، وتمضمض مِنَ الماءِ، ومَجَّهُ في الآبار، فيبِسَتْ النخْلُ، وغارتْ الآبارُ.

وقيل: إنَّه نزل على أولادِ بني حنيفةَ كما فعل رسولُ الله ﷺ، فمرَّ بيده على رؤوسهم، وحَنَّكهم، فقرع ولَثِغَ مَنْ فُعِلَ به ذلك، وظهر ذلك كلُّهُ بعد مَهْلكه.

قالوا: وجاءَ طلحة النَّمَريّ، فقال: أَيْن مُسَيْلمة؟ فقالوا: مَهْ رسول الله! فقال: لا، حتى أراهُ، فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم، قال: مَنْ يأتيك؟ قال: رحمٰن، قال: أفي نور أوْ في ظلْمة؟ فقال: في ظلْمَة، فقال: أشْهَدُ أنَّكَ كذّاب، وأنَّ محمدًا صادِقٌ، ولكنَّ كذَّابَ رَبِيعَةَ أَحَبُّ إليَّ مِنْ صادق مُضَر.

والله سبحانه أعْلم، وصلَّى الله على سَيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّم.

ذكر الحروب الكائنة بين المسلمين وبين مسيلمة وبين أهل اليمامة وقتل مسيلمة

قد ذكرنا أنَّ أبا بكر الصدِّيق لمَّا عَقَد الألوية، عَقَد لِعِكْرمة بن أبي جهْلٍ، وأمره بمسَيْلمة، ثم أرْدفَهُ شُرحبيل ابن حَسَنَة، فعجّل عِكرِمة، وبادر الحرب ليذْهَبَ بصوتها، فوَاقَعهم، فنكبوه، وأقام شُرَحْبِيلُ في الطريق حتى أدْركه الخبرُ.

---

(١) المذق: اللبن الممزوج بالماء.
(٢) مجّع: أكل المجيع. والمجيع: ضرب من الطعام يصنع من لبن وتمر.
(٣) يقال: ثرد الخبز: أي فته ثم بله بمرق.
(٤) الإهالة: الشحم؛ أو الزيت: أو كل ما أؤتدم به.
(٥) المعتر: الفقير.
(٦) السحوق: الطويلة من النخل، جمع سحق.
(٧) الأرض الجرز: التي أجدبت.

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عكرمةَ: يا بنَ أُمِّ عِكْرَمة؛ لا أرينَّكَ ولا تراني على حالها، ولا تَرْجِعْ فَتوهِنَ الناسَ، امْضِ على وجهِكَ حتى تسانِدَ حُذَيْفَةَ وعَرْفَجة، فقاتِلْ معهما أهلَ عُمَان ومَهْرة(١)، وإنْ شغِلاَ فامْضِ أنت، ثم تسيرُ ويسيرُ جُنْدُك؛ تسْتَبْرِئون مَنْ مرزْتم به حتى تلْتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أُميَّة باليمن وحَضْرَمَوْت.

وكتب إلى شُرَحْبِيل يأمره بالمقام حَتَّى يأتيَهُ أمرُه، ثم كتب إليه قبلَ أنْ يوجِّه خالد بن الوليد بأيّام إلى اليمامة: إذا قدِمَ عليك خالدٌ ثم فرغتم - إنْ شاءَ اللّهُ - فالحَقْ بقضاعةَ حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على مَنْ أبَى منهم وخالفَ.

فلمّا قدِمَ خالد على أبي بكر الصّديق رضي الله عنه من البُطاحِ رضي الله عنه، وقبلَ عُذْرَهُ كما ذكرنا، ووجَّهَهُ إلى مُسَيْلمة، وأوْعَبَ(٢) معه الناس، وجعل على كلِّ قبيلةٍ رَجُلًا، وجعلَ على المهاجرين أبا حُذيْفة بن عُتْبَة، وجعل عَلَى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، وتعجَّل خالدٌ حَتَّى قدم على أهلِ العسكرِ بالبُطاحِ، وانتظر البعث الذي ضرِبَ بالمدينةِ، فلمّا قدِم عَليْهِ نهض حتى أتى اليمامة، وبنو حنيفة يومئذ تزيدُ عدَّتهُمْ على أربعين ألف مقاتِلٍ. وعجَّل شُرَحْبِيلُ ابن حسنة، وبادر بالقتالِ قبلَ وصول خالد كما فعل عِكرِمة، فنُكِبَ كما نكِبَ، فلما قدِمَ خالدٌ لامَهُ، وسار خالدٌ حتى إذا أطلَّ على بني حنيفة أسْنَدَ خيولاً لعقَّة والهُذيْلِ وزياد، وقد كانوا أقاموا على خَرْج أَخْرَجَهُ لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح، وإنَّما أسْنَد خالدٌ تلك الخيولَ مخَافَةَ أنْ يأتوه مِنْ خَلْفِه، وأمَدَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه خالدًا بسَلِيط بنِ عمروٍ بن عبد شَمْس العامِريِّ القرشِيِّ ليكونَ ردءًا له من أنْ يأتيَهُ أحدٌ من خلْفِه؛ فخرجَ.

فلمَّا دنا من خالد وجَدَ تِلْكَ الخيولَ التي انتابَتْ تِلْكَ البلادَ قَدْ فُرِّقوا فهربُوا، فكان مِنْهُم قَرِيبًا لَهُمْ، وأمّا مسيلمة فإنَّه لما بَلَغَهُ دُنوُّ خالد بنِ الوليدِ مِنْهُ عَسْكر بعقْرَباء، واستنفر النَّاس، فجعل النَّاسُ يخرجون إليه، وخرجَ مجّاعة بن مُرارة بنُ سَلْمى الحنفيّ اليمامِيُّ - وكان رئيسًا من رؤساء بني حنيفة - في سريّة يطْلُبُ بثأرٍ له في بني عامرٍ وبني تميمٍ، فلمَّا كان خالدٌ مِنْ عَسْكَرِ مسيْلمة على ليلةٍ، إذا مَجّاعَةُ

---

(١) مهرة: بالفتح ثم السكون، هكذا يرويه عامة الناس، والصحيح مَهَرَة بالتحريك وجدته بخطوط جماعة من أئمة العلماء لا يختلفون فيه... قيل: مهرة: بلاد تنسب إليها الإبل... وقيل: مهرة: قبيلة، وهي مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة تنسب إليهم الإبل المهرية وباليمن هم مخلاف... بينه وبين عمان نحو شهر... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) يقال: أوعب القوم: خرجوا كلهم إلى الغزو.

وأصْحَابُهُ وقد غَلَبَهُم الكَرَى - وكانُوا راجِعِينَ من بلادِ بني عامرٍ - فَعَرَّسُوا دون ثَنِيَّةِ[١] اليمامةِ، فوجَدُوهُمْ نيامًا وأرْسانُ خُيُولِهُمْ بأيْدِيهِمْ تَحتَ خُدُودِهِم، ولا يَشْعُرونَ بقربِ الجيش مِنهم، فأنبهوهم، وقالوا: مَنْ أنْتُم؟ قالوا: مجّاعة، وهذه حنيفة، فأوْثَقُوهُم، وأقامُوا إلى أنْ جَاءَهُم خالد فأتوه بهم، فظَنَّ أنَّهم جاؤوهُ ليستقبلُوهُ، فقال: متى سمعتم بنا؟ قالوا: ما شَعَرْنَا بك، إنَّمَا خرجْنَا لثَأْرٍ لنَا فيمن حَوْلَنا من بني عامر وتميم، فأمر بهم أنْ يُقْتَلوا، فقالوا: إنْ كُنْتَ تُريدُ بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًّا فاستبْقِ هذا، ولا تقتله - يريدون مَجّاعة - فَقَتَلَهُمْ كُلَّهم دونه، وكانوا ثلاثةً وعشرينَ راكبًا - وقيل: أرْبَعِينَ. وقيل: ستِّين - وصبَرَ[٢] مجّاعة، وسار إلى اليمامة، فخرج مسيلمة وبنو حنيفة، فنزلوا بعقْرَباء، وهي طَرَف اليمامة؛ دون الأموال، وريف اليمامةِ وراء ظُهُورهم.

وقال شُرَحْبِيلُ بنُ مسيلمة: يا بني حنيفة، اليومُ يومُ الغيْرة، اليوم إنْ هُزِمتم تُسْتَردَفُ[٣] النساءُ سَبِيّات، ويُنْكَحْنَ غير حظيّات، فقاتِلُوا عن أحسابِكُم، وامنعوا نساءَكُمْ.

فالْتَقَوْا بِعقْرَبَاءَ واقْتَتَلُوا، وكانَتْ رايةُ المهاجرينَ يَوْمَئذ مع سالم مولى أبي حُذَيْفَة. وقيل: بَلْ كانَتْ مع زَيْد بنِ الخطاب، فلما قُتِلَ أخذها سالم، فقالوا له: تخشى عَلَيْنا مِنْ نَفْسِكَ شيئًا؟ فقال: بِئْس حاملُ القرآن إنا إذًا! وكانت رايةُ الأنصار مع ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاس، وكانت العرب على راياتها، ومَجّاعةُ في الأسرِ مع أُمِّ تميم زَوْجَة خالد في فُسْطَاطِهَا[٤]، واقْتَتَل النّاسُ أشَدَّ قتال، ولم يلقَ المسلمون حربًا مثلها، فانهزم المسلمون وخَلَصَ بنو حَنيفة إلى خالد، فزال عن الفسطاط، ووصلوا إليه وقطعوه، ودخل أُناسٌ من بني حَنيفة على أُمّ تميم، فأرَادوا قتلهَا، فمنعها مَجَّاعة. وقال: أنا لها جارٌ، فَنِعْمَتِ الحرّةُ! فدفعهم عنها.

ثم إنّ المسلمين تداعَوْا؛ فقال ثابت بنُ قيس: بئسما دعَوْتُمْ أنْفُسَكُم إليه يا مَعْشَر المسلمين، اللّهُمّ إنّي أبرأُ إليك ممّا يَعْبُدُ هؤلاء - يعني أهلَ اليمامة - وَأَعتَذِرُ إليكَ ممّا يَصْنَعُ هؤلاء - يعني المسلمين - ثم قَاتَل حتى قُتِلَ، قُطِعَتْ رِجْله فرمى بها قاتِله فقتلَهُ.

- وله رضي الله عنه عجيبٌ نذكُره إن شاء الله تعالى في آخر هذه الوقْعة -.

---

(١) الثنية: كل عقبة في الجبل مسلوكة.
(٢) صبر فلانًا: حبسه.
(٣) أردف فلانًا: جعله ردفه وأركبه خلفه.
(٤) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر.

قالوا: وحمل خالدٌ في الناسِ حتى رَدَّهم أبعدَ ما كانوا، واشتدَّ القتال، وكانت الحربُ يومئذ تارةً للمسلمين، وتارةً عليهم، وقُتِل سالمٌ وأبو حذيفة وزيدُ بنُ الخطابِ وغيرُهم.

فلما رأى خالدُ ما النَّاسُ فيه، قال: امتازوا[١] اليوم أيُّها الناس، لنعلم بلاءَ كلِّ حيٍّ، ولنعلم مِنْ أين نُؤتى! فلمَّا امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم نستَحيِي من الفرار. وقاتل الناسُ قتالاً عظيمًا، وثبت مُسيلمة، فعرف خالدٌ أنَّ الفتنة لا تَرْكُد إلاَّ بقَتْلِ مُسيلمة، فبرز ودعَا إلى البِراز، فما يبرز له أحدٌ إلا قتلَهُ، ودعا مسيلمةَ فأجابه؛ وعرض عَلَيْهِ أشياء، فكان إذا هَمَّ بجوابه أعرض بوجهه يستشير شيطانه، فينهاه أن يَقْبَل، فأعرضَ بِوَجْهِهِ مرة، فركبه خالد وأرهقه فأدبر، وزال أصْحَابُهُ، فكانتْ هزيمَتهم، وقالوا لمُسَيْلمة: أيْن ما كُنْتَ تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أَحْسَابكم. ونادى المُحكَّمُ بنُ الطُّفَيْل: يا بني حنيفةَ، الحديقة الحديقة! فدخَلُوها، وأغلَقُوا بابها عليهم.

قال: وكان البَرَاءُ بنُ مالكٍ أخُو أنسٍ؛ إذا حضر الحرب أخذتْهُ رِعْدة حتى يقْعُد الرجال عليه، ثم يبول، فإذا بال ثار كما يثور الأسَدُ، فأصابَهُ ذلك، فقال: إليّ أيها الناس؛ أنا البراءُ بنُ مالكٍ؛ وقَاتَل قِتالاً شديدًا، فلمّا دخل بنو حنيفةَ الحديقةَ، قال البراء: يا معشر المسلمين، ألْقُوني عليهم فيها. فقالوا: لا نفعلْ، فاحتمل حتى أشرفَ على الجِدارِ واقتحمها عليهم، وقاتل على الباب، وفتحه المسلمون، ودخلوا عليهم، فاقتتلوا أشَدَّ قتال، وكَثُر القَتْلُ في الفريقيْن، فلم يزالوا كذلك حتى قُتِلَ مُسَيْلمة، واشترك في قتله وحشيٌّ، مولَى جُبَيْر بن مُطْعِم قاتل حمزة بن عبد المطَّلب، ورجلٌ من الأنصار، فولَّتْ حنيفة عِنْد قتْله منهزمَةً، وأخَذَهُم السَّيْفُ من كُلِّ جانب. وقُتِلَ محكَّم اليمامة، قتلَهُ عبد الرحمٰن بن أبي بكرِ الصِّديق، رضي الله عنه؛ رماه بسهم في نحره وهو يخطبُ ويحرِّض الناس فقتله، وقُتِلَ من المهاجرين والأنصارِ من أهلِ المدينة ثلاثمائة وستُّون، ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة، وقتل مِنْ بني حنيفة بعَقْرَباء سبعة آلاف، وفي حديقة الموتِ مثلها، وفي الطَّلَبِ نحو منها؛ وخرج خالدٌ بمجَّاعة يرسُفُ[٢] في الحديد ليدُلَّهُ على مُسَيلمة، فجعل يكشِفُ القَتْلى حتى مرَّ بمحكَّم بن الطُّفَيْلِ، وكان رَجُلاً جسيمًا وسيمًا، فلمّا رآه خالدٌ قال: هذا صاحبُكُمْ؟ قال: لا، هذا والله خيرٌ منه وأكرَمُ؛ هذا محكَّم اليمامة، ثم مضى حتَّى دخل

---

(١) امتاز: انفصل عن غيره وانعزل؛ أو بدا فضله على مثله.
(٢) رسف في القيد: مشى فيه رويدًا.

الحديقة، فقلّب له القَتْلى، فإذا رُوَيجل أصَيْفر أُخَيْنس[١]. فقال مجّاعة: هذا صاحبُكمْ قد فرغتم منه؛ فقال خالدٌ لمجّاعة: هذا فعل بكم ما فعل! قال: قَدْ كان ذلك يا خالد، وإنّه واللّهِ ما جاءك إلاّ سَرَعان[٢] الناس، وإنَّ جَماهير النّاس لَفِي الحُصون، فقال: ويلك، ما تقول! قال: هو والله الحقُّ، فهلُمَّ لأُصَالحكُمْ على قومِي.

وجاء عبد الرحمٰن بن أبي بكرٍ وعبدُ الله بن عمر إلى خالد، فقالا له: ارتحلْ بالنّاس، فانزل على الحصونِ، فقال: دعاني أبُثُّ الخيول فألتقط مَنْ ليسَ في الحصون ثم أرى؛ فبثّ الخيول فحوَوْا ما وجدوا مِنْ مال وصبْيَانٍ، فضمُّوهم إلى العَسْكرِ، ونادى بالرحيل لينزلَ علَى الحصون، فقال له مَجّاعة: إنَّه واللّهِ ما جاءك إلاّ سَرَعانُ النّاس، فإنّ الحصون لمملوءة رجالاً، فهلُمَّ إلى الصلح علي ما ورائي، فصالحه على كلّ شيءٍ دون النُّفوس؛ ثمّ قال مجّاعة: أنطلقُ إليهم فأُشاوِرهم، وننظر في هذا الأمر، ثم أرجع إليك، فدخل مجّاعَةُ الحصونَ وليس فيها إلا النِّساءُ والصِّبيانُ ومشيخة فانِيةٌ، ورجال ضَعْفَى، فظاهر[٣] الحديدَ على النِّساءِ، وأمرهُنَّ بنشر شعورهنَّ، وأن يُشْرِفن على رؤوس الحصون حتى يرجع إليهم، ثم رجع إلى خالدٍ، فقال: قد أبَوْا أنْ يُجيزُوا ما صَيّعْت، وقدْ أشرف لك بعضُهُمْ نقْضًا عَلَيَّ، وهم مِنِّي بُراء، فنظر خالدٌ إلى رؤوس الحُصون، وقد اسودَّتْ وقد نَهكَتْ المسلمين الحربُ، وأحبُّوا أن يَرْجعوا على الظَّفَرِ. فقال مجّاعةُ لخالد: إن شئتَ صنعتُ شيئًا، فعزمت على القوم؛ تأْخذ مني رُبْعَ السَّبْي وتدعُ ما بقي؛ فقال خالد: قد فعلتُ. قال: قد صالحتك، فلما فرغا فُتحت الحصونُ، فإذا لَيْسَ فيها إلاَّ النساءُ والصِّبيانُ. فقال خالدٌ لمجّاعة: ويحك! خدعتَني. فقال: قومي، ولم أستطع إلا ما صنعتُ.

وقيل: إنَّ خالدًا صالح مجّاعة على نصف السَّبْي، والصَّفْراء، والبَيْضاء، والحلْقة[٤]، والكُراع[٥]، وحائط[٦] من كل قرية يختار خالد، ومزرعة يختارها، فتقاضَوْا على ذلك، ثم سَرَّحَهُ وقال: أنتم بالخيار ثلاثًا، والله لَئن لم تُتِمُّوا وتَقْبَلُوا لأنهَدَنَّ إليكم. ثم قال: لا أقبلُ منكم خَصلَةً أبدًا إلاَّ القتلَ، فأتاهُمْ مجّاعة فقال: أمّا الآن فاقبلوا، فقال سلمةُ بن عُمَيْر الحنفي: لا والله لا نقبل؛ تبعَثُ إلى أهل القرى والعبيد، فنقاتل ولا نقاضي خالدًا؛ فإنَّ الحصون حصينة، والطعام كثير، والشتاء قد حضَر.

---

(١) أخينس: تصغير أخنس؛ وهو الذي تأخر أنفه مع ارتفاع قليل في الأرنبة.
(٢) سرعان الناس: أوائلهم.
(٣) المراد ألبسهن الحديد.
(٤) الحلقة: السلاح عامة، أو الدرع خاصة.
(٥) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٦) الحائط: يراد به هنا البستان.

فقال له مجّاعة: إنّك امرؤٌ مشؤوم، وغرّك أني خدعت القوم حتى أجابُوني إلى الصُّلْح، وهل بقيَ منكم أحدٌ فيه خيرٌ وبه دَفْع! وإنّما أنا بادرتُكم.

فخرج مَجّاعة سابع سبعة حتى أتى خالدًا. فقال: بَعْد شَرٍّ ما رضوا اكتب كتابك، فكتب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا ما قاضى عليه خالدُ بن الوليد مجّاعة بن مُرارة وسَلَمَة بن عُمَير، وفلانًا وفلانًا، قاضَاهم على الصَّفْراء والبَيْضاء ونصف السَّبْي، والحلْقة والكُراع، وحائطٍ من كُلِّ قريةٍ ومزرعة، علَى أنْ يُسْلِمُوا، ثم أنتم آمِنُونَ بأمان الله، لكم ذمّةُ خالدِ بنِ الوليدِ، وذمة أبي بكرٍ خليفة رسول الله ﷺ، وذِمم المسلمين على الوفاء.

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالدٍ بقتل كلّ محتلم، وكان قد صالحهم فوفَى لهم. ثمّ إنَّ خالدَ بنَ الوليدِ قال لمجّاعة: زوّجني ابنتَك، فقالَ مجّاعة: مهلاً، إنّك قاطع ظهْرك وظهْري مَعَك عند صاحبكَ. قال: أيُّها الرجل، زوِّجني، فزوَّجه، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب، إليه كتابًا يقطر الدَّم؛ يقول:

يا بن أُمِّ خالد؛ إنك لفارغٌ، تنكح النساءَ وبفناءِ بيتك دَم ألفٍ ومائتي رجل من المسلمين لم يجْفَفْ بعد!

فلما نظر خالد في الكتابِ جعل يقول: هذا عمل الأعيْسر - يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه -.

وبعث خالدٌ وفدًا من بني حنيفة إلى أبي بكر، فقدموا علَيْه. فقال لهم: ويحكم! ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا: يا خليفة رسول الله، قد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان أمرًا لم يبارك الله له، ولا لعشيرته فيه. قال: على ذلك، ما الذي دعاكُمْ به؟ قالوا: كان يقول: «يا ضفدع نقِّي نقِّي، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدِّرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قومٌ يعتدون».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: سبحان الله، ويلكم! إن هذا الكلام ما خرج من إلٍّ[1] ولا بِرٍّ[2]، فأين يذهب بكم!

(١) الإلّ: العهد والقرابة.
(٢) البر: الخير أو الفؤاد.

قال أبو جعفر: لما فرغ خالد من اليمامة، وكان مَنْزِلُه الذي به التقى الناس أباضَ (وادٍ من أودية اليمامة)؛ ثم تَحوَّل إلى وادٍ من أوديتها يقال له: الوبر، فكان مَنْزِله بها.

ذكر خبر ثابت بن قيس بن شماس في مقتله وتنفيذ وصيته للرؤيا التي رئيت بعد مقتله

قد أشرنا عند ذكر مقتله أن له خبرًا عجيبًا نذكره، ورأينا إيرادَه هاهنا توفيةً للشرط.

حكى الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة. قال ثابت بن قيسٍ وسالمٌ مَوْلى أبي حذيفة: ما هكذا كنّا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثم حفَر كُلُّ واحدٍ منهما له حفرة، وثبتا وقاتلا حتى قُتِلا. وكان على ثابت يومئذٍ دِرْعٌ له نفيسةٌ، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأَخذها، فبينا رجلٌ من المسلمينَ نائمٌ إذْ أتاه ثابتٌ في منامِه، فقال له: إنِّي أُوصيك بوصية، فإيّاكَ أن تقول هذا حُلْم فتضيِّعَه؛ إني لمّا قُتِلتُ أمسِ مرّ بي رجلٌ من المسلمين، فأخذ دِرْعِي، ومنزلُه في أقصى النَّاس، وعند خبائه فرس يستَنُّ[1] في طِوَله[2]، وقد كفأ[3] على الدِّرع بُرْمةً[4]، وفوقَ البُرْمةِ رحل، فأْتِ خالدًا فمرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إنَّ عَلَيَّ من الدَّيْن كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيقٌ.

فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها.

وحدَّث أبا بكرٍ برؤياه، فأجاز وصيّته من بعد موته. قال: ولا نعْلم أحدًا أُجِيزتْ وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيسٍ رحمه الله تعالى.

ذكر أهل البحرين ومن ارتد منهم وانضم إلى الحُطم وما كان من أمرهم

والحطم اسمه شُرَيْح بنُ ضُبَيْعَة. قال أبو عبَيْدَة في سبب تسميته بالحُطم: إنَّه كان غزا اليمن في جموع جمعها من ربيعة، فغنِم وسَبَى بعد حرب كانت بينه وبين

---

(١) يستن: يقمص.
(٢) الطول: الحبل.
(٣) كفأ البرمة: كبها وقلبها.
(٤) البرمة: القدر من الحجارة.

كِنْدَة، أسر فيها فِرْعان بن مهديّ بن معدي كرب عَمّ الأشعث بنِ قيسٍ، وأخذ على طريق مفَازة؛ فضلَّ بهم دليلهم، ثم هرب منهم، ومات فِرْعان عَطشًا، وهلك منهم ناسٌ كثيرون بالعطشِ، وجعل شُرَيْح يسوقُ بأصحابه سَوْقًا حثيثًا حتى نجَوْا، ووردوا الماء؛ فقال فيه رُشَيْد بنُ رُمَيْضٍ[(١)] هذه الأبيات: [من الرجز]

بـات يـقـاسِـيـهـا غـلامٌ كـالـزَّلَـمْ ... نـامَ الـحـداةُ وابـن هـنـدٍ لـم يَـنـمْ[(٢)]
هـذا أوانُ الـشَّـدِّ فـاشـتـدِّي زِيَـمْ ... قد لفَّـهـا الـلـيـل بـسـوّاقٍ حُـطـمْ[(٣)]
خـدَلَّـجُ الـسـاقـيْـنِ خـفَّـاقُ الـقـدَمْ ... لـيـسَ بـراعـي إبـلٍ ولا غـنـمْ[(٤)]
* ولا بـجـزَّارٍ عـلـى ظـهـرِ وضَـمْ *[(٥)]

فلقِّب يومئذٍ الحُطم لذلك.

قال أبو جعفرٍ محمد بنُ جرير الطبري رحمه الله: كان من حديث أهل البحْرين أنَّ رسول الله ﷺ اشتكى هو والمنذر بن ساوَى في شهرٍ واحدٍ، ثم مات المنذر بعد رسول الله ﷺ بقَليل، وارتدّ بعدَه أهلُ البحرين، فأما عبد القيس ففاءت[(٦)]، وأمّا بكر فتمَّت على الردَّةِ، وكان الذي ثنى عبد القيْس الجارود بنُ المعلَّى. وقيل فيه: الجارود بن عمرو بن حبيش بن يعلَى، واسمه ـ فيما يقال ـ بشر بن عمرو، وإنَّما قيل له الجارود؛ لأنَّه أغار في الجاهلية على بكر بن وائلٍ، فأصابهم فجرّدهم.

ـ وهذه الزيادة في اسم الجارود عن غير الطبري ـ.

قال أبو جعفر: وكان الجارود قد قدِم على رسول الله ﷺ، وكان نصرانيًا فأسلم، ومكث بالمدينة حتى فَقِه، ثم رجع إلى قومه فكان فيهم؛ فلم يلبث إلا قليلاً حتى قُبِض رسول الله ﷺ؛ فقالت عبد القيس: لو كان محمدٌ نبيًا لما مات؛ وارتدُّوا؛ فبعث إليهم فجمعهم، وقال: يا معشرَ عبد القيس؛ إنِّي سائلكم عن أمرٍ فأخبروني به إنْ علمتُموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموا؛ قالوا: سَلْ عمّا بدا لك. قال: تعْلمون أنّه كان لله تعالى أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: ترونه أو تعلمونه؟ قالوا: لا، بل

---

(١) هو رشيد بن رميض العنزي، من بني عنز بن وائل، أو من بني عنزة... (تاج العروس ٥: ٣٧).

(٢) الزلم: القدح الذي لا ريش عليه، والجمع أزلام. الجوهري: الزلم، بالتحريك القدح... (اللسان مادة ز.ل.م).

(٣) ماشية زيم: متفرقة.

(٤) الخدلج: الممتلىء الذراعين والساقين.

(٥) الوضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك، يوقى به من الأرض.

(٦) فاءت: رجعت.

نعلمه. قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا؛ قال: فإنّ محمدًا ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أنَّ لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا عبده ورسولُه؛ قالوا: ونحن نشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا عَبْده ورسولُه، وأنّك سيدنا وأمثلُنا.

وثبتُوا على إسلامهم وخلَّوْا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى، فكان المنذر مشتغلاً بهم حياتَه، فلمّا مات حُصِر أصحابه في مكانين، فكانوا كذلك حتى أنقذهم العلاء بن الحضرميّ.

قال: ولما ارتدَّت ربيعة ومن تابعها. قالوا: نردُّ الملْك في آل المنذر، فملَّكوا المنذرَ بن النُّعمان بن المنذر، وكان يسمَّى الغَرور، فكان يقول بعد ذلك حين أسلمَ الناس وغلبهم السيف: لستُ بالغَرور، ولكني المغرور.

قال: ولمّا مات النبيّ ﷺ خرج الحُطم بن ضُبَيعة أخو قيس بن ثَعْلبة فيمن اتَّبعه من بكر بن وائل على الرِّدةِ، ومن تأشَّب[١] إليه من غير المرتدِّين؛ مِمَّن لمْ يَزلْ كافرًا حتى نزل القَطِيف[٢] وهَجَر، وبعث بعثًا إلى دارِين، فأقاموا به ليجعل عبدَ القيسِ بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم، يمدُّون المنذر والمسلمين، وأرسل إلى الغَرور ابن أخي النعمان بن المنذر، فبعثه إلى جُؤاثَى، وقال له: اثبت، فإنِّي إنْ ظفرت ملَّكْتُك بالبحرين حتى تكون كالنُّعمان بالحِيرة، وبعث إلى جُؤاثى فحصَرهم، وألَحُوا عليهم، وفي المسلمين المحصُورين رجلٌ من صالحي المسلمين. يقال له: عبد الله بن حَذَف، أحد بني بكر بن كلاب، فاشتدّ عليه وعليهم الجوع حتى كادوا يهْلِكُوا؛ فقال عبد الله بنُ حَذف[٣] في ذلك: [من الوافر]

ألاَ أبْـلِـغْ أبـا بـكـرٍ رسـولاً ... وفـتـيـان الـمـديـنـةِ أجْـمَـعِـيـنـا
فـهـل لـكُـمُ إلـى قـوم كـرام ... قُـعودٍ في جُؤاثَى مَـحْـصَـرِيـنـا[٤]
كـأنَّ دِمـاءَهـمْ فـي كُـلِّ فَـجٍّ ... شُـعَاع الـشـمْـسِ يَـغْـشَـى الـنَّـاظـرينا
تـوكَّـلْـنَـا عـلـى الـرَّحْـمـن إنَّـا ... وَجَـدْنـا الـصَّـبْـرَ لـلـمـتـوكِّـلـيـنـا

---

(١) تأشب: تجمع إليه من هنا وهنا.
(٢) القطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه: مدينة بالبحرين هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها، وكان قديمًا اسمًا لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة. وقال الحفصيّ: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس... (معجم البلدان لياقوت).
(٣) عبد الله بن حذف: من بني فزارة.
(٤) الجائث والجأث: الذي ينقل الأخبار؛ وجئث: ثقل عند القيام أو حمل شيء ثقيل.

وكان أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه قد عَقَد للعَلاء بن الحضرميّ، وأمَّرَه بالبحْرين كما قدَّمنا ذكر ذلك، فسار العَلاء فيمن معه، فلمّا كان بحيال اليَمامة لحِقَ به ثُمامةُ بنُ أُثال في مُسْلِمة بني حَنِيفة، وخرج مع العلاء من بني عمرو وسعد والرِّباب مثل عسكره، وسلَك الدَّهناء[١] فنزل، وأمَرَ النَّاس بالنزول، فنزلوا، فنفرت الإبل في جوف الليل، فما بقيَ بعيرٌ ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلاَّ ذهب عليها في عرض الرَّملِ، وذلك حين نزل الناس، وقبل أن يحطُّوا، فَما هَجَم على جَمْعٍ من الغمِّ ما هجم عليهم، وأوصى بَعْضُهمْ إلى بعضٍ، ونادَى منَادِي العلاء: اجْتمِعوا، فاجتمعوا إليه؛ فقال: ما هذا الذي قد ظهر فيكُمْ، وغلب عليكُمْ؟ فقال النَّاس: وكيف نلام ونحنُ إن بلغنا غدًا لم تحْمَ شَمْسُه حتى نصير حديثًا، فقال: أيُّها النَّاس، لا تُراعوا، ألستُمْ مسلمين! ألستُمْ في سبيل الله! ألَسْتُمْ أنْصَارَ اللهِ! قالوا: بلى. قال: فابشروا فوالله لا يخذُل الله مَن كان في مثل حالكم.

ونادى المنَادِي بصلاة الصُّبح حين طلع الفجر، فصلَّى بهم، منهم المتيمّم، ومنهم من لم يَزَلْ على طُهْرِه، فلمَّا قضى صلاته جَثَا لركبتَيْهِ، وجَثَا النَّاس، فنصِب في الدُّعَاء، ونصِبوا معه، فلمع لهم سراب الشَّمْسِ، فالتفتَ إلى الصفِّ. فقال: رائد ينظُر ما هذا، ففعل، ثم رجع فقال: سراب. فأقبل على الدعاء، ثم لمع لهم آخر، فكذلك، ثم لمع لهم آخر، فقال: ماء، فقام وقام الناس معه، فمشوْا حتى نزلوا عليه، فشربوا واغتسلُوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَد[٢] من كُلِّ وجْهٍ، فأناخَتْ عليهم، فقام كُلُّ رجلٍ إلى ظهره، فأخذه.

قال منجاب بنُ راشد: فما فقدنا سِلْكًا[٣]؛ فأرْوَيْنَاها وأسقيناها العَلَلَ[٤] بعد النَّهَلِ[٥]، وتروّينا، ثم تَروَّحْنا. وكان أبو هريْرَةَ رفيقي فلمَّا غِبنا عن ذلك المكانِ. قال لي: كيف عِلْمكَ بموضع ذلك الماء؟ فقلت: أنا من أهدَى العرب بهذه البلاد. قال: فكن معي حتى تقيمَني عليه، فكرَرتُ به، فأتيْتُ به على ذلك المكانِ، فقلت: لولا

---

(١) الدهناء: بفتح أوله، وسكون ثانيه، ونون وألف تمد وتقصر، قيل: هي سبعة أحيل من الرمل في عرضها، بين كل جبلين شقيقة، وطولها من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة أغذاء ومياه، وإذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جمعًا لسعتها وكثرة شجرها. . . (معجم البلدان).

(٢) تكرد: تطرد.

(٣) السلك: واحدتها سلكة، وهو الخيط الذي يخاط به الثوب.

(٤) العلل: الشراب الثاني. (٥) النهل: الشراب الأول.

أنّي لا أرى الغديرَ لأخبرتُكَ أنَّ هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماءً ناقعًا قبل اليوم، وإذا إداوةٌ[١] مملوءةٌ، فقال: يا أبا سَهْم، هذا والله المكان، ولهذا رجعتُ بك، وملأت إداوتي ثم وضعْتُها على شفيره. فقلت: إن كان مَنًّا من المنّ وكانت آية عرفتُها، وإن كان غياثًا عرفْتُه، فإذا مَنٌّ من المنِّ؛ فحمد الله. ثم سِرْنا حتى ننزل هَجَر[٢].

قال: فأرسل العَلاء بنُ الحضرميّ إلى الجارودِ ورجلٍ آخر: أن انضما في عبد القيس حتى تَنْزِلاَ على الحُطَم مما يليكُمَا، وخرج هو فيمن جاء معه، وفيمن قدِمَ عليه حتّى ينزل عليه ما يلي هَجَر، وتجمّع المشركُون كُلُّهم إلى الحُطَم إلاّ أهل دارين، وتجمّع المسلمون كُلُّهم إلى العَلاء، وخَنْدَقَ المسلمون والمشركون، فكانُوا يتراوحون القتال ويَرْجِعونَ إلى خَنْدَقِهم، فكانوا كذلك شهرًا.

فبينا الناسُ ليلةً إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدةً، كأنها ضوضاءُ هزيمة أو قتال، فقال العلاء: مَنْ يأتينا بخبر القوم؟

فقال عبدُ اللّهِ بن حَذَف: أنا آتيكم بخبر القوم؛ فخرج حتّى إذا دنا من خَنْدقهم أخذوه؛ فقالوا له: مَنْ أنت؟ فانْتسبَ لهم، وجعل ينادي: يا أبجراه! فجاء أبجر فَعَرفه فقال: ما شأنك؟ فقال: لا أُضَعَّر بين اللهازم[٣]، فقال: والله إني لأظنُّك بئس ابن الأُختِ لأخوالكِ الليلة. فقال: دَعْني من هذا، وأَطْعِمْني؛ فإنّي قَدْ مِتُّ جوعًا؛ فقرَّب له طعامًا فأكل، ثم قال: زوِّدني واحْمِلْني، فحملَه على بعير، وخرج عبد الله بن حَذَفٍ حتّى دخلَ عَسْكر المسلمين، فأخبرهم أنّ القوم سُكَارَى، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عسكَرَهُمْ، فوضَعُوا السُّيوف فيهمْ حيث شاؤوا، واقتحموا الخندق هُرّابًا فمتردٌ وناجٍ، ودَهِشٌ ومقتولٌ أو مأْسُورٌ، واستولى المسلمون على ما في العسكر، ولم يسلَم رجلٌ إلا بما عليه، فأمّا أبجر فأفلت؛ وأمّا الحُطَم فإنّه دَهِشَ، وطار فؤاده، فقام إلى فرسه ـ والمسلمون خلالهم ـ فلمّا وضع رجلَه في الرِّكاب انقطع به فمَرَّ به، عفيفُ بن المنذر والحُطَم يستغيث؛ يقول: ألا رجلٌ يعقلني! فعرف

(١) الإداوة: إناء صغير يحمل فيه الماء جمع أداوى.
(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: هي مدينة وهي قاعدة البحرين.. وقيل: هي في الإقليم الثاني، طولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة، وعرضها أربع وعشرون درجة وخمس عشرة دقيقة... (معجم البلدان لياقوت).
(٣) اللهازم: واحدتها اللهزمة: عظم ناتىء في اللحى تحت الحنك. وهما لهزمتان.

صوته، فقال: أعطني رِجْلَك، فأعطاه رِجْلَهُ فنفحها[١] فأطَنَّها[٢] من الفخذ، وتركه، فقال: أَجْهِزْ عليَّ؛ فقال: لا، إنّي أُحبُّ ألاَّ تموت حتى أُمِضَّك[٣]. وجعل الحُطَم لا يمرُّ به أحدٌ من المسلمين في الليل إلا قال: هل لك في الحُطَم أن تقتله! حتى مرَّ عليه قيسُ بن عاصمٍ فقَتله، فلمَّا رأى فخذَهُ نَادِرَةً[٤]، قال: واسوأتاه لو علمت الذي به لم أُحَرِّكْهُ! وخرجَ المسلمون بعدما أخذوا الخندق على القوم يطلبونهم، فلحق قيس بن عاصم أبجر، فطعنه قيس في العرقوب فقطعه، فكانت رادَّة، وأصبح العلاء فقسَّم الأنفال[٥]، ونفَّل رجالاً من أهل البلاء ثيابًا.

وأما أهل عُمَان ومَهْرَةَ واليمن، فإنّ حذيفةَ بنَ محصن الحميريّ وعَرْفجة سارا إلى القوم، فاقتتل المسلمون وأهل عُمَان قتالاً شديدًا فَهَزَم المسلمون المرتدين، وقتلوا منهم في المعركة عشرة آلافٍ، وَسَبُوا الذَّراريّ، وجَمَعُوا الغنائِم، وبَعثوا الخُمْسَ إلى أبي بكرٍ، وقَسَّمُوا ما بَقِيَ، ثم خَرَجُوا نحو مَهْرة، فكشف اللّهُ جنود المرتدِّينَ، وقُتِلَ رئيسُهُمْ، وركِبَهُم المسلمون، فقتلوا منهم من شاؤوا، وأصابوا مَنْ شاؤوا، وخَمَّسوا الغنائم، وبعثوا بالخُمس إلى أبي بكرِ الصِّديق رضي الله عنه، وقَسَّمُوا ما بقِيَ.

وأمّا من بقيَ مِنْ بقية الأُمراء الذين عقد لهم أبو بكر رضي الله عنه، وبعثهم إلى من ارتدّ من قبائل العرب، فإنَّ كل أمير سار إلى مَنْ بعثه إليه فمن رجعَ عَن الردةِ، وفاء إلى الإسلام قُبِل منه ومَنْ أبى قتل، وأطْفأ الله تلك النيران.

رُوِيَ عَنْ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّهُ قال: لقد أقمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كِدْنا نهلِكُ فيه، لولا أنَّ الله تعالى مَنَّ علَيْنا بأبي بكرٍ، جمَعنا على أن نقاتل على ابنةِ مخاضٍ وابنة لَبُونٍ، وأن نأكل قرى عُرينَةَ[٦]، ونعبد الله حتى يأتينا اليقينُ.

فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضيَ منهم إلا بالخُطَّة المخزية أو الحرب المجلِّية، فأما الخُطة المخزية فأن يُقِرُّوا بأنَّ منْ قُتِلَ منهم في النار، وأنَّ مَنْ قُتِلَ منّا في الجنة، وأن يَدُوا قَتْلانا، ونغنم ما أخذنا منهم، وما أَخَذُوا مِنّا مردودٌ علَيْنا، وأمَّا الحرب المجَلِّية فأن يخرجوا من ديارهم. وكانت هذه الحروب التي ذكرناها.

* * *

(١) يقال: نفحه بالسيف: أي ضربه ضربة خفيفة.
(٢) أطنها: قطعها.
(٣) أمضه: آلمه.
(٤) نادرة: ساقطة.
(٥) النفل: الغنيمة؛ أو الهبة، جمع أنفال.
(٦) عرينة: بلفظ تصغير عرنة، وعرينة: موضع ببلاد فزارة، وقيل: قرى بالمدينة؛ وعرينة: قبيلة من العرب... (معجم البلدان).

وهذه الوقائع كُلُّها في سنة إحدى عشرة، وكان فيها حوادثُ أُخر غير ما ذكرناها، نذكرها إنْ شاء الله تعالى في حوادثِ السنين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه بعد نهاية الغزوات. والله أعْلم.

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق
وما افتتحه وما صالح عليه وما قرره من الجزية

كان إرسالُ خالد بن الوليد إلى العراق في المحرم سنة ثلاث عشرة من الهجرة.

قالوا: وكان الَّذِي هاج أبا بكرٍ رضي الله عنه؛ أن المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيّ كان يُغير على أهل فارسَ بالسواد، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ هذا الذي تأْتينا وقائعه قبْل معرفةِ نسبه؟ فقال قيسُ بنُ عاصم: أمَا إنَّه غيرُ خامل الذِّكْر، ولا مجهول النَّسب، ولا قليلُ العدد، ولا ذليل العِمارة[1]، ذلك المثنَّى بن حارثة الشيباني.

ثم قَدم المثنَّى على أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، ابعثْني على قَوْمي، فإنّ فيهم إسلامًا، أقاتل بهم أهلَ فارس، وأكفيك أهل ناحيتي من العدوّ؛ ففعل أبو بكر رضي الله عنه ذلك.

وقدم المثنَّى إلى العراق، فقاتل، وأغارَ على أهل فارس ونواحي السواد حَوْلاً، ثم بعثَ أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكرٍ يسأله المدد ويقول: إن أمددتَني وسمعتْ بذلك العرب أسرَعُوا إليّ، وأذلّ اللّهُ المشركين، مع أنّي أُخبِركَ يا خليفة رسول الله أنَّ الأعاجم تخافنا وتتَّقِينا. فقال له عمر: يا خليفةَ رسول الله، ابعث خالد بن الوليد مددًا للمثنَّى بن حارثة، يكون قريبًا من أهل الشام، فإن استغنى عنه أهلُ الشام ألحّ على أهل العراقِ؛ حتى يفتَح الله عليه. حكاه أبو عمر بن عبد البر من حديث الأصمعي عن سلمة بن بلال عن أبي رجاء العُطارِدِي.

قال: كتب أبو بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه إلى المُثَنَّى بن حارثة: إنِّي قد ولَّيتُ خالد بن الوليد، فكن معه؛ وكان المثنَّى بسواد الكوفة، فخرج خالد فتلقَّاه، وقدم معه البصرة.

---

(١) العمارة: بالكسر، وبعد الألف راء، ضد الخراب، والعمارة: الحي العظيم ينفرد بظعنه وهي دون القبيلة، والعمارة: الصدر، وبها سميت القبيلة: وهو ماء بالسليلة من جبل قطن به نخل... (معجم البلدان لياقوت).

وحكى أبو الحسن عليٌّ بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير في تاريخه «الكامل» قال: أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق، وقيل: بل قدم إلى المدينة من اليمامة، فأرسله إلى العراق، وأوصاهُ أن يَبْدأ بفَرْج الهند، وهو الأُبُلَّة[١]، وأن يتألَّف أهل فارس، وكُلَّ من كان في ملكهم من الأُمم، فصار حتى نزلَ بيانِقيا، وبَارُوسْمَا وأُلَّيس، فصالحه أهْلُها على عشرة آلاف دينار سوى جزْية كِسْرى، وكان على كلِّ رأسٍ أربعةُ دراهم فأخذ منهم الجزْية، ثم سارَ حتَّى نزل الحيرةَ، فخرج إليه أشرافُها معَ قَبَيْصَة بن إياس الطائيّ، وكان أميرًا عليها بعد النُّعْمَانِ بن المنْذِر، فدعاهُمْ إلى الإسلام، أو الجزية، أو المحَاربة فاختاروا الجزيةَ، فَصالحهم على تسعين ومائة ألفِ درهم، فكانت أوّلَ جِزية أُخِذَتْ من الفُرْس في الإسلام، هي والقُريّات التي صالح عليها، واشترط على أهل الحيرة أن يكونُوا عيونًا للمسلمين، فأجابوا إلى ذلك.

ثم سار خالدٌ لقتالِ هرْمز، فلمّا سمِع هرْمز بهم كتب إلى أَرْدَشير الملك بالخبر واستمدَّه والْتقيا، وخرج هُرْمُز، ودعا خالدًا للبِرازِ ووطَّأ أصحابه على الغَدْرِ به، فبرز إليه خالدٌ، ومشى نحوه راجلًا، وبرز هرْمز، واقتتلا، فاحتضنه خالدٌ، وحمل أصحاب هرمز، فما شغله ذلك عن قتْله، وحمل القعقاع بن عمرو، فأنهى أهلَ فارسٍ وركبهم المسلمون؛ وسمِّيَتْ هذه الوقعة: ذات السَّلاسل، وكانَتْ عِدّة أصحاب خالدٍ ثمانية عشر ألفًا، ونجا قُبَاذ وأنو شجان، وأخذ خالد سلَب هرْمز، وكانت قلنسوته بمائة ألفٍ، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر، وسار حتى نزل بموضع الجسرِ الأعظم بالبَصْرةِ، وبعث المثنَّى بن حارثة في آثارهِم، وبعث مقرّن إلى الأُبُلّة ففتحها، وجمع الأموال بها والسَّبْي.

وقيل: إن الأُبُلّة فُتِحَتْ في خلافة عمر على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وحاصر المثنَّى حصن المرأة، فافتتحه، وأسلمت المرأة.

ذكر وقعة الثّني[٢]

قال: ولما وصل كتابُ هُرمز إلى أردشير بخبر خالد، أَمَدَّهُ بقارن بن قريانس، فلقيه المنهزِمُون، فرجعوا معه وفيهم قُباذ وأنو شجان، فنزلوا الثِّني - وهو النهر -

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: اسم بلد: كانت به امرأة خمارة تعرف بهوب في زمن النبط، فطلبها قوم من النبط، فقيل لهم: هوب لاكّا، بتشديد اللام، أي ليست هوب هنا، فجاءت الفرس فغلطت، فقالت: هو بلّت، فعربت العرب فقالت: الأبلة... (معجم ياقوت).

(٢) الثني: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وياء مخففة؛ والثني من كل نهر أو جبل منعطفه... ويوم الثني لخالد بن الوليد على الفرس قرب البصرة... (معجم ياقوت).

وسار إليهم خالد، والتقوا، واقتتلوا، فبرز قارِن فقتله مَعْقِلُ بنُ الأعْشى، وقَتَل عاصمٌ أنوشَجان وقتل عَدِيٌّ قُبَاذ، وقُتِلَ من الفُرْسِ مقتلةٌ عظيمةٌ يبلغون ثلاثين ألفًا؛ سوى مَنْ غرق في الماء، فقسَّم خالدٌ الفيء، بعد أن خَمَّسَهُ وأرسل بالأخماسِ إلى المدينة، وأعطى الأسلابَ مَنْ سلبها، وكانت غنيمة عظيمة، وأخذ الجزيةَ مِنَ الفلاحين، وكانوا ذِمَّة، وكان في السَّبْي أبو الحسن البصري، وكان نصرانيًّا.

ذكر وقعة الولجة(١)

قال: ولمّا وصل الخبر إلى أردشير بعثَ الأندرزغر وكان فارسًا من مولدي السّواد، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش، وكان مع الأندرزغر الفرس والعرب الضَّاحيَة والدهاقين، فعسكروا بالولَجة، فجاءهم خالدٌ إليها وكمن لهم كَمينًا، وقاتلهم قتالاً شديدًا، وخرج كمين خالدٍ من خَلْفِهم فانهزمت الأعاجم، وأخذهم خالد من أمامهم، والكمين من خلْفِهم، فقتِل منهم خلْقٌ كثير. ومضى الأندرزغر منهزمًا، فمات عَطَشًا.

وكانت هذه الوقعة في صفر سنة اثنتي عشرة، فأصاب خالدٌ ابنًا لجابر بن بُجيْر، وابنًا لعبد الأسود من بكر بنِ وائل.

ذكر وقعة أليس(٢)

قال: لمّا أصابَ خالدُ بنُ الوليد يومَ الولَجَةِ ما أصاب من نصارى بكر بن وائل، الَّذين أعانُوا الفُرْسَ، غضِب لهم نصارى قوْمِهم، فكاتَبُوا الفُرسَ، واجتمعوا على أُلَيْس، وعليهم عبد الأسود العِجْلِيّ، وكتب أرْدشير إلى بَهْمَن جاذوَيْهِ، وأمره بالقدوم على نصارى العرب، فقدم عليهم بهمن جابان، وأمره بالتوقفِ عن المُحَارَبة حتى يقدمَ عليه، وسار بَهْمَنُ إلى أرْدَشِير يُشَاوِره فيما يَفْعَل، فوجده مريضًا فتوقَّفَ؛ واجْتمع على جَابَانِ نصارى عِجْل، وهم اللاَّت وضُبيعة وجابر بنُ بُجَير، وعربُ الضَّاحية من أهل الحيرة، فسار إليهم خالد والتقوْا، واقتتلوا قِتالاً شديدًا؛ فقال خالد: اللَّهُمّ إنْ هزمْتَهُم فعلَيّ ألاَّ أستبقيَ منهم مَنْ قدرْتُ عليه؛ حتّى أُجْرِيَ من دمائِهم

(١) الولجة: بأرض كسكر موضع مما يلي البر واقع فيه خالد بن الوليد جيش الفرس فهزمهم.. في صفر سنة ١٢... (معجم ياقوت).

(٢) أليس: مصغر بوزن فُلَيس، والسين مهملة: الموضع الذي كانت فيه وقعة بين المسلمين والفرس في أول أرض العراق من ناحية البادية... (معجم ياقوت).

نهرهم، فانهزمتْ فارس، فنادى منادي خالد: الأسر الأسر! إلا من امتنع فاقتلوه، فأقبلَ بهم المسلمون أُسراء، ووكَّلَ بهم مَنْ يضرب أعناقهم، فضرب أعناقهم يومًا وليلة؛ فقال له القعقاعُ: لو قتلتَ أهل الأرض لم تَجْرِ دماؤُهم، فأجرى عليه الماء فسمِّيَ ذلك الماء نهر الدم، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفًا، وكانت الوقعة في صفر أيضًا.

ثم سار إلى أمْغِيشيا، وأصابَ فيها ما لم يصب مثلَهُ من الغنائم، وأخربها، وبعثَ إلى أبي بكر بالسَّبي والغنائم؛ فقال أبو بكر: عَجَز النِّساء أن يلدْن مثل خالد. رضي الله تعالى عنهما.

ذكر وقعة فرات بادقلى وفتح الحيرة

قال: ثم سار خالد من أمْغِيشْيَا إلى الحِيرة، وحمل الرِّجال والأثقال في السفن، فخرج مرزُبان الحِيرة، وهو الأزادبه، فعسْكَر عند الغَرِيَّيْن وأرسل ابنه، فقطع الماء عن السُّفن، فبقيتْ على الأرض، فسار خالد نحوه فلقيه على فرات بادقلى، فقتله، وقتل أصحابه، فلما بلغ الأزادبه قتلُ ابنه هرب بغير قتالٍ، ونزل المسلمون على الغَرِيَّيْن، وتحصَّن أهلُ الحيرة فحصرهم في قُصورهم، وافتتح المسلمون الدُّرُوبَ والدُّورَ، وأكْثَروا القتل، فنادى القسِّيسون والرُّهْبان: يا أهل القصور! ما يقتلنا غيركم! فنادى أهلُ القصور المسلمين: قد قبلنا واحدة من ثلاث: إمَّا الإسلام، أو الجزية، أو المحاربة، فكَفُّوا عنهم، وصالحهم على مائةِ ألفٍ وتسعين ألفًا. وقيل: مائتي ألفٍ وتسعين ألفًا.

وكان فتحُ الحيرة في شهر ربيع الأوّل، وكتب لهم خالدٌ كتابًا، فلمَّا كفر أهل السواد ضيّعوه، فلما افتتحها المثنَّى ثانية عاد بشرط آخر، فلمّا عادوا كفروا، وافتتحها سعدُ بنُ أبي وقاصٍ، ووضع عليهم أربعمائة ألف. فقال خالد: ما لقيتُ قومًا كأهل فارسٍ، وما لقيتُ من أهل فارسٍ كأهل أُلَّيْس.

ذكر ما كان بعد فتح الحيرة

قال: وكان الدَّهاقين[1] يتربَّصُونَ بخالدٍ، ما يصنعُ أهلُ الحيرة، فلمّا صالحهم واستأمنوا له أتتْه الدَّهاقِينُ من تلك النَّواحي، فصالَحُوه على ألفيْ ألفٍ. وقيل: ألف ألف، سوى ما كان لآل كسرى.

(١) الدهاقين: رؤساء الأقاليم، أو رؤساء القرى.

وكتب إلى أهل فارس يدْعُوهم إلى الإسلام أو الجِزْيةِ، فإن أجابُوهُ وإلاَّ حارَبَهُمْ. وجَبَى الخراجَ في خمسين ليلة، وأعطاه للمسلمين، ولم يبقَ لأهل فارس فيما بَيْن الحيرة ودِجلة أمرٌ، لاختلافهم بموت أردشير، إلاَّ أنَّهم مجمعون على حرب خالد، وهو مُقِيم بالحيرة.

ذكر فتح الأنبار(١)

قال: ثم سار خالدٌ إلى الأنْبَار، وإنَّما سُمِّيَتْ الأنبار، لأن أهْرَاء(٢) الطعام كانت بها أَنَابير(٣)، وكان على مَنْ بها من الجند شِيرُزاد صاحب سَابَاط، فلمَّا التَقوْا أمر خالد رُمَاتَهُ برشْقِ السِّهَام، وأنْ يقصدوا عُيُونَهُمْ، فرَشَقُوا رِشْقًا واحدًا، ثم تابَعُوا، فأصابوا ألف عينٍ، فسمِّيَتْ هذه الواقعة ذات العيون، فلما رأى شيرزاد ذلك، أرسل في طلب الصُلح، فصَالَحه خالدٌ على أنْ يُلْحقه مَأْمَنه في جريدة، وليس معهم من المتاع شيء.

وخرج شيرزاد إلى بَهْمَن جاذويه، ثم صالح خالدٌ مَنْ حول الأنْبار وأهل كِلْواذى. والله سبحانه وتعالى أعْلم والحمد لله وحْدَه.

ذكر فتح عين التمر(٤)

قال: ولما فرغَ خالدٌ مِن الأنبار، استخلف عليها الزِّبرقان بن بدر، وسار إلى عينْ التَّمْر، وبها مِهْران بنُ بَهْرام جُوبين في جمع عظيم من العجم، وعَقَّة بنُ أبي عقَّة في جمع عظيم من العرب؛ من النَّمِر، وتَغْلِب، وإياد؛ وغيْرهم. فقال عَقَّة لِمهْرانَ: إنّ العرب أعلم بقتال العرب منكم، فدعنا وخالدًا؛ فقال: نعم، وإن احتجتم إلَيْنَا أعنَّاكم، فالتقى عقَّة بخالدٍ، فحمل خالدٌ عليه وهو يقيم صُفُوفه، فاحتضنه وأسره، فانهزم أصحابُه من غير قتالٍ، وأُسِرَ أكثرهم. فلما بلغ الخبر مِهران، هرب في جنده

---

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها، ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة، وبناؤها طين، وبينها وبين شبورقان مرحلة من ناحية الجنوب... (معجم ياقوت).

(٢) الأهراء: مخازن الغلال.

(٣) أنابير: واحدتها: الأنبار: وهي بيت التاجر الذي يجمع فيه المتاع والغلال؛ أو أكداس البر.

(٤) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا، منهما يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جدًا، وهي على طرف البرية، وهي قديمة... (معجم البلدان لياقوت).

وترك الحصن، فانتهى المنهزمون إليه وتحصَّنوا به، فنازلهم خالدٌ، فسألوا الأمان، فأبى، فنزلوا على حُكمِه، فأخذهم أسرى، وقتلَ عَقَّة، ثم قتلَهُم عن آخرهم، وسبى كلّ مَنْ بالحِصْنِ وغَنِم ما فيه، ووجد في بيعتهم أربعين غلامًا يتعلَّمُون الإنجيل، عليهم بابٌ مغلَق، فكسره وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهُن، فقسَّمهم في أهل البلاد، منهم: أبو زياد مَوْلَى ثقيف، وأبو عمرة جدُّ عبد الله بنُ عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد، ونُصَيْر أبو موسى، وحُمْرانُ مولى عثمان بن عفانٍ.

وأرسل إلى أبي بكر بالخبر والخمس والسَّبي، فكان أول سَبْيٍ قدم المدينة من العجم، وجعل خالدٌ على عيْن التمر عويْمرا السُّلَمِيّ.

ذكر خبر دومة الجندل

قال: ولمّا فرغ خالدٌ من عَيْن التَّمْر أتاه كتاب عياض بن غَنْم؛ يستمده على مَنْ بإزائه من المشركين، فسارَ إليه، وكان بإزائه بَهْراء وكَلْبٌ، وغسَّان، وتنُوخ، والضجَاعِمُ، وكانت دومة الجنْدَل على رئيسين: أُكيْدِر بن عبد الملك، والجُودِي بن ربيعة، فأمّا أُكَيْدر فأشار بالصُّلْح، ولم يَرَ قتالَ خالدٍ، فلم يقبَلُوا منه، فخرجَ عنهم، وسمِع خالدٌ بمسيره، فأرسل إلى طريقه، وأخذه أسيرًا وقتله وأخذ ما كان معه، وسار حتى نزل بدُومَة، وجعلها بيْنه وبين عياضٍ، وخرج الجُودِي إلى خالدٍ في جمعٍ مِمَّنْ عنده من العرب، وأخرج طائفة إلى عياضٍ، فهزمهم عياضٌ، وهزم خالدٌ مَنْ يليه، وأسر الجُودِي، وانهزموا إلى الحِصْنِ، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابِهم، فبَقُوا حَوْله، فقتلهم خالدٌ، وقتل الجُودي وقتل الأسرى إلاّ أسرى كَلْبٍ، فإنَّ بني تميم قالوا لخالدٍ: قد أمَّنَّاهُمْ، وكانوا حلفاءهم، فتركهم لهم، ثم أخذ الحِصْن فقتل المقاتِلَة، وسبَى الذُّرِيَّة، فاشترى خالدٌ ابنة الجُودِي، وكانت موصوفة بالجمال.

وأقام خالدٌ بدُومةِ الجنْدل، فطمِع الأعاجم، وكاتبهم عرب الجزيرة غَضَبًا لعقَّة، فكانت وقعة حَصِيد[١] والخنافِس[٢]، بين القعقاع بن عمرو، خليفة خالدٍ على الحيرة، وبين روزبه وزرمهر. فَقُتِل روزبه بحصِيد، وانهزم الأعاجِمُ إلى الخنافِس؛ فتبعهم المسلمون، وهربوا إلى المصيَّخ، إلى الهذيل بن عمران.

---

(١) الحصيد: بالفتح ثم الكسر، وباء ساكنة، ودال مهملة: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة. . . (معجم ياقوت).

(٢) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البردان، تقام فيه سوق للعرب. . . (معجم ياقوت).

ثم كانت وقعة مُصَيَّخ(١)

قال: ولما انتهى الخبر إلى خالدٍ كتب إلى القعقاع وأبي ليلى، وواعدهم في وقت معلوم يجتمِعُونَ بالمُصَيَّخ لقتال هُذَيْلِ بن عِمْران ومَنْ معه، فأغاروا عليه من ثلاثةِ أوْجُهٍ وهم نائمون فقتلوهم، وأفلت الهذيْلُ في نفرٍ قليل، وكَثُرَ فيهم القتلُ.

ذكر وقعة الثّنى والزُّمَيْل(٢)

وكان ربيعة بن بجير بالثّنى والزُّمَيل - وهما شرقيّ الرُّصَافَة - قد خرج غضبًا لعقَّة، فلمّا أصابَ خالدٌ أهلَ المُصيَّخ سار إلى الثّنى وَبَيَّتَهُم من ثلاثةِ أوجهٍ، وأوقع بهم وقتلهم، فلم يُفْلت منهم مخبر، وسبى وغنم، وبعث بالخبر والخمس إلى أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه، فاشترى عليّ بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - بنت ربيعة بن بُجير التَّغلَبِيّ، فولدتْ له عُمرَ ورقَيَّة.

ذكر وقعة الفِرَاض(٣)

قال: ثم سار خالد إلى الفِراض، وهي تخوم الشّام والجزيرة، فأفطر فيها شهر رمضان لاتِّصال الغزواتِ، وحميَت الرُّوم، واستعانوا بمَنْ يليهم من الفُرْس فأعانوهم، واجتمع معهم تَغْلِب وإياد والنَّمِر، وسارُوا إلى خالد، وبلغُوا الفُرات، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت الرُّوم ومَنْ معهم، وأمر خالد ألاَّ يُرْفَع عنهم السيْفُ، فَقُتِلَ في المعركة، وفي الطلب مائة ألفٍ، وأقام خالدٌ على الفراض عشرًا، ثم أذِنَ بالرُّجُوعِ إلى الحِيرة لخمس بَقينَ من ذي القَعْدة سنة ثنتي عشرة، وخرج من الفراضِ سرًّا، ومعه عِدَّةٌ من أصحابه يَعْسِفُ(٤) البلاد، حتى أتى مَكَّةَ فحجّ ورجعَ، وكانت غيبتُهُ عن الجندِ يسيرة؛ ولم يعلمْ بحجِّه إلاَّ مَنْ أفضى إليه بذلك.

---

(١) المصيّخ: بضم الميم، وفتح الصاد المهملة، وياء مشددة، وخاء معجمة: هو بين حوران والقلت. . . (معجم ياقوت).

(٢) الزميل: تصغير زمل: موضع في ديار بكر.

(٣) الفراض: بكسر أوله، وآخره ضاد معجمة: موضع بين البصرة واليمامة قرب فليج من ديار بكر بن وائل. . . (معجم ياقوت).

(٤) يعسف البلاد: يضرب فيها سيرًا.

ذكر فتوح الشّام

قال: وفي سنة ثلاثَ عشرَة وجّه أبو بكر رضي الله عنه الجنودَ إلى الشأم، بعد منصرَفِه من مكّة إلى المدينة، فبعثَ عمروَ بنَ العاصِ قِبَل فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عُبَيْدَة بن الجراح وشُرَحبيل ابن حَسَنة، وأمرهم أن يسلُكوا على البلقاءِ من عَلْياء الشام. وقيل: أوَّلُ لواءٍ عَقَده أبو بكر رضي الله عنه، عند توجيهه الجنود إلى الشام لواءُ خالد بن سعيد بن العاص، ثم عَزَله قبل أنْ يسير، وولّى يزيد بن أبي سفيان - وكان عَزله عَنْ رأي عمر - وقدم عِكْرمةُ بنُ أبي جَهْلٍ علَى أبي بكر فيمن كان معه من تِهامة وعُمان والبَحْرين، فجعل أبو بكرٍ عكرمة ردءًا للنّاس. وبلغ الرُّومَ ذلك، فكتبوا إلى هِرَقْل، فخرج هرقل حتى أتى حِمْصَ، فأعدّ لهم لجنود، وأرسل أخاه إلى عمرو، فخرجَ نحوه في تسعين ألفًا، فهابَهم المسلمون، وجميعُ فرق المسلمين واحد وعشرون ألفًا سوى عكرمة؛ فإنّه في ستة آلاف، فكتبوا إلى عمرو بن العاص: ما الرأي؟ فكاتبهم أنَّ الرأي الاجتماع، وذلك أنَّ مثلَنا إذا اجتمع لا يُغْلَبُ مِنْ قلّة. فاتّعدوا الرموك ليجتمعوا به، وكان المسلمون كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كَتَبُوا به إلى عمرو، فجاءهم كتابُه بمثل ما رأى عمرو. وبلغ ذلك هِرَقْل، فكتب إلى بَطَارقته أن اجتمعوا لهم، وانزِلوا بالرُّوم منزلاً واسعَ المطرَّد ضيّق المَهْرب، ففعلوا، ونزلوا الواقوصة، وهي على ضَفّة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم، وأقبل المسلمون، فنزلوا عليهم بحِذائهم، فأقاموا صفر وشَهْرَيْ ربيع لا يقدرون من الروم على شيء، حتى إذا انسلخ شهر ربيع الأول، كتبوا إلى أبي بكرٍ يستمدونه، فكتب إلى خالدِ بنِ الوليد يلحق بهم، وأن يسيرَ في نصف العَسْكر، ويستخْلِف على النِّصف الآخر المثنّى ابن حارثة الشِّيبانيّ، ففعل. والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى الشام
وما فعل في مسيره إلى أن التقى بجنود المسلمين بالشام

لما ورد كتابُ أبي بكرِ الصِّديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد، يأمُرُه بالمسير إلى الشام في نصف العسكر سار كما أمره، فلما انتهى إلى سُوى[1] أغار على أهله، وهم بهراء، وأتاهم وهم يشربون الخمر، ومغنيهم يقول: [من الطويل]

ألاَ عَلِّلاني قَبْلَ جيشِ أبي بكرِ ... لَعلَّ منايانا قريبٌ وما نَدْرِي

(١) سوى: بضم أوله، والقصر: اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة... (معجم ياقوت).

ألا علِّلاني بالزُّجاج وكرِّرَا عَلَيَّ كُمَيْتَ اللَّونِ صافيةً تَجرِي[١]

ألا علِّلانِي من سُلافةِ قهوةٍ تُسلِّي هُمُومَ النفسِ من جَيِّد الخمر[٢]

أظنّ خيول المسلمين وخالدًا سَتَطْرُقُكُمْ قبلَ الصَّباحِ مَعَ النَّسر

فهل لكُم في السَّيْر قبل قتالِهمْ وقبل خروج المعصرات من الخِدْرِ[٣]

فقتل المسلمون مغنِّيَهم، وسال الدَّمُ في تلك الجفْنة[٤]، وأخذوا أموالهم، وقتِل حُرقُوصُ بنُ النعمان البهرانيّ. ثم سار خالد حتى أتى أرَك[٥]، فصالحوه، ثم أتى تدمُر فتحصّن أهلها، ثم صالحوه، ثم أتى القَرْيتيْنِ[٦]، فقاتل أهلها وظفر بهم وغنِم، وأتى حُوَارِين[٧] فقاتل أهْلَهَا فهزمهم، وسار حتى نزل ثَنِيّة العُقَاب، بالقرب مِنْ دِمشقِ ناشرًا رايتَه، وهي رايةٌ سوداءُ كانت لرسول الله ﷺ، تُسمَّى العُقابَ، فسمِّيت الثَّنِيّة بها، ثم سار فأتى مَرْجَ راهِط[٨]، فأغار على غسّان، فقتل، وسَبَى، وأرسل سريّة إلى كنيسة بالغُوطةِ، فقتلوا الرّجال، وسبوا النِّساء، ثم سار حتى وصل إلى بُصْرى[٩]، وعليها أبو عبيدة بنُ الجراح، وشُرَحبيل ابن حسَنةٍ، ويزيدُ بن أبي سفيان، فجمع له صاحب بُصْرَى، فسار إليه خالد هو وأبو عُبَيْدة، فلَقيَهُم خالد، فظفر بهم وهزمهم، فَدخَلوا حصنهم وطَلَبُوا الصُّلح، فصالحهم على كلِّ رأسٍ دينار في كلّ عام، وجَريب[١٠] حنطة، فكانت بُصْرى أوّلَ مدينة فتحت بالشّام على يد خالد بن الوليد، وأهل العراق. وبعثَ الأخماسَ إلى أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه. ثم سار فطلع على المسلمين في شهر ربيع الآخر، وطلع باهان على الروم مُنْذِرًا لهم. واتفق قدومُ

---

(١) الكميت: الخمرة لما فيها من سواد وحمرة.
(٢) السلافة: أفضل الخمر وأخلصها؛ والسلافة من كل شيء: خالصه.
(٣) المعصرات: جمع معصر: وهي الفتاة التي دخلت في شبابها.
(٤) الجفنة: القصعة، أو البئر الصغيرة.
(٥) أرك: مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون.
(٦) القريتان: مكة والطائف... وقيل: القريتان: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأرك أهلها كلهم نصارى... (معجم البلدان لياقوت).
(٧) حوارين: قرية من قرى حلب.
(٨) مرج راهط: بنواحي دمشق.
(٩) بصرى: في موضعين، بالضم، والقصر: إحداهما بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، وبصرى أيضًا: من قرى بغداد قرب عكبراء... (معجم ياقوت).
(١٠) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.

خالدٍ وقدومُ باهان، ومع باهان القسيسون والشمامسة والرّهبان يُحَرِّضُون الرّوم على القتال، وخَرج باهان، فوليَ خالدٌ قتالَه، وقاتل الأُمراءُ مَنْ بإزائِهم، ورجع ماهان والرُّومُ إلى خَنْدَقِهم، وقد نالَ المسلِمونَ منهم، فلزموا خندقَهُمْ غاية شهرهم. والله سبحانه وتعالى أعْلَمُ.

ذكر وقعة أجنادين[١]

هذه الوقعة قد ذكرها ابن الأثير رحمه الله بعد وقعة اليَرْمُوك، واعتمد في ذلك على أبي جعفر الطبري رحمه الله، فإنَّه أوردها على مِنْواله، ويقتضي سياقُ التاريخ أن تكون مُقدَّمة على وقعة اليرموك؛ وذلك أن خالدَ بن الوليد لما قدِم بُصرى وعليها أبو عُبَيْدة وشُرَحبيل ابنُ حسنة ويزيدُ بنُ أبي سفيان، صَالَح أهْلَهَا على الجزية على ما تقدّم، ثم ساروا جميعًا إلى فلسطين مددًا لعمرو بن العاص، وهو مقيم بالعَرَبات[٢]، واجتمعتْ الروم بأجْنَادين - وهي بين اليَرْموك وبيْت جِبْرين من أرض فلسطين - وعليهم تَذَارِق أخو هِرَقْل لأبويه. وقيل: كان على الرُّوم القبقلار. وسار عمرو بنُ العاص حين سمع بالمسلمين فلقيَهم، فنزلوا بأجْنادين، فبعث القُبْقلار عربيًّا إلى المسلمين يأْتيه بخبرهم، فعاد إليه، فقال له: ما وراءَكَ؟ فقال: باللَّيل رُهبان، وبالنهارِ فُرسان، ولو سرقَ ابنُ ملكهم قطعوه، ولو زَنَى رجموه، لإقامة الحقّ فيهم، فقال: إنْ كنتَ صدقْتَنِي فبطنُ الأرض خَيْرٌ مِنْ لقاء هؤلاء على ظهْرِها. ثم التقَوْا يوم السبْت لليلتيْن بقيتا من جُمَادى الأُولى سنة ثلاث عَشْرةَ، وظهر المسلمون عليهم، وانهزم الروم، وقُتِلَ القُبقلار وتَذَارق، واسْتُشْهِدَ رجالٌ من المسلمين.

ثم جمع هرقل للمسلمين، فالتقوْا باليَرْموك.

والله سبحانه أعْلَمُ وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم.

---

(١) أجنادين: بالفتح ثم السكون، ونون وألف، وتفتح الدال فتكسر معها النون، فيصير بلفظ التثنية، وتكسر الدال، وتفتح النون بلفظ الجمع: وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين... وقيل: إن أجنادين من الرملة من كورة بيت جبرين... (معجم ياقوت).

(٢) عربات: بالتحريك، جمع عربة: وهي بلاد العرب... وعربات: طريق في جبل بطريق مصر... (معجم ياقوت).

ذكر وقعة اليرموك[1]

قال: واجتمع المسلمون باليَرْمُوك، وقَدْ تكامَلَ عددهُم ستَّة وثلاثين ألفًا، منهم جيشُ خالد تسعة آلاف، وجيشُ عِكرمةَ ستَّة آلاف. وقيل في عَدَدِهم غير ذلك. وكان الرُّوم في مائتي ألفٍ وأربعين ألْفَ مقاتلٍ، منهم: ثمانون ألْفَ مُقَيَّدٍ، وأربَعُونَ ألفَ مُسَلْسَلٍ للموت، وأربعون ألفًا مَرْبوطُونَ بالعمائم، وثمانون ألف راجلٍ. وذلك في جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة، وخَرجُوا للِّقاء، فلما أَحَسَّ المسلمون بخرُوجِهم، قام خالدُ بنُ الوليدِ، فحمِدَ الله تعالى، وأثنى عليه؛ وقال: إنَّ هذا يومٌ من أيَّام الله، لا ينبغي فيه الفخر. أخْلِصُوا بجهادكم، وأريدُوا الله بعملكم، وهلمُّوا فلنتعاور[2] الإمارة، فليكُنْ عليها بعضُنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غدٍ، حتى يتأمّر كُلُّكُمْ؛ ودعوني أميرَكُم اليوم. فأمَرُوهُ، وهم يَرَوْنَ أنّ الأمرَ أطْوَلُ مما صارُوا إليه، وخرجتْ الرومُ في تعبئة لم يَرَ الرَّاؤون مثْلَها قَطّ، وخرج خالدٌ في تعبئة لم يعبِّئْها العربُ قبلَ ذلك، فخرج في ستةٍ وثلاثين كُردُوسًا[3] إلى أربعين، وجعل القلْبَ كَراديس، وأقام فيه أبا عُبَيْدَةَ، وجعل الميمنة كَراديس، وجعل عليها عمرو بن العاص، وفيها شُرَحْبيل ابن حَسَنة، وجعل الميسرة كَرادِيس، وعليها يَزيدُ بنُ أبي سفيان، وجعل على كُردوسٍ من كراديس العراق إنسانًا، وشهد اليرموكَ ألفُ رجلٍ من الصحابة، فيهم من أهل بدرٍ نحو المائة. فقال رجلٌ لخالدٍ: ما أكْثرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمينَ وأقلّ الروم! وإنَّما تكْثر الجنود بالنَّصرِ، وتَقلُّ بالخِذْلان، لا بعدَدِ الرِّجال.

ثم أمَّر خالدٌ عِكرمة والقعقاع بن عمرو ـ وكانا مجنِّبَتي القلْب ـ فأنشبا القتال، فنشِب والتحم الناسُ، وتطارد الفرسانُ؛ فإنَّهم على ذلك إذ قَدِم البريدُ من المدينة، فسأله النَّاس عن الخبر، فأخبرهم بسلامةٍ وأمدادٍ تقبِلُ إليْهم؛ وإنَّما كان قد جاء بموت أبي بكر وتأْمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالدًا، فأخْبَره بوفاةِ أبي بكر سرًّا، وأخبره بالَّذي أخبر به الجُنْد، فشكره وأخذ الكتابَ، فجعله في كنانَتِهِ[4]. وخَرَجَ جَرجَة من عَسْكَرِ الرّوم، وكان أحد عظمائهم، فوقف بين الصَّفَّين ليخرج إلى خالد، فخرج إليه، وأقام أبا عبيدة مكانه، فواقَفَه بين الصفَّين حتى اختلفتْ أعناق دابّتيهما، وقد أمِنَ كُلٌّ منهما صاحِبَة.

---

(١) يرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة... (معجم ياقوت).

(٢) تعاور: تداول.

(٣) الكردوس: القطعة العظيمة من الخيل.

(٤) الكنانة: جعبة صغيرة من أدم البغل.

فقال جَرَجَةُ: يا خالد، اصدقْنِي ولا تكذِبْني، فإن الحُرَّ لا يكذِب، ولا تخادعني، فإن الكريمَ لا يخَادع المسْتَرْسِلَ، قد أنزل الله على نبيكم سيفًا، فأعْطَاه لك، فلا تَسلّه على قوم إلاّ هَزَمَهمْ الله! قال: لا، قال: ففيم سُمّيتَ سَيْفَ الله؟ قال: إنّ اللّهَ بعثَ فينا نبيَّه ﷺ، فدعانا، فنفرْنا منه، ثم إن بَعْضَنا صدَّقه وبعضَنا باعَدَه وكَذّبه، فكنت مِمَّن كذَّبه وقاتلَهُ ثم هداني الله فتابَعْتُه؛ فقال: أنْتَ سيفٌ مِنْ سيوفِ الله سلَّه الله على المشركين، ودعَا لي بالنصر، فسُمّيتُ سيفَ اللّهِ بذلك، فأنا أَشَدُّ المسلمين على الكافرين المشركين؛ فقال: صَدَقْتَ، فأخبرني، إلام تدعوني؟ قال خالد: إلى الإسلام أو الجزْيَة، أو الحَرْب. قال: فما منزلةُ الذي يُجيبُكُمْ ويَدْخُلُ فيكم؟ قال: منزلتنا واحدةٌ، قال: فَهَلْ له في الأجْرِ والذُّخْرِ مثلكُمْ؟ قال: نعم، وأفضلُ؛ لأنَّنا اتَّبَعْنَا نبيّنا وهو حَيٌّ يُخبِرُنا بالغَيْب، ونَرى منه العجائبَ، وأنتم لم ترَوْا مِثْلَنَا، ولم تَسْمَعُوا ما سَمِعْنَا، فَمَن دخل بنيّةٍ وصِدْقٍ، كان أفْضلَ منّا. فقلَّب جَرَجة تُرْسَهُ، ومال مع خالد يُعَلِّمُهُ الإسلام، وأسْلم، فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطِه، فشنّ[1] عليه قِرْبةً من الماءِ وصَلّى به ركْعَتَين.

وحملتْ الروم مع انقلابه إلى خالدٍ، وهم يَرَوْنَ أنها مِنْه حيلةٌ، فأزالوا المسلمينَ عَنْ مواقِفِهم، فقال عِكْرمةُ بن أبي جهلٍ: قاتلتُ مع رسول الله ﷺ في كُلّ مَوْطنٍ، وأفرُّ منكم! ثم نادى: مَنْ يُبَايع على الموت؟ فبايعه الحارثُ بنُ هشامُ، وضرارُ بنُ الأزْوَر في أربعمائةٍ مِنْ وجُوه المُسْلِمِين وفُرْسَانهم، فقاتَلُوا أمام فُسْطَاط خالدٍ حتى أُثبِتوا[2] جميعًا جراحًا، فمنهم مَنْ بَرِىءَ، ومنهم مَنْ اسْتُشْهدَ.

وحمل خالدٌ ومعه جَرَجَة ـ والرُّومَ خلال المسلمين ـ فنادى الناس فثابوا، وتراجعتْ الرُّوم إلى مواقعهم، وزحف خالدٌ بالمسلمين إليهم حتى تصافحوا بالسيوف، وضرب فيهم خالدٌ وجرجَةُ من لدُن ارتفاع النَّهار إلى جُنوح الشمسِ للغرُوبِ، ثم أُصيبَ جَرَجَةُ، ولم يُصَلّ صلاةً سجد فيها إلاّ الركعتين مع خالدٍ، وصلَّى الناس الظُّهر والعَصْر إيماءً، وتضعْضَعَ الرُّومُ، ونهَد خالدٌ بالقلْبِ حتى كان بين خيْلهم ورجْلهم، فانهزم الفُرْسانُ، وخرجَتْ خيْلُهم تشتدّ في الصحراء.

ولما رأى المسلمون خَيْل الروم أفْرَجُوا لها، فذهبَتْ، فتفرّقت في البلاد، وأقبل خالد ومَنْ معه على الرَّجْل، ففَضُّوهم؛ فكأنما هُدِمَ بهم حائطٌ، واقتحموا في

(١) شنّ: صبّ.

(٢) أثبتوا: جرحوا وبهم رمق.

خَنْدَقِهم، فاقتحمه عليهم، فعمَدوا إلى الواقوصة[١]، فهوى فيها المقترنون وغيرهم، فتهاوَى فيها عِشْرون ومائةُ ألف، ثمانون ألف مقترن، وأربعون ألف مُطْلق، سوى مَنْ قُتل في المعركة من الفرسان والرجالِ، وقاتلَ النساءُ يومئذٍ، وكانت هزيمة الرُّوم مع اللَّيل. وصَعِدَ المسلمون العَقَبة وأصابوا ما في عسكر الرُّوم، قتل الله صناديد الرُّوم ورؤوسهم وأخا هرقْل؛ وانتهَتْ الهزيمةُ إلى هِرَقْلٍ وهو دون مدينة حمْص ـ أو بحمص ـ فنادى بالرّحيل عنها، وجعلها بينه وبين المسلمين، وأمَّر عليها أميرًا كما أمَّر على دِمشق.

هذا ما كان من واقعةِ اليرموك على سبيل الاخْتصَارِ.

رُوي عن عبدِ الله بن الزُّبَير، قال: كنتُ مع أبي باليَرْمُوك وأنا صبيٌّ لا أُقاتل؛ فلمّا اقتتل النَّاسُ نظرتُ إلى أُناسٍ على تلٍّ لا يقاتلون، فركبتُ فذهبتُ إليهم؛ فإذَا أبو سُفْيَانَ بن حرب ومشيخةٌ منْ قَريش مِنْ مهاجِرَةِ الفَتْح، فَرَأوني حَدَثًا فلمْ يتقُوني. قال: فَجعلُوا إذا مال المسلمون، وركبهم الرُّوم يقولون: إيه بني الأصفر! وإذا مالت الرّوم، وركبهم المسلمون قالوا: وَيْحَ بني الأصفر! فلما هُزِمَتْ الرّوم أخبرتُ أبي بذلك، فضحك وقال: قاتلهم الله! أبَوْا إلا ضغنًا! لنحْنُ خيرٌ لهم من الرّوم.

وقد حكى أبو جعفرٍ الطَّبريّ رحمه الله، أنّ أبَا سُفْيانَ يومَ اليرموك كان يسيرُ فيقف على الكراديس فيقولُ: الله، الله! إنَّكم ذادة العرب وأنْصَارُ الإسلام، وإنَّهم ذادة الرّوم وأنصارُ الشّركِ! اللَّهُمّ إنّ هذا يومٌ من أيَّامك، اللَّهُمّ أنْزلْ نَصْركَ على عبادِكَ. والله أعْلَمُ.

* * *

هذا ما وقع في خلافة أبي بكرِ الصِّديق رضي الله عنه من الغزواتِ والحروبِ، والفتوحاتِ، فنذكُرْ ما هو خلاف ذلِكَ من الحوادث على السنين، إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده.

ذكر ما وقع في خلافة أبي بكر غير ما ذكرناه

سنة إحدى عشرة

فيها كانت وفاةُ فاطمة بنتِ رسولِ الله ﷺ ورضي عنها، وذلك في ليلة الثلاثاء لثلاثٍ خلَوْن من شهر رمضان، وهي يومئذٍ ابنةُ تسع وعشرين سنة، أو نحوها. وقيل: تُوُفِّيتْ بعد رسول الله ﷺ بثلاثة أشهرٍ؛ قاله أبو جعفر.

(١) الواقوصة: واد بالشام في أرض حوران... (معجم البلدان لياقوت).

ثم قال: والثَّبْتُ عندنا أنها تُوفِّيتْ بعدَ ستةِ أشهرٍ، وغسَّلها عليّ بن أبي طالبٍ، وأسماء بنت عُمَيْسٍ، وصلَّى عليها العباسُ بنُ عبد المطلبِ، ودخل قبرها العباسُ وعليّ والفضلُ بنُ عباسٍ؛ قاله الواقِديُّ[١].

قال أبو عُمَر: فاطِمةُ أوَّلُ مَنْ غُطِّيَ نعْشُها مِنَ النِّساءِ في الإسلام؛ وذلك أنَّها قالت لأسماء بنت عُمَيْس: يا أسماءُ، إنِّي قد استقبحتُ ما يُصْنَعُ بالنساء، إنه يُطْرَحُ على المرأةِ الثَوْبُ، فيصفها. فقالت أسماء يا بنتَ رسولِ الله، ألا أُرِيكِ شيئًا رأيْتُهُ بأرضِ الحبشةِ؟ فدَعَتْ بجرائد رطْبَةٍ فحنَتْها، ثم طرحَتْ عليها ثَوْبًا. فقالت فاطمةُ: ما أحْسَنَ هذا وأجمله! تُعرفُ به المرأةُ من الرجل، فإذا أنا مِتُّ فاغسليني أنت وعليّ، ولا تُدْخِلي عليّ أحدًا، فلمَّا تُوفيتْ جاءتْ عائشة تَدْخُل؛ فقالت أسماء: لا تَدْخُلِي، فشكتْ إلى أبي بكر. فقالت: إنَّ هذه الخثعميّة تحول بيننا وبين بنت رسول الله، وقد جَعَلَتْ لها مِثْلَ هوْدج العروس؛ فجاء أبو بكرٍ، فوقف على الباب. فقال: يا أسماء، ما حملك على أن منعتِ أزواجَ رسول الله ﷺ أن يَدْخُلْنَ على بنتِ رسول الله، وجعلتِ لها مثل هودج العروس؟ قالت: أمرتْنِي ألاَّ يدخُلَ عليها أحَدٌ، وأريْتُها هذا الذي صنعتُ وهي حيَّة، فأمرتْنِي أن أصنَعَ ذلك لها. قال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتك، ثم انصرف.

وفيها انصرف مُعاذُ بنُ جَبَلٍ عن اليمن.

واستقضى أبو بكر عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهم.

وفيها أمَّر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم عتَّابَ بنَ أُسَيْد؛ وقيل: بل حجّ بالنَّاس عَبْدُ الرَّحْمَن بن عوف عن تأْميرِ أبي بكر إيّاه.

سنة اثنتي عشرة

فيها مات أبو مَرْثَد الغَنَويّ، واسمه كنَّاز بن حِصْن ـ ويقال ابن حصين ـ حليفُ حمزة بن عبد المطلب؛ صحب رسولَ الله ﷺ هو وابنه مَرْثَد، وابنه أُنَيس بن مَرْثَد؛ وشهد بَدْرًا هو وابنه مَرْثَد، وشهد هو المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، ومات وهو ابنُ ستٍّ وستين سنة.

---

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ. . . (وفيات الأعيان ٤ :٣٤٨).

وفيها، في ذي الحِجّةِ مات أبو العاص بنُ الربيع، واخْتُلِفَ في اسمه، فقيل: لَقيط، وقيل: مُهشم، وقيل: هُشيم، والأكثر لَقيط بن الرّبيع بن عبد العُزّى بن عبد مناف بن قُصيّ القُرشِيّ العبشَميّ ويسمى جرو البطحاءِ، وهو صِهْرُ رسول الله ﷺ على ابنتِه زينب، وأُمّه هالَة بنتُ خويْلد، أُخْتُ خديجةَ أُمّ المؤمنين، وأوْصى إلى الزُّبَير بن العوَّام، وتزوّج عليّ ابنته.

وحجّ بالنّاس في هذه السّنة أبو بكر الصّديق رضي الله عنه، واستخلف على المدينة عثمان بن عفّان رضي الله عنه. وقيل: بَلْ حَجَّ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله تعالى عنه. والله تعالى أعلم بالصّوابِ.

ذكر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومدة خلافته

قد اختلف في وقت وفاتِه رضي الله عنه؛ فقال ابنُ إسحاق[١]: في يَوْمِ الجمعة لتسعٍ من جُمَادَى الآخرة سنة ثلاث عشرة.

وقال غيرُه: إنّه مات عشيّ يوم الاثنين. وقيل: ليلة الثلاثاء. وقيل: عشيّ يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة.

قال ابن عبد البر: هذا قول أكثرهم.

وقيل: مكثَ في خِلافته سنتين وثلاثة أشهُرٍ وسبع ليالٍ.

وقال ابن إسحاق: سنتين وثلاثة أشهرٍ إلا خمسَ ليالٍ. وقيل: سنتين وثلاثة أشهر واثنتي عشرة ليلة.

وقال غيره: وعشرة أيام.

وقال آخرون: وعشرين يومًا.

واختُلف أيضًا في السَّبب الذي مات منه، فذكر الواقِدِيُّ: أنَّه اغتسل في يوم بارد، فَحُمَّ. ومرض خمسة عشر يومًا.

---

(١) ابن إسحاق: هو أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوتان، المطلبي بالولاء، المديني، صاحب المغازي والسير... (وفيات الأعيان ٤: ٢٧٦).

وقال الزبير بنُ بكَّار: كان به طَرَفٌ من السّل. ورُوِيَ عن سلاَّم بن أبي مُطيع: أنه سُمَّ، وأن اليهودَ سمَّته في حَرِيرة[١]، وهي الحسو، فأكل هو والحارثُ بنُ كَلَدَة، فكَفَّ الحارثُ، وقال لأبي بكر: أكَلْنا طعامًا مسمُومًا، سمَّ سنةٍ، فمات بعد سنة.

وقيل: أصلُ مرضه الغمُّ على رسول الله ﷺ.

وانتهت سنُّه رضي الله عنه عند وفاته إلى سنّ رسول الله ﷺ، ثلاثًا وستين سنة.

قال أبو عمر بن عبد البر: لا يختلفون في أن سنَّه انتهتْ إلى ذلك، إلاَّ ما لا يصح.

وقد كان آخر ما تكلَّم به: توفَّني مسلمًا، وألحِقْني بالصالحين.

وغسَّلته زوجته أسماء بنت عُمَيْس بوصيَّة منه وابنه عبد الرحمٰن، وأوصى أن يكفَّنَ في ثوبيه، ويشتري معهما ثوبٌ ثالث، وقال: الحيّ أحْوَجُ إلى الجديد من الميِّت، إنَّما هو للمُهْملة[٢] والصَّديد[٣].

وصَلَّى عليه عمرُ بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ، وكبَّر أربعًا، وحُملَ على السَّرير الذي حُملَ عليه رسولُ الله ﷺ، وهو سرير عائشة رضي الله عنها، وكان من خشبتي ساج[٤] منسوجًا باللِّيف في ميراث عائشة، بأربعة آلاف درهم اشتراه مولى لمعاوية، وجعلَه للمسلمين. ودخل قبره ابنُه عبدُ الرحمٰن وعمر بن الخطاب وعثمان وطلحة، وجُعِلَ رأسُه عند كَتِفَي النَّبي ﷺ، وألصقوا لَحْده بلَحْدِهِ، ودفن رضي الله عنه ليلاً.

ذكر نبذة من أخباره وأحواله ومناقبه رضي الله عنه غير ما تقدّم

قد ذكرنا فيما تقدَّم من كتابنا هذا في هذا السِّفْر وما قبله نبذةً من أخباره، ولمعة من آثاره، وطَرَفًا من مآثره السنيّةِ، وجملةً من فضائِله التي هي بجزيل الخيرات مليّة، وأحببنا أن نُورِدَ في هذا الموضع نبذةً أُخرى غير ما قدَّمنا، ونختم هذا الفصلَ بشيءٍ من مناقِبِهِ كما بدأْنَا، ولا نشترط الاستيعاب لمناقبه ومآثرِه لتوفُّرِها، ولا الحصر

---

(١) الحريرة: براءين مهملتين، كأنه تصغير حرة: موضع بين الأبواء ومكة قرب نخلة، وبها كانت الوقعة الرابعة من وقعات الفجار... (معجم ياقوت).

(٢) المهملة: القيح.

(٣) الصديد: القيح يفسد به الجرح.

(٤) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

لفضائله الجزيلة لتعدُّدِها وتكرُّرها، بل نورد من كل نوع منها طرفًا يحتوي على خِصَال منيعة، وأخلاقٍ شريفةٍ، ويتحقَّق سامته أنَّه لو أنفق مِلءَ أُحُدٍ[1] ذهبًا ما بلغ مُدَّه ولا نُصَيْفَه.

كان رضي الله تعالى عنه قد تقلَّل من الدنيا جُهد طاقته، واقتصر منها على بعض ما يسُدُّ به بعض خلَّتِه وفاقَتِهِ، وتجنَّب أموال المسلمين جهْدَه، وأنفق في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ ما كان عنده؛ نطقَ بفضله القرآن، وجاهد في دين الله فأذلَّ الله له وبه أهْلَ الشِّرك والطُّغيان، وشمَّر عن السَّاعد في قتالِ أهلِ الرِّدّة حين استذلَّهم الشيطان، وأقدم على حربهم بنفسه وجيوشه حين اشرأبَّ النفاق ولمعت بوارقُه، وناضلهم بكُتبِهِ وكتائبِه حين ظهر الكفر ونُشِرتْ خوافقُه، فأخْمد الله تعالى به ما كان قد اضطرم من نيران الرِّدة، وأفاء تلك القبائل التي كانت لحرب الإسلام مستعدة؛ إلاَّ من استمرّ منهم على كفره، وما نزع عن شرِّه ومكرِه، وأبى إلاَّ جحود هذا الدِّين وقتالِ شعبِه، ونَفَر عن الرُّجوع والانضمام إلى حزبه؛ فإن الله تعالى قتله شرَّ قِتْلة، وأباح للمسلمين ماله وأهله ونسلَه.

رُوِيَ أنَّه لما ارتدت العرب، خرج أبو بكر رضي الله عنه شاهرًا سيفه إلى ذي القَصَّة، فجاءه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بزمام راحلته، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك كما قال لك رسول الله ﷺ يوم أُحد: شِمْ سيفك لا تَفْجَعْنَا بنفسك، فوالله لئِن أُصِبْنَا بك لا يكون للإسلام نظام، وكان له رضي الله عنه بيت مال بالسُّنح[2]، وكان يسكنه إلى أن انتقل إلى المدينة؛ فقيل له: ألا تجعل عليه مَنْ يحرسُه؟ قال: لا، فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين، فلا يبقى فيه شيء، فلمّا انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه في داره.

ولما تُوفِّيَ جمع عمر الأُمناء، وفتح بيت المالِ فلم يجدْ فيه شيئًا غيْرَ دينارٍ سقط من غِرارةٍ، فترحَّمُوا عليه.

---

(١) أحد: بضم أوله وثانيه معًا: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر، ليس بذي شناخيب، بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها، وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قتل فيها حمزة عم النبيّ ﷺ وسبعون من المسلمين... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) السّنح: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره حاء مهملة: وهي إحدى محال المدينة كان بها منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تزوج مليكة... (معجم ياقوت).

وفي خلافته رضي الله عنه: انفتح معدِن بني سُلَيم، فكان يُسوِّي في قِسمتِه بين السَّابقين الأوَّلين والمتأخِّرين في الإسلام، وبين الحرِّ والعبد، والذَّكر والأنثى. فقيل له: لِيقدِّم أهْلَ السَّبْق على قَدْر منازلهم. فقال: إنّما أسلموا لِلّهِ، ووجب أجرُهم عليه، يوفِّيهم ذلك في الآخرة، وإنما هذه الدنيا بلاغٌ.

وكان يشتري الأكْسِيةَ ويُفَرِّقها في الأرامل في الشتاء.

قال أبو صالح الغِفَاريّ: كان عمر رضي الله عنه يتعهّد امرأةً عمياءَ في المدينة بالليل، فيقوم بأمرها، فكان إذا جاءَها وَجَدَ غَيْره قد سَبقه إليها، ففعل ما أرادت، فرصَدَه عمر، فإذا هو أبو بكرٍ رضي الله عنه، كان يأْتيها ويقضي أشغالها سرًّا وهو خليفة؛ فقال: أنْتَ هو لعَمْري!

وكان منزل أبي بكر رضي الله عنه بالسُّنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة، فأقام هناك ستة أشهرٍ بعدما بويع، وكان يَغْدو على رجليْه إلى المدينة، وربّما ركب فرسَه، فيُصَلِّي بالنَّاس؛ فإذا صَلَّى العشاء رجع إلى السُّنْح. وكان إذا غاب صَلَّى بالنَّاس عمر، وكان يَغْدو كُلَّ يوم إلى السُّوقِ فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعةُ غنم تروح عليه، وربّما خرج هو بنفسِه فيها، وربّما رُعِيتْ له، وكان يحلُب للحيِّ أغْنامَهم، فلما بُويعَ بالخلافة قالت جَاريةٌ منهم: الآن لا يَحْلُب لنا مَنَائِحَ[1] دارِنا، فسمعها، فقال: بل لعمري لأحلبنّها لكم، وإني لأرجو ألا يغيِّرَني ما دخلتُ فيه عن خلُق كنتُ عليه، فكان يحلُبُ لهم، ثمّ تحوّل إلى المدينة بعد ستة أشهر من خلافته. وقال: لا تصلح أُمور النَّاس مع التجارة، وما يصلح إلا التَّفرغُ لهم؛ والنظر في شأْنهم، فترك التجارة، وأنفق من مال المسلمين، ما يصلِحُه ويصلح عيالَه يومًا بيوم، ويحجُّ ويعتمر؛ فكان الذي فرضوا له في كلّ سنة ستة آلاف درهم. فلما حضرته الوفاةُ قال: رُدُّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإنِّي لا أُصيبُ من هذا المال شيئًا، وإنَّ أرضِي الذي بكذا وكذا للمسلمين بما أصبتُ من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر. وقيل: إنَّه قال: انظروا كم أنْفَقْت منذ وُلِّيتُ من بيت المال؟ فاقضوه عنِّي، فوجدوا مبْلَغَهُ ثمانية آلاف. وقيل: إنّه قال لعائشة رضي الله عنها: أما إنَّا منذ وُلِّينا أمر المسلمين لم نأْكلْ لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنَّا قد أكلنا من جَرِيشِ[2] طعامهم، ولبسنا من خشِن ثيابهم، وليس عندنا من فيءِ المسلمين إلاَّ هذا العَبْد، وهذا البعير، وهذه القطيفة، فإذا مِتُّ فابعثي

---

(١) المنائح: واحدتها المنيحة، وهي الناقة تدر اللبن.
(٢) الجريش: المجروش من الحبوب وغيرها.

بالجميع إلى عمر؛ فلما مات بعَثَته إليه، فلما رآه بكى حتى سالت دموعُه على الأرض؛ وجعل يقول: رحم الله أبا بكر! لقد أتعب مَنْ بعده، يكرّر ذلك، وأمر برفعه. فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: سبحان الله! تسلُب عيال أبي بكر عَبْدًا، وناضِحًا[١]، وشِقَّ قطيفةٍ ثمنها خمسة دراهم! فلو أمرْتَ بردِّها عليهم. فقال: لا، والذي بعث محمدًا لا يكون هذا في ولايتي، ولا خرج أبو بكر منه وأتقلَّده أنا.

وقد قيل: إنَّه رضي الله عنه، كان يأْخُذُ من بيت المال في كلِّ يوم ثلاثةَ دراهم أجرة، وإنه قال لعائشة: انظري يا بُنيَّة ما زاد في مالِ أبيك منذ وليَ هذا الأمر فردِّيه على المسلمين. فنظرت فإذا بجُرْدِ[٢] قطيفةٍ لا تساوي خمسة دراهم، ومَحَشَّة[٣]، فجاء الرَّسُول إلى عمر بذلك والنَّاسُ حولَه، فبكى عمر، وبكى النَّاس؛ وقال: رَحِمَكَ اللّهُ أبا بكرٍ! لقد كلَّفت مَنْ بعدك تعبًا طويلاً! فقال الناس: اردُدْه يا أمير المؤمنين إلى أهله. قال: كلاَّ، لا يُخرِجه من عنقه في حياته، وأرُدُّه إلى عنقه بعد وفاته. ثم أمَر بذلك، فحُمِلَ إلى بيت المال.

وحكي أنّ زوجته اشتهت حُلْوًا، فقال: ليس لنا ما نشتري به. فقالت: أنا أستَفْضِل من نفقتِنا في عدَّة أيام ما نشتري به؛ قال: افعلي، ففعلَتْ ذلك؛ فاجتمع لها في أيام كثيرة شيءٌ يسير، فلمَّا عرَّفته ذلك أخَذه، فردَّه في بيت المال. وقال: هذا يَفْضُل عن قوتِنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما استفْضَلَتْ في كُلِّ يومٍ، وغرامة لبيت المال في المدة الماضية من مِلْكٍ كان له.

قيل: ولـمّا حَضَرتْه الوفاة أتته عائشة رضي الله عنها وهو يعالج الموت، فتمثَّلت:

لَعَمْرُكَ ما يغني الثَّراء عن الْفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَومًا وضاق بها الصَّدْرُ

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩]. إنّي قد نحلتُكِ حائط كذا، وفي نفسي منه! فردِّيه على الميراث؛ وقال: إنَّما هو أخواك وأُختاك! قالت: مَن الثانية؟ إنَّما هي أسماء. قال: ذات بطْن بنت خارجة ـ يعني زوجته ـ وكانت حاملاً، فولدت أُمَّ كُلْثوم بعد موته.

(١) الناضح: البعير الذي يستقى عليه الماء. (٢) جرد القطيفة: القطيفة البالية.
(٣) المحشّة: حديدة تحرك بها النار.

وهو رضي الله عنه أوّلُ والٍ فَرَضَتْ له رعيّتُه نفقتَه، وأوّلُ خليفة وُلِّيَ وأبوه حَيّ، وأوّل مَنْ جَمَع القرآن بين اللَّوحَيْن بمشورة من أصحابِ رسول الله ﷺ، وسماه مُصْحَفًا، وهو أوّلُ من سُمِّيَ خليفة؛ رضوان الله عليه.

ذكر أولاد أبي بكر وأزواجه

تزوّج رضي الله عنه في الجاهلية قَتْلة ـ ويقال: قُتَيْلَة ـ بنت عبد العزّى بن عبد بن أسعد بن مُضر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ، فولدت له عبد الله وأسماء.

وتزوّج أيضًا في الجاهليةَ أُمَّ رَومان ـ بفتح الراء وضمها ـ واسْمُهَا زينب بنت عامر بن عُوَيْمر بن عبد شمس بن عَتَّاب بن أُذَيْنَة بن سُبَيْع بن دهمان بن الحارث بن غَنَمْ بن مالك بن كنانة. أسلمت وهاجرت؛ وكانت قَبْلَ أبي بكر تحت عبدِ الله بن الحارث بن سَخْبَرة بن جرثومة الخير بن عادية بن مرّة الأزْدِيّ، وكان قَدِمَ بها مكّة، فحالف أبا بكر قبل الإسلام، ثم تُوُفِّيَ عن أُمّ رُومان، فولدت له الطُّفيل، ثم خلف عليها أبو بكر، فولدت له عبدَ الرحمٰن وعائشة؛ فالطُّفيلُ أخوهما لأُمّهما، توفيت أُم رومان في ذي الحجة سنة أربع، أو سنة خمسٍ، فنزل رسول الله ﷺ في قبرها، واستغفر لها. وقال: اللَّهُمَّ لم يَخْفَ عليك ما لقيتْ أُمُّ رُومان فيك وفي رسولك.

ورويَ عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «من سَرَّه أنْ ينظر إلى امرأةٍ من الحُورِ العين فلينظرْ إلى أُمّ رُومان».

وتزوّج رضي الله عنه في الإسلام أسماء بنت عُميس الخثعميّة؛ وهي أُختُ ميمونَة زَوْج النبيّ ﷺ لأُمّها، وكانت عند جعفر بن أبي طالب، وهاجرتْ معه إلى أرض الحبشة، فولدت له هناك محمد بن أبي بكر، ثم تزوّجها بعده عليّ بن أبي طالب، فولدت له يحيى بنَ عليّ. وزعم ابنُ الكلبي أن عون بن عليّ، أمّه أسماء، ولم يقله غيره.

وقيل: كانت أسماء بنت عُمَيْس تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له ابنةً تُسمَّى أمةَ الله. وقيل: أُمَامَة، ثم خَلَف عليها بَعْدَه شدّاد بنُ الهادِ اللّيثي، ثم العتواريّ، حليف بني هاشم، فولدت له عبدَ اللّهِ وعبد الرحمٰن بنَ شدَّاد، ثم خلف عليها بعدَ شدّاد جعفر بن أبي طالب. وقيل: التي كانت تحت حمزة وشدّاد سَلْمى بنت عُمَيْس أُختها أسماء، والله تعالى أعْلَمُ بالصواب.

وتزوّج رضي الله عنه في الإسلام أيضًا أمّ حبيبة بنتَ خارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصارية، من بني الحارث بن الخزرج، فولدت له بعد وفاته أُمّ كلثوم.

* * *

ولنصل هذا الفصلَ بذكر شيءٍ من أولاد أبي بكر رضي الله عنهم.

وأمّا عبدُ اللّهِ بن أبي بكر رضي الله عنهما، فكان قديمَ الإسلام إلاَّ أنَّه لم يُسْمَع له بمشْهد إلاَّ شهوده الفتح وحُنينًا والطائف. ورُمِيَ بالطائف بسهم؛ قيل: رماه به أبو مِحجَن، فاندمل جُرْحُه، ثم انتقض عليه، فمات في شَوّال سنة إحدى عشرة.

وكان قد ابتاع الحُلَّة التي أرادوا دَفْنَ رسولِ الله ﷺ فيها بسبعة دنانير ليكفَّن فيها، فلما حضرتْه الوفاة، قال: لا تكفِّنُوني فيها، فلو كان فيها خير كُفِّن رسولُ الله ﷺ فيها، ودُفِنَ بعد الظهر، وصلَّى عليه أبوه، ونزل قبره عمرُ بن الخطاب وطلحة وعبد الرحمٰن أخوه.

وكان عبدُ الله رضي الله عنه زَوْجَ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل العدويَّة، أُخت سعيد بن زيد، كانت من المهاجرات، وكانت حسناء جميلة بارعة، فأُولع بها، وشَغَلَتْهُ عن مغازيه، فأمره أبوه بطلاقها لذلك؛ فقال: هذه الأبيات: [من الطويل]

يقولون طلِّقها وخَيِّم مكانها ... مقيمًا، تمنِّي النَّفس أحلامُ نائِم
وإنَّ فراقي أهلَ بيْتٍ جميعُهمْ ... على كَبْرَةٍ منِّي لإحدَى العظائِم
أرانِي وأهلِي كالعَجول تروَّحتْ ... إلى بَوِّها قبل العِشارِ الرَّوائِم(١)

فعزم عليه أبوه حتى طلقها، ثم تبعتْها نفسه، فهجم عليه أبو بكر رضي الله عنه وهو يقول: [من الطويل]

أعاتكَ لا أنساكِ ما ذَرّ شارِقٌ ... وما ناح قُمريُّ الحمام المطوَّقُ(٢)
أعاتِك قلبي كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إليكِ بما تُخْفي النفوسُ معلَّقُ
فلم أرَ مثلي طلَّق اليومَ مِثلَها ... ولا مثلَها في غير جُرْم تُطَلَّقُ
لها خُلُقٌ جزْل ورأيٌ ومنصبٌ ... وخَلْقٌ سَويٌّ في الحياءِ ومصدَقُ

فرقَّ له أبوه، وأمره بمراجعتها فارتجعها؛ وقال هذه الأبيات: [من الطويل]

---

(١) الروائم: جمع رائم: وهي الأنثى تحب وتعطف على ولدها وتلازمه.
(٢) القمري: ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت.

أعاتِك قد طُلِّقْته في غير ريبةٍ ... ورُوجعتِ للأمر الذي هو كائنُ[(١)]
كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ ... على النَّاسِ فيه أُلفةٌ وتباينُ
وما زال قلبي للتفرّق طائرًا ... وقلبي لما قد قرَّب الله ساكن
فإنَّكِ ممَّن زيّن الله وجْهَهُ ... وَليس لوجهٍ زانه الله شائن[(٢)]

فلما مات عبد الله صارت عاتكة ترثيه بهذه الأبيات: [من الطويل]

رُزئتُ بخير النَّاس بعد نبيِّهمْ ... وبعد أبي بكر وما كان قَصَّرا
فآليتُ لا تنفكُّ عيني حَزِينةً ... عليك، ولا ينفك جِلْدِيَ أغْبرَا
فللَّهِ عينًا من رأى مثلَه فتًى ... أكَرَّ وأحْمِيَ في الهياج وأصْبَرا[(٣)]
إذا شرعت فيه الأسِنَّةُ خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرُّمْحَ أحْمرَا

ثم تزوّجتْ بعده زيدَ بنَ الخطاب، على اختلاف في ذلك؛ فقتل عنها يوم اليمامة شهيدًا، فتزوّجها عمرُ بن الخطاب في سنة اثنتي عشرة، فأولم عليها، ودعا عمرُ بنُ الخطاب أصحابَ رسول الله ﷺ. وفيهم عليٌّ بن أبي طالب؛ فقال له: دعني أُكَلِّم عاتكة، قال: نعم، فأخذ بجانب الحذر. ثم قال: يا عُديَّة[(٤)] نفسها، أين قولك:

فآليت لا تنفكّ عيني حَزينةً ... عليك ولا ينفك جِلْدِيَ أغبرا

فبكت. فقال عمر: ما دعاكَ إلى هذا يا أبا الحسن؟! كلّ النساء يفعلْن هذا، ثم قُتِلَ عنها عمر، فقالت تبكيه: [من الخفيف]

عَيْن جُودِي بعَبْرةٍ ونَحيبِ ... لا تَمَلِّي على الجوادِ النَّجيبِ
فجعتْني المنونُ بالفارس المُعْـ ... ـلِم يوم الهِياج والتَّثويبِ[(٥)]
قل لأهل الضّرّاء والبؤس موتوا ... قد سَقَتْهُ المنونُ كأسَ شَعُوبِ

وقالت أيضًا ترثيه بهذه الأبيات: [من الكامل]

مُنِعَ الرقادُ فعاد عَيْنيَ عائدٌ ... مما تضمَّن قلبيَ المعمودُ
يا ليلةً حُبِسَتْ عليَّ نجومُها ... فسهرتُها والشَّامِتُون رُقُودُ

---

(١) الريبة: الظن والشك والتهمة.
(٢) الشائن: المعيب.
(٣) الهياج: الهيجاء: الحرب.
(٤) عدية نفسها: عدوة نفسها.
(٥) المعلم: الذي جعل له علامة في الحرب.

قـد كـان يُـسْـهِـرنـي حِـذَارِكَ مـرّةً فـالـيـوم حُـقَّ لـعـيـنـيَ الـتَّـسْـهـيـدُ
أبـكـي أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ودونَـه لـلـزائـريـن صـفـائـحٌ وصَـعِـيـدُ[١]

ثم تزوَّجها الزُّبير بن العوّام فقتِل عنها؛ فقالت ترثيه بهذه الأبيات: [من الكامل]

غـدر ابـن جُـرْمـوزٍ بـفـارس بُـهـمّـةٍ يـوم الـلِّـقـاءِ وكـانَ غـيـر مُـعَـرِّدِ[٢]
يـا عـمـرو لـو نـبّـهـتَـه لـوجـدتَـه لا طائشًا رعشَ الجنَانِ ولا اليَدِ[٣]
كـم غَـمـرةٍ قـد خـاضـهـا لـم يَـثْـنـهِ عنها طِرادُك يا بن فِقع الْقَرْدَدِ[٤]
ثَـكِـلَـتْـكَ أمُّك إن ظفـرت بـمـثـلـه فـيـمـا مـضـى مـمـن يَـرُوحُ ويَـغْـتَـدِي
والـلّـهِ ربِّـكَ إنْ قـتـلـت لـمـسـلـمًـا حـلَّـتْ عـلـيـكَ عُـقـوبـةُ الـمـتـعـمِّـد

ثم خطبها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد انقضاء عِدّتها، فأرسلت إليه. إنّي لأضنُّ بك يا بنَ عَمّ رسول اللّهِ عن القتل!

وإنما ذكرنا ما ذكرنا من خبر عاتكة في هذا الموضع على سبيل الاستطراد؛ فالشّيء بالشيء يُذكر، فلنذكر عبد الرحمٰن بن أبي بكر.

وأمّا عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنه؛ فهو أسنُّ ولد أبي بكر، وكان يُكْنى أبا عبد اللّهِ. وقيل: أبا محمد، بابنه محمد الذي يقال له: أبو عَتِيق، والد عبدِ الله بنِ أبي عَتيق، وأدرك أبو عَتيق محمد بن عبد الرحمٰن رسولَ الله ﷺ هو وأبوه وجدّه، وجدّ أبيه؛ أربعتهم، أجمعوا على أنّ هذه المنقبة ليست لغيرهم، روى البخاريُّ رحمه الله، قال: قال موسى بن عُقْبة: ما نعلَمُ أحدًا في الإسلام أدركوا هم وأبناؤهم النّبيَّ ﷺ أربعة إلاّ هؤلاء الأربعة: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وابنه عتيق بن عبد الرحمٰن.

وعبد الرحمٰن شقيق عائشة؛ شهد عبد الرحمٰن بدرًا وأُحدًا مع قومِه، ودعا إلى البراز، فقام إليه أبو بكر ليبارزه، فذكِر أنّ النبيّ ﷺ قال له: «متِّعني بنفسك». ثم أسلم عبد الرحمٰن، وحَسُن إسلامه، وصَحِبَ رسول الله ﷺ في هُدْنة الحديبية[٥].

---

(١) الصعيد: التراب.

(٢) عرّد فلان: هرب، أو نكل وأحجم عن قرنه.

(٣) الجنان: القلب.

(٤) القردد: الأرض المستوية الغليظة المرتفعة. والفقع: أردأ أنواع الكمأة.

(٥) الحديبية: هي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. . . (معجم البلدان لياقوت).

وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبد الرحمٰن، وكان رضي الله عنه من أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم، حضر اليمامةَ مع خالد بن الوليد، فقتل سبعةً من كبارهم، منهم محكّم اليمامةِ طُفَيْل، رماه بِسَهْمٍ في نحره فقتله. ولما فُتِحَتْ دمشق نَفَلَهُ[1] عمر ليلى بنت الجودي، وكان قد رآها قبل ذلك، وكان يتشبّب بها. وشهد عبد الرحمٰن الجمل مع عائشة، وكان ابنه محمد يومئذ مع عليّ.

قال أبو عمر بن عبد البر: ولما قعد معاوية على المنبر، ودعا إلى بيعة يزيد، كلّمه الحسين بن عليّ وعبد اللّهِ بن الزُّبير، وعبد الرّحمٰن بن أبي بكر، فكان كلامُ عبد الرحمٰن: أهرقليّة! إذا مات كسرى كان كسرى مكانه! لا نفعل والله أبدًا. وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد فردّها عبد الرحمٰن. وقال: أبيع ديني بدنياي! وخرج إلى مكة، فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد.

ويقال: إنه مات فجأة بموضع يقال له: الحُبْشيّ[2] على نحو عشرة أميال من مكّة، وحُمِلَ إلى مكة فدفن بها.

وقيل: إنَّه توفي في نَوْمةٍ نامها، وكانت وفاته في سنة ثلاث وخمسين. وقيل: سنة خَمْس وخمسين، والأول أشهر.

ولما اتّصل خبر وفاته بعائشة أُمّ المؤمنين أُخْته، ظَعَنَتْ[3] من المدينة حَاجَّة حتى وقفت على قبره، وتمثّلت بهذه الأبيات: [من الطويل]

وكُنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمة حِقْبَةً ... من الدَّهْرِ حتى قِيلَ لن يتصدَّعَا[4]
فلمّا تفرّقْنا كأنّي ومَالِكًا ... لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا

وقالت: أَمَا واللّهِ لو حضرتُك لدفنتكَ حيثُ مِتَّ مكانك، ولو حضرتك ما بَكَيْتُكَ! رضي الله عنهما.

وأما محمّد بن أبي بكر رضي الله عنهما، فإنه وُلِدَ في عَقِب ذي الحجة سنة عشر من الهجرة بذي الحُليفة، أو بالشجرة، وسمّته عائشة محمدًا، وكنّته أبا القاسم، ثم كان محمد بعد وفاة أبي بكر في حِجْر عليّ بن أبي طالب لما تزوّج أُمّه أسماء بنت عُمَيْس، وكان محمّد على رجّالةِ عليّ يوم الجمل، وشهد معه أيام صِفّين، ثم ولاّه

(١) نقله: أي جعل له من الغنيمة.
(٢) الحبشي: جبل بأسفل مكة.
(٣) ظعنت: ارتحلت.
(٤) البيتان لمتمم بن نويرة، ومالك أخوه.

مصر، فقتِل بها. واختلفوا في قتله، فقيل: قتلَه معاوية بن حُديج صَبْرًا[١]، وذلك في سنة ثمان وثلاثين؛ وقيل: إنَّه لمّا ولاَّه على مصر سار إليه عمرو بن العاص من قِبَل معاوية فاقتتلوا، فانهزَمَ أصحابُ محمدٍ وفرَّ هو، فدخل خَرِبَةً فيها حِمارٌ ميّت، فدخل في جوفه، فأُحرِق في جوفِ الحمارِ؛ وقيل: بل قتله معاوية بن حُدَيْج في المعركة، ثم أُحرِق في جوف الحمار بعد ذلك، وقيل: إنَّه أتى عمرو بن العاص فقتله صبرًا بعد أن قال له: هل معك عهدٌ؟ هل معك عقد من أحد؟ فقال: لا، فأمر به فقُتِلَ.

وكان عليٌّ يثني على محمدٍ خيرًا، ويفضِّله؛ لأنه كانت له عبادة واجتهاد؛ وكان ممّن دخل على عثمان حين أرادوا قتله، فقال له عثمان: لو رآك أبوك لم يرضَ بهذا المقام منك! فخرج عنه وتركه.

روى محمد بن طلحة، عن كنانة مولى صفيّة بنت حُيَيّ - وكان شهد يوم الدَّار - أنَّه لم يَنَلْ محمد بن أبي بكر دم عثمان بشيء. قال: محمد بن طلحة: فقلْت: لكنانة: فلم قيل: إنَّه قتله؟ قال: معاذ الله أن يكون قتله! إنَّما دخل عليه، فقال له عثمان: يا بن أخي، لستَ بصاحبي، وكلَّمه عثمان بكلام فخرج ولم يَنَلْ دمه بشيء. فقلت لكنانة: فمن قتله؟ قال: رجل من أهل مصر يقال لَه: جَبَلَة بن الأيهم.

وأمَّا عائشةُ رضي الله عنها فقد تقدّم ذكرها في السيرة النبوية في أزواج النبيّ ﷺ، أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ.

وأما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه فهي قديمة الإسلام. قال ابن إسحاق: أسلمتْ بعد سبعة عشر، وكانت تحت الزُّبير بن العوام رضي الله عنه، وهاجرت إلى ملدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فوضعته بقُباء[٢]، وكانت تُسمَّى ذات النِّطاقين، وقد تقدَّم الخبر في تسميتها بذلك في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عند خروجه من مكة إلى الهجرة.

توفيت أسماءُ بمكّة في جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله، وقد بلغت مائة سنة.

وأُمّ كلثوم بنت أبي بكر رضي الله عنه، تَزَوَّجها طلحةُ بنُ عبيد الله رضي الله عنهما، فولدت له عائشة بنت طلحة، فتزوجها عبد الله بن عبد الرحمٰن بن

---

(١) قتله صبرًا: حبسه حتى مات.

(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه.

أبي بكر الصِّديق. ولعائشة بنت طلحة أخبار تقدّم ذكرها، وتزوّجت عائشة بعد عبد الله مُصعَبَ بن الزبير، ولم تلِدْ من أحد من أزواجها غيرَ عبد الله، ولدتْ له عمرانَ، وعبدَ الرحمٰن، وأبا بكر، وطلحة، ونفيسة، تزوجها الوليدُ بنُ عبد الملك، وكان ابنها طلحة أجودَ أجواد قريش، وله يقول الحزين الدِّيليُّ[١]: [من المتقارب]

فإن تك يا طلح أعطيتَني عُذَافِرةً تَسْتَخِفُّ الضفّارَا[٢]
فما كان نفعُك مَرَّةً ولا مَرَّتين ولكنْ مِرارًا
أبوك الذي صَدَّق المصطفى وسَارَ مع المصطفى حيثُ سارَا
وأُمُّكَ بَيضاءُ تيميَّةٌ إذا نُسِبَ الناسُ كانت نُضَارَا

وطلحة هذا، ابن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.

وطلحة هذا هو جَدِّي الذي أُنسَب إليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر أسماء قضاته وعماله وكتابه وحاجبه وخادمه

لمَّا وُلِّيَ أبو بكر رضي الله عنه، قال له أبو عبيدة: أنا أكفيك المال. وقال له عمر: أنا أكفيك القضاء، فاستعملهما. فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان في محاكمة، وكان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ومَنْ حضر، وكان حاجبَه شَدِيد مولاه، وكان عامله على مكَّة عَتَّاب بن أُسَيْد، ومات في اليوم الَّذي مات فيه أبو بكر. وقيل: مات بعده.

وكان على الطَّائف عثمان بن أبي العاص، وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أُميّة، وعلى حضْرموت زياد بن لَبِيد، وعلى خَوْلان يعْلَى بن أُمَية، وعلى زَبِيد أبو موسى الأشعريّ، وعلى الجَنَد معاذ بن جَبل، وعلى البحرين العَلاء الحضرميّ.

---

(١) الحزين الديلي: قد يكون الحزين الكناني: وهو أحد بني كنانة والحزين لقب غلب عليه واسمه عمرو بن عبيد بن وهب بن مالك أحد بني عبد مناة بن كنانة ويكنى الحزين أبا الحكم... (شرح الحماسة للتبريزي).

(٢) العذافرة: الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة وهي الأمون... (اللسان مادة ع.ذ.ر).
والضّفار: ما يشد به البعير ونحوه من شعر مضفور ونحوه.

وبعث جرير بن عبد الله إلى نَجْران، وعبد الله بن ثور إلى جُرَش[١]، وعِياض بن غَنْم إلى دُومة الجَنْدل.

وكان على الشام أبو عبيدة بن الجراح، وشُرَحْبيل ابن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص؛ كلُّ رجل منهم على جُند وعليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكان خاتمة خاتم رسول الله ﷺ. وقال الزُّبير بن[٢] بَكَّار: وكان نقش خاتمه: «نعم القادرَ الله». وقال غيره: كان نقش خاتمه: «عبدٌ ذليل لربٍّ جليل».

وعاش أبو قحافة بعده ستة أشهر وأيامًا.

وفي المعجم الكبير للطَّبرانيّ[٣]، قال: ومات أبو بكر، فورثه أبواه، وكانا قد أسلما، وماتت أُمّ أبي بكر قبل أبيه، ومات أبوه وله سبع وتسعون سنة.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلَّم.

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو أبو حفص عُمر بنُ الخطاب بنُ نُفَيل بن عبد العُزَّى بن رِياح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَديّ بن كعب بن لُؤيّ بن غالب القُرشيّ العدويّ، ويجتمِع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ عند كعب بن لؤيّ. وأمة حَنْتَمةُ بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - على ما صححه أبو عمر بن عبد البر - وخطَّأ من قال: إنَّها بنت هشام بن المغيرة، وقال: لو كانت بنت هشام لكانت أُخت أبي جهل، وإنما هي بنت عمّه لأن هاشمًا وهشامًا أخوان، فهاشم والد حَنْتَمةَ أُمّ عمر، وهشام والد الحارث، وأبي جهل، وهاشم بنُ المغيرة جدّ عمر لأبيه يقال له: ذو الرُّمحَين.

---

(١) جرش: بالضم ثم الفتح، وشين معجمة: من مخاليف اليمن من جهة مكة، وهي في الإقليم الأول، طولها خمس وستون درجة، وعرضها سبع عشرة درجة، وقيل: إن جرش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة... (معجم ياقوت).

(٢) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكار - وكنيته أبو بكر - بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيريّ، كان من أعيان العلماء، وتولى القضاء بمكة حرسها الله تعالى، وصنف الكتب النافعة، منها كتاب أنساب قريش... (وفيات الأعيان ٢:٣١١).

(٣) الطبراني: هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني؛ كان حافظ عصره، رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن ومصر وبلاد الجزيرة الفراتية.. له المصنفات الممتعة النافعة الغريبة منها المعاجم الثلاثة: «الكبير» و«الأوسط» و«الصغير»... (وفيات الأعيان ٢:٤٠٧).

وُلِدَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد الْفِيل بثلاث عشرة سنة، وروى أُسامة بن زيد بن أسلم عَنْ أبيه، عن جَده، قال: سمعتُ عمر يقول: وُلِدْتُ بعد الفِجار الأعظم بأربع سنين.

قال الزُّبير بن بكّار: كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه من أشرفِ قريش، وإليه كانت السِّفارة في الجاهلية؛ وذلك أنَّ قريشًا كانت إذا وقعت بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرًا ومفاخرًا، ورضوا به. وقد تقدم خبر إسلامه، وإظهار الله تعالى الإسلام به، وإجابة دعوة رسول الله ﷺ فيه حين قال: «اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأحد الرجلين عمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام».

فاستجيب في عمر.

قال ابن مسعود: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر.

ولقِّب بالفاروق لإعلانه بالإسلام، ففَرقَ بين الحقّ والباطل لمّا أسلم؛ رضي الله عنه.

ذكر نبذة
من فضائل عمر رضي الله عنه ومناقبه

وفضائله رضي الله عنه كثيرةٌ، ومناقبه جمّة مشهورة، قد قدّمنا منها في ترجمة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما ما تقدّم، ولنورد في هذا الفصل من مناقبه خلاف ذلك:

رُوِيَ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه». ونزل القرآن بموافقته في أشياء؛ منها ما رآه في أسرى بدر، وفي تحريم الخمر، وفي حجاب أزواج النبيّ ﷺ، وفي مقام إبراهيم.

ورُوي عن عُقْبة بن عامر[١] وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عُمر».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «قد كان في الأُمم قبلكم مُحدَّثون، فإن كان في هذه الأمة أحدٌ فعمر بن الخطاب».

---

(١) هو عقبة بن عامر بن نابي، من رجالات الخزرج، شهد بدرًا والعقبة الأولى، وقتل يوم اليمامة... (الاشتقاق لابن دريد).

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنا نائِمٌ أُتيتُ بقدَحِ لبَنٍ فشربْتُ منه حتى رأيْتُ الرِّيّ[1] يخرجُ من أظفاري، ثم أعطيْتُ فَضْلِي عمر». قالوا: فما أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: العلم.

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دخلْتُ الجنَّة، فرأيتُ فيها دارًا ـ أو قال: قصرًا ـ وسمعت فيه ضوضأةً، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لرجلٍ من قريشٍ، فظننت أني أنا هو؛ فقلت: مَنْ هو؟ قالوا: عمر بن الخطاب، فلولا غَيْرتُك يا أبا حفص لدخلته. فبكى عمر وقال: عليك يُغار يا رسول الله! أو قال عليك أغار!».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُني في المنام، والنَّاس يُعْرَضُونَ عليّ، وعليهم قُمُصٌ منها إلى كذا، ومنها إلى كذا، ومرَّ عليّ عمر بن الخطاب يجرّ قميصه، فقيل: يا رسول الله، ما أوَّلت ذلك؟ قال: الدِّين».

ومن رواية اللَّيث بن سعد[2]، عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه أنه قد سمع رسول الله ﷺ، يقول: «بينا أنا نائِم والنَّاس يُعْرَضُونَ عليَّ، وعَلَيْهم قُمُص، منها ما يبلغ الثُّدْيَ ومنها دونَ ذلك، وعُرِض عَلَيّ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله تعالى عَنْه، وعليه قميص يَجُرُّه»، قالوا: فما أوّلتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّين».

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: خَيْرُ النَّاس بعدَ رسولِ الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، وقال: ما كنَّا نُبْعِد أنَّ السّكينة[3] تنطق على لسان عُمر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لو وُضِعَ علْمُ أحياءِ العرَب في كفَّة ميزان، وَوَضِعَ عِلْم عُمَرَ لرجحَ عليهم عِلْمُ عُمَر. ولقد كانوا يرون أنَّه ذهَبَ بتسعة أعْشَارِ العلم، ولَمَجْلسٌ كنت أجلسه مع عمر أوْثَقُ في نفسي من عمل سنة.

---

(١) الرِّيّ: يقال: روي من الماء بالكسر، ومن اللبن يروى ريًا ورِوىً أيضًا مثل رضا وتروّى وارتوى كله بمعنى، والاسم الرِّيّ أيضًا، وقد أرواني... (اللسان مادة ر.و.ي).

(٢) الليث بن سعد: هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمٰن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريًا سخيًا... (وفيات الأعيان ٤:١٢٧).

(٣) المراد بالسكينة: الإلهام.

ذكر صفة عمر رضي الله عنه

قد اختلف الناسُ في صفة عمر رضي الله عنه؛ فقيل: كان شديد الأُدْمة[١] طُوالاً أكثَّ اللحية، أصلع أعْسَرَ يَسرًا، يَعمل بيديه جميعًا، يخضب بالحناء والكتَم[٢]، هكذا وصفه زرّ بن حبيش وغيرِه بأنّه كان شديد الأُدْمَة.

قال أبو عمر: وهو الأكثر عند أهل العلم بأيَّام الناس وسِيَرهم وأخبارهم.

قال: ووصفه أبو رَجاء العُطَارِدِيّ ـ وكان مغفلاً ـ فقال: كان عُمر طويلاً جسيمًا أصلعَ شديد الصَّلَع، أبيض شديد حُمرة العينين، في عارضيه خِفَّةٌ، سَبَلَته[٣] كثيرة الشعر، في أطرافها صُهْبَة[٤].

وذكر الواقديّ من حديث عاصم بن عبيد الله بن عمر عن أبيه، قال: إنَّما جاءتنا الأُدْمة من قِبَلِ أخوالي بني مَظْعون، قال: وكان أبيض، لا يتزوج إلا لطلب الولد.

قال أبو عمر: وعاصم بن عبيد الله لا يُحتجُّ بحديثه، ولا بأحاديث الواقديّ. قال: زَعم الواقديُّ أنّ سُمْرةَ عمر وأُدْمته إنَّما جاءت من أكله الزَّيت عام الرَّمَادة[٥] قال: وهذا منكَرٌ من القول.

وأصحّ ما في هذا الباب حديث سُفيان الثَّورِيّ[٦]، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيْش، قال: رأيت عمر شديدَ الأُدْمة. وقال أَنس: كان أبو بكر يخْضِب بالحناء والكَتَم، وكان عُمر يخضب بالحناء بَحْتًا.

وعن مجاهد أنَّ عمر كان لا يُغَيِّر شَيْبَه.

---

(١) الأدمة: السمرة.

(٢) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٣) السبلة: ما على الشارب من الشعر. (٤) الصهبة: حمرة أو شقرة في الشعر.

(٥) الرمادة: هي في عدة مواضع، منها: رمادة اليمن... ورمادة فلسطين... والرمادة بلدة لطيفة بين برقة والإسكندرية... والرمادة أيضًا: بلدة من وراء القريتين على طريق البصرة... والرمادة أيضًا: محلة كبيرة كالمدينة في ظاهر مدينة حلب... والرمادة: محلة أو قرية من نواحي نيسابور... والرمادة قرية من قرى بلخ معروفة... (معجم البلدان لياقوت)... وعام الرمادة، كما في القاموس: في أيام عمر هلكت فيه الناس والأموال.

(٦) سفيان الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن ملكان بن ثور بن عبد مناة... يرجع نسبه إلى معد بن عدنان، الثوري الكوفي؛ كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين... (وفيات الأعيان ٢:٣٨٦).

وقال هلالُ بنُ عبد الله: رأيت عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه، رجلًا آدم ضخمًا كأنَّه من رجال سَدُوس، في رجليه رَوَحٌ(١).

وقال بعضُهم في صفتِه: كان طويلًا من النَّاس كراكب الجمل، أمْهق(٢) أصْلَع.

استخلفه أبو بكر رضي الله عنه قبل وفاته؛ وذلك أنه لمَّا نزل به الموت دعا عبد الرحمٰن بن عوف. فقال: أخبِرْني عن عمر، فقال: إنَّهُ أفضلُ من رأيِكَ فيه إلاّ أنّ فيه غِلظة؛ فقال أبو بكر: ذلك لأنَّه يراني رقيقًا، ولو أفضى الأمرُ إليه لترك كثيرًا ممّا هو عليه، وقد رمقتُه، فكنتُ إذا غضبتُ على رجل أراني الرِّضَا عنه، وإذا لِنْتُ له أراني الشِّدةَ عليه. ودعا عثمان فقال له: أخبرني عن عمر، فقال: سريرتُه خيرٌ من علانيته، وليس فينا مثله. فقال أبو بكر لهما: لا تذكرا مما قلت لكما شيئًا، ولو تركته ما عدوتُ عثمان، ولا أدري لعله تاركٌ، والخِيرة له ألاّ يليَ من أموركم شيئًا، ولوددت أنّي كنت من أُموركم خِلْوًا، وكنتُ فيمن مَضَى من سَلَفكم.

ودخل طلحةُ على أبي بكر فقال: استخلفتَ على الناسِ عمرَ، وقد رأيتَ ما يلقى الناسُ منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم! وأنت لاقٍ ربَّك فسائلك عن رعيَّتك؛ فقال: أجْلسوني؛ فأجلسوه، فقال: بالله تُفَرِّقني، أو باللّهِ تُخوِّفني! إذا لقيتُ ربِّي فساءَلني قلت: استخلفتُ على أهلِك خيرَ أهلِك. ثم أحضر أبو بكر عثمان بن عفان خاليًا، فقال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عَهِدَ أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين؛ أمَّا بعد ـ ثم أُغمِيَ عليه ـ فكتب عثمان: أما بعد؛ فقد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرًا، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عَلَيَّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر وقال: خِفْتُ أن يختلفَ الناس إن متُّ في غَشْيَتي، قال: نعم. قال: جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله. فلمَّا كتب العهد أمرَ به أن يُقرأ على النَّاس، فجمعهم، وأرسل الكتاب مع مولًى له، ومعه عمر، فكان عمر يقول للناس: أنصتوا واسمعوا لخليفة رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّه لم يألكم نُصْحًا، فسكت النَّاس، فلما قُرِىء عليهم الكتابُ سمِعوا وأطاعوا.

---

(١) الروح، بالتحريك: وسعة في الرجلين دون الفحج، وهو أن يتباعد صدر القدمين وتتدانى العقبان.

(٢) الأمهق: الأبيض كالجص لا يخالطه حمرة، وليس بنيّر.

وكان أبو بكر قد أشرف على الناس، وقال: أترضَوْن بمن استخلفتُ عليكم؟ فإنّي ما استخلفتُ ذا قَرابةٍ، وإنّي قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا، وإنّي والله ما أَلَوْتُ من جَهْد الرأي، فقالوا: سمعنا وأطعنا، ثم أحضر أبو بكر عمرَ، فقال: قد استخلَفْتُكَ على أصحاب رسول الله ﷺ، وأوصاه بتقوى الله، ثم قال: يا عمر؛ إنّ لله حقًّا باللّيل لا يقبله في النّهار، وحقًّا في النّهار لا يقبلُه في الليل، وإنه لا يقبلُ نافلةً حتى تُؤَدّى الفريضة، ألم تر يا عمر إنّما ثقلت موازين مَنْ ثَقُلَتْ موازينه يوم القيامة باتّباعهم الحقّ وثقله عليهم! وحَقّ الميزان لا يوضع فيه غدًا حقٌّ إلاّ أن يكون ثقيلًا! أَلَمْ تر يا عمر إنّما خَفَّتْ موازين من خَفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل، وخِفَّته عليهم، وحقّ الميزان لا يوضع فيه غدًا باطل إلاّ أن يكون خفيفًا! ألم تر يا عمر إنّما نزلت آية الرخاء مع آية الشدَّةِ، وآية الشدّة مع آية الرّخاء ليكون المؤمن راغبًا راهبًا؛ لا يرغب رغْبةً يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبةً يُلقِي فيها بيديه! ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النارِ بأسوإ أعمالهم، فإذا ذَكرْتَهُم قلت: إنّي لأرجو ألاّ أكون منهم، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنّه تجاوز لهم ما كان من شيءٍ، فإذا ذكرتُهم قلت: أين عملي من أعمالهم! فإن حَفِظت وصيتي، فلا يكون غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، ولست بمعجزه.

وتوفّيَ أبو بكر رضي الله عنه، فلما دُفِنَ صَعِد عمر المنبر، فخطب النّاس ثم قال: إنّما مثل العرب مثل جمل أَنِفٍ[1] اتّبع قائده، فلينظر قائده حيث يقود. وأمّا أنا فوربّ الكعبة لأحملنّكُمْ على الطريق.

وكان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بن الجراح بتوليته جند خالد بن الوليد، وبعزل خالدٍ لأنّه كان عليه ساخطًا خلافة أبي بكر كلها لوقعته بابن نُويْرة، وما كان يَعْملُ في حربه، وأوّلُ ما تكلم به عزل خالد، وقال: لا يلي لي عملاً أبدًا.

* * *

(١) الجمل الأنف: الذي عقر الخشاش أنفه لا يمتنع على قائدة للوجع الذي به... (النهاية لابن الأثير).

ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وفي خلافته رضي الله عنه كثرت الفتوحات على المسلمين، ولنبدأ من ذلك بذكر فتوح دمشق، وما والاه من المدن والثغور والحصون، ثم نذكر فتوحات العراق، وما والاه، ثم فتوح مصر، وما والاها، لتكون الفتوحات متوالية، ولا ينقطع خبرها بأخبار غيرها، ولا يتداخل فتوح بفتوح، ثم نذكر الغزوات إلى أرض الروم، ثم نذكر الوقائع بعد ذلك خلاف الفتوحات والغزوات على حكم السنين على ما ستَقف عليه، إن شاء الله تعالى على ذلك.

ذكر فتوح مدينة دمشق

قال: لمّا هَزم الله تعالى أهل اليَرْمُوك استخف أبو عبيدة على اليَرْموك بشيرَ بن كعب الحِميريّ، وسار حتى نزل بالصُّفَّر؛ فأتاه الخبر أن الذين انهزموا من الرُّوم اجتمعوا بفِحْل[1]، وأن المدَدَ قد أتى أهل دمشْق من حِمْص؛ فكتب إلى عمر بذلك، فأمره أن يبدأ بدمَشْق فإنَّها حصْن الشام وبيت المملكة، وأن يَشْغَل أهل فِحْل بخيْلٍ تكون بإزائهم، فإذا فُتِحَتْ دمشق سار إلى فِحلْ، ثم يسير إلى حِمْص هو وخالد بنُ الوليد، ويترك شُرَحْبِيل ابن حَسَنَةَ، وعمروَ بن العاص بالأردنّ وفِلَسطين، فأرسل أبو عُبَيْدة طائفة من المسلمين، فنزلوا بالقُرب منها، وبثق[2] الرُّوم الماء حول فِحْل، فوحِلت الأرضُ، ونزل عليهم المسلمون، فكان أوّلَ محصورٍ بالشام أهلُ فِحْل، ثم أهل دمشق.

وبعث أبو عبيدة أيضًا جندًا، فنزلوا بين حِمْص ودِمشق، وأرسل جندًا فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار هو وخالدُ بنُ الوليد، فقدما دِمَشْق، وعليها نِسْطاس؛ فنزل أبو عبيدة على ناحية، وخالدٌ على ناحية؛ ويزيد بن أبي سفيان على ناحية، وحصَرهم المسلمون سبعين ليلة، وقاتلوهم بالزَّحف[3] والمجانيق[4]، فكان هِرقْل بالقرب من حمص، فأمّد أهلَ دمشْق بخيل، فمنعتها خيولُ المسلمين، وخُذِل أهلُ دمشق. وَوُلِدَ

(١) فحل: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره لام: اسم موضع بالشام... (معجم البلدان).
(٢) بثق الماء موضع كذا: خرقه وشقه فانبثق.
(٣) الزحف: الجيش الكثير.
(٤) المنجنيق: آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة.

للبطريق الذي على دمشق مولود، فصنع وليمةً، فأكل القومُ وشَرِبوا، فعلم خالد بذلك دون غيره، وكان قد اتَّخذ حبالاً كهيئة السلاليم، فلمّا أمسى ذلك اليوم نهض بمن معه وتقدَّمهم هُو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عَدِيّ وأمثاله، وقالوا: إذا سمعتم تكبيرنا على السُّور فارتقوا إلينا، واقصدوا الباب؛ وارتقى هو وأصحابُه على السّور في تلك الحِبال، ثم انحدر ببعض مَنْ معه، وتَرك بذلك المكان الذي صعِد منه مَنْ يحميه، وأمرَهُمْ بالتكبير، وجاء المسلمون إلى الباب وإلى الحبال، وقصد خالد الباب، وقتل مَنْ دُونَه، ثم قتل البَوّابين، وفتحَ البابَ، وقتل مَنْ عِندَه من الروم، ودخل أصحابه المدينة، وثار أهْلُهَا لا يدرون ما الخبر، فلما رأوا ذلك قصدوا أبا عبيدة، وبذلوا له الصلح، فقبله منهم، وفتحوا له الباب، وقالوا: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب، ودخل أهل كُلِّ باب بصلح ممّن يليهم، ودخل خالدٌ عَنْوَةً، والتقى والقوّاد وسط المدينة هذا قتلاً ونهبًا، وهذا صفحًا وتسكينًا، فأجروا جهة خالدٍ مجرى الصلح، وكان صلحهم على المقاسمة؛ الدينار والعقار[١] ودينار عن كل رأس، واقتسموا الأسلاب.

أرسل أبو عبيدة إلى عمرَ بالفتح، وأنَّه قسَّم الغنيمة على مَنْ حضر الفتح، وعلى الجنود التي على فِحل وحمص وغيرهم، فجاء كتاب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بإرسال جُنْد العراق إلى سعد بن أبي وقاص، فأرسلهم، وأمر عليهم هاشم بن عُتْبة، وسار أبو عبيدة إلى فِحْل. والله أعلم.

ذكر شيء مما قبل في أمر مدينة دمشق ومن بناها

حُكي عن كعب الأحبار[٢]، قال: أوّلُ حائطٍ وضع على وجه الأرض بعد الطُّوفان حائط حَرّان ودمشق ثم بابل[٣].

واختُلف فيمن اختطّ دمشق؛ فقيل: إن نوحًا عليه السلام اختطها بعد حَرّان. وقيل: نزل جَيْرون بن سعد بن عاد بن عوص دمشق، وبنى مدينتَهم وسمّاها جَيْرون.

---

(١) العقار: كل ملك ثابت له أصل، كالأرض والدار.

(٢) يقول ابن عماد الحنبلي في «شذرات الذهب»: سنة خمس وثلاثين... وفيها توفي عالم الكتاب به وبالآثار كعب الأحبار أسلم في زمن أبي بكر وروى عن عمر رضي الله عنه... (١: ٤٠).

(٣) بابل: بكسر الباء: اسم ناحية من الكوفة والحلة؛ ينسب إليها السحر والخمر... (معجم البلدان).

وقيل: هي إرم ذات العماد.

وقيل: إن جَيْرون وبَريد كانا أخوين، وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهمَا اللذان يعرف جيرون وباب البريد بدمشق بهما.

وعن وهب بن منبّه[١]، قال: دمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل، وكان حبشيًّا، وهبَه له نمرود حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسم الغلام دمشق، فسماها على اسمه، وكان إبراهيم جعله على كل شيء له، وسكنها الرّوم بعد ذلك بزمان.

وقيل: إنّ بيوراسب الملك بنى مدينة بابل، وبنى مدينة صُور، وبنى مدينة دِمَشق.

وقيل: كان زمن معاوية رجل صالح بدمشق، كان الخضر عليه السلام يأْتيه في أوقات، فبلغ ذلك معاوية، فجاء إلى الرجل وسأله أن يجمع بينه وبين الخضِر، فذكر الرجل ذلك للخضر، فأبى؛ فقال معاوية: قل له: قد قعدنا مع مَنْ هو خير منك؛ وحدّثْناه، وهو محمّد ﷺ ولكن اسأله عن ابتداء بناء دمَشْق كيف كان، فسأله؛ فقال: نعم صِرْت إليها، فرأيتُ موضعَها بحرًا مستجمِعًا فيه المياه، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها فرأيتها غَيْضة[٢]، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها، فرأيتها بحرًا كعادتها الأُولى، ثم غبت عنها خمسمائة عام، وصرت إليها فرأيتها قد ابتدىء فيها بالبناء ونفر يسير فيها.

وعن أبي البختريّ[٣] قال: وُلِد إبراهيمُ عليه السلام على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمسين سنة من جملة الدهر الذي هو سبعة آلاف سنة، وذلك بعد بنيان دمشق بخمس سنين، وقال: جَيْرون عند باب مدينة دمشق من بناء سليمان، بنتْه الشياطين، وكان الشيطان الذي بناه يقال له: جيرون فسُمِّي به. وقيل: إن دِمشْق بناها دمشقين غلام كان مع الإسكندر.

---

(١) هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص؛ وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء (ص) وسير الملوك... (وفيات الأعيان ٦:٣٥).

(٢) الغيضة: الأجمة، أو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٣) أبي البختري: هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب، القرشي الأسدي المدني؛ حدث عن عبيد الله بن عمر العمري وهشام بن عروة بن الزبير وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم... (وفيات الأعيان ٦:٣٧).

وقيل: إنَّ الذي بنى دمشق بناها على الكواكب السبعة، وجعل لها سبعة أبواب، وصُوِّر على باب كيسان زحل، وقيل: وجد في كتابٍ: بابُ كيسان لزحل، وباب شرقي للشمس، وباب توما للزُّهرة، وباب الصغير للمشتري، وباب الجابية للمرّيخ، وباب الفراديس لعطارد، وباب الفراديس الآخر المسدود للقمر.

وقيل: إن ملك مصر بنى حصن دمشق؛ الذي هو حول المسجدِ، وداخل المدينة على مساحة مسجد بيت المقدس، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس، فوضعها على أبوابه؛ فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب بيت المقدس. حكاه أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر في تاريخ دمشق.

ونعود إلى فتوح الشام.

ذكرُ غزوة فِحْل

وفِحْل بكسر الفاء وسكون الحاء المهملة وبعده لام، وهو بلد معروف بِغَوْرِ الشَّامِ. قال: لما فُتِحَتْ دمشق في سنة ثلاث عشرة استخلف أبو عبيدة عليها يزيدَ بنَ أبي سفيان، وسار إلى فِحْل، وكان أهل فِحْل قد قصدوا بَيْسان[1]. وكانت العرب تسمي هذه الغزوة ذات الرَّدَغَة وبَيْسان وفِحْل.

وكان خالدُ بنُ الوليد على المقدِّمة، وعلى النَّاسِ شُرَحْبِيل ابن حَسَنَة وعلى المُجَنِّبَتَيْنِ أبو عبيدةِ وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضِرارُ بن الأزْور، وعلى الرَّجْل عياض بن غَنْم.

فنزل شُرَحبيل بالنَّاس علَى فِحْل، وبينهم وبين الروم تلك الأوْحال، وكتبوا إلى عمر، وأقاموا ينتظرون جوابه، فخرج عليهم الرّوم، وعليهم سِقلار بن مِخْراق فأتوهم، والمسلمون حَذِرُون، وكان شُرَحْبِيل لا يبيت ولا يُصْبِح إلا على تعبئةٍ؛ فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى الصباح، ويومهم إلى الليل، فانهزم الرّوم، وقد أظلم الليلُ عليهم، فحاروا، وأُصيب رئيسهم سِقْلار والذي يليه فيهم نسطورس، وظفر المسلمون بهم، وركبوهم، فلم يعرف الروم مَأْخَذَهُم، فانتهت بهم الهزيمة إلى تلك الأوْحَال

(١) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال هي لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين، وبها عين الفلوس يقال إنها من الجنة، وهي عين فيها ملوحة يسيرة. . . (معجم البلدان لياقوت).

التي كانوا أعدّوها مكيدةً للمسلمين، فلحقهم المسلمون، فوخزُوهم بالرماح، فكانت الهزيمةُ بِفحْل، والقتل بالرّداغ، فأُصيبت الروم، وهم ثمانون ألفًا، لم يُفْلت منهم إلاَّ الشَّرِيد، فصنع الله للمسلمين وهم كارهون؛ كرهوا البُثوق[١] والأوحال، فكانت عونًا لهم على عدوّهم، وغنموا أموالهم، وانصرف أبو عبيدة وخالد بن الوليد إلى حِمْص.

وقد اخْتُلف في فتح فِحْل ودمشق، وذكروا أن المسلمين لما فرغوا من أَجْنَادِين على رأْي من جعلها بعد اليرموك؛ اجتمع الروم بِفحْل، فقصدها المسلمون فحاصروها وفتحت، وكانت فِحْل في ذي القَعْدة سنة ثلاثَ عشرة، وفتح دمشق في شهر رجب سنة أربع عشرة. وقيل: كانت وقعة اليرموك في سنة خمس عشرة، ولم يكن للروم بعدها وقعة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

هذا الفتح أورده ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث عشرة، قال: لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وسار إلى فِحْل، وسار يزيد إلى مدينة صَيْدَاء وبيروت، وَجُبَيْلِ وَعِرْقة[٢]، وعلى مُقَدّمته أخوه معاوية، ففتحها فتحًا يسيرًا، وجلا كثير من أهلها، وتولّى فتح عِرْقَةَ معاوية بنفسه في ولاية يزيد.

ثم غلب الروم على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر، وأول خلافة عثمان، وفتحها معاوية، ثم رمّها وشَحَنَهَا[٣] بالمقاتلة.

ذكرُ فتح بِيسان وطبريّة

قال: لما قصد أبو عبيدة حِمْص من فِحْل، أرسَل شُرَحبيل ومَنْ معه إلى بَيْسَان، فقاتلوا أهلَها، وقتلوا منها خَلْقًا كثيرًا، ثم صالحهم مَنْ بقي على صلح دِمَشق، وكان أبو عبيدة قد بعث بالأعْوَر إلى طَبَريَّة، فصالحه أهلها على صُلْح دمشق أيضًا، وأن يشاطروا المسلمين المنازل، فنزلها الناس، وكتبوا بالفتح إلى عمرَ بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه.

---

(١) البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه. جمع بثوق.
(٢) عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، وهي في سفح جبل، بينها وبين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة لها... (معجم البلدان).
(٣) شحنها: جعل فيها الكفاية لضبطها.

ذكرُ الوقعةِ بمرج الرُّوم

كانت هذه الوقْعة في سنة خمس عشرة؛ وذلك أنّ أبا عبيدة وخالدًا سارا بمن معهما إلى حِمْص، فنزلاً على ذي الكَلاع، وبلغ هِرَقْل الخبر فبعث توذر البِطريق حتى نزل بمرْج الرُّوم غَرْب دمشق، ونزل أبو عبيدة بالمرْج أيضًا، ونازله يوم نزوله شنس الرُّوميّ في مثل خيل توذر مَدَدًا لِتوذَر، وردءًا[١] لأهل حِمْص، فكان خالد بإزاء توذر، وأبو عبيدة بإزاء شنس، فسار توذر يقصد دِمَشق، فاتّبعه خالد في جريدة وبلغَ يزيدَ بنُ أبي سفيان الخبر، فاستقبله فاقتتلوا، ولَحِقَ بهم خالد فأخذهم مِنْ خَلْفِهم، فقُتِل توذر، ولم يفلت منْ عسكره إلا الشّريد، وغنم المسلمون ما معهم، فقسّمه يزيد في أصحابه وأصحاب خالد، وعادَ يزيد إلى دِمشق، ورجع خالد إلى أبي عبيدة، فوجده قد قاتل شنس بمرْج الروم، فقُتلت الرومُ مقتلةً عظيمةً، وقتل شنس، وتبعهم المسلمون إلى حمص بالسير إليها، وسار هو إلى الرِّيف، وسار أبو عبيدةِ إلى حِمْص.

ذكرُ فتح بعلبكّ وحمص وحماة وشيزر ومعرة النعمان وسلمية واللاذقية وأنطرسوس

قال: وفي سنة خمس عشرة سار أبو عبيدة إلى حِمْص بعد وقعة ملك الروم، فسلك طريق بعلبك وحصرها، فطلب أهلُها الأمان فأمَّنهم وصالحهم، وسار عنهم ونزل حمص ومعه خالدُ بنُ الوليد، فقاتل أهلها، ولقِيَ المسلمون بَرْدًا شديدًا، وحاصر الرُّوم حصارًا طويلاً، وكان هِرَقل قد أرسل إليهم يعدُهُم المدد، وأمر أهلَ الجزيرة جميعها بالتَّجهيز إلى حِمْص، وسيّرَ سَعْدُ بنُ أبي وقاص السرايا من العراق إلى هِيت[٢] فحصرها، وسار بعضهم إلى قَرْقِيسِيَاء[٣] فتفرق أهْلُ الجزيرة، وعادوا عن نجدة أهل حِمص، وكان أهل حِمْص يقولون: تمسّكوا بالمدينة فإنَّهم حفاةٌ، فإذا أصابهم البرد تقطَّعت أقدامُهُم، فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين إصبعٌ، فلما خرج الشتاء قام شيخ من الرّوم، ودعاهم إلى مُصَالحة المسلمين، فلم يجيبوه، وقام آخر فلم يجيبوه، فكبّر المسلمون تكبيرة فانهدم كثير من دُورِ حمص، وتزلزلت

(١) الردء: المعين والناصر، أو القوة والعماد.

(٢) هيت: بالكسر، وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية. . . (معجم البلدان).

(٣) قرقيسياء: . . قال حمزة الأصبهاني: قرقيسيا معرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لإرسال الخيل المسمى بالعربية بالحلبة. . بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق. . وعندها مصب الخابور في الفرات. . . (معجم البلدان).

حيطانهم، وكبّروا الثانية والثالثة، فأصابهم أعظم من ذلك، وخرج أهلُها يطلبون الصلح، ولم يعلم المسلمون بما حَدَثَ فيهم، فصالحوهم على صُلْح دِمَشق. وأنزلها أبو عبيدة السِّمْطَ بنَ الأسود الكنديَّ في بني معاوية، والأشعث بن ميناس في السَّكون، والمِقْداد في بَلِيّ؛ وغيرهم، وبعث بالأخماس إلى عمر مع عبد الله بن مسعود.

ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عُبَادَةَ بنَ الصَّامتِ. وسار إلى حَماة، فتلقاه أهلُها مُذْعِنِين، فصالحهم على الجزية عن رؤوسهم، والخراج عن أرضهم، ومضى نحو شَيْزَر[1]، فخرجوا إليه فصالحهم على مثل صلح أهل حماة.

وسار إلى مَعرّة النعمان ـ وكانت تُعرف بمعرّة حِمْص، ونسبت بعد ذلك إلى النُّعمان بن بشير الأنصاري، فصالحوه على مثل صُلْح أهل حِمْص.

ثم أتى اللاذِقية فقاتله أهلها، وكان لها بابٌ عظيمٌ يفتحه جمْع من الناس، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة، تستر الحفرة منها الفارسَيْن، ثم أظهروا أنهم عائدون عنها، ورحلوا، فلمَّا أجنَّهُم[2] الليل عادوا، واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل اللاذقيَّة وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا، فأخرجوا سَرْحهم[3]، وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرُعْهُم إلاَّ والمسلمون يصيحون بهم، ودخلوا المدينة معهم، ومُلِكت عنوة، وهربَ قومٌ من النَّصارى، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم على خَرَاج يؤدونه قلُّوا أو كثروا، فرُدَّت لهم كنيستهم، وبنى المسلمون بها مسجدًا جامعًا؛ بناه عبادة بن الصامت، ثم وسّع فيه بعد ذلك.

ولما فتح المسلمون اللاذقية جَلاَ أهل جَبَلَة من الرّوم عنها، وفتح المسلمون مع عبادة بن الصَّامِتِ أنطرسوس، وكان حصنًا فجلا عنه أهله، وبنى معاوية أنطرسوس ومصّرها، وأقْطع بها القطائع للمقاتلة، وكذلك فعل ببانياس، وفتحت سُلَمْيَة؛ وقيل: إنها سُميتِ سَلمِيَة لأنَّه كان بقربها مدينة تُدْعَى المُؤْتفكَة، انقلبت بأهلها، ولم يَسْلَم منها غير مائة نَفْس، فبنوا لأنفسهم مائة منزل، وسميت «سل مائة»، ثم حرَّفها النَّاس. فقالوا: سَلَمِيَة، ثم مصَّرها صالحُ بنُ عليّ بن عبد الله بن عباس.

---

(١) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة... (معجم البلدان).

(٢) أجنهم الليل: سترهم.

(٣) السّرح: الماشية، ولا يسمى سرحًا إلا ما يغدى به ويراح.

ذكر فتح قنسرين[١] ودخول هرقل القسطنطينية وما تكلم به عند ذلك

قال: ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرين، فلما زحف ونزل الحاضر زحف إليه الروم، وعليهم ميناس، وكان أعظمَهم بَعْد هِرَقْل، فقُتِل هو ومن معه عَلى دمٍ واحدٍ.

وسار خالد حتى نزل قِنَّسرين فتحصَّن أهلها منه، ثم صالحوه على صلح أهل حِمْص، فأبى خالد إلاّ إخراب المدينة، فأَخْرَبَها، فلمّا بلغ ذلك هِرَقْل ـ وكان بالرُّهَا ـ سار إلى سُمَيْساط[٢]، ثم منها إلى القُسطنطينية، ولمّا سار عَلاَ نَشَزًا[٣]، ثم التفتَ إلى الشَّام. فقال: سلامٌ علَيْك يا سوريّة، سلام لا اجتماع بعده ولا يعودِ إليك روميٌّ أبدًا إلا خَائِفًا، حتى يولَد الولد الْمشؤوم وليته لا يولَد، فما أحلَى فعله، وأمرَّ فتنته على الرُّوم. ثم سار وأخذ أَهْلَ الحصونِ الَّتي بين إسكندرونة وطَرَسوس معه لِئلاً يسير المسْلمون في عمارةٍ ما بين أنطاكيَة وبلاد الروم، وخلت تلك الحصون وشَتَّتها هِرقل، فكان المسلمون إذا مَرُّوا بها لا يجدون بِهَا أحدًا، وربَّما كَمَن عندها الرُّوم، فأصابوا غِرَّة مِمَّن يتخلف من المسلمين، فاحتاط المسلمون لذلك. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المآب.

ذكر فتح حلب وأنطاكية[٤] وغيرهما من العواصم

وهي سَرْمِين، وقورُس، وتَلّ عزاز، ومنبِج، ودُلوك، ورَعْبان وبالِس، وقاصِرين، وجُرْجومة، ودرب بغراس، ومرْعَش، وحصن الحدَث. قال: ولما فرغ أبو عبيدة من قِنَّسرين سار إلى حلبٍ فبلغه أنَّ أهل قِنَّسرين مَضَوْا، وَغَدَروا، فوجَّه إليهم السِّمطَ الكِنْديَّ فحصرهم وفتحها، ووصَل أبو عبيدة إلى حَاضِرِ حلب، وهو قريب منها يَجْمع أصْنافًا مِنَ العرب، فصالحهم على الجزيةِ، ثم أسلموا بعد ذلك،

(١) قنسرين: مدينة قيل فيها قبر النبي صالح.. وقيل كان خرابها في سنة ٣٥٥ قبل موت سيف الدولة بأشهر... (معجم البلدان).

(٢) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن... (معجم البلدان).

(٣) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٤) أنطاكية: كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير... (معجم البلدان).

وأتى حلبَ وعلى مقدِّمته عياض بن الفِهريّ، فتحصَّن أهْلُها، وحصرهم المسلمون، فلم يلبثوا أن طلبوا الصُّلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وحصُنهم وكنائِسِهِمْ، فأعطَوْا ذلك، واستثنى عليهم مَوْضعَ المسجد.

وكان عياض بن غنْم هو الذي صالحَ، فأجاز أبو عبيدة ذلك. وقيل: صولِحوا عَلَى أنْ يُقَاسِموا منازلهم وكنائسهم، وقد قيل: إنَّ أبا عبيدة لم يصادف بحلب أحدًا؛ لأنَّ أهلها انتقلوا إلى أنطاكِيَة، وتراسلوا في الصُّلح، فلمَّا تم الصّلح رجعوا، وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكِيَة، وقد تحصَّن بها خلقٌ كثيرٌ من قنَّسرين وغيْرها، فلما فارقها لَقِيَه جَمْع العدوّ فهزَمهم، وألجأهم إلى المدينة، وحَصَرها من نواحيها، فصَالحوه على الجِزية أو الجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ثم نقضوا، فوجّه إليهم عياض بنَ غَنْم وحبيب بن مَسلمة، ففتحاها على الصّلح الأول.

وكانت أنطاكيَة عظيمة الذِّكر عند المسلمين، فلما فُتِحتْ كتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتِّبَ جماعة من المسلمين بها مرابِطَةً، ولا يحبس عنهم العطاء.

وبلغ أبا عبيدة أنّ جمعًا من الرُّومِ بَيْن مَعرَّةِ مَصْرين وحلب، فسار إليهم فهزمهم، وقتل عدة من البَطَارِقة، وسَبَى وغَنِم، وفتح معرّة مَصْرين على مثل صلح حلب، وجَالتْ خُيولُه، فبلغت بُوقة، وفُتِحَتْ قرى الجومَه وسَرْمِين وتِبرين، وغلبوا على جميع أرض قِنَّسرين وأنطاكيَة.

ثم أتى أبو عبيدةِ حلَب، وقد التاث[١] أهلها، فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة، وسار يريد قورُس، وعلى مقدّمَته عياض بن غَنْم، فلقيَه راهب من أهلها، فسأله الصلح، فبعث به إلى أبي عبيدة، فصالحه على صلح أنطاكيَة، وبثَّ خَيْله، فغلبوا على جمع أرض قُورس، وفتح تلَّ عزاز.

وكان سَلْمان بن ربيعةَ الباهليّ في جيْش أبي عبيدة، فنزل في حِصْنٍ بقورس، يُعْرَف بحصن سلمان، ثمَّ سار أبو عبيدة إلى مَنْبِج، وعياض على مقدّمته، فلحقه، وقد صالح أهلها على مثل صلح أنطاكيَة، وسيّره إلى ناحية دلُوك ورَعْبان، فصالحه أهلها على مثل صلح أهل مَنْبج، واشترط عليهم أن يخبروا المسلمين بخبر الرّوم.

وَوَلّى أبو عبيدة كلَّ كُورَةٍ[٢] فتحها عاملاً، وضمَّ إليه جماعة، وشحن النواحي

(١) التاث: اختلط والتبس، والتاث بالشيء: التف به.

(٢) الكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، ذلك اسم الكورة... (معجم البلدان، المقدمة).

المخوفة، وسار إلى بَالِس، وبعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة إلى قاصِرين فصالحه أهلُها على الجزية والجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الرُّوم، وأرض الجزيرة، واستوْلى المسلمون على الشام من هذه النَّاحية إلى الفرات، وعاد أبو عبيدة إلى جهة فلسطين وكان بجبل اللّكام[١] مدينة يقال لها: جُرْجُومة، ففتحَها حبيب من أنطاكيَة صلْحًا على أن يكونوا أعوانًا لِلْمُسْلمين، وسيَّر أبو عبيدة جيشًا مع مَيْسَرة بن مسروق العَبْسِيّ، فسلكوا درب بغراس من أعمالِ أنطاكيَة إلى بلاد الروم، وهو أوّل من سلكه، فَلَقِيَ جمعًا من الرُّوم، ومعهم عربٌ من غسّان وتنوخ وإياد يريدون اللَّحاقَ بهرَقْل فأوقع بِهم، وقتل مِنهم مقْتَلَةً عظيمة. وسيّر جيشًا آخر إلى مَرْعَش مع خالد بن الوليد، ففَتَحها بالأمان على إجْلاء أهلِها، فجلاهم وَأَخْربها، وسيَّر جيشًا مع حَبيب بن مَسلَمة إلى حِصْن الحدَث ففتحه؛ وإنما سُمّيَ الحَدَثَ لأنّ المسلمين لَقُوا عليه غلامًا حَدَثًا، فقاتلَهم في أصحابه، فقيل: دَرْب الحَدَثِ. وقيل: لأنّ المسلمين أُصِيبُوا به فسُمِّيَ بذلك، وكان بنو أُميّة يُسمّونه دَرْبَ السّلامة، والله أعْلمُ.

ذكر فتح قيسارية[٢] وحصن غزة

وفي سنة خمس عشرة أيضًا فتِحتْ قَيْسَارِيَّةُ. وقيل في سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين. وذلك أنَّ عمر رضي الله عنه كتبَ إلى يزيدَ بن أبي سفيانَ: أن يرسل معاوية أخاه إلى قيسَاريَّة، وكتب عمرُ إلى معاوية يأمره بذلك، فسار معاويةُ إليها وحَصَر أهلَها، فرجعوا إليه، وقاتَلوه، فبلغتْ قَتْلاهم في المعركة ثمانين ألْفًا، ثم كَمُلت في الهزيمة مائة ألفٍ وفَتَحها، وكان عَلْقمة بنُ مُجَزِّز قد حَصَر القِيقارَ بغزَّة وجعل يُراسِلُه فلم يَشْفِه أحد ممّا يريد، فأتاه كأنّه رسول عَلْقَمَة وكلّمه، فأمر القِيقار رَجُلاً أن يَقْعُد له في الطريق، فإذا مرَّ به قَتَلَه، فَفَطِنَ به عَلْقمة، فقال: إنَّ معي نفرًا يُشركونني في الرَّأْي فانطلِق فآتيكَ بهم، فبعث القِيقار إلى ذلك الرّجل ألاَّ يتعرّض له. فخرج عَلقمَةُ مِن عنده، ولم يَعُد إليه، وفعل كما فعل عمرو بنُ العاص رضي الله عنه مع الأَرْطَبُون.

(١) جبل اللكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور... (معجم البلدان).

(٢) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام... وقيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسي ملك بني سلجوق... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر بيسان ووقعة أجنادين وفتح غزة وسبسطية ونابلس وتبنى واللد وعمواس وبيت جبرين ويافا

قال: لمّا انصرَف أبو عُبَيدة وخالدُ بنُ الوليد بعد فِحْل إلى حِمْصَ - كما قدّمنا - نزل عمرُو بنُ العاص وشُرَحْبيل ابن حَسَنة على بَيْسان فافتَتَحها، وصالحه أهل الأَرْدُنّ، واجتمع عَسْكر الرُّوم بغزَّة وأجنادِيْن وبَيْسانَ إلى الأرْطَبُون بأجْنَادِين، فسار عَمرو وشُرَحْبيل إليهم بها، واستخلف عَمْرو على الأَردنّ أبا الأعْوَر، وكان الأرْطَبُون أدْهَى الرُّوم وأبعدَها غَوْرًا، وكان قَدْ وضَع بالرَّملة جُنْدًا عظيمًا، وبإيلياء[١] كذلك، فلمَّا بلغ عُمرَ بن الخطَّاب الخبرُ قال: قد رَمَيْنَا أرطبون الرُّوم بأرطبون العرَب، فانظروا عمَّ تنفرج.

وكانَ مُعَاوِيةُ قد شَغل أهْلَ قَيْساريَّةَ عن عمرٍو، وجعل عمرو عَلْقمة بن حَكيم، ومَسْروقًا العَكّيّ على قتال أهل إيلِياء، فشغلُوا مَنْ بها عنه، وتتابَعت الأمداد مِن عمرَ رضي الله عنه إلى عمرٍو، فأقام عَمْرو على أجنَادين لا يقدر من الأرْطبون عَلَى شيءٍ، ولا تَشْفِيه الرُّسل، فسار إليه بنفسه، ودخل إليه كأنَّه رسولٌ، فَفطِن به أرْطبُون، وقال: لا شكّ أن هذا الأميرُ، أو مَنْ يأخُذُ الأميرُ برأيه، فأمر إنسانًا أن يَقْعدُ على طريقه، فإذا مَرَّ به يَقْتله؛ فأدرك عَمرو، فقال له: قد سمعتَ منّي، وسمعتُ منكَ، وقد وقع قولُك منّي بموْقِع، وَأنا وَاحدٌ من عَشَرة، بَعَثَنا عُمَر إلى هذا الوالي لنكاتِفه فأرْجع وآتيكَ بهم، فإن رأوْا ما رأيْتَ فقد رآه الأمير وأهلُ العسكر، وإن لم يَروْهُ رَدَدْتَهم إلى مأمنِهم. فقال: نعم، وردّ الرجلَ الّذي أمره بقتله، فخرج عمرو من عنده، وعلم الرُّوميُّ بعده مُفَارَقته أنّه خَدَعه. فقال: هذا أدْهَى الخَلْقِ، وبَلَغت هذهِ الواقعة عمر. فقال: لله دَرُّ عَمرٍو! ثم التَقَوْا، واقتتلوا بأجْنادَين قتالاً شديدًا كَقِتال اليَرْمُوكِ، فانهزَم أرْطبُون إلى إيلِياءَ، ففتح عمرو غَزَّة، وقيل: فُتحتْ غزَّةُ في خلافةِ أبي بكر رضي الله عنه، ثم فَتَح سَبَسْطِية ونابُلُس بأمان على الجِزْية، وفتح مدينة لُدّ[٢] وتُبْنَى[٣] وعمواس[٤]، وبيْت جِبْرِين ويافا. وقيل: فتَحها معاويةُ رضي الله عنه، وفتح رَفَح. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) إيلياء: بيت المقدس كما سيأتي.

(٢) اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

(٣) تبنى: بلدة بحوران من أعمال دمشق.. وقيل: تبنى: قرية من أرض البثينة لغسان.

(٤) عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس.. وقيل: عمواس هي ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر فتح بيت المقدس وهو إيلياء

كان فتحُ بيتِ المَقدِس على يد عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، سنةِ خمسَ عشرة. وقيل: ستَّ عشرة، وذلك أن عمْرَو بنَ العاصِ لما فتح هذه الجِهات الَّتي ذكرناها، أرسَلَ إلى أرْطَبون رجلاً يتكلَّم بالرُّوميَّة، وقال له: اسمَع ما يقول، وكتب معه كتابًا، فوَصَل إليه، وأعطاه الكتابَ، وعنده وُزَراؤه، فقال لهم: لاَ يَفتح عَمرو شيئًا مَن فِلَسْطين بعد أجْنادِين. فقالوا له: من أين عَلِمت ذلك؟ فقال: صاحبها صِفَتُه كذا وكذا، وذكر صفَةَ عُمر، فعاد الرسولُ إلى عمرو، وأخْبَره بذلك، فكتَب عمرو إلي عمرَ رضي الله عنهما، يقول: إني أُعالج عدوًّا شديدًا، وبلادًا قد ادُّخِرَتْ لك، فرأيك. فعلم عُمرُ أنَّ عمْرًا لم يَقل ذلك إلا لشيءٍ سَمِعه، فسار عن المدينة. وقيل: كان سبب قدوم عمرَ إلى الشام، أنَّ أبا عُبيدة حَصر بيتَ المَقدِس، فطلب أهلُه أن يصالحَهم على صُلْح أهل مدُن الشَّام، وأن يكون المتولِّي للعقد عمرُ بنُ الخطَّاب، فكتب إليه بذلك، فسار عن المدينة، واستَخلفَ عليها عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه، وكتب عمر إلى أُمَراء الأجْناد بموافاته بالجابيَة[1] ليوم سمَّاه لهم، وأن يستخلفوا على أعمالهم، فوافَوْه، وكان أوَّلَ من لَقِيهم يزيدُ بنُ أبي سفيان وأبو عُبَيدة ثم خالد بن الوليد على الخُيول، عليهم الدّيباج[2] والحرير، فنَزَل عن فرسه، ورماهُم بالحِجارة، وقال: ما أسرع ما رَجعتم عن رأيكم! إيَّايَ تستقبِلُونَني في هذا الزِّي! وإنَّما شَبِعتم منذ سنتين، وتاالله لو فعلتم ذلك على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيرَكم. فاعتذروا بالسلاح. ودخل عمر الجابية وعَمرو وشُرَحبيل لَم يَقدَما عليه، فبينما عمرُ بالجابيةِ إذ فزِع الناسُ إلى السِّلاح. فقال: ما شأنكُمْ؟ قالوا: ألاَ ترى إلى الخُيول والسّيوف! فنظر فإذا كُرْدُوسة[3]، فقال: مُسْتأْمنةٌ فلا تُرَاعوا، فإذا هم أهْلُ إيلياءَ يُصالحونه على الجِزْية، وكان الَّذي صالحَه العوّام، لأن أرْطَبُونَ والتَّذارق دَخَلا مصر لمَّا بلغهما مقدمُ عُمر. وأخذُوا كتابَهُ على إيلياءَ وحَيِّزِها، والرَّمْلة وحيِّزها. وجعل عمرُ رضي الله عنه علقمَةَ بنَ حكيم على نِصفِ فِلَسطين، وأسكنَه الرَّملة، وجعل عَلْقمة بن مجزِّز على نِصفِها الآخر، وأسكَنَه إيلياء، وضمَّ عمروَ بنَ العاص وشُرَحْبيل إليه بالجابيَة، فلقيَاه راكبًا، فقبَّلاَ رُكبَته، فضمَّ كلَّ واحد منهما مُحتضنًا، ثم

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران، إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من نوى أيضًا، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية. . . (معجم البلدان).

(٢) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٣) الكردوسة: القطعة من الخيل.

سار إلى البيت المقدس وركِب فرسَه، فرأى به عَرَجًا، فنزل عنه، وأُتِيَ بِبرْذَوْن[١] فركبه، فجعل يَتَجلْجَلُ[٢] به، فنَزَل وضَرَب وجهَه وقال: لا أعْلَم مَنْ علَّمك هذه الخُيَلاء؟ ثم لم يكربْ بِرْذَونًا بعدَه، ولا كان ركبه قبلَه، وفُتحت إيلِياءُ على يَدَيْه، ولَحق أرْطَبُون ومن أبَى الصلحَ بمصر، فلما ملَكَها المسلمون قُتِل. وقيل: بَلْ لَحق بالرُّوم، فكان على صَوائفهم[٣]، والْتَقَى هو وصاحب صائفةِ الْمُسْلِمين، ومع المسلمين رجلٌ من قريش، فقطع أرْطْبُون يَده، وقتله القُرَشي، وفيه يقول ويشير إلى يَدِه: [من البسيط]

فإنْ يكنْ أرْطَبُونُ الرُّومِ أفسَدَها فإنَّ فيها بحمدِ الله مُنْتَفَعا
وإنْ يكنْ أرْطَبُون الرُّومِ قَطَّعَهَا فقد تركْتُ بها أوصَالَهُ قِطَعا

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

قال: وفي سنة سَبْعَ عشرةَ قصد الرُّوم أبا عُبيدةَ بنَ الجراح، ومن معه من المسلمين بِحمْص، وكان المُهَيِّج للرُّوم على ذلك أنّ أهلَ الجزيرة أرسلوا إلى مَلِكهم، وبَعَثوه على إرسال الجُنود إلى الشام ووَعَدوه المعونةَ بأنفسهم. ففعَلَ ذلك. فلما سَمِع المسلمون باجتماعهم، ضمَّ أبو عبيدة إليه مَسالِحَه[٤]، وعَسْكر بفناء مدينةِ حمص، وأقبل خالد من قنّسرين إليهم، فاستشاره أبو عبيدة في المناجزة[٥] أو التحصن، فأشار بالمناجزة، وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبةِ عُمَر، فأطاعَهم، وكتب إلى عمرَ بذلك.

وكان عمر قد اتخذ بكل مِصرٍ خُيولاً على قَدْره من فُضُول أموال المسلمين عُدَّةً لكونٍ إن كان، فكان بالكوفة أربعةُ آلاف فَرَسٍ، والقيِّم عليها سلمان بن ربيعة الباهليّ، وفي كل مصر من الأمصارِ الثمنية على قَدْره، فإن كانت ثابتةً رَكِبَها المسلمون وساروُا إلى أن يتجهز الناس.

---

(١) البرذون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر.
(٢) يتجلجل: المراد هنا: يتحرك في مشيه يمنة وشمالاً.
(٣) الصائفة: غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفًا لمكان البرد والثلج من بلاد الروم. جمع صوائف.
(٤) المسلح: موضع السلاح، أو القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة. جمع مسالح.
(٥) المناجزة: المنازلة والاقتتال.

وكتب عمرُ إلى سعد بنِ أبي وَقَّاص: أن آندُب النَّاسَ مع القعقاع بنِ عَمرٍو وسَرِّحْهم مِن يَومهم؛ فإنّ أبا عبيدة قد أُحِيط به.

وكتب إليه أيضًا: سَرِّح سُهَيلَ بنَ عَدِيٍّ إلى الرَّقَّة؛ فإن أهل الجزيرة هم الَّذين آستثاروا الرّومَ على أهلِ حِمْص، وأمره أن يُسرِّح عبدَ الله بنَ عِتبان إلى نَصيبِين، ثم لِيقْصدا حَرَّان والرُّها، وأن يُسرِّح الوليد بن عُقْبَةَ على عَرَب الجزيرة مِن ربيعة وتَنُوخ، وأن يسرِّح عياضَ بن غَنْمٍ، فإن كانت حربٌ فأمْرُهم إلى عِياض. فمضى القَعْقَاع في أربعة آلافٍ من يومه نحو حِمْص.

وخرج عياض بن غَنم ومن نُدِب إلى الجزيرة، وتوجَّه كلُّ أمير منهم إلى الكورة الَّتي أُمِّر عليها، وخرج عمرُ من المدينة، وأتَى الجابِيَة إعانةً لأبي عُبَيْدَة، فلمّا بلغ أهلَ الجزيرة الَّذين أعانُوا الرُّومَ على أهل حِمْص خبرُ الجنود الإسلاميّة تفرقوا إلى بلادهم، فأشار خالدٌ على أبي عُبيدةَ بالخُروج إلى الرّوم، فخرج إليهم وقاتَلَهم، وفتحَ الله عليه، وقَدِم القعقاعُ بعد ثلاثة أيام، فكَتَبُوا إلى عمرَ بالفتح وبقُدوم المَدَد عليهم والحُكم في ذلك.

فكَتَبَ إليهم: أنْ أشرِكُوهم في المغْنَم، فإنَّهم نَفَروا إليكم، وانْفَرَق[1] لهم عَدُوُّكم، وقال: جزى اللّهُ أهلَ الكُوفة خيرًا؛ يكفون حَوْزتَهم وَيُمدّون الأمْصَار؛ فلمّا فرغوا رَجَعوا. والله أعلم، وحَسبُنا اللّهُ ونِعم الوكيل.

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

قد اختلف أصحاب التَّواريخ في فتح الجَزيرة وأرْمينيَة، فمنهم من يقول: إن ذلك من فُتوح أهْلِ العِراق، ومنهم من يقول: إنَّها من فتوح أهلِ الشام. والأكثر على أنَّها من فُتوح أهل الشّام، ونحن نَذكُر القولين إن شاء الله تعالى:

فأمّا من قال: إنَّها من فُتوح العِراق فإنَّه يقول: إنَّ سعد بنَ أبي وَقَّاص لمّا أمَره عمرُ رضي الله عنه أن يبْعثَ الجنود التي ذكرناها آنِفًا إلى نَصِيبين[2] وحَرّان[3] والرُّها والجَزيرة مع مَنْ ذكَرنا، وإن كان قتال فأمْرُهم إلى عِياض بن غَنْم. فخرج عِياض ومَن

(١) انفرق: افترق أو انشق.

(٢) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان. . . (معجم البلدان).

(٣) حران: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم. . . (معجم البلدان).

معه؛ فأرسل سُهيل بن عَدِيّ إلى الرَّقَّة، فصالَحُوه على الذِّمّة، وخرج عبدُ الله بن عِتْبانَ على المَوْصِل إلى نَصِيبين، فلَقُوه وفعلوا كفِعل أهل الرَّقَّة، وخرج الوليدُ بن عُقْبة، فقَدِم عَلى عَربِ الجزيرة من ربيعة وتَنُوخ، فنهض معهم مُسلِمُهم وكافِرُهم إلاّ إياد بن نِزار، فإنّهم دخلوا إلى أرض الرُّوم، ولما أخذوا الرَّقَّة ونَصيبين ضَمّ عِياض إليه سُهيلاً وعبدَ الله، وسار بالنّاس إلى حَرّان، فأجابه أهلُها إلى الجِزْية، فقَبِلَ منهم. ثمّ إنّ عِيَاضًا سَرَّحَ سُهيلاً وعبدَ الله إلى الرُّها، فأجابوهما إلى الجِزْية، وأجْرَوْا كلَّ ما أخَذوا من الجزيرة عَنوةً مَجرى الذِّمّة، فكانت الجزيرة أسهَلَ البُلدانِ فتحًا، ورَجَع سهيلٌ وعبدُ الله إلى الكوفة.

قال: ولمّا بلغ عمر رضي الله عنه أنْ إيادًا دخلت الرُّوم، كتب إلى ملك الرُّوم يتهدَّده إن لَم يُخْرِجْهم، فأخرَجَهم، فخرج منهم أربعة آلاف، وتفرَّقَتْ بقيتهم ممّا يلي الشَّام والجزيرة من أرضِ الرُّوم، فكلّ إياديّ في أرض العَرب من أُولئك الأربعة آلاف.

وقال ابنُ إسحاق: إنَّ فَتح الجزيرة كان في سنة تسع عشرَة، وقال: إنَّ عمرَ كتب إلى سعد بن أبي وَقّاص: إذا فتح الله الشّامَ والعراق فابعثْ جندًا إلى الجَزيرة. فبَعَث عياضَ بن غَنْم، وبَعَث معه جيشًا فيه أبو موسى الأشعريّ، وعمر بن سَعْد ليس له في الأمر شيء، فسار عِياض ونَزَل على الرُّها، فصالَحَه أهْلُهَا وأهْلُ حَرّان، ثم بعث أبا موسى الأشعريّ إلى نَصِيبين فافتَتَحها، وسار عِياض إلى دارًا فافتتحها. وَوَجَّه عثمانَ بنَ أبي العاص إلى أرمينيَة الرابعة فقاتَلَ أهلَها، ثم صالحَوه على الجِزية، فَعَلَى هذه الأقوال تكون الجزيرةُ وأرمينيَة من فتوح العِراق.

وأمّا من قال إنّها من فُتوح الشام، فإنه يقول: إنَّ أبا عُبيدة سيّر عيَاضَ بن غَنْم إليها ففتحها، وكان قد كَتَب إلى عمرَ بن الخطّاب بعد انصرافِه من الجابِيَة يسأله أنْ يضمّ إليه عِيَاضَ بن غنْمَ - إذ أخَذ خالد بن الوليد إلى المدينة - فصَرَفه إليه، فسيّره أبو عُبيدةَ إلى المدينة ففَتَحها، وذلك في سنة سبع عشرة.

وقيل: إن أبا عُبَيدة لمّا تُوُفِّيَ استَخلف عِياضًا، فورَد عليه كتابُ عمرَ بولاية حِمْصَ وقِنّسْرِين والجَزيرة، فسار إلى الجزيرة في سنة ثمانيَ عشرة للنِّصف من شعبان في خمسة آلاف، وعلى ميْمنتهِ سعيد بنُ عامر الجُمَحِيّ، وعلى ميْسَرته صفوانُ بن المعَطّل، وعلى مقدّمته مَيسرة بن مسروق، فانتهت طليعةُ عِياض إلى الرَّقَّة، فأغارُوا على الفلاّحين، وحَصَروا المدينة، وبثّ عِياض السَّرايا، فأتَوْه بالأسْرى والأطعِمة، وحَصَرها ستّة أيام، فطَلَب أهلُها الصُّلحَ، فصالحَهم على أنفُسهم وذراريِّهم وأموالِهم

ومدينتِهم. وقال عِيَاض: الأرضُ لنا، قد وَطِئناها وَمَلَكْناها، فأقَرَّها في أيديهم على الخَراج، ووَضَع عنهم الجِزْية. ثم سار إلى حَرّان فَجعل عليها عسكرًا، عليهم صفوانُ وحبيبُ بنُ مَسلمة، فحَصَراها، وسار هو إلى الرُّها، فقاتلَه أهْلُهَا ثم انهزَموا، فحَصَرهم في مدينتهم، فطلبوا الصلحَ فصالحهم، وعاد إلى حَرّان، فوجد صَفوانَ وحَبيبًا قد غلبا على حُصون وقُرَى من أعمالِها، فصالحَه أهلُ حَرَّانَ على مثل صُلْح الرُّها، وفَتَح سُمَيْساط، وأتى سَرُوج[١] وراس كَيْفا[٢] والأرض البَيْضاء، فصالَحه أهلُها على مِثل صُلْح الرُّهَا، ثم غدرَ أهلُ سُمَيْساط، فرجع إليهم وفتحها، ثم أتى قُريّات الفُرات، وهي جسر مَنبج وما يليها فَفتَحها، وبعث حبيبَ بنَ مسلمَة إلى مَلَطْيَة ففتحها عَنوةً، على يد حبيبٍ أيضًا، ورَتَّبَ فيها جُنْدًا من المسلمين مع عاملها. قال: وسار عياضٌ إلى رأس عَيْن، وهي عين الوَرْدة، فامتنعت عليه، فَتَرَكها، وسار إلى تَل مَوْزَن ففتَحها على صلح الرُّها سنة تسع عشرة. وسار إلى آمِد، فصالحه أهلها بعد قتال، وفتح مَيَّافارِقين على صلح الرُّها ثم سار إلى نَصِيبين، فقاتَلَه أهلُها، ثم صالَحوه على مِثل ذلك، وفَتَح طُور عبدين[٣]، وحصن ماردين. وقصد الموْصل، ففتح أحدَ الحِصْنين. وقيل: لم يَصِلها، وأتاه بِطْريق الزَّوَزَان فصالحه، ثم سار إلى أرْزَن ففتحها، ودخل الدرب إلى بَدْلِيس، وبلغ خِلاط فصالحه بِطْرِيقُها، وانْتهى إلى العين الحامضة من أرمينيَة، ثم عاد إلى الرَّقَّة ومضى منها إلى مدينة حِمص، ومات في سنة عشرين؛ فَعَلى هذا الخبر يكونُ ذلك من فتوح أهلِ الشام.

وعلى كلا القولين ففتحها على يد عِياض بن غَنْم.

قال: ولما مات عِياض استعمَلَ عمرُ بنُ الخَطَّاب سعيدَ بنَ عامر بن حِذْيم، فلم يلبَث إلاَّ قليلاً ومات، فاستعمل عُمَيرَ بنَ سعد الأنصاريّ، فَفَتَح رأسَ عَيْن بعد قِتال شديد. وقيل: إنَّ عِياضًا أرسَل عمَير بن سعد إليها فَفَتَحها. وقيل: إنَّ عمرَ رضي الله عنه أرسَلَ أبا موسى الأشعريّ إلى رأسِ عَيْن بعد وَفاةِ عِياض، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

(١) سروج: هي بلدة قريبة من جران من ديار مضر.

(٢) رأس كيفا: من ديار مضر بالجزيرة قرب جران، كان عبرته على السلطان ثلاثمائة ألف وخمسين ألف درهم. . . (معجم البلدان).

(٣) طور عبدين: بليدة من أعمال نصيبين في بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل الجودي، وهي قصبة كورة فيه. . . (معجم البلدان).

انتهَى فتوحُ الشام في خلافة عمرَ رضي الله عنه؛ فلنذكر فتوحَ العِراق، وما والاه.

وإذا انتهَت الفُتوحاتُ إن شاء الله تعالى ذكَرْنا الغَزَوات إلى أرض الرُّوم من الشام.

ذكر فتوح العراقين وما والاها من بلاد فارس وغيرها وغزو الترك وفتح خراسان وسجستان وغير ذلك من الوقائع

كان ابتداءُ أمرِ العِراق أن المثنَّى بن حارثَة الشَّيْبانيّ قَدم على أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في مَرَضه الَّذي ماتَ فيه، فأوصَى أبو بكر عمرَ بالمبادَرة إلى إرسال الجُيوش معه إلى العِراق، فلمّا أصبح عمرُ من اللَّيلة الَّتي مات فيها أبو بكر نَدبَ[١] النَّاسَ إلى الخروج مع المثنَّى بن حارثة، ثم بايع النَّاسَ، وندبَهم وهو يُبايَع ثلاثًا، فلم ينتدِبْ أحدٌ إلى فارسَ، وكانوا أثقَلَ الوُجوه على المسلمين، وأكرهها إليهم لشدّة سُلطانهم وشَوْكتِهم، فلمّا كان اليَوم الرابع ندب النَّاس إلى العِراق، فكان أوّل منتدَب أبو عُبَيْد بن مَسعود الثَّقفيّ، وهو والد المُخْتَار[٢]، وسعد بن عُبَيدةَ الأنصاريّ، وسَلِيط بن قَيْس، وهو بَدْريّ.

وتتابع النَّاس، وتكلَّم المثنَّى بنُ حارثة، فقال: أيّها النَّاس، لا يعظُمنَّ عليكم هذا الوجه، فإنا قد فَتَحْنَا ريف فارَس، وغلبْناهم على خَيْر شِقَّي السَّواد، ونِلْنا منهم، واجترَأْنا عليهم، ولَها إن شاء اللّهُ مَا بَعْدَها. فاْجتمع النَّاسُ. وقيل لعمر: أمِّرْ عليهم رجلًا من التَّابعين من المهاجِرين والأنصار، فقال: والله لا أفعَل، إنَّما رَفَعهم الله تعالى بسَبْقِهم ومُسَارَعتهم إلى العَدُوّ، فإذا فعل فعلَهم قومٌ، وتَثاقَلوا هُمْ، كان الَّذين ينفِرون خِفافًا وثِقالاً ويَسْبِقون أوْلَى بالرِّياسة، واللّهِ لا أُؤَمِّر عليهم إلاَّ أوَّلَهم انتدابًا، ثم دعا أبا عُبَيدٍ وسَعْدًا وسَلِيطًا. وقال لسَعْد وسَلِيط: لو سبَقْتماه لولَّيْتُكُما، وأَمَّرَ أبا عُبيدٍ، وقال له: اسمَع من أصحاب رسولِ الله ﷺ، وأشرِكْهم في الأمر، ولم يَمنعْني أن أُؤَمِّرَ سَليطًا إلاَّ سُرْعته إلى الْحَرْب، وفي التسرُّع إلى الْحَرْب ضَياع، وأوصَى أبا عُبيد بجُنْده.

---

(١) ندب الناس: دعاهم.

(٢) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي من زعماء الثائرين على بني أمية، وكان يقال له كيسان، وإليه تنسب الطائفة الكيسانية. توفي سنة ٦٧ هجرية.

وأمَر عُمر المثنّى بالتقدُّم حتى يقدَم عليه أصحابُه، وأمَرَهم باستنفار مَنْ حَسُن إسلامه من أهلِ الرِّدة، فَفعلوا، وسار المثنَّى فقَدِم الحِيرةَ في عشرٍ، وقَدِم أبو عُبيد بعدَه بشهر.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر وقعة النمارق

كانت هذه الوقعةُ في سنة ثلاثَ عشرةَ، وذلك أن بُوران كانت يومَئذ على الفُرْس، فأرسلَت إلى رُستم بن الفَرُّخزاذ - وكان على فَرْج خُراسان - فَحضرَ، فتوَّجَتْه، ودَعَت مَرازبةَ[1] فارِس أن يَسمَعوا له ويُطيعوا، فدانتْ له فارِس، فكَتَب رُسْتم إلى الدَّهَاقِين أن يثُوروا بالمسلمين، وبعث في كلِّ رُسْتاق[2] رجلاً يَثُور بأهْله، فبعث جَابان إلى فرات بادَقْلَى، وبعث نرْسي إلى كسْكَر، وواعدهم يومًا، وبعث جُندًا لمُصادَمة المثنَّى، وبلَغ المثنَّى الخبر فَحذِر، وعَجِل جابان وَنزَل النَّمارق[3]، وثارُوا، وخرج أهلُ الرَّسَاتيق مِن أعلى الفُرات إلى أسفله، وخرج المثنَّى من الحِيرة، فَنزَل خَفَّان لئلاَّ يُؤتَى من خَلْفِه، وأقامَ حتى قدِم عليه أبو عُبَيد، فلمّا قدم أقام أيّامًا ليستريح هو وأصحابه، واجتمع إلى جابان بَشَرٌ كثير بالنَّمَارق، فسار إليه أبو عبيد، وجعل المثنَّى على الخَيْل، وكان على مُجَنِّبَتَي جابان جُشنس ماه ومَرْدَانْشَاه، فالتَقَوْا وَاقتَتَلوا بالنَّمارق قتالاً شديدًا، فهَزَمَ اللّهُ الفُرْسَ، وأسِرَ جَابان؛ أسره مَطَرُ بن فِضَّة التَّيْمي، وأُسِرَ مردانْشَاه، أسَره أكْتل بن شَمَّاخ العُكْليُّ فَقَتَله. وأمّا جابان فإنَّه خَدَع مطرًا، وقال: هَلْ لك أن تؤمِّنني، وأُعْطِيكَ غلامين أمْرَدَيْن خفيفَين في عَمَلك، وكذا وكذا؟ فخلَّى عنه، فأخذَه المسلمون، وأتوْا به أبا عُبَيد، وأخبَروه أنَّه جابان، وأشارُوا عليه بقتْله؛ فقال: إنِّي أخاف الله أنْ أقتُلَه، وقد أمَّنه رجلٌ مُسلِم، والمسلمون كالجَسَد الواحد، ما لَزِم بعضَهم فقد لزِم كُلَّهم، وتَرَكَه.

وأرسَلَ في طلب من انهزم حتى أدْخَلوهم عسكر نَرْسى وقَتَلوا منهم. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المرزبان: رئيس الفرس، أو الفارس الشجاع المقدم على القوم، وهو دون الملك في الرتبة. جمع مرازبة.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد وهو أخص من الكورة والأستان. . . (مقدمة معجم البلدان).

(٣) النمرق: الوسادة الصغيرة يتكأ عليها، جمع نمارق. أو الطنفسة التي فوق الرحل.

ذكر وقعة السقاطية[١] بكسكر

ولما لحق من انهزم من الفرس بكَسْكَر وبها نَرْسى، وهو ابن خالة الملك، سار أبو عبيد إليهم من النَّمارق، والمثنَّى في تعبئته التي قاتل فيها، وكان على مجنِّبَتَيْ نَرْسى بندَوَيْه وتِيرَوَيه ابنا بسطام خال الملك، ومعه أهل باروسْما[٢] والزَّوابي[٣]، وكانت بُوران ورُسْتم قد بلغهما خبر هزيمة جابان، فبعثا الجالينوس إلى نَرْسى مددًا، فعاجلهم أبو عُبيد، فالتقَوْا من مكان يُدعَى السَّقاطيَة، فاقتَتَلوا قِتالاً شديدًا، ثم أنهزمت الفرْسُ، وهَرب نرسى وغَلَب المسلمون على عَسْكَره وأرضِه، وجَمعوا الغنائم.

وأقام أبو عُبيد وبعث المثنَّى إلى باروسما، وبعث والِقًا إلى الزَّوابي، وعاصمًا إلى نهر جُور، فهزموا من كان قد تجمّع هناك وأخربوا، وسَبَوْا أهل زَنْدَوَرْد وغيرها، وبذل لهم فَرُّوخ وفروندادذ على أهل باروسما والزَّوابي وكَسْكر ونهر جَوْبَر[٤] الخراج مُعَجَّلاً، فأجابوه إلى ذلك وصارُوا صُلْحًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد.

ذكر وقعة الجالينوس

قال: ولمَّا بعث رُسْتُم الجالينوسَ سار فنَزَل بباقُسْياثا من بارُوسْمَا، فسار إليه أبو عُبَيد، وهو على تعبِئته فالتَقَوْا بها واقتَتَلوا، فَهزَم اللّهُ الفُرْس، وَهَرَب الجالِينُوس، وغَلَب أبو عبيد على تلك النَّواحي، ثمّ أرتَحَل حتى قَدِم الحِيرة.

ذكر وقعة قس الناطف
ويقال لها: وَقعة الجِسْر ووقعة المَرْوَحَة
ومقتل أبي عُبَيد وغيره

لما رَجَع الجالِينوس إلى رُسْتم منهزِمًا، قال رُسْتم: أيُّ العَجَم أشَدُّ على العَرَب؟ قالوا: بَهْمَن جاذوَيْه المعروفُ بذِي الحاجب ـ وإنَّما قيل له ذو الحاجب لأنَّه

---

(١) السقاطية: ناحية بكسكر من أرض واسط.

(٢) باروسما: الواو والسين ساكنتان: ناحيتان من سواد بغداد يقال لهما باروسما العليا وباروسما السفلى من كورة الأستان الأوسط. . . (معجم البلدان).

(٣) الزوابي: في العراق أربعة أنهار: نهران فوق بغداد ونهران تحتها، يقال لكل واحد منها الزاب، وتجمع الزوابي على غير قياس، وقياسه أزواب أو زيبان. . . (معجم البلدان).

(٤) جوبر: بالراء: قرية بالغوطة من دمشق وقيل نهر بها وهو المراد هنا.

كان يَعصِب حاجبَيْه بعِصابة ليَرفَعها كِبْرًا ـ فوجّهه ومعه فِيلُه، ورَدَّ الجالينوس، وقال لبَهْمن: إن انهزم الجالينوس مرّة ثانيةً فاضرِب عنقَه. فأقبل بَهْمن جاذَوَيْهِ ومعه «دِرفس كابيان» راية كِسرَى، وكانت من جُلودِ النُّمور، طولها اثنا عَشرَ ذِراعًا في عرض ثمانيةِ أذرُع، فنزَلَ بقُسّ النّاطف، وأقبل أبو عُبَيد فنزل بالمَرْوَحَة، فرأت امرأتُه دومة أمّ المختار أنَّ رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عبيد ومعه نفر، فأخبرتْ أبا عُبيد بما رأت؛ فقال: هذه إنْ شاء الله الشَّهادة، وعَهِد إلى النَّاس وقال: إنْ قُتِلتُ فَعلى النَّاسِ فلانٌ، فإن قُتِلَ فَفلانٌ... حتى أمَّر الَّذين شربوا من الإناء، ثم قال: إن قتل أبو القاسم فعلى النَّاس المثنَّى. وبعث إليهم بَهمن جاذويه يقول: إمّا أن تَعبُروا إلينا ونَدَعَكم والعُبور، وإمّا أن تَدَعُونا نعْبُره إليكم؛ فنهاه الناس عن العبُور، فأبَى وتَرَك الرأي، وقال: لا تكونوا أجرأ على الموت مِنّا، فعبرَ إليهم على جِسْر عقده ابن صَلُوبا للفريقين، فالتقوا واقتتلوا، فلمّا نظرت الخيُول إلى الفِيَلة وإلى خَيْل الفُرْسِ، عليهم التَّجافيف[1]، رأت شيئًا منكرًا لم يكُنْ رأتْ مِثلَه، فلم تُقدِم عليهم، فاشتدَّ الأمر على المسلمين، فترجَّل أبو عُبيد والناس، ثم مَشوْا إليهم فصافَحوهم بالسُّيوف، فجعلتْ الفِيَلة لا تَحمل على جماعةٍ إلاّ دفعتْهم، فنادى أبو عبيد: اختوِشُوا[2] الفِيَلة واْقطعوا بُطَنها[3]، واقلبُوا عنها أهلَها؛ ووثب هو على الفِيلِ الأبيَض فقَطع بِطانَه ودفَع الَّذين عليه، وفعل القومُ مثلَ ذلك، فما تركوا فِيلاً إلاّ حَطُّوا رَحْلَه، وقَتَلوا أصحابه. وأهوى الفيلُ لأبي عُبيد فضرَبَه أبو عُبيد بالسَّيف، وخبَطَه الفيلُ بيَده فوَقع فَوَطِئه وقامَ عليه، فلمّا بصُر به الناسُ تحتَ الفِيل خشَعتْ أنفسُ بعضِهم، ثمّ أخذ اللّواءَ الَّذي كان أمَّرَه بعده، فقاتل الفيلَ حتى تنحَّى عن أبي عُبَيد، فاجترّه[4] المسلمون فأحرَزُوه، ثم قَتَلَ الفِيلَ الأميرُ الَّذي بعد أبي عبيد، وتتابَع سبعةٌ من ثقيف كلهم يأخذ اللّواءَ ويقاتل حتَّى يموت، ثم أخذ المثنَّى اللواءَ فهرب عنه النَّاس، فلمّا رأى عبدُ الله بنُ مَرْثَد الثَّقفيُّ ذلك بادر إلى الجِسْر فقطعه، وقال: أيها النَّاس، مُوتُوا على ما مات عليه أُمراؤُكم أو تَظْفَروا. وحازَ المشركون المسلِمين إلى الجِسْر، فتواثب بعضُهم إلى

(١) التجفاف: ما يلبسه المحارب كالدرع؛ أو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب. جمع تجافيف.

(٢) تحوّش: تنحى.

(٣) البطان: حزام يشد على البطن. جمع أبطنة وبطن.

(٤) اجتر الشيء: جذبه.

الفُرات فَغرق، وحَمَى المثنَّى وفُرسانٌ من المسلمين الناسَ، وقالت أبو زُبَيْد الطائيّ حَمِيَّةً للعَرَب، وكان نَصْرانيًا، ثم جاء الْعُلوجُ[١] وعقدوا الجِسْر، وعَبر النَّاسُ، وكان آخر من قُتِل عند الجِسْر سَليط بنُ قَيْس، وعَبَر المثنَّى وحَمَى جانِبَه، فلما عَبرَ ارْفَضَّ عنه أهلُ المدينة، وبقي المثنَّى في قِلةٍ، وكان قد جُرِحَ وأُثْبِتَ فيه حَلَق من دِرْعه. وهَلَك من المسلمين أربعة آلافٍ بين قتيلٍ وغريقٍ، وهربَ أَلْفان وبقي ثلاثة آلاف، وقُتِل من الفُرس ستَّة آلاف، وأخْبِرَ عمرُ عمّن سارَ في البلاد استحياءً من الهزيمة، فاشتدّ ذلك عليه، وقال: اللَّهم إنَّ كلَّ مُسلِم في حِلٍّ منّي، أنا فِئَةُ كلِّ مسلم، يرحم الله أبا عُبَيد! لو كان انحاز إليّ لكنت له فِئةً[٢].

قال: وأراد بَهْمَن جاذَوَيْه الْعُبورَ خلْفَ المسلمينَ فأتاهُ الخَبَر باختلاف الفُرْس، وأنَّهم قد ثاروا بِرُسْتم، فرجع إلى المَدائن.

وكانت هذه الوَقْعة في شعبانَ سنة ثلاث عشرةَ. والله سبحانه وتعالى أعْلَم.

ذكر وقعة أليس الصغرى

قال: لمّا عاد ذو الحاجب لم يشعر جابان ومَرْدَانْشاه بما جاء به من الخبر فخرجا حتى إذا أخَذَا بالطريق، وبلغ المُثنَّى فِعلُهما، فاستخلَف على النَّاس عاصمَ بنَ عمر، وخرج في جَريدة[٣] خيلٍ يريدُهما، فَظَنَّا أنَّه هارب، فاعْتَرَضاه، فأخَذهما أسِيرَيْن. وخرج أهل أُلَّيْس على أصحابهما فأتَوْه بهِمْ أسْرى، فعقد لهم بها ذِمّةً، وقتَلَهما وقَتلَ الأسرَى. والله تعالى أعلَمُ.

ذكر وقعة البويب[٤]

ولما بلغَ عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه وقعةُ الجِسْر، نَدَبَ الناسَ إلى المُثنَّى، وكان فيمن نَدَب بَجيلة، وأمْرُهُم إلى جَرير بنِ عبد الله، فأتَوا العراقَ، وقالوا: لا نَكون إلاَّ بالشَّام، فعزَم عليهِمْ عمرُ ونَفَّلَهم رُبع الخُمْس، فأجابُوا، وسيَّرهم إلى

---

(١) العلج من الرجال: الشديد الكثير الصّرع لأقرانه. جمع علوج وأعلاج.

(٢) فئة: موئل.

(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٤) البويب، بلفظ تصغير الباب: نقب بين جبلين.. وقيل: البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر.. وقيل: البويب أيضًا: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات.. وهذا هو المراد هنا.

المُثنَّى، وبعثَ عِصْمة بن عبد الله الضَّبّيّ فيمن معه، وكتبَ إلى أهل الرِّدّة فلم يأتِه أحدٌ إلاّ رَمَى به المثنّى. وبعث المثنّى الرُّسُلَ إلى مَنْ يَليهِ من العَرَب، فتوافَوْا إليه في جَمْع عظيم، وكان فيمن جاءه أنَس بن هلال النَّمَرِيّ في جَمْع عظيم من النَّمِر، نَصارَى، وقالوا: نُقاتلُ مع قومنا. وبلغ الخبر رُسْتُم والفَيْرُزان فبعثَا مِهْران الهَمَذانيّ إلى الحِيرة، فسمع المثنَّى ذلك وهو بين القادسيّة وخَفّان، فاستبْطَن فُراتَ بادَقْلَى، وكتب إلى جرير وعِصْمة ومَن أتَاه من الأمداد بالخَبَر، وأمَرهم بقَصْدِ البُوَيْب، ومِهْران بإزائه من وراء الفُرات، فاْجتمع المسلمون بالبُوَيْب مِمّا يَلي الكوفة اليومَ، وأرسلَ مِهرانُ إلى المثنّى يقول: إما أن تَعْبُرَ إلينا، وإمّا أن نَعْبُرَ إليكَ، فقال المثنّى: اعبرُوا، فعَبَر مِهران فَنزل بشاطىء الفُرات، وعَبّى المثنّى أصحابَه، وكان في شهر رمضان، فأمرهم بالإفطار ليقوَوْا على عَدوّهم، فأفطَروا، وأقبَل الفُرس في ثلاثة صُفوفٍ، مع كلِّ صفٍّ فِيلٌ، ورجّالتهم أمامَ فِيَلِهم، ولهم زَجَلٌ[1].

فقال المثنّى: إنَّ الذي تسمعون فَشَل، فالزَموا الصَّمت، ثم التقوْا، واقتَتلوا أشدَّ قتالٍ وأعْظَمه، فقُتِل مِهْران؛ قتله غلام نصرانيّ من تغلِب، واستولى على فرسه، فجعل المثنّى سَلَبَه لصاحب خَيْله، وكان التَّغْلَبيّ قد جلب خيلاً هو وجماعةٌ من تغلِب، فلمّا رأوا القتالَ قاتلوا مع العرب، وانهزمت الفُرْسُ، وسبقَهم المثنّى إلى الجِسْر فاْفترق الأعاجمُ مُصعِدين ومنحدِرين، وأخذتْهم خيولُ المسلمين، وقُتِل منهم قَتلَى كثيرة، فكانوا يَحْزُرون[2] القتلَى مائةَ ألف، وسُمِّيَ ذلك اليوم يومُ الأعْشار، وأُحْصِي مائةُ رَجُل، قتلَ كُلُّ رجل منهم عَشرَة. وتَبِعهم المسلمون إلى اللَّيل، ومن الغد إلى اللَّيل، وأرسلَ المثنّى الخيلَ في طلب العَجَم، فبلغوا السَّيب[3]، وغَنِموا من الغنائم والسَّبْي والبقرِ شيئًا كثيرًا، فقسّمه المثنّى فيهم، ونَفَّل أهلَ البَلاء، وأعطَى بَجِيلةَ رُبْع الخُمس. وأرسَل إليه الَّذين تَبِعوا من اْنهزَم يعرِّفونه بسلامتهم، وأنَّه لا مانعَ دون القوم، ويستأْذنونه في الإقدام، فأذِن لهم، فأغَاروا حتى بلغوا ساباط؛ فتحصّن أهلُه منهم، واْستباحوا الْقرَى، ورجعَتْ مَسالِحُ الفُرْس إليهم، وسرَّهم أنْ يَتْرُكوا ما وراء دِجْلة.

---

(١) زجل: أي صوت. (٢) الحزر: التخمين.

(٣) السّيب: أصله مجرى الماء كالنهر: وهو كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سورا عند قصر ابن هبيرة.. والسيب أيضًا: نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة... (معجم البلدان).

ذكر خبر سوقي الخنافس[(١)] وبغداد

قال: ثم خلَّف المثنَّى بالحِيرة بَشِيرَ ابنَ الخصاصِيَّة، وسار يَمْخُر السَّواد، وأرسل إلى مَيْسانَ ودَسْت مِيسان، وأذنى المسالِح، ونَزَل أُلَّيْس (قريةٌ من قرى الأنبار)، وجاء المثنَّى رجلان أحدُهما أنباريٌّ فدلَّه على سُوق الخَنافِس، والثاني حِيرِيّ ودلَّه على سُوقِ بغداد، فبدأ بسُوق الخَنافِس؛ لأنَّها كانت تقوم قبل سوق بَغداد، وكان يجتمع بها تُجّار مَدائِن كِسرى والسَّواد، وتَخفِرهم[(٢)] ربيعةُ وقُضاعةُ؛ فأغار المثنَّى على الخنافِس يومَ سُوقها، فانتسف السُّوقَ وما فيها، وسَلب الخُفَراء، ثم رجع فأتَى الأنبارَ، فنزل أهلُها إليه، وأتَوْه بالأعلاف والزَّاد، وأخذ منهم الأدِلاَّءَ على سُوق بَغداد، وسار ليلاً، فصبَّحهم في أسواقهم فوضع السَّيفَ فيهم، وأخذَ ما شاء، وقال لأصحابه: لا تأخذوا إلاَّ الذهبَ والفضَّة والحُرَّ من كلِّ شيء، ثم عاد راجعًا حتى أتَى الأنبار، وكان مَنْ خلفه من المسلمين يَمخُرون السَّواد، وَيشُنُّونَ الغاراتِ ما بين أسفلِ كَسْكَر وأسفلِ الفُرات، وجسور مِثْقب إلى عَيْنِ التَّمْر، ولمّا رَجَع المثنَّى إلى الأنبار بعثَ المُضارِبَ إلى الكَباث، وعليه فارس العُنَّاب التَّغلَبيّ، ثم لحِقهم المثنَّى فسار معهم، فوجدوا الكَباث وقد سار من كان به عنه، فسار المسلمون خلفَهم، فقتَلوا في أُخرَيَات أصحاب فارس العُناب، وأكثروا القتلَ ورجَعوا إلى الأنبار، وسرّح المثنَّى فُرات بن حيّان التغلَبي وعُتَيْبَة بن النهّاس، وأمَرهما بالغارة على أحياء بني تَغْلِب بصِفِّين، ثم أتّبعهما واستَخلَف على النّاس عَمرو بنَ أبي سُلْمى الهُجَيْميّ، فلما دَنَوْا من صِفِّين فرَّ منْ بها، وعَبَروا الفُرات إلى الجزيرة وفَنِيَ الزّاد الَّذي كان مع المثنَّى وأصحابِه، فأكَلوا رواحلَهم إلاَّ ما لا بُدَّ منه حتَّى جلودَها، ثم أدرَكوا عِيرًا من أهل دَبَا[(٣)] وحوْران فقتلوا مَنْ بها، وأخَذوا ثلاثةَ نفرٍ من تَغْلِبَ كانوا خُفَراء، وأخذوا العِير فقال لهم المثنَّى: دُلُّوني؛ فقال أحَدُهم: أمِّنوني على أهلي ومالي، وأدُلُّكم على حَيٍّ مِنْ تَغْلِب، فأمَّنه المثنَّى، وسار بهم يَوْمه، فهَجمَ العَشِيَّ على القوم والنَّعَم[(٤)] صادِرَةٌ عن الماء، وأصحابها جلوس بأفْنِيَة البيوت، فقتَل المقاتِلة، وسَبَى الذُّرِّية، واستاقَ الأموال.

---

(١) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البردان، تقام فيه سوق للعرب..

(٢) تخفرهم: تجيرهم وتحميهم.

(٣) دبا: سوق من أسواق العرب بعمان.. وبعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها، وكانت قديمًا قصبة عمان...

(٤) النعم: المال السائم، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الابن.

وأُخبِر المثنّى أنّ جُمهور مَن سلَكَ البلادَ قد انتجَع[١] شاطيء دِجْلة؛ فخرج المثنّى وعلى مجنِّبتيه النُّعمانُ بنُ عَوْف ومَطَر الشَّيْبانِيّان، وعلى مقدِّمته حذيفة بن مِحصَن الغَلْفانيّ، فساروُا في طَلبهم فأدرَكُوهم بِتَكْرِيت، فأصابوا ما شاؤُوا من النَّعَم، وعادُوا إلى الأنْبار.

ومَضَى عُتَيْبةُ وفُرات ومَنْ معهما حتَّى أغارُوا على صِفِّين، وبها النمِر وتَغْلِب متسانِدَين، فَأغاروا عليهم حتى رمَوْا طائفةً منهم في الماء، فَجعلوا ينادُونهم: الغَرَق الغَرَق! وجَعَل عُتيبة وفرات يُذمران[٢] الناسَ ويناديِانهم: تَغريق بتَحْريق! يذكِّرانهم يَوْمًا من أيّام الجاهليّة، كانوا حرَّقوا فيه قومًا من بكرِ بنِ وائلَ في غَيْضَة من الْغِياض. ثم رجعوا إلى المثنَّى وقد غرَّقوهم. فبلغ ذلك عُمر، فبَعث إلى عُتَيبة وفُرات، فاستدعاهما وسألهما عن قولهما، فأَخْبرَاه أنَّهما لم يَفعلا ذلك على وَجْه طلب ذَحْل[٣]، إنَّما هو مَثَلٌ، فاستحلَفهمَا على ذلك ورَدَّهما إلى المُثنَّى.

وكانت هذه الوقائعُ الَّتي ذكرناها بالعِراق في سنة ثلاثَ عشرة. ثمّ كانت وقعةُ القادسيّة، والله أعلم.

ذكر خبر القادسية وأيامها

كان ابتداءُ أمرِ القادسيّة أنَّ الفرسَ لمّا مات مَلِكُها أزْدَشير تفرَّقتْ آراؤُهَا، وكان المسلمون قد فَتَحوا من بلادهم ما ذكرناه في خلافة أبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه في حياة أزْدَشير، ثم تابعوا الغارات عليهم، فاجْتمعَت الفرسُ وقالوا لِرُسْتُم والفَيْرُزان - وهما على أهلِ فارس -: لا زال بكما الاختلاف حتى أوْهَنْتُما[٤] أهلَ فارس، وأطمعْتُما فيهم عَدوَّهم.

فأجتمعوا وأستدعوْا نِساء كِسْرى وسَرارِيَه، وكشفوا عمَّن بَقِيَ مِنْ نَسْلِ الملوك الأكاسرة، فَدلُّوهم على يَزْدَجِرْد، من ولد شَهْريار بن كسرى، فأستدعَوْه وملَّكوه عليهم وأطاعُوه. فَبلغ خبرُهم المثنَّى بن حارثة، فكتب بذلك إلى عمر، فلم يَصل الكتابُ حتَّى نَقَض من كان له عَهْدٌ من أهل السَّوادِ، فخرج المثنَّى حتَّى نَزَل بذي قار، ونزل النَّاس بالطَّفّ[٥] في عسكر واحدٍ.

(١) انتجع القوم: ذهبوا لطلب الكلأ.
(٢) يذمران: يحضان.
(٣) الذحل: الوتر.
(٤) أوهن: أضعف.
(٥) الطفّ: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه، وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية، منها: الصيد، والقطقطانة، والرهيمة وعين جمل وذواتها. . . (معجم البلدان).

ولما وصل كتابُ المثنَّى إلى عمر قال: والله لأضربنَّ ملوك العجم بملُوك العرب؛ وكتب إلى عمَّاله على العرب: ألاَّ يَدعوا مَنْ له نجدةٌ أو رأيٌ، أو فرسٌ، أو سلاحٌ إلاَّ وجَّهُوه إليه، وذلك في ذي القعْدة سنة ثلاث عشرة.

فاجتمع إليهِ النَّاسُ، ولم يَدَعْ رئيسًا ولا ذا رأيٍ وشَرَف، ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلاَّ ٱستشَارَهم في الخُروج بنفسه لغَزْوِ الفُرْس، وأجمعَ رأيُ وجوهِ أصحاب النَّبيّ ﷺ أن يَبعث رجلًا من المسلمين وَيَضُمَّ إليه الجُنودَ، واتَّفَقَ رأيُهم على سعد بن أبي وَقَّاص، وكان على صَدَقَات هَوازِن، فكَتَبَ إليه عمرُ بٱنتخاب ذَوِي الرأْي والنَّجْدةِ والسِّلاَح، فجاء كتابه إلى عمر يقول: قد انتخبتُ لك ألفَ فارسٍ، كُلُّهم له نجدةٌ ورأْيٌ؛ إليهم انتهَتْ أحسابُهم. فأمره بحرب العراقِ وضمَّ إليه الجيوش، فخرج في أربعة آلافٍ، وأمدَّه عمَرُ بعد خروجِهِ بألفَيْ يمانيّ، وألفيْ نجديّ. وكان المثنَّى بنُ حارثَة في ثمانيةِ آلافٍ، فلمّا سار سعدٌ تُوُفِّيَ المثنَّى قبل وصولِه، وٱجتمع مع سعدِ ثمانيةُ آلافٍ، ثم أتته قبائلُ العَرَبِ، فكان جميعُ من شَهِدَ القادسيّة بضعةً وثلاثين ألفًا؛ منهم تسعةٌ وتسعون بَدْريًا، وثلاثمائة وبضعة عشر مِمَّن كانت له صحبةٌ فيما بَيْن بيْعةِ الرِّضْوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة مِمَّن كان شَهِدَ الْفَتْح، وسبعمائةٍ مِنْ أبناء الصَّحابة، فعبَّأهم سَعْدُ بنُ أبي وقَّاص، وأمَّر الأُمرَاء، وعرَّف على كلِّ عشرة عريفًا، وجَعَل أهلَ السَّابقة على الرَّايات؛ وسار بالجيوشِ حتى نزل القادسيَّة بين العتيق والخَندق بحيال القنطرةِ، وأقام بها شهْرًا لم يأْتِهِ من الْفُرس أحدٌ، فأرسلَ عاصِمَ بن عمرو يطلبُ غنمًا أو بقرًا، فلم يقْدِر عليها، وتحصَّنَ مِنه مَنْ هُناكَ، فأصاب رَجُلًا بجانب أَجَمةٍ[1]، فسألَه عن البقرِ والغنم، فقال: لا أعلم؛ فصاح ثَوْرٌ من الأَجَمَةِ: كذَبَ عَدُوُّ الله، ها نحن، فدخل عدوُّ اللّهِ، فٱستاق البقَرَ وأتى بها العسكر، فقسَّمَهَا سعْد على النَّاس. ثم بَثَّ الغارات بَيْن كَسْكر والأنبار، فَحَوَوْا من الأطْعمةِ ما قام بهم زمانًا، فاستغاث أهلُ السَّواد إلى يَزْدَجِرد وقالوا: إمَّا أن تَدفع الْعَرب، وإمّا أن نُعطِيَهم ما بأيدينا، فأرسلَ إلى رُسْتُم وأمره بالمسير للقاء المسلمين، فاستعفاه من ذلك وسأله أن يُجَهِّزَ الجالِينوس، فأبى يَزْدَجرد إلاَّ مسيرَه، فعَسْكر بسَاباط[2]، ثم استعفاه ثانيةً من المَسير، فأبَى عليه.

---

(١) الأجمة: الشجر الكثيف الملتف.

(٢) ساباط: ساباط كسرى موضع معروف بالمدائن، وقد سمي ساباط الذي بالمدائن بساباط بن باطا كان ينزله فسمّي به. . . وقيل: ساباط بليدة معروفة بما وراء النهر قرب أشروسنة على عشرة فراسخ من خجند وعلى عشرين فرسخًا من سمرقند. . . (معجم البلدان).

واتَّصَلَت الأخبار بسعد، فكتب إلى عمرَ فأجابه: لا تكرِبنَّك ما يأتيك عنهم، واستعِنْ بالله، وتوكَّلْ عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المُناظَرةِ والجَلَد يَدْعونه، فإنَّ الله تعالى جاعلٌ دعاءَهم تَوْهينًا لهم؛ فأرسلَ نفرًا، منهم: النُّعمانُ بن مُقَرِّن، وبُسْر بن أبي رُهْم، وحَمَلة بن جُوَيّة، وحَنظلة بن الربيع، وفُرات بنُ حَيّان، وعَدِيّ بنُ سُهَيل، وعُطارِد بن حاجب، والمغيرةُ بنُ زُرارة الأسَديّ، والأشعثُ بنُ قيس، والحارث بنُ حسّان، وعاصم بنُ عمرو، وعَمرو بنُ مَعدي كَرِب، والمغيرةُ بنُ شُعبة، والمُثنّى بنُ حارثة، إلى يَزْدَجِرد دُعاةً، فقَدِموا عليه، فأحضَرَ وُزراءه، وأحضَرَ رُسْتُم، واستشارهم فيما يقول لهم، واجتمع النَّاسُ ينظرون إليهم، ثم أذِنَ إليهم، وأحضَر التَّرجُمان، وقال له: سَلْهُم ما جَاء بكم؟ وما دَعاكُم إلى غَزْونا، والوَلوع ببلادِنا؟ من أجل أنَّنا تَشَاغلْنا عنكم اجترأتُم علينا! فقال النُّعْمَان بنُ مُقَرِّن لأصحابه: إنْ شئتم تكلَّمتُ عنكم، ومن شاء آثَرْتهُ. قالوا: بل تكلَّم؛ فقال: إنَّ الله رَحِمَنا، فأرسَل إلَيْنَا رسولاً يأمُرنا بالخير، وينهانا عن الشَّرّ، وَوَعَدَنا عَلَى إجابَتِه خيرَ الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلةً إلاَّ وقارَبَه منها فِرْقة، وتباعَدَ عنه فِرقة، ثم أمر أن نَبْتدىء إلى من خَالَفَه من العرب فبدأنا بهم، فدَخَلوا معه على وجهَيْن؛ مكرهٌ عليه فاغتبَطَ، وطائعٌ فازداد، فعرَفْنا جميعًا فَضْلَ ما جاء به على الَّذي كنَّا عليه من العَداوةِ والضِّيقِ، ثم أمَرَنا أن نبدأ بمَنْ يَلِينا من الأُمَم فَنَدْعُوَهم إلى الإنصاف، فنحن نَدْعُوكم إلى ديننا، وهو دين حَسَّن الحسَنَ، وقبَّح القبيحَ كلَّه، فإن أبَيْتم فأمرٌ من الشَّرِ هوَ أهوَنُ من آخر شرٌّ منه، الجِزْية، فإن أبَيْتم فالمناجَزة، وإنْ أجبتم إلى دِيننا خَلَّفْنا فيكم كتابَ اللّهِ وأقَمْنَا عليه، على أنْ تَحكُموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشَأنَكم وبلادَكم. وإن بَذَلْتُم الْجِزية قبِلْنا ومَنَعناكم، وإلاَّ قاتَلْناكم.

فتكلَّم يزدجرد فقال: إنّي لا أعْلَمُ أُمّةً في الأرض أشْقى ولا أقلَّ عَدَدًا، ولاَ أسْوَأَ ذاتَ بَيْنٍ منكم، قَدْ كُنَّا نُوكِلُ بكمْ قرى الضَّواحي فيَكفُونَنا أمْرَكم، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس، فإن كان غَذَرٌ لحِقكم فلا يغرّنكم منَّا، وإن كان الْجَهْد فرضنا لكم قُوتًا إلى خِصْبكم، وأكْرمنا وُجوهكم وكَسَوْناكم، وملَّكنا عليكم مِلِكًا يَرْفُقُ بكم. فأسْكَتَ[1] القوم.

فقام المغيرةُ بنُ زُرارة فقال: أيّها الملك؛ إنَّ هؤلاء رؤوسُ الْعَربِ وَوُجُوهُهُم، وهم أشرافٌ يستحْيُون من الأشراف، وليس كلَّ ما أُرسِلُوا به قالُوه، ولاَ كلَّ ما

(١) أسكت: بمعنى سكت.

تَكَلَّمْتَ به أَجَابُوكَ عليه، فجاوبْني لأكُون الَّذي أُبلغك وهم يشهدون على ذلك. وأمّا ما ذكرتَ من سوءِ الحالِ فهي على ما وَصَفت أو أَشَدّ، ثمّ ذكر مِن سوءِ عَيْشِ العَرَبِ، وإرسالِ النبيّ ﷺ إليهم نحوَ قول النُّعمان، وقتالِ من خالَفَهم أو الْجِزية؛ ثم قال: اختَرْ إن شِئْت الجزيةَ عن يَدٍ وأنت صَاغر[1]، وإن شئتَ السيفَ، أو تُسْلِم فتنجّيَ نَفْسَك.

فقال: لولا أن الرّسل لا تُقتَل لَقَتَلْتُكم، ثم قال: لا شيء لكم عندي؛ واستدعى بوِقْرٍ[2] من تُرابٍ، فقال: احمِلوه على أشرَف هؤلاء ثمّ سُوقوه حتَّى يَخرج من باب المدينة. ارجعُوا إلى صاحِبِكم فأعلِموه أنّي مُرسِلٌ إليكم رستم حتى يَدفنَكم ويدفنَه معكم في خندق القادسيّة، ثم أُورِده بلادَكم حتَّى أُشغِلكم في أنفسكم بأشدّ مما نالكم من سابور.

فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب، وقال: أنا أشرفهم، أنا سَيِّد هؤلاء؛ فحمله على عُنقِه وخرج إلى راحلتِهِ فركبها وأخذ الترابَ، وقال لسعد عند عَوْده: أبشرْ فقد وَالله أعطانَا الله أقاليدَ[3] ملكهم.

وقال يَزْدجرد لرُستم: ما كنتُ أرى أنَّ في العَرب مِثلَ هؤلاء، ما أنتم بأحسَن جوابًا منهم، ولقد صدَقَني القومُ، لقد وَعَدوا أمرًا ليُدرِكنّه أو ليموتُنّ عليه، على أنّي وجدت أفضَلهم أحمَقَهُم حيث حَمَل التُّرابَ على رأسه.

فقال رستم: أيّها الملك؛ إنّه أعقلُهم. وخرج رستم وبَعَث في أثر الوفد، وقال لثِقَته: إن أدركَهم الرّسولُ تلافَيْنَا أرضَنا، وإن أعجزُوه سلبكُم اللَّهُ أرضَكم. فرجَعَ الرسولُ من الحِيرة بفوَاتهم، فقال: ذهب القومُ بأرضِكم من غير شكٍّ، وكان منجّمًا كاهنًا.

ولما سار الوفد أغار سوادُ بنُ مالك التّميميّ على النِّجاف[4] والفِراض[5]، فاستاق ثلاثمائة دابّةٍ من بعير وحمارٍ وثورٍ، وأوْقَرَها[6] سَمَكًا، وصَبّح العسكرَ، فقسّمه سعدٌ بين النّاس؛ فسمّيَ يومَ الحيتانِ. وكانت السّرايا تَسرِي إلى طلب اللُّحوم، فإنّ الطّعامَ كان كثيرًا عندهم، وكانوا يُسمُّون الأيّام بها، منها يومُ الأباقِر ويوم الحِيتان. وبعث سعد سَرِيّةً أخرى، فأغاروا فأصابوا إبِلاً لبني تَغلِب والنَّمِر فأستاقوها.

---

(١) الصاغر: الذليل. (٢) الوقر: الحمل الثقيل.
(٣) الأقاليد: المفاتيح.
(٤) النجاف لغة: شعاب الجبل التي يسكب منها الماء؛ والمراد هنا اسم موضع.
(٥) الفراض: موضع بين البصرة واليمامة، قرب فليج من ديار بكر بن وائل.
(٦) أوقر الدابة: حملها حملاً ثقيلاً.

وسار رستم من سابَاط، وبعث على مُقَدِّمته الجالِينُوس في أربعين ألفًا، وخرج هو في ستِّين ألفًا، وساقَته في عشرين ألفًا، وجعل في المَيْمَنَةِ الْهرْمُزان، وفي المَيْسرة مِهْران بن بهرام الرازيّ. وأرسَل سعد السَّرايا ورسْتُم بالنَّجَف، والجالينوس بين النَّجف والسَّيْلَحين. وطاف في السَّوادِ، فبعث سَوادًا وحُمَيْضَة كلَّ مِنهما في مائةٍ، فأغاروا على النَّهرين، وبلغ رستم الخبرُ، فأرْسَلَ إليهم خَيلًا، وسمع سعد أنَّ خيْلَه قد وغلتْ، فأرسل عاصمَ بنَ عمرو وجابرًا الأزْديَّ في آثارهم، فلحقهم عاصِمُ وخيْلُ فارس تَحوشُهم ليخلِّصوا ما بأيديهم، فلمَّا رأته الفُرْس هَرَبوا، ورجع المسلمون بالغنائم. وأرسل سَعْدٌ عمرو بن معْدِي كِرب وطليحةَ الأسديّ طليعةً، فسارا في عشرةٍ، فلم يسيروا إلاَّ فَرْسَخًا وبَعْضَ آخرَ حتى رأوْا مسَالِحَهم وسَرْحهم[1] على الطُّفوف قد ملؤوها، فرَجع عَمرو ومن معه، وأبى طُلَيْحَة إلاَّ التقدّم، ومضى حتَّى دخلَ عسكرَ رسْتُم، وبات فيه، فهتك أطناب بَيْت رجل واقتاد فرسه، ثم هتك على آخر بيته وحلَّ فرسه، ثم فعل بآخر كذلك، ثم خرج يَعدُو به فرسُه، ونَذِرَ به[2] النَّاسُ، فركِبوا في طَلَبه، فأصبح وقد لَحِقَه فارسٌ من الجُنْد فَقَتَله طُليحةُ، ثم آخرُ فقتله، ثم ثالث، فرأى مصْرع صاحبيْه وهما أبنا عمِّه، فأزداد حَنَقًا، فلحق به طُلَيْحة، فكرَّ عليه طُلَيْحةُ فأسَرَه، ولحِقَ النَّاسُ، فرأوْا فارسَي الجندِ قد قُتِلا وأُسِرَ الثالث، وقد شَارَفَ طُلَيْحةُ عَسْكَره فأحجَموا عنه، ودخل طُلَيْحةُ على سعدٍ ومعه الفارس وأخبَرَه الْخَبر، فسأَلَ التُّرجمانُ الفارسيَّ فطلبَ الأمانَ، فأمَّنَهُ سَعْد، فقال: أُخبركم عن صاحِبِكُم هذا قبلَ أن أُخبِركم عَمَّنْ قُتِلَ؛ باشرْتُ الحروبَ منذ أنا غلامٌ إلى الآن، وسمعتُ بالأبطال، ولم أسمعْ بمثل هذا، أنَّ رجلًا قَطَع عَسْكَرين إلى عسكر فيه سبعون ألْفًا يَخدُم الرجلَ منهم الخمسةُ والعشرةُ، فلم يَرضَ أنْ يخرجَ كما دخلَ حتى سَلَب فُرْسانَ الجنْدِ، وهتَك عليهم البيوت، فلمَّا أدركناهُ قتلَ الأوَّلَ، وهو يُعدُّ بألفِ فارس، ثم الثَّانِي وهو نظيرُهُ، ثم أدركْتُهُ أنا، وما خلَّفتُ بعدي مَنْ يَعدلُني، وأنا الثَّائر بالقَتِيلين، فرأيت الموتَ وأستُؤْسِرْتُ، ثم أخبره عن الفرس. وأسلَم ولزِمَ طُلَيْحة، وكان من أهل البَلاء بالقادِسيَّةِ، وسمَّاه سعدٌ مُسلِمًا.

ثم سار رُسْتُم وقَدَّم الجالِينُوسَ وذا الحاجب حتى وَصَل إلى القادسيَّة، وكان بينَ مَسيرِهِ من المدائن ووصُوله أربعةُ أشهرٍ، رَجَاءَ أن يَضْجَروا فَيَنْصَرفوا، ووَقَف على العَتيق بحِيال عَسْكر سَعدٍ، وكان معه ثلاثةٌ وثلاثون فيلًا، منها فِيلُ سابورَ الأبيض،

(١) السرح: الماشية.

(٢) نذر به: علم به.

وكان الفِيلَة تألَفُه. وباتَ رُسْتُم ليلته. ثم أصبحَ وأرسل إلى سعدٍ أن أرسِلْ إلينا رجُلاً نكلِّمه ويكلمنا، فأرسل إليه ربعيّ بن عامر، فأظهر رستم زِينَتَهُ، وجلسَ على سريرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وبَسَطَ البُسُط والنَّمارِق والوَسائد المَنْسوجةَ بالذَّهَبِ، وأقبَلَ رِبْعيٌّ على فرسِه، وسَيْفُه في خرقةٍ، ورُمْحُه مشْدودٌ بعَصَبٍ وقِدّ[1]، فلما انتهى إلى البُسُطِ قيل له: انزِلْ، فحمَل فرسَه عليها، ونزل وسطها بوسادتين شقَّهما، وأدخلَ الحبلَ فيهما، فلم ينهَوْه وأرَوْه التَّهوُنَ، وعليه درعٌ؛ وأخذ عباءَة بعِيره فتدرَّعَها وشَدَّها على وسطِه، فقالوا له: ضَعْ سلاحك؛ فقال: لم آتكم فأضعَ سِلاحِي بأمركم، أنتم دعوتموني، فأخبِروا رُسْتم؛ فقال: ائذَنوا له.

فأقبل يتوكَّأُ على رمحه ويُقارب خطوَة، فلم يدع نُمْرُقةَ ولا بساطًا إلاَّ أفسدَهُ وهتكه، فلمّا دنا من رستم جلس على الأرض، وأركزَ رُمْحَهُ على البُسطِ؛ فقيل له: ما حَمَلك على هذا؟ فقال: إنَّا لا نستحِلُّ القُعُود على زِينتِكم، فقال له التُّرجُمَانُ - واسمُه عَبُود من أهلِ الحِيرة - ما جاءَ بكم؟ قال: الله، وهو بعثنا لنُخرِجَ مَنْ يشاءُ من عبادِه من ضِيقِ الدُّنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلَنا بدِينِهِ إلى خَلْقِهِ، فمَن قَبِل ذلك قَبِلْنا منه، ورجَعْنَا عنه، وتركناه وأرْضَه، ومَنْ أباه قاتلناه حتى يَقْضِيَ اللّهُ إلى الجنّةِ أو الظَّفَرِ.

فقال رستم: قد سمِعْنا قولَكم، فهل لكم أنْ تؤخِّروا هذا الأمرَ حتَّى ننظرَ فيه؟ قال: نعم، وإنَّ مِمَّا سَنَّ لنا رسولُ الله ﷺ ألاَّ نُمكِّن الأعداءَ أكثرَ من ثلاث، فنحن متردِّدُون عنكم ثلاثًا فأنْظرْ في أمرِك، واختَرْ واحدةً من ثلاثٍ بعد الأجَل: إمَّا الإسلامَ وندعَكَ وأرضَكَ، أو الجِزْيةَ فتقبلَ فنكُفَّ عنكَ، وإن احتجتَ إلينا نَصرْنَاكَ؛ أو المنَابذة[2] في اليوم الرّابع إلاَّ أنْ تَبْدَأنَا، وأنا كفيلٌ بذلك عن أصحابي.

فقال: أسَيِّدُ أصحابكَ أنت؟ قال: لا، ولكنَّا كالجَسَدِ الواحِدِ، بعضُنَا من بَعْضٍ، يُجِيرُ أدْنَانَا على أعلانا.

فخلا رُسْتم برؤساء قومِه، فقال: هل رأيتم أو سمعتم كلامًا قطُّ أعزَّ وأوضحَ من كلام هذا الرّجلِ؟ فقالوا: معاذَ الله أنْ نميلَ إلى دِين هذا الكَلْب، أما تَرَى إلى ثيابِهِ! فقال: وَيْحَكُم! لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انْظُروا إلى الرأيِ والكلامِ والسِّيرة؛ إنَّ العربَ تستخِفُّ باللِّباسِ، وتَصُون الأحسَاب؛ ليسوا مِثْلَكُم.

---

(١) القدّ: السير يقد من لجلد لخصف النعال أو نحو ذلك، أو السوط.

(٢) المنابذة: المجاهرة بالحرب.

فلمّا كان من الغدِ أرسلَ رُستم إلى سَعْدٍ: أن ابعثْ إلينا ذلك الرجلَ، فبعثَ إليهم حُذَيْفَةَ بنَ مِحْصَن، فأقبل في نحوٍ من ذلك الزِّيّ، فلم ينزلْ عَنْ فَرسِه حتَّى وقف على رُسْتُم. فقال له: انزِل، قال: لا أفعل، فقال: ما جاء بك ولم يأتِ الأوّل؟ قال: إنَّ أميرَنا يُحِبُّ أنْ يَعدِلَ بيننا في الشِّدةِ والرَّخاء، وهذه نَوْبَتِي. فقال: ما جاء بكم؟ فأجابه نحو الأوّل. فطَلب رستُم الموادَعة إلى يومٍ ما. فقال: نعم، ثلاثًا من أمسِ، فردَّه.

وأقبَل رُسْتم على أصحابهِ فقال: وَيْحَكُم! ألا تروْن ما أرَى؟ جاءنا الأوّلُ بالأمس فَغَلَبَنا على أرضِنا، وحَقَّر ما نُعَظِّم، وأقام فرسَه على زِبْرِجِنا[1]؛ وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو في يُمْنِ الطائر، يقومُ على أرضِنا دُوننا.

فلمَّا كان الغدُ أرسلَ أن ابعَثُوا لنا رجلًا، فبعث إليهم المغيرةَ بنَ شُعْبة، فأقبلَ عليهم، وعليهم التِّيجانُ والثيابُ المنسوجةُ بالذهب، وبُسُطُهم على غَلْوةٍ[2] سَهْم، لا يُوصَل إلى صاحبهم حتى يُمشَى عليها، فأقبلَ المغيرةُ حتى جلسَ مع رُسْتم على سريره، فوثَبُوا عليه وأنزَلوه ومعكوه[3]؛ فقال: قد كان يبلغنا عنكم الأحلامُ[4]، ولا أرى قومًا أسْفَهَ منكم؛ إنَّا مَعشَر العَرَب لا يستَعْبِد بعضُنا بعضًا، فظننتُ أنَّكم تُواسُونَ قومَكم كما نَتَواسَى، فكان أحسنَ مِن الَّذي صنعتمْ أن تُخبِروني أنَّ بعضكم أربابُ بَعْض؛ وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصْنَعهُ أحد، وأنا لم آتِكُم ولكن دَعَوْتُموني، اليومَ علمتُ أنَّكم مغلوبون، وأنَّ مُلْكًا لا يقومُ على هذه السِّيرةِ ولا على هذه العقُول.

فقالتْ السِّفِلَةُ[5]: صَدقَ واللّهِ الأَعرابيّ.

وقالت الدَّهاقين: والله لقد رَمَى بكلام لا يزال عبيدُنا يَنزِعون إليه، قاتل الله أوّلينا حين كانوا يُصغِّرون أمرَ هذه الأُمّة!

ثمَّ تَكَلَّمَ رُسْتُم، فحمِد قوته، وعَظَّم أمرَهم، وذكَرَ تَمكُّنَهم في البلاد، وقوّة سلطانهم، وذكر معيشةَ العرب وما هم عليه من الفَاقةِ[6]، وقال: كنتم تقصدوننا إذا قَحِطتْ بلادُكُمْ، فنأمر لكم بشيءٍ من التَّمرِ والشَّعير، ثم نردّكم، وقد علمتُ أنَّه لم

(١) الزبرج: الزينة من وشي أو جوهر.
(٢) الغلوة: مقدار مرمى السهم.
(٣) معكوه: دلكوه بالتراب.
(٤) الحلم: العقل، جمع أحلام.
(٥) السّفلة من الناس: أسافلهم وغوغاؤهم.
(٦) الفاقة: الفقر والحاجة.

يَحملكم على ما صنعتم إلاَّ الْجَهْدُ[١] في بلادكم، فأنا آمُرُ لأميركم بكُسْوةٍ وبَغلٍ وألفِ دِرهم؛ وآمرُ لكلّ رجلٍ منكم بِوِقْرِ[٢] تَمْرٍ وتنصرفون عنا؛ فإنّي لست أشتهي أنْ أقتلكم.

فتكلَّم المغيرةُ، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه، وقال: إنَّ الله خَلَقَ كُلَّ شيءٍ وَرَزَقه، فمن صنع شيئًا فإنَّما هو بصُنْعه. فأمّا الّذي ذكرتَ به نَفْسَك وأهلَ بلادِك فنحن نَعرِفه، والله صنَعه بكم، ووضَعه فيكم، وهو له دُونكم؛ وأمَّا الَّذي ذكرتَ فينا من سوءِ الْحَالِ والضيقِ فلسنا نُنكِره، واللّهُ ٱبتلانا به، والدُّنيا دُوَلٌ، ولم يزلْ أهلُ الرّخاء يتوقَّعُونَ الشدائدَ حتى تنزل بهم، ولو شَكَرْتُمْ ما آتاكم الله تعالى لكان شُكركم يَقْصُر عمّا أُوتِيتم، فأسلَمَكم ضَعفُ الشكر إلى تغيُّر الحالِ، ولو كنّا فيما ٱبْتَلَيْنا به أهلَ الكُفرِ لكان عظيم ما ٱبتلينا به مُسْتجلبًا من الله رحمةً يُردُّه بها عنّا؛ إنَّ الله تبارَكَ وتَعَالَى بَعثَ فينا رسولاً؛ ثم ذَكَرَ مِثلَ مَا تَقَدّمَ من ذكر الإسلام، أو الجِزْية، أو القتال، وقال: إنَّ عيالَنَا قد ذاقوا طعامَ بلادكم، فقالوا: لا صَبْر لنا عنه. فقال رُسْتم إذًا تموتُون دُونه! فقال المغيرة: يَدْخُلُ من قُتِلَ منّا الجنّة، ومن قُتل منكم النار، ويَظفَر من بَقِيَ منّا بمَن بقيَ منكم. فٱستشاط رستم غضبًا، ثم حَلفَ ألاَّ يرتفع الصُّبحُ غدًا حتى أقتلَكُم أجمعين.

وٱنصرف المغيرة، وخلا رُسْتم بأهلِ فارسَ وقال: أين هؤلاء منكم! هؤلاء والله الرِّجالُ، صادقين كانوا أمْ كاذبين! والله لَئِنْ كانَ بَلَغ مِنْ عَقْلِهِمْ وصَوْنِهم لَسَرُّهُمْ ألاَّ يَخْتَلِفُوا، فما قومٌ أبلغ لِما أرادوا منهم، وإن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء. فلَجُّوا[٣] وتَجلَّدوا، فقال: أطِيعوني يا أهلَ فارس؛ إنّي لأرى للّهِ فيكم نِقْمةً لا تستطيعون ردَّها.

ثم أرسل إليه سعدٌ ثلاثةً من ذَوي الرَّأي، فقالوا له: إنَّ أميرنا يدعوك لما هو خيرٌ لنا ولك؛ والعافية أن تَقْبَل ما دعاك إليه، ونَرجعَ إلى أرضنا وتَرجعَ إلى أرضك، ودارُكُم لكم وأمركُم فيكم، وما أصبتُمْ كان زِيادةً لكم دُوننا، وكُنّا عَوْنًا لكم على من أرادَكُمْ، فاتّق الله ولا يكوننَّ هلاكُ قومِك على يَدَيْك، وليس بينك وبين أن نَغْتَبطَ بهذا الأمر إلاَّ أنْ تَدخلَ فيه، وتطردَ به الشيطانَ عنك؛ فقال لهم: إنَّ الأمثالَ أوضحُ من

---

(١) الجهد: المشقة. (٢) الوقر: الحمل الثقيل.
(٣) لج القوم: اختلطت أصواتهم. ولج في الأمر: لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

كثير من الكلام، إنَّكم كنتم أهلَ جَهدٍ وقَشَف[١]، لا تَنتَصفون ولا تَمتَنعون، فلم نُسيءْ جِوارَكُمْ، وكُنَّا نَميرُكم[٢] ونُحسِنُ إليكم، فلمّا طَعِمْتُم طعامَنا، وشَربتُم شرابَنا، وَصَفْتُم لقومِكم ذلك، ووعدتُموهُم ثم أتيتُمونا، وإنَّما مَثَلُكُمْ ومَثَلُنا كمثلِ رجلٍ كان له كرْمٌ، فرأى فيه ثعلبًا، فقال: وما ثعلب! فانطلق الثَّعْلَبُ فدعَا الثَّعالِبَ إلى ذلك الكَرْم، فلمَّا اجتمعوا إليه شدّ صاحب الكرم النقب الذي كنّ يدخلن منه فقتلهنّ. فقد علمت أن الذي حملكم على هذا الحرص والجهد، فارجعوا ونحن نَميرُكم؛ فإنِّي لا أشتهي أنْ أقتلَكُمْ. ومَثَلُكم أيضًا كالذُّبابِ يَرَى العَسَلَ فيقول: مَن يُوصِلني إليه وله دِرْهَمانِ، فإذا دخلَهُ غَرِق ونَشِب[٣]، فيقول: مَن يُخرِجني وله أربعة دراهم؟

وقال: ما دعاكم إلى ما صنعتم، ولا أرَى عَدَدًا ولا عُدّة! قال: فتكلَّم القوم، وذكروا سوءَ حالِهم، وما منَّ الله تعالى عليهم من إرسال رسولِ الله ﷺ، واَختلافِهم أوَّلاً، واَجتماعِهم على الإسلام، وما أمَرهم به من الجهاد، وقالوا: وأمّا ما ضَربْتَ لنا من الأمثالِ فليس كذلك، ولكن إنَّما مَثَلُكم كمثل رَجُلٍ غَرَس أرضًا واَختار لها الشَّجرَ، وأجرَى إليها الأنهارَ وزيَّنها بالقُصُور، وأقامَ فيها فلاَّحين يسكُنُونَ قُصورَهَا ويقُومون عَلى جَنَّاتِها، فخلا الفلاَّحون في القُصور على ما لا يُحبّ، فأطال إمهالَهم فلمْ يستجيبوا، فدعا إليهم غيرَهم وأخرَجَهم منها، فإنْ ذَهَبوا عنهَا يَخْتَطِفهم الناسُ، وإنْ أقاموا فيها صاروا خَوَلاً[٤] لهؤلاء، فيَسومُونَهم الخَسْفَ أبدًا، والله لو لم يكن ما نقول حقًا ولم يكن إلاَّ الدُّنيا لما صَبَرْنا عن الَّذي نحن فيه من لذيذِ عيشِكم، ورأينا من زِبْرجكم، ولقَارَعْناكم[٥] عليه.

فقال رستم: أتعبُرون إلينا أم نَعبُر إليكم؟ فقالوا: بل اُعبُروا إلينا. ورجعوا من عِنْدِه عشِيًّا، وأرسل سعدٌ إلى النَّاسِ أن يقفُوا مَواقِفَهم، وأرسَلَ إليهم شأنُكم والعبُور، فأرادوا الجَوازَ على القنطرة فمَنعَهم المسلمون، وقالوا: أمّا شيءٌ غلبناكم عليه فلا نَرُدُّه عليكم، فباتوا يَسْكُرون[٦] العتيق بالتُّرابِ والقصب والبَراذِع حتَّى الصباح، وجعلوا طريقًا، واستتم بعدما ارتفع النهار. ورأى رُستم من اللَّيل كأنَّ مَلَكًا نزل من السَّماء، فأخذ قِسِيَّ أصحابِه فَخَتَم عليها، ثم صَعِد بها إلى السَّماء، فاستيقَظ مهمومًا، واَستدعَى خاصَّته فقصَّها عليهم، وقال: إنّ الله ليعِظنا لو اَتَّعظنا، ثم ركب، وعَبَر

(١) القشف: قذر الجلد وسوء الحال.
(٢) نميركم: نطعمكم.
(٣) نشب: أي وقع فيما لا مخلص منه.
(٤) الخول: الخدم.
(٥) قارع: قاتل.
(٦) يسكرون النهر: يسدون فاه بالتراب.

وعليه دِرْعَانِ ومِغْفَر[١]، وأخَذَ سلاحَه وعَبر الْفُرْسُ العتيقَ، ثم كانت الحربُ. والله تعالى أعْلَمُ بالصّواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر يوم أرماث

كان يوم أرْماث[٢] يوم الاثنين من المحرَّم سنة أربع عشرة؛ وذلك أن الْفُرْسَ لمَّا عَبَروا العَتيقَ، جلس رُسْتم على سَرِيره وضرب عليه طَيّاره، وعَبّى في القَلْبِ ثمانية عشر فِيلاً، عليها الصناديقُ والرّجالُ، وفي المجنِّبتين خمسة عشر؛ ثمانية وسبعة، وأقام الجالِينُوس بينه وبين مَيْمَنته، والفَيْرُزان بينه وبين مَيْسَرتِه، وكان يَزْدَجِرد قد وَضَع بينه وبين رُسْتم رجالاً على كلّ دَعْوَةٍ رجلًا، أوّلهم على بابِ إيوانه، وآخرهم مع رستم، فكُلَّما فعَل شيئًا قال الَّذي معه للَّذي يليه: كان كذا وكذا، ثم يقول الثاني ذلك للثالث، وهكذا إلى أن ينتهي إلى يَزْدَجِرد في أسرع وقت.

قال: وأخَذَ المسلمون مواقِفَهم، وكان بسعدٍ دَمامِيلُ وعِرْقُ النَّسا، فلا يستطيع الجلوسَ؛ إنَّما هو مُكِبٌّ على وجهِهِ، وفي صدرِه وِسادة، وهو على سطح القصر يُشرِفُ على النَّاسِ، فذكر النَّاسُ ذلك، وعابَه بعضُهم فقال في ذلك شعرًا: [من الطويل]

نُقاتِلُ حتَّى أنزَلَ اللّهُ نَصْرَهُ ... وسعدٌ بباب القادِسِيَّة مُعْصِمُ[٣]
فأُبْنَا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ... ونِسوةُ سَعْدٍ ليس فِيهنَّ أيِّمُ[٤]

فبلغتْ أبياتُه سعدًا، فقال: اللَّهم إنْ كان كاذبًا وقال الَّذي قاله رياءً وسُمْعةً فاقطع عنّي لسانَه، فإنَّه لَواقفٌ في الصّفِّ يومئذٍ أتاه سَهْم غَرْب[٥]، فأصاب لسانَه، فما تكلَّم بكلمةٍ حتَّى لَحِقَ بالله تعالى. ونزل سعدٌ إلى النَّاس فاعتَذَر إليهم، وأراهم ما به من القُروح في فَخِذيه وأَلْيَتَيْهِ، فعذَرَه النَّاس وعَلِموا حالَه. ولمّا عَجزَ عن الرُّكوبِ اسْتَخلَفَ خالدَ بنَ عُرْفُطَةَ على النَّاس، فاخْتُلِف عليه، فأخَذ نفرًا ممّن شَغَب[٦] عليه فحبَسهم في القَصْر، منهم أبو مِحْجَن الثَّقَفيّ، وقيل: بل كان قد حُبِس في الخمر.

---

(١) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.
(٢) أرماث: كأنه جمع رمث: اسم نبت بالبادية، آخره ثاء مثلثة. كان أول يوم من أيام القادسية. . .
(٣) المعصم: الممتنع.
(٤) آمت المرأة: أقامت بلا زوج بكرًا أو ثيبًا؛ أو فقدت زوجها.
(٥) سهم غرب: لا يدرى راميه.
(٦) شغب على القوم: هيج الشر بينهم.

وأعلم سعْد النَّاسَ أنّه قد استَخلف خالدًا، وإنَّما يأمرهم خالدٌ بأمرِه، فسمِعوا وأطاعوا. وأرسل سعدٌ نفرًا من ذوي الرأي والنَّجْدَة، منهم المغيرة، وحُذَيفة، وعاصم، وطُليحَة، وقيس الأَسَديّ، وغالب، وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم، ومن الشعراء: الشمَّاخ[١]، والحُطَيئة وأوْسُ بنُ مَغراء[٢]، وعَبْدةُ بنُ الطبيب[٣] وغيرهم، وأمَرَهم بتحريض النَّاس على القِتال ففَعلوا، وكان صَفُّ المشركين على شَفِير العتِيق، وصفُّ المسلمين على حائط قُدَيْس، والخنْدَق من ورائهم، وكان المسلمون والمشركون بين الخَنْدَق والعتيق، وأمر سعد النَّاسَ فقرؤوا سورةَ الجهاد، وهي الأنفال، فلمّا فرغ القُرّاء منها قال سعد: الزَمُوا مَواقِفكم حتى تُصَلُّوا الظهر فإذا صَلَّيْتم فإنِّي مُكبِّرٌ فكبِّروا واستعدُّوا، فإذا سمعتم الثانية فكبِّروا ولْتَسْتَتِمَّ عُدّتكم، ثم إذا كبَّرتُ الثالثةَ فكبِّروا، ولِيُنشِّط فُرسانكُم النَّاسَ، فإذا كبَّرتُ الرابعةَ فأزحَفوا حتَّى تُخالِطوا عدوَّكم، وقولوا: لا حولَ ولا قوّة إلاَّ بالله. فلما كبَّر سعد الثالثة برز أهل النَّجَداتِ فأنشَبوا القتال، وخرج إليهم من الفُرسِ أمثالهم.

فبرز غالب بنُ عبد الله الأسَدِيّ، فخرج إليه هُرْمُز، وكان من ملوك الباب، وكان متوَّجًا، فأَسَرَهُ غالب وأتَى به سعدًا. وخرج عاصم بن عمرو فطارَدَ فارسِيًّا، فانهزم، فاتَّبعه عاصم حتى خالط صفَّهم فحمَوْهُ، فأخذ عاصمٌ رجلاً على بغْلٍ وعادَ بِهِ، فإذا هو خبّاز المَلِك، معه طعامٌ مِن طعامِ المَلِك وخَبِيصةٍ[٤]، فأتَى به سعدًا فنَفَّله أهل موقفه.

وخرج فارسيٌّ يَطلبُ البِراز، فبرز إليه عَمرو بن مَعدِي كَرِب، فأخذه وجَلَدَ به الأرضَ وذَبَحه، وأخذ سِوارَيْه ومِنطقَتَه[٥].

(١) الشماخ: هو معقل بن ضرار... كان جاهليًا إسلاميًا... وهو من أوصف الشعراء للقوس والحمر... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

(٢) أوس بن مغراء: هو من بني ربيعة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد وكان يهاجي النابغة الجعدي وهو القائل في بني صفوان الذين كانت فيهم الإفاضة من عرفة، وهم بنو صفوان بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد... (طبقات الشعراء).

(٣) عبدة بن الطبيب: هو من بني عبشمس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ويقال لعبشمس قريش سعد لجمالهم... (طبقات الشعراء).

(٤) الخبيصة: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

(٥) المنطقة: ما يشد به الوسط.

وحَمَلت الفِيَلةُ على المسلمين، ففرَّقتْ بين الكتائِب، فنفرَت الخيلُ، وكانت الفُرسُ قد قصدتْ بَجيلةَ بسبعة عشر فِيلًا، فنفرتْ خيلُ بَجِيلةَ، فكادَتْ بَجِيلةُ تَهلِكُ لِنِفار خيلِها عنها وعمَّنْ معها.

فأرسل سعدٌ إلى بني أَسَد أن دافِعوا عن بَجِيلة ومَنْ معها، فخرج طُليحةُ بنُ خُوَيلد، وحَمَّال بن مالِكٍ في كتائبهما، فباشَروا الفِيلة حتَّى عدلها رُكْبانُها، وخرج إلى طُليحَة عظيمٌ منهم، فقتله طليحة.

وقام الأشعثُ بنُ قيس في كندة، فأزالوا مَنْ بإزائهم من الفُرْس، ثم حَمَل الفُرْس، وفيهم ذو الحاجب والجالِينُوس، والمُسلمون ينتظرون التكبيرةَ الرّابعة من سَعْدٍ، فٱجتمعت الفُرْسُ على أَسَدٍ ومعهم تلك الفِيلةُ فثَبَتُوا لهم، وكَبَّرَ سعْدٌ الرابعة، فزَحَف المسلمون إليهم، ورَحَا الْحربِ تَدورُ على أسدٍ، وحَملتِ الفُيُول على ٱلْميمنة والْمَيْسَرة، فحادَت الخيولُ عنها، فأرسَل سعدٌ إلى عاصم بنِ عمرو، فقال: يا معشرَ بني تَميم، أما عندكم لهذه الفِيلَة مِن حِيلةٍ؟ قالوا: بلى واللّهِ.

ثمّ نادى عاصم في رجال من قومه رُماةٍ وآخرَين، لهم ثقافة[(١)]، فقال: يا معشر الرُّماةِ؛ ذُبُّوا[(٢)] ركْبان الفِيلَة عنهم بالنَّبلِ، ويا معشرَ أهْلِ الثَّقافةِ؛ اسْتَدْبِروا الفِيَلة، فقطِّعوا وُضُنَها[(٣)]. وخرج يَحمِيهم وقد جالت المَيمنَة والمَيْسرة، وأقبَل أصحابُ عاصم، فأخذوا بأذناب الفِيلَة فقطَّعوا وُضُنَها، وٱرتفع عُواؤُهُم، فما بقيَ فِيلٌ إلاَّ عوَى، وقُتِلَ أصحابُها، ونُفِّس عن أسدٍ، ورُدَّ الفُرسُ عنهم إلى مَواقفهم، ودام القتالُ حتَّى غَربت الشمسُ، وحتَّى ذهبتْ هدْأَةٌ[(٤)] من اللّيل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وقد أُصيب من أسَد تلك الليلة خمسمائة، وكانوا رِدْءًا للنَّاس، وكان عاصمٌ حامِيَةً للنَّاس.

وكان سعدٌ توّج سَلْمَى ٱمرأةَ المثنَّى بنَ حارثة بعدَه، فلما جال النَّاسُ في هذا اليوم، جعل سعدٌ يتململ جَزَعًا على النَّاس وهو لا يُطيق الجلوس، فلمَّا رأتْ ما يَصْنَعُ الفرس، قالت: وامثنّاه، ولا مُثنَّى للخيلِ اليومَ! فَلَطَمَ وجهَها وقال: أين المثنَّى عن هذه الكَتيبةِ ٱلَّتي تدور عليها الرحَا؟ يعني أَسَدًا وعاصمًا؛ فقالت: أَغَيْرةً وجُبْنًا! فقال: واللّهِ لا يَعْذِرني أحدٌ إنْ لم تَعْذِريني، وأنتِ تَرَيْنَ مَا بي. . والله تعالى أعلم بالصَّواب، وحَسْبنا اللّهِ ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

---

(١) ثقف فلان: صار حاذقًا فطنًا.
(٢) ذب الشيء: طرده ودفعه عنه.
(٣) الوضن: جمع وضين؛ وهو ما يشد به الرحل على البعير.
(٤) هدأة من الليل: جزء منه.

ذكر أغواث[1]

قال: لما أصبَحَ سعدٌ وَكَّلَ بالْقَتْلَى مَنْ يَنقلُهم ليُدْفَنوا، وأسلَمَ الجَرْحَى إلى النِّساءِ يَقُمن عليهم، فبينا الناس على ذلك إذ طَلَعَتْ نواصي الخَيْلِ من الشَّام، وكان عُمَر لمَّا فُتحَتْ دِمَشقُ قد كَتَب إلى أبي عُبَيدة يأمره بإرسال أهلِ العِراق، فأرسَلَهم وأمَّر عليهم هاشمَ بن عُتْبة بن أبي وَقَّاصٍ، وَعَلَى مقدِّمته القَعْقاع بنُ عمرو، فتعجَّل القَعقاع، فقَدِم على الناس صبيحةَ هذا اليوم، وقد عَهِد إلى أصحابه أن يتقطَّعوا أعشارًا وهم ألفٌ، كُلَّمَا بلغ عشرةٌ مدَّ البَصَر سرَّحوا عشرةً، وتقدَّمَ هو في عَشَرَة، فأتى النَّاسَ فسلَّم عليهم، وبشَّرهم بالجُنودِ، وحَرَّضَهم على القِتالِ؛ وقال: اصنَعوا كما أصنَع، وطَلَب البِراز، فخرج إليه ذو الحاجب، فعَرَفَه القَعْقاع، ونادى: يا لَثَاراتِ أبي عُبيد وسَلِيط وأصحابِ الجِسْر! واقتتلا، فقَتله القَعْقاع.

وجعلتْ خيلُه تَرِد إلى اللَّيل، ونَشِط النّاسُ، وكأن لم تكن بالأمس مصيبة، وانكسرت الأعاجم لقتل ذي الحاجب، فطلب القعقاعُ البرازَ، فخرج إليه الفيرزان والبندوان، فانضمَّ إلى القَعْقاع الحارثُ بن ظَبْيان، ونادى القعْقاع: يا معشر المسلمين، باشِروهم بالسُّيوف، فإنما يُحصَد النّاسُ بها، فاْقتَتَلوا حتى المساء، فلم يَرَ أهلُ فارسَ في هذا اليوم ما يُعْجِبُهم، وأكثرَ المسلمون فيهم القتْلَ، ولم يقاتِلوا في هذا اليوم على فِيلة؛ كانت توابيتُها[2] قد تكسَّرتْ بالأمس، فاستأْنفوا عمَلَها، وحَمل بنو عمِّ القَعقَاع عشرةً عشرةً على إبلٍ قد ألْبَسوها وجلَّلوها وبَرْقَعُوها، وطافتْ بهم خيولُهم تَحْميهم، وأمرهم القعقاعُ أن يَحملوا على خيل الفُرْس يتشبَّهون بالفِيلَة، ففعلوا في يومِ أغواث، كما فَعلَ الفُرْسُ في يوم أرْماث، فنفرت خيلُ الفُرس من الإبل، فلقُوا منها أعظَمَ ما لقيَ المسلمون من الفِيَلَة، وحَمَل القعقاعُ يومئذ ثلاثين حملةً، كلَّما طلَعَتْ قطعةٌ حَمَل حملة، وأصابَ فيها، وقيل: وكان آخرهم بُزُرْجُمِهْر الهَمَذانيّ.

وكان أبو مِحْجَن الثَّقَفِيُّ، واسمُه مالكُ بنُ حبيبٍ، وقيل: عبدُ اللّهِ بنُ حبيب بن عمرو بن عُمَير بن عوف بن عُقْدة بن غبرَة بن عَوفِ بن قَسِيّ، وهو ثَقيف، قد حُبِسَ في القَصر وقُيِّد.

---

(١) أغواث: يقال لليوم الثاني من أيام القادسية يوم أغواث... ولا يدري صاحب معجم البلدان أهذا اسم موضع أم هو من الغوث.

(٢) التابوت: الصندوق الذي يحرز فيه المتاع.

واختُلف في سبب ذلك؛ فقيل: كان قد خَالَف على خالدِ بنِ عُرْفُطَة خليفة سَعْدٍ، وقيل: بل كان عُمَر قد جلَده في الخمر مِرارًا ثمانيةً وهو لا يتوبُ ولا يُقْلِع، فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه رَجُلًا، فهرَب منه ولحِق بسَعْدٍ، فكتب إليه عمرُ بحَبْسه. وقيل: بل كان مع سعدٍ، فأُتِيَ به وهو سَكرانُ، فأمَر به إلى القَيْد، فلما التَحَم القتال قال: [من الطويل]

كفى حَزَنًا أنْ تَرْدِيَ الخيلُ بالقَنَا ... وأُتْـرَكَ مَـشْـدُودًا عـلـيّ وثـاقـيَـا

إذا قمتُ عَنَّانِي الحديدُ وأُغْلِقتْ ... مصَارِعُ مِنْ دوني تُقِيمُ المُنادِيا[1]

وقـد كـنـتُ ذا مـالٍ كـثـيـرٍ وإخـوةٍ ... فـقـد تـركـوني واحـدًا لا أخَـالِـيَـا

وقد شَفَّ جسمي أنّني كلَّ شارقٍ ... أُعالج كَبْلًا مُصْمَتًا قد بَرانيا[2]

فـلـلّـه دَرّي يـومَ أُتـرَكُ مُـوثَـقًـا ... وتَـذْهَـلُ عـنّـي أُسْـرَتـي ورِجـالِـيـا

حَبيسًا عن الحرب العَوانِ وقد بَدَتْ ... وإعْمَالُ غيرِي يومَ ذاكَ العَوالِيَا[3]

ولِـلّـه عـهـدٌ لا أخِـيـسُ بـعَـهْـدِهِ ... لـئـن فُـرجـتْ ألاّ أزورَ الـحـوانـيـا[4]

ثم قال لسَلْمى ابنه خَصَفة امرأة سَعْدٍ: وَيْحَكِ! خلّيني، ولكِ عهدُ اللّهِ إن سلّمني اللّهُ أن أجِيءَ حتى أضعَ رِجْلي في القَيْدِ، وإنْ قُتلتُ استرحتمْ منّي، فَحلَّتْ عنه، فوثَبَ على فرسٍ لسعدٍ يقال لها: البَلْقَاء، ثم أخذ الرُمْح وانطَلَق حتى كان بحيالِ المَيْمنة كبَّر، ثم حَمَل على مَيْسرةِ الفُرسِ، ثم رَجَع من خَلْف المسلمين وحَمَل على مَيْمنتِهِمْ، وكان يَقصِف[5] النّاس قَصْفًا منكَرًا، فتعجب النّاسُ منه وهم لا يَعرِفونه، فقال بعضُهم: هو من أصحابِ هاشم، أو هاشم نفسه. وقال بعضُ الناسِ: هو الخَضِر. وقال بعضُهم: لولا أنّ الملائكة لا تُباشِر الحربَ لقُلْنا إنّه مَلَك.

وجعل سعدٌ يقول حين ينظرُ إليه وإلى الفُرسِ: الصَّبْرُ صَبْرُ البَلْقاءِ، والطعنُ طعنُ أبي مِحْجَن. وأبو محجنٍ في القَيْد، فلما انتَصَفَ اللَّيْلُ وتراجعَ المسلمون والفُرْسُ، أقبلَ أبو محْجن فدَخلَ القصرَ، وأعادَ رِجلَيه في القَيْدِ، وقال: [من الوافر]

لـقـد عَـلِـمَـت ثـقـيـفٌ غَـيْـرَ فَـخْـرٍ ... بـأنّـا نَـحْـنُ أكـرمُـهـم سُـيـوفَـا

وأكـثَـرُهـم دُرُوعًـا سَـابِـغَـاتٍ ... وأصْـبَـرُهـم إذا كَـرِهُـوا الـحُـتـوفـا[6]

(١) عنّاه الشيء: اعترضه.
(٢) الكبل: القيد من أي شيء كان.
(٣) حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى.
(٤) خاس العهد: نقضه وخانه.
(٥) يقصف الناس: يضربهم ضربًا منكرًا.
(٦) الحتف: الهلاك؛ الموت؛ أو القتل.

وأنَــا وفْــدُهــم فــي كــلِّ يــومٍ فإن عَمِيُوا فسَلْ بهِمُ عَرِيفا[١]
ولـيـلـةَ قـادِسٍ لـم يَشـعـروا بـي ولـم أُشعرْ بمَخْرَجيَ الزُّحوفا
فـإنْ أُحـبَـسْ فـذلِـكُـم بَـلائِـي وإنْ أُتـرَكْ أُذيـقـهُـمُ الـحُـتُـوفَـا

فقالت له سَلْمى: في أيِّ شيءٍ حَبَسك؟ فقال: أمَا والله ما حَبَسني بحرام أكَلْته ولا شَرِبْتُه؛ ولكنِّي كنتُ صاحبَ شراب في الجاهليَّةِ، وأنا امرؤٌ شاعر يَدِبُّ الشِّعرُ على لساني، فقلت مرتجِلاً في ذلك أبياتًا:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلى أصلِ كَرْمَةٍ تُروِّي عِظامِي بعد مَوْتِي عُروقُهَا
ولا تَـدْفِـنَـنِّـي بـالـفَـلاةِ فـإنَّـنِـي أخــافُ إذا مــا مِــتُّ ألاَّ أذوقــهــا

فلذلك حَبَسني، فلمَّا أصبحَتْ أتت سَعْدًا فصالحتْه وأخبَرَتْه بخبرِ أبي مِحْجَن، فأطلَقَه، وقال: اذهبْ، فما أنا بمؤاخِذِكَ بشيءٍ تَقولُه حتَّى تَفعلَه، قال: لا جَرَمَ واللّهِ لا أُجيبُ لساني إلى قبيح أبدًا.

وقد قيل: إنَّ سعدًا لمّا أُخبِرَ بأمرِهِ دَعاه وحَلَّ قُيودَه، وقال: لا تَجلَدنَّ على الخمر أبدًا، فقال أبو مِحجَن: وأنا واللّهِ لا أشرَبُها أبدًا، فقد كنتُ آنَفُ أنْ أدَعَهَا من أجلِ جَلْدِكم.

وقيل: بل قال: قد كنتُ أشربُها إذ يقامُ عَلَيّ الحدُّ وَأطْهُر منها، فأمَّا إذْ بَهْرَجْتَنِي[٢] فوالله لا أَشْرَبُها أبدًا.

ذكر يوم عماس[٣]، وهو اليوم الثالث

قال: وأصبحَ الناس في هذا اليوم وبين الصفَّيْن من صَرْعَى المسلمين ألفان من جَريح وقتيلٍ، ومن المشركين عشرةُ آلافٍ، فَنَقَل المسلمون قَتْلاهم إلى المَقابر، وجَرْحاهم إلى النِّساء، وكان النساء والصِّبْيان يَحفرون القُبور ويُداوُون الجَرْحى. وأمّا قتلى المشركين فبين الصَّفَّين لم يُنقَلوا، وبات القَعقاعُ تلك الليلة يُسَرِّبُ[٤] أصحابَه إلى المكان الَّذي كان فارَقَهم فيه، وقال: إذا طلعت الشَّمسُ فاقتلوا مائةً مائةً، فإن جاء هاشم فذاك، وإلاَّ جَدَّدْتُمْ للنَّاسِ رَجاءً جديدًا. ولم يَشعر به أحد، وأصبح النَّاسُ على مواقِفهم.

---

(١) العريف: رئيس الجماعة.
(٢) بهرجتني: زيفتني ولم تسمع قولي.
(٣) يوم عماس: اليوم الثالث من أيام القادسية ولا يعرف صاحب معجم البلدان إن كان عماس اسم موضع أو هو من العمس.
(٤) سرّب القوم: تتابعوا؛ أو أرسلهم الواحد تلو الآخر.

فلما بزَغَت الشمسُ أقبلَ أصحابُ القعقاع، فحين رآهم كبَّر وكبَّر المسلمون، وتقدَّموا وتكتَّبت[١] الكتائبُ، واختلف الطَّعْنُ والضَّرْبُ، والمدَدُ متتابع، فما جاء آخِرُ أصحابه حتَّى أنتهى إليهم هاشم، فأُخبِر بما صنع القَعْقاع، فعبَّى أصحابَه سَبْعين سَبْعين، وكان فيهم قيس بنُ هُبَيْرة المعروف بأبن المكْشوح المُراديّ، فكبَّر وكبَّر المسلمون، ثم حَمَل على الفُرْسِ فقاتَلَهم حتى خَرق صفَّهم إلى العَتيق ثمّ عاد، وكانت الفُرْس قد أصلحوا توابيتَهُم وأعادُوا على الفِيَلة، وأقبلت الرَّجّالة حَوْل الفِيَلة يَحْمُونها أن تُقطَع وُضُنَها، ومع الرَّجّالةِ فُرسانٌ يَحمُونهم، فلم تَنفِر الخيلُ منهم كما كانت؛ لاختلاط خيل الفُرْس ورجالِها بها.

قال: ولما رأى سعد الفيُولَ، وقد فرّقَت الكتائبَ وعادت لفِعلِها، أرسَل إلى القعقاع وعاصمَ أبنَي عمرو: أن أكفِياني الفِيلَ الأبيض، وكان بإزائِهما والفُيُولُ كلُّها آلِفةٌ له.

وقال لحَمّال والرِّبيل: اكفِياني الفيلَ الأجْرَبَ وكان بإزائهما، فحمل القعقاع وعاصم برُمْحَيْهما وتقدَّما في خيل ورَجْلٍ حتَّى وضعاهما في عَيني الفيل الأبيض، فنفَض رأْسَه، وطَرحَ ساسَتَه، ودَلَّى مِشْفَره. فضربَه القَعقاعُ، فرَمَى به ووقع لجَنْبه، وقَتلوا من كان عليه. وحمل حَمّالُ والرِّبّيل الأسَدِيّان على الفيل الأجرب، فطعنه حَمّال في عَيْنه فأقعَى[٢]، ثم أستوَى، وضربَه الرِّبيل فأبانَ مِشْفَره، فتحيّر الفيل؛ إذا جاءَ إلى صفّ المسلمين زَجَروه بالرِّماح ليَرجع، وإذا أتى صفَّ الفُرْس نَخَسوه ليتقدّم، فولَّى الفيلُ وألقَى نَفْسَه في العَتيق، وتبعتْه الفِيَلَة فخرقتْ صفوفَ الأعاجم. وأقتتل الفريقان حتَّى المساء وهم على السَّواء، فلما أمسَى النّاسُ أشتدّ القتال، وصَبَر الفريقان فخرجَا على السَّواء. ثم كانت ليلة الهَرير. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيدنا محمد.

ذكر ليلة الهرير

قيل: وإنَّما سُمّيتْ بذلك لتركهم الكلام، وإنَّما كانوا يَهرُّون هَرِيرًا، وهي اللَّيلة الَّتي تَلِي يوم عماس. قال: وخرج مسعودُ بنُ مالكٍ الأسَديّ، وعاصمُ بنُ عَمرو، وقيسُ بنُ هُبيرة وأشباهُهم، فطارَدوا القومَ، فإذا هم لا يَشُدُّون ولا يُريدون غير الزَّحْفِ،

(١) تكتبت: اجتمعت.
(٢) أقعى: جلس على أليتيه ونصب ساقيه وفخذيه.

فقدَّموا صفوفَهم، وزاحَفهم النَّاسُ بغير إذن سَعْدٍ، فكان أوّل من زاحَفَهم القَعْقَاع، فقال سعد: اللَّهم اغفِرْها له وانْصُرْه، قد أذِنْت له إذْ لم يَستأْذِنِّي. ثم قال: أرى الأمرَ ما فيه هذا، فإذا كبَّرتُ ثلاثًا فاحمِلوا، فكبَّر واحدةً، فحملتْ أسَد ثم النَّخع، ثم بَجِيلة، ثم كِنْدة، وسعد يقول عند حملةِ كلٍّ منهم: اللَّهم اغفرها لهم، وانصُرْهُم؛ ثم زَحَف الرؤساء، ورَحَا الحرب تَدُورُ على القَعْقاع، ولمّا كبّر الثَّالثةَ لحِق النَّاسُ بعضُهم بعضًا، وخالَطوا القومَ، فاستقبلوا اللَّيلَ بعدما صلّوا العِشاء، واقتَتَلوا ليلتهم إلى الصَّبَاح، فلمّا كان عند الصُّبح انتهى النَّاسُ، فاستدلَّ سعدٌ بذلك على أنَّهم الأعْلَوْنَ.

ذكر يوم القادسية وقتل رستم وهزيمة الفرس

قال: وأصبَح النَّاسُ من لَيْلة الهَرِير ـ وتُسمَّى ليلةَ القادسيَّة ـ وهم حَسْرَى[1]، لم يُغمِضُوا ليلتَهم كلَّها؛ فسار القعقاعُ فقال: إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ، فاصبرُوا ساعةً واحمِلوا؛ فإنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْر.

فاجتمع إليه جماعةٌ من الرؤساء صَمَدوا لرُسْتم حتى خالَطوا الَّذين دونه، فلمّا رأتْ ذلك القبائلُ قام فيهم رؤساؤُهم، وقالوا: لا يكوننَّ هؤلاء أجدَّ في أمرِ الله منكم، ولا هؤلاء ـ يعني الفُرْس ـ أجرأ على الموتِ منكم، وحَمَلوا وخالَطوا مَنْ بإزائهم، فاقتَتَلوا حتى قامَ قائمُ الظَّهيرة، فكان أوّل من زالَ الفَيْرُزان والهُرْمُزان، فتأخَّرا وثَبَتَا حيثُ انتَهَيا، وانفرجَ القلبُ ورَكَد عليهم النَّقْعُ[2]، وهبَّتْ ريح عاصفٌ دَبُور[3]، فقلعتْ طيّار رُسْتم عن سَريره، فهوَى في العَتِيق، ومالَ الغبارُ على الفُرسِ، وانتهى القَعْقاع ومن معَه إلى السَّرير فعثَروا به، وقد قام رُستم عَنْه حين أطارت الرِّيحُ الطيَّار، واستَظَلَّ بِظِلِّ بغلٍ من بغالٍ كانت قد قدِمتْ عليها حُمول، فضرب هِلالُ بنُ عُلَّفة حِمْل البَغْلِ الَّذي تَحت رُستم، فقطع حِبالَه وسَقطَ عليه، فأزاله رُسْتم عن ظَهْره، ثم ضربه هلالٌ ضربةً، ففرَّ نحو العتيق، وألقَى نفسَه فيه، فاقتحَمَه هِلالٌ عليه، وأخذ يزجله[4] ثم خرج به، وضرب جَبينَه بالسَّيفِ حتَّى قتَله، ثم صَعد على السَّرير وقال: قتلتُ رستم وربِّ الكَعْبة؛ إليَّ إليَّ! فنفَله سعد سَلَبه، وكان قد أصابه الماءُ، ولم يظفر بقَلَنْسُوته[5]، وكانت بمائةِ ألفٍ.

---

(١) الحسرى: الذين أسفوا وتلهفوا. (٢) النقع: التراب.

(٣) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصّبا.

(٤) يزجله: أي يعلقه برجليه.

(٥) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

وقيل: إنَّ هلالَ بن عُلَّفة لمّا قَصَد رستم رماه بنُشابة أثبَتَتْ قَدمَه بالرِّكاب، فَحمَل عليه هلالٌ فضَرَبه فقتَله، ثم احتزَّ رأسَه فعلَّقه ونادَى: قتلتُ رُسْتم! فانهزمَ قلبُ المشرِكين، وقام الجالينُوس على الردْم، ونادى الفرس إلى العبور، وانهزموا وأخذهم السيف والإسار، وأخَذَ ضِرارُ بنُ الخَطَّاب الدِّرَفس، وهو العَلَم الأكبر الَّذي كان للفُرْس، فعوّض عنه بثلاثين ألفًا، وكانت قيمته ألف ألفٍ ومائتيْ ألفٍ، وجُعِل في بيتِ المال.

وقُتِل في هذه المعركة من الفُرسِ عشرةُ آلافٍ سِوَى من قُتل قبلَها، وأما المُقْترنُونَ فما أفلَتَ منهم مخبِر، وهم ثلاثون ألفًا.

وقُتِل من المسلمين قبل ليلةِ الهرَير ألفان وخمسمائة، وقُتِل في ليلة الهرَير ويومِ القادسيّة ستّة آلاف، فدُفِنوا بالخَندق، ودُفِن من كان قبل ليلةِ الهَرير على مشرّق[١].

* * *

وكان ممن استُشهد في حَرْب القادسيّة بنو خَنْساءَ الأربعة، وكان من خبرَهم أنَّ أمَّهم الخَنْساء الشاعرةَ بنتَ عمرِو بنِ الشَّريد السُّلَميّة، حضرت القادسيَّة ومعها بنوها الأربعة، وهم رجالٌ، فقالت لهم مِنْ أوّلِ اللَّيْل: يا بَنِيّ، إنكم أسلَمْتُم طائعين، وهاجَرْتُمْ مختارِين، ووالله الذي لا إله إلاّ هو، إنَّكم لبَنُو رَجُلٍ واحدٍ، كما أنَّكم بنو امرأة واحدةٍ، ما خُنْتُ أباكم، ولا فَضَحْت خالَكُم، ولا هجَّنْتُ[٢] حَسَبكم، ولا غيَّرْتُ نَسَبكم؛ وقد تَعلَمون ما أعدَّ الله للمُسلمين من الثَّوابِ الجزيلِ في حَرْب الكافرين، واعلَموا أنَّ الدارَ الباقيةَ، خيرٌ من الدَّارِ الفَانيةِ؛ يقول الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالِمين، فاغْدُوا إلى قِتال عدوّكم مُسْتَبْصِرين، وبالله على أعدائه مستَنْصِرين، فإذا رأيتم الحربَ قد شمَّرت عن ساقِها، واضطرَمَتْ لظًى على سُبّاقِها[٣]، وجُلِّلتْ نارًا على أوْراقِها، فتيمَّموا وَطِيسَها[٤]، وجالِدوا رئيسَها؛ عند احتِدام خَمِيسها[٥]، تَظفَروا بالغُنْم والكرامة، في دار الخُلْدِ والمُقامة. فخرج بنوها قابلين لنُصحِها، عازمين على قَوْلها، فلمّا أضاء لهم الصّبحُ باكَروا مَراكزَهم، وأنشأ أوّلُهم يقول: [من الرجز]

يا إخوتي إنَّ العجوزَ النَّاصِحهْ   قد نصحَتْنا إذ دعَتْنا البارِحَهْ

---

(١) المشرّق: بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الراء وكسرها: واد بين العذيب وعين شمس في عدوتيه الدنيا منهما إلى العذيب والقصوى منهما من العذيب ومن عين شمس، دفن فيهما شهداء يوم القادسية... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) هجنت الحسب: جعلته هجينًا، والهجين: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية.

(٣) السّبّاق: الكثير السبق. (٤) الوطيس: المعركة.

(٥) الخميس: الجيش.

مـقـالـةً ذات تـبـيَـانٍ واضِـحـهْ — فباكِروا الحربَ الضَّروسَ الكالِحَهْ(١)
وإنَّـمـا تَـلْـقَـوْن عـنـد الصَّـائـحـهْ — مـن آل سـاسـان كـلابًـا نـابـحَـهْ(٢)
قـد أيْقَنُوا منكمْ بوقْعِ الجائحَهْ — وأنـتـمُ بـيـن حـيـاةٍ صـالِـحَـهْ(٣)
* أو مَـوْتَـةٍ تـورِثُ غُـنْـمًـا رابـحَـهْ *

وتقدَّم فقاتلَ حتّى قتِل، ثم حمَلَ الثّاني وهو يقول: [من الرجز]

إنَّ الـعـجـوزَ ذاتُ حَـزمٍ وجَـلَـدْ — والـنَّـظـرِ الأوْفَـقِ والـرَّأيِ الـسَّـدَدْ
قـد أمـرَتْـنَـا بـالـسَّـدادِ والـرَّشَـدْ — نـصـيـحـةً مـنـهـا وَبِـرًّا بـالـولَـدْ
فبادِروا الـحـربَ حُـمـاةً في الـعَـدَدْ — إمَّـا لـفَـوْزٍ بـارِدٍ عـلـى الـكـبِـدْ
أو مـيـتـةٍ تُـورِثـكـم غـنـم الأبَـدْ — في جَنَّةِ الفِرْدَوسِ والعيشِ الرَّغَدْ

وقاتل حتى اسْتُشْهِدَ. ثم حَمَل الثالث وهو يقول: [من الرجز]

والله لا نَـعْـصِـي الـعـجـوزَ حَـرْفـا — قـد أمَـرَتْـنَـا حَـدَبًـا وعَـطْـفَـا(٤)
نُـصْـحًـا وبـرًّا صـادقًـا ولُـطْـفَـا — فباكِروا الـحَـرْب الـضَّـروسَ زَحْـفَـا
حـتـى تَـلُـفُّـوا آل كـسـرَى لَـفَّـا — أو تَكشِفوهم عن حِماكم كَشْفَا
إنَّا نـرى الـتَّـقْـصِـيرَ منكمْ ضَعْفا — والـقـتـل مـنـكـمْ نـجـدةً وعُـرْفـا(٥)

وقاتَل حتّى استُشهِد. ثم حَمَل الرابع وهو يقول: [من الرجز]

لـسـتُ لـخَـنْـسـاءِ ولا لـلأخْـرم — ولا لـعَـمـرِو ذي الـسَّـنـاءِ الأقْـدَم(٦)
إنْ لم أُرِدْ في الجيْشِ جَيْشِ الأعجمِ — ماضٍ على الهوْلِ خِضَمٌّ خِضْرِمِ(٧)
إمّـا لـفَـوْزٍ عـاجـلٍ ومَـغْـنَـمِ — أو لـوَفـاةٍ فـي الـسَّـبـيـل الأكـرمِ

وقاتَلَ حتى قُتِلَ؛ رحمهم الله.

فبَلَغَها الخبرُ، فقالت: الحمدُ للّهِ الذي شَرَّفَني بقَتْلهم، وأرجو من رَبِّي أن يَجْمعني بهم في مستقرِّ رحمته.

(١) حرب ضروس: شديدة مهلكة. (٢) الصائحة: صيحة المناحة.
(٣) الجائحة: المصيبة تحل بالرجل فتجتاحه كله.
(٤) حدبت المرأة: امتنعت عن الزواج بعد أبي ولدها رأفة به.
(٥) العُرف: الصبر.
(٦) الأخرم: الذي انشق ما بين منخريه؛ أو الذي انشقت أذنه.
(٧) الخضرم: الكثير الواسع من كل شيء.

فكان عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه يُعطي الخَنْسَاءَ أرزاقَ أولادِها الأربعةِ؛ لكلِّ واحد مائتَيْ دِرْهَم؛ حتى قُبِضَ رضي الله عنه.

حكاه أبو عُمر بنُ عبدِ البَرِّ في تَرْجَمة الخَنْسَاء.

* * *

نعودُ إلى بقيّة أخبار القادسيّة؛ قال:

وجُمِعَ من الأسلابِ والأمْوَالِ ما لَم يُجمع قبلَه مِثلُه، وأمَر سعدُ القعقاعَ وشرحبيلَ باتِّبَاعِهِمْ، وخرج زُهْرةُ بنُ الحويَّة التَّمِيميّ في آثارهم في ثلاثمِائة فارس، فلحق الجالينوسَ، فقتله زُهْرة وأخَذَ سَلَبَه، وقتلوا أكثرَ الفُرْس وأسروهم.

قيل: رؤي شابٌّ من النَّخَع وهو يَسُوق ثمانين أسيرًا من الفُرسِ، وكان الرجل يُشير إلى الفارسيّ فيأتيه فيَقْتُله؛ وربّما أخذَ سلاحَه فقَتَلَه به؛ وربّما أُمِرَ الرجلُ فقَتَلَ صاحبَه.

ولَحِقَ سلمانُ بنُ ربيعةَ الباهِليّ وعبدُ الرحمٰن بنُ ربيعةَ بطائفة من الفُرْس قد نَصَبُوا رايةً وقالا: لا نَبرح حتَّى نموتَ. فقتَلَهُمْ سَلمانُ ومن معه، وكان قد ثَبتَ بعد الهزيمة بضعةٌ وثلاثون كَتِيبةً من الفُرْسِ، استحْيَوْا من الفِرارِ، فَقَصَدهم بضعةٌ وثلاثون من رؤساء المسلمين، لكلّ كتيبة منها رئيس، فَقَتَلهم المسلمون.

وكتب سعدٌ إلى عمرَ بالفَتْح، وبِعدّةِ مَنْ قُتِلوا، ومن أُصيب من المسلمين، وسَمَّى من يَعْرِف، وبعثَ بذلك سعدَ بنَ عُمَيلة الفَزارِيّ، واستأْذنه فيما يفعَل. وأقام بالقادسيّة ينتظر جوابَه، فأمَره بالمسير إلى المَدائن[1]، وأن يخلِّف النساءَ والصِّبيانَ بالعَتيق، ويجعل معهمْ جُنْدًا كَثِيفًا، ويَشرَكُهم في كُلِّ مغنم؛ ما داموا يَخلفُون المسلمين في عِيالاتهم؛ ففعَل.

قيل: وكانت وقعة القادسيةِ في سنة ستَّ عشرة. وقيل: في سنة خمسَ عشرةَ، وأوْرَدَها أبو جعفر الطَّبريُّ في سنة أربعِ عشرة، وأوْرَدَها أبو الحسن بنُ الأثير في تاريخه «الكامل»، في حوادث سنة أربعِ عشرةَ؛ وذكر الخلاف فيهما. والله سبحانه وتعالى أعلم. فلنذكر ما كان بعدَ القادِسيَة والله تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) المدائن: كانت مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون... ثم رومية... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ما كان بعد القادسية من الحروب والأيام
يوم بُرْس[١]، ويوم بابِل، ويوم كُوثَى[٢]

وهذه الوقائع والأيّام الّتي نذكرها في هذا الموضع تحت هذه التّرجمة، قد أورَدَهَا أبو الحسن عليّ بنُ الأثير - رحمه الله - في تاريخه (الكامل) في حوادثِ سنة خمسِ عشرة، كأنه رَجَّح قولَ أهلِ الكوفة: إنّ وقعة القادسيّة كانت في سنة خمس عشرة.

قال: لمّا فرغَ سعدٌ من القادسيّة أقامَ بها بعد الفتح شهريْن، وكاتَبَ عمرَ فيما يفعل، فكتَبَ إليه بالمسير إلى المدائن كما قدّمنا، فسار من القادسيَّةِ لأيّام بَقِين من شوّال، وكُلُّ الناسِ فارس، قد نَقَل الله إليهم ما كان في عَسْكر الفُرسَ، فوصلتْ مقدِّمة المسلمين بُرس وعليها عبدُ الله بن المعتمّ، وزهرة بن الحَوِيَّة وشُرَحبيل بن السِّمْط، فلقيَهم بها بصبهرى في جمع من الفرس، فهزمهم المسلمون إلى بابل، وبها رؤساء القادسية: النَّخِيرجان، ومهران الرَّازيّ، والهُرْمزان وأشباههم.

وقد استعملوا عليهم الفَيْرزان، وقدم عليهم بصبهرى منهزمًا من بُرْس، فوقع في النهر، ومات من طعنة، كان طعنه زُهرة، ولما هُزِمَ بصبهرى أقبل بسْطام دِهْقان بُرْس، فصالح زُهْرة، وعَقَدَ للمسلمين الجُسور، وأخبرَهم بمن اجتمع ببابِل من الفُرْس، فأرسَل زهرة إلى سَعْد يعرِّفه بذلك، فقَدِم سعد إلى بُرْس، وسيَّر زُهرة في المقدِّمة، وأتبَعَه عبدَ الله وشُرَحْبيل وهاشمًا، فنزلوا على الفَيْرُزان ببابِل، واقتتلوا، وانهَزَم الْفُرس، وانطَلَقوا على وَجْهَيْن:

فسار الهُرْمزان نحو الأهواز، فأخَذها، وأخرَج الْفيْرُزان نحو نهاوَنْد، فأخذها وبها كنوزُ كِسرَى.

وسار النَّخيرجان ومهْران إلى المدائن، وقَطَع الجِسْر، وأقام سعد ببابِلَ، وقَدّم زُهرةُ بين يديْه بُكَيْر بنَ عبد الله اللَّيْثي، وكَثِير بن شهاب السَّعديّ حين عَبَرا الصرَاة[٣]،

---

(١) برس: موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر وتلّ مفرط العلو يسمى صرح البرس...

(٢) كوثى: موضع في العراق، وكوثى العراق كوثيان: أحدهما كوثى الطريق والآخر كوثى ربي وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وبها مولده، وهما من أرض بابل... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الصراة: هما نهران ببغداد: الصراة الكبرى والصراة الصغرى، أحدهما يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ ويسقي ضياع بادوريا ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد فيمر بقنطرة العباس ثم قنطرة الصبيبات ثم قنطرة رحا البطريق... ولم يذكر صاحب معجم البلدان شيئًا عن النهر الآخر.

فلحقا بأُخْرَيَات القوم، وفيهم فيومان والفُرخان فقتلاهما، وجاء زُهْرة فجاز سُورًا، وتقدَّم نحوَ الفُرْس وقد نزلوا بين كُوثَى والدَّيْر، وقد استَخلَف النَّخِيرَجان ومهْران على جنودهما شَهْرَيار، فنازَلَهُمْ زُهْرة، فبرَزُوا لقِتاله، وطلب شَهْرَيار المبارَزة، فخرَج إليه أبو نُباتة نايلُ بنُ جُعْشُم الأعرجيّ، وكان من شُجْعَانِ تَمِيم، فَظَفِر به وقَتَله، وأخَذَ فَرَسه وسِوارَيْه وسَلَبَه، وانْهَزَم أصحابُه، وأقامَ زُهرَة بكُوثَى حتى قَدِم عليه سَعْدٌ، فقدَّم إليه نايلاً وألبَسَه سِلاحَ شَهْريار وسَوارَيْهِ، وأركبه بِرْذَوْنَه، فكان أوّل عربيٍّ سُوِّر بالعِراق. وأقام سعدٌ بها أيّامًا.

وقيل: كانت هذه الوقائع في سنة سِتَّ عشرة. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر خبر بهرسير[(١)] وهي المدينة الغربية

قال: ثم مَضَى زُهْرة إلى بَهُرَسِير في المقدِّمات، فتلقَّاه شيرَزاد دِهْقان ساباط بالصُّلح، فأرسَلَه إلى سعد فصالَحَه على الجِزْية، ولقي سعد كتيبة كِسْرى الَّتي تُدْعَى بُوران، وكانوا يحلفون كلَّ يوم ألاَّ يَزولَ مُلك فارسَ ما عشنا، فهزمهم، فَقَتَلَ هاشمُ بنُ عتبةَ المقرَّط، وهو أسدٌ كان كسرى قد أَلِفَه، فقبَّل سعد رأسَ هاشم وبعَثَه في المقدِّمة إلى بَهُرَسِير، ووَصَلها سعدٌ والمسلمون، فلمّا رأوا إيوانَ كسرى، كبَّر ضِرارُ بن الخَطَّاب، وقال: هذا ما وَعَدنا اللّهُ ورَسوله، وكبَّر النَّاسُ معه، فكانوا كلَّما وصلت طائفةٌ كبَّروا، ثم نَزلوا على المدينة، وكان نزولُهم في ذي الحِجّة سنة خَمس عشرةَ. والله أعلم.

ذكر فتح المدائن الغربية وهي بهرسير

كان فتحُها في صفَر سنةَ ستّ عشرةَ. وذلك أنَّ سعد بنَ أبي وقَّاص نزل عليها وحاصَرَها شهرَيْن، ونَصَب عليها عشرين مَنْجَنيقًا، وقاتَلَ أهلَها قِتالاً شديدًا، وأرسل سعدٌ الخيولَ، فأغارتْ على من ليس له عَهْدٌ، فأصابوا مائةَ ألفِ فلاَّح، فأرسلَ سعدٌ إلى عمرَ يستأذنه، فقال: مَنْ جاءكم ممّن يُعِين عليكم فهو أمانُهم، ومن هرب فأدركْتُموه فشأنَكم به، فَخَلَّى سعدٌ عنهم، وأرسل إلى الدَّهاقِين ودعاهم إلى الإسلام أو الْجِزْية ولهم الذِّمّة؛ فتَراجَعوا.

---

(١) بهرسير: بالفتح ثم الضم، وفتح الراء وكسر السين المهملة، وياء ساكنة، وراء: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، ويقال بهرسير الرومقان... (معجم البلدان).

قال: واْشتدّ الحِصارُ على أهل المَدائن الغربيَّةِ، حتى أكلوا السَّنانيرَ(١) والكلاب، فبينما هم يحاصِرُونهم إذ أشرفَ عليهم رسولٌ، فقال: يقول لكم المَلِك: هل لكم إلى المصالحة على أنَّ لنا ما يَلِينا من دِجْلَة إلى جَبَلِنا، ولكم ما يليكم من دِجْلَة إلى جَبَلِكم؟ أما شَبِعْتم! لا أشبَعَ اللّهُ بطونكم! فقال له أبو مُفَزِّز الأسود بن قُطْبَة، وقد أنطَقَه اللّهُ عزَّ وجلَّ بما لا يَدري لا هو ولا مَنْ معه، فرجع الرَّجُلُ، فقَطَع الفُرْس دجلةَ إلى المَدائن الشَّرقيَّة الَّتي فيها الإيوان، فقال له مَن معه: يا أبا مفزِّر، ما قلتَ للرَّسول؟ قال: واللّهِ ما أدري، وأرجو أن أكونَ قد نَطقتُ بالَّذي هو خيرٌ، فنادى سعدٌ في النَّاس، فنهدُوا إليهم(٢)، فما ظَهَر على المدينة أحد ولا خَرجَ إلاَّ رجلٌ يُنادِي بالأمان، فأَمَّنُوه؛ فقال لهم: ما بَقِيَ في المدينة أحدٌ يَمنعُكم؛ فدخلوا فما وَجَدوا فيها غيرَ الأسارى وذلك الرّجل، فسألوه: لأيِّ شيء هَرَبوا؟ فقال: بَعثَ إليكم المَلِك بالصُّلح فأجَبْتُموه: ألاَّ صُلْحَ بيننا وبينكم أبدًا حتى نأكلَ عَسَلَ أفرِيدون بأُتْرُجّ(٣) كُوثَى؛ فقال المَلِك: يا وَيْلَتِيَه، إنَّ الملائكة تكلَّم على ألسنتهم تَرُدُّ علينا، فساروا إلى المدينة القُصْوَى، ودَخلَ المسلمون المَدِينة، وأنزَلَهم سعد المَنازِلَ. والله أعلم.

ذكر فتح المدائن الشرقية
التي فيها إيوان كسرى

قال: وأقام سعدٌ ببَهُرَسِير أيّامًا من صَفَر، ثم قَصَد المَدائن، وقطع دِجلَة، وهي تقذف بالزَّبَد لكَثْرة المدِّ؛ وكان سَبَبُ عُبوره أنَّ عِلْجًا(٤) جاءه فقال: ما مُقَامُكَ؟ لا يأتي عليك ثالث حتى يَذهبَ يَزْدَجِرد بكلِّ شيءٍ في المَدائن، فهيّجه ذلك على العبُور، فقام وخطب النَّاس، وقال: إنَّ عدوَّكم قد اْعتصم منكمْ بهذا البَحْر، فلا

(١) السنانير: جمع السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم، من خير مآكله الفأر. ومنه أهلي وبري.
(٢) نهدوا: هموا.
(٣) أترج: معروف وباليونانية ناليطيسون، يعني ترياق السموم، ومنه يوناني، وبالعربية متكا أيضًا، والسريانية لتراكين؛ وهو ثمر شجر يطول، ناعم الورق والحطب ويدرك عند شمس القوس وأجوده الأملس الطوال الكبار النضيجة وأردؤه ما مال إلى استدارة ومنه ما في وسطه حماض وهو مركب القوى. . . مفرح ينفع الرئيسة ويزيل الخفقان والسود ويحلل الرياح الغليظة ويقوي المعدة ورماد قشره يذهب البرص طلاء ومجموعه يحلل الأورام والدبيلات. . . (تذكرة داود الأنطاكي).
(٤) المراد بالعلج هنا: الرجل من كفار العجم.

تَخلُصون إليه معه، ويَخلُصون إليكم في سُفُنِهم إذا شاؤوا، وليس وراءَكم ما تخافون منه، فقد كفاكم اللّهُ أهلَ الأيام، وقد رأيتُ من الرّأي أنْ تُجاهِدوا العدوَّ؛ إلاّ أنّي قد عزمتُ على قَطْع هذا البحرِ إليهم؛ فقالوا جميعًا: عزَمَ اللّهُ لنا ولك على الرُّشْدِ، فأفْعل.

فَنَدب الناسَ على العبُور، وقال: من يبدأُ ويَحمِي لنا الفِراض[١] حتى تَتَلاحَق به النّاسُ؛ لكَيْلا يمنعُوهم من العُبور؟ فأنتَدب له عاصمُ بنُ عَمرو ذو البأسِ في سِتمائة من أهل النّجدَاتِ، فاستعمَلَ عليهم عاصِمًا، فتقدَّمهم عاصمٌ في سِتين فارسًا، قد أقتحموا دِجلَة، فلمّا رآهم الأعاجم، وما صَنَعوا أخرَجوا للخيل الّتي تقدَّمت مِثلَها، فأقتَحموا عليهم دِجْلة، فلقُوا عاصِمًا وقد دنا من الفِراض، فقال عاصم: الرِّماحَ الرِّماحَ! أشرِعوها، وتوخَّوا العُيون، فألتقَوْا، فطعنهم المسلمون في عيونهم، فولَّوْا ولحِقَهم المسلمون، فقَتَلوا أكثرَهم، ومَنْ نجا صار أعوَر، وتَلاحَق الستمائة بالسِّتين.

ولما رأى سعدٌ عاصمًا على الفِراض قد منَعها؛ أذِن للنّاس في الأقتحام، وقال: نستعين بالله، ونتوكّلُ عليه، حَسبُنا اللّهُ ونعمَ الوكيل، ولا حَوْل ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. وأقتَحَم الناسُ دِجلَة يتحدَّثون كما يتحدَّثون في البَرّ، وطَبَّقوا دِجلَة حتَّى ما يُرَى من الشّاطىء شيء.

قال: ولم يكن بالمدائن أعجب من دُخول الماءِ، وكان يُدعَى يَوم الجَراثيم، لا يَبقَى أحدٌ إلاّ انتشَرَتْ[٢] له جُرثومة[٣] مِن الأرض يَستريحُ عليها؛ حتى مَا يَبلُغ الماءُ حزام فرسِه، فعَبَروا سالمين، لم يَعْدَم منهمْ أحَد، ولا عُدِم لأحد شيء إلاّ قدحٌ لمالِكِ بنِ عامر سَقَطَ منه فجرَى في الماء، ثم ألقَتْه الرِّيح إلى الشّاطىء، فأخذَه صاحبُه، فلمّا رأى الفُرْسُ عُبورَهم خرجوا هُرَّابًا نحو حلْوان، وكان يزدجرد قد قدِم عِيالُه إليها قبلَ ذلِكَ. ولمّا هَرَب حَمل أصحابُه من بيْت المالِ ما قَدَروا عليه مِمّا خفّ، ومن النّساء والذّراريّ، وتركوا في الخزائن من المَتاع والثّياب والألْطاف[٤] ما لا تُدرَك قيمتُه، وتركوا ما قد أعَدُّوه لِلحصار من الأطعمة والغَنَم والبقر، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف، أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسيّة النصفَ، وبقِيَ النّصفُ.

---

(١) الفراض: جمع فرضة، وهي محطة السفن من النهر.

(٢) انتشرت: بمعنى خرجت.

(٣) الجرثومة: التراب المجتمع حول أصول الشجر؛ والمراد هنا المكان المرتفع عن الأرض مجتمع من تراب أو طين.

(٤) الألطاف: جمع اللطف، وهي الهدية.

وكان أوّل مَنْ دَخَل المَدائنَ كتيبةُ الأهْوال، وهي كتيبة عاصم بنِ عَمرو، ثم كَتيبةُ الخَرْساء وهي كَتِيبةُ القَعْقَاع بنِ عمرو، فأخَذوا في سِكَكِها[١] وأحاطُوا بالقصر الأبيض وبه من بَقِيَ من الفُرْس، فأجابوا إلى الجِزْية والذِّمّة، فتَراجَع إليهم أهل المدائن على مِثلِ عهدهم، ونَزلَ سعدٌ القصرَ الأبيَض، وسرَّح زُهْرةَ في آثارِهم إلى النَّهْرَوان، وسرّح مِقدار ذلك في كلِّ جهة.

وكان سَلْمان الفارسيُّ رائدَ المسلمين وراعيَهم. دعا أهلَ بُهَرَسِير ثلاثًا، وأهلَ القَصْر الأبيض ثلاثًا. واتَّخذ سعدٌ إيوانَ كِسرى مُصَلًّى، ولم يغيِّر ما فيه من التماثيل، ولمّا دَخل الإيوانَ، قرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨].

وصَلَّى فيه صلاةَ الفَتْح ثماني رَكَعاتٍ لا يفصل بينهنَّ، وأتمَّ الصلاةَ لأنَّهُ نَوَى الإقامة، وكانت أوّل جُمعةٍ أُقيمتْ بالمَدائنِ في صفر سنة ستّ عشرة.

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

قال: وجعَل سعدٌ على الأقْباض عَمرو بنَ عمرِو بنِ مُقرِّن، وعلى القِسْمة سَلمَان بنَ ربيعةَ البَاهليّ، فجمع ما في القَصر والإيوان والدور، وأحصَى ما يأتيه به أهلُ الطَّلب، ووَجَدُوا بالمدائن قِبابًا تُركيَّةً مملوءَةً سلالاً مختومةً برَصاصٍ فيها آنيةُ الذهب والفِضَّة، فكان الرجل يطوف ويبيعُ الذَّهبَ بالفضَّة مِثْلاً بمثلٍ، ورأَوْا كافورًا كثيرًا فحسِبُوه مِلحًا فعَجَنوا به فوَجدُوه مُرًّا. وأدركَ الطَّلَب مع زُهرةَ جماعةً من الفُرسِ على جِسْر النَّهرَوان فازدحَموا عليهم، فوَقَع منهم بغْلٌ في الماء فأخذه المسلمون وفيه حِلْيَة كِسرَى وثِيابُه، وخَرَزاتُه ووِشاحه، ودِرْعه المُجَوْهَر. ولَحِق بعضُ المسلمين بَغلَيْن مع فارسيْن فقَتَلهما، وأخَذَ البَغْلَيْن فأوصَلهما إلى صاحب الأقْباض، وهو يكتب ما يأتيه به النَّاس، فاستَوْقَفَه حتَّى يَنظرَ ما جاء به؛ فإذا على أحدهما سَفَطانِ[٢] فيهما تاجُ كسرى مُفَسَّخًا، وكان حِملُه على أُسطُوانَتَيْن، وفيه الجَوْهر، وعلى البَغْل الثَّاني سَفَطان فيهما ثيابُ كِسرَى من الدِّيباج المَنسوج بالذَّهب المنظوم بالْجَوْهر، وغير الدِّيباج منسوجًا مَنظومًا. وأدرَكَ القعقاعُ فارسِيًّا فَقتَله وأخذ منه عَيْبَتَيْن[٣] في أحدهما

(١) السلك: واحدتها سكة، وهي السطر المصطف من الشجر والنخيل.
(٢) السفط: وعاء كالجوالق.
(٣) العيبة: وعاء من أدم ونحوه يكون فيه المتاع.

خمسةُ أسياف، وفي الأُخرى ستَّة أسْيافٍ، وأذرع منها درْعُ كسرَى، ومَغافِرُه[١] وسَيْفُه، ودِرعِ هِرَقل وسَيفه، ودرع شُوبِين وسَيْفه، ودرعِ سياوْخش وسيفُه، ودرعُ النعمان وسَيْفه، وبقيّة السُّيوف لهُرْمز وقُباذ وفَيْروز.

وكان الفُرسُ قد استلبوا أدْراعَ مُلوكِ الهند والترك والرُّوم وسيوفَهم لمّا غَزَوْهم، فأحضر القعقاع ذلك إلى سَعد فخَيَّره في الأسياف فاختار سيفَ هِرَقْل، وأعطاه دِرْع بَهْرام، ونفَّل سائرَها إلاَّ سيْفَ كسرى وسيف النعمان، فبعث بهما إلى عُمَر بن الخطاب؛ لتسمعَ العربُ بذلك بعد أن حَسَبَهمَا في الأخْماس، وبعَثَ بتاج كِسرى وحِلْيتِهِ وثيابه إلى عمَر ليراه المسلمون.

قال: وأدرَكَ عِصمةُ بنُ خالدِ الضَّبيّ رجلَيْن معهما حماران، فقتل أحدَهما وهَرَب الآخر، وأخَذَ الحِمَارين وأتى بهما إلى صاحب الأقْبَاضِ، فإذا على أحدِهما سَفطَان في أحدهما فَرَسٌ من ذَهبٍ بسَرْج من فِضَّةٍ على ثفره[٢] ولبَّته الياقوتُ والزَّبرجد، وَلجامٌ كذلك، وفارسٌ من فِضَّةٍ مُكلَّلةٍ بالجَوهر، وفي الآخر ناقَةٌ من فضَّة عليها شلِيل[٣] من ذهَبٍ، وكلُّ ذلك منظومٌ بالياقوت، وعليها رَجُلٌ من ذَهب مكلَّلٍ بالجَوهر، كان كِسرَى يَصنَعُها على أُسْطُوانتَي التَّاج.

وأدَّى المسلمون الأمانةَ في المَغْنَم، ولما جُمِعَتْ الغنائم خمَّسها سعد، وقسَّم ما بقيَ من الخُمسِ والنَّفَل[٤] بين الناس، وكانوا ستِّين ألفًا كلُّهم فارس، أصابَ كُلاًّ منهم اثنا عشرَ ألفًا، ونَفَّلَ من الأخْماس في أهل البلاء، وقسَّم المنازلَ بين الناس، وأحضَر العِيالات فأنزلهم في الدُّور، فأقاموا بالمدائن؛ حتَّى نزلوا إلى الكوفة بعد فَراغهم من جَلُولاء[٥]، وتكْريت، والمَوْصِل.

قال: وأرسَل سَعد في الخُمس كلَّ شيءٍ يَتعجَّب منه العربُ، وأراد أنْ يُخْرِجَ خمس القَطِيف فلم تَعتَدِل قِسْمتهُ، فقال للمسلمين: هل تطيبُ نفوسُكم بأربعة أخماسِه، ونَبعَث به إلى أميرِ المؤمنين يضعه حيث يشاء؟ قالوا: نَعَمْ، فَبعث به إلى عمَر.

---

(١) المغافر: جمع المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٢) الثفر: سير في مؤخر السرج ونحوه يشد على عجز الدابة تحت ذنبها.

(٣) الشليل: مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير من وراء الرحل.

(٤) النفل: الغنيمة.

(٥) جلولاء: بالمد: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا... (معجم البلدان لياقوت).

والقَطِيف: بِساطٌ، واحدٌ طولُه ستُّونَ ذراعًا، وعَرضُه مِثلُ ذلك مِقدار جَريب[١]. كانت الأكاسرةُ إذا ذهبت الرَّياحِين بعد الشِّتاء شَربوا عليه، فكأنَّهم في رياض، فيه طُرُقٌ كالقصُور، وفصوصٌ كالأنهار، أرضُه مُذْهَبةٌ، وخِلالُ ذلك فُصوصٌ كالدرِّ، وفي حافاتِه كالأرضِ المَزْروعة والمُبْقَلَةِ[٢] بالنَّباتِ والورقِ من الحرير على قُضْبانِ الذَّهب، وأزهارُه الذَّهبُ والفضَّةُ، وثمارُه الجوهَرُ وأشباهُ ذلك.

فلمّا وصلَ إلى عمَر استشار المسلمِين فيه، فأشاروا بقَطْعِه، فقَطَّعه بينهم، فأصابَ عليٌّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه قطعةٌ منه، فباعَها بعشرين ألفًا، ولم تكن أجوَدَ مِن غيرِها.

ذكر وقعة جلولاء وفتح حُلوان[٣]

كانت وقعةُ جلولاء في أول ذي القَعْدة سنة ستَّ عشرة، بينها وبين المدائن تسعةُ أشهرٍ، وسببُها أنَّ الفُرْس لمّا هَرَبوا من المدائن انتهوْا إلى جَلُولاءَ، فافترقتْ الطُّرقُ بأهلِ أذْرِبيجانَ والباب، وأهل الجبال وفارِس، فقالوا: إن افترقْتُم لم تجتَمعوا أبدًا، وهذا مكانٌ يُفَرِّقُ بيننا، فهلُمُّوا فلنجتمع للعربِ به، وَقاتِلْهم فإنْ كانت لنا فهو الّذي نحبّ، وإن كانت الأُخرى كُنَّا قد قضيْنَا الّذِي علينا، وأبْلَيْنا عُذْرًا. فاجتمَعوا واحتفَروا خَنْدقًا، واجتمَعُوا فيه على مِهْران الرازيّ، وتقدَّم يَزْدَجِرْد إلى حُلْوان، فبلغ ذلك سعدًا، فأرسَل إلى عمر، فبعث إليْه أنْ سَرِّحَ هاشمَ بنَ عُتْبَةَ بن أبي وَقَّاص إلى جَلولاء، واجعلْ على مقدِّمته القعقاعَ بنَ عمرٍو، وإن هَزمَ اللّهُ الفُرسَ فاجعل القَعقاعَ بين السَّوادِ والجَبَل، وليكن الجندُ اثني عَشَر ألفًا. ففعل سعدٌ ذلك.

وسار هاشمٌ من المدائن في وجوه المهاجِرين والأنصار وأعلام العَرَب، فمرّ ببابل مهرُوذ، فصالَحه دِهْقانُها؛ على أن يُفرَش له جَريبُ الأرضِ دراهَمَ ففعل، ثم قَدِم جَلُولاءَ فحاصَرَهم في خنادِقهم، وأحاط بهم، وطاوَلهم الفُرس وجَعَلوا لا يَخرُجون إلاّ إذا أرادوا، وراجعهم المسلمون نحو ثمانين يَوْمًا، كلُّ ذلك يُنْصَر المسلمُون عليهم، وجعلت الأمدادُ تَرِد من يَزدَجِرْد إلى مِهْران، ومن سَعْدٍ إلى المسلمين.

---

(١) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة. (٢) المبقلة من الأرض: التي تنبت البقل.

(٣) حلوان: وهي في عدة مواضع: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد... قيل: أكثر ثمارها التين... وربما يسقط بها الثلج... وفيها رمان ليس في الدنيا مثله... وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء... (معجم البلدان).

وخرج الفُرسُ يومًا فقاتَلوا قتالاً شديدًا، وأرسل اللّهُ عليهم ريحًا حتى أظلمتْ عليهم البِلاد، فسَقَط فُرسانُهم في الخندقِ، فجعلوا فيه طُرُقًا تَصعَد منها خَيلُهم، ففسد الخندقُ، فنهض المسلمون واْقتَتلوا قِتالاً شديدًا لم يقتتلوا مثله، ولا لَيْلَةَ الهَرير، إلاَّ أنّه كان أعْجَل. واْنتهى القَعْقاع من الوجه الذي زَحَف منه إلى باب الخَنْدقِ، وأمَرَ مناديًا فنادَى: يا معشر المسلمين، هذا أميرُكم قد دخل الخندقَ، فأقبِلوا إليه، ولا يمنعكم مَنْ بينكم وبينَه من دخوله، فَحملوا وهم لا يَشكُّون أنَّ هاشمًا في الخندقِ، فإذا هم بالقَعْقاع، فاْنهزم الفُرْس يَمْنة ويسْرة، واْتّبعهم المسلمون، فلم يُفْلِتْ منهم إلاَّ القليل، وقُتِلَ منهم يومئذٍ مائةُ ألفٍ، فجلَّلت[1] القَتْلى المجال، وما بَيْن يديه وما خلفَه، فسمِّيتْ جَلولاء بما جلَّلَها من قَتْلاهم، وسار القَعقاعُ في الطلبِ حتى بلغ خانقين، فأدْرَكَ مِهرانَ الرازيّ فقتَله، وأدرك الفَيْرُزان، فنزل وتوقَّل[2] في الجبل فنجا، وأصابَ القعقاعُ سَبايَا فأرسَلَهُنّ إلى هاشم فقسَّمهُنَّ، فاْستولَدَهُنّ المسلمون، وممَّن يُنسب إلى ذلك السّبْي أُمُّ الشَّعبيّ.

قال: ولمّا بلغت الهزيمةُ يزْدَجْرد سار من حُلوان نحو الرَّيّ، واستخلفَ على حُلوانَ خُسْرشنوم، فلمّا وصل القعقاعُ قصرَ شيرين خرج إليه خسرشنوم، وقدم إليه الزَّينبيُّ دِهْقَانُ حُلْوان، فقتله القعْقاع، وهَرَب خسرشنوم، واْستولَى المسلمون على حُلْوان، وكان فتْحها في ذي القعْدة، وبقيَ القعقاعُ بها إلى أن تحوّل سعدٌ إلى الكوفةِ، فلحِقَه، واْستخلَف على حُلوانَ قُباذ، وكان أصلُه خُراسانيًا، وكتبوا إلى عمَر بالفتح، واستأْذَنوه في العُبور فأبَى، وقال: لوَدِدتُ أنَّ بين السَّواد والجبل سدًا لا يَخلُصونَ إلينا ولا نَخْلُصُ إليهم، حَسْبُنا من الرِّيفِ السَّواد، إنّي آثرتُ سلامةَ المسلمين على الأنفال.

قال: وجُمِعَتْ الغنائمُ وقُسِّمتْ بعد الخمسِ، فأصاب كلَّ فارسٍ تسعةُ آلاف، وتسعةٌ من الدّوابّ، وقُسّم الفَيءُ على ثلاثين ألفًا.

وقيل: إنّ الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألفٍ، وبَعث سعدٌ بالخمْس إلى عمرَ، وهو ستّة آلاف ألفٍ، وبَعث الحساب مع زِياد ابن أَبيه، فكلَّمه عمرُ فيما جاء له، فوَصفه له، فقال له عمر: هل تستطيع أن تقومَ في النّاسِ بمثل ما كلَّمْتَني؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيَبَ في صَدْري منك، فكيف لا أقوَى على هذا مع غيرك! فقام في النّاس فتكلَّم بما أصابُوا وبما صَنعُوا، وبما يستأْنفون من الانسياح في البلاد.

(١) جلّل: عمّ. (٢) توقل في الجبل: صعد.

فقال عمر: هذا الخطيبُ المِصْقَع[١]، فقال: إنَّ جنْدنا بالفعال أطلقوا ألسِنَتَنَا.

قال: ولمّا قَدِم الخمسُ على عمرَ قال: والله لا يُجِنُّه[٢] سَقْفٌ حتى أقسِمَه، فبات عبدُ الرحمٰن بنُ عوفٍ وعبدُ الله بنُ الأرْقم يَحرُسانه في المَسْجِدِ، فلمّا أصبحَ عمرُ جاء في النَّاس فَكَشَف عنه، فلمّا جاء ونظر إلى ياقوتِه وزَبَرْجَدِه وجوهرِه بكى، فقال عبد الرحمٰنُ بنُ عوفٍ: ما يُبكيكَ يا أميرَ المؤمنين؟ فوالله إنَّ هذا لَمَوْطن شُكْرٍ. فقال عمر: والله ما ذاك يبكيني، وبالله ما أعطى الله هذا قومًا إلاَّ تَحاسَدوا وتَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا إلاَّ ألقَى اللّهُ بأْسَهُمْ بينهم.

ومَنعَ عمرُ رضي الله عنه مِن قِسمةِ السَّواد لتعذُّر ذلك بسبب الآجام والغِياض، ومَفِيضِ المِياه، وما كان لبُيوتِ النَّار، ولسِكَك البُرُدِ[٣]، وما كان لكِسْرى ومَنْ معه، وخاف الفتنةَ بين المسلمين فلم يُقَسِّمه، ومنع من بيعِه، فلا يحلُّ بيعُ شيءٍ من أرْضِ السَّوادِ ما بين حُلوان والقادسيَّةِ.

قال: وٱشترى جَريرٌ أرضًا على شاطىء الفُراتِ، فردَّ عمرُ ذلك الشراء وكَرِهه. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر ولاية عتبة بن غزوان البصرة وفتحه الأُبُلَّة

قد اختلف المؤرِّخون في وقتِ ولايته الْبَصْرة، وهل كانت من قِبَلِ عمرَ بنِ الخطَّابِ أو من قِبَلِ سعدِ بن أبي وقَّاص بأمرِ عُمَر. فأمّا من يقول: إنَّ وِلايَتَه من قِبَل عُمر، فإنَّه جعَلَها في سنة أربعَ عشرة، وأنَّ نزوله البَصْرة كان في شهر ربيع الأوّل أو الآخر، بعَثَه عمرُ إليها، وكان بالبَصْرة قُطْبَة بنُ قَتادةَ السَّدُوسيّ يُغِير بتلك النَّواحي، كما يُغيرُ المثنَّى بالحِيرة، فكتب إلى عمرَ يُعلِمُه مَكانَه؛ وأنه لو كان مَعه عَدَدٌ يسيرٌ لظفِر بمَن قِبَله مِنَ العَجَم، فنَفَاهمْ عن بِلادهم. فكَتَب إليه عمرُ يأمره بالمُقام والحذَرِ، ووجَّه إليه شُريحَ بنَ عامر أحدَ بني سَعدِ بن بكر، فأقبَل إلى البَصْرةِ ونزل بها قُطْبَةُ، ومضى إلى الأهْواز حتى ٱنتهى إلى دارِس، وفيها مَسلحةُ[٤] الأعاجم، فقتَلوه.

فبعثَ عمرُ عُتبةَ بنَ غَزْوان، وقال له: إنّي قد استعملتُكَ على أرضِ الهندِ وهي حَوْمةٌ[٥] من حَوْمات العدُوِّ، وأرجو أن يكفيَكَ اللّهُ ما حولَها، ويعينَكَ عليها. وقد

---

(١) المصقع: البليغ يتفنن في مذاهب القول. (٢) يجنّه: يستره.
(٣) البُرُد: جمع البريد. (٤) المسلحة: موضع السلاح.
(٥) الحومة من القتال: أشد موضع فيه.

كتبتُ إلى العَلاء بنِ الحَضرَميّ أن يُمِدَّك بعرفجة بنِ هرْثمة، وهو ذُو مُجاهَدة ومكايَدة للعدو، فإذا قَدِم عليك فاستَشِرْه وادْعُ إلى الله، فمَن أجابَكَ فاقْبَلْ منه، ومن أبَى فالجِزْية، وإلاّ فالسَّيف، وأوْصاه ثم قال له: انطلِقْ أنت ومَنْ معكَ؛ حتى إذا كنتم في أقْصَى أرض العَرَب، وأدْنَى أرضِ العَجَم فأقيموا.

فسار عُتبةُ ومَن معه حتى إذا كانوا بالمربد[١] تقدَّمُوا حتَّى بلغوا حِيالَ الجِسْر، فَنزلُوا، فبلغ صاحبَ الفراتِ خبرُهم، فأقبَل في أربعة آلاف، فالْتقَوْا فقاتَلَهم، عُتبةُ بعد الزَّوالِ وهو في خُمْسمائة، فَقَتَلَهم أجمعين، ولَم يَبق إلاّ صاحبُ الفُراتِ، فأُخِذَ أسيرًا.

وأمَّا من يقول: إنَّ سعدَ بنَ أبي وقَّاص أرْسله، فقال: إنَّ البَصْرة مُصِّرَتْ في سنة ستّ عشرةَ بعد جَلولاَء وتكْريت، فأرسله سعدُ إليها بأمْرِ عُمَر، وإنَّ عُتبةَ لمّا نزل البَصرةَ أقامَ بها نحو شَهْر، فخرج إليه أهلُ الأُبُلَّة، وكان بها خمسمائة أُسْوار[٢] يَحْمُونها، وكانت مَرْفأ السُّفُنِ مِنْ الصِّين، فقاتَلَهم عُتبةُ فهَزَمهم؛ حتَّى دخلوا المدينة، ورجَعَ عُتبة إلى عسكرِه، وألقَى الله الرُّعْبَ في قلوب الفُرسِ، فخَرَجوا عن المدينة وحَمَلوا ما خفَّ، وَعبَروا الماء، وأخْلوا المدينة ودخَلَها المسلمون وأصابُوا متاعًا وسِلاحًا وسَبْيًا، فاقْتَسموه بعدَ أنْ خَمَّسَهُ عتبةُ، وكان المسلمون ثلاثمائة، وكان فَتْحُها في شهر رجب أو شعبان، ثم نَزَل موضع مَدينة الرِّزق، وخَطَّ موضعَ المَسجدِ، وبناه بالقَصَبِ. وكان أوّلَ مولود وُلِدَ بالبَصرةِ عبدُ الرحمٰن بنُ أبي بَكْرة، فلمَّا وُلِدَ نَحر أبوه جَزُورًا فَكَفتْهم لقلَّة الناس، ثم جمعَ اللّهُ أهلَ دَستُميسان، فلقيهم عتبةُ فَهزَمهم وأخذ مَرْزُبانُها أسيرًا، وأخذَ قَتادةُ مِنطقَتَه فبَعَث بهَا إلى عمَر مع أنَس بن حُجَيَّة. فقال له عمر: كيفَ النَّاس؟ فقال: انهالتْ عليهم الدُّنيا، فهم يَهيلون الذَّهب والفضَّةَ، فرغَّبَ النَّاسَ في البَصْرةِ فأَتَوْها، واستعمل عتبةُ مجاشِعَ بنَ مسعود على جماعة وسيَّرهم إلى الفُراتِ واستخلفَ المغيرةَ بنَ شُعبةَ على الصَّلاةِ؛ إلى أن يَقدَمَ مُجاشِعٌ فإذا قَدِم فهو الأمير.

وسار عتبةُ إلى عُمرَ، فظَفِر مجاشعُ بأهلِ الفُراتِ. وجمع الفيلكان (عظيم من الفُرْس)، فخرجَ إليه المغيرةُ بنُ شعبةَ، فلقِيه بالمَرْغاب فاقتَتَلوا. فقال نِساءُ المُسلِمين: لو لحِقْنا بهم، فَكنَّا مَعَهم؛ فاتَّخَذْن من خُمُرهِنَّ رَايات، وسرن إلى المسلمين.

---

(١) المربد: سوق بالبصرة.

(٢) الأسوار: جمع الأساورة، وهم فرسان العجم.

وكتب المغيرةُ إلى عمَر بالفتح، فقال عمر لعُتبةَ: من استعملتَ بالبَصْرةِ؟ فقال: مجاشعَ بنَ مسعود. قال: أتَسْتَعْمِل رَجُلاً من أهل الوَبَرْ على أهْلِ المدَر! وأخبَرَه ما كان من المُغيرةِ، وأمَرَه أن يَرجع إلى عَمَلِه، فمات بالطَّريق. وقيل في وفاته غيرُ ذلك.

وكان مِمَّن سُبِيَ من مَيْسان يَسار أبو الحَسَن البَصْري، وأرْطَبان جدّ عبد الله بن عَوْنِ بنِ أرْطَبان. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

ذكر فتح تكريت والموصل

وفي سنة ستّ عشرةَ في جُمَادَى فُتِحَتْ تَكْرِيت؛ وذلك أنَّ الأنْطاق سار من المَوْصِل إلى تَكْريت، وخَنْدَقَ عليه ليَحميَ أرضَه ومعه الرُّوم وإيَاد، وتَغلِب، والنَّمِر، والشَّهارِجة، فبَلَغ ذلك سَعْدًا فكتب إلى عمرَ، فأمَرَه: أنْ سَرِّحْ عبدَ الله بنَ المُعْتمّ، واستعمِلْ على مقدِّمته رِبْعيَّ بنَ الأفْكَل، وعلى الخيل عَرْفَجَةَ بنَ هَرْثَمة.

فسار عبدُ الله إلى تكْريت، وحصر الأنطاق ومن معه أربعين يَوْمًا، وتَزاحفوا في المدّة أربعةَ وعشرين زَحْفًا، ثم أرسل عبدُ الله إلى العَرب الَّذين مع الأنْطاق يَدْعُوهم إلى الإسلام، فأسلَموا، وأُعلِمُو أنَّ الرُّومَ قد نقلوا متاعَهم إلى السُّفُن، فأرسل إليهم: إذا سمِعْتم التكبيرَ فأعلموا أنَّا على أبواب الخندقِ، فخذوا الأبوابَ التي تَلِي دِجْلَة، وكبِّروا، واقتلُوا من قَدرتُم عليه، ففعلوا ذلك، وأخذت الرُّومَ السيوفُ من كلّ جانب.

وأرسل عبدُ الله رِبْعيَّ بنَ أفْكَل إلى الحِصنين وهما نينوَى[١] وهو الحِصْن الشَّرقيّ، والموصِل وهو الحِصْن الغربيّ، وقال: اسْبِق الخبرَ، وسَرَّح معه تَغْلِب، وإياد، والنَّمِر، فأظْهَرُوا الظَّفَر والغَنيمةَ، وبشروهم، ووقَفُوا بالأبوابِ. وأقبلَ ابنُ الأفْكل فاْقتَحَم الحِصن فسألُوا الصُّلْحَ، وصارُوا ذِمَّةً، وقُسِّمَتْ الغنيمة، فكان سهم الفارسِ ثلاثةَ آلاف، وسهمُ الرَّاجل ألفَ درهم، وبعثوا بالأخماسِ إلى عمرَ، وولَّى الموصلَ ربعيَّ بنَ الأفْكل، والخَرَاج عَرْفَجَة بنَ هرثمة.

---

(١) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو: هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه. . . (معجم البلدان).

وقيل: إنّ فَتْحَ المَوْصِل كان في سنةِ عشرين لمّا استعمَل عمرُ عتبةَ بن فَرْقَد لقَصْدِها، وأنه فَتَح الْمَرْج، وبانهذرا، وباعذرا، وحِبْتون، وداسن وجميع معاقل الأكراد، وقَرْدى وبازَبْدى، وجميع أعْمال المَوْصِل.

وقيل: إنَّ عِياض بنَ غَنْم لمَّا فتح بلَد أتَى المَوْصِلَ ففتح أَحَد الحِصْنَين، وبَعثَ عُتبةَ بنَ فَرْقد إلى الحِصْن الآخر، فَفتحه على الْجِزية والخَراج، والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر فتح ماسيذان

لما رجع هاشمُ بنُ عتبةَ بن أبي وقّاص من جَلولاءَ إلى المَدائن بلغ سَعْدًا أنَّ آذيْن بن الهُرمُزان قد جمع جَمْعًا وخرج بهمْ إلى السَّهْلِ، فأرسل إليهم ضِرارَ بنَ الخَطَّاب في جيْش، فالْتَقَوْا بسَهْلِ ماسَبذَانَ وٱقْتَتلوا، فأسرع المسلمون في المشركين، وأخَذ ضِرار آذِين أسيرًا فَقَتَله، ثم خرجَ في الطَّلَبِ حتى ٱنتهى إلى السَّيرَوان، فأخذ ماسَبَذان عَنْوَةً، وهرب أهلُها في الجبال، فدعاهم فٱستجابوا له، وأقام بها حتى تَحَوَّلَ سعدٌ إلى الكوفة، فسار إليه، وٱستَخلف على ماسبذَانَ ٱبنَ الهُذَيل الأسَديّ، فكانت أحدَ فُروجِ الكُوفة.

وقيل: إنَّ فتحها كان بعد وَقعةِ نَهَاوَنْد، والله أعلم.

ذكر فتح قرقيسيا

وفي سنة ستّ عشرةَ أيضًا، أرسل سعدُ بن أبي وَقّاص عمرَ بن مالك بن عُتبة في جند، وجَعَلَ على مقدِّمته الحارثَ بنَ يزيدَ العامريّ، فخرج نحو هِيت، فنازل مَنْ بها، وقد خندقوا عليهم، وكان أهلُ الجزيرة لمّا أمَدُّوا هِرقْلَ على أهلِ حِمْص كما ذكرنا، بَعَثُوا جُنْدًا إلى أهلِ هِيتَ، فلمّا رأى عُمر ٱعْتصامَهُمْ بخندَقهم، تَرَكَ الأخْبِيَة على حالِها، وخلَّف عليهم الحارث في نصف النّاس، وسار بالنِّصف الثاني إلى قَرْقِيسيا، فجاءها على غِرَّةٍ فأخذَهَا عَنوةً، فأجابوا إلى الجِزْية. وكتب إلى الحارث: إنْ هم ٱستجابوا فخلِّ عنهم فلْيخرجوا وإلا خَنْدِق على خَنْدَقِهم خَنْدَقًا، وٱجعَلْ أبوابَه ممّا يليك حتى أرى رَأيِي. فراسلهم، فأجابوا إلى العَوْد إلى بلادهم، فتَرَكهم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر فتح الأهواء ومناذر[١] ونهر تيرى[٢]

وفي سنة سبع عشرةَ فُتِحَتْ الأهْواز، ومنَاذِر ونَهر تِيرَى، وقيل: كان في سنة ستّ عشرة، وكان سببُ هذا الفتح: أنَّ الهُرْمُزان، وهو أحد البيُوتاتِ السَّبْعة من أهلِ فارس لمَّا انهزمَ يومَ القادسيَّة قصد خُوزِسْتان فمَلَكها، وكان يُغِيرُ على أهل بَيْسان، ودَسْتُمِيسان من مَناذِر، ونهر تِيرَى، فاسْتَمدَّ عُتبةُ بنُ غزوان أميرُ البصْرة سَعْدًا، فأمدَّه بنُعيم بنِ مُقَرِّن ونُعَيْم بنِ مسعود، وأمرهما أن يأْتِيَا أعلى مَيْسان ودَسْتُمِيسانَ حتى يكونا بينهم وبين نهْر تيرى، ووجَّه عتبةُ بنُ غَزْوان سُلْمى بنَ الْقَين، وحَرْملةَ بنَ مُرَيْطة - وكانا من المهاجرين - فنزلا على حدُودِ مَيْسان، ودَسْتُمِيسان بينهم وبين مَناذِر، ودَعَوا بني العَمِّ، فخرج إليهما غالب الوائليّ، وكُلَيْب بنُ وائل والكُلَيْبيّ، تواعَدوا في يوم، أنَّ سُلمى وحَرْملة يخرجان إلى الهُرْمُزان، وأنَّ غالبًا وكُلَيْبًا يَثُور أحدُهما بمَناذِر، والآخر بنَهْر تِيرَى، فلمّا كان في ليلة الموْعِدِ خرج سُلَمَى وحَرْملة صبيحتها، وأنهضا نُعيمًا ومن معه، والتقَوْا هُمْ والْهرمزان بين دُلْث ونَهر تِيرَى، واقتتلوا؛ فبينما هم على ذلك أقبل المددُ من قبل غالبٍ وكُلَيْبٍ، وأتَى الهُرْمُزانَ الخبرُ بأخْذ مَناذِر ونهر تِيرَى، فانهزم بمَنْ معه، فقَتَل المسلمون منهم ما شاؤوا، واتَّبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دُجَيل، وأخذوا ما دونَه، وعسكَروا بجِبال سُوق الأهواز، وصار دُجَيْل بين الهُرْمزان والمسلمين، فعندها طلب الهُرْمزان الصُّلْحَ، فاستأمروا عتبةَ، فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلِّها ومِهْرجان قذق ما خلا نهرَ تِيرَى ومَناذر، وما غَلبوا عليه من سُوق الأهواز؛ فإنه لا يردّ عليهم، وجعل عتبةُ سُلمى بن القَيْن على مَناذر مَسْلحةً، وأمْرُها إلى غالبٍ، وجعل حَرْمَلَة على نهر تِيرَى، وأمرها إلى كُلَيْب، فكان سُلَمَى وحرملة على مَسالح البصرة، ثم وقع بين غالبٍ وكُلَيْب وبين الهُرْمُزان اختلافٌ في حدود الأرضِين، فَحضر سلمى وحَرْملة لينظرا فيما بينهم، فوجدا الحقَّ بيدِ غالبٍ وكليبٍ فحالا بيْنَه وبينهما، فكفر الهرمزان ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد وكَثَّف جنْدُه.

---

(١) مناذر: بالفتح، والذال معجمة مكسورة: مناذر الكبرى، ومناذر الصغرى، وهي كورتان من كور الأهواز. . .

(٢) نهر تيرى: بكسر التاء المثناة من فوقها، وياء ساكنة، وراء مفتوحة، مقصور: بلد من نواحي الأهواز حفره أردشير الأصغر بن بابك، ووجدت في بعض كتب الفرس القديمة أن أردشير بهمن بن أسفنديار وهو قديم قريب من زمن داود النبي عليه السلام. . . (معجم البلدان لياقوت).

فكتب سُلمى ومن معه إلى عُتبة بذلك، فكتب إلى عمرَ فأمره بقَصْده، وأَمَدَّ المسلمين بحُرْقُوص بنِ زُهير السَّعديّ، وكانت له صُحْبَةٌ، وأمَّره على القتال، وما غلبَ عليه.

وسار الهُرْمزان ومَنْ معه، وسار المسلمون إلى جِسْر سُوق الأهواز وأرسلوا إليه: إمّا أن تعبر إلينا أو نَعبُر إليك. قال: اعبُرُوا إلينا، فعَبَرُوا فوق الْجِسْرِ، واْقتَتلوا ممّا يلي سُوق الأهواز، فانهزَم الهرمزان وسار إلى رَامَهُرْمُز، وفتح حُرْقُوص سوقَ الأهواز ونزل بها، واتَّسقَتْ له بلادُها إلى تُسْتَر، ووَضَع الجزيةَ، وكتب بالفتح إلى عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه وبعث إليه بالأخماس.

ذكر صلح الهرمزان وأهل تُسْتَر[(١)] مع المسلمين

ولما اْنهزم الهرمزان من سُوقِ الأهوازِ، جَهَّزَ حُرْقُوص جَزء بن معاوية في أثره، فاتَّبعه وقَتَل مِنْ أصحابِه حتى اْنتهَى إلى قرية الشغَر، فأعْجَزه الهرمزان، فمالَ جَزْء إلى دَوْرَق، وهي مدينة سُرّق، فأخَذَها صافيةً، ودَعَا مَنْ هَربَ إلى الجِزْية، فأجابوه.

وكتب إلى عمرَ وعتبة بذلك، فكتب عمرُ إليه وإلى حُرْقُوص بالمُقَامِ فيما غَلَبَا عليْه حتى يأمرَهما بأمره، فعَمَّر جَزْءُ البلادَ، وشَقَّ الأنهار، وأحْيَا الموات، وراسَلَهم الهرمزانُ في طَلب الصُّلح، فأجاب عمرُ إلى ذلك، وأن يكون ما أخَذه المسلمون بأيديهم، فاْصطلحوا على ذلك.

ونزل حُرقوص جبلَ الأهْوازِ، فشقَّ على النَّاسِ الاخْتِلافُ إليه، فبلغ ذلك عمرَ، فأمره بنزولِ السَّهلِ، وألا يَشُقَّ على مسلمٍ ولا مُعَاهِدٍ، وبقِيَ حُرْقوص إلى يومِ صِفِّين، ثم صار حَرُوريًّا وشَهِدَ النَّهْروانَ مع الخوارجِ. والله تعالى أعلَم بالصّواب، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) تُستَر: بالضم ثم السكون، وفتح التاء الأخرى، وراء: أعظم مدينة بخوزستان اليوم، وهو تعريب شوشتر... قيل معناه: النزه والحسن والطيب واللطيف... وهي مختطة على شكل فرس... (معجم البلدان).

ذكر فتح رامهرمز[١]

قد اختلف النَّاسُ في وقتِ هذا الفَتْح، فقيل: كان في سنةَ سبعَ عشرة. وقيل: سنة تسعَ عشرةَ. وقيل: في سنة عشرين.

وكان سببُه أن يَزْدَجِرد وهو بمَرْو لَم يَزَل يُثِيرُ أهْل فارِس، أسَفًا على ما خرج من مُلْكِهم، فتحرّكُوا وتكاتبوا هم وأهل الأهوازِ وتعاقَدوا على النُّصرة، فنُمِيَ الخبر إلى حُرْقوص بنِ زُهَير، وجَزْء وسُلْمى وحَرْملة، فكَتَبوا إلى عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه بذلك.

فكتب عمرُ إلى سعدٍ: أن ٱبعثْ إلى الأهواز جندًا كَثيفًا مع النُّعمان بن مقرِّن وعَجِّلْ، فلينْزِلوا بإزاء الهرمزان ويتحقَّقوا أمرَه.

وكتب إلى أبي موسى الأشعري، وهو على البصرةِ: أن ٱبعثْ إلى الأهواز جُنْدًا كَثِيفًا، وأمِّر عليهم سهلَ بنَ عَديّ، أخا سهيل، وابْعَثْ معه البراءَ بنَ مَالِك وعَرْفَجة بن هرثمة وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرةِ جميعًا أبو سَبْرة بن أبي رُهْم.

فخرج النُّعمانُ بنُ مقرِّن في أهل الكُوفة، وسار إلى الأهواز على البغال، يجنُبون[٢] الخيل، فخلَف حُرْقوصًا وسُلمَى وحرملة، وسار نحو الهرمزان وهو بِرامَهُرْمُز. فلمّا سَمِع الهرمزان بمَسير النعمان إليه، بادَرَ رَجاءَ أنْ يقتطعه، فٱلتقيَا بأرْبُك (موضع عند الأهوازِ)، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فهزم اللّهُ عزَّ وجلَّ الهُرْمزان، فتَرَك رامَهُرْمُز، ونزل تُسْتَر، وسار النعمان إلى رامَهُرْمُز فنزلها وصَعِد على إيذج فصالحه تِيَروْيه عليها ورجع إلى رامَهرُمْز، وأقام بها، ووصَلَ أهلُ البَصْرة فنزلوا سوقَ الأهوازِ، وهم يُرِيدُون رامَهُرْمُز.

فأتاهم خبر الوقعةِ ومسير الهُرْمزان إلى تُسْتَر، فساروا نحوَه، وسار أيضًا النُّعمانُ وحُرْقوص وسُلَمَى وحَرْملة وجَزء، فٱجتَمعوا على تُسْتَر، وبها الهرمزانُ وجنودُهُ من أهل فارسَ والجِبال والأهواز، وهم في الخنادق، وأمدّهم عمرُ رضي الله عنه بأبي موسى الأشعريّ، وجعَلَه على أهلِ البصرة، وعلى جميع النَّاسِ أبو سَبْرة، فحاصروهم أشهرًا، وأكثروا فِيهم القَتْل.

---

(١) رامهرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد الأكاسرة: هي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان... وهي من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) يقال: جنب الدابة: إذا قادها إلى جنبه.

وقَتَل البراءُ بنُ مالك في هذا الحصارِ مائةَ مُبارزٍ سِوَى من قُتِل في غير المبارزة، وقتل مثله مجزأة بن ثور وكَعْب بن ثور، وزاحَفَهم المسلمون أيام تُسْتَر ثمانين زَحْفًا يكون مَرّةً لهم ومَرّةً عليهم، فلمّا كان آخرَ زحْفٍ فيها، واشتَدَّ القتالُ، قال المسلمون: يا بَراء، اقسِم على ربّك ليهزمنَّهم، وكان مُجابَ الدَّعوة فقال: اللهُمَّ اهزِمْهم لنا، واستَشهِدْني، فهزَموهم حتى أدخلوهم خنادقَهم، ثم اقتحموها عليهم، فدخلوا مدينتَهم، وأحاط بها المسلمون، فضاقت المدينة بهم. فبينما هم كذلك إذْ خرج إلى النعمان رجلٌ يَسْتَأمِنهُ على أنْ يَدُلَّه على مَدْخَلٍ يَدْخُلون منه، ورُمِيَ في ناحية أبي موسى بِسَهْم مكتوبٍ عليه: إنْ أمَّنتموني دَلَلْتُكُمْ على مكانٍ تأتون منه المدينة، فأمَّنُوهُ في سَهْم، ورُمي إليهم بسَهم آخر وقال: اسلكوا مَنْ قِبَل مَخرَجِ الماءِ؛ فإنّكم ستفتحونها. فندب أبو موسى النَّاسَ فانتدبوا، وندبَ النُّعمانُ أصحابَه مع الرّجل الّذِي جاءَهُم، فالْتقَوْا هم وأهلُ البصرةِ على مَخرج الماء، فدخلوا في السّرب، ولمّا دخلوا المدينة كبّروا وكبَّرَ المسلمون من خارج، وفُتِحت الأبوابُ فاجْتَلَدوا فيها، فأناموا كل مُقاتِل.

وقَصَد الهرمزان القَلْعة، فتحصَّنَ بها، ولحقَ به جماعةٌ، وطافَ به الّذين دخلوا البلد، فنزل إليهم على حُكْم عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، فأوْثَقُوهُ واقتسموا ما أفاءَ اللّهُ عليهم، فكان قسمُ الفارس ثلاثةَ آلافٍ، والرَّاجِلِ ألفًا.

وجاء صاحبُ السَّهمِ والرَّجل الذي خرج بِنفسِهِ فأمَّنُوهُمَا، ومن أغْلَقَ بابه معهما.

وخرج أبو سبرة في أثرِ المنهزِمين إلى السُّوس، فنزل عليها، ومعه النُّعمانُ وأبو موسى، وكتبوا إلى عُمَر، فكتب بِرَدّ أبي موسى إلى البَصْرة، فانصَرَف إليها، وأرسل أبو سَبْرة وفدًا إلى عُمَر رضي الله عنه، فيهم: أنسُ بنُ مالكٍ والأحنفُ بنُ قيسٍ، ومعهم الهُرْمزان فقدِموا به المدينةَ وألبسوه كُسوتَهُ من الدِّيباجه المُذهَّبِ، وتاجُهُ كان مُكَلَّلاً بالياقوتِ وعليه حِلْيَتُه؛ لِيَراه عمرُ والمسلمون. فوجدوا عمرَ في المسجدِ مُتَوسِّدًا بُرْنُسه، وكان قد لَبِسَه لِوفدٍ قَدِم عليه من الكوفة، فلمّا انصرفوا تَوسّدَه ونام، فجلسوا وهو نائم والدِّرةُ[١] في يَدِه.

فقال الهُرْمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا، فقال: أين حرسُه وحُجّابه؟ فقالوا: ليس له حارسٌ ولا حاجبٌ ولا كاتب. فقال: ينبغي أن يكون نَبِيًّا، قالوا: بل يعملُ بعمل الأنبياء وكثر الناس.

---

(١) الدرة: السوط يضرب به.

فأستيقظَ عمرُ واستوَى جالسًا، ثم نظر إليه، وقال: ألْهُرْمُزان؟ قالوا: نعم، فقال: الحمدُ لله الذي أذلَّ بالإسلام هذا وأشباهه، فأمَرَ بنَزْعِ ما عليه، فَنَزَعُوه وألبَسوه ثوبًا صَفيقًا[١]. فقال له عمر: كيف رأيتَ عاقبةَ الغَدْرِ، وعاقبةَ أمرِ اللّهِ! فقال: يا عمر، إنَّا وإيَّاكم في الجاهليّة، كان الله قد خلَّى بينَنا وبينكم فَغَلَبْناكم، فلمّا كان الأمرُ معكم غَلَبْتُمونا. ثم قال له عمر: ما حُجّتُك وما عُذْرك في أنتقاضِك مرّةً بعد أُخرى؟ قال: أخافُ أنْ تَقْتُلَنِي قبلَ أنْ أُخبِرك. قال: لا تخفْ ذلك، وأسْتَسْقَى ماءً، فأُتِيَ به في قَدحٍ غليظٍ. فقال: لو متُّ عطَشًا لم أسْتَطِعْ أنْ أشربَ في مثلِ هذا، فأُتِيَ به في إناءٍ يَرْضاه. فقال: إنِّي أخاف أن أُقْتَل وأنا أشْرَبُ. فقال له عُمرُ: لا بأْسَ عليكَ حتى تشربَهُ، فأكْفَأَه[٢].

فقال عمر: أعِيدُوا عليه ولا تجمعُوا عليه بَيْنَ القَتْلِ والعطشِ. فقال: لا حاجةَ لي في الماءِ؛ وإنما أردتُ أن أستأْمِنَ به. قال: فإنِّي قاتِلُكَ، قال: قد أمَّنْتَنِي. قال: كَذَبْتَ، قال أنَسُ: صدقَ يا أميرَ المؤمنين، قد أمَّنْتَهُ. فقال: يا أنَسُ، أنا أُؤَمِّنُ قاتلَ مجزأةَ بنَ ثور والبرَاء بن مالك!

وكان الهرمزان قَتَلهما بيَدِه في هذه الوقعةِ، ثم قال: والله لتأتيَنِّي بمَخْرجٍ أو لأعاقبَنَّك، قال: قد قلتَ لا بأْسَ عليك حتى تُخبِرَني وحتى تشربَ، فقال عمر رضي الله عنه: خَدَعْتَنِي، والله لا أنْخَدِعُ إلاَّ أن تُسْلِمَ، فأسلَمَ، ففرَضَ له في ألفيْن في كلِّ سنةٍ، وأنزَلَه المدينةَ. والله أعلم.

ذكر فتح السوس[٣]

ولما نزلَ أبو سَبْرة على السُّوسِ في سنة سبع عشرةَ بعد فتحِ تُسْتَر كان بها شَهْرَيار أخو الهُرْمُزان، فأحاط المسلمون بها وناوشُوهُم[٤] القتالَ مَرَّاتٍ، كل ذلك يُصيب أهلُ السوس في المسلمين، فأشرَفَ عليهم الرُّهبانُ والقِسِّيسون، فقالوا: يا معشر العربِ، إنَّ مِمَّا عَهِدَ إلَيْنَا علماؤُنا أنَّ السُّوس لا يَفتحها إلاَّ الدَّجالُ، أو قومٌ فيهم الدَّجّال، فإنْ كان فيكم فسَتَفْتَحونَها، وكان صافُ بنُ صَيّادٍ مع المسلمين في

(١) ثوب صفيق: ثخين كثير الغزل.
(٢) أكفأ الإناء: كبه وقلبه.
(٣) السّوس: بلدة بخوزستان، فيها قبر دانيال النبي عليه السلام.. قيل: أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور سوس وتستر ولا يدرى من بناهما... (معجم البلدان لياقوت).
(٤) تناوش القوم في القتال: أي تناول بعضهم بعضًا بالرماح ولم يتدانوا كل التداني.

خَيْل النُّعمان. ثم ناوشَ أهْلُهَا المسلمين مرَّةً، وصاحوا بهم وغاظوهم، فأتى صاف بابَ السُّوسِ فَدَقَّهُ برجْلِهِ، فقال: انفتِحْ، وهو غضبان فتقطَّعَت السلاسِلُ، وتكسَّرت الأغْلاقُ، وتفتَّحت الأبوابُ، ودَخلَ المسلمونَ، وألقى المشركون بأيديهم، وتَنادَوْا: الصُّلْحَ الصُّلْحَ! فأجابهم المسلمون إلى ذلك بعد أنْ دخلوها عَنْوَةً، واقتسموا ما أصابوا، ثم افْتَرَقُوا.

فسارَ النعمان حتى أتى أهلَ نَهَاوَنْد، وكان كِتابُ عمرَ قد ورد بصرفِهِ إليها لمّا تجمّعت الأعَاجِمُ بها، وسار المقترِب، فنزل على جُنْديسابُور. والله سبحانه وتعالى أعلَم، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

ذكر مصالحة جنديسابور(١)

قال: وسار المسلمون عن السوس في سنة سبعَ عشرة، فنزلوا جُنْدَيْسابُور وزرّ بنُ عبد اللّهِ يحاصرهم، فأقاموا بها، فلَم يَفجأُ النَّاسَ إلاَّ وقد فُتِحَتْ الأبوابُ، وأخرجوا أسواقهم، وخرجَ أهلُهَا، فسألهم المسلمون، فقالوا: أرْسَلْتم إلينا بالأمان فقبلْناه وأقرَرْنا بالجِزْيةِ على أن تمنعونا فقالوا: ما فَعَلنا، فإذا عبد يُدْعَى مُكنِفًا كان أصلُه منها، فعل هذا، فقال المسلمون: هو عَبْدٌ؟ قالوا: نعم، قالوا: نحن لا نعرفُ العبدَ من الحرِّ، فإن شئتم فاْغدِرُوا، فكَتبوا بذلك إلى عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فأجاز ذلك، وانْصرفوا عنهم. والله تعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الفرس

وفي سنة سبع عشرةَ أذن عمرُ رضي الله عنه للمسلمين في الانسياح في بلادِ الفُرْس، وكان سبب ذلك أنَّ عمرَ لما أُتِي بالهُرْمزان قال للوفدِ: لعلَّ المسلمين يُؤْذُونَ أهل الذِّمّةِ، فلهذا يَنتقِضون بكم! قالوا: ما نَعلم إلاَّ وَفاءً. قال: فكيف هذا! فلم يشفه أحدٌ، قال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إنَّك نهيْتَنا عن الانسياح في البلاد، وإنَّ مَلِكَ فارس بين أظهرُهم، ولا يزالون يُقَاتلونَنَا ما دام مَلِكهم فيهم، ولم يجتمعْ مَلِكانِ متفقان حتى يُخرِج أحدُهما صاحِبَه، وقد رأيتُ أنا لَم نأخذ شيئًا بعد شيءٍ إلا بانبِعاثهم وغَدْرِهم، وأنَّ مَلِكَهم هو الذي يَبْعثهم، ولا يزال هذا دأْبهم حتى تأذن لنا

---

(١) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده... وهي مدينة خصبة واسعة الخير، بها النخل والزروع والمياه... (معجم البلدان).

فنَسيحَ في بلادهم، ونُزيل مُلكَهم، فهناك ينقطع رجاءُ أهلِ فارسَ. فقال: صَدَقْتَني واللّهِ، ورجع إلى قوله، وانتهى إلى رأيه، وأذِن للمسلمين في الانسِياح. فأمَرَ أبا موسى الأشعريّ أن يسير من البَصْرَةِ إلى منقطع ذِمّة البَصْرة، فكيون هنالك حتى يَأْتِيَهُ أمْرُهُ، وبعث بألوِيَة من وَلاّهُ مع سُهَيْلِ بنِ عَدِيّ، فدفع لواء خُراسانَ إلى الأحْنف بن قيس، ولواء أردشير خُرَّة وسابُور إلى مُجاشِع بن مسعود السُّلميّ، ولواء إصْطَخر إلى عثمانَ بن أبي العاص الثَّقَفِي ولواء فسَا ودرابجرد إلى سارية بن زُنَيْم الكِنانيّ، ولواء كِرْمان إلى سُهَيْل بنِ عَدِيّ، ولواء سِجِسْتان، إلى عاصم بنِ عَمرو، ولواء مُكْرانَ إلى الحكم بن عُمَيْر التَّغْلَبيّ، فخرجوا ولم يتهيّأ مسيرُهم إلى سنة ثماني عشرة، وأمدَّهم عمرُ بنَفَرٍ من أهل الكوفة، فأمدّ سُهيلَ بنَ عَدِيّ بعبدِ الله بن عبدِ الله بن عِتْبان، وأمدّ الأحْنَف بعَلْقَمة بن النَّضر وبعبد الله بن عَقِيل وبربْعيّ بنِ عامر، وأمَدَّ عاصمَ بن عمرو بعبد الله بن عُمَير الأشْجعيّ، وأمدَّ الحَكَم بن عُمَير بشهاب بن المُخارِق.

وقيل: كان ذلك في سنة إحدى وعشرين. وقيل: في سنة اثنتين وعشرين، وسنذكره إن شاء الله تعالى عند ذكرنا لِفتُوحِ هذه الجهات والمَسير إليْها، والله تعالى أعلَم.

ذكر غزوة فارس من البحرين

كات هذه الغَزْوة في سنة سبعَ عشرةَ، وكان عمرُ رضي الله عنه يقول لمّا أُخِذت الأهوازُ وما يليها: وددْتُ أنَّ بيننا وبَيْن فارسَ جبلاً من نارٍ لا نَصِل إليهمْ منه، ولا يصِلُون إلينا.

وكان العلاءُ بنُ الحَضْرميّ على البحريْن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فَعزَله عمر، ثم أعاده، وكان يناوىء سعدَ بنَ أبي وَقّاص، ففاز العَلاءَ في قتال أهلِ الرِّدَّةِ بالفَضْلِ، فلمّا ظفِر سعد بأَهْل القادسيَّةِ، وأزاحَ الأكاسرةَ جاء بأعظمَ ممّا فعله العَلاء. فأراد العَلاء أن يَصْنَع في الفُرسِ شيئًا، فلم يَنظُر في الطاعةِ والمعصية بجدّ، وكان عمر رضي الله عنه نهاه وغيرَه عن الغزو في البحْرِ.

فندب العلاء الناسَ إلى فارس، فأجابوه، وفرَّقهم جُنْدًا، فجعل على أحدها الجارُود بن الْمُعَلّى، وعلى الآخر سَوّار بن همّام، وعلى الآخر خُلَيد بن المُنذِر بن ساوَى، وخُليد على جميعِ النّاسِ، وحَمَلهم في البحر إلى فارس، فخرجوا من البحر

إلى إصْطَخر[1]، وبإزائهم أهلُ فارس، وعليهم ٱلهربِذ، فحالت الفُرْس بين المسلمين وبين سُفُنِهِمْ، فٱقتتلوا قتالاً شديدًا بمكانٍ يُدْعَى طاوُس[2]، فَقُتِلَ ٱبن السَّوّار والجارُود، وكان خليد أمر أصحابَه أن يقاتلوا رجّالةً، فقتلُوا من الفُرْسِ مَقتلةً عظيمة، ثم خرجوا يريدون ٱلبَصْرَةَ، ولم يجدوا في الرجوع إلى البَحْر سبيلاً، وأخذت الفرسُ عليهم طريقَهُمْ، فعسكَرُوا وامتَنَعوا.

فلمَّا بلغ عمرَ ما صَنَعَ العَلاءُ، أرسَل إلى عُتبةَ بنِ غَزْوان يَأْمُرُهُ بإنفاذ جيشٍ كثيفٍ إلى المسلمين بفارسَ قبل أن يَهلِكوا، وقال: إنِّي قد أُلقِيَ في رُوعي كذا وكذا، نحو الَّذي وَقَع، وأمَرَ العلاء بأثقلِ الأشياءِ عليه، وهو تأميرُ سَعْدٍ عليه.

فشخصَ العلاءُ إلى سعد بمن معه، وأرسل عتبةُ ٱثني عشر ألفَ مقاتلٍ، فيهم: عاصمُ بنُ عمرو، وعَرْفَجة بن هَرْثَمة، والأحنف بن قَيْس وغيرهم، فَخَرجوا على البِغال يجنُبون الخَيْلَ، وعليهم أبو سَبْرة بنُ أبي رُهْم حتى ٱلتَقَى بخُليد، وتوالت الأمدادُ، ففتَح الله على المسلمين، وأصابُوا من المشركين ما شاؤُوا. والله تعالى أعلم.

ذكر وقعة نهاوند وفتحها

كانت هذه الوقعةُ في سنة إحدى وعشرين. وقيل: في سنة ثماني عشرةَ. وقيل: في سنة تسع عشرةَ.

وكان الذي هَيَّجَ أمرَ نَهاوَند أنَّ المسلمين لمّا خلَّصُوا جُنْدَ العَلاء، وفتحوا الأهوازَ، كاتب الفرسُ مَلِكَهُمْ، وهو بمَرْو، وَحَرَّكُوهُ، فكاتبَ الملوكَ ما بين الباب والسِّند وخُراسان وحُلْوَان، فاجتمعوا بنَهاوَنْد، ولمّا وصلها أوائلهُم بلغ سعدًا الخبرُ، فكتَبَ به إلى عمرَ، وثار بسعدٍ أقوامٌ ووشَوْا بِهِ، وألَّبُوا عليه، وسعَوْا إلى عمرَ ولم يَشْغَلْهم ما نزل بالنَّاسِ عنه.

فقال عمر: والله لا يَمنعُني ما نزل بكم من النَّظَر فيما لديكم، وكان من عزلِ سَعْد ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السِّنين.

---

(١) إصطخر: هي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور... بها مسجد سليمان عليه السلام... وقيل: إن أكبر كور فارس كورة إصطخر، وبها كانت قبل الإسلام خزائن الملوك... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) طاوس: موضع بنواحي بحر فارس...

وقدم سعد على عمرَ، وقد استخلفَ عَلى الكوفةِ عبدَ اللّهِ بنَ عبد اللّهِ عُتْبان، فأقرَّهُ عُمَر.

قال: ونفرتْ ملوكُ الأعاجم لكتابِ يَزْدَجِرْد، واجتمعوا بِنَهَاوَنْد على الفَيْرزان في خمسين ومائةِ ألف مقاتلٍ. وكان سَعْدٌ قد كاتب عمر بالخبرِ كما ذكَرْنَا، ثم شافهه به لمّا قدِمَ عليه، وقال له: إنَّ أهل الكُوفَةَ يَسْتَأْذِنُونَكَ في الانسياحِ، وأنْ يبدؤُوهم ليكون أهيبَ لهم على عدوِّهم.

فجمع عمرُ النَّاسَ واستشارهم، وقال: هذا يومٌ له ما بعدَه، وقد همَمْتُ أن أسيرَ فيمن قبَلي ومَن قدرتُ عليه، فأنزِلَ منزلاً وسطًا بين هذين المِصْرَيْنِ، ثم أستنفرهم فأكون لهم رِدْءًا؛ حتى يفتحَ اللّهُ عليهم ويقضيَ ما أحَبّ؛ فإنْ فتحَ الله تعالى عليهم صَبَبْتُهُمْ في بلدَانِهِمْ.

فقال له طلحةُ بنُ عبيد الله: يا أميرَ المؤمنين، قد أعلمتْك الأُمورُ، وعَجَمْتْك[1] البلايا، واحْتَنكَتْك التَّجاربُ، وأنتَ وشأْنُك، وأنتَ ورأْيُكَ، لا نَنْبُو[2] في يديْك، ولا نَكِلّ[3] عليكَ، إليك هذا الأمر، فمرْنا نُطِعْ، وادعُنَا نُجِب، واحمِلْنَا نَرْكَب، وقُدْنا ننقذ؛ فإنَّك وليُّ هذا الأمر؛ وقد بلوْتَ وجرَّبْتَ واخْتَبَرْتَ، فلم ينكشف شيءٌ من عواقبِ قضاء اللّهِ لك إلا عن خِيار. ثم عاد فجلس.

فعاد عمرُ لمَقالته، فقام عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه، فقال: أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتبَ إلى أهلِ الشَّامِ فيَسيروا من شامهم، وإلى أهل اليَمَنِ فيَسيروا من يَمَنِهِمْ، ثم تسير أنت بأهل الحَرَمين إلى الكوفَة والبَصْرة، فتلْقى جَمْعَ المشركين بجمعِ المسلمين؛ فإنَّك إذَا سِرْت قلَّ عِنْدَكَ ما قد تكاثرَ من عدد القومِ. وقد كنتَ أعزَّ عِزًّا، وأكثرَ. يا أميرَ المؤمنين إنَّك لا تَستبقِي بعدَ نفسِكَ من العَربِ باقية، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحَريز. إنّ هذا يومٌ له ما بَعْدَهُ من الأيّامِ، فاشْهَدْهُ برأيِكَ وأعوانِكَ، ولا تغبْ عنه. وجلس.

فعاد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لمقالَتِهِ، فقام إليهِ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فقال: أمّا بعدُ، يا أمير المؤمنين، فإنَّكَ إن أشْخَصْتَ أهلَ الشَام من شامهم، سارتْ الرُّومُ إلى ذراريّهم، وإنْ أشْخَصْتَ أهل اليمن من يَمَنِهم، سارت الحبشة إلى ذراريِّهم، وإنْ شخصْتَ من هذه الأرض انتقضتْ عليْك العربُ من

---

(١) عجمتك البلايا: اختبرتك وامتحنتك. (٢) لا ننبو: أي لا نجاوز الغرض.
(٣) كلّ: ضعف؛ تعب.

أطرافها، وأقطارِهَا، حتى يكون ما تَدَعُ وراءَك أهمَّ إليك ممَّا بين يديك من العَوْرات، والعِيالات. أَقْرِرْ هؤلاء في أمصارهم، واكتُبْ لأهلِ البَصْرةِ أن يتفرّقوا ثلاث فِرَقٍ، فرقة في حَرَمِهم وذراريِّهم، وفرقةٌ في أهل عَهْدِهم؛ حتى لا ينتَقِضوا، ولتَسِرْ فرقة إلى إخوانهم بالكُوفة مَددًا لهم. إنَّ الأعاجِمَ إنْ ينظروا إليك قالوا: هذا أميرُ العَرَب في أصلها، فكان ذلك أشدَّ لكَلَبِهم[1] عليك. وأمّا ما ذكرت من مسير القومِ فالله هو أكرَهُ لِمَسِيرهم منك، وهو أقْدَرُ على تغيير ما تكرَهُ.

وأمّا عَدَدُهُمْ، فإنَّا لم نكُنْ نقاتِلُ فيما مضى بالكثرةِ؛ ولكن بالنَصْرِ. فقال عمر: هذا هو الرأيُ، وكنتُ أُحبُّ أن أُتابعَ عليه.

وقيل: إنَّ طلحةَ وعثمانَ أشارَا عليه بالمُقام، والله تعالى أعلم.

ثم قال عُمَرُ: أشيرُوا عليّ برجل أولِّيهِ ذلك الثَّغرِ، وليكن عراقيًا. فقالوا: أنتَ أعلَمُ بجُنْدِكَ، وقد وَفَدوا عليكَ. فقال: واللّهِ لأُوَلِّيَنَّ أمرَهم رجلًا ليَكوننَّ أوّلَ الأسِنَّة إذا لقيَها غدًا. فقيل: مَنْ هُوَ؟ قال: النَّعمان بن مُقرّن المُزَنيّ. فقالوا: هُوَ لها.

وكان النُّعمان يومئذ معه جَمْعٌ من أهلِ الكوفةَ قد افتَتَحوا جُنْدَيْسابور والسُّوس كما قدّمنا، فكتَب إليه عمرُ رضي الله عنه يأمره بالمَسير إلى ماه[2]، فيَجمَع الجيوشَ عليه، فإذا اجْتمعوا سارَ بهم إلى الفيرزان ومن معه.

وقيل: بل كان النُّعمان بكَسْكَر، فسأله أن يَعزِله ويَبعثَه إلى جيش من المسلمين، فكتب إليه عُمَرُ يأمره بنهاوَنْد، فسارَ، وكتَبَ عمرُ إلى عَبدِ اللّهِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ عِتْبان أن يَستنفِرَ الناسَ مَعَ النُّعمان.

فندَبَ النَّاس، فخرجوا وعليهم حُذيفةُ بنُ اليمان، ومعه نعيمُ بنُ مقرِّن، فقَدِموا على النُّعمان، وتقدَّم عمرُ إلى الجُنْد الَّذِين كانوا بالأهوازِ أن يَشْغَلُوا الفُرْسَ عن المسلمين، وعليهم المقترِب، وحَرْمَلة، ووَزْقاء، فأقاموا بتُخومِ أصفَهان، وقطعوا أمْدَادَ فارِسَ عن أهْلِ نَهاوَنْد، واجتمعَ النَّاسُ على النُّعمانِ، وفيهم حذيفةُ بن اليمَانِ، وابنُ عمر، وجريرُ بنُ عبدِ الله البَجَليّ والمغيرةُ بن شُعْبة، وغيرُهم.

فَرَحل النُّعمان وعَبَّى أصحابَه وهم ثلاثون ألفًا، فجعَل على مقدِّمته نُعَيْمَ بنَ مقرِّن، وعلى مجنِّبته حُذَيفة وسُوَيْد بن مقرِّن، وعلى المجرّدة القَعْقَاع بن عمرو،

(١) كلب عليه: غضب وسفه.
(٢) ماه: الماه بالهاء خالصة: قصبة البلد، ومنه قيل ماه البصرة، وماه الكوفة، وماه فارس، ويقال لنهاوند وهمذان وقم ماه البصرة... (معجم البلدان لياقوت).

وعلى الساقَة مُجاشع بنُ مسعود. وقد توافتْ إليْه أمْداد المَدينةِ، فيهم المغيرةُ بنُ شعبة، فانتهوا إلى الأسْبِيذهان، والفرسُ وقوفٌ على تعبيتهم، وأميرُهم الفَيْرُزان، وعلى مجنَّبته الزرْدق وبَهْمَن جاذوَيْه، وقد تَوافَى إليه بنَهَاوَنْد كلُّ من غاب عَنْ القادِسيَّةِ. فلمّا رآهم النعمان كبَّر وكبَّر معه النَّاس، فتزلزلتْ الأعاجمُ، وحَطَّتِ العربُ الأثقالَ، وضُرِبَ فُسطاط النُّعمانِ، فابتَدَره أصحاب الكوفة، من كان من أشْرَافِهَا، فضَرَبوه، منهم: حذيفةُ بنُ اليَمان، وعُقْبَة بنُ عَمرو، والمغيرةُ بنُ شُعْبَة، وبَشِير ابنُ الخَصاصِيّة، وحنظلة الكاتب، وجريرُ بنُ عبدِ الله البَجَليّ، والأشعثُ بنُ قيس الكندي، وسعيدُ بنُ قَيْس الهَمْدانيّ، ووائلُ بن حُجر وغيرهم، فلم يُرَ بُناةُ فسطاطٍ بالعِراقِ كهؤلاء، وأنشب النُّعمانُ القتالَ بعد حَطِّ الأثقالِ فاقتتلوا يومَي الأربعاء والخميسِ، والحَرْبُ بينهم سِجَالٌ[١]، ثم انْجَحَروا[٢] في خَنادِقِهم يومَ الجُمْعَة، وحصَرهم المسلمون، وأقاموا عليهم ما شاء الله، والفُرْسُ بالخيار إنْ شاؤوا خرَجوا، وإن شاؤوا أقاموا، فخاف المسلمون أن يطولَ أمْرُهم؛ حتى إذا كان يوم الجمعة تجمَّعَ أهْلُ الرأي من المسلمين، وقالوا: نراهم علينا بالخيار، وأتَوا النعمان في ذلك، وهو يروِّي في الَّذِي رأوْا فيه، فأخبَروه، فبعث إلى مَنْ بقيَ من أهل النَّجَداتِ والرأْي، فأحضَرَهُمْ، وقال: قد تروْن المشركين واعتصامَهم بخَنادِقهم ومُدُنهم، وأنَّهم لا يخرجون إليْنا إلاَّ إذَا شَاؤوا، ولا يَقدِر المُسْلِمُون على إخراجهم، وقد تَرَوْن الَّذي فيه المسلمون من التَّضايق، فما الرأيُ الذي به نستخرجُهُمْ إلى المناجزة، وتَرْكُ التطويل؟

فتكلَّم عَمْرُو بنُ ثُبَيّ، وكان أكبر النَّاسِ يومئذ سنًّا، وكانوا يتكلَّمون على الأسْنَان، فقال: التَّحَصُّن عليهمْ أشدُّ من المُطاوَلة عليكم، فَدَعْهُم وقَاتِلْ مَنْ أتاكَ منهم، فرَدّوا عليه رأيه جميعًا.

وتكلَّمَ عَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبَ فقال: ناهِدْهُم[٣] وكاثِرْهم ولا تَخَفْهُم، فردُّوا جميعًا عليه رأْيَه، وقالوا: إنَّما تُناطح بنا الجُدْران، وهي عوان[٤] علينا.

فقال طُلَيحةُ بنُ خُويْلد الأسَديّ: أرى أن تَبْعَث خَيْلاً مؤدية لينشبوا القِتَالَ، فإذا اخْتَلَطُوا بهم رَجَعُوا إلَيْنا استطرادًا، فإنَّا لم نستطرِد لهم في طُولِ ما قاتَلْناهم، فإذا رَأَوْا ذلك طمِعُوا وخَرَجوا إلينا. فقاتَلْناهم حتَّى يقضيَ الله فيهم وفينا ما أحَبَّ، فأمَرَ

---

(١) الحرب بينهم سجال: نصرتها بينهم متداولة سجل (نصيب) منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء.
(٢) انجحروا: أي لجأوا. (٣) ناهدهم: انهض إليهم.
(٤) حرب عوان: قوتل فيها مرة بعد أخرى.

النعمان القعقاعَ بنَ عَمرٍو، وكان على المجرَّدةِ، فأنْشَبَ القتالَ، وأخرجَهُمْ من خنادِقِهم كأنَّهم جبالٌ مِنْ حَديد، وقد تواثقوا ألاَّ يفرّوا وقرن بعضهم ببعضٍ، كُلُّ سبعة في قِرَانٍ، وألْقَوْا حَسَكَ[١] الحديد بينهم؛ لَئِلاً ينهزِمُوا، فَلمَّا خَرَجُوا نكَص[٢] القَعْقَاعُ، فاغتنمتها الأعاجمُ ففعلوا كما ظنَّ طلَيْحة. وقالوا: هي هي.

ولحقَ الْقَعْقَاعُ بالنَّاسِ، وانقطعَ الفُرْسُ عن حِصْنهم، وأمر النُّعمانُ أصحابَه أنْ يَلزَمُوا الأرضَ ولا يُقاتِلوا حتى يأذنَ لهم، ففَعَلوا، واستَتَروا بالحَجف[٣] من الرَّمْي، وأقبل المشركون يرمونهم حتى أفْشَوا فيهم الجِراح، والنُّعْمانُ ينتظر بالقتالِ أحبَّ السَّاعاتِ كانت إلى رسول الله ﷺ؛ وذلك عند الزَّوالِ، فلمَّا كان قريبًا من تلك الساعةِ ركب النُّعمانُ فَرَسَهُ، وسار في النَّاس يُحَرِّضهم على القتالِ، ويذكِّرهم ويُمَنِّيهم الظَّفرَ، وقال: إنِّي مكبِّرٌ ثلاثًا، فإذا كبَّرتُ الثالثة فإنِّي حَامِلٌ، فاحمِلوا، فإنْ قُتِلْتُ فالأمير بَعْدِي حُذَيفة، فإنْ قُتِلَ ففُلان، حتى عَدَّ سبعةً آخرهم المغيرةُ، ثم قال: اللهمّ أعززْ دِينَك بنصرِ عِبادِك. وقيل: بل قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألك أنْ تُقِرَّ عيني اليومَ بفتحٍ يكون فيه عِزُّ الإسلام، واقْبِضني شهيدًا. فبكى النَّاسُ ثم رجع إلى موقفه، فكبَّر ثلاثًا، والنَّاسُ سامِعُونَ مُطِيعُونَ مستَعِدُّون للقتال، وحَمَل وحَمَلَ النَّاسُ، وانقَضَّتْ رايتُه نحوَهم انقضاضَ العُقاب، فاقتَتَلوا قِتالاً شديدًا لم يُسمَع بوقْعةٍ كانت أشدَّ منها، وصَبَر المسلمون صبرًا عظيمًا، وانهزَمَ الأعاجم، وقُتِلَ منهم ما بين الزَّوالِ والإعتام ما طَبَّق أرضَ المَعْرَكة حتى زَلِق النَّاسُ والدَّوابُّ في الدماء، فلمّا أقرّ اللّهُ عينَ النُّعمانِ بالفَتْحِ استُشْهِد، زَلِقَ[٤] به فَرسُه فَصُرِع. وقيل: بل رُمِيَ بسَهْمٍ في خاصِرَته فمات، فسجَّاه أخوه نعيم بنُ مقرّن بثوب، وأخذ الرّايةَ وناوَلَها حُذيفة، وتقدّم إلى موضعِ النُّعمان.

وقال المغيرة: اكتموا مُصابَ أميرِكم، لئلا يَهِنَ الناس، ودام القتال في الفُرْسِ حتى أظلم اللَّيل، فانهزموا، ولزِمَهم المسلمون وعَمِيَ عليهم قَصْدُهم، فأخذوا نحوَ اللِّهْب[٥] الَّذي كانوا دونَه، فوقعوا فيه، فكان الواحدُ منهم يقع فيقع عليه ستَّةٌ، بعضُهم على بعض في قيادٍ واحدٍ فَيُقْتَلُونَ جميعًا، وعَقرَهُم حَسَكُ الحديد، فمات منهم في اللِّهْب مائة ألفٍ أو يَزِيدُون سِوَى من قُتِلَ منهم في المعركة.

---

(١) حسك الحديد: ما يعمل على مثال الحسك.

(٢) نكص: أحجم، أو رجع عما كان قد اعتزمه وأحجم عنه.

(٣) الحجف: التروس من جلود بلا خشب. (٤) زلقت القدم: زلّت ولم تثبت.

(٥) اللهب: شق في الجبل.

وقيل: قُتِلَ في اللَّهَبِ ثمانون ألفًا، وفي المعركة ثلاثون ألفًا سوى من قُتِلَ في الطَّلبِ، ولم يُفلِتْ إلاَّ الشَّريد، ونجا الفَيْرُزان مِن الصَّرْعَى، فَهَرَب نحو هَمَذان، واتَّبعه نُعَيْم بنُ مقرِّن، وقَدِمَ القعقاعُ أمامَه، فأدرَكَه بثنيّة هَمَذَن، وهي إذ ذاك مشحونةٌ من بغالٍ وحُمُر مُوقَرة عَسَلاً.

فحبَسَه الدّوابّ فلمّا لم يجدْ طريقًا نزلَ عن دابَّتِهِ، وصعِدَ في الْجَبلِ، فأدرَكَهُ القعقاعُ، فقتَلَهُ المسلمونَ على الثَّنِيّة، وقالوا: إنَّ لِلّهِ جنودًا منها العَسَل، واستاقوا تلك الدَّوابّ بأحْمَالِهَا، وسُمِّيتْ الثَّنِيَّةُ ثنيَّةَ الْعَسَلِ، ودخَلَ المنهزمون همَذان، والمسلمون في آثارهم، فنزلوا عليها، وأخذوا ما حولَهَا، فلمّا رأى ذلك خسرشنوم استأمنهم(١).

ولمّا تمّ الظَّفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النُّعمان، فقال لهم أخوه مَعقِل: قد أقَرَّ اللّهُ عينَه بالفتح وخَتَمَ له بالشَّهادة، فاتَّبعُوا حذيفة، ودَخَلَ المسلمون نَهَاوَنْد يومَ الوقعة بعد الهزيمة واحْتَوَوْا على ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسْلاَبِ والأثاث وجمعوه إلى صاحب الأقباض، وهو السائب بنُ الأقْرع.

وانتظروا إخوانَهمُ الّذين على هَمَذَان مع نُعَيم والقعقاع، فأتاهم الهِرْبذُ صاحبُ بيت النَّار، وقال لحذيفة: أتُؤمّنَنِي وَمَنْ شئتَ، على أنْ أُخْرِجَ لكَ ذخيرةً لكسرى تُرِكَتْ عندي لنوائب الزَّمان؟ قال نعم، فأحضَر جَوْهَرًا نفيسًا في سَفَطَيْن(٢)، فأرسلوهما مع الأخماس إلى عمر رضي الله عنه بعد أن نَفَّل حذيفة منها، وأرسلَ ما بقيَ مع السائِبُ بن الأقرع الثَّقفِيّ.

قال السائب: فلمّا فرغت القسمةُ احتملْتُ السَّفَطيْن، وجئت بهما إلى عمر، فإذا هو قد خَرَجَ يتوقَّعُ الأخبارَ، وكان قد رأى الواقعة فباتَ يتَمَلْمَل، فقال ما وراءَك؟ فقلتُ: فتح اللّهُ على المسلمين، واستُشهد النُّعمانُ بنُ مقرِّن، فأعظم الفتحَ، واسترْجَعَ على النُّعمانِ وبَكى حتى نَشَج(٣)، ثمّ أخبرته بالسَّفَطين فقال لي: أدْخِلْهُمَا بيتَ المالِ حتَّى ننظرَ في شأنِهما، والْحقْ بجُنْدكَ.

قال: ففعلت، وخرجت مسرعًا إلى الكوفةِ، وباتَ عمرُ، فلمَّا أصبح بعث في أثري رسولاً، فما أدركني حتى دخلْتُ الكوفة، فأنختُ بعيري، وأناخَ بعيرَهُ على عرقوب بعيري، وقال: الحق بأمير المؤمنين.

---

(١) استأمنه: استجاره وطلب حمايته، والمراد هنا: طلب منه الأمان.
(٢) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.
(٣) نشج: غصّ بالبكاء من غير انتحاب.

قال: فركبتُ معه، وقدِمتُ على عمرَ، فلمّا رآني قال: ما لي وللسائب! قلت: وماذا؟ قال: ويْحك، والله ما هو إلاّ أنْ نمتُ اللّيلةَ التي خرجْتَ فيها، فأتت الملائكة تستحثُّني إلى السَّفَطيْن يشتعلان نارًا، يقولون: لنَكْوينَّك بهما، فأقول: إني سأقْسِمُهما بين المسلمين، فخذهُما عنّي فبِعْهما في أعْطيةِ المسلمين وأرزاقِهم.

قال: فخرجتُ بهما فوضعتهما في مسجدِ الكوفةِ، فابتاعهما منّي عمرُو بن حُرَيْث المَخْزوميّ بألفَيْ ألف درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلافِ ألف، فما زال أكثرَ أهلِ الكوفة مالاً.

قال: وكان سهمُ الفارس بنَهاوَنْد ستّةَ آلافٍ، والرَّاجل ألفين. ولمّا قدم سَبْيُ نهاوند المدينة، جعَل أبو لؤلؤة غُلامُ المغيرةِ بنِ شُعبَةَ لا يَلقَى منهم صغيرًا إلاّ مَسَح رأسَه وبَكى، وقال: أكلَ عمرُ كَبِدي، وكان مِن نَهاوَنْد، فأسرتْه الرُّوم، وأسَرَهُ المسلمونَ.

وكان المسلمون يسمُّون فَتْحُ نَهاوَنْد فَتْحَ الفُتوح؛ لأنّه لم يكن لِلفُرْسِ بعدَه اجتماعٌ، ومَلَكَ المسلمون بلادهم. والله سبحانه وتعالى أعلَم والحمد لله وحده.

ذكر فتح دينور والصيمرة وغيرهما

لما انْصَرَف أبو موسى الأشعريُّ من نَهاوَنْد، وكان قد جاء مَدَدًا على بعث أهْلِ البصرةِ، فمَرَّ بالدِّينَور[1]، فأقام عليها خمسةَ أيّام، وصالَحه أهلُهَا على الجِزْيَةِ، ومَضَى، فصالحه أهل الشِّيروان على مِثْل صُلْحِهم، وبعث السائب الأقرع إلى الصَّيْمَرَة وهي مدينةُ مهرجان قذق ففتحها صُلْحًا، والحمد لله وحدَه، وصلّى الله على سيّدنا محمّد.

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لما انْهَزَم المشركون من نَهاوَنْد دخَلَ مَن سَلِم منهم هَمَذَان، فحاصَرَهم نُعَيمُ بنُ مقرِّن والقعقاعُ بنُ عمرو، فلمّا رأى ذلك خسرشنوم استأْمَنَهم، وقَبِلَ الْجِزْيَة على أن يَضمَنَ هَمَذَان ودَسْتَبي، وألاّ يُؤْتَى المسلمون منهم، فأجابوه إلى ذلك وأمَّنُوه هُوَ ومن

---

(١) دينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين دينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل، والدينور بمقدار ثلثي همذان، وهي كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف، وأهلها أجود طبعًا من أهل همذان... (معجم البلدان).

معه من الفُرْس، وأقبل كلُّ من كان هَرَب، وبلغَ الخبرُ أهلَ الماهيْن، فاقتَدَوْا بخسرشنوم، وراسلوا حُذَيْفَةَ، فأجابهم، ودخل مَاه دِينار، وَبَهْرَاذان على مثل ذلك. وكان قد وَكَّل النُّسَيْر بنَ ثَوْرٍ بقلعةٍ قد لجأ إليها قومٌ، فحَاصَرَهم وافْتَتَحها، فنسبت إلى النُّسَيْر.

ولمّا رجع نُعَيْمُ والقَعْقَاع، كَفرَ أهلُ هَمَذَان مع خسرشنوم، فخرج نعيمُ بنُ مقرّن إليها في سنة اثنتين وعشرين، واستولى على جميع بلادها وحاصرها، فسأله أهلها الصلح ففعل، وفتحها الثانية، وقبل منهم الجزية. وقيل إن فتحها كان في سنة أربع وعشرين، بعد وفاة عمرَ بستَّةِ أشهرٍ. والله أعلم.

قال: وبينما نُعَيم بهَمَذَان في الفتحِ الثَّاني، وهو في اْثنَيْ عَشَرَ ألفًا من الجند، فكاتب الديلم، وأهلَ الرَّيّ، وأذْرَبِيجَان، إذ خرج مُوتَى في الدَّيْلَم، ونَزَلَ بواج الرُّوذ، وأقبل الزَّينبيّ أبو الفَرُّخان في أهلِ الرَّيّ وأقبل إسفنْدِيار أخو رُسْتُم في أهلِ أذْرَبِيجان، فاْجتمعوا وتحصَّن منهم أُمراء المَسالِح، وبعثوا إلى نُعيم بالْخَبَرِ، فاْستخْلَف يزيدَ بنَ قيسٍ الْهَمَذَانيّ، وخرج إليهم، فاْقتتلوا بَواج الرُّوذ قِتالاً شَديدًا، وكانت وقعة عظيمةً تعدلُ وقعَةَ نَهَاوَنْد، فاْنهزم الْفُرْسُ أقْبَحَ هَزِيمة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأرسل نُعَيم إلى عمرَ بقصد الرَّيّ، وقتالِ مَنْ بِهَا، والمُقَامِ بها بعد فَتْحِها.

وقيل: إنّ المغيرةَ بنَ شُعْبة، وهو عامل الكوفة أرسل جريرَ بن عبدِ اللّهِ إلى هَمَذَان، فقاتَلَه أهلُهَا، وأُصِيبَ بسهمٍ في عَيْنِهِ، فقال: أحْتَسِبها عند اللّهِ الَّذي زَيَّن بها وَجْهي.

وقيل: كان فَتَحَهَا على يد المغيرة نفسِهِ. وقيل: فَتَحَهَا قَرَظَةُ بنُ كَعْبٍ الأنْصَاريّ رضي الله عنه، والله تعالى أعلَمُ وهو حَسْبُنَا ونعمَ الوكيل.

ذكر فتح أصبهان وقم وقاشان(١)

وفي سنةِ إحدى وعشرين بَعث عمرُ رضي الله عنه عبدَ اللّهِ بنَ عبد الله بن عِتْبَان إلى أصْبَهَان، وكان شجاعًا من أشرافِ الصَّحابة، ووجوهِ الأنصارِ، وأمدَّه بأبي موسى الأشعريِّ، وجعل على مجنِّبَتَيْهِ عبدَ الله بنَ وَرْقاء الرّياحيّ وعصمة بن عبد الله، فسار إلى

(١) قاشان: بالشن المعجمة، وآخره نون: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضائر القاشاني، والعامة تقول القاشي، وأهلها كلهم شيعة إمامية... وبين قاشان وقم اثنا عشر فرسخًا، وبين قاشان وأصبهان ثلاث مراحل... (معجم البلدان لياقوت).

نَهَاوَنْدَ ورجعَ حذيفةُ إلى عمله على ما سَقَتْ دِجلةُ وما وراءَها. وسار عبدُ الله فيمن كان معه ومن تَبِعه من جُنْد النُّعمانِ الَّذين بِنَهَاوَنْد نحو أصبهان، وعلى جُنْدِها الأسْبِيذان، وعلى مقدِّمَته شَهْريارُ بْنُ جاذَويه (شيخٌ كبيرٌ) في جمعٍ عظيم، فالتقى المسلمون ومقدِّمة المشركين بُرسْتاقٍ لأصبَهان، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فبرزَ الشيخُ ودعَا إلى البِراز، فَبَرَز له عبد اللّهِ بن وَرْقاءَ فقَتَلَهُ عبدُ اللّهِ، وانهزمَ الفرسُ؛ فسُمِّي ذلك الرُّسْتاقُ برستاقِ الشَّيْخ، وصالَحهم الأسبيذان على الرُّسْتاق، وهو أوّل رُسْتاق أُخِذ مِن أصبَهان.

ثم سار عبدُ الله إلى مدينة جَيّ، وهي مدينةُ أصبِهَان، والمَلِك بأصبهَان الْفَاذُوسفان، فَنَزَل بها، وحاصَرها، فصالَحَهُ الملِكُ عليها، على الْجِزية على من أَقَامَ، وأن يُجْزَى مَنْ أُخِذَتْ أرضُه عنوةً مجزاهم ومَنْ أبى وذَهَبَ كانتْ أرضُه للمسلمين.

وقدم أبو موسى على عبدِ اللّهِ من ناحيةِ الأهْوازِ، وقد صالح القوم، فَدَخَل القومُ في الذمَّة إلا ثلاثين رجلاً من أهل أصبَهَانَ لحقوا بكَرْمان، ودخل عبدُ اللّهِ ومَن معه المدينة، وكَتَب بذلك إلى عمرَ، فكتب إليه: أن سِرْ حَتّى تقدم على سُهَيْلِ بنِ عديّ؛ حتى تكونَ معه على قتالِ مَنْ بِكَرْمان. فاْستَخْلَف على أصبَهان السَّائِبَ بن الأقْرَع، ولَحِق بسُهَيْل قبل وصولِهِ إلى كرْمان، واْفتتح أبو موسى قمّ وقاشان.

ذكر فتح قزوين وأبهر وزنجان(١)

وفي سنة اثنتين وعشرين بعث المغيرة بن شعبة وهو أميرُ الكوفة البراءَ بنَ عازب في جيْشٍ إلى قَزْوينَ، وأمَرَه إنْ فَتَحَها أن يغزُوَ الدَّيلم.

فسار حتَّى أتى أبْهَرَ، وهو حصنٌ، فقاتَلُوه، ثم طَلَبُوا الأمان، فأمَّنَهُمْ وصالَحهم، ثم غزا قَزْوِينَ، فأرسَل أهلُها إلى الدَّيْلَم يطلبون النُّصْرَةَ منهم، فَوَعَدوهم، فَوَصَل المسلمون إليهم، فخرجوا لِقَتالهم والدَّيْلَم وقوفٌ على الجَبَل لا يَمُدُّون يدًا، فلمَّا رأى أهْلُ قزوين ذلك طلبوا الصُّلْح، فصالحهم على مِثل صُلْح أبْهَرَ. وغزا الدَّيْلَمَ حتَّى أدَّوْا إليه الإتاوة، وغزَا جِيلانَ والطَّيلَسان، وفَتَحَ زَنْجانَ عَنْوَةً.

ولمّا وُلّيَ الوليدُ بنُ عُقْبة الكوفةَ، غزا الدَّيْلَمَ، وجيلانَ، ومُوقانَ، والبير والطَّيْلَسان، والله سبحانه وتعالى أعْلَمُ.

(١) زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره نون: بلد كبير من نواحي الجبال بني أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجم يقولون زنكاف؛ وقد خرج منها جماعة من أهل الأدب والحديث. . . (معجم البلدان).

ذكر فتح الرَّي[1]

قال: وسار نُعيمُ بنُ مقرِّن من وَاج الرُّوذ بأمرِ عمرَ حتَّى قدِمَ الرَّيّ، وخرج الزَّيْنَبيّ أبو الفَرُّخان منها، فلقي نُعَيمًا طالبًا ومسالِمًا ومحالفًا لملك الرَّيّ وهو سِياوخْش بن مهرانَ بن بَهْرام بن جُوبين، فاستمدَّ سياوخش أهلَ دُنْبَاوَنْد وطَبَرِسْتان وقُومِس، وجُرْجان، فأمدُّوه، والتقوْا مَعَ المسلمين في سَفْحِ جبلِ الرَّيّ الَّذي بجانب مدينَتِها، فاقْتَتلوا.

وكان الزينَبِيُّ قال لنُعَيم: إنَّ القوم قد كَثرُوا وأنت في قِلَّة، فابْعَثْ معي خيلاً لأُدخل بها مدينتهم مِنْ مَدْخلٍ لا يَشعرون به، وَنَاهِدْهم أنت، فإذا خرجْنا نحن عليهم فإنَّهم لا يَثبتون لك. فبعثَ معه خيلاً من اللَّيْلِ، عليهم ابْنُ أخيه المُنذرُ بنُ عَمرو، فأدخلهم الزينبيّ المدينةَ، والقومُ لا يَشعُرُون، وبيَّتَهم نعيمٌ، فشَغَلَهم عن مَدِينتهم، واقتَتَلوا وصَبَروا حتى سَمِعوا التكبيرَ من ورائهم، فانْهزَموا، وقتِلَ منهم مقتلة عظيمة، وأفاء الله تعالى على المسلمين بالرَّيّ نحوًا مما في المَدائن، وصالحهم الزينبيّ على الرَّيّ، وأخربَ نُعيمٌ مدينتَهُمْ، وهي الَّتي يُقَال لها: العَتِيقة. فأمر الزينبيّ فبَنَى مدينةَ الرَّيّ، وكتب نعيم إلى عمرَ بالفَتْح، وبعث بالأخْماسِ، وراسله المَصْمُغان في الصُّلح على شيءٍ يُفتدَى به منه على دُنْبَاوَنْد، فأجابه إلى ذلك.

وقد قيل: إنَّ فتح الرَّيّ كان على يد قَرَظَةَ بن كعب بن ثعلبةَ الخَزْرجيّ في سنة ثلاثٍ وعشرين، حكاه أبو عمرَ بنُ عبد البرّ.

وقيل: في سنة إحدى وعشرين. وقيل غيرُ ذلك، والله تعالى أعلم بالصَّواب، وإليه المَرجع والمآب.

ذكر فتح قومس[2] وجرجان وطبرستان

قال: لمّا أرسل نُعيمُ بنُ مقرِّن إلى عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه بالفتح والأخماس كَتَب إليه عمرُ رضي الله عنه بإرسال سُوَيْد بنِ مقرِّن ومعه هند بنُ عمرو

---

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: . . هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا ومن قزوين إلى أبهر اثنا عشر فرسخًا ومن أبهر إلى زنجان خمسة عشر فرسخًا. . . (معجم البلدان).

(٢) قومس: هي كورة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الري ونيسابور، ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار. . .

وغيره إلى قُومِس، فسارَ سُوَيْدٌ نحوَها، فلم يَقم له أحد، فأخذها سِلْمًا، وعَسْكَرَ بها، وكاتَبَه الَّذين لَجؤوا إلى طَبَرِستان مِنهم، والَّذين أخذُوا المفاوِزَ، فأجابهم إلى الصّلْحِ والْجزْيةِ، وكتب لهم بذلك.

ثم سار سُويد إلى جُرْجانَ، فَعسكَرَ بِبسْطام، وكتب إلى مَلِك جُرْجانَ وهو رُزْبَان صُول، فصالَحه على الْجِزية وكفاية حَرْبِ جُرْجان، وأن يعينَه سُوَيد إنْ غُلِب، فأجابَه سويدٌ إلى ذلك، وتلقَّاه رُزْبَان قبل دخوله جُرْجان، ودخل معه، وعَسْكَرَ سُوَيْدٌ بها حتّى جَبَى الخراجَ، وسَدَّ فُروجَها بتُرْكِ دِهِسْتان، ورفَع الجزية عَمَّن قامَ معه بمنعِها، وأخَذَهَا من الْبَاقِين.

وقيل: كان فَتْحُهَا في سنةِ ثماني عشرةَ. وقيل: في سنة ثلاثين في خلافة عثمان.

قال: وأرسل الإصبهبذ صاحب طَبَرِسْتان إلى سُويْد في الصُّلح، على أن يتوادَعا بها ويَجعَل له شيئًا على غير نَصْرٍ ولا مَعُونةٍ على أحد، فقبل ذلك منه، وكتبَ له كتابًا، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصّواب، وإليه المَرجع والمآب.

ذكر فتح أذربيجان(١)

كان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه، بعثَ بُكَيْرَ بنَ عبدِ اللّهِ إلى أذْرَبِيجان، وأمَرَ نُعيم بنَ مقرِّن أن يمدّهُ بسِماكِ بنِ خَرَشةَ، فأمدَّه به بعد فتح الرَّيّ، فسار بُكَيْر حتى طلع بجبالِ جَرْمِيذان، فطلعَ عليه إسفنديار بن الفرّخزاذ مهزومًا من واج الرُّوذ، فاْقتَتَلوا، فهَزَم اللّهُ الفُرْسَ وأُخِذَ إسفِنْدِيار أسيرًا، فقال له إسفنديار: الصُّلح أحبُّ إليكَ أم الحربُ؟ قال: بل الصُّلح. قال: أمْسِكْنِي عندكَ؛ فإنّ أهل أذْرَبيجان إنْ لم أصالحْ عليهم، أو أجيء لهم لم يقوموا لك، وجَلَوْا إلى الجبال الَّتي حولَها، ومن كان على التحصين تحصَّن ليوم ما، فأمسَكَه عنده وصارتْ إليه البلاد إلاّ ما كان من حِصْنٍ. وقدِمَ عليه سِماكُ بنُ خُرَشة، وإسفنديار في أسرِه، وقد افتتح ما يليه، وافتتح عُتبةُ بنُ فَرْقَدٍ ما يليه.

---

(١) أذربيجان: حدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطرم، وهو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها: تبريز... وخوي، وسلماس، وأرمية، وأردبيل، ومرند، وغير ذلك. وهو صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال؛ وفيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمة... (معجم البلدان).

وكتب بُكَير إلى عمرَ يستأذنه في التَّقدّم، فأذن له أن يتقدَّمَ نحو البابِ، وأن يستخلفَ على ما افْتَتَحه، فاستخلفَ عتبةَ بنَ فرقد، فأقرَّ عتبةُ سماكَ بنَ خرشةَ على عمل بُكَير الَّذي كان افْتَتَحه، وجمع عمرُ أذربِيجَانَ كلَّها لعُتْبَة بن فَرْقد. وكان بهرام بن الفرُخزاذ قصد طريقَ عُتْبَةَ، فاقتتلوا، فانهزمَ بهرامُ، فلمَّا بلغ خبره إسفنديار وهو في الإسار عند بُكَير، قال: الآن تمَّ الصُّلح، وطُفِئَتْ نيران الحربِ، فصالَحه وأجاب أهلُ أذْرَبيجانَ إلى ذلك، وعادتْ سِلْمًا، وكتب بكيرٌ وعتبةُ بذلك إلى عمرَ، وبَعثَا بالخُمْس.

ولمّا جمع عمرُ لعُتْبَةَ عَمَلَ بُكَيْرٍ، كَتَب لأهْلِ أذْرَبيجانَ كتابًا بالصُّلْحِ.

ذكر فتح الباب(١)

كان فتح الباب في سنة اثنتين وعشرين، وكان عمرُ رضي الله تعالى عنه ردَّ أبا موسى الأشعريَّ إلى البَصْرة، وبعثَ سُراقةَ بنَ عَمرو، وكان يُدعَى ذا النُّور إلى الباب، وجعل على مقدِّمته عبدَ الرحمٰن بن ربيعة، وكان يُدعَى ذا النُّور أيضًا، وعلى مجنِّبتَيْه حذيفة بن أُسَيد الغِفاريّ وبُكَير بن عبد الله اللَّيثيّ، وكان بكير قد سَبَقه إلى الباب عند منصرَفه من أذْرَبيجان، وجعل على المقاسِم سَلْمَانَ بنَ ربيعة الباهليّ.

وكان عمر قد أمدّ سُرَاقَةَ بحبيب بنِ مَسلمةَ من الجزيرة، وجعل مكانَه زياد بن حنظلةَ، فسار سُراقةُ وعبدُ الرحمٰن بن أُمَامة، فلمَّا أطَلَّ عبدُ الرحمٰن على الباب كاتبَه ملِكُها شهريار، (من ولد شهريَار المَلِك)، واستأمَنَهُ على أنْ يأتيَه، ففعل، فأتاه فقال له: إنِّي نازلٌ بإزاءِ عدوٍّ كَلِب، وأُمَم مختلفةٍ ليس لهم أحساب، ولا ينبغي لذي الحَسَب والعَقْل أن يعينَهم على ذِي الحَسَب، وأنتم قد غلبتمْ على بلادي وأنا منكم، ويدي في أيديكم، وجِزْيَتي إليكم، والنَّصرُ لكم، والقيام بما تُحبّون، فلا تَسُومُونا الْجِزيَة، فتوهِّنُونا لعدوّكم، فسيَّره عبد الرحمٰن إلى سُراقة، فلقيَه بِمثل ذلك، وقال: لا بدَّ من الجِزْيَةِ مِمَّنْ يقيمُ ولا يحاربُ العدوّ، فاتَّفقا على ذلك، وأجازَه عمرُ رضي الله عنه وأرضاه واستحسَنَه.

---

(١) الباب: أو باب الأبواب: وهو الدربند دربند شروان؛ قال الإصطخري: هي مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، وفي وسطها مرسى السفن، وهذا المرسى من البحر قد بني على حافتي البحر سدين، وجعل المدخل ملتويًا، وعلى هذا الفم سلسلة محدودة فلا مخرج للمركب ولا مدخل إلا بإذن، وهذا السدان من صخر ورصاص، وباب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر... (معجم البلدان).

ذكر فتح موقان[(١)]

ولما فَرغَ سُراقةُ من الباب أرسل بُكيرَ بنَ عبد الله، وسلمانَ بنَ ربيعة، وحبيب بنَ مسلمة وحذيفة بن أَسِيد إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرْمِينِيَة، فوجَّهَ بُكَيْرًا إلى مُوقان، وحَبيبًا إلى تفليس، وحذيفة إلى جبال اللاَّن، وسَلْمانَ إلى الوَجْه الآخَر، وكتب سراقة بالفتح وبإرسالهم إلى عمر، فَسُرَّ بذلك.

ثم مات سُراقةُ بعد أنْ استَوْثقَ له الأمرُ، واْستُخلِفَ عبدُ الرحمٰن بن ربيعة، ولم يَفتتِحْ أحدٌ من القوّاد إلا بكيرَ بنَ عبدِ اللّهِ؛ فإنَّه صالح أهلَ مُوقانَ على الجِزْيةِ؛ على كل مُحْتَلم[(٢)] دينارٌ، وذلك بعد أن فَضَّ أهلَ مُوقان، ثم تَراجَعوا.

وقيل: كان الفتح في سنةِ إحدى وعشرين، وأقرّ عُمرُ عبدَ الرحمٰن على فَرْجِ الباب، وأمَرَه بغَزْوِ التُّركِ. والله تعالى أعلم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله الطيِّبين الطاهرين، وحسبُنا الله ونعم الوكيل.

ذكر غزو الترك

قال: ولـمّا أمرَ عُمر رضي الله عنه عبدَ الرحمٰن بنَ ربيعةَ بغَزْو التُّرك خرج بالنّاس حتى قطع الباب فقال له شَهْرَيار: ما تريد أن تَصْنَع؟ قال: أُريد بلنْجَر والترك. قال: إنّا لنرضَى منهم أنْ يَدعُونَا مِنْ دون البابِ. قال عبد الرحمٰن: لكنّا لا نَرضَى حتى نَغزُوَهم في ديارِهم، وتاللّهِ إنَّ معنا أقوامًا لو يأْذن لنا أميرُنا في الإمعان لبلغت بهم الرّوم. قال: وما هم؟ قال: أقوامٌ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ، ودَخلوا في هذا الأمرِ بنيَّةٍ فلا يوالُ النَّصرُ معهم، فغزَا بَلَنْجَر، فقالوا: ما اْجترأ علينا إلاَّ ومعه الملائكة تمنعهم من الموْتِ، فهربوا وتحصَّنوا، ورجعَ بالغنيمة والظَّفر. وقد بلغتْ خيْلُه البيضاءَ على رأسِ مائتيْ فرسخ[(٣)] من بَلَنْجَر، وعاد ولم يُقْتل منهم أحدٌ، ثم غزاها أيّام عثمان بن عفَّان رضي الله عنه غَزواتٍ، فَظَفِر كما كان يَظفَر.

---

(١) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال...

(٢) المحتلم: الذي بلغ مبلغ الرجال.

(٣) الفرسخ: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبعًا، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض... (معجم البلدان).

ثم غزاهم بعد أنْ كان من أهْلِ الكوفةِ في حَقِّ عثمانَ رضي الله عنه ما نَذكُره، فتذامَرتِ التُّرك واجتمَعوا في الغياضِ، فرمَى رجلٌ منهم رجلًا من المسلمين بسَهْم عَلَى غِرَّةٍ، فقتَله، وهرب الرَّامي عن أصحابه، فلمّا نظر التُّركُ إلى المسلم وقد قُتِلَ خرجوا على عبد الرحمٰن ومَن معه، واقتَتَلوا أشَدَّ قتالٍ، ونادى مُنَادٍ من الجوّ: صَبْرًا عبدَ الرَّحمٰن، وموعِدُكم الجنَّة! فقاتلَ حتى قُتِلَ، وانكشف أصحابُه، وأخَذَ الرايَةَ أخوه سَلمانُ بنُ ربيعة، فنادى منادٍ من الجوِّ: صَبْرًا سَلْمان. فقال سَلْمان: أو تَرَى جَزَعًا! وخرج بالنَّاسِ على جِيلان إلى جُرْجان، ولم تمنعهم هذه الحَرْب من اتخاذ جسد عبدِ الرَّحْمٰنِ، فهم يَستَسْقُون[١] به حتَّى الآن. والحمد لله وحدَه، وصلَّى اللّهُ على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

ذكر غزو خراسان

وفي سنة اثنتين وعشرين غزا الأحنفُ بنُ قَيْس خُراسانَ، على قول بعضهم. وقيل: بل كان في سنة ثمان عشرةَ، وسببُ ذٰلك أنَّ يَزْدَجرد لمّا سار إلى الرَّيّ بعد هزيمة أهلِ جَلُولاءَ، انتهى إليها، وبها أبان جَاذَوَيْه، فوثب أبان عليه وأخَذَه. فقال يَزْدَجِرد: يا أبان، تَغْدِر بي! قال: لا؛ ولكن قد تركْتَ مُلْكَكَ، فصار في يد غيْرِكَ، فأحببتُ أنْ أكتتب على ما كان لي من شيءٍ، وأخذ خاتَمَ يَزْدَجِرد واكتَتَب الصِّكاك بكلّ ما أعجَبَه، وخَتَم عليها ورَدَّ الخاتَمَ، ثم أتى بعد ذلك سعدًا فردَّ عليه كلَّ شيءٍ في كتابه. وسار يَزْدَجِرد من الرَّيّ إلى أصبَهان، ثم إلى كَرْمَانَ والنَّار معه، ثم قصدَ خُراسانَ والنَّارُ معه، فنزل مَرْوَ، وبَنَى للنَّارِ بيتًا، واطمأنَّ وأمِنَ أنْ يُؤْتَى، ودَانَ لَهُ مَنْ بَقِيَ من الأعاجم.

وكاتَبَ الْهُرْمزان، وأثار أهْلَ الجبالِ والفيرزان، فنَكَثوا، فأذِنَ عمرُ رضي الله عنه للمسلمين فدَخَلوا بلادَ الفُرْسِ، فسار الأحنفُ إلى خُراسان فدخلها من الطَّبَسَين[٢]، فافتتح هَراةَ عَنْوَةً، واستخلفَ عليها صُحَار بن صَخْر العَبْدِي. وقيل فيه: صُحارُ بنُ عبَّاس بن شراحبيلٍ، ثم سار نحو مَرْو الشاهِجان، فأرسل إلى نَيسابور مطرِّفَ بنَ عبد اللّهِ بن الشِّخِّير، وإلى سَرْخَس الحارث بن حَسَّان.

---

(١) استسقى: طلب السقيا.

(٢) الطبسان: قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس، إحداهما طبس العناب، والأخرى طبس التمر. . . (معجم البلدان).

فلمّا دنا الأحنفُ مِن مَرْو، خرجَ يَزْدَجرد منها إلى مَرْوَ الرُّوذ[١]، ونزل الأحنفُ مَرْوَ الشَّاهِجان.

وكتبَ يزدجرد إلى خاقانَ مَلِك التُّرك وإلى مَلِك الصُّغْد وإلى مَلِك الصِّين يستمدُّهم.

وخرج الأحنفُ من مَرْوِ الشّاهجان، واستخلَف عليها خالدَ بن النُّعمان البَاهليّ بعد أنْ لحقتْه أمدادُ الكُوفَةِ. فلمّا سمع به يَزْدَجِرد سار من مرو الرّوذ إلى بَلْخ، ونزلها الأحنف، والتقى أهلُ الكُوفَةِ وَيَزْدَجرد ببَلْخ، فانهَزَم يَزْدَجرد، وعَبَر النَّهْرَ، ولحق الأحنفُ بأهل الكُوفَةِ، وقد فتح الله عليهم، وافتتَحَ ما بين نَيْسابور إلى طَخَارِسْتَان، وعاد إلى مَرْو الرُّوذ، واستخلفَ على طَخَارِسْتانَ رِبْعيَّ بنَ عامرٍ، وكتبَ إلى عمرَ بالفتح. فقال عمر: وددت أنَّ بيننا وبينها بحرًا مِنْ نارٍ. فقال عليٌّ: ولِمَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لأنَّ أهلها سينقضُون منها ثلاثَ مرَّاتٍ، وكتب إلى الأحنف أن يقتصرَ على ما دون النَّهرِ ولا يَجوزه.

قال: ولمّا عَبَرَ يَزْدَجِرد مهزومًا، أنجَده خاقانُ التُّرْكِ، وأهل فَرْغانَةَ والصُّغد، فرجَعَ يَزْدَجِردُ وخاقان إلى خُراسان، فَنَزَلا بَلْخَ. ورجع أهلُ الكوفة إلى الأحنف بمرْو الرُّوذ، فنزل المشركون عليه بها، وكان الأحنف لما بلغه خبرُ عُبور يزدجرد وخاقان النَّهرَ إليه، خرج ليلاً يتسمَّعُ؛ لعلَّه يسمَعُ برأيٍ ينتفعُ به، فمرَّ برجليْن يُنقّيان عَلَفًا، وأحدهما يقولُ لصاحبه: أسندَنا الأميرُ إلى هذا الجبلِ؛ فكان النَّهرُ بيننا وبين عدوِّنا خَنْدَقًا، وكان الجبلُ في ظُهُورِنا، فلا يأتونا من خَلْفِنَا، وكان قتالُنا من وجهٍ واحدٍ رجَوْتُ أن يَنْصُرَنَا اللّهُ عزَّ وجَلَّ. فرجع، فلمَّا أصبح جمَعَ النَّاسَ ورحَلَ بهمْ إلى سَفْحِ الجبل، وكان معه من البَصْرةِ عشرةُ آلافٍ، ومن الكُوفةِ نحوٌ منهم.

وأقبلتْ التُّركُ ومَنْ معها فنزلُوا بهم، وجعلوا يُنادُونَهم ويراوِحونَهُم ويَنْجَحِرون في اللَّيْلِ. فخرج الأحنفُ ليلةً طليعةً لأصحابه؛ حتَّى إذا كان قريبًا من عَسْكَرِ خاقانَ وقَفَ، فلمّا كان وجه الصُّبح خرج فارسٌ من التُّركِ وهو مُطَوّق[٢]، فضربَ بِطَبْله، ثم وقف، فحمل عليه الأحنفُ، فاقْتَتلاَ، فقتَلَهُ الأحنفُ، وأخذَ طَوْقه، ووقف واحد آخر وآخر بعده، ففعل بهما كذلك، ثم انصَرف إلى عسكره.

---

(١) مرو الروذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى؛ خرج منها خلق من أهل الفضل مرورّوذيّ، ومروذي. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) المطوق: الذي يلبس الطوق.

وكانت عَادَةُ التُّركِ أنّهم لا يخرجون حتى يخرجَ ثلاثةٌ من رجالهم أكفاء، كلُّهم يضرِبُ بطبْلَه، ثم يخرجُونَ بعدَهم، فلمّا خرجوا وجَدُوا فُرْسَانهم، فتطيّر خاقان من ذلك، وقال: قد طال مُقَامُنَا، وأُصيبَ فُرسانُنَا، وليس لنا في قتالِ هؤلاء القومِ خيرٌ، ورجع.

وارتفع النَّهارُ ولم يَرَ المسلمون أحدًا، وأتاهم الخبرُ بٱنصِراف التُّركِ إلى بَلْخ، وكان يَزْدَجِرْد ترك خاقانَ يُقَاتِلُ بمَرْو الرُّوذِ، وانصرف إلى مَرْو الشَّاهجان، فلمّا وصلها تحصَّن حارثة بن النُّعْمان ومن معه، فحصرهم، واستخرَجَ خزائنَه من مَوْضِعَها.

وأراد أن يلحقَ خاقان لمَّا بلغه ٱنصرافُه عن مَرْو الرُّوذِ إلى بَلْخ؛ فأشار عليه أهْلُ فارسَ بمصالحَة المسلمين، فأبَى ذلك، فاعتزَلُوه وقاتَلوهُ، فٱنهزَمَ، وٱستولَوْا على خزائِنِهِ، وتوجَّه هو نحوَ خاقان وعبرَ النَّهْر إلى فَرْغانة[1]، وأقام ببَلَد التُّرْكه مدَّةَ خلافةِ عمر رضي الله عنه إلى أن كَفَرَ أهلُ خراسان في زمنِ عُثْمان، فكاتَبُوهُ وكاتَبَهُمْ، ثم قُتِل على ما سنذكره - إن شاء اللّهُ تعالى - في خلافةِ عثمان.

قال: ثم أقبل أهل فارس بعد ٱنهزام يَزْدَجِرْد على الأحنف، وَصَالَحُوه ودفعوا له الخزائن، وتراجعوا إلى بلادهم، وٱغتبَطوا بالمسلمين، فأصابَ الفارسَ يومَ يَزْدَجِرْد كسهمه يومَ القادسيَّة.

وسار الأحنفُ إلى بَلْخ ونزلَها، ثم رجع إلى مَرْو الرُّوذ، وكتب بهذا الفتح إلى عمر.

قال: ولمّا عَبَر خاقانَ ويَزْدَجِرْد إلى النَّهرِ، لَقِيا رسولَ يزدجرد الَّذي كان أرسلَهُ إلى مَلِك الصِّين، فأخبرَه أن مَلِكَ الصِّين قال له: صِفْ لي هؤلاءِ القَوْمَ الَّذين أخرَجُوكم من بلادِكُمْ، فإنِّي أراك تذكُرُ قلَّةً منهم، وكثرةً منكم، ولا يبلغُ أمثالُ هؤلاء القليل منكم مع كَثْرتكم إلاَّ بخيرٍ عندهم وشرٌّ فيكم. فقال: سَلْني عمَّا أحببتَ. فقال: أيُوفُون بالعَهْدِ؟ قال: نعم. قال: وما يقولون لكم قبلَ القتال؟ قال: يَدْعُونَنَا إلى واحدةٍ من ثلاثٍ: إمَّا دِينُهم فإنْ أحبَبْنَا أجرَوْنَا مَجراهم، أو الجِزْية، أو المُنابَذةُ. قال: فكيف طاعَتُهُمْ في أمرائِهِمْ؟ قلت: أطوَعُ قومٍ لرَشِيدهم[2]. قال: فما يُحِلُّون وما

---

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخير واسعة الرستاق. . . (معجم البلدان).

(٢) رشيد القوم: مرشدهم.

يحرِّمون؟ فأخبره. قال: هل يُحِلُّون ما حُرِّمَ عليهم، أو يحرِّمون ما أُحِلَّ لهم؟ قال: لا. قال: هؤلاء القوم لا يزالون على الظَّفَرِ حتى يُحِلُّوا حَرَامَهم ويُحَرِّموا حلاَلَهُم، ثم قال: أَخْبِرْني عن لِباسِهم، فأخبره، وعن مَطاياهُم. قال: الخَيْل العِراب، ووصَفها لهم. قال: نِعْمَ الحُصون! ووصف له الإبلَ وَبَرْكها وقِيامَها. فقال: هذه صِفةُ دوابِّ طِوالِ الأعناقِ.

وكتب معه إلى يَزْدَجِرد: إنَّه لم يمنعْني أن أبعثَ إليكَ بِجُنْدٍ أوّلُه بمَرْوَ وآخِرُهُ بالصِّين الجهالة بما يحقّ عليّ، ولكنّ هؤلاء القوم الَّذين وَصَفَ لي رسولُكَ لو يحاوِلونَ الجبالَ لهَدُّوها، ولو خلا لهم سِرْبُهُم[1] أزالوني ما داموا على ما وصف، فَسَالِمْهُم وارضَ مِنْهم بالمُسالَمَةِ، ولا تَهْجِهِمْ ما لم يَهيجوك..

فأقامَ يَزْدَجِردُ بفَرْغانَةَ ومعه آلُ كسرى بعهدٍ من خاقان.

قال: ولمّا وصل كتابُ الفَتْح إلى عمرَ رضي الله عنه، جَمَع النَّاسَ وخطَبَهم، وقرأه عليهم، وحمِدَ اللّهَ على إنجازِ وعْدِه، ثم قال: ألا وإنّ مَلِك المجوسيّةِ قَدْ هلك، فليسوا يَملِكون من بلادهم شِبرًا يَضُرُّ بمُسلِم، ألا وإنَّ الله تعالى قد أورثكم أرضَهم وديارَهُمْ وأموالَهُم وأبناءهم، لِيَنْظُرَ كيف تعملون، فلا تبدّلوا فيَستبدِل اللّهُ بكم غيرَكم؛ فإنّي لا أخافُ على هذه الأُمّة إلاَّ مِن قبَلِكم.

وقيل: إنَّ فتْحَ خُراسانَ كان في زمنِ عثمانَ رضي الله عنه، وسنذكره إن شاء الله سبحانه وتعالى في موضعِه.

ذكرُ فتح شهرزور[2] والصامغان[3]

وفي سنة اثنتين وعشرين كان فتحُ شهْرَزُور؛ فتحها عُتْبَة بنُ فَرْقَد صُلْحًا على مِثل صُلْح حُلوانَ بعد قِتالٍ، وصَالَح أهل الصَّامَغَانِ، ودارباذ على الجِزْيةِ والخراج، وقَتَلَ خلْقًا كثيرًا من الأكرادِ، وكتب إلى عمر: إنَّ فُتُوحي قدْ بلغتْ أذْرَبيجان، فولاَّهُ إيَّاها، وَوَلَّى هَرْثَمةَ بنَ عَرْفَجة المَوْصِل، ولم تزلْ شَهْرَزور وأعْمَالُهَا مضمومةً إلى الموصل حتى أُفرِدَتْ عنها في آخر خلافةِ الرّشيد. والله تعالى أعلم وحسبُنَا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النَّصِير، والحمد لله وحدَه.

---

(١) السِّرب: الطريق والوجهة.

(٢) شهرزور: مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها... يقال لها نيم أزراي وأهلها عصاة على السلطان... وقيل: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد... (معجم البلدان).

(٣) صامغان: كورة من كور الجبل في حدود طبرستان، واسمها بالفارسية بميان.

ذكرُ فتح تُوَّج[١]

كان فَتْحها في سنة ثلاثٍ وعشرين؛ وذلك أنّه لمّا خرجَ أهلُ البَصْرةِ الَّذِين توجَّهُوا إلى بلادِ فارسَ أُمراءَ عليها، كان معهم ساريةُ بنُ زُنَيم، فساروا، وأَهْلُ فارسَ مجتمعون بتوَّج، فلم يَقْصدهم المسلمون، وتوجَّه كُلُّ أميرٍ إلى الجهةِ التي أُمِرَ بها، وبلغَ ذلك أَهْلَ فارسَ، فافترقُوا إلى بُلْدانِهم، كما ٱفترقَ المسلمون، فكانت تلك هزيمتهم وتشتُّتُ أُمُورهم، فقصدَهم مجاشعُ بنُ مسعودٍ بسابورَ وأَرْدَشير فالتقَوْا بتَوَّج، وٱقْتَتَلُوا ما شاء الله، ثم ٱنهزم الفُرْسُ وقتَلَهم المسلمون شرَّ قِتلةٍ، وغَنِموا ما في عسكرهم، وحصَروا تَوَّجَ فٱفْتَتَحوها، فَقَتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا، وغَنِمُوا ما فيها.

وتوّج هي التي استنقَذَتْها جيوش العَلاءِ بن الْحَضْرَمِيّ أيّامَ طاوُسَ، ثم دُعُوا إلى الجِزْيةِ فَرَجَعوا وأقرُّوا بها، وأرسلَ مجاشع بنُ مسعودٍ بالبشارة والأَخْماسِ إلى عمرَ رضي الله عنه، والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح اصطخر وجور وكازرون[٢] والنوبندجان[٣] ومدينة شِيراز وأرّجان وسينيز وجنابا وجَهْرَم

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين قصد عثمان بن أبي العاصِ إصْطَخر فالْتَقَى هو وأَهْلُهَا بجور، فاقْتَتَلُوا، وٱنهزمَ الفُرسُ، وفَتَح المسلمون جُور، ثُمَّ إصْطَخْر، وقتلوا ما شاء الله، وفرَّ منهم مَنْ فَرَّ. فدعاهم عثمانُ إلى الجِزْيةِ والذِّمَّةِ، فأجابَه الهِرْبِذُ إليها، وتَراجَعوا.

وكان عثمانُ قد جمعَ الغنائمَ وخمَّسَها، وبعثَ الخمسَ إلى عمرَ، وفتح كازَرُون والنُّوبندَجان وغلب على أرْضِها.

---

(١) توّج: مدينة بفارس قريبة من كازرون شديدة الحر لأنها في غور من الأرض ذات نخل، وبناؤها باللبن، بينها وبين شيراز اثنان وثلاثون فرسخًا، ويعمل فيها ثياب كتان تنسب إليها، وأكثر من يعمل هذا الصنف بكازرون. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) كازرون: بلدة عامرة كبيرة وهي دمياط الأعاجم، وذلك أن ثياب الكتان التي على عمل القصب وشبه الشطويّ وإن كانت حطبًا تعمل بها وتباع بها إلا ما يعمل بتوج. . . (معجم البلدان).

(٣) نوبندجان: مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن والنزاهة، بينها وبين أرجان ستة وعشرون فرسخًا. . .

وفَتَح هو وأبو موسى مدينةَ شِيراز، وأرَّجان، وفتحا سِينِيز على الجِزْيَةِ والخَراج. وقصد عثمانُ أيضًا جنابا ففتحها، وفتح هو وأبو موسى مدينةَ شِيرازَ، ولقِيَهُ جَمْعٌ من الفُرسِ بناحية جَهْرَمَ فهزمهم وفتحها.

وقيل: إنَّ فَتْحَ إصْطَخْر كان في سنة ثمان وعشرين، والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر فتح فسا ودرابجرد

وفي سنة ثلاث وعشرين أيضًا قصد سارية بن زُنيم الدِّيليّ فَسَا ودَرابِجرْد، وأنتهى إلى عسكرهم وحاصَرَهم ما شاء الله تعالى. ثم استمدُّوا وتجمَّعوا، وتجمَّعت إليهم الأكراد من فارسَ، فدَهَم المُسلمين أمرٌ عظيمٌ، وأتاهم الفُرْس من كلّ جانب، فرأى عمرُ رضي الله تعالى عنه فيما يَرَى النَّائمُ تلك الليلةَ معركَتَهُمْ وعددهم في ساعةٍ من النَّهار، فنادى من الغَدَاة: الصَّلاة جامعةٌ، حتى إذا كان في السَّاعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليْهم، وكان قد رآهم والعدُوّ في صحراء، إن أقام المسلمون فيها أُحيطَ بهم، وإن أستَنَدوا إلى الجَبَل لم يُؤْتَوْا إلاّ مِنْ وجه واحدٍ.

فقام عمر فقال: يأيُّهَا النَّاس، إنِّي رأيتُ هَذَيْن الْجَمْعَيْنِ... وأخْبَرَ بِحالهما، وصاحَ عمرُ رضي الله عنه وهو يخطبُ: يا سارية، الجَبَل الجَبَل! ثم أقبل عليهم وقال: إنَّ لِلّهِ جُنودًا؛ ولَعَلَّ بعضهم أن يُبَلِّغَهم.

فسَمِع ساريةُ ومن معه الصَّوْتَ، فلجؤوا إلى الجَبَل، ثم قاتلوهم فهَزَمَهم الله. وأصاب المسلمون مغانم، وأصابوا سَفَطًا فيه جوهر، فاستوهبه منهم سارية، وبعثَ به وبالفتحِ مع رجلٍ إلى عمرَ، فقدِمَ عليه، وأخْبَرَه الخبر، وقصة الجوهر، فصاح به عمر وقال: لا ولا كَرامة! اقْسِمه بين الجُنْدِ، وطردَهُ، وردَّ السَّفَطِ.

وسأل أهلُ المدينةِ الرَّسُولَ، هل سمعوا يومَ الوقعة شيئًا؟ قال: سمِعْنا: «يا ساريَةُ الجَبَل». وقد كدنا نَهْلِك، فلجأْنا إليه، ففَتَحَ الله سبحانَه وتعالى علينا. والله أعلمُ بالصَّواب، وصلَّى الله على سيِّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

ذكر فتح كَرْمَان(١)

وفيها قَصَد سُهَيْلُ بن عَدِيٍّ كَرْمان، ولحقه عبدُ الله بنُ عبد الله بن عَتْبَان، وحُشِدَ له أهلُها واستعانوا بالقُفْص، فأقتَتَلوا في أدنى أرضِهم، فقَتَلَ النُّسَيرُ بنُ عَمرو العِجْليّ مَرْزُبانَها، وفتَحَها المسلمون.

---

(١) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان...

وقيل: إنَّ الَّذي فَتَحها عبدُ اللّهِ بنُ بُدَيْل بنِ وَرْقاءَ الخُزاعيّ في خلافة عمرَ، ثم أتَى الطَّبَسَين مِن كَرْمان، ثم قدِمَ على عمرَ فقال: أقطِعْني الطَّبَسَين، وأراد أن يفعل. فقيل: إنَّها رُسْتَاق، فٱمتَنَع.

ذكر فتح سجستان(١)

في سنة ثلاث وعشرين أيضًا قصَدَ عاصم بن عمرو سجستان، ولحقه عبدُ اللّهِ بنُ عُمَير، فٱستقبَلَهم أهلُهَا فالتَقَوْا في أدنى أرْضِهم، فَهَزَمهم المسلمون وٱتَّبَعُوهم حتى حاصَروهم بزَرَنْج، فَطلبوا الصُّلْح على زَرَنْج وما سادوا عليه من الأرَضين، وٱصْطلحوا على الخَراج، فكانت سِجِستانُ أعظَمَ من خُراسان وأبعدَ فُروجًا، يُقاتِلُون القُنْدهارَ والتُّرْكَ، وأُممًا كثيرةً.

وقيل في فتح سِجِسْتَان غيرُ هذا، وسنذكره إن شاء الله تعالى في موضعه.

ذكر فتح مُكران(٢)

وفيها قصدَ الحكمُ بنُ عمرو التغلَبيّ مُكْرانَ، ولحقَ به شهابُ بنُ المخارِق وسهيلُ بنُ عديّ وعبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عِتْبان، فانتهوْا إلى دُوَيْن النَّهْر، وأهلُ مُكرانَ على شاطئه، فاستمدَّ مَلِكُهم ملكَ السِّندِ، فأمدّه بجيشٍ كَثيفٍ، فٱلتَقَوْا مع المسلمين فَهُزِمُوا، وقُتِلَ منهم في المعركةِ مَقتلةٌ عظيمةٌ، واتَّبعهم المسلمون يقتّلونهم أيامًا؛ حتى انتهَوْا إلى النَّهرِ، ورجع المسلمون إلى مُكْرَان فأقاموا بها، وكتبَ الحكمُ إلى عمرَ بالفتح، وبعث إليه بالأخْماس مع صُحار العَبْديّ. فلمّا قَدِم المدينةَ سأله عُمَرُ عن مُكْران، فقال: يا أمير المؤمنين، هي أرضٌ سَهْلُها جَبَلٌ، وماؤُها وشَلٌ(٣)، وتمرُها دَقَل، وعدوُّها بطل، وخيرُها قليل، وشرُّها طويل، والكثيرُ منها قليلٌ، والقليل بها ضائع، وما وراءَها شرٌّ منها.

فقال عمر: أسجّاعٌ أنت أم مُخْبِر! لا والله لا يَغْزُوها لي جَيْشٌ أبدًا، وكتب إلى سُهيْل والحكم ألاَّ يَجُوزَنَّ مُكرانَ أحدٌ من جُنودِكما، وأمرهما ببَيْع الفِيَلةِ الَّتي غَنِمها المسلمون، وقَسْم أثمانِها على الغانمين.

---

(١) سجستان: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة... أرضها سبخة ورمال حارة، بها نخيل ولا يقع بها الثلج، وهي أرض سهلة لا يرى فيها جبل، وأقرب جبال منها من ناحية فره...

(٢) مكران:... وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهي معدن الفانيد ومنها ينقل إلى جميع البلدان وأجوده الماسكاني أحد مدنها... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.

ذكر فتح بيروذ من الأهواز

وهي بفتح الباء الموحدة، وسكون الياء المثنّاة من أسفل، وضمّ الراء وسكون الواو وذال معجمة.

قال: لمّا فصلت الخُيولُ إلى الكُوَر اجتمع ببيْرُوذ جمعٌ كثير من الأكرادِ وغيرِهم، وكان عمرُ رضي الله عنه قد عهد إلى أبي موسى أن يسيرَ إلى أقصى ذمة البصرة كما ذَكَرنا؛ حتى لا يُؤتَى المسلمون في أعقابِهِم. فسار أبو موسى وٱلتَقَى معهم في شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين ببَيْرُوز من بَين نَهرِ تِيرى ومَنَاذِر، فقام المهاجرُ بنُ زياد وقد تحنط[1]، فقاتَلَ حتى قُتِلَ، وٱشتَدَّ جزعُ الربيعِ بنِ زِياد على أخيه المُهاجِر، وعَظُم عليه فَقْدُهُ، فرقّ له أبو موسى وٱستخلَفَه على جُنْده.

وخَرج أبو موسى حتى بلغ أصْبَهَان، وكان مع المسلمين بها حتى فُتِحَتْ، ثم رجع إلى البَصْرة، وفتح الربيعُ بنُ زياد بَيْرُوذ، وغَنِم ما كان تجمَّع بها.

وأَوْفَدَ أبو موسى وَفْدًا إلى عمرَ بالأخماس، وطلبَ ضَبَّة بنُ مِحَصن الغنويّ أن يكون في الوفد، فلَم يُجِبْهُ أبو موسى، وكان أبو موسى قد اختار مِنْ سَبْي بَيْروذ ستِّين غُلامًا. فانطَلَقَ ضبَّةُ إلى عمَر شاكيًا، وكتب أبو موسى إلى عمرَ يُخْبره، فلمّا قدم ضبَّةُ على عُمَر سلَّم عليه، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبَرَه، فقال: لا مرحبًا ولا أهْلاً! فقال: أما الرَّحْبُ فمن اللّهِ، وأمّا الأهْلُ فلا أهْل. ثم سأله عمرُ عن حاله فقال: إنَّ أبا موسى ٱنتقَى ستِّين غلامًا من أبْنَاءِ الدَّهَاقين لنفسه، وله جارية تُغَدّي جَفْنة[2]، وتُعَشّي جَفْنة تُدعَى عقيلة، وله قفيزان[3]، وله خاتمان؛ وفوّض إلى زياد بن أبي سُفيان أُمورَ البَصْرة، وأجازَ الحطيئة بألف.

فٱستدعى عُمر أبا موسى، فلمّا قَدِم عليه حجَبَه أيّامًا، ثم ٱستدعاه، فسأل عُمرُ ضَبَّةَ عمّا قال: فقال: أخذ ستِّين غلامًا لنفسه. فقال أبو موسى: دللتُ عليهم، وكان لهم فداء، ففديتُهم وقسَّمتُهُ بين المسلمين، فقال ضبة: ما كَذَب ولا كَذَبْتُ، وقال: له قَفِيزان، فقال أبو موسى: قفيزٌ لأهلي أقوتُهُمْ به، وقفيزٌ للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم. فقال ضَبَّة: ما كَذَب ولا كذبْتُ.

---

(١) تحنط: أي جعل عليه المنوط، وهو كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسك وذريرة وصندل وعنبر وغير ذلك.

(٢) الجفنة: القصعة.

(٣) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلو جرامًا.

فلمّا ذَكَرَ عَقيلة سكَتَ أبو موسى ولم يعتذر، فعلمَ أنَّ ضبّةَ قد صَدقه. قال: ووَلَّى زيادًا، قال: رأيتُ له رأيًا ونُبْلاً فأسْنَدْت إليه عملي. قال: وأجَاز الحطيئة بألفٍ، قال: سَدَدْتُ فمَه بمالي أن يشتِمني، فردّه عمرُ، وأمره أن يُرْسِلَ إليه زيادًا وعَقِيلة، ففعَلَ.

فلمّا قَدِم عليه زيادٌ سأله عن حاله وعطائه والفرائضِ والسُّنن، والقرآن، فرآه فقيهًا، فرَدَّه، وأمرَ أُمَراءَ البَصرةِ أن يسيروا برأيه، وحَبس عقيلة بالمدينة، وقال عُمر: ألاَ إنَّ ضَبَّةَ غَضب على أبي موسى ورَدَّه مُراغَمًا، أن فاتَه أمرٌ من أمرِ الدنيا يصدق عليه، وكَذَب فأفسد كذبُه صدقَه. فإيّاكم والكَذِب! فإنّه يهدي إلى النّارِ.

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد

قال: كان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه إذا اجتمع إليه جيشٌ من المسلمين، أمّر عليهم أميرًا من أهل العِلم، فاجتمع إليه جيشٌ، فبعث عليهم سَلَمَةَ بنَ قيس الأشجَعيّ وقال له: سِرْ بأسم الله تعالى، وقاتِلْ في سبيلِ الله من كَفَر بالله؛ فإذا لَقِيتم عدوَّكم فأدعُوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا وأقاموا بِدارهم فعليهم الزّكاةُ، وليس لهم من الفَيْءِ نصيب، وإن ساروا معكم فلهم مِثلُ الّذي لكم، وعليهم مثلُ الّذي عليكم، فإن أبَوْا فأدعوهم إلى الجزية، فإنْ أجابوا فاقبَلوا منهم، وإن أبَوْا فقاتِلوهم، وإن تحصَّنوا منكم وسألوا أن يَنزلوا على حُكم الله ورسولِه، أو ذِمَّةِ اللّهِ ورسوله، فلا تجيبوهم؛ فإنكم لا تدرون ما حكمُ الله رسوله، وذمّتهما فيهم، ولا تَغْدِروا، ولا تَقْتُلوا وَليدًا، ولا تُمثِّلوا.

فساروا حتّى لقوا عدوًّا من الأكراد المشركين، فدَعَوْهم إلى الإسلام أو الجِزية، فأبَوْا فقاتَلوهم وهَزَموهم، وقَتلوا المُقاتِلة، وسَبَوُا الذُّريّة فقسَّمَهَا بينهم، ورأى سَلَمَةُ جوهرًا في سَفَط، فأسترْضَى عنه المسلمين وبَعَثَه إلى عمَر، فغضب ووجأه[١] في عُنُق رسوله وأعادَه، فباعه سَلَمَة، وقَسَمَ ثمنَه في المسلمين، فكان الفَصّ يباع بخمسةِ دراهمَ، وقيمته عشرون ألفًا.

ذكر فتوح مصر وما والاها

كان فتحُ مصرَ على يد عمرَو بنِ العاص والزُّبَير بنِ العوّامَ رضي الله عنهما، وقد اختُلِف في السَّنةِ الّتي فُتحتْ مصرُ فيها، فقيل: في سنةِ عشرين. وقيل: سنةَ سِتَّ عشرةَ. والصحيح أنها فُتِحَتْ قبل عام الرَّمادة، وكان عامُ الرَّمادة في سنة ثمانِيَ

---

(١) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق. أو ضربه.

عشرةً؛ فإنّ عَمرَو بنَ العاصِ حمل منها الطَّعامَ إلى المدينة في بَحْرِ القُلْزُم على ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السّنين.

وقد اختُلف أيضًا في سببِ مَسيرِ عَمرِو إليها، واختُلف في كيفيّة الفتح، وكيف كان.

وقد رَوَى الشيخُ أبو القاسم عبدُ الرحمٰن بنُ عبدِ الله بنِ عبد الحَكَم[١] - رحمه الله - في فُتوحِ مصرَ أخبارًا بأسانيدَ متّصلةً إلى جماعةٍ ممّنْ شَهِدوا الفتحَ وغيرهم، اختصَرْنا ذِكرَها، مَدارُها على ابنِ لَهيعة عن عبد الله بن أبي جعفر وعيّاش بن عبّاس العَتَبانيّ وعليّ بن يزيدَ بن أبي حبيب، واللَّيْث بن سعد وغيرهم، دخل حديثُ بعضهم في حديثِ بعض. والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله وحده.

ذكر مسير عمرو إلى مصر

قالوا: لمّا قدم عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه إلى الجابية، قام إليه عمرُو بنُ العاصِ رضي الله عنه، وخلاَ بهِ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ٱئذَنْ لي أنْ أسيرَ إلى مصر، وحرَّضه عليها وقال: إنّك إنْ فتَحتَها كانتَ قوّةً للمسلمين وعَوْنًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجَزُ عن القتال والحَرْبِ. فتخوَّفَ عمرُ على المسلمين وكَرِهَ ذلك، فلم يَزَل عَمرو يعظِّم أمْرَها عنده، ويهوِّنُ عليه فتحَها، حتّى رَكَن لذلك، فَعقَد له على أربعةِ آلافِ رجلٍ كلُّهم من عَكّ[٢]، ويقال: ثلاثة آلافٍ وخَمْسمائة. وقيل: ثلثهم من غافق[٣]، وقال له: سِرْ وأنا مستخيرٌ الله في مَسيرِكَ، وسيأْتِيكَ كِتَابِي سريعًا إن شاء الله تعالى، فإذا أدْرَكَكَ كِتابي بالانصراف عن مصرَ قبلَ أن تَدخُلَها، أو شَيْئًا مِنْ أرضِها فانصرفْ، وإن أنتَ وصلتها قبل ذلك فأمضِ لوَجْهك، واستعِنْ بالله واسْتنصِرْهُ.

فسار عَمروٌ من جَوْفِ اللّيل، ولم يشعُرْ به أحدٌ من النّاسِ، واستخار عمرُ اللّهَ تعالى، فكأنّه تَخوَّفَ على المسلمين في وَجْهِهم ذلك.

---

(١) هو عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري، المالكي (أبو القاسم) محدث، مؤرخ فقيه، من أهل مصر توفي في المحرم من سنة ٢٥٧ هجرية.. من مؤلفاته: فتوح مصر وأخبارها.. (وفي هدية العارفين فتوح مصر والمغرب) (معجم المؤلفين ٥:١٥٠).

(٢) عك: بفتح أوله: هي قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك...

(٣) غافق: حصن بالأندلس من أعمال فحص البلوط..

فكتب إلى عَمرٍو أن يَنصرفَ بمن معه، فأدْرَكَه الكِتاب وهو برَفَح[١]، فتخَوَّف إنْ هو أخَذَ الكتاب، وفتحه أن يَجِد فيه الانصرافَ، فلَم يأخذه من الرّسول، ودافَعه حتَّى انتهى إلى قريةٍ فيما بين رَفَح والعريش، فسأل عنها، فقيل: إنَّها من أرضِ مصرَ، فأخذ الكتابَ وقرأهُ على المسلمين، وقال لمن معه: ألستُم تَعلمُون أنّ هذه القَرْيَة مِن مِصْرَ؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرَني إنْ لحقني كتابُهُ ولم أدْخُلْ مصرَ أنْ أرجعَ؛ ولمْ يَلْحَقْني كتابُه حتى دخلْنا أرضَ مصرَ، فسِيروا وامْضُوا على بَرَكة اللّهِ عزَّ وجلّ.

وقد قيل: إنَّ عَمرو بنَ العاص كان بِفلَسطينَ، فقَدِمَ بأصحابه إلى مصرَ بغيرِ إذنِ عُمَرَ، وكتب إليه يُعْلِمُهُ، فكتب عَمرُ إليه، فأتاه كتابُه وهو دُونَ العَريش، فلَمْ يَقْرَأْ كتابَه حتَّى بلغ العَريش فقرأه، فإذا فيه:

مِن عُمرَ بنِ الخطَّابِ إلى عمرو بنِ العاص: أمَّا بعد، فإنَّك سِرْتَ إلى مصرَ ومَنْ معك، وبها جُموعُ الرُّوم؛ وإنَّما معك نفرٌ يسيرٌ، ولعَمْري لو كانوا بكلّ أُمّتك ما كانوا لذلك، وما سِرْتَ بهم، فإن لم تكُنْ بلغتَ مِصْرَ فارجعْ.

فقال عَمرو: الحمدُ للّهِ، أيّةُ أرضٍ هذه؟ قالوا: مِنْ مصر. فتقدَّمَ كما هو.
ويقال: بل كان عمروٌ في جنده بقَيْسَارِيَّة، فكتب إلى عمرَ بن الخطَّاب، وعمرُ إذ ذاك بالجابية، وهو يستأذنه على المَسِيرِ إلى مصرَ، وأمر أصحابَهُ فتنحَّوْا من منزلتهم كأنَّهم يريدون أن يتحوّلوا مِن منزلٍ إلى منزل، فسارَ بهم ليلاً، فلمّا فَقَده أُمراءُ الأجناد اسْتَنْكَروا فعلَه، ورأوْا أنْ قد غرَّرَ، فرفَعوا ذلك إلى عمرَ، فَكَتَبَ إليه:

إلى العاصِي ابنِ العاص، أمّا بعد، فإنَّكَ قد غرَّرتَ[٢] بمَن معك، فإنْ أدركَكَ كتابي ولَم تَدخُل مصر فارجع، وإن أدركَك وقد دخلْتَ فامضِ، واعلمْ أنّي مُمِدُّكَ.

ويقال: إنَّ عمرَ رضي الله عنه كتب إلى عَمْرو بعد فتح الشّام: أن انْدُب النَّاسَ إلى المَسيرِ معكَ، فمن خفَّ معك فسِرْ به. وبعث بالكتابِ مع شَرِيك بن عَبْدة، فندبَهم عَمرو، وأسرَعَ في الخروج، ثم دخل عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه على عمرَ، فأخبَرَه عمرُ بذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ عَمْرًا فيه إقدامٌ وحُبٌّ لِلإمارة، فأخشى أن يخرجَ في غيرِ ثقةٍ ولا جماعةٍ؛ فيعرِّض المسلمين للتهلُكةِ رجاءَ فرصةٍ لا يَدْرِي تكون أم لا!

(١) رفح: منزل في طريق مصر بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد من مصر، وهو أول الرمل، ضرب الآن، تنسب إليه الكلاب، وله ذكر في الأخبار... وقيل: رفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق، وأهلها من لخم وجذام... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) غرّر به: عرضه للهلكة.

فندِمَ عمرُ على كتابه إلى عَمرِو، وكتب إليه أنْ ينصرفَ إنْ كان لم يدخل أرضَ مصرَ على ما تقدَّم.

قالوا: ونفرَتْ راشدةُ وقبائلُ مِنَ العربِ مع عَمرو، فسارَ بهم، فأدركَه عِيدُ النَّحْرِ بالعَرِيش، فضحّى هناك. ولمّا بلغ المقوقِسَ مسيرُ عَمرِو إلى مصرَ، توجَّهَ إلى الفُسْطاط، وكان يجهِّزُ الجيوشَ على عمرِو، وكان على القصْرِ رجلٌ من الرُّومِ، يقال له: الأعَيْرِج واليًا تحتَ يد المقوقس.

وتقدَّمَ عمروٌ فكان أوّلَ موضعٍ قُوتِلَ به الفَرَما[1]، قاتَلَهُ الرُّومُ هناك قتالاً شديدًا.

قال: وكان بالإِسكندريةِ أُسْقُفٌ لِلْقِبْطِ يقال له: أبو ميامين، فلمّا بَلَغه قدومُ عَمرِو كَتَبَ إلى القِبْط يُعْلِمُهُم أنّه لا يكونُ لِلرُّومِ دولةٌ، وأنَّ مُلكَهُمْ قد انقطع، ويأمرهم بتلَقِّي عَمرو.

فيقال: إنّ القِبطَ الَّذين كانوا بالْفَرَمَا كانوا يومئذٍ لعمرِو أعوانًا، ثم سار عَمرٌو من الفَرَما لا يدافِعُ إلاّ بالأمرِ الخفيف، حتَّى نزل بِلْبِيس[2] فقاتَلُوه بها نحوًا من شَهرٍ حتَّى فتح الله عليه، ثم مضى حتَّى أتَى أُمَّ دُنَيْن[3] فقاتَلُوه بها قِتالاً شديدًا، وأبطأ عليْه الفتحُ، فكتب إلى عمرَ يستمدُّهُ، فأمَدَّهُ بأربعةِ آلافٍ تمامَ ثمانيةِ آلافٍ، فقاتلهم، وجاء رجل من لَخْمٍ - قيل: هو خارجةُ بنُ حُذافَةَ - إلى عمرَ، فقال له: أَنْدُب معي خيلاً حتَّى آتِيَ من ورائهم عند القتال فأخرَج معه خَمسِمائة فارسٍ، فسار بهم من وراء الجَبَل حَتَّى دَخلوا مُغارَ بني وائلٍ قُبَيل الصّبحِ، وكانت الرّومُ قد خَنْدَقوا خَنْدَقًا، وجعلوا له أبوابًا، وبثُّوا في أفْنِيَتها حَسَكَ الحديدِ، فالْتَقَى القومُ حين أَصْبَحُوا، وخرجت الخيلُ من ورائهم فانْهَزَموا حتَّى دخلوا الحصنَ، وهو القَصْر الَّذي يقال له: بابليون.

(١) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر... وقيل: الفرما حصن على ضفة البحر لطيف لكنه فاسد الهواء وخمه لأنه من كل جهة حوله سباخ تتوحل فلا تكاد تنضب صيفًا ولا شتاءً وليس بها زرع ولا ماء يشرب إلا ماء المطر يخزن في الجباب... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، يسكنها عبس بن بغيض..

(٣) أم دنين: هي قرية كانت بين القاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القاهرة...

ذكر حصار القصر وما قيل في كيفية الاستيلاء عليه وانتقال الروم والقبط إلى الجزيرة

قال: ولمّا انهزَمُوا إلى القصر حَصَرهم عمرُو بن العاصِ ومن معه حِينًا، وقاتَلَهم قِتالاً شديدًا صَباحًا، ثم كتب إلى عمرَ يستمدُّهُ، فأمدَّه بأربعةِ آلافِ رَجُلٍ، على كلِّ ألفٍ منهم رجلٌ وكتب إليه: قد أمددْتك بأربعة آلافٍ على كلِّ ألف رجل: الزُّبيرُ بن العوَّامِ والمقدادُ بن عَمرو، وعُبادة بن الصَّامتِ، وسَلَمَةُ بن مَخلد، ومنهم من جَعَلَ بَدَلَ سَلَمَة خارجةَ بن حُذافَة.

وقال عُمَر له في كتابه: اعلم أنَّ مَعَكَ اثني عشر ألفًا، ولا يُغلب اْثنا عشَرَ ألْفًا من قِلَّةٍ. وقيل: إنَّه لمّا أشْفَقَ عمرُ، أرسل الزُّبيرُ في اثني عشر ألفًا، فلمّا قدم تلقَّاه عَمرو، ثم أقْبَلا، فركبَ الزُّبيرُ وطاف بالخَنْدَقِ، وفرَّقَ الرِّجالَ حولَه، وأَلَحَّ عَمْرو إلى القَصْر، ونَصَب عليه المَنْجَنِيقَ، وأبطأَ الفتحُ. فقال الزُّبيرُ: إنِّي أهبُ نفسي للّهِ وأرجو أن يفتحَ اللّهُ بذلك على المسلمين، فوضع سُلَّمًا إلى جانب الْحِصْنِ من ناحية سُوقِ الحمَام، ثمَّ صَعِدَ، وأمَرهم أنَّهم إذا سمِعُوا التَّكْبيرَ أن يجيبُوهُ جميعًا، فلَم يَشعر الرُّومُ إلاَّ والزُّبيرُ على الحِصن يكبِّر وبيَدِهِ السَّيْفُ، وتحامل النَّاس على السُّلَّم حتى خشيَ عمرو أن ينكسِرَ بهم، فنهاهم، ولمَّا صاروا بأعلى الحصن كبَّروا جميعًا، وأجابهم المسلمون من خارجِ الحِصْنِ، فمَا شكَّ أهلُ الحصنِ أن العربَ قد اْقْتَحَمُوا جميعًا، فهربوا، فعَمَد الزُّبيرُ وأصحابهُ إلى باب الحِصنِ ففَتَحُوه، واقتحمه المسلمون؛ فحينئذٍ سأل المقوقسُ الصُّلْحَ على نفسِه ومَن معه؛ على أن يَفْرِض للعَرَبِ على القِبط دينارَيْن على كُلِّ رجلٍ منهم، فأجابهم عمروٌ إلى ذلك.

وكان مُكْثُهم على بابِ القصرِ حتَّى فتحوه سبعةَ أشهرٍ، والله تباركَ وتعالى أعلم.

قال ابن عبدِ الحَكَم: وقد سمعتُ في فَتْحِ القَصْرِ وجْهًا آخرَ، ورواه بِسَنَدِهِ إلى خالدِ بنِ يزيد، عن جماعة من التَّابعين، يَزيدُ حديثُ بعضهم على حَدِيث بعضٍ، قالوا: لمّا حَصَر المسلمون بابِليون، وبه جماعةٌ من الرُّومِ، وأكابرِ القِبطِ وعليهم المقوْقَس، فقاتلهم شهرًا، فلمّا رأى القوم الجِدَّ من المسلمين تنحَّى المقوقِس وجماعةٌ من أكابر القبط ورؤسائهم، وخرجوا من باب القَصْرِ القِبليّ، ودونَهم جماعةٌ يقاتِلون العَرَب، فلحِقُوا بالجَزيرة.

قال: وهي موضعُ الصِّناعةِ اليوم، وأمروا بقطْعِ الجِسْرِ، وذلك في زَمَن زيادة النِّيلِ، وتخلَّف الأعَيْرِج بالقَصْرِ بعدَ المقوقِسِ، ثم تحوَّلَ إلى الجزيرة في السُّفُن. والله أعلم.

ذكر إرسال المقوقس إلى عمرو في طلب الصلح وجواب عمرو له واجتماع المقوقس وعبادة بن الصّامت وما وقع بينهما من الكلام وقبول المقوقس الجزية

قال: وأرسَل المقوقسُ إلى عَمرو يقول: إنَّكم قد وَلَجتُمْ[١] بلادَنا، وألححتم على قِتالِنَا، وطالَ مُقامُكم في أرضنا؛ وإنَّما أنتم عُصْبَةٌ يسيرةٌ، وقد أظلَّتْكم الرّومُ ومعهم من العُدَد والسّلاح، وقد أحاط بكم هذا النِّيل، وإنما أنتم أُسارَى في أيْدِينا، فأبعثوا إلينا رجالاً منكم نَسمَعْ منهم؛ فلعله أنْ يأتِيَ الأمرُ فيما بيننا وبينكم على ما تُحِبُّون ونُحِبّ، وينقطعَ عنَّا وعنكمْ هذا القِتالُ قبل أن تغْشَاكم جُموعُ الرُّومِ؛ فلا يَنفعنَا الكلام ولا نَقدِر عليه، ولعلَّكُمْ أنْ تَنْدَمُوا.. ونحو ذلك من الكلام.

فلما أتتْ رُسُلُ المقوقِسِ عَمرًا حبَسَهم عنده يومين وليلتين؛ حتى خافَ عليهم المقوقِسُ وقال لأصحابه: أتَرَوْنَ أنَّهم يَقتلُون الرُّسُلَ ويحبِسونهم، ويستحلُّونَ ذلك في دينهم؟ وإنَّما أراد عَمرو بذلك أن يَرَوْا حال المسلمين، ثم ردّهُمْ عَمرو. وأجابَه مع رُسُله: إنَّه ليس بيني وبينكمْ إلاَّ إحدى ثلاث خِصال: إمَّا أن دخلتُم في الإسلامِ وكنتُمْ إخواننا، وكان لكم ما لنا، وعليكمْ ما علينا، وإنْ أبَيْتُمْ فأعْطَيْتُمْ الجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وأنتم صاغِرُون. وإما أن جاهَدْناكم بالصبْر والقتالِ حتى يحكُمَ اللّهُ بيننا وبينَكم، وهو خيرُ الحاكمين.

فلمّا جاءتْ رُسُل المقوقِسِ إليه، قال: كيْفَ رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأيْنَا قَوْمًا، ألموتُ أحبُّ إلى أحدِهم من الحياةِ، والتَّواضُعُ أحبُّ إليهم من الرِّفعةِ، ليس لأحدهم في الدُّنيا رغبةٌ ولا نَهْمَة[٢]؛ إنَّما جلوسهم على التُّرابِ، وأكْلُهُم على الرُّكَبِ، وأميرُهم كواحدٍ منهم، ما يُعْرفُ رفيعُهُمْ مِنح وضيعِهم، ولا السَّيِّدُ فيهم من العبْدِ، وإذا حضرتِ الصَّلاةُ لم يتخلَّف عنها منهم أحدٌ، يَغسلون أطرافَهم بالماءِ، ويتخشَّعُون في صلاتهم.

---

(١) ولجتم بلادنا: دخلتموها.

(٢) النهمة: الحاجة؛ أو الشهوة في الشيء.

فقال المقوقس: والَّذي يُحلَف به، لو أنَّ هؤلاء ٱستقبَلوا الجبالَ لأزالوها، وما يَقْوَى على قتالِ هؤلاء أحَد؛ ولئن لم نَغْتَنِمْ صُلْحَهم اليومَ وهم مَحصُورون بهذا النِّيل لم يُجِيبُونَا بعد اليوم، إذا أمْكَنَتْهم الأرضُ وقَوُوا على ٱلْخُروج مِن موضعهم. ثم ردّ رُسَلَه إلى المسلمين، أن ٱبعثوا إلَيْنَا رُسُلاً منكم، نُعامِلهم ونَتَداعى نحن وهمْ إلى ما عساه أنْ يكونَ فيه صَلاحَ لنا ولكم.

فبعث عَمرُو بنُ العاصِ عشرةَ نفر، أحدهم عبادةُ بنُ الصَّامِتِ، وأمرِ أن يكون متكلِّمَ القومِ، وألاَّ يُجيبَهم إلى شيءٍ دَعَوْه إليه إلاَّ إلى إحْدَى هذه الثَّلاث خصال.

فلمّا دخلوا على المقوقِس تقدَّمَ عُبادةُ، فَهابَه المقوقس لِسواده، فقال: نحُّوا عنِّي هذا الأسوَدَ، وقدِّموا غيرَه يكلِّمُني، فقالوا جميعًا: إنَّ هذا الأسْوَدَ أفضلُنا رأيًا وعِلْمًا، وهو سَيِّدنا وخَيْرنا، والمقدَّمُ علينا، وإنَّما نرجعُ جميعًا إلى قَولِهِ ورأيِهِ، وقد أَمَره الأميرُ دُونَنَا بما أَمَرَهُ به، وأَمَرَنا ألاَّ نخالفَ رأيَه وقولَه، قال: وكيف رَضِيتُمْ أنْ يكونَ هذا الأسْوَدُ أفضلَكُمْ، وإنَّما ينبغي أن يكون دُونَكم. قالوا: إنَّه وإنْ كان أسوَدَ كما تَرى، فإنَّه مِنْ أفضلِنَا موْضِعًا، وأفضلِنا سابقةً وعَقْلاً ورأيًا، وليس يُنْكَرُ السَّوادُ فينا.

فقال المقوقسُ لِعُبادَة: تقدّمْ يا أسْود وكلِّمْني برفقٍ، فإنِّي أهابُ سَوادَك، وإن اشتدّ كلامُكَ عليَّ ٱزدَدْتُ لِذلك هَيْبَةً، فتقَدَّمَ إليه عُبادَةُ فقال: قد سمعْتُ مَقالَك، وإنَّ فيمن خلَّفْتُ من أصحابي ألفَ رجلٍ كلُّهم أشدُّ سوادًا مني، وأفْظَعُ مَنْظَرًا؛ ولو سمعتَهم ورأيتَهُمْ لكنتُ أهيَبَ لهم منك لي، وأنا قد وَلَّيْتُ وأدبَر شبابي، وإنِّي بحمد اللّهِ مع ذلك ما أهابُ مائةَ رجلٍ من عدوِّي لو ٱستقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي؛ وذلك إنَّما رغبتُنَا وهِمَّتُنَا الْجِهَادُ في سبيل الله وٱتِّباع رِضْوانه، وليس غزونا ممّن حارب الله لرغبةٍ في دُنيا ولا طلبًا للاستكثار منها؛ إلا أن الله عزَّ وجلّ أحَلَّ ذلك لنا، وجَعَل ما غَنِمْنَا من ذلك حَلالاً، وما يُبَالي أحدُنا أكان له قِنطارٌ مِنْ ذهب أم كان لا يَمْلُك إلاّ دِرْهَمًا؛ لأنّ غايةَ أحدِنا من الدُّنيا أكْلة يأْكُلها يَسُدُّ بها جوعته لليلة ونَهاره، وشَمْلَةٌ[1] يَلتَحِفُها. فإن كان أحدُنا لا يَملكُ إلاّ ذلك كفَاهُ؛ وإنْ كان له قنطارٌ من ذهبٍ أنفَقَهُ في طاعة الله تعالى، وٱقتَصر على هذا الَّذي بيَدِهِ، وبَلَّغه ما كان في الدُّنيا؛ لأنّ الدُّنيا ليست بنعِيم، ورَخَاؤُها ليس برَخاء، وإنّما النَّعيم والرَّخَاءُ في الآخرة؛ وبذلك أَمَرنا ربُّنَا عزَّ وجلَّ، وأمرنا به نبيُّنَا، وعهِدَ إلَيْنَا ألاّ تكون همَّةُ أحدُنا من الدُّنيا إلاَّ ما يمسك جَوْعَتَهُ، ويَستُر عورَتَه، وتكونَ هِمَّته وشُغْلُه في رضا ربِّه، وجهادِ عدوِّه.

(١) الشَّملة: كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به.

فلمَّا سَمِعَ المقوْقِسُ ذلك منه، قال لمن حَوْلَه: هل سمعتمْ مِثلَ كلامِ هذا الرَّجلِ قطّ؟ فقد هِبْتُ مَنظَره، وإنَّ قوله لأهْيَبُ عندي مِن مَنْظَرِ، إنَّ هذا وأصحابَهُ أخرجَهم الله لخَرابِ الأرضِ، ما أظنُّ ملْكَهُم إلاّ سيغْلِبُ على الأرضِ كُلِّها.

ثم أقبلَ على عُبادة فقال: أيّها الرجلُ الصّالحُ، قد سمعتُ مقالتَكَ، وما ذكرتَ عَنك وعن أصحابِكَ، ولعَمري ما بلغْتُم ما بلغْتُم إلاّ بما ذكرتَ، وما ظهرتُم على من كان إلاّ لحبِّهم الدُّنيا وَرَغبتِهم فيها، وقد توجَّه إلينا لقتالكم مِنْ جَمْع الرُّومِ ما لا يُحْصَى عددُه، قومٌ معروفون بالنَّجدةِ والشِّدَةِ، لا يُبَالِي أحَدُهم مَنْ لقيَ ولا من قاتَل، وإنَّا لنعلم أنَّكم لن تَقْوَوا عليهم ولَنْ تُطِيقُوهم لضَعْفِكم وقلَّتِكُمْ، وقد أقمتُمْ بين أظْهرِنَا أشهُرًا، وأنتم في ضِيقٍ وشِدّةٍ مِن معاشكم وحالِكم، ونحن نرقُّ عليكم لضَعْفِكُمْ وقلَّتِكُمْ، وقلَّةِ ما بأيديكم، ونحن تطيبُ أنفُسنا أن نصالحكم، على أن نَفْرِض لكلِّ رجلٍ منكم دِينارَيْن، ولأميركم مائةَ دينار، ولخليفتِكُمْ ألف دينار، تقبِضُونَها وتنصرفون إلى بلادكم، قبل أن يغشَاكُمْ ما لا قِوام لكمْ به.

فقال عُبادة: يا هذا، لا تَغُرَّنَّ نفسَكَ ولا أصحابَك، أمَّا ما تخوِّفُنَا به مِنْ جَمْع الرُّوم وعددِهم وكثرتِهم، وأنَّا لا نَقْوى عليهم؛ فلَعمْري ما هذا بالذي تخوِّفنا به، ولا بالَّذِي يَكْسرنا عمَّا نحن فيه؛ إنْ كان ما قلْتُمْ حقًا؛ فلذلك والله أرغَبُ ما يكون في قِتالهم، وأشدُّ تحريضًا عليهم؛ لأنّ ذلك أعذَرُ لنا عند ربِّنا إذا قَدِمْنَا عليه؛ إن قُتِلْنَا عن آخرِنا كان أمكَنَ لنا في رِضوانِهِ وجَنَّتِهِ، وما من شيءٍ أقرَّ لأعيُنِنا ولا أحبَّ إلينا من ذلك، وإنَّا منكم حينئذٍ لَعَلَى إحدى الْحُسْنَيَيْن:

إمَّا أن تَعْظُم لنا بذلك غنيمة الدنيا إنْ ظَفِرنا بكم، أو غنيمةُ الآخرةِ إن ظَفِرتُم بنا؛ وإنَّها لأحَبُّ الخَصْلتيْنِ إلينَا بعد الاجتهادِ مِنَّا، وإنَّ الله عزَّ وجلّ قال لنا في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وما منَّا رجلٌ إلاّ وهو يدعو ربَّه صَباحًا ومساءً أنْ يرزقه الله الشَّهادةَ وألاَّ يرُدَّهُ إلى بلدِهِ، ولا إلى أرْضِهِ، ولا إلى أهلِه وولدِهِ، ولَيْسَ لأحدٍ منَّا هَمٌّ فيما خلَّفَه، وقد اَستوْدَعَ كلٌّ مِنَّا ربَّه أهلَه ووَلَده؛ وإنَّما همُّنا ما أمامَنا.

وأمّا قولُكَ: إنَّا في ضِيقٍ وشِدَّةٍ من معاشِنَا وحالِنَا، فنحن في أوسَع السَّعةِ؛ لو كانتْ الدُّنيا كلُّها لنا ما أردْنَا منها لأنفُسِنَا أكثرَ ممَّا نحن عليه، فَانظرْ الَّذي تُريد فبيِّنه لنا؛ أفليس بيننا وبينكم خَصلةٌ نَقبَلها منك ولا نجيبكَ إليها إلاَّ خَصلة من ثلاثٍ، فَاخترْ أيَّها شئتَ، ولا تُطمِع نفسَك بالباطل؛ بذلك أمَرني أمِيري، وبها أمرَهُ أميرُ المؤمنين، وهو عهدُ رسولِ الله ﷺ مِنْ قَبلُ إلَيْنَا.

إمّا أجَبْتم إلى الإسلام الَّذي هو ٱلدِّينُ الَّذي لا يَقبلُ اللّهُ تعالى غيرَهُ، وهو دِينُ أنبيائه ورُسُله وملائكتِهِ. أمرَنا اللّهُ أن نقاتِلَ مَنْ خالفَه ورَغِب عنه؛ حتى يَدخُلَ فيه، فإن فعل فإنّ له مالَنا، وعليه ما عَلَيْنَا، وكان أخانا في دِين اللّهِ. فإنْ قبلْتَ ذلك أنتَ وأصحابُكَ فقد سعدتُمْ في الدنيا والآخرةِ، ورجَعْنَا عن قتالِكم، ولم نستحِلَّ أذاكُمْ، ولا التَّعرضَ لكم، وإن أبَيْتُمْ إلاّ الْجِزْيَةَ، فأدُّوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغِرون، نُعامِلكم على شيءٍ نَرضَى به نحن وأنتُم في كلِّ عام أبدًا، ما بقينا وبقيتم، ونقاتلُ من ناوَأكم وعَرَض لكم في شيءٍ من أرضِكم وبلادِكم وأموالِكم، ونقومُ بذلك إن كنتم في ذِمّتنا، وكان لكم به عهدُ اللّهِ إليْنَا، وإن أبَيْتُمْ فليس بيننا وبينَكم إلاّ المحاكَمة بالسَّيف حتى نَموتَ عن آخِرنا، أو نصيبَ ما نريدُ منكم، هذا دِينُنا الَّذي نَدينُ اللّهَ تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيرُه، فٱنظروا لأنفسكم.

فقال له المقوقِسُ: هذا مَا لا يكون أبدًا، ما تُرِيدُونَ إلاَّ أنْ تتَّخِذُونا خَوَلاً أو نكونَ لكم عبيدًا ما كانت الدّنيا.

فقال عُبادةَ: هو ذاك، فٱخترْ ما شئتَ. قال: أفلا تجيبوننا إلى خَصْلةٍ غير هذهِ الخِصالِ؟ فرفع عُبادةُ يديه فقال: لا وربِّ هذه السَّماءِ، وربِّ هذه الأرضِ، وربِّنا وربِّ كلِّ شيءٍ، ما لكم عندنا خصلةٌ غيرها، فٱختاروا لأنفسكم.

فٱلتفتَ المقوقِسُ عند ذلك إلى أصحابِه فقال: قد فرغَ القومُ، فما تُريدون؟ فقالوا: أو يَرْضَى أحدٌ بهذا الذُّلِّ! أمَّا ما أرادوا من دخولنا في دِينهم فهذا ما لا يكون أبدًا؛ أنْ نتركَ دينَ المسيح ابنِ مريم، وندخلَ في دينِ غيرِهِ ولا نعرفه وأمّا ما أرادوا مِنْ أن يَسْبُونا ويَجعلونا عبيدًا أبدًا، فالموْتُ أيسَرُ مِنْ ذلك، لو رضُوا مِنَّا أن نُضْعِفَ[1] لهم ما أعطيْناهم مِرارًا كان أهْوَنَ علَيْنَا.

فقال المقوقِسُ لعُبادة: قد أبَى القومُ، فما تَرَى؟ فراجعْ صاحِبَكَ على أنْ نعطيَكُمْ في مرَّتكم هذه ما تمنَّيْتُمْ وتَنصرفون.

فقام عُبَادةُ وأصحابُه، فقال المقوقِسُ لمن حوله: أطِيعُوني وأجِيبُوا القومَ إلى خَصْلةٍ من هذه الثَّلاثِ، فوالله ما لكم بهم طاقةٌ، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبُنَّهم إلى ما هو أعظمُ كارِهين.

قالوا: وأيَّ خَصْلةٍ تجيبهم إليها؟ قال: إذًا أُخْبِركم؛ فأمّا دخولكم في غيرِ دينكم فلا آمُرُكُم به، وأمّا قتالُهم فأنا أعلَم أنّكم لن تَقْوَوْا عليهم، ولن تَصبِرُوا صَبْرَهم،

---

(١) ضعف الشيء: جعله ضعفين.

ولا بُدَّ من الثَّالثةِ. قالوا: أفنكون لهم عبيدًا أبدًا! قال: نعم، تكونون عبيدًا مسلَّطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم، وأموالِكم وذَراريِّكم، خيرٌ لكم من أن تَموتُوا عن آخركم، وتكونوا عبيدًا تُباعون وتُمزَّقون في البلاد، مستعبَدِين أبدًا في البلاد. أنتُم وأهْلُوكم وذراريّكم.

قالوا: فالموتُ أهونُ علينا. فأمَروا بقَطْع الجِسْر بين الفُسْطاط والجيزةِ[١]، وبالقَصْر من القِبط والرُّوم جمعٌ كثيرٌ، فألحّ عليهم المسلمون عند ذلك بالقِتال؛ حتى ظَفروا بمن في القَصْر، فقَتَلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأسَروا مَنْ أسَروا، وانحازَتْ السُّفُن كلُّها إلى الجَزيرةِ.

هذا والمسلمون قد أحدق بهم الماءُ من كلِّ وجهٍ، لا يَقْدِرون على أن يتقدَّموا نحوَ الصَّعيد ولا غيرِه من المَدائن والقُرَى، والمُقَوْقِس يقول لأصحابه: ألَم أُعلِمْكم هذا وأخافُه عليكم؟ ما تَنتَظرون؟ فواللّهِ لَتُجيبنَّهم إلى ما أرادوا طوعًا، أو لنجيبنَّهم إلى ما هو أعظمُ مِنه كَرْهًا، فأطيعوني من قبلِ أنْ تَندَموا؛ فعند ذلك أذْعَنوا إلى الجِزية، ورَضُوا بها على صُلْحٍ يكون بينهم يَعرِفونه.

فأرسل المقوقِسُ إلى عمرو يقولُ له: إنِّي لم أزَلْ حَرِيصًا على إجابتك إلى خَصْلةٍ من تلك الخِصالِ التي أرسلْتَ إليَّ بها، فأبى ذلك عليَّ مَنْ حَضَرَني من الرُّوم والقِبْط، فلم يكن لي أن أفتاتَ[٢] عليهم في أموالهم، وقد عَرَفوا نُصْحِي لهم، وحبّي صَلاحَهم، ورَجَعوا إلى قَوْلي، فَأَعْطِني أمانًا أجتمعُ أنا وأنت في نفرٍ من أصحابي وأصحابِك؛ فإن ٱستقام الأمرُ بيننا تَمَّ ذلك لنا جميعًا، وإن لم يتمَّ رجعْنا إلى ما كُنّا عليه.

فٱستشار عَمرو أصحابَه في ذلك فقالوا: لا تُجبْهم إلى شيءٍ من الصُّلح ولا الْجِزْيةِ حتى يَفتحَ الله علينا، وتَصيرَ كلُّها لنا فَيْئًا وغنيمةً كما صار القصرُ لنا وما فيه.

فقال عَمرو: قد علمتمْ ما عهد إليَّ أميرُ المؤمنين في عهده، فإنْ أجابُوا إلى خَصْلةٍ من الخِصالِ الثّلاثِ الّتي عَهدَ إليّ فيما أجبتهم إليها، وقبلتُ منهم مع ما قد حال هذا الماءُ بيننا وبين ما نُريدُ من قتالهم. فٱجتَمَعُوا على عهدٍ بينهم، واصطلَحوا على أن يُفْرِضَ على جميع مَنْ بمصر أعلاها وأسفلها من القبطِ دينارَيْن عَنْ كلِّ نفسٍ:

---

(١) الجيزة: بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور مصر...

(٢) يقال: افتات عليه فيه: إذا لم يفعل الأمر دون مشورته.

شريفهم ووضِيعهم وضعيفهم، ومَنْ بلغَ الحُلْمَ منهم، ليس على الشَّيخ الفاني، ولا على الصَّغير الذي لم يبلغ الحُلُم، ولا النساء شيءٌ، وعلى أنّ للمسلمين عليهم النُّزُل بجماعتهم حيث نزلوا، ومَنْ نزلَ عليه ضَيفٌ واحدٌ من المسلمين، أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثةِ أيّام، مُفْتَرَضٌ ذلك عليهم، وأنّ لهم أرضَهم وأموالَهم لا يُتعرَّض لهم في شيءٍ منها، فَشُرِط هذا كلُّه على القِبْطِ خاصَّةً، وأحْصَوْا عددَ القِبْطِ يومئذٍ خاصَّةً مَنْ بلغَ منهم الجزيةَ، وفُرِضَ عليه الديناران، رَفَعَ ذلك عرفاؤُهمْ بالأيْمان المؤكَّدةِ، فكان جميعُ من أُحصِيَ منهم بمصر أكثر من ستَّةِ آلاف ألفِ نَفْس، فكانت فَرِيضتهم يومئذٍ اثنَيْ عشرَ ألفِ ألف دينارٍ في كلِّ سنةٍ.

ورُوِي عن يحيى بن مَيْمُون الحَضْرَمِيّ، قال: بلغتْ عِدَّتُهم ثمانية آلافِ ألفٍ.

قال: وشَرطَ المُقَوْقِس للرُّومِ أن يُخَيَّروا، فمن أحَبَّ منهم أنْ يقيمَ على مِثلِ هذا المُقامِ أقامَ على ذلِكَ لازمًا له، مفترَضًا عليه مِمَّن أقامَ بالإسكَنْدَرِيَّةِ، وما حولَها من أرضِ مصرَ كلِّها، ومَنْ أرادَ الخروجَ منها إلى أرض الرُّوم خرجَ، وعلى أنّ للمقوقِس الخيارَ في الرُّوم خاصَّةً، حتى يكتبَ إلى مَلِك الرومِ يُعلِمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيَه جاز عليهم، وإلا كانوا جميعًا عليه، وكتبوا به كتابًا، وكتب المقوقس إلى ملك الروم كتابًا يُعَلِمُهُ بالأمرِ كلِّه. فكَتَب إليه يقبِّح رأيَه ويعجِّزه ويردّ عليه ما فَعَلَ، وأمَرَهُ بقتالِ المسلمين بالرُّومِ إنْ أبَى القِبْطُ القتال، وكتبَ إلى جماعةِ الرُّوم بمِثل ذلك.

فجمَعَ المقوقِسُ الرُّومَ وقال: اعلمُوا يا معشر الرُّوم أنّي والله لا أخرجُ ممّا دخلتُ فيه، بعد أنْ ذَكَر لهم شجاعةَ العَرَبِ وصبْرَهم وجلَدَهم وحُبَّهم الموْت وغيرَ ذلك مِنْ حالهم، ثم قال: واللّهِ إنّي لأعلم أنَّكُمْ سترجِعُونَ غدًا إلى قَولي ورأيي، وتتمنَّوْنَ أن لو كنتم أطعْتُمُوني؛ وذلك أنّي قد عاينتُ ورأيتُ، وعرفتُ ما لم يُعَايِن المَلِكُ، ولَمْ يَرَهُ ولم يَعْرِفْهُ. أمَا يَرضَى أحدُكم أن يكون آمِنًا في دَهْرِه على نفسِه ومالِه وولدِه بدينارَيْنِ في السَّنة!

ثم أقبَلَ المقوقِسُ على عَمروِ بنِ العاصِ فقال له: إنَّ المَلِكَ قد كَرِه ما فعلْتُ، وعجزَّني، وكتب إليّ وإلى جماعة الرُّومَ ألاَّ نرضَى بمصالَحتكَ، وأمَرَهُمْ بقتالِك حتى يَظفروا بك، أو تَظفرَ بهم، ولم أكُنْ أخرُجُ ممّا دخلتُ فيه، وعاقدْتُكَ عليه؛ وإنَّما سُلطاني على نفسي ومن أطاعني، فقد تمَّ صُلح القِبْطِ فيما بينَك وبينهم، ولم يأْتِ من قِبَلهم نقضٌ.

وأمَّا الرُّومَ فأنا منهم بريءٌ، وأنا أطلبُ إليكَ أنْ تُعطِيَني ثلاثَ خِصَالٍ، قال عمرو: وما هي؟ قال:

لا تنقض بالقِبْط، وأدخِلْني معهم، وألْزِمْنِي ما ألزَمْتَهم، وقد اجتمعتْ كلمَتِي وكَلمَتُهُمْ على ما عاهدتُكَ عليه، فهم مقيمون لك على ما تُحِبُّ.

وأما الثانية، فإن سألَكَ الرّومُ بعد اليوم أن تصالحَهُمْ فلا تصالِحْهُمْ حتّى تجعلَهم فَيْئًا[1] وعبيدًا؛ فإنَّهم أهلُ ذلك؛ فإنِّي نصحتُهُمْ فاسْتَغشُوني.

وأمَّا الثَّالثةُ: فأطلبُ إليكَ إنْ أنا مِتُّ أن تأمرهم يدفنونني في أبي يُحَنِّس بالإسكندَريَّة.

فأجابه عَمرو إلى ما طَلب على أن يقيمُوا له الجِسْرين جميعًا، والجسُورَ ما بين الفُسْطَاط إلى الإسكنْدريّة، ويقيموا لهم الأنْزالَ والضِّيافةَ والأسواق، ففعلوا ذلك، وسارت القِبْط أعوانًا للمسلمين على الرُّوم.

ذكر مسير عمرو لقتال الروم وما كان من الحروب بينهم إلى أن فتحت الإسكندرية

قال: واستَعدّتْ الرُّومُ واستَجاشتْ، وقدمتْ عليهمْ مَراكبُ كثيرةٌ من أرضِ الرُّومِ، فيها جمعٌ من الرُّومِ عظيمٌ بِالعُدَّة والسِّلاح، فخرج إليهم عمرُو بنُ العاص، ومَن معه، وذلك حين أمكنه الخروجُ، وخرجَ معه جماعةٌ من رؤساء القِبْطِ وقد أصلَحوا لهم الطُّرُقَ، وأقامُوا الجسُورَ والأسواقَ، وخرجَ عَمرو فلم يَلقَ من الرومِ أحدًا حتّى بلغ تَرْنوط[2]، فلقِيَ بها طائفةً منَ الرُّومِ، فقاتلوه قتالاً خفيفًا، فهزَمَهم، ومضى بمَن معه حتى لقيَ جمع الرُّومِ بكوم شَرِيك، فاقْتتلوا به ثلاثةَ أيّامٍ، ثم فتح اللّهُ على المسلمين، وانهزم الرُّوم.

وقيل: بل لمّا انهزموا مِنْ تَرْنوط، بعثَ عمرُو بنُ العاصِ شَرِيك بن سُمَيّ في آثارِهم، وكان على مقدّمة عمرو، فأدرَكَهم شَرِيك عند الكوْم[3]، فقاتَلَهم، فمن النَّاسِ من يقول: إنّه هزَمَهم، ومنهم من يقول: إنّه قاتَلَهم إلى الكوْم، فاعتَصَم به، وأحاطتْ به الرُّوم، فأمر شَريكٌ أبا ناعمة مالِكَ بن ناعمةَ الصَّدَفي، وهو صاحب الْفَرَسِ الأشْقَر

---

(١) الفيء: الغنيمة تنال بلا قتال. (٢) ترنوط: قرية بين مصر والإسكندرية.

(٣) الكوم: اسم لمواضع بمصر تضاف إلى أربابها أو إلى شيء عرفت به، منها كوم الشقاف.. وكوم علقام.. وكوم شريك أقرب الإسكندرية... (معجم البلدان لياقوت).

الذي يقال له: أشقر صَدِف، وكان لا يُجارَى، فأنحطَّ عليهم من الكوم، وطلبته الرُّومُ فلم تدرِكْهُ، فأتى عَمرًا فأخبَرَه، فأقبل عمرو نحوَ الروم فأنهزموا، وبالفَرَسِ الأشقر هذا سُمِّيَتْ خَوخةُ الأشْقر الَّتي بمصر؛ وذلك أنَّه نَفَقَ[١] فدفَنَه صاحبُه هناك، فسُمِّيَ المكان به.

قال: ثمّ ٱلْتَقَى عَمرو والرُّوم بسُلَيْطِسَ، فٱقْتَتلوا بها قتالاً شديدًا، ثم هزَمَهم الله. ثم التقَوْا بالكِرْيَوْن فٱقْتَتلوا هناك بِضعةَ عشرَ يَومًا، وكان ابنهُ عبدُ الله بنُ عمرو على المقدِّمة، ففشتْ فيه الجِراحة وصَلَّى عَمرو بالنَّاسِ صلاةَ الخَوفِ، بكلِّ طائفةٍ ركعةً وسجدتين. ثم فتحَ اللّهُ على المسلمين، وقتلُوا من الرُّومِ مَقتلةً عظيمةً، واتَّبعوهم حتَّى بلغوا الإِسكندريةَ فتحصَّنَ بها الرّوم، وكانت عليهم حصون مَنيعةٌ، حِصْنٌ دونَ حصنٍ، فنزل المسلمون ما بين حُلْوَةَ إلى قَصْرِ فارس، إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساءُ القِبْط، يَمُدُّونهم بما ٱحتاجوا من الأطعمةِ والأعلاف.

هذا ورسلُ مَلِك الرُّومِ تختلِفُ إلى الإسكندرية في المراكبِ، والأمداد تأْتيهم من قِبَله، وكان يقول: لئن ظهرَتْ العربُ على الإسكندريَّةِ كان ذلك انقطاعُ مُلْكِ الرُّومِ وهلاكُهم؛ لأنَّه ليس للرُّوم كنائس أعظمُ مِنْ كنائِس الإسكندريّة، ونجهّز المَلِك ليباشرَ القِتالَ بنفسه، وأمر ألاّ يتَخلَّفَ عليه أحدٌ مِنَ الرُّوم، وقال: ما بقاءُ الرّومِ بعدَ الإِسكندريةِ! فلمّا فرغَ من جَهازِه أهلَكَه اللّهُ فماتَ وكَفَى الله المسلمين مؤنَتَه.

وكان موتُه في سنة تسعَ عشرةَ، فكسرَ اللّهُ بموتِهِ شوْكَةَ الرُّومِ، ورجعَ جمعٌ كبيرٌ مِمّن كان توجَّه لإعانة أهل الإسكندرية، فاستأسَدَتْ العَرَب عند ذلك، وألحَّتْ بالقتالِ، فقاتلوا قتالاً شديدًا، فبرز رجلٌ من الروم، وبَرَزَ له مَسلَمة بن مَخلد، فصَرَعَه الرُّوميّ وألقاه عن فَرَسِهِ، وأهوَى إليه ليقتُلَه حتَّى حَماه رجلٌ من أصحابِه، وكان مسلمةُ لا يُقام له؛ ولكن غلبتْهُ المقاديرُ، فشقَّ ذلك على المسلمين.

وكان مسلمةُ ثقيل البدن، كثير اللَّحم، فاشتدّ غضبُ عمرو، وقال: ما بالُ الرَّجلِ المستَه[٢] الَّذي يُشبِه النِّساءَ يتعرّض إلى مَداخِل الرجال ويتشبَّه بهم! فغَضِب مَسلمةُ من ذلك ولَم يراجعْه، ثـم اشتدَّ القتـالُ حتَّى ٱقتحم المسلمون حِصْنَ الإِسْكَندريّة، وقاتلوا فيه، ثم جاشَتْ الرُّوم حتَّى أخرجوهم جميعًا من الحِصن، إلاَّ أربعةً، منهم عمرُو بنُ العاص، ومَسلمةُ بنُ مَخْلَد، فأغلَقوا الحِصْنَ عليهم، والتجؤوا

---

(١) نفق الفرس: مات.

(٢) المسته: الذي عظم عجزه.

إلى ديماس[١] من حمّامات الروم، فأنزل الرُّومَ رُوميًا يتكلَّمُ بالعربيّة، فقال لهم: إنّكم قد سِرْتُم أُسارَى في أيدينا، فاستأسِرُوا ولا تقتلوا أنفسَكُمْ.

ثم قال لهم: إنَّ في أيدي أصحابكم منَّا رجالاً أسَرُوهم، ونحن نعطيكم العهودَ ونفادي بكم أصحابنا، ولا نَقْتلكم، فأبَوْا عليهم.

ثم قال لهم الرّوميّ: فهل لكم إلى خَصلةٍ وهي نَصَفٌ فيما بَيْنَنَا وبينكُمْ، أن تُعطونا العهدَ ونعطيَكُمْ مِثلَه؛ على أن يَبرُز منَّا رجلٌ، ومنكم رجلٌ، فإنْ غلب صاحبُنَا صاحبَكم استأسَرْتم لنا، وأمكنتُمونا من أنفسكم، وإن غلب صاحبُكُمْ صاحِبَنَا خَلَّيْنا سبيلَكُمْ، فرضُوا بذلك وتعاهدوا عليه.

فبرَز رجلٌ من الرُّوم وقد وثقتِ الرُّومُ بنَجْدَتِهِ وشدَّته، فأراد عَمرو أن يَبْرُزَ فمنعه مَسلَمة وقال: أنا أكفيكَ إنْ شاء اللّهُ. فقال عمرو: دُونَك؛ فربَّمَا فرّجها الله بك. فبرز مَسلمةُ للرُّوميِّ فَتَجاوَلا ساعةً، ثم أعان اللّهُ مَسْلَمَة فقتله، وكبَّرَ وكبَّر أصحابُه، ووَفَى لهم الرُّومُ بما عاهَدوهم عليه، فَفَتَحُوا لهم بابَ الحِصْن، فخرجوا، والرُّومُ لا يَدْرون أن أميرَ القومِ فيهم، ثم بلغهم ذلك، فأسِفوا على ما فاتهم منه، ونَدِمَ عَمرو وأستَحيَا من مقالتِهِ لمَسلَمة ما قال، فاستغفر له عمرو.

قال: ولمّا أبطأَ الفتحُ على عمر، كتب إلى عمرو:

أمَّا بعدُ، فقد عجبتُ لإبطائكم عن فتحِ مصرَ، وأنكم تقاتلونهم منذُ سنتين؛ وما ذاك إلاَّ لما أَحَدْثُم وأحْبَبْتُم من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكم، وإنَّ الله تعالى لا يَنصرُ قومًا إلا بصدقِ نِيَّاتهم. وقد كنتُ وَجَّهتُ إليك أربعةَ نَفَرٍ، وأعلمتُكَ أنَّ الرجلَ منهم مقام ألفِ رجلٍ على ما كنتُ أعرفُ؛ إلاَّ أنْ يكونوا غيَّرهُم ما غيَّر غيْرَهم، فإذا أتاكَ كتابي هذا فاخْطُب النَّاسَ وحُضَّهم على قتالِ عدوِّهم، ورغِّبهم في الصَّبْرِ والنِّيَّةِ، وقدِّم أُولئك الأربعة في صدور النَّاسِ، ومُرِ النَّاسِ جميعًا أن تكون لهم صَدْمةٌ كصدْمَةِ رجلٍ واحدٍ وليكُنْ ذلك عند الزَّوالِ يومَ الجمعةِ؛ فإنَّهَا ساعةُ نزول الرّحمةِ، ووقت الإجابةِ، ولْيَعجَ[٢] الناسُ إلى اللّهِ ويسألوه النَّصْر. ففعلوا ففتح الله عليهم.

قال: ويقال: إن عَمرو بنَ العاصِ استشار مسلمَةَ بنَ مخلد في قتال الرّوم، فقال له مسلمةُ: أرى أن تَنظرَ إلى رجلٍ له معرفةٌ وتجاربُ من أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فتَعقِد له على الناسِ، فيكون هو الّذي يُبَاشر القتالَ ويكفيكَه. فقال عمرو: ومَنْ ذاك؟

---

(١) الديماس: الحمّام، جمع دياميس ودماميس.

(٢) عجّ: رفع صوته وصاح.

قال: عُبادةُ بنُ الصّامت. فدعا عمرو عُبادةَ، فأتاه وهو راكبٌ على فرسه، فلمّا دنا منه أراد النُّزول، فعزَمَ عَمرو عليه ألاّ يَفْعَلَ، وقال: ناوِلْنِي سِنانَ رُمْحكَ، فناوَلَه عُبادة إيّاه، فنزع عَمرو عمامَتَهُ عن رأسِهِ وعَقَد له ووَلاّه قِتالَ الرُّومَ.

فتقدّمَ عُبادةُ فصافّ[1] الرّومَ وقاتَلَهُمْ، ففتح الله على يدَيْهِ الإسْكَنْدَرِيّة من يومِهِ ذلك، وكان حصارُهم الإسكندرية أربعَةَ عشر شَهرًا، خمسة أشهر في حياة هِرَقْلَ، وتسعةَ أشهرٍ بعد موته، وفُتِحَتْ يومَ الجمعةِ مستهلَّ المحرَّم، سنةَ عشرين، وقُتِلَ من المسلمين على الإسكندرية في طول هذه المدة اثنان وعشرون رجلاً.

ذكر الفتح الثاني وما وجد بالإسكندرية وعدة من ضربت عليه الجزية

قال: ولمَّا فُتِحَت، الإسكندريّة هربَ الرّومُ منها في البرِّ والبحرِ، فخلَّف عَمرو من أصحابه بها ألفَ رجلٍ، ومضى في طلبِ من انهزم من الروم في البر، فرجع من كان هرب منهم في البحر إلى الإسكَنْدَرية، فقَتَلُوا من كان بها من المسلمينَ إلاّ من هَرَبَ منهم، وبلغ ذلك عَمْرًا، فكَرَّ راجعًا إليها، فأتاه رجل يقال له ابن بَسّامة، كان بوابًا بالإسكندريّة، فسأل عَمْرًا أن يؤمّنه على نفسِه وأرضِهِ وأهلِ بيتِهِ ويفتَح له البابَ، فأجابه عَمرو إلى ذلك، ففتحَ له ابن بَسّامةَ، فدخل عمرو، وكان مَدْخله من ناحية القَنْطرة التي يقال لها قنطرةُ سُليمان، وكان مدخله الأوّل من باب المدينَةِ الذي من ناحية كنيسة الذَّهَب، ووَفَى عَمرو لأبن بَسّامة.

وبعث عمرو إلى عمرَ بنِ الخطّاب معاويةَ بنَ حُدَيج بشيرًا بالفتح، فقال معاويةُ: ألا تكتب معي كتابًا؟ فقال عمرو: وما أصنع بالكتابِ! ألستَ رجلاً عربيًا تُبلِّغُ الرسالة، وما رأيتَ وحضرتَ! فَقَدِمَ عَلَى عمر فأخبره الخبر، فخرَّ ساجِدًا، وجمع النَّاسَ وأخبَرَهُمْ، ثمَّ كَتب عَمرو بعد ذلك إلى عُمَر:

أمّا بعدُ، فإنِّي قد فتحتُ مدينةً لا أصفُ ما فيها؛ غير أنّي أصبْتُ فيها أربعةَ آلافِ بنية، بأربعة آلافِ حَمّام، وأربعين ألف يهوديٍّ عليهم الْجِزية، وأربعمائة مَلْهًى للمُلوك.

قال ابن عبد الحَكَم: لمّا فَتَحَ عَمرو الإسكندريّة وجد فيها اثني عشرَ ألف بَقّالٍ يَبِيعونَ البقلَ الأخضرَ.

---

(١) صافّ الروم: قاتلهم صفوفًا.

قال: ورحل منها في اللَّيلة التي دَخلَ فيها عمرُو بنُ العاصِ، أو في اللَّيْلَةِ التي خافُوا فيها دُخُوله سبعونَ ألفَ يهوديٍّ.

قال: وقال حسين بن شُفيّ بن عبيد: كان بالإسكندرية فيما أُحْصِيَ من الحمّاماتِ اثنا عشر ديماسًا، أصغرُ ديماس منها يسعُ ألفَ مجلسٍ، كلُّ مجلسٍ منها يَسَع جماعة نفرٍ. وكان عدَّةُ مَنْ بالإسكندريَّة من الرّوم مائتي ألف من الرِّجال، فلحق بأرض الرُّومِ أهلُ القوّةِ، ورَكِبوا السُّفُن، وكان بها مائةُ مَرْكَبٍ مِنَ المراكبِ الكبار، فَحُمِلَ فيها ثلاثون ألفًا مع ما قَدَروا عليه من المال والمتاع والأهلِ، وبقيَ مَنْ بقيَ من الأُسارى مِمّن بلغ الخَراج، فأُحصِيَ يومئذٍ ستمائة ألفٍ سوى النساء والصِّبيان، فاختلفَ النَّاسُ على عمرٍو في قَسْمِهِمْ، وكانَ أكثرُ النَّاسِ يريدون قَسْمَها.

فكتبَ عمرٌو إلى عمرَ يَستأْذِنه في ذلك، فكتَب إليه عمرُ: لا تَقْسِمها، وذَرْهم يكون خَراجُهم فَيْئًا للمسلمين وقوّةً لهم على جهادِ عدوِّهم، فأقرّها عَمرو، وكانت مصرُ كُلُّها صُلْحًا بفريضة دينارَيْن دِينَارَيْن على كلِّ رجلٍ لا يُزاد على أحدٍ مِنهم في جزيةِ رأسهِ أكثر من ذلك؛ إلاَّ أنَّه يُلْزَمُ بقدر ما يتوسَّعُ فيه من الأرضِ والزَّرع، إلا الإسكندريَّة، فإنَّهُمْ كانوا يؤدُّون الجِزيةَ والخَراجَ على قدر ما يُرَى من وليّهم؛ لأنَّ الإسكندريَّةَ فُتِحَتْ عَنْوَةً مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ ولا عَقْدٍ، ولم يكن لهم صُلْحٌ ولا ذِمَّةٌ.

قال: وكانت قُرَى مِنْ مِصْرَ قاتلت المسلمين، وظاهَرُوا الرُّومَ عليهم، وهي: بَلْهِيب(١)، وقرية الخيسُ(٢)، وسُلْطَيْس(٣)، وقَرْسَطا، وسَخا(٤). فَسُبُوا، فوقعَتْ سَبَايَاهُمْ بالمدينةِ، فردَّهم عمرُ بنُ الخطَّابِ إلى قُراهم، وصَيَّرهُمْ وجماعةَ القِبْطِ ذِمَّةً، وكتب بردِّهم.

---

(١) بلهيب: بالفتح ثم السكون، وكسر الهاء، وياء ساكنة: من قرى مصر، ينسب إليها أبو المهاجر عبد الرحمٰن البليهبي من تابعي أهل مصر...

(٢) خيس: بفتح أوله ويكسر، وسكون ثانيه، وسين مهملة: من كور الحوف الغربي بمصر... وإليها ينسب البقر الخيسية...

(٣) سلطيس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الطاء، وياء ساكنة، وسين مهملة: من قرى مصر القديمة، وكان من أبناء السلطيسيات عمران بن عبد الرحمٰن بن جعفر بن ربيعة وأم عون بن خارجة القرشي ثم العدوي...

(٤) سخا: مقصور، بلفظ السخاء: كورة بمصر وقصبتها سخا بأسفل مصر، وهي الآن قصبة كورة الغربية ودار الوالي بها، ذكر أن في جامع سخا حجرًا أسود عليه طلسم يعلم إذا أخرج الحجر من الجامع دخلت إليه العصافير فإذا أعيد إلى الجامع خرجت منه كما ذكر... (معجم البلدان لياقوت).

وقيل: إنَّما كتب عمر في أهل سُلْطَيْس خاصّةً يقول: من كان منهم في أيديكم، فخيّروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن اختار دينَه فخلُّوا بينه وبين قَرْيته، وأن تُجْعَلُ القُرى الَّتي ظاهرتْ مع الإسْكَندريّة ذِمَّةً للمسلمين، يَضرِبون عليها الخَراج.

ذكر من قال إن مصر فتحت عنوة

قال: وقد ذَهب آخَرون إلى أنّ مصرَ فُتحتْ عَنْوةً بغير عَهْدٍ ولا عَقْدٍ.

رُوِيَ عن سُفيانَ بنَ وَهْبَ الخَوْلانيّ، قال: لمّا فتحْنَا مصرَ بغير عَهْدٍ قام الزُّبيرُ بنُ العوّام، فقال: اقْسِمها يا عَمرو، فقال عَمرو: والله لا أقْسِمُهَا حتى أكتبَ إلى أمير المؤمنين. فكَتَب إلى عُمَر، فأجابه أن أقِرّها حتَّى يَغْزُوَ منها حَبَلُ الحَبَلَة[١].

وقيل: إنَّ الزُّبَيْر صُولحَ على شيءٍ أُرْضِيَ به.

وَرَوَى ابنُ لهيعةَ بسَنده إلى عَمرِو بنِ العاصِ أنّه قال: لقد قعدتُ مَقْعدِي هذا وما لأحدٍ من قِبْط مصرَ عليَّ عهدٌ، إنْ شئتُ قتلتُ، وإنْ شئتُ خمَّستُ، وإن شئتُ بعتُ إلاّ أهل أنطابُلس[٢]؛ فإنَّ لهم عهدًا نُوفِي لهمْ به.

وعن ربيعةَ بن أبي عبدِ الرّحمٰن أن عَمرو بن العاص فتحَ مِصرَ بغير عهدٍ ولا عَقْدٍ، وأنّ عمرَ بنَ الخطابِ حَبَسَ درَّها وصَرْعَهَا؛ أنْ يخرجَ منه شيءٌ نظرًا للإسلام وأهلِهِ.

وعن عُروة بنِ الزُّبير: أنَّ مصر فُتِحَتْ عَنْوَةً.

وعن عبدِ المَلِكِ بنِ جُنادةَ قال: كتب حَيّانَ بنُ شُرَيْح - وكان من أهل مصرَ من موالي قريش - إلى عمرَ بنِ عبد العزيز يسأله أن يجعلَ جزية مَوْتَى القِبْطِ على أحْيَائِهِمْ. فسأل عمر عِراكَ بنَ مالك، فقال عِراكَ: ما سمعتُ لهم بعهْدٍ ولا عَقْدٍ.

فكَتَب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى حيّان، أن يَجْعَلَ جِزْيَةَ مَوتَى القِبْطِ على أحيائهم.

وعن عبد الله بن بُكَيْر قال: خرج أبو سَلَمَةَ بن عبد الرحمٰن يريدُ الإسكندرية في سَفينةٍ، فاحتاجَ إلى رجل يُجذِّف به، فسخَّر رجلاً من القِبْطِ، فكُلِّمَ في ذلك فقال: إنَّهم بمنزلةِ العَبيد إن احتجتُ إليهم.

(١) حبلة: قرية من قرى عسقلان؛ ينسب إليها حاتم بن سنان بن بشر الحبليّ.

(٢) أنطابلس: معناه بالرومية خمس مدن؛ وهي مدينة بين الإسكندرية وبرقة؛ وقيل: هي مدينة ناحية برقة.

وعن ابن شهاب أنه قال: كان فتحُ مصر، بعضُها بِعهْدٍ وذمّةٍ، وبعضها عَنْوَةً، فجعَلَهَا عمرُ بن الخطَّابِ جميعًا ذِمَّةً، وحَمَلهم على ذلك، ومضى ذلك فيهم إلى اليوم.

ذكر أخبار الإسكندرية وبنائها وما اتفق في ذلك من الأعَاجيب

لمّا رأيتُ جماعةً من المؤرِّخين اقتَصروا في أخبار الإسكندريّة عند ذكرهمْ لِفُتوحها على ما ذكرتُ أو نحوِه، ومنهم من ٱختَصَرَ ذلك، واقتصرَ على مجرَّد الفَتح، ولم يتعرّضوا إلى ما سِواه من أخبارها، آثرتُ أن أضمَّ إلى ما شرحْتُه من أخبار فتحِها ذِكرَ أخبار بنائِها، وسَبَبه وما شاهَدُوه بأبنيتِها من العَجائب، وكيفَ تُحيِّلَ على وَضعِها حتَّى تمَّتْ، ودفع ظلمة الضَّررِ عن سُكَّانِها لمَّا ادْلَهَمّت[1]، لأنّ مثل هذا الثَّغرِ العظيم الَّذي شاع في الآفاق ذِكْرُهُ وٱشتَهرَ، وحَمِدَ من ٱلتجأ إليه ممَّن نبتْ به الْغُربةُ وعاقبةُ السَّفرِ، وحقَّقَ بٱختياره صِدْقَ الخبرِ عنه وتيَقُّنَ الخَبَرِ، لا يُقتصر فيه على هذه النُّبذةِ التي ذكرناها، واللُّمعةِ الَّتي أوردْناها؛ بل يتعيَّنُ بسطُ القولِ فيه، وأنْ يتكلَّمَ المؤلِّفُ إذا ٱنتهى إليه بمِلء فيه. وربمّا اعترضَ عليَّ معترِضٌ لم يُطالِع مجموعَ ما أَلَّفتُ، ولا وقفَ على جملةِ ما صنَّفتُ، فيقولُ: كيف أقتصرَ على فتوح مصرَ على مُجرّدِهِ وهي أصْلُ بِلاده، وقاعِدةُ عباده، وبَسَط القولَ في الإسكندرية وهي على الحقيقة من مضافاتِها، وولايةٌ من جملة وِلايَاتها! وقد تَجول فيه خَيْلُ الاعتراضِ، ويعدلُ عن ٱلانشراح إلى الانقباض، ويتوهَّمُ أنّ ذلك عن عَجزٍ أو قِصَرٍ، وإنْ بَسَط العُذْر فيقول: عن مَلالٍ وضَجَرٍ. وليس الأمر ـ ولله الحمدُ ـ كذلك؛ لأنَّا ذكرنا أخبارَ مصرَ في كتابنا هذا في أربعة مواضعَ سَلَفَتْ منه، فذكرْنا خصائصَها وما فُضّلتْ به على غيرها في الباب الثاني من القِسم الخامس من الفنّ الأوّل، وكلُّ ذلك في السِّفْر الأوّل من كتابِنَا في خصائص البلاد، وذكرْنا أخبارَ نيلها في الباب السَّابع من القسم الرّابع من الفنِّ الأوّلِ في الأنْهار، وذكرنا أخبارَ ما بها من المَباني القديمة والآثارِ العظيمة، في الباب الثَّالث من القسم الخامِس من الفنِّ الأوّل. وذكرنا أخبارَ مَنْ مَلَكَهَا من ملوكِ الأُمَم قَبل الطُّوفَانِ وبعدَه، وما بَنَوْه بها من المُدُن، وما أقاموه من المَنارات والأهرام

---

(١) ادلهمت الظلمة: كثفت؛ وادلهم الليل: اشتد ظلامه.

والبَرابي[١] وغيرِ ذلك من المباني، وما وضعوه بها من العجائبِ والطِّلَّسْماتِ[٢] والحِكَم، وما أثارُوا من المَعادن وما دبَّروه من الصَّنعةِ وما شَقُّوه وأنبطُوه[٣] من الأنهار، وغير ذلك من أخبارِها وعجائبها، وذلك في الباب الثاني من القسمِ الرَّابعِ من الفنِّ الخامسِ، وهو في السِّفرِ الثَّاني عشر، والثالث عشر من هذا الكِتاب، فلا اعتراضَ بعدَ ذلك عليّ ولا تقصيرَ تَنْتَسِب نسبتُه إليّ.

ولنأخذ الآن في أخبارِ الإسكندريةِ، قال أبو الحسن عليُّ بنُ عبدِ الله المسعوديّ رحمه الله في كتابه المترجَم «بِمُروجِ الذَّهَبِ».

ذَكَرَ جماعةٌ مِنْ أهلِ العلم أنَّ الإسكندر المَقْدُونيَّ لمّا استقامَ مُلكُه في بلاده، سار يختارُ أرضًا صحيحةَ الهواءِ، والتُّربةِ والماء، فأنتهَى إلى موضعِ الإسكندريةِ، فأصاب في موضعها آثارَ بُنْيَان وعُمُدًا كثيرةً من الرُّخام، وفي وسَطها عَمودٌ عظيمٌ مكتوبٌ عليه بالقَلَم المسنَدِ وهو القلمُ الأوّلُ من أقلامِ حِمْيَرَ ومُلوكِ عادٍ: «أنا شَدّادُ بنُ عادٍ، شَدَدْتُ بساعدَيّ البلاد، وقطعتُ عظيمَ العِمادِ، من الجِبال والأطوادِ[٤]، وأنا بنَيْتُ إرَمَ ذات العِمادِ، الَّتي لَمْ يُبْنَ مِثلُها في البلاد، وأردت أن أبنيَ هاهنا كإرَم، وأنقُلَ إليها كلّ ذي قدَم وكَرَم، من جميع العشائرُ والأُمَمَ، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقَم، فأصابني ما أعجَلَني، وعمَّا أردتُ إليه قطعني مَعَ وقوع ما أطالَ همِّي وشَجَني، وقَلَّ نَوْمي وسَكَني، فأرتحلتُ بالأمسِ عن داري، لا لقَهْرِ مَلِكٍ جَبّارٍ، ولا خَوْفَ جَيْشٍ جرّار، ولا عَنْ رغْبَةٍ ولا صَغارٍ[٥]؛ ولكن لتمامِ الأقْدار، وأنقطاع الآثار؛ وسلطانِ العزيزِ الجبّارِ، فمن رَأى أثَري، وعَرَفَ خَبَرِي، وطُولَ عُمُري، ونفاذَ بصري، وشدّةَ حَذَرِي، فلا يغترَّ بالدُّنيا بَعْدِي». . . . وكلامٌ كثيرٌ يُرِي فيهِ فَناء الدُّنيا، ويَمنعُ من الاغترارِ بها، والسُّكون إليها، لَم يذكرْه المسعوديّ.

---

(١) البرابي: جمع بربا، كلمة قبطية، وأظنه اسمًا لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع الحسر. . . قيل: وبيوت هذه البرابي في عدة مواضع من صعيد مصر في إخميم وأنصنا وغيرها باقية إلى الآن والصور الثانية في الحجارة موجودة. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الطلّسم: (في علم السحر): خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي. .

(٣) أنبطوه: استخرجوه.

(٤) الطود: الجبل العظيم الذاهب صعدًا في الجو. . أو الهضبة، أو المشرف من الرمل كالهضبة.

(٥) الصغار: الرضى بالذل والضّعة.

قال: فنَزَل الإسكندرُ مفكِّرًا يتدبَّرُ هذا الكلامَ ويَعتبِر، ثم بعثَ بحَشْر الصُّنَّاع من البلاد، وخطَّ الأساس، وجعل طُولَها وعَرْضها أميالاً، وأمر بنقلِ الرّخام والمَرْمَرِ(١) والأحجارِ من جزيرةِ صِقلّيَةَ، وبلادِ إفريقيَةَ، وأقْريطيش(٢)، وأقاصي بحر الرُّوم، وجزيرة رودس وغيرها، فَنُقِلَتْ في المَراكِب، وأمرَ الصُّنَّاع والفَعَلة أن يَدُوروا بما رَسَم لهمْ من أساسِ المدينة، وعَمِلَ على كلِّ قطعةٍ من الأرضِ خشبةً قائمةً، وجعل من الخشبة إلى الخشبة حِبالاً مَنوطَةً بعضُها ببعضٍ، وأوصلَ جميعَ ذلك بعمودٍ من الرّخام كان أمامَ مَضربِهِ، وعلَّقَ على العمودِ جَرَسًا عظيمًا مُصَوِّتًا، وأمرَ النَّاسَ والقُوَّام على الصُّنَّاع والبَنَّائِينَ والفَعَلَةَ، أنَّهم إذا سمعوا صوتَ ذلك الجَرَسِ أن يضعُوا أساسَ المدينة دَفْعَةً واحدة من سائِر أقطارها. وأحَب الإسكندرُ أن يجعلَهُ في وقتٍ يختاره، وطالعِ سَعْدٍ يأخذه، فَخَفَقَ(٣) الإسكندرُ يومًا برأسه، فأخذتْه سِنةٌ في حالِ ارْتقابِهِ للوقتِ. فجاء غرابٌ فجلس على حبل الجَرَس الكبيرِ فحرّكه، وخرج صوتُ الجَرَسَ، وتحرَّكَت الحِبال، وخَفَقَ ما عليْها من الأجراس الصِّغار، وكان قد عُمِلَ ذلك بحركاتٍ فَلْسَفِيَّة.

فلمّا سمع الصُّنَّاعُ حسَّ أصواتِ الجَرَس وصنعوا الأساسَ دفعةً واحدةً وارتفعَ الضَّجيجُ بالتَّحْميد والتَّقْديس، فاستيقظَ الإسكندرُ من رَقْدتِهِ، وسأَلَ عن الخبرِ، فأُخبرِ به، فقال: أردْتُ أمرًا واللّهُ أرادَ غيرَهُ، ويأبى اللّهُ إلاَّ ما يُريدُهُ، أردتَ طولَ بقائها، وأراد اللّهُ سرعَةَ فَنائها وخَرابها، وتَدَاوُلَ المُلوكِ إيَّاها.

قال: ولمّا أُحْكِمَ بناؤُها، وثُبِّت أساسُها، وجَنَّ اللَّيْلُ عليهم، خرجَتْ دوابُّ من البَحرِ أتتْ على جميع ذلك البُنيان؛ فقال الإسكندر حين أصبحَ: هذا بَدْءُ الخَرابِ في عُمْرانها، وتحقُّق مرادِ الباريء في زوالِهَا. وتطيَّر من فِعْلِ الدَّوَابِّ، وتكرَّرَ ذلِكَ من فعلِ الدَّوابِّ في كلِّ يوم، والإسكندر يوكِّل به من يحرسُهُ، وهو يُصْبِحُ خرابًا، فقَلِق لذلك، وراعَه ما رأى، ففكَّر ما الَّذِي يَصْنع! وأيّ حِيلةٍ يَعمَلَ في رفع أذى الدَّوابِّ عن المدينة، فسَنَحَتْ له الفكرةُ ليلةً، فلمَّا أصبحَ أمر الصُّنَّاعَ أنْ يتَّخذوا تابوتًا من الخَشَب طولُه عشرة أذرُعٍ في عرض خمسةِ أشْبارِ، وجعل فيه جاماتٍ(٤) من الزُّجاجِ،

---

(١) المرمر: الرخام.

(٢) إقريطيش: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من برّ إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء...

(٣) خفق: مال.

(٤) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهي مؤنثة، جمع جامات.

وطُلِيَتْ بالقَارِ وغيرِهِ من الأطْلِيَة التي تَمنَعُ الماءَ أن يَدخل التَّابوت، وجعلَ فيه مواضعَ للحِبالِ، ودخل فيه ومعه رجلان من كُتَّابه ممّن له علم بإتقان التَّصْوير، وأمر أنْ يستر عليه، وعليهم باب التَّابُوتِ، ويُطلَى بتلك الأطْلِيةِ، وأمَرَ بمَرْكَبين، فعُلِّق التَّابُوتُ بينهما وجعل في أسفله من الخارج مثْقَلات الرَّصاصِ والحديدِ، وشعدَّ حبالَه إلى المَرْكبيْن، وأخرَجهما إلى اللُّجَةِ[١]، وسمَّر بعضَها بخشبٍ إلى بعضٍ لئلاً يَفترقا، وأرْخَوا التَّابوتَ في البحْرِ، فأستقرَّ بقرارِه، فنظر من تلك الجاماتِ إلى دوابِّ البحرِ وحَيواناتِه؛ فإذا بِصُورِ شياطينَ على أمثال النَّاس، رؤوسُهم كرؤوس السِّباع، وفي أيديهم الفُؤوس والمَقامع[٢] والمَناشير، يُحاكُون بذلك صُنَّاعَ المدينةِ، فأثبتَ الإسكندر ومن معه تلك الصُّوَر، وأحكَمُوها في القراطيس على هيئاتها وأشكالِها وقُدودِها، ثم حَرّك الحِبَالَ، فرفعه مَنْ بالمركب.

فلمّا خرج أمرَ المصوِّرين بتصوير تلك الصُّوَر، وصُنْعِها من النُّحَاسِ والحديد والحِجارة، فعُمِلتْ تماثِيلُها، ثم نصبها على الأعمدة بشاطىء البحر، وأمر بالبِناء فبُنِي، فلمّا جَنَّ اللَّيْلُ، وظهرتْ تلك الدَّوابُّ من البحر، نظَرتْ إلى أشْكَالِ صُوَرِها على العُمُدِ فرجعتْ إلى البحر ولم تَعُد، فتمَّ بناءُ الإسكندريّة، وشُيِّدتْ، فأمَرَ أنْ يُكْتَبَ على أبوابها: «هذه الإسكندرية، أردتُ أنْ أبنِيَهَا على الفَلاح والنَّجاح، واليُمْنِ والسُّرور، والثَّباتِ على الدُّهُورِ، فلم يُرد الباري ملِك السَّمٰواتِ والأرض ومُفْني الأُمَم أن أبنِيَهَا كذلك، فبنيتُهَا وأحكَمْتُهَا، وشيَّدْتُ سُورَهَا، وآتاني اللّهُ من كُلِّ شيءٍ عِلْمًا وحكمًا، وسهّل لي وجوه الأسباب، فلم يتعذَّر عليّ في العالَم شَيء مِمّا أردْتُهُ، ولا أمتَنَع عليّ شيءٌ ممّا طلبتُهُ، لطفًا من اللّهِ عزَّ وجلّ وصُنْعًا لي، وصَلاحًا لعبادهِ من أهلِ عصري، والحمدُ لله ربّ العالمين، لا إله إلاّ الله هو ربُّ كلِّ شيءٍ. ورسم بعد هذه الكتابة كلَّ ما يَحدُثُ من العُمرانِ والخرابِ، وما يؤول أمرُها إليه إلى آخِر وقْتِ دُثورِ العالَم.

وكان بناؤُها طَبقاتٍ، وتحتَها قناطرُ مقنطَرةٌ تُدَوِّرها، ويسير تحتها الفارسُ، وبيَده رُمْحٌ لا يُطْبَقُ به حتَّى يدورَ جميع أبراجِها وقناطِرِهَا، وعمل لتلك العقودِ والأبْرَاجِ مخاريقَ[٣] للضِّياء، ومَنافِذَ للهواء.

---

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه.

(٢) المقمعة: خشبة أو حديدة معوجة الرأس يضرب بها رأس الفيل ونحوه ليذل ويهان.

(٣) مخاريق: ممرات للهواء.

قال: وكانت الإسكندريَّةُ تضِيء باللَّيل من غير مِصْباحٍ لشدَّة بياضِ الرّخامِ والمَرْمَرِ، وأسواقُهَا وأزقَّتُهَا وشوارعُهَا مقنطرةٌ بها لئلاَّ يُصيبَ أهلَهَا المطرُ.

قال: وكان عليها سبعةُ أسوارٍ من أحجارٍ مختلفةِ الألوانِ، بينها خَنادقُ، بَيْنَ كلِّ خَنْدَقٍ وسُورٍ فَصْل[١].

قال: وربّما عُلِّقَ فيها شِقاقُ الحرير الأخضرَ لاّختطاف بياضِ السُّورِ أبصارَ النَّاسِ لشدّةِ بياضِه، فلمّا سكنَها أهلُها كانت آفات البحْرِ تخطفُ أهل المدينة باللَّيْلِ، فيصبِحُون وقد فُقِدَ منهم العددُ الكثيرُ، فأهمَّ ذلك الإسكندر، فاتَّخذ الطِّلَّسْماتِ على أعمِدةٍ هُنالِك، تدعَى المَسالَّ[٢]، وهي باقيةٌ إلى هذا العَصْر، فاْمتنع الدَّوابُّ من التَّعرُّضِ إلى أهلِها بعد ذلك، فأَمِنوا.

وأمّا المَنارة فقد ذكرناها في الباب الثالث من القسم الخامس من الفنِّ الأوّلِ في السفرِ الأوّل، فلا حاجة إلى إعادة ذكرها ثانيًا.

* * *

نعودُ إلى أخبار فُتوحِ مصرَ إن شاء الله تعالى.

ذكر تحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط واختطاطه

قال ابنُ لَهيعة: إنَّ عمروَ بنَ العاصِ لمّا فَتَح الإسكندريّة ورأى بيوتَهَا وبِنَاءَهَا، هَمَّ أن يسكُنَهَا، وقال: مساكن قد لَقِيناها. فكتب إلى عمرَ يستأْذِنه في ذلك، فسألَ عُمرُ الرسولَ: هل يَحولُ بيني وبين المسلمين ماءٌ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ إذا جرى النِّيلُ.

فكتب عُمَرُ إلى عَمرو: إني لا أُحِبّ أن ينزِلَ المسلمون مَنزِلاً يَحُول بيني وبينهم الماء في شتاءٍ ولا صيْفٍ. فتَحَوَّل عَمرو من الإسكندريّة إلى الفسطَاط؛ وإنما سمِّيت الفُسْطاط لأنّ عَمروَ بنَ العاص لمّا توجه إلى الإسكندرية، أمر بنَزْع فُسْطاطهِ، فإذا فيه يمامٌ[٣] قد فَرَخَ. فقال عمرو: لقد تَحَرَّم منّا بمُتَحَرِّم، فأمر بِهِ فأُقِرَّ في

(١) الفصل: المسافة بين الشيئين.
(٢) المسالّ: واحدتها المسلّة: الإبرة الضخمة؛ وتطلق على حجر مستطيل على هيئة المسلّة، عليه كتابة أثرية للفراعنة.
(٣) اليمام: جنس طير من الفصيلة الحمامية ورتبة الحماميات: الحمام البري، واحدته يمامة.

موضعه، وأوصَى به صاحبَ القصْرِ. فلمّا قَفَلَ المسلمون من الإسكندريّة قالوا: أين ننزلُ؟ قالوا: الفُسْطاط - يريدون فُسْطاط عَمرو، وكان مضروبًا في موضع دار عمرو ابنِ العاصِ الَّتي عُمِرَتْ بعدُ - واختطَّ عمرٌو المسجدَ الجامعَ العمْرِي، وكان ما حَوْله حدائقُ وأعناب، فنصَبُوا الحبالَ حتى استقامتْ لهم، ووضعُوا أيديَهم، فلم يزلْ عمروٌ قائمًا حتَّى وضعوا القِبْلَةَ، واّتخذ عَمروٌ في المسجدِ مِنبَرًا.

فكتبَ إليه عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه:

أمّا بعدُ، فإنَّهُ بلغني أنك اتَّخذْتَ منبرًا تَرْقَى به على رِقاب المسلمين، أو ما بِحسْبِك أن تقومَ قائمًا، والمسلمون تحتَ قدمَيْك! فعزمتُ عليك لَما كسرتَه.

قال: واختطّ الناسُ بعد ذلك. فكَتب عَمرو إلى عُمر: إنا قد ٱختططْنا لك دارًا عند المسجد الجامع.

فكتب إليه عمر: أنّى لرجلٍ بالحجازِ تكون له دارٌ بِمصر! وأمره أن يَجعلَها سُوقًا للمسلمين، فَفَعَلَ، فكان يباع بها الرَّقيق.

قال: ولمّا اختطَّ المسلمون تَرَكوا بينهم وبين البحر والحِصْن فَضَاءً لتغريق دوابِّهم وإبادَتِها، فلَم يزَل كذلك حتَّى ولِيَ معاوية بن أبي سفيان، فاشترى دُورَ قوم منهم، وأقْطعهم من ذلك الفَضَاءِ، فسمِّيت القطائعَ، وبناها أُولئك دُورًا لهم بدلَ دُورِهم.

قال: واختطَّتْ هَمْدان ومَنْ والاها الجيزةُ، فكتب عمرو إلى عمرَ يعرِّفه أمرَ الخطط.

فكتب إليه عمرُ يقولُ له: كيف رضيتَ أنْ تُفرِّقَ أصحابَك! ولم يكن ينبغي لك أنْ تَرْضَى لأحدٍ من أصحابِكَ، أنْ يكون بينك وبينه بحرٌ لا تَدرِي ما يَفْجَؤهم. فلعلَّك لا تقدِرُ على غياثِهِمْ حتَّى ينزل بهم ما تَكرَهَ، فٱجمعهم إليك، فإن أبَوْا عليك وأعجَبَهُمْ موضِعُهُمْ، فٱبنِ عليهم مِنْ فَيْءِ المسلمين حِصْنًا.

فعرضَ عمروٌ ذلك عليهم، فأبوْا، وأعجبهم موضِعُهمْ بالجزيرةِ، فبنى لهم عمرُو بن العاصِ الحصْنَ الَّذِي بالجيزة، في سنة إحدى وعشرين، وفرغَ مِنْ بنائه في سنةِ ٱثنتين وعشرين. والله سبحانه وتعالى أعلمُ وحسبُنا اللّهُ ونعم الوكيل.

ذكر خبر أصل النيل وكيف كانت عادة القبط وإبطال عمرو تلك العادة

قال ابنُ لَهِيعة: لمّا فتح عمرُو بنُ العاصِ مصرَ أتاه أهلُها حين دخل بَؤُونة[1] من أشهرُ القِبْط، فقالوا له: أيها الأميرُ، إنَّ لِنيلنا هذا سنَّةً لا يَجرِي إلاَّ بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان لِثنتَيْ عشرةَ ليلةً تَخلُو من هذا الشَّهر، عَمَدْنا إلى جاريةٍ بكرٍ من أبويْها فأرضَيْناهما، وجَعَلْنا عليها من الحُلِيِّ والثيابِ أفضلَ ما يكون، ثم ألقيناهَا في هذا النّيل. فقال لهم عَمرو: إنَّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنَّ الإسلام يهدمُ ما كان قَبلَه.

فأقاموا بَؤُونة وأبِيب[2] ومسرى[3]، لا يجري كثيرًا ولا قليلاً؛ حتَّى هَمّوا بالجَلاء، فلمّا رأى عَمرو ذلك كتب إلى عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه بذلك، فكتب إليه: قد أصبتَ، إنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه، وقد بعثْتُ إليك ببِطاقةٍ فألقِها في داخلِ النِّيلِ إذا أتاك كتابي. فلمّا قَدِمَ الكتابُ على عمرو فَتَحَ البِطاقَةِ؛ فإذا فيها: من عبدِ الله عمَر أمير المؤمنين، إلى نِيلِ أهل مصرَ:

أمَّا بعدُ، فإن كنتَ تَجْرِي من قِبَلِكَ فلا تَجْرِ، وإن كان اللّهُ الواحدُ القهَّارُ الَّذِي يُجريكَ، فنسألُ اللّهَ الواحدَ القهارَ أن يُجرِيَكَ.

فألقَى عَمرو البِطاقَةَ في النِّيلِ قبل يوم الصَّلِيبِ بيَوْمٍ، وقد تَهيَّأ أهلُ مصرَ للجَلاَء، فأصبحُوا وقد أجرَى الله عزّ وجل النيلَ ستةَ عشر ذراعًا في ليلةٍ، وانقطعتْ تلك السُّنَّة السّيئة عن أهلِ مِصرَ.

ذكر ما قرر في أمر الجزية من الخراج

قال: وكانت فَريضةُ مصرَ لحفْر خُلْجَانها، وإقامة جسورِها، وعمارة قناطِرِها، وقطع جزائرِها مائةَ ألفٍ وعشرين ألفًا، معهم الطُّور والمَساحِي والأداة يَعتقبون[4] ذلك لا يَدَعونه شِتاءً ولا صَيْفًا.

ثمّ كتبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضي الله عنه إلى عَمرٍو أنْ يُختم على رقاب أهل الذِّمَّةِ بالرَّصاصِ، ويُظْهِرُوا مَناطِقَهُمْ، ويَجزُّوا نَواصِيَهم، ويُرْكَبوا على الأكُفِّ عرضًا،

---

(١)و(٢)و(٣) بؤونة وأبيب ومسرى، هي الشهور الثلاثة الأخيرة من التقويم القبطي الذي يتبع النظام المصري القديم. . . (الموسوعة العربية الميسرة ـ تقويم ـ).

(٤) اعتقب القوم عليه: تعاونوا. واعتقب القوم الشيء: تداولوه وتناوبوه.

وألاَّ يَضرِبوا الجِزيَةَ إلاَّ على من جَرَت عليه المَواسِي، ولا يَضرِبوا على النساءِ، ولا على الوِلْدَانِ، ولا يَدعَوهم يتشبّهون بالمسلمين في لَبُوسِهم.

قال: ولمّا اَستَوْسَق[١] لعَمرو بنِ العاصِ الأمرُ، وأقرَّ قِبْط مصرَ على جِباية الرُّوم، وكانت جبايتُهُمْ بالعَدْلِ: إذا عُمِرت القريةُ، وكَثُر أهلُهَا زِيدَ عليهم، فإذا قَلَّ أهلُهَا وخَرِبَتْ نُقِصوا. فكانوا يَجمَعون خرَاجَ كلِّ قريةٍ وما فيها من الأرضِ العامِرةِ. فيبدرون[٢] فيُخرِجون من الأرض فَدادِينَ لكَنائسهم وحَمَّاماتهم، ثم يُخرَجُ منا عددٌ لِضيافةِ المسلمين، ونُزولِ السُّلطانِ، فإذا فَرَغُوا، نظروا إلى ما في كُلِّ قريةٍ من الصُّنَّاع والأُجَراءِ فقسَّمُوا عليهم بقدر اَحتمالِهم؛ فإن كانت فيها جالية قسَمُوا عليها بقدر اَحتِمالها، وقلَّما كانت تكون إلا للرجل المُنْتَاب[٣] أو المتزوِّج، ثم يُنظرُ ما بقيَ من الخراجه فيقسِّمُونه بينهم على عدد الأرضِ، ثم يقسِّمون ذلك بين من يريد الزَّرع منهم على قَدْر طاقتِهم، فإنْ عجز أحدٌ وشكا ضَعفًا عن زرعِ أرضِهِ، وزَّعُوا ما عجز عَنْه على الاحتمالِ، وإنْ كان منهم من يريدُ الزِّيادة، أُعطِيَ ما عَجَزَ عنه أهلُ الضَّعفِ؛ فإنْ تَشاحُوا قَسَموا ذلك على عدّتهم، وكانت قسْمَتُهم على قَرارِيطَ، الدينار بِأربعة وعشرينَ قيراطًا، يقسِّمون هذه الأرض على ذلك.

قال: وكذلك رُوِي عن النَّبِيّ ﷺ أنّه قال: «إنَّكُمْ سَتفتَحون أرضًا يُذكَرُ فيها القِيراطُ، فاسْتَوْصُوا بأهلِها خَيْرًا».

قال: وجَعَلَ عَليهِمْ لكلِّ فدّانٍ نصف إردبٍّ[٤] قمحًا، ووَيْبَتَيْن من شعيرٍ إلاَّ القُرْط فلمْ تكن عليه ضريبة، والوَيْبَة يومئذٍ ستَّة أَمْدادٍ كأنَّه يريد بذلك البِدارَ.

قال: ورُوِي عن اللَّيْثِ بنِ سعد رحمه الله، أنّ عَمرو بنَ العاص جَبَى مصر اثني عشر ألف ألف دينار.

وقال غَيْرُ اللَّيْثِ: جباها المُقَوْقِسُ قَبْلَه بسَنة عشرين ألف ألف دينار. قال اللَّيْثُ: وجباها عبدُ الله بنُ سَعْدٍ حين استعْمَله عليها عثمانُ أربعةَ عشرَ ألف ألف دينار.

فقال عثمانُ لعمرو: يا أبا عبدِ اللّهِ: درَّتْ بَعدَكَ اللَّقحةُ[٥] بأكثر مِنْ دَرِّها الأوّل. فقال عمرو: أضْررتُم بوَلَدها.

---

(١) استوسق الأمر: انتظم.

(٢) يقال: بدر إلى الزرع: أي بكر به أول الزمان. وبدر فلانًا بالشيء: إذا عاجله.

(٣) المنتاب: الزائر.

(٤) الإردب: مكيال يسع أربعة وعشرين صاعًا.

(٥) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

وكتبَ عمرُ إلى عُمرٍو أن يسأل المقوقِسَ عن مصرَ، من أيّ شيءٍ تأْتي عِمارتُهَا وخرابُهَا؟ فسأله عَمرو، فقال: تأتي عِمارتُها وخَرابُها من وجوه خمسة، أن يُسْتَخْرج خراجها في إبَّانٍ واحدٍ، عند فَراغ أهلها مِن زَرْعهم، ويُرْفع خراجُهَا في إبّانٍ واحد عند فراغ أهلها من عَصْر كُرومِهم، وتُحفرَ في كلّ سنة خُلُجُها، وتُسَدّ تُرَعُها وجسُورُها، ولا يُقْبَل محلُ أهلها، يريد البَغْي، فإن فُعِلَ هذا فيها عَمِرت، وإن فُعِلَ بخلاف هذا خربتْ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر المقطم(١)

رُوِي عن اللَّيْثِ بنِ سعْدٍ، قال: سأل المقوقِسُ عَمروَ بن العاص أن يَبِيعَه سفحَ المقطَّم بسبعين ألفَ دينار، فعَجِب عَمرو من ذلك. وقال أكتب في ذلك إلى أميرِ المؤمنين، فكَتَب بذلك إلى عمرَ، فكتب إليه، اسأله لِم أعطاكَ به ما أعْطاك وهي لا تُزْرَعُ ولا يُسْتَنْبَط بها ماء ولا يُنتفَع بها؛ فسأله، فقال: إنَّا لنجدُ صِفَتَهَا في الكتبِ، أنَّ فيها غِراسَ الجَنَّةِ. فكتبَ بذلك إلى عُمَرَ فكتب عمر إلى عمرو: أنَّا لا نعلم غراسَ الجنَّةِ إلاّ للمؤمنين، فأقبرْ فيها من مات قِبلَكَ من المسلمين، ولا تبغْه بشيء، فكان أوّل رجلٍ دُفِن فيها رجلٌ من المعَافِر يقال له: عامر.

قالوا: والمقطَّم ما بين القُصَيْر إلى مَقْطِع الحجارةِ، وما بعد ذلك فمِنَ اليَحْمُوم.

وقد اختُلِفَ في القُصَير، فقال ابنُ لَهِيعة: ليس بقُصَير موسى النبيّ عليه السلام؛ ولكنَّه موسى السّاحر.

وقال كعبُ الأحبارِ: هو قُصَير عَزيزِ مصرَ، كان إذا جرى النيلُ يترفَّع فيه. ويقال: بل كان موقدًا يُوقَدُ فيه لفرعون إذا هو رَكب مِنْ مَنْف(٢) إلى عيْنِ شمسٍ، وكان على المقطَّم مَوقِدٌ آخر؛ فإذا رأوا النارَ عَلِموا برُكوبه، فأعَدُّوا له ما يُريدُ، وكذلك إذا انصَرَفَ.

والله تعالى أعلَم، وحسبُنَا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المقطم: هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة ويسمى في كل موضع باسم وعليه مساجد وصوامع للنصارى. . . (معجم البلدان).

(٢) منف: بالفتح ثم السكون وفاء: اسم مدينة فرعون بمصر.

ذكر خبر خليج أمير المؤمنين

وهذا الخليج كانت السُّفُن تسير فيه مِنْ مصرَ إلى بحرِ القُلْزُمِ[١]، تحملُ الطَّعامَ والأصنافَ إلى مكَّةَ والمدينة.

وكان من خبره على ما رُوِيَ عن اللَّيْثِ بن سعدٍ أنَّ النَّاسَ بالمدينة أصابَهم جَهْدٌ شديدٌ في خلافةِ عمرَ بنِ الخطَّاب في عامِ الرَّمادَةِ، فكَتَبَ إلى عَمرو:

من عبدِ الله أميرِ المؤمنين، إلى العاصِي ابنِ العاص.

سلامٌ عليك، أمّا بعد؛ فلعَمري يا عَمرو ما تُبالي إذا شبعتَ أنت ومَنْ معك أنْ أهلِكَ أنا ومَنْ معي، فيا غَوْثاه، ثم يا غَوْثاه! يردِّدُ قولَه.

فكتَبَ إليه عمرو:

لعبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين، من عَمرِو بنِ العاصِ.

أمّا بعد. فيا لبَّيْكَ ثمّ يا لبَّيْك، وقد بعثْتُ إليك بِعَيرٍ أوّلُها عندَك وآخرُها عندي، والسّلامُ عليك ورحمةُ اللّهِ.

وبعثَ إليه بعيرٍ عظيمةٍ، فكان أوّلُها بالمدينةِ، وآخرُها بمِصر يَتْبعُ بعضُها بعضًا، فلمَّا قَدِمَتْ على عُمَر وَسَّعَ بها على الناسِ، ودفع إلى أهل كُلِّ بيتٍ بالمدينةِ وما حولَها بَعيرًا بما عليه من الطَّعام. وبعثَ عبدَ الرحمٰن بنَ عَوْف والزُّبيرَ بنَ العوّام وسعدَ بنَ أبي وَقَّاص أن يقسِّمُوها على النَّاسِ، ويَدْفعُوا إلى أهلِ كُلِّ بيتٍ بعيرًا بما عليه، وأنْ يَأكلوا الطَّعَامَ، ويَنحَرُوا البعيرَ فيأكلوا لحمَه، ويأْتَدِموا شَحمَه، ويَحْتَذُوا جِلدَهُ، وينتَفِعوا بالوِعاء الذي كان فيه الطَّعام لِمَا أرادُوا. فوسّع الله بذلك على النَّاس، فلمّا رأى ذلك عمرُ حَمِدَ الله، وكتَب إلى عَمرو أن يَقْدَمَ عليه، هو وجماعة أهل مصرَ، فقَدِمُوا عليه.

فقال عُمَر: يا عَمرو، إنّ اللّهَ تعالى قد فَتَحَ على المسلمين مصرَ، وهي كثيرة الخيرِ والطَّعام، وقد أُلْقِيَ في رَوْعِي لما أحببتُ من الرِّفقِ بأهلِ الحرميْن والتَّوسعةِ عليهم، أن أحْفُرَ خليجًا من نِيلِ مصرَ حتَّى يَسيلَ في البحر؛ فهو أسهَل لما نريد مِنْ حَمْلِ الطَّعامِ إلى المدينة ومكَّة، فإنّ حَمْلَه على الظَّهر[٢] يتعذَّر، ولا نَبلغ منه ما

(١) بحر القلزم: يعرف الآن بالبحر الأحمر. قيل: سمي بحر القلزم قلزمًا لالتهامه من ركبه وهو المكان الذي غرق فيه فرعون وآله...

(٢) الظهر: الدابة التي تحمل الأثقال، أو يركب عليها.

نريد. فانطلِق أنتَ وأصحابُك، فتَشاوَروا في ذلك حتَّى يَعتدلَ فيه رأيُكم، فانطلق عَمرو فأخبرَ مَنْ كان معه من أهْلِ مصر، فَثَقُل ذلك عليهم، وقالوا: نتخوّفُ أنْ يدخُلَ في هذا ضررٌ على مصر، فَنَرَى أن تُعظِّم ذلك على أميرِ المؤمنين وتَقولَ له: إنَّ هذا الأمرَ لا يعتدلُ ولا يكونُ، ولا نجدُ إليه سبيلاً.

فرجع عمرو بذلك إلى عُمَر، فلمّا رآه ضَحِك وقال: والَّذِي نَفْسِي بيدِه لكأنّي أنظرُ إليكَ يا عَمرو، وإلى أصحابِك حين أخبرتَهُمْ بما أمرتُ به، فثقُلَ ذلك عليهم، وقالوا لك كذا وكذا. لِلَّذي كان منهم. فقال: صدقتَ والله يا أميرَ المؤمنين، لقد كان الأمرُ على ما ذكرت.

فقال عمرُ: يا عَمرو، انطلقْ بعزيمةٍ منّي حتى تجدَّ في ذلك، ولا يأْتي عليك الْحَوْلُ حتَّى تفرُغَ منه إنْ شاءَ الله تعالى. فانصرفَ عَمرو، ثمَّ احتَفَرَ الخليجَ الَّذِي كان في حاشيةِ الفُسطاط الَّذِي يُقَالُ له: خليجُ أميرِ المؤمنين، فساقَه من النِّيل إلى القُلْزُم، فلم يأْتِ الحولُ حتَّى جَرَتْ فيه السُّفُنُ، فحَمَلَ فيه ما أراد من الطَّعام إلى المدينة ومكَّة، فنَفَعَ اللّهُ بذلك أهلَ الحرمَيْن، وسُمِّي خليجَ أمير المؤمنين، ثمَّ لَم يزلْ يُحمَلُ فيه الطَّعامُ إلى زَمَنِ عمرَ بنِ عبد العزيز، ثمَّ ضَيّعه الوُلاةُ بعد ذلك فترِك وغَلَب عليه الرَّملُ، فانقطع، فصارَ مُنتهاه إلى ذَنَبِ التِّمْسَاحِ من ناحيةَ طَحَا القُلْزُم.

قال: ويقالُ: إنَّ عمروَ بنَ العاص قال لعمرَ بنِ الخَطَّاب. لمّا قَدِمَ عليه: يا أميرَ المؤمنين، قد عرفتَ أنَّه كانت تأْتينا سفنٌ فيها تجارٌ من أهلِ مصرَ قبلَ الإسلام، فلمّا فتحْنا مصرَ انقطَع ذلك الخليج، واسْتَدّ، وتركتْه التُّجارُ؛ فإن شئتَ أن تَحفِرَهُ فنُنشِيء[1] به سُفُنًا يُحمَل فيها الطعامُ إلى الحِجاز فعلتُه. فقال له عُمَر: نعم، فافعل.

فلمّا ذكرَ عَمرو ذلك لأصحابه كرهوه على ما تَقدَّمَ، فعزَم عمرُ على عَمرٍو أن يَحْفِره فَحَفَره.

ويقال: إنّ عمر بنَ الخطَّابِ رضي الله عنه لمّا كَتَب إلى عَمرو بما كَتَب واستَغاثه، كَتَب عمرو إليه:

أمّا بعد، فيا لبَّيك ثمّ يا لبَّيك، أتتْك عِيرٌ أوّلها عندَك وآخرها عندي، مع أنّي أرجو أن أجِدَ السَّبيلَ إلى أن أحْمِلَ إليك في البحْرِ. ثم إنّ عمرًا نَدِم على كتابِه في الحَمْلِ إلى المدينة، وقال: إنْ أمكنتُ عمرَ من هذا خرَّب مِصرَ ونقلَهَا إلى المدينة، فكتب إليه: إنِّي نظرتُ في أمرِ البَحْر، فإذا هو عَسِرٌ لا يُلْتَأَم ولا يُستطاع. فكتب إليه

---

(١) ننشيء: نحدث ونوجد.

عُمَرُ: إلى العاصي ابنِ العاص: قد بَلَغَني كتابُكَ، تعتلُّ في الَّذي كنتَ كتبْتَ إليَّ به من أمرِ البحرِ، وأيْمُ الله لتَفعَلَنَّ أو لأقلَعنَّك بأذُنك ولأبْعَثَنَّ من يَفعَل ذلك.

فعرفَ عَمرو أنه الجدّ من عُمَر، ففعل، فبعث إليه عُمَرُ ألا تدع بمصرَ شيئًا من طعامِهَا وكِسْوتِها وبَصلِهَا وعَدَسِها وخَلِّها إلاَّ بَعَثْتَ إلينا منه.

ويقال: إنَّما دَلّ عَمروَ بنَ العاصِ على الخليج رجلٌ من قبطِ مصر، أتاه فقال له: أرأيْتَ إنْ دللتُكَ على مكانٍ تجري فيه السُّفُنُ حتى تنتهيَ إلى المدينة ومكَّةَ، أتَضَعُ عنِّي الْجِزيَةَ. وعن أهلِ بيتي؟ قال: نَعَم، وكَتَبَ إلى عمر، فقال: افعلْ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الخبر عن فتح الفيوم[(١)]

روي عن سَعيد بن عُفَيْرٍ وغيرِه، قالوا: لما تمّ الفتحُ للمسلمين، بعثَ عمرُو بنُ العاص جَرائدَ الخيْلِ إلى القُرَى الَّتي حَوْلَها، فأقامت بالفيّوم سنةً لم يَعلَم المسلمون بمكانها؛ حتى أتاهم رجلٌ فذَكَرَها لهم، فبَعث عَمرٌو معه ربيعةَ بنَ حُبَيْش بن عُرفطة الصَّدفيّ، فلمّا سلكوا في المجابة لَم يَرَوْا شيئًا، فهَمُّوا بالانْصراف فقال: لا تَعجَلوا، سِيروا، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى طَلَع لهم سوادُ الفيُّومِ، فَهَجموا عليها، فلَم يكن عند أهلِها قِتال، وألْقَوْا بأيْدِيهم.

قال: ويقالُ: بل خَرَجَ مالكُ بن ناعمة الصّدفي - وهو صاحبُ الفَرَس الأشقَر على فرسِه - ينفُضُ[(٢)] المابة، ولا عِلْمَ له بما خلفها من الفيّوم، فلمّا رأى سوادَها رَجَع إلى عَمرو، فأخبَرَه بذلك.

ويقال: بل بعثَ عمرُو بنُ العاصِ قيسَ بنَ الحارثِ إلى الصَّعيد، فسار حتَّى أتى القَيْسَ، فنَزَلَ بها، وبه سُمِّيتْ، فذكر ذلك لعمرو.

فقال ربيعةُ بنُ حُبيش: كُفِيت، فركِبَ فرسَه، فأجاز عليه البحرَ، وكانت أُنثى، فأتاه بالْخَبَرِ، ويقال: إنَّه أجازَ من ناحيةِ الشَّرقيَّةِ حتى انْتَهَى إلى الفَيُّوم. والله تعالى أعلَم، وحسبُنَا الله ونعم الوكيل.

---

(١) الفيوم: ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى مسيرة يومين وهي في منخفض الأرض كالدارة...

(٢) ينفض المكان: ينظر جميع ما فيه حتى يعرفه.

ذكر فتح زويلة[١] وطرابلس الغرب وبرقة[٢] وحصن سبْرت

كان فتحَ زَوِيلةَ في سنة إحدى وعشرين؛ وذلك أن عمروَ بنَ العاصِ بعثَ عُقبةَ بنَ نافِع الفِهْريَّ إليها، فافتَتَحَها صلْحًا، وما بين برقةَ وزويلة سلْمًا للمسلمين. وقيل: فَتَحَها في سنة عشرين، والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمدُ للّهِ وحدَه.

ثم سار عمرُو بنُ العاصِ من مِصْرَ في سنة اثنتين وعشرين إلى بَرقة، فصالَح أهلَها على الْجِزية، وأن يبيعُوا مِنْ أبنائهم من أرادوا بَيْعَه، فلمّا فرغ من بَرْقة سَار إلى طَرَابُلس الغَرْب، فحاصَرَها شَهْرًا، فلم يظفَرْ بها، وكان قد نزل شرقيَّها، فخرج رجلٌ من بني مُدْلِج يتصيّد في سبعة نفرٍ فسَلَكوا غربَ المدينة، فلمّا رجعوا ٱشتدّ عليهم الحرُّ، فأخذوا على جانب البحرِ ولم يكن السّورُ متّصلاً بالبحر، وكانت سُفُن الرُّوم في مَرساها تُقَابِلُ بيوتَهم، فَرَأَى المُدْلجيُّ وأصحابُهُ مسلَكًا في البحر إلى البلدِ، فدخَلوا منه، وكبَّروا، فَلَجأ الرُّومُ إلى سُفُنِهم؛ لأنَّهم ظنُّوا أنّ المسلمين قد دخلوا المدينةَ، فنظر عَمرو ومن معه، فرأى السُّيوفَ في المدينة، وسَمِعوا الصِّياح، فأقبلَ الجشُ حتّى دخل المدينة، فلَمْ يفلتْ من الروم إلاّ بما خفَّ حملُهُ في مراكبهم.

وكان أهلُ حصنِ سبْرت قد اطْمَأنُّوا، فجهَّزَ إليهم جيْشًا كثيفًا، فصبّحوها وقد فَتَح أهلها الباب، وسرَّحوا مَواشِيَهم فدخلها المسلمون مغالبةً وغنموا ما في الحصن، وعادوا إلى عَمْرو.

ثم سار عمرو إلى برْقة وبها لُواتة، وهم من البَرْبَر، فصالَحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينارٍ يؤدُّونها جِزْيةً، وشرطوا أن يَبِيعوا مَنْ أرادُوا بَيْعَه من أولادهم في جِزْيَتِهِمْ.

قال المؤرِّخ: وكان سببُ مَسيرِ البَرْبر إليها وإلى غيرِها من بلاد الغرب؛ أنَّهم كانوا بنواحِي فِلَسْطِين، فلما قتِلَ مَلِكهم جالوت، ساروا نحوَ الغرب، وتفرقوا، فسارت زناتَة ومَغيلة، وهما قبيلتان من البَرْبرِ، فسكنوا الجبال، وسكنتْ لُواتَةُ برقةَ،

(١) زويلة: مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان، وفيها جامع وحمام وأسواق تجتمع فيها الرفاق من كل جهة ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم... وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن..

وتُعْرَفُ قديمًا بأنطابُلُس ـ وقيل فيها: أَنْطَابلُس ـ وانتَشَرُوا فيها حتى بلغوا السُّوس، ونزلوا ونزلتْ هَوَّارةُ مدينةَ لَبْدة، ونزلتْ نَفُوسة مدينة سَبرْت، وجلا مَنْ كان بها من الرُّوم من أجْل ذلك كذلك، وأقام الأفارقُ وهم خدَم الرُّومِ على صلحٍ يؤدّونَه لمن غَلَبَ على بلادهم.

* * *

انتهتْ الفُتوحاتُ في خلافةِ عمرَ رضي الله عنه. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا اللّهُ ونعم الوكيل.

ذكر الغزوات إلى أرض الروم

كان أوّلَ منْ غَزَا أرضَ الروم من المسلمين أبو بحريّة عبدُ الله بنُ قيس في سنة عشرين، وقيل: أوّلُ من دَخَلها ميسرةُ بنُ مسروقٍ الْعَبْسي، فسَلِم وغَنِم، ثمّ غزاها مُعاويةِ بنُ أبي سُفيانَ في سنةِ ٱثنتين وعشرين، ودخلها في عشرةِ آلافِ فارسٍ من المسلمين.

وفي سنة ثلاث وعشْرين غزا معاويةُ الصائفة، ومعه عُبَادةُ بنُ الصّامتِ وأبو أيّوب الأنْصاري وأبو ذَرّ وشدَّادُ بنُ أوس.

وفيها فَتَح معاويةُ رضي الله عنه عَسْقَلاَنَ على صُلْحٍ.

ذكر ما اتفق في خلافة عمر بن الخطاب غير الفتوحات والغزوات

سنة ثلاث عشر

في هذه السّنة، تُوفيَ الأرقمُ بنُ أبي الأرقَم يومَ مات أبو بكر الصِّديق رضي الله عنهما، وهو الّذي كان رسولُ الله ﷺ مستخفيًا بداره بمكّة أوّلَ ما أُرْسِل ﷺ.

* * *

سنة أربع عشرة

في هذه السنة أَمَرَ عُمر رضي الله عنه بالقيام في شهر رمضانَ في المساجدِ، وجمَعَهم على أُبيّ بنِ كعبٍ، وكتبَ إلى الأمصارِ بذلك.

وفيها، ضرب عمرُ رضي الله عنه ٱبنه عبدَ الله وأصحابه في شرابٍ[١] شَرِبوه، وضربَ أيضًا أبا مِحْجَن الثَّقفيّ في الشَّراب.

وفيها حجّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاسِ.

وكان العمّال على مَكَّة: عَتَّابُ بنُ أَسِيد في قولٍ، وعلى اليَمَن يَعلَى بن مُنْيَةَ، وعلى الكُوفةِ سعد بن أبي وَقَّاص، وعلى الشام أبو عُبيدة بن الجرَّاح، وعلى البحر عثمانُ بنُ أبي العاص. وقيل: العلاءُ بنُ الحَضْرميّ، وعلى عمارةَ حُذَيْفَةُ بنُ مِحْصَن.

وفيها مات أبو قحافة، والد أبو بكرِ الصِّديق رضي الله عنهما، ومات سعدُ بنُ عُبادةَ الأنصاريّ، وكان أسنَّ مَنْ أسلمَ من بني هاشمِ رضي الله عنه.

* * *

ذكر فرض العطاء وعمل الديوان

سنة خمس عشرة

وفي هذه السنة فَرَض عمرُ رضي الله عنه للمسلمين الفُرُوضَ، ودوَّن الدّواوِين، وأعطى العطايا على السَّابقة في الإسلام لا عَلَى البيوتِ.

قال: ولمّا فرض العطايا أعطَى صفوان بنَ أُميّةَ والحارثَ بنَ هشام وسُهَيْل بنَ عَمرو في أهل الفتحِ أقلَّ ممّا أعطى مَنْ قبلهم، فٱمتَنَعوا من أخذِه، وقالوا: لا نَعترِفُ أن يكونَ أحدٌ أكرمَ منّا، فقال: إنِّي إنّما أعطيتُهمْ على السَّابقة في الإسلام لا في الأحساب، فقالوا: نَعَم إذْن، وأخَذُوا.

وخرج الحارثُ وسُهيل بأهليهما نحوَ الشّام، فلم يَزَالاَ مجاهدَيْن حتَّى أُصِيبا في بعض تلك الدُّروبِ. وقيل: ماتَا في طاعون عَمْواس.

وقيل: لمّا أراد عمرُ وَضْع الدِّيوان، قال له عليُّ بنُ أبي طالبٍ، كرّمَ الله وجْهَهُ وعبدُ الرَّحمٰن بنُ عوفٍ رضي الله تعالى عنهم: ابْدَأْ بنفسِك. فقال: لا، بل أبدأُ بعَمِّ رسولِ اللّهِ ﷺ، ثمّ الأقْرَب فالأقرب، ففَرَض للعبّاسِ، وبَدَأ به، وجعَلَ له خمسةً وعشرين ألفًا، وقيل: فرض له اثني عشر ألفًا ثم فرض لأهل بدْرٍ لكلٍّ منهم خمسة آلافٍ، وألحق بهم أربعةً لم يكونوا منهم، وهم: الحَسَن والحُسَيْن وأبو ذَرّ وسَلْمَان رضي الله تعالى عنهم.

(١) الشراب: ما شرب من أي نوع والمراد هنا الخمر.

وفَرَض لمَن بعد بدر إلى الحُدَيْبِيَة لكلٍّ منهم أربعة آلافٍ، وفرض لمن بعد الحُدَيْبِيَة إلى قِتال الرِّدَّة، لكل منهم ثلاثة آلافٍ، كان منهم من شهد الفَتْح.

وفرض لأهل الأيّام قبل القادِسيَّةِ، وأهلِ الشَّام، في ألفين ألْفين.

وفَرَض لأهل البلاء منهم في ألفين وخَمْسَمائة، فقيل له: لو ألْحقْتَ أهلَ القادسيّة بأهل الأيام! قال: لم أكن لألحقَهُم بدرجةِ من لم يُدْرِكوا. وقيل لَهُ: قد سوَّيْتَ من بَعُدتْ دارُهُ بمَنْ قرُبَتْ داره، وقاتَلَهم عن فنائه، فقال: مَنْ قَرُبَتْ داره أحقُّ بالزِّيادةِ، لأنَّهم كانوا رِدْءًا للحُتوف، وشَحَى[1] للعدوّ، فهلاَّ قال المهاجرون مِثْلَ قولِكُمْ حين سَوَّيْنَا بين السابقين منهم والأنصار! فقد كانتْ نصرةُ الأنصارِ بفنائِهم، وهاجرَ إليهم المهاجرون من بعدُ. والله أعلمُ.

وفَرَضَ لمَنْ بعْدَ القادِسيَّةِ واليَرْمُوك ألفًا ألفًا.

وفرض للرَّوَادفِ الَّتي في خمسمائةٍ خمسمائة، وللرّوادف الثلث في ثلاثمائة، سَوَّى كلَّ طبقة في العطاءِ، قويَّهم وضعيفَهم، عربيَّهم وعجميَّهم. وفرضَ للرّوادف الربع فيها في مائتين وخمسين.

وفرض لمَنْ بعدَهم وهم أهلُ هَجَر والعِباد على مائتين.

وأعْطَى نساءَ رسولِ الله ﷺ رضي الله عنهن عشرة آلافٍ إلاَّ مَنْ جرى عليها المِلْك. فقال نسوةُ رسولِ اللّهِ ﷺ: ما كان رسولُ الله ﷺ يُفَضِّلُنا عليهنّ في القِسمةِ، فسوِّ بيننا؛ فَفَعَلَ، وفضَّل عائشةَ رضي الله عنها بألفيْنِ لمحبّة رسولِ الله ﷺ إيّاهَا، فلم تأْخُذْهَا.

وجعل لنساءِ أهلِ بدرٍ خمسمائة خمسمائة، ونساء مَنْ بعدَهم إلى الحُدَيْبِيَة أربعمائة أربعمائة، ونساءِ مَنْ بَعدَهم إلى الأيّام ثلاثمائة ثلاثمائة، ونساء أهل القادسيّة مائتين مائتين، ثم سَوَّى بَيْنَ النِّساء بعد ذلك.

وجَعَل الصبيان سواءً على مائةٍ مائةٍ، ثم جمع ستِّين مِسْكِينًا وأطعمَهم الخبز، فأحصَوْا ما أكلوا، فوجُدوهُ يخرج من جَرِيبَيْن، ففرَض لكلّ إنسانٍ منهم ولعِياله جَرِيبَيْنِ في الشَّهرِ.

وقال عمرُ رضي الله عنه قبل موتِهِ: لقد هَمَمْتُ أنْ أجعل العطاءَ أربعة آلافِ أربعَة آلافٍ، ألْفٌ يجعَلها الرجلُ في أهلهِ، وألف يَتزوّدُها معه، وألف يتجهَّزُ بها، وألفٌ يَرْتفِقُ[2] بها، فمات قبل أنْ يَفْعَل.

---

(١) شحى: أوسع في الخطو وأسرع. (٢) ارتفق به: انتفع واستعان.

وقال له رجل عند فرْضِ العطاء: يا أميرَ المؤمنين، لو كُنْت تركْتَ في بيوتِ الأموال عدَّةً لكَوْنٍ إنْ كان فقال: كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فِيك، وَقانِي اللّهُ شرَّها، وهي فتنةٌ لمَنْ بعدي، بل أُعِدّ لهم ما أعدَّ الله ورسوله، طاعة الله ورسوله، هما عُدّتنا الَّتي بها أفْضَيْنَا إلى ما تَرَوْنَ؛ فإذا كان المال ثَمَنَ دِينِ أحدِكُم هَلَكْتم.

وقال عمرُ رضي الله عنه للمسلمين: إنِّي كنتُ آمرأً تَاجرًا يُغْنِي الله عِيالي بتجارتي، وقد شغلْتُموني بأمرِكم هذا، فما تَرَونَ أنَّه يَحِلّ لي في هذا المال؟ فأكثرَ القومُ، وعليٌّ رضي الله عنه ساكِتٌ، فقال: ما تقولُ يا عليّ؟ فقال: ما أصلَحَك وأصلَحَ عِيالَك بالمعروف، ليس لك غيرُه. فقال القومُ: القولُ ما قال عليّ. فأَخَذَ قُوتَهُ، واشتدتْ حاجةُ عُمرَ رضي الله عنه. فاجتمعَ نفر من الصَّحابةِ منهم عثمانُ، وعليٌّ، وطلحةُ، والزبير، فقالوا: لو قلْنَا لعمرَ في زيادةِ يزيدها إيّاه في رِزْقه؟ فقال عثمانُ رضي الله عنه: هلمُّوا فلنستبرىء ما عنده مِن وَراء وراء. فأتَوْا حفصةَ ابنتَه فأعلَموها الحالَ، واستَكْتَموها ألاَّ تُخبِر بهمْ عُمَر. فلقيتْ عمرَ في ذلك، فغَضِب وقال: مَنْ هؤلاء لأسُؤَنّهم؟ قالت: لا سبيلَ إلى عِلْمهم. قال: أنت بيني وبينهم، ما أفضلُ ما آقتَنى رسولُ اللّهِ ﷺ في بَيتِكِ من الْملبَس؟ قالت: ثوبيْن ممشَّقَين[1] كان يَلبَسهما للوَفْد والجُمع، قال: فأيّ الطعام نالَه عندَك أرفَع؟ قالت: خَبَزنا خُبْز شَعيرٍ، فَصَبَبْنَا عليه وهو حارٌّ أسفل عُكّة[2] لنا، فجعلتها دَسِمةً حُلْوة، فأكل منها. فقال: أيّ بسط كان يُبسَطُ عندَكِ كان أوطَأ؟ قالت: كساءٌ ثخينٌ كنّا نرقَعُهُ برُقْعةٍ في الصَّيفِ فإذا كان الشتاء بسَطْنَا نصفَهُ، وَتَدَثَّرْنَا[3] بنصفِه، قال: يا حفصةُ، فأبلغيهم أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قَدَّر فوضعَ الفضولَ مواضعَها، وتَبلَّغ[4] بالتَّرجية، فوالله لأضعنّ الفُضولُ مواضعَها، ولأتُبلّغنَّ بالترْجية؛ وإنَّما مَثَلي ومثلُ صاحِبيّ كثلاثةِ سلكُوا طريقًا، فمضى الأولُ وقد تزوّدَ فَبَلَغ المنزل، وتَبِعه الآخرُ فسَلَكَ طريقَه فأفضَى إليه، ثم آتَبعه الثالث؛ فإن لزمَ طريقَهُمَا ورَضِيَ بزادِهما لحق بهما، وإن سَلَك غيرَ طريقِهما لم يُجَامِعْهما.

* * *

(١) الثوب الممشق: الذي فيه أثر يشبه أثر الاحتراق. أو الثوب الممزق.
(٢) العكّة: إناء يوضع فيه السمن.
(٣) تدثر: لبس الدثار، أو تغطى به؛ والدثار: الثوب الذي يكون فوق الشعار، أو الغطاء.
(٤) تبلّغ بكذا: اكتفى به. وتبلغ الشيء: تكلف البلوغ إليه حتى بلغه.

سنة ست عشرة

وفي هذه السّنة حجّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاس، وفيها غَرَّبَ[١] عمر رضي الله عنه أبا مِحْجن الثَّقفِيَّ إلى ناصع[٢].

وفيها حَمَى الرَّبذةَ بخيل المسلمين.

وفيها ماتت ماريةُ أُمُّ إبراهيمَ ابنِ رسول الله ﷺ، وصلَّى عليها عُمَر، ودَفَنَهَا بالبَقيعِ؛ وذلك في المحرّم.

وفيها كتبَ عمرُ التَّاريخَ بمشورة عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

وفيها حجَّ عمرُ بالنَّاس، واستخلفَ على المدينةِ زيدَ بنَ ثابت. والله تعالى أعلمُ بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

ذكر بناء الكوفة والبصرة

سنة سبع عشرة

في هذه السنةِ اختُطَّت الكوفةُ والبصرةُ، وتحوّل سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ من المَدَائن إلى الكوفةِ، وكان سببُ ذلك أنّ سعدًا أرسَل إلى عمر بما فتح الله عليه، فلمّا رأى الوفْدَ سألهم عن تغيُّرِ ألْوانهم وحالِهِمْ؛ فقالوا: وُخومَة[٣] البِلاد غيّرتْنا، فأمَرَهم أنْ يرتادوا مَنزِلاً يَنزِله النَّاسُ.

وقيل: بل كتَبَ حُذيفةُ إلى عُمر: إنَّ العربَ قد نزَفتْ[٤] بُطونُها، وخَفَّت أعضاؤُها، وتغيّرتْ ألوانُها. وكان مع سعدٍ، فكتب عمر إلى سَعْدٍ: أخبرني ما الَّذي غَيّر ألوانَ العَرَبِ ولحُومَهم؟ فكتب إليه: إنَّ الَّذي غيَّرهم وُخومةُ البلادِ، وأنّ العربَ لا يوافِقُهَا إلاَّ ما وافق إبلَها من البُلْدان. فكتب إليه، أن ابعثْ سَلْمانَ وحذيفَةَ فلْيرتَادَا منزلاً برِّيًا بَحْريًا، ليس بيني وبينكم بحر ولا جِسر، فأرسَلَهما سعد.

---

(١) غرّب: أبعد.

(٢) ناصع: والناصع من كل لون: ما خَلص ووضح، وأكثر ما يستعمل في البياض. والمراد هنا موضع من بلاد الحبشة.

(٣) وخومة البلاد: أي أنها غير ملائمة لأن تسكن.

(٤) نزفت البطن: سال منها الدم من جرع أو علة.

فخرج سَلمانُ حتَّى أتَى الأنبارَ، فسار في غربيِّ الفُراتِ لا يَرضَى شيئًا حتَّى أتَى الكوفَة، وخرج حذيفةُ في شرقيِّ الفُراتِ لا يَرضَى شيئًا حتى أتى الكُوفة - وكلّ رملة وحَصْباءَ مختلِطيْن فهو كُوفة - فأَتَيا عليها وفيها دِيرَاتٌ ثلاثة: دَيْرُ حرقة، ودَيْر أُمّ عَمرو، ودَيْر سِلْسِلة وخصاصٌ[1] خِلال ذلك، فأعجبَتْهُمَا البقعةُ، فنَزَلاَ وصَلَّيا، ودَعَوا الله تعالى أنْ يَجعلَها منزلاً مُباركًا. فلمّا رَجَعا إلى سعدٍ بالخَبَر، وقدم كتابُ عمَر أيضًا عليه، كتب سعدٌ إلى القَعْقَاعِ بن عمرٍو وعبدِ اللّهِ بن المعْتمِر، أن يستخلِفا على جندهما ويَحضُرَا عنده، ففعَلاَ. فارتحل سعدٌ من المَدائن حتَّى نَزل الكوفة في المحرّم سنة سبع عشرةَ، فلمّا نزلها سعدٌ كتبَ إلى عمرَ: إنِّي قد نزلْتُ بكُوفة، منزلاً بين الحِيرة والفُرات، بَرِّيًا بحريًا، يُنبِتُ الحَلْفاء[2] والنَّصِيّ[3]، وخيّرتُ المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبَهُ المقامُ بالمدائنِ تركتُه فيها كالمَسْلحة. ولمّا استقرُّوا بها عرفوا أنفسَهم، ورجع إليهم ما كانُوا فَقَدوا مِنْ قُوَّتِهِمْ. واستأذَن أهلُ الكوفةِ في بُنْيَانِ القَصَبِ، واستأْذنَ فيه أهلُ البَصْرةِ، فاستقرَّ منزلُهم فيها في الشهر الَّذي نَزَل أهلُ الكوفة بعد ثلاثِ نَزَلات فيها قَبْلَها. فكتَبَ إليهم عمر: إنَّ العسكرةَ أشدُّ لَحَرْبكم، وأذكَر لَكم، وما أُحِبّ أنْ أخالِفَكُمْ، فابتنى أهل المِصريْن بالقَصَبِ.

ثُمّ إنَّ الحريقَ وَقَعَ بالكوفةِ والبصرةِ، وكانتْ الكوفةُ أشدَّ حريقًا، وكان الحريقُ في شوّالٍ. فبعثَ سعدٌ نفرًا منهم إلى عمر يستأْذِنُهُ في البنيان باللَّبِن، فقدمُوا عليه بخبرِ الحريق، واستأْذنوه، فقال: افعَلوا، ولا يزيدُ بناءُ أحدِكم عن ثلاثةِ أبياتٍ، ولا تَطَاوَلوا بالبُنْيان، والْزَمُوا السُّنَّة تَلزَمكم الدّولة.

فرجع القومُ إلى الكوفةِ بذلك، وكتب عمرُ إلى أهلِ البصْرَةِ بمثلِ ذلك، وكان على تَنزيلِ[4] الكوفةِ أبو هياج بن مالكِ، وعلى تنزيلِ البَصْرةِ عاصم بن الدّلف أبو الجَرْباء، وقَدّر المناهجَ[5] أربعين ذراعًا، وما بَيْنَ ذلك عشرين ذراعًا، والأَزِقَّةَ سبعةَ أذرُعٍ، والقطائعَ سبعين ذراعًا. وأوّلُ شيءٍ خُطَّ فيهما مَسْجِداهما، وقام في وسطهما رجلٌ شديدُ النَّزْعِ[6]، فرَمَى في كلِّ ناحيةٍ بسَهْمٍ، وأمر أن يُبْنى ما وَراء ذلك. وبنَى

---

(١) الخصاصة: الفرجة أو الخلل، جمع خصاص.
(٢) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.
(٣) النصيّ: نبت سبط من أفضل المراعي؛ واحدته نصيّة.
(٤) التنزيل: إحلال المنازل وترتيبها.
(٥) المناهج: واحدتها المنهج، وهو الطريق.
(٦) النزع: الإفساد وحمل بعض القوم على بعض، أو الطعن.

ظُلَّة[١] في مقدِّمةِ مسجدِ الكُوفة على أساطينَ رُخام من بناءِ الأكاسرةِ في الحِيرة، وجعلوا على الصَّحْنِ خَنْدقًا لئلاَّ يقتحِمَه أحدٌ ببنيان، وبنوْا لسعدٍ دارًا بحياله، وهي قصرُ الكوفة، بناه رُوزْبه من آجُرِّ بُنْيَانِ الأكاسرةِ بالحِيرة، وجعل الأسواقَ على سُنة المساجدِ، مَنْ سبقَ إلى مَقْعَدٍ فهوَ له، حتَّى يقومَ منه إلى بيتِهِ، ويَفْرُغَ من بَيْعه.

قال: وبلغ عمرَ أنَّ سعدًا قال: وقد سمع أصواتَ النَّاسِ من السُّوقِ: سَكِّتوا عنِّي التَّصْويتِ، وإنَّ النَّاس يُسمُّونَه قصرَ سَعْدٍ. فبعثَ محمد بنَ مَسلمةَ إلى الكُوفةِ، وأمره أن يُحْرِقَ بابَ القصْرِ، ثم يَرجع، ففعل. وبلغ سعدًا ذلك، فقال؛ هذا رسولٌ أرسل لهذا! فاستدعاه، فأبَى أن يَدخُلَ إليه، فخرج إليه سعدٌ، وعرض عليه نفقةً، فَأبَى أن يأْخذَها، وأبْلَغَهُ كتابَ عمرَ إليه وفيه:

بلغني أنَّكَ اتَّخَذْتَ قصرًا جعلْتَهُ حصنًا، ويُسَمّى قصرَ سَعْدٍ، وبينك وبين النَّاسِ بابٌ، فليس بقَصْرِك؛ ولكنَّه قصرُ الخبالِ[٢]، انْزِلْ منه ممّا يلي بُيوتَ الأموالِ، وأغلِقْهُ، ولا تَجْعَل على القصرِ بابًا يَمنَع النَاسُ من دخوله.

فحلَفَ له سَعْدٌ ما قال الَّذي قالوا، ورجعَ محمدٌ، وأبلغَ عمرَ قولَه، فصدَّقه.

وكانتْ ثُغورُ الكوفةِ أربعةً: حُلْوان وعليها القعقاعُ بنُ عمرو، وماسَبَذانُ وعليها ضِرارُ بنُ الخطَّابِ، وقرقِيسِياء وعليها عَمرُو بنُ مالك، أو عمرو بن عُقْبة بن نَوْفل، والمَوْصِل وعليها عبدُ اللَّهِ بنُ المعتمِر. وكان بها خلفاؤُهُم إذا غابوا عنها.

ووَليَ سعدٌ الكوفةَ بعدما اختُطَّت ثلاث سنين ونصفًا، سِوَى ما كان بالمَدائِن قَبلَها. والله تعالى أعلمُ.

ذكر عزل خالد بن الوليد

وفي هذه السَّنَةِ عُزل خالدُ بنُ الوليد عمّا كان عليه من التَّقدُّمِ على الجُيوشِ، وسببُ ذلك أنَّه أدْرَبَ[٣] هو وعياضُ بنُ غنم، فأصابا أموالاً عظيمةً، وكانا توجَّهَا من الجابيةِ بعد رجوعِ عمرَ إلى المدينة.

وقيل: إنَّ مسيرَ خالدٍ معَ عياض كان لفتح الجزيرةِ، فبلغ النَّاس ما أصابَ خالدٌ، فانْتَجَعه رِجالٌ وكان فيهم الأشعثُ بنُ قيسٍ، فأجازه بعشرةِ آلافٍ، ودخل خالدٌ الحمَّامَ؛ قيل: حمّام آمِد، فتدلَّكَ بغسل فيه خَمْرٌ، فكتبَ إليه عمرُ:

---

(١) الظلة: ما أظلك من شجر وغيره. (٢) الخبال: الهلاك. أو صديد أهل النار.

(٣) أدرب القوم: أي دخلوا أرض العدو من بلاد الروم.

بلغني أنَّك تدلَّكْتَ بخمرٍ، واللّهُ قد حَرَّمَ ظاهرَ الخمْرِ وباطِنَهُ منه، فلا تمسُّها أجسادكم. فكَتَبَ إليه: إنَّا قتلْنَاهَا فعادَتْ غَسُولاً غيرَ خَمْرٍ. فكتب إليه عمر: إنّ آل المغيرة ابْتُلُوا بالْجفَاءِ، فلا أماتكُم اللّهُ عليه.

فلمّا فَرَّقَ خالدٌ في الَّذِين انتَجعُوه الأموالَ، سمِع بها عُمر، فكتب إلى أبي عُبيدةِ بنِ الجرّاح مع البريد أن يُقِيمَ خالدًا ويَعقِلَه بعمامته، ويَنزِع عنه قَلَنسُوَتَه حتَّى يُعْلِمَكُم من أَيْنَ أجاز الأشعثَ، أمِنْ مالِهِ أمْ مِنْ إصابةٍ أصابَها؟ فإنْ زعم أنَّها من مالِهِ فقد أسرَفَ، وإنْ زَعَمَ أنَّها مِنْ إصابةٍ، فقد أقرّ بخيانةٍ. وأَعْزِلْهِ على كُلِّ حالٍ، واضْمُمْ إلَيْكَ عَملَه.

وكان خالدٌ على قِنَّسْرِينَ من قبَلِ أبي عبيدة، فكتبَ أبو عُبيدةَ إلى خالد، فقدِمِ عليه، ثمّ جمعَ النَّاسَ وجلسَ علَى المنبرِ، وقامَ البريدُ قُبالةَ خالدٍ، فسألَ خالدًا من أيْن أجاز الأشعث؟ فلم يجبْه، وأبو عُبَيْدَة ساكتٌ لا يتكلَّم.

فقال بلالٌ: إنَّ أميرَ المؤمنين أمرَ فيك بكذا وكذا، ونَزَعَ عمامَتَهُ فلم يَمنَعْه، ووَضَع قَلَنسُوَته، وأقامَه وعَقَله بعمامَتِهِ، وقال له: أمِن مالِك أجزت؟ أم مِنْ إصابةٍ أصبْتَها؟ فقال: لا، بل مِنْ مَالي، فأطْلَقَهُ، وأعاد قَلَنسُوَته، ثمَّ عَمَّمَهُ بيَدِهِ، ثم قال: نسمعُ ونطيعُ لُولاتِنا، ونفخِّم ونخدِمُ مَوالِينا.

قال: فأقام خالدٌ متحيِّرًا لا يَدْرِي: أمعزولٌ هو أم غير معزولٍ! ولم يشافِهْه أبو عُبيدة بذلك تكْرِمَةً له.

فلمّا تأخّرَ قدومُهُ على عمرَ ظنَّ الَّذي كان، فكَتبَ إلى خالدٍ بالإقبال إليه، فرجعَ خالدٌ إلى قِنسْرِين فخطبَ النَّاسَ، وودَّعهم، ثم رجعَ إلى حِمْص ففعل مِثْلَ ذلك، ثم سارَ إلى المدينة. فلمَّا قدِم على عمرَ شكَاهُ وقال: شكوتُكَ إلى المسلمين، وباللّهِ إنَّك في أمري لغيْرُ مُجمِلٍ، فقال له عمرُ: من أيْن هذا الثَّراءُ؟ فقال: من الأنْفَالِ والسُّهْمان، ما زاد على ستِّين ألفًا فَلَك.

فقوَّم عمرُ مالَه، فرَآهُ عشرين ألفًا، فجعلها عمر في بَيْتِ المالِ، ثمّ قال: يا خالدُ، واللّهِ إنَّك عليَّ لَكرِيمٌ، وإنَّكَ إليَّ لَحبِيبٌ.

وكتب إلى الأمصار: إنّي لم أعزِلْ خالدًا عن سَخْطَةٍ ولا خِيانَةٍ، ولكنَّ النَّاسَ فخَّمُوهُ وفُتِنُوا به، فخفتُ أنْ يوكلوا إلَيْهِ، فأحبَبْتُ أنْ يَعلَموا أنَّ الله هو الصانع، ولا يكونوا بعَرَضِ فِتْنَةٍ، وعوَّضَه عمَّا أخَذ منه. والله تعالى أعلمُ، وحَسْبُنَا الله ونعم الوكيل.

ذكر بناء المسجد الحرام

وفي هذه السنة اعتمر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وبَنى المسجد الحرام، ووَسَّع فيه، وأقام بمكّة عشرين ليلة، وهدم على أقوام أبوْا أن يبيعوا، ووضَعَ أثمان دُورِهم في بيتِ المالِ حتى أخذوا، وكانت عُمْرتُه في شهر رجب، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت، واستأْذنه فأذن لهم وشرط عليهم، أنَّ ابن السبيل أحقُّ بالظلّ والماء.

ذكر عزل المغيرة بن شعبة

وفي هذه السّنةِ عَزَلَ عمرُ رضي الله عنه المغيرة بنَ شُعْبَة عن البَصْرة، واستعمل عليها أبا موسى الأشْعَريّ، وكان سببُ ذلك أنّه كان بينه وبين أبي بَكْرةَ مُنافرةٌ، وكانا مُتجاوِريْن بينهما طريق، وكانا في مشْربَتيْن، في كل واحدة منهما كُوَّةٌ مقابِلةٌ للأُخرى، فاْجتمعَ إلى أبي بَكْرة نفرٌ يتحدَّثون في مَشْرَبَتِهِ، فهبَّتْ الرِّيحُ، ففتحتْ بابَ الكُوّةِ، فقام أبو بَكْرَة ليَرُدّه، فبَصُر بالمغيرة، وقد فَتَحت الريحُ بابَ كُوَّتِهِ، وهو بين رِجْلَي اْمْرأَةٍ، فقال للنَّفيرِ: قُومُوا وانْظُرُوا، فَنَظَرُوا، وهم: أبو بَكْرة ونافعُ بنُ كَلَدة، وزيادُ ابنُ أبيه، وهو أخو أبي بَكْرَةَ لأُمّهِ، وشبلُ بنُ مَعْبَدٍ البَجَليّ، فقال لهم: اشهَدُوا. قالوا: ومَنْ هذه؟ قال: أمّ جَميل بنت الأفْقَم، وكانت من بني عامِرِ بن صَعْصَعَة، وكانتْ تَغْشَى المُغيرةَ والأُمراءَ، وكان بعضُ النِّساءِ يَفْعَلْن ذلك في زَمانها، فلمَّا قمتْ عَرَفوها. فلمّا خرج المغيرةُ إلى الصَّلاةِ منعه أبو بَكْرة.

وروى أبو الفَرَج الأصبهانيّ صاحبُ الأغاني في كتابه بسند رفعه إلى أَنس بن مالك وغيره: أنَّ المغيرةَ بنَ شُعْبَةَ كان يخرجُ مِنْ دار الإمارة وسط النَّهار، وكان أبو بكْرَةَ يلقاه فيقول: أينَ يذهبُ الأمير؟ فيقول: آتي حاجة. فيقولُ له: حاجةُ ماذا! إنَّ الأميرَ يُزَارُ ولا يَزُورُ. قال: وكانت المرأةُ التي يأْتيها جارةً لأبي بكْرة. قال: فبيْنَا أبو بكْرةَ في غرفةٍ له مع أخويه نافعٍ، وزيادٍ، ورجل آخرَ يقال له: شبلُ بنُ معبدٍ، وكانت غرفة جارته تحتَ غُرْفَة أبي بَكرة، فضربت الرِّيحُ بابَ المرأةِ ففتحَتْهُ، فنظر القوْمُ؛ فإذا هُمْ بالمغيرة يَنْكِحُهَا، فقال أبو بَكْرة: هذه بَليّةٌ ابتُليتُم بها، فانظروا، فَنَظَروا؛ فإذا أبو بَكْرَةَ نزَل، فجلسَ حتَّى خرج إليه المغيرةُ مِنْ بيْتِ المرأةِ، فقال له: إنَّه قد كان من أمرِك ما قد علمتَ، فاْعتزِلْنا.

قال: وذهب ليُصلّيَ بالنّاسِ الظُّهرَ، فمنعه أبو بَكْرَةَ، فقال: واللّهِ ما تُصلّي بنا وقد فعلْتَ ما فعلْتَ. فقال النّاسُ: دَعُوه فليصلِّ، فإنّه الأميرُ. ثم تَقارَبوا في الرِّوايةِ فقاموا: وكَتَبوا إلى عمر، فبعث أبا موسى أميرًا على البَصْرةِ، وأمره بلزوم السُّنَّةِ، فقال: أعِنّي بعِدَّةٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ، فإنّهم في هذه الأُمّةِ كالملْح. قال: خُذْ مَنْ اخترتَ، فأخذ تسعةً وعشرين رجُلًا، منهم أنسُ بنُ مالِكٍ، وعمرانُ بنُ حُصَيْن، وهشامُ بنُ عامرٍ، وخرج بهم فقدِم البصْرةَ، ودفعَ كتابَ إمْرَتِهِ إلى المغيرةِ وفيه:

أمّا بعدُ: فإنّه بلغني نبأٌ عظيمٌ، فبعثتُ أبا موسى أميرًا، فسلِّم إليه ما في يَدِكَ، والْعَجَل.

فرحَلَ المغيرةُ ومعه أبو بَكْرة والشّهود، فقَدِموا على عُمَر، فقال له المغيرة: سَلْ هؤلاء الأعْبُد كيف رأوْني، أمستقبِلَهم أم مستدبِرَهم؟ وكيف رأوا المَرأةَ فعَرَفوها؟ فإنْ كانوا مُسْتَقْبِلِيَّ فكيفَ لم أستَتِر! وإن كانوا مستَدْبِرِيَّ فبأيِّ شيءٍ استحلُّوا النَّظَرَ في منزِلي على ٱمرأتي! واللّهِ ما أتيتُ إلاّ ٱمرأتي، وكانت تُشْبِهُهَا.

فشهد أبو بَكْرة أنّه رآه على أُمِّ جميلٍ، يُدْخِلُه كالمِيلِ[1] في المُكْحُلَةِ، وأنَّه رآهما مستدبِرَيْن، وشهد شِبل ونافع مثلَ ذلك.

وأمّا زِياد فإنّه قال: رأيتُه جالسًا بيْن رجْلَي ٱمرأةٍ، فرأيت قدميْن مخضُوبَتيْن تَخفِقان، وٱستَيْن مكشوفَتَيْن، وسمعتُ حَفَزَانًا[2] شديدًا.

قال: هل رأيت كالمِيل في المَكْحلَةِ؟ قال: لا، قال: هل تعرِفُ المرأة؟ قال: لا، ولكنْ أشبِّهُهَا.

قال: فتنحّ، وأمَرَ بالثّلاثةِ فجُلِدوا الحدَّ، فقال المغيرةُ: اشْفِنِي من الأعْبُدِ. قال: اسْكُتْ، أسكتَ الله نَأْمَتَك[3]، أما واللّهِ لو تَمّتِ الشّهادَةُ لرَجمتُكَ بأحجارِك.

وفي هذه السنةِ تزوّجَ عمرُ أُمَّ كُلثوم بنتَ عليٍّ بن أبي طالبٍ، وهي بنتُ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ، ودخل بها في ذي القَعْدة.

وحجّ عُمَرُ رضي الله عنه بالنّاس في هذه السنة.

وفي هذه السنة أسلم كعبُ الأحبار.

وفيها، في ذي الحجةِ حَوَّل عمرُ رضي الله عنه المقامَ إلى موضعِه اليوم، وكان ملصقًا بالبيْتِ.

* * *

(١) الميل: ما يجعل به الكحل في العين.
(٢) حفزه حفزانًا: دفعه من خلفه بالسّوْق أو غيره.
(٣) النأمة: الصوت الخفيّ أيًا كان.

سنة ثمان عشرة

وفيها ٱستقضى عمرُ شُريحَ بن الحارثِ الكِنْديّ على الكوفةِ، وكعبَ بن سورٍ على البَصْرةِ، وكعْب هذا مِمَّن أسلم على عَهْدِ النَّبيّ ﷺ ولم يَرَه، وكان لولايته القضاءَ سببٌ نذكُره.

سبب ولاية كعب بن سور قضاء البصرة

حُكِي عن الشَّعبيّ[١]، أنَّه كان جالسًا عند عمرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه، فجاءت امرأةٌ فقالت: ما رأيتُ رجُلاً قطُّ أفضلَ مِن زوجِي، إنَّه لَيَبيتُ ليلَهُ قائمًا، ونهارَه صائِمًا في اليوم الحارّ ما يُفطِر، فٱستغفرَ لها عمَر، وأثنى عليها، وقال: مِثْلُكِ أثنى بالخيْرِ وقاله، فاستحْيَتْ المرأةُ وقامت راجعةً.

فقال كعبُ بنُ سور: يا أميرَ المؤمنين، هَلاَّ أعْدَتَ المرأة على زوجِهَا إذْ جاءتك تستعْدِيك[٢]! فقال: أكذلك أرادتْ؟ قال: نعم، قال: رُدُّوا عليّ المرأة، فرُدّت. فقال لها: لا بأْسَ بالحقّ أن تقُولِيه، إنَّ هذا زعَم أنَّكِ جئْته تشتكين أنّه يجتنِب فراشكِ، قالت: أجَلْ، إنِّي ٱمرأةٌ شابَةٌ، وإنِّي أبتغِي ما تبتغِي النِّساء، فأرسل إلى زوجها فجاء، فقال لكعب: اقضِ بينهما، فقال: أميرُ المؤمنين أحقُّ أنْ يقْضِيَ بينهما، فقال: عزمْتُ عليك لتقضِيَنَّ بينهما؛ فإنَّك فهمْت من أمرِهما ما لم أفْهَم! قال: فإنِّي أرى أنَّ لها يومًا من أربعةِ أيّام؛ وكان زوجُها له أربعُ نسوة، فإذا لم يكن له غيرُها فإنِّي أقضي لها بثلاثة أيّام ولياليهنَّ يتعبَّدُ فيهِنَّ، ولها يومٌ وليلةٌ.

فقال عمر: واللّهِ جاءَ رأْيُكَ الأوّلُ أعجبَ إليَّ من الآخر، اذهبْ فأنت قاضٍ على أهلِ البصرةِ. فلم يزلْ قاضيًا على البَصْرةِ إلى أنْ قتِلَ يومَ الجملِ؛ وذلك أنّه لمّا ٱصطفّ النَّاسُ للقتال خرج وبيده المُصْحَف فنشرَه، وجَال بين الصَّفيْنْ يُناشِد النَّاسَ في دمائهم، فأتاه سهْمٌ غرْبٍ[٣] فقتله.

وقد قيل: إنَّ المُصحفَ كان في عُنُقه، وعليه بُرنُس وبيَدِهِ عَصًا وهو آخِذٌ بخِطام[٤] الجَمَلِ، فأتاه سَهمٌ فقتله.

---

(١) الشعبي: هو أبو عامر بن شراحيل (٦٤٠م ـ ٧٢٨م): محدث ومؤرخ وأحد شيوخ التابعين، يمني الأصل، ولد بالكوفة لأحد القراء، واتصل بالحجاج حين ولي الكوفة ٦٩٤م واختاره عارفًا لقبيلته همدان... (الموسوعة العربية الميسرة).

(٢) استعداه: استعانه واستنصره.

(٣) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه.

(٤) الخطام: الزمام؛ أو ما وضع على خطم الجمل ليقاد به.

وروى أبو عُمَر بنُ عبدِ البَرّ رحمه الله بسنده إلى محمد بن سِيرين، قال: جاءتْ امرأةٌ إلى عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه، فقالت: إنَّ زوْجِي يصومُ النهارَ، ويقومُ اللَّيل، فقال: ما تُرِيدين؟ أتُرِيدين أنْ أنْهَاهُ عن صِيامِ النَّهارِ، وقيامِ اللَّيل! قال: ثم رجَعْتْ إليه فقالت مِثل ذلك، فأجابها بمِثلِ جوابِهِ، ثم جاءت الثالثة فقالت له كما قالتْ، فأجابها بمِثلِ جوابِهِ. وكان عنده كعب بن سُور، فقال كعبٌ: إنَّها امرأةٌ تشتكِي زوجَها.

فقال عُمر: أمَّا إذا فطِنْت لها فأحكم بينهما، فقام كعْب: وجاءت بزوجها فقالت:

يـأيُّـهَـا الـقـاضِـي الـفـقـيـهُ أرْشـدُهْ — ألهَى حَلِيلي عن فِراشِي مسجِدُهْ(١)
زهـدُه فـي مَـضْـجَـعِـي وتـعَـبُّـدُهْ — نـهـارَه ولـيـلـه مـا يَـرْقُـدُهْ
ولـسـتُ مـن أمـرِ الـنِّـسـاءِ أحْـمُـدُه — فـأمـضِ الـقـضـا يـا كـعـبُ لا تُـرَدِّدُهْ

فقال الزَّوْجُ:

إنِّـي امـرؤٌ قـد شـفَّـنِـي مـا قـد نـزلْ — في سُورةِ النُّورِ وفي السَّبْعِ الطُّوَلْ
وفـي كـتـابِ الله تـخـويـفٌ جَـلـلْ — فـرُدُّهـا عـنِّـي وعـن سُـوءِ الـجَـدَلْ

فقال كعبٌ:

إنَّ الـسـعـيـدَ بـالـقـضـاء مَـنْ فَـصَـلْ — ومـن قـضـى بـالـحـقِّ حـقًّـا وعَـدَلْ
إنّ لـهـا عـلـيـك حـقًّـا يـا بَـعَـلْ — مـن أربـع واحـدةٌ لـمَـنْ عَـقَـلْ

* امـضِ لـهـا ذاك ودَعْ عـنـكَ الـعِـلَـلْ *

ثم قال: أيُّها الرجلُ إنَّ لك أن تتزوَّج من النِّساءِ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، فلكَ ثلاثةُ أيّامٍ، ولأمرأتِك هذه يومٌ، ومن أربعِ ليالٍ ليلة، فلا تُصَلِّ في ليلتها إلاَّ الفريضة.

فبَعثه عمرُ قاضيًا على البَصْرة. والله تعالى أعلم.

ذكر القحط وعام الرمادة

وفي هذه السَّنَة أصابَ النَّاسَ مجاعةٌ شديدةٌ وجَدْبٌ وقَحْط، وهو عام الرَّمادة، وكانت الريحُ تَسْفِي تُرابًا كالرَّماد، فسُمِّيَ لذلك عامَ الرَّمادةِ، وأشتدّ الجوعُ حتَّى كان

---

(١) الحليل: الجار؛ وحليل المرأة: زوجها.

الوحشُ يَأْوِي إلى الإنس، وكان الرجلُ يَذبَحُ الشَّاةَ فيعَافها من قُبْحِها[١]، وأقسَمَ عُمَر لا يذوقُ سمنًا ولا لبنًا، ولا لَحْمًا؛ حتَّى يَحيَا النَّاسُ.

وكتب إلى الأمراءِ المقيمين بالأمصار يستغيثُهم لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلَها، فكان أوّل مَنْ قَدِمَ عليه أبو عبيدة بنُ الجراح بأربعةِ آلاف راحِلة من طعَام، فولاَّه عمرَ قِسْمَتها فيمن حولَ المدينة، فقسَّمَهَا وانْصَرَف إلى عَمَله، وتتَابَعَ[٢] النَّاسُ، واستغْنى أهلُ الحِجاز.

وأرسلَ عمرُو بنُ العاصِ الطَّعَامَ من مصرَ في البَرِّ والبحْرِ، فصار الطعام في المدينة كسِعْرِ مصرَ.

واسْتسْقَى عمر رضي الله عنه بالعبّاس بنِ عبد المطَّلِبِ عمِّ رسول الله ﷺ؛ وذلك أنَّ أهلَ بيتٍ مِنْ مُزَيْنة، قالوا لصَاحِبهم وهو بلالُ بنُ الحارثِ: قد هلَكْنَا، فاذبحْ لنا شاةً، فقال: ليس فيهنَّ شيءٌ، فلم يزالوا به حتَّى ذبح فسَلَخَ عن عظْم أحمرَ، فنادَى: يا محمّداه! فأُرِيَ في المنام أنَّ رسولَ الله ﷺ أتاه، فقال: أبْشِرْ بالحياةِ، ائتِ عُمرَ فأقرأْه منِّي السلام، وقلْ له: إنِّي عهدتُك، وأنت في العهدِ شديدُ العَقْدِ، فالكَيْسَ الكَيْس[٣] يا عمر.

فجاء بلالُ حتَّى أتى بابَ عمر، فقال لِغُلاَمه: استأْذن لرسول الله ﷺ، فأتى عمر فأخْبَرَهُ ففزِع وقال: رأيتَ مَسًّا[٤]؟ قال: لا. قال: فأدخِلْهُ، فأدْخَلَهُ، فأخبَرَهُ الخبرَ، فخرج عمرُ فنادَى في النَّاسِ، وصَعِدَ المِنبَرَ، قال: نَشَدْتكم الله الَّذِي هداكم للإسلام، هل رأيتم شيئًا تكرهُون؟ قالوا: اللَّهُمّ لا، ولِمَ ذاك؟ فأخبرهُم فَفَطِنُوا ولم يفطِنْ عمر، فقالوا: إنَّما استبطأناك في الاستسقاءِ، فاستسقِ بنا. فنادَى في النَّاس، فخرج وخرج معه العبّاسُ ماشِيًا، فخطبَ وأوْجَزَ، وصلَّى، ثم جَثَا لركْبَتَيْهِ وقال: اللَّهم عجزَتْ عنَّا أنصارُنا، وعجزَ عنَّا حَوْلُنَا وقُوَّتُنَا، وعجزتْ عنَّا أنفسُنا، ولا حولَ ولا قُوة إلاَّ بك، اللَّهم فاسْقِنا، وأحْيِ العبادَ والبلادَ.

وأخذ بيد العبّاس، وإنَّ دموعَ العبَّاس تَتَحادَر على لِحيَته، فقال: اللَّهمّ إنَّنا نتقرّبُ إليك بعمِّ نبيِّك، وبقيَّةِ آبائه، وأكبرِ رِجاله، فإنَّكَ تقولُ، وقولُكَ الحقُّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢]، فحَفِظْتهما بصلاح أبيهِمَا، فاحفظ اللَّهمَّ نبيَّكَ في عمِّه، فقد دَنَوْنا إليْكَ مستشفعِين ومستغفِرين، ثم أقبلَ على النَّاسِ؛ فقال: استغفروا ربَّكُمْ إنَّه كان غفَّارًا.

---

(١) الفيح: انتشار الرائحة.
(٢) تتابع الناس: تباعدوا على حيرة وشدة.
(٣) الكيس: العقل.
(٤) المسّ: الجنون.

والعبّاسُ يقولُ وعَيْناه تَذْرِفانِ، ولِحيتُه تَجولُ على صَدْرِهِ: اللَّهمّ أنتَ الرّاعي فلا تُهْمِلِ الضَّالة، ولا تَدَعِ الكبيرَ بدارِ مَضِيَعة؛ فقد ضرع الصَّغيرُ، وَرَقَّ الكَبير، وارتفعت الشَّكْوى، وأنت تعلَم السِّرَّ وأخفى.

اللَّهمَّ فأغْنِهِمْ بغِناك قبلَ أنْ يَقْنَطُوا فيَهلِكوا؛ فإنَّه لا ييْأَسُ إلا القومُ الكافرون.

فنشأت طُرَيْرة[١] من سحاب، فقال النَّاس: تروْنَ، تَرَوْن! ثم مَشَتْ فيها ريحٌ، ثم هَدَرَتْ[٢] ودرّتْ، فوالله ما بَرِحوا حتّى اعتلَقُوا الحذاءَ، وقلَّصوا المآزِر، فَطَفِقَ[٣] النَّاسُ بالعبّاسِ يَمْسَحون أركانه، ويقولون: هنيئًا لكَ ساقي الحرميْن!

فقال الفضل بنُ العباسِ بن عُتْبة بن أبي لَهَبَ في ذلك: [من الطويل]

بِعَمِّي سَقَى اللّهُ الحجازَ وأهْلَه ... عشيَّةَ يستسقى بشيبتِهِ عُمَرُ
توجّه بالعبَّاسِ في الجدْبِ راغبًا ... إليه، فما إنْ رامَ حتَّى أتَى المَطَرُ
ومنَّا رسولُ اللّهِ فينا تُراثُه ... فهل فوقَ هذا للمُفاخِرِ مُفتَخَرُ

ذكر طاعون عمواس وتسمية من مات فيه

وفي هذه السنةِ كان طاعون عَمواس بالشَّام، وعَمواسُ قريةٌ بين الرَّمْلة وبيتِ المَقدسِ. قال ابنُ عبدُ البَرّ: وقيل: إنَّ ذلك لقولهم: عم واس. قال ذلك الأصمعيّ.

مات فيه خمسة وعشرون ألفًا، منهم: أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، واسمه عامرُ بنُ الجرَّاح. وقيل عبدُ الله بنُ عامرِ بنُ الجرَّاح.

قال أبو عُمَر: والصَّحيح أنَّ اسمَه عامرُ بنُ عبد اللّهِ بن الجرَّاحِ بن هلالِ بن أهيب بن ضَبّة بن الحارث بن فِهْرْ بنِ مالك بن النَّضر بن كنانة القرشيُّ الفهريّ. شهد بدرًا وما بعدها من المشاهدِ كُلِّها مع رسولِ اللّهِ ﷺ وهاجر الهِجْرة الثانية إلى أرض الحبشة، وكان نحيفًا معروقَ[٤] الوجه، طُوالاً أجْنأ[٥].

وهو أحد العَشَرةِ المشهود لهم بالجنَّةِ، وكان رضي الله عنه من كبار الصَّحَابةِ وفُضَلائِهم، وأهل السَّابقةِ منهم.

قال رسولُ اللّهِ ﷺ: لكلِّ أُمّةٍ أمينٌ، وأمينُ هذه الأمّةِ أبو عُبَيدة بن الجَرَّاح.

---

(١) الطريرة: الطريقة من السحاب.
(٢) هدرت: انتفخت، أو سقطت.
(٣) طفق: جعل.
(٤) المعروق: القليل اللحم.
(٥) رجل أجنأ: أشرف كاهله على صدره.

وقد تقدَّم في أثناءِ السِّيرة النَّبويةِ خبرُ وفْد نجران، وسؤالُهم أنْ يبعثَ معهم مَنْ يَحكمُ بينهم، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ائتوني العشيّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمينَ»، فبعثَه معهم.

ورُوِيَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ أهلَ اليَمَنَ قَدِموا على رسولِ الله ﷺ، فقالوا: ابعَثْ معنا رجلاً يعلِّمُنا. فأخَذَ بيَدِ أبي عُبَيدة، وقال: هذا أمينُ هذه الأُمّةِ.

وقال أبو بكر رضي الله عنه يومَ السَّقيفة: قد رضيتُ لكُمْ أحَدَ هذين الرَّجُلَيْنِ، يعني عُمَرَ وأبا عُبَيْدَة.

وقال له عُمرُ رضي الله عنهما؛ إذ دخل عليه الشّام، وهو أميرها: كُلُّنا غيَّرتْهُ الدُّنيا غيرك.

وكانت سِنُّه يوم تُوفِّيَ ثمانيًا وخمسين سنة، وكانتْ وفاتُه رضي الله عنه بالأُرْدُنّ، وصَلَّى عليه مُعاذ بنُ جَبَل، ونزل في قبره هو وعَمرو بنُ العاصِ، والضَّحاكُ بنُ قيسٍ.

وقبرُ أبي عُبيدَة بالقُربِ من قرية عَمْيَا مِن غَوْر الشَّام معروفٌ هناكَ، قد زُرْته أنا غيْرَ مرَّةٍ رضي الله عنه.

ومنهم[1]: معاذُ بنُ جبلٍ، وهو أبو عبدِ الرّحمٰنِ معاذُ بنُ جبلِ بنِ عمرو بنِ أوسِ بن عائذِ بنِ عَديّ بن كعبِ بنِ عمرو بنِ إدّي بن سعد بن عليّ بنِ أسد بن شاردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاريّ الخزرجي ثم الجُشَميّ.

وقد نسبَهُ بعضُهم في نَسَبِ بني سلِمةَ بنِ سعد بن عليّ، قال ابن إسحاق: معاذُ بنُ جبلٍ من بني جُشَم بن الخزرج، وإنَّما ادَّعتْه بنو سلِمة، لأنّه كان أخا سَهْل بن مُحمَّد بنِ الجدّ بنِ قَيْس لأمّه.

قال الواقديُّ وغيرُه: كان معاذُ بنُ جبلٍ طُوالاً، حَسَنَ الشَّعْرِ عظيمَ العينيْن، أبيضَ، بَرّاقَ الثَّنَايا، لم يُولَدْ له قطُّ.

وقال ابنُ الكلبيّ، عن أبيه: إنَّه ولد له عبد الرّحمٰن بن مُعاذ. مات بالشام في الطّاعون أيضًا، فانقرض بنو إدّي بموْته.

(١) المراد بقوله: «ومنهم» أي وممن توفي في هذه السنة.

وقيل: إنّ عبدَ الرحمٰنِ قاتَلَ مع أبيه يومَ اليَرْموكِ. ومعاذ بن جبلٍ أحد السَّبعين الَّذين شَهِدُوا بَيْعةَ العَقَبةِ، وآخَى رسولُ اللّهِ ﷺ بينَه وبين عبدِ الله بنِ مسعود، قاله الواقديّ، وقال: هذا ما لا خلافَ عندنا فيه.

وقال ابن إسحاق: آخَى رسولُ الله ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالبٍ.

شهد مُعاذ بَدْرًا والمشاهِدَ كلَّهَا، وبعثَه رسولُ الله ﷺ قاضيًا إلى الجَنَدِ من أرضِ اليَمَنِ، يعلِّمُ النَّاسَ القرآن وشرائعَ الإسلام، ويَقْضِي بينهم، وجعل إليه قَبْضَ الصَّدقاتِ من العمَّالِ الَّذين باليَمَنِ، وكان رسولُ الله ﷺ قد قَسَّمَ اليمن على خمسةِ رجالٍ: خالد بن سعيد على صَنْعَاء، والمُهاجِر بن أبي أُمَيَّةَ على كِنْدة، وزياد بن لَبيد على حَضْرَمَوْتَ، ومعاذ بن جبلٍ على الجنَدِ، وأبي موسى الأشعري على زَبِيد وزَمعة وعَدَن والسّاحل.

وقال له رسولُ الله ﷺ حين وَجَّهَهُ إلى اليمن، بِمَ تَقْضي؟ قال: بما في كتاب الله عزَّ وجلّ. قال: فإنْ لم تجده؟ قال: بما في سنّةِ رسولِ الله ﷺ، قال: فإن لم تجدْ؟ قال: أجتهدُ برأيي. فقال رسولُ الله ﷺ: «الحمد لله الذي وفَّق رسولَ الله لما يحبُّ رسولُ الله».

وروى أبو عُمَر بن عبد البرّ بسنده عن كعب بن مالكٍ، قال: كان معاذ بنُ جبلٍ شابًا جميلاً، من أفضلِ شباب قوْمه، سَمْحًا، لا يُمْسِكُ؛ فلم يزلْ يَدّانُ حتَّى أغلق مالَه كلَّه من الدَّين، فأتى النَّبيَّ ﷺ، فطلبَ إليه أن يسأل غُرماءه أن يَضعوا له، فأبَوْا، ولو تركوا لأحدٍ مِنْ أجلِ أحدٍ لتركوا لمعاذ بن جبلٍ من أجْلِ رسول الله ﷺ، فباعَ رسول الله ﷺ ماله كلّه في دَيْنِهِ، حتَّى قام معاذُ بغير شيءٍ، حتى إذا كان عام فتح مكَّة، بعثه النبيُّ ﷺ إلى طائفةٍ من أهل اليمن ليجبر فمكث معاذٌ باليَمَنِ أميرًا.

وكان أوّل من اتَّجر في مالِ الله هو، فمكثَ حتَّى أصابَ وحتَّى قُبضَ رسولُ اللّهِ ﷺ. فلمّا قَدِم قال عمرُ لأبي بكرٍ: أرسلْ إلى هذا الرّجلِ فدعْ له ما يعيِّشُه، وخُذْ سائرَه منه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّما بعثَهُ رسولُ الله ﷺ ليجبره، ولستُ بآخذٍ منه شيئًا؛ إلاّ أنْ يُعْطِيَنِي. فانطلق عمر إليه إذ لم يُطعْه أبو بكر، فذكر ذلك لمعاذ، فقال معاذٌ: إنَّما أرسَلَني رسولُ الله ﷺ ليجْبرني، ولستُ بفاعلٍ، ثمّ أتى معاذ عمرَ وقال: قد أَطَعْتُك، وأنا فاعِلٌ ما أمرتَنِي به، إنّي رأيتُ في المنامِ أنّي في حَوْمةِ ماءٍ؛ قد خشيتُ لغرقَ فخلَّصْتَني منه يا عمر.

فأتى معاذُ أبا بكرٍ، فذكر ذلك له، وحلف لَهُ أنَّه لا يكتُمهُ شيئًا فقال أبو بكر: لا آخذ منك شيئًا، قد وهبْتُه لك، فقال: هذا خير حَلٍّ، وَطاب، فخرج معاذ عند ذلك إلى الشام. قال أبو عمر: كان عمر قد استعمله في الشام حين مات أبو عبيدة ولما مات أبو عبيدة، استعمل عمر بنُ الخطَّاب معاذَ بنَ جبلٍ على الشَّامِ، فماتَ مِنْ عامه؛ وذلك في الطَّاعون، فاستعمل موضِعَهُ عمرَو بنَ العاصِ.

وقال المدائنيّ[١]: ماتَ معاذٌ بناحية الأرْدنّ في طاعون عَمْواس في سنة ثماني عشرة، وهو ابنُ ثمانٍ وثلاثين.

وقال غيره: كان سِنُّهُ يوم مات ثلاثًا وثلاثين سنة.

وقبرُ معاذ بغوْرِ الشَّام، بالقربِ من قرية القُصَير من شرقيِّها معروف هناك، قد زُرْتَهُ غير مرّةٍ، وبينه وبين قبْرِ أبي عُبَيْدة نحو من مَرْحَلَة.

ومنهم يزيدُ بنُ أبي سُفْيان بن حَرْبِ بنِ أُميَّة بن عبد شمسٍ بن عبد مناف، كان أفضلَ بني أبي سُفْيان، وكان يقال له يزيدُ الخير. أسلَم يومَ فتح مكّةَ، وشهد حُنَيْنًا، واستعمَلَه أبو بكْرٍ رضي الله تعالى عنه وأوْصاه، وخرج يشيّعُه راجِلاً.

وروى أبو بِشْر الدُّولابيّ[٢]: أنَّه مات سنة تسع عشرة بعد أن افتتح قِيسارية.

ومنهم الحارثُ بنُ هشام بن المغيرة بنِ عبد الله بن عمر بنِ مخزوم القرشيّ المخزوميّ، وهو أخو أبي جَهْلٍ لأبويه.

أسلَمَ يومَ الفتح، وحَسُن إسلامُه، وشَهد حُنَيْنًا، وأعطاه رسولُ اللّهِ ﷺ مائةً من الإبل، وأعْطى المؤلَّفةَ قلوبهم، ثم خرج إلى الشّامه في خلافة عمرَ رضي الله عنه راغبًا في الرِّباطِ[٣] والجهادِ فتبعه أهل مكّةَ يبكون فِراقَه، فقال: إنَّها النُّقْلةُ إلى الله تعالى، وما كنتُ لأُوثِر عليكم أحدًا، فلم يزلْ بالشَّام يجاهد حتَّى مات في طاعون عَمواس.

---

(١) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، المدائني (أبو الحسن)، مؤرخ، إخباري، راوية للشعر. ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن، ثم انتقل عنها إلى بغداد، وروى عن الزبير بن بكار وغيره، وتوفي بها سنة ٢٢٥ هجرية وكانت ولادته سنة ١٣٥ هجرية.. (معجم المؤلفين لعمر كحالة).

(٢) الدولابي: هو أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعد، الأنصاري بالولاء، الوراق الرازي الدولابي، كان عالمًا بالحديث والأخبار والتواريخ، سمع الأحاديث بالعراق والشام وروى عن محمد بن بشار وأحمد بن عبد الجبار العطاردي وخلقًا كثير؛ وروى عنه الطبراني وأبو حاتم ابن حبان البستي... (وفيات الأعيان ٤:٣٥٢).

(٣) الرباط: المواظبة على الأمر وملازمته.

وقال المَدائنيّ: إنَّه قُتِلَ يومَ اليَرْموك، في شهر رجب سنة خمس عشرة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومنهم سُهَيلُ بنُ عمرو بن عبدِ شمس بن عبد ودّ بنِ نضر بنَ مالك بن جبل بنِ عامر بنِ لؤيّ بنِ غالب القرشيّ العامريّ. يُكْنَى أبا يزيد، وكان أحد الأشراف من قريْش وسادتهم، وهو الّذي عاقَدَ رسولَ الله ﷺ يوم الْحُدَيْبِيَة وقاضاه كما تَقدَّم.

أسلم يومَ الفتح وحَسُنَ إسلامُه، وقال رسولُ الله ﷺ لعمر بنِ الخطابِ في سُهَيل بنِ عمرو: «دَعْه فَعَسى أنْ يقومَ مقامًا نَحْمدَهُ»، فكان المقامَ الّذي قامه في الإسلام أنّه لما ماج[1] أهلُ مكّة عند وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ من العرب، قام سُهيلٌ خطيبًا فقال: واللّهِ إنّي لأعلمُ أنَّ هذا الدِّينَ سيمتدُّ امتداد الشَّمسِ من طُلُوعها إلى غروبها، فلا يغرنّكم هذا عنْ أنفُسِكم، - يعني أبا سفيان - فإنَّه يَعلمُ مِن هذا الأمرِ ما أعلَم؛ ولكنه قد جَثَم على صَدْرِه بحَسدِ بني هاشم.

وأتى في خطبته بمِثل ما جاء به أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه بالمدينة.

وَرَوى ابنُ المُبارَكِ[2] عن جريرِ بنِ حازم، قال: سمعتُ الحسن يقول: حضر النَّاسُ بابَ عمرَ بنِ الخطَّابِ، وفيهم سهيلُ بنُ عمرو، وأبو سُفْيان بن حَرب، وأُولئك الشيوخُ من قريشٍ، فخرجَ آذِنُه فجعل يأْذَن لأهلِ بَدْرٍ، لِصُهَيْب وبِلال. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كاليوم قطُّ؛ إنّه ليؤذَن لهؤلاء العبيدِ ونحن جلوسٌ لا يُلتَفت إلَيْنَا! فقال سهيلٌ: أيُّها القومُ: إنّي والله قد أرى الّذي في وُجوهِكم، فإن كُنْتُم غِضابًا فاغضَبوا على أنفسكم، دُعِيَ القومُ ودُعيتُم، فأَسْرَعُوا وأبطأْتُم.

أمَا والله لَمَا سَبَقوكم به مِنَ الفَضلِ أشدُّ عليكم فَوْتًا من بابِكُم هذا الّذِي تَنافَسون عليه، ثم قال: أيُّها القومُ، إنَّ هؤلاء القومَ قد سبقوكم بما تَرَوْنَ، ولا سبيل إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزَمُوْه، عسى أن الله يرزقَكُمْ شهادةً ثم نَفَض ثوبَه فقامَ ولَحِقَ بالشَّام.

وقال المَدائنيّ: إنَّه قُتِلَ باليَرْموك، والله تعالى أعلمُ.

---

(١) ماج القوم: اختلفت أمورهم واضطربت.

(٢) ابن المبارك: هو عبد الله بن المبارك (أبو عبد الرحمٰن) بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة كان قد جمع بين العلم والزهد، تفقه على سفيان الثوري ومالك بن أنس رضي الله عنهما، وروى عنه الموطأ، وكان كثير الانقطاع محبًا للخلوة شديد التورع، وكذلك كان أبوه. . . (وفيات الأعيان ٣: ٣٢).

ومنهم: عُتْبَةُ بنُ سُهَيْلٍ، وعامر بنُ غَيْلانَ الثَّقفي، مات وأبوه حَيٌّ، ومات غيرُ هؤلاء، رحمهم الله تعالى.

ذكر قدوم عمر إلى الشام بعد الطّاعون

قال: لمّا هلكَ النَّاسُ بالطاعون، كتب أُمراءُ الأجنادِ إلى عمر رضي الله عنه بما في أيدِيهم من المَواريث، فجَمَع النَّاسَ واستشارَهم وقال لهم: قد بدا لي أن أطوفَ على المسلمين في بُلْدانهم؛ لأنظرَ في آثارِهم، فأشِيروا عليَّ، وكان أراد أن يَبْدأ بالعِراقِ، فصرف كعبُ الأحبارِ رأيَه عن ذلك، فخرج إلى الشّام، واستخلَفَ على المدينةِ عليّ بن أبي طالب، وجعل طريقه على أيْلة، فلما دنا منها رَكِبَ بعيره وعلى رَحْله فرْوٌ مقلوبٌ، وأعطى غلامَه مركَبَهُ، فلمّا تلقَّاه النَّاسُ قالوا: أين أميرُ المؤمنين؟ قال: أمامكم - يَعنِي نفسَه - فساروا أمامَه، وانتهى هو إلى أيْلَةَ فَنزَلها.

وقيل للمتلقِّين: قد دَخَل أمير المؤمنين، فرجَعوا، وأعطى عُمَرُ الأسُقُفَّ[1] بها قَميصَهُ وقد تخرَّقَ ظهْرُه؛ ليغسِلَهُ ويرقَعَهُ، ففعل، وأخَذه ولَبِسه، وخاطَ له الأسقفُ قميصًا غيرَه، فلم يأخذه.

فلمّا قدِم إلى الشامِ قسَّم فيها لأرزاق، وسَمَّى الشَّواتي والصَّوائفَ، وسدّ فُروجَ الشام ومسالِحَها، وأخذ يَدُورُ بها، واستعمل عبيد الله بن قيس على السَّواحلِ من كُلِّ كُوَرة، واستعمل معاوية على دِمَشْقَ وخَراجها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سُفْيان، وعزل شرحبيلِ ابنَ حَسَنة، وقام بعذره في النَّاس، وقال: إنّي لم أعزِلْه عن سَخْطَةٍ، ولكنّي أُريدُ رجلاً أقوى مِنْ رجلٍ، وكان شُرَحْبِيل على خَيْل الأردنّ، فضمّ ذلك إلى معاوية.

قال: ولمّا قَدِم عمر رضي الله تعالى عنه تلقَّاه معاوية في موكِب عظيم، فلما رآه عمر قال: هذا كِسْرَى العَرَب، فلمَّا دنا منه قال: أنت صاحبُ الموكِبِ العظيم! قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: مع ما يَبْلُغُنِي مِنْ وقوفِ ذوي الحاجاتِ ببابِكَ! قال: مع ما يَبلُغُكَ من ذلك، قال: ولِمَ تفعل هذا؟ قال: نحن بأرض، جَوَاسِيسُ العدوّ بها كَثيرةٌ، فيجبُ أنْ نُظهِرَ مِن عِزِّ السلطان ما يُرْهِبُهم، فإنْ أمرتَني فعلْتُ، وإنْ نهيْتَنِي انتهيْتُ. فقال عُمر: يا معاوية، ما أسألك عن شيءٍ إلا تركْتَنِي في مثل

---

(١) الأسقف: هو عند النصارى القسيس، وهو دون المطران.

رواجِبِ[١] الفرس، لئن كان ما قلْتَ حقًّا، إنَّه لرأيُ لبيب، وإنْ كان باطلًا إنَّها لخدعةُ أريب. قال: فمرْنِي يا أمير المؤمنين. قال: لا آمُرُكَ ولا أنهاك.

قال عمرُو بنُ العاصِ: يا أمير المؤمنين، ما أحسنَ ما صدَر هذا الفتى عما أردتَه فيه. قال: لحُسن مَصَادِرِه وموارِدِه جَشَّمْنَا[٢] ما جَشَّمْنَاه.

وَروَى أبو عمَر بنُ عبدِ البَرّ: أنَّ عمر بن الخطَّابِ رَزَق معاوية على عمله بالشَّام عشرَة آلافِ دينار في كُلِّ سنةٍ.

قال المؤرِّخ: واستَعمل عمرُ رضي الله عنه عمرو بن عنبسةَ على الأهراء، وقسم مواريث أهل عَمْواس، فورثَ بعضُ الورثَةِ من بَعْضٍ، وأخرجها إلى الأحْيَاءِ، من ورثةِ كلِّ منهم، ورجع عمرُ إلى المدينة في ذي القَعْدة من السَّنَةِ.

قال: ولمّا كان بالشَّام وحضرت الصَّلاةُ قال له النَّاس: لو أمَرْت بِلالاً فأذَّن! فأمرَه، فأذَّن، فما بقيَ أحَدٌ ممَّن أدرك النبيَّ ﷺ وبلالٌ يؤذِّن إلاَّ بكى حتَّى بلَّ لِحْيَتَهُ، وعمرُ أشدُّهم بُكَاءً، وبكى مَنْ لمْ يدْرِكْهُ لبُكائهم.

وحجَّ عمرُ رضي اللّهُ عنه بالنَّاسِ في هذه السَّنَةِ.

* * *

سنة تسع عشرة

في هذه السنةِ سالتْ حرَّة[٣] ليلى وهي بالْقُرْبِ من المدينة نارًا، فأمرَ عُمرُ بالصَّدقةِ، فتصدَّقَ النَّاسُ، فانطفَأتْ. وفيها مات أُبيُّ بن كعْبٍ. وقيل: مات سنةَ عشرين، وقيل اثنتين وعشرين. وقيل: اثنتين وثلاثين، والله تعالى أعلم.

وحجّ عمرُ رضي اللّهُ تعالى عنه بالنَّاس في هذه السَّنةِ.

* * *

(١) الرواجب: مفاصل أصول الأصابع. (٢) جشّمه أمرًا: كلفه إياه.

(٣) حرة ليلى: الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار... وحرة ليلى لبني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة... (معجم البلدان لياقوت).

سنة عشرين من الهجرة

في هذه السّنةِ عَزَل عمر رضي الله عنه قدامةَ بنَ مظعون عن البحريْن، ووَلّى عثمان بنَ أبي العاص. وقيل: بل استعمَل أبا هُريرة على البحريْن، واليمامة، وقيل: استعمل أبا بكْرة على البحرين واليمامةَ.

وكان سببُ عزْلِ قُدامة، أنَّ الجارُودَ بنَ المعلَّى سيّد عبد القيْسِ قدِمَ على عمرَ من البحرين، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ قدامةَ شَرِبَ فسَكِر، وإنِّي رأيْتُ حدًّا من حدُودِ اللّهِ حقًّا عليّ أن أرْفعه إليك. فقال عمرُ: مَنْ يَشْهَدُ معك؟ فقال: أبو هُريرة، فدعا أبا هريرة فقال: بِمَ تشْهَدُ؟ قال: لم أرَهُ يشْرَبُ، ولكنْ رأيتُه سَكران يَقِيء. فقال عمرُ: لقد تنطَّعْتَ[1] في الشَّهادةِ.

ثمَّ كَتب إلى قُدامة أن يَقْدَمَ عليْه من البحريْن، فقدم، فقال الجارودُ: أقِمْ على هذا حدَّ كتابِ اللّهِ. فقال عمرُ: أخصْمٌ أنت أم شهيد؟ فقال: شَهيد. فقال: قد أدّيْت شهادَتك.

فصَمَتَ الجارودُ، ثم غَدا على عمرَ فقال: أقِمْ على هذَا حدَّ اللّهِ فقال عمرُ: ما أراكَ إلاَّ خَصْمًا، وما شهدَ أحدٌ بعدُ إلاَّ رجُلاً واحدًا.

فقال الجارودُ: إنِّي أنشدُكَ اللّهَ! فقال عمرُ: لتُمسِكنَّ عنِّي لسانَكَ وإلاَّ سُؤْتُك. فقال: يا عمرُ، أما والله ما ذَاكَ بالحقِّ أن يشربَ ابنُ عمِّك الخَمْرَ وتسوءني! ثم قال: يا عمرُ، إنْ كنتَ تشك في شَهادَتِنَا فأرسِلْ إلى ابنةِ الوليدِ فسلْهَا، وهي امرأة قُدامة.

فأرسَل عمرُ إلى هند ابنة الوليد ينشدها، فأقامتْ الشَّهادَةَ على زَوجِهَا، فقال عمرُ لقُدَامة: إنّي حادُّك، فقال: لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تَحدّوني، فقال عمرُ: لِمَ؟ قال قدامةُ: قال الله عزَّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ . . .﴾ [المائدة: ٩٣] الآية.

فقال عمرُ: أخطأْتَ التأويلَ، إنَّك إذا اتَّقيْتَ الله اجتنبْتَ ما حرَّمه علَيْكَ، ثم أقبل عمرُ على النّاس فقال: ما ترَوْنَ في جَلْدِ قُدامَة؟ فقالُوا: ما نرى أن تَجلدَه ما كان مريضًا، فسكتَ على ذلكَ أيّامًا، ثم أصبحَ يومًا قد عزَمَ على جَلْدِه، فقال لأصحابه: ما ترون في جَلْدِ قدامة؟ فقالوا: ما نرى أن تجْلِدَه ما كان وَجِعًا[2]، فقال عمر: لأنْ يَلقَى الله تحتَ السِّياط أحبُّ إليّ من أنْ ألقاه وهُو في عُنُقي. ائتُوني بسَوْطٍ تامٍّ، وأمَر

(١) تنطّع في الشيء: غالى وتكلف فيه.
(٢) الوجع: الذي أحس بالألم.

بقُدامة فجُلِدَ، فغاضَبَ قدامةُ عمرَ وهَجَره، فلم يزل كذلك حتَّى حجّ عمر وقدامةُ معه، فلمّا قَفَلاَ مِنْ حَجِّهما، ونزل عمر بالسُّقْيَا[١] نام، فلمّا استيقَظَ قال: عجِّلوا عليَّ بقُدامة، فواللّهِ لقد أتاني آتٍ في مَنَامِي فقال: سَالِمْ قُدامةَ فإنّه أخوكَ.

فلمّا أتوْهُ أبَى أنْ يأْتِيَ، فأمر عمرُ به إنْ أبى أن يَجُرُّوه إليه، فجاءه فاستغفرَ له عمرُ وكلَّمَهُ، فكان ذلك أوّل صُلْحهما.

حكاه أبو عُمَر. قال: وكان قدامةُ خالَ عبد الله وحفصةَ ابنَيْ عمرَ رضي الله عنهم.

ذكر إجلاء يهود خيبر منها

وفي هذه السَّنَةِ أجْلَى عمرُ رضي الله عنه يهودَ خَيْبَر، وكان رسولُ الله ﷺ لمّا فتح اللّهُ عليه خيبر، دَعَا أهلَها فقال لهم: إنْ شئتم دفعْتُ إليكم هذه الأموال على أن تُعمِلوها، وتكون ثِمارُهَا بينَنا وبينَكم، وأقِرُّكُمْ على ما أقرَّهُ اللّهَ عزَّ وجلّ. فقَبِلوا ذلك واشترط عليهم، أنّا متى شِئْنَا أنْ نخرجَكم أخرجْنَاكُمْ، وقَدْ تقدَّمَ ذكرُ ذلك مستوفًى في السِّيرةِ النَّبويّة، في غَزاةِ خَيْبر.

فلمّا قُبِضَ رسولُ اللّهِ ﷺ أقرَّهم أبو بكرٍ رضي الله عنه على ما أقرَّهم عليه رسولُ اللّهِ ﷺ، وأقرَّهُم عمرُ رضي الله عنه بعدَه إلى هذه السَّنةِ.

ثم بلغَهُ أنَّ رسول اللّهِ ﷺ قال في وجَعِه الَّذِي قبضَهُ اللّهُ فيه: «لا يجتمِعَنَّ في جَزيرة العربِ دِينانِ»، ففَحص عن ذلكَ حتَّى أتاه الثَّبْت، فأرسلَ إلى يهود، فقال: إنَّ الله قد أذِن لي في إجْلائِكم، وقَدْ بلغَنِي أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ، قال: لا يجتمعَنَّ بجزيرة العربِ دينانِ، فمن كان عنده عَهْد من رسول الله ﷺ فليأْتِني به أُنْفِذه له، ومن لم يكُنْ عنده عَهدٌ فليتجهّز للجَلاء، فأجْلَى مَنْ لَمْ يكن عندَهُ عَهْدٌ مِنْ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وقال ابنُ إسحاق[٢]: حدّثني نافعٌ مولَى عبد الله بنِ عُمَر، عن عبد الله بن عمر

---

(١) السّقيا: الحسيل الذي يفرغ في عرفة ومسجد إبراهيم... وقيل: السقيا بركة وأحساء غليظة دون سميراء للمصّعد إلى مكة، وبين السقيا وسميراء أربعة أميال.. وقيل السقيا: بئر بالمدينة... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) ابن إسحاق: هو أبو بكر، وقيل أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل يسار بن كوثان، المطلبي بالولاء، المديني، صاحب المغازي والسير.. كان ثبتًا في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته فيها... (وفيات الأعيان ٤: ٢٧٦).

قال: خَرجْتُ أنا والزُّبيرُ بنُ العوّامِ، والمقدادُ بنُ الأسْوَدِ إلى أموالنا بخَيْبَر نتعهَّدها، فلمّا قَدِمنا تفرقنا في أمْوالنا.

قال عبد اللّهِ: فعَدا عليَّ تحت الليل شيءٌ وأنا نائمٌ على فِراشي، فنزعْتُ يَداي مِنْ فرَقي[١]، فلمَّا أصبحْتُ استصْرختُ عليَّ صاحباي، فَأتياني فسألاني: مَنْ صنع بك هذا؟ فقلتُ: لا أدري، فأصلَحاني ثم قَدِما بي على عمَر، فقال: هذا عمل اليهود.

ثمَّ قام في الناس خَطيبًا فقال: أيُها النَّاس، إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان عامَل يهود خيْبَر على أنَّا نخرجُهُمْ إذا شِئْنا، وقد عَدوْا على عبد الله بنِ عمر، فقدعوا[٢] يديْه كما بلغكم، مع عَدْوتِهم على الأنصارِيّ قَبْله، لا نشكّ أنّهم أصحابُه، ليس هناك عدوٌّ غيرُهُم، فمن كان له مال بخيبَر فليلحق به؛ فإنّي مخرجٌ اليهود، فأخرجهم.

قال: ورَكب عمرُ في المهاجرين والأنصار، وأخرج معه جبار بن صخرٍ بن أُميَّة ـ وكان خارِص[٣] أهلِ المدينة وحاسِبَهم ـ وزيدَ بنَ ثابت، وهما قسّما خيبرَ على أهلِها على أصلِ جماعةِ السُّهْمان التي كانت عليها.

وفيها أيضًا أجْلِيَ نصارى نَجْرانَ إلى الكُوفة.

وفيها بعث عمر علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة، وكانت تطرفت بلاد الشام، فأُصيبَ المسلمون، فجعل عمرُ على نفسه ألاَّ يحملَ في البحر أحدًا أبدًا ـ يعني للغَزْو ـ.

وقيل: كان ذلك في سنة إحدى وثلاثين في خلافة عثمانَ رضي الله عنه.

ذكر عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة
ومن وليَ بعدَه في هذه السنة

سنة إحدى وعشرين

وفي هذه السنة عزلَ عمرُ بنُ الخطابَ رضي الله عنه سعدَ بنَ أبي وَقَّاص عن الكوفة؛ حين شكاهُ أهلُهَا، ووَلَّى عمَّار بنَ ياسِر الصَّلاة، وعبدَ اللّهِ بنَ مسعودٍ بيتَ المال، وعثمان بنَ حُنيف مساحةَ الأرضِ، ثم عَزَل عَمّارًا؛ لأنّ أهلَ الكُوفةِ شَكَوْه، فاستَعْفَى.

(١) الفرق: الجزع واشتداد الخوف.
(٢) قدع: كفّ ومنع.
(٣) الخارص: الذي يقطع النخل.

وأعاد سَعْدًا على الكوفةِ ثانيةً، ثم عَزَله، وولّى جُبَيْر بْنَ مُطعِم، ثم عَزَله قبلَ أنْ يَخرُج إليها، وكان سببُ عزله أنّ عمرَ رضي الله عنه ولاه، وقال له: لا تذكُرْه لأحد، فسمع المغيرةُ بنُ شُعْبة أنّ عمرَ خلا بجُبَيرِ بنِ مُطعم، فأرسلَ امرأته إلى امرأةِ جُبَيْر لتَعرِضَ عليها طعامَ السَّفرِ، فقالت: نعم، جِيئيني به.

فلمّا علم المغيرةُ جاء إلى عمرَ، فقال: بارك الله لك فيمَنْ ولَّيْتَ. وأخبَرَهُ الخبرَ، فعَزَله، وولّى المغيرةَ بنَ شعبة الكُوفة، فلم يزلْ عليها إلى أن قُتِلَ عُمَر.

وقيل: إنّ عمر رضي الله عنه لمّا أراد أن يُعيدَ سَعْدًا إلى الكُوفَةِ أبَى عليه، وقال: أتأْمُرني أنْ أعودَ إلى قوم يزعمون أنّي لا أُحسِن أنْ أُصلّيَ، فَتركه وولّى خالد بنَ الوليد.

وقيل: في سنة اثنتين وعشرين، قيل: كانت وفاتُه بِحمْص، ودُفِن في قريةٍ على مِيلٍ منها. وقيل: بل تُوفّيَ بالمدينة.

ولمّا حضرتْه الوفاةُ قال: لقد شهدتُ مائةَ زحْفٍ أو زُهاءها وما في جَسَدي موضعُ شِبْرٍ إلاّ وفيه ضَربةٌ أو طَعْنةٌ أو رَمْيَةٌ، ثمّ هاأنذا أموتُ على فِراشي كما يموتُ العَيْرُ! فلا نامت أعيُن الجُبَناء.

حَكى أبو عمَر: أنّه لَم تَبقَ امرأةٌ من بَني المُغيرة إلاّ وضَعَتْ لِمَّتَها على قبرِ خالدِ بنِ الوَليد، أي حلقَتْ رأْسَهَا.

قال المؤرِّخ: وكان الأُمراءُ في هذه السّنةِ على الأمصار، عُمَير بن سَعْد على دِمَشق وحَوْران وحِمْص وقِنَّسْرِين والجَزيرة. ومعاوية بن أبي سُفيَان على البَلْقاء والأُرْدنّ وفِلَسْطِين والسَّواحل وأنطاكِيَة وقلقية ومَعرّة مصرين، والعمّال على بقية الأمصار مَنْ ذَكَرْنا.

وفيها وُلِدَ الحسنُ البَصْري[1] والشّعبيُّ. وفيها مات العلاءُ بنُ الحَضْرميّ أميرُ البحْرين، فاستَعْملَ عمرُ رضي الله عنه مكانَه أبا هُريرة.

وحجَّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاس، وآستخلَفَ على المدينة زيدَ بنَ ثابت.

* * *

(١) الحسن البصري: هو أبو سعيد بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة... (وفيات الأعيان ٢: ٦٩).

سنة اثنتين وعشرين

في هذه السنَةِ وُلِدَ يزيدُ بنُ معاوية، وعبدُ الملكِ بنُ مروان، وكان عمّالُه على الأمصار مَنْ ذَكَرْنا إلاَّ الكوفةَ والبَصْرة؛ فإنّ عاملَه على الكُوفةِ المغيرةُ بنُ شعبةَ، وعلى البصْرةِ أبو موسى.

* * *

سنة ثلاث وعشرين

وفي هذه السَّنةِ حجّ عمرُ رضي الله عنه بالنَّاسِ، وحجّ معه أزواجُ رسولِ اللّهِ ﷺ، وهي آخر حجَّةٍ حجَّها.

وفيها كان مَقْتَلُ عمرُ رضي الله عنه وأرضاه بمنِّه وكرمِه.

ذكر خبر مقتل عمر بن الخطاب ومدة خلافته

قد اُختُلف في تاريخِ مَقْتَلهِ رضي الله عنه، فقال الواقديُّ: لثلاثٍ بَقِين من ذي الحِجَّةِ سنةَ ثلاثٍ وعشرين. وقال الزُّبير: لأربع بَقِين من ذي الحِجّة.

وروِيَ عَنْ مَعدانَ بن أبي طلحة اليَعْمُريّ، قال: قتِلَ عمرُ يومَ الأربعاءِ لأربعِ بَقين مِنْ ذي الحِجّة.

وكانت خلافَتُهُ رضي الله تَعَالى عَنه عَشْرَ سنين ونصفًا وخمسَ ليالٍ، وعمرُهُ ثلاثٌ وسِتُّون سنةً على الصَّحيح.

وقتلَهُ أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةَ بنِ شُعبة؛ وذلك أنّ عمرَ رضي الله عنه خرجَ يومًا يطوفُ في الأسواق، فلقيَهُ أبو لؤلؤة فَيْرُوز ـ وكان نصرانيًا، وقيل: مَجُوسيًّا ـ وقد ذكرْنا ما كان يقوله لمّا قَدِم سَبْيُ نَهاوَنْد: أكَل عمرُ كَبِدِي، فلمّا لقِيَه قال: يا أميرَ المؤمنين، أعْدِنِي[1] على المغيرة بنِ شعبة؛ فإنّه يكلِّفُني خَراجًا كثيرًا، قال: كم يحمِّلك؟ قال: مائة درهم في الشّهر. وقيل: إنّه قال: درهمان في كلِّ يوم، قال: وما صناعتُكَ؟ قال: نجّارٌ نقَّاش حدّادٌ. قال: فما أرى خراجَكَ كثيرًا على مَا تَصنَع من الأعمالِ، وقد بلغني أنّكَ تقولُ: لو أردتُ أنْ أصنَعَ رحًا تَطحنُ بالرِّيح لفعلْتُ. قال: نعم، قال: فاعمل لي رحًا. قال: إنْ سلِمْتُ لأعملَنّ لك رحًا يتَحدَّث بها أهلُ المَشْرِقِ والمغربِ.

---

(١) أعدني: أعنّي.

فقال عمرُ: قد أوْعَدَني العِلْجُ الآن، ثم انصرفَ عُمر إلى منزله.

فلمّا كان من الغدِ جاء كعبُ الأحبارِ إلى عمرَ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، اعهَدْ فإنَّك ميِّتٌ في ثلاثٍ، قال: وما يُدْرِيك؟ قال: أجدُهُ في كتابِ التوراة، قال عمر: إنَّك لتجدُ عمرَ بنَ الخطَّابِ في التَّوراة؟ قال: اللَّهم لا؛ ولكنِّي أجدُ صِفَتَكَ وحِلْيتك. قال: وعمر لا يَجِد وَجَعًا، ثم جاءه من الغَدِ وقال: بقِيَ يومانِ، ثم جاءه من غَدِ الغَدِ وقال: قد مضى يوْمانِ، وقد بقي يومٌ.

فلمّا أصبحَ خرج عمرُ إلى الصَّلاةِ، وكان يوكِّل بالصفوف رجُلاً، فإذا استوَتْ كبَّر، ودخَل أبو لؤلؤة في النَّاس، وفي يدِهِ خنْجَرٌ له رأسان، نصَابُهُ في وَسَطِه، فضربَ عُمرَ ستَّ ضَرَباتٍ، إحداهُنَّ تحتَ سُرَّتِهِ، وهي الَّتي قتلَتْهُ، وقتِلَ معه كُلَيْب بن البُكير اللَّيْثيّ وجماعةٌ غيره.

رُوِيَ أنَّه طُعِنَ معه اثنا عشرَ رجلاً، وقيل: ثلاثة عشر، ماتَ مِنْهم ستَّةٌ، فلمّا وجَدَ عمر حَرَّ السِّلاحِ سقط، وأمَر عبدَ الرَّحمٰنِ بنَ عوفٍ فصلَّى بالنَّاسِ وهو طريحٌ، فاحتُمِلَ، فأُدْخِل بَيْتَه ودعا عبد الرَّحمٰنِ، فقال: إنِّي أُريدُ أنْ أعهدَ إليْك، قال: أتشيرُ عليَّ بذلك؟ قال عُمر: اللَّهمَّ لا، فقال: واللهِ لا أدخُلُ فيه أبدًا. قال: فهبْنِي صَمْتًا؛ حتَّى أعهدَ إلى النَّفرِ الَّذين تُوُفِّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهو عنهم رَاضٍ، ثم دعا عليًّا، وعُثمانَ، والزُّبيرَ، وسَعْدًا، وقال: انتظروا أخَاكُمْ طلحة ثلاثًا، فإنْ جاء وإلاَّ فاقْضُوا أمرَكم.

أنشُدكَ الله يا عليّ، إن وليتَ من أُمورِ النَّاسِ شيئًا على ألاَّ تَحملَ بني هاشم على رقابِ النَّاس.

أنشُدكَ الله يا عثمانُ، إن وليتَ من أُمورِ النَّاس شيئًا ألاَّ تحمل بني أبي مُعَيْط على رقابِ النَّاسِ.

أنشُدكَ الله يا سَعْد إن وَليتَ من أمورِ النَّاسِ شيئًا ألاَّ تحمل أقاربكَ على رقابِ النَّاسِ.

قُوموا فَتشاوَرُوا، ثم اقْضُوا أمرَكم، وليصَلِّ بالنَّاسِ صُهَيبٌ، ثم دعا أبا طلحةَ الأنصاريَّ فقال: قُمْ على بابهم فلا تَدَعْ أحدًا يدخل إليهم، وَأوْصِ الخليفةَ مِنْ بعْدِي بالأنْصار الَّذِين تبوّؤوا الدَّارَ والإيمانَ، أن يُحْسِن إلى مُحْسِنهم، وأنْ يعْفُوَ عن مُسيئِهم، وأوْصِ الخليفةَ بالعَربِ؛ فإنَّهم مادَّةُ الإسْلام، أن تؤخذ من صدقَاتِهم حَقُّها، فتُوضَع فِي فُقَرَائِهم، وأوْصِ الخليفةَ بذِمّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ أن يُوفِيَ لهم بِعَهْدِهم.

اللَّهُمَّ هَلْ بلَّغتُ! لقد تركتُ الخليفةَ من بَعْدِي على أنقى من الرَّاحةِ، ثم قال لابنه عبدِ الله: انظرْ مَنْ قَتلني؟ فقال: قَتَلَكَ أبو لؤلؤة، فقال: الحمدُ للّهِ الَّذي لم يجعلِ منيَّتي على يَدِ رَجلٍ ما سَجَدَ لله سجدةً واحدةً، وأرسل عبدَ الله ٱبنَه إلى عائشةَ، فاستأْذَنَهَا أنْ يُدْفنَ مع النبي ﷺ وأبي بكرٍ رضي الله عنه، ثم قال: يا عبدَ اللّهِ، إن ٱختلفَ القومُ فكنْ مع الأكْثرِ، فإنْ تساوَوْا فكُنْ مع الحِزبِ الَّذي فيه عبدُ الرّحمٰن بنُ عَوْفٍ.

يا عبدَ اللّهِ، ائذَنْ للنَّاسِ، فدخل عليه المهاجِرُونَ والأنصار، فجعلوا يسلِّمونَ عليه، فيقولُ لهم: هذا عن مَلأٍ مِنكُمْ؟ فيقولون: معاذ الله! ودخل كعبُ الأحبارِ مع النَّاسِ، فلما رآه عمرُ رضي الله تعالى عنه قال: [من الطويل]

وأوْعَـدَنـي كـعـبٌ ثـلاثًـا أعُـدُّهـا ... ولا شكَّ أنّ القـولَ مـا قـالَهُ كَعْبُ
ومـا بي حذارُ المـوتِ إنّي لَـميِّتٌ ... ولكـن حذار الذَّنْبِ يَتْبَعُه الذَّنْبُ

قال: ولمّا طعنَ أبو لؤلؤة عمرَ، ومَنْ طُعن معه، رَمَى عليه رجلٌ من أهل العراقِ بُرْنسًا(١)، ثم نزل عليه، فلمّا رأى أنّه لا يستطيعُ أنْ يتحرَّكَ، وجأ نفسه فَقتَلها.

قال أبو عُمَر بنُ عبدِ البَرِّ: ومن أحسنِ شيءٍ يُرْوَى في مَقْتَلِ عمرَ وأصحِّه ما رواه بسندِه إلى عمرو بن ميمونٍ، قال: شهِدْت عُمَر يومَ طُعِنَ ومات، ومَا منعَني أن أكونَ في الصَّفِّ المقدَّم إلاَّ هَيْبَتُه - وكان رجلاً مَهيبًا - فكنتُ في الصَّفِّ الَّذي يليه، فأقبلَ عمر، فعرَض له أبو لؤلؤة غلامُ المغيرةِ بنِ شُعْبة، ففاجأ عمرَ قبل أن تَستَوِيَ الصّفُوفُ، ثم طعَنَهُ ثلاثَ طَعَناتٍ، فسمعتُ عمرَ وهو يقولُ: دُونكم الكَلْبَ فإنَّه قد قَتَلَنِي، وماجَ النَّاسُ وأسرَعوا إليه، فجرح ثلاثة عشرَ رجُلاً، فانكفَأ عليه رَجلٌ من خَلْفِه فاحتَضَنَهُ، وحُمِلَ عمرُ، فماج النَّاسُ بعضُهم في بَعْضٍ حتَّى قال قائلٌ: الصَّلاة يا عبادَ اللّهِ، طلعتِ الشمسُ.

فقدَّموا عبدَ الرّحمٰنِ بنَ عوفٍ فصلَّى بنا بأقْصَرِ سورتيْنِ في القرآن، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] و﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَـٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، واحتُمِلَ عمرُ، ودخلَ النَّاسُ عليه، فقال: يا عبدَ اللّهِ بنَ عبّاسٍ، اخرج فنادِ في النَّاسِ: أعن مَلأٍ منكمْ هذا؟ فخرج ابنُ عبَّاسٍ، فقال: أيُّها النَّاسُ، إنّ أميرَ المؤمنين يقول: أعن ملأٍ منكم هذا؟ فقالوا: معاذَ الله! والله ما علمْنا ولا اطَّلَعْنَا. وقال: ادْعُوا

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه، ملتزق به؛ أو القلنسوة الطويلة؛ أو رداء ذو كمين يلبس بعد الاستحمام.

إليّ الطبيبَ فَدُعِي الطبيبُ فقال: أيُّ الشَّرابِ أحبُّ إليك؟ فقال: النَّبِيذُ، فَسُقِيَ نبيذًا فخرج مِنْ بعضِ طعَناته، فقال النَّاسُ: هذا دمٌ، هذا صديدٌ[١]، فقال: اسْقوني لَبَنًا، فسُقِيَ لبنًا، فخرجَ مِنَ الطَّعْنَةِ، فقال له الطَّبيبُ: لا أرى أنْ تُمْسِيَ، فما كنتَ فاعلاً فافعل.

وروى أبو عمرَ أيضًا بسندِه إلى عَوْفِ بنِ عَوْفِ بنِ مالكٍ الأشْجَعيّ: أنَّه رأى في المنامِ، كأنَّ النَّاسَ جُمِعُوا، فإذا فيهم رَجل فَرَعهم فهو فوْقَهم بثلاثةِ أذرعٍ.

قال: فقلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فقالوا: عمر. قلت: ولم؟ قالوا: لأنَّ فيه ثلاثَ خصالٍ، لأنَّه لا يخافُ في اللّهِ لوْمةَ لائمٍ، وأنَّه خليفةٌ مستَخْلَف، وأنَّه شهيدٌ مُسْتَشْهَد.

قال: فأتى أبو بكر فقصَّها عليه، فأرسلَ إلى عمرَ فدعَاهُ ليبشِّرَه، فجاء عمرُ فقال لي أبو بكر: اقْصصْ، قال: فلمَّا بَلَغْتُ خليفة مستخلَفٌ، زَبَرَني[٢] عمرُ وانتَهَرَني، وقال: اسْكُتْ، تقول هذا وهو حَيٌّ!

قال: فلمّا كان هذا بعد، ووَلِي عمرُ، مَرَرْتُ بالمسْجدِ وهو على المنبرِ، فدعاني وقال: اقصصْ عليَّ رؤياك، فقصَصْتُهَا، فلمّا قُلْتُ: إنَّه لا يخاف في اللّهِ لومةَ لائم قال: إنِّي لأرجو أن يجعلَني اللّهُ منهم، قال فلمّا قلْتُ: «خليفةٌ مُسْتَخْلَفٌ» قال: قد استخلَفَني اللّهُ، وأسأله أن يعينَني على ما ولاَّني، فلما أنْ ذكرتُ: «شهيدٌ مستشهَد»، قال: أنَّى لي بالشّهادةِ وأنا بين أظْهُرِكُمْ تَغْزُونَ ولا أغْزُو! ثم قال: بلى يأتي الله بها إن شاء، يأتي الله بها إن شاء.

وقد رَوَى مَعمَر عن الزُّهري، عن سالم، عن ابن عمرَ رضي الله تعالى عنهم: أنَّ النَّبيّ ﷺ رأى على عمرَ قميصًا أبيضَ، فقال: أجديدٌ قميصُكَ هذا، أم غسيلٌ؟ قال: بَلْ غَسِيلٌ. قال: «البسْ جديدًا، وعِشْ حميدًا، ومُتْ شهيدًا، ويرزُقُكَ الله قرَّة عَيْنٍ في الدُّنيا والآخرة»، قال: وإيَّاكَ يا رسول الله.

ورُوِي عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: ناحت الجِنُّ على عمرَ قبلَ أنْ يُقْتَلَ بثلاثٍ، فقالتْ: [من الطويل]

أبعدَ قتيلٍ بالمدينةِ أظْلَمَتْ ... له الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ بأسْوُقِ[٣]

جَزَى اللّهُ خيرًا من إمامٍ وباركتْ ... يدُ الله في ذاك الأديمِ الممزَّقِ

---

(١) الصديد: القيح يفسد به الجرح. (٢) زبره: منعه ونهاه وزجره.

(٣) العضاه: كل شجر له شوك صغر أو كبر.

فمن يَسْعَ أو يَرْكَبْ جناحَيْ نعامةٍ ... لِيُدْرِكَ ما قدَّمْتَ بالأمسِ يُسْبَقِ
قَضَيْتَ أُموراً ثم غادرْتَ بَعْدَها ... بَوائقَ من أكامِهَا لم تُفَتَّقِ[١]
وما كنتُ أخشَى أنْ تكونَ وفاتُه ... بكفِّ سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطرِقِ[٢]

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر قصة الشّورى

قال: وقيل لعمَر: لو استخلفْتَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لو كان أبو عبيدةَ حَيًّا لاستخلفتُه، وقلتُ لربِّي إنْ سألني: سمعتُكَ وسمِعْتُ نبيّك يقولُ: إنَّه أمينُ هذه الأمّةِ، ولو كان سالمٌ مَولَى أبي حُذَيفَة حيًّا لأستخلفتُه، وقلتُ لربِّي إن سَألَني: سمعتُ نبيَّك يقول: «إنّ سالمًا شديدُ الحبِّ لله».

فقال له رجلٌ: أدُلُّكَ على عبد الله بن عمر؟ فقال: قاتلَكَ اللّهُ! ما أردت بهذا ويحك! كيف أستخلف مَنْ عجز عن طلاق امرأته! لا أَرَب لنا في أُموركم، ما حمِدْتُهَا فأرغَبُ فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيْرًا قد أصبْنا مِنه، وإنْ كان شرًّا قد صُرِفَ عنّا، بِحَسْب آلِ عمرَ أن يُحَاسَبَ منهم رجلٌ واحدٌ، ويُسأل عَنْ أُمّةِ محمَّدٍ! أما لقد جَهدتُ نفسِي، وحرَمْتُ أهلي، وإنْ نجوتُ كَفافًا لا أجْر ولا وزْرَ، إنّي لَسعيد. أنظرُ فإن استَخلفْتُ، فقد آستخلَفَ مَنْ هو خيْرٌ منّي، وإنْ أتْرُكْ فقد ترك من هو خيرٌ مني، ولنْ يضيِّعَ اللّهُ دينَه.

فخرجُوا، ثم راحُوا فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، لو عهدتَ عهدًا! فقال: قد كنْتُ أجمعْتُ بعد مقالتي أن أنظُرَ فأولِّيَ رجلاً أمركم، وهو أحْراكم[٣] أنْ يحملكُم على الحقِّ - وأشار إلى عليٍّ - فرهِقَتْنِي غَشيةٌ، فرأيتُ رجلاً دخل الجنَّةَ، فجعلَ يقطِفُ كل غَضَّةٍ ويانِعةٍ فيضمه إليه، ويُصَيِّره تحته، فعلمْتُ أنَّ الله بالغُ أمرِه، فما أردْتُ أن أتحمَلَها حيًّا وميّتًا.

عليكم هؤلاء الرّهط الّذين قال رسول اللّهِ ﷺ: إنَّهُمْ مِنْ أهل الجنَّةِ، وهم: عليٌّ وعثمانُ وعبدُ الرَّحْمٰن وسعد، والزُّبير بنُ العوام، وطلحةُ بنُ عُبيدِ اللّهِ، فلتختاروا منهم رجُلاً، فإذا وَلّوْا واليًا فأحْسِنُوا مُوازَرَته وأعِينوه، وخَرَجوا.

---

(١) الكم: برعوم الثمرة؛ أو وعاء الطلع. وتفتق: تشقق.
(٢) السبنتى: النمر.
(٣) الأحرى: الأفضل والأجدر.

فقال العبّاسُ لعليٍّ: لا تدخُلْ معهم، إنّي أكرَهُ الخلافَ، قال: إذَنْ ترى ما تكره، فلما أصبحَ عمرُ دعا عليًّا، وعثمانَ، وسعدًا، وعبدَ الرّحمٰن، والزبيرَ، فقال: إنّي نظرتُ فوجدتُكُمْ رؤساءَ النّاسِ وقادتَهم، ولا يكون هذا الأمرُ إلاّ فيكم، وقد قُبِضَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهو عنكم راضٍ. إنّي لا أخاف النّاسَ عليكم إن استَقَمْتُمْ؛ ولكنّي أخافكمْ فيما بينكم، فيختلف النّاس، فانهضُوا إلى حُجرةِ عائشة بإذنها، فتَشَاوروا فيها. ووضَعَ رأسه وقد نَزَفه الدَّمُ، فدخلوا فتناجَوْا[1]؛ حتى ارتفعتْ أصواتُهم.

فقال عبدُ اللّهِ بنِ عمر: سبحان الله! إنّ أميرَ المؤمنين لم يَمُتْ بعد، فسمعَهُ عمر: فأنتبَهَ، وقال: أعرِضُوا عن هذا، فإذا أنا مِتُّ فتشاورُوا ثلاثةَ أيّامٍ، وليصلِّ بالنّاسِ صُهَيبٌ، ولا يأْتِيَنَّ اليومُ الرابعُ إلاّ وعليكم أميرٌ منكم، ويحضُر عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ مُشِيرًا، ولا شيء له من الأمرِ، وطلحة شريككم في الأمرِ، فإنْ قدمَ في الأيّام الثّلاثةَ فأحْضِرُوه، وإنْ مضتْ الأيّام الثّلاثةُ قبل قدومه فأمضوا لأمْركم. ومَنْ لي بطلحة؟ فقال سعدُ بنُ أبي وقّاص: أنا لكَ بهِ، ولا يُخالِف إن شاء الله تعالى.

فقال عمرُ رضي الله عنه: أرجو ألاّ يخالِف إن شاء الله، وما أظن أنْ يليَ هذا الأمر إلا أحد هذيْن الرّجُلين: عليّ أو عثمان.

فإن وُلّيَ عثمانُ، فرجل فيه لِين، وإن وُلّيَ عليّ ففيه دُعابة وأحْرِ به أن يَحمِلَهم على الحقّ، وإن تُولُّوا سعْدًا فأهْلُهَا هو وإلاّ فليستعن به الوالي؛ فإنّي لم أعْزِلْه عن ضَعْفٍ ولا جِناية، ونِعْمَ ذُو الرأي عبد الرّحمٰن بن عوف! فاسمَعوا منه.

وقال لأبي طلحة الأنْصَارِي: يا أبا طلحة، إنّ الله تعالى طالما أعزَّ بكم الإِسْلام، فاخترْ خمسينَ رجُلاً من الأنصارِ، فأستحِثَّ هؤلاء الرّهْطَ حتّى يختارُوا رجُلاً منهم.

وقال للمقدادِ بن الأسْودِ: إذا وَضَعْتُمُوني في حُفْرَتِي، فاجمعْ هؤلاء الرّهطَ في بيتٍ حتّى يختاروا رجُلاً.

وقال لِصُهَيْب: صَلِّ بالنّاسِ ثلاثةَ أيام، وأدخل هؤلاء الرّهْط بيتًا، وقُمْ على رؤوسهم، فإن اجتمعَ خمسةٌ وأبى واحدٌ فاشْدَخ[2] رأسَه بالسَّيفِ، وإن اتّفق أربعةٌ وأبى اثنان فأضربْ رأسيهما، وإنْ رضِيَ اثنان رجلاً، واثنان رجُلاً، فحكِّمُوا عبدَ الله بن عمرَ، فإن لم ترضَوْا بحكمِهِ فكونوا مع الّذِين فيهم عبد الرّحْمٰن بنُ عوْفٍ، واقتلوا

(١) تناجى القوم: تسَارّوا. (٢) شدخ: شجّ.

الباقين إنْ رغِبُوا عمَّا اجتمعَ فيه النَّاس، فخرجوا، فقال عليٌّ لقوم معه مِنْ بني هاشِم: أن أُطِعْ فيكم قومَكُم لم تؤمَّروا أبدًا، وتلقَّاه عَمُّه العبّاسُ فقال: عُدِلَتْ عنَّا، قال: وما عِلْمُكَ؟ قال: قرن بي عثمانَ، وقال: كونوا مع الأكثرِ، فإن رضيَ رجلان رجُلاً، ورجُلانِ رجُلاً فكونوا مع الذين فيهم عبدُ الرَّحْمٰن، فسَعْدٌ لا يخالِفُ ابن عَمِّه، وعبدُ الرّحمٰن صهرُ عثمان لا يَخْتلفان فيولِّيها أحدُهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم يَنفَعاني.

فقال له العبّاسُ: لم أدْفعْكَ في شيءٍ إلاَّ رجعْتَ إليَّ مستأْخِرًا لما أكْره، أشرْتُ عليكَ عند وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمرُ، فأبيتَ، وأشرتُ عليك بعد وفَاتِه أنْ تُعَاجِلَ الأمرَ فأبَيْتَ، وأشرتُ عليك حين سمَّاك عمرُ في الشّورى ألاَّ تدخُلَ معهم فأبَيْت.

احفظْ عنِّي واحدةً، كلَّما عَرَضَ عليك القومُ، فقل: لا، إلاَّ أن يُوَلُّوكَ، واحذرْ هؤلاء الرَّهْطَ؛ فإنَّهم لا يبرحُونَ يدفعوننا عن هذا حتَّى يقوم به لنا غيرنا. وأَيمُ اللّهِ لا تناله إلاَّ بشر لا ينفعُ معه خيرٌ.

فلمّا مات عمر ودُفِن، جمعَ المقدادُ أهلَ الشُّورى في بيْت المسور بن مخرمة، وقيل: في بيت المال. وقيل: في حُجْرَة عائشةَ بإذنها، وطلحةُ غائبٌ، وأمروا أبا طلحة أن يَحْجُبَهُمْ.

وجاء عمرُ بنُ العاص والمغيرةُ بنُ شعبة فجلسا بالباب، فحصبَهما[1] سَعْدٌ وأقامهما، وقال: تريدان أن تقولا: حَضَرْنا وكنَّا في أهلِ الشُّورَى! فتنافسَ القومُ في امْرِ وكثر بينهم الكلامُ، فقال أبو طلحة: أنا كنتُ لأَنْ تَدْفعُوها أخوَف منِّي لأن تَنافَسوها، لا وَالَّذِي ذَهَب بنفسِ عمرَ لا أزيدُكُمْ على الأيّامِ الثلاثةِ الَّتي أمر، ثم أجلسُ في بيتي فأنظرُ ما تَصْنَعون.

فقال عبدُ الرّحمٰن: أيُّكُمْ يُخْرِجُ منها نفسَه ويتقلَّدُها على أن نولِّيَهَا أفضلَكُمْ، فلم يجبْه أحدٌ، فقال: أنا أنخلِعُ منها.

قال عثمانُ: أنا أوّل مَنْ رضِيَ، قال القومُ: قد رضِينا، وعليٌّ ساكِتٌ، فقالَ ما تقول أبا الحَسَن؟ قال: أعْطِني مَوْثِقًا لتؤْثِرَنَّ الحقَّ ولا تتّبع الهوى، ولا تخصّ ذا رحِم لرحِمه، ولا تألوا الأمّة، فقال: اعطُوني مواثقكم على أن تكونوا معي على من بدَّلَ وغيّر، وأن ترضوْا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق الله ألاّ أخصّ ذا رحِمٍ لرحمه ولا آلو المسلمين قال: فأخذ منهم ميثاقًا، وأعطاهم مِثلَه.

---

(١) حصبه: رماه بالحصباء ونحوها.

فقال لعليٍّ: تقولُ: إنّي أحقُّ مَنْ حَضَرَ هذا الأمر، لِقَرابتك من رسولِ اللّهِ ﷺ؛ وسابِقَتك وحُسْنِ أثَرِكَ في الدِّين، ولم تُبْعِد؛ ولكن أرأيتَ لو صُرِف هذا الأمرُ عنك ولم تحضُرْ إلى هؤلاء الرَّهْطِ، من تَراهُ أحقّ به؟ قال: عثمان، وخلا بعثمان فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه ولي سابقة وفضل، فأين يُصرف هذا الأمر عنّي؟ ولكن لو لم تحضر، أيّ هؤلاء أحقُّ به؟ قال عليّ. ولقي عليّ سَعْدًا فقال: اتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسَاءلون به والأرحامَ، أسألُك برحِم ٱبني هذا مِن رسولِ الله ﷺ وبرحِمَ عمّي حمزة ألا تكون مع عبد الرحمٰن ظهيرًا لعثمانَ عليّ. ودار عبد الرحمٰن ليلقى أصحابَ رسول الله ومَنْ وافَى المدينةَ من أُمراء الأجْنَادِ وأشرافِ النَّاسِ يشاوِرُهم؛ حتّى إذا كانت اللَّيلة الَّتي صبيحتُها يُسْتكمَل الأجل، أتَى منزلَ المسورَ بن مَخْرَمة فأيقظَه وقال له: لم أذُقْ في هذه اللّيْلة كثيرَ غَمْضٍ، انْطَلِقْ فٱدْعُ الزُّبيرَ وسعدًا؛ فدعاهما، فبدأ بالزُّبير فقال له: خلِّ عبد بني مَناف، وهذا الأمر، قال: نصيبي لعليّ. وقال لسعد: اجعلْ نصيبَك لي، فقال: إن ٱخْتَرْتَ نفسَكَ فنَعَم، وإنْ اخترْتَ عثمانَ فعليٌّ أحبُّ إليَّ، أيّها الرّجلُ، بايعْ لنفسك وأرِحْنا وارفعْ رؤُوسَنَا.

فقال: قد خلَعْتُ نفسي على أنْ أختارَ، ولو لَمْ أفعَل لم أُرِدْها، إنِّي رأيتُ روضةً خضراء كثيرة العُشبِ، فدخَلَ فحْلٌ ما رأيتُ أكرمَ منه، فمرَّ كأنَّه سَهْمٌ لم يلتفِتْ إلى شيءٍ منْها؛ حتّى قطعها، لم يُعَرِّجْ. ودخَلَ بعيرٌ يَتْلوه، فاتّبع أثره حتّى خرج منها، ثم دخل فحلٌ عَبْقَرِيٌّ يجُرُّ خِطامه ومَضَى قَصْدَ الأوّلَيْن، ثم دخل بعيرٌ رابعٌ فوقع في الرَّوضةِ، ولا واللّهِ لا أكون الراتعَ الرابع، ولا يقوم مقامَ أبي بكر وعمرَ بَعدهما أحدٌ فيَرضى النَّاسُ عنه.

قال: وأرسلَ المسور، فٱستدعَى عليًا فناجاه طويلاً وهو لا يشكُّ أنّه صاحبُ الأمرِ، ثم نهضَ، ثم أرسَل إلى عثمان فتناجَيَا حتّى فرّق بينهما الصُّبْحُ، فلمّا صلّوا الصبحَ جمعَ الرّهطَ، وبعث إلى مَنْ حضره من المُهاجِرين وأهلِ السّابقةِ والفَضْلِ من الأنصار، وإلى أُمراء الأجنادِ، فٱجتمعوا حتى ٱلتحمَ المسجدُ بأهله، فقال:

أيّها النَّاس، إنَّ النَّاسَ قد أحبُّوا أن يرجعَ أهلُ الأمصارِ إلى أمصارِهم، وقد علموا مَنْ أميرهم، فأشيروا عليّ.

فقال عمّارُ بن ياسِر: إذا أرَدْتَ ألاّ يختَلفَ المسلمون فبايع عليًّا.

فقال المِقدادُ بنُ الأسودِ: صَدَقَ عمّارُ إنْ بايعت عليًّا، قلنا: سمعْنا وأطعْنَا.

وقال ابن أبي سَرْح: إذا أردْتَ ألاّ تَختلفَ قريشٌ فبايعْ عثمان.

فقال عبد اللّهِ بنُ أبي ربيعة: صدقْتَ، إن بايعْتَ عثمان قلْنَا: سمعنا وأطعْنَا.

فشَتَم عمّار بنَ أبي سَرْحٍ، وقال: متى كنْتَ تنصَحُ المسلمين! فتكلَّم بنو هاشم وبنو أُميَّة، فقال عمّار: أيها النَّاسُ، إنَّ الله أكْرَمنا بنبيّه، وأعزَّنا بدِينه، فأنى تَصرِفُونَ هذا الأمرَ عن أهل بيْتِ نبيِّكم!

فقال رجلٌ من بني مخزومٍ: لقدْ عَدوْتَ طَوْرَكَ يا بْنَ سُميَّة، وما أنت وتأْمير قُرَيْش لأنفسِها!

فقال سعدُ بنُ أبي وقَّاص: يا عبدَ الرّحمْنِ، افرغْ قبلَ أنْ يفْتَتِنَ النَّاسُ، فقال عبدُ الرحمْنِ: إنِّي قد نظرْتُ وشاوَرْتُ، فلا تجعلُنَّ فيها أيّها الرّهطُ على أنفسِكم سبيلاً، ودعا عليًا، فقال: عليك عهدُ اللّهِ وميثاقُه، لتَعملَنَّ بكتابِ اللّهِ وسنَّةِ رسولِه، وسيرةِ الخليفتيْن مِنْ بعده؟ فقال: أرجو أن أفعلَ، فأعمَل بمَبلغِ علمي وطاقتي.

ودعا عثمانَ فقال له مِثلَ ما قال لعليٍّ، فقال: نعم، فرفع رأْسَه إلى سقفِ المسجدِ ويدهُ في يد عثمان، فقال: اللّهمَّ اسمعْ واشهدْ، اللّهمَّ إنِّي قد جعلْتُ ما في رقَبتي من ذاك في رقبةِ عثمانَ، فبايَعَهُ.

وقيل: وخرج عبدُ الرحمْن بنُ عَوْفٍ وعليه عِمامتُه الَّتي عمَّمَهُ رسولُ الله ﷺ متقلّدًا سيفه؛ حتَّى ركبَ المنبر، فوقف وقوفًا طويلاً، ثم دعا دعاءً لا يَسمعُه النَّاسُ، ثم تكلَّم فقال:

أيّها الناسُ، إنِّي قد سألْتُكُمْ سِرًّا وجهرًا عن إمَامِكم، فلم أجِدْكُمْ تَعدِلونَ بأحدِ هذيْن الرّجليْن: إمّا عليّ، وإمّا عُثْمان.

فقُمْ إليَّ يا عليُّ، فقام إليه فوقفَ تحت المنبرِ، وأخذَ عبد الرحمْن بيَدِهِ فقال: هل أنتَ مبَايِعِي على كتابِ اللّهِ وسنةِ نبيّه محمدٍ ﷺ، وفعْلِ أبي بكر وعمر؟ قال: اللّهمَّ لا، ولكن على جَهْدِي مِن ذاك وطاقَتي.

قال: فأرسَلَ يَدَه ثمّ نادى: قم إليَّ يا عثمان، فأخذ بيَدِهِ، وهو في موقفِ عليٍّ الَّذي كان فيه، فقال: هل أنتَ مُبايِعِي على كتاب الله وسنَّةِ نبيّهِ وفعلِ أبي بكرٍ وعمر؟ فقال: اللّهُمَّ نعم، قال: فرفع رأسَه إلى سَقْفِ المسجدِ ويدُه في يدِ عثمان، فقال: اللّهُمَّ اسمَعْ واْشهَدْ ثلاثًا، اللّهُمَّ إنِّي قد جعلْتُ ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، قال: فازدحم النَّاس يبايعون عثمانَ حتى غَشَوْهُ عندَ المِنبرِ، فقعد عبدُ الرحمْن مَقعَدَ النبيِّ ﷺ من المنبر، وأُعقِد عثمانُ على الدّرجةِ الثّانية، فجَعَلَ النَّاس يبايعونه، وتلكَّأ عليّ.

فقال عبدُ الرّحمٰن: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فرجع عليٌّ يَشُقّ النّاسَ حتى بايعَ عثمانَ وهو يقول: خدعة، وأيّ خدعة!

وقيل: لمّا بايعَ عبدُ الرحمٰن عثمانَ قال عليٌّ: ليس هذا أوّلَ يوم تظاهرتُم فيه علينا، فصبرٌ جميلٌ، واللّهُ المستعانُ على ما تَصِفُون، والله ما ولَّيتَ عثمانَ إلا ليُردَّ الأمْرَ إليك، واللّهُ كلَّ يوم هو في شأن.

فقال عبد الرحمٰن: يا عليّ، لا تجعل على نفسِكَ حجّةً ولا سَبِيلًا، فخرجَ عليٌّ وهو يقول: سيبلغُ الكتابُ أجلَه.

فقال المقدادُ: يا عبدَ الرحمٰن، أما واللّهِ لقد تركْتَه، وإنَّه من الذين يَقْضُون بالحقّ وبه يَعْدِلون.

فقال: يا مقدادُ، والله لقد اجتهدتُ للمسلمين، قال: إن كنتَ أردْتَ الله فأثابَكَ اللّهُ ثوابَ المحسنين.

وقال المقداد: ما رأيت مِثل ما أتى إلى أهْلِ هذا البيتِ بعد نبيِّهم، إنِّي لأعجبُ من قُرَيش أنهم تركُوا رجلًا، لا أقولُ ولا أعلمُ أنَّ رجلًا أقْضَى بالعَدلِ، ولا أعلم منه، أما والله لو أجِدُ أعوانًا عليه!

فقال عبدُ الرحمٰن: يا مقدادُ، اتَّق الله؛ فإنِّي خائفٌ عليك الفتنةَ.

فقال رجلٌ للمقدادِ: رحمك اللّهُ! مَنْ أهلُ هذا البيت؟ ومَنْ هذا الرَّجل؟ قال: أهل البيت بنو عبدِ المطَّلبِ، والرجلُ عليُّ بنُ أبي طالب.

فقال عليٌّ: إنَّ النّاسَ ينظرون إلى قريش، وقريشٌ تنظر بينها فتقول: إن ولّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدًا، وإن كانت في غيرِهم تداولْتُموها بينَكم.

قال: وقَدِم طلحةُ في اليوم الرّابع الذي بُويعَ فيه عثمان، فقيل له: بايعُوا لعُثمان، فقال: كلُّ قريش راضٍ به؟ قالوا: نعم. فأتَى عثمانَ فقال له عثمان: أنتَ على رأسِ أمْرِكَ، إن أبيتَ ردَدْتُها. قال: أتردُّها؟ قال: نعم. ثُم قال أكلُّ النّاسِ بايَعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيتُ، لا أرغَبُ عمّا أجمَعوا عليه، وبايَعَه.

حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل، عن عَمرو بن ميمون. وفيه زيادةٌ عن الطَّبريّ.

ورَوَى أبو جعفر الطَّبَريّ رحمه الله في قصّة الشُّورَى، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة نحوَ ما تقدّم؛ إلاَّ أنّه ذَكَر زِيادات ذكرْنا بعضَها في أثناء هذه القصّة، ونَذكُر بقيَّتها الآن.

قال: لما دُفِن رضي الله عنه جَمَعهم عبدُ الرحمٰن وخَطبَهم، وأمَرَهم بالاجتماع وتَرْكِ التفرقِ.

فتكلَّم عثمانُ رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي اتخذ محمدًا نبيًّا وبعثه رسولاً، وصَدقَهُ وعْدَه، ووهَب له نصْرَه على كلِّ من بَعُد نسبًا، أو قَرُب رَحِمًا، صلَّى الله عليه، جعلنا الله له تابعين، وبأمره مهتدين، فهو لنا نورٌ ونحن بأمره نقومُ، عند تَفرُّقِ الأهواءِ، ومُجادَلة الأعداءِ، جعلنا الله بفضلِهِ أئمةً، وبطاعته أمراء، لا يَخرجُ أمرُنا مِنَّا، ولا يدخُل علينا غيرُنا إلاّ من سَفِه الحقَّ، ونَكَل عن القَصْدِ، وأحرى بها يا بن عَوْف أن تُترك، وأجدِرْ بها أن تكون إن خُولِف أمرك، وتُرِك دعاؤُكَ، فأنا مُجيبٌ وداعٍ إليك، وكفيلٌ بما أقولُ زَعيم، وأستغفِر اللّهَ لي ولكم.

ثمّ تكلَّمَ الزبيرُ بعدَه، فقال: أمّا بعد، فإنَّ داعيَ الله لا يُجهَلُ ومُجيبَه لا يُخْذَلُ، عند تفرُّقِ الأهواءِ، وَليّ الأعناقِ، ولن يُقَصِّر عما قُلْتَ إلاّ غَوِيٌّ، ولن يترك ما دعوتَ إليه إلاّ شَقِيٌّ، ولولا حدودٌ للّهِ فرضتْ، وفرائضُ للّه حُدَّتْ، تراح على أهلِها، وتحيا لا تموتُ؛ لكان الموتُ من الإمارة نجاةً، والفِرارُ من الولاية عصمة، ولكنْ للّهِ علينا إجابةُ الدَّعوة، وإظهارُ السُّنَّةِ، لئلاّ نَموتَ مَوْتَةً عميَّة، ولا نَعْمَى عَمَى جاهليَّة، فأنا مُجيبُك إلى ما دعَوْتَ، ومُعِينُك على ما أمرْتَ ولا حول ولا قوَّةَ إلاّ بالله العليِّ العظيم، وأستَغْفِر الله لي ولكم.

ثم تكلَّم سعدٌ فقال: الحمد لله بديئًا، بمحمّد ﷺ أنارتْ الطُّرُقُ، واستقامتِ السُّبُل، وظهر الحقُّ، ومات كلُّ باطِل، إيّاكم أيُّها النَّفَرُ وقولَ الزُّورِ، وأمْنِيّةَ أهْلِ الغُرورِ! فقد سلَبَت الأمانيُّ قومًا قبلكم، وَرِثوا ما وَرِثْتم، ونالوا ما نِلْتُمْ، فاتخَذوا الله عَدُوًّا، ولَعَنَهم لعنًا كثيرًا، قال اللّهُ تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

إنِّي نكبتُ قَرني[1] وأخذْتُ سهمي الفالجَ[2]، وأخذتُ لطلحة بن عبيْد الله ما ارتضيْتُ لنفسِي، فأنا كفيلٌ به، وبما أعطيتُ عنه زعيمٌ، والأمر إليكَ يا بن عَوْفٍ، بجَهْد النَّفسِ، وقَصْد النُّصح، وعلى الله قَصْدُ السبيلِ وإليه الرُّجُوعُ، وأستغفرُ اللّهَ لي ولكم، وأعوذُ باللّهِ من مخالَفتِكُم.

---

(١) المراد بالقرن هنا الجعبة، ونكب قرنه: نثر ما فيه من السهام.
(٢) الفالج: المنتصر.

ثم تكلَّم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه، فقال: الحمدُ لله الذي بَعَث محمدًا منَّا نبيًّا، وبَعثَه إلينا رسولاً، فنحن بيتُ النبوّة، ومعدن الحِكمة، وأمانُ أهلِ الأرض، ونَجاةٌ لمن طَلَب؛ لنا حَقٌّ إن نُعْطَه نأْخُذه، وإنْ نُمْنَعْهُ نَرْكَب أعجازَ[1] الإبلِ، ولو طال السُّرىَ[2]. لو عهد إلينا رسولُ اللّهِ ﷺ عهدًا لأنفَذْنا عَهْدَهُ، ولو قال لنا قولاً لجادَلْنا عليه حتَّى نَموتَ، لن يسرع أحدٌ قَبْلي إلى دعوةِ حقٍّ، وصِلَةِ رحم، ولا قوّةَ إلاّ بالله.

اسمعُوا كلامي، وعُوا منْطِقي، عسَى أن تَرَوْا هذا الأمرَ بعد هذا المجتَمع تُنتَضَى فيه السُّيوفُ، وتُخان فيه الْعُهودُ، حتى تكونوا جماعةً، ويكون بعضُكم أئمةً لأهل الضَّلالَةِ، وشِيعةً لأهل الجَهالَةِ.

ثم قال:

فإنْ تكُ جاسِمٌ هلكتْ فإنِّي ... بما فعلتْ بنو عبدِ بن ضَخْم
مطيعٌ في الهَواجِرِ كلَّ عيٍّ ... بصيرٌ بالنَّوَى من كلِّ نَجْمِ[3]

فقال عبد الرحمٰن: أيّكم يطيبُ نفسًا أن يخرج نفسه من هذا الأمر، ويولِّيه غيره؟ قال: فأمسكوا عنه. وذكر نحو ما تقدم.

* * *

فلنرجع إلى بقيَّة أخبارِ عمرَ رضي الله عنه.

قال: ومات عمرُ لأربع بقين من ذي الحجّة، قاله الواقِديُّ.

وقال غيرُه: يومَ الاثنين لليلتين بقِيتَا منه، وقيل: طُعِنَ يومَ الأربعاء لأربع بقين من ذي الحِجَّة، سنة ثلاثٍ وعشرين، ودُفِنَ يومَ الأحدِ هلالَ المحرّم، سنة أربع وعشرين في حُجْرة عائشةَ رضي الله عنها، ورأسُه قبالَة كتفَيْ أبي بكر رضي الله عنهما، وصلَّى عليه صُهَيب الرّوميّ. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصّواب.

---

(١) ركب في الطلب أعجاز الإبل: أي ركب الذل والمشقة.
(٢) السّرى: عامة الليل. والمراد هنا احتمال المشقة والصبر.
(٣) العيّ: العاجز. والنوى: البعد.

ذكر أولاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم وأزواجِه

تزوّج رضي الله عنه في الجاهليةِ زينبَ بنتَ مَظْعون بنِ حبيب بنِ وَهْب بن حُذافة بن جُمَح، فولدَتْ له عبدَ اللّهِ وعبدَ الرحمٰن الأكبر وحفصةَ أُمَّ المؤمنين رضي الله عنهم.

وتزوّجُ مُلَيْكةَ بنت جَرْوَلِ الخُزَاعِيّ في الجاهليَّةِ فولدت له عبيد الله ففارقها في الهدنة، وقيل: كانت أمّ عبد الله وأمّ زيد الأصغر أمّ كلثوم بنت جَرْوَل الخُزَاعيّ. وكان الإسلام فرّق بينها وبين عُمرَ.

وتزوّج قُرَيْبةَ بنت أبي أُميَّة المَخْزوميّ في الجاهليّة، ففارَقَها في الهُدْنة أيضًا، فتزوّجها بعدَه عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي بكرِ الصَّديق رضي الله عنه. وقُرَيْبة أُختُ أمّ سَلَمة زوج النبيّ ﷺ.

وتزوّج أمَّ حكيم بنت الحارثِ بن هشامِ المَخْزوميّ في الإسلام، فولدتْ له فاطمةَ، فطلَّقَها، وقيل: لم يُطَلِّقْهَا.

وتزَّجَ جميلةَ بنت عاصم بن ثابت بنِ أبي الأقلح الأوسِيّ في الإسلام، فولدتْ له عاصمًا فطَلَّقَها، وقيل: لم يطلِّقْهَا.

وتزوّجَ أمَّ كلثوم بنتَ عليّ بنِ أبي طالبِ رضي الله عنه، وأُمُّهَا فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ، وأصدَقَّها أربعين ألفًا فولدتْ رُقَيّةَ وزيدًا.

وتزوّج لُهيَّة، امرأة من اليَمَن، فولدَتْ له عبدَ الرحمٰن الأوسط، وقيل الأصغر. وقيل: كانت أُمَّ ولدٍ، وكانت عنده فُكَيْهبة أمّ ولد فولدتْ له زَيْنب، وهي أصغرُ وَلَدِ عُمَر.

وتزوّج عاتكة بنتَ زيد بنِ عمرو بن نفيل، وقد تقدّمَ خبرُها عند ذكر عبدِ الله بن أبي بكر.

ومن أولاده رضي الله عنه: عبدُ الرّحمٰن، وكنيتُه أبو شَحْمة؛ وقيل: إنه كان له ولدٌ يقال له: مجبّر.

* * *

ولنفصّل هذا الفصلَ بذكرِ شيءٍ من أخبار مَنْ أدركَ رسول الله ﷺ من أولاد عمرَ، ومَنْ وُلِدَ في حياتِهِ أما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فإنَّه أسلم مع أبيه، وهو صغير لم يبلغ الحلُم وكان أول مَشاهِدِه الخَندق. وقيل: أُحُد؛ لأنَّ رسول الله ﷺ ردَّه يومَ بدْر لصغرِ سِنِّهِ، وشهدَ الحدَيْبية، وكان رضي الله عنه من أهل الوَرَع والعِلم، كثيرَ الاتّباع لآثارِ رسول الله ﷺ، شديدَ التَّحرّي والاحتياطِ في فَتْواه. وكان لا يتخلَّفُ عن السَّرايا على عَهدْ رسولِ الله ﷺ، ثم كان بَعْدَ رسولِ الله ﷺ كثير الحَجّ. وقال رسولُ اللّهِ ﷺ لحفصةَ بنتِ عمر: إن أخاكِ عبدَ اللّهِ رجلٌ صالِحٌ لو كان يقومُ من اللَّيْل»، فما تَركَ بَعْدَهَا قيامَ الليْلِ. وقعد عن حربِ عَلِيّ لمّا أشْكَلَتْ عليه لوَرَعِه، ثم ندِم على ذلك حين حضرَتْهُ الوفاةُ، فقال: ما أجِدُ في نفسي من أمرِ الدُّنيا شيئًا إلا أنّي لمْ أُقَاتِلْ مع عليٍّ الفئة الباغية.

قال ميمونُ بنُ مِهران: ما رأيت أورعَ من ابن عمر، ولا أعلمَ من ابن عبّاس.

وأفتَى في الإسلام ستِّين سنةً، ونشرَ نافعٌ عنه عِلْمًا جَمًّا.

ورُوِيَ عن يوسفَ بن المَاجشون، عن أبيه وغيرِه: أنَّ مَرْوان بنَ الحَكَم دخل في نفرٍ على عبد الله بن عمرَ بعدما قُتِلَ عثمان، فعَرَضوا عليه أن يبايعوا له، فقال: كيفَ لي بالنَّاس؟ قال: تقاتِلُهم ونُقاتل معك، قال: والله لو اجتمع عليّ أهلُ الأرض، إلا أهل فدَكَ ما قاتلتُهم فخرجوا من عندِه ومَروان يقول:

إنـي أرَى فـتـنـةً تَـغْـلِـي مَـراجِـلُـهـا   والمُلك بعدَ أبي ليلى لمن غَلَبَا[(١)]

قال: وكانت وفاةُ عبد اللّهِ بمكّة سنة ثلاثٍ وسبعين، بعد قَتْلِ ابن الزُّبيْرِ بثلاثةِ أشهُر أو نحوِها، وقيل: ستَّة أشهُرِ، وأوصى أن يُدْفَنَ في الحِلِّ، فلم يُقدَرْ على ذلك من أجْلِ الحجاج، فدُفِنَ بذِي طُوًى، بمقبُرَةَ المهاجِرين.

وكان الحجاجُ قد أمرَ رجُلاً فَسَمَّ زُجَّ[(٢)] رُمْحِه، وزَحَمَه في الطَّريقِ، ووَضعَ الزُّجَّ في ظهرِ قَدمِه؛ وذلك أنَّ الحجاجَ خَطَبَ يومًا، وأخَّر الصَّلاة، فقال ابنُ عُمَر: إنَّ الشَّمْسَ لا تَنْتظِرُك، فقال الحجّاج: لقد همَمْتُ أن أضربَ الذي فيه عَيْناك. فقال: إنْ تفعَلْ فإنَّك سفيهٌ سَلِطٌ[(٣)]. وقيل: إنَّه أخفَى قوله ذلك عن الحجّاج فلم يُسْمِعْهُ.

(١) المرجل: القدر من الطين المطبوخ؛ والمراد بقوله: تغلي مراجلها: أي تشتد الفتنة.

(٢) الزجّ: الحديدة في أسفل الرمح. (٣) السلط: الطويل اللسان.

وكان عبدُ الله يتقدّم في المواقفِ بعرفةَ وغيرِها إلى المواضع الّتي كان رسولُ اللّهِ ﷺ يقف فيها، فكان ذلك يَعِزُّ على الحَجَّاجِ، فأمر الحجّاج رجلاً معه حَرْبَةٌ مسمومةٌ، فلما دفع النَّاس من عَرفةَ، لصق به ذلك الرَّجل، فأمَرَّ الحربةَ على قَدَمِه وهو في غَرْزِ[1] راحلتِهِ، فمَرِض منها أيَّامًا، فدخلَ عليه الحجَّاجُ يَعودُه، فقال: مَن فَعل ذلك بك يا أبا عبد الرَّحمٰن؟ قال: وما تصنَعُ به؟ قال: قتلني اللّهُ إن لم أقتُلْه. قال: ما أراكَ فاعِلاً، أنت الذي أمرتَ الَّذي نَخَسَني بالحَرْبة. قال لا تَفعَل يا أبا عبد الرحمٰن وخرجَ عنه. وقيل: إنَّه قال للحجَّاج: إذ قال له: مَنْ فَعَلَ ذلك بك؟ قال: أنت الَّذِي أمرتَ بإدخال السّلاح في الحَرَمِ، فلبثَ أيَّامًا ثم مات رضي الله عنه، وصَلَّى عليه الحجَّاج.

وأما عبدُ الرّحمٰن الأكبر، فإنَّه أدركَ لسنِّهِ رسولَ اللّهِ ﷺ ولم يَحفَظْ عنه.

وعبد الرحمٰن الأوسط وهو أبو شَحْمة هو الذي ضَرَبه عمرُو بنُ العاصِ بمصرَ في الخمر، ثم حَمَله إلى المدينة فضربه أبوه أدَبَ الوالدِ، ثم مَرض وماتَ بعدَ شهر.

كذا رواه مَعمَر عن الزُّهريّ[2]، عن سالم، عن أبيه، وأهلُ العراق يقولون: إنَّه مات تحت سِياطِ عُمر.

قال ابن عبد البَّر: وذلك غلط. وقال الزُّبيْر: أقام عليه عمر حدّ الشراب، فمرض ومات.

وعبد الرحمٰن الأصغرِ، هو أبو المجبّر، واسم المجبَّر عبد الرحمٰن بن عبد الرحمٰنِ بن عمر، سُمِّي المجبَّر لأنَّه وَقَع وهو غُلامٌ فتكسَّر، فأتى به إلى عمته حَفْصة أُمِّ المؤمنين، فقيل لها: انظري إلى ابن أخيكِ المكسَّر فقالت: ليس بالمكسَّر ولكنَّه المجبَّر.

وقال الزُّبيرُ: هَلَك عبدُ الرحمٰن الأصغر، وترك ابنًا صغيرًا، أو حَملًا، فسمَّتْه حفصةُ: عبد الرحمٰن، ولقَّبَتْه المجبَّر، وقالت: لعلَّ الله يجبُره.

---

(١) غرز الراحلة: ركابها، وهو مصنوع من جلد محزوز، يعتمد عليه في الركوب.

(٢) الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين في المدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة: منهم مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري... وتوفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ١٢٤ هجرية... (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧).

وعبيْد الله بن عمر وُلِدَ على عهد رسولِ اللّهِ ﷺ، ولم يُنْقل أنّه رُوي عنه، ولا سُمِع منه، وهو الّذي حدَّهُ عمرُ في شُرْبِ الخَمْرِ، وهو الّذي وَثَبَ على الهُرمزان فقتَله، وقتل معه نصرانيًا اسمُه جُفَيْنَة من أهل الحِيرة، وقد ٱتهمهما أنّهما أغْرَيَا أبا لُؤلؤة بقَتْل عُمر. وقتل أيضًا ٱبنةً لأبي لؤلؤة طِفلة، ولما ضَرَبَ الهُرْمزانَ بالسَّيف قال: لا إله إلاّ الله، فلمّا قَتَل هؤلاء أخَذَه سعدُ بنُ أبي وَقَّاص وحَبسَه في داره، وأحضره عند عثمان. وكان عبيد الله يقول: واللّهِ لأقتلنَّ رجالاً مِمّن شرِكَ في دمِ أبِي، يُعرِّض بالمهاجرين والأنصارِ.

قالوا: وإنّما قتل هؤلاء، لأنَّ عبدَ الرحمٰن أبي بكر قال غداةَ قتِل عمر: رأيْتُ عشيَّة أمسِ الهُرْمزان، وأبا لؤلؤة، وجُفَيْنة، وهم يتناجَون، فلمَّا رأوني ثاروا، وسَقَط منهم خِنْجر له رأسان، نصابه في وَسَطه، وهو الخِنْجر الذي ضُرِبَ به عمر، فقَتَلهم عُبيدُ الله.

فلمّا أحضَرَهُ عثمان قال: أشيروا عليَّ في هذا الّذِي فَتَقَ[١] في الإسلام ما فَتَقَ، فقال عليّ: أرى أنْ تقتُلَه. فقال بعضُ المهاجرين: قُتِلَ عمرُ أمس، ونَقْتُل ٱبنَه اليوم! فقال عمرُو بنُ العاصِ: إنَّ الله قد أعفاكَ أن يكون لك هذا الحَدَث، ولك على المسلمين سلطانٌ. فقال عثمان: أنا وليُّه، وقد جعلتُها ديةً، وٱحتملتُها في مالي.

وقيل في فداء عُبيدِ الله غير ذلك.

قال القُماذيانُ بنُ الهُرْمِزَان: كانت العَجَمُ بالمدينة يستروح بعضُها إلى بعض، فمرّ فيروز بأبي، ومعه خِنجر له رأسان، فتناوَلَه منه، وقال له: ما تصْنَعُ به؟ قال: أَسُنُّ به، فرآه رجلٌ، فلمّا أُصِيبَ عمر قال: رأيتُ الْهُرْمُزانَ دَفَعه إلى فيروز، فأقبلَ عبيْد اللّهِ فقَتَلَه.

فلمّا ولّيَ عثمانُ أمكنَنِي منه، فخرجْتُ به وما في الأرضِ أحدٌ إلاّ معي، إلاّ أنّهم يَطلبُون إليّ فيه، فقلْتُ لهم: أَلِي قَتْلَه؟ قالوا: نعم، وسَبُّوا عُبيدَ الله، قلْتُ: أفلَكُمْ مَنْعُه؟ قالوا: لا، وسَبُّوه، فتركْتُه للّهِ ولهم، فحملُوني، فوالله ما بلَغْتُ المنزلَ إلاّ على رُؤوسِ النّاسِ.

والأوّلُ أصحُّ وأشهرُ؛ لأنَّ عليًا لما ولِيَ الخلافةَ أراد قتل عبيدِ اللّهِ، فهربَ منه إلى معاوية بالشّامِ، ولو كان إطلاقه بأمْرِ وليِّ الدَّمِ لَم يَعرِض له عليٌّ رضي الله عنه.

(١) فتق: أوقع الخلاف بين الجماعة وصدع الكلمة.

قال أبو عمر: وكان عبيدُ اللّهِ من أنجادِ قريشٍ وفُرْسانِهِم، قُتِلَ بصِفِّينَ مع معاويةَ، وكان يومئذ على الخَيْلِ، فرماه أبو زُبَيْد الطائيّ.

وقيل: كان قد خرج في اليوم الذي قُتِلَ فيه، وجعل امرأتين له بحيّث تنظران إلى فعلِه وهما: أسماء بنتُ عُطَارِد بن حاجب التَّميميّ، وبحريّة بنت هانىء بن قبيصة، فلمّا بَرز شدّت عليه ربيعة فنشِب[1] بينهم فقَتَلُوه، وكان على ربيعةَ يومئذ زيادُ بْنُ خَصفة التَّميميّ، فقيل له: إنَّ هذه بحريّة، فسقطَ عبيدُ اللّهِ مَيّتًا قُرْبَ فُسْطَاطِه، وقد بَقِيَ طُنُبٌ من طِنبةَ الفُسْطاطِ لا وَتَدَ لَه، فجرُّوه، وشدُّوا الطُّنُبَ بِرِجْلِهِ، وأقبلَتْ امرأتاه حتَّى وقفتا عليه، فبَكَتا وصاحَتا، فخرجَ زيادُ بنُ خصفة فقيل له: إن هذه بحرية بنت هانىء، فقال: ما حاجتُكِ يا بنت أخي؟ فقالتْ: زَوْجي قُتِلَ، تَدْفَعُه إليّ، قال: نعم، فَخُذِيه، فحملتْه على بَغْلٍ، فذكر أنّ يديْه ورجْلَيْهِ خَطَّتا على الأرضِ من فَوقِ البغْلِ. والله سبحانه وتعالى أعلَمُ بالصَّواب، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلَّى اللّهُ على سيّدنا محمّد.

ذكر عمال عمر
رضي الله عنه وعنهم على الأمصار

قد ذكرْنا عُمّالَه في حوادث السِّنين، ورأيْنَا أنْ نجمعَهُمْ في هذا الموضع فنقول: كان عمّالُه رضي الله عنهم: على مكّة عَتّاب بنَ أَسِيد، وعلى اليَمَن والطائف يَعْلَى بن مُنْيَة، وعلى البَحْرين واليَمامة العَلاء بنَ الحَضْرميّ، ثمّ عثمان بن أبي العاص، ثم قُدامة بنَ مظعون، ثم أبا بَكْرة، وعلى عُمان حُذَيفةَ بن مِحْصَن، وعلى البَصْرَةِ ـ أول من كان بها ـ قُطْبَةَ بن قَتادةَ السَّدوسيّ، يَغْزو بتلك الناحية، كما كان المثنَّى يَفعلُ بناحية الحِيرة. ثم كتبَ إلى عمر يُعْلِمُهُ بمكانه، ويستمدُّهُ، فوجَّه إليه شُريحَ بنَ عامر، أحد بني سعدِ بنِ عمروِ بنِ بكر، فسار إلى الأهوازِ، فقتله الأعاجمُ بدارس، فاستعمل عمرُ عُتْبَة بنَ غَزْوان، ففتحَ الأُبُلَّةَ، ثم سار إلى عمر، فأعاده إلى عَمَلِهِ، فمات في الطَّريقِ، فكانت إمارتُهُ ستَّةَ أشْهرٍ، فٱستعمل بعده أبا سَبْرَة بن أبي رُهْم على أحدِ الأقوالِ، ثم المغيرةَ بنَ شُعْبة، ثم عَزَلَه كما تقدّم بيانُه، فٱستعمَل أبا موسى الأشعري، ثمّ صَرفه إلى الكوفةِ، واستعمَل عمرَ بنَ سُراقة، ثم صَرَفه إلى الكوفةِ، وصرف أبا موسى إلى البصْرةِ فعَمِل عليها ثانيةً، ثمَّ صرفَهُ وأعاده ثالثةً.

---

(١) نشب بينهم: علق.

وعلى مُضافاتِ البصرةِ جماعةٌ فكان على مَناذر غالب الوائليّ، وعلى نهر تيرَى حرملة بن مرَيطة، وعلى سوق الأهواز حرقوص بن زهير. وعلى الكوفة وما يَليها، أوّلُ من استعمَل عليها سعد بن أبي وقّاص، فكان عليها إلى سنةِ عشرين، فَعَزَلَه لشكَايةِ أهلها، وأقَرَّ خليفتَهُ على الكوفةِ، وهو عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن عتْبان، ثم استعمَل عُمَرُ عمّارَ بنَ ياسر بن مسعود كما تَقَدَّم، ثم المغيرة بن شعبةَ.

وعلى ثُغُورِ الكوفةِ مَنْ قَدَّمنا ذكره، وعلى الجَزيرة وما يليها عِياض بن غَنْم، ثم ضمَّه عمر إلى أبي عبيدة، واستعمل حبيبَ بنَ مَسلمَة على خَراج الجزيرةِ وعَجَمِها، والوليدَ بنَ عقبة على عَرَبِهَا، وعلى المَوْصِل من كان على حَرْبها رِبْعيّ بن الأفكل، وعلى خرَاجِهَا عرْفجةُ بن هرثمة؛ وذلك في سنة ستّ عشرةَ.

وقيل: كان على الحربِ والخراجِ بها عتبة بنُ فرقد، وقيل كان ذلك إلى عبد الله بن مغنم، وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح، وكانت تحت يده جماعةٌ على الأعمال، فكان خالدُ بنُ الوليد على قِنّسرين، وحِمْص، ويزيدُ بنُ أبي سفيان على دمشق ومعاوية على الأُردنّ، وعلقمة بن مجزّز على فلسطين وعبد الله بن قيس على السواحل. فلما مات أبو عبيدة استعمل عمرُ معاذ بن جبل فمات من عامه، فاستعمل يزيد بن أبي سفيان، فمات، فاستعمل معاوية على دمشق والأردنّ، ثم استقر في سنة إحدى وعشرين عمير بن سعد على دمشق وحوران وحمص وقنّسرين والجزيرة، ومعاوية بن أبي سفيان على البَلْقَاء والأُرْدُنّ، وفِلَسطين، والسَّواحل، وأنطاكية، وقلقيةَ، ومعرَّة مصرين.

وعلى مصرَ عمْرو بن العاص، وكان العمّالُ في سنة وفاته إلى آخر سنة ثلاثٍ وعشرين.

وعلى مكّةَ نافعَ بن عبد الحارثِ الخُزاعيّ، وعلى الطائفِ سُفيانَ بن عبد الله الثّقَفيّ، وعلى صَنْعَاءَ يَعلَى بن مُنْيةَ، وعلى الجَنَدِ عبدَ اللّهِ بنَ أبي ربيعة، وعلى الكوفة المغيرة بنَ شُعْبة، وعلى البصْرةِ أبا موسى الأشعريّ، وعلى مصر عمرو بن العاصِ، وعلى حمصَ عُمَير بن سعد، وعلى دمشق معاوية، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفيّ.

كُتّابُه

عبد الله بن خلف الخُزَاعيّ وزيد بن ثابت، وعلى بيت المال زيد بن أرقم.

قُضَاتُه

يزيد ابن أخت النَّمِر بالمدينة.

وأبو أُمية شُريحُ بن الحارث الكِنْديّ بالكوفة، ويقال: إنَّ شُرَيْحًا أقام قاضيًا سِتِّين سنةً إلى أيّام الحجّاج، فعُطِّلَ ثلاثَ سنين، وامتَنَعَ من الحكم، وذلك في أيّام فتنةِ ابن الزُّبيْرِ. ولمّا وُلِّيَ الحجّاجُ استعْفاه، فأعْفَاه، ومات سنة سبع وثمانين وله مائةٌ وعشرون سنةً.

وقيل: مائة سنة، وليس هو في عدادِ الصَّحَابة رضي الله تعالى عنهم، بل من كبارِ التّابعين.

وعلى قَضاءِ البَصْرة كَعْب بن سور[1].

وعلى قضاء مِصْر قيسُ بنُ العاص السَّهْمِيّ، ثم كعبُ بن سَيّار بن ضبّة، ثمّ عثمان بنُ قيس بن أبي العاص.

وكان حاجبهُ يَرْفأ مولاه، وخاتَمه خاتم رسول الله ﷺ.

وقال أبو عمرُ بنُ عبدِ البرّ: كان نقشُ خاتَمِه: «كَفَى بالموت واعِظًا يا عُمرَ».

ذكر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو أبو عبد اللّهِ، وقيل: أبو عمرو، وقيل في تَكْنِيَتِه بأبي عبد الله: إنَّ رقيةَ بنت رسول الله ﷺ، ولدتْ له ابنًا فسمَّاه عبد الله، فاكتنى به، ومات، ثم ولد له عمرو، فاكتنى به إلى أن مات.

وقيل: إنَّه كان يُكْنَى أبا ليلى عثمان بن عفانَ بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبدِ شمس بن عبد مناف، ويجتمِع مع نَسبِ رسول الله ﷺ في عبدِ مناف، ولُقِّبَ بذي النُّورَيْن، لأنه تزوّجَ ابْنتَيْ رسولِ اللّهِ ﷺ رقيّة وأُمَّ كُلْثوم.

وقيل للمهلَّب بن أبي صُفرةَ: لم قيل: عثمانُ ذو النُّورَيْنِ؟ قال: لأنه لا نَعلَم أن أحدًا أرسلَ سِتْرًا على ٱبنتيْ نبيٍّ غيره.

---

(١) هو كعب بن سور بن بكر بن عبد بن ثعلبة بن سليم بن لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم، ولي القضاء بالبصرة لعمر وعثمان رحمهما الله. وخرج يوم الجمل وفي عنقه المصحف ليصلح بين الناس فجاءه سهم غرب فقتله... (الاشتقاق لابن دريد ص٥٠٠).

وأُمُّه أروى بنتُ كُرَيزِ بنِ ربيعة بنِ حبيب بنتِ عبدِ شمسِ بن عبد مَناف، وأُمُّهَا البيضاء، أُمُّ حَكيم بنت عبد المطَّلبِ، عمّةُ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وُلِدَ في السَّنةِ السادسة بعد عام الفيلِ. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصَّواب، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيِّدِنا محمد.

ذكر صفته ونبذة من فضائله

كان رضي الله عنه طويل القامة، حسن الوجه وقيل: كان رَبْعةً، ليس بالقصير ولا بالطَّويل، حسنَ الوجهِ رقيقَ البَشَرةِ، كبيرَ اللِّحيَةِ، عظيمًا أسمر اللَّونِ، كثير الشَّعْرِ، ضَخْم الكرادِيس، بعيدَ ما بينَ المنكبَيْن، وكان يصفِّر لحيته، ولما كَبِر شدَّ أسنَانَه بالذَّهب، وهو رضي الله عنه أحدُ العَشَرةِ الَّذين شَهِد لهم رسولُ الله ﷺ بالجنَّةِ، ومات وهو عنهم راضٍ.

وله رضي الله عنه فضائلُ ومآثرُ وسابقةٌ في الإسلام.

قال عليٌّ رضي الله عنه: كان عثمانُ أوصَلنَا للرَّحِم، وكان مِنَ الَّذِين آمنوا واتَّقَوْا وأحسَنوا، والله يحبُّ المحسنين.

واشترى رضي الله عنه بئرَ رُومَة[1]، وكانت رَكيَّةً ليهُوديٍّ، يبيعُ للمسلمين ماءَها، فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ يَشْتَري بئر رُومة فيجعلها للمسلمين، يضرِبُ بدَلْوِه في دِلائهم، وله بها مَشْربٌ في الجنَّة؟». فأتى عثمانُ اليهوديَّ فساومَه بها، فأبى أنْ يبيعَهَا كلَّها، فاشترى منه نِصحفَها باثني عشر ألف درهم فجَعَلَه للمسلمين، فقال له عثمان: إنْ شئْتَ جعلْت على نصيبي يَوْمَيْن، وإنْ شئْتَ عليَّ يومٌ ولك يومٌ، قال: لا، بل لك يوم ولي يومٌ. فكان إذا كان يومُ عثمان اسْتقَى المسلمون ما يكفيهم يومَيْن، فلمَّا رأى اليهوديُّ ذلك، قال: أفْسَدْتَ عَلَيَّ رَكِيَّتِي، فاشْترِ النِّصفَ الآخَر، فاشتراه بثمانيةِ آلافٍ.

وقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ يزيدُ في مسجدِنا؟» فاشترى عثمانُ رضي الله عنه موضع خمس سَوَارٍ، فزادَه في المسجد.

وجهّزَ رضي الله عنه جَيْش العُسْرة بتسعمائة وخمسين بعيرًا، وأتمّ الألف بخمسين فرسًا.

---

(١) بئر رومة: بضم الراء، وسكون الواو، وفتح الميم: وهي في عقيق المدينة... (معجم البلدان لياقوت).

وعن قتادة رضي الله عنه، قال: حملَ عثمانُ ما في جيْش العُسْرة على ألفِ بَعير، وسَبْعِين فرسًا.

وعن محمدِ بنِ بكير: أنَّ عثمانَ رضي الله عنه، كان يُحيي اللَّيلَ بركعةٍ يقرأُ فيها القرآنَ. ورُوِيَ أنَّه كان يصومُ الدَّهرَ رضي الله عنه.

ذكر بيعة عثمان رضي الله عنه

بُويع له بالخلافةِ كما تقدَّمَ في قصَّةِ الشُّورَى، وقد اختُلف في يومِ بَيْعَتِه، وهو مُرتَّبٌ على الخلافِ في تاريخ وفاةِ عمرَ رضي الله عنهما، فقيل: في يوم السَّبْتِ غرَّة المحرم، سنةَ أربع وعشرين. ولم يذكر أبو عُمرَ بنُ عبدِ البَرِّ غيرَه.

وقيل: يوم الاثنين لليلةٍ بقيَتْ من ذي الحجّةِ، سنةَ ثلاثٍ وعشرين، فاستقبَل بخلافتِه شهرَ المحرَّم، سنة أربع وعشرين، قاله أبو جعفر.

قال: وقيل: لعشر خلوْن من المحرّم بعد مقتلِ عمرَ بثلاث ليالٍ.

قال: استُخْلِفَ وقد دخل وقت العصْرِ، وقد أذَّنَ مؤذِّنُ صُهَيْبٍ، واجتَمعوا في ذلك بين الأذان والإقامة، فخرج فصلَّى بالنَّاس، وزادهم مائةً مائةً، ووَفَّدَ أهل الأنْصارِ، وهو أوّلُ مَنْ صَنعَ ذلك.

قال: وقيل: لمّا بايع أهلُ الشُّورَى عثمانَ رضي الله عنه، خرج وهو أشدُّهم كآبةً، فأتى مِنبر النَّبيِّ ﷺ فخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على النبيّ ﷺ وقال:

أيها النَّاسُ، إنَّكُمْ في دارِ قُلْعة[1]، وفي بقيّة أعْمَارٍ، فبادروا آجالكم بخير ما تَقْدِرُون عليه، فلقَدْ أُتيتُم صُبِّحْتم أو مُسِّيتُم، ألا وإنَّ الدُّنْيا طُوِيَتْ على الغُرورِ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] واعتَبِرُوا بمَنْ مضى، ثم جِدُّوا ولا تَغفُلوا؛ فإنَّه لا يَغْفُل عنكم.

أين أبناءُ الدُّنيا وإخوانُها الَّذين أثارُوهَا وعَمروها، ومُتِّعُوا بها طويلًا! ألم تَلْفِظْهم! رمُوا بالدّنيا حيث رَمَى اللَّهُ بها. واطلبوا الآخرة؛ فإنَّ الله عزَّ وجلّ قد ضربَ لها مَثَلًا ولِلَّذي هو خير، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

(١) المراد بقوله «دار قلعة» أي ليست دار إقامة.

وكان أوّلُ كتابٍ كتبَهُ إلى عمّاله:

أمّا بعدُ؛ فإنَّ الله تعالى أمر الأئمةَ أن يكونوا رُعاةً، ولم يتقدّمْ إليهم أن يكونوا جُبَاةً، وأنَّ صدرَ هذه الأمّةِ خُلِقُوا رُعاةً، ولم يُخْلَقُوا جُباةً، وليوشِكَنَّ أئمّتكُمْ أنْ يَصِيرُوا جُبَاةً، ولا يكُونوا رُعاةً؛ فإذا عَادُوا كذلك انقطعَ الحياءُ والأمانةُ والوفاءُ.

ألا وإنَّ أعدَلَ السِّيرة أن تنظروا في أُمورِ المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لَهُمْ، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنُّوا بالذِّمةِ فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالَّذِي عليهم، ثم العدوّ الذي تَنْتَابون، فاسْتَفْتِحُوا عليهم بالوفاء.

وكان أولُ كتابٍ كتبه إلى أُمراءِ الأجنادِ في الفروج[١]:

أمّا بعد، فإنَّكُمْ حماةُ المسلمين وذادَتُهم، وقَدْ وضعَ لكم عمر رضي الله عنه ما لم يغبْ عنَّا، بل كان عن ملأٍ منّا، ولا يَبلُغنا عن أحدٍ منكم تغييرٌ ولا تبديلٌ، فيغيِّر اللّهُ بِكُمْ، ويستبدلُ بكم غيرَكم. فانظروا كيف تكونون، فإنِّي أنظر فيما أَلْزَمَنِي الله النَّظرَ فيه والقيامَ عليه.

ذكر الفتوحات والغزوات في خلافة عثمان

ذكر خلاف أهل الإسكندرية

وفي سنةِ خمسٍ وعشرين نقضَ أهلُ الإسكندريةِ الصُّلْحَ؛ وذلك أنَّ الرومَ حضرُوا إليهم من القُسْطَنطِينيّة، ونفذ منهم منّويل الخَصِيّ، واتفقُوا مَعَ مَنْ بها مِن الرّومِ، ولم يُوَافِقْهُم المقوقِسُ، وثَبَتَ على صُلْحِه، فثبتَ لذلِكَ.

وسار عَمرُو بنُ العاص إليهم، وسار إليه الرُّومُ، واقْتتلُوا أشَدَّ قتالٍ، فأنهزمَ الرومُ وتَبِعهم المُسلمون إلى أنْ أدخلُوهم الإسكندريّةَ، وقتلُوا منهم في البلدةِ مَقتلةً عظيمةً، وقُتِلَ منّويل الخصيّ.

وكان الرُّومُ لـمّا خَرجُوا من الإسْكَنْدريّةِ أخَذُوا أموالَ أهلِ تلك الْقُرَى، مَن وافَقَهم ومن خالَفَهم، فلمّا ظَفر بهم المسلمون جاء أهلُ الْقُرى الَّذِين خَالَفُوهم فقالوا لعمْرِو بن العاص: إنَّ الرّومَ أخذوا أموالَنا ودوابَّنا، ولم نخالفْ نحن عليكم، وكُنَّا على الطَّاعةِ، فردّ عليهم ما غَرِمُوا مِنْ أموالهم بعد إقامةِ البيِّنةِ.

وهدمَ عمروٌ سورَ الإسكندريّةِ.

---

(١) الفروج: واحدتها الفرج، وهو الثغر المخوف.

ذكر غزو أرمينية وغيرها وما وقع من الصلح

كان عثمانُ رضي الله عنه قد استعملَ سعدَ بنَ أبي وقَّاص على الكوفةِ، ثم عزَلَه، واستَعملَ الوليدَ بنَ عُقْبة بن أبي مُعَيْط ـ وهو أخُو عثمانَ لأُمِّه ـ فعزل الوليدُ عُتْبَةَ بنَ فَرقَدٍ عن أذْرَبيجان[١]، فنقضُوا العهدَ فغزاهم الوليدُ في سنةِ خمسٍ وعشرينَ، وجعَل عَلَى مقدِّمتِهِ ٱبنَ شُبَيْل الأحْمسِيِّ، وأغار على أهل مُوقَانَ[٢] وما جاورها، ففَتَحَ وغَنِم وسَبَى، وطلبَ أهلُ كُوَرِ أذْرَبيجانَ الصُّلْحَ، فصالحهم على صُلْحِ حُذَيْفة، وهو ثمانمائة ألف درهم، فقبضَ المالَ ثم بثَّ سراياهُ، وبَعثَ سَلْمانَ بنَ ربيعةَ الباهِليَّ إلى أهل أرْمينيَة في ٱثنَي عشر ألفًا فقتلَ وسبَى وغنِمَ، ثم انصرفَ وقد ملأ يدَهُ حتى أتى الوليد. وعادَ الوليدُ وجعل طريقَهُ على المَوْصلِ، ثم أتى الحَدِيثةَ.

قال: ولمّا نزل الوليدُ بنُ عقبة الحديثةَ، أتاه كتابُ عثمانَ رضي الله عنه يقول: إنَّ معاويةَ كتب إليَّ أنَّ الرّومَ قد أجلبتْ على المسلمين في جموعٍ كثيرةٍ، وقد رأيتُ أن يمدَّهم أخوانُهُمْ من أهلِ الكُوفةِ. فابعثْ إليهم رَجُلاً له نجدَةٌ وبأسٌ في ثمانيةِ آلافٍ، أو تسعةِ آلافٍ، أو عشرةِ آلافٍ من المكانِ الّذي يأتيكَ كتابي فيه، والسّلام.

فقامَ الوليدُ في النّاسِ، وأعلَمَهُم الحال، وندَبَهم مع سَلْمان بنَ ربيعَةَ الباهِليّ، فٱنتَدَبَ معه ثمانيةُ آلافٍ، فمضَوْا حتَّى دخلوا مع أهلِ الشّامِ إلى أرضِ الرّومِ، فشَنُّوا الغاراتِ، فأصابَ النَّاسُ ما شاؤوا، وافتتحوا حصونًا كثيرةً.

وقيل: إنَّ الذي أمدَّ حبيبَ بنَ مسلمةَ بسلمانَ بن ربيعة، كان سعيدَ بنَ العاص لمّا كان على الكوفةِ؛ وكان سببُ ذلك أنَّ عثمانَ كتبَ إلى معاويةَ يأمره أنْ يُغْزِيَ حبيبَ بنَ مسلمةَ في أهلِ الشّام أرمينيَة، فوجَّهَهُ إليها، فأتى قالِيقَلاَ فحصرها، وضيَّقَ على مَنْ كان بها، فطَلَبُوا الأمَانَ على الجلاءِ أو الْجِزْية، فجلا كثيرٌ منهم، فلحقُوا ببلاد الرُّوم، وأقام حبيبٌ بها فيمن معه أشهُرًا، ثم بلغَهُ أنَّ بِطْرِيق أرْمَنْيَة قُس ـ وهي مَلَطْيَة، وسِيوَاس وقُونية، وما والاها من البلاد إلى خليج القسطَنْطِينيَّة ـ وٱسمُه الموريان، قد توجَّه نحوه في ثمانين ألفًا من الرُّوم. فكتبَ إلى معاوية بذلك، فكتب

(١) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وباء ساكنة، وجيم: حدها من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجبل، والطرم.. ومن مشهور مدائنها: تبريز، والمراغة، وخويّ، وسلماس، وأرمية وغيرها... (معجم البلدان).

(٢) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان يمر القاصد من أردبيل إلى تبريز في الجبال... (معجم البلدان).

معاويةُ إلى عثمانَ، فأرسلَ عثمان إلى سعيدِ بنِ العاصِ، يأمره بإمداد حبيب، فأمدَّه بسلمان في ستةِ آلافٍ، فأجمع حبيب على تبييت الرّومِ، فسمعَتْهُ امرأتهُ أمّ عبدِ الله بنتُ يزيدَ الكَلْبيّة، فقالت: أينَ موعِدُك؟ فقال: سُرادِقُ الموريان، ثم بيَّتهم، فقتل مَنْ وقفَ له، ثم أتى السُّرادقَ فوجد امرأتَهُ قد سبقته إليْهِ، ولمّا انهزمَتِ الرّومُ عاد حبيبٌ إلى قَالِيقَلا، ثم سار فيها فنزلَ مربالا، فأتاه بِطريقُ خِلاط[١] بكتابِ عياضِ بنِ غَنْم بأمانه فأجراه عَلَيْه، وحمَلَ إليه البِطْريقُ ما عليه من المالِ.

ونزلَ حبيبٌ خِلاطَ، ثم سار منها، فلقيه صاحِبُ مُكْس، وهي من البُسْفُرْجان، فقاطعه على بلاده، ثم سار منها إلى أزْدشاط وهي القريةُ التي يكون بها القِرْمِزُ[٢] الَّذِي يُصْبَغُ به، فنزل على نَهْرِ دَبيل، وسرّح الخيولَ إليها وحصرها، فتحصَّن أهلُها، فنصبَ عليهم مَنجنيقًا، فطلَبُوا الأمانَ، فأجابهم إليْه، وبثَّ السّرايا فبلغَتْ خيلُهُ ذاتَ اللُّجُم؛ وإنّما سُمّيتْ ذاتَ اللُّجم لأنَّ المسلمين أخَذُوا لُجُمَ خَيْلهم، فكَبَسَهم الرُّومُ قبل أنْ يُلجِموهَا، ثم ألجَمُوهَا وقاتَلوهم فظفِرُوا بهم.

ثم وجّه سريَّةً إلى سِراجِ طَيْر وبَغْرَوَنْد، فصالَحه بِطريقُهَا على إتاوة، وقدم عليه بطريقُ البُسْفُرْجان، فصالحه على بلاده، وأتى السِّيْسَبان[٣] فحارَبَهُ أهلُها فهزمَهُم، وغَلَبَ على حصونهم. وسار إلى جُرْزَان، وفتح عدَّةَ حُصُونٍ ومُدُنٍ تُجاوِرُها صُلْحًا.

وسار سلمانُ بنُ ربيعة إلى أرّان، ففتحَ البَيْلَقان صُلْحًا، على أنْ يؤمِّنَهم على دمائهم وأموالِهم، وحيطانِ مُدُنِهم، واشترطَ عليهم الجزيةَ والخراجَ، ثم أتى سلمانُ مدينةَ بَرْذَعةَ فعَسْكَرَ على التُّرْثور (نهرٌ بينه وبينها نحو فَرْسَخٍ) فقاتَلَهُ أهلُهَا أيَامًا، وشنَّ الغاراتِ على قُراها، فصالَحوه على مثلِ صُلحِ البَيْلَقَانِ، ودَخَلَهَا، ووجَّه خيلَه ففتحتْ رساتيقَ الولاية، ودعا أكرادَ البلاشجان إلى الإسلام، فقاتلوه فظفر بهم، فأقرَّهم على الجزيةِ، وأدّى بعضُهُمْ الصَّدقة وهم قليلٌ، ووجَّه سَرِيَّةً إلى شَمْكور ففتحوها، وهي مدينةٌ قديمةٌ، ولم تزلْ معمورةً حتّى أخربها السّاوَرْدِيَّةُ، وهم قومٌ تجمّعُوا لمّا انصرف يزيدُ بنُ أَسِيد عن أرْمِينيَة، فَعظُم أمرُهم، ثم عمَّرها بغا في سنةِ أربعين ومائتين، وسمَّاها المتوكِّليَّةَ، نسبةً إلى المتوكِّلِ.

---

(١) خلاط: هي قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة، والمياه الغزيرة، وببردها في الشتاء يضرب المثل... (معجم ياقوت).

(٢) القرمز: صبغ لونه أحمر قان. يقال: إنه عصير نوع من الديدان الصخرية. ويقال: لون قرمزي... (المعجم الوسيط).

(٣) سيسبان: بلدة من نواحي آراب، بينها وبين بيلقان أربعة أيام من ناحية أذربيجان... (معجم ياقوت).

وسار سلمان إلى مجمع الرَّسّ والكُرّ، ففتح قَبَلَة، وصالحه صاحبُ شَكّى وغيرها على الإتاوَة، وصالحه مَلِكُ شَرْوَانَ، وسائر ملوك الجبالِ فأهلُ مَسقَط والشَّابَران[١]، ومدينة البابِ. والله تعالى أعلمُ بالصوابِ.

ذكر غزو معاوية الروم

وفي سنة خمسٍ وعشرين، غزا معاويةُ بنُ أبي سفيانَ الرُّوم، فبلغَ عَمُّورِيَة فوجد الحصونَ الَّتي بين أنطاكيَةَ وَطَرَسوسَ خالية، فجعل عندها جماعةً كثيرةً من أهل الشّام والجزيرة؛ حتى انصرف من غَزاتِهِ. ثم أغزَى بعد ذلك يزيدَ بن الحُرّ العَبْسيَّ الصائفَةَ وأمره أن يَفْعَلَ مثل ذلك، ولما خرجَ هدمَ الحصونَ إلى أنطاكيَة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح كابل

وفي سنة خمسٍ وعشرين بعثَ عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه عبد الله بن عامر إلى كابُل[٢]، فبَلَغها في قولٍ، وكانت أعظمَ مِنْ خُراسانَ ولم يزلْ إلى أنْ مات معاويةِ، فامْتَنَعَ أهلُها. والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر غزو إفريقية وفتحها

وفيها بعثَ عمرُو بنُ العاصِ عبدَ الله بنَ سعدِ بن أبي سَرْحٍ إلى أطرافِ إفريقيّةَ غازيًا بأمرِ عُثمانَ فغَنِم وعاد، وكتبَ إلى عُثمانَ يستأذنُه في غَزْوِها، فأذن له، وعزلَ عمروَ بنَ العاص عن خَراجِ مصْرَ. واستعملَ عبدَ اللّهِ بنَ سعد في سنةِ ستٍّ وعشرين، فَتَنازَعا الأمر.

فكتبَ عبدُ الله إلى عُثمَانَ أنَّ عَمْرًا كسرَ عليّ الخراجَ، وكتب عمروٌ إنَّ عبدَ اللّهِ كسرَ عَلَيَّ مكيدةَ الحرْبِ. فعزَلَ عثمان عَمْرًا واستقدمَه، واستعمل عبدَ اللّهِ على حربِ مصرَ وخراجِها، وأمره أنْ يغزوَ إفريقيَّة وقال: إنْ فتح اللّهُ عليكَ فلكَ خُمس الخمسِ نَفَلاً[٣].

---

(١) شابران: مدينة من أعمال أران، استحدثها أنوشروان، وقيل: من أعمال دربند وهو باب الأبواب، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) كابل: بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور. وكابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... (معجم البلدان).

(٣) النفل: الغنيمة أو الهبة.

وأمّر عثمانُ عبدَ اللّهِ بنَ نافعِ بن عبد القيس وعبد اللّهِ بن نافع بن الحارث على جُنْدٍ، وسرَّحَهما، وأمرهما بالآجتماع مع عبد الله بن سَعْدٍ على صاحب إفريقيّة، ثم يقيمُ عبدَ اللّهِ في عَمَلِهِ فخرجوا ووصلوا إلى أرض إفريقيّة في عشرةِ آلافٍ من شُجْعَانِ الإسلام، فصالحهم أهلُ إفريقيَّة على مالٍ يؤدُّونَه، ولم يُقْدِمُوا على دخولِ إفريقيَّة والتَّوغُّلَ فيها لكثْرةِ أهلِها.

ثم أرسلَ عبدُ الله إلى عُثمانَ يستشيره في قَصْدِ إفريقيَّةَ، وفَتْحِهَا، فجهّز إليه عثمان جماعة من أعيان الصّحابة، منهم عبدُ اللّهِ بنُ عبَّاسٍ وغيره، فسار بهم ابنُ سعدٍ إلى إفريقيّة.

فكان مِنْ أمرِ فَتْحِ إفريقيّةَ ما نذكرُه إنْ شاء الله تعالى في الباب السَّادِسِ من القسم الخامِس من هذا الفنّ في أخبارِ إفريقيّة، وبلادِ المغرب بما هو أبسطُ مِنْ هذا القولِ، وهو السِّفر الثاني والعشرون من هذه النُّسْخةِ.

قال: لمّا فُتِحتْ سُبَيْطِلة(١) وهي دارُ المُلْكِ، وُجِد فيها من الأمْوالِ ما لم يكن في غيرها، فكان سَهْمُ الفارِسِ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ، وسهم الرّاجلِ ألف دينارٍ.

وبعثَ عبدُ اللّهِ بنُ سعدٍ جُيُوشَه في البلادِ، فبَلَغَتْ قَفْصَةَ، فسَبُوا وغَنِمُوا، وبعثَ عَسْكَرًا إلى حِصْنِ الأجَمِ، وقد احتمى به أهلُ البلادِ، فحصَرَه وفتَحَه بالأمانِ، فصالحه أهلُ إفريقيّة على الفيء، ألفِ وخمسِمائة ألف دينارٍ.

وسار عبد اللّهِ بنُ الزُّبيْر إلى عثمانَ بالبشارةِ، وتنفَّلَ بابنة الملكِ، ثم عاد عبد الله بنُ سَعْدٍ من إفريقيّة إلى مِصْرَ، وكان مقامه بها سنةً وثلاثةَ أشهرٍ، ولم يفقدْ مِنَ المسلمين إلاّ ثلاثةَ عشر رجُلاً، وحُمِلَ خُمْسُ إفريقيّةَ إلى المدينةِ، فابتاعه مروانُ بنُ الحكم بخمسمائة ألف دينارٍ، فوضَعَها عنه عُثْمَانُ وهو مما أُخِذَ عليه، وأنْكَرَهُ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم، وقال في ذلك عبد الرحمٰن بن حنبل أحد الصّحابة رضي الله تعالى عنهم:

أحلفُ باللّهِ جَهْدَ اليمينِ ... ما تركَ اللّهُ أمْرًا سُدَى
ولكنْ جعلْتَ لنا فتنةً ... لكي نُبْتَلى بك أو تُبْتَلى
دعوْتَ الطريدَ فأدْنَيتَهُ ... خلافًا لِمَا سنَّه المُصْطَفى
ووَلّيْتَ قُرْباكَ أمرَ العبادِ ... خلافًا لسنّةِ مَنْ قد مَضى
وأعطيْتَ مروانَ خُمْسَ الغنيمَـ ... ـةِ آثرته وَحَمَيْتَ الحِمَى

---

(١) سبيطلة: مدينة من مدن إفريقية؛ بينها وبين القيروان سبعون ميلاً... (معجم ياقوت).

ومـالاً أتـانـي بـه الأشـعـريُّ ... مِـن ٱلْـفَـيْءِ أعـطـيْـتَـه مَـن دَنَـا
فـإنَّ الأمِـيـنَـيْـنِ قـد بـيَّـنَـا ... مـنـارَ الـطَّـريـقِ عـلـيـه الـهـدى
فـمـا أخـذا غِـيـلـةً دِرْهَـمًـا ... ولا قَـسَّـمَـا دِرْهـمًـا فـي هـوى[1]

قال: ولما فُتحت إفريقيَّة أمرَ عثمانُ عبد اللّهِ بن نافع بن عبدِ القيسِ أن يسيرَ إلى الأندلس، فأتاها من البحرِ، ففتحَ الله تعالى على المسلمين.

وفي سنة سبع وعشرين فُتِحَتْ إصْطَخْر، وهو الفتحُ الثاني، وكان فتحُهَا الآن على يدِ عثمانَ بن أبي العاص.

وقد ذكرنا الأول في خلافةِ عمَرَ. وفيها غزا معاويةُ بنُ سفيانَ رضي الله تعالى عنه قُبْرُس.

ذكر فتح جزيرة قبرس

كان فتحها على يدِ معاوية بن أبي سفيان، واختُلِفَ في وقته، فقيل: فُتِحَتْ في سنة ثمانٍ وعشرين، وقيل: في سنة تسع وعشرين، وقيل: في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين.

وكان قد ألحَّ على عمر رضي الله عنه في غزوِ البحْرِ، وذكر قرْبَ الرّوم من حِمْص، وقال: إنَّ قريةً من قُرَى حِمْص ليَسْمَع أهلُها نُبَاحَ كلابهم وصِيَاحَ دَجاجِهم.

فكتب عمرُ إلى عَمرو بنِ العاص: أنْ صِفْ لي البحرَ وراكبَه، فكتبَ إليه عمرو: إني رأيتُ خلقًا كبيرًا يَركَبه خَلْقٌ صغير، ليس إلاَّ السّماء والماء، إنْ رَكَد خرقَ القلوبَ، وإنْ تحرّكَ أزاغَ العقول، يَزْدَادُ فيه اليقينُ قلّة، والشّكّ كثرةً، هُمْ فيه كدُودٍ على عودٍ، إنْ مالَ غَرِقَ، وإنْ نَجَا بَرِقَ[2].

فلمّا قرأ كتابَ عمرو، كتب إلى معاويةَ: والّذِي بعثَ محمدًا بالحقّ لا أحملُ فيه مسلمًا أبدًا، وقد بلغني أنَّ بحر الشّام يُشرفُ على أطولِ شيءٍ من الأرضِ، فيستأذن الله كلّ يوم وليلةٍ في أن يُغْرِقَ الأرضَ، فكيف أحمل الجنودَ على هذا الكافرِ، لَمُسلِمٌ أحبُّ إليَّ ممَّا حَوَتِ الرُّوم. فإيّاكَ أنْ تعرَّضَ إليّ، فقد علمتَ ما لقيَ العَلاءُ مِنّي.

وتركَ مَلِكُ الرُّوم الغزوَ، وكاتبَ عمر وقاربه، فلمّا كان زمن عثمان كتبَ معاويةُ إليه يستأْذنه في غزو البحرِ مرارًا، فأجابَهُ إلى ذلك وقال: لا تَنْتَخِبَ الناس ولا تُقْرِعْ بينهم، خيِّرهم، فمن اختارَ الغزوَ طائعًا، فاحْمله وأعِنْه، ففعل.

---

(١) غيلة: أي على غفلة منه.

(٢) برق: أي فزع ودهش فلم يبصر.

واستعملَ عبدَ اللّهِ بنَ قيس الحارثيّ حليف بني فَزَارَة، وسار المسلمون إلى قُبْرس، وسار إليها عبدُ اللّهِ بنُ سعدٍ من مصر، فاجْتَمَعُوا عليها فصالَحهم أهلُهَا على جِزْيَةٍ، وهي سبعة آلافِ دينار في كلِّ سنةٍ، ويؤدُّون للرّومِ مِثلَها، لا يمنعُهم المسلمون مِنْ ذلكَ، وليس على المسلمين منعهم مِمَّن أرادَهُمْ مِنْ ورائِهم. وعليهم أن يُؤذوا المسلمين بِمَسيرِ عدوِّهم من الرُّومِ، ويكون طريقُ المسلمين إلى العَدُوّ عليهم، فقبلُوا ذلك منهم، وعادوا عنهم.

وشهدَ هذه الغزاة جماعةٌ من الصحابةِ، منهم: أبو ذَرّ الغفاري، وعُبادةُ بنُ الصَّامِت، ومعه زوجتُه أمُّ حَرام بنت مِلْحان، وأبو الدَّرداء شدَّادُ بنُ أوسٍ.

وفي هذه الغزاةِ ماتت أُمُّ حَرام، ألقتْها بَغْلتُها بجزيرة قُبرس فانْدَقَّ عنقُها، وكان رسول اللّهِ ﷺ أخبرَها أنَّها مِن أوّلِ من يغزو في البحرِ.

قال: وبقيَ عبدُ اللّهِ بنُ قيس على البحرِ، فغزا خمسين غزاةً في البحْرِ، من بَيْنِ شاتِية، وصائفة، لم يُنْكَبْ أحَدٌ مِنْ جُنْدِه، وكان يدعو اللّهَ أن يُعافِيَه في جُنْدِه، ثم خرجَ هو في قارِبِ طَلِيعةٍ، فانتهى إلى المَرْفأ من أرْضِ الرُّومِ، وعليه مساكينُ يسألون، فتصدَّق عليهم، فرجعَتْ امرأةٌ منهم إلى قريتها، فقالت: هذا عبدُ اللّهِ بنُ قيْس في المَرْفأ فبادَروا إليه، وهجموا عليه، فَقَتلوه، بعدُ أنْ قاتلَهُم، فأُصيبَ وحْدَه، ونجا الملاَّحُ حتَّى أتى أصحابَهُ فأعلَمَهم، فجاؤوا حتّى رسَوْا بالمرفأ وعليهم سُفيانُ بنُ عوف الأزْدِيّ، فخرج إليهم فقاتلَهُمْ.

وقيل لتلك المرأةِ بعد ذلك: بأيِّ شيءٍ عَرَفْتِ عبدَ اللّهِ بنَ قيس؟ قالت: كان كالتَّاجرِ، فلمّا سألتُه أعطاني كالمِلكِ، فعرفتُه بهذا.

ولمّا كانت سنة اثنتين وثلاثين أعَان أهلُ قُبْرس الرّومَ على غَزْوِ المسلمين بمراكبَ أعطَوْهم إيّاها، فغزاهم معاوية في سنة ثلاث وثلاثين فَفَتَحها عَنْوةً، فقَتَل وسَبَى، ثم أقرَّهم على صُلحهم، وبعثَ إليهم اثني عشر ألفًا فبنَوا المساجِدَ، وبنى بها مدينةً.

وقيل: كانت الغزوةُ الثانيةُ في سنةِ خمسٍ وثلاثين.

وفي سنةِ ثمانٍ وعشرين غزا حبيبُ بنُ مسلمةَ سورية مِنْ أرضِ الرُّومِ. والله تعالى أعلمُ، وحسبُنَا الله ونعم الوكيلُ.

ذكر نقض أهل فارس وغيرهم وفتحِ إصطخْر ودرابجرْد

وفي سنةِ تسع وعشرين نقض أهلُ فارس بعُبَيد الله بن مَعمَر، فسار إليهم، فالتقوْا على باب إصطَخر، فقُتِلَ عبيدُ اللّهِ، وانهَزَم المسلمون. فبلغَ الخبرُ عبدَ اللّهِ بنَ عامرٍ أميرَ البَصْرةِ، فاستنفَر أهلَ البصرةِ وسار إلى فارسَ، فالتقوْا بإصْطَخْر، واشتدّ القتالُ، فهزم المسلمون الفُرْسَ، وقُتِلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ، وفُتِحَتْ إصْطَخْر عَنوةً، وأتى درابجرد، وقد غدرَ أهلُها، ففتحها وسار إلى مدينة جُور، فانتقَضتْ إصطَخر، فلم يرجعْ إليها، وتمَّمَ السيرَ إلى جُور[1] فحاصَرَها، وكان هرمُ بنُ حيّان محاصرًا لها، وكان المسلمون يُحَاصِرُونَهَا وينصرفون عنها فيأْتُونَ إصطخْر، ويغزون نواحِيَ كانت تَنتقِض عليهم، فلم يزلْ عبدُ الله بنُ عامر عليها حتَّى فَتَحَها.

وكان سببُ فتْحها أنَّ بعض المسلمين قام يصَلِّي ذاتَ ليلةٍ، وإلى جانبه جرابٌ له فيه خُبْزٌ ولحم، فجاء كَلْبٌ فجرَّه وعَدَا بهِ حتَّى دخل المدينة مِنْ مَدْخلٍ خفيٍّ، فلزِمَ المسلمون ذلك المَدْخَل حتَّى دخلوها منه وفَتَحوها عَنْوةً، فلمَّا فرغَ ابنُ عامرٍ منها عاد إلى إصْطَخْر وفتحَها عنوةً بعدَ أنْ حاصرَها ورَماها بالمَجانيق، وقتلَ بها خلقًا كثيرًا من الأعاجمِ، وأفْنَى أكثَرَ أهلِ البيُوتاتِ، ووجوه الأساوِرة[2]، وكانوا قد لجؤوا إليها.

وقيل: إنَّ أهل إصطخْر لما نكثُوا عادَ إليها ابنُ عامرٍ قبل وصوله إلى جُور، فملكَهَا عنوةً، وعاد إلى جُور، وأتَى درابجرد فملكَهَا، وكانت منتقضةً أيضًا، ووطىءَ أهلَ فارسٍ وطأةً لم يزالوا مِنْها في ذُلٍّ. وكتبَ إلى عثمانَ بالخبر، فكتبَ إليه أن استعْمل على بلادِ فارس هرمَ بنَ حَيّان اليَشْكريّ، وهرمَ بنَ حيّان العَبْدِيّ، والخرِّبت بنَ راشِد، والتَّرجمانَ الهُجَيْميّ.

وأمره أن يفرِّقَ كُورَ خُراسانَ على جماعَة، فيجعَلَ الأحنفَ بنَ قيْسٍ على المَرْوَيْنِ، وحبيبَ بنَ قُرَّة اليَرْبُوعيّ على بَلْخ، وخارجَة بنَ عبدِ اللّهِ بنِ زُهَيْر على هَراةَ[3]، وأميرَ بنَ أحمرَ على طُوس، وقيسَ بنَ هُبَيْرة وقيسًا السُّلميّ على نيسابور، واللّهُ أعلمُ.

---

(١) جور: مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخًا، وهي في الإقليم الثالث... والعجم تسميها كور، وكور اسم القبر بالفارسية، وهي مدينة نزهة طيبة... (معجم البلدان).

(٢) الأسوار: قائد الفرس؛ أو الجيد الرمي بالسهام وغيرها. والأصل أساورة الفرس وكانوا رماة الحدق.

(٣) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان.. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر غزو طبرستان

في سنة ثلاثين غزا سعيدُ بنُ العاص عاملُ الكُوفَة طَبَرِسْتان ومعه الحسنُ والحسينُ وابنُ عبّاسٍ، وابنُ عُمر، وعبدُ الله بنُ عمرو بن العاص وحذيفةُ بنُ اليمانِ، وابنُ الزُّبير وغيرهم، ولم يَغْزُها غيْرُه أحد على أصحّ الأقوالِ.

وقد ذكرْنا فيما تقدّمَ في خلافة عمر رضي الله عنه فتحَها، والخلاف فيه.

قال: فأتَى سعيدٌ جُرجانَ، فصالحوه على مائتي ألفٍ، ثم أتى طَمِيسة وهي كلُّها منْ طبرستان، مُتاخمة جُرجانَ على البَحر، فقاتَله أهلُهَا، فصلَّى صلاةَ الخَوْف وحاصَرهُم، فسألوه الأمانَ فأعطاهم، عَلَى ألاَّ يَقْتُلَ منهم رجلاً واحدًا، واحتَوَى على ما في الحصْنِ، وفتح سعيدٌ ناميَة، وليست مدينة، هي صحارى. والله أعلم.

ذكر غزو الصواري

كانت هذه الغزوة في سنة إحدى وثلاثين، وقيل في سنة أربع وثلاثين، وكان سببها أنَّ المسلمينَ لمّا فعلوا بأهل إفريقيّة ما فعلوا عند فتحها، عَظُمَ ذلك على قُسْطَنْطين بنِ هرَقْل، فخرج في جمعٍ لم يجمع الرُّومُ مثلَه مذ كان الإسلام.

قيل: خرج في خمسمائة مركبٍ، وقيل: في ستِّمائة، وخرج المسلمون، وعلى أهل الشَّام معاويةُ بنُ سفيان، وعلى البحرِ عبدُ الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح، فالتقَوْا، وقرَّبوا السُّفنَ بعضَها إلى بعض، فاقتتلوا بالسُّيوف والخناجرِ، فأنزل اللّهُ نصْرَه على المسلمين، فانهزَم قُسْطَنْطين جريحًا، ولم يَنْجُ من الرُّومِ إلا الشَّريد، وأقام عبدُ الله بنُ سعدٍ بذات الصَّواري بعدَ الهزيمة أيَّامًا ورجع.

وأمّا قُسْطَنْطين فإنّه وصلَ في مَركَبه إلى صِقلِّيَة، فقال أهلُهَا: أهلَكْتَ النَّصْرانيَّةَ، وأفنَيْتَ رِجالَها، لو أتانا أهل المغرب لم يكُنْ عندنا من يَمنعُهُمْ، ثم أدخَلوه الحَمّام وقَتَلوه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر مقتل يزدجرد آخر ملوك بني ساسان

قال: لمّا فتح عبدُ الله بنُ عامرٍ بلادَ فارسَ على ما قدَّمناه، هَرَب يزدجردُ إلى خُراسان، فوجّه عبدُ الله في طلبِه مجاشعَ بن مسعودٍ وقيل: غيره، فأتبعه إلى كرْمان، وكثُر الثَّلجُ والبرْدُ، فهلك جيْشُ مجاشعٍ، ورَجَع هو.

واختُلفَ في قتْلِ يَزْدَجِرْد، فقيل: هَرَب من كرْمانَ إلى مَرْوَ ومعه خُرَّزَاذ أخو رُسْتُم، فرجعَ عنه إلى العراقِ، وأوْصَى به ماهَوَيْه مرزُبانَ مَرْو، فسأله يَزْدَجِرْد مالاً فمنَعَه مخافةَ أهل مَرْو على أنفسهم فأرْسَلُوا إلى التُرك يَسْتَنْصرُونَهم عليه، فأتَوْه فبيَّتوه وقتَلوا أصحابه، فخرج ماشيًا إلى وَسَط المَرْغاب[1]، فأوى إلى بيْت رجلٍ ينقرُ الأرْحاءَ[2]، فلما نام قتَلَهُ.

وقيل: بل قتَله أهلُ مَرْو، ولم يستنصرُوا بالتُّرْك. وقيل: غيرُ ذلك، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ، وهو حَسْبي.

ذكر فتح خراسان

قال: كان أهلُ خُراسانَ قد غَدَروا لمّا قُتلَ عمرَ بنُ الخطَّاب رضي اللّهُ تعالى عنه، ونَقَضُوا، فلمّا افتتحَ عبدُ الله بنُ عامر بلادَ فارسَ عادَ إلى البَصْرة، واستخلَفَ على إصْطَخر شرِيكَ بنَ الأعورِ الحارثيّ، فبنى شَريك مسجد إصْطَخْر، ثم تجهَّزَ ابنُ عامرٍ من البصرة، واستخلفَ عليها زيادَ ابنَ أبيه، وسار إلى كِرْمان واستعملَ عليها مجاشعَ بنَ مسعود السُّلَمي، وله صحبةٌ، وأمرَه بمحاربة أهلها، وكانُوا قد نكَثُوا.

واستعمَل على سجستانَ الربيعَ بنَ زياد الحارثيّ، وكانُوا قدْ أعدُّوا له أيضًا، ونَقَضُوا الصُّلْحَ.

وسار عبدُ الله بنُ عامرٍ إلى نيسابورَ، وعلى مقدّمَته الأحنف بنُ قيس، فأتى الطَّبَسَيْن، وهما حصْنان، وهما بابَا خُراسانَ، فصالَحه أهلُهَا، وسار إلى قُوهِسْتانَ فقاتَلَهُ أهلُها، فقاتَلَهُمْ حتَّى ألجأهم إلى حصنِه، وقَدم عليه ابنُ عامرٍ، فصَالَحه أهلُهَا على ستِّمائة ألف درْهَم، وبثَّ سراياه فَفَتَحت البلادَ، وفتحَ بهقَ، وبُشت[3]، (وهي بالشِّين المعجمة)، وليست بُسْت المعروفة، ثم فتحَ نيسابورَ بَعْدَ أنِ استولَى عَلَى أعمالها، وبعد أن حاصَرَها أشهرًا.

---

(١) المرغاب: قرية من قرى هراة ثم من قرى مالين. . .

(٢) الأرحاء: واحدتها الرحى، وهي الأداة التي يطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.

(٣) بشت: بالضم: بلد بنواحي نيسابور. . وهي كورة قصبتها طريثيت. . . وتشتمل على مائتين وست وعشرين قرية منها كندر التي منها الوزير أبو نصر الكندري. . وقد ينسب إليها جماعة كثيرة في فنون العلم. . . (معجم البلدان لياقوت).

وكان لكلّ ربع منها مَرْزبان من القُرى يَحفَظه، فطلبَ أحدُهم الأمان والصُلْح على جميع نيسابورَ، فصالحَه على ألف ألف درهم، وولّى نيسابورَ قيسَ بنَ الهيثَم السُلَميّ، وسيَّر جيْشًا إلى نَسا[١]، وبيوَرْد ففتحوهما صُلْحًا، وسيَّر سَريَّةً أُخرى إلى سَرْخَس، فقاتَلَ أهلَها، ثم طلَبُوا الأمانَ والصُلْحَ على مائة رجل، فصالح مَرْزُبانها على ذلك، فأُجيب إلى ذلك، وسَمَّى مائة رجلٍ، ولَم يذكر نفْسَه، فَقَتَله، ودَخَل سَرْخَس عَنْوةً، وأتى مَرْزبان طُوس إلى عبد الله، فصالحَه على ستِّمائة ألف درْهَم.

وبعثَ جيْشًا إلى هَراة عليهم عبدُ الله بنُ خازم، وقيل غيره، فسار مَرْزُبانُهَا إلى ابن عامرٍ وصالحه على هَراةَ، وباذَغيس وبُوشَنْج على ألفَيْ ألف درْهم، ومائَتَيْ ألف درْهم.

وكانتْ مَرْوُ كلُّها صلحًا إلا قريةَ السِّنْج[٢]، (وهي بكسر السين المهملة)، فإنَّها فُتِحَتْ عنوةً.

ووجَّه الأحنفَ بنَ قيس إلى طَخارِسْتانَ، فمرَّ برُسْتاقٍ يُعْرَفُ برُسْتاقِ الأحنف، فصالحُوه على ثلاثمائة ألف درهم، ومضى إلى مَرْوِ الرُّوذ، فقاتله أهلُهَا، فهزَمَهم، ثم صالحهم مرزبانُهَا على ستِّمائة ألف درْهَمٍ.

فاجتمع أهلُ طَخارستان والجُوزجَان والطَّالقان، والفارِياب ومَن حَولَهم، فلقوْه في خلقٍ كثير، فالتقَوْا واقتتلُوا، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم قتلاً ذريعًا، وعاد إلى مَرْو الرُّوذ، ولَحق بعضُ العدوّ بالجُوزجان، فوجَّه إليهم الأحنفُ بنُ قَيس الأقْرعَ بنَ حابِسُ التَّميميّ في جيشٍ، وقال: يا بني تميم، تحابُوا وتَباذَلوا تَعتدلْ أمورُكم، وابدؤوا بجِهاد بطُونكم وفُروجِكُمْ يَصْلُحْ لكم دينكُمْ، ولا تَغُلُّوا فيَسلَم لكُمْ جهادكُمْ.

فسار الأقرعُ فلقيَ العدوَّ بالجُوزجان[٣]، فكانت بالمسلمين جَوْلةٌ، ثم عادوا

---

(١) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام... وهي مدينة وبئة جدًا يكثر بها خروج العرق المديني حتى أن الصيف قلّ أن ينجو من أهلها...

(٢) سنج: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره جيم: وهي من أعظم قرى مرو الشاهجان على نهر هناك يكون طولها نحو الفرسخ إلا أن عرضها قليل جدًا. بنيت دورها على النهر ثم صارت مدينة عظيمة جدًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) جوزجان وجوزجانان واحد: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار، وبها قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وقد نسب إليها جماعة كثيرة... (معجم البلدان).

فهزموا المشركين وفتحوا الجُوزجان عَنْوةً، وفَتح الأحنفُ الطالقان صُلْحًا، وفَتَحَ الفارياب، وقيل: بل فتَحَها أميرُ بنُ أحمرَ.

ثم سار الأحنفُ إلى بَلْخ، وهي مدينةُ طخارِسْتان، فصالحه أهلُهَا على أربعين ألف. وقيل: سبعمائة ألف.

فاستعملَ على بَلْخ أسيدَ بنَ المُتَشَمِّس، ثم سار إلى خُوارزْم، وهي على نَهْر جَيْحون، فلم يَقدرْ عليها، فعاد إلى بَلْخ.

ولمّا تمَّ هذا الفتحُ لعبد الله بن عامرٍ، قال النَّاسُ: ما فُتِحَ لأحَدٍ ما فتِح عليك فارس، وكرْمان، وسجِسْتَان، وخُراسان، فقال: لأجعلنَّ شكْرِي لله على ذلك؛ أنْ أخرجَ محرِمًا من موقِفي هذا. فأحرمَ بعُمْرةٍ منْ نَيْسابور.

وقَدمَ على عُثمَان، واستخلفَ على خُراسانَ قيسَ بن الهَيْثم، فسار قيسٌ في أرضِ طخارِسْتان، فلَمْ يأْت بلدًا منها إلا صالحَه أهلُهَا، وأذْعَنوا له، إلا سِمِنْجان[1]، فإنَّه فتَحَها عنوةً. والله سبحانه وتعالى أعلم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ذكر فتح كرمان

قال: لمّا سار عبدُ الله إلى خُراسان استعمل مُجاشعَ بنَ مسعود السُلَميّ على كرْمانَ كما ذكرنا، وأمَرَه أن يفتَتِحَها، وكان أهلُها قد نكَثُوا وغدَرُوا، ففتحَ هميد عنْوةً، واستَبْقَى أهلَها وأمَّنهم، وبنى بها قَصْرًا يُعْرَفُ بقصْرِ مُجاشع، وأتى السِّيرجان، وهي مدينة كَرْمان فأقام عليها أيّامًا يسرةً، وقد تحصَّن أهْلُها فقاتَلَهم وفتَحها عنوةً، فجلا كثيرٌ من أهلها.

وفتح جِيرَفْت عَنوةً، وسار في كرمانَ فدَوَّخ أهلَها، وأتى القُفْص[2] وقد تجمَّع له خلق كثيرٌ من الأعاجم الذين جَلَوْا، فقَاتَلهم، فظَفر بهم وَظَهر عليهم، وهرَب كثيرٌ من أهل كرْمان، فركبوا البحرِ ولحقَ بعضهم بمُكْران، وبعضهُم بسِجِسْتان، فأُقْطِعَتِ العربُ منازلَهم وأراضيَهم، واحتَفَروا لها القُنِيَّ في مواضعَ منها، وأدّوْا العُشْر منها. والله تعالى أعلَم، وصلَّى الله على سيّدنا محمد وصحبه وسلَّم.

---

(١) سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ وبغلان، وبها شعاب كثيرة، وبها طائفة من عرب تميم، ومن بلخ إلى خلم يومان، ومن خلم إلى سمنجان خمسة أيام...

(٢) القُفص: قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريب من بغداد وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزه، ومجالس الفرح، تنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة...

ذكر فتح سجستان وكابل(١) وغيرها

قد ذكرْنا أنَّ عبدَ الله بنَ عامر استعمل على سِجستان الربيعَ بن زِياد الحارثيّ وسِجِسْتان من الفُتوحات في خلافة عُمَر، ولمّا نقض أهلُهَا؛ سَار الربيعُ وقطعَ المفازَةَ حتى حصْن زالق، فأغارَ على أهله في يوم مِهْرجان وأخذ الدهْقان، فافتَدى نفسَه بأنْ ركز عنزَةَ(٢) وغَمَرها ذهبًا وفضّةً، وصالحه على صُلْح فارس، ثم أتى بلدةً يُقَال لها: كَرْكُويه فصالحه أهلُهَا، وسار إلى زَرَنْج، فنزل على مدينة روشت بقرب زَرَنْج(٣)، فقاتله أهْلُهَا وأُصيبَ رجالٌ من المسلمينَ، ثم انهزم المشركون، وقُتلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ.

وأتى الرَّبيعُ ناشِرُوذ ففتَحها، ثم شَرْواذ فَغَلب عليها، وسار إلى زَرَنْج فنازلَهُ أهلُها، فهزَمَهم وحصَرَهم، فأرسلَ إليه مَرْزُبانُها ليصالِحه واستأْمَنَه ليحضُر عنده، فأمَّنَهُ، وجلس الربيعُ على جَسَدٍ منْ أجساد القتْلَى، واتَّكأ على آخر، وأمر أصحابَه ففعَلوا مثْلَه، فلمّا رآهم المَرْزُبان هالَه ذلك، فصالَحه على ألف وصيف(٤) مع كُلِّ وصيف جامٌ(٥) منْ ذَهَبٍ ودخل المسلمون المدينةَ.

ثم سار منها إلى سَناروذ، وهوَ وادٍ، فعَبرَه، وأتَى القريةَ الَّتي بها مَرْبط فرس رُسْتُم الشَّديد، فقاتلَهُ أهلُهَا فظَفر بهم، ثم عاد إلى زَرَنج وأقام بها نحوَ سنةٍ، وعاد إلى ابن عامرٍ، واستخلفَ عليها عاملاً، فأخرجَ أهلُها العاملَ، وامتنعُوا.

فكانت ولايةُ الرَّبيع سنةً ونصفًا، سَبَى فيها أربعين ألفَ رأْسٍ.

وكان كاتِبُه الحسَنُ البصريّ، فاستعمل ابنُ عامر عبدَ الرَّحمٰن بنَ سَمُرة بن حبيب بن عبدِ شمس على سجستان، فسار إليها، فحصَرَ زَرَنْج، فصالَحَهُ مَرْزبانُها على ألفي ألف دِرْهم وألف وصيف.

وغلبَ عبدُ الرّحمنِ على ما بين زرَنج والكَشّ(٦) من ناحية الهند، وغلبَ من ناحية الرُّخّج على ما بينه وبين الداون، فلمّا انتهى إلى بلد الداون وحصَرهم في جبلِ

---

(١) كابل: قال ابن الفقيه: كابل من ثغور طخارستان، ولها من المدن: واذان وخواش، وخشك، وجزه.. وبكابل عود ونارجيل وزعفران وإهليلج لأنها متاخمة للهند... (معجم البلدان).

(٢) العنزة: رميح بين العصا والرمح، فيه زج.

(٣) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلها.

(٤) الوصيف: الخادم، غلام كان أو جارية.

(٥) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها.

(٦) الكش: بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على جبل، ينسب إليها أبو زرعة محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد بن الجنيد الكشي الجرجاني...

الزُّوز، ثم صالَحهم ودخلَ الزُّوز، وهو صَنَمٌ من ذهب عيْناه ياقُوتَتَانِ، فقطع يَده وأخذ الياقوتتين وقال لَلمرزُبان: دُونَك الذَّهبَ والجوْهَرَ، وإنَّما أردتُ أنْ أُعْلِمَكَ أنَّه لا يَضرّ ولا ينفعُ.

وفتحَ كابُل، وزابُلستان، وهي ولاية غزنة، ثم عادَ إلى زَرَنْج، فأقامَ بها حتى اضطربَ أمرُ عثمان، فاستخلفَ عليها أميرَ بنَ أحمر، وانصرف فأخرجَ أهلُهَا أميرًا وامتَنَعوا.

* * *

وفي سنة اثنتين وثلاثين غزا معاويةُ بنُ أبي سفيان مضيق القُسطنطينيّة ومعه زوجَتُه عاتكة بنتُ قَرَظَة، وقيل: فاختة. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب، وإليه المرجعُ والمآب.

ذكر خروج قارن ببلاد خراسان وقتله

في سنة اثنتين وثلاثين جَمَعَ قارِن جمعًا كثيرًا من ناحية الطَّبَسَين وأهل باذغيس وهَراةَ وقُهِسْتان، وأقبل في أربعين ألفًا.

وقال قيسُ بن الهيثَم أميرُ خراسانَ منْ قِبَلِ ابن عامرٍ لعبد الله بن خازم: ما تَرى؟ فقال: أرى أن تُخلِّيَ البلادَ؛ فإنّي أميرُها، ومَعِي عهدُ ابنِ عامِر؛ إن كانت حَرْبٌ بخُراسَانَ فأنا أميرُها، وأخرج كتابًا كان قد افتعَله، فكَرِه قيسٌ منازَعتَهُ وخلاَّه والبلادَ.

وأقبلَ إلى ابنِ عامرٍ فلامَه، وقال: تركْتَ البلادَ خرابًا، وأقبلْتَ! فقال: جاءني تعهُّدك..

ولمّا توجّه قيسُ بنُ خازمٍ إلى قارِن في أربعةِ آلافٍ، أمرَهم أن يحمِلوا الوَدَكَ[1]، فلمّا قرُبوا من ذلك، وقَرُبَ مِن الوَدَك، أمرَ النَّاسَ أن يُدرِجَ كلُّ رجلٍ منهم على زُجِّ رمحه خرقةً أو قُطْنًا، ثم يكثِروا دهنَه، ثم سار حتَّى أمسَى، فقدّم أمامه ستمائةً من أصحابه، ثم اتَّبعهم، وأمرَ النَّاسَ أنْ يُشعلُوا النيران في أطراف الرِّماح، وانتهتْ مقدّمته إلى معسكر قارن نصفَ اللّيلِ فناوَشوهُمْ، وهاج النَّاس على دَهَش، وكانُوا قد أمِنوا من البَيات، ودنا ابن خازِم منهم، فرأوا النيرانَ يَمْنةً ويَسْرة تتقدّم وتتأخَّرُ، وترتفعُ وتنخفضُ، فهالَهم ذلك وأهلُ المقدّمة يقاتلُونَهم ثم غشيَهُمْ ابنُ خازم بالمسلمين، فقُتِلَ قارن وانهزمَ المشركون، واتبعوهم يقتُلونَهم كيف شاؤوا، وأصابُوا سَبْيًا كثيرًا.

---

(١) الودك: الدسم؛ أو دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه؛ أو شحم الألية والجنبين في الخروف والعجل.

وكتبَ ابنُ خازم بالفتحِ إلى ابنِ عامرٍ، فرضيَ وأقَرَّهُ على خُرَاسَان، فكان عليها حتَّى انقضَتْ حَرْبُ الجَمَل.

وقيل: لمّا جمع قارن، استشار قيس بنُ عبد الله عبدَ الله بنَ خازِم فيما يَصنعَ؟ فأشار عليه أن يلحقَ بابنِ عامرٍ، فيخبِرُه بكثرة العدوّ، وقال له: إنك لا تُطيقُ كثرةَ مَنْ قد أتاك، فاخرجْ بنفسكَ ونقيمُ نحن بالحصونِ ونُطاولهم حتَّى يأْتيَنا مَددُكُم.

فخرجَ قيس، فلمّا أُبعدَ، أظهرَ ابنُ خَازِم عَهْدًا، وقال: قد ولأني ابنُ عامرٍ خُراسانَ، وسار إلى قارِن فظَفِر بِه كما تقدَّمَ.

وفي سنة ثلاث وثلاثين غزا معاويةُ حصْنَ المرأة من أرض الرّومِ، بناحية مَلَطْيَةَ(١).

وفيها سار الأحنفُ بنُ قيسٍ إلى خُراسانَ، وفتحَ المَرْوَيْن: مَرْو الرُّوذ ومَرْو الشَّاهجان.

* * *

انتهتْ الفتوحاتُ والغزواتُ، والله سبحانه وتعالى أعلَمُ بالصواب. وإليه المرجعُ والمآب، وحسبنا اللّهُ ونعم الوَكيلُ وصلَّى الله على سيّدنا مُحمّد.

ذكر ما وقع في خلافة عثمان
غير الغَزَوات والفُتوحات على حُكْم السِّنين

سنة أربع وعشرين

في هذه السّنة كَثُرَ الرُّعافُ بالنَّاس، فسمِّيَ عامَ الرُّعاف.

وفيها استَعمل عثمانُ سعدَ بنَ أبي وَقَّاص على الكُوفة، وعَزلَ المغيرةَ بنَ شُعْبة عنها، فعمل سعدٌ عليها سنةً وبعضَ أُخرى.

وقيل: بل أقرَّ عثمانُ عُمَّالَ عمر رضي الله عنه سنةً؛ لأنَّ عمرَ رضي الله عنه أوصَى بذلك، ثم عزلَ المغيرةَ، واستعملَ سعدًا.

وحجّ عثمانُ بالنَّاس.

* * *

(١) ملطية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الطاء، وتخفيف الياء: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين... (معجم البلدان).

سنة خمس وعشرين

في هذه السَّنَة عزلَ عثمانُ سعدَ بنَ أبي وقَّاص عن الكُوفة في قول بعضهم، واستعملَ الوليد بنَ عقبة بن أبي مُعَيط بنِ أبي عَمرو ذَكْوان بن أُميَّة بن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمِّه، وسبب ذلك أنَّ سعدًا رضي الله عنه اقترضَ من عبد الله بنِ مَسْعودٍ[١] قَرْضًا، فلمّا تقاضاه ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه لم يتيسَّر له قضاؤه، فارتفع بينهما الكلامُ.

فقال سعدٌ: ما أراك إلاَّ ستَلْقى شرًّا، هل أنت إلاَّ ابن مسعودٍ، عبد مِنْ هُذَيل! فقال: أجَلْ، والله إنِّي لابْنُ مسعودٍ، وإنَّكَ لابن حُمَيْنة.

وكان هاشم بن عُتْبَة بن أبي وَقَّاص حاضرًا فقال: إنكما لَصاحبَا رسولِ الله ﷺ، يُنظَر إليكما. ثمّ ولّى عبدُ الله، فخرج واستعان بأُناسٍ على استخراجِ المالِ منْ سَعْدٍ، واستعانَ سعدٌ بأُناسٍ على إنظاره، فافترَقوا وبعضُهم يلُومُ بعضًا.

فكان ذلك أوّل ما نَزَغَ[٢] به الشيطانُ بين أهل الكوفة، وأوّل مِصَرٍ نزغ الشيطانُ بين أهله الكُوفة.

وبلغ الخبرُ عثمانَ، فَغَضبَ وَعزَلَ سعدًا، وأقرّ عبد الله، واستعملَ الوليدَ بنَ عُقْبة مكان سَعْدٍ، وكان على عرب الجزيرةَ عاملاً لعمر، وعثمان بعدَه، فلمّا قَدمَ الكُوفة قال له سعد: أكِسْتَ[٣] بعدنا أم حمُقنا بعدَك! قال: لا تجزعَنَّ أبا إسحاق، كُلُّ ذلك لم يكن؛ وإنما هو المُلكُ يتغدَّاه قومٌ ويتعشَّاه قومٌ آخرون. قال سعد: أراكم والله ستجعلُونَها مُلْكًا.

وقيل: لمّا قدم الوليدُ أميرًا على الكوفة، أتاه ابنُ مسعودٍ فقال: ما جاء بِك؟ فقال: جِئْتُ أميرًا. قال ابنُ مسعود: ما أدْرِي صَلحتَ بَعْدَنا أم فسدَ النَّاسُ!.

وفيها وُلدَ يزيدُ بنُ معاوية، وقيل: في سنة اثنتين وعشرين وقد تقدّم.

وحجّ بالنَّاس عثمانُ.

* * *

(١) عبد الله بن مسعود: من بني صاهلة، وهو من المهاجرين الأولين، وله فضائل كثيرة معروفة... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) نزغ: أفسد، وحمل بعض القوم على بعض.

(٣) كاس: عقل وظرف وفطن.

سنة ست وعشرين

في هذه السنة زاد عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه في المسجد الحرام ووسَّعَه، وابتاعَ أملاكَ قَوْمٍ وامتَنَع آخرون، فهَدمَ عليهم، ووضع الإيراد في بيت المال، فصاحُوا بعُثْمانَ فحبسهم، وقال: قد فَعَل بكم عمرُ هذا فلَم تصيحُوا! فكلَّمَهُ فيهم عبدُ الله بنُ خالد بن أَسيد فأطلقَهُم.

وفيها استَعمل عثمانُ رضي الله عنه عبدَ الله بن أبي سَرْحٍ على مصر، وكان أخا عثمانَ منَ الرَّضاعة، وعزلَ عمرو بنَ العاص.

* * *

سنة سبع وعشرين

في هذه السنة حجَّ عثمانُ بالنَّاس.

وفيها من الغَزَوات ما تقدَّم بيانهُ.

* * *

سنة ثمان وعشرين

في هذه السَّنَة تزوَّجَ عثمانُ نائلَة بنت الفَرافصَة، وكانت نصرانيّة، فأسلمتْ قبلَ أنْ يَدخلَ بها.

وفيها بَنى عثمانُ رضي الله عنه الزَوْراء.

وحجّ بالنَّاس عثمانُ رضي الله عنه في هذه السّنة.

* * *

سنة تسع وعشرين

ذكر عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن العاص عن عمان والبحرين واستعمال عبد الله بنِ عامر على ذلك

قيل: كان عزلُ أبي موسى الأشعريِّ عن البصرة، وعَزْلُ عثمانَ بن أبي العاص عن عُمانَ والبحريْنِ، واستعمالُ عبد الله بن عامر على أعمالها في هذه السَّنة.

وقيل: كان لثلاث سنينَ مضَت منْ خلافة عثمانَ وكان سبب عزل أبي موسى أن

أهل إيذَج[١] والأكراد كَفَروا في السنة الثالثة من خلافة عثمان فنادَى أبو موسى في النَّاس وحضَّهم على الجهاد، وذَكَر من فَضْلِ الماشي للجهاد ما ذكر، فحَمَل قومٌ على دَوابِّهم، وأجمعوا على أن يَخرجُوا رَجَّالةً لينالوا فضل الماشي.

وقال آخرون: لا نعْجل حتَّى ننظُر ما يَصْنع، فإنْ أشبه قولَه فعلُه فعلْنا كما يفعَلُ، فلمّا خرجَ أخرجَ ثَقَلَه على أربعين بغلاً، فعلقوا بعنانِ دابّته، فقالوا: احملْنا على بعض هذه الفضول، وارغَبْ في المَشْي كما رَغَّبتنا، فَضَرَبهم بسَوطٍ، وتركوا دابَّته، وأتَوْا عثمان فاستعفَوْهُ منه، وقالوا: ما كلُّ ما نعلم نُحبّ أن تسألَنا عنه، فأبدلْنا ما سواه، فقال: مَن تحبُّون؟ فقال: غيلان بن خرَشةَ، وفي كلِّ أحدٍ عوضٌ منْ هذا العبد الذي قد أكلَ أرْضَنَا أما منكم خسيس فتَرفعُونه! أما منكم فقيرٌ فتجبرونه. يا مَعشرَ قريش حتَّى متى يأكُلَ هذا الشيخُ الأشعريّ هذه البلاد!

فعزل عثمانُ أبا موسى؛ وأمَّرَ عبدَ الله بن عامر بن كُرَيْز بن حبيب بنِ عبد شمس بنِ عبد مناف بنِ قُصَيّ القرشيّ العَبْشَميّ، وهو ابن خال عثمان، وممّن وُلدَ على عهد النَّبيّ ﷺ.

وعزل أيضًا عثمانُ عثمانَ بن أبي العاص عن عُمَان والبحريْن، واستعملَ عبدَ الله على ذلك كُلِّه، وكان إذْ ذاك ابنَ خمسٍ وعشرين سنة.

واستعمل عثمانُ رضي الله عنه على خُراسانَ عميرَ بن عثمان بن سَعدٍ، فأثْخَنَ في خُراسَان حتَّى بلغَ فَرْغانة، فلم يَدعْ دُونَها كُورةً إلا أصلَحها.

واستعملَ على سجستانَ عبدَ الله بنَ عُمَير اللَّيثي، فأثخَن فيها إلى كابُل.

وبعث إلى مُكران عبيد الله بن مَعمَر، فأثخنَ فيها حتى بلغ النَّهر وبعثَ على كَرْمانَ عبدَ الرَّحمٰن بنَ عُبَيْس.

ثم عزلَ عبدَ الله بن عُمَير عنْ سجستان. واستعملَ عبدَ الله بنَ عامرٍ فأقرَّهُ عليها سنةً ثم عزَلَه. واستَعمَل عاصم بنَ عمرو، وعزل عبدَ الرحمٰن بنَ عُبَيْس، وأعادَ عديَّ بن سُهَيل، وصرفَ عبدَ الله بنَ مَعمر إلى فارِسَ، واستعملَ مكانه عميرَ بنَ عثمانَ، واستعمل على خُراسانَ أميرَ بن أحمرَ اليَشْكُريّ، واستعمل على سِجستانَ في سنة أربع عمرانَ بن الفَضْل البُرْجُميّ.

(١) إيذج: الذال معجمة مفتوحة، وجيم: كورة وبلد بني خوزستان وأصبهان، وهي أجل مدن هذه الكورة.. وهي في وسط الجبال، يقع بها ثلج كثير يحمل إلى الأهواز والنواحي وشربهم من عين شعب سلمان، ومزارعهم على الأمطار، ولهم بطيخ كثير وهو في هوّة؛ وقنطرة إيذج من عجائب الدنيا المذكورة لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر الزيادة في مسجد النبيّ ﷺ

وفي سنة تسع وعشرين أيضًا في شهر ربيع الأول، زادَ عثمانُ رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ، فجعلَ طُولَه ستين ومائةَ ذراع وعرْضَه خمسين ومائة ذراعٍ، وجعَلَ أبوابه على ما كانت أيامَ عمرَ ستَّةَ أبوابٍ، وبناه بالحجارةِ المنقوشة، وجعَل عَمَده من حجارَة فيها رَصاصٌ. والله تعالى أعلمُ وهو حسبي.

ذكر إتمام عثمان الصلاة
وما تكلم الناس به في ذلك

وفي هذه السَّنَةِ حجَّ عثمانُ رضي الله عنه بالنَّاسِ، وضرب فسْطَاطَه بِمنًى، وهو أوَّلُ فُسْطَاطٍ ضُرِبَ بِمنًى، وأتمَّ الصلاَةَ بها وبعرَفة، فكان أوّل ما تَكلَّم به النَّاسُ في عثمانَ ظاهِرًا حين أتمَّهَا، فعاب عليه ذلك غيرُ واحدٍ من الصَّحابة، وقال عليٌّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: ما حَدَث أمرٌ، ولا قَدُم عَهْد، ولقد عهدتُ النبيَّ ﷺ، وأبا بكرٍ وعُمرَ يُصَلُّون ركعتيْن، وأنتَ صَدْرًا من خِلاَفَتِكَ. فقال: رَأْيٌ رأيْتُهُ.

وبلغ الخبرُ عبدَ الرّحمٰن بنَ عَوْفٍ، وكان معه، فجاءه وقال: أَلم تُصَل في هذا المكان ركعتيْن مع رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ وعُمرَ، وصلَّيْتهما أنتَ! قال: بلى؛ ولكني أُخْبِرتُ مِنْ بعض النَّاسِ أنَّ بعضَ مَنْ حجَّ من اليَمَن وجُفَاةِ النَّاس قالوا: إنَّ الصلاَةَ للمقيمِ ركعتان، واحتجُّوا بصَلاَتي، وقد اتَّخذتُ بمكّة أهلاً ولِي بالطَّائِف مال.

فقال له عبدُ الرحمٰن: ما في هذا عُذْرٌ، أمّا قولُكَ: اتخذتُ بها أهلاً، فإنَّ زوجَكَ بالمدينةِ تخرج بها إذا شئتَ، وإنما تسْكُنُ بسُكْنَاك. وأما مالَك بالطَّائِفِ فبينَك وبينه مسيرةُ ثلاثِ ليالٍ. وأمّا قولُكَ عن حاجّ اليمنِ وغيرهم فقد كان رسولُ اللّهِ ﷺ ينزل عليه الوحْيُ والإسلامُ قليل، ثم أبو بكر وعمر، فصلَّوْا ركعتَين، وقد ضَرَبَ الإسلامُ بجِرانِه[1]. فقال عثمان: هذا رأْيٌ رأيتُه.

وقيل: كان ذلك سنة ثلاثين، والله أعلم.

* * *

(١) ضرب الإسلام بجرانه: أي ثبت واستقر.

سنة ثلاثين

ذكرُ عَزْلِ الوليد بنِ عقبة عن الكوفةِ وولايةِ سعيد بنِ العاص

في هذه السنة، عَزَل عثمانُ رضي الله عنه الوليدَ بنَ عُقْبة عن الكُوفة، واستعملَ عليها سعيدَ بنَ العاصِ، وكان سببُ عزله أنَّ أهلَ الكوفةِ نسبوه أنّه يَشربُ الخَمرَ، وذكروا ذلكَ لعثمان، فاستَدْعاه وطلب مَن ذَكَر ذلك عنه، فقال: أتشهدونَ أنّه يشربُ الخمرَ؟ فقالوا لا، قال: فكيف قُلْتُم عنه إنّه شَرِبها؟ فقالوا اعتصَرْناها من لِحيتِهِ، وهو يقيء الخمرَ، فأمرَ بجَلْده، فجلده عبدُ الله بنُ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ أربعين.

وقيل: إنَّ الوليدَ سَكِرَ وصلّى بأهلِ الصُّبْحِ أربعًا، ثم التفتَ إليهم وقال: أزيدُكُم؟ فقال ابنُ مسعودٍ: ما زلنا مَعَك في زيادةٍ مُنْذُ اليوم، فقال الحُطيئة: [من الكامل]

شَهِد الحُطَيئةُ يومَ يَلقَى ربَّهُ ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
نادَى وقد تمَّتْ صلاتُهُمُ ... أأزيدُكُم؟ سكرًا وما يدْري
فأبَوْا أبا وَهْبٍ ولو أذنوا ... لقرنْتَ بين الشَّفْعِ والوتْرِ[1]

وقال أيضًا: [من الوافر]

تكلَّمَ في الصَّلاةِ وزادَ فيها ... علانيةً وجاهَرَ بالنِّفَاقِ
ومَجَّ الخمرَ في سَنَنِ المصلَّى ... ونادَى والجميعُ إلى افتراقِ
أزيدكُم على أنْ تَحمدُوني ... فما لكُمُ وما لِي مِنْ خَلاقِ[2]!

قالوا: ولمّا استُعملَ سعيدُ بنُ العاص، قال بعضُ شعرائِهم: [من الوافر]

فررْتُ مِن الْوليدِ إلى سعيدِ ... كأهلِ الحِجْر إذْ جزِعوا فَباروا[3]
يُلينا من قريشٍ كُلَّ يومٍ ... أميرٌ محدِثٌ أو مُستشارُ
لنا نارٌ نُخَوِّفُها فَنخشَى ... وليس لهمْ ولا يخشَوْنَ نارُ

قال: واستعمَل عثمانُ سعيدَ بنَ العاص بن سعيد بنِ العاص بن أُميّةِ وهو والد عَمرو بن سعيد الأشدق، فسار إلى الكوفة ومعه مَنْ كان قد شَخَص من أهلِ الكوفةِ مع الوليدِ، فلمّا وصَلَها صَعِد المنبرَ، فحمدَ اللّهَ وأثنى عليْه ثم قال: والله لقد بُعِثْتُ

---

(١) الشفع: ما شفع غيره وجعله زوجًا، وهو خلاف الوتر. والوتر: الفرد.

(٢) الخلاق: الحظ والنصيب من الخير. (٣) بار: هلك.

إليكُمْ وإني لكارهٌ؛ ولكنّي لم أجِدْ بُدًّا إذ أُمِرْتُ أنْ أأْتَمِرَ. ألاَ إنَّ الفِتْنَةَ قد أطلعتْ خَطْمَهَا[١] وعينيْها، وواللّهِ لأضربَنَّ وَجْهَهَا حتَّى أقْمَعَها أو تُعْيِيني، وإنِّي لرائدٌ نفسي اليومَ. ونَزَل.

وسأل عَن أهْل الكوفةِ، فعرفَ حالَ أهلِها، فكتبَ إلى عثمان: إنَّ أهلَ الكوفةِ قد اضطربَ أمْرُهم، وغُلِب أهلُ الشرفِ منهم والبيوتاتِ والسابقةِ، والغالبُ على تلك البلادِ روادِفُ قدِمَتْ، وأعرابٌ لحقَتْ حتى لا يُنظَر إلى ذي شرفٍ ولا بَلاءٍ من نازلتِها ولا نابتتِها.

فكتب إليه عثمان: أمَّا بعد، ففضِّل أهلَ السَّابقةِ والقدمةِ، مِمّن فَتَحَ اللّهُ عليه تلك البلادَ؛ وليكنْ من نَزَلها غيرهم تبعًا لهم إلاَّ أنْ يكونوا تَثَاقلوا عن الحق، وتركوا القيامَ به، وقام به هؤلاء. واحفَظْ لكلٍّ منزلتَهُ، وأعطِهم جميعًا بِقِسْطِهم من الحقِّ، فإنّ المعرفة بالناسِ بها يُصَاب العدْلُ.

فأرسَل سعيدٌ إلى أهلِ الأيام والقادِسيَّةِ، فقال: أنْتُم وجوهُ النَّاس، والوجْهُ ينبىء عن الجسد، فأبْلِغُونا حاجةَ ذي الحاجَةِ. وأدخل معهم مَنْ يحتملُ مِن اللَّواحِق والرَّوادف، وجَعَل القرّاء في سَمَرِه، ففَشَت القالةُ في أهلِ الكُوفةِ.

فكتبَ سعيدٌ إلى عثمانَ بذلك، فجمعَ النَّاسَ وأخبرَهم بما كتبَ، فقالوا له: أصبْتَ لا تُطمِعْهم، هم ليسوا له بأهْل؛ فإنَّه إذا نَهَض في الأمور مَنْ ليس لها بأهْلٍ لها لم يحتملْها وأفسدَها.

فقال عثمانُ: يا أهلَ المدينةِ، استعدّوا واستمسِكُوا، فقد دبَّتِ إليكُمْ الفِتَن. والله سبحانه وتعالى أعلمُ بالصَّواب، وإليه المرجعُ والمآب.

ذكر جمع القرآن

كان سببُ ذلك أنّ حُذيفة بنَ اليمانِ كانَ قد توجَّهَ مددًا لعبد الرَّحْمٰنِ بن ربيعة لِحصار البابِ، وكان مع سعيدِ بنِ العاص عاملُ الكوفة، فخرج معه سعيدُ بنُ العاصِ حتَّى بلغَ أذْرَبِيجانَ، فأقامَ حتى عاد حُذَيْفَة، فلمّا عادا ورجَعَا، قال لسعيدِ بنِ العاصِ: لقد رأيتُ في سَفْرتي هذه أمرًا لئن نزل بالنَّاسِ ليختلِفُنّ في القرآن، ثم لا يقومون عليه أبدًا.

(١) الخطام: الزمام، والمراد هنا أن الفتنة قد ظهرت.

قال: وما ذاكَ؟ قال: رأيتُ أُناسًا مِن أهلِ حِمْصَ يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنّهم أخَذُوا القرآن عن المقداد، ورأيتُ أهل الكوفةِ يقولون مِثلَ ذلك، وأنّهم قرؤُوا على ابنِ مَسْعُودِ، وأهلَ البصرةِ يقولون مثلَ ذلك، وأنّهم قرؤُوا على أبي موسى، ويسمُّونَ مصحفَه لُبابَ القلُوبِ.

فلمّا وصلوا إلى الكُوفةِ أخبرَ حذيفةُ النَّاسَ بذلك، وحذَّرهم ما يخافُ، فوافقه أصحابُ رسول الله ﷺ، وكثيرٌ مِنَ التَّابعينَ.

فتفاوضَ حذيفةُ، وابنُ مسعودٍ، فغضِبَ سعيدٌ وقام، وتفرّقَ النَّاسُ وسار حذيفةُ إلى عثمانَ، وأخبره بما رأى، وقال: أنا النَّذِيرُ العُرْيان، فأدرِكْ الأُمّة.

فجمعَ عثمانُ الصَّحابةَ وأخبرَهم الخبرَ، فأعظَمُوهُ، فأرسل إلى حفصة بنتِ عمرَ رضي الله عنهما: أن أرسِلِي إلينَا بالصُّحِفِ لننسَخَهَا وكانت هذه الصُّحُف هي التي كُتِبَتْ في أيّام أبي بكرٍ رضي الله عنه، وكانت عندَهُ ثم عند عمر، ثم كانتْ عند حفصةَ، فأخذها عثمانُ منها، وأمر زيدَ بنَ ثابت وعبَدَ اللّهِ بنَ الزُّبيرِ وابنَ عبَّاسٍ وسعيدَ بنَ العَاصِ وعبدَ الله بنَ عَمْرو بن العاصِ، وعبدِ الرحمٰن بنَ الحارثِ بنِ هشامٍ فنسخوها في المصاحفِ.

وقال عثمان: إن اختلَفْتُم فاكتُبوا بلغةِ قُريشٍ؛ فإنّما نَزَل بلسانها.

قال زيدٌ: فجعلْنَا نكتبُ؛ فإذا اختلَفْنَا في شيءٍ جَمَعْنَا أمْرَنا على رأْيٍ واحدٍ، فاختلَفْنَا في التَّابوتِ، فقلتُ: التَّابوه. وقال النَّفرُ القُرَشيُّون التَّابوت. فأبيتُ أنْ أرجعَ إليهم، وأبَوْا أنْ يرجعوا إليَّ فرفعْنَا ذلك إلى عثمانَ، فقال: اكتبُوا التَّابوتَ.

قال زيد: وذكرتُ آيَةً كنتُ سمعتُهَا من رسول الله ﷺ لم أجِدْها عند أحدٍ حتَّى وجدتُهَا عندَ خُزيمةَ بن ثابتِ الأنصاريّ وهي: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

قال: وكُتِبَتْ أربعُ نسخٍ، فبعث نسخةً إلى الكوفةِ، وأُخرى إلى البصرةِ، وأُخرى إلى الشّامِ، وأمسكَ واحدةً لنفسِه، وأعاد الصُّحُفَ إلى حَفْصةَ، وأمر أن يُحْرَقَ ما سِوى ذلك.

وقيل: إنَّ النُّسخَ كانت سبعةً، وأنّه وجَّه نُسخةً إلى مكّة، وأُخرى إلى اليَمن، وأُخرى إلى البَحْرين، والأوّلُ أصحُّ.

قال: فعرفَ النَّاسُ فَضْلَ عثمانَ إلاَّ أهلَ الكوفة، فإنَّ المصحفَ لمّا قَدِمَ عليهم فَرِحِ به الصحابة، وامتَنَع عبدُ الله بنُ مسعود ومن وَافَقَهم. فقام ابن مسعود. فيهم فقال: ولا كلّ ذلك، فإنكم قد سبقْتُم سبقًا بيّنًا، فاربَعوا على ظَلْعِكُم[(١)].

ولمّا قَدِمَ عليٌّ رضي الله عنه إلى أهلِ الكُوفَةِ، قام إليه رجلٌ، وعاب عثمانَ بجَمْعه الناسَ على الصُّحف، فنهاه، وقال: لو وليتَ منه ما وَلِيَ عثمانُ سلكْتَ سبيلَهُ رضي الله عنهما.

وفيها زاد عثمانُ رضي الله عنه النّداء الثَّالِثَ يوم الجمعةِ على الزَّوْراء[(٢)]، والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر سقوط خاتم النبيّ ﷺ

وفيها سقط خاتمُ النَّبيِّ ﷺ من يدِ عثمانَ في بئرِ أرِيسَ[(٣)] وهي على مِيلَيْن من المدينة، وكانت قليلةَ الماءِ، فما أُدرِك قَعرُها بعدُ، ولمّا سقط من يدِهِ، نَزَحوا ما فيها من الماء فما قَدَروا عليه، فلمّا أَيِسَ منه، صَنَع خاتَمًا آخرَ على مِثَالِه ونَقْشِه، فكان في إصبَعِهِ حتى قُتِلَ.

وقيل: إنَّه نقشَ عليه: «آمَنْتُ بالَّذي خَلَق فَسوَّى».

وقيل: كان عليه «لَتُنْصَرُنّ أو لَتَنْدَمُنّ»، والله تعالى أعلم.

ذكر خبر أبي ذر الغفاري في إخراجه إلى الربذة وما تكلم الناس به في ذلك ووفاة أبي ذر رضي الله عنه

وفي سنة ثلاثين أخرَج عثمانُ رضي الله عنه أبا ذَرّ الغِفارِيّ، واْسمُه جُنْدُب بن جُنادة.

وقد ذُكِرَ في سببِ ذلك أُمورٌ كثيرةٌ، منها ما أورَده أحمد بن يحيى بنُ جابر البَلاذُرِيّ[(٤)]، في كتاب «جُمَل أنسَابِ الأشْراف» وغيرُه.

---

(١) يقال: أربع على ظلعك: أي إنك ضعيف فارفق على نفسك ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق. والمثل نفسه يقال للمتوعد، أي لا تجاوز حدك في وعيدك.

(٢) الزوراء: دار عثمان بن عفان رضي الله عنه، بالمدينة.

(٣) بئر أريس: بئر بالمدينة ثم بقبا مقابل مسجدها.

(٤) البلاذري: هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري. أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد. سمع بدمشق، وبأنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية. له من الكتب: كتاب البلدان الصغير، كتاب البلدان الكبير (لم يتم)، التاريخ في أنساب الأشراف وأخبارهم وفتوح البلدان، الاستقصاء في الأنساب والأخبار سوّده في أربعين مجلدًا فمات ولم يكمله، وله شعر بخمسين ورقة. كانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية... (معجم المؤلفين لعمر كحالة ٢: ٢٠١).

قال البَلاذُريّ: لمّا أعطَى عثمانُ رضي الله عنه مروانَ بنَ الحَكَم ما أعطاه، وأعطى الحارثَ بنَ الحَكَم بن أبي العاص ـ وهو أخو مَرْوان ـ ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيدَ بنَ ثابت الأنصاري مائةَ ألفِ درهم، جعل أبو ذَرٍّ يقول: بشِّر الكافرين بعذاب أليم: ويتلو قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ...﴾ [التوبة: ٣٤] الآية.

فَرفَع مروانُ ذلك إلى عثمان، فأَرسلَ إلى أبي ذرٍّ، أن انْتَهِ عمّا يبلُغني عنك، فقال: أيَنْهاني عثمانُ عن قراءةِ كتابِ اللّهِ، وعَيْب من تَرَكَ أمرَ اللّهِ! فواللّهِ لأنْ أُرضِيَ اللّهَ بسَخَط عثمانَ أحبُّ إليّ مِنْ أن أُسْخِط اللّهَ برِضاه، فأغضبَ ذلك عثمان، وصَبَرَ وكَفَّ عنه، ثم قال عثمانُ يومًا: أيجوزُ للإمام أن يأخذَ من المالِ، فإذا أيسَرَ قَضَى؟ فقال كعبُ الأحبارِ: لا بأس بذلك. فقا لأبو ذَرّ: يا بْنَ اليهوديَّيْن أتعلِّمُنا دينَنا! فقال عثمان: ما أكثَر ذاكَ لي وأوْلعَك بأصْحابي! الحق بمَكْتَبِكَ، وكان مكتبه بالشَّام، إلا أنَّه كان يقدمُ حاجًا، ويسأل عثمانَ الإذْنَ له في مُجاوَرةِ قبر رسول الله ﷺ، فيأْذَن له في ذلك.

وقيل: إنَّه إنَّما صار إلى الشام لأنَّه رأى البِناءَ قد بلغ سَلْعًا، فقال لعثمان: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلَغ البناء سَلْعًا فالهَرَب»، فأذَنْ لي آتِيَ الشأمَ فأغْزُو هناك. فأذِنَ له، فكان أبو ذَرّ يُنكِرُ على معاويةَ أشياءَ يفعلُهَا، فبعثَ إليه معاوية ثلاثمائة دينارٍ، فقال: إنْ كانت صلةً فلا حاجةَ لي فيها. وبنى معاويةُ الخَضْراءَ بدمشقَ، فقال: يا مُعاويةُ، إنْ كانت هذه من مالِ اللّهِ فهي الخِيانةُ، وإن كانت من مالِك فهي الإسْرافُ، فسَكتَ معاويةُ.

وكان أبو ذَرٍّ يقول: واللّهِ لقد حَدَثَتْ أعمالٌ ما أعْرِفُهَا، والله ما هي في كتاب اللّهِ، ولا سنَّةِ نبيِّه، والله إنّي لأرى حقًا يُطْفَأ، وباطلاً يَحيَا، وصادِقًا مكذَّبًا، وأثَرَةً بغير تُقًى.

فقال حبيبُ بنُ مسلمة لمعاويةَ: إن أبا ذَرٍّ مُفسِدٌ عليك الشَّامَ، فتداركْ أهلَه إن كانَت لك بهم حاجَةٌ.

فكتبَ معاويةُ إلى عثمانَ، فكتبَ إليه عثمانُ:

أمّا بعدُ، فاْحمِلْ جُنْدبًا إليَّ عَلَى أغْلظِ مَرْكَبٍ وأوْعَرِه.

فوجّه معاويةُ مع أبي ذَرٍّ من سار معه الليلَ والنهار، فلمّا قَدِمَ المدينةَ جعلَ يقولُ: تستعمل الصِّبيان، وتَحمِي الحِمَى، وتُقرِّبُ أولادَ الطُّلَقاء!

فبعثَ إليه عثمانُ: الحَق بأيِّ أرضٍ شِئتَ. فقال: بمكَّة؟ فقال: لا، قال: فبيْت المَقْدِس؟ قال: لا، فبأحد المِصْرين؟ قال: لا، قال: ولكني مسيِّرك إلى الرَّبَذةِ، فسيَّرَه إليها، فلم يزلْ بها حتَّى مات.

وذكَر البَلاذُري فيما حكاه كلامًا كثيرًا، وَقَع بين عثمانَ بن عفَّان وعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنهما بسبب ذلك أغضيْنَا عن ذكرِهِ.

وحُكِيَ أنَّ أبا ذرٍّ بلغه أنَّ معاويةَ يقول: إنَّ المالَ مالُ اللّهِ، ألا إنَّ كلَّ شيءٍ فللّهِ، وأنَّه يُريدُ أنْ يحتَجِبَهُ دون الناس، ويمحوَ اسمَ المسلمين: فأتاه أبو ذَرٍّ فقال: ما يَدْعوك إلى أنْ تسمِّيَ مالَ المسلمين. مالَ اللّهِ! فقال: يَرحمُكَ اللّهُ يا أبا ذرٍّ! ألسْنا عبادَ اللّهِ، والمالُ مالُه، قال: فلا تَقُلْهُ، قال: سأقولُ مال المسلمين.

وكان أبو ذرٍّ يذهبُ إلى أنَّ المُسْلمَ لا ينبغي أنْ يكون في مِلكه أكثر من قُوتِ يَوْمِهِ ولَيْلَتهِ إلاَّ شيء يُنفقه في سبيل اللّهِ أو يُعِدّه لغَريم، ويأْخذُ بظاهر القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، وكان يقومُ بالشام ويقولُ: يا معشَر الأغنياءِ، واسُوا الفُقَراءَ، بَشِّرُوا الَّذِين يَكنزون الذَّهبَ والفضّة ولا يُنفقونها في سبيلِ اللّهِ بمكاوٍ من نارٍ تُكْوَى بها جِبَاهُهُمْ وجُنُوبُهم وظهورُهُم. فما زال حتّى وَلع[1] الفقراءُ بِمثل ذلك، وأوجَبوه على الأغنياءِ.

وشكا الأغنياءُ ما يلقَوْنَ منهم إلى معاوية، فأرسلَ معاويةُ إليه بألفِ دينار في جُنح اللَّيلِ، فأنفقَها، فلمّا صلَّى معاويةُ الصُّبح دعا معاوية رسولَه الذي أرسلَه إليْه، فقال: اذهَب إلى أبي ذَرّ، فقلْ له: أنقِذْ جَسَدِي من عذابِ معاويةَ، فإنهُ أرسلَني إلى غيرك، وأنِّي أخطأتُ بك، ففعَلَ ذلك. فقال له أبو ذَرٍّ: يا بُنيّ، قل له: والله ما أصبحَ عندنا من دنانيركِ دينارٌ، ولكن أخِّرْنا ثلاثةَ أيّامٍ حتَّى نَجمَعَها.

فلمّا رأى معاويةُ أنَّ فِعلَهُ صَدَّق قولَه كتبَ إلى عثمان: إنَّ أبا ذرٍّ قد ضيَّقَ عليَّ، وقد كان كذا وكذا، الَّذي يَقولُه الفقراء.

فكتبَ إليه عثمان: إنّ الفتنة قد أخْرجَتْ خَطْمَها وعَيْنَيْها، ولم يَبْق إلاَّ أن تَثِبَ، فلا تَنْكإِ القَرْح، وجَهِّز أبا ذرّ، وابعَثْ معه دليلاً، وكَفْكِف النَّاسَ ونفسَكَ ما ٱستَطَعْتَ.

---

(١) ولع به: أغراه.

فَبَعَثَ له بأبي ذرٍّ، فلمَّا قَدِمَ المدينة ورأى المجالسَ في أصلِ جبل سَلْعٍ قال: بشِّرْ أهلَ المدينة بغارةٍ شَعْوَاءَ، وحَرْب مِذْكار[1] ودخل على عثمانَ فقال له: ما بالُ أهلِ الشَّامِ يشكونَ ذَرَبَ[2] لسانِكَ؟ فأخبَرَه. فقال: يا أبا ذَرٍّ، عليَّ أنْ أقْضِيَ ما عَلَيَّ، وأنْ أدْعُوَ الرَّعيّةَ إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليَّ أنْ أجْبُرَهُم على الزُّهدِ.

فقال أبو ذَرٍّ: لا ترضَوْا مِن الأغنياءِ حتَّى يَبذُلوا المعروفَ، ويُحْسِنُوا إلى الجِيرانِ والإخوان، ويَصِلوا القَرابات، فقال: كعبُ الأحْبَارِ ـ وكان حاضرًا: من أدَّى الفريضة فقد قَضَى ما عليه، فضَربَه أبو ذرٍّ فشجَّه، وقال: يا بن اليَهوديّة، ما أنتَ وما هاهُنا!

فاْستوْهَبَ عثمانُ كعْبًا شجَّتَه، فوَهَبَه، فقال أبو ذَرٍّ لعثمان: تأْذنُ لي في الخروج من المدينةِ؛ فإنّ رسولَ الله ﷺ أمَرَني بالخروج منها إذا بلغَ البناءُ سَلْعًا؟ فأَذِنَ له، فبلغ الرَّبَذَةَ[3]، وبنى بها مسجدًا، وأقطعَه عثمانُ صِرْمةً[4] مِنَ الإبلِ، وأعطاه مملوكيْن، وأجرى عليه في كُلِّ يومٍ عطاءً، وكذلك أجرَى على رافع بن خُدَيجٍ، وكان قد خَرَج أيضًا من المدينة لشيءٍ سَمِعه.

قال: وكان أبو ذرٍّ يتعاهَدُ المدينةَ مخافةَ أنْ يعودَ أعرابيًّا، وأخرجَ معاويةُ إليه أهلَه، فخَرجوا ومعهم جِرابٌ يُثْقِلُ يَدَ الرَّجُل، فقال: انظروا إلى هذا الَّذي يُزَهِّدُ في الدّنيا ما عندَهُ؟ فقالت امرأتُه: والله ما هو دينارٌ ولا درهم ولكنَّها فُلوسٌ كان إذا خرجَ عطاؤُه ابتاع منه فُلوسًا لحوائجنا..

وَروَى البُخَاريُّ رحمه الله في صحيحه بسنده إلى زَيْد بن وهْبٍ، قال: مررْتُ بالرَّبَذةِ، فإذا أنا بأبي ذَرٍّ رضي الله عنه، فقلتُ له: ما أنْزَلَكَ مَنزِلَكَ هذا؟ قال: كنتُ في الشَّامِ، فاختلفْتُ أنا ومعاوية في ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال معاويةُ: نزلتْ في أهل الكتابِ، فقلْتُ: نزلَتْ فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك كلام، وكتبَ إلى عثمانَ رضي الله عنه يشْكُوني، فكتبَ إليَّ عثمانُ أن اقدم المدينة، فقدمْتُها، فكثُر عليَّ النَّاسَ حتَّى كأنَّهم لم يرَوْني قبلَ ذلك، فذكرْتُ ذلك لعثمان رضي الله عنه فقال لي: إنْ شئتَ تنحّيت فكُنْتَ قريبًا؛ فذلك الَّذي أنْزَلَنِي هذا المنزل، ولو أمَرُوا عليَّ حَبشيًّا لسمعتُ وأطعْتُ.

---

(١) حرب مذكار: قوية.
(٢) ذرب اللسان: حدته.
(٣) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه... (معجم البلدان لياقوت).
(٤) الصرمة: القطعة من الإبل، ما بين العشرين إلى الثلاثين.

وأقامَ أبو ذَرٍّ بالرَّبَذةِ إلى سنةِ اثنتين وثلاثين، فمات بها رضي الله عنه، ولمّا حضرتْه الوفاةُ قال لابنتِه: استشرِفي[1] يا بُنَيَّة، هل ترينَ أحدًا؟ قالت: لا، قال: فما جاءتْ ساعتي بعدُ، ثم أمرَها فذبَحتْ شاةً ثم طبختْهَا، ثم قال: إذا جَاءكِ الَّذِين يَدْفنُونني ـ فإنَّه سَيَشْهَدنِي قومٌ صالحون ـ فقولي لهم: يُقْسِمُ عليكم أبو ذرّ ألاّ تركَبُوا حتى تأْكُلُوا؛ فلمَّا نَضِجَتْ قِدْرُها قال لها: انظُري، هل تَرَيْنَ أحدًا؟ قالت: نعم، هؤلاء رَكْبٌ. قال: استَقْبِلِي الكعْبَةَ، ففعلَتْ. فقال: بسمِ اللّهِ، وباللّهِ، وعلى ملَّةِ رسولِ الله ﷺ، وماتَ. فخرجتْ ابنتُه، فتلقَّتْهم وقالتْ: رحمكم الله، اشْهَدُوا أبا ذرٍّ قالوا: وَأَيْنَ هو؟ فأشارتْ إليه، قالوا: نَعَمْ، ونَعْمَةَ عَيْن، لقد أكرَمَنا الله بذلك.

وكان فيهم ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه فبَكَى، وقال: صَدَقَ رسولُ الله ﷺ، قال «يموتُ وحْدَه، ويُبْعَثُ وحْدَه».

فغسَّلوه وكفَّنوه، وصلَّوْا عليه ودَفَنوه، فقالت لهم ابنتُه: إنَّ أبا ذَرٍّ يقرأُ عليكم السّلامَ، وأقْسَم ألاَّ تَركَبُوا حتَّى تأْكُلُوا، فَفَعَلوا، وحَملوا أهلَه معهم حتَّى أقْدَموهم مكَّة، ونَعَوْه إلى عُثمانَ، فضَمَّ ابنتَه إلى عِيالِهِ.

وقيل: كانتْ وفاتُه في سنة إحدى وثلاثين.

وقيل: إنَّ ابنَ مسعودٍ لم يحملْ أهلَ أبي ذَرٍّ معه، إنَّما تركَهُم حَتَّى قَدِم على عثمانَ بمكَّة فأعلمَه بمَوْتِهِ، فجعَلَ عثمانُ طريقه عليهم، فحمَلَهُمْ معه.

سنة إحدى وثلاثين

فيها حَجَّ عثمان رضي الله عنه بالنَّاسِ.

وفيها ماتَ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب، وصَخْرُ بنُ حرْبٍ، وهو ابْنُ ثمانٍ وثمانين سنةً.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين

في هذه السَّنَةِ مات العبّاس بنُ عبد المطَّلب، وكان قد كُفَّ بصرُه، وله من العمرِ ثمان وثمانون سنة.

---

(١) استشرف الشيء: رفع بصره ينظر إليه.

ومات عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ، وصلّى عليه عمّارُ بنُ ياسر، وقيل: عثمان.

وتُوفِّيَ عبدُ اللّهِ بن زيد بن عبد ربّه الّذي أُرِيَ أمرَ الأذان.

وتُوفِّيَ عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْف رضي الله عنه. والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ذكر وفاة عبد الرحمٰن بن عوف وشيء من أخباره ونسبه

هو أبو محمّدٍ عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْفِ بن الحارثِ بن زهْرة بن كِلاب بنِ مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب القُرَشيّ الزُّهريّ.

وكان اسْمُهُ في الجاهليّةِ عبدَ عمرو، وقيل: عبد الكعْبَةِ، فسمّاه رسولُ الله ﷺ عبدَ الرّحْمٰنِ.

وأُمُّه الشفاء بنتُ عَوْف بنِ عبدِ الحارث بن زُهْرة.

وُلِدَ بعد عام الفيلِ بعَشْرِ سنين، وأسلَم قبلَ أنْ يدخُلَ رسولُ الله ﷺ دارَ الأرْقَم، وكان من المهاجرين الأوّلين، جمَع الهجرتَيْنِ جميعًا؛ إلى أرضِ الحَبَشة، ثم قَدِم قبلَ الهجرة مهاجرًا إلى المدينةِ، وهو أحدُ العَشَرة المشهودِ لهم بالجنّةِ، وأحد السّتّة الّذِين جَعَلَ عمرُ رضي الله عنه الشُّورَى فِيهم.

وشهِدَ عبدُ الرحمٰن بَدْرًا، والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وبَعَثَه رسول الله ﷺ إلى دَوْمة الجَنْدَلِ[1]، وعَمَّمَهُ بيَدِه، وأسْدَلَها بَيْن كتِفَيْهِ، وقال له: سِرْ بأسم اللّهِ، وأوْصاه بوَصايا الأُمَراء، ثم قال: إنْ فتحَ اللّهُ عليك فتزوّجْ بنت مَلِكِهم أو شَرِيفِهم.

وكان الأصبغُ بنُ ثعلبةَ بن ضَمضم الكلْبيّ شريفهم، فتزوَّج عبدُ الرحمٰن ابنته تماضُرَ بنت الأصْبغ، فهي أُمُّ أبي سَلَمَة الفقيه بنُ عبدِ الرحمٰن، وكان له من الولدِ سالم الأكبر، ماتَ قبل الإسلام، وإبراهيم، وحُمَيد، وإسماعيل، وعُرْوة قُتِل بإفريقيّة، وسالم الأصغر، وأبو بكر، وعبدُ اللّهِ الأكبر قُتِلَ بإفريقيّة، والقاسمُ، وعبدُ الله الأصغرِ، هو أبو سَلَمَة الفقيه، وعبدُ الرحمٰن بنُ عبد الرحمٰن، ومصعب، وعثمان، ومحمد، ومَعْن وزيد، وأُمُّ القاسم وُلِدَتْ في الجاهلية، وجُوَيْرية، وهم لأُمّهاتِ أولادٍ شَتَّى ذكرهُنَّ الزُّبيرُ بنُ بَكّار.

---

(١) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبليّ طيىء كانت به بنو كنانة من كلب. . .

ولعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف رضي الله عنه، فضائلُ كثيرةٌ، ومناقبُ جَمَّةٌ؛ منها أنَّ رسول اللّهِ ﷺ صَلَّى خَلْفَه في سَفرٍ.

ورُوِيَ عنه ﷺ. أنَّه قال: «عبدُ الرحمٰن بنُ عوفٍ سيِّدٌ من ساداتِ المسلمين».

وقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «عبدُ الرحمٰن بنُ عَوْفٍ أمينٌ في السماء، وأمينٌ في الأرض».

وكان رضي الله عنه رجلاً طويلاً، أجْنَأ[1]، أبيضَ مُشْرَبًا بحُمْرةٍ، حسنَ الوجْهِ، رقيقَ البَشَرَةِ، لا يغيِّر لحيتَه ولا رأسَه.

ورُوِيَ عن سهلة بنتِ عاصم زوجته قالت: كان عبدُ الرحمٰن أبيض أعْيَنَ[2]، أهدَبَ الأشفَارِ[3]، أقْنَى[4]، طوِيلَ النَّابَيْنِ الأَعْلَيَيْن، ورُبَما أدْمَيَا شَفَتَهُ، له جُمَّة[5]، ضخمَ الكَفَّين، غليظ الأصابع، جُرِحَ يومَ أُحُدٍ إحدى وعشرين جِراحة، وجُرِحَ في رِجْله، فكان يَعْرُج منها.

وقال أبو عمر بنُ عبد البَرّ: كان عبدُ الرَّحمٰنِ تاجرًا مَجْدودًا[6] في التِّجارةِ وكَسَبَ مالاً كثيرًا، وخلَّف ألفَ بعيرٍ، وثلاثةَ آلافِ شاة، ومائةَ فرس تَرعَى بالبَقِيع، وكان يَزرعُ بالجُرْفِ على عشرين ناضِحًا[7] فكان يأخُذُ مِنْ ذلك قُوتَ أهلهِ سنةً، وخلَّفَ مالاً كثيرًا جدًا.

رَوَى عَمرو بنُ دينارٍ، عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرَّحمٰن بن عَوْفٍ قال: صالحْنَا امرأةَ عبدِ الرَّحمٰن بن عَوْفٍ الَّتي طلَّقَها في مَرَضه عن ثُلُث الثُّمن، بثلاث وثمانين ألفًا.

ورَوَى غيرُه أنَّها صولحَتْ بذلك على رُبعْ الثمن مِن مِيراثِه.

وَحَكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أنَّ عبدَ الرَّحمٰن بنَ عَوْفٍ رضي الله عنه أوْصَى لكلِّ رجلٍ بَقِيَ من أهْلِ بَدرٍ بأربَعمائةِ دينار، وكان عُدَّتُهم يومئذٍ مائة رجلٍ، وقسَّم ماله على ستَّةَ عَشَر سهمًا، فكانَ كُلُّ سَهمٍ ثمانين وألف دينارٍ.

---

(١) الأجنأ: الذي أشرف كاهله على صدره. (٢) الأعين: الواسع العين.

(٣) الشفر: أصل منبت العين في الجفن.

(٤) الأقنى: الذي ارتفع أعلى أنفه واحدودب وسطه.

(٥) الجمة: مجتمع الشعر. (٦) المجدود: المحظوظ.

(٧) الناضح: البعير يستقى عليه.

وقال أبو عُمَر: ورُوِيَ أنَّه أعتق في يوم واحدٍ ثلاثين عبدًا. ولمّا حضرتْه الوفاةُ بَكَى بكاءً شديدًا، فسئلَ عن بُكَائه فقال: إنَّ مصعبَ بنَ عُميرٍ كان خيْرًا مِنِّي، تُوفِّيَ على عَهْدِ رسول الله ﷺ ولمْ يكُنْ له ما يُكَفَّن فيه، وإنَّ حمزةَ بن عبد المطلب كان خيرًا مِنِّي لم نجد له كفنًا، وإنِّي أخْشَى أنْ أكُونَ مِمّنْ عُجِّلتْ لَه طَيِّباتُه في حَياتِه الدّنْيا، أو أخافُ أن أُحْتَبِسَ عَنْ أصحابي بكثرةِ مالي.

وقد تقدَّم أن هذا المالَ الّذي اكتَسبَه كان ببركة دعاءِ رسولِ الله ﷺ.

وكانت وفاتُه رضي الله عنه بالمَدينة في هذه السَّنَةِ.

وقيل: في سنة إحدى وثلاثين، وصَلَّى عثمان رضي الله عنه عليه بوصيّةٍ منه، ودُفِنَ بالبَقيع.

واختُلِفَ في مبلغ سنِّه، فقيل: توفِّيَ وهو ابنُ خمسٍ وسبعين، وقيل: اثنتين وسبعين، وقيل: ثمانٍ وسبعين. والله أعلم.

سنة ثلاث وثلاثين

ذكر خبر من سار من أهل الكوفة إلى الشام وما كان من أمرهم

في هذه السَّنةِ سيَّر عثمانُ رضي الله عنه نفرًا من أهلِ الكوفةِ إلى الشَّام، وكان سببُ ذلك أنَّ سعيدَ بنَ العاص لمّا ولاَّه عثمانُ الكوفةِ اختارَ وجوه النَّاسِ، وأهلَ القادِسيّةِ، وقُرّاءَ أهلِ الكُوفةِ، فكان هؤلاء يَدْخلونَ عليه في منزله، وإذا خرجَ فكلُّ النّاسِ يَدْخلون عليه، فدخلوا عليه يومًا، فبينما هُمْ يتحدَّثون، قال حُبَيْش ابن فلان: ما أجْوَد طلحة بنَ عبيد الله! فقال سعيدٌ: إنَّ مَنْ له مثلُ النشاسْتَج[1] لحقيقٌ أن يكونَ جوادًا، واللّهِ لو كان لي مِثْلُه لأعاشكُمْ اللّهُ به عيشًا رغدًا.

فقال عبدُ الرحمٰن بن حُبَيش، وهو حَدَث: والله لوَدِدْتُ أنَّ هذا المِلطاط[2] لك، وهو ما كان للأكاسِرةِ على جانِب الفُراتِ الّذي يَلِي الكُوفة، فقالوا: فَضَّ اللّهُ فاكَ، والله لقد هَمَمْنا بكَ، فقال أبُوهُ: غلامٌ فلا تجاوِزه، فقالوا: يتمنَّى سَوادَنا،

---

(١) النشاستج: ضيعة أو نهر بالكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة المبشرة، وكانت عظيمة كثيرة الدخل، اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها معظم دخلها. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الملطاط: قيل: هو طريق على ساحل البحر. . وقيل: كان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه الملطاط. . .

ويتمنّى لكم أضعافَه. فثارَ بهِ الأشترُ وجُنْدُبَ وابن ذي الحنكة، وصَعْصعةُ، وابنُ الكَوّاء، وكُمَيْل، وعُمَيرُ بنُ ضابىء، فأخَذوه، فثارَ أبوه ليَمنَع عنه، فضَرَبُوهُمَا حتّى غُشِيَ عليهما، وجعَل سعيدٌ يُناشِدُهم ويأبَوْن، حتى قضَوْا منهما وَطَرًا، فسمِعَتْ بذلك بنو أسَد، فجاؤوا، وفيهم طليحة، فأحاطوا بالقصر، وركبَتْ القبائِلُ فعاذوا بسعيدٍ، فخرجَ سعيدٌ إلى النّاسِ، فقال: أيُّها النّاس، قوم تَنازعوا، وقد رَزَق اللّهُ العافية. فردَّهم، فتراجَعُوا. وأفاقَ الرجلانِ، فقالا: قاتَلْنا غاشيتَك، فقال: لا يَغْشُوني أبدًا، فكُفَّا ألسنَتكُمَا ولا تجرِّئا النّاسَ، ففعَلا، وقعَد أُولئك النَّفَرُ في بُيوتِهِمْ، وأقبلُوا يَقَعون في عثمانَ رضي الله عنه.

وقيل: بل كان السَّبَبُ في ذلك أنّه كان يسمُر عند سعيدٍ وُجُوهُ أهلِ الكوفةِ، منهم: مالكُ بنُ كعب الأرْحَبيّ، والأسودُ بنُ يزيد وعلقمةُ بن قيْس النَّخَعيّانِ، ومالِكُ بنُ الأشْتَر، غيرهم.

فقال سعيدٌ: إنَّما هذا السَّوَادُ بُسْتانُ قريشٍ، فقال الأشترُ: تزعم أنَّ السَّوادَ الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك! وتكَلَّم القومُ معه، فقال عبد الرحمٰن الأسَديّ، وكان على شُرطةِ سَعيد: أتردّون على الأميرِ مَقالتَه! وأغلظَ لهم، فقال الأشترُ: من هاهنا لا يفوتنَّكم الرَّجُل، فَوثَبوا عليه فوطئوه وطْئًا شديدًا حتَّى غُشِي عليه، ثم جَرُّوا بِرجْله فنُضِح بماءٍ فأفاق، وقال: قتلني مَنْ انتخبْتُ، فقال: والله لا يسمرُ عندي أحدٌ أبدًا، فجعلوا يَجْلسون في مَجالسهم يشْتمون عثمانَ وسعيدًا، واجتمعَ إليهم النّاس حتَّى كَثُروا.

فكتبَ سعيدٌ وأشرافُ أهلِ الكوفةِ إلى عثمانَ في إخراجِهم، فكتب إليهم أن يُلحِقوهُم بمُعاويةَ، وكتب إلى معاويةَ: إنَّ نَفرًا قد خُلقُوا للفِتنةِ، فقُمْ عليهم وانْهَهُمْ، فإنْ آنَستْ منهمْ رُشْدًا فأقبَلْ مِنْهم وإنْ أعْيَوْك فارددهم عليّ.

فلمّا قدموا على معاوية أنزلهم كنيسةَ مَرْيم، وأجْرَى عليهمْ ما كان عليهم بالعِراقِ بأمرِ عثمانَ وكان يَتغدَّى ويَتعشَّى معهم.

فقال لهم يومًا: إنَّكُمْ قوم مِنَ العَرَبِ لكم أسنانٌ وألْسنة، وقد أدركتُمْ بالإسلام شرفًا، وغَلبتُم الأُمَمَ، وحُزتُم مَراتبهم ومَواريثَهمْ، وقدْ بلغَني أنَّكُمْ نقمتُم قريشًا؛ ولو لم تكُنْ قريشٌ كنتُمْ أذِلَّة، إنّ أئِمتكم لكم جُنَّةٌ[1]، فلا تفترقُوا عن جُنَّتِكُمْ، وإنَّ أئمتَكُمْ يَصْبُرون لكمْ على الجَوْرِ، ويَحْملون عَنكم المَؤونة، واللّهِ لَتَنْتَهُنَّ أو ليبتلينَّكُمُ

---

(١) الجنة: كل ما وقى من سلاح وغيره.

اللّهُ بِمَنْ يَسُومُكُمْ ولا يحمدُكم على الصَّبْرِ، ثم تكونون شركاءَهم فيما جَرَرْتُم على الرَّعيَّةِ في حياتِكُمْ وبعْدَ وفاتِكُمْ.

فقال صَعْصعة: أمّا ما ذكَرْتَ من قريشٍ فإنَّها لم تكن أكثرَ النَّاسِ، ولا أرفقها، ولا أمنعَهَا في الجاهليّة فتخوّفنا، وأمّا ما ذُكرتَ من الجُنَّةِ؛ فإنَّ الجُنَّةَ إن اخْتُرِقَتْ خُلِص إلينا.

فقال معاوية: عرَفْتُكم الآن، وعلمتُ أنَّ الَّذِي أغْراكُمْ على هذا قِلَّة العُقولِ؛ وأنتَ خطيبُهُم، ولا أرى لك عَقْلًا، أُعَظِّم عليك أمرَ الإسلام وتُذكِّرني الجاهليَّة! أخْزى اللّهُ قومًا أعظَمُوا أمرَكُمْ.

افْقَهوا عنّي - ولا أظُنُّكُمْ تَفْقهون - أنّ قريشًا لم تعزّ في جاهليّة ولا إسلام إلاَّ بالله تعالى، لم تكُنْ بأكثرِ العَرَبِ ولا بأشَدِّهم؛ ولكنَّهُمْ كانوا أكرمَهُمْ أحسابًا، وأمحضَهُمْ أنسابًا، وأكملَهُمْ مروءةً، ولَم يَمْتنعُوا في جاهليَّة - والنَّاسُ يأكل بعضهُم بعضًا - إلا باللّهِ، فبوّأهم[1] حرمًا آمنًا، يُتخطَّفُ النَّاسُ مِن حَوْلِهم، هل تعرفُون عَربًا أو عَجَمًا أو سُودًا أو حُمْرًا، إلاَّ وقد أصَابَهُ الدَّهْرُ في بَلَده وحُرْمَتِهِ؛ إلاَّ ما كان مِنْ قُريشٍ؛ فإنَّهم لم يُرِدْهُم أحدٌ من النَّاسِ بكَيْدٍ إلاَّ جعل اللّهُ خدَّهُ الأسفلَ؛ حتى أرادَ الله أنْ يَسْتَنْقِذَ مَن أكرمَ، واتَّبَع دِينَهُ من هَوانِ الدُّنيا وسُوء مَرَدّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خَلْقِه، ثم ارتضى له أصحابًا فكان خيارُهم قريشًا، ثم بَنَى هذا المُلك عليهم، وجعلَ هذه الخلافةَ فيهم، فلا يَصلُح ذلك إلاَّ عليهم، فكان اللّهُ تعالى يَحُوطُهم في الجاهليّةِ، وهم على كُفرِهم، أفتراه لا يَحوطُهُمْ وهم على دِينِهِ! أُفٍّ لك ولأصحابِكَ!.

أمّا أنتَ يا صَعْصَعة، فإنَّ قَرْيَتَك شَرُّ القُرَى، أنْتَنُها نَبْتًا، وأعمَقُها واديًا، وأعرَفُها بالشَّرّ والأَمُها، ألأمُ العَرَب ألقابًا وأصهارًا، نُزّاع الأمم، وأنتمُ جِيرانُ الخَطِّ، وفَعَلةُ فارِسَ، حتَّى أصابتْكُم دعوةُ النبيّ ﷺ، لم تسكُنْ البحرينْ فتشرَكُهم في دعوةِ النَّبيّ ﷺ. فأنتَ شَرّ قومِكَ، حتى إذا أبْرزَكَ الإسلام وخلَطَك بالناس أقبَلْتَ تبتَغي دينَ الله عِوَجًا، وتَنْزِعُ إلى الذِّلَّةِ، ولا يضرُّ ذلك قريشًا، ولا يضعهم ولن يمنعَهُمْ من تأْديةِ ما عليهم، إنَّ الشيطانَ عنكم غيرُ غافلٍ، قد عرّفَكم بالشَّرِّ فأغْرَى بكم النَّاس وهو صارِعُكمْ، ولا تُدرِكون بالشر أمرًا أبدًا؛ إلاَّ فتَح اللّهُ عليكم شرًّا منه وأخْزَى.

ثُمَّ قامَ وتركَهُم، فتقاصَرتْ إليهم أنفُسُهم.

---

(١) بوأهم: أنزلهم مكانًا وأقامهم به.

فلمَّا كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذنتُ فاذهبوا حيثُ شِئْتُم، لا ينفعُ اللّهُ بكم أحدًا أبدًا ولا يضرُّه، ولا أنتمْ برجالِ منفَعَةٍ ولا مَضَرَّةٍ فإن أردْتُم النجاةَ فالزَمُوا جماعَتَكُمْ، ولا يُبْطِرنَّكم الإنعام، فإنَّ البَطَرَ لا يعْتَري الخيارَ، فاذهبوا حيثُ شئْتُم، فسأكتُبُ إلى أميرِ المؤمنين فيكم.

فلمّا خرجُوا دعاهم وكلَّمَهُم نحوَ كلامِه الأوّل، وكتبَ إلى عثمان أنّه قدم عليّ أقوامٌ ليستْ لهم عقولٌ ولا أديان، أضجرَهُم العدلُ، لا يريدُون اللّهَ بشيْء، ولا يتكلَّمُون بحجّة؛ إنَّما هَمُّهم الفتنةُ، وأموالُ أهلِ الذِّمّة، واللّهُ مبتلِيهم ومختبِرُهم، ثم فاضحُهم ومُخزيهم، ولَيسُوا بالَّذين ينكئُون أحدًا إلاَّ مع غيرِهم، فانْهَ سَعِيدًا ومَنْ عندَه عنهم؛ فإنَّهم ليسوا لأكبر مِن شَغَبٍ أو نَكِيرٍ.

قال: ولمّا خرجوا من دِمَشْقَ قالوا: لا نرجع إلى الكُوفةِ، فإنَّهم يَشْمَتون بِنَا، ولكِنْ مِيلُوا إلى الجَزيرةِ، فسمِعَ بهم عبدُ الرحمٰن بنُ خالدِ بنِ الوليدِ وكان على حِمْصَ، فدعاهم وقال: يا آلَةَ الشَّيطان، لا مرحبًا بكم ولا أهلاً! قد رجَعَ الشيطانُ مَحْسورًا، وأنتُمْ بعدُ نِشاطَ، خَسَّر اللّهُ عبدَ الرحمٰنِ إنْ لم يؤدِّبْكم، يا معشرَ مَنْ لا أدري، أعَرَبٌ أم عَجَم! لا تقولوا لي ما يبْلغني أنَّكم قلْتُم لمعاوية: أنا ابن خالدِ بن الوَليدِ، أنا ابنُ من عَجَمتْهُ[١] العاجِماتُ، أنا ابنُ فاقِىء الرِّدَّة.

والله لئن بلغَني يا صعصعةُ أنَّ أحدًا مِمَّنْ معي دَقَّ أنْفَكَ، ثمّ أمَضَّكَ[٢]، لأطيرنَّ بك طيرةً بعيدةَ المَهْوَى. وأقامَهُم شهرًا، كلَّما ركبَ أمشاهم. فلمَّا مرّ به صعصعة قال: يا بن الخَطِيئة، أعلمتَ أنَّ مَنْ لم يصْلحه الخيْرُ أصلَحَه الشّرّ، ما لَكَ لا تقول كما بلغني أنَّك قلْتَ لسعيد ومعاوية! فيقولون: نتوبُ إلى اللّهِ، أقِلْنَا أقالَكَ الله، فما زالوا به حتَّى قال: تابَ اللّهُ عليكم.

وسَرّحَ الأشْتَرَ إلى عثمان، فقدِمَ إليْهِ ثانيًا، فقال له عثمان: احلل حيث شئت، قال: مع عبد الرحمٰن بن خالد؟ فقال: ذاكَ إليك، فرجعَ إليه.

وقد حَكَى بعضُ المؤرِّخِينَ مِنْ أخبارِهم نحوَ ما تقدم، وزاد فيه: إنَّ معاويةَ لمّا عادَ إليهم من القابلةِ وذكَّرهم، كان ممّا قال لهم: واللّهِ إنّي لا آمركم بشيْءٍ إلا قَدْ بدأْتُ فيه بنفسي، وأهل بيتي، وقد عرفَتْ قريشٌ أنَّ أبا سفيان كان أكرمها، وابنَ أكرمِها؛ إلاَّ ما جعلَ اللّهُ لنبيِّه ﷺ، فإنَّه انتخَبَهُ وأكرَمَهُ، وإني لأظُنُّ أنَّا أبا سُفْيان لو وَلَدَ النَّاسَ لم يَلِدْ إلاَّ حازِمًا.

---

(١) المراد بقوله: عجمته العاجمات: أي امتحن واختبر ودرّب.

(٢) أمضك: آلمك.

قال صَعْصعة: كذبتَ، لقد وَلَدهم خيرٌ من أبي سُفيان، مَن خَلقه اللّهُ بيَده، ونَفَخ فيه من رُوحه، وأمَر الملائكةَ فسجَدُوا له، وكان فيهم البَرُّ والفاجرُ، والأحمقُ والكيّس.

فخرجَ تلك الليلةَ من عندِهم، ثم أتاهُم من القابلة فتحدّث عِنْدَهم طويلاً ثمّ قال: أيُّها القومُ، ردُّوا خيرًا أو اسْكُتوا، وتفكَّرُوا وانْظُروا فيما ينفعُكُمْ وينفَعُ أهاليَكم المسلمين فاطْلُبُوه.

فقال صعصعة: لستَ بأهلِ ذلك ولاَ كَرامة، لك أنْ تُطاعَ في مَعْصِيَةِ اللّهِ عزَّ وجلّ! فقال: أليس أوّل ما ابتدأتكم به أن أمرتُكُمْ بتقوى الله وطاعَتِهِ وأنْ تعتصمُوا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقُوا.

قالوا: بلْ أمرْتَ بالفُرْقةِ وخلافِ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ.

قال: فإنّي آمُرُكُمْ الآنَ، إنْ كنتُ فعلتُ فإنّي أتوبُ إلى اللّهِ وآمُرُكمْ بتقواه وطاعتِهِ، وطاعةِ نبيِّهِ، ولزومِ الجماعةِ، وأنْ توقِّروا أئمّتَكُمْ، وتَدُلّوهم عَلَى أحْسَنه ما قَدَرْتُم عليه.

فقالَ صعصعة: فإنّا نأْمُرك أنْ تعْتزِلَ عملَكَ؛ فإنَّ في المسلمينَ مَنْ هو أحقُّ به منك؛ مَنْ كان أبوه أحسَن قَدَمًا من أبيك في الإسلام وهو أحسَن قدمًا في الإسلام من أبيك.

فقال: والله إنَّ لي في الإسلام قدمًا، ولَغَيْري كان أحسن قدمًا مِنِّي، ولكن ليسَ في زماني أحدٌ أقوَى على ما أنا فيه مِنِّي، ولقد رأى ذلك عمرُ بنُ الخطّابِ، فلو كان غيري أقوى مِنِّي لم تَكُنِ عند عَمر هَوادةٌ لي ولا لغيري، ولم أحدِثْ من الحَدَثِ ما ينبغي أنْ أعتَزِلَ عملي، ولو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لكَتبَ إليّ فاعتزلْتُ عمله، فمهلاً فإنَّ في ذلك وأشباهِهِ ما يَتمنَّى الشيطانُ ويأْمرُ.

ولعمري، لو كانتْ الأُمورُ تُقْضَى على رأْيكُمْ وأمانِيِّكُمْ، ما استقامت لأهلِ الإسلام يومًا وليلة، فعاوِدوا الخيرَ وقُولُوه، وإنّ لِلّه لسَطَوَاتٍ، وإنّي لخائفٌ عليكم أنْ تتابَعُوا في مُتابَعة الشَّيْطَان، ومعصيةِ الرّحمٰن فيُحِلَّكُم بذلك دارَ الهَوان في العاجلِ والآجلِ.

فَوثَبوا عليه، وأخَذُوا رأْسه ولحيتَهُ. فقال: مه! إنّ هذه ليستْ بأرضِ الكُوفةِ، والله لو رأى أهل الشّام ما صنعتُمْ فيَّ ما ملكتُ أنْ أنهاهُمْ عنكم حتى يقتلوكُم، فلَعَمري إنّ صنيعَكم لَيُشبه بعضُه بعضًا، ثم قام مِن عندهم.

فكَتَبَ إلى عثمانَ نحوَ ما تقدمَ، فكتبَ إليه يأمره أن يرُدَّهم إلى سعيدِ بنِ العاصِ إلى الكوفَةِ، فردَّهُم، فأطْلَقُوا ألسنتَهُمْ، فضجّ سعيدٌ مِنهم إلى عُثمانَ، فكتب إليه أنْ يسيِّرَهم إلى عبدِ الرحمٰن بنِ خالدٍ بحمص، فسيّرهم إليه، فأنْزَلهم وأجْرى عليهم رزقًا. وكانوا: الأشتر، وثابتَ بنُ قيْس الهَمْداني، وكُمَيل بنُ زيادٍ، وزيد وصَعصعة ابنَا صُوحان، وجُنْدُب بنُ زُهَير الغامِدِيّ، وجُندَب بنُ كعبِ الأزْديّ، وعروة بن الجَعد، وعمرو بن الحِمَق الخُزاعيّ، وابن الكَوّاء.

* * *

وفيها مات المقدادُ بنُ عمرو، المعروفُ بابنِ الأسودِ، وتُوفِّيَ الطُّفيلُ والحصينُ ابنَا الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلبِ بنِ هاشم.

وحجَّ عثمان بالنَّاسِ.

* * *

سنة أربع وثلاثين

ذكرُ خبرِ يومِ الجَرَعة وعزلِ سَعيد وخروجه عن الكُوفة وٱستعمال أبي موسى الأشعريّ

وفي هذه السنة توجّه سعيدُ بنُ العاص أميرُ الكوفة إلى عثمانَ، وقد استعملَ على أعمالِه قبل مَسيره بسنةٍ وبعض أُخرى على أذْرَبيجان الأشعثَ بنَ قيس، وعلى الرَّيِّ سعيدَ بنَ قيس، وعلى هَمَذَان النُّسَيْر الْعِجْليّ، وعلى أصْبَهانَ السائبَ بنَ الأقرع، وعلى ماه مالكَ بنَ حبيب، وعلى الْمَوْصل حكيمَ بنَ سلام الحرَّاني، وعلى قَرْقيسيا جريرَ بنَ عبدِ اللّهِ، وعلى البابِ سليمانَ بن ربيعة، وعلى حُلوان عُتَيْبَةَ بنَ النَّهّاس. وجعلَ القعقاعَ بن عمرو على الحربِ، وخلَتْ الكوفةُ من الرُّؤساء. فخرج يزيدُ بنُ قيس وهو يريدُ خلعَ عثمانَ، ومعه الَّذين كان ابنُ السَّوْداء يكاتِبُهم، فأخذه القعقاعُ بنُ عمرو فقال: إنَّمَا نَستَعْفِي من سعيد. فتَرَكه، وكاتبَ يزيدُ النَّفَرَ الَّذين كانوا سُيِّروا من الكوفةِ إلى الشّام في القدوم عليه، فسار الأشترُ والَّذين كانوا عند عبد الرَّحمٰنِ بن خالد، فسبَقَهم الأشترُ. فلَم يَفجأ النَّاس بالكُوفة يومُ جمعة إلا والأشترُ على باب المسجد يقول: جئتكُمْ من عندِ أمير المؤمنين عثمانَ، وتركتُ سعيدًا يُريده على نقصان نسائكم على مائة دِرْهم، وردِّ أُولِي البَلاء منكمْ إلى ألْفَيْن، ويزعمُ أنَّ فيئكم بُسْتان قريش، فاستخلَفَ النَّاس، وجَعَل أهلُ الرأي ينهوْنَهم فلا يَسمَعُون منهم.

فخرج يزيدُ، وأمَرَ مُنادِيًا ينادي: مَنْ شاءَ أنْ يَلحقَ بيزيد لِرَدِّ سعيد فليفعلْ، فبقيَ أشرافُ النَّاس وحلماؤُهم في المسجد، وعمرُو بنُ حُرَيْثٍ يومئذٍ خليفة سعيد، فصعِدَ المِنبرَ، فحَمِد اللّهَ وأثنى عليه، وأمرَ النَّاسَ بالاْجتماعِ والطاعةِ.

فقال له القعقاعُ بنُ عمرو: أتَرُدُّ السَّيْلَ عن أدْراجِه؟ هَيْهات! لا والله لا يَسْكُن الغَوْغاءَ إلاَّ المَشْرَفِيّة[1] ويوشكُ أن تُنتضَى، ثم يَعجّون[2] عَجيجَ العدّان[3]، ويتمنَّوْن ما همْ فيه اليَوْم، فلا يَرُدّه الله عليهم أبدًا، فاصبرْ. قال: أصبِرُ، وتَحوَّل إلى مَنزِله.

وخرج يزيدُ بنُ قيس فنزل الجَرَعة[4]، وهي قريب من القادِسيّة، ومعه الأشتَر، ووصل إليهم سعيدُ بنُ العاص، فقالوا: لا حاجة لنا بكَ، فقال: إنَّما كان يكْفِيكُمْ أنْ تبعثُوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وإليّ رجلاً، وهَلْ يخرُجُ الألفُ لهمْ عُقولٌ إلى رجلٍ. ثم اْنصرفَ عنهمْ، ومَضَى حتَّى قدمَ على عثمانَ فأخبَرَهُ الخبرَ، وأنَّ القومَ يريدون البَدَل، وأنهم يختارونَ أبا مُوسى. فولاَّه عثمانُ، وكتبَ إليهم:

أمّا بعد، فقد أمّرتُ عليكم مَن اْخترتُمْ، وأعفيْتُكُمْ مِن سعيد، وواللّهِ لأُقرِضَنَّكُمْ عِرْضي، ولأبْذُلَنَّكُمْ صَبْري، ولأُصْلحَنَّكُمْ جَهْدِي، فلا تَدَعوا شيئًا أحبَبْتُموه لا يعصَى اللّهَ فيه إلاَّ سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلاَّ ما اْستعفَيتم منه. أنزِل فيه عندَ ما أحبَبْتُم؛ حتى لا تكون لكمْ على اللّهِ حُجّة، ولنَصْبِرَنّ كما أمِرْنا؛ حتَّى تَبلغوا ما تُرِيدون.

ورَجَع الأُمَراءُ من قُربِ الكُوفةِ، فرجعَ جَريرٌ من قَرْقيسياء، وعتيبة بن النهاس من حُلوان، وخطبهُم أبو موسى، وأمرهم بلزُوم الجماعةِ وطاعةِ عثمانَ. فأجابوه إلى ذلك، وقالوا: صلِّ بنا. فقال: لا، إلاَّ على السَّمعِ والطاعةِ لعثمان، قالوا: نعم، فصلَّى بهم. وأتاه وُلاتُه فوَلاَّهم. واللّهُ سبحانه وتعالى أعلم، وهو حسبي.

---

(١) المشارف: قرى قرب حوران، منها بصرى من الشام ثم من أعمال دمشق، إليها تنسب السيوف المشرفية، وهنا حذف المضاف.

(٢) يعجون: يصيحون.

(٣) عدّان: المراد به ضفة النهر، وعدّان: مدينة كانت على الفرات لأخت الزباء ومقابلتها أخرى يقال لها عزّان.

(٤) الجرعة: هو موضع قرب الكوفة المكان الذي فيه سهولة ورمل. . . وقيل: الجرعة بين النجفة والحيرة. . .

ذكر ابتداء الخلاف على عثمان ومن ابتدأ بالْجُرْأة عليه

كان أوّل من ابتدأ بالْجُرْأةِ عليه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف؛ وذلك أنّ إبلاً من إبلِ الصدقةِ جِيءَ بها إلى عثمانَ، فوَهَبَها لبعض بني الحَكَمِ، فبلغ ذلك عبدَ الرحمٰن، فأخَذَها، وقسَّمَها بين النَّاسِ وعثمانُ في الدار.

وكان أولَ من اجترأ عليه في المَنطق جَبَلةُ بنُ عَمْرو السّاعديّ، مَرّ به عثمانُ وهو في نادِي قومِه وبيَدِه جامِعة[١]، فسَلَّم عثمان، فَردَّ القومُ، فقال جبلة: لِم تردُّون على رجلٍ فَعَلَ كذا وكذا! ثم قال لِعُثمان: واللّهِ لأطْرَحَنّ هذه الجامِعةَ في عنُقِكَ، أو لتتركَنَّ بطانَتَك هذه الخَبِيثةَ؛ مَرْوان وابنُ عامِرٍ وابن سَعْدٍ، ومنهم من نزلَ القرآنُ بذمّه، وأباحَ رسولُ اللّهِ ﷺ دَمَه.

وحَكَى أبو جعفر الطَّبَريّ: أنّه مَرّ به وهو بفناءِ داره ومعه جامِعة، فقال يا نَعْثَل[٢] والله لأقتلنّك ولأحملنَّكَ على قُلُوصٍ[٣] جَرْباء، ولأحملنَّكَ إلى حَرّة النّارِ.

قال: ثم جاءَهُ مرّةً أُخرى، وعثمانُ على المِنبرِ، فأنزَلَه عنه.

قال أبو جعفر: وعن أبي حبيبةَ، قال: خطبَ عثمانُ النَّاسَ في بعضِ أيّامه، فقال عمرُو بنُ العاص: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك قد ركبتَ نَهابِير[٤]، وركبنا معك، فتُبْ نَتُبْ. فاستَقْبَلَ عثمانُ القبلةَ، وشَهَر يَدَيْه، قال أبو حُبَيْبَة: فلم أرَ يومًا أكثرَ باكيًا ولا باكيةً من يومئذ.

قال: ثمّ خطبَ الناسَ بعد ذلك، فقام إليه جَهْجَاهُ الغِفَارِيّ فصاح: يا عثمانُ، ألا إنّ هذه شارِف[٥]، قد جئنَا بها، عليها عَباءة وجامِعة، فأنزِل فلندرّعْكَ العَباءة، ولنَطْرَحْكَ في الجامعةِ، ولنحملنَّكَ على الشّارف، ثم نَطرحْكَ في جَبَلِ الدُّخان.

فقال عثمانُ: قبَّحكَ اللّهُ، وقبّح ما جئتَ به!

---

(١) الجامعة: الغل يوضع في العنق.

(٢) نعثل: رجل من أهل مصر، قيل: كان يشبه عثمان رضي الله عنه.

(٣) القلوص: من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة.

(٤) النهابير: المهالك.

(٥) الشارف من النوق: المسنة الهرمة.

قال أبو حبيبة: ولم يكن ذلك منه إلا عن مَلأٍ من النَّاسِ، وقام إلى عثمانَ شيعته من بني أُميَّةَ، فحَمَلوه فأدخَلوه الدّار.

ورَوى عن يحيى بنِ عبدِ الرحمٰن بنِ حاطب عن أبيه، قال: أنا أُنظر إلى عثمانَ يخطبُ على عصا النبيّ ﷺ التي كان يخطبُ عليها أبو بكر، فقال له جَهْجَاه: قمْ يا نَعْثَل، فأنزِل عن هذا المِنبرِ، وأخذِ العَصا فكسَرَها على رُكبَتِه اليمنى، فدخلَتْ شَظيّةٌ منها فيها، فبَقيَ الجُرح حتَّى أصابتْه الأكَلةَ(١)، فرأيتُهَا تَدوَّد. ونزل عثمانُ وحَمَلوه، وأمرَ بالعصا فشدّوها، فكانت مُضَبَّبَةً(٢)، فما خرجَ بعد ذلك اليومِ إلاَّ خَرْجَةً أو خَرْجتيْن حتى حُصِر، فقتل.

هذا ما كان من أمرِ أهل المدينة.

وأمّا ما كان من أهل الأمصار، فكان سبب خلافهم أنّ عبدَ اللّهِ بن سَبَأ المعروف بأبن السَّوْداء، كان يهوديًا، فأسلَمَ أيّامَ عثمان، ثم تنقَّلَ في الحِجاز، ثم بالبَصْرةِ، ثم بالكُوفةِ، ثم بالشام، يريدُ إضلالَ النَّاسِ، فلم يقدرْ منهم على ذلك، وأخرجَهُ أهلُ الشّام، فأتى مصرَ، فأقامَ فيهم، وقال لهم: العجبُ ممن يُصَدِّق أنّ عيسى يرجعُ، ويكذِّبُ أنّ محمدًا يرجعُ، ووضعَ لهم الرّجعةَ، فقبِلُوا ذلك معه، ثم قال لهم بعد ذلك: إنَّه كان لكلِّ نبيٍّ وصيّ، وعليٌّ وصيُّ محمّدٍ، فمن أظلمُ ممّن لم يُجِز وصيّةَ رسولِ الله، ووَثَب على وصيِّه! وإنَّ عثمانَ أخذَها بغيْرِ حقٍّ، فأنهضُوا في هذا الأمرِ، وابدؤوا بالطَّعْنِ على أمرائِكُمْ، وأظهروا الأمرَ بالمعروفِ، والنهيَ عن المنكرِ تستميلوا به النَّاس. وبثَّ دُعاتَه، وكاتبَ من أستفسدَ في الأمصار، وكاتبُوه، ودَعَوْا في السِّرّ إلى ما عليه رأيُهُمْ.

ثم كان أهلُ الكوفةِ أوّلَ مَنْ قامَ في ذلك، فاجتمعَ ناسٌ منهم فتذاكَرُوا أعمالَ عثمانَ، فاجتمعَ رأيُهم أنْ يُرسِلوا إليه عامرَ بنَ عبدِ اللّهِ التَّمِيْمِيّ، ثم العنْبَرِيّ، وهو الّذي يُدْعى عامرَ بنَ عبدِ القيس، فأتاه، فدخل عليه فقال: إنَّ ناسًا من المسلمين اجتمعُوا ونظروا في أعمالِك، فوجَدُوك قد ارتكبْتَ أُمُورًا عظَامًا، فاتَّقِ اللّهَ وتُبْ إليه.

فقال عثمانُ: انْظُروا إلى هذا، فإنّ النَّاسَ يزعمُون أنّه قارىء، ثم هو يجيء فيكلِّمُني في المحقَّرات، ووالله ما يَدْرِي أينَ الله؟ فقال عامر: بل واللّهِ إنّي لأدْرِي إنّ الله لَبالمِرْصاد.

---

(١) الأكلة: الحكة.

(٢) يقال: ضبّب الخشب ونحوه: ألبسه الحديد ونحوه.

فأرسلَ عثمانُ إلى معاوية، وعبدِ الله بنِ سعد، وسعيدِ بنِ العاص، وعمرو بنِ العاص، وعبد الله بن عامر، فجمعَهُم وشاورَهم، وقال لهم: إن لكلِّ أميرٍ وزراء ونُصَحاء وإنكُمْ وُزرائِي ونُصَحائي، وأهلُ ثِقَتي، وقد صنعَ النَّاسُ ما قد رأيتُمْ، وطلبوا إليّ أنْ أعزلَ عُمَّالِي، وأنْ أرجعَ عَنْ جميع ما يَكْرَهون إلى ما يحِبُّون، فٱجتهدُوا رأيَكم.

فقال ابنُ عامرٍ: أرَى يا أميرَ المؤمنين أن تَشغَلَهم بالجهادِ عنك حتَّى يَذِلُّوا لك، ولا تكون همَّةُ أحدهم إلا في نفسَه وما هو فيه من دَبَرِ[1] دابَّتِهِ وقَمَلَ[2] فَرْوَتِهِ.

وقال سعيد: احْسِمْ عنك الداءَ فٱقطعْ عنك الَّذي تخافُ، فإنَّ لكُلِّ قومٍ قادةً، مَتى تَهلك تَفرَّقُوا ولا يجتَمعُ لهم أمْر، فقال عثمان: هذا هو الرأْيُ لولا ما فيه.

وقال معاوية: أُشيرُ عليك أن تأْمرَ أُمراءَ الأجنادَ فيكْفِيَكَ كلُّ رجلٍ منهم ما قبَله، وأكفيك أنا أهلَ الشام.

وقال ٱبن سَعد: إنَّ الناسَ أهلُ طمعٍ، فأعطِهم من هذا المالِ، تَعطِفْ عليك قلوبُهُم.

ثم قام عمروُ بنُ العاص فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك قَدْ ركبْتَ النَّاس بمِثْلِ بني أُميَّة. فقلْتَ وقالوا، وزُغْتَ وزَاغُوا، فٱعتَدِل أو ٱعتزِلْ، فإن أَبَيْتَ فاعتزِمْ عَزْمًا، وٱمضِ قُدُمًا.

فقال له عثمانُ: ما لَكَ قَمِلَ فَرْوُك، أهذا الجدّ منك! فسكتَ عَمرو حتَّى تَفرّقوا، فقال: واللّهِ يا أميرَ المؤمنين لأنت أكرمُ عليَّ من ذلك؛ ولكِنِّي علمتُ أن بالبابِ من يُبَلِّغ النَّاسَ قولَ كلّ رجلٍ منّا، فأردْتُ أن يَبْلُغَهُمْ قَوْلي، فَيثقُوا بي، فأقود إليك خيرًا، وأدفعُ عنك شرًّا.

ثم ردَّ عثمانُ عماله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز الناسِ في البُعوثِ، وردَّ سعيدَ بنَ العاصِ إلى الكوفةِ، فلقيَهُ الناسُ من الجَرَعةِ فردُّوه كما تقدمَ، وتكاتبَ أهلُ الأمصار، لمّا أفسَدَ أمرَهم ابنُ السوْداء[3]، وصار أهلُ كلِّ مصر يكتب إلى أهلِ المِصر الآخرَ بعُيوب يضعونها لوُلاتِهم، وينالُون منهم حتى ذَاع ذلك في سائرِ البلادِ، ووَصَل إلى المدينةِ.

---

(١) دبر الدابة: أصابها الدبر، والدبر: داء يصيب الإبل.
(٢) قمل فروته: كثر فيها القمل. (٣) ابن السوداء: هو عبد الله بن سبأ.

فيقولُ أهلُ كلِّ مصر: إنا لَفِي عافية مما ٱبتُلِيَ به هؤلاء. ثمّ تكاتبَ نفرٌ من أصحابِ رسول اللّهِ ﷺ وغيرهم، بعضُهم إلى بعض في سنة أربع وثلاثين أنْ اقدَموا فإنّ الجهادَ عندنا، ونالَ الناسُ مِنْ عثمانَ، وعَظَّموا عليه، وليس أحدٌ من الصحابة يَنهى ولا يَذُبُّ، إلا نَفرٌ، منهم زيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو أُسَيدٍ الساعديّ، وكعبُ بنُ مالك، وحسّانُ بنُ ثابت، فاجتمعَ الناس، فكلّموا عليّ بن أبي طالبٍ رضي اللّهُ وأرْضاه وكرّم وجْهه.

ذكر كلام علي لعثمان وجوابه له

قال: ولمّا اجتمعَ الناسُ إلى علي رضي الله عنه، وكلّموه، دخل إلى عثمان فقال: إن الناسَ وَرَائِي، وقد كَلّمُوني فيك، واللّهِ ما أدري ما أقولُ لك، ولا أعرفُ شيئًا تجهَلُه، ولا أدُلُّك على أمرٍ لا تعرفُه، إنك لتعلم ما نَعلَمُ، ما سَبَقْناكَ إلى شيءٍ فنُخبِرك عنه، ولا خَلَوْنا بشيءٍ فنبلِّغَك، وما خُصِصْنا بأمرٍ دونك، وقد رأيتَ وصَحِبْتَ رسولَ اللّهِ ﷺ، وسمعتَ منه، ونِلْتَ صِهْرَه، وما ابن أبي قُحافةَ بأوْلَى بالعملِ منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنتَ أقربُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ رَحِمًا، ولقدْ نِلْتَ من صهرِ رسولِ اللّهِ ﷺ ما لَم يَنالا، ولا سَبقَاك إلى شيءٍ، فالله، الله في نَفْسِكَ، فإنك واللّهِ ما تُبصّر عن عَمًى، وما تُعلَّمُ من جَهالةٍ، وإن الطريقَ لواضحٌ بيِّن، وإن أعلامَ الدِّينِ لقائمة.

اعلَمْ يا عثمانُ أنّ أفضَل عبادِ اللّهِ عِند الله إمامٌ عادلٌ، هُدِيَ وهَدَى، وأقامَ سُنةً معلومةً، وأماتَ بدعةً مكروهةً، فوالله إنّ كلاً لبيِّن، وإن السُّنَن لقائمةٌ لها أعلامٌ، وإنّ البدعَ لقائمة لها أعلامٌ، وإن شرّ الناس عندَ اللّهِ إمامٌ جائرٌ ضلّ وأضلّ، فأماتَ سنةً معلومةً وأحْيَا بِدْعةً متروكة، وإنّي أُحَذِّرُك اللّهَ وسَطَوَاتِهِ ونَقَمَاتِهِ، فإن عذابَه شديدٌ أليم، وأُحذِّرُك أنْ تكون إمامَ هذه الأُمةِ الذي يُقتَلُ فَيَفتَح عليها القتْل والقِتالَ إلى يوم القيامةِ، وتُلبِسُ أُمورَها وتَتركهم شِيَعًا؛ لا يُبصرون الحق لعلوّ الباطل، يَموجون فيها مَوْجًا، ويَمرَجُون(١) فيها مَرْجًا.

فقال عثمانُ: قد علمتُ والله ليَقولُنّ الّذِي قلْتَ، أما والله لو كنتَ مكاني ما عنَفْتُكَ ولا أسْلَمْتُك، ولا عِبْتُ عليك، ولا جئتُ نكرًا، أنْ وصلْتُ رحِمًا، وسدَدْتُ خَلّة، وآويتُ ضائعًا، ووليّتُ شبيهًا بمن كان عمر ولّى. أنشُدُكَ اللّهَ يا عليّ، هل تَعلمُ أنّ المغيرَةَ بنَ شعبة ليس هناك! قال: نعم، قال: فتعلمُ أنّ عمرَ ولاّهُ؟ قال: نعم، قال: فلِمَ تلومُني أنْ وَلّيْتُ ٱبنَ عامر في رَحِمِه وقَرَابَتِهِ؟ قال عليّ: إنّ عمرَ كان يَطأُ

---

(١) مرج الناس: اختلطوا؛ ومريج الدين: فسد وقلّ الوفاء به.

على صِماخ[١] مَن ولَّى إنْ بلغَهُ عنه حرفٌ جَلَبَهُ، ثم بلغَ به أقْصَى العُقوبةِ، وأنْتَ لا تَفعلُ، ضعُفْتَ ورفقْتَ على أقربائِك.

قال عثمانُ: وهم أقرباؤك أيضًا. قال: أجَل، إنَّ رَحِمَهُم منِّي لقريبة؛ ولكنَّ الفضلَ في غيرهم.

قال عثمانُ: هل تعلَمُ أنَّ عمرَ وَلَّى معاوية، فقد ولَّيته؟ قال عليّ: أنشُدُك اللّهَ! هل تعلمُ أنَّ معاويةَ كان أخوف لِعُمَر مِن يَرْفَأ[٢] (غلام له)؟ قال: نعم، قال: فإنَّ معاويةَ يقطع الأُمورُ دونك، ويقولُ للنَّاسِ: هذا أمرُ عثمان، وأنْتَ تعلَمُ ذلك، فلا تغيّر عليه.

ثمّ خرج عليٌّ مِنْ عنده، وخرجَ عثمانُ على أثرِه، فجلس على المِنبرِ ثم قال:

أمّا بعد، فإنَّ لكلِّ شيءٍ آفةً، ولكُلِّ أمرٍ عاهةً، وإنَّ آفةَ هذه الأُمّةِ، وعاهةَ هذه النِّعْمة، طَعَّانُون يُرُونكم ما تُحِبُّون، يستِرُون عنكُمْ ما تكرهُون، ويقولُون لكم ويقولون، أمثالُ النَّعام، يَتْبَعُون أوّلَ ناعق، أحبُّ موارِدِها إليها البعيد، لا يشربون إلاَّ نَغَصًا[٣]، ولا يَرِدُون إلاّ عَكَرًا، لا يقوم لهم رائد، وقد أعْيتْهم الأُمورُ، ألا فقد عِبْتُم عليّ واللّهِ بما أقررْتُم لابن الخطَّابِ بمثلِهِ؛ ولكنَّهُ وَطِئكم برِجْلِهِ، وضرَبَكم بيَدِهِ، وقمَعَكُمْ بلسانِهِ، فدِنْتُم له على ما أحبَبْتُمْ أو كرهْتُمْ، ولنْتُ لكم، وأوطأتُكُمْ كتِفي، وكَفَفْتُ يَدِي ولساني عنكُمْ، فأجترَأْتُمْ عَلَيَّ. أما واللّهِ لأنا أعزُّ نَفَرًا، وأقربُ ناصرًا، وأكثرُ عَدَدًا، وأحرى أن قلتُ هَلُمَّ أُتِيَ إليّ، ولقد أعددْتُ لكم أقرانَكُم، وأفضلْتُ عليكم فضولاً، وكَشَرْتُ لكمْ عن نَابي، وأخْرجْتُم منّي خُلُقًا لم أكن أُحْسِنُهُ، ومَنطقًا لم أنطِقْ به، فكفُّوا عنّي ألسنَتكُمْ وطعنَكُمْ وعيْبَكُمْ عَلَى وَلاتِكُمْ، فإنّي قد كَفَفتُ عنكم مَنْ لو كان هو الّذِي يُكلِّمكم لرضيتُمْ منه بدون مَنْطِقي هذا، ألا فما تَفقِدون من حَقِّكُمْ؟ والله ما قصّرْتُ عَنْ بلوغ ما بَلَغ من كان قَبْلي، ولم يَكُونوا يَختلفون عليه.

فقام مروانُ بنُ الحكم فقال: إنْ شئتُمْ حكَّمْنَا واللّهِ بينَنا وبينكم السيفَ، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر: [من الطويل]

فَرشْنا لكُمْ أعراضَنا فَنَبَتْ بِكُمْ مَغَارِسُكُمْ تَبْنُونَ في دِمَنِ الثَّرَى[٤]

فقال له عثمانُ: اسْكتْ لا سكتّ، دَعْني وأصحابي، ما منطقُكَ في هذا؟ ألم أتقدّمْ إليك ألاَّ تَنطِق! فسكت مروانُ، ونَزَل عثمانُ.

(١) الصماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى طبلته. (٢) يرفأ: يصلح.
(٣) النغص: الماء الكدر. (٤) الدمن: جمع دمنة: وهي المزبلة.

ذكر إرسال عثمان إلى الأمصار ليأتوه بأخبار عماله وما يقول النَّاسُ فيهم

قال: لما تكاتَبَ أهلُ الأمصارِ بعُيوب وُلاتِهم التي وَضَعوها، وشاعَ ذلك، وأتت الأخبارُ إلى المدينة، أتَى أهلُ المدينةِ إلى عثمانَ وقالوا: يا أميرَ المؤمنين إنا نخبرك عن النَّاس بما يأتينا، وأخبَروه، فاستشارَهم فأشاروا أن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصارِ، ليأْتُوه بأخبار العُمّالِ، فأرسلَ محمدَ بن مَسلَمة إلى الكُوفةِ، وأُسامةَ بنَ زَيْدٍ إلى البَصْرةِ، وعمّارَ بنَ ياسِرٍ إلى مِصْر، وعبدَ الله بنَ عمرَ إلى الشّام. وفرّق رجالاً سواهم، فرجَعوا جميعًا قبل عمّار، فقالوا: ما أنكَرْنا شيئًا ولا أنكَرَه أعلامُ النَّاسِ ولا عَوامُّهم. وتأخَّرَ عمّار حتَّى ظَنُّوا أنّه اغْتِيلَ، فجاء كتابُ عبدِ اللّهِ بنِ أبي سرح يذكرُ أنَّ عمّارًا قد استمالَه قومٌ وانقَطَعوا إليه، منهم عبدُ اللّهِ ابن السَّوْداء، وخالدُ بنُ مُلجَم، وسُودانُ بنُ حُمران، وكنانةُ بنُ بشْر.

فكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمْصَارِ: إنِّي آخذُ عُمّالِي بموافاتي في كلّ موْسم، وقد رفع إليّ أهلُ المَدينة أن أقوامًا يُضرَبون ويُشتَمون، فمن ادّعى شيئًا من ذلك فلْيُوافِ المَوسم، ليأخذ بحقّه منّي أو من عُمّالي، أو تَصّدقُوا فإنَّ اللّهَ يَجزِي المتَصدِّقين.

فلمّا قرىء كتابه في الأمصار بَكى الناسُ بكاءً شديدًا، ودَعَوْا لعثمانَ رضي الله عنه. وقدمَ عمّالُ الأمصارِ إلى مكّة في المَوْسم: عبدُ اللّهِ بن عامر أميرُ البصرةِ، وعبدُ اللّهِ بنُ سعد أميرُ مصر، ومعاويةُ أميرُ الشّام وأدْخلَ معهم في المشورة سعيد بنَ العاص، وعمرَو بنَ العاصِ.

فقال عثمانُ رضي الله عنه: ويحَكُم! ما هذه الشكايةُ وما هذه الإذاعة! إنِّي والله لخائف أن تكونوا مَصْدوقًا عليكم، وما يُعْصَب هذا إلاّ بي، فقالوا: ألَم تبعثْ؟ ألم نَرْجعْ إليك الخبرَ عن القَوْم؟ ألم ترجعْ رسُلُك ولَم يشافِهْهم أحدٌ بشيءٍ، والله ما صَدَقُوا ولا بَرُّوا ولا نعلمُ لهذا الأمر أصلاً، ولا يحلُّ الأخذُ بهذه الإذاعة. فقال: أشيرُوا عليَّ.

فقال سعيد: هذا أمرٌ مَصْنوع يُلقَى في السِّرّ، فَيتحدَّثُ به النَّاسُ، ودواء ذلك طلبُ هؤلاء، وقتلُ الَّذِين يَخرجُ هذا مِنْ عِنْدِهم.

وقال عبدُ اللّهِ بنُ سعد: خذْ من النّاسِ الَّذِي عليهم إذا أعطيتَهُمْ الَّذِي لهم، فإنّه خيرٌ من أنْ تَدَعَهُم.

وقال معاوية: قد ولَّيْتَنِي فوَلَيْتُ قومًا لا يأتيك عنهم إلاَّ الخيرُ، والرّجلان أعلمُ بناحِيَتَيْهما، والرأيُ حُسنُ الأدب.

وقال عمرو: أرى أنَّكَ قد لِنتَ لهم، وتَراخَيْتَ عليهم، وزِدْتَهم على ما كان يَصنعُ عُمر، فأرى أن تَلزمَ طريقَ صاحبَيْك، فتشتدّ في موضع الشدّة، وتلين في موضع اللِّين.

فقال عثمانُ: قد سمعتُ كلّ ما أشَرْتُم به عليّ، ولكل أمرٍ باب يُؤتى منه. إنَّ هذا الأمرَ الَّذِي يُخافُ على هذه الأمَةِ كائنٌ، وإنَّ بابهُ الَّذي يُغْلَق عليه فيُكَفْكَف به، اللينِ والمُؤاتاة إلاَّ في حدود اللّهِ، فإنْ فُتِح فلا يكون لأحدٍ عليَّ حُجةُ حَقٍّ. وقد علمَ اللّهُ أنّي لم آل الناسَ خيرًا، وأنَّ رَحَا الفِتنةِ لدائرة، فطوبى لعثمانَ إنْ مات ولم يحرِّكْها. سكِّنُوا النّاسَ، وهيِّئوا لهم حقوقَهُمْ؛ فإذا تُعُوطيَتْ حقوق اللّهِ عزَّ وجلّ فلا تدْهِنُوا فيها.

وكان هذا بمكّة. فلمّا قدِم عثمانُ المدينةَ دعا عليًّا وطلحةَ والزُّبيْرَ، وعنده معاوية، فحمِدَ معاويةُ اللّهَ، ثم قال: أنتم أصحابُ رسولِ الله ﷺ وخِيرتُه مِن خلقِهِ، ووُلاةُ أمرِ هذه الأمّة، لا يَطمَعُ فيه أحدٌ غيرُكم، اخترْتُمْ صاحِبَكُم عن غيرِ غَلَبةٍ ولا طمع، وقد كبرَ وولّى عمره، ولو انتظرتُمْ به الهَرَمَ لكان قريبًا؛ مع أنّي أرجو أنْ يكون أكرمَ على الله أنْ يُبْلِغَه ذلك، وقد فشتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم، فما عَتَبْتُم فيه من شيءٍ فهذه يَدِي لكم به، ولا تُطمِعُوا النَّاسَ في أمْرِكم، فوالله إن طَمِعُوا فيه لا رأيتُم منها أبدًا إلاَّ إدْبارًا.

فقال عليُّ بنُ أبي طالب: ما لَكَ وذاكَ لا أُمَّ لك! قال: دعْ أُمِّي فإنَّها ليستْ بِشَرِّ أُمّهاتِكم، قد أسلمتْ وبَايَعت النبيَّ ﷺ، وأجِبْني عمّا أقولُ لك.

فقال عثمانُ: صدق ابنُ أخي، أنا أُخبِركم عَنّي وعمّا ولِيتُ، إنَّ صاحبَيَّ اللَّذَيْنِ كانا قَبْلي ظَلَما أنفُسَهما، ومَنْ كان منهما بسَبيل احتِسابًا، وإن رسولَ اللّهِ ﷺ كان يُعْطِي قَرابتَه، فأنا في رَهْطِ أهلِ عَيْلَة، وقِلّة مَعاش، فبسطْتُ يدي في شيءٍ من ذلك المال لِما أقوم به فيه، فإنْ رأيْتُمْ ذلك خَطأً فردّوه، فأمري لأمركم تبع.

فقالوا: أصبْتَ وأحسنْتَ، قد أعطيْتَ عبدَ اللّهِ بنَ خالدِ بن أَسِيد خمسين ألفًا، وأعطيْتَ مَروانَ خمسةَ عشر ألفًا. فأخذ منهما ذلك، فَرضُوا وخَرَجوا راضين.

ولمّا رأى معاويةُ ما النّاس فيه قال لعثمان: اخرجْ معي إلى الشام فإنَّهم على الطاعة قبلَ أن يَهجُمَ عليك ما لا قِبَلَ لك به، فقال: لا أبيعُ جِوارَ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ وإن كان فيه قَطْعُ خَيْطِ عُنُقي.

قال: فأبعثُ إليك جُندًا منهمْ يُقِيمون معك لنائبةٍ إن نابَت المدينة، فقال: لا أُضَيِّقُ على جِيران رسولِ الله ﷺ، فقال: واللّهِ إنك لَتُغْتالَنَّ، فقال: حسبيَ اللّهُ ونعمَ الوكيل.

وخرج معاويةُ، فمرَّ بنفر من المهاجِرين؛ فيهم عليٌّ وطلحةُ والزُّبير وعلى معاوية ثِيابُ سَفَره، فقام عليهم، فقال: إنَّكم قد علِمتُمْ أنَّ هذا الأمرَ كان النَّاسُ يتغَالَبُون عليه حتَّى بعثَ الله نبيَّهُ، فكانوا متفاضِلِين بالسابقةِ والقدمةِ والاجتهادِ، فإنْ أَخَذوا بذلك فالأمرُ أمرُهم، والنَّاسُ لهم تبع، وإن طَلَبوا الدُّنيا بالتغالُب سُلِبوا ذلك وَردّه اللّهُ إلى غيرِهِم، وإنَّ الله على البدَل لقادر، وإني قد خَلَّفْتُ فيكم شيْخًا، فاستَوْصوا به خيرًا، وكاتِفُوه تكونوا أسعدَ منه بذلك. ووَدَّعَهم ومَضَى إلى الشَّام.

فقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه: كنتُ أرَى في هذا خيرًا.

فقال الزُّبيرُ: والله ما كان قطُّ أعظم في صَدْرِك وصدورِنا منه اليوم. والله سبحانه وتعالى أعلمُ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

سنة خمس وثلاثين

ذِكرُ مسيرِ مَن سار إلى عثمان رضي الله عنه من أهل الأمصار

قال: ولمّا فَصَل[1] الأُمراء عن المدينةِ، وقدموا على أمصارهم وذلك في سنة خمسٍ وثلاثين، وكان المنحرفُون عن عثمانَ قد اتَّعدوا يومًا يخرجون فيه بالأمصار جميعًا إذا سارَ عنها الأُمَراء، فلم يتهيَّأ لهمْ ذلك. ولمّا رجع الأمراءُ ولم يتمّ لهم الوُثوبُ تَكاتَبُوا في القدوم إلى المدينةِ، لينظُروا فيما يريدُون ويسألوا عثمانَ عن أشياءَ، لِتَطيرَ في النَّاسِ.

فخرج المِصْريُّون وفيهم الرحمٰن بنُ عُدَيْس البَلَويّ في خمسمائة. وقيل: ستّمائة، وقيل: في ألف، وفيهم كنانةُ بنُ بِشْر اللَّيثي، وسُودان بن حُمْران السَّكونيّ، وعليهم جميعًا الغافِقِيّ بن حرب العَكّيّ.

وخرجَ أهلُ الكوفةُ وفيهم زيدُ بنُ صُوحان العَبْديّ، والأشْتَر النَّخَعيّ، وزيادُ بنُ النَّضْر الحارِثيّ، وعبدُ اللّهِ بن الأصمّ العامريّ، وهم عِدَادِ أهل مِصْرَ.

---

(١) فصل القوم عن البلد: خرجوا.

وخرجَ أهلُ البصرةِ وفيهم حكيم بن جَبَلة العَبْدِيّ، وذَرِيجُ بنُ عبّاد العَبْديّ، وبشرُ بنُ شُرَيْح القَيْسي، وابنُ المُحترِش، وهم بِعَدادِ أهلِ مِصرَ، وأميرهم حُرْقوصُ بنُ زُهَير السَّعْديّ.

فخرجوا جميعًا في شوّال، وَأظهَرُوا أنّهم يريدون الحَجّ، فلما كانوا من المدينةِ على ثلاثٍ، تَقدَّم ناسٌ من أهلِ البَصْرةِ، فنزلُوا ذا خُشُبٍ[١]، وكان هواهم في طلحة، وتقدَّم ناس من أهل الكوفة فنزلوا على الأعوَص وهَواهم في الزُّبَيرِ، وجاءهم ناسٌ من أهلِ مِصرَ وهواهُم في عَلِيّ، ونَزل عامّتهم بذِي المروة[٢].

فاجتمعَ نفرٌ من أهلِ مصرَ وأتَوْا عليًّا، ونفرٌ من أهلِ البصرةِ، وأتَوْا طلحةَ، ونفرٌ من أهلِ الكُوفةِ فأتَوْا الزُّبيرَ، واجتمعوا بهم فكلٌّ طَرِدَهم وأبعَدَهم، فعادُوا إلى أصحابهم.

وقيل: إنَّ عثمانَ لما بَلَغَهُ نُزُولهم بذي خُشُبٍ، جاء إلى عليٍّ وكلَّمه في رَدّهم، فقال عليّ: على أيّ شيءٍ أرُدُّهم؟ فقال عثمان: على أن أصير إلى ما أشرْتَ إليه ورأيْتَه لي.

فركبَ عليٌّ ومُحمد بنُ مَسلمة وأبو المُضرّس وكلَّموهم في الرُّجوع، فرجَعُوا، فعاد عليٌّ إلى عثمانَ برجوعهم، فسُرّ بذلك.

فلمّا فَارَقَه جاء مروانُ بنُ الحكم إلى عثمانَ من الغَدِ فقال له: تكلَّم وأعلِم النَّاسَ أنَّ أهلَ مِصرَ رجعوا، وأنَّ مَا بَلَغَهم عن أميرهم كان باطلًا قبل أنْ يأْتيَ النَّاسُ مِنْ أمْصارِهم، ويأتيَك ما لا تَستطيعُ رَدَّه، ففعَلَ عثمان، فلمّا خَطَبَ النَّاسَ قال عمرُو بنُ العاصِ: اتَّقِ اللّهَ يا عثمان، فإنَّك قد ركبْتَ أموَرًا وركبْنَاهَا معك، فتُبْ إلى اللّهِ نَتُبْ.

فناداه عثمانُ: وإنَّك هُنالك! قَمِلَت واللّهِ جُبَّتُكَ، منذُ عزلتُكَ عن العَمَل، فنُودِيَ من ناحية أُخرى: تُبْ إلى اللّهِ، فَرفَع رأْسَه وقال: اللَّهمَّ إني أوّلُ تائبٍ. وخرجَ عمرُو بنُ العاص حتَّى أتَى فِلَسْطين.

وفي روايةٍ عن عَلْقَمة بنِ وَقَّاص: إنَّ عَمرو بن العاص قامَ إلى عثمان وَهو يخطبُ، فقال: يا عثمانُ، إنَّك قد ركبْتَ بالنَّاسِ النَّهَابِير[٣] وَركبوها، فتُبْ إلى اللّهِ ولْيتُوبُوا. فالتَفَتَ إليه عثمان وقال: وإنَّكَ لهُنا يا بن النابغة! ثمَّ رَفع يَدَيْه واستَقْبلَ القِبلةَ وقال: أتوبُ إلى اللّهِ، اللهمّ أنا أوّل تائب إلَيْك.

---

(١) خُشُب: بضم أوله وثانيه، وآخره باء موحدة: واد على مسيرة ليلة من المدينة..

(٢) ذو المروة: قرية بوادي القرى؛ وقيل: بين خشب ووادي القرى...

(٣) النهابير: المهالك.

قال ابن الأثير الجَزَرِيّ: وقيل: إنَّ عليًا لمّا رجع من عند المصريِّين بعد رجوعِهِمْ أتى عثمان، فقال: تكلَّمْ كلامًا يسمعُه النَّاسُ منك، ويشهدُون عليك ويشهدُ اللّهُ على ما في قلبك من النُّزوع[١] والإنابة؛ فإنَّ البلادَ قد تمخَّضت عليك، فلا آمَنُ أن يَجيء ركبٌ آخَرُ من الكُوفةِ والبصرة، فتقول: يا عليّ، اركَبْ إليهم، فإنْ لم أفعَلْ رأيتني قد قَطعتُ رَحِمَك، واستخففْتُ بحقّكَ.

فخرج عثمانُ فخطبَ خُطبةً نزعَ فيها، وأعطَى الناسَ مِن نفسِه التَّوبةَ، وقال أنا أولُ من اتَّعظَ، أستغفرُ اللّهَ مما فعلْتُ وأتوبُ إليه، فمِثْلي نَزَعَ وتابَ؛ فإذا نزلتُ فليأْتِنِي أشرافكُمْ فليرَوْا رأْيَهم، فوالله لئِن ردَّنِي الحقُّ عبدًا لأسْتَنُّ بسُنّة العَبْدِ، ولأذلَّنَّ ذُلَّ العَبدِ، وما عن اللّهِ مَذهَب إلاَّ إليه، فواللّهِ لأُعطينَّكم الرضا، ولأُنحِّينَّ مروانَ وذَويه، ولا أحتجبُ عنكم.

فرقَّ النَّاسُ وبَكَوْا حتَّى أُخْضِلَتْ[٢] لحَاهم، وبكَى هو أيضًا، فلمّا نزل وَجَد مروانَ وسعيد بنَ العاصِ ونفرًا من بني أُميَّة في منزله، لم يكونُوا شهدُوا خُطبَتَهُ.

فلمّا جلس قال مروانُ: يا أميرَ المؤمنيْن، أتكلَّمُ أم أسكُت؟ فقالَتْ نائلةُ ابنةُ الفَرافصَة امرأةُ عثمانَ: لا، بل اصمُتْ، فإنَّهم واللّهِ قاتِلوه ومُؤْثِموه، إنه قد قال مقالةً لا ينْبَغِي له أنْ ينزِعَ عنها.

فقال لها مروانُ: ما أنتِ وذاك؟ فواللّهِ لقَدْ مات أبوكِ وما يُحسِن يتوضّأ، فقالت: مهلاً يا مَرْوان عن ذِكرِ الآباء، تُخْبِرُ عن أبي وهو غائبٌ تَكْذِب عليه! وإنَّ أباكَ لا يستطيعُ أنْ يدفعَ عنه. أما واللّهِ لولا أنّه عمُّه، وأنّه ينالُه غَمُّه لأخبرتُكَ عَنه بما لَم أكذِب. قال: فأعرَض عنها مروانُ، وقال: يا أميرَ المؤمنين، أتكلَّمُ أم أسْكُتُ؟ قال: تكلَّمْ، فقال: بأبي أنتَ وأُمّي! والله لوددْتُ أنّ مقالتَكَ هذه كانتْ وأنتَ ممتنعٌ، فكنتُ أوّلَ من رضيَ بها، وأعانَ عليْها؛ ولكنَّكَ قلْتَ ما قلْتَ حين قد بلغَ الحزامُ الطُّبْيَيْن[٣]، وبَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى[٤]، وحين أعْطَى الخُطَّةَ الذَّليلةَ الذَّليلُ، واللّهِ لإقامةٌ على خطيئةٍ يُستغْفَرُ منها، أحسنُ من تَوبةٍ يخافُ عليها، وأنتَ إن شئتَ تقرُّ بالتَّوبةِ، ولم تُقرّ بالخطيئةِ، وقد اجتمعَ بالباب أمثالُ الجبالِ من النَّاسِ.

---

(١) النزوع: الكف. (٢) أخضلت: ابتلت.

(٣) الطبى: حلمة الضرع التي فيها اللبن، والتي يرضع منها الرضيع.

(٤) بلغ السيل الزبى: مثل يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

فقال عثمانُ: فاْخرجْ إليهم وكلِّمْهُم، فإنِّي أستحيي أنْ أُكلِّمَهُمْ، فخرجَ مروانُ إلى البابِ والناسُ يَركبُ بعضُهم بعضًا، فقال: ما شأْنُكم؟ قَدْ اجتمعْتُم كأنَّكُمْ قد جئتُمْ لنَهْب، شاهَتْ[١] الوجُوهُ! إلا منْ أُرِيد، جئتُم تُرِيدُون أنْ تَنزِعُوا مُلْكَنا من أيدينا، اخرُجُوا عنَّا، والله لئنْ رُمْتمونا لَيُمرّن عليكُمْ منَّا أمرٌ لا يَسُرّكم، ولا تحمدوا غِبَّ رَأْيكم، ارجِعوا إلى منازلكُمْ، فإنَّا واللّهِ ما نحنُ بمغلوبين على ما في أيْدينا.

فرجَعَ النَّاسُ، وأتى بعضُهم عليًّا فأخْبَرَه الخبرَ، فأقبل على عبدِ الرحمٰن بنِ الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ فقال: أحضرْتَ خُطبةَ عثمان؟ قال: نعم، قال: أفحضرْتَ مقالةَ مَرْوانَ للنَّاس؟ قال: نعم، فقال عليٌّ: أيْ عِبادَ الله، يا للمسلمين! إنِّي إنْ قعدْتُ في بيتي قال لي: تركْتَني وقرابَتِي وحَقِّي، وإنِّي إنْ تكلَّمْتُ فجاء ما يريدُ يَلعبُ به مَرْوان، فصار سَيِّقَةً له يَسُوقُهُ حَيْثُ يشاءُ، بعد كبَرِ السِّنِّ، وصُحْبَةِ الرسولِ ﷺ. وقام مُغضَبًا حتَّى دخلَ على عثمانَ فقال له: أما رضيتَ من مروانَ ولا رضيَ منك إلاَّ بتحرُّفِك عن دينكَ، وعن عَقْلِكَ، مِثل جملِ الظَّعِينَةِ[٢]. يُقَادُ حيْثُ يَشاءُ رَبُّه[٣]. واللّهِ ما مروانُ بذي رأْيٍ في دِينه ولا نفسِه، ولا وأيْمُ اللّهِ إنِّي لأراه يورِدُكَ ثمّ لا يُصْدِرُكَ، وما أنا عائد بعدَ مُقامي هذا لمعاتَبَتِكَ، أذهبتَ شَرفَكَ، وغُلِبْتَ على رَأْيك.

فلمّا خرجَ عليٌّ دخلَتْ على عثمانَ امرأتُه نائلة فقالتْ: قد سمعْتَ قولَ عليٍّ لك، وليس يُعَاوِدُكَ، وقَدْ أطَعْتَ مروان يقودُكَ حيْثُ شاء قال: فما أصنَعُ؟ قالت: تتَّقي اللّهَ، وتَتَّبعَ سنَّةَ صاحبَيْكَ؛ فإنَّك متى أطعْتَ مروانَ قتَلَكَ، ومروانُ ليس له عندَ النَّاسِ قَدْرٌ ولا هَيْبةٌ ولا محبَّةٌ؛ وإنَّما تركك الناسُ لمَكانِه، فأرْسِلْ إلى عليٍّ فاستَصْلِحْه فإنَّ له قرابَةً منك، وهو لا يُعْصَى.

فأرسل عثمانُ إلى عليٍّ فلَم يأْتِهِ وقال: قَدْ أعلَمْتُه أنِّي غيرُ عائدٍ، فبلغَ مروان مقالةُ نائلة فيه، فجلسَ بين يدي عثمانَ فقال: يا ابنَةَ الفَرافِصة، فقال عثمانُ: لا تَذْكُرَنَّها بحَرفٍ، فأسوىءُ وجهَكَ، فهي واللّهِ أنصحُ لي مِنْك، فكَفَّ مَرْوان.

وأتَى عثمانُ إلى عليٍّ بمَنزِله ليلاً وقال له: إنِّي غيرُ عائدٍ، وإنِّي فاعلٌ، فقال له عليٌّ: بعدما تكلَّمتَ على مِنبرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وأعطيْتَ من نفسك، ثم دخلْتَ بيتَكَ. فخرج مروانُ إلى النَّاسِ يشتُمُهم على بابِكَ ويُؤْذيهم!

---

(١) شاهت الوجوه: قبحت. (٢) الظعينة: الراحلة يرتحل عليها.
(٣) ربّ الشيء: سيده أو صاحبه.

فخرج عثمانُ من عنده وهو يقولُ: خذلْتَني وجَرّأْتَ النّاسَ عليّ، فقال له عليٌّ: واللّهِ إنّي لأكثَرُ النّاس ذَبًّا[١] عنك؛ ولكنّي كلّما جئتُ بشيءٍ أظنُّه لك رضا، جاء مروان بأخرى، فسمعتَ قوله، وتركت قولي. ولم يَعُدْ عليٌّ يَعمَل ما كان يعملُ إلى أنْ مُنعَ عثمان الماءَ. فغضبَ غضبًا شديدًا حتّى دخلتْ الرَّوايا على عثمانَ رضي الله عنه. واللّهُ أعلم.

ذكر مقتل عثمان رضي الله عنه

ولمّا عاد المِصريُّون وغيرُهم، ظُنَّ أنّ الفِتْنَة قد رَكَدَتْ، والبليّةَ قد سكَنَتْ، فلم يفجأْ أهلُ المدينةِ إلاّ والتَّكْبيرُ في نواحِيها، وقد عاد القوم، فجاءهم أهلُ المدينةِ وفيهم عليٌّ، فقال: ما ردَّكُم بعدَ ذَهابِكُم!

وقيل: إنّ الّذي سألهم محمّد بنُ مَسلَمة، فأخرجُوا صحيفةً في أُنبوبَةِ رَصاصٍ وقالوا: وجدْنا غلامَ عثمانَ بالبُوَيْب[٢] على بَعيرٍ من إبلِ الصَّدَقةِ، ففتَّشْنا متاعَه، فوجدْنا فيه هذه الصَّحيفةَ، يأمرُ فيها عاملَ مصرَ بجَلْد عبدِ الرحمٰن بن عُدَيْس وغيْره، وصلْب بعضِنَا.

قيل: وكان الّذي أُخِذتْ منه الصّحيفةُ أبو الأعوَرِ السُّلَمِيّ.

فدخلَ عليٌّ ومحمدُ بنُ مَسْلَمَة على عثمانَ وأعلَمُوهُ بما قال القَوْمُ، فأقسمَ باللّهِ ما كتبَه ولا عَلِمَ به. فقال محمدٌ: صَدَق، هذا مِن فِعْلِ مَرْوان، ودخلَ عليه المِصْريّون، فلم يسلِّموا عليه بالخِلافَةِ، وتكَلَّموا، فذكر ابنُ عُدَيْس ما فعلَ عبدُ اللّهِ بنُ سعد بالمسلمين وأهلُ الذِّمّةِ، وأنّه استأثَر بالغنائم، فإن قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أميرِ المؤمنين، وذكر أشياء ممّا أحْدَثَها عثمانُ بالمدينةِ.

وقال: خرجْنا من مصرَ نريد قَتْلَكَ، فردَّنا عليٌّ ومحمدُ بن مُسَلَمة، وضَمِنَا لنا النزوعَ عن كلّ ما تكلَّمْنَا فيه، فرجعْنَا إلى بلادِنَا، فرأيْنَا غلامَك وكتابَك وعليه خاتَمُك، تأمرُ بجَلْدنَا والمُثلةِ[٣] بنا، وطولِ حبْسِنَا. فحلفَ أنّه ما كتبَ ولا أمرَ ولا عَلِمَ.

---

(١) ذبّ عنه: دفع عنه ومنع.

(٢) البويب: بلفظ تصغير الباب: نقب بين جبلين.. وقيل: البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر.. وقيل: البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) المثلة: العقوبة والتنكيل.

فقال محمدٌ وعليٌّ: صدق عثمان. قال المصريُّون: فمَنْ كتبه؟ قال: لا أدري. قالوا: فيُجترَأُ عليك، ويُبعثُ غلامُك وجَمَل الصَّدَقةِ، وينقَشُ على خاتَمِك، ويُبعَثُ إلى عامِلِك بهذه الأُمورِ العظيمةِ وأنت لا تعلَمُ! قال: نعم. قالوا: ما أنت إلاَّ صادقٌ أو كاذبٌ، فإن كنْتَ كاذبًا فقد استحققْتَ الْخَلْعَ لِما أمرْتَ به من قَتْلِنا بغيرِ حقٍّ، وإن كنت صادقًا فقد استحققتَ الخلع. لضَعْفِك عن هذا الأمر، وغَفْلَتِك، وخُبْث بطانَتِكَ، ولا نَتْرُكُ هذا الأمر بيَدِ مَنْ يُقطعُ الأمرُ دونَه.

فقال: لا أنزعُ قميصًا ألبَسنيه اللّهُ؛ ولكنَّني أتوبُ وأنزع.

قالوا: قد رأيْنَاك تتوبُ، ثمَّ تَعودُ، ولسْنَا منصرفينَ حتَّى نَخْلَعَك، أو نقتُلَك، أو تُلحَق أرواحُنَا باللّهِ، وإنْ مَنَعَك أهلُكَ وأصحابُكَ قاتلْنَاهم.

فقال: أمّا أنْ أتَبرَّأَ من خلافةِ اللّهِ فالقتْلُ أحبُّ إليَّ من ذلك، وأمّا قتالُكُمْ مَنْ مَنَعني فإنِّي لا آمُر بقتل أحدٍ بقتالِكُمْ، فمن قاتَلَ فبغيْرِ أمْري.

وكَثُرت الأصواتُ واللَّغَطُ[١]، فقام عليٌّ وأخرَج القومَ ومضى إلى منزلِهِ.

قال: لمّا رجع أهلُ مصرَ، رجع أهلُ الكُوفةِ وأهلُ البَصْرةِ فكأنَّما كانُوا على مِيعادٍ واحدٍ؛ فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه: كيف علمتُمْ يا أهلَ الكوفةِ، ويا أهلَ البصرةِ بما لَقِيَ أهلُ مصر، وقد سِرْتُمْ مراحلَ حتَّى رجعْتُمْ! هذا واللّهِ أمرٌ بيِّتَ بليل! فقالوا: ضعُوه كيْفَ شِئْتُم، لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، ليعتزِلْنَا.

قال: ثم أحاطَ القومُ بعثمانَ، ولم يَمنعُوه من الصلاةِ، ولا مَنعُوا مِنْ اجتماعِ النَّاس به.

وكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمصارِ يَسْتَنْجِدُهم، ويأْمُرُهم بالحثِّ للمَنْع عنه، ويعرِّفُهم ما النَّاسُ فيه، فخرجَ أهلُ الأمصارِ على الصَّعْبِ[٢] والذَّلول[٣].

فبعثَ معاويةُ حبيبَ بنَ مَسلَمة الفِهْرَيّ، وبعثَ عبدُ اللّهُ بنُ سعد معاويةَ بنَ حُدَيج. وخرج من الكوفة القعقاعُ بنُ عمرو.

وقام بالكوفةِ نفرٌ يحضُّونَ على إعانةِ أهلِ المدينة، منهم عقبةُ بنُ عمرو، وعبدُ اللّهِ بنُ أبي أوْفَى، وحنظلةُ الكاتب وغيرُهُمْ من أصحاب رسول الله ﷺ.

ومن التابعين مسروقٌ الأسود وشرَيْح وعبدُ اللّهِ بنُ عُلَيم وغيرهم.

---

(١) اللغط: الصوت والجلبة. (٢) الصعب: الذي صعب قياده.
(٣) الذلول: السهل الانقياد.

وقام بالبَصرةِ عمرانُ بنُ حصيْن، وأنَس بنُ مالك، وهشامُ بنُ عامر وغيرُهم من الصحابةِ.

وقام بالشّام جماعةٌ من الصّحَابةِ والتَّابِعين، وكذلك بمصر.

قال: ولمّا جاءت الجمعةُ التي على إثْرِ دخولِهم المدينة، خرج عثمانُ فصلّى بالنَّاسِ، ثم قام على المِنبَرِ وقال: يا هؤلاء، للّهَ اللّهَ، فواللّهِ إنّ أهلَ المدينةِ ليعلَمُون أنّكُمْ ملعُونُون على لسانه محمّد، فامْحُوا الخطأ بالصواب.

وقام محمدُ بنُ سلمة وقال: أنا أشهدُ بذلك، فأقْعَدَهُ حكيمُ بنُ جَبَلَة، وقام زيْد بنُ ثابت، فأقْعَده محمدُ بنُ أبي قُتَيْرة، وثارَ القومُ بأجْمَعِهِم، فحصَبُوا النَّاسَ حتَّى أخرجُوهم من المسجدِ، وحَصَبُوا عثمانَ حتّى صُرِع عن المِنبَرِ مغشيًا عليه، فأُدْخِلَ داره، واستَقتلَ نفرٌ من أهلِ المدينةِ معه، منهم سعدُ بنُ أبي وقَّاص، والحسنُ بنُ عليّ وزيدُ بنُ ثابت وأبو هريرة، فعزم عليهم عثمانُ بالانْصراف، فانصَرَفُوا، وجاءَهُ عليٌّ وطلحةُ والزُّبيرُ يعودونَه، وعنده جماعةٌ من بني أُميَّة، منهم مروانُ بنُ الحَكَم، فقالوا كلُّهُم لعليٍّ: أهلكْتَنَا وصَنَعْتَ هذا الصُّنْعَ! واللّهِ لئن بلغْتَ الذي تريدُ لتُمِرّن عليك الدُّنيا، فقام مُغضَبًا، وعاد هو والجماعةُ إلى منازِلِهم.

قال: وصَلَّى عثمانُ بالنَّاس في المَسجد بعدمَا نَزَلُوا به ثلاثين يومًا، ثمَّ مَنَعوه الصّلاةَ، وصَلَّى بالنَّاس أميرُهم الغافِقيّ، وتفرّقَ أهلُ المدينةِ في حِيطانِهم[1]، ولَزِموا بيوتَهُمْ، لا يجلسُ أحدٌ ولا يخرجُ إلاّ بسَيْفه؛ ليَمتنع به.

قال: وفي أثناء ذلك اُستشارَ عثمانُ نُصَحاءَهُ في أمرِه، فأشاروا عليه بالإرسال إلى عليٍّ في رَدِّهم، ويُعْطيهم ما يُرضِيهم؛ ليطاوِلَهُمْ[2] حتَّى تأتِيَه أمدادُه، فقال: إنّهم لا يَقبلون التعلُّل، وقد كان منِّي في المرّةِ الأُولى ما كان.

فقال مَروانُ: أعطِهم ما سألوك، وطاولْهم ما طاوَلُوكَ؛ فإنَّهم قومٌ بَغوْا عليك ولا عَهْدَ لهم.

فدعَا عليًّا وقالَ له: قد تَرَى ما كان من أمرِ النَّاسِ، ولا آمَنُهم على دَمِي، فارْدُدْهم فإنّي أُعطِيهم ما يريدُون من الحقّ منّي ومن غيري. فقال عليٌّ: النَّاس إلى عَدْلِكَ أحْوَجُ منهم إلى قَتْلِكَ، وقد كنتَ أعطيتَهُمْ عهدًا فلَم تَفِ به، فلا تُفْرِدني هذه المرّة فإنِّي مُعطيهم عليْكَ الحقّ.

---

(١) الحيطان: البساتين.

(٢) طاولهم: ماطلهم وأخرهم.

قال: أعطِهم، فوالله لأفينّ لهم. فخرج عليٌّ إلى الناس فقال لهم: إنَّما طلبتم الحقَّ وقد أُعطِيتُمُوه، وقد زَعَمَ أنّه منصفُكُمْ من نفسِه ومن غيره، فقال النَّاسُ: قَبِلْنَا، فاستَوْثِقْ منه لنا؛ فإنَّا لا نرضى بقولٍ دون فِعْلٍ، فدخل عليه عليٌّ فأعلَمه، فقال: اضرِب بَيْنِي وبينهم أجَلاً يكون لي فيه مُهلة، فإنه لا أقدر على ردِّ مَا كَرِهُوا في يوم واحد منك. فقال له عليّ: أمَّا ما كان بالمدينة فلا أجَلَ لك فيه، وما غاب فأجلُهُ وصولُ أمرِك. . قال: نعم، فأجِلْني فيما في المدينةِ ثلاثةَ أيّام، فأجابَهُ إلى ذلك.

وكتبَ بينهم كتابًا على ردِّ كلِّ مَظلمةٍ، وعَزْلِ كُلِّ عامِلٍ كَرِهوه، فكفَّ النّاسُ عنه، فجعلَ يتأهّبُ للقتالِ، ويستعِدُّ بالسِّلاح، واتخذ جُندًا. فلمّا مضتِ الأيّامُ الثلاثة ولم يُغَيِّرْ شيئًا ثار به القوم.

وخرجَ عمرُو بنُ حزم إلى المصريِّين فأعلَمَهم الخبر، وهم بذي خُشُبٍ، فقدِمُوا المدينةَ وطلَبوا منه عَزلَ عُمّاله، وردّ مَظالِمِهم.

فقال: إنْ كنتُ أستعمِلُ من أردْتُم، وأعزلُ مَنْ كرِهْتُمْ، فلَسْتُ في شيءٍ مِنْ الأمْرِ، والأمرُ أمرُكُمْ. فقالوا: واللّهِ لتَفْعَلَنَّ أو لتُخلَعنّ أو لتُقْتَلَنّ. فأبَى عليهِمْ، فحَصَروه، واشتد الحصارُ، فأرسلَ إلى عليٍّ وطلحةَ والزُّبيرِ فحضَروا، فأشرفَ عليهم وقال: يأيّها الناسُ، اجلسوا، فجلسَ المُحاربُ والمسَالمُ، ثم قال: يا أهل المدينة، أستَوْدِعُكم الله، وأسألُه أنْ يُحسِنَ عليكم الخلافةَ مِن بعْدِي، ثم قال: أنشُدُكم باللّهِ! هل تعلمُون أنّكم دَعَوْتُم الله عِنْدَ مصابِ عمرَ أنْ يَختارَ لكم، وأنْ يجمعَكُمْ على خيرِكُمْ! أتقولُون إن اللّهَ لم يَستجبْ لكم، وهُنْتُمْ عليه، وأنتُمْ أهلُ حَقِّه! أم تقولُون: هانَ على اللّهِ دِينُه، فلَم يبالِ مَن وَلّى، والدِّين لم يَتفرّقْ أهلُه حينئذٍ؟ أم تقولون: لم يكُنْ أخذٌ عَنْ مَشْورةٍ، إنما كان عَنْ مُكابَرةٍ فوَكّل اللّهُ الأمّةَ إذ عَصَتْه ولم يُشَاورُوا في الإمامةِ! أم تقولون: إن الله لم يعلَمْ عاقبةَ أمري.

وأنشدكم باللّهِ! أتعلَمُون لي سابقةَ خَير وقدَم خيرٍ قَدّم اللّهُ لي ما يُوجِبُ علي كلّ من جاء بَعْدِي أن يَعْرِفُوا لي فضلَها، فمهلاً لا تقتلُوني فإنه لا يَحِلُّ إلا قتل ثلاثة: رَجُل زَنَى بعْدَ إحصانِه، أو كفر بعدَ إيمانِهِ، أو قتلَ نفْسًا بغيْرِ حق. فإنكُمْ إنْ قتلْتُموني وضَعْتُم السيف على رِقابِكُمْ، ثم لَم يَرفع اللّهُ عنكُمْ الاختلافَ أبدًا.

قالُوا: أمّا ما ذكَرْتَ من استخارة الناسِ بَعْدَ عمرَ، ثم وَلَّوْك فإنّ كلّ ما صنعَ اللّهُ الخِيرةَ، ولكن اللّهَ جعلَك بَلِيّةً ابتلى بها عبادَه.

وأما ما ذكَرْتَ من قَدمِكَ وسلَفِكَ مع رسول الله ﷺ فقد كنتَ كذلك، وقَدْ كنتَ أهلاً للوِلايةِ، ولكن أحدثتَ ما علمتَه، ولا نَترُكُ إقامةَ الحقِّ عليك مخافةَ الفتنةِ عامًا قابلاً.

وأمّا قولُكَ: إنه لا يَحِلّ إلا قتل ثلاثة، فإنا نجدُ في كتَابِ اللّهِ قَتْل غيرِ الثلاثة الذِين سَمَّيْتَ، قتْلَ من سَعى في الأرضِ فسادًا، أو قتْلَ مَنْ بَغَى، ثم قاتَلَ على بَغْيِهِ، وقَتْلَ مَنْ حَالَ دون شيءٍ من الحقِّ ومَنَعه وقاتَلَ دُونَه. وقد بغيْتَ ومنَعْتَ الحقَّ وحُلْتَ دُونَه، وكابرْتَ عليه، ولم تُقِدْ[1] من نفسِك مَنْ ظلمتَ، وقد تمسَّكتَ بالإمارة علينَا، فإنْ زعمْتَ أنَّك لَم تكابرْنا عليه فإنَّ الَّذِين قَامُوا دُونَكَ ومنعُوكَ منَّا إنَّما يقاتلون لتَمسّكِك بالإمارةِ، فلو خلَعْتَ نفسكَ لانْصَرفُوا عَن القتالِ معك.

فسَكتَ عثمانُ ولزِمَ الدارَ، وأمرَ أهلَ المدينةِ بالرجوعِ، وأقسمَ عليهم فرجعَوا، إلا الحسنَ بنَ عليٍّ، ومحمدَ بنَ طلحة، وعبدَ الله بنَ الزُّبير وأشباهًا لهم، واجتمعَ إليهم ناسٌ كثيرٌ، وكانت مُدةُ الحصارِ أربعين يومًا، فلمَّا مضَتْ ثماني عشرةَ ليلةً، قَدِمَ رُكبانٌ من الأمْصار فأُخبِرُوا خبرَ مَن تهيّأ لهم من الجنودِ، فحالوا بينَ النّاسِ وبيْنَه، ومنعُوهُ كُلَّ شيءٍ حتّى الماءَ، فأرسَل إلى عليٍّ سِرًّا، وإلى طَلحةَ والزُّبير، وإلى أزواجِ النَّبيّ ﷺ، يقولُ لهم: إنّهم قد مَنعُوني الماءَ، فإن قَدَرتُم أنْ تُرسِلوا إلينا ماءً فافْعَلُوا، فكان أوّلُهم إجابةً عليّ، وأُمُّ حَبيبة، فجاء عليٌّ في الناسِ فقال: يأيُّها الناس، إنَّ الَّذِي تَفعلُونَ لا يُشْبِه أمْر المؤمنين، ولا أمْرَ الكافرين، فلا تَقطعوا عن هذا الرّجل الماءَ ولا المادّة؛ فإنَّ الرُّومَ وفارسَ لتَأْسِر فتُطعِمُ، وتسْقِي. فقالُوا: لا واللّهِ ولا نَعْمةَ عَينٍ، فَرمى بعمامَتِهِ في الدّارِ، وجاءتْ أُمُّ حَبيبةَ على بَغْلةٍ لها إداوة[2]، فضربوا وجهَ بَغلَتِها فقالتْ: إنَّ وَصايَا بني أُميّةَ عندَ هذا الرَّجلِ، فأحببْتُ أنْ أسألَه عنها لئلا تَهْلِكَ أموالُ الأيتامِ والأراملِ، فقالوا: كاذبة، وقطعُوا حَبْلَ البغْلَةِ بالسَّيْفِ، فَنَفَرت، وكادَتْ تَسقُطُ عنها، فتلَقَّاها النَّاسُ، ثم ذهَبُوا بها إلى منزلها.

فأشرفَ عثمانُ يومًا، فسلَّمَ عليهم، ثم قال: أنشُدكم اللّهَ، هَلْ تعلمون أنِّي اشتريْتُ بئر رُومة[3] من مَالي ليُسْتَعْذَبَ بها، فجعلْتُ رِشائي[4] فيها كَرجُلٍ من المسلمين؟ قالوا: نعم، قال: فلِمَ تَمنَعوني أن أشربَ منها حتّى أُفطِرَ على ماء المِلح! ثم قال: أنشُدُكم الله! هَلْ تعلمونَ أنِّي اشتريتُ أرضَ كذا فزِدْتُها في المسجدِ؟ قيل: نعم. قال: فهل علمتُمْ أنَّ أحدًا مُنِعَ أنْ يُصلِّيَ فيه قبْلي؟ ثم قال: أنشُدُكم الله! هل تعلمون أنَّ النبيَّ ﷺ قال عنِّي كذا وكذا أشياءَ في شأْنِهِ؟

(١) القود: القصاص.
(٢) الأداوة: الإناء.
(٣) بئر رومة: هي في عقيق المدينة.
(٤) الرشاء: حبل الدلو ونحوها.

فَفشَا النَّهْيُ في النَّاسِ، يقُولون: مَهْلاً عن أميرِ المؤمنين فقام الأشترُ: فقال: لعلَّهُ قد مَكَرَ به وبكُمْ.

قال: وبلغَ طلحةَ والزبيرَ ما لقيَ عليّ وأُمّ حَبيبة، فلَزِموا بيوتَهم، وبقِيَ عثمانُ يَسْقيه آلُ حَزْمٍ في الغفَلاتِ.

قال: وخرجَتْ عائشةُ رضي الله عنها إلى الحج، فاسْتَتْبَعَتْ أخاها محمدًا، فأبى، فقالتْ: واللّهِ لئن استطعْتُ أن يَحرمَهُمْ الله ما يُحاوِلون لأفعلَنَّ.

فقال له حنظلة الكاتب: تَسْتَتْبِعُك أُمُّ المؤمنين فلا تَتْبَعُها، وتَتْبع ذُؤْبانَ العَرَب إلى ما لاَ يَحِلّ! وإنَّ هذا الأمرَ إنْ صارَ إلى التَّغالُب غَلبتْك عليه بنو عَبدِ مناف. ثم رَجَع حنظلةُ إلى الكوفةِ وهو يقولُ وبالله المستعانُ، وعليه التُّكْلان: [من الوافر]

عَجِبتُ لِما يخوضُ الناسُ فيه ... يَرُومُونَ الخِلافَةَ أنْ تَزُولاَ
ولو زالتْ لزالَ الخيرُ عنهمْ ... ولاقَوْا بَعدها ذُلاً ذَليلاَ
وكانُوا كاليَهودِ أو كالنَّصارى ... سَواءٌ كلُّهمْ ضَلُّوا السَّبِيلاَ

قال: ثم أشرفَ عثمانُ على النَّاسِ، واستَدْعى عبدَ اللّهِ بنَ عبَّاسٍ، فأمَرَه أن يَحجّ بالنَّاسِ، وكان مِمنْ لزِمَ البابَ، فانطلَقَ.

قال: ولمّا رأى المصريُّون أنَّ أهلَ الموسم يريدُونَ قَصْدَهم بعد الحجِّ مع ما يليهم من مسير أهلِ الأمصارِ، قالوا: لا يُخرجنَا من هذا الأمرِ الَّذِي وَقَعْنا فيه إلاَّ قتلُ هذا الرّجلِ، فيشتَغلُ النَّاسُ عنَّا. فتقدَّمُوا إلى البابِ، فَمنَعهم الحسَنُ، وابنُ الزبير، ومحمدُ بنُ طلحة، ومَروان وسعيدُ بنُ العاص ومن معهم من أبناءِ الصّحابَةِ، واجْتَلَدوا[1] فزَجرَهُم عثمان، وقال: أنتُمْ في حِلٍّ مِن نُصْرَتي، فأبوا، ففَتَح البابَ ليمنَعَهُم، فلمّا خَرج وراَه المصريُّونَ رجعُوا، فرَكِبَهُم هؤلاء، وأقسَمَ عثمانُ على الصَّحَابةِ ليَدْخُلُنَّ، فدخَلُوا، فأغلقَ البابَ دون المصريِّين فثارُوا إلى البابِ، وجاؤوا بنارٍ، فأحْرَقوا السَّقيفَةَ الَّتي على البابِ، وثارَ بِهمْ أهلُ الدار، وعثمانُ يُصَلِّي، قد فتح طَه، فما شَغَله ما سَمِع حتَّى أتى عليها، فلمّا فَرَغ جَلَس إلى المُصحفِ فقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

---

(١) اجتلدوا: تضاربوا بالسيوف.

قال: ثمَّ قال عثمانُ للحَسَن: إن أباكَ الآنَ لَفِي أمرٍ عظيم مِن أمرِك، فأقسمْتُ عليك لمَا خَرجتَ عليه، فتقدَّموا فقاتَلوا، ولم يَستمعُوا قولَه، فبرزَ المغيرةُ بنُ الأخنسِ بن شرِيق الثَّقَفيّ حليفُ بني زهرة وكان تعجّل الحج في عصابة لينصروا عثمان وهو معه في الدارِ، وارتَجَز:

قد عَلمتْ ذاتُ القُرونِ المِيل والحَلْي والأنامِل الطُّفولِ[١]
لتَصْدَقَنْ بَيْعَتي خليلي بصارِمٍ ذي رَوْنقٍ مَصْقولِ[٢]
* لا أستَقِيلُ إذْ أقلْتُ قِيلِي *

وحَكى أبو عمر أنَّ المغيرةَ بنَ الأخنسِ قال لعثمان حين أحرقوا بابَهُ: والله لا قال الناسُ عنَّا: إنَّا خذلْنَاكَ، وخَرَجَ بسَيْفه وهو يقول: [من البسيط]

لمّا تَهدَّمَت الأبوابُ واحتَرقَتْ تيمَّمْتُ منهنَّ بابًا غيرَ مُحترِقِ[٣]
حقًّا أقولُ لعبدِ اللّهِ آمُرهُ إن لم تقاتلْ لَدَى عثمانَ فانطلقِ
واللّهِ أتْرُكُه ما دامَ بي رَمَقٌ حتَّى يُزايَلَ بين الرأسِ والعُنقِ[٤]
هو الإمامُ فلسْتُ اليومَ خاذِلَهُ إنَّ الفِرَارَ عليَّ اليومَ كالسَّرَقِ

وحَمَل على النَّاسِ فضَربَهُ رجلٌ على ساقِه فقطَعها، ثم قَتَله، فقيل إنَّ الَّذِي قتله تقطَّعَ جُذامًا[٥] بالمدينةِ.

وقال قتادَةُ: لمّا أقبلَ أهلُ مِصرَ إلى المدينةِ في شأْنه عثمانَ رأى رجل منهم في المنَامِ كأنَّ قائلاً يقول له: بَشّرْ قاتل المغيرة بنِ الأخنسِ بالنَّار، وهو لا يَعرفُ المُغيرة، رأى ذلك ثلاثَ ليالٍ، فجعل يحدِّثُ أصحابَه. فلمّا كان يومُ الدّارِ خرجَ المغيرةُ فقاتَلَ، والرجلُ يَنظرُ إليه فقتَل ثلاثةً، فلمّا قَتلَهم وَثَب إليْه الرجُل فحذفه، فأصابَ رِجْله، ثم ضَربَه حتَّى قَتله، ثم قال: مَنْ هَذَا؟ فقالوا: المغيرة بن الأخْنَس، فقال: لا أراني إلاّ صاحبَ الرؤيا المبشَّر بالنَّار، فلم يزلْ بشرّ حالٍ حتَّى هَلَكَ.

وخرج الحسنُ بنُ عليٍّ وهو يقول: [من الكامل]

لا دِينهُمْ دِينِي ولا أنا منهمُ حتَّى يسِيرَ إلى طَمارِ شَمَامُ[٦]

(١) الطفول: جمع الطفل، والطفل: الناعمة. (٢) الصارم: القاطع.
(٣) يمم: قصد. (٤) الرمق: بقية الروح.
(٥) جذم: أصابه الجذام، والجذام: علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.
(٦) الشمام: اسم جبل بالعالية. والطمار: المكان العالي من الجبل وغيره.

وخرج محمدُ بنُ طلحةَ وهو يقولُ: [من الرجز]

أنا ابنُ مَنْ حامَى عليه بأُحُدْ ورَدَّ أحزابًا على رغم معدّ(١)

وخرج سعيدُ بنُ العاصِ وهو يقول: [من الطويل]

صبرْنا غَداةَ الدّارِ والموتُ واقفٌ بأسيافِنا دونَ ابن أرْوَى نُضارِبُ
وكُنّا غَداةَ الرَّوْعِ في الدّار نُصْرَةً نُشافِهُهُمْ بالضَّرب والموتُ ثاقبُ(٢)

وكان آخر مَنْ خرج عبدُ الله بنُ الزُّبَيرِ، وأقبلَ أبو هريرةَ والنَّاسُ محجِمُونَ، فقال: هذا يومٌ طابَ فيه الضَّرْبُ، ونادَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١﴾ [غافر: ٤١].

وجاء عبدُ اللّهِ بنُ سَلاَمٍ يَنْهاهم عن قَتْلِه، فقال: يا قوم، لا تَسُلُّوا سيفَ اللّهِ فيكم، فواللّهِ إنْ سَلَلْتُمُوه لا تُغمِدوه، ويْلَكم! إنَّ سُلطانكُمْ اليومَ يقومُ بالدِّرّةِ(٣)، فإن قتلتُمُوه لا يقومُ إلا بالسَّيْفِ، وَيْلكم! مدينتَكُمْ محفوفةٌ بالملائكةِ، فإن قتلتُموه ليترُكُنّها.

فقالوا: يا بن اليهودية، ما أنتَ وهذا! فرجع عنهم.

قال: ثمَّ اقْتَحمُوا على عثمانَ دارَه، مِنْ دارِ عمرو بنِ حَزْم حتّى ملؤوها ولَم يَشعرْ مَنْ بالبابِ منهم، ففي ذلك يقول الأحوصُ(٤) يهجُو آلَ حَزْم: [من البسيط]

لا ترثِينَّ لحزمِيٍّ رأيتَ به ضُرًّا ولو طُرِحَ الحَزْمِيُّ في النَّارِ
الباخسين لمَروانٍ بذِي خُشُبٍ والمُدْخلين على عُثمانَ في الدّارِ

قال: ولمّا صارُوا في الدّارِ نَدَبُوا رجلاً ليقتلَهُ، فدخل عليه فقال: اخلَعْها ونَتْرُكُكَ. قال: لستُ خالعًا قميصًا كسَانيهِ اللّهُ تعالَى حتَّى يُكرِمَ اللّهُ أهلَ السعادة، ويُهينَ أهلَ الشَّقاوةِ، فخرج عنه، فأدخَلُوا عليه رجلاً من بني ليث، فقال: لستَ بصاحبي لأنَّ النبيّ ﷺ دَعَا لكَ أنْ تُحفظَ يومَ كذا وكذا، ولَنْ تُضيَّعَ، فرجع عنه

---

(١) بنو معد: بطن من بعد عدنان. (٢) الثاقب: الظاهر.

(٣) الدرة: السوط يضرب به.

(٤) الأحوص: هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح وعاصم بن ثابت من الأنصار وهو حميّ الدبر وكان الأحوص يرمى بالأبنة والزنى وشكي على عمر بن عبد العزيز فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر، فدخل إليه عدة من الأنصار فكلموه فيه وسألوه يرده إلى المدينة.. فلم يستجب لهم... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

وفارَقَ القومَ. ودخل عليه رجلٌ من قُريش فقال له: إنَّ النبيّ ﷺ استغفرَ لك يومَ كذا وكذا فلَنْ تُقَارِفَ دمًا حرامًا، فرجعَ وفارقَ أصحابه.

ودخل عليه جماعةٌ كلُّهم يَرْجعُ، أخرُهم محمدُ بنُ أبي بكر، فلمَّا خرجَ ثار قُتَيْرةُ وسُودانُ بنُ حُمرانَ والغَافِقِي، فضَربَه الغافِقيّ بحديدة، وضرب المصحفَ برِجْلِهِ، فدار المصحفُ، واستقرَّ بين يديْه، وجاء سُودانُ ليضْرِبَه فأكَبَّتْ عليه نائلة بنتُ الفَرافِصةِ، واتَّقَت السيفَ بيَدِها فَقَطَع أصابعها وشيئًا من الكفِّ، ونصفَ الإبهامِ فوَلَّتْ، فَغَمَزَ أوْراكَها، وقال: إنها لكَبِيرة العَجُز، وضربَ عثمانَ فقتَلَه.

وقيل: إنَّ الَّذِي قَتَله كِنانةُ بنُ بِشْر التُّجيبيّ، وكان عثمانُ قد رأى النبيّ ﷺ في تلك الليلة وهو يقولُ له: إنَّك تُفطِرُ اللَّيلةَ عندَنا.

ولما قُتِلَ قَطرَ من دَمِه على المصحف على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قال: ودخل غِلمةٌ لعثمانَ مع القوم لينصرُوه، فقال عثمانُ: مَنْ كفَّ يَدَه فهو حُرّ، فلما ضَربَه سُودانُ ضَربَ بعضُ الغلمان رقبةَ سُودان فقَتَله، ووَثَب قُتَيْرةُ على الغُلامِ فقتَله، وانتَهَبُوا ما في البيْت، وخرجوا، وأغلَقُوا البابَ على ثلاثة قَتْلَى.

فلمّا خرجُوا وثَبَ غلامٌ لعثمانَ على قُتَيْرةَ فقتَله، وثار القومُ فأخَذُوا ما وَجَدُوا حتى أخَذُوا ما عَلى النِّساءِ، وأخَذَ كلثومٌ التُّجِيبيُّ مُلاءة كانتْ على نائلةَ، فضَربه غلامٌ لعُثمان فقتَله، وانتَهبَ القومَ بيْتَ المال.

قال: ووثَبَ عَمرُو بنُ الحَمِقِ على صَدْرِ عثمانَ وبه رَمَق، فطعَنه تسعَ طعنَاتٍ، وأرادَ قطْعَ رَأسِه، فوقعَتْ نائلةُ وأُمُّ البَنِينَ عليه فصِحْن وضَرَبن الوجوه، فقال ابن عُدَيس: اتْرُكوه، وأقبل عُميرُ بنُ ضابىء البُرْجُمِيّ فوثَبَ على عثمانَ، فكسر ضلعًا منْ أضْلاَعِهِ، وقال له: سَجنْتَ أبِي حتّى ماتَ في السِّجْنِ.

وكان قَتْلُه يومَ الجُمُعَةِ لثماني عشرةَ، أو سبع عشرةَ ليلةَ خلتْ من ذي الحِجّةِ، سنةَ خمسٍ وثلاثين. ذَكَره المَدائني عن أبي مَعْشَر عن نافع، وعن أبي عثمانَ النَّهْدِيّ؛ أنَّه قُتِلَ وَسَطَ أيّام التَّشْريق(١).

وقال ابنُ إسحاق: قُتِلَ عثمانُ عَلَى رأْسِ إحدى عشرةَ سنة، وأحدَ عشَرَ شهرًا، واثنَيْن وعشرين يومًا من مقتَلِ عمرَ بنِ الخطّابِ، وعلى رأْسِ خمسٍ وعشرين سنة من متوفَّى رسول اللّهِ ﷺ.

---

(١) أيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر.

وقال الواقديّ رحمه الله: قُتِلَ يومَ الجمعةُ لثمانِ ليالٍ خلت من ذي الحجة يوم التروِية[١]. وقد قيل: إنه قتل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجةِ.

رَوَى هذه الأقوالَ كلَّها أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ.

واختُلِف في مدة الحصارِ. فقال الواقديّ: حاصَروه تسعة وأربعين يومًا. وقال الزُّبير بنُ بَكَّار: حاصروه شهرَيْن وعشرين يومًا؛ وقيل غير ذلك.

وقد تقدَّمَ أنّه رضي الله عنه صلّى بالنَّاس بعد أنْ نَزَلوا به ثلاثين يومًا، ثم منعوه الصَّلاة، وصَلَّى بالنَّاسِ أميرُهم الغَافِقِيّ.

وقد قيل: إنَّه لمّا مُنِع عثمانُ الصلاةَ جاء سَعْدٌ القَرظ وهو المؤذِّن إلى عليٍّ بنِ أبي طالب، فقال: مَنْ يُصَلّي بالنّاس؟ فقام خالدُ بنُ زيد، وهو أبو أيّوبَ الأنصاريّ، فصلَّى أيامًا، ثم صَلَّى عليٌّ بعدَ ذلك بالنَّاس.

وقيل: بل أمرَ عليٌّ سهلَ بنَ حُنَيف فصَلَّى بالنَّاسِ من أوّلِ ذي الحجّة إلى يوم العيد، ثم صلَّى عليٌّ بالنَّاس العيدَ، وصَلَّى بهمْ حتى قُتِلَ عثمانُ. والله أعلمُ.

حكى أبو عُمرَ بنُ عبدِ البرِّ في مَقتِلِ عثمانَ، قال: كان أولُ مَنْ دخل عليه الدارَ محمّد بنُ أبي بَكر، فأخذ بِلحْيَتِهِ فقال: دَعْها يا بن أخِي، فواللّهِ لقد كان أبوكَ يُكرِمُهَا، فاستَحيَا وخرج، ثم دَخَل عليه رومانُ بنُ سرْحان، رجلٌ أزْرق قَصِير مَجْدُور، عِدادُه في مُراد، وهو من ذي أصْبَح، معه خِنْجَر، فاستقبَلَهُ به، وقال: على أيِّ دِينٍ أنتَ يا نَعثل؟ فقال: لسْتُ بنَعْثل ولكني عثمانُ بنُ عفَّانَ، وأنا على مِلَّة إبراهيمَ حنيفًا مُسلِمًا وما أنا مِنَ المشركين. قال: كذَبْتَ، وضَربَه على صُدْغه فقتَلَهُ، فخرّ، فأدخَلَتْه امرأتُه نائلةُ بينها وبين ثيابِهَا، وكانت امرأة جَسيمة.

ودخل رجلٌ من أهلِ مصرَ معه السَّيْفُ مصلَتًا فقال: والله لأقطعنَّ أنْفَكَ، فعالَجَ المرأةَ فكشَفتْ عن ذِراعيْها، وقبضَتْ على السّيف فقَطَع إبْهامَها، فقالت لغلام لعثمانَ يُقَالُ له رَباح، ومعه سيفُ عثمانَ: أعِنِّي على هذا، وأخرِجْه، فضرَبَه الغلامُ بالسيْفِ فقَتَله.

قال: وأقام عثمانُ يومَه ذلك مطروحًا إلى اللَّيْلِ، فحمله رجالٌ على بابٍ ليَدْفِنُوه، فعرضَ لهم ناسٌ ليمنَعُوهم من دَفْنِه، فوجَدُوا قبرًا قد حُفِرَ لغيره فَدَفَنُوه فيه، وصلَّى عليه جُبَيْرُ بنُ مطعِم.

(١) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

وقال محمدُ بنُ طلحة: حَدَّثَني كنانةُ مولَى صفية بنت حُيَيّ بن أخطَب، فقال: شهدْتُ مقتلَ عثمان، فخرج من الدارِ أمامي أربعة من شباب قريش مضرّجين بالدّم، محمولين، كانوا يَذُودُونَ عن عثمانَ وهم الحسنُ بنُ عليٍّ، وعبدُ اللّهِ بنُ الزُّبير، ومحمدُ بنُ حاطِب، ومروانُ بنُ الحَكَم.

قال محمدُ بنُ طلحة: فقلْتُ له: هل نَدِي محمّدَ بنَ أبي بكر بشيءٍ من دمِه؟ فقال: مَعاذَ اللّهِ، دخل عليه فقال له عثمان: يا بن أخي لستَ بصاحِبِي، وكَلَّمَهُ كلامًا فَخرج، ولم يندَ بشيء من دمه.

قال: فقلْتُ لكنانة: مَنْ قَتَلَهُ؟ قال: رجلٌ مِنْ أهلِ مصر، يقالُ له: جَبَلةُ بنُ الأيهَم، ثم طاف بالمدينةِ ثلاثًا يقول: أنا قاتِلُ نعثَل.

ورَوَى أبو عُمَر أيضًا بسندِه إلى مالك بن أَنس، قال: لمّا قُتِلَ عثمانُ ألقِيَ على المِزْبَلة ثلاثة أيّام، فلمّا كان في اللَّيْلِ أتاه اثنا عشر رجلًا، منهم حُويْطِبُ بنُ عبدِ العُزَّى وحكيم بنُ حِزام، وعبدُ الله بنُ الزُّبير، وجُدَيّ بنُ مالِك بنِ أبي عامر، فاحتملوه، فلمّا صارُوا به إلى المقبرة ليَدفِنُوه ناداهم قومٌ من بني مازن: واللّهِ لئن دفنتموه هاهنا، لنخبرنَّ النّاس غدًا، فاحتملوه، وكان على باب، وإنَّ رأْسَهُ كان على البابِ يقول: طَقْ طَقْ حتّى صَارُوا به إلى حَشّ كوكب[1] فاحْتَفَرُوا له، وكانتْ عائشة بنتُ عثمان معها مصباح في حُقٍّ[2]، فلمّا أخرجُوه ليدفنوه صاحَتْ، فقال لها ابنُ الزُّبير: واللّهِ لئن لم تسكتي لأضربَنَّ الذي فيه عيناك، فسكتَتْ، فدفن.

قال مالك: وكان عثمان يمرّ بحَشِّ كوْكَب فيقولُ: إنَّه سيُدْفَن هاهنا رجل صالح.

وعن هشامِ بنِ عروة، عن أبيه، قال: أرادوا أنْ يُصَلُّوا على عثمان رضي الله عنه فمنعوه، فقال أبو جهم بنُ حذيفة: دعوه، قد صلَّى عليه اللّهُ ورسولُه.

وقَدْ قيل: إنَّ عليَّ بنَ أبي طالب، وطلحةَ، والزبَير، وزيدَ بن ثابت، وكعبَ بنَ مالك، وعامرَ بنَ نمير من أصحابِهِ شَهدوا جنازَتَهُ.

وقِيلَ: إنه كُفِّنَ في ثيابِهِ ولم يُغْسَل.

واخْتُلِفَ في سنة يوم قُتِل.

---

(١) حش كوكب: الحش: البستان؛ وكوكب: رجل من الأنصار، وهذا البستان كان عثمان قد اشتراه وزاده في البقيع، كما سيأتي.

(٢) الحق: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

فقال ابنُ إسحاق: قُتِلَ وهو ابنُ ثمانين سنة. وقال غيره: قُتِلَ وهو ابنُ ثمان وثمانين، وقيل: تسعين.

وقال قتادةُ: قُتِلَ وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة.

وقال الواقديّ: لا خلافَ عندنا أنه قُتِلَ، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وهو قولُ أبي اليقظان.

ودُفِنَ ليلاً بموضع يقال له: حَشّ كَوْكب، وكوكب رجلٌ من الأنصارِ (الحَشّ: البستان)، كان عثمانُ قد اشتراه وزاده في البَقِيع، وهو أوّلُ من قُبِر فيه.

قال: وقَدْ قيل: إنه صلَّى عليه عَمرو بن عثمان ابنه، وقيل: بل صلَّى عليه حكيمُ بنُ حِزام، وقال: بل صلَّى عليه المسورُ بنُ مَخرَمة. وقيل: بل جُبيرُ بنُ مُطعِم. وقيل: بل مروانُ بنُ الحَكَم، وقيل: كانوا خمسةً أو ستةً وهم: جبيرُ بنُ مُطعِم، وحكيمُ بنُ حزام، وأبو جهم بنُ حذيفة، ونيارُ بنُ مُكرم، وزوجتاه نائلة وأُمُّ البنين بنتَ عُيَيْنَة.

ونزل قَبْرَهُ دينارٌ، وأبو جَهم، وجُبَيْر، وكان حكيمُ ونائلةُ وأُمُّ البنين يُدْلُونه، فلمّا دفَنُوه غيّبُوا[1] قَبرَه.

ورَوَى أبو الفَرج الأصفهَاني بسندٍ رفعه إلى نائلةَ بنتِ الفَرافِصة: كتبتْ إلى معاويةِ، وبعَثت بقميصِ عثمانَ رضي الله عنه مع النعمانِ بنِ بَشِيرِ وعبدِ الرحْمٰنِ بنِ حاطبِ بنِ أبي بلتعة:

من نائلةَ بنتِ الفَراقصة، إلى معاوية بنِ أبي سُفْيان:

أمّا بعدُ، فإنّي أذكّركم باللّهِ الذّي أنعَمَ عليكم، وعلّمكُم الإسلام وهَداكم من الضلالة، وأنقذَكُمْ من غوايةِ الكُفرِ، ونصرَكُمْ على العدوّ، وأسبَغَ عليكم النعْمة، فأنشدكُم الله تعالى، وأُذَكّركُمْ حقه وحق خليفتِه أنْ تَنْصُرُوه بعزمة اللّهِ عليكم، فإنه قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وإن أميرَ المؤمنين بُغِيَ عليه، ولو لم يكن له عليكم حَقٌّ إلا حقُّ الوِلايَةِ ثمّ أُتِيَ عليه بما أُتِيَ لحُقّ على كلِّ مسلم يرجُو أيامَ الله أن ينصره لقِدَمِه في الإسلام، وحُسْنِ بَلائِهِ؛ فإنه أجابَ داعيَ اللّهِ، وصدّق كتابَه ورسولَهُ، واللّهُ أعْلَمُ به إذا انتجبَهُ، فأعطاه شرفَ الدنيا، وشرفَ الآخِرة.

---

(١) غيّب الشيء: واراه وأخفاه.

وإنِّي أقصُّ عليكم خبرَه، لأنِّي مُشاهِدةٌ أمرَه كُلَّه حتى أُفضيَ إليه.

إن أهلَ المدينة حَصَروه في دارِه يَحرُسونه لَيْلَهم ونهارَهم، قِيامًا عَلى أبوابه بسلاحِهم، يمنعونه كل شيء قَدَروا عليه حتى منَعوه الماء يُحضرونه الأذى، ويقولون له الإفك[1]. فمكثَ هو ومَنْ معه خَمْسِين ليلةً، وأهلُ مصر قد أسنَدوا أمرَهم إلى محمدِ بن أبي بكر وعمّارِ بنِ ياسر، وكان عليٌّ مع المُحَرِّضين للمصريّين في أهلِ المدينةِ، ولم يُقَاتِلْ مع أميرِ المؤمنين ولَم ينصُرْه، ولم يأمرْ بالعدلِ الذي أمرَ اللّهُ تباركَ وتعالى به، فظلّت تُقَاتِلُ خُزاعة، وبكر، وسعد بن بكر، وهُذَيْل، وطوائفُ من مُزَينة، وجُهَينةَ، وأنباطِ يَثْرِب، ولا أرَى سائرَهم، ولكنِّي قد سمَّيْتُ الَّذين كانوا أشدَّ الناسِ عليه في أول أمرِه وآخِرِه، ثمّ إنه رمِيَ بالنبْل والحجارة، فَقُتِلَ ممَّنْ كان في الدارِ ثلاثة نفرٍ، فأتَوْه يَصرُخون إليه ليأذنَ لهم في القِتالِ، فنهاهمْ عنه، وأمرَهمْ أن يَرُدُّوا إليهم نَبْلَهُم فَردّوهَا إليهم، فلَم يزدْهم ذلك على القِتالِ إلاّ جُرأةً في الأمرِ وإغراقًا، ثم أحرقوا بابَ الدارِ.

فجاءه نفرٌ مِن أصحابِه وقالوا: إنَّ في المسجدِ ناسًا يُريدُون أنْ يأْخذوا أمْرَ النّاس بالعَدْل، فاخرُجْ إلى المسجدِ حتّى يأْتوكَ، فانطلق، وقد كان نفرٌ مِنْ قريش على عامّتهم السِّلاح، فلبِسَ دِرْعَه، وقال لأصحابِهِ: لولا أنْتُم ما لبسْتُ دِرْعًا، فوثب عليه القومُ، فكلَّمَهُم الزبيرُ، وأخَذ عليهم الميثَاقَ في صحيفَةٍ، بَعَثَ بها إلى عثمانَ رضي الله عنه: إنَّ عليكم عهد اللّهِ وميثاقَه ألا تَعرُوه بشيءٍ، فكلَّمُوه وتحرّجُوا، فوضع السلاحَ فلم يكن إلاّ وَضْعه حتى دخلَ عليه القومُ يَقدُمهم ابنُ أبي بكر؛ حتى أخَذُوه بلحيَتِهِ ودَعَوْه باللَّقَبِ، فقال: أنا عبدُ اللّهِ وخليفَتُه، فضربُوه في رأْسِه ثلاثَ ضَربَاتٍ، وطعَنُوه في صدرِه ثَلاث طَعَناتٍ، وضربُوه على مُقدَّم الجبين فوقَ الأنْفِ ضَربةً أسْرعتْ في العَظْم، فسقطتُ عليه، وقد أثْخَنُوهُ وبه حياة، وهم يُريدون قَطْعَ رأسِهِ ليذهبوا به، فأتَتْنِي بنتُ شَيْبَة بن ربيعة، فألقتْ بِنَفْسِهَا مَعِي عليه، فَوُطِئنا وَطْئًا شديدًا وعُرِّينا مِن ثيابِنَا، وحرمة أمير المؤمنين أعظَم، فقتلوه رحمةُ اللّهُ في بَيْته، وعلى فِراشه.

وقد أرسلتُ إليكم بثوبِهِ، وعليه دَمُه، وإنَّه واللّهِ لئن كان أثِمَ مَنْ قَتَلَهُ لا يَسْلَم مَنْ خَذَلَه، فانْظُروا أين أنتم مِنَ اللّهِ عزَّ وجلَّ، فإنّا نشتَكي ما مَسّنا إليه، ونَسْتَنْفِرُ وليَّه، وصالح عِباده. ورحمةُ اللّهِ على عثمان، ولَعنَ اللّهُ مَنْ قتلَه، وصرعَهُم في الدُّنيا والآخِرة مصارعَ الخزي والمَذَلَّةِ، وشَفَى منهم الصُّدورَ.

---

(١) الإفك: الكذب.

فحلف رجالٌ مِنْ أهْلِ الشام ألاَّ يطئوا النساءَ حتَّى يَقتلُوا قتلَة عثمان، أو تَذهبَ أرواحُهم. وكان أمرُهُمْ في القتالِ ما نذكره إنْ شاء اللّهُ تعالى.

وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يومًا، قاله ابنُ إسحاق. وقال غيرُه: إلاَّ ثمانية أيام. وقيل: إلاَّ ستَّة عشر يومًا.

رُوِيَ عن عائشةَ أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: ادعُوا لي بعضَ أصحابي، فقلْتُ: أبو بكر؟ قال: لا، فقلْتُ: عمر؟ قال: لا، فقلْتُ: ابن عمِّكَ عليّ؟ قال: لا، فقلْتُ: عثمان؟ قال: نعم. فلمّا جاء قال لي بيَدِه فتنحّيتُ، فجعلَ رسولُ اللّهِ ﷺ يُسارّه ولونُ عثمانَ متغيّر، فلمّا كان يومُ الدَّارِ وحُصِر، قيل له: ألاَ تُقاتِل؟ قال: لا، إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ عَهد إليَّ عهدًا، وأنا صابرٌ نَفْسِي عليه.

وعن موسى بن طلحة، قال: أتَيْنَا عائشةَ رضي الله عنها لنسْألَهَا عَنْ عثمان فقالت: اجلسوا أُحدِّثكم عمّا جئتم له: إنّا عَتَبنا على عثمان رضي الله عنه في ثلاثِ خلال ـ ولم تَذكرهنّ ـ فعَمَدوا إليه حتَّى إذا مَاصُوه[1] كما يُماصُ الثوبُ اقتحموا عليه الفِقر الثَّلاثة: حرمةَ البيْتِ الحرام، والشهر الحرام، وحرمةَ الخِلاَفَةِ؛ ولقد قَتَلوه، وإنَّه لمن أوصَلهم للرَّحم وأتْقاهمْ لربِّه.

وعن أبي جعفر الأنصاريّ قال: دخلْتُ مع المصريِّين على عثمان، فلمّا ضربوه خرجْتُ أشتدّ، حتَّى ملأتُ فُروجِي عَدْوًا، حتَّى دخلْتُ المسجد؛ فإذا رجلٌ جالسٌ في نحوِ عشرةٍ، عليه عمامةٌ سوداء، فقال: وَيْحك! ما وراءَك؟ قال: قلْتُ: قد والله فُرِغ من الرَّجلِ، قال: تَبًّا لكمْ آخرَ الدّهر! فنظرتُ، فإذا هوَ عليٌّ رضي الله عنه.

ورُوِيَ عن مباركِ بنِ فضالة قال: سمعت الحَسَن يقول: سمعتُ عثمانَ يخطبُ يقول: يأَيُّها الناس، ما تَنقِمون عليَّ، وما مِنْ يَومٍ إلا وأنتم تَقسِمون فيه خَيْرًا!

قال الحَسَن: وسمعتُ مُنادِيًا يُنادِي: يأَيُّها النَّاس، اغدوا على أعطِياتِكُم، فيغدون فيأخذُونَها وافرة، حتَّى والله ما سمعتُه يقول: اغدُوا على كُسْوتِكم، فيأخذون الحُلَل، واغْدُوا على السَّمن والعَسَل.

قال الحَسَن: أرزاقٌ دارَّة، وخيرٌ كثير، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمِنًا إلاَّ يودُّه وينصُرُه، فلو صَبرَ الأنصارُ على الأثَرةِ[2] لوَسِعَهم ما كانوا فيه من العَطاءِ والأرْزَاق، ولكنَّهم لم يصبروا، وسَلُّوا السيْفَ مع مَنْ سَلّ، فصار عن الكفَّار مُغمَدًا، وعلى المسلمين مَسْلولاً إلى يوم القيامة.

---

(١) ماص الثوب: غسله غسلاً لينًا رفيقًا. (٢) الأثرة: المنزلة؛ أو المكرمة المتوارثة.

وعن محمد بن سيرين[١]، قال: كَثُر المالُ في زمن عثمان حتى بِيعَت جاريةٌ بوَزْنِها، وفرسٌ بمائةِ ألفِ درهم، ونَخْلَةٌ بألفِ دِرهم.

وقد ذكر بعض من أرَّخَ أسبابًا كثيرةً، جعلها مَنْ أقدمَ على قَتْل عثمانَ ذريعةً له، وتَمَسّك بها، أغضَيْنا عن ذكرِها، وهو رضي الله عنه مبرّأ من كلّ سوء ونَقْص، فلنذكرُ خِلافَ ذلك.

ذكر أزواج عثمان وأولاده

تزوّج رضي الله عنه رُقَيّةَ، وأُمَّ كُلْثوم ابنتَيْ رسولِ الله ﷺ، فولدَتْ له رقيّةُ عبدَ الله، هَلَك. وتزوّج فاختة بنت غَزْوان، فولدَتْ له رقيّةُ عبدَ الله الأصغر. وتزوّج أُمَّ عَمرو بنت جُنْدُبٌ الدَّوْسيَّة، فولدتْ له عمرًا، وخالدًا، وأبانًا، وعمر، ومريم، وتزوّج فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزوميّة، ولدتْ له الوليدَ، وسعيدًا، وأُم سعيد، وتزوّجَ أُمَّ البنين بنتَ عُيَيْنة بن حِصْنِ الفَزاريّة، فولدتْ له عبدَ الملكِ، هلك. وتزوّجَ رَمْلة بنتَ شيبة بن ربيعة، ولدتْ له عائشة وأُمَّ أبان، وأُمّ عَمرو، وتزوّج نائلةَ بنتَ الفَرافِصَة الكلبيّة.

وقد رَوَى أبو الفَرَجِ الأصفَهانيُ في سببِ زواجِ عثمانَ نائلةَ سَنَدًا رفعهُ إلى خالدِ بنِ سعيد، عن أبيه، قال: تزوّج سعيدُ بنُ العاص وهو على الكوفةِ هِنْدًا بنتَ الفَرافِصةِ بنِ الأحوص بنِ عمرو بنِ ثعلبة، فبلغَ ذلك عثمان، فكتبَ إليه: قد بلغني أنّكَ تزوَّجْتَ امرأةً، فاكتبْ إليّ نسبَها وجمَالَهَا، فكتبَ إليه: أما بعد، فإنّ نَسَبَها أنّها بنتُ الفَرافصةِ بن الأحوَص، وجَمَالَها أنّها بَيْضاء مَدِيدة[٢].

فكتبَ إليه: إنّ كان لها أختٌ فزوِّجْنيها، فكتَب سعيد، وبعثَ إلى الفَرافصة يخطبُ إحدى بناته على عثمانَ رضي الله عنه، فأمر الفَرافصةُ ابنَه ضَبًّا فزوّجها إيّاه، وكان ضَبٌّ مُسلِمًا، والفَرافصة نصرانيًا، فلمّا أرادُوا حَمْلَهَا، قال لها أبوها: يا بنتي إنّك تَقدمين على نساءِ من نساءِ قريْش، هنّ أقدَرُ على الطِّيبِ منكِ، فاحفظي عنّي خَصْلتين: تكَحَّلِي وتطَيَّبِي بالماء حتّى تكون ريحُك رِيحَ من أصابَه مطر.

---

(١) محمد بن سيرين: هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري؛ كان أبوه عبدًا لأنس بن مالك رضي الله عنه، كاتبه على أربعين ألف درهم... كان محمد المذكور صاحب الحسن البصري ثم تهاجرا في آخر الأمر... وكانت له اليد الطولى في تعبير الرؤيا. وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلاف عثمان، وتوفي سنة عشر ومائة بالبصرة... (وفيات الأعيان ٤: ١٨١).

(٢) المديدة: الطويلة.

فلمّا قدمتُ على عثمانَ قعدَ على سريره، ووضع لها سريرًا حِيالَه، فجلسَتْ عليه، فوضعَ عثمان قُلَنسِيتَه فَبَدَا الصَّلَعُ، فقال: يا بنت الفَرافصَة، لا يَهُولَنَّكِ ما تَرَيْن مِن صَلَعي، فإنّ وراءَه ما تُحِبِّين، وقال: إما أن تقومي إليّ، وإمّا أنْ أقومَ إليكِ. فقالت: أمّا ما ذكرتَ من الصّلَعِ فإنّي من نساءٍ أحبُّ بُعولَتِهنّ إليهنّ السادةُ الصُّلْع، وأمّا قولك: إمّا أن تقومي إليّ، وإمّا أن أقومَ إليْكِ، فوالله ما تجشَّمْتُ من جَنَبَات السَّماوَة أبعدُ ممَّا بيني وبينَك، بل أقومُ إليْك. فقامتْ فجلسَتْ إلى جَنْبِه، فمسحَ رأسَهَا ودَعَا لها بالبَرَكة، ثم قال لها: اطْرَحي عنك رِداءكِ، فطرحَتْه، ثم قال لها: خِمَارَكِ، فطرحَتْه، ثم قال لها: انزَعي دِرْعَك[1] فنزَعَتْه، ثم قال لها: حُلِّي إزارَكِ. فقالت: ذا إليْك، فحلَّ إزَارَهَا، وكانتْ من أحْظَى نسائِهِ عندَهُ.

ولدتْ له مريم. وقيل: ولدتْ له أُمّ البَنين بنتُ عُيينةَ عبدَ الملك، وعُتْمَة وولدت له نائلةُ عَنْبَسة، وكان له منها أيضًا ابنة تُدعَى أُمّ المؤمنين وأُمَّ البَنين، كانت عند عبدِ الله بن يزيدَ بن أبي سُفْيان.

وقُتِلَ عثمانُ وعندَه رَمْلة بنت شَيْبة، ونائلة وأُمّ البنين، وفاختة، غير أنَّه طلَّق أُمَّ البنين وهو محصور.

فهؤلاء أزواجُه في الجاهليّة والإسلام، وأولادُه رضي اللّهُ تعالى عنه.

كتّابه وقضاته وحجّابه وأصحاب شرطته

كاتبُهُ مروانُ بنُ الحَكَم، وقاضِيه كعبُ بنُ سُور، وحاجبُه عمران، مولاه، وصاحبُ شرطَتِهِ عبدُ اللّهِ بنُ قُنفُذ التَّمِيميّ، وهو أوّلُ من اتَّخذ صاحبَ شُرْطة، وكان على الدِّيوان وبيتِ المال زيدُ بنُ ثابت. والله تعالى أعلَمُ بالصوابِ، وهو حَسبِي ونِعمَ الوكيل.

ذكر عماله على الأمصار في سنة مقتله

كان عمَّالُه في هذه السنةِ على مكَّة عبد الله بن الحَضْرميّ، وعلى الطائِف القاسم بن ربيعة الثَّقَفيّ، وعلى صَنْعاءَ يَعلَى بن مُنْيَة، وعلى الجَنَدِ عبد اللّهِ بن ربيعة، وعلى البصرةِ عبد اللّهِ بن عامر، وكان قد خرج منها ولم يُوَلّ عثمانُ عليها أحَدًا، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعريّ، وعلى الصّلاة، وعلى خراج السواد جابر ابن فلان

---

(١) الدرع: قميص المرأة.

المُزَنيّ وسِماكُ الأنصاري، وعلى حَرْبِها القَعْقاع بن عَمرو، وعلى قَرْقِيسيا جرير بن عبدِ اللّهِ، وعلى أذْرَبِيجانَ الأشعث بن قيس الكنْدِيّ، وعلى حُلوان عُتيبة بن النَّهاس، وعلى ماه مالك بن حَبيب، وعلى همذان النُّسَير، وعلى الرَّيّ وأصفَهان السائب بن الأقْرع، وعلى ماسَبَذان حبيش، وعلى بيْت المال عُقْبَة بنُ عمرو، وعلى الشَّام معاويةُ بن أبي سُفْيان. ولمعاوية عمّالٌ وهم عبدُ الرحمٰن بنُ خالد بنِ الوليد على حمْص، وحبيبُ بنُ مَسلمةَ الفِهْري على قِنَّسْرين، وأبو الأعوَر السُّلَمي على الأرْدُنّ، وعلقمة بن حكيم الكِناني علَى فِلسْطِين وعبدُ اللّهِ بن قَيس الفَزَاريّ على البَحْر، وكان عامل عثمانَ على مصرَ عبد اللّهِ بن سَعْد بن أبي سَرْح، ثم سار إلى عثمان في رَجَبَ سنة خمسٍ وثلاثين، واستَخلف عنْه بمصرَ عقبةَ بنَ عامر، فقام محمدُ بنُ أبي حُذَيفة في شوّال، وأخرج عقبة، وتأمّر بمصر، وعاد عبدُ اللّهِ بنُ سعد فلم يمكِنه، فتوجّه إلى عَسْقلانَ، ومات بها.

وكان القاضي بمصْر عمّارُ بنُ قيسِ بنِ أبي العاص، ثم مات بعد مَقْتَل عثمانَ فلم يكُنْ بمصْر قاضٍ إلى أيّام معاوية بنِ أبي سُفْيانَ رضي الله تعالى عنهم. والله تعالى أعْلَمُ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ذكر شيء مما رثي به عثمان من الشّعر

ولما قُتِلَ رضي الله عنه رَثاه جماعةٌ، منهم: حسّانُ بنُ ثابت وغيرُه فكان مما قال حسَّانُ بنُ ثابت: [من البسيط]

إن تُمْسِ دارُ ابنِ أرْوَى اليومَ خاليةً ... بـابٌ صـريعٌ وبـابٌ مُـخْـرَقٌ خَـرِبُ
فقد يُصادِف بَاغِي الخيرِ حاجتَه ... فيها ويأْوِي إليها الجُودُ والحَسَبُ

وقال أيضًا ممّا رثاه به في أبيات أُخرى: [من البسيط]

من سَرَّه الموتُ صِرْفًا لا مِزاجَ له ... فـلـيـأْتِ مـأدُبـةً فـي دارِ عُـثـمـانَـا
ضَحّوا بأشْمط عُنوان السجود به ... يُقطِّع الليلَ تسبيحًا وقُرآنا[1]
صبرًا فِدًى لكُمُ أُمّي وما وَلَدَتْ ... قد يَنفَع الصبرُ في المَكْروهِ أحْيانا
لَتَسْمَعَنَّ وَشيكًا في دِيارِهِمُ ... اللّهُ أكبرُ واثاراتِ عُثْمانَا

(١) الأشمط: المختلط سواد شعره ببياض.

وقد قيل: إنَّ البيت الثاني من هذه الأبيات «ضَحّوْا بأشمَط» ليس له، وقال بعضهم: هو لعِمرانَ بنِ حِطان.

وقال أبو عُمَر: وقد زاد أهلُ الشّام فيها أبياتًا لم أرَ لِذكرها وَجهًا.

قال ابن الأثير: يعني ما فيها من ذكر عليٍّ رضي الله عنه، وهو:

يا ليتَ شعري وليتَ الطير تُخبرني ... ما كان شأن عليٍّ وابنِ عفّانا

وقال أيضًا: [من الطويل]

قتلتمْ وليَّ اللّهِ في جوفِ دارهِ ... وجئتمْ بأمرٍ جائرٍ غيرِ مهتدِ
فلا ظفرتْ أيمانُ قومٍ تعاونُوا ... على قَتْلِ عثمانَ الرَّشيدِ المسدَّدِ

وقال كعبُ بنُ مالك: [من البسيط]

يا لَلرِّجال لأمْرٍ هاج لي حَزَنَا ... لقد عجبتُ لِمن يَبكي على الدِّمَنِ
إنّي رأيتُ قتيلَ اللّهِ مُضطَهَدًا ... عثمانَ يُهدَى إلى الأجداثِ في كَفَنِ
يا قاتَلَ اللّهُ قومًا كان أمْرَهمُ ... قتلُ الإمام الذكيِّ الطيِّبِ الرُّدُنِ[1]
لم يَقْتُلوه على ذَنبٍ ألَمَّ بِهِ ... إلاَّ الَّذِي نطقُوا زُورًا ولم يكُنِ

وقال أيضًا: ونسبت لحسّان وقيل: للوليدِ بنِ عُقْبة، والله تعالى أعلم: [من الطويل]

وكفَّ يَديْهِ ثمّ أغلقَ بابَهُ ... وأيقَنَ أنَّ الله ليس بغافلِ
وقال لأهلِ الدار لا تَقْتُلوهُمُ ... عَفا اللّهُ عن ذنبِ امرىء لم يُقاتِلِ
فكيفَ رأيتَ الله ألقَى عليهمُ الـ ... ـعَدَاوَةَ والبَغْضَاء بعدَ التَّواصُلِ
وكيف رأيت الخَيْرَ أدبَرَ بعدَهُ ... عن النَّاسِ إدبار السَّحاب الحَوافِلِ[2]

وقال حُميدُ بنُ ثَوْرٍ الهِلاليّ[3]: [من البسيط]

إنَّ الخلافةَ لمَّا أظْعَنَت ظَعَنَتْ ... من أهلِ يثربَ إذ غير الهدى سَلَكُوا
صارتْ إلى أهلها منهم ووارثها ... لمّا رأى الله في عثمانَ ما انتَهَكوا

وقال قاسمُ بنُ أُميّةِ بنُ أبي الصَّلْت: [من الطويل]

لعَمْري لبئس الذَّبحُ ضَحيتُمْ به ... وخُنتُمْ رسولَ اللّهِ في قتلِ صاحبِهِ

---

(١) الردن: الكم.
(٢) الحوافل: اللائي كثر ماؤها.
(٣) حميد بن ثور الهلاليّ: هو من بني عامر بن صعصعة، إسلاميّ مجيد.

وقالت زينب بنت الزُّبير بن العوّام: [من الطويل]

أعْطَشْتُمُ عثمانَ في جَوْفِ دارِهِ شرِبتُمْ كَشُرْبِ الهيمِ شُرْبَ حَمِيمِ[١]
وكيف بنا أم كيف بالنَّومِ بعدَمَا أُصِيبَ ابنُ أروَى وابنُ أُمِّ حكيمِ

وقالت لَيْلَى الأخيَلِيّة[٢]: [من مجزوء الكامل]

قُتِلَ ابنُ عَفَّان الإما مُ وضاعَ أمْرُ المُسلِمِينا
وتشتَّتَتْ سُبُلُ الرَّشا دِ لصادرِين ووارِدِينا
فانهضْ مُعاوِيَ نَهضةً تَشفي بها الداءَ الدَّفينا
أنت الَّذي من بعدِهِ تُدْعَى أميرَ المؤمنينا

وقال أيمنُ بنُ خُرَيم[٣]: [من البسيط]

ضَحَّوْا بعثمانَ في الشَّهرِ الحرام ضُحىً فأيّ ذبْحِ حرامٍ ويْلَهمْ ذَبَحوا
وأيَّ سُنَّةِ كُفرٍ سَنَّ أوّلُهمْ وباب شَرٍّ على سلطانِهِمْ فَتَحوا
ماذا أرادُوا أضَلَّ اللّهُ سعيَهُمْ بسَفْكِ ذاكَ الدمِ الذَّاكي الذي سَفَحُوا

ورَثاه غيرُهم ممّن لو ذكرْنا شعرَهم لانبسط به الخَبر.

تمّ الجزء التاسع عشر،
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء العشرون،
وأوله: ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

(١) الهيم: جمع الأهيم، وهو من الرجال ومن الإبل: العطشان أشد العطش.

(٢) ليلى الأخيلية: هي ليلى بنت الأخيل من عقيل بن كعب وهي أشعر النساء لا يقدم عليها غير خنساء وكانت هاجت النابغة الجعدي. . . (الشعر والشعراء).

(٣) أيمن بن خريم: هو أيمن بن خريم بن فاتك من بني أسد وكان أبوه قد صحب النبيّ ﷺ، وروى عنه الحديث، وكان به برص وكان أسيرًا عند عبد العزيز بن مروان. . . (الشعر والشعراء).

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء العشرون

تحقيق

الأستاذ عماد علي حمزة

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذكر خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

هو أبو الحسَن عليُّ بن أبي طالب بن عبد المُطَّلِبِ بن هاشِم، أُمُّه فاطمة بنت أسَد بن هاشم، أسلمتْ، وهاجرتْ، وهي أوَّلُ هاشِميَّة ولدت هاشميًا، وهو أوَّل خليفة أبَواه هاشميَّان، ثم ابنه الحسَن، ثم محمد الأمين، رضي الله عنهم[(١)].

ذكر صفته رضي الله تعالى عنه

قال ابن الأثير الجَزَريّ[(٢)] في تاريخه: كان رضي الله عنه شديدَ الأُدْمَة[(٣)]، قَصيرَ القامة[(٤)]، كبيرَ البطن، أصْلَعَ الرأس، عريضَ اللحية.

---

(١) فاطمة بنت أسد، «أول هاشمية ولَدت لهاشمي، وهي أيضًا أول هاشمية ولدت خليفة، ثم بعدها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ولدت الحسن [والحسين] ثم زبيدة امرأة الرشيد ولدت الأمين». راجع: أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٥ ص٥١٧.

(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، كنيته أبو الحسن؛ ابن الأثير الجزري - بفتح الزاي - شهرتُه، له في التاريخ كتاب الكامل. توفي ٦٣٠هـ.

(٣) الأدمة: الأُدْمة، بالضم، في الإبل لونٌ مشربٌ سوادًا. راجع القاموس المحيط للفيروزأبادي جـ٤، باب الميم.

(٤) النص من الكامل في التاريخ جـ٣ ص٣٩٦ و«هو إلى القصد أقرب» أثبتت بدل «قصير القامة» عبارة النويري.

وقال أبو عمر بن عبد البر[١] رحمه الله: أَحْسَنُ ما رأيتُ في صفته رضي الله عنه أنه كان رَبْعَةً[٢] من الرجال، إلى القِصَر ما هو، أَدْعَجَ[٣] العينَيْن، حسَن الوجه، كأنَّه القمرُ ليلةَ البَدْر حُسْنًا، ضَخْمَ البطن، عرِيضَ المَنْكِبَيْن[٤]، شَثْنَ[٥] الكفَّين، أَغْيَدَ[٦]، كأنَّ عُنُقَه إبريقُ فضَّة، أَصْلَعَ ليس في رأسه شعرٌ إلاَّ مِن خَلْفِه، كبير اللحية، لِمَنْكِبَيْه مُشاشٌ[٧] كمُشاشِ السبع الضارِي، لا يَبِينُ عَضُدُه مِن ساعِده، قد ادَّمَجَت ادِّماجًا إذا مشَى تكفَّأَ[٨]، وإنْ أمْسَك بذراع رجل أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفَّس، وهو إلى السِّمَن ما هو، شديدُ الساعد واليد، إذا مشَى إلى الحربِ هَرْوَل[٩]، ثَبْتُ الجنَان[١٠] قويّ شجاع، منصور علَى مَن لاقاه، رضي الله عنه.

ذكر نبذة من فضائله
رضي الله تعالى عنه

هو - رضي الله عنه - أوَّلُ من أسلم، عند بعضهم، على ما في ذلك من الاختلاف فيه وفي أبي بكر، رضي الله عنهما، وأيّهما سبق إلى الإسلام... وقد ذكرنا ذلك كله في ابتداء السيرة النبويّة، في السِّفْر الرابعَ عشرَ من هذه النسخة، فلا فائدة في إعادته، فلنذكر من فضائله خلاف ذلك:

أجمعوا على أنه - رضي الله عنه - صلَّى إلَى القبلتَين، وهاجر وشهد جميعَ المَشاهد مع رسول الله ﷺ، إلاَّ غَزْوَةَ تَبُوكَ[١١]، فإنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام

---

(١) ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي المالكي، لقب بحافظ المغرب لشدة حفظه، مؤرخ وأديب وبحّاثة، ولد بقرطبة وتوفي بشاطبة من أعمال المغرب. راجع الأعلام للزركلي.

(٢) الذي لا يحسب في الطوال أو القصار. (٣) الدعج: شدة سواد العين على سعة.

(٤) الكتفين. (٥) الشثن: الغلظة.

(٦) أغيد: للعنق خاصة وهو فيها الميلان من دون عيب.

(٧) مشاش العظم: مقدمه أو رأسه.

(٨) تكفأ في مشيه: إذا سار متحدرًا، وفي الحديث أنه ﷺ كان يسير كأنه يتحدر من صبب.

(٩) الهرولة: دون الركض وأعلى من المشي، وفيه أنها سرعة المشي.

(١٠) الجنان: الفؤاد أو القلب.

(١١) تبوك: بالفتح ثم الضم، موضع بين وادي القرى والشام. راجع معجم البلدان لياقوت جـ٢ ص١٤.

خلَّفه بالمدينة علَى عِياله، وقال له: أنت مِنِّي بمنزلة هارُونَ من موسَى إلاَّ أنَّه لا نبيَّ بعدي. رواه جماعة من الصحابة[١].

ورُويَ أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا آخَى بين المهاجرين، ثم آخَى بين المهاجرين والأنصار، قال في كل واحد منهما لعليّ: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، وآخَى بينه وبين نفسه. ولذلك قال عليٌّ لأصحاب الشُّورَى[٢]: أَنشُدُكم اللّهَ، هل فيكم أحدٌ آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبينه - إذ آخَى بين المسلمين - غيري؟ قالوا: اللهمَّ لا وربَّنا. وكان يقول: أنا عبدُ الله وأخو رسولِ الله، لا يقولُها أحدٌ غيري إلاَّ كذَّاب.

وروى بُرَيدة وأبو هُرَيرة وجابر والبَرَاءُ بن عازِبٍ وزَيد بن أرْقَم، كلٌّ منهم، عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم غَدير خُمّ[٣]: «من كنتُ مَولاهُ فعليٌّ مَولاه» وفي رواية بعضهم «اللهُمَّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه»[٤].

وقد ذكرنا في غزوة خَيْبَر أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غدًا رجلاً يحبُّ اللّهَ ورسولَه، ويحبُّه اللّهُ ورسولُه ليس بفرّار، يفتحُ اللّهُ على يدَيه»[٥] وأنَّه أعطَى الرايةَ لعليّ، ففتح الله علَى يدَيه.

وبعثه رسولُ الله ﷺ إلى اليمن، وهو شابٌ، ليَقضيَ بينهم، فقال: يا رسولَ الله إنّي لا أدري ما القضاء؟ فضربَ رسولُ الله عليه الصلاة والسلام صدرَه بيده وقال: «اللهُمَّ اهْدِ قلبَه وسدِّدْ لسانَه»[٦] قال عليٌّ: فواللّهِ ما شككتُ بعدها في قضاء بيْنَ اثنَيْن.

ولما نزل قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٣] دعا رسول الله ﷺ فاطمةَ وعليًا وحسَنًا وحُسَينًا في

---

(١) صحيح مسلم جـ١٥ ص١٧٥، والرياض النضرة جـ٢ ص١٦٢، ومظان الحديث كثيرة لا تحصى.

(٢) أصحاب الشورى ستة وهم إلى علي عثمان بن عفان، وطلحة التيمي، والزبير بن العوام، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص.

(٣) خم: السم موضع فيه غدير بين مكة والمدينة بالجحفة، وروى الحازمي أن خم وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير، خطب عنده الرسول ﷺ آخر خطبة وقد عرفت بخطبة حجة الوداع. معجم البلدان ج٢ ص٣٨٩.

(٤) راجع الحديث في صحيح مسلم جـ١٥ ص١٧٩.

(٥) راجع صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٥ ص١٧٦ بتخريج فتح الله ورفعت الهيئة العامة للكتاب، نهاية الأرب جـ٢٠، القاهرة ١٩٧٥.

(٦) راجع سنن أبي داود، الوتر ٢٥ باختلاف في الرواية.

بيت أُمّ سَلَمة وقال: «اللهُمَّ إنَّ هؤلاء أهلُ بيتي فأذهِبْ عنهم الرجس[١] وطهِّرْهم تطهيرًا»[٢].

قال أبو عمر: وروت طائفةٌ من الصحابة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعليّ: «لا يحبُّك إلاَّ مؤمنٌ ولا يُبْغِضُكَ إلاَّ منافقٌ»[٣].

وقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: «يَهْلِكُ فيك[٤] رجُلانِ: مُحِبٌّ مُطْرٍ[٥] وكذّاب مُفْتَرٍ»[٦].

وقال له: «تفترقُ فيك أُمَّتي كما افترقتْ بَنُو إسرائيلَ في عيسى».

ورُويَ عن رسول الله ﷺ: «أنا مَدِينةُ العِلم، وعليٌّ بابُها، فمن أراد العلْمَ فلْيَأْتِهِ مِن بابِه»[٧].

وقال في أصحابه: «أقضاهم عليٌّ»[٨].

وقال عُمر رضي الله عنه: «عليٌّ أقْضانا»[٩].

وكان عُمر يتعوَّذُ بالله مِن مُعْضِلَةٍ ليس لها أبو حَسَن[١٠]!

وقال عليٌّ في التي وضعَتْ لستَّةِ أشهُرٍ، فأراد عُمر رجْمَها: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ويقول: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

وكان ـ رضي الله عنه ـ أعلمَ الناسِ بالفَرائض[١١]، وله في ذلك أخبار.

(١) الرجس: القَذَر، وقال الفرّاء: إنه العقاب والغضب.

(٢) راجع سنن الترمذي بشرح النووي ج١٥ ص١٩٤.

(٣) راجع الحديث في اختلافات يسيرة، لابن أبي الحديد في نهج البلاغة ج١ ص٣٧٢، وفي نهج البلاغة ج٣ ص٣٠٦.

(٤) راجع: الاستيعاب لابن عبد البر ج٣ ص٣٧ باختلاف يسير.

(٥) مطر: التكثُّر في المدح والتوسُّع فيه، ومنه الإطراء: المبالغة في المديح.

(٦) مفتر: ومنه الافتراء، وهو اختلاق ما لم يكن حتى لكأنه كذب.

(٧)(٨) راجع ترجمة الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في أسد الغابة ج٤ ص١٦.

(٩)(١٠) راجع ترجمة عمر بن الخطاب بن نفيل رضي الله عنه في أسد الغابة ج٤ ص٥٣.

(١١) الفرائض: علم قسمة المواريث.

منها ما رواه أبو عمر بن عبد البر[1] بسنده عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال: جلس رجلان يتغدّيان، مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثةُ أرغفة، فلما وضعا الغَداء بين أيديهما مَرَّ بهما رجلٌ، فسلَّم، فقالا له: اجلسْ للغَداء. فجلس وأكل معهما، واستوفَوْا في أكلهم الأرغفة الثمانية، فقام الرجلُ وطرح إليهما ثمانيةَ دراهم، وقال خذا هذه عوضًا ممَّا أكلتُ لكما ونِلْتُه من طعامكما. فتنازعا، وقال صاحبُ الخمسةِ الأرغفة: لي خمسة دراهم ولك ثلاثة. فقال صاحب الأرغفة الثلاثة: لا أرضَى إلا أن تكونَ الدراهمُ بيننا نصفين. فارتفعا إلى أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب، فقصَّا عليه قصَّتهما، فقال لصاحب الثلاثةِ الأرغفةِ: قد عرَضَ عليك صاحبُك ما عَرَض وخُبْزُه أكثرُ من خبزك فارْضَ بالثلاثة. فقال: لا واللّهِ لا رضِيتُ منه إلاَّ بمُرِّ الحق. فقال عليٌّ: ليس لك في مرِّ الحق إلا درهمٌ واحد وله سبعة. فقال الرجل: «سُبْحانَ اللّهِ يا أميرَ المؤمنين! هو يَعرض عَلَيَّ ثلاثة فلم أرْضَ وأشرتَ عَلَيَّ بأخذها فلم أرْضَ، وتقول لي الآن: إنه لا يجب لك إلاَّ درهمٌ واحد!» فقال له عليٌّ: «عرَض عليك صاحبُك أن تأخذ الثلاثةَ صلحًا، فقلت: لا أرضى إلا بمرِّ الحق، ولا يجبُ لك في مر الحق إلا واحد» فقال له الرجل: فعرِّفْني الوجهَ في مر الحق حتَّى أقبلَه. فقال: «أليس للثمانيةِ الأرغفةِ أربعةٌ وعشرون ثُلُثًا؟ أكلتموها وأنتم ثلاثةُ أنفُس، ولا نعلَمَ الأكثرَ منكم أكلاً ولا الأقلَّ، فتُحْمَلون في أكلكم علَى السواء». قال: بَلَى. قال: فأكلتَ أنت ثمانيةَ أثلاث، وإنما لك تسعةُ أثلاث، وأكل صاحبُك ثمانيةَ أثلاث، وله خمسةَ عشرَ ثُلُثًا، أكل منها ثمانية وتبقى له سبعة، وأكل لك واحدًا من تسعة، فلك واحدٌ بواحدك، وله سبعةٌ بسبعته. فقال له الرجل: رضِيتُ الآن!

وأتَتْه امرأةٌ وهو على المنبر فقالت: تَرَك أخي سِتَّمِائة دينار وأُعطيتُ دينارًا! وتظلمتْ من ذلك فقال: لعل أخاكِ تَرَك زوجةً وأُمًّا وبنتَيْن واثنَيْ عشر أخًا وأنتِ. قالت: نعم. فقال: أستَوْفَيتِ حقَّك. وهذ المسألة مشهورة مسطورة في كتب الفقه، وتسمى «الدِّيناريَّة» و«المنبرية»[2].

وهو ـ رضي الله عنه ـ مِمَّن جَمَع القرآنَ علَى عهْد النبي ﷺ، هو وعثمانُ بن عفَّان وعبد الله بن مسعود وسالمٌ مولَى أبي حُذيفةَ بن عُتْبَةَ بن ربيعة.

---

(١) راجع ابن عبد البر في الاستيعاب ج٣ ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) وعليه فللزوجة الثمن خمسة وسبعون دينارًا، وللأم السدس مائة دينار، وللبنتين الثلثان أربعمائة دينار. فيبقى خمسة وعشرون دينارًا، للإخوة أربعة وعشرون ولها دينارٌ واحد.

وعن محمد بن سيرينَ[١] قال: لما بويع أبو بكر الصدِّيقُ رضي الله عنه أبطأ عليٌّ عن بيعته وجلس في بيته، فبعث إليه أبو بكر: ما بَطَّأ بك عنّي؟ أكرِهْتَ إمارتي؟ فقال: ما كرِهتُ إمارتَك، ولكنّي آلَيتُ أن لا أرتديَ رِدائي - إلاَّ إلَى صلاة - حتى أجمعَ القرآن[٢]! قال ابنُ سِيرِينَ: فبلغني أنه كتبه علَى تنزيلِه، ولو وُجد ذلك الكتابُ لَوُجِد فيه علمٌ كثير.

وفي عليٍّ رضي الله عنه يقول إسماعيلُ بن محمد الحِمَيريُّ من أبيات:
[من البسيط]

سائلْ قُرَيشًا بها إن كنتَ ذا عَمَهٍ[٣] ... مَن كان أثبتَها في الدِّين أوتادا؟
مَن كان أقدمَها سِلْمًا[٤] وأكثرَها ... عِلمًا وأطهرَها أهلاً وأولادا؟
مَن وحَّدَ اللّهَ إذْ كانت مُكذِّبةً ... تدعو مع الله أوثانًا وأندادا؟
مَن كان يُقْدِمُ في الهَيْجاءِ[٥] إنْ نكَلُوا[٦] ... عنها وإن بَخِلُوا في أزْمةٍ جادا؟
مَن كان أعدلَها حُكْمًا وأبسَطَها ... علمًا وأصدقَها وعدًا وإيعادا؟
إن يَصْدُقوك فلن يَعْدُوا أبا حسنٍ ... إنْ أنت لم تَلْقَ لِلأبرار حُسّادا!
إن أنت لم تَلْقَ أقوامًا ذوي صَلَفٍ ... ذَوي عِنادٍ لحقِّ اللّهِ جُحّادا[٧]!

وفضائلُه - رضي الله عنه - ومآثرُه كثيرة، وفيما أوردْناه منها وما نُورِدُه بعدُ - إن شاء الله - كفايةٌ عن بَسْط... فلنذكر بَيْعَتَه رضي الله عنه.

---

(١) محمد بن سيرين: أبو بكر محمد بن سيرين البصري الذي كان له اليد الطولى في تعبير الرؤيا. أبوه كان عبدًا لأنس بن مالك. وكان له في تأويل الرؤيا طريقتان الأولى بمطابقة الرؤيا مع ما يشاكلها من الحقائق، والثانية بما يستأنس به من القرآن الكريم، توفي سنة ١١٠هـ. راجع الكنى والألقاب للقمي جـ١ ص٣١٩.

(٢) راجع الاستيعاب جـ٢ ص٥٣٤، والسيوطي في الإتقان جـ١ ص٥٩، وفي الرياض النضرة جـ١ ص١٦٨.

(٣) التخبط في الجادة.

(٤) في أسد الغابة، جاءت بلفظ: من كان أقدم إسلامًا وأكثرها جـ٤ ص٤٠.

(٥) الهيجاء: الحرب ونارها بخاصة.

(٦) النكول: الخنس والتأخر.

(٧) جحادًا: جمع مكاثرة على جاحد ومنه الجحود، أي النكران.

ذكر بيعة علي
رضي الله تعالى عنه

بُويع له ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة يومَ قُتل عثمان[(١)] وقيل: بل بُويع له يومَ الجمعة لخمسٍ بقِينَ من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين.

وقد اختُلِفَ في كيفية بيعته:

فقيل: إنه لما قُتل عثمان رضي الله عنه اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فأتَوْا عليًا، وقالوا له: إنه لا بُدَّ للناس مِن إمام، فقال: لا حاجةَ لي في أمركم، مَن اخترتم رضيته. قالوا: لا نختارُ غيرَك. فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيرًا خيرًا من أن أكون أميرًا. فقالوا: واللّهِ ما نحن بفاعلين حتى نبايعَك. قال: ففي المسجد، فإنَّ بَيْعتي لا تكون خفيا، ولا تكون إلاَّ عن رضا المسلمين[(٢)].

وكان في بيته، وقيل: في حائط[(٣)] لبني عَمرو بن مَبْذول[(٤)]، فخرج إلى المسجد يتوكَّأ علَى قَوس، فبايعه الناس.

وكان أوّلَ مَن بايعه طَلْحةُ بن عُبَيد الله، فنظر إليه حبيب بن ذُؤَيب، فقال: «إنَّا للّه! أوّلُ مَن بَدَأ البَيْعة يَدٌ شَلاَّء[(٥)]! لا يتمُّ هذا الأمر». وبايعه الزُّبير، فقال لهما: إنْ أحبَبْتما أن تُبايعاني وإنْ أحببتما بايعْتُكما. فقالا: بل نُبايعُك. وقالا بعد ذلك: إنَّما فعلْنا ذلك خَشْيةً علَى نفوسنا، وعرفْنا أنَّه لا يُبايعُنا.

وبايَعَه الناسُ، وجاؤوا بسَعْد بن أبي وَقَّاص، فقال له عليٌّ: بايعْ. فقالا: «لا، حتَّى يُبايعَ الناسُ، واللّهِ ما علَيك منِّي بأسٌ» قال: خلُوا سبيلَه.

وجاؤوا بابْنِ عُمَر[(٦)]، فقال مثلَ قوله، فقال: ائتني بكَفِيل[(٧)]، فقال: لا أرى كَفيلاً. قال الأشْتَرُ: دَعْنِي أضرِبْ عُنقَه! قال عليٌّ: «دعُوه، أنا كَفيلُه، ـ إنَّك ـ ما علمتُ ـ سَيِّءُ الخُلقِ صغيرًا وكبيرًا!».

---

(١) في أكثر الروايات أنه قُتل رضي الله عنه يوم الجمعة لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين هـ.

(٢) قارن في الكامل وابن الأثير جـ٣ ص١٩٠.

(٣) حائط: كناية عن البستان فيه زرع ونخيل، وسمي حائط لتحوطه بسور.

(٤) قوم من الأنصار.

(٥) وكان طلحة قد وقى بيده الرسول ﷺ يوم أحد من النبل فأصيب فشلَّت.

(٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٧) أراد من يضمن حياده وسلوكه.

وبايعه الأنصارُ إلا نَفَرًا يَسيرًا، منهم حَسَّانُ بن ثابت، وكَعْبُ بن مالك، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد، وأبو سعيد الخدْرِي ومحمد بن مَسْلمة، والنُّعْمان بن بَشِير، وزَيد بن ثابت، ورافع بن خَدِيج، وفَضالة بن عُبَيْد، وكَعْب بن عُجْرَة، كانوا عُثْمانيَّة[١].

ولم يبايع أيضًا عبد الله بن سَلاَم، وصُهَيب بن سنان، وسَلَمة بن سَلامة بن وَقْشٍ، وأُسامة بن زَيد، وقُدَامة بن مَظْعون، والمُغِيرة بن شُعْبة.

وأخذ النُّعمانُ بن بَشِير قميصَ عُثْمانَ الَّذي قُتِلَ فيه وأصابعَ امرأتِهِ نائلة، وسار بهم إلى الشام[٢].

وقيل في بَيعته: إنَّ عُثمان لمَّا قُتِل بقيت المدينةُ خمسةَ أيَّام وأميرها الغافقي بن حَرْب، وهم يلتمسون مَن يُجيبهُم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، فأتَى المصريّون عليًّا فباعَدَهم، وأتَى الكوفيُّونَ الزُّبَيرَ فباعَدَهم، وأتى البصريُّون طَلحةَ فباعَدَهم؛ وكانوا مجتمعين علَى قَتْل عُثمان مختلفين فيمن يَلي الخلافةَ، فأرسلوا إلى سَعْدٍ[٣] يطلُبونه فقال: إنِّي وابْنَ عُمر لا حاجةَ لنا فيها، وأتوا ابْنَ عُمر فلم يُجِبْهم، فبقوا حَيارَى، وقال بعضُهم لبعضٍ: لَئِنْ رجعَ النَاسُ إلَى أمصارهم بِغَير إمام لم نأْمَن الاختلافَ وفسادَ الأُمَّة، فجمعوا أهلَ المدينة وقالوا لهم: يا أهلَ المدينة، أنتم أهلُ الشُّورَى، وأنتم تَعْقِدون الإمامة، وحكمُكم جائزٌ على الأمة، فانظروا رجلاً تنصبونه، ونحن لكم تبعٌ، وقد أجلناكم يومكم، فوالله لئن لم تَفْرُغوا[٤] لنقتُلَنَّ عليًّا وطَلحة والزُّبير وأناسًا كثيرًا. فغشِيَ الناسُ عليًّا، فقالوا: نُبايعُك فقد ترَى ما نَزَل بالإسلام وما ابْتُلِينا به مِن بين القُرَى! فقال عليٌّ: «دَعُوني والْتَمِسُوا غيري، فإنَّا مستقبلون أمرًا له وُجوهٌ وله ألْوانٌ، لا تقومُ به القلوبُ، ولا تثبُت عليه العقولُ» فقالوا: «نَنْشُدك اللّهَ! ألاَ ترَى ما نحن فيه؟ ألاَ ترَى الإسلامَ ألاَ ترَى الفِتْنة؟ ألاَ تخافُ الله؟» قال: «قد أجَبْتُكم، واعْلموا أني إن أجبْتُكم ركِبْتُ بكم ما أعلم، وإنْ تركتموني فإنَّما أنا كأحدِكم إلاَّ أنِّي مِنْ أسْمَعِكم وأطْوَعِكم لمَن ولَّيْتموه»[٥]... ثمَّ افترقوا علَى ذلك، واتعدَوا[٦] الغَدَ.

(١) أي ممن يتولى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) قاصدًا معاوية بن أبي سفيان وكان واليًا على الشام.

(٣) أراد سعد بن أبي وقاص.

(٤) أي تنتهوا إلى من تقيمونه إمامًا.

(٥) راجع ابن أبي الحديد، باختلاف يسير، جـ١ ص٥٦، وجـ٢ ص١٧٠.

(٦) جعلوا لهم من الغد ميقاتًا يتوافون في تمامه.

وتشاوَرَ الناسُ فيما بَيْنَهم، وقالوا إنْ دخل طلحةُ والزُّبَيرُ فقد استقامت، فبعث البصريُّون إلى الزُّبَير حُكَيْم بن جَبَلة، ومعه نفر فجاؤوا به يحْدُونه[١] بالسَّيف، فبايَع. وبعثوا إلى طلحةَ الأشْتَرَ في نفر، فأتاه فقال: دَعْني أنظرْ ما يصنعُ الناسُ، فلم يدَعْه، فجاء به يَتُلُّه[٢] تلاً عنيفًا فبايع.. فكان الزبير يقول: جاءني لصّ من لصوص عَبْد القَيْس فبايَعْتُ والسَّيفُ علَى عنقي!.

وأهلُ مصر فرِحون لِما اجتمع علَيه أهلُ المدينة، وقد خشَعَ أهْلُ الكوفةِ والبصرة أنْ صاروا تَبَعًا لأهل مصر، وازدادوا بذلك علَى طَلحةَ والزُّبَيرُ غَيْظًا.

قال: ولمَّا أصبحوا يومَ البَيْعة ـ وهو يوم الجمْعة ـ حَضَر الناسُ المسجدَ، وجاء عليٌّ رضي الله عنه، فصعِد المِنبرَ وقال: «أيُّها الناسُ عن مَلأٍ وإذْن[٣] إنَّ هذا أمْرُكم، ليس لأحدٍ فيه حقٌّ إلاَّ مَن أمَّرْتمْ، وقد افترقْنا بالأمسِ علَى أمر، وكنتُ كارهًا لأمركم، فأبَيْتُم إلاَّ أنْ أكون علَيكم، ألاَ وإنَّه ليس لي دونَكم إلاَّ مفاتيحُ مالِكم معي وليس لي أنْ آخُذَ درهمًا دُونكم، فإنْ شِئْتم قعدتُ لكم، وإلاَّ فلا أجِدُ علَى أحد» فقالوا: نحن علَى ما فارقْناك علَيه بالأمس. فقال: اللهُمَّ اشْهَدْ[٤].

قال: ولما جاؤوا بطَلحةَ ليُبايعَ قال: إنما أبايعُ كَرْهًا. فبايَعَ.. ثم جِيءَ بالزُّبَير، فقال مثْلَ ذلك وبايع، وفي الزُّبَير اختلاف.. ثم جِيءَ بَعْدَه بقوم كانوا قد تخلَّفوا، فقالوا: نُبايع علَى إقامةِ كتابِ الله في القريب والبَعيد والعزيز والذليل. فبايَعهم... ثمَّ قام العامَّةُ فبايَعوا.. وتفرَّقوا إلَى منازلهم.

ورجع عليٌّ إلَى بيته، فدخل عليه طلحةُ والزُّبَير في عَدد من الصحابة، فقالوا: «يا عليُّ، إنَّا قد اشترطنا إقامةَ الحُدود، وإنَّ هؤلاء القومَ قد اشتركوا في قتْل هذا الرجل» فقال: «يا إخْوَتاه، إني لست أجْهَلُ ما تعلمون، ولكنْ كَيف أصنع بقوم يَملكوننا ولا نملكُهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عُبْدانُكم[٥]، وثابتْ[٦] إليهم أعرابكم وهم خلالكُم[٧] يسُومونكم[٨] ما شاؤوا، فهل ترَوْن موضعًا لقدرةٍ علَى شيءٍ مِمَّا تريدون؟» قالوا: لا. قال: «فلا واللّهِ لا أرَى إلاَّ رأيًا تَرَوْنه أبدًا إلاَّ أنْ يشاء الله،

(١) حدا به: ساقه. (٢) التلّ: الدفع بشدة.
(٣) كناية عن وضوح الاختيار ومبادرة الناس إلى مبايعته كرّم الله وجهه أمام الناس.
(٤) راجع ابن الأثير في الكامل ج٣ ص١٩١. (٥) جمع عبد.
(٦) ثاب إلى الشيء: رجع إليه. (٧) بينكم.
(٨) يكلفونكم.

إنَّ هذا الأمرَ أمْرُ جاهليّة، وإنَّ لهؤلاء القَوم مادَّةً[١]. إنَّ الناسَ من هذا الأمرِ - إنْ حُرِّكَ - علَى أمور: فرقة ترَى ما ترَوْن، وفرقةٌ ترَى ما لا ترَون، وفرقةٌ لا ترَى هذا ولا هذا حتَّى يهدأ الناسُ، وتقعَ القلوبُ مَواقِعَها، وتؤخذَ الحقوق. فاهْدَؤُوا عنِّي، وانظروا ماذا يأْتيكم، ثم عُودوا».

واشتدَّ عليٌّ علَى قريش، وحال بينهم وبين الخروج وتركها علَى حالها، وإنَّما هيَّجه على ذلك هرَبُ بني أمَيَّة وتفرُّق القوم.

وحكى أبو عمر بن عبد البر[٢] قال: لمّا بايع الناسُ عليَّ بنَ أبي طالب دخل عليه المغيرةُ بن شُعْبة، فقال له: «يا أميرَ المؤمنين، إنَّ لك عندي نصيحةً». قال: وما هي؟ قال: «إنْ أردتَ أن يستقيمَ لك الأمرَ فاسْتعمِلْ طَلحةَ علَى الكوفة، والزُّبَيْرَ على البصرة، وابعثْ إلى معاويةَ بعهده علَى الشام حتى تُلزِمَه طاعتَك، فإذا استقرَّت لك الخلافةُ فادْرَأْهم[٣] كيف شئتَ برأيِك». فقال عليّ: «أمَّا طلحةُ والزُّبَيْر فسأرَى رأيي فيهما، وأمَّا مُعاويةُ فلا يَراني اللّهُ مُستعملاً له ولا مستعينًا به ما دام علَى حاله، ولكنِّي أدعُوه إلَى الدخولِ فيما دخلَ فيه الناسُ، فإنْ أبَى حاكمْتُه إلَى اللّهِ تعالى». فانصرف عنه المُغيرةُ مُغْضَبًا لمَّا لم يَقْبل منه نصيحتَه.. فلمَّا كان الغَدُ أتاه فقال: «يا أميرَ المؤمنين، نظرتُ فيما قلتُ بالأمس وما جاوبتَني به، فرأيتُ أنَّك قد وُفِّقْتَ لِلخيرِ وطلبتَ الحق». ثم خرج عنه، فلقِيَهُ الحسَنُ وهو خارجٌ، فقال لأبيه: ما قال هذا الأعْوَر؟ يعني المُغيرة، وكان المغيرة قد أصيبتْ عَيْنُه يومَ اليَرْمُوك قال: أتاني أمسِ بكذا وأتاني اليومَ بكذا. قال: نَصَحك واللّهِ أمس وخَدَعك اليومَ. فقال له عليٌّ: إنْ أقررتُ معاويةَ علَى ما في يده كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا[٤].

وقال المُغيرةُ في ذلك: [من الطويل]

نصَحتُ عليًا في ابْن هِند[٥] نصيحةً ... فـرَدَّ فـلا يـسـمـعْ لـهـا الـدهـرَ ثـانـيـه
وقـلـتُ لـه: أرسِـلْ إلَـيـه بـعـهـدِه ... عـلَـى الـشـامِ حتَّـى يستقـرَّ مُـعـاويَـهْ
ويَـعـلَـمَ أهـلُ الـشـامِ أنْ قَـدْ مَـلَـكْـتَـه ... فـأُمُّ ابْـنِ هِـنـدٍ بَـعْـدَ ذلِـك هـاويَـهْ

(١) ومنه المدد: أي العون يأتيهم.
(٢) راجع النص في الاستيعاب جـ٣ ص٣٩٠ باختلاف يسير.
(٣) ادرأ: ادفع.
(٤) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف: ٥١].
(٥) ابن هند: كناية عن معاوية بن أبي سفيان.

وتـحـكُـمُ فـيـه مـا تُـريـدُ فـإنّـه   لـداهـيَـةٌ ـ فـارْفُـقْ بـه ـ وابْـنُ داهِـيَـهْ
فـلَـمْ يَـقْـبَـلِ الـنُّـصحَ الَّـذي جِئْـتُـه بـه   وكـانـت لـه تـلـك الـنـصيـحـةُ كـافـيَـهْ

ورُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما نحوُه، إلاّ أنَّه قال[١]: «أتَيْتُ عليًّا بعد قتْل عُثمان، عند عَوْدي[٢] من مكَّة، فوجدتُ المُغيرةَ بن شُعبة مسْتخلِيًا به، فخرج مِن عنده، فقلتُ له: ما قال لك هذا؟ فقال: قال لي قبْلَ مَرَّتِه هذه «إنَّ لك حقَّ الطاعة والنصيحة، وأنت بقيّة الناس، وإنَّ الرأيَ اليَومَ يُحْرَزُ[٣] به ما في غَدٍ، وإن الضَّياع اليومَ يَضِيعُ به ما في غد، أقْرِرْ مُعاويةَ وابْنَ عامرٍ وعُمَّالَ عُثمان علَى أعمالهِم، حتَّى تأتِيَك بَيْعَتُهم ويَسْكُنَ الناسُ ثُمَّ اعْزِلْ مَن شِئت» فأَبَيْتُ عليه ذلك، وقلتُ: لا أُداهِنُ في دِيني ولا أعطَى الدَّنِيَّةَ[٤] في أمْري. قال: «فإنْ كنتَ أبَيْتَ علَيَّ فاعْزِلْ مَن شِئتَ واتْرُكْ مُعاوية، فإنَّ في مُعاويةَ جُرْأَةً، وهو في أهل الشام يُسْتَمَعُ منه، ولك حجةٌ في إثباته، فإنَّ عُمرَ بن الخطَّاب كان قد ولاَّه الشام» فقلتُ: لا واللّهِ لا أستعملُ مُعاويةَ يومَيْن. ثمَّ انصرف مِن عندي وأنا أعرفُ فيه أنَّه يرَى أنّي مُخطئٌ، ثم عاد إليَّ الآنَ فقال: «إنِّي أشرتُ عليك أوَّلَ مرَّةٍ بالَّذي أشرْتُ، وخالفتَني فِيه، ثمَّ رأيتُ بعد ذلك أن تصنعَ الَّذي رأيتَ، فتعزِلهم وتستعينَ بمَن تَثِقُ به، فقد كفى الله، وهم أهْوَنُ شَوْكةً ممَّا كان»...

قال ابْنُ عبّاس: فقلت لعليّ: أمَّا المَرَّةَ الأُولَى فقد نَصَحك، وأمَّا المَرَّةَ الثانية فقد غَشَّك. قال: ولِمَ نصحني؟ قلتُ: لأنَّ مُعاويةَ وأصحابَه أهلُ دنيا، فمتى تُثبتْهم لا يُبالُوا من وَلِيَ هذا الأمر، ومتى تعزلْهم يقولوا «أخذ هذا الأمر بغيْر شُورَى، وهو قتَلَ صاحبنا» ويؤلبوا[٥] عليك، فيَنْتَقِضُ[٦] عليك أهلُ الشام وأهلُ العراق، مع أنِّي لا آمَنُ طلحةَ والزُبَيْر أن يكُرّا عليك وأنا أشيرُ علَيك أن تُثبتَ مُعاوية، فإنْ بايَعَ لك فعلَيَّ أن أقلَعَه من منزله. قال عليّ: والله لا أُعطيه إلا السيْفَ! ثم تمثَّل: [من الطويل]

ومـا مـيـتـةٌ إنْ مُـتـهـا غـيْـرَ عـاجـزٍ   بـعـارٍ إذا مـا غـالـت الـنـفس غـولُـهـا

فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنت رجل شجاع، لستَ صاحبَ رأي في الحرب، أمعا سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «الحربُ خَدْعَة»[٧]؟ فقال: بَلَى. فقلت: أمَ[٨] والله

(١) راجع ابن الأثير في كامله ج٣ ص١٩٧ باختلافات يسيرة.
(٢) رجوعي.
(٣) يحرز به: يتوقى به.
(٤) الدنية: المذموم من كل خصلة.
(٥) يؤلبوا عليك: يقيِّدوا عليك.
(٦) ينكثون عليك.
(٧) راجع صحيح البخاري، باب الجهاد ١٥٧.
(٨) حذفت الألف على غير شيوع والأصل فيه (أما) وتفيد الاستفتاح.

لَئنْ أطعتَني لأُصْدِرنَّهم[١] بعد وُرُود[٢]، ولأتركنَّهم ينظرون في دُبر الأُمور لا يعرفون ما كان وجْهُها، في غير نُقصان عليك ولا إثم لك. فقال: يا ابْنَ عباس، لستُ مِنْ هُنَيَّاتِك[٣] ولا من هُنَيَّات مُعاوية في شيء، فقلتُ له: أطِعْني، والْحَقْ بمالِكَ بِيَنْبُع[٤]، وأغلِقْ بابَك عَليك، فإنَّ العربَ تجولُ جَولةً وتضطربُ ولا تجدُ غَيْرَك، فإنَّك واللّهِ لَئن نهضْتَ مع هؤلاء اليومَ لَيُحَمِّلَنَّك الناسُ دَمَ عُثمان غدًا!.. فأبَى عليّ، وقال: تُشير عَليَّ وأرَى فإذا عصَيْتُك فأطِعْني قال: فقلتُ: «أفعلُ، إنَّ أيْسَر ما لَكَ عندي الطاعةُ» فقال له عليٌّ: تسير إلَى الشام فقد ولَّيْتُكَها. فقال ابْنُ عباس: «ما هذا برأي، مُعاويةُ رجلٌ من بني أميَّة، وهو ابن عم عثمان، وعامِلُه، ولستُ آمَنُ أنْ يضربَ عُنقي بعثمان، وإنَّ أدنى ما هو صانعٌ أن يحبسني فيتحكَّمَ عَلَيّ لقرابتي منك. وإن كلَّ ما حُمِلَ علَيَّ حُمل علَيك، ولكن اكتُبْ إلى مُعاوية فمَنِّه وعِدْه». فقال: لا واللّهِ لا كان هذا أبدًا!

وخرج المُغيرةُ فلَحِقَ بمكة.

ذكر تفريق عليّ عماله وخلاف معاوية رضي الله عنهما

وفي سنة ست وثلاثين فرَّقَ عليٌّ رضي الله عنه عُمَّالَه علَى الأمصار، فبعث عُثمانَ بن حُنَيْف على البصرة، وعُمارة بن شِهاب على الكوفة، وعُبَيْد الله بن عبّاس على اليمن، وقَيْس بن سعد علَى مصر، وسَهْل بن حُنَيْف على الشام.

فأما سَهْلٌ فإنه خَرَج، حتى إذا كان بِتَبُوكَ[٥] لِقيَتْه خَيْلٌ فقالوا: مَن أنت؟ قال: أميرٌ. قالوا: علَى أيِّ شيء؟ قال: علَى الشام. قالوا: إنْ كان عُثمان بَعثك فَحَيَّ هَلاً[٦] بك، وإن كان بَعَثك غَيْرُه فارجعَ. قال: أوَ ما سمعتم بالَّذي كان؟ قالوا: بلَى... فرجع إلَى عليّ.

---

(١) صدر عن الماء: رجع منه. (٢) ورد الماء: إذا أتى موضع الماء مستقيًا.

(٣) تصغير (هنات) و(هنوات) أراد الخصال والسيئة منها بخاصة.

(٤) ينبع: بالفتح ثم السكون، وهو حصن به نخيل وماء وزرع، وبها وقوف (أوقاف) لعلي بن أبي طالب وهي بين مكة والمدينة. معجم البلدان لياقوت جـ٥ ص٤٤٩.

(٥) مرَّ التعريف بها. (٦) حي هلا: احتفاء بالشيء والإقبال عليه.

وأمَّا عُمارة[١] فلمَّا بلغ زُبَالة[٢] لقيه طُلَيْحَةُ بن خُوَيلد، وكان قد خرج يطلب بثأر عُثمان، فقال له: ارْجِعْ فإنَّ القومَ لا يريدون بأميرِهم بَدَلاً، فإنْ أبَيْتَ ضربت عنقك... رجع إلَى عليٍّ.

وأمَّا قَيْس بن سعد[٣] فإنَّه لما انتهَى إلَى أيْلَةَ[٤] لقِيَتْه خَيْلٌ، فقالوا: مَن أنت؟ قال: قَيْس بن سعد. قالوا: امْضِ. فمضَى حتى دخل مصر، فافْترق أهْلُ مصر فِرَقًا: فِرقةٌ دخلتْ في الجماعة فكانوا معه، وفرقةٌ اعتزلتْ بخربتا[٥]، وقالوا: «إنْ قُتلَ قَتَلَةُ عثمان فنحن معكم، وإلاَّ فنحن علَى جَدِيلتنا[٦] حتَّى نُحْرَكَ[٧] أو نصيبَ حاجتنا»، وفرقةٌ قالت نحن مع عليٍّ ما لم يُقِدْ[٨] مِن إخوانِنا وهم في ذلك مع الجماعة... فكتب قَيْسٌ إلى عليٍّ بذلك.

وأمَّا عُثمان بن حُنَيْف فسار حتَّى دخل البَصْرة، ولم يرُدّه أحد ولا وجد لابْنَ عامر[٩] في ذلك رأيًا ولا استقلالاً بحرب، وافترق الناس بها: ففِرْقة دخلتْ في الجماعة، وفرقةٌ اتَّبعَت القومَ، وقالت فرقة «ننظرُ ما يقول أهلُ المدينة فنصنَعُ ما صنعوا».

وأمَّا عُبَيْد الله بن عبّاس فانْطلق إلى اليمن، فخرج يَعْلَى بن مُنْيَة[١٠] بعد أنْ جمع المالَ ـ ولحِق بمكة، وأنفق المالَ في حرب الجمل.

---

(١) عمارة بن شهاب والي علي كرّم الله وجهه إلى الكوفة.

(٢) زبالة: بضم أوله، منزل معروف بطريق مكة من الكوفة. وهي قرية عامرة فيها أسواق بين واقصة والثعلبية. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٢٩.

(٣) واليه كرّم الله وجهه على مصر.

(٤) أيلة: بالفتح، مدينة على ساحل بحر القُلزُم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأنزل الشام. راجع معجم البلدان جـ١ ص٢٩٢.

(٥) خربتا: اختلف في اسمها وذكرها ياقوت بالهمز: خربناء، ولكنها غير معروفة بمصر، والمعروف خربتا، وفيه أن الأولى صقع في الطريق بين حلب والروم. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٣٦٢.

(٦) جديلتنا: كناية؛ أي نحن على ما نحن عليه.

(٧) نحرك: نُزال وفيه كناية مليحة يشتم منها معنيين أن نحرك من الدنيا أو مواقعنا والأول هو المقصود.

(٨) يقد من: يأخذ من.

(٩) وهو عبد الله بن عامر بن كريز، وكان ابن خال عثمان بن عفان، وقد ولاه الأخير البصرة.

(١٠) وهو ابن أبي عبيدة بن همام بن الحارث الحنظلي حليف قريش، عمل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه على بعض اليمن فلم يكن على ما ينبغي أن يكون عليه العمال، فعزله عمر، ثم استعمله عثمان بن عفان رضي الله عنه على صنعاء من أعمال اليمن. راجع الإصابة جـ٣ ص٦٦٨.

قال: ولمَّا رجع سهل بن حُنَيْف دعا عليٌّ طلحة والزُّبَير فقال «إنَّ الأمرَ الذي كنتُ أحذِّرُكم قد وقع، وإنَّ الَّذي قد وَقع لا يُدْرَك إلاَّ بإماتة[١]، وإنَّها فِتْنةٌ كالنار كلما سُعِرتْ ازدادت اضْطِرامًا، واستثارت». فقالا: - إئذن لنا نخرج من المدينة، فإما أن نكاثِرَ، وإما أن تدعنا. فقال: سأمسكُ الأمر ما أستمسك، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الداءِ الكيّ[٢]!

وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى[٣]، فأجابه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة، وبيَّن الكارِهَ منهم للذي كان والراضِيَ ومَن بيْن ذلك، حتى كان عليّ كأنَّه يشاهدهم.. وكان رسوله إلى أبي موسى معبد الأسلمي.

وكان رسوله إلى مُعاوية سَبْرة الجُهَني، فلم يُجِبْه مُعاوية بشيءٍ وكلَّما تنجَّز جوابَه لم يزِدْه علَى قوله: [من البسيط]

أدِمْ إدامــةَ حِــصْــنٍ أو خُــذا بِـيَـدِي ... حرْبًا ضَرُوسًا تشُبُّ الجَزْلَ[٤] والضَّرَمَا[٥]

فـي جـارِكـم وابْـنِـكـم إذْ كـان مَـقْـتَـلُـه ... شَنْعَاءَ[٦] شَيَّبَتِ الأصْداغَ[٧] واللِمَما[٨]

أعْـيَـى الـمَـسُـودُ بـهـا والـسَّـيِّـدون فـلـم ... يـوجَـدْ لـهـا غـيـرُنـا مَـوْلًـى ولا حَـكَـمَـا

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صَفَر دعا مُعاويةُ رجلًا من بني عَبْس، اسمه قَبِيصة، فدفع إليه طُومارا[٩] مختومًا، عنوانه «مِن مُعاويةَ إلى عليّ» وقال له: إذا دخلتَ المدينةَ فاقْبِضْ علَى أسْفل الطُّومار. وأوصاه بما يقول، وأعاد رسول عليٍّ معه، فقدما المدينةَ في شهر ربيع الأوّل، ودخل العَبْسيُّ كما أمره مُعاوية، والناسُ تنظر إلَى الطُّومار، حتَّى دفَعه إلَى عليٍّ، ففَضَّه، فلم يجِد فيه كتابًا فقال للرسول: ما وراءكَ؟ قال: وأنا آمِنٌ؟ قال: نعَم، إن الرُّسُل لا تُقْتَل. قال: تركتُ قومًا لا يرضَوْن إلاَّ بالْقَوَد[١٠]. قال: مِمَّنْ؟ قال: «مِنْ خَيْط رَقَبَتِك! وتركتُ ستِّين ألفَ

(١) أراد الحرب.

(٢) النص باختلاف يسير عند ابن الأثير في الكامل. انظر ج٣ ص٢٠٢.

(٣) أبو موسى الأشعري.

(٤) الجزل: الحطب اليابس الغليظ.

(٥) الضرم: عيدان من سعف اضطرمت فيها النار فباتت رؤوسها كالجمر.

(٦) فظيعة.

(٧) ما بين العين والأذن.

(٨) مفردها اللمة بالكسر وهو الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن.

(٩) صحيفة.

(١٠) الأخذ بالمثل، وأراد القصاص من قتلة عثمان.

شَيخ يَبكي تحت قميص عُثمان، وهو منصوبٌ لهُم، قد ألْبَسُوه مِنبَرَ دِمَشق!» قال: «أمِنِّي يطلبون دَمَ عُثمان؟ ألستُ مَوْتورًا بتِرَةٍ[1] عُثمان؟ اللهُمَّ إنِّي أبْرَأُ إلَيْكَ من دَم عُثمان! نجا ـ والله ـ قتلةُ عُثمان إلاَّ أنْ يشاءَ الله فإنه إذا أراد أمرًا أصابه! اخْرُجْ» قال: وأنا آمِنٌ؟ قال: وأنت آمِن. فخرج العَبْسيّ، فقالوا: «هذا الكَلْبُ رسولُ الكلبِ! اقتُلوه!» فنادى: يا آلَ مُضَر. يا آلَ قَيْس، الخيل والنبل، وبالله أُقْسم لَيَرُدَّنَّها عليكم أربعةُ آلافِ خَصِيّ! فانظروا كم الفُحول والرِكاب؟» وتعاوَوا علَيه، فمنعتْه مُضَر، وجعلوا يقولون له: «اسْكتْ» فيقول: «لا واللّهِ، واللّهِ لا يُفلح هؤلاء أبدًا، أتاهم ما يُوعَدون، لقد حَلَّ بهم ما يَحْذَرُون، انتهت واللّهِ أعمالُهم وذهَبَت ريحهم[2].

قال: وأظهر عليٌّ العزْمَ علَى قِتال مُعاوية، وكتب إلى عُمَّاله أنْ ينتدبوا الناسَ إلى الشام.

ثم استأْذنَه طلحةُ والزُبيرُ في العُمْرة، فأذِنَ لهما.

ودعا عليٌّ ابْنَه محمد ابن الحَنَفِيَّة، فدفع إليه اللِواءَ، وولى عبدَ الله بن عباس مَيْمَنَته، وعَمْرو بن أبي سَلَمَة ـ أو عَمرو بن سُفْيان بن عبد الأسد ـ مَيْسَرته، وجعل أبا لَيْلَى بن عمر بن الجَرَّاح (ابن أخي أبي عبيدة) علَى مقدّمته، واستخلف على المدينة قثَم بن العبّاس.

ذكر ابتداء وقعة الجمل
ومسير عائشة وطلحة والزبير ومن معهم إلى البصرة
وما كان من الحرب إلى أن استقروا بها
وإخراج عثمان بن حنيف عامل علي رضي الله عنه

كان ابتداء وقعة الجمل أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت قد خرجتْ إلَى الحجِّ وعُثمانُ مَحْصورٌ ـ كما ذكرنا ـ فلمَّا قضت الحجَّ وعادت أتاها الخبرُ بقتْلِه وخلافة عليٍّ، وهي بسَرِف[3]، فرجعتْ إلى مكة وهي تقول: «قُتِل ـ واللّهِ ـ عُثمانُ مظلومًا! واللّهِ لأطْلُبَنَّ بِدَمِه!» وطلبتْ مكة، فقصدت الحجْر، فسمرت فيه، واجتمع الناس

---

(١) أراد أنه مصاب بقتل عثمان.

(٢) مستأنسًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

(٣) بفتح أوله وكسر ثانيه، موضع على ستة أميال من الكوفة، وفيه تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث. راجع معجم البلدان ج٣ ص٢١٢.

إلَيها، فقالت: «أيُّها الناس، إنَّ الغَوْغاءَ[١] مِن أهل الأمصار وأهل المياه وعَبيد أهل المدينة اجتمعوا علَى هذا الرجلِ المقتولِ ظُلمًا بالأمس، ونقَموا[٢] عليه استعمالَ مَنْ حدَثَتْ سنُّه، وقد استعمَلَ أمثالَهم مَنْ قَبْلَه، ومَواضِعَ مِن الحِمَى حَماها لهم، وهي أمور قد سُبِق بها لا يصلُح غَيْرُها، فتابَعَهم، ونَزَع لهم عنها (اسْتصلاحًا لهم)، فلمَّا لم يَجِدوا حُجَّة ولا عُذْرًا بادرُوا بالعُدْوان، فسفَكوا الدمَ الحرامَ، واستحلُّوا البلَدَ الحرامَ والشهْرَ الحرَام، وأخذوا المال الحرام، والله لإصبعٌ من عُثمانَ خَيرٌ من طِباق الأرض أمثالهم! وواللّهِ لو أنَّ الّذي اعْتَدوْا به عليه كان ذنبًا لخلَصَ منه كما يخْلُص الذَّهبُ من خَبَثه[٣] أو الثَّوبُ من دَرَنه إذ مَاصُوه كما يُماصُ الثَّوْبُ بالماء!»[٤] فقال عبدُ الله بن عمْرو بن الحَضْرَمي وكان عامِلَ عُثمانَ علَى مكة: «ها أنا ذا أوّل طالب»[٥]، فكان أوَّلَ مُجيب، وتبعه بنو أمَيَّة علَى ذلك، وكانوا قد هرَبوا من المدينة إلَى مكة بعد قتل عُثمان، وتبعهم سَعيد بن العاص والوَليد بن عُقْبة.

وقَدم عليهم عبدُ الله بن عامر من البَصْرة بمال كثير ويَعْلى بن أُمَيَّة وهو ابنُ مُنْيَة مِن اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف، فأناخ بالأبْطَح.

وقدِم طَلحةُ والزُّبَيْر من المدينة، فلقيا عائشة فقالت: ما وراءكما؟ فقالا: «إنَّا تحمَّلْنا هُرَّابًا[٦] من المدينَة من غَوْغاء وأعراب، وفارقْنا قَومًا حَيارَى لا يعرفون حَقًّا ولا يُنكرون باطلًا ولا يمنعون أنفسَهم»، فقلت: انْهَضوا إلى هذه الغَوْغاء. فقالوا: نأتي الشام. فقال ابنُ عامر: «قد كفاكم مُعاويةُ الشَامَ، فأْتُوا البَصرة، فإنَّ لي بها صنائع، ولهم في طَلحةَ هَوًى»، قالوا: «قَبَّحك الله! فواللّهِ ما كنتَ بالمُسالم ولا بالمُحارب، فهلاَّ أقمتَ كما أقام مُعاويةُ فنكتفِيَ بك، ثم نأتِيَ الكوفةَ فنسدَّ علَى هؤلاء القوم مَذاهبَهم». فلم يجدوا عنده جوابًا مقبولاً.

حتَّى إذا استقام لهم الرأيُ علَى البصرة قالوا: «يا أُمَّ المؤمنين، دَعِي المدينة، فإنَّ مَنْ مَعنا لا يُطيق مَن بها من الغَوْغاء، واشْخَصي معنا إلَى البَصرة، فإنَّا نأْتي بلدًا مضيعًا، وسيحتجُون علينا فيه ببَيْعة عليٍّ فتُنْهضينهم[٧] كما أنهضتِ أهلَ مكة، فإنْ

(١) الجم الغفير من الناس من دون قائد أو غاية.
(٢) أنكروا.
(٣) ما كان في الذهب خامًا قبل أن يصفى.
(٤) كناية عن غسله لإزالة ما علق به من أوساخ.
(٥) راجع النص باختلاف يسير عند الطبري ج٣ ص٤٦٨.
(٦) هاربين، على عجلة.
(٧) فتشيدنهم.

أصلح اللّهُ الأمرَ كان الذي أردنا، وإلاَّ دَفعنا عن هذا الأمر بجهدنا، حتَّى يقضيَ اللّهُ ما أراد» فأجابتْهم إلَى ذلك.

ودعَوا عبدَ الله بن عمر ليَسيرَ معهم، فأبَى، وقال: «أنا رجلٌ من أهل المدينة، أفعَلُ ما يفعلون» فتركوه.

وكان أزواجُ النبيِّ ﷺ مع عائشة على قَصْد المدينة، فلما تغيَّرَ رأيُها إلَى البَصْرة تَرَكْنَ ذلك. وأجابَتْها حَفْصَةُ علَى المَسِير معها، فمنَعَها أخوها عبدُ الله.

وجهَّزهم يَعْلَى بن مُنْيَة بستِّمِائة ألف وستمائة بعير، وجهَّزهم ابنُ عامر بمال كثير.

ونادَى مُناديها: «إنَّ أمَّ المؤمنين وطَلحة والزُّبير شاخِصون إلى البَصرة، فمن أراد إعزازَ الإسلام وقتالَ المُحِلين[١] والطلبَ بثأر عُثمان وليس له مَرْكب ولا جَهاز فلْيَأْتِ». فحملوا ستِّمِائة علَى ستمائة بعير، وساروا في ألْف - وقيل في تسْعِمائة - من أهل المدينة ومكة، وتلاحقتْ بهم الناس، فكانوا في ثلاثة آلاف رجل.

وأعان يَعْلَى بن مُنْيَة الزُّبَيْر بأربعمائة ألف، وحمَل سبعين من قُرَيش، وأعطَى عائشةَ جَمَلاً، اسْمُه «عَسْكر»، واشتراه بِمِائتَيْ دِينار، وقيل: بثمانين دينارًا، وقيل: كان لرجل من عُرَيْنة، فابْتِيع منه بمَهْرِيَة[٢] وأربعِمائة درهم أو ستمائة درهم.

وخرجتْ عائشة من مكة ومعها أُمَّهات المؤمنين[٣] إلى ذات عِرْق[٤] فبكَوْا علَى الإسلام، فلم يُرَ يَوم كان أكثرَ باكيًا وباكيةً مِن ذلك اليوم، وكان يُسَمَّى «يَوْم النَّحِيب».

وكتبتْ أُمُّ الفَضْل[٥] بنتُ الحارث أُمُّ عبد الله بن عبَّاس إلَى عليٍّ بالخبر.

ولما خرجتْ عائشةُ مِن مكة أَذَّن مَرْوانُ بن الحَكَم[٦]، ثمّ جاء حتَّى وقف علَى طَلحة والزُّبيرْ فقال: علَى أيِّكُما أسَلِّمُ بالإمْرة وأُؤَذِّنُ بالصلاة فقال عبدُ الله بن الزُّبيْر: علَى أبي عبدِ الله - يعني أباه - وقال محمد بن طَلحة: علَى أبي محمدٍ - يعني أباه - فأرسلتْ

---

(١) الذين أحلُّوا ما حرَّم الله. (٢) جنش من الإبل السريعة.

(٣) لم يثبت أنه رافقها من أمهات المؤمنين أحد، على ما في الروايات المعتبرة.

(٤) ذات عرق: وضع على مرحلتين من مكة.

(٥) لبابة بن الحارث الهلالية. راجع أسد الغابة جـ٥، ص٥٣٩.

(٦) القرشي الأموي أبو عبد الملك: طريد رسول الله وهو ابن عم عثمان رضي الله عنه وكاتبه في خلافته.

عائشةُ إلى مَرْوانَ فقالت: أتريد أنْ تفرّق أمْرَنا، لِيُصَلِّ بالناس ابْنُ أُخْتي - تعني عبدَ الله بن الزُّبَيْر - وقيل بل صَلّى بالناس عبدُ الرحمٰن بن عَتَّاب بن أَسِيد[١] حتَّى قُتِل.

ولما انتهَوْا إلَى ذاتِ عِرْقٍ لَقِيَ سعيد بن العاص[٢] مَرْوانَ بن الحكم وأصحابه فقال: أيْن تذهبون وتتركون ثأْرَكم علَى أعْجاز الإبل وراءكم؟ - يعني عائشة وطَلْحة والزُّبَيْر - اقْتُلُوهم ثمَّ ارْجِعوا إلَى مَنازِلكم! فقالوا: نَسيرُ فَعَلَّنا نقتُلُ قَتَلَةَ عُثمان. . فخلا سعيد بن العاص بطَلْحة والزُّبَيْر، فقال: اصْدُقاني إنْ ظفِرتما لمن تجعلان الأمر؟ قالا: نَجعلُه لأحدِنا أيّنا اختاره الناس. قال: بل تجعلونه لولد عُثمان فإنّكم خرجتم تطلبون بدَمِه فقالا: نَدَعُ شُيوخَ المهاجرين ونجعلُها لأبنائهم! قال: فلا أراني أسعَى إلاّ لإخراجها من بني عبد مَناف فرجع، ورجع عبد الله بن خالد بن أَسِيد[٣]، فقال المُغيرة بن شُعبة: «الرأي ما قال سعيد، من كان هاهنا من ثَقيف فلْيرجع»، ورجع.

ومضَى القومُ، ومعهم أبَانُ والوَليد ابنا عُثمان، وكان دليلهم رجلاً من عُرَيْنة، وهو الَّذي ابْتِيع منه الجملُ، - على أحد الأقوال - قال العُرَنيُّ[٤]: فسِرْتُ معهم، فلا أمرُّ على وادٍ إلاّ سألوني عنه، حتى طَرَقْنا الحَوْأَبَ[٥] - وهو ماء - فنبَحَتْنا كِلابُه فقالوا: أيُّ ماءٍ هذا؟ قلتُ: هذا ماءُ الحَوْأب، فصرخَتْ عائشة بأعلَى صوتها، واسترجعتْ[٦] وقالت: إنِّي لَهِيَهْ[٧]! سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لنسائه: «لَيت شِعري أَيَّتُكُنَّ تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأب!»[٨] ثم ضربتْ عَضُدَ بَعيرها فأناخته، وقالت: «رُدُّوني! أنا والله صاحبةُ ماءِ الحَوْأب!» فأناخوا حَولَها يومًا وليلة، فقال لها عبد الله بن الزُّبَيْر: «إنه كذب، وليس هو ماء الحَوأب» ولم يزل بها وهي تمتنع حتَّى قال لها: النَّجاءَ النَّجاءَ! قد أدرككم عليُّ بن أبي طالب» فارتحلوا نحوَ البصرة، فلما كانوا بفنائها لَقِيَهم عُمَير بن عبد الله التميمي فقال: يا أُمَّ المؤمنين، أنشُدكِ اللّهَ أن تقدمي اليومَ على قوم لم تُراسلي منهم أحدًا، فعجِّلي ابْنَ عامر فإنَّ له بها صَنائع، فليذهب إليهم» فأرسلته.

---

(١) أموي، واختلف في صحبته، وقيل إنه تابعي. راجع الإصابة لابن حجر جـ٣ ص٧٢.
(٢) ابن سعيد بن العاص بن أمية.
(٣) أموي: وهو ابن عم عبد الرحمٰن بن عتاب المار ذكره.
(٤) بنسبته إلى عرينة.
(٥) الحوأب: بالفتح ثم السكون، موضع في طريق البصرة فيه ماء. راجع ياقوت وتفصيل نباح كلاب الحوأب على عائشة رضي الله عنها والحديث في ذلك. معجم البلدان جـ٢ ص٣١٤.
(٦) أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٧) أين هي. واللام للتأكيد، والهاء المسكنة للتلهف والأسف.
(٨) راجع مسند أحمد جـ٦ ص٥٢ (المعجم المفهرس).

وكتبتْ عائشةُ إلَى رجال من أهل البصرة، وإلَى الأحْنَف بن قَيس وأمثالِه، وأقامت بالحَفِير(١) تنتظر الجواب.

ولما بلَغ ذلك أهل البصرة دعا عثمانُ بن حُنَيف عِمْرانَ بن حُصَيْن وأبا الأسْوَد الدُّؤليّ وقال: انطَلِقا إلَى عائشة واعلَما عِلْمَها وعِلْمَ مَن معها، فأتَياها وقالا: إنَّ أميرَنا بعَثَنا إليكَ ليسألَكِ عن مَسِيركِ فهل أنتِ مُخْبِرَتُنا؟ فقالت: «واللّهِ ما مِثْلِي يَسِيرُ بالأمرِ المكتوم إنَّ الغَوْغاءَ من أهل الأمصار ونُزَّاع(٢) القبائل غَزَوْا حَرَمَ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام وأحدثوا فيه الأحداث(٣)، وآوَوْا فيه المُحْدِثين، فاسْتَوْجبوا لعنة الله ولعنة الرسول، مع مَا نالوا مِن قَتْل إمامِ المسلمين بلا تِرَةٍ ولا عُذْر، فاستحلُّوا الدمَ الحرامَ فسفَكوه، وانتَهبوا المالَ الحرامَ، وأحلُّوا البلدَ الحرام والشهرَ الحرام، ومزَّقوا الأعراضَ والجلود، وأقاموا في دار قَوم كارِهين لمُقامِهم ضارِّين مُضِرّين غير نافعين ولا مُنتفعين، لا يَقدرون علَى امتناع ولا يأمنون، فخرجتُ في المسلمين أُعْلمهم ما أتى هؤلاء، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أنْ يأتُوا في إصلاح هذه القصّة» وقرأتْ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] ثم قالت: «نهض في الإصلاح فيمن أمر الله وأمر رسوله الصغير والكبير والذكر والأنثَى، فهذا شأنُنا إلَى معروفٍ نأمرُكم به ونحضُّكم علَيه، ومُنكرٍ نَنهاكم عنه ونحثُّكم علَى تغييره فخرجا مِن عندِها، فأتَيا طلحةَ فقالا له: ما أقْدَمَكَ؟ قال: الطَلَبُ بدم عُثمان. فقالا: ألَمْ تُبايعْ عليًا؟ قال: «بلَى، والسَّيفُ علَى عنقي، وما أستقيل عليًا البَيْعة إنْ هُوَ لم يحلْ بَيْنَنا وبين قَتَلة عُثمان». ثم أتَيا الزُبَير فقالا له وقال مثْلَ ذلك. فرجعا إلَى عائشة فودَّعاها، فودَّعت عمْرانَ، وقالت: يا أبا الأسْوَد، إيَّاكَ أنْ يَقُودَكَ الهوَى إلَى النار ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] وسَرَّحَتْهما، ونادَى مُناديها بالرَّحيل.

ومضَيا حتَّى أتَيا عُثمانَ بن حُنَيْف، فَبَدَرَ أبو الأسْوَد عِمرانَ فقال: [من الرجز]

* يا ابْنَ حُنَيْفٍ قد أُتِيتَ فانْفِرِ(٤) *
* وطاعِنِ القَوْمَ وجالِدْ واصْبِرِ *
* وابْرُزْ لهُمْ مُسْتَلْئِمًا(٥) وشَمِّرِ *

(١) ماء حفره أبو موسى الأشعري على طريق البصرة من مكة. وفي معجم البلدان لا ذكر لأبي موسى هذا. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٧٦.

(٢) نازع مفردها وهو كل من نزع من أهله إلى سواهم.

(٣) حدث مفردها، وهو المستجد من الأمر، المنكر لما سلف وكان ستة.

(٤) نفر الرجل إذا قام إلى الحرب ومضى فيها. (٥) لبس اللامة عدةّ للحرب.

فاسْتَرْجع عُثمان، وقال: دارَتْ رَحَى الإسلام[(١)] ورَبِّ الكعبة! ونادَى في الناس، وأمَرَهم بلبْسِ السلاح.

وأقبلتْ عائشةُ فيمن معها حتَّى انْتَهوا إلَى المرْبَد[(٢)]، فدخلوا مِن أعْلاه، ووقفوا حتَّى خرج عُثمان بن حُنَيْفٍ فيمن معه، وخرج إلَى عائشة مِن أهل البَصْرة مَن أراد أن يكونَ معها، فاجتمع القومُ كلُّهم بالمِرْبَد: عائشةُ ومَن معها في مَيْمَنته، وعُثمان ومَن معه في مَيْسَرته.

فتكلَّم طَلحةُ، فأنْصتوا له، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه وذكرَ عُثمان وفضْلَه وما استُحِلَّ منه[(٣)]، ودعا إلَى الطلَب بدَمِه، وحثَّهُم عليه. وتكلَّم الزُّبَيْر بمثل ذلك. فقال مَن في مَيْمَنة المِرْبَد: صَدَقا وبَرًا! وقال مَن في مَيْسَرته: «فَجَرا، وغَدَرا، وأمَرا بالباطل! بايَعا عليًا ثم جاءا يقولان ما يقولان!» وتحاثَى[(٤)] الناسُ وتحاصَبُوا[(٥)].

فتكلَّمتْ عائشة، فحمِدت الله وأثْنت علَيه، وقالت: كان الناس يتجنَّوْن علَى عُثمان، ويَزْرُون[(٦)] علَى عُماله، ويَأْتوننا بالمدينة فيسْتَشيروننا فيما يُخْبروننا عنهم، ويَرَوْن حَسَنًا مِن كلامِنا في إصلاح بَيْنِهم، فننظرُ في ذلك فنجِدُه بَرِيًا تَقِيًا وَفِيًا، ونجدهم فَجرَةً غَدَرة كَذَبَة، وهم يُحَاوِلون غَيْرَ ما يُظهرون، فلمَّا قَدَروا علَى المُكاثرة كاثروه، فاقْتَحموا علَيه دارَه، واسْتحلُّوا الدمَ الحرام والمالَ الحرام، والبلدَ الحرام، بِلا تِرَةٍ ولا عُذْر، ألاَ إنَّ فيما ينبغي، لا ينبغي لكم غيرُه، أخْذَ قَتَلَةِ عُثمان، وإقامةَ كتاب الله، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فافترق أصحابُ عُثمان بن حُنَيْف فِرقتَين: فقالت فرقةٌ: صدَقَتْ واللّهِ وبرَّت وجاءت بالمعروف، وقالت فرق خِلافَ ذلك. فتحاثَوْا وتحاصَبُوا وأرْهَجوا[(٧)]، فلمَّا رأت عائشة ذلك انْحدرتْ وانحدر أهلُ المَيْمنة مُفارِقين لعُثمان بن حُنَيْف، حتَّى وقفوا

---

(١) أراد ابتداء الحرب وتلف الأنفس فيها.

(٢) بكسر فسكون ففتح، والمربد أشهر محال البصرة، وفيه سوق الإبل قديمًا ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. راجع معجم البلدان ج٥ ص٩٧ - ٩٨ - ٩٩.

(٣) بالرجوع إلى الطبري أراد بما استحل من عثمان رضي الله عنه.

(٤) تراموا بالتراب.

(٥) تراموا بالحصى.

(٦) زرى عليه فعله إذا عابه وأنكر عليه.

(٧) تعالى صياحهم وتدافعوا.

في المِرْبد موضع الدبّاغِين، وبقِيَ أصحاب عُثمان علَى حالهم، يتدافعون حتَّى تحاجزوا، ومال بعضهم إلى عائشة(١).

وأقبل حُكَيم بن جَبَلة(٢)، وهو علَى خَيْل ابن حُنَيْف، فأنْشَب القِتال، فأشْرَع أصحاب عائشة رماحَهم، وأمسكوا ليُمْسِك، فلم يَنْتَهِ ولم يَنْثَنِ، وأصحابُ عائشة كافُّون إلاَّ ما دافعوا عن أنفسهم ثمَّ اقتتلوا على فَمِ السِّكَّة، وأشرف أهل الدُّور ممن كان له في أحَد الفريقين هَوًى، فرمَوْا في الأُخرَى بالحجارة. وأمرت عائشة أصحابَها فتيامَنوا، حتَّى انتهَوْا إلَى مَقْبرة بني مازِن، فوقفوا بها مَلِيًّا، وثاب(٣) إلَيْهم الناس، فحجز الليل بينهم. ورجع عُثمان إلَى القَصْر، ورجع الناس إلَى قبائلهم، وأتى أصحابُ عائشة إلى ناحية دار الرزْق وباتوا يتأهَّبون، وبات الناس يأتونهم، واجتمعوا بساحة دار الرزق.

وأصبح عُثمان فغاداهم(٤)، وخرج حُكَيْم، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا من حين بَزَغت الشمس إلَى أن زالت، وقد كثُر القتل في أصحاب ابن حُنَيْف، وفشت الجِراحة في الفريقَين، ومُنادي عائشة يُناشِدهم ويدعوهم إلَى الكفِّ، فيأبَوْن، حتَّى إذا مسَّهم الشرُّ وعضَّتْهم الحربُ نادَوْا أصحاب عائشة إلَى الصلح، فأجابوهم وتداعَوْا وكتبوا بينهم كتابًا(٥) علَى أن يبعثوا رسولاً إلَى المدينة يسألُ أهلَها، فإن كان طَلْحة والزُّبير أُكْرِها علَى مُبايعة عليٍّ خرج ابنُ حُنَيْفٍ عن البصرة وأخْلاها لهم، وإنْ كانا لم يُكْرَها على البَيْعة خرج طَلْحةُ والزُّبَير.

فسار كَعْب بن سُورٍ(٦) حتَّى أتَى المدينةَ، فقدِمَها يومَ جُمعة فسأل أهلَها هل أُكْرِهَ طَلْحةُ والزُّبَير علَى بَيْعة عليٍّ أمْ أتيَاها طائعَيْن؟ فلَم يُجِبْه أحد إلا أُسامة بن زَيد فإنه قال: اللهمَّ إنَّهما لم يُبايعا إلاَّ وهما مُكْرَهان. فواثَبَه سَهْل بن حُنَيْف والناسُ، وثار صُهَيْبٌ وأبو أيُّوبَ في عِدَّة من الصحابة، منهم محمد بن مَسْلَمة، حين خافوا أن يُقْتَلَ أسامة، فقالوا: اللهمَّ نَعَمْ. فتركوه، وأخذ صُهَيْب أسامةَ بِيَدِه إلَى منزله.

وبلغ عليًّا الخبرُ، فكتَب إلى عُثمان بن حُنَيف أنَّهما لم يُكْرَها علَى البَيْعة.

---

(١) راجع أيضًا الطبري جـ٣ ص٤٨٢.

(٢) العبدي من بني عبد القيس، صحابي تولى السند لعثمان رضي الله عنه.

(٣) رجع إليهم.

(٤) إذا أتاهم غدوة أي اليوم من أوله.

(٥) راجع الطبري في تاريخه للإطلاع على مضمون الكتاب جـ٣.

(٦) تولى قضاء البصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من التابعين.

فلمّا عاد كَعْب بن سُورٍ أمرَ عثمانَ بالخروج عن البَصرة، فامْتَنع، واحتجَّ بكتاب عليٍّ، فجمع طَلحة والزُّبَير الرجالَ في لَيلة مُظْلمة ذاتِ رِياح ومطر، وقصدوا المسجدَ واقتتلوا، فقُتِل من أصحاب ابن حُنَيْفٍ أربعون رجلاً، ودخل الرجال على ابن حُنَيْفٍ فأخرجوه إلَيْهما، فما وصل وفي وجهه شَعْرةٌ، فاستعظَما[1] ذلك، وأرسلا إلَى عائشة في أمره، فأرسلتْ أنْ خلُّوا سبيلَه، وبقِيَ طَلْحةُ والزُّبَيْر بالبصرة ومعهما بَيْتُ المال والحرس، واستتر مَن لم يكن معهما.

وبلغ حُكَيْمَ بن جَبَلَة ما حَلَّ بعُثمان بن حنَيْف فقال: لستُ أخافُ الله إنْ لم أنصُرْه. فجاء في جماعة من عبْد القَيْس ومن تبعه من رَبِيعة - وكان بَيْنه وبين عبد الله بن الزُّبَيْر محاورات[2] - ثُمَّ الْتَقَوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فكان حُكَيْمٌ بحِيال طَلْحة، وذَريح بحيال الزُّبَير، وابن المُحَرِّش[3] بحيال عبد الرحمٰن بن عَتَّاب، وحُرْقُوص بن زُهَير بحِيال عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، فقُتِل حُكَيْم وابْنُه وأخوه، وقُتِل ذَرِيح، وأفْلَتَ حُرْقُوص في نَفَر من أصحابه وجيء إلى طلحة والزبير بمن كان فيهم ممن غزا المدينة، فقتلوا.

وكانت هذه الوَقْعة لخمسٍ بَقِينَ من شهر ربيع الآخِر من السنة وبايَعَ أهلُ البصرة طَلْحَةَ والزُّبَير.

ذكر مسير عليّ إلى البصرة وما اتَّفق له في مسيره ومن انضمَّ إلَيه ومراسلته أهل الكوفة

قال: وكان عليٌّ رضي الله عنه قد تجهَّز لقصدِ الشام لقتال مُعاويةٍ، لما أظهر الخلاف عليه، كما تقدم، فبينما هو علَى ذلك أتاه الخبرُ عن طَلْحة والزُّبَيْر وعائشة من مكة بما عزموا عليه، فلما بلغه ذلك وأنهم يريدون البَصرة سرَّه[4] ذلك، وقال: إن الكوفة فيها رجال من العرب وبُيُوتاتُهم. فقال له ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنَّ الَّذي سَرَّكَ من ذلك لَيَسُوءُني، إنَّ الكوفة فُسْطاط فيه من أعلام العرب ولا يزال فيها

(١) استهولاه.

(٢) راجع المحاورات في مظانها من كتابي الكامل لابن الأثير وابن جرير الطبري في تاريخه.

(٣) خويلد بن عمرو بن صخر.

(٤) كذا في النص وكأنه كرّم الله وجهه اغتبط بقتالهم. وفي ذلك حطٌّ من كرامته كرّم الله وجهه إن لم يكن في ذلك تصحيف.

مَن يَسْمُو إلَى أمرٍ لا ينالُه، فإذا كان كذلك شَغَبَ[١] علَى الَّذي قد نال ما يُريد، حتَّى يكسِرَ حِدَّته» فقال عليٌّ: إنَّ الأمرَ لَيُشْبِهُ ما تقول.

وتهيَّأ للخروج إلَيهم، فنَدَب أهلَ المدينة للمَسِير معه، فتثاقلوا فبعث إلَى عبد الله بن عمر كُمَيْلاً النَّخعي[٢]، فجاء به، فدعاه إلى الخروج معه، فقال: «إنَّما أنا من أهل المدينة، وقد دخلوا في هذا الأمر، فدخلتُ معهم، فإنْ يخرُجوا أخرجْ معهم وإنْ يقعدوا أقعُدْ» قال: فأعطِني كَفيلاً. قال: لا أفعل. فقال له عليٌّ: لولا ما أعرِف مِن سُوءِ خُلقك صغيرًا وكبيرًا لأنكرْتَني! دعُوه فأنا كَفيله. فرجع ابنُ عُمَر إلى أهل المدينة وهم يقولون: «واللّهِ ما ندري كيف نصنع؟ إنَّ الأمرَ لَمُشْتَبهٌ علَينا، ونحن مقيمون حتَّى يُضيءَ!»[٣] فخرج مِن تحت لَيلته، وأخبر أمَّ كُلثوم، ابنةَ عليٍّ، وهي زوجةُ عُمر، بالَّذي سمِع وأنَّه يخرُج مُعتمرًا مُقيمًا علَى طاعة عليٍّ ما خلا النهوض[٤]. فأصبح عليٌّ فقيل له: حَدَثَ الليلة حدثٌ هو أشدُّ من أمْرِ طَلْحة والزُّبَيْر وعائشة ومُعاوية! قال: وما ذاك؟ قالوا: خرَج ابنُ عُمر إلى الشام! فأتى السوقَ، وأعدَّ الظَّهْر[٥] والرِّحال، وأعدّ لكل طريقٍ طُلاَّبًا، وماجَ الناس، فسمِعتْ أمُّ كُلثوم، فأتت عليًا فأخبرته الخبر، فطابت نفسُه، وقال: «انصرِفوا، والله ما كذَبتْ ولا كذَب، وإنَّه عندي ثِقَة» فانصرَفوا.

ثم أتَى عليًا الخبرُ بمَسِير طَلحةَ والزُّبيرِ وعائشة من مكة نحوَ البَصرة، فدعا وجوهَ أهلِ المدينة وخَطَبهم، فحمِد اللّهَ وأثنَى علَيه وقال: «إنَّ آخِرَ هذا الأمرِ لا يصلُح إلاَّ بما صلَح أوَّله، فانصُروا اللّهَ ينصرْكم ويُصْلِحْ لكم أمركم» فتثاقلوا، فلمَّا رأى زِياد بن حَنْظَلة[٦] تثاقُلَ الناس انْتدَب إلَى عليٍّ رضي الله عنه وقال له: مَن تثاقَلَ عنك فإنَّا نَخِفُّ معك فنقاتل دُونَك. وقام أبو الهَيْثم بن التَّيِّهان[٧] وخُزَيْمَة بن ثابت[٨]. قال

(١) شغب: تهيج الشر.

(٢) كُمَيْل بن زياد النخعي له دعاء عظيم يعرف باسمه، وكان من أعاظم خواص الإمام علي كرّم الله وجهه، توفي ٨٣هـ.

(٣) الأمر فيتضح.

(٤) قصد القتال معه.

(٥) الظهر: كناية عن ظهور المراكب ومتونها من إبل وخيل وبغال وحمير.

(٦) زياد بن حنظلة التميمي صحب النبي ﷺ وكان منقطعًا إلى علي كرّم الله وجهه وشهد معه مشاهده كلها. راجع أسد الغابة جـ٢ ص٢١٣.

(٧) مالك بن التيهان الأنصاري صحابي. راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٤ ص٢٧٤.

(٨) خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة بن عامر الأنصاري من بني أوس، لقبه الرسول بذي الشهادتين. راجع أسد الغابة جـ٢ ص١١٤.

ابن الأثير[١]: «قال الحكم: ليس بِذي الشهادتَين، مات ذو الشهادتين أيّامَ عُثمان رضي الله عنه». وقال أبو عُمر بن عبد البر في ترجمة[٢] خُزَيْمة بن ثابت ذي الشهادتين: إنه شهد مع عليٍّ حرب الجمل وصِفِّين فدلَّ علَى أنه هو، والله أعلم. فأجابا عليًا إلى نصرته.

وقال أبو قَتادة الأنصاري[٣] لعليٍّ: «يا أميرَ المؤمنين، إنَّ رسولَ الله ﷺ قَلَّدني هذا السيفَ، وقد أغمدتُه زمانًا، وقد حان تجريدُه علَى هؤلاء القوم الظالمين الَّذين لم يألُوا الأمةَ غِشًّا، وقد أحببتُ أن تقدِّمَني، فقدِّمْني».

قال: ولما أراد عليٌّ المَسِيرَ إلَى البصرة وكان يرجو أن يُدركَ طَلحة والزُّبَيْرَ فيرُدهما قبل وصولهما إلَى البصرة، فلمَّا سار استخلف علَى المدينة تمَّام بن العبَّاس، وعلَى مكة قُثَمَ بن العَبَّاس، وقيل: أمَّرَ علَى المدينة سَهْلَ بن حُنَيْف، وسار في تَعْبئَته الَّتي كانت لأهل الشام، وذلك في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين[٤].

وخرج معه مَن نشطَ[٥] من الكوفيين والبصريين متخففين في تسعمائة، فلقِيَه عبد الله بن سَلاَم فأخذ بعِنانه، وقال: «يا أميرَ المؤمنين، لا تخرُجْ منها، فواللّهِ لئن خرجت منها لا يعودُ إليها سلطانُ المسلمين أبدًا!» فسَبُّوه، فقال: «دعُوه، نِعْمَ الرجلُ من أصحاب محمد ﷺ»[٦]. وسار حتَّى انتهَى إلَى الرَّبَذة[٧]، فأتاه خبر سَبْقِهم إلَى البَصرة، فأقام بها يأْتَمِر ما يفعل.

ذكر إرسال عليّ إلى أهل الكوفة وعَوْد رُسله وإرسال غيرهم وما كان من إخراج أبي موسى الأشعري عن الكوفة وانضمام أهل الكوفة إلى عليّ وما كان في خلال ذلك من الأخبار

قال: ولما أقام عليٌّ رضي الله عنه بالرَّبَذة أرسل منها محمدَ بن أبي بكر الصديق ومحمدَ بن جعفر رضي الله عنهم إلَى أهل الكوفة، وكتب إليهم: «إني قد

---

(١) راجع ابن الأثير في كامله جـ٣ ص٢١٢.
(٢) راجع الاستيعاب جـ١ ص٤١٨.
(٣) الحارث بن ربضي، وقيل هو النعمان أو عمرو الأنصاري. صحابي، ذكر الذهبي وفاته عام ٥٤٠هـ.
(٤) من وجد في نفسه قوة وطاقة.
(٥) راجع النص باختلاف يسير في تاريخ الطبري جـ٤ ص٤٥٥.
(٦) راجع الكامل في التاريخ جـ٣ ص٢٢٢.
(٧) الربذة: بفتح أوله وثانيه، من قرى المدينة على ثلاثة أيام على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري. راجع معجم البلدان جـ٣ ص٢٤.

اخترتكم علَى الأمصار، وفزِعتُ إلَيكم لما حدَث، فكونوا لدين الله أعْوانًا وأنصارًا، وانْهضوا إلينا، فالإصلاحَ نريدُ، لتعودَ هذه الأمّةُ إخوانًا» فمضَيا.

وأقام بالرَّبَذة، وأرسل إلَى المدينة، فأتاه ما يُريد من دابّة وسلاح.

ثم قام في الناس فخطَبهم وقال: إنَّ الله تبارك وتعالى أعَزَّنا بالإسلام ورفَعَنا به، وجعَلَنا إخوانًا بعد ذِلَّة وقِلَّة وتباغُض وتباعُد، فجرَى الناس علَى ذلك ما شاء الله، الإسلامُ دِينُهم، والحقُّ فيهم، والكتابُ إمامُهم، حتَّى أصيبَ هذا الرجلُ بأيدي هؤلاء القوم الَّذين نَزَغهم الشيطانُ[1]، لينزَغَ بين هذه الأمَّة، ألاَ وإنَّ هذه لا بُدَّ مفترقة كما افترقَت الأمم قبلها، فنعوذ باللّهِ من شر ما هو كائن.

ثم عاد ثانية فقال: إنَّه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمّة ستفترق علَى ثلاث وسبعين فِرقة[2]، شرُّها فرقةٌ تنتحلني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالْزَموا دِينَكم، واهْدُوا بهَدْيي، فإنه هَدْي نبيّكم، واتَّبعوا سُنَّته، وأعْرِضوا عمَّا أشكل علَيكم حتَّى تَعرضوه علَى القرآن، فما عرفه القرآنُ فالْزَموه، وما أنْكره فرُدُّوه، وارْضُوا بالله ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن حَكمًا وإمامًا.

قال: ثمَّ أتاه جماعة من طيّىء، وهو بالرَّبذة، فقيل له: هذه جماعة قد أتتك، منهم مَن يُريد الخروجَ معك، ومنهم من يُريد التسليمَ عليك. فقال: جزى اللّهُ كُلاًّ خَيرًا ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]. فلمَّا دخلوا علَيه قال لهم: ما شهِدتمونا قال به[3]؟ قالوا: شهِدْناك بكلِّ ما تُحب. فقال: «جزاكم الله خيرًا! قد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافَيْتم بصدقاتكم المسلمين». فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: «يا أمير المؤمنين، إنَّ من الناس مَن يُعبِّر لسانُه عن قلبه، وإنِّي، واللّهِ، ما كلّ ما أجد في قلبي يعبّر عنه لساني، وسأجْهَد وبالله التوفيق، أمّا أنا فسأنصح لك في السر والعلانية، وأقاتل عدوَّك في كل موطن، وأرَى من الحقِّ لك ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك» فقال: «يرحمك الله! قد أدّى لسانك عما يُجِنُّ ضميرُك».

قال: ثم سار عليٌّ رضي الله عنه من الرَّبَذة، وعلَى مقدّمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح، والراية مع ابنه محمد ابن الحنفيّة، وعليٌّ على ناقة حمراء يقود فرسًا

(١) إذا أفسد الشيطان وأغرى بينهم.
(٢) تواتر ما يشبه هذا الحديث باختلاف العدد عن رسول الله ﷺ. راجع مسند أحمد جـ٢ ص٣٣٢.
(٣) النص غير واضح، وفيه تصحيف أو نقص، والمراد أين أنتم منا على ما ترون؟.

كُمَيْتًا[١]، فلمَّا نزل بِفَيْد[٢] أتته أسد وطيِّىء، فعرَضوا عليه أنفُسَهم فقال: في المهاجرين كفاية. وعرضتْ عليه بَكْرُ بن وائل أنفسها، فقال لها كذلك.

قال: وانْتَهَى إلَى ذي قار[٣] أتاه عُثمان بن حُنَيْفٍ وليس في وجهه شعرة[٤]، وقيل: إنَّه أتاه بالرَّبَذة فقال: يا أمير المؤمنين بعثْتَني ذا لحْية وقد جئتُكَ أمْرَد! قال: أصبتَ أجرًا وخيرًا! وأقام بِذِي قار ينتظرُ جوابَ أهل الكوفة.

وكان مِن خَبر محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر أنَّهما أتَيا أبا موسَى الأشْعَرِيَّ بكتاب عليٍّ، وقاما في الناس بأمره، فلم يُجابا بشيءٍ، فلما أيسُوا دخلَ ناس من أهل الحجا[٥] على أبي موسى فقالوا: ما تَرَى في الخروج؟ فقال: «كان الرأيُ بالأمس ليس اليوم، إن الَّذي تهاونتم به فيما مضَى هو الذي جَرَّ عليكم ما تَرَوْن، إنَّما هما أمران: القعودُ سبيلُ الآخرة، والخروجُ سبيلُ الدنيا، فاختاروا» فلم يَنْفِرْ إلَيه أحدٌ، فغضب محمد، فأغلظا لأبي موسى، فقال لهما: «واللّهِ إنَّ بَيْعة عُثمان في عُنقي وعُنق صاحِبكما، فإنْ لم يكن بُدٌّ مِن قِتالٍ لا نُقاتلْ أحدًا حتَّى نَفْرُغَ من قَتَلة عُثمان حيث كانوا».

فانطلقا إلَى عليٍّ فأخبراه الخبر وهو بذِي قار، فقال للأشْتَر وكان معه: «أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء، اذهبْ أنت وابن عبّاس فأصلِحْ ما أفسَدْتَ».

فخرجا، فقدِما الكوفةَ، فكلَّما أبا موسى، واستعانا عليه بنَفَر من أهل الكوفة، فخطَبهم أبو موسى فقال «أيُّها الناس، إنَّ أصحاب النبي ﷺ الَّذين صحِبوه في المَوَاطِن أعلَمُ بالله ورسوله ممَّن لم يصحَبْه، وإنَّ لكم علَيْنا حقًّا، وأنا مُؤَدٍّ إلَيكم نصيحة، كان الرأي ألاَّ تستخفُّوا بسلطان الله، وألا تجترئوا علَى الله، وأن تأخذوا مَن قدِم علَيكم من المدينة فتردُّوهم إلَيها حتَّى يجتمعوا فهم أعلمُ بمن تصلُح له الإمامة

---

(١) الكميت: ضم ففتح، الذي خالط حمرته سواد.

(٢) فيد: فتح فسكون، بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة وكانت عامرة حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان. راجع معجم البلدان جـ٤ ص٢٨٢.

(٣) مكان معروف بالقرب من الكوفة، وفيه جرت معركة ذي قار المشهورة بين بني بكر وكسرى ملك الفرس. وقيل إنه واد على ثلاث ليالٍ من منى، متاخم للعراق. راجع كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص٢٦٠.

(٤) حيث نتف جند عائشة رضي الله عنها وقادة جيشها على ما في وجهه من شعر.

(٥) الحجا: العقل.

منكم، وهذه فِتنةٌ صمَّاء[١]، النائم فيها خَير من اليقظان، والْيَقظانُ خَير من القاعد، والقاعدُ خَير من القائم، والقائمُ خَير منَ الراكب، والراكبُ خير من الساعي، فكونوا جُرْثُومةً[٢] من جراثيم العرب، فأغْمِدوا السُّيوف، وأنْصلوا[٣] الأسنَّة، واقطعوا الأوْتار[٤]، وآوُوا المظلوم والمُضْطَهَد، حتَّى يَلتئمَ هذا الأمر، وتنجليَ هذه الفِتْنة».

فرجع ابنُ عبّاس والأشترُ إلَى عليٍّ، فأخبراه الخبر.

فأرسل ابنَه الحسَنَ وعَمَّارَ بن ياسِر، رضي الله عنهما، وقال لعَمّار: انطلِقْ فأصلِحْ ما أفسدتَ. فأقبلا حتَّى دخلا مسجد الكوفة، فكان أوّل مَن رآهما مسروق[٥] بن الأجْدع، فسلَّم عليهما، وأقبل علَى عَمّار فقال: يا أبا اليَقظان عَلامَ قتلتم عُثمان؟ قال: علَى شتْم أعراضِنا وضَرْبِ أبْشارِنا[٦]! قال: فَوَاللّهِ ما عاقبتم بمثل ما عُوقبتم به ولا صبَرتم فكانَ خيرًا للصابرين[٧]!

فخرج أبو موسى فلقِيَ الحسَنَ فضمَّه إلَيه، وأقبل علَى عَمّار فقال: يا أبا اليَقْظان أعَدَوْتَ علَى أمير المؤمنين فيمن عدا فأحْلَلْتَ نفسك مع الفُجّار؟ فقال: لم أفعلْ ولم يَسؤني! فقطع الحسَنُ عليهما الكلام، وأقبل علَى أبي موسى فقال له: «لِمَ تُثبطُ الناسَ عَنّا؟ فَوَاللّهِ ما أردْنا إلاّ الإصلاحَ، ولا مِثْلُ أمير المؤمنين يُخافُ علَى شيء!» قال: صدقتَ، بأبِي أنت وأُمّي! ولكن» المُستشارُ مُؤْتَمَن[٨]، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول «إنها ستكونُ فِتنة، القاعدُ فيها خَيرٌ من القائم، والقائمُ خير من الماشي، والماشي خيرٌ من الراكب»[٩] وقد جعلَنا الله إخوانًا، وحرَّم علينا دماءنا وأموالنا.

فغضب عَمّار، وسَبَّه، وقام فقال: يا أيُّها الناسُ إنَّما قال له وحْدَه «أنتَ فيها قاعدًا خيرٌ منك قائمًا»!

---

(١) فتنة صماء: أي فتنة لا مخرج منها، ووجه الحق فيها ضائع.

(٢) جرثومة الشيء: أصله.

(٣) نصل: مادة ضَرَبَ، ومنه نصل السهم خرج نصله. والمراد انزعوا أسنة الرماح.

(٤) أراد الأقواس فاختار جزءها الوتر الذي يدفع السهم.

(٥) راجع ما قيل فيه مختصرًا في أسد الغابة جـ٤ ص٣٥٤.

(٦) مفردها بشر وهو ظاهر الجلد.

(٧) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

(٨) راجع سنن أبي داود، ص١١٤.

(٩) في صحيح البخاري. راجع الحديثين (المعجم المفهرس) ٦٦٥٤، ٦٦٥٥.

فقام رجل من بني تميم، فسَبَّ عَمّارًا وقال: أنت أمسِ مع الغَوْغاء واليومَ تُسافِهُ أميرنا!

وثار زَيد بن صُوحان وأمثالُه، وثار الناس، وقام زَيْدٌ علَى باب المسجد، ومعه كتابٌ من عائشة إلَيه تأمرُه بملازمة بَيته أو نُصْرتها، وكتابٌ إلَى أهل الكوفة بمعناه، فأخْرَجَهما فقرَأهما على الناس، فلما فَرَغ منهما قال: «أُمِرَتْ أنْ تقَرَّ في بَيْتها[١]، وأمِرْنا أنْ نقاتِلَ حتَّى لا تكونَ فِتْنة[٢]، فأمَرَتْنا بما أُمِرَتْ به، ورَكِبَتْ ما أُمِرْنا به!».

فقال له شَبَث بن رِبْعِيّ: يا عُمَانيّ، سرقتَ بِجَلُولاء[٣] فقطعت يدك! وعصيْتَ أمَّ المؤمنين فقتلك الله!

وتهاوى الناس. قام أبو موسى فقال: أيُّها الناس، أطيعوني، وكونوا جُرْثُومة مِن جراثيم العرب، يأوِي إلَيكم المظلوم، ويأْمَنُ فيكم الخائفُ إنَّ الفِتنة إذا أقبلتْ شَبَّهتْ[٤]، وإذا أدبرتْ بيَّنَتْ، وإنَّ هذه الفِتْنة بَاقِرة[٥] كَدَاءِ البَطْن، تجري بها الشَّمال والجَنوبُ والصَّبا والدَّبور، تَذَرُ الحكيمَ وهو حَيْران كابْنِ أمْس[٦]، شيمُوا سُيوفَكم[٧]، واقصِدوا رِماحَكم[٨]، وقطِّعوا أوْتارَكم والْزَموا بيوتَكم، خلُّوا قريشًا إذ أبَوْا إلاَّ الخروجَ مِن دار الهجرة وفِراقَ أهل العلم، استنصحوني[٩] ولا تستغشوني، أطيعوني يسلمْ لكم دينكم، ودنياكم ويشقى بحرُ هذه الفتنة من جناها.

فقام زيد، فشال يَدَه المقطوعة، فقال: يا عبد اللهِ بن قَيْس[١٠] رُدَّ الفُراتَ عن أدْراجه، ارْدُدْهُ مِن حيثُ يجيءُ حتَّى يعودَ كما بدأ فإنْ قَدَرتَ علَى ذلك فستقدرُ علَى ما تريد، فدَعْ عنك ما لستُ مُدْرِكَه، سيروا إلَى أمير المؤمنين وسيّد المسلمين، انْفِروا إلَيه أجمعين تُصيبوا الحقَّ!

فقام القَعْقاعُ بن عَمْرو[١١] فقال: «إنِّي لكم ناصح، وعلَيكم شَفيق، أحِبُّ لكم

(١) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.
(٢) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.
(٣) جلولاء: موضع في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، كانت بها الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة ١٦. راجع معجم البلدان ج٢ ص١٥٦.
(٤) شبهت: اختلط حقها بباطلها. (٥) قاطعة.
(٦) كناية عن السفه والبعد عن الحلم والتجربة. (٧) أراد اغمدوها.
(٨) كناية عن كسرها. (٩) اعتبروا نصحي لكم ولا تظنوا الغش بي.
(١٠) أبو موسى الأشعري.
(١١) القعقاع بن عمرو صحابي نصر عليًا كرّم الله وجهه. راجع الكامل ج٣ ص٢٣٢.

أن تَرشُدوا، ولأقولَنَّ لكم قولاً هو الحقّ، أمَّا ما قال الأميرُ فهو الحقُّ لو أنَّ إلَيه سبيلاً، وأمَّا ما قال زَيْد فزَيْدٌ عدوٌّ هذا الأمير فلا تستنصِحوه، والقولُ الَّذي هو الحق أنه لا بُدَّ من إمارةٍ تنظمُ الناس، وتَزَعُ[1] الظالم، وتُعِزُّ المظلومَ وهذا أميرُ المؤمنين مَلِيءٌ بما وَلِي، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلَى الإصلاح، فانْفِروا وكونوا مِن هذا الأمر بمرْأَىً ومَسْمَع».

وقال عَبْدُ خَيْرِ الخَيْواني: يا أبا موسى هل بايعَ طَلحةُ والزبير عليًّا؟ قال: نَعَمْ! قال: هل أحدَث عليٌّ ما يحلّ به نقْض بَيعته؟ قال: لا أدري. قال: «لا دَرَيْتَ! نحن نتركك حتَّى تدركَ! هل تعلمُ أحدًا خارجًا من هذه الفتنة؟ إنما الناس أربعُ فرَق: عليٌّ بظَهْر الكوفة، وطَلحة والزُّبَير بالبصرة، ومُعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا غَناءَ بها ولا يقاتَل بها عدوّ» فقال أبو موسى: أولئك خَيْرُ الناس وهي فتنةٌ! فقال عَبْدُ خَير: غَلَب عليك غشُّك يا أبا موسى!

فقال سَيْحان بن صُوحان: إنَّه لا بُدَّ لهذا الأمرِ وهؤلاء الناس مِن والٍ، يَدْفَع الظلم، ويُعِزُّ المظلوم، ويجمع الناس، وهذا ولِيكم وهو يدعوكم لتنظروا فيما بَيْنَه وبَين صاحبَيه، وهو المأمونُ على الأمّة، الفقيه في الدين، فمن نهَض إليه فإنَّا سائرون معه.

فلما فرغ سَيْحان قال عَمَّار: «هذا ابْنُ عمِّ رسول الله عليه الصلاة والسلام، يستنْفِركم[2] إلَى زوجة رسول الله وإلى طَلحة والزُّبَير، وإنِّي أشهَدُ أنها زوجتُه في الدنيا والآخرة، فانظروا ثم انظروا في الحقّ، فقاتِلوا معه». فقال له رجل: أنا مع مَن شهِدْتَ له بالجنة علَى مَن لم تشهَدْ له! فقال له الحسَن: اكْفُفْ عنّا يا عَمّار فإنَّ للإصلاح أهلًا!

وقام الحسَنُ رضي الله عنه، فقال: أيُّها الناس أجِيبوا دَعْوَةَ أميركم، وسِيروا إلَى إخوانِكم، فإنه سَيُوجَد لهذا الأمر مَن يَنْفِرُ إلَيه، ووالله لأنْ يَلِيَه أولُو النُّهَى أمْثَلُ في العاجِل والآجِل، وخَيرٌ في العاقبة، أجيبوا دعْوَتنا، وأعِينونا على ما ابْتُلِينا به وابْتُلِيتُم، وإنَّ أمير المؤمنين يقول: «قد خرجتُ مَخْرجي هذا ظالمًا أو مظلومًا، وإني أُذَكِّرُ اللَّهَ رجلًا رعَى حقَّ الله إلاَّ نَفَرَ، فإنْ كنتُ مظلومًا أعانَني، وإن كنتُ ظالمًا أخذ مني، واللهِ إنَّ طَلحة والزُّبير لأوَّلُ مَن بايَعني وأوَّلُ مَن غَدَر فهل استأثرتُ بمالٍ أو بدَّلتُ حُكمًا؟» فانْفِرُوا، فمُرُوا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكر.

---

(١) تردع.

(٢) يدعوكم إلى النفر كناية عن القتال.

فسامح الناس وأجابوا ورضُوا، وتكلم عَدِيُّ بن حاتم، وهِنْد بن عَمرو، وحُجْرُ بن عَدِيّ، وحثُّوا الناسَ على اللحاق بعليٍّ وإعانته، فأذعَنَ الناسُ للمَسِير.

فقال الحسَنُ رضي الله عنه: «أيُّها الناس، إنِّي غادٍ، فمن شاء منكم أن يخرُج على الظَّهر[١]، ومَن شاء في الماء»، فنفَرَ معه تسعةُ آلاف، أخذ في البَرِّ ستَّةُ آلاف ومِائتان، وبقيّتهم في الماء.

وقيل: إنَّ عليًّا رضي الله عنه أرسل الأشْتَرَ بعد ابنه الحسَن وعَمّار - إلَى الكوفة، فدخلها والناسُ في المسجد، وأبو موسى يخطُبهم ويُثَبِّطُهم، والحسَنُ وعَمّار معه في مُنازعة، وكذلك سائر الناس، كما تقدم، فجعل الأشْتَر لا يَمُرُّ بقبيلة فيها جماعة إلاَّ دعاهم ويقول: اتَّبِعوني إلَى القصر، فانتهَى إلى القصر في جماعة من الناس، فدخلوا وأبو موسى في المسجد يخطُبهم ويُثَبِّطهم، والحسَن يقول له: اعتزِلْ عملَنا لا أمَّ لك وتَنَحَّ عن مِنْبَرنا! وعمّار يُنازعه فأخرج الأشْتَرُ غِلْمان أبي موسى مِن القصر، فخرجوا يَعْدُون ويُنادُون: «يا أبا موسى، الأشتر قد دخل القصر، فضربَنا، وأخرجَنا» فنزل أبو موسى، فدخل القصرَ، فصاح به الأشْتَرُ: «اخرُجْ لا أُمَّ لك! أخْرَجَ الله نفسك!» فقال: أجِّلْني هذه العشِيَّةَ. فقال هي لك ولا تبيتَنَّ في القصر الليلةَ. ودَخل الناسُ ينهبون متاع أبي موسى، فمنَعَهم الأشترُ، قال: أنا له جارٌ. فكفوا عنه.

فنفَرَ الناسُ في العدد المذكور. وقيل: إنَّ عدد من سار من الكوفة اثنا عشَر ألف رجلٍ ورجلٌ، قال أبو الطُّفيل: سمعتُ عليًّا رضي الله عنه يقول ذلك قبل وصولهم، فقعدتُ فأحصَيْتُهم، فما زادوا رجلاً ولا نقَصوا رجلاً!

وكان على كِنانة وأسَد وتميم والرباب ومُزَينة مَعْقِل بن يَسار الرِّياحي[٢]، وعلى سُبْع قَيْس سعدُ بن مسعود الثَّقفي عمُّ المختار[٣]، وعلى بكر وتَغْلِب وَعْلَةُ بن مَحْدوج الذُّهْلي[٤]، وعلى مَذْحِج والأشعَريين حُجْرُ بن عَدِيّ، وعلى بَجِيلة وأنْمار وخَثْعَم والأزد مِخْنَف بن سُلَيم الأزدي، فقدِموا على عليّ رضي الله عنه بذِي قار، فلقِيَهم في ناسٍ فرحَّب بهم، وقال: «يا أهلَ الكوفة، ولِيتم ملوك العجم وفضَضْتم جُموعَهم، حتى صارت إلَيكم مَواريثهم، فأغنَيْتم حَوْزتكم، وأعَنْتم الناسَ على عدوّهم، وقد

(١) كناية عن ظهور المطايا وهي المراكيب من إبل وخيل وسواهما.

(٢) لعله معقل بن قيس الرياحي من تميم. راجع الإصابة جـ٣ ص٤٩٩.

(٣) وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي يلتقي مع قيس عند جدهم مسعود.

(٤) ينتهي نسبه إلى بكر رضي الله عنه.

دعَوْتُكم لتشهدوا معنا إخوانَنا من أهل البصرة، فإن يَرجعوا فذاك الَّذي نريد، وإن يلجُّوا[١] داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بظلم، ولم ندعْ أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد، إن شاء الله تعالى».

قال: وكان رؤساءُ الجماعةِ من الكوفيين: القعْقاعَ بن عمرو وسعدَ بن مالك وهندَ بن عمرو والهَيْثم بن شهاب، وكان رؤساء النُّفَّار زيدُ بن صُوحان والأشْتَر وعَدِيّ بن حاتم والمسيَّب بن نَجَبَة ويزيد بن قَيس وأمثال لهم ليْسوا دونهم إلاَّ أنهم لم يُؤَمَّروا، منهم حُجْر بن عَدِيّ.

ذكر مراسلة علي طلحة والزبير وأهل البصرة في الصلح وإجابتهم إليه وانتظام الصلح وكيف أفسده قتلة عثمان

قال: وأقام عليٌّ رضي الله عنه بذي قار، فأرسل القَعْقاعَ بن عمرو إلى أهل البصرة وقال له: الق هذين الرجلين وادعهما إلى الأُلفة والجماعة وعظِّمْ عليهما الفُرقة. وكان القعقاع من أصحاب النبي ﷺ.

فخرج حتَّى قدِم البَصرة، فبدأ بعائشة فسَلَّم عليها وقال: أيْ أُمَّهْ، ما أشْخَصَكِ وما أقْدَمَكِ هذه البلد؟ قالت: أيْ بُنَيَّ، الإصلاح بَيْن الناس. قال: فابعثي إلَى طَلحة والزُّبَير حتَّى تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثتْ إلَيهما، فجاءا، فقال لهما: إنِّي سألتُ أمَّ المؤمنين ما أقْدَمَها؟ فقالت الإصلاح، فما تقولان أنتما؟ أمُتابعان أم مُخالفان؟ قالا: مُتابعان. قال: فأخبراني ما وَجْهُ هذا الإصلاح فوالله لئن عَرَفناه ليصلحنَّ ولئن أنكرناه لا يصلح. قالا: قَتَلَة عُثمان، فإنَّ هذا إنْ تُركَ كان تَرْكًا للقرآن! قال: «قد قتلتما قَتَلَةَ عُثمان من أهل البصرة، وأنتما قبل قتْلهم أقربُ إلَى الاستقامةِ منكم اليوم! قتلتم ستَّمائة رجل فغضبتْ لهم ستةُ آلاف واعتزلوكم، وخرجوا من بَيْن أظهُركم، وطلبتم حُرْقوصَ بن زهير فمنعه ستة آلاف فارس، فإنْ تركتموهم كنتم تاركين لِما تقولون، وإن قاتلتموهم والَّذين اعتزلوكم فأُدِيلُوا[٢] عليكم فالَّذي حذرتم وقويتم به هذا الأمرَ أعظمْ مِمَّا أراكم تكرهون[٣]، وإن أنتم منعتم مُضَر ورَبيعة من هذه البلاد اجتمعوا علَى حربكم وخذلانكم نُصْرةً لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدَث العظيم والذنب

(١) اللجاج: التمادي في الخصومة والعناد. (٢) انتصروا عليكم.
(٣) راجع النص باختلاف في البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص٢٣٧.

الكبير!» قالت عائشة فما تقول أنت قال[١] «أقول إنَّ هذا الأمرَ دواؤه التسكين، فإذا سكن اخْتُلِجُوا، فإن أنتم بايَعتمونا فعلاً خيرَ وتَباشيرُ رَحمة ودَرك بثأر، وإن أبَيْتم إلاَّ مُكابَرةَ هذا الأمر واعْتسافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا الثأر، فآثِروا العافية تُرْزَقوها، وكونوا مفاتيحَ خَير كما كنتم، ولا تُعرِّضونا للبلاء فتتعرّضوا له فيَصْرَعَنا وَإيّاكم، وأيْمُ اللّهِ إنّي لأقولُ هذا القولَ وأدعوكم إلَيه وإني لخائفٌ أن لا يتمَّ حتّى يأخذَ الله حاجته من هذه الأُمّة التي قَلَّ متاعها ونزل بها ما نزل، فإنَّ هذا الأمر الَّذي حدثَ أمرٌ ليس يُقدر، وليس كقتل الرجلِ الرجلَ ولا النَّفَر الرجلَ ولا القبيلة الرجلَ قالوا: «قد أصبْتَ وأحسنتَ، فارجِعْ، فإن قدِم عليٌّ وهو علَى مثل رأيك صلَح هذا الأمر».

فرجع إلَى عليّ، فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القومُ على الصلح، كرِهَ ذلك مَن كرهه، ورضِيَه من رضيه.

وأقبلتْ وُفود العرب من أهل البصرة نحو عليّ بذي قار، قبل رجوع القَعْقاع، لينظروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة، وعلَى أيِّ حال نهضوا إلَيهم، وليُعلموهم أنَّ الذي عليه رأيُهم الإصلاح، ولا يخطُر لهم قتالُهم علَى بال.

فلما لقُوا عشائرَهم من أهل الكوفة قال لهم الكوفيون مثل مقالتهم، وأدخلوهم علَى عليّ فأخبروه بخبرهم.

ورجعتْ وُفود أهل البصرة برأي أهل الكوفة، ورجع القَعقاع من البصرة.

فقام عليّ رضي الله عنه خطيبًا، فحمدَ اللّهَ وأثنَى عليه، وذكر الجاهلية وشقاءها، والإسلامَ والسعادة، وإنعامَ الله علَى الأُمّة والجماعة بالخليفة[٢] بعد رسول الله ﷺ، ثم الَّذي يَليه[٣]، ثم الَّذي يليه[٤]، ثم حدَثَ هذا الحدثُ الَّذي جَرَّه علَى هذه الأمّة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسَدوا مَن أفاءَها الله علَيه وعلى الفضيلة الَّتي مَنَّ الله بها، وأرادوا رَدَّ الإسلام والأشياء علَى أدْبارها، والله بالِغٌ أمرهُ. ثم قال: ألاَ وإنّي راحل غدًا، فارْتحِلوا، ولا يَرْتَحِلَنَّ معنا أحدٌ أعان عَلى عثْمان بشيءٍ من أمور الناس، ولْيُغْنِ السفهاءُ عنِّي أنفسهم. والله أعلم بالصواب.

ذكر اجتماع قتلة عثمان بذي قار وتشاورهم وما اتفقوا عليه من المكيدة التي اقتضت نقض الصلح ووقوع الحرب

قال: ولما قال عليٌّ رضي الله عنه مَقالَته بذِي قار، وأمَرَ ألاَّ يرتحلَ معه أحد

---

(١) والنص في تاريخ الطبري ج٤ ص٢٢٤.

(٢) أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) أراد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

مِمَّن أعان علَى عُثمان بشيء اجتمع نفَرٌ منهم عِلْباء بن الهَيْثَم وعَدِي بن حاتم وسالم بن ثَعْلَبة القَيْسي وشُرَيْح بن أبي أَوْفَى(١) والأشْتَر، في عِدَّة مِمَّن سار إلَى عثمان أو رضِي بسَير من سار إليه وجاء معهم المصريون وابن السوداء(٢) وخالد بن مُلْجم، فتشاوَرُوا فقالوا(٣) «ما الرأيُ؟ هذا عليٌّ وهو واللّهِ أبْصَرُ بكتاب الله مِمَّنْ يطلب قَتَلَة عُثمان، وأقربُ إلَى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم يَنْفِر إلَيْه إلاّ هم والقليلُ من غَيرهم، فكيف به إذا شامَّ القومَ وشامّوه(٤) ورأوْا قِلَّتنا في كثرتهم؟ وأنتم اللّهِ تُرادون، وما أنتم بالحيّ(٥) من شيء!» فقال الأشتر: «قد عرفْنا رأْيَ طَلحة والزُّبَيْر فينا، وأمّا رأيُ عليّ فلم نعرف رأيَه إلَى اليوم، ورأيُ الناسِ فينا واحدٌ، فإن يصطلحوا مع عليّ فعلَى دمائنا، فهَلُمُّوا بنا نَثِبْ علَى عليّ فنُلْحِقَه بعثمان، فتعود فتنةٌ يُرْضَى مِنّا فيها بالسكون» فقال عبد الله بن السوداء «بئس الرأيُ والله رأيتَ، أنتم يا قَتَلَةَ عُثمان بِذِي قار ألفان وخمسُمائة، أو نحوٌ من سِتِّمائة، وهذا ابْن الحَنْظَليَّة ـ يعني طَلحة ـ وأصحابُه في نحو خمسة آلاف بالأشواق(٦) إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً!» فقال عِلْباء بن الْهَيْثَم «انصرفوا بنا عنهم، ودَعُوهم، فإن قلُّوا كان لعدُوِّهم علَيهم، وإن كثُروا كان أحْرَى أن يصطلحوا علَيكم، ودعُوهم وارْجِعوا فتعلَّقوا ببلدٍ من البلدان حتَّى يأتِيَكم فيه من تقْوَوْن به، وامتنِعوا من الناس» فقال ابن السوداء «بئس والله ما رأيتَ، وَدَّ واللّهِ الناسُ أنَّكم انْفَردتم ولم تكونوا مع أقوام بُرَآء(٧)، ولو انفردتم لتخطَّفَكم الناسُ وكُل شيء!» فقال عَديّ بن حاتم: «واللّهِ ما رَضِيتُ ولا كرهتُ، ولقد عجِبْتُ من تردُّد مَن تردَّد عن قتله في خَوض الحديث، فأمَّا إذْ وقع ما وقع ونزَل من الناس بهذه المنزلة فإنَّ لنا عتَادًا من خيول وسلاح، فإنْ أقدمتم أقدمْنا، وإن أمسكتم أمسكنا!» فقال ابن السوداء: أحسنت! وقال سالم بن ثَعْلَبة(٨): «مَن كان أراد بما أتَى الدنيا فإني لم أردْ ذلك، ووالله لئن لقيتُهم غدًا لا أرجع إلى شيء وأحلف بالله إنكم لتفرقون(٩) الناسَ بالسيف فرْقَ قومٍ لا تصير أمورُهم إلاّ إلَى السيف!» فقال ابن

---

(١) أثبته الطبري في تاريخه، شريح بن أوفى. (٢) يريد: عبد الله بن سبأ.

(٣) راجع الطبري جـ٤ ص٤٩٣. (٤) إذا اختبر بعضهم بعضًا.

(٥) كناية عن قلتهم إلى الجمع. راجع الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٢١٨.

(٦) لشدة حماسهم للقتال.

(٧) أصحاء أقوياء أشداء ولا يستقيم المعنى بغير ذلك.

(٨) راجع الطبري جـ٣ ص٥٠٨ باختلاف يسير، وابن الأثير في الكامل جـ٣ ص٢٣٦.

(٩) تخيفون.

السوداء: قد قال قولاً. وقال شريح بن أبي أوفى: «أبرموا[١] أمرَكم قبل أن يخرجوا، ولا تؤخروا أمرًا ينبغي لكم تعجيلُه، ولا تعجِّلوا أمرًا ينبغي لكم تأخيرُه فإنَّا عند الناس بِشَرِّ المنازل، ولا أدري ما الناسُ صانعون إذا ما هم التقَوْا!» وقال ابن السوداء: «يا قوم، إنَّ عِزَّكم في خلط الناس، فإذا التقَى الناسُ غدًا فأنشِبوا القتال، ولا تُفرغوهم للنظر، فمن أنتم معه لا يجدُ بُدًّا من أن يمتنعَ، ويشغلُ الله عليًا وطَلحة والزُّبَير ومَن رأى رأيَهم عمَّا تكرهون!».

فأبصروا الرأي، وتفرّقوا عليه، والناسُ لا يشعرون.

ذكر مسير عليّ رضي الله عنه
ومن معه من ذي قار إلى البصرة ووقعة الجمل

قال: ولما أصبح عليٌّ رضي الله عنه سار من ذِي قار وسار معه الناس حتَّى نزل علَى عبد القَيْس، فانضمُّوا إليه، ثم سار فنزل الزاوية[٢]، وسار من الزاوية يريدُ البصرةَ، وسار طَلحة والزُّبَير وعائشة من الفُرْضة[٣]، فالتقَوْا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، وذلك في النصف من جمادَى الآخِرة سنة ست وثلاثين[٤]، حكاه ابن الأثير، وقال أبو جعفر[٥]: كانت وقعةُ الجمل في يوم الخميس لعشرٍ خَلَوْن من جمادَى الآخر سنة ست وثلاثين.

وسبق عليّ أصحابه، وهم يتلاحقون به، فلما نزل قال أبو الجرباء للزُّبَير: الرأي أن تبعث الآن ألف فارس إلَى عليّ قبل أن يتوافَى إليه أصحابه. فقال: «إنَّا لَنعرف أمورَ الحرب، ولكنَّهم أهل دعْوَتنا، وهذا أمر حدَث لم يكن قبل اليوم، من لم يلْقَ الله فيه بعذر انقطع عذرُه يومَ القيامة! وقد فارقنا وافدهم علَى أمر، وأنا أرجو أن يتمَّ لنا الصلحُ، فأبشروا، واصبروا».

وأقبل صبرة بن شيمان[٦] فقال لطلحة والزُّبير: انتهزا بنا هذا الرجل، فإنَّ الرأي

---

(١) احكموا.

(٢) الزاوية: موضع قرب البصرة. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٢٨.

(٣) وفي معجم ياقوت أنها قرية في البحرين ينسب إليها هبة الله الفرضي المقرىء، «وكان من أهل البصرة» جـ٤ ص٢٥١.

(٤) انظر الكامل في التاريخ جـ٣ ص٢٣٦.

(٥) ابن جرير الطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك. قارن النص فيه جـ٤ ص٥٣٤.

(٦) صبرة بن شيمان الأزدي القحطاني، رأس الأزد. كان في حرب الجمل قائد قومه إلى جانب عائشة رضي الله عنها.

في الحرب خَيْرٌ من الشدّة! فقالاَ: «إنّا وهم مسلمون، إن هذا أمرٌ لم يكن قبل اليوم فينزِل فيه قرآن أو تكونَ فيه سنّة رسول الله ﷺ، وقد زعم قوم أنه لا يجوز تحريكُه اليوم، وهم عليّ ومن معه، وقلنا نحن: لا ينبغي لنا أن نتركه اليوم ولا نؤخره، وقد قال عليّ: تركُ هؤلاء القوم شرٌّ وهو خيرٌ من شر منه، وقد كاد يبينُ لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعَمِّها منفعةً.

وقال كعب بن سُور[١]: يا قوم اقطعوا هذا العنقَ من هؤلاء القوم. فأجاباه بنحو ما تقدم.

قال: ولما نزل عليٌّ ونزل الناس أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرحوم العبدي أن اخرجْ فإذا خرجت فمِلْ بنا إلى عسكر عليّ، فخرجا في عبد القَيس وبَكْر بن وائل، فعدلوا[٢] إلى عسكر عليّ، فقال الناس من كان هؤلاء معه غلب. وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال، إنما يرسل عليّ إليهم يكلمهم ويدعوهم.

قال: وقام عليّ فخطب الناس، فقام إليه الأعور بن بُنان المِنْقَري فسأله عن إقدامهم علَى أهل البصرة، فقال له عليّ: علَىٰ الإصلاح وإطفاء النار لعل اللّهَ يجمعُ شملَ هذه الأمة بنا ويضَع حربهم. قال: فإن لم يجيبوا. قال: تركناهم ما تركونا. وقال: فإن لم يتركونا. قال: دفعناهم عن أنفسنا. قال: فهل لهم في هذا مثل الذي عليهم؟ قال: نعم.

وقام إليه أبو سلام الدالاني فقال: أترَى لهؤُلاء القوم حجةً فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك؟ قال: نعمْ. قال: فترَى لك حُجَّةً بتأخيرك ذلك؟ قال: نعمْ، إنَّ الشيء إذا كان لا يُدْرَك فالحكم فيه أحْوَطه وأعمُّه نفعًا. قال: فما حالُنا وحالُهم إن ابتلينا غدًا؟ قال: إني لأرجو ألا يُقتل منا ومنهم أحد نقّى قلبَه لله إلاّ أدخله اللّهُ الجنةَ. وقال في خطبته: «أيُّها الناس املكوا أنفسَكم، وكُفُّوا عن هؤلاء القوم أيديكم وألْسِنتكم، وإيّاكم أن تسبقونا، فإن المخصومَ غدًا من خصم اليوم».

وبعث إليهم حكيمَ بنَ سلام ومالكَ بنَ حبيب، يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع فكُفُّوا حتّى ننزل فننظر في هذا الأمر.

(١) كعب بن سور بن بكرة الأزدي، ولاه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قضاء البصرة، وكان لا يزال في منصبه هذا حتى قتل يوم الجمل مع عائشة رضي الله عنها.
(٢) مالوا.

وخرج إليه الأحنَف بن قَيس وبنو سعد مشمّرين، قد منعوا حُرقوص بن زُهَير وهم معتزلون. وكان الأحنَف قد بايَع عليًا بالمدينة بعد قتْل عثمان، لأنه كان قد عاد من الحج فبايع، فلما قدِم طلحة والزُّبَير اعتزل بالجَلحاء[1] ومعه زُهاء ستة آلاف، والجلحاء من البصرة على فَرسخَين فقال لعليّ: إنَّ قومنا بالبصرة يزعُمون أنَّك إن ظفِرْت علَيهم غدًا قتلتَ رجالهم وسبَيْتَ نساءهم! قال: «ما مِثْلي يُخاف هذا منه! وهل يحِلُّ هذا إلاَّ لمن تَولَّى وكفر؟ وهم قوم مسلمون» قال: اختَرْ منِّي واحدةً من اثنتَين: إمّا أن أقاتلَ معك، وإمَّا أن أكُفَّ عنك عشرة آلاف سَيف[2]. قال: اكفُفْ عنَّا عشرة آلاف سَيف. فرجع إلَى الناس، فدلهم إلَى القعود، ونادَى: «يا آلَ خِنْدِف»، فأجابه ناس، ثم نادى: «يا آل تَمِيم»، فأجابه ناس، ثم نادى: «يا آل سَعْد»، فلم يَبْقَ سعديٌّ إلاَّ أجابه، فاعتزل بهم، ونظر ما يصنعُ الناس، فلما كان القتالُ وظفر عليّ دخلوا فيما دخل فيه الناس وافرين.

قال: ولما تراءى الجمعان خرج الزُّبَيْر علَى فرس وعلَيه سلاح، فقيل لعليّ: هذا الزُّبَير فقال: أمَا إنَّه أحْرَى الرجلَين إنْ ذُكِّر بالله أنْ يذكر وخرج طلحة، فخرج إلَيهما عليّ، فدنا منهما حتى اختلفتْ أعناقُ دوابِّهم، فقال لعمري لقد أعددتما سلاحًا وخَيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عُذرًا عند الله فاتَّقِيا الله، ولا تكونا ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، ألَمْ أكُنْ أخاكما في دينكما تُحرِّمان دمي وأحرِّمُ دماءكما؟ فهل من حَدَثٍ أحلَّ دمي؟ فقال طلحة: اللبثُ[3] علَى دم عثمان. فقال عليّ رضي الله عنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] يا طلحة، تطلب بدم عُثمان فلعن الله قَتَلةَ عثمان! يا طلحة، أتَيْتَ بعِرْسِ رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبَأت عِرسك في البيت! أما بايعتني؟ قال: بايعتُك والسيفُ علَى عُنقي! ثم قال للزُّبير: ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولَى به منّا. فذكَّره عليٌّ رضي الله عنه بأشياء ثم قال: أتذكُرُ يوم مَررتَ مع رسول الله ﷺ في بني غَنْم، فنظر إليّ، فضحك وضحكتُ إلَيه، فقلتَ: لا يَدَعُ ابنُ أبي طالب زهوه! فقال لك رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إنَّك لَتُقاتِلُه وأنت ظالمٌ له»؟! فقال: اللهُمَّ نعمْ ولقد كنت أُنسيتها ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا، والله لا أُقاتلُك أبدًا!

---

(١) الجلحاء.
(٢) راجع الرواية بكاملها في الكامل جـ٣ ص٢٣٧.
(٣) أي التحديث في الأخذ من قتلة عثمان.

وقيل: إنَّه قال له: كَيف أرجعُ وقد الْتقتْ حَلْقَتا البَطَان[١]؟ هذا واللّهِ العارُ الَّذي لا يغسِله الدهر! قال: يا زُبَير ارجعْ بالعارِ خَيرٌ من أن ترجع بالعار وبالنار.

فرجع الزُّبَير إلَى عائشة فقال لها: يا أُمَّاه، ما شهِدتُ مَوطِنًا إلاَّ ولي فيه رأيٌ وبصيرة غَيْرَ مَوطني هذا! قالت: وما تريد أن تصنعَ قال: أدعُهم وأذهب، ثم قال لابْنِه عبد الله: علَيك بحربك وأما أنا فأرجعُ إلَى بيتي. فقال له: ما يُردُّك؟ قال: ما لو علِمْتَه لكسَرَك[٢]. فقال له ابْنُه: بل رأيتَ عُيونَ بني هاشم تحت المغافِر[٣] فراعَتْك[٤]، وعلمتَ أنَّ سيوفَهم حِدادٌ تَحملُها فِتيَةٌ أنجاد[٥]. فغضِب الزُّبير ثم قال: أمِثلي يفزَّع بهذا؟ وأحفظَه ذلك، وقال: إنِي حلفتُ إلاَّ أقاتله. قال: فكفِّرْ عن يمينك وقاتِلْه، فأعتَقَ غلامه مكحُولاً، وقيل: أعتق سرجس.

ففي ذلك يقول عبد الرحمٰن بن سليمان التميمي: [من الرجز]

لم أرَ كاليوم أخا إخوانِ ... أعجبَ من مكَفِّر الأيمانِ

في أبيات أُخر.

وقيل: إن الزُّبَير نَزَع سنانَ رُمحه، وحمل علَى جَيْش عليّ، فقال عليّ لأصحابه: أفْرِجوا له فإنه قد أُغْضِب، وإنَّه منصرفٌ عنكم فقالوا: إذن واللّهِ لا نبالي بعد رجوعه بجمعهم وما كنا نتَّقي سِواه.

وقيل: إنَّ الزُّبَيْر إنَّما عاد عن القتال لمَّا سمع أنَّ عَمَّار بن ياسِر مع عليّ، فخاف أن يُقتل عمار، وقد قال رسول الله ﷺ: «يا عَمَّار تقتلُك الفِئةُ الباغية»[٦] فردَّه ابْنُه عبدُ الله.

وافترق أهلُ البصرة ثلاث فِرَق: فِرْقةٌ مع طَلحة والزُّبَير وفرقة مع عليّ، وفرقة لا ترَى القتال، منهم الأحْنفُ بن قَيْس وعِمْران بن حُصَيْن[٧].

(١) البطان: كل حزام يُشد على الدابة لتثبيت سرجها أو حملها من تحت بطنها، وعند طرفي الحزام حلقتان، بالتقائهما يكون الإحكام قد بلغ غايته. كناية عن الأمر وقد بلغ أقصاه. راجع المثل في مجمع الأمثال للميداني ج٢ ص١٣٥.
(٢) أراد ثناك وردك خائبًا.
(٣) المغفر مفردهما، آلة من حديد يتدرع بها المحارب لحفظ رأسه فلا يبين منه سوى عينيه يصنع من الحديد المزرَّد.
(٤) أخافتك.
(٥) ومنه نجاد السيف، وتستعمل غالبًا كناية عن الطول والقوة.
(٦) راجع الحديث عند البخاري باب الصلاة بنص: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية».
(٧) من خزاعة، أرسله عمر رضي الله عنه إلى البصرة ليفقه أهلها. توفي سنة ٥٢هـ.

وجاءت عائشة فنزلتْ في مسجد الحُدَّان[١] في الأزْد، ورأسُ الأزْد يومئذ صَبِرة بن شَيمان، فقال له كَعْب بن سُور: إنَّ الجموع إذا تراءت لم تستطعْ[٢]، إنَّما هي بحور تَدَفَّق، فأطِعْني ولا تشهَدْهم واعتزلْ بقومك، فإني أخاف ألاَّ يكونَ صُلح، ودَعْ مُضَر وربيعة فهما أخَوانِ، فإن اصطلحا فالصلحَ أرَدْنا، وإن اقتتلا كنَّا حُطَامًا علَيهم غدًا، وكان كَعْب في الجاهلية نصرانيًا. فقال صَبرة: أخشَى أن يكون فيك شيءٌ من النصرانيَّة! أتأمُرني أن أغيبَ عن إصلاح بين الناس، وأنْ أخذُلَ أمَّ المؤمنين وطَلحة والزُّبَيْر إن رَدُّوا عليهم الصلح، وأدَعَ الطلبَ بدم عُثمان، واللّهِ لا أفعلُ هذا أبدًا! فأطبَقَ أهل اليمن على الحضور.

وحضر مع عائشة المِنْجابُ بن راشد[٣] في الرِّباب[٤] وهم تَيْم وعَدِيّ وثَوْر وعُكْل، بنو عَبْد مَناة بن أُدّ بن طابِخَة بن إلْياس، مُضَر، وضَبَّةَ بن أُدّ بن طابخة، وحضر أيضًا أبو الجَرْباء في بني عمرو بن تميم، وهلال بن وَكيع في بني حنظلة، وصَبِرة بن شَيمان على الأزْد، ومُجاشع بن مسعود السُّلَمي علَى سُليم، وزُفَر بن الحارث في بني عامر وأعْصُر بن النعمان علَى غطفان، ومالك بن مِسْمَع على بكر، والخِرِّيت بن راشد على بني ناجية، وعلى اليمن ذو الأجرة الحميري.

قال: ولما خرج طلحة والزبير نزلت مُضَرُ جميعُها وهم لا يشكُّون في الصلح، ونزلت رَبيعة فوقهم وهم لا يشكُون في الصلح، ونزلت اليمن أسفلَ منهم وهم كذلك، ونزلت عائشة في الحُدَّان، والناس بالزَّابُوقة[٥] على رؤسائهم.

هؤلاء، وهم أصحاب عائشة، ثلاثون ألفًا، وهؤلاء، وهم أصحاب عليّ، عشرون ألفًا.

وردُّوا حكيمًا ومالكًا[٦]: «أنَّا على ما فارقْنا عليه القَعْقاع». ونزل عليٌّ بحِيالهم، ونزلت مُضَر إلى مُضَر، وربيعة إلى رَبيعة، واليَمَن إلَى اليَمَن، وكان بعضهم يخرجُ

---

(١) أحد منازل البصرة.

(٢) كأنه أراده من السطوع. فتمتنع الرؤية المميِّزة.

(٣) راجع عنه في أسد الغابة جـ٤ ص٤١٦.

(٤) الرباب: في أصل التسمية خلاف، ولكن حلفًا قام بين بني عبد مناة بن أد فعرف أهله بالرباب، وقال بعضهم: إن التسمية جاءت لاجتماع القوم بعد تفرقهم، فالربة تعني الفرقة، وجمعت على رباب.

(٥) ناحية من نواحي البصرة.

(٦) أراد حكيم بن سلام، ومالك بن حبيب وافدا علي كرّم الله وجهه، على أصحاب الجمل.

إلى بعض لا يذكرون إلاَّ الصلح، فخرج عليّ وطَلحة والزُّبَير فتواقفوا فلم يَرَوْا أمرًا أمْثل من الصلح ووضْعِ الحرب، فافترقوا علَى ذلك.

وبعث عليّ رضي الله عنه من العَشِيّ عبدَ الله بن عباس إلى طلحة والزُّبَير، وبعثا إلَيه محمدَ بن طَلحة، وأرسل عليّ وطلحةُ والزُّبَير إلَى رؤساء أصحابهم بأمر الصلح، فباتوا بلَيْلةٍ لم يَبيتوا بمثلها للعافية الَّتي أشرفوا علَيها والصلح، وبات الَّذين أثاروا أمْرَ عُثمان بشرٍّ ليلة، وباتوا يتشاورون، فاجتمعوا علَى إنشاب الحرب، فغَدَوْا مع الغَلَس(١) وما يشعُر بهم أحد، فخرجوا متسَلِّلين، فقصد مُضَرُهم إلَى مُضَرِهم، ورَبيعتهم إلَى ربيعتِهم، ويَمنَهم إلَى يمنِهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهلُ البصرة، وثار كلُّ قوم في وجوه أصحابهم الَّذين أتَوْهم، وذلك في يوم الخميس لعشر خلَوْن من جمادَى الآخِرة.

قال: وبعث طَلحة والزُّبَير إلَى المَيْمنة وهم ربيعة أميرًا عليها عبدَ الرحمٰن بن الحارث بن هشام، وإلى المَيْسَرة عبدَ الرحمٰن بن عَتَّاب، وثبتا في القلب، وقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقَنا أهلُ الكوفة لَيْلاً! قالا وقد علِمنا أنَّ عليًا غَيرُ مُنْتَهٍ حتَّى يَسْفِكَ الدِّماءَ وأنَّه لن يطاوعَنا! فردَّ أهل البصرة أولئك الكوفيين إلَى عسكرهم، فسمع عليّ وأهلُ الكوفة الصَّوتَ، وقد وضع السَّبَئِيَّةُ رجلاً قريبًا منه، فلما قال عليٌّ ما هذا قال ذلك الرجلُ: ما شعَرنا إلاَّ وقومٌ منهم قد بيَّتونا(٢) فردَدْناهم فوجدْنا القومَ علَى رِجْل، فركبوا، وثار الناسُ، فأرسل عليٌّ صاحب المَيْمَنة إلَى الميمنة، وصاحبَ المَيْسَرة إلَى المَيْسَرة، وقال: لقد علمتُ أنَّ طَلحة والزُّبَيْر غيرُ مُنْتَهِيَين حتَّى يَسْفِكا الدماء وأنهما لن يطاوعانا(٣). والسَّبَئِيَّة لا تفترُ، ونادى عليّ في الناس: كُفُّوا فلا شيءَ! وكان من رأيِهم جميعًا في تلك الفتنة ألاَّ يقتتلوا حتَّى يُبْدَؤُوا يطلبون بذلك الحجَّة وألاَّ يَقْتُلوا مُدْبِرًا، ولا يُجْهِزُوا علَى جريح، ولا يستحلُّوا سَلَبًا، ولا يَرْزَؤُوا بالبصرة سلاحًا ولا ثيابًا ولا متاعًا.

وأقبل كعب بن سُور حتى أتَى عائشةَ فقال: «يا أُمَّ المؤمنين، أدرِكي الناسَ، فقد أبَى القومُ إلاَّ القتالَ، لعلَّ اللّهَ يُصلح بكِ» فركبتْ وألبسوا هَوْدَجها الأدراع، فلما برزتْ من البيوت.وهي علَى الجمل وكانت بحَيْثُ تسمع الغَوْغاء وقفت، واقتتل الناسُ وقاتل الزُّبَيْر، فحمل عليه عَمَّار بن ياسِر، فجعل يحُوزُه(٤) بالرُّمح الزُّبَيْر كافٌّ عنه،

---

(١) ظلمة الليل من آخره.
(٢) أتونا بغتة عند البيات وهو ساعة النوم.
(٣) راجع النص في الكامل جـ٣ ص٢٣٩.
(٤) يرده معترضًا سبيله.

وقال له: أتقتلني يا أبا اليَقْظان[١]؟ قال: لا يا أبا عبد الله! وإنَّما كفَّ الزُّبَيْرَ عنه لقول رسول الله ﷺ «تقتل عَمَّارَ بن ياسر الفئةُ الباغية»، ولولا ذلك لقتله.

قال: ثم اعتزل الزُّبَيْر الحربَ وانصرف، وصَلِيَها[٢] طَلحة، فأصابه سَهْم غَرْبٌ[٣] شَكَّ رِجْلَه بصَفْحة الفَرس، ثم دخل البَصرة ومات بها. وسنذكر إن شاء الله أخباره وأخبار الزبير بعد نهاية وقعة الجمل.

وانهزم القوم يريدون البصرة، فلمَّا رأوا الخيلَ أطافت بالجمل عادوا قلبًا كما كانوا حَيْثُ الْتقَوْا وعادوا في أمر جديد.

فقالت عائشة لكعب بن سُور وهو آخذ بخِطام الجمل: خَلِّ عن الجمل وتقدَّمْ بالمُصْحف فادْعُهُم إلَيه. وناولتْه مصحفًا من هَوْدجها فاستقبل القومَ بالمصحف، والسَّبَئِيَّة أمامَهم يخافون أن يجري الصلح، فرشقوه رشْقًا واحدًا، فقتلوه ورمَوْا أمَّ المؤمنين في هَوْدجها، فجعلتْ تُنادي: «البقيَّةَ البقِيَّةَ يا بَنِيّ!» ويعلو صوتها «اللّهَ اللّهَ! اذكرُوا اللّهَ والحساب!» فيأبَوْن إلاَّ إقدامًا، فكان أوّل شيء أحدثتْه حين أبَوْا أن قالت: «أيُّها الناس الْعنوا قَتَلَةَ عُثمان وأشياعَهم!» وأقبلتْ تدعو، فضجَّ الناسُ بالدعاء، فسمع عليّ فقال: ما هذه الضَّجّة؟ قالوا: عائشة تدعو علَى قَتَلة عُثمان وأشياعِهم. فقال: اللهُمَّ الْعَنْ قَتَلة عُثمان!

وأرسلتْ إلى عبد الرحمٰن بن عتَّاب وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام: أن اثْبُتا مكانكما. وحرَّضَتِ الناسَ حين رأت القومَ يريدونها ولا يكُفُّون، فحملتْ مُضَرُ البصرة حتى قَصَفتْ[٤] مُضَرَ الكوفةِ، حتى زُحِم عليٌّ، فنَخَس قفا محمدِ ابنه، وكانت الرايةُ معه، وقال له: احمِلْ. فتقدَّمَ حتَّى لم يجد متقدَّمًا إلاَّ على سِنان رمح، فأخذ عليٌّ الرايةَ من يده، وقال: يا بُنَيَّ بَيْنَ يَدَيَّ. وحملتْ مُضَرُ الكوفة فاجْتَلَدوا[٥] قُدَّامَ الجمل حتَّى ضَرسوا[٦]، والمُجنِّبات[٧] علَى حالها لا تصنع شيئًا، واشْتدَّت الحَربُ، فأصيب زَيد بن صُوحان[٨]، وأخوه سَيْحان، وارْتُثَّ[٩] أخوهما صَعصَعة، فلما رأى عليٌّ ذلك بعَث إلَى رَبيعة وإلَى اليمن: أن اجْمَعوا مَن يَليكم.

---

(١) كنية حمار بن يسار رضوان الله عليه.
(٢) ذاق صليها أي لهيبها.
(٣) مجهول الرامي.
(٤) قوة الدفع والقتال.
(٥) الجلاد: الضراب بالسيف خاصة.
(٦) كناية عن شدة اندلاع الحرب.
(٧) قصد الميمنة والميسرة لأنها على جانبي الجيش.
(٨) جريح العراك الخائر القوى.
(٩) من خيار أتباع الإمام علي كرّم الله وجهه هو وأخيه سليمان. انظر الإصابة جا ص٥٨٢.

فقام رجل من عبد القَيْس من أصحاب عليّ فقال: ندعوكم إلَى كتاب الله، فقالوا: كيف يَدْعونا إلَيْه مَن لا يستقيمُ ولا يُقيم حدودَ الله؟ وقد قُتِل كَعْب بن سُور داعي الله ورمتْه رَبيعة رَشْقًا واحدًا فقتلوه! ودعتْ يَمَنُ الكوفة يَمَنَ البصرة فرشقوهم، وأبَى أهلُ الكوفة إلاَّ القتال، ولم يُريدوا إلاَّ عائشَة، فذكَّرتْ أصحابَها، فاقتتلوا، حتى تنادَوْا فتحاجَزوا، ثم رجعوا فاقتتلوا، وتزاحَف الناس، فظهرتْ يَمَنُ البصرة علَى يَمَنِ الكوفة فهزمتْهم ورَبيعةُ البصرة علَى رَبيعة الكوفة فهزمتْهم، ثم عاد يَمَنُ الكوفة فقُتل علَى رايتهم عشرة: خمسة من هَمْدان وخمسة من سائر اليمن، فلما رأى ذلك يَزيدُ بن قَيْس أخَذَها فثبَتتْ في يده. ورجعتْ رَبيعة الكوفة فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل علَى رايتهم وهم في الميسرة زَيد وعبد الله بن رقبة وأبو عبيدة بن راشد بن سُلْمى وهو يقول: «اللهمَّ أنت هدَيْتنا من الضلالة، واستنقذتنا من الجَهالة، وابتلَيْتنا بالفتنة، فكنَّا في شُبْهة وعلَى رِيبة» حتى قتل.

واشتدَّ الأمر حتَّى لزقَتْ مَيْمَنةُ أهل الكوفة بقَلْبهم، ومَيْسَرةُ أهل البصرة بقَلْبِهم، ومنعوا مَيْمنة أهل الكوفة أن يختلطوا بقَلْبهم وإنْ كانوا إلَى جَنْبهم، وفَعَل مثلَ ذلك مَيْسرةُ أهل الكوفة بمَيْمَنة أهل البصرة.

فلما رأى الشُّجعانُ من مُضَرِ الكوفة والبصرة الصبرَ تنادَوْا: طَرِّفوا[1] إذا فرَغ الصبر. فجعلوا يقصدون الأطراف الأيدِيَ والأرْجُلَ، فما رُؤي وقعة كانت أعظمَ منها قبلها ولا بعدها ولا أكثَرَ ذِراعًا مقطوعة ورِجلاً مقطوعة! وأُصيبتْ يَد عبد الرحمٰن بن عَتَّاب قبلَ قتْله.

فنظرتْ عائشةُ عن يَسارها، فقالت: مَن القومُ عَن يَساري؟ فقال صَبِرة بن شَيْمان: بَنُوكِ الأزْد. قالت: يا آل غَسَّان حافظوا اليوم فجِلادكم الَّذي كنَّا نسمع به! وتمثَّلتْ: [من الطويل]

وجالَدَ من غسَّانَ أهلُ حفاظِها ... وهِنْبٌ وأوسٌ جالدتْ وشبيبُ[2]

فكانت الأزْدُ يأْخذون بَعَرَ الجمل فيشَمُّونه ويقولون: بَعْرُ جَمل أُمِّنا رِيحُه ريحُ المِسك!

وقالت لمَن عن يَمينها: مَن القومْ عن يَميني؟ قالوا بكْر بن وائل. قالت: لكم يقول القائل: [من الطويل]

وجاؤوا إلَيْنا في الحديد كأنَّهم ... من العِزَّةِ القَعْساء بَكْرُ بْنُ وائلِ[3]

---

(١) يريد استهداف أطراف المحارب من يد أو رجل.

(٢) رواه ابن الأثير في الكامل. انظر جـ٣ ص٢٤٧.

(٣) القعس: الراسخ الثابت.

إنَّما بإزائكم عبد القيْس. فاقتتلوا أشدَّ من قتالهم قبل ذلك.

وأقبلتْ علَى كتيبة بيْن يدَيْها فقالت: مَن القوم؟ قالوا بَنُو ناجية. قالت: بَخٍ بَخٍ[١]! سُيوفٌ أبْطحِيَّةٌ[٢] قُرَشية! فجالدوا جِلادًا يُتفادَى منه.

ثم أطافت بها بنو ضبة، فقالت: وَيْهًا[٣]! جَمْرة الجَمَرات[٤] فلما رقُّوا خالطهم بنو عَدِيّ بن عبد مَناة، وكثروا حَولها، فقالت: مَن أنتم؟ قالوا: بنو عَدِيّ خالطنا إخواننا، فأقاموا رأسَ الجمل، وضربوا ضربًا ليس بالتعذير[٥]، ولا يَعْدِلون بالتَّطْريف[٦]، حتَّى إذا كثر ذلك وظهر في العسكرين جميعًا رامُوا الجمل، وقالوا: لا يزولُ القومُ أو يُصْرَعَ الجمل. وصارت مَجَنَّبَتا[٧] عليّ إلَى القَلْب، وفعل ذلك أهلُ البصرة، وكره القَوْمُ بعضُهم بعضًا.

وأخذ عَمِيرَةُ بن يَثْربيّ رأسَ الجمل، وكان قاضي البصرة، فقال عليّ: مَن يَحمل علَى الجمل؟ فانْتَدب له هِنْد بن عمرو الجملي المُرادي، فاعترضه ابْنُ يَثْرِبيّ، فاختلفا ضربتين، فقتله ابن يثربي ثم حمل عِلْباءُ بن الهَيْثَم، فقتله ابن يَثْربيّ، وقُتل سَيْحان بن صُوحان، وارْتُثَّ صَعْصَعة، فنادَى عَمار بنُ ياسر ابْنَ يَثْربيّ: لقد عُذْتَ بحَريز[٨] وما إلَيك من سبيل فإن كنتَ صادقًا فاخرُجْ من هذه الكتيبة إلَيّ. فتَرَك الزِّمامَ في يد رجل من بني عَدِيّ وخرج، حتَّى إذا كان بَيْن الصفَّين تقدَّم عَمّار، وهو ابنُ تسعين سنة، وقيل أكثر من ذلك، وعلَيْه فَرْوٌ قد شَدَّ وسطه بحبل من لِيف، وهو أضعف من بارَزه، فاسْتَرْجَع الناسُ وقالوا: هذا لاحقٌ بأصحابه! فضربه ابْنُ يَثْرِبيّ، فاتّقاه عمّار بدَرَقته[٩]، فنشِبَ سَيفُه فيها، فعالجه فلم يخرجُ، وأسَفَّ[١٠] عَمّار لرجلَيْهِ فضربه فقطَعَهما، فوقع علَى اسْتِه وأُخذ أسيرًا، فأُتِيَ به إلى عليّ، فقال: اسْتَبقِني! فقال: أبَعْدَ ثلاثة تقتلُهم؟ وأمر به فقُتل، وقيل: إنَّ المقتول عَمْرو بن يَثْرِبيّ[١١] وإنَّ عمِيرة بقِيَ حتَّى ولِيَ قضاءَ البصرة مِن قَبل مُعاوية.

---

(١) كلمة تقال للتهنئة والتبريك.

(٢) ليست النسبة للسيوف ولكن لحملة السيوف من مكة، الأبطح موضع بين جبلي مكة.

(٣) تقال للإغراء والحث.

(٤) قيل إن جمرات العرب ثلاث، منهم بنو ضبة، والتجمير اللحمة في الجماعة، راجع خزانة الأدب جـ١ ص٣٦.

(٥) التعذير: التقصير، أراد لم يقصروا.

(٦) أي لم يثنهم تقطيع أطرافهم.

(٧) أراد الميمنة والميسرة.

(٨) حريز: من الحرز أي الحصن.

(٩) الدرقة: آلة حرب مصنوعة من الجلد المقوى أو المحشو تقوم للمحارب مقام الترس.

(١٠) أسف: الطائر إذ حاذى الأرض بطيرانه، وأراد أنه انخبى.

(١١) انظر الترجمة لعمرو في الإصابة جـ٣ ص١١٩.

قال: ولما قُتل ابنُ يَثْربيّ تَرك العَدَوِيُّ الزِّمامَ بيد رجل من بني عَدِيّ، وبرز، فخرج إلَيْه رَبيعة العُقَيْليّ، فاقتتلا، فأثْخَنَ كلُّ واحد منهما صاحبه، فماتا جميعًا.

وقام مقام العَدَوِيّ الحارث الضَّبِّيُّ، فما رُؤي أشدّ منه، وجعل يقول: [من الرجز]

* نحن بني ضَبَّةَ أصحابُ الجَمَلْ *
* نُبَارِزُ القِرْنَ إذا القِرْنُ نَزَلْ *
* نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بأطراف الأَسَلْ *
* المَوتُ أحلَى عندنا من العَسَلْ *
* رُدُّوا علَيْنَا شَيْخَنا ثُمَّ بَجَلْ[١] *

وارْتُجِزَ غيرُ ذلك.

فلم يَزَل الأمرُ كذلك حتَّى قُتِل علَى خِطام الجمل أربعون رجلًا، قالت عائشة: ما زال جملي معتدلاً حتَّى فقدت أصوات بني ضَبَّة. قال[٢]: وأخذ الخِطام سبعون رجلًا من قُرَيش، كُلُّهم يُقْتَلُ وهو آخذٌ بخطام الجمل.

وكان محمد بن طَلْحة[٣] مِمَّن أخذ بخِطامه، وقال: يا أُمّاه مُريني بأمرِكِ. قالت: آمُرُكَ أن تكونَ كخَيْر ابنيْ آدَمَ إنْ تركت[٤]. فجعل لا يَحمل عليه أحدٌ إلاَّ حمل وقال: «حمَ لا ينحصَرون»[٥] واجتمع علَيه نَفَرٌ كُلُّهم ادَّعَى قتْلَه، فأنفذه بعضهم بالرُّمح، ففي ذلك يقول: [من الطويل]

وأشْعَثَ قَوَّامٍ بآيات ربِّه ... قليلِ الأذى فيما تَرَى العَيْنُ مُسْلِمِ

(١) نسبت هذه الأبيات في الإصابة جـ٣ ص١١٩ إلى عمرو بن يثربي الضبي، وليست مذكورة في أسد الغابة جـ٤ ص١٣٠. بجل: حسب.

(٢) راجع تاريخ الطبري جـ٤ ص٥١٨.

(٣) محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي. كان كثير الصلاة، شديد الاجتهاد في العبادة، قتل يوم الجمل مع أبيه سنة ست وثلاثين، وكان هواه مع علي كرّم الله وجهه إلاّ أنه أطاع أباه فلما رآه الإمام علي قتيلاً قال كرّم الله وجهه: هذا السجاد قتله بره بأبيه. راجع أسد الغابة جـ٤ ص٣٢٢.

(٤) المعنى غير واضح الدلالة، فإذا أرادت أن أحد ولدي آدم قال له: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ...﴾ [المائدة: ٢٨] فالمقام لا يستدعي ذلك، وحالها معروف من إثارة الناس ودفعهم للطلب بدم عثمان.

(٥) ﴿حمٓ﴾ استفتاح للسور غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية والأحقاف وكلها الآية ١.

هتَكْتُ له بالرمح جَيْبَ قميصه فخَرَّ صَرِيعًا لِلْيدَيْنِ ولِلْفَم
يُذَكِّرُني حامِيمَ(١) والرمْحُ شاجِرٌ(٢) فهلاَّ تَلاَ حَامِيمَ قَبْلَ التقدُّمِ
علَى غَيْرِ شيءٍ غَيْرَ أنْ لَيْسَ تابعًا عليًا، ومَن لا يَتْبَعِ الحَقَّ يَنْدَمِ

قال: وأخذ الخطام عمرو بن الأشرف، فجعل لا يدنو منه أحد إلا خَبَطه بالسَّيف، فأقبل إليه الحارث بن زهير وهو يقول: [من الرجز]

* يا أُمَّنا(٣) يا خَيْرَ أُمٍّ نعلمُ *
* أمَا تَرَيْنَ كم شجاعٍ يُكْلَمُ(٤) *
* وتُخْتَلَى هامَتُهُ(٥) والمِعْصَمُ *

فاخْتلفا ضربتَيْن، فقَتَل كلُّ واحد منهما صاحِبَه. وأحْدَق أهلُ النَّجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الخطام أحدٌ إلاّ قُتِل، وكان لا يأخذه والراية إلاَّ معروفٌ، فينتسب: «أنا فلان ابن فلان»، فإنْ كانوا لَيُقاتلون علَيْه وإنَّه لَلْمَوْتُ لا يُوصَل إلَيْه إلاَّ بطَلبه(٦)! وما رامَهُ(٧) أحدٌ من أصحاب عليّ إلاَّ قُتِل أو أفلت ثمَّ لم يَعُد، وحمل عديّ بن حاتم عليهم ففُقِئَتْ عينه. وجاء عبد الله بن الزُّبَيْر ولم يتكلم، فقالت عائشة: مَن أنت؟ قال ابْنُكِ وابنُ أُختِكِ. قالت: واثُكْلَ أسماء! فانتهَى إلَيه الأشْتَر فضربَه الأشترُ علَى رأسه، فجرحه جرحًا شديدًا، وضربه عبدُ الله ضربةً خفيفة، واعْتَنَق كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه، وسقطا علَى الأرض يعتركان، فقال عبدُ الله بن الزُّبَير: «اقْتُلوني ومالكًا»(٨) فلو يعلمون مَن «مالِكٌ» لقَتلوه، إنَّما كان يُعْرَف بالأشْتَر(٩) فحمل أصحابُ عليّ وعائشة فخلصوهما.

---

(١) إشارة إلى الاستفتاح القرآني بـ ﴿حمٓ﴾ قد دلل محمد بن طلحة له.
(٢) منه تشاجرت الرماح إذا اختلف القوم وتنازعوا برماحهم، واشتجرت الرماح تنازع بأيدي أصحابها.
(٣) أراد أم المؤمنين رضي الله عنها.
(٤) من الكلم وهو الجرح.
(٥) أخلاه من هامته إذا قطعها.
(٦) تصحيف لا يعني بمداد الكلام على ما هو عليه. وكأنه أراد أنه مجاز إلى الموت.
(٧) طلبه.
(٨) وتتمته في الكامل ج٣ ص٢٥١ واقتلوا مالكًا معي.
(٩) الأشتر النخعي: مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعي، والأشتر لقبه، قيل إنه شج باليرموك فقاح جرحه إلى عينه فشترت، راجع لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ ص١٨٧ ـ ١٨٨.

قال: وأخذ الخِطامَ الأسْوَدُ بن أبي البَخْتَرِيّ القرشي فقُتل[١] وأخذه عمرو بن الأشرف الأزدي فقتل، وقتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بَيْته، وجُرح عبد الله بن الزُّبَير سبعًا وثلاثين جراحة من طعنة ورمية وضربة، وجُرح مَرْوانُ بن الحَكَم.

فنادَى عليّ: اعْقِروا الجملَ فإنَّه إن عُقِرَ تفرَّقوا. فضربه رجل، فسقط، فما سُمع صوتٌ أشدُّ من عَجِيجه.

وقيل في عَقْر الجمل: إنَّ القَعْقاع لقِيَ الأشْتَرَ وقد عاد من القتال عند الجمل، فقال: هل لك في العَوْد؟ فلم يُجِبْه، فقال: يا أشْتَرُ بعضُنا أعلمُ بقتال بعضٍ منك. وحمَل القَعْقاعُ، والزِّمامُ مع زُفَرَ بن الحارث الكِلابيّ، وكان آخِر من أخذ الخِطامَ، فلم يَبْقَ شَيخ من بني عامر إلاَّ أُصيب قُدَّام الجمل، وزحَف القعْقاع إلى زُفَرَ بن الحارث، وقال لبُجَيْر بن دُلَجَة ـ وهو من أصحاب عليّ ـ: يا بُجَيْرُ صِحْ بقولك فلْيَعْقِروا الجمل قبل أن يُصابوا أو تُصابَ أمُّ المؤمنين. فقال بُجَيْر: «يا آل ضَبَّة، يا عمرو بن دُلَجَة، ادْعُ بي إلَيْك» فدعاه، فقال: أنا آمِن حتَّى أرجعَ عنكم؟ قالوا: نعم. فاجتَثَّ ساقَ البَعير، فرمَى بنفسه علَى شِقِّه وجَرْجَر[٢] البَعيرُ، قال القَعْقاع لمن يَليه: أنتم آمِنون واجتمع هو وزُفَرُ علَى قطْع بِطَان الجَمل وحملا الهَوْدَجَ فوضعاه، وإنه كالقُنْفُذِ لما فيه من السِّهام، ثم أطافا به، وفرَّ مَن وراء ذلك من الناس.

فلمَّا انْهزموا أمر عليٌّ مناديًا فقال: ألاَ لا تتبعوا مُدْبرًا، ولا تُجْهزُوا عَلَى جَريح[٣] ولا تدخلوا الدُّور.

وأمر عليّ نفرًا أن يحملوا الهَوْدَج من بَيْنِ القتلَى، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يضرب علَيْها قُبَّة، وقال انظُرْ: هل وصل إليها شيءٌ من جِراحة؟ فأدخل رأسَه هَوْدجها، فقالت: مَن أنت؟ فقال: أبْغَضُ أهلِكِ إلَيْك. قالت ابْنُ الخَثْعَمِيَّة[٤]؟ قال: نعمْ. قالت: الحمد لله الذي عافاك.

---

(١) جاء في الطبري روايتان متناقضتان إحداهما جـ٤ ص٥١٩ تقول بقتله، وأخرى جـ٤ ص٥٥٥ تقول بنجاته. وفي الإصابة جـ١٠ ص٤٢ ما يؤيد ذلك.

(٢) جرجر البعير إذا ردد صوته في حنجرته غيظًا.

(٣) أي أن لا يتبع فارٌ، ولا يقتلُ من به رمق.

(٤) يعني أمه أسماء بنت عميس، هاجرت إلى الحبشة وكانت زوجة لجعفر بن أبي طالب الطيار رضوان الله عليه، تزوجها أبو بكر رضي الله عنه بعد استشهاد جعفر الطيار بمؤتة. راجع ترجمتها بالتفصيل في أسد الغابة جـ٥ ص٣٩٥.

وقيل: لما سقط الجمل أَقْبَلَ محمد بن أبي بكْر وعَمّار بن ياسر إلَيْه، فاحتملا الهَوْدَج، فنحَّياه، فأدخل محمد يَدَه فيه، فقالت: مَن هذا؟ قال: أخوكِ البَرّ قالت: عُقُق! قال: يا أُخَيَّةُ هل أصابكِ شيءٌ؟ قالت: ما أنتَ وذاك؟ قال: فمَنْ إذًا الضُّلاَّل؟ قالت: بل الهُداة! وقال لها عَمَّار: كيف رأيتِ بَنِيكِ اليومَ يا أُمَّاه؟ قالت: لستُ لك بأُمّ! قال: بَلَى وإنْ كرهتِ. قالت: فَخَرْتم أنْ ظَفِرْتُم وأتَيْتُم مِثْلَ الَّذي نَقَمْتُم هَيْهات واللّهِ لن يَظفَرَ مَن كان هذا دَأْبه! فأبرزوا هَوْدَجها، فوضعوها لَيْس قُرْبَها أحد.

وأتاها عليّ فقال: كَيف أنتِ يا أُمَّه؟ قالت: بخَيْر. قال: يَغْفِرُ اللّهُ لَكِ. قالت: ولَكَ.

وجاء أعين بن ضُبيعَة المُجاشِعِيّ حتى اطَّلع في الهودج، فقالت إلَيْكَ لَعَنَكَ الله! فقال: والله ما أرَى إلا حُمَيْراء[1]. فقالت هَتَكَ اللّهُ سِتْرَكَ وقَطَع يَدَكَ وأبْدَى عَوْرتك! فقُتل بالبصرة وسُلِبَ وقُطِعَتْ يَدُه ورُمِيَ عُرْيانًا في خَرِبَةٍ من خربات الأزْد!

ثم أتَى وُجوهُ الناسِ إلَى عائشة، وفيها القَعْقاع بن عمرو، فسلَّم علَيها، فقالت: واللّهِ لَوَدِدْتُ أني متُّ قبْلَ هذا اليوم بعشرين سنة!

وكان عليّ يقول بعد الفراغ من القتال: [من الرجز]

* إلَـيْـكَ أشْـكـو عُـجَـرِي وبُـجَـرِي[2] *
* ومَـعْـشَـرًا أغْـشَـوا عَـلَـيَّ بَـصَـرِي *
* قـتـلـتُ مـنـهـم مُـضَـرِي بـمُـضَـرِي *
* شـفَـيْـتُ نَـفْـسِـي وقـتـلـتُ مَـعْـشَـرِي! *

قال: ولمّا كان الليلُ أدخل محمدُ بن أبي بكر عائشةَ البصرة، فأنزلها في دار عَبد الله بن خَلَفِ الخُزاعي[3] ـ وهي أعظمُ دارٍ في البصرة ـ علَى صَفِيَّةَ بنت الحارث بن طَلْحة بن أبي طَلْحة بن عبد العُزَّى، وهي أمّ طَلْحَةِ الطَّلَحاتِ بن عبد الله بن خَلَف.

وتسلَّل الجرحَى من بَيْن القَتْلى فدخلوا البصرة.

(١) كناية عن قول رسول الله ﷺ لعائشة «حميراء».

(٢) العجر: عروق منعقدة في الظهر، والبجر عكسها وتستخدمان كناية عن الهم ظاهره وباطنه. ولم يثبت هذا القول عن علي كرّم الله وجهه، لأنه يناقض سيرته ومذهبه في القول.

(٣) راجع ترجمته في أسد الغابة ج٣ ص١٥١.

وأقام عليّ بظاهِر البصرة ثلاثًا، وأذِنَ للناس في دفن مَوْتاهم، فخرجوا إلَيْهم فدفنوهم، وطاف عليّ في القتلَى، فلما أتَى كَعْبَ بن سُور قال: «أزَعَمتم أنَّما خرج معهم السفهاءُ وهذا الحبْرُ قد ترَون!» وجعل كلَّما مَرَّ برجل فيه خَيْر قال: «زَعَم مَن زَعَم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء وهذا العابدُ المجتهدُ فيهم!» وصلى عليّ على القتلى مِن بَيْن الفريقَيْن، وأمَرَ فدُفِنَت الأطراف في قبر عظيم، وجَمع ما كان في العسكر من شيء وبعث به إلَى مسجد البصرة، وقال: مَن عرف شيئًا فلْيأخذْه إلاَّ سلاحًا كان في الخزائن علَيْه سِمَةُ السلطان.

قال[١]: وكان جميع القتلَى عشرة آلاف، نصفُهم من أصحاب عليّ، ونصفُهم من أصحاب عائشة، حكاه أبو جعفر الطبري. وقال غيره: ثمانية آلاف. وقيل: سبعةَ عشرَ ألفًا. قال أبو جعفر: وقُتل من ضَبَّة ألفُ رجل، وقُتل من عَدِيّ حَول الجمل سبعون كلُّهم قد قرأ القرآن سوَى الشباب ومَن لم يقرأ.

قال: ولَمّا فرغ عليّ من الواقعة أتاه الأحنَفُ بن قَيس في بني سعد، وكانوا قد اعتزلوا القتال، كما ذكرنا، فقال له عليّ: لقد تربَّصْتَ. فقال: ما كنتُ أراني إلاَّ قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أميرَ المؤمنين، فارْفُقْ، فإنَّ طريقَكَ الَّذي سلكتَ بعيد، وأنت إليَّ غدًا أحْوَجُ منكَ أمْسِ، فاعْرِفْ إحساني، واستصْفِ مَوَدَّتي لِغَدٍ، ولا تقُلْ مِثْلَ هذا فإنِّي لم أزَلْ لك ناصحًا[٢].

ثم دخل عليّ البَصرةَ يومَ الاثنين، فبايَعه أهلُها، حتَّى الجرحَى والمُسْتأمِنة، واستعمل عليّ عبدَ الله بنَ عبّاس علَى البَصْرة، وولَّى زيادًا الخراجَ وبيتَ المال، وأمرَ ابْنَ عبّاس أن يسمعَ منه ويُطيعَ وكان زياد معتزِلاً.

ثم راح عليّ رضي الله عنه إلَى عائشة في دار عبد الله بن خَلَفٍ الخُزاعي، فوجد النساءَ يبكِين علَى عبد الله وعُثمانَ ابْنَيْ خَلَف، وكان عبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، وكانت صفية زوجة عبد الله مختمرة تبكي، فلما رأته قالت له: يا علي، يا قاتل الأحبّة، يا مُفرقَ الجمع، أيْتَم اللّهُ منك بَنيكَ كما أيْتمْتَ ولَدَ عبدِ الله منه. فلم يرُدّ علَيها شيئًا، ودخل علَى عائشة فسلّم علَيها وقعد عندها، ثم قال: جَبَهَتْنا صفيّة. أمَا إنِّي لم أرَها منذ كانت جارية! فلما خرج أعادت علَيه القول، فكفَّ بَغلتَه، وقال: لقد همَمْتُ أن أفتَحَ هذا الباب ـ وأشار إلى باب في الدار ـ وأقتُلَ مَن فيه وكان فيه ناس من الجرحَى فأُخبر بمكانهم، فتغافلَ عنه.

---

(١) يعني ابن الأثير في الكامل جـ٣ ص٢٥٥.

(٢) راجع النص باختلاف يسير عند الطبري جـ٤ ص٥٣٥.

قال: ولمّا خرج مِن عند عائشة قال له رجل من الأزْد: واللّهِ لا تغلِبُنا هذه المرأة! فغضب وقال: «مَهْ[١]، لا تَهْتِكُنَّ سترًا، ولا تدخلُنّ دارًا، ولا تَهِيجُنَّ امرأةً بأذى، وإنْ شتَمْنَ أعراضَكم، وسفَّهْنَ أُمراءَكم وصلَحاءَكم، فإنَّ النساء ضعيفات، ولقد كنّا نُؤمَرُ بالكفِّ عنهنَّ وهنَّ مُشركات، فكَيْفَ إذا كُنَّ مسلمات؟» ومضَى، فلحِقه رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين، قام رجلان علَى الباب فتناولا مَن هو أَمَضُّ شتيمة لك من صفيّة. فقال: وَيْحك لعلّها عائشة! قال: نعمْ، قال أحدُهما: [من الرجز]

* «جُـزِيـتِ عَـنَّـا أُمَّـنـا عُـقـوقـا» *

وقال الآخر: [من الرجز]

* «يـا أُمَّـنـا تُـوبـي فـقـد خَـطِـيـتِ» *

فبعث القعقاعَ بْنَ عَمرو إلَى الباب، فأقبلَ علَى مَن كان علَيه، فأحالوا علَى رجلَيْن من أزْد الكوفة، وهما عجْلانُ وسعد ابنا عبد الله فضربهما مائةَ سَوط، وأخرجهما من ثيابهما.

قال: وسألتْ عائشةُ رضي الله عنها عَمَّنْ قُتل من الناس معها وعلَيها، فكُلَّما نُعِيَ واحدٌ من الجميع قالت: رحمه الله! فقي لها كيف ذلكِ؟ قالت: كذلك قال رسول الله ﷺ فلان في الجنة وفلان في الجنة.

ثم جهَّز عليّ رضي الله عنه عائشةَ بكُلِّ ما ينبغي لها من مَرْكب وزادٍ ومتاع وغيرِ ذلك، وبعث معها كُلَّ مَن نجا ممَّن خرج معها إلاَّ من أحبَّ المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمدَ بن أبي بكر رضي الله عنهم. فلمّا كان اليومَ الذي ارتحلتْ فيه أتاها عليّ فوقف لها، وحضر الناس، فخرجتْ وودعوها وودَّعَتْهم وقالت: يا بَنيَّ، لا يعتِب بعضُنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلاَّ ما يكون بين المرأة وأَحْمائها، وإنه علَى مَعْتَبتي لَمِنَ الأخيار. فقال عليّ رضي الله عنه: صدقتْ والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنَّها لَزَوجة نبيّكم في الدنيا والآخرة.

وكان خروجها من البَصرة يَومَ السبت غُرَّةَ شهر رجب سنة ستٍّ وثلاثين، وشيَّعها عليّ أميالاً، وسَرَّح بَنيه معها يَومًا. وتوجَّهَتْ إلى مكّة، فأقامت إلَى الحجّ، فحجَّت، ثُم رجعتْ إلَى المدينة.

---

(١) للزجر.

قال: ولمّا فرغ عليّ من بَيْعة أهل البصرة نظَر في بيت المال، فرأى فيه ستِّمِائة ألفٍ وزيادة، فقسمها علَى من شهد معه، فأصاب كلَّ رجل منهم خمسُمِائة درهم، فقال لهم: إنْ أظفركم اللّهُ بالشام فلكم مثلُها إلَى أعْطياتكم، فخاض في ذلك السَّبَئِيَّة، ووطعَنوا علَى عليّ مِنْ وراءَ وراءَ[١]، وطعنوا فيه أيضًا حين نهاهم عن أخذ أموالهم، فقالوا: يُحِلُّ لنا دماءهم ويُحرِّم علَيْنا أموالَهم!

قال: وأراد عليّ رضي الله عنه المُقامَ بالبَصرة لإصلاح حالها، فأعجَلَتْه السَّبَئِيَّة عن المُقام، فإنَّهم ارتحلوا بغَيْر إذْنه، فارتحل في آثارهم، لِيَقْطعَ علَيهم أمرًا إنْ أرادوه.

فلْنَرجعْ إلَى مَقْتَل طلحة والزبير.

ذكر مقتل طلحة
رضي الله عنه وشيءٍ من أخباره

هو أبو محمد طَلْحةُ بن عُبَيْد الله بن عُثمانَ بن عَمرو بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب القرشي التَّيْمِي.

وهو أقرب العشرة إلَى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يجتمع نسبُه مع نسب أبي بكر في عَمْرو بن كعب بن سعد.

ويجتمع نسَبُه ونسبُ رسول الله ﷺ، في مُرَّة بن كعب.

وأم طلحة: الحَضْرَمِيَّة، وهي الصَّعْبة بنت عبد الله بن عباد بن مالك بن ربيعة بن أكبر بن مالك بن عويف بن مالك بن الخَزْرَج بن إياد بن الصَّدِف من حَضْرَمَوْتَ من كِنْدَةَ، يعرف أبوها عبدُ الله بـ«الحَضْرَمِيّ».

ويعرف طَلحة بـ«طَلْحة الخَير» و«طلحة الفيّاض». قيل سُمِّيَ بالفيَّاض لأنَّه اشترَى مالاً بموضع يقال له «بيسَانَ»[٢]، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أنت إلا فيَّاض»، فسُمِّيَ بذلك من يومِئذ.

---

(١) وراء وراء: يراد منها الدس والنم، والقول بدون إظهار.

(٢) بيسان: موضع بالحجاز، وبيسان يعني الملح. مرَّ به رسول الله ﷺ فقال نعمان وهو طيب. واشتراه طلحة وتصدّق به فقال رسول الله ﷺ لطلحة: «ما أنت يا طلحة إلا فياض» راجع كتاب الروض المعطار للحميري، تحقيق عباس ص١٢٠.

وهو رضي الله عنه أحَدُ العشرة المشهود لهم بالجنَّة، وأحَدُ الستة أصحاب الشُورَى الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ(١).

وآخَى رسولُ الله ﷺ بَيْنَه وبَيْن كَعْب بن مالك(٢) حين آخَى بين المهاجرين والأنصار، وقسم له سهمه وأجره يومَ بَدر. وقد تقدم خبره في ذلك.

ثم شهِد أحُدًا وما بعدها، وأبْلَى يَوْمَ أحُدٍ بَلاءً حسنًا، ووقَى رسولَ الله عليه الصلاة والسلام بنفسه، اتَّقَى عنه النَّبْلَ بِيده حتى شُلَّت إصبعُه وضُرب في رأسه، وحَمل رسولَ الله عليه الصلاة والسلام علَى ظهره حتى صعِد الصخرةَ، فقال عليه السلام لأبي بكر رضيَ الله عنه: «اليوم أوْجَبَ طَلحةُ(٣) يا أبا بكر»(٤).

يُروَى أنَّ رسولَ الله ﷺ نظرَ إلَيه فقال: «مَن أحبَّ أن ينظرَ إلَى شهيد يمشي علَى وجه الأرض فلْيَنْظُرْ إلَى طَلحة»(٥).

وحكى أبو عُمر بن عبد البر رحمه الله فقال: زعم بعضُ أهله العلم أنَّ عليًّا رضي الله عنه دعاه يومَ الجمل، فذكَّره أشياءَ مِن سوابقه وفضْلِه، فرجع طَلحةُ عن قتاله، علَى نحو ما صنعَ الزُّبَير واعتزل في بعض الصفوف، فرُمِيَ بسهم، فقطع من رجله عِرْقَ النَّسا، فلم يزل دمُه ينزفُ حتَّى مات. ويقال: إنَّ السهم أصاب ثُغْرة نَحْره، وإنَّ الذي رماه مَرْوانُ بن الحَكَم وقال: لا أطلبُ بثأري بعد اليوم. وذلك أنَّ طلحة ـ فيما زعموا ـ كان مِمَّن حاصَرَ عُثمان واشتد عليه. قال ابن عبد البر: ولا يختلفُ العلماءُ في أن مرْوانَ بن الحكم قَتَل طلحةَ يومَئِذٍ، واستدلَّ على ذلك بأخبار رواها من قول مروان تدل علَى أنه قاتِلُه(٦).

قال: وقد رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: واللّهِ إنِّي لأرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطَلحةُ والزُّبَيرُ مِمَّن قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧].

---

(١) برواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري من بني سلم، وهو من الخزرج صحابي شاعر.
(٣) في الحديث حذف، أراد ﷺ منه أن الجنة قد وجبت له.
(٤) راجع الحديث في الرياض النضرة جـ٢ ص٢٥١ بتخريج فتح الله، رفعت من نهاية الإرب.
(٥) راجع ابن ماجة مقدمة صفحة ١١ (المعجم المفهرس).
(٦) وهذه أقرب الروايات إلى الصواب نظرًا لما عرف من مروان بن الحكم وحبه للانتقام وميله إلى سفك الدماء.

وروى أبو عمر بسنده إلَى قَيْس بن أبي حازم قال: رمَى مَرْوانُ طَلْحةَ يَومَ الجمل بسهم في رُكبته، فجعل الدّمُ يَسيل، فإذا أمسكوه استمسك وإذا تركوه سال، فقال: دَعُوه فإنّما هو سهم أرسله الله. قال فمات، فدفَنَّاه علَى شاطىء الكَلاَّء[١]، فرأى بعضُ أهله أنه أتاه في المنام فقال: «ألاَ تَريحونني من هذا الماء فإني قد غرقتُ!» ثلاثَ مِرَار يقولها، قال: فَنبَشوه فإذا هو أخضر كأنَّه السِّلْق، فنَزَحوا[٢] عنه الماءَ، فاستخرجوه، فإذا ما يَلِي الأرضَ مِن لحيته ووجهه قد أكلتْه الأرض، فاشترَوْا له دارًا من دُور آل أبي بكر بعشرة آلاف، فدفنوه فيها.

وروي أيضًا بسنده إلَى عليّ بن زيد عن أبيه أن رجلاً رأى فيما يَرَى النائمُ أنَّ طَلحة بن عُبَيد الله قال: «حَوِّلُوني عن قبري فقد آذاني الماء!» ثم رآه، حتَّى رآه ثلاث ليال، فأتَى ابْنَ عبّاس فأخبره، فنظروا فإذا شِقُّه الذي يَلِي الأرضَ في الماء، فحوَّلوه، قال: فكأني أنظر إلَى الكافُور في عينَيْه لم يتغيَّر إلاَّ عَقِيصته[٣] فإنها مالت عن موضعها.

وقتل رضي الله عنه وهو ابنُ ستِّين سنة، وقيل: ابن اثنتين وستِّين، وذلك يَوم الجَمل، لعَشرٍ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرةِ سنة ستٍّ وثلاثين.

وكان رضي الله عنه رجلاً آدَمَ، حَسَن الوجه، كثيرَ الشَّعر، ليس بالجعد القطط[٤] ولا بالسَّبْط[٥] وكان لا يغيّر شعره.

وسمع عليٌّ رجلاً يُنشد: [من الطويل]

فتىً كان يُدْنيه الغِنَى من صديقه إذا ما هو اسْتغْنَى، ويُبْعِدُهُ الفَقْرُ

فقال: ذاك أبو محمد طَلحةُ بن عُبَيد الله.

وحكى الزُّبَيْر[٦] أنَّه سمع سُفْيان بن عُيَيْنة[٧] يقول: كانت غَلَّةُ طَلحة بن عُبَيد الله ألْفًا وافيًا كلَّ يَوم! قال: والوافي وزنه وزن الدِّينار، وعلَى ذلك وزن دراهم فارس التي تُعرف بالبغلية.

---

(١) مرفأ للسفن على شاطىء النهر بالبصرة. (٢) نزح الماء من البئر إذا أفرغها أو رفعها.
(٣) الشعر إذا عقص وهو إدخال أطراف الشعر في أصوله.
(٤) إذا كان كثير التجعيد. (٥) إذا كان منبسطًا مرسلاً.
(٦) عنى الزبير بن بكار صاحب الرياض النضرة. راجع الرياض النضرة جـ٢ ص٢٥٨.
(٧) أبو محمد الهلالي، راوٍ ومحدّث. توفي سنة ١٩٨هـ.

ذكر مقتل الزبير بن العوام
رضي الله عنه وشيء من أخباره

هو أبو عبد الله الزُّبَيْر بن العَوَّام بن خُوَيْلد بن أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، القرشي الأسَدي.

وأمُّه صفِيّة بنت عبد المُطَّلب، عَمَّةُ رسول الله ﷺ.

وهو أحَدُ العشرة المشهودِ لهم بالجنة، وأحدُ الستَّة أصحاب الشُّورَى، وهو قديم الإسلام، واختُلف في سنِّه يَوم أسلم، فقيل: خمسَ عشرةَ سنة، وقيل ست عشرة، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: ثماني سنين. والأول أصح.

وآخَى رسولُ الله ﷺ بَيْنه وبين عبد الله بن مسعود[١] حين آخى بين المهاجرين، ولما آخَى بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سَلمة بن سَلاَمة بن وَقْش[٢].

وكان له رضي الله عنه من الولَد ـ فيما حكاه بعضهم ـ عشرة، وهم: عبد الله وعُرْوَة ومُصْعَب والمُنْذِر وعمرو وعبيدة وجعفر وعامر وعمير وحمزة.

وكان الزُّبَيْر رضي الله عنه أوّل من سَلَّ سَيفًا في سبيل الله، وذلك أنه نُفِخَتْ فيه نَفْخةٌ مِن الشَّيطان: «أُخِذَ رسولُ الله علَيه الصلاة والسلام»، فأقْبَلَ يشُقُّ الناسَ بسَيفه، والنبيُّ ﷺ بأعْلَى مكَّة، فقال له رسولُ الله: ما لَكَ يا زُبَير؟ قال: أُخْبِرْتُ أنك أُخِذْتَ! فصلَّى علَيه ودعا له.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الزُّبَيْر ابْنُ عَمَّتي وحَوارِيِّي مِن أمَّتي»[٣]. وقال: «لِكُلِّ نَبيٍّ حَوارِيّ، وحَوارِيِّي الزُّبَير». وسمع ابن عُمَر رضي الله عنه رجلاً يقول: «أنا ابن الحَوارِيّ»، فقال إن كنتَ ابْنَ الزُّبَيْر وإلاَّ فلا.

وذكر[٤] في معنى «الحَوَارِيّ»: الخالص، وقيل الخَليل، ولذلك قال جرير:

أفبعدَ مقتلهم خليلُ محمد[٥] ترجو القُيونُ مع الرسول سبيلا

---

(١) ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل... راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٣ ص٢٥٩.

(٢) ابن زغبة بن زعوراء بن عبد الأشهل الأنصاري. راجع ترجمته في أسد الغابة جـ٢ ص٣٣٦.

(٣) راجع صحيح البخاري باب الجهاد ٤٠ و٤١، وكذا باقي الأحاديث (المعجم المفهرس).

(٤) عن ابن عبد البر في الاستيعاب.

(٥) قصد: الزبير والبيت من قصيدة ذكر المحققان في طبعة الهيئة العامة للكتاب لنهاية الأرب أن قيل هذا البيت:

إني تذكرني الزبير حمامة تدعو بمجمع نخلتين هديلا

وقيل: الحَوَارِيّ: الناصرُ. وقيل: الصاحبُ المستخلص.

وجَمَع رسولُ الله ﷺ أبَوَيْه للزُّبَيْر مَرَّتين: يَوْمَ أحُد ويَوْمَ بني قُرَيْظة، فقال: «ارْمِ فداكَ أبي وأُمّي!»[١].

قال أبو عمر بن عبد البر: وكان الزبير تاجرًا! مَجْدودًا[٢] في التجارة، قيل له يَومًا: بمَ أدركتَ في التجارة ما أدركتَ؟ فقال: لأني لمْ أشترِ غَبْنًا[٣] ولم أردُدْ رِبْحًا واللّهُ يُبارك لمن يشاء.

ورُوي عن كعب قال: كان للزُّبَيْر ألفُ مملوك يؤدُّون إلَيه الخَراج فما يُدخِل بَيْتَه منه درهمًا واحدًا. يعني أنه كان يتصدق بذلك.

وكان سبب قتله رضي الله عنه أنَّه لما انصرف من وقعة الجمل وفارَق الحرب مرَّ بالأحْنَف فقال: هذا الذي جمع بَيْن المسلمين حتَّى ضرب بعضُهم بعضًا ثم لحق ببَيْته! ثم قال للناس: مَن يأتيني بخبره؟ فقال عَمْرو بن جُرْمُوز: أنا.

وقيل: إنَّ الزُّبَيْر لمَّا انصرف نزل بعَمْرو بن جُرْمُوز، فقال له: «يا أبا عبدِ الله، جنَيْتَ حربًا ظالمًا أو مظلومًا ثمَّ تنصرف! أتائبٌ أم عاجز؟» فسكت عنه الزُّبَيْر، ثم عاودَه، فقال: ظُنَّ فيَّ كلَّ شيءٍ غَيْرَ الجبُن. فانصرف عنه ابْنُ جُرْمُوز وهو يقول: «والَهْفي علَى ابن صفيّة! أضرمها نارًا ثم أراد أن يلحَقَ بأهله! قتلني اللّهُ إن لم أقتُلْه!» ثم رجع إليه كالمتنصِّح[٤]، فقال: «يا أبا عبدِ الله دُونَ أهلِكَ فَيافٍ، فخذْ نَجِيبي[٥] هذا وخَلِّ فرسَك ودِرْعَك، فإنهما شاهدان علَيك بما نكره». وأراد بذلك أن يلقاه حاسِرًا[٦]، ولم يَزَلْ به حتَّى تركهما عنده وأخذ نَجِيبَه، وسار معه ابْنُ جُرْمُوزٍ كالمُشَيِّع له، حتَّى انتهَيَا إلَى وادي السِّباع[٧]، فاسْتَغْفله ابْنُ جُرْمُوز وطعَنه. وقيل: إنَّه اتبعه إلَى الوادي فقتله وهو في الصلاة. وقيل: بل قتله وهو نائم.

---

(١) راجع صحيح البخاري باب الجهاد ص٨٠.
(٢) من الجد وهو الحظ أي كان كثير الحظ.
(٣) لم أخدع في الشراء. (٤) الناصح.
(٥) بعيري السريع.
(٦) المحارب الحاسر: الذي لا درع ولا لامة تقيه.
(٧) وادي السباع: موضع بالبصرة على طريق المدينة. راجع كتاب الروض المعطار للحميري ص٦٠٣.

وفي ذلك تقول عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل العَدَوية زوجته ترثيه[(١)]: [من الكامل]

غَدَرَ ابنُ جُرمُوز بفارسِ بُهْمَةٍ ... يَومَ اللقاءِ وكان غَيرَ مُعَرِّدِ[(٢)]
يا عَمْرُو لو نبَّهْتَه لوَجدتَه ... لا طائشًا رَعِشَ الجَنانِ[(٣)] ولا اليَدِ
كم غَمْرةٍ[(٤)] قد خاضها لم يَثْنِهِ ... عنها طِرادُكَ يا ابْنَ فقع[(٥)] القردد[(٦)]
ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ إن ظَفِرْتَ بمثْله ... فيما مضى مِمَّنْ يَروحُ ويَغتدي
اللّهِ رَبِّك إنْ قَتلتَ لَمُسْلِمًا ... حَلّتْ عليك عُقوبةُ المُتعمِّدِ[(٧)]

قال: فلمَّا رجع برأسه وسَلَبِه قال له رجل من قومه: «فضَحتَ واللّهِ اليَمَنَ أوَّلها وآخِرَهَا بقتلك الزُّبَيْرَ رأسَ المهاجرين وفارسَ رسول الله ﷺ وحَوارِيَّه وابْنَ عَمَّتِه! واللّهِ لو قتلتَه في حرب لَعَزَّ ذلك علَينا ولمَسَّنا عارُك! فكيف في جِوارِك وحرمك؟!».

قال: وأتى ابْنُ جُرْمُوزٍ عَلِيًّا، فقال لحاجبه: استأذِنْ لقاتل الزُّبَيْر. فقال عليّ رضي الله عنه ائْذَنْ له وبَشِّرْهُ بالنار، قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: بَشِّرْ قاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بالنار! فقال ابْنُ جُرْموزٍ: [من المتقارب]

أتَيتُ عليًّا برأسِ الزُّبَيْـ ... ـرِ أرجو لَدَيْه به الزُّلْفَةْ[(٨)]
فبَشَّرَ بالنار إذْ جِئْتُهُ ... فَبِئْسَ بِشارةُ ذِي التُّحْفَةِ
وسِيانِ عندي قَتْلُ الزُّبَيْرِ ... وضَرطَةُ عَيرٍ بِذِي الجُحْفَةِ[(٩)]

وحكى أبو عمر بن عبد البر في كتابه المترجم بـ«الاستيعاب»[(١٠)] من رواية عمرو بن جاوان عن الأحنف بن قيس قال: لما بلغ الزبير سَفَوان موضعًا بالبصرة

---

(١) انظر الأغاني جـ٦ ص١٢٦.
(٢) على خلاف ما ذكر أكثر المفسرين من أن المعرِّد تعني الهارب، فإنني أجد أن المعنى لا يستقيم إلاّ باعتبار المعرد: الصلب القوي وفيه مجاز حيث إن الزبير لم يكن لابسًا للحرب لبوسها، ويؤكد ذلك أن أكثر معاني مادة ع ر د تعني الغلظ والشدة، لا سيما وأن الاشتقاق الصرفي للكلمة لا يساعدنا على اعتبار الهرب والنكول.
(٣) الجنان: الفؤاد. (٤) الغمرة: المعمعة.
(٥) الفقع: الكمأة، أو أردأ أنواعها.
(٦) أرض مستوية غليظة مرتفعة. والمراد أنه لم يكن ذليلاً أو هينًا.
(٧) القاتل العمد. (٨) القربى.
(٩) أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة الأبيات بتغيير واضح. راجع شرح نهج البلاغة جـ١ ص٧٩.
(١٠) انظر الاستيعاب جـ١ ص٥٨٥.

كمكان القادسيّة من الكوفة لقِيَهُ النعر[١] رجل من بني مُجاشع فقال: «أين تذهب يا حَوارِيَّ رسولِ الله؟ إلَيَّ، فأنت في ذِمَّتي لا يوصَل إلَيك»، فأقبل معه، وأتَى إنسان الأحنفَ فقال: هذا الزُّبَير قد لُقِيَ بسَفَوان، فقال الأحْنَف: «ما شاء اللّهُ كان، قد جمع بَيْن المسلمين حتَّى ضرَب بعضهم حواجِبَ بعضٍ بالسُّيوف، ثم يلحق ببَيْته وأهله!!» فسمعه عميرة بن جُرْمُوزٍ[٢] وفَضالة بن حابس ونُفَيْعٌ في غُواة[٣] من غُواة بني تَميم، فركبوا في طلبه، فلقوه مع النعر، فأتاه عميرةُ بن جُرْمُوزٍ مِن خَلْفه وهو علَى فَرَسٍ له ضعيفة فطعنه طعنة خفيفة، وحمل علَيه الزُّبَيْرُ علَى فرس له يقال له «ذو الخِمَار»[٤]، حتى إذا ظنَّ أنه قاتله نادَى صاحبَيْه: «يا نُفَيْعُ يا فَضالة» فحملوا علَيه حتَّى قتلوه... قال[٥]: وهذا أصحُّ مما تقدَّم.

وكان مقْتَلُه يَومَ الخميس لِعشرٍ خَلَوْنَ من جُمادَى الآخِرة سنةَ ست وثلاثين.

وكانت سِنُّه يومَ قُتِلَ سبعًا وستِّين سنة، وقيل ستًّا وستين.

وكان الزُّبَيْر رضي الله عنه أسمر رَبْعَةً معتدِلَ اللحم خفيفَ اللحية.

وقال حَسّان بن ثابت يمدح الزُّبَيْر ويفضِّله: [من الطويل]

أقامَ علَى عَهْدِ النبيِّ وهَدْيِهِ ... حَوارِيُّهُ والقَوْلُ بالفعلِ يُعْدَلُ
أقامَ علَى مِنهاجِهِ وطريقِه ... يُوالي وليَّ الحقّ والحقُّ أعْدَلُ
هو الفارِسُ المشهورُ والبطلُ الذِي ... يصُولُ إذا ما كان يَوْمٌ مُحَجَّلُ[٦]
وإن امْرَأً كانَتْ صَفِيةُ أمهُ ... ومَنْ أسَدٌ في بَيْتِه لَمُرَفَّلُ[٧]
لهُ مِن رَسُولِ اللّهِ قُرْبَى قَريبَةٌ ... ومِنْ نُصْرة الإسلام مَجْدٌ مُؤَثلُ[٨]
فكَمْ كَرَّةٍ ذَبَّ[٩] الزُّبَيْرُ بسيْفِه ... عن المُصْطَفى واللّهُ يُعْطِي ويُجزِلُ
إذا كشَفَتْ عن ساقها الحربُ حَشَّها[١٠] ... بأبْيَضَ سَبّاقٍ إلَى الموتِ يُرْقِلُ[١١]
فما مِثْلُهُ فيهم ولا كان قبلَهُ ... ولَيْسَ يكونُ الدَّهرَ ما دام يَذْبُلُ[١٢]

---

(١) النعر بن الزمام المجاشعي.
(٢) عمرو وعميرة وعمير بن جرموز واحد.
(٣) غاوٍ، مفردها، وهي الضال السادر.
(٤) فرس الزبير بن العوام يوم الجمل.
(٥) ابن عبد البر في الاستيعاب.
(٦) معروف.
(٧) الرافل: المتبختر الزاهي بنفسه.
(٨) مؤثل: طيب الأعراق.
(٩) ذبّ: دافع ناصرًا.
(١٠) حش: والصواب فيها أحش، والمعنى أشعل.
(١١) ومنه الناقة المرقال، أي السريعة.
(١٢) رووا أنه جبل في صحراء نجد والمراد ما دام الجبل.

ورُوِيَ عن عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما أنه قال: لمَّا وقف الزُّبَيْر يَوْمَ الجَمَل دعاني، فقُمتُ إلَى جَنْبه، فقال: «يا بُنَيَّ: إنَّه لا يُقْتَلُ اليوم إلاَّ ظالمٌ أو مظلوم، وإنِّي لا أراني إلاَّ سأُقتل اليَومَ مظلومًا، وإنَّ مِن أكبر هَمِّي لَدَيْني، أفتُرَى دَيْننا يُبْقِي من مالِنا شيئًا؟ وقال: يا بُنَي بع ما لنَا واقْضِ دَيْني. وأوْصَى بالثُّلث وثُلثهِ لِبَنيه ـ يَعني بَني عبد الله بن الزُّبَير ـ يقول: الثلث إليك فإنْ فَضَلَ مِن مالِنا فَضْلٌ بَعْدَ قضاءِ الدَّيْن فثُلثُه لوَلَدك. قال هشامٌ وكان بَعْضُ وَلَدِ عبدِ اللّهِ قد وازَى بعضَ بَنِي الزُّبَيْر: خُبَيْبٌ وعَبَّاد[١]، وله يومَئِذٍ تسعةُ بَنين وتِسْعُ بنات. قال عبد الله فجعل يُوصِيني بدَيْنه ويقول: يا بُنَيّ إن عجَزتَ عن شيءٍ منه فاستعِنْ علَيه مَولاي. قال[٢]: فَوَاللّهِ ما دَرَيْتُ ما أراد، حتَّى قلتُ: يا أبَتِ مَن مَوْلاك؟ قال: الله تعالى. فَوَاللّهِ ما وقعتُ في كُرْبةٍ من دينه إلاَّ قلتُ: «يا مَوْلَى الزُّبَيْر اقْضِ عنه دَيْنَه» فَيقْضيَه.

فقُتل الزُّبَيْر رضي الله عنه ولم يَدَعْ دِينارًا ولا دِرهمًا إلا أرضِينَ[٣] منها الغابةُ[٤] وإحدَى عشْرةَ دارًا بالمدينة ودارَيْن بالبصرة ودارًا بالكوفة ودارًا بمصر.

قال[٥]: وإنَّما كان دَيْنُه الذي علَيه أنَّ الرجلَ كان يأتيه بالمال فيَستودِعُه إيّاه، فيقول الزُّبَيْر رضي الله عنه لا، ولكنَّه سَلَفٌ[٦]، فإنِّي أخشَى علَيه الضَّيْعَة.

وما وَلِيَ إمارةً قَطُّ ولا جِبايةَ خَرَاج ولا شَيْئًا إلاَّ أنْ يكون في غَزْوة مَعَ النبي ﷺ أو معَ أبي بكر أو عُمر أو عثمان رضي الله عنهم.

قال عبد الله بنُ الزُّبَيْر: فحسَبْتُ ما علَيه من الدَّين فوجدتُه ألْفَيْ ألْفٍ ومِائتَيْ ألْفٍ.

قال: فلقي حَكِيمُ بن حِزام عبدَ الله بنَ الزُّبَيْر فقال: يا ابْنَ أخي كَمْ علَى أخي من الدَّيْن؟ فكتَمه وقال: مِائةُ ألْفٍ. فقال حَكيمٌ: واللّهِ ما أرَى أمْوَالَكم تَسَعُ لهذه. فقال له عبدُ الله: أفرأيْتَكَ إنْ كانت ألْفَيْ ألْفٍ ومِائتَيْ ألْفٍ؟ قال: ما أراكم تطِيقون هذا فإنْ عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

قال: وكان الزُّبَيْر رضي الله عنه اشترَى الغابةَ بسبعين ومِائةِ ألْف، فباعَها عبدُ الله بألْفِ ألفٍ وستمائةِ ألْف، ثم قام فقال: من كان له علَى الزُّبَيْر حقٌّ فلْيُوافِنا بالغابة. فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له علَى الزُّبَيْر أرْبَعمِائة ألْف، فقال لعبد الله: إن شئتم تركتُها لكم. قال عبد الله: لا. قال: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخِّرون إن أخَّرتم.

---

(١) ولد عبد الله بن الزبير بن العوام. (٢) يعني عبد الله بن الزبير.
(٣) جمع أرض على أرضين والمداد بقاع من الأرض.
(٤) ضيعة للزبير في ضواحي المدينة المنورة.
(٥) عبد الله بن الزبير. (٦) قرض.

فقال عبد الله: لا. قال: فاقْطَعوا لي قطعةً. فقال عبد الله لك من هُهنا إلى هُهنا. فباع منها فقضَى دَيْنَه فأوْفاه، وبقِيَ منها أربعةُ أسْهُم ونصفٌ، فقدِم على مُعاوية وعنده عَمرُو بن عُثمان والمُنْذر بن الزبَير وابن زَمْعَةَ[١]، فقال له مُعاوية: كم قُوِّمَت الغابةُ؟ قال: كلُّ سهم بمائة ألف. قال: كم بَقِيَ؟ قال: أربعةُ أسْهُم ونصفٌ. فقال المُنْذِرُ بن الزُّبَير: قد أخذتُ سَهْمًا بمِائةِ ألف. وقال عَمرو بن عثمان: قد أخذتُ سهمًا بمِائةِ ألفٍ. وقال ابن زَمْعَةَ: قد أخذت سهمًا بمائة ألف. فقال مُعاوية: كم بَقِيَ؟ فقال: سهمٌ ونصفٌ. قال: أخذتُه بخمسين ومائة ألف. قال وباع عبد الله بن جَعْفر نصيبه مِن مُعاوية بستِّمِائة ألف.

قال: فلمّا فَرَغ ابنُ الزُّبَير من قضاء دَينه قال بَنو الزُّبَير: اقْسِمْ بَيْنَنا مِيراثَنا. قال: لا واللّهِ لا أقْسِمُ بَيْنكم حتَّى أُناديَ بالموْسِم أربعَ سِنين: «ألاَ مَن كان له علَى الزُّبَيْر دَيْنٌ فَلْيَأتِنا فَلْنَقْضِه».

قال: فجعل كلَّ سنة ينادي بالموْسِم، فلمّا مضَى أربعُ سِنينَ قَسَم بَيْنَهم. قال: وكان للزُّبَير أربعُ نسْوَةٍ، ورَفَعَ الثُّلث، فأصاب كلَّ امرأةٍ ألفُ ألفٍ ومِائتا ألْفٍ، فجَمِيعُ مالِه خمسون ألفَ ألفٍ ومِائتا ألفٍ. هكذا أورده البُخاريُّ رحمه الله في صحيحه، وعَقَدَ جُملةَ المال في آخِره على ما ذكرنا[٢].

والذي دلّ علَيه الحسابُ أنَّ جُملةَ المال تسعةٌ وخمسون ألْفَ ألفٍ وثمانُمِائة ألف، وذلك أنَّ نصيبَ الزوجاتِ الأربع وهو الثُّمُنُ بعد وفاء الدَّيْن ورفْع الثلث الذي أوصَى به لبني عبد الله اشتمل علَى أربعة آلاف ألف وثمانِمِائة ألف، يُضْرب في ثمانية فتكون ثمانية وثلاثين ألْفَ ألفٍ وأرْبَعَمِائة ألفٍ، ويكون ثُلُثُ الوصية وهو نصف هذه الجملة تسعةَ عشرَ ألْفَ ألفٍ ومائتي ألف، والدَّين ألفي ألف ومائتي ألف، فتخرج الجملة على ما ذكرناه.

ذكر وقعة صفين وابتداء أمرها

كانت وقعةُ صِفِّين[٣] في أواخِرِ سنة ست وثلاثين وأوائل سنةِ سبع وثلاثين.

---

(١) عبد الله بن زمعة.

(٢) ملاحظتان: الأولى تكوُّن الحلف الذي مهد للأموية، والثانية: البتراء الفاحش الذي تمتع به نفر من المسلمين الأوائل.

(٣) موضع معروف بالعراق على الفرات، يقال فيه صفون أيضًا، وجوّز بعضهم صفون في الرفع فقط، وهي أرض صحراوية فيها تلال وأكمات. راجع الروض المعطار للحميري تحقيق عباس ص٣٦٣.

وذلك أنه لما فرغ عليٌّ رضي الله عنه من حرب الجمل أقام بالبصرة، ثمَّ انتقل إلى الكوفة، وأرسل إلَى جرير بن عبد الله البَجَلي ـ وكان عثمانُ قد استعمله على هَمَذان ـ وإلَى الأشعَث بن قَيْس ـ وكان على أذْرَبيجان ـ فأمَرهما بأخذ البيْعة والحضورِ إلَيه، ففعلا ذلك.

أراد عليٌّ أن يُرسلَ إلى مُعاوية رسولاً، فقال جَرير: أرْسِلْني إلَيْه فقال الأشْتَرُ لعليّ: لا تفعلْ فإنَّ هَواه مع معاوية فقال عليّ دَعْهُ حتى نَنظُرَ ما يرجعُ به. فبَعَثه، وكتب معه إلَى مُعاوية يُعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار علَيْه، وما كان مِن نكْثِ طَلحة والزُّبَيْر وحرْب الجملِ، ودعاه إلَى البَيْعة والدخولِ فيما دخل فيه المُهاجرون والأنصار.

فلما قدِم جَريرٌ عَلى مُعاويةُ ماطَلَه بالجواب، واستشار عَمْرَو بْنَ العاص، وكان قد قدِمَ علَيْه وانْضمَّ إلَيه، علَى ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار مُعاوية، فأشار عمروٌ علَيه أن يجمعَ أهلَ الشام ويُلزمَ عَلِيًا دَمَ عُثمان، ففعل، فأجمع أهلُ الشام علَى حزب عليّ.

فعاد جرير إلى عليّ وأعْلَمه ذلك، وأنَّ أهلَ الشام يبكون علَى عُثمان ويقولون: إنَّ عليًا قَتَله، وآوَى قتَلَته، وإنهم لا ينْتَهُون عنه حتَّى يقتُلَهم أو يقتلوه. فقال الأشْتَرُ لعليّ: كنتُ نهَيْتُك عن إرسال جَرير، وأخبرتُك بعداوته وغِشه، فأبَيْتَ إلا إرسالَه. ثم تقاوَلَ الأشْتَرُ وجَرير مُقاولةً أدَّتْ إلى مُفارقة جَرير لعليّ ولَحاقه بمعاوية.

قال: وخرج عليّ رضي الله عنه، فعسكر بالنُّخَيلة[(١)]، وتخلَّف عنه نَفَرٌ من أهل الكوفة، منهم ميسرة الهمداني ومسعود[(٢)] أخذا أعْطِياتِهما وقصدا قَزْوين[(٣)]. وقدِمَ علَيه عبدُ الله بن العباس في أهل البَصْرة.

وبلَغ ذلك مُعاوية، فاستشار عمرَو بن العاص، فقال له: «أمّا إذا سار عليّ بنفسه في الناس فسِرْ بنفسك، ولا تغِبْ عنه برأْيك ومَكِيدتك». فتجهَّز مُعاوية بأهل الشام، وقد حَرَّضَهم عَمرو وضعَّف عليًا وأصحابه، وقال: «إنَّ أهل العراق قد فرَّقوا جَمْعَهم ووهَّنوا شَوْكتهم، وفَلُّوا حَدَّهم، وأهلُ البَصرة مخالفون لعليٍّ بمن قُتِل منهم،

(١) موضع بالكوفة، مصغرًا باللفظ، وكثيرًا ما كان الإمام علي كرّم الله وجهه يخرج إليه فيخطب الناس. راجع الروض المعطار ص٥٧٦.

(٢) ذكر ابن الأثير ج٣ ص٢٧٩ مسروق بدلاً من مسعود.

(٣) ناحية من بلاد الديلم، وبينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا. راجع كتاب الروض المعطار ص٤٦٥.

وقد تفانت صَنادِيدُهم وصناديدُ أهل الكوفة يَوْمَ الجمَلِ، وإنَّما سار عليٌّ في شِرْذِمة[١] قليلة، وقد قُتِلَ خَليفتُكم، فاللّهَ اللّهَ في حقِّكم أن تُضَيِّعوه، وفي دَمِكم أنْ تُطِلُّوه!»[٢] وكتب معاوية في أجناد[٣] أهل الشام، وعَقد لِواءً لعَمرو، ولواءً لابنَيْه: عبدِ الله ومحمد، ولِواءً لغُلامه وَرْدَان. وسار مُعاوية وتأنَّى في مَسيره.

قال: وبعث عليّ رضي الله عنه زيادَ بن النَّضْر الحارثيّ في ثمانية آلاف، وبعث شُرَيْح بن هانىء في أربعة آلاف، وسار عليّ من النُخَيْلَة، وأخذ معه مَن بالمَدائن[٤] من المُقاتلة، وولَّى علَى المدائن سعْدَ بن مسعود عَمَّ المختار بن أبي عبيد الثَّقفي، ووجه من المدائن مَعْقل بن قَيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يأخذ على المَوْصِل[٥] حتَّى يُوافِيَه علَى الرَّقَّة[٦].

فلما وصل عليّ الرقة قال لأهلها ليعملوا جِسْرًا يَعْبُر علَيه إلَى أهل الشام، فأبَوْا، وكانوا قد ضَمُّوا سُفُنَهم إلَيهم، فنهض مِن عندهم لِيعْبُر علَى جِسْر مَنْبِجَ، وخلف عليهم الأشْتَرَ، فناداهم الأشْتَرُ: «أُقْسِم باللّهِ لَئن لم تعملوا جِسرًا لأمير المؤمنين يَعْبُر علَيه لأُجَرِّدَنَّ فيكم السَّيف، ولأقتُلَنَّ الرجال ولآخُذَنَّ الأموالَ!» فلقِيَ بعضُهم بعضًا وقالوا: «إنَّه الأشْترُ، وإنَّه قَمِنٌ[٧] أن يَفيَ لكم بما حَلَفَ علَيْه أو يأتيَ بأكثَرَ منه!» فنصَبوا جِسْرًا فعَبَرَ علَيه عليٌّ وأصحابُه.

قال: ولما بلَغَ عليّ الفُراتَ دعا زيادَ بن النَّضْر وشُرَيح بن هانىء فيمَن معهما فسرحهما أمامه نحو معاوية علَى حالهما الَّتي خرجا علَيها من الكوفة[٨]، وكان سبب

---

(١) الجماعة القليلة من الناس. (٢) تذهبونه هدرًا.

(٣) أجناد الشام خمسة: الأردن، حمص، دمشق، فلسطين وقنسرين. والواحد من الأجناد جند، تسمى كذلك لإقامة الجند المقاتلين فيها وهي آنذاك ما يعرف في أيامنا اليوم بالثكنات.

(٤) دار مملكة الأكاسرة وهي على سبعة فراسخ من بغداد منتشرة على حافتي دجلة، وفيها إيوان كسرى الذي وصفه البحتري الشاعر. انظر الروض المعطار ص٥٢٦.

(٥) الموصل: مدينة على الجانب الغربي من دجلة، وسميت كذلك لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وهي من أجناد العراق. راجع الروض المعطار ص٥٦٣.

(٦) الرقة: مدينة بالعراق، وهي واسطة بلاد مضر من مدنها الرها، وتقع على شارعة الفرات الشمالية. والرقة كل واد ينبسط عليه الماء أوان المد. راجع الروض المعطار ص٢٧٠ ومعجم ما استعجم ج٢ ص٦٦٦.

(٧) جدير.

(٨) الكوفة: أول المدن التي أقامها المسلمون، وهي مدينة كبرى، بنيت سنة ٥١٤ تمتد على معظم شاطىء الفرات، وتبعد عن بغداد ثلاثين فرسخًا. أخذ اسمها من جبل فيها يقال له عوفان. راجع الروض المعطار ص٥٠١.

عَوْدِهما أنَّهما أخذا مِن الكوفة علَى شاطىء الفُرات مما يَلِي البَرَّ، فلمَّا بلغا عاناتِ[١] بَلَغهما أنَّ مُعاوية قد أقبلَ في جُنود الشام، فقالا: «واللّهِ ما هذا لنا برأي، أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خَيْرٌ أن نَلْقَى جنودَ الشام بِقِلَّةِ مَن مَعنا» فذهبوا ليعبُروا من عانات، فمنَعَهم أهلُها، فرجعوا! حتَّى عبَروا مِن هيت[٢]، فلحِقوا عليًّا دُونَ قَرْقِيسِيا[٣]، فقال عليّ: مُقَدِّمَتي تأتيني مِن وَرائي! فأخبره شُرَيح وزياد بما كان، فقال: سُدِّدْتُما. فلمّا عَبرَ الفُراتَ سَيَّرهما أمامَه.

فلمَّا انْتَهَيَا إلَى سُور الرُّوم لقيَهما أبو الأعور السُّلَمِيُّ في جُند من أهل الشام، فأرسلا إلَى عليّ فأعلماه.

فأرسل عليّ إلَى الأشتر، وأمره بالسرعة، وقال: «إذا قدمْتَ فأنت علَيهم، وإيَّاك أن تبدأ القومَ بقتال إلاَّ أن يبدؤوك، حتَّى تلقاهم فتدعُوَهم، وتسمعَ منهم، ولا يحمِلْك بغْضُهم علَى قتالهم قبل دُعائهم والإعذارِ إلَيهم مَرَّةً بعد مرة، واجعلْ علَى مَيْمنتك زِيادًا، وعلَى مَيْسرتك شُرَيحًا[٤]، ولا تَدْنُ منهم دُنُوَّ مَن يُريد أن يُنْشِبَ الحرب، ولا تَباعَدْ تَباعُدَ مَن يهاب البأس، حتَّى أُقْدِمَ علَيك، فإنِّي حَثِيثُ السَّير في أثرك إن شاء الله تعالى». وكتب إلَى شُرَيح وزياد بذلك، وأمرهما بطاعة الأشتر.

فسار الأشترُ حتَّى قدِم علَيهم، وكفَّ عن القتال، ولم يَزالوا مُتوقفين حتَّى إذا كان عند المساء حَمَل علَيهم أبو الأعْور، فثبَتوا له واضْطربوا ساعة، ثمَّ انصرف أهل الشام، وخرج إلَيهم من الغَد هاشمُ بن عُتبة المرقال[٥]، وخرجَ إلَيْه أبو الأعْوَر، فاقْتَتلوا يَومَهم، وصبرَ بعضُهم لبعض، ثمَّ انْصرفوا، وحمَل علَيهم الأشتر، وقال أرُوني أبا الأعْوَر! فتراجَعوا، ووقف أبو الأعْوَر وراء المكان الذي كان فيه أوَّلَ مَرَّة،

---

(١) ناحية صغيرة قريبة من الفرات فيها أسواق وأعمال. للاستزادة راجع الروض المعطار ص٤٠٥، ومعجم ما استعجم ج٣ ص٩١٤.

(٢) هيت: مدينة على الفرات بين الرحبة وبغداد، سميت هيت لأنها في هوة منخفضة. وقيل لغير ذلك. راجع الروض المعطار ص٥٩٧، ومعجم ما استعجم ج٤ ص١٣٥٧.

(٣) قرقليسيا: موضع أو قرية بين الحيرة والشام، على الجانب الشرقي من الفرات. راجع الروض المعطار ص٤٥٥.

(٤) شريح بن هانىء بن يزيد الحارثي من الرجاز، شجاع مقدام، ومن أصحاب الإمام علي المقدَّمين، قتل غازيًا بسجستان. راجع الإصابة، ترجمة ٣٩٦٧.

(٥) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، صحابي، خطيب، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص، شهد القادسية مع سعد عمه، وفقد عينه يوم اليرموك، وفتح جلولاء، شهد حروب الإمام علي، كرّم الله وجهه، وقاد الرجالة في صفين وفيها قتل سنة ٣٧هـ. راجع رغبة الآمل ج٣ ص١١٢ - ١١٣.

وجاء الأشترُ فصَفَّ أصحابه مَكانَ أصحاب أبي الأعوَر بالأمس، وقال الأشتر لسِنان بن مالك النَّخَعِيّ: انْطَلِقْ إلَى أبي الأعْوَر فادْعُه إلَى البِراز. فقال: إلَى مُبارزتي أو مبارزتك؟ فقال: للأشتر لو أمرتك بمبارزته لفعلت. قال: «نَعَمْ واللّهِ لو أمرتَني أن أعْترِضَ صَفَّهم بسَيفي لَفعلتُ. فدعا له، وقال: إنَّما تدعو لمبارزتي. فخرج إلَيهم فقال: أمِّنوني فإنِّي رسول. فأمَّنوه، فانْتَهَى إلَى أبي الأعْوَر فقال له: إنَّ الأشترَ يدعوك إلَى أن تبارزَه. فسكت طويلاً، ثم قال: إنَّ خِفَّة الأشتر وسُوء رأيه حملاه عَلى إجلاء عُمَّال عُثمانَ عن العراق وتقبيح محاسِنه، وعلَى أنْ سار إلَيْه في داره حتَّى قتله وأصبح متَّبَعًا بدمه، لا حاجةَ لي في مُبارزته. فقال له سِنانٌ: قد قلتَ فاستمِعْ مِنِّي أُجِبْكَ. قال: لا حاجةَ لي في جوابك، اذْهَبْ عنِّي. فصاح به أصحابُه، فانصرفَ عنه، ورجع إلَى الأشتر فأخبَرَه، فقال: لنفسه نَظَرَ. فوقفوا حتَّى حجزَ اللَّيلُ بَيْنَهم وعاد[1]، الشاميُّون من الليل.

وأصبح عليّ رضي الله عنه غُدْوَةً عند الأشتر، وتقدَّم الأشترُ ومَن معه فانْتَهَى إلَى مُعاوية، فواقفه، ولحق بهم عليّ، فتَواقَفوا طويلاً.

ثمّ إنَّ عليًّا طلب لعَسْكَره مَوضعًا ينزِلُ فيه، فكان مُعاوية قد سبق فنزل منزلاً اختاره بَسيطًا واسعًا أفْيَحَ، أخَذَ شَريعة[2] الفُرات، ولَيْس في ذلك الموضع شَرِيعةٌ غَيْرُها، وجعل مُعاوية علَى الشَّرِيعة أبا الأعْوَر.

فأتَى الناسُ عليًّا، فأخبروه بفعلهم، وتعطَّشَ الناس، فدعا صَعْصَعةَ بن صُوحان[3]، فأرسله إلَى مُعاوية يقول: «إنَّا سِرْنا مَسِيرَنا هذا ونحن نَكْرَهُ قِتالَكم قبل الإعذار إلَيْكم، فقدَّمْتَ إلَيْنا خَيْلَك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نُقاتلك، وبدأْتَنا بالقتال ونحن مِن رأينا الكفُّ حتَّى ندعُوَك ونحتجَّ علَيْك، وهذه أخرَى قد فعلتموها، منعتم النَاسَ من الماء، والناسُ غيرُ مُنْتَهِينَ أو يشربوا، فابْعَثْ إلَى أصحابك فلْيُخَلُّوا بَيْنَ الناس وبين الماء، ولْيَكُفوا لِنَنْظُرَ فيما بَيْنَنا وبَيْنكم وفيما قَدِمْنا له، فإنْ أردتَ أن نترك ما جئنا له ونقتتلَ علَى الماء حتَّى يكونَ الغالِبُ هو الشارِبَ فعَلْنا». فجاء صَعْصَعةُ إلَى مُعاوية وقصَّ علَيْه الرسالةَ، فاستشار مُعاويةُ أصحابه وقال: ما تَرَوْن؟ فقال الوَلِيدُ بن

(١) رجعوا وتركوا القتال. راجع الطبري جـ٤ ص٥٦٨.

(٢) على مورد يُستقى منه الماء الجاري كالنهر وسواه.

(٣) صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي الكوفي، سيد من أسياد عبد القيس، خطيب بليغ عاقل شاعر. من أصحاب الإمام علي كرّم الله وجهه، شهد معه صفين، ونفاه المغيرة من الكوفة بعد استتباب الأمر لمعاوية إلى جزيرة (أوال) في البحرين ويبدو أن قبره ومسجدًا باسمه لا يزالا معروفين في بلدة الكلابية البحرانية. وفيه أنه توفي سنة ٥٦هـ. راجع التهذيب لابن عساكر جـ٦ ص٤٢٣.

عُقْبَة[١] وعبد الله بن سَعْد: امْنَعْهم الماء كما منعوه ابْنَ عَفَّان، اقْتُلْهُمْ عَطَشًا قَتَلَهم اللّٰهُ! فقال عَمرو بن العاص: «خلِّ بَيْنَ القومِ وبين الماء فإنَّهم لن يَعْطَشوا وأنت رَيَّان، ولكن بغير الماء فانظر فيما بَينك وبَينهم» فأعاد الوَلِيدُ وابْن سَعد مَقالتهما، قالا: «امْنَعْهم الماءَ إلَى الليل، فإنْ هم لم يَقدِرُوا علَيْه رجعوا، وكان رجوعهم هزيمة، امنَعْهم الماء منعهم اللّٰهُ يَوْمَ القيامة! قال صَعْصَعة: إنَّما يمنعه اللّٰهُ الفَجَرَةَ وشَرَبَةَ الخمر، لَعَنك الله ولعن هذا الفاسق ـ يعني الوَليد بن عقبة ـ فشتموه وتهدَّدُوه. وقد قيل: إنَّ الوليد وابن أبي سَرْح[٢] لم يَشْهدا صِفِّين.

ورجع صَعْصَعةُ فَأَخْبَرَ بما كان... وسَيَّر مُعاويةُ الخيلَ إلَى أبي الأعْور لِيَمْنَعهم الماء. فلمّا سمع عليّ ذلك قال لأصحابه: قاتِلوهم علَى الماء!

فقال الأشعَثُ بن قَيْس الكِنديّ[٣]: أنا أسير إلَيْهم. فسار إلَيهم، فلما دَنَوْا منهم ثاروا إلَى وجوههم يَرْمُونهم بالنَّبْل، فترامَوْا ساعة، ثم تَطاعنوا بالرِّماح، ثم صاروا إلَى السيوف فاقتتلوا بها ساعة.

وأرسل مُعاوية يَزِيدَ بن أسَدِ البَجَليّ القَصْري[٤]، جَدَّ خالدِ بن عبد الله في الخَيل إلَى أبي الأعْوَر، فاقتتلوا. وأرسل عَليّ شَبَثَ بن رِبْعِيّ الرياحي فازداد القتال.

---

(١) ابن أبي معيط الأموي القرشي، كنيته أبو وهب، هو أخو عثمان بن عفان لأمه، عرف بظرفه ومجونه ولهوه، أسلم يوم فتح مكة، ولاه عثمان الكوفة سنة ٢٥هـ وقد شهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر. قيل إنه اعتزل الفتنة بعد قتل عثمان، ولكنه رثاه وحرّض معاوية على الأخذ بثأره. توفي سنة ٦١هـ، ويبدو أنه لم يعتزل الفتنة لوجوده في جيش معاوية كما يتبين من النص أعلاه. راجع الإصابة ترجمة ٩١٤٩.

(٢) ابن أبي سرح بن الحارث بن حبيب القرشي العامري. وهو أخو عثمان من الرضاعة ويعرف باسم ابن أبي سرح. راجع أسد الغابة ج٣ ص١٧٣.

(٣) الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، كنيته أبو محمد، أمير كندة في الجاهلية والإسلام، تولى حضرموت، امتنع عن تأدية الزكاة لأبي بكر، فحوصر فحصر وجيء به إلى أبي بكر، فزوجه أخته أم فروة. شهد من الفتوحات اليرموك وأصيبت عينه. كان مع الإمام علي في صفين على راية كندة، وله مواقف محيرة خلال تلك الحقبة، حتى أنه لا يُعلم على وجه الحقيقة سلامة موقفه، والآراء متضاربة فيه. ابنته جحدة زوجة الإمام الحسن بن علي، سمته باغراء من معاوية. والشعث تلبد الشعر. راجع خزانة الأدب للبغدادي ج٢ ص٤١٥.

(٤) يزيد بن أسد بن كُرَز بن عامر، من بني الكاهن (شق) البجلي القسري يماني قحطاني، في صحبته اختلاف. كان من خاصة ثقات معاوية، وهو الذي كان على رأس البعثة لنجدة عثمان من معاوية، وقد تأخر بالدخول إلى المدينة للدفع عن عثمان يوم حُصر حتى (قال حاجزه قدِ) شهد صفين مع معاوية ومات قبله حوالي سنة ٥٥هـ. راجع أسد الغابة ج٥ ص١٠٣.

فأرْسل مُعاوية عَمرو بن العاص في جند كثير، فأخذ يَمُدُّ أبا الأعَور ويزيدَ بن أسد.. وأرسل عليّ الأشْتَرَ في جمع عظيم وجعل يَمُدَّ الأشعث وشَبَثًا..

فاشتدَّ القِتالُ حتى خَلَّوا بَيْنهم وبين الماء، وصار في أيدي أصحاب عليّ، فقالوا: والله لا نسْقيه أهل الشام، فأرسل عليّ إلَى أصحابه أنْ خُذوا من الماء حاجتَكم، وخَلُّوا عنهم، فإن الله تعالَى نصرَكم علَيهم بِبَغْيِهم وظُلمهم.

ومكث عليّ رضي الله عنه يومَيْن لا يُرسلُ إلَيهم أحدًا ولا يأْتيه منهم أحد.

ذكر إرسال علي إلى معاوية وجوابه

قال: ثمّ دعا عليٌّ رضي الله عنه أبا عمْرَةَ بَشيرَ بن عَمْرو بن مِحْصَن الأنصاري وسعيدَ بن قيس الهَمَداني[١] وشَبَث بن رِبْعِيّ التميمي[٢]، فقال لهم: ائتوا هذا الرجلَ وادعوه إلَى الله تعالى وإلَى الطاعة والجماعة. فقال له شَبَث: يا أميرَ المؤمنين ألاَ نُطْمِعُه في سُلطانٍ تُوليه إيّاه ومَنْزلةٍ يكون له بها عندك أثَرَةٌ إنْ هو بايَعك؟ قال: انطلِقوا إليْه واحْتجُوا عليه وانظروا ما رأيه. وكان ذلك أوّل ذي الحجة من سنة ست وثلاثين.

فأتَوْه فدخلوا علَيه، فابتدأ بَشِير بن عمرو الأنصاريُّ فحمد اللّهَ وأثنَى علَيْه، ثمّ قال: «يا معاوية إنَّ الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلَى الآخرة، وإنَّ الله مُحاسِبُك بعملك ومُجازيك علَيه، وإني أنْشُدُك الله أن لا تفرّقَ جماعةَ هذه الأمة وأن لا تَسْفكَ دماءها بَيْنها». فقطع علَيه مُعاوية الكلامَ وقال: هلاَّ أوصَيْتَ بذلك صاحبَك؟ فقال «صاحبي ليس مِثْلَك، إنَّ صاحبي أحقَّ البريَّة كُلِّها بهذا الأمر في الفضل والدِّين والسابقةِ في الإسلام والقرابةِ بالرسول ﷺ» قال: فماذا تقول؟ قال: نأمرك بتقوَى الله وإجابةِ ابن عمِّك إلَى ما يدعو إلَيه من الحق فإنَّه أسلمُ لك في دنياك وخَيْرٌ لك في عاقبة أمرك. قال معاوية: «ونترُكُ دَمَ عُثمان! لا واللّهِ لا أفعلُ ذلك أبدًا!»[٣].

---

(١) ابن زيد بن مريب الهمداني. فارس نبيه جواد، من سلالة ملوك بني همدان. ثقة من خواص الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. قاتل معه يوم صفين، وإليه رجع الهمدانيون في العراق. توفي حوالي سنة ٥٠هـ. راجع وقعة صفين.

(٢) شبث بن ربعي التميمي اليربوعي، من أهل الكوفة، كنيته أبو عبد القدوس. خرج مع المختار الثقفي. توفي حوالي سنة ٧٠هـ في الكوفة.

(٣) راجع النصوص أعلاه باختلاف عند ابن الأثير جـ٣ ص٢٨٥.

قال: فذهب سعيد بن قيس يتكلّم، فبادره شَبَث بن رِبْعِيّ، فحمِد اللّهَ وأثنَى عليه، ثم قال: «يا معاوية، قد فهمتُ ما ردَدْتَ عَلَى ابن مِحْصَن، وإنَّه واللّهَ لا يخفَى علَينا ما تطلب، إنك لم تجِدْ شَيْئًا تَسْتَغْوي به الناسَ، وتستميلُ به أهواءهم، وتستخلِصُ به طاعتَهم، إلاَّ قَوْلَك: قُتِلَ إمامُكم مظلومًا فنحن نَنطلب بدَمِه، فاستجاب لك سُفهاءُ طَغام[١]، وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر، وأحببت له القتلَ، لهذه المنزلة التي أصبحتَ تطلُب، ورُبَّ مُتَمَنِّي أمرٍ وطالبه يحول الله دونه، وربما أوتيَ المتمنّي أُمنيته وفَوق أُمْنِيَّتِه، ووالله ما لَكَ في واحدة منها خير، واللّهِ إن أخطاك ما ترجو إنَّك لَشَرُّ العرب حالاً، وإنْ أصبْتَ ما تتمنَّاه لا تُصيبه حتَّى تستحقَّ مِنْ ربِّك صُلِيَّ[٢] النار، فاتَّق اللّهَ يا مُعاويةُ، ودَعْ ما أنت علَيه، ولا تُنازع الأمرَ أهْلَهُ».

قال: فَحمِد اللّهَ مُعاويةُ، ثم قال: «أمَّا بَعدُ، فإنَّ أوَّلَ ما عرفتُ به سَفَهَك وخِفَّةَ حلْمِك أنَّك قطَعْتَ علَى هذا الحَسِيبِ الشريفِ سيِّدِ قوْمِه مَنْطِقَه، ثمَّ اعترضتَ بَعْدُ فميا لاَ عِلْمَ لك به، فقد كَذَبْتَ ولَؤُمْتَ أيُّها الأعرابيُّ الجِلْفُ الجافي في كلِّ ما ذكرتَ ووصفتَ! انصرِفوا مِن عندي فلَيْس بَيْني وبَيْنَكم إلاَّ السَّيفُ!» وغضب، وخرج القَوْمُ، فقال له شَبَث «أتَهُولُ بالسَّيف؟ أُقسم باللّهِ لَنُعَجِّلَنَّها إلَيك!».

فأتَوْا عليًّا رضي الله عنه فأخبروه بذلك. فكان عليٌّ يأمر الرجلَ ذا الشرف فيخرج ومعه جماعة من أصحابه، ويخرج إليه آخر من أصحاب معاوية ومعه جماعة، فيقتتلان في خَيْلهما، ثُمَّ ينصرفان. وكرهوا أنْ يُلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام خَشْيَةَ الاستئصال والهلاك.

فكان عليّ يُخرج مَرَّةً الأشْتَرَ، ومَرَّةً حُجْرَ بن عَدِيّ الكِندي[٣]، ومرة شَبَث بن رِبْعِيّ، ومَرَّةً خالد بن المعمّر، ومَرَّةً زِياد بن النَّضْر الحارثي، ومَرَّة زياد بن خَصَفة

---

(١) أوغاد الناس، وسواءٌ فيه الواحد والجمع.

(٢) حريقها.

(٣) حجر بن عدي بن معاوية بن جبلة الكندي ويعرف بحجر الخير، من مقدمي الصحابة شجاع. شهد القادسية من الفتوحات، وشهد مع الإمام علي الجمل وصفين. اعتقله زياد ابن أبيه في الكوفة، غب استتباب الأمر لمعاوية، وأرسله إلى هذا الأخير في دمشق وقتله في مرج عذراء من أعمال دمشق مع ثلة من أصحابه. راجع طبقات ابن سعد جـ٦ ص١٥١، وأسد الغابة جـ١ ص٣٨٥.

التَّيْميَّ، ومَرّة سعيد بن قيس الهَمْداني، ومرَّة مَعْقِل بن قَيْس الرِّياحي، ومَرَّة قيس بن سعيد الأنصاري. وكان الأشتر أكثر خروجًا.

وكان معاوية يخرج إلَيْهم عبد الرحمٰن بن خالد بنِ الوليد، وأبا الأعور السُّلَمي، وحبيب بن مَسْلَمة الفهري، وابن ذي الكَلاع الحميري، وعُبَيد الله بن عُمر بن الخطاب، وشرحْبيل بن السِّمْط الكِندي، وحمزة بن مالك الهَمْداني.

فاقتتلوا أيّامَ ذي الحِجَّة كلِّها، ورُبَّما اقْتتلوا في اليوم الواحد مرَّتَين.

ذكر الموادعة بين علي ومعاوية في شهر المحرم وما كان بينهما من المراسلة والأجوبة في الشهر

قال: وفي شهر المحرم سنة سبع وثلاثين جرت مُوادَعة[١] بين عليّ رضي الله عنه ومُعاويةَ بن أبي سفيان، توادَعا علَى ترْك الحرب بَيْنهما حتَّى ينقضِي الشهر، طمعًا في الصلح.. واختلفتْ فيه بَيْنهما الرسائل.

فبعث علي رضي الله عنه عَدِيَّ بن حاتم[٢] ويَزيد بن قَيْس الأرْحَبي وشَبَث بن ربْعِيّ وزياد بن خَصَفَة.

فَتكلَّم عَدِيُّ بن حاتم، فحمد الله، فقال: «أمَّا بَعْدُ، فقد جئناك ندعوك إلَى أمْرٍ يجمع اللّهُ به كلمتَنا وأُمَّتَنا، ويَحْقِن به الدماء، ويُصلح به ذاتَ البَيْن، إنَّ ابن عمِّك سيِّد المسلمين أفضلُها سابقة، وأحسنُها في الإسلام أثرًا، وقد استجمع له الناس، ولم يبْقَ أحدٌ غَيْرك وغير مَن معك، فاحذَرْ يا معاوية لا يُصيبك وأصحابك مثلُ يَوْم الجمل» فقال له مُعاوية: «كأنك جِئتَ مُهَدِّدًا لم تأت مُصْلحًا، هَيْهاتَ يا عَدِيّ، كلاَّ! واللّهِ إنِّي لابْنُ حَرْب[٣]، ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان[٤]! وإنَّك واللّهِ لمِن المجلِبين[٥] علَى عُثمان، وإنك من قَتَلَتِه، وإني لأرجو أن تكونَ مِمَّنْ يقتله الله به».

---

(١) اتفاق على ترك الحرب بشروط وأوان.

(٢) ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، صحابي من أمراء قومه، جودا عاقل، سيد بني طيىء في الجاهلية والإسلام. أسلم سنة ٩هـ. شارك في فتوح العراق، وشهد معظم فتوح علي، وفي يوم صفين فقئت عينه. توفي في الكوفة حوالي سنة ٦٨هـ، وقد عمر حتى ناهز المائة. أبو حاتم الطائي الجواد العلم. راجع الإصابة، الترجمة ٥٤٧٧.

(٣) جده الأعلى، لأنه معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب وفيه تورية لأن الاسم مرادف للحرب وهي نقيض السلم.

(٤) كناية عن الخامل يبحث بما لا خير له فيه رغبة أو رهبة. والشنان جمع شن وهي القربة البالية، والقعقعة: إحداث الصوت بالقرع أو التحريك.

(٥) المحرِّضين الذين أجلبوا على عثمان الرجال، وجلبوا له ما أتاه.

فقال شَبَث وزياد بن خصفَة جوابًا واحدًا: أتَيْناك فيما يُصْلحنا وإيَّاك، فأقبلْتَ تضرِب لنا الأمثال، دَع ما لا ينفع، وأجِبْنا فيما يعُمُّ نفْعُه.

وقال يَزيدُ بن قَيس: إنَّا لم نأتِ إلاّ لِنُبلِّغك ما أُرسِلْنا به إلَيك ونُؤَدِّيَ عنك ما سمِعْنا منك، ولم نَدَعْ أنْ ننصَحَ لك، وأن نذكُرَ ما تكونُ به الحُجَّةُ علَيك، ويَرجعُ إلَى الألفة والجماعة، إنَّ صاحِبَنا من قد عرف المسلمون فضيْلَهُ، ولا يخفَى علَيك، فاتَّقِ اللّهَ يا معاويةُ ولا تخالِفه، فإنَّا واللّه ما رأيْنا في الناس رجلاً قطُّ. أعْمَلَ بالتقوَى ولا أزْهَدَ في الدُّنيَا ولا أجْمَعَ لخِصال الخَير كلِّها منه».

فحمِد اللّهَ معاوية، ثم قال: أمّا بَعْدُ، فإنَّكم دعَوتم إلَى الطاعَة والجماعة، فأمَّا الجماعة الَّتي دعوتم إلَيها فَنِعِمَّا هِيَ[1]، وأمّا الطاعة لصاحِبكم فإنَّا لا نراها، لأنَّ صاحِبَكم قتل خليفتَنا، وفرَّق جماعتَنا، وآوَى ثَأْرَنا، وصاحِبُكم يزْعُمُ أنَّه لم يقتله، فنحن لا نرُدُّ علَيه ذلك، فلْيَدْفعْ إلَيْنا قَتَلَةَ صاحِبنا لِنقتلهم ونحن نُجيبكم إلَى الطاعة والجماعة.

فقال شَبَث بن رِبْعِيّ: يا مُعاويةُ أيسُرُّك أن تقتل عَمّارًا؟ قال «وما يمنعني مِن ذلك؟ واللّهِ لو تمكَّنتُ مِن ابْن سُمَيَّةَ[2] لقتلْته بموْلَى عُثمان!» فقال شَبَثُ: «والذي لا إلهَ غيرُه لا تصلُ إلَى ذلك حتّى تَنْدُرَ الهامُ[3] عن الكواهِلِ[4] وتضيقَ الأرضُ الفضاء علَيك!» فقال مَعاوية: «لو كان كذلك لكانت علَيك أضْيَقَ!» وتفرَّقَ القَوم.

وبعث مُعاوية إلَى زياد بن خَصَفة، فخلا به، وقال له: «يا أخا رَبيعة، إنَّ عليًّا قطع أرْحامَنا، وقتل إمامَنا، وآوَى قَتَلَةَ صاحِبنا، وإنِّي أسألك النصرَ علَيه بعشيرتك، ثم لَكَ عَهْدُ الله ومِيثاقُه أنْ أُوَلِّيك إذا ظهرتُ[5] أيَّ المِصْرَيْن أحببْتَ» فقال زِياد: «أمّا بَعْدُ، فإنِّي على بَيِّنَةٍ مِن ربِّي، وبِما أنْعَمَ اللّهُ علَيَّ فلَنْ أكونَ ظَهيرًا للمجرمين!»[6] وقام فقال مُعاوية لعَمرو بن العاص: ليس تكلِّم رجلاً منهم فيُجيب إلَى خَيْر، ما قلوبُهم إلاّ كقلب واحد!

وبعث مُعاوية إلَى عليٍّ حَبِيبَ بن مَسْلَمة الفِهْرِيّ[7] وشُرَحْبِيلَ بن السِّمْط،

---

(١) أراد مدحها. (٢) أراد عمار بن ياسر الصحابي النقي العلم.

(٣) ندر الشيء من باب نصر. شذّ منه وسقط، وأندره أسقطه. أراد قطع الرؤوس.

(٤) الأكتاف. (٥) انتصرت.

(٦) استئناسًا بقوله تعالى ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

(٧) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي. من أصحاب الفتوحات لا سيما الرومية منها، خلص لمعاوية فأجزأه ولاية أرمينية التي توفي فيها حوالي سنة ٤٢هـ. راجع أسد الغابة جـ١ ص٣٧٤.

ومَعْنَ بن يزيد بن الأخنس، فدخلوا علَيه، فحمِد اللّهَ حبيبٌ وأثنَى علَيْه، ثم قال: «أمَّا بَعْدُ فإنَّ عُثمانَ كان خليفَة مَهْديًا، يعمل بكتاب الله ويُنيبُ إلَى أمْره، فاسْتثقلتم حياتَه، واستبطأتم وَفاتَه، فعَدَوْتم علَيْه فقتلتموه، فاذفَعْ إلَيْنا قَتَلَةَ عُثمان إنْ زَعَمتَ أنك لم تقتلْه، ثم اعْتزل أمْرَ الناس، فيكونَ أمرُهم شُورَى بَيْنَهم، يولُّونَه مَن أجمعُوا علَيه» فقال له عليّ رضي الله عنه: «ما أنتَ ـ لا أُمَّ لك ـ والعَزْلَ وهذا الأمر؟ اسكتْ! لستَ هنالِكَ ولا بأهلٍ له» فقال: واللّهِ لَتَرَيَنِّي بحَيْثُ تكرَهُ! فقال عليٌّ: «وما أنتَ؟ لا أبقى اللّهُ علَيك إن أبقيتَ علَينا، اذْهَبْ فصَوِّبْ وصَعِّدْ[1] ما بَدا لَكَ!» وقال شُرَحْبيل: «ما كلامي إلاَّ مثلُ كلام صاحبي، فهل عندك جواب غَير هذا!» فقال عليّ نعم، عندي جواب غَيْرُه.

ثم حَمِدَ اللّهَ وأثنَى علَيه وقال: (أمَّا بَعْدُ، فإنَّ اللّهَ تعالى بعث محمدًا بالحق، فأنقذ به من الضلالة والهَلَكة، وجمع به من الفُرْقة، ثم قبضه اللّهُ إلَيه، فاستخلف الناسُ أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عُمر، فأحسنا السيرة، وعدلا في الأمة[2]، وقد وجَدْنا علَيهما أنْ توَلَّيا الأمور دوننا ونحن آلُ رسول الله ﷺ، فغفرنا لهما ذلك، وولَى الناسَ عُثمان، فعمل بأشياء عابها الناس، فسَاروا إلَيه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا مُعتزلٌ أمورَهم، فقالوا لي: بايعْ. فأبَيْتُ، فقالوا: بايعْ فإنَّ الأمَّة لا ترضَى إلاَّ بك، وإنَّا نخاف إن لم تفعل أن يتفرَّق الناس. فبايعتُهم، فلم يَرُعْني إلاَّ شِقاقُ رجُلَيْن قد بايعاني! وخلافُ مُعاويةَ الذي لم يجعل اللّهُ عزَّ وجلَّ له سابقةً في الدِّين، ولا سَلَفَ صِدْقٍ في الإسلام، طَلِيقٌ ابن طَليق[3]، وحزبٌ مِن الأحزاب، لم يَزَلْ حَرْبًا لله ولرسوله هو وأبوه حتَّى دخلا في الإسلام كارهَيْن، ولا عَجَبَ إلاَّ من خِلافِكم معه، وانقيادِكم له، وتتركون آل بيت نبيّكم الذين لا ينبغي لكم شقاقُهم ولا خِلافُهم، ألاَ إنِّي أدعوكم إلَى كتاب الله وسُنَّة نبيّه، وإماتة الباطل وإحياء الحق ومَعالِم الدين، أقول قَوْلي هذا وأستغفرُ اللّهَ لي ولكم وللمؤمنين».

فقالا: تشهَد أنَّ عُثمان قُتِل مظلومًا. قال: لا أقولُ «إنَّه قُتِل ظالمًا أو مظلومًا» قالا: مَنْ لم يزعُمْ أنه قُتِل مظلومًا فنحن منه بَرَاء. وانصرَفا فقال عليّ رضي الله عنه:

---

(١) امضِ كيف شئت وافعل ما تريد.

(٢) راجع النص باختلاف وزيادة عند ابن مزاحم في وقعة صفين ص٢٢٦.

(٣) لقد كان معاوية وأبو سفيان من أكثر المؤلبين على رسول الله ﷺ وعقب فتح مكة أطلقهما رسول الله وغيرهم من بني حرب وألّف قلوبهم لعلو خلقه وترفعه عن الانتقام وعفوه عند اقتداره.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾ [النمل: ٨٠، ٨١]. ثمَّ قال لأصحابه: لا يكنْ هؤلاءِ في الجدِّ في ضَلالِهم أجدَّ منكم في الجِدِّ في حَقِّكم.

قال: ولما انسَلَخَ شَهْرُ اللّهِ المحرَّمُ وانقضت مُدَّةِ الموادَعة أمَر عليٌّ رضي الله عنه مُناديًا فنادَى: «يا أهلَ الشام، يقول لكم أميرُ المؤمنين: قد استدَمْتُكم[1] لتُراجعوا الحقَّ وتُنيبُوا إلَيْه، فلم تنتهُوا عن الطُّغيان، ولم تُجيبوا إلَى الحقِّ، وإني قد نَبذْتُ إلَيْكُمْ عَلَى سَواءٍ، إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الخائنين»[2].

قال: واجتمع أهلُ الشام إلَى أُمَرائهم ورؤسائهم، وخرج مُعاويَة وعَمرو بن العاص يُكَتِّبانِ الكَتائب[3] ويُعَبِّئانِ الناسَ، وكذلك فعل عليّ رضي الله عنه.

وقال عليّ للناس: لا تقاتِلوهم حتَّى يُقاتلوكم، فأنتم بحمدِ اللّهِ علَى حُجَّة، وترككُم قتالَهم حتَّى يَبْدَؤُوكم حُجَّةٌ أخرَى فإذا هزَمتموهم فلا تقتُلوا مُدْبرًا، ولا تُجْهزوا على جريح، ولا تكشفوا عَورة، ولا تُمَثِّلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القَوم فلا تَهْتِكوا سِترًا، ولا تدخلوا دارًا إلاَّ بإذن، ولا تأْخذوا شيْئًا من أموالهم إلاَّ ما وجَدتم في عسْكرهم، ولا تَهيجوا امْرأةً بأذى، وإن شتَمْنَ أعراضَكم، وسبَبْن أُمراءكم وصلحاءكم، فإنَّهُنَّ ضِعافُ القُوى، والأنفس[4].

وحرَّض أصحابَه فقال رضي الله عنه: عِبادَ اللّهِ، اتَّقُوا اللّهَ، وغُضُّوا الأبْصارَ، واخْفِضُوا الأصواتَ، وأقِلُّوا الكلامَ، ووَطِّنوا أنفُسَكم علَى المُنازَلة والمجاولة والمزاولة والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة[5]، ﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦] اللهُمَّ ألهِمْهُم الصبْرَ، وأنزلْ علَيهم النصر، وأعْظِمْ لهم الأجْر.

---

(١) أبقيتكم.

(٢) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾.

(٣) الكتيبة: الجماعة في الجيش تحت قائد مخصوص، وتكتيب الكتائب تجميعها وقينها.

(٤) راجع النص باختلاف وزيادة عند ابن مزاحم في وقعة صفين ص٢٣٠، وفي الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٢٩٣.

(٥) وهذا أرقى الكلام وأوجزه وأبلغه في علم الحرب، والمنازلة نزال الفارس للفارس، والمجاولة في الحرب المداورة فيها. والمزاولة إزالة العدو أثناء قتاله. المناضلة رمي السهام نضلاً. والمعانقة، من الصراع والاصطراع باليد وكل الجسد. والمكادمة التعاض بأدنى الفم، والملازمة كالمعانقة قتال الأجساد.

وأصبح عليّ رضي الله عنه فجعل على خَيْل الكُوفة الأشْتَر، وعلى خَيْل البَصرةِ سَهْلَ بن حُنَيف(١)، وعلَى رَجَّالة الكُوفة عَمَّار بن ياسِر، وعلَى رَجَّالَةِ البَصْرة قَيْس بن سعد بن عُبَادة، وهاشِم بن عُتْبَة بن أبي وَقَّاص المعروف بالمِرْقال وجعل معه الراية، وجعل مسْعَر بن فَدَكِيّ علَى قُرَّاء أهل الكوفة وأهل البصرة.

وبعث مُعاوية علَى مَيْمَنته ابن ذي الكَلاَع الحِمْيَرِيّ، وعلَى مَيْسَرته حَبيب بن مَسْلمة الفِهْرِيّ، وعلَى مُقدِّمته أبا الأعور السُّلمي وكان علَى خَيْل دِمَشق، وعمرو بن العاص علَى خيول الشام كلها وعَلَى رَجَّالة دمشق مُسلم بن عُقْبة المُرّي، وعلى رَجَّالة الناس كلهم الضحاك بن قَيْس(٢) وبايع رجالٌ من أهل الشام علَى الموت، فعَقَلوا أنفُسهم بالعمائم، فكانوا خمسة صفوف.

والْتَقَوْا أوَّلَ يَوم من صفر سنة سبع وثلاثين، وكان الذي خرج في هذا اليوم الأشْتر علَى أهل الكوفة، وحَبيبُ بن مَسْلمة علَى أهل الشام، فاقتتلوا عامَّةَ النهار، ثمَّ تراجعوا وقد انْتصف(٣) بعضُهم من بعض.

ثمّ خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتْبة في خيل ورجال، وخرج إلَيه من أهل الشام أبو الأعْوَر السُّلمي، فاقتتلوا يومَهم ذلك، ثمَّ انصرفوا.

وخرج في اليوم الثالث عمّار بن ياسِر، وخرج إلَيه عَمرو بن العاص، فاقتتلوا أشدَّ قتال، وقال عمّار لزياد بن النَّضْر وهو علَى الخَيل: احمِل علَى أهل الشام، فحمل، وقاتله الناس وصبروا له، وحمل عمار فأزال عمرو بن العاص عن موضعه، وبارَزَ يومَئذٍ زِيادُ بن النَّضْر أخاه لأمِّه واسمه: عَمرو بن معاوية من بني المُنْتَفِق، فلمَّا الْتَقَيا تعارفا، فانصرف كلّ واحد منهما عن صاحبه، وتراجع الناس.

---

(١) ابن وهب الأنصاري الأوسي، كنيته أبو سعد، صحابي سابق، شهد بدرًا وثبت يوم أحد ولم يفته مشهد من مشاهد الرسول ﷺ كان من خيار المسلمين وخواص أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وقد استخلفه على البصرة بعد وقعة الجمل، توفي بالكوفة سنة ٣٨هـ.

(٢) الضحاك بن قيس بن خلاد الفهري القرشي، كنيته أبو أمية. شهد صفين مع معاوية وولاه الأخير الكوفة بعد وفاة زياد، صلّى على معاوية بعد وفاته، وعندما خلع معاوية بن يزيد نفسه راح صاحب الترجمة يدعو إلى عبد الله بن الزبير. وفي مرج راهط حيث جيش ضد مروان بن الحكم طريد رسول الله ﷺ الذي سار إليه وقتله سنة ٦٥هـ.

(٣) إذا أخذ كلٌ من صاحبه ما يجده حقًا وعدلاً.

وخرج من الغد في اليوم الرابع محمد بن عليّ، هو «ابن الحَنَفِيَّة»[١] وخرج إلَيْه عُبَيْد الله بن عُمر بن الخطَّاب، في جمعَيْن عظيمَين، فاقتتلوا أشدَّ القِتال، وأرسل عُبَيد الله إلَى محمد يدعوه للمُبارَزة، فخرج إلَيه، فحرَّك عليٌّ دابَّتَه، ورَدَّ ابْنَه، وبَرَز عليٌّ إلَى عُبَيد الله، فرجع عُبَيد الله، وتراجع الناس.

وخرج في اليوم الخامس عبدُ الله بن عبّاس، فخرج إلَيْه الوَليد بن عُقبة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وطلب ابنُ عبّاس الوَليدَ ليُبارِزَه فأبَى، ثم انصرفا.

وخرج في اليوم السادس قَيْس بن سعد الأنصاري وخرج إلَيْه ابن ذي الكلاع الحِمْيَرِيّ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انصرفوا.

قال: ثم عاد الأشْتَرُ يومَ الثلاثاء، وخرج إليه حَبيب، فاقتتلا قتالاً شديدًا، وانصرفا عند الظهر[٢].

ثم إنَّ عليًا رضي الله عنه قال: حَتَّى مَتَى لا نُناهِضُ هؤلاء القومَ بأجمعنا؟ فقام في الناس عَشِيةَ الثلاثاء ليلةَ الأربعاء خطيبًا، فحمد الله وأثنَى علَيه وقَال: الحمد لله الذي لا يُبْرَم ما نقَض، وما أبْرَم لم ينقُضْه الناقضون، ولو شاء الله ما اختلف اثْنانِ مِن خَلْقه، ولا اختلفت الأمَّة في شيءٍ، ولا جَحَدَ المفضولُ ذا الفَضلِ فَضْلَه، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدارُ، فنحن بمرأًى من ربِّنا ومَسْمع، فلو شاء عجَّل النِّقْمة، وكان منه التغيير، حتى يُكذبَ الظالمَ، ويُعْلِمَ المُحِقَّ[٣] أيْنَ مَصِيرُه، ولكنَّه جعل الدُّنيا دار الأعمال، وجعل الآخرةَ دار القَرار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ألاَ وإنكم لاقُون[٤] القَوْم غدًا، فأطِيلوا الليلةَ القِيامَ، وأكثروا تلاوةَ القرآن، واسألوا اللّهَ النصرَ والصبر، والقَوْهُمْ بالجِدِّ والحَزْم، وكونوا صادقين.

---

(١) ابن أبي طالب، الهاشمي، أبو القاسم كنيته، وهو أخو الإمامين الحسن والحسين ـ لأبيهما كرّم الله وجهه ـ سبطي رسول الله ﷺ من بضعته الزهراء، سلام الله عليها، أمه خولة بنت جعفر الحنفية. كان واسع العلم شجاعًا مقدامًا. سئل مرَّة: لماذا يدفع أبوك بك إلى مقدم الحرب ويؤخر ولديه الحسن والحسين؟ فأجاب: إنما الحسن والحسين عينا أبي وأنا يمينه والمرء يذب عن عينيه بيمينه. توفي إلى رضوان الله ورحمته سنة ٨١هـ في الطائف.

(٢) في النص زيادة مأخوذة من ابن الأثير ج٣ ص٢٩٥.

(٣) النص باختلاف يسير عند ابن أبي الحديد في شرح النهج ج١ ص٤٨١.

(٤) كذا في النص.

فقام القومُ يُصلحون سِلاحَهم، فمر بهم كَعْب بن جُعَيْل[(١)] فقال: [من الرجز]

أصبَحَتِ الأُمَّـة فـي أمـرِ عَـجَـبْ والـمُـلْـكُ مجموعٌ غَـدًا لِـمَـنْ غَـلَـبْ
فـقـلـتُ قَـوْلاً صادقًا غَـيْـرَ كَـذِبْ: إنَّ غَـدًا تَـهْـلِـكُ أعْـلامُ الـعَـرَبْ!

ذكر الحروب التي كانت بصفين بعد الأيام الستة في يومي الأربعاء والخميس وليلة الهرير ويوم الجمعة إلى أن رُفِعت المصاحف وتقرَّر أمر الحكمَيْن

قال: وعَبَّأ عليّ رضي الله عنه الناسَ ليلتَه حتَّى الصباح، وزحَف بالناس، وخرج إلَيه مُعاوية في أهل الشام، فسأل عليٌّ عن القبائل من أهل الشام، فعرف مواقِفَهم، فقال للأزْد: اكْفُونا الأزْدَ، وقال لخَثْعَم: اكْفُونا خَثْعَم، وأمَرَ كُلَّ قبيلة أن تَكفِيَه أختهَا من الشام، إلاّ أنْ تكونَ قبيلة لَيس منها بالشام أحَدٌ فيصرِفها إلَى قبيلة أُخرى لَيس بالعراق منهم أحد، مثل بَجِيلة، لم يكن بالشام منها أحد إلاّ القليل، فصرفهم إلى لَخْم.

فتناهض الناسُ يَومَ الأربعاء، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غَيْرُ غالب.

فلمّا كان يوم الخميس صلَّى عليٌّ بغَلَس[(٢)]، وخرج بالناس إلَى أهل الشام، وجعل عليٌّ رضي الله عنه علَى مَيمنَته عبد الله بن بُدَيْل بن وَرَقاء الخُزَاعيّ[(٣)] وله صحبة، وكان مِمَّنْ أسلم يَوْمَ الفَتْح، وقيل: قبْله، وجعل علَى مَيْسَرته عبدَ الله بن عبّاس، والقُرَّاء مع ثلاثة نفَر: عَمَّار بن ياسر وقَيْس بن سعد وعبد الله بن بُدَيْل، والناس على راياتهم ومَراكزهم، وعليٌّ رضي الله عنه في القَلْب في أهل المدينة بين

---

(١) كعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبي، مخضرم. صحب معاوية وشهد معه صفين وذبَّ عنه متطاولاً على الأئمة وكبار الصحابة. غير أنه أبى أن يهجو الأنصار ودل يزيد بن معاوية على الأخطل. راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٢) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٣) صحابي، نجيب، فصيح، قوي شجاع، سيد بني خزاعة، شهد من الحروب حنين والطائف وتبوك، كان من أصحاب الإمام علي الشجعان، قاد الرجّالة، وفي صفين بلغ من شجاعته أنه اقتحم مع نفر جيش معاوية فأزالهم حتى انتهى إليه فتكاثرت عليه الرجال فلاقى وجه ربه. راجع الإصابة ترجمة ٤٥٥.

أهل الكوفة والبَصرة، وأكثر مَن معه من أهل المدينة الأنصار، ومعه عدد من خُزَاعة وكِنانة وغيرهم من أهل المدينة.

وزحَف عليٌّ رضي الله عنه بهم إلَى أهل الشام، ورفع مُعاوية قُبَّة عظيمة، وألْقَى عليها الثياب[١]، وبايعه أكثَرُ أهل الشام علَى الموت، وأحاط بقُبَّته خَيْلُ دمشق، وزحف عبد الله بن بُدَيْل في المَيْمنَة نحو حبيب بن مَسْلَمة وهو في المَيْسَرة، فلم يزل يَحُوزُهم[٢] ويكشِفُ[٣] خيلَهم حَتَّى اضطَرَّهُم إلَى قُبَّة مُعاوية عند الظُّهر.

وحرَّض عبدُ الله بن بُدَيْل أصحابَه، فقال بعْدَ أن حمِد اللّهَ وأثنَى علَيه، وصلَّى علَى النبيّ علِيه الصلاة والسلام: ألا إنَّ مُعاوية ادَّعَى ما لَيس له، ونازَعَ الحقَّ أهلَه، وعانَد مَن لَيس مثْلَه، وجادَل بالباطل لِيُدْحِضَ به الحقَّ، وصال علَيكم، بالأعراب[٤] والأحزاب[٥] الذين زَيَّنَ لهم الضَّلالة، وزرَع في قلوبهم حبَّ الفِتنة، ولَبَّسَ علَيهم الأمر، وزادهم رِجْسًا إلَى رِجْسِهم، وأنتم والله على الحق، على نور من ربكم وبرهان مبين، فقاتلوا الطُّغاة الجُفاة ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤]، قاتِلوا الفِئَة الباغِيَة الَّذِينَ نازَعوا الأمْرَ أهله، وقد قاتلتُموهم معَ رسول الله ﷺ، فواللّهِ ما هم في هذه بأزْكَى ولا أتْقَى ولا أبَرَّ[٦]، قوموا إلَى عَدُو الله وعدُوِّكمْ رحمكم الله.

وقال الشَّعْبِي: كان عبد الله بن بُدَيْل رحمه الله في صِفِّين عَلَيه دِرْعانِ وسَيْفانِ، وكان يَضْرِبُ أهلَ الشام ويقول: [من الرجز]

لَم يبقَ إلاّ الصَّبرُ والتوكُّلْ مع التمشي في الرعيل الأولْ
مشيُ الجمال في حياض المنهل والله يقضي ما يشاء ويفعلْ

ولم يَزَلْ يضربُ بسَيْفه حتَّى انْتَهَى إلَى مُعاوية فأزاله عن مَوْقِفه وأزال أصحابه الذين كانوا معه، وسنذكر خبر مَقتله في هذا اليَوْم في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) إذا كان ذلك أبدًا أسلوب معاوية، استخدام مال الله في غير سبيله والثياب كانت إحدى نفائس المعطيات والهبات.
(٢) تقرر وجهتهم. (٣) يزيلها.
(٤) الذين هم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.
(٥) الأحزاب ردًا إلى الأحزاب التي حزبها أبو سفيان ضد رسول الله ﷺ.
(٦) إشارة إلى أن عناصر الشقاق والخروج على أحكام الدين بإزكاء الفتنة على قواعد قبلية هم نفسهم العناصر التي شاقت الرسول ﷺ.

قال: وحَرَّض عليٌّ رضي الله عنه أصحابَه، فقال رضي الله عنه في كلام له: فسَوُّوا صفوفَكم كالبُنْيَان المَرْصُوص[(١)]، وقَدِّموا الدَّارع[(٢)]، وأخروا الحاسِر[(٣)]، وعَضُّوا علَى الأضراس، فإنَّه أنْبَى[(٤)] للسُّيُوف عن الهَام، والْتَوَوا في أطراف الرِّماح، فإنَّهُ أمْوَرُ[(٥)] للأسِنَّة، وغُضُّوا الأبصار، فإنه أرْبَطُ للجَأش، وأسْكَنُ للقلوب، وأمِيتُوا الأصوات، فإنَّه أطْرَدُ للفشل، وأوْلَى بالوَقار، راياتِكم فلا تُمِيلُوها ولا تُزيلوها ولا تَجعلوها إلاَّ بأيْدِي شُجْعانِكم، واستعينوا بالصدق والصبر، فإن بعد الصبر ينزل النصر.

قال: وقام يَزيدُ بن قَيْس الأرْحَبِيُّ[(٦)] يُحَرِّض الناس، فقال: إنَّ المسلم من سلم في دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم واللّهِ ما يقاتلوننا إلا علَى هذه الدنيا ليكونوا جَبَّارين فيها[(٧)] مُلوكًا، فلو ظَهروا عَلَيكم، لا أراهم الله ظُهُورًا ولا سُرورًا، لَرَمَوْكم بمثْلِ سَعِيد والوَلِيد وابْنِ عامر السَّفِيه الضَّالِّ، يُجيزُ أحَدَهم بمثل دِيَتِه ودِيَة أبيه وجده في مجلسه، ثم يقول: «هذا لي ولا إثْمَ عَلَيّ»، كأنما أُعْطِيَ تُراثه عن أبيه وأمِّه، وإنما هو مالُ اللّهِ أفاءه اللّهُ عَلَينا بأرماحنا وسيوفنا، فقاتلوا عِبادَ الله القوم الظالمين، فإنَّهم إن يَظْهَروا عَلَيكم يفْسِدوا عَلَيكم دِينكم ودُنْياكم، وهم مَن قد عرَفتمْ وخَبَرْتم، واللّهِ ما ازْدادوا إلَى يومِهم إلاَّ شرًّا.

قال: ولما انْتَهَى عبد اللّهِ بن بُدَيل بمَن معه إلَى قُبَّةِ مُعاوية؛ أقبل الذين تَبايَعوا علَى الموت إلَى مُعاوية، فأمرهم أنْ يَصْمدوا لابْنِ بُدَيْل في المَيْمَنة، وبعث إلى حبيب بن مَسْلَمة فحَمَل بالمَيْسرة علَى مَيْمَنةِ عليٍّ فهزمهم، وانْكَشَف أهل العِراق مِن

---

(١) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

(٢) الذي يلبس الدرع اتقاء السيوف والرماح والنبال.

(٣) الذي ليس عليه ما يتقي به آلة الحرب.

(٤) نبا السيف إذا لم يعمل، وارتد دون جرح أو نفاذ.

(٥) باب مور، أكفأ، لأنها تجيء بدون غاية ولا تحقق مرامًا.

(٦) ابن تمام بن حاجب الأرحبي، من بني صعب من دومان من همدان من عظماء اليمانيين. أقام في الكوفة وولاه أهلها أمرهم بعد ثورتهم على سعيد بن العاص. شهد مع الإمام علي حروبه، وتولى شرطته، وتولى له أصبهان والري وهمذان. خطيب فصيح شجاع. استشهد في صفين سنة ٣٧هـ. راجع الإصابة ترجمة ٩٤٠٩.

(٧) ولعمر الله صدق.

قِبَل المَيْمَنة حتَّى لم يَبْقَ إلاَّ ابْنُ بُدَيْل في مِائتين أو ثلاثِمِائةِ من القُرَّاء، قد اسْتند بعضُهم إلَى بعض، وانجفل[١] الناس.

وأمر عليٌّ سهْل بن حُنَيْف فاسْتقدم فيمن كان معه من أهل المدينة، فاستقبلتهم جُموع عظيمة لأهل الشام فاحتملتهم حتَّى أوقفتهم في المَيْمنَة، وكان أهل اليمن فيما بَين المَيْمَنة إلَى مَوْقِف عليّ في القَلْب، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلَى عليّ رضي الله عنه، فانصرف يمشي نحو المَيْسَرة، فانكشف عنه مُضَر من المَيْسَرة، وثَبَتَتْ ربيعة، ودنا أهل الشام منه فما زاده قربهم إلا إسراعًا[٢].

وكان الحسن والحُسَين ومحمد بنو عليّ رضي الله عنه معه، والنَّبْلُ يَمُرُّ بَيْن عاتِقِه ومَنْكِبِه، وما مِنْ بَنِيهِ أحدٌ إلاَّ يَقِيه بنفسه، فبَصُر به أحمر مولى أبي سفيان أو عُثمان، فأقبل نحوه، فخرج إليه كَيْسان مولى عليّ فاختلفا ضربتَيْن، فقتله أحْمَر، فأخذ عليّ بجنب[٣] دِرْع أحْمَر فجذبه وحمله علَى عاتِقِه ثم ضرب به الأرضَ فكسر مَنْكِبَيه وعضديه.

قال: ولما دنا منه أهلُ الشام قال له الحسن رضي الله عنه: ما ضَرَّك لو سَعَيْت حتَّى تَنْتَهِيَ إلَى هؤلاء القوم من أصحابك؟ فقال: يا بُنَيَّ إنَّ لأبيك يومًا لا يَعْدوه ولا يُبطىءُ به عنه السَّعْيُ، ولاَ يعجِّل به إلَيْه المَشْيُ، إنَّ أباك والله لا يبالي أوقع علَى الموت أم وقع الموت عليه.

قال: ولما وصل إلَى رَبيعة نادى بصوت عالٍ كغير المُكْتَرِث لما فيه الناس: لمنْ هذه الرايات؟ قالوا: رايات ربيعة. قال: بل راياتٌ عَصَم اللّهُ أهلَها، فصبَّرَهم وثبَّتَ أقدامَهم. وقال لحُضَيْن بن المُنْذِر[٤]: يا فتى ألاَ تُدْنِي رايتَك هذه ذراعًا؟ قال: والله عشرة أذْرُع فأدناها حتَّى قال عليّ رضي الله عنه: حسْبُك مَكانُك.

قال: ولمَّا انْتَهَى عليٌّ إلَى رَبيعة تنادَوْا بَيْنَهم: إنْ أُصِيبَ فيكم أمِيرُ المؤمنين وفيكم رجل حيٌّ افْتضحتم في العرب! فقاتلوا قتالاً شديدًا ما قاتلوا مثله، فلذلك قال علي رضي الله عنه: [من الطويل]

لِـمَـنْ رايَـةٌ سَـوداءُ يَـخْـفـقُ ظِـلُّـهـا إذا قيـلَ «قَـدِّمْـهـا حُـضَـيْـنُ»[٥] تَـقَـدَّمَـا

---

(١) ارتدوا.

(٢) أراد نحوهم غير خائف أو وجل، وهذه صفته كرّم الله وجهه.

(٣) بطرف.

(٤) ابن الحارث بن وعلة الذهلي الشيباني الرقاشي، كنيته أبو اليقظان: سيد ربيعة وأحد شجعانهم. حصيف بليغ، كانت له راية الإمام علي كرّم الله وجهه في صفين. وقد ولاه الإمام إصطخر. توفي سنة ٩٧هـ.

(٥) صاحب الترجمة، والقصة أعلاه.

ويُقْدمُها في المَوْتِ حَتَّى يُزِيرَها حياضَ المَنايا تَقْطُرُ المَوتَ والدَّمَا
أَذَقْنَا ابْنَ حَرْبٍ[١] طَعْنَنَا وضِرَابَنا بأَسْيافِنَا حَتَّى تَوَلَّى وأَحْجَمَا[٢]
جَزَى اللّهُ قَوْمًا صابَرُوا في لِقَائهِمْ لَدَى المَوْت قومًا ما أَعَفَّ وأكْرَمَا!
وأَطْيَبَ أَخْبَارًا وأَكْرَمَ شِيمَةً إذا كان أَصْواتُ الرِّجال تَغَمْغُمَا[٣]
رَبِيعَةَ أَعْنِي أَهْلَ بَأْسٍ ونَجْدَةٍ إذا ما هُمُو لاقَوْا خَمِيسًا عَرَمْرَمَا[٤]

قال: ومَرَّ الأشْتَرُ بعليّ وهو يقصد المَيْسَرة، والأَشْتَرُ يركُض نحو الفَزَع[٥] قِبَلَ المَيْمَنة، فقال له عليٌّ: إيتِ هؤلاءِ القَومَ فقل لهم «أيْن فِرارُكم مِن الموت الذي لن تُعْجِزوه إلَى الحياة التي لا تبقَى لكم؟». فمضى الأشتر فاستقبل الناس مُنهزِمين، فقال لهم ما قال عليٌّ، ثم قال: «أيُّها الناس أنا الأشتر، إلَيّ أنا الأشتر»، فأقبل إلَيه بعضُهم وذهب البعض، فنادى: «أيُّها الناس، ما أقْبَحَ ما قاتلتم مُنْذُ اليوم! أخلِصوا إليَّ مَذْحِجًا» فأقبلتْ مَذْحِج إلَيْه، فقال لهم: «ما أرضَيْتم رَبَّكم، ولا نصحتم له في عَدُوِّكم، وكيف ذلك وأنتم أبناءُ الحرب، وأصحاب الغارات، وفِتْيان الصياح، وفُرْسان الطِّراد[٦]، وحُتُوف الأقران[٧]، ومَذْحج الطِّعَان الذين لم يكونوا يُسْبَقون بثأرهم، ولا تُطَلُّ[٨] دماؤهم، وما تَفعلون هذا اليومَ فإنه مأثور عنكم بعده، فانصَحُوا واصْدُقُوا عدُوَّكم اللِقاء، فإن الله مع الصادقين، والذي نفسي بِيَدِه ما مِن هؤلاء، وأشار إلَى أهل الشام، رجلٌ علَى مِثْل جَناح بَعُوضة مِن محمد، اجلوا سواد وجهي يرجع فيه دمه، علَيكم بهذا السواد الأعظم، فإن الله لو قد فضَّه تَبِعه مَن بجانبيه!»[٩]. قالوا: تَجِدُنا حيْث أحببتَ. فَقصد نحو عُظْمِهم[١٠] مِمَّا يَلِي المَيْمَنة يَزْحَف إلَيْهم ويرُدُّهم.

واستقبله شباب من هَمْدان، وكانوا ثمانِمائَة مقاتل يومَئِذ، وكانوا صبروا في المَيْمَنة حتَّى أُصيب منهم ثمانون ومائةُ رجل، وقتِل منهم أحَدَ عشَرَ رئيسًا: كان أوّلُهم

(١) معاوية بن أبي سفيان كناه بجده الأعلى. (٢) تراجع وانكفأ.
(٣) الغمغمة: كلام لا يفهم ولا يفصح قائله توجسًا أو جبنًا.
(٤) الجيش الكثير.
(٥) أراد حيث كان الالتحام الأكبر وحكمن الانهزام في جيشه.
(٦) أولو البأس في اتباع الشجعان من الخصوم.
(٧) البطل الكفء. (٨) لا تذهب دماؤهم هدرًا.
(٩) انظر النص باختلاف يسير شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جـ١ ص٤٨٧.
(١٠) كذا، ولعله أراد الجم الكثير منهم.

ذُؤَيب بن[1] شُرَيْح، ثم شُرَحْبِيل، ثم مَرْثَد، ثم هُبَيْرة، ثم يَرِيم، ثم سُمَير، أولاد شُرَيْح قُتِلوا، ثم أخذ الراية عميرة ثم الحارث ابنا بشير فقُتلا، ثم أخذها سُفْيان وعبد الله وبَكر بَنُو زَيد فقتِلوا جَميعًا، ثم أخذ الراية وَهْب بن كُرَيْب فانصرف هو وقومُه وهم يقولون: «لَيْت لنا عِدَّتَنا من العرب، يُحالفوننا علَى الموت، ثمَّ نَرجِع، فلا نَنصرف أو نُقتَلَ أو نَظْفَرَا!»، فسمعهم الأشْتَر فقال لهم: أنا أُحالفكم علَى ألاَّ نَرْجِعَ أبدًا حتَّى نَظْفَرَ أو نَهْلِكَ جميعًا! فوقفوا معه.

قال: وزحَف الأشتر نحو المَيمَنة، وثاب إليه الناس وتراجعوا من أهلِ البصرة وغيرهم، فلم يقصد كَتيبة إلاَّ كشَفها، ولا جمعًا إلاَّ حازَه وردَّه، وقاتل قتالاً شديدًا، ولزمه الحارث بن جُمهان الجُعفِيّ، فما زال هو ومَن رجَع إلَيه يُقاتلون حتَّى كَشَف أهلَ الشام، وألحَقَهم بمعاوية والصفِّ الذي معه[2]، وذلك بين صلاة العصر والمغرب، وانتهى إلَى عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء وهو في عِصابة من القُرَّاء نحو المِائَتَيْن أو الثلاثِمائَة قد لصِقوا بالأرض كأنَّهم جُثًا[3]، فكشف عنهم أهلَ الشام فأبصروا إخْوانَهم، فقالوا: ما فَعل أميرُ المؤمنين قال: حيٌّ صالح في المَيْسَرة يُقاتل الناس أمامَه. فقالوا: الحمد لله قد كنَّا ظننَّا أنْ قد هَلَكَ وهلكتم. ثم قال عبد الله بن بُدَيْل رحمه الله لأصحابه: اسْتقْدِموا بنا. فقال له الأشتَر: «لا تفعلْ، واثبُتْ مع الناس، فقاتلْ، فإنه خيرٌ لهم وأبقَى لك ولأصحابك»، فأبَى، ومضَى نحو مُعاوية وحولَه كأمثال الجبال، وخرج عبد الله أمامَ أصحابه فقتَل مَن دنا منه، حتَّى قَتَلَ جماعة، ودنا مِن مُعاوية، فنهض إلَيه الناس من كل جانب، وأُحيطَ به وبطائفة من أصحابه، فقاتل حتَّى قُتِل، وقتِل ناسٌ من أصحابه، ورجعتْ طائفةٌ منهم مُجرحين، فبعَث الأشتر الحارث بْنَ جُمْهان الجُعْفِيَّ، فحمل علَى أهل الشام الذين يتبعون مَن انهزم من أصحاب عبد الله، حتَّى نَفَّسُوا عنهم[4]، وانتهَوْا إلَى الأشتر.

وحكى أبو عُمَر بن عبد البر عن الشعبي في قتل عبد الله: أنَّه لما انتهَى إلَى مُعاوية أزاله وأزال أصحابَه عن مَواقفهم، وكان مع معاوية يومَئذ عبد الله بن عامر، فأقبل أصْحاب معاوية علَى عبد الله بن بدَيْل يرجُمونه بالحجارة حتَّى أثْخَنوه، وقُتِل، فأقبل مُعاوية وعبد الله بن عامر معه، فألقَى علَيه ابنُ عامر عِمامتَه غَطَّى بها وجهه،

---

(١) الهمداني، شريف شجاع، وسيد من سادات همدان، كان من أصحاب الإمام علي كرّم الله وجهه، وقتل معه في صفين. راجع الكامل لابن الأثير ج٣ ص١١٩.

(٢) أراد مؤخرة الجيش، حيث معاوية وجنده الذين كان في المؤخرة.

(٣) ما اجتمع من التراب، والواحدة جثوة.

(٤) أراحوهم، آخذين عنهم ما ثقل عليهم في القتال.

وترحَّم علَيه[١]، فقال معاوية: اكشفوا وجهه. فقال ابن عامر: والله لا تمثلْ[٢] به وفيَّ روح! فقال معاوية: اكشفوا عن وجهه فقد وهبناه لك. ففعلوا، فقال معاوية: هذا كبشُ[٣] القوم وربِّ الكعبة، اللهم أظفر بالأشتر والأشعث بن قيس، والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

أخُو الحرب إنْ عَضَّتْ به الحرْبُ عَضَّها وإنْ شَمَّرَتْ[٥] يومًا به الحربُ شَمَّرَا[٦]
كَلَيْثِ هِزَبْرٍ[٧] كان يَحمي ذمارَهُ رَمَتْهُ المَنَايَا قَصْدَها فَتَقَطَّرَا

ثمَّ قال مُعاوية: إنَّ نساء خُزاعة لو قَدَرَتْ أنْ تُقاتلَني فَضْلاً عن رجالها لفعلتْ. انتَهى كلام الشَّعْبي.

قال: وزحَف الأشترُ لعَكٍّ والأشعَريِّين، وقال لمَذْحج: اكْفُونا عكًّا. ووقف في هَمْدان وقال لكنْدَة: اكْفُونا الأشعريِّين. فاقْتتلوا قِتالاً شديدًا إلى المساء، وقاتلهم الأشترُ في هَمْدان وطوائف من الناس، فما زال أهل الشام عن مواضعهم حتى ألحقوهم بالصفوف الخمسة المُعَقلة بالعَمائم[٨] حَوْل مُعاوِية، ثم حمل عليْهم حملةً أُخرَى فصَرعَ أربعة صفوف من المُعَقَّلين بالعمائم.

ودعا مُعاوية بفرسه فركبه، وكان يقول: أردتُ أنْ أنهزِمَ فذكرتُ قول ابن الإطْنابة[٩] وكان جاهليًا: [من الوافر]

أَبَتْ لي عِفَّتي وأَبَى بَلائي وإقْدامي عَلَى البَطَل المُشِيحِ[١٠]
وإعطائي عَلَى المكروه مالي وأخْذي الحَمْدَ بالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وقَوْلي كُلَّما جَشَأَتْ وجاشَتْ[١١]: مَكانَكِ تُحْمَدي أوْ تَسْتَرِيحي

---

(١) في شرح النهج لابن أبي الحديد زيادة راجعها جا ص٤٨٦.
(٢) التمثيل بالميت: اضطهاد جثة الميت. (٣) كبيرهم.
(٤) هو حاتم الطائي كما في رواية الطبري جه ص٢٤.
(٥) مشت. (٦) استعد وسار.
(٧) الأسد القوي.
(٨) وكان بضع مائتين وقيل أكثر عقلوا ـ شدوا ـ عمائمهم إلى بعضها، وعاهدوا على الموت.
(٩) عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبي الخزرجي، شاعر جاهلي، معدود من الفرسان، اشتهر بنسبته إلى أمه الإطنابة بنت شهاب من بني القين. راجع الأغاني جا١ ص١٢١.
(١٠) البطل المشيح: الذي يدور في حلبة الصراع إبرازًا لشجاعته.
(١١) أراد أنه يقول لنفسه كلما دفعها الخوف للتوق إلى الفرار اتقاءً وحرصًا دعاها إلى التثبت لما ستلاقيه من التقدير حال الفوز، أو الراحة التي لا بد سائرة إليها كل نفس.

قال: فمنعَني هذا القول من الفرار، ونظر إلى عمرو فقال له: «اليَوْمَ صَبْرٌ، وغدًا فخر». فقال: صدقت.

قال[١]: وتقدم عُقْبَة بن حديد النميري وهو يقول: «ألا إن مَرْعَى الدُّنيَا أصبح هَشِيمًا[٢]، وشجرها حَصِيدًا[٣]، وجَديدها سَمِلاً[٤]، وحُلْوها مُرّ المَذاق، وإني قد سئِمْتُ الدنيا، وإنِّي أتمنى الشهادة وأتعرضُ لها في كل جَيشٍ وغارة، فأبى اللّهُ إلا أنْ يُبلغني هذا اليَوم، وإنِّي متعرِّضٌ لها مِن ساعتي هذه، وقد طمِعْتُ ألا أُحْرَمَها، فما تنتظرون عبادَ اللّهِ بجهاد من عادَى الله! في كلام طويل[٥]، وقال: يا إخْوَتي، قد بِعْتُ هذه الدارَ بالتَّي أمامَها، وهذا وجهي إلَيها! فتبِعَه إخوتُه عُبَيد الله وعَوْف ومالك، وقالوا: لا نطلُبُ رِزق الدنيا بعدَك! فقاتلو حتى قُتلوا، وهم من أصحاب عليّ.

وكان مِمنْ قُتِل في هذا اليَوْمَ من أصحاب عليّ أبو شداد قَيْس بن المَكْشُوح[٦]، واسْمُ المَكْشوح: هُبَيْرة بن هِلال[٧] عند أكثرهم، وكان قيْسٌ يَوْمَئِذٍ صاحِبَ راية بَجِيلة، وذلك أن بَجيلة قالت له: يا أبا شداد خُذْ رايتنا اليَوم. فقال: غيْري خيْرٌ لكم. قالوا: ما نُريد غيْرَك. قال: فوالله لئِن أعطيْتُمونيها لا أنتهي بكم دُونَ صاحب التُرْس المُذْهَب، وكان على رأْس مُعاوية رجلٌ قائم معه تُرْسٌ مُذْهَب يستُر به مُعاوية من الشمس، قالوا: اصْنعْ ما شِئْت. فأخذ الراية ثم زحف بها، فجعل يُطاعِنُهم حتى انْتَهَى إلى صاحب التُّرْس، وكان في خيْل عظيمة، فاقْتتل الناسُ قتالاً شديدًا، وشدّ أبو شداد على صاحب التُرْس وقيل: كان صاحب التُّرْس المُذْهَب عبد الرحمٰن بن خالد بن الوَليد[٨] فاعْترضه دُونه مَوْلًى رُوميّ لمُعاوية، فضرب قدَمَ أبي شدّاد فقطعها، وضربه أبو شدّاد فقتله، وأُشْرِعَتْ إليه الرماح فقتلوه، وأخذ الراية عبدُ الله بن قَلْع الأحْمَسِي، فقاتل حتى قُتل، ثم أخذها عَفِيف بن إيَاس فلم تزلْ في يَدِه حتى تحاجَز الناس. وقُتل غيْرُ هؤلاءِ مِمّنْ له صحبة.

---

(١) أي ابن الأثير.
(٢) اليابس من العشب.
(٣) الشجر المقطوع.
(٤) الرث البالي.
(٥) راجع الطبري باختلاف في نسبه جـ٥ ص٢٥.
(٦) قيس بن هبيرة الملقب بمكشوح بن هلال البجلي، صحابي، شجاع، شاعر، وهو سيد بجيلة وفارسها في الجاهلية. كنيته أبو شداد. شارك في فتوح القادسية، ونهاوند، وكان من أصحاب الإمام علي كرّم الله وجهه، وقتل في صفين. عمرو بن معد يكرب خاله، وله نقائض معه في الجاهلية. توفي إلى ربه سنة ٣٧هـ.
(٧) أبوه قيس بن هبيرة الملقب بالمكشوح وهو الذي ضرب على كشه.
(٨) لاحظ ما الذي فعله معاوية بالناس قبل أن يتأمّر، فهذا عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد سيف الله، يحمل ترسًا مذهبًا ليرد الشب عن معاوية كأي عبد مسترق.

قال: وخرجَتْ حِمْيَر في جمعها ومَن انْضم إليْها من أهل الشام، وتقدمَهم ذو الكلاع[١]، ومعهم عُبَيْد الله بن عُمَر بن الخطاب وهم مَيْمَنة أهل الشام، فقصدوا رَبيعة مِن أهل العراق، وكانت رَبيعة مَيْسَرة أهل العراق، وفيهم ابن عبّاس، فحملوا على رَبيعة حملةً شديدة، فتضعْضعَت رايةُ رَبيعة، وكانت الراية مع أبي ساسان حُضيْن بن المُنْذر، فانْصَرَف أهلُ الشام عنهم، ثم كرّ عُبيْد الله بن عمر وقال: يا أهل الشام، إن هذا الحي من أهل العراق قتلةُ عُثمان وأنصارُ عليّ، فشدوا على الناس شدَّة عظيمة، فثبتت رَبيعة وصبرَت صبرًا حسنًا إلاّ قليلاً من الضُعَفاء والفَشَلة، وثبت أهلُ الرايات وأهل الصبر والحفاظ وقاتلوا قتالاً حسنًا، ثم تراجع مَن انْهزَم مِن رَبيعة، واشتد القتال حتَّى كثُرَت القَتْلى، فقُتل سُمَيْر بن الريان العِجْليّ، وكان شديدَ البأْس، وأتى زِياد بن خَصَفة عَبْدَ القيس فأعلمهم بما لقِيَتْ بَكرُ بْن وائل مِن حِمْيَر، وقال: يا عَبْد القَيْس لا بَكرَ بَعْدَ اليَوم! فقاتلوا معهم، فقُتِل ذُو الكلاع الحِمْيَري وعُبَيْد الله بن عُمر بن الخطاب، وجرح عمَّار بن ياسِر فقال: «اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي لو أعلَم أن رِضاك في أنْ أضعَ ظُبَة[٢] سيفي في بطني ثم أنحَني علَيْها حتَّى تخرُجَ مِن ظهري لفعلتُه! وإنِّي لا أعلَم اليوم عملاً هو أرضَى لك من جِهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم عملاً هو أرضَى لك منه لَفعلتُه! واللّهِ إنّي لأرَى قومًا ليضرِبُنَّكم ضربًا يَرْتابُ منه المُبْطلون، وأيْمُ اللّهِ لو ضربونا حتَّى يَبْلُغوا بنا سَعفاتِ[٣] هَجَرَ لعلِمْتُ أننا علَى الحق وأنَّهم علَى الباطل!» ثم قال: «مَن يَبْتغي رِضْوانَ رَبِّه فلا يرجع إلَى مال ولا ولد!» فأتاه عصابة فقال: «اقْصِدوا بنا هؤلاءِ القَوْمَ الذين يطلبون دَمَ عُثمان، واللّهِ ما أرادوا الطلَبَ بدَمِه، ولكنَّهم ذاقوا الدنيا واستحبُّوها، وعلِموا أنَّ الحقَّ إذا لزِمَهم حالَ بَيْنَهم وبَيْنَ ما يتمرَّغون فيه مِنها، ولم تكن لهم سابِقة يستحقُّون بها طاعةَ الناسِ والولايةَ علَيْهم، فخدَعُوا أتْباعَهم أنْ قالوا: إمامُنا قُتِلَ مَظلومًا، ليكونوا بذلك جَبابِرة مُلوكًا، فبلغوا ما تَرَوْن، ولولا هذه ما تبِعَهم من الناس رجُلانِ، اللهمَّ إن تنصُرْنا فطال ما نصرتَ، وإن جعلت لهم الأمر فادَّخِرْ لهم بما أحدثوا في عبادك العذابَ الأليم!» ثم

---

(١) وهو غير ذي القلاع الأكبر المشهور، والذي بالنص يعرف بذي الكلاع الأصغر، سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر، أبو شراحيل الحميري. كان في جيش معاوية أيام صفين وفيها قتل سنة ٣٧هـ. راجع تهذيب ابن عساكر جـ٥ ص٢٦٦.

(٢) ظبة السيف: رأسه.

(٣) جمع سعفة وهي غصن النخل، وهجر بفتح أوله وثانيه، والهجر بلغة حمير القرية، وهجر مدينة في البحرين ولعله البحرين كلها تجوزًا من باب تسميت بالكل بالجزء، وقد أرادها عمار رضوان الله عليه للمباعدة.

مضَى ومعه تلك العِصابة، فكان لا يمُرُّ بادٍ من أودِية صِفِّين إلاَّ تَبِعَه مَن كان هناك من أصحاب النبيّ ﷺ.

ثم جاء إلَى هاشم بن عُتْبة بن أبي وَقَّاص ـ وهو المِرْقال ـ وكان صاحبَ راية عليّ رضي الله عنه، فقال: «يا هاشم، أعَوَرًا وجُبْنًا؟ لا خيْرَ في أعْوَرَ لا يَغشى البَأس، ارْكب يا هاشم» فركب معه وهو يقول: [من الرجز]

أعْـوَرُ يَـبْـغـي أهْـلَـه مَـحَـلاً قـد عـالـج الـحـيـاةَ حـتَّـى مَـلاً
لا بُـدَّ أنْ يَـفُـلَّ[١] أو يُـفَـلاَّ يَـتُـلُّـهـم[٢] بـذِي الـكُـعُـوبِ[٣] تَـلاً

وعَمَّار يقول: «تقدَّمْ يا هاشم، الجنَّةُ تحت ظلال السيوف[٤]، والمَوْتُ في أطراف الأسل، وقد فُتِحَتْ أبوابُ السماء، وتَزَيَّنَت الحُورُ العِين، اليَوْم ألْقَى الأحِبَّة، محمَّدًا وحِزبه[٥]!».

وتقدَّم حتَّى دنا مِن عَمْرو بن العاص، فقال له: «يا عَمْرو، بِعْتَ دِينك بمصر! تَبًّا لَكَ! تَبًّا لك!» فقال: لا ولكن أطلبُ دَمَ عُثمان. قال: «أشهد علَى عِلْمِي فيك إنَّك لا تطلب بشيءٍ مِن فِعْلك وَجْهَ الله، وأنك إنْ لم تُقْتَل اليَوْمَ تَمُت غدًا، فانظرْ إذا أُعطِيَ الناسُ علَى نِيَّاتِهم ما نِيَّتُك؟ لقد قاتلْتُ [و][٦]صاحبَ هذه الراية ثلاثًا مع رسول الله ﷺ، وهذا الرابعة ما هي بأبَرَّ ولا أتْقَى!».

ثم قاتل عَمَّار فلم يرجع، وقُتِل، وقال قَبْلَ أن يُقْتَلَ: ايتُوني بآخِرِ رِزقٍ لي من الدنيا! فأُتِيَ بِضَياحٍ[٧] من لَبن في قَدَح، وكان رسول الله ﷺ قال: «تقتُل عَمارًا الفِئَةُ الباغية، وإنَّ آخِر رِزقه ضَياحٌ مِنْ لَبَن»[٨] والضياح: الممزوجُ بالماء من اللبن.

---

(١) الفلل: انكسار السيف أو تشعب حده.
(٢) يتلهم: يزعزعهم ويقلقلهم.
(٣) ذي الكعوب: من أسماء الرمح.
(٤) «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» راجع صحيح البخاري باب الجهاد ص١١٢.
(٥) واصفًا حال الشهيد الذي وعد بالجنة وما فيها.
(٦) إضافة يقتضيها السياق، لأن في النص إلفات، وعمار ينتقل من خطابه لعمرو بن العاص والحديث عنه إلى الحديث عن نفسه [و] هي واو المعية، فيقول: لقد قاتلت أنا وصاحب الراية أراد به الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ثلاثًا.. وهذه الرابعة أي يوم صفين كغيرها من أيام الرسول ضد الأحزاب.
(٧) الضياح: اللبن رائبًا يُمزج ماءً.
(٨) راجع الحديث في صحيح البخاري باب الصلاة ص٦٣.

قال: وقَتَلة أبو الغادِيَة[(١)]، واحتزَّ رأْسَه ابْن حُوَيٍّ[(٢)]، السَّكْسَكِيّ، وقد كان ذو الكَلاَع سَمِع عَمْرو بن العاص يقول: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لِعَمّار: «تقتلُك الفِئَةُ الباغية وآخِرُ شَرْبَةٍ تشرَبُها ضَيَاحٌ مِنْ لَبَن». فكان ذو الكَلاَع يقول لعَمْرو: ما هذا وَيْحَكَ يا عَمْرو! فيقول: إنَّه يَرْجع إلَيْنا، فقُتِل ذُو الكَلاع قبل عَمَّار مع مُعاوية، وأصِيبَ عَمَّار بَعْدَه مع علي، فقال عَمْرو لمُعاوية: «والله ما أدري بقتل أيِّهما أنا أشدُّ فَرَحًا: بقتْلِ عَمَّار أو بقتْلِ ذي الكَلاع، واللّهِ لو بَقِيَ بَعْدَ قتل عَمَّارٍ لَمالَ بعامَّة أهل الشَام إلَى عليّ!». فأتَى جماعة إلَى مُعاوية، كُلُّهم يقول: «أنا قتلتُ عَمارًا»، فيقول عَمْرو: فما سمعتَه يقول؟ فيَخْلِطون، فأتاه ابْنُ حُوَيّ فقال: أنا قتلتُه فسمعتُه يقول «اليَوْم ألْقَى الأحبَّه، محمَّدًا وحِزْبَه». فقال له عَمْرو: أنت صاحبُه. ثم قال «رُوَيْدًا، واللّهِ ما ظفرت يداك، ولقد أسْخَطْتَ رَبَّك!».

وقيل: إنَّ أبا الغادِيَة قَتَل عَمَّارًا وعاش إلَى زمن الحَجَّاج، فدخل علَيه، فأكرَمَه الحَجَّاج وقال: أنت قتلتَ ابْنَ سُمَيَّة[(٣)]؟ - يعني عمارًا - قال: نعَمْ. قال: مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلَى عَظيم الباع يَوْم القِيامة فلْيَنْظرْ إلَى هذا الذي قتَل ابْنَ سُمَيَّة. ثم سأله أبو الغادية حاجَةً فلم يُجِبْه إلَيها، فقال: نُوَطِّىء لهم الدنيا ولا يصلُونا منها ويزعُم أنِّي عظيمُ الباعِ يَوم القِيامة! فقال الحَجَّاج: أجَلْ واللّهِ مَن كان ضِرْسُه مِثْلَ أُحُدٍ، وفخِذُه مِثْلَ جَبَل وَرِقانَ، ومَجْلِسُه مِثْلَ المَدينة والرَّبَذَة، لَعَظِيمُ الباعِ يَوْمَ القيامة، واللّهِ لَوْ أنَّ عَمَّارًا قَتَله أهلُ الأرض لدخلوا كلُّهم النار!.

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي: لَمَّا قُتِلَ عَمّار دخلتُ عَسْكرَ معاوية لأنظرَ هل بَلَغ منهم قتْلُ عَمّار ما بلغ مِنَّا - وكُنَّا إذا تركْنَا القِتال تحدَّثوا إلَيْنا وتحدثنا إلَيهم - فإذا مُعاوية وعَمْرو وأبو الأعور وعبد الله بن عَمْرو يتسايرون، فأدخلتُ فَرَسي بَيْنَهم لِئلاَّ يفوتَني ما يقولون، فقال عبد الله بن عَمْرو لأبيه: يا أبَتِ قَتَلْتم هذا الرجلَ في يومكم هذا وقد قال رسولُ الله ما قال! قال وما قال؟ قال: ألَمْ يَكُنْ المسلمون ينقُلون في بناء مسجد النبيّ ﷺ لبنَةً[(٤)] لَبِنَةً وعَمارٌ ينقل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن؟ فغُشِيَ علَيه، فأتاه رسولُ الله

(١) يسار بن سبع الجهني.

(٢) ابن جود بن ماتع بن زرعة بن ينحض بن حبيب بن ثور بن خداش العامري. راجع جمهرة أنساب العرب ص٤٠٥.

(٣) تأمَّل بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ وهذا الحجاج ينبز المؤمن ويخالف القرآن لم يتشفَّ بما يلي من السطور أعلاه بقتله وعظم باع قاتله.

(٤) حجر البناء.

عليه الصلاة والسلام، فجعل يمسَحُ الترابَ عن وجهه ويقول: «وَيْحَكَ يا ابْنَ سُمَيَّة! الناسُ ينقلون لَبِنَةً لَبِنَةً، وأنت تنقُل لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْن رغبةً في الأجْر، وأنت مَع ذلك تقتلك الفِئَةُ الباغِيَة!». فقال عَمْرو لمُعاوية: أَمَا تسمع ما يقول عبدُ الله؟ قال: وما يقول؟ فأخبره، فقال مُعاوية: أنحن قتلناه؟ إنَّما قتَلَه مَن جاء به[١]! قال فخرج الناسُ من أَخْبِيَتِهم وفَساطِيطهم[٢] يقولون: إنَّما قتَله مَن جاء به. فلا أدْرِي مَنْ كان أعْجبَ؟ أَهُوَ أم هم؟

قال: ولمَّا قُتِلَ عمار قال عليٌّ رضي الله عنه لِرَبيعة: أنتم دِرْعِي ورُمْحِي. فانتدب له نحو من اثني عشر ألفًا، وتقدمهم عليٌّ على بغلة، فحملوا معه حمَلَةَ رجل واحد، فلم يَبْقَ لأهل الشام صفٌّ إلا انْتَقَض، وقتلوا كُلَّ من انْتَهَوْا إلَيه، حتَّى بلَغُوا مُعاوية، فناداه عليّ: فقال عَلامَ يُقْتَلُ الناسُ بَيْنَنا؟ هَلُمَّ أُحاكمْكَ إلَى الله، فأيُّنا قَتَلَ صاحِبَه استقامت له الأُمور. فقال عَمْروٌ: أنصَفَك. فقال مُعاوية لعَمْرو: ما أنصفْتَ، إنك لَتَعْلَمُ أنه لم يَبْرُزْ إلَيه أحدٌ إلا قَتَله. فقال عَمرو: ما يحسُنُ بك تَرْكُ مُبارَزَته، فقال مُعاوية: طمِعْتَ فيها بعدي[٣]!

قال[٤]: وكان أصحاب علي قد وكَلوا به رجُلَين يحفظانه، لِئلا يُقاتِلَ، فكان يحمِل إذا غفَلا فلا يَرجع حتى يَخْضِبَ سَيفه، وإنه حمل مَرَّة فلم يرجع حتَّى انثنى سيفه، فألقاه إلَيهم، وقال: لولا أنَّه انثنَى ما رجعتُ إلَيكم. فقال الأعمش لأبي عبد الرحمٰن: هذا والله ضرب غيرُ مُرتاب[٥]!

قال: وأما هاشم بن عُتْبة بن أبي وَقَّاص فإنَّه دعا الناسَ عند المساء وقال: ألا من كان يريد اللّهَ والدارَ الآخرة فإليّ. فأقبل إليْه الناس، فحمل على أهل الشام مِرارًا، ويصبرون له، وقاتل قتالاً شديدًا، وقال لأصحابه: «لا يَهُولنَّكم ما ترَوْن من صبرهم، فواللّهِ ما هو إلاَّ حَمِيَّةُ[٦] العرب وصبْرُها تحت راياتها، وإنهم لَعَلى الضلال وإنَّكم لعَلى الحق» ثم حَرَّض أصحابه، وحمل في عِصابة من القُرَّاء فقاتل قِتالاً شديدًا، فقتل يَوْمَئِذٍ تسعة أو عشرة، وحمل عليه الحارث بن المنذر التَّنُوخي، فطعنه فسقط، وأرسل إليه عليّ: أن قدِّمْ لِواءَك، فقال لرسوله: انظر إلى بطني! فنظر إليه، فإذا هو قد انشق!

---

(١) انظر إلى هذا، وكأنما عمار طفل لا يدرك وجهته، يحتاج لمن يقلّه ويدلّه.

(٢) خيامهم.

(٣) أي الإمرة، ويتبدى لنا هنا أن الطلب بدم عثمان كان وسيلة دنيوية لاعتلاء رقاب المسلمين.

(٤) سليمان بن مهران الأسدي ولاءً كنيته أبو محمد، تابعيٌّ عالم بالقرآن والحديث.

(٥) أي أنه لا يشك بأنه على سلامة من دينه. (٦) عصبية العرب.

قال[١]: ومَرّ عليٌّ بكتيبة من أهل الشام فرآهم لا يزولون عن مَوْقفهم - وهم غسَّان - فقال: «إنَّ هؤلاءِ لا يزولون إلاّ بطعن وضرْب يَفْلِق الهامَ ويُطِيحُ العِظام، وتسْقُط منه المَعاصِمُ والأكُفُ، وحتى تُقْرع جِباههم بعُمُد الحديد، أيْن أهلُ النصرِ والصبر وطُلاَّبُ الأجر؟» فأتاه عصابة من المسلمين، فدعا ابنه محمدًا فقال: «تقدَّمْ نحْوَ هذه الراية مشيًا رُوَيْدًا على هِينَتِك»[٢]، حتَّى إذا أشرعت في صدورهم الرماح فأمسكْ حتَّى يأتِيَك أمري». ففعل، وأعدّ لهم عليّ مثلهم وسيَّرهم إلى ابنه محمد، وأمره بقتالهم، فحمل عليهم فأزالهم عن مواقفهم، وأصابوا منهم رجالاً.

قال[٣]: ومرَّ الأسْوَد بن قيس المُرادي بعبد الله بن كعب المُرادي وهو صَرِيع[٤]، فقال له عبد الله: يا أسوَد. قال: لبَّيْك. وعَرَفه ونزل إليه وقال له: «عَزَّ عليَّ مَصْرَعك! إنْ كان جارُك ليَأمَنُ بَوائِقك[٥]، وإنْ كُنت لمِن الذاكرين الله كثيرًا! أوْصني رحمك الله!» قال: «أُوصيك بتقوَى الله، وأنْ تُناصحَ أمير المؤمنين[٦]، وتُقاتل معه المحلين[٧]، حتَّى يظهَرَ أو يَلحَق بالله، وأبلِغْه عنِّي السلام وقل له: قاتِلْ على المعركة حتَّى تجعلها خلْف ظهرك، فإنه من أصْبح غدًا والمعركة خلف ظهره كان العالي». ثمّ لم يلبث أن مات، فأقبل الأسْود إلى عليّ فأخبره، فقال: «رحمه الله! جاهد عدوَّنا في الحياة، ونصح لنا في الوفاة!».. وقيل: إن الذي أشار على عليّ بهذا عبد الرحمٰن بن حَنْبَل الجمحي[٨].

قال: فاقتتل الناس تلك الليلة كُلَّها إلى الصباح، وهي ليلة الهَرِير، فتطاعَنوا حتى تقصَّفت الرماح، وترامَوْا حتى نفِد النَّبْل، وأخذوا السيوف، وعليٌّ يسير بين المَيْمنة والمَيْسَرة، ويأمر كلَّ كتيبة أن تقدَّمَ على التي تليها، فلم يَزلْ يفعل ذلك حتَّى أصبح، والمعركة كلُّها خلْف ظهره، والأشتر في الميْمَنة، وابن عباس في المَيْسَرة، وعليٌّ في القلْب، والناس يقتتلون من كل جانب وذلك يَوْم الجمعة، وأخذ الأشتر

(١) ابن الأثير.

(٢) أي على سكن واهدأ ما تستطيع.

(٣) ابن الأثير.

(٤) الطريح في المعركة مغشيًا عليه وبه رمق في الغالب.

(٥) البائقة: الداهية، وتدور على معانٍ من الشدود والغوائل.

(٦) يعني الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٧) في النص (المخلين) بالخاء، والصواب ما أثبتنا. وقد مرّ شرحها في صفحات سابقات.

(٨) عبد الرحمٰن بن حنبل الجمحي، صحابي شاعر. يماني الأصل، مكي المولد، شارك بفتوح دمشق، شارك مع الإمام علي كرّم الله وجهه في وقعة الجمل، وصفين وفيها قتل شهيدًا سنة ٣٧هـ. راجع الإصابة جـ٤ ص١٥٥.

يَزْحَف بالمَيْمَنة، وكان قد تولاها عَشِيَّة الخميس ولَيْلة الجمعة إلى ارتفاع الضحَى، وهو يقول لأصحابه: ازْحَفوا قِيدَ[1] هذا الرمح. ويزحَف بهم نحْوَ أهل الشام، فإذا فعل ذلك بهم قال: ازحَفوا قِيدَ هذا القوس. فإذا فعلوه سألهم مِثل ذلك، حتَّى ملَّ أكثر الناس الإقدام، فلما رأى الأشتر ذلك دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هَوْذة النَّخعي، وخرج يسير في الكتائب ويقول: مَنْ يَشْرِي نفسَه ويقاتِل مع الأشتر حتَّى يظهَرَ[2] أو يلحَقَ بالله؟ فاجتمع إلَيه جمع كثير، فيهم حيّان بن هَوْذة النخعي وغيره، فرجع بهم إلى المكان الذي كان فيه، وقال لهم: «شُدُّوا شدَّة ـ فِدًى لكم خالي وعمِّي ـ تُرْضُون بها الربَّ، وتُعِزُّون بها الدين» ثمّ نزل فضرب وجه دابَّته، وقال لصاحب رايته: أقدِمْ بها. وحمل بالقوم فضرب أهلَ الشام حتَّى انْتهى بهم إلى عسكرهم، فقاتلوه عند العسكر قتالاً شديدًا، وقُتِل صاحب رايته، فلمّا رأى عليٌّ الظَّفر من ناحيته أمَدَّه بالرجال.

فقال عَمْرو لِوَرْدان[3]: تدرِي ما مَثلي ومَثلك ومَثل الأشتر؟ قال: لا. قال «كالأشقر إن تقدّم عُقر وإن تأخَّر عُقر[4]! لئن تأخَّرت لأضرِبنَّ عُنقك!» قال: أمَا واللّهِ يا أبا عبدِ الله لأُورِدَنَّك حِياض المَوت ضعْ يَدَك على عاتقي. ثم جعل يتقدّم ويتقدّم ويقول: والله لأُورِدَنَّك حِياض المَوت. واشتد القتال.

فلمّا رأى عَمرو أنَّ أمر أهل العراق قد اشتدَّ، وخاف الهلاك، قال لمُعاوية: هل لك في أمر أعرِضُه عليك لا يزيدنا إلاَّ اجتماعًا ولا يَزيدُهم إلاَّ فُرْقة؟ قال: نعم. قال: «نرْفع المصاحف، ثم نقول لما فيها هذا حكمُ الله بَيننا وبَينكم، فإنْ أبى بعضُهم أنْ يَقْبَلَها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل. فتكون فُرْقة بينهم، فإنْ قبِلوا ما فيها رفعْنا القتال عنَّا إلى أجَل».

ذكر رفع أهل الشام المصاحف
وما تقرر من أمر التحكيم وكتاب القضية

قال: ولما أشار عَمْرو بن العاص على مُعاوية برفع المصاحف أمر برفْعها، فرُفِعَتْ بالرماح، وقال: «هذا كتاب الله بَيْننا وبَينكم، مَن لِثُغُور الشام بعد أهله؟ مَن لِثُغور العراقِ بعد أهله؟».

فلما رآها الناس قالوا: نُجيب إلى كتاب الله! فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه:

---

(١) قيد الشيء: قدره.
(٢) ينتصر.
(٣) مولى عمير وابن العاص.
(٤) صواب الثانية نحر.

«عِبَادَ الله، امْضُوا على حقكم وصِدْقكم قتالَ عدوِّكم، فإن مُعاوية وعَمْرًا وابْن أبي مُعَيْط وحبيبًا[(١)] وابن أبي سَرْح والضحاك[(٢)] ليْسوا بأصحاب دِين ولا قُرآن، أنا أعْرَف بهم منكم، قد صحِبْتُهم أطفالاً ثم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال! وَيْحَكم! واللّهِ ما رفعوها إلا خديعةً ووهنًا[(٣)] ومَكيدة!» فقالوا له: لا يَسَعُنا أن نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أن نقْبَله! فقال لهمْ عليٌّ رضي الله عنه: «فإنّي إنما أقاتلهم ليَدِينوا بحُكم الله، فإنهم قد عصَوُا اللّهَ فيما أمرهم، ونسُوا عهده، ونبَذوا كتابه!» فقال مِسْعَر بن فدَكيّ التميمي وزيد بن حُصَين الطائي في عصابة من القُراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: «يا علي، أجبْ إلى كتاب الله عزّ وجل إذْ دُعِيت إليه، وإلا دفعناك برُمَّتِك[(٤)] إلى القوم أو ونفعلُ بك كما فعلنا بِابْنِ عَفان!» قال: «فاحفظوا عنِّي نهْيي إياكمْ، واحفظوا مقالتكم لي، فإنْ تُطيعوني فقاتلوا، وإنْ تعْصُوني فاصْنعوا ما بَدا لكم!».

قالوا: ابعثْ إلى الأشتر فلْيَأْتِك. فبعث عليٌّ يَزيد بن هانىء إلى الأشتر يستدعيه، فقال: «ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تُزيلَني فيها عن مَوْقِفي، إني رجَوتُ أن يفتح اللّهُ لي!» فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصوات، وارتفع الرهْجُ[(٥)] من ناحية اوشتر، فقالوا: واللّهِ ما نراك إلا أمرته أن يُقاتل! فقال: «هل رأيتموني سارَرْتُه؟ أليس كلمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟» فقالوا: «ابعث إليه فلْيأْتك، وإلا واللّهِ اعتزلناك!» فقال: «ويْلك يا يزيد! قل له أقْبِلْ إليَّ، فإن الفتنة قد وقعت!» فأبلغه ذلك، فقال الأشتر: أَلِرَفْعِ المصاحف؟ قال: نَعَمْ. قال: «واللّهِ لقد ظننتُ أنها ستوقع اختلافًا وفُرْقة، إنها مشورة ابن العاص، ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى ما يَلْقوْن؟ ألا ترى ما صنع الله لنا؟ أينبغي أن أدَعَ هؤلاءِ وأنصرفَ عنهم؟» فقال له يزيد: أتحب أن تظفرَ وأميرُ المؤمنين يُسلَّمُ إلى عدوِّه أوْ يُقتل؟ قال: «لا واللّهِ! سُبْحان الله!» فأعلمه بقولهم، فأقبل إليهم الأشتر وقال: «يا أهل العراق، يا أهل الذُّلّ والوَهن، أحِين عَلوْتُم القوم وظنُّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المَصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وهم واللّهِ قد تركوا ما أمَر اللّهُ به فيها وسُنة مَن أُنزلت عليه! فأمهِلوني

(١) ابن مسلمة.
(٢) الضحاك بن قيس.
(٣) ضعفًا.
(٤) أرادوا به كله، وهو تعبير عن الحبل الذي يُشد بها الأسير أو سواه وكان يترك مع المشدود به إذا أعيد أو غير ذلك.
(٥) الغبار وما يصاحبه ويسببه من ضجيج وحركة.

فوَاقًا[1] فإنّي قد أحسست بالفتح، قالوا: لا. قال: أمهِلوني عَدْوَ الفرَس فإني قد طمِعتُ في النصر، قالوا: إذن ندخُلَ معك في خطيئتك! قال: «فخبِّروني عنكم متى كنتم مُحِقِّين؟ أحِين تُقاتلون وخِيارُكم يُقْتلون؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مُبْطِلون! أم أنتم الآن مُحقُّون؟ فقتْلاكم الذين لا تُنكرون فضْلهم وهم خيْرٌ منكم في النار!» فقالوا: «دَعْنا منك يا أشْتر، قاتلناهم لله، ونَدَعُ قتالهم لله!» فقال: «خُدعْتم فانْخدَعتم ودُعِيتم إلى وضْع الحرب فأجَبتم، يا أصحاب الجِباهِ السُّود[2]، كنا نظنُّ صلاتكم زهادةً في الدنيا وشوقًا إلى لقاء الله، فلا أرَى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبْحًا يا أشباه النِّيب الجلاَّلة[3]، ما أنتم بِرائِين بعدها عزًّا أبدًا، فابْعدُوا كما بَعِهدَ القوْم الظالمون!» فسبوه وسَبهم، وضربوا وجه دابته بسياطهم، وضرب وجوهَ دوابهم بسَوطه، فصاح به وبهم عليٌّ رضي الله عنه، فكفُّوا.

وقال الناس: قد قبِلْنا أن نجعل القرآن بَيننا وبَينهم حَكمًا. فجاء الأشعث بن قيْس إلى علي فقال له: أرَى الناسَ قد رضُوا بما دعَوْهم إليه من حُكم القرآن، فإن شئت أتيتُ مُعاوية فسألتُه ما يريد. قال: ايتِه. فأتاه فقال: يا مُعاوية لأيِّ شيءٍ رفعتم هذه المَصاحف؟ قال: «لِنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه، تبعثون رجلاً ترضون به، ونبعث رجلاً نرضى به، نأْخذ عليهما أن يعمَلا بما في كتاب الله لا يَعْدُوَانِه، ثم نتبعُ ما اتفقا عليه». فقال له الأشعث: «هذا الحق، هذا الحق». فعدا إلى علي فأخبره، فقال الناس: قد رضينا وقبِلْنا.

فقال أهل الشام: قد رضِينا عَمرًا. فقال الأشعثُ وأُولئك القومُ الذين صاروا خوارج: فإنا قد رضِينا بأبي مُوسَى الأشْعَري. فقال عليّ رضي الله عنه: «قد عصَيْتموني في أول الأمر، فلا تعصُوني الآن، لا أرَى أن أُوَلِّيَ أبا موسى» فقال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعَرُ بن فدَكِيّ: لا نرضى إلا به فإنه قد حذّرنا ما وقعْنا فيه! قال علي «فإنه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذَّل الناس عني، ثم هرَب مني حتى آمنتُه بعد أشهر، ولكنْ هذا ابنُ عباس أُولِّيه ذلك». قالوا: «واللّهِ ما نُبالِي أنت كُنت أم ابن عبّاسْ، لا نُريد إلا رجلاً هو منك ومن مُعاوية سَواء» قال علي: فإني أجعل الأشتر. قالوا: وهل سَعَّرَ[4] الأرضَ غيْر الأشتر؟ قال: قد أبَيْتم إلا أبا موسَى. قالوا:

---

(١) اليسير من الوقت الذي يقتضيه راحة الناقة ما بين حلبتين.
(٢) كناية عن كثرة سجودهم وتشفيها. (٣) الناقة المسنة التي ترعى النفايات.
(٤) كناية عن إشعال نار الحرب.

نعم، قال: فاصنعوا ما أردتم! فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال وهو بعُرْض[١] فأتاه مَوْلًى له فقال: إن الناسَ قد اصطلحوا. فقال الحمد لله. قال: قد جعلوك حَكَمًا. قال: إنا لله وإنا إليْه راجعون، وجاء أبو موسَى حتى دخل في العَسْكر.

وجاء الأشترُ عَلِيًا فقال: ألزِّني بعَمْرو بن العاص، فوالله لئن ملأْت عَيْني منه لأقتُلنه!.

وجاء الأحْنف بن قيْس فقال: «يا أميرَ المؤمنين، إنك قد رُمِيت بِحَجَر الأرض[٢]، وإنّي قد عَجَمْت[٣] أبا موسَى وحَلبْتُ أشْطُرَه[٤]، فوجدته كلِيلَ الشفْرة[٥] قريبَ القعْر[٦]، وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصيرَ في أكُفِّهم ويبعُد عنهم حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكمًا فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا، فإنه لن يَعقِد عُقْدة إلا حَللْتُها، ولا يَحُلُّ عُقدة أعقِدها إلا عقدت أُخرَى أحكمَ منها!» فأبى الناس إلا أبا موسَى والرضا بالكتاب، فقال الأحنف بن قيْس: إنْ أبَيْتم إلا أبا موسَى فأدفئوا ظهره بالرجال[٧].

وحضر عمرو بن العاص عند عليّ لتُكْتَب القضيَّة بحضوره، فكتبوا «بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما تقاضَى عليه أمير المؤمنين» فقال عمرو: هو أميركم أمّا أميرنا فلا. فقال له الأحنف: لا تَمْحُ اسْمَ أمير المؤمنين فإني أتخوّف إنْ محَوْتَها ألاَّ ترجعَ إلَيْك أبدًا، لا تَمْحُها وإنْ قتل الناسُ بعضهُم بعضًا، فأبَى ذلك عليٌّ مَلِيًّا من النهار، ثم قال الأشعث بن قيْس: امْحُ هذا الاسم. فمُحي، فقال عليّ رضي الله عنه: «الله أكبر! سُنَّة بسنة، والله إنّي لكاتِبُ رسول الله ﷺ يوم الحُدَيْبية، فكتبتُ: «محمد رسول الله» فقالوا: لستَ برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله عليه الصلاة والسلام بمَحْوِه، فقلت: لا أستطيع. فقال أرنِيه. فأرَيْتُه فمحاه بيده وقال: إنّك ستُدْعَى إلَى مثلها فتُجيب!». فقال عمرو: «سُبْحانَ الله! أنُشبَّه بالكُفّار ونحن مؤمنون؟» فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا ابن النابغة[٨] ومَتى لم تكن للفاسقين وليًّا وللمؤمنين عدُوًّا؟ فقال عمرو: والله لا يجمع بَيْني وبَيْنك مجلس بعد هذا اليوم أبدًا! فقال عليّ: إني لأرجو أن يطهِّر الله مجلسي منك ومن أشباهك.

---

(١) عرض: بضم أوله وسكون ثانيه، بليدة في برية الشام تدخل في أعمال حلب بين تدمر والرصافة. راجع معجم البلدان ج٤ ص١٠٣.

(٢) كناية عن الداهية التي تنزل نزول الصخر.

(٣) خبرت.

(٤) كناية عن معرفته بحلوه ومره كما يعرف الناقة راعيها وحالبها.

(٥) من السيف حده الذي لا يقطع.

(٦) كناية عن قرب مرماه وخفة أمره.

(٧) ليكونوا له سندًا.

(٨) نبغت المرأة إذا اشتهرت بسوء في عرضها.

وكتب الكتاب: هذا ما تقاضَى عليه عليّ بن أبي طالب ومُعاوية بن أبي سفيان، قاضى عليٌّ على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى مُعاوية على أهل الشام ومن معهم، أنَّا ننزل عند حكم الله وكتابه، وألاَّ يجمع بَيننا غيره، وأنَّ كتاب الله بَيننا من فاتحته إلى خاتمته، نُحْيي ما أحيا ونُمِيت ما أمات، فما وجد الحَكمَان في كتاب الله، وهما أبو موسَى عبد الله بن قَيْس وعَمرو بن العاص، عمِلا به، وما لم يجدا في كتاب الله تعالى فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة. وأخذ الحَكَمان من عليّ رضي الله عنه ومن مُعاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمِنان علَى أنفُسهما وأهلهما، والأُمَّةُ لهما أنصارٌ علَى الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس عمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمّة ولا يردَّاها في حرب ولا فُرقة حتَّى يعصيا، وأجّلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخَّراه، وإن مكان قضيَّتهما مكانُ عدلٍ بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد جماعة من الطائفتين.

وقيل للأشتر: لتكتبْ[1] فيها. فقال: «لا صحبَتْني يَميني ولا نفعتْني بعدها شِمالي إن خُطَّ لي في هذه الصحيفة خطٌّ! أوَلستُ على بَيِّنَةٍ من ربِّي من ضلال عدوّي؟ أوَلستم قد رأيتم الظَّفر؟» فقال له الأشعث[2]: ما رأيت ظَفَرًا هَلُمَّ إلَينا فإنه لا رغبةَ بك عنَّا. فقال: «بلَى والله الرغبةُ عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة! ولقد سفك الله بسَيْفي دماء رجال ما أنت عندي خَيْر منهم ولا أحْرَم دمًا!».

قال: وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مَرَّ علَى طائفة من بني تميم، فيهم عُرْوَة ابن أُدَيَّة[3] أخو أبي بِلال، فقرأه عليهم، فقال عروة: تحكِّمون في أمر الله الرجال، لا حُكمَ إلاَّ لله. ثم شَدَّ بسَيفه فضرب به عَجُزَ دابّة الأشعث ضربةً خفيفة، واندفعت الدابّة، وصاح به أصحاب الأشعث فرجع.

وكُتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ خلت من صفر سنة سبع وثلاثين..

---

(١) أي ليوقِّع كما وقع غيره من قادة الجند.

(٢) حيث يظهر في كثير من النصوص ميل الأشعث إلى معاوية للاقتدار الأخير على شراء الرجال بالمال وسواه.

(٣) عروة بن حدير التميمي، وأديّة أمه، وسيفه أول سيف سلّ ضد التحكيم، بعد أن فرضوه فرضًا على إمام زمانه علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، شارك في النهروان وكان من العشرة الناجين. عاش حتى زمان عبيد الله بن زياد ابن أبيه وقتله هذا الأخير سنة ٥٨هـ. راجع تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٩١.

واتفقوا أن يكون اجتماع الحَكمين بِدُومَة الجَنْدَل[١]، أو بِأذْرَح[٢]، في شهر رمضان.

قال: وقيل لعليّ: إن الأشتر لا يُقِرُّ بما في الصحيفة ولا يرَى إلاَّ قتالَ القَوم. فقال عليّ رضي الله عنه: «وأنا والله ما رضِيتُ ولا أحببتُ أن ترضَوْا، فإذْ أبَيْتُم إلاَّ أن ترضَوْا فقد رضِيت، وإذْ رضِيتُ فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديلُ بعد الإقرار، إلاَّ أن يُعصَى اللّهُ ويُتعدَّى كتابُه، فتقاتلوا مَن ترك أمرَ الله. وأمّا الذي ذكرتم مِن ترْكه أمري وما أنا علَيه فليسَ من أولئك، ولستُ أخافه علَى ذلك، يا لَيْتَ فيكم مِثْلَه اثنين، يا لَيْتَ فيكم مثله واحدًا يرَى في عدوي ما أرَى، إذَن لخفَّتْ عليّ مؤنتكم، ورجوت أن يستقيم لي بعض أوَدكم[٣]، وقد نهَيْتكم فعصَيتموني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن[٤]:

وهل أنا إلاَّ مِن غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ ترْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

والله لقد فعلتم فعْلَةً ضَعْضَعَت قوَّة، وأسقطت مُنَّة[٥]، وأوْرثتْ وَهْنًا وذلَّة، ولما كنتم الأعلَيْن، وخاف عدوُّكم الاجْتياح، واستَحَرَّ[٦] بهم القتل، ووجدوا ألَمع الجِراح، رفعوا المصاحف فدعَوْكم إلَى ما فيها ليَفْتنوكم عنهم، ويقطَعوا الحرب، ويتربّصوا بكم رَيْبَ المَنون، خَدِيعةً ومَكيدة، فأعطَيْتموهم ما سألوا، وأبَيْتم إلاَّ أن تُدْهِنوا وتحيروا، وأيْمُ اللّهِ ما أظنُّكم بعْدَها توفَّقون لرشد، ولا تصيبون بابَ حزم».

قال: ثم تَراجع الناس عن صِفِّين.

هذا ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه، وهو الذي اعتمد عليه عز الدين علي بن محمد بن الأثير الموصلي في تاريخه الكامل، من حرب صِفِّين، وقد أسقطنا بعض ما أورداه، وأتيْنا بألفاظ لم يأتِيا بها نسبناها إلَى من حكاها.. وأخبار أيام صِفِّين كثيرة، قد بسَط أهلُ التاريخ فيها القول، وذكروا ما اتفق

---

(١) دومة لجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيىء. راجع معجم البلدان ج٢ ص٤٨٧.

(٢) أذرح: بالفتح ثم السكون وضم الراء. اسم بلد من أطراف الشام، قبلي فلسطين من ناحية الشراة. راجع معجم البلدان ج١ ص١٢٩.

(٣) اعوجاجكم.

(٤) كنى به دريد بن الصمة ينتهي بنسبه إلى هوازن، شاعر فارس مخضرم غير أنه لم يسلم. وقد ظاهر المشركين يوم حنين وفيه قتل على شركه. راجع الأغاني ج١٠ ص٨ وما بعدها.

(٥) المُنة بالضم: القوة.

(٦) أخذ بهم كل مأخذ.

في أيامها يَوْمًا يَوْمًا، رأينا تَرْك ذلك والإغضاء عنه أوْلَى، وكنا نُؤْثِر ألاَّ نُلِمَّ بذكر أيام صِفِّين ولا وقعة الجمل، وإنما ضرورة التاريخ دعت إلَى ذلك.

وحكى أبو عمر بن عبد البر[١] في ترجمة بُسْر بن أرْطاة[٢] من كتابه الاستيعاب: أنَّ مُعاوية أمر بُسْر بن أرطأة بن أبي أرْطأةَ، وكان معه بِصِفِّين أن يَلْقَى عَلِيًا في القتال، وقال له: «سمعتك تتمنَّى لقاءه، فلو أظفرك الله وصرَعْتَه حصَلت علَى دنيا وآخرة»، ولم يزل يشجِّعه ويمنِّيه، حتَّى رآه فقصده في الحرب، قال: وكان بُسر بن أرْطأة من الأبطال الطُّغاة، فالْتَقَيَا، فصرعه عليٌّ، وعرَض له معه مثل ما عرض - فيما ذكر - لعليّ معْ عَمرو بن العاص. قال وذكر ابن الكلبي[٣] في كتابه في أخبار صِفِّين أن بُسْر بن أرْطأة بارَز عليًا يَوْم صِفِّين، فطعَنه عليُّ فصرعه، فانكشف له[٤]، فكفَّ عنه، كما عرض له، فيما ذكروا، مع عمرو بن العاص، ولهم فيها أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب، منها فيما ذكر ابن الكلبي والمدائني[٥] قول الحارث بن النضر السَّهْمي[٦] - وكان عدوًّا لعَمرو[٧] بن العاص وبُسْر بن أرْطأة -: [من الطويل]:

أفي كُلِّ يَوْمٍ فارسٌ لَيس يَنْتَهي ... وعَوْرَتُهُ بَيْن العَجاجة[٨] باديَهْ[٩]
يَكُفُّ لَهَا عَنْهُ علِيٌّ سِنانَه ... ويضحك منه في الخَلاءِ مُعاويَهْ
بَدَتْ أمْسِ من عَمْرٍو فَقَنَّع رأسَه ... وعَوْرة بُسْرٍ مِثْلُها حَذْوَ حاذيَهْ

---

(١) صاحب الاستيعاب جا ص١٦٠.
(٢) بسر بن أرطأة العامرة القرشي، كنيته أبو عبد الرحمٰن. تبع معاوية على متّبع، حتى أنه حلف بقتل من يراه من أصحاب علي ففعل، وتولى البصرة لمعاوية، وقد عمر حتى ناهز تسعين عامًا وقد التاث قبل موته بزمن. ومات سنة ٨٦هـ. راجع تهذيب ابن عساكر ج٣ ص٢٢٠.
(٣) هشام بن محمد بن السائب بن بشر من كلب، كنيته أبو المنذر، واشتهر بابن الكليبي، له الأنساب وفيه شك وتدليس، وله الأصنام وهو أجود.
(٤) انكشف له: أراد أظهر بسر عورته، وكان من عادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أن يشيح بوجهه فلا ينظر إلى عورات الآخرين فأتيح لبس هذا النجاة وحصل الأمر ذاته مع عمرو بن العاص حتى أن أبي فراس وكثير من الشعراء قد عيّروا عمرو وبسر بها.
(٥) علي بن محمد بن عبد الله كنيته أبو الحسن، راوٍ ومؤرخ. ذكر ابن النديم نيف ومائتين من مصنفاته، سكن المدائن وإليها نسب وتوفي سنة ٢٢٥هـ.
(٦) صحابي شاعر. راجع الإصابة جا ص٢٩١.
(٧) لاحظ كيف ينتقد النويري متحيرًا المؤرخ أو الشاعر بنقل الحدث.
(٨) العجاج: الغبار. (٩) ظاهرة.

فقُولا لِعَمْرٍو ثم بُسْرٍ: ألا انْظُرَا سَبِيلَكُما، لا تلقَيَا الليثَ[١] ثانِيَهْ
ولا تَحْمَدَا إلاَّ الحَيَا وخُصَاكُما[٢] هُمَا كانتا واللَّهِ للنَّفْسِ وَاقِيَهْ
ولَوْلاهُما لم تَنْجُوَا مِن سِنَانِه وتِلْكَ بما فيها عَنِ العَوْدِ نَاهيه
وكُونَا بعيدًا حيثُ لا تبلُغُ القَنَا نُحُورَكُما إنَّ التَّجَارِبَ كافِيَهْ

قال أبو عمر: إنَّما كان انصراف عليٍّ عنهما وعن أمثالهما من مَصْرُوع أو مُنهزِم؛ لأنه كان لا يرَى في قتال الباغين علَيْه من المسلمين أن يَتَّبِع مُدْبِرًا ولا يُجْهِز علَى جَرِيح ولا يقتُل أسِيرًا، وتلك عادته في حروبه في الإسلام، رضي الله عنه.

وروى أبو عمر بن عبد البر أيضًا بسند يرفعه إلَى يَزِيد بن حبيب قال: اصطحب قَيس بن خَرَشَة، وكعب الأحبار[٣]، حتَّى إذا بلَغا صِفِّين وقَفَ كعبٌ ثم نظر ساعة فقال: «لا إله إلا الله، ليُهْرَاقَنَّ بهذه البُقْعَة من دِماء المسلمين شيءٌ لم يُهْرَق ببقعة من الأرض» فغضب قَيْسٌ وقال: «وما يُدريك يا أبا إسحاق؟ فإنَّ هذا من الغَيْب الذي اسْتأْثر الله به» فقال كعب: ما من شِبْر من الأرض إلاَّ وهو مكتوبٌ في التَّوراة التي أنزل اللّهُ علَى نبيِّه موسَى بن عِمْرانَ عليه السلام ما يكون عليه إلَى يوم القيامة.

واخْتُلف في عِدَّة من شَهِد صِفِّين، فقيل: كان جَيش عليٍّ رضي الله عنه تسعين ألفًا، وجَيش مُعاوية مِائة وعشرين ألفًا، وقيل: أقل من ذلك.

وقُتِل من العِراق خمسة وعشرون ألفًا، منهم عمّار بن ياسر وخمسة وعشرون بَدْرِيًّا، وقُتِل من عسكر معاوية خمسة وأربعون ألفًا.

قال: ولمَّا رجع عليٌّ رضي الله عنه إلَى الكوفة خالفه الحَرُورِيّة وأنكروا تحكيمَ الرجال، وكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله في أخبار الخوارج علَى عليٍّ، وكان فيما بين رجوع عليٍّ واجتماع الحَكَمَيْن ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السنين.

---

(١) كناية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٢) أنثيا الرجل وكنّي بهما عن العورة وفي هذا البيت هجاءٌ مقذع لأن الحارث بن النضر لم يذكر ذكرهما ـ أداة نسلهما ـ لاقتضاء الفحولة. فانتخب لفظ (الخصى) لتحصيلها معنى (الخصي) و(الإخصاء) تداعيًا وجناسًا ذهنيًا.

(٣) كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري، كنيته أبو إسحاق، تابعي، كان من أحبار اليهود قبل أن يسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه ويجيء المدينة في زمن عمر رضي الله عنه في كتب الأحاديث ما لا يحصى من أخبار الأمم الغابرة التي رواها كعب للمسلمين، حتى أن الدارسين ينسبون إليه كل هرطقة تتعلق بما يناقض الكتاب، عمر طويلاً وتوفي في حمص من أعمال الشام حيث كان قريبًا من معاوية.

ذكر اجتماع الحكمين

قال: ولما جاء وقت اجتماع الحَكَمَيْن أرسل عليٌّ رضي الله عنه أربعَمِائة رجل علَيْهم شُرَيْح بن هَانِيء الحارثي، وأرسل عبدَ الله بن عباس يصلي بهم ويَلِي أُمورهم، ومعهم أبو موسَى الأشعري. وأرسل مُعاوية عمْرو بن العاص في أربعمِائة من أهل الشام، حتى تَوَافَوْا من دُومَة الجَنْدَل بأذْرُح.

وكان عمْرو إذا أتاه كتاب من مُعاوية لا يَدري أحدٌ ما جاء فيه، ولا يسْأله أهل الشام عن شيء، وكان أهلِ العراق يسألون ابنَ عبَّاس عن كلِّ كتاب يصل إلَيه من عليٍّ، فإن كتمه ظَنُّوا به الظُّنون وقالوا: نراه كتب بكذا وكذا، فقال لهم ابنُ عبّاس رضي الله عنه: «أما تعقلون، أما ترون رسولَ مُعاوية يجيءُ فلا يعلمُ أحدٌ ما جاء به ولا يُسمع لهم صياح؟ وأنتم عندي كُلَّ يوم تظنُّون الظُّنون».

قال وحضر معهم عبد الله بن عُمر بن الخطاب، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن الزُّبَير، وعبد الرحمٰن الحارث بن هشام، وعبد الرحمٰن بن عبد يَغُوثَ الزهري، وأبو جَهْم بن حُذَيفة العَدَوي، والمغِيرة بن شُعْبَةَ. وكان سَعْد بن أبي وَقَّاص على ماء لبني سُلَيْم بالبادية، فأتاه ابنه عمر فقال له: «إنَّ أبا موسَى وعَمرًا قد شهدَهم نفرٌ من قُريش فاحضر معهم، فإنَّك صاحب رسول الله ﷺ وأحد أصحاب الشُّورَى، ولم تدخل في شيء كرِهتْه هذه الأمّة، وأنت أحقُّ الناس بالخلافة» فلم يفعل، وقيل: بل حضرهم سعد وندِم علَى حضوره، فأحرم بعُمْرة من بيت المقدس.

قال: ولما اجتمع الحَكَمان قال عمرو بن العاص: يا أبا موسَى ألستَ تعلم أنَّ عُثمان قُتل مظلومًا؟ قال: أشهَد. قال: ألستَ تعلم أنَّ مُعَاوِيَة وآلَ مُعاوية أوْلِياؤُه؟ قال: بلى.. قال: فما يَمنعك منه وبَيْتُهُ في قُريش كما قد علمتَ؟ فإن خِفت أن يقول الناس ليستْ له سابقة فقل: وجدتُه وليَّ عثمان الخليفةِ المظلوم، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة والتدبير، وهو أخو أُم حَبِيبَة زَوْج النبيّ عليه الصلاة والسلام، وكاتِبه، وقد صحبه» وعرَّض له عَمرو بسُلطان، فقال أبو موسَى: «يا عَمرو، اتَّقِ الله! أمَّا ما ذكرتَ من شرف مُعاوية فإن هذا لَيس علَى الشرف يُوَلاَّه أهله، ولو كان علَى الشرف لكان لآلِ أبْرَهَة بن الصَّبّاح، إنّما هو لأهل الدِّين والفضل، مع أني لو كنتُ مُعطِيَه أفضل قُريش شرفًا أعطيتُه علي بن أبي طالب، وأمّا قَولُك إنَّ معاوية وليُّ دم عُثمان فوَلِّهْ هذا الأمر، فلم أكن لأوَلِّيَه مُعاوية وأدعَ المهاجرين الأوَّلين، وأمَّا تعريضَك لي بالسلطان؛ فَوَاللّهِ لو خرج لي مُعاويةُ من سلطانه كُلِّه ما وَلَّيْته، وما كنتُ لأرتشِيَ في حكم الله، ولكنك إن شئت أن تُحْيي اسم عُمر بن الخطاب» قال له عمرو: فما

يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعلم فضله وصلاحه؟ فقال له: إن ابنك رجل صِدْقٍ، ولكنك قد غَمَسْتَه في هذه الفتنة. فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويُطعم[١]. وكانت في ابن عمر غفلة، فقال له ابن الزبير: افْطَنْ وانْتَبِهْ، فقال: والله لا أرشو عليها شيئًا أبدًا. وقال: يا ابن العاص إنَّ العرب قد أسندتْ إلَيك أمرها بعدما تقارعوا بالسيوف فلا تَرُدَّنَّهم في فتنة.

وكان عمرو قد عَوّد أبا موسَى أن يقدِّمه في الكلام، يقول له: أنت صاحبُ رسول الله ﷺ وأَسَنُّ منِّي فتكلم. فتعوّدَ ذلك أبو موسَى، وأراد عَمرو بذلك كلِّه أن يقدِّمه في خَلْع علي. فلمّا أراده عمرو علَى ابنه وعلَى معاوية فأبَى، وأراد أبو موسَى عَمْرًا علَى ابن عُمَر فأبَى عَمْرو، قال له عَمْرو: خبِّرْني ما رأْيك؟ قال: «أرى أن نخلعَ هذين الرجلَين ونجعلَ الأمر شُورَى، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحَبُّوا» فقال عمرو: الرأْي ما رأيتَ.

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عَمرو: يا أبا موسى أعْلِمْهم أن رأْينا قد اتفق. فتكلم أبو موسَى فقال: إن رأْينا قد اتفق علَى أمر نرجو أن يُصلح الله به أمر هذه الأُمة. فقال عمرو: صَدَقَ وبَرّ، تقدمْ يا أبا موسَى. فتقدَّمَ أبو موسَى، فقال له ابن عباس: «ويْحك! والله إني لأظنُّه قد خَدَعَك، إن كنتما قد اتفقتما علَى أمر فتقدِّمْه فليتكلَّمْ به قبلك، فإنه رجل غادِر، ولا آمَنُ أن يكون قد أعطاك الرضَى بَيْنكما، فإذا قمتَ في الناس خالفك!» وكان أبو موسى مُغَفَّلاً[٢]، فقال: إنا قد اتفقنا، فتقدَّمَ فقال: «أيُّها الناس، إنَّا قد نظرنا في أمر هذه الأمّة، فلم نر أصْلَحَ لِأمرها ولا ألَمَّ لشَعَثِها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلَع عليًّا ومُعاوية ويولِّي الناسُ أمرَهم مَن أحبُّوا، وإني خلعتُ عليًّا ومعاوية، فاستقبِلوا أمْرَكم وولُّوا علَيكم من رأيتموه أهلاً». ثم تنحَّى، وأقبل عمرو فقام وقال: «إن هذا قد قال ما سمعتموه، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأُثَبِّتُ صاحبي معاوية، فإنه وَليُّ عثمان بن عفَّان، والطالِبُ بدمه، وأحقُّ الناس بمقامه»، فقال سعد: ما أضعَفَك يا أبا موسَى عن عمرو ومكايده! فقال أبو موسى: فما أصنع؟ وافقني على أمر ثم نَزَع عنه!

---

(١) لاحظ قوله يأكل (من مال الله) ويطعم (من مال الله) من دون الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله.

(٢) هكذا أجمع المؤرخون بنقل واحد، والظاهر أن أبا موسى كان بخلاف ذلك تشهد له شهرته وتوليه أعمالاً إسوةً بغيره من الصحابة، ولعل تغفيل أبا موسى كان أمثل المخارج لبناء الأمويين على نتائج التحكيم.

فقال ابن عبّاس: لا ذنبَ لك يا أبا موسَى الذنبُ لمن قدّمك في هذا المقام! قال: غدر فما أصنع؟ قال ابن عمر: انظروا إلَى ما صار أمر هذه الأُمة: إلى رجل لا يبالي ما صنع وآخر ضعيف. وقال عبد الرحمٰن بن أبي بكر: لو مات الأشعَريّ قبل هذا اليوم كان خيرًا له. وقال أبو مُوسَى لعمرو: «لا وفّقك الله، غدرتَ وفجرتَ، إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦] فقال له عمرو: إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

قال: والتمس أهلُ الشام أبا موسَى فهرب إلى مكة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلَى مُعاوية فسلّموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشُرَيْح إلَى عليّ رضي الله عنه، فكان عليّ إذا صلَّى الغَداة يقْنُتُ فيقول: اللهم العن معَاوية وعمرًا وأبا الأعور وحَبِيبًا وعبدَ الرحمٰن بن خالد والضحاك بن قَيس والوَليد. فبلغ ذلك مُعاوية، فكان إذا قَنَتَ لَعَن عليًا وابن عبّاس والحسَن والحُسين والأشتر.

وقيل: إن معاوية حضر الحكمين، وأنه قام عشية في الناس فقال: أما بعد، من كان متكلمًا في هذا الأمر فَلْيُطلعْ لنا قرنَه. قال ابن عُمر: فأطلقت حُبْوَتي[(١)] وأردتُ أن أقول: «يتكلمُ فيه رجال قاتلوك وأباك على الإسلام» فخشِيتُ أن أقول كلمة تفرّق الجماعة ويُسْفَك بها دَمٌ، فكان ما وعد الله في الجِنَان أَحَبَّ إلَي من ذلك، فلما انصرفت إلَى المنزل جاءني حبيب بن مَسْلَمة فقال: ما منعك أن تتكلمَ حين سمعت هذا الرجلَ يتكلمُ؟ قلتُ: أردت ذلك ثم خشيتُ. فقال حبيب: وُفّقْتَ وعُصِمْتَ. وقد ورد ذلك في الصحيح[(٢)].

ذكر أخبار الخوارج
الذين خرجوا على عهد عليّ وما كان من أمرهم

كان أوّلُ من خرج علَى عليٍّ رضي الله عنه حَسَكَة بن عَتَّاب الحَبَطيّ، وعِمْران بن فُضَيْل البُرْجُميّ، خرجا في صعاليك من العرب بعد الفراغ من وقعة الجمل، حتى نزلوا زَالِقَ[(٣)] من سِجِسْتَان، وقد نَكَبُوا أهلها فأصابوا منها مالاً، ثم أتوا

(١) الثوب يُتلفع به، وأطلقت حبوتي استعددت للقول.

(٢) لاحظ كيف ابتداء التنظير لسنة جديدة مخالفة لسنة الله ورسوله ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٣) من نواحي سجستان، وفيها قصور وحصون. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٢٧.

زَرَنْج[١] وقد خافهم مرزَبَانُها فصالَحهم ودخلوها، فبعث عليٌّ عبد الرحمٰن بن جَزْو الطائي فقتله حَسَكَة، فكتب عليٌّ إلى عبد الله بن عبّاس يأمره أن يولي سِجِسْتان رجلًا، ويسيِّره إليهَا في أربعة آلاف، فوَجّه رِبْعِيّ بن كأس العَنبري[٢]، ومعه الحصين بن أبي الحُرّ العنبري، فلمّا ورَد سجِسْتان قاتلهم حَسَكَة فقتلوه وضبط رِبْعِي البلاد.

قال ابن الأثير وكان فَيْرُوز حُصَيْن ينسب إلى الحصين بن أبي الحُر هذا، وهو من سجستان.

ذكر خبرهم بعد صفين

قد ذكرنا في وقعة صفين أنه لمّا رُفِعت المصاحف، تكلَّم أولئك القوم مع عليٍّ بما ذكرناه، وأبَوْا إلاَّ تركَ الحرب والرجوعَ إلَى كتاب الله، وموافقة عليٍّ رضي الله عنه لهم فيما رأوْه، على كُرْه منه. فلما رجع عليٌّ من صِفِّين بعد كتابة الصحيفة، خالفت عليه الحَرُوريّة[٣] وأنكروا تحكيم الرجّال، ورجعوا علَى غير الطريق الذي أقبلوا فيه، أخذوا على طريق البرّ وعادوا وهم أعداء متباغضون، يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداءَ الله أذهنتم في أمر الله! ويقول الآخرون: فارقتم إمامنا وفرّقْتُم جماعتَنا! فلمَّا انتهَى عليٌّ إلَى الكوفة فارقتْه الخوارج وأتت حَرُوراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفًا، ونادى مُناديهم: «إن أميرَ القتال شَبَثُ بن رِبْعيّ التميمي، وأميرَ الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليَشْكري، والأمرُ شورَى بعد الفتح، والبيعة لله عزّ وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». فلما سمع عليٌّ رضي الله عنه وأصحابُه ذلك، قامت إليه الشِّيعَة فقالوا له: «في أعناقنا بَيعة ثابتة نحن أولياء من واليْت وأعداء من عادَيت». فقالت الخوارج: «استبقتم أنتم وأهلُ الشام إلى الكفر كفَرَسَيْ رهَان، بايع أهل الشام مُعاوية علَى ما أحبّ وكرهوا، وبايعتم أنتم عليًّا أنكم أولياء من والَى وأعداء من عادى» فقال لهمْ زِياد بن النَّضْر: «واللّهِ ما بسَط عليٌّ يده فبايعناه قطُّ إلاَّ علَى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولكنكم لمّا خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: نحن أولياء من والَيتْ وأعداء من عادَيت، ونحن

---

(١) زرنج مدينة من مدن سجستان. راجع معجم البلدان جـ٣ ص١٣٨.

(٢) ربعي بن عامر التميمي، وكأس أمه.

(٣) هي قرية بظاهر الكوفة على ميلين منها نزل بها قوم من الخوارج كما ستفهم من النص أعلاه، وإلى هذه القرية انتسبوا وبها عرفوا. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٤٥.

كذلك، وهو على الحق والهدى، ومن خالفه ضال مُضِل». قال: وبعث عليٌّ رضي الله عنه عبدَ الله بن العبَّاس إلَى الخوارج، وقال له: لا تعجلْ إلى جوابهم وخصومتهم حتَّى آتيك. فخرج إليهم، فأقبلوا يكلِّمونه، فلم يصبر حتَّى راجعهم، فقال: «ما نَقَمتم من الحَكَمين، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥] فكيف بأمَّة محمد ﷺ؟» فقالت الخوارج: «أمّا ما جعل الله حُكمه إلَى الناس وأمرهم بالنظر فيه فهو إليهم، وما حكَم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزَّاني مِائة جلدة، وفي السارق القطْع، فليس للعباد أن ينظروا في هذا». قال ابن عبّاس: فإن الله تعالى يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فقالوا: وتجعل الحكم في الصيد والحَدَث بَيْن المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟ وقالوا له: أعَدْلٌ عندك عَمرو بن العاص وهو بالأمس يقاتلنا؟ فإن كان عدْلاً فلسنا بعدول، وقد حكَّمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضَى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يُقْتَلوا أو يَرْجِعوا، وقد كتبتم بينكم وبينهم كتابًا وجعلتم بينكم الموادَعَة، وقد قطع الله الموَادعَة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت «براءة»[١] إلاَّ مَن أقَرّ بالجزية.

وبعث عليٌّ رضي الله عنه زيادَ بن النَّضْر فقال: انظر بأيّ رؤوسهم هم أشد إطاقَة[٢]. فأخبره أنه لم يَرَهم عند رجل أكثرَ منهم عند يَزيد بْن قَيس، فخرج عليٌّ رضي الله عنه في الناس حتَّى أتَى فُسْطاط يَزيد بن قَيس، فدخله، فصَلَّى فيه ركعتين، وأمَّره على أصْبِهَان والرَّيّ، ثم خرج حتَّى انتهَى إلَيْهم وهم يخاصِمون ابن عباس، فقال له: ألم أنْهَك عن كلامهم؟ ثم تكلم فقال: اللهم هذا مقام من يَفْلِج فيه كان أولى بالفَلْج[٣] يوم القيامة. ثم قال لهم: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: فما أخرجكم علَينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صِفِّين. قال: «أنْشُدكم الله، أتعلمون أنهم حَيْثُ رفعوا المصاحف، وقلتم: نجيبهم، قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين!» وذكر ما كان قال لهم، ثم قال «وقد اشترطتُ على الحَكَمَيْن أن يُحْيِيا ما أحْيَى القرآن وأن يُميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لن أن نخالف، وإن أبيَا فنحن من حكمهما بَرَاء» قالوا: فخبِّرنا أتراه عدلاً تحكيمُ الرجال في

---

(١) براءة، آيات كريمات أنزلها الله تعالى إلى رسوله ﷺ يتبرأ فيها من المشركين وقد كلف أبو بكر رضي الله عنه بتبليغها للمشركين في موسم الحج ثم أوحي إلى النبي أنه لا يبلغها إلاّ أنت أو رجل منك، فردّه وكلّف الإمام عليًا كرّم الله وجهه به. والآية ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

(٢) أراد نظر لأيِّ من قوادهم هم أكثر طاعة. (٣) النجاة والفلاح إذا صُحفت.

الدماء؟ فقال: «إنا لسنا حكّمنا الرجال، إنما حكّمْنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خَطٌّ مسطور بين دَفّتين، لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال» قالوا: فأخبرنا عن الأجل لِمَ جعلتَه بينكم؟ قال: «ليعلم الجاهل، ويَثْبت العالِمُ، ولعلَّ الله عزّ وجل يُصلح في هذه الهُدْنَة هذه الأمة، ادخلوا مصركم رحمكم الله». فدخلوا من عند آخرهم.

ذكر خبرهم عند توجيه الحكمين

قال(١): لما أراد عليٌّ رضي الله عنه أن يبعث أبا موسَى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج، وهما زُرْعَة بن بُرْج الطائي وحُرْقُوص بن زُهَيْر السعدي(٢)، فقالا له: لا حكمَ إلاّ لله تعالى، فقال علي رضي الله عنه: لا حكمَ إلا لله تعالى، قال حُرْقُوص: «تُبْ من خطيئتك، وارجعْ عن قضيتك، وارجعْ بنا إلى عدونا نقاتلْهم حتّى نلقَى ربنا». فقال علي: قد أردتكم علَى ذلك فعصيتموني، وقد كتبْنا بَيننا وبين القوم كتابًا، وشرطنا شروطًا، وأعطَينا عليها عهودًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] فقال حُرْقُوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه. فقال عليٌّ رضي الله عنه: ما هو ذنبٌ ولكنه عجْزٌ من الرأي، وقد نهيتكم، فقال زُرْعة: يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال لأُقاتِلَنَّك أطلبُ وجهَ الله. فقال عليٌّ: «بُؤْسًا لك! ما أشقاك! كأني بك قتيلاً تَسْفِي(٣) عليك الرياح!» قال: وددت لو كان ذلك، فخرجا من عنده يُحكّمان(٤).

وخطب عليٌّ رضي الله عنه يومًا، فحكّمت المحكّمة(٥) في جوانب المسجد، فقال عليٌّ: «الله أكبر! كلمة حقٌّ أُريدَ بها باطل إن سكتوا غمَمْناهم(٦)، وإن تكلموا حَجَجْناهم وإن خرجوا علينا قاتلناهم». فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال: «الحمدُ لله غَير مودَّع ربنا ولا مستغنى عنه، اللهم إنّا نعوذُ بك من إعطاء الدَّنِيّة في ديننا، فإن إعطاء الدَّنية في الدين إدْهانٌ في أمر الله وذُلٌّ راجع بأهله إلَى سخَط الله، يا عليُّ

---

(١) راجع ابن الأثير في الكامل ج٣ ص٣٣٤.

(٢) الملقب بذي الخويصرة، صحابي من بني تميم، في سيرته اضطراب كثير يرجع في مجمله إلى حدة في شخصه وسلوكه، قد شهد صفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه ثم خرج عليه، وقتل في النهروان سنة ٣٧هـ.

(٣) أي تذري عليك الريح ما تحمل من تراب وسواه.

(٤) أي يقولان: لا حكم إلاّ للّه.

(٥) أي الخوارج الذين يقولون إن الحكم للّه. (٦) سترناهم.

أبالقتل تُخوِّفنا؟ أمَا إني لأرجو أن نضربكم بها عمًّا قليل غيرَ مُصْفَحات، ثم لتعلمْ أيُّنا أولَى بها صِلِيًّا»[١]. ثم خرج هو وإخوة له ثلاثة، فأُصيبوا مع الخوارج بالنَّهْرَوَان، وأُصيب أحدهم بعد ذلك بالنُّخيْلَة.

ثم خطب عليٌّ رضي الله عنه يومًا آخر، فقام رجل فقال: لا حكمَ إلا لله، ثم توالى عِدّة رجال يحكِّمون، فقال عليٌّ: «الله أكبر كلمةُ حق أُرِيدَ بها باطل، أمَا إنَّ لكمْ عندنا ثلاثًا ما صحِبتمونا: لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفَيْءَ ما دامت أيْديكم مع أيْدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأُونا، وإنما ننظرُ فيكم أمر الله». ثم رجع إلى مكانه من الخطبة.

ذكر اجتماع الخوارج بعد الحكمين وتوليتهم أمرهم عبد الله بن وهب وخروجهم عن الكوفة وانضمام خوارج البصرة إليهم، وما كاتبهم عليٌّ به وجوابهم وغير ذلك

قال: ولمّا كان من أمر الحكمين ما ذكرناه، لقي بعض الخوارج بعضًا واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي[٢]، فخطبهم، فزهّدهم في الدنيا، وأمرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال اخرُجوا بنا من هذه القَرية الظالمِ أهلُها إلَى بعْض كُوَر الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه البِدَع المضلَّة، فقال حرقوص بن زُهَيْر: «إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وَشِيك، فلا تدعُوَنَّكم زينتُها وبَهْجتُها إلَى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم مُحسنون».

وقال حمزة بن سنان الأسدي: «يا قوم، إن الرأي ما رأيتم فولُّوا أمركم رجلاً منكم، فإنه لا بدَّ لكم من عِمَاد وسِناد وراية تحفون بها، وترجعون إليها» فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، وعرضوها على حُرْقُوص فأبى، وعلى حمزة بن سنان وشُرَيح بن أوْفَى العبسيّ فأبَيا، وعرضوها على عبد الله بن وَهْب فقال:

---

(١) أي النار.

(٢) عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي، شارك في فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص. وحارب الإمام علي، ثم انقلب عليه وتأمّر على الخوارج في النهروان وفيها قتل. راجع الكامل للمبرد جـ٣ ص١٦٣.

«هاتوها، أمَا والله لا آخذُها رغبةً في الدنيا، ولا أدعها فَرَقًا من الموت» فبايعوه لعشر خلَوْن من شوال سنة سبع وثلاثين. وكان يقال له: ذو الثفِنات[١].

ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أبي أوفى العبسي، فقال ابن وهب: اشْخَصوا بنا إلَى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنكم أهل الحق. قال شُريح: «نخرجُ إلى المدائن، فننزلها، ونأخذ بأبوابها، ونُخرج منها سكانها، ونبعث إلَى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا» فقال زيد بن حصين: «إنكم إن خرجتم مجتمعين تُتُبِّعتم، ولكن اخرجوا وِحدانًا مستَخفين، فأمّا المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا من جسر النهروان[٢]، وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة». قالوا: هذا الرأي.

وكتب عبد الله بن وهب إلَى من بالبصرة منهم يُعلمهم ما اجتمعوا عليه، ويحثهم على اللَّحاق بهم، وسيَّر الكتّابَ إليهم، فأجابوا.

قال: ولما عزم مَن بالكوفة من الخوارج على الخروج، تعبّدوا لَيلتهم ـ وكانت ليلة الجمعة ـ ويَومَ الجمعة، وساروا يوم السبت، فخرج شُريح بن أوفى العبسي وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢١ و٢٢].

قال: وخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، فأتبعه أبوه ليرده فلم يقدر عليه، فانتهى إلى المدائن ثم رجع.

وأرسل عدي إلَى سعد بن مسعود عامل عليٍّ على المدائن يُحذِّره أمرهم، فحَذِر، وأخذ أبواب المدائن، وخرج في الخَيل، واستخلف بها ابن أخيه المختار بن أبي عبيد، وسار في طلبهم فأُخبر عبد الله بن وهب خبره، فترك طريقه وسار على بغداد، ولحقهم سعد بن مسعود بالكَرْخ في خمسمائة فارس عند المساء، فانصرف إليهم عبد الله في ثلاثين فارسًا، فاقتتلوا ساعة وامتنع القوم منهم، وقال أصحاب سعد لسعد: «ما تريد من قتال هؤلاء ولم يأْتك فيهم أمر، خلِّهم فليذهبوا، واكتب إلى أمير المؤمنين، فإن أمرك باتّباعهم فاتّبعهم، وإن كفاكهم غيرُك كان في ذلك عافية لك» فأبَى علَيهم، فلما جَن علَيهم الليل عَبَر عبد الله بن وهب دجلة إلى أرض جَوْخَى[٣]، وسار إلى النهروان، فوصل إلى أصحابه وقد أيِسوا منه.

---

(١) جمع ثفنة وهي الركبة.

(٢) نهروان وهي قرية واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٣٢٤.

(٣) جُوخَا: كذا أثبتها ياقوت في معجمه جـ٢ ص١٧٩ وقال بالقصر أيضًا. وهي قرية واسعة في سواد بغداد.

وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم، فردهم أهلوهم كرهًا، منهم القَعْقاع بن قيس الطائي عم الطِّرِماح بن حكيم[١]، وعبد الله بن حكيم بن عبد الرحمٰن البكائي.

قال: ولما خرجت الخوارجُ من الكوفة أتى عليًا أصحابُه وشيعتُه فبايعوه، وقالوا: نحن أوْلياء من والَيت وأعداء من عادَيت. فشرط لهم فيه سنَّةَ رسول الله ﷺ.

وأمّا خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل، وجعلوا عليهم مسعر بن فَدَكِي التميمي، فعلم بهم ابن عباس، فأتبعهم أبا الأسْود الدُّؤَلي، فلحق بهم بالجسر الأكبر، فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل، وأدْلَج[٢] مسعر بأصحابه، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب.

قال: ولما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى الأشعري إلَى مكة، ورَدّ عليٌّ ابن عباس رضي الله عنهما إلَى البصرة، قام عليٌّ بالكوفة خطيبًا فقال: «الحمدُ لله وإن أتى الدهرُ بالخَطْب الفَادِح والحِدْثان الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أمّا بَعْدُ، فإن المعصية تُورِث الحَسْرة، وتُعقِب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمْري، ونَحَلْتُكم[٣] رأْيي، لو كان لقَصِير أمر[٤]، ولكن أبَيْتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هَوَازن:

أمرتُهمو أمْري بمنْعَرج اللِّوَى فلم يَسْتَبِينوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الْغَدِ

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترموهما حَكَمَيْن، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحيا ما أمات القرآن، واتبع كلُّ واحد منهما هَوَاه بغير هُدًى من الله، فحكما بغير حُجّة بيِّنةٍ ولا سنّة ماضية، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشُدْ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، استعِدُّوا وتأهّبوا للمسير إلَى الشام، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يَوم الاثنين» ثم نزل.

وكتب إلى الخوارج بالنَّهْرَوَان: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى زيد بن حصنٍ وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أمَّا بعدُ فإن الرجلين اللذَين ارتضينا حَكَمَيْن قد خالفا كتاب الله تعالى، واتَّبعا أهْواءهما بغير

---

(١) الطرمّاح بن حكيم بن الحكم الطائي. شامي النشأة، خارجي المذهب على بدعة الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق قرض الشعر وهجا. توفي سنة ١٢٥هـ. راجع الأغاني ج١٠ ص١٤٨.

(٢) سار ليلاً.

(٣) أعطيتكم إياه بلا مقابل.

(٤) راجع المثل في مجمع الأمثال للميداني ص٢٣٥.

هُدًى من الله، فلم يعملا بالسنَّة، ولم يُنْفِذا للقرآن حكمًا، فبرىء الله منهما ورسولُه والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا إلَيْنا، فإنا سائرون إلَى عدوِّنا وعدوِّكم، ونحن علَى الأمر الأول الذي كنَّا عليه».

فكتبوا إليه: «أمّا بعْدُ فإنك لم تغضبْ لربّك، وإنما غضبت لنفسك، فإن شهِدتَ على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلاَّ فقد نابذناك علَى سَواءٍ إن الله لا يحبّ الخائنين».

فلما قرأ كتابه أيِس منهم، ورأى أن يدَعَهم ويمضِيَ بالناس حتَّى يناجز أهل الشام فقام في أهل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أمّا بعدُ فإنه من ترك الجهاد في الله ودَاهَن في أمره كان على شَفا هَلَكة، إلا أن يتداركَه الله بنعمته، فاتقوا الله تعالى، وقاتِلوا من حَادَّ[1] الله، وحاول أن يطفىءَ نورَ الله، وقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين، الذين ليسوا بقرّاء القرآن ولا فُقَهاءَ في الدين، ولا عُلماءَ بالتأْويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو وُلُّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كِسْرَى وهِرَقْل، تيسّروا للمسير إلَى عدوِّكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليَقْدَموا عليكم، فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وكتب إلَى ابن عباس رضي الله عنه: «أمّا بَعْدُ فإنا خرجنا إلَى معسكرنا بالنُّخيلَة، وقد أجمعنا علَى المسير إلَى عدوّنا من أهل المغرب، فاشْخَص إلى الناس حتى يأْتيك رسولي، وأقم حتى يأْتيك أمري، والسلام عليك».

فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس، وندبهم مع الأحنف بن قيس، فشخص ألف وخمسمائة، فخطبهم وقال: «يا أهل البصرة، أتاني كتابُ أمير المؤمنين، فأمرتكم بالنفير إليه، فلم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة، وأنتم ستون ألْف مقاتل سِوَى أبنائكم وعبيدكم. ألاَ انْفِروا مع جارية بن قُدَامة السعْديّ[2]، ولا يجعلن رجلٌ على نفسه سبيلاً، فإنِّي موقع بكلّ من وجدته متخلفًا عن دعوته، عاصيًا لإمامه، فلا يلُومَن رجل إلا نفسه». فخرج جارية واجتمع إلَيه ألف وسبعمائة، فوافَوْا عليًّا وهم ثلاثة آلاف ومِائتان.

---

(١) شاقه.

(٢) راجع ترجمته في أسد الغابة جـ١ ص٢٦٣ والنص في الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣٤٠.

فجمع علي رضي الله عنه رؤوس أهل الكوفة ورؤوس الأسْباع ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أهل الكوفة، أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق، وأصحابي إلى جهاد المحلين، بكم أضرب المُدْبِر، وأرجو تمام طاعة المُقْبل، وقد استنفرت أهل البصرة، فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان، فلْيكتب لي رئيس كلّ قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال، وعُبْدان عشيرته ومواليهم، ويرفع ذلك إلينا.

فقام إلَيه سعيد بن قَيْس الهَمْداني فقال: يا أمير المؤمنين، سمعًا وطاعة، أنا أولُ الناس أُجاوب بما طلبت وقام مَعْقِل بن قيس، وعَديّ بن حاتم، وزياد بن خَصَفة، وحُجْر بن عديّ، وأشراف الناس والقبائل، فقالوا مثل ذلك، وكتبوا له ما طلب، وأمروا أبناءهم وعبيدهم ومواليهم أن يخرجوا معهم، فرفعوا له أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفًا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفًا، سوى أهل البصرة وهم ثلاثة آلاف ومائتا رجل.

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال من عنده من المقاتلة، وبلغ عليًا رضي الله عنه أن الناس يقولون: «لو سار بنا إلَى قتال هذه الحَرُورية فإذا فرغنا منهم توجهنا إلَى قتال المحلين». فقال لهم: «بلغني أنكم قلتم كَيْتَ وكَيْتَ! وإن غير هؤلاء الخارجين أهمُّ إلينا، فدَعُوا ذكرهم، وسيروا إلَى قوم يقاتلونكم، كيما يكونوا جَبّارين ملوكًا، ويتخذوا عبادَ الله خَوَلاً»(١).

فناداه الناسُ أنْ سِرْ بنا يا أمير المؤمنين حَيثُ أحببت. وقام إلَيه صَيفي بن نُشيل الشيبانيّ فقال: «يا أمير المؤمنين، نحن حزبك وأنصارك، نعادي من عاداك، ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا، فإنك إن شاء الله لن تُؤتَى من قلةِ عدد، ولا ضعفِ نية أتباع». وقام إليه محرز بن شهاب التميميّ فقال: «يا أمير المؤمنين، إن قلب شيعتك كقلب رجل واحد في الاجْتماع على نُصرتك، والجدّ في جهاد عدوّك، فابشر بالنصر، وسر بنا إلَى أيّ الفريقين أحببت، فإنّا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهادِ من خالفك صالحَ الثواب، ونخاف في خِذلانك والتخلف عنك شدةَ الوَبال».

---

(١) عبيدًا.

وأجمع على المسير عليٌّ إلى الشام، فشغله عن ذلك أمر الخوارج وقتالهم على ما نذكره.

ذكر قتال الخوارج

قيل: كان سبب ذلك أن الخوارج من البصرة لما دنوا من النهْروان رأوا رجلاً يسوق بامرأة على حمار، فدعوه وانتهروه فأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خَبّاب صاحب رسول الله ﷺ. فقالوا له: أفزعناك! قال: نعم. قالوا: لا رَوْع[1] علَيك، حَدِّثنا عن أبيك حديثًا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به، فقال: حَدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: تكون فتنةٌ يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ فيها بدنُه، يُمسي فيها مؤمنًا ويصبح كافرًا، ويُصبح مؤمنًا ويُمسي كافرًا، قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنَى علَيهما خيرًا. فقالوا: ما تقول في عُثمان في أوّل خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًّا في أولها وآخرها، قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: أقول إنه أعلَمُ بالله منكم، وأشَدُّ تَوَقِّيًا علَى دينه، وأنفذُ بصيرةً. قالوا: إنك تتبع الهوَى وتُوالي الرجالَ علَى أسمائها لا علَى أفعالها، والله لنقتلنك قِتلَة ما قتلناها أحدًا، فأخذوه وكتفوه، ثم أقبلوا بامرأته وهي حُبْلَى مُتِمٌ[2] حتى نزلوا تحت نخل مَوَاقر، فسقطت رُطبة[3]، فأخذها أحدهم فتركها في فيه، فقال له آخر: أخذْتها بغير حلها وبغير ثمن. فألقاها، ثم مرَّ بهم خِنزيرٌ لأهل الذمة، فضربه أحدهم بسَيفه، فقالوا له: هذا فسادٌ في الأرض. فلقِيَ صاحبَ الخنزير فأرضاه. فلما رأى عبد الله بن خَبّاب ذلك منهم قال: «إن كنتم صادقين فيما أرَى فما عليّ منكم من بأس، إنّي مسلم ما أحدثتُ في الإسلام حدَثًا، ولقد أمنتموني، فقلتم: لاَ روعَ عليك» فأضجعوه فذبحوه، وأقبلوا إلى المرأة فقالت: أنا امرأة، ألا تتّقون الله. فبقروا[4] بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيىء، وقتلوا أمّ سِنان الصيْداوية.

فلما بلغ عليًّا رضي الله عنه ذلك بعث إليهم الحارث بن مُرّة العبديّ ليأتيهم، وينظرَ ما بلغه عنهم، ويكتبَ به إليه، فلما دنا منهم يسألهم قتلوه. وأتى الخبر إلَى عليّ، فقال له الناس: «يا أمير المؤمنين علام نَدَعُ هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا! سرْ بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلَى عدوّنا من أهل الشام». فأجمع

(١) لا خوف عليك.
(٢) أتمت حملها وأوشكت على الوضع.
(٣) ثمر النخيل قبل أن يصبح تمرًا.
(٤) شقوا.

عليٌّ رضي الله عنه علَى ذلك، وخرج وسار إليهم. فأرسل إلَيهم أن ادفعوا إلينا قَتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكافٌّ عنكم حتَّى ألقى أهل المغرب(١)، فلعل الله يقبل بقلوبكم، ويردّكم إلَى خير مما أنتم عليه من أمركم فقالوا: كُلُّنا قَتلهم، وكلُّنا مُستحلٌّ لدمائكم ودمائهم. فراسلهم مرة بعد أُخرى.

وخرج إليهم قيس بن سعد بن عُبادة(٢)، فكلَّمهم ونصحهم، وأشار عليهم بالمراجعة والدخول فيما خرجوا منه، فأبَوْا. وخطبهم أبو أيوب الأنصاري(٣) رضي الله عنه وحذَّرهم تعجيل الفتنة. وأتاهم عليّ رضي الله عنه فكلَّمهم ووعظهم وذكرهم. فتنادوا: «لا تخاطبوهم ولا تكلّموهم، وتهيؤوا للقاء الله، الرواح الرواح إلى الجنة». فعاد عليّ عنهم.

ثم إن الخوارج قصدوا الجسر، فقال أصحاب عليّ له: إنهم عبروا النهر، فقال: لن يعبروه، فأرسلوا طليعة، فعاد. وأخبر أنهم عَبَروا النهر، وكان بينهم وبينه عَطْفة من النهر، فلخوفِ الطليعة منهم لم يقربْهم فعاد، فقال: قد عبروا النهر. فقال عليّ رضي الله عنه: «والله ما عبروه، وإن مصارعهم لدون الجِسر، ووالله لا يُقْتَل منكم عشرة، ولا يَسْلَم منهم عشرة». وتقدم عليّ إليهم فرآهم عند الجسر لم يعبروه، وكان الناس قد شكّوا في قوله وارتاب به بعضهم، فلما رأوهم لم يعبروا كَبّروا وأخبروا عليًا رضي الله عنه بحالهم، فقال: والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبت.

ثم عبَّأ أصحابه، فجعل على ميمنته حُجر بن عديّ، وعلى مَيْسرتهِ شَبَث بن رِبْعيّ أو مَعْقل بن قَيس الرِّياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وعلى الرَّجالة أبا قتادة الأنصاريّ رضي الله عنه، وعلى أهل المدينة ـ وهم سبعمائة أو ثمانمائة ـ قيس بن سعد بن عُبادة رضي الله عنه.

---

(١) معاوية وصحبه في الشام.

(٢) قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري الخزرجي المدني. جواد وصاحب نجدة وشرف ورأي. وروى البخاري أنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير. صحب الإمام علي كرّم الله وجهه فأحسن له الصحبة والنصيحة، وكان بعد استشهاد الإمام مع ولده الحسن رضوان الله عليه، ثم اعتزل بعد الصلح إلى المدينة هربًا من شر معاوية. توفي حوالي سنة ٦٠هـ. راجع بدائع الزهور لابن إياس جـ١ ص٢٦.

(٣) أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار، شهد مشاهد الرسول كلها، وغدا في أخريات أيامه بعد انتقاله من المدينة إلى الشام ودفن بوصية له عند أصل حصن في القسطنطينية سنة ٥٢هـ. راجع أسد الغابة جـ٢ ص٨٠.

وعبأت الخوارج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى الميسرة شُرَيح بن أبي أوفى العبسيّ، وعلى خيلهم حمزة بن سِنان الأسديّ، وعلى رَجّالتهم حُرْقوص بن زُهَيْر السَّعْديّ.

وأعطى عليّ رضي الله عنه أبا أيُّوب الأنصاريّ راية أمان، فناداهم أبو أيوب فقال: «من جاء هذه الرايةَ فهو آمِنٌ ممَّن لم يقتل ولم يتعرض[(١)]، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجةَ لنا بعد أن نُصِيب قَتَلة إخواننا منكم في سفك دمائكم». فقال فَرْوة بن نوفل الأشجعيّ: «واللّهِ ما أدري على أي شيء نقاتل عليًا؟ أرى أن أنصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله، أو أُتابعه». فانصرف في خمسمائة فارس، حتى نزل البَنْدَنِيجَيْن[(٢)] والدَّسْكرة[(٣)]، وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة.

وخرج إلَى عليّ رضي الله عنه نحو مائة، وكان الخوارج في أربعة آلاف؛ فبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة، فزحفوا إلى عليّ رضي الله عنه وكان قد قال لأصحابه: كُفُّوا عنهم حتى يبدؤوكم. فتنادوا. الرواح إلى الجنة. فحملوا على الناس فافترقت خيل عليّ فرقتين، فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم الخيلُ من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسّيوف فما لبثوا أن أناموهم، فلما رأى حمزة بن سنان الهلاك نادَى أصحابه أن انزِلوا، فذهبوا لينزلوا فلم يلبثوا حتى حمل عليهم الأسود بن قيس، وجاءتهم الخيلُ من نحو عليّ فأهلكوا في ساعة، فكأنما قيل لهم موتوا فماتوا.

قال: وأخذ عليّ ما في عسكرهم من شيء[(٤)]، فأما السِّلاح والدّواب وما شُهِرَ عليه فقسمه بين المسلمين، وأما المتاعُ والعبيدُ والإماء فإنه ردّه على أهله حين قدم.

وطاف عديّ بن حاتم في القتلى على ابنِ طَرفة، فدفنه، ودفن رجال قتلاهم، فقال عليّ حين بلغه ذلك تقتلونهم ثم تدفنونهم! ارتحلوا. فارتحل الناس ولم يُقْتَل من أصحاب عليّ إلا سبْعة؛ منهم يزيد بن نويرة وله صحبة وسابقة.

---

(١) كل من جاء الراية فهو آمن إلاّ الذي ساهم بقتل بريء أو تعرض لمسلم.

(٢) البندنيجن بلفظ التثنية وهي بلدة مشهورة على طرف النهروان لناحية الجبل من أعمال بغداد. راجع ياقوت جـ١ ص٤٩٩.

(٣) الدسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر الملك من غربي بغداد. راجع ياقوت جـ٢ ص٤٥٥.

(٤) أي كل شيء.

وهؤلاء الخوارج هم الذين ورد في أمرهم في الصحيح الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن قومًا يخرجون يَمْرُقون من الدِّين كما يَمْرُق السَّهْم من الرَّمِيَّة علامتهم رجل مُخْدَج اليد»[١] فالتمسه عليّ في القتلى فوجده، فنظر في عضده فإذا لحم مجتمع كثدي المرأة، وحَلَمة عليها شَعَرات سُود، فإذا مُدَّت امتدت حتى تُحاذِي يده الطُّولَى، ثم تُترك فتعود إلى مَنْكِبه. وكان عليّ رضي الله عنه يحدِّث الناس بهذا الحديث قبل وقعة الخوارج.

وقيل: كانت هذه الوقعة في سنة ثمان وثلاثين.

قال: ولمّا فرغ عليّ رضي الله عنه من هذه الوقعة حمد الله وأثنَى عليه، ثم قال: إنَّ الله قد أحسن بكم، وأعزَّ نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلَى عدوّكم. قالوا: «يا أمير المؤمنين، نَفِدت سهامنا، وكَلَّت سيوفُنا، ونَصَلت[٢] أسنةُ رماحنا وعاد أكثرها قصدًا[٣]، فارجعْ إلَى مصرنا، فنلستعدّ بأحسن عُدّتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عِدَّتنا فإنه أقوى لنا على عدوّنا». وكان الذي تولَّى كلامَه الأشعث بن قيس[٤].

فأقبل حتَّى نزل النُّخَيْلة، فأمر الناس أن يلزموا عسْكرهم، ويوطِّنوا على الجهاد لعدوهم أنفسهم، وأن يُقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم حتَّى يسيروا إلى عدوّهم. فأقاموا فيه أيامًا ثم تسللُوا من معسكرهم، فدخلوا إلاَّ رجالاً من وجوه الناس وترك العسكر خاليًا. فلما رأى عليّ ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير. وخطبهم مرة بعد أخرى، وحثَّهم على الخروج إلى الشام فلم يتهيأ له ذلك. وحيث ذكرنا أخبار الخوارج فلنذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النَّهْروان. والله الموفق للصواب.

ذكر أخبار من خرج بعد أصحاب النهروان

قال[٥]: ولما قُتِل أهلُ النَّهْروان خرج أشْرَس بن عوف الشَّيْبانيّ علَى عليّ رضي الله عنه بالدَّسْكَرة في مِائتين، ثم سار إلى الأنبار[٦] فوجه إلَيْه عليّ رضي الله عنه

---

(١) ناقصها أو قصيرها.

(٢) إذا انفصل رأس الرمح أو حربته عنه.

(٣) عادت الرماح مقطعة من كعب وثقان ونصل...

(٤) لهوىً كان فيه لمعاوية كما بيَّنًا سابقًا.

(٥) راجع ابن الأثير الكامل ج٣ ص٣٧٢.

(٦) الأبنار: مدينة قرب بلْخ على جبل، فيها كروم وبساتين، أبنيتها من طين. راجع معجم البلدان ج١ ص٢٥٧.

الأبرش بن حسان في ثلاثمائة فواقعه، فقتل الأشْرس في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين.

ثم خرج هلال بن علقمة من تَيْم الرِباب ومعه أخوه مجالد، فأتى ماسَبَذَان[١]، فوجه إليه عليّ مَعْقِل بن قيس الرِّياحيّ فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من مائتين، وكان قتلهم في جُمادَى الأُولى منها.

ثم خرج الأشهب بن بشر، وقيل الأشعث، وهو من بَجِيلة في مائة وثمانين رجلاً، فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلَّى عليهم، ودَفَن من قدر عليه منهم، فوجه عليّ إلَيه جارية بن قدامة السَّعديّ، وقيل حُجْر بن عدي؛ فاقتتلوا بجَرْجَرايا[٢] من أرض جُوخَى فقتل الأشهب وأصحابه في جُمادَى الآخرة منها.

ثم خرج سعيد بن قفل التيميّ من تَيم الله بن ثعلبة في شهر رجب بالبَنْدَنِيجَيْن ومعه مائتا رجل، فأتى دَرْزَيجَانَ[٣] وهي من المدائن على فرسخين، فخرج إليهم مجيعد بن مسعود فقتلهم في الشهر المذكور.

ثم خرج أبو مريم السَّعديّ التميميّ فأتى شَهْرَذورَ[٤] وأكثر من معه من الموالي.

وقيل: لم يكن معه من العرب غير خمسة نفر، واجتمع معه مائتا رجل، وقيل: أربعمائة. وجاء حتَّى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة[٥]، فأرسل عليّ إلَيه يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة، فلم يفعل، وقال: ليس بيننا غير الحرب، فبعث إليه شُرَيح بن هانىء في سبعمائة، فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتين، فانحاز إلَى قرية فرجع إليه بعض أصحابه، ودخل الباقون الكوفة، فخرج عليّ بنفسه، وقدّم بين يديه جارية بن قدامة السَّعديّ، فدعاهم جارية إلى طاعة

---

(١) ماسَبَذان: بفتح السين والباء والذال. الأصل فيها ماه سبذان. راجع ياقوت جـ٥ ص٤١.

(٢) جَرْجَرايا: بفتح الجيم وسكون الراء. من أعمال النهروان السفلى بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي. انظر معجم ياقوت جـ٢ ص١٢٣.

(٣) دَرْزِيجان: بفتح أوله وسكون ثانيه وزايه مكسورة. قرية كبيرة تحت بغداد على دجلة لجهة الغرب، وأصلها درزيندان فعربت على درزيجان. انظر ياقوت جـ٢ ص٤٥٠.

(٤) شَهْرَزُور: بالزاي، لا بالذال كما أثبتها النويري أو الناسخ. قرية واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك، ومعنى شهر بالفارسية المدينة. راجع معجم البلدان جـ٣ ص٣٧٥.

(٥) الكُوفة: مصر مشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قومه ضد العذراء، وقيل إنها سميت الكوفة لاستدارتها. مصّرت سنة ١٧هـ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر تعريف مفصل لها في معجم البلدان جـ٤ ص٤٩٠.

عليّ وحذَّرهم القتل، فلم يجيبوا، ودعاهم عليّ أيضًا فأبوا عليه، فقتلهم أصحاب عليّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلًا استأمنوا فأمّنهم. وكان في الخوارج أربعون رجلًا جرحى فأمر عليّ بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى برئوا. وكان قتلهم في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين.

ذكر خلاف الخريت بن راشد التميمي وبني ناجية على عليّ رضي الله عنه وما كان من أمرهم

قال(١): وفي سنة ثمان وثلاثين أظهر الخِرِّيتُ بن راشد الناجي(٢) الخِلافَ علَى عليّ رضي الله عنه، وكان قد شهد مع عليّ الجمل وصِفِّين في ثلاثمائة من بني ناجية خرجوا إليه من البصرة، وأقاموا معه بالكوفة إلى هذه السنة، فجاء إلَى عليّ في ثلاثين راكبًا، فقال له: «يا عليّ والله لا أُطيع لك أمرًا، ولا أُصلّي خلفك، وإني غدًا مفارقٌ لك». فقال له عليّ: «ثكلتك أمّك! إذًا تعصى ربَّك، وتنكث عهدَك، ولا تضر إلا نفسك؛ خبّرني لم تفعل ذلك؟» قال: «إنك حكَّمت الرِّجال، وضعُفت عن الحق، وركنت إلى القوم الذين ظلموا، فأنا عليك زارٍ(٣) وعليهم ناقم، ولكم جميعًا مُبَاين». فقال له عليّ: «هَلمّ أُدارسك الكتاب، وأُناظرك في السُّنَن، وأُفاتحك أُمورًا أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر». قال: فإني عائدٌ إليْك. قال: «لا تستهوينَّك الشياطين، ولا يَستخفنك الجهّال، والله لئن استرشدتَني وقبلتَ مني لأهدينك سبيلَ الرّشاد». فخرج من عنده منصرفًا إلى أهله، وسار من ليلته هو وأصحابه.

فقال زياد بن خَصَفة البكريّ: «يا أمير المؤمنين، إنه لم يَعظم عَلينا فَقدُهم فنأسَى عليهم، إنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا، ولَقَلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا، ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليه من أهل طاعتك، فأْذنْ لي في اتباعهم حتى أردّهم عليك». فقال: تدري أين توجهوا؟ قال: لا، ولكني أسأل وأتبع الأثر، فقال له: اخرج يرحمك الله، وأنزل دَيْر أبي موسى، وأقم حتى يأْتيك أمري.

---

(١) ابن الأثير جـ٣ ص٣٦٤.

(٢) الخريت بن راشد الناجي، صحابي من بني ناجية. تشيع لعلي كرّم الله وجهه في أول أمره، ثم خرج إلى بلاد فارس بعد التحكيم. وقال مقولة المحكمة، ثم إنه قُتل في الأهواز حيث عسكر مع نفر من أصحابه سنة ٣٩هـ. راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٢ ص١١٠.

(٣) زارٍ: معيب.

فخرج زياد فأتى داره وجمع أصحابه من بكر وائل، وأعلمهم الخبر فسار معه منهم مائة وثلاثون رجلاً. فقال: حسبي. ثم سار فأتى دَيْر أبي موسى فنزله ينتظر أمر عليّ.

وأتى عليًا كتاب من قَرظَة بن كَعْب الأنصاريّ يخبره أنهم توجهوا نحو نِفَّر[(١)]، وأنهم قتلوا رجلاً من الدهّاقين، كان قد أسلم، فأرسل عليٌّ رضي الله عنه إلَى زياد يأمره باتباعهم ويخبره خبرهم، وأنهم قتلوا رجلاً مُسلمًا، ويأمره بردّهم إليه، فإن أبَوْا يناجزهم. وسيَّر الكتّاب مع عبد الله بن وَأل، فاستأذنه في المسير مع[(٢)] زياد، فأذن له، وسار بالكتّاب إلى زياد.

وساروا حتى أتوا نِفَّر، فقيل: إنهم ساروا نحو جَرْجَرايا[(٣)]، فتبعوا آثارهم حتى أدركوهم بالمذَاد[(٤)] وهمْ نزول، قد أقاموا يومهم وليلتهم واستراحوا، فأتاهم زياد وقد تقطَّع أصحابه وتعبوا، فلما رأوهم ركبوا خيولهم، وقال لهم الخِرِّيت: أخبروني ما تريدون؟ فقال له زياد ـ وكان مجربًا رفيقًا ـ: «قد ترَى ما بنا من التعب، والذي جئناك له لا يصلحه الكلام علانية، ولكن ننزل ثم نخلو جميعًا، فنتذاكر أمرنا، فإن رأيت ما جئناك به حظًا لنفسك قبلته، وإن رأينا فيما نسمع منك أمرًا نرجو فيه العافية لم نرده عليك». قال: فانزل. فنزل زياد ومن معه على ماء هناك، فأكلوا شيئًا وعلفوا دوابهم، ووقف زياد في خمسة فوارس بين أصحابه وبين القوم وقال: إنَّ عِدّتنا كعِدّتهم[(٥)]، وأرى أمرنا يصير إلى القتال فلا تكونوا أعجز الفريقَين. وخرج زياد إلى الخرِّيت، فسمعهم يقولون: جاءنا القومُ وهم كالُّون تَعِبُون فتركناهم حتَّى استراحوا، هذا واللّهِ سوءُ الرأي. فدعاه زياد وقال: ما الذي نقمته علَى أمير المؤمنين وعلَينا حتَّى فارقتنا؟» فقال: «لم أرْضَ صاحبكم إمامًا، ولا سيرتكم سيرة، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشُّورَى». فقال له زياد: «وهل يجتمع الناس على رجل يُداني صاحبك الذي فارقْته علمًا بالله وسنَّته وكتابه، مع قرابته من رسول الله ﷺ وسابِقته في

(١) نفَّر: قرية من نواحي بابل بأرض الكوفة. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٩٥.
(٢) صوابها (إلى) وزياد هو زياد بن خصفة البكري.
(٣) جَرْجَرايا: بلد من أعمال النهروان بين بغداد وواسط. انظر ياقوت جـ٢ ص١٢٣.
(٤) وصوابها المذار بالفتح والراء لا بالدال كما هو مثبت لأن المذاد بالدال موضع بالمدينة حيث حفر الخندق. والمذار موضع في ميسان بين واسط والبصرة، وبينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام. انظر معجم البلدان جـ٥ ص٨٨.
(٥) آلة حربنا كآلة حربهم.

الإسلام»؟ فقال له: «ذلك ما قال لك». فقال له زياد: ففيم قتلتَ ذلك الرجل المسلم؟ قال: ما أنا قتلته إنما قتله طائفة من أصحابي. قال: فادفعهم إلينا. قال: ما إلَى ذلك سبيل. فدعا زياد أصحابه، ودعا الخِرِّيت أصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فتطاعنوا بالرماح حتَّى لم يبقَ رمح، وتضاربوا بالسيوف، حتى انحنت، وعُقِرت عامّة خُيولهم، وكثرت الجراحة فيهم، وقُتل من أصحاب زياد رجلان، ومن أولئك خمسة وجاء الليل فحجز بينهم، وقد كَرِه بعضُهم بعضًا، وجرح زياد. فسار الخِرِّيت من الليل، وسار زياد إلى البصرة.

وأتاهم خبر الخِرِّيت أنه أتَى الأهواز فنزل بجانب منها، وتلاحق به ناس من أصحابه فصاروا نحو مائتين، وكتب زياد إلى عليّ رضي الله عنه بخبرهم، وأنه مقيم يداوي الجرحَى وينتظر أمره.

فلما قرأ عليٌّ كتابه قام مَعقِل بن قيس[١] فقال: «يا أمير المؤمنين، كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد عشرة، فإذا لحقوهم استأْصلوهم وقطعوا دابرهم، فأما أن يلقاهم عددهم[٢] فلعمري لَيَصبرُنَّ لهم، فإن العِدّة تَصْبر للعِدة». فقال عليّ تَجهز يا مَعْقِل إليهم، وندب معه ألفين من أهل الكوفة منهم يزيد بن مَعْقِل الأزدي.

وكتب عليّ إلى ابن عباس يأمره أن يبعثَ من أهل البصرة رجلاً شجاعَ معروفًا بالصلاح في ألفي رجل إلَى مَعْقِل، وهو أمير أصحابه حتَّى يأْتي مَعْقِلاً، فإذا لقِيَه كان مَعْقِلٌ الأمير، وكتب إلى زياد بن خَصفة يشكره ويأمره بالعود.

قال: واجتمع علَى الخِرِّيت عُلُوج[٣] كثيرٌ من أهل الأهواز أرادوا كسر الخراج، ولصوصٌ وطائفة أخرى من العرب تَرى رأيه، وطمع أهل الخراج في كسره، فكسروه، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس وكان عاملاً لعليّ في قول من يزعم أنه لم يمت في سنة سبع وثلاثين.

فقال ابن عبّاس لعليّ: أنا أكفيك فارس بزياد؛ يعني ابن أبيه فأمره بإرساله إليها، فأرسله في جمع كثير، فوطىء بلاد فارس، فأدَّوا الخراج واستقاموا.

---

(١) معقل بن قيس الرياحي اليربوعي، كنيته أبو عبد قيس، بشر عمر بفتح تستر، شارك في حرب الجمل إلى جانب الإمام علي كرّم الله وجهه، وتولى شرطته، وكان من الأجواد الشجعان والقادة الفرسان. توفي سنة ٤٣هـ.

(٢) أراد عدد الرجال من كليهما.

(٣) مفردها علج وهو الواحد من كفار العجم.

قال: وسار مَعْقِل بن قَيْس، وقَدم الأهواز، وأقام ينتظر مدد البصرة، فأبطؤوا عليه، فسار يطلبُ الخِرِّيت، فلم يسرْ يومًا حتى أدركه المدد مع خالد بن مَعْدان الطائي، فساروا جميعًا فلحقوهم بقرب جبل من جبال رامَهُرْمُز[١]، فصفَّ مَعْقِل أصحابه، فجعل علَى مَيْمنته يزيد بن المغفِل، وعلَى مَيْسَرته مِنْجاب بن راشد الضَّبيّ من أهل البصرة. وصَفَّ الخرِّيت أصحابه، فجعل من معه من العرب ميمنَة، ومن معه من أهل البلد والعُلوج ميسرة ومعهم الأكراد، فحرّكَ مَعْقِل دابّته مرتين، ثم حمل في الثالثة، فصبروا له ساعة ثم انهزموا، فقتل أصحابُ مَعْقِل منهم سبعين من بني ناجية ومن معهم من العرب، وقتلوا نحوًا من ثلاثمائة من العُلوج والأكراد.

وانهزم الخرِّيت فلحق بأسياف البحر[٢] وبها جماعة كبيرة من قومه، فما زال يسير فيهم ويدعوهم إلَى خلاف عليّ، ويخبرهم أن الهدى في حربه، حتى اتبعه منهم ناس كثير.

وأقام مَعْقل بأرض الأهواز، وكتب إلى عليّ رضي الله عنه بالفتْح فقرأ عليّ الكتاب على أصحابه واستشارهم، فقالوا كلهم: نرى أن تأمر مَعْقِلاً يتبع آثار الفاسق حتَّى يقتله أو ينفيه، فإنَّا لا نأمنُ أن يُفسد عليك الناس. فكتب إلَى مَعْقِل يُثني علَيه وعلى من معه، ويأمره باتباعه وقتله أو نفيه.

فسأل مَعْقِل عنه فأُخبر بمكانه بالأسياف، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليّ وأفسد من عنده من عبد القَيس وسائر العرب. وكان قومه قد منعوا الصَّدَقة عام صِفِّين وذلك العام، فسار إليهم مَعْقِل وأخذ على فارس فانتهى إلى أسياف البحر، فلما سمع الخرِّيت بمسيره قال لمن معه من الخوارج: أنا على رأيكم وإن عليًّا لم ينبغِ له أن يحَكِّم. وقال للآخرين من أصحابه: إنّ عليًّا حَكَّم ورضي فخلعه حَكمُه الذي ارتضاه. وقال سِرًّا للعثمانية: أنا والله على رأيكم، قد واللّهِ قُتِل عثمانُ مظلومًا. فأرضى كلَّ صنف منهم. وقال لمن منع الصدقة: شُدُّوا أيديكم على صدقاتكم، وصِلُوا بها أرحامكم، وكان فيها نصارَى كثير قد أسلموا؛ فلما اختلف الناس قالوا: والله لديننا الذي خرجنا منه خير من دين هؤلاء الذي لا ينهاهم دينهم عن سفك الدماء، فقال لهم الخرِّيت، ويْلكم، لا يُنْجيكم من القتل إلا قتال هؤلاء القوم

(١) رامَهُرْمز: ورام بالفارسية تعني القصد أو المرام، هرمز اسم أحد الأكاسرة، ورامهرمز مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، فيها النخل والجوز والأترنج. انظر معجم البلدان جـ٣ ص١٧.

(٢) لعله اسم قرية مجاورة في نواحي الأهواز.

والصبر، فإنّ حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يُقتَل ولا يقبلون منه توبةً ولا عُذرًا. فخدعهم وجمعهم وأتاهم من كان من بني ناجية وغيرهم خلق كثير.

فلما انتهى مَعقل إليه نَصَب راية أمان؛ وقال: «من أتاها من الناس فهو آمن إلاَّ الخرِّيت وأصحابه الذين حاربونا أول مرة». فتفرق عنِ الخرِّيت جلٌّ من كان معه من غير قومه. وعبَّأ مَعْقِل أصحابه، وزَحَف بهم نحو الخرِّيت ومعه أصحابه مسلمهم ونصرانيهم ومانع الزكاة منهم، وحَرَّض كلُّ واحد منهما أصحابه، ثم حَملَ معْقل ومن معه فقاتلوا قتالاً شديدًا وصَبروا، ثم إن النُّعمان بن صُهْبان الراسبي بَصُرَ بالخرِّيت، فحمل عليه فطعنه، فصُرع عن دابّته، ثم اختلفا ضربتَين، فقتله النعمان؛ وقتِل معه في المعركة سبعون ومِائةُ رجل، وذهب الْباقون يَمينًا وشمالاً، وسَبَى معْقِل من أدركه من حَريمهم وذَراريهم، وأخذ رجالاً كثيرًا، فأما من كان مسلمًا فخلاَّه وأخذ بَيعته وترك له عياله، وأمّا من كان ارتدَّ فعرض علَيهم الإسلام، فرجعوا، فخلَّى سبيلهم وسبيل عيالهم، إلاَّ شيخًا نصرانيًا منهم يقال له الرُّمَاحِس لم يُسلم فقتله.

وجمع مَن منعَ الصدقة، وأخذ منهم صدقة عامين.

واحتمل الأُسارَى وعيالهم وأقبل بهم، وشيّعهم المسلمون، فلما ودّعوهم بكى الرجال والنساء بعضُهم إلى بعض حتَّى رحمهم الناس. ثم مرَّ بهم حتى أقبل علَى مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشَّيْباني[1]، وهو عامل عليٍّ علَى أرْدَشِيرخُرَّهْ[2]، وهم خمسمِائة إنسان، فبكَى النساء والصبيان وصاح الرجال: «يا أبا الفضل[3]، يا حامِيَ الرجال، ومأوَى العُضْب[4] وفكَّاك العُناة[5]، امْنُنْ[6] علَينا فاشْترنا وأعتقنا»[7]. فقال مَصْقلة: أُقسم بالله لأتصدَّقَنَّ علَيكم إنَّ الله يجزي المتصدقين. فاشتراهم من مَعْقِل بخمسمِائة ألف، فقال له معقل: عَجِّل المالَ إلَى أمير المؤمنين. فقال: أنا باعث الآن بعضه ثم أبعث كذلك حتى لا يبقَى منه شيء؛ وأقبل مَعْقِل إلَى عليّ فأخبره بما كان منه فاستحسنه.

---

(١) مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني البكري الوائلي. شايع الإمام عليًا كرّم الله وجهه، وتولى له بعض قرى الأهواز. ثم تحوّل إلى معاوية بن أبي سفيان تخلصًا عن حق واغترارًا بدنيا فولاه طبرستان وقد مات قذفًا بالحجارة حينما أوغل في طبرستان لإحكام السيطرة عليها ولم يحفظ طريق رجوعه، حوالي سنة ٥٠هـ.

(٢) أردشير خرّة: وخرّة بالفارسية تعني براء، وأردشير اسم أحد الأكاسرة تمتد على البحر، شديدة الحر، كثيرة الثمار. راجع معجم البلدان جـ١ ص١٤٦.

(٣) يعني مصقلة بن هبيرة.

(٤) الذليل المستضعف.

(٥) مفردها عانٍ وهو الأسير.

(٦) تفضل علينا.

(٧) حرِّرنا: والعتيق هو العبد الذي أطلقه سيده.

وبَلَّغ عليًا أنَّ مَصْقَلة أعتق الأُسارى ولم يسألهم أن يُعينوه بشيءٍ، فقال: ما أظنُّ مَصْقَلة إلاَّ قد تحمل حَمالة سترونه عن قريب منها مُبلدًا[١]، وكتب إليه بحمل المال أو يحضر عنده، فحضر عنده، وحمل من المال مِائتي ألف.

قال ذُهْل بن الحارث: فاستدعاني مَصْقَلة ليلة فطَعمنا، ثم قال: إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدر عليه. فقلت: والله لو شئت ما مضت جُمعة حتى تحمله. فقال: «واللّهِ ما كنت لأُحمِّلها قومي: أَمَا والله لو كان ابن هُند[٢] ما طالبني بها، ولو كان ابن عَفَّان[٣] لوهبها لي». قال فقلت: إن هذا لا يرَى ذلك الرأي، لا يترك منها شيئًا. فهرب مَصْقَلة من ليلته فلحق بمعاوية.

وبلغ عليًا ذلك فقال: ما له أقرحه الله! فعَل فِعْل السيِّد وفَرَّ فرار العبد، وخان خِيانة الفاجر، أما إنه لو أقام فعجز ما زدنا على دينه، فإن وجدنا له شيئًا أخذناه وإلاَّ تركناه». ثم سار عليّ إلى داره فهدمها، وأجاز عِتْق السَّبْي، وقال: أعتقهم مُبْتاعهم وصارتْ أثمانهم دَيْنًا على مُعْتِقهم[٤].

وكان أخوه نُعَيم بن هُبَيرة شيعةً لعليّ، فكتب إليه مَصْقَلة من الشام مع رجل من نصارَى تَغْلِب، اسمه حُلْوان يقول له: «إن معاوية قد وعدك الإمارة والكرامة، فأقبِلْ ساعةَ يلقاك رسولي والسلام عليك، فأخذه مالك بن كعب الأرحبيّ فسرحه إلى عليّ رضي الله عنه، فقطع عليّ يده، فمات. وكتب نُعَيم إلى أخيه يلومه على لَحَاقه بالشام، وما فعله من هربه.. وأتاه التغلبيون فطلبوا منه دِيَة صاحبهم فَوَداه لهم. وقال مَصْقلة: [من المتقارب]

لَعَمري لَئن عابَ أهلُ العرا ... ق عَليَّ انتعاشَ بني ناجيهْ
لأعظمُ من عتقهم رقّهم ... وكَفِّي بعتقهمو حاليهْ
وزايدتُ فيهم لإطلاقهم ... وغاليتُ إن العُلا غاليهْ

وحيث ذكرنا من أخبار عليّ ما قدمناه، فلنذكر ما وقع في مدة خلافته خلاف ذلك على حكم السنين.

---

(١) إذا عجز عن الوفاء وثقل عليه.
(٢) معاوية بن أبي سفيان لأنه كما هو معروف كان يتصدق بمال الله من دون حق.
(٣) عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٤) أي مصقلة بن هبيرة، فهو العاتق، والمال مال الله مرقبته إلى يوم يبعثون.

ذكر ما اتفق في مدة خلافته رضي الله عنه

خلاف ما قدمنا ذكره على حكم السنين مما هو متعلق به خاصة، خلاف ما هو مختص بمعاوية فإنا نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

سنة ست وثلاثين:

ذكر ولاية قيس بن سعد مصر

وما كان بينه وبين معاوية من المكاتبة وما أشاعه معاوية عنه حتَّى عزله عليّ رضي الله عنه عن مصر واستعمل محمد بن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهما.

قال: وفي سنة ست وثلاثين في ثالث صفر بعث عليّ رضي الله عنه قَيس بن سعد بن عُبادة[١] أميرًا على مصر، وقال له: «سر إلَى مصر قد وَلَّيْتُكَها واخرج إلى رَحلك، واجمع إلَيك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتّى تأتيها ومعك جند؛ فإن ذلك أرعبُ لعدوك وأعزُّ لوليك، وأحسنْ إلى المحسن، واشْدُدْ على المريب، وارفُق بالعامّة والخاصّة، فإن الرِّفق يُمنٌ». فقال له قَيس: «أمّا قولك أخرج إليهَا بجند فواللّهِ لئن لم أدخلها إلاَّ بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبدًا، فأنا أدع ذلك الجند لك، فإن كنت احتجت إليهم كانوا قريبًا منك وإن أردت أن تبعثهم إلَى وجه من وجوهك كانوا عُدَّة».

وخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه كما ذكرنا ذلك. ولما قدم صعد المنبر وجلس عليه، وأمر بكتاب عليٍّ رضي الله عنه فقرىء عَلى أهل مصر بإمارته عليهم، ويأمرهم بمتابعته ومساعدته وإعانته على الحقِّ. ثم قام قيس فقال: «الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل وكَبَت[٢] الظالمين، أيُها الناس: إنا قد بايعْنا خيرَ من نعلم بعد نبينا، فقوموا أيها الناس فبايعوه علَى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فإنْ نحن لم نعملْ لكم بذلك فلا بَيعةَ لنا عليكم». فقام الناس فبايعوه.

واستقامت مصر، وبعث قَيس عليها عُمّاله إلاَّ قرية يقال لها خِرْبتا فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان، عليهم رجل من بني كِنانة ثم من بني مُدْلِج اسمه يزيد بن الحارث. وكان مَسْلَمة بن مُخَلَّد أيضًا قد أظهر الطلب بِدَمِ عُثمان، فأرسل إلَيه قَيس»:

(١) راجع ترجمته في صفحات سابقات. (٢) كظمهم.

ويحك! أعليَّ تَثِبُ[1]؟! فوالله ما أُحبُّ أن لي ملك الشام إلَى مصر وأني قتلتُك».
فبعث إليه مَسْلَمة: إني كافٌّ عنكَ ما دمتَ أنت واليَ مصر. وبعث قيس إلى أهل خِربتا إني لا أُكرِهُكُم على البَيْعة، وإني أكفُّ عنكم. فهادنهم وجَبَى الخراج، ليس أحد ينازعه.

فكان قَيْس أثقَل خلق الله علَى معاوية، لقربه من الشام ومخافةَ أن يُقبِل عليٌّ في أهل العراق، وقيس في أهل مصر، فيقعَ بينهما، فكتب معاوية إلى قيس: «سلام عليكم؛ أمّا بعد، فإنكم نَقَمتم على عثمان ضَرْبةً بسوط، أو شَتْمةً لرجل، أو تسيير آخر، أو استعمال فتى، وقد علمتم أن دمه لا يحلُّ لكم؛ فقد ركبتم عظيمًا وجئتم أمرًا إدًّا[2]، فتب إلَى الله يا قيس، فإنك من المُجْلِبين على عثمان، فأمّا صاحبك، فإذا استيقنّا أنه أغرَى به الناس، وحملهم حتَّى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عُظْمُ قومك[3]، فإن استطعتَ يا قَيس أن تكون ممن يَطْلب بدم عثمان فافعل، وتابِعْنا على أمرنا، ولك سلطان العراقَين إذا ظهرتُ ما بقيت، ولمن أحببتَ من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسَلْني ما شئتَ فإني أُعطيكه، واكتب إلَيّ برأيك».

فلما أتاه الكتاب أحبّ أن يدافعه ولا يبدي له أمره، ولا يتعجلُ إلى حربه، فكتب إليه: «أمّا بعد، فقد بلغني كتابُك وفهمتُ ما ذكرتَه فيه، فأمّا ما ذكرتَ من قتل عثمان، فذلك شيء لم أُقارفه[4]، وذكرت أن صاحبي هو الذي أغرَى به حتّى قتلوه فهذا ما لم أطَّلعْ عليه، وذكرت أن عُظْم عشيرتي لم تَسلم من دم عثمان فأوّلُ الناسِ كان فيها قيامًا عشيرتي، وأمّا ما عَرضتَه من متابعتك فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يُسْرَع إليه، وأنا كافٌّ عنك، وليس يأتيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله تعالى».

فلما قرأ معاوية كتابه رآه مقاربًا مباعدًا، فكتب إليه: «أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابَك فلم أرَكَ تدنو فأعدُّكِ سِلْمًا، ولا تتباعد فأعدُّك حَرْبًا، وليس مثلي يُصانِعُ المخادِعَ وينخدعُ للمكايد ومعه عَدَدُ الرجال وأعنَّةُ الخيل، والسلام.

فلما قرأ قيسٌ كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما في نفسه، فكتب إليه: «أما بعد، فالعجبُ من اغترارك بي وطمعك فيّ، واستسقاطك رأيي[5]، أتسومني الخروجَ من طاعة أوْلَى الناس بالإمارة، وأقْولهم بالحق، وأهداهم

---

(١) كنى بها عن الحرب.
(٢) الأمر الفظيع.
(٣) عظامهم وكبراؤهم.
(٤) أرتكبه.
(٥) استسفالك إياه.

سبيلاً، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبْعَد الناس من هذا الأمر، وأقْوَلهم بالزُّور، وأضلِّهم سبيلاً، ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس. وأمّا قولك: إنّي مالىءٌ عليك مصر خيلاً ورجلاً[١]، فوالله إنْ لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهمَّ إليك إنك لذو وجد، والسلام.

فلما رأى معاوية كتابه أيِس منه، وثقل عليه مكانه، ولم تنجعْ حيله فيه فكاده، من قبل عليّ، فقال لأهل الشام: لا تَسبُّوا قَيس بن سعد، ولا تدعوا إلى غزوه، فإنه لنا شيعة، تأتينا كتبه ورسله ونصيحته لنا سرًّا، ألا ترَون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا، يُجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويُحسن إليهم. وافتعل كتابًا عن قَيس بالطَّلب بدم عثمان، والدخول معه في ذلك، وقرأه على أهل الشام.

فبلغ ذلك علي فأعْظَمه وأكْبَره، ودعا ابنيه وعبد الله بن جعفر[٢] فأعلمهم ذلك، فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيسًا عن مصر. فقال: والله إني لا أصدّق بهذا عنه. فقال عبد الله: اعزله، فإن كان هذا حقًّا لا يعتزل لك.

فبينما هم كذلك إذ جاء كتاب قيس يخبر بحال المعتزلين وكفّه عن قتالهم، فقال ابن جعفر: ما أخوفني أن يكون ذلك ممالأة منه، فَمُره بقتالهم، فكتب إليه يأمره بقتالهم، فأجابه: «أما بعد، فقد عجبت لأمرك! تأمرني بقتال قوم كافّين[٣] عنك، مُفْرغيك لعدوّك ومتى حادَدْناهم[٤] ساعدوا عليك عَدُوّك؛ فأطعني يا أمير المؤمنين، واكفف عنهم، فإن الرأي تركهم، والسلام.

فلما قرأ الكتاب قال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين؛ ابعث محمد بن أبي بكر على مصر واعزل قيسًا. فبعث محمدًا إلى مصر ـ وقيل: بعث الأشتر النَّخَعيّ فمات بالطريق فبعث محمدًا ـ فقدم محمد على قَيس بمصر، فقال له قيس: «ما بال أمير المؤمنين؟ ما غَيَّره؟ أدُلَ أحدٌ بيني وبينه؟» قال: لا، وهذا السلطان سلطانك. قال: لا، والله لا أُقِيم.

---

(١) المشاة من الجيش.

(٢) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبوه جعفر الطيار. ولد في الحبشة وهو أول مسلم يولد هناك. صحابي جواد لقبه معاصروه ببحر الجود، مدحه كثير من الشعراء، تولى إمارة بعض الفرق لعمه الإمام علي كرّم الله وجهه في صفين. انتقل إلى رحمة ربه تعالى في المدينة حوالي سنة ٨٠هـ. راجع الإصابة ترجمة ٤٥٨٢.

(٣) وهو حديث للرسول ﷺ راجعه في البخاري باب البيوع ص٣.

(٤) أي رفعوا عنك أذاهم.

وخرج إلى المدينة وهو غضبان، فأخافه مروان بن الحكم فخرج من المدينة هو وسهيل بن حُنَيْف إلَى عليّ رضي الله عنه فشهدا معه صِفِّين، فبعث معاوية إلى مروان يتغيظ عليه ويقول له: لو أمددت عليًا بمائة ألف مقاتل كان أيسر عندي من قَيْس بن سعد في رأْيه ومكانه.

ولما قدم قيس على عليّ وأخبره الخبر، علم أنه كان يقاسي أُمورًا عظامًا من المكايد وعَظُم محلّ قَيْس عنده وأطاعه في الأمر كله.

قال: وأما محمد بن أبي بكر فإنه لما قدم مصر قرأ كتاب عليّ رضي الله عنه إلى أهل مصر عليهم، ثم قام فقال: «الحمد لله الذي هدانا وإياكم لِما اخْتُلِف فيه من الحقّ، وبصرنا وإياكم كثيرًا مما كان عَمِيَ عنه الجاهلون، ألاَ إنَّ أمير المؤمنين وَلاّني أمرَكم، وعهد إليَّ ما سمعتم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أُنيب، فإن يكن ما تَرون من إمارتي وأعمالي طاعةً لله فاحمدوا الله على ما كان من ذلك، فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم عاملاً لي بغير الحقّ فارفعوه إليَّ وعاتبوني فيه، فإني بذلك أسعدُ وأنتم جديرون، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته» ثم نزل.

فلم يلبث إلا شهرًا حتى بعث إلى أُولئك القوم المعتزلين الذين كانوا قد وادَعَهم قَيْس بن سعد، فقال لهم: إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا عن بلادنا. فأجابوه: إنَّا لا نفعل، فدعنا حتى ننظرَ إلى ما يصير أمرنا إليه، ولا تَعْجَل بحربنا. فأبى عليهم، فامتنعوا وأخذوا حِذْرهم، وكانت وَقعَة صِفِّين وهم هائبون لمحمد، فلما رجع عليّ ومعاوية وصار الأمر إلى التحكيم طمعوا فيه، وأظهروا له المبارزة، فبعث محمد الحارث بن جُهْمان الجُعْفي إلى أهل خِربتا فقاتلهم فقتلوه، فبعث إليهم رجلاً من كَلْب يُدعى ابن مضاهم فقتلوه. ثم كان من خبر محمد بن أبي بكر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة قدم أبراز مرْزبان مرْوَ إلى عليّ رضي الله عنه بعد الجمل مقرًّا بالصلح، فكتب له كتابًا إلى دهاقين مَرْو والأساورة ومن بمرو، ثم إنهم كفروا وأغلقوا نَيسابور، فبعث عليّ خُلَيْد بن قُرَّة ـ وقيل: ابن طريف ـ اليرْبوعيّ إلى خُراسان.

وفيها مات حُذَيْفة بن اليمَان[1] قبل وقعة الجمل.

---

(١) حذيفة بن حسل بن جابر العبسي كنيته أبو عبد الله. صحابي ثقة أسدله الرسول ﷺ أسماء المنافقين. تولى المدائن لعمر رضي الله عنه فأحسن وفيها توفي سنة ٣٦هـ. راجع أسد الغابة جـ٢ ص١٠٧.

وفيها مات سلمان الفارسيّ في قول بعضهم، وكان عمره مائتين وخمسين سنة هذا أقلّ ما قيل فيه، وقيل: ثلاثمِائة وخمسين سنة، وكان قد أدرك بعض أصحاب المسيح عليه الصلاة والسلام.

وفيها استعمل عليّ رضي الله عنه على الرّيّ يزيد بن حُجَيَّة التَّيميّ - تَيم اللاَّت - فكسر من خراجها ثلاثين ألفًا، فكتب إليه عليّ يستدعيه، فحضر فسأله عن المال، وقال: أين ما غَلَلْتَه من المال؟ فقال: ما أخذت شيئًا؛ فخفقه بالدِّرة خَفَقات وحبسه، فوكل به سعدًا مولاه فهرب منه يريد الشام، فسوغه معاوية المال، فكان ينال من علي، وبقي بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية، فسار معه إلى العراق فولاَّه الريّ. وقيل: إنه شهد مع عليّ الجمل وصِفِّين والنَّهْروان، ثمّ وَلاَّه بعد ذلك الريّ وهو الصحيح.

سنة سبع وثلاثين:

فيها بعث عليّ رضي الله عنه جَعْدة بن هُبيرة المخزومي إلى خراسان بعد عودته من صِفِّين، فانتهى إلى نَيسابور، وقد كفروا وامتنَعوا فرجع إلى عليّ، فبعث خُلَيد بن قرّة اليَرْبوعي، فحاصر أهلها حتى صالحوه وصالحه أهل مَرْو.

وحَجَّ بالناس في هذه السّنة عُبيد الله بن عباس رضي الله عنهما.

سنة ثمان وثلاثين:

في هذه السنَة ملك عمرو بن العاص مصر، وقتل محمد بن أبي بكر علَى ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار معاوية.

ذكر خبر عبد الله بن الحضرمي
حين بعثه معاوية إلى البصرة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبي بكر بعث معاوية عبد الله بن عمرو الحضرميّ إلَى البصرة، وقال له: إنَّ جُلَّ أهلها يرَون رأيَنا في عثمان، وقد قُتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حَنِقون يودّون أن يأتيهم من يجمعهم، وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل في مضَر وتَودَّدْ للأزد فإنهم كلَّهم معك، وَادِعْ ربيعةَ فلن ينحرفَ عنك أحدٌ سواهم؛ لأنهم تُرَابيّة[1] كلَّهم وأحذرهم.

---

(١) نسبة إلى أبي تراب وهي كنية الإمام علي بن أبي طالب كناه بها رسول الله ﷺ وهي أحب كناه إليه.

فسار ابن الحَضْرميّ حتى قدم البصرة، وكان ابن عباس قد خرج إلَى علي بالكوفة، واستخلف زياد ابن أبيه على البصرة، فنزل ابن الحضرميّ في بني تميم، فأتاه العثمانية وحضره غيرهم، فخطبهم وقال: «إن إمامكم إمام الهدى قُتِل مظلومًا، قتله عليّ فطلبتم بدمه، فجزاكم الله خيرًا».

فقام الضحاك بن قيس الهلاليّ وكان على شُرْطة ابن عباس فقال: قَبَّح اللّهُ ما جئتَنا به، وما تدعونا إليه، وسَبَّه، وذكر فضل عليّ رضي الله عنه.

فقال عبد الله بن خازم السُّلَميّ[1] للضحاك: اسكت، فلست بأهل أن تتكلم، ثم أقبل على ابن الحضرميّ فقال: نحن أنصارك ويدك، والقول قولك، اقرأْ كتابك. فأخرج كتاب معاوية إليهم يُذكِّرهم فيه آثار عثمان، ويدعوهم إلى الطلب بدمه، ويضمن أنه يعمل فيهم بالسُّنَّة، ويعطيهم عطاءين في كلّ سنة.

فلما فرغ من قراءته قام الأحنف، فقال: لا ناقتي في هذا ولا جملي. واعتزل القوم.

وقام عمرو بن مرجوم العبديّ[2] فقال: أيها الناس، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا تنكثوا بيعتكم فتقعَ بكم الواقعة.

وكان العباس بن صُحار العيديّ مخالفًا لقومه في حبِّ عليّ، فقام وقال: لننصرنّك بأيدينا وألسنتنا. فقال له المثنى بن مُخَرِّبة العبديّ: والله لئن لم ترجع إلى المكان الذي جئتنا منه لنجاهدنك بأسيافنا ورماحنا، ولا يغرنك هذا الذي تكلم. يعني ابن صحار.

فقال ابن الحضرميّ لِصَبْرة بن شَيْمان: أنت نابٌ من أنياب[3] العراب فانصرني. فقال: لو نزلت في داري لنصرتك.

فلما رأى زياد ذلك خاف، فاستدعى حضين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع، وقال: أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وثقاته، وقد كان من ابن الحَضْرميّ ما تَرَوْن، وأتاه من أتاه، فامنعوني حتى يأتي أمرُ أمير المؤمنين». فقال

---

(١) عبد الله بن حازم ابن أسماء بن الصلت السلمي البصري. كنيته أبو صالح، وهو من أغدية العرب لشدة سواده، له صحبة. تولى إمرة خراسان لبني أمية. وناصر عبد الله بن الزبير حين انتفض مما تسبب بعد إخفاق الأخير بقتله حوالي سنة ٧٢هـ.

(٢) من بني عبد القيس، وكلهم كانوا على ولاء الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إلاّ من شد وباع آخرته بدنياه.

(٣) أراد عماداً من أعمدتهم.

حُضَيْن بن المنذر: نعم. وقال مالك ـ وكان يميل إلى بني أمية ـ هذا أمْر لي فيه شركاء أستشير فيه وأنظر.

فلما رأى زياد تثاقلَ مالك أرسل إلى صَبْرة بن شَيمان الحدَّانيّ الأزديّ يطلب أن يُجيره وبيت مال المسلمين، فقال: إن حملْته إلى داري أجرتكما، فنقله إلى داره بالحُدّان[1] ونقل المنبر، فكان يُصلّي الجمعة بمسْجد الحدّان.

وكتب زياد إلى عليّ رضي الله عنه بالخبر، فأرسل إليه أعْيَن بن ضُبَيْعة المجاشعيّ ثم التميمي، ليفرّقَ قومه عن ابن الحضرمي، فإن امتنعوا قاتل بمن أطاعه من عصاه، وكتب إلى زياد يُعلمه ذلك.

فقدم أعْيَن فأتى زيادًا فنزل عنده، وجمع رجالاً وأتى قومه، ونهض إلى ابن الحضرميّ ومن معه فدعاهم فشتموه، وواقفهم نهاره، ثم انصرف عنهم، فدخل عليه قوم، قيل: إنهم من الخوارج، وقيل: وضعهم ابن الحضرمي على قتله، فقتلوه غيلَة، فلما قُتِل أعْيَن أراد زياد قتالهم، فأرسلت تميمُ إلى الأزد: إنَّا لم نتعرضْ لجاركم فما تريدون إلى جارنا؟ فكرهت الأزدُ قتالهم، وقالوا: إن عرضوا لجارنا منعناه.

وكتب زياد إلى عليّ بخبر أعْيَن وقتله، فأرسل عليّ جارية بن قُدَامة السَّعديّ[2] وهو من بني سعد من تميم، وبعث معه خمسين رجلاً من تميم، وقيل: خمسمائة رجل، وكتب إلى زياد يأمره بمعونته والإشارة عليه.

فقدم جاريةُ البصرة، فحذَّره زياد ما أصاب أعْيَن، فقام جاريةُ في الأزد وجزاهم خيرًا، وقال: عرفتم الحقَّ إذ جهله غيركم. وقرأ كتابَ عليّ إلى أهل البصرة يُوبِّخهم ويتهددُهم ويعنفُهم ويتوعدُهم بالمسير إليهم والإيقاع بهم وقعةً تكون وَقْعة الجمل عندها هَباءً. فقال صَبْرة بن شَيْمان: سمعًا لأمير المؤمنين وطاعة: نحن حربٌ لمن حاربه، وسلمٌ لمن سالمه. وصار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتاب عليّ رضي الله عنه ووعدهم، فأجابه أكثرهم.

فسار إلى ابن الحضرميّ ومعه الأزد ومن تبعه من قومه، وعلى خيل ابن الحضرميّ عبد الله بن حازم السُّلَميّ، فاقتتلوا ساعة، وأقبل شَرِيك بن الأعور فصار

---

(١) حدّان: إحدى محال البصرة القديمة. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٢٧.

(٢) لعله شريك بن جديد من أصحاب علي كرّم الله وجهه. توفي سنة ٦٧هـ.

مع جارية، فانهزم ابن الحضرميّ فتحصن بقصر سنْبيل ومعه ابن خازم[١]، فأتته أُمه[٢] عَجْلى وكانت حبشية، فأمرته بالنزول فأبى، فقالت: والله لتنزلنَّ أو لأنزعنَّ يابي. فنزل ونجا، وأحرق جارية القصر بمن فيه، فهلك ابن الحضرميّ وسبعون رجلاً منهم معه، وعاد زياد إلى القصر.

قال: وكان قصر سنْبِيل لفارس وصار لسنْبِيل السعديّ، وحوله خندق. وكان فيمن احترق دراع بن بدر أخو حارثة بن بدر، فقال عمرو بن العَرَنْدَس: [من المتقارب]

رَدَدْنَــا زيــادًا إلَــى داره وجــارُ تــمــيــمٍ دُخــانًــا ذَهــبْ
لَــحــا الــلّــهُ قــومًــا شَــوَوْا جــارَهــم ولــم يَــدْفــعُــوا عــنــه حَــرَّ الــلَّــهــبْ[٣]

وقال جرير[٤]: [من الوافر]

غَــدَرْتُــمْ بــالــزُّبَــيْــر فــمــا وَفــيْــتُــمْ وَفــاءَ الأزدِ إذ مَــنــعــوا زيــادَا
فــأصــبــح جــارُهُــم بــنُــجَــاةِ عِــزٍّ وجــارُ مُــجــاشــعٍ أمْــسَــى رَمــادَا[٥]
فــلــو عــاقــدتَ حَــبْــلَ أبــي ســعــيــدٍ لَــذادَ الــقــومَ مــا حَــمَــلَ الــنِّــجَــادَا[٦]
وأدْنَــى الــخــيــلَ مِــنْ رَهَــجِ الــمــنــايَــا وأغــشــاهــا إلا سِــنَّــةَ والــصِّــعــادَا[٧]

قال: وحَجَّ بالناس في هذه السَّنة قُثَم بن العبّاس[٨] من قبل عليّ رضي الله عنهم.

سنة تسع وثلاثين:

في هذه السَّنة بَثَّ معاوية سراياه في بلاد عليّ رضي الله عنه، فكان من خبرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار معاوية.

---

(١) يعني عبد الله بن خازم السلمي. (٢) أي عبد الله بن خازم.
(٣) كناية عن حرق ابن الحضرمي في قصر سنبيل.
(٤) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي التميمي ثبت مع معاصريه الفرزدق والأخطل المثلث الأموي وخلفوا من النقائض الشعرية ثروة فنية ولغوية مذهلة. ولد وتوفي في اليمامة حدود ١١٠هـ. راجع الأغاني جـ٨ ص١٠.
(٥) كناية عن حرق ابن الحضرمي أيضًا. (٦) نجاد السيف كناية عنه.
(٧) الصعاد: صعدة واحدتها وهي قناة الرمح.
(٨) قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي: له صحبة، وتولى للإمام علي كرّم الله وجهه المدينة فظل عليها حتى استشهد أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، وعندما تولى معاوية خرج قثم إلى سمرقند وبها استشهد. توفي سنة ٥٧هـ. راجع الأنساب للسمعاني ص١٦.

وفيها استعمل عليّ رضي الله عنه زياد ابن أبيه على كِرْمان وفارس فضبطها بعد أن اضطربت أُمورها.

وحَجَّ بالناس في هذه السَّنة عُبيد الله بن عباس من قبل عليّ، وقيل: قُثَم بن العباس، وقيل: إن معاوية بعث يزيد بن شَجْرة الرَّهاويّ ليحجّ بالناس فاختلف هو وعبيد الله بن عباس، ثم اتفقا على أن يحجَّ بالناس شَيْبة بن عثمان فحجّ. والله أعلم.

وفيها تَوجّه الحارثُ بن مُرَّة العبدي إلى بلاد السِّنْد غازيًا متطوعًا بأمر عليّ رضي الله عنه فغنم وأصاب سبيًا كثيرًا، وقسم في يوم واحد ألف رأس وبقي غازيًا إلى أن قُتِل بأرض القيقان هو ومن معه إلا قليلاً في سنة اثنتين وأربعين.

سنة أربعين:

في هذه السَّنَة بعث معاوية بُسْر بن أرْطأة[١] إلى الحجاز واليَمَن، ففعل من الأفعال القبيحة وسفك من الدماء المحرمة ما نذكره في أخبار معاوية.

وفيها جرت مهادنة بين عليّ ومعاوية بعد مكاتبات طويلة على وضع الحرب، ويكون لعليٍّ العراق ولمعاوية الشام لا يدخل أحدهما بلد الآخر بغارة، واتفقا على ذلك.

وفيها فارق عبد الله بن عباس البصرة ولحق بمكة في قول أكثر أهل التاريخ، وسبب ذلك أنه مر بأبي الأسود فقال له: «لو كنت من البهائم لكنت جَمَلاً، ولو كنت راعيًا لما بلغت المرعى». فكتب أبو الأسْوَد[٢] إلَى عليّ رضي الله عنه: «... إن ابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك، ولم يسعني كتمانك رحمك الله، فانظر فيما هناك واكتبْ إليَّ برأيك فيما أحببتَ والسلام».

فكتب إليه عليّ: «أما بعد فمثلك من نصح الإمام والأُمة، ووالى على الحقِّ، وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتَ إليّ، ولم أُعلمه بكتابك فلا تدعْ إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح، فإنك بذلك جدير، وهو حقٌّ واجبٌ عليك والسلام.

(١) بسر بن أرطأة عامري قرشي، كنيته أبو عبد الرحمٰن وقد مرت ترجمته.

(٢) أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني. وضع علم النحو إذ أسس له قواعده الإمام علي كرّم الله وجهه، وقد ولاه الإمام علي البصرة وشهد معه صفين. وهو إلى جانب ذلك شاعر ظريف. توفي في البصرة سنة ٦٩هـ. راجع الإصابة ترجمة ٤٣٢٢.

وكتب إلى ابن عباس في ذلك، فكتب إليه ابْن عباس: «أمّا بعد فإن الذي بلغك باطل، وإني لما تحت يدي ضابط، وله حافظ، فلا تُصدِّق الظَّنين والسلام. فكتب إليه عليّ: أمّا بعد، فأعلمني ما أخذت من الجزية، ومن أين أخذت، وفيما وضعت».

فكتب إليه ابن عباس: «أمّا بعد، فقد فهمت تعظيمك مَرْزأة[1] ما بلغك أني رَزَأْتُه من أهل هذه البلاد، فابعث إلى عملك من أحببت فإنِّي ظاعن[2] عنه والسلام».

واستدعى أخواله بني هلال بن عامر، فاجتمعت معه قيس كلها، فحمل مالاً وقال: هذه أرزاقنا اجتمعت، فتبعه أهل البصرة، فلحقوه بالطَّف[3] يريدون أخذ المال فقال قيس: والله لا يوصَل إلَيه وفينا عين تَطْرِف. فقال صَبْرة بن شَيْمان الحُدَّانيّ: «يا معْشر الأزد إن قيسًا إخواننا وجيراننا وأعواننا على العدوّ، وإن الذي يصيبكم من هذا المال القليل، وهم لكم خيرٌ من المال» فأطاعوه، فانصرفوا وانصرف معهم بكر وعبد القيس.. وقاتلهم بنو تميم فنهاهم الأحنف، فلم يسمعوا منه، فاعتزلهم، وقاتلهم بنو تميم فحجز الناس بينهم.. ومضى ابن عباس إلى مكة المشرفة.

وقيل بل أقام بالبصرة إلى أيام الحسن رضي الله عنه وأرضاه، وشهد صلح الحسن ومعاوية.

والأول أصح، والذي شهد الصلح عُبيد الله بن عباس.

ذكر مقتل علي بن أبي طالب
رضي الله عنه وشيء من سيرته

كان مقتله في شهر رمضان سنة أربعين ليلة الجمعة. قيل: لسبع عشرة ليلة خلت منه، وقيل: لإحدى عشرة ليلة. وقيل: في شهر ربيع الآخر. والأول أصح.

وقاتله عبد الرحمٰن بن مُلْجَم المراديّ ثم التَّجُوبيّ[4]، وأصله من حِمْير، ولم يختلفوا في أنه حليفٌ لمُراد، وعداده فيهم.

---

(١) الرزء: المصاب. (٢) راحل: تارك.

(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية، فيها كان للإسلام صدع كبير باستشهاد ابن بنت الرسول الأعظم ﷺ السبط الحسين عليه السلام. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٥.

(٤) عبد الرحمٰن بن ملجم التدؤلي الحميري. خارجي، ثلم في الإسلام ثلمة لم يرأب صدعها وهو أشقى الأولين والآخرين بقتله غيلة أميرَ المؤمنين علي بن أبي طالب هو راكع يصلي في مسجد الله بين يدي الله. قتل مذمومًا سنة ٤٠هـ.

وكان سبب قتله أن عبد الرحمٰن هذا، والبُرَك بن عبد الله التَّميمي الصريمي واسمه الحجاج، وعمرو بن بكر التَّميميّ السَّعديّ وهم من الخوارج، اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس، وعابوا وُلاتهم، ثم ذكروا أهل النَّهروان، وقالوا: «ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فلو شَرَيْنا[١] نفوسنا، وقتلنا أئمة الضَّلالة، وأرحنا منهم البلاد!». فقال ابن مُلْجَم: أنا أكفيكم عليًا. وقال البُرَك: أنا أكفيكم معاوية.

وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا على ذلك، وسمُّوا سيوفهم واتَّعَدُوا لسَبْعَ عشرةَ من رمضان، وقصد كل منهم الجهة التي يريدها.

فأما البُرَك بن عبد الله فإنه توجه إلى معاوية، فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف فوقع في أَلْيته، وأُخذ فقتل. وقيل: لم يقتله وإنما قطع يده ورجله. وبعث معاوية إلى الساعديّ، وكان طبيبًا، فقال له: «اخترْ إمّا أن أحمّي حديدةً فأضعُها موضع السيف، وإما أن أسقيك شَرْبة تقطع منك الولد» فقال: «أمّا النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد ففي يزيد وعبد الله ما تَقَرُّ به عيني. فسقاه شربة فبرىء ولم يولَد له بعدها.

وأما عمرو بن بكر ـ فإنه جلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة، فما خرج لشكاية نالته في بطنه، فأُمر خارجة ابن حبيبة ـ وكان صاحب شُرْطته ـ أن يصلي بالناس، فخرج ليصلِّي، فشَدَّ عليه وهو يَرَى أنه عمرو بن العاص فقتله. فأُتي به إلى عمرو فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو. قال: ومن قتلتُ؟ قالوا: خارجة. قال: أما والله ما ظننته غيرك. فقال: أردتَني وأراد الله خارجة؛ وقتله عمرو. هكذا نقل ابن الأثير في تاريخه الكامل[٢] في هذه الواقعة في القاتل والمقتول.

وقال أبو عمر بن عبد البر: إن القاتل اسمه زادويه رجلٌ من بني العَنْبر بن عمرو بن تميم، قال وقيل: مولى لبني العَنْبر. وفي المقتول إنه خارجة بن حُذَافة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عديّ بن كعب القرشيّ العدويّ، وأُمه فاطمة بنت عمرو بن بُجْرة العَدويّة. وقال في ترجمته: كان أحد فرسان قريش، يقال: إنه كان يعدل بألف فارس، قال: وذكر بعض أهل النسب والأخبار أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر ليمدَّه بثلاثة آلاف فارس، فأمدَّه بالزُّبير بن العوام، والمِقداد بن الأسْود، وخارجة بن حُذافة هذا، وقال: إنه لما قُتِل وأُدخل القاتلُ على عمرو فقال: من هذا الذي تدخلوني عليه؟ فاقلوا: عمرو بن العاص، فقال: ومن قتلته؟ قيل:

---

(١) أراد بعنا. الشراء من الأضداد في العربية إذ تعني الكلمة ضدها في وقتٍ. وللمتكلم حق الاختيار.

(٢) راجع الكامل جـ٣ ص٣٩٤.

خارجة، فقال: أردت عمرًا وأراد الله خارجة، وقيل: إن ذلك من كلام عمرو كما تقدم. وفي ذلك يقول عبد الجيد بن عبدون: [من البسيط]

وَلَيْتها إذ فَدَتْ عَمْرًا بخارجةٍ فَدَتْ عليًا بمن شاءت من البشر

وأمّا عبد الرحمٰن بن مُلْجَم ـ لعنه الله تعالى آمين ـ فإنه أتى الكوفة واشترى سيفًا بألف، وسقاه السم حتى لقطه، وكان في خلال ذلك يأتي عليًا رضي الله عنه فسأله فيعطيه، ويستحمله فيحمله، إلى أن وقعت عينه على قَطَام بنت علقمة، وهي تَيْم الرِّبَاب، وقيل هي من بني عِجْل بن لُجَيْم، وكانت تَرى رأيَ الخوارج، وكان عليٌّ قد قتل أباها وإخوتها بالنَّهْرَوان، وكانت امرأةً رائعةً جميلة، فأعجبته وأخذت بمجامع قلبه، فخطبها، فقالت: لقد آليْت أن لا أتزوج إلاّ على مهر لا أريدُ سواه. فقال: وما هو؟ فقالت: ثلاثة آلاف درهم وعبد وقَيْنة وقتل علي بن أبي طالب. فقال: «والله لقد قصدت لقتل علي بن أبي طالب والفتك به، وما أقدمني إلى هذا المصر غيرُ ذلك، ولكني لما رأيتك آثرت تزويجك». فقالت: ليس إلاّ الذي قلت لك. فقال لها: «وما يَغْنيك أو يعنيني[1] منك قتلُ عليٍّ؟ وأنا أعلم أني إن قتلته لم أفُت» فقالت: «إن قتلته ونجوتَ فهو الذي أردت، تبلغ شفاء نفسي ويهنيك العيش معي، وإن قُتلت فما عند الله خيرٌ من الدنيا وما فيها» فقال لها: لك ما اشترطتِ.

ففي ذلك يقول ابن مُلْجَم: [من الطويل]

ثلاثةُ آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ وضربُ عليٍّ بالحُسام المصَمَّم
فلا مَهْر أغْلى من عليٍّ وإن غلا ولا فَتْك إلاّ دُونَ فَتْكِ ابن مُلْجم

[وقد رويت هذه لغيره[2]، وأولها:][3] [من الطويل]

فلم أر مهْرًا ساقه ذو سماحةٍ كمهر قطامٍ من فَصيحٍ وأعْجَمِ

وقالت قَطَامِ له: إني سألتمس لك من يَشُدّ ظهرك. فبعثت إلى ابن عم لها يدعى وَرْدَان بن مجالد، فأجابها.

ولقي ابن مُلجم شَبِيبَ بن بَجَرة الأشجعي فقال له: يا شَبِيب هل لك في شرف

(١) راجع الاستيعاب جـ١ ص٤٢٠ وما بعدها.
(٢) وفي الاستيعاب جـ٣ ص٥٨ وردت العبارة على الشكل التالي: «وما يغنيني وماذا يغنيني منك».
(٣) وهو الأصوب.

الدنيا والآخرة؟ قال: وما هو؟ قال: تساعدُني على قتل عليٍّ بن أبي طالب، فقال: «ثكِلَتْك أمُك! لقد جئت شيئًا إدًا، كيف تقدر على ذلك؟» قال: «إنه رجل لا حَرَسَ له، ويخرج إلى المسجد منفردًا دون من يحْرُسه، فنكمنُ له في المسجد، فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه، فإن نجونا نجونا، وإن قُتلنا سَعِدنا بالذكر في الدنيا وبالجنة في الآخرة». فقال: «ويلك! إن عليًّا ذو سابقة في الإسلام وفَضْل، واللّهِ ما تنشرح نفسي لقتله». قال: «ويلك! إنه حكَّم الرجال في دين الله، وقَتَل إخواننا الصالحين، فنقتله ببعض من قَتل، فلا تشُكَّن في دينك» فأجابه، وأقبلا حتى دخلا على قَطَام، وهي معتكفة في المسجد الأعظم في قُبَّة ضربتْها لنفسها، فدعتْ لهم[1].

وأخذوا أسيافهم وجلسوا قُبَالَة السُّدّة التي يخرج منها عليٌّ رضي الله عنه، فخرج إلى صلاة الصبح يوم الجمعة، فبدره شَبِيب فضربه فأخطأه، ووقع سيفه بعِضَادة الباب، وضربه عبد الرحمٰن بن ملجم على رأسه، وقال: الحكمُ لله يا عليٌّ لا لك ولا لأصحابك. فقال عليّ رضي الله عنه: فُزْتُ وربِّ الكعبة! لا يفوتنكم الكلب!.

وهرب شبيب خارجًا من باب كِنْدَة، فلحقه رجل من حَضْرَمَوْت يُقال له: عُوَيْمر، فصرعه، وأخذ سيفه، وجلس على صدره فصاح الناس: عليكم بصاحب السيف، فخاف عويمر على نفسه فتركه ونجا، فهرب شبيب في غمار الناس.

وهرب وَرْدَان إلى منزله، فأتاه رجل من أهله، فأخبره وَرْدان بما كان، فانصرف وجاء بسيفه وقتل وردان.

وأما ابن ملجم فإنه لما ضرب عليًّا حمل على الناس، فأفرجوا له، فتلقَّاه المغيرة بن الحَكَم بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب، فرمى عليه قَطِيفَة[2] واحتمله وصرعه وقعد على صدره.

واختلفوا: هل ضربه في الصلاة؟ أو قبل الدخول فيها؟ وهل استخلف من أتمّ بهم الصلاة أو هو أتمها؟ قال أبو عمر بن عبد البر[3]: والأكثر أنه استخلف جَعْدَة بن هُبَيْرة[4]، فصلَّى بهم تلك الصلاة.

قال: ثم قال علي رضي الله عنه لأصحابه حين أخذوا ابن ملجم: احبسوه فإن مِتُّ فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليّ في العفو أو القصاص.

---

(١) فقد نسبت هذه الأبيات إلى ابن مياس المدادي.

(٢) ثوب أو مثله.

(٣) في الاستيعاب جـ٣ ص١٥٩.

(٤) لعله ابن أخت الإمام علي كرّم الله وجهه، أم هانيء.

وقيل: إنه قال لهم: «النفس بالنفس، إن هلكتُ فاقتلوه وإن بقيتُ رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفيتكم[١] تخوضون دماء المسلمين، تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا يُقْتَلَنَّ إلاَّ قاتلي».

وأتتْ أم كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنهما إلى ابن مُلْجَم وهو مكتوف فقالت: «أي عدو الله، إنه لا بأس على أبي، والله مُخزيك» قال: فعَلَى من تبكين؟ والله لقد شريته بألف وسمّمته بألف، ولو كانت الضربة بأهل مصر ما بقي منهم أحد».

قال: ثم أوصَى عليّ رضي الله عنه أولاده بتقوى الله، ولم ينطق إلا بقول «لا إله إلا الله» حتى مات رضي الله عنه وأرضاه.

رُوي عن صُهَيْب أن رسول الله ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه: من أشقَى الأولين؟ قال: الذي عَقَر الناقة. قال: فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا أدري. قال: «الذي يضربك علَى هذا» يعني يافُوخه، «فيَخْضب هذه»[٢] يعني لحيته.

وعن ثعلبة الجُمَاني قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: والذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسَمة لتُخضبن هذه، يعني لحيته، من دم هذا، يعني رأسه.

وروى النسائي[٣] من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: أشقى الناس الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا، ووضع يده على رأسه، حتى تُخضب هذه، يعني لحيته.

وعن ابن سِيرين[٤] عن عَبِيدة قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا رأى ابن ملجم قال: [من الوافر]

أُريد حياته ويريد قتلي عَذِيرَكَ من خليلك من مراد[٥]

---

(١) الصواب: لا ألفينَّكم، أي لا أجدنَّكم. (٢) راجع مسند أحمد جا ص٩١.

(٣) أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، كنيته أبو عبد الرحمٰن النسائي: صاحب السنن، قاض، حافظ، أصله من نسا قرية بخراسان، استوطن مصر، والرملة من فلسطين، وهناك سئل عن فضائل معاوية فلم يجد شيئًا ليقوله فضربوه في المسجد وأهانوه وأخرجوه فمات لوقته ودفن منبوذًا ببيت المقدس على رواية سنة ٣٠٣هـ. راجع وفيات الأعيان جا ص٢١.

(٤) محمد بن سيرين البصري، الأنصاري ولاءً، كنيته أبو بكر، عالم من علماء البصرة، اشتهر بتعبير الرؤيا، كتب لأنس بن مالك ولد وتوفي في البصرة سنة ١١٠هـ. راجع حلية الأولياء ج٢ ص٢٦٣.

(٥) الشعر من قصيدة لعمرو بن معد يكرب قالها لابن أخته قيس بن مكشوح المرادي. وقد نقلها البغدادي في خزانة الأدب ج٤ ص٢٨١ بقوله: أريد حباءه ويريد قتلي، والحباء: العطية. عذيرك: منصوب وهو مبدل من الفعل، وتقديره: اعذرني عذرًا منه.

وكان عليّ رضي الله عنه كثيرًا ما يقول: ما يمنع أشقاها، أو ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه من دم هذا، ويشير إلى لحيته ورأسه، خِضابَ دمٍ لا خِضابَ عِطْر ولا عَبِير؟

وروى عمر بن شَبَّة[١] عن أبي عاصم النَّبِيل[٢] وموسى بن إسماعيل عن سُكَيْن بن عبد العزيز العبدي، أنه سمع أباه يقول: جاء عبد الرحمٰن بن ملجم يستحمل عليًا فحمله، ثم قال: [من الوافر]

أُريد حياتَه ويُريد قَتْلي عَذِيرَك مِن خَليلك من مُراد

أما إن هذا قاتلي. قيل: فما يمنعك منه؟ قال: إنه لم يقتلني بعدُ.

وأُتِي عليٌّ رضي الله عنه فقيل له: ابن مُلْجَم يَسُمُّ سيفه، ويقول: إنه سيفتِك به فَتْكَةً يتحدّث بها العرب. فبعث إليه فقال له: لِمَ تَسُم سيفَك؟ قال لعدوِّي وعدوِّك. فخلَّى عنه.

وفي كلام علي رضي الله عنه يقول بكر بن حماد[٣]: [من الطويل]

وهَزَّ عليٌّ بالعراقَيْن لحيةً مصيبتُها حلت علَى كلِّ مُسلِم
فقال: سيأتيها من الله حادثٌ ويَخْضِبها أشقَى البريَّة بالدَّم
فباكَرَه بالسيف[٤]، شُلَّتْ يمينُه، لِشُؤْم قَطَامِ[٥] عند ذاك ٱبن مُلْجَم
فيا ضربةً من خاسر ضَلَّ سَعْيُه تَبَوَّأ منها مَقْعَدًا في جهنَّم
ففاز أميرُ المؤمنين بحَظِّه وإن طَرقَت فيه الخطُوب بمعظم
ألا إنما الدنيا بلاءٌ وفِتنةٌ حلاوتُها شِيبَتْ[٦] بِصَابٍ[٧] وعَلْقَم

وحُكِيَ عن عثمان بن المغيرة قال: لما دخل رمضان، كان علي رضي الله عنه يتعشى ليلة عند الحسن[٨] رضي الله عنه، وليلةً عند الحسين[٩]، وليلةً عند ابن

---

(١) عمر بن شبة بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، كنيته أبو زيد، شاعر، مؤرخ، راوٍ، حافظ للحديث من أهل البصرة، وتوفي بسامراء سنة ٢٦٢هـ. راجع بغية الوعاة ص٥٣٦١.

(٢) الضحاك بن مخلد بن الضحاك الشيباني.

(٣) لعله بكر بن حماد بن سمك الزناتي، كنيته أبو عبد الرحمٰن التاهرتي، شاعر، عالم بالحديث ورجاله، رحل إلى البصرة وتلقى فيها العلوم، ثم عاد إلى قاهرت بالجزائر وتوفي سنة ٢٩٦هـ. راجع البيان المغرب جا ص١٥٣.

(٤) ابن ملجم عبد الرحمٰن.

(٥) قطام بنت الأخضر، مرَّ ذكرها.

(٦) شيبت: خلطت.

(٧) الصاب: المر.

(٨) الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله جهه.

(٩) الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

جعفر(١) رضي الله عنهم، لا يزيد على ثلاث لُقَم، ثم يقول رضي الله عنه: يأتيني أمر الله وأنا خَمِيصٌ(٢)، وإنما هي ليلةٌ أو ليلتان، فلم يمضِ قليل حتى قتل.

وقال الحسن بن كثير عن أبيه قال: خرج عليّ رضي الله عنه من الفجر، فأقبل الإِوَزُّ يصحن في وجهه، فطردوهن عنه، فقال: ذَرُوهُنَّ فإنَّهن نَوَائِح(٣)، فضربه ابن ملجم في ليلته.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما يوم قُتل علي: خرجت البارحة وأبي يصلِّي في مسجد داره، فقال لي: «يا بني إني بِتُّ أوْقَظ أهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر فملكتني عيناي فنمت، فسنَحَ(٤) لي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ماذا لقيتُ من أُمتك من الأوَدِ واللَّدد، فقال لي: ادع عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم وأبدلهم بي من هو شرٌّ مني» فجاء ابن النَّبّاح(٥) فآذَنَه بالصلاة فخرج، وخرجت خلفه، فضربه ابن ملجم فقتله.

وروى أبو عمر بن عبد البر بسنده إلى عبد الله بن مالك قال: جُمِع الأطبَّاء لعليّ رضي الله عنه يوم جُرِح، وكان أبصرهم بالطب أُثَيْر بن عمْر السَّكُوني، وكان يقال له: أُثَيْر بن عمريا، وكان صاحب كِسرَى يتطبَّب له، وهو الذي يُنسب إليه صحراء أُثَير(٦)، فأخذ أُثير رئةَ شاة حارَّة(٧)، فتتبع عرقًا منها فاستخرجه فأدخله في جراحة عليّ، ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا علَيه بياض دماغ. وإذا الضربة قد وصلت إلَى أُمِّ رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين اعهدْ عهدَكَ(٨) فإنك ميِّتٌ.

وفي ضربة ابن ملجم يقول عِمْران بن حِطَّان الخارجي(٩) يمدح ابن مُلْجَم: [من البسيط]

لِلَّه دَرُّ المُراديِّ(١٠) الذي سفكَتْ	كَفَّاه مُهْجَة شرِّ الخلق إنسانا
أمْسَى عَشِيَّةَ غَشَّاه بضربته	مِمَّا جناه من الآثام عريانا
يا ضربةً من تَقيٍّ ما أرادَ بها	إلا ليبلغَ من ذي العرش رِضْوانا
إني لأذكرُهُ حينًا فأحسبه	أوْفَى البرية عند الله ميزانا

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار رضوان الله عليهم.
(٢) جائع.
(٣) البواكي على الميت.
(٤) خطر عارضًا.
(٥) الأود: الاعوجاج، واللدد: الخصومة.
(٦) مؤذنة: عامر بن النباح.
(٧) استخرجت لتوها.
(٨) أوص بوصاتك.
(٩) عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني الوائلي خطيب الصفرية من الخوارج وشاعرهم.
(١٠) عبد الرحمٰن بن ملجم.

فقال بَكْر بن حماد التَّاهَرْتي[(١)] معارضًا له: [من البسيط]

قل لابن مُلْجَمَ والأقدارُ غالبةٌ ... هدمتَ ويحك للإسلام أركانا
قتلتَ أفضلَ من يمشي على قدم ... وأوّلَ الناس إسلامًا وإيمانا
وأعلمَ الناسِ بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسول لنا شرعًا وتبيانا
صهْرَ النبيِّ[(٢)] وَمَولاه وناصرَه ... أضحت مناقبُه نورًا وبرهانا
وكان منه على رغم الحَسُودِ له ... مكان هارون من موسَى بن عمرانا[(٣)]
وكان في الحرب سيفًا صارِمًا ذكَرا ... ليثًا إذا لقِيَ الأقران أقرانا
ذكرتُ قاتله والدمع مُنْحَدرٌ ... فقلت: سبحانَ رَبِّ الناس سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشر ... يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقَى مُرادٍ إذا عُدَّت قبائلها ... وأخسَر الناس عند الله ميزانا
كعاقرِ الناقة الأُولَى[(٤)] التي جلَبت ... علَى ثَمُودَ بأرض الحِجْر خُسْرانا
قد كان يخبرهم أن سوف يَخْضِبها ... قبل المنيَّة أزمانًا فأزمانا[(٥)]
فلا عفا الله عنه ما تحمَّلَه ... ولا سَقَى قبر عِمران بن حِطَّانَا[(٦)]
لقوله في شقيٍّ ظلّ مُجْتَرِمًا ... ونال ما ناله ظلمًا وعدوانا
«يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها ... إلاَّ ليبلغَ من ذِي العرشِ رِضْوانا»
بل ضربة من غويٍّ أوردتْه لَظَى ... فسوف يلْقَى بها الرحمٰنَ غَضبانا
كأنه لم يُرِدْ قصْدًا بضربته ... إلاَّ لِيصْلَى عذابَ الخُلْد نيرانا

وقالت أم الهَيثَم بنت العريان النخعية، ومنهم من يرويها لأبي الأسود الدؤلي[(٧)]: [من الوافر]

ألا يا عَيْنُ وَيْحكِ أسْعِدينا ... ألاَ تَبكي أميرَ المؤمنينا

---

(١) مرت ترجمته آنفًا.
(٢) زوج ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.
(٣) استئناسًا بحديث رسول الله ﷺ: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي».
(٤) ناقة صالح وفيه قال الله تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَنٰهَا ﴿١٢﴾﴾.
(٥) وقد مرّ معنا علم الإمام كرّم الله وجهه من قبل رسول الله ﷺ بكيفية استشهاده.
(٦) الذي امتدح ابن ملجم في الأبيات السالفة.
(٧) مرّت ترجمة أبي الأسود، ومعظم الأبيات موجودة في ديوان أبي الأسود ص١١٧. وفي مقاتل الطالبيين نسبت الأبيات إلى أم الهيثم بنت الأسود. فتأمّل.

تُبَكّي أُمَّ كُلْثُومٍ[(١)] عَلَيْهِ ... بِعَبْرَتِها فَقَدْ رَأتِ اليَقِينَا
ألا قُلْ لِلْخَوارِجِ حَيْثُ كانُوا ... فَلا قَرَّتْ عُيُونُ الشَّامِتِينَا
أفي شَهْرِ الصِّيامِ فَجَعْتُمُونا ... بِخَيْرِ النَّاسِ طُرًّا[(٢)] أجْمَعِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وذَلَّلَها ومَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
ومَنْ لَبِسَ النِّعالَ ومَنْ حَذَاها ... ومَنْ قَرأ المَثَانِيَ والمُبِينَا[(٣)]
وكُلُّ مَنَاقِبِ الخَيْراتِ فِيهِ ... وحُبُّ رَسُولِ رَبِّ العَالَمِينَا
لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كانَتْ ... بِأنَّكَ خَيْرُهُمْ حَسَبًا ودِينَا
إذا اسْتَقْبَلْتَ وَجْهَ أبي تُرَابٍ[(٤)] ... رأيتَ البَدْرَ فَوْقَ النَّاظِرِينَا
وكُنَّا قَبْلَ مَقْتَلِهِ بِخَيْرٍ ... نَرَى مَوْلَى رَسُولِ اللهِ فِينَا
يُقِيمُ الحَقَّ لا يَرْتَابُ فِيهِ ... ويَعْدِلُ في العِدَا والأقْرَبِينَا
ولَيْسَ بِكَاتِمٍ عِلْمًا لَدَيْهِ ... ولَمْ يُخْلَقْ مِنَ المُتَجَبِّرِينَا
كأنَّ النَّاسَ إذْ فَقَدُوا عَلِيًّا ... نَعَامٌ حَارَ[(٥)] في بَلَدٍ سِنِينَا
فلا تَشْمَتْ مُعَاوِيةَ بنَ صَخْرٍ ... فإنَّ بَقِيَّةَ الخُلَفَاءِ فِينَا

قال: ولما مات عليٌّ رضي الله عنه غسله ابناه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وكُفِّن في ثلاثة أثْوَاب لَيس فيها قميص، وصلَّى عليَه ابنه الحسن، وكبَّر سبع تكبيرات.

قال: ولمَّا قُبِضَ رضي الله عنه بَعَثَ الحسنُ رضي الله عنه إلى ابن مُلْجَم فأحضره، فقال للحسن: «هل لك في خصلة؟ إني واللّهِ أعطَيْتُ اللّهَ عهدًا أن لا أُعاهد عهدًا إلاَّ وفيتُ به، وإني عاهدت الله عند الحَطِيم[(٦)] أن أقتل عليًا ومُعاوية أو أموتَ دونهما، فإن شئتَ خلَّيْتَ بَيْني وبَيْنه، ولك عَهْدُ الله على أني إن لم أقتله أو قتلته ثم بقيت أن آتيك حتَّى أضع يدي في يدك». فقال له الحسن: لا واللّهِ. ثم قدّمه فقتله، فأخذه الناس فأدرجوه[(٧)] في بوَارِي[(٨)] وحَرّقوه بالنار.

(١) بنت الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.
(٢) أي بأجمعهم.
(٣) كناية عن الكتاب الكريم ومحكم آياته.
(٤) كنية الإمام علي كرّم الله وجهه.
(٥) نعام: الحيوان المعروف، وهو مشهور بخفة عقله وقلة ذكائه. وحار: أي ضاع عن القصد.
(٦) الحطيم: ركن بمكة بين المقام والركن وزمزم والحجر. راجع معجم البلدان جـ٢ ص٢٧٣.
(٧) لفُّوه.
(٨) مفردها بوري، وهو البسط المعمولة من قصب.

واختلف في موضع قبر عليٍّ رضي الله عنه، فقيل: دفن في قصر الإمارة بالكوفة، وقيل: في رحْبَة الكوفة، وقيل: دفن بنَجَفِ[١] الحيرة في موضع بطريق الحيرة، وقيل: عند مسجد الجماعة، وقال الواقدي[٢]: دُفن ليلاً وأُخفي قبره.

وكانت مدة خلافته خمس سنين إلاّ ثلاثة أشهر، وقيل: أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام، وقيل: وثلاثة أيام، وقيل: وأربعة عشر يومًا.

وكان عمره ثلاثًا وستين سنة، وقيل: خمسًا وستين، وقيل: تسعًا وخمسين، والأول أصح.

وأما سيرته رضي الله عنه في خلافته فقد تقدّم من فضائله ما قدّمناه في صدر هذا الفصل.

وكان من سيرته رضي الله عنه أنه يسير في الفَيْءِ[٣] بسيرة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في القسم، وإذا ورد عليه مال لم يُبق منه شيئًا إلا قسمه، ولا يترك في بيت المال إلا ما يَعْجِز عن قسمته في يومه ذلك، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري، ولم يكن يستأثر من الفَيْءِ بشيءٍ، ولا يخصُّ به حميمًا ولا قريبًا.

وروى أبو عمر[٤] بسنده إلى مُجَمِّع التميمي أن عليًا رضي الله عنه قسم ما في بيت المال بين المسلمين، ثم أمر به فكُنِس، ثم صلَّى فيه رَجَاء أن يشهد له يوم القيامة.

وبسنده إلَى سُفيان عن عاصم بن كُلَيب عن أبيه قال: قدِم على عليٍّ المالُ من أصْبهان، فقسمه سبعة أسباع، ووجد فيه رغيفًا فقسمه سبع كِسَر، وجعل على كل جزء كِسرة، ثم أقْرَع بينهم: أيُّهم يُعْطَى أو لا.

وعن مُعاذ بن العلاء عن أبيه عن جده قال[٥]: سمعت علي بن أبي طالب يقول: ما أصبتُ فيكم إلا هذه القَارُورَة أهداها إليَّ الدهْقَان، ثم نزل إلى بيت المال ففرَّق كُلَّ ما فيه، ثم جعل يقول: [من الرجز]

أفلح من كانت له قوصرّه[٦] يأكل منها كل يوم تَمْره

(١) النجف عين بظاهر الكوفة تسقي عشرين ألف نخلة، وفيها قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. راجع معجم ياقوت جـ٥ ص٢٧١.

(٢) محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، كنيته أبو عبد الله من أقدم المؤرخين وحفاظ الحديث. توفي سنة ١٨٠هـ.

(٣) ما أفاءه الله سبحانه على المسلمين. راجع الاستيعاب جـ٣ ص٤٧.

(٤) ابن عبد البر جـ٣ ص٤٩.

(٥) راجع الاستيعاب جـ٣ ص٤٩.

(٦) وعاء يوضع فيه التمر.

وعن عنترة الشيباني قال: كان علي رضي الله عنه يأخذ الجزية والخراج من أهل كلِّ صناعة من صناعته وعمل يده، حتى يأْخذَ من أهل الإبر والمسالّ[(١)] والخيوط والحبال، ثم يقسمه بين الناس، ولا يدعُ في بيتِ المال مالاً يَبيت فيه حتى يقسمه، إلا أن يغلبه شغلٌ، فيصبحُ إليه وهو يقول: يا دُنيا لا تَغُرِّيني وغرِّي غيري.

وكان رضي الله عنه لا يخصص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات، وإذا بلغه عن أحدهم خيانة كتب إليه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٥، ٨٦] إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث إليْك من يتسلمه منك. ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول: اللهم إنك تعلم أني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك.

ومواعظه رضي الله عنه ووصاياه لعماله إذ كان يخرجهم إلى أعماله[(٢)] كثيرة مشهورة، وقد قدّمنا منها في الباب الرابع، من القسم الخامس، من الفن الثاني، من كتابنا هذا، ما تقف عليه هناك، وهو في السفر السادس من هذه النسخة.

قال أبو عمر بن عبد البر[(٣)]: قد ثبت عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما من وجوه أنه قال: لم يترك أبي إلا ثمانمائة درهم أو سبعمائة درهم فَضَلَتْ من عطائه، كان يعدّها لخادم يشتريها لأهله.

وأمّا تقشفه في لباسه ومطْعَمه، فكان من ذلك على الغاية القُصوى. رُوي عن عبد الله بن أبي الهذيل[(٤)] قال: رأيت عليًا رضي الله عنه خرج وعليه قميص غليظٌ دارسٌ، إذا مدّ كُمّه بلغ إلى الظفر، وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد. وعن الحسن بن جرموز عن أبيه قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج من مسجد الكوفة وعليه قَطَرِيَّتان[(٥)]، مؤتَزِرًا بالواحدة مُرْتَدِيًا بالأُخرى، وإزاره إلى نصف الساق، وهو يطوف في الأسواق، ومعه دِرَّة[(٦)] يأمرهم بتقوى الله وصِدْق الحديث، وحسن البيع، والوفاءِ بالكيل والميزان. وعن إسحاق بن كعْب بن عُجْرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليٌّ مخشوشن في ذات الله تعالى»[(٧)].

---

(١) جمع مسلة وهي الإبرة الكبيرة.

(٢) الولايات التي كان عليه السلام يوليهم إياها.

(٣) الاستيعاب ج٣ ص٤٨.

(٤) راجع الحاشية ٢.

(٥) إزار، مفردها قطرية.

(٦) ما يشبه السوط برأس مختلف.

(٧) راجع الرياض النضرة ج٢ ص٢٢٥ حاشية فتح الله ومقتله.

ذكر أزواج عليّ
رضي الله عنه وأولاده وكاتبه وقاضيه وحاجبه

أولُ زوجةٍ تزوجها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها، ولدتْ له الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد قيل: إنها ولدت ابنًا اسمه مُحْسِن توفي صغيرًا، وزينب الكبرى، وأُم كلثوم الكبرى.

وتزوج بعدها[١] أُم البنين ابنة حرام الكلابية، فولدت له العباس وجعفرًا وعبد الله وعثمان، قُتِلوا مع الحُسين بالطَّفّ.

وتزوج لَيْلى بنت مسعود بن خالد النهْشَلية التميمية، فولدت عبيد الله وأبا بكر قتلا مع الحسين، وقيل: إن عبيد الله قتله المختار بن أبي عبيد.

وتزوج أسماء بنت عميس الخَثْعَمية، فولدت له محمدًا الأصغر ويَحْيَى، وقيل: إن محمدًا لأمّ وَلد، وقيل: إنها ولدت عَوْنًا.

وله من الصَّهْبَاء بنت ربيعة التغلبية - وهي من السّبْي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعَيْن التَّمر في خلافة أبي بكر - عُمَر ورقيَّة، فعُمِّر عمرُ هذا حتَّى بلغ خمسًا وثمانين سنة، وحاز نصف ميراث عليٍّ رضي الله عنه، ثم مات بينْبُع[٢].

وتزوج عليّ رضي الله عنه أُمَامَة بنت أبي العاص بن الربيع، وأُمها زينب بنت النبي ﷺ، فولدت له محمدًا الأوسط.

وله محمد الأكبر، وهو ابن الحنفية، أُمُّه خَوْلَة بنت جعفر، من بني حَنِيفة.

وتزوج أُم سعيد ابنة عروة بن مسعود فولدت له أُم الحسن ورَمْلَة الكبرى.

وكان له بنات من أُمهات شتى، وهُنَّ: أُمّ هَانىء ومَيْمُونة وزينب الصّغْرى ورَمْلة الصغرى وأم كُلْثُوم الصغرى وفاطمة وأُمَامة وخديجة وأُم الكرام وأُم سلمة وأُم جعفر وجُمَانة ونَفِيسَة، وكلهن لأُمهات أولاد.

وتزوج محياة ابنة امرىء القَيْس[٣] بن عَدِيّ الكلبية، فولدت له جارية هلكتْ صغيرة.

---

(١) بعد وفاتها باتفاق كل الرواة.

(٢) ينبع: وهي عن يمين رضوى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر، على مسيرة ليلة من رضوى. راجع ياقوت جـ٥ ص٤٤٩.

(٣) ابن عدي بن أوس بن عابد الكلبي، وهو غير امرىء القيس الشاعر الجاهلي.

فجميع أولاد عليّ رضي الله عنه خمسة عشر ذكرًا، وهم: الحسن والحُسين ومُحْسِن ـ على خلاف فيه ـ والعبّاس وجعفر وعبد الله وعثمان وعُبيد الله وأبو بكر ومحمد ابن الحنفية ومحمد الأوسط ومحمد الأصغر ويحيى وعَون وعمر، النسل منهم للحسين والحسن ومحمد ابن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية.

ومن البنات تسع عشرة، وهن: زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى ورقية وأم الحسن ورملة الكبرى وأم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأُم كلثوم الصغرى وفاطمة وأُمَامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجُمانة ونفيسة وجارية ابنة الكلبية.

وكان كاتبه عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، وكتب له سعد بن نِمْرَان الهَمْدَاني[1].

قاضيه شُرَيْح بن الحارث.

صاحب شرطته معقل بن قيس الرياحي، وقيل: سليمان بن صُرَد الخزاعي.

حاجبه قُنْبُرُ مولاه، وكان قبله بِشْر مولاه.

نقش خاتَمه: الملكُ لله الواحد القهار.

وتقدم ذكر عُمّاله.

ذكر خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

هو أبو محمد الحسن بن علي[2] بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وسنذكر إن شاء الله نبذة من فضائله وأخباره عند ذكرنا لوفاته، ونذكر في هذا الموضع ما يختص بالخلافة دون غيره.

---

(١) راجع الإصابة جـ٤ ص٦٧ وأيضًا جـ٣ ص٢٠٠.

(٢) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، ابن البضعة الزهراء، سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد عليها وعلى أبيها أفضل الصلوات. كنيته أبو محمد، تولى الخلافة بعد أبيه فهو خامس الخلفاء الراشدين. عاقلٌ، حليم، جواد، فصيح وكان من أحسن الناس خلقًا وخلقًا. حجّ عشرين حجّة ماشيًا. استشهد مسمومًا وفيه أن معاوية دسّ له من سمه سنة ٥٠ هجرية. راجع الصحابة جـ١ ص٣٢٨.

بويع له يوم وفاة أبيه في شهر رمضان سنة أربعين، وأول من بايعه قَيس بن سعد بن عُبادة، وقال له: ابسُطْ يَدَكَ أُبايعْك على كتاب الله وسنّة رسوله وقتال المحِلِّين. فقال له الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله، فإنهما يأتيان على كل شرط. فبايعه الناس، وكان الحسن يَشرُط عليهم: «إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت». فارتابوا بذلك وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلاّ القتال..

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لمّا ضربه ابن ملجم دخل عليه جُنْدُب بن عبد الله فقال: «إن فقدناك، ولا نفقدك، أفنبايع الحسن؟» فقال علي رضي الله عنه: «ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر» فلما مات بايعه الناس، ولم تطل مُدَّته حتَّى سَلَّم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ لأسباب نذكرها إن شاء الله تعالى.

ذكر تسليم الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان

قال(١): كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد بايعه أربعون ألفًا من عسكره على الموت، وتجهز لقصد الشام لقتال معاوية فقتل قبل ذلك.

فلما بايع الناس الحسن تجهَّز بهذا الجيش، وسار من الكوفة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك عندما بلغه مسير معاوية إليه في أهل الشام.

ووصل الحسن إلى المدائن، وجعل قَيس بن سعد بن عُبادة علَى مقدمته في اثني عشر ألفًا، وقيل: بل كان الحسن قد جعل على مقدمته عبيد الله بن عباس(٢)، فجعل عبيد الله على مقدمته في الطلائع قيس بن سعد.

ووصل معاوية مَسْكِن(٣).

فلما نزل الحسن المدائن نادى منادٍ في العسكر: ألاَ إنَّ قَيس بن سعد قُتل فانفروا. فنفروا. وأتَوا سُرَادق الحسن، وانتهبوا(٤) ما فيه، حتَّى نازعوه بِساطًا كان

---

(١) انظر ابن الأثير في الكامل جـ٣ ص٤٠٤. (٢) وفي روايات أنه عبد الله بن العباس.

(٣) مسكِن: على غير قياس بكسر الكاف، وهو موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق. راجع ياقوت جـ٥ ص١٢٧.

(٤) اسرقوا.

تحته، وأخذوا رداءه من ظهره، ووثب عليه رجل من الخوارج من بني أسد يقال له ابن أُقَيْصِر بخنجر مسموم فطعنه به في أَلْيَته، ووثب الناس على الأسدي فقتلوه[١].

فازداد لهم بغضًا ومنهم ذُعْرًا، ودخل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي، عم المختار بن أبي عُبَيْد، فقال له المختار وهو شاب: هل لك في الغنى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تستوثق من الحَسَن وتستأمن به إلَى مُعاوية. فقال له عمه: «عليك لعنة الله! أثب على ابن بنت رسول الله وأُوثقه؟ بئس الرجل أنت!».

فلما رأى الحسن رضي الله عنه تفرق الناس عنه كتب إلى معاوية وشرط شروطًا، وقال: إن أعطيتني هذا فأنا سامع مطيع، وعليك أن تَفِيَ لي به. وقال لأخيه الحسين وعبد الله بن جعفر: إنني قد أرسلت إلى مُعاوية في الصلح. فقال له الحسين: أنشدك الله أن لا تُصدِّقَ أُحْدُوثةَ معاوية وتكذِّب أحدوثة أبيك! فقال له الحسن: اسكتْ أنا أعلم بالأمر منك.

فلما انتهَى كتاب الحسن إلَى معاوية أمسكه، وكان قد أرسل عبد الله بن عامر وعبد الرحمٰن بن سَمُرة بن جندب إلَى الحسن قبل وصول الكتاب إليه ومعهما صحيفة، بيضاء مختوم علَى أسفلها، وكتب إليه: أن اشترطْ في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئتَ فهو لك. فلما أتت الصحيفةُ إلى الحسن اشترط أضعاف الشروط، التي سأل معاوية قبل ذلك، وأمسكها عنده.

فلما سلّم الحسن رضي الله عنه الأمر لمعاوية، طلب الحسن أن يعطيه الشروط التي اشترطها في الصحيفة التي ختم عليها معاوية فأبَى ذلك، وقال: قد أعطيتك ما كتبتَ تطلب.

قال: ولما اصطلحا قام الحسن رضي الله عنه في أهل العراق فقال: «يا أهل العراق إنه سخَّى بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي وطعْنكم إياي وانتهابكم متاعي».

قال: وكان الذي طلب الحسن من معاوية أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة، ومبلغه خمسة آلاف ألف. وقيل: سبعة آلاف ألف، وخراج دَارَ بَجْرَد[٢] من فارس، وأن لا يُشْتَمَ عليٌّ. فلم يُجبه إلى الكفّ عن شتم عليٍّ، فطلب أن لا يُشْتَمَ

---

(١) راجع مقاتل الطالبيين للأصبهاني ص٦٥.

(٢) دارا بجِرد: وهذا هو الصواب، وليس ما أثبت أعلاه. ولاية بفارس فيها معدن الزئبق. راجع معجم الياقوت جـ٢ ص٤١٩.

وهو يسمع، فأجابه إلَى ذلك، ثم لم يَفِ له به أيضًا. فأما خراج دار بجرد فإن أهل البصرة منعوه منه وقالوا: هو فيئُنا، لا نعطيه أحدًا. وقيل: كان منعهم بأمر معاوية أيضًا. وقيل: إن معاوية أجرى على الحسن رضي الله عنه بعد ذلك في كل سنة ألف ألف درهم.

وتسلم معاوية الأمرَ لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين. وقيل: في شهر ربيع الآخر. وقيل: في جُمادَى الأُولَى في النصف منه.

وقيل: إنما سلم الحسنُ الأمر إلى معاوية؛ لأنه لما راسله معاوية في تسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثْنَى عَلَيه وقال: «إنا واللّهِ ما يَثنينا عن أهل الشام شكٌّ ولا ندم، وإنما كُنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشِيبت[1] السلامةُ بالعداوة الصبرُ بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صِفِّين ودِينُكم أمامَ دُنْياكم، وأصبحتم اليوم وَدُنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصِفِّين تبكون له، وقتيل بالنهْرَوَان تطلبون ثأره، وأما الباقي فخاذلٌ،وأما الباكي فثائرٌ، ألاَ وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عِزٌّ ولا نَصَفه، فإذا أردتم الموتَ رددْناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجل بِظُبا[2] السيوف، فإن أردتم الحياةَ قبِلناه وأخذنا لكم الرضا». فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية، فأمضَى الصلح.

فلما عزم على تسليم الأمر إلى معاوية خطبَ الناس فقال: «أيها الناس، إنما نحن أُمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل بيت نبيكم عليه الصلاة والسلام الذين أذهب الله عنهم الرِّجْسَ وطهرهم تطهيرًا»[3] وكرر ذلك حتى ما بقي في المجلس إلاَّ من بكَى حتى سُمع نَشِيجه، وأرسل إلى معاوية وسَلَّم إليه الأمر.

فكانت خلافةُ الحسن علَى قول من يقول «سلَّم الأمر في ربيع الأول» خمسة أشهر ونصف شهر، وعلَى قول من يقول «في ربيع الآخر» ستة أشهر وأيامًا، وعلى قول من يقول «في جمادى الأُولَى» سبعة أشهر وأيامًا.

وحكى أبو عمر بن عبد البر[4] رحمه الله أن الحسن رضي الله عنه لما قُتِل أبوه بايعه أكثر من أربعين ألفًا، كلهم قد كانوا بايعوا أباه عليًا قبل موته علَى الموت، ثم خرج لقتال معاوية وخرج معاوية لقتاله، فلما تَرَاءَى الجَمْعان، وذلك بموضع يقال له

---

(١) خُلطت. (٢) ظبة السيف: حده.

(٣) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

(٤) انظر الاستيعاب جـ٣ ص٣٧٠.

مسْكِن من أرض السواد بناحية الأنبار، علم أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأُخرى، فكتب إلى معاوية أنه يصير الأمر إليه، علَى أن يشترط، عليه أن لا يطالب أحدًا من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء مما كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية وكاد يطير فرحًا إلاَّ أنه قال: أمّا عشرة أنفس فلا أُؤَمِّنهم، فراجعه الحسن فيهم، فكتب إليه يقول: إني آلَيْتُ أني متَى ظفرت بقَيْس بن سعد أن أقطع لسانه ويَدَه. فراجعه الحسن: أني لا أبايعك أبدًا وأنت تطلب قيسًا أو غَيْرَه بتبِعَةٍ قَلَّتْ أو كثُرت، فبعث إليه معاوية حينئذ برقٍّ أبيض وقال: اكتبْ ما شئتَ فيه وأنا ألتزمه. فاصطلحا على ذلك، واشترط عليه الحسن رضي الله عنه: أن يكون له الأمر من بعده، فالتزم ذلك كُلَّه معاوية، فقال له عمرو بن العاص: إنه قد انْفَلَّ حدُّهم[(١)] وانكسرتْ شوكتهم[(٢)]. فقال له معاوية: «أمَا علمت أنه قد بايَعَ عليًا أربعون ألفًا على الموت؟ فوالله لا يُقتلون حتَّى يُقتل أعدادهم من أهل الشام، ووالله ما في العيْش خيرٌ بعد ذلك». فاصطلحا على ما ذكرناه.

وكان الحسن رضي الله عنه كما قال رسول الله ﷺ: «إن ابني هذا سيِّدٌ يصلح الله به بين فئتَيْن عظيمتين من المسلمين»[(٣)].

قال: ولما بايع الحسن معاوية كان أصحاب الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين. فيقول: العارُ خيرٌ من النار.

وروى أبو عمر[(٤)] بسنده إلى أبي الغَرِيف[(٥)] قال: كنا في مقدمة الحسن بن عليّ رضي الله عنهما علَى اثني عشر ألفًا بمَسْكِن مستميتين، تقطر أسيافنا من الجِدّ والحرص[(٦)] على قتال أهل الشام، وعلينا أبو العمر طه[(٧)]، فلما جاءنا صلح الحسن كأنما كُسِرت ظهورُنا من الغيظ والحزن، فلما جاء الحسن رضي الله عنه الكوفة أتاه شيخ منّا يُكنَى أبا عامر سيفان بن ليلى، فقال: السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين. فقال: «لا تقُلْ هذا يا أبا عامر، فإني لم أُذِل المؤمنين، ولكنّي كرهت أن أقتلهم في طلب الملك».

---

(١) كناية عن ضعفهم، والحد هو السيف استخدم جذوه وأريد كله، والفل والكل للسيف إذا امتنع عن القطع لتشمله.

(٢) شوكة الرمح: نصله.

(٣) راجع الحديث عند البخاري ورقمه ٣٥٠٠.

(٤) ابن عبد البر في الاستيعاب جا ص٣٧٢.

(٥) عبيد الله بن خليفة من همدان.

(٦) كناية عن استمرار القتل.

(٧) عمير بن يزيد بن عمرو بن شراحيل بن النعمان بن المنذر، كان من أصحاب الإمام علي. راجع جمهرة أنساب العرب ص٤٠١.

قال أبو عمر: ولا خلافَ بين العلماء أن الحسن إنما سلم الخِلافَة لمعاوية حياتهُ[١]، لا غير، ثم تكون له من بعده، وعلى ذلك انعقد بينهما ما انعقد في ذلك الوقت، ورأى الحسن ذلك خَيْرًا من إراقة الدماء في طلبها، وإن كان عند نفسه أحقَّ بها.

قال[٢]: ودخل مُعاويةُ الكوفةَ وبايعَه الناس، فأشار عليه عَمرُو بن العاص أن يأمر الحسن بن علي فيخطُب الناس، فكرِه ذلك معاويةُ وقال: لا حاجةَ لنا بذلك، فقال عمرو: «ولكني أُريد ذلك ليبدُوَ للناس عِيُّهُ، فإنه لا يدري هذه الأُمور ما هي» ولم يزل بمعاوية حتى أمر الحسَنَ رضي الله عنه أن يخطب[٣]، وقال له: يا حسن قم فكلِّمْ الناس فيما جَرَى بَيْننا. فقام الحسن رضي الله عنه فتشهد وحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال في بديهته: أمَّا بَعْدَ أيُّها الناس فإن الله هداكم بأوَّلِنا وحَقَنَ دماءَكم بآخِرِنا، وإنَّ لهذا الأمر مدة، والدنيا دُوَلٌ، وإن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾ [الأنبياء: ١٠٩ ـ ١١١] فلما قالها، قال له معاوية: اْجلسْ. ثم قام معاوية فخطب الناس، ثم قال لعمرو: هذه من رأيك.

ومن رواية عن الشعبي أن الحسن خطب فقال[٤]: «الحمد لله الذي هدَا بنا أوّلكم وحقَن بنا دماء آخركم، ألا إن أكْيَسَ الكَيْس[٥] التُّقى، وأعجزَ العجز الفُجور، وإنَّ هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون أحقَّ به منّي، وإما أن يكون حقي فتركته لله تعالى وإصلاح أمة محمد ﷺ وحقن دمائهم». ثم الْتفت إلَى معاوية فقال: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾ [الأنبياء: ١١١] ثم نزل، فقال معاوية لعمرو: ما أردتَ إلاَّ هذا. وحقدها معاوية علَى عمرو.

ولحق الحسن رضي الله عنه بالمدينة، بأهل بيته وحشمه، والناس يبكون عند مسيرهم من الكوفة.

---

(١) أي مدة حياة معاوية وفي حال قبض الإمام الحسن عليه السلام، فالخلافة من بعد معاوية للسبط الإمام الحسين.

(٢) ابن عبد البر في الاستيعاب جـ١ ص٣٧٣.

(٣) انظر مقاتل الطالبيين ص٧٢.

(٤) تجده في الاستيعاب لابن عبد البر جـ١ ص٣٧٤.

(٥) الكيّس: الحصيف اللبق.

والحسن رضي الله عنه آخر الخلفاء حقيقة، لقول رسول الله ﷺ: «الخلافة ثلاثون ثم تكون ملكًا وملوكًا»[١]. فكانت هذه المدة من خلافة أبي بكر رضي الله عنه وإلى آخر أيام الحسن.

ولم يزل الحسن رضي الله عنه مقيمًا بالمدينة إلى أن مات علَى ما نذكره إن شاء الله في حوادث سنة تسع وأربعين.

وحيث ذكرنا الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وذكرنا أخبار من مات أو استشهد من العشرة، أصحاب رسول الله ﷺ في أثناء أخبار الخلفاء، فلنصل هذا الباب بذكر من بقي من العشرة، وهما: سَعْد بن أبي وَقَّاص وسَعِيد بن زيد، ليكملَ عِدَّة العشرة في هذا الباب، وإن كانت وفاتُهما في غير أيام الخلفاء.

ذكر أخبار سعد بن أبي وقاص[٢] ووفاته رضي الله عنه

هو أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك بن أُهَيْب بن عبد مَنَاف بن زهرة بن كِلاب القرشي الزُّهْري.

كان رضي الله عنه سابع سبعة في الإسلام، أسلم بعد ستة، وهو ابن تسع عشرة سنة.

وهو أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، وأحد السّتَّة الذين جعل عُمر رضي الله عنه الشُّورَى فيهم، وأخبر أن رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راضٍ.

وكان رضي الله عنه مُجابَ الدعوة مشهورًا بذلك، تُخاف دعوته وتُرجَى لاشتهار إجابتها، وذلك أن رسول الله ﷺ قال فيه: «اللهم سدِّد سهمه وأجب دعوته»[٣].

وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وذلك في سَرِيَّة عُبَيْدَة بن الحارث، وقد تقدم ذكره في السيرة النبوية في الغزوات والسرايا.

---

(١) راجع مسند أحمد جـ٤ ص١٨٥ باختلاف.

(٢) سعد بن أبي وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي من بني زهر. كنيته أبو إسحاق. له صحبة وهو من العشرة المبشرة بالجنة. وأحد الستة الذين جعل عمر الخلافة بينهم فتح العراق والمدائن، قاتل في بدر وتولى الكوفة لعمر بن الخطاب عزله عثمان فرجع إلى المدينة حيث فقد بصره وتوفي حوالي سنة ٥٥هـ. راجع الإصابة، ترجمة ٣١٨٧.

(٣) راجع أسد الغابة جـ٢ ص٢٩١.

وجمع رسول الله عليه الصلاة والسلام له بين أبوَيْه في قوله ﷺ: «ارم فِداكَ أبي وأمِّي»[١] ولم يقل ذلك إلاَّ له وللزبَير بن العوام.

وكان أحد الفرسان الشجعان من قريش، وهو الذي كَوَّف[٢] الكوفة ونفى الأعاجم وتولَّى قتال الفرس كما تقدم ذكر ذلك في خلافة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان أميرًا علَى الكوفة، فشكاه أهلُها ورمَوْه بالباطل، فدعَا علَى الذي واجهه بالكذب دَعْوَة ظهرتْ إجابته فيها.

ولمَّا جعله عُمر بن الخطاب في أصحاب الشُّورَى قال: إن وَلِيَها سعد فذاك وإلاَّ فلْيستعن به الوالي فإني لم أعزِلْه[٣] عن عجز ولا خيانة.

وكلَّمه ابنه عمر بن سعد أن يدعُوَ لنفسه بعد مَقْتَل عثمان فأبَى.

وكان رضي الله عنه ممَّن لزم بيته وقعد في الفتنة، وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشيء حتَّى تجتمع الأُمة على إمام، فطمِع مُعاوية فيه وفي عبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة، فكتب إليهم[٤] يدعوهم إلى عونه على الطلب بدم عثمان، ويقول لهم إنهم لا يكفِّرون ما أتوه من قتله وخذلانه إلاَّ بذلك، وقال: إن قاتله وخاذله سواء، في نَثْر ونظم كتب به إليهم، فأجابه كُلُّ واحد منهم يرد عليه ما جاء به من ذلك، ويُنْكر عليه مقالته، ويعرِّفه أنه ليس بأهلٍ لما يطلبه، وكان في جواب سعد: [من الوافر]

مُعاوِيَ داؤكَ الداءُ العَيَاءُ ... وليس بما تَجيءُ به دَوَاءُ

أيدعوني أبو حَسَن عليٌّ ... فلم أردُدْ عليه ما يشاءُ

وقلتُ له أَعْطِني سَيْفًا قصيرًا ... تُمَازُ[٥] به العداوةُ والوَلاءُ

فإنَّ الشرَّ أصغره كبيرٌ ... وإنَّ الظَّهر مُثْقِلُه الدِّماءُ

أتطمعُ في الذي أعْيَا عليًّا ... على ما قدْ طمعْتَ به العَفَاءُ[٦]!

ليومٌ منه خيرٌ منك حيًّا ... ومَيْتًا أنت للمرء الفِدَاءُ

وأما أمر عُثْمَانٍ فدَعْهُ ... فإنَّ الرَّأْيَ أذْهَبَه البَلاءُ

---

(١) راجع أسد الغابة جـ٢ ص٢٩١.
(٢) أي خطط.
(٣) في عزل عمر له اختلاف، وإنما الذي عزله هو عثمان رضي الله عنه.
(٤) انظر تفاصيل ذلك عند ابن أبي الحديد جـ١ ص٢٦٠.
(٥) تمتاز.
(٦) أراد الخلافة.

وكانت وفاة سعد رضي الله عنه في قصره بالعَقِيق، علی عشرة أمْيَال من المدينة، وحُمل إلَى المدينة علَى رقاب الرجال، ودُفن بالبقيع وصلَّى عليه مَرْوان بن الحَكم(١)، واختُلف في وقت وفاته، فقال الواقدي: توفي في سنة خمس وخمسين، وهو ابن بِضْع وسبعين سنة، وقال أبو نعيم(٢) مات سنة ثمان وخمسين، وقال الزبير والحسن بن عثمان وعمرو بن علي الغَلاَّسُ: توفي في سنة أربع وخمسين، وهو ابن بِضْع وسبعين، وذكر أبو زرعة(٣) عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال: توفي وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، ورُوي عن ابن شهاب(٤) أن سعد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه: لما حضرته الوفاة دعا بخَلِقِ جُبّةٍ(٥) له من صوف، فقال: كفِّنُوني فيها فإني كنت لَقيتُ المشركين فيها يوم بَدْر وهي عليَّ وإنما كنت أخْبَؤُها لهذا اليوم، رضي الله تعالَى عنه وأرضاه.

ذكر أخبار سعيد بن زيد
رضي الله عنه ووفاته

هو أبو الأعور سعيد بن زيد(٦) بن عمْرو بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رَزاح بن عديّ بن كعب بن لُؤيّ بن غالب القرشي العَدَوِي. وأُمه فاطمة بنت بَعْجة بن مُلَيْح الخزاعيةَ.

وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصهره، كانت تحته فاطمة ابنة الخطاب أخت عمر، وكانت أُخته عاتكة بنت زيد تحت عمر.

وكان سعيد رضي الله عنه من المهاجرين الأولين، قديم الإسلام لم يشهد بَدْرًا، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره، وقد قدمنا ذكر ذلك في غزوة بدر، وشهد ما بعد بدر من المشاهد، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

---

(١) طريد رسول الله ﷺ. (٢) في حلية الأولياء.

(٣) محمد بن عثمان بن إبراهيم بن زرعة من موالي ثقيف، تولى قضاء مصر وفلسطين والأردن وحمص وقنسرين ثم عُزل بعد ثمان سنوات فعاد إلى دمشق ليتولى قضاءها إلى أن توفي سنة ٣٠٢هـ. راجع الولاة والقضاة ص٥١٨.

(٤) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي. كنيته أبو بكر، أول مدوِّني الحديث، حافظ فقيه مدلي، نزل بالشام واستقر بها وتوفي بشغب. انظر وفيات الأعيان جـ١ ص٤٥١.

(٥) رداء عتيق بالٍ.

(٦) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي العشي، كنيته أبو الأعور. صحابي شهد المشاهد كلها إلاّ بدر لأنه كان بمهمة للنبي. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة. شارك بفتوح اليرموك، تولى دمشق بعد فتحها لأبي عبيدة وتوفي بالمدينة سنة ٥١هـ. راجع طبقات ابن سعد جـ٣ ص٢٧٥.

وكان أبوه زيد بن عمرو يطلب دين الحنيفية، دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قبل أن يبْعث رسول الله ﷺ، وكان لا يذبح للأنْصَاب[١]، ولا يأكل مما ذُبِحَ لها، ولا يأكل الميتة ولا الدمَ، وخرج في الجاهلية يطلب الدِّين هو ووَرَقَة بن نَوْفَل[٢]، فعرضت عليهما اليهود دينهم فتهوَّد وَرَقَة، ثم لقِيَا النصارى فترك وَرَقَةُ اليهودية وتنَصر، وأبى زَيد أن يأْتي شيئًا من ذلك، وقال: ما هذا إلا كدين قومنا تُشركون ويُشركون، ولكنَّكم عندكم من الله ذِكرٌ ولا ذِكرَ عندهم. فقال له راهب: إنك تطلب دِينًا ما هو على الأرض اليوم. قال: وما هو؟ قال: دين إبراهيم عليه السلام. قال: وما كان عليه إبراهيم؟ قال: كان يعبدُ الله لا يشرك به شيئًا، ويصلِّي إلى الكعبة. فكان زيد على ذلك حتى مات.

ومن رواية أخرى قال: خرج وَرَقة بن نعوْفل وزيد بن عمْرو يطلبان الدين حتَّى مرّا بالشام، فأما وَرَقة فتنَصّر، وأمَّا زَيد فقيل له: إن الذي تطلب أمامَك، فانطلق حتَّى أتَى المَوْصِل[٣] فإذا هو براهب فقال: من أيْن أقبل صاحبُ الراحلة[٤]؟ قال: مِنْ بَيْت إبراهيم. قال: ما تطلب؟ قال: الدِّين. قال: فعرض عليه النصرانية، فقال: لا حاجةَ لي فيها، وأبى أن يقبل، فقال: إن الذي تطلب سيظهر بأرضك. فأقبل وهو يقول:

لَبّيْك حَقًّا حقًّا. تعبّدا ورِقًّا.

وقال: مهما تجشَّمْني فإني جاشِمُ. عذت بما عاذ به إبراهيمُ.

قال: وأتى سعيد بن زيد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ زَيدًا كان كما قد رأيت ويلغك فاستغفرْ له. قال عليه الصلاة والسلام: «نعم، فإنه يبعث يوم القيامة أُمة وحده»[٥] فاستغفر له.

قال أبو عمر: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أقطع سعيد بن زيد أرضًا بالكوفة فنزلها وسكنها إلى أن مات، وسكنها من بعده من بنيه الأسود بن سعيد.

وكانت وفاة سعيد في سنة خمسين أو سنة إحدى وخمسين، وهو ابن بِضْع وسبعين سنة رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) يقدم الأضاحي للأصنام وعلى اسمها.

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى القرشي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وتنصر أدرك عصر النبوة ولم يدرك الدعوة، وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين. توفي حوالي سنة ١١هـ. راجع الإصابة ترجمة ٩١٣٣.

(٣) المَوْصل: بكسر الصاد، وسميت موصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات. وهي مدينة قديمة على طرف دجلة ويقابلها من الجانب الشرقي نينوى. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٢٢٣.

(٤) ما يرتحل عليه عمومًا، والناقة خصوصًا.

(٥) راجع الحديث والتفاصيل في أسد الغابة لابن الأثير، جـ٢ ص٢٣٦.

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار الدولة الأُموية

أول من ملك من ملوك هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان، هو أبو عبد الرحمٰن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حَرْب بن أُميّة بن عبد شمْس بن عبد مَنَاف بن قُصِيّ بن كِلاَب، يجتمع نسبه ونسب رسول الله ﷺ في عبد مَناف بن قصيّ.

وأُمه هند بنت عُتْبة بن ربيعة بن عَبد شمس بن عبد مَناف(١).

ولي معاوية دِمَشْق عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سنة ثماني عشرة كما ذكرنا ذلك في خلافة عُمر(٢)، وأقام بقية أيَّام عُمر وأيام عُثمان بن عفَّان رضي الله عنهما بكمالها إلَى أن قُتل. فلما بُويع عليّ رضي الله عنه امتنع من مبايعته، وكان بينهما من الحروب ما ذكرناه في خلافة علي.

وسُلِّم علَيه بالإمارة(٣) بعد اجتماع الحَكَمَيْن في سنة سبع وثلاثين، وبويع له بعد وفاة عليّ رضي الله عنه في ذي الحجة سنة أربعين ببيت المقدس، قاله أبو بشر الدَّوْلابي(٤) رحمة الله عليه، ثم بُويع له البَيعة العامَّة بالكوفة بعد أن خلص له الأمر وتسلَّمه من الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، على ما تقدم، في سنة إحدى وأربعين، في شهر ربيع الأول لخمس بَقِينَ منه وقيل: في ربيع الآخر. وقيل: جُمادَى الأولى..

ولنبدأ من أخباره بما كان منها في خلافة عليّ رضي الله عنه، مِمَّا لم نذكره هناك، ثم نذكر من أخباره بعد أن خلص له الأمر، فنبدأ هناك بما وقع في أيَّامه من الغَزَوات والفتوحات، ثم نذكر أخبار الخوارج عليه، ثم حوادث السنين خِلافَ ذلك على نحو ما قدمناه في أخبار غيره، إن شاء الله تعالى.

---

(١) آكلة الأكباد إذا لاكت كبد عم النبي ﷺ حمزة أسد الله يوم أحد.
(٢) تولى دمشق لعمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد.
(٣) يعني أصحابه من عوام الشام.
(٤) لعله محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد الرازي الدولابي.

ذكر قدوم عمرو بن العاص على معاوية وصلحه معه

كان عمرو بن العاص قد فارق المدينة وقدم إلى فلسطين في آخر أيام عثمان، فأقام هناك حتى قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ذكرنا في خلافة عثمان سبب خروج عمرو، فلما أتاه الخبر بقتل عثمان قال: «أنا أبو عبد الله، أنا قتلته وأنا بوادي السبع[١] إن يلِ هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيبًا[٢]، وإن يله ابن أبي طالب فهو أكره من يليه إليّ!».

فأتاه الخبر ببيعة عليّ، فاشتد عليه، فأقام ينتظر ما يصنع الناس، فأتاه خبر مسير عائشة وطلحة والزبير، فأقام ينتظر ما يصنعون، فأتاه خبر وقعة الجمل، فأرتج عليه[٣].

فسمع أن معاوية امتنع من بيعة عليّ رضي الله عنه وأنه يعظم شأن عثمان، فدعا ابنيه[٤]، فاستشارهما، وقال: «ما تريان؟ أما عليّ فلا خير عنده، وهو يدل بسابقته، وهو غير مشركي في أمره». فقال له ابنه عبد الله: «يا أبت، توفي النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمعَ الناس». وقال له محمد: «يا أبت، أنتَ نَابٌ من أنْيَاب العرب، ولا أرى أن يجتمعَ هذا الأمر وليس لك فيه صوت». فقال عمرو: «أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خيرٌ لي في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خيرٌ لي في دنيايَ وشَرّ لي في آخرتي».

ثم خرج ومعه ابناه حتَّى قدم على معاوية، وقيل: إنه ارتحل من فلسطين وهو يبكي كما تبكي المرأة، ويقول: واعثماناه! أنعي الحَيَاء والدِّين، حتى قدم دمشق فوجد أهل الشام يحُضُّون مُعاوية علَى الطلب بدم عثمان. فقال لهم: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم. ومعاوية لا يلتفت إليه، فقال له ابناه: ألا ترى إلَى معاوية لا يلتفت إليك، انصرف إلى غيره، فدخل عليه فقال: «والله لعَجَبٌ لك أني أرفدك[٥] بما أرفدك وأنت مُعْرض عني، إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها، حيث تُقاتل مَن تَعلم سابقتَه وفضله وقرابته[٦]، ولكنَّا إنَّما أردنا هذه

---

(١) وادي السبع: ناحية من فلسطين بين المقدس والكرك.
(٢) كذا ولم تثبت.
(٣) أغلق عليه.
(٤) عبد الله ومحمد.
(٥) أمدك.
(٦) يعني الإمام علي كرّم الله وجهه.

الدنيا». فصالحه معاوية وعطف عليه واقتدى بآرائه، وشهد عمرو معه صفين، وحكَّمه، وكان من أمره معه ما تقدم، والله أعلم.

ذكر مقتل محمد بن أبي حذيفة وشيءٌ من أخباره

كان أبوه حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، قتل يوم اليَمامة وترك ابنه محمدًا هذا، فكفله عثمان وأحسن تربيته. وكان فيما قيل قد أصاب شَرَابًا فحدَّه عثمان، ثم تَنَسّك بعد ذلك وأقبل على العبادة.

وطلب من عثمان أن يُوَلِّيَه عملاً فقال له: لو كنت أهلاً لذلك لولَّيْتك، فقال له: إني قد رَغبت في غَزْو البحر فأْذَنْ لي في إتيان مصر. فأذن له وجهّزه، فلما قدمها رأى الناس عبادته فلزموه وعظَّمُوه.

وغزا مع عبد الله بن سعد غزوة الصواري(١)، وكان محمد يعيبُ ابن سعد، ويعيبُ عثمان بتوليته، ويقول: استعمل رجلاً أباح رسول الله ﷺ دمه.

وكتب عبد الله إلَى عثمان: إن محمدًا قد أفسد عليَّ البلاد هو ومحمد بن أبي بكر(٢).

فكتب عثمان رضي الله عنه إليه: أمَّا ابن أبي بكر فإنه يوهب لأبيه ولعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي وهو فرخ قريش.

فكتب إليه: إن هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير.

فبعث عثمان إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم ومحملاً عليه كسوة. فوضعهما محمد في المسجد وقال: يا معشر المسلمين ألاَ تَرَوْن إلَى عثمان يخادعني

---

(١) ذات الصواري: معركة بحرية جرت بين المسلمين والروم سنة ٣٤هـ في غير تكافؤ بالقوى، إذ كان للروم حوالي سبعمائة مركب، وللمسلمين حوالي مائتي مركب، وانتصر المسلمين فيها انتصارًا باهرًا.

(٢) محمد بن عبد الله، أبي بكر، بن عثمان بن عامر التيمي القرشي، أبوه أوّل من خلف رسول الله ﷺ. لقب بـ«عابد قريش» لشدة عبادته، وقد ولد في حجة الوداع، شهد مع الإمام علي وقعتي الجمل وصفين. وبعد احتلال عمرو بن العاص مصر والاستبداد بأهلها جيء بمحمد بن أبي بكر فقتله عمرو بن العاص وأحرقه فتوفي شهيدًا حوالي سنة ٣٨هـ. انظر الولاة والقضاة ص٣٦ وما بعدها.

عن ديني ويرشوني عليه، فازداد أهل مصر تعظيمًا له وطعنًا علَى عُثمان، وبايعوه على رئاستهم[(١)].

فكتب إليه عثمان يذكِّره بِرّه به وتربيته إيّاه وقيامه بشأْنه، ويقول له: كفرت إحساني أحوجَ ما كنتُ إلى شكرك. فلم يردّه ذلك عن ذمّه وتأْليب الناس عليه، وحثهم إلى المَسير إلى حصره ومساعدة من يريد ذلك.

فلما سار المصريون إلَى عثمان أقام هو بمصر، وخرج عنها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح[(٢)]، فاستَوْلَى علَيها وضبطها ولم يزل مقيمًا بها حتى قُتل عثمان وبُويع عليٌّ رضي الله عنه، واتفق معاوية وعمرو بن العاص على خلاف عليّ فسار عمرو بن العاص إليه وقتله.

وقد اختُلِفَ في قتله، فمن المؤرخين من قال: إن عمرو بن العاص سار إلى مصر هو ومعاوية قبل مقدم قيس بن سعد إليها، وأرادا دخول مصر فلم يقدرا على ذلك، فخدعا محمدًا[(٣)] حتى خرج إلى العريش في ألف رجل فتحصن بها، فنصبا عليه المنجنيق حتّى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتل. وهذا القول ليس بشيءٍ يُعتمد عليه، وهو بعيد جدًا، لأن علي بن أبي طالب استعمل قيس بن سعد علَى مصر أول ما بويع، ولو كان قتل محمد بن أبي حذيفة قبل وصول قيس بن سعد إلى مصر لاسْتَوْلَى معاوية على مصر، ولا خلاف أن استيلاء معاوية على مصر كان بعد صِفِّين، وإنَّما ذكرنا هذا القول لنبين بطلانه، وقد علَّله بعض المؤرخين بنحو هذا التعليل، واستدل على بطلانه[(٤)].

وقد قيل غير ذلك: وهو أن محمد بن أبي حذيفة سيَّر المصريين إلَى عُثمان، فلما حضروه[(٥)] أخرج محمدٌ عبدَ الله بن سعيد بن أبي سرح عن مصر وهو عامل عثمان واستولى عليها، فنزل عبد الله على تخُوم مصر وانتظر أمر عثمان، فطلع عليه

---

(١) وكان عثمان رضي الله عنه كثير الرحمة على من حوله، يسعى لتأليف القلوب بما كان لا ينسجم ومنهم العبَّاد من كبار الصحابة والمسلمين ليقينهم بأن مالَ الله يصدق في حقه لا في رأي الولاة والحكام.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري القرشي من بني لؤي. صحابي، وأخو عثمان بالرضاع، فتح إفريقيا، أسلم قبل فتح مكة، وشارك في كتابة الوحي. اعتزل الحرب بين الإمام علي كرّم الله وجهه، ومعاوية بعد قصده هذا الأخير إلى الشام وتوفي بعسقلان سنة ٣٧هـ. راجع أسد الغابة جـ٣ ص١٧٣.

(٣) ابن أبي حذيفة.

(٤) كما في الكامل جـ٣ ص٢٦٧.

(٥) أو حصروه. بالصاد المهملة.

راكبٌ، فسأله، فأخبره بقتل عثمان وببيعة عليّ رضي الله عنه، فاسترجع، وأخبره بولاية قيس بن سعد علَى مصر، وأنه قادم بعده فقال عبد الله: «أبْعَدَ اللّهُ محمدَ بن أبي حذيفة! فإنه بغَى علَى ابن عَمّه وسعَى علَيه، وقد كفله وربّاه وأحسن إليه، فأساء جواره، وجهَّز إليه الرجال، حتَّى قُتل، ثم ولي على من هو أبعد منه ومن عثمان، ولم يُمتعه بسلطان بلاده شهرًا ولم يره لذلك أهلاً». وخرج عبد الله هاربًا حتَّى قَدِم علَى معاوية.

وقيل: إن عمرو بن أبي العاص سار إلى مصر بعد صفين، فلقيه محمد بن أبي حذيفة في جيش كثير، فلما رأى عمرو كثرة من معه أرسل إليه فاجتمعا، فقال له عمرو: «إنه قد كان ما ترى، وقد بايعت هذا الرجل، يعني معاوية، وما أنا راضٍ بكثير من أمره، وإني لأعلمُ أنَّ صاحبك عليًا أفضل من معاوية نفسًا وقِدَمًا، وأوْلَى بهذا الأمر، فواعِدْني موعدًا ألتقي معك فيه في غير جيش، تأتي في مِائة وآتِي في مثلها، وليس معنا إلاَّ السيوف في القُرُب». فتعاهدا وتعاقدا على ذلك واتَّعَدَا العريش[(١)]، ورجع عمرو إلى معاوية فأخبره الخبر، فلما جاء الأجل سار كل واحد منهما في مائة، وجعل عمرو جيشًا خلْفَه، فلما الْتَقَيا بالعريش، قدم جيش عمرو على أثره فعلم محمد أنه قد غدر به، فدخل قصرًا بالعريش فتحصَّن به، وحصره عمرو، ورماه بالمنجنيق حتَّى أُخذ أسرًا، فبعث به إلَي معاوية فسجنه، وكانت ابنة قرظة[(٢)] امرأة معاوية ابنةَ ابن محمد عمة أبي حذيفة، أُمُّها فاطمة بنت عتبة، فكانت تصنع له طعامًا ترسله إليه، فأرسلت إليه يومًا في الطعام مَبَارِد، فبَرَدَ بها قُيودَه، وهرب، فاختفى في غار، فأُخذ وقُتل.

وقيل: إنه بقيَ محبوسًا إلى أن قُتل حُجْر بن عَديّ، ثم هرب فطلبه مالك بن هبيرة السَّكُوني[(٣)]، فظفر به فقتله غضبًا لحُجْر[(٤)]، وكان مالك قد شفع إلى معاوية في حجر فلم يُشَفعه.

---

(١) العريش: مدينة هي أول نواحي مصر لجهة الشام على ساحل بحر الروم. راجع ياقوت ج٤، ص١١٣.

(٢) فاختة بنت أبي قرظة.

(٣) مالك بن هبيرة بن خالد السكوني الكندي، تجنَّد لمعاوية في صفين وغيرها، وكان من الذين بايعوه، وتولى حمص له، وبقي مقربًا من الأمويين حتى زمن مروان بن الخطم طريد رسول الله ﷺ. توفي حتف أنفه سنة ٦٥هـ. راجع وقعة صفين ص٤٩.

(٤) انظر كيف تختلف المبررات لتبرئة معاوية من دم حجر بن عدي، وتأمل كيف يقتل صاحبٌ لعلي بصاحب آخر له من قبل متولٍ لوالٍ غصب الحق من أهله.

وقيل: إن محمد بن أبي حذيفة، لما قتل محمد بن أبي بكر، خرج في جَمْع كثير على عمرو، فأمّنه عمرو، ثم غدر به، وحمله إلى معاوية، فحبسه، ثم إنه هرب، فأظهر معاوية للناس أنه كره هربه، وأمر بطلبه فسار في طلبه عبيد الله بن عمر بن ظلام الخثعمي فأدركه بحُوارن[١] في غار، وجاءت حُمُر[٢] تدخل الغار، فلما رأت محمدًا نفرت منه، وكان هناك ناس يحصدون، فقالوا: والله إن لنفرةِ هذه الحُمُر لشأنًا، فذهبوا إلى الغار فرأوه، وخرجوا من عنده، فوافقهم عبيد الله فسألهم عنه ووصفه لهم، فقالوا: هو في الغار، فأخرجه، وكره أن يأتي به معاوية فيخلي سبيله، فضرب عنقه. والله أعلم.

ذكر ملك عمرو بن العاص مصر
ومقتل محمد بن أبي بكر ووفاة الأشتر وما يتصل بذلك

قد ذكرنا في أخبار علي رضي الله عنه استعماله محمد بن أبي بكر على مصر، وما كان بينه وبين أهل خَرِبْتَا وقتلهم ابن مُضَاهِم، ثم خرج معاوية بن حُدَيْج السَّكُوني، ودعا إلى الطلب بدم عثمان فأجابه ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، فبلغ ذلك عليًا، فاستدعى الأشتر، وكان قد تَوجَّه إلى نَصِيبين[٣] بعد صِفِّين، فحضر إليه فأخبره خبرَ أهل مصر، وقال له: «ليس لها غيرك، فاخرج إليها، فإني لو لم أُوصِك اكتفيت برأيك، فاستعنْ بالله، واخلطْ الشِّدةَ باللين، وارفق ما كان الرفقُ أبلغ، وتشدَّد حين لا يغني إلا الشِّدة».

فخرج الأشتر إلى مصر، فبلغ معاوية ذلك، فعظم عليه، وكان قد طمع في مصر، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان عليه أشد من محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، فبعث معاوية إلى المقدَّم على أهل الخراج بالقُلْزم[٤] وهو الجابستار وقال له: إن الأشتر وقد وليَ مصر فإنْ كفيتنيه لمْ آخذْ منك خراجًا ما بقيتَ وبقيتُ. فخرج الجابستار حتى أتى القُلْزُم وأقام به.

---

(١) وفي معجم البلدان لياقوت جـ٢ ص٣١٥، أثبتت بالياء، قرية من قرى حلب، وهي من تدمر على مرحلتين.

(٢) الحمير الوحشية.

(٣) نصيبين: جعلها البعض بمنزلة الجمع فبصر بها رفعًا بالواو والنون: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٨٨.

(٤) بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة، وقلزم بلدة على ساحل بحر اليمن قرب أيلة والطور ومدين. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٨٧.

وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القُلْزُم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول، فنزل عنده، فأتاه بطعام فأكل وأتاه بشَرْبة من عسل قد جعل فيه سمًّا فسقاه إياه، فلما شربها مات.

وأقبل معاوية يقول لأهل الشام: إنَّ عليًّا قد وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله عليه فكانوا يدعون عليه.

وأقبل الذي سقاه إلَى معاوية فأخبره بمُهْلَك الأشتر، فقام معاوية خطيبًا، ثم قال: أمَّا بَعْدُ، فإنه كانت لعليٍّ يَمينانِ، قُطعت إحداهما يَوم صِفِّين، يعني عَمَّار بن ياسر، وقُطعت الأخرَى اليَوم، يعني الأشْتَر.

فلما بلغ ذلك عليًّا قال: لِلْيَديْنِ ولِلْفَم[1]! وكان ثقل عليه لأشياء نُقلتْ عنه، وقيل: إنه لما بلغه قَتله استرجع وقال: «مالِكَ! وما مالِك؟ وهو[2] موجود مثل ذلك[3]؟ لو كان من حديد لكان قَيْدًا[4]، أو من حجر لكان صَلْدًا، على مثله فلْتَبْكِ البَوَاكي!»[5].

ثم كتب إلى محمد بن أبي بكر باستقراره على عمله، وأوصاه.

وقيل: إنه إنما ولى الأشتر بعد قتل محمد بن أبي بكر.

قال: ولما كان من الحَكَمَيْن ما كان، وبايع أهلُ الشام معاويةَ بالخلافة، لم يكن له همٌّ إلاَّ مصر، وكان يَهابُ أهلَها لِقُرْبِهم منه ولشدَّتهم وما كان من رأيهم في عثمان، وكان يرجو أنه إذا ظهر علَيْها ظهر علَى حرب عليّ رضي الله عنه لعِظَم خَراجها، فدعا معاوية عَمرو بن العاص[6]، وحَبيب بن أبي سَلْمَة، وبُسْر بن أرطأة،

(١) دعاء يتمنى به الشر: محذوف التقدير، أي كله له إلى يديه ووجهه.

(٢) «وهل» وهي الصواب. (٣) في النهج: مالك.

(٤) «فِنْدا» وهي الصواب، راجع قصار الحكم في النهج رقم ٤٤٣. والفند: المنفرد من الجبال.

(٥) وللحديث تتمة في النهج: «لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر» النهج رقم ٤٤٣ من قصار الحكم جـ٣ ص١٢٤.

(٦) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، كنيته أبو عبد الله. فتح مصر، وتولى للرسول ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل، واستعجله ﷺ على عُمان، وقيل إنه افتتح قنسرين وأخذ صلحًا أهل حلب ومنبج وأنطاكية. ثم تولى لعمر رضي الله عنه فلسطين وعزله عثمان فراح يؤلب الناس على عثمان، وفي خروج معاوية على الإمام علي، إمام زمانه، أخذ عمرو جانب معاوية بائعًا دينه بدنياه. وأظهر في هذا الشقاق مقدرة على الغدر والفتك مما لا يمكن أن يسمى دهاءً أو رأيًا. ولقد ولاه معاوية مصر وأطلق يده في خراجها ست سنين كأنه مال خاص لهما، لكنه مات حتف أنفه في مصر سنة ٤٣هـ. انظر أسد الغابة جـ٤ ص١١٥.

والضحَّاك بن قَيس، وعبد الرحمٰن بن خالد، وأبا الأعور والسُّلَمي، وشُرحبيل بن السِّمْط الكنْدي، فقال لهم: أتَدْرُون لِمَ جمعتكم؟ فإني جمعتكم لأمر لي مهمّ. فقالوا: لم يُطلع الله علَى الغيب أحدًا، ولم نعلم ما تريد.

فقال عمرو بن العاص: لتسألنا عن رأينا في مصر، فإن كنت جمعتنا لذلك، فاعزمْ واصبرْ، فنعم الرأي رأيت في افتتاحها، فإن فيه عزَّك وعزَّ أصحابك، وكَبْت عدوك، وذلّ أهل الشقاق عليك.

فقال معاوية: أهمَّكَ يا بن العاص ما أهمَّك. وذلك أن عَمْرًا صالح معاوية على قتال علي رضي الله عنه على أن له مصر طُعْمة ما بقي(١).

وأقبل معاوية على أصحابه وقال: أصاب أبو عبد الله، فما تَرَوْن؟ قالوا: ما نَرَى إلاَّ ما رأى عمرو.

ثم كتب معاوية إلى مَسْلَمة بن مُخَلَّد ومُعاوية بن حُدَيج السّكوني، وكانا قد خالفا عليًّا، يشكرهما على ذلك، ويحثهما على الطلب بدم عثمان، ويَعِدُهما المواساة في سلطانه. وبعثه مع مولاه سُبَيْع.

فلما وقفا عليه أجاب مَسْلَمة بن مخلَّد الأنصاري عن نفسه وعن ابن حُدَيج: «أمّا بَعْدُ، فإن الأمر الذي بَذلنا له أنفسنا، واتبعنا أمر الله نرجو به ثوابَ ربّنا، والنَّصرَ على من خالفنا، وتعجيل النِّقمة على من سعى على إمامنا؛ وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك، فبالله إن ذلك أمرٌ ما لَهُ نَهضْنا، ولا إيّاه أردنا، فعجِّل علينا بخَيْلك ورجالك، فإنَّ عدونا قد أصبحوا لنا هائبين، فإن يأتنا مددٌ يفتحُ الله عليك، والسلام.

فجاءه الكتاب وهو بفلسطين، فدعا أولئك النفر وقال لهم: ما تَرَوْن؟ قالوا: نرى أن تبعث جندًا. فأمر عمرو بن العاص ليتجهزَ إليها، وبعث معه ستة آلاف رجل، وأوصاه بالتؤدة وترك العجلة.

وسار عمرو حتى نزل أداني أرض مصر، فاجتمعت العثمانية إليه، فأقام بهم، وكتب إلى محمد بن أبي بكر: «أما بَعْدُ، فتَنَحَّ عنّي بدمك يا بن أبي بكر، فإنِّي لا أحبُّ أن يصيبك مني ظُفر(٢)؛ إنَّ الناس بهذه البلاد قد أجمعوا على خلافك وهم

---

(١) أي له أن يتصدق في خراج مصر على أنه مال له طالما هو على قيد الحياة، يعني عمرو بن العاص.

(٢) كناية عن أدنى الأذى وأحقره.

مسلموك فاخرج منها، إني لك من الناصحين» وبعث إليه بكتاب معاوية في المعنى، ويتهدده بقصده حصار عثمان.

فأرسل محمد الكتابين إلى عليٍّ رضي الله عنه، ويخبره بنزول عمرو بأرض مصر، وأنه رأى التثاقل ممن عنده، ويستمده.

فكتب إلَيه يأمره أن يضم شيعته إليه، ويعده إنفاذَ الجيوشِ إليه ويأمره بالصبر لعدوّه وقتاله.

وقام محمد في الناس فندبهم إلى الخروج إلى عدوّهم مع كنانة بن بشر، فانتدب معه ألفان، وخرج محمد بن أبي بكر بعده في ألفين، وأقبل عمرو نحو كنانة، فلما دنا منه سَرَّح الكتائبَ كتيبةً بعد كتيبةٍ، فجعل كنانة لا تأْتيه كتيبةٌ إلا حمل عليها، فألحقها بعمرو، فلمّا رأى ذلك بعث إلى معاوية بن حُديج، فأتاه في مثل الدَّهْم[1]، فأحاطوا بكنانة وأصحابه، واجتمع أهل الشام علَيهم من كل جانب، فنزل كنانة عن فرسه ونزل معه أصحابه، فقاتل بسيفه حتَّى قُتل، وبلغ قتله محمد بن أبي بكر، فتفرّق عنه أصحابه، وأقبل عمرو بجمعٍ، ولم يبق مع محمد أحد.

فخرج محمدٌ يمشي في الطريق، فانتهى إلى خَرِبة فأوَى إليها، وسار عمرو بن العاص حتَّى دخل الفُسطاط، وخرج مُعاوية بن حُدَيج في طلب محمد بن أبي بكر، فانتهى إلى جماعة علَى قارعة الطريق فسألهم عنه، فقال أحدهم: دخلتُ تلك الخَرِبة فرَأيْتُ فيها رجلاً جالسًا، فقال ابن حُديج: هو هو. فدخلوا فاستخرجوه وكاد يموتُ عطشًا، وأقبلوا به نحو الفسطاط[2].

ووثب أخوه عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنهم إلَى عمرو وكان في جنده، وقال: أيقتل أخي صبرًا[3]؟ ابعث إلى ابن حُديج فانهه عنه. فبعث إلَيْه يأمره أن يأتيه بمحمد، فقال: قتلتم كنانة بن بشر وأُخلِّي أنا محمدًا ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣] هَيْهات هيهات!

---

(١) كناية عن الكثرة، لأن الدهم يعني السواد.

(٢) الفسطاط: مجتمع أهل المدينة حول مسجد جماعتهم، وكل مدينة فسطاط ومنه قيل لمدينة مصر الفسطاط. راجع تعريف مفصل لها في معجم ياقوت جـ٤ ص٢٦١ وما بعدها.

(٣) القتل صبرًا هو أن يؤتى بالرجل مجردًا من سلاحه وليس له حول أو قدرة على الدفاع عن نفسه.

فقال لهم محمد بن أبي بكر رضي الله عنه: اسقوني ماء. فقال ابن حُدَيج: «لا سقاني الله إن سَقَيْتُك قطرة أبدًا؛ إنكم منعتم عثمان شُرْبَ الماء، والله لأقتلنَّك حتى يسقيك الله من الحَمِيم والغَسَّاق». فقال له محمد: «يا ابن اليهودية النَّسَّاجة، ليس ذلك إليك، إنَّما ذلك إلَى الله، يسقي أولياءه، ويُظمىءُ أعداءه؛ أنت وأمثالك، أمَا والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مِنِّي هذا». قال له: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جَوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار. فقال محمد: «إن فعلتَ بي ذلك فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله، وإني لأرجو أن يجعلها الله عليك وعلَى أوليائك ومعاوية وعمرو نارًا تَلَظَّى، كلَّما خَبَتْ زادها الله سَعيرًا». فغضب منه وقتله، ثم ألقاه في جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار.

فلما بلغ ذلك عائشة رضي الله عنها جزعت عليه جزعًا شديدًا، وقنتت في وتر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو، وأخذت عِيالَ محمد إليها، وامتنعت عائشة بعد ذلك أن تأكل شواء حتَّى ماتت. وقد قيل: إن محمد بن أبي بكر قاتل عمرًا ومن معه قتالاً شديدًا، فقتل كنانة وانهزم محمد، فاختبأ عند جَبَلة بن مسروق، فدُلَّ عليه معاوية بن حديج، فأحاط به، فخرج إلَيه محمد فقاتل حتى قُتل[١]. وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين.

قال: وأما عليٌّ رضي الله عنه، فإنه لما أتاه كتاب محمد ندب الناس إلى الخروج، فتثاقلوا فخطبهم وحثهم على الخروج ووبخهم على التثاقل، فقام إليه كعب بن مالك الأرحبيّ فقال: يا أمير المؤمنين: اندبِ الناسَ؛ لهذا اليوم كنتُ أدخر نفسي، ثم قال: أيها الناس، اتقوا الله وأجيبوا إمامكم، وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوّه وأنا أسيرُ إليه، فخرج معه ألفان. فقال له عليٌّ رضي الله عنه: سِرْ فوالله ما أظنُّك تدركهم حتى ينقضي أمرهم، فسار بهم خمسًا.

ثم قدم الحجّاج بن غَزيّة من مصر فأخبره بالخبر، وأتاه عبد الرحمٰن بن شَبيب الفزاري من الشام وكان عيِّنهُ هناك فأخبره أن البشارة من عمرو وردت بقتل محمد وملك مصر وسرور أهل الشام بقتله، فقال عليّ: أمَا إنّ حزنَنا عليه بقدر سرورِهم به، لا بل يزيد أضعافًا: وأرسل إلى الجيش فأعادهم.

(١) وهذه هي الرواية الأصوب، إذْ لقد استشهد محمد بن أبي بكر رضي الله عنه ثم مُثل بجثته رغم قول رسول الله ﷺ «حرّمت المثلة ولو بالكلب العقور» العقور: الذي يعض دون سبب وهو معتدٍ.

وقام في الناس خطيبًا فقال: «ألاَ إن مصر قد افتتحها الفَجَرة أُولُو الجَور والظلم، الذين صدُّوا عن سبيل الله، وبَغَوا[١] الإسلام عِوَجًا، ألاَ وإن محمد بن أبي بكر استشهد، فعند الله نَحتسبه، أمَا والله إنه كان، ما لمتُ، لممَّنْ ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكلَ الفاجر، ويحبُّ هَدْيَ المؤمن، واللّهِ لا ألومُ نفسي على تقصير، وإني بمقاساة الحرب لَجِدُّ خَبير، وإني لأُقدمُ على الأمر، وأعرف وجه الحزم، وأقوم فيكم بالرأي المصيب، وأستصرخكم معلنًا، وأناديكم نداء المستغيث، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمرًا، حتَّى تصيرَ الأُمورُ إلَى عواقب المساءة[٢]، فأنتم القومُ لا يُدْرَك بكم الثأرُ، ولا تنقضُ بكم الأوتار[٣]، ودعَوْتكم إلى غياث[٤] إخوانكم مُنْذُ بضع وخمسين ليلة، فتَجَرْجرْتم جَرْجرَة الجمل الأشْدق، وتَثاقَلْتُم إلى الأرض تثاقُلَ مَن ليست له نيَّة في جِهاد العدوّ، ولا اكتساب الأجر، ثم خرج إلَيّ منكم جُنَيْدٌ مُتَذائِب[٥]، كأنَّما يُساقُون إلَى المَوْت وهم يَنْظُرون، فأُفٍّ لكم!». ثم نزل رضي الله عنه.

ذكر سرايا معاوية إلى بلاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

لمَّا كان من أمر الحَكَمَيْن ما ذكرنا، وملك معاوية مصر، استشرفت نفسُه إلى غير ذلك، فلما كان في سنة تسع وثلاثين بَثَّ سراياه في أطراف بلاد عليّ رضي الله عنه.

فبعث النعمان بن بشير في ألف رجل إلى عين التمر[٦] وفيها مالك بن كعب مَسْلَحة[٧] لعليّ في ألف رجل، وكان مالك قد أذن لأصحابه فأتوا الكوفة، ولم يبق

---

(١) بغوا: ابتغوا أي أرادوا في العبارة أفصح الكلام إذا تجد فيها طباق خفيًا بين الإسلام الذي هو الصراط والعوج أي الالتواء.

(٢) السوء.

(٣) الوتر مفردها: وهو الأخذ بالثأر.

(٤) أي غوثهم يعني إعانتهم.

(٥) ولنا في تفسير قوله، هنا، عليه السلام خلاف ما رأى المفسرون، فإنه كرّم الله وجهه أراد بالجنيد تصغيرًا من غير مصغر على الجمع وهو الجند وليس المفرد أي الجندي، ومتذائب يرى ردها إلى الذوبان وهو الانحلال والاختفاء والتلاشي. والكناية عن قلة الجند في ذلك البعث وانصراف الجمع فرقة فرقة من قليل الجند هذا.

(٦) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة على طرف البرية. راجع ياقوت جـ٤ ص١٧٦.

(٧) المسلحة: كتيبة من الجند في عدد يختلف من موقع إلى موقع.

معه إلاَّ مائة رجل، فلما سمع خبر النعمان كتب إلى عليّ رضي الله عنه يستمده، فندب الناس إلى الخروج، فتثاقلوا، وواقع مالك النعمان، وجعل وراء القرية في ظهر أصحابه، وكتب مالك إلى مخنف بن سُلَيم يستغيثه وهو قريب منه، فوجَّه مخْنَف ابنه عبد الرحمٰن في خمسين رجلًا، فانتهوا إلَى مالك وقد كسروا جفون[١] سيوفهم واستقتلوا، وذلك بعد أن قاتلوا قتالاً شديدًا، فلما رآهم أهل الشام انهزموا بعد العشاء، وظنوا أنَّ لهم مددًا، وتبعهم مالك فقتل منهم ثلاثة نفر.

وبعث سفيان بن عوف في ستة آلاف، وأمره أن يأْتي هِيت[٢] فيقطعها، ثم يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها، فأتى هِيتَ فلم يجدّ بها أحدًا، ثم أتى الأنبار وفيها مَسْلَحة لعليٍّ تكون خمسمائة رجل، وقد تفرقوا فلم يبقَ منهم إلاَّ مِائَتا رجل، كان سبب تفرقهم أن أميرهم كُمَيْل بن زياد[٣] بلغه أن قومًا بقَرْقِيسيا[٤] يريدون الغارة على هِيتَ، فسار إليهم، فأتَى أصحاب سفيان وكُمَيل غائب، فقاتل سفيان من وجد هناك فصبروا له، ثم قُتِل صاحبُهم وهو أشرس بن حسّان البكريّ وثلاثون رجلًا، واحتمل أصحاب سفيان ما في الأنبار من أموال أهلها ورجعوا إلَى معاوية، وبلغ الخبر عليًّا فأرسل في طلبهم فلم يُدْرَكوا.

وبعث عبد الله بن مَسْعَدة بن حكيم بن مالك بن بدر الفزاريّ في ألف وسبعمائة رجل إلَى تَيْماء[٥] وأمره أن يأخذَ صدقة من مَرَّ به من أهل البوادي ويقتلَ من امتنع، ففعل ذلك، وبلغ مكة والمدينة، واجتمع إليه بشرٌ كثير من قومه. وبلغ ذلك عليًّا فأرسل المسيَّب بن نَجبَة الفَزاري في ألفي رجل، فلحق عبد الله بتيماء فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتَّى زالت الشمس، وحمل المسيَّب علَى ابن مَسْعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله، ويقول له: النَّجاء النَّجاء. فدخل ابن مَسْعَدة وجماعة من أصحابه الحصن وهرب الباقون نحو الشام، وانتهب الأعراب إبل الصَّدَقة التي كانت مع ابن مَسْعدة وحصره ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب في الباب وحرقه، فلما رأوا الهلاك أشرفوا عليه

(١) مفردها: الجَفنة وهي غمد السيف، وتجمع على جِفان وجفنات، وجمعها في النص على غير قياس أو سماع.

(٢) بلدة على الفرات من نواحي بغداد ذات نخل كثير، مجاورة للبرية. راجع ياقوت جـ٥ ص٤٢.

(٣) مرّت ترجمته.

(٤) بلدة عند مصب نهر الخابور في الفرات، راجع ياقوت جـ٤ ص٣٢٨ تجدها تحت قرقيسياء.

(٥) بليدة في أطراف الشام بينها وبين وادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق ويشرف عليها الأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي. راجع جـ٢ ص٦٧.

وقالوا: قَومك يا مسيَّب! فَرَقَّ لهم وأمر بالنار فأُطفئت، وقال لأصحابه: قد جاءني عيون فأخبروني أن جندًا قد أتوكم من الشام.

وبعث معاوية أيضًا الضحَّاك بن قَيس في ثلاثة آلاف رجل، أمره أن يمر بأسفل وَاقِصة(١)، ويغيِر على كل من مرّ به ممن هو في طاعة عليّ من الأعراب، فسار وقتل الناس وأخذ الأموال، ومضى إلى الثعلبية(٢) فأغار على مسْلَحة عليّ وانتهى إلى القُطقُطَانَة(٣)، فلما بلغ ذلك عليًا أرسل حُجْر بن عَدِي إليه في أربعة آلاف وأعطاهم خمسين درهمًا، فلحق الضحاك بتدمر فقتَل من أصحابه تسعة عشر رجلاً، وقُتل من أصحابه رجلان، وحجز بينهما الليل فهرب الضحاك وأصحابه، ورجع حجْر ومن معه.

وسار معاوية بنفسه حتى شارف دجلة ثم رجع.

وبعث معاوية يزيدَ بن شَجْرة الرَّهاويّ إلى مكة لأخذ البيعة له، وإقامة الحج بالناس، ومعه ثلاثة آلاف، فسار إلى مكة وبها قُثَم بن العباس من قبل عليّ، فأراد مفارقتها، واللَحاق ببعض شِعابها، فنهاه أبو سعيد الخدريّ، وكتب قُثَم إلى عليّ يستمده، ووصل يزيد إلى مكة قبل التَّرْوية(٤) بيومَيْن، فما تَعرض للقتال، ونادَى في الناس: أنتم آمنون إلاَّ من قاتلنا ونازعنا. واتفق قُثَم ويزيد أن يعتزلا الصلاة بالناس، واختارا شَيْبَة بن عثمان، فصلَّى بالناس وحَجّ بهم، ولما انقضى الحج رجع يزيد إلَى الشام، وأقبلَت خيل عليّ مَدَدًا لقُثَم، وفيهم الرَّيّان بن ضَمْرة الحنفي، وأبو الطُّفَيْل، وعليهم مَعْقل بن قيس، فتبعوه فأدركوه وقد دخل وادي القُرَى، وظفروا بنفر من أصحابه فأخذوهم أسارى ورجعوا بهم إلَى عليّ، ففادى بهم أُسارى كانت لهم عند معاوية.

وبعث معاويةُ عبدَ الرحمٰن بن قَبَاث بن أَشْيَم إلى بلاد الجزيرة وبها شَبيب بن عامر بنَصِيبين، فكتب إلى كُمَيْل بن زياد وهو بِهيت يعْلِمه خبرهم، فسار كُميْل إليهم نَجْدةً له في سِتمائة فارس، فأدركوا عبد الرحمٰن ومعه مَعْن بن يزيد السُّلَميّ فقاتلهما كُمَيْل فهزمهما، وغلب على عسكرهما، وأكثر القتل في أهل الشام، وقُتل من

(١) واقِصة: منزل بطريق مكة من القرى. راجع ياقوت جـ٥ ص٣٥٣.
(٢) الثعلبية: منزل على طريق مكة من الكوفة بعد الشقوق. وهي ثلثا الطريق. راجع ياقوت جـ٢ ص٧٨.
(٣) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٧٤.
(٤) لأن من عادة السفر أن يرتووا ويرؤوا مراكيبهم في منازل معينة، والتروية هو يوم التزود بالماء.

أصحاب كُمَيل رجلان، وأقبل شَبِيب بن عامر من نَصِيبين فرأى كُمَيْلاً قد أوقع بالقوم فهنأه بالظَّفر، واتَّبع الشاميين فلم يدركهم، فعبر الفُرات وبثَّ خَيله فأغارت على أهل الشام حتَّى بلغ بَعْلَبَكّ[١]، فوجه إليه معاوية حبيب بن مَسْلَمة فلم يدركه، ورجع شبيب فأغار على نواحي الرقَّة[٢]، فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استاقها، ولا خيلاً ولا سلاحًا إلاّ أخذه، وعاد إلى نَصِيبين. وكتب إلَى عليّ رضي الله عنه فكتب إليه ينهاه عن أخذ أموال الناس إلاّ الخيلَ والسلاحَ الذي يقاتلونه به، وقال: رحم الله شَبِيبًا، لقد أبْعد الغارة، وعجَّل الانتصار.

ولما فعل شَبِيب ذلك وقدم يزيد بن شَجْرة على معاوية بعث معاوية الحارث بن نمر التَّنُوخيّ إلى الجزيرة ليأتيه بمن كان في طاعة عليّ، فأخذ من أهل دارا[٣] سبعة نفر من بني تغلب، وكان جماعة من بني تغلب قد فارقوا عليًا إلى معاوية فسألوه في إطلاق أصحابهم فلم يفعل فاعتزلوه أيضًا، وفادى معاوية بهم من كان أسرهم مَعْقل بن قيس من أصحاب ابن شجرة.

وبعث معاويةُ زهير بن مكحول العامريّ إلى السَّماوة[٤] ليأخذ صدقات الناس، فبلغ ذلك عليًا فبعث ثلاثة نفر، وهم: جعفر بن عبد الله الأشجعيّ، وعُروة بن العشبة والجُلاَس بن عُمَير الكلبيين؛ ليأخذوا صدقَة من في طاعته من كلب وبكر بن وائل، فوافوا زهيرًا فاقتتلوا، فانهزم أصحاب عليّ رضي الله عنه، وقُتل جعفر، ولحق ابن العشبة بعليّ فعنفه وعلاه بالدِّرَّة، فغضب ولحق بمعاوية. وأما ابن الجُلاَس فإنه مَرَّ براعٍ فأخذ جُبَّته وأعطاه جبّة خَزٍّ فأدركته الخيل، فقالوا: أين أخذ هؤلاء التُّرابيون[٥]؟ فأشار إليهم: أخذوا هاهنا. ثم أقبل إلى الكوفة.

وبعث أيضًا مسلم بن عُقبة المُريّ إلى دُومة الجندل، وكان أهلها قد امتنعوا من بيعة عليّ ومعاوية جميعًا، فدعاهم إلى طاعة معاوية وبيعته، فامتنعوا، وبلغ ذلك

---

(١) بَعْلَبَك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. راجع ياقوت جـ١ ص٤٥٣.

(٢) الرَّقّة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام. راجع ياقوت جـ٣ ص٥٨.

(٣) دارا: بلدة في لحف جبل نصيبين وماردين. راجع ياقوت جـ٢ ص٤١٨.

(٤) السماوة: ماء بالبادية، وبادية السماوة موضع بين الكوفة والشام قفرة سميت بذا الماء. راجع ياقوت جـ٣ ص٢٤٥.

(٥) نسبة إلى الإمام علي كرّم الله وجهه، وكان النبي قد كناه بأبي تراب، وكانت أحب كناه إليه، وقد اتخذها أعداؤه سبّة له.

عليًا، فبعث مالك بن كعب الهَمَذاني في جمع إلى دُومة الجندل، فلم يشعر مسلم إلاَّ وقد وافاه مالك، فاقتتلوا يومًا ثم انصرف مسلم منهزمًا، وقام مالِكٌ أيامًا يدعو أهل دُومة الجندل إلى بيعة عليّ، فأبوْا وقالوا: لا نبايعُ حتى يجتمعَ الناسُ على إمام، فانصرف عنهم وتركهم.

ذكر مسير بسر بن أرطأة
إلى الحجاز واليمن وما فعله

وفي سنة أربعين بعث معاويةُ بُسْر بن أرطأة بن أبي أرطأة ـ واسم أبي أرطأة عُمير، وقيل عُويمر الشَّاميّ من بني عامر بن لؤي ـ إلى الحجاز واليمن في ثلاثة آلاف فارس، فسار من الشام حتَّى قدم المدينة، وعاملُ المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري[١] من قبل عليّ رضي الله عنهما، ففرَّ أبو أيُّوبَ ولحق بعليّ، ودخل بُسْر المدينة ولم يقاتله أحد، فصعد منبرها فنادى: يا دِينار، يا نجار، يا زُرَيق، وهذه بطون من الأنصار، شَيْخي شيخي، عهدته ههنا بالأمس، فأين هو؟! يعني عثمان. ثم قال: واللّهِ لولا ما عَهد إلَيَّ مُعاوية ما تركتُ بها مُحتلِمًا إلاَّ قتلته. ثم أمر أهل المدينة بالبَيعة لمعاوية، وأرسل إلى بني سلِمة فقال: ما لَكم عندي أمان ولا مُبايَعة حتَّى تأتوني بجابر بن عبد الله. فأخْبِرَ، فانْطلق إلَى أمِّ سَلَمة زَوج النبي ﷺ فقال لها: «ماذا تَرَين؟ فإني خشِيت أن أقتل، وهذه بيعة ضلالة!» فقالت: أرَى أن تُبايع، وقد أمرتُ ابْني عُمَر بن أبي سَلَمة وخَتَني[٢] بْنَ زَمْعَة[٣] أن يُبايعا»، وكانت ابنتها زينب تحت ابن زَمعة، فأتى جابر إلى بسر فبايعه لمعاوية، وهدم بسر دورًا بالمدينة.

ثم انطلق حتَّى أتَى مكة، وفيها أبو مُوسَى الأشعري، فخافه أبو موسَى على نفسه أن يقتله، فهرب، فقيل ذلك لبُسْر، فقال: ما كنتُ لأطلُبه وقد خلع عليًا. ولم يطلبْه.

---

(١) خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار الأنصاري، كنيته أبو أيوب صحابي شهد بدرًا وأحد والخندق والعقبة وسائر المشاهد. صحابي تقي شجاع. سكن المدينة وأوصى أن يوغل به في أرض الروم وقد دفن في أصل حصن القسطنطينية سنة ٥٢هـ. راجع طبقات ابن سعد جـ٣ ص٤٩.

(٢) كل مَن كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ، وعند العامة حتف الرجل أي زوج ابنته، وبات فصيحًا.

(٣) عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي القرشي.

وكتب أبو مُوسَى إلَى اليَمَن: أن خَيْلاً مبعوثةً من عند مُعاوية تقتل الناس ممَّن أَبَى أن يقرَّ بالحكومة[١].

ثم مضى بُسْر إلَى اليَمَن، وعامِلُ اليمن من قِبَل عليٍّ رضي الله عنه عُبَيد الله بن عبَّاس، فلما بلغه أمْرُ بُسْر فرَّ إلَى الكوفة حتَّى أتَى عليًا، واستخلف علَى اليَمن عبد الله بن عبد المَدان الحارثي[٢]، فأتاه بُسْر فقتله وقتل ابْنَه، ولقِيَ ثَقَل[٣] عُبَيد الله بن العباس رضي الله عنه وفيه ابنان صغيران لعُبَيد الله بن العبَّاس فقتلهما، وهما عبد الرحمٰن وقُثَم.

وقيل: إنهما كانا عند رجل من بني كِنَانة بالبادية، فلما أراد قتلهما قال له الكناني: «لِمَ تقتل هذَين ولا ذنبَ لهما؟ فإن كنت قاتِلَهما فاقتلْني معهما!»، فقتله، وقتلهما بعده.

وقيل: إنَّ الكِنانيَّ أخذ سيفه وقاتل عن الغلامَين وهو يقول: [من الرجز]

* اللَّيْثُ مَن يمنعُ حافاتِ الدارْ *

* ولا يزال مُصْلِتًا دُون الجارْ *

وقاتَل حتَّى قُتل وأخذ بُسْرٌ الغلامَيْن فذبحهما، فخرج نسوة من بني كِنانة، فقالت امرأة منهن: «ما هذا؟ قتلتَ الرجال فَعَلامَ تقتل الوِلْدان؟ واللّهِ ما كانوا يُقتَلون في جاهليةٍ ولا إسلام! واللّهِ إنَّ سُلطانًا لا يقومُ إلاَّ بقتل الضَّرع[٤] الصغير والشيخ الكبير وبِرَفْع الرحمة وعُقوقِ الأرحام لسُلطانُ سوء!» فقال لها بُسْر: والله لقد هَمَمْتُ أن أضَعَ فيكن السيف. فقالت له: تالله إنها لأُخْت التي صنَعْتَ[٥] وما أنا لَها مِنك بآمِنة! ثم قالت للنساء التي حولها: وَيْحَكُنَّ! تَفَرَّقْن!.

وقَتل بُسْرٌ في مسيره ذلك جماعةً من شِيعة عليّ باليمَن.

وبلغ عليًّا الخبر، فأرسل جاريةَ بن قُدَامة في ألفَيْن، ووَهْبَ بن مسعود في

---

(١) لاحظ دور أبي موسى الأشعري في تشبيط الناس عن الإمام علي كرّم الله وجهه، فهو تارة يهرب، وأخرى يتخوف الناس. ترك حكومة معاوية، وكان قبل ذلك يدعو إلى اعتزال ما يسميه الفتنة، ثم تأمل أبا موسى بكتب لعامل علي على اليمن مهولاً قبل وصول بسر إليها، اتفاق عجيب.

(٢) عبد الله بن عبد المدان، وكان اسمه في الجاهلية عبد الحجر، والرسول ﷺ أسماه عبد الله.

(٣) أراد الأثقال: وهي متاع الرجل.

(٤) الضرع: الذليل، ومنه الضارع.

(٥) من قتل الطفل وسواه.

ألفَيْن، فسار جارية حتَّى أتى نَجْرانَ[(١)]، فقتل بها ناسًا من شِيعة عُثمان[(٢)]، وهرب بُسْرٌ منه، واتبعه جاريةُ إلَى مكة، فقال: بايِعوا أمير المؤمنين. فقالوا: قد هلك فلِمَنْ نُبايع؟ قال: لِمنْ بايَع له أصحابُ عليّ فبايَعوا خوفًا منه.

ثم سار حتَّى أتى المدينة، وأبو هُرَيْرة يصلِّي بالناس، فهرب منه، فقال جارية: لو وجدت أبا سِنَّوْر[(٣)] لقتلتُه. ثم قال لأهل المدينة: بايعوا الحسن بْنَ علي، فبايَعوا، وأقام يَومَه، ثم عاد إلَى الكوفة، ورجع أبو هُرَيْرَة يصلِّي بهم.

وكانت أُم ابْني عُبَيْد الله أُمّ الحَكَم جويرية بنت خُوَيْلد بن قارظ، وقيل: عائشة بنت عبد الله بن عبد المَدَان، فلما قُتِل ولداها وَلِهَتْ[(٤)] عليهما، فكانت لا تعقِل ولا تُصْغي، ولا تزال تَنْشُدُهما في المواسم وتقول: [من البسيط]

هـا[(٥)] مَـنْ أحسّ بُـنَـيَّـيَّ الـلَـذَيْـنِ هـمـا ... كـالدُّرتَـين تَـشَـظَّـى[(٦)] عنهـما الصـدفُ
هَـا مَـنْ أحسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلـذَيْـنِ هـمـا ... سمعي وعقلي فقلبي اليوم مُخْتَطَفُ
هَـا مَـنْ أحسَّ بُـنَـيَّـيَّ الـلـذَيْـنِ هـمـا ... مُخُّ العـظَـام فمُخِّي اليَوْمَ مُزْدَهَفُ[(٧)]
مِـنْ ذُلٍّ والـهَـةٍ حَـيْـرَى مُـدَلَّـهَـةٍ[(٨)] ... عـلَـى صبيَّيْـنِ ذَلاً إذْ غَـدا الـسَّـلَـفُ[(٩)]
نُـبِّـئْـتُ بُـسْـرًا ومـا صـدَّقـتُ مـا زعَـمـوا ... من قتـلـهـم ومـن الإثْـم الَّـذي اقْـتَـرَفـوا
أحْنَى علَى وَدَجَيْ[(١٠)] ابْنَيَّ مُرْهَفةً[(١١)] ... مَـشْـحُـوذَةً وكـذاكَ الإثْـمُ يُـقْـتَـرَفُ

قال: فلمّا سمع عليّ بقتلهما جزِع جزَعًا شديدًا، ودعا على بُسرٍ فقال: اللهُم اسْلُبْه دِينَه وعقله. فأصابه ذلك، وفَقَد عقله، فكان يَهْذِي بالسَّيْف ويطلبه، فيُؤْتَى بسَيف من خشب، ويُجْعَل بين يَدَيْه زِقٌّ[(١٢)] منفوخ، فلا يَزال يضربه، فلم يزل كذلك إلَى أن مات.

---

(١) نجران: موضع بالبحرين. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٦٦.
(٢) لاحظ كيف أشاعوا انقسام الأمة بين علوية وعثمانية.
(٣) أراد أبا هريرة والهريرة تصغير هرة.
(٤) الواله: الذي أذهب الحزن لبه.
(٥) للتوجع والتأوه. (٦) تفتح.
(٧) المخّ: هو اللب في العظم، وازدهاف اللب، انسلاله.
(٨) التدله: التعلق بالشيء حتى يصدفه عن سواه.
(٩) السلف نحتت من السالفة وهي ناحية مقدم العنق نزولاً إلى الترقوة. وأرادت النص وشكا أن يبلغا مبلغ الحلم.
(١٠) ودجي: مثنى الودج، وهو عزق غليظ في الرقبة بانقطاعه ينقطع المقطوع عن الحياة.
(١١) الشديدة الصقل.
(١٢) وعاء مصنوع من جلد لحفظ الماء وسواه من السوائل.

قال[١]: ولما استقرَّ الأمر لمُعاوية دخل علَيه عُبَيْد الله بن عبَّاس وعنده بُسْر، فقال لبُسْر: وَدِدْتُ أن الأرض أنبتتني عندك حين قتلْتَ ولَدَيَّ. فقال بُسْر: هاك سَيفي. فأهْوَى عُبَيْد الله ليتناوله، فأخذه مُعاوية وقال لبُسْر: «أخزاك الله شَيْخًا قد خرِفْتَ! والله لو تمكَّن منه لبدأ بي!» قال عُبَيْد الله: أجَلْ ثم ثَنيتُ به.

وقيل: إن مَسِير بُسْرٍ إلى الحجاز كان في سنة اثنتَين وأربعين، وإنه أقام بالمدينة شهرًا يستعرض الناس، لا يقالُ له عن أحد «إنه شَرِكَ في دم عثمان» إلاّ قتله.

وحكى أبو عُمر بن عبد البر[٢] عن أبي عَمرو الشيباني قوله: لما وجَّه مُعاويةُ بن أبي سفيان بُسْرَ بْنَ أرطأة الفِهْري لقتل شِيعة عليّ، قام إليه مَعْن[٣] أو عمرو بن يزيد بن الأخْنَس السُّلَمي وزياد[٤] بن الأشهب الجعدي فقالا: «يا أمير المؤمنين نسألك بالله والرَّحِم ألاّ تجعَلَ لبُسْرٍ علَى قَيْس سُلطانًا، فيقتل قيسًا بما قتلتْ بنو سُلَيم من بني فِهْر وكِنانة يوم دخل رسول الله ﷺ مكّة». فقال له مُعاوية: يا بُسْر، لا أمْرَ لك على قَيْس. فسار حتَّى أتى المدينة فقتل ابنَيْ عُبَيْد الله بن عبّاس، وفرَّ أهلُ المدينة ودخلوا الحَرَّة: حَرَّة بني سُلَيم[٥]. هكذا قال الشيباني: إنه قتل ابنيْ عبيد الله بالمدينة. والأكثر أنه قتلهما باليَمَن على ما ذكرنا.

قال[٦]: وفي هذه الخَرْجة[٧] أغار بُسْرٌ علَى هَمْدان وقتل وسبى نساءهم، فكُنَّ أوّلَ مسلماتٍ سُبِينَ في الإسلام. وقتل أحياء من بني سعد.

وروى أبو عُمر[٨] بسنده عن أبي الرُّباب وصاحبٍ له أنهما سمعا أبا ذَر يدعو ويتعوذ في صلاة صلاَّها طال قِيامُها وركوعُهَا وسجودها، قال: فسألناه: مِمَّ تعوَّذْتَ؟ وفِيمَ دَعَوْتَ؟ فقال: تعوذتُ بالله من يوم البَلاء أن يَدركني ويوم العَوْرة أن أدركَه. فقلنا: وما ذاك؟ فقال: أما يوم البلاء فتلتقي فِئَتَانِ من المسلمين فيَقتلُ بعضهُم بعضًا، وأما يوم العَوْرة فإن نساءَ من المسلمات يُسْبَيْنَ فيُكْشَفُ عن سُوقهنَّ فأيَّتُهُنَّ كانت أعظمَ ساقًا اشْتُرِيَتْ علَى عِظَم ساقها، فدعَوْتُ الله ألاّ يدركني هذا الزمان ولعلكما تدركانه. قال: فقتل عثمان ثم أرسل مُعاوية بُسْرَ بن أرطأة إلَى اليَمَن فسبَى نساءَ مسلماتٍ فأقمن في السُّوق.

---

(١) ابن الأثير جـ٣ ص١٩٣.
(٢) في الاستيعاب جـ١ ص١٥٦.
(٣) معن بن يزيد بن الأخنس السلمي.
(٤) زياد بن الأشهب بن أدر بن عمرو بن ربيعة بن جعدة العامرة، وكان له حظوة عند معاوية.
(٥) حَرَّةُ سليم: وهو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. راجع ياقوت جـ٢ ص٢٤٦.
(٦) ابن عبد البر في الاستيعاب.
(٧) لعله أراد حَرّة سليم.
(٨) ابن عبد البر.

هذا ما كان من أخباره في خلافة عليّ رضي الله عنه ممَّا يدخل فيما نحن بصَدَده، فلنذكر الآن ما اتفق له في مدة ولايته بعد أن خلص له الأمر، ونبدأُ بالغَزَوات والفتوحات.

ذكر الغزوات والفتوحات في أيام معاوية بعد أن استقل بالأمر

في سنة اثنتَيْن وأربعين كان غزوُ الروم، فهُزِموا، وقُتل جماعة كبيرة من بَطارقتهم.

وفيها كان غزو اللان[١].

وفي سنة ثلاث وأربعين غزا بُسْرُ بن أرْطأة الرُّوم حتَّى بلغ القُسْطَنْطِينية، وشتَّى بأرضهم، حكاه الواقدي، وأنكره غيره وقال: لم يُشَتِّ بُسْر بأرض الروم قَطُّ، وكان بُسْر إذ ذاك يلي البصرة من قبل معاوية على ما نذكره في حوادث السنين.

وفيها اسْتَعمل عبد الله بنُ عامر عبدَ الرحمْن بْن سَمُرة علَى سِجِسْتان[٢]، فأتاها، فكان يغزو البلد وقد كفَر أهلُه فيفتحهُ، حتى بلغ كابُل[٣]، فحصَرها أشهُرًا، ونصب عليها مَجانِيقَ فثَلَمَتْ سُورها ثُلْمَة عظيمة، فبات عليها عَبَّاد بن الحُصَين الحَبَطي ليلة، وكان على الشرطة، فما زال يطاعن المشركين حتّى أصبح، فلم يقدروا على سدِّها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون، ودخلوا البلد عَنْوَة. وساروا إلى زَرَاوَن[٤]، فهرب أهلها، فغلب عليها، ثم سار إلَى خُشَّك[٥]، فصالحه أهلها. ثم أتَى الرُّخَّج[٦]، فقاتلوه، فظفِر بهم وفتحها، ثم صار إلى زابُلِسْتان[٧]، وهي غَزْنَة وأعمالها، وكانوا قد نكثوا ففتحها. وعاد إلى كابُل، وقد نكَث أهلها ففتحها.

---

(١) اللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، بجوار الخزر، والعامة يسمونها علاّن. راجع ياقوت جـ٨ ص٨.

(٢) سجستان: ناحية كبيرة بينها وبين هراة عشرة أيام. راجع ياقوت جـ٣ ص١٩٠.

(٣) كابُل: بين الهند ونواحي سجستان. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٢٦.

(٤) في معجم البلدان جـ٣ ص١٣٦، إنها موضع يقال له وادي الكرد بقرب البحيرة المرة بأرمية وأثبتها ياقوت. زراود بالدال.

(٥) خُشَّك: بلدة بنواحي كابل قرب طخارستان. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٧٣.

(٦) الرُّخج: وتعريبها رُخُو: مدينة بنواحي كابُل. راجع ياقوت جـ٣ ص٣٨.

(٧) زابُلِستان: مدينة واسعة جنوبي بلخ وطخارستان. وأكبر مدنها غزنة. راجع ياقوت جـ٣ ص١٢٥.

ذكر غزو السند

قال: وفي سنة ثلاث وأربعين استعمل عبد الله بن عامر ـ وكان على البصرة وخُراسان[١] وسِجِسْتان ـ عبْد الله بن سوَّار العبدي على ثغر السِند، ويقال: بل كان ابن سوار من قِبَلِ معاوية، فغزا القِيقان[٢]، فأصاب مَغْنمًا، ووفد على معاوية وأهدى له خَيلاً، ثم غزا القِيقان مرة ثانية، فاستنجدوا بالترك، فقتلوه وكان كريمًا، لم يوقِد أحد في عسكره نارًا، فرأى ذات ليلة في عسكره نارًا، فقال: ما هذه؟ قالوا: امرأة نُفَساء[٣] يُعْمَل لها الخَنبِيص[٤]، فأمر أن يُطْعَم الناسُ الخَنبِيصَ ثلاثة أيّام.

وفي سنة أربع وأربعين دخل المسلمون بلاد الروم مع عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وشتَّوْا بها... وغزا بُسْر بن أرْطأة في البحر.

وفيها غزا المُهَلَّب بن أبي صُفْرة[٥] ثغر السِند، وقاتلهم، ولقِيَ المهلبُ ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسًا من الترك، فقاتلوه قتالاً شديدًا، فقُتلوا جميعًا.

وفي سنة ست وأربعين كان مَشْتَى مالك بن عبد الله[٦] بأرض الروم، وقيل: بل كان عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وقيل: بل كان مالك بن هُبَيْرة السَّكُوني[٧].

وفي سنة سبع وأربعين كان مَشْتَى مالك بن هُبَيْرة بأرض الروم ومَشْتَى أبي عبد الرحمٰن القَيْنِيِّ[٨] بأنطاكِيَة.

وفيها غزا الحكَم بن عمرو بعض جبال الترك، ومعه المهلَّب بن أبي صُفرة فغنموا، وأخذ الترْك عليهم الشعاب والطرق، فعيِيَ[٩] الحكَمَ بالأمر فولَّى المهلَّبَ الحرب، فلم يزل المهلَّبُ يحتالُ حتَّى أخذ عظيمًا من عظماء الترك، فقال له: إمَّا أن

---

(١) خراسان: بلاد واسعة، حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند: طخارستان وغزنة وجسستان وكرمان، وأكبر مدنها نيسابور وهراة ومرو. راجع ياقوت جـ٢ ص٣٥٠.

(٢) حصن باليمن من أعمال صنعاء. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٢٣.

(٣) المرأة فور وضعها إلى عشرة أيام.

(٤) ضرب من الطعام.

(٥) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي. ولد في دبا، ونشأ في البصرة. حارب الأزارقة من الخوارج، وتولى خراسان لعبد الملك بن مروان تقدمها ومات فيها سنة ٨٣هـ. انظر الإصابة ترجمة ٨٦٣٥.

(٦) مالك بن عبد الله بن سنان بن سرح بن وهب بن الأقيصر الخثعمي.

(٧) مالك بن هبيرة بن خالد بن مسلم بن الحارث وجده الأعلى السكون.

(٨) ابن كعب بن ثعلبة بن القيني وهي كنيته واسمه النعمان بن جسر من قضاعة.

(٩) أي أتعبه الأمر وأنهكه.

تُخْرِجَنا من هذا المَضِيق أو أقتلك، فقال له التركي: «أوْقِد النار حِيَالَ طريقٍ من هذه الطرق وسَيِّر الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويُخلون ما سواه من الطرق، فبادِرْهم إلى طريق آخر، فما يدركونكم حتَّى تخرجوا منه». ففعل ذلك، فسلم الناس بما معهم من الغنائم.

وفيها أيضًا سار الحَكَمُ أيضًا إلى بلاد الغُور فغزا من بها وكانوا قد ارتدُّوا، فأخذهم عَنْوة بالسيف، وفتحها، وأصاب منها مغانم كثيرةً وسبايا، ولما رجع الحكم من هذه الغزاة مات بمَرْو(١)، في قول بعضهم، وكان الحَكَم قد قطع النهر في ولايته ولم يفتح، وكان أول المسلمين شرب من النهر مولًى للحَكَم، اغترف بتُرْسه فشرب، وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلَّى ركعتين، وكان أول المسلَمين فعل ذلك.

وفي سنة ثمان وأربعين كان مَشْتَى عبد الرحمٰن القَيني بأنْطاكِيَة(٢) وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري، وغزوة مالك بن هُبَيْرة السَّكوني البحر، وغزوة عُقْبة بن عامر الجُهني بأهل مصر في البحر وبأهل المدينة.

ذكر غزوة القسطنطينية

وفي سنة تسع وأربعين ـ وقيل: في سنة خمسين ـ بعث مُعاوية جيشًا كَثيفًا إلى بلاد الروم عليهم سُفْيان بن عوف وكان في هذا الجيش عبد الله بن عباس وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزُّبير وأبو أيُوب الأنصاري، وعبد العزيز بن زُرارة الكلابي وغيرهم.

وأمر مُعاوية ابْنَه يزيد بالغَزاة معهم، فتثاقل واعتلَّ، فأمسك عنه أبوه، فأصاب الناسَ في غَزاتهم جوعٌ ومرض شديد، فقال يزيد: [من البسيط]

ما إنْ أُبالي بما لاقت جموعُهُمُو ... بالْغَذْقَذُونَة(٣) من حُمَّى ومن مُوم(٤)
إذا اتَّكأْتُ على الأنماط مُرْتَفِقًا ... بدَيْرِ مُرَّانَ(٥) عِندي أُمُّ كُلْثُوم

---

(١) انظر الطبري جـ٥ ص٢٥١.

(٢) أنطاكية: من أكبر ـ كانت ـ مدن الشام وبينها وبين حلب يوم وليلة. راجع ياقوت جـ١، ص٢٦٦ وما بعدها.

(٣) غذقذونة: وفي معجم البلدان جـ٤ ص١٨٨ غذقذونة بالذال. وهي اسم للثغر كله من المصيصة وطرسوس، ويقال لها خذقذونة.

(٤) نوع من الأمراض أو علاج لها، وفي المعجم أنه الشمع.

(٥) دير مُرَّان: دير بالقرب من دمشق على تل مشرف وفيه كانت إقامة يزيد عندما أصاب المسلمين ما أصابهم. والدير دير كبير وفيه رهبان كثيرة. راجع ياقوت جـ٢ ص٥٣٣.

وأُم كلثوم: امرأته، وهي ابنة عبد الله بن عامر فبلغ مُعاوية شِعْرُه، فأقْسم علَيه: لَيَلْحَقَنَّ بسُفيان في أرض الرُّوم لِيُصيبَه ما أصاب الناس. فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه، فلحِق بهم[١].

وأوْغل المسلمون في بلاد الروم، حتَّى بلغوا القُسْطَنْطِينِيَّة، والْتَقَوْا بالروم، واقتتلوا فاشتدّت الحرب بينهم في بعض الأيام فلم يزل عبد العزيز بن زُرارة يتعرض للشهادة، فلم يُقتَل، فأنشأ يقول: [من البسيط]

قد عِشْتُ في الدّهر أطْوارًا علَى طُرُقٍ ... شَتَّى، فصادفْتُ منها اللينَ والبشعا[٢]

كُلاًّ بَلَوْتُ، فلا النَّعماءُ تُبْطِرُني ... ولا تخشَّعْتُ منْ لأْوَائها[٣] جزعا

لا يملأُ الأمرُ صدري قبل مَوْقِعه ... ولا أضِيقُ به ذَرْعًا إذا وقعا

ثمَّ حمل على من يَليه، فقَتَل فيهم، وانْغَمَس بيْنهم، فشَجَرَه[٤] الروم برماحهم، حتى قتلوه، رحمه الله، فبلغ قتْله مُعاوية، فقال لأبيه: هلَكَ واللّهِ فتى العرب! فقال: ابْني أو ابنُك! قال: ابنُك فآجَرَك الله! فقال: [من المتقارب]

فإنْ يَكُنِ المَوْتُ أوْدَى به ... وأصبح مُخُّ الكلابِيِّ رِيرَا[٥]

فكُلُّ فَتَى شارِبٌ كَأْسَهُ ... فإمَّا صغيرًا وإمَّا كبيرَا

قال: ثُم رجعوا إلى الشام، وتُوُفِّيَ أبو أيُّوب الأنصاري عند القُسْطَنطِينيّة، فدُفِن بالقرب من سُورها، فأهلها يستسْقون به.

وفي سنة خمسين غزا بُسْرُ بن أرْطاةُ وسُفيانُ بن عَوْف الأزدي أرض الروم، وغزا فضالة بن عبيد الأنصاري في البحر.

وفي سنة إحدى وخمسين كان مَشْتَى فَضالة بن عبيد بأرض الروم، وغزوة بُسْر بن أرطأة الصائفة.

وفي سنة اثنتين وخمسين غزا سُفْيان بن عَوف الأزدي الروم، وشتى بأرضهم، وتُوُفِّيَ بها في قولٍ، فاستخلف عبد الله بن مسعدة الفَزاري، وقيل: إن الذي شتّى في هذه السنة بأرض الروم بُسْر بن أرطأة ومعه سُفْيان بن عَوف. وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفي.

---

(١) ولم يثبت أن يزيد قد فعل ذلك.

(٢) البشع: ما كره الطعم في الحلق وأراده هنا ضد اللين، أو جعل اللين نقيض البشع على غير مقصدها.

(٣) اللأواء: الشدة.

(٤) كأنه أراد صفوة وفيه كناية.

(٥) الرير: إذا مصل وفسد.

ذكر فتح جزيرة أرواد

وفي سنة أربع وخمسين فتح المسلمون يقدمهم جُنادة بن أبي أُميّة[١] جزيرة أرْواد[٢] بالقرب من القسطنطينية، وأقاموا بها سبع سنين، فلما مات معاوية ووليَ ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا.

وفيها كان مَشْتَى محمد بن مالك بأرض الروم، وصائفة[٣] مَعْن بن يزيد السُّلمي.

وفيها استعمل مُعاوية عُبَيْدَ الله بنَ زياد ابن أبيه على خُراسان، فقطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل، فكان أولَ من قطع جبال بخارَى في جيش، ففتح رَامَنِي، ونَسَفَ، وبيكَنْد. وسنذكر ذلك إن شاء الله في حوادث سنة أربع وخمسين.

وفي سنة خمس وخمسين كان مشْتَى سُفيان بن عَوف الأزْدي بأرض الروم، في قول، وقيل: بل شتَّى في هذه السنة عمرو بن محرز، وقيل: عبد الله بن قَيس الفزاري، وقيل: بل مالك بن عبد الله.

وفي سنة ست وخمسين كان مَشْتَى جُنادة بن أبي أُمية بأرض الروم، وقيل: عبد الرحمٰن بن مسعود، وقيل: غزا فيها في البحر يزيد بن شَجْرة وفي البَرَّ عِياض بن الحارث.

وفيها قطع سعيد بن عثمان بن عَفَّان النهر إلى سَمَرْقَنْد، فخرج إليه أهل الصُّغْد، فقاتلهم، وسنذكر ذلك إن شاء الله في حوادث سنة ستٍّ وخمسين.

وفي سنة سبع وخمسين كان مَشْتَى عبد الله بن قيس بأرض الروم.

وفي سنة ثَمانٍ وخمسين غزا مالك بن عبد الله الخَثْعمي أرض الروم، وعمرو بن زيد الجُهَني في البحر، وقيل: جُنادة بن أبي أُميّة.

وفي سنة تسع وخمسين كان مَشْتَى عمرو بن مرة الجُهَني بأرض الروم في البر، وغزا في البحر جُنادة بن أبي أُميَّة، وقيل لم يكن في البحر غَزاة في هذه السنة.

---

(١) جنادة بن أبي أمية الأزدي الزهراني، كان على غزاة البحر في زمن معاوية.

(٢) جزيرة في البحر قرب القسطنطينية. راجع ياقوت جـ١ ص١٦٢.

(٣) أي مصطافة منحوتة من الصيف ضد الشتاء.

وفيها غزا المسلمون حُصْن كَمْخ ومعهم عُمَير بن الحُباب السُّلَمِي[١] فصعد عُمَير السُّور، ولم يزَلْ يقاتل عليه وحْدَه حتَّى كشَف الرومَ وصعد المسلمون، ففَتْحُه بِعُمَيْر.

وفي سنة ستين كانت غزوة مالك بن عبد الله سورية، ودخولُ جُنادة رُودِس، وهدمه مدينتها في قول بعضهم.

فهذه الغزواتَ والفتوحات التي كانت في أيام معاوية.

فلنذكر أخبار الخوارج عليه وما كان من أمرهم.

ذكر أخبار الخوارج
في أيام معاوية وما كان من أمرهم

كان أول من خرج بعد أن استقل معاوية بالأمر فَرْوة بن نوفل الأشجعي، وكان قد اعتزل في خمسمائة من الخوارج، وسار إلى شَهْرَزور، وترك قتال عليّ والحسَن.

فلما ولِيَ معاوية قال: «جاء الآن ما لا شكَّ فيه، سيروا إلى معاوية فجاهِدوه». فسار بهم حتى نزل النُّخيلة عند الكوفة.

وكان الحسن بن عليّ قد سار يريد المدينة، فكتب إليه معاوية يدعوه إلى قتال فَرْوَة بن نوفل، فلحقه رسوله بالقادسيّة، أو قريبًا منها، فلم يَرجع، وكتب إلى معاوية يقول: «لو آثرْتُ أن أُقاتل أحدًا من أهل القِبلة لبدأْتُ بقتالك، فإني تركته لصلاح الأُمة وحَقْنِ دمائها»[٢].

فأرسل إلَيهم مُعاوية جمعًا من أهل الشام، فقاتلوهم، فانهزم أهل الشام.

فقال مُعاوية لأهل الكوفة: واللّهِ لا أمَانَ لكم عندي حتَّى تَكْفُونِيهِم! فخرج أهل الكوفة إلَيهم، فقاتلوهم، فقالت الخوارج لهم: «ألَيس مُعاوية عدوَّنا وعدوَّكم؟ دعُونا حتَّى نقاتلَه، فإن أصبْناه كُنَّا قد كَفَيناكم عدُوَّكم، وإن أصابنا كنتم قد كُفِيتُمونا». فقالوا: لا بُدَّ لنا من قتالكم. فأخذتْ أشْجَعُ صاحِبَهم فَرْوَة[٣]، فوعظوه، فلم يَرجع، فأدخلوه الكوفةَ قهرًا.

---

(١) عمير بن حباب السلمي؛ واحد من أبطال القيسية حارب عبيد الله بن زياد وتغلب على خصومه اليمانية، إذ أثار الأمويون العصبيات القبلية لتشبث قوى الناس ضدهم. توفي سنة ٧٠هـ.

(٢) راجع النص باختلاف عند ابن الأثير جـ٣ ص٤٠٩. وتأمل قول الخليفة الحسن بن علي كرّم الله وجهه «أهل القبلة» فللناس الظاهر وظاهر انتمائهم توجههم إلى القبلة.

(٣) فروة بن نوفل الأشجعي. وبنو أشجع هم الذين أدخلوه الكوفة.

فاستعمل الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحَوْساء، رجل من طَيِّىء، فقاتَلهم أهل الكوفة، فقتلوهم في شهر ربيع الأول، أو ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين. وقُتِل ابن أبي الحَوْساء[١]، وكان حين ولي أمْر الخوارج قد خُوِّفَ من السلطان أن يصلبه إذا ظفر بهم، فقال: [من البسيط]

ما إنْ أُبالي إذا أرواحُنا قُبِضَتْ ... مَاذا فَعَلتم بأوْصالِ وأبْشارِ[٢]
تَجْرِي المَجَرَّةُ والنَّسْرانِ عَن قَدَرِ ... والشمس والقمر الساري بمقدارِ[٣]
وقد علِمْتُ وخَيْرُ القَوْلِ أنفعُه ... أنَّ السعيد الَّذي ينجو من النارِ

ثم خرج حَوْثرة بن وداع، وذلك أنه لمَّا قُتل ابن أبي الحوساء اجتمع الخوارج فولَّوْا أمْرَهم حَوثرة بن وداع بن مسْعود الأسَدي، فقام فيهم، فعاب فَرْوَةَ بن نَوْفل في شكِّه في قتال عليّ رضي الله عنه، ودعا الخوارجَ وسار بهم من بَرَاز الرُّوز[٤]، وكان بها، حتَّى قدِم النُّخَيلة في مِائة وخمسين، وانضمَّ إلَيهم فَلُّ ابْن أبي الحَوْساء، وهم قليل.

فدعا مُعاوية أبا حَوْثرة فقال له: اخْرُجْ إلَى ابنك لعله يرِقُّ إذا رآك. فخرج إليه وكلَّمه وناشده وقال له: ألاَ آتِيك بِابْنك لعلك إذا رأيتَه كرِهتَ فِراقه! فقال: أنا إلَى طعنة برمح من يد كافر أتقلب فيه ساعة أشْوَقُ منِّي إلَى ابْني! فرجع أبوه فأخبر معاوية بمقالته. فسيَّر إليه عبدَ الله بن عَوف بن أحمر في ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج، فدعا ابْنَه إلى البِراز، فقال له: يا أبَتِ لك في غيري سَعة. فقاتله ابنُ عوف وقَتله مُبارزة، وقتل أصحابه إلاَّ خمسين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك في جُمادَى الآخِرة من السنة.

ورأى ابْنُ عَوف بوجه حوثرة أثَرَ السجود، وكان صاحِب عبادة فندِم علَى قتله، وقال: [من الوافر]

قتلتُ أخا بني أسَدٍ سَفاهًا ... لَعَمْرُ أبي فما لُقِّيتُ رُشْدي
قتلتُ مُصَلِّيًا مَحْياه لَيلٌ ... طويلُ الحُزْنِ ذا بِرٍّ وقَصْد

---

(١) في الإصابة أن الذي قتل ابن أبي الحوساء هو خالد بن عرفطة. راجع الإصابة جا ص٤١٠.
(٢) الإبشار من البشر وهو الجلد يقال للإنسان خاصة.
(٣) أسماء أفلاك وكواكب.
(٤) براز الروز: منازل السواد من شرقي بغداد. راجع معجم البلدان جا ص٣٦٤.

قتلت أخا تُقَى لأنالَ دُنيا ... وذاك لشِقْوَتي وعِثارِ جَدِّي[١]
فهَبْ لي توبةً يا ربِّ واغفرْ ... لما قارفتُ من خطأ وعَمْد

ثم خرج فَرْوَة بن نَوْفل الأشجعي على المُغيرة بن شُعْبة، وذلك بعد مَسير معاوية، فوجَّه إلَيه المغيرة خيلاً عليها شَبَثُ بن رِبْعِيّ، وقيل: مَعْقِل بن قَيس، فلقيه بشَهْرَزُور[٢]، وقيل بالسواد.

وخرج شبِيب بن بحَرَة، وكان شَبيب مع ابن مُلْجم حين قتل عليًا، كما ذكرنا، فلما دخل معاوية الكوفة أتاه شَبيب كالمتقرب إليه، فقال: أنا وابنُ مُلْجم قتلنا عليًا. فوثب معاوية مذعورًا من مجلسه حتَّى دخل منزله، وبعث إلى أشجع[٣] وقال: «لئن رأيْتُ شبيبًا أو بلَغني أنه ببابي لأُهْلِكَنَّكم! أخرجوه عن بلدكم!».

فكان شبيب إذا جَنَّ عليهِ الليل خرج فلم يَلق أحدًا إلا قتله. فلما وَلِيَ المغيرة خرج عليه بالطَّفِّ، بقرب الكوفة، فبعث المغيرةُ خيلاً عليها خالد بن عُرْفُطة، وقيل: مَعْقِل بن قَيس، فاقتتلوا، فقُتل شبيبٌ وأصحابُه.

وبلغ المغيرةَ أنَّ مُعَين بن عبد الله، وهو رجل من مَحارِب، يريد الخروج، فأخذه وحبسه وبعث إلَى معاوية يخبره، فكتب إليه: إنْ شهدَ أني خليفة فَخَلِّ سبيله. فأحضره المغيرة، فأبى أن يشهد بخلافة معاوية، فقتله.

ثُمَّ خرج أبو مَرْيَم مَوْلَى بني الحارث بن كَعْب، ومعه امرأتان: قَطَام وكحيلة، وكان أوَّلَ من أخرج معه النساء، فعاب عليه ذلك أبو بِلال ابن أُدَيَّة، فقال: قد قاتل النساء مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام، وسأردُهما فردَّهما. فوجَّه إلَيْه المُغيرة جابِرًا البَجَلي، فقاتله، فقُتل أبو مَرْيَمَ وأصحابه بِبَادُورَيا[٤].

وخرج أبو ليلى ـ وكان أسود طويلاً ـ ومعه ثلاثون من المَوالي فبعث إليه المغيرة مَعْقِل بن قَيس الرِّياحي، فقتله بسَواد الكوفة في سنة اثنتين وأربعين.

وخرج سَهم بن غالب الهُجَيْمي في سنة إحدى وأربعين بالبصرة علَى عبد الله بن عامر، في سبعين رجلاً، منهم الخَطِيم الباهِلي واسمه زياد بن مالك، وإنما قيل له «الخَطيم» لِضربة ضُرِبَها علَى وجهه. فنزلوا بين الجِسْرين والبصرة، فمرَّ بهم عُبَادة بن

(١) الجد: الحظ.
(٢) شهرزور: منزلٌ واسعٌ في الجبال بين إربل وهمذان. راجع ياقوت جـ٣ ص٣٧٥.
(٣) لكون كليهما أشجعي.
(٤) بادوريا: بليدة بقرب باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط. راجع ياقوت جـ١ ص٣١٦.

قرص الليثي[١]، وقد انصرف من الغزو ومعه ابنه وابن أخيه، فقال لهم الخوارج: مَن أنتم؟ قالوا: قوم مسلمون. قالوا: كذَبتم. قال عبادة: «سُبْحانَ اللهِ! اقْبَلُوا منَّا ما قَبل النبي ﷺ مني، فإني كذَّبتُه وقاتلته، ثم أتَيْتُه فأسلمتُ، فقبِل ذلك منِّي». قالوا: أنت كافر، وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه، فخرج إلَيهم ابنُ عامر فقاتلهم، فقتل منهم عِدَّة، وانْحاز بقيَّتهم إلَى أجَمة[٢]، وفيهم سَهم والخَطيم، فأمَّنهم ابنُ عامر ورجعوا، وكتب إلَى معاوية، فأمره بقتْلهم، فلم يقتلهم، وكتب إلى معاوية: إنِّي جعلتُ لهم ذِمَّتك.

فلمَّا أتَى زياد ابن أبيه البصرة في سنة خمس وأربعين هرب الخَطيم إلَى الأهواز، واجتمع إلى سهم جماعة، فأقبل بهم إلى البصرة، فتفرق عنه أصحابه، فاختفَى وطلب الأمان، فلم يؤمِّنه زياد، وبحث عنه وأخذه فقتله وصلبه في داره. وقيل: إنه لم يزل مستخفيًا حتَّى مات زياد، فأخذه عُبَيْد الله بن زياد وصلبه في سنة أربع وخمسين، فقال رجل من الخوارج:

فإنْ تَكُن الأحزابُ باؤوا بصَلْبه ... فلا يُبْعدنَّ اللّهُ سَهْمَ بْنَ غالب

وأما الخَطيم فإن زيادًا سأله عن قتل عبادة، فأنكره، فسيره إلى البحرين، ثم أعاده بعد ذلك، وقيل: إنه قتله[٣].

ذكر خبر المستورد الخارجي

وفي سنة اثنتين وأربعين تحرك الخوارج الذين كانوا انحازوا عمن قُتل يوم النهروان، واجتمعوا في أربعمائة وأمَّروا عليهم المُسْتَوْرِد بن عُلَّفَة التَّيمي، من تيْم الرِّبَاب، وبايَعوه في جُمادَى الآخِرة، واتَّعَدوا للخروج فخرجوا في غُرّة شعبان سنة ثلاث وأربعين.

فبلغ المُغيرة أنهم اجتمعوا في منزل حيّان بن ظَبْيَان السُّلَميّ وتواعدوا للخروج، فأرسل صاحِبَ شُرطته، وهو قَبِيصة بن الدَمّون، فأحاط بدار حيّان، وإذا عنده مُعاد بن جُوَين وهو من رؤوس الخوارج ونحو عشرين رجلاً، وثارت امرأته وهي أُمُّ وَلَد كانت له كارهة فأخذتْ سيوفهم وألْقَتْها تحت الفراش، وقاموا ليأخذوا سيوفهم فلم يجدوها فاستسلموا، فجيءَ بهم إلى المغيرة، فحبسهم بعد أن قَرَّرهم فلم يعترفوا بشيءٍ قالوا:

---

(١) عبادة بن قرط بن عدوة بن بجير بن مالك. راجع الإصابة جـ٣ ص٢٦٩.

(٢) مكان متلف كثير الأشجار.

(٣) كما ذكر في الاستيعاب جـ٢ ص٤٥٢.

وإنما اجتمعنا لقراءة القرآن، ولم يزالوا في السجن نحو سنة، وسمع إخوانهم فحذِروا[١].

وخرج صاحبهم المسْتَوْرد فنزل الحيرة، واختلف الخوارج إليه، ثم تحول إلى دار سليم بن مجدوع العبدي، وهو صهره.

وبلغ المغيرةَ الخبرُ وأنهم عزموا على الخروج في تلك الأيام، فجمع الرؤساء فخطبهم وقال لهم: «ليَكْفِني كلُّ رجل منكم قومه، وإلاَّ والله تحولت عما تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون». فرجعوا إلى قومهم فناشدوهم الله والإسلام إلاَّ دلوهُم على من يريد تهييج الفتنة.

فبلغ المستورد ذلك فخرج من دار سُلَيم بن مَخْدُوج، وأرسل إلى أصحابه فأمرهم بالخروج فخرجوا متفرقين، واجتمعوا في نحو ثلاثمائة رجل وساروا إلى الصرَّاة[٢].

وبلغ المغيرة بن شعبة خبرهم، فندب معقل بن قيس في ثلاثة آلاف فارس اختارهم من الشيعة.

وأما الخوارج فإنهم ساروا إلى أن بلغوا المَذَارَ[٣] فأقاموا بها.

وبلغ ابن عامر بالبصرة خبرهم، فندب شُرَيك بن الأعور الحرثي، وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس أكثرهم من ربيعة، فسار بهم إلى المذار. وسار مَعْقِل وقدَّم أمامه أبا الرّواغ في ثلاثمائة، فأتى بهم إلى المَذَار وقاتل الخوارج عامة نهاره وهم يهزمونه ويعود إلى القتال، ثم أدركه مَعْقل في سبعمائة من أهل القوة، فجاء وقد غربت الشمس فصلوا المغرب، وحملت الخوارج عليهم فانهزم أصحابُ معقل، وثبت هو في نحو مِائتين ونزل إلى الأرض فتراجع إليه أصحابه وأتاه بقية الجيش.

فبينما هم على ذلك بلغ الخوارج أن شُريك بن الأعور قد أقبل من البصرة في ثلاثة آلاف، فأشار المُسْتَورد على أصحابه بالرجوع من حيث جاؤوا، وقال: «إنّا إذا رجعنا نحو الكوفة لم يتبعنا أهل البصرة، ويرجعوا عنا فنقاتل طائفة أسهل من قتال

(١) راجع الكامل لابن الأثير بزيادة جـ٣ ص٤٢٦.
(٢) الصراة: نهر يأخذ من عند بلدة يقال لها المحول بينها وبين بغداد فرسخ. راجع معجم البلدان جـ٣ ص٣٩٩.
(٣) المذار: في ميسان بين واسط والبصرة، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام. معجم البلدان جـ٥ ص٨٨.

طائفتين». فانحاز بأصحابه إلى البيوت، وخرج من الجانب الآخر وسار ليلتَه، ولم يعلم الجيش بمسيرهم، وبات معقل وأصحابه يتحارسون إلَى الصباح، فأتاهم خبر مسيرهم.

وجاء شُرَيك، فدعاه معقل أن يسيرَ معه، فأبى أصحاب شريك اتّباعهم، فاعتذر إلَيه لمخالفة أصحابه ورجع.

ودعا معقل أبا الروّاغ، وأمره باتباعهم، في ستمائة فارس، فاتبعهم، فأدركهم نحو جَرْجَرَايا مع طلوع الشمس، فحمل المستورد على أبي الروّاغ، فانهزم أصحابه وثبت في مائة فارس وقاتلهم طويلاً، ثم عطف أصحابه من كل جانب، وصدَقوهم القتال، فلما رأى المستورد ذلك علم أن معقلاً إن أتاهم بمن معه هلكوا، فمضى بأصحابه وعبرَ دجْلة إلى بَهُرَسِير[1]، وتبعهم أبو الروّاغ حتى نزل بهم إلى ساباط[2]، فقال المستورد: هؤلاء حماة معْقل وفرسانه ولو علمت أني أسبقهم إليه بساعة لسرت إليهم فواقعته، ثم ركب بأصحابه حتَّى انتهى إلى جسر ساباط، فقطعه، ووقف أبو الرواغ ينتظرهم للقتال وقد عبَّأ أصحابه.

وسار المستورد حتى أتى دَيْلَمَانَ[3]، وبها معقل، فلما رآهم نصب رايته ونزل وقال: يا عبادَ الله الأرضَ الأرض! فنزل معه نحوُ مِائتي رجل، فحملت الخوارج عليهم، فاستقبلوهم بالرماح جُثاةً على الرُّكَب، فلم يقدروا عليهم، فتركوهم، وعدلوا إلى خيولهم فحالوا بينهم وبينها وقطعوا أعِنَّتها فذهبت، ثم رجعوا إلى معقلَ وأصحابه فحملوا عليهم، واشتدّ الأمر على معقلَ ومن معه.

فبينما هم كذلك أقبل أبو الروّاغ بمن معه، وكان سبب عَوْده أنه أقام ينتظر عودة الخوارج إليه، فلما أبطأوا عليه أرسل من يأتيه بخبرهم فرأوا الجسر مقطوعًا ففرحوا بذلك ظنًّا منهم أن الخوارج فعلوا ذلك هيبةً، فرجعوا إلى أبي الروّاغ فأخبروه أنهم لم يروهم، وأن الجسر قد قطعوه هيبةً لهم، فقال أبو الروّاغ: «لعمري ما فعلوا هذا إلاَّ مكيدةً، وما أراهم إلا قد سبقوكم إلى مَعْقِل حيث علموا أن فرسان أصحابه معي، وقد قطعوا الجسر ليَشْغلوكم به عن لحَاقهم، فالنجَاءَ النجاءَ في الطلب» ثم أمر أهل

(١) بهرسير: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن. راجع ياقوت جا ص٥١٥.

(٢) ساباط: بليدة معروفة بما وراء النهر قرب أشروسنة، على عشرين فرسخًا من سمرقند. راجع ياقوت ج٣ ص١٦٦.

(٣) ديلمان: قرية من قرى أصبهان بناحية خرمان. انظر ياقوت ج٢ ص٥٤٤.

القرية فعقدوا الجسر، فعبر عليه، واتّبع الخوارج، فلقيه أوائلُ الناس منهزمين، فصاح بهم: إليَّ إليّ: فرجعوا إليه، وأخبروه الخبرَ وأنهم تركوا معقلاً يقاتلهم، وما يظنونه إلا قتيلاً، فجدّ في السير، وردَّ معه من لقيه من المنهزمين، وانتهى إلى العسكر، فرأى راية معقل منصوبةً والناس يقتتلون، فحمل أبو الروّاغ وأصحابه على الخوارج فأزالهم غير بعيد.

ووصل أبو الروّاغ إلى معقل فإذا هو متقدِّم يحرِّض أصحابه، فشدوا على الخوارج شَدَّة منكرة، ونزل المستورد ومن معه إلى الأرض ونزل أصحاب معقل أيضًا، ثم اقتتلوا طويلاً من النهار بالسيوف أشدَّ قتال، ثم إن المستورد نادى معقلاً ليبرز إليه، فبرز إليه، فمنعه أصحابه، فلم يقبل منهم وكان معه سيفه ومع المستورد رمحه، فقال أصحاب معقل له: خذْ رمحك. فأبَى، وأقدم على المسْتَوْرد، فطعنه المستورد برمحه، فخرج السِّنان من ظهره، وتقدم مَعْقِلٌ والرمح فيه إلى المستورد، فضربه بسيفه فخالط دماغه فماتا جميعًا.

وكان معقل قال لأصحابه: إن قُتِلت فأميرُكُم عمرو بن مُحْرز بن شهاب التميمي، فلما قُتل مَعْقل أخذ عمرو الراية، وحمل هو وأصحابه على الخوارج فقتلوهم، فلم ينْجُ منهم غيرَ خمسة أو ستة، وانْكَفَتَ[1] الخوارج بعد ذلك مُدَّة ولاية زياد ابن أبيه إلى سنة خمسين.

فخرج قُرِيْب الأزدي وزحَّاف الطائي بالبصرة وهما ابنا خالة، وكان زياد يومئذ بالكوفة، وسَمُرة بالبصرة فأتى الخوارجُ بني ضُبَيْعة وهم سبعون رجلاً فقتلوا منهم شيخًا، فاشتد زياد في أمر الخوارج فقتلهم وأمر سَمُرة بذلك، فقتل منهم بَشرًا كثيرًا، وخطب زياد على المنبر فقال: «يا أهل البصرة والله لتكفُنَّني هؤلاء. أو لأبْدَأَنَّ بكم، واللّهِ لئن أفلتَ رجلٌ منهم لا تأخذون العام من عطاياكم درهمًا» فسار الناس إليهم فقتلوهم.

ثم خرج زياد بن خراش العِجْلِي في سنة اثنتين وخمسين في ثلاثمائة فأتى أرض مَسْكِن من السَّواد، فسرّح إليه زيادُ ابن أبيه خيلاً عليها سعد بن حذيفة، أو غيره، فقتلوهم قد صاروا إلى ماه[2].

وخرج رجل من طيىءٍ اسمه مُعاذ في ثلاثين رجلاً فبعث إليه زياد مَن قتله وقتل أصحابه، ويقال بل حلّ لِواءه واستأمن.

---

(١) خبتوا.

(٢) ماه ومسكن موضعان بالكوفة.

وخرج طَوّاف بن غَلاّق في سنة ثمان وخمسين بالبصرة، وكان سبب خروجه أن قومًا من الخوارج بالبصرة كانوا يجتمعون إلى رجل اسمه حرار فيتحدثون عنده ويعيبون السلطان، فأخذهم عبيد الله بن زياد فحبسهم، ثم أحضرهم، وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضًا ويخلّي سبيل القاتلين، ففعلوا، فأُطلقوا، وكان طواف ممن قَتَل، فعَذَلهم أصحابهم وقالوا: قتلتم إخوانكم، قالوا: أُكرهنا وقد يُكرهَ الرجلُ على الكفر وهو مطمئنٌّ بالإيمان، وندم طوّاف وأصحابه، وقال أما من تَوبة؟ فكانوا يبْكون، وعرضوا على أوْلياء من قَتلوا الدِّيَة[1]، فأبَوْا قبولها، وعرضوا عليهم القَوَد[2]، فأبَوْا.

ولقي طوّافٌ الهَثْهاتَ بن ثَور السدوسي، فقال له: ما تَرَى لنا من توبة! فقال: ما أجدُ لك إلا آية في كتاب الله عزَّ وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠]. فدعا طوّاف أصْحابه إلى الخروج على أن يَفتكوا بابن زياد، فبايعوه في هذه السنة، وهم سبعون رجلاً من عبد القيس بالبصرة فسعَى بهم رجل من أصحابهم إلَى ابن زياد، وبلغ ذلك طوَّافًا فعجَّل الخروجَ، فخرجوا من ليلتهم، فقتلوا رجلاً، ومضوا إلى الجَلْحَاء[3]، فندب ابْنُ زياد الشُرَط والبُخَارية[4] فقاتلوهم، فانهزم الشُّرَط حتى دخلوا البصرة، واتبعوهم، وذلك يوم الفِطْر فكاثَرَهم الناس، فقاتلوا فقُتِلوا، وبقِيَ طوَّاف في ستة نَفر وعطش فرسه، فاقتحم به الماء، فرماه البُخَارِيَّةُ بالنُّشَّاب حتَّى قتلوه وأُخِذَ فصُلب، ثم دفنه أهله.

ذكر عروة ابن أدية وأخيه مرداس ابن أدية وغيرهما من الخوارج

قال: وفي سنة ثمان وخمسين اشتدَّ عُبَيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم جماعة كثيرة، منهم عُرْوَة ابن أُدَيَّة.

---

(١) الدية: مال أو أنعام للتعويض على ولي الدم.

(٢) القود: أخذ الدم بالدم.

(٣) الجلحاء: موضع على ستة أميال من الغوير، ومنها إلى القاع ستة أميال. راجع ياقوت جـ٢ ص١٥٠.

(٤) لانتسابهم إلى بخارى واشتهروا برميهم الجيد.

وكان سبب قتله أن عُبَيْد الله بن زياد خرج في رِهان[١] له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناسُ إليه، وفيهم عُرْوَة ابن أُدَيَّة وهو أخو مِرْداس ابن أُدَيَّة، وأُدَيَّة أمهما وأبوهما، جدير وهو تميمي، فأقبل عُرْوة على زياد يعظه، فكان ممَّا قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠] قال: فلما قال له ذلك ظنَّ ابن زياد أنه لم يقله إلاَّ ومعه جماعة فركب وترك رِهانه، فقيل لعروة: لَيَقْتُلَنَّك. فاختفى، فطلبه ابن زياد فأتى الكوفة، فأُخِذَ وأُتي به إلى ابن زياد فقَطع يدَيْه ورجليه وقتله، وقتل ابنته.

وأما أخوه أبو بِلال مِرْداس فكان عابدًا مجتهدًا عظيم القدر في الخوارج وشهد صِفِّين مع عليّ فأنكر التحكيم، وشهِد النَّهْرُوان مع الخوارج، وكانت الخوارج كلها تتولاه.

وكانت البَثْجاء امرأة من بني يَرْبُوع، تحرِّض على ابن زياد وتذكرُ تجبُّرَهُ وسوءَ سيرته، وكانت من المجتهدات، فذكرها ابن زياد، فقال لها أبو بلال: إن التَّقِيَّة[٢] لا بأس بها فتغيَّبي فإن هذا الجبار قد ذكرك. فقالت: أخشى أن يلقى أحدٌ بسببي مكروهًا، فأخذها ابن زياد فقطع يديها ورجليها ورماها في السوق، فمرّ بها أبو بلال فعضّ على لحيته وقال: «لَهذه أطْيبُ نفسًا بالموت منك يا مرداس! ما مِيتَةٌ أمُوتها أحبّ إليّ مِن مِيتة البثجاء!».

ومرّ أبو بلال ببعير قد طُلِي بقَطِران فغُشِي عليه، ثم أفاق فتلا: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ثم إن ابن زياد ألحَّ في طلب الخوارج حتى ملأ منهم السجون.

وحبس أبا بلال مِرْداس ابن أُدَيَّة، فرأى السجانُ عبادته، فأذِن له كُل ليْلة في إتيان أهله، فكان يأتيهم ليلاً ويعد إلى السجن مع الصبح، وكان لمرداس صديقٌ يسامرُ ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج ليلةً فعزم على قتلهم إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إليه وأعلمه الخبر، وبات السجانُ بليلة سوءٍ خَوْفًا أنه لا يرجع، فعاد على عادته، فقال له السجان: أما بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: بلى، قال: وكَيف أتَيْتَ؟ قال: لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقَب بسببي وأصبح ابن زياد فقتلهم،

(١) في استرداد أو أداء رهن له والأرجح الثاني.
(٢) إبطان عكس ما يظهر في حالات الخوف على النفس فيما إذا كانت حياة المسلم أفضل له من موته.

فلما أُحضِر مِرْداس قام السجان وكان ظِئْرًا[١] لعُبَيْد الله، فشفعَ فيه وقص عليه قصته، فوهبه له وخلَّى سبيله[٢].

ثم خاف من ابْن زياد، فخرج في أربعين رجلًا إلى الأهْواز، فكان إذا اجتاز به مالٌ لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، ثم يردُّ الباقي، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم أسْلَم بن زُرعة الكلابي، وقيل: أبو الحُصين التيمي، وكان الجيش ألفَيْ رجلٍ، وذلك في سنة ستين، فلما أتَوه ناشدهم أبو بلال الله أن ينصرفوا عنه، فأبَوْا ودعاهم أسلم إلى مُعاوَدة الجماعة، فقالوا: أتردُّنا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحابُ أسْلَمَ رجلًا من الخوارج فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدؤوكم بالقتال. فشدَّ الخوارجُ على أسْلَم وأصحابه شَدَّةَ رجلٍ واحد، فهزموهم، فقدموا البصرة، فلامه ابن زياد على ذلك، وقال: «هزمك أرْبعونَ وأنت في ألفيْن؟ لا خيرَ فيك!» فقال: لأن تلومني وأنا حيٌّ خَيْرٌ من أن تُثني عليَّ وأنا ميتٌ وكان الصبيانُ إذا رأوا أسلم صاحوا به: «أبو بلال وراءك». فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم، فانتهوا.

وقال رجل[٣] من الخوارج: [من الوافر]

أألْفا مُؤمنٍ منكم زَعَمْتُمْ ... ويقتلهم بِآسَكَ[٤] أربعونا
كَذَبْتم لَيس ذاك كما زَعَمتم ... ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا
هُمُ الفئَةُ القليلةُ قد علمتم ... علَى الفِئَة الكثيرة ينصرونا[٥]

هذا ما كان من أخبار الخوارج، فلنذكر حوادث السنين.

ذكر الحواث في أيام معاوية بن أبي سفيان غير ما تقدم، على حكم السنين منذ خلص له الأمر إلى أن توفي إلى رحمة الله

سنة إحدى وأربعين:

في هذه السنة خلص الأمر لمعاوية بن أبي سفيان؛ بمبايعة الحسن بن علي

---

(١) الظئر: هي المرضعة لأولاد غيرها، وتستخدم هنا لزوج المرضعة.

(٢) راجع النص باختلاف وزيادة عند الطبري في تاريخه جـ٥ ص٣١٢.

(٣) عيسى بن فاتك الخطي.

(٤) آسك: قرية في ضواحي الأهواز.

(٥) استئناسًا بقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾.

رضي الله عنهما له كما تقدم، فسُمِّي هذا العام «عام الجماعة» وذلك لاجتماع الناس على إمام واحد، وهو معاوية.

ورُويَ أنه لما سار الحسن رضي الله عنه عن الكوفة عرض له رجل فقال: يا مُسوِّد وجوه المؤمنين. فقال: لا تعذلني فإن رسول الله ﷺ أُرِيَ[1] بني أميّة يَنْزُون[2] على منبره رجلًا رجلًا، فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وهو نهر في الجنة، و﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر: ١ ـ ٣] يملُكها بعدك[3] بنو أُميّة، وقد خرّج هذا الحديث أهل الصحة. وكانت دولة بني أمية ألف شهر.

ذكر صلح معاوية وقيس بن سعد بن عبادة

في هذه السنة تَم الصلح بين معاوية وقيس بن سعد، وكان قيس قد خرج على مقدمة الحسن في اثني عشر ألفًا كما ذكرنا.

وقيل: إن عبيد الله بن عباس كان على مقدمته، وكان قيس بن سعد على مقدمة عبيد الله، فلمَّا علم عُبيد الله ما عزم عليه الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية كتب إليه يسأل الأمان لنفسه وعلى ما أصاب من مال وغيره، فأجابه إلى ذلك، وفارق عُبَيد الله جندَه وتركهم بغير أمير، فأمّروا عليهم قَيْس بن سعد، وتعاقدوا على قتال معاوية حتى يشرطَ له ولهم على ما أصابوا من الدماء والأموال، فراسله معاوية في الدخول في طاعته، وأرسل إليه بسجِلّ وختم أسفله، وقال: اكتبْ فيه ما شئت فهو لك، فاشترط لنفسه ولشيعة عليٍّ الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يشترطْ مالاً، فأعطاه ذلك، ودخل قيس في طاعة معاوية.

ذكر استعمال معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة

وفي هذه السنة استعمل معاوية المغيرةَ بن شعبة على الكوفة. وكان قد استعمل عليها عبد الله بن عمرو بن العاص، فأتاه المغيرة وقال: «استعملتَ عبد الله على الكوفة، وأباه بمصر، فتكون أميرًا بين نابَيْ أسَد». فعزله، واستعمل المغيرة.

---

(١) أراه الله سبحانه وتعالى. (٢) يقفزون.

(٣) المراد بالضمير المخاطب رسول الله ﷺ والحديث تجده في تعليقات الترمذي بالمعنى نفسه ج٢ ص٢٥٢.

وبلغ عمرو بن العاص ما قاله المغيرة، فدخل على معاوية وقال: «استعملتَ المغيرةَ على الخراج، فيغتالُ المالَ، ولا تستطيعُ أن تأخذه منه، استعمل على الخراج رجلًا يخافُك ويتقيك» فعزله عن الخراج وأقره على الصلاة.

ولما وليَ المغيرةُ استعمل كثير بن شهاب علَى الرَّيِّ[1]، وكان يُكثر سبَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر.

ذكر استعمال بسر بن أرطأة على البصرة وعزله، واستعمال عبد الله بن عامر عليها

وفي هذه السنة استعمل معاوية بُسْر بن أرْطأة بن أبي أرْطَأة على البصرة، وكان سبب ذلك أن الحسن لما صالح معاوية وثَب حُمْران بن أبَان على البصرة، فأخذها وغلب عليها، فبعث إليه معاوية بُسْر بن أرطأة؛ وأمره بقتل بني زياد ابن أبيه، وكان زياد علَى فارس، قد أرسله عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم.

فلما قدم بُسْر البصرة خطب على منبرها فشتم عليًا، ثم قال: نشَدْتُ اللّهَ رجلًا يعلمُ أني صادق إلاّ صدّقني أو كاذب إلاّ كذبني، فقال أبو بَكْرة[2]: اللهم إنَّا لا نعلمك إلا كاذبًا! فأمر به فخنِقُ، فقام أبو لُؤْلُؤة الضَّبيّ فرمَى نفسه عليه فمنعه، فأقطعه أبو بكرة مائة جَرِيبٍ[3]، وقيل لأبي بكْرة: ما حملك على ما قلتَ؟ فقال: يُناشدنا الله ثم لا نَصْدُقه.

وكان معاوية قد كتب إلى زياد: أن في يديك مالاً من مال الله فأدِّ ما عندك منه. فكتب إليه زياد: «أنه لم يبقَ عندي شيءٌ، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه، واستودعتُ بعضه لنازلةٍ إنْ نزلت، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله تعالى». فكتب إليه معاوية أن أقبِلْ ننظر فيما وليت، فإن استقام بيننا أمرٌ وإلاّ رجعت إلَى مأمنك. فامتنع زياد.

فأخذ بُسْرٌ أولاده الأكابر، منهم عبد الرحمٰن وعبيد الله وعبّاد وكتب إليه: لتقدمَنَّ على أمير المؤمنين أو لأقتلَنَّ بنِيك، فكتب إليه زياد: لست بارِحًا مكاني حتى

---

(١) مدينة مشهورة من أمهات البلاد، وهي محط الحاج على طريق السابلة، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا. راجع ياقوت جـ٣ ص١١٦.

(٢) أبو بكرة: نفيع بن الحارث ورسول الله ﷺ كناه أبو بكرة لأنه تدلى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة. صحابي.

(٣) الجريب من الحبوب أربعة أقفزة.

يحكمَ اللّهُ بيني وبين صاحبك، وإن قتلت ولدي فالمصيرُ إلى الله تعالى، ومن ورائنا الحساب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فأراد بسر قتلهم وأتاه أبو بكْرة فقال له: قد أخذت ولد أخي بلا ذنب، وقد صالح الحسن معاوية على ما أصاب أصحابُ عليّ رضي الله عنه حيث كانوا، فليس عليهم ولا علَى أبيهم سبيل، وأجّله أيامًا حتّى يأتي بكتاب معاوية، فركب أبو بَكْرة إلى معاوية وهو بالكوفة، فلما أتاه قال له: يا معاوية إن الناس لم يعطوك بَيْعتهم على قتل الأطفال! قال: وما ذاك يا أبا بَكْرة؟ قال: بُسْر يريدُ قتل بني أخي زياد، فكتب إليه بتخليتهم، فأخذ كتابه وعاد، فوصل البصرة يوم الميعاد، وقد أخرج بُسْر أولادَ زياد مع طلوع الشمس، ينتظر بهم الغروب ليقتلهم، واجتمع الناس لذلك وهم ينتظرون أبا بكرة؛ إذ رُفع على نَجِيب[١] أو برذَوْن[٢] يكدّه[٣]، فوقف فنزل عنه وألاَحَ بثَوْبه، وكبّر وكبّر الناسُ معه، وأقبل يسعَى على رجليه، فأدرك بُسْرًا قبل أن يقتلهم، فدفع إليه الكتاب، فأطلقهم.

وكان زياد قد تحصّن بالقلعة التي تسمَّى «قلعة زياد».

وأمّا بُسْر فلم يطُل مُقامه بالبصرة، بل عزله معاوية في بقية سنة إحدى وأربعين، وأراد أن يستعمل عُتْبة بن أبي سفيان[٤]، فكلمه ابن عامر وقال له: إن لي بالبصرة وَدائعَ وأموالاً، فإن لم تولّني عليها ذهبتُ. فولاَّه البصرة، فقدِمه في آخر سنة إحدى وأربعين، وجعل إليه خُراسان وسِجْستان، فجعل على شُرطته حبيبَ بن شهاب وعلى القضاء عَمِيرة بن يَثْرِبيّ أخا عمرو، وقد تقدم في وقعة الجمل أن عَميرة قُتل فيها، وقيل: المقتول عمرو[٥].

واستعمل ابنُ عامر قَيْس بن الهَيْثَم على خُراسان، وكان أهل باذَغِيس[٦] وهَراة[٧] وبوشَنْج[٨] قد نكثوا، فسار إلى بَلْخ[٩]، فأخْرب نُوبهار[١٠]، وكان الذي

---

(١) بعير سريع.
(٢) برذون: دابة أكبر من الحمار.
(٣) يكده: يستعجله.
(٤) أخ معاوية لأبيه وأمه.
(٥) والصواب أن عمرو هو الذي قتل في وقعة الجمل.
(٦) باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ. راجع معجم البلدان جـ١ ص٣١٨.
(٧) هراة: مدينة من أمهات مدن خراسان. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٣٩٦.
(٨) بوشنج: بليدة خصيبة من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ. راجع ياقوت جـ١ ص٥٠٨.
(٩) بلخ: مدينة معروفة بخراسان جـ١ ص٤٧٩.
(١٠) النوبهار: النو: الجديد، والبهار: ضرب من الأفاويه وهو اسمٌ أطلق على بناء كانوا يعظمونه.

تولى ذلك عطاء بن السائب مَولى بني لَيث، واتخذ قناطر على ثلاثة أنهار من بَلْخ على فرسخ، فقيل: قناطر عطاء، فسأل أهلُها الصلحَ ومراجعةَ الطاعة، فصالحهم قَيس، وقيل: إنما صالحهم الربيعُ بن زياد سنة إحدَى وخمسين، ثم قدِم قَيس علَى ابن عامر فضربه وحبسه، واستعمل عبد الله بن خازم، فأرسل إليه أهل هَراة وباذَغِيس وبوشَنْج يطلبون الأمان والصلح، فصالحهم وحمل إلى ابن عامر مالاً.

وفيها ولد علي بن عبد الله بن العباس، وقيل: ولد سنة أربعين قبل قتل علي رضي الله عنه، والأول أصح.

وحجّ بالناس في هذه السنة عُتْبَة بن أبي سفيان، وقيل: عَنْبَسة بن أبي سفيان.

سنة اثنتين وأربعين:

في هذه السنة ولَّى معاوية مَرْوان بن الحكم المدينة، وخالد بن العاص بن هشام مكة، فاستقضى مروانُ عبد الله بن الحارث بن نوفل[١].

ذكر قدوم زياد ابن أبيه على معاوية بن أبي سفيان

في هذه السنة قدم زياد ابن أبيه على معاوية، وكان معاوية قد كتب إليه يتهدّده، حين قُتل عليٌّ رضي الله عنه، فقام زياد خطيبًا فقال: العجبُ من ابن آكلة الكبود، وكهف النفاق، ورئيس الأحزاب يتهدّدني وبيني وبينه ابنا عمِّ رسول الله ﷺ، يعني ابن عباس والحسن بن علي رضي الله عنهم، في سبعين ألفًا، واضِعِي سيوفِهم علَى عواتقهم، أمَا والله لئن خلص إليَّ لَيجِدَنّي أحمر[٢] ضرّابًا بالسيف».

فلما صالح الحسن معاوية اعتصم زياد بقلعته كما تقدم ثم كان من خبر بَنِيه مع بُسْر بن أرطأة ما ذكرناه، فأهَمّ معاوية أمرُه، وكان زياد قد استودع عبد الرحمٰن بن أبي بكْرة ماله، فبلغ معاوية ذلك، فبعث إلى المغيرة بن شعبة لينظرَ في أموال زياد، فأخذ عبدَ الرحمٰن فقال له لئن كان أبوك أساء إليَّ لقد أحسن عمك، يعني زيادًا، فكتب إلى معاوية: إني لم أجدْ في يد عبد الرحمٰن مالاً يحلُّ لي أخذه. فكتب إليه

---

(١) عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحراث، وأمه هند بنت أبي سفيان.

(٢) كناية عن قسوته وشدته.

معاوية: أن عذِّبْ عبد الرحمٰن. فقال لعبد الرحمٰن: احتفظ بما في يدك، وألقى على وجهه حريرة[١] ونضحها بالماء فغُشِي عليه، فعل ذلك ثلاث مرات، ثم خلاَّه، وكتب إلى معاوية: إني عذَّبته فلم أجد عنده شيئًا.

ثم دخل المغيرة على معاوية فقال له: ذكرت زيادًا واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتي. فقال المغيرة: ما زيادٌ هناك؟ فقال معاوية: «داهيةُ العرب! معه أموال فارس، يدبِّر الحيَل، ما يؤمنني أن يبايعَ لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هم قد أعادوا الحرب جذعة[٢]!» واستكتمه معاوية ذلك، فقال المغيرة: أتأْذنُ لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم وتلطَّفْ له، فأتاه المغيرة وقال له: إن معاوية استخفه الوَجَلُ حتى بعثني إليك، ولم يكن أحدٌ يمُدّ يده إلى هذا الأمر غير الحسن، وقد بايع فخذْ لنفسك قبل التَّوْطِين فيستغني معاوية عنك. قال: أشِرْ عَلَيَّ وارْمِ الغَرَض الأقصَى فإن المستشار مؤْتَمنٌ. فقال المغيرة: أرى أن تصل حَبْلَك بحبله وتَشْخص إليه. ويقضي الله. وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عود المغيرة عنه.

فخرج زياد من فارس نحو معاوية، ومعه المِنْجاب بن راشد الضبّي، وحارثة بن بدر، وقدم على معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما حمل منها إلَى عليّ رضي الله عنه، وما أنفق منها في الوجوه التي تحتاج إلى النفقة، وما بقي عنده وأنه مُودَعٌ للمسلمين، فصدّقه معاوية فيما أنفق وفيما بقي عنده وقبضه منه، وقيل: إن زيادًا لما قال لمعاوية: قد بقيت بقيةٌ من المال، وقد أودعتها قومًا فمكث معاوية يروده، فكتب زياد كتبًا إلى قوم يقول: قد علمتم ما لي عندكم من الأمانة، فتدبروا كتاب الله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فاحتفظوا بما عندكم[٣]. وسمى في الكتب المال الذي أقرَّ بِهِ لمعاوية، وأمر رسوله أن يتعرّض لبعض من يُبْلغ ذلك معاوية، ففعل رسوله، وانتشر ذلك، فقال معاوية لزياد حين وقف على الكتب: أخافُ أن تكون مَكَرتَ بي فصالحْني على ما شئت، فصالحه على ألفي ألف درهم، وحملها زياد إليه، واستأْذنه زياد في نزول الكوفة فأذن له، فكان المغيرة يكرِّمه ويعظِّمه، وكتب معاوية إلى المغيرة ليُلزمَ زيادًا وحُجْر بن عدي

(١) طبق يطبخ بالدقيق والسمن. (٢) من أولها.
(٣) راجع النص باختلاف وزيادة عند الطبري في تاريخه جـ٥ ص١٧٧.

وسليمان بن صُرَد[١] وشَبِيب بن رِبْعَي وابن الكوّاء[٢] وابن الحَمِق[٣] بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون معه الصلاة.

وحجّ بالناس في هذه السنة عَبَسة بن أبي سُفْيان.

سنة ثلاث وأربعين:

فيها استعمل عبدُ الله بن عامر عبدَ الرحمٰن بن سَمُرة على سِجِسْتان واستعمل عبد الله بن خازم على خراسان وعزل قَيْس بن الهيثم عنها.

وحجّ بالناس في هذه السنة مروانُ بن الحَكَم[٤] وكان على المدينة.

وفيها توفي محمد بن مَسْلمة الأنصاري، وعبد الله بن سَلاَم، وعمرو بن العاص.

ذكر وفاة عمرو بن العاص وشيء من أخباره واستعمال عبد الله بن عمرو على مصر

كانت وفاته بمصر يوم عيد الفطر من هذه السنة على الأصح وكان له يوم مات تسعون سنة، ودفن بالمقطَّم[٥] من ناحية السَّفْح، وصلّى عليه ابنه عبد الله، ثم رجع فصلّى بالناس صلاة العيد.

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكورًا بذلك فيهم.

---

(١) سليمان بن صرد بن الجول بن عبد العزى بن قنفذ السلولي الخزاعي، كنيته أبو مطرّف. صحابي، شهد الجمل وصفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه. قتله يزيد بن الحصين بعين الوردة سنة ٦٥هـ. راجع أسد الغابة جـ٢ ص٣٥١.

(٢) هو عبد الله بن أبي أوفى. راجع الطبري جـ٤ ص١٦٢.

(٣) عمرو بن الحمق بن كاهل الخزاعي الكعبي. صحابي شريف تقي، سكن الشام، شهد مع الإمام علي كرّم الله وجهه كل حروبه. قتله عامل معاوية على الموصل عبد الرحمٰن بن عبد الله الثقفي صبرًا سنة ٥٠هـ. راجع الإصابة ترجمة ٥٨٢٠.

(٤) طريد رسول الله ﷺ.

(٥) المقطم: وهو الجبل المشرف على مقبرة الفساط بالقاهرة، وهو جبل يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي حتى يكون منقطعه طرف القاهرة. راجع معجم ياقوت جـ٥ ص١٧٦.

وكان حسن الشِّعر، فمن شعره يخاطب عُمارة بن الوليد بن المغيرة عند النَّجَاشِيّ: [من الطويل]

إذا المرءُ لم يتركْ طعامًا يُحبُّه ... ولم ينْهَ قلْبًا غاويًا حيثُ يمَّما[1]

قَضَى وَطرًا منه وغادَرَ سُبَّةً ... إذَا ذُكِرتْ أمثالُها تُملأُ الفما

وكان أحَدَ الدُّهَاة في أمور الدنيا المقدَّمين في الرأي، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد. يريد خالق الأضداد.

حُكِي أنه جُعل لرجل ألفُ درهم على أن يسأل عمرو بن العاص وهو على المنبر عن أمّه[2]، فسأله، فقال: أُمِّي سَلْمى بنت حَرْمَلَة تلقَّب النابغة من بني عَنَزَة، ثم أحد بني جَلاَّن، أصابتْها رِماح العرب فبيعت بعُكَاظ، فاشتراها الفاكِه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدْعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدتْ له، فأنجبتْ، فإن كان جُعِل لك شيءٌ فخذه.

قالوا: ولما حضرته الوفاة قال: «اللهم أمرتني فلمْ آتمر، وزجرتني فلم أنزجر» ووضع يده في موضع الغُلّ[3] ثم قال: «اللهمَّ لا قويٌّ فأنتصر، ولا برِيءٌ فأعتذر ولا مستكبرٌ بل مستغفر، لا إله إلا أنت». فلم يزل يردّدها حتَّى مات.

وروى أبو عمر بن عبد البر[4] بسنده إلى الشافعي رضي الله عنه أنه قال: دخل ابن عباس رضي الله عنهما على عمرو بن العاص في مرضه فسلَّم عليه وقال: كيف أصبحتَ يا أبا عبد الله؟ قال: «أصبحتُ وقد أصلحتُ من دنياي قليلاً، وأفسدتُ من دِيني كثيرًا، فلو كان الذي أصلحتُ هو الذي أفسدتُ، والذي أفسدتُ هو الذي أصلحتُ لفُزْت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان يُنجيني أن أهرُبَ هربتُ، فصرتُ كالمَنْجنيق بين السماء الأرض، لا أرقَى بيدَيْن ولا أهبط برجلين، فعِظْني بعظةٍ أنتفع بها يا بن أخي». فقال ابن عباس: «هيهات يا أبا عبد الله، صار ابن أخيك أخاك، ولا نشاء أن تبكي إلا بكيت، كيف يؤمرُ برحيل من هو مقيم؟» فقال عمرو على حينها من حين ابن بضع وثمانين سنة تُقنطني من رحمة ربي، اللهم إن ابن عباس يقنِّطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى. فقال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله أخذتَ جَديدًا وتُعطي خَلِقًا، قال: ما لي ولك يا ابن عباس ما أُرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها.

---

(١) توجّه.

(٢) لأن أمه كانت من مشاهير النساء اللواتي نبغن بالجاهلية، أي أتين الفاحشة بثمن.

(٣) أي رقبته.

(٤) في الاستيعاب ج٢ ص٥١٣.

وروي[١] بسنده إلى يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الرحمٰن بن شُمَاسَة حدّثه[٢] قال: لما حضرتْ عمرو بن العاص الوفاةُ بكَى، فقال له ابنه عبد الله: «لِمَ تبكي؟ أجزعًا من الموت؟» قال: لا واللّٰهِ ولكن لما بعده، فقال له: لقد كنتَ علَى خيرٍ، وجعل يذكِّره صُحبة رسول الله ﷺ وفُتُوحَه الشام. فقال له عمرو: «تركت أفضلَ من ذلك كله، شهادة أن لا إله إلا الله، إني كنت على ثلاثة أطباق[٣]، ليس منها طَبَق إلاّ عرفت نفسي فيه، كنت أوّلَ شيءٍ كافرًا، فكنتُ أشدَّ الناس علَى رسول الله ﷺ، فلو متُّ حينئذ وجبتْ لي النار، فلما بايعتُ رسول الله ﷺ كنت أشدَّ الناس حياءً منه، فما مَلأتُ عيني من رسول الله ﷺ حياءً منه، فلو متُّ يومئذ قال الناس: هنيئًا لعمرو أسلم وكان علَى خَيرٍ ومات علَى خَير أحواله فتُرجَى له الجنة، ثم تلبَّست بعد ذلك بالسلطان وأشياء فلا أدري أعليَّ أم لي؟ فإذا متُّ فلا تبكيَنَّ علَيَّ باكية، ولا يتبعني مادحٌ ولا زار[٤]، وشُدُّوا عليَّ إزاري فإني مخاصَم، وشنّوا علَيّ التراب فإن جنبي الأيمن ليس بأحقَّ من جنبي الأيسر، ولا تجعلُنَّ في قبري خشبة ولا حجرًا، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نَحْر جزور وتقطيعها[٥] بينكم استأنس بكم!». ولما مات استعمل معاوية بعده علَى مصر ابنه عبد الله بن عمرو.

سنة أربع وأربعين:

في هذه السنة حجّ معاوية بالناس.

وفيها عمل مروان بن الحكم المقصورة[٦]، وهو أول من عملها بالمدينة، وكان معاوية قد عملها بالشام لمَّا ضربه الخارجي.

ذكر عزل عبد الله بن عامر عن البصرة واستعمال الحارث بن عبد الله

في هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عامر عن البصرة، وسبب ذلك أنه كان كريمًا حليمًا ليِّنًا لا يأخذ على أيدي السفهاء، ففسدت البصرة في أيامه، فشكا ذلك

---

(١) ابن عبد البر في الاستيعاب ج٢ ص٥١٤. (٢) أي ابن عبد البر.

(٣) أراد أحوال. (٤) زار: معيب.

(٥) الجزور: ما يجزر أي يذبح ليأكل. وأراد اجلسوا مقدار الوقت الذي يحتاجه الجازر للنحر والتقطيع للأكل.

(٦) ما يشبه الغرفة في المسجد يقوم فيها إمام المصلين وبينه وبين الناس حرسٌ ومسافة تقيه الغيلة.

إلى زياد، فقال له: جَرِّد فيهم السيف، قال: إني أكره أن أُصلحهم بفساد نفسي[١]!

فلما علم معاوية حال البصرة أراد عزل ابن عامر، فأرسل إليه يسْتَزيره[٢]، فجاء إليه، فرده إلى عمله، فلما ودعه قال له معاوية: «إني سائلك ثلاثًا فقل: هُنَّ لك» قال: هُنَّ لك وأنا ابْن أُم حكيم[٣] فقال: تردُّ عليّ عملي ولا تغضب. قال: قد فعلتُ. قال: وتَهَب لي مالَكَ بعَرَفَة. قال: قد فعلت. قال: وتَهَب لي دُورَك بمكَّة. قال: قد فعلتُ. قال: وصلتك رحم! قال ابن عامر: «يا أمير المؤمنين إني سائلك ثلاثًا، فقل هُنَّ لك». قال هُنَّ لك وأنا ابن هِنْد، قال: ترد عليّ مالي بعرفة. قال: قد فعلتُ. قال: ولا تحاسبْ لي عاملاً ولا تتبع لي أثرًا. قال: قد فعلت. قال: وتُنكحني ابنتك هند. قال: قد فعلتُ.

ويقال: إن معاوية قال له: «اخترْ إمّا أن أتبع أثرك وأُحاسبَك بما صار إليك وأردَّك إلى العمل، أو أعزلَك وأُسوِّغك ما أصبت». فاختار العزل وأن يسوِّغه ما أصاب، فعزله، واستعمل الحارث بن عبد الله الأزدي، وكان ابن عامر قد استعمل على خراسان، قبل مَقْدمه عبد الله بن أبي شيخ اليشكري، وقيل: بل استعمل عليها طُفَيْل بن عَوْف اليشكري.

ذكر استلحاق معاوية بن أبي سفيان زياد ابن أبيه وهو ابن سُمَيّة

وفي هذه السنة استلحق معاوية زيادَ ابن أبيه، وقد ذكر عز الدين أبو الحسن عليُّ بن الأثير في تاريخه الكامل[٤] سبب ذلك وكيفيته، وابتدأ حال سُمَيّة فقال: كانت سُمَيّة أم زياد لِدِهْقان زَنْدَوَرْد[٥]، بكَسْكَر[٦] فمرض الدهقان، فدعا الحارثَ بن كَلَدَة الطبيب الثقفي، فعالجه، فبرأ، فوهبه سُمَيّة، فولدت عند الحارث أبا بكرة واسمه نُفَيْع، فلم يُقِرّ بِه، ثم ولدت نافعًا فلم يُقِرّ به أيضًا، فلما نزل أبو بكرة إلى النبي ﷺ حين حضر الطائف، قال الحارث لنافع: أنت ولدي، وكان قد زوج سُمَيّة من غلام له اسمه عُبَيْد، وهو رومي، فولدت له زيادًا.

---

(١) انظر النص عند الطبري في تاريخه بزيادة جـ٥ ص٢١٢.

(٢) يسأله أن يزوره.

(٣) أم حكيم بنت عبد المطلب بن هاشم، المكناة بالبيضاء.

(٤) راجع الكامل في التاريخ بزيادة جـ٣ ص٤٤١.

(٥) بلدة قرب واسط.

(٦) بلدة قرب واسط أيضًا.

قال: وكان أبو سفيان بن حرب سار في الجاهلية إلى الطائف فنزل على خمّار يقالُ له أبو مريم السّلولي، وأسلم أبو مريم بعد ذلك، وصحب النبي ﷺ، فقال أبو سفيان لأبي مريم: قد اشتهيتُ النساء فالتمس لي بَغِيًا، فقال هل لك في سمية؟ فقال: هاتها على طول ثدييها وذَفَر[1] بطنها. فأتاه بها، فوقع عليها، فعَلِقت بزياد، ثم وضعته سنة إحدى من الهجرة.

فلما كبر ونشأ استكتبه أبو موسى الأشعري حين وليَ البصرة.

ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استكفى زيادًا أمرًا، فقام فيه مقامًا مرضيًا، فلما عاد إليه حضر وعند عمر المهاجرون والأنصار، فخطب خطبةً لم يسمعوا بمثْلها، فقال عمرو بن العاص: «لله دَر هذا الغلام. لو كان أبوه من قريش لساق العربُ الناس بعصاه». فقال أبو سفيان وهو حاضر: والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم أُمه. فقال له علي بن أبي طالب: ومن هو يا أبا سفيان؟ قال: أنا. قال: «مهلاً يا أبا سفيان، اسكتْ، فإنك تعلم أن عُمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعًا».

وروى أبو عمر بْن عبد البر[2] بسنده إلى ابن عبّاس: أن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث زيادًا في إصلاح فسادٍ وقع باليمن، فرجع من وجهه، وخطب خطبةً لم يسمع الناس مثلها، وذكر كلام عمرو بن العاص ومقالة أبي سفيان وكلام عليٍّ رضي الله عنه بنحو ما تقدم[3]، قال: فقال أبو سفيان: [من الوافر]

أَمَـا والـلّـهِ لَـوْلا خـوْفُ شَـخْـصٍ ... يَـرانـي يـا عـلـيُّ مـن الأعـادي
لأظـهـر أمـرَه صَـخْـرُ بـن حَـرْبٍ ... ولـم يَـكُـنِ الـمـقـالـةَ عـن زِيـاد
وقـد طـالـتْ مُـجَـامَـلَـتـي ثَـقِـيـفًـا ... وَتَـرْكِـي فـيـهـمـو ثَـمَـر الـفُـؤَاد

نعود إلى ما حكاه ابن الأثير قال: فلما وليَ عليٌّ رضي الله عنه الخلافة استعمل زيادًا على فارس فضبطها وحَمى قِلاعها، واتصل الخبر بمعاوية فساءه ذلك، فكتب إلى زياد يتهَدّده، ويعرض له بولادة أبي سفيان إياه، فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس

---

(١) النتن.

(٢) في الاستيعاب جـ١ ص٥٦٩.

(٣) تأمّل راوية الحديث وهو عمرو بن العاص، وهو صاحب مصلحة في ترويج هذا النص لاستمالة زياد. والخوف من عمر بن الخطاب رضي الله عنه على شدته ليس له ما يبرره لأن الإسلام جبٌّ ما كان قبله. بفرض أن للرواية قدر من الصحة. والعجيب أن شهود الحادثة كلهم من الذين انتقلوا إلى رحاب الخالق العليم.

فقال: «العجَبُ كُلُّ العجب من ابن آكِلة الأكباد، ورأس النفاق، يخوِّفني بقصده إيَّايَ وبيني وبينه ابن عم رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. أما واللّهِ لو أذِن لي في لقائه لوجدني أحمر مخشيًا[١] ضرّابًا بالسيف».

وبلغ ذلك عليًا رضي الله عنه فكتب إليه: «إني قد ولَّيْتُك ما وليتك وأنا أراك له أهلاً، وقد كان من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكَذِب النفس، لا توجبُ له ميراثًا ولا تحلُّ لك نسبًا، وإن مُعاوية يأتي الإنسان مِن بين يَدَيْه ومن خَلْف، وعن يمينه وعن شِماله فاحذَرْ ثم احذَرْ، والسلام»[٢].

فلما قُتل عليّ رضي الله عنه وكان من أمر زياد ومصالحة معاوية ما ذكرناه، وضع زياد مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيباني، وضمن له عشرين ألف درهم؛ ليقول لمعاوية: «إن زيادًا قد أكل فارس برًا وبحرًا، وصالحك على ألْفَيْ ألْف دِرهمْ، والله ما أرى الذي يُقال إلاَّ حقًّا» فإذا قال لك يقال: وما يقال؟ فقل: إنه ابن أبي سفيان، ففعل مَصْقَل ذلك.

ورأى معاوية أن يستصفي مَودته باستلحاقه، فاتفقا على ذلك، وأحضر الناس وحضر من شهد لزياد، وكان فيمن حضر أبو مريم السّلُولي، فقال له معاوية: بمَ تشهدُ يا أبا مريم؟ فقال: أشهد أنَّ أبا سفيان حضر عندي وطلب مني بَغِيًا، فقلت ليس عندي إلاَّ سُمَيّة فقال: ايتني بها علَى قذَرها ووَضَرها[٣]. فأتيته بها، فخلا معها، ثم خرجتْ من عنده وإن اسْكتيها ليقْطُران مَنِيًا[٤]. فقال له زياد: مهلاً أبا مريم إنما بعثت شاهدًا ولم تُبعث شاتمًا. فاستلحقه معاوية.

وكان استلحاقه أولَ ما رُدّت فيه أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله ﷺ قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر.

قال[٥]: وقد اعتذر الناس عن معاوية في استلحاقه إياه، فقالوا: إن أَنْكِحَة

---

(١) من الخشية: أي الخوف.

(٢) والنص بتمامه من النهج: «وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك يستذل لبك، ويستقل غربَك، فاحذره فإنما هو الشيطان: يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرته».
وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزغة من نزغات الشيطان: لا يثبت بها نسب، ولا يُستحق بها إرث. والمتعلق بها كالواغل المدَّفع والنوط المذبذب. راجع نهج البلاغة كتاب ٤٤ ج٣.

(٣) وضرها: قذارتها.

(٤) تأمّل كيف رأى منها ما لا يراه القاصد.

(٥) راجع بزيادة ابن الأثير في الكامل ج٣ ص٤٤٥.

الجاهلية كانت أنواعًا، منها أن الجماعة يجامعون البَغِيّ فإذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن شاءت منهم، فلما جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنه أقرّ نسب كلّ ولد إلى من كان ينسب إليه من أي نكاح كان، فتوهّم معاوية أن ذلك جائز له، ولم يفرق بين ما استلحق في الجاهلية والإسلام(١).

قال أبو عمر بن عبد البر(٢): ولما ادّعى معاوية زيادًا دخل عليه بنو أمية، وفيهم عبد الرحمٰن بن الحَكَم، فقال: يا معاوية لو لم تجدْ إلا الزِّنْج لاستكثرت بهم علينا قِلَّة وذلَّة، فأقبل معاوية علَى مَرْوان، وقال: أخرِجْ عنا هذا الخليع، فقال مَرْوان: والله إنه لخليعٌ(٣) ما يطاق. فقال معاوية: «واللّهِ لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه لا يطاق، ألم يبلغْني شعره فيَّ وفي زياد؟». ثم قال لمروان أسمعْنيه، فقال: [من الوافر]

ألاَ بَلِّغ مُعاويةَ بنَ صَخْرٍ(٤) … لقد ضاقتْ بِما تَأتي اليَدان
أتَغضبُ أن يُقالَ: أبوك عَفٌّ … وتَرْضَى أن يُقال: أبوك زَاني؟
فأشهدُ أن رَحْمَك منْ زِيادٍ … كرَحْم الفِيل من وَلد الأتان(٥)
وأشهد أنها حملتْ زيادًا … وصخرٌ مِنْ سُمَيَّةَ غَيْر دَان

قال: وهذه الأبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ الحِمْيَرِي الشاعر، ومَن رواها له جعل أوَّلَها:

ألا بَلِّغْ مُعاويةَ بنَ صَخْرٍ … مُغَلْغَلَةً مِنَ الرجل اليماني

قال أبو عمر(٦): وروى عمر بن شَبَّة وغيره أن ابن مُفَرِّغ لما شفَعت فيه اليَمانية إلَى مُعاوية أو ابنه يزيد، وكان قد لقي من عبّاد بن زياد وأخيه عبيد الله ما لقي من النَّكال مما يطول شرحه، فلما وصل إلى معاوية بكَى وقال: «يا أمير المؤمنين ركب منِّي ما لم يُرْكَب من مسلم قطُّ، علَى غير حَدَثٍ في الإسلام ولا خَلْع يَد من طاعة».

---

(١) لا وذر، لأن الوهم هنا بعيد، فلقد ضرب معاوية عرض الحائط بكل محرّمات رسول الله، وابتكر هنا أشياء فيها أنه شهد على أبيه بالزنا، ورد الشريعة التي أنزلها الله تعالى، ولكنه الملك الذي لأجله كان كل ذلك قاده إلى ما فعل، ولم يكن ليحتاج إلى شهود لإثبات إخوته لزياد فيما لو أخبره أبو سفيان ذلك.

(٢) راجع الاستيعاب جا١ ص٥٧٠.

(٣) الخليع: من تخلت عنه قبيلته وعزله أهله.

(٤) صنمه اسم أبي سفيان.

(٥) أنثى حمار الوحش.

(٦) دائمًا ابن عبد البر.

وكان عبيد الله بن زياد قد أمر به فسُقي دواء، ثم حمل على حمار وطيفَ به وهو يَسْلَح في ثيابه، فقال معاوية: ألست القائل؟:

ألا بلِّغ معاوية بن صخر... وذكر الأبيات.

فقال ابن مُفرِّغ: «لا والذي عظَّم حقَّك ورفع قدرك يا أمير المؤمنين ما قلتها قط ولقد بلغني أن عبد الرحمٰن بن الحَكَم قالها ونسبها إليَّ».

قال: ألست القائلُ؟: [من الوافر]

شهدتُ بأنَّ أُمَّك لم تباشِرْ أبا سُفيان واضعةِ القِناعِ
ولكن كان أمْرٌ فيه لُبْسٌ على وَجَلٍ شديد وارْتياعِ

أو لست القائلُ أيضًا: [من المنسرح]

إنَّ زيّادًا ونافعًا وأبا بَكْرَةَ عندِي منْ أعْجَب العَجَبِ
هُمُو رِجالٌ ثلاثةٌ خُلِقُوا في رَحْم أُنثَى ما كلُّهم لأبِ[1]
ذا قُرَشِيٌّ كما يقول وذَا مَوْلًى وهذا بزَعْمِهِ عَرَبي

في أشعار قُلْتَها لزياد وبنيه تهجوهم! اُغْرُب لا عفا الله عنك! فقد عفوت عن جُرْمك، ولو صحبتَ زيادًا لم يكن شيء مما كان، اذهبْ فاسكنْ أي أرض أحببتَ فاختار الموصِل.

قال أبو عمر: وليزيد بن مُفرِّغ في هجْو زياد وبنيه - من أجل ما لقي من عَبَّاد بن زياد بخراسان - أشعارٌ كثيرةٌ منها: [من الطويل]

أعبّادُ ما لِلُّؤم[2] عنك مُحَوَّلٌ وما لَكَ أُمٌّ في قريْش ولا أبُ
وقلْ لعُبَيْد الله ما لك وَالِدٌ بحقّ ولا يَدري امْرء كيف تُنْسَبُ

وقوله في زياد: [من البسيط]

فَكِّرْ ففي ذاك إنْ فكَّرتَ مُعْتَبرٌ هلْ نِلْتَ مَكْرمَة إلاَّ بِتَأْمِيرِ
عاشَتْ سُمَيَّةُ ما عاشَتْ وما علمَتْ أن ابنها من قُرَيْش في الجَماهِيرِ

قال[3]: وكان أبو بَكْرة أخا زياد لأمِّه، فلما بلغه أن معاوية استحلقه وأنه رضي بذلك آلى يمينًا ألاَّ يكلِّمه أبدًا، وقال: «هذا زَنَّى أُمَّه وانتفى مِن أبيه، لا واللّهِ ما

---

(١) المقصود أنهم من أنثى واحدة وآباء متفرقون كناية عن الزنا، وهو هجاء شنيع.
(٢) اللؤم: خسة الأصل والعرق. (٣) أبو عمر بن عبد البر.

علمتُ سُميّة رأت أبا سفيان قطُّ، وَيْلَه! ما يصنعُ بأُم حَبِيبة زَوْج النبي ﷺ؟ أيريدُ أن يراها؟ فإن حجبتْه فضَحتْه، وإنْ رآها فيا لهَا مُصيبة، يهتك من رسول الله ﷺ حُرْمَةً عظيمة!».

فلما حجَّ زياد ودخل المدينة أرادوا الدخول على أم حَبيبة، ثم ذكر قول أبي بَكْرة فانصرف عن ذلك. وقيل: إن أم حبيبة حَجَبَته ولم تأذن له في الدخول عليها، قيل: وإنه حجّ ولم يزرْها من أجل قول أبي بكرة، وقال: جزى الله أبا بكرة خيرًا لم يدع النصيحة على كل حال.

قالوا: وكتب زياد «إلى عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها: من زياد بن أبي سفيان» وهو يريد أن تكتب إليه «إلى زياد بن أبي سفيان» فكتبت إليه «من عائشة أم المؤمنين إلى ولدها زياد»[(١)].

وكان يُقال لزِياد قبل الاستلحاق «زياد ابن أبِيه» و«زياد ابن أُمّه» و«زياد ابن سُميَّة» و«زياد بن عُبَيْد الثَّقَفِيّ».

وروى أبو عمر بسنده إلَى أبي عثمان النهدي قال: اشترى زيادٌ أباه عُبَيْدًا بألف دِرهم فأعتقه. فكُنَّا نَغيظه بذلك.

سنة خمس وأربعين:

ذكر ولاية زياد البصرة وخراسان وسجستان
وما تكلم به زياد عند مقدمه ومن استعمله زياد من العمال

وفي هذه السنة عزَل معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي عن البصرة وكان قد استعمله عليها في أوَّل هذه السنة، ثم عزَله، فكانت ولايته أربعة أشهر، واستعمل زيادًا على البصرة وخُراسان وسِجِسْتان، ثم جمع له الهند والبحرَيْن وعُمان.

فقدِم زياد البصْرة في آخر شهر ربيع الآخر من السنة، فدخلها والفِسْقُ فيها ظاهر فاش.

فخطب خطبة بَتْراء[(٢)] لم يحمد الله فيها، وقيل: بل حمِد الله فقال: الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نِعَمِه وإكرامه، اللهم كما زِدْتَنا نعمًا فألْهِمْنا

---

(١) راجع الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٤٥.

(٢) كل خطبة لا يبدأها صاحبها بالبسملة والحمدلة والصلاة على محمد وآله فهي خطبة بتراء.

شكرًا على نعمك فينا، أمَّا بَعْدَ فإنَّ الجَهالةَ الجَهْلاء والضَّلالة العَمْياء والفجرَ المُوقد لأهله النار الباقي علَيهم سَعِيرها، ما يَأْتيه سُفهاؤكم ويشتملُ عليه حُلماؤكم من الأمور العظام، فيَثِب فيها الصغير، ولا يَنْحاش عنها الكبير كأنْ لم يسمعوا نبيَّ الله، ولم يقرؤوا كتابَ الله، ولم يعلموا ما أعدَّ اللّهُ من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذابِ الأليم لأهل مَعْصِيَته في الزمن السَّرْمَدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طَرَفَتْ عَيْنَه الدنيا[١] وسَدَّتْ مَسامِعَه الشهواتُ واختار الفانية علَى الباقية؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحَدَثَ الذي لم تُسْبَقوا إلَيه منْ ترككم الضعيفَ يُقْهَرُ ويُؤْخَذُ مالُه والضعيفةُ المسكينة في النهار المُبْصِر، هذه المَوَاخِيرُ[٢] المنصوبةُ، والضعيفة المسلوبة في النهار المُبْصِر، والعددُ غيرُ قليلٍ! ألم تكنْ منكم نُهاةٌ تمنعُ الغُواة عن دَلَج[٣] الليل وغارةِ النهار؟ قرَّبتم القرابة وباعدتم الدِّين! تعتذرون بغير العُذْر وتُغَطُّون[٤] علَى المختلس! كلُّ امْرِىءٍ منكم يذُبُّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يخشى مَعادًا! ما أنتم بالحُلَماء، ولقد اتبعتم السُّفَهاء، فلم يَزَل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونَهم حتَّى انْتهكوا حُرَمَ الإسلام ثم أطرقوا وَراءَكم كُنُوسًا في مَكانسِ[٥] الريَب! حرامٌ عَلَيَّ الطعامَ والشرابَ حتَّى أُسَوِّيَها بالأرض هَدْمًا وإحراقًا! إني رأيت هذا الأمر لا يصلُح إلاَّ بما صلح به أوَّلُه: لِينٌ في غير ضعف، وشدةٌ في غير جبْريَّة وعُنْف. وإنِّي أُقْسمُ بالله لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالمولى والمُقيمَ بالظاعن، والمقْبِلَ بالمدْبر، والصحيحَ منكم في نفسه بالسقيم[٦]، حتَّى يَلْقَى الرجُلُ منكم أخاه فيقول: انْجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد[٧]، أو تستقيمَ لي قَناتُكم! إن كذْبة المِنبر مشهودة، فإذا تعلّقتم عَلَيَّ بكذبة فقد حلَّت لكم مَعْصِيَتي! مَن بُيِّت[٨] منكم فأنا ضامنٌ لما ذهب له، إيَّايَ ودَلج الليل، فإني لا أُوتى بمُدْلِج إلاَّ سفكتُ دمه، وقد أجلتكم في ذلك بقَدْر ما يأْتي الخبرُ الكوفةَ ويرجعُ

---

(١) إذا صدف إلى الدنيا همه.

(٢) جمع ماخور وهو مكان الفسق وارتكاب الفاحشة.

(٣) الدالج في الليل: السائد لغرض ليلاً، وأراد هنا الريبة.

(٤) تسترون.

(٥) الكناس: بيت الغزلان وأراد اجتماعهم لسوء.

(٦) أراد أنه سيأخذ السيد بالعبد، والباقي بالمهاجر، والآتي بالذاهب، والمعافى بالمريض. وفيه مخالفة للنص القرآني ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

(٧) انظر المثل في مجمع الأمثال جـ١ ص٣٠١.

(٨) أي دخل عليه بياتًا فسُلب وسُرق.

إليكم[١]. وإيَّايَ ودعوَى الجاهليّة[٢]، فإني لا أجد أحدًا دعا بها إلاّ قطعتُ لسانه، وقد أحدثتم أحداثًا لم تكُنْ، وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرّقناه، ومن حرَّق قومًا حرَّقناه، ومن نقَب بَيْتًا[٣] نَقَبتُ عن قلبه، ومن نَبَش قبرًا دفنتُه فيه حيًّا! فكُفُّوا عنِّي أيديَكم وألسِنَتكم أكفُفْ عنكم يدي ولساني، ولا يظهرْ من أحدٍ منكم خلافُ ما علَيه عامَّتكم إلاّ ضربتُ عنقه! وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ[٤] فجعلت ذلك دَبْرَ أذُني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسنًا فلْيَزْدَدْ إحسانًا، ومن كان مُسيئًا فلْينزِعْ عن إساءته، إنِّي لو علمتُ أن أحدكم قد قتله السلُّ من بغضي لم أكشف له قِناعًا ولم أهتِكْ له سِترًا حتى يُبْدِيَ لي صفحته، فإذا فعل لم أُناظره[٥]. فاستأْنفوا أمورَكم، وأعينوا على أنفسكم، فرُبَّ مُبْتَئِسٍ بقدومنا سيُسَرّ ومسرورٍ بقدومنا سَيَبْتَئِس. أيُّها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادَة، نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطاناه، ونذُود عنكم بفَيء الله الذي خَوَّلَناه، فلنا عليكم السمعَ والطاعةَ فميا أحببنا، ولكم علَيْنا العدلَ فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عَدلنا وفَيْئَنا بمناصحتكم لنا. واعلموا أني مَهما قصَّرتُ عنكم فإني لا أُقصِّرُ عن ثلاث: لستُ محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارِقًا بلَيْل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانه، ولا مُجَمِّرًا[٦] لكم بَعْثًا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدّبون، وكَهْفكم الذي إليه تأْوُون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تُشْربوا قلوبَكم بُغضَهم، فيشتدَّ لذلك غيظُكم، ويطولَ له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم، أسألُ الله أن يُعين كلاً علَى كلّ، فإذا رأيتموني أُنفِذ فيكم الأمر فأنْفِذوه علَى أذْلاله[٧]. وأيمُ

---

(١) أراد أنه أمهلهم مسيرة وصول الخبر إلى الكوفة والرجوع منها (أراد الوقت) قبل أن يشرع في تنفيذ أحكامه العرفية هذه.

(٢) جرى القول من المعاصرين في شرح هذا التعبير أنه أراد النهي عن القول بالعصبية القبلية، وفي ذلك شك لعدم أرجحيته تاريخيًا. فالمعروف أن العصبية كانت في أوجها وتسعرها الحكومة الأموية بين القيسية واليمانية، وبين العرب والموالي، وبين القرشيين والعرب، وبين الأمويين والقرشيين، وفيها بعد بين السفيانية والمروانية. والظاهر أن زياد ابن أبيه أراد أشياء تتعلق بخلفية ما كان يتداوله الناس في شرعية معاوية ومن تبعه من صحابة لم يكونوا لا في الصف الأول ولا الأخير.

(٣) كناية عن عادة كانت تجري بإحداث خرق في منزل ابتغاء سرقته.

(٤) مفردها: أحنة: وهي الحقد.

(٥) لم أناقشه الأمر.

(٦) محمدًا.

(٧) مفردها ذِلّ وهي الطريق السهلة، وأراد أن نفذوا الأمر على مبيناته.

اللهِ إن لي فيكم لَصَرْعَى كثيرة، فليحذَر كلُّ امرىءٍ منكم أن يكون من صَرْعاي!.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير أنك أوتِيتَ الحكمة وفَصْلَ الخطاب[١]. فقال: «كذبتَ، ذاك نبيُّ الله داود عليه الصلاة والسلام».

فقال الأحنف: «قد قُلتَ فأحسنتَ، أيُّها الأمير والثناءُ بعد البَلاء، والحمدُ بعد العطاء، وإنا لا نُثني حتَّى نَبْتَلي[٢]، ولا نحمَدُ حتَّى نُعطَى». فقال زياد: صدقتَ.

فقام أبو بلال مِرْداس ابن أُدَيَّة وهو يقول: أنبأنا الله بغير ما قلتَ، قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ [النجم: ٣٧ ـ ٤١] فأوْعَدَنا الله خيرًا ممّا أوعدتَنا يا زياد فقال زياد: إنّا لا نجدُ إلى ما نريد منك ومن أصحابك سبيلاً حتَّى نخوضَ إليكم الباطلَ خَوْضًا. وقيل: إنه قال: حتى نخوضَ إليها الدماء.

وقيل: إنَّه لمّا قدم العراق خطب، فحمد الله وأثنَى علَيه، ثم قال: «إنَّ معاوية غَيْرُ مَخُوف عَلَى قَومه، ولم يكن لِيُلْحِقَ بنسَبه من ليس منه، وقد شهدتِ الشهودُ بما قد بلغكم، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، والله حَيْثُ وضع البيِّنات كان أعلم، وقد رحلت عنكم وأنا أعرِف صديقي من عدوِّي، وقد قدِمتُ علَيكم، وصار العدوُّ صديقًا مناصحًا، والصديقُ عدوًّا مُكاشِحًا، فاشتمل كُلُّ امرىء علَى ما في صدره، فلا يكونَنَّ لسانُه شَفْرَةً تَجري علَى وَدَجِه، ولْيَعلمْ أحدُكم إذا خلا بنفسه أني قد حملتُ سَيفي بيده، فإن شَهَره لم أغمده، وإن أغمده لم أشهره». ثم نزل.

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن.. وأجَّل الناسَ حتَّى بلغ الخبرُ الكوفة وعاد إليه وصول الخبر، وكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلِّي ويأمرُ رجلاً فيقرأ سورة البقرة أو مثلَها يرتِّل القرآن، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يَرَى أنَّ إنسانًا يبلغ أقصَى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنسانًا إلا قتله.

فخرج ذات ليلة، فأخذ أعرابيًا، فأتى به زيادًا، فقال: هل سمعْتَ النداء؟ قال: «لا واللّهِ قدِمتُ بحَلُوبة[٣] لي، وغشِيني الليل، فاضطررتها إلى موضع، وأقمتُ لأُصبح، ولا علمَ لي بما كان من الأمير». قال: أظنك واللّهِ صادقًا ولكن في قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضُربت عنقُه.

---

(١) أراد قوله تعالى في داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ٢٠].

(٢) نجرِّب.

(٣) ناقة مليئة.

وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وجرّد السيف، وأخذ على الظِّنة[1]، وعاقب بالشُّبهة، وخافه الناس خوفًا شديدًا، حتَّى أمِنَ بعضُهم بعضًا، وحتى كان الشيءُ يسقط من الرجل أو المرأة[2] فلا يَعْرِض له أحد حتَّى يأتيه صاحبه فيأْخذه، ولا يغلق أحدٌ بابه، وأدَرَّ العطاءَ، وبنى مدينة الرزق، وجعل الشُّرَط أربعة آلاف.

وقيل له: إن السبيل مخوفة فقال: «لا أُعاني شيئًا وراء المِصْر حتَّى أُصلحَ المصر، فإن غلَبني فغَيْرُه أشدُّ غلبة منه». فلما ضَبط المصر وأصلحه تكلَّف ما وراء ذلك وأحكمه، وهو أول من سِيْرَ بيْن يديه بالحراب والعُمُد، واتخذ الحرسَ خمسمِائة لا يفارقون المسجد. والله أعلم.

ذكر عمال زياد ابن أبيه

قال: ولمّا وُلي زياد استعان بعدَّة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، منهم عِمْران بن حُصَين الخُزاعي وَلاَّه قضاء البصرة، وأنس بن مالك وعبد الرحمٰن بن سَمخرة وسَمُرة بن جندب. فأمّا عِمْران فاستعفاه من القضاء فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فَضالة اللَيثي، ثم أخاه عاصم، ثم زُرَارة بن أوْفى.

وجعل خُراسان أرباعًا، فاستعمل على مَرْوَ أمير بن أحمر اليَشْكُرِي وعلى نَيْسَابور خُلَيْد بن عبد الله الحنفي، وعلى مَرْو الرُّوذ والفَارِيَاب والطَّالَقَان قيس بن الهَيْثم، وعلى هَراة وباذَغِيس وبُوشَنْج نافع بن خالد الطائي، ثم عزله واستعمل الحَكَم بن عمرو الغفاري، وكانت له صحبته، وكان زياد قد قال لحاجبه: ادع لي الحَكم، يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي، ليوليه خراسان، فجاء بالحكم الغِفاري، فقال له زياد: ما أردتك ولكن الله أرادك، فوَلاَّه خراسان وجعل معه رجالاً على جِباية الخراج، منهم أسْلَم بن زُرعة الكلابي وغيره، وغزا الحكم طخارسْتان فغنم غنائم كثيرة ثم مات، واستخلف أَنس بن أبي أُناس بن زُنَيْم فعزله زياد، وكتب إلى خُلَيْد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد الحارثي رضي الله تعالى عنه إلى خراسان في خمسين ألفًا من البصرة والكوفة.

وحجّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم، وكان على المدينة.

---

(١) وهذا انتهاك آخر لشريعة الإسلام، حيث إن الرسول ﷺ يقول: «إن الحدود تدرأ بالشبهات» استن الأمويون قانونًا يأخذ الإنسان على الظن والشك من دون يقين.

(٢) أراد تسيير المرأة فلا يعترضها أحد بسوء، وفي الذهب التباس من الناسخ.

سنة ست وأربعين:

ذكر وفاة عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد

وفي هذه السنة مات عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وكان قد عظُم أمره عند أهل الشام ومالوا إليه لغَنَائه[١] بالروم ولآثار أبيه، فخافه معاوية، فأمر ابن أُثَال النصراني أن يحتال في قتله، وضمن له أن يضع عنه خراجَه ما عاش، ويولِّيه خَراج حِمْص[٢].

فلمَّا قدم عبد الرحمٰن من الروم دَسّ إليه ابنُ أُثال شربةً مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها، فمات بحمصْ، فوَفَّى له معاوية.

ثُمَّ قدِم خالد بن عبد الرحمٰن المدينة، فجلس يومًا إلَى عُرْوَة بن الزُّبَير فقال له عروة: ما فعل ابن أُثَال؛ فقام من عنده وسار إلى حِمْص فقتَل ابن أُثال، فحمِل إلَى معاوية فحبسه أيامًا وغرمه ديته، ورجع إلى المدينة فأتَى عُرْوة فقال له ما فعل ابن أُثال؟ فقال: قد كَفَيتكه ولكن ما فعل ابن جُرْمُوز؟ يعني قاتل الزبير فسكت عروة.

وقد رُوِي[٣] في خبر عبد الرحمٰن بن خالد أن معاوية لمّا أراد البَيْعة ليزيد خطب أهل الشام وقال: «يا أهلَ الشام، إني قد كبر سنِّي وقرب أجلي، وقد أردت أن أعقِد لرجل يكون نظامًا لكم، وإنما أنا رجل منكم، فارتؤوا رأيكم». فأصفقوا واجتمعوا. وقالوا: رضينا عبد الرحمٰن بن خالد. فشَقَّ ذلك على معاوية وأسرَّها في نفْسه، ثم مرض عبد الرحمٰن فأمر معاوية طبيبًا عنده مكينًا أن يأتيه فيسقيه سقية يقتله بها، فأتاه فسقاه فانخرق بطنه فمات. ثم دخل أخوه المهاجر بن خالد دمشق مستخفيًا، هو وغلام له، فرصدا ذلك اليهودي، فخرج ليلاً من عند معاوية، ومعه قوم، فهجم عليه المهاجر فهربوا عنه فقتله المهاجر.

وقد قيل[٤] إن الذي قَتل ابن أُثَال أو اليهوديَّ خالد بنُ المهاجر بن خالد، وأن عروة بن الزبير، كان يعيِّره بترك الطلب بثأر عمه، فخرج خالد ونافع مولاه من المدينة حتَّى أتَيا دِمَشق، فرصد الطبيب ليلاً عند مسجد دمشق، وكان يسْمُر عند معاوية، فلما

---

(١) المغنى: المنزل، ولفتوحه في الروم وإقامته في ديارهم غازيًا أراد غنائه.

(٢) في الكامل اختلاف وزيادة راجع جـ٣ ص٢٢٥.

(٣) كما في الاستيعاب جـ٢ ص٤٨ بتخريج فتح الله رفعت.

(٤) كما في الاستيعاب جـ٣ ص٤٣٦ بتخريج فتح الله رفعت.

انتهى إليهما ومعه قوم من حَشَم معاوية، حملا عليهم، فانفرجوا، وضرب خالد بن المهاجر اليهوديَّ فقتله، ثم انصرف إلى المدينة، وقال لعروة بن الزبير:

قَضَى لابْنِ سيفِ اللّهِ بالحقِّ سَيْفُهُ ... وعُرِّي من حمل الذُّحُول[1] رَوَاحلُه

سَلِ ابْنَ أُثَال هَلْ ثَأَرْتُ ابنَ خَالد؟ ... فهذا ٱبْنُ جُرْمُوزٍ فهل أنت قاتلُهْ؟

وحجَّ بالناس في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان.

سنة سبع وأربعين:

في هذه السنة عُزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر، واستُعمل عليها معاوية بن حُدَيْج وكان عثمانيًا، فمرّ به عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقال: «يا معاويةَ، قد أخذتَ جزاءك من معاوية، قد قتلتَ أخي محمدًا لتَلِيَ مصر، فقد وَليتها». فقال: ما قتلت مُحمدًا إلا بما صنع بعثمان، فقال عبد الرحمٰن: فلو كنتَ إنما تطلبُ بدمِ عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع، حيث عمل عَمْرو بالأشعري ما عمل، فَوَثبتَ أول الناس فبايعته.

وحجَّ بالناس في هذه السنة عُتْبَة بن أبي سُفْيان، وقيل: عنْبَسة بن أبي سُفيان.

سنة ثمان وأربعين:

في هذه السنة استعمل زيادُ غالبَ بن فَضالة اللَيثي علَى خُراسان وكانت له صحبة.

وحجَّ بالناس مَرْوان بن الحَكَم وهو يتوقَّع العزلَ لمَوْجِدة كانت من معاوية علَيه، وارتجع معاوية منْه فَدَك[2] وكان وهَبَها له.

سنة تسع وأربعين:

في هذه السنة عَزَل مُعاوية مَرْوانَ بن الحَكَم عن المدينة، في شهر ربيع الأول،

---

(١) ذحل مفردها وهي الثأر.

(٢) فدك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو أكثر، أفاءها الله على رسوله ﷺ وكانت في يد فاطمة الزهراء بنت محمد في حياة أبيه، ثم منعها أبو بكر فاطمة فوجدت عليه ولم ترض عنه وتوفيت عليها السلام وهي على حالها. وموضوع فدك طويل اعتذر بعضهم عن أبي بكر رضي الله عنه من القدماء والمعاصرين. راجع معجم البلدان ج٤ ص٢٣٨.

وأمَّرَ سَعيدَ بن العاص(١)، فكانت ولاية مَرْوان المدينة ثمانِيَ سنين وشهرين، وكان علَى قضاء المدينة عبد الله بن الحارث بن نوفل، فعزله سعيدٌ حين وُلِّي، واستقضَى أبا سَلَمة بن عبد الرحمٰن.

ذكر وفاة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قد اختُلف في وقت وفاته رضي الله عنه، فقيل: في سنة تسع وأربعين، وقيل: بل مات في شهر ربيع الأول سنة خمسين، وقيل: مات في سنة إحدى وخمسين، ودفن في بَقِيع الغَرْقَد(٢)، وصلّى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة، قدَّمه الحسين للصلاة عليه، وقال له لولا أنها سُنَّة ما قدمتك.

قال أبو عمر بن عبد البر(٣): وقد كانت عائشة رضي الله عنها أباحت له أن يُدْفَن مع رسول الله ﷺ في بَيْتها، وكان قد سألها ذلك في مرضه، فلمَّا مات مَنَع من ذلك مَرْوانُ بن الحكم وبَنُو أمَيّة.

وروى أبو عمر(٤): أن الحسن لما حضرتْه الوَفاة قال للحسين أخيه: «يا أخي إن أباك رحمه الله لما قُبِض رسولُ الله ﷺ استشرف لهذا الأمر رجاء أنْ يكون صاحبَه، فصرفه الله عنه، وولاَّها أبا بكر، فلما حضرتْ أبا بكر الوَفاةُ تشوَّف لها أيضًا، فصرِفت عنه إلى عُمر، فلما احْتُضِرَ عمر جعلها شُورَى بين ستة هو أحدُهم، فلم يشكَّ أنها لا تَعْدوه، فصرِفَت عنه إلى عثمان، فلما هَلَك عُثمان بُويع له، ثم نُوزع حَتَّى جَرَّد السيف، وطلبها، فما صفا له شيءٌ منها، وإني واللّهِ ما أرى أن يَجْمعَ اللّهُ فينا أهْلَ البيْتِ النبُوَّةَ والخلافة(٤)، فلا أعرفنَّ ما استخفَّك سفهاءُ أهلِ الكوفة: فأخرجوك، وإني قد كنتُ طلبت إلى عائشة إذا متُّ أن تأْذَنَ لي فأُدْفَن في بيتها مع رسول الله ﷺ. فقالت: نَعَم، وإني لا أدري لعلها كان ذلك منها حياء، فإن طابت نفسُها فادفِنِّي في بيتها، وما أظن إلاَّ أن القوم سيمنعونك إذا أردتَ ذلك،

(١) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي، كنيته أبو عثمان.

(٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل الحديدة. راجع ياقوت جا ص٤١٣.

(٣) راجع الاستيعاب جا ص٣٧٤.

(٤) انظر الاستيعاب لابن عبد البر جا ص٣٧٦ بتخريج فتح الله رفعت.

فإن فعلوا فلا تُراجِعْهم في ذلك، وادفِنّي في بَقِيع الغَرْقَد، فإن لي بمن فيه أُسْوة[١].

فلمَّا مات الحسن رضي الله عنه أتى الحسين عائشة فطلب ذلك إليها فقالت: نَعَمْ وكرامة. فبَلغَ ذلك مَرْوانَ بن الحكم[٢] فقال: «كذبَ وكذبتْ، والله لا يُدْفَن هناك أبدًا، منعوا عُثمان من دَفْنه في المقبرة ويريدون دفن الحسن في بيت عائشة». فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه في السلاح، واسْتَلأمَ[٣] مَرْوان في الحديد أيضًا، فبلغ ذلك أبا هُرَيْرَة رضي الله عنه فقال: «والله ما هو إلاَّ ظلم، يُمْنَع الحسن أن يُدْفَن مع أبيه! واللّهِ إنه لابْنُ رسول الله ﷺ». ثم انطلق إلى الحسين فكلَّمه وناشدَه الله وقال له: «أليس قد قال أخوك: إن خفتَ أن يكون قتالٌ فردَّني إلى مقبرة المسلمين؟»[٤]. فلَم يَزَل به حتى فَعَل، وحمله إلى البَقيع، فلم يَشهده يَوْمئذ من بني أمية إلاَّ سَعيد بن العاص، فقدَّمه الحسين لصلاة، وقال: هي للسّنة. وشهدها خالد بن الوَليد بن عُقْبة بعد أن ناشد بني أمية أن يخلوه يشهد الجنازة فتركوه فشهد دفْنه في المقبرة، ودُفِن إلَى جَنْب أمِّه فاطمة رضي الله عنهما.

قال: وقال أبو قتادة وأبو بكر بن حفص: سُمّ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، سمَّتْه امرأته جَعْدة بنت الأشْعَث بن قَيس الكندي. قال: وقالت طائفة كان ذلك منها بتدسيس معاوية إلَيها وما بَذَل لها في ذلك، وكان لها ضرائر وأنه وعدها بخمسين ألف درهم، وأن يزوِّجها من يزيد، فلما فعلتْ وفَّى لها بالمال، وقال: حُبُّنا ليزيد يمنعنا من الوفاء لكِ بالشرط الثاني[٥].

---

(١) لاحظ في النص أشياء، منها: أن الحسن يوصي الحسين ـ سبطي رسول الله ﷺ ـ بما كان أبوه به أولى ولم نعثر فيما بين أيدينا على وصاة بهذا الشأن، ثم لاحظ كيف يتلو الحسن أشياء هي إلى الغيب أقرب، ومن العجيب أن يتم ذلك كله كما حصل، فإما أن يكون الحسن من المعصومين الذين أطلعهم الله على غيبه، أو أن ثمة من روى ذلك عنه بحقب بعيدة ليقرِّر واقع الأمر.

(٢) تأمل طريد رسول الله يمنع سبط رسول الله ﷺ.

(٣) أي لابس لأمة الحرب.

(٤) لقد كان أولى بأبي هريرة الذي أكثر بالحديث عن رسول الله ﷺ حتى فاق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والصحابة الباقين مجتمعين أن لا يزال بمفرده حتى يقنعه.

(٥) راجع النص في الاستيعاب جـ١ ص٣٢٥ بتخريج فتح الله رفعت.

وروى قتادة قال: دخل الحسين على أخيه الحسن رضي الله عنهما فقال: «يا أخي إني سُقيت السمَّ ثلاث مرات، ولم أُسْقَ مثل هذه المرة، إني لأضع كبدي!». فقال الحسين: مَن سقاك يا أخي؟ قال: «ما سؤالك عن هذا؟ أتريد أن تقاتلهم؟ أكِلْهم[١] إلى الله». فلمَّا مات وَرَد البَريدُ بموته على معاوية فقال: «يا عَجبًا من الحسن! شرب شربة من عسل بماء رومة[٢] فقضَى نَحْبَه!».

وأتى ابن عبّاس معاوية فقال له: يا بن عباس احتسب الحسن لا يحزنك الله ولا يسوءك. قال: أمّا ما أبقاك الله يا أمير المؤمنين فلا يحزنني الله ولا يسوؤني، فأعطاه على كلمته ألف ألف درهم وعروضًا وأشياء. وقال: خذها فاقسمها على أهلك.

ومات الحسن رضي الله عنه وله من السن يومَئذ سبع وأربعون سنة. وقيل: ستٌّ وأربعون سنة.

وكان رضي الله عنه وأرضاه ورِعًا فاضلاً، دعاه وَرَعُه وفضلُه إلى ترك الخلافة رغبة فيما عند الله، وقال: واللّهِ ما أحببتُ منذ علمتُ ما ينفعني ويضرُّني أن ألِيَ أمْرَ أمّةِ محمدٍ ﷺ، على أن يُراقَ في ذلك مَحْجَمة دم.

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

سنة خمسين:

ذكر وفاة المغيرة بن شعبة

في هذه السنة تُوُفِّيَ المُغِيرة بن شعبة[٣] بن أبي عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس وهو ثقيف.

وكان الطاعون قد وقع بالكوفة فهرب المغيرة منه، فلما ارتفع عاد إلى الكوفة، وطُعِن فمات في شعبان من السنة، وكان طوالاً أعور، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك، وتُوُفِّيَ وهو ابن سبعين سنة.

---

(١) ادع أمرهم إلى الله. (٢) رومة: بئر بالمدينة.

(٣) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، كنيته أبو عبد الله لم يسلم حتى وقت متأخر، شهد فتوح الشام، وفقد باليرموك عينه، وتولى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه البصرة ثم عزله عنها وولاه الكوفة وأقره عثمان عليها. قيل إنه اعتزل الفتنة التي قادها معاوية ضد إمام زمانه علي كرّم الله وجهه، ولكنه تخلى عن حياده إبان التحكيم فولاه معاوية الكوفة. ولم يعمر طويلاً بعد استتباب الأمر لمعاوية شأنه شأن معظم كبار الصحابة الذين آزروا معاوية إذ توفي سنة ٥٠هـ. راجع أسد الغابة جـ٤ ص٤٠٦.

وكان المغيرة من الدُّهاة، رُوِيَ عن الشعبي قال: كان دُهَاة العرب أربعة: مُعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه، فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبَادهة، وأما زياد فللكبيرة والصغيرة.

وحكى الرياشي(١) عن الأصمعي(٢) قال: كان معاوية يقول: أنا للأناة، وعمرو للبديهة، وزياد للصغار والكبار، والمغيرة للأمر العظيم.

ولما دُفن وقف على قبره مَصْقَلة بن هُبَيْرة الشيباني وقال:

إنَّ تحت الأحجار حَزْمًا وجُودًا ... وخَصِيمًا أَلَدَّ ذا مِغْلاَقِ(٣)

حيَّة في الوِجَارِ(٤) أرْبَد لا يَنْـ ... ـفَعُ منه السَّليمَ(٥) نَفْثُ الرَّاقِي

ثم قال: أمَا والله لقد كنتَ شديدَ العداوة لمن عاديَتَ، شديدَ الأخوَّة لمن آخيتَ.

وكان المغيرةُ كثير الزواج، قال أبو عمر: قال نافع أحصن المغيرة ثلاثِمائة امرأة في الإسلام. قال: وغيره يقول: ألف امرأة(٦).

ولمّا حضرته الوفاة استخلف على الكوفة ابنه عُرْوَة، وقيل: استخلف جَرِيرًا، فولَّى معاويةُ زيادًا.

ذكر ولاية زياد الكوفة

قال(٧): ولما مات المغيرةُ استعمل معاويةُ زيادًا على الكوفة، وهو أوّل من جمع له بين الكوفة والبصرة، فسار إلى الكوفة، واستخلف على البصرة سَمُرة بن جُنْدُب(٨)، فكان زياد يقيم بالكوفة ستة أشهر، وبالبصرة ستة أشهر.

---

(١) الرياشي: هو العباس بن الفرج بن علي بن عبد الله الرياشي البصري كنيته أبو الفضل. قتل في ثورة الزنج. لغوي راوية.

(٢) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي. كنيته أبو سعيد، لغوي راوية. ولد وتوفي بالبصرة.

(٣) المتمسك بالخصومة اللجوج.

(٤) وجار الحية: جحره.

(٥) السليم: اللديغ، وهو من الأضداد.

(٦) العظيم الخبيث.

(٧) انظر الاستيعاب جـ٣ ص٣٨٩ بتخريج فتح الله رفعت.

(٨) سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، قيل إن له صحبة. أقام في البصرة، وكان زياد ابن أبيه يستخلفه على البصرة إذا تركها. وكان شديدًا يغل في دماء الناس غير هيَّاب، ناقره معاوية بعد وفاة زياد على البصرة نحوًا من عام. مات سنة ٦٠هـ. انظر الإصابة ترجمة ٣٤٦٨.

ولمّا وصل الكوفة خطبهم، فَحُصِبَ[١] وهو على المنبر، فجلس حتَّى أمسكوا، ثم دعا قومًا من خاصّته فأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخُذَنَّ كلُّ رجل منكم جليسه، ولا يقولَنَّ لا أدري مَنْ جليسي. ثم أمر بكرسي فوضِع على باب المسجد، ثم دعاهم أربعةً أربعةً يحلفون: ما مِنّا من حَصَبك، فمن حلف خلاَّه، ومن لم يحلف حبسه، حتى صاروا ثلاثين، وقيل: ثمانين، فقطع أيديَهم، واتخذ زياد المقصورة حين حُصِب.

قال: وأما سَمرةُ فإنه أكثَرَ القتل بالبصرة لمّا استخلفه زياد عليها، قال ابن سيرين: قتل سمرة في غيبة زياد هذه ثمانية آلاف. فقال زياد: أتخافُ أن تكون قتلت بريئًا؟ قال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت. وقال أبو السُّوار العدوي: قتل سمرة من قومي في غداةٍ واحدةٍ سبعة وأربعين، كلّهم قد جمع القرآن.

وركب سمرة يومًا، فلقيَتْ أوائل خيله رجلًا فقتلوه، فمرَّ به سَمُرة وهو يتشحّط في دمه، فقال: ما هذا؟ قيل: أصابه أوائل خيلك، فقال: إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسِنَّتَنا.

ذكر ما قصده معاوية من نقل المنبر من المدينة إلى الشام ومن قصد ذلك بعده من الأمراء

في هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله ﷺ أن يُحْمَل إلى الشام، وقال: لا يُتْرَك هو وعصا النبي ﷺ بالمدينة، وهم قتلة عثمان. فطلب العصا، وهي عند سعد القَرَظ[٢] وحرّك المنبر، فكُسفت الشمس حتى رُؤيت النجوم بادية، فأعظم الناس ذلك، فتركه.

وقيل: أتاه جابر وأبو هريرة فقالا: يا أمير المؤمنين لا يصلحُ أن تُخرِجَ منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتنقل عصاه إلى الشام فانقل المسجد، فتركه وزاد فيه ست درجات، واعتذر مما صنع.

---

(١) رُمي بالحصى.

(٢) سعد القرظ صحابي أذن للرسول ﷺ ولمن بعده من الخلفاء، شكى قلة ذات يده إلى رسول الله ﷺ فنصحه بالتجارة فتاجر بالقرظ فربح، وبات يعرف بسعد القرظ.

فلما وَلي عبد الملك بن مَرْوان هَمّ بالمنبر، فقال قَبيصة بن ذؤيب أذكرك الله أن لا تفعل، إن معاوية حركه فكُسفت الشمس، وقال رسول الله ﷺ: «من حلف على منبري آثمًا فليتبوأ مقعده من النار»[١] وهو مَقْطع الحقوق بينهم بالمدينة. فتركه عبد الملك.

فلما وَلِيَ الوَلِيد ابنهُ وحَجَّ هَمَّ بذلك، فأرسل سعيد بن المسيّب[٢] إلى عمر بن عبد العزيز فقال: كلّم صاحبك لا يتعرّض للمسجد ولا للّهِ والسخط له، فكلّمه عمر فتركه.

فلما حَجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عُمر بما كان من الوَليد، فقال سليْمان: «ما كنتُ أحبُّ أن يُذْكَر عن أمير المؤمنين عبد الملك هذا، ولا عن الوَليد، ما لنا ولهذا؟ أخذْنا الدنيا فهي في أيدينا، ونريدُ أن نعمِد إلى علَم من أعلام الإسلام يوفَدُ إليه فنحملَه، هذا ما لا يصلح!».

وفيها عَزل مُعاويةُ مُعاويةَ بن حُدَيْج عن مصر، واستعمل عليها مَسْلَمة بن مُخَلَّد مع إفريقية وكان على إفريقية عُقبة بن نافع[٣] وكان قد اخْتَطَّ قَيْرَوانَها، وكان موضِعَه غَيْضة لا ترام من السباع والحيّات فدعا الله عليها، فلم يبقَ منها شيءٌ إلا خرج هاربًا، حتَّى إنْ كانت السباع لتحملَ أولادها، وبنى الجامع، فلما عزله معاوية عن إفريقية وأضافها إلى مَسْلَمة بن مُخلَّد استعمل على إفريقية مَوْلًى له يقال له: «أبو المهاجر»، فلم يزل عليها حتَّى هلك معاوية.

وقيل: إن عُقبة بن نافعَ ولِي إفريقية في هذه السنة وعمَّر مدينة القيروان، وكانت غَيْضة[٤] على ما تقدم، فدعا الله تعالى، وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى: «أيَّتُها الحيّاتُ والسِّباع، إنّا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنَّا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس إلى الدوابِّ تحمل أولادها وتنتقل، فأسلم كثير من البربر، وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة، فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكانت دور القيروان ثلاثة آلاف باع وستمائة باع. وسنذكر إن شاء الله تعالى ذلك بما هو أبسط من هذا في أخبار إفريقية وبلاد الغرب[٥].

---

(١) انظر صحيح البخاري في المناقب ص٥.

(٢) ابن حزم بن أبي وهب المخزومي القرشي، كنيته أبو محمد، تابعي، محدث.

(٣) عقبة بن نافع بن عبد القيس، أموي قرشي، فاتح من قادة الفتوح في صدر الدولة الأموية وإليه ينسب بناء القيروان.

(٤) وكان كثير الأشجار ملتفها.

(٥) انظر النص باختلاف وزيادة عن ابن الأثير ج٣ ص٢٣٠.

ذكر وفاة الحكم بن عمرو الغفاري

وفي هذه السنة توفي الحكم بن عمرو الغفاري بمرو، على أحد الأقوال، وله صحبة، وكان زياد قد كتب إليه: «إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن أصطفي له الصَّفْراء والبيضاء، فلا تقْسم بيْن الناس ذهبًا ولا فضة». فكتب إليه الحكم: «بلغني ما أمر به أمير المؤمنين، وأني وجدت كتابَ الله قبْل كتاب أمير المؤمنين، وإنه واللّهِ لو أن السماوات والأرضَ كانتا رَتْقًا علَى عبد ثم اتقى الله لَجعل له فرجًا ومَخْرَجًا، والسلام عليك». ثم قال للناس: اغدوا على أعطياتكم وما لكم، فقسمه بينهم، ثم قال: اللهم إن كان لي عندك خيرٌ فاقبضْني إلَيك. فمات، واستخلف لمَّا حضرتْه الوفاةُ أَنَسَ بن أبي أُنَاس.

وحجّ بالناس في هذه السنة معاوية، وقيل: بل حجّ ابنه يزيد.

وفيها توفي عثمان بن أبي العاص الثقفي، وعبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، وأبو موسى الأشعري، وقيل: سنة اثنتين وخمسين، وتوفي غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

سنة إحدى وخمسين:

في هذه السنة استعمل زياد ابن أبيه الربيعَ بن زياد الحارثي على خراسان بعد وفاة الحَكَم، وكان الحكمُ قد استخلف أَنَس بن أبي أُنَاس كما ذكرنا فعزله زياد، وولى خُلَيْد بن عبد الله الحَنَفي، ثم عزله، وولى الربيع في أول سنة إحدى وخمسين، وسيَّر معه خمسين ألفًا بعيالهم من أهل الكوفة والبصرة، منهم بُرَيْدة بن الحُصَيْب وأبو بَرْزَة، ولهما صحبة، فسكنوا خراسان، فلمَّا قدمها غزا بَلْخ ففتحها صلحًا، وكانت قد أُغْلِقت بعدما صالحهم الأحنف، وفتح قُهَسْتان عنوة وقتل مَنْ بناحيتها من الأتراك، وبقي منهم نَيْزَك طَرْخَان فقتله قُتَيْبة بن مسلم[1] في ولايته. والله ولي التوفيق.

ذكر مقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحَمِق وأصحابهما

وفي هذه السنة كان مقتل حُجرْ بن عدي وأصحابه، وسبب ذلك أن معاوية لما استعمل المغيرة بن شُعْبة على الكوفة، أمر بشتم عليّ رضي الله عنه وذمِّه والترحُّم

(١) ابن عمرو بن الحصين الباهلي كنيته أبو حفص.

على عثمان والاستغفار له وعَيْبِ أصحابِ علي، فأقام المغيرة علَى الكوفة وهو أحسنُ الناس سيرةً، غير أنه لا يَدَعُ شتم عليٍّ والوقوعَ فيه، والدعاءَ لعثمان والاستغفارَ له، فلما سمع ذلك حُجْر بن عَدِيّ قال: بل إياكم قد ذَمّ الله ولعن! ثم قام فقال: أنا أشهد أن من تذُمّون أحقُّ بالفضل، ومن تزكُّون أوْلَى بالذم! فيقول له المغيرة يا حُجْر اتقِ هذا السلطان وغضبه وسطْوَته، فإن غضب السلطانِ يُهلك أمثالك. ثم يكُفُّ عنه.

فلما كان في آخر إمارته قال في عليّ وعثمان ما كان يقول، فقام حُجر فصاح بالمغيرة صَيحة سمعها كلُّ من في المسجد، وقال له: «مُرْ لنا أيُّها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستَها عنا، وليس ذلك لك، وقد أصبحتَ مُولَعًا بذم أمير المؤمنين». فقام أكثر من ثُلُثَي الناس يقولون: صدق حُجر وبَرَّ، مُرْ لنا بأرزاقنا! فنزل المغيرة ودخل القصر، فجاءه أصحابه وقالوا: علامَ تتركُ هذا الرجل يجترىءُ علَيك في سلطانك؟ فقال لهم: «قد قتلته، سيأتي بعدي أمير يحسبه مثلي، فيصنعُ به ما تَرَوْنه، فيقتله، إني قد قَرُب أجَلي، ولا أحبُّ أن أقتل خيارَ أهلِ هذه المصر فيسعدُ وأشقى، ويعز في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة!» ثُمَّ تُوُفِّيَ المُغيرة[١].

ووُلِّيَ زياد، فقام في الناس فخطبهم عند قدومه فترحَّم على عثمان وأثنَى علَى أصحابه، ولعَن قاتِليه، فقام حُجْر ففعل كما كان يفعل بالمُغيرة.

ورجع زياد إلى البصرة، واستعمل علَى الكوفة عمرو بن حُرَيْث[٢] فبلغه أن حجرًا يجتمع إلَيه شِيعة عليٍّ رضي الله عنه، ويُظهرون لعنَ معاوية والبراءة منه، وأنهم حصبوا عمرو بن حُرَيث. فشخَص إلَى الكوفة، وصعِد المنبر فحمد الله وأثنى علَيه، وحُجْر جالس، ثم قال: «أمّا بَعْدُ، فإنَّ غِبَّ البَغْي والغَيِّ وَخِيمٌ، إن هؤلاء جَمُّوا فأَشِروا[٣]، وأمِنوني فاجْترؤوا علَى الله، لئن لم تَستقيموا لأُدَاوِيَنكم بدوائكم، ولستُ بشيء إن لم أمنعِ الكوفةَ من حُجْر وأدعْه نكالاً لمن بعده! وَيْل أمِّك يا حُجْر، سقط العشاءُ بك علَى سِرْحان[٤]!» وأرسل إلَى حُجْر يدعوه وهو في ناحية المسجد، فأتاه الرسول يدعوه إلَيه، فقال أصحابه: لا يأتيه ولا كرامة! فرجع الرسول فأخبر زيادًا، فأمر صاحب شُرْطته، وهو شَدّاد بن الهَيْثَم الهِلاليّ، أن يبعث إلَيه جماعة، ففعل، فسَبَّهم أصحاب حُجْر فرجعوا فأخبروا زيادًا.

---

(١) في رواية أن المغيرة توفي سنة ٥١هـ.

(٢) ابن عمرو بن عثمان المخزومي من قريش.

(٣) جموا: من الحجام وهو الراحة والأشر: بمعنى البصر.

(٤) من أسماء الذئب.

فجمع أهْلَ الكوفة وقال: «تشجُون بيَدٍ وتأسُون بأُخرَى[١]، أبدانكم معي وقلوبكم مع حُجْر الأحمق، هذا والله من دَحْسكم[٢]، واللّهِ لَتَظْهَرَنَّ لي براءتُكم، أو لآتِيَنَّكم بقوم أقيمُ بهم أودكم وصَعَركم»[٣]. فقالوا: معاذَ اللّهِ أن يكون لنا رأي إلاّ طاعتك وما فيه رضاك. قال: فلْيَقُم كلُّ رجل منكم فليدْعُ مَن عند حُجرْ من عشيرته وأهله. ففعلوا ذلك، وأقاموا أكثر أصحابه عنه.

وقال زيادٌ لصاحب شرطته: انطلِق إلَى حُجرْ فإن تبعك فأتِني به، وإلاّ فشُدّوا عليهم بالسيوف حتى تأتوني به. فأتاه صاحب الشرطة يدعوه، فمنعه أصحابه من إجابتهم، فحمل عليهم، فقال أبو العمْرّطَة الكِنْدِي لحجر: «إنه ليس معك من سيف غيري، وما يغني عنك سيفي؟ قمْ فالحق بأهلك يمنعْكَ قومُك». وزيادٌ ينظرُ إليهم وهو على المنبر، فغشِيَهم أصحاب زياد، وضرب رجل رأس عمرو بن الحَمق بعمود فوقع، وحمله أصحابه إلى الأزد فاختفى عندهم حتى خرج، وانحاز أصحاب حُجر إلى أبواب كندة، وضرب بعض الشُّرط يَدَ عائذ بن حملة التميمي وكسر نابه، فأخذ عمودًا من بعض الشُّرط فقاتل به، وحمى حُجرًا وأصحابه حتى خرجوا من أبواب كندة، وأُتِيَ حُجْر ببغلته فقال له أبو العمْرّطَة: اركبْ فقد قتلتنا ونفسك. وحمله حتى أركبه، وركب أبو العمرّطة فرسه، ولحقه يزيد بن طريف المُسْليّ فضرب أبا العمرّطة بالعمود على فخذه، وأخذ أبو العمرّطة سيفه فضرب به رأسه فسقط. فكان ذلك السيف أول سيف ضُرب به في الكوفة في اختلاف بين الناس.

ومضى حُجْر وأبو العمرّطَة إلى دار حُجر، واجتمع إليهما ناس كثير، ولم يأته من كندة كثيرٌ أحد، ثم اختفى حُجْر، وتنقَّل من مكان إلى آخر، والطلب خلفه، حتى أتى الأزْد، واختفى عند ربيعة بن ناجِد.

فلما أعياهم طلبه دعا زياد محمد بن الأشعث، وقال له: واللّهِ لَتَأتِيَنِّي به أو لأقْطَعَنَّ كل نخلة لك، وأهدِمُ دُورَك، ثم أقطعك إرْبًا إرْبًا، فاستمهله، فأمهله ثلاثًا، وأقام حُجر ببيتِ رَبِيعة يومًا وليلةً، فأرسل إلى محمد بن الأشعث يقول له: لِيأخذْ له أمانًا من زيادِ حتى يبعثَ به إلَى معاوية، فجمع محمد جماعة، منهم جَرير بن عبد الله، وحجر بن زيد، وعبد الله بن الحارث أخو الأشتر، فدخلوا على زياد فاستأمنوا له أن يرسله إلى معاوية فأجابهم، فأرسلوا إلى حُجر فحضر عند زياد، فلما

(١) أي تجرحون بيد وتعالجون بالأخرى. (٢) فساد سريرتكم.
(٣) الصعر: كناية عن التعالي والتكبر، وهو في الأصل إلفات الخد تهاونًا بالمنظور.

رآه قال: «مرحبًا أبا عبد الرحمٰن، حربٌ أيام الحرب، وحربٌ وقد سالم الناس! على أهلها تجني بَرَاقِش»[١]. فقال حجر: «ما خَلعْتُ طاعةً، ولا فارقت جماعةً، وإني على بيعتي». فأمر به إلى السجن، فلما وَلّى قال زياد: واللّهِ لأحرِّضَنَّ على قَطْع خَيْط رقبته. وطلب أصحابه.

فخرج عمرو بن الحمق حتّى أتى الموصل ومعه رفاعة بن شَدَّاد، فاختفيا بجبل هناك، فرُفع خبرهما إلى عامل الموصل، وهو عبد الرحمٰن بن عبد الله عثمان الثقفي، ويعرف بابن أُم الحكم وهو ابن أُخت معاوية؛ فسار إليهما فخرجا إليه، وكان عمرو قد اسْتَسْقَى بطنُه، فأُمسِك، وركب رِفاعةُ فرسه وحَملَ على القوم، فأفرجوا له، فنجا، وكتب عامل الموصل إلى معاوية بخبر عمرو بن الحمِق، فكتب إليه معاوية: «إنه يزعمُ أنه طعن عثمان تسع طعنات بمشَاقِص[٢] معه، فاطعنه كما طعن عثمان». فطعنه فمات في الأُولى منها أو الثانية.

وجدّ زيّاد في طلب أصحاب حُجر، فهربوا منه، وأخذ من قدر عليه منهم، فاجتمع له اثنا عشر رجلاً في السجن.

ثم دعا رؤساء الأرباع يومئذ، وهم عمرو بن حريث على ربْع أهل المدينة، وخالد بن عُرْفُطَة على ربع تميم وهَمْدَان، وقيس بن الوليد على ربع رَبيعة وكِندة، وأبو بُرْدَة بن أبي موسى على ربع مَذْحج وأسد، فشهد هؤلاء أن حُجر بن عدي جمع الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حربه، وزعم أن هذا الأمر لا يصلحُ إلا في آل أبي طالب، وأنه وَثَب بالمِصْر وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب والترحُّمَ عَلَيه والبراءة من عدوه وأهل حزبه، وشهدوا أن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤُوس أصحابه على مثل رأيه وأمره.

ونظر زيادٌ في شهادة الشهود فقال: إني أحب أن يكونوا أكثر من أربعة، فدعا الناسَ ليشهدوا فشهد إسحاق وموسى ابنا طلحة بن عبيد الله، والمنذر بن الزبير، وعُمارة بن عقبة بن أبي مُعَيط، وعمر بن سعد بن أبي وَقَّاص[٣] وغيرهم.

(١) راجع المثال برواية أخرى في مجمع الأمثال جـ٢ ص١٤ رقم ٢٤٧٢.

(٢) مفردها مشقص: وهو السهم بنصل عريض.

(٣) الذي أشهد الناس على أنه أول من رمى على الحسين سبط رسول الله ﷺ وأهل بيته بكربلاء.

وكتب في الشهود شُريْح بن الحارث القاضي وشُريْح بن هَانىء، فكان شُريح بن هانىء يقول: ما شهدت[١].

ثم دفع زيادُ حُجر بن عدي الكندي وأصحابه، وهم الأرْقَم بن عبد الله الكندي، وشريك بن شَدّاد الحضرمي، وصَيفي بن فَسِيل الشيباني، وقَبيصة بن ضُبيْعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي وعاصم بن عَوف البَجلي، وَورْقَاء بن سُمَي البَجَلي، وكدام بن حَيّان، وعبد الرحمٰن بن حسان؛ العنْزيان التميميان، ومحرز بن شهاب التميمي، وعبد الله بن حويّة السعدي التميمي، إلى وائل بن حُجْر الحضرمي وكثيْر بن شهاب، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام، فلحقهم شُريْح بن هَانِيء بعد مسيرهم، وأعطى وَائِلاً كتابًا وقال: أبلغْه أميرَ المؤمنين.

فساروا حتَّى انتهوا إلى مَرْج عَذْراء[٢] بالقرب من دِمشق، وأتبعهم زياد برجلين وهما عتبة بن الأخنس من سعد بن بكر، وسعد بن نمران الهمداني، فكملوا أربعة عشر رجلاً، فلما انتهوا إلى مرج عَذْراء بعث معاوية إلى وائل بن حُجر، وكثير بن شهاب فأدخلهما، وأخذ كتابهما فقرأه، ثم قرأ كتاب شُريْح فإذا فيه: «بلغني أن زيادًا كتب شهادتي، وإن شهادتي على حُجر أنه ممن يقيم الصلاة ويُؤْتي الزكاة ويديمُ الحج والعمرة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حرامُ الدمِ والمالِ، فإن شئت فاْقتله، وإن شئت فدعه».

فقال معاوية: ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم.

فقام يزيد بن أسَد البَجَلي فاْستوهبه اْبني عمه وهما عاصم ووَرْقاء.

وكان جرير بن عبد الله البَجَلي قد كتب بتزكيتهما وبراءتهما فأطلقهما معاوية، وشفع وائل بن حجر في الأرقم فتركه له، وشفع ابن الأعور السُّلَمي في عُتبة فتركه له، وشفع حُمرة[٣] بن مالك الهمداني في سعد بن تمران فوهبه له، وشفع حبيب بن مسلمة في عبد الله بن حوية فتركه له، وقام مالك بن هُبيرة السَّكوني، فقال: دع لي ابن عمي حُجرًا، فقال: «هو رأسُ القومِ، وأخاف إن خلّيتُ سبيله أن يفسدَ عليَّ

---

(١) راجع الطبري جـ٥ ص٢٧٢، وفي الثابت أن شريحًا القاضي شهد أن حجرًا بن عدي كان صوّامًا قوّامًا.

(٢) مرج عذراء: قرية بغوطة دمشق، أول قرية تلي الجبل الذي يشرف على الغوطة، فيها منارة، فتحها حجر بن عدي وبها قتله معاوية. راجع مادة عذراء في معجم ياقوت جـ٤ ص٩١.

(٣) ابن مالك بن ذي الشعار بن مالك بن منبه الهمداني.

مصره، فأحتاجَ أن أُشخصك إليه بالعراق!» فقال: «واللّهِ ما أنصفتني يا معاوية! قاتلتُ معك آبن عمك يوم صِفّين حتّى ظَفرتَ وعلا كَعْبك، ولم تخفِ الدوائر، ثم سألتُك آبن عمي فمنعتني إياه». ثم انصرف فجلس في بيته.

فبعث معاوية هُدْبة بن فياض القُضاعي، والحصين بن عبد الله الكلابي وأبا شريف البدّي إلى حُجْر وأصحابه؛ ليقتلوا من أُمروا بقتله، فأتَوْهم عند المساء، فلما رأى الخَثْعَمي[1] أحدهم أعور قال: يقتل نصفنا ويترك نصفنا! فكان كذلك، وعرضوا عليهم قبل القتل البراءةَ من عليٍّ ولَعْنَه ويتركوهم، فأمتنعوا من ذلك، فحفرت القبور وأحضرت الأكفان.

فقام حُجْر بن عدِيّ وأصحابه يصلُّون عامّة الليل، فلما كان من الغد قُدِّموا للقتل، فقال لهم حُجر: آتركوني حتى أتوضأ وأصلي فإني ما توضأْت إلاّ صلَّيْت. فتركوه، فصلّى ثم آنصرف، وقال: واللّهِ ما صلَّيْتُ صلاةً قطُّ أخفَّ منها، ولولا أن تظنوا بي جزعًا من الموت لأستكثرت منها. ثم قال: «اللهم إنا نستعديك على أُمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علَينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أمَا واللّهِ لَئن قتلتموني بها إنّي لأولُ فارسٍ من المسلمين هلك في واديها، وأولُ رجل من المسلمين نبحته كلابها»[2]. ثم مشى إليه هُدْبة بن فياض بالسيف، فأرتعد، فقالوا له: زعمت أنك لا تجزع من الموت فابرأ من صاحبك وندعك. فقال: «وما لي لا أجزعُ وأرى قبرًا محفورًا وكفنًا منشورًا وسيفًا مشهورًا. وإني والله إن جزعتُ من القتل لا أقول ما يُسخط الرب». فقتلوه وقتلوا خمسة[3].

فقال عبد الرحمٰن بن حسان وكريم الخثعمي: ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته. فاستأذنوا معاوية فيهما، فأذن بإحضارهما، فلما دخلوا عليه قال كَرِيم: «اللّهَ اللّهَ يا معاوية! فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بسفك دمائنا. فقال: ما تقول في عليٍّ؟ قال: أقول فيه قولك. قال: أتَبْرَأُ من دينه الذي يدينُ الله به؟ فسكت، وقام شَمر بن عبد الله من بني قحَافَة بن خَثْعَمْ، فاستوهبه إيّاه، فوهبه له علَى ألاّ يدخل الكوفة.

---

(١) كريم بن عفيف الخثعمي.

(٢) أراد أنه هو أول من فتحها ـ مرج عذراء، وأول المسلمين الذين قتلوا فيها.

(٣) والذين قتلوا مع حجر رحمه الله تعالى: شريك بن شداد الحضرمي، وصيفي بن مسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكدام بن حيان، ومحمد بن شهاب التميمي. رحمهم الله.

ثم قال لعبد الرحمٰن: ما تقول في عليٍّ يا أخا ربيعة؟ قال: دعني لا تسألني فهو خير لك. قال: والله لا أدعُك. قال: «أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرًا، من الآمرين بالحق والقائمين بالقِسط والعافين عن الناس رضي الله عنه». قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو أول من فتح أبواب الظلم، وغَلّق أبواب الحق. قال: قتلتَ نفسك. قال: بل إياك قتلتُ ولا ربيعة بالوادي، يعني ليشفعوا فيه، فردَّه إلى زياد وأمره أن يقتله شرَّ قِتْلة، فدفنه حيًّا(١).

وكان عدة من قتل سبعة وهم: حُجر بن عدي، وشريك بن شَدّاد، وصَيْفي بن فَسِيل، وقَبيصة بن ضُبَيْعة، ومحرز بن شهاب، وكدام بن حيان، وعبد الرحمٰن بن حسّان الذي دُفِن حيًّا.

قال: وأما مالك بن هُبَيْرة السَكُوني حين لم يُشَفِّعْه معاوية في حُجر، فإنه جمع قومه وسار بهم إلى عذْراء ليخلِّص حجرًا وأصحابه، فلقيه قتَلَتُهم، فلما رأوه علموا أنه جاء ليخلِّص حُجرًا، فقال لهم: ما وراءكم؟ قالوا: قد تاب القومُ وجئنا لنخبرَ أمير المؤمنين. فسكت وسار إلى عذراء فلقيه بعض من جاء منها فأخبره بقتل القوم، فأرسل الخيلَ في قتَلَتهم فلم يدركوهم. ودخلوا على معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنما هي حرارةٌ يجدها في نفسه، فكأنها قد طَفِئت. وعاد مالك إلى بيته ولم يأْتِ معاوية، فلما كان الليل أرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم، وقال: «ما منعني أن أُشَفِّعك إلاّ خوف أن تُعيدوا لنا حرْبًا، فيكون في ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظمُ من قتل حُجر». فأخذها وطابت نفسه.

قال: ولما بلغ الحسنَ البصريّ قتلُ حُجر وأصحابه قال: أصَلّوا عليهم وكفنوهم ودفنوهم واستقبلوا بهم القبلة؟ قالوا: نعم. قال: حَجوهم وربِّ الكعبة!»(٢).

قال: ولمّا بلغ خبَرُ حُجر عائشة رضي الله عنها، أرسلتْ عبد الرحمٰن بن الحارث إلى معاوية فيه وفي أصحابه، فقدم علَيه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمٰن: أين غابَ عنك حلمُ أبي سفيان؟ قال: «حين غاب عنّي مِثْلُك من حُلَماء قومي، وحمّلني ابن سُمَيَّة فاحتملت!».

---

(١) فيكون مجموع الذين قتلوا مع حجر بن عدي سبعة رحمهم الله تعالى.

(٢) راجع النص في الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٤٨٦، وأما ما أراده الحسن البصري فمداه أن حجر وأصحابه رحمهم الله غلبوا قتلتهم بالبينة، لأن قتلتهم بعد أن كفنوهم واستقبلوا بهم القبلة قد صدعوا بإسلامهم، ندم المسلم حرام.

وقالت عائشة: «لولا أنّا لم نُغيِّر شيئًا إلا صارت بنا الأُمور إلى ما هو أشدُّ منه لغيّرنا قَتل حُجر! أما واللّهِ إنْ كان ما علِمْتُ لمسلمًا حجَّاجًا مُعْتمرًا!».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «أربعُ خصال كُنَّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلاَّ واحدةٌ منهن لكانت مُوبِقةً: انْتِزاؤه[١] علَى هذه الأُمَّة بالسيف، حتى أخذ الأمر عن غير مَشُورة، وفيهم بقايا الصحابة وذَوو الفضيلة، واستخلافه ابْنَه بعده سِكِّيرًا خِمِّيرًا يلبسُ الحرير ويضرب بالطَّنابير، وادِّعاؤه زيادًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولدُ للفراش وللعاهر الحَجر» وقتْلهُ حُجْرًا وأصحابَ حُجْر، فيا وَيْلاً له من حُجر وأصحابِ حُجْر!».

قيل: وكان الناس يقولون: أول ذُلٍّ دخل الكوفة موت الحسن بن علي، وقتل حُجرْ بن عدِيّ، ودعوة زياد.

وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حُجرًا وكانت تتشيع: [من الوافر]

تَرَفَّع أيّها القمرُ المُنيرُ ... تبَصَّرْ هَلْ ترى حُجْرًا يَسيرُ
يَسيرُ إلى مُعاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ ... لِيَقْتُلَه كما زَعَم الأميرُ
تَجَبَّرتِ الجَبابرُ بعد حُجْر ... وطابَ لها الخَوَرْنَقُ والسَّديرُ[٢]
وأصبحت البلادُ له مُحُولاً[٣] ... كأن لم يُحْيِها مُزْنٌ[٤] مَطير
ألا يا حُجْر حُجْرُ بَنِي عَدِيٍّ ... تَلَقَّتْك السلامةُ والسرورُ
أخافُ عليك ما أرْدَى عَدِيّا ... وشَيْخًا في دِمَشْقَ له زَئيرُ
فإن يَهْلِكْ فكل زَعيمِ قَوْمٍ ... مِن الدنيا إلى هُلْكٍ يَصيرُ

وقد قيل في قَتل حُجر غير ما تقدم، وهو أن زيادًا خطب يوم جُمعة فأطال الخطبة وأخَّر الصلاة، فقال له حُجر بن عدي: الصلاة. فمضى في خطبته فقال له: الصلاة. فمضى في خطبته، فلما خَشِي حُجر فَوْتَ الصلاة ضرب بيده إلى كَفٍّ من حصى، وقال إلى الصلاة وقام الناس معه، فلما رأى زيادٌ ذلك نزل فصلّى بالناس، وكتب إلى معاوية وكبر[٥] عليه، فكتب إليه معاوية ليشُدَّه في الحديد ويرسله إليْه،

---

(١) توثبه.
(٢) الخورنق والسدير قصران بناحية الحيرة، وأرادت أن قاتليه قد طاب لهم بعده سكنى القصور فليس من يذكرهم قول الله تعالى.
(٣) المحل: القحط والجفاف.
(٤) مفردها مزنة وهي الغيمة الماطرة.
(٥) أي جعله أكبر مما هو عليه.

فلمَّا أراد أخْذَهُ قام قومه ليمنعوه، فقال حجر: لا ولكن سمعًا وطاعة. فشُدّ في الحديد، وحُمل إلَى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: «أأميرُ المؤمنين أنا؟ والله لأقتلنَّك ولا أستقيلك! أخرجوه فاضربوا عنقه!». فقال حُجر للذين يَلُونَ أمره: دعوني حتى أُصلّي ركعتين. فقالوا: فصلَّى ركعتين خَفَّفَ فيهما ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أردت لأطلتهما، وقال لمن حضره من قومه: لا تطلقوا عني حديدًا ولا تغسلوا عني دمًا، فإني مُلاَقٍ معاوية غدًا على الجَادَّة[1]!». وضربت عنقه.. قال: فلقيتْ عائشة مُعاوية فقالت: أين كان حِلمك عن حُجر؟ فقال: لم يحضرني رُشْدٌ! وقال ابن سيرين: بلغنا أنَّ معاوية لما حضرتْه الوفاةُ جعل يقول: يومي منك يا حُجْرُ طويل!.

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية.

سنة اثنتين وخمسين:

كان فيها من الغزاة وأمر الخوارج ما قدمنا ذكره.

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

سنة ثلاث وخمسين:

في هذه السنة توفي عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، على أحد الأقوال، وقيل بعد ذلك.

ذكر وفاة زياد ابن أبيه

كانت وفاته بالكوفة يوم الثلاثاء لأربع خَلَوْن من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين، واختلف في مولده، فقيل: ولد عام الهجرة، وقيل: قبل الهجرة، وقيل: ولد يوم بدر. وقال المدائني: ولد عام التاريخ.

وكان يكنى «أبا المغيرة» حكاه أبو عمر قال: وليست له صحبة ولا رواية، قال: وكان رجلاً عاقلاً في دنياه، داهية، خطيبًا، له قدر وجلالة عند أهل الدنيا[2].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: وكان زياد كتب إلى معاوية: «إني قد ضبطتُ لك العراق بشمالي، ويميني فارغة، فاشغلها بالحجاز» ففعل. فلما بلغ ذلك أهلَ الحجاز أتى نفرٌ منهم عبدَ الله بن عمر بن الخطاب! فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله

---

(١) أراد الصراط يوم الحساب.

(٢) راجع الاستيعاب جا ص٥٦٧.

عليه يكفيكموه. فاستقبل القبلة واستقبلوها، فدعوا ودعا، وكان من دعائه أنْ قال: اللهم اكْفِنَا يمينَ زياد! فخرجت طاعونة على إصبع يمينه، فمات منها[١].

فلما حضرته الوفاةُ دعا شُرَيْحًا القاضي فقال: قد حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها فأشرْ عَلَي. فقال شريح: إني أخشى أن يكون الأجَل قد دنا فتلقَى الله أجْذم[٢]، وقد قطعت يدك كراهية لقائه، أو أن يكون في الأجل تأْخير، فتعيشُ أجْذَم ويُعَيَّر ولدُك» فقال: لا أبيتُ والطاعونَ في سِجَاف[٣] واحد، وخرج شُريح من عنده فسأله الناس، فأخبرهم فلاموه، وقالوا: هلا أشرت بقطِّها؟ فقال: «المستشار مؤتمن»[٤]. وقيل أراد زياد قطعها، فلمّا رأى النار والمكَاوِيَ جزِع وتركها وقيل: تركها لما أشار عليه شُريْح.

ولمّا حضرته الوفاةُ قال له ابنه: هلاَّ هيأْتُ لك ستين ثوبًا أكفنك بها، فقال: يا بُنيَّ قد دنا من أبيك لباسٌ خيرٌ من لباسه أو سلبٌ سريع! فمات ودفن بالثُّوَيَّة[٥] إلى جانب الكوفة، وهو موضع فيه مقبرة الكوفة.

فلما بلغ موته ابن عمر قال: «اذهبْ ابن سُميَّة! لا الآخرةَ أدركتَ، ولا الدنيا أبقيت عليك!».

قال: وكان زيادٌ فيه حمرة، وفي عينه اليمنى انكسار، أبيض اللحية مخروطها، عليه قميص ربما رقَّعه.

وفيها مات الربيع بن زياد الحارثي عامل خراسان قبل وفاة زياد، وكان سبب موته أنه سخط قتْل حُجر بن عدي، حتى إنه قال: «لا تزال العربُ تُقتل بعده صَبْرًا! ولو نَفَرتْ عند قتله لم يُقتل رجلٌ منهم صَبْرًا، ولكنها أقرّتْ فذَلَّت!» ثم مكث بعد هذا الكلام جمعة، ثم خرج يوم الجمعة فقال: «أيها الناس، إني قد مِلِلْتُ الحياة، وإنّي داعٍ بدَعْوة فأمِّنوا». ثم رفع يدَيْه بعد الصلاة فقال: اللهمَّ إن كان لي عندك خَير فاقبضْني إليك عاجلًا! وأمِّنِ الناس، ثم خرج، فما توارت ثيابه حتى سقط، وحُمل إلى بيته، واستخلف ابنه عبد الله، ومات من يومه، ثم مات ابنه بعده بشهرين،

(١) راجع الطبري في تاريخه جـ٤ ص٢١٤.
(٢) الجذام مرض طاعن في الأطراف فتهزله.
(٣) الغطاء والسجاف بمعنى.
(٤) موضع قريب من الكوفة، وقيل خربة إلى جانب الحيرة. راجع ياقوت جـ٢ ص٨٧.
(٥) راجعه باختلاف عند ابن الأثير جـ٣ ص٤٩٥.

واستخلف خُلَيد بن يَرْبُوع الحَنفي، فأقرّه زياد، ولما مات زياد كان على البصرة سَمُرة بن جُندب، وعلى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسِيد، فأقرَّ معاوية سَمُرةَ على البصرة ثمانية عشر شهرًا، وقيل ستة أشهر ثم عزله، فقال سمرة: «لعن الله معاوية! والله لو أطعت الله كما أطعته ما عذبني أبدًا!».

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص.

سنة أربع وخمسين:

ذكر عزل سعيد بن العاص عن المدينة واستعمال مروان

في هذه السنة عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل مروان بن الحَكَم.

وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدمَ دار مَرْوان، ويقبضَ أمواله كلَّها فيجعلَها صافية[1] ويقبض منه فَدك، وكان وهبها له، فراجعه سعيد في ذلك، فأعاد معاوية الكتاب بذلك، فلم يفعل سعيد، ووضع الكتابين عنده، فعزله معاوية وولّى مروان، وكتب إليه يأمره بقبض أموالِ سعيد وهدم داره فأخذ الفَعَلَةَ وسار إلى دار سعيد ليهدمَها، فقال له سعيد: يا أبا عبد الملك أتهدمُ داري؟ قال: نعم كتب إليّ أمير المؤمنين ولو كتب إليك في هدم داري لفعلت. فقال: ما كنت لأفعل، قال: بَلَى والله قال: كلاً. وقال سعيد لغلامه: ائتني بكتابَيْ معاوية، فجاء بالكتابين، فلما رآهما مروان قال: كتبَ إليك فلم تفْعل، ولم تُعلمني! فقال سعيد: ما كنت لأمُنَّ عليك وإنما أراد معاوية ليحرِّضَ بيننا! فقال مروان: واللّهِ أنت خيرٌ مني! وعاد ولم يهدم داره.

وكتب سعيد إلى معاوية: «العجبُ لما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا، إنه يُضغن بعضنا على بعض، فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخبثين وعفوه، وإدخالِه القطيعةَ بيننا والشَّحْناء، وتوارثَ الأولادِ ذلك، فوالله لو لم نكن بني أب واحد إلاّ لما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، وباجتماع كلمتنا لكان حقًّا عليك أن ترعى ذلك!» فكتب إليه معاوية يعتذر من ذلك ويتنصّل، وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده.

---

(١) في الأصل أن يؤخذ من الحال الحقوق الشرعية.

وقدم سعيد على معاوية فسأله عن مروان فأثنى عليه خيرًا.

وفي هذه السنة عزل معاوية سَمُرة بن جُنْدب عن البصرة، واستعمل عليها عبد الله بن عمرو بن غَيْلان ستة أشهر.

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على خراسان ومسيره إلى جبال بُخارَى

وفي هذه السنة استعمل معاوية عُبَيْد الله بن زياد على خُراسان وسبب ذلك أنه قدِم علَيه بعد وفاة أبيه، فسأله معاوية عن عُمال أبيه، فأخبره بهم، فقال: لو استعملك أبوك لاستعملتك. فقال عبيد الله: أنْشُدُك الله أن يقولها لي أحد بعدك «لو استعملك أبوك وعمُّك استعملتك». فولاه خُراسان وكان عمره خمسًا وعشرين سنة.

فسار إليها، وقطع النهر إلى جبال بُخارَى على الإبل، فكان أوّلَ من قطع جبال بُخارَى في جَيش، ففتح رَامَنِي[1] ونَسَف[2] وبِيكَنْد[3]، وهي من بُخارَى، ومن ثَمَّ أصاب البُخارية وغنم منهم غنائمَ كثيرة، ولما لَقِيَ الترك وهزمهم، كان مع ملكهم زوجته، فأعجلوها عن لبس خفيها، فلبست أحدهما وبقي الآخر، فأخذه المسلمون فقُوِّم بمائتي ألف درهم. وظهر منه بأس شديد.

وحجّ بالنّاس في هذه السنة مَرْوَان بن الحكم وكان على المدينة وكان على الكوفة عبد الله بن خالد، وقيل: الضحاك بن قيس وعلى البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان، والله أعلم.

سنة خمس وخمسين:

ذكر ولاية عبيد الله بن زياد على البصرة

في هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة، وولاَّها عُبيد الله بن زياد.

وسبب ذلك أن عبد الله خطب على منبر البصرة، فحصبه رجل من بني ضَبّة،

(١) رَامَني: قرية على فرسخين من بخارى. راجع ياقوت جـ٣ ص١٧.

(٢) نَسَف: مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند، قريبة من بخارى وبلخ. راجع معجم البلدان جـ٥ ص٢٨٥.

(٣) بِيكَند: بلدة بين بخارى وجيحون. راجع ياقوت جـ١ ص٥٣٣.

فقطع يده، فأتاه بنو ضَبّة وقالوا: «إن صاحبنا جَنَى ما جنَى وقد عاقبته، ولا نأْمَنُ أن يبلغَ خبره أمير المؤمنين فيعاقِب عُقوبةً تَعُمُّ، فاكتبْ لنا كتابًا إلى أمير المؤمنين، يخرج به أحدنا إليه، تخبره أنك قطعته على شُبْهَة وأمرٍ لم يصحّ» فكتب لهم، فلما كان رأس السنة توجّه عبد الله إلى معاوية، ووَافاه الضَبيّون بالكتاب، وادّعوْا أنه قطع صاحبهم ظلمًا، فلما رأى معاوية الكتاب قال: «أمّا القَوَدُ من عُمَّالي فلا سبيلَ إليه، ولكنّي أدي صاحِبَكم من بيت المال». وعزل عبدَ الله عن البصرة، واستعمل ابن زياد عليها، فولى ابنُ زياد على خُراسان أسلمَ بن زرعة الكلابي.

وفيها عزل معاوية عبد الله بن خالد عن الكوفة، وولاَّها الضحاك بن قيس، وقيل: كان قبل ذلك كما تقدم.

وحجّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحَكم وهو أمير المدينة.

سنة ست وخمسين:

ذكر البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد

في هذه السنة بايعَ الناسُ يزيد بن معاوية بولاية العهد، قال: وكان ابتداءُ ذلك وأوّلُه أن مُعاوية لمّا أراد أن يعزلَ المغيرة بن شعبة عن الكوفة، ويستعملَ سَعيد بن العاص عليها، فبلغه ذلك، فشخص إلى معاوية ليستعفيه حتّى تظهرَ للناس كراهيتُه للولاية، فجاء إلى يزيد وقال له: «إنه قد ذهب أعيانُ أصحابِ النبي ﷺ وكبَراءُ قريش، وإنَّما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم، وأحسنهم رَأْيًا، وأعلمِهم بالسياسة، وإني لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقِد لك البيعة». قال: أوَترى ذلك يتمُّ؟ قال: نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المُغِيرة، فلما حضر المغيرة عند مُعاوية قال له معاوية: ما يقولُ يزيد؟ فقال: «يا أمير المؤمنين قد رأيتَ ما كان من سفك الدماء، والاختلافِ بعد عُثمان، وفي يزيدَ مِنك خلَفٌ، فاعقدْ البيعةَ له، فإنْ حَدث بك حدَثٌ كان كَهفًا للناس، ولا تُسْفَكُ الدماءُ ولا تكونُ فتنةٌ، قال: ومن لي بهذا؟ قال: «أنا أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زيادٌ أهل البصرة وليس بعد هذين المِصْرَيْن من يخالفك». قال: «فارجعْ إلى عملك وتحدث مع من تثقُ إليه في ذلك وترَى ونَرَى»[1]. فودّعه ورجع إلى أصحابه فقال: لقد وضعت رجْلَ معاوية في غَرْز[2] بعيد الغاية على أمة محمد ﷺ.

(١) انظر الكامل في التاريخ جـ٣ ص٥٠٣. (٢) ركاب كل مركوب من خيل ونياق.

ورجع المغيرة، فلمّا قدم الكوفة ذاكر من يثقُ إليه من شِيعة معاوية فأجابوا إلى بَيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر، وأعطاهم ثلاثين ألف درهم، وجعل عليهم ابنه موسى، فقدموا علَى معاوية وزينوا له بَيْعة يزيد، ودعَوْه إلى عَقْدها، فقال: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم، ثم قال لموسى، بكم اشترى أبوك مِنْ هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفًا. فقال: لقد هان علَيهم دِينَهمْ.

وقيل: أرسل أربعين رجلاً، وجعل عليهم ابْنه عُرْوَة بن المغيرة، فلما دخلوا على معاوية قاموا خطباء فقالوا: إنما أشخصنا إليك النظر لأُمة محمد ﷺ. وقالوا: «يا أميرَ المؤمنين، كبرتْ سنُّك، وخفْنا انتشار الحبل[1]، فانصب لنا علَمًا وحُدَّ لنا حَدًّا ننتهي إليه». فقال أشيروا عليَّ. فقالوا: نشير بيزيد ابن أمير المؤمنين، فقال: أوَ قد رضِيتموه؟ قالوا: نعم، قال: وذاكَ رأْيكم؟ قالوا: نَعَمْ ورأْيُ مَن ورَاءَنَا. فقال معاوية لعُروَة سِرًّا عنهم: بكم اشترى أبوكَ مِن هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة دينار. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصًا، وقال لهم: «ننظرُ ما قدمتم له، ويقضي الله تعالى ما أراد، والأناةُ خيرٌ من العجلة». فرجعوا وقد قَوِيَ عزم معاوية على البَيعة ليزيد.

ذكر مراسلة معاوية زيادًا في شأن البيعة وما دار بين زياد وبين عُبَيْد بن كعب النُمَيْري من الرأْي وما اتفقا عليه

قال: ولمّا قوِيَ عزم مُعاوية علَى البَيعة ليزيد، كتب إلى زياد ابن أبيه يستشيره، وزياد إذ ذاكَ يلي البصرة، فلما ورد عليه كتاب معاوية أحضر عبيد بن كعب النميري وقال له: «إن لكلِّ مستشير ثِقَة، ولكل سِرّ مُستَوْدَع، وإن الناس قد أبْدعَ[2] بهم خَصلتان: إذاعةُ السر وإخراجُ النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضعُ السر إلاَّ أحد رجلَين: رجلُ آخرةٍ يرجو ثوابًا، ورجلُ دنيا له شرفٌ في نفسه وعقلٌ يصون حَسَبه، وقد خَبَرتهما منك، وقد دعوتكَ إلَى أمر أبهمت عليه بطونُ الصحف، إن أميرَ المؤمنين كتب إليَّ يستشيرني في كذا وكذا، وإنه يتخوّفُ نفرةَ الناس ويرجو طاعتَهم، وعلاقةُ أمرِ الإسلام وضمانِه عظيمٌ، ويزيدُ صاحبُ رَسْلة[3] وتهاوُن، مع ما قد أولِع به من حُبِّ الصيد فالْقَ أميرَ المؤمنين وأدِّ إلَيه عنِّي فَعَلاتِ يزيد، وقل له رُوَيْدَكَ بالأمر

(١) أراد تبعثره.
(٢) أراد سرى واستشرى.
(٣) أي التارك الأمور على رسلها.

وأحرى أن يتمَّ لك، ولا تعجّلْ فإن دَرَكًا في تأخيرٍ خيرٌ من فَوْت في عجلة». فقال له عبيد: أفلا غير هذا؟ قال: وما هو؟ قال: «لا تُفسدْ علَى معاوية رأْيَه، ولا تُبغِّض إليه ابنه، وألقى أنا يزيد وأُخبره أن أمير المؤمنين كتب إلَيك يستشيرك في البيعة له، وأنك تتخوّفُ خلافَ الناس، لهنَاتٍ ينقمونها علَيه، وأنك ترى له ترك ما يُنْقَمُ علَيه؛ لتستحكمَ له الحجّةُ على الناس ويَتمَّ ما يريد، فتكون قد نصحتَ أمير المؤمنين، وسلمْتَ مما يخافُ من أمر الناس». فقال زياد: «لقد رميت الأمرَ بحجره! اشْخَصْ علَى بركة الله، فإن أصبْت فما لا ينكرُ، وإن يكن خطأ فغير مستغَشٍّ، ونقول ما ترى ويقضي الله بغيب ما يعلم[١].

فقدِم عبيد على يزيد، فذكر ذلك له، فكَفَّ عن كثير مما كان يصنعُ.

وكتب زياد إلى معاوية يشير عليه بالتُّؤدة وألاّ يعجلَ. فتأخر الأمر حتَّى مات زياد ثم عزم معاوية على البيعة.

ذكر إرسال معاوية إلى مروان بن الحكم وأمر البيْعة وإنكار أهل المدينة ذلك وما وقع بسببه

قال: ولما عزم معاويةُ على البيعة ليزيد أرسل إلى عبد الله بن عمر بمائة ألف درْهم، فقبلها، فلما ذكر البيعة ليزيد قال ابن عمر رضي الله عنه: «هذا أراد؟ إن ديني إذًا عندي لرخيصٌ!» وامتنع.

ثم كتب معاوية بعد ذلك إلَى مَرْوانِ بن الحكم، وهو علَى المدينة يومئذ، يقول: «إني قد كبِرَت سِنِّي، ورقَّ عظمي، وخشيتُ الاختلافَ على الأَمة بعدي، وقد رأيت أنْ أتخيرَ لهم من يقومُ بعدي، وكرهت أن أقطعَ أمرًا دون مشورةِ مَنْ عندك، فاعْرِضْ ذلك عليهم، وأعلمني بالذي يردُّون عليك».

فقام مروان في الناس وأخبرهم، فقال الناس: أصاب ووُفِّق، وقد أحببنا أن يتخيّر لنا فلا يألو[٢]. فكتب مَرْوان إلى معاوية بذلك، فأعاد عليه الجواب بذكر يزيد، فقام مروان في الناس فقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يألُ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده.

فقام عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقال: «كذبتَ والله يا

---

(١) راجع النص بزيادة عند ابن الأثير جـ٣ ص٥٠٥.

(٢) يقصر.

مروان، وكذب معاوية، ما الخِيَارُ أردتما لأُمّة محمد ﷺ، ولكنكم أردتم أن تجعلوها هِرَقْلِيّة، كلما مات هِرَقْل قام هرقل!». فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] الآية. فسمعتْ عائشة رضي الله عنها مقالته، فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان! فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه، فقالت: «إن القائلَ لعبد الرحمٰن إنه نزل فيه القرآن كذب، والله ما هو فيه، ولكنه فلان ابن فلان، ولكنك أنت فَضَضٌ[1] من لعنة نبي الله عليه الصلاة والسلام».

وقام الحسين بن علي رضي الله عنهما فأنكر ذلك، وفعل مثله عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأوجب ذلك مسيره إلى الحجاز بعد أن أخذ بيعة أهل العراق والشام!.

ذكر من وفد إلى معاوية من أهل الأمصار في شأن البيعة. وما تكلم به بعضهم وبيعة أهل العراق والشام ليزيد

قال: وكان معاوية قد كتب إلى عمَّاله بتقريظ يزيد ووصفه، وأن يُوفدوا إليه الوفودَ من الأمصار، فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة، والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية: إن كلَّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته فانظرْ مَن تُولِّي أمر أمة محمد ﷺ، فأخذ معاوية يهتزُ حتى جعلَ يتنفَّس في يوم شاتٍ، ثم وَصَله وصرفه[2].

وأمر معاويةُ الأحنفَ بن قيس أن يدخلَ على يزيد فدخل عليه، فلما خرج من عنده قال له: كيف رأيت ابن أخيك؟ قال: رأيت شبابًا ونشاطًا وجلدًا ومزاحًا.

ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري[3] لما اجتمع الوفود عنده: إني

---

(١) فضض: بقية. ويذكر أن رسول الله ﷺ رأى الحكم بن أبي العاص يقود الناقة ومروان يسرقها، فقال: لعن الله القائد والسائق. وكان رسول الله ﷺ قد طرد الحكم وكان معه ابنه مروان طفلاً إلى الطائف وعثمان أعاده في خلافته، مخالفًا بذلك كلاً من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) النص باختلاف عند ابن عبد ربه في العقد الفريد جـ٤ ص٣٦٩.

(٣) ابن خالد الفهري القرشي، كنيته أبو أمية، شهد صفين مع معاوية فولاه الكوفة بعد موت زياد، ثم تولى دمشق وصلى على معاوية يوم دفنه. وقد دعا ببيعة ابن الزبير عندما خلع معاوية بن يزيد نفسه. وقد قتل في مرج راهط سنة ٦٥هـ بعد استتباب الأمر لمروان بن الحكم. راجع الامل في حوادث سنة ٦٤هـ، جـ٤ ص١٢٣ وما بعدها.

متكلم فإذا سكتُّ فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثني عليها، فلما جلس معاوية للناس تكلّم فعظّم أمر الإسلام وحرمةَ الخلافةِ وحقَّها، وما أمر الله تعالى به من طاعة ولاةِ الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة، وعرض ببيعته.

فعارضه الضحاك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أميرَ المؤمنين، إنه لا بد للناس من والٍ بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقنُ للدماء، وأصلحُ للدهماء[1]، وآمنُ للسبيل، وخيرًا في العافية، والأيام عوج[2] رواجع، واللّهِ كل يوم في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هَدْيه وقَصْد[3] سيرته على ما علمت، وهو من أفضلنا علمًا وحلمًا، وأبعدنا رأيًا، فولّه عهدك، واجعله لنا علَمًا بعدك، ومَفْزَعًا نلجأُ إليه ونسكنُ إلى ظله». . وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك.

ثم قام يزيد بن المقنّع العُذْريّ فقال: هذا أميرُ المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبَى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال معاوية: اجلس فأنت سيّد الخطباء.

وتكلم من حضر من الوفود، فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال: «نخافكم إن صدقنا، ونخافُ الله إن كذَبْنا، وأنت يا أميرُ المؤمنين أعلم بيزيد في ليْله ونهاره، وسرِّه وعلانيته ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى ولهذه الأُمة رضًى فلا تُشاور فيه، وإن كنت تعلمُ منه غير ذلك فلا تزوِّده الدنيا، وأنت صائرٌ إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقولَ: سمعنا وأطعنا». . وقام رجل من أهل الشام فقال: «ما ندري ما تقول هذه المَعَدِّيَّة[4] العراقية، وإنما عندنا سمعٌ وطاعةٌ وضربٌ وازْدلاف[5]».

فافترق الناس يحكون قول الأحنف.

قال: وكان معاوية يعطي المُقارِب، ويُدَارِي المباعد ويلْطُف به، حتى استوثق له أكثر الناس، وبايعوه، فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز.

ذكر مسير معاوية إلى الحجاز وكيف أخذ البيعة ليزيد على أهل الحجاز

قال: وفي هذه السنة اعتمر معاوية في شهر رجب، وسار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي رضي الله عنهما أول الناس، فلما

(١) الدهماء: عامة الناس وجماعتهم.
(٢) أراد الأيام في تبدل.
(٣) القصد: الاستقامة.
(٤) نسبة إلى معد بن عدنان.
(٥) المقارنة والطعان.

نظر إليه معاوية قال: «لا مرحبًا ولا أهلًا! بَدَنَةٌ[١] يترَقْرَق دمها واللّهُ مُهريقُه!»[٢] قال: مهلاً فإني لست بأهلٍ لهذه المقالة. قال: بلَى ولشَرٌّ منها.

ثم لقيه عبد الله بن الزُّبير فقال له: «لا مرحبًا ولا أهلًا! خَبٌّ[٣] ضَبٌّ، تَلْعَة[٤] يُدخل رأسه فيضرب بذَنَبه، ويوشك واللّهِ أن يؤخذَ بذَنَبه ويُدَقَّ ظهره، نحِّياهُ عني» فضرب وجه راحلته.

ثم لقيه عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق فقال له معاوية: «لا مَرْحبًا ولا أهلاً! شيخٌ قد خَرِف وذهب عقله» ثم أمر بضرب وجه راحلته: ثم فعل بابن عمر نحو ذلك.

فأقبلوا معه لا يلتفتُ إليهم حتّى دخل المدينة، فحضروا بابه فلم يؤذَن لهم على منازلهم، ولم يَرَوْا منه ما يحبون، فخرجوا إلى مكة، فأقاموا بها.

وخطب معاوية بالمدينة، فذكر يزيد فمدحه، وقال: «من أحقُّ منه بالخلافة في فضله وعقله؟ وموضعه؟ وما أظن قومًا بمنتهين حتى يصيبهم بَوَائقَ[٥] تجتَثُّ أصولهم، ولقد أنذرتُ إن أغنت النُّذُرُ» ثم أنشأ متمثلاً: [من الرجز]

قَدْ كنتُ حذَّرْتُك آل المصطلِق ... وقلتُ يا عمرُو أطعْني وانْطَلِقْ
إنَّك إن كلَّفْتَني ما لم أُطِقْ ... ساءَك ما سرَّك منّي مِنْ خُلُقْ
دُونَك ما اسْتَسْقَيْتَه ... فَاحْسُ[٦] وذُقْ

ثم دخل على عائشةَ رضي الله عنها وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه، فقال: «لأقتلنهم إن لم يبايعوا» فشكاهم إليها، فوعظته عائشة وقالت: بلغني أنك تتهدَّدهم بالقتل، فقال: «يا أُمَّ المؤمنين، هم أعزُّ من ذلك، ولكني بايعتُ ليزيد، وبايعه غيرهم، أفَتَريْنَ أن أنقضَ بيعةً قد تمَّتْ؟» قالت: فارفقْ بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحبُّ إن شاء الله. قال: أفعلُ. وكان في قولها له: ما يؤمنُك أن أقعدَ لك رجلاً يقتلُك وقد فعلت بأخي ما فعلت؟ تعني محمدًا فقال لها: كَلاَّ يا أُمَّ المؤمنين إني في بيت أمن. قالت: أجَلْ.

(١) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك كانوا يسمنونها.
(٢) تأمّل قوله للسبط ابن البضعة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.
(٣) مخادع.
(٤) الطويل العنق، وأراد الطويل الأنف كناية عن تدخله فيما لا يعنيه.
(٥) مصائب.
(٦) الحسو: الشرب.

ومكث معاوية بالمدينة ما شاء الله، ثم خرج إلى مكة، فلقيه الناس، فقال أُولئك النفر: نتلقَّاه لعله قد ندم على ما كان منه، فلقوه في بطن مَرّ[١]، فكان أول من لقيه الحسين رضي الله عنه، فقال له معاوية: مرحبًا وأهلاً بابن رسول الله وسيِّد شَبَاب المسلمين. وأمر له بدابّة وركبِ وسايره، ثم فعل بالباقين مثل ذلك، وأقبل يسايرهم ولا يسيرُ معه غيرهم حتى دخل مكة، فكانوا أول داخلٍ عليه وآخرَ خارجٍ، ولا يمضي يومٌ إلا ولهم منه صلة، ولا يذكر لهم شيئًا، حتَّى قضى نسُكَه وحملَ أثقاله وقرب مَسيره، فقال بعضهم لبعضٍ: «لا تُخدعوا فما صنعَ هذا لحبّكم، وما صنعه إلا لما يريدُ أن يفعلَ، فأعدوا له جوابًا» فاتفقوا على أن يكون المخاطب له عبد الله بن الزبير.

فأحضرهم معاوية وقال: «قد علمتم سيرتي فيكم، وصِلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم، ويزيدُ أخوكم وابنُ عمكم، وأردتُ أن تقدِّموه باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تُولُّونَ وتعزلون وتؤمِّرون، وتَجْبُون المال وتقسمونه، ولا يعارضكم في شيءٍ من ذلك» فسكتوا، فقال: ألا تُجِيبون؟ مرّتين.

ثم أقبل على عبد الله بن الزبير ثم قال: هاتِ فلَعَمري إنك خطيبُهم. قال: نعم، نخيّرك بين ثلاث خصال. قال: اعْرِضْهُنَّ. قال: تصنعُ كما صنع رسول الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر رضي الله عنهما، قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قُبِض رسول الله ﷺ ولم يستخلفْ أحدًا، فارتضَى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخافُ الاختلاف. قالوا: «صدقتَ فاصنعْ كما صنع أبو بكر، فإنه عَمَد إلَى رجل من قاصية قريش ليس من بني تيم[٢] فاستخلفه، أو كما صنع عمر، جعل الأمر شُورَى في ستة نفر، ليس فيهم أحدٌ من ولده ولا من بني أبيه». قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، قال: فأنتم؟ قالوا: قَوْلُنا قوله، قال: «فإني أحببت أن أتقدمَ إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطبُ، فيقومُ إليَّ القائمُ منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس، فأحملُ ذلك وأصفحُ، وإنِّي قائمٌ لمقالةٍ فأقسمُ بالله لَئن رَدَّ عليَّ أحدٌ منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجعُ إليه كلمةٌ غيرها حتَّى يسبقَها السيفُ إلى رأسه، فلا يبقينَّ رجلٌ إلا على نفسه!».

---

(١) مر: ويقال له مر الظهران موضع على مرحلة من مكة. راجع ياقوت جـ٥ ص١٠٤.

(٢) أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم دعا صاحب حَرَسه حضرتهم فقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلَين، ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما.

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن هؤلاء الرَّهْطَ سادةُ المسلمين وخيارُهم، لا يُبْرمُ[١] أمر دُونهم ولا يُقْضَى إلاّ عن مشورتهم، وإنهم قد رضُوا وبايَعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله». فبايعَ الناس وكانوا يتربّصون بَيعةَ هؤلاء النفر، ثم ركب معاوية رواحله وانصرف إلى المدينة.

فلقي الناس أولئك النَفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون فلمّا أرضيتم وأُعطيتم بايعتم! قالوا: والله ما فعلنا. قالوا: فما منعكم أن تردُّوا علَى الرجل؟ قالوا: كادنا[٢] وخِفنا القتل.

وبايعه أهلُ المدينة، ثم انصرف إلى الشام، وجفا بني هاشم، فأتاه ابن عبّاس فقال له: ما بالُك جَفَوتنا؟ قال: إن صاحبكم لم يبايع ليزيد فلم تنكروا ذلك عليه. فقال: «يا معاوية، إني لخليقٌ أن أنحازَ إلى بعض السواحل، فأقيمَ به، ثم أنطلقُ بما تعلم حتى أدع الناس كلهم خوارج عليك» قال يا أبا العباس تُعْطَوْن وتُرْضَوْن وتُرادُون[٣].

وقيل: إن ابن عمر قال لمعاوية: «أُبايعك علَى أني داخلٌ فيما تجتمعُ عليه الأمة، فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها». ثم عاد إلى منزله، فأغلق بابه، فلم يأْذن لأحد.

وقد ذكرنا وفاة عبد الرحمٰن بن أبي بكر في سنة ثلاث وخمسين، والمشهور أنه كان في هذه الحادثة باق[٤]، وقد ورد خبره مع مروان بن الحكم وما قالته عائشة رضي الله عنها في الصحيح.

ذكر استعمال سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان وغزوه

في هذه السنة استعمل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان وعزل ابن زياد عنها، وكان سبب ذلك أنه سأل معاوية أن يستعمله على خراسان، فقال: إن بها

---

(١) يعقد. (٢) غلبنا على أمرنا.

(٣) ترادّ فلان وفلان: إذا تراجعا الكلام.

(٤) في وفاة عبد الرحمٰن بن أبي بكر اختلاف، فلقد أثبت بعضهم وفاته سنة ٥٣هـ والبعض الآخر سنة ٥٨هـ.

عُبيد الله بن زياد. فقال: «والله لقد اصْطنعك أبي حتَّى بلغتَ باصطناعه المَدَى الذي لا تُجارَى إليه ولا تُسامى، فما شكرتَ بلاءَه ولا جازيتَه بآلائه، وقدَّمْتَ علَيَّ هذا، يعني يزيد، وبايعتَ له، واللّهِ لأنا خيرٌ أبًا وأُمًّا ونفسًا!» فقال معاوية: أمَّا بَلاءُ أبيك فقد يحقُّ عليَّ الجزاءُ به، وقد كان من شكري لذلك أنِّي طلبتُ بدمه، وأمَّا فضل أبيك علَى أبيه فهو والله خيرٌ منِّي، وأمّا فضل أُمِّك علَى أمِّه فلعمْري امرأةٌ من قُرَيش خَيرق من امرأة من كَلْب[١]، وأمّا فضلُك عليه فواللّهِ ما أُحبُّ أن الغُوطة[٢] مُلِئتْ به رجالاً مثلك!» فقال له يزيد: «يا أميرَ المؤمنين، ابنُ عمّك، وأنت أحقُّ مَن نظر في أمره، قد عَتَب علَيك فأعْتِبْه»[٣]. فولاَّه حربَ خُراسان، وولَّى إسحاق بن طَلحة[٤] خَراجَها، فمات إسحاق بالرّيِّ فوُلِّيَ سعيدٌ حربَها وخراجها[٥].

فلمَّا قدِم خُراسان قطع النهر إلَى سَمَرْقَنْد، فخرج إليه أهل الصُغْد[٦]، فتواقفوا يومًا إلى الليل ولم يقتتلوا، ثمَّ اقتتلوا من الغد، فهزمهم سعيد، وحَصرَهم في مدينتهم، فصالحوه وأعطَوْه رُهُنًا منهم خمسين غلامًا من أبناء عظمائهم، فسار إلى التِّرْمِذِ[٧] ففتحها صلحًا، ولم يَفِ لأهل سَمَرْقَنْد، وجاء بالغلمان معه إلَى المدينة. وفي هذه الغزوة قتِل قُثَم بن العبّاس بن عبد المُطّلب.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوَلِيد بن عُتْبة بن أبي سُفيان.

سنة سبع وأربعين:

في هذه السنة عَزل معاوية مَرْوان بن الحَكم عن المدينة، واستعمل الوَليد بن عتبة بن أبي سُفيان. وقيل: لم يعزل مروان في هذه السنة.

وحجّ بالناس الوليد بن عُتبة.

---

(١) لأن أم سعيد بن عثمان هي فاطمة بنت الوليد بن المغيرة المخزومية القرشية، وأم يزيد بن معاوية هي ميسون بنت بحدل بنت أنيف الكلبية.

(٢) غوطة دمشق: وهي مشهورة بأشجارها ومائها.

(٣) تقبل عتابه.

(٤) وله نسب من معاوية لجهة أمه إذ كانتا أختين.

(٥) راجع ابن الأثير باختلاف جـ٣ ص٥١٢.

(٦) بلد قريب من سمرقند، كثير الماء والشجر. راجع ياقوت جـ٣ ص٤٠٩.

(٧) تِرمِذ: مدينة على شرقي نهر جيحون. راجع ياقوت جـ٢ ص٢٦.

سنة ثمان وأربعين:

في هذه السنة تُوُفِّيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وتوفي عَمِيرة بن يَثْرِبيّ قاضي البصْرة، فاستقضى مكانه هِشام بن هُبَيرة.

وحجّ بالناس الوليد بن عُتبة.

ذكر عزل الضحاك عن الكوفة واستعمال عبد الرحمٰن ابن أُمِّ الحكم وطردِه عنها واستعماله على مصر وطردِه عنها أيضًا

في هذه السنة عزل مُعاويةُ الضحَّاك بن قَيس عن الكوفة، واستعمل عليها عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عثمان الثقفي، وهو ابن أمّ الحكم، وأمُّ الحكم أخت معاوية، فخرج الخوارج بالكوفة في ولايته على ما قدمناه من خبرهم.

ثم طرد أهل الكوفة عبد الرحمٰن لسوء سيرته، فلحق بخاله معاوية، فولاه مصر، فاستقبله مُعاوية بن حُدَيْج على مَرْحَلَتَين من مصر، فقال له: ارجعْ إلى خالك فلعمري لا تسيرُ فينا سيرتُك في إخواننا من أهل الكوفة، فرجع.

ثم وفَد مُعاوية بن حُدَيج[1] إلى معاوية، وكان إذا قَدِمَ زُيّنت له الطرقُ بقباب الرَّيحان تعظيمًا لشأنه، فدخل على معاوية وعنده أختُه أمُّ الحَكم فقالت: مَن هذا يا أميرَ المؤمنين؟ قال: «بخ بخ! هذا معاوية بن حُدَيج!» فقالت: «لا مرحبًا! تسمعُ بالمَعيْديّ خَيْرٌ من أن تراه[2]». فسمعها ابن حُدَيج، فقال: «علَى رِسْلك يا أُمَّ الحكم، واللّهِ لقد تزوجتِ فما أكرمتِ، وولدتِ فما أنجبت، أردتِ أن يليَ ابنك الفاسقَ علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة، ما كان اللّهُ لِيُرِيَه ذلك، ولو فعل لضربناه ضربًا يُطَأْطِىءُ منه ولو كره هذا القاعدُ!» يعني معاوية، فالتفت إليها معاوية فقال: كفي. فكفَّت.

---

(١) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر الكندي السكوني، كنيته أبو نعيم، شهد صفين مع معاوية بن أبي سفيان، مضى بجيش إلى مصر فقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه فتولى مصر لمعاوية ومن بعده ليزيد. فقد عيّنه بفتوح المغرب في بلاد النوبة. توفي في بعض الروايات سنة ٥٢هـ. راجع الإصابة ترجمة ٨٠٦٤ ولكن في وفاته إشكال فإذا كان ابن حديج توفي سنة ٥٢هـ ونزا يزيد بن معاوية على الخلافة سنة ٦٠هـ فكيف يلي له مصر؟! فإما أن يكون قد توفي سنة ٦٢هـ أو أنه لم يلِ مصر ليزيد لأنه لم يكن من الأحياء.

(٢) راجع مجمع الأمثال للميداني جا ص١٢٩ رقم ٦٥٥.

سنة تسع وخمسين:

في هذه السنة استعمل معاوية النُّعمان بن بَشير الأنصاري على الكوفة، بعد ابن أم الحكم.

واستعمل معاوية عبد الرحمٰن بن زياد على خُراسان فبقي عليها إلى أن قُتل الحسين، ثم قدم على يزيد ومعه عشرون ألف ألف درهم، فقال له يزيد: «إن شئت حاسبناك وأخذنا ما معك ورددناك إلى عملك، وإن شئت أعطَيناك ما معك وعزلناك، وتعطي عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم» قال: بل تُعطيني ما معي وتعزلني. ففعل، وأرسل عبد الرحمٰن إلى ابن جعفر بألف ألف، وقال: هذه خمسُمائة ألف من يزيد وخمسُمِائة ألف مني.

ذكر عزل عبيد الله بن زياد عن البصرة وعوْدِه إليها

وفي هذه السنة عزل معاويةُ عُبَيد الله بن زياد عن البصرة وأعاده إليها ولم يُوَلِّ غيره.

وسبب ذلك أن ابن زياد وفد على معاوية في وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف بن قيس، وكان ابن زياد لا يكرمه، فلما دخلوا مُعاوية رحَّب بالأحنف وأجلسه معه على سريره، فأحسن الوفدُ الثناء على عُبَيد الله بْن زياد والأحْنَفُ ساكت، فقال له معاوية: ما بالك يا أبا بحر[1] لا تتكلم؟ فقال: إن تكلمتُ خالفت القوم. فقال معاوية: انهضوا، عزلتُه عنكم واطلبوا واليًا ترضَوْنه، فلم يَبْقَ من القوم رجل إلا أتى رجلًا من بني أُمَيَّة أو من أهل الشام، والأحنفُ لم يبرح من منزله ولم يأْت أحدًا، فلبثوا أيَّامًا، ثم جمعهم معاوية، وقال لهم: من اخترتم فاختلفتْ كلمتهم، والأحنف ساكت، فقال[2]: ما لك لا تتكلم؟ فقال: «إن ولَّيْتَ علينا أحدًا من أهل بيتك لم نعدلْ بعُبَيْد الله أحدًا، وإن ولَّيتَ غيرهم فانظر في ذلك». فردَّه معاوية عليهم، وأوصاه بالأحنف وقبح رأيَه في مباعدته.

وحجّ بالناس في هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وفيها توفي سعيد بن العاص.

---

(١) كنية الأحنف بن قيس.

(٢) يعني معاوية بن أبي سفيان.

سنة ستين:

ذكر وفاة معاوية بن أبي سُفْيان وما أوصَى به عند وفاته

كانت وفاته بدمشق في شهر رجب منْ هذه السّنة، قيل: في مُسْتَهَلِّه، وقيل: في النصف منه، وقيل: لأربع بَقِينَ منه، وقيل: في يوم الخميس لثمانٍ بَقين من شهر رجب سنة تسع وخمسين[١].

قال: وكان معاوية قد خطب الناس قبل موته فقال: «إني لزرعٌ مستحصَدٌ[٢] وقد طالت إمْرتي عليكم حتى مِلِلْتكم ومِلِلْتموني، وتمنيتُ فراقكم وتمنيتم فراقي، لن يأْتيكم بعدي إلا من أنا خيرٌ منه، كما أن من كان قبلي كان خيرًا مني، وقد قيل: من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، اللهم إني أحببت لقاءك فأحبِبْ لقائي وبارك لي فيه» فلم يمضِ غير قليل حتى ابتدأ به مرضه الذي مات فيه[٣].

قال: ولمّا مرض دعا ابنه يزيد وقال: «يا بني إني قد كَفَيْتُك الشَّدَّ والتَّرحال، ووطَّأتُ لك الأمور، وذللت الأعداء، وأخضعت لك رِقاب العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظرْ أهلَ الحجاز فإنهم أصلك، فأكرمْ من قدِم علَيك منهم، وتعاهَدْ من غاب وانظرْ أهل العراق، فإن سألوك أن تعزِل عنهم كُلَّ يوم عاملاً فافعل، فإنَّ عزْلَ عاملٍ أيْسَرُ من أن يُشهرَ عليك مِائةُ ألف سيف، وانظرْ أهلَ الشام، فليكونوا بِطانتك وعيْبتك[٤]، فإنْ رابَك[٥] من عدوِّك شيءٌ فانتصرْ بهم، فإذا أصبتَهم فارددُ أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغيرها تغيرتْ أخلاقهم، وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلاَّ أربعة نَفَر من قُريش: الحسين بن علي وعبد الله بن عُمر وعبد الله بن الزُّبَير وعبد الرحمٰن بن أبي بكر، فأمّا ابن عمر فرجل قد وقذَتْه[٦] العبادة، فإذا لم يَبْقَ أحد غيره بايعك، وأمّا الحسين فإنه رجل خفيف، ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج فظفرْتَ به فاصْفَحْ عنه، فإن له رَحمًا ماسة وحقًّا عظيمًا وقرابةً من محمد ﷺ، وأمّا ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثله ليست له همّة إلاَّ في النساء واللهو، وأما الذي يجْثُم لك جُثُوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وَثَب، فذاك ابن الزبير، فإنْ هو فعَلها بك فظفِرْتَ

---

(١) راجع باختلاف الطبري ج٥ ص٣١٧.
(٢) كناية عن دنو أجله.
(٣) راجع الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٥٩.
(٤) عيبة الرجل: ستره، وما ينبغي ستره.
(٥) أصابك ريب.
(٦) أخذت منه كل مأخذ.

به فقطِّعه إرْبًا إرْبًا، واحقنْ دماءَ قومك ما استطعت». هكذا في هذه الرواية ذكر عبد الرحمٰن بن أبي بكر، والصحيح أنه مات قبل معاوية[١].

وقيل إن يزيد كان غائبًا في مرض أبيه وموته، وأن معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المُرِّيّ وأمرهما أن يؤدِّيا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه. وصححه ابن الأثير.

قيل: ولما اشتدّت عِلَّته وأُرجِف به قال لأهله: احشوا عيني إثْمِدًا[٢] وادْهنوا رأسي، ففعلوا وبَرّقوا وجهه، ثم مُهِّد له مجلس وأذن للناس، فدخلوا وسلموا قيامًا ولم يجلس أحد، فلما خرجوا تمثل بقول الأول وهو الهذلي[٣]: [من الكامل]

وتجلُّدِي للشّامِتين أُرِيهِمُو ... أنِّي لِرَيْبِ الدهر لا أتَضَعْضَعُ
وإذا المَنِيَّةُ أنْشبتْ أظفارها ... ألْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمة[٤] لا تَنفعُ

ومات في يومه.

وكان يتمثَّلُ ـ وقد احْتُضِر ـ: [من الوافر]

فهل مِنْ خالدٍ إمَّا هلَكْنا ... وهلْ بِالمَوْتِ يا لَلنَّاسِ عارُ

ورَوى محمد بن عبد الله بن الحكم قال: سمعت الشافعيَّ رضي الله عنه يقول: لمَّا ثقُل مُعاوية كان يزيد غائبًا، فكتب إليه بحاله فلمَّا أتاه الرسول أنشأ يقول[٥]: [من البسيط]

جاء البَرِيدُ بقِرْطاسٍ[٦] يخُبُّ به ... فأوْجس القلبُ من قِرطاسه فَزَعا
قلنا: لك الوَيْلُ! ماذا في صحيفتكم ... قال: الخليفةُ أمسَى مُثْبَتًا[٧] وجِعَا
فمادتْ[٨] الأرضُ أو كادت تَميد بنا ... كأنَّ ثَهْلانَ[٩] من أركانه انْقلعا
أوْدَى ابنُ هنْدٍ[١٠] وأوْدَى المجدُ يتبعُه ... كانا جميعًا وظلاً يسْريان معَا

---

(١) راجع ابن الأثير باختلاف وزيادة جـ٤ ص٥.
(٢) جريش حجر الكحل.
(٣) أبو ذؤيب الهذلي، والأبيات في المفضليات ص٨٥٥.
(٤) الرقية تكتب وتعلق لدفع الأذى.
(٥) أي يزيد بن معاوية.
(٦) القرطاس: الورقة.
(٧) كأنه أراد أثبت إلى الفراش.
(٨) اهتزت.
(٩) ثهلان: جبل ضخم بالعالية ببطن الكلاب، والكلاب واد يسلك بين ظهري ثهلان.
(١٠) معاوية بن أبي سفيان وهند آكلة الأكباد أمه.

لا يَرفعُ الناس ما أوْهَى[١] وإن جَهَدُوا ... أن يرفعوه، ولا يُوهُون ما رفعا
أغَرُّ أبْلجُ يُسْتَسْقَى الغمامُ به ... لو قارَعَ الناسَ عن أحلامهم قرَعا[٢]

والبيتانِ الأخيران للأعشى[٣].

قال: فلمّا وصل إلَيه وجده مغمورًا فأنشأ يقول: [من المنسرح]

لَوْ عاش حيٌّ إذًا لَعاش إمامُ الناس لا عاجزٌ ولا وَكِل[٤]
الحُوَّلُ القُلَّبُ الأَرِيبُ[٥] ولنْ يدفع رَيْبَ المَنِيّة الحِيَلُ

قال: فأفاق معاوية وقال: يا بني إنّي صحبت رسول الله ﷺ فخرج لحاجته، فاتبعته بإدَاوَة[٦]، فكساني أحَدَ ثوبَيْه الذي يلي جلده، فخبّأته لهذا اليوم، وأخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام من أظافره وشعره ذات يوم، فأخذته وخبّأته لهذا اليوم، فإذا أنا مِتُّ فاجعل ذلك القميص دون كَفَني ممّا يَلِي جلدي، وخذ ذلك الشعرَ والأظافرَ فاجعله في فمي وعلَى عيني ومواضع السجود مني، فإن نفع شيء فذاك، وإلاّ فإن الله غفور رحيم.

وهذه الرواية تدل على أن يزيد أدْركه قبل وفاته، وقد قيل: إنه أوصى بها غير يزيد والله أعلم[٧].

قال ابن الأثير: وتمثل معاوية عند موته بشعر الأشهب بن زُمَيْلَة النَّهْشَلي: [من الطويل]

إذَا متّ مات الجُودُ وانْقطع النَّدَى[٨] ... مِنَ الناس إلاّ من قَلِيلٍ مُصَرَّدِ[٩]
ورُدّتْ أكُفُّ السائلين وأمْسَكوا ... مِن الدِّين والدنيا بخِلْفِ[١٠] مُجَدّدِ[١١]

---

(١) الواهي: الضعيف، وأراد هنا المنحط فلا أحد يستطيع رفع ما وضع، ولا أحد يستطيع وضع ما رفع.
(٢) أراد لو غالب الناس لغلبهم.
(٣) انظر ديوان باختلاف الأعشى ص١٥٧ وهو ميمون بن قيس.
(٤) الوكِل: من يكل إلى الناس أموره أو يتكل عليهم لإنجازها.
(٥) الحوّل: العارف بالحيل البصير بها، والقلّب: الذي يقلّب الأمور لأفضلها. والأريب: العاقل.
(٦) وعاء من جلد.
(٧) في رواية عند ابن الأثير أن يزيد كان بحوّارين عندما مات معاوية جـ٤ ص٩.
(٨) الكرم.
(٩) الذي في قلته انقطاع وبخل.
(١٠) ضرع الناقة.
(١١) أجد: لبن الناقة إذا جف.

فقالت إحدَى بناته: كلاً يا أمير المؤمنين بل يدفعُ الله عنك. فقال متمثِّلاً: [من الكامل]

* وإذا المَـنِيَّـة أنشـبـتْ أظـفـارَهـا[١] *

وقال لأهله: اتَّقُوا الله فإنه لا واقي لمن لا يتَّقي الله! ثُمَّ قضَى.

وأوْصَى أن يُرَدَّ نصف ماله إلَى بيت المال.

وأنشد لما حضرته الوَفاة: [من الخفيف]

إنْ تُناقِشْ يَكُنْ نقاشُكَ يا ربّـ ـب عذابًا، ولا طَوْقَ لي بالعذابِ
أو تُجاوِز[٢] فأنت ربّ صَفوحٌ عن مُسِيءٍ ذنوبه كالتراب

قال: ولمّا مات خرج الضحّاك بن قَيْس حتَّى صعِد المنبر، وأكفانُ معاوية علَى يَدَيْه، فحمد الله وأثنَى عليه، ثم قال: «إنَّ معاويةَ كان عَوْدَ العرب، وحَدَّ العرب، وجَدَّ العرب[٣]، قطَع الله به الفِتنة، وملَّكه على العباد، وفتح به البلاد، ألاَ إنه قد مات، وهذه أكفانه ونَحن مُدْرِجوه فيها، ومُدْخِلوه قبره، ومُخَلُّون بَيْنه وبَيْن عمله، ثُمَّ هو البَرْزَخ[٤] إلَى يوم القيامة! فمن كان يريد أن يشهده فعند الأُولَى».. قال: وصلى عليه الضحاك لغيبة يزيد، وكان بحُوَّارِين فقدِم بعد دفنه فصلَّى على قبره.

وكان مُلْكه تِسعَ عشرةَ سنةً وثلاثة أشهر وأيَّامًا تقريبًا منذ خلص له الأمر.

وكان عمره خمسًا وسبعين سنة، وقيل: ثلاث وسبعين، وقيل: ثمان وسبعين، وقيل توفي وهو ابن خمس وثمانين سنة.

وكان أوَّلَ من اتخذ الخدّام الملازمة[٥] في الإسلام. وأوَّل من علَّق الستور واتخذ الحرَس وأرباب الشُّرَط. واستخدم الحجاب وركب الهَمَاليج[٦]، وقيدت بين يديه الجنَائب[٧] ولبس الخزَّ والوشْيَ الخفيفَ، وعمل الطِّراز بمصر واليَمَن والرُّها والإسْكندرية. وأوَّل من قَتل مسلمًا صَبْرًا، قَتل حُجْر بن عَديّ وأصحابه كما تقدم.

(١) تتمة البيت: ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع. (٢) تتخطاه، والمراد تعفو.
(٣) أراد عظيمهم وذا بأسهم وجالب حظهم. (٤) عقبة أمام الميت قبل الحساب.
(٥) ذكر ابن عبد البر أنه أول من اتخذ الخصيان.
(٦) مفردها هملاج: وهي دابة أو صفة لها أكبر من الحمار وأصغر من الحصان.
(٧) الناقة بخاصة وكل مركوب بغام، إلى جانب الراكب مفردها: جنيبة.

وهو أول من اقتنى الضِّياع، وأحدث في أيامه ديوان الخاتَم، وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزُّبيرَ بمائة ألف درهم، وكتب له بها علَى زِياد، فصيّر عمرو المائة مائتين، فلما رفع حساب زياد أنكرها معاوية، وأخذ عمرًا بردِّها، فوفَّاها عنه أخوه عبد الله. ثم أمر معاوية بخَتم الكتب وحَزْمها.

وزاد في مِنْبر رسول الله ﷺ، فجعله ثمانِيَ درجات، وأول من جعل درجات المنبر خمس عشرة مَرْقاة، واتخذ المقصورة في المسجد.

وأول خليفة بايَع لابنه، وأول من وضع البريد، وأول من سمى الغالية التي يطيَّب بها «غالية».

وكان يقول: أنا أوّلُ الملوك.

ذكر شيء من سيرته وأخباره

كان يُضْرَب بحِلْم معاوية المَثَل، ولم يعرف له زَلَّة تنافي الحلم إلاَّ قتْل حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه.

وقد نقل من كلامه ألفاظ، منها أنه قال: إنني لأَرفَعُ نفسي أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوي، وجهلٌ أكثر من حِلمي، وعَوْرةٌ لا أُواريها بستري، أو إساءة أكثر من إحساني[(١)].

وقال: العقلُ والحلم أفضل ما أُعْطِيَ العبد، فإذا ذُكِّرَ ذَكر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلي صبر، وإذا غضِب كَظَم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز..

قال عبد الله بن عُمَير: أغلظَ رجلٌ لمعاوية، فأكثر، فقيل له: أتحلمُ عن هذا؟ فقال: إني لا أَحُول بين الناس وألسنتهم. ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا.

وروى ابن شِهاب عن حُمَيد بن عبد الرحمٰن قال: أخبرنا المِسْوَرَ بن مَخْرمة[(٢)]

---

(١) وكيف يقف هذا الكلام من سب علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على المنابر، ودعوة الناس إلى البراءة منه؟.

(٢) مسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري، كنيته أبو عبد الرحمٰن، صحابي، شهد فتوح إفريقيا، قتل مع عبد الله بن الزبير في الحصار بمكة سنة ٦٤هـ. راجع الإصابة ترجمة ٧٩٩٥.

أنه وفَد على معاوية، قال: فلمَّا دخلتُ عليه سلَّمت، فقال: ما فعل طعنُك[١] على الأُمة يا مِسْور؟ قلت: دعنا من هذا وأحسن فيما قدِمْنا له، قال: والله لتكلمني بذات نفسك. قال فلم أدَعْ شيئًا أعيبه علَيه إلاَّ أخبرته به. فقال: «لا أبرأُ من الذنوب! أفما لك يا مِسْور ذنوبٌ تخافُ أن تهلك إن لم يغفرها الله لك؟» قلت: بَلَى. قال: «فما جعلك أحقَّ بأن ترجُوَ المغفرة مِنّي؟ فَوَاللّهِ لَمَا أنا إلي من الإصلاح بين الناس وإقامة الحُدود والجهاد في سبيل الله والأمور العِظام التي ليست أحصيها ولا تحصيها أكثرُ ممَّا تَلِي. وإني لعلى دينٍ يتقبَّلُ الله فيه الحسناتِ ويعفو عن السيِّئات، وواللّهِ لَعَلَيَّ ذلك ما كنت لِلأُخيَّر بين الله وبين ما سواه إلا اخترتُ الله علَى ما سواه[٢]. قال المِسْوَر: ففكّرتُ حين قال ما قال فعرفتُ أنه خَصَمني! قال: فكان إذا ذكر بعد ذلك دعا له بخير. قال أبو عمر: هذا الخبر من أصحّ ما يُروَى عن ابن شهاب.

وقد نُسب معاوية إلى بُخلٍ مع كثرة عَطاياه، فمن ذلك ما حُكِيَ أن عبيد الله بن أبي بَكْرة دخل علَى معاوية، ومعه ولدٌ له، فأكثر من الأكل، فلحظه معاوية، وفطن عبيد الله، فأراد أن يغمز ابنه فلم يمكنه فلم يرفعْ رأسه حتى فرغ من أكله، ثم عاد عبيد الله وليس معه ابنه، فقال معاوية ما فعل ابنك التِّلْقَامَة[٣]؟ قال: اشتكى[٤].

ذكر صفة معاوية وأولاده وأزواجه وكُتَّابه وقضاته وحجَّابه وشرطه وعُمّاله

كان معاوية طويلاً أبيض اللون إذا ضحك تقلَّصت شَفته العليا، وكان يخضبُ بالحِنَّاء والكَتَم[٥].

وأما نساؤه وولده: فمن نسائه مَيْسُون ابنة بَحْدَل بن أُنيْف الكَلْبية، وهي أم يزيد، وقيل: ولدت له بنتًا اسمها «أمَة ربِّ المشَارق» فماتت صغيرة.

ومنهن فاخِتَة ابنة قَرظَة بن عبد عمرو بن نَوفل بن عبد مَناف، ولدت له عبد الرحمٰن وعبد الله، وكان عبد الله أحمق، وعبد الرحمٰن مات صغيرًا.

---

(١) أراد قولك الشائن في حق الأمّة.

(٢) راجع الاستيعاب جـ٣ ص٤٠٢ باختلاف وزيادة.

(٣) الذي يكبر اللقمة ويزدرد ازدرادًا.

(٤) راجع الطبري جـ٥ ص٣٣٨ بزيادة. واشتكى أي أنه يكشو وجعًا شغله عن المجيء.

(٥) الكتم: نبات يشبه الآس يجفف ويُدق ثم يُنخل ويخضب به.

ومنهن نائلة ابنة عُمارة الكلبية، تزوجها وقال لمَيْسُون: انظري إليها، فنظرت إليها وقالت: «رأيتها جميلة، ولكني رأيت تحت سُرّتها خالاً، ليوضعن رأس زوجها في حجرها»(١) فطلقها معاوية، فتزوجها حبيب بن مَسلمة الفهري، ثم خلف عليها بعده النُّعمان بن بشير، فقتل ووضع رأسه في حجرها.

ومنهن كَتْوة ابنة قَرظة، أُخت فاخِتَة، غزا قُبْرُس(٢) وهي معه فماتت هناك.

وأما كتّابهُ فكان كاتبُه وصاحبُ أمره سرْجُونْ الرومي، وكتب له عبيد الله بن أُوَيْس الغسّاني.

وقضاتُه. كان على القضاء فَضالة بن عبيد الأنصاري، فمات فاستقضى أبا إدريس الخَوْلاَني.

وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن مِحْصَن الحِمْيريّ، ونَقْش خاتمه «لكل عمل ثواب»، وقيل: كان نقشه «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وحاجبه سَعْد مولاه، ثم صفوان مولاه.

وكان على شرطته قيس بن حمزة الهمداني ثم عزله، واستعمل زَمْل بن عمرو العُذْريّ، وقيل: السكْسَكيّ.

وكان على حَرَسه رجل من الموالي يقال له الختار، وقيل: أبو المُخَارِق مالك مولى حِمْيَر.

وأما عمّالُه فقد تقدم ذكرهم، وكان العُمّال عند وفاته: على المدينة الوليد بن عُتْبة بن أبي سفيان، على مكة عمرو بن سعيد الأشدق، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى الكوفة النُّعمان بن بَشير، وعلى خُراسان عبد الرحمٰن بن زياد، وعلى سجِستان عبّاد بن زياد، وعلى كِرمَان شريك بن الأعور، وعلى مصر مسلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري، وكان القاضي بمصر سليمان بن عمير عشرين سنة.

ذكر بيعة يزيد بن معاوية

هو أبو خالدَ يَزِيد بن مُعاوية بن أبي سُفْيان صَخْر بن حَرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مَناف بن قُصَيّ، وأُمه مَيسُون بنت بحدَل الكلبية.

---

(١) كان العرب يتطيرون وهذا مثال على تطيرهم.

(٢) قبرس: جزيرة في بحر الروم، قريبة من سواحل الشام، وهي (قبرص) في الرسم المعاصر. انظر معجم ياقوت جـ٤ ص٣٠٥.

وهو الثاني من ملوك بني أُميَّة، بويع له بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة ستين.

فكان أول ما بدأ به يزيد أنْ كتب إلى الوَليد بن عُتبة بن أبي سفيان، وهو عامل المدينة، يخبره بموت معاوية، وكتابًا آخر صغيرًا فيه: «أمّا بعدُ فخُذ حُسَينًا وعبدَ الله بن عُمر وابن الزبير بالبيعة أخذًا ليس فيه رُخْصَةٌ[١] حتَّى يبايعوا والسلام».

فلما أتاه نَعيُّ معاوية استدعى مروان بن الحكم، وكان قبل ذلك قد صَارمَه[٢] وانقطع عنه، فلما جاءه وقرأ عليه الكتاب بموت معاوية استرجع وترحَّم عليه، واستشاره الوَليد كيف يصنع، قال: «أرى أن تدعُوَهم الساعة وتأمرهم بالبيعة، فإن فعلوا قبلتَ منهم وكفَفْتَ عنهم، وإن أبَوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إنْ علموا بموته وَثَب كلُّ رجل بناحية، وأظهر الخِلافَ ودعا إلى نفسه، أمَّا ابن عُمر فلا يرى القتال، ولا يحبُّ أن يليَ علَى الناس إلاَّ أن يُدفَع إلَيه هذا الأمر عفوًا».

ذكر إرسال الوليد بن عتبة إلى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وما كان بينهم في أمر البيعة وخروجهما إلى مكة رضي الله عنهما

قال: وأرسل الوليدُ عبدَ الله بن عمرو بن عثمان، وهو غلام حدث، إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما، فوجدهما في المسجد، فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس، فقال: أجيبا الأمير فقالا: انصرفْ الآن نأتيه.

فقال ابن الزبير للحسين: ما تراه بعث إلَينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟ فقال الحسين رضي الله عنه: أظن طاغِيَتهم[٣] هَلَك فبعث إلينا ليأخذَنا بالبَيعة قبل أن يفشُو في الناس الخبرَ. فقال: وأنا ما أظن غيره، فما تريد أن نصنعَ؟ قال الحسين: أجمعُ فِتْيانِي الساعة ثم أمشي إليه وأُجلسُهم علَى الباب وأدخل عليه. قال: فإني أخاف عليك إذا دخلت. قال: لا آتيه إلا وأنا قادر على الامتناع.

فقام الحسين رضي الله عنه فجمع إليه أصحابَه وأهلَ بيته، ثم أقبل إلى باب الوليد، وقال لأصحابه: «إني داخل، فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ بأجمعكم، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرجَ إليكم».

---

(١) تهاون. (٢) قاطعه.

(٣) أراد معاوية بن أبي سفيان.

ثم دخل فسلَّم ومَروان عنده، فقال الحسين: «الصِّلة خيرٌ من القَطيعة، والصلحُ خيرٌ من الفساد، وقد آن لكما أن تجتمعا، أصلح الله ذات بَيْنِكما» وجلس، فأقرأه الوليد الكتاب، ونعَى إليه مُعاوية، ودعاه إلَى البَيعة، فاسترجع الحسين وترحّم على معاوية، وقال: «أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سِرًّا، ولا تَجتَزِي بها مني سرًّا، فإذا خرجت إلى الناس ودعَوتَهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحد» فقال له الوليد، وكان يحبّ العافية: انصرفْ. فقال له مَروان: «لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرتَ منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلَى بينك وبينه، احبسه، فإن بايَع وإلاّ ضربتَ عنقه». فوَثَب الحسينُ عند ذلك وقال: «يا ابن الزرقاء أنت، تقتلني أو هو؟ كذبتَ والله ولَؤمتَ! ثم خرج حتَّى أتَى منزله.

فقال مروان للوليد: عَصيتَني! لا واللّهِ لا يمكنك من نفسه بمثلها أبدًا، فقال الوليد: «وَيحَ غيرك يا مروان! والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغَرَبَتْ عنه من مال الدنيا ومُلكها وأني قتلتُ حسينًا إن قال لا أبايعُ! واللّهِ إني لأظنُّ امرأً يحاسَب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة!» قال مروان: قد أصبت بقولك هذا يقول وهو غير حامد له على رأيه.

وأمّا ابن الزُّبَير فإنه أتَى داره وجمع أصحابه واحترز، فألحَّ الوليد في طلبه وهو يقول «أمهلوني». فبعث الوليد إليه مَواليه فشتموه، وقالوا له: يا ابن الكاهلية لَتأتِينَّ الأمير أو لَيقتلنَّك فقال لهم: والله لقد استربتُ[1] لكثرة الإرسال، فلا تُعجلوني حتّى أبعثَ إلى الأمير مَنْ يأتيني برأيه. فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال له: «رحمك الله، كُفَّ عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته، وهو يأتيك غدًا إن شاء الله تعالى، فمرْ رسلك فلينصرفوا عنا» فبعث إليهم، فانصرفوا وخرج ابن الزبير من ليلته هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث فسارا نحو مكة. فسرّحَ الوليدُ الرجالَ في طلبه فلم يدركوه، فرجعوا، وتشاغلوا به عن الحسين يومهم.

ثم أرسل الوليدُ الرجالَ إلى الحسين فقال لهم: أصبحوا ثم تَرَون ونرَى. فكَفُّوا عنه، فسار من ليلته نحو مكة[2]، وأخذ معه بنيه وإخوته وبني أخيه وجُلّ أهل بيته إلاّ محمد ابن الحنفية فإنه قال للحسين رضي الله عنهما: «يا أخي أنت أحبُّ الناسِ إليَّ وأعزُّهم عليّ، ولست أدّخِرُ النصيحة لأحدٍ من الخلق أحقَّ بها منك، تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت، وابعثْ رسلك إلى الناس فادعُهم إلى نفسك فإن بايعوك حمدت الله على ذلك، وإن اجتمع الناسُ على غيرك لم يَنْقُص الله بذلك دِينَك ولا

(١) داخلتني ريبة.
(٢) ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب سنة ٦٠هـ.

عقلك، ولا يُذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخافُ أن تأتيَ مصر وجماعةً من الناس فيختلفون عليك، فمنهم طائفةٌ معك، وأُخرى عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنَّة، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفسًا وأبًا وأُمًّا، أضْيَعُها دمًا وأذلُّها أهلاً!» قال الحسين: فأين أذهب يا أخي؟ قال: «انزل مكة، فإن اطمأنت بك الدارُ فسبيل ذلك، وإن نبتْ[1] بك لحقتَ بالرمال وشَعَفَ الجبال[2] وخرجت من بلد إلى أُخرى، حتى تنظرَ إلى ما يصير أمر الناس، ويَفرُقَ لك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأيًا وأخرمه[3] عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون الأُمور أبدًا أشْكَلَ منها حين تستدبرها[4]!» قال: قد نصحتَ وأشفقتَ وأرجو أن يكون رأيك سديدًا موفقًا إن شاء الله.

ثم دخل المسجد وهو يتمثل بقول يزيد بن مُفَرِّغ[5]: [من الوافر]

لا ذعرتُ السَّوَامَ[6] في شَفَقِ الصّبْحِ ... مُغِيرًا ولا دُعِيتُ يَزِيدا
يَومَ أُعطى من المَهابة ضَيْمًا ... والمَنايا يَرْصُدْنَني أن أحِيدا

ثم خرج نحو مكة وهو يتلو ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١]، ولما دخل مكة قرأ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

قال: وأمّا ابن عمر فإنَّ الوليد أرسل إليه ليبايعَ، فقال: إذا بايع الناس بايعتُ. فتركوه، وكانوا لا يخافونه.

وقيل: إن ابن عمر كان بمكة هو وابن عبّاس، فعادا إلَى المدينة، فلقِيا الحسين وابن الزُّبَير، فقالا لهما: ما وراءكما؟ قالا: موت مُعاوية وبَيعة يزيد، قال ابن عمر: لا تفرِّقا جماعة المسلمين. وقدم هو وابن عبّاس المدينة، فلما بايع الناس بايعا.

قال: ودخل ابن الزُّبَير مكة وعليها عمرو بن سعيد فقال: أنا عائذٌ بالبيت. ولم يكن يصلّي بصلاتهم، ولا يُفيضُ بإفاضتهم، وكان يقف هو وأصحابه ناحية[7].

---

(١) أي إذا جفت. (٢) أي رؤوس الجبال.

(٣) أنفذه.

(٤) كان العرب يذمون الرأي الدبري، وهو تصور الأمر بعد فواته.

(٥) يزيد بن مفرغ بن يزيد بن زياد بن ربيعة الحميري ولقبه المفرغ، كنيته أبو عثمان. شاعر هجاء، وله في المديح والغزل شعر كثير، وله بيت سائر:

العبدُ يقرع بالعصا ... والحرُّ تكفيه الملامة

(٦) السوام والسائمة واحد وهو من الإبل والماعز ما يرسل ليرعى ولا يعلف إلاّ نادرًا.

(٧) انظر باختلاف وزيادة الطبري جـ٥ ص٣٤٣ وما بعدها.

ذكر استعمال عمرو بن سعيد على المدينة وإرسال عمرو بن الزُّبَير بالجيش إلى مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزُّبير وهزيمة جيشه، ووفاة عمرو بن الزُّبير تحت السِّياط

وفي هذه السنة عزل يزيد بن معاوية الوليد بن عُتْبة عن المدينة، واستعمل عليها عمرو بن سعيد الأشدق، فقدمها في رمضان، واستعمل على شرطته عمرو بن الزُّبير، لما كان بينه وبين أخيه من البغضاء، فأرسل إلَى نَفَر من أهل المدينة فضربهم ضربًا شديدًا: لهواهم في أخيه عبد الله، منهم أخوه المُنذر بن الزُّبير وابنه محمد بن المنذر وعبد الرحمٰن بن الأسود بن عبد يغوث، وعثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، ومحمد بن عمار بن ياسر، وغيرهم، فضربهم الأربعين إلى الخمسين إلى الستين[١].

فاستشار عمرو بن سعيد عمرو بن الزُّبير فيمن يرسلُه إلى أخيه فقال: لا توجِّه إليه رجلاً أنكأ له مني، فجهز معه سبعمائة فيهم أُنيس بن عمرو الأسلمي.

فجاء مروان بن الحكم إلى عمرو بن سعيد فقال له: «لا تَغزُ مكة، واتقِ الله ولا تُحِلَّ حرمةَ البيت، وخلوا ابن الزُّبير فقد كَبِر، له ستون سنة» فقال عمرو بن الزبير: والله لَنغزوَنَّه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم.

وأتى أبو شُرَيْح الخُزاعي[٢] إلى عمرو فقال له: لا تغزُ مكة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما أُذِن لي في القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس»[٣] فقال له عمرو: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ.

فسار عمرو بن الزبير وسَار أُنَيْس في مقدمته.

وقيل إن يزيد كتب إلى عمرو بن سعيد أن يرسلَ عمرو بن الزبير إلى أخيه عبد الله، فأرسله ومعه جيش نحو ألفي رجل، فنزل أُنيس بذي طُوَى[٤]، ونزل عمرو

---

(١) مقرعة أو عصا.

(٢) خويلد بن عمرو بن صخر بن عبد العزى العدوي الكعبي الخزاعي.

(٣) راجع صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ٢ ص١٠٢ (بتخريج فتح الله رفعت).

(٤) طوى: وادٍ بمكة. معجم البلدان جـ٤ ص٤٥.

بالأبطح[١]، فأرسل عمرو إلى أخيه: برّ[٢] يمين يزيد، وكان قد حلف أنه لا يقبل بَيعته إلاّ أن يُؤْتَى به في جامعة[٣] تعال حتّى أجعل في عنقك جامعةً من فضة لا تُرى، ولا يضربُ الناس بعضهم ببعض، فإنك في بلد حرام.

فأرسل عبدُ الله بن الزبير عبدَ الله بن صفوان نحو أُنيس فيمن معه من أهل مكة ممن اجتمع إليه، فهزمه بذي طُوى، وقتل أُنيس. وسار مصعب بن عبد الرحمٰن إلى عمرو بن الزُّبير، فتفرق عن عمرو أصحابه، فدخل دار ابن عَلقمة، فأتاه أخوه عُبَيدة فأجاره، ثم أتى عبد الله فقال: قد أجرت[٤] عمرًا. فقال: «أتجيرُ من حقوق الناس هذا ما لا يصلحُ، وما أمرتك أن تجيرَ هذا الفاسقَ المستَحِلّ لحرمات الله!» ثم أقاد عمرًا من كل من ضربه إلا المنذر وابنه فإنهما أبيا أن يستقيدا، ومات عمرو بن الزبير تحت السياط.

ولنرجع إلى أخبار الحسين رضي الله عنه.

ذكر مقدم الحسين إلى مكة وما ورد عليه من كتب أهل الكوفة، وإرسال مسلم بن عقيل إليهم وما كان في خلال ذلك

قال: لما خرج الحسين من المدينة إلى مكة لقيه عبد الله بن مُطيع، فقال له: جُعلتُ فداك أين تريد؟ قال: أمّا الآن فمكة وأمّا بعدُ فإني أستخير[٥] الله. فقال: خارَ الله لك وجعلنا فِداك، فإذا أتيتَ مكة فإيّاك أن تقرب الكوفة فإنها بلد مَشْؤومة، بها قُتل أبوك وخُذل أخوك، واغْتِيل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزَمْ فإنك سَيِّدُ العرب، لا يعدلُ بك أهلُ الحجاز أحدًا ويتداعى إليك الناس من كل جانب، ولا تفارق الحرم فِداك عمي وخالي، فوالله لئن هلكتَ لنُسْتَرَقَّنَّ بعدك!».

فأقبل حتّى نزل مكة، وأهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين[٦]

---

(١) الأبطح: كل مسيل فيه دُقاق وحصى فرو أبطح، والأبطح يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينهما وبينه واحدة. راجع معجم البلدان جا ص٧٤.

(٢) أي أوفي يمين يزيد.

(٣) وهي الغل، آلة من معدن يشد بها اليدان إلى العنق.

(٤) بات لي جارًا، أي بكنفي وحمايتي.

(٥) اسأله الخِيَرة في أمري.

(٦) طالبي العمرة.

وأهل الآفاق، وابن الزُّبير يأتي إليه ويُشير عليه بالرأي، وهو أثقلُ خلق الله على ابن الزبير، لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بمكة.

قال: ولما بلغ أهلَ الكوفةِ موتُ معاوية وامتناعُ الحُسين وابن عُمر وابن الزُّبير رضي الله عنهم من البيعة، أرْجفوا(١) بيزيد، واجتمعت الشِّيْعة في منزل سليمان بن صُرَد(٢)، فذكروا مسير الحسين رضي الله عنه إلى مكة، وكتبوا إليه عن نفر منهم: سليمان بن صرَد والمسيّب بن نَجَبَة ورِفاعة بن شدّاد وحبيب بن مُظهر(٣): «بسم الله الرحمٰن الرحيم، وسلام عليك، فإنا نحمد إليك اللّهَ الذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد فالحمدُ لله الذي قَصَم عدوَّك الجبار العنيد الذي انتزَى على هذه الأُمة فابتَزَّها أمرَها وغَصَبَها فيئَها وتأمّر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارَها واستبقى شِرارها، وإنه ليس علينا إمامٌ، فأقبِل، لعل الله يجعلنا بك على الحق، والنُّعمان بن بَشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جُمعة ولا عيد، ولو بلَغنا إقبالُك إلَينا أخرجناه حتَّى نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته». وسيَّروا الكتاب مع عبد الله بن سبْع الهمْدَاني وعبد الله بن وَائل.

ثم كتبوا إليه كتابًا آخر وسيّروه بعد ليلتين، فكتب الناس معه نحوًا من مِائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثًا يحُثُّونه على المسير إليهم، ثم كتب إليه شَبَث بن رِبْعِيّ وحَجّار بن أبْجَر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رُوَيْم وعَزْرَة بن قيْس وعمرو بن الحجاج الزُّبيدي ومحمد بن عُمَيْر التميمي بذلك.

فلما اجتمعت كتبهم عنده كتب إليهم: «أمّا بعد فقد فهمتُ كلَّ الذي اقتصصتم، وقد بعثت إليكم أخي وابنَ عمّي وثِقَتي من أهل بيتي مُسلمَ بن عقيل(٤)، وأمرته أن

---

(١) خاضوا بأخبار السوء حوله.

(٢) سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون عبد العزى بن منقذ السلولي الخزاعي، كنيته أبو مطرف، صحابي، شهد مع الإمام علي كرّم الله وجهه الجمل وصفين.

(٣) وصوابه حبيب بن مظاهر بن رئاب بن الأشتر بن مجوان الأسدي الكندي الفقعسي، تابعي قائد شجاع. صحب الإمام علي كرّم الله وجهه، في حروبه كلها، وكانا على ميسرة الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ في كربلاء وعمره خمس وسبعون سنة رفض الأمان يوم كربلاء قائلاً: لا عذر لنا عند رسول الله ﷺ إنْ قُتل الحسين وفينا عين تطرف. استشهد مع الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ في كربلاء سنة ٦١هـ. راجع جمهرة الأنساب ص٣٤٨.

(٤) مسلم بن عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، تابعي عليم شجاع، انتدبه الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ إلى الكوفة فطلبه ابن زياد (عبيد الله) فقتله ومضى شهيدًا أواخر سنة ٦٠هـ. راجع الكامل في التاريخ ج٤ ص٢٦ وما بعدها.

يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنه قد اجتمع رأيُ ملَئكم[١] وذَوِي الحجى[٢] منكم على مثل ما قدِمتْ به رسلكم، أقْدِمُ عليكم وَشِيكًا إن شاء الله تعالى، فلَعَمري ما الإمام إلا العالمُ بالكتاب، والقائمُ بالقسط والدائنُ بدين الحق والسلام».

وقدم على الحسين رضي الله عنه من البصرة يزيد بن أبي نُبَيْط وابناه عبد الله وعبيْد الله إلى مكة، فكانوا معه حتى قُتل وقتلوا معه.

ثم دعا الحسين مُسلم بنَ عقيل فسيَّره إلى الكوفة، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطْف فإن رأى الناس مجتمعين له عجّل إليه بذلك.

فسار مسلم إلى المدينة، فصلى في مسجد النبي ﷺ، وودع أهله، وسار حتى بلغ الكوفة، فنزل في دار المختار وأقبلت الشيعةُ تختلف إليه، فكلما اجتمع إليه جماعة منهم قرأ عليْهم كتاب الحسين، فيبكون ويَعِدونه النصرة والقتال، فبلغ النُّعمانَ بن بَشير أمير الكوفة ذلك، فصعد المنبر فقال: «أمّا بعدُ فلا تسارعوا إلى الفِتنة والفرْقة، فإن فيهما تهلك الرجالُ وتُسفك الدماءُ وتُغصب الأموالُ» ثم قال: «إني لا أُقاتل من لم يقاتلْني، ولا أثِبُ على من لا يثبُ علَيّ ولا أُنَبِّهُ نائمَكم ولا أتَحرّشُ بكم، ولا آخذ بالقَرْف[٣] ولا الظِّنَّة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديْتُم صفحتكم ونكثتم بَيْعتكم، وخالفتم إمامكم، فوالله الذي لا إله إلا هو لأضربنّكم بسيفي ما دام قائمه في يدي، ولو لم يكن لي منكم ناصر ولا معين. أمَا إني لأرجو أن يكون من يعرفُ الحق منكم أكثر ممن يُردِيه الباطل».

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضْرَمي حليف بني أُمية فقال: «إنه لا يصلحُ ما ترى إلا الغَشْم[٤]، إن هذا الذي أنت عليه رأيُ المستضعفين». فقال: لأن أكونَ من المستضعفين في طاعة الله أحبَّ إليَّ من أن أكون من الأعَزِّين في معصية الله». ثم نزل. وكان حليمًا ناسكًا يحب العافية. وقيل: إنه لم يقل ذلك، وإنما قال: يا أهل الكوفة إن ابن بنت رسول الله ﷺ أحبُّ إلي من ابن بنت بحدل.

---

(١) الملأ: عامة الناس أو جمعهم.

(٢) ذوي الحجى: أولو العلم والمعرفة والعقل.

(٣) القرف: مقارنة الشيء، ومنه مقارفة الشيء أي فعله.

(٤) الغشم: الظلم.

ذكر استعمال عبيد الله بن زياد على الكوفة وقدومه إليها وخبره مع هانىء بن عروة

قال: ولما تكلم النعمان بن بشير بما تكلم به، كتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة، ومبايعة الناس له، ويقول: «إن كان لك بالكوفة حاجة فابعثْ إليها رجلاً قويًا ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوّك، فإن النعمان رجلٌ ضعيفٌ أو هو يتضعّف» ثم كتب إليه بعده عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر بن سعد بن أبي وَقَّاص بنحو ذلك.

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سرجون مَولَى معاوية، فأقرأه الكتب، واستشاره فيمن يولّيه أمر الكوفة، وكان يزيد عاتبًا علَى عُبيد الله بن زياد، فقال له سرجون: أرأيْتَ لو نُشِر[1] لك معاوية أكنت تأْخذ برأْيه؟ قال: نعم. فأخرجَ له عهدَ عُبيد الله على الكوفة، فقال: هذا رأيُ معاوية ومات وقد أمرَ بهذا الكتاب، فأخذ يزيد برأيه، وجمع له بين الكوفة والبصرة، وكتب له بعهده وسَيَّره إلَيه مع مسْلم بن عمرو الباهليّ والِدِ قُتيبة، وأمره بطلب مسلم بن عَقِيل وقتله أو نفيه.

فلمّا وصل كتابه إلَى عُبيد الله تجهز ليسير من الغد.

وكان الحسينُ قد كتب إلى أشراف البصرة، منهم مالك بن مِسْمع، والأحنف بن قيْس والمنذر بن الجارود، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمر بن عبيد الله بن مَعْمَر. يدعوهم إلى كتاب الله وسنّة رسوله، فإن السنّة قد ماتت، والبدعةَ قد أُحييت، فكلهم كتم كتابه إلا المنذر بن الجارود، فإنه خشيَ أن يكون دسيسًا من ابن زياد، فأتاه بالرسول والكتاب، فضرب عنق الرسول، وخطب الناس ثم قال في آخر كلامه: «يا أهل البصرة، إن أميرَ المؤمنين ولاَّني الكوفة، وأنا غادٍ إليها بالغد، وقد استخلفتُ عليكم أخي عُثمان بن زياد، فإياكم والخلاف والإرجاف، فواللّهِ لئن بلغني عن رجل منكم خِلافٌ لأقتلنّه وعَرِيفَه ووليّه[2]، ولآخذنَّ الأدنى بالأقصَى حتى تستقيموا ولا يكون فيكم خلاف ولا شِقاق إني أنا ابن زياد، أشبهته من بين مَن وطىء الحصَى[3]، فلم ينتزعني شَبَهُ خالٍ ولا ابن عمّ!».

---

(١) بُعث من قبره. (٢) لأقتلنه وسيده وعبده.

(٣) أراد من بين الخلق جميعًا.

ثم خرج من البصرة ومعه مسلم بن عمرو الباهليّ وشريك بن الأعور الحارثي وحَشَمُه وأهل بيته، وكان شريك شِيعيًا. وقيل: كان معه خمسُمائة فتساقطوا عنه، وكان أول من سقط شريك، ورجَوا أن يقفَ عليهم فيسبقه الحسين إلى الكوفة، فلم يقف على أحد منهم حتَّى دخل الكوفة وحده، فجعل يمر بالمجالس فلا يشكُّون أنه الحسين بن عليّ فيقولون: مرحبًا بك يا ابن رسول الله، وهو لا يكلمهم، وخرج إليه الناس من دورهم، فساءه ما رأى منهم.

وسمع به النعمان، فأغلق عليه الباب، وهو لا يشكُّ أنه الحسين، وانتهى إلَيه عبيد الله ومعه الخلق يصيحون، فقال له النعمان: «أنشُدك الله إلا تنحيت عني، فَوَاللَّهِ ما أنا مسلم إليك أمانتي، وما لي في قتالك من حاجة!» فدنا منه عبيد الله وقال: «افتحْ لا فتحت!» فسمعها إنسان خلفه فرجع إلى الناس فقال: إنه ابن مَرجانة[1]!» ففتح له النعمان فدخل، وأغلقوا الباب وتفرق الناس.

وأصبح فجلس على المنبر، وقيل بل خطبهم من يومه، فقال: أما بعد، فإن أميرَ المؤمنين وَلأني مِصركم وثَغْركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، والإحسانِ إلى سامعكم ومطيعكم وبالشِّدة عَلى مُريبكم وعاصيكم، وأنا متَّبَعٌ فيكم أمره، ونُنفذُ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم كالوالد البر، ولمطيعكم كالأخ الشقيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فَلْيُبقِ امرؤ على نفسه». ثم نزل.

وأخذ العُرفاءَ والناسَ أخذًا شديدًا، وقال: «اكتبوا إلى الناس الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحَرورية[2] وأهل الريب الذين رأْيُهم الخِلاف والشِّقاق، فمن كتبهم لي فقد بريء، ومن لم يكتب لنا أحدًا فليضمن لنا ما في عرافته لا يخالفنا فيهم مخالف، ولا يبغي علينا منهم باغ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمَّة، وحلال لنا مالُه ودمه، وأيُما عَريف وُجد في عِرافته أحد من بُغْية أمير المؤمنين لم يرفعه إلينا صُلِب على باب داره، وأُلغيت تلك العِرافية من العطاء وسُيِّر إلى موضع بعُمان» ثم نزل.

قال: وسمع مسلم بن عَقِيل بمقالة عُبيد الله فخرج من دار المختار وأتى دار

---

(١) مرجانة زوجة زياد ابن أبيه وأم عبيد الله بن زياد.

(٢) فرقة من فرق الخوارج مرّ ذكرها.

هانىء بن عُروة المرادي[١] فدخل بابه واستدعاه، فخرج إليه، فلما رآه كره مكانه، فقال له مسلم: أتيتك لتجيرني وتضيفني. فقال هانىء: «لقد كلَّفْتَني شَطَطًا[٢]، ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني، غير أنه يأخذني من ذلك ذِمام[٣]، ادخلْ!» فآواه، واختلفت الشيعة إليه في دار هانىء.

قال ومرض هانىء، فأتاه عُبيد الله يعوده، فقال له عُمارة بن عمير السلوليّ: دعنا نقتل هذا الطاغية، فقد أمكن الله منه، فقال هانىء ما أُحب أن يُقْتَل في داري، وجاء ابن زياد فجلس عنده ثم خرج، فما مكث إلا جمعة حتى مرض شريك بن الأعور، وكان قد نزل على هانىء، وكان كريمًا على ابن زياد وعلى غيره من الأُمراء، وكان شديدَ التشيع، فأرسل إليه ابن زياد: إني رائح إليك العشية. فقال لمسلم بن عَقِيل: «إن هذا الفاجر عائدي العشية فإذا جلس فاقتله ثم اقصد القصرَ ليس أحد يحول بينك وبينه، فإن بُريتُ من وجعي سرت إلى من بالبصرة فكفيتك أمرهم». فلمّا كان من العشيّ أتاه عُبيد الله فقام مُسلم بن عُقِيل ليدخل، فقال له شريك: لا يفوتنَّك إذا جلس. فقال هانىء بن عُروة: إني لا أُحبّ أن يقتل في داري. وجاء عُبيد الله فجلس عند شريك وأطال، فلما رأى شريك أن مسلمًا لا يخرج خشِي أن يفوته، فأخذ يقول: «ما تنظرون بسلمَى أن تحيُّوها! اسقونيها وإن كانت فيها نفسي!» يقول ذلك مَرَّتين أو ثلاثًا، فقال عبيد الله: «ما شأْنه؟ ترَونه يخلط!» فقال هانىء: «نعم، ما زال هذا دأبه قُبيل الصبح حتَّى ساعته هذه» فانصرف.

وخرج مسلم، فقال له شريك: ما منعك من قتله؟ فقال: «أمران: أحدهما كراهية هانىء أن يُقتَل في منزله، والثاني حديثٌ حدَّثَه عليٌّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «الإيمانُ قَيْدُ[٤] الفَتْك فلا يفتك مؤمن»[٥]. فقال هانىء: لو قتلتَه لقتلتَ فاسقًا فاجرًا كافرًا غادرًا!.

---

(١) هانىء بن عروة بن الفضفاض بن عمران الغطيفي المرادي. سيدٌ مِن سادات الكوفة وكان من صحابة الإمام علي كرّم الله وجهه وخواصه، استحل ابن زياد دمه الحرام وقتله وصلبه لإجارته مسلم بن عقيل في الكوفة أواخر سنة ٦٠هـ. راجع مقاتل الطالبيين ص٩٧ وما بعدها.

(٢) كثيرًا.

(٣) مفردها ذمة وهي الأمانة أو العهد.

(٤) قيد: منع.

(٥) راجع سنن أبي داود باب الجهاد ص١٧٥، ومسند أحمد جـ١ ص١٦٦ فتأمل الفرق بين من اتقى الله سبحانه وتعالى فخاف مخالفة أحكامه كما أداها رسوله ﷺ وبين تلك الطغمة التي حكمت بالقهر والغلبة.

ومات شريك بعد ذلك بثلاث، فصلّى عليه عُبيد الله، فلمّا علم أنه كان يحرِّض مُسْلمًا على قتله قال: والله لا أُصلِّي على جنازة عراقي أبدًا[١]!.

قال: وكان عُبيد الله بن زياد قد أعطى مَوْلًى له ثلاثة آلاف درهم وأمره أن يتلطَّف في الدخول على مسلم بن عَقيل وأصحابه، [وقال]: أعطِهم هذا المالَ وأعْلِمْهم أنك منهم واعْلم أخبارَهم. ففعل، وأتى مُسلمَ بن عَوْسَجة الأسديّ[٢] فقال له: «يا عبد الله، إني امرُؤٌ من أهل الشام، أنْعَم الله عليَّ بحُبّ أهل البيت، وهذه ثلاثة آلاف درهم أردتُ بها لِقاء رجل منْهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ، وقد سمعتُ نفَرًا يقولون: إنك تعرف أمر هذا البيت، وإني أتيتك ليقبضَ المال وتدخلني على صاحبك أُبايعه، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه». فقال: «لقد سَرَّني لقاؤك إيَّاي لتنال الذي تحبّ، وينصرَ اللّهُ بك أهل بيت نبيه وقد ساءني معرفة الناس هذا الأمر من قبل أن يتم، مخافة هذا الطاغية وسطوته» فأخذ بيعته والمواثيق المعظمة ليناصحنَّ وليَكْتُمنَّ.

واختلف إليه أيّامًا، حتى أدخله على مسلم بن عَقِيل، فأخذ بيعته وقبض ماله، وذلك بعد موت شريك، وجعل يختلف إليهم ويعلم أسرارهم وينقلها إلى ابن زياد.

وكان هانيء قد انقطع عن عُبَيد الله بعذر المرض، فدعا عبيدُ الله محمدَ بن الأشعث وابن أسماء بن خارجة[٣]، وعمر بن الحجاج الزَّبيديّ، فسألهم عن هانيء وانقطاعِه، فقالوا إنه مريض. قال: بلغني أنه يجلس على باب داره وقد بريء، فأْتُوه فمُروه لا يدع ما عليه في ذلك من الحق.

فأتَوه فقالوا له: «الأميرُ قد سأل عنك، وقال: لو أعلمُ أنه شاكٍ لعُدْتُه[٤]، وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك، وقد استبطأك، والجَفا لا يحتمله السلطان، أقْسَمنَا علَيك لَمَّا ركبتَ معنا». ففعل فلما دنا من القصر أحسَّت نفسه بالشر، فقال لحسّان بن أسماء بن خارجة: يا بن أخي إني لهذا الرجل لَخائفٌ، فما ترى؟ فقال: ما أتخوف عليك شيئًا، فلا تجعلْ على نفسك سبيلًا، ولا يعلم أسماء مما كان شيئًا[٥].

---

(١) انظر النص في الطبري باختلاف ج٥ ص٣٦١.

(٢) مسلم بن عوسجة الأسدي بطل من أبطال العرب وشرفائهم، شهد كثيرًا من الفتوح ومنها أذربيجان. ناصر الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ واستشهد انتصارًا له سنة ٦١هـ. راجع الكامل في التاريخ ج٤ ص٥٨ وما بعدها.

(٣) حسان بن أسماء بن خارجة.

(٤) أي مريض. والعائد هو زائر المريض.

(٥) راجع الطبري باختلاف وزيادة ج٥ ص٣٦٥.

قال: فدخل القوم على ابن زياد، فلما رأى هانىء بن عُرْوَة قال لشُريح القاضي: «أتتك بحائن رجلاه»[١] فلما دنا منه قال عُبيد الله: [من الوافر]

أُريــدُ حــيــاتَــه ويُــريــد قَــتْــلــي عَــذِيــرَكَ مِــنْ خَــلــيــلــكَ مِــن مُــراد

فقال له هانىء: وما ذاك؟ فذكر له خبر مُسلم بن عَقِيل، وأنه في داره، فأنكر ذلك، وطال بينهما النزاع، فاستدعى عبيد الله مولاه الذي كان يأتيهم، فجاء فوقف بين يديه، فقال: أتعرفُ هذا؟ فقال: نعم. وعلم هانىء أنه كان عَيْنًا[٢] عليهم، فَسُقط في يده ساعة، ثم راجعتْه نفسه فقال: «اسمع مني وصدقني، فوالله لا أكذبك، واللّه ما دعوته ولا علمت بشيء من أمره حتى رأيته جالسًا على بابي يسألني النزول عليّ، فاستحييت من رَدِّه ودخلني من ذلك ذِمام، فأدخلته داري وضِفته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئت أعطيْتُك الآن مَوْثِقًا تطمئن إليه، ورَهينة كون في يدك حتَّى أنطلق وأُخرجه من داري وأعود إليك». فقال: لا والله لا تفارقني أبدًا حتَّى تأتيني به. قال: لا آتيك بضيفي لتقتله أبدًا، فقال ابن زياد: واللّهِ لَتأتينِّي به أو لأضربَنَّ عنقك. قال: إذًا والله تكثر البارقة[٣] حول دارك. فقال: أبِالبارقة تخوفني؟!.

وقيل إن هانئًا لما رأى ذلك اللعين قال: أيها الأمير إنه قد كان الذي بلغك، ولم أُضيِّعْ يدك عندي، فأنت آمنٌ وأهلَكَ فسر حيث شئت، فأطرق عُبيد الله عند ذلك ومهْرانُ[٤] قائم على رأسه، فقال واذلاه! هذا الحائكُ يؤمنك في سلاطنك! فقال: خذه، فأخذ مهران ضفيرتي هانىء، وأخذ عُبيد الله القضيب ولم يزل يضرب به أنفه وجبينه وخديه حتى كسر أنفه، وسَيَّل الدِّماء على ثيابه، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيب، وضرب هانىء يده إلى قائم سيف شُرطي وجبذه[٥] فمنع منه، فقال عُبيد الله: أحَرُوري! أحللت بنفسك وحل لنا قتلك، ثم أمر به فأُلقي في بيت وأُغلق، فقام إليه أسماء بن خارجة وقال: «يا غادر أرسله؛ أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلما أتيناك به هشمت وجهه، وسيَّلتَ دمه، وزعمت أنك تقتله» فأمر به عُبيد الله فلُهز وتُعْتع[٦] ثم تُرِكَ فجلس. وأما ابن الأشعث فقال: رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أو علينا.

---

(١) الحائن: الذي اقترب حينه وهو يوم وفاته. راجع مجمع الأمثال للميداني جـ١ ص٢١ رقم ٥٧.
(٢) أي جاسوسًا.
(٣) كناية عن السيوف والرماح، وعدة الحرب بالجملة.
(٤) مهران كاتب عبيد الله بن زياد وكان قدم عند الأمير.
(٥) أي جذبه.
(٦) اللهز: الدفع بآلة، وتعتعه إذا حركه بعنف.

وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانئًا قد قتل، فأقبل في مَذْحج حتَّى أحاطوا بالقصر، ونادى: «أنا عمرو بن الحجاج، هذه فرسان مَذْحج ووجوهها، لم نخلعْ طاعةً، ولم نفارقْ جماعةً. فقال ابن زياد لشُرَيح القاضي: «ادخل علَى صاحبهم، فانظرْ إليه، ثم اخرجْ إليهم فأعلمهم أنه حيٌّ لم يُقتل وأنك قد رأيته» فدخل عليه، وخرج إليهم فقال: قد نظرت إلى صاحبكم وأنه حيّ لم يقتله، فقالوا: إذ لم يقتله فالحمد لله، ثم انصرفوا.

ذكر ظهور مسلم بن عقيل
واجتماع الناس عليه، ومحاصرته عُبيد الله بن زياد بالقصر
وكيف خذله من اجتمع إليه وتفرقوا عنه
وخبر مقتله ومقتل هانىء بن عُروة

قال: ولما أتى الخبر مسلم بن عَقِيل خرج من دار هانىء، ونادى في أصحابه: «يا منصور أمت»[١] وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفًا، وحوله في الدور أربعة آلاف، فاجتمع إليه ناس كثير، فعقد لعبد الله بنُ عزَير الكِنديّ على رُبع[٢] كندة، وقال: سرْ أمامي. وعقد لمسلم بن عَوْسَجة على ربع مَذْحج وأسد، وعقد لأبي ثُمَامة الصائديّ على ربع تميم وهمدان، وعقد لعباس بن جَعْدة الجَدَليّ على ربع المدينة، وأقبل نحو القصر[٣].

فلما بلغ ابن زياد إقبالُه تَحرّز بالقصر وأغلق الباب، وأحاط مسلم بالقصر، وامتلأ المسجد والسوق بالناس، وما زالوا يجتمعون حتَّى المساء، وضاق بعبد الله أمره، وليس معه في القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشُّرَط، وعشرون من الأشراف وأهل بيته ومواليه، وأقبل أشرافُ الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الروميين، والناس يسبون ابن زياد وأباه[٣].

فدعا ابن زياد كثيرًا بن شهاب الحارثي، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحج فيخذِّلَ الناسَ عن ابن عقيل ويخوفهم، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْدة وحضرموت فيرفع راية الأمان لمن جاءه من الناس، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شَوْر الذُّهْلي، وشَبَث بن رِبْعي التميمي، وحَجَّار بن أبْحَر العجْلي،

---

(١) وهو كلمة سرهم للتجمع وبدء الانتفاض.

(٢) الربع: الدار وهي هنا كناية عن العشيرة.

(٣) راجع النص باختلاف عند الطبري جـ٤ ص٢٧٦.

وشمر بن ذي جَوْشَن الضبابيّ[١] وترك وجوه الناس عنده استئناسًا بهم، لقلة من معه.

وخرج أُولئك النفر على الناس من القصر، فمنُّوا[٢] أهل الطاعة، وخوَّفوا أهل المعصية، فلما سمع الناس مقالة أشرافهم تفرقوا، حتَّى إن المرأة لتأتي ابنها وأخاها، فتقول: «انصرفْ، الناسُ يَكْفونك»، ويفعل الرجل مثل ذلك.

فما زالوا يتفرقون حتى بقي مُسْلم بن عَقِيل في المسجد في ثلاثين رجلًا، فلما رأى ذلك خرج نحو أبواب كِنْدة، فلما وصل إلى الباب لم يَبْقَ معه أحد، فمضى في أزقَّة الكوفة لا يدري أين يذهب.

فانتهى إلى باب امرأة من كِنْدة يقال لها طَوْعة، أم ولد كانت للأشعث، فأعتقها، فتزوجها أسيد الحضرميّ، فولدت له بلالاً وكان بِلال قد خرج مع الناس، وهي تنتظره، فسلَّم عليها، وطلب منها ماء فسقته، فجلس، فقالت: يا عبد الله ألَم تشرب؟! قال: بلى؛ فقالت: فاذهبْ إلى أهلك؛ فسكت، فكررت ذلك عليه ثلاثًا فلم يبرح؛ فقالت: سبحان الله! إني لا أُحِلُّ لك الجلوس على بابي. فقال: ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لكِ في أجر معروف، ولعلِّي أُكافئك به بعد اليوم. قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مُسْلم بن عَقِيل، كَذَبني هؤلاء القوم وغرُّوني. قالت: ادخُلْ؛ فأدخلته بيتًا في دارها، غير البيت الذي تكون فيه، وعرضت عليه العَشاء فلَم يتعشَّ، وجاء ابنُها فرآها تكثر الدخول في ذلك البيت، فسألها، فلم تخبره، فألحَّ عليها، فأخبرته، واستكتمته وأخذت عليه الأيمان بذلك[٣].

قال: وأمَّا ابن زياد، فلما سكنت الأصوات قال لأصحابه: انظروا هل تَرَون منهم أحدًا؟ فنظروا فلم يَرَوا أحدًا، فنزل إلى المسجد قبل العَتَمة، وأجلس أصحابه حول المنبر، وأمر فنودي: «برئت الذمةُ من رجلٍ من الشُّرَط والعُرفاءِ والمناكبِ والمقاتلةِ صَلَّى العَتمة إلا في المسجد، فامتلأ المسجد، فصلَّى بالناس، ثم قام فحمد ثم قال: «أمّا بعد، فإن ابن عَقِيل السَّفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشِّقاق، فبرئت الذمَّةُ من رجل وجدناه في داره، ومن أتانا به فله ديته» وأمرهم

(١) شمر بن ذي الجوشن، شمر لقبه واسمه شرحبيل بن قرط الضبابي الكلابي، كنيته أبو السابغة، أحد أشدّ قتلة الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ وكان الشمر، لعنه الله، من الذين رفعوا رأس الحسين السبط سلام الله عليه إلى الشام وأركض خيله على جسد السبط الشريف، قتل على أيدي التوابين بقيادة المختار الثقفي وألقيت جثته للكلاب. راجع سفينة البحار للقمي ج١ ص٧١٤، والكامل في التاريخ ج٤ ص٢٣٦.

(٢) وعدوهم بالأماني.

(٣) راجع ابن الأثير ج٤ ص٢٣٦ بزيادة.

بالطاعة ولزومها، وأمر الحصين بن تميم أن يُمسكَ أبواب السكك[١]، ثم يفتشَ الدُّور[٢].

وأصبح ابن زياد فجلس، فأتَى بِلال إلى عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وأخبره بمكان ابن عَقِيل، فأتَى عبد الرحمٰن أباه وهو عند ابن زياد فسارَّه بذلك، فأخبر محمد بن الأشعث ابنَ زياد، فقال له: قم فأْتني به الساعة؛ وبعث معه عمرو بن عُبَيد الله بن عباس السُّلَمي في سبعين من قيس، فأتَوا الدار، فخرج ابن عقيل إليهم بسيفه حتَّى أخرجهم من الدار، ثم عادوا إليه فحمل عليهم فأخرجهم مرارًا، وضربه بكر بن حُمْران الأحمريّ فقطع شَفَته العُليا وسقط سنَّتاه، وضربه مسلم على رأسه وثَنَّى بأُخرى على حبل العاتق فكادت تطلع على جوفه، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونه عليه، فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيفه فقاتلهم في السكة[٣]، فقال له محمد بن الأشعث: لك الأمان فلا تقتلْ نفسك؛ فأقبل يقاتلهم ويقول: [من الرجز]

أقسمت لا أُقْتَلُ إلاَّ حُرَّا — وإنْ رأيتُ الموتَ شيئًا نُمْرَا
ويخلط الباردُ سخنًا مرّا — ردَّ شعاعَ النفس مُسْتَقَرَّا
كلُّ امْرِىء يَومًا مُلاقٍ شرَّا — أخاف أن أُكْذَبَ أو أُغَرَّا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تُكذَب ولا تُخدع، القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك، وكان قد أثخِن بالحجارة، وعجز عن القتال، وأسند ظهره إلى حائط تلك الدار، فأمَّنه ابن الأشعث والناس غَيْر عمرو بن عُبيد الله السُّلَمي فإنه قال: لا ناقتي فيها ولا جملي.

وأتي ببغلة فحُمل عليها، وانتزعوا سيفه، فكأنه أيس من نفسه فدمعت عيناه وقال: هذا أولُ الغدر. قال محمد: أرجو ألا يكون عليك بأس. قال: وما هو إلا الرجاء! أين أمانُكم! ثم بكَى، فقال له عمرو بن عُبيد الله: مَن يطلب الذي تطلب إذا نزل به مثلُ الذي نزل بك لم يبك، فقال: ما أبكي لنفسي، ولكن أبكي لأهلي المنقلبين[٤] إلَيكم: أبكي للحُسين[٥] وآل الحسين. ثم قال لمحمد بن الأشعث: «إني

---

(١) الطرق.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ج٤ ص٣٢.
(٣) الطريق.
(٤) الآتين.
(٥) الحسين السبط سيد شباب أهل الجنة ابن علي بن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء بضعة الرسول ﷺ.

أراكَ تعجزُ عن أماني، فهل تستطيعُ أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي، ويقولُ له عني: ليرجعْ بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل؟» فقال ابن الأشعث: واللّهِ لأفعلنَّ. وفعل. وأبَى الحسين الرجوع.

قال: وجاء محمد بمسلم إلى القصر فأجلسه على بابه ودخل هو إلى ابن زياد فأخبره بأمانِه، فقال له: ما أنت والأمان! ما أرسلناك لتؤمنه، إنما أرسلناك لتأتينا به.

قال: ولما جلس مسلم على باب القصر رأى جَرَّة فيها ماء بارد فقال اسقوني من هذا الماء، فقال له مسلم بن عمرو الباهلي: أتراها ما أبرَدَها! واللّهِ لا تذوق منها قَطرةً حتَّى تذوقَ الحميمَ[1] في نار جهنَّم! فقال له ابن عَقِيل: من أنت؟ قال: «أنا مَن عرف الحقَّ إذ أنكرتَه، ونصح الأمة وإمامَه إذ غششته، وسمعَ وأطاع إذ عصيته، أنا مسلم بن عمرو. فقال له ابن عقيل: لأُمك الثُّكل، ما أجفاك وأفظَّك وأقسى قلبك وأغلظك! أنت يا ابن باهلة أولَى بالحميم والخلود في نار جهنم مني!» قال: فدعا عُمارة بن عُقْبة بماء بارد فصبّ له في قدح، فأخذ يشرب فامتلأ القدح دمًا: فعل ذلك ثلاثًا، ثم قال: لو كان من الرِّزق المقسوم لشربته.

وأُدخل على ابن زياد، فلم يسلم عليه بالإمرة، فقال له الحَرَسِي: ألاَ تسلِّم على الأمير. فقال: إن كان يريدُ قتلي فما سلامي عليه! وإن كان لا يريده فلَيَكْثُرَنَّ تسليمي عليه. فقال ابن زياد: لَعَمري لَتُقْتَلَنَّ. قال: فدعني أُوصي إلى بعض قومي. قال: افعل. فقال لعمر بن سعد بن أبي وَقَّاص: «إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة وهي سر». فلم يُمكنه من ذكرها، فقال له ابن زياد: لا تمتن من حاجة ابن عمك. فقام معه، فقال: «إن عليَّ بالكوفة دَينًا استدنتُه أنفقته: سبعمائة درهم، فاقْضِها عنِّي، وانظر جُثَّتي فاستوهِبْها فَوارِها[2]، وابعث إلى الحسين فاردُدْه». فقال عمر لابن زياد: أتدري ما سارّني؟ فقال: أكثرتُمْ عَلَى ابن عمك؛ فقال: الأمر أكبر من هذا. قال: اكتم على ابن عمك، قال: الأمر أكبر من هذا، وأخبره بما قال. فقال ابن زياد: لا يخونك الأمين، ولكن قد يُؤْتَمن الخائن. أمّا مالُكَ فهو لك تصنع به ما شِئتَ، وأمّا حُسين فإن لم يُرِدْنا لم نُرِدْه، وإن أرادنا لم نكُفَّ عنه، وأمّا جثّته فإنا لا نُشفِّعُك فيها» وقيل: إنه قال: وأمّا جثته فإذا قتلناه لا نبالي ما صُنِع بها[3].

---

(١) الحميم: الحجارة الحامية من شدة الوقد. (٢) أي ادفنها.

(٣) راجع ابن الأثير بزيادة ج٤ ص٣٤.

ثم قال: يا ابن عَقيل، أتيتَ الناسَ وأمرهُم جميعٌ وكلمتُهم واحدةٌ لتشتيت بَيْنهم، وتفريق كلمتهم. قال: «كلا ولكن أهل هذا المصر زعموا أنَّ أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم وعمِل فيهم أعمال كِسْرَى وقَيْصر فأتيناهم لنأمُرَ بالعدل، وندعُوَ إلَى حكم الكتاب. فقال: وما أنت وذاك؟ ثم كانت بينهما مقاولة قال له ابن زياد في آخرتها: قتلني اللّهُ إن لم أقتلك قِتْلةً لم يُقتَلْها أحدٌ في الإسلام، فقال: «أمَا إنك أحقُّ مَن أحدث[1] في الإسلام ما ليس فيه، أمَا إنك لا تَدَعُ سوء القتلة وقُبْحَ المُثْلة[2] وخُبْثَ السِّيرة ولُؤمَ الغلبة لأحدٍ من الناس أحقَّ بها منك!» فشتمه ابن زياد وشتم حُسَيْنًا وعليًا وعَقيلاً ولم يكلِّمه مسلم.

ثم أمَر به، فأُصْعِد فوق القصر وهو يستغفرُ اللّهَ تعالى ويُسبِّح، وأُشْرِف به على موضع الحدادين فضربت عنقه، وكان الذي قتله بُكير بن حُمْران، ثم أتبع رأسه جسده[3].

قال: وقام محمد بن الأشعث فكلَّم ابن زياد في هانىء بن عروة، وقال: قد عرفت منزلته من المصر وبيته، وقد علم قومه أني أنا وصاحبي سقناه إليك، فأنْشُدك اللّهَ لمَّا وهبته، فإني أكره عداوة قومه!».

فوعد أن يفعل، ثم بدا له فأمر به حين قُتِل مسلم فأخْرِج إلى السوق فضربتْ عُنقه.

وبعث عُبيد الله بن زياد برأسيهما إلى يزيد، فكتب إليه يزيد يشكره، ويقول له: «قد بلغني أن الحسين بن عليّ توجه نحو العراق، فضع المراصد والمَسالح واحترس، واحبس على التُّهمة، وخُذْ بالظِّنَّة، غير ألاَّ تقتل إلا من قاتلك»[4].

قال: وكان مخرج مسلم بن عَقِيل بالكوفة لثَمان ليالٍ مَضَيْنَ من ذي الحجَّة سنة ستين. وقيل: لتِسْع مَضَيْنَ منه.

---

(١) ابتدع.

(٢) العبث بجيشه الميت.

(٣) راجع ابن الأثير باختلاف ج٤ ص٣٥.

(٤) الشق الأخير من القول مضاف إلى يزيد لركاكته ويزيد فصيح عالي الكعب بشعره ونثره. والأخذ لغة هو القتل، والاستثناء بالعبارة الأخيرة من غير مستثنى وهذا عيب وعي، وليست العبارة الأخيرة قيد لسابقتها، فأنت لا تستطيع أن تأمر بالقتل على الشبهة ثم تستثني ما هو من جنس الأمر لأنه باطل في كلام العرب ولو قال خذ بالظنة غير ألاّ تقتل إلاّ أسودًا أو أبيضًا لصح، ولكن الإضافة وضعت لتبرئة يزيد. وستجد أن الحسين السبط لم يقاتل ابن زياد وإنما طلب الرجوع من حيث أتى فأبى عليه.

وكان فيمن خرج معه المُختار بن أبي عُبيد، وعبد الله بن الحارث بن نَوفل، وطلبهما ابن زياد وحبسهما.

وكان فيمن قاتل مسلمًا محمد بن الأشعث، وشَبَث بن رِبْعيّ، وهو أحد من كتب إلى الحسين، والقَعْقاع بن شَوْر، وجعل شَبَثُ يقول: انتظروا بهم إلى الليل يتفرقوا. فقال له القَعْقاع: إنك قد سَدَدْت علهيم وجه مَهْرَبهم، فافْرِجْ لهم يتفرقوا.

وحجّ بالناس في هذه السنة عمرو بن سعيد الأشدَق، وهو عامل مكة والمدينة. وفيها مات أبو أُسَيْد الساعِدي[١]، واسمه مالك بن رَبيعة، وهو آخر من مات من البَدْرِيِّين، وقيل: مات سنة خمس وستين. ومات حَكِيم بن حِزام[٢] وله مِائة وعشرون سنة، ستون في الجاهلية وستون في الإسلام. ومات جماعة ممن لهم صحبة في هذه السنة.

سنة إحدى وستين:

ذكر مسير الحسين بن علي رضي الله عنهما وخبرِ مَن نَهاه عن المسير

كان مقتله بالطَّف علَى شاطىء الفُرات من أرض كَرْبَلاء[٣]، وذلك في يوم الجمعة لعَشْر خَلَوْنَ من المحَرَّم من هذه السنة.

ولْنبدأ بخبر مَسيره من مكة شرَّفها الله تعالى، وسببِ مَسيره ومن أشار عليه بالمُقام بمكة وترْك المسير إلى الكوفة، ثم نذكر ما كان من خبره في مسيره إلى أن قُتِل رضي الله عنه، فنقول:

كان مسيره من مكَّة لقصْد الكوفة يوم التَرْوِيَة[٤]، وكان سبب مسيره إلى الكوفة ما ورد عليه من كُتُب أهلها كما تقدم، ثم أكَّد ذلك عنده وحَمَلَه عليه وقوّى عزْمَه

(١) من بني ساعدة بن كعب الخزرجي وكان قد شهد بدرًا وأحدًا وكافة مشاهد الرسول ﷺ ومعه كانت راية بني ساعدة.

(٢) ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فيكون ابن أخي خديجة بنت خويلد، رضوان الله عليها.

(٣) كربلاء: موضع قريب من الأهواز فيه حل الكرب والبلاء على أهل بيت محمد ﷺ حيث أمر يزيد بنَ زياد بقتل السبط الشهيد، فاستحلت دماؤهم لبيعة أخذت بالقهر والغلبة. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٤٥.

(٤) الثامن من ذي الحجة وفيه يرتوي الحجاج قبل نهوضهم إلى منى.

ورودُ كتاب مُسلم بن عَقيل بن أبي طالب عليه يخبره أنه بايَعه بالكوفة ثمانيةَ عشر ألفًا، ويستحثُّه على المسير إليها، وكان هذا من مسلم في ابتداء أمره.

قال: ولما عزم الحسين رضي الله عنه على المسير إلى الكوفة أتاه عمر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام فقال له: «إني أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك، فإن كنتَ ترَى أنك تستنصحني[1] قلتها وأدَّيْتُ ما عليَّ من الحق فيها، وإن ظننت أنك لا تستنصحني كففت عمَّا أُريد!» فقال له: قل فوالله ما أستغشك ولا أظنك بشيء من الهوى. قال: «قد بلغني أنك تريد العراق، وإني مشفقٌ عليك أنك تأْتي بلدًا فيه عمّاله وأُمراؤه ومعهم بيوت الأموال، والناس عبيد الدينار والدرهم، فلا آمَنُ عليك أن يقاتلك من وعَدك نصره ومن أنت أحب إليه ممَّن يقاتلك معه!» فقال له الحسين رضي الله عنه: جزاك الله خيرًا يا ابن عمّ، فقد علمت أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومَهْما يُقْضَ من أمر يكنْ، أخذتُ برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمدُ مُشيرٍ، وأنصَحُ ناصحٍ[2].

وأتاه عبد الله بن عباس فقال له: قد أرجفَ[3] الناس أنك سائر إلى العراق، فبيِّنْ لي ما أنت صانع، فقال له: قد أجمعتُ السير في أحد يومَيَّ هذَين إن شاء الله تعالى. فقال له ابن عباس: «فإني أُعيذك بالله من ذلك؛ خَبِّرْني رحمك الله، أتسيرُ إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم ونفَوْا عدوّهم؟ فإن كانوا قد فعلوا فسرْ إليهم، وإن كانوا إنما دعَوْك إلَيهم وأميرهُم عليهم، قاهرٌ لهم، وَعمَّاله تجبي بلادهم، فإنما دعَوك إلى الحرب، ولا آمَنُ عليك أنْ يَغرُّوك ويَكذِبوك ويخالفوك ويخذُلوك ويستنفروا إليك، فيكونوا أشدَّ الناسِ عليك!» فقال الحسين: فإني أستخيرُ الله وأنظرُ ما يكون. فخرج ابن عباس.

وأتاه عبد الله بن الزُّبير فحدَّثه ساعة، ثم قال: «ما أدري مَا تركُنا هؤلاء القوم، وكَفُّنا عنهم، ونحن أبناءُ المهاجرين، وولاةُ هذا الأمر دُونَهم؛ خبِّرْني ما تريد أن تصنعَ؟!» فقال الحسين: «لقد حدَّثتُ نفسي بإتياني الكوفة، ولقد كتب إليّ شيعتي بها، وأشرافُ الناس وأستخيرُ الله». فقال ابن الزبير: أما إنه لو كان لي بها مِثْل شيعتك ما عدلت عنها. ثم خشي أن يتهمه، فقال: أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا ما خالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحناك. فقال له الحسين

---

(١) تظن بين النصح.
(٢) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٣٧.
(٣) تناقل الناس الخبر.

رضي الله عنه: «إن أبي حدثني أن لها كَبْشًا[١] به تُسْتَحل حرمتها، فما أُحبُّ أن أكون ذلك الكبش!» قال: فأقِمْ إن شئت وتوليني أنا الأمر فَتُطاع ولا تُعصَى، قال: ولا أُريد هذا الأمر أيضًا. ثم إنهما أخفيا كلامهما، فالتفت الحسين إلى من هناك وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول قمْ في هذا المسجد أجمعْ لك الناس، ثم قال الحسين: «واللّهِ لأَنْ أُقْتَل خارجًا منها بشبر أَحَبُّ إليَّ مِن أن أُقتل فيها، ولأَن أُقتل خارجًا منها بشبريْن أَحَبُّ إليَّ من أن أُقتل خارجًا منها بشبر، ويم الله، لو كنت في جُحْرِ هامةٍ من هذه الهَوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم، والله لَيَعْتَدُنَّ علَيَّ كما اعتدت اليهود في السَّبْت!»[٢] فقام ابن الزُّبير وخرج من عنده.

فلما كان مِن العَشِيِّ أو من الغَدِ أتاه ابن عبّاس فقال: «يا ابن عم، إني أتصبرُ ولا أصبرُ، إني أتخوَّفُ عليك في هذا الوجه الهلاكَ والاستئصال، إن أهل العراق قومٌ غُدُر فلا تَنفر إليهم، أقمْ بهذا البلد فإنك سيدُ أهل الحجاز، فإن كان أهلُ العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم لينْفوا عاملهم وعدوَّهم، ثم اقدِم عليهم، فإن أبيتَ إلاَّ أن تخرجَ فسر إلى اليمن فإن بها حصونًا وشِعابًا، وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت على الناس في عُزْلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبثَّ دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحبُّ في عافية!» فقال له الحسين: «يا ابن عم، إني والله لأعلمُ أنك ناصحٌ مُشْفِق، وقد أزمعتُ وأجمعتُ المسير!»[٣] فقال ابن عباس: «فإن كنت سائرًا فلا تسرْ بنسائك وصبيانك، فإني لخائف أن تقتل كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه!» ثم قال له ابنُ عباس: «لقد أقررتَ عين ابن الزُّبير بالخروج من الحجاز، وهو اليوم لا ينظرُ إليه أحد معك، والله لو أعلم أني إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتَّى يجتمع علينا الناس أطعتَني فأقمتَ لفعلتُ ذلك!» ثم خرج من عنده.

فمرَّ بابن الزُّبير فقال: قَرَّت عينك يا ابن الزبير، ثم قال: [من الرجز]

---

(١) كبش القوم كبيرهم، وفي الحديث كناية عن الذبح الذي يترصد الكبش وهو كبير الماشية من غنم وماعز.

(٢) وفي حديث السبط عليه السلام إشارة إلى عميق قراءته للواقع السياسي، والغرض الذي يتوخاه يزيد لتثبيت حكومته.

(٣) لاحظ استخدام ابن عباس للفظ «الخروج» واستخدام الإمام السبط لفظ (المسير) إذ أن كل ناصحي الإمام ظنوا خروجه للحرب والخروج عندهم خروجًا للحرب. والإمام السبط كان يسير خارج البيت الحرام لأنه فهم مراد يزيد ولم يحب أن يكون المقتول في مكان لم يحله الله تعالى لأحد إلاّ ساعة من نهار لرسوله ﷺ يوم فتح مكة.

يـا لـكِ مـن قُـبَّـرةٍ بِـمَـعْـمَـرِ خَلاَ لكِ الجوُّ فبِيضي وأَصْفِري[(١)]
وَنَـقِّـري مـا شـئـت أن تـنـقـري[(٢)]

هذا حسين يخرج إلى العراق ويُخلِّيكَ والحجاز.

قال: وخرج حسين من مكة يوم التَّرْوِية، فاعترضه رُسل عمرو بن سعيد مع أخيه يحيَى يمنعونه، فأبَى عليهم ومضَى، وسار فمر بالتنعيم[(٣)] فرأى عِيرًا قد أقبلتْ من اليَمن، بعث بها بَحيرُ بن رَيسان الحميري عامل اليمن إلى يزيد، وعليها الوَرْسُ[(٤)] والحُلَل، فأخذها الحسين ثم سار، فلما انتهى إلى الصِّفَاح[(٥)] لقيه الفرزدق الشاعر فقال له الحسين: بيِّنْ لي خبرَ الناس خلفك فقال: «الخبيرَ سألتَ، قلوبُ الناس معك وسيوفُهم مع بني أُمية، والقضاءُ ينزل من السماء، واللّهُ يفعلُ ما يشاء!» فقال الحسين: صدقت، لله لأمر يفعل ما يشاء، وربُّنا كل يوم في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، هو المستعان على أداء الشكر، وإن حَالَ القضاء دون الرجاء فلم يتَعد من كان الحق نيته، والتقوى سريرته.

قال: وأدرك الحسَين كتابُ عبد الله بن جعفر مع ابنيه عَون ومحمد يقول: «أمّا بعد، فإني أسألك بالله لمَّا انصرفتَ حين تقرأ كتابي هذا فإني مُشفقٌ عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهل بيتك، إن هلكت الآن طُفِيءَ نورُ الأرض فإنك عَلَمُ المهتدين، ورجاءُ المؤمنين، فلا تعجلْ بالسير، فإني في إثر كتابي، والسلام!».

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد وقال: «اكتُب للحسين كتابًا تجعل له فيه الأمان، وتمنيه فيه البِرَّ والصِّلة، وترفق في كتابك، وتسأله الرجوعَ لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع. فقال له عمرو: اكتبْ ما شئت، وأتني به حتى أختمه. فكتب

(١) «خلا لك الجو فبيضي واصفري» مثل أو قول جرى مجرى الأمثال. راجع مجمع الأمثال للميداني جـ١ ص٢٣٩ رقم ١٢٦٨.

(٢) في هذا الرجز روايات أشهرها أنها لطرفة بن العبد الشاعر البكري الجاهلي.

(٣) التنعيم: موضع بمكة في الحِلّ، خارج الحرم، وهو بين مكة وسرِف، على فرسخين أو أربعة من الأولى. راجع ياقوت جـ٢ ص٤٩.

(٤) الورس: نبات أصفر اللون يستخدم للدباغة.

(٥) الصفاح: موضع بين حنين وأنصاب الحرم ليسار الداخل إلى مكة من مشاش. راجع ياقوت جـ٣ ص٤١٢.

عبد الله بن جعفر الكتاب، ثم أتى به عمرو بن سعيد، فقال: اختمه وابعث به مع أخيك يحيى فإنه أحرَى أن تطمئن به نفسه، ويعلم أنه الجِدّ منك ففعل. وكان مضمون الكتاب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد، فإني أسأل الله أن يَصرِفَك عمَّا يُوبقك[1]، وأن يَهديك لما يُرشدك. بلغني أنك قد توجهت إلى العراق، وإني أُعيذك بالله من الشِّقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبدَ الله بن جعفر ويحيى بن سعيد، فأقبِل إليَّ معهما، فإن لك عني الأمانَ والصلة والبر وحسن الجِوار، لَكَ الله عليَّ بذلك شهيدٌ وكفيلٌ، وراعٍ ووكيلٌ، والسلامُ عليك».

فأخذا الكتاب ولحقا حسينًا، فأقرأه يحيى الكتاب. وكان ممّا اعتذر به أن قال: إني رأيت رُؤيا، رأيتُ فيها رسول الله ﷺ وأُمرت بأمر أنا ماضٍ له، فقالا له: ما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدَّثْتُ أحدًا بها ولا أنا محدِّث أحدًا بها حتَّى ألقى ربِّي.

وكتب الحسين إلى عمرو بن سعيد: «أمّا بعدُ، فإنه لم يشاقق اللّهَ ورسولَه من دعا إلى الله وعمِل صالحًا وقال إنني من المسلمين، وقد دعَوْتَ إلى الأمان والبِرّ والصلة، فخيرُ الأمان أمانُ اللّهِ، ولن يؤمنَ بالله يوم القيامة من لم يخفْه في الدنيا، فنسألُ اللّهَ مخافةً في الدنيا توجبُ لنا أمانَه يوم القيامة، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صِلتي وبري فجُزيت خيرًا في الدنيا والآخرة، والسلام».

قال: ولمّا بلغ ابْنَ زياد مَسيرُ الحسين من مكة بعث الحُصين بن نُمير التَّميمي صاحِبَ شرطته، فنزل القادسية، ونظم الخيل ما بين القادسية[2] إلى خَفَّان[3] وما بين القادسية إلى القُطْقُطانة[4] وإلى جبل لَعْلَع[5].

وأقبل الحسين حتى إذا بلغ الحاجز من بطن الرُّمة بعث قيس بن مُسْهر الأسديّ ثم الصَّيداوي إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليهم: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم

---

(١) يوبقك: يهلكك.

(٢) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا وفيه جرت المعركة الكبرى بين المسلمين والمجوس سنة ١٦هـ. راجع ياقوت ج٤ ص٢٩١ وما بعدها.

(٣) خفان: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج من العراق أحيانًا. راجع ياقوت ج٢ ص٣٧٩.

(٤) القُطقُطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف، بينها وبين الرهيمية مغربًا نيف وعشرون ميلاً إذا خرجت من القادسية تريد الشام. راجع ياقوت ج٤ ص٣٧٤.

(٥) لعلع: جبل بين البصرة والكوفة بينه وبين القادسية ستة أميال. راجع ياقوت ج٥ ص١٨.

الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد؛ فإن كتاب مُسْلم بن عَقِيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع مَلئِكم على نصرنا والطلب بحقّنا، فنسأل الله أن يحسنَ لنا الصنع، وأن يُثيبكم على ذلك أعظمَ الأجر، وقد شَخَصْتُ إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثَمانٍ مَضَيْنَ منْ ذي الحجّ يوم التَّرْوِية، فإذا قد عليكم رَسولي فانكمشوا[١] في أمركم وجِدوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله؛ والسلام عليكم ورحمة الله».

وكان مُسْلم بن عَقِيل قد كتب إلى الحسين قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة، أمّا بعد؛ فإن الرائدَ لا يكذبُ أهله، إن جميعَ أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأُ كتابي والسلام.

قال: وأقبل قيس بنَ مُسْهر بكتاب الحسين إلى أهل الكوفة، فلما بلغ القادسية أخذه الحُصين بن نُمير فبعث به إلى ابن زياد، فقال له عُبيد الله: اصعد القصر فسُبَّ الكذَّاب ابن الكذَّاب الحسين بن علي. فصعد قَيس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إن هذا الحسين بن علي رضي الله عنهما خيرُ خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه» ثم لَعن عُبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعليّ، فأمر به عُبَيد الله فرُمي من فوق القصر فتقطع فمات.

قال: ثم أقبل الحسين رضي الله عنه يسيرُ نحو الكوفة، فانتهى إلى ماء مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مُطيع العدَويّ فلما رأى الحسين قام إليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما أقدمك؟ واحتمله فأنزل فقال له الحسين: إنه كان من موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إليَّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم. فقال: «أُذكرك بالله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تُنْتَهك، أنْشُدُك الله في حرمة قريش، أنْشُدك الله في حرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أُميَّة لَيقتلُنَّك، ولَئن قتلوك لا يهابون بعدُ أحدًا أبدًا، واللّهِ إنها لحرمةُ الإسلام تُنْتَهك، فلا تفعلْ، ولا تأْتِ الكوفة، ولا تُعرِّض نفسك لبني أُمية!» فأبى إلاّ أن يمضي[٢].

---

(١) تماسكوا.

(٢) لعل من أهم ما يُلفت إليه أن العامة كانت ترجف وتتوجس من قتل السبط الشهيد، وهذا التوجس عند العامة والخاصة كما حفظه لنا المؤرخون والرواة يحفظ لنا حقيقة اغتيال الاتفاق المعقود بين معاوية والإمام الحسن وخلاصته اشتراط الحسن السبط على معاوية بالخلافة له أو لأخيه السبط الحسين بعد وفاة معاوية وفي حال وفاة السبط الأول، ولم يكن الأمويون بوارد الوفاء بشروطهم، والإمام سار خارج الحرم الشريف إلى العراق ليؤكد رغبة يزيد بتعقبه للقضاء عليه، لأنه الوسيلة الوحيدة لإلغاء الشرط وبذلك لا يستطيع أحد دفع التهمة عن غرض الأمويين هذا. ببساطة لقد تعقّبوا السبط الإمام إلى أقصى العراق ليقتلوه.

فلما نزل بزرود[١] أتاه الخبر بقتل مسلم بن عَقِيل وهانىء بن عروة، فاسترجع مرارًا، فقال له عبد الله بن سليم والمذري بن الْمُشمَعِلّ الأسديان، وكانا قد لحقاه حين قضيا حجَّهما: «ننْشُدك اللّهَ في نفْسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا، فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيعةٌ، بل نتخوفُ أن يكونوا عليك!» فوثب بنو عَقِيل فقالوا لا: والله لا نبرحُ حتّى نُدركَ ثأرنا أو نذوقَ ما ذاق أخونا. فقال الحسين رضي الله عنه: لا خيرَ في العيش بعد هؤلاء. فقال له بعض أصحابه: إنك واللّهِ ما أنت مثل مُسلم بن عَقيل، ولو قدِمْتَ الكوفةَ لكان الناس إليك أسرع. فانتظر الحسين حتى إذا كان السَّحر قال لفتيانه وغلمانه: أكثروا من الماء. فاستقوا فأكثروا، ثم ارتحلوا حتّى انتهوْا إلى زُبَالة[٢].

وقيل: كان الحسين لا يمرُّ بماءٍ إلا اتبعه أهل ذلك الماء، حتى انتهى إلى زُبَالة، فأتاه خبر مقتل أخيه من الرّضاعة عبد الله بن بُقْطر، وكان سَرَّحه إلى مُسلم بن عَقيل من الطريق، وهو لا يدري أنه أُصيب فأخذه الحصين بالقادسية، فبعث به إلى زياد فقال له: اصعدْ فوق القصر فالعن الكذّاب ابن لكذّاب ثم انزل حتى أرى فيك رأيي، فصعد فلما أشرف على الناس قال: «أيها الناس، إني رسول الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ إليكم، لتنصروه وتؤازروه على ابن مَرْجانة ابن سمية الدَّعي!» فأمر به عُبيد الله فألقي من فوق القصر إلى الأرض فتكسرت عظامه وبقي به رمق، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه، فلمّا عِيب عليه ذلك قال: إنما أردت أن أريحه.

فلمّا بلغ الحسينَ الخبر قال لأصحابه: من أحبَّ منكم الانصراف فلينصرفْ غير حَرِجَ، ليس عليه منّا ذِمَام؛ فتفرق الناس عنه حتى بقي في أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة.

قال: وإنما فعل ذلك لأنه علم أن الأعراب ظنت أنه يأتي بلدًا قد استقامت له طاعة أهله، فأراد أن يعلموا علامَ يقدمون.

قال: ثم ارتحل الحسين وسار حتى مرَّ ببطن العقبة[٣] فنزل بها، فأتاه بعض

---

(١) زرود: موضع رملي بين الثعلبية والخريجية بطريق الحاج من الكوفة. راجع معجم البلدان ج٣ ص١٣٩.

(٢) زبالة: منزل بطريق مكة من الكوفة بين واقصة والثعلبية. راجع معجم ياقوت ج٣ ص١٢٩.

(٣) والعقبة: لعلها وراء نهر عيسى قريبة من دجلة إلى بغداد، والعقبة عمومًا هو كل طريق طويل صعب إلى صعود جبل، وبطن العقبة إما هو الوادي أن صعودها وإما الانتهاء منها. راجع ياقوت ج٤ ص١٣٤.

الأعراب فسأله عن مقصده فأخبره، قال: «إنّي أنشُدك اللّهَ لمَّا انصرفت، فوالله ما تقدم إلاَّ على الأسِنَّة وَحدِّ السيوف، إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفَوْك مؤنة القتال ووطَّئوا لك الأشياء فقدمتَ عليهم، كان ذلك رأيًا، فأما على هذه الحال التي تذكر فإني لا أرى لك أن تفعل!» فقال الحسين: يا عبد الله، إنه ليس بخفيٍّ عليَّ ما رأيت، ولكن الله لا يُغْلَب على أمره!.

ثم ارتحل منها وقد استهلَّت إحدى وستين، وسار حتَّى نزل شَراف[١] فلما كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء وأكثروا، ثم ساروا منها صَدْرَ يومهم[٢] حتَّى انتصف النهار، فكبَّر رجل من أصحابه فكبّر الحسين، وقال: ممّ كَبَّرْتَ؟ قال: رأيت النخل، فقال عبد الله بن سليم والمذري بن المُشْمَعِل الأسديان: واللّهِ إن هذا المكان ما رأينا فيه نخلة قط، قال: فما تريان؟ قالا: نراه والله رأى هَوادي الخيل[٣]. فقال الحسين: وأنا والله أرى ذلك، ما لنا ملجأٌ نلجأُ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقيل له: «بَلى هذا ذُو حُسَم[٤] إلى جنبك تميل إليه عن يسارك، فإن سبقتَ القوم إليْه فهو كما تريد، فمال إليه، فما كان بأسرع من أن طلعتْ هَوادي الخيل، فلما رأوْهم قد عدلوا عن الطريق عدلوا عنها إلى قصدهم، فسبق الحسين إلى ذي حُسَم، فنزل وأمر بأبنية فضُربت، وجاء القوم وهم ألف فارس عليهم الحرُّ بن يزيد التميمي[٥]، فجاؤوا حتى وقفوا مقابل الحسين رضي الله عنه: وكان مسير الحر ومن معه من القادسية من قبل الحُصَين بن نُمير التميمي.

فلم يزل الحُرُّ مواقفًا[٦] حسينًا حتى حضرت صلاة الظهر، فأمر الحسينُ الحجاج بن مسروق الجُعفي أن يؤذن، فأذن، فلما حضرت الإقامة خرج الحسين رضي الله عنه، في إزار ورداء ونعلين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيُّها الناس،

---

(١) شَراف: بين واقصة والقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء التي لبني وهب، ومن شراف إلى واقصة ميلان. راجع ياقوت ج٣ ص٣٣١.

(٢) صدر اليوم: أوله.

(٣) هوادي الخيل: أعناقها.

(٤) الحُسم: موضع، ولعله جبل صخري في المنطقة. راجع ياقوت ج٢ ص٢٥٨.

(٥) الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، بطل من أبطال الإسلام. حرّ شهم أبي أُرسل لاعتراض الإمام السبط في طريقه إلى الكوفة، وعندما جاءت خيل ابن زياد وعمر بن سعد وأرادوا قتل الحسين السبط ابن بنت رسول الله اختار الحرُّ الانحياز لرسول الله بأهل بيته ﷺ فاعتذر إلى الحسين السبط وقاتل بين يديه ليكون واحدًا من الأحرار في عالم وضع أهله الأغلال في أعناقهم. واستشهد الحر مع الحسين السبط في وقعة كربلاء سنة ٦١هـ.

(٦) أراد أنه منعه من إكمال سيره.

معذرةً إلى الله وإليكم، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم أن اقْدمْ علينا فإنه ليس لنا إمامٌ لعل الله يجمعُنا بك على الهدى والحق، إن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تُعطوني ما أطمئنُ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمَقْدَمي كارِهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم» فسكتوا عنه، وقال للمؤذن: أقِم. فأقام الصلاة، فقال الحسين للحر: أتريدُ أن تصلي بأصحابك؟ فقال: لا، بل صَلِّ أنت ونصلِّي بصلاتك، فصلَّى بهم الحسين، ثم دخل واجتمع إليه أصحابه.

وانصرف الحر فدخل خيمة قد ضُربت له، واجتمع عليه جماعة من أصحابه، وعاد بعض أصحابه إلى صَفِّهم الذي كانوا فيه، ثم أخذ كل رجل بعِنان دابته وجلس في ظلها.

فلما كان وقت العصر أمر الحسين أصحابه أن يتهيؤوا للرحيل ففعلوا، ثم خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر وأقام، وصلّى الحسين بالقوم جميعًا، ثم سلم وانصرف إليهم بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أمّا بعد؛ أيها الناس، فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضَى لله، ونحن أهلَ البيت أوْلَى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجوْر والعُدْوان، فإن أنتم كرهتمونا وجهِلتم حَقَّنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم، وقدِمت علَيَّ به رُسُلكم، انصرفتُ عنكم»، فقال له الحر: إنَّا واللّهِ ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر. فأمر الحسين رضي الله عنه بإخراج كتبهم، فأُخرجت في خرجين مملوءين، فنثرهما بين أيديهم، فقال الحر: إنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نُقْدِمك الكوفة على عُبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: الموت أدْنَى إليك من ذلك، ثم قال لقومه: قوموا فاركبوا، وركب نساؤهم.

فلما أرادوا الانصراف حال القوم بينهم وبين المسير، فقال الحسين للحر: ثَكِلَتْك أُمُّك! ما تريد؟ قال له: «أمَا واللّهِ لو غيرُك مِن العرب يقولها وهو على مثل الحال التي عليها ما تركت ذكر أُمه بالثكل أن أقوله كائنًا من كان، ولكن واللّهِ ما إلى ذكر أُمِّك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه»، فقال له الحسين: ما تريد؟ قال: أُريد أن أنطلق بك إلى عُبيد الله بن زياد. فقال له الحسين: إذًا واللّهِ لا أتبعك. فقال الحر: إذًا واللّهِ لا أدعُك. فَترادًا القول ثلاث مرات، فلما كثر الكلام بينهما قال الحر: «إني لم أُومَرْ بقتالك، إنما أُمرت أن لا أُفارقك حتى أُقْدِمَك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقًا لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة يكون بيني وبينك نصفًا، حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه، أو إلى

عُبيد الله إن شئت، فلعل الله أن يرزقني العافية من أن أُبْتَلَى بشيء من أمرك!» قال: فتياسر[١] عن طريق العُذَيب[٢] والقادسية، وبينه حينئذ وبين العُذَيب ثمانية وثلاثون ميلًا. ثم سار والحرُّ يسايره.

قال: ثم إن الحسين خطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطانًا جائرًا، مستحلاً لحُرَم الله، ناكثًا لعهده، مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ، يعملُ في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يُدخلهُ مُدْخَله»[٣]. ألاَ وإنَّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعَطَّلوا الحدود واستأثروا بالفَيءِ، وأحَلُّوا حرام الله، وحَرَّمُوا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رُشْدكم، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم بي أُسْوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيْعتي فلَعَمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغترَّ بكم، فحظَّكم أخطأتم ونصيبَكم ضيَّعتم، ومن نكَث فإنما ينكُث على نفْسه، وسيُغني الله عنكم، والسلام.

فقال له الحر: إني أُذكِّرك اللّهَ في نفْسك، فإني أشهد لئن قاتلت لَتُقْتلنَّ، فقال الحسين رضي الله عنه: أبالموت تخوِّفني؟! وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلوني! وما أدري ما أقول لك؟! ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، لقيه وهو يريد نصرة النبي ﷺ، له فقال أين تذهب فإنك مقتول؟ فقال: [من الطويل]

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى خيرًا وجاهد مسلما
وآسَى الرجالَ الصالحين بنفسه ... وفارقَ مَثْبورًا[٤] وخالف مُجْرِمَا
فإن عشتُ لم أندم وإن متّ لم أُلَمْ ... كفى بك ذُلاًّ أن تعيش وتُرْغَمَا[٥]

---

(١) أخذ يسار لطريق.

(٢) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، وبينه وبين الأول أربعة أميال، وبينه وبين الثانية اثنان وثلاثون ميلًا. راجع ياقوت جـ٤ ص٩٢.

(٣) أي أن كل مسلم رضي بما فعل السلطان الجائر، فهو شريك معه في فعله والله سبحانه سيدخل كليهما المدخل ذاته يوم القيامة. فالراضي بجور السلطان الجائر داخل مدخل السلطان الجائر يوم القيامة وقد ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل جـ٤ ص٤٨.

(٤) الثبور: الهلاك والخسران.

(٥) راجع النص بزيادة عند ابن الأثير جـ٤ ص٤٩.

قال: فلما سمع الحُرّ ذلك تنحى عنه، فكان يسير ناحية عنه، حتى انتهوا إلى عُذَيب الهِجانات، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرسًا لنافع بن هلال يقال له الكامل، ومعهم دليلهم الطِّرِمَّاح(١) وهو يقول: [من الرجز]

يا ناقتا(٢) لا تُذْعَري من زَجْري ... وشَمِّري قبلَ طلوعِ الفجرِ
بخيرِ رُكْبانٍ وخيرِ سَفْرِ ... حتّى تجلّى بكريم النحرِ
الماجدِ الحر رحيبِ الصَّدر ... أتى به اللّهُ لخيرِ الأمْرِ
* ثُمَّتَ أبقاه بقاءَ الدهر *

فلما انتهوا إلى الحسين رضي الله عنه والتحقوا به، فقال الحر: إن هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا ممن أقبلوا معك، وأنا حابِسُهم أو رادُّهم؛ فقال الحسين رضي الله عنه: «لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، إنما هؤلاء أعواني وأنصاري، وقد كنتَ أعطيتني ألاّ تَعرِضَ لي حتى يأتيَك كتابٌ من ابن زياد»؛ قال: أجَلْ ولكن هؤلاء لم يأتوا معك.

فقال: «هم أصحابي، وهم بمنزلة من جاء معي، فإن تممتَ علَى ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك»(٣). فكفّ عنهم الحرُ.

وسألهم الحسين عن خبر أهل الكوفة، فقال له مجمّع بن عبد الله العائذي، وهو أحد الأربعة: «أمّا أشرافُ الناس فقد أُعظِمَتْ رشوتهم ومُلِئَتْ غرَائرهم(٤)، فهم إلْبٌ(٥) واحد علَيك، وأمّا سائر الناس بَعْدُ فإن أفئدتهم تَهْوِي إليك وسيوفهم غدًا مشهورةٌ علَيك!». فقال: هل لكم برسولي إليكم عِلْم؟ فقالوا: من هو؟ قال: قَيس بن مُسْهِر الصيْداوي. قالوا: نعم؛ وأخبروه بمقتله، فترقرقت عينا حسين ولم يملك دَمْعه، ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]

---

(١) الطرماح بن حكيم بن الحكم الطائي، اعتقد اعتقاد الشراة من الخوارج، وكان لسانهم. عاش حتى الربع الأول من القرن الثاني للهجرة. راجع الأغاني ج١٠ ص١٤٨.

(٢) الألف هنا ألف الإطلاق وليست ألف التثنية، وقد خففت منها الهاء. وكأنه أراد أن يقول (يا ناقتاه).

(٣) ناجذتك: أراد شرعت بمقدمات القتال.

(٤) مفردها غراره وهي كيس من شعر أو سواه لحفظ الحبوب.

(٥) أي متألبين، وتألب الناس إذا اجتمعوا على عداوة رجل.

اللهُم اجعل لنا ولهم الجنة نُزُلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ورغائب مذخور ثوابك.

قال: ودنا الطِّرِماح من الحسين، فقال له: «والله إني لأَنْظُر فما أرى معك أحدًا، ولو لم يقاتلْك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازِميك لكان كُفوًا لهم، وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظَهْرَ الكوفة وفيه من الناس ما لم تَرَ عَيناي في صَعيد واحد جمعًا أكثر منه، فسألتُ عنهم، فقيل: اجتمعوا ليُعْرَضوا ثم يُسَيَّروا إلَى الحسين، فأنشدُك اللّهَ إن قدرتَ علَى ألا تقْدم إلَيهم شِبرًا إلا فعلتَ، وإن أردتَ أن تنزل بلدًا يمنعك الله به حتَّى ترَى من رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسِرْ حتَّى أُنْزِلَك مَناعَ جبلنا الذي امتنعنا به من ملوك غَسَّان وحِمْيَر ومن النُّعمان بن المُنْذِر ومن الأسْوَد والأحمر، فأسير معك حتَّى أُنزلك القرية[1]، ثم لتبْعثْ إلى الرجلا ممَّن بِأجَأ وسَلْمَى[2] من طَيِّء، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتَّى يأتيك طيىءٌ رِجالاً ورُكبانًا، ثم أقِمْ فينا ما بدا لك، فإن هاجك هَيْجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائيٍّ يضربون بين يديك بأسيافهم، ووالله لا يوصَل إليك أبدًا وفيهم عَيْنٌ تطْرِف!».

فقال له: جزاك الله وقَوْمَك خَيرًا، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري عَلامَ تتصرف بنا وبهم الأمور!.

قال الطِّرمَّاح: فودَّعته وقلتُ: «إني قد امْتَرْتُ لأهلي مِيرةً[3]، ومعي نفقة لهم فآتيهم فأصنع ذلك فيهم، ثم أقبل إليك إن شاء الله، فإن ألحقْكَ فواللّهِ لأكونَنَّ من أنصارك» فقال لي: فإن كنتَ فاعلاً فعجِّلْ رحمك الله.

قال الطِّرمَّاح: فلما بلغتُ إلَى أهلي وضعتُ عندهم ما يُصلحهم، وأوصيتُ، وأخبرتهم بما أريد، وأقبلت حتى دنَوْتُ من عُذَيْبِ الهجانات، فأتاني نَعْيُ الحسين هناك!.

---

(١) القرية: لعله أراد قرية مجاورة أو أنه أراد تلك التي لبني سدوس من أخصب قرى اليمامة. ولعله القُرَيّة بالتصغير وهي محلة ببغداد أو لعله أراد منازل طيىء المجاورة. راجع ياقوت ج٤ ص٣٢٠.

(٢) أجأ وسلمى: جبلان شاهقان عن يسار سميراء، وفيهما قرى كثيرة. ومنازل طيىء في الجبلين عشر ليالٍ من دون فيد. وبين المدينة والجبلين ثلاث مراحل. راجع ياقوت ج١ ص٩٤.

(٣) ما ادخره الإنسان من الطعام.

قال المؤرِّخ(١): ثم مضى الحسين إلى قصر بني مُقاتل(٢)، فنزل به. قال عقبة بن سمعان: فلمّا كان آخِر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء، ثم أمرنا بالرحيل، ففعلنا، فلمّا سِرنا ساعة خَفَق(٣) الحسين برأسه خفقة فقال: «إنَّا لله وإنَّا إلَيه راجعون. الحمد لله رب العالمين» يُعيدها مرَّتين أو ثلاثًا، فأقبل عليه ابنه عليّ بن الحسين، فاسترجع وحمد الله وقال: «يا أبَتِ، جُعُلْتُ فِداك، مِمَّ حمِدتَ الله واسْتَرْجعْتَ؟» قال: «يا بُنَيَّ، إني خفقت برأسي خفقة، فعَنَّ لي فارس علَى فرس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمتُ أنها أنفسُنا نُعِيَتْ إلَينا!» قال: يا أبَتِ ألَسْنا علَى الحق؟ قال: بَلَى والَّذي إليه مَرْجع العباد. قال: يا أبَتِ إذَن لا نُبالِي أن نموت مُحقِّين. فقال له: جزاك الله خَيْرَ ما يَجزي ولدًا عن والده.

فلما أصبح نزل فصلى الغَداة، ثم عَجّل الركوب، وسار حتَّى انْتَهَى إلَى نِينَوى(٤)، والحُرُّ ومَن معه يسايرونه فإذا راكبٌ على نَجيبٍ عليه السلاح يمسك قوسًا مُقبلٌ من الكوفة، فوقفوا جميعًا ينتظرونه، فلما انْتهى إلَيهم سَلمَ على الحرِّ وأصحابه، ولم يسلم علَى الحسين، ودفع إلى الحُرِّ كتابًا من عُبيد الله بن زياد: «أمَّا بَعْدُ، فَجَعْجِعْ(٥) بالحسين حين يبلغك كتابي ويُقدم عليك رسولي، فلا تُنزله إلاَّ بالعرَاء في غير حِصْن وعلى غَير ماء، وقد أمرتُ رسولي أن يلزَمَك فلا يفارقك حتى يأتيَني بإنفاذك أمري، والسلام».

فقال الحُر: هذا كتابُ الأمير عُبيد الله بن زياد، يأمرني فيه أن أُجَعْجع بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابه، وهذا رسوله، وقد أمره ألاَّ يفارقني حتى أُنفذَ رأيَه وأمره.

(١) لعله الطبري والنويري أكثر أخذًا عنه. راجع النص باختلاف في الكامل جـ٤ ص٥١.

(٢) قصر مقاتل: قصر بين عين التمر والشام قريب من القطقطانة وسلام ثم القُرَيَّات وهو قصر منسوب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس المنتهي إلى زيد مناة بن تميم. راجع ياقوت جـ٤ ص٣٦٤.

(٣) خفق الرأس: أن تأخذ الإنسان إغفاءة وهو واقف أو جالس فينخفق لها الرأس بفعل الانسحاب مع الوسن السريعة عابرة من غير قصد للنوم.

(٤) نِينَوَى: وهي قرية يونس بن متى بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى قريبة من كربلاء. راجع ياقوت جـ٥ ص٣٣٩.

(٥) ضيق عليه المكان يسوقه باتجاه يد يده.

قال: فأخذهم الحُرُّ بالنزول في ذلك المكان علَى غير ماء ولا قرية، فقالوا: دَعْنا نَنزل في هذه القرية، يَعْنون نِينَوَى، أو هذه القرية، يَعنون الغَاضِرِيَّة[1]، أو هذه الأخرى، يعنون شَفِيَّة[2]، فقال: لا واللّهِ ما أستطيع ذلك، هذا رجل بُعِث عَيْنًا علَيَّ.

فقال زُهَير بن القَيْن للحسين: «يا ابن بنت رسول الله ﷺ، قِتالُ هؤلاء الساعةَ أهْوَنُ علَينا من قتال مَن يأتينا من بعدهم، فلَعمري لَيأْتِيَنَّا من بعدما نرَى ما لا قِبَلَ لنا به!» فقال له الحسين: ما كنتُ لأبدأهم بالقتال. فقال له زهير: «سِرْ بنا إلى هذه القرية حتَّى ننزلها فإنها حصينة وعلَى شاطىء الفُرات، فإنْ منعونا قاتلناهم، فقتالُهم أهْوَنُ علَينا من قِتال من يجيءُ بعدهم» فقال له الحسين: أيَّةُ قَريةٍ هي؟ قال: العَقْر[3]. فقال الحُسين: اللهم إني أعوذ بك من العَقْر! ثم نزل، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرَّم سنة إحدى وستين.

فلما كان الغد قدم علَيهم عُمر بن سَعد بن أبي وقَّاص[4] من الكوفة. وكان سبب مسيره لقتال الحسين أن عُبَيد الله بن زياد كان قد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة، يسير بهم إلى دَسْتَبَى، وكانت الدَّيْلَم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، فكتب ابن زياد له عَهْدَه علَى الرَّيِّ، وأمره بالخروج، فخرج وعسكر بالناس، فلما كان من أمر الحسين ما كان، دعا ابنُ زياد عُمَرَ بن سعد وقال: سر إلى الحسين فإذا فرغنا مِمَّا بَيْنَنا وبَيْنَه سرتَ إلَى عملك. فاستعفاه، فقال: نعم، على أن تردَّ علَينا عهدنا. فلما قال له ذلك قال: أمهلني اليومَ حتَّى أنظرَ. فاستشار عمرُ نصحاءَه، فكلُّهم نهاه، وأتاه حمزة بن المغيرة بن شعبة، وهو ابن أخته، فقال له: «أنشُدُكَ اللّهَ يا خالي ألاَّ تسيرَ إلى الحسين فتأثَمَ بربك وتقطَعَ رحِمَك! فواللّهِ لأن تخرجَ من دنياك ومالِك وسلطانِ الأرض كلِّها، لو كان لك، خَيْرٌ من أن تلقَى الله بدم الحسين!» فقال: أفعلُ إن شاء الله. وبات لَيلَتَه مفكرًا في أمره فسُمِع وهو يقول: [من الطويل]

أأتركُ مُلكَ الرَّيِّ والرَّيُّ رغبتي أم أرْجِعُ مذمومًا بقتل حُسَيْنِ
وفي قتله النارُ التي ليس دونها حجابٌ، وملكُ الريِّ قُرَّةُ عَيْنِ

(١) الغاضرية: قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء، ياقوت جـ٤ ص١٨٣.
(٢) ماء على بحيرة مجاورة. راجع ياقوت جـ٣ ص٣٥٣.
(٣) العقر: عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة. راجع ياقوت جـ٤ ص١٣٦.
(٤) عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري، ابن الصحابي الفاتح سعد بن أبي وقاص استذله الأمويون واشتروا منه دينه بإمارة الري، قتله المختار الثقفي انتقامًا لقتله السبط الحسين حوالي سنة ٦٦هـ.

ثم أتَى ابنَ زياد فقال له: إنك قد ولَّيتني هذا العمل وسمع الناس به، فإن رأيت أن تُنفذَ لي ذلك وتبعث إلَى الحسين من أشراف الكوفة مَن لست أغني ولا أجزَأ عنك في الحرب منه، وسَمَّى له أُناسًا؛ فقال له ابن زياد: لا تعْلمني بأشراف الكوفة، فلسْتُ أستأمِرُك فيمن أريد أن أبعث، فإن سرتَ بجندنا وإلاَّ فابعث إلينا بعهدنا؛ قال: فإني سائر. فأقبل في ذلك الجيش حتى نزل بالحسين.

فلما نزل به بعث إليه عزرة بن قَيْس الأحْمَسي، فقال له: ائته فاسأله: ما الذي جاء بك؟ وماذا تريد؟ وكان عَزْرة ممَّن كتب إلى الحسين، فاستحيَى منه أن يأتيَه، فعرض عُمر ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه، فكلُّهم أباه وكرهه.

فقام إليه كثير بن عبد الله، وكان فارسًا شجاعًا، فقال: أنا أذهب إليه ووالله إن شئتَ لأفتِكَنَّ به. فقال عُمر: ما أريد أن يُفْتَكَ به ولكن أن تسأله: ما الذي جاء به؟ فأقبل إليه، فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين: أصلحك الله، قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرؤه[1] على دم وأفتكه[2]. فقام إليه، فقال له: ضع سيفك. قال لا واللّهِ ولا كرامة، إنما أنا رسولٌ فإن سمعتم أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم، وإن أبَيْتم انصرفت عنكم. فقال له رجل: فإني آخذ بقائم سيفك ثم تكلم بحاجتك. قال: لا واللّهِ لا تمسّه. فقال له: أخبرني ما جئت به وأنا أُبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر. فاسْتَبَّا[3]، ثم انصرف إلى عمر فأخبره الخبر.

فدعا عمر قُرَّة بن قيس الحنظلي، فقال له: ويحك يا قرة، ألق حسينًا فاسأله: ما جاء به؟ وماذا يريد؟ فأتاه فأخبره رسالة ابن سعد، فقال له الحسين: كتب إليَّ أهلُ مصركم أن أقدمَ عليهم، فأمَّا إذ كرهتموني فإني أنصرف عنهم. فانصرف قُرَّة إلى عمر فأخبره الخبر، فقال عمر: إني لأرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله.

ثم كتب إلى عبيد الله بن زياد: «أما بعد، فإني حَيْثُ نزلت بالحسين بعثتُ إليه رسولي، فسألته عمَّا أقدمه وماذا يطلب وماذا يسأل، فقال: كتب إليَّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلُهم فسألوني القدوم ففعلت، فأمّا إذْ كرهوني وبَدَا لهم غيرُ ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم».

فلما قُرىء الكتاب علَى ابن زياد قال: [من الكامل]

الآنَ إذْ علـقَـتْ مَـخـالِـبُـنـا بـه يـرجـو الـنـجـاةَ ولاتَ حـيـنَ مَـنـاصِ

---

(١) الصواب فيها أجرؤهم.
(٢) صوابها: أفتكهم.
(٣) تشاتما.

وكتب إلى عمر بن سعد: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، أمّا بعدُ فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت، فاعرض على الحسين أن يبايعَ يزيدَ بن معاوية أمير المؤمنين هو وجميعُ أصحابه، فإذا هو فعل رأيْنَا والسلام» فلما قرأ عمر الكتاب قال: قد أحسستُ ألاَّ يقبلَ ابنُ زياد العافيةَ.

قال: وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: «أمّا بعد، فَحُلْ بَين الحسين وأصحابه وبَيْن الماء، فلا يذوقوا منه قَطرة، كما صُنع بالتقيّ الزكيّ المظلوم أميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عفَّان».

فبعث عُمر عمرو بن الحجاج على خمسِمائة فارس، فنزلوا علَى الشَّريعة(١)، وحالوا بَيْن الحسين وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم أن يسقوا منه قطرة، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث.

وناداه عبد الله بن أبي حصين الأزدي: «يا حسين، ألا تنظر إلى الماء كأنه كَبِد السماء! واللّهِ لا تذوقُ منه قطرةً حتَّى تموت عطشًا!» فقال الحسين: «اللهم اقتلْه عطشًا ولا تغفر له أبدًا!» قال أبو جعفر الطبري في تاريخه: قال حميد بن مسلم«واللّهِ لقد عُدْتُه بعد ذلك في مرضه، فَوَاللّهِ الذي لا إله إلا هو لقد رأيتُه يشرب حتَّى يَبْغَر(٢)، ثم يَقِيءُ، ثم يعود فيشرب حتَّى يَبْغَر، فما يَرْوَى، فما زال ذلك دأبه حتَّى لَفَظ غُصَّته» (يعني نفسه).

قال: فلمّا اشتدَّ علَى الحسين ومن معه العطش دعا أخاه العبّاس بن عليّ، فبعثه في ثلاثين فارسًا وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرين قِرْبة، فدنَوْا من الماء، وقاتلوا علَيه، حتَّى مَلَؤوا القِرَب وعادوا بها إلى الحسين.

قال: ثم بعث الحسين إلى عُمر بن سعد أن الْقَنِي الليلَة بين عسكري وعسكرك. وكان رسوله إليه عَمرو بن قَرَظة بن كَعْب الأنصاري، فخرج عمر في نحو من عشرين فارسًا، وأقبل الحسين في مثل ذلك، فلمَّا الْتقيا أمر الحسين أصحابه أن يتنحَّوْا عنه، وأمر عمر بمثل ذلك، فتكلما، فأطالا حتَّى ذهب من الليل جانب، ثم انصرف كل منهما إلى عسكره.

قال: وتحدَّث الناس فيما بينهم ظنًّا يظنُّونه أن الحسين قال لعمر بن سعد: اخرجْ معي إلى يزيد بن معاوية ونَدَع العسكَرَين. فقال له عمر: إذن تُهْدَم داري. قال: إذن أبنيها لك. قال: إذن تُؤخذ ضِياعي. قال: إذن أُعطيك خيرًا منها بالحجاز. فكرِه ذلك عمر بن سعد.. فتحدث الناس بذلك من غير أن يكونوا سمعوه.

---

(١) مُرتَوى الماء أو موردها. (٢) يبغر: يمتلىء منه.

قال: وذكر جماعة من المحدِّثين أن الحُسَين قال: اختاروا مني خِصالاً ثلاثًا: إما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلتُ منه، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرَى فيما بيني وبينه رأيَه، وإما أن أسير إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لي ما لهم وعليَّ ما عليهم.

وأنكر عُقبة بن سمعان هذه المقالة وقال: «صحِبْتُ الحسين، فخرجتُ معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أُفارقه حتى قُتل، وليس من مخاطبته الناسَ كلمةٌ بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتُها، ألاَ واللّهِ ما أعطاهم ما يتذاكرُ الناسُ ويزعُمون من أنْ يضع يده في يد يزيد بن معاوية ولا أن يسيِّره إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال: دعوني أرجع إلى المكان الذِي أقبلتُ منه، أو دَعُوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظرَ: إلَى مَ يصير أمْرُ الناس؟.

وقيل: الْتقَى الحسين وعمر بن سعد مِرارًا ثلاثًا أو أربعًا، فكتب عمر إلى عبيد الله بن زياد: «أما بعد، فإن الله قد أطفأ النائرة[1] وجَمَع الكلمة، وأصلح أمْر الأُمّة، هذا الحسين قد أعطاني أن يرجع إلَى المكان الذي منه أتَى، أو أن نسيِّرَه إلى ثَغْر من الثغور شِئْنا فيكونَ رجلاً من المسلمين له ما لَم وعلَيه ما عليهم، أو أن يأتيَ يَزيدَ أميرَ المؤمنين فيضَعَ يدَه في يده فيرَى فيما بَيْنَه وبينه رأيَه، وفي هذا لكم رِضىً وللأُمة صلاح».

فلما قرأ عُبَيد الله الكتاب قال: هذا كتابُ رجلٍ ناصح لأميره مشفق علَى قومه، نَعَمْ، قد قبلتُ.

فقام إليه شمر بن ذي الجَوْشَن فقال: «أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلَى جَنْبك، واللّهِ لَئن رحل من بلادك ولم يضعْ يده في يدك لَيَكونَن أوْلَى بالقوة والعزة ولتكونَن أوْلَى بالضعف والعجز، فلا تُعْطه هذه المنزلة فإنها من الوَهن، ولكنْ لِيَنزِلْ علَى حكمك هو وأصحابُه، فإن عاقبتَ فأنت وليُّ العقوبة، وإن عفَوْتَ كان ذلك لك، واللّهِ لقد بلغني أن الحسين وعُمر بن سعد يجلسان بين العسكرَين فيتحدثان عامة الليل».

فقال له ابْنُ زِياد: «نِعْمَ ما رأيْتَ، اخرُجْ بهذا الكتاب إلَى عُمر بن سعد، فلْيَعْرض علَى حسين وأصحابِه النزولَ علَى حكمي، فإن فعلوا فلْيَبعثْ بهم إليّ سلْمًا،

---

(١) كناية عن الحرب.

وإن هم أَبَوْا فلْيُقاتلْهم، فإن فعل فاسمعْ له وأطعْ، وإن هو أَبى أن يقاتلَهم فأنت أميرُ الناس وثِبْ علَيه فاضْربْ عنقه وابعثْ إليَّ برأسه».

وكتب ابن زياد إلى عمر بن سعد: «أمَّا بَعْدُ، فإني لم أبعثْكَ إلَى الحسين لِتكُفَّ عنه، ولا لِتُطاوِلَه، ولا لتُمَنِّيَه السلامة والبقاء، ولا لِتقعُدَ له عندي شافعًا، انظرْ، فإنْ نزل الحسين وأصحابه علَى الحكم واستسلموا فابعثْ بهم إليَّ سلْمًا، وإنْ أَبَوْا فازْحَفْ إلَيهم حتَّى تقتلهم وتمثِّل بهم، فإنهم لذلك مستحقُّون، فإن قُتِل الحسين فأَوْطِىء الخَيْلَ صدره وظهره، فإنه عاقٌّ مُشاقٌّ قاطع ظَلُوم، فإن أنت، مَضَيْتَ لأمْرنا فيه جَزَيْناك جزاءَ السامع المطيع، وإن أنت أَبَيْتَ فاعتزلْ عملنا وجندنا، وخَلِّ بَيْن شمرٍ وبين العسكر، فإنَّا قد أمرناه بأمْرنا، والسلام».

فأقبل شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد، فقرأه، فقال له عمر: «ما لَك؟ وَيْلك! لا قرَّب الله دارك، وقبّح الله ما قدِمتَ به عليَّ! واللّهِ إني لأظنُّك أنت الذي ثَنَيْتَه أن يَقْبل ما كتبتُ به إلَيه، أفسدتَ علَينا أمرًا كنا نرجو أن يصلح، لا يستسلمُ واللّهِ حسينٌ أبدًا، واللّهِ إن نفْسًا أبِيَّةً لبَيْنَ جنبَيْه!».

فقال له شمر: أخبرْني ما أنت صانع: أتَمضِي لأمْر أميرك وتُقاتل عدوّه وإلاَّ فخَلِّ بَيْني وبين الجند والعسكر؟ فقال: لا، ولا كرامةَ لك، ولكن أنا أتولَّى ذلك.

فنهض إلَيه عشيَّةَ الخميس لتسع مَضَيْن من المحرَّم.

وكان شمر لمَّا قبض كتاب ابن زياد إلَى عمر بن سعد قام هو وعبد الله بن أبي المحل، وكانت عمَّتُه أمّ البنين ابنة حزام عند عليّ بن أبي طالب فولدتْ له العبَّاس وعبد الله وجعفرًا وعثمان. قال عبد الله: «أصلَح اللّهُ الأمير، إنَّ بَنِي أُختنا مع الحسين، فإن رأيْتَ أن تكْتب لهم أمانًا فعلتَ». فقال: نَعَمْ ونَعْمَةَ عَيْنٍ[١] فأمر كاتِبَه فكتب لهم أمانًا.

فلمَّا نهض عُمر إلَى الحسين جاء شمر حتَّى وقف على أصحاب الحسين فقال: أين بَنو أُختنا؟ فخرج إليه العبَّاس وعبد الله وجعفر وعثمان بنو علي، فقالوا: ما لَك؟ وما تريد؟ قال: أنتم يا بَني أُختي آمنون، فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانَك! لئن كنت خالنا أتؤمِّننا وابْنُ رسول الله لا أمانَ له!

---

(١) قول للقبول والإفهام.

قال: ثمَّ إن عُمر بن سعد نادى: يا خَيْلَ الله اركبي وابشري. فركب الناس، ثم زحَف بهم نحوهم بعد صلاة العصر، والحُسَينُ جالس أمام بيته مُحْتَبِيًا[١] بسيفه، إذْ خَفَقَ برأسه علَى ركبَتَيْه، وسمعتْ أُخته الصيحة، فدنت منه فأيقظتْه وقالت: أما تسمع الأصواتَ قد اقتربتْ! فرفع الحسين رأسه فقال: إني رأيْت رسولَ الله ﷺ في المنام، فقال لي: إنك تروح إلينا. فلطمتْ وجهها وقالت: واوَيْلَتاه! فقال: ليس لكِ الويلُ يا أُخَيَّة، اسكتي رحمكِ الله[٢].

وقال له العبَّاس: يا أخي أتاك القوم. فنهض ثم قال: يا عبَّاس أركبُ بنفسي. فقال له العباس: بل أروح أنا. فقال: اركبْ أنت يا أخي حتَّى تلقاهم فتقولَ لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عمَّا جاء بهم. فأتاهم العباس فاستقبلهم في نحو عشرين فارسًا، فقال لهم: ما بدا لكم؟ وما تريدون؟ قالوا: جاء أمْر الأمير بأن نَعْرِض عليكم أن تنزلوا علَى حكمه أو نُناجِزَكم. قال: فلا تَعْجَلوا حتَّى أرجِعَ إلَى أبي عبد الله فأعْرِضَ علَيه ما ذكرتم. فوقفوا، وانصرف راجعًا يركُض إلَى الحُسين فأخبره الخبر، فقال له الحسين: ارجعْ إليهم فإن استطعتَ أن تؤخِّرهم إلى غُدوة لعلنا نصلي لربنا الليلةَ وندعوه ونستغفره. فرجع العبّاس إليهم فقال: «يا هؤلاء، إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه الليلة، حتَّى ينظر في هذا الأمر، فإن هذا الأمر لم يَجْرِ بَيْنكم وبَيْنه فيه منطِق[٣]، فإذا أصبحنا الْتقينا إن شاء الله، فإمّا رضيناه فأتَيْنا الأمر الَّذي تسألوننا وتسوموننا[٤]، أو كرهناه فردَدْناه».

قال: وإنَّما أراد الحسين أن يردَّهم عنه تلك العشيَّة حتَّى يأمر بأمره ويُوصي أهله.

فاستشار عُمر بن سعد شمر بن ذي الجَوْشَن في ذلك، فقال شمر: أنت الأمير والرأيُ رأيك. فأقبل عمر على الناس فقال: ماذا تَرَوْن؟ فقال له عمرو بن الحجّاج الزبيدي: سبحانَ الله! واللّهِ لو كان من الدَّيْلم ثم سألوك هذه المنزلةَ لكان ينبغي لك أن تُجيبَهم إلَيها. وقال قيس بن الأشعث: أجِبْهم إلَى ما سألوك فلَعمري لَيَصْبَحُنَّك بالقتال غُدْوَةً. فقال: واللّهِ لو أعلم أن يفعلوا ما أَخَّرْتُهم العشِيَّة.. ثم رجع عنهم.

قال: وجمع الحسين أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد عنهم فقال: «أُثْنِي علَى الله تبارك وتعالى أحسَنَ الثناء، وأحمَدُه علَى السَّرَّاء والضراء، اللهُم إني أحمَدُك علَى

---

(١) كان يضعه على ركبتيه.
(٢) راجع ابن الأثير باختلاف جـ٤ ص٥٩.
(٣) أراد قولاً.
(٤) تفاوضوننا عليه.

أن أكرمتَنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهْتَنا في الدين، وجعلت لنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين، أما بعد، فإني لا أعلم أصحابًا أوْفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهلَ بَيْتٍ أبر ولا أوْصَلَ مِن أهل بيتي، فجزاكم الله جميعًا عني خيرًا، ألاَ وإني لأظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا، ألاَ وإني قد أذِنتُ لكم، فانطلِقوا جميعًا في حِلّ، ليس عليكم في ذِمام[١]، هذا الليل قد غشِيكم فاتخِذوه جَمَلاً[٢]، ثم ليَأخُذْ كُل رجل منكم بِيَدِ رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في البلاد، في سوادكم[٣] ومدائنكم، حتى يفرّج الله، فإن القومَ إنما يطلبونني ولو قد أصابوني لَهَوْا عن طلب غيري!»[٤].

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: «لِمَ نفعل ذلك؟ لِنَبْقَى بَعدك! لا أرانا الله ذلك أبدًا!» بدأهم بهذا القول العباس بن علي، ثم تكلموا بهذا ونحوه، فقال الحسين: يا بني عَقيل، حسبكم من الفتك بمُسْلِم[٥]، اذهبوا فقد أذِنتُ لكم! قالوا: «فماذا يقول الناس؟ يقولون: أنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، لم نَرْمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا! لا واللّهِ لا نفعل، ولكن نَفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نَرِدَ مَوْرِدَك فقبّح الله العَيشَ بعدك!».

وقام إليه مُسلم بن عَوْسَجة الأسَدي[٦]، فقال: «أنحن نتخلّى عنك ولم نُعْذِرْ إلَى الله في أداء حقك؟ أمَا واللّهِ لا أُفارقك حتى أكْسِر في صدورهم رمحي وأضربَهم بسيفي ما ثَبت قائمُه في يدي! واللّهِ لو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دُونَك حتَّى أموت!».

وقال له سعد بن عبد الله الحنفي: «والله لا نخلّيك، حتّى يعلمَ الله أنّا قد حفظنا غيبةَ رسولِ الله ﷺ فيك، والله لو علمتُ أني أحيا ثم أُحْرَق حيًا ثم أُذْرَى، يُفْعَل بي

---

(١) أراد لا عهود بيننا، فقد أحللتكم منها.

(٢) ولله دره من كناية ما أفصحها، فقد شبّه الليل وسيره كالدابة تقل السفر وهم المسافرين.

(٣) السواد: النواحي والقرى والمنازل.

(٤) راجع ابن الأثير باختلاف جـ٤ ص٥٧ ـ ٥٨.

(٥) مسلم بن عقيل بن أبي طالب.

(٦) مسلم بن عوسجة الأسدي، فاتح بطل شهد فتوح أذربيجان وغير ذلك كثير من فتوحات صدر الإسلام. وأحد من نفر صحبوا الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ فلم يبيعوا دينهم بدنياهم. استشهد بكربلاء مع الحسين السبط سنة ٦١هـ. راجع الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٥٨.

ذلك سبعين مَرَّة، ما فارقتُك حتى ألقَى حِمامي[١] دُونَك! فكيف لا أفعلُ ذلك وإنما هي قتْلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدًا!».

وقال زُهير بن القَيْن: «واللّهِ لَوَدِدْتُ أني قُتِلْتُ ثم نُشِرْتُ[٢] ثم قُتلتُ، حتَّى أُقْتَلَ هكذا ألف قتلة، وأن الله يدفعُ بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفِتْية من أهل بيتك!».

وتكلَّم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضًا في وجه واحد، فقالوا «واللّهِ لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفِداء! ونَقِيك[٣] بنُحورنا وجِباهنا وأيدينا وأبداننا! فإذا نحن قُتلنا وَفَيْنا وقَضَيْنا ما علَينا!». . وهذا القول من كلام الحسين وكلامهم مَرْوِيّ عن زَيْن العابدين عليّ بن الحُسين رضي الله عنهما.

قال: وسمعتْه زَيْنَبُ[٤] أختُه في تلك الليلة وهو في خباء له يقول ـ وعنده حوى مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه ـ: [من الرجز]

يـا دهـرُ أُفٍّ لـك مـن خـليـلِ كَـم لـك بـالإشـراق والأصيـلِ[٥]

مـن صـاحـبٍ أو طـالـبٍ قَـتِـيـلِ والـدهـرُ لا يَـقْـنَـعُ بـالـبَـدِيـلِ

وإنَّـمـا الأمـرُ إلَـى الـجَـلـيـلِ[٦] وكُـلُّ حَـيٍّ سـالِـكُ الـسـبـيـلِ

فأعاد ذلك مَرّتَين أو ثلاثًا، فلمّا سمعتْه[٧] لم تَملك لنفْسها أن وثَبَتْ تجرُّ ثَوْبَها وإنها لحاسِرة حتَّى انتهت إلَيه فقالت: «واثُكْلاه! لَيت الموت أعْدَمني الحياة! اليومُ ماتت فاطمة أمِّي وعليٌّ أبي وحَسَنٌ أخي! يا خليفة الماضي وثِمال[٨] الباقي!». فنظر إليها وقال: يا أُخَيَّة لا يُذْهِبَنَّ حِلْمَكِ الشيطانُ. قالت: بِأبي وأُمِّي أنتَ استقتلت نفسي فِداؤُك! فردَّد غُصَّته، وتَرَقْرَقَتْ عيناه، ثم قال: «لو تُرِكَ القَطا[٩] لَيْلاً لَنام!»[١٠].

---

(١) موتي. (٢) بعثت.

(٣) نحميك.

(٤) زينب بنت علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه شريفة فصيحة شهدت مصرع الحسين السبط وكان لها مواقف تشرفت بها الإنسانية. والرواية منقولة كما في مقاتل الطالبيين عن الإمام السجاد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٥) الغروب. (٦) اسم من أسماء الله الحسنى.

(٧) الشريفة زينب بنت علي أخت السبط الشهيد.

(٨) الأخير الباقي. (٩) القطا: من جنس الحمام البري.

(١٠) عجز بيت لحذام بن الديان وتمامه:

ألا يـا قـومـنـا ارتـحـلـوا وسـيـروا فـلـو تُـرِكَ الـقـطـا لـيـلاً لـنـامَ

فقالت: «يا وَيْلَتا! أفَتُغْصَبُ نَفْسَك اغتِصابًا؟ فذلك أقْرَحُ لِقلبي وأشدُّ علَى نفسي!» ثم لطمتْ وجهَها وأهوت إلَى جَيْبِها فشقته[١]، ثم خَرّت مَغْشِيًّا علَيها، فقام إليها الحسين لصبَّ علَى وجهها الماء وقال لها: «يا أُخَيَّة، اتَّقِي الله، وتَعَزَّيْ بعَزاء الله، واعلمي أن أهلَ الأرض يموتون، وأن أهل السماء لا يبقَوْن، وأن كلَّ شيءٍ هالك إلاَّ وَجْهَه، الذي خلق الأرض بقدرته، ويبعث الخلق فيعودون وهو فَرْد وَحْدَه، وأبي خَيْرٌ منّي، وأمّي خَيْرٌ مني، وأخي خيرٌ منّي، ولي ولهم ولكل مسلم أسْوَةٌ برسول الله ﷺ!» فعزَّها بهذا ونحوه، وقال لها: «يا أُخَيَّة، إني أُقسم علَيْكِ فأبرِّي قَسَمي، ألاَّ تشُقّي علَيَّ جَيْبًا، ولا تَخْمِشي[٢] علَيَّ وجهًا، ولا تَدْعِي علَيَّ بالوَيْل والثُّبور[٣] إذا أنا هلكتُ!».

ثم خرج إلى أصحابه، فأمرهم أن يقرِّبوا بيوتهم بعضَها إلى بعض، وأن يُدخلوا الأطناب[٤] بعضها في بعض، وأن يكونوا هم بَيْن البيوت، فيستقبلوا القوم من وجه واحدٍ، والبيوتُ من وَرائهم وعن أيمانهم وعن شَمائلهم.

قال: وقاموا الليل كلَّه يصلُّون ويستغفرون ويدْعُون ويتضرَّعون.

فلمّا صلّى عُمر بن سعد الغَداة، وذلك يوم السبت، وهو يوم عاشوراء، وقيل: يوم الجمعة، خرج فيمن معه من الناس.

وعبَّأ[٥] الحُسَين أصحابه بالغَداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلًا، فجعل زُهَير بن القَيْن في ميمنته، وحبيب بن مُظَهَّر في ميسرته، وأعطى رايته العبَّاس أخاه، وأمر بحَطَب وقصب فأُلقي في مكان مخفضٍ من ورائهم كأنه ساقية كانوا عملوه في ساعة من الليل، وأضرم فيه نارًا، لِئَلاَّ يُؤْتَوْا من ورائهم، فنفعهم ذلك[٦].

وجعل عُمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزُّبيدي، وعلى مَيسرته شمْر بن ذي الجَوْشَن، وعلى الخيل عَزْرة بن قيس الأحْمَسي، وعلى الرجال شَبَث بن رِبْعِيّ، وأعطى الراية ذُوَيدًا مَولاه، وجعل على رُبع المدينة عبد الله بن زهير الأزْدي، وعلى ربع ربيعة وكِنْدة قَيس بن الأشعث بن قيس، وعلى ربع مَذْحِج وأسَد

---

(١) منتهى التعبير عن الحزن والحسرة.
(٢) خمش: خدش.
(٣) الثبور: الخسران.
(٤) مفردها: طنب: وهو جبل الخباء.
(٥) عبأ: هيأ.
(٦) راجع ابن الأثير باختلاف وزيادة ج٤ ص٥٩ ـ ٦٠.

عبد الرحمٰن بن أبي سَبْرة الحَنَفي، وعلى رُبع تَميم وهَمْدان الحُرّ بن يزيد الرِّياحي.. فشهد هؤلاء كلُّهم مقتل الحسين إلا الحرّ بن يزيد، فإنه عَدَل إلى الحسين وقُتِل معه على ما نذكره.

قال: ولما أقبلوا إلى الحسين أمر بفُسْطاط فضُرِب، ثم أمر بمِسْك، فمِيث[١] في جَفْنة[٢] عظيمة، ثم دخل الحسين ذلك الفُسْطاط واستعمل النُّورَة[٣]، ثمَّ خرج فركب دابّته، ودعا بمُصحَف فوضعه أمامه، ورفع يدَيه فقال: «اللهمَّ أنت ثِقَتي في كلّ كَرْب، ورجائي في كلِّ شِدَّة، وأنت لي في كل أمرٍ نَزل بي ثِقة وعُدَّة، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد، وتقِلُّ فيه الحيلة، ويَخْذُل فيه الصديق، ويشمَت فيه العدوُّ أنزلتُه بك وشكوتُه إليك، رغبةً مِنّي إلَيك عَمَّن سِواك، ففرَّجْته وكشفتَه وكَفَيْتَنيه، فأنت وليُّ كلِّ نعمة، وصاحبُ كلِّ حسن، ومُنْتَهَى كلِّ رغبة!».

وأقبلوا نحو الحسين، فنظروا إلى النار تَضْطَرِم في الحَطَب والقَصَب، فقال شمر بن ذي الجَوْشَن: يا حسين استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة. فقال له الحسين: يا ابْنَ راعية المِعْزَى أنت أوْلَى بها صلِيًا[٤]!.

ثم ركب الحسين راحلته، وحمل ابنه عليًا علَى فَرَسِه «لاحِق».

ذكر ما تكلم به الحسين رضي الله عنه قبل إنشاب الحرب وما وعظ به الناس وما أجابوه وما تكلم به أصحابه وما أُجيبوا به وخبر مقتله

قال: ولما ركب الحسين راحلته نادَى بأعلَى صوته نداءً يُسمِعُ جلَّ الناسِ: أيها الناسُ، اسمعوا قَولي، ولا تُعجلوني حتَّى أعظكم بما يحقُّ لكم، وحتَّى أعتذرَ لكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النَّصَفَ[٥] كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقْبلوا مني العذرَ ولم تُعطوا النَّصَف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦].

---

(١) فميث: أذيب وعجن. (٢) جفنة: قصعة.
(٣) النورة: حجر مخصوص لإزالة شعر الأبدان.
(٤) احتراقًا. (٥) العدل.

ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمد ﷺ وعلى ملائكة الله وأنبيائه، ثم قال: أما بعد، فانسُبوني[١] وانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم، وعاتِبوها، فانظروا هل يصلُح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟؟ ألستُ ابْنَ بنتِ نبيّكم وابْنَ وَصِيِّه وابن عمّه وأوّلِ المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء به من عند ربّه؟ أوَليس حمزة سيّدُ الشهداء عمَّ أبي؟ أوليس جعفرٌ الطيّار في الجنة بجناحَيْن بِعَمِّي؟ أوَلَمْ يبلُغْكم قولٌ مستفيضٌ فيكم أنَّ رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: «هذان سيِّدا شباب أهل الجنة»؟ فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق، وما تعمّدت كذبًا مذ علمت أن الله يمقُت عليه أهلَه ويضرُّ به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري[٢] أو أبا سعيد الخُدْرِيّ[٣] أو سَهْل بن سعد الساعِدي[٤] أو زيد بن أرقم[٥] أو أنس بن مالك[٦] يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أمَا في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟!.

فقال له شمر: هو يعبدُ الله علَى حَرْفٍ إن كان يدري ما يقول. فقال له حبيب بن مظهّر: «واللّهِ إني لأراك تعبد الله على سبعين حَرْفًا، وإني أشهد أنك صادق وأنك لا تدري ما تقول، قد طَبَع اللّهُ على قلبك!»[٧].

ثم قال الحسين: فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكُّون أني ابن بنت نبيّكم؟ فواللّهِ ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم! أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة[٨]؟!

---

(١) تحققوا نسبي.

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري من بني سلم. صحابي كثير الرواية. توفي سنة ٧٨هـ. راجع الإصابة جـ١ ص٢١٣.

(٣) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي، كنيته أبو سعيد صحابي كثير الرواية توفي سنة ٧٤هـ. راجع حلية الأولياء جـ١ ص٣٦٩.

(٤) سهل بن سعد الخزرجي الأنصاري من بني ساعدة، صحابي توفي سنة ٩١هـ. راجع الإصابة ترجمة ٣٥٢٦.

(٥) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي، شهد صفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه. توفي سنة ٦٨هـ.

(٦) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، كنيته أبو تمامة، صاحبي، كثير الرواية عن رسول الله ﷺ توفي في البصرة سنة ٩٣هـ. راجع طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٠.

(٧) يعني الشمر اللعين.

(٨) الجراحة: أقل العدوان.

فلم يكلّموه، فنادى: «يا شَبَث بن رِبْعِيّ، ويا حجار بن أبحر، ويا قَيس بن الأشعث، ويا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أنْ قد أيْنَعتِ الثمار، واخضر الجناب، وطَمَتِ الجِمام[١]، وإنما تقدَم على جند لك مجنَّد، فأقبِلْ؟».

قالوا: لم نفعل، قال: «سبحان الله! بلَى والله لقد فعلتم!».

ثم قال: أيُّها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

فقال له قيس بن الأشعث: أولاً تنزل علَى حُكم بني عمك فإنهم لن يُرُوك إلا ما تحبّ ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال له الحسين: «أنت أخو أخيك[٢]، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مُسلم بن عَقيل؟ لا واللّهِ لا أعطيهم بيدي إعطاءَ الذليل ولا أُقرُّ إقرار العبيد!! عبادَ الله، إنّي عُذت بربِّي وربِّكم أنْ تَرْجُمُون[٣] إني عُذْتُ بربِّي وربِّكم من كلِّ متكبِّر لا يؤمن بيَوْمِ الحساب[٤]!».

ثم أناخ راحلته، ونزل عنها، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه.

فخرج زُهَير بن القَين علَى فرسٍ له شاكي السلاح[٥]، وقال: «يا أهل الكوفة، نَذَارِ[٦] لكم من عذاب الله نَذَارِ، إن حقًّا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة، وعلى دين واحد ومِلة واحدة، ما لم يقع بَيننا وبَينكم السيف، فأنتم للنصيحة أهْلٌ، فإذا وقع السيفُ انقطعت العِصمةُ، وكنا أمّة وأنتم أمّة، إن الله قد ابتلانا وإيّاكم بذرية محمد ﷺ لينظرَ ما نحن وأنتم عاملون، إنَّا ندعوكم إلى نصرهم وخِذْلان الطاغية ابن الطاغية عُبَيد الله بن زياد، فإنكم لا تذكرون منهما إلاَّ سُوءًا، يَسْمُلان[٧] أعْيُنَكم، ويقطعان أيديَكم وأرجُلكم، ويمثِّلان بكم، ويرفعانكم علَى جُذوع النخل[٨]، ويقتلان أماثِلكم[٩] وقُرَّاءكم، أمثال حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه، وهانيء بن عُرْوة وأشباهه!».

---

(١) كناية عن استحقاق الأوان وتمامه.

(٢) إشارة إلى ما فعله أخوه محمد بن الأشعث، حيث أمّن مسلم بن عقيل ثم نكث.

(٣) استئناسًا بقوله تعالى من سورة الدخان الآية ٢.

(٤) استئناسًا بقوله تعالى من سورة غافر الآية ٢٧.

(٥) تام العدة.

(٦) لفظ تحذير من الإنذار.

(٧) يقتلعان.

(٨) كناية عن الصلب، الجذوع جمع جذع وهو قائم الشجر.

(٩) أفاضلكم.

قال: فسَبُّوه، وأثنَوْا علَى عُبَيد الله بن زياد، ودعَوْا له، وقالوا: والله لا نَبْرَحُ حتَّى نقتلَ صاحبك ومَن معه أو نبعثَ به وبأصحابه إلى الأمير عُبَيد الله سَلَمًا[١].

فقال لهم: «عبادَ الله، إن ولد فاطمة أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سُمَيَّة[٢]، فإن كنتم لم تنصروه فأُعيذكم بالله أن تقتلوه، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية، فلَعمري إن يزيد ليرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين!».

فرماه شمر بسهم وقال: اسكتْ، أسكت الله نَأْمَتَك[٣]، أبْرَمْتَنا بكثرة كلامك!

فقال له زهير: «يا ابن البَوَّال على عَقِبَيْه، ما إيَّاك أخاطب، إنما أنت بَهيمة، والله ما أَظُنُّك تُحْكِم من كتاب الله آيتين، فأبشِرْ بالخِزْي يوم القيامة والعذاب الأليم!».

فقال له شمر: إن الله قاتِلُك وصاحبك عن ساعة. قال: «أفَبِالموت تخوِّفني؟ فواللّهِ لَلْموتُ أحبُّ إلَيَّ من الخُلْد معكم!» ثم رفع صوته وقال: «عباد الله، لا يغُرَّنَّكم من دينكم هذا الجِلْفُ الجافي وأشباهُه، فواللّهِ لا تنالُ شفاعةُ محمد قومًا هَراقوا دماءَ ذُرِّيَّته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذَبَّ عن حريمهم!».

فأتاه رجل من قبل الحسين فقال له: «إن أبا عبد الله يقول لك: أقبِلْ، فلَعَمْري لئن كان مُؤْمِن آلِ فِرْعَوْنَ[٤] نصحَ قومه وأبلغَ في الدعاء لقد نصحتَ لهؤلاء وأبلغتَ لو نفع الصلح والإبلاغ!».

قال: ولمّا زحَف عمر بن سعد إلى الحسين أتاه الحُرُّ بن يزيد فقال له: «أصلحك الله، أمُقاتِلٌ أنت هذا الرجل؟!» قال: «إي واللّهِ، قتالاً أيْسَرُه أن تسقط الرؤوس وتَطِيحَ الأيدي[٥]!» قال: أفما لكم في واحدة من الخِصال التي عَرَض علَيكم رضًى؟ قال عمر: «أمَا واللّهِ لو كان الأمر لي لفعلتُ! ولكنَّ أميرك قد أبى ذلك». فأخذ الحُرُّ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً، وأخذتْه رِعْدَة[٦]، فقال له رجل من قومه يقال له «المهاجر بن أوس»: ما تريد يا ابْنَ يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت، وأخذه مِثْلُ العُرَوَاء[٧]، فقال له: «يا ابن يزيد، إنَّ أمْرك لمُرِيب! واللّهِ ما رأيتُ منك في

(١) وفي رواية خولاً أي عبيدًا.

(٢) سمية جدة عبيد الله لأبيه زياد وكانت بغيًا في الجاهلية. ومرجانة أمه.

(٣) النأمة: الحركة أو الصوت الخفيف وربما كلاهما.

(٤) الذي كان يكتم إيمانه وقال لفرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ أراد موسى سلام الله عليه. انظر سورة غافر الآية ٢٨.

(٥) كناية عن قطعهما.

(٦) رجفة.

(٧) ما يصيب المحموم من انتفاض وخلافه.

مَوقفٍ قَطُّ مِثْلَ شيء أراه الآن! ولو قيل لي: مَن أشجعُ أهلِ الكوفة رجُلاً؟ ما عَدَوْتك! فما هذا الذي أرعى منك؟» فقال له: «إني ـ والله ـ أخَيِّرُ نفسي بَيْن الجنة والنار، والله لا أختار علَى الجنة شيئًا ولو قُطِّعتُ وحُرِّقت!»[١].

ثم ضرب فَرَسه، فلحِق بالحسين، فقال له: «جعلني اللّهُ فِداك يا ابن رسول الله، أنا صاحِبُك الذي حبسْتُك عن الرجوع، وسايَرْتُك في الطريق، وجَعْجَعْتُ بك في هذا المكان، ووَاللّهِ الذي لا إله إلا هو ما ظَنَنتُ أن القوم يردُّون عليك ما عرَضتَ علَيهم أبدًا ولا يبلُغون منك هذه المنزلة! فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القومَ في بعض أمرهم ولا يَرَوْن أني خرجتُ من طاعتهم، وأمَّا هُمْ فسيَقبلون من الحسين بعضَ هذه الخصال التي يَعْرِض عليهم، ووَاللّهِ لو ظننتُ أنهم لا يقبلونها منك ما ركبْتُها منك! وإنِّي قد جئتك تائبًا ممّا كان مني إلى ربِّي مُوَاسيًا لك بنفسي حتَّى أموتَ بين يدَيْك! أفَتَرَى ذلك لي توبة؟» قال: نعم يتوبُ الله عليك ويغفر لك.

قال: فتقدم الحُرّ، ثم قال: «أيُّها القوم[٢]، ألاَ تقبلون من الحسين خَصْلة من هذه الخصال التي عَرَض عليك فيعافيَكم الله من حربه وقتاله؟» فقال له عمر: «قد حَرَصْتُ، لو وجدتُ إلى ذلك سبيلاً فعلتُ!» فقال: «يا أهل الكوفة، لأُمِّكم الهَبَلُ[٣]! دعَوْتموه حتَّى إذا أتاكم أسلمتموه! وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دُونَه ثُمَّ عَدَوْتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنَفَسِ وأخذتم بكَظَمِه[٤] وأحطتم به من كل ناحية، فمنعتموه التوجُّه في بلاد الله العريضة، حتَّى يأمَنَ أهل بيته، فأصبح في أيديكم كالأسير لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا يدْفع عنها ضُرًّا! ومنعتموه ومَن معه من ماء الفُرات الجاري الذي يشربه اليهوديُّ والنصرانيّ والمجوسيّ، وتمرَّغ فيه خنازير السَّواد وكلابُه، وها هم قد صَرعهم العطش! بئس ما خلفتم محمدًا في ذرِّيَّته! لا أسقاكم الله يوْم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمَّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه!» فرمَوْه بالنَّبْل، فرجع حتَّى وقف أمام الحسين.

وزحف عمر بن سعد، ثم نادى: «يا ذُوَيْد[٥]، ادْنِ رايتك» ثم رمَى بسهم وقال: اشهدوا أني أوَّل من رَمَى بسهم. ثم ارتَمَى الناس.

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٢٤ ص٦٤.

(٢) في النص وردت «الأمير» وهو خطأ لأن الأمير عبيد الله بن زياد لم يكن معهم، وفي كلي الطبري وابن الأثير جاءت كما أثبتنا.

(٣) الشكل.

(٤) أراد أخذتم عليه كل متنفس وهي كتابة عالية الفصاحة.

(٥) ذويدًا أو دريدًا كما في الكامل، مولى عمر بن سعد وحامل رايته.

وخرج يسار مولى زياد ابن أبيه وسالم مولى عُبيد الله بن زياد، فقالا: مَن يُبارز؟ فخرج إليهما عبد الله بن عُمير الكلبي، فقالا له: مَن أنت؟ فانتسب لهما، فقالا له: لا نعرفك، ليخرجْ إلينا زُهَير بن القَين أو حبيب بن مُظَهَّر أو بُرَيْر بن حُضَير. وكان يسار أمام سالم، فقال له الكلبي: «يا ابن الزانية، أوَ بكَ رغبةٌ عن مبارزة أحد من الناس؟ وهل يخرج إليك أحد من الناس إلاَّ وهو خير منك؟!» ثم حمل عليه فضربه بسيفه حتَّى بَرَد[1]، فإنه لمشتغل به يضربه إذ شدَّ عليه سالم فلم يأبَهْ له، حتَّى غشِيَه فبَدَره الضربة، فاتَّقاه الكلبي بيده اليُسْرَى فأطار أصابع كفِّه اليسرَى، ثم مال عليه الكلبيُّ فضربه حتَّى قتله.

وكان الكلبيُّ هذا قد رأى الناسَ من أهل الكوفة بالنُّخَيلة وهم يعرضون ليسرَّحوا إلى الحسين، فقال: «واللّهِ لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريصًا، وإني لأرجو ألاَّ يكونَ جهادُ هؤلاء الذين يغزُون ابْنَ بنتِ نبيِّهم أيْسَرَ ثوابًا عند الله من ثوابه إيَّاي في جهاد المشركين!» فدخل علَى امْرأته أمِّ وَهَب بنت عبد، فأخبرها بما سمع وأعلمها بما يريد، فصوَّبَتْ رأيه وقالت: أخرِجْني معك! فخرج بها ليلاً حتَّى أتى الحسينَ فأقام معه، فلمَّا قَتل العبدَيْن أقبل يرتَجز ويقول: [من الرجز]

إنْ تُنكِروني فأنا ابن كَلْبِ
حَسْبِي بِبَيْتي في عُلَيْمٍ حَسْبِي
إنِّي امْرُؤٌ ذُو مِرَّة[2] وعَضْبِ
ولستُ بالخَوَّارِ[3] عند النَّكْبِ[4]
إنِّي زَعِيمٌ لَكِ أمَّ وَهْبِ[5]
بالطعْنِ فيهم مُقْدِمًا والضَّرْبِ
ضَرْبِ غُلامٍ مُؤْمنٍ بالرَّبِّ

فأخذت امرأتُه أمُّ وَهْب عمودًا ثمّ أقبلتْ نحوه تقول له: «فِداك أبي وأمِّي! قاتِلْ دُون الطيِّبين ذُرِّيَّة محمد ﷺ!» فأقبَلَ إلَيها يردُّها نحو النساء، وأخذتْ تُجاذب ثوبه وقالت: لن أدَعَك دُون أن أموتَ معك! فناداها الحسين فقال: «جُزيتم مِن أهل بيتٍ خيرًا! ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهُنَّ، فإنه ليس علَى النساء قتال» فانصرفتْ إليهن.

---

(١) كناية عن الموت.
(٢) قوة.
(٣) الضعيف.
(٤) أراد النكبة وهي المصيبة.
(٥) أم وهب زوجة عبد الله بن عمير الكلبي.

وحمل عمرو بن الحجّاج، وهو في الميمنة، فلمّا دنا من الحسين جَثوْا له على الرُّكَب، وأشرعوا الرماحَ نحوهم، فلم تُقْدِم خيلُهم علَى الرماح، فذهبت الخيلُ لِترجع، فرشَقُوهم بالنَّبْل، فصرَعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين.

وجاء عبد الله بن حَوْزة التَّميمي حتَّى وقف أمام الحسين، فقال له: يا حسين فقال: ما تشاء؟ قال: أبشِرْ بالنار. قال: «كلاَّ، إني أقْدَمُ علَى ربّ رحيم شفيع مُطاع! مَن أنت؟» قال أصحابه: هذا ابن حَوْزة. قال: رَبِّ حُزْهُ[1] إلَى النار! فاضطرب به فرَسُه في جدْوَل، فوقع فيه، وتعلّقت رجله بالرِّكاب، ونَفَر الفرس، فمرَّ به يضرب برأسه كلَّ شجرة وحجر حتّى مات، وانقطعت فخذه وساقه وقدمه[2].

ثم بَرَز الناسُ بعضُهم إلى بعض، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: «يا حَمْقَى، أتدرُون من تقاتلون؟ فُرسان المصر قومًا مستميتين لا يبرُز لهم منكم أحد، فإنهم قليل، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم!» فقال عمر[3]: «صدقت، الرأي ما رأيت».

ثم حمل عمرو بن الحجّاج على الحسين من نحو الفُرات، فاضطربا ساعة، فصُرِع مُسلم بن عَوْسَجة الأسَديّ من أصحاب الحسين، ثم مات، فترحّم الحسين علَيه ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وحمل شَمِر بن ذي الجَوْشَنِ بالمَيْسَرة علَى من يليه من أصحاب الحسين، فثبتوا له وطاعنوه، فقُتِل الكلبي، بعد أن قَتَل رجلين آخَرَين وقاتل قتالاً شديدًا، فكان هو القتيلَ الثاني من أصحاب الحسين.

وقاتَل أصحابُ الحسين قتالاً شديدًا، فكانوا لا يحملون علَى جانب من خيل الكوفة إلاَّ كَشَفوه[4]، فلمّا رأى ذلك عَزْرَة بن قَيس، وهو على خيل الكوفة، بعث إلى عمر بن سعد فقال: «ألاَ ترى ما تَلْقَى خيلي منذ اليوم من هذه العِدَّة اليسيرة؟ ابعث إليهم الرجالَ والرُّماة!» فقال عمر لشَبَث بن ربْعِيّ: تقدَّمْ إليهم. فقال: سُبْحانَ الله! أتعمِد إلَى شيخ مُضَر وأهل المصر عامّة تبعثه في الرُّماة؟ لم تجد من تندُبُ لهذا ويُجزى عنك غيري!» وكان لا يزالون يَرَوْن من شَبَث الكراهةَ لقتال الحسين.

قال: فلما قال شَبَث ذلك دعا عمر بن سعد الحُصَين بن نمير وبعث معه

---

(١) معه زحة.
(٢) راجع ابن الأثير ج٤ ص٦٦.
(٣) عمر بن سعد بن أبي وقّاص.
(٤) نالوا منه بتفريقهم من أمامهم.

المجفَّفة[١] وخمسمائة من المرامية[٢]، فلمَّا دنَوْا من الحسين وأصحابه رشَقُوهم بالنبل، فلم يلبثوا أن عقروا خيولَهم وصاروا رَجّالة كلهم.

وقاتل الناس أشدَّ قتال حتَّى انتصف النهار، وهم لا يقدرون علَى أن يأتُوا الحسين وأصحابَه إلاَّ مِن وَجْه واحد، لاجتماع أبْنِيَتهم وتقارب بعضها من بعض.

فأرسل عمر بن سعد رجالاً يُقَوِّضونها[٣] عن أيمانهم وعن شمائلهم، ليحيطوا بهم، فكان النفر من أصحاب الحسين الثلاثةُ والأربعة يتخلَّلون البيوتَ فيقتلون الرجلَ وهو يقوِّض وينهَب. فأمر بها عمر بن سعد فأحرقت، فقال الحسين: «دعوهم يحرقوها، فإنهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا إليكم منها!» فكان ذلك كذلك، وجعلوا لا يقاتلونهم إلاَّ من وجه واحد.

وخرجت أُم وهب امرأة الكلبيّ تمشي إلى زوجها، حتَّى جلستْ عند رأسه، فجعلتْ تَمسح التراب عن وجهه وتقول: هَنيئًا لك الجنة! فقال شمر لغلام اسمه رستم: اضربْ رأسها بالعَمُود. فضرب رأسها، فشدَّخه[٤]، فماتت مكانها.

وحمل شَمِر حتَّى بلغ فُسْطاط الحسين ونادَى: «عَليَّ بالنار حتَّى أحرق هذا البيت على أهله» فصاح النساء وخرجْنَ من الفُسْطاط، وصاح به الحسين ودعا علَيه، فردَّه شَبَث بن رِبْعِيّ عن ذلك، وحمل زُهير بن القَيْن في عشرة من أصحابه على شمِر ومن معه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها وقتلوا أبا عَزَّة الضِّبابيّ من أصحاب شمر، وعطف الناس عليهم فكَثَروهم[٥]، فقال أبو ثُمامة عمرو بن عبد الله الصائدي للحسين: «يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء، إني أرَى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتلُ حتى أقتلَ دونك إن شاء الله! وأحبُّ أن ألقَى ربِّي وقد صلَّيْت هذه الصلاةَ التي قد دنا وقتُها!» فدعا له الحسين وقال: نَعَمْ هذا أوّل وقتها. ثم قال: سَلُوهم أن يكفُّوا عنَّا حتَّى نصلِّي. ففعلوا، فقال لهم الحُصَين بن نُمَير: إنها لا تُقبل. فسبّه حبيب بن مظهَّر[٦]، فحمل عليه الحُصَين، وخرج إليه حبيب بن مظهَّر، فضرب وجه فرسه بالسيف، فشَبّ، فسقط عنه الحُصَين، فاستنقذه أصحابه، وقاتل حبيب قتالاً شديدًا، فقتل بديل به صريم التميمي، وحمل عليه آخر من تميم، فطعنه، فوقع، فذهب ليقوم، فضربه الحصين على رأسه بالسيف، فوقع، فنزل إليه التميمي فاحتزَّ رأسه.

---

(١) فرقة الجند التي يرتدي أفرادها ألبسة تقيهم الطعن والضراب.

(٢) رماة السهام. (٣) بعد موتها.

(٤) الشدخ: كسر كل ما هو أجوف، والرأس حطمه.

(٥) باتوا أكثر منهم. (٦) في رواية: حبيب بن مظاهر.

فقال حسيْن عند ذلك: أحتسبُ نفسي وحُماة أصحابي[١].

وحمل الحُرّ بن يزيد وزُهَير بن القَيْن فقاتلا قتالاً شديدًا، فقتل الحُرّ، وقتل أبو ثُمامة الصائدي ابنَ عمّ له كان عدوّه.

ثمّ صلّى الحسين صلاة الظهر بأصحابه صلاة الخَوف، ثم اقتتلوا بعد الظهر، فاشتدّ قتالهم، ووُصل إلى الحسين فاستقدم سعد بن عبد الله الحنَفِيّ أمامه، فاستهدف لهم يرمُونه بالنبل حتَّى سقط، وقاتل زُهَير بن القين قتالاً شديدًا وجعل يقول: [من الرجز]

أنــا زُهَــيــر وأنــا ابــن الــقَــيْــنِ
أذُودُهــمْ بــالــسَّــيــفِ عــن حــسَــيــنِ

وجعل يضرب على مَنْكِب الحسين ويقول: [من الرجز]

أقْــدِمْ هُــدِيــتَ هــادِيًــا مَــهْــدِيَّــا
فــالْــيَــوْمَ تَــلْــقَــى جَــدَّكَ الــنَّــبِــيَّــا
وحَــسَــنًــا والــمُــرْتَــضَــى عَــلــيَّــا
وذا الــجــنــاحَــيْــنِ الــفَــتَــى الــكــمــيَّــا[٢]
وأسَــدَ الله الــشــهــيــد الــحَــيَّــا[٣]

قال: فحمل على زهير كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه.

قال: وكان نافع بن هلال البَجَلي[٤] قد كتب اسمه على أفْواق[٥] نَبْله، وكانت مسمومة، فقَتَل بها اثني عشر رجلاً سِوَى من جَرَح، فضرب حتى كُسرت عَضُداه، وأُخذ أسيرًا، فأَتَى به شَمِرٌ عمرَ بنَ سعد والدم يسيل على لحيته، فقال له عمر: «ويحك يا نافع! ما حَمَلك على ما صنعتَ بنفسك؟» قال: «إنَّ ربي يعلم ما أردتُ!

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة واختلاف جـ٤ ص٧١.
(٢) جعفر بن أبي طالب الذي استشهد بمؤتة مجاهدًا وفقد يديه فعوضه الله تعالى عنهما جناحين يطير بهما في الجنة بقول رسول الله ﷺ.
(٣) حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ الذي استشهد بأحد ولاكت كبده هند بن عتبة أم معاوية بن أبي سفيان وجدة يزيد بن معاوية.
(٤) نافع بن هلال البجلي، شريف شجاع، شهد كربلاء ونصر الإمام السبط الحسين عليه السلام. قتله شمر بن ذي الجوشن. راجع مقاتل الطالبيين ص١١٧.
(٥) فواق السهم رأسه.

والله لقد قتلتُ منكم اثْنَيْ عشر سِوَى من جرحتُ، وما ألوم نفسي، ولو بقيَتْ لي عضُدٌ وساعدٌ ما أسرتموني!» فقال له شَمِر: اقتلْه أصلحك الله. قال: أنت جئتَ به فإن شئتَ فاقتلْه. فانْتَضَى شَمِر سيفَه، فقال له نافع: «أمَا واللّهِ لو كنتَ من المسلمين لعظُم عليك أن تلقَى الله بدمائنا! فالحمد لله الذي جعل مَنايانا علَى يَدِ شِرار خلقه!» فقتله.

ثم حمل شَمِر علَى أصحاب الحسين، فلما رأوْا أنهم قد كُثِرُوا وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوا الحسين تنافسوا أن يُقتَلُوا بين يَدَيه، فجاءه عبد الله وعبد الرحمٰن ابنا عَزْرَة الغِفاريّان فقالا: قد جازَنا العدوُّ إليك فأحببنا أن نقتل بين يَدَيك! فرحَّب بهما، وقال: ادْنُوَا مني فدنَوَا منه، فجعلا يقاتلان قريبًا منه.

وجاءه الفتيان الجابريان: سيف بن الحارث بن سُرَيع ومالك بن عبد بن سُريع، وهما ابنا عمّ وأخَوانِ لأمّ، وهما يبكيان، فقال: «ما يبكيكما؟ واللّهِ إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قَرِيرَيْ عَين!» قالا: «واللّهِ ما على أنفسنا نبكي، ولكنّا نبكي عليك! نراك قد أُحِيطَ بك ولا نقدِرُ أن نمنعك!». فقال: جزاكما الله خيرًا[1]!.

وجاء حَنْظلة بن أسعد الشِّباميّ فوقف بين يدَي الحسين، وجعل ينادي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٣] يا قَومِ لا تقتلوا الحسين فيُسْحِتَكُم[2] اللّهُ بعذابٍ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٦١] فقال له الحسين: «رَحِمَكَ الله! إنهم قد استَوْجبوا العذاب حِينَ ردُّوا علَيك ما دعَوْتَهم إليه من الحق ونهضوا إليك ليستبيحوك، فكَيْفَ بهم الآنَ وقد قتلوا إخوانَك الصالحين؟!» قال: «صدقتَ أفلا نرُوح إلى ربنا ونلحق بإخواننا؟!» قال: رُحْ إلَى خيرٍ من الدنيا وما فيها وإلى مُلْكٍ لا يَبْلَى. فسلَّم علَى الحسين واسْتقدَمَ فقاتَل حتَّى قُتل.

ثم استقدم الفَتَيان الجابريان، فودعا حسينًا، وقاتلا حتَّى قُتلا.

وجاء عابس بن أبي شَبيب الشاكري وشَوْذَب مولى شاكر إلى الحسين، فسلَّما عليه، وتقدما فقاتلا، فقُتل شَوْذَب، وتقدم عابس نحوهم بالسيف، وبه ضربة على جبينه، وكان أشجع الناس، فجعل ينادي: «ألاَ رجلٌ لرجل؟» فعرفه ربيع بن تميم الهَمْداني، فقال: «أيها الناس، هذا الأسد الأسود، هذا ابن أبي شَبيب، لا يخرجَنَّ

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٧٢.
(٢) يستأصلكم.

إليه أحدٌ منكم!» فقال عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة. فرمَوْه من كلِّ جانب، فلما رأى ذلك ألْقَى دِرْعَه ومِغْفَرَه[١] ثم شدَّ علَى الناس، فهزمَهم بين يَدَيْه، ثم عطفوا عليه من كلِّ جانب، فقتلوه، فادَّعَى قتلَه جماعةٌ وأتَوا ابنَ سعد، فقال: «لا تختصِموا هذا لم يقتله إنسان واحد!» ففرق بينهم بهذا القول.

وجاء أبو الشعثاء يزيد بن أبي زياد الكندي، وكان راميًا، فجثا على ركبتَيه بين يدي الحسين فرمَى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهُم، وكان يزيد هذا مِمَّن خرج مع عُمر بن سعد، فلمَّا رَدُّوا ما عَرَض علَيهم الحسين عَدَل إلَيه، فقاتل حتَّى قُتل.

وكان آخر من تبقَّى مع الحسين من أصحابه سُوَيد بن عمرو بن أبي المطاع الخَثْعَميّ.

وكان أوَّل قتيل من بني أبي طالب يومَئذٍ عليّ الأكبر ابن الحسين، وأُمه لَيلَى ابنة أبي مُرّة بن عُرْوة بن مسعود الثقفية، وذلك أنه حَمَل علَى الناس وهو يقول: [من الرجز]

أنا عليُّ بن الحسين بن عَلِي
نحن وربِّ البيت أوْلَى بالنَّبِي
تاللّهِ لا يحكُمُ فينا ابن الدَّعِي[٢]

فعل ذلك مِرارًا وهو يشُدُّ علَى الناس بسيفه، فاعترضه مُرَّة بن مُنقذ بن النعمان العبدي، وطعنه، فصُرِع، وقطعه الناس بأسيافهم، فقال الحسين: «قَتل اللّهُ قومًا قتلوك يا بُنَيّ! ما أجرَأهم علَى الله وعلَى انتهاك حُرْمة الرسول! علَى الدُّنيا بَعدَك العَفاء[٣]!» وأقبل الحسين إلَيه ومعه فِتيانه فقال: احملوا أخاكم. فحملوه حتَّى وضعوه بين يدَي الفُسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه.

وشدَّ عثمان بن خالد الجُهَني وبشر بن سوط الهَمْداني علَى عبد الرحمٰن بن عَقيل بن أبي طالب فقتلاه، ورمَى عبد الله بن عَزْرة الخثعمي جعفر بن عقيل بن أبي طالب فقتله، ورمَى عمرو بن صبيح الصدائي عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفَّه على جَبهته فلم يستطعْ أن يحركها ثم رماه بسهم آخر فقتله.

---

(١) كالدرع للرأس.
(٢) عنى به عبيد الله بن زياد.
(٣) الانمحاء.

وحمل الناس عليهم من كل جانب، فحمل عبد الله بن قطبة الطائي على عَون بن عبد الله بن جعفر فقتله، وحمل القاسم بن الحسَن بن عليّ فحمل عليه عمرو بن سعد بن نُفيل الأزدي، فضرب رأسه بالسيف فوقع القاسم إلى الأرض لوجهه، وقال: يا عمّاه! فانقضَّ الحسين إليه كالصقر، ثم شدّ شدة ليث أغضب، فضرب عمرًا بالسيف، فاتقاه بالساعد، فقطع يده من المرفق، فصاح، وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمرًا، فاستقبلته بصدورها، وجالت عليه بفرسانها، فوطئته حتَّى مات، وانجلت الغَبَرة والحسين قائم على رأس القاسم وهو يفْحَص برجليه. والحسين يقول: «بُعْدًا لِقومِ قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة فيك جَدُّك!» ثم قال: «عزَّ واللّهِ علَى عمِّك أن تَدعوَه فلا يجيبك، وأن يُجيبَك فلا ينفعك صَوْتٌ واللّهِ كثُرَ واترُه وقلَّ ناصرُه!» ثم احتمله علَى صدره حتَّى ألقاه مع ابنه عليّ ومن قُتِل من أهل بيته[١].

قال: ومكث الحسين طويلًا من النهار، كلَّما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه وكرِه أن يتولَّى قتله وعظيم إثمه، فأتاه رجل من كِنْدة يقال له «مالك بن النسير» فضربه على رأسه بالسيف، فقط البُرْنُس، وأدْمَى رأسه، وامتلأ البُرْنُس دَمًا، فقال له الحسين: «لا أكلتَ بها ولا شربْتَ! وحشرك الله مع القوم الظالمين!» وألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقَلَنْسُوَة فلبسها واعتمَّ. وجاء الكِنْدِيُّ فأخذ البُرْنُس وكان من خَزٍّ، فقدِم به على امرأته، وأقبل يغسله من الدم، فقالت له: «أسلَبُ ابْنِ بنت رسول الله يدخل بَيتي؟ أخرِجْه عني!»[٢] فلم يزَل ذلك الرجل فقيرًا بشرٍّ حتَّى مات.

قال: ودعا الحسين بابنه عبد الله وهو صغير، فأجلسه في حِجْره فرماه رجل من بني أسد بسهم فذبحه، فأخذ الحسين دمه بيده فصبّه في الأرض، ثم قال: «اللهمَّ رَبِّ إن كنتَ حبستَ عنا النصر من السماء فاجعلْ ذلك لما هو خير، وانتقِمْ من هؤلاء الظالمين!» ورمى عبد الله بن عُقبة الغَنَوي أبا بكر بن الحسين بسهم فقتله، وقتل إخوة الحسين وهم العبّاس وعبد الله وجعفر وعثمان.

قال: واشتدّ عطشُ الحسين، فدنا من الفُرات ليشرب فقال رجل من بني أبان بن دارِم: «وَيْلَكم! حُولُوا بينه وبين الماء»[٣]، وضربَ فرسه، واتبعه الناس حتّى حال بينه وبين الفُراتِ، فقال الحسين: اللهم أظمئه! وانتزع الأبانيُّ سَهمًا فأثبته في حَنَك

---

(١) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص٧٥.

(٢) تأمل، لقد سُلب ابن بنت رسول الله ﷺ.

(٣) تأمل في خروجهم ليس من الدين وحسب بل الإنسانية، فلقد استحوذ عليهم الشيطان ليصلوا بالجريمة حدًّا لا وصف له.

الحسين، فانتزع الحسين السهمَ، ثم بسَط كفَّيْه فامتلأ دمًا؛ فقال: اللهم إني أشكو إليك ما يُفعل بابن بنت نبيك، اللهم أحْصهم[١] عَددًا واقتلهم بَدَدًا[٢]، ولا تُبقِ منهم أحدًا. وقيل إن الذي رماه حصين بن نمير. قال: فما مكث الذي رماه إلاَّ يسيرًا، ثم صبّ الله عليه الظمأ فجعل لا يَرْوَى، والماء يُبَرَّد له فيه السُّكر، وعِسَاسٌ[٣] فيها لبن، وقلال[٤] فيها الماء، وإنه ليقول: ويلكم؛ اسقوني، قتلني الظمأ؛ فيعْطَى القُلَّة أو العُسّ فيشربه، فإذا شربه اضطجع هنيهة، ثم قال: ويلكم، اسقوني قتلني الظمأ، فيعطى القُلَّة والعُسْ فيشربه، فما لبث إلا يسيرًا حتَّى انقدَّ[٥] بطنُه انقداد بطن البعير.

قال: ثم إن شَمِر بن ذي الجوْشَن أقبل في نحو عشرة من رجاله أهل الكوفة قِبَل منزل الحسين الذي فيه أهله وعياله، فمشى نحوهم[٦] فحالُوا بينه وبين رَحْله، فقال: ويلكم؛ إن لم يكن لكمْ دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في دنياكم أحرارًا ذَوي أحساب، امنعوا رحلي وأهلي من طَغَامكم[٧] وجُهَّالكم. قال شمِر: ذلك لك يا ابن فاطمة، وأقدم شمر عليه بالرجَّالة منهم أبو الجَنُوب عبد الرحمٰن الجُعْفيّ، وصالح بن وهب اليَزَنيّ، وسنان بن أنس النَّخَعيّ، وخوليّ بن يزيد الأصبحي، وجعل شَمِر يحرِّضهم على الحسين، وهو يحمل عليهم فينكشفون عنه، ثم أحاطوا به، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله، فأخذتْه زينب بنْت عليّ لتحبسه، فأَبَى الغلام، وجاء يَشْتَدُّ حتَّى قام إلَى جنب الحسين، وقد أهْوَى بن كعب بن عبيد الله، من بني تيم الله بن ثعلبة، إلى الحسين بالسيف، فقال له الغلام: يا ابن الخبيثة أتقتل عَمِّي؟! فضربه بالسيف فاتَّقاه الغلام بيده، فأطَنَّها إلى الجلدة[٨]، فنادى الغلام: يا أُمَّتاه، فضمه الحسين إليه وقال: «يا ابن أخي اصبِرْ علَى ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإن الله يُلحقك بآبائك الصالحين: برسول الله ﷺ، وعليّ وحمزة وجعفر والحسن» ثم قال الحسين: «اللهمَّ أمسِك عنهم قَطْر السماء، وامنعهم بَرَكَاتِ الأرض، اللهم فإنْ متَّعتهم إلَى حين ففرِّقْهم فِرَقًا، واجعلهم طَرائقَ قِدَدًا[٩]، ولا تُرْضِي عنهم الوُلاة أبدًا، فإنهم دَعَوْنا لينصرونا، فعَدَوْا علَينا فقتلونا!» ثم ضارب الرجَّالة حتَّى انكشفوا عنهم.

---

(١) أحصبهم: أحرقهم، والصواب أرجمهم. (٢) بددًا: متفرقين.
(٣) مفردها: عس وهو القدح الكبير. (٤) مفردها قلة إناء لحفظ الماء وكل سائل.
(٥) انشق.
(٦) أي الإمام الحسين السبط ابن بنت رسول الله ﷺ.
(٧) سفلة الناس وشرارهم.
(٨) فقطعها وبقي الجلد فقط متصلاً من جانب واحد.
(٩) قِطعًا.

قال: ودنا عمر بن سعد من الحسين فخرجت زينب بنت عليّ[1] أخت الحسين فقالت: يا عمر، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟ فجعلت دموع عمر تسيل على خدَّيْه ولحيته، وصرف وجهه عنها.

ومكث الحسينُ طويلاً من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يَتَّقي بعضهم ببعض، ويحبّ هؤلاء أن يكْفهم هؤلاء، فنادَى شَمِر بن ذي الجَوْشَن في الناس، وَيْحكم؛ ما تنتظرون بالرجل؟ اقتلوه ثَكِلَتْكم أمهاتكم! فحملوا عليه من كل جانب؛ فضرب زُرْعة بن شريك كفَّه اليسرى، وضُرب على عاتقه ثم انصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وحمل عليه في تلك الحال سِنان بن أنس النَّخعي فطعنه بالرمح فوقع، وقال الخَوليّ بن يزيد الأصبحي: احتز رأسه، فأراد أن يفعل فضعف وأُرْعد، فقال له سِنان: فَتَّ الله عَضُدك، وأبان يدك، ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فدفعه إلى خولي.

وسُلب الحسين ما كان عليه؛ فأخذ سراويلَه بحر بن كعب، فكانت يداه في الشتاء تضخان الماء، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود. وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وهي من خَزٍّ، فكان يُسَمَّى بعد «قيس قطيفة» وأخذ نعليه الأسْود الأودي، وأخذ سيفه رجل من بني نَهْشَل. ومال الناس على الورس والحُلل والإبل فانتهبوها، وانتهبوا ثقلَه ومتاعَه وما علَى النساء، حتى إن كانت المرأة لَتُنازَع ثوبَها فيؤخذُ منها[2].

ووُجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، وكان سُوَيْد بن عمرو بن أبي المطاع قد صُرع، فوقع بين القتلَى مُثْخنًا بالجراح، فسمعهم يقولون: قُتل الحسين فوجد خِفَّة فوثب ومعه سكين فقاتلهم بها ساعة، ثم قتله عروة بن بطان الثعلبي، فكان آخر قتيل من أصحاب الحسين.

قال: وانتهوا إلى علي بن الحسين وهو زين العابدين، فأراد شَمِر قتله وكان مريضًا فمنعه حُمَيد بن مسلم، وجاء عمر بن سعد فقال: لا يدخلنَّ بيت هؤلاء النسوة أحدٌ، ولا يعرضنَّ لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئًا فلْيردُدْه عليهم، فما ردّ أحدٌ شيئًا، فقال الناس لِسنَان بن أنس: «قتلتَ حسين بن علي وابنَ فاطمة بنت رسول الله، قتلتَ أعظم العرب خَطرًا، أراد أن يزيل ملك هؤلاء، فأْت أُمراءك فاطلبْ

(١) ابن أبي طالب كرّم الله وجهه.

(٢) تأمّل فعلهم بحريم السبط وبنات البضعة الزهراء.

ثوابكَ منهم، فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم في قتله كان قليلًا» فأقبل على فرسه حتى وقف على باب فُسْطاط عمر بن سعد، ثم نادَى بأعلَى صوته: [من الرجز]

أوْقِرْ ركابي فضَّةً وذهبا أنا قتلتُ السيّد المحجَّبا
قتلتُ خيرَ الناس أُمًّا وأبا وخَيْرَهم إذ يُنْسَبون نَسَبَا

فقال عمر بن سعد: أشهد أنك مجنون، أدخِلوه؛ فلمَّا دخل حذفه بالقضيب وقال: يا مجنون أتنظمُ بهذا الكلام؟ لو سمعك ابنُ زياد لضَرَبَ عنقك. وقيل: إنه قال ذلك لعُبيد الله بن زياد، فقال: فإن كان خير الناس أمًّا وأبًا فلم قتلته؟ وأمر به فضربت عنقه، خسر الدنيا والآخرة.

ذكر تسمية من قُتل مع الحسين بن علي رضي الله عنهما ومن سلم ممن شهد القتال

قال: ولمّا قُتل الحسين جاءتْ كِندة بثلاثة عشر رأسًا وصاحبهم قَيس بن الأشعث، وجاءت هَوازن بعشرين رأسًا، وصاحبهم شَمِر بن ذي الجَوْشَن، وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأسًا، وجاءت بنو أسد بستة، وجاءت مَذْحِج بسبعة، وجاء سائر الجيش بسبعة، فذلك سبعون رأسًا.

منهم إخوة الحسين ستة، وهم: العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، ومحمد، وليس هو ابن الحنفية، وأبو بكر، أولاد عليّ بن أبي طالب.

ومن أولاد الحسين: عليٌّ، أمه ليلى بنت أبي مرّة بن عروة الثقفي(١)، وعبد الله، وأمُّه الرَّباب بنت امرىء القَيس الكلبي(٢).

ومن أولاد الحسن بن عليّ ثلاثة وهم: أبو بكر، وعبد الله، والقاسم.

ومن أولاد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: عَون، ومحمد.

ومن أولاد عقيل بن أبي طالب: جعفر، وعبد الرحمٰن، وعبد الله، ومسلم بالكوفة.

ومن مَوَالي الحسين: سليمان، ومنجح.

(١) ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي، أمها ميمونة بنت أبي سفيان، وجدتها بنت أبي العاص بن أمية. راجع تراجم أعلام النساء للأعلمي الحائري ج٢ ص٣٨٨.

(٢) بنت امرىء القيس بن عدي الكلبي. راجع تراجم أعلام النساء للحائري ج١ ص٩٧.

وتكملة من قُتل ممن اتبعه، وقد ذكرنا بعضهم بأسمائهم في أثناء هذه القصة.

وأما من سلم منهم: فالحسن بن الحسن، وعمرو بن الحسن لصغرهما، وعليّ بن الحسين لمرضه[١]، والضحاك بن عبد الله المشرقي، وذلك أنه جاء إلى الحسين فقال: «يا ابن رسول الله، قد علمت أني قلت لك: إني أقاتل عنك ما رأيت مُقاتِلًا، فإذا لم أرَ مُقاتِلًا فأنا في حِلٍّ من الانصراف» فقال له الحسين: «صدقتَ، وكيف لك بالنجاة؟ إن قدرتَ عليه فأنت في حِلّ» وذلك بعد أن فني أصحاب الحسين، قال الضحاك: فأقبلت إلى فرسي وكنتُ قد تركته في خِبَاءٍ حيث رأيتُ خيل أصحابنا تُعقر، وقاتلت راجلًا، فقتلت رجلين، وقطعت يد آخر، ودعا لي الحسينُ مِرارًا قال: فاستخرجت فرسي واستَوَيتُ عليه، وحملت على عرض القوم فأفرجوا لي، وتبعني منهم خمسة عشرَ رجلًا، ففُتُّهُمْ، فسَلِمتُ.

ومنهم عقبة بن سمعان مولى الرّبَاب ابنة امرىء القيس الكلبية امرأة الحسين، أخذه عمر بن سعد فقال: ما أنت؟ فقال: أنا عبدٌ مملوكٌ فخلَّى سبيله[٢]، فنجا. ومنهم الرقع بن تمامة الأسدي، وكان قد نَثَر نبله فقاتل فجاءه نفر من قومه فأمّنوه، فخرج إليهم فلما أخبر ابن زياد به نفاه إلى الزارة[٣].

ذكر ما كان بعد مقتل الحسين
مما هو متعلق بهذه الحادثة

قال: ولما قُتل الحسين نادَى عُمر بن سعد في أصحابه: من يَنتدب للحسين فيوطئه فرسه، فانتدب له عشرة، منهم إسحاق بن حيوة الحضرمي، وهو الذي سَلَب قميص الحسين فبَرِصَ بعد ذلك، فداسوا الحسين بخيولهم حتَّى رضُّوا ظهره وصدره.

قال: ودفن جُثّة الحسين وجثث أصحابه أهلُ الغاضرية من بني أسد بعدما قتلوا بيوم.

وقتل من أصحاب ابن سعد ثمانية وثمانون رجلًا سِوى الجرحى، فصلَّى عليهم عُمر ودفنهم.

---

(١) زين العابدين أعلم أهل زمانه وأكثرهم عبادة لقب بالسجاد.

(٢) بأبي أنت وأمي يا ابن بنت رسول الله يخلون سبيل المماليك ويتركونك طريحًا مقطوع الرأس والكساء.

(٣) الزارة: عين الزارة بالبحرين، والزارة قرية كبيرة بها. راجع ياقوت جـ٣ ص١٢٦.

قال: وسرح عمر(١) برأس الحسين من يومه ذلك مع خَوليّ بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي إلى عُبيد الله بن زياد، فأقبل به خَوَليٌّ فوجد باب القصر مُغلقًا، فأتَى منزله فوضعه تحت إجّانة(٢) في الدار، ثم دخل البيت فأوَى إلى فراشه، فقالت له امرأته وهي النَّوَار بنت مالك الحَضْرَمِيّة: ما الخبر؟ قال: جئتكِ بغنَى الدهر، هذا رأس الحسين معكِ في الدار، قالت: فقلتُ: وَيْلَكَ! جاء الناس بالذهب والفضة وجئتَ برأس ابن رسول الله ﷺ، والله لا يَجمعُ رأسي ورأسَك بيت أبدًا، قالت: فقمت من فراشي فخرجت وجلست أنظر، فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطَع مثل العمود من السماء إلى الإجّانة، ورأيت طيرًا بيضًا ترفرف عليها، فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد.

وقيل: بل الذي حمل الرأس شَمِر بن ذي الجَوْشَن، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج، وعزرة بن قيس، فجلس ابن زياد، وأذِن للناس فأُحضرت الرؤوس بين يديه، فجعل ينكت(٣) بقضيب بين ثَنِيَّتَي(٤) الحسين، فلما رآه زيد بن أرقم(٥) لا يرفعُ قضيبه، قال له: اعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين، فَوَالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شَفَتَيْ رسُولِ الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما! ثم بكَى، فقال له ابن زياد: أبكَى الله عينك، فَوَالله لولا أنك شيخٌ قد خرِفت وذهب عقلك لضربتُ عُنقك. فخرج وهو يقول: أنتم يا مَعْشَر العربِ العبيدُ بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمَّرْتم ابن مَرْجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبدُ شراركم فرضيتم بالذل فبعدًا لمن رضي بالذل قال: وأقام عمر بن سعد يومه هذا والغد، ثم أذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات الحسين وأخواته، ومن كان معه من الصبيان، وعليّ بن الحسين مريض، فاجتازوا به على الحسين وأصحابه صَرْعَى، فصاح النساء ولَطَمن الخدود، وصاحت زينب أخته: «يا محمداه! صلَّى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعراء مُزمِل(٦) بالدماء مقطَّع الأعضاء! يا مُحمداه! وبناتك سَبايا! وذُريتك مقتَّلة تسْفِي(٧) عليها الصَّبا!» فأبكَتْ كل عدوّ وصديق.

---

(١) عمر بن سعد بن أبي وقاص.
(٢) إجَّانة: وعاء تغسل فيه الثياب.
(٣) يضرب ضربًا خفيفًا.
(٤) صَفي الأسنان الأماميين إذا ما بدتا من وراء الشفتين.
(٥) زيد بن أرقم الخزرجي الأنصاري، صحابي شهد معظم غزوات النبي وكان في صفين مع الإمام علي كرّم الله وجهه، توفي بالكوفة سنة ٦٨هـ.
(٦) كأنما عرك بالدم عركًا.
(٧) تهب.

قال: ولما أُدخلوا على عبيد الله لبست زينب أرْذَل ثيابها وتنكَّرت، وحفَّ بها إماؤها، فقال عبيد الله: مَن هذه الجالسة؟ فلم تكلِّمه حتَّى قال ذلك ثلاثًا وهي لا تكلِّمه، فقال بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة، فقال لها ابن زياد: الحمد لله الذي فضحكم وقتَّلكم وأكذب أُحْدُوثتكم. فقالت: الحمدُ لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وطهَّرنا تطهيرًا لا كما تقول، إنما يُفتضحُ الفاسق ويكذب الفاجرُ. قال: فكيف رأيت صُنْعَ الله بأهل بيتك؟ قالت: كُتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم[1]، وسيجمعُ الله بينك وبينهم فتَحاجّون إليه وتَخاصَمون عنده، فغضب ابن زياد واستشاط، ثم قال لها: قد شفَى الله نفسي من طاغيتكِ والعُصاة المَرَدَة من أهل بيتك. فبكت ثم قالت: لعمري لقد قتلت كهلي وأبرزت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي، فإن يَشْفِك هذا فقد اشتفيتَ. فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة فلَعَمري لقد كان أبوكِ شجاعًا، قالت: ما للمرأة والشجاعة؟ إن لي عن الشجاعة لشغلاً. ونظر عبيد الله إلى علي بن الحسين فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين، قال: أولم يقتل الله علي بن الحسين، فسكت. فقال له ابن زياد: ما لك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ يقال له عليٌّ فقتله الناس، قال: إن الله قتله، فسكت عليّ، فقال: ما لك لا تتكلم؟ قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] قال: أنت والله منهم، ثم قال لرجل: ويحك انظرْ هذا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً، فكشف عنه مُريّ بن معاذ الأحمري فقال: نعم قد أدرك، قال: اقتله، فقال علي: من توكَّل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته، فقالت: يا ابن زياد حَسْبُك مِنَّا أمَا رويتَ مِن دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحدًا؟ واعتنقته وقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمنًا إن قتلتَه لما قتلتَني معه، وقال عليّ: يا ابن زياد إن كان بينك وبينهنَّ قرابة فابعث معهم رجلاً تقيًّا يصحبهن بصحبة الإسلام. فنظر إليهن ساعة ثم نظر إلى القوم فقال: يا عجبًا للرَّحِم والله إني أظنُّها وَدّت لو أني قتلته أني قتلتها معه، دَعُوا الغلام، انطلِقْ مع نسائك.

---

(١) وهذا من أفصح الكنايات فكأنما الموت أسرَّتهم.

ثم نودي: «الصلاةُ جامعة» فاجتمع الناس في المسجد الأعظم فصعد ابن زياد المنبر، فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته، فوثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، وكان من شيعة علي، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع علي، والأُخرى بصِفِّين معه، وكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم، يصلِّي فيه إلى الليل ثم ينصرف، فقال: يا ابن مَرْجانة إنَّ الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي ولاّك وأبوه، يا ابن مرجانة تقتلون أبناء النبيين، وتَكلَّمون بكلام الصدِّيقين. فقال ابن زياد: عليَّ به، فوثبت عليه الجَلاوِزة[١] فأخذوه، فنادَى بشعار الأزد «يا مَبْرور» فوثبت إليه فئة من الأزد، فانتزعوه، وأتَوْا به أهله، فأرسل إليه منْ أتاه به فقتله، ثم أمر بصلبه في السَّبْخَة[٢] فصلب.

قال: وأمر ابن زياد برأس الحسين فطيف به في الكوفة.

قال: ثم أرسل ابن زياد رأس الحسين ورؤوس أصحابه مع زَحْر بن قيس إلى يزيد بن معاوية ومعه جماعة، وقيل: مع شَمِر وجماعة، وأرسل معهم النساء والصبيان، وفيهم علي بن الحسين، وقد جعل ابن زياد الغُلّ[٣] في يديه وعنقه، وحملهم على الأقتاب[٤]، فلم يكلمهم عليٌّ في الطريق، فدخل زَحْر بن قيس على يزيد فقال له: ما وراءك ويلك وما عندك؟ قال: أبشرْ يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره، وَرَد علينا الحسين بن عليّ في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عُبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال، فغدَوْنا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية، حتَّى أخذت السيوف مأخذها من هَام القوم، فجعلوا يهربون إلى غير وَزَرٍ[٥]، ويلوذون منا بالآكام والحُفَر لوَاذًا كما لاذَ الحمائم من صَقْر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جَزْر جَزُور[٦]، أو نومة قائل[٧] حتى أتينا علَى آخرهم، فهاتيك أجسادُهم

---

(١) شداد الشرط.

(٢) مكان بالبصرة، والسباخ: الأرض الملحة النازة. راجع ياقوت ج٣ ص١٨٣.

(٣) القيد.

(٤) مفردها القتب: المعى وهو ما تحوّى من البطن أي استدار منه.

(٥) الوزر: الملجأ وأصله الجبل.

(٦) كل صالح للجزر أي الذبح وخاصة الفتي من الإبل.

(٧) من القيلولة وهي إغفاءة الظيرة.

مجردة، وثيابهم مرمّلة، وخدودهم معفرة[١]، تصهَرهم الشمس وتسفي عليهم الريح، زُوَّارهم العِقْبان والرخَم[٢] بِقِيٍّ سَبْسَبٍ[٣]. قال: فدمَعَتْ عينا يزيد وقال: كنت أرضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سُمَيَّة، أمَا والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين. قال: ولما وصل عليّ بن الحسين ومن معه والرأس إلى دمشق، وقف مُحَفِّر بن ثعلبة العائذي، وكان عبيد الله قد تركهم معه ومع شَمِر على باب يزيد بن معاوية، ثم رفع صوته وقال: هذا مُحفِّر بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة، فأجابه يزيد: ما وَلدت أمُّ مُحَفِّر شرٌّ وألأمُ، ولكنه قاطع ظلوم. ثم دخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه وحدثوه، فسمعت الحديث هندُ بنت عبد الله بن عامر بن كُرَيْز[٤]، وكانت تحت يزيد، فتقنَّعتْ بثوبها وخرجتْ فقالت: يا أمير المؤمنين رأس الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله؟ قال: نعم فأعْوِلي عليه وحِدِّي علَى ابن بنت رسول الله وصريحة[٥] قريش، عجَّل عليه ابن زياد فقتله، قتله الله، ثم أذَن للناس فدخلوا عليه، والرأس بين يديه، ومعه قضيب وهو ينكت في ثغره[٦]، ثم قال: إن هذا وأنا كما قال الحُصين بن الحُمام[٧]: [من الطويل]

أَبَى قومُنا أنْ يُنْصفونا فأنْصَفتْ ... قواضبُ[٨] في أيماننا تُقطر الدِّما

نُفلِّق هامًا[٩] من رجالٍ أعزَّةٍ ... علَينا وهُم كانوا أعَقَّ[١٠] وأظلما

فقال أبو برزة الأسلمي: «أتنكت بقضيبك في ثَغْر الحسين؟ أمَا لقد أخذ قضيبُك في ثَغْره مأخَذًا لربَّما رأيت رسول الله ﷺ يَرْشفه، أما إنك يا يزيد تجيءُ يومَ القيامة وابن زياد شفيعك ويجيءُ هذا ومحمد شفيعه!» ثم قام فولَّى. فقال يزيد: يا حسين

---

(١) معروكة بالتراب. (٢) الرخم والعقبان من كواسر الطير.

(٣) سبسب: الأرض القفراء.

(٤) هند بن عبد الله بن عامر بن كريز زوجة يزيد بن معاوية التي خرجت وشقت سترها حاسرة واثبة على يزيد في عامة مجلسه تعنِّفه على فعله. راجع تراجم أعلام النساء ج٢ ص٤٢٥.

(٥) خالصة قريش أغلاها وأعلاها كعبًا وأصفاها نسبًا.

(٦) لاحظ فعله بالرأس والرواية التي تفيد اعتراضه على قتل الحسين عليه السلام. لقد أوغل المؤرخون عن رواتهم بدفع التهمة عن يزيد بن معاوية ردًا لواقع شأن من لا يريد الاعتراف بحق وباطل إلاّ في جواز البدء في الوضوء باليمنى أو اليسرى، أو رخصة المسح على الخف.

(٧) الحصين بن الحمام بن ربيعة المري الذبياني كنيته أبو يزيد، شاعر جاهلي، قيل إنه كان ممن نبذ عبادة الوثن في الجاهلية.

(٨) القواضب: السيوف. (٩) الهام: الرأس.

(١٠) العقوق: ضد البار.

والله لو أني صاحبك ما قتلتك، ثم قال: «أتدرون من أين أُتِي هذا[1]؟ أبي خيرٌ من أبيه، وأُمي فاطمة خير من أُمه، وجدِّي رسول الله خير من جده، وأنا خيرٌ منه، وأنا أحق بهذا الأمر منه. فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد حاجّ أبي أباه إلى الله وعلم الناس أيُّهما حُكم له، وأما قوله: أُمي خير من أُمه فلَعَمري فاطمة بنت رسول الله خير من أُمي، وأما قوله جدِّي رسول الله خير من جده، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يَرَى لرسول الله فينا عِدْلاً ولا نِدًّا، ولكنه إنما أُتي من قبل فقهه، ولم يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قال: ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس بين يديه، فجعلت فاطمة وسُكَيْنَة ابنتا الحسين تتَطاوَلان لتنظرا إلى الرأس، وجعل يزيد يتَطاوَل ليستر عنهما الرأس، فلما رأين الرأس صحْنَ، فصاح نساء يزيد ووَلْوَلْن وبنات معاوية، فقالت فاطمة بنت الحسين، وكانت أكبر من سُكَيْنة: أبناتُ رسول الله سبايا يا يزيد؟ فقال: يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكره، فقام رجل من أهل الشام فقال: هبْ لي هذه، يعني فاطمة بنت علي، فأخذت بثياب أُختها زينب وكانت أكبر منها، فقالت زينب: كذبت ولو متُّ، ما ذلك لك ولا له، فغضب يزيد وقال: كذبتِ واللّهِ إن ذلك لي، ولو شئتُ أن أفعله لفعلته، قالت: كلاً واللّهِ ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من مِلَّتنا وتدين بغير ديننا! فغضب يزيد واستطار، ثم قال: إيايَ تستقبلين بهذا، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك، قالت زينب: بدين الله ودين أبي وأخي اهتديتَ أنت وأبوك وجَدُّك، قال: كذبتِ يا عدوة الله، قالت: أنت أمير تشتم ظالمًا[2] وتقهر بسلطانك. فاستحيى وسكت؛ ثم أُخْرجن وأُدخلن دور يزيد فلم تبقَ امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأْتم، وسألَهن عمَّا أُخِذ منهن فأضْعَفَه لهن، وكانت سُكَيْنة تقول: ما رأيت كافرًا بالله خيرًا من يزيد بن معاوية.

قال: ثم أمر بعليّ بن الحسين فأُدخل مَغْلولاً، فقال: لو رآنا رسول الله ﷺ مَغْلُولِين لفكّ عنا؛ قال: صدقتَ؛ وأمر بفك غُلّه عنه، فقال عليٌّ: لو رآنا رسول الله ﷺ على بعد لأحبَّ أن يقرِّبَنا؛ فأمر به فقُرِّبَ منه، وقال له يزيد: يا عليُّ أبوك الذي قطع رَحِمي وجهل حقِّي ونازعَني سلطاني فصنع الله به ما رأيت. فقال عليّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ

(١) الكلام هنا يتداخل ومراد يزيد بن معاوية أن الإمام الحسين السبط قتل لقوله ـ أُتي هذا ـ الخ والتتمة رواية يزيد بن معاوية على لسان السبط الشهيد.

(٢) يعني بظلمك.

إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣] فقال يزيد: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ثم سكت عنه، وأمر بإنزاله وإنزال نسائه في دار علَى حِدَة، وكان يزيد لا يتغدَّى ولا يتعشَّى إلاَّ دعا عليًّا إليه، فدعاه يومًا فجاء ومعه عمرو بن الحسن وهو غلام صغير، فقال يزيد لعمرو: أتقاتل هذا؟ يعني خالدًا ابنه، فقال: أعطِني سكِّينًا وأعطه سكِّينًا حتَّى أُقاتله. فضمه يزيد إليه وقال شِنْشِنَةٌ[١] أعرفها من أَخْزَم[٢]، وهل تلد الحيّة إلا حُيَيَّة[٣]؟

وقيل: لمّا وصل رأس الحسين إلَى يزيد حسُنتْ حال ابن زياد عنده، ووصله، وسرَّه ما فعل، ثم لم يلبث إلاَّ يسيرًا حتَّى بلغه بُغض الناس له، ولعنهمُ إياه، وسَبُّهم، فندم على قتل الحسين، وكان يقول: «وما علَيَّ لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معي في داري وحكَّمتُه فيما يريد، وإن كان عليّ من ذلك وَهْن في سلطاني، حفظًا لرسول الله ورعايةً لحقّه وقرابته، لعن الله ابن مَرْجانة، فإنه اضطره، وقد سأله أن يضع يده في يدي، أو يَلْحَقَ بثَغْر حتَّى يتوفَّاه الله، فلم يُجبه إلَى ذلك، وقَتله، فبغضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فأبغضني البَرُّ والفاجر بما استعظموه من قتلي حسينًا، ما لي ولابن مَرْجانة لعنه الله وغضب عليه!».

قال: ثم ندم ابن زياد أيضًا على قتله الحسين، وقال لعمر بن سعد: يا عمر ائتني بالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين؟ قال: مضَيْتُ لأمرك وضاع الكتاب، قال: لتجيء به؛ قال: ضاع، قال: لتجيء به؛ قال: ترك واللّهُ يُقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذارًا إلهين، أمَا واللّهِ لقد نصحتُك في حسين نصيحةً لو نصحتها أبي سعدَ ابن أبي وَقَّاص لكنت قد أدَّيْت حقه!» فقال عثمان بن زياد: «صدق، واللّهِ لَوَدِدت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة[٤] إلى يوم القيامة، وأنَّ حسينًا لم يُقتل!» فما أنكر ذلك عُبيد الله بن زياد على أخيه.

---

(١) الشنشنة: العادة أو ما يعنيها.

(٢) أخزم اسم رجل كان يعق والده وهو مثل يطرب لمن أقام على شيء لا يفارقه. راجع الميداني جـ١ ص٣٦١ رقم ١٩٣٣.

(٣) لاحظ تمثل يزيد بهذا المثل وسر بنسب المقول له صعدًا لتعرف صواب ما أراد يزيد. والحيية تصغير حية.

(٤) حلقة توضع في خطام البعير لقوده.

ذكر ورود الخبر بمقتل الحسين رضي الله عنه إلى المدينة وعود أهله إليها

قال: لما قُتل الحسين أمر عُبَيدُ الله بنُ زياد عبدَ الملك بن الحارث السُّلَمي بالمسير إلى المدينة؛ ليبشِّر عمرو بن سعيد أمير المدينة بقتل الحسين، فاعتذر عبد الملك، فزجره ابن زياد، فخرج حتَّى قدم المدينة، فلقيه رجل من قريش فقال: ما الخبر؟ فقال: الخبر عند الأمير. فاسترجع القرشي، وقال: قُتل واللّهِ الحسين!

ودخل عبد الملك على عمرو بن سعيد فأخبره بقتل الحسين، فقال: نادِ بقتله، ففعل، قال عبد الملك: فلم أسمع واعية[1] قَطُّ مثْلَ واعية نساء بني هاشم في دورهن على الحسين! فلما سمع عمرو بن سعيد أصواتَهنَّ ضحك وقال: واعيةٌ بواعية عثمان وأنشد بيت عمرو بن مَعْدِي كَرِب: [من الكامل]

عَجَّتْ نساءُ بني زياد عَجَّةً[2] كعَجيجَ نسوتنا غداةَ الأرْنَب

والأرْنَب: يوم كان لبني زُبَيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب ثم صعد عمرو المنبر فأعلم الناس بقتل الحسين.

قال: ولمّا نودِيَ بقتله خرجت زينب بنت عَقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها حاسِرة ناشِرةً شَعرها، تلوي ثيابها، وهي تقول: [من البسيط]

ماذا تقولون إنْ قال النبيُّ لكم: ماذا فعلتُمْ وأنتُم آخر الأُمَمِ؟
بعتْرَتي وبأهلي بعد مُفتَقَدي منهم أُسارى وقتلَى ضُرجوا بِدَمِ
ما كان هذ جزائي إذْ نَصَحْتُ لكم أن تَخْلُفُوني بسُوءٍ في ذَوِي رَحِمي

وقيل: سَمِع بعضُ أهل المدينة يَومَ قتل الحسين مناديًا ينادي: [من الخفيف]

أيُّها القاتلون جَهْلاً حُسيْنا أبْشروا بالعذاب والتَّنْكيل
كلُّ أهل السماء يدْعُو علَيكم من نَبيٍّ وَمَلأكٍ وقَبِيلِ[3]
قد لُعنْتم علَى لسان ابن داوُ دَ ومُوسَى وحامل الإنْجيل

---

(١) العويل على الميت.
(٢) الصراخ باستغاثة. وراجع قصة البيت في أمالي القالي جـ١ ص١٢٦.
(٣) لعله أراد من هو بصف الملائكة والأنبياء.

ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «رأيت النبي ﷺ في الليلة التي قُتل فيها الحسين وبيده قارورة، وهو يجمع فيها دمًا، فقلت: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى!» فأصبح ابن عباس فأعلم الناس بقتل الحسين، وقَصَّ رُؤياه.

ورُوِيَ أن النبي ﷺ أعطَى أمَّ سَلَمة ترابًا من تربة الحسين، حمله إليه جبريل، فقال النبي ﷺ: «إذا صار التراب هذا دمًا فقد قُتل الحسين» فحفظتْ أمُّ سَلَمة ذلك التراب في قارُورة، فلمَّا قُتِل الحسين صار ذلك التراب دمًا فأعلمت الناس بقتله. وهذا القول يستقيم على قول من يقول إن أمّ سلمة تُوفِّيَت بعد الحسين.

قال: ولما أراد يزيد أن يُسيِّر آل الحسين إلَى المدينة، أمر النعمانَ بن بَشير أن يجهِّزهم بما يُصلحهم، ويسيِّر معهم رجلاً أمينًا من أهل الشام، ومعه خَيل تسير بهم إلى المدينة، ودعا عليًا ليودعه وقال: «لَعن الله ابنَ مَرْجانة، أمَا واللّهِ لو أنّي صاحِبه ما سألني خَصلة أبدًا إلاَّ أعطيتُه إيَّاها، ولَدفعتُ الحَتْف[1] عنه بكلّ ما استطعتُ، ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله بذلك! كاتِبْني بأيّة حاجة تكون لك» وأوصَى بهم ذلك الرسول.

فخرج بهم، فكان يسايرهم ليلاً فيكونون أمامه بحيث لا يفوتون طَرْفه، وإذا نزل تنحى عنهم هو وأصحابُه، فكانوا حَوْلهم كهيئة الحرَس، وكان يسائلهم عن حوائجهم ويلطُف بهم حتَّى دخلوا المدينة. فقالت فاطمة بنت علي لأختها زينب: لقد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لكِ أن نصله بشيء؟ فقالت: والله ما معنا ما نصله به إلاَّ حليًّنا، فأخرجتا سوارين ودُمْلُجين[2] لهما فبعثتا به إليه، واعتذرتا، فردّ الجميع، وقال: لو كان الذي صنعته للدنيا لكان في هذا ما يرضيني، ولكن والله ما فعلتُه إلاَّ لله ولقرابتكم من رسول الله ﷺ.

ذكر ما ورد من الاختلاف
في مَقَر رأْس الحسين وأين دفن

قد اختلف المؤرخون في مقر رأْسه، فمنهم من قال: إنه دفن بدمشق، ومنهم من زعم أنه نقل إلى مَرْو؛ ومنهم من يقول. إنه أعيد إلى الجسد ودفن بالطَّف؛

(١) الموت.

(٢) الدملج مفردها وهي حليّ للعضد، وتسمى المعضد.

ومنهم من قال: دفن بعَسْقَلان[١]، ثم نقل إلى مصر؛ ومنهم من قال: دفن بالمدينة عند قبر أمه فاطمة رضي الله عنهما. وقد رأينا أن نذكر أقوالهم في ذلك ومستحجهم[٢].

قال: فأما من قال إنه دفن بدمشق فإنه يقول: إنه لمّا قُتل الحسين رضي الله عنه، وحُمل رأسه إلى عُبيد الله بن زياد بالكوفة كما تقدم وقصد حمله إلى دمشق، طلب منْ يقوره[٣] فلم يجبه إلاّ طارق بن المبارك مَوْلى بنيْ أُمية وكان حجّامًا، ففعل، وقد هُجي أبو يعلَى الكاتب، وهو أحد أسْباط طارق هذا، فقيل فيه: [من الخفيف]

شَقَّ رأسَ الحسينِ جعدُ أبي يَعْـ ـلَى وسَاطَ[٤] الدِّماغَ بالإبْهامِ

ثم أرسل ابن زياد به إلى دمشق، فنصبه يزيد بن معاوية بها ثلاثة أيام[٥]، ووُضع في مسجد عند باب المسجد الجامع، يعرف بمسجد الرأس، وهو تجاه باب الساعات، كان بابه هناك، ثم سُدّ وفُتح من مشهد زين العابدين في سنة ثلاثين وستمائة ونحوها، ثم كان الرأس في خزانة يزيد بن معاوية.

واختلف أيضًا القائلون إنه دفن بدمشق في المكان الذي دفن فيه بها. فحكى ابن أبي الدنيا[٦] في المقتل عن منصور بن جمهور[٧] أنه قال: دخلتُ خزانة يزيد بن معاوية، فلما فُتحت أصبت جونة[٨] حمراء فقلت لغلام لي يقال له سليم: احتفظ بهذه الجونة فإنها كنز من كنوز بني أُمية، فلما فتحتها وجدت بها رأسًا وورقة مكتوب فيها: «رأس الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ»، وإذا هو مخضوب بالسواد، فلفه في ثوب ثم دفنه عند باب الفراديس، عند البرج الثالث مما يلي

---

(١) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. راجع معجم البلدان ج٤ ص١٢٢.

(٢) ما أوردوه من حجج.

(٣) أي يفرغه مما فيه من حواس وأعضاء.

(٤) ساط الشيء بالشيء إذا خلطهما، والمراد هنا أنه بعثره أو انتزعه.

(٥) أتراه مستنكر فعل ابن زياد؟.

(٦) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان القرشي الأموي، وهو الذي أدّب الخليفة العباسي المعتضد وابنه المكتفي.

(٧) منصور بن جمهور بن حصن بن عمرو الكلبي. من بني وبرة. كان مع الخارجين مع يزيد بن الوليد على ابن عمه الوليد بن يزيد. وجه السفاح لقتاله موسى بن كعب في بلاد السند ففر إلى مفازة هناك فمات عطشًا سنة ١٣٣هـ. راجع جمهرة الأنساب ص٤٢٨.

(٨) من نوع السلال.

المشرق. وحكى الاستربادي[١] في كتابه «الداعي إلى وداع الدنيا» عن أبي سعيد الزاهد أنه قال: قبر الحسين بكربلاء ورأسه بالشام في مسجد دمشق على رأس أسطوانة[٢]، وقال غيره: على عمودين يمين القبلة، وقيل إن يزيد دفنه في قبر أبيه معاوية، ومنهم من قال: في مقابر المسلمين.

وأما من قال: إنه بمَرْوَ فإنه يقول: إن أبا مسلم الخراساني لما استَوْلَى علَى دمشق، أخذ الرأس ونقله إلى مَرْو، ودفن بها في دار الإمارة: وأن الرأس حُشيَ بالمسك وكُفِّن وصُلِّي عليه مرة بعد أخرى.

وأما من قال: إنه أعيد إلى الجسد ودفن معه، فمنهم من يقول: إن يزيد أعاده بعد أربعين يومًا؛ ومنهم من يقول: بل استقر في خزانة السلاح إلى أن وليَ سليمان بن عبد الملك فأحضره وقد قَحَل[٣]؛ وبقي عظم أبيض فجعل عليه ثوبًا وجعله في سَفَط[٤] وصلّى عليه ودفن في مقابر المسلمين، فلما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن السلاح يطلب منه الرأس، فطالعه بما كان من أمره فأمره بنبشه وأخذه، فالله أعلم بما صنع به، لكنهم أُستدلّوا من ديانة عمر بن عبد العزيز وصلاحه وخيره أنه نقله إلى الجسد ودفن معه.

وأما من قال: إنه كان بِعَسْقلان ثم نقل إلى مصر فأستنادهم في ذلك إلى رؤيا منام، وذلك أن رجلاً رأى في منامه، وهو بعسقلان أن رأس الحسين في مكان بها، عيّن له في منامه فنبش ذلك الموضع، وذلك في أيام المستنصر بالله العُبَيدي صاحب مصر، ووزارة بَدْر الجمالي، فابتنى بدر الجمالي له مشهدًا بعسقلان، فلم يزل الأمرُ على ذلك إلى أن تغلب الفرنج على عسقلان، في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، فحمل إلى القاهرة في البحر.

وحكى محمد ابن القاضي المكين عبد العزيز بن حسين في سيرة الصالح بن رُزِّيك، قال: لما وليَ عباس بن أبي الفتوح الوزارة بمصر في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في مستهلّ جُمادى الآخرة وصل الخبر بتملُّك الفرنج عَسْقَلاَن، فنقل رأس الحسين فيها، من المشهد الذي أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي، وكمله

---

(١) عبد الله بن محمد بن عبد الله، كنيته أبو سعيد، نسب إلى استراباذ من أعمال طبرستان. سكن سمرقند وتوفي فيها.

(٢) عامود ضخم منحوت من صخر.

(٣) لعله نحل وربما أراد تفتت.

(٤) وعاء قعور.

الأفضل[١]، إلى القاهرة، فكان وصوله إليها في يوم الأحد، ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسِمائة، وكان قد سَيَّر أحد الأُستاذين الخواص لتلقِّيه إلى مدينة تِنِّيس[٢]، فوصل في عشارى[٣] من عشاريات الخدمة، ودخل فيه إلى خليج القاهرة، وأدخل من باب البستان المعروف بالكافوري، في ليلة الاثنين التاسع من الشهر، وسلك به إلى القصر الغربي إلى أن وصل إلى القصر الشرقي، ولم يزل الحال على ذلك إلى أن حدث من عبّاس وابنه ما حدث، من قبل الظافر وإخوته وابن أخيه، على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبارهم في كتابنا هذا، فلما نهض الصالح بن رُزِّيك في الطلب بثأرهم، ووليَ الوزارة، لم يقدِّم شيئًا على الشروع في بناء المشهد بالقصْر، في الموضع المعروف بقية الخَراج من دهاليز باب الدَّيْلَم وكمّل المشهد، فلما كان في ليلة يسفرُ صباحها عن تاسع المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة، خرج ابن رُزِّيك من داره راجلًا إلى الإيوان، فأخرج الرأس فحمله خاشعًا مستكينًا إلى أن أحله بالضريح، ومدحه الشعراء، فمن ذلك قول أحدهم: [من الكامل]

أدركـتَ مـن عـبّـاس ثـأرًا دُونَـه ... مـا أدرك الـسّـفّـاح مـن مَـرْوان
وحـقَـرْتَ ما فَخَرَ ابنُ ذي يَزَنٍ[٤] بـه ... لـمَّـا أقـرَّ الـمُـلـك فـي غُـمْـدان
وجمعتَ أشلاء الحسين وقدْ غَدَتْ ... بَـدَدًا فـأضـحـتْ فـي أعـزِّ مـكـان
وعـرفتَ لـلعُضْـوِ الشريف محلَّه ... وجـلـيـلَ مـوضـعـه مـن الـرحـمٰـن
أكـرمـتَ مَـثْـواه لَـدَيْـكَ وقَـبْـلُ فـي ... آل الـطَّـريـد[٥] غـدا بِـدارِ هَـوَان
وقضيتَ حقَّ المصطفَى في حمْله ... وحظيتَ من ذي العرش بالرِّضوان
ونـصـبـتَـه لـلـمـسـلـمـيـن تَـزُورُه ... مُـهَـجٌ إلَـيْـه شـديـدةُ الـهَـيْـمَـان
أسْكَـنـتَـه فـي خَـيـر مَـأوَى خَـطَّـه ... أبـنَـاؤه فـي سـالـف الأزْمـان
ولَـو استطعْتَ جعلْتَ قلبك لَحْده ... فـي مـوضـع الـتـوحِـيـد والإيـمـانِ
حـرَمٌ تَـلُـوذُ بـه الـجُـنَـاة فـتَـنْـثَـنـي ... مَـحْـبُـوَّةً بـالـعـفْـو والـغـفـرانِ
قـد كـان مـغـتـربًـا زمـانًـا قـبـلَ ذَا ... فـالآن عُـدْتَ بـه إلـى الأوطـان

وأما من قال: إنه بالمدنية، فإنه يقول: إنه لما نصِب بدمشق وطِيفَ به، أمر

---

(١) ابن الأمير بدر الدين الجمالي.
(٢) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر بين الفرما ودمياط. راجع معجم ياقوت جـ٢ ص٥١.
(٣) نوع من البواخر.
(٤) صاحب السيرة المعروفة باسمه.
(٥) كناية عن الأمويين عامة والمروانيين خاصة.

يزيد بن معاوية النعمان بن بشير الأنصاري أن يحمله إلى المدينة، ليشاهده الناس، وليرهب به عبد الله بن الزبير، فلما وصل إلى المدين ودخل به على عمرو بن سعيد الأشدق، قال: وددت أن أمير المؤمنين لم يكن بعث به إليّ، فقال له مروان بن الحكم: اُسكتْ لا سكتَّ ولكن قل كما قال: [من الرمل]

ضربت دوسي[١] فيهم ضربةً أثْبَتَتْ أوْتادَ مُلْك فاسْتَقَرْ

ثم أمر به عمرو بن سعيد فكُفِّن ودفن عند قبر أُمه فاطمة رضي الله عنهما.

وقيل: بل أُرسل إلى مَنْ بالمدينة من بني هاشم، أن دونكم رأس صاحبكم، فأخذوه، فغسلوه وكفنوه وصلُّوا عليه ودفنوه عند قبر أُمه رضي الله عنهما، والله تعالى أعلم، وقد تكلم عمر بن أبي المعالي أسعد بن عمار بن سعد بن عمار بن علي رحمه الله تعالى في كتابه الذي ترجمه «الفاصل بين الصدق والمَيْن في مقر رأس الحسين» على هذه الأقوال المتقدمة ووهنها وضعّفها واستدل على ضعفها، ورجح أنه بالمدينة، حتَّى كاد يبلغ به مبلغ القَطْع، فقال ما معناه: أمّا قولهم إنه كان في خزائن بني أُميّة إلى أن ظهرت الخلافة العباسية، وأن أبا مُسْلم نقله إلى خُراسان، فهذا بعيد جدًا، وذلك أن أبا مسلم لمّا فتح الشام كان بخراسان، والذي فتح دِمَشق عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، فكيف يُتَصَوَّر أن ينقله أو يمكن من نقله إلَى مَوْلاه بخُراسان؟ ولو ظفِر به في خزائن بني أُميَّة لأظهره للناس ليزدادوا لبني أُمية بغضًا، وأيضًا فقد وليَ العبدُ الصالح عمر بن عبد العزيز الخلافة، وبعيد أن كان يترك رأس ابن بنت رسول الله ﷺ في خزائن السلاح ولم يُوَارِه[٢].

وأمّا قولهم إنه كان بعَسْقَلان فلم يوجد ذلك في تاريخ من التواريخ أنه نقل إلى عسْقلان ولا إلى مصر، ويقوّي ذلك أن الشام ومصر لم يكن بهما شيعة عَلَوية فينقل إليهم ليَرَوْه وتنقطع آمالهم من الحسين وتضعف نفوسهم عن الوثوب مع غيره والانضمام إليه.

وأما قولهم إنه بالمدينة عند قبر أُمه فقد قاله محمد بن سعد في طبقاته، وابن أبي الدنيا وأبو المؤيد الخُوارِزمي خطيب خُوارزْم في إحدى رواياتهما، وصححه أبو الفرج بن الجَوزي[٣]، والله تعالى أعلم.

---

(١) لعلها قبيلة دوس الأزدية التي ينتهي إليها أبو هريرة.

(٢) يدفنه.

(٣) عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي. سكن بغداد وفيها توفي، وهو من أعلام المحدثين.

وقد أخذ هذا الفصل حقه، فلنذكر خلاف ذلك من الأخبار التي اتفقت في أيام يزيد بن معاوية على حكم اليقين:

ذكر مقتل أبي بلال مرداس ابن حُدَير الحَنْظَلي الخارجي[١]

قد ذكرنا في أيام معاوية خروجه وأن ابن زياد بعث إليه أسْلم بن زرعة الكلابي في ألفين، فهزمهم بآسَك[٢].

فلما كان في هذه السنة أرسل إليه ابن زياد ثلاثة آلاف، عليهم عباد بن الأخضر التميمي والأخضر زوج أُمه، نسب إليه وإنما هو عباد بن علقمة بن عباد فسار إليه، واتبعه حتَّى لحقه بتَوَّج[٣]، فاقتتلوا حتَّى دخل وقت العصر، فقال أبو بلال: هذا يوم جمعة، وهو يوم عظيم، دعونا حتَّى نصلِّي، فتوادعوا، فعجّل عباد الصلاة وقيل: بل قطعها، والخوارج يصلُّون، فشدَّ عليهم هو وأصحابه، فقتلوهم وهم ما بين قائم وراكع وساجد، لم يتغير منهم أحد عن حاله، فقتلوا عن آخرهم.

ورجع عباد إلى البصرة برأس أبي بلال، فرصده عبيدة بن هلال ومعه ثلاثة نفر، فأقبل عباد يريد قصر الإمارة، فقالوا له: قف حتَّى نستفتيك[٤]. فوقف، فقالوا: نحن إخوة أربعة قُتل أخونا فما تَرَى؟ قال: استَعْدُوا الأمير، قالوا: استعْدَيْناه فلم يُعْدِنا. قال: فاقتلوه قَتَله الله. فَوَثبوا عليه وقتلوه، واجتمع الناس علَى الخوارج فقُتلوا.

وفيها استعمل يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد على خُراسان وسِجِسْتان، وعَزَل عنهما أخويه: عبد الرحمٰن وعبَّادًا ابنَيْ زياد، فكتب عبيد الله بن زياد إلى أخيه عباد يخبره بولاية سَلم، فقسم عباد ما في بيت المال على عبيدة، وفضَل فضْلٌ فنادَى: من أراد سَلفًا فلْيأخذ، فأسْلف كلَّ من أتاه، وخرج عن سِجِسْتان، فلما كان بِجِيرفَتْ[٥] بلغه مكان أخيه سَلْم، وكان بينهما جبل، فعدل عنه، فذهب لعباد تلك الليلة ألف

(١) مرداس بن حديد بن عامر بن عبيد بن كعب الربعي الحنظلي التميمي، كنيته أبو بلال، ويقال له مرداس ابن أدية، وأدية أمه. خارجي من «الشراة» قتله عبيد الله بن زياد سنة ٦١هـ. راجع جمهرة الأنساب ص٢١٢.

(٢) آسك: موضع بالأهواز بين رامهرمز وأرجان.

(٣) مدينة بفارس وتسمى توز.

(٤) نسألك الفتيا.

(٥) مدينة بفارس.

مملوك، أقلُّ ما مع أحدهم عشرة آلاف، وسار عباد حتى قدم على يزيد، فسأله عن المال، فقال: كنت صاحب ثَغر فقسمتُ ما أصبْتُ بين الناس.

قال: ولما سار سَلْم إلى خراسان كتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد معه بنُخْبة ستة آلاف فارس، وقيل ألفين، فكان سلم ينتخب الوجوه والفرسان، فخرج معه عِمْران بن الفضيل البرجمي والمهلَّب بن أبي صُفْرة وطَلحة بن عبد الله بن خَلَف الخزاعي وغيرهم، وسار حتّى قدِم خراسان، وعبر النهر غازيًا، وكان عُمال خُراسان قبله يغزُون، فإذا دخل الشتاء رجعوا إلى مَرْو الشاهجان[1]، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خُراسان بمدينة ممَّا يلي خُوارزْم، فيتعاقدون ألاَّ يغزوَ بعضهم بعضًا ويتشاورون في أُمورهم، وكان المسْلمون يطلبون إلى أُمرائهم غزو تلك المدينة، فيأبَوْن عليهم، فلمّا قدم سلم غزا فشتَّى في بعض مغازيه، فسأله المهلب أن يوجهه إلى تلك المدينة، فوجهه في ستة آلاف، وقيل: في أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا الصلح على نَيِّف وعشرين ألف ألف، فصالحهم، وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عُروضًا، فكان يأْخذ العُروض من الرقيق والدوابّ والمتاع بنصف قيمتها، فبلغ ما أخذ منهم خمسين ألف ألف، فحظي بها المُهَلَّبُ عند سَلْم، وأخذ سلم من ذلك ما أعجبه وبعث به إلى يزيد.

وغزا سلم سَمَرْقَند، وعبر معه النهر امرأته أُم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وهي أول امرأة من العرب قُطِع بها النهر، فولدتْ له ابنًا سماه «صُغْدى» واستعارت امرأته من امرأة صاحب الصُغْد حُليَّها فلم تُعِدْه إليها وذهبت به.

ووجَّه جيشًا إلى خُجَنْدَة[2] فيهم أعشَى هَمْدان، فهُزِموا، فقال الأعشى في ذلك: [من الخفيف]

لَيت خَيلي يوم الخُجَنْدَة لم تُهـ زمْ وغُودرْتُ في المكَرِّ[3] سَليبا
تَحْضرُ الطير مَصْرَعي وتَرَوَّحْـ ـت إلى الله في الدِّماءِ خَضيبا

وفيها عَزل يزيد عمرو بن سعيد، واستعمل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وسبب ذلك أن الوليد وناسًا من بني أُميَّة قالوا ليزيد: لو شاء عمرو لأخذ ابن الزبير وسرَّح به إليك. فعزله، ولم يكن كذلك، بل كان ابن الزبير كاده.

وحجّ الوليدُ في هذه السنة بالناس.

---

(١) مرو الشاهجان: مرو الكبرى.
(٢) خجندة: مدينة على شاطىء سيحون.
(٣) مكان الكر كناية عن المعترك.

سنة اثنين وستين:

ذكر وفد أهل المدينة إلى يزيد بن مُعاوية وخلعهم له عند عودهم

وفي هذه السنة وفد جماعة من أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية بالشام، فيهم عبد الله بن حَنظلة غَسيل الملائكة[١] وعبد الله بن أبي عمرو بن حَفص بن المُغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير، ورجال كثير من أشراف أهل المدينة.

وكان ابن الزبير قد كتب إلى يزيد لمّا استعمل الوليدَ بن عتبة على الحجاز يقول: «إنك بعثتَ إلينا رجلاً أخرق[٢]، لا يتَّجه لرشدٍ، ولا يَرْعَوي لعِظة الحكيم، فلو بعثتَ رجلاً سهل الخُلُق رجَوْت أن يسهِّلَ من الأُمور ما اسْتَوْعَر منها، وأن يجتمع ما تفرَّق» فعزل يزيد الوليد، واستعمل عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وهو فتًى غِرٌّ حَدَثٌ لم تحَنِّكه التجارب، ولا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله.

فوفد هذا الوفد إلى يزيد، فقدموا عليه، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، فأعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم، وكان معه ثمانية بَنين فأعطى كلّ واحدٍ منهم عشرة آلاف، وأجاز المنذر بن الزبير بِمائة ألف كتب له بها على عُبيد الله بن زياد فتوجه إلى العراق فقبضها.

ورجع الوفد إلى المدينة إلاّ المنذرَ، فلمّا قدموا المدينة قاموا في الناس فأظهروا شَتْم يزيد وعيبه، وقالوا: «قدِمْنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزِف بالطّنابير، وتعزِف عنده القِيان، ويلعب بالكلاب، ويسْمُر عنده الخُرَّاب، وهم اللصوص، وإنا نُشْهِدكم أنّا قد خلعناه».

وقام عبد الله بن حَنظَلة فقال: «جئتكم من عند رجل لَوْ لم أجد إلاّ بَنِي هؤلاء لجاهدتُه، وقد أعطاني وأكرمني، وما قبلتُ منه عطاءه إلاّ لأتقوّى به».

فخلعه الناس، وبايعوا عبد الله بن حنظلة على خلْعه، وولَّوْه عليهم.

ثم قدِم المنذر من العراق إلى المدينة، فحرَّض الناس على يزيد، وقال: «إنه أجازني بِمائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبرَكم خبره، والله إنه ليشربُ الخمرَ، وإنه ليَسْكَرُ حتّى يدعَ الصلاة!» وعابه بمثل ما عابه به أصحابُه وأشَدّ.

---

(١) أخبر النبي ﷺ أن حنظلة بن أبي عامر الأنصاري من الأوس قد غسلته الملائكة بعد استشهاده بغزوة أحد وقد ولد ابنه عبد الله والرسول حي ﷺ.

(٢) غير عاقل.

فبعث يزيدُ النعمانَ بن بشير الأنصاري وقال له: «إن عدد الناس بالمدينة قومك، فأتهم فالْفِتْهم عمَّا يريدون، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترىءِ الناسُ على خلافي» فأتى النعمانُ قومَه، وأمرهم بلزوم الطاعة، وخوَّفَهم الفتنة، فعصَوه ولم يرجعوا إلى قوله، فرجع. وبسبب هذه الواقعة كانت وقعة الحرَّة.

وفي هذه السنة كان من الحوادث في بلاد المغرب ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار إفريقية.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة.

وفيها ولد محمد بن عبد الله بن عباس والد السفاح والمنصور.

سنة ثلاث وستين:

ذكر وقعة الحَرَّة

كان سبب هذه الوقعة ما قدمناه من خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، فلمّا كان في هذه السنة أخرج أهلُ المدينةِ عثمانَ بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد، وحصروا بني أُميَّة، فاجتمع بنو أُميَّة ومَواليهم ومن يَرَى رأيهم في ألف رجل، ونزلوا دار مَرْوَان بن الحكم، وكتبوا إلى يزيد يستغيثون به، فلمّا قرأ الكتاب بعث إلى عمرو بن سعيد الأشدق، فأقرأه الكتاب وأمره بالمسير في الناس، فقال: قد كنت ضبطتُ لك الأمور والبلاد، فأما الآن إذ صارت دماء قريش تُهراق بالصعيد فلا أُحبُّ أن أتولّى ذلك.

فبعث إلى عُبيد الله بن زياد، فأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة عبد الله بن الزبير بمكة، فقال: «والله لا أجمعهما للفاسق[١]: قتْل ابن بنت رسول الله وغزْو الكعبة!» ثم أرسل إليه يعتذر.

فبعث إلى مسلم بن عقبة الْمُرِّي[٢] وهو شيخ كبيرٌ مريض فأخبره الخبر، فقال: أَمَا يكون بنو أُميَّة ومَوَاليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل؟ قال: بَلَى؛ قال: «أَمَا استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار؟ ليس هؤلاء بأهل أن يُنحصَروا فإنهم أذِلَّاء! دعْهم يا أمير المؤمنين حتَّى يُجْهِدوا أنفسَهم في جهاد عدوِّهم، ويتبيّن لكَ مَن يقاتلُ علَى طَاعتك ومَن يستسلم»؛ قال: «وَيْحَك! إنه لا خيرَ في العيش بعدهم! فاخرجْ بالناس».

---

(١) يعني يزيد بن معاوية.

(٢) مسلم بن عقبة بن رباح بن عامر بن يربوع بن مرة.

وقيل: إن معاوية قال ليزيد: إن لك من أهل المدينة يومًا، فإنْ فعلوا فارْمِهِم بمسلم بن عُقبة، فإنه رجل قد عرفتُ نصيحته، فأمره بالمسير إليهم.

فنادَى في الناس بالتجهيز إلى الحجاز وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار لكل رجل؛ فانتدب لذلك اثنا عشر ألفًا، وساروا مع مسلم، فقال له يزيد: إنْ حَدَثَ بك حَدَثٌ فاستخلف الْحُصَين بن نُمير السَّكُوني[(١)]؛ وقال له: «ادْعُ القومَ ثلاثًا فإن أجابوا وإلاَّ فقاتلهم، فإذا ظَهَرْتَ علَيهم فأبِحْها ثلاثًا بما فيها من مال أو رِقَة[(٢)] أو سلاح أو طعام، فهو للجند، فإن انقضت الثلاث فاكفُفْ عن الناس، واكفُفْ عن عليّ بن حسين، واسْتَوْصِ به خيرًا فإنه لم يدخل مع الناس، وقد أتاني كتابه».

قال: ولمّا بلغ أهلَ المدينة خبرُ الجيش اشتدَّ حصارهم لبني أُمية بدار مَرْوان، وقالوا: «واللّهِ لا نكفُّ عنكم حتَّى نضرِبَ أعناقكم أو تُعطونا عهد الله وميثاقَه أنكم لا تَبْغُونا غائلةً، ولا تدلوا لنا على عَورة، ولا تُظاهروا علينا عدوّنا، فنكفَّ عنكم ونخرجكم»، فعاهدوهم على ذلك، وأخرجوهم من المدينة، فساروا بأثْقالهم حتَّى لَقُوا مُسلم بن عُقْبة بوادي القُرَى، فدعا عمْرو بنَ عثمان بن عفَّان أوَّلَ الناس، فقال: أخبِرني ما وراءك وأشِرْ عَليَّ، قال: لا أستطيعُ، قد أخِذَ علينا العهود والموَاثيق ألا ندُلَّ علَى عَورة ولا نُظاهِرَ عدوًّا؛ فانتهره وقال: «واللّهِ لَولا أنك ابن عثمان لضربتُ عنقك، وأيمُ اللّهِ لا أقيلها قُرَشيًّا بعدك!».

فخرج إلى أصحابه، فأخبرهم خبره، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك: ادخُل عليه قبلي لعله يجتزىء بك عني، فدخل عبد الملك علَى مُسْلم، فقال «نَعَمْ: هاتِ ما عندك؛ فقال: نعم، أرَى أن تسير بمن معك، فإذا انتهيت إلى أدْنى نخلها نزلتَ، فاستظلّ الناس في ظله وأكلوا من صَقِره[(٣)]، فإذا أصبحت من الغدِ مضَيْتَ، وتركت المدينة ذات اليسار، ثم دُرْتَ بها حتَّى تأتيهم من قِبَل الحَرَّة[(٤)] مشرقًا ثم تستقبل القوم، فإذا استقبلتَهم وقد أشرقَتْ علَيهم الشمس طلعت من أكناف أصحابك فلا تؤذيهم، ويصيبهم أذاها ويَرَوْن من ائْتِلاقِ بَيْضكم[(٥)] وأسِنَّةِ رماحكم وسيوفكم

(١) الحصين بن نمير بن ناتل بن لبيد بن خثعمة بن حارث بن سلمة بن شكاية بن السكون. راجع جمهرة أنساب العرب ص٤٠٣.

(٢) كناية عن المصكوكات من الدراهم والدنانير.

(٣) عسل الرطب.

(٤) أرض بظاهر المدينة جرت فيها مذبحة وأباح فيها يزيد بن معاوية المدينة لجنده وبايع أهلها له على أنهم خول له.

(٥) أراد السلاح عامة وبعض آلات الحرب المعروفة.

وذُروعكم ما لا تَرَوْنه أنتم منهم، ثم قاتِلْهم، واستعِنْ عليهم بالله تعالى» فقال له مُسلم: «لله أبوك! أيّ أُمويّ!» ثم دخل عليه مَرْوان فقال له إيه. قال: أليس قد دخل عليك عبد الملك؟ قال: «بَلَى، وأيُّ رجل عبد الملك! قلما كلمتُ من رجال قريش رجلاً به شبيهًا!» فقال له مَرْوان: إذا لقِيتَ عبد الملك فقد لقِيتني.

ثم ارتحل مسلم من مكانه، وفعل ما أمره به عبد الملك، ثم دعاهم فقال: «إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل، وإني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلُكم ثلاثًا، فمن ارْعَوَى وراجع الحقَّ قبِلْنا منه وانصرفتُ عنكم إلى هذا المُلْحِد(١) الذي بمكة، وإنْ أبيْتم كُنَّا قد أعْذَرْنا إليكم».

فلما مضت الثلاث قال مسلم: يا أهل المدينة ما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب، فقال لهم: «لا تفعلوا، بل ادخلوا في الطاعة، وتجعل حَدَّنا وشَوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المُرَّاق(٢) والفُسَّاق من كل أوْب(٣)» يعني عبد الله بن الزبير، فقالوا له: «يا عدوَّ الله، لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم: أنحن نَدَعُكم أن تأتوا بيت الله الحرامَ فتُخيفوا أهل مكة وتُلْحِدوا فيه وتستحلُّوا حرمته؟ لا واللّهِ لا نفعلُ!».

قال: وكان أهل المدينة قد اتَّخذوا خَنْدَقًا، وعليه جمع منهم، عليهم عبد الرحمٰن بن أزهر بن عَوْف وهو ابن عم عبد الرحمٰن بن عوف وكان عبد الله بن مطيع مع ربع قريش في جانب المدينة، وكان مَعْقِل بن سِنان الأشجعي، أحد الصحابة على ربع المهاجرين، وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري في أعظم تلك الأرباع، وهم الأنصار(٤).

وصمد مسلم بن عقبة فيمن معه، فأقبل من ناحية الحَرَّة، حتَّى ضَرَب فُسْطاطَه على طريق الكوفة، وكان مريضًا، فأمر فوُضِع له كرسيّ بين الصفَّين، فجلس، ثم حرَّض أهل الشام على القتال، فجعلوا لا يقصدون ربْعًا من تلك الأرباع إلاَّ هزموه، ثم وجَّه الخَيْل نحو ابن الغسيل(٥)، فكشَفَهم، حتَّى انتهوا إلى مسلم، فنهض في وجوههم بالرجال، وصاح بهم، فقاتلوا قتالاً شديدًا.

---

(١) يعني عبد الله بن الزبير.
(٢) الخارج من دينه.
(٣) الجهة.
(٤) راجع ابن الأثير في تاريخه جـ٤ ص١١٥.
(٥) ابن غسيل الملائكة.

ثم إن الفضْل بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى ابن الغَسِيل، فقاتل معه في نحو عشرين فارسًا قِتالاً حسنًا، ثم قال ابن الغسِيل: «مُرْ مَن معك فارِسًا فَلْيَأْتني، فليقفْ معي، فإذا حملتُ فلْيحملوا، فواللّهِ لا أنتهي حتى أبلغ مسلمًا فأقتله أو أُقتل دونه!» ففعل، وجمع الجند، فحمل بهم الفضل على أهل الشام، فانكشفوا، ثم حمل وحمل أصحابه حملةً أخرى، فانفرجت خيل الشام عن مُسلم ومعه خمسُمائة راجل جُثاة على الرُّكَب مُشرِعي الأسِنَّة نحو القوم، ومضى الفضل نحو راية مسلم فضرب رأس صاحبها فقَطّ المغْفَر[1] وفَلَق هامتَه، فخرَّ ميتًا، وقال: خُذْها وأنا ابن عبد المطلب! وظنّ أنه قتل مسلمًا، فقال: قتلتُ طاغية القوم وربِّ الكعبة! فأخذ مسلم رايته، وكان المقتول غلامًا روميًّا شجاعًا، وحرَّض مسلم أهل الشام، وقال: شدُّوا مع هذه الراية، فمشى برايته، وشدَّت الرجال أمام الراية، فصُرع الفضل وما بينه وبين أطناب فسطاط مسلم إلاَّ نحوُ عشرة أذرع، وقُتل معه زيد بن عبد الرحمٰن بن عوف، وأقبلت خيلِ مسلم ورجالته نحو ابن الغَسِيل، فحرض ابن الغَسِيل أصحابه، فنهضوا واقتتلوا أشدَّ قتال، وأخذ ابنُ الغَسيل يُقدِّم بَنيه واحدًا واحدًا، حتَّى قُتلوا بين يديه، ثم قُتل وقتل معه أخوه لأُمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري. وانهزم الناس[2].

وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثًا، يقتلون الناس، ويأخذون المتاع والأموال، فسُمِّي مسلم بعد وقعة الحرة مسرفًا»[3].

وقيل إن مسلمًا لمّا نزل بأهل المدينة خرج إليه أهلها بجموع كثيرة وهيْئة حسنة، فهابهم أهل الشام، وكرهوا قتالهم، فلما رآهم مسلم سبَّهم وذمّهم وحرَّضهم، وكان شديد الوجع، فقاتلوا، فبينما أهل المدينة في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم من جوف المدينة، وكان سببه أن بني حارثة أدخلوا أهل الشام المدينة، فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخَنْدَق أكثرَ مِمَّن قُتل.

ودعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خَوَل[4] له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء، فمن امتنع من ذلك قتله.

---

(١) قطع اللامة التي على رأسه. (٢) راجع ابن الأثير بزيادة جـ٤ ص١٢.
(٣) أسرف الرجل إذا تجاوز الحد فيما فعل. (٤) عبيد.

وأُتي يومئذ بعمرو بن عثمان بن عفان، وكان ممَّن لم يخرج مع بني أُمَيَّة، فقال مسلم: يا أهل الشام تعرفون هذا؟ قالوا: لا؛ قال: هذا الخبيث ابن الطيب، هذا عمرو بن عثمان، هي يا عمرو إذا ظَهَر[1] أهل المدينة قلتَ أنا رجل منكم، وإن ظَهَرَ أهل الشام قلتَ أنا ابن أمير المؤمنين عثمان»، وأمَر به فنُتِفَتْ لحيته، ثم خلَّى سبيله.

وكانت وقعة الحَرَّة لليلتين بَقِيَتا من ذي الحِجة سنة ثلاث وستين.

وقَتل مسلم جماعة من أهل المدينة صَبْرًا، فكان منهم على ما ذكر ابن إسحاق والواقدي ووثيمة وغيرهم: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأبو بكر بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ويعْقوب بن طلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن زيد بن عاصم، ومعقل بن سنان الأشجعي، ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العَدوي، وقُتل أيضًا صبرًا ابنا زَينب بنت أُم سَلَمة رَبيبة رسول الله ﷺ، وهما ابنا عبد الله بن زَمعة بن الأسْوَد بن المطلب بن أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، ولما قُتلا حُملاَ إلى أُمهما فوُضعا بين يديها، فاسْترجعت وقالت: واللّهِ إنَّ المصيبةَ عَلَيّ فيهما لَكبيرةٌ، وهي علَيّ في هذا أكبر منها في هذا، أما هذا فجلس في بيته وكفَّ يده فدُخِل علَيه فقُتل مظلومًا، فأنا أرجو له الجنة، وأمَّا هذا فبسط يده فقاتَل حتى قُتل، فلا أدرِي عَلامَ هو في ذلك؟ فالمصيبةُ به أعظم منها علَيَّ في هذا! وقُتِل أيضًا يزيد بن عبد الله بن زَمعة.

وانتهى القتل يومَئذ فيما ذكروا إلى ثلاثِمائة، كلُّهم من أبناء المهاجرين والأنصار. ومنهم جماعة ممّن صحب رسول الله ﷺ، وبلغت قَتْلَى قريش يومئذ نحو مائة، وقتلى الأنصار والحلفاء والمَوالي نحو مِائتين.

وقيل: إن يزيد بن معاوية لمّا بلغه ما كان من خبر هذه الوقعة قال: [من الرمل]

لـيـتَ أشْـيَـاخـي بِـبَـدْر[2] شَـهِـدُوا ... جَـزَعَ[3] الْـخَـزْرَجِ مـنْ وَقْـعِ الأسَـلْ[4]
لأَهـلَّـوا[5] وٱسْـتَـهـلُّـوا فَـرَحًـا ... ثـم قـالـوا يـا يـزيـد لا تَـشَـلْ
لـسـتُ مـن عُـتْـبـة إن لـم أثْـئـرْ[6] ... مـن بـنـي أحـمـدَ[7] مـا كـان فـعـلْ

(١) أي انتصر.
(٢) أراد جده أبا سفيان وأباه معاوية وأخواله أبناء عتبة.
(٣) خوف.
(٤) الأسل: الرماح.
(٥) هللوا مرحبين فرحًا وانتشاءً.
(٦) أراد الثأر ونيله.
(٧) أراد رسول الله ﷺ.

هكذا حُكِي عن بعض المؤرخين. والذي أعتقده أن هذه الأبيات مفتعلة عنه ومنسوبة إليه[١]، فإنها لا تصدر إلاَّ ممن نزَع رِبقَة الإسلام من عنقه. والله أعلم.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزُّبير، وكان يسمى يومئذ «العائذ بالبيت»[٢].

سنة أربع وستين:

ذكر مسير مسلم بن عقبة إلى مكة لحصار عبد الله بن الزبير، ووفاة مسلم والحصار الأول وإحراق الكعبة

قال: ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شَخَص نحو مكة بمن معه لقتال ابن الزبير، واستخلف على المدينة رَوْحَ بن زِنْباع الجُذَاميّ. وقيل: عمرو بن محرز الأشجعي. وكان خبر وقعة الحرَّة قد أتى عبدَ الله بن الزُّبَير مع المِسْوَر بن مَخْرَمَة هلال المحرم، فاسْتعد هو وأصحابه للحرب.

وسار مسلم حتى انتهى إلى المشلَّل[٣] فمات هناك، ولما حضرتْه الوفاة أحضر الحُصين بن نُمَير السَّكُونيّ وقال له يا برْذَعة الحمار، لو كان الأمر لي ما وَلَّيتك هذا الجند. ولكن أمير المؤمنين وَلاَّك؛ ثم مات.

وسار الحصين فقدم مكة لأربع بقين من المحرَّم، وقد بايع أهلُها وأهلُ الحجاز عبد الله بن الزبير ولحق به من انهزم من أهل المدينة وقدم عليه نَجْدةُ بن عامر الحنفيّ من اليمامة في أُناس من الخوارج يمنعون البيت.

فخرج ابن الزُّبير للقاء أهل الشام ومعه أخوه المنذر، فبارز المُنْذِرَ رجلٌ من أهل الشام، فضرب كلُّ واحد منهما صاحبَه ضَرْبة فماتا جميعًا. وقاتل المِسْوَر بن مَخرمة، ومُصْعَب بن عبد الرحمٰن بن عَوف قتالاً شديدًا حتَّى قُتلا، وصابَرَهم ابن الزُّبَير إلى الليل، ثم انصرفوا عنه، ثم أقاموا عليه فقاتلوه بقية المحرم وصفر كله، حتَّى إذا

(١) لاحظ كيف أن النويري وهو من وفيات القرن الثامن للهجرة يحاول تبرئة يزيد فيما أجمع الرواة والمؤرخون على هذه الحادثة ونسبة الشعر إلى يزيد، أضف أن ما فعله في المدينة أشرّ من شعره.
(٢) المحتمي به.
(٣) المشلل: جبل يهبط منه إلى قُدَيد من ناحية البحر في الحجاز. معجم البلدان جـ٥ ص١٣٦.

مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق[١]، وحرقوه بالنار، وهم يرتجزون:

خَطَّارةٌ مثلُ الفَنيق المُزْبِدِ[٢] نَرمي بها أعْوادَ هذا المسجِد[٣]

واستمروا على القتال والحصار إلى آخر هذا الشهر، فأتاهم نَعْيُ يزيد بن معاوية لهلالِ شهر ربيع الآخر.

ذكر وفاة يزيد بن معاوية وشيءٌ من أخباره

كانت وفاته بحُوَّارِين من قُرى حِمص لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين، وقيل: في هذا الشهر من سنة ثلاث وستين، وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة، وقيل: تسع وثلاثين؛ وقيل: أقلّ من ذلك إلى خمس وثلاثين.

وكانت ولايته ثلاث سِنين وتسعة أشهر وأيّامًا، على القول الأول في وفاته. وحُمل إلى دِمَشق فدُفن بها في مَقبرة الباب الصغير، وصلَّى عليه ابنه معاوية.

وكان له من الأولاد مُعاوية وخالد وأبو سُفْيان عبد الله الأكبر أُمُّهم أُمّ هاشم بنت أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة، وله أيضًا عبد الله الأصغر، وأُمُّه أُمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر، وهو الإسوار[٤] وله أيضًا عبد الله أصغر الأصاغر، وعمير وأبو بكر وعتبة وحرب ومحمد لأمّهات شتى؛ قيل: وله يزيد والربيع.

وكاتبه عتبة بن أوس ثم زَمْل بن عمرو العُذْريّ.

وكان نقش خاتمه: «ربُّنا الله».

حاجبه خالد مولاه، وقيل: صَفوان.

قاضيه أبو إدريس الخَوْلاني[٥].

عمّاله على الأمصار من تقدّم ذكرهم.. الأمير بمصر مَسلَمة بن مُخَلَّد[٦]، ثم

(١) آلة كالمدفع لقذف الحجارة والكتل النارية.

(٢) ذَكر الإبل الفتي.

(٣) أراد المسجد الحرام.

(٤) الإسوار: الذي يدمي ويصيب.

(٥) العائذ بالله بن عبد الله بن عمرو الخولاني كنيته أبو إدريس.

(٦) الخزرجي الأنصاري توفي سنة ٦٢هـ.

تُوُفِّي، فولاَّها يزيدُ سعيدَ بن يزيد الأزدي[١] من أهل فِلسطين. . القاضي بها من قِبَلِ مَسْلمةَ ويزيدَ عابسُ بن سعيد، وجمع له بين القضاء والشرطة، وكان أمِّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ.

ذكر بيعة معاوية بن يزيد بن معاوية

وكنيته «أبو عبد الرحمٰن» و«أبو لَيْلَى»، وأُمه أُم هاشم بنت أبي هاشم بن عُتْبة بن رَبيعة، وهو الثالث من ملوك بني أُمَيَّة، بُويع له بالشام في النصف من ربيع الأول سنة أربع وستين.

قال: ولمّا كان في آخر إمارته أمَر فنُودِي: «الصلاةُ جامعة» فاجتمع الناس، فحمد اللّهَ وأثنَى عليه، ثم قال «أمّا بَعْدُ، فإني ضعُفتُ عن أمركم، فابتغَيْتُ لكم مثلَ عُمر بن الخطّاب حين استخلفه أبو بكر رضي الله عنهما فلم أجدْه، فابتغَيْتُ ستة من أهل الشورَى فلم أجِد، فأنتم أوْلَى بأمركم، فاختاروا له مَن أحببتم» ثم دخل منزله وتغيَّب حتَّى مات، فقيل: مات مسمومًا، وصلَّى عليه الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، ثم طُعِنَ[٢] الوليد فمات من يومه[٣].

وقيل: إنه لمَّا كبَّر تكبيرتين مات قبل انقضاء الصلاة، فتقدم مَرْوان بن الحَكَم فصلَّى عليه.

وقيل: إنه أوْصَى أن يصلِّي بالناس الضحّاك بن قيس حتى يقوم لهم خليفة.

وقيل له عند الموت: اعْهَدْ إلَى خالد بن يزيد، فقال: واللّهِ ما ذُقتُ حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلَّد وزرها من بعدي!

ولم يكن لمعاوية هذا ولد.

وكان نقش خاتمه: «الدنيا غرور».

وكانت وفاته لخمس بَقِين من شهر ربيع الآخَر سنة أربع وستين.

وكانت مدة ولايته إلى حين وفاته أربعين يومًا، وقال المدائني: ثلاثة أشهر، وقال ابن إسحاق: عشرين يومًا.

---

(١) سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدي.

(٢) طُعن: أصابه الطاعون.

(٣) راجع ابن الأثير في الكامل ج٤ ص١٣١.

ومات وله ثلاث وعشرون سنة، وقال العتبي: سبع عشرة سنة. والله تعالى أعلم.

فلنذكر أخبار من بُويع بالعراق وخُراسان في زمن هذه الفِتَن، بعد وفاة يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد إلى أن خلص الأمر بالحجاز والعراق وخُراسان لعبد الله بن الزُّبَير.

ذكر أخبار من بويع بالعراق أو لم يتم أمره إلى أن بويع لعبد الله بن الزبير وما كان بالعراق من الوقائع في خلال ذلك

كان أوّل من بويع بالعراق بعد وفاة يزيدَ بن معاوية عُبيد الله بن زياد ابن أبيه، وذلك أنه لمّا أتاه الخبر بوفاة يزيد، وبلغه ما الناس فيه بالشام من الاختلاف، أمر فنُودي: «الصلاةُ جامعة»، فاجتمع الناس، فصعِد المنبر، فنعَى يزيدَ وعرَّض بثَلْبِه[(١)]، لأن يزيد كان قد كرِهه قبل موته، وصرَّح بلعنه بسبب قتل الحسين بن عليّ، حتى خافه عُبيد الله على نفسه، ثم قال عُبيد الله: «يا أهل البصرة إن مُهاجَرَنا إليكم، ودارنا فيكم، ومَولدي فيكم، ولقد وُلِّيتكم وما أُحصيَ ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل، ولقد أُحصيَ اليوم ثمانين ألف مقاتل، وما أُحصيَ ديوان عمالكم إلا تسعين ألفًا، ولقد أُحصيَ اليوم مائة ألف وأربعين ألفًا، وما تركْت لكم ذا ظِنَّة أخافه عليكم إلاّ وهو في سجنكم، وإنَّ يزيد قد تُوُفِّي، وقد اختلف الناس بالشام، وأنتم اليوم أكثرُ الناس عددًا، وأعرضُه فِناء[(٢)]، وأغناه عن الناس، وأوسعهم بلادًا، فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضَوْنه لدينكم وجماعتكم، فأنا أوّل راض بما رضيتموه لدينكم وجماعتكم، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضَونه دخلتم فيما دخل فيه المسلمون، وإن كرهتم ذلك كنْتم علَى جَدِيلتكم[(٣)] حتى تُعْطَوْا حاجتكم، فما بكم إلى أحد من أهل البُلدان حاجة، وما يستغني الناس عنكم».

فقام خطباؤهم، وقالوا: قد سمعنا مقالتك، وما نعلم أحدًا أقوَى عليها منك، فَهَلُمَّ نبايعك، فقال: لا حاجةَ لي في ذلك. فكرروا عليه وهو يأبى عليهم ثلاثًا، ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا ومسحوا أيديَهم بالحيطان، وقالوا: أيظن ابن مَرْجانة إنَّا نَنقادُ له في الجماعة والفرقة.

---

(١) بعيبه.

(٢) كناية عن سعة عمرانهم.

(٣) اتفاقكم.

قال: ولمّا بايعوه أرسل إلى أهل الكوفة مع عمرو بن مِسْمع وسعد بن قرحا التيمي يدعوهم إلى البيعة له، ويُعلمهم ما صنع أهل البصرة، فلمَّا وصلا إلى الكوفة وكان خليفة عبيد الله عليها عمرو بن حُرَيْث، فجمع الناس، وقام الرسولان فخطبا وذكرا ذلك للناس، فقام يزيد بن الحارث بن يزيد الشَّيباني وهو ابن رُويم، فقال الحمد لله الذي أراحنا من ابن سُميَّة، أنحن نبايعه؟ لا ولا كرامة. وحصبَهما الناسُ بعده، فشرَّفتْ هذه المقالة يزيد بن رُويم بالكوفة ورفعتْه، ورجع الرسولان إلى عُبَيد الله، فقال أهل البصرة: أيخلعه أهل الكوفة ونُوَليه نحن؟! فضعف سلطانه عندهم، فكان يأمر بالأمر فلا يُقْضى ويرى الرأيَ فيرَدُّ عليه، ويأمرُ بحبس المخطىء فيحالُ بين أعْوانه وبينه.

ثم جاء البصرة سلمة بن ذؤيب الحنظلي التميمي، فوقف في السوق وبيده لواء، وقال: أيها الناس، هَلُمُّوا إليّ، إني أدعوكم إلَى ما لم يَدْعُكم إليه أحد، أدعوكم إلى العائذ بالحرم، يعني عبد الله بن الزُّبَير. فاجتمع إليه ناس، وجعلوا يبايعونه، فبلغ الخبر ابنَ زياد، فجمع الناس فخطبهم وذكَّرهم بما كان من بَيعته وقال: إني بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب المسجد، وقلتم ما قلتم، إني آمرُ بالأمر فلا ينفذُ، ويُرَدُّ عليّ رأيي، ويحالُ بين أعواني وبين طِلْبتي، ثم هذا سَلَمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف عليكم، ليفرِّقَ جماعتكم، ويضْرب بعضُكم رقابَ بعض!».

فقال الأحنف والناس: نحن نأتيك بسَلَمة، فأتَوْه، فإذا جَمْعه قد كَثُفَ والفَتْقُ(١) قد اتسع، فقعدوا عن ابن زياد فلم يأتُوه فلما رأى ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صُهْبان الجهضمي الأزدي، فأحضره وسأله الهرب به، فقال: يا حارث إن أبي أوصاني إن احتجت إلى الهرب يومًا ما أن أختاركم، فقال الحارث: قد اختبرنا أباك فلم نجد عنده ولا عندك مكافأة، وما أدري كيف أتأتّى لك إن أخرجتك نهارًا أخاف أن تُقتلَ وأُقتلَ، ولكني أقيم معك إلى الليل، ثم أُردفك خلفي لئلاً نُعرفَ، فقال عُبيد الله، نِعْم ما رأيت، فأقام عنده، فلمّا كان الليل حَمَله خلفه، وكان في بيت المال تسعة عشر ألف ففرّق ابن زياد بعضَها في مَواليه، وادّخر الباقي لآل زياد.

قال: وسار الحارث بعُبيد الله، فكان يمرُّ به على الناس وهم يتحارسون مخافة الحَرُوريّة(٢)، حتَّى انتهوا إلى بني ناجية، فقال بنو ناجية: مَن أنت؟ قال: الحارث بن قيس. وعرف رجل منهم عُبيد الله، فقال: ابن مَرْجانَة! وأرسل سهمًا فوقع في عمامته.

---

(١) كناية عن القطيعة.

(٢) فرقة من فرق الخوارج مرّ التعريف بها.

ومضى به الحارث حتَّى أنزله في داره بالجهاضم؛ فقال له ابن زياد: «يا حارث، إنك قد أحسنت، فاصنع ما أُشير به عليك، قد علمت منزلة مسعود بن عمرو، وشرفه وسنَّه، وطاعة قومه له، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره، فهي وسط الأزد؟ فإنك إن لم تفعل فُرِّق عليك أمر قومك، فأخذه الحارث فدخلا على مسعود فلم يشعر حتَّى رآهما، فقال للحارث: أعوذ بالله من شر ما طَرَقْتني به، قال: ما طرقتُك إلاَّ بخير، ولم يزل الحارث يلطف بمسعود في أمره حتَّى قال له: أتخرجه من بيتك بعدما دخله عليك؟! فأمره مسعود فدخل بيت أخيه عبد الغافر بن عمرو، ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه، فطافوا بالأزد فقالوا: إن ابن زياد قد فُقد، وإنّا لا نأمنُ أن تَلطخوا به، فأصبحوا في السلاح، وفقد الناس ابن زياد فقالوا: ما هو إلا في الأزد. وقيل: إن الحارث لم يكلم مسعودًا، بلْ أمر عبيد الله فحمل معه مائة ألف درهم وأتى بها أُمَّ بسطام امرأةَ مسعود وهي بنت عمّ الحارث ومعه عُبيد الله، فاستأذن عليها، فأذنت له. فقال: قد أتيتك بأمر تسودين به نساء العرب، وتتعجلين به الغنى، فأخبرها الخبر وأمرها أن تُدخل ابنَ زياد البيت، وتلبسه ثوبًا من ثياب مسعود، ففعلت، فلما جاء مسعود أخذ برأسها يضربها، فخرج عُبَيْد الله والحارث عليه، وقال: لقد أجارتْني وهذا ثوبك عليّ، وطعامك في بطني، وشهد الحارث، وتلطفوا به حتى رضي. فلم يزل ابن زياد في بيته حتَّى قتل مسعود، فسار إلى الشام على ما نذكره إن شاء الله.

قال: ولما فُقِد ابن زياد بقي أهل البصرة بغير أمير، فاختلفوا فيمن يؤمّرونه عليهم، ثم تراضَوْا بقيس بن الهيثم السُلَمي، وبنعمان بن سفيان ليختارا من يرتضيان لهم، وكان رأيُ قيس في بني أُمية، ورأيُ النعمان في بني هاشم، فقال النعمان: ما أرى أحدًا أحقُّ بهذا الأمر من فلان، لرجل من بني أُميّة. وقيل بل ذكر عبد الله بن الأسود الزهريّ، وكان هَوَى قيس فيه، وإنما قال النعمان ذلك خديعة ومكرًا بقيس، فقال قَيس: قد قلّدتك أمري ورضيت من رضيتَ، ثم جاء إلى الناس، فقال قيس بن الهيثم: قد رضيتُ مَن رضي النعمان[1].

ذكر ولاية عبد الله بن الحارث البصرة

قال: ولما اتفق قيس والنُّعمان، ورضي قيس بمن يؤمِّره النعمان، أشهد عليه النعمان بذلك، وأخذ على قيس وعلى الناس العهود بالرضا.

---

(١) راجع الكامل في التاريخ ج٤ ص١٣٥.

ثم أتى عبدَ الله بن الأسود، وأخذ بيده واشترط عليه، حتَّى ظَنَّ الناس أنه يبايعه، ثم تركه.

وأخذ بيد عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو الملقب «ببّه»(١) واشترط عليه مثل ذلك، ثم حمد الله وذكر النبيّ ﷺ وحقَّ أهل بيته وقرابته، ثم قال: «أيها الناس، ما تنقمون من رجل من بني عم نبيكم وأمّه هند بنت أبي سفيان، فإن كان الأمر فيهم فهو ابن أُختهم»، ثم أخذ بيده وقال: قد رضِيتُ لكم هذا، فنادَوْا: قد رضينا، وبايعوه، وأقبلوا به إلى دار الإمارة حتَّى نزلها. وذلك أول جمادى الآخرة سنة أربع وستين.

ذكر مقتل مسعود بن عمرو الأزدي وهَرب عُبيد الله بن زياد إلى الشام

قال: ثم إن الأزْد ورَبيعة جددوا الحِلف الذي كان بينهم، وأنفق ابن زياد مالاً كثيرًا فيهم حتَّى تمَّ الحِلْف، وكتبوا بينهم بذلك كتابين، فلمَّا تحالفوا اتفقوا علَى أن يردّوا ابن زياد إلَى دار الإمارة، فساروا ورئيسهم مسعود بن عمرو، فقال لابن زياد: سرْ معنا، فلم يفعلْ، وأرسل معه مَوَاليه على الخيل، وقال لهم: لا يَحْدُثَنَّ خيرٌ ولا شر إلا أنبأتموني به.

فجعل مسعود لا يأتي سكةً ولا يتجاوزُ قبيلةً إلاّ أتى بعضُ أولئك الموالي إلى ابن زياد بالخبر، وسارت ربيعة وعليهم مالك بن مسْمعَ فأخذوا سكة المِرْبد(٢)، وجاء مسعود فدخل المسجد وصعد المنبر، وعبد الله بن الحارث في دار الإمارة، فقيل له إن مسعود وأهل اليمن وربيعة قد ساروا وسَيهيج بين الناس شر، فلو أصلحت بينهم وركبت في بني تميم، فقال: أبعدهم الله، واللّهِ لا أفسدت نفسي في صلاحهم، وسار مالك بن مِسْمع نحو دور بني تميم حتى دخل سكة بني العدويّة، فحرق دورهم لما في نفسه منهم.

وجاء بنو تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا: يا أبا بحر، إن ربيعة والأزد قد تحالفوا وقد ساروا إلى الرحبة فدخلوها، فقال: لسْتم بأحقَّ بالمسجد منهم، فقالوا:

---

(١) مماثلة لصوت الطفل قبل أن ينطق صريحًا.

(٢) المربد: في البصرة من أشهر محالها، وكان فيها سوق الإبل قديمًا وفيها جرت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. راجع ياقوت جـ٥ ص٩٧.

قد دخلوا الدار، فقال: لستم بأحقَّ بالدار منهم؛ فأتته امرأة بمجمر[١] وقالت له: ما لك وللرياسة؟! إنما أنت امرأة تتجمر.

ثم أتوه فقالوا: إن امرأة منا قد نُزِعت خلاخيلها، وقد قتلوا الصباغ الذي على طريقك، وقتلوا المُقعد الذي كان على باب المسجد. وقد دخل مالك بن مِسْمَع سكَّة بني العَدَوِيّة فحرق، فقال الأحنف: أقيموا البيِّنةَ علَى هذا، ففي بعض هذا ما يحلُّ به قتالهم! فشهدوا عنده على ذلك؛ فقال الأحنف: أجاء عبّاد بن حُصَين؟ قالوا لا، ثم قال: أجاء عبّاد؟ قالوا لا. قال: أهاهنا عبس بن طَلْق؟ قالوا: نعم؛ فدعاه فانتزع مِعجرًا[٢] من رأسه فعقده في رمح ثم دفعه إليه، فقال: سِرْ، فسار وصاح الناس: «هاجت زبراء» وزبراء أمة للأحنف كَنَوْا بها عنه.

فسار عبس إلى المسجد، فقاتل الأزْدَ على أبوابه، ومسعود يخطب على المنبر. ثم أتوه فاستنزلوه وقتلوه، وذلك أول شوال سنة أربع وستين، وانهزم أصحابه.

وكان ابن زياد قد تهيأ لما صعد مسعود المنبر ليجيءَ دار الإمارة، فقيل له إن مسعود قد قُتل، فركب ولحق بالشام.

وأما مالك بن مِسْمع فأتاه ناس من مصر فحصروه في داره وحرقوه. ولما هرب ابن زياد تبعوه فأعجزهم، فنهبوا ما وجدوا له؛ ففي ذلك يقول واقد بن خليفة التميميّ: [من الرجز]

يا ربَّ جبّارٍ شديدٍ كَلَبُهْ ... قد صار فينا تاجُه وسلَبُه
منهم عبيد الله حين تسلُبُه ... جِيادهُ وبزهُ[٣] ونَنهَبُه
يوم التقى مِقْنَبُنا ومقنبُه[٤] ... لو لم يُنَجِّ ابن زياد هربُه

وقد قيل في قتل مسعود ومسير ابن زياد غير ما قدمناه. وهو أنه لمّا اْستجار اْبن زياد بمسعود بن عمرو وأجاره، ثم سار ابن زياد إلى الشام وأرسل معه مسعود مائة من الأزد حتّى قدموا به إلى الشام، ولما سار من البصرة استخلف مسعودًا عليها، فقال بنو تميم وقيس: لا نرضى إلاّ رجلاً ترضاه جماعتنا، فقال مسعود: قد استخلفني ولا أدعُ ذلك أبدًا، وخرج حتّى أنتهى إلى القصر فدخله، واجتمعت تميم إلى الأحنف، فقالوا له: إن الأزد قد دخلوا المسجد قال: إنَّما هو لهم ولكم، قالوا: قد دخلوا القصر وصعِد مسعود المنبر.

---

(١) لعله أنية صغيرة يوضع فيها شحم الرطب أو زيته تستخدمه النساء للزينة.
(٢) العمامة. (٣) ثيابه.
(٤) المقنب: الفرقة من الخيالة.

وكانت خوارج قد خرجوا فنزلوا بنهر الأساورة حين خرج عبيد الله إلى الشام، فزَعم الناس أن الأحنف بعث إليهم: إن هذا الرجل الذي قد دخل القصر هو لنا ولكم عدوٌّ، فما يمنعكم منه؟! فجاءت عصابة منهم حتَّى دخلوا المسجد ومسعود علَى المنبر يبايع من أتاه، فرماه عِلْج يقال له مسلم من أهل فارس، كان قد دخل البصرة وأسلم ثم صار من الخوارج، فأصاب قلبه فقتله؛ فقال الناس: قتله الخوارج. فخرج الأزد إلى تلك الخوارج، فقتلوا منهم وجَرحوا، وطردوهم عن البصرة، ثم قيل للأزد: إن تميمًا قتلوا مسعودًا، فأرسلوا يسألون، فإذا ناس من تميم تقوله، فاجتمعت الأزد عند ذلك، فرأسوا عليهم زياد بن عمرو أخا مسعود، ومعهم مالك بن مسمع في ربيعة، وجاءت تميم إلى الأحنف يقولون: قد خرج القوم؛ وهو لا يتحرك، فأتته امرأةٌ بمجْمر فقالت: اجلسْ علَى هذا، أي إنما أنت امرأة، فخرج الأحنف في بني تَميم ومعهم من بالبصرة من قَيس، فٱلتَقَوْا، فقُتِل منهم قَتْلَى كثيرة، فقال لهم بنو تميم: «يا معشر الأزْد، اللّهَ اللّهَ في دمائنا ودمائكم، بيننا وبينكم القرآن، ومَنْ شئتم مِن أهل الإسلام، فإن كانت لكم علَينا بيِّنة فاختاروا أفضلَ رجل فينا فاقتلوه، وإن لم تكن لكم بيِّنة فإنا نحلفُ بالله ما قتلنا ولا أمَرْنا ولا نعلمُ له قاتل، وإن لم تريدوا ذلك فنحن ندِي صاحبكم بمائة ألف درهم». وسَفَر[1] بينهم عبيد الله بن مَعْمر وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، فطلبوا عشر دِيات، فأجابهم الأحنف إلَى ذلك، وٱصطلحوا عليه.

قال: وأما عبد الله بن الحارث «بَبَّه» فإنه أقام يصلي بالناس حتَّى قدم عليهم عمر بن عبيد الله أميرًا من قبل ابن الزُّبير.

وقيل: كتب ٱبن الزبير إلى عمر بعهده على البصرة، فأتاه الكتاب وهو متوجه إلى العُمرة، فكتب عمر إلى أخيه عبيد الله يأمره أن يصلِّي بالناس، فصلّى بهم حتَّى قدم عمر، فبقي عمر أميرًا شهرًا، ثم قدم الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة المخزومي فعزله ووليها الحارث.

وقيل: بل اعتزل عبد الله بن الحارث «بَبَّه» أهل البصرة بعد قتل مسعود، فكتب أهل البصرة بعد قتل مسعود إلى ٱبن الزُّبير، وكتب ابن الزُّبير إلى أَنس بن مالك يأمره أن يصلي بالناس، فصلّى بهم أربعين يومًا.

هذا ما كان من أمر البصرة، فلنذكر خبر أهل الكوفة.

---

(١) أي كان رسولاً بينهم.

ذكر خبر أهل الكوفة
وما كان من أمرهم بعد ابن زياد
إلى أن بويع ابن الزبير

كان من خبرهم أنهم لما حَصَبوا رسُلَ ابن زياد على ما ذكرناه عزلوا خليفته عليهم وهو عمرو بن حريث، واجتمع الناس وقالوا: نُؤمِّر علينا رجلاً إلى أن يجتمعَ الناس على خليفة، فاجتمعوا على عمر بن سعد بن أبي وَقَّاص، فجاءت نساء هَمْدان يبكِين الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ورجالهُم متقلدو السيوف، فأطافوا بالمنبر؛ فقال محمد بن الأشعث: جاء أمر غير ما كنّا فيه. وكانت كندة تقوم بأمر عمر بن سعد، لأنهم أخواله، فأجمعوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي، فخطب أهْل الكوفة فقال: إن لكل قوم أشرِبةً ولذّاتٍ فاطلبوها في مَظانِّها[1]، وعليكم بما يَحِلُّ ويُحمد، واكسروا شرابَكم بالماء، وتوارَوْا عني بهذه الجُدْران.

فقال ابن همام[2]: [من البسيط]

اشربْ شرابك وانعمْ غير محسودِ ... واكسره بالماء لا تعصِ ابن مسعود
إنّ الأميرَ له في الخمر مأربةٌ ... فاشرب هنيئًا مريئًا غير تصريدِ
من ذا يحرِّم ماءَ المزن خالطه ... من قعر خابية ماءُ العناقيد[3]
إني لأكرهُ تشديدَ الرُّواة لنا ... فيها ويعجبني قول ابن مسعود

وكثير من الناس يظن أن ابن مسعود المذكور في هذا الشعر هو عبد الله ابن أُم عبد، صاحب رسول الله ﷺ وليس كذلك.

قال: ولمّا بايعه أهل الكوفة كتبوا بذلك إلى ابن الزُّبير فأقرَّه عليها، فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية، ثم استعمل عبدُ الله بن الزُّبير عبدَ الله بن يزيد الخَطْمي الأنصاريّ على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة على الخراج، واستعمل محمد بن الأشعث بن قيْس علَى المَوْصِل.

---

(١) عبد الله بن همام بن نبيشة بن رياح السلولي.

(٢) من بني مرة بن صعصعة. لقب بالعطار لنضارة شعره. وقيل إنه هو الذي مرض يزيد بن معاوية على تولية ابنه معاوية. راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢٤٨.

(٣) أراد الخمرة.

ذكر خبر خراسان
وما كان من أمر سلم بن زياد وبيعته
وخبر عبد الله بن خازم

كان من خبر خراسان أنه لما بلغ سلمَ بن زياد وهو العامل عليها موتُ يزيد بن معاوية كَتَم ذلك، فقال له ابن عَرَادة: [من الكامل]

يـا أيّـهـا الـمـلـكُ الـمـغـلّـقُ بـابَـهُ حَـدثـتْ أُمـورٌ شـأنُـهـن عـظـيـمُ
قَـتْـلَـى بـحَـرَّةَ[1] والـذيـن بـكـابُـلٍ[2] ويَـزيـدُ أُعْـلِـنَ شَـأنُـه الـمـكـتـومُ
أَبَـنـي أُمـيـةَ إنّ آخـرَ مُـلْـكـكُـم جَـسَـدٌ بـجُـوّازيـن[3] ثَـمَّ مُـقـيـمُ[4]
طَـرَقَـتْ مَـنـيَّـتُـهُ وعـنـدَ وسَـاده كُـوبٌ وزِقٌّ راعِـفٌ مَـرْثُـومُ[5]
ومُـرِنَّـةٌ[6] تـبـكـي عـلـى نـشـواتـهِ بـالـصـنـجِ تـقـعـد مَـرةً وتـقـومُ

فلما ظهر شعره أظهر سَلْم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، ودعا الناسَ إلى البَيْعة على الرضا حتَّى تستقيمَ أُمور الناس على خليفة، فبايعوه، ثم نكثوا به بعد شهرين، فلمَّا خلعوه خرج عنهم واستخلف المهلَّب بن أبي صُفْرة، فلما كان بسَرَخْس[7] لقيه سليمان بن مَرْثَد أحد بني قيس بن ثعلبة بن ربيعة، فقال له: أضاقت عليك نزار حتى خلَّفت على خُراسان رجلاً من اليمن، يعني المهلب. فولاه مَرْو الرُّوز[8]، والفارياب[9]، والطالقان[10]، والجزجان[11]. وولَّى أوْس بن ثعلبة بن زُفرر وهو صاحب قصر أوس بالبصرة، هَراة[12]، فلما وصل سَلْم إلى نَيسابور[13]

---

(١) كناية عن الخمرة. (٢) مرَّ التعريف بهما.
(٣)(٤) لعلهما اسمان لموقعين.
(٥) مرثوم: القدح فيه ثلوم أو شقوق يتقطر من خلالها السائل.
(٦) الرنين: البكاء بأسف، وكنى بها عن المغنية.
(٧) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، وبينها وبين كل واحدة ست مراحل. راجع ياقوت ج٣ ص٢٠٨.
(٨) مرّ التعريف بهما.
(٩) فارياب: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزخان قرب بلخ غربي جيحون. راجع ياقوت ج٤ ص٢٢٩.
(١٠) طالقان: أكبر مدن طخارستان بين مرو الروذ وبخلخ. راجع ياقوت ج٤ ص٦.
(١١) من نواحي فارس.
(١٢) هراة: مدينة عظيمة من مدن خراسان. راجع ياقوت ج٥ ص٣٩٦.
(١٣) نيسابور: مدينة عظيمة ما بين جيحون والقادسية. راجع ياقوت ج٥ ص٣٣١.

لقيه عبد الله بن خازم، فقال له: من ولّيت خراسان؟ فأخبره فقال: «أما وجدت من مُضَر من تستعلمه، حتى فَرّقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن! اكتب لي عهدًا على خراسان»؛ فكتب له وأعطاه مائة ألف درهم.

وسار ابن خازم إلى مرْو، وبلغ خبره المهلّب، فأقبل فاستخلف رجلاً من بني جُشْم بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فلمّا وصلها ابن خازم منعه الجُشميّ، وجرت بينهما مناوشة، فأصابت الجُشَميَّ رمْيَةٌ في جَبهته، وتحاجزا[١]، ودخلهما ابن خازم، ومات الجُشَميّ بعد ذلك بيومين.

ثم سار ابن خازم إلى مَرْو فقاتله سليمان بن مرثد أيامًا، فقُتل سليمان، ثم سار ابن خازِم إلى عمرو بن مرثدِ وهو بالطَّالقَان فاقتتلوا فقُتل عمرو بنَ مَرْثد، وانهزم أصحابه، فلحقوا بهرَاة بأوس بن ثعلبة، ورجع ابن خازم إلى مَرْو.

وهرب من كان بمَرْو الرُّوذ من بكر بن وائل إلى هَرَاة، وانضمّ إليها من كان بكور خُراسان من بكر، فكثر جمعهم، وقالوا لأوس بن ثعلبة: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتُخرج مُضَر من خُراسان، فأبى عليهم فَهمُّوا بمبايعة غيره، فأجابهم، فبايعوه، فسار إليهم ابن خازم فنزل على وادٍ بينه وبين هَرَاة، فأشار البَكْريّون بالخروج من هَراة وعمل خَنْدق، فقال أوْس: بل نلزم المدينة فإنها حصينة، وأُطاوِل[٢] ابن خازم ليَضْجَر ويُعطينا ما نريد، فأبَوْا عليه، وخرجوا فَخنْدقوا[٣] خندقًا. وقاتلهم ابن خازم نحو سنة.

فنادى هلالٌ الضَّبيّ وهو من أصحابه فقال: «إنما تقاتلُ إخوتك وبني أبيك، فإن نلت منهم الذي تريد فما في العيش خيرٌ، فلو أعطيتَهم شيئًا يرضَوْن به، وأصلحتَ هذا الأمر!» فقال: واللّهِ لو خرجنا إلَيهم عن خُراسان[٤] ما رضُوا»! فقال هلال: لا واللّهِ لا أُقاتلُ معك أنا ولا رجل يطيعني حتى تُعذِر[٥] إليهم! قال: فأنت رسولي إلَيهم فأرضِهم.

فأتى هلال إلى أوس بن ثعلبة، فناشَدَه الله والقرابَة في نزار، وأن يحفظ دماءها، فقال: هل لقيت بني صُهيب؟ قال: لا، قال: فألقهمْ. وبنو صهيب هم موالي بني جحْدر، وهم الذين ألزموا أوس بن ثعلبة بالقتال، فخرج هلال من عند

---

(١) الحجزة في الإزار معقده، كأنه أراد تدافعا.
(٢) طاوله: إذا أقام يناجزه ما أقام. والضيقة صنيعة مكاثرة، والمراد أن نطاوله ما طاولنا ونزيد عليه.
(٣) خندقوا: أراد حفروا خندقًا مشتقًّا من الاسم فعلاً.
(٤) أراد لو أعطيناهم خراسان كلها. . .
(٥) أراد حتى تأخذ بعذرهم، وتسمع لحجتهم.

أوس فلقي جماعة من رؤساء أصحابه، فأخبرهم ما أتى له، فقالوا له: هل لقِيت بني صُهيب؟ فقال: لقد عظُم أمر بني صُهيب عندكم! فأتاهم يكلِّمهم، فقالوا: والله لولا أنك رسول لقتلناك. قال: فما يرضيكم شيءٌ؟

قالوا: «واحد من اثنين؛ إما أن تخرجوا من خراسان، وإما أن تقيموا وتخرجوا لنا كل سلاحٍ وكراعٍ[1] وذهب وفضة». فرجع هلال إلى ابن خازم، فقال: ما عندك؟ فأخبره الخبرَ فقال: إن ربيعة لم تزل غِضَابًا على ربِّها منذ بعث نبيه من مضر!.

وأقام ابن خازم يقاتلهم، فلما طال مقامه ناداهم يومًا؛ يا معشر ربيعة، أرضيتم بني مِنْ خُراسان بخندقكم؟! فأحفظهم ذلك، فتنادَوا للقتال، فنهاهم أوس عن الخروج بجماعتهم، فعصوه، وخرجوا، فقاتَلوا ساعةً، ثم انهزموا، حتَّى انتهوا إلى خَنْدقهم، وتَفرَّقوا يمينًا وشمالاً، وسقطوا في الخَنْدق، وقُتلوا قَتْلاً ذريعًا، وهرب أوس بن ثعلبة وبه جراحات، وحَلَفَ ابن خازم لا يؤتى بأسير يومه ذلك إلا قتله وسار أوس بن ثعلبة إلى سجستان فمات بها أو قريبًا منها، وقتل من بكر يومئذ ثمانية آلاف، وغلب ابن خازم على هَراة واستعمل عليها ابنه محمدًا وضم إليه شماس بن دِثار العُطارديّ، وجعل بُكَير بن وِشاح الثَّقفيّ علَى شُرطته، ورجع ابن خازم إلى مرو.

وفي هذه السنة بعد موت يزيد خالف أهل الريّ، وكان عليهم الْفَرُّخان الرازي، فوجه إليهم عامر بن مسعود وهو أمير الكوفة محمدَ بن عُمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي الدَّارمي فهزمه أهل الريّ، فبعث إليهم عامرٌ عَتَّابَ بن ورقاء التميميّ، فالتقَوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل الْفَرُّخان وانهزم المشركون.

هذا ما كان من أخبار العراق وخراسان بعد وفاة يزيد، فلنذكر أخبار عبد الله بن الزبير، وما تخلل أيامه من أخبار غيره التي حدثت في أعماله.

ذكر بيعة عبد الله بن الزبير وما حدثت في أيامه من الوقائع والحوادث المتعلقة به والكائن في أعمال ولايته

هو أبو خُبَيْب[2]، وقيل: أبو بكر عبد الله بن الزُّبَيْر بن العوّام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، يجتمع نسبه ونسب رسول الله ﷺ في قُصي، وأمه

(١) الكُرَاع: الخيل والبغال والحمير.
(٢) كنية عبد الله بن الزبير، فأكبر أولاد عبد الله كان اسمه خبيبًا.

أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وهي ذات النِّطاقين[١]، وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين بعد الهجرة.

وكان ابتداء أمره في البَيْعة له ما قدمناه؛ من خروجه من المدينة لما تُوُفِّي معاوية بن أبي سفيان، ووصوله إلى مكة، وأنه أقام بالبيت وقال: أنا العائذُ بهذا البيت.

فلما قُتِل الحسينُ بن علي رضي الله عنهما في سنة إحدى وستين كما ذكرنا، قام عبد الله في الناس فعَظَّم قتلَه، وعاب أهْلَ العراق عامّة، وأهْلَ الكوفة خاصّة، فحمِد الله تعالى وأثنَى عليه، وصلَّى علَى رسول الله ﷺ، ثم قال: إن أهل العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شِرارُ أهلِ العراق، وإنهم دَعوْا حُسينًا لينصروه ويُولُّوه عليهم، فلمّا قدم علَيهم ثاروا عليه، فقالوا له: إمّا أن تضع يَدَكَ في أيدينا فنبعثَ بك إلى ابن زياد ابن سُمية فيُمْضي فيك حكمه، وإما أن تُحارب، فرأى واللّهِ أنه هو وأصحابه قليل في كثير، وإن كان اللّهُ لم يُطْلِع على الغيب أحدًا أنه مقتول، ولكنه اختار الميتةَ الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حُسَينًا، وأخْزَى قاتله. لَعَمري لقد كان من خلافهم إيّاه، وعصيانهم، ما كان في مثله واعظٌ وناهٍ عنهم، ولكنه قَدَرٌ نازل، وإذا أراد الله أمرًا لم يُدْفَع، أفَبَعْدَ لحسين يُطْمَأَنُّ إلَى هؤلاء القوم، ويُصدَّق قولُهم، ويُقْبَلُ لهم عهد؟ لا واللّهِ لا نراهم لذلك أهلاً، أمَ واللّهِ لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيرًا في النهار صيامه، أحقَّ بما هم فيه منهم وأوْلى به في الدين والفضل! أمَ والله ما كان يبدِّلُ بالقرآن الغِناء، ولا بالبُكاء من خشية الله الحُداء، ولا بالصيام شُرب الحرام، ولا بالمجالس في حَلَق الذكر الركضَ في تَطلاب الصَّيد، يعرِّضُ بيزيد ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

فثار إليه أصحابه، وقالوا: أظهِرْ بَيْعتك، فإنه لم يبق أحدٌ إذْ هلك الحسينُ ينازعك هذا الأمر. وقد كان عبد الله قبل ذلك يبايع سِرًّا، فقال لهم: لا تعجلوا. هذا وعمرو بن سعيد عامل مكة، وهو أشدُّ شيء على عبد الله بن الزُّبير، وهو مع ذلك يُدارِي ويَرْفُق.

فلما استقرّ عند يزيد ما قد جمع ابن الزبير من الجموع بمكة أعطَى اللّهَ عهدًا ليُوثِقَنَّه في سلسلة، فبعث إليه سِلسلةً من فضَّة مع ابن عضادة الأشعري ومسعدة وأصحابهما ليأتوه به فيها، وبعث معهم بُرْنس خَزٍّ ليلبسه عليها لئلا تظهرَ للناس.

---

(١) أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة، أمها أم رومان زوجة أبي بكر. راجع تراجم أعلام النساء جا ص٢١٩.

فاجتاز أبو عضادة بالمدينة وبها مَرْوان بن الحكم، فأخبره بما قَدِم له، فأرسلَ مَرْوان معه وَلَدين له، أحدهُما عبد العزيز، وقال: إذا بلَّغته رسل يزيد الرسالة فتعرَّضا له، وليتمثل أحدكما بهذا الشعر: [من الطويل]

فخذها فليست للعزيز بخطَّةٍ وفيها مقالٌ لامرىء متذلّلِ
أعامر إن القوم ساموك خطةً وذلك في الجيران عزلاً بمعزل
أراك إذا ما كنت للقوم ناصحًا يقال له بالدلو أدبر وأقبل[(١)]

فلمّا بلَّغه الرسلُ الرّسالة أنشد عبد العزيز الأبيات، فقال ابن الزبير: يا بني مَرْوان قد سمعتُ ما قلتما فأخبرا أباكما: [من البسيط]

إني لمن نبعة[(٢)] صُمٍّ مكاسرها إذا تناوحتِ القصباءُ[(٣)] والعُشَرُ[(٤)]
فلا ألينُ لغير الحق أسأله حتى يلينَ لضرس الماضغ الحجرُ[(٥)]

وامتنع من رسل يزيد.

فقال الوليد بنُ عُتْبة وناس من بني أُميّة ليزيد: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث إليك به، فعزل يزيد عمرًا واستعمل الوليد بن عُتبة على الحجاز، فأقام الوليد يريد غِرّة عبد الله فلم يجده إلا مُتَحَذِّرًا ممتنعًا.

وثار نَجْدةُ بن عامر الحنفيّ باليمامة حين قُتل الحسين، وكان الوليد يفيض بالناس من المعرَّف[(٦)]، ويقف ابن الزبير وأصحابه ونَجْدة وأصحابه، ثم يفيض ابن الزبير وأصحابه، ونجدة بأصحابه، لا يُفيض واحد منهم بإفاضة أحد. وكان نَجْدة يلقى عبد الله بن الزُّبَير ويكثر حتى ظنَّ الناس أنه سيبايعه.

ثم كتب عبد الله بن الزبير إلى يزيد في شأن الوليد فعزله يزيد كما تقدم، واستعمل عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

وكان من خبر أهل المدينة في خلافهم يزيد، ووقعة الحرّة، والحصار الأول ما قدمناه.

فلما مات يزيد بن معاوية بلغ الخبرُ عبد الله بنَ الزبير والحُصَين بن نُمَير ومن معه من عسكر الشام يحاصرونه، وقد اشتد حصارهم، فقال لهم عبدُ الله وأهلُ مكة:

---

(١) كناية من مستقى الماء.
(٢) الشجرة العظيمة ذات الأغصان العصية.
(٣) القصباء: نبات ضعيف واحدته قصبية.
(٤) العشر شجر قطني في أغصانه خور.
(٥) كناية عن استحالة الشيء.
(٦) من عرفة.

عَلاَمَ تقاتلون وقد هلك طاغِيتكم؟ فلم يُصدِّقوهم، فلما بلغ الحُصينَ خبر موت يزيد بعث إلى ابن الزبير فقال: موعد ما بيننا الليلة الأبطح[١]، فالتقيا وتحادثا فراث فرس الحُصَين، فجاء حَمام الحرم يلتقط رَوْث فرس الحصين، فَكَفَّ الحُصينُ فرسه عن الحمام، وقال: أخاف أن يقتل فرسي حَمام الحرم. فقال له ابن الزبير: تتحرجون من هذا وأنتم تقاتلون المسلمين في الحرم، فكان فيما قال له الحصين: «أنت أحقُّ بهذا الأمر، هَلُمَّ فلنبايعك، ثم اُخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فاللّهِ لا يختلفُ عليك اثنان، وتؤمّن الناس، وتهدر الدماء التي كانت بيننا وبينك، وبين أهل الحرة»، فقال له: أنا لا أهدر الدماء، والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة. وأخذ الحُصين يُكلِّمه سرًا وهو يجهر ويقول: والله لا أفعل، فقال له الحُصين: قبّح الله منْ يعُدُّك بعد هذا داهيًا أو أريبًا[٢]، قد كنت أظنُّ لك رأيًا، وأنا أُكلمك سرًّا، وتكلِّمني جهيرًا، وأدعوك إلى الخلافة، وتَعِدُني القتل والهلكة. ثم فارقه ورحل هو وأصحابه نحو المدينة.

وندم ابن الزُّبير علَى ما صنع، فأرسل إلى الحصين يقول: أما المسير إلى الشام فلا أفعله، ولكن بايعوا لي هناك، فإني مؤمّنكم وعادلٌ فيكم، فقال الحصين: إن لم تقدم بنفسك لا يمشي الأمر، فإن هنالك ناسًا من بني أُمية يطلبون هذا الأمر. وسار الحصين إلى المدينة فخرج معه بنو أُمية إلى الشام.

وبويع عبد الله بن الزبير بمكة لسبع بقين من رجب سنة أربع وستين، واْجتمع لعبد الله بن الزُّبير الحجاز والكوفة والبصرة والجزيرة وأهل الشام، إلاّ أهل أُرْدُن[٣] ومصر.

ثم بويع مرْوان بن الحكم بالشام، فكان من أمره في وقعة مَرْج راهط ومسيره إلى مصر واستيلائه عليها ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

ذكر فراق الخوارج عبد الله
وما كان من أمرهم

وفي سنة أربع وستين فارق الخوارج الذين كانوا قدموا مكة عبد الله بن الزُّبير، وكانوا قد قاتلوا معه أهل الشام.

---

(١) جبل بمكة. (٢) ذو العقل والحجى.

(٣) أردن: كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك. راجع معجم ياقوت جـ١ ص١٤٧.

وكان سبب قدومهم عليه أنه لما اشتد عليهم عُبيد الله بن زياد بعد قتل أبي بلال، اجتمعوا وتذاكروا فأشار عليهم نافع بن الأزرق[١] أن يلحقوا بابن الزبير، وقال: إن كان على رأينا جاهدنا معه، وإن كان على غير رأينا دافعنا عن البيت، فلما قدموا عليه سُرَّ بمقدمهم وأخبرهم أنه على مثل رأيهم من غير استفسار، فقاتلوا معه أهل الشام، ثم اجتمعوا بعد وفاة يزيد وقالوا: إن الذي صنعتم بالأمس لغير رأي، تقاتلون مع رجل لا تدرون، لعله ليس على مثل رأيكم، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه، وينادِي «يا ثاراتِ عثمان» فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان، فنظر فإذا أصحابُه حوله قليل فقال: إنكم أتيتموني حين أردْت القيام، ولكن ائتوني عشية النهار حتى أعلمكم؛ فانصرفوا.

وبعث ابن الزبير إلى أصحابه، فاجتمعوا عنده بأيديهم العُهُد[٢]. فقال ابن الأزرق: إن الرجل قد أزمع خلافكم، فتقدم إليه نافع بن الأزرق وعبيدة بن هلال، فقال عُبيدة: بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله ﷺ، وأنه عمل بكتاب الله حتّى قبضه الله، واستخلف الناس أبا بكر، واستخلف أبو بكر عمر، فكلاهما عمل بكتاب الله وسنّة رسوله، ثم إن الناس استخلفوا عثمان. ونقصه، وقبح أفعاله، وتبرأ منه، ووالى قتلته، ثم قال: فما تقول أنت يا ابن الزبير؟! فحمد ابن الزبير الله وأثنى عليه، ثم قال: قد فهمت الذي ذكرتَ به النبيَّ ﷺ فهو فوق ما ذكرت، وفوق ما وصفت، وفهمتُ الذي ذكرتَ به أبا بكر وعمر وقد وُفِّقتَ وأصبت، وفهمت الذي ذكرت به عثمان، وإني لا أعلمُ مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني، كنت معه حيث نقم القوم عليه واستعتبوه فلم يدع شيئًا إلا أعتبهم منه، ثم رجعوا إليه بكتاب له يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم، فقال لهم: ما كتبته، فإن شئتم فهاتوا بيِّنتكم، فإن لم تكن حلفت لكم. فوالله ما جاؤوه ببينة، ولا استحلفوه، ووثبوا عليه فقتلوه، وقد سمعت ما عبته به، فليس كذلك، بل هو لكل خير أهل، وأنا أُشهدكم ومن حضرني أني وليٌّ لابْن عفَّان، وعدوّ أعدائه. قالوا: فبرىء الله منك، قال: بل برىء الله منكم.

وتَفرَّق القوم، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي، وعبد الله بن صفَّار السَّعديّ، وعبد الله بن إباض، وحنظلة بن بَيْهَس، وبنو الماحوز؛ عبد الله وعبيد الله والزُّبير من

(١) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري كنيته أبو راشد، رأس فرقة الأزارقة من الخوارج.

(٢) ما كان بأيديهم من عهود لعلها عهود ابن عفان رضي الله عنه لأهل مصر.

بني سليط بن يربوع، وكلهم من تميم، حتَّى أتَوا البصرة، وانطلق أبو طالوت من بني بكر بن وائل، وأبو فُديْك عبد الله بن ثور من قيس بن ثعلبة، وعطية بن الأسود اليشكري، إلى اليمامة، فوثبوا بها مع أبي طالوت، ثم اجتمعوا بعد ذلك على نَجْدة بن عامر الحنفيّ وتركوا أبا طالوت.

فأما نافع بن الأزرق ومن معه فإنهم قدموا البصرة فتذاكروا الجهاد وفضيلته، وخرج في ثلاثمائة، وذلك عند وثوب الناس بابن زياد، وكسر الخوارج باب السجن وخرجوا، واشتغل الناس عنهم بحرب الأزد وربيعة وتميم، فلما استقر أمر عبد الله بن الحارث بالبصرة تجرد الناس للخوارج وأخافوهم، فلحق نافع بالأهواز في شوال سنة أربع وستين واشتدت شوكته، وكثرت جموعه، وأقام بالأهواز.

وحيث ذكرنا الخوارج، فلنذكر ما كان من أمرهم في أيام عبد الله بن الزُبير إلى نهايته، ثم نذكر ما سوى ذلك.

ذكر مقتل نافع بن الأزرق
أمير الخوارج وغيره منهم

وفي سنة خمس وستين اشتدت شوكة نافع بن الأزرق، وهو الذي تنسب إليه الأزارقة من الخوارج، وكثرت جموعه، وأقبل بهم نحو الجسر، فبعث إليه عبدُ الله بن الحارث أميرُ البصرة مُسلَ بن عُبَيْس بن كُرَيْز بن ربيعة، فخرج إليه فدفعه عن أرض البصرة حتى بلغ دَوْلاَب من أرض الأهواز[1]، فاقتتلوا هناك فقتل مسلم أمير أهل البصرة ونافع بن الأزرق رئيس الْخوارج، وكان مقتلهما في جُمادَى الآخرة.

فأمّر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميريّ، وأمرت الخوارج عبد الله بن الماحوز التميمي، فاقتتلوا فقتل الحجاج وعبدُ الله، فأمَّر أهْل البصرة ربيعة بن الأجذم التميمي، وأمّرت الخوارج عبيد الله بن الماحوز، واقتتلوا حتى أمْسَوُا وقد ملُّوا القتال، وكره بعضهم بعضًا، فبينما هم كذلك إذ جاءت سرية للخوارج لم تشهد القتال فهزمت جيش البصرة، وقتل أميرهم ربيعة، فأخذ الراية حارثة بن بدر فقاتل ساعة بعد أن ذهب الناس عنه، ثم سار ونزل الأهواز، وبعث ابن الزبير الحارث بن أبي ربيعة على البصرة كما ذكرناه، فأقبلت الخوارج نحو البصرة حتى قربوا منها، فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلَّب بن أبي صُفْرة.

---

(١) دولاب: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ. راجع ياقوت جـ٢ ص٢.

ذكر محاربة المهلب الخوارج
وقتل أميرهم عبيد الله بن الماحوز

كان المهلَّب قد قدِم مِن قبَل عبد الله بن الزُّبير لولاية خُراسان فخرج إليه أشراف أهل البصرة وكلَّموه في حرب الخوارج، فأبى عليهم، فكلمه الحارث بن ربيعة، فاعتذر بولاية خراسان، فوضع الْحارث وأهْل البصرة كتابًا عن ابن الزُّبير إلى المهلَّب يأمره بقتال الخوارج، وأتوه به، فلما قرأه قال: والله ما أسير إليهم إلا أن يجعلوا إليَّ ما غلبتُ عليه، ويُعطوني من بيت المال ما أقوّي به من معي، فأجابوه إلى ذلك.

واختار المهلب من أهل البصرة اثني عشر ألفًا؛ منهم محمد بن واسع، وعبد الله بن رباح الأنصاري، ومعاوية بن قُرّة المزنيّ، وأبو عمران الجوْني وغيرهم. وخرج إلى الخوارج وهم عند الجسر الأصغر فحاربهم ودفعهم عنه، وتبعهم حتَّى بلغوا الأهْواز، واقتتلوا هناك. ودامت الحرب، وقُتِل المُعَارك بن أبي صُفْرة أخو المهلب، ثم هُزم جيش المهلَّب وثبت هو، فاجتمع عليه جماعة ممن انهزم، ثم عادوا للقتال، وأبْلَى بلاءً حسنًا فهزموه، فبلغ بعض من معه البصرة وجاءت أهلها وأسرع المهلَّب حتَّى سبق المنهزمين إلَى تَلّ عالٍ، ثم نادَى: إليَّ عباد الله؛ فاجتمع إليه ثلاثة آلاف أكثرهم من قومه فعاد إلى الخوارج وقد أمنوا، وسار بعضهم خلف الجيش الذي انهزم، فأوقع بهم المهلَّب وقتل رئيسُهم عبيد الله بن الماحوز، فاستخلفوا الزبير بن الماحوز، وعاد الذين تبعوا المنهزمين، فوجدوا المهلَّب قد وضع لهم خيلاً فرجعوا منهزمين، وأقام المهلَّب موضعه حتَّى قدم مُصْعَب بن الزُّبير أميرًا على البصرة من قبل أخيه عبد الله.

وقيل: كانت هذه الواقعة في سنة ستٍّ وستِّين، وذلك أن المهلَّب لمَّا دفع الخوارج عن البصرة إلى ناحية الأهواز أقام بقية سنته يَجبي كُورَ دجلة ورَزَقَ أصحابه، وأتاه المَدَد من البصرة حتَّى بلغ ثلاثين ألفًا.

قال: ثم استعمل مُصْعَب بن الزُّبَير لما وليَ العراق نائبه عمر بن عبيد الله بن معمر على فارس، وولاَّه حرب الأزارقة بعد أن تَوجَّه المهلَّب إلى الموصل والجزيرة وأرمينية[1] على ما نذكره إن شاء الله.

(١) أرمينية: صقع عظيم فيه مدن كثيرة مسكونة على حدود فارس. راجع ياقوت جا ص١٥٩.

فلما بلغ الخوارج ولايته تقدموا إلى إصْطَخر(١)، وأميرهم يوم ذاك الزُّبير بن الماحوز، فندب إليهم عمرُ ابنَه عبيد الله في خيل، فاقتتلوا فقُتل عُبيد الله بن عمر، وقاتل عمر بن عبيد الله الخوارج فقُتل من فرسانهم سبعون رجلاً، وانهزم الخوارج وقصدوا نحو أصبهان(٢)، فأقاموا حتَّى قَوُوا واستعدوا وأقبلوا حتَّى مروا بفارس وبها عمر، فقطعوها من غير الموضع الذي هو به حتى أتوا الأهواز.

فكتب إليه مُصْعب يلومه في تمكينهم من قطع جهته، فسار عمر من فارس في أثرهم، وخرج مُصعب فعسكر عند الجسر الأكبر.

وبلغ الخوارج وهم بالأهواز إقبال عمر عليهم، فقطعوا أرض جُوخَى والنهر وأنات وأتوا المدائن، وبها كردَم بن مَرْثد الفزاري، فشنُّوا الغارة على أهل المدائن، يقتلون الرجال والنساء والولدان، ويشقُّون أجواف الحوامل، فهرب كَرْدَم، وأقبلوا إلى ساباط، ووضعوا السيف، وأفسدوا إفسادًا عظيمًا.

وأتوا أرض الكوفة فخرج إليهم الحارث بن أبي ربيعة أميرُها، فتوجهوا حتى أتوا المدائن فأتْبعهم الحارثُ عبدَ الرحمٰن بن مخْنَف في ستة آلاف ليخرجهم من أرض الكوفة، فتبعهم حتَّى وقعوا في أرض أصبهان، فرجع ولم يقاتلهم.

وقصدوا الرَّيَّ وعليها يزيد بن الحارث بن رُوَيم الشَّيباني فقاتلهم، فأعان أهل الرَّي الخوارج، فقُتل يزيد وهرب ابنه حَوْشب.

ولمّا فرغ الخوارجُ من الريّ شخصوا إلى أصبهان فاصروها وبها عتَّاب بن ورْقاء، فصبر لهم وقاتلهم، فكمن له رجل من الخوارج وضربه بالسيف على حبل عاتقه فصرعه، فاحتمله أصحابه وداووْه حتَّى برىء، وداوم الخوارج حصارهم حتى نفدت أطعمتهم وأصابهم الجهد، فقام عتَّاب في أصحابه، وحَرَّضهم على أن يصدقُوهم القتال، فأجابوه إلى ذلك، وخرج بهم إلى الخوارج وهم آمنون، فقاتلوهم حتَّى أخرجوهم من معسكرهم، وقتلوا أميرهم الزُّبير بن الماحوز.

ففزعت الخوارج إلى أبي نَعامة قَطَريّ بن الفُجاءة المازنيّ(٣) فبايعوه، وأصاب

---

(١) إصطخر مدينة من أقدم مدن فارس، بين إصطخر وشيراز اثنا عشر فرسخًا. راجع ياقوت جـ١ ص٢١١.

(٢) أصبهان: مدينة عظيمة وناحية واسعة من بلاد فارس.

(٣) قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التميمي، رأس من رؤساء الخوارج الأزارقة.

عتَّاب ومن معه من عسكرهم ما شاؤوا، وسارت الخوارج عن أصبهان إلى كرمان[١]، فأقاموا بها حتَّى اجتمع إلى أميرهم قَطَري جموع كثيرة، وجَبَى الأموال وقويَ، ثم أقبل إلى أصبهان، ثم أتى أرض الأهواز فأقام بها، فبعث مُصْعب إلى المهلَّب فأمره بقتال الخوارج، وبعث إلى عامله بالموصل والجزيرة إبراهيم بن الأشتر، فقدم الهلَّب البصرة، وانتخب الناس وسار نحو الخوارج، وأقبلوا إليه حتى التقوا بسولاف[٢]، فاقتتلوا ثمانية أشهر أشدَّ قتال رآه الناس، وذلك في سنة ثمان وستين.

هذا ما أمكن إيراده من أخبار الخوارج في أيام ابن الزُّبير فلنذكر خلاف ذلك.

ذكر خبر التوابين وما كان من أمرهم وأخبارها إلى أن قتلوا

وإنما ذكرنا خبر التوابين في هذا الموضع في أخبار عبد الله بن الزبير؛ لأن ظهورهم ومقتلهم كان في أيامه، ومن بلد داخل تحت حكمه، ونحن نذكر مبدأ أمرهم، وقد ذكرهم ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل في حوادث سنة أربع وستين، وسنة خمس وستين.

قال: ولما قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما كما ذكرنا تَلاَقت الشِّيعةُ بالتَّلاوُم والندم علَى ما صدَر منهم، من استدعائهم الحسين وخذلانه حتى قُتل، ورأوا أنهم لا يغسلُ عنهم العارَ والإثم الذي ارتكبوه إلاَّ قتل من قتله أو القتل فيه.

فاجتمعوا بالكوفة إلى خمس نفر من رؤوس الشِّيعة، وهم: سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكانت له صحبة، والمسيَّب بن نَجبَة الفَزاري وكان من أصحاب عليّ وخيارهم، وعبد الله بن مسعود بن نُفيل الأزدي، وعبد الله بن وال التيمي، تيم بكر بن وائل، ورفاعة بن شداد البَجَلي، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صُرَد فبدأهم المسيب بن نَجبَة فقال بعد حمد الله: «أما بعد، فإنا ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربِّنا أن لا يجعلنا ممن يقول له غدًا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] وإن أمير المؤمنين قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا،

---

(١) كرمان: مدينة مشهورة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن بين فارس ومكران. راجع ياقوت جـ٤ ص٤٥٤.

(٢) سولاف: قرية في غربي دجيل من أرض خوزستان. راجع ياقوت جـ٣ ص٢٨٥.

فوجدنا اللَّهُ كاذبين في كل موطن من مواطن ابن ابنة نبيه محمد ﷺ، وقد بلغنا قبل ذلك كتبه ورسله، وأعذر إلينا فسألنا نصره عَودًا وبَدءًا، وعلانية وسرًّا، فبخلنا عنه بأنفسنا حتَّى قُتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جدلْنا[1] عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النُّصرة إلى عشائرنا، فما عُذْرنا عند ربنا وعند لقاء نبينا، وقد قُتل فينا ولده وحبيبه، وذرِّيته ونَسْلُه! لا والله لا عذرَ دُونَ أن تَقتلوا قاتله والمُوَالين عليه أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسَى ربُّنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن: أيها القوم، ولُّوا عليكم رجلاً منكم، فإنه لا بُدَّ لكم من أمير تفزعون إليه، ورايةٍ تَحفُّون بها».

فقام رفاعة بن شداد فقال: «أمَّا بعْدُ فإن الله قد هداك لأصْوب القول، وبدأت بأرشد الأمور بدعائك إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك مستجاب إلى قولك، وقلتَ: ولُّوا أمركم رجلاً تفزَعون إليه وتحفُّون برايته، وقد رأيْنا مثلَ الذي رأيتَ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرْضيًّا وفينا مستنصحًا وفي جماعتنا محبًّا، وإن رأيت ورأى ذلك أصحابنا ولَّينا هذا الأمر شيخَ الشيعة صاحبَ رسول الله ﷺ وذا السابقة والقَدَم سُليمانَ بن صُرَد المحمودَ في بأسه ودينه الموثوقَ بحزمه».

وتكلم عبد الله بن وأل وعبد الله بن سعد بنحو ذلك، وأثنيا على سليمان والمُسَيَّب، فقال المسيب: قد أصبتم فولُّوا أمركم سليمان بن صرد.

فتكلم سُليمان بن صُرَد بكلام كثير حضهم فيه على القيام وطلب ثأر الحسين وقتل قَتَلته أو القتل دون ذلك.

وكتب إلى سعد بن حُذَيفة بن اليَمان يُعلمه بما عزموا علَيه ويدعوه إلى مساعدتهم هو ومن معه من الشيعة بالمدائن، فقرأ سعد الكتاب على من بالمدائن من الشيعة فأجابوا إلى ذلك.

وكتب سليمان أيضًا إلى المثنَّى فأجابه: إننا مَعْشَرَ الشيعة حمدْنا الله علَى ما عزمتم عليه، ونحن موافوك إن شاء الله للأجل الذي ضربتَ.

قال: وكان أولُ ما ابتدؤوا به أمرهم بعد قتل الحسين في سنة إحدى وستين، فما زالوا في جمع آلة الحرب ودعاء الناس، في السر إلى أن هلك يزيد بن معاوية في سنة أربع وستين، فجاء إلى سليمانَ أصحابهُ فقالوا: قد مات هذا الطاغية، والأمرُ

(١) من الجدل وهو القول الطويل في أمر مخصوص.

ضعيفٌ، فإن شئتَ وثبنا على عمرو بن حريث، وكان خليفة ابن زياد على الكوفة، ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتتبعنا قَتَلَته ثم ندعو الناس إلى أهل هذا البيت. فقال لهم سليمان: «لا تَعجَلوا، إني قد نظرت فيما ذكرتم، فرأيت قَتَلَةَ الحسين هم أشراف الكوفة وفرسان العرب، ومتَى علموا ذلك كانوا أشدَّ عليكم، ونظرتُ فيمن تبعني منكم فعلمتُ أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا نفوسهم وكانوا جَزَرًا[(١)] لعدوِّهم ولكن بثُّوا دُعاتكم وادعوا إلى أمركم»؛ ففعلوا فاستجاب لهم ناس كثير[(٢)].

ثم إن أهل الكوفة أخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير، فلما مضت ستة أشهر من وفاة يزيد قدم المختار بن أبي عُبيد إلى الكوفة في النصف من شهر رمضان، وقدم عبد الله بن زيد الخطمي الأنصاري أميرًا على الكوفة من قبَل عبد الله بن الزُّبير لثمان خلَون من شهر رمضان، وقدم إبراهيم بن محمد بن طلحة معه على الخراج.

فأخذ المختار بن أبي عبيد يدعو الناس إلى قتله قَتَلة حسين ويقول: جئتكم من عند المهدي محمد ابن الحنفية وزيرًا أمينًا، فرجع إليه طائفة من الشيعة، وكان يقول: إنما يريد سليمان أن يخرج فيقتل نفسه ومن معه، وليس له خبرة بالحرب.

وبلغ الخبرُ عبدَ الله بن يزيد أن سليمان يريد الخروج بالكوفة عليه، وأُشير عليه بحبسه، وخُوِّف عاقبةَ أمره إن تركه، فقال عبد الله: إنْ هم قاتلونا قاتلناهم، وإنْ تركونا لا نطلبهم، إنَّ هؤلاء القوم يطلبون قَتَلَة الحسين، ولستُ ممن قتله، لعن الله قاتله، ثم صعدا إلى المنبر فقال: بلغني أن طائفةً منكم أرادوا أن يخرجوا علينا، فسألت عنه فقيل إنهم يطلبون بدم الحسين، فرحم الله هؤلاء القوم، فقد واللّهِ دُلِلْتُ علَى مكانهم، وأُمرت بأخذهم، فأبَيْتُ، وقلت إن قاتلوني قاتلتهم، وعَلامَ يقاتلوني؟ فواللّهِ ما أنا قتلت حسينًا، ولقد واللّهِ أُصبت بمقتله رحمة الله عليه، وإن هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ظاهرين، وليسيروا إلى من قاتل الحسين، فقد أقبل إليهم، يعني عبيد الله بن زياد، فأنا لهم ظَهِير[(٣)]، هذا ابن زياد قاتل الحسين، وقاتل خياركم وأمثالكم، فقد توجه إليكم وقد فارقوه على ليلة من جسر مَنْبج[(٤)]، فقتاله والاستعداد له أولَى من أن تجعلوا بأسكم بينكم، فيقتل بعضكم بعضًا، فيلقاكم عدوكم وقد رققتم

---

(١) ضحايا.

(٢) راجع الكامل لابن الأثير بزيادة جـ٤ ص١٧٥ وما بعدها.

(٣) معين.

(٤) منبج: مدينة كبيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. راجع ياقوت جـ٥ ص٢٠٥.

فنهلِك، وتلك أُمنيته، وقد قدِم عليكم أعْدَى خلق الله لكم، مَن ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يُقلعان عن قتل أهل العفاف والدين، هو الذي قتلكم ومن قبَلِه أُتيتم، والذي قتل من تناذُون بدمه، قد جاءكم فاستقبلوه بحدِّكم وشَوكتكم واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم إني لكم ناصح.

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالشام على ما نذكره، وبعث عُبيدَ الله بن زياد إلى الجزيرة، وأمره إذا فرغ منها أن يسير إلى العراق.

قال: فلما فرغ عبد الله بن يزيد من كلامه قال إبراهيم بن محمد بن طلحة: «أيها الناس، لا يغرنَّكم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنَّه، ولئن استيقنَّا أن قومًا يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده والحميم بالحميم والعريف بما في عرافته، حتَّى يدِينوا للحق والطاعة».

فوثب إليه المسيب بن نَجَبة فقطع عليه منطقه، ثم قال: يا ابن الناكثين، أنت تهددنا بسيفك وحشمك! أنت والله أذلُّ من ذلك، إنّا لا نلومك علَى بغضنا وقد قتلنا أباك وجَدك، وأما أنت أيها الأمير فقد قلتَ قولاً سديدًا. فقال له إبراهيم: والله لتُقتلن، وقد داهن هذا، يعني عبد الله بن يزيد، فقال له عبد الله بن وأل: ما اعتراضك فيما بيننا وبين أميرنا؟ ما أنت علينا بأمير إنما أنت أمير هذه الجزية، فأقبل على خراجك، ولئن أفسدتَ أمر هذه الأُمة فقد أفسده والداك، وكانت عليهما دائرة السوء. فشتمهم جماعة ممَّن مع إبراهيم، ونزل الأمير عن المنبر، وتهدده إبراهيم بأنه يكتب إلى ابن الزبير يشكوه، فجاءه عبد الله في منزله فاعتذر إليه، فقبل عذره.

ثم خرج أصحاب سليمان بن صرد ينشرون السلاح ظاهرين إلى سنة خمس وستين، فعزم سليمان على الشخوص، وبعث إلى رؤوس أصحابه وتواعدوا للخروج في مستهل شهر ربيع الآخر، وخرجوا في ليلة الوعد إلى النُّخَيلة، فدار سليمان في الناس، فلم يعجبه عددهم، فأرسل إلى حكيم بن منقذ الكندي والوليد بن عضين الكناني فناديا في الكوفة يا لثَارات الحسين! فكانا أول من دعيا لثارات الحسين.

فأصبح من الغد وقد أتاه نحو مما في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفًا بايعه، فقال: سبحان الله! ما وافانا من ستة عشر ألفًا إلا أربعة آلاف! فقيل له إن المختار يثبط[1] الناس عنك وقد تبعه ألفان. فقال: بقي عشرة آلاف! ما هؤلاء بمؤمنين!

---

(١) ثبط عن الأمر تثبيطًا إذا شغل عنه. وأراد يضعّف ويُبْعِد.

فأقام بالنُّخيلة ثلاثًا، يبعث إلى من تخلف عنه، فخرج إليه نحو من ألف رجل، فقام إليه المسيّب بن نَجَبة، فقال: رحمك الله، إنه لا ينفعك الكلام، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية، فلا تنتظرن أحدًا، وخُذ في أمرك. قال: نعم ما رأيت.

ثم قال سليمان في أصحابه فقال: «أيها الناس، من كان إنما خرج إرادة وجْه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيًا وميتًا، ومن كان يريد الدنيا فَوَاللّهِ ما يأتي فَيءٌ نأخذه ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوانَ الله، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع، ما هو إلاَّ سيوفُنا علَى عَواتقنا، وزادٌ قَدْر البُلْغة[1]، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحَبنا».

فتنادَى أصحابه من كل جانب: إنَّا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجْنا، إنما خرجنا لنطلبَ التوبةَ والطلبَ بدم ابن بنت نبينا ﷺ.

فلمّا عزم على المسير قال له عبد الله بن سعد بن نفيل: إني قد رأيت رأيًا، إن يكن صوابًا فالله الموفق، وإن يكن ليس بصواب فالرأي ما تراه، إنَّا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتَلَتُه كلُّهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع والقبائل، فأين تذهب من ههنا وتدع الأوتار[2]. فقال أصحابه: هذا هو الرأي.

فقال سليمان: أنا لا أرى ذلك، إن الذي قتله وعبَّأ الجنود إليه وقال: «لا أمانَ له عندي دُون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي» هذا الفاسق ابن الفاسق، عُبيد الله بن زياد، فسيروا على بركة الله إليه، فإنْ يُظهركم الله علَيه رجَوْنا أن يكون مَن بعده أهْوَنَ منه، ورجَوْنا أن يدين لكم أهل مصركم في عافيته، فينظرون إلى كل مَن شَرِكَ في دمِ الحسين فيقتلونه ولا يغشون، وإنْ تُستَشهدُوا فإنما قاتلتم المحلِّين، وما عند الله خير للأبرار، فاستخيروا الله وسيروا.

وبلغَ عبدَ الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروجُ ابن صُرَد، فأتَياه في أشراف أهل الكوفة، ولم يَصحبهم مَن له شَرْكٌ في دم الحسين خوفًا منهم، فلمَّا أتياه قال له عبد الله بن يزيد: إن المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يغشّه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحب أهل مصرٍ خلقه الله إلينا، فلا تفجعونا في أنفسكم، ولا تنقُصوا عددَنا بخروجكم من جماعتنا، أقيموا معنا حتَّى نتهيأ فإذا سار عدوُّنا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه. وجعل لسليمان وأصحابه خراج جوخى إن أقاموا، وقال إبراهيم

(١) مما يشغل الإنسان به جوعه، وهو أقل الطعام.
(٢) مفردها الوتر وهو الثأر معنى، ووتر شخصٌ شخصًا إذا أذاه بدم.

مثل ذلك، فقال سليمان: قد مَحَضْتما النصيحة واجتَهدتما في المشورة فنحن بالله وله، ونسأله العَزيمة علَى الرشد، ولا نرانا إلاَّ سائرين، فقال عبد الله: فأقيموا حتَّى نعبِّيءَ معكم جيشًا كثيرًا، فتلْقَوْا عدوَّكم بجمع كثيف، وكان قد بلغهم إقبال عُبيد الله بن زياد من الشام في الجنود.

فلم يُقم سليمان، وسار عشيَّة الجمعة لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، فتخلَّف عنه ناس كثير، فقال ما أحبّ من تخلّف منكم معكم ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبالاً إن الله كَرِه انبعاثهم فثبطهم وخصكم بفضل ذلك.

ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين، فصاحوا صَيْحة واحدة، وبكَوا بكاءً شديدًا، وترحّموا عليه، وتابوا عنده من خِذْلانه وتَرْكِ القتالِ معه، وأقاموا عنده يومًا وليلة يبكون ويتضرعون.

ثم ساروا وقد ازدادوا حنَقًا، وأخذوا صَوْبَ الأنبار، وساروا حتَّى أتوا قَرْقيسيا على تعبئة، وبها زُفَر بن الحارث الكلابي قد تحصن بها عند فراره من وقعة مرج راهط، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار مروان بن الحكم.

فبعث إليه سليمان، وعرَّفه ما هو وأصحابه عليه من قصد ابن زياد، فبعث إليهم بجزور ودقيق وعلف، وخرج إليهم وشيّعهم وعرض عليهم أن يقيموا عنده بقرقيسيا، وقال: ابن زياد في عدد كثير، فأبَوْا المقام، وساروا مجدِّين، وقال لهم زفر إن ابن زياد قد بعث خمسة أمراء من الرقة فيهم الحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وأدهم بن محرز وجبلة بن عبيد الله الخثعمي، فأبَوْا إلاَّ المسير[١].

فانتهوا إلى عَين الوردة[٢]، فنزلوا غربيّها، وأقاموا خمسًا، واستراحوا وأراحوا.

وأقبل أهل الشام في عساكرهم، حتَّى كانوا من عين الوردة علَى مَسيرة يوم وليلة، فقام سُليمان في أصحابه فخطبهم وحرّضهم على القتال وذكرهم الآخرة ثم قال: إنْ أنا قُتلتُ فأمير الناس المسيب بن نَجَبة، فإن قُتل فالأمير عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فالأمير عبد الله بن وأل، فإن قُتل فالأمير رفاعة بن شداد، رحم الله امرأً صَدَق ما عاهد الله عليه.

---

(١) راجع ابن الأثير في الكامل باختلاف جـ٤ ص١٨٠.

(٢) عين الوردة: رأس عين مشهورة في تلك الناحية راجع ياقوت جـ٤ ص١٨٠.

وبعث المسيّب بن نَجَبة في أربعمائة فارس، وقال: سِرْ حتَّى تَلْقَى أوّل عساكرهم، فشُنَّ عليهم الغارة، فإن رأيت ما تحب وإلاَّ فارجع. فسار يَوْمَه وليلتَه، ثم نزل، فأُتي بأعرابي، فسأله عن أدنى العسكر منه، فقال: أدناها منك عسكر شُرَحْبيل بن ذي الكُلاع، وهو علَى ميلٍ، وقد اختلف هو والحُصَين، ادَّعَى كلُّ واحد منهما أنه على الجماعة، وهما ينتظران أمر عُبيد الله.

فسار المسيّب ومَن معه مسرعين، حتَّى أشرفوا على القوم، وهم على غير أُهْبة، فحملوا في جانب عسكرهم، فانهزم العسكر، فأصاب المسيّب منهم رجالاً وأكثروا فيهم الجراح، وأخذوا دواب، وترك الشاميون مُعسكرهم وانهزموا، فغنم أصحاب المسيَّب ما أرادوا، ثم انصرفوا إلى سليمان.

وبلغ الخبر ابن زياد، فسرّح الحصين في اثْنَي عشر ألفًا، فخرج أصحاب سليمان إليه، لأربع بقين من جُمادَى الأولَى، وعَلَى مَيْمنتهم عبد الله بن سعد، وعَلَى مَيْسرتهم المسيّب، وسليمان في القلب. وجعل الحُصين علَى مَيْمنته جبلة بن عبد الله، وعلى مَيْسرته ربيعة بن المخارق الغنوي.

فلما دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة علَى مَرْوان بن الحكم، ودعاهم أصحاب سليمان إلى خلع مَرْوان وتسليم عُبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يُخرجون من بالعراق من أصحاب عبد الله بن الزُّبير ثم يُرَدّ الأمر إلى أهل بيت النبي ﷺ، فأبى كل منهم، وحمل بعْضُهم على بعض، فانهزم أهل الشام وكان الظفر لأصحاب سليمان إلى الليل.

فلما كان الغد صبَّح الحُصَين ثمانية آلاف أمده بهم عبيد الله، فقاتلهم أصحاب سليمان عامَّة النهار قتالاً شديدًا لم يحجز بينهم إلا الصلاة حتَّى حجز بينهم الليل، وقد كثر الجراح في الفريقين.

فلما أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهلي في نحو من عشرة آلاف من قِبَل ابن زياد، فاقتتلوا يوم الجمعة إلى ارتفاع الضحى، ثم كثر أهل الشام عليهم، وعطفوا من كل جانب، فنزل سليمان ونادَى: «عبادَ الله، مَن أراد البُكور إلى ربّه والتوبَة من ذنبه فإليّ» ثم كسر جَفْنَ سيفه[١]، فنزل معه ناس كثير وفعلوا كفعله، وقاتلوا قتالاً شديدًا، فقتلوا من أهل الشام مَقْتلة عظيمة وأكثروا فيهم الجراح، فبعث الحصين الرجّالة ترميهم بالنَّبل، واكتنفتهم الخيل، فقُتل سليمان بن صُرَد، رماه يزيد بن

(١) يعني غمدَ سيفه وهو كناية عن الثبات على القتال.

الحصين بسهم فوقع ثم وثبَ ثم وقع، ومات وهو ابن ثلاث وتسعين سنة، وكانوا قد سموه «أمير التوّابين».

فأخذا الراية المسيب بن نَجبَة، وترحّم على سليمان، فتقدم فقاتل حتَّى قُتل بعد أن قَتل رجالاً كثيرًا.

فأخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفيل، وترحم عليهما، وقرأ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] وحَفَّ به من كان منهم معه من الأزد، فبينما هم في القتال إذ أتاهم فرسان ثلاثة من سعد بن حذيفة، يخبرون بمسيره في سبعين ومِائة من أهلْ المدائن، ويخبرون بمسير أهل البصرة مع المثنَّى بن مخرمة العبدي في ثلاثمائة، فقال عبد الله بن سعد: لو جاؤونا ونحن أحْياء! وقاتَل حتَّى قُتل، قتله ابن أخي ربيعة بن مخارق، وحمل خالد بن سعد بن نفيل على قاتل أخيه يطعنه بالسيف، فخلصه أصحابه، وقُتل خالد بن سعد.

فجيءَ بالراية إلى عبد الله بن وأل، وقد اصْطَلَى الحرب في عصابة معه، فأخذها، وقاتل مَليًّا، وذلك وقت العصر، وما زال يقاتل حتَّى قَتَلَ هو وأصحابه رجالاً، ثم إن أهل الشام تعطفوا عليهم من كل جانب، فلمَّا كان عند المساء تولَّى قتالهم أدهم بن محرز الباهلي، فحمل في خيله ورجله حتَّى وصل إلى ابن وأل وهو يتلو ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآيات، فغاظ ذلك أدهم، فحمل عليه وضربه فأبان يده ثم تنحى عنه، وقال: إني أظُنُّك ودِدْتَ أنك عند أهلك، قال ابن وأل بئس ما ظَنَنْتَ، واللّهِ ما أُحِبُّ أن يَدَكَ مَكانها إلاَّ أن يكون لي من الأجر مثل ما في يدي، ليعظمَ وِزْرُك وأجْري، فغاظه ذلك فحمل عليه فطعنه فقتله وهو مقبل ما زال[1] عن مكانه، وكان ابن وأل من الفقهاء العباد.

فلما قتل أتَوْا رِفَاعة بن شداد البجلي وقالوا خذ الراية، فقال ارجعوا بنا لعلّ الله يجمعنا ليوم شر لهم، فقال عبد الله بن عوف بن الأحمر: «هلكنا والله لئن انصرفت ليركبن أكتافنا فلا نبلغ فرسخًا حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجا منَّا ناج أخذتْه الأعراب فتزّبوا به إليهم فيقتَل صَبْرًا! هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا، فإذا غَسق الليل ركبنا خيولنا أوّل الليل، وسرنا حتَّى نُصبح ونسير على مهل، يحمل الرجل صاحبه وحريمه ونعرف الوجه الذي نأخذه»[2].

(١) أراد لم يَزل، أي بقي ثابتًا.

(٢) راجع الكامل لابن الأثير باختلاف جـ٤ ص١٨٢.

فقال رفاعة نعم ما رأيت وأخذ الراية، وقاتلهم قتالاً شديدًا.

وتقدم عبد الله بن عزيز الكناني فقاتل أهل الشام قتالاً شديدًا، ومعه ولده محمد وهو صغير، فسلّمه لبني كنانة من أهل الشام ليوصلوه إلى الكوفة، فعرضوا عليه الأمان، فأَبَى، ثم قاتلهم حتَّى قُتل.

وتقدم كريب بن زيد الحمير عند المساء في مائة من أصحابه فقاتل قتالاً شديدًا، فعرض ابن ذي الكُلاع علَيه وعلى أصحابه الأمان، فقال قد كنا آمنين في الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة، وقاتلوهم حتَّى قُتلوا[١].

وتقدم صخير بن هلال المزني في ثلاثين من مُزَينة، فقاتلوا حتى قتلوا.

فلما أمسَوْا رجع أهل الشام إلى معسكرهم، وسار رفاعة بالناس ليلته، وأصبح الحصين فلم يَرَهم، فما بعث في أثرهم، وساروا حتى أتَوْا قَرْقيسيا فأقاموا عند زفَر بن الحارث ثلاثًا، ثم زَوَّدهم وساروا إلى الكوفة.

وأما سعد بن حذيفة بن اليمان فإنه سار من المدائن بمن معه حتَّى بلغ هيت، فأتاه الخبر، فرجع فلقي المثنَّى بن مخرمة العبدي في أهل البصرة، فأخبره، فأقاموا بصندوداء[٢] حتى أتاهم رفاعة، فاستقبلوه، وبكَى بعضهم إلى بعض، وأقاموا يومًا وليلة، ثم تفرقوا، فسارت كل طائفة منهم إلى جهتهم.

قال: ولما بلغ رفاعة الكوفة كان المختار بن أبي عبيد محبوسًا، فأرسل إليه المختار: «أمّا بَعْدُ فإنكم خرجتم بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ورضي فعلهم حتى قُتلوا أما ورَبِّ البيت ما خطا خاطٍ منكم خُطوة ولا رَبا ربوة[٣] إلا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا، إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفّاه الله فجعل روحه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون إني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار، فأعدوا واستعدوا وأبْشروا، وأدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المُحلّين، والسلام».

وكان من أمر المختار ما نذكره إن شاء الله تعالى.

تمّ الجزء العشرون، ويليه الجزء الحادي والعشرون،

وأوله: ذكر أخبار المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير باختلاف ج٤ ص١٨٥.

(٢) صندوداء: على جانب الطريق بين مثلث الطرق الحجاز والعراق والشام. راجع ياقوت في معجمه ج٣ ص٤٢٥.

(٣) أراد ارتقى، كناية عن اختلاف الزحف.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢١ - ٢٢

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
9782745138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر أخبار المختار
ابن أبي عبيد بن مسعود الثقفي

كان المختارُ بنُ أبي عُبَيْد ممن بايع مُسلم بْنَ عَقيل لما بعثه الحُسَين بن عليّ رضي الله عنهما إلى الكوفة وأنزله في داره، ودعا إليه. فلما ظهر ابنُ عقيل كان المختارُ في قرية تدعى لقف[1]، فأتاه الخَبَرُ بظُهُورِه، فأقبل في مَوَالِيه إلى باب الفِيل بعد المغرب، وقد أجلس عُبَيْدُ الله بن زياد عَمْروَ بن حُريث بالمسجد ومعه رَايَةٌ، فبعث إلى المُخْتَار وأَمَّنَه، فجاء إليه.

فلما كان من الغد ذكر عمارة بن عُقْبة أمْره لعُبَيْد الله، فأحضره، وقال له: أنت المُقْبِلُ في الجموع لِتَنْصُر ابْنَ عقيل! قال: لم أفعل، ولكني أقبلْتُ ونزلْتُ تحت رايةِ عَمْارة، فشهد له عَمْرو بذلك، فضرب ابنُ زياد وَجْهَ المختار بقَضِيبٍ فشَتَر[2] عَيْنَه وقال: لولا شهادتُه قتلْتُك. وحَبَسه إلى أن قُتِل الحُسَيْن فبعث المختارُ إلى عَبْد الله بن عمر بن الخطَّاب يسألُه أن يَشْفَع له فيه، وكان زوج أُخته صفيةَ بنتِ أبي عبيد، فكتب ابْنُ عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع فيه، فأمر يزيدُ ابْنَ زيادٍ بإطلاقه، فأطلقه وأمره ألاَّ يُقيم غيرَ ثلاث.

فخرج المختارُ إلى الحجاز، واجتمع بعَبْد الله بن الزبير وأخبره خبرَ العراق، وقال له: ابسُط يدَك أُبايعْك، وأعْطِنا ما يُرضينا، وثِبْ على الحجاز، فإنَّ أهلَه معك؛ وكان ابنُ الزبير يَدْعُو لنفسه سرًّا، فكتم أمرَه عن المختار ففارقه إلى الطائف، وغاب

---

(١) لقف: بفتح أوله وسكون ثانيه..: ماء آبار كثيرة عذب ليس عليها مزارع ولا نخل فيها لغلظ موضعها وخشونته، وهو بأعلى قوران واد من نايحة السوارقية على فرسخ.. (معجم البلدان لياقوت).

(٢) شتر عينه: شقها، أو قلب جفنها.

عنه سنَةً ثم سأل عنه ابن الزبير، فقيل له: إنه بالطائف، وإنه يَزْعم أنه صاحب الغَضَب ومُبيدُ الجبّارين، فقال ابْنُ الزبير: قاتله الله، لقد اتبعت كذابًا متكِّهنًا، إن يُهلِك الله الجبَّارين يكن المختار أوّلَهم.

فبينا هو في حديثه إذ دخل المختار، فطاف وصلَّى ركعتيْن، وجلس وأتاه معارِفُه يحدّثونه، ولم يأتِ ابنَ الزبير، فوضع ابن الزبير عليه عباس بن سَهْل بن سَعْد، فأتاه، وسأله عن حاله، ثم قال له: مثلُك يغيبُ عن الَّذي قد اجتمع عليه الأشرافُ من قُريش والأنصار وثَقِيف؟ ولم تبق قبيلة إلا وقد أتاه زعيمُها، فبايعْ هذا الرجل.

فقال: إني أتيتُه في العام الماضي فكتم عني خَبَره، فلما استغنى عنِّي أحببْتُ أن أُرِيَه أنّي مستَغْنٍ عنه، فقال له العباس: الْقَه الليلة وأنا معك، فأجابه إلى ذلك، وحضر عند ابْنِ الزُّبير بعد العَتَمة، فقال له المختار: أُبايعك على ألاَّ تُقْضَى الأُمورُ دوني، وعلى أن أكونَ أوَّل داخلٍ عليك، وإذا ظهرتَ استعنت بي علَى أفضل عَمَلِك.

فقال ابنُ الزبير: أُبايعك على كتابِ الله وسنَّة رسوله. فقال: وشرّ غلماني تبايعه على ذلك، والله لا أُبايعك أبدًا إلاَّ علَى ذلك، فبايعه وأقام عنده، وشهد معه قتالَ الحُصين[1]، وكان أشدّ الناسِ على أهل الشام، فلمَّا مات يزيد وأطاع أهلُ العراق عبْدَ الله بن الزبير، أقام المختار عنده خمسةَ أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل يسأَلُ مَنْ يقدم من الكوفة عَنْ حال الناس، فأخبره هانىء بن أبي حيّة الوِدَاعي باتفاق أهل الكوفة على طاعةِ ابن الزبير إلاَّ طائفة من الناس، لو كان لهم من يَجْمَعُهم على رَأْيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما.

فقال المختار، أنا أبو إسحاق أنا والله لهم، أنا أجمَعُهم على الحق، وأتَّقي بهم ركبان الباطل، وأقتل بهم كلَّ جبار عَنِيد.

ثم ركب دابته وسار نحو الكوفة فوصل إليها.

واختلفت الشيعةُ إليه، وبلغهُ خبر سليمان بن صُرَد وأنه على عَزْم المسيرِ، فقام في الشيعةِ فحمد الله، ثم قال: إن المهدي وابن الرضَا، يعني محمد ابن الحنفية، بعثني إليكم أيمنًا ووزيرًا ومنتخبًا وأميرًا، وأمرني بقِتَال المُلْحِدِين، والطلب بدَمِ أهل بَيْتِه.

---

(١) الحصين: هو الحصين بن نمير السكوني.

فبايعَه إسماعيلُ بن كثير وأخوه، وعُبَيْدة بن عَمْرو، وكانوا أوّل من أجابه، وبعث إلى الشِّيعة وقد اجتمعوا عند ابن صُرَد، وقال لهم نحو ذلك، وقال: إن سليمانَ ليس له تجربة بالحَرْب ولا بالأُمور، إنَّما يريدُ أن يخرجَكم فيقتلَكم ويقتلَ نفسه، وأنا أعمل على مِثالٍ مُثِّل لي، وأمْرٍ بُيِّن لي، فيه عزُّ وليّكم، وقَتْلُ عدوّكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا قولي، وأطيعوا أمري، ثم أبشِروا.

فما زال بهذا ونحوه حتى استمال طائفةً من الشيعة، فكانوا يختلفون إليه ويعظّمونه، وأكثرُ الشيعةِ مع ابن صُرَد، وهو أثقَلُ خَلْقِ الله على المُختار.

فلما خرج سليمان بن صُرَد على ما قدمناه قال عمرَ بن سعد، وشَبث بنُ رِبْعي، ويزيد بن الحارث بنُ رُوَيم لعبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طَلْحة: إن المختارَ أشدُّ عليكم من سليمان، إن سليمان إنَّما خرج يريدُ قتالَ عَدُوِّكمَ، والمختارُ يريد أن يَثِب عليكم في مِصْركم، فأتوه، وأخذُوه بَغْتة، وحملوه إلى السجن، فكان يقول في السجن: أما ورَب البحار، والنخيل والأشجار، والمَهامِه، والقِفَار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلنَّ كل جبَّار، بكل لَدْنٍ خَطَّار، ومُهَنَّدٍ بَتَّار، وجُموع الأنصار، وليسوا بميل[1] أغمار، ولا بِعُزَّلٍ أشرار، حتى إذا أقمتُ عَمُودَ الدِّين، ورأبْتُ شَعْب صَدْع المسلمين، وشفَيْتُ غليل صدور المؤمنين، وأدْرَكتُ بثأْر النبيِّين، لم يكبر عليّ زوالُ الدنيا، ولم أحْفل بالموت إذا أتى.

وقيل في خروج المختار إلى الكوفة غير ما تقدّم، وهو أنه قال لعَبْد الله بن الزُّبير وهو عنده: إني لأعلم قومًا لو أنَّ لهم رَجُلًا له عِلمٌ بما يأتي ويذَر لاستخرج لك منهم جُنْدًا يُقاتل بهم أهلَ الشام. قال: من هؤلاء؟ قال: شيعة عليّ رَضي الله عنه بالكوفة، قال: فكن أنْت ذلك الرجل؛ فبعثه إلى الكوفة، فنزل ناحيةً منها يَبْكِي على الحُسَيْن ويذكر مصابه حتى ألفه الناسُ وأحبّوه، فنقلوه إلى وسط الكوفة، وأتاه منهم بَشَر كثير. والله أعلم.

ذكر وثوب المختار بالكوفة

كان وُثوب المُختارِ بالكوفة في رابع عشر شهر ربيع الأوّل سنة ست وستين، وكان سبَبُ ذلك أنَّه لما قُتل سليمان بنُ صُرَد قَدِم مَنْ بقي مِنْ أصحابه إلى الكوفَةِ، وكان المختارُ محبوسًا كما ذكَرْنا، فكتب إليهم من السجن يُثْنِي عليهم، ويُمَنِّيهم

---

(١) الميل: جمع أميل، وهو الكسل الذي لا يحسن الفروسية والركوب.

الظَّفَر، ويعرِّفُهم أن محمد بن علي بن أبي طالب المعروفَ بابْنِ الحنفية أمَرَه بطَلَبِ الثأر، فقرأ كتابَه رفاعةُ بنُ شدّاد والمثنَّى بن مُخَرِّبة العبدي، وسعْد بن حُذَيْفَة بن اليمان، ويزيد بن أنس، وأحمر بن شُميْط، وعبد الله بن شدّاد البَجلي، وعبد الله بن كامل.

فلمّا قرؤوا كتابَه بعثوا إليه ابْنَ كامل يقولون: إنَّنا بحيث يسرّك، فإن شئت أن نأتيَك ونخرجَك من الحَبْس فَعلْنا، فقال: إني أخرج في أيّامي هذه. وكان المختار قد أرسل إلى عبد الله بن عُمَر يقول: إني حُبِسْتُ مظلومًا، وطلب منه أن يشفع فيه إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة.

فكتب ابْنُ عمرَ إليهما في أمره، فشفَّعاه فيه، وأخرجاه من السجن، وحلفاه أنَّه لا يبغيهما غائلة[1]، ولا يَخرج عليهما ما دام لهما سلطان، فإنْ فعلَ فعَلَيْه ألْف بدنة[2] ينحرُها عند الكعبة، ومماليكُه أحرار.

فلمّا خرج نزل بدَارِه، وقال لِمَنْ يَثق به: قاتلهم الله، ما أحمَقَهم حين يرَوْن أني أفِي لهم، أمَّا حَلِفي بالله فإنني إذا حلَفْتُ على يمين فرأيتُ خيرًا منها أُكفِّر عَنْ يمين، وخُروجي عليه خير من كَفِّي عنهم، وأمّا هَدْيُ البُدْنِ، وعِتْقُ المماليك، فهو أهوَن عليَّ من بَصْقةٍ، ودِدْت أنِّي تَمَّ لي أمري ولا أملك بعده مملوكًا أبدًا.

ثم اْختلفتْ إليه الشِّيعةُ، واْتفقوا على الرّضا به، ولم يَزَلْ أصحابُهُ يَكثُرون وأمرُه يَقْوَى، حتَّى عَزَل عبدُ الله بنُ الزبير عبدَ الله بن يزيد وإبراهيمَ بن محمد، واستعمل عبدَ الله بنَ مُطيع على عَملهما بالكوفة.

وقدم اْبنُ مُطيع الكوفةَ لخمسٍ بَقِين من شهر رمضان سنة خمس وستِّين. ولمَّا قَدِمَ صعد المنبر، فخطب الناسَ وقال: أمّا بعد، فإن أميرَ المؤمنين بعثني على مِصْركم وثُغورِكم، وأمَرَني بِجباية فيئكم[3] وألاَّ أحملَ فضْلةً عنكم إلا برضًا منكم، وأن أتّبع فيكم وصيّة عمرَ بن الخطَّاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرةَ عثمان بن عفَّان رضي الله عنهما، فاتقوا الله واْستقيموا، ولا تختلفوا علي، وخُذُوا على أيدي سُفَهَائكم، فإن لم تفعلوا فلُوموا أنفسَكم. فقام إليه السائب بن مالك الأشعري، فقال: أمّا حَمْل فيئنا بِرضانا فإنَّا نشهد ألاَّ نرضى أن تَحملَ عنَّا فَضْلَةً وألاَّ تقسم إلاَّ فينا،

---

(١) الغائلة: الفساد والشر؛ أو الداهية.
(٢) البدنة: ناقة أو بقرة، تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمنونها لذلك.
(٣) الفيء: الخراج؛ أو الغنيمة تنال بلا قتال.

وألاَّ يُسارَ فينا إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب الَّتي سار بها في بلادِنا حتى هلك، ولا حاجة لنا في سيرَةِ عُثْمان بن عفان في فيئنا وَلا في أنفسنا، ولا في سيرة عمرَ في فيئنا، وإن كانت أهْوَنَ السّيرتَيْنِ علينا، وقد كان يفعلُ بالناس خَيْرًا.

فقال يزيد بن أنَس: صدق السائب وبَرّ، فقال ٱبْنُ مُطيع: نَسِير فيكم بكلّ سيرة أحبَبْتُم، ثمَّ نزل.

وجاء إياس بن مُضَارب إلى ابْنِ مُطِيع فقال له: إن السائبَ بن مالك من رؤوس أصحاب المختار، فابعث إلى المختار، فإذا جاءكَ فٱحبسه حتَّى يستقيم أمرُ الناس، فإنّ أمرَه قد ٱستجمع له، وكأنَّه قد وثب بالمِصر.

فبعث ٱبنُ مُطيع إلى المختار زائدةَ بنَ قُدَامة وحُسَين بن عليّ البُرْسُميّ، فقالا له: أجِبِ الأميرَ، فعزم على الذهاب، فقرأ زائدة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ...﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية. فألقَى المختارُ ثيابَه وقال: ألقُوا عليَّ قطيفةً[1] فإني وَعِكْت، إنِّي لأجِد بَرْدًا شديدًا، ارجعا إلى الأمير فأعلِماه حالي، فعادا إليه فأعلَماه فتركه.

ووجَّهَ المختارُ إلى أصْحابه، فجمعهم حولَه في الدُّور، وأراد أن يثب في المحرّم؛ فجاء رجلٌ من أصحابه من شِبَام، وشِبَام: حيٌّ من همْدان، وكان شريفًا، وٱسمه عبْد الرحمٰن بن شُرَيح، فلَقِي سعِيد بن مُنْقِذ الثَّوْري، وسِعْر بن أبي سِعْر الحنفي، والأسود بن جَرَاد الكِنْدي، وقُدامة بن مالك الجُشميّ، فقال لهم: إنّ المختار يريد أن يخرج بنا، ولا نَدْرِي أرسله ابنُ الحنفيّة أم لا؟ فانهضوا بنا إلى محمد ابْنِ الحنفيَّة نُخْبره بما قدم به علينا المختار، فإن رخَّص لنا في اتِّباعه ٱتَّبعناه، وإن نَهَانَا عنه ٱجتنبناه، فوالله ما ينبغي أن يكونَ شيء من الدنيا آثَرَ[2] عندنا مِنْ سَلاَمَةِ ديننا، فٱستصوبوا رأيَه، وخرجوا إلى ابن الحنفِيّة، فلمَّا قدموا عليه سألهم عن حالِ الناس، فأخبرُوه وأعلموه حالَ المختار، فقال: والله لودِدتُ أن اللّهَ انتصر لنا مِن عدوّنا بمَنْ شاء من خَلْقِه، فعادوا.

وكان مسيرُهم قد شقَّ على المختار، وخاف أن يعودوا بما يَخذُل الشِّيعة عنه، فلمَّا قدموا الكوفة دخلوا عليه، فقال: ما وراءكم؟ فقد فُتنتم وٱرتبْتُم، فقالوا: قد أُمِرْنا بنَصْرِك، فقال: اللّهُ أكبر، اللّهُ أكبر، اجمَعوا الشِّيعة، فجُمِع مَنْ كان قريبًا مِنه، فقال

(١) القطيفة: كساء له أهداب؛ أو دثار أو فراش ذو أهداب كأهداب الطنافس.
(٢) آثره: اختاره وفضله.

لهم: إنَّ نفرًا أحبُّوا أن يَعلموا مِصْداقَ ما جئتُ به، فرحلوا إلى إمام الهدى، فسألوه عما قدمتُ به عليكم، فنبّأهم أنّي وزيرُه وظَهيرُه ورسولُه، وأمرَكم بطاعتي واتّباعي فيما دعوتُكم إليه مِنْ قتال المحِلّين، والطلب بدماء أهل بَيْتِ نبيِّكم.

فقام عبد الرحمٰن بن شُريح وأخبرهم بحالهم ومسيرهم، وأنّ ٱبْنَ الحنفيّة أمرهم بمظاهرته ومؤازرته، وقال لهم: ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، واستعدّوا وتأهَّبُوا، وقام جماعة من أصحابه فقالوا نحوًا من كلامه.

فاجتمعت له الشيعةُ، وكان من جملتهم الشَّعبي[1] وأبوه شَراحيل، فلمّا تهيَّأ أبُوه للخروج قال له بعضُ أصحابه: إن أشرافَ الكوفة مُجمِعون على قِتالك مع ابنِ مطيع، فإن أجابنا إبراهيمُ بنُ الأشْتَر رجَوْنَا القوّة على عدوِّنا، فإنّه فتًى رئيس وابن رجل شريف، وله عشيرةٌ ذاتُ عِزٍّ وعَدَد. فقال المختار: فٱلقوه وادعوه، فخرجوا إليه ومعهم الشَّعبي، فأعلموه حالَهم، وسألوه مساعدَتَهم، فقال: عَلى أنْ تولّوني الأمر، فقالوا: أنتَ لذلك أهل، ولكن ليس إلى ذلك سَبِيل، هذا المختار قد جاءنا من قِبَل المَهْدِي، وهو المأمورُ بالقتال، وقد أُمِرنا بطاعته، فلم يُجبهم إبراهيم، فانصرَفوا عنه.

وأتوا المختار، فسكت ثلاثًا، ثم سار إلى إبراهيم في بِضْعَةَ عشر من أصحابه، والشعبيُّ وأبوه فيهم، فدخلوا عليه، فألقَى إليهم الوَسائد، فجلسوا عليها، وجلس المختارُ معه على فِرَاشه، فقال المختار له: هذا كتابُ المهديّ إليك، يسألُك أن تنصرَنا وتؤازِرَنا، فقرأه، فإذا هو: «من محمد المهديّ إلى إبراهيم بن مالك ٱلأشتر، سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الَّذي لا إله إلاَّ هو، أمَّا بعد، فإني قد بعثتُ إليكم وَزيري وأمِيني الذي ٱرتضَيْتُه لنفسي، وأمرْتُه بقتالِ عَدُوّي، والطلبِ بدماء أهْلِ بيتي، فٱنهض بنفسك وعشيرتك ومَنْ أطاعك، فإنك إنْ نَصرْتَني وأجبْتَ دعوتي كانت لك بذلك عندي فَضِيلة، ولك أعِنَّةُ الخيل، وكلُّ جيش غازٍ، وكلُّ مِصْر ومِنْبَر وثغر ظَهَرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلادِ الشام».

فلمّا فرغ من قراءته تأخّر عن صَدْرِ الفراش، وأجلس المختار عليه، وبايَعَه. وصار يختلِفُ إلى المختار كلَّ عشيّة يدبِّرون أُمورهم.

---

(١) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم، روي أن عمر رضي الله عنه مرّ به يومًا وهو يحدث بالمغازي فقال: شهدت القوم وهو أعلم بها مني... (وفيات الأعيان ٣: ١٢).

واجتمع رأيُهم على الخروج ليلةَ الخميس لأربع عشرةَ ليلةً من شهر ربيع الأوّل، فلمّا كان تلك اللّيلة، صلّى إبراهيمُ بن الأشتر بأصحابه المغرب، ثم خرج يُريدُ المختارَ، وعليه وعلى أصحابه السلاح، وكان إياسُ بنُ مُضارِب قد جاء إلى عَبْد الله بن مُطِيع وهو على شُرْطته، فقال: إن المختار خارجٌ عليك إحْدَى هاتَيْنِ اللَّيلتين، وقد بعثتُ بابْنِي إلى الكُناسَة[1]، فلو بعثتَ في كلّ جَبَّانة[2] عظيمةٍ بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعةٍ من أهل الطاعة لَهَاب المختارُ وأصحابُه الخروجَ عليك، فبعث ابنُ مُطيع إلى كلّ جبّانة مَنْ يحفَظُها من أهل الطاعة، وأمَّر على كل طائفة أميرًا، وأوصى كلاً منهم ألاّ يؤْتَى مِنْ قِبَلِه، وقال: إذا سمعتَ صوتَ القومِ فوجِّهْ نحوَهم، وكان خروجُهم إلى الجَبَابين يوم الاثنين.

وخرج إبراهيم بن الأشْتَر ليلَة الثلاثاء يريد المختار، وقد بلغه أنَّ الجَبَابين قد مُلِئَتْ رجالاً، وأن إياس بن مُضَارب في الشُرْطة قد أحاط بالسُّوق والقَصْر، فأخذ معه من أصحابِه نَحْوَ مائةِ دارع، وقد لَبِسُوا عليهم الأقْبِيَة، فقال له أصحابه: تجنب الطريقَ، فقال: والله لأمُرّنّ وسَط السُّوق بجَنْب القَصْر، ولأُرْعِبَنّ عدوّنا، ولأُرِيَنَّهم هَوَانَهم علينا، فسار على باب الفِيل، فلقيهم إيَاسٌ في الشُرَط مُظْهرِين السّلاح، فقال: من أنتم؟ فقال: أنا إبراهيمُ بنُ الأشتر. فقال إياس: ما هذا الجَمْعُ الّذي معك؟ وإلى أين تُريد؟ ولستُ بتاركِكَ حتى آتي بكَ الأمير، فقال إبراهيم: خلِّ سبيلَنا؛ قال: لا أفعل؛ وكان مع إياس رجُلٌ من هَمْدان يقال له أبو قَطَن، وكان يُكْرِمُه، وكان صَدِيقًا لابن الأشتر، فقال له ابن الأشتر: ادْنُ مني يا أبا قَطَن، فدنا منه وهو يَظُنّ أن إبراهيمَ يستشفعُ به عند إياس، فلمَّا دَنَا منه أخذ رُمْحًا كان معه فطعنَ به إياسًا في نحره، فصرَعه، وأمر رجلاً مِنْ أصحابه فقطع رَأسَه، وتفرّق أصحابُ إياس، ورجعوا إلى ابْنِ مطيع، فبعث مكانَه ابْنَه راشد بن إياس على الشُّرط، وأقبل إبراهيم إلى المختار وقال له: إنَّا اتّعدْنا للخروج القابلة، وقد وقع أمْرٌ، لا بد من الخروج الليلة، وأخبرَه الخبر، ففرح المختار بقَتْل إياس وقال: هذا أوّل الفتح إن شاء الله.

---

(١) الكناسة: بالضم: هي محلة بالكوفة عندها واقع يوسف بن عمر الثقفي زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام. . .

(٢) الجبانة: بالفتح ثم التشديد؛ والجبان في الأصل الصحراء، وأهل الكوفة يسمون المقابر جبانة كما يسميها أهل البصرة المقبرة، وبالكوفة محال تسمى بهذا الاسم وتضاف إلى القبائل. . . (معجم البلدان).

ثم قال لسعيد بن مُنْقذ: قم فأشْعِل النِّيران وأرفعْها، وسِرْ أَنْتَ يا عبْد الله بنَ شدّاد فَنَادِ: يا منصور، أمِتْ، وأنت يا سفيان بن ليلى، وأنت يا قُدَامة بنَ مالك: نادِ يا لثَارات الحسين، ثم لَبِس سلاحه.

وكانت الحربُ بين أصحابه وبين ٱلذِين نَدَبَهم ٱبنُ مُطيع لحِفْظِ الجَبَابِين في تلك الليلة، فكان الظفَر لأصْحاب الْمُخْتَار، وخرج المختار في جماعةٍ من أصحابه حتى نزل في ظهر دَيْر هِنْد[١] في السبَخة[٢]، وأنضمّ إليه ممّن تابَعه ثلاثة آلاف وثمانمائة من ٱثني عشر ألفًا، وٱجتمعوا له قبل ٱلفجر، فأصبح وقد فرغ من تعبئته، وصلَّى بأصحابه بغَلس.

وقد جَمَعَ ٱبْنُ مُطِيع أهلَ الطاعة إليه، فبعث شَبَث بن ربْعيّ في ثلاثة آلاف، وراشد بنَ إياس في أربعة آلاف من الشُّرَط، لقتال المختار ومَنْ معه، وأردفَهم بالعساكر، واقتتلوا؛ فكان الظفَرُ لأصحاب المختار، وكان الذي صَلِيَ الحربَ ودبر الأمرَ إبراهيمُ بنُ الأشتر. فلمّا رأى ابن مُطيع أمرَ المختار وأصحابَه قد قَوِيَ خرج بنفسه إليهم، فوقف بالكُناسةِ وٱستخلفَ شَبثَ بنَ ربْعي على القَصْر، فبرز إبراهيمُ بنُ الأشتر إلى ابن مُطيع في أصحابه وحَمَلَ عليه، فلم يلبث ٱبن مُطيع أن ٱنهزم أصحابُه، يَركَبُ بعضُهم بعضًا على أفواه السِّكَك[٣]، وٱبنُ الأشتر في آثارهم، حتى بلغ المسجدَ، وحصَر ٱبنَ مُطيع ومَنْ معه من أشراف الكوفة في القصر ثلاثًا، فقال شَبَث لٱبن مطيع: انظُر لنفسك ولِمَنْ معك؛ فقال: أشِيْرُوا عليّ؛ فقال شَبَث: الرأيُ أنْ تأخذَ لنفسك ولنا أمَانًا، وتخرج ولا تهلك نَفْسَك ومَنْ معك؛ فقال ٱبنُ مطيع: إني لأكرهُ أنْ آخذ منه أمانًا، والأمورُ لأمير المؤمنين مستقيمةٌ بالحجاز والبَصرة؛ قال: فتخرج ولا تُشعِر بكَ أحدًا، فتنزل بالكوفَةِ عند مَنْ تَثِق إليه حتى تلحق بصاحبك. فأقام حتى أمسى، وخرج وأتى دَار أبي موسى، وترك القَصْر، ففتح أصحابُه الباب، وقالوا: يا ٱبن الأشتر، آمِنون نحن؟ فقال: أنتم آمنون؛ فخرجوا، فبايَعوا المختار. ودخل المختار القصر فبات به، وأصبح أشرافُ الناسِ في المسجد وعلى باب القصر، وخرج المختارُ فصعِد المنبَر وخطب الناسَ، ثم نزل.

---

(١) دير هند الصغرى ودير هند الكبرى: كلاهما بالحيرة، الأول يقارب خطة بني عبد الله بن دارم بالكوفة، مما يلي الخندق في موضع نزه، وهو دير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر. . . والثاني ابنته أم عمرو بن هند، وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي. . . (معجم البلدان).

(٢) السبخة: موضع بالبصرة ينسب إليه أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي من زهاد البصرة. . .

(٣) السكك: جمع السكة، وهي الطريق المستوي؛ أو الزقاق.

ودخل أشرافُ الكوفةِ فبايعوه على كتابِ اللّهِ وسنَّة رسولِه ﷺ، والطلبِ بدماء أهلِ البيت وجهادِ المُحلِّين والدَّفعِ عن الضُّعفاء، وقتالِ مَن قاتَلَنا، وسلمِ من سالَمنا.

وكان ممن بايعه المنذرُ بن حسانَ الضَّبي وٱبنه حسان، فلما خرجا من عنده ٱستقبلهما سعِيد بن مُنقذ الثوري في جماعة من الشِّيعة، فقالوا: هذان وٱلله رؤوس الجبارِين، فقتلوهما، ونهاهم سعِيد عن قَتْلِهما إلاَّ بأمْرِ المختار، فلم ينتهوا.

فلما سمع المختارُ ذلك كرهه، وأقبل يُمنِّي الناس ويود الأشراف، ويُحسن السِّيرة، فبلغه أنَّ ٱبن مُطِيع في دارِ أبي موسى، فسكت، فلما أمسى بعث إليه بمائة ألفِ درهم، وقال: تجهزْ بهذه، فقد علمتُ مكانَك، وأنَّك لم يمنعْك من الخروج إلا عدمُ النَّفقة.

ووجد المختار في بيت المال بالكوفة تسعة آلاف ألف وخمسمائة ألف، فأعطى لكل رجل خمسمائة درهم، وأعطى لستة آلاف من أصحابه أتَوه بعدما أحاط بالقصر، لكل منهم مائتي درهم، وٱستقبل الناس بخير. وٱستعمل على شرطته عبد الله بنَ كامل الشَّاكِري، وعلى حرسِه كَيْسانَ.

والله أعلم بالصواب.

ذكر عمال المختار بن أبي عبيد

كانت أوَّل راية عقَدها المختارُ لعبْدِ الله بن الحارث أخي الأشتر على إرْمينية، وبعث محمد بنَ عُمير بن عُطارد على أذْرَبِيجان، وبعث عبد الرحمٰن بن سعِيد بن قيس على المَوْصِل، وبعث إسحاق بن مسعود على المدائن، وأرض جُوخَى[١]، وبعث قدامةَ بنَ أبي عيسى بن ربيعة النَّصْري حليف ثقيف على بِهْقُباذ[٢] الأعلى، وبعث محمد بن كعب بن قَرَظة على بِهْقُباذ الأوسط، وبعث سعد بنَ حُذَيفة بن اليمان على حُلْوان، وأمره بقتال الأكراد، وإقامة الطُّرُق. وكان ٱبن الزبير قد ٱستعمل على المَوْصل محمد بنَ الأشعث بن قيس، فلما بعث المختار عبدَ الرحمٰن إليها، سار محمد عنها إلى تَكْريت، ينتظر ما يكون من الناس، ثم سار إلى المختار فبايعه، فلما

(١) جوخى: بالضم والقصر، وقد يفتح: اسم نهر على كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه الراذنان، وهو بين خانقين وخوزستان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) بهقباذ: بالكسر ثم السكون، وضم القاف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: اسم لثلاث كور ببغداد من أعمال سقي الفرات، منسوبة إلى قباذ بن فيروز والد أنوشروان بن قباذ العادل... (معجم البلدان).

فرغ من ذلك أقبل يجلس للناس ويقضِي بينهم، ثم قال: إن لي فيما أُحاول شغْلاً عن القَضاء، ثم أقام شريْحا يَقْضِي بين الناس، فتمارض، فجعل المختار مكانه عبد الله بن عُتْبة بنِ مسعود، ثم مرِض، فجعل مكانَه عبد الله بنَ مالك الطائي.

ذكر قتل المختار قتلة الحسين وخروج أهل الكوفة على المختار وقتالهم إياه ووقعة السبيع(١)

كان سببَ ذلك أن مرْوان بنَ الحكم لما ٱستتب له الأمر بعث عُبيد الله بنَ زياد إلى العراق، وقد ذكرْنا ما كان من أمره مع التوَّابين. ثم توفي مرْوان بن الحكَم وولّي ٱبنه عبد الملك، فأقرَّ ٱبْنَ زياد على ولايته، وأمره بالجدّ، فأقبل إلى الموْصل، فكتب عبد الرحمٰن بن سعِيد عاملُ المختار إليه يخبره بدخول ابن زياد أرضَ المَوْصِل، وأنّه قد تنحّى له عنها إلى تَكْرِيت، فندبَ المختارُ زيد بن أنَس الأسدي، فٱنتَخب ثلاثةَ آلاف، وسار بهم نحوَ الموصل، وكتب المختار إلى عبد الرحمٰن: أنْ خَلِّ بين يزيد وبين البلاد، فسار يزيد حتى بلغ أرضَ الموصل، فنزل بنَات تَلّى، وبلغ خبرُه ٱبنَ زياد، فقال: لأبعثنَّ إلى كلّ ألفٍ ألفين، فأرسل ربيعةَ بنَ المخارق الغنويَّ في ثلاثة آلاف، وعبْدَ الله بن جُمْلة الخَثْعمي في ثلاثة آلاف، فسار ربيعة قَبْل عبد الله بيوم، فنزلَ زيد بن أنس بنات تلّى فخرج، وقد ٱشتدّ به المرَض، وعَبّأ أصحابه، وقال: إن هلكت فأميرُكم ورْقاء بن عازب الأسدي، فإنْ هلك فأميرُكم عبْدُ الله بن ضَمْرة العُذري، فإن هلك فأميرُكم سِعْر الْحَنَفي. ثم نزل فوُضع على سرير، وقال: قاتِلوا عن أميركم إن شئتم أو فِرّوا عنه.

وٱقتتل الْقوْم، فٱنهزم أصحابُ ٱبن زياد، وقُتل ربيعة بن المخارق، قتله عبْدُ الله بن ورقَاء، فسار المنهزمون ساعةً، ولقيهم عبُد الله بن جُمْلة فردهم معه، فباتوا ليلتَهم ببنَات تلّى يتحارسون، فلمّا أصبحوا خرجوا إلى القتال فٱقتتلوا قتالاً شديدًا، وذلك في يوم الأضحى سنة ست وستّين، فانهزم أهلُ الشام، ونزل ٱبن جملة في جماعة، فقاتل حتى قتِل، وحوَى أهْلُ الكوفة عسكرهم، وقتلوا فيهم قَتْلاً ذَريعًا، وأسرُوا ثلاثمائة، فأمر يزيدُ بقتلهم، وهو بآخر رمق، فقُتلوا، ثم مات آخِر النهار، فقال ورْقاء بن عازب

---

(١) السبيع: محلة السبيع، بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء، وآخره عين مهملة... وقيل: السبيع هي المحلة التي كان يسكنها الحجاج بن يوسف، وهي المسماة بقبيلة السبيع رهط أبي إسحاق السبيعي... (معجم البلدان).

لأصحابه: إنه بلغني أنَّ عُبيد الله بنَ زياد قد أقبل إليكم في ثمانين ألفًا، وأشار عليهم بالرجوع إلى المختار، فصوَّبوا رأيه، ورجعوا، فبلغ ذلك أهل الكوفة، فأرجفوا[١] بالمختار، وقالوا: إن يزيد قتِل ولم يَمُتْ، فنَدب إبراهيم بنَ الأشتر في سبعة آلاف، وقال له: سِرْ فإذا لقيت جيْشَ يزيد فأنت الأميرُ عليهم، فاردُدهم معك حتى تَلقَى ابن زياد فناجزْه[٢].

فسار إبراهيم لذلك، فاجتمع أشرافُ الكوفة على شَبَث بنِ رِبْعي وقالوا: والله، إن المختار تأمّر بغير رضًا منّا، وقد أدْنى موالينا، فحملَهم على الدوابّ، وأعطاهُم فَيْئَنا.

فقال: دعُوني حتَّى ألقاه، فذهب إليه فكلمه، فلم يدعْ شيئًا أنكَره إلاَّ ذكره له، والمختارُ يقول في كلّ خَصْلة: أنا أُرضيهم في هذه وآتي كل ما أحبوه، فلما ذكر له المَوالي ومشاركَتَهم في الفيء قال: إنْ أنا تَركْتُ لكم مواليكم وجعلتُ فيئكم لكم، أتقاتلون معي بني أُمية وابنَ الزبير وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقَه وما أطمئن إليه من الأيمان. فقال شَبث: حتى أخرج إلى أصحابي فأذكر ذلك لهم.

فخرج إليهم ولم يعدْ إلى المختار، واجتمع رأيهُم على قتاله، فاجتمع شَبث، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمٰن بن سعيد بنِ قيس، وشمر بن ذي الجوْشَن، ودخلوا على كَعْب بن أبِي كعب الخَثْعمي، فكلَّموه في ذلك، فأجابهم إليه فخرجوا مِنْ عنده، ودخلوا على عبد الرحمٰن بن مِخنَف الأزْدي، فدعوْه إلى ذلك، فقال: إن أطعْتُمونِي لم تخرجوا، فقالوا: لم؟ قال: إني أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شُجْعانُكم وفُرْسانُكم مثل فلان وفلان، ثم معه عَبيدكم ومواليكم، وكلمةُ هؤلاء واحدةٌ، ومواليكم أشدُّ حنَقًا عليكم من عدوكم، فهم يقاتلونكم بشجاعة العربِ وعداوة العجَم، وإن انتظرتموه قليلاً كُفِيتموه بغيركم، ولا تجعلوا بأسكم بينكم؛ فقالوا: ننشدك الله ألاَّ تخالفنا وتفسد علينا رأينا، وما أجمعْنا عليه. فقال: إنَّما أنا رجُلٌ منكم، فإذا شئْتُم فاخرجوا؛ فوثَبوا بالمختار بعد مسِير ابنِ الأشتر، وخرج كلّ رئيس بجبَّانة، فأرسل المختارُ إلى ابْنِ الأشتر يأْمره بسُرْعةِ العوْد إليه، وبعث إليهم وهو يلاطفهم ويقول: إني صانعٌ ما أحببْتُم، وهو يريد بذلك مداهنَتَهم حتى يقدم

(١) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) ناجزه الحرب ونحوها: نازله وقاتله.

إبراهيم ٱبن الأشتر، فوصل الرسولُ إليه وهو بسَاباط[١]، فرجع لوقته، وسار حتى أتى الكوفة ومعه أهل القوَّة من أصحابه، وٱجتمع أهل اليمن بجبانة السَّبِيع، فلما حضرت الصلاةُ كَرِه كلُّ رأْس من أهل اليمن أن يتقدمه صاحبُه، فقال ٱبنُ مِخْنف: هذا أوّل الاختلاف، قدموا الرضيَّ منكم سيّد القُرَّاء رفاعةَ بن شداد البجلي، فلم يزل يصلِّي بهم حتى كانت الوقعة.

ثم نزل المختار فعبَّأ أصحابه وأمر ٱبْنَ الأشتر فسار إلى مُضَر وعليهم شَبثُ بن ربعي، ومحمد بن عُمير، وهُمْ بالكُنَاسة، وسار المختار نحو أهل اليمن بجبَّانة السَّبِيع، فٱقتتلوا أشدَّ قتال، ثم كانت الغَلَبة للمختار وأصحابه، وانهزم أهلُ اليمن وأخذ من دُور الوادِعِيين[٢] خمسمائة أسير، فأتى بهم إلى المختار، فعرضهم، فقتل منهم منْ شهد مقْتَل الحسين، فكانوا مائتين وثمانية وأربعين.

ونادى منادِي المختار: مَنْ أغلق بابه فهو آمِن إلاَّ مَنْ شَرك في دِمَاء آل محمد ﷺ، وكان عُمر بن الحجاج الزَّبيدي ممن شهد قَتْل الحسين، فركب راحلتَه وأخذ طَريقَ الْوَاقِصَة[٣]، فعدم فقيل: أدرَكه أصحابُ ٱلمختار، وقد سقط من شدّة العطش، فذبحوه.

وبعثَ المختار غلامًا له يُدعى زِربيا في طلب شَمِر بن ذي الجوْشن، فأدركه فقتله شَمِر، وسار حتى نزل قريةً يقال لها الكَلْتانِيَّة[٤]، فأخذ منها عِلْجًا[٥]، فضربه، وقال: امْضِ بكتابي هذا إلى مُصْعب بن الزبير؛ فمضى العِلْجُ حتى دخل قريةً فيها أبو عمْرة صاحبُ المختار، فلقي ذلك العِلجُ عِلجًا آخر من تلك القرية، فشكا إليه ما لقي من شمر، فبينما هو يكلِّمه إذ مر رجلٌ من أصحاب أبي عمْرة ٱسمه عبد الرحمٰن بن أبي الكنود، فرأى الكتاب، وعُنْوانُه لمصعب من شمر، فسألوا العِلْج عنه، فأخبرهم

(١) ساباط: موضع بالمدائن معروف.. وقد سمي كذلك بساباط بن باطا كان ينزله فسمي به... والساباط عند العرب: سقيفة بين دارين من تحتها طريق نافذ، والجمع سوابيط وساباطات... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الوادعيين: جمع الوادعة، وهي بطن من حمدان.

(٣) الواقصة: بكسر القاف، والصاد مهملة: موضعان، أحدهما: منزل بطريق مكة بعد الفرعاء نحو مكة وقبل العقبة لبني شهاب من طيء ويقال لها واقصة الحزون وهي دون زبالة بمرحلتين... والواقصة: ماء لبني كعب..، وواقصة أيضًا: بأرض اليمامة.. قيل: هي ماء في طرف الكرمة وهي مدفع ذي مرخ... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) الكلتانية: بفتح الكاف، وسكون اللام، والتاء المثناة من فوقها، وبعد الألف نون مكسورة، وياء مشددة...: وهو ما بين السوس والضيمرة أو نحو ذلك.. (معجم البلدان).

(٥) العلج: كل جاف شديد من الرجال. والمراد هنا غير العربي.

بمكانه، فإذا هو منهم على مسيرة ثلاثةِ فراسخَ، فساروا إليه وأدركوه، فهرب أصحابه، وأعجلَه القوم عن لُبْسِ سِلاَحه، فقام وقد ٱتزر ببرد[١]، وكان أبرص، فظهر بياضُ برصِه، فطانهم بالرُّمْح ثم ألقاه، وأخذ السيف فقاتَل به حتى قُتل، والَّذِي قتله عبدُ الرحمٰن بنُ أبي الكَنود، وألقَى جيْفَته للكلاب.

قال: وأقبل المختار إلى القصر من جبّانة السَّبِيع ومعه سُراقة[٢] بنُ مرداس البارقي أسيرًا، فناداه سُراقة: [منِ الرجز]

امننْ علـى اليـوم يـا خيـر معـدْ ... وخير من حلّ بِشحْرٍ والجنَدْ[٣]

* وخـيـر مـن لَـبَّـى وحـيَّـى وسـجـدْ *

فأمر به إلى السجن، ثم أحضره من الغد، فأقبل وهو يقول: [من الوافر]

ألا أبـلـغْ أبـا إسْـحـاق أنَّـا ... نَـزَنـا نـزوةً كـانَـتْ عـلـيـنـا

خرجْنَا كي نُري الضُّعفَاء شيئًا ... وكـان خـروجُـنـا بـطَـرًا وحـيْـنـا[٤]

لَقِينا منـهـمُ ضَرْبًا طِلَحْفًا ... وطعْنًا صائبًا حتى ٱنثنَيْنا[٥]

نُـصِـرْت عـلـى عـدوِّك كـلَّ يـوم ... بـكـلِّ كـتـيـبـةٍ تَـنْـعـي حُـسـيـنـا

كـنَـصْـر مـحـمّـدٍ فـي يـومِ بَـدْرٍ ... ويـومِ الـشِّـعْـب إذ وافـى حُـنَـيـنـا[٦]

فـأسـجِـحْ إذ مـلَـكْـت فـلـو مـلَـكْـنَـا ... لـجُـرْنـا فـي الـحـكـومـة وٱعـتـديـنـا[٧]

تَـقَـبَّـلْ تـوبـةً مـنِّـي فـإنِّـي ... سـأشـكُـرُ إذ جـعـلْـتَ الـنـقـد ديْـنـا

فلمّا ٱنتهى إلى المختار قال: أصلح الله الأمير، أحْلفُ بالله الَّذي لا إلٰه إلاَّ هو لقد رأيتُ الملائكةَ تقاتِلُ معك على الخيولِ البُلْق[٨] بين السماء والأرض؛ فقال له المختار: اصعد على المنبر فأَعْلِم الناس، فصعِد، فأخبرهم بذلك، ثم نزل فخلا به فقال له: إني قد علمْتُ أنك لم تر شيئًا، وإنما أردت ما قد عرفتُ، فٱذهب عني حيْثُ شئتَ، لا تفسدْ عليّ أصحابي.

---

(١) البرد: كساء مخطط يلتحف به.

(٢) هو سراقة البارقي الشاعر ابن مرداس بن أسماء بن خالد بن عوف بن عمرو بن سعد بن ثعلبة بن كنانة بن بارق. هجاه جرير، وله حديث مع المختار... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) الشحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن.... والجند: من المدن النجدية باليمن، من أرض السكاسك، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخًا.

(٤) الحين: الهلاك.

(٥) طلحفًا: شديدًا وجيعًا.

(٦) حنين: موضع قريب من مكة.

(٧) أسجح: أحسن العفو وتكرم.

(٨) الأبلق: الذي فيه سواد وبياض جمع بلق.

فخرج إلى البصْرَة، فنزل عند مُصعب وقال: [من الوافر]

ألا أبــلــغْ أبــا إسـحــاق أنّــي ... رأيـتُ الـخـيـلَ بُـلـقًـا مُـصْـمـتـاتِ
كـفـرتُ بـوحْـيِـكـم وجـعـلْـتُ نَـذْرًا ... عـلـيَّ قـتـالَـكـمْ حـتَّـى الـمـمـاتِ
أُرى عـيـنـيَّ مـا لـمْ تُـبـصِـراه ... كِـلانَـا عـالِـمٌ بـالـتُّـرَّهـاتِ[1]

وقُتل يومئذ عبد الرحمٰن بنُ سعيد بنِ قيس الهمْداني، وادّعى قتلَه سِعْر بن أبي سِعْر، وأبو الزُّبير الشِّباميّ، وشِبام مِنْ همْدان، وانجلت الوقعةُ عن سبعمائة وثمانين قتيلاً من قومه، وكانت الوقعة لستّ ليال بقِين من ذي الحجة سنةَ ست وستِّين.

وخرج أشرافُ الناسِ فلحِقوا بالبصْرة، وتجرد المختارُ لقَتْل قتَلَةِ الحسين، وقال: ما مِنْ دِينِنا أن نَترُكَ قتلةَ الحسين أحياءً، بئس ناصرُ آل محمد أنَا إذًا في الدنيا، أنا إذًا الكذَّاب كما سمَّوْني، وإني أستعين بالله تعالى عليهم، فسمُّوهم لي ثم تتبَّعوهم حتى تقتلوهم، فإنِّي لا يسوغ لي الطَّعام والشرابُ حتى أُطهِّرَ الأرض منهم، فدل على عبْد الله بن أُسيد الجُهنيّ، ومالك بن النُّسير البديّ، وحمل بن مالك المحاربي، فبعث المختار إليهم، فأحضرهم من القادسيّة، فلمّا رآهم قال: يا أعداء الله ورسوله، أين الحسينُ بنُ عليّ؟ أدُّوا إليّ الحسينَ. قتلتم ٱبنَ من أُمِرتم بالصّلاة عليهم. فقالوا: رحمك الله، بُعثنا كارِهني، فٱمْنُنْ علينا وٱستَبْقِنا، فقال: هلاَّ منَنْتم على ٱبْنِ بنتِ نبيكم وٱستبقَيْتموه وسقَيْتُموه؟ فأمر بمالك بنِ النُّسيْر البديّ فقطع يديه ورجليه وتركه يضْطرِب حتى مات، وقتل الآخرين، وأحضر زياد بن مالك الضُّبعيّ، وعمران بن خالد العنزِي، وعبد الرحمٰن بن أبي خُشْكارة البجليّ، وعبد الله بن قَيْس الخَوْلاني، فلما رآهم قال: يا قَتَلَة الصالحين، وقتلَة سيّدِ شبابِ أهْل الجنَّة، قد أقاد[2] الله منكم اليوم، لقد جاءكم الورْس[3]، بيوم نَحْس، وكانوا نَهَبُوا من الورْس الَّذِي كان مع الحُسيْن رضي الله عنه، ثم أمر بهم فَقُتِلوا.

وقَتل عبد الله وعبد الرحمٰن ٱبني صالح وعبد الله بن وُهيب الهمْداني، وأحضر عثمانَ بنَ خالد بن أسِيد الدُّهماني الجُهَني. وأسماء بشر بن سوْط القابضي، وكانا قد ٱشتركا في قتل عبد الرحمٰن بن عقِيل وفي سلَبِه، فضرب أعناقَهما وأُحرقا بالنار.

---

(١) الترهات: الأباطيل.
(٢) يقال: أقاد القاتل بالقتيل: قتله به قودًا.
(٣) الورس: نبت من الفصيلة القرنية ينبت في بلاد العرب والحبشة والهند، وثمرتها قرن مغطى عند نضجه بغدد حمراء، كما يوجد عليه زغب قليل؛ يستعمل لتلوين الملابس الحريرية، لاحتوائه على مادة حمراء، وعلى راتينج.

وأرسل إلى خَوليّ بن يزيد الأصْبحيّ وهو صاحب رأسِ الحسين فٱختبأ في مخرجِه، فدخل أصحابُ المختار يطلبونه، فخرجت ٱمرأتُه، وهي العيُوف بنت مالك، وكانت تُعادِيه منذ جاءها برأسِ الحسين، فقالت: ما تريدون؟ فقالوا لها: أين زَوْجُكِ؟ قالت: لا أدري، وأشارت بيدها إلى المخرَج، فدخلوا، فوجدوه وعلى رأسه قَوْصرَّة(١)، فأخرجوه وقتلوه إلى جانب أهلِه، وحرقُوه بالنار.

وقُتل عمرُ بنُ سعد بن أبي وقَّاص، وكان الَّذي تولَّى قتلَه أبو عمْرة، وأحضر رأْسه عند المختار، وعنده ٱبنه حفْصُ بنُ عمر، فقال له المختار: أتعرف هذا؟ قال: نعم، ولا خَيْرَ في العيش بعده، فأمر به فقُتل، وقال: هذا بحُسين، وهذا بعليّ بن حسين، ولا سواء، والله لو قتلْتُ به ثلاثةَ أرباع قريش ما وفَوا أُنمَلة من أنامله.

وأرسل المختارُ إلى حكيم بنِ طُفَيل الطائي ـ وكان أصاب سلَب العباس بنِ علي؛ ورمَى الحسينَ بسهم، وكان يقول: تعلَّق سهْمِي بسِرْبالِهِ وما ضَرّه، فأتاه أصحابُ المختار فأخذوه، وذهب أهلُه فتشفَّعوا بعدِيّ بن حاتم، فكلمهم عديٌّ فيه، فقالوا: ذلك إلى المختار، فمضى عديّ إلى المختار يشفَعُ فيه، وكان قد شفَّعه في نَفَر من قومه أصابهم يوم جبَّانَة السَّبيع، فقالت الشِّيعة: إنا نخاف أن يشفِّعه فيه، فقتلوه رمْيًا بالسِّهام كما رمى الحُسيْن حتى صار كالقُنْفُذ، ودخل عَديُّ بن حاتم على المختار، فأجلسه معه، فشفَع فيه، وقال: إنه مكذوب عليه، قال: إذًا ندَعه لك، فدخل ٱبْنُ كامل فأخبر المختار بقَتْله.

وبعث المختارُ إلى مُرّةَ بن مُنْقِذ، وهو قاتِلُ علي بن الحسين، وكان شجاعًا، فأحاطوا بداره، فخرج إليهم على فرسه وبيده رمحُه، فطاعنَهم، فضُرب على يده، فهرب فنجا، ولحق بمُصْعب بن الزبير، وشلَّت يدُه بعد ذلك.

وبعث المختار إلى زيد بنِ رُقَاد الجَنْبِي، وهو قاتِلُ عبْد الله بن مُسْلم بن عقيل، فخرج إليهم بالسيف، فقال ٱبْنُ كامل: لا تطعنوه برمح، ولا تضربوه بسيف، ولكن ٱرموه بالنَّبل والحجارة، ففعلوا ذلك به، فسقط، فأحرقوه حيًّا.

وطلب المختارُ سِنانَ بنَ أنَس الَّذي كان يدَّعي قَتْل الحُسَيْن، فهرب إلى البصْرة، فهدم داره.

وطلب عبْد الله بنَ عُقْبة الغَنَويّ فوجده قد هرب إلى الجزيرة، فهدم داره.

---

(١) القوصرة: وعاء للتمر.

وطلب رجلاً من خَثْعم اسمه عبْد الله بن عُرْوَة فهرب ولحق بمصعب، فهدم داره.

وطلب عمْرو بن صُبيْح الصُدائي، وكان يقول: لقد طعنْت فيهم وجرحْت وما قتلْتُ، فأُحضر إلى المختار، فأمر به فطُعن بالرماح حتى مات.

وأرسل إلى محمد بن الأشعث وهو في قريةٍ له إلى جنْبِ القادسيّة[1]، فهرب إلى مُصْعب فهدم المختار داره، وبنى بِلَبنها وطِينها دار حُجْر بن عدي الكندي، وكان زياد قد هدمها.

وكان الذي هيّج المختار على قَتْل قَتَلة الحسين أنّ يزِيد بن شراحيل الأنصاري أتى محمد ابن الحنفية فسلَّم عليه، وجرى الحديثُ إلى أن تَذاكَروا أمْرَ المختار، فقال ابن الحنفية: إنه يزعم أنه لنا شِيْعة، وقَتَلَةُ الحسين عنده على الكراسي يحدثونه، فلما عاد يزيد أخبر المختار بذلك، فقتل عُمر بن سَعْد، وبعث برأسه ورأس ابْنِه إلى ابن الحنفية، وكتب إليه يُعلِمه أنه قتل من قَدَر عليه، وأنه في طَلَبِ الباقين ممّن حضر قَتْل الحسين، رضي الله عنه.

ذكر بيعة المثنى العبدي للمختار بالبصرة وإخراجه منها ولحاقه بالمختار بالكوفة

وفي سنة ستّ وستين دعا المثنّى بن مُخرِّبَة العبْدِيّ بالبصْرَة إلى بَيْعة المختار، وكان قد بايع المختار بعد مقتل سليمان بن صُرَد، فسيّره المختارُ إلى البَصْرَة يَدْعُو بها إليه، ففعل، فأجابه رجالٌ من قومه وغيرهم.

ثم أتى مدينة الرِّزْق[2] فعَسكر عندها، فوجّه إليهم الحارثُ بنُ أبي ربيعة المعروف بالقُبَاع، وهو أمِيرُ البَصْرة، عبَّادَ بن حُصين، وهو على شرْطته، وقيس بنَ الهيْثَم في الشرط والمقاتلة، فخرجوا إلى السَّبَخة، ولزم الناسُ بيوتَهم، فلم يخرج أحد، وأقبل عبّاد فيمن معه فتواقف هو والمثنّى وأنشبوا القِتَال، فانهزم المثنّى، وأتى

(١) القادسية: . . . إن القادسية فيما بين الخندق والعتيق، وإنما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين. . . والقادسية: قرية كبيرة من نواحي دجيل بين حربى وسامرا يعمل بها الزجاج، وقد نسب إليها قوم من الرواة. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الرزق: بكسر الراء وسكون الزاي؛ كذا ذكره ابن الفرات في تاريخ البصرة للساجي، وقال: مدينة الرزق إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يختطها المسلمون. . . (معجم الأدباء لياقوت).

قومَه عبد القيس، وكف عنه عبَّاد، فأرسل القُبَاع عسكرًا إلى عبْد القَيْس ليأتوه بالمثنّى ومن معه، فلما رأى زيادُ بن عمرو العتَكي ذلك أقبل إلى القُبَاع فقال: لتردَّنَّ خيلَك عن إخواننا أو لنقاتلنَّهم، فأرسل القباعُ الأحنف بن قيس، وعمر بن عبد الرحمٰن المخزومي ليُصلحا بين الناس، فأصلح الأحنف الأمر على أن يخرج المثنّى وأصحابَه عنهم، فأجابوه إلى ذلك وأخرجوهم عنهم، فسار المثنّى إلى الكوفة في نَفَرٍ يسيرٍ من أصحابه.

ذكر مخادعة المختار ومكره بعبد الله بن الزبير وظهور ذلك له

قال: لمَّا أخرج المختارُ ابنَ مُطيع عامل ابن الزبير من الكوفة سار إلى البصْرةِ وكرِه أن يأْتي ٱبن الزبير مهزومًا، فلما استجمع للمختار أمرُ الكوفة، أخذ يخادِعُ ٱبنَ الزبير، فكتب إليه: «قد عرفتَ مُنَاصَحتِي إياك، وجَهدي على أهْلِ عداوتك، وما كنتَ أعطيتَني إنْ أنا فعلتُ ذلك، فلما وفيتُ لك وقضيتُ الذي كان لك عليَّ خِسْتَ[١] بي ولم تَفِ بما عاهدْتَني عليه، فإن ترِد مُراجعتي ومناصحتي، فعلْتُ، والسلام».

وإنما قصد المختار بذلك أن يكفّ ٱبْن الزبير عنه ليتم أمره، ولم تعلم الشيعة بذلك، فأراد ٱبن الزبير أنْ يَعْلَمَ حقيقةَ ذلك، فدعا عمر بنَ عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام المخزوميّ فولاَّه الكوفة، وقال: إنَّ المختارَ سامِعٌ مطيع، فتجهَّز عمرُ وسار نحو الكوفة، وأتى الخبر المُختار، فدعا زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وقال له: هذه ضِعْفُ ما أنفق عُمر في طريقه إلينا، وأمره أنْ يأْخذَ معه خمسمائة فارس، ويسير حتَّى يَلْقَاه بالطريق فيعطيَه النفقةَ ويأْمره بالعوْد، فإنْ فعل وإلاَّ فيريه الخيْلَ، فأخذ زائدةُ المال والخيل وسار حتى لَقِي عُمر، فأعطاه المال، وأمره بالٱنصراف، فقال: إن أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة، ولا بد من إتيانها، فدعا زائدة الخيل، وكان قد أكْمنَها؛ فلما رآها عمَر قد أقبلتْ أخذ المال وسار نحو البصْرة.

ثم إن عبْد الملك بن مروان بعث عبدَ الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى[٢]، وكان المختار قد وادع ٱبنَ الزبير ليكف عنه ويتفرّغ لأهل

---

(١) خاس فلانًا: أعطاه أنقص مما وعده به. وخاس ثلاثًا: أذلّه.

(٢) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، والنسبة إليه واديّ، فتحها النبي ﷺ سنة سبع عنوة ثم صولحوا على الجزية... (معجم البلدان).

الشام، فكتب المختار لاَبن الزبير: بلغني أن ابن مروان قد بعث إليك جيشًا، فإن أحببت أمددتك بمدد.

فكتب إليه ابن الزبير: «إن كنتَ على طاعتي فبايع لي الناس قِبلك، وعجِّل بإنفاذ الجيش ومُرْهم فليسيروا إلى منْ بوادِي القرى من جُنْد اَبن مروان فليقاتِلوهم، والسلام».

فدعا المختار شرَحْبيل بن ورْس الهَمْداني، فسيّره في ثلاثة آلاف أكْثَرُهم من الموالي، وليس فيهم إلاّ سبعمائة من العرب، وقال له: سرْ حتى تدخل المدينة، فإذا دخلْتَها فاكتب إليّ بذلك حتى يأْتيَك أمري، وهو يريد إذا دخل الجيشُ المدينة أن يبْعَثَ عليهم أميرًا لمحاصرة اَبن الزبير بمكة، وخَشِي اَبن الزبير أنَّ المختار إنما يكيده، فبعث من مكَّة إلى المدينة عباسَ بن سهل بن سَعْد في ألفين، وأمره أن يستَنْفِر العرب، وقال له: إن رأيت القومَ في طاعتي وإلاّ فكايِدْهُم حتى تهلِكهم. فأقبل عباس حتى لقِي اَبن ورْس بالرقيم[1] وقد عبَّأ أصحابَه، وأتى عباس وقد تقطع أصحابُه، فرأى اَبْن ورْس على الماء في تَعْبِئته فدنَا وسلَّم عليهم، ثم قال لاَبن ورْس سِرًّا: ألستم في طاعة ابن الزبير؟ قال: بلى. قال: فسِرْ بنا إلى عدوه الَّذي بوادِي القرى، فقال: إنما أُمِرْتُ أنْ آتِيَ المدينة وأكتب إلى صاحبي، فيأْمرني بأمره، فقال عباس: رأيُك أفضل، وفَطِن لما يريد، وقال: أما أنا فسار إلى وادِي القرى، ونزل عباس أيضًا، وبعث إلى اَبن ورْس بجزائِر[2] وغَنَم، وكانوا قد ماتوا جوعًا، فذبحوا واشتغلوا بها، واختلطوا على الماء، وجمع عبّاس مِنْ شجعان أصحابِه نحوَ ألف رجل، وأقبل إلى فسْطاط ابن وَرْس، فلما رآهم نادَى في أصحابه، فلم يجتمع إليه مائة رجل، حتى انتهى إليهم عباس، فاَقتتلوا يَسِيرًا، فقتل ابْن وَرْس في سبعين من أهل الحفاظ.

ورفعَ عباس رايَةَ أمان، فأتَوها إلا نحو ثلاثمائة مع سليمان بنِ حِمْير الهمداني، وعبّاس بن جعْدة الجَدَلي، فظفِر عباس بن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم، وأفلت الباقون فرجعوا ومات أكثرهم في الطريق.

---

(١) الرقيم: اسم القرية التي كان فيها أهل الكهف، وقيل: إنه اسم الجبل الذي فيه الكهف.. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما أدري ما الرقيم أكتاب أم بنيان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) جزائر: جمع جزور، وهو ما يصلح لأي ذبح من الإبل... ويقال للبعير: هذه جزور سمينة.

وكتب المختار إلى ٱبن الحنفية: «إني أرسلْتُ إليك جيشًا ليُذلُّوا لكَ الأعداء، ويُحرزوا لك البلاد، فلمّا قاربوا طَيْبة[١] فعل بهم كذا وكذا، فإن رأيتَ أن أبعث إلى المدينة جيْشًا كثيفًا وتبعث إليهم منْ قِبلك رجُلاً فٱفعل».

فكتب إليه ٱبن الحنفية: «أمّا بعد، فقد قرأْت كتابَك، وعرفْت تعظيمك لحقّي، وما تؤثره من سروري؛ وإن أحبَّ الأُمور كلِّها إليَّ ما أُطيعُ الله فيه، فأطع الله ما استطعت، وإني لو أردت القتال لوجدتُ الناس إليّ سراعًا، والأعوان لي كثيرة، ولكنِّي أعتز لهم وأصبر حتَّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

ذكر امتناع محمد ابن الحنفية من مبايعة عبد الله بن الزبير وما كان من أمره وإرسال المختار الجيش إلى مكة وخبر ابن الحنفية

قال: ثم إن عبد الله بن الزبير دعا محمد ابنَ الحنفيّة ومَنْ معه مِنْ أهل بيته، وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة منهم أبو الطفَيْل عامر بن واثلة له صُحْبة، ليبايعوه فٱمتنعوا وقالوا: لا نبايعُ حتى تجتَمِعَ الأُمَّة، فأكثرَ الوقيعةَ في ٱبن الحنفية وذمَّه، فأغلظَ له عَبْدُ الله بن هانىء الكِنْدِي، وقال: لئن لم يضرك إلا تركنا بيعتك لا يضرك شيء، فلم يراجعه ٱبْن الزبير، فلما ٱستولى المختار على الكوفة وصارت الشِّيعة تدعو لابن الحنفية، ألح ابن الزبير عليه وعلى أصحابه في البَيعة حتَّى حبسهم بزمزم[٢]، وتوعّدهم بالقتل والإحراق إن لم يُبايعوا، وضرب لهم في ذلك أجَلاً.

فكتب ابن الحنفيَّة إلى المختار يعرفه الحال، ويطلب منه النجدة.

فقرأ المختار كتابه على أهل الكوفة، وقال: هذا مهْدِيكم وصريح[٣] أهل بيت نبيكم قد تُركوا محظورًا عليهم كما يُحْظر على الغنم ينتظرون القتلَ والتحريقَ في اللَّيل

(١) طيبة: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة: وهو اسم لمدينة رسول الله ﷺ، يقال لها طيبة وطابة من الطيب وهي الرائحة الحسنة لحسن رائحة تربتها فيما قيل. . . وقيل: لطهارة تربتها. . . وقيل أيضًا: لطيبها لساكنيها ولأمنهم ودعتهم فيها. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) زمزم: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وتكرير الميم والزاي: وهي البئر المباركة المشهورة، قيل: سميت زمزم لكثرة مائها. . . وقيل: سميت بضم هاجر أم إسماعيل، عليه السلام، لمائها حين انفجرت وزمّها إياه. . . وقيل: بل سميت زمزم لزمزمة جبرائيل عليه السلام، وكلامه عليها. . . (معجم البلدان).

(٣) الصريح: الخالص مما يشوبه.

والنهار، لستُ أبا إسحاق إنْ لم أنْصُرْهم نَصْرًا مُؤَزَّرًا، وإن لم أُسرِّب الخيلَ في إثْر الخيل، كالسَّيْل يتْلوهُ السَّيْل، حتى يحُلّ بأبْنِ الكاهليّة الويْل، يريد عبد الله بنَ الزُّبير.

فبكى الناسُ وقالوا: سرِّحْنا إليه وعجِّل، فوجه أبا عبْد الله الجدَليَّ في سبعين من أهل القوة، ووجّه ظَبْيان بنَ عُمارة أخا بني تميم في أربعمائة، وبعث معه أربعمائة ألف درهم لأبن الحنَفيّة، ووجّه أبا المعتمر في مائة، وهانيءَ بنَ قيس في مائة، وعُميْرَ بن طارق في أربعين، ويونسَ بنَ عمران في أربعين، فوصل أبو عبد الله الجَدلي إلى ذات عِرْق[١]، فأقام بها حتى أتاه عُمَير ويونس في ثمانين، فبلغوا مائةً وخمسين راكبًا، فسارُوا حتَّى دخلوا المسجدَ الحرامَ وهم ينادُون: يا لثَارات الحسين، حتى أنتهَوا إلى زَمْزَم، وقد أعد أبن الزبير الحَطَ ليحرّقهم، وكان قد بقي من الأجَلِ يومان، فكسَرُوا الباب ودخلوا على أبن الحنفية، فقالوا: خلِّ بيننا وبين عدو الله أبن الزبير، فقال: إني لا أستحلّ القتال في الحرَم. فقال أبن الزبير: واعجبًا لهذه الخَشَبِيَّة ينعون حُسينًا كأني أنا قَتَلْته، والله لو قدرتُ على قَتَلَتِه لقتلْتهم، وإنما سمّاهم أبن الزبير الخشبيَّة لأنَّهم دخلوا مكّة وبأيديهم الخَشَب كراهةَ إشهار السيوف في الحَرم، وقال: أتحسبون أنّي أُخلِّي سبيلَهم، دون أن نبايعَ ويبايعوا.

فقال الجَدَلي: وربِّ الرُّكْن والمقام لتخلِّينّ سبيلنا أو لنجالدنَّك بأسيافنا جِلادًا يرتابُ منه المُبْطلون، فكفَّهم أبْن الحنفية وحذَّرهم الفتنة.

ثم قَدِم باقي الجُنْد ومعهم المال، فدخلوا المسجدَ الحرام فكبّروا، وقالوا: يا لثاراتِ الحسين، فخافهم أبن الزبير، وخرج أبن الحنفيَّة ومعهُ أربعة آلاف رجل إلى شِعْب عَلي، فعزُّوا وأمتنعوا، قسم فيهم المال، فلما قتِل المختار ضَعفوا واحتاجوا، ثم أستوسقت[٢] البِلادُ لابْن الزبير بعد قَتْل المختار، فبعث إلى أبن الحنفيَّة أن أدخل في بيْعتي، وإلاَّ نابَذْتك.

وبلغ الخبَرُ عبدَ الملك بن مروان، فكتب إلى أبن الحنفيّة: إنه إن قَدم عليه أحسنَ إليه، وإنه ينزل أيَّ الشام أحبَّ حتَّى يسْتَقِيمَ أمرُ الناس.

---

(١) ذات عرق: مهل أهل العراق، وهو الحد بين نجد وتهامة، وقيل: عرق: جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق. . . وقيل: العرق: هو الجبل المشرف على ذات عرق. . . (معجم البلدان).

(٢) استوسق الشيء: اجتمع والضم. واستوسق الأمر: انتظم.

فخرج ٱبْن الحنفية ومن معه إلى الشام، فلما وصل إلى مَدْين[١] بلَغَهُ غدْرُ عبدِ الملكِ بعَمْرو بن سعيد، فندم على إتيانه إلى الشام ونزل أيْلة[٢]، وتحدث الناسُ بفضل ٱبن الحنفيَّة، وكَثْرةِ عِبادتِه وزهْدِه، فندم عبد الملك على إذْنِهِ له في القدوم إلى بلده، فكتب إليه: «إنه لا يكون في سلطاني مَنْ لا يبايعني».

فارْتَحل إلى مكَّةَ، ونزل شِعْبَ أبي طالب، فأرسل إليه ابْن الزبير يأْمره بالرحيل عنه، فسار إلى الطائف وٱلتحق به عَبْدُ الله بن عباس، ومات ٱبن عباس بالطائف، فصلى عليه ٱبن الحنفية، وكبّر عليه أربعًا، وأقام بالطائف حتى قدم الحَجّاج لِحِصَارِ ٱبن الزبير، فعاد إلى الشِّعب، فطلبه الحجاج ليبايعَ عبدَ الملك، فٱمتنع حتى يجتمِع الناس، ثم بايع بعد قَتْل ٱبن الزُّبير. هذا ما كان من أمره، فلنعد إلى أخبار المختار، والله أعلم.

ذكر مسير إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد وقتل ابن زياد

وفي سنة ست وستِّين لثمانٍ بقين من ذيَ الحجة، سار إبراهيم بن الأشتر لقتَالِ عُبيد الله بنِ زياد، وذلك بعد فَراغه من وقعة السَّبِيع بيَوْمَين، وأخْرج المختارُ معه فرْسانَ أصحابِه ووجوههم وأهل البصائر منهم، وشيّعه ووصاه، وخرج معه لتَشْيِيعه أصحاب الكرسي[٣] بكرسيهم، وهم يدْعُون الله له بالنصر، وسنذكر خبر الكرسيّ إن شاء الله تعالى.

قال: ولما انتهى إبراهيم إلى أصحاب الكرسيّ وهم عُكوف عليه، وقد رفَعُوا أيديَهم إلى السماء يدْعُونَ الله، فقال إبراهيم: اللهم لا تؤاخِذْنا بما فَعل السفهاء منَّا، هذه سنَّة بني إسرائيل، وسار إبراهيم مُجدًا ليَلْقَى ٱبن زياد قبل أن يدخل أرضَ العراق، وكان ٱبنُ زياد قد سار في عسكر عظيم وملَك الموصل كما ذكرنا، فلما

(١) مدين: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون: على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام... وقيل: مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية وعندها أيضًا البئر والصخرة... (معجم البلدان).

(٢) أيلة: مدينة على ساحل البحر مما يلي الشام...

(٣) سوف يأتي الكلام على صفة الكرسي في الصفحة ٣٠.

انتهى إبراهيم إلى نهر الخَازِر[١] من أرض الموْصِل نزل بقرية باريثا، وأقبل عُبَيْدُ الله بن زياد حتى نزل قريبًا منهم على شاطىء خازِر، وأرسل عُميْر بن الحُبَاب السُّلميَّ إلى ابن الأشتر أن القِنَى؛ وكانت قَيْسٌ كلُّها مضطغنة على بني مرْوانَ بسبب وقعة مرْج راهِط[٢]، وجند عبد الملك يومئذ كَلْب، واجتمع عُمير وابْنُ الأشتر فأخبره عُمَيْرٌ أنَّه على ميْسرة ابن زياد، وواعده أنه ينهزِمُ بالناس، وأشار عليه بمُنَاجزَة القوم، وعاد عُميرٌ إلى أصحابه، وعبّأ ابن الأشتر أصحابه، وصلَّى بهم صلاةَ الفجر بغَلَس، ثم صفَّهم وسار بهم رُويْدًا حتى أشرف على تلّ عظيم مُشْرِف على القوم، فإذا هم لم يتحرك منم أحد، فتقدم ابْن الأشْتَر وهو يحرض أصحابَه على القتال، ويذكِّرهم بمقتل الحسين وسبْيِ أهل بيته، فلما تَدانى الصَّفَّانِ حمل الحُصين بن نمير بميمنة أهل الشام على ميسرة ابْنِ الأشتر، وعليها عليُّ بن مالك الجُشمي، فقتل ابن مالك، فأخذ الرايةَ ابنه قرة بن عليّ وقاتَل بها فقتل في رجال من أهل البأْس، وانهزمت ميسرة إبراهيم، فأخذ الرايةَ عبدُ الله بن ورقاء بن جُنَادة السَّلوليّ، وردَّ المنهزمين، وقاتلوا، وحملتْ ميْمنَة إبراهيم وعليها سفيان بن يزيد الأزدي على ميسرة ابن زياد، وهم يظنُّون أن عُمَيْر بن الحُبَاب ينْهزِم لهم كما زعم، فقاتلهم أشدَّ قتال، وأنِفتْ نفسُه الهزيمةَ، فلمّا رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه: اقصدوا أهل السواد الأعظم، فوالله لئن هزَمْنَاه لنجعلن من تَرَوْن يمنةً ويَسْرة، فتقدم أصحابُه وقاتَلوا أشد قتال، وصدقَهم إبراهيمُ القِتَال، فانهزم أصحابُ ابن زياد، وبعد أن قُتل من الفريقين قتلَى كثيرةً.

وقيل: إن عُمَير بن الحُباب أول من انهزم، وإنما كان قتاله أولاً تعذيرًا.

فلما انهزموا قال إبراهيم بن الأشتر: إني قتلتُ رجُلاً تحت رايةٍ منفردةٍ على شط نهر خَازِر، فالتمِسوه فإني شَمِمتُ منه رائحةَ المسك، شرّقتْ يداه وغرّبتْ رِجْلاَه، فالتَمسوه، فإذا هو عُبيْدُ الله بن زياد، فأخذ رأسَه وحرّق جثَّته.

وأقام إبراهيم بالموصل، وأنفذ رأسَ عُبيد الله إلى المختار، ورؤوس القوّاد، وكانت هذه الوقعة في سنة سبع وستين.

---

(١) الخازر: نهر بين إربل والموصل.

(٢) مرج راهط: بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج في الشعر فإذا قالوه مفردًا فإياه يعنون، ومرج راهط: موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء إذا كنت في القصير طالبًا لثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك. . . (معجم البلدان لياقوت).

وروى الترمذي[١] رحمه الله قال: لما جاءت الرؤوس إلى المختار أُلْقِيتْ في القصر فجاءت حيّة دقيقة فتخللت الرؤوس حتى دخلَتْ فم عبيد الله وخرجتْ من مَنْخَره ودخلتْ في مَنْخَره وخرجتْ من فمه، فعلتْ ذلك مرارًا.

ذكر ولاية مصعب بن الزبير البصرة ومسيره إلى الكوفة وقتاله المختار وقتل المختار بن أبي عبيد

كانت ولايته البصرة وعزل الحارث بن أبي ربيعة الملقَّب بالقُباع عنها في أول سنة سبع وستِّين، قال: فقَدِمها مُصْعب، وصَعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ١ ـ ٤]، وأشار بيده نحو الشام، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦]، وأشار نحو الحجاز، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٦]، وأشار نحو الشام، وقال: يا أهل البصرة، بلغني أنّكم تلقّبون أميرَكم، وقد لقَّبْت نفسي الجزّار.

قال: ولما هرب أشرافُ الكوفةِ من المختار يوم وَقْعة السَّبيع، أتى جماعةٌ منهم إلى مصعب، فكان منهم شَبَث بن رِبْعيّ، أتاه على بغْلَةٍ قد قطِع ذنبُها وَطَرفُ أذنِها، وَشقَّ قَباءه وهو ينادِي: واغَوْثاه! وأتاه أشرافُ الكوفة فدخلوا عليه وسألوه المسير إلى المختار ونصرتَهم، وقدم محمد بن الأشعث، وٱستحثَّه على المسير فأدناه وأكرمه، وكتب إلى المهلَّب بن أبي صُفْرة، وهو عامله على فارسَ يستَدْعِيه ليشهدَ معهم قتالَ المختار، فقدِم في جموع كثيرة وأموالٍ عظيمة، فبرز مُصْعَبٌ بالجيوش، وأرسل عبد الرحمٰن بنَ مِخْنَف إلى الكوفة، وأمَره أن يُخرِج إليه مَنْ قَدَر عليه، وثبّط الناسَ عن المختار، ويدعوَهم إلى بيعة ابن الزبير سرًّا، فسار ودخل الكوفة مُسْتَترًا، وفعل ما أمره، وسار مصعب وقدم أمامه عبّاد بن الحُصَين الحبَطيّ التميميّ، وجعل عمر بن عُبَيد الله بن معمر على ميمنته، والمهلَّب على مَيْسَرته، ومالكَ بن مِسْمَع على بَكر،

---

(١) الترمذي: هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر، الترمذي الفقيه الشافعي، لم يكن للفقهاء الشافعية في وقته أرأى منه ولا أورع ولا أكثر تقللاً، وكان يسكن بغداد وحدّث بها عن يحيى بن بكير... ويوسف بن عدي... وغيرهما. كانت وفاته سنة ٢٩٥هـ... (وفيات الأعيان ٤: ١٩٥).

ومالك بن المنذر على عَبْد القيس، والأحنفَ بنَ قيس على تميم، وزيادَ بن عمرو العَتَكيّ على الأزْدِ، وقيس بن الهيثم على أهل العالية، وبلغ الخبرُ ٱلمختار فقام في أصحابه فندبهم إلى الخروج مع أحمر بن شُمَيط، ودعا رؤُوسَ الأرباع الَّذين كانوا مع ٱبن الأشتر فبعثهم مع ٱبْنِ شميط، فسار وعلى مقدّمته ٱبن كامل الشاكريّ، فوصلوا إلى المذَار[١]، وأقبل مصعبٌ فعسْكَرَ بالقرْبِ منه، وعبّأ كلُّ واحد منهما جُنْدَه، فتقدّم عباد بن الحُصَيْن إلى أحْمَر وأصحابه، وقال: إنَّا ندعوكم إلى كتابِ الله وسنَّة رسوله، وإلى بيْعَة أمير المؤمنين عبدِ الله بنِ الزبير، فقال الآخرون: إنَّا ندعوكم إلى كتابِ الله وسنَّة رسوله وإلَى بَيْعَة المختار، وأن نَجعلَ هذا الأمر شُورى في آل رسول الله ﷺ، فرجع عبّاد وأخبر مصعبًا، فقال: ارجع فٱحمل عليهم، فرجع وحمل على ٱبن شمَيط وأصحابِه، وحمل المهلَّب على ٱبن كامل حملةً بعد أُخرى، فهزمهم، وثبت ٱبْن كامل ساعةً في رجالٍ من هَمْدان، ثم ٱنصرف، وحمل الناسُ جميعًا على ٱبن شُمَيْط، فقَاتل حتى قتل، وانهزم أصحابُه، وبعث مصعبٌ عبّادًا على الخيل وقال له: أيما أسير أخذتَه فٱضرب عنقَه، وسرّح محمد بنَ الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة، وقال: دونكم ثأْركم فكانوا حيث انهزموا أشدَّ على المنهزمين من أهل البصرة، فلم يدركوا منهزمًا إلاَّ قتلوه، فلم يَنْجُ من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل.

ثم أقبل مصعب حتى قطع من تِلْقاء واسط، القصب، ولم تكن واسط[٢] بُنيتْ بعدُ، فأخذ في كَسْكر[٣]، ثم حمل الرجال أثقالَهم والضعفاء في السفن، فأخذوا في نهر خُرْشاذ، ثم خرجوا إلى نَهْر قوسَان، ثم خرجوا إلى نَهْر الفرات، وأتى المختار خبرُ الهزيمة والقَتْلى، فقال: ما مِنْ الموت بدٌّ، وما مِنْ مِيتة أموتها أحبّ إليّ مِنْ أن أمُوت مِثْلَ موتة ٱبن شُميْط.

ولما بلغه أنّ مُصْعبًا قد أقبل إليه في البرّ والبَحْر سار حتى نزل السَّيْلحِين[٤]، ونظر إلى مُجْتَمع الأنهار، نهر الخريرة، ونهر السَّيْلَحِيْن، ونهر القادسِيّة، ونهر

(١) المذار: بالفتح وآخره راء: بلدة بين واسط البصرة (المراصد).

(٢) واسط: في عدة مواضع: واسط الحجاج: لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة... قيل: للعرب سبعة أواسط: واسط نجد... وواسط الحجاز... وواسط الجزيرة... وواسط اليمامة... وواسط العراق... (معجم البلدان).

(٣) كسكر: بالفتح ثم السكون، وكاف أخرى، وراء، معناه عامل الزرع: كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية لأنها تكثر بها جدًا... وقصبتها اليوم واسط، القصبة التي بين الكوفة والبصرة... (معجم البلدان).

(٤) السيلحين: موضع بالحيرة.

يُوسف، فسَكَر[١] الفرات، فذهب ماؤُها في هذه الأنهار، وبقيت سُفن أهل البصرة في الطين، فخرجوا من السفن إلى ذلك السُّكْر فأصلَحوه، وقصدوا الكوفَة، وسار المختارُ فنزل حَرَوْراء، وحال بينهم وبين الكوفة بعد أن حصّن القَصْرَ والمسجد، وأقبل مصعبٌ وجعل على ميمنته المهلَّب، وعلى ميسرته عمرَ بن عبيد الله، وعلى الخيل عبّاد بن الحُصَيْن، وجعل المختار على ميمنته سُليم بن يزيد الكنديّ، وعلى ميسرته سعيد بن مُنْقذ الهمْداني، وعلى الخيل عمر بن عبْد الله النَّهْديّ، وعلى الرجال مالك بن عبْد الله النَّهْدي، وأقبل محمد بن الأشعث فيمن كان قد هَرَب من أهل الكوفة، فنزل بين مصعب والمختار، فلمّا رأى المختار ذلك بعث إلى كلّ خَمْسٍ من أهل البصرة رَجُلاً من أصحابه، وتَدانَى الناسُ، فحملَ سعيد بن منقذ على بَكْر وعَبْد القيس وهم في مَيْمَنةِ مصعب، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، بعث المختار إلى عَبْدِ الله بنِ جَعْدَة بن هُبيرة المخزومي، فحمل على منْ بإزائه وهم أهْلُ العالية، فكشَفَهم فانتهوا إلى مصعب فجثا مصعب على ركبتيه ونزل الناس عنده فقاتلوا ساعة وتحاجزوا ثم حمل المهلب على من بإزائه فكشفهم واشتدَّ القتال، فقتل ابْن الأشعث وذلك عند المساء، وقاتل المختارُ على فم سكّة شَبثٍ عامّة ليلته، وقاتل معه رجالٌ من أهل البأْس، وقاتلتْ معه هَمْدان أشدَّ قتال، ثم تفرق الناس عن المختار، فقال له منْ معه: أيُّها الأمير، اذهب إلى القَصْر، فجاء حتَّى دخله، فقال له بعض أصحابه: ألم تكن وعَدْتَنا الظفَر، وأنَّا سنَهزمهم؛ فقال: أما قرأتَ في كتاب الله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

قال: فلما أصبح مصعب أقبل يَسير فيمن معه نحو السَّبَخة، فمرّ بالمهلَّب، فقال المهلَّب، يا له فتحًا ما أهنَاه لو لم يُقتل محمدُ بن الأشعث، فقال: صدقتَ؛ ثم قال مصعب للمهلب: إن عُبَيْد الله بن عليّ بن أبي طالب قد قتل، فاسترجع المهلَّب، فقال مُصْعب: إنَّما قَتَله مَنْ يزعم أنه شيعةٌ لأبيه، ثم نزل مُصْعَب السَّبَخَة فقطع عن المختار ومَنْ معه الماء والمِيرة[٢]، وقاتل المختار ومنْ مَعه قتالاً ضعيفًا، واجترأ الناسُ عليهم، فكانوا إذا خرجوا رماهم الناسُ من فوق البيوت، وصَبُّوا عليهم الماء القَذِر، وكان أكثر معاشهم من النساء تأْتي المرأة متخفِّية ومعها القليلُ من الطعام والشراب، ففطِن مصعب لذلك، فمنَع النساء، فاشتد على المختارِ وأصحابِه العطش،

(١) سكر النهر: سدّه وحبسه.

(٢) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

فكانوا يشربون ماء البئر بالعسل، ثم أمر مصعب أصحابه فاقتربوا من القصر، وٱشتدّ الحصار، فقال المختار لأصحابه: ويلَكم، إنَّ الحصار لا يزيدكم إلاَّ ضَعفًا، فانزلوا بنا نقاتلْ حتّى نقتل كِرَامًا إن نحن قتِلنَا، والله ما أنا يائس إن صدقتموهم أن ينصرَكم الله، فضَعُفوا ولم يفعلوا، فقال لهم: أما أنا فوالله لا أُعْطِي بيدي ولا أحكِّمهم في نفسي، ثم تطيّب وتحنَّط وخرج من القصر في تسعة عشر رجُلاً منهم السائب بن مالك الأشعريّ، فتقدّم المختارُ فقاتل حتى قُتل، قتلَهُ رجلان أخَوان من بني حنيفة، وهما طَرَفة وطَرّاف ابنا عبد الله بن دَجاجة، فلما كان الغد من مقْتَله، دعا بجير بن عبد الله المُسْليّ منْ مَعَهُ بالقصر إلى ما دعاهم المختار، فأبوا عليه، وأمكَنوا أصحابَ مصعب من أنفسهم، ونزلوا على حُكْمه، فأُخرجوا مكتَّفين، فٱستعطفوه، فأراد أن يُطْلقهم، فقام عَبْدُ الرحمٰن بن محمد بنِ الأشعث فقال: أتخلّي سبيلهم؟ اخْتَرْنا أو ٱخْتَرْهم. وقال محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد الهَمْدَاني مِثلَه، وقال أشرافُ الكوفَة مِثلهما، فأمر بقَتْلِهِمْ، فقالوا: يا ٱبْنَ الزُّبَيْر، لا تقتلْنا وٱجعلنا على مقدِّمتك إلى أهل الشام غَدًا، فما بكم عَنَّا غدًا غِنى؛ فإن قُتلنا لم نقتلْ حتى نضعفهم لكم، وإن ظفرْنا بهم كان ذلك لكم، فأبى عليهم وقتلَهم برأْي أهل الكوفة، وأمَر مصعب بكفّ المختار فقطِعتْ وسُمِّرت إلى جانب المسجد فبقيْت حتى قدم الحجاج فأمَر بِنَزْعها.

وكتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعتِه، ويقول: إن أطعتَني فلكَ الشام وأعِنَّة الخَيْلِ وما غلبت عليه من أرض المغرب ما دام لآلِ الزُّبَيْر سلطان.

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى ٱبن الأشتر أيضًا يَدْعُوه إلى طاعته ويقول: إنْ أنْتَ أجبتَني فلك العِرَاق.

فٱستشار إبراهيمُ أصحابَه في ذلك، فٱختلفوا، فقال: لو لم أكن أصبت ابنَ زياد وغيره من أشراف الشام لأجبْت عَبْدَ الملك، مع أني لا أختار على أهل مِصْري وعشيرتي غيرهم، فدخل في طاعة مُصْعب، وبلغ مصعبًا إقباله إليه، فبعث المهلَّب على عمله بالموصل والجزيرة وإرمينية وأذرَبيجان.

قال: ثم دعا مُصْعب بن الزبير أُمَّ ثابت بنت سَمُرة بن جُنْدب ٱمرأة المختار، وعَمْرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري امرأته الأُخرى، وسألهما عنه، فقالت أم ثابت: أقول فيه بقولكَ أنْتَ فيه، فأطلَقها؛ وقالت عمرة: رحمة الله عليه، كان عبْدًا صالحًا.

فكتب إلى أخيه عبد الله: إنها تزعم أنه نبي، فأمره بقَتْلِهَا، فقتِلَتْ ليلاً بين الحِيرة والكوفة، فقال عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ[١]: [من الخفيف]

إنَّ من أعجبِ العجائب عندي قَتْلَ بيضاء حرّةٍ عُطْبولِ[٢]
قتِلتْ هكذا على غَيْر جُرم إن لِلّهِ درَّها من قَتيلِ
كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ علينا وعلى المحصَنات جرُّ الذُّيول[٣]

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف على ٱبن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإن مُصْعَبًا لمّا سار إليه فبلغه مسيرُه أرسل إليه أحمر بن شُميط، وأمره أن يُواقِعه بالمذَار[٤]، وقال: إن الفتح بالمذَار، لأنه بلغه أن رجُلاً من ثَقيف يُفْتَح عليه بالمَذار فتحٌ عظيم، فظن أنه هو، وإنَّما كان الحجّاج في قتال عبد الرحمٰن بن ٱلأشعث، وأمر مصعبٌ عبادًا الحَبَطِيّ بالمسير إلى جَمْع المختار، فتقدّم وتقدّم معه عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب، وبقي مصعبٌ على نهر البصْريّين، على شط الفرات، وخرج المختار في عشرين ألفًا، وزحف مصعب ومَنْ معه فوافَوه مع اللّيل، فقال المختار لأصحابه: لا يبرحَنَّ أحدٌ منكم حتّى يسمَع مناديًا ينادي: يا محمّد، فإذا سمعْتموه فٱحملوا، فلما طلع القمر أمر منادِيًا فنادي: يا محمد؛ فحملوا على أصحابِ مُصْعبٍ فهزموهم وأدخلوهم عَسكرهم، فلم يَزَالُوا يقاتلونهم حتى أصبحوا، وأصبح المختارُ وليس عنده أحَد، وقد أوغَل أصحابُه في أصحابِ مُصْعبٍ، فٱنصرف المختارُ منهَزِمًا حتى دخل قَصْرَ الكوفة، وجاء أصحابُه حين أصبحوا، فوقفوا مَلِيًّا، فلم يَرَوا المختارَ، فقالوا: قد قتِل، فهرب منهم مَنْ أطاق الهرَبَ، فٱختفَوا بدُور الكوفَةِ، وتوجّه منهم نحو القَصْرِ ثمانية آلاف، فوجدوا المختار في القصر، فدخلوا معه وكانوا قد قَتلوا تلك الليلةَ من أصحْاب مصعب خَلْقًا كثيرًا، منهم محمد بنُ الأشعث.

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، القرشي المخزومي الشاعر المشهور؛ لم يكن في قريش أشعر منه، وهو كثير الغزل والنوادر والوقائع والمجون والخلاعة، وله في ذلك حكايات مشهورة... احترق في حدود سنة ٩٣هـ وعمره مقدار سبعين سنة... وكانت ولادته في الليلة التي قتل فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه... وفيات الأعيان (٣:٤٣٦).

(٢) العطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة.

(٣) المحصنة: المتزوجة أو العفيفة.

(٤) المذار: بليدة بين واسط والبصرة (المراصد).. أو أرض بقرب اكلوفة.

وأقبل مصعب فأحاط بالقَصْر، وحاصرهم أربعة أشهر يخرجُ المختار كلَّ يوم فيقاتلهم في سوقِ الكوفة، فلمّا قتِل المختار بَعَث منْ في القصر يطلبون الأمان، فأبَى مصعب، فنزلوا على حكمه، فقَتَل من العَرب سبعَمائة أو نحو ذلك، وسائِرُهم من العَجَم، فكان عدة الْقَتْلى ستَّة آلاف رجل، وقيل: سبعة آلاف، وذلك في سنة سبع وستِّين، وكان عُمْرُ المختارِ يوم قتِل سبعًا وستِّين سنة، وكان تارةً يدعو لمحمد ابن الحنفيّة، وتارةً لعْبدِ الله بن الزبير.

وحَكى عبدُ الملك بن عبدون في كتابه المترجم (كمامة الزَّهَر وصدفة الدُّرَر)، أن المختار ٱدّعى النبوّة وقال: إنه يأْتيه الوَحْيُ من السماء، وأظهر ذلك في آخر أمره، وكان له كرسي يَستنصر به.

ذكر خبر كرسي المختار الذي كان يستنصر به ويزعم أنه في كتاب بني إسرائيل

قال الطُّفَيْل بن جَعْدة بن هُبَيرة: أضِقت إضاقةً شديدة، فخرجت يومًا فإذا جارٌ لي زَيّات وعنده كرسيّ قد ركِبهُ الوسخ، فقلتُ في نفسي: لو قلتُ للمختار في هذا شيئًا، فأخذته من الزيّات وغسلته، فخرج عُود نُضار قد شرب الدُّهن وهو أبيض، فقلت للمختار: إنِّي كنْتُ أكْتُمُك شيئًا، وقد بَدا لي أن أذكره لك، إن أبي جعْدَة كان يجلس عندنا على كرسي، ويرى أنّ فيه أثَرًا مِن عِلْم. قال: سبحان الله، أخّرتَه إلى هذا الوقت! ابعثْ به إليَّ، فأحضرتُه وقد غشَّيْته، فأمر لي بٱثني عشر ألفًا، ثم أمر فنودِي: الصلاة جامعة، فٱجتمع الناسُ، فقال: إنه لم يكن في الأُمم الخالية أمرٌ إلاَّ وهو كائن في هذه الأُمَّةِ مثله، وإنه كان لبني إسرائيل التابوت، وإن هذا فينا مِثله، فكشفوا عنه وقامت السَّبَائيّة[1] فكبّروا، ثم لم يلبث أنْ أرسل المختارُ الجيشَ لقتال ٱبنِ زياد، وخرج بالكرسيّ على بغْلٍ وقد غُشِّيَ، فكان من هزيمة أهل الشام وقَتْلِ أشرافهم ما ذكرناه، فزادهم ذلك فتنةً حتى تعاطَوا الكفر.

قال الطفيل: فندمتُ على ما صنعْتُ، فتكلَّم الناسُ في ذلك، فغيّبه المختار.

---

(١) السبائية: أصحاب عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي كرم الله وجهه: أنت، أنت، يعني أنت الإلّه، فنفاه إلى المدائن، زعموا أنه كان يهوديًا فأسلم... وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة عليّ رضي الله عنه ومنه انشعبت أصناف الغلاة من الشيعة... (الملل والنحل للشهرستاني).

وقيل: إن المختار قال لآل جعْدَة بن هُبيرة ـ وكانت أُمّ جعدة هي أُم هانىء بنت أبي طالب أُخت عليّ رضي الله عنه لأبويه ـ ائتوني بكرسي عليّ، فقالوا: واللّهِ ما هو عندنا، فقال: لا تكونوا حَمْقَى، اذهبوا فأْتوني به، فظنُّوا أنَّهم لا يأْتونه بكرسي إلا قال: هذا هو، فأتوْه بكرسيّ، فأخَذَه وخرجتْ شِبَام وشاكر وفودًا، يعني أصحاب المختار، وقد جعلوا عليه الحرير، وكان أوّل من سَدنَه[١] موسى بن أبي موسى الأشعريّ، فعتب الناسُ عليه، فتركه فسدنَه حَوْشَب الْبُرْسُمِيّ حتى هلك المختار.

وقال أعشى همدان فيه[٢]: [من الطويل]

شهدتُ عليكم أنكم سبَئيّةٌ ... وإنّي بكم يا شرْطةَ الشِّرْك عارفُ
فأُقسِم ما كُرْسِيُّكمْ بسكينةٍ ... وإن كان قد لفَّت عليه اللّفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعَتْ ... شِبامٌ حواليْه ونَهْد وخَارفُ[٣]
وإنّي أمرؤٌ أحببتُ آلَ محمّدٍ ... وتابعْتُ وحْيًا ضُمِّنته المصاحفُ
وبايعتُ عبْدَ الله لما تتابعتْ ... عليه قريشٌ شُمْطها والغَطارفُ[٤]

وقال المتوكل اللَّيثي: [من السريع]

أبلغْ أبَا إسحاق إن جئْتَه ... أنِّي بكرْسيِّكم كافرُ
تَنْزو شِبامٌ حوْل أعوادِه ... ويحْمِل الوحيَ له شاكرُ
محمرَّةً أعينُهمْ حولَه ... كأنَّهن الحامض الحازرُ[٥]

انتهت أخبار الْمختار بن أبي عُبيد، فلنذكر أخبار نَجْدَةَ الحَنَفي، والله وليّ التوفيق.

---

(١) السدنة: جمع سادن: وهو الخادم.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن نظام بن جشم بن عمرو بن مالك بن جشم بن حاشد... كان زوج أخت الشعبي، وكان الشعبي زوج أخته، وكان من القراء، ثم تركه وصار شاعرًا، خرج مع ابن الأشعث فأتى به الحجاج فقتله صبرًا... (المؤتلف ١٤ والإكمال للأمير ٢: ٣٠٠).

(٣) بنو شبام: بطن من همدان، من القحطانية. وبنو نهد بطن من قضاعة من القحطانية. وبنو خراف: بطن من بني حاشد، من همدان، من القحطانية... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

(٤) الشمط: جمع أشمط، وهو الذي اختلط سواد شعره ببياضه. والغطاريف: جمع الغطريف، وهو السيد الكريم.

(٥) الحازر: الذي حمض.

ذكر أخبار نجدة بن عامر الحنفي حيث وثب باليمامة وما كان من أمره

كان نَجْدة بنُ عامر بن عبد الله بن سيار بن مفرّج الحنفي مع نافع بن الأزرق، ففارقه وسار إلى اليمامة، وكان أبو طالوتَ وهو من بني بكْر بن وائل، وأبو فُدَيْك عبدُ الله بنِ ثور بنِ قيس بن ثعلبة، وعطيّة بن الأسود اليشكريّ ـ قد وثَبُوا بها مع أبي طالوت، فلمّا قدمها نَجْدة دعا أبا طالوتَ إلى نفسه، فأجابه بعد ٱمتناع، ومضى أبو طالوت إلى الخضَارم[١]، فنهبها، وكانت لبني حنيفة، فأخذها منهم معاوية بن أبي سفيان، فجعل فيها من الرَّقيق ما عِدَّتهم وعدّة أبنائهم ونسائهم أربعة آلاف، فغنم ذلك وقسّمه بين أصحابه، وذلك في سنة خمس وستِّين، ثم إن عيْرًا خرجتْ من البحْرين ـ وقيل من البصرة ـ تحمل مالاً وغيرَه يُراد بها عَبْدُ الله بن الزُّبير، فٱعترضها نَجْدَة، فأخذها وساقها حتى أتى بها أبا طالوت بالخضَارم، فقسمها بين أصحابه، وقال: اقتسموا هذا المالَ ـ وردّوا هذه العبيد، واجعلوهم يعملون بالأرض لكم، فإن ذلك أنفع، فٱقتسَموا المال، وقالوا: نجدة خيرٌ لنا من أبي طالوت، فخلعوا أبا طالوت، وبايعوا نَجْدَة، ثم بايعه أبو طالوت، وذلك في سنة ست وستِّين.

ولمّا تمت بيعته بينهم سار في جمع إلى بني كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فلقيهم بذي المَجَاز[٢] فهزمهم وقَتَل فيهم قَتْلاً ذريعًا، ثم كثُرتْ جموعُه حتى بلغت ثلاثةَ آلاف، فسار إلى الْبَحْرَيْن في سنة سبع وستِّين، فقالت الأزْد: نَجْدة أحبُّ إلينا مِنْ وُلاتنا لأنه ينكر الجَوْر، ووُلاتنا تجور؛ فعزموا على مسالمته، وٱجتمعت عبْد القيس ومَن بالبحرين غير الأزد على محاربته، فٱلتقوا بالقَطِيف[٣]، فانهزمتْ عَبْدُ القيس، وقُتل منهم جمْعٌ كثير، وسَبى نجْدة منْ قدر عليه من أهل القَطِيف، وأقام بالبحرين.

---

(١) الخضارم: بفتح أوله، وكسر رائه: واد بأرض اليمامة، أكثر أهله بنو عجل، وهم أخلاط من حنيفة وتميم. . . (معجم البلدان).

(٢) ذو المجاز: موضع سوق عرفة، كانت به تقوم في الجاهلية ثمانية أيام.

(٣) القطيف: بفتح أوله وكسر ثانيه: مدينة بالبحرين، هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها وكان قديمًا اسمًا لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة. . . وقيل: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس. . . (معجم البلدان).

فلمّا قدم مصعب إلى البصْرةِ في سنة تسع وستِّين بعث إليه عبْد الله بن عمير اللَّيثي الأعور في أربعة عشر ألفًا، وقيل: في عشرين ألفًا، فجعل يقول: اثْبت نَجْدة فإنَّا لا نَفرّ، فقدم ونجْدَةُ بالقَطِيف، فأتى نجدة إلى ابن عُمير وهو غافل فقاتل طويلاً، ثم ٱفترقوا، وأصبح ابْن عُمير فهالَه ما رأى في عسكره من القَتْلى والْجَرْحى، فحمل عليهم نَجدة، فلم يثبتوا، وٱنهزموا، وغنم نَجْدَة ما في عسكرهم.

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشًا إلى عُمَان، واستعمل عليهم عطيّة بن الأسود الحنفيّ، وقد غلب عليها عبّاد بن عبد الله وابناه سعيد وسليمان، فقاتلوه، فقتل عبّاد وٱستولى عطيّة عليها، فأقام بها أشهرًا، ثم خرج عنها، وٱستخلف رَجُلاً يُكَنى أبا القاسم، فقتله سعيد وسليمان ٱبنا عبّاد، فعاد إلى عُمَان فلم يقدر عليها، فركب في البحر وأتى كِرْمَان[١]، وضرب بها دراهمَ سمّاها العَطَويّة، فأرسل إليها المهلَّب جيشًا، فهرب إلى سِجِسْتان، ثم أتى السِّنْد، فقتلتْه خيلُ المهلّب بقَنْدَابِيل[٢].

وبعث نجدة إلى البَوادي مَن يأخذ صَدَقة أهلها، ثم سار نَجْدَةُ إلى صنعاء في خفّ[٣] من الجيش، فبايعه أهلُها، وبعث أبا فدَيْك إلى حَضْرَمَوْت فجَبى صدقاتِ أهلها، وحج نجْدَة سنة ثمان وستِّين، وقيل في سنة تسع، وهو في ثمانمائة وستِّين رجلاً، وقيل في ألفين وستمائة رجل، فصالح ٱبنَ الزبير على أن يُصَلِّي كلُّ واحد بأصحابه، ويقف بهم، ويكفّ بعضهم عن بعض، فلما صَدَر نَجْدة عن الحج سار إلى المدينة، فتأهب أهلها لقتاله، وتقلَّد عبد الله بن عمرَ سيفًا، فلما أُخبر نجدة أن ٱبن عمر لبس السلاحَ رجع إلى الطائف، فلمّا قرُب منها أتاه عاصم بن عُرْوَة بن مسعود الثَّقَفي، فبايَعه على قومه، فرجع نجدة إلى البَحْرَيْن، فقطع المِيرة عن أهل الحَرَمين، فكتب إليه ٱبن عبّاس: إنَّ ثُمَامة بن أُثَال لمّا أسلم قَطع المِيرة عن أهل مكة وهم كفّار، فكتب إليه رسولُ الله ﷺ: إن أهل مكّة أهلُ الله، فلا تمنعْهم المِيرةَ، فخلاها لهم، وإنَّك قطعتَ الميرة عنا ونحن مسلمون، فخلاَّها لهم نَجْدَة، لم تزل عمّال نجدَة على النَّواحي حتى ٱختَلف عليه أصحابُه، على ما نذكره. واللَّهُ أعلم.

---

(١) كرمان: إقليم يشاكل فارس في أوصاف ويشابه البصرة في أسباب ويقارب خراسان في أنواع... وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع...

(٢) قنداببل: مدينة بالسند، قصبة لولاية. (٣) الخف: الجماعة القليلة.

ذكر الخلاف على نجدة وقتله وتولية أبي فديك

قال: ثم إن أصْحابَ نَجْدة ٱخْتلفوا عليه لأسْبابٍ نَقِمُوها منه، فخالف عليه عطيَّة بن الأسود، وسببُ ذلك أنَّ نجدَة بعث سرّية برًّا وبحرًا، فأعطى سرية البر أكثَر من سريّة البحر، فنازعه عطيّة حتى أغضبه، فشتمه نَجْدة، فغضب عطيّة وفارقه، وألّب الناس عليه، فخالفوه وٱنحازوا عنه، ووَلَّوا أمرهم أبا فدَيْك عبد الله بن ثَوْر، من بني قيس بن ثعلبة، فٱستخفى نَجْدَة، وقيل لأبي فُديك: إن لم تَقْتله تفرَّقَ الناسُ عنك، فألحّ في طلبه حتَّى ظفِر به أصحابُه، فقتلوه، فلمّا قتل نجدة سَخِط قَتْلَه جماعةٌ من أصحاب أبي فُديك، ففارقوه وثار بِهِ مسلم بن جبير فضربه اثنتي عشرة ضربةً بسكين، فقتل مُسلم، وحُمِل أبو فدَيك إلى منزله.

هذا ما كان من أمْرِ الخوارج الَّذين خرجوا على عبد الله بن الزُّبيْر في أيّام خلافته، فلنذكر خلاف ذلك ممّا وقع في أيامه بالأعمال الداخلة في ولايته.

ذكر الحوادث التي وقعت في أيام عبد الله بن الزبير خلاف ما ذكرناه في الأعمال الداخلة في ولايته على حكم السنين

سنة أربع وستين:

قد ذكرنا بعْضَ حوادث هذه السنة في أخبار يزيد، فلنذكر من حوادثِها خلاف ذلك:

فيها حج عبْدُ الله بنِ الزبير بالناس، وكان عاملَه على المدينة أخوه عبيدة بن الزبير، وعلى الكوفة عَبْد الله بن يزيد الخطْمي، وعلى قضائها سعيد بن نِمْران، وأبى شُريح أن يَقْضِي في الفتنة، وعلى البصْرة عمر بن عبيد الله بن معمر التَّيمي، وعلى قضائها هشام بن هُبيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.

سنة خمس وستين:

في هذه السنة عزل عبْدُ الله بن الزبير أخاه عُبيْدة عن المدينة، وٱستعمل أخاه مُصعبًا؛ وسببُ ذلك أن عُبيدة خطب الناس فقال: قد تَروْنَ ما صنع اللّهُ بقومٍ في ناقة قيمتها خمسمائة درهم، فسمي: مقوّم الناقة، فبلغ ذلك أخاه، فعزله، وٱستعمل مصعبًا.

ذكر بناء ابن الزبير الكعبة

كان عَبْدُ الله بن الزبير لمّا ٱحترقت الكعبة ـ حين غَزَاهُ أَهْلُ الشام في أيام يزيد بن معاوية، قد تركها ليشنع بذلك على أهْل الشام. وقد ٱختلفَ في سبب حَرْق الكعبة، فقيل: إن ٱبن الزبير لما حاصره أهلُ الشام سمع أصواتًا في اللّيل فوق الجبل، فخاف أن يكون أهلُ الشام قد وصلوا إليه، وكانت الليلة ظَلْماءَ ذاتَ ريح صعبة ورعدٍ وبَرق، فرفع نارًا علَى رأس رُمْح لينظرَ إلى الناس، فأطارتْها الرِّيح، فوقعتْ على أستار الكعبة فأحرقتْها، وجَهدَ الناسُ في إطفائها فلم يَقْدِرُوا، فأصبحت الكعبة تتهافَت[1]، وماتت ٱمْرأةٌ من قريش، فخرج الناسُ كلُّهم مع جنَازتها خوفًا من أن يَنزل عليهم العذاب؛ وأصبح ٱبن الزبير ساجدًا يدْعو ويقول: اللهم إنِّي لم أعتمِد ما جرى، فلا تهلك عبادَك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك. فلمَّا تعالى النهارُ أمِن وتراجعَ الناسُ. حكاه أبو الفرج الأصفهانيّ بسنَدٍ رفَعه إلى أبي بكر الهُذَليّ، وقيل في حرقِها غيرُ ذلك.

فلمّا مات يزيد وٱستقرّ الأمر لٱبن الزبير، شرع في بنائها، فأمر بهدمها حتى أُلْحقت بالأرض، وكانت حيطانها قد مالت من حجارة الْمنْجَنيق، وجعل الحجرَ الأسوَدَ عنده، وكان الناسُ يطوفون مِنْ وراء الأساس، وضرب عليها السُّتور، وأدخل فيهَا الحِجْر، واحتج بأن رسولَ اللّهِ ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: لولا حِدْثانٌ عَهْدِ قومِك بالكفْر لرددتُ الكعبَة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأزيد فيها من الحجْر، فحفرَ ٱبن الزبير رضي الله عنهما، فوجد أساسًا أمثال الجِمَال فحرّكوا منها صَخْرةً فبرقتْ بارقَة، فقال: أقِرُّوها على أساسها، وبَنَاها، وجعل لها بابَيْنِ يُدخَل من أحدهما ويُخْرَج من الآخر. وقيل: كانت عمارتها في سنة أربع وستِّين. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سنة خمس وستين:

ذكر الحرب بين عبد الله بن خازم وبين بني تميم بخراسان

في هذه السنة كانت الحربُ والفتنة بين عبد الله بن خَازِم السُّلَمي وبين بني تميم بخراسان؛ وسبَبُ ذلك أن مَنْ كان من بني تميم بخرَاسَان أعانوا ٱبْنَ خازم على من بها

(١) تتهافت: تتساقط.

من ربيعة كما تقدّم، فلمّا صفَتْ له خُراسان جَفَا بني تميم، وكان قد جعل ٱبنه محمدًا على هَراة[١]، وجعل على شرْطته بُكير بن وَسّاج، وضَم إليه شمّاس بنَ دِثَار العُطَاردي وكانت أُمُّ محمد تميميّة، فلمّا جفاهم ابْنُ خازم أتوا ٱبنَه محمّدًا بهَرَاة، فكتب إلى أبيه وإلى بُكير وشمّاس، يأمرهم بمَنْعِهم عن هَراة، فأمّا شَمَّاس فصار مع بني تميم، وأما بُكير فإنه منعهم، فأقاموا ببلاد هراةَ، فأرسل بُكير إلى شمّاس: إني أُعطيك ثلاثين ألفًا، وأُعْطِي كلَّ رجل من تميم ألفًا، على أن ينْصرفوا، فأبوا وأقاموا يترصّدون محمدَ بن عَبْد الله حتى خرج إلى الصيد، فأخذوه وشدّوه وثاقًا، ثم قتلوه، وولَّوا عليهم الحَرِيش بنَ هلال، فكانت الحَرْبُ بينه وبين ٱبن خازم، وطالت بينهما، فخرج الحَرِيش، فنادى ٱبن خازم، وقال: لقد طالت الحَرْبُ بيننا، فعلامَ يُقْتَل قومي وقومك، ابرزْ إلي فأيُّنَا قَتَل صاحبَه صارت الأرض له، فقال ابْن خازم: لقد أنصفت، فبرز إليه، فالتقيا وتصاوَلاَ طويلاً، فغفل ٱبن خازم، فضربَهُ الحريش على رأسه فألْقَى فَرْوَة رأْسه على وجهه، وٱنقطع رِكابَا الحَرِيش، ولزم ٱبن خازم عُنقَ فرسِه، ورجع إلى أصحابه، ثم غاداهم القتال، فمكثوا أيامًا بعد الضَّرْبة، ثم ملَّ الفريقان، فتفرقوا، فافترقتْ تميم ثلاث فِرق: فرقة إلى نيسابور مع بَحِير بن وَرْقَاء، وفرقة إلى ناحية أُخرى، وفرقة فيها الحرِيش إلَى مرْو الرُّوذ[٢]، فاتَّبعه ٱبن خازم إلى قرية تسمى الملحمة، والحَرِيشُ في اثني عشر رَجُلاً، وقد تفرَّق عنه أصحابُه وهم في خربة، فلمّا انتهى إليه قال له الحَرِيش: ما تريدُ منِّي وقد خلَّيْتك والبلاد، قال: إنَّك تعودُ إليها، قال: لا أعود؛ فصالحه على أنْ يخرج عن خُرَاسان ولا يعود إلى قِتَاله، فأعطاه ٱبن خازم أربعين ألفًا، وفتح له الحرِيشُ بابَ القصر، فدخله ابن خازم وضمن له وفاءَ ديْنه.

وفي هذه السنة وقع طاعون الجارف بالبَصْرة، وعليها عبيد الله بن عبد الله بن معمَر، فهلَك خلقٌ كثير، وماتت أُمُّ عبيد الله فلم يجدوا لها مَنْ يَحمِلها، حتَّى ٱستأْجروا مَن تولَّى حمْلَها.

وحج بالناس عبْدُ الله بن الزبير، وكان على المدينة مُصْعب بن الزبير، وعلى الكوفة عبد الله بن مطيع، وعلى البصرة الحارث بن أبي ربيعة المخزوميّ، وعلى خراسانَ عبد الله بن خازم.

---

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان... فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) مرو الرّوذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى... (معجم البلدان).

وفيها توفّي عبد الله بن عَمْرُو بن العاص بمصر، وكان قد عَمِيَ. وقيل: كانت وفاته في سنة ثمانٍ وستِّين، وقيل سنةَ تسع، والله أعلم.

سنة ست وستين:

ذكر الفتنة بخراسان

في هذه السنة حاصر عبدُ الله بن خازم منْ كان بخراسانَ من بني تميم بسبَبِ قَتْلهم ٱبنَه محمّدًا، وذلك أنَّه لما تفرّقتْ بنو تميم بخُراسان على ما تقدّم، أتى قصر قَرَنْبا[١] عدة منهم ما بين السبعين إلى الثمانين، فولَّوا أمرهم عثمان بن بشر بن المُحْتَفز المازني، ومعه شعبة بن ظُهير النَّهْشَلي، ووَرْد بن الفَلَق العنْبري، وزهيْر بن ذؤيب العَدَوي، وجَيْهان بن مَشْجَعة الضبّي، والحجاج بن ناشب العدويّ، ورقَبة بن الحُر في فرْسان بني تميم وشجعانهم، فحاصرهم ابْنُ خازم، فكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه، ثم يرجعون إلى القصر، فخرج ٱبن خازم يومًا في ستَّةِ آلاف، وخرج أهْلُ القَصْر إليه، فقال لهم بشر: ارجعوا فلن تطيقوه، فحلف زهير بن ذؤيب بالطَّلاق إنه لا يرجع حتى ينقضَ[٢] صفوفَهم، فٱستبطن نَهْرًا قد يَبِس، فلم يَشعر به أصحاب ٱبن خازم حتى حمل عليهم، فحطَّم أوّلهم على آخرهم، وٱستدار وكرّ راجعًا، وٱتبعوه يصيحون به، ولم يَجسُر أحد ينزل إليه حتى رجع إلى موضعه، فحمل عليهم، فأفرجُوا له حتى رجع، فقال ٱبنُ خازم لأصحابه: إذا طاعنتم زهَيرًا فٱجعلوا في رِمَاحكم كَلالَيب، ثم علقوها في سِلاَحه، فخرج إليهم يومًا فطاعنهم، فأعلقوا فيه أربعةَ رماح بالكلالَيب، فٱلتفت إليهم ليحمَل عليهم، فاضطربتْ أيديهم، وخَلَّوا رماحَهم، فعاد يجرّ أربعة أرماح حتى دخل القَصْر، فأرسل ٱبن خازم إلى زهير، فضَمهن له مائة ألف وميْسان[٣] طعمةً ليُنَاصحه، فلم يُجبْه، فلما طال الحِصار علهيم أرسلوا إلى ابْنه خازم أن يمكِّنهم من الخروج ليتفرّقوا، فأبى إلاَّ على حُكْمِه، فأجابوه إلى ذلك، فقال زهير: ثكلتكم أُمهاتكم، والله ليقتلنَّكم عن آخركم، فإن طِبْتم بالموت نَفْسًا فموتوا كِرَامًا، اخرجُوا بنا جميعًا، فإما أن تموتوا كرامًا، وإما أن ينجو بعضكم ويهلك بعضكم، وأيم الله لئن شددْتم عليهم شَدَّةً صادقةً ليفرجن لكم، فإن شئتم كنتُ

(١) قصر قرنبا: موضع بخراسان؛ وقيل: موضع بمرو.
(٢) نقض الشيء: أفسده بعد إحكامه.
(٣) ميسان: كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط.

أمامكم، وإن شئتم كنتُ خلفَكم، فأبَوْا عليه، فقال سأُريكم؛ ثم خرج هو ورَقَبة بنُ الحُر وغلام تركيّ وٱبن ظهير، فحملوا على القوم حملَةً منكرة فأفرجوا لهم، فمضوا. فأمّا زهيْر فرجع إلى مَنْ بالقصر ونجا أصحابُه، فقال زهَير لِمَنْ بالقصر: قد رأيْتم، أطيعوني، فقالوا: إنَّا نَضعُف عن هذا ونطمع في الحياة، فقال: والله لا أكون أعجزَكم عند الموت، فنزلوا على حكم ابن خازم، فأرسل إليهم فقيَّدهم، وحُمِلوا إليه رجُلاً رجُلاً، فأراد أن يَمُنَّ عليهم، فأبى عليه ٱبنُه موسى، وقال له: إن عفوْتَ عنهم قتلتُ نفسي، فقتَلَهُمْ إلا ثلاثة، أحدهم الحجاج بن ناشب، شفع فيه بعض مَنْ معه فأطْلَقه، والآخر جيْهان بن مَشْجعَة الضبِّي، وكان قد منع القوم مِن قَتْلِ محمد بن عبد الله، ورمى نفسَه عليه، فأبَوْا، فترَكَه لذلك، والآخر رجل من بني سعْد من تميم، وهو الَّذي ردّ الناس عن ٱبن خازم يوم لحقوه، وقال: انْصرِفوا عن فارِس مُضَر.

قال: ولمّا أرادوا حملَ زهير بن ذؤيب وهو مقيَّد أَبَى، واعتمد على رُمْحِه، فوثب الخندق، ثم أقبل إلى ٱبن خازم يحجِل[1] في قيودِه؛ فقال له ابْنُ خازم: كيف شكرُك إنْ أطلقْتك وأطعمتك مَيْسان؟ قال: لو لم تصنع بي إلاَّ حقْن دَمِي لشكرتك، فلم يمكنه ٱبنه موسى من إطْلاَقِه، فقال له أبوه: ويْحك، تقتل مِثْل زهير، مَنْ لقتال عدو المسلمين، مَن لنساء العرب؟ فقال: والله لو شركت في دم أخي لقتلتك، فأمر بقتله، فقال زهير: إن لي حاجةً، لا تقتلني وتخلط دمي بدماء هؤلاء اللِّئام، فقد نهيتُهم عما صنعوا، وأمَرْتهم أن يموتوا كِرَامًا ويخرجوا عليكم مُصْلِتين، وٱيم الله لو فعلوا لذَعَروا بنَيَّك هذا. وشغلوه بنفسه عن طلب ثأْر أخيه، فأمر به ٱبن خازم فقتل ناحية.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبْدُ الله بن الزبير.

سنة سبع وستين:

في هذه السنة استعمل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبًا على البصرة، فقتل المختارَ كما تقدَّم، ثم عزَلَه عن العراق، وٱستعمل ٱبنه حمزة بن عبد الله. وكان حمزة جوادًا مخلِّطًا[2]، يجود أحيانًا حتى لا يدع شيئًا يَملِكه، ويمنَعُ أحيانًا ما لا يمنع مثلُه، وظهر منه بالبَصْرَة خِفَّة وضَعْف، فكتب الأحنف إلى أبيه، وسأله أن يعْزلَه عنهم، ويعيد مصعبًا، فعزَلَه، فاحتمل مالاً كثيرًا من مال البَصْرة، فعرض له مالك بن مِسْمَع،

---

(١) يحجل في قيوده: أي يثب في مشيه. (٢) المخلط في الأمر: الذي يفسد فيه.

فقال: لا نَدعُك تخرج بأعطياتنا؛ فضمن له عبيد الله بن عَبْدِ الله العطاء، فكفّ عنه، وشخَصَ حمزة بالمال إلى المدينة، فأودعَه رجالاً، فجحدوه، إلا رجلًا واحدًا، فوَفى له، فبلغ ذلك أباه، فقال: أبْعدهُ الله، أردتُ أن أُباهِي به بني مرْوان فنَكَص[1].

وقيل: إن مصعبًا أقام بالكوفة سنةً بعد قتل المختار معزولاً عن البصْرَةِ، ثم وفد إلى أخيه فردّه إلى البصرة، وقيل: بل اَنصرف مصعبٌ إلى البصْرة بعد قَتْل المختار، واَستعمل على الكوفة الحارث بن أبي ربيعة، وكانا في عَمَلِهِ، فعزله أخوه، واستعمَل اَبنَه حمزة، ثم عزلَ حمزة بكتاب الأحنف وأهل البصرة، وردّ مصعبًا، وذلك في سنة ثمانٍ وستين.

وحج بالناس في هذه السنة عبدُ الله بنُ الزبير، وكان العمّال من تقدم ذكرهم، وكان على قضاء الكوفة عبدُ الله بنُ عتبة بنِ مسعود، وعلى قضاء البصرة هشامُ بن هُبيرة.

سنة ثمان وستين:

ذكر حصار الريّ[2] وفتحها

وفي هذه السنة أمر مُصْعَب بنُ الزبير عتَّابَ بن وَرْقَاء الرّياحيّ عاملَه على أصْفَهَان بالمسير إلى الرَّي وقتالِ أهلها، لمساعدتهم الخوارج على يزيد بن الحارث، كما تقدم، واَمتناعهم في مدينتهم، فسار إليهم عتّاب، وقاتَلَهم، وعليهم الفرُّخان ففتحها عَنْوة، وغَنِم ما فيها وافتتح سائرَ قلاعها ونواحيها. والله أعلم.

ذكر أخبار عبيد الله بن الحر ومقتله

وفي هذه السنة قتل عُبَيْدُ الله بنُ الحُرّ الجُعْفيّ، وكان مِنْ خِيَار قومه صَلاَحًا وفَضْلاً واَجتهادًا، ولما قتل عثمان حضر إلى معاوية وشهد معه صِفِّين وأقام عند معاوية، وكانت زوجته بالكوفة، فلمّا طالت غيبته عنها زوّجها أخوها رجلًا، يقال له عِكْرمة بن الخَنْبَص، فبلغ ذلك عُبيد الله، فَأقْبَلَ مِنَ الشام فخاصمه عِكْرِمَة إلى علي

---

(١) نكص: أحجم.

(٢) الريّ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه: وهي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان لياقوت).

رضي الله عنه، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: ظاهرْتَ علينا عدوَّنا وفعلْت وفعلتَ. فقال له: أمنعني ذلك مِنْ عَذْلك؟ قال: لا، فقصَّ عليه قصتَه فردَّ عليه امرأتَه وكانت حُبْلى، فوضعها عند منْ يثِق إليه حتى وضعت فألحق الولَدَ بعكرمة، ودفع المرأة إلى عُبَيْدَ الله، وعاد إلى الشام فأقام به حتى قتل علي رضي الله عنه، فرجع إلى الكوفة، فلما كان في وقْتِ قَتْل الحسين تغيب عُبيد الله عَمْدًا، فجعل ابْن زياد يتفقَّد أشراف أهل الكوفة، فلم ير ابنَ الحُرّ ثم جاء بعد ذلك فقال: أين كنت يا ابْنَ الحُر؟ قال: كنْتُ مريضًا. قال: كذَبْتَ، ولكنك كنْت مع عدونا. قال: لو كنْتُ معه لَرُئي مكاني. وغفل عنه ابْنُ زياد، فخرج وركب فرسه، ثم طلبه فقيل له: ركب الساعة، فبعث الشرط خَلْفه فأدركوه فقالوا: أجب الأمير، فقال: بلغوه عَنِّي أني لا آتِيه طائعًا أبدًا، وركض فرسه، وأتى منزل أحمد بن زياد الطائي، فاجتمع إليه أصحابُه، ثم خرج حتى أتى كَرْبَلاء، فنظر إلى مصارع الحسين رضي الله عنه، ومَنْ قتل معه، فاْستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن[1]. وقال في ذلك: [من الطويل]

يــقــول أمــيــرٌ غــادرٌ حــقُّ غــادِرٍ ... ألاَ كنتَ قاتلتَ الشهيد ابن فاطمهْ
ونَـفْـس عـلـى خِـذْلانـه واْعـتـزالِـه ... وبيعةِ هذا الناكثِ العهد لائمَهْ
فـيـا نـدمـي ألا أكـونَ نَـصَـرْتـه ... ألا كـلُّ نـفـسٍ لا تـسـدّد نـادِمـهْ
وإنِّـي لأنـي لـم أكـن مِـن حُـمـاتِـه ... لـذو حـسْـرة مـا إنْ تـفـارِق لازمـهْ
ســقَــى الله أرواح الــذيــنَ تــآزَرُوا ... على نَصْره سُقْيًا من الغَيْث دائمهْ
وقـفـتُ عـلـى أجـداثـهـم ومـجـالِـهِـمْ ... فكاد الحَشَى ينقضُّ والعَيْنُ ساجِمَهْ[2]
لَعَمْري لقد كانوا مَصاليتَ في الوَغَى ... سِراعًا إلى الْهَيْجا حُمَاةً خَضارِمهْ[3]
تـأسَّوا على نَصْرِ ابنِ بِنْتِ نبيِّهمْ ... بـأسيـافـهـمْ آسادُ غِيْلٍ ضَراغِمهْ[4]
فـإن يُـقـتَـلـوا فـكـلُّ نـفـس تـقـيـةٍ ... على الأرض قد أضحت لذلك واجِمهْ

(١) المدائن: جمع المدينة.. قيل بناها وأقام بها أنو شروان بن قباذ.. وقيل: سميت المدائن لأن زاب الملك الذي بعد موسى عليه السلام، ابتناها بعد ثلاثين سنة من ملكه... (معجم البلدان).

(٢) يقال: سجمت العين الدمع سجمًا: أسالته.

(٣) الخضارمة: جمع الخضرم، وهو الكثير الواسع من كل شيء. والخضارمة: قوم بالشام تطرقوا إليها من بلاد العجم. والخضارم: السيد الحمول الجواد الكثير العطاء والمعروف وهو المراد.

(٤) الغيل: الشجر الكثير الملتف الذي يستتر فيه.

وما إن رأى الراؤون أفضل منهمُو لدى الموتِ ساداتٍ وزهْرًا قَماقِمهْ[١]
أتقتلهم ظلْمًا وترجو وِدادنا فَدعْ خطَّةً ليست لنا بمُلائمهْ
لَعَمْرِي لقد راغَمْتموُنا بقَتْلهمْ فكم ناقم منَّا عليكم وناقِمَهْ
أهُمُّ مِرارًا أن أسير بجحْفَلٍ إلى فئةٍ زاغَتْ عن الحقّ ظالمهْ[٢]
فكفُّوا وإلا زرْتكمْ في كتائبٍ أشَدّ عليكم من زحُوفِ الدَّيالِمهْ

قال: وأقام ابن الحُرّ بمنزلهِ على شاطىء الفرَات إلى أن مات يزيد، ووقعت الفتنة، فقال: ما أرَى قرشيًّا يُنْصِف، أين أبْنَاءُ الحرائر؟ فأتاه كلُّ خليع، ثم خرج إلى المدائن فلم يَدَعْ مالاً قدم به للسلطان إلا أخذ منه عطاءَه وعطاء أصحابِه، ويكتب لصاحبِ المال بما أخذ منه، ثم جعل يتقصَّى الكور[٣] على مثل ذلك، إلا أنه لم يعترض لمالِ أحد ولا دمِه، فلم يزلْ كذلك حتى ظهر المختارُ وسمع ما يعمله ابْنُ الحرِّ في السَّواد، فأخذ امرأتَه فحبسها، فأقبل عُبَيد الله في أصحابه إلى الكوفة، فكسر بابَ السجْنِ، وأخرجها، وأخرج كلَّ امرأةٍ كانت فيه، ومضى، وجعل يبعث بعمال المختار وأصحابه، فأُحرقت داره في همْدان، ونهبت ضَيْعَته، فسار إلى ضِيَاع همذان فنهبها جميعًا، وكان يأتي المَدَائنَ فيمرُّ بعمَّال جُوخَى[٤] فيأْخذ ما معهم من المال، ثم يميل على الجَبَل، فلم يزل على ذلك حتى قتِل المختار.

وقيل: إنه بايع المختار بعد امتناعٍ، وسار مع إبراهيم بن الأشتر إلى الموصِل، ولم يشهَدْ معه قتال ابن زياد، وتمارضَ، ثم فارق ابْن الأشتر، وأقبل إلى الأنبار في ثلاثمائة، فأغار عليها، وأخذ ما في بيْتِ مالها، فلما فعل ذلك أمرَ المختارُ بهدْمِ داره وأخذ امرأتَه، ففعل ما تقدّم ذِكْرُه، وحضر مع مُصْعب قتالَ المختار، فلما قتِل المختارُ قال الناس لمصعب: إنَّا لا نأْمَن أنْ يَثِب عُبيد الله بن الحرّ بالسّواد كما فعل بابْنِ زياد والمختار، فحبسه، فكلَّم قومًا من وجوه مذْحِج ليشفعوا له إلى مصعب، وأرسل إلى فِتْيَان مذْحج، فقال: البسوا السلاحَ واستروه، فإن شفَّعهم مصعب وإلاَّ فاقصدوا السجنَ فإنني سأُعينكم مِنْ داخل.

(١) القمقام: السيد الجامع للسيادة الواسع الخير.
(٢) الجحفل: الجيش الكثير.
(٣) الكور: جمع الكورة، وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى.
(٤) جوخى: بلد بالعراق.

فلما شفَع أُولئك النَّفر شفَّعهم مُصْعب فيه، وأطلقه، فأتى منزله، وأتاه الناس يهنئونه، فكلَّمهم في الخروج على مصعب، وقال لهم: قاتِلوا عَنْ حرِيمكم؛ فإني قد قلبْتُ ظهر المِجن[١] وأظهرْتُ العداوَة ولا قوةَ إلا بالله.

وخرج عن الكوفة، وحارَبَ وأغار، فأرسل إليه مُصعب سيْفَ بن هانىء المرادي، فعرضَ عليه خراجَ بادُورا[٢] وغيرها، ويدخل في الطاعة، فلم يُجب إلى ذلك، فندب لقتاله الأبْرد بنَ قرّة الرِّيَاحي، فقاتَله فهزمه عُبيد الله وضربه على وجهه، فبعث إليه حُرَيْث بن زَيْد فقتله، فبعث إليه الحجاجَ بن حارثة الخَثْعَمي، ومسلم بن عَمْرو، فلقياه بنَهْرِ صَرْصَر[٣]، فقاتلهما وهزمهما، فأرسل إليه يَدْعُوه إلى الأمَانِ والصِّلَة، وأن يولِّيه أيَّ بلدٍ شاء؛ فلم يقبل ذلك وأتى نَرْسًا[٤]، ففر دهْقَانها[٥] بمالٍ إلى عين التَّمْر[٦] وعليها بِسْطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني، فالتجأ الدهقان إليه، فتبعه عبيد الله فقاتله بِسْطام، ووافاه الحجاجُ بن حارثة، فأسرهما عُبيد الله، وأسر جماعةً كثيرة ممّنْ معهما، وأخذ المال الذي مع الدهقان، وأطلَقَ الأُسارى وأتى تَكْرِيت، فأقام بها يجْبي الخَراج، فبعث إليه مُصْعب الأبرد بن قرّة الرياحي، والجَوْن بن كَعْب الهَمْدَاني في ألفٍ، وأمدَّهم المهلَّبُ بيزيد بن المغفَّل في خمسمائة، فقاتلهم يوْمَيْن وهو في ثلاثمائة. فلما كان عند المساء من اليوم الثاني تحاجَزوا، وخرج عُبيد الله من تَكْرِيت، وسار نحو كَسْكَر، فأخذ بيْتَ مالها، ثم أتى الكوفةَ فنزل إلى ديْر الأعْوَر[٧]، فبعث إليه مصعب حَجّار بن أبْجر فانهزم حجَّار، فشتمه مُصْعب، وضم إليه الجَوْنَ بن كَعْب الهَمْدَاني وعُمر بن عُبيد الله بن مَعْمر، فقاتلوه بأجمعهم، وكرت الجراحات في أصحاب ابن الحُر، وعُقرت خيولهم، فانهزم حجَّار، ثم رجع فاقْتَتَلوا قِتَالاً شَديدًا، حتى أمْسوا، وخرج ابن الحُر من الكوفة، فكتب مُصْعب إلى يزيد بن الحارث بن رُويم الشيباني وهو بالمدائن يأمره بقتاله، فقدَّم ابْنه حَوْشبًا، فقاتله فهزَمَه عُبيد الله، وأقبل إلى المدائن فتحصَّنوا منه، فندب إليه الجَوْن بن كَعْب الهمداني

(١) المجن: الترس.
(٢) بادورا: موضع بالجانب الغربي من بغداد.
(٣) صرصر: موضعان من نواحي بغداد.
(٤) نرسا: نهر حفره ابن بهرام بنواحي الكوفة وأخذه من الفرات.
(٥) الدهقان: رئيس الإقليم، أو رئيس القرية.
(٦) عين التمر: بلدة في طرف البادية على غربي الفرات.
(٧) دير الأعور: موضع بظاهر الكوفة، بناه رجل من إياد.

وبِشْر بن عبْد الله الأسدي، فنزل الجَوْن بحَوْلاَيَا[١]، فخرج إليه عبد الرحمٰن بن عَبْد الله فقتله ابْنُ الحرّ وهزم أصحابه، وخرج إليه بشير بن عبد الرحمٰن بن بشير العِجْلِي، فقاتله بسُورَا قتالاً شديدًا، فرجع عنه بشير، وأقام ابن الحُرّ بالسواد يُغير ويَجْبِي الخراج.

ثم لحق بعَبْد الملك بن مروان، فلما صار إليه أكرمه وأجلسه معه على السرير، وأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى لمَنْ معه مالاً، فقال له ابن الحرّ: وجِّهْنِي بجُنْد أُقاتل بهم مصعبًا، فقال له: سِرْ بأصحابك، وادْعُ مَنْ قدرت عليه، وأنا ممدُّك بالرجال، فسار في أصحابه نحو الكوفة إلى أن انتهى إلى الأنبار[٢]، فنزل بقَرْيَةٍ بجوارها، واستأْذنه أصحابه في إتيان الكوفة، فأذن لهم، وأمرهم أن يُعْلموا أصحابه بمقدمه ليَخْرُجوا إليه، فبلغ ذلك القَيْسية فأتوا الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عامل ابن الزُّبير بالكوفة، فسألوهُ أن يُرْسِلَ معهم جَيْشًا يقاتلون به عُبيد الله ويغتنمون الفرْصَة فيه بتَفْريق أصحابه، فبعث معهم جيشًا كثيفًا، فساروا إليه، فقال له مَنْ بَقِي معه من أصحابه: نحن في نَفَرٍ يَسيرٍ، ولا طاقةَ لنا بهذا الجيش، فقال: ما كنتُ لأدعهم، وحمل عليهم وهو يقول: [من الرجز]

يا لك يومًا فَات فيه نَهْبي وغاب عنِّي ثِقَتِي وصَحْبي

فعطفوا عليه فكشفوا أصحابه، وحاولوا أن يَأْسِرُوه، فلم يقدروا على ذلك، وأذِنَ لأصحابه في الذّهاب، فذهبوا فلم يعْرِضْ لهم أحد، وجعل يقاتِلُ وَحْده وهم يَرْمُونَه ولا يَدْنون منه، وهو يقول: أهذه نبل أم مغَازل! فلما أثْخنَتْهُ الجِراح خاض[٣] إلى مَعْبر فدخله ولم يدْخل فَرسُه، فركب السفينة، ومضى به الملاَّح حتى توسط الفرات، فأشرفَت الخيلُ عليهم، وكان في السفينة نَبط، فقالوا لهم: إن في السفينة طَلبةَ أمير المؤمنين، فإن فاتكم قَتَلْنَاكم، فوثب ابن الحُرّ ليرميَ نفسه في الماء، فوثب إليه رجُلٌ عظيم الخلْق، فقبض على يَديْه، وجِرَاحَاته تَجْري دمًا، وضربهُ الباقون بالمجاديف، فقبض على الذي أمسكه، وألقى نَفْسَه في الماء، فغرِقَا معًا.

وقيل في قتله: إنه كان يغْشَى مُصعب بن الزبير بالكوفة فرآه يُقدِّم عليه غَيْره،

(١) حولايا: قرية كانت بالنهروان.
(٢) الأنبار: موضع بالعراق من أرض بابل.
(٣) خاض الماء: دخله ومشى فيه.

فكتب إلى عَبْد الله بن الزبير قصيدةً يعاتب فيها مُصْعبًا ويخوِّفه مسيره إلى عبد الملك بن مرْوَان يقول فيها: [من الكامل]

أبـلـغْ أمـيـر الـمـؤمـنـيـن رسـالـةً ... فـلـسـتُ عـلـى رأْيٍ قـبـيـح أُوارِبُـهْ[1]
أفي الحق أنْ أُجفى ويَجعَلُ مُصْعَبٌ ... وزِيـرَيْـه مـنْ قـد كـنْـتُ فـيـه أُحـاربُـه
فكيف، وقد أبليْتكم حقَّ بَيْعَتِي ... وحَقِّـي يُـلَـوَّى عـنـدكـمْ وأُطـالِـبُـه[2]
وأبـلـيـتـكـم مـالاً يُـضـيَّـع مِـثْـلُـه ... وآسـيْـتـكـم والأمـرُ صـعْـبٌ مـراتِـبُـه
فلمّا استنار المُلْك وانقادتِ العِدَا ... وأُدرِك مِـنْ مـال الـعـراق رَغـائِـبُـه
جَفَا مُصْعَبٌ عنِّي ولـو كـان غـيْـره ... لأصـبـح فـيـمـا بـيـنـنـا لا أُعـاتِـبُـه
لـقـد رابني مِنْ مُصْعبٍ أنَّ مُصْعبًا ... أرى كـلَّ ذي غِـشٍّ لـنـا هـو صـاحِـبُـه
إذا قـمـتُ عـنـد الـبـاب أُدخِـلَ مُـسْـلِـمٌ ... ويـمـنـعـنـي أن أدْخُـل الـبـاب حَـاجِـبُـه

أشار بقوله: وزِيريْه؛ إلى مُسْلم بن عَمْرو والد قتَيْبة، والمهلَّب بن أبي صُفْرة، ويدلُّ على ذلك قوله أيضًا في غيرها: [من الطويل]

بـأيِّ بـلاءٍ أم بـأيَّـةِ نـعـمـةٍ ... تَـقَـدَّم قَـبْـلـي مـسـلـمٌ والـمـهـلَّـبُ

قال: فحبسه مصعب، وله معه معاتَبَاتٌ من الحَبْس، وقال في قصيدة يهجو فيها قيس عَيْلاَن منها: [من الطويل]

ألـم تَـرَ قَـيْـسًـا قَـيْـس عَـيْـلاَن بَـرْقَـعَـتْ ... لِـحَـاهـا وبـاعـت نَـبْـلَـهـا بـالـمـغـازل[3]

فأرسل زفَر بن الحارث الكِلاَبي إلى مُصْعب يقول: قد كفَيْتك قتالَ ٱبْن الزَّرْقَاء - يعني عبد الملك - وابن الحُرِّ يَهْجُو قَيْسًا؛ ثم إنَّ نفرًا من بني سُليم أسَرُوا عُبيد الله بن الحرّ، فقال: إنما قلت: [من الطويل]

ألـم تـر قَـيْـسًـا قَـيْـس عـيْـلان أقـبـلـت ... إلـيـنـا وسـارت فـي الـقـنَـا والـقَـنَـابـل[4]

قتله رجل منهم يقال له عيَّاش، والله أعلم.

وفي هذه السنة وافَى عرفات أربعة ألوية:

---

(١) واربه: داهاه وخاتله وخادعه.
(٢) يقال: لوى فلانًا دينه: مطله. ويقال: لوى فلانًا حقه: جحده إياه.
(٣) برقعت وجهها: أي غطته بالبرقع، أي القناع.
(٤) القنابل: جمع القنبل، وهي الطائفة من الناس ومن الخيل.

لواء ابن الزبير وأصحابه، ولواء ابن الحنفية وأصحابه، ولواء لبني أُمية، ولواء لنَجْدَة الحَرُورِي، ولم يَجْرِ بينهم حَرْب ولا فِتْنَة.

وكان العاملُ على المدينة جابر بن الأسود بن عَوْف الزُّهْرِي، وعلى البصْرة والكوفة مُصْعب بن الزبير، وعلى قضائهما منْ ذكرنا قَبْلُ، وعلى خراسان عبْد الله بن خازم.

وفيها توفِّي عَبْدُ الله بن عبّاس بن عبد المطلب، وعديّ بن حاتم الطائي. وقيل في سنة ست وستين، وله مائة وعشرون سنة.

سنة تسع وستين:

في هذه السنة شخَص مُصْعب بن الزبير إلى مكّة ومعه أموالٌ عظيمة ودوابٌ كثيرة، فقسم في قومه وغيرهم، ونحر بُدْنًا كثيرة. وقيل: كان ذلك في سنة سبعين.

وحجّ بالناس عَبْدُ الله بن الزُّبَيْر؛ وفيها حَكَّم رجُلٌ من الخوارج بمنى، وسلَّ سيْفَه، وكانوا جماعة، فأمسك اللّهُ أيديهم، فقتل ذلك الرجل عند الجمْرَة[1]. وكان عُمّال الأمصار منْ ذكَرْنا.

سنة سبعين:

ذكر يوم الجفرة[2]

في هذه السنةِ سارَ عَبْدُ الملك بن مَرْوان يُريد مُصْعب بْنَ الزبير، فقال له خالد بن عَبْدَ الله بن أسيد: إن وجّهْتَني إلى البَصْرَة وأتبعتني خَيْلًا رجوت أن أغلِب لك عليها، فوجّهه عَبْدُ الملك، فقدمها مستخفيًا في خاصّتِه حتى نزل على عَمْرو بن أصْمَع. وقيل: على عليّ بن أصْمع الباهلي، فأرسل عَمْرٌو إلى عَبّاد بن الحصين وهو على شرطة ابن معمر، وابن معمر خليفة مصعب على البَصْرَة، ورَجَا ابْن أصْمَع أنَّ عبَّاد بن الحُصَين يُتَابعه، وقال له: إني قد أجرْتُ خالدًا وأحبَبْتُ أنْ تَعلم ذلك لتكون ظَهيرًا لي؛ فوافَاهُ الرسولُ حين نزل عَنْ فَرسه؛ فقال عَبّاد: قلْ له: والله لا أضَعُ لبد[3] فَرَسِي حتى آتيك في الخَيْل، فقال ابن أصْمَع لخالد: إنّ عبّادًا يأتينا الساعةَ،

(١) الجمرة: موضع بمكة.
(٢) الجفرة: بالضم، آخرها هاء: موضع بالبصرة...
(٣) اللبد: ما يوضع تحت السرج.

ولا أقدِرُ أمنَعُك منه؛ فعليك بمالك بن مِسْمع، فخرج خالد يركض فَرَسَه حتى أتى مالكًا فقال: أجِرْني فأجاره، وأرسل إلى بكْر بن وائل والأزْد، فأقبلَت إليه، وأقبل عباد في الخيل، فتواقَفوا ولم يكنْ بينهم قِتَال، فلما كان الغد غَدوْا إلى جُفْرة نافع بن الحارث، ومع خالد رجالٌ مِنْ تميم، منهم صعْصَعة بن معاوية وعبْد الله بن بشر ومُرّة بن مَخْكَان وغيرهم، وكان من أصحاب خالد، عُبيْد الله بن أبي بَكْرة، وحُمْران بن أبان، والمغيرة بن المهلَّب. ومن أصحاب ابن معْمر؛ قيْس بن الهيْثَم السلمي، وأمدّه مُصْعب بِزَحْر بن قَيْس الجُعفي في ألْف، وأمدَّ عبْدُ الملك خالدًا بعُبيد الله بن زياد بن ظبيان، فبلغه تفرُّق الناسِ، فرجع إلى عبْد الملك. والتقى القَوْم، واقتتلوا أربعةً وعشرين يومًا، ومشَتْ بينهم السُّفَراء، فاصطلحوا على أنْ يُخْرِج خالدًا من البصرة، فأخرجه مالك، ولحق مالك بثأج[1]، وجاء مُصْعب إلى البصْرة، وطمع أنْ يُدْرِك خالدًا فوجده قد خرج، فسخط على ابْنِ معْمر، وقال لعُبيد الله بن أبي بَكْرة: يا ابْنَ مسروح، إنما أنت ابن كَلْبة تعاورها[2] الكلاَب، فجاءت بأحمر وأصفر وأسود من كلِّ كَلْب بما يُشبِهه، وإنما كان أبوك عبْدًا نزل إلى رسولِ الله ﷺ من حِصْنِ الطائف، ثم ادعيْتم أنَّ أبا سفيان زَنَى بأُمكم، ووالله لئن بَقِيتُ لأُلحقنكم بنسبكم.

ثم دعا حُمْران فقال له: إنما أنتَ ابْن يهودية عِلْج نبطي سُبِيت من عيْن التَّمْر. وقال للحكم بن المنذر بن الجارُود، ولعبْدِ الله بن فضالة الزهراني، ولعلي بن أصْمَع، ولعبد العزيز بن بِشر وغيرهم نحو هذا من التوبيخ والتقريع، وضربهم مائةً مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم وهدَم دُورَهم، وصَهَرَهم في الشمس ثلاثًا، وحملهم على طلاقِ نسائهم، وجهز أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم ألاَّ ينكحوا الحَرائر، وهدمَ دَارَ مالك بن مسمع، وأخذ ما فيها؛ فكان فيما أخذ منها جارية ولَدتْ له عمرو بن مصعب.

وأقام مصعب بالبصرة، ثم شخص إلى الكوفة فلم يزَلْ بها حتى خرج لِحرْبِ عَبْد الملك.

وحجّ بالناس في هذه السنة عَبْدُ الله بن الزُّبير.

---

(١) ثأج: بالجيم: عين من البحرين على ليال. . .

(٢) تعاورها الكلاب: تداولوها فيما بينهم.

سنة إحدى وسبعين:

في هذه السنة كان مقتل مُصْعب بن الزُّبيْر واستيلاء عبد الملك بن مرْوان على العِراقِ فعلى ما نذكر ذلك إن شاء الله مبيَّنًا في أخبار عبد الملك.

وفيها عزَلَ عبْدُ الله بن الزبير جابرَ بن الأسود عن المدينة، واستعمل عليها طَلْحة بن عَبْد الله بن عوف، وهو آخر والٍ كان له على المدينة حتى أتاه طارق بن عمْرو ولي عثمان فهرب.

سنة اثنتين وسبعين:

في هذه السنة قتل عَبْدُ الله بن خازم أمير خراسان، واستولى عبد الملك على خراسان على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخباره.

وفيها انتزع عبْدُ الملك المدينةَ من عَبْدِ الله بن الزُّبير، واستعمل عليها طارق بن عمرو؛ فلم يبق مع ابْنِ الزُّبير إلا مكة.

سنة ثلاث وسبعين:

في هذه السنة كان مَقْتَل عبْدِ الله بن الزبير واستقلالُ عبد الملك بن مَرْوَان بالأمر، جرْيًا على القاعدة التي قدمناها أنْ نذكر الواقعة بجملتها ونُحِيل عليها في أخبار المغلوب، وعند ذِكْرنا لمَقْتَل عبْد الله بن الزبير نذكر نبذةً من سيرته وأولاده، فلنرجع إلى أخبار الدولة الأُموية.

ذكر بيعة مروان بن الحكم

هو أبو الحكم، وقيل أبو عَبْد الملك، مَرْوان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة بن عَبْد شمس بن عَد مناف بن قُصَيّ، يجتمعُ نسبَهُ ونَسبُ معاوية في أُمية، وهو الرابع من ملوكِ بني أُمية، وكان النبيُّ ﷺ طَرَد أباه إلى بَطْن وَجّ[١]، فنزل الطائف، وخرج معه ابْنُه مروان. وقيل: إن مرْوان وُلد بالطف[٢].

---

(١) وج: بالفتح ثم التشديد: والوج: السرعة، والوج: القطا، والوج: النعام، والمراد هنا موضع في الطائف.

(٢) الطف: بالفتح، والفاء مشددة: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين ابن علي رضي الله عنه وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية. . . (معجم البلدان).

واختلف في السبب الموجب لنَفْي رسول الله ﷺ الحكَمَ، فقيل: كان يتحيّل ويستخفي ويسمع ما يُسِرُّه رسولُ الله عليه الصلاة والسّلام إلى كِبار أصحابه في مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين، وكان يُفْشِي ذلك عنه، حتى ظهر ذلك عليه؛ وكان يحْكِي رسول الله ﷺ في مِشْيته وبعْضِ حركاته، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام إذا مشى تكفَّأ(١)، فكان الحَكَم يحْكِيه(٢)، فالتفت النبيُّ ﷺ يومًا فرآهُ يفْعلُ كذلك، فقال: فكذلك فلتكُنْ. فكان الحكم مُخَلّجًا(٣) يرتعش من يومئذ، فعيَّره عبد الرحمٰن بن حسان، فقال في عَبْد الرحمٰن بن الحكم يهجوه:

إنَّ اللَّعِينَ أبوك فارْمِ عِظَامه ... إن تَرْمِ تَرْمِ مخلَّجًا مجنونا
يمشي خَمِيص البطن من عَمل التُّقى ... ويظلُّ مِنْ عملِ الخبيثِ بَطِينا(٤)

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمرْوان بن الحكم حين قال في أخيها عبد الرحمٰن ما قال: أما أنْت يا مرْوَان فأشهد أنَّ رسولَ الله ﷺ لعن أباك وأنت في صُلْبه.

وعن عَبْد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ: يدخلُ عليكم رَجُلٌ لعِين. قال عبْد الله: وكنت قد تركْتُ عمْرًا يلبسُ ليُقْبِلَ إلى النبيّ ﷺ، فلم أزَلْ مُشْفِقًا أنْ يكونَ أوّل مَنْ يدخل، فدخل الحَكَم بن أبي العاص، فلهذا قال عبد الرحمٰن بن حسان في شعره: إنَّ اللعينَ أبوك. ولم يزل الحَكَمُ طريدًا إلى خلافة عثمان بن عَفَّان فردّه إلى المدينة، وقال: إن النبيَّ عليه الصلاة والسّلام كان أذِن في رَدّه.

وكان إسلام الحكم يوم فَتْح مَكَّةَ، ومات في خلافة عثمان قبل القيام عليه بأشْهر.

ووُلِدَ مرْوَان على عهْدِ رسولِ الله ﷺ قبل سنة اثنتين من الهجرة، وقيل عام الخَنْدَق، وقيل يَوْمَ أُحُد، وقيل ولِد بمكة، وقيل بالطائف، ولم يَرَ مرْوَان رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأنه خرج إلى الطائف طِفْلاً لا يَعْقِل، وقدم المدينةَ مع أبيه في خلافة عثمان، ثم تُوفي أبوه فاستكْتَبهُ عثمان بن عفان، وضمَّه إليه، فاستولى مَرْوَان عليه، وغلب على رأيه حتى كان سبب قيام الناس على عُثمان وقتلِه.

---

(١) تكفأ في مشيته: تبختر. (٢) يحكيه: أي يشابهه.
(٣) المخلج: الذي يتمايل ويتخلع في مشيته.
(٤) البطين: الذي أصابه البطن، وهو مرض يصيب البطن.

حكى أبو عمر بن عبد البر[١] في كتابه المترجم بالاستيعاب أنَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أتى مرْوان يومًا، فقال: ويْلك وويْل أُمّةِ محمد منك ومن بنِيك إذا شابتْ ذِرَاعاك. وكان مَرْوان يقال له خيط باطِل[٢]، وضُرِب يوم الدَّارِ على قفاه فخرّ لِفيه. وفيه يقول أخوه عبد الرحمٰن بن الحكم وكان ماجِنًا شاعرًا، وكان لا يرى رَأْي مروان: [من الطويل]

فــوالله مــا أدْرِي وإنّــي لــســائــلٌ ... حليلة مضروب القَفَا كَيْف يصنع

لـحـا الـلّـهُ قـوْمًـا أمَّـرُوا خَـيْـطَ بـاطـل ... على الناس يُعطي مَنْ يشاء ويمنع

وقيل: إنه قال ذلك حين ولاّه معاوية المدينة، وكان كثيرًا ما يهجوه.

وأم مَرْوَان آمِنة بنت عَلْقمة بن صفوان، وكان مَرْوَان قصيرًا رقيقًا أوْقَص[٣]، بُويعَ له بالجَابِيَة[٤] يوم الخميس لسَبْع بَقِين من شهر رجب سنة أربع وستين، وقيل في ذي القعدة منها.

ذكر السبب في بيعة مروان

كان سبَب بَيْعَته أن عبدَ الله بن الزُّبَيْر لما بُويع له بالحجاز والعراق استعمل أخاه عُبَيْدَة بن الزُّبَيْر على المدينة، فأخرج مَرْوَان بن الحكم وابْنَه منها إلى الشام؛ فلما قدم الحُصَيْن بن نُمَيْر ومَنْ معه إلى الشام أخبر مرْوان بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولِبَنِي أُمية: أقِيموا أمْرَكم قبل أنْ يدخل عليكم شامكم، فتكون فتنة عمْياء صماء. وكان مِنْ رَأْي مرْوان أنْ يسير إلى عبْد الله بن الزُّبيْر فيبايعه، فلما قدم عُبيد الله بن زياد من العراق قال لمروان: لقد استحييت لك من ذلك، وأنت كبيرُ قريش وسيِّدُها؛ وقَبّح ذلك عليه، فقال: ما فات شيء بعْدُ، وقام إليه بنو أُميّة ومواليهم فتجمع إليه أهْلُ اليمن، فسار إلى دمشق فقدمها والضحّاك بن قَيْسٍ الفِهْرِي يصلّي بالناس قد بايَعُوه على ذلك إلى أن يتَّفِقَ رأيُ الناس على إمام، وهو يَدْعُو إلى ابْنِ الزبير سرًّا، والنعمان بنُ بشِير الأنصاري بِحِمْص يُبَايع له أيضًا. وكان حسانُ بن مالك بن بَحْدَل الكلبي غلامًا لمعاوية وابنه يزيد بفلسطين وهو يريد بَنِي أُمية.

---

(١) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان، وغيرهما. . كانت وفاته ثلاث وستين وأربعمائة. . . (وفيات الأعيان ٧: ٦٦).

(٢) خيط باطل: الهواء أو ضوءٌ يدخل من الكوّة.

(٣) الأوقص: قصير العنق.

(٤) الجابية: قرية من أعمال دمشق.

فكتب حسان إلى الضحاك كتابًا يعظِّم فيه حَقَّ بني أُمية وحُسْنَ بلائهم، ويذمّ ابْنَ الزّبيْر، وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابَه على الناس. وكتب كتابًا آخر، وسلَّمه إلى رسوله واسمه ناغِضَة، وقال له: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلاَّ فاقْرَأْ هذا الكتاب عليهم.

وكتب حسان إلى بني أُمية أن يحضروا ذلك، فقدم نَاغِضَة، فدفع كتابَ الضحَّاكِ إليه وكتابَ بني أُمية إليهم.

فلما كان يوم الجمعة صعد الضحّاك المنبر، فقال له ناغضة: اقرأ كتابَ حسّان على الناس. فقال له: اجلس، فجلس، ثم قام الثانية والثالثة وهو يأْمره بالجلوس، فأخرج ناغِضَة الكتابَ الذي معه، وقرأه على الناس، فقام يزيد بن أبي النمس الغسّاني، وسُفيَان بن الأبرد الكلبي، فصدّقا حسانًا، وشتمَا ابنَ الزبير، وقام عمرو بن يزيد الحكمي فشتمَ حسانًا، وأثنى على ابن الزُّبَيْر، واضطرب الناس، فأمر الضحاك بيزيد وسفيان فحُبِسا، ووثبَتْ كلْب على عمرو بن يزيد فضربوه وخَرَقُوا ثيابهُ، وقام خالد بن يزيد، فسكنَ الناس، ونزل الضحّاك فصلَّى الجمعةَ بالناس، ودخل القَصْرَ فجاءت كَلْب فأخرجوا سفيان، وجاءت غَسّان فأخرجوا يزيد، وكان أهلُ الشام يُسَمُّون ذلك اليوم يوم جَيْرُون الأول[١].

ثم خرج الضحاك بن قَيْس إلى المسجد، وذكر يزيد بن معاوية فسبَّه، فقام إليه شابٌّ من كَلْب فضربه بعصًا، فقام الناسُ بعضهم إلى بعض فاقتتلوا؛ فقَيْسٌ تَدْعو إلى ابن الزبيْر ونُصْرَة الضحاك، وكَلْب تَدْعُو إلى بني أُمية.

ودخل الضحاك دَار الإمارة، ولم يخرج من الغَدِ لصلاةِ الفَجْرِ، وبعث إلى بني أُميَّة فاعتذر إليهم، وأنه لا يريدُ ما يكرهون، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان، ويكتب معهم ليسير من الأُرْدنّ إلى الجابِية، ويسيرون هم من دمشق إليها فيجتمعون بها ويبايعون لرجلٍ من بني أُمية، فرضُوا، وكَتَبُوا إلى حسّان، وسار الضحَّاك وبنو أُمية نحو الجابِيَة، فأتاه ثور بن معْن السُّلَمي، فقال: دعوتنا إلى ابْن الزُّبيْر فبايعْنَا على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي مِنْ كَلْب يستخلف ابْنَ أُخته خالد بن يزيد.

(١) جيرون: بالفتح: حصن عند باب دمشق، من بناء سليمان بن داود. وقيل: إن الشياطين بنته، وهي سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف وحولها مدينة تطيف بها... وقيل غير ذلك... (معجم البلدان لياقوت).

قال الضحاك: فما الرأيُ؟ قال: الرأيُ أن نُظْهِر ما كنَّا نكتم ونَدعو إلى ابْنِ الزُّبير، فرجع الضحاك بمنْ معه من الناس، فنزل مرْجَ راهط ودمشقُ بيده، واجتمع بنو أُمية وحسَّان وغيرهم بالجابِيَة، فكان حسَّان يُصلِّي بهم أربعين يومًا والناسُ يتشاوَرُونَ، وكان مالك بن هُبيْرة السَّكونِي يهْوي خالد بن يزيد والحُصيْن بن نمير يميل إلى مَرْوان، فقال مالك للحُصيْن: هلمّ نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابْنُ أُختنا، وقد عرفْت منزلتَنا من أبيه، فإنه يحْمِلنا على رِقَاب العرب. يعني خالد بن يزيد. فقال الحُصَيْن: لا والله لا تأْتينا العَرَبُ بشَيْخٍ ونأْتيها بصبيّ. فقال مالك: والله لئن استخلفْتَ مرْوان ليحسدنَّك على سَوْطِك وشِراكِ نَعْلِك وظلِّ شجرة تستظلُّ بها، إنّ مرْوَان أبو عشرة وأخو عشرة وعَمُّ عشرة، فإن بايعْتموه كنْتم عبيدًا لهم، ولكن عليكم بابْنِ أُختكم خالد، فقال الحُصيْن: إني رأيْت في المنام قِنْدِيلاً معلَّقًا من السماء وأن مَنْ يلي الخلافةَ يتناوله، فلم ينله إلاَّ مروان؛ واللّهِ لنستخلفنَّه.

وقام روْح بن زِنْباع الجُذامي فقال: أيُّها الناس، إنكم تذكرون عبْدَ الله بن عُمر وصُحْبته وقَدَمه في الإسلام، وهو كما تذكرُونَ، ولكنه ضعيف، ولس بصاحِب أُمَّة محمد الضعيفُ، وتذكرون ابْنَ الزبير وهو كما تذكرون، إنه ابْن حوَارِيّ رسول الله ﷺ، وأُمُّه ذات النِّطَاقَيْن، ولكنه منافِق قد خَلَع خَلِيفتَيْن: يزيد، وابنه معاوية، وسفَكَ الدماء، وشقَّ عصا المسلمين، وليس المنافق بصاحبِ أُمَّةِ محمد.

وأما مرْوان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدْعٌ إلا كان ممن يشْعبُه، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل عليّ بن أبي طالب يوْم الجَمَل، وإنّا نَرى للنَّاس أنْ يُبايعوا الكبير، ويستشبُّوا[1] الصغيرَ - يعني بالكبير مرْوان، وبالصغير خالد بن يزيد - فأجمع رَأْيهُم على البيْعةِ لمَرْوَان، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعَمْرو بن سَعِيد بن العاص من بعْدِ خالد، على أنَّ إمرة دمشق لعمْرو، وإمْرَة حِمْص لخالد.

فدعا حَسَّان خالدًا، فقال: يا بْنَ أُختي؛ إنَّ الناس قد أَبَوْكَ لحداثةِ سنِّك، وإني واللّهِ ما أُرِيدُ الأمْرَ إلاّ لكَ ولأهل بيتك، وما أُبايعُ مرْوَانَ إلا نظَرًا لكم. فقال خالد: بل عجِزْت عنا. فقال: والله ما أنا عجزت، ولكن الرأي لك ما رأيتُ.

ثم بايعُوا مَرْوان لثلاثٍ خَلَوْن من ذي القعدة سنة أربع وستين، وقال مرْوَان حين بويع له: [من الرجز]

(١) استشب: اختار الشبان لعمل ما.

لـمـا رأيـتُ الأمْـرَ أمْـرًا نـهْـبـا يـسَّـرْتُ غَـسَّـانَ لَـهُـمْ وكَـلْـبـا
والـسَّـكْـسـكِـيِّـيـن رجَـالاً غـلْـبـا وطـيِّـئًـا تـأبـاهُ إلاَّ ضـرْبـا[1]
والقَـيْـن تـمشـي في الـحديد نُكْبا ومـن تَـنوخَ مُـشـمخِـرا صعْـبـا[2]
لا يـأخـذونَ الـمُـلْـكَ إلا غـصْـبـا فـإن دنَـتْ قَـيْـسٌ فَـقـلْ لا قـرْبـا

ذكر موقعة مرج راهط[3]

وقتل الضحاك بن قيس بن خالد الفِهْري والنعمان ابن بشير بن سَعِيد بن تغْلب الأنصاري الخَزْرجي

قال: ولمَّا بُويع مرْوَان بن الحكم سار من الجابِية إلى مرْج رَاهِط، وبه الضحاك بن قيْس ومَنْ معه؛ وكان الضحاك قد استمدّ النعمان بن بشير وهو على حِمْص؛ فأمدَّه بشرحبيل بن ذِي الكَلاَع، واستمدّ أيضًا زُفَر بن الحارث فأمدّه بأهل قنَّسْرين[4]، وأمده نَاتِل بأهلِ فلسطين، وكان ناتِل بن قَيْس قد وثب بفلسطين لَمّا خرج منها حسّان بْنُ مالك إلى الأُرْدُنّ، وأخرج خليفته روْح بن زِنْبَاع، وبايع نَاتِل لابْنِ الزبير، فاجتمعت هذه الأمْدادُ مع الضحاك.

واجتمع إلى مرْوَان كَلب، وغَسّان، والسَّكَاسِك، والسَّكُون؛ وجعل على مَيْمَنتِه عمْرو بن سعِيد، وعلى ميسرته عُبَيد الله بن زياد، وكان يزيد بن أبي النِّمس الغساني مُخْتَفِيًا بدمشق لم يحضر الجابِيَة، فغلب على دِمَشْق، وأخرج عنها عامِلَ الضَّحاك بن قَيْس، واستولى على الخزائن وبَيْتِ المال، وبايع لمَرْوَان، وأمدّه بالأموال والرجال والسلاح، فكان ذلك أول فَتْحٍ على بني أُمية.

وتحارب مَرْوَان والضحاك بمَرْج رَاهِط عشرين ليلة؛ واقتتلوا قتالاً شديدًا؛ فقُتِل الضحاك، قتلَه زُحْنَة بن عَبْد الله الكلبي، وقُتِل معه ثمانون رجلاً من أشراف الشام، وقُتلت قيس مقْتلةً عظيمة لم تقتل مثلها في مَوْطنٍ قطّ، وكان ممن قتل هانىء بن

(١) السكاسك والسكون من رجال بني زيد بن كهلان وقبائلهم، وهما ابنا أشرس بن ثور بن كندي... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) القين: العبد، أو الصانع.

(٣) مرج راهط: موضع بنواحي دمشق.

(٤) قنسرين: بكسر أوله، وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ثم سين مهملة: مدينة طولها ثلاث وثلاثون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وثلث، وفي جبلها مشهد يقال إنه قبر صالح النبي عليه السلام، وفيه آثار أقدام الناقة، والصحيح أن قبره باليمن بشبوة، وقيل بمكة، والله أعلم... (معجم البلدان لياقوت).

قبيصة النميري سيِّد قومه، قتله وازع بن ذُؤالَة الكلبي، فلما سقط جريحًا قال: [من الطويل]

تعِسْتَ ابن ذات النوْفِ أجْهِزْ عى فتًى يـرى الـمَـوْتَ خَـيْـرًا مـن فِـرَارٍ وأكْـرَمَـا
ولا تـتـرُكَـنِّـي بـالـحـشـاشـة إنـنـي صبُور إذا ما النِّكْسُ مِثلُكَ أحجما[1]

فعاد إليه وازع فقتله، وكانت هذه الوقعة في المحرم سنة خمس وستين.

وقيل: كانت في آخر سنة أربع وستين.

ولما أُتي مرْوَان برأْسِ الضحاك ساءه ذلك، وقال: الآن حين كبِرَتْ سِنِّي ودقَّ عظْمي أقبلْتُ بالكتائِب أضْرِبُ بعْضَها ببعض.

وقيل: إنَّ الضحّاك كان في ستين ألف فارس ومَرْوَان في ثلاثة عشر ألفًا.

حكى المدائني[2] في كتاب المكايد له، قال: لما التقى مَرْوَان والضحاك بمرْج راهِط قال عُبيْد الله بن زياد لمَرْوان: إن فرْسان قيْسٍ مع الضحاك فلا ننال منه ما نريد إلاً بكيْدٍ، فأرْسِلْ إليه فاسأله المُوَادَعةَ حتى ننظرَ في أمرك، على أنك إنْ رأيْت البيعة لابْنِ الزبير بايعْتَ، ففعل فأجابه الضحاك إلى الموادعَة، وأصبح أصحابُه قد وضعوا سِلاحهم، وكفُّوا عن القِتَال، فقال ابن زياد لمروان: دونك، فشَدَّ مَرْوَان ومَنْ معه على عسْكَرِ الضحاك على غَفْلَةٍ منهم وانتشارٍ، فقتلوا مِنْ قيس مقتَلَةً عظيمة، وقُتل الضحاك يومئذ فلم يضحك رجالٌ من قيس بعد يَوْم المَرْج حتى ماتوا.

وقيل المكيدة كانت من عُبيْد الله بن زياد، كاد بها الضحاك. وقال له: ما لكَ والدعاء إلى ابن الزبير! وأنت رجل قرشي ومعك الخَيْل، وأكْثَرُ قيس؟ فادْعُ لنفسك، فأنت أسنُّ منه وأولى.

ففعل الضحاكُ ذلك، فاختلف عليه الجنْدُ، فقاتله مَرْوان عند ذلك فقتل. والله أعلم.

(١) النكس: الضعيف، أو الرذل المقصر عن غاية النجدة والكرم.

(٢) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، المدائني (أبو الحسن) مؤرخ، إخباري، راوية للشعر، ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن، ثم انتقل عنها إلى بغداد، وروى عنه الزبير بن بكار وغيره، وتوفي بها سنة ٢٢٥ هجرية. من تصانيفه الكثيرة: أمهات النبي ﷺ، أخبار المنافقين، عهود النبي، كتاب الردة، ومقتل الحسين عليه السلام... (معجم المؤلفين كحالة ٧: ٢١١).

قال: ولما انهزم الناس من المَرْج لحقوا بأجْنَادهم، فانتهى أهْلُ حِمْص إليها وعليها النعمانُ بن بشِير، فلما بلغه الخَبَرُ خرج هاربًا ومعه امرأتُه نائلة بنت عُمَارة الكَلْبيّة وثَقَلُه وأولاده، فتحيّر ليلَتَه كلها، فأصبح أهل حِمْص فطلبوه، وكان الذي طلبه مروان بن الخَليّ الكَلاَعي فقتله.

وقيل: اتبعه خالد بن عديّ الكَلاَعي فيمن خفَّ معه من أهل حِمْص فلحقه فقتله وبعث برأسه إلى مَرْوان.

وقال علي بن المديني: قُتِل النعمان بن بَشير بحمص غِيلةً قتلَه أهلُها.

وقيل: قُتِل بقرية من قُرَى حمص يقال لها تِيْزِين(١). والنعمان من الصحابة، وُلد قبل وفاة رسولِ اللّهِ ﷺ بثماني سنين.

قال: ولما بلغت الهزيمةُ زُفَرَ بن الحارث الكلابي بِقِنّسْرِين هربَ منها، فلحق بقرْقِيسيا(٢) وعليها عِياض الجُرَشي، وكان يزيد بن معاوية ولاَّهُ إياها، فطلب منه أن يدخل الحمَّام ويَحْلِف له بالطلاق والعِتاق أنه إذا خرج من الحمَّام لا يُقيم بها، فأذِن له، فدخلها، فغلب عليها وتحصَّنَ بها، ولم يدخل حمَّامها، واجتمعت إليه قيس. وهرب ناتل بن قَيْس الجُذَامي من فلسطين، فلحق بابْنِ الزبير بمكّة؛ واستعمل مرْوَانُ بعْده على فلسطين روح بن زِنْبَاع، واستوثق الشام لمَرْوَان.

وقيل: إن عُبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بني أُمية وهُمْ بتَدْمر(٣)، ومَرْوَان يريد أن يسيرَ إلى ابْنِ الزُّبير فيُبَايعه ويأخذ منه الأمانَ لبني أُمية، فردّه عن ذلك، وأمره أنْ يسير بأهْلِ تَدْمُر إلى الضحاك فيقاتله، وواقفه عَمْرو بن سعيد، وأشار على مَرْوان أن يتزوَّج أُم خالد بن يزيد ليسقُط من أعْيُنِ الناس، فتزوجها، وهي فاخِتَة ابنة أبي هاشم بن عُتْبة، ثم جمع بني أُمية فبايعوه، وبايعه أهل تَدْمُر.

وسار إلى الضحاك في جَمْعٍ عظيم، وخرج الضحاكُ إليه، فاقتتلا، فقُتل الضحاكُ، وسار زُفَر بن الحارث إلى قَرْقِيسياء، وصحِبهُ في هزيمته شابان من بني سُلَيم؛ فجاءت خَيْلُ مرْوان في طلبه، فقال الشابان له: انجُ بنفسك، فإنَّا نحن نقتل. فمضى زفر وتركهما فقتلا، وقال زُفَرَ في ذلك: [من الطويل]

(١) تيزين: قرية كبيرة من نواحي حلب.

(٢) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور (المراصد).

(٣) تدمر: بالفتح ثم السكون، وضم الميم: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وين حلب خمسة أيام. . . (معجم البلدان).

أرِيـنـي سِـلاَحِـي لا أبـا لـكِ إنَّـنـي ... أرَى الـحـرْب لا تَـزْدَادُ إلاَّ تَـمـادِيـا
أتـانِـيَ عـنْ مـرْوَانَ بـالـغَـيْـبِ أنـه ... مُـقِـيـدٌ دمِـي أو قـاطِـعٌ مِـنْ لِـسَـانِـيَـا
ففي العيش مَنْجاةٌ وفي الأرضِ مَهْرَبٌ ... إذا نـحـن رَفَّـعْـنَـا لـهـنَّ الـمَـثَـانِـيـا
فـلا تـحْـسِـبُـونـي إنْ تـغـيّـبتُ غَـافِـلاً ... ولا تَـفْـرَحُـوا إنْ جِـئْـتُـكُـم بـلِـقَـائِـيـا
فقد ينبُت الـمَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتـبـقـى حَـزَازاتُ الـنـوسِ كـمـا هِـيَـا
لـعـمْـرِي لـقـد أبـقَـتْ وَقـيـعـةُ راهِـطٍ ... لـحـسَّـان صَـدْعًـا بـيـنـنـا مُـتَـنـائـيـا
فـلـم تُـر مِـنِّـي نَـبْـوَةٌ قَـبْـل هَـذه ... فِـرَارِي وتَـركـي صـاحِـبَـيَّ وَرائـيـا[1]
عـشـيَّـةَ أدْعُـو بـالـقِـرَانِ فـلا أرَى ... مِـنـع الـنـاس إلاَّ مَـن عـلَـيَّ ولا لِـيـا
أيَـذهَـبُ يـومٌ واحـدٌ إن أسـأتُـه ... بـصـالِـح أيـامـي وحُـسْـنِ بَـلائِـيـا
فلا صُلْح حتى تَنْحِطَ الخَيْلُ بالقَنَا ... ويَـثْـأر مِـنْ نِـسْـوَان كَـلْـبٍ نِـسَـائـيـا

فأجابه جوَّاس بن القَعْطَل[2]: [من الطويل]

لـعَـمْـرِي لـقـد أبـقـت وَقِـيـعـةُ راهِـطٍ ... عـلـى زُفَـرٍ داءً مـن الـداءِ بـاقِـيـا
مُقِيمًا ثَوَى بين الضُّلوع مَحَلُّه ... وبين الحشا أعْيا الطبِيب المُداويا
تُـبَـكِّـي عـلـى قَـتْـلَـى سُـلَـيـم وعـامِـرٍ ... وذُبْـيَـانَ مـغْـذُورًا وتُـبـكـي الـبـوَاكِـيـا
دعـا بـسـلاحٍ ثـم أحـجـم إذْ رَأى ... سـيـوفَ جـنـابٍ والـطّـوَالَ الـمَـذَاكِـيَـا
عـلـيـهـا كـأُسْـدِ الـغـاب فـتْـيـانُ نـجـدة ... إذا أشْـرَعُـوا نَـحْـو الـطِّـعَـان الـعـوالـيـا

ذكر مسير مروان إلى مصر
واستيلائه عليها

قال: ولما قُتل الضحاكُ واستقرَّ الشامُ لمَرْوَان سار إلى مِصْر فقدمها، وعليها عَبْد الرحمٰن بن جحدر الفِهْرِي يَدْعُو لابن الزُّبيْر، فخرج إلى مَرْوان فيمن معه، وبعث مَرْوان عمْرو بن سعِيد مِنْ ورائه، حتى دخل مصر، فقيل ذلك لابن جحدر، فرجع فبايَع الناس مرْوان، وجاء مرْوان إلى مصر، ودخل الدار البيْضَاء، ثم سار عنها واستعمل عليها ابْنَه عبد العزيز بن مرْوان، واستقرّ مرْوان بدمشق.

(١) المراد بصاحبيه: ابنه كعب، ومولاه مسكان (شرح الحماسة).
(٢) هو جواس بن القعطل بن سويد بن حارث الكلبي.

ذكر البيعة لعبد الملك وعبد العزيز ابني مروان ابن الحكم بولاية العهد

وفي سنة خمس وستين أمر مَرْوان بالبيْعةِ لابنيه: عبد الملك، وعبد العزيز، وكان سبب ذلك أن عمْرو بن سعِيد كان قد توجّه إلى فلسطين، وقاتل مُصْعَب بن الزبير حين وجّهه أخوه عبد الله إليها فهزم مُصْعبًا، ورجع إلى مرْوان وهو بدمشق، وقد غلب على الشام ومِصْر، فبلغ مرْوان أنَّ عَمْرو بن سعيد يقول: إن الأمْرَ لي مِنْ بعْد مرْوان، فدعا حسانَ بن مالك بن بَحْدَل، فأخبره بما بلغه عن عمْرو، فقال: أنا أكفيك عَمْرًا. فلما اجتمع الناسُ عند مَرْوان قام حسان فقال: إنَّه بلغني أنَّ رجالاً يتمنَّوْن أمانيّ، قومُوا فبايِعُوا لعبْدِ الملك وعبد العزيز من بَعْدِه، فبايعوا من عند آخرهم.

وفي هذه السنة بعث مرْوان بن الحكم بعْثَيْن: أحدهما مع عُبيد الله بن زِياد إلى الجزيرة ومحاربة زُفَر بن الحارث بقرْقِيسيَا، واستعمله على كل ما يفْتَتِحُه، فإذا فرغ من الجزيرة توجَّه لقَصْدِ العراق. فلما كان بالجزيرة بلغه موتُ مرْوان، وأتاه عهْد عبد الملك بن مروان يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثُّه على المسير إلى العراق.

والبعث الثاني مع حُبَيْش بن دَلْجةَ القَيْنِي، فسار حتى انتهى إلى المدينة وعليها جابر بن الأسود بن عَوْف ابن أخي عَبْد الرحمٰن بن عَوْف من قِبَل ابْنِ الزبير، فهرب منه جابر.

ثم إن الحارث بن أبي ربيعة وجَّه جَيْشًا من البَصْرة وجعل عليهم الحَنْتفَ بن السِّجْف التميمي لحَرْب حُبَيْش. فلما سمع بهم حُبَيْش سار إليهم من المدينة، وأرسل عَبْدُ الله بن الزبير عَبّاس بن سهل الساعدي إلى المدينة أميرًا، وأسره أن يسير في طلب حُبَيْش حتى يُواف يجيْشَ البصرة، فأقبل عبّاس في آثارهم حتى لحقهم بالرَّبذَة فقاتلهم حُبيش، فرماه يزيد بن سِياه بسَهْم فقتله وكان معه يومئذ يوسف بن الحَكَم، وابنُه الحجَّاج بن يوسف، وهما على جَمَلٍ واحدٍ، وانهزم أصحابُه فتحرّز منهم خمسمائة بالمدينة، فقال لهم عباس: انْزِلُوا علَى حُكْمِي، فنزلوا فقتلهم، ورجع فَلّ[1] حُبيْش إلى الشام.

(١) الفلّ: المنهزمون.

ذكر وفاة مروان بن الحكم

كانت وفاتُه في شهر رَمَضان سنة خمس وستين. قيل: مات بالطاعون. وقيل: بل كان سببُ موتِه أنه لما بُويع بالخلافةِ أراد حسّان بن بحْدَل أنْ يجعلَ الأمْر من بعده لخالد بن يزيد بن معاوية، فبايعه على ذلك، فقيل لمرْوان: الرأيُ أن تتزوَّج أُمَّ خالد تكفل ابنها حتى يصغر شأنه فلا يطلب الخلافةَ. فتزوّجها.

وقد ذكرنا ذلك، فدخل خالدٌ يومًا على مَرْوان، وعنده جماعةٌ فنظر إليها وهو يمشي بين الصفَّين فقال: إنَّه والله لأحمق، تعال: يا بْنَ الرطْبةِ الاسْتِ، يريد بذلك إسقاطَه مِنْ أعين أهْل الشام، فقال له خالد: مؤتمن خائن. فندم مَرْوان، ثم دخل خالد على أُمِّه، فقال: هكذا أردت، يقول لي مرْوَان على رؤوس الناس كذا وكذا. فقالت له: لا يُعْلَمنَّ ذلك منك، فأنا أكفيك، فواللّهِ لا ترى بعْدُ منه شيئًا تكرهه، وسأُقرِّب عليك ما بَعُد.

ثم دخل مَرْوَان عليها، فقال لها: قال لك خالد فيّ شيئًا؟ قالت: إنه أشدُّ تعظيمًا لك مِنْ أنْ يقولَ فيك شيئًا. فصدَّقها، ومكثَتْ أيامًا بعد ذلك، فنام مَرْوان عندها في بعض الأيام، فوضعَتْ على وَجْهه وِسَادَةً، وجلستْ عليها حتى مات. وهو معدودٌ ممَّنْ قتلَه النساء.

ومولده سنة اثنتين من الهجرة، وكان عمره ثلاثًا وستين سنة. واختلف فيه إلى نَيِّف وثمانين سنة. وصلَّى عليه ابْنُه عبدُ الملك، وكانت ولايته منذ جُدّدتْ له البيْعةُ عشرةُ أشهر تقريبًا، وكان سلطانه بالشام ومصر.

أولاده: عبد الملك، ومعاوية، وعمرو، وعُبيد الله، وعَبْد الله، وأبَان، وداود، وعبد العزيز، وعبد الرحمٰن، وبِشر، ومحمد، وأُم عمار.

كاتبه: سفيان الأحول. وقيل: عُبيْد الله بن أوس.

قاضيه: أبو إدريس الخولاني.

حاجبه: أبو سهْل مولاه.

نقش خاتمه: الله ثِقَتِي ورَجائِي.

* * *

ومَرْوَان أوّل مَنْ قَدَّم الخطبةَ قبل صلاةِ العيد، وكان يقال له ولولده بنو الزَّرْقَاء، يقول ذلك منْ يريد ذَمَّهم وعَيْبهم، وهي الزرقاء بنت موهب جدّة مرْوَان لأبيه، كانت من ذوات الرايات التي يُستدلّ بها على بيوتِ البغايا؛ فلهذا كانوا يُذمّون بها، ولعل هذا منها كان قبل أن يتزوَّجَها أبو العاص بن أُمية والد الحكم، فإنه كان مِنْ أشرافِ قُريش، ولا يكون هذا من امرأةٍ وهي عنده. والله أعلم.

ذكر بيعة عبد الملك بن مروان

هو أبو الوليد عبْد الملك بن مَرْوَان بن الحكم، وهو الخامس من ملوكِ بني أُمية.

وأُمه عائشة بنْتُ المغيرة بن أبي العاص، وهو أوَّل مَنْ سُمِّي عبد الملك في الإسلام، ولُقِّب رشح الحَجر[١] لبُخْله، ولُقِّب أيضًا بأبي الذِّبَّان لبخره[٢]. وقيل: إن السبب في بخره أنه كان يَتْلُو القرآنَ في المصحف، فأفضت الخلافةُ إليه وهو يَتْلُو، فَردّ المصحفَ بَعْضَه على بَعْض، وقال: هذا فِرَاقُ بَيني وبينك، يُشير بهذا الكلام إلى المصحف فبَخِر لوقْتِ، وعجزت الأطباءُ عن مداواته، فكان لا يمرُّ ذُباب عن فِيه إلا مات لوقته، وكان أفْوَه مفتوحَ الفَم مُشَبَّك الأسنان بالذَّهب.

بويع له في شهر رَمضان سنة خمس وستين بعد وفاةِ أبيه، وكان وليَّ عَهْدِه كما تقدّم، وأراد عَبْدُ الملك أن يقتلَ أُمَّ خالد، فقيل له: يظهر عند الناس أنّ امرأةً قتلَتْ أباك، فتركها، وكان عبدُ الملك وُلِد لسبعة أشهر، فكان الناس يذمُّونه بذلك.

قيل: إنه اجتمع عنده قومٌ من الأشراف، فقال لعُبَيد الله بن زياد بن ظبيان البَكْري: بلغني أنكَ لا تُشْبِه أبَاك! فقال: والله إني لأشْبَهُ به من الماء بالماء والغرابِ بالغراب، ولكن إن شئْتَ أخْبَرْتُك بمن لم تُنْضِجْه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يُشْبه الأخْوال ولا الأعْمَام. قال: مَنْ ذاك؟ قال: سُوَيد بن مَنْجُوف.

فلما خرج عُبيد الله وسُويد قال له سُويد: والله ما يسرُّني بمقالتك له حُمْر النعم[٣]. فقال عُبيْد الله: وما يسرُّني والله باحتمالك إياي وسكوتك عني سودُها.

قال: وكان أول ما بَدأ به عَبْدُ الملك أنْ كتب إلى عُبيد الله بن زياد واستعملَه على ما كان مَرْوَان قد استعمله عليه، فكان من أخبار ابن زِياد في مسِيره وحُروبه ومَقْتَله ما قدَّمْنَاه في أخبار عبْدِ اللّهِ ابن الزبير، فلا حاجة لنا إلى إعادته ههنا، فلنذكر هنا أخبار عَبْدِ الملك غير ما قدمنا ذكره:

---

(١) رشح: عرق.
(٢) البخر: الرائحة الكريهة من الفم.
(٣) النعم: الإبل.

في سنة ست وستين أرسل عَبْدُ الله بن عباس ابْنَهُ عليّ بن عَبْد الله إلى عَبْد الملك، وقال: لأن يرُبّني بنو عَمّي أحبُّ إليّ من أن يرُبَّني رجُلٌ من بني أسد - يعني بني عمِّه بني أُمية، لأنهم كلهم أولاد عبد مناف، ويعني بالرجل من بني أسد عبْد الله بن الزُّبير.

فلما وصل إلى عبد الملك سأله عن اسْمِه وكنْيَتِه، فقال: الاسم عليّ، والكنية أبو الحسن. فقال عبد الملك: لا يجتمع هذ الاسم وهذه الكنية في عَسْكري أنْتَ أبو محمد.

ذكر مقتل عمرو بن سعيد الأشدق وشيء من أخباره ونسبه

هو عَمْرو بن سَعِيد بن العاص بن أُمية بن عَبْد شمس بن عبد مناف، ويسمى عَمْرو اللطيم لميل كان في فَمِه، فمن أجل ذلك قيل له لطيم الشيطان، ويُسَمَّى الأشدق لتشادُقِه في الكلام، وكان من فُصحاء قُريش وأهل الخطابة منهم. وقيلَ في تسميته الأشدق: إنه لما مات سعِيد والده دخل عَمْرو على معاوية فاستنطقه، فقال: إن أوّل مركب صَعْب. فقال له معاوية: إلى مَنْ أوْصَى بكَ أبوكَ؟ فقال: إن أبي أوصاني ولم يُوص بي. قال: فبأي شيء أوصاك؟ قال: ألاَّ يفقد منه أصحابُه غَيْرَ شَخْصه. فقال معاوية: إن عَمْرًا هذا لأشدَق.

ولنذكر سبب مقتله ثم نذكر نَبذة من أخبار آبائه:

كان سبب مَقْتَله أنّ عَبْد الملك بن مَرْوَان سار في سنة تسع وستين من دِمَشق يريد قَرقِيسياء، يريد زُفَرَ بن الحارِث الكلابي، وصَحِبه عَمْرو بن سَعِيد في سيره، فلما بلغ بُطْنَان[1] حَبِيب رجع عَمْرو ليلاً ومعه حُميد بن حُريث وزهير بن الأبْرَد الكَلْبيَّان، فأتى دمشق وعليها عبد الرحمٰن ابن أُم الحكم الثقفي خليفة عبد الملك بها، فهرب عنها ودخلها عمرو، فغلب عليها وعلى خزائنها، وهدم دار ابن أُم الحكم؛ واجتمع النّاسُ إليه، فخطبهم ومنّاهم ووعدَهم، وأصبح عَبْدُ الملك وقد فقد عَمْرًا، فسأل عنه فأُخبِر برجوعه، فرجع إلى دمشق، فقاتله أيامًا، ثم اصطلحا، وكتبا بينهما كتابًا، وأمّنه عَبْدُ الملك، فجاءه عَمْرو واجتمعا، ودخل عَبْدُ الملك دِمَشق.

(١) بطنان: بالضم ثم السكون، ونونان بينهما ألف: اسم واد بين منبج وحلب، بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة، فيه أنهار جارية وقرى متصلة... (معجم البلدان).

فلما كان بعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عَمْرو يَسْتَدْعيه، فأتاه الرسولُ وعنده عبدَ الله بن يزيد بن معاوية، فنهاه أنْ يأْتِيَه، فقال عمرو: ولـم؟ قال: لأنّ تُبيْع ابن امرأة كَعْب الأحبار قال: إن عظيمًا من وَلد إسماعيل يرجع فيُغْلِقُ أبوابَ دمشق، ثم يخرج منها، فلا يلبَثُ أن يُقتل. فقال عمرو: والله لو كنتُ نائمًا ما أنْبَهَنِي ابنُ الزرقاء ولا اجْتَرأ عليّ، مع أني رأيت البارحة عُثْمَان في المنام، فألبسني قميصَه.

ثم قام فلبس دِرعًا وغطّاها بالقَباء[1]، وتقلّد سيفًا، وذلك بعد أن صرف رسولَ عبد الملك، فلما نهض عثر بالبِساط، فقال له حُميد ابن حُريث: والله لو أطعتَنِي لم تَأْتِهِ، وقالت له امرأته الكَلْبِية كذلك، فلم يلتفت، ومضى في مائة من مواليه.

فلما بلغ بابَ عبد الملك أُذِن له فدخل فلم يَزَلْ أصحابُه يُحْبَسون عند كل بابٍ حتى بلغ قاعةَ الداره، وليس معه إلا وصِيف واحد، فنظر عَمْرو إلى عبْدِ الملك وإذا حولَه بنو مَرْوَان، وحسّان بن بَحْدَل الكلبي، وقبيصة بن ذُؤيْب الخُزاعي، فلما رأى جماعتَهم أحسَّ بالشر، فالتفت إلى وصيفه، وقال له: انطلق إلى أخي يحيى، وقل له يأتيني، فلم يفهم الوصِيف عنه، فقال: لبيك! فقال عمرو: اغرُب في حرق الله وناره، وأذِن عَبْدُ الملك لحسّان وقبيصة فقاما، فلقيا عمْرًا، فقال عمْرو لقَبِيصة: انطلق إلى يحيى فمُرْه أنْ يأْتيني، فقال: لبيك! فقال: اغرب عني.

فلما خرج حسّان وقبيصة أُغلِقت الأبواب، ودخل عمْرو فرحّب به عبْدُ الملك، وقال: ههنا يا أبا أُميّة! فأجلسه معه على السرير، وحدّثه طويلاً، ثم قال: يا غلام، خُذِ السيفَ عنه. فقال عمْرٌو: إنّا لله يا أميرَ المؤمنين! فقال عَبْدُ الملك: أتطمع أن تَجْلِسَ معي متقلّدًا سيْفك؟ فأُخذَ السيفُ عنه، ثم تحدّثا، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أُمية، إنك حيْثُ خلعتني آليتُ بيمين إنْ أنا ملأتُ عيني منك وأنا مالكٌ لك أنْ أجعلك في جامعة[2]، فقال له بنو مروان: ثم تُطْلقه يا أميرَ المؤمنين؟ قال: نعم، وما عسيت أن أصنع بأبِي أُمية! فقال بنو مرْوان: أبرّ قَسَم أمير المؤمنين. فقال عمرو: قد أبرّ اللّهُ قسمك يا أمير المؤمنين، فأخرج مِنْ تحت فراشه جامعةً، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فجمعه الغلام فيها، فقال عَمْرٌو: أُذكرك الله يا أميرَ المؤمنين أن تُخْرجني فيها على رؤوس الناس؛ فقال عبد الملك: أمكرًا وأنتَ في الحديد! لا، واللّهِ ما كُنّا لنُخْرجَك في جامعةٍ على رؤُوس الناس، ثم جذبه جَذْبةً أصاب فمه السريرُ فكسر ثنيَّتيه، فقال: أذكرك الله يا أمير المؤمنين؛ كُسِرَ عظْم سني، فلا تركَبْ

---

(١) القباء: ضرب من الثياب. (٢) الجامعة: الغل يوضع في العنق أو اليد.

ما هو أعظم من ذلك. فقال: والله لو أعلم أنك تُبْقِي عليّ إن أبقيتُ عليك لأطلقْتُكَ، ولكن ما اجتمع رجُلاَن قطّ في بلدة على ما نَحْنُ عليه إلا أخرج أحَدُهما صاحبَه، وأذن المؤذِّنُ، وأُقيمت صلاةُ العصر، فخرج عَبْدُ الملك يُصَلّي بالناس، وأمر أخاه عَبْدَ العزيز أنْ يقتُلَه، فقام إليه بالسيف، فقال له عمرو: أُذكرك الله والرَّحِمَ أنْ تَلِيَ قَتْلي، لِيَقْتُلْني مَنْ هو أبْعَدُ رَحِمًا منك؛ فألقى عبد العزيز السيْفَ، وجلس. وصَلَّى عَبْدُ الملك صلاةً خفيفة، ودخل وغُلِّقت الأبواب، ورأى الناسُ عَبْد الملك خرج وتأخَّرَ عَمْرو، فذكروا ذلك لأخيه يحيى بن سَعِيد، فأقبل في الناس ومعه ألف عَبْدٍ لعَمْرو، وخَلْق كثير، فجعلوا يصيحون بباب عبد الملك: أسْمِعْنَا صوتك يا أبا أُميَّة! وأقبل مع يحيى حُميد بن حُريث وزهير بن الأبرد، فكسروا باب المقصورة، وضربوا الناسَ بالسيوف وضُرِبَ الوليد بن عبد الملك على رأْسِه، واحتمله إبراهيم بن عربي صاحب الديوان، فأدخله بيت القراطيس[١]، ودخل عبد الملك حين صلَّى فرأى عمْرًا بالحياة، فسبَّ أخاه عبد العزيز، ثم أخذ عبْدُ الملك الحرْبة فطعن بها عَمرًا، فلم تُغْنِ شيئًا، ثم ثنى فلم تجز، فضرب بيده إلى عَضُده فرأى الدِّرْع، قال: ودارعٌ أيضًا! إن كنت لمُعِدًّا، وأخذ الصمصامة[٢] وأمر بعمْرو فصُرع، وجلس على صدْرِه فذبحه، وهو يقول[٣]: [من البسيط]

يا عمرو إلاّ تَدعْ شَتْمي ومنْقَصتِي ... أضربْك حيثُ تقول الهامَةُ[٤] اسْقُوني

وانتفض عبد الملك برِعْدةٍ[٥]، فحُمِل عن صدْرِه، ووُضع على سريره.

ودخل يحيى بن سعيد ومنْ معه على بني مرْوان ومواليهم، فقاتلوهم، وجاء عبْدُ الرحمن ابن أُمّ الحكم الثقفي، فَدُفع إليه الرَّأس فألقاه إلى الناس، وقام عبْدُ العزيز بن مَرْوَان، فأخذ المالَ في البِدَرَ[٦]، فجعل يلقيها إلى الناس، فلما رأى الناسُ الرأس والأموال انتهبوا وتفرَّقُوا.

ثم أمر عبْدُ الملك بعْد ذلك بتلك الأموال فجُبِيت حتى عادت إلى بيْتِ المال.

---

(١) القراطيس: جمع القرطاس، وهو الصحيفة يكتب فيها، والمراد هنا ضرب من البرد المصري.

(٢) الصمصامة: السيف.

(٣) هذا البيت لحرثان بن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، كان جاهليًا وسمي ذا الإصبع لأن حية نهشته في إصبعه فقطعها...

(٤) الهامة: طائر يخرج من جسد القتيل يطالب قومه بالثأر... (الشعر والشعراء).

(٥) الرعدة: اضطراب الجسم من فزع أو حمى أو غيرها.

(٦) البدر: جمع البدرة، وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به.

قال: وأخرج عبْدُ الملك سريره إلى المسجد، وخرج، فجلس عليه، وفقد الوليد ابنه، فقال: والله، لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأْرهم، فأتاه إبراهيم بن عربي الكناني، فقال: الوليد عندي وقد جُرح، وليس عليه بأس.

وأُتي عبْدُ الملك بيحيى بن سعيد فأمر أن يُقْتَل؛ فقام إليه عبد العزيز بن مَرْوان فقال: يا أمير المؤمنين، أتراك قاتل بني أُمية في يوم واحد، فأمر بيحيى فحُبِس، وأراد قَتلَ عَنْبَسة بن سعيد، فشفع فيه عبدُ العزيز أيضًا، وشفع في عامر بن الأسود الكلبي، وأمر ببني عمْرو بن سعيد فحُبِسوا؛ ثم خرجوا مع عَمّهم يحيى، فألحقهم بمصعب. ثم بعث عبْدُ الملك إلى امرأةِ عمْرِو الكلبية: ابعثي إليّ الصُّلْح الذي كتَبْتُ لعمرو. فقالت لرسوله: ارجعْ إليه فأعْلمه أنَّ ذلك الصُّلْحَ معه في أكفانه ليُخَاصِمك به عند ربِّه.

قال: ولما قَتَل عبْدُ الملك مُصْعب بن الزبير دخل أولادُ عمرِو عليه وهم أربعة: أُمية، وسعيد، وإسماعيل، ومحمد؛ فلما نظر إليهم عبد الملك قال: إنكم أهل بيت لم تزالوا تَروْن لكم علَى جميع قومكم فَضْلاً لم يجعلْه اللّهُ لكم، وإن الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثًا، بل كان قديمًا في أنفس أوَّليكم علَى أوَّلينا في الجاهلية.

فلم يقدر أُمية أن يتكلَّم. وكان الأكبر من أولاد عمْرو، فقام سعِيد بن عمرو وكان الأوسط فقال: يا أمير المؤمنين، ما تَنعي علينا أمرًا في الجاهلية، وقد جاء اللّهُ بالإسلام فهدم ذلك، ووعد جنَّةً، وحذَّر نارًا، وأما الذي كان بينك وبين عمرو فإنه كان ابْنَ عمك وأنت أعلم وما صنعْتَ. وقد وصل عَمْرٌو إلى الله، وكفى بالله حسِيبًا؛ ولعمري لئن أخذْتَنا بما كان بينك وبينه لبَطْنُ الأرض خَيْرٌ لنا من ظَهْرها، فرقَّ لهم عبْدُ الملك وقال: إنَّ أباكم خَيَّرني بين أنْ يقتلني أو أقتله، فاخترْتُ قَتْلَه على قَتْلي، وأمّا أنتم فما أرْغَبَني فيكم وأوْصلني لقَرابتكم، وأحْسنَ جائزتَهم ووصلَهم وقرَّبهم.

وقد قيل في سبب قَتْله: إنه قال لعبْد الملك حين سار إلى العراق لقتال مُصْعب: إنك تخرجُ إلى العراق، وقد كان أبوك جعل لي الأمْر بعده، وعلى ذلك قاتلْتُ معه، فاجعل هذا الأمْرَ لي بعدك، فلم يُجِبْه عَبْدُ الملك إلى ذلك، فرجع إلى دمشق، وكان من أمره ما تَقدّم.

وقيل: بل كان عبْدُ الملك قد استخلفه على دِمَشق، فوثب بها.

وقيل: إنَّ عبْدَ الملك لم يقتلَ عمْرَو بن سعيد بيدِهِ، وإنما أمر غلامه ابن الزّعيْزِعَة، فقتله وألْقَى رَأْسَهُ إلى الناس ورمى يحيى بصخْرَة في رأسه، وكان مقتله في سنة تسع وستين. وقيل: في سنة سبعين. والله أعلم.

ذكر نبذة من أخبار عمرو بن سعيد الأشدق في الإسلام والجاهلية

كان مولد سعِيد بن العاص والد عَمْرو عام الهجرة. وقيل: سنة إحدى. وقُتِل جَدُّه العاصُ بنُ سعيد يوم بَدْرٍ كافرًا، قَتَلَه عليُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه، وكان لجدِّ أبيه سَعِيد بن العاص بن أُميَّة ثمانيةُ بنين؛ منهم ثلاثة ماتوا على الكُفر، وهم: أُحَيْحَة، وبه كان يُكْنَى سَعِيد بن العاص، وقتل أُحيحة يوم الفِجَارِ[١]. والعاص، وعُبيدة قُتِلا يوم بدْرٍ كافِرَين، قَتَل العاص عليٌّ، وقَتَل عُبيدةَ الزُّبيرُ؛ وخمسة أدركوا الإسلام، وصحبوا رسولَ الله ﷺ؛ وهم: خالد، وعمرو، وسعيد، وأبان، والحكم بنو سعِيد بن العاص بن أُمية، وغيَّر رسولُ الله ﷺ اسْم الحكَم، فسمَّاه عَبْد الله. وَجدُّ هؤلاء العاص بن أُمية ذو العصابة؛ قيل له ذلك، لأنه كان من شَرفِه إذا اعتَمَّ بعمامة بمكَّة لا يعْتَمُّ أحدٌ بلَوْنها إجلالاً له، وكان يكنى بأبي أُحيْحة، وفي ذلك يقول الشاعر: [من البسيط]

أبو أُحيْحة من يعْتَمَّ عمَّته ... يضرب ولو كان ذا مالٍ وذا حسبِ

وكان سعيد بن العاص والد عمْرو مِن أشراف قريش ممن جُمع له السخاء والفصاحة، وهو أحدُ الذين كتبوا المُصْحف لعثمان بن عفان رضي الله عنه، واستعمله عثمان على الكوفة، وغَزَا بالناس طَبَرِسْتَان[٢] فافتتحها. ويقال: إنه افتتح أيضًا جُرجان[٣] في سنة تسع وعشرين أو سنة ثلاثين، وغزا أذْرَبِيجان[٤] لما انتقضت فافتتحها، ثم عزله عثمانُ، واستعمل الوليد، فمكث مدة، ثم شكاه أهلُ الكوفة، فعزله، وردَّ سعِيدًا، فردَّه أهْلُ الكوفة، وكتبوا إلى عثمان: لا حاجةَ لنا في سعِيدك ولا وليدك، وكان في سعيد تجبُّرٌ وغلظ وشِدَّةُ سُلْطان.

---

(١) يوم الفجار: بين بني بكر بن وائل وبني تميم وكانت أربعة أيام: الأول بين كنانة وبين نصر بن معاوية، ولم يكن فيه كبير قتال، والرابع، وهو الأكبر، كان بين قريش وهوازن، وكان بينه وبين مبعث رسول الله ﷺ ستة وعشرون عامًا. وشهده رسول الله ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

(٢) طبرستان: بلاد واسعة ومدن كثيرة من الري.

(٣) جرجان: بالضم، وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه... وقيل: إنها أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقد ندى ومطرًا في طبرستان... (معجم البلدان).

(٤) أذربيجان: كورة تلي الجبل من بلاد العراق... (البكري).

ولما قُتِل عثمانُ بن عَفَّان كان سعِيد والد عمرو ممن لزم بيْتَه، واعتزل حرْب الجمَل وصِفِّين، فلما اجتمع الناسُ على معاوية ولاَّه المدينة، ثم عزله وولاَّها مَرْوان بن الحكم، وكان يعاقِبُ بينه وبين مَرْوَان في ولاية المدينة، وفيه يقول الفرزدق: [من الوافر]

تَرَى الغُرّ الجَحَاجِحَ مِنْ قُرَيشٍ إذا ما المَرْءُ في الحدَثان غالا[1]
قِيَامًا يَنْظُرُون إلى سَعِيدٍ كأنهمو يَرَوْنَ به هِلالا

وحكى الزبير بن بكّار[2] قال: لما عُزل سَعِيد عن المدينة انصرف عن المسجد وَحْدَه، فتبعَه رجلٌ، فنظر إليه سَعِيد رضي الله عنه، وقال: ألكَ حاجةٌ! قال: لا، ولكني رأيْتُك وَحْدَك، فوصلْتُ جَناحك. فقال له: وصلَك الله يا ابْنَ أخي، اطلُب لي دواةً وجِلْدًا، وادْعُ لي مولاي فُلانًا، فأتاه بذلك، فكتب له بعشرين ألف درهم، وقال: إذا جاءت غَلَّتُنا دَفَعْنَا ذلك إليك، فمات في تلك السنة، فأتى بالكتابِ إلى ابْنِه عَمْرو، فأعطاه المالَ.

وكان لسعيد بن العاص سبْعَةُ بنين، وهم: عَمْرو هذا، ومحمد، وعبد الله، ويحيى، وعثمان، وعَنْبَسة، وأبان.

وكانت وفاة سَعِيد في سنة تسع وخمسين. ولنرجع إلى أخبار عبد الملك:

ذكر عصيان الجراجمة بالشام وما كان مِنْ أمْرهم

هذه الحادثة ذكرها ابن[3] الأثير في سنة تسع وستين، فقال: لما امتنع عمرو بن سعِيد على عَبْد الملك خرج قائدٌ مِن قُوَّادِ الضواحِي في جبل اللُّكَام[4] واتَّبعَه خَلْقٌ

(١) الجحاجح: جمع الجحجيح، وهو السيد السمح الكريم.

(٢) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكار ـ وكنيته أبو بكر ـ بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيري؛ كان من أعيان العلماء، وتولى القضاء بمكة حرسها الله. . . (وفيات الأعيان ٢:٣١١).

(٣) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين؛ كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتاريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل». . . (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٤) اللكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس.

كثير من الجَرَاجِمة[١] والأنْبَاط، وأُبّاقِ عَبِيد المسلمين، وغيرهم، وسار إلى لُبْنَان، فلما فرغ عَبْدُ الملك من عَمْرو أرسل إلى هذا الخارج عليه، فبذل له في جُمْعة ألْف دينار، فركَنَ إلى ذلك، ولم يُفْسِدْ في البلاد، ثم وضع عليه عبْدُ الملك سُحيم بن المُهاجر، فتلطَّف حتى وصل إليه متنَكِّرًا، وأظهر الميْلَ إليه، ووعده أن يَدُلَّه على عَوْرَاتِ عبْد الملك، وما هو خيْرٌ له من الصلح؛ فوثق به؛ ثم أتاه سُحيم في جيْشٍ من مَوَالي عبد الملك وبني أُمية وجند من ثقات جُنْدِه والخارج ومنْ معه على غير أُهْبةٍ، فدهَمَهم، وأمر فنودي: مَنْ أتانا من العبيد - يعني الذين كانوا معه - فَهو حُرٌّ، وثبت في الديوان؛ فالتحق به خَلْق كثيرٌ منهم، وقاتلوا معه، فقُتِلَ الخارجُ ومَنْ أعانه مِنَ الروم، وقُتل نَفَرٌ من الجراجمة والأنباط، ونادى بالأمان فيمن بقي منهم فتفرَّقُوا، وعاد إلى عبْد الملك ووفَّى للعبيد.

وفي سنة تسع اجتمعت الرومُ واستجاشوا[٢] علَى منْ بالشام، فصالح عبْدُ الملك ملكهم عَلى أن يؤدِّي إليه في كل جمعة ألف دينار.

وفيها كان يوم الجُفْرة وقد تقدم ذكره في أخبار ابن الزبير رضي الله عنه.

ذكر خبر عمير بن الحباب بن جعدة السلمي وما كان بين قَيس وتغلب من الحروب إلى أن قُتِلَ عُمير بن الحُبَاب وما كان بعد ذلك

كان مَقْتَلُ عُمير بن الحُباب في سنة سبعين، وكان سبب ذلك أن عُمير بن الحُبَاب لما انقضى مرْجُ راهِط التحق بزُفرَ بن الحارث الكِلاَبي بقَرْقِيسيا، ثم بايع مَرْوَان وفي نفسه ما فيها بسبَب قَتْل قَيْس بالمَرْج، فلما سار عُبيد الله بن زياد إلى المؤصلِ كان معه، وقد ذكرنا اتفاقَه مع إبراهيم بن الأشتر وانهزامَه، حتى قُتل عبيد الله بن زياد، وانهزمت جيوشُ الشَّام، فلما كان ذلك أتى عُمَيْر بن الحُباب قَرْقِيسِيا، وصار مع زُفر بن الحارثِ، فجعلا يَطْلُبَان كَلْبًا واليمانيّة بمَنْ قُتلوا مِنْ قَيْس، وكان معهما قومٌ من تَغْلِبَ يقاتلون معهما، ويدلُّونهما، وشُغِل عبد الملك عنهما

---

(١) الجراجمة: قوم من عجم الجزيرة، أو نبط الشام.

(٢) استجاش عليهم: طلب لهم الجيش وجمعه عليهم. . . (اللسان مادة ج.ي.ش).

بمُصْعَب، وتغلَّب عُمير على نَصِيبين[١]، ثم ملّ المقام بقَرْقيسيا، فاستأْمن إلى عَبْد الملك، فأمَّنه، ثم غدَرَ به فحبسه عند مَوْلاه الريان، فسقاه عُمَير ومَن معه من الحرَسِ خمرًا حتى أسكرهم، وتسلَّق في سُلَّم من الحِبَال، وخرج من الحبس، وعاد إلى الجزيرة، ونزل على نَهْرِ البَلِيخ[٢] بين حَرّان والرقَّة، فاجتمعت إليه قَيْس، فكان يُغير بهم على كَلْب واليمانية، وكان مَنْ معه يُسيئونَ جِوَارَ تَغْلب، ويسخِّرون مشايخَهم من النصارى، فهاج ذلك بينهم شرًا، إلاَّ أنه لم يبلغ الحَرْبَ. ثم إن عُمَيْرًا أغار على كَلْب، ورجع فنزل على الخَابُور[٣]، وكانت منازلُ تغلب بين الخابور والفُرَات ودِجْلَة، وكانت بحيث نزل عميرة امرأةٌ من تميم ناكحٌ في تَغْلب، يقال لها أُم ذُويل، فأخذ غلامٌ من بني الحَرِيش أصحابِ عُمير عنْزًا من غَنَمها، فشكت ذلك إلى عُمير، فلم يمْنَعْ عنها، فأخذوا الباقي، فمانعهم قَوْمٌ من تَغْلب، فقُتِل منهم رجلٌ يقال له مجاشع التَّغْلبي، وجاء ذُويل فشكت أُمُّه إليه، وكان من فُرْسانِ تغلب، فسار في قَوْمه وجعل يذكِّرهم ما يصنع بهم قيس، فاجتمع منهم جماعةٌ وأمَّرُوا عليهم شُعَيْث بن مُلَيْل التغلبي، فأغاروا على بني الحَرِيش ومعهم قومٌ من نُمَير، فقتَل فيهم التغلبيّون واستاقوا ذَوْدًا لامرأة منهم يقال لها أَمّ الهيْثَم، فمَانَعُهم القَيْسِيّون، فلم يقدِرُوا على منْعهم، فكان بينهم أيامٌ مذكورة نحن نذكرها على سبيل الاختصار: منها:

يوم مَاكِسِين[٤]:

قال: ولما استحكم الشرُّ بين قَيْس وتَغْلب؛ وعلى قَيْس عُمَير، وعلى تغلب شُعيث بن مُلَيل غزا عُمَيْر بني تغلب وجماعتهم بِمَاكِسين من الخَابُور فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وهي أول وقعةٍ كانت بينهم، فقُتِل من بني تغلب خمسمائة وقتل شُعَيْث، وكانت رِجْلُه قد قُطعت، فجعل يقاتل حتى قُتل، وهو يقول: [من الرجز]

---

(١) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح: مدينة على شاطىء الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم، بينها وبين آمد أربعة أيام أو ثلاثة ومثلها بينها وبين حران، ومن قصد بلاد الروم من حران مر بها. . . (معجم البلدان).

(٢) البليخ: اسم نهر بالرقة.

(٣) الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلاد جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٤) ماكسين: قرية لبني تغلب على شاطىء الفرات.

قد علمتْ قيس ونحن نعلم أنَّ الفتى يقتل وهو أجذمُ[١]

ويوم الثَّرْثار الأول:

والثَّرْثار[٢] نهر أصل مَنْبعه شرقي مدينة سِنْجَار يفرغ في دجلة.

قال: لما قُتل من تغْلب بماكَسِينَ منْ قُتِل استمدّت تَغْلب وحَشَدَتْ واجتمعت إليها النَّمر بن قاسط، وأتاها المُجَشِّر بن الحارث الشيباني. وكان من ساداتهم بالجزيرة، وأتاها عُبيْد الله بن زِيَاد بن ظبيان مُنْجِدًا لهم، واستنجد عُمَير تميمًا وأسدًا فلم يُنْجِدْه منهم أحد، فالتقوا على الثَّرْثَارِ، وقد جعلت تَغْلبُ عليها بعد شُعيْث زياد بن هوْبر، ويقال يزيد بن هوْبَر التغلبي، فاقتتلوا، فانهزمت قيس، وقَتَلَتْ تَغْلِبُ منها مقتلةً عظيمة، وبقَرُوا[٣] بطونَ ثلاثين امرأة من بني سُلَيم.

ويوم الثَّرْثَار الثاني:

قال: ثم إنَّ قيسًا تجمَّعتْ واستمدّت، وأتاهم زفَر بن الحارث من قَرْقِيسيا، فالتقوا بالثَّرْثَار، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت تغلب ومنْ معها.

ويوم الفُدَيْن:

قال: وأغار عُمير على الفُدين، وهي قَرْيَةٌ على الخابور فَقَتل منْ بها من بني تَغْلب.

ويوم السُّكَيْر:

وهو على الخابور؛ يسمى سُكَيْر العباس؛ قال: ثم اجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت تَغْلب والنَّمر، وهرب عُمَير بن جنْدل، وهو من فرْسان تغلب؛ فقال عُمَيْر بن الحباب[٤]: [من الطويل]

وأفلتنا يوم السُّكَيْر ابن جنْدلٍ على سابحٍ عُوج اللبانِ مثابر[٥]
ونحن كرَرْنَا الخَيْل قُبًّا شَوَازِبا دِقَاقَ الهَوَادِي داميات الدَّوابِرِ[٦]

---

(١) الأجذم: الذي انقطعت يده أو ذهبت أصابعها.
(٢) الثرثار: ماء معروف قبل تكريت.
(٣) بقر البطن: شقه.
(٤) هو عمير بن الحباب السلمي، قتله بنو تغلب بالحشاك ـ وهو إلى جانب الثرثار بالقرب من تكريت ـ في يوم من أيام قيس وتغلب في الإسلام... (الأغاني ١١: ٥٥).
(٥) السكير: بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق... (معجم البلدان).
(٦) القبب: دقة الخصر وضمور البطن. والشازب: الضامر اليابس.

ويوم المعَارك:

والمعارك بين الحَضْر والعَقِيق من أرْضِ الموصل، اجتمعت تَغْلب بهذا المكان فالتَقَوْا هم وقَيْس، واقتَتلُوا به، فاشتدّ قتالُهُمْ، فانهزمت تغلب، فيقال: إن يوم المعارك والحضْر واحدٌ هزموهم إلى الحَضْر، وقَتَلُوا منهم بشرًا كثيرًا. وقيل: هما يومان، كانا لِقَيْس على تغلب. والتقوا أيضًا بِلِبيّ[1] فوق تَكْريت فتناصفُوا، فقَيْس تقولُ: كان الفضْل إليّ، وتغلب تقول: كان لنا.

ويوم الشَّرعَبِيّة:

ثم التقوا بالشرعبِيَّة فكانَ بيْنَهم قِتالٌ شديد كان لتَغْلب على قيس، قُتِل يومئذٍ عمار بن المِهْزَم السلمي. والشَّرْعبِيَّة هذه من بلاد تَغْلب ليست الشرعبيّة التي ببلاد منْبج.

ويوم البلِيخ:

والبلِيخ: نهر بين حرَّان والرَّقَّة اجتمعت تَغلب، وسارت إليه، وهناك عُمير في قيْس، فالتقوْا واقتَتلُوا فانهزمت تغلب، وكَثُر القتل فيها وبقرت بطون النساء كما فعلوا يوم الثَّرْثَار. والله أعلم.

ذكر يوم الحشاك[2]
ومقتل عُمَير بن الحُبَاب السلمي وابن هوْبر التغلبي

قال: ولما رأت تغلب إلحاح عُمير بن الحُبَاب عليها جمعت حاضِرها وباديها، وساروا إلى الحشَّاك ـ وهو نهر قريبٌ من الشرْعَبيَّة ـ فأتاهم عُمَير في قيس، ومعه زُفَر بن الحارث الكِلاَبي، وابنه الهُذَيْل بن زُفَر، وعلى تغلب ابن هوْبر، فاقتتلوا عند تَل الحشَّاك أشدَّ قتال حتى جنَّ[3] عليهم الليل، ثم تفرقوا واقتتلوا من الغَد إلى الليل، ثم تحاجَزُوا وأصبحت تَغْلِب في اليوم الثالث، فتعاقدوا ألا يَفِرُّوا، فلما رأى عُمير جدَّهم وأنّ نساهم معهم قال لقَيْس: يا قوم؛ أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستَقْتلون، فإذا اطمأنُّوا وسارُوا وجَّهنا إلى كل قَوْمٍ منهم منْ يُغير عليهم. فقال له

(١) اللبي: موضع من أرض الموصل.

(٢) الحشاك: موضع إلى جانب الثرثار بالقرب من تكريت كان فيه أيام بين قيس وتغلب في الإسلام.

(٣) جنّ: ستر.

عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: قتلْت فُرْسانَ قَيْس أمس وأول أمس، ثم مُلىء سحْرك وجبُنْت. ويقال: إن الذي قال هذه المقالة عيينة بن أسماء بن خارجة الفزَاري، وكان أتاه منجدًا، فغضب عليه عُمير ونزل وجعل يقاتل راجلًا وهو يقول:

أنــا عُــمــيــر وأبــو الــمــغــلــس قد أحبس القَوْمَ بضَنْك فاحبس(١)

وانهزم زُفَر بن الحارث في اليوم الثالث، فلحق بقَرْقِيسا، وذلك أنه بلغه أن عَبْد الملك عزم على الحركة إليه بقَرْقِيسيا، فبادَر إليها، وانهزمت قَيْس، وشدَّ على عُمَير جميل بن قيس من بني كعب بن زُهيْر فقتله.

ويقال: بل اجتمع على عُمير غِلمان من بني تغلب فرَمَوْهُ بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه، وكَرَّ عليه ابن هَوْبَر فقتله، وأصابت ابْن هوْبر جراحةٌ، فلما انقضت الحَرْبُ أوصى بني تَغْلب أن يولُّوا أمرهم مرار بن علْقَمَة الزهيري. وقيل: إنّ ابن هَوْبر جُرِح في اليوم الثاني من أيامهم هذه، فأوصى أن يولُّوا مرارًا أمْرَهم، ومات من ليلته، وكان مرار رئيسَهم في اليوم الثالث، فعَبأهم على رايَاتِهم، وأمر كلَّ بني أبٍ أنْ يجعلُوا نساءهم خَلْفَهم، وكان ما تقدّم.

وكَثُرَ القتل يومئذ في بني سُلَيم وغَنِيّ خاصةً، وقُتل مِنْ قَيس أيضًا بَشَرٌ كثير، وبعث بنو تغلب رَأْسَ عُمير إلى عَبْدِ الملك بن مَرْوَان؛ فأعطى الوَفْد، وكساهم. فلما صالح عبد الملك زُفَر بن الحارث اجتمع الناس عليه، فقال الأخطل(٢): [من البسيط]

بـنـي أُمـيـة قـد نـاشـلـتُ دونـكـمـو أبـنـاء قـوم هـم آووْا وهُـمْ نَـصَـرُوا
وقـيـس عـيـلان حتَّـى أقبـلـوا رقـصًـا فـبـايـعُـوا لَـكَ قَـسْـرًا بـعـدمـا قُـهِـروا
ضجّوا من الحرب إذ عضَّت غَوارِبَهم وقيس عيلان من أخلاقها الضَّجَرُ(٣)

وكان مقتل عُمير بن الحُبَاب في سنة سبعين كما تقدم.

(١) الضنك: الضيق من كل شيء.
(٢) الأخطل: هو غياث بن غوث من بني تغلب من فدوكس ويكنى أبا مالك. مدح بني أمية، مدح معاوية ويزيد ومن بعدهم من خلفاء بني مروان حتى هلك... (الشعر والشعراء لابن قتيبة).
(٣) بنو قيس عيلان: بالعين المهملة: قبيلة من مضر، من العدنانية... (أنساب العرب للقلقشندي).

ذكر الحرب بعد مقتل عمير بن الحباب السلمي

قال: ولما قُتِل عُمير أتى ابْنُه تميمٌ زُفَر بن الحارث، فسأله الطلب بثأْره، فامتنع فقال له ابنه الهُذَيْل بن زُفَر: والله لئن ظفِرت بهم تَغْلب إنَّ ذلك لعارٌ عليك، ولئن ظَفِرُوا بتَغْلب وقد خذَلْتَهم إنَّ ذلك لأشدُّ، فاستخلف زُفَر على قَرْقِيسْياء أخاه أوْس بن الحارث ووجّه زُفَر خَيْلاً إلى بني فَدَوْكَس، وهم بطنٌ من تَغْلب، فقتل رجالَهم، واستُبِيحت الأموال والنساء حتى لم يَبْقَ منهم غَيْرُ امرأة واحدةٍ استجارت، فأجارها يزيد بن حُمْران، ووجّه ابْنه الهذيل في جيش إلى بني كَعْب بن زُهير، فقتل فيهم قَتْلاً ذَريعًا، وبعث أيضًا مسلم بن ربيعة العُقَيْلي إلى قَوْم من تَغْلِب وقد اجتمعوا بالعقِيق من أرض الموصل، فلما أَحَسُّوا به ارتحلوا يريدون عُبورَ دِجْلة، فلما صاروا بالكُحيْل وهو من أرض الموصل في جانب دجلة الغربي، فلحقهم زُفَر بن الحارث به في القيسية، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا؛ وترجّل أصحابُ زُفَر كلُّهم، وبقي زُفَر على بغْلة له فقتلهم ليلتَهم وبقَرُوا بطون نساءٍ منهم، وغرق في دِجْلَة أكثر ممن قُتِل بالسيف، وأتى فلُّهم لِبِّى فوجَّه زُفَر ابْنَه الهذيل فأوقع بهم إلاَّ مَنْ هرب فَنَجا، وأسرَ منهم زُفَر مائتين فقتلهم صبْرًا[١]، فقال في ذلك زُفَر: [من الوافر]

ألاَ يـا عـيـن بـكّـي بـانـسـكـاب ... وبَـكّـي عـاصـمًـا وابْـنَ الـحُـبـاب
فـإنْ تَـكُ تَـغْـلـبٌ قـتـلَـتْ عُـمَـيْـرًا ... ورهـطًـا مـن غَـنـيٍّ فـي الـحـراب
فـقـد أفْـنَـى بـنـي جُـشَـمِ بـن بَـكْـرٍ ... ونـمـرَهـمُ فـوارسُ مـن كـلاب
قـتـلْـنَـا مـنـهـمـو مـائـتـيـن صَـبْـرًا ... ومـا عـدَلُـوا عُـمَـيْـر بـن الـحُـبـاب

وأُسِر القُطَامِيّ[٢] التغلبي في يوم من أيامهم، وأُخذ ماله، فقام زُفَر بأمره حتى ردّ عليه ماله ووصلَه، فقال فيه: [من البسيط]

إنـي وإنْ كـان قَـوْمِـي لـيس بـيـنـهـمـو ... وبـيـن قَـوْمِـك إلا ضـربـة الـهـادي
مُـثْـنٍ عـلـيـك بـمـا أولَـيْـتَ مِـنْ حـسَـنٍ ... وقـد تـعـرَّضَ مـنّـي مـقْـتَـلٌ بَـادِي

(١) قتله صبرًا: أي حبسه حتى مات.
(٢) القطامي: هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه. وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابي وأسماء بن خارجة الفزاري... (طبقات الشعراء).

ذكر خبر يوم البشر(١)

كان سبب هذا اليوم أن عبْد الملك لما استقرّ له الأمْرُ قدم عليه الأخْطَل الشاعر التغلبي وعنده الجَحّاف بن حَكيم السلمي، فقال له عبد الملك: أتعرف هذا يا أخطل؟ قال: نعم، هذا الذي أقولُ فيه: [من الطويل]

ألاَ سائِلِ الجَحَّافَ هل هُوَ ثائر   بقَتْلَى أُصِيبتْ من سُلَيْم وعامِرِ

وأنشد القصيدة حتى فرغ منها، وكانِ الجَحّاف يأكل رطبًا فجعل النَّوى(٢) يتساقط من يد غيظًا، ثم أجابه فقال: [من الطويل]

بلَى سوْف نَبْكيهمْ بكلِّ مُهنَّدٍ   ونَنْعَى عُمَيْرًا بالرِّمَاحِ الشَّواجرِ(٣)

ثم قال يا ابْنَ النصرانية؛ ما كنت أظنُّ أنْ تجترىء عليّ بمثل هذا. فأُرعد من خَوْفه، ثم قام إلى عَبْدِ الملك فأمسك ذَيْله، وقال: هذا مقام العائذ بك. فقال: أنا لكَ، ثم قام الجحّاف فمشى وهو يجُرُّ ثوْبه، ولا يعقل، فتلطّف لبعض كُتّاب الديوان حتى اختلق له عهْدًا على صدقات تغلب وبكْر بالجزيرة، وقال لأصحابه: إنَّ أمير المؤمنين ولأّني هذه الصدقات، فمن أراد اللحاق بي فليفعل.

ثم سار حتى أتى رُصافة هشام، فأعلم أصحابه ما كان من الأخطل إليه، وأنه افتعل كتابًا وأنه ليس له بِوَالٍ، فمن كان يحبُّ أن يغْسِل عني العار وعنْ نفسه فليصْحبْنِي، فإني أقسمْتُ ألاَّ أغسل رأسي حتى أُوقع ببني تغلب. فرجعوا عنه غير ثلاثمائة قالوا: نموتُ لموْتك ونَحْيا لحياتك، فسار ليلته حتى أصبح بالرَّحُوب(٤)، وهو ماء لبني جُشَم بن بكر بن تَغْلب، فصادف عليه جماعةً عظيمةً منهم، فقتل منهم مقتلةً عظيمة، وأُسِر الأخطل وعليه عباءةٌ وسخة، وظنَّ الذي أسره أنه عبْدٌ، فسأله عن نفسه، فقال: عَبْد. فأطلقه فرمى بنفسه في جُب، مخافةً أنْ يراه منْ يعرفه فيقتله، وأسرف الجحاف في القَتْل، وبقرَ البطونَ عن الأجِنَّة؛ وفعل أمرًا عظيمًا، فلما عاد عنهم قدم الأخطل على عبد الملك فأنشده: [من الطويل]

لقد أوقع الجحّاف بالبشْر وقْعَةً   إلى اللّهِ منها المُشْتَكَى والمُعوَّلُ

---

(١) البشر: بكسر أوله وسكون ثانيه: اسم جبل. وقيل: سمي البشر برجل من النمر بن قاسط كان يخفر السابلة يسمى بشرًا.

(٢) النوى: عجم التمر والزبيب ونحوهما أو بذره.

(٣) الرماح الشواجر: المختلفة المتداخلة.

(٤) الرحوب: موضع قريب من البشر من عمل الجزيرة.

فطلب عبد الملك الجحَّاف فهرب إلى الرُّوم، فكان يتردَّدُ فيها، ثم بعث إلى بطانة عبْد الملك من قَيْس، فطلبوا له الأمانَ، فأمَّنه عبد الملك، فلما جاء ألْزَمه دِيات من قُتل، وأخذ منه الكُفَلاء، فسعى فيها حتى جمعها وأعطاها، ثم تَنَسَّك الجَحَّاف بعْد، وصلُح، ومضى حاجًا فتعلَّقَ بأستار الكعبة، وجعل يقول: اللهم اغْفِرْ لي، وما أظنُّكَ تَفْعَلُ! فسمعه محمد ابْنُ الحنفية، فقال: يا شيخ، قُنُوطُك شَرٌّ من ذنبك.

وقيل: كان سبَب عوْد الجَحَّاف أنَّ مَلك الروم أكرمه وقرَّبه وعرض عليه النصرانية، ويعطيه ما شاء، فامتنع، وقال: ما أتيتُك رغبةً عن الإسلام.

ثم هزم الجَحَّاف صائفة[1] المسلمين، فأخبروا عَبْدَ الملك أن الذي هزمهم الجحَّاف، فأرسل إليه عبد الملك، فأمَّنَهُ، فسار في بلادِ الروم، وقصد البِشْر وبه حَيٌّ من تغلب وقد لبس أكفانَه، وقال: قد جئتُ إليكم أُعطى القَود من نفسي، فأراد شبابُهم قَتْلَه، فنهاهم شيوخُهم، وعفوْا عنه، فحج، فسمعه عبْدُ الله بن عمر وهو يطوف ويقول: اللهم اغفر لي وما أظنك تفعل! فقال ابن عمر رضي الله عنهما: لو كنت الجحاف ما زدتَ على هذا. قال: فأنا الجَحَّاف.

ذكر مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق وقتل مُصْعب بن الزبير واستيلاء عبد الملك على العراق

وفي جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين كان مقتل مصعب بن الزبير بن العوام واستيلاء عبد الملك على العراق؛ وسببُ ذلك أنَّ عبْد الملك بن مروان لما قتل عمْرو بن سعيد كما تقدم وضَع السيف على مَنْ خالفه، فصفَا له الشامُ، فلما لم يبْقَ له بالشام مُخَالف أجْمَع المسِيرَ إلى مُصْعَب بن الزبير بالعراق، فاستشار أصحابَه في ذلك، فأشار عليه عمُّه يَحْيَى بن الحكم أنْ يَقْنَع بالشام ويترك ابْنَ الزبير والعراقَ، فكان عَبْدُ الملك يقول: منْ أراد صواب الرأْي فليخالف يحيى. وأشار بعضُهم أن يؤخِّر السَّيْرَ هذا العام، وأشار محمد بن مَرْوان أنْ يُقيم ويبْعث بعْضَ أهله، ويمدّه بالجنود. فأبى إلاَّ المسير. فلما عزم على المسير ودَّع زَوْجتَه عاتكة بنت يزيد بن

(١) الصائفة: الغزوة في الصيف. وبها سميت غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يغزون صيفًا اتقاء البرد والثلج. وصائفة القوم: ميرتهم في الصيف.

معاوية، فبكت فبَكَى جوَاريها لبكائها، فقال: قاتل الله كُثَيِّر عزَّة[١]، لكأنَّه يشاهدنا حين يقول: [من الطويل]

إذا ما أراد الغَزْوَ لم يثْنِ همَّهُ حَصَانٌ عليها عِقْدُ دُرٌّ يزينها
نَهَتْهُ فلمَّا لم تَر النَّهْيَ عاقَه بكَتْ فبكى مما عَنَاها قَطِينُها[٢]

وسارَ عَبْدُ الملك نَحْوَ العراق، فلما بلغ مُصْعب بن الزبير مسِيرُه وهو بالبصرة أرسل إلى المهلَّب بن أبي صُفَرة وهو يُقاتل الخوارج يستشيره. وقيل: بل أحضره إليه، فقال لمصعب: اعلم أنَّ أهْل العراق قد كاتَبُوا عبْد الملك وكاتبهم فلا تبعدني عنك.

فقال له مصعب: إنَّ أهل البصرة قد أبَوْا أنْ يسيروا حتَّى أجعلَك على قتالِ الخوارج، وهم قد بلغوا سُوقَ الأهْواز، وأنا أكره إذ سار عبْدُ الملك إليّ ألاَّ أسير إليه، فاكْفِنِي هذا الثغر.

فعاد إليهم، وسار مُصْعب إلى الكوفة ومعه الأحنف فتُوفِّي الأحْنَفُ بالكوفة، وأحضر مُصْعب إبراهيم بن الأشْتَر، وكان على الموصل والجزيرة، فجعله على مقدّمته، وسار حتى نزلَ باجُمَيْرَا[٣] قريب أوَانا[٤] فعسْكَرَ هناك، وسارَ عَبْدُ الملك حتى نزل بمسْكِن[٥] على فرسخين أو ثلاثة من عسكر مُصْعب.

وكتب عبد الملك إلى أهْلِ العراق مَنْ كاتبه ومَنْ لم يكاتبه، فجميعهم طلب أصفهان طعْمَةً، وأخفوا جميعهم كُتبَهم عن مُصْعب إلا ابْن الأشتر فإنه أحضر كتابَه مختومًا إلى مُصْعب، فقرأه فإذا هو يَدْعُوه إلى نفسه، ويجعل له ولايةَ العراق. فقال له مصعب: أتَدْري ما فيه؟ قال: لا. قال: إنه يعرض عليك كذا وكذا، وإن هذا لما يُرغب فِيه. فقال إبراهيم: ما كُنْتُ لأتقلَّد الغَدْرَ والخيانة، والله ما عند عَبْد الملك من أحَدٍ من الناس بأيْأس منه مني، ولقد كتب إلى جميع أصحابِك مِثْل الذي كَتَب إليّ، فأطِعْني واضْرِبْ أعناقهم. فقال: إذًا لا تناصحني عشائرهُم.

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة من خزاعة، وكان رافضيًا. وكان أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته عزة وإليها ينسب وهي من ضمرة... (طبقات الشعراء).

(٢) القطين: الخدم والأتباع.

(٣) باجميرا: موضع دون تكريت.

(٤) أوانا: بالفتح والنون: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت وكثيرًا ما يذكرها الشعراء الخلصاء في أشعارهم... (معجم البلدان لياقوت).

(٥) مسكن: موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق... (معجم البلدان).

قال: فأوقرهم[١] حَديدًا، وابْعَثْ بهم إلى أبْيض كِسْرى، واحْبِسهم هنالك، ووَكِّلْ بهم منْ إن غُلِبْتَ وتفرقَتْ عشائرُهم عنك ضَرَب رقابهم، وإن ظهرْتَ مَنَنْتَ على عشائرهم بإطلاقهم. فقال: إني لفي شغل عن ذلك.

ولما قرب العَسْكَرَان بعث عَبْدُ الملك إلى مُصْعَب يقول: دَعَ الدُّعَاء لأخيك، وأدَعُ الدعاءَ إلى نفسي، ونجعل الأمْرَ شُورَى. فأبى مُصْعب إلاَّ السيفَ.

فقدّم عبد الملك أخاه محمدًا. وقدّم المُصْعَب إبراهيم بن الأشتر، فالتقيَا، فتناوَشَ الفريقان، فقُتل صاحِبُ لواءِ محمد، وجعل مُصعب يمدُّ إبراهيم، فأزال محمدَ بن مَرْوان عن مَوْقِفه، فوجَّه عَبْدُ الملك عَبْدَ الله بن يزيد إلى أخيه محمد، فاشتدّ القتال، فقتل مسلم بن عَمْرو الباهلي والد قُتَيْبة، وهو في أصحابِ مُصْعب، وأمَدّ مصعب إبراهيم بعتّاب بن وَرْقَاء؛ فساء ذلك إبراهيم، واسترجع، وقال: قد قلْت له: لا يمدّني بعتّاب وضُرَبَائِه. وكان عَتَّاب قد كاتب عبْدَ الملك وبايعه، فانهزم عَتَّاب بالناس وصبر ابْنُ الأشتر، وقاتل حتى قُتِلَ، قتله عُبَيْد بن مَيْسَرة مولى بني عُذْرَة[٢]، وحمل رَأْسَه إلى عَبْد الملك.

وتقدَّم أهْلُ الشامِ فقاتلهم مُصْعب، وقال لقَطَن بن عبْد الله الحارثي: قدّم خَيْلَك أبا عثمان. فقال: أكره أن تقتل مذحج في غَيرِ شيء. فقال لحَجَّار بن أبْجَر: أبا أسِيد: قَدِّم خَيْلَك. فقال: إلى هؤلاء الأنْتَان! قال: ما نتأخر إليه أنْتن.

وقال لمحمد بن عَبْد الرحمٰن بن سَعِيد: قدم خَيْلَك. فقال: ما فعل أحد هذا فأفْعَلَه. فقال مُصْعَب: يا إبراهيم، ولا إبراهيم لي اليوم! ثم التفت فرأى عُروة بن المغيرة بن شعبة فاستدناه، فقال له: أخْبِرْني عن الحُسَين بن علي كيف صَنَع بامتناعه عن النُّزول على حُكم ابن زِيَاد وعَزْمه على الحرب؟ فأخبره، فقال: [من الطويل]

إنَّ الأُلى بالطَّفِّ مِنْ آلِ هاشمٍ ... تأسَّوا فسَنُّوا لِلْكِرَام التأسِّيا[٣]

ثم دنا محمد بن مَرْوان من مُصْعَب، وناداه: أنا ابْنُ عمك محمد بن مروان، فاقْبَلْ أمانَ أمير المؤمنين. قال: أمير المؤمنين بمكة، يعني أخاه عَبْد الله. قال: فإنَّ القومَ خاذِلُوكَ، فأبى ما عَرَض عليه.

---

(١) وقرهم: حمّلهم حملاً ثقيلاً. (٢) بنو عذرة: بطن من العرب عظيم.

(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية. . . (معجم البلدان لياقوت).

فنادى محمد عيسى بن مُصْعب إليه، فقال له مصعب: انظر ما يُريد، فدنا منه، فقال له: إني لكَ ولأبيكَ ناصح، ولَكُمَا الأمان. فرجع إلى أبيه فأخبره. فقال: إني أظنُّ القَوْمَ يَفُونَ لك، فإن أحبَبْتَ أنْ تأتيهم، فافعل. قال: لا تَتَحدَّث نِساءُ قريش أنّي خذلْتُك، ورغِبْتُ بنفسي عنك. قال: فاذهب أنتَ ومَنْ معك إلى عَمّك بمكة، فأخْبِرْه بما صنع أهْلُ العراق ودَعْنِي فإنّي مقتول. فقال: لا أُخبِرُ قريشًا عنكَ أبدًا، ولكن يا أبتِ الْحَقْ بالبصرة فإنهم على الطاعة، أو الحَق بأمير المؤمنين. فقال مُصْعب: لا تتحدث قريش أني فَرَرْتُ.

وقال لابنه عيسى: تقدّم إذا أحتسبك. فتقدَّم ومعه ناس، فقُتِل، وقُتلوا، وجاء رجل من أهل الشام ليحتزَّ رَأْسَ عيسى، فحمل عليه مُصْعَب فقتله، وشدَّ على الناس فانفرجُوا له، وعاد، ثم حمل ثانية فانفَرَجُوا له، وبذل له عَبْدُ الملك الأمانَ، وقال: إنه يعزُّ عليّ أن تُقْتَل، فاقْبَلْ أَمَانِي. ولك حُكْمُك في المال والعمل، فأبَى، فقال عبد الملك: هذا والله كما قال القائل: [من الطويل]

ومُـدَجّـج كَـرِهَ الـكـمـاةُ نِـزَالَـه ... لا مُـمْـعِـنٌ هَـرَبًـا ولا مُـسْـتَـسْـلِـمُ[1]

ودخل مُصعب سُرَادِقَه[2] فتحَنَّطَ ورَمَى السرادق، وخرج فقاتل، فأتاه عبيد الله بن زياد بن ظَبْيَان فدعَاه إلى المبارَزَةِ فقال: يا كلب، اغرب، مِثْلي يُبَارِزُ مِثْلَك! وحمل عليه مُصْعَب فضربه على البَيْضة فهشمها وجَرحه، فذهب يعصب رَأْسَه، وترك الناسُ مُصْعبًا وخذَلُوه حتى بَقِيَ في سبعة أنفس، وأُثخن بالرمي، وكَثُرتْ فيه الجِرَاحَات، فعاد إليه عُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان فضربه مصعب، فلم يصنع شيئًا لضَعْفِه، وضربه ابن ظَبْيان فقتله. وقيل: بل نظر إليه زائدة بن قُدَامة الثقفي فحمل عليه، فطعنه فقال: يا لثاراتِ المختار! فصرعه وأخذ عُبيد الله بن زياد رَأْسَه وحمله إلى عَبْد الملك، فألقاه بين يديه وأنشد: [من الطويل]

نُعاطي الملوكَ الحقّ ما قَسَطُوا لنا ... وليس علينا قَتْلُهم بمحرَّمِ[3]

فلما رأى عَبْدُ الملك الرأسَ سجد، فقال ابن ظبيان: لقد هممتُ أن أَقْتُلَ عبد الملك وهو ساجدٌ فأكون قد قتلْتُ ملكَي العرب، وأرحْت الناس منهما، وفي ذلك يقول: [من الطويل]

---

(١) الكميّ: الشجاع المقدام الجريء.

(٢) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب. أو الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم أو غيرهما.

(٣) قسط: عدل.

همـمـتُ ولـم أفـعَـلْ وكِـدْتُ ولَـيْـتَـنـي فـعـلْـت فـأدمـنـت الـبُـكَـا لأقـاربـه
فـأوْردتـهـا فـي الـنـار بَـحْـر بـن وائـلٍ وألـحقـتُ مَـنْ قَـدْ خرَّ شكـرًا بـصاحـبه

وقال عبد الملك: لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفْتَكَ الناس بأشجع الناس.

وأمر عبد الملك لابن ظبيان بألْفِ دينار، فقال: لم أقتُله على طاعتك، وإنما قتلته بأخي النابي بن زياد، ولم يأْخذ منها شيئًا. وكان النابي قد قطع الطريقَ فقتله مُطَرّف الباهلي صاحب شُرْطَة مُصْعب.

وكان قتلُ مصعب بدَيرِ الجاثَلِيق[١] عند نهر دُجَيْل، وأمر عَبْدُ الملك به وبابْنه عيسى فدُفِنعا، وقال: كانت الحرمةُ بيننا وبينه قديمة، ولكن هذا الملك عقيم.

قال: ثم دعا عَبْدُ الملك جُنْدَ العراق إلى البَيْعَة فبايعوه، وسار حتى دخل الكوفة، فأقام بالنُّخَيْلة[٢] أربعين يومًا، وخط بالناس بالكوفة، فوعد المُحْسِن وتوعَّدَ المسيء، وقال: إن الجامعةَ التي وضعت في عُنق عَمْرو بن سَعِيد عِنْدِي، ووالله لا أضَعُها في عُنق رجل فأنتزعها إلاَّ صُعَدًا لا أفكُها عنه فَكًّا، فلا يُبْقينّ امرؤٌ إلاَّ على نفسه، ولا يوبقني[٣] دَمُه. والسلام.

قال عبد الملك بن عُمير: كُنْتُ مع عبد الملك بِقَصْرِ الكوفة حين جيء بِرَأْسِ مصعب فوُضِعت بين يديه، فرآني قد ارتعدت، فقال لي: ما لك؟ فقلت: أُعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين! كنْتُ بهذا القَصْرِ بهذا الموضع مع عُبيد الله بن زياد فرأيت رَأْسَ الحُسين رضي الله عنه بين يديه، ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عُبيد فرأيت رَأْسَ عُبَيْد الله بن زياد بين يديه، ثم كنْتُ مع مُصْعَب فيه فرأيْتُ رأس المختار بين يديه، ثم رأيت رأْسَ مُصْعب فيه بين يديك. فقام عبد الملك مِنْ مقامه ذلك، وأمر بهَدْم ذلك الطاق[٤] الذي كُنَّا فيه، وقال عبد الملك بن مَرْوَان: متى تخلف قريش مِثْلَ المصعب! ثم قال: هذا سَيِّدُ شبابِ قريش. فقيل له: أكان يشرُبَ الطِّلا[٥]؟ فقال: لو علم المصعب أنَّ الماءَ يُفْسدُ مروءته ما شربه حتى يموت عَطَشًا.

---

(١) دير الجاثيق: دير قديم البناء رحب الفناء من طسوج مسكن قرب بغداد في غربي دجلة في عرض حربي، وهو في رأس الحد بين السواد وأرض تكريت... (معجم البلدان).

(٢) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٣) أوبق: أهلك، أو حبس، أو ذلّل.

(٤) الطاق: الطوق أو ما يشبهه، والطاق من الجبل وغيره: جزء ناشز يبرزونه، أو الطيلسان، أو ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية..

(٥) الطلا: الخمر.

قال: وبعث عَبْدُ الملك برَأْس مُصْعب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلما رآه وقد قطع السيفُ أنْفَهُ قال: رحمك الله، أمَا واللّهِ لقد كنْتَ مِنْ أحسنهم خلقًا، وأشدهم بأْسًا، وأسخاهم نفسًا.

ثم سيَّره إلى الشام فنُصِب بدمشق، وأرادوا أن يَطُوفُوا به في نواحي الشام، فأخذَتْهُ عاتكةُ بنْتُ يزيد بن معاوية زَوْجَة عبد الملك بن مَرْوان، فغسلته وطيّبته ودفَنَتْهُ، وقالت: أما رضِيْتُم بما صنعتم حتى تطوفُوا به المُدُنَ! هذا بَغْيٌ.

وكان عُمْرُ مصعب حين قُتل ستًّا وثلاثين سنة.

ولما بلغ عَبْدَ الله بن خازم مَسِيرُ مُصْعب لقتال عَبْدَ الملك قال: أمَعهُ عمر بن عبيد الله بن معمر؟ قيل: لا، استعمله على فارس. قال: أمَعَه المهلَّب؟ قيل: لا، استَعْمَله على الخوارج. قال: أمعه عباد بن الحُصين؟ قيل: لا، استَخْلَفَه على البصْرة. قال: وأنا بخراسان. وأنشد: [من الطويل]

خُذيني فجرّيني جَعَارِ وأبْشِري ... بلَحْمِ امرىء لم يَشْهد اليومَ نَاصِره[١]

قال: ولما قُتل مصعب كان المهلَّبُ يُحارب الأزارقةَ بسُولاَف[٢] ثمانية أشهر، فبلغ الأزارقةَ قَتْلُه قبل أنْ يبلغ المهلَّب، فصاحُوا بأصحابِ المهلَّب: ما قولكم في مُصْعب؟ قالوا: أمير هُدًى؛ وهو وَلِيُّنا في الدنيا والآخرة، ونحن أولياؤُه. قالوا: فما قولُكم في عَبْد الملك بن مَرْوان! قالوا: ذلك ابْنُ اللَّعين، نحن نبرأُ إلى الله منه، وهو عندنا أحلّ دَمًا منكم. قالوا: فإن عبد الملك قتل مُصْعبًا، وسيجعلون غَدًا عَبْدَ الملك إمامَكم.

فلما كان الغَدُ سَمِع المهلَّبُ وأصحابه قَتْلَ مُصْعب، فبايع المهلَّب الناسُ لعَبْدِ الملك، فصاح بهم الخوارج: يا أعداء الله، ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يا أعداء اللّهِ لا نخبركم. وكرهوا أن يكذِّبوا أنفسهم. قالوا: فما قَوْلُكم في عَبْد الملك؟ قالوا: خَلِيفَتُنَا. ولم يجِدُوا بُدًّا إذ بَايَعُوه أن يقولوا ذلك. قالوا: يا أعداء الله؛ أنْتُم بالأمس تَتَبَرَّؤون منه في الدنيا والآخرة، وهو اليوم إمَامُكم، وقد قَتَلَ أميرَكم الذي كنتم تتولَّونه، فأيُّهما المهتدى؟ وأيُّهما المبطل؟ قالوا: يا أعداء اللّهِ، رَضِينا بذاك إذْ كان يتولَّى أمْرَنا ونَرْضَى بهذا. قالوا: لا، والله ولكنكم إخْوَانُ الشياطين وعَبيد الدنيا.

---

(١) جعار: اسم للضبع.

(٢) سولاف: قرية على غربي دجيل من أرض خوزستان.

قال: ولم يَفِ عَبْدُ الملك لأحَدٍ بأصبهان، واستعمل قَطَن بن عَبْد الله الحارثي على الكوفة، ثم عَزَلَه، واستعمل أخاه بِشْر بن مَرْوَان. واستعمل محمد بن عُمير على هَمَذَان، ويزيد بن ورقاء بن رؤيم على الريّ، واستعمل خالد بن عَبْد الله بن خالد بن أسِيد على البصرة. وعاد إلى الشام.

ذكر خبر عبد الملك بن مروان وزفر بن الحارث وما كان بينهما من القتال وانتظام الصُّلْحِ بينهما

قد ذكرنا أن زُفَر بن الحارث لما فَرَّ من مرْج رَاهِط إلى قَرْقِيسياء، واستولى عليها، وتحصَّنَ بها، واجتمعت قَيْس عليه، وكان في بَيْعة عَبْدِ الله بن الزبير وفي طاعته. فلما مات مَرْوَان بن الحكم وولي عَبْدُ الملك كتب إلى أبَان بن عُقْبة بن أبي مُعَيط، وهو على حِمْص، يأمُره أن يَسير إلى زُفَر، فسار إليه، وعلى مقدّمته عَبْد الله بن زَمِيت الطائي، فواقع عبد الله زُفَر قَبْل وصولِ أبَان فَقُتِل من أصحابه ثلاثمائة، فلامَهُ أبَان على عَجَلته، وأقبل أبان فواقع زُفَر فقتل ابنه وكيع ابن زُفَر. فلما سار عَبْدُ الملك إلى العراق لقتال مُصْعب بدأ بقَرْقيسياء، فحضر زُفَر فيها، ونصب عليها المَجَانِيق[1]، فأمر زُفر أن يُنَادى في عسكر عبد الملك: لم نَصَبْتُم المجانيق علينا؟ فقالوا: لنثلم ثُلْمَةً[2] نقاتلكم عليها. فقال زفر: قولوا لهم: فإنا لا نقاتلكم مِن وراء الحيطان، ولكنا نخرج إليكم. وقاتَلهم زُفَر.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية مُجدًّا في قتال زُفر، فقال رجُلٌ من أصحابه من بني كِلاَب: لأقولن لخالد كلامًا لا يعودُ إلى ما يصنع. فلما كان الغد خرج خالد للمحاربة فقال له الكلابي: [من الرجز]

مــاذا ابــتــغــاءُ خــالــدٍ وهــمُّــهْ إذْ سُـلِـبَ الـمـلْـك ونـيـكـت أُمُّـه

فاستحيا وعادَ، ولم يَعُد لقتالهم.

وقالت كَلْب لعبد الملك: إنا إذا لقينا زُفر انهزمت القَيْسيّةُ الذين معك، فلا تَخْلِطْهم مَعَنا. ففعل. فكتبت القيسية على نبْلها: إنه ليس يقاتلكم غدًا مُضَري، ورَمَوا النَّبْل إلى زُفَر. فلم أصبح دَعَا ابْنَه الهُذَيْل فقال: اخرج إليهم، فشُدَّ عليهم،

(١) المجانيق: واحدتها المنجنيق، وهي آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة، وهي مؤنثة وقد تذكر.
(٢) الثلمة: الموضع الذي قد انثلم.

ولا ترجع حتى تضربَ فُسْطَاط[1] عَبْدِ الملك، وأقسم لئن رجع دونَ أنْ يفعَل ذلك ليقْتُلنَّه.

فجمع الهُذَيل خَيْلَه، وحمل، فصَبَرُوا قليلاً ثم انكشفوا، وتبعهم الهُذَيل بخَيْله حتى وطئوا أطنابَ الفُسْطَاط، وقطعوا بعضَها، ثم رجعوا. فَقبَّل زُفَر رأسَ ابْنِه الهذيل. فقال: والله لو شئت أن أدْخُلَ الفسطاط لفعلت.

قال: وكان رجل من كَلْب يقال له الذيّال يخرجُ فيسبّ زُفَر فيكثر، فقال زفر للهُذَيل ابنه أو لبعض أصحابه: أما تكفيني هذا؟

قال: أنا آتيكَ به، فدخل عَسْكَر عبْدِ الملك ليلاً، فجعل يُنَادي مَنْ يعرف بَغْلاً مِنْ صِفَته كذا وكذا؟ حتى انتهى إلى خِبَاء الرجل. فقال الرجل: رَدّ الله عليك ضالَّتَك. فقال: يا عَبْدَ الله، إني قد أعْيَيتُ، فلو أذِنْتَ لي فاسترحْتُ قليلاً. قال: ادْخُلْ، فدخل، والرجلُ وحْدَه في خِبَائه، فرمى بنفسه، ونام صاحِبُ الخباء، فقام إليه فأيْقَظَه، وقال: والله، لئن تكلمت لأقتلنَّك، قُتِلْتُ أو سَلمت، فماذا ينفعك قتلي إذا قُتلتَ أنتَ؛ ولئن سكتّ وجئْتَ معي إلى زُفَر فلك عهْدُ الله وميثاقُه أنْ أردَّك إلى عَسْكَرك بعد أن يَصِلك زُفر ويُحْسِن إليك، فخرجا وهو يُنَادِي: مَنْ دلَّ على بغْلٍ مِنْ صِفَتِهِ كذا وكذا حتى أتى زُفَر. والرجلُ معه، فأعلمه أنَّه قد أمَّنَه، فوهبه زُفَر دَنَانير وحمله على رِحَالِ[2] النساءِ وألبسه ثيابَهُنَّ، وبعث معه رجالاً حتى دَنَوْا من عسْكَرِ عبد الملك، فنادَوا: هذه جاريةٌ قد بعث بها زُفَر إلى عَبْد الملك، وانصرفُوا!

فلما رآه أهْلُ العسكر عرفوه، وأخبروا عَبْدَ الملك الخبر فضحك، وقال: لا يُبعد اللّهُ رجالَ مَضَر، والله إنَّ قَتْلَهُم لذلّ، وإن تَرْكَهُمْ لحسرة. وكفّ الرجل فلم يَعُد يسبُّ زُفَر.

وقيل: إنه هرب من العسكر، ثم أمر عبدُ الملك أخاه محمدًا أن يَعْرِض على زُفَر وابْنِه الهُذَيْلِ الأمَانَ على أنفسهما ومَنْ معهما وأن يُعْطَيا ما أحبَّا. ففعل ذلك، فأجابا على أنَّ لزفر الخِيَارَ في بَيْعَته سنةً، وأن يُتْرَك حيث شاء، وألا يُعين عبد الملك على قتالِ ابن الزبير.

(١) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر.

(٢) الرحال: جمع الرحل: وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب. أو كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره.

فبينما الرسل تختلف بينهم إذ جاء رجُلٌ من كَلْب، فقال: قد هدم من المدينة أربعة أبراج، فقال عَبْدُ الملك: لا أُصالِحُهُمْ، وزحف إليهم، فهزَمُوا أصحابَه حتى أدخلوهم عَسْكَرهم، فقال: أعْطُوهم ما أرادوا. قال زُر: لو كانَ قَبْلَ هذا لكان أحسن، واستقَرّ الصلحُ على أمَانِ الجميع، ووَضْع الدماء والأموال، وألاّ يبايع عبْد الملك حتى يموت ابن الزُّبَيْر للبَيْعَة التي له في عُنُقه، وأن يُعطى مالاً يقسّمه في أصحابه، وخاف زُفَر أن يَغْدر به عبْدُ الملك كما غَدَر بِعَمْرِو بن سَعِيد، فلم ينزل إليه، فأرسل إليه بقَضِيب النبي ﷺ أمانًا له، فنزل إليه، فلما دخل عليه أجلسه معه على سريرِه، فلما رأى عبد الملك قِلَّةَ مَنْ مَعَ زُفَرَ قال: لو علمْتُ بأنه في هذه القلَّةِ لحاصرْتُه أبدًا حتى نزل على حُكْمِي، فبلغ قَوْلُه زُفَر فقال: إن شئْتَ رجَعْنَا ورجعت. قال: بل نَفِي لك يا أبا الهُذَيْل.

وأمر زُفَر ابْنَه الهذيل أنْ يسير مع عبد الملك إلى قتالِ مُصْعب، وقال: أنت لا عَهْدَ عليك، فسار معه، فلما قارب مصعبًا هرب إليه، وقاتل مع ابن الأشْتَر. فلما قُتل ابْنُ الأشتر اختفى الهذيل في الكوفة حتى استؤمن له من عبد الملك فأمّنه.

قال: وتزوّج مسلمة بن عبد الملك الرّباب بنت زفر فكان يُؤْذَن لإخوتها: الهذيل والكوثر في أول الناس.

وفي هذه السنة، أعني سنة إحدى وسبعين، افتتح عَبْد الملك قَيْسارِيَّةَ في قول الواقدي[1] رحمه الله.

ذكر مقتل عبد الله بن خازم واستيلاء عبْد الملك على خراسان

ولما قُتل مُصْعَب كان عَبْدُ الله بن خازم يقاتل بَحِير بن وَرْقَاء الصُّريمي التميمي بنيسابور، فكتب عَبْدُ الملك إلى ابْنه خازم يدعوه إلى البَيْعَةِ ويُطْعِمُه خراسان سَبْع سنين، وأرسل الكتاب مع سَوحرة بن أشيم النميري، فقال له ابن خازم: لولا أنْ أُضَرِّب بين بني سُليم وبني عامر لقتَلْتُك، ولكن كلْ كتابَه، فأكله. وقيل: بل كان الكتاب مع سَوَادَة بن عُبَيد الله النميري. وقيل: مع مكمل الغنوي. فقال له ابن

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبيّ ﷺ... (وفيات الأعيان ٤: ٣٤٨).

خازم: إنما بعثك أبو الذِّبَّان لأنكَ مِنْ غَنِيّ، وقد علم أني لا أقْتُل رَجُلاً من قيس، ولكن كُلْ كتابَه.

وكتب عبد الملك إلى بُكير بن وسّاج، وكان خليفة ابن خازم على مَرْو، بعَهْده على خراسان، ووعدَه ومنَّاه، فخلع بُكير عَبْدَ الله بن الزبير ودعا إلى عبْدِ الملك، فأجابه أهل مَرْو، وبلغ ابْن خازم، فخاف أن يأْتيه بُكير فيجتمع عليه أهْلُ مَرْو وأهل نَيْسابور، فترك بَحِيرًا وأقبل إلى مرْو، فاتبعه بَحير فلحقه بقرية على ثمانية فراسخ من مَرْو، فقاتله، فقُتل ابنُ خازِم، وكان الذي قتله وكيع بن عمرو القُرَيْعي، اعْتَوَره وَكيع وبَحير بن وَرْقَاء وعَمَّار بن عبد العزيز، فطعنوه، فصرعوه؛ وقعد وكيع على صَدْره فقتله، وبعث بَشِيرًا بقَتْلِهِ إلى عَبْد الملك، ولم يبعث برأْسه.

وأقبل بُكير في أهْل مَرْو، فوافاهم حين قتل ابن خازم، فأراد أخْذَ الرأس وإنفاذه إلى عبد الملك، فمنعه بَحِير فضربه بعمود وحبسه، وسيَّر الرأْسَ إلى عبْد الملك، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

وقيل: بل كان مقْتَله بعد قَتْل عَبْدِ الله بن الزبير، وأنّ عبْدَ الملك أنْفَذَ إليه رَأْسَ ابن الزُّبير، ودعاه إلى نفسه فغسله وكفَّنه، وبعثه إلى أهله بالمدينة، وأطعم الرسول الكتابَ، وقال: لولا أنك رَسُولٌ لقتلتك.

وقيل: بل قطع يديه ورجليه وقَتَله، وحلف ألا يطيع عبْد الملك أبدًا. والله أعلم.

ذكر مقتل عبد الله بن الزبير
رضي الله عنه وشيء من أخباره

قال: لما قتل مصعب بن الزبير تقدم الحجاجُ بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت في المنام أني أخذتُ ابْنَ الزبير وسلخْتُه، فابعثني إليه، وَوَلّني حَرْبه، فبَعَثَهُ في ألْفَيْن، وقيل في ثلاثة آلاف، فسار في جمادى الأُولى سنة اثنتين وسبعين، ونزل الطائف، وكان يَبْعَثُ الخيلَ إلى عَرَفة في الحل بعد الطائف، ويبعث ابنُ الزبير الخَيْل فيقتتلون فتنهزم خَيْلُ ابنِ الزبير، وتعودُ خَيْلُ الحجاج بالظَّفَر.

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأْذِنُه في دخول الحرم وحَصْرِ ابن الزبير، ويُخْبِرُه بضَعْفِه وتفرُّقِ أصحابِه، ويستمدّه، فأمدَّه بطَارق بن عَمْرو مَوْلَى عثمان، وكان عَبْدُ الملك قد بعثه في جَيْشٍ إلى وَادِي القُرى ليمنع عمَّالَ ابن الزُّبَيْر من الانتشار،

فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عامِلَ ابْنَ الزبير منها، وجعل عليها رجلاً من أهلِ الشام اسْمُه ثَعْلَبَة، وقدم طارق مكة في ذي الحجة منها في خمسة آلاف، وتقدم الحجَّاجُ إلى مكة، فنزل عند بئر مَيْمون[١]، وحَجَّ بالناس في تلك السنة. إلاَّ أنه لم يَطُفْ بالبَيْتِ، ولا سَعَى بين الصَّفَا والمرْوَة؛ مَنعه عَبْدُ الله بنُ الزبير من ذلك؛ ولم يحجّ ابْنُ الزبير ولا أصحابهُ في تلك السنة. ونصب الحجاج المِنْجَنِيق على أبي قُبَيْس[٢]، ورمَى به الكَعْبَة، فقال عَبْدُ الله بنُ عمر بن الخطاب رضي الله عنهما للحجاج: اتَّق الله واكفُفْ هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شَهْرٍ حرام في بلدٍ حرام؛ وقد قدمَتْ وفودُ اللّهِ مِنْ أقطار الأرض ليؤدُّوا فريضةَ الله، وقد منعهم المِنجَنِيقُ عن الطَّواف. فكَفَّ حتى انقضى الحج، ثم نادى في الناس: انصرفوا إلى بِلاَدكم، فإنا نعودُ بالحجارة على ابْنِ الزبير المُلْحِد.

قال: وأول ما رمَى الكعبة بالمَنْجَنِيق رعدت السماءُ وبرقَتْ، وعَلاَ صَوْتُ الرَّعْدِ على الحجارة، فأعظم ذلك أهْل الشام وأمسكوا أيديهم، فأخذ الحجاج حجرَ المِنْجَنِيق ووضعه بيدِه ورمى به، فجاءت الصواعِقُ فقتلتْ منْ أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهْلُ الشام، فقال الحجاج: يا أهل الشام، لا تُنْكِرُوا هذا، فإني ابْنُ تِهَامة، وهذه صَوَاعِقُها، وهذا الفَتْحُ قد حضر، فأبْشِرُوا.

فلما كان الغَدُ جاءت الصاعِقَةُ فأصابت من أصحاب ابْنِ الزبير عدّة. فقال الحجاج: ألا تَرَوْنَ أنهم يُصَابُونَ كما تُصَابُون، وأنتم على الطاعةِ وهم على خِلاَفها، وكان الحَجَرُ يقع بين يدي عَبْدِ الله بن الزُّبير وهو يُصَلِّي، فلا ينصرف عن مكانه.

وغَلَت الأسعارُ عند ابن الزبير حتى ذبح فَرَسَه، وقَسَّم لحْمَه في أصحابه، وبِيْعَت الدجاجةُ بعشرة دراهم والمُدّ الذرة بعشرين درهمًا، وكانت بيوتُ ابن الزبير مملوءةً قمحًا وشعيرًا وذُرة وتمرًا، وكان أهلُ الشام ينتظرون فَنَاءَ ما عنده، فكان لا ينفق منه إلاَّ ما يُمْسِك الرَّمَق ويقول: نفوسُ أصحابي قويّة ما لم تَفْن.

فلما كان قُبَيْل مقْتَله تفرّق الناسُ عنه، وخرجوا إلى الحجَّاج بالأمان، فخرج مِنْ عنده نحو عشرة آلاف. وكان ممن فارقه ابْنَاه حَمْزَة وخبيبٌ، أخَذَا لأنْفُسهما أمانًا،

---

(١) بئر ميمون: بمكة، منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي.. وقيل أن ميمونًا صاحب البئر هو أخو العلاء بن الحضرمي والي البحرين، حفرها بأعلى مكة في الجاهلية... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) أبو قبيس: جبل مشرف على مكة.

فقال عَبْدُ الله لابنه الزُّبير: خُذْ لنفسك أمَانًا كما فعل أخَواك، فوالله إني لأُحِبُّ بقاءكم. فقال: ما كنْتُ لأرْغَبَ بنفسي عنك، فقُتِل معه.

قال: ولما كان في الليلة التي قُتِل فيها عَبْدُ الله في صبيحتها جمع قُرَيشًا فقام لهم: ما تَرَوْنَ؟ فقال رجل من بني مخزوم: والله، إنَّا قاتلْنَا معكَ حتى ما نجِدُ مَقْتَلاً، والله لئن سِرْنَا معك ما نَزيد على أنْ نموت، وإنما هي إحْدَى خصلتين: إما أن تأْذَنَ لنا فنأْخُذَ الأمَانَ لأنفسنا ولك، وإما أن تأْذنَ لنا فنخرج.

فقال له رجل: اكتُبْ إلى عَبْدِ الملك. فقال: كيف أكتب من عَبْدِ الله أمير المؤمنين إلى عَبْدِ الملك بن مروان؟ فوالله لا يَقْبَلُ هذا أبدًا، أو أكتب لعَبْدِ الملك بن مروان أمير المؤمنين. من عبد الله بن الزبير؟ فوالله لأنْ تقعَ الخَضْراء[1] على الغَبْرَاء[2] أهونُ عليّ من ذلك. فقال له عُرْوَة وهو جالس معه على السرير: قد جعل اللّهُ لكَ أُسوةً في الحَسَنِ بن علي رضي الله عنهما، خَلَع نَفْسَه وبايعَ معاوية، فركضه[3] برِجْلِه ورماه عن السرير، وقال: قَلْبِي إذًا مثل قلبك، والله لو قلتُها ما عشتُ إلاَّ قليلاً وإنْ أُضْرَب بسيفٍ في عزٍّ خيرٌ منْ أن أُلْطَم في ذُلٍّ.

فلما أصبح دخل على امرأته أُم هاشم فقال: اصنعي لي طعامًا. فلما صنعَتْه وأتَتْ به لاَكَ منه لُقْمة ثم لفَظَها، وقال: اسقُوني لبنًا فسقَوه، ثم اغتسل وتطيّب وتحنَّط، ودخل على أمه، فقال: يا أُماه، قد خذلني الناسُ حتى وَلَدِي وأهلي ولم يبْقَ معي إلاَّ اليسير، والقَوْمُ يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأْيك؟

قالت له: أنْتَ أعلَمُ بنفسك، إن كنْتَ تعلم أنك على حق وأنت تَدْعُو إليه فامْضِ له، فقد قتِل عليه أصحابُك، ولا تمكِّنْ من نفسك يتلعَّبُ بك غِلْمَانُ بني أمية، وإن كنْتَ إنما أردْتَ الدنيا فبئس العَبْدُ أنت، أهلكْتَ نفسك ومَنْ قُتِل معك، وإن قلْتَ: كنْتُ على حَقٍّ فلما وهَن أصحابي ضعُفْتُ، فهذا ليس فِعْلَ الأحرار ولا أهْل الدين، كم خلودُك في الدنيا؟ القَتْلُ أحسن! فقال: يا أُماه، أخاف إنْ قتلني أهْلُ الشام أن يُمَثِّلُوا بي ويصلبُوني. فقالت: يا بني، إن الشاةَ لا تأْلم السلْخَ بعد الذَّبح، فامْضِ على بصِيرتك، واستَعِنْ بالله.

فقَبَّل رأسها وقال: هذا رأيي، والذي خرجْتُ به دَاعيًا إلى يومي هذا. ما

---

(١) الخضراء: السماء؛ لونها الأخضر. (٢) الغبراء: الأرض.

(٣) ركضه برجله: ضربه بها.

ركَنْتُ[١] إلى الدنيا، ولا أحببْتُ الحياةَ فيها، وما دَعاني إلى الخروج إلاّ الغَضَبُ لله، وأن تُستَحَلَّ حُرُماته؛ ولكني أحببت أن أعْلَمَ رَأيك، فقد زدتني بصيرةً، فانظري فإني مقتولٌ في يومي هذا، فلا يشتدّ حُزْنك، وسَلِّمي لأمْرِ الله، فإنَّ ابْنَك لم يتعمّد إتْيَانَ مُنْكَرٍ ولا عمَلاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حُكْمِ الله، ولم يَغْدِرْ في أمان، ولم يتعمَّدْ ظُلْم مُسلم أو مُعَاهَدٍ، ولم يبلغني ظُلْمٌ عن عمّالي، فرضيْتُ به؛ بل أنكرْتُه، ولم يكن شيءٌ آثَر عندي من رِضاء ربي. اللهم إني لا أقولُ هذا تزكيةً لنفسي، ولكن أقُولُه تعزيةً لأُمي حتى تَسْلُو عني.

فقالت: إني لأرجو أنْ يكون عَزَائي فيك جَميلاً، إن تقدَّمْتَني احتَسَبْتُك، وإن ظفِرْت سُرِرْت بظَفَرك. اخرج عني حتى أنظُر إلى ما يَصِير أمْرُك، فقال: جزاكِ اللّهُ خيرًا؛ فلا تَدعِي الدعَاءَ لي. قالت: لاَ أدَعُه لك أبدًا، فمن قُتلَ علَى باطلٍ فقد قتلت على حقّ.

ثمّ قالت: اللهم ارْحَمْ طُولَ ذلك القِيَام في الليل الطويل، وذلك النَّحيب والظمَأ في هَوَاجِر مكَّة والمدينة، وبرَّه بأبيه وبي. اللهم قد سلَّمْتُهُ لأمْرِكَ فيه، ورضيتُ بما قضَيْتَ، فأثِبْنِي فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

فتناول يَدَها ليقَبِّلها، فقالت: هذا ودَاعٌ فلا تبعَدْ. فقال لها: جِئْتُ مودّعًا، لأني أرَى هذا آخرَ أيامي من الدنيا. قالت: امْضِ على بصِيرتك، وادْنُ مني حتى أُودّعك، فدَنَا منها فعانَقَها، وقبَّلَ بيْنَ عينيها، فوقَعَتْ يدُها على الدِّرع، فقالت: ما هذا صَنِيع مَنْ يُريد ما تُريد! فقال: ما لبِسْتُه إلاّ لأشدّ مَتْنَك. قالت: فإنه لا يشدُّ متْني، فنزعها، ثم درج كميْه، وشدّ أسفَلَ قميصِه وجُبّة خَز تحت السراويل، وأدخل أسفلها تَحْتَ المنطقة[٢]، وأمه تقول: البس ثيابَك مشمَّرةً.

فخرج مِنْ عندها وحمل على أهْلِ الشام حَمْلَةً منكرة، فقَتَل منهم، ثم انكشف هو وأصحابُه، فقال له بعضُ أصحابه: لو لحقْت بموضع كذا. فقال: بئس الشيخ أنا إذًا في الإسلام أنْ أوقعْتُ قومًا فقُتِلوا ثم فَرَرْتُ عن مِثْل مصارعهم.

ودنا أهْلُ الشام حتى امتلأتْ منهم الأبواب، وكانوا يصيحون:

* يـا بْـن ذاتِ الـنِّـطـاقِـيـن لُـؤمـهـا *

فيقول: [من الطويل]

* وتـلـك شـكـاةٌ ظـاهـرٌ عـنـك لـؤمـهـا *

---

(١) ركن إليه: مال إليه وسكن. (٢) المنطقة: ما يشد به الوسط.

وجعل أهْلُ الشام على أبوابِ المسجد رجالاً، فكان لأهل حِمْص البابُ الذي يواجِهُ باب الكعبة، ولأهل دمشق بابُ بني شَيْبَة، ولأهل الأُرْدُن بابُ الصَّفَا، ولأهل فلسطين باب بني جُمَح، ولأهل قِنَّسْرِين باب بني سَهْم. وكان الحجاج وطارق بناحية الأبْطَح[1] إلى المَرْوَة[2]، وابنُ الزبير يحمل على هذه الناحية مرةً وفي هذه أُخرى، وكأنه أسَدٌ في أجَمَةٍ ما تُقْدم عليه الرجال وهو يَعْدُو في إثر القوم حتى يحرجهم، ثم يصيح يا أبا صفْوان، ويلُ أمِّه فَتْحًا، لو كان له رجالٌ.

* لو كان قِرْني واحدًا كفيته *

فيقول أبو صفْوان عبد الله بن صَفوان بن أُمية بن خلف: أي والله وألف.

فقال رجل من أهل الشام اسمه جُلْبوب: إنما يمكنكم أخْذُه إذا ولَّى. قيل: فخُذْه أنْتَ إذا ولَّى. قال: نعم، وتقدّم ليحْضِنَه مِنْ خَلْفه، فعطف عليه فَقَطَّ ذِرَاعَيْه فصاح، فقال: اصبر جُلْبُوب.

قال: فلما رأى الحجاج أنَّ الناس لا يُقْدِمون على ابْنه الزبير غضب وترجَّل يسوقُ الناس ويصدم بهم، فصدم صاحب عَلَم ابن الزبير وهو بين يَديه، فتقدَّم ابْنُ الزُّبَيْر على صاحبِ عَلَمه وقاتلهم حتى انكشفوا، ورجع فصلَّى ركعتين عند المقام، فحملوا على صاحِب عَلَمه، فقتلوه عند بابِ بني شَيْبَة، وأخذوا العَلَم. فلما فرغ من صلاتِه تقدم فقاتل بغير عَلَم، وقتل رجلاً من أهل الشام وآخر، وقاتل معه عَبْدُ الله بن مُطيع، وهو يقول: [من الرجز]

أنا الذي فررْتُ يوم الحرَّهْ والحُرُّ لا يَفِرُّ إلاَّ مَرَّهْ
* واليوم أجزى فَرّة بكَرَّهْ *

وقاتل حتى قُتل، ويقال: أصابته جراحة فمات منها بعد أيام.

قال: وقال عَبْدُ الله بن الزُّبير لأصحابه وأهله يوم قُتِل بعد صلاة الصبح: اكشفوا وُجُوهكم حتى أنظر إليكم وعليكم المَغَافِرُ[3]، ففعلوا، فقال: يا آل الزبير، لو طِبْتُم لي نفسًا عن أنفسكم كنَّا أهْل بيت من العرب اصطُلِمْنَا في اللّهِ فلا يَرُعْكم وَقْعُ

---

(١) الأبطح: بالفتح ثم السكون وفتح الطاء والحاء مهملة: وهو يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينه وبينهما واحدة، وربما كان إلى منى أقرب، وهو المحصّب، وهو خيف بني كنانة... (معجم البلدان).

(٢) المروة: جبل بمكة يعطف على الصفا.

(٣) المغافر: جمع المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

السيوف، فإنَّ أَلَم الدواء للجراح أشدّ من ألم وَقْعِها، صونُوا سيوفَكم كما تصونون وجوهكم، غُضُّوا أبصاركم عن البارِقة، وليشغل كلّ امرىء قِرْنه، ولا تسألوا عني، فمن كان سائلاً عني فإني في الرَّعيل الأوّل، احملوا على بَركة الله.

ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجُون[١] فَرُمِيَ بآجُرّة، رماه بها رجُلٌ من السَّكون، فأصابتْ وجْههُ فأرعش لها وسال الدَّمُ على وجهه، فقال رضي الله عنه وأرضاه: [من الطويل]

فلَسْنَا على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنا ولكن على أعقابنا تَقْطُر الدِّما[٢]

وقاتلهم قتالاً شديدًا، فتعاونوا عليه، فقتلوه، قَتَلَهُ رجُلٌ من مُراد، وحمل رَأْسَه إلى الحجاج، فسجد. ووفَد السَّكُوني والمُرَادي إلى عَبْدِ الملك بالخبر؛ فأعطى كل واحدٍ منهما خمسمائة دينار.

وقيل في قَتْله: إنه جاءه حَجَر المِنْجَنِيق وهو يقاتِلُ فصرعه فاقتحم عليه أهْلُ الشام، وذهبوا به إلى الحجّاج فحزَّ رأسه بيده.

وكان مقتله رضي الله عنه في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جُمَادى الأُولى سنة ثلاث وسبعين وقيل في جُمادى الآخرة منها، وله ثلاث وسبعون سنة.

ولما قُتِل رضي الله عنه كبَّرَ أهْلُ الشام فَرَحًا بقتله؛ فقال عَبْدُ الله بن عمر: انظروا إلى هؤلاء. انظرُوا إلى هؤلاء. لقد كبَّرَ المسلمون فرحًا بولادته، وهؤلاء يكبِّرون فَرَحًا بقَتْله.

وبعث الحجاج برأسه ورَأس عبد الله بن صفوان ورأس عُمارة بن عَمْرو بن حَزْم إلى المدينة، ثم إلى عبد الملك وصلب جثَّته منكَّسة على الثنيَّة[٣] اليمنى بالحَجُون، فأرسلت إليه أسماء تقول: قاتلكَ اللّهُ! على ماذا صلبتَه؟ قال: استبقْتُ أنا وهو إلى هذه الخشبَة، فكانت له. فاستأذَنَتْه في تكفينه ودَفْنِه. فأبى.

وكتب إلى عَبْد الملك يُخْبِرُه بصَلْبِه، فكتب إليه يَلُومُه، ويقول: ألا خلَّيْت بينه وبين أُمِّه. فأذِنَ لها الحجاج فدفَنَتْهُ بالحَجُون.

(١) الحجون: موضع بأعلى مكة عند مقبرة أهلها.
(٢) الكلوم: جمع الكلم، وهو الجرح.
(٣) الثنية: الطريق في الجبل.

وكان قبل مقْتَله بقي أيامًا يستعمل الصّبر والمِسْكَ لئلا ينْتن إنْ هُو صلب، فلما صُلِب ظهر منه ريحُ المسك، فقيل: إن الحجاج صلَب معه كَلْبًا ميّتًا. وقيل، سِنَّورًا، فغلب على ريح المسك.

ولما قتل عبْدُ الله ركب أخوهُ عُرْوَةُ بن الزبير ناقَةً لم يُرَ مِثْلُها وسار إلى عَبْد الملك فسبق رُسلَ الحجاج، فاستأْذن على عَبْدِ الملك فأذِن له، فلما دخل عليه سلَّم عليه بالخلافة، فرحَّب به وأجلسه معه على السرير، فقال عروة: [من الطويل]

نَمُتُّ بأرحامٍ إليك قريبة ... ولا خير في الأرْحامِ ما لم تُقرب

وتَحَدَّثَ حتى جرى ذِكْرُ عَبْدِ الله، فقال عُرْوَة: إنه كان. فقال عبد الملك: وما فعل؟ قال: قُتِلَ؛ فخرَّ سَاجدًا. فقال عُرْوَةُ: إن الحجاج صلَبه. فهَبْ جُثَّتَه لأُمه. قال: نعم.

وكتب إلى الحجاج فَعَظَّم صَلْبه.

وكان الحجاج لما فقد عُرْوة كتب إلى عبد الملك: إنّ عُرْوة كان مع أخيه. فلما قُتل عَبْدُ الله أخذ مالاً من مالِ اللّهِ وهرب.

فكتب إليه عَبْدُ الملك يقول: إنه لم يهرب، ولكنه أتاني مُبَايِعًا، وقد أمّنته وحللته مما كان منه، وهو قادِمٌ عليك، فإياك وعُرْوة.

فعاد عُرْوَة إلى مكة فكانت غَيْبتُه عنها ثلاثين يومًا. فأنزل الحجاجُ جُثَّةَ عبْد الله عن الخشبة وبعث بها إلى أُمّه فغسلته. فلما أصابه الماءُ تقطَّع فغسلته عُضْوًا عضوًا. وصلى عليه عُرْوة وقيل غيره.

وقيل: لم يُصَلّ عليه أحدٌ؛ منع الحجاجُ من الصلاة عليه.

وكانت أيام ولايته منذ مات معاوية بن يزيد إلى أنْ قُتِل سبع سنين وأيّامًا.

وكان له من الأولاد: عَبْد الله، وحمزة، وخُبَيْب، وثابت، وعبّاد، وقيس، وعامر، وموسى.

وكاتبه زيد بن عَمْرو.

وحاجبه سالم مولاه والله الموفق بمنّه وكرمه.

ذكر نبذة من سيرته
رضي الله عنه وأخباره

كان كثيرَ العبادة إذا سجد وقعت العصافيرُ على ظَهْرِه تظنُّه حائطًا لسكُونِه وطُولِ سجوده. وقال بعض السلف: قَسَّم عَبْدُ الله الدّهْر على ثلاث حالات فَلَيْلَةٌ قائم حتى الصباح، وليلة راكع حتى الصباح، وليلة ساجد حتى الصباح.

وقيل: أول ما عُلم مِنْ همَّتِه أنه كان يَلْعَبُ ذات يوم مع الصِّبْيان وهو صَبِي، فمرَّ رجلٌ فصاح عليهم ففرُّوا، ومشى عَبْدُ الله القَهْقَرَى، وقال للصبيان: اجعلوني أمِيرَكم، وشُدُّوا بِنَا عليه.

ومرّ به عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يلعَبُ مع الصبيان ففرُّوا ووقف هو، فقال له عُمَر: ما منعك أن لا تفرَّ معهم؟ فقال: لم أُجْرِمْ فأخافَك، ولم تكن الطريقُ ضيقةً فأُوسِّعَ لك.

وقال هشام بن عروة: كان أول ما أفصح به عَمِّي عَبْدُ الله بن الزبير وهو صغير السيف، فكان لا يضَعُه مِنْ فيه. فكان الزبير رضي الله عنه يقول: واللّهِ ليكوننَّ لك منه يوم وأيام.

وقال ابن سيرين[١]: قال ابنُ الزبير: ما كان شيء يحدثنا به كَعْب إلا وقد جاء على ما قال إلاَّ قوله: فَتَى ثقيفٍ يقتُلني وهذا رَأْسه بين يديّ - يعني المختار -.

قال: لم يشعر ابنُ الزبير أنَّ الحجاج قد خُبِّيء له. ومر به عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهم وهو مصلوبٌ، فقال: يَرْحَمُك الله إن كُنْتَ لصوَّامًا قوّامًا، ولقد أفلحت قريش إن كنتَ شرها.

وكان الحجاج قد صلبه ثم ألقاه في مقابر اليهود، وأرسل إلى أُمِّه يستحضرها، فلم تحضر، فأرسل إليها لتأْتيني أو لأبعثنَّ إليك مَنْ يسحبُك بقُرُونك، فلم تأْتِه فجاء إليها. فقال: كيف رأيتني صنَعْتُ بعَدُوّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدْتَ عَلَى ابْنِي دُنْيَاه، وأفسد عليك آخِرتَك؛ وإنَّ رسول الله ﷺ حدثنا أنّ في ثقيف كذّابًا ومُبيرًا[٢]، فأما الكذاب فقد رأيناه تعني المختار، وأما المُبير فأنت.

---

(١) ابن سيرين: هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري؛ كان أبوه عبدًا لأنس بن مالك رضي الله عنه، كاتبه على أربعين ألف درهم.. وكان من سبي ميسان، ويقال من سبي عين التمر... روى ابن سيرين عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك رضي الله عنهم... (وفيات الأعيان: ١٨١٤).

(٢) المبير: المهلك، أو المفسد.

وقال قَطَن بْنُ عَبْد الله: كان الزُّبير يُفْطِر من الشهر ثلاثة أيام، ومكث أربعين سنة لم ينزع ثَوْبَه عن ظَهْره. وقال مجاهد: لم يكن بابٌ من أبوابِ العبادة يعجز عنه الناسُ إلا تكلَّفه ابن الزبير، ولقد جاء سيْلٌ طبَّق البيْت، فجعل ابْنُ الزبير رضي الله عنه يطوفُ سباحة. وماتت أسماءُ رضي الله عنها بعده بقليل.

انتهت أخبار عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فلنذكر غَيْرَ ذلك مِنْ أخبارِ أيام عبد الملك ونبدأ بتتمَّةِ أخبار الحجاج وما فعل بمكة والمدينة والله أعلم.

ذكر مبايعة أهل مكة عبد الملك بن مروان وما فعله الحجاج من هَدْم الكعبة وبنائها ومسيره إلى المدينة وما فعله فيها بالصحابة رضي الله عنهم

قال: ولما فرغ الحجاجُ من أمْرِ عَبْدِ الله بن الزبير دخل مَكَّةَ فبايَعَهُ أهْلُها لعَبْدِ الملك بن مَرْوان، وأمر بكَنْسِ المسجد الحرام من الحجارة والدم، وهَدم الكعبة في المحرم سنة أربع وسبعين، وأعادها إلى البناء الأول وأخرج الحجر منها، وكان عبد الملك يقول: كذب ابْنُ الزبير فيما رواه عن عائشة رضي الله عنها عَنْ رسولِ الله ﷺ في أمْرِ الحجر، وأنه من البيت. فلما قال له غَيْرُ ابنِ الزبير: إنَّ عائشةَ رضي الله عنها روَتْ ذلك عن رسولِ الله ﷺ قال: ودِدْتُ أني تركْته وما تَحمَّل.

والكعبةُ في وقتنا هذا على بنائها الذي أعادَهُ الحجاجُ بن يوسف.

قال: ثم سار الحجاج إلى المدينة في سنة أربع وسبعين، وكان عَبْدُ الملك قد عزل طارِقًا عنها، واستعمل عليها الحجاج، فصار معه مكة والمدينة واليمن واليَمامة، فلما قدم المدينة أقام بها شهرًا أو شهرين، فأساء إلى أهلها، واستخف بهم، وقال: أنْتُمْ قَتَلةُ أميرِ المؤمنين عثمان، وخَتَم أيْدِي جماعةٍ من الصحابة بالرصاص استخفافًا بهم، كما يُفْعَل بأهلِ الذمَّة، منهم جابر بن عَبْد الله، وأنَس بن مالك، وسَهْل بن سَعْد، ثم عاد إلى مكة مُعْتَمِرًا، وقال حين خرج من المدينة: الحمد لله الذي أخرجني من أُمِّ نَتْن، أهْلها أخبث أهل بلد، وأغَشُّه لأمير المؤمنين، وأحسدهم له على نعمة الله، والله لولا ما كانت تأْتيني كُتُب أمير المؤمنين فيها لجعَلْتُها مثل جَوْفِ الحِمَارِ، أعودا يعوذُونَ بها، ورِمّة قد بليت، يقولون: منبر رسول الله، وقَبْرُ رسول الله ﷺ.

فبلغ جابرَ بن عَبْدِ الله قولُه، فقال: إن وراءَه ما يسوءه. قد قال فرعون ما قال، فأخذه اللَّهُ بعد أن أنْظَره.

وأقام الحجاج بالحجازِ إلى أنْ نقله عَبْدُ الملك إلى ولاية العراق، وذلك في سنة خمس وسبعين على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الخوارج
في أيام عبد الملك بن مَرْوان منذ استقلَّ بالأمر

قد ذكرنا أنه لما قُتِل مصعب بن الزبير كان المهلَّب بن أبي صُفْرة يقاتل الخوارج منذ ثمانية أشهر، وذكرنا مقالَتهم لأصحابه حين بلغهم قَتْل مُصْعب، وتبعه عبد الملك، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين استعمل عبْدُ الملك خالدَ بن عَبْد الله بن أسِيدٍ على البَصْرَة، فلما قدمها استعمل المهلَّب على خراج الأهواز ومعونتها، وبعث أخاه عَبْد العزيز بن عَبْد الله إلى قِتَالِ الخوارج، وسيَّر معه مقاتل بن مسمع، فخرجا يَطْلُبَان الأزارقة، فأتت الخوارجُ من ناحية كَرْمان[1] إلى دَرابجْرد[2] وأرسل قَطَرِيّ بن الفُجَاءة المازِني أمير الحج سبعمائة فارس مع صالح بن مخراق، فأقبل بهم حتى استقبل عَبْد العزيز وهو يَسيرُ ليلاً على غير تَعْبئة، فانهزم بالناس، ونزل مقاتل بن مسمع، فقاتل حتى قُتِل.

ولما انهزم عبْدُ العزيز أُخِذت امرأتُه ابنةُ المنذر بن الجارُود، فأُقيمت فيمن يزيد، فبلغت قيمتها مائة ألف، فجاء رجل من قومها كان من رؤُوسِ الخوارج، فقال: تنحّوا هكذا، ما أرى هذه المشركة إلاَّ قد فتَنَتْكم، فضرب عُنُقَها، ولحق بالبصرة، فرآه آلُ المنذر، فقالوا: والله ما ندري أنحمدك أم نذمّك؟ فكان يقول: ما فعلتُه إلاَّ غيرةً وحميّة.

وانتهى عبد العزيز إلى رَامَهرمز، وأتى المهلبَ خَبَرُه، فأرسل إلى أخيه خالد بن عبد الله بخَبَرِ هزيمته، فقال للرسول: كذبت. فقال: إن كنْتُ كاذبًا فاضْرِبْ عُنُقي، وإن كنْتُ صادقًا فأعطني جُبَّتَك ومُطْرَفك[3]. قال: ويحك! قد رضيْت من الخَطَر العظيم بالخَطَر اليسير، ثم حبسه وأحسن إليه لما صَحَّ عنده خبر الهزيمة. وفي هذه

---

(١) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع تشبه بالبصرة في كثرة التمور وجودتها وسعة الخيرات... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) درابجرد: كورة بفارس نفيسة عمرها دراب بن فارس... ودرابجرد أيضًا: محلة من محال نيسابور بالصحراء من أعلى البلد... (معجم البلدان).

(٣) المطرف: رداء أو ثوب من خز مربع ذو أعلام.

الهزيمة وفرار عبد العزيز يقول ابن قَيْس الرقيَّات[١]: [من الكامل]

عبد العزيز فَضَحْتَ جَيْشَكَ كُلَّهم ... وتركْتَهم صَرْعَى بكلِّ سَبِيلِ
من بين ذي عَطَشٍ يَجُودُ بنَفْسِه ... ومُلَحَّب بين الرجالِ قَتِيلِ[٢]
هلاَّ صبَرْت مع الشهيدِ مُقَاتِلا ... إذْ رُحْت مُنْتَكِثَ القُوَى بأصِيلِ
وتركت جَيْشَك لا أمِيرَ عليهمُو ... فارجِعْ بعَارٍ في الحياةِ طويلِ
ونسيت عِرْسَك إذ تُقاد سَبِيَّةً ... تبكي العيونَ بِرَنَّةٍ وعَوِيلِ

قال: وكتب خالد إلى عَبْد الملك بالخبر، فكتب إليه يقول: قبّح اللّهُ رَأْيك حين تبعثُ أخاك أعرابيًا مِنْ أهل مكة على القتال، وتدَعُ المهلب يَجْبِي الخراج، وهو الميمون النَّقِيبة، المُقَاسِي للحَرْبِ، ابنها وابن أبنائها. أرسل إلى المهلب يستقبلهم، وقد بعثْتُ إلى بِشْر بالكوفة أن يمدَّك بجيش، فسِرْ معهم، ولا تعمل في عدوّك برأي حتى يحضره المهلَّب. والسلام.

وكتب عَبْدُ الملك إلى أخيهِ بِشْر، وهو أميرُ الكوفة، يأمره بإنفاذِ خمسة آلاف مع رجلٍ يرْضَاه لقتالِ الخوارج، فإذا قضوا غَزْوَتهم سارُوا إلى الرَّيّ[٣]، فقاتلوا عدوَّهم، وكانوا مَسْلَحة[٤]، فبعث بِشْر عبْدَ الرحمٰن بن محمد بن الأشعث في خمسة آلاف، وكتب عَهْدَه على الرّيّ، وخرج خالد بأهْلِ البَصْرة حتى قدم الأهواز؛ وقدمها عبد الرحمٰن في أهل الكوفة، وجاءت الأزارقة حتى دنوا من الأهواز؛ فعبَّأ خالد أصحابَهُ، وجعل المهلب على ميمنته، وداود بن قَحْذَم من بني قيس بن ثعلبة على مَيْسَرته، ثم زحف خالدٌ إليهم بالناس بعد عشرين ليلة، فرأوْا من كَثْرَةِ الناس ما هالهم، فانصرفوا على حامية، ولم يقاتلوا؛ فأرسل خالد داودَ بْنَ قَحْذَم في آثارهم، وانصرف عَبْدُ الرحمٰن إلى الرّيّ، وأقام المهلَّبُ بالأهواز، وانصرف خالد إلى البصْرَة، وكتب إلى عَبْدِ الملك بذلك، فكتب إلى أخيه بِشْر يأمُرُهُ أن يبعثَ أربعةَ آلاف فارس من أهل الكوفةِ مع رجل بصيرٍ بالحَرْبِ إلى فارس في طلب الأزَارقة، ويأمر صاحبَه بموافقة داود بن قَحْذَم إن اجتمعا.

(١) ابن قيس الرقيات: هو عبيد الله بن قيس أحد بني عامر بن لؤي وإنما سمي الرقيات لأنه كان يشبب بثلاث نسوة يقال لهن جميعًا رقية... (طبقات الشعراء).

(٢) ملحب: قطعة السيف.

(٣) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) المسلحة: القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة أو موضع السلاح.

فبعث بِشْر عتَّاب بنَ وَرْقَاء في أربعة آلاف، فساروا حتى لحقوا داود، فاجتمعوا، ثم اتَّبَعُوا الخوارج حتى هلكت خيولُ عامتهم، وأصابهم الجوعُ والجهد، ورجع عامة الجيش مُشاةً إلى الأهواز؛ وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

ذكر مقتل أبي فديك الخارجيّ

قد ذكرنا في أخبارِ عَبْدِ الله بن الزبير قَتْل نَجْدَة بن عامر وطاعة أصحابه أبا فُدَيك، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين غَلَب أبو فُدَيك على البَحْرَيْن؛ فبعث خالدُ بْنُ عَبْد الله أمِيرُ البصرة أخاه أُمية بن عبْد الله في جُنْد كثيف، فهزمه أبو فُديك، وأخذ جاريةً له، فاتخذها لنفسه، فكتب إلى عبْدِ الملك بذلك، فأمر عَبْدُ الملك عُمرَ بن عُبيد الله بن معمر أن يَنْدب الناسَ من أهلِ الكوفة والبصرة ويَسِير إلى قِتاله، فانتدب معه عشرة آلاف، وسار بهم، وجعل أهلَ الكوفةِ على الميمنة، وعليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عُبيد الله، وأهلَ البَصْرة على الميسرة وعليهم عُمَرُ بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وهو ابن أخي عُمر، وجعل خَيْلَه في القَلْبِ، وساروا حتى انتهوا إلى البَحْرَيْن، فالتقوا، واصطفّوا للقتال، فحمل أبو فُدَيْك وأصحابُه حمْلَةَ رجلٍ واحدٍ، فكشفوا ميسرة عُمر حتى أبْعَدُوا إلاّ المغيرة بن المهلَّب، ومَجَّاعَة بن عبد الرحمٰن، وفُرْسَان الناس؛ فإنهم مالوا إلى صَفّ أهلِ الكوفةِ بالمدينة، ثم رجع أهلُ الميسرة وقاتلوا واشتد قتالُهم حتى دخلوا عَسْكَرَ الخوارج، وحمل أهلُ الميمنة حتى استباحُوا عسْكَر الخوارج، وقتلوا أبا فُدَيْك، وحَصَرُوا أصحابَه حتى نزلوا على الحكم، فقُتل منهم نحو ستة آلاف، وأُسر ثمانمائة؛ ووجدوا جارية أمية بن عبد الله حُبْلَى من أبي فُدَيك، وعادوا إلى البصرة، وذلك في سنة ثلاث وسبعين.

ذكر ولاية المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة

في سنة أربع وسبعين أمر عَبْدُ الملك أخاه بِشْرًا، وكان قد أضاف إليه ولايةَ البَصْرة مع الكوفةِ، أنْ يبعَثَ المهلَّب بْن أبي صُفْرَة لحرْبِ الأزَارقة في أهل البصرة، وأن ينتخب مَنْ أراد منهم، وأنْ يتركه في الحرب ورَأْيه، وأمره أن يَبْعَثَ من أهْلِ الكوفة رجُلاً شريفًا معروفًا بالبَأْسِ والنَّجْدة في جيش كثيف إلى المهلَّب، وأن يتتبَّعُوا الخوارجَ حيث كانوا حتى يستأْصلوهم.

فأرسل المهلَّب خَدِيج بن سَعِيد بن قَبيصة، وأمره أن ينتخب الناس من الديوان، وشقّ على بشر أن إمرةَ المهلَّبِ جاءت من قِبَل عَبْد الملك، وبعث بشر عبد الرحمٰن بن

مِخْنَف على أهل الكوفة، وأغْرَاه بالمهلَّب، وأمره أن يستبدَّ بالأمر، وسار المهلَّب حتى نزل رَامَهُرْمز[١]، فلقي بها الخوارج، فَخَنْدَق عليه، وأقبل أهلُ الكوفةِ حتى نزلوا على ميل من المهلَّب، فلم يلبث العسكر إلاَّ عشْرًا حتى أتاهم نَعْي بِشر بن مرْوان فتفرقوا، وعاد أَكْثَرُ أهل الكوفة والبصرة إلى أن قدم الحجاج إلى الكوفة في سنة خمس وسبعين، فأخرج الناس إلى المهلَّب وابن مِخْنَف على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الحجاج حين قدم الكوفَةَ.

ذكر إجلاء الخوارج عن رامهرمز وقتل عبد الرحمٰن بن مِخْنَف

قال: ولما أعاد الحجاج البعوثَ إلى المهلَّب كتب إليه وإلى عَبْد الرحمٰن بن مِخْنَف يأمُرهما بمناهَضَةِ الخوارج رجعوا إليهم وقاتلوهم شيئًا مِنْ قتال، فانزاحت الخوارجُ كأنهم على حاميةٍ، وساروا حتى نزلوا بكازَرُون[٢]، وسار المهلَّب وابن مِخْنَف حتى نزلوا بهم، وخَنْدَق المهلَّب على نفسه، وأشار على ابن مِخْنَف أن يخندق، فقال أصحابه: نحن خندَقُنَا سيوفُنَا، فأتى الخوارجُ المهلَّبَ ليبَيِّتُوه، فوجدوه قد خَنْدَق، فمالوا نحو ابْنِ مخنف، فقاتلوه، فانهزم عنه أصحابُه، فنزل فقاتل في ناسٍ من أصحابه، فقُتِل وقَتَلُوا رجاله، فقال شاعرهم: [من الخفيف]

لمن العسكَرُ المكلَّلُ بالصَّرْ عى فهُمْ بَيْنَ ميِّتٍ وقَتِيلِ
فتراهُمو تَسْفِي الرياحُ عليهمو حاصِبَ الرَّمْلِ بعْدَ جرّ الذُّيُولِ[٣]

هذا قول أهل البصرة في قَتْلِ ابْن مِخْنف.

وأما أهْلُ الكوفة فقالوا: إنه لَمَّا وصل كتابُ الحجاج لمناهضة الخوارج ناهضهم المهلَّب وابن مِخْنَف، واقتتلوا قتالاً شديدًا؛ فمالت الخوارج إلى المهلَّب فاضطرّوه إلى عسكره، فاستنجد عَبْدَ الرحمٰن فأمدَّه بالخيل والرجال، وكان ذلك بعد الظهر لعَشْرٍ بقين من شهر رمضان سنة خمس وسبعين.

---

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان... وهي من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والإترنج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان، وقد ذكر كثير من الشعراء... (معجم البلدان).

(٢) كازرون: بتقديم الزاي وآخره نون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز. قيل: هي بلدة عارمة كبيرة، وهي دمياط الأعاجم... (معجم البلدان).

(٣) الذيول: جمع الذيل: وهو أسفل الثوب.

فلما كان بعد العَصْرِ ورأت الخوارج مَنْ يأتي مِنْ عسكر عبد الرحمٰن من الرجال علموا أنه قد خفَّ أصحابُه، فجعلوا بإزاء المهلَّب مَنْ يَشْغله، وانصرفوا بحَدِّهم إلى ابن مِخْنَف، فنزل ونزل معه القُرّاء، منهم أبو الأحوص صاحب ابن مسعود، وخزيمة بن نصر أبو نصر بن خزيمة، ونزل معه من قومه واحدٌ وسبعون رجلاً، وحملت عليهم الخوارجُ فقاتلوا قتالاً شديدًا، وانكشف الناسُ عنه، وبقي في عصابةٍ من أهل الصَّبْر، فقاتلوا حتى ذهب نَحوُ ثلثي الليل، ثم قُتِلَ في تلك العِصَابَةِ.

فلما أصبحوا جاء المهلَّب فصلَّى عليه ودفَنَه، وكتب بذلك إلى الحجاج، فبعث إلى عَسْكَر عبد الرحمٰن عَتَّاب بن ورقاء، وأمرَه أن يسمع إلى المهلَّب، فساءه ذلك، ولم يجد بُدًّا من طاعته، فجاء وقاتل الخوارج؛ ثم وقع بينه وبين المهلَّب كلامٌ أغلظَ كلٌّ منهما لصاحبه، فرفع المهلَّب القضيب على عتَّاب، فوثب المغيرةُ بن المهلب فقبض القضيبَ من يَدِ أبيه وسكته، وأثنى على عتَّاب، وافْتَرَقَا.

فأرسل عَتَّاب إلى الحجَّاج يَشْكُو المهلَّب، ويسأله أنْ يأْمر بالعود، فوافق ذلك حاجَةً من الحجاج إليه، فاستقدمه، وأمره أنْ يترك ذلك الجيش مع المهلَّب، فجعل المهلَّب عليهم ابنه حَبيبًا، وقاتلَ المهلَّبُ الخوارجَ على سابور[١]، نحو سنَةٍ بَعْدَ مسير عَتَّاب عنه، وكانت كَرْمَان في يَدِ الخوارج، وفارس في يَدِ المهلب؛ فضاق على الخوارج مكانُهم، فخرجوا حتى أتوا كِرمَان، وتبعهم المهلب حتى نزل بِجيْرَفْت[٢]، وهي مدينة كِرْمَان، فقاتلهم قتالاً شديدًا. ثم أرسل إليه الحجاج البَرَاءَ بْنَ قَبِيصة يحثُّه على قتالِ الخوارج، ويأْمُرُه بالجِدّ، وأنه لا عُذْرَ له عنده.

فخرج المهلَّبُ بالعسكر، فقاتل الخوارج مِنَ الغدَاة إلى الظهر، ثم انصرفوا والبراء على تَلّ مُشرِف يَراهم، فأثنى على المهلَّب وعلى أصحابه، وانصرف إلى الحجّاج، وعرّفه عُذْرَ المهلب، ثم قاتلهم المهلَّب ثمانية عشر شهرًا لا يَقْدِرُ منهم على شيء إلى أن وقع بينهم الاختلاف.

ذكر الاختلاف بين الأزارقة ومفارقة قَطَرِيّ بن الفُجاءة إياهم ومبايعتهم عبد ربّ الكبير والحَرْب بينه وبين المهلَّب ومقْتَله

وفي سنة سبْع وسبعين وقع الاختلافُ بين الخوارج، فخلعوا قَطَرِيّ بن الفُجَاءة، وبايعوا عبد ربّ الكبير، واختلف في سبب ذلك، فقيل: إن عاملاً لقَطَرِيّ على ناحية

(١) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس. (٢) جيرفت: مدينة بكرمان.

كِرْمَان، يدعى المُقَعْطَر الضَّبي، قتل رجُلاً منهم، فوثبت الخوارجُ إلى قَطَري، وطلبوا منه أنْ يقيدهم مِنْ عامله، فلم يَفْعَل، وقال: إنه تأوَّلَ فأخْطَأ التأويل، وهو من ذَوِي السابقة فيكم، ما أرى أنْ تقتلوه، فاختلفوا.

وقيل: كان السبب في اختلافهم أنَّ رجلاً كان في عسْكَرهم يَعْملُ النصولَ المسمومةَ، فيرمي بها أصحابَ المهلَّب، فشكا أصحابُه منها، فقال: أنا أكفيكموه، فوجَّه رجلاً من أصحابه ومعه كتابٌ، فأمره أن يُلْقِيَه في عسكر قَطَريّ ولا يراه أحَد، ففعل، ووقع الكتابُ؛ إلى قَطريّ، فإذا فيه: أما بعد فإنّ نِصَالَك[1] وصلَتْ، وقد أنفَذْتُ إليك ألْفَ درهم، فأحضر قَطَرِيٌّ الصانع فسأله. فجحد[2]، فقتله، فأنكر عليه عبد ربّ الكبير قَتْلَه، واختلفوا.

ثم وضع المهلَّب رجلاً نصرانيًا، وأمره أنْ يسجد لقَطَريّ. ففعل. فقال الخوارج: إن هذا قد اتَّخَذَكَ إلَهًا. ووثب بعْضُهم على النَّصْراني فقتَله، فزاد اختلافُهم، ففارق بعْضُهم قَطَرِيًا وخلعوه، ووَلَّوْا عبد رب الكبير، وبقي مع قَطَريّ منهم نحو رُبعهم أو خُمسهم، واقتتلوا فيما بينهم نَحْوًا من شهر.

وكتب المهلَّب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاجُ يأمره بقِتَالِهم على حالِ اختلافهم قبل أن يجتمعوا.

فكتب إليه المهلَّب: إني لسْتُ أرَى أن أُقاتِلَهم ما دام يَقْتُلُ بعضُهم بعضًا، فإن تَمّوا على ذلك فهو الذي نُريد، وفيه هلاكهم. وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلاَّ وقد رقَّق بَعْضُهم بعضًا فأُناهضهم حينئذ، وهم أهونُ ما كانوا وأضعفهم شَوْكَة إن شاء الله تعالى. والسلام.

فسكت عنه.

ثم إن قَطَريًا خرج بمَنْ معه نحو طَبرستان[3]، وأقام عند عبد ربّ الكبير بكَرْمَان، فنهض إليهم المهلَّبُ، فقاتلوه قتالاً شديدًا وحصرهم بِجيْرَفْت، وكرّر قتالَهم وهو لا يبلغُ منهم ما يريد.

---

(١) النصل: حديدة الرمح والسهم والكسين. (٢) جحد الأمر: أنكره مع علمه به.

(٣) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم... فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية، وهي مثلها، وشالوس، وهي مقاربة لها... (معجم البلدان لياقوت).

فلما طال عليهم الحِصار خرجوا من جِيْرفْت بأموالهم وحُرمهم، فقاتلهم المهلَّبُ قتالاً شديدًا حتى عُقِرت الخَيْلُ وتكسّر السلاحُ، وقُتل الفرسان، فتركهم، فساروا؛ ودخل المهلَّب جِيْرَفْت، ثم سار حتى لحقهم على أربعة فراسخ منها، فقاتلهم مِنْ بُكْرَة النهار إلى الظُّهْرِ، ثم كفّ عنهم، فجمع عبدُ رب الكبير أصحابه، وقال: يا معشر المهاجرين؛ إن قَطَرِيًّا ومن معه هربوا، طلب البقاء، ولا سبيل إليه، فالْقَوْا عدوّكم، وهبُوا أنفسكم لله، ثم عاودَ القتال، فاقتتلوا قتالاً شديدًا أنْساهُم ما قَبْله، فتبايع جماعةٌ من أصحاب المهلَّبِ على الموت، وترجّلت الخوارجُ، وعَقَرُوا دوابَّهم، واشتدّ القتالُ، وعَظُم الخَطْبُ حتى قال المهلب: ما مرّ بي يوْمٌ مثل هذا.

ثم هزم اللّهُ الخوارِج، وكَثُر القَتْلُ فيهم، فكان عَدَد القتلى أربعة آلاف، منهم ابن عبد ربّ الكبير، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل، وأُخِذَ عسكرهم وما فيه، وبعث المهلَّب إلى الحجاج مُبَشِّرًا. فلما دخل البَشِير إليه أخبره عن الجيْشِ وعن الخوارج وذكر حروبَهم، وأخبره عن بني المهلب، فقال: المغيرة فارسُهم وسيِّدهم، وكفى بيزيد فارسًا شجاعًا، وجوادُهم وشجاعهم قَبيصةُ، ولا يستحي الشجاع أنْ يفرَّ من مُدْرِكِهِ. وعبد الملك سمٌّ ناقع، وحَبيب موتٌ ذُعَاف[1]، ومحمد لَيْثُ غَابٍ، وكفاك بالمفضل نَجْدَة. قال: فأيهم كان أنْجد؟ قال: كانوا كالحلْقَةِ المُفْرَغَة لا يُعْرَف طَرفها.

فاستحسن قوله: وكتب إلى المهلب يشكره، ويأمُره أن يولِّي كِرْمَان مَنْ يَثِقُ إليه، ويجعل فيها مَنْ يحمِيها، ويَقْدُم عليه، فاستعمل عليها ابْنَه يزيد. وسار إلى الحجاج.

فلما قدم عليه أكْرَمه وأجلَسه إلى جَانِبه، وقال: يأهل العِراقِ. أنتم عَبِيدُ المهلَّب. ثم قال له: أنت كما قال لَقِيط بن يعْمُر[2] الإيادي في صِفَةِ أميرِ الجيوش: [من البسيط]

فـقـلِّـدُوا أمْـرَكـم لِـلّـهِ درُّكـمُـو — رَحْبَ الذراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لا مُتْـرفًـا إنْ رَخَـاءُ الـعيشِ ساعَـدَه — ولا إذا عَـضّ مـكـروهٌ بـه خَـشـعـا
مُـسَـهَّـدُ الـنَّـوْمِ تَـعْـنِـيه ثُـغـورُكـمـو — يَـرُوم مـنـهـا إلـى الأعْـدَاءِ مُـطَّـلَـعـا

(١) الموت الذعاف: السريع.

(٢) هو لقيط بن معمر من إياد وكانت إياد أكثر نزار عددًا وأحسنهم وجوهًا وأمدهم وأشدهم وأمنعهم وكانوا لقاحًا لا يؤدون خرجًا. وهم أول معديّ خرج من تهامة فنزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق. . . (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ما انْفَكَّ يَحْلبُ هذا الدَّهرَ أشْطُرَه   يكون متَّبِعًا طَوْرًا ومتَّبَعا[١]
وليس يشغَلُه مالٌ يُثمِّرُه   عنكم ولا ولد يبْغِي له الرِّفَعا
حتى استمرت على شَزْرٍ مَرِيرتُه   مستحكم السنِّ لا قَحْمًا ولا ضرَعا[٢]

وأحسن الحجاجُ إلى أهْلِ البَلاَءِ من أصحاب المهلَّب وزادَهم والله أعلم.

ذكر مقتل قطريّ بن الفجاءة وعبيدة بن هلال ومَنْ معهما من الأزارقة

كان مقْتلهم في سنة سبع وسبعين، وذلك أنه لما تشتَّت أمْرُهم بسببِ الاختلاف الذي ذكَرْنَاه، وسار قَطَرِيّ نحو طَبرسْتَان ندب الحجاجُ سُفْيَان بن الأبْرد في جيشٍ كثيف، فسار، واجتمع معه إسحاق بن محمد بن الأشْعَثِ في جَيْشٍ لأهْل الكوفة بطبرستان، فأقبلا في طَلَبِ قَطَرِي، فأدركوه في شِعْبٍ[٣] من شِعَاب طَبَرسْتَان، فقاتلوه، فتفرَّق عنه أصحابُه، وسقط عن دابته فَتَدَهْدَه[٤] إلى أسفل الشِّعب، وأتاه عِلْجٌ من أهل البلد وهو لا يعرِفُه فقال له قَطَرِيّ: اسْقِني الماءَ. فقال العِلجُ: أعْطِني شيئًا. فقال: ما معي إلا سِلاَحي، وإن أتَيْتَني بالماء فهو لَكَ، فانطلق العِلْجُ حتى أشرفَ على قَطَرِي ثم حَدَّر عليه حَجَرًا عظيمًا من فوقه، فأصاب وَرِكَه فأوْهَنه، وصاح بالناس فأقبلوا نحوه.

وجاء نَفَرٌ من أهل الكوفة فقتلوه، منهم سَوْرَة بن أبْجر التميمي، وجعفر بن عبد الرحمٰن بن مخنف، والصباح بن محمد بن الأشعث، وعُمر بن أبي الصلت، وكلُّ هؤلاء ادّعى قَتْلَه، فجاءهم أبو الجَهْم بن كنانة، فقال: ادفعوا رَأْسه إليّ حتى تصطلحوا، فدفعوه إليه، فأقبل به إلى إسحاق بن محمد، وهو على أهْل الكُوفة، فأرسله معه إلى سُفْيَان بن الأبْرد، فبعثه معه إلى الحجاج، فسيَّره معه إلى عبْد الملك، فجعل عطاءه في ألفين؛ ثم سار سُفْيَان إليهم، وأحاط بهم وأميرُهم عُبَيدة بن هلال، فأمر منادِيًا فنادى: مَنْ قتل صاحبه وجاء إلينا فهو آمِن، وحصرهم سُفْيَان حتى أكلوا دوابَّهم، ثم خرجوا إليه، وقاتلوه، فقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج، وانقرضت

(١) حلب الدهر أشطره: خبره وجرّبه.
(٢) القحم: الكبير السن جدًا. والضرَع: الضعيف.
(٣) الشعب: انفراج بين الجبلين؛ أو الطريق.
(٤) تدهده: تدحرج.

الأزارقةُ بعد مَقْتَل قَطَرِيّ وعُبَيدة، فكان أولهم نافع بن الأزرق، وآخرهم قَطِري وعُبيدة. واتصل أمرهم بِضْعًا وعشرين سنة، ثم دخل سفيان دُنْبَاوَند[١] وطَبَرِستان، فكان هناك حتى عَزَلَه الحجاجُ قبل الجَماجِم.

هذا ما كان من أمر الأزارقة، فلنذكر منْ سِواهم من الخوارج أيام عبْد الملك.

ذكر خروج صالح بن مسرح التميمي وشَبِيب بن يزيد بن نُعيم الشيباني

قال: كان صالح بن مُسَرِّح التميمي رجلاً نَاسِكًا مُصْفَرّ الوجْهِ صاحبَ عِبادة، وكان بدارًا وأرض الموصل والجزيرة، وله أصحابٌ يُقرئهم القُرْآن والفِقْهَ، ويقصُّ عليهم، فدعاهم إلى الخروج وإنكارِ المظالم وجهادِ المخالفين لهم، فأجابوه إلى ذلك، فبينما هم في ذلك إذْ ورد عليهم كتاب شَبِيب يقول له: إنك كنْت تريدُ الخروج، فإن كان ذلك من شأنك اليوم فأنت شيخُ المسلمين، ولن نَعْدِل بكَ أحدًا، وإن أرَدْتَ تأْخيرَ ذلك فأعلمني؛ فإنَّ الآجالَ غادِيَةٌ ورائحة، ولا آمنُ أن تَخْتَرِمني[٢] المنيَّةُ، ولم أُجاهد الظّالمين.

فكتب إليه صالح: إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارُك، فاخْرُجْ إلينا، فإنك ممن لا يُسْتَغْنَى عن رأيِهِ، ولا تُقْضى دونه الأُمور.

فلما قرأ شَبِيب كتابَه دعا نَفَرًا من أصحابه؛ منهم أخوه مُصَاد بن يزيد، والمُحلَّل بن وائل اليشكري وغيرهم، وخرج بهم حتى قَدِم على صالح بدارا، فلما لقِيه قال: اخرج بنا رَحِمَك الله، فوالله ما تَزْدَادُ السُّنةُ إلاَّ دُرُوسًا، ولا يزدادُ المجرمون إلاَّ طغيانًا.

فبثَّ صالحٌ رُسُلَه، وواعدَ أصحابَه للخروج هلال صفر سنة ست وسبعين، فاجتمعوا عنده ليلةَ الموعد، فسأله بَعْضُ أصحابه عن القتال؛ أيكون قبل الدعاء أو بَعْدَهُ؟ فقال: بل ندعوهم، فإنه أقطع لحُجَّتهم. فقال: كيف ترى فيمن قاتلنا فظفِرنا بهم، ما تقولُ في دمائهم وأموالهم؟ فقال: إنْ قاتلنا فغنمنا فلَنَا، وإن عَفَوْنا فموسَّعٌ علينا.

---

(١) دنباوند: جبل في نواحي الريّ.

(٢) اخترمته المنية: أخذته.

ثم وعظ أصحابَه وأمرهم بأمره، وقال لهم: إن أكثركم رجّالة، وهذه دوابُّ لمحمد بن مرْوان فابدؤُوا بها، فاحملوا عليها رَاجِلكم وتقوّوا بها على عَدُوِّكم.

فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدوابَّ، وأقاموا بأرض دَارًا ثلاث عشرة ليلة، وتحصَّنَ أهْلُها منهم وأهل نَصِيبين[١] وسِنْجَار[٢]، وكان خروجُه في مائة وعشرين، وقيل: وعشرة.

وبلغ ذلك محمد بن مَرْوَان وهو أمِيرُ الجزيرة يومئذ، فأرسل إليهم عديَّ بن عديّ الكندي في ألفٍ، فسار من حرّان[٣]، وكأنه يُساقُ إلى الموت، وأرسل عديٌّ إلى صالح يسألهُ أن يخرجَ من هذه البلد، ويعلمه أنه يَكْرَهُ قِتَالَهُ. وكان عديٌّ ناسكًا، فأعاد صالح إليه: إن كُنْتَ ترى رأْيَنَا خرجْنَا عنك. فأرسل إليه: إني لا أرَى رأْيَكَ، ولكني أكرَهُ قتالَك وقتالَ غَيْرِك. فقال صالح لأصحابه: اركبوا، فركبوا، وحبس الرسول عنده ومضى. فأتى عَدِيًا وهو يصلّي الضُّحَى، فلم يشعرُوا إلا والخيلُ قد طلعَتْ عليهم، وهو على غَيْر تعبئة، فحمل عليهم شَبِيب وهو على مَيْمَنة صالح، وسُوَيد بن سُليم وهو على ميسرته؛ فانهزموا، وأُتي عدِيّ بدابّته فركبها، وانهزم. وجاء صالح فنزل في معسكره، وأخذَ مَا فِيهِ، ودخل أصحابُ عديّ على محمد بن مَرْوان فغضب على عديّ. ثم دعا خالد بن جَزْء السلمي، فبعثه في ألف وخمسمائة، وبعث الحارث بن جَعْوَنَةَ في ألف وخَمْسِمائِة، وقال: اخرُجا إلى هذه المارِقَة، وأغِذَّا السير، فأيُّكما سبق فهو الأمِيرُ على صاحبه، فخرجا متساندَيْن يسألان عن صالح؛ فقيل: إنه نحو آمِد[٤]، فقصداه، فوجّه صالح شَبِيبًا في شطر من أصحابه إلى الحارث، وتوجّه هو نحو خالد، فالتَقَيَا، واقتتلوا وقْتَ العصر أشدّ قتال حتى أمسوا، وقد كثر الجراح في الفريقين، فلما حال بينهما الليلُ خرج صالح وأصحابُه، فساروا حتى قطعوا أرْضَ الجزيرة والموصل، وانتهوا إلى الدَّسْكرة[٥].

---

(١) نصيبين: تقدم تفسيرها ووصفها.

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام.

(٣) حرّان: بتشديد الراء وآخره نون: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم... (معجم البلدان).

(٤) آمد: بلد قديم على نشر، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال.

(٥) الدسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر ملك.

فلما بلغ خبرهم الحجاج سَرّح إليهم الحارث بن عميرة في ثلاثةِ آلاف من أهل الكوفة، فلقيهم صالح في تسعين رجلاً، وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جُمادى الآخرة، فاقتتلوا. فانهزم سُويد بن سُلَيم بميْسَرة صالح، وثبت صالح، فقاتل حتى قُتل، وقاتل شَبِيب حتى صُرِع عن فرسِه، فحمل عليهم راجِلاً فانكشفوا عنه، فنادى: إليّ يا معشر المسلمين، فلاذُوا به. فقال لأصحابه: ليجعل كلُّ واحد منكم ظَهْره إلى ظَهْرِ صاحبه، وليطاعِنْ عدوَّه حتى ندخل هذا الحِصْن ونرى رَأْيَنا. ففعلوا ذلك، ودخلوا الحِصن، وهم سبعون رجلاً، وأحاط بهم الحارِثُ، وأحرق عليهم الباب، وقال: إنهم لا يقدِرونَ على الخروج منه. وكانت هذه الوقعة بقرية يقال لها المدَبّج[١].

ذكر بيعة شبيب بن يزيد الشيباني ومحاربته الحارث بن عميرة وهزيمة الحارث

قال: ولما أحرق الحارثُ البابَ على شَبيب انصرف إلى عَسْكَرِه وقال: إنهم لا يَقْدِرُونَ على الخروج منه؛ فنصبّحهم غَدًا فنقتلهم. فقال شبيب لأصحابه: ما تنتظرون؟ فوالله لئن صبّحكم هؤلاء إنّه لهلاكُكُمْ. فقالوا: مُرْنَا بأمْرِكَ. فقال: بايعُونِي أو مَنْ شئتم مِنْ أصحابكم، واخرجوا بنا إليهم، فإنهم آمنون، فبايَعُوه، وأتوا باللبود[٢] فبلُّوها وجعلوها على جَمْر الباب وخرجوا. فلم يشعر الحارثُ إلاّ وهم بينهم بالسيوف، فصُرِعَ الحارث، فاحتمله أصحابُه وانهزموا نَحْوَ المدائن، وحَوَى شَبيب عَسْكَرهُمْ، فكان ذلك أول جيش هزمه.

ذكر الحروب بين أصحاب شبيب وعنزة

قال: ثم لقي شبيب سلامة بن سيَّار التَّيمي، تيْم شيبَان، بأرض الموصل، فدعاه إلى الخروج معه فشرط عليه سلامة أن ينتخب ثلاثين فارسًا ينطلقُ بهم نحو عَنَزَة[٣] ليُوقع بهم، فإنهم كانوا قتلوا أخاه فَضَالة، وكان فَضَالة قد خرج في ثمانية عشر رجلاً

(١) المدبج: مدينة على تخوم ما بين الموصل والعراق.

(٢) اللبود: جمع اللبد، وهو كل شعر أو صوف متلبد؛ أو ضرب من البسط؛ أو ما يوضع تحت السرج.

(٣) عنزة: اسم قبيلة منسوبة إلى عنزة بن أسد، وسمي عنزة لأنه طعن رجلاً بعنزة، وهي خشبة في رأسها زج. . . وبنو عنزة، من بني ربيعة بن نزار. . . (الاشتقاق لابن دريد).

حتى نزل ماءً يقال له الشجرة[١] وبه عَنَزَة نازلون، فنهضت عَنَزَةُ فقتلوه ومَنْ معه وأتوا برؤوسهم إلى عبد الملك فأنزلهم بَانِقْيا[٢]، وفَرَضَ لهم، وكان خروج فضالة قبل خروج صالح، فأجابه شَبِيب فخرج حتى انتهى إلى عَنَزَة، فجعل يَقْتُل المحلة بعد المحلة حتى انتهى إلى فريق منهم فيه خالَتُه قد أكبت على ابنٍ لها وهو غلامٌ حين احتلم، فأخرجت ثَدْيَها إليه وقالت: أنشدك ترحم هذا يا سلامة. فقال: لا والله ما رأيتُ فضالة مذ أناخ بأرضِ الشجرة. لتقومِنّ عنه أو لأجمعنّكما بالرمح، فقامَتْ عنه. فقتَلَهُ.

ذكر مسيرة شبيب إلى بني شيبان وإيقاعه بهم ودخولهم معه

قال: ثم أقبل شَبِيب بخَيْله نحو راذان[٣] فهرب منه طائفةٌ من بني شَيْبَان، ومعهم ناسٌ قليلٌ مِنْ غيرهم، فأقبلوا حتى نزلوا دَيْرًا خَرابًا إلى جَنْب حَوْلاَيَا[٤]، وهم نحو ثلاثة آلاف، وشَبِيبٌ في سبعين رجلاً أو يزيدون قليلاً، فنزل بهم فتحصَّنُوا منه فجعل أخاه مُصاد بن يزيد يحاصِرُهم، وتوجَّه إلى أُمِّه ليأْخذَها وهو في اثني عشر رجلاً؛ فمرّ في طريقه بجماعة من بني تيم بن شبيان في أموالهم مُقيمين؛ لا يرَون أنَّ شبيبًا يمرُّ بهم. ولا يشعر بمكانهم، فحمل عليهم فقتل ثلاثين شيخًا فيهم حَوْثَرة بن أَسَد، ومضَى إلى أُمِّه؛ وأشرف رجُلٌ من الدَّير على أصحاب شَبِيب، فقال: يا قوم؛ بيننا وبينكم القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] فكُفُّوا عنَّا حتى نخرجَ إليكم بأمانٍ وتَعْرِضُوا علينا أمركم، فإنْ قبلناه حرُمَتْ عليكم دِمَاؤُنا وأموالُنا، وإن نحن لم نَقْبَلْه ردَدْتمونا إلى مَأْمننا، ثم رأيتم رَأْيكم. فأجابوهم فخرجوا إليهم، فعرض عليهم أصحابُ شبيب قولَهم، فقبلوه كلَّه، فنزلوا إليهم، وجاء شَبيب فأُخبر بذلك، فقال: أصبتُم ووُفِّقْتُم.

---

(١) الشجرة: موضع على ستة أميال من المدينة.

(٢) بانقيا: من نواحي الكوفة.

(٣) رذان: بفتح أوله، وثانيه مخفف، وآخره نون: قرية بنواحي نسا؛ ينسب إليها أبو جعفر محمد بن أحمد بن أبي جعفر عون الرذاني النسوي... (معجم البلدان).

(٤) حولايا: قرية كانت بالنهروان، خربت بخرابه... (المراصد).

ذكر الوقعة بين شبيب وسفيان الخثعمي

قال: ثم ارتحل شَبِيب، وخرج معه طائفة، وأقامت طائفة؛ فسار في أرض الموصل نحو أذْرَبِيجان[١]. وكتب الحجاجُ إلى سفيان بن أبي العالية الخَثْعَمي يأمره بالقُفُول، وكان معه ألفُ فارس يريدُ أن يدخل بها طَبرِسْتَان. فلما أتاه كتابُ الحجاج صالح صاحِب طَبرِسْتَان ورجع، فأمره الحجاج أنْ ينزل الدَّسْكِرَةَ[٢] حتى يأتيه جيْش الحارث بن عميرَة الهَمْدَاني وتأتيه خَيْل المناظِر، ثم يسير إلى شَبِيب. فأقام بالدَّسْكَرَة ونُودِي في جيشِ الحارث: الحرب بالكوفة والمدائن، فخرجوا حتى أتوا سُفْيان، وأتته خَيْل المَنَاظر عليهم سَوْرَة بن أبْجَر التميمي، وكتب إليه سَوْرة بالوقوف حتى يلحقَه، فعجل سفيان في طلب شبيب، فلحقه بِخَانِقِين[٣] وارتفع شبيب عنهم، وأكمن له أخاه مُصَادًا في خمسين رجلاً، ومضى في سَفْح الجبَل، فقالوا: هرب عدُوُّ الله، فاتَّبعوه، فقال لهم عديّ بن عميرة الشيباني: لا تعجلوا حتى تُبْصِرُوا الأرض لئلا يكون قد أكْمَنَ بها كَمِينًا، فلم يلتفِتُوا واتَّبعوه، فلما جازُوا الكَمِينَ عطف عليهم شَبِيب، وخرج أخوه في الكَمِين، فانهزم الناسُ بغير قتال، وثبت سفيان في نحو مائتين؛ فقاتلهم قِتَالاً شديدًا، ثم نجا حتى انتهى إلى بابل مهْروذ[٤] وكتب إلى الحجاج بالخبر، ويعرفه وصولَ الجند إلاَّ سَوْرة بن أبجر فإنه لم يَشْهَد معي القتال.

ذكر الوقعة بين شبيب وسورة

قال: ولما وصل كتابُ سفيان إلى الحجّاج كتب إلى سَوْرة بن أبجر يلومُه ويتهدَّده، ويأمره أنْ ينتخبَ من المدائن خَمْسَمائة فارس ويسِير بهم وبمَنْ معه إلى شبيب، فسار سَوْرَة بهم نحو شبيب، وشبيب في جُوخى[٥]، وسَوْرة في طلبه حتى انتهى إلى المدائن، فتحصن منه وأخذ منها دوابّ وقتل مَنْ ظَهَرَ له، وخرج حتى

---

(١) أذربيجان: هو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها: تبريز، وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها، وكانت قصبتها قديمًا المراغة؛ ومن مدنها خوي، وسلماس، وأرمية، وأردبيل، ومرند، وغير ذلك. . . (معجم البلدان).

(٢) الدسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر ملك كمدينة صغيرة على ضفة نهر ملك. . . والدسكرة أيضًا: قرية بخوزستان.

(٣) خانقين: بلدة من نواحي السواد. (٤) مهروذ: من طساسيج سواد العراق.

(٥) جوخى: نهر عليه كورة واسعة في سواد العراق.

انتهى إلى النَّهْرَوَان[١] فصلُّوا وترحّموا على أصحابهم الذين قتلهم علي رضي الله عنه وتبرءُوا مِنْ عليّ وأصحابه. وبلغ سَوْرَة خَبَرُه، فجمع أصحابه وقال: إن شبيبًا لا يزيد على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم فأسير في ثلاثمائة من شجعانكم وآتيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في ثلاثمائة نحو النَّهْرَوان، وأذكى شَبِيبٌ الحرس، فلما دنا أصحابُ سَوْرَة علموا بهم، فاستَوَوْا على خُيُولهم، وتعبَّئُوا تعْبِئَتهم للحرب؛ فلما انتهى إليهم سَوْرة رآهم قد حذروا، فحمل عليهم فثبتوا له، وصاح شبيب بأصحابه فحملوا عليهم وشبيب يقول: [من الرجز]

مـن يـنـك الـعـيْـرَ يَـنِـكْ نـيَّـاكـا   جَـنْـدَلـتـان اصْـطـكَّـتَـا اصْـطِـكَـاكـا[٢]

فرجع سَوْرَة إلى عَسْكَره وقد هُزِم الفُرْسَان وأهْلُ القوة، فتحمّل بهم، وأقبل نحو المدائن، فتَبِعه شَبيب يرجو أنْ يُدْرِكه، فوصل إليهم، وقد دخل الناسُ المدائن، فمرّ على كَلْوَاذَا[٣]، فأصاب بها دوابَّ كثيرة للحجاج، فأخذها ومضى إلى تَكْرِيت، وأرجف الناسُ بالمدائن بوصولِ شَبِيب إليهم، فهرب مَنْ بها من الجند نحو الكوفة، وحبس الحجاجُ سَوْرَة ثم أطلقه.

ذكر الحرب بين شبيب والجزل بن سعيد وقَتل سعيد بن مجالد

قال: ولما قدم الفَلّ[٤] الكوفة سيَّر الحجاجُ الجزْلَ بن سعِيد بن شُرَحْبيل الكندي، واسمه عثمان، نحو شَبيب، وأوصاه بالاحتياط وتَرْك العجلة، وأخرج معه أربعة آلاف ليس فيهم أحَدٌ ممن هُزِم، فقدَّم الجَزْل بين يديه عِيَاض بن أبي لِيْنَة الكِنْدي، فساروا في طَلَب شَبِيب وهو يخرجُ من رُسْتَاقٍ[٥] إلى رُستاق، يقصِدُ بذلك أنْ يفرِّقَ الجَزْلُ أصحابَهُ فيلقاه وهو على غير تعبئة، فجعل الجَزْل لا يسير إلا على تعبئة، ولا ينزل إلاَّ خنْدَق على نفسه.

---

(١) النهروان: كورة واسعة أسفل بغداد من شرقي تامرا.

(٢) الجندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر. وفي المثل: «جندلتان اصطكتا»: يضرب للقرنين يتصاولان.

(٣) كلواذى: وهي طسوج قرب مدينة السلام بغداد... وهي الآن خراب أثرها باق بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر... (معجم البلدان).

(٤) الفل: المنهزمون.

(٥) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد... (مقدمة معجم البلدان لياقوت).

فلما طال ذلك على شبيب دعا أصحابَه وكانوا مائةً وستين رجلاً، ففرّقهم أربعَ فرق كل فرقة أربعين، فجعل أخاه مُصَادًا في أربعين، وسويد بن سُليم في أربعين، والمحلَّل بن وَائِل في أربعين، وبَقِي هو في أربعين. وأتته عيونُه، فأخبروه أن الجَزْل يريد يَزْدَجِرْد، فسار شَبِيب، وأمر كلَّ رأس من أصحابه أنْ يأْتِيَ الجزْل من جهة ذكرَها له، وقال: إني أُريد أن أبَيِّتَهُ، فسار أخوه فانتهى إلى دَيْر الخرّارة[1]، فرأى للجَزْل مَسْلَحة مع ابن أبي لِيْنَة، فحمل عليهم مُصاد فيمن معه، فقاتلوه ساعةً، ثم اندفعوا بين يديه، وقد أدركهم شَبِيب، فقال: اركبوا أكتافَهم لتَدْخُلوا عليهم عسكَرَهم إن استطعتُمْ.

فاتبعوهم فانتَهوا إلى عسكرهم، فمنعهم أصحابُهم من دخول خَنْدقِهِمْ، وكان للجَزْلِ مسالح أُخرى فرجعَتْ، فمنعهم من دخولِ الخَنْدق، وجعل شَبِيب يَحْمِلُ على المسالح حتى اضطرهم إلى الخَنْدَق، ورشقهم أهْلُ العسكر بالنَّبْلِ. فلما رأى شَبِيب أنه لا يصل إليهم سار عنهُم وتركهم، ثم نزل هو وأصحابه فاستراحوا، ثم أقْبَل بهم راجعًا إلى الجَزْل، فأقبلوا وقد أدخل أهْلُ العسكر مسالِحهم إليهم وأمِنُوا، فما شعروا إلاّ بوَقْعِ حَوَافِرِ الخَيْل، فانتهوا إليهم قَبْلَ الصبح، وأحاطوا بعسكرهم من جهاته الأربع، ثم انصرف شَبِيب وتركهم، ولم يظفَرْ بهم، فنزل على ميل ونصف، ثم صلّى الغَدَاة وسار نحو جَرْجَرَايا[2]، وأقبل الجَزْل في طلبهم على تعبئتهِ، وسار شَبِيب في أرض الجُوخى وغيرها، فطال ذلك على الحجّاج، فكتب إلى الجَزْل يُنْكِر عليه إبطاءه ويأْمُرُه بمناهضتهم، فجدَّ في طلبهم وبعث الحجاجُ سعيدَ بن المجالد على جَيْش الجَزْل، وأمره بالجِدِّ في قتال شَبِيب وتَرْكِ المطاولة، فوصل سعِيد إلى الجَزْل وهو بالنَّهْرَوَان وقد خَنْدَق عليه، فقام في العسكر ووبَّخَهُم وعجزهم.

ثم خرج، وأخرج معه الناس، وضمّ إليه خيولَ أهل العسكر ليسير بهم جريدة[3] إلى شبيب ويترك الناس مكانَهم، فنهاه الجزْل عن ذلك، فلم يَنْتَه ولم يرجع إليه، وتقدّم ومعه الناس، وأخذ شبيب إلى قَطِيطيا، فدخلها وأغلق الباب، وأمر دُهْقَانَها أن يُصْلح لهم غداء، فلم يتهيّأ الغداء حتى أتاه سعيد في ذلك الجيش، فأعلم الدّهْقَان شَبِيبًا، فقال: لا بأس، قَرِّب الغداء، فقرَّبه فأكل وتوضّأ وصلّى ركعتين،

(١) الخرارة: موضع قرب السيلحون من نواحي الكوفة.
(٢) جرجاريا: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.
(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

وركب بَغْلاً، وخرج إلى سَعيد وهو على باب المدينة فحمل عليهم، وقال: لا حُكْم إلا للحكم، فهزمهم وثبت سعِيد، ونادى أصحابه، فحمل عليه شَبِيب، فضربه بالسيف فقتله، فانهزم ذلك الجيش، وقَفَلوا حتى انتهوا إلى الجَزْل، وكان قد وقف في بقيَّة العَسْكَرِ، فناداهم: أيها الناس، إليّ إليّ، وقاتل قِتَالاً شديدًا حتى حُمِل جريحًا، وقَدِم المنهزمون الكوفة.

وكتب الجَزْل إلى الحجاج بالخبر، وأقام بالمدائن، فكتب إليه الحجاجُ يشكره ويُثْني عليه، وأرسل إليه نفَقةً ومَنْ يُدَاوي جِرَاحه، وسار شبيب نحو المدائن فعلم أنه لا سبيلَ إلى أهلها؛ فأقبل حتى أتى الكَرْخ[1]، فعبر دجْلَة إليه، وأرسل إلى أهل سُوق بغداد فأمّنهم، وكان يَوْم سوقهم، واشترى أصحابُه دوابَّ وغيرها.

ذكر مسير شبيب إلى الكوفة

قال: ثم سار شَبِيب إلى الكوفة فنزل عند حَمّام[2] عُمر بن سعد، فلما بلغ الحجاج مكانه بعث سُوَيْد بن عبد الرحمٰن السَّعْدِي في أَلْفَي رجل، وقال له: الْقَ شَبِيبًا فإن استطرد لكَ فلا تَتْبعُه. فخرج وعسْكَرَ بالسبَخَةِ[3]، فبلغه أنّ شبيبًا قد أقبل، فسار نحوه وأمر الحجاج عثمان بن قَطَن فعَسْكَرَ بالناس في السَّبَخَة، فبينا سُوَيْد يُعبىء أصحابَه إذ قيل له: أتاك شَبِيب؛ فنزل ونزل معه جُلُّ أصحابه، ثم أُخبر أنه قد عَبَر الفراتَ وهو يُرِيد الكوفةَ من وجْهٍ آخر، فركب هو ومنْ معه، وسارُوا في آثارهم، وبلغ منْ بالسبَخَة إقبالُ شَبِيب فهمُّوا بدُخولِ الكوفة، ثم قيل لهم: إن سُوَيْدًا في آثارهم قد لحقهم وهو يقاتِلُهم، فثبتوا، وحَمل شَبِيب على سُوَيد ومَنْ معه حملةً منكرة، ثم أخذ على بُيوتِ الكوفة نحو الحيرة، وذلك عند المساء، وتَبِعه سُوَيد إلى الحيرة، فرآه قد ترك وذهب، فتركه سُوَيد وأقام حتى أصبح. وأرسل إلى الحجاج يُعْلمه الخبر.

ذكر محاربة شبيب أهل البادية

قال: وكتب الحجاجُ إلى سُويد يأْمُرُه باتباعه، فاتَّبعه، ومضى شبيب حتى أغار أسفل الفرات على مَنْ وجد مِنْ قومه، وارتفع إلى البر فأصاب رجالاً من بني

(١) الكرخ: كانت الكرخ أولاً في وسط بغداد والمحال حولها، فأما الآن فهي محلة وحدها مفردة في وسط الخراب وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها. . (معجم البلدان).

(٢) موضع في طريق الحاج بالكوفة. (٣) موضع بالبصرة.

الوِرثَة[١]، فقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، منهم: حنْظَلة بن مالك، ومالك بن حَنْظَلة، ومضى حتى أتى بني أمية على اللَّصَف[٢]، وعلى ذلك الماء الفَزْر بن الأسود، وهو أحَدُ بني الصلت، وكان ينهى شَبِيبًا عن رأيه، وكان شبيب يقول: لئن ملكت سبْعَة أعِنَّة لأغْزَوَنّ الفَزر، فلما بلغهم خَبَر شبيب ركب الفَزْر فرسًا، وخرج مِن البيوت وانهزم. فرجع شَبِيب، وقد أخاف أهل البادية، فأخذ على القُطْقُطَانة[٣] ثم على قَصْر بني مقَاتل، ثم على الأنبار، ومضى حتى دخل دَقُوقَاء[٤]، ثم ارتفع إلى أداني أذْرَبِيجان، فلما أبْعَد سار الحجاجُ إلى البصرة، واستَخْلَف على الكوفة عُرْوة بن شعبة، فأتاه الخبر بإقبالِ شبيب نحو الكوفة، فكتب إلى الحجاج بذلك، فأقبل من البَصْرة مجدًّا نحو الكوفة فسابق شبيبًا إليها.

ذكر دخول شبيب الكوفة

قال: وأقبل شَبِيب إلى الكوفة فسابقَ الحجاج إليها، فَطَوى الحجاجُ المنازل، فوصل الكوفة صلاةَ العصر، ونزل شبيب السَّبَخَة صلاةَ المغرب، فأكلوا شيئًا ثم ركبوا خيولَهم فدخلوا الكوفة وبلغوا السُّوقَ، وضرب شبِيب بابَ القصر بعَمُوده، فأثَّر فيه أثرًا عظيمًا، ووقف عند المصطبة[٥]، ثم قال: [من الكامل]

عَـبْـدٌ دَعِـيٌّ مِـن ثَـمـودٍ أصْـلُـهُ ... لا بَـل يُـقَـال أبـو أبـيـهـم يـقْـدُمُ

يعني الحجاج، فإنّ بعضَ الناسِ يقول: إن ثقيفًا بقايا ثمود، ومنهم من يقول: هم من نَسْل يقْدُم الزيادي.

ثم اقتحموا المسجد الأعظم، وكان لا يفارِقه قوم يصلُّون فيه، فقتلوا عقيل بن مُصْعب الوادعيّ، وعديّ بن عمْرو الثقفي، وأبا ليث بن أبي سُليم؛ ومرُّوا بدار حَوْشب وهو على الشُّرط ـ فقالوا: إن الأمير يطلُبه، فأراد الركوبَ، ثم أنكرهم فلم يخرج إليهم، فقتلوا غلامَه. ثم مرُّوا بمسجد بني ذُهْل، فرأوا ذُهْل بن الحارث فقتلوه، ثم خرجوا من الكوفَة، فاستقبلهم النَّضر بن القَعْقَاع بن شَوْر الذُّهْلي، وكان

---

(١) بنو الورثة: بطن من العرب نسبوا إلى أمهم.

(٢) اللصف: بركة في غربي طريق مكة.

(٣) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف.

(٤) دقوقاء: بلدة بين إربل وبغداد.

(٥) المصطبة: بناء غير مرتفع يجلس عليه.

قد أقبل مع الحجاج مع البَصْرة، فتخلَّف عنه فقتلوه، ثم خرجوا نحو المَرْدَمَة[١]، وأمر الحجاج مُنَاديًا فنادى: يا خيل الله اركبي؛ فأتاه الناس مِنْ كل جانب، فبعث بِشْر بن غالب الأسدي في أَلْفَي رجل، وزائدة بن قُدامة الثقفي في ألفي رجل، وأبا الضُّرَيْس مَوْلى بني تميم في أَلْفَي رجل، وعبد الأعلى بن عبْد الله بن عامر، وزياد بن عمْرو العَتَكِي، وسَيَّرَ معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان عبد الملك قد استعمله على سجستان، وكتب إلى الحجاج أن يُجَهِّزَه، فقال له الحجاج: تَلْقَى شبيبًا فتجاهده[٢]، فيكون الظَّفَرُ لك، ويظهر اسمك ثم تمضي إلى عملك.

وقال الحجاج لهؤلاء الأمراء: إن كان حَرْبٌ فأميرُكم زائدة بن قُدَامة. فساروا فنزلوا أسفل الفرات، فترك شبيب الوَجْهَ الذي هم فيه وأخذ نحو القادِسِيّة.

ذكر محاربة شبيب زحر بن قيس وهزيمة جيش زَحْر

قال: ووَجَّه الحجاجُ جريدةً[٣] خَيْلٍ اختارهُمْ ألف وثمانمائة فارس مع زَحْر بن قيس، وقال له: اتبع شبيبًا حتى تواقِعه أين أدْرَكْتَه إلا أن يكون ذاهبًا فاتْرُكْه ما لم يعطِفْ عليك؛ فخرج زَحْر حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[٤]، وأقبل شَبِيب نحوه فالْتَقَيَا، فجمع شبيب خَيْلَهُ، ثم اعترض بهم الصفَّ حتى انتهى إلى زَحْر، فقاتل زَحْر حتى صُرِع، وانهزم أصحابهُ وظنُّوا أنهم قتلوه، فلما كان السَّحَر قام يمشِي حتى دخل قريةً فبات بها، وحُمِل منها إلى الكوفة وبوَجْهِه ورأْسِه بِضع عشرةَ جراحة، فمكث أيامًا. ثم أتَى الحجاج فأجلسه معه على السرير، وقال: مَنْ أراد أن يَنْظُر إلى رجل من أهل الجنة يمشي في الناس فلينظر إلى هذا.

ذكر محاربته الأمراء الذين ندبهم الحجَّاج لقتالِه وقتال محمد بن موسى بن طلحة وزائدة بن قُدامة

قال: لما هزم شَبيب أصحاب زَحْر قال له أصحابه: انصرفْ بنا الآن وافِرِين[٥]،

---

(١) المردمة: جبل لبني مالك بن ربيعة. (٢) يقال: جاهد العدو مجاهدة: إذا قاتله.

(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٤) السيلحين: بفتح أوله وسكون ثانيه: وقد يعرب إعراب جمع السلامة فيقال: هذه سيلحون ورأيت سيلحين: قرية قرب الحيرة... ضاربة في البر قرب القادسية.. وبين هذه الناحية وبغداد ثلاثة فراسخ... (معجم البلدان).

(٥) الوافر: التام الذي لم ينقص؛ أو المصان.

فقد هزَمْنَا لهم جُنْدًا. فقال: إن هذه الهزيمة قد أرعبت قلوبَ الأُمراءِ والجنود الذين في طَلَبكم؛ فاقصدوهم، فوالله لئن قاتلناهم ما دون الحجاج مانِع، ونأْخذ الكوفة إن شاء الله.

فقالوا: نحن لِرَأْيِك تَبَع، وسأل عن الأُمراء فقيل: إنهم برُوذْبار[١] على أربعة وعشرين فرسخًا من الكوفة؛ فقصدهم فانتهى إليهم وقد تعبَّئُوا للحرب، وأميرُ الجماة زائدة بن قُدَامة، وعلى ميمنته زِياد بن عَمْرو العتَكي، وعلى الميسرة بِشر بن غالب الأسدي، وكلُّ أمير واقفٌ في أصحابه.

وأقبل شَبِيب في ثلاث كتائب: كتيبة فيها سُويد بن سُلَيم وقَف بإزاء الميمنة، وكتيبة فيها مُصاد أخو شبيب وقف بإزاء الميسرة، ووقف شبيب مقابل القَلْب. فحمل سُوَيد على زِياد فانكشف أهلُ الميمنة، وثبت زياد في نَحْوٍ من نصف أصحابه، ثم ارتفع عنهم سُويد قليلاً، ثم حمل ثانية فتطاعنوا ساعةً، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم ارتفع سُويد عنهم، فتفرَّق أصحابُ زياد بن عَمْرو مِنْ كل جانب، فحمل عليهم الثالثة فانهزموا وأخذت السيوف زياد بن عمرو مِن كل جانب فلم تضره للباسه، فانهزم وقد جُرح جراحةً يسيرة، وذلك عند المساء، ثم حملوا على عبْد الأعلى بن عبْد الله بن عامر، فهزموه، ولم يقاتل كثيرًا، ولحق بزياد؛ فمضَيا منهزمين.

وحملت الخوارجُ على محمد بن موسى بن طَلْحة عند المغرب، فقاتلوه قتالاً شديدًا، وحمل مُصَاد على بشر بن غالب، وهو في مَيْسَرةِ أهل الكوفة، فصبر بشر، ونزل ونزل معه نحو خمسين رجُلاً، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وانهزم أصحابُه، وحملت الخوارج على أبي الضُّرَيس مولى بني تميم، وهو يَلي بِشْرَ بن غالب، فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعْيَنَ، ثم حملوا عليه وعلى أعْين، فهزمُوهما حتى انْتهَوْا بهما إلى زائدة بن قُدَامة، فنادى زائدة: يا أله الإسلام؛ الأرض، الأرض، لا يكونوا على كُفْرِهم أصْبر منكم على إيمانكم، فقاتلهم عامّةَ الليل حتى كان السَّحَر، ثم إن شبيبًا حمل عليه في جماعة من أصحابه، فقتله وقتل أصحابه، فلما قتل دخل أبو الضُّريس وأعين جَوْسقًا[٢] عظيمًا، وقال شبيب لأصحابه: ارفَعُوا السيفَ عنهم، وادْعُوهم إلى البيعة، فدعوهم إلى البَيْعَةِ عند الْفَجر، فبايَعُوه وسَلَّمُوا عليه بإمْرَةِ

(١) روذبار: بضم أوله، وسكون ثانيه، وذال معجمة، وراء، وبعد الواو المفتوحة راء أخرى: كورة قرب نهاوند من أعمال الجبال، وهي مسيرة ثلاثة فراسخ. . . وهي مدينة صغيرة بناؤها من طين حصينة. . . (معجم البلدان).

(٢) الجوسق: القصر الصغير؛ أو الحصن.

المؤمنين، وكان فيمن بايعه أبو بُردَةَ بن أبي موسى الأشعري، فلما طلع الفجر أمَرَ محمد بن موسى بن طلحة مؤذِّنه فأذَّن، وكان لم ينهزم. فقال شبيب: ما هذا؟ قالوا: محمد بن موسى لم يبرح، فقال: قد ظَنَنْتُ أن حُمْقَه وخيلاءه يَحْمِلُه على هذا. ثم نزل شَبِيب فأذَّن هو وصَلَّى بأصحابه الصبح، ثم ركبوا فحملوا على محمد وأصحابه، فانهزمت طائفةٌ منهم، وثبتَتْ معه طائفةٌ، فقاتل حتى قُتل، وأخذت الخوارجُ ما في العسكر، وانهزم الذين كانوا بايَعُوا شبيبًا بجملتهم، ثم أتى شَبِيب الجَوْسَقَ الذي فيه أعْين وأبو الضُّرَيْس فتحصَّنُوا منه، فأقام عليهم يَوْمَه ذلك، وسار عنهم فأتى خَانيجار[1] فأقام بها، وبلغ الحجاجَ مَسيرُه، فظنَّ أنه يريد المدائِن، فهالَه ذلك، فبعث عثمان بن قَطَن أميرًا على المدائن وعزلَ عنها عبيد الله بن أبي عُصَيْفِير.

وقيل في مقتل محمد بن موسى: أنه قتله مُبارزةً، وذلك أنه كان شهد مع عمر بن عُبيد الله بن مَعمر قتالَ أبي فُدَيْك، وكان شجاعًا ذا بَأس، فزوّجه عُمر ابْنَته، وكانت أُخته تحت عبد الملك بن مَرْوَان، فولاّه سجستان، فمرّ بالكوفة وفيها الحجاج، فقيل له: صار هذا بسجستان مع صِهْره لعبد الملك، فلو لجأ إليه أحَدٌ ممن يُطْلَب مَنَعَك منه. قال: فما الحِيْلَةُ؟ قال: تأْتي إليه، وتسلِّم عليه، وتذكر نَجْدَتَه وبأْسَه، وأنَّ شبيبًا في طريقه، وأنه قد أعياك، وتَرْجُو أن يريح الله منه على يَدِهِ، فيكون له ذِكْره وفَخْره.

ففعل الحجاج ذلك، فأجابه محمد، وعَدَل إلى شَبِيب، فأرسل إليه شَبِيب إنَّك مخدوع، وإن الحجاج قد اتَّقَى بك، وأنت جار لك حقّ، فانطلِقْ لما أُمرت به ولك الله أني لا أضُرك. فأبى إلاّ محاربته، فواقفه شَبِيب، وأعاد عليه الرسول، فأبى وطلب البِرازَ فبرزَ إليه شَبِيب، وقال له: أنشدك الله في دَمِك؛ فإنّ لك جوارًا، فأبى. فحمل عليه شبيب فضربه بعَمُود حديد زِنَتُه اثنا عشر رطلاً بالشامي، فهشم البَيْضَة[2] ورَأْسَه، فسقط فكفَّنه شبيب ودفَنَه، وابتاع ما غنمه من عَسْكَره فبعثه إلى أهْلِه واعتذر شَبِيب إلى أصحابه، وقال: هو جارِي، ولي أن أهب ما غنمت.

ذكر محاربته عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وعثمان بن قَطَن وقتل ابن قَطَن

قال: ثم إن الحجَّاج أمر عَبْدَ الرحْمَن بن محمد بن الأشعث أنْ ينتخبَ ستة آلاف فارس ويسير بهم في طَلَبِ شَبِيب أين كان، ففعل ذلك، وسار نحوه، فسار

(١) خانيجار: بليدة قرب دقوقاء.
(٢) البيضة: الخوذة.

شَبِيب إلى دَقُوقاء وشَهْرَزُور[١]، وعَبْدُ الرحمٰن في طلبه حتى انتهى إلى التُّخُوم، فوقف وقال: هذه أرض الموصل، فلْيُقَاتلوا عنها.

فكتب إليه الحجاج: أما بعد فاطلُبْ شَبِيبًا واسْلُك في أثَره أين سلَكَ حتى تُدْرِكَه فتَقْتُله أو تَنْفيه، فإنما السلطانُ سلطان أمير المؤمنين والجندُ جُنْده.

فخرج عَبْدُ الرحمٰن في طلبه، فكان شَبِيب يَدَعُه حتى يَدْنو منه فيبيّته فيَجِده قد خَنْدَق على نفسه وحذر، فيتركه ويسير فيتبعه عبد الرحمٰن، فإذا بلغ شَبِيبًا مَسِيرهُم أتاهم وهم سائرون فيجدهم على تَعْبِئَةٍ فلا يصيب لهم غِرّةً، ثم جعل إذا دنَا منه عَبْدُ الرحمٰن يسير عشرين فرسخًا، ونحوها، وينزل في أرض خَشِنة غليظة، ويتبعه عَبْدُ الرحمٰن، فإذا دنَا منه فَعل مِثْلَ ذلك حتى أتْعَبَ ذلك الجيش، وشَقّ عليهم، وأحْفَى[٢] دوابَّهم.

ولم يزل عبد الرحمٰن يَتْبَعُه حتى مرّ به على خَانِقين[٣] وجَلُولاء[٤] وتَامَرَّا[٥]، ثم أقبل إلى البَتّ، وهي من قُرَى الموصل ليس بينها وبين سواد الكوفة إلاّ نهر حَوْلاَيا، وذلك في عشر ذي الحجة سنة ست وسبعين، فأرسل شبيب إلى عبد الرحمٰن: إن هذه أيام عِيْدٍ لنا ولكم يعني عيد النَّحر، فهل لك في الموادعة حتى تَمْضِي هذه الأيام؟ فأجابه إلى ذلك، وكان يحبُّ المُطَاوَلة.

وكتب عثمان بن قَطَن أمير المدائن إلى الحجاج يقول: أما بعد فإنّ عَبْدَ الرحمٰن قد حفر جُوخى[٦] كلَّها خندقًا واحدًا، وكسر خَراجها، وخلَّى شبيبًا يأْكلُ أهلها. والسلام.

فكتب إليه الحجاج يأْمره بالمسير إلى الجيش، وأمّره عليهم، وعزَل عنهم عبْدَ الرحمٰن، وبعث إلى المدائن مُطَرِّف بن المغيرة بن شُعْبة، فسار عثمان حتى قدم

(١) شهرزور: كورة واسعة بين إربل وهمذان. . . (المراصد).
(٢) حفيت الدابة: رقّ حافرها أو خفها من كثرة المشي.
(٣) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، وهي أيضًا بلدة بالكوفة.
(٤) جلولاء: بالمدّ: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ. . . (معجم البلدان).
(٥) تامرا: نهر كبير تحت بغداد شرقيها.
(٦) جوخى: اسم نهر علية كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه الراذانان، وهو بين خانقين وخوزستان. . . (معجم البلدان).

على العسكر عشيَّةَ الثلاثاء يوم التَّرْوية(١)؛ فنادى الناسَ - وهو على بَغْلةٍ: أيها الناس، اخرجوا إلى عدوّكم، فقالوا: هذا المساء قد غَشِينا والناسُ لم يوطِّنوا أنفسهم على الحرب، فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبئة، فأبى ذلك، ثم نزل وبات لَيْلَتَه يحرِّضُ أصحابه، فلما أصبح يوم الأربعاء خرج بالناس كلِّهم، فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة، فقال له أصحابه: ننشدك الله أن تخرج بنا والريحُ علينا. فأقام بهم ذلك اليوم، ثم خرج يوم الخميس، ثم عبّأهم، فجعل في الميمنة خالد بن نَهيك بن قَيْس، وعلى الميسرة عقيل بن شدّاد، ونزل هو في الرجّالة، وعبر شبيب إليهم النهر، وهو يومئذ في مائةٍ وأحد وثمانين رجلاً، فوقف هو في الميمنة، وجعل أخاه مُصادًا في القَلْبِ، وجعل سُويد بن سُلَيم في الميْسرة، وزحف بعضُهم إلى بعضٍ، فحمل شَبِيب على ميْسَرَة عثمان فانهزموا، ونزل عقيل بن شداد فقاتل حتى قُتل، وقتل مالك بن عَبْد الله الهَمْداني، ودخل شبيب عسْكرهم، وحمل سُوَيْد على ميْمنَة عثمان فهزمها، فقاتل خالد بن نَهيك قتالاً شديدًا، وحمل شبيب مِنْ ورائه فقتله، وتقدم عُثْمَانُ بن قَطَن وقد نزل معه العُرفاء وأشرافُ الناس والفُرْسان نحو القَلْب وفيه مُصاد أخو شبيب في نحْوِ من ستِّين رجلاً، فشدَّ عليهم عثمان فيمنْ معه فثَبَتُوا له.

وحمل شبيب بالخَيْل مِن ورائهم فما شعرُوا إلاّ والرِّمَاحُ في أكتافهم تكبُّهم لِوُجوههم، وعطف عليهم سُوَيد بن سُلَيم في خَيْلِه، وقاتل عثمان بن قَطَن أحْسن قِتال، ثم أحاطوا به، وضَرَبه مُصاد بن يزيد ضَرْبةً بالسيف استدار لها وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

ثم قُتل، وسقط عبد الرحمٰن عن فَرَسِه، فأتاه ابن أبي سبْرَةَ الجعفي وهو على بغْلَةٍ فأركبه معه، ونادى في الناس: الحقوا بَدَيْر أبي مريم، ثم انطلقا ذاهبَيْن، ثم أتاه واصل بن الحارث السكوني ببِرْذَوْن فركبه وسار حتى نزل ديْرَ البقار، وأمر شَبِيب أصحابه فرفعوا السيفَ عن الناس، ودعاهم إلى البيعة فبايعوه، وقُتِل يومئذ مِنْ كِنْدَة مائة وعشرون، وبات عبد الرحمٰن بَدْير البَقَّار، فأتاه فارِسان، فصعدا إليه فخلاَ به أحَدُهما طَوِيلاً ثم نزلاَ؛ فقيل: إن ذلك الرجل كان شبيبًا، وكان بينه وبين عبد الرحمٰن مكاتبةٌ، وسار عبْدُ الرحمٰن حتى أتى دَيْرَ أبي مريم، فاجتمع الناسُ إليه وقالوا له: إنْ سَمِع شَبِيبٌ بمكانِك أتاك فكنْتَ له غنيمة.

---

(١) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

فخرج إلى الكوفةِ واختفى من الحجَّاج حتى أخذ له الأمَان منه، وكانت هذه الوقائعُ التي ذكرناها كلَّها من أخبار شَبِيب في سنة ست وسبعين.

ذكر محاربة عتاب بن ورقاء وزَهْرة بن حَوِيّة وقتلهما

وفي سنة سبع وسبعين أتى شَبيب ماه بَهْراذَان[١] فصيّف بها ثلاثة أشهر، وكان حين هزم ذلك الجيش حَرٌّ شديد، فلما صيّف هناك أتاه ناسٌ كثير ممن يطْلُبُ الدنيا وممَّنْ كان الحجاج يطلبُهم بمالٍ أو تَبِعاتٍ.

فلما ذهب الحَرُّ خرج في نحو ثمانمائة رجل، فأقبل نحو المدائن، وعليها مُطرِّف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حُذَيفة[٢] بن اليمان، فكتب مَهروذ عظيم بابل إلى الحجّاج بذلك، فقام الحجّاج في الناس فقال: أيها الناس، لتُقَاتِلُن عن بِلاَدكم وعَنْ بنيكم أو لأبعثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأصبر على اللّأْوَاء[٣] والقَيْظِ منكم، فيقاتلون عدُوَّكم ويأكلون فَيئكم.

فقام إليه الناس من كل جانب فقالوا: نحن نقاتِلُهم فَلْيَنْدبنا الأَمِيرُ إليهم، وقام زَهْرَة بن حوِيّة - وهو شيخ كبير، فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إنما تبعَثُ إليهم الناسَ متقطِّعين، فاستَنْفِرِ الناسَ إليهم كافَّةً، وابعث إليهم رجلاً شجاعًا مجرّبًا ممن يرى الفرار هضمًا وعارًا، والصَّبْرَ مَجْدًا وكرمًا.

فقال الحجاج: فأنْتَ ذاك الرجل، فاخْرُجْ.

فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إنما يصلحُ رجلٌ يحْمِلُ الدِّرْع والرمح، ويهزُّ السيف، ويثْبُتُ على الفرس، وأنا لا أُطِيقُ شيئًا مِنْ هذا، وقد ضَعفَ بصري، ولكن أخرجني في الناس مع الأمير فأُشير عليه برَأْيي.

فقال له الحجاجُ: جزَاكَ اللّهُ خيرًا عن الإسلام وأهله في أوّل أمرك وآخره.

ثم قال: أيّها الناسُ، سِيْرُوا بأجمعكم كافَّةً؛ فخرج الناس يتجهَّزُون ويدرون مَنْ أمِيرُهم.

---

(١) ماه بهراذان: وما أظنها إلا ناحية الراذانين. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قناطر حذيفة: بسواد بغداد، منسوبة إلى حذيفة بن اليمان الصحابي لأنه نزل عندها، وقيل: لأنها رمها وأعاد عمارتها، وقيل: قناطر حذيفة بناحية الدينور. . . (معجم البلدان).

(٣) اللأواء: ضيق المعيشة، أو شدة المرض.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُخبره أنَّ شَبِيبًا قد شارف المدائن؛ وأنه يُريد الكوفةَ، وقد عجز أهْلُها عن قِتَاله في مواطن كثيرة، يقتل أُمراءهم ويهزم جُندهم؛ وسأله أن يبعث جُنْدًا من الشام يقاتلون الخوارج، ويأْكلون البلادَ. فبعث عبدُ الملك سُفْيان بن الأبْرد الكَلْبي في أربعة آلاف، وحبِيب بن عبْد الرحمٰن الحكمي في ألفين، وبعث الحجاج إلى عَتَّاب بن وَرْقَاء يستدعيه، وكان يقاتل الأزارقة مع المُهَلَّب كما تقدم.

واستشار الحجاجُ أهلَ الكوفة فيمَنْ يُوليه أمْرَ الجيش، فقالوا: رأيُكَ أفضل. فقال: قد بعثْتُ إلى عَتَّاب بن وَرْقاء وهو قادمٌ عليكم الليلة أو القابلة؛ فقال زَهْرَة: رمَيْتَهم بحَجَرِهم، والله لا يرجع إليك حتى يَظْفَرَ أو يقتل. وقال له قَبِيصة بن وَالق: إنَّ الناس قد تحدثوا أنَّ جيشًا قد وصل إليك من الشام، وأن أهْل الكوفة قد هُزِمُوا وهانَ عليهم الفرار، فقلوبُهم كأنها ليست فيهم؛ فإنْ رأيْتَ أنْ تَبْعثَ إلى أهل الشام ليأْخذوا حِذْرَهُم، فإنك تحارِبُ حُوّلاً قُلَّبًا ظَعَّانًا رَحّالاً، وقد جهَّزْتَ إليهم أهْلَ الكوفة ولَسْت واثقًا بهم كلَّ الثقة، فإن شبيبًا بينا هو في أرض إذا هو في أُخرى، ولا آمَنُ أنْ يأْتي أهْلَ الشام وهم آمِنُونَ؛ فإن يهلكوا تهلك ويَهلك أهْلُ العراق.

فقال: لله أبوك، ما أحْسن ما أشرْتَ به! وأرسل إلى أهْل الشام يحذِّرُهم ويأْمرهم أن يأْتوا على عَيْن التمر[1]، ففعلوا، وقدم عتَّاب بن ورقاء تلك الليلة، فبعثه الحجاجُ على ذلك الجيش، فعَسْكَرَ بحمَّام أعْين[2]، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْوَاذا[3] فقطع منها دِجْلة، ثم سار حتى نزل مدينة بَهُرَسِير[4] الدنيا، وهي المدائن الغربية، فصار بينه وبين مُطَرِّفِ دِجْلَةُ، فقطع مطرف الجسر، وبعث إلى شبيب أن ابْعَثْ إليّ رجالاً من وُجوه أصحابك أُدَارِسهم القرآن وأنظر فيما يدعون إليه، فبعث إليه بمعَتِّب بن سُوَيد والمحلّل وغيرهما، وأخذ منه رهائِنَ على عوْدِ أصحابه، فأقاموا عنده أربعةَ أيام، ثم أعادهم، ولم يتفقوا، فلما لم يتبعه مُطَرِّف تهيَّأ للمَسِير إلى

(١) عين التمر: بلدة في طرف البادية على غربي الفرات.

(٢) حمام أعين: موضع بالكوفة منسوب إلى «أعين» مولى سعد بن أبي وقاص.

(٣) كلواذا: طسوج قرب مدينة السلام بغداد وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وهي الآن خراب أثرها باق، بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر... (معجم البلدان).

(٤) بهرسير: من نواحي بغداد قرب المدائن. وقيل: هي إحدى المدائن السبعة التي سميت بها المدائن، وهي في غربي دجلة.

عتّاب. وأقبل عَتّاب حتى نزل بسُوقِ حَكَمَةَ[1] وقد خرج معه مِنَ المقاتلة أربعون ألفًا، ومِنَ الشباب والأتْبَاع عشرةُ آلافٍ، فكانوا خمسين ألفًا. وكان الحجاج قد قال لهم حين سارُوا: ألا إن للسائر المجدّ الكرامة والأثرة، وللهارب الهَوَان والجفوة، والذي لا إلّه غيره لئن فعلْتُم في هذا الموطن كفِعْلكم في غيره من المواطن لأُولِيَنَّكم كَنَفًا[2] خَشِنًا، ولأعْركَنَّكُم بكَلْكَل[3] ثقيل.

وسار شبيب مِن المدائن وأصحابُه ألفُ رجل، فتخلَّفَ عنه بعضُهم، فصلَّى الظهر بِسَابَاط، وصلَّى العصر، وسار حتى أشرَف على عتَّاب وعسْكَرِه، فلما رآهم نزل فصلَّى المغرب؛ وكان عَتَّاب قد عبَّأ أصحابه، فجعل في الميمنة محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس، وفي الميسرة نُعيم بن عُليم، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعي ـ وهو ابنُ عمه ـ على الرجَّالة، وصَفَّهم ثلاثة صفوف: صَفٌّ فيهم أصحابُ السيوف، وصفٌّ فيهم أصحابُ الرماح، وصفٌّ فيهم الرُّماة، ثم سار في الناس يُحرِّضُهم على القتال، ورجع فجلس في القَلْب، ومعه زَهْرة بن حَويّة جَالِسٌ، وعبْدُ الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وأبو بكر بن محمد بن أبي جهْم العَدَوِي.

وأقبل شَبِيب وهو في ستمائة، وقد تخلَّفَ عنه من أصحابه أربعمائة؛ فجعل سُوَيد بن سُليم في الميسرة في مائتين، والمحلّل بن وائل في القلب في مائتين، ووقف هو في الميمنة في مائتين، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القَمر، فناداهم: لِمَنْ هذه الرايات؟ قالوا: لربيعة. قال: طالما نصرت الحقَّ، وطالما نصرتِ الباطلَ؛ والله لأُجاهِدَنَّكم محتسِبًا، أنا شَبِيب، لا حُكْم إلا للحكم، اثبتوا إنْ شئتُم.

ثم حمل عليهم ففَضَّهم، فثبت أصحابُ رايات قَبِيصة بن والق، وعُبيد بن الحليس، ونُعيم بن عليم، فقتلوا، وانهزمت الميسرة كلها، ثم حمل شبيب على عَتَّاب بن ورقاء، وحمل سُويد بن سُليم على الميمنة وعليها محمد بن عبد الرحمٰن، فقاتلهم في رجال من تميم وهَمْدَان؛ فما زالوا كذلك حتى قيل لهم: قُتِل عتَّاب، فانْفَضُّوا. ولم يزل عَتَّاب جالسًا على طِنْفِسَتِه[4] في القلْبِ ومعه زَهْرَة بن حَوِيَّة حتى غَشِيَهم شبيب، فقال عتَّاب: يا زَهْرَة، هذا يوم كَثُرَ فيه العدد وقَلَّ فيه الغَنَاء، والهفي

(١) سوق حكمة: موضع بنواحي الكوفة. (٢) الكنف: الجانب.
(٣) الكلكل: الصدر؛ أو هو ما بين الترقوتين.
(٤) الطنفسة: البساط، أو النمرقة فوق الرحل.

على خمسمائة فارس من تميم مِنْ جميع الناس، ألا صابِر لعدوه! ألاَ مُوَاسِ بنفسه! فانفَضُّوا عنه وتركوه، فلما دنا منه شَبِيب وثب في عصَابةٍ قليلة صبَرَتْ معه؛ وقاتل ساعةً، فرآه رجُلٌ من أصحابِ شَبِيب يُقَال له عامر بن عَمْرو التغلبي، فحمل عليه فطعَنَهُ، وجاء الفَضْلُ بن عامر الشيباني إلى زَهْرَة فقتله، وتمكَّن شبيب من أهْل العسكر والناس، فقال: ارفعوا السيفَ. ودعاهم إلى البيْعَةِ، فبايعه الناسُ وهربوا من ليلتهم، وحوى ما في العسكر. وأقام شَبِيب بعد الوقعة ببيت قُرة يَوْمين، ثم سار نحو الكوفة فنزل بسُورَا[١] وقتل عامِلَها، وكان سفيانُ بن الأبرد وعَسْكَرُ الشام قد دخلوا الكوفة فشدُّوا ظهر الحجاج، واستغنى بهم عَنْ أهل الكوفة، وقام على المنبر فقال: يا أهل الكوفة، لا أعزَّ الله مَنْ أراد بكم العِزَّ، ولا نَصر مَنْ أراد بكم النَّصْرَ، اخرجوا عَنَّا فلا تشاهِدُوا معنا قِتَال عدونا، انزلوا الحِيْرَةَ مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل معنا إلاَّ من لم يشهد قِتَالَ عَتَّاب.

ذكر قدوم شبيب الكوفة وانهزامه عنها

قال: ثم سار شبيب من سُورَا فنزل حمّام أعْين، فدعا الحجاجُ الحارث بن معاوية الثقفي، فوجَّهه في ناسٍ من الشُّرَط وغيرهم لم يشهدُوا يوم عتَّاب، فخرجوا في ألفِ فنزلوا زُرَارَة[٢]، فبلغ ذلك شَبِيبًا، فَعَجِل إلى الحارث، فلما انتهى إليه حمل عليه فقتله، وانهزم أصحابُه، فدخلوا الكوفة، وجاء شَبِيب فعَسْكَر بناحية الكوفة فأقام ثلاثًا، فنزل السَّبخَة، وابْتَنَى بها مَسجدًا، وذلك في اليوم الثاني من الأيام الثلاثة.

فلما كان اليوم الثالث أخرج الحجاجُ أبا الوَرْدِ مَوْلاَه عليه تِجْفَاف[٣] ومعه غلمان له، فقالوا: هذا الحجاج! فحمل عليه شَبِيب فقتله، فأخرج إليه غلامه طَهْمَان في مثل تلك العُدَّة والحالة، فقتله شَبِيب، وقال: إن كان هذا الحجاج فقد أرحْتُكم منه.

ثم خرج الحجاج عند ارتفاع النهار من القَصْر، فركب بَغْلاف ومعه أهل الشام، فلما رأى الحجاج شبيبًا وأصحابه نزل وجلس على كرسيّ، وتقدَّم إليه شَبِيب وأصحابه فلقوهم بأطراف الأسِنَّة؛ فكان بينهم قِتَالٌ شديد عامَّةَ النهار، حتى انتهى الحجاج إلى مسجد شَبِيب، فقال: هذا أوَّلُ الفَتْح.

---

(١) سورا: موضع من أرض بابل.

(٢) زرارة: محلة بالكوفة، سميت بزرارة بن يزيد بن عمرو بن عدس من بني البكار، وكانت منزله فأخذها معاوية منه.

(٣) التجفاف: آلة يلبسها الفرس والإنسان لتقيه في الحرب.

ثم قال خالد بن عَتَّاب للحجاج: ائذن لي في قتالهم، فإني موتور[١]. فأذِنَ له، فخرج ومعه جماعةٌ من أهل الكوفة، فقصد عَسْكَرَهم مِنْ ورائهم، فقتل مُصَادًا أخا شبيب، وقتل امرأته غزالة، هذا وشبيب يُقَاتِلُ الحجاج، وأتى الخبر الحجاج فكبَّرَ فعِنْدها ركب شبيب وكان قد نزل فقاتل على الأرْض، وقال الحجاجُ لأصحابِه: احملوا عليهم، فإنه قد أتاهم ما أرْعبهم؛ فشدُّوا على أصحابِ شَبِيب فهزموهم، وثبت شبيب في حامِيَة الناسِ، فبعث الحجاجُ إلى خَيْله أنْ دَعُوه، فتركوه ورجَعُوا، ودخل الحجاج الكوفة، وبعث حَبيب بن عَبْدِ الرحمٰن الحكمي في ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام، فخرج في أثره حتى نزل إلى الأنْبَار.

وكان الحجاجُ قد نادى عند انهزامِ شبيب: مَنْ جاءَنَا منكم فهو آمِنٌ؛ فتفرَّقَ عن شَبِيب ناسٌ كثير من أصحابه. فلما نزل حبيب الأنبار أتاهم شبيب، فلما دنا منهم نزل فصَلَّى المغرب، وكان حبيب قد جعل أصحابَه أرباعًا، وقال: ليمنع كلُّ ربع منكم جانِبَه فإنْ قاتل هذا الربعِ فلا يُعِنْهُم الربع الآخر. وأتاهم شبيب وهو على تعبئته فحمل على ربع، فقاتلهم طَوِيلاً، فما زالت قَدَمُ إنسانٍ عن موضعها فتركهم، وأقبل إلى رُبع آخر، فكانوا كذلك، وقاتل الربع الثالث والرابع وهم كذلك، فما برح يقاتلهم حتى ذَهَب ثلاثةُ أرباع الليل، ثم نازلهم رَاجِلاً، فسقطت بينهم الأيدي وكثرت القَتْلَى، وفُقِئت الأعين، وقُتل مِنْ أصحاب شبيب نحو ثلاثين رجلاً، ومن أهل الشام نحو مائة. واستولى التَّعبُ والإعياء على الطائفتين حتى أن الرجل لَيَضْرِبُ بسيفه فلا يصنع شيئًا، فلما يئس شبيبٌ منهم تركهم وانصرف عنهم، ثم قطع دجْلَة وأخذ في أرض جُوخَى ثم قطع دجلة مرة أُخرى عند واسط، وأخذ نحو الأهواز إلى فارس ثم إلى كَرْمَان ليستريح هو وَمَن معه.

ذكر مهلك شبيب

كان مَهْلك شَبيب في سنة سبع وسبعين، وسبَبُ ذلك أن الحجاجُ أنفق في أصحاب سُفْيَان بن الأبْرد مالاً عظيمًا، وأمرهم بقَصْد شَبِيب، فساروا نحوه مع سفيان بن الأبرد، وكتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب زَوْج ابنته ـ وهو عامِلُه على البصرة ـ أن يُرْسِل أربعة آلاف فارس مِنْ أهل البصرة، ففعل وسَيَّرَهم مع زياد بن عمرو العَتَكي، فلم يَصِلْ إلى سفيان حتى التقى سفْيَان مع شَبِيب. وكان شبيب قد

(١) الموتور: الذي قتل حميمه.

أقام بِكَرْمان حتى استراح وَأَرَاح، ثم أقبل راجعًا فالتقى مع سفيان بِجَسْر[١] دُجيل الأهواز، فعبر شبيب الجِسْر إلى سفيان فوجده قد نزل في الرجال، وجعل مُهَاصر بن سيف على الخيل، وأقبل شبيب في ثلاثة كَرَاديس[٢]، فاقتتَلُوا أَشَدَّ قتال، ورجع شَبِيب إلى المكان الذي كان فيه، ثم حمل عليه هو وأصحابه أكثر من ثلاثين حَمْلة، وأهلُ الشام على حالِهم في ثباتِ القَدَم، وما زالوا يقاتلون الخوارج حتى اضْطَرُّوهم إلى الجِسْر. فلما انتهى شَبِيب إلى الجِسْر نزل ونزل معه نحو مائة رجل؛ فقاتلوا حتى المساء، وأَوْقَعُوا بأهلِ الشام من الضَّرْبِ والطعن ما لم يَرَوْا مثله، فأمر سفيان الرُّماة أن يرموهم فتقدَّمُوا، ورَمُوهم ساعة، فحمل شبيب وأصحابه على الرُّمَاة، فقتلوا منهم أكْثَر من ثلاثين رجلاً، ثم عطف على سُفْيان ومن معه فقاتلهم حتى اختلط الظَّلاَمُ، ثم انْصَرَف، فقال سفيان لأصحابه: لا تتبعوهم.

فلما انتهى شبيب إلى الجِسْرِ قال لأصحابه: اعبروا فإذا أَصْبَحْنَا باكَرْنَاهم إن شاء الله. فعَبرُوا أَمَامَه، وتخلَّفَ في آخرِهم، وجاء ليَعْبُر وهو على حصانٍ وبين يديه حِجْر[٣]، فَنزا فَرَسُه عليها وهو على الجِسْر فاضطربت تحْتَه، ونزل حافر رِجْل حصانِه على حَرْفِ السفينة، فسقط في الماء، فلما سقط قال: لِيَقْضِي اللّهُ أَمْرًا كان مفعولاً. وانغمس في الماء، ثم ارتفع، وقال: ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العليم. وغَرِق.

قال: وكان أهْلُ الشام قد عَزَمُوا على الانصراف، فأتاهم صاحِبُ الجَسر، فقال لسفيان: إنَّ رجلاً منهم وقع في الماء، فتنادوْا بينهم: غَرِق أَمِير المؤمنين. ثم انصرفوا راجعين، وتركوا عسكرهم ليس فيه أَحَد، فكبَّر سفيان وكَبَّر أصحابُهُ، وأقبل حتى انتهى إلى الجِسْرِ، وبعث إلى المعسكر، وإذا ليس فيه أَحَد، وإذا هو أكثر العساكر خيرًا، ثم استخرجوا شبيبًا فشقُّوا جوْفه، وأخرجوا قَلْبَهُ؛ فكان صلبًا كأنه صخرة، فكان يضرب به الصَّخْرة فينْبُو عنها قامَةَ إنسان.

قال: وكان شبيب يُنْعَى لأُمه فيقال لها: قُتل، فلا تَقْبل ذلك. فلما قيل لها غرق صدَّقت ذلك، وقالت: إني رأيت حين وَلَدْته أنه خرج منّي شهابُ نارٍ، فعلمْتُ أنه لا يُطفِئه إلاَّ الماء، وكانت أُمّه جارية رومية اشتراها أبوه فأولدها شبيبًا سنة خمس

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين آحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامرا فيسقي كورة واسعة وبلادًا كثيرة... ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الكراديس: جمع الكردوسة، وهي قطعة عظيمة من الخيل.

(٣) الحجر: الأنثى من الخيل.

وعشرين يوم النَّحْر(١)، وقالت: إني رأيْتُ فيما يرى النائم أنه خرج مِنْ قُبُلي شِهابُ نار، فذهب ساطعًا إلى السماء، وبلغ الآفاقَ كلَّها، فبينا هو كذلك إذْ وقع في ماءٍ كثير فخبَا، وقد ولَدْتُه في يومكم الذي تهريقون فيه الدِّمَاءَ، وقد أوَّلْتُ ذلك أنَّ ولَدي يكون صاحِب دماء وأنَّ أمْره سيَعْلُو ويعظم سريعًا.

ذكر خروج مطرف بن المغيرة ابن شُعْبَة ومَقْتله

كان خروجه وقَتْلُه في سنة سبع وسبعين، وذلك أنه لما قدم الحجَّاجُ العِرَاقَ استعمل أولادَ المغيرةِ على أعماله لشَرفِهم ومنزلتهم مِنْ قومهم، واستعمل عُروَة بن المغيرة على الكوفة، ومُطَرِّفًا على المدائن، وحَمْزة على همَذان، فكانوا على أعمالهم أحسَنَ الناسِ سيرةً، وأشدَّهم على المريب، وكان المُطَرِّف على المدائن لما خرج شَبِيب، وقد ذكرنا أن المطرِّف أرسلَ يسْتَدْعي منه أنْ يُسيِّر إليه مِنْ أصحابِه منْ يُدَارسه ويسْمَعُ منه، وأنه سيَّر إليه جماعةً، ولم يحصل بينهم اتِّفاق، وكان مِمّا تكلَّمُوا فيه أنَّ المطرّف سألهم عما يَدعُونَ إليه، فقالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأنَّ الذي نقمنا على قومنا الاستئثارُ بالفَيْء(٢) وتعطيلُ الحدود(٣) والتسلُّطُ بالجبرية(٤)، فقال لهم مُطَرِّف: ما دعوتُم إلا إلى حق، وما نقمتم إلاَّ جوْرًا ظاهرًا، أنا لكم مُتَابع، فبايِعُوني على ما أدْعُوكم إليه: أنْ نُقَاتِل هؤلاء الظَّلَمة على أحداثهم، ونَدْعوهم إلى كتابِ الله وسنَّةِ نبيِّه ﷺ، وأن يكونَ هذا الأمْرُ شُورَى بين المسلمين، يُؤمِّرون منْ يرضون على مِثْلِ الحال التي تركهم عليها عمرُ بن الخطاب، فإنَّ العَرب إذا علمت أنها إنما يُراد بالشورى الرضا من قُريش رضُوا وكَثُر تبعكم وأعوانُكم.

فقالوا: هذا ما لا نُجِيبُك إليه، وفارقُوه، وأحضر مُطَرِّف نصحاءِ وثِقَاتِه، فذكر لهم ظُلْمَ الحجاج وعَبْد الملك، وأنه ما زال يُؤْثِر مخالفَتَهم ومناهضتَهم، وأنه يرى ذلك دينًا لو وجد عليه أعوانًا، وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب، وأنهم لو تابعوه على رَأْيِه لخلعَ عبد الملك والحجاج، واستشارهم فيما يفعل.

---

(١) النحر: أيام عيد الأضحى.

(٢) الفيء: الخراج، أو الغنيمة تنال بلا قتال.

(٣) الحدود: جمع الحد، وهو في اصطلاح الشرع: عقوبة مقدرة وجبت على الجاني. وحدود الله تعالى: ما حدّه بأوامره ونواهيه.

(٤) الجبرية: التكبر.

فقالوا له: أخْفِ هذا الكلامَ ولا تُظْهِرْه لأحد. فقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه: واللّهِ لا يَخْفَى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمةٌ واحدةٌ ولَيُزَادَنّ على كل كلمةٍ عَشر أمثالها، ولو كنتَ في السحاب لالْتَمَسَكَ الحجاجُ حتى يُهْلِكَكَ، فالنَّجاء النَّجاء.

فوافقه أصحابُه على ذلك، فسار عن المدائن نحو الجبال، ثم دعا أصحابَه الذين لم يعْلَمُوا بحالِه إلى ما عزمَ عليه، فبايعه بعْضُهم، ورجع عنه بعضُهم، وسار نحو حُلوان[١] وبها سُوَيْد بن عبد الرحمٰن السعدي من قِبَل الحجاج، فأراد هو والأكراد مَنْعَه ليعذر عند الحجاج، فأوقع مُطَرِّف بالأكراد فقتل منهم، وسار.

فلما دنا من هَمَذان[٢] وبها أخوه حمزة بن المغيرة تركها ذاتَ اليسار، وأرسل إلى أخيه حَمْزَة يستمدُّه بالمال والسلاح، فأرسل إليه ما طَلَب سِرًّا، وسار مُطَرِّف حتى بلغ قُمّ[٣] وقَاشَان[٤]، وبعث عمالَهُ على تلك النواحي، وأتاه الناسُ.

وكان مِمَّنْ أتاه سُويد بن سرحان الثقفي، وبكير بن هارون النَّخعي، من الريّ في نحو مائةِ رجلٍ، وكتب البَراء بن قَبِيصة ـ وهو عامل الحجاج على أصفهان ـ إليه يعرِّفُه حالَ المُطَرِّف ويستمدُّه، فأمدَّه بالرجال بَعْدَ الرجال على دوابّ البريد.

وكتب الحجَّاجُ إلى عَدِيّ بن زياد عامل الريّ يأمره بقَصْد مُطَرّف، وأن يجتمع هو والبَرَاءُ على محارَبَته، فسار عدِيّ من الرَّيّ واجتمع هو والبراء وعدي الأمِيرُ، واجتمعوا في نحو ستة آلاف مُقَاتل. وكان حمزة بن المغيرة قد أرسل إلى الحجاج يعتذر، فأظهر قبولَ عُذْره، أراد عَزْله وخاف أن يمتنع عليه، فكتب إلى قيس بن سَعْد العِجْلي، وهو على شُرْطَة حمزة بعَهْده على هَمَذَان، ويأمُرُهُ أن يقبضَ على حَمْزَة بن المغيرة؛ فسار قَيْس بن سَعْد إلى حَمْزَة في جماعةٍ من عشيرته فأقرأه العَهْد بولايته، وكِتَابَ الحجَّاج بالقَبْضِ عليه، فقال: سَمْعًا وطاعة. فقبض قَيْس عليه وسجَنَه، وسار عديّ والبراء نحو مُطَرِّف فالتَقَوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحابُ مُطَرّف وقُتِل هو وجماعة كثيرة مِنْ أصحابه، قَتَلَهُ عمَر بن هبيرة الفَزَاري، وكان الحجاج يقول: إن

(١) حلوان: بالضم ثم السكون: وحلوان العراق في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. . . وقيل: حلوان مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة، وواسط وبغداد، وسر من رأى أكبر منها. . . (معجم البلدان).

(٢) همذان: روي عن شعبة أنه قال: الجبال عسكر وهمذان معمعتها وهي أعذبها ماء وأطيبها هواء.

(٣) قم: مدينة قرب أصبهان.

(٤) قاشان: بالشين المعجمة، وآخره نون: مدينة قرب أصبهان، تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضائر القاشاني. . . وأهلها كلهم شيعة إمامية. . . (معجم البلدان لياقوت).

مُطَرّفًا ليس بوَلد المغيرة بن شعبة، إنما هو ولد مَصْقَلَة بن هُبَيْرَة الشيباني، وكان مصْقَلَة والمغيرة يدَّعِيانه، فأُلحق بالمغيرة، وجُلِد مصْقَلة الحَدَّ، فلما أظهر رأْيَ الخوارج قال الحجاج ذلك، لأنّ كثيرًا من ربيعة كانوا خوارج ولم يكن منهم أحدٌ من قيس عَيْلان.

انتهت أخبار الخوارج فلنذكر الغزوات في خلافة عبد الملك.

ذكر الغزوات والفتوحات
في أيام عبد الملك بن مَرْوَان على حكم السنين

في سنة إحدى وسبعين افتتح عبد الملك قَيْسَارِيَّة في قَوْلِ الواقدي.

وفي سنة ثلاث وسبعين غزا محمد بن مرْوَان الروم صائفةً، فهزمهم، وفيها كانت وَقْعَةُ عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرْمِينية، وهو في أربعة آلاف، والروم في ستين ألفًا، فهزمهم وأكثر فيهم الْقَتْل.

وفي سنة أربع وسبعين غزا عبد الله بن أُمية رُتْبِيل من سِجِسْتَان، وكان رُتْبِيل هائبًا للمسلمين، فلما وصل عبْدُ الله إلى بُسْت[١] راسَله رُتْبيل في طَلَبِ الصلح، وبذلَ ألْفَ ألف، وبعث إليه بهدايَا ورقيق، فأبى عَبْدُ الله قبولَ ذلك، وقال: إن مَلأَ لي هذا الرّواقَ ذَهَبًا وإلاَّ فَلاَ صلح، وكن غِرًّا، فخلَّى لهُ رُتْبِيل البلادَ حتى أوْغَل فيها، وأخذ عليه الشِّعَابَ[٢] والمضايق وطلب أن يخلِّي عنه وعن المسلمين، ولا يأْخذ منه شيئًا، فأبى رُتْبيل وقال: يَأْخُذُ ثلاثمائة ألف درهم صلْحًا، ويكتبُ لنا بها كِتَابًا، ولا يَغْزُو بلادنا ما دمْتُ أميرًا، ولا يحرق ولا يخرّب.

ففعل، وبلغ ذلك عبد الملك فعزَلَه.

وفيها غزا محمد بن مروان الروم صائفةً، وبلغ أندوليَة، وغزا أيضًا في سنة خمس وسبعين صائفةً حتى خرجت الروم من قبل مَرْعَش[٣]، وغزا أيضًا في سنة ست وسبعين من ناحيةِ مَلَطْية.

وفي سنة سبع وسبعين غزا أُميّة بن عبد الله ما وراء النهر فبلغ بُخَارى، وخالف عليه بكير بن وَسَّاج، فصالح أَهْلَ بُخَارى على فِدْيَةٍ قليلة، ورجع لقتال بكر.

---

(١) بست: بالضم: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة.

(٢) الشعاب: جمع الشعب: وهو انفراج بين الجبلين؛ أو الطريق.

(٣) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار. . . (معجم البلدان).

وفيها غزا أُميّة أيضًا، وَعَبَرَ نهر بَلْخ، فحُوصر حتى جهد هو وأصحابُه، ثم نَجَوْا بعدما أشْرفُوا على الهلاك، ورجعوا إلى مَرْو.

وغزا الوليد بن عبد الملك الصائفة.

ذكر غزو عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل

وفي سنة تسع وسبعين غزا عبيد الله بن أبي بكرة بلاد رُتْبِيل، وكان الحجاج قد استعمله على سجستان، وكان رُتْبيل يُؤَدِّي الخراجَ، وربما امتنع منه، فبعث الحجاج إلى عُبَيْد الله بن أبي بكرة يأْمُره بمُنَاجَزَتِه[١]، وألاَّ يرجع حتى يسْتَبيحَ بلادَه، ويهدم قلاَعهُ، ويقتل رجاله.

فسار عُبَيْد الله في أهْلِ البصرة والكوفة، وعلى أهل الكوفة شُريح بن هانىء؛ فمضى عُبيد الله حتى دخل بلادَ رُتْبِيل، فأصاب من الغنائِم ما شاء، وهدم حُصُونًا، وغلب على أرض مِنْ أراضيهم، وأصحابُ رُتْبِيل من الترك يُخْلُونَ للمسلمين أرضًا بَعْدَ أرْضٍ، حتى أمْعنُوا في بلادِهم، ودَنَوا من مدينتهم، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخًا، فأخذ الترك عليهم الشِّعَابَ والعقاب[٢]، فصالحهم عُبيْد الله على سبعمائة ألف يوصلها إلى رُتْبِيل ليمكِّن المسلمين من الخروج، فلقيه شريح فقال: إنكم لا تصالحون على شيء إلاَّ حسبه السلطانُ مِنْ أعطياتكم، ثم قال: يا أهل الإسلام، تَعَاوَنُوا على عدُوِّكم، فقال له ابن أبي بكرة: إنك شيخ قد خَرِفْتَ. فقال شريح: يا أهل الإسلام، مَنْ أراد منكم الشهادة فإليّ، فاتَّبعه نَاسٌ من المطَّوِّعَة[٣] غير كثير، وفُرسان الناس، وأهل الحفاظ، فقاتلُوا حتى أُصيبوا إلا قليلاً، وجعل شريح يرتجز ويقول: [من الرجز]

أصْبَحْتُ ذا بَثٍّ أُقَاسِي الكِبَرا ... قد عِشتُ بيْنَ المشركين أعْصُرا

ثُمَّتَ أدركْتُ النبيَّ المُنْذِرا ... وبعده صِدِّيقَه وعمَرا

ويَوْمَ مِهْرَان ويوم تُسْتَرا ... والجَمْعَ في صِفِّينِهم والنَّهَرا[٤]

* هيهاتَ ما أطول هذا العُمرا *

(١) تناجز القوم: تقاتلوا وتسافكوا الدماء.

(٢) العقاب: جمع العقبة، وهو المرقى الصعب من الجبال.

(٣) المطوعة: الذين يتطوعون للجهاد ونحوه.

(٤) مهران، وتسترا، صفين، والنهر: مواضع معروفة كانت فيها معارك مشهورة.

وقاتَل حتى قُتِل في ناس مِن أصحابه، ونجا مَنْ نجا منهم، وخرجا مِنْ بِلاَدِ رُتْبِيل، فاستقبلهم الناسُ بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات، فحذر الناس وجعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمرءُوا.

وفيها أصاب الروم أهل أنطاكية وظفروا بهم، وكان قد أصاب أهل الشام طاعونٌ شديد فلم يَغْزُ تلك السنة أحَدٌ منهم.

ذكر مسير عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث إلى رُتْبِيل وما مَلَكه مِنْ بِلاده

كان مسيره في سنة ثمانين؛ وذلك أنه لما رجع عُبيد الله بن أبي بَكْرة ومَنْ معه من بلاد رُتْبِيل على الحال التي ذكرنا كتَب الحجاجُ إلى عَبْدِ الملك بخبَرِهم، ويُخْبِرُه أنه قد جَهَّز من أهل الكوفة والبَصْرةِ جيشًا كثيفًا ويستأْذنُه في إرسالهِ إلى بلادِ رُتْبِيل، فأذِنَ له في ذلك، فجَهَّزَ من أهل الكوفة عشرين ألف فارس ومن أهل البصْرَة مثلها، وأنفق فيها ألْفَيْ ألْفٍ سِوَى أعطياتهم، وأعطى كلَّ رجل يوصف بشجاعة وغَنَاء[1]، وبعث عليهم عَبْد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث.

ولما أراد أن يبعثَه على الجيش أتاه إسماعيلُ بن الأشعث، فقال: لا تَبْعَثْه، والله ما جاز جِسْرَ الفُرات فرأى لوالٍ عليه طاعة، وإني أخاف خِلاَفَه.

فقال الحجاج: هو أهْيبُ لي من أن يخالِفَ أمري. وسيَّره على الجيش، فسار حتى قدم سجستان، فجمع أهْلَها فخطبهم ثم قال: إن الحجاج وَلأني ثَغْركم، وأمرني بجهادِ عدُوِّكم الذي استباح بِلاَدَكم، فإياكم أن يتخلَّف منكم أحد فتَسِمه العقوبة. فعسكروا مع الناس، وساروا بأجمعهم، وبلغ الخبرُ رُتْبِيل، فأرسل يعتذر ويَبْذُلُ الخراج، فلم يقبَلْ منه، وسار إليه، ودخل بلاده، فترك له رُتْبِيل أرضًا أرضًا ورُستاقًا[2] رُستاقًا وحِصْنًا حصنًا، وعبْدُ الرحمٰن يحْوي ذلك؛ وكلما حَوى بلدًا بعث إليه عَامِلاً، وجعل معه أعْوَانًا، وجعل الأرْصَاد على العِقَاب والشِّعاب، ووضع المَسَالحَ[3] بكل مكان مخُوف، حتى جاز من أرضه أرضًا عظيمة، وملأ الناسُ أيديهم من الغنائم العظيمة، ومنع الناسَ من التوغّل، وقال: نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم حتى نجبِيَها ونَعْرِفَها، ويجترىء المسلمون على طرقها، وفي العام المقبل

---

(١) الغناء: النفع والكفاية.

(٢) الرستاق، أو الرزداق: موضع فيه مزدرع، وقرى، أو بيوت مجتمعة.

(٣) المسلح: القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة.

نأْخذُ ما رواءها إنْ شاء اللّهُ تعالى حتى نقاتلَهم في آخر ذلك على كنوزِهم وذَراريهم في أقصى بلادهم حتى يهلكهم اللّهُ تعالى.

وكتب إلى الحجاج بما فتح اللّهُ عليه وبما يُريد. فكتب الحجاج إليه يُنْكِر فِعْلَه، ويأْمره بالمناجَزَةِ، فأدّى ذلك إلى خروج عبد الرحمٰن على الحجاج على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غزو المهلب بن أبي صفرة ما وراء النهر

وفي سنة ثمانين قطع المهلَّب نهر بَلْخ ونزل على كَشّ[١]، وكان الحجاجُ قد استعمله على خُرَاسان حين ضَمّها عبْدُ الملك إلى عَمَلِه، فسار وعلى مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف، وهم في خمسة آلاف، ولما نزل المهلَّب على كَشّ أتاه ابن عم ملك الخُتَّل[٢] فدعاه إلى غَزْو الخُتّل، فوجّهَ معه ابْنَه يزيد، وكان اسم ملك الخُتَّل السَّبل، فسار يزيد وابن عمّ الملك حتى نازَلُوه، ونزل كلُّ واحدٍ منهما ناحية، فبيّت الملك ابْنَ عَمِّه، وأخذه فقتله، فحصر يزيد القَلْعة، فصالحوه على فِدْيةٍ حُملت إليه، ورجع يزيد عنهم. ووجَّه المهلَّبُ ابْنَه حبيبًا، فوافَى صاحِب بُخارى في أربعين ألفًا، فنزل جماعة من العدوّ قريةً، فسار إليهم حَبِيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسمّيت المُحْتَرِقَة. ورجع حبيب إلى أبيه، وأقام المهلَّب بكَشّ سنتين، فقيل له: لو تقدّمْتَ إلى ما وراء ذلك! فقال: ليت حَظِّي من هذه الغَزْوة سلامةُ هذا الجند، وَعَوْدهم سالمين، ثم صالح أهْل كَشّ على فِدْيةٍ يأْخذها منهم.

وفي سنة إحدى وثمانين سيَّر عبد الملك ابنه عُبيد الله ففتح قَالِيْقَلا.

ذكر دخول الديلم[٣] قزوين[٤] وقتلهم

كانت قَزْوِين ثَغْرًا للمسلمين من ناحيةِ الدَّيْلَم، فكانت العساكِرُ لا تَبْرَحُ مرابطةً بها، يتحارَسُونَ ليلاً ونهارًا، فلما كان في سنة إحدى وثمانين كان في جملة من رابطَ بها محمد بن أبي سبْرة الجعفي، وكان فارِسًا شجاعًا، فرأى النّاسَ يتحارسون فلا

(١) كش: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على الجبل، أو قرية من قرى أصبهان.

(٢) ختل: كورة بما وراء النهر.

(٣) الديلم: جيل سموا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر وليس باسم لأب لهم... (معجم البلدان).

(٤) قزوين: بالفتح ثم السكون، وكسر الواو، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

ينامُونَ الليل، فقال: أتخافونَ أنْ يدخُل عليكم العدُو مدينتكم؟ قالوا: نعم. قال: لقد أنْصفُوكم إنْ فَعلوا، افتَحُوا الأبواب، ولا بأْس عليكم. ففتحوها، وبلغ ذلك الدَّيلَم، فسارُوا إليهم وبيَّتُوهم، وهجموا إلى البلد؛ فقال ابن أبي سبْرة: أغْلِقوا أبواب المدينَةِ علينا وعليهم، فقد أنصفونا، وقاتِلُوهم.

فغلَّقُوا الأبواب وقاتَلُوهم، وأبْلَى ابْنُ أبي سبْرَة بلاءً عظيمًا، وظَفِر بهم المسلمون، فلم يفْلِتْ من الدَّيْلَم أحدٌ، واشتهر اسْمُه بذلك، ولم يُقْدِم الدَّيْلَمُ بعدها على مفارقة أرضهم، فصار محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح قلعة نيزك بباذغيس(١)

وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نَيْزَك، فلما بلغه خروجه عن القَلْعَةِ سار إليها وحاصَرَها. فملكها وما فيها من الأموال والذخائر، وكانت مِنْ أحْصَنِ القِلاَع وأمْنَعها، وكان نيْزك إذا رآها سجدَ لها تعظيمًا، وفيها يقول كعب بن معْدان الأشقري(٢): [من البسيط]

وبـاذَغِـيـسُ الـتـي مَـنْ حَـلَّ ذرْوَتَـهـا ... عَـزَّ الـمـلـوكَ فـإنْ شَـاء جَـارَ أوْ ظَـلَـمـا
مـنِـيـعـةٌ لـم يَـكِـدْهـا قَـبْـلَـه مَـلِـكٌ ... إلاَّ إذا واجَـهـتْ جَـيْـشًـا لـه وجَـمـا
تُـخَـال نِـيـرانُـهـا مـن بُـعْـدِ مـنـظـرهـا ... بـعـضَ الـنـجـوم إذا مـا لَـيْـلُـهـا عَـتَـمـا

وهي أبيات عديدة.

وقال أيضًا يذكر يزيد رحمه الله وفتحها: [من الطويل]

نَـفَـى نَـيْـزكًـا عـن بـاذَغِـيـس ونَـيْـزَكٌ ... بـمـنـزلـةٍ أعـيَـا الـمـلـوكَ اغْـتِـصـابُـهـا
مُـحـلِّـقَـة دون الـسـمـاءِ كـأنـهـا ... غَـمَـامَـةُ صيْـفٍ زَلَّ عـنـهـا سَـحَـابُـهـا
ولا يـبْـلُـغُ الأرْوى شـمـارِيـخَـهـا الـعُـلاَ ... ولا الـطَّـيـر إلاَّ نَـسـرُهـا وعُـقَـابُـهـا(٣)
ومـا خُـوِّفَـتْ بـالـذِّئـب وِلْـدانُ أهْـلِـهـا ... ولا نَـبـحَـت إلاَّ الـنـجـومَ كِـلاَبُـهـا

---

(١) باذغيس: ناحية من أعمال هراة ومرو الروذ.

(٢) هو كعب بن معدان الأشقري. والأشاقر: حي من الأزد. وهو ن شعراء خراسان، وقد استفرغ شعره في مدح المهلب وولده. وروي عن الفرزدق أنه كاني قول: «شعراء الإسلام أربعة: أنا وجرير والأخطل وكعب الأشعري»... (معجم المرزباني).

(٣) الأروى: اسم جمع للأراوي، والأراوي: جمع الأروية، وهي أنثى الوعول. والشمراخ: العثكال عليه بسر؛ أو غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ، خرج في سننه رخصًا.

ذكر فتح المصيصة[١]

وفي سنة أربع وثمانين أيضًا غزا عبْدُ الله بن عبد الملك الرُّومَ، ففتح المصِّيصة وبنَى حِصْنها، وجعل فيها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى مسْجدها.

وغزا محمد بن مَرْوَان أرمينية.

وفي سنة خمس وثمانين غَزَا المفضل بن المهلب باذَغِيس ففتَحها وأصاب مغْنَمًا فقسمه، فأصاب كلَّ رجل ثمانمائة، ثم غزا أخْرُون وشُومان[٢]، فغنم وقَسَّم ما أصاب.

وفيها غزا محمد بن مَرْوان أرمينية، فصاف فيها وشتَا. انتهى ذكر الغزوات والفتوحات.

ذكر الحوادث الكائنة في أيام عَبْد الملك بن مروان منذ استقلَّ بالأمر خلاف ما ذكرناه، وذلك على حُكم السنين

قد ذكرنا حوادث السنين في أخبار عبْد الله بن الزبير رضي الله عنهما إلى أنْ قُتِل في سنة ثلاث وسبعين، وذكرنا ما هو متعلِّقٌ بهذه الدولة الأموية في أثناء أخبار عبد الملك، فلنذْكُرْ خلاف ذلك.

سنة ثلاث وسبعين:

ذكر ولاية محمد بن مروان الجزيرة[٣] وأرْمِيْنِيَة

في هذه السنة استعمل عَبْدُ الملك أخاه محمدًا على الجزيرة، وكانت بُحيْرةُ

(١) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام.

(٢) شومان: بالضم والسكون، وآخره نون: بلد بالصغانيان من وراء نهر جيحون وهو من الثغور الإسلامية وفي أهله قوة وامتناع عن السلطان، ينبت في أراضيها الزعفران... (معجم البلدان).

(٣) الجزيرة: هذا الاسم أطلقه أهل الأندلس أرادوا بلاد مجاهد بن عبد الله العامري: وهي جزيرة متورقة وجزيرة ميورقة... أو الجزيرة: موضع باليمامة فيه نخل لقوم من تغلب... (معجم البلدان).

أرْمِينِيَة مُباحةً لم يعْرِضْ لها أحَد، بل يَأْخُذُ منها منْ شاء، فمنع من صَيْدا وجعل عليه منْ يأخذه ويبيعه ويأخذ ثمنَه، ثم صارت بعْده لابنه مرْوَان، واستمرّ ذلك بعده.

وفيها عزل عبْدُ الملك خالد بن عبْد الله عن البصرة، واستعمل عليها أخاه بِشْر بن مروان، فاجتمع له المِصْران: الكوفة، والبصرة، فسار بِشْر إلى البصرة، واستعمل على الكوفة عَمْرو بن حُريث.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الحجاج وهو على مَكَّة واليمن واليمامة، وكان على قضاءِ الكوفة شُريح بن الحارث(١)، وعلى قضاء البصرة هشام بن هُبيرة، وكان على خراسان بُكير بن وسّاج.

وفيها مات عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بمكة وكان سبب وفاته أنَّ الحجاج أمر بعْضَ أصحابه، فضرب ظَهْر قَدمِه بزُجّ رُمْح مسموم، فمات منها، وعاده الحجاجُ في مرضِه، فقال: منْ فعل بك هذا؟ فقال: أنت، لأنك أمرْت بحمْلِ السلاح في بَلَدٍ لا يحلُّ حمْلُهُ فيه. وكانت وفاتُه بعد قَتْل ابن الزبير بثلاثة أشهر، وكان عمره سبعًا وثمانين سنة، ومات غيره من الصحابة رضي الله عنهم.

سنة أربع وسبعين:

في هذه السنة عزل عَبدُ الملك طارقًا عن المدينة، واستعمل عليها الحجاج، ففعل ما قدَّمْنَا ذكره.

وفيها استقضى عبد الملك أبا إدريس الخَوْلاني.

وفيها استعمل عبد الملك أُميّة بن عَبْد الله بن خالد بن أسِيد، على خُرَاسان، وعزل عنها بُكير بن وسّاج، فسار أُميّة إليها، فلقيه بَحِير بن وَرْقاء بنيسابور، وأخبره عن خراسان وما يحسن به طاعةُ أهلها، ورفع على بُكير أموالاً أخذها وحذره غَدْرَه، وسار معه حتى قدم مرو، وكان أُميَّةُ كريمًا فلم يعرض لبُكير ولا لعُمَّاله، وعرض عليه شُرطته، فأبى فولاَّها بَحِير بن وَرْقاء، ثم خَيَّرَ بُكيرًا أن يولِّيه ما شاء مِنْ خُراسان، فاختار طخارستان(٢).

قال: فتجهَّزَ لها، فأنفق مالاً كثيرًا؛ فقال بحِير لأمية: إنْ أتَى طخارستان خَلَعك، وحَذَّره فلم يُولِّه.

---

(١) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرئاش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع... كان من كبار التابعين، وأدرك الجاهلية، واستقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة... (وفيات الأعيان ٢: ٤٦٠).

(٢) طخارستان: هي ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان.

وفيها استعمل عبْدُ الملك حَسَّانَ بن النعمان الغَسَّاني على إفريقية، وسيذكر ذلك إن شاء الله في أخْبَار إفريقية.

وحجَّ بالناس في هذه السنةِ الحجاج بن يوسف.

وفيها توفي بشر بن مروان بالبصرة، واستخلف قبل وفاته خالد بن عبْد الله بن خالد على البصْرة، وكان خليفته على الكوفة عَمْرو بن حُريث؛ فكانوا على ذلك إلى أن قدم الحجاجُ بن يوسف الثقفي أميرًا سنة خمس وسبعين.

ذكر ولاية الحجاج بن يوسف العراق وما فعله عند مقدمه

وفي هذه السنة استعمل عَبْدُ الملك بن مَرْوان الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق دون خراسان وسجستان، وأرسل إليه بعهده وهو بالمدينة، فسار في اثني عشر راكبًا على النَّجَائبِ[١] حتى دخل الكوفة حين انتشر النهارُ، فبدأ بالمسجد، فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خَزٍّ حمراء، فقال: عليّ بالناس، فحسبوه خارجيًا، فهمُّوا به وهو جالس على المنبر ينتظِرُ اجتماعَهم، فاجتمع الناسُ وهو ساكت قد أطال السكوت، فتناول عُمَير بن ضابِىء البرجمي حَصًى وقال: ألا أحْصِبُه[٢] لكم! فقالوا: أمْهِل حتى ننظر. وقيل: إن الذي همّ بحَصْبه محمد بن عُمير وقال: قاتله الله ما أعياه وأدمّه[٣]، والله إني لأحسب خبْرهُ كرؤياه.

فلما تكلم الحجاجُ جعل الحصى ينتثر من يَدهِ وهو لا يَعْقِل، فلما رأى عيونَ الناسِ إليه حسر اللثامَ عن وجْهه ونهض فقال: [من الوافر]

أنا ابن جَلا وطلاعُ الثنايا ... متى أضع العمامة تعْرِفوني[٤]

أما والله إني لأحمل الشر محْمله، فآخذهُ بفِعْله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤُوسًا قد أينعَتْ وحان قِطافها، وإني لصاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، قد شمرَتْ عن ساقها تشميرًا. [من الرجز]

هذا أوَانُ الشدّ فاشْتدّي زِيَمْ ... قد لفَّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ[٥]

---

(١) نجائب الإبل: خيارها.

(٢) أحصبه لكم: أي أرميه بالحصباء ونحوها.

(٣) أدم: أتى فعلًا قبيحًا؛ أو ولد ولدًا دميم الخلقة.

(٤) ابن جلا: أي الصبح؛ والثنايا: ما صغر من الجبال.

(٥) الزيم: جمع الزيمة، وهي القطعة من الإبل. واشتدي: أي أسرعي.

لـيـس بـراعـي إبـلٍ ولا غَـنَـم ولا بـجـزَّارٍ عـلـى ظَـهْـرِ وَضَـم[١]
قـد لـفَّـهـا الـلَّـيْـلُ يَـعْـصْـلَـبِـيّ أرْوع خَـرَّاج مِـن الـدوِّيّ[٢]
* مـهـاجـرٍ لـيـس بـأعْـرابـي *
قـد شـمّـرت عـن سـاقـهـا فـشُـدُّوا وجـدّت الـحـرْبُ بِـكـم فـجِـدُّوا
والـقَـوْسُ فـيـهـا وَتـرٌ عُـرُدُّ مـثـل ذراع الـبَـكْـرِ أو أشـدُّ[٣]
لـيـس أوان يـكـره الـخـلاطُ جـاءت بـه والـقُـلـصُ الأعـلاط[٤]
* يـهـوى هُـوىّ سـابِـق الـغُـطَـاط[٥] *

إني والله يا أهل العراق ما يُقَعْقَع لي بالشِّنان[٦]، ولا يُغمز جانبي تَغْماز التين، ولقد فُرِرْتُ[٧] عن ذَكَاءٍ، وفُتِّشت عن تَجْرِبَةٍ، وجريْتُ إلى الغايةِ القُصْوَى. ثم قرأ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. فأنتم أولئك وأشباه أولئك. إنَّ أمير المؤمنين عبد الملك نَثَر كِنَانَتَهُ فَعَجَم[٨] عِيْدَانَها عُودًا عودًا، فوجدني أمرَّها[٩] عُودًا، وأصلبها مكسرًا، فوجَّهني إليكم، ورَمى بي في نُحوركم، فإنكم أهْلُ بغْيٍ وخِلاَف وشقاق ونِفَاق، طالما أوضعتم في الشرّ، واضطجعْتُم في الضلالة، وسنَنْتُم سُنَن الغيّ، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأُذِيقَنَّكم الهَوَان ولأمْرِينّكم[١٠] حتى تَدِرّوا، ولألحوَنَّكم[١١] لَحْو العُودِ، ولأعصبنّكم عصْبَ السَّلَم[١٢] حتى تذِلُّوا، ولأضربنَّكم ضَرْبَ غَرائِب الإبلِ حتى تَذَرُوا العِصْيان وتنقادُوا، ولأقرعنَّكم قَرعَ المَرْوة[١٣] حتى تلينوا. إني والله ما أَعِدُ إلاَّ وفَيْت، ولا أهمُّ إلا أمضيت، ولا أخلُقُ[١٤] إلاَّ فَرَيْت، فإياي وهذه الجماعات، فلا يركبنَّ رجلٌ إلاَّ

---

(١) الوضم: ما وقى به اللحم عن الأرض.
(٢) الدوية: الفلاة.
(٣) عرد: شديد.
(٤) الأعلاط: وهي من الإبل التي لا أرسان لها.
(٥) الغطاط: ضرب من الطير.
(٦) الشنان: جمع الشنة، وهي القربة البالية اليابسة.
(٧) فُرّ: جُرّب واختير.
(٨) عجم عيدانها: عضها واختبرها.
(٩) أمرها عودًا: أصلبها وأقواها.
(١٠) يقال: مرى الناقة مريًا: أي مسح ضرعها لتدر.
(١١) لحى العصا: قشرها.
(١٢) العصب: القطع. والسلم: شجر من العضاه.
(١٣) المروة: حجارة بيض براقة رقاق تقدح منها النار.
(١٤) الخلق: التقدير.

وحده، أُقسم بالله لتُقْبِلُنَّ على الإنصاف، ولتَدعُنَّ الإرجاف[١]، وقيلاً وقالاً، وما يقول فلان، وأخبرني فلان، أو لأدعنَّ لكلِّ رجُلٍ منكم شُغلاً في جسدِهِ، فيم أنتم وذاك، والله لتستقيمُنَّ على الحقِّ أو لأضربنَّكم بالسيف ضَرْبًا يدعُ النساء أيامى والولْدَان يتَامى، وحتى تذَرُوا السُّمَّهَى[٢] وتُقْلِعُوا عنِ هاوها، ألا إنه لو ساغ لأهْلِ المعصية معصيتهم ما جُبِي فَيءُ ولا قُوتِل عَدُوّ، ولعطِّلت الثغورُ، ولولا أنهم يغزون كرهًا ما غزوا طَوْعًا، ولقد بلغني رَفْضُكم المهلَّب وإقبالكم على مِصْركم عاصِين مخالفين وإني أُقسم باللّهِ لا أجدُ أحدًا من عسكره بعد ثالثةٍ إلاَّ ضربْتُ عُنقه، وأنهبتُ داره.

ثم أمر بكتاب عَبْدِ الملك فقُرِىء، فلما قال القارىء: بسم الله الرحمٰن الرحيم. مِن عبد الملك بن مرْوان أمير المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين: سلامٌ عليكم، فإني أحمد الله إليكم ـ فلم يقُلْ أحد شيئًا، فقال: اكفف، ثم قال: يا عبيد العصا، يُسلِّم عليكم أميرُ المؤمنين فلا يردّ رادّ منكم السلام. هذا أدَبُ ابْن نُهيَّة[٣]، أدَّبكم به، والله لأُؤَدبنكم غير هذا الأدَب، أو لتستقيمُنَّ. ثم قال للقارىء: اقرأْ. فلما بلغ سلام عليكم قالوا بأجمعهم: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله. ثم نزل ودخل منزله، ودَعا العُرفاء وقال: ألْحِقُوا الناسَ بالمهلَّب، وائتوني بالبراءات[٤] بمُوافَاتهم، ولا تُغْلقُنّ أبواب الجسر ليلاً ولا نهارًا حتى تَنْقَضِي هذه المدة.

قال: فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيرًا في السوقِ، فخرج وجلس على المنبر، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنِّفَاقِ ومساوىء الأخلاق، إني سمعْتُ تكبيرًا ليس بالتَّكْبِيرِ الذي يُرَاد به وجْهُ اللّهِ، ولكنه التكبيرُ الذي يُرادُ به الترهيب، وقد عرفْتُ أنها عجاجةٌ[٥] تحتها قَصْفٌ[٦]، يا بني اللَّكِيعة[٧]، وعبِيد العصا، وأبناء الأيامى، ألا يرْبع رجل منكم على ظَلْعِهِ[٨] ويُحسن حَقْن دمِه، ويعرف موضع قَدَمه، فأُقسم بالله لَأُوشِكُ أن أُوقِع بكم وقعةً تكون نَكَالاً لما قَبْلها وأدبًا لما بعْدها.

فقام إليه عُمير بن ضابىء الحنظلي التميمي، فقال: أصلح اللّهُ الأمير، أنا في هذا البعْثِ وأنا شيخٌ كبِير علِيل، وابْنِي هذا هو أقْوى مني على الأسفار أَفَتَقْبلُه مِنِّي

---

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.
(٢) المسهى: الباطل والكذب.
(٣) ابن نهيّة: قيل: إنه رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج.
(٤) البراءة: الإعذار والإنذار.
(٥) العجاج: الغبار، أو الدخان؛ وواحده عجاجة.
(٦) القصف: شدة الريح.
(٧) اللكيعة: الحمقاء من الإماء.
(٨) يقال: اربع على ظلعك: أي ارفق على نفسك فيما تحاوله.

بدِيلاً؟ فقال: نَفْعَل. ثم قال: ومن أنت؟ قال: أنا عُمير بن ضَابىء. قال: أسمعْتَ كلامَنا بالأمْس! قال: نعمْ. قال: ألسْت الذي غَزَا عُثمانَ بْنَ عفَّان؟ قال: بلى. قال: يا عدوَّ الله، أفلا بعثت بدِيلاً إلى أمير المؤمنين، وما حمَلَكَ على ذلك؟ قال: إنه حبس أبي، وكان شيخًا كبيرًا. قال: أولست القائل: [من الطويل]

هـمـمْـتُ ولـم أفعـلْ وكِـدْتُ وليتـنـي تـركـتُ عـلـى عُـثـمـانَ تَـبْـكِـي حـلائـلُـه

إني لأحسب أنَّ في قتلك صلاحَ المِصْرين، وأمر به فضُربت رقَبتُه، وأنهب ماله، وأمر مناديًا فنادى: ألا إنّ عُمَير بن ضابىء أتى بعد ثالثة، وكان قد سمع النداءَ، فأمَرْنَا بقَتْله، ألا وإن ذِمَّةَ اللّهِ بريئةٌ ممَّنْ بات الليلة من جُنْدِ المهلب.

فخرج الناس فازدحموا على الجِسْرِ، وخرج العُرَفاء إلى المهلَّب وهو برامَهُرْمُز[١]، فأخذوا كتُبه بالموافَاةِ، فقال المهلَّب: قدم العراق اليوم رجل ذكر، اليَوْم فويل العدو.

وقال: ولما قَتَل الحجاج عُميْرًا لقي إبراهيمُ بن عامر الأسدي عبْد الله بن الزَّبير رضي الله عنهما في السوق، فسأله عن الخبر، فقال: [من الطويل]

أقـولُ لإبـراهـيـم لَـمّـا لـقِـيـتُـه أرعـى الأمْرَ أضْحَى مُنْصِبًا مُتَشَعِّبا
تَجهّزْ فأسْرِعْ والحقِ الجيْشَ لا أرى سِوى الجيش إلا في المهالك مذْهَبا
تـخـيَّـرْ فـإمَّـا أنْ تـزورَ ابْـنَ ضَـابـىءٍ عُـمـيْـرًا وإمـا أن تَـزُورَ الـمُـهـلَّـبـا
هـمـا خُطَّتَـا خَسْفٍ نَجَاؤُكَ مِنْهُمَا ركوبُك حَوْليًا من الثلج أشْهَبَا[٢]
فـحـال ولـو كـانـت خُـراسَـان دُونَـه رآهـا مَـكـانَ الـسُّـوقِ أوْ هِـي أقْـربـا

قال: وكان الحجاجُ أولَ منْ عاقب بالقَتْلِ على التخلُّف عن الوجْهِ الذي يُكتب إليه.

قال الشعبي[٣]: كان الرجل إذا أخَلَّ بوَجْهِه الذي يكتب إليه زَمن عمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم نُزِعت عِمامتُه ويُقام للناس، ويُشهر أمره، فلما ولي مصعب قال: ما هذا بشيء، وأضاف إليه حلْق الرؤوس واللِّحَى، فلما ولي بِشْر بن مروان زاد

---

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، وهي من بين مدن خوزستان التي تجمع النخل والجوز والأترنج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان... (معجم البلدان).

(٢) الحولي: المهر أتى عليه الحول. والأشهب: ما يخالطه بياض.

(٣) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عدي بن ذي كبار، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همذان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم... (وفيات الأعيان ٣: ١٢).

فيه، فصار يُرْفَع الرجلُ عن الأرض ويسمَّر في يديه مسماران في حائط، فربما مات، وربما خَرق المسمار يدَه، فسلم.

فلما ولي الحجاج قال: كلُّ هذا لعِب، أضْربُ عُنُقَ من يُخِلّ بمكانه من الثغر.

قال: وكان قدوم الحجاج في شهر رمضان، فوجَّه الحكم بن أيوب الثقفي على البصْرة أميرًا، وأمرَه أنْ يشتدَّ على خالد بن عبْد الله، فبلغ الخبر خالدًا فخرج عن البَصْرَةِ فَنَزَلَ الجَلْحاء[١] وشيّعه أهْل البصْرة فقسم فيهم ألف ألف.

ذكر وثوب أهل البصرة بالحجاج

قال: ثم خرج الحجاج من الكوفة إلى البصْرة، واستخلف على الكوفة عرْوةَ بن المغيرة بن شُعْبة. فلما قدم البصرة خطبهم بمِثْلِ خطبته بالكوفة، وتوعَّد منْ رآه منهم بعد ثالثة، ولم يلحق بالمهلَّب، فأتاه شَريك بن عَمْرو اليَشْكري وكان به فتْق[٢]، فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إن بي فَتْقًا، وقد رآه بِشْر بن مروان فعذرني، وهذا عطائي مرْدُودٌ في بيْتِ المال، فأمر به فضُرِبت عُنقه، فلم يَبْقَ بالبصرة أحَدٌ من عسْكر المهلب إلاّ لحق به.

ثم سار الحجاج إلى رُسْتَقُباذ[٣]، وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخًا، وقال حين نزل بها: يا أهلَ المِصْرَيْن، هذا المكان والله كانكم شهرًا بعْد شهر، وسنةً بعد سنةٍ، حتى يُهْلِكَ اللّهُ عدوَّكم، هؤلاء الخوارج المُطِلين عليكم.

ثم خطب يومًا فقال: إن الزيادة التي زادكم إياها ابْنُ الزبير إنما هي زيادةُ مُلْحِد فاسقٍ منافقٍ، ولسنا نُجيزها ـ وكان مصعب قد زاد الناسَ في العطاء مائة مائة ـ فقال عَبْدُ الله بن الجارود: إنها ليست زيادة ابن الزبير، إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبْد الملك قد أنفذها وأجازها على يَدِ أخيهِ بِشر.

فقال له الحجاج: ما أنت والكلام! لتُحْسِنَنَّ حَمْل رَأسِك أو لأسْلُبَنَّك إيّاه. فقال: ولِم؟ إني لك لَناصِحٌ، وإن هذا لقول مَنْ وَرائي.

فنزل الحجاج ومكث أشهرًا لا يذكر الزيادةَ، ثم أعدا القول فيها، فردَّ عليه ابن الجارُود مِثْل رده الأول، فقام مصْقَلة بن كرب العَبْدِي، فقال: إنه ليس للرعيَّةِ أن تردَّ

(١) الجلحاء: موضع على ستة أميال من الغوير المعروف بالزبيدية بين العقبة والقاع.
(٢) الفتق: بروز جزء من الأمعاء من فتحة في جدار البطن.
(٣) رستقباذ: موضع من أرض دستوا.

على راعِيها، وقد سمِعْنا ما قال الأمير، فسمْعًا وطاعةً فيما أحبّ وكرِهْنَا. فسبّه ابن الجارود وقام فأتاه وجوهُ الناسِ فصوّبوا رأْيه وقولَه، وقال الهذيل بن عمران البُرْجُمِي وعبد الله بن حكيم بن زِياد المجاشعي وغيرهما: نحن معك وأعوانك، إن هذا الرجل غير كافٍّ حتى ينقصنا هذه الزيادة فهلمّ نبايعْكَ على إخراجه من العراق، ثم نكتب إلى عبْد الملك أن يُولّي علينَا غَيْره، فإنْ أبى خلعناه، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج.

فبايعه الناسُ سِرًّا، وأعطَوْه المواثيقَ على الوفاء، وبلغ الحجاج ما هم فيه، فأحرز بيْتَ المال.

فلما تَمَّ لهم أمْرُهم أظهروه، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين، واجتمع الناسُ على ابْن الجارود حتى لم يبْقَ مع الحجاج إلاّ خاصَّتُه وأهل بيته، وأرسل الحجاج أعينَ صاحب حَمَّام أعْيَن[١] إلى ابن الجَارُود يَسْتَدعِيه، فقال: لا كرامةَ لابْنِ أبي رِغَال، ولكن ليخرج عَنَّا مذمومًا مَدْحُورًا، وإلا قاتلناه. قال أعْين: فإنه يقولُ لك: أتَطِيب نفسًا بقَتْلك وقَتْلِ بيتك وعشيرتك! والذي نفسي بيده لئن لم تَأْتِ لأدعنَّ قَوْمَك وأهلك خاصة حديثًا للغابرين.

وكان الحجاجُ قد حمَّل أعْين هذه الرسالةَ؛ فقال ابْنُ الجارود: لولا أنك رسولٌ لقتلْتُك يا ابْنَ الخبيثة، وأمَر فَوُجىء[٢] في عُنُقِه، وأُخْرِج. وأقبل ابْنُ الجارود بالناس زَحْفًا نحو الحجَّاج، وكان رأْيهم أن يُخْرِجُوه عنهم ولا يقاتلوه. فلما صاروا إليه نَهبُوا مَا في فُسْطَاطه، وأخذوا ما قَدرُوا عليه مِنْ مَتَاعِه ودَوابّه، وجاء أهْلُ اليمن فأخذوا امرأتَه ابنة النعمان بن بشير، وجاءت مُضَر فأخذوا امرأتَه الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمٰن بن عمرو أخي سُهيل بن عمرو.

ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه. فأتاه قَوْمٌ من أهلِ البصْرَةِ فصاروا معه خوفًا من مُحَاربةِ الخليفة، فجعل الغَضْبان بن القَبَعْثَرى الشيباني يقول لابْنِ الجارود: تَعَشَّ بالجدْي قبل أن يتغدَّى بك. أما ترى مَن قد أتاه منكم؟ ولئن أصبح ليكثرنّ ناصره، ولتضعُفَنَّ مُنَّتكم[٣].

فقال: قد قَرُب السماء، ولكننا نُعَاجِله بالغَدَاة، وكان مع الحجاج عثمان بن قَطَن، وزياد بن عمرو العَتَكي، وكان زياد على شرطته بالبصرة، فقال لهما: ما تريان؟

---

(١) حمام أعين: بتشديد الميم: بالكوفة.

(٢) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق.

(٣) المنة: القوة.

فقال زياد: أرى أنْ آخُذَ لك من القوم أَمَانًا وتخرج حتى تلحقَ بأمير المؤمنين، فقد ارفضَّ أكْثرُ الناس عنك، ولا أرى لك أن تُقَاتِل بمن معك.

فقال عثمان بن قَطَن الحارثي: لكني لا أرَى ذلك، إنَّ أمير المؤمنين قد شركك في أمْرِه، وخلطك بنفسه، واستنصحك وسلَّطك، فسرتَ إلى ابْنِ الزبير وهو أعظَمُ الناسِ خَطَرًا فقتلته، فولأَّكَ اللّهُ شرفَ ذلك وسَنَاءَه، وولاَّكَ أمير المؤمنين العِراقَيْن، فحيث جريت إلى المَدَى وأصبْتَ الغرضَ الأقصى تخرج على قَعُودٍ[1] إلى الشام، والله لئن فعلْت لا نِلْت من عبد الملك مثل الذي أنْتَ فيه من السلطان أبدًا، ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نَلْقَى ظفَرًا أو نموت كرامًا.

فقال له الحجاج: الرّأْيُ ما رأيتَ، وحفظ هذه لعثمان، وحقدها على زياد، وجاء عامر بن مِسمع إلى الحجاج فقال: إني قد أَخَذْتُ لك أمانًا من الناس، فجعل الحجاج يرفَعُ صوْتَه ليسمع الناس ويقول: والله لا أُؤَمِّنهم أبدًا حتى يأْتوا بالهُذَيْل وعبد الله بن حكيم. ومرّ عباد بن الحصين الحَبطِيّ بابن الجارُود وابن الهُذَيل وابن حكيم وهم يتناجَون، فقال: أشركونا في نَجْوَاكم. فقالوا: هيهات أن يدخل في نَجْوَانا[2] أحد من الحَبَط، فغضب وسار إلى الحجاج في مائةِ رجل، فقال له الحجاج: ما أبالي منْ تخلَّفَ بَعْدك. وأتاه قُتيبة بن مسلم في قومه من بني أعصُر، وكان الحجاج قد يئس من الحياة، فلما جاءه هؤلاء اطمأنَّ، ثم جاءه سَبْرة بن علي الكلابي، وسعيد بن أسلم بن زُرْعة، وجعفر بن عبد الرحمٰن بن مِخْنَف الأزدي، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع يقول: إن شئتَ أتيْتُكَ، وإن شئتَ أقمْتُ وثبطت الناس عنك. فقال: أقم وثَبِّط الناس عني.

فلما اجتمع للحجاج عددٌ يُمْنَع بمثلهم خرج، وعَبَّأَ أصحابه، وتلاحق الناسُ به، فلما أصبح إذا حَوْله ستة آلاف، فقال ابن الجارود لعُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأْيُ؟ قال: تركْتُ الرأْيَ أمس حين قال لك الغضبان: تَعَشَّ بالجدي قبل أن يتغدّى بك. وقد ذهب الرَأْيُ وَبَقِي الصبر.

فحرَّضَ ابْنُ الجارود الناس، وزحف بهم وعلى ميمنته الهُذَيل بن عمران، وعلى مَيْسرته عُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان، وتقدم الحجاج وعلى ميمنته قُتَيبة بن مسلم، ويقال عَبَّاد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسْلَم، فحمل ابْنُ الجارود في

(١) القعود: البكر إلى أن يصير في السادسة.
(٢) النجوى: القوم المتناجون، والنجوة: المرتفع من الأرض.

أصحابِه حتى جاوز أصحاب الحجاج، فعطف الحجاج عليه، ثم اقتتلوا ساعةً وعاد ابْنُ الجارُود بظَفَرٍ، فأتاه سَهْمٌ غَرْبٌ[١] فقتَلَه، ونادى منادِي الحجاج بأمانِ الناسِ إلا الهذيل وعبد الله بن حكيم، وأمر ألاَّ يُتبع المنهزمون. فانهزم عُبَيد الله بن زياد بن ظبيان، فأتى سعيد بن عباد الجُلَنْدَى الأزدي بعمان، فقيل لسعيد: إنه رجل فاتك فاحذره، فلما جاء البطيخ بعث إليه بنصف بطيخة مسمومة، وقال: هذا أوّل شيء جاءنا منه، وقد أكلْتُ نِصْف هذه، وبعثْتُ إليك بنصفها؛ فأكلها عُبَيْد الله فأحَسَّ بالشر، فقال: أردْتُ أنْ أقتُلَه فقتلني.

قال: وحُمل رأْس ابن الجارود وثمانيةَ عشر من وجوه أصحابه إلى المهلب، فنُصبت ليراها الخوارجُ وييأسوا من الاختلاف.

وحبَس الحجاج عُبيد بن كَعْب النميري ومحمد بن عمير بن عطارد، فإنه كان قد بعث إلى كلٍّ منهما يقول: هلُمَّ إليّ فامْنَعْنِي، فقال: إن أتيْتَنِي منعْتُك. وحبس الغضبان وقال: أنْت القائل: تعَشَّ بالجَدْي قبل أن يتغدَّى بك! فقال: ما نفعَتْ مَنْ قيلتْ له ولا ضرَّتْ مَنْ قيلتْ فيه! فكتب عبد الملك إلى الحجاج بإطلاقه.

ذكر ما كلم به الحجاج أنس بن مالك رضي الله عنه وشكواه إياه وما كتب به عبد الملك من الإنكار على الحجاج وسبِّه بسببه

قال: كان عَبْدُ الله بن أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ممن قُتِل مع ابْنِ الجارود، فلما دخل الحجاجُ البَصْرَة أخذ ماله، فدخل عليه أنس بن مالك رضي الله عنه، فحين رَآه الحجاج قال له: لا مَرْحَبًا ولا أهلاً، إيه يا خِبْثة[٢]؛ شيخُ ضلالةٍ، جوّال في الفِتن، مرَّةً مع أبي تُرَاب[٣]، ومرَّةً مع ابْنِ الزُّبَيْرِ، ومرَّةً مع ابن الجارُودِ؛ أما واللّهِ لأجْردنَّك جَرْدَ القضِيب، ولأعْصِبَنَّك عَصب السَّلمة[٤]، ولأقلعنَّك قلْع الصّمغة[٥].

فقال أَنس: مَنْ يَعْنِي الأمير؟ فقال: إياك أعْنِي، أصمَّ اللّهُ صدَاك.

فرجع أَنس، فكتب إلى عبد الملك كتابًا يشكو فيه الحجاج وما صنع به.

---

(١) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه. (٢) يا خبثة: أي يا خبيث.
(٣) أبو تراب: كنية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٤) السلمة: شجر من العضاه يدبغ به.
(٥) الصمغة: القطعة من الصمغ، وهو معروف.

فكتب عَبْدُ الملك إلى الحجّاج: أما بَعْدُ يا بْن أمّ الحجاج فإنك عبْدٌ طمَتْ بك الأُمور فغلوْت فيها حتى عدَوْت طوْرَك، وتجاوَزْتَ قدْرَك، يا بن المستفْرِمَة[١] بعَجم[٢] الزبيب لأغمزنَّك غمْزةً كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنَّك خبْطةً تودُّ لها لو أنك رجعْتَ في مخرجك مِنْ بطن أُمك. أما تذكر حَالَ آبائِك بالطائف حيث كانوا يَنْقُلون الحجارة على ظهورهم، ويحفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومِيَاههم؛ أم نسيت حالَ آبائك في اللؤم والدناءة في المروءة والخلق.

وقد بلغ أمِيرَ المؤمنين الذي كان منك إلى أَنس بن مالك جُرأة وإقدامًا، وأظنُّك أردْتَ أن تسْبُرَ ما عِنْدَ أمير المؤمنين في أمْرِهِ فتعلم إنكاره ذَلك وإغضاءه عنك، فإن سَوَّغك ما كان منك مضيْت عليه قُدُمًا، فعليك لعنة الله من عَبْد أخْفش[٣] العَيْنين، أصَكّ[٤] الرجلين، ممسوح الجاعِرَتيْن[٥]، ولولا أنَّ أمير المؤمنين ظنَّ أن الكاتب كثَّر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك مَنْ يسحبك ظهْرًا لبَطْنٍ حتى يأْتي بك أنَسًا فيحكم فيك، فَأكْرِمْ أنَسًا وأهْلَ بيته، واعْرِفْ له حَقَّه وخِدْمَتَه رسولَ الله ﷺ، ولا تقصّرنَّ في شيء من حوائجه، ولا يبلغَنَّ أمير المؤمنين عنك خِلاَفُ ما تقدّم فيه إليك من أمْرِ أنَس وبِرِّه وإكرامه، فيبعث إليك مَنْ يضرب ظَهْرَك، ويهتكُ سترك، ويُشمت بك عَدُوَّكَ، والْقهُ في منزله متنصِّلاً إليه، وليكتُبْ إلى أميرِ المؤمنين برِضَاه عنك، إن شاء الله. والسلام.

وبعث بالكتاب مع إسماعيل بن عَبْد الله مولى بني مخزوم، فأتى إسماعيلُ أنَسًا بكتابِ عبد الملك فقرَأَهُ، وأتى الحجاج بالكتاب فجعل يقرؤه ووَجْهُه يتغيَّر ويتمعَّر[٦]، وجبينه يَرْشَحُ عَرَقًا، ثم قال: يغفر اللّهُ لأمير المؤمنين.

ثم اجتمع بأَنَس فرحَّبَ به الحجاج، وأدْنَاهُ، واعتذر إليه، وقال: أردْتُ أن يعلَمَ أهلُ العراق إذ كان من ابنك ما كان وإذ بلغتُ منك ما بلغتُ أني إليهم بالعقوبةِ أُسرع.

فقال أَنَس: ما شكوت حتى بلغَ مني الجهد، وقد زعمتَ أنَّا الأشرار، وقد سمَّانا اللّهُ الأنصار، وزعمْتَ أنَّا أهلُ النفاق، ونحن الذين تبوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ،

---

(١) المستفرمة: التي تضع دواء تضيق به فرجها.
(٢) العجم: نوى كل شيء.
(٣) الأخفش: الذي صغرت عينه وضعف بصره.
(٤) الأصك: مضطرب الركبتين والعرقوبين.
(٥) الجاعرة: حرف الورك المشرف على الفخذ.
(٦) معر وجهه: غيره غيظًا.

وسيحْكُمُ اللّهُ بيننا وبينك، فهو أقْدَرُ على التغيير، لا يشبه الحق عنده الباطل، ولا الصدق الكذب، وزعمْتَ أنكَ اتخذْتني ذريعةً وسلمّا إلى مساءَة أهل العراق باسْتِحْلاَل ما حرَّمَ الله عليك مني، ولم يكن لي عليك قوة، فوكلْتُك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين، فحفظ من حَقِّي ما لم تحفظ، فوالله لو أنَّ النصارى على كُفْرِهم رَأَوْا رجلاً خَدم عيسى ابن مريم يومًا واحدًا لعَرَفُوا مِنْ حقِّه ما لم تَعْرِفْ أنْت من حقي، وقد خدمْتُ رسولَ الله ﷺ عَشْر سنين. وبعد فإنْ رأيْنَا خيرًا حمدنا الله عليه، وأثنينا، وإن رأينا غير ذلك صبرنا. والله المستعان.

وردّ عليه الحجاج ما كان أخذ منه.

ذكر ولاية سعيد بن أسلم السند وقتله ووِلايةُ مُجّاعَة بن سِعْرٍ التميمي ووفاته

وفي هذه السنة استعمل الحجاج على السنْدِ سعيد بن أسلم بن زُرعة، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلاقيان. فقتلاه وغلَبا على البلاد، فأرسل الحجاجُ مُجَّاعَة بن سِعْر التميمي إلى السند، فغلب على ذلك الثَّغْرِ، وغزَا وفتح أماكن من قَنْدَابيل[١]، ومات مُجّاعة بعد سنة بمُكْرَان[٢]. والله أعلم.

ذكر خبر الزنج بالبصرة

قال: كان الزنج قد اجتمعوا بفُرات البَصْرَة في آخر أيام مُصْعب، ولم يكونوا بالكثير، فأفسدوا. فلما ولي خالد بن عَبْد الله البَصْرة كَثُروا، فشكا الناسُ إليه ما يَنَالُهم منهم، فجمع لهم جَيْشًا، فلما بلغهم ذلك تفرَّقُوا، وأخذ بَعْضَهم فقتلهم وصلَبهم، فلما كان من أمرِ ابن الجارُود ما ذكَرْنَاه اجتمع من الزنج خَلْقٌ كثير بالفُرَات، وجعلوا عليهم رجلاً منهم اسمه رباح ويلقّب شيرزنجي يعني أسد الزنج، فأفسدوا، فأمر الحجاج زياد بن عَمْرو وهو على شرطة البَصْرَة أن يُرسِلَ إليهم جيشًا، فندَب ابْنَه حَفْص بن زياد فقتلوه، وهزموا أصحابه، فسيَّر إليهم جيشًا آخر فهزم الزنج وقتلهم، واستقامت البصرة.

وفي هذه السنة حَجَّ عبد الملك بالناس فخطبَ الناسَ بالمدينة، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

(١) قنديابيل: مدينة بالسند، وهي قصبة لولاية.

(٢) مكران: ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى.

أما بعد فإني لسْتُ بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان، ولا بالخليفة المداهن ـ يعني معاوية، ولا بالخليفة المَأْفون ـ يعني يزيد، ألاَ وإني لا أُداوي هذه الأُمة إلاً بالسيف حتى تستقيم لي قَنَاتُكم، وإنكم تكلِّفُونا أعمالَ المهاجرين الأولين ولا تعملونَ مِثْلَ أعمالهم. وإنكم تأْمرونا بتَقْوَى الله وتَنْسَوْنَ ذلك من أنفسكم، واللّهِ لا يَأْمرُني أحَدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاً ضَرَبْتُ عُنُقَه، ثم نزل.

سنة ست وسبعين:

ذكر ضرب[1] الدنانير والدراهم الإسلامية

وفي هذه السنة ضَرَب عَبْدُ الملك بن مَرْوَان الدنانير والدراهم الإسلامية، وهو أوَّل مَنْ أحْدث ضَرْبَها في الإسلام؛ وكان سبب ذلك أنه كتبَ في صُدُور الكتبِ إلى الروم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ وذكر النبيَّ ﷺ مع التاريخ. فكتب إليه ملِكُ الروم: إنكم قد أحدثْتُم هذا فاتركوه، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذِكْرِ نبيكم ما تكرهون.

فعَظُمَ ذلك على عَبْدِ الملك، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية، فقال: حَرّمْ دَنانيرهم، واضرِبْ للناس سِكة فيها ذِكرُ الله تعالى. فضرب الدنانيرَ والدراهمَ ونقش عليها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ فكرِهَ الناس ذلك لمكانِ القرآن؛ لأن الجُنُبَ والحائضَ تمسّها، ثم ضربها الحجاج.

وقد قيل: إن مصعب بن الزبير ضربَ دَرَاهِمَ قليلة أيامَ أخيه عبد الله، ثم كُسرت بعد ذلك في أيام عبد الملك. والصحيحُ أنَّ عَبْد الملك أول مَنْ ضرب الدنانير والدراهم في الإسلام.

* * *

وفيها استعمل عبد الملك أبان بن عثمان على المدينة.

وفيها وُلد مرْوان بن محمد بن مَرْوان.

وحجّ بالناس في هذه السنة أبَان بن عثمان وهو أميرُ المدينة.

وكان على العراق الحجاج، وعلى خراسان أُمَيَّة بن عبْد الله، وعلى قضاء الكوفة شُريح، وعلى قضاء البصرة زُرارة بن أوفى.

(١) ضرب الدرهم ونحوه: سكه وطبعه.

سنة سبع وسبعين:

ذكر مقتل بكير بن وساج

وفي هذه السنة قَتَلَ أُمَيَّة بْنُ عَبْد الله أمير خراسان بُكَيْر بن وسَّاج، وسبب ذلك أن أُمية أَمَر بُكيرًا أن يتجهَّزَ لغَزْوِ ما وراء النَّهْرِ، فتجهَّزَ وأنفق نفقةً كَبيرةً، فقال بَحِير بن ورْقَاء لأُمية: إن صار بينك وبينه النَّهْرُ خلع الخليفة. فأرسل إليه أُميَّة يقول: أقِمْ لعلِّي أغْزُو فتكون معي، فغَضِب بُكَير، وكان قبل ذلك قد ولاه طَخَارستان، وأنفق نفقة عظيمة، فحذَّره بَحِير منه فمنعه منها، ثم إن أمية تجهَّزَ للغَزْو إلى بُخَارى وتجهَّزَ معه الناس، وفيهم بُكَيْر بن وَسَّاج، فلما بلغوا النَّهْر وأرادوا قَطْعَ قال أُمية لبُكَير: إني قد استخلفتُ ابني على خراسان وأخاف أنه لا يضبطها، لأنه غلام حَدث، فارجع إلى مرْو فاكفنيها، فقد ولَّيتكها، فقُمْ بأمْر ابني.

فانتخب بُكير فُرْسانًا كان قد عرفهم ووثق بهم، ورجع. ومضى أُميَّة إلى بُخَارى فقال عُقَاب الغُداني لبُكَير: إنَّا طلبْنَا أميرًا مِن قريش، فجاءنا أمِيرٌ يلعب بنا، يحوِّلُنا من سجن إلى سجن، وإني أرى أنْ نَحرِق هذه السفن، ونَمْضي إلى مَرْو، ونخلع أُمية ونُقِيم بمَرْو، نأْكلها إلى يوم مَّا، ووافقه الأحنف بن عبد الله العَنْبَري على هذا، فقال بُكير: أخاف أنْ يهلك هؤلاء الفرسان الذين معي. قال: إن هلك هؤلاء أنا آتيك مِنْ أهل مرْو بما شئت. قال: يهلك المسلمون. قال: إنما يكفيك أنْ يُنَادِي منادٍ: منْ أسلم رَفَعْنَا عنه الخراج، فيأْتيك خمسون ألفًا أسْمَعُ من هؤلاء وأطوع. قال: فيهلك أُميَّة ومنْ معه. قال: ولِمَ يهلكون ولهم عَددٌ وعُدَّة وَنَجدة وسلاح ظاهر، ليقاتِلُوا عن أنفسهم حتى بلغوا الصين.

فأحرَق بُكَيْر السفُنَ، ورجع إلى مَرْو، فحبس ابن أُميّة وخلع أُمية، وبلغ أُمية الخبر، فصالح أهل بخَارى على فِدْيةٍ قليلة، ورجع وأمر باتخَاذ السفن، وعبر، وذكر للناس إحسانَه إلى بُكَيْر مرةً بعد أُخرى، وأنه كافأه بالعِصْيان.

وسار إلى مَرْو، وأرسل شَمَّاس بن دِثَار في ثمانمائة، فسار بُكير إليهم، فانهزم شَمّاس، وأمر أصحابه ألاَّ يَقْتُلوا منهم أحدًا، فكانوا يأْخذون سِلاَحَهم ويطلقونهم. وقدم أُميَّةُ فتلقَّاه شماس، فقدم ثابت بن قُطبة فلَقِيَه بُكَيْر فأسَرَه، وفرَّقَ جَمْعه، ثم أطلقه ليَدِ كانت لثابت عنده. وأقبل أُميَّةُ وقاتله بُكَيْر فكان بينهم وقعات في أيام، فانكشف أصحابُ بُكير في بعضها، فاتبعه حُريث بن قُطبة حتى بلغ القَنْطَرة وناداه إلَى أين يا بُكَيْر! فرجع فضربه حُرَيث على رأسه فقطع المِغْفَر[1]، وعَضَّ السيفُ برأسه فقطع فصُرع، واحتمله أصحابُه فأدخلوه البلد.

---

(١) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

وكان أصحاب بُكير يغدون في الثياب المصبَّغة فيجلسون يتحدثون. وينادي مُناديهم مَنْ رمى بسهْمٍ رمَيْنا إليه برأسِ رجل مِنْ ولده وأهله، فلا يرميهم أحَد.

وخاف بكَيْر إن طَال الحصار أن يَخْذُلَه الناس، فطلب الصلح؛ وأحبَّ ذلك أيضًا أصحابُ أُميّة، فاصطلحوا على أنْ يقضِي عنه أُمية أربعمائة ألف، ويصل أصحابَه ويوليه أيَّ كُورِ خراسان شاء، ولا يسمع قَوْلَ بَحِير فيه، وإن رَابَه رَيْبٌ فهو آمنٌ أربعين يومًا.

ودخل أُمية مدينةَ مَرْو، ووفَّى لبُكَير، وعاد إلى ما كان مِن الكرامة، وأعطى أُمية عُقَابًا عشرين ألفًا، وكان أُمية سهلاً ليِّنًا سخِيًا، وكان مع ذلك ثقيلاً على أهل خُرَاسان، وكان فيه زهد.

وعزل أُمية بَحِيرًا عن شرطته وولاَّها عطاء بن أبي السائب، وطالب أُميَّةُ الناس بالخراج واشتدّ عليهم، فجلس بُكير في المسجد وعنده الناس، فذكروا شِدَّةَ أمية فذَمُّوه وبَحير، وضرار بن حصن، وعبد العزيز بن جارية بن قُدَامة في المسجد، فنقل بحِير ذلك إلى أُميّة فكذَّبه، فادَّعى شهادة هؤلاء، فشهد مُزَاحم بن أبي المُجشِّر السلمي أنه كان يَمْزَح، فتركه أُميّة، ثم إن بحِيرًا أتى أُميَّة وقال: والله إن بُكَيْرًا قد دعَاني إلى خَلْعِك، وقال: لولا مكانُك لقتلْتُ هذا القُرشي، وأكلْتُ خراسان. فلم يصدّقه أُمية، فاستشهد جماعةً ذَكر بُكَيْرٌ أنهم أعداؤُه. فقبض أُمية على بُكَيْر وعلى ابنَي أخيه: بدلٍ، وشَمَرْدل، ثم أمر بعْضَ الرؤساء بقتل بُكَيْر، فامتنعوا فأمر بَحِيرًا بقَتْلِهِ فقتَلَه، وقتل أُمية ابني أخي بُكير.

وحجّ بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان.

وفيها مات جابر بن عبد الله بن عمْرو الأنصاري.

سنة ثمان وسبعين:

في هذه السنة عزل عَبْدُ الملك بن مَرْوان أُميَّةَ بن عبد الله عن خراسان وسجِسْتَان؛ وضمهما إلى أعمال الحجاج، فاستعمل الحجاجُ المهلَّبَ بن أبي صُفْرَة على خراسان وعُبيد الله بن أبي بكرة على سجستان، فبعث المهلب ابنه حَبيبًا إلى خُرَاسان، فلما ودَّع الحجاج أعطاه بغْلَةً خَضْرَاء، فسار عليها وأصحابه على البريد، فوصل خُراسان في عشرين يومًا، فلما دخل باب مَرو لقيه حِمْلُ حَطَب، فنفرت البَغْلَةُ فعجبوا مِنْ نِفَارِها بعد ذلك التعب وشدَّة السير، ولم يعرض لأُمية ولا لعماله، وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلَّب في سنة تسع وسبعين.

وحجَّ بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان، وكان العمال مَنْ ذَكَرْنَا، وعلى قضاء الكوفة شُرَيْح، وعلى قضاء البَصْرَة موسى بن أَنس.

سنة تسع وسبعين:

في هذه السنة استعفى شُرَيح بن الحارث من القضاء فأعفاه الحجَّاج، واستعمل على القضاء أبَا بُرْدَة بن أبي موسى.

وحجّ بالناس أبان بن عثمان وهو أمير المدينة.

سنة ثمانين:

في هذه السنة حَجّ بالناس أبان بن عثمان، وفيها توفي أبو إدريس الخولاني، عبْد الله بن جعفر بن أبي طالب. وقيل سنة أربع وثمانين، وقيل سنة خمس. وقيل سنة ستّ. وقيل سنة تسعين. والله أعلم.

وفيها توفي محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو ابْنُ الحنفيَّة، ومات جماعةٌ من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

سنة إحدى وثمانين:

ذكر مقتل بحير بن ورقاء

في هذه السنة قتل بحهير بن وَرْقَاء الصُّرَيْمِي. وكان سبب قتله أنه لما قتل بُكَيْر بن وسّاج وكلاهما كان تميميًا ـ قال عثمان بن رجاء بن جابر أحد بني عَوْف بن سعد من الأبناء، والأبناء عدة بطون من تميم، يُحَرِّض بعض آل بُكَيْر من الأبناء على الطلب بثأره: [من الطويل]

لعَمْري لقد أغْضَيْتَ عَيْنًا على القَذَى ... وبِتَّ بَطينًا مِنْ رَحيقٍ مُرَوَّق[1]
وخَلَّيْتَ ثأرًا طُلَّ واخترت نومةً ... ومَنْ شربَ الصَّهْبَاء بالوتْرِ يُسْبَق[2]
فلو كنْتَ مِنْ عَوْف بن سَعد ذؤابةً ... تركت بَحِيرًا في دَم مُتَرَقْرِقِ[3]
فقل لبَحِيرٍ نَمْ ولا تَشَ ثائرًا ... ببَكْرٍ فعوفٌ أهلُ شَاءٍ حَبَلَّقِ[4]
دَع الضَّأنَ يومًا قد سُبِقْتُم بوِتْركم ... وصرتُم حديثًا بين غَرْبٍ ومشرِق

(١) البطين: الملآن؛ والمروق: المعجب. (٢) الصهباء: الخمر.
(٣) المترقرق: ما جرى جريًا سهلاً وتسلسل. (٤) الحبلق: صغار الغنم.

وهُبُّوا فلو أمْسَى بُكَيْر كعَهْدِهِ لغَاداهُمو زَحْفًا بجأْواء فَيْلَق[١]

وقال أيضًا: [من الطويل]

فلو كان بكرٌ بارِزًا في أَدَاتِه وذي العَرْش لم يُقْدِم عليه بحِيرُ
ففي الدهر إن أبْقَاني الدَّهْرُ مَطْلَب وفي اللّهِ طَلاَّب بذاك جدِيرُ

فبلغ بحيرًا أن رهْط بُكَير من الأبناءِ يتوعَّدونه، فقال: [من الطويل]

تَوعَّدَني الأبْنَاءُ جَهْلاً كأنما يَرَوْنَ فِنَائي مُقْفِرًا من بني كعبِ
رفعْتُ له كَفِّي بعَضْبٍ مُهَنَّد حُسامٍ كلون المِلْحِ ذي رَوْنَقٍ عَضْبِ[٢]

فتعاقد سبعة عشر من بني عَوْف على الطلب بدَمِ بُكَيْر، فخرج فَتًى منهم يقال له شَمرْدَل من البادِية حتى قدم خُراسان، فرأى بَحِيرًا واقفًا، فحمل عليه فطعَنَه فصَرَعه، وظنَّ أنه قتَله، وركض، فعثر به فرسُه فسقط عنه فقُتل. وخرج صَعْصَعة بن حرب العوفي من البادية، ومضى إلى سجستان، فجاور قرابةً لبَحيْر مدةً، وادّعى أنه من بني حنيفة من اليمامة، وأطال مُجالستَهم حتى أنِسُوا به، ثم قال لهم: إن لي بخراسان مِيراثًا فاكتُبوا لي إلى بَحِير كتابًا ليُعينني عَلَى حَقِّي. فكتبوا له، وسار فقدم على بَحِير فأخبره أنَّه من بني حَنِيفة وأنَّ له مالاً بسجستان وميراثًا بمَرْو، وقدم ليبيعه ويعود إلى اليَمامة. فأنزله بَحِير، وأمر له بنفَقَةٍ، ووعده المساعدة.

وكان بَحِير قد حَذِر، فلما قال له: إنه من بني حنيفة أمِنَه، وكان إذ ذاك في الغَزْو مع المهلب. فقال له: أُقيم معك حتى ترجَعَ إلى مَرْو، فأقام شهرًا يحضر معه باب المهلَّب، فجاء صعصعة يومًا وبَحير عند بابِ المهلب وعليه قميص ورِدَاء، فقعد خلفه، ودنا منه كأنه يكلِّمه، فوَجَأَه بخَنْجر معه في خاصِرَته، فغيَّبه في جَوْفه، ونادى يا لثارات بكير! فأُخِذَ وأُتِي به المهلب، فقال له: بؤسًا لك! ما أدرَكْتَ بثأرك، وقتلت نَفْسك، وما على بَحِير بأس! فقال: لقد طعنْتُه طعنةً لو قُسِّمَت بين الناس لماتوا. ولقد وجدت رِيح بطْنِهِ في يَدِي.

فحبسه المهلَّب، ومات بَحِير من الغدِ، فقال صعصعة: اصنعوا الآن ما شئتم، أليس قد خلَتْ خدور[٣] نساء بني عوف، وأدركت بثَأْرِي. والله لقد أمكنني منه ما صنعت خاليًا غير مرة، فكرهت أنْ أقتله سِرًّا.

---

(١) الجأواء: التي ضربت حمرتها إلى الكدرة. والكتيبة الجأواء: الكدراء اللون في حمرة. والفيلق: الكتيبة العظيمة من الجيش.

(٢) العضب: القاطع. ورونق السيف: ماؤه وصفاؤه وحسنه.

(٣) الخدر: ستر يمد للمرأة في ناحية البيت.

فقال المهلب: ما رأيْتُ رجلاً أسْخَى نفسًا بالموت مِنْ هذا، وأمَر بقَتْله، فقُتِل.

وقيل: إنه بعثه إلى بَحِير قبل أن يموتَ فقتله، وغضبت عوْف والأبناء وقالوا: علامَ قُتِل صاحِبُنا، وإنما أخذَ بثأره، فنازعتهم مُقَاعِس والبطون، وكلُّهم بطون من تميم، حتى خاف الناسُ أن يعظم الأمر، فقال أهْلُ الحِجَا[١]: احملوا دَمَ صعصعة، واجعلوا دَمَ بحِير [بواءً][٢] ببُكير، فودَوْا[٣] صعصعة، فقال رجل من الأبناء يمدح صعصعة: [من الطويل]

لِلّهِ دَرُّ فَتًى تجاوز هَمُّهُ ... دون العِرَاق مَفَاوزًا وبُحُورا[٤]

ما زالَ يُدْئِبُ نفسه ورِكابَه ... حتى تناول في الحُزُون بَحِيرا[٥]

ذكر خلاف عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث على الحجاج وما كان بينهما من الحروب

كان ابتداء خلافِهِ على الحجاج في هذه السنة، واستمرت الوقائع التي نذكرها بينهما إلى سنة ثلاث وثمانين، وقد رأينا أنْ نجمَع أخباره بجملتها في هذا الموضع، ولا نَقْطَعها بغيرها، ونميّز كل وَقْعَةٍ منها بتاريخها.

وكان سبب خلافِهِ أنَّ الحجاج لما بعثه في الجنود إلى بلاد رُتْبِيل في سنة ثمانين كما ذكرنا في الغزوات، وملك ما ملَك من حصون رُتْبِيل، واستولى على ما اسْتَوْلَى عليه من بلادِهِ، وأقام، وكتب إلى الحجاج يُعرِّفُه أنه رأى تَرْكَ التوغُّلِ في بلاد رُتْبِيل حتى يعرفوا طُرُقَها ويَجْبُوا خراجها.

فلما وردَ كتابه على الحجّاج كتب إليه: إنّ كتابَك كتابُ امرىء يحبُّ الهُدْنة، ويستريح إلى الموادعة، فامض إلى ما أمرتك من الوُغول في أرضهم، والهَدْم لحصونهم، وقَتْل مقاتلتهم، وسَبْي ذراريّهم، ثم أردفه كتابًا آخر بِنَحْو ذلك، وفيه:

أما بعد فمُرْ مَنْ قِبَلك من المسلمين فلْيَحْرثوا ويقيموا بها، فإنها دَارُهم حتى يَفْتَحَها اللّهُ عليهم.

---

(١) الحجا: العقل.
(٢) البواء: الكفؤ والنظير في القصاص.
(٣) ودى القاتل القتيل: أعطى وليه ديته.
(٤) المفاوز: جمع المفازة: وهي الصحراء.
(٥) الحزون: جمع الحزن، وهو من الأرض ما غلظ.

ثم كتب إليه كتابًا ثالثًا كذلك، ويقول: إن مضيت إلى ما أمرتك وإلاّ فأخوك إسحاق بن محمد أمِيرُ الناس. فدعا عبْدُ الرحمٰن الناسَ وقال لهم: أيها الناس، إنّي لكم ناصح ولِصَلاحكم مُحِبٌّ، ولكم في كل ما يُحيط به نفعكم ناظر، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي. ما رَضِيَه ذوو أحلامكم وأولو التجربةِ منكم، وكتبْت بذلك إلى أميرِكم الحجاج، فأتاني كتابه يعجّزني ويضعّفني ويأمُرُني بتعجيل الوغُول بكم في أرْضِ العدوّ، وهي البلادُ التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجُلٌ منكم أمْضِي إذا مضيْتُم، وآبي إذا أبيتم.

فثار إليه الناسُ وقالوا: بل، نَأْبَى على عدوّ الله، ولا نسمعُ له ولا نطيع.

فكان أول من تكلم أبو الطُّفَيْل عامر بن واثلة الكناني، وله صُحْبة، فقال ـ بعد حمد الله: أما بعْدُ فإنَّ الحجاج يرى بكم ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عَبْدك على الفَرَس، إن هلَك هلك، وإن نَجَا فلك. إنَّ الحجاج لا يُبَالي أن يخاطِرَ بكم فيُقحمكم بَلايا كثيرة، ويغْشَى بكم اللهوب(١) واللُّصُوب(٢)، فإن ظفرتم وغنِمتم أكَلَ البلاد وحازَ المال، وكان ذلك زيادة في سُلْطَانه؛ وإن ظفر عدوُّكم كُنْتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنَتَهم، ولا يُبْقي عليهم، اخلعوا عَدُوَّ اللّهِ الحجاج، وبَايِعُوا الأمير عبْد الرحمٰن، فإني أشهدكم أنّي أوَّلُ خالع.

فنادى الناس من كل جانب: فَعَلْنَا فَعَلْنَا، قد خلعنا عَدُوَّ اللّهِ.

وقام عبد المؤمن بن شَبث بن رِبْعي ثانيًا فتكلَّم، ونَدَب الناسَ إلى مُبَايعة عبد الرحمٰن، فبايعوه على خَلْع الحجاج ونَفْيه من العراق، ولم يذكر عَبْد الملك، فوثب الناسُ إلى عبد الرحمٰن فبايعوه على خَلْعِ الحجاج ونَفْيِه وعلى النُّصْرة له، فصالح عبد الرحمٰن رُتْبِيل على أنه إن ظهر فلا خراج على رُتْبِيل أبدًا، وإن هُزِم فأراده منعه.

ثم جعل عَبْدُ الرحمٰن على بُسْت(٣) عياضَ بن هميان الشَّيبَاني وعلى زَرَنْج(٤) عبد الله بن عامر التميمي، وعلى كِرْمَان(٥) خَرَشَة بن عمرو التميمي، ورجع إلى العراق، وجعل على مقدّمته عطية بن عَمْرو العنْبري.

---

(١) اللهوب: جمع لهب، وهو وجه من الجبل لا يمكن ارتقاؤه.

(٢) اللصب: مضيق الوادي، جمع لصوب.

(٣) بست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة.

(٤) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان.

(٥) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. . . (معجم البلدان لياقوت).

فلما بلغ فارس اجتمع الناسُ بعضهم إلى بعض، وقالوا: إذا خلَعْنَا الحجاجَ عامل عبد الملك فقد خلعنا عبْدَ الملك، فاجتمعوا إلى عبْدِ الرحمٰن، فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن أبجر بن تَيْم الله بن ثعلبة، قام فقال: أيها الناس، إني خلعت أبا ذِبَّان[1] كخلعي خاتمي، فخلعه الناسُ إلاّ قليلاً منهم، وبايعوا عبْدَ الرحمٰن. وكانت بيعته يبايعون على كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ، وعلى جهادِ أهل الضَّلاَلة، وخَلْعهم، وجهاد المحلِّين.

فلما بلغ الحجاج خَلْعُه كتبَ إلى عَبْدِ الملك بالخبر، ويسأله أن يعجِّل بعثة الجنود إليه. وسار الحجاج حتى بلغ البصرة.

ولما وصل كتابُ الحجاج إلى عبد الملك هالَه، ودعا خالد بن يزيد فأقرأه الكتاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من سجستان فلا تخَفْه، وإن كان من خراسان فإني أتخوَّف.

فجهَّز عبد الملك الجُنْدَ على الْبَرِيد، فكانوا يَصلون من مائة ومن خمسين وأقل من ذلك وأكثر، وسار الحجاج من البصْرة إلى تُسْتَر[2]، وقدم مقدمته إلى دُجَيْل، فلقوا خَيْلاً لعبد الرحمٰن، فانهزم أصحابُ الحجاج بعد قتالٍ، وذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين، وقتِل منهم جمع كثير.

فلما أتى خَبَرُ الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البَصْرَة وتبعَه أصحابُ عبد الرحمٰن، فقتلوا من أصحابِه وأصابوا بَعْض أثقالِهم. وأقبل الحجاج حتى نزل الزَّاوية[3]، وجمع عنده الطعام، وفرّق في الناس مائةَ وخمسين ألف درهم، وأقبل عبْدُ الرحمٰن حتى دخل البصْرَة فبايعَه جمِيعُ أهلها.

وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بَيْعَتِه أنَّ عُمّال الحجاج كتبوا إليه إنّ الخراجَ قد انكسر، وإن أهل الذمَّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار.

فكتب إلى البَصْرَة وغيرها: إنّ مَنْ كان له أصل في قَرْيَةٍ فليخرُج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجِزية، فجعلوا يبْكُون وينادُون: يا محمداه! يا محمداه! وجعل قُرّاء البصرة يبكون.

فلما قدم ابْنُ الأشعث إثر ذلك بايَعُوه على حرْبِ الحجاج، وخَلْع عبد الملك؛ وخَنْدَق الحجاجُ على نفسه، وخَنْدَق عبد الرحمٰن على البصْرَة، وكان دخوله البصرة في آخر ذي الحجة.

---

(١) أبو ذبان: كنية عبد الملك بن مروان. (٢) تستر: مدينة بخوزستان.

(٣) الزاوية: عدة مواضع، منها قرية بالموصل، وموضع قرب البصرة.

ذكر الحرب بين الحجاج وابن الأشعث وانهزام ابن الأشعث من البَصْرَة إلى الكوفة

وفي المحرم سنة اثنتين وثمانين اقتتل عَسْكَرُ الحجاج وعسكر ابن الأشعث قتالاً شديدًا، وكان بينهم عِدَّةُ وقعات، فلما كان آخر يَوْمٍ من المحرم اشتدَّ القتال، فانهزم أصحابُ الحجاج حتى انتهوا إليه، وقاتلوا على خَنادِقِهم، ثم تزاحفوا فتقوَّض أصحابُ الحجاج، فجثا على رُكْبَتَيْه، وقال: للّهِ دَرُّ مصعب! ما كان أكرمه حين نزل به ما نزَل، وعزم على أنه لا يفِر.

فحمل سفيان بن الأبرد على ميْمَنَة ابن الأشعث فهزمها، وانهزم أهْلُ العراق، وأقبلوا نحو الكوفة مع عَبْدِ الرحمٰن، وقُتل منهم خَلْقٌ كثير، منم: عقبة بن عبد الغافر الأزْدِي وجماعة من القرَّاء.

ولما بلغ ابْنُ الأشعث الكوفة تَبعه أهْلُ القوَّة وأصحابُ الخيل من البصرة، واجتمع منْ بَقي بالبصرة مع عبْد الرحمٰن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فبايعوه، فقاتل بهم الحجَّاج خَمْسَ ليال أشدَّ قتال آره الناسُ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ومعه طائفة من أهل البصرة، وهذه الوقعةُ تُسَمَّى وقْعَةَ الزَّاوِية.

وقَتَل الحجاجُ في هذا اليوم بعد الهزيمة أحدَ عشر ألفًا خدعهم بالأمان، أمر مُنَادِيًا فَنَادى: الأمان لفلان وفلان، سمَّى رجالاً، فقال العامَّة: قد أمن الناس، فحضروا عنده، فأمر بهم فقُتِلوا.

قال: وكان الحجَّاجُ عند مسيره من الكوفة إلى البَصْرة استعمل عليها عبْد الرحمٰن بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عامر الحضرمي حليف بني أُمية، فقصده مَطَر بن نَاجية اليَرْبُوعي، فتحصَّن منه ابن الحضرميّ في القَصْر، فوثب أهْلُ الكوفة مع مطَر، فأخرج ابن الحَضْرمي ومنْ معه مِنْ أهل الشامِ، وكانوا أربعةَ آلافٍ، واستولى مَطَر على القَصْر، واجتمع إليه الناس، ففرّق فيهم لكلٍّ إنسان مائتي درهم.

فلما وصل ابنُ الأشعث إلى الكوفة كان مَطَر بالقَصْر، فخرج أهْلُ الكوفة يستقبلونه، فدخل الكوفة، وقد سبق إليه هَمْدان فكانوا حوْله، فأتى القصر فمنعه مطَر بن ناجية ومَنْ معه من بني تميم، فأصعد عبد الرحمٰن الناس في السلاليم إلى القَصْر فأخذوه، وأتى عبد الرحمٰن بمطر فحبسه ثم أطلقه.

ذكر وقعة دير الجماجم[(١)]
وانهزام أصحاب ابْن الأشعث وعَوْد الحجاج إلى الكوفة

كانت وَقْعةُ دَيْر الجماجم في شعبان سنة اثنتين وثمانين، وقيل: كانت في سنة ثلاث وثمانين. والذي يقول؛ إنها في سنة ثلاث يقول: كان نزولهم بدَيْر الجَمَاجم لليلةٍ مضَتْ من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، والهزيمة لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة منها، فكانت مائة يوم وثلاثة أيام. والله أعلم.

وكان سبب هذه الوقْعة أنَّ الحجاجَ سار من البصْرةِ إلى الكوفةِ لقتال عبْد الرحمٰن بن الأشعث، ونزل دَيْر قُرَّة[(٢)]، وخرج عَبْدُ الرحمٰن من الكوفة فنزل دَيْر الجمَاجِم، واجتمع لعَبْدِ الرحمٰن أهْلُ الكوفة وأهلُ البَصْرة وأهلُ الثغورِ والمَسَالح والقراء، وكانوا مائة ألْفٍ ممن يأخذ العطاء ومعهم مِثلهم، وجاءت الحجاجَ أمْدَادُ الشام قبل نزوله بدَيْرِ قُرَّة، وخَنْدَق كل منهما على نفسه، وكان الناس يقتتلون كل يوم، ولا يزال أحَدُهما يُدْنِي خَنْدَقَه من الآخر.

فبعث عبْدُ الملك ابْنَه عَبْدَ الله وأخاه محمد بن مَرْوان ـ وكان محمد بأرْض الموصل ـ في جُنْدٍ كَثِيف إلى الحجاج، وأمرهما أن يَعْرِضا على أهْلِ العراق عَزْل الحجاج، وأن يُجْرِي عليهم أعطياتهم، كما يُجْرِي على أهل الشام، وأنْ ينْزِل عبد الرحمٰن بن الأشعث أي بلد شاء من العراق، فإذا نزل كان واليًا عليها ما دام حيًّا، وعبد الملك خليفة. فإنْ أجاب أهْلُ العراق إلى ذلك عَزَلاَ الحجاج عنهم، وصار محمدُ بْنُ مروان أمِير العراق، وإنْ أبى أهْلُ العراق ذلك فالحجاجُ أميرُ الجماعة ووالي القتال، ومحمد وعبد الله في طاعته، فلم يأْتِ الحجاج أمْرٌ قطّ كان أشدَّ عليه ولا أوْجَع لقَلْبِه منه، وخشي أنْ يقْبَلَ أهْلُ العراق عَزْله فيعزل عنهم، فكتب إلى عبْدِ الملك: واللّهِ لو أعطيْت أهْل العراق عزْلي لم يلبثوا إلاَّ قليلاً حتى يخالِفُوكَ ويَسِيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلاَّ جراءةً عليك، ألم تر ويبلغك وثوبُ أهل العراق مع الأشتر على عُثْمان بن عَفَّان وسؤالهم نَزْع سعِيد بن العاص، فلما نزعه لم تتمّ لهم السنة حتى سارُوا إلى عثمان فقتلوه؛ وإن الحديد بالحديدِ يُفْلَح.

---

(١) دير الجماجم: على سبعة فراسخ من الكوفة على طرف البر للسالك إلى البصرة.

(٢) دير قرة: بإزاء دير الجماجم مما يلي الكوفة. وقرة الذي نسب إليه رجل من لخم بناه على طرف من البر أيام المنذر بن ماء السماء. . . (معجم البلدان).

فأبى عَبْدُ الملك إلاَّ عرْض عَزْلِهِ على أهلِ العراق، وقال: عزْلُه أيْسَر من حَرْب أهلِ العراق، ويَحْقِن الدماء.

فخرج عبْد الله بن عبد الملك وقال: يا أهل العراق، أنا ابْن أميرِ المؤمنين، وهو يُعطيكم كذا وكذا.

وخرج محمد بن مرْوان، وقال: أنا رسول أمير المؤمنين، وهو يَعْرض عليكم كذا وكذا.

فقالوا: نَرْجع للعشيَّةِ. ورجعوا، واجتمعوا عند ابْن الأشعث، فقال لهم: قد أُعطيتم أمْرًا انْتِهَازُكم إياه اليوم فُرصة، وإنكم اليوم على النَّصف؛ فإن كانوا اعتدُّوا عليكم بيوم الزَّاوِية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُسْتَر، فاقْبَلُوا ما عرَض عليكم، وأنتم أعزَّاء أقوياء.

فوثبوا وقالوا: لا واللّهه لا نَقْبلُ. وأعادوا خَلْعَ عبد الملك ثانيًا؛ وكان أول مَنْ قام بخَلْعه بديْرِ الجماجم عبد الله بن ذؤاب السلمي وعمير بن تيحان، وكان اجتماعهم على خَلْعِه بالجماجم أجْمع من الخَلْع بفارس.

فقال عبْدُ الله ومحمدٌ للحجاج: شَأْنَك بعسْكرك وجُنْدك، واعْملْ برأْيك، فإنا قد أمِرْنَا أنْ نَسمع لك ونُطِيع، وكانا يسلمان عليه بالإمرة ويسلِّم عليهما بالإمرة.

قال: ولما اجتمع أهْلُ العراق على خَلْع عبد الملك قال ابنُ الأشعث: ألاَ إنَّ بني مروان يعيَّرُون بالزَّرْقاء، والله ما لهم نَسب أصحّ منه، إلاَّ أنّ بني العاص أعْلاج من أهْلِ صَفُّورِيَة[(١)]، فإن يكن هذا الأمْرُ في قريش فعَنِّي تقَوَّبت[(٢)] بيْضةُ قريش، وإنْ يك في العرب فأنا ابْنُ الأشعث، ومدّ بها صوْته حتى سمعه الناس.

وبرزُوا للقتال، فجعل الحجاجُ على ميْمنته عبد الرحمٰن بن سليم الكَلْبي، وعلى ميسرته عُمارة بن تميم اللخمي، وعلى خَيْلِهِ سُفيان بن الأبْرَد الكلبي، وعلى رجاله عبد الله بن حبيب الحكمي، وجعل ابْنُ الأشعث على ميمنته الحجاج بن جارية الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قرَّة التميمي، وعلى خيله عبد الرحمٰن بن العباس بن ربيعة الهاشمي، وعلى رجاله محمد بن سَعْد بن أبي وقاص، وعلى مُجَنَّبته عبد الله بن رِزَام الحارثي، وجعل على القرَّاء زَحْر بن قيس الجعفي، وفيهم سعِيد بن جُبير بن

---

(١) صفورية: كورة وبلد من نواحي الأردن بالشام قرب طبرية.

(٢) تقوبت البيضة: انفلقت عن فرخها.

هشام الشعبي، واسمُه عامر بن شراحيل، وأبو البَخْتَري[١] الطائي، وعبْد الرحمٰن بن أبي لَيْلَى.

وأخذوا في القتال في كل يوم، وأهل العراق تأْتيهم موادُّهم من الكوفةِ وسَوَادِها، وهم في خصْبٍ. وأهل الشام في ضيق شديد، قد غَلَتْ عندهم الأسعار، وفُقِد اللحم، حتى كأنهم في حصارٍ، وهم على ذلك يُغَادُون القتال ويراوحون.

فعبّأ الحجاج في بعض الأيام لكتيبة القُرَّاء ثلاث كتائب، وبعث عليها الجرّاح بن عبد الله الحكمي؛ فقام جبَلة بن زَحْر في القراء، وحرضهم على القتال، وذَمّ أهل الشام، وسمَّاهم المحلّين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحقَّ فلا يعرفونه، وعملوا بالعُدْوَان فلا ينكرونه في كلام كثير قاله. وقال أبو البَخْتَري: أيها الناسُ، قاتِلوهم على دِينكم ودُنْيَاكم.

وقال الشعبي: أيُها الناس قاتلوهم قاتلوهم ولا يأْخذكم حَرَج من قتالِهم: فوالله ما أعلم على بسيط الأرض أعْمل بظُلْم ولا أجوَر في حُكم منهم.

وقال سعِيد بن جُبير نحو ذلك.

وقال جَبَلة: احملوا حَمْلَةً صادقةً ولا تردّوا وجوهكم عنهم.

فحملوا عليهم فأزالوا الكتائب عن مواقفها وفَرَّقُوها وتقدَّمُوا حتى واقعوا صفَّهم، فأزالوه عن مكانه؛ ثم رجعوا فوجدوا جبَلَةَ بن زَحْر قتيلاً.

وكان سبب قَتْلِه أنَّ أصحابه لَمَّا حملوا على أهْلِ الشام وفرَّقوهم وقف لأصحابِه ليرْجِعُوا إليه، فافترقت فِرْقَة من أهل الشام، فنظروا إليه، فقال بعضُهم لبعض: احملوا عليه ما دام أصحابه مشاغيل بالقِتَال، فحملوا عليه فلم يَزُل، وحمل عليهم فقُتل؛ قتله الوليد بن نُحيْت الكلبي، وجِيء برأْسِه إلى الحجاج، فبشَّر أصحابه بقَتْله، فلما رجع أصحاب جبلَة ورأوْه قتيلاً سُقط في أيديهم، وظهر الفشل في القراء وناداهم أهل الشام: يا أعداء الله، قد هلكتم وقتل طاغيتكم - وقدم عليهم بِسْطام بن مصْقَلة بن هُبيْرة الشيباني، ففرحوا به، وقالوا: تقوم مقام جبلة، وكان قدومه مِن الريّ، فجعله عبْد الرحمٰن على ربيعة، فدخل عسْكَر الحجاج، فأخذ مِنْ نساءِ أصحابِه ثلاثين امرأةً فأطلقهن، فقال الحجاج: منعوا نساءَهم لو لم يردّوهنّ لسبيْتُ نساءهم إذا ظهرْتُ عليهم.

---

(١) أبو البختري: هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي المدني... كان فقيهًا أخباريًا ناسبًا جوادًا سريًا يحب المديح ويثيب عليه العطاء الجزيل... (وفيات الأعيان ٦: ٣٧).

قال: وخرج عبد الله بن رِزَام الحارثي يطلب المُبارزةَ، فخرج إليه رجل مِنْ عَسْكر الحجاج فقتله عبْد الله، فعل ذلك ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الرابع خرج فقالوا: جاء لا جاء الله به! فقال الحجاج للجرّاح: اخرُجْ إليه. فخرج، فقال له عبْد الله: ما جاء بك؟ ويْحك يا جرّاح! وكان له صديقًا. فقال: ابتُليتُ بك. قال: فهل لك في خير؟ قال الجرَّاح: ما هو؟ قال: أنْهزِم لكَ فترجع إلى الحجَّاج وقد أحسنت عنده وحمِدك، وأحْتَمِلُ أنا مقالةَ الناس في انهزامي حُبًّا لسلامتك، فإني لا أُحب قَتْل مثلك من قومي. قال: افعل.

فحمل الجرَّاحُ عليه فاستطرد له، وحمل على الجرَّاح بجدّ يريدُ قَتْلَه، فصاح بعَبْد الله غلامُه وقال: إنّ الرجل يُرِيد قَتْلَك. فعطف عبْدُ الله على الجرّاح فضربه بعمودٍ على رأسه فصرعه، وقال له: يا جراح، بئسما جزَيْتَني! أرَدْتُ بك العافية، وأرَدْتُ قَتْلي. انطلق فقد تركتُك للقرابة والعشيرة.

قال: ودام القتالُ بينهم بدَيْرِ الجماجم إلى آخر المدة التي ذكرناها، فلما كان يوم الهزيمة اقتتلوا أشدَّ قتالٍ، واستظهر أصحابُ عبْد الرحمٰن على أصحابِ الحجاج، واستعلَوْا عليهم، وهم آمِنون أنْ ينهزموا، فبنيما هم كذلك إذ حمل سُفْيان بن الأبْرد وهو على ميْمنَةِ الحجاج على الأبرد بن قُرّة التميمي، وهو على مَيْسرة ابن الأشعث، فانهزم الأبْردُ بالناس من غَيْر قتالٍ، فظنَّ الناس أنَّ الأبرد قد صُولِح على أن ينهزِمَ بالناس، فلما انهزم تقوّضَت الصفوف، وركب الناس بعضهم بعضًا، وصعد عبد الرحمٰن بن محمد المنبر ينادِي الناس: إليّ عبادَ الله؛ فاجتمع إليه جماعة، فثبت حتى دَنا أهلُ الشام، فقاتل مَنْ معه، ودخل أهْلُ الشامِ العَسْكر، فأتاه عبْدُ الله بن يزيد بن المغفل الأزدي، فقال له: انزل، فإني أخاف عليك أن تؤسر، ولعلك إذا انصرفت أن يجتمع لك جَمْعٌ يُهلكهم اللّهُ به.

فنزل وانهزم هو ومَنْ معه لا يَلوُون على شيء. ودخل الحجاجُ الكوفة، وعاد محمد بن مرْوان إلى الموصل، وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام، وأخذ الحجاج يُبَايع الناس، وكان لا يبايع أحدًا إلا قال له: أتشهد أنك كفرْتَ، فإن قال نعم بايعه، وإلا قتله. فأتاه رجل من خثعم كان قد اعتزل الناسَ جميعًا، فسأله عن حالِه فأخبره باعتزاله، فقال له: أنت متربّص، أتشهد أنك كافر! فقال: بئس الرجل أنا إذًا؛ أعْبُدُ الله ثمانين سنة ثم أشهد على نَفْسِي بالكُفْر.

قال: إذًا أقتلك، قال: وإن قتلتني، فقتله. فما بقي أحدٌ من أهل الشام والعراق إلاَّ رحمه.

وقتل كُميْل بن زياد وكان خصيصًا بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأُتِي بآخر بعده، فقال الحجاج: أرى رجلًا ما أظنُّه يَشْهَدُ على نَفْسِه بالكفر، فقال له الرجل: أتخدعني عن نفسي، أنا أكْفَرُ أهْلِ الأرض وأكْفَرُ من فِرْعون. فضحك الحجاج وخَلّى سبيله.

قال: وأقام الحجاجُ بالكوفةِ شَهْرًا، وأنزل أهْل الشام بيوتَ أهلِ الكوفة مع أهلِها، وهو أوّل مَنْ أنزل الجُند في بيوتِ غيرهم، واستمرت هذه القاعدة بعده.

قال: وكان الحجاج لما انهزم الناسُ أمر مناديًا فنادى: مَنْ لحق بقُتَيْبَة بن مسلم فهو أمَانُهُ. وكان قد ولاّه الرَّيَّ، فلحق به ناسٌ كثير منهم الشعبي، فذكره الحجاج يومًا بعد الفراغ من أمرِ ابن الأشعث، فقيل له: إنه لحق بقُتَيْبة بالرَّيّ؛ فكتب إلى قُتَيْبَة يأمرُه بإرساله.

قال الشعبي: فلما قدمْتُ على الحجاج لقيت يَزِيدَ بن أبي مسلم وكان صديقًا لي، فقال: اعتذر مهما استطعت. وأشار بمِثْل ذلك إخواني ونُصَحائي.

فلما دخلْتُ على الحجّاج رأيتُ غير ما ذكروا، فسلمت عليه بالإمْرة، وقلت: أيها الأمِير، إن الناسَ قد أمَرُوني أن أعتَذرَ بما يعلمُ اللّهُ أنه غَيْرُ الحق، وايْمُ اللّهِ لا أقولُ في هذا المقام إلاّ الحق: قد والله تَمَرَدْنا عليك وحَرَّضنا عليك، وجهدنا، فما كُنّا بالأقوياء الفَجَرَة ولا بالأتقياء البَرَرة، ولقد نصرك اللّهُ علينا، وأظفركَ بنا، فإنْ سَطَوْتَ فبذُنُوبِنَا، وما جرت إليه أيدينا، وإن عَفَوْتَ عنّا فبحلمك. وبعد فالحجةُ لك علينا.

فقال الحجاج: أنت واللّهُ أحبُّ إليّ قولاً ممن يدخلُ علينا يقْطُر سَيْفُه مِن دمائنا ثم يقول: ما قلْتُ ولا شَهدْتُ، قد أمنْتَ يا شَعْبِي. كيف وجَدْتَ الناس بَعْدَنا، فقلت: أصلح الله الأمير، اكتحلْتُ بَعْدَك السهر، واستوعرْتُ الجَنَابَ[1]، وفقدْتُ صالح الإخْوان، ولم أجِدْ من الأمير خَلَفًا. قال: انصرف يا شعبيّ. فانصرفت.

نعود إلى بقية أخبار عبد الرحمٰن بن الأشعث:

(١) الجناب: الناحية، أو فناء الدار أو المحلة.

ذكر الوقعة بمسكن[١]

قال: ولما انهزم عَبْدُ الرحمٰن من دَيْر الجماجم أتى البصْرَة، فاجتمع إليه مِن المنهزمين جَمْعٌ كثير، فاجتمعوا بمسْكن، وبايَعُوه على الموت، وخَنْدَق عبْدُ الرحمٰن على أصحابه، وجعل القتال من وجْه واحد، وقدم إليه خالد بن جرير بن عَبْد الله من خُرَاسان، وأتاه الحجاجُ، فاقتتلوا خمسة عشر يومًا من شعبان أشدَّ قِتَال، وبات الحجاجُ يحرِّضُ أصحابَه، فلما أصبحوا باكَرُوا القِتَال، واشتدَّت الحرْبُ، فانهزم ابن الأشْعث ومَنْ معه، وقُتل عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البَخْتَرِي الطائي، ومشى بِسْطام بن مَصْقلة بن هُبَيرة في أربعةِ آلاف فارس من شُجْعَانِ أهلِ الكوفةِ والبَصْرة، وكسَرُوا جُفُونَ[٢] سيوفِهم، وحملوا على أهلِ الشام، فكشفوهم مِرَارًا، فدعا الحجاجُ الرُّمَاةَ فَرموهم، وأحاط بهم الناسُ، فقتلوهم إلا قليلاً. ومضى ابْنُ الأشعث إلى سجستان.

وقد قيل في هزيمة ابن الأشعث بمَسْكِن أنه اجتمع هو والحجاج، وكان العَسْكَران بين دِجْلَةَ والسِّيب[٣] والكرخ[٤]، فاقتتلوا شهرًا أو دونه، فأتى شيخ فدلَّ الحجاجَ على طريقِ من وراء الكَرْخ في أَجَمة وضحضاح[٥] من الماء، فأرسل معهم أربعةَ آلاف، فسار بهم، ثم قاتل الحجاجُ أصحابَ عبد الرحمٰن، فانهزم الحجاجُ فعبر السِّيبَ، ورجع ابْنُ الأشعث إلى عَسْكَرِه آمنًا بعد أن نَهَبَ عسْكَر الحجاج، فأَمِنَ أصحابُهُ، وألقوا السلاحَ. فلما كان نصف الليل لم يشعروا إلاَّ وقد أخذهم السيفُ مِن تلك السريّة، فغَرِق من أصحاب عبْدِ الرحمٰن أكْثر مِمّنْ قُتِل، ورجع الحجاجُ على الصوت يقتل مَنْ وَجد، فكان عِدّة من قُتل أربعة آلاف، منهم عبد الله بن شداد بن الهاد، وبِسْطَامِ بن مصْقَلة، وعمر بن ضُبَيْعَة الرقاشي، وبِشْر بن المنذر بن الجَارُود، وغيرهم.

---

(١) مسكن: بالفتح ثم السكون، وكسر الكاف، ونون: هو موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجفون: جمع الجفن، وهو غمد السيف ونحوه.

(٣) السيب: نهر بالبصرة.

(٤) الكرخ: بالفتح ثم السكون، وخاء معجمة، وما أظنها عربية إنما هي قبطية.. وهي مواضع عديدة كلها في العراق... (معجم ياقوت).

(٥) ماء ضحضاح: قليل لا عمق فيه.

ذكر مسير عبد الرحمٰن إلى رتبيل وما كان من أمره وأمْرِ أصحابه

قال: ولما انهزم عَبْدُ الرحمٰن من مَسْكن سار إلى سجستان فأتْبعه الحجاج ابْنَه محمدًا وعُمارة بن تميم اللخمي، وعُمَارةُ على الجيش، فأدركه عُمارة بالسُّوس[١]، فقاتله ساعةً، ثم انهزم عبد الرحمٰن ومَنْ معه، وساروا حتى بَلَغُوا نيسابور، واجتمع إليه الأكراد، فقاتلهم عُمارة قتالاً شديدًا على العَقَبة، فجُرِح عمارة وكثيرٌ من أصحابه، فانهزم عُمارة وتَرَك لهم العَقَبة، وسار عَبْدُ الرحمٰن حتى أتى كِرْمان وعُمَارة يتْبعُه، فلما وصل عَبْد الرحمٰن إليها لقيه عاملُه وقد هَيَّأ لَه منزلاً، فنزل. ثم رحل إلى سِجستان فأتى زَرنْج[٢] وفيها عامِلُه فأغلق بابها. ومَنَع عبْد الرحمٰن من دخولها، فأقام عليها أيامًا ليفْتَحَها فلم يَصلْ إلى ذلك، فسار إلى بُسْت، وكان قد استعمل عليها عياض بن هِمْيان بن هشام السدوسي الشيباني. فاستقبله فأنزله. فلما غفل عنه أصحابُه قبض عليه عياض، وأوثقه، وأراد أن يأْمنَ به عند الحجاج.

وكان رُتْبيل مَلِكُ الترك قد سمع بمقدم عَبْدِ الرحمٰن، فسار إليه ليستقبلَه لما كان قد تقرَّر بينهما من العُهود والمواثيق كما تقدم.

فلما بلغه أنَّ عِيَاضًا قد قَبَضَ عليه نزل على بُسْت، وبعث إلى عِياض يتهدَّدُه بالقتل إن هو لم يُطْلقْه، فاستَأْمنه عِيَاض، وأطلق عبد الرحمٰن، ثم سار عبد الرحمٰن مع رُتْبِيل إلى بلادِه، فأنزله وأكرمه وعظَّمه، وكان ناسٌ كثير من أصحاب عبد الرحمٰن ممّن انهزم من الرؤُوس وقادة الجيوش الذين لم يقبلوا أمان الحجاج، ونصبُوا له العداوة في كل مَوْطِنٍ قد بعثوا يستَدْعُونَه ويُخْبرونه أنهم على قَصْد خراسان ليَقْوَوْا بمَنْ بها مِنْ عشائرهم، فأتاهم ابْنُ الأشعث. وكان عبْدُ الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبْدِ المطلب يُصَلِّي بهم إلى أنْ قدم ابْنُ الأشعث. فلما قدم عليهم سارُوا كلُّهم ففتحوا زَرنْج، وسار نحوهم عُمارة بن تميم في أهل الشام؛ فقال أصحابُ عبد الرحمٰن له: اخرُجْ بنا عن سجستان إلى خُرَاسان. فقال: إن بها يزيد بن المهلب، وهو رَجُلٌ شُجَاع، لا يترُك لكم سلطانَه، ولو دخلناها لقاتلنا وتتبعنا أهْلُ الشام، فيجتمع علينا أهْلُ خراسان وأهلُ الشام. فقالوا: لو دخلنا خراسان لكان من

(١) السوس: بلدة بما وراء النهر.

(٢) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان.

يتَّبعُنا أكثر مِمّنْ يقاتِلُنا. فسار معهم حتى بلغوا هَرَاة[1]، فهرب من أصحابه عُبيد الله بن عبد الرحمٰن بن سَمُرة القُرَشي في ألْفَيْن. فقال لم عبد الرحمٰن: إني كنْتُ في مأمن ومَلْجأ، فجاءَتْنِي كتبُكم أنْ أقبل، فإنّ أمْرنا واحد، فلعلنا نُقَاتِل عدوّنا. فأتيتكم فرأيتم أنْ أمضي إلى خراسان، وزعمتم أنكم مجتمعون لي ولا تتفرّقون، وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتُمْ، فاصْنَعُوا ما بَدا لكم، أما أنا فمُنْصرِفٌ إلى صاحبي الذي أتيت من عنده.

فتفرَّق منهم طائفةٌ وبقي معه طائفة، وبقي معظم العسكر مع عبد الرحمٰن بن العبّاس فبايعوه، فأتوا هَرَاة، فلقوا بها الرُّقَاد الأزدي فقتلوه، فسار إليهم يزيد بن المهلب.

وقيل: لما انهزم ابْنُ الأشعث من مَسْكِن أتى عُبيْدُ الله بن عبْد الرحمٰن بن سَمُرة هراة، وأتى عبد الرحمٰن بن عباس سجستان، فاجتمع معه فَل ابن الأشعث، فساروا إلى خُرَاسان في عشرين ألفًا، فنزل هرَاة، ولقي الرُّقَاد بن عبيد العَتَكي بها فقتلوه، فأرسل إليه يزيد بن المهلب وهو عامِلُ خراسان يقول: قد كان لك في البلاد مُتَّسع، مَنْ هو أهون مني شَوْكَة؛ فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان، فإني أكره قِتَالَك، وإن أردْتَ مالاً أرسلْتُ إليك. فأعاد الجوابَ: إنا ما نَزَلْنَا لمحاربةٍ ولا لمقام، ولكن أردْنَا أن نُريح، ثم نَرْحَل عنك، وليسَتْ بِنَا إلى المالِ حاجة.

ثم أقبل عبد الرحمٰن بن العباس على الجِبَاية، وبلغ ذلك يزيد ابن المهلب، فقال: مَنْ أراد أن يُريح ثم يرحل لم يَجْبِ الخراجَ، وسار نحوه، وأعاد مُراسلَتَه يقول: إنك قد أرَحْت وسمنْتَ وجبيْت الخراج، فلك ما جبَيْتَ وزيادة، فاخْرُجْ عني، فإني أكْرهُ قِتَالَك، فأبى إلاّ القتال.

وكاتَبَ جُنْدَ يزيد يَسْتَمِيلهم ويدعوهم إلى نَفْسه، فعلم يزيد بذلك، فقال: جلّ الأمْرُ عن العِتَاب، ثم تقدَّم إليه فقاتله، فلم يكن بينهما كَثِيرُ قِتَال، حتى تفرَّق أصحاب عَبْدِ الرحمٰن عنه، وصبر وصبَرَتْ معه طائفةٌ، ثم انهزموا.

وأمر يزيدُ أصحابَه بالكفِّ عن اتباعهم، وأخْذِ ما كان في عسكرهم، وأسَرُوا منهم أسْرى، منهم محمد بن سَعْد بن أبي وقَّاص، وعمر بن موسى بن عُبيد الله بن

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان... فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

معمر، وعيّاش بن الأسود بن عوْف الزُّهري، والهِلْقَام بن نُعَيْم بن القعقاع بن معبد بن زُرارة، وفَيروز بن حصين، وأبو العِلْج مولى عُبَيد الله بن معمر، وسوَّار بن مرْوان، وعبد الرحمٰن بن طلحة بن عبْد الله بن خلف الخُزاعي، وعبد الله بن فَضالة الزَّهْرَاني الأزدي، ولحق عبد الرحمٰن بن العباس بالسِّنْدِ، وأتى ابْن سَمُرة مَرْو، وانصرف يزيد بن المهلب إلى مَرْو، وبعث الأسْرَى إلى الحجاج مع سَبْرَة بن نجدة إلاَّ عَبد الرحمٰن بن طلحة فإنه أطْلَقه.

وان سبب إطلاقه أن حبيب بن المهلب قال لأخيه يزيد لما أراد أنْ يُسير الأسرى: بأي وَجْهِ تنظر إلى اليمانية، وقد بعثْت عبد الرحمٰن بن طلحة؟ فقال يزيد: إنه الحجاج، فلا تتعرض إليه. قال: وطِّنْ نَفْسَك على العَزْلِ، ولا ترسِلْ به، فإنَّ له عندنا يَدًا. قال: وما هي؟ قال: أُلزِم المهلَّب في مسجدِ الجماعة بمائة ألف، فأدَّاها طَلْحَةُ عنه، فأطلقه يزيد، ولم يرسل أيضًا عَبْد الله بن فَضالة لأنه من الأزد، وأرسل الباقين.

فلما قدموا على الحجاج أحضر فَيْروز، فقال له الحجاج: أبا عثمان، ما أَخْرَجَك مع هؤلاء؟ فواللّهِ ما لَحْمُك من لحومهم، ولا دمُك من دِمَائهم. قال: فِتْنَةٌ عَمَّت الناسَ. قال: اكتب لي أموالَك. قال: اكتب يا غلام ألف ألف وألفي ألف، فذكر مالاً كثيرًا. فقال الحجاج: أين هذه الأموال؟ فقال: عندي. قال: فأدِّها. قال: وأنا آمِنٌ على دَمِي؟ قال: والله لتؤدِّيَنَّها ثم لأقتلنَّك. قال: والله لا يجتمعُ دَمِي ومالي. فأمر به فنحي، ثم أحضر محمد بن سعد بن أبي وقاص، فقال: يا ظلَّ الشيطان، أعظم الناس تِيهًا وكبرًا، تَأْبَى بَيْعَةَ يزيد بن معاوية وتتشبه بالحُسين وابن عمر، ثم صِرْت مؤذنًا. وجعل يضربُ رأْسَه بعمود في يده حتى أدْمَاه، ثم أمر به فقُتل.

ثم دعا بعمر بن موسى، فقال: يا عَبْد المرأة، تقوم بالعمود على رأْس ابن الحائك ـ يعني ابن الأشعث وتشربُ معه في الحمام. فقال: أصلح اللّهُ الأمير، كانت فتنة شمِلَت البَرَّ والفاجر، فدخلنا فيها، وقد أمكنك اللّهُ منَّا، فإن عَفَوْتَ فبِفَضْلك وحلْمِك، وإن عاقَبْتَ عاقبْتَ ظلَمَةً مُذْنِبين.

فقال الحجاج: إنها شَمِلَت الفجّار وعُوفِي منها الأبرار، أمَّا اعترافُك فعسى أن ينفعك، فرجا الناس السلامة. ثم أمر به فقُتل.

ثم دعا بالهِلْقَام بن نُعيم، فقال له: احْسبْ أن ابْنَ الأشعث طلب ما طلب، ما الذي أمَّلْت أنْت معه! قال: أمَّلْتُ أنْ يملك فيولِّيني العراقَ كما ولاَّكَ عبْدُ الملك إياه،

فأمر به فقُتل. ودعا عبْد الله بن عامر[١]، فلما أتاه قال له: يا حجاج، لا رأت عينك الجنة إنْ أفلت ابْنُ المهلب بما صنع، قال: وما صنع؟ قال: [من البسيط]

لأنــه كــاس فــي إطــلاقِ أُســرتِــه وقـاد نَـحْـوكَ فـي أغْـلالـهـا مُـضَـرا[٢]
وقَـى بِـقَـومِـكَ وِرْد الـمـوتِ أُسْـرتَـه وكـان قـومُـكَ أدْنَـى عـنـده خَـطَـرا

فأطرق الحجاجُ، ووقرتْ في قلبه، وقال: ما أنْت وذاك؟ ثم أمر به فقُتِل.

ثم أمر بفَيْرُوز فعُذِّب، فلما أَحَسَّ بالموت قال للموكَّلِ بعذَابه: إنَّ الناس لا يشكُّون أني قد قُتِلت، ولي ودائعُ وأموالٌ عند الناس لا تؤدَّى إليكم أبدًا؛ فأظهرني للناس ليعلموا أني حي، فيؤدّوا المال.

فأعلم الحجاج بقوله، فقال: أظهروه. فأُخرج إلى بابِ المدينة، فصاح في الناس: منْ عرفني فقد عرفني، ومنْ أنكرني فأنا فيروز بن حُصين، إن لي عند أقوامٍ مالاً، فمنْ كان لي عنده شيء فهُو له، وهو منه في حِلّ، فلا يؤد أحَدًا دِرْهمًا، ليبلغَ الشاهِدُ الغائب، فأمر به الحجاج فقُتِل.

وأمر بقتل عمر بن قرّة الكندي، وكان شريفًا، وقتل أعشى[٣] همدان، وأتى بأسِيرين فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: إن لي عندك يدًا. قال: وما هي؟ قال: ذكر عَبْدُ الرحمٰن يومًا أُمكَ بسوءٍ فنهيته. قال: منْ يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر. فسأله الحجاج فصدقه. فقال له الحجاج: فلم لم تفعل كما فعل؟ قال: وينفعني الصِّدْقُ عندك؟ قال: نعم. قال: منعني البُغْضُ لك ولقومك. قال: خَلُّوا عن هذا لِفِعْله. وعن هذا لِصِدْقِه.

وأما ابن الأشعث فإنه سار إلى رُتبيل، فأقام عنده، فكتب إليه الحجاج: أن ابْعَثْه إليّ وإلاّ فوالذي لا إلَه غيره لأُوطِئَنَّ أرْضَك ألْفَ ألْفِ مقاتل، وكان مع عبد الرحمٰن رجل من تميم اسمه عُبيد بن سبيع التميمي، وكان رسولَه إلى رُتْبيل.

---

(١) هو عبد الله بن عامر الحضرمي الذي وجه به معاوية إلى البصرة ينعي قتل عثمان ويستنفر أهل البصرة على قتال علي كرّم الله وجهه.

(٢) الأغلال: جمع غل، وهو طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

(٣) أعشى همدان: من بني مالك بن زيد بن كهلان، وهو عبد الرحمٰن بن نظام بن جشم بن عمرو بن مالك بن جشم بن حاشد، وكان زوج أخت الشعبي، وكان الشعبي زوج أخته.. كان من القراء، ثم تركه وصار شاعرًا... (الاشتقاق لابن دريد).

فقال القاسم بن محمد بن الأشعث لأخيه عَبْد الرحمٰن: إني لا آمَن غدْرَ هذا التميمي فاقتله. فخافه عُبيد على نفسه، فوشَى به إلى رُتْبيل، وخَوّفه الحجاج، ودعاه إلى الغدْرِ بابْنِ الأشعث، وقال له: أنا آخُذُ لك من الحجاج عهْدًا ليكفَّنَّ عن أرضك سبْع سنين، على أن تدْفَع إليه عبْد الرحمٰن، فأجابه إلى ذلك.

فخرج عُبيد إلى عُمارة سِرًّا فذكر ذلك له، فكتب عُمارة إلى الحجاج بذلك، فأجابه إليه، وبعث رُتبيل برأسِ عبد الرحمٰن، وذلك في سنة خمس وثمانين.

وقيل: إن عبْد الرحمٰن كان قد أصابه السل فمات فقطَع رُتْبيل رأسه.

وقيل: إن رُتبيل لما صالح عُمارة بن تميم اللخمي عن ابن الأشعث كتب عُمارة إلى الحجاج بذلك، فأطلق له خَراج بلادِهِ عشْر سنين، فأرسل رُتْبيل إلى عبْدِ الرحمٰن وثلاثين من أهْلِ بيته، فحضروا عنده، فقيّدهم وأرسلهم إلى عُمارة، فألقى عبْدُ الرحمٰن نَفْسَه من سَطْح قصرِ فمات، فاحتزَّ رأْسه، وسيَّره إلى الحجاج، وسيَّره الحجاجُ إلى عبد الملك مع عرار بن عَمْرو بن شأْس، وكتب معه كتابًا، فجعل عبْدُ الملك يقْرأُ كتاب الحجاج، فإذا شكّ في شيء سأل عرارًا عنه فيخبره به، وكان عرار أسْوَدَ اللون، فعجِبَ عَبْدُ الملك من بيَانه وفصاحته مع سواده، وهو لا يعْرِفُه فتمثَّل: [من الطويل]

وإنّ عِـرارًا إن يـكـن غَـيْـر واضـحٍ فإني أُحبُّ الجوْنَ ذا المَنْطِقِ العمم[١]

فضحك عرار، فقال له عبْدُ الملك: ما لك تَضحك؟ فقال: أتعرف عِرارًا يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. قال: فأنا هو. فضَحِك عبْدُ الملك ثم قال: حظّ وافق حكمة. وأحسن جائزته، وسرَّحه.

وروى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ رفعه إلى العُتْبِي[٢] عن أبيه، قال: كتب الحجاجُ إلى عَبْدِ الملك كتابًا يصِفُ له فيه أهْلَ العراق وما ألْفَاهم عليه من الاختلافِ وما يكرهه منهم، وعَرَّفَه ما يحتاجون إليه مِنَ التقويم والتأْديب، ويستأْذِنُه أن يُودِعَ قلوبهم من الرهبة ما يخِفُّون به إلى الطاعة، ودعا رجُلاً مِنْ أصحابه كان يأْنس به،

---

(١) العم: الطويل.

(٢) العتبيّ: هو أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، المعروف بالعتبيّ، الشاعر البصري المشهور؛ كان أديبًا فاضلاً شاعرًا مجيدًا؛ وكان يروي الأخبار وأيام العرب... (وفيات الأعيان ٤: ٣٩٨).

فقال له: انطلِقْ بهذا الكتاب، ولا يَصِلَنَّ مِنْ يدكِ إلاَّ إلى يدِ أمير المؤمنين، فإذا قبضَه فتكلَّم عليه.

ففعل الرجل ذلك، فجعل عبد الملك كلَّما شكَّ في شيء يستفهمه، فوجده أبلغ من الكاتب، فقال عبد الملك:

وإن عرارًا إن يكن غير واضح... البيت.

فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، أتدري مَنْ يخاطبك؟ قال: لا. قال: أنا عرار، وهذا الشّعر لأبِي، وذلك أنَّ أُمي ماتت وأنا مُرْضع، فتزوَّج أبِي امرَأةً فكانت تُسيء ولايتي، فقال أبِي: [من الطويل]

فإن كُنْتِ منّي أوْ تُريدَيْنَ صُحْبتي فكُونِي له كالشَّمْسِ رُبَّت به الأدمْ(١)
وإلاَّ فسِيري سيْرَ راكبِ ناقَةٍ تيمَّم خَبْتًا ليس في سيره أمَم(٢)
أرادتْ عرارًا بالهَوان ومنْ يُرد عرارًا لعمْري بالهَوان لقد ظَلَم(٣)
وإنَّ عرارًا إنْ يكُنْ غيْر واضحٍ فإنِّي أُحِبُّ الجوْنَ ذَا المنْطَق العمم(٤)

ولما جيء بالرأس إلى عَبْدِ الملك أرسله إلى أخيه عبد العزيز بمصر، فقال بعض الشعراء: [من الكامل]

هيهات موضِعُ جُثَّةٍ مِنْ رأسها رأسٌ بمصر جُثَّةٌ بالرُّخَجِ(٥)

وقيل: إن هلاك عبد الرحمٰن كان في سنة أربع وثمانين. ولنرجع إلى تتمة حوادث السنين:

وفي سنة إحدى وثمانين: حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك.

سنة اثنتين وثمانين:

في هذه السنة كانت وفاة المغيرة بن المهلَّب بخُراسان في شهر رجَب منها، وكان أبوه قد استخلفه على عَمَلِه.

---

(١) الأدم: اشتداد السمرة.
(٢) الخبت: الوادي العميق، أو ما انخفض واتسع من الأرض.
(٣) العرار: نبات طيب الرائحة.
(٤) الجون: طرف القوس؛ أو النور أو الظلمة، أو الأبيض أو الأسود.
(٥) الرخج: كورة من أعمال سجستان، أو مدينة من نواحي كابل.

ذكر وفاة المهلب بن أبي صفرة
ووصيته لبَنِيه وولاية ابنه يزيد خُراسان

وفي هذه السنة تُوفي المهلَّب بن أبي صُفْرَة بمَرْو الروذ بالشَّوْصَة[١] وقيل بالشَّوْكة، وأوصى إلى حبيب ابنه فصلَّى عليه، وقال لبنيه: إني قد استخلفْتُ عليكم يزيد فلا تخالفُوه. فقال ابنه المفضّل: لو لم تقدمه لقدمناه، وأحضر ولده فأوصاهم، وأحضر سِهامًا محْزُومة فقال: أتكسِرُونها مجتمعةً؟ قالوا: لا. قال: أفتكسرونها متفرِّقةً؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة. ثم قال: أُوصيكم بتَقْوى اللّهِ، وصلة الرحم، فإنها تنسىء[٢] في الأجل وتثري المال، وتكثر العدد؛ وأنْهاكُم عن القَطِيعةِ؛ فإنها تُعْقِبُ النار والذلَّة والقلَّة، وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتَكُنْ فعالكم أفْضَل مِنْ مقالكم، واتَّقُوا الجواب وزلَّةَ اللسان، فإن الرجل يزلُّ قَدمُه فينتعش، ويزل لسانُه فيهلك، واعْرفُوا لمنْ يغْشاكم حقَّه، فكفى بِغُدوٍّ الرجل ورَوَاحه إليكم تذكرةً له، وآثِرُوا الجُودَ على البخل، وأحبُّوا العرب، واصنعوا المعروف؛ فإن الرجل من العرب تَعِدُه العِدةَ فيموت دونك، فكيف بالصنيعة عنده! وعليكم في الحرب بالتؤدة والمكيدة، فإنهما أنْفَعُ من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخَذَ الرجلُ بالحَزْم فظفِرَ قيل: أتى الأمْرَ من وجهه فظفر فمد، فإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرَّط ولا ضيَّع، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وآداب الصالحين، وإياكم وكَثْرَةَ الكلام في مجالسكم.

ومات رحمه الله فكتب ابنه يزيد إلى الحجاج يعلمه بوفاته، فأقره على خراسان.

وفيها عزل عَبْدُ الملك أبان بن عثمان عن المدينة في جُمادى الآخرة، واستعمل عليها هشام بن إسماعيل المخزومي.

وحجَّ بالناس أبَان بن عثمان.

سنة ثلاث وثمانين:

ذكر خبر عمر بن أبي الصلت
وخَلْعه الحجاج بالريّ وما كان من أمْره

قال: لما ظفر الحجاجُ بابْنِ الأشعث لحق خَلْقٌ كثير من المنهزمين بعُمَر بن أبي

---

(١) الشوصة: وجع في البطن أو ريح تعتقب في الأضلاع، أو ورم في حجاب البطن من داخل.

(٢) النسيء: التأجيل أو التأخير.

الصَّلت، وكان قد غلب على الريّ في تلك الفتنة، فلما اجتمعوا بالرَّيِّ أرادوا أن يحظوا عند الحجاج بأمْرٍ يَمْحُون به عن أنفسهم عَثْرَة الجماجم، فأشاروا على عُمَر بخَلْع الحجاج وقُتَيْبة، فامتنع، فوضعوا عليه أباه؛ أبا الصَّلت، وكان به بارًّا، فأشار بذلك عليه وألْزَمَهُ به، وقال: يا بني، إذا سار هؤلاء تحت لوائك لا أُبالي أنْ تُقْتل غدًا. ففعل. فلما قارب قُتَيْبَة الرَّيَّ استعدّ لقتالِه، فالتقيا، وتقاتلوا، فغَدَر أصحاب عُمر به وأكثرُهُمْ من تميم، فانهزم ولحق بطبرستان، فآواه الإصْبَهْذ[1] وأكْرَمه وأحسن نزله، فقال عُمر لأبيه: إنك أمَرْتني بخَلْع الحجاج وقُتَيْبَة فأطَعْتُك وكان خلاف رَأيي، ولم أحمد رَأيَك، وقد نزلنا بهذا الإصْبَهذ فدَعْنِي حتى أثب إليه فأقتله. وأجلس على مَمْلَكته، فقد علمت الأعَاجم أنّي أشْرفُ منه. فقال أبوه: ما كنت لأفعل هذا برجُلٍ أوَانا وأكْرَمَنا وأنْزَلنا. فقال عمر: أنْتَ أعلم، وسترى.

ودخل قُتَيْبَة الري، وكتب إلى الحجاج بانهزام عُمَر إلى طبرستان. فكتب الحجاج إلى الإصْبَهْذ أنِ ابعث بهم أو برؤوسهم، وإلا فقد بَرِئَتْ منك الذمَّةُ، فصنع لهم الإصْبَهْذ طعامًا وأحضرهم، فقتل عمر، وبعث أبَاه أسِيرًا. وقيل: قتلهم وبعث برؤوسهم. والله أعلم.

ذكر بناء مدينة واسط[2]

وفيها بَنَى الحجاج مدينة واسط، وسبَبُ ذلك أنَّه ضربَ البَعْثَ على أهل الكوفة إلى خُرَاسان وعَسْكر بحمَّام عُمر، وكان فتًى من أهل الكوفة حديثَ عهد بعُرْس بابنة عمٍّ له، فانصرف مِنَ العسكر إلى ابنة عمه، فطُرق عليه الباب طَرْقًا شديدًا، فإذا سكرانُ من أهل الشام، فقالت المرأة لبَعْلِها: لقد لقينا من هذا الشامي شرًّا يفعَلُ بنا كلَّ ليلة ما ترى - يُريد المكروه، وقد شكَوْتُه إلى مشيخة أصحابِه. فقال: ائذني له، فأذِنَتْ له. فلما دخل قَتله زَوْجُها.

فلما أذَّن الفَجْرُ خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه: إذا صلّيْت الفَجْر فابعثي إلى الشاميين ليأخذوا صاحِبَهُم، فإذا أحضروك إلى الحجاج فاصْدُقِيه الخَبَرَ على وجْهه، ففعلَتْ، وأُحضرت إلى الحجاج، فأخبرته فصدَّقها، وقال للشاميين: خُذُوا صاحِبَكم

(١) إصبهذ: الأزهري في الخماسي: إصبهذ: اسم أعجمي. . . (اللسان مادة أذذ).

(٢) واسط: في عدة مواضع: أهمها واسط الحجاج وأعظمها وأشهرها، وهي متوسطة بين البصرة والكوفة لأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا. . . (معجم البلدان).

لا قَوَد له ولا عَقْل[1]، فإنه قَبِيل الله إلى النار. ثم نادى منادٍ: لا ينزلنَّ أحَدٌ على أحَدٍ، وبعث روّادًا يرتادُونَ له مَنْزِلاً، وأقبل حتى نزل بموضع واسط، وإذا راهبٌ قد أقْبَل على حمارٍ، فلما كان بموضع واسط بَال الحِمارُ، فنزل الراهبُ فاحتفر ذلك البَوْلَ ورماه في دِجْلة والحجاجُ ينظرُ إليه، فاستحضره وقال له: ما حَمَلَك على ما صنَعْت؟ قال: نَجِد في كتبنا أنه يُبْنَى في هذا الموضع مسجد يُعْبَدُ الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحِّد الله.

فاختطّ الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد في ذلك الموضع.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل.

سنة أربع وثمانين:

في هذه السنة قتل الحجاج أيوب ابن القِرِّيَّة، وكان مع ابْن الأشعث، فلما هُزِم التحق أيّوب بحوشب بن يزيد عامل الحجاج على الكوفةِ، فاستحضره الحجاج وقتله.

وحجَّ بالناس هشام بن إسماعيل.

سنة خمس وثمانين:

ذكر عزل يزيد بن المهلب عن خراسان وولاية أخيه المفضل

وفي هذه السنة عزَل الحجاجُ يزيد بن المهلَّب عن خُرَاسان، وكان سبب عزْلِه أنَّ الحجاج وفد إلى عبد الملك فمرَّ في طريقه براهبٍ، فقيل له: إنّ عنده عِلْمًا، فأحضره الحجاجُ، وسأله: هل تَجِدُون في كتُبكم ما أنتم فيه ونحن؟ قال: نعم. قال: فَمُسمًّى أو موصوفًا؟ قال: كلُّ ذلك نجده موصوفًا بغير اسم ومُسمًّى بغير صفةٍ. قال: فما تَجِدُون صفةَ أمير المؤمنين؟ قال: نجده في زمانِنا ملك أفرع منْ يقم لسبيله يُصْرَعْ. قال: ثم مَنْ؟ قال: اسم رجل يقال له الوليد، ثم رجل اسمه اسم نَبيّ يُفْتَحُ به على الناس. قال: أتعرفني؟ قال: قد أُخْبِرت بك. قال: أفتعلم مآلي؟ قال: نعم. قال: أفتعلم مَنْ يَلِي بَعْدي؟ قال: نعم، رجل يقال له يزيد، قال: أفتعرف صِفَته؟ قال: يَغْدر غَدْرة، لا أعرِف غير هذا.

---

(١) العقل: الدية.

فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب، ثم سار وهو وَجِل من قول الراهب. فلما عاد كتب إلى عَبْد الملك يذمُّ يزيد وآل المهلب، ويخبره أنهم زُبَيْرية.

فكتب إليه عبْدُ الملك: إني أرى طاعَتَهم لآل الزبير نَقْصًا لآل المهلب؛ بل وفاؤُهم لهم يدْعُوهم إلى الوَفَاء لي.

فكتب إليه الحجاج يخوِّفُه غَدْره.

فكتب إليه: إنك قد أكثَرْتَ في يزيد وآل المهلب فسمِّ رجُلاً يصلُح لخراسان. فسمَّى له قُتَيْبَة بن مسلم، فكتب إليه أنْ وَلِّه. فكرِهَ الحجاجُ أن يكتب إليه بعزْله، فكتب إليه يأْمره أن يستخلف أخاه المفضّل ويُقْبِلَ إليه.

فاستشار يزيدُ حُضَين بن المنذر الرَقَاشي: فقال له: أقِمْ واعْتَلّ، واكتب إلى أمير المؤمنين ليقرّك، فإنه حسَنُ الرَّأْي فيك.

فقال له يزيد: نحن أهلٌ قد بُورِكَ لنا في الطاعة، وأنا أكرَهُ الخِلاَفَ. وأخذ يتجهزُ فأبطأ.

فكتب الحجاج إلى المفضّل: إني قد ولَّيْتُك خُرَاسَان، فجعل المفضل يستحثُّ يزيد، فقال له يزيد: إنَّ الحجاج لا يقرُّك بعْدِي، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافةُ أنْ أمتنِعَ عليه، وستعلم.

وخرج يزيد في شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين، وأقرَّ الحجاجُ أخاه المفضّل تسعة أشهر، ثم عزله، واستعمل قُتَيْبة على ما نذكره، وسار يزيد بن المهلب فكان لا يمرُّ ببلد إلاَّ فرش أهلُها الرياحين.

ذكر أخبار موسى بن عبد الله بن خازم واستيلائه على تِرْمِذ[1] وما كان من حروبه مع العرَب والترك وخَبَر مَقْتَله

كان موسى بنُ عَبْد الله قد استولى على تِرمذ، وأخرج تِرْمِذ شاه عنها، وسببُ ذلك أن أباه عبد الله لما قَتل مَنْ قَتَل مِنْ بني تميم بخراسان كما تقدَّم ذِكْرُ ذلك في أثناء أخبار عَبْدِ الله بن الزُّبير تَفَرَّق عنه أكثَرُ مَنْ كان مَعه مِنْهم، فخرج إلى نيسابور، وخاف بني تميم على ثَقَلِهِ[2] بمَرْو، فقال لابنه موسى: خُذْ ثَقَلي واقطع نهْرَ بَلْخ حتى تَلْتَجِىء إلى بَعْض الملوك أو إلى حِصْنٍ تكون فيه.

(١) ترمذ: هي مدينة من أمهات المدن المشهورة راكبة على جيحون شرقية.
(٢) الثقل: المتاع؛ أو الشيء النفيس الخطير.

فرحل موسى عن مَرْو في عشرين ومائتي فارس، واجتمع إليه تتمةُ أربعمائة، وانضوى إليه قوم من بني سُليم، فأتى زُمّ[١]، فقاتله أهلُها، فظفر بهم، وأصاب مالاً، وقطع النهر. فأتى بُخارى فسأل صاحبَها أنْ يَلْجأ إليه، فأبى وخافه. وقال: رجل فاتك فلا آمنه، ووصلَه، وسار فلم يَأت ملكًا يَلْجَأُ إليه إلاّ كره مقامه عنده.

فأتى سمرقند[٢]، فأكرمه ملكها طَرْخُون وأذن له في المقام بها، فأقام بها ما شاء الله. وكان لأهل الصُغْد مائدة تُوضع في كل عام مرةً، عليها خبز ولحم وخَلّ وإبريق شَرَاب، يجعلون ذلك لفارسِ الصُغد فلا يَقْرَبُه غيره، فإن أكلَ منه بارزَهُ الفارس، فأيّهما قَتَلَ صاحبه كانت المائدةُ له، وكان الفارس المشار إليه، فرآها رجلٌ من أصحاب موسى، فقال: ما هذه؟ فأُخبر، فأكَلَ ما عليها. وجاء الفارسُ مُغْضَبًا، فقال: يا أعرابي، بارِزْني، فبارزَه فقتلَه صاحبُ موسى، فقال ملك الصُغد: أنْزَلْتُكم وأكرمْتُكم فقتلْتُم فارسي، فلولا أني أمنتك وأصحابك لقتلتك، اخرجوا عَنْ بَلَدي.

فخرجوا، فأتى موسى كشّ[٣]، فَضَعُف صاحبُها عنه، فاستنصر طَرْخُون فأتاه، فقاتله موسى وقد اجتمع معه سبعمائة فارس يومًا حتى أمْسوا وتحاجَزُوا، ثم اتفقوا أن يرْتَحِل موسى عن كشّ؛ فسار فأتى تِرْمِذ وبها حصْنٌ يُشْرِفُ على جانب النهر، فنزل موسى خارج الحصن وسأل ترمذ شاه أن يُدْخله الحِصْنَ فأبى، فأهدى له موسى ولاَطَفه حتى أنس به، وصارت بينهما مودَّة، وتصيَّد معه، وصنَع صاحبُ تِرْمِذ طعامًا، وأحضر موسى ليأْكل معه، وشرط ألاّ يحضر إلاّ في مائة من أصحابه، فاختار موسى مائة منهم، فدخلوا الحِصْنَ وأكلوا، فلما فرغوا قال له ترمذ شاه: اخرج. قال: لا أخْرُج حتى يكونَ الحِصْنُ بيْتِي أوْ قَبْرِي، وقاتلهم فقَتَلَ منهم عدّةً وهرب الباقون، واستولى موسى عليها، وأخْرَج ترمذ شاه منها، ولم يعْرِضْ له، ولا لأصحابه.

فأتوا التُرْكَ يستنصرونَهُمْ على موسى، فلم يَنْصروهم، وقالوا: لا نقاتل هؤلاء.

وأقام موسى بتِرْمِذ، وأتاه جمْعٌ من أصحاب أبيه فقَوِي بهم، فكان يُغير على ما حَوْله.

---

(١) زمّ: قيل: هي بئر لبني سعد؛ وقيل: هي ماء لبني عجل فيما بين أداني طريق الكوفة إلى مكة والبصرة.

(٢) سمرقند: بفتح أوله وثانيه. . . : هو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه. . . (معجم البلدان).

(٣) كشّ: بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على جبل.

وولي بُكَير بن وسَّاج خراسان فلم يعرض له، ثم قدم أُمَيّة، فسار يُرِيدُه؛ فخالفه بُكير، فرجع على ما تقدم، ثم وجَّه أُميّة رجلاً من خُزَاعة في جَمْع كثير لقِتَالِ موسى، فجاء إلى تِرْمِذ وحصره، فعاد أهْلُ تِرْمِذ إلى الترك، واستنصروهم وأعلموهم أنه قد غَزَاه قَوْمٌ من العَرَب وحصَرُوه، فسارت التُّرْك في جمْعٍ كثير إلى الخزاعي فأطاف بموسى العرَبُ والترك، فكان يقاتِلُ الخزاعي أول النهار والتُّرك آخر النهار، فقاتلهم شَهْرَين أو ثلاثة.

ثم أراد أن يُبيّت[1] الخزاعي، فقال له عمرو بن خالد بن حُصَيْن الكِلاَبِي: بَيِّت العجم، فإنَّ العرب أشد حَذَرًا وأجْرَأُ على الليل، فوافقه.

وأقام حتى ذهب ثلث الليل، وخرج في أربعمائة، وقال لعمْرو بن خالد: اخرج بَعْدَنا أنت ومن معك منا قريبًا، فإذا سمعْتُم تَكْبِيرنا فكبِّرُوا.

ثم سار حتى ارتفع فَوْقَ عسكر التركِ ورجع إليهم، وجعل أصحابه أرباعًا، وأقبل إليهم، فلما رآهم أصحابُ الأرْصَاد قالوا: مَنْ أنتم؟ قالوا: عابِرُو سبيل. فلما جاوزُوا الرصد حملوا على التُّرْك وكبَّروا فلم يشْعُر الترك إلاَّ بوَقْع السيوف فيهم، فثاروا يَقْتلُ بعضهم بعضًا وولَّوا. فحوى موسى ومنْ معه عَسْكَرهم، وأصابوا سِلاَحًا كثيرًا ومالاً، وأُصيب من أصحابِ موسى ستة عشر رجلاً، وأصبح الخُزَاعي وأصحابُه وقد كسرهم ذلك، وخافُوا مِثْلَها، فقال عَمْرو بن خالد لموسى: إنَّا لا نظْفَرُ إلاَّ بمكيدة، ولهؤلاء أمْدَادٌ تأْتيهم، فدَعْنِي آتِه لَعلِّي أُصِيبُ فُرْصَة فأقتل الخزاعي، فاضربني. فقال موسى: تتعجَّل الضَّرْب، وتتعرَّض للقتل؟ قال: أما التعرضُ للقَتْل فأنا كل يوم متعرِّض له، وأما الضَّرْب فما أيْسره في حُبِّ ما أُرِيد. فضربه موسى خمسين سَوْطًا، فخرج حتى أتى عَسْكر الخزاعي مستَأْمِنًا، وقال: أنا رَجلٌ من أهل اليمن كنْتُ مع عَبْد الله بن خازم، فلما قُتِل أتيتُ ابْنَه فكنْتُ معه، وإنه اتهمني وقال: قد تعصَّبْت لعَدُوِّنَا، وأنْتَ عيْنٌ له، ولم آمن القَتْلَ، فهربْتُ منه.

فأمَّنَهُ الخُزَاعِيّ، وأقام معه، فدخل يومًا فلم يرَ عنده أحدًا ولا معه سلاحًا، فقال له كالناصح: أصلح اللّهُ الأمير، إنَّ مثلك في مِثْل هذا الحال لا ينبغي أن يكونَ بغير سِلاَح. قال: إن معي سلاحًا، ورفع طَرف فراشِه، فإذا سيف مُنْتَضى، فأخذه عَمرو فضرب به الخُزاعي حتى قتله، وخرج فركب فَرَسَه وأتى موسى.

---

(١) بيّت العمل ليلاً: دبّره؛ وبيّت القوم: أوقع بهم ليلاً بغتة وهو المراد هنا.

وتَفَرَّق ذلك الجَيْشُ، وأتى بَعْضُهم موسى مستأْمِنًا فأمّنه، ولم يوجّه إليه أُمية أحدًا.

وعزل أُمية، وقدم المهلَّب أميرًا، فلم يعْرِضْ لموسى، وقال لبنيه: إياكم وموسى، فإنكم لا تزالون وُلاَةَ خراسان ما دام هذا الثَّطُّ(١) بمكانه، فإن قُتل فأول طالع عليكم أمِير خراسان مِنْ قَيْس.

فلما مات المهلَّب وولي يزيد لم يعرض إليه أيضًا، وكان المهلب قد ضرب حُرَيْث بن قُطْبة الخزاعي، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى، فلما ولي يزيد بن المهلَّب أخذ أموالَهما، وقتل أخاهما لأُمهما الحارث بن مُنْقذ، فخرج ثابت إلى طرخون، فشكا إليه ما صنع به يزيد، وكان ثابت محبوبًا إلى الترك بَعيد الصوت فيهم؛ فغضب له طَرْخون، وجمع له نَيْزَك والسَّبَل(٢) وأهْل بخارى والصَّغانيان، فقدمُوا مع ثابت إلى موسى، واجتمع لموسى أيضًا فَلُّ(٣) عبد الرحمٰن بن العباس من هَرَاة وفلُّ عبد الرحمٰن بن الأشعث مِنَ العراق، ومِنْ ناحية كابل(٤)، وقوم من بني تميم ممن كان يقاتل ابن خازم في الفتنة من أهل خراسان، فاجتمع معه ثمانية آلاف.

فقال له ثابت وحُريث: سِرْ بِنَا حتى نقطَعَ النهر ونُخْرِج يزيد عن خراسان ونولّيك.

فهمَّ أن يفعل، فقال له أصحابه: إنْ أخرجت يزيد عن خُراسان تولَّى ثابت وأخوه خراسان وغَلَبا عليها، فامتنع من المسير، وقال لثابت وحُريث: إنْ أخرجنا يزيد قدِم عاملٌ لعبد الملك، ولكنا نُخرج عُمَّال يزيد من وراء النهر، وتكون هذه الناحية لنا؛ فأخْرَجوا عمالَه، وجَبَوا الأمْوال، وقَوِي أمْرُهم، وانصرف طَرْخون ومنْ معه، واستبدَّ ثابت وحُرَيْث بتدبير الأمر، وليس لموسى إلا اسم الإمرة. فقيل لموسى: اقتل ثابتًا وحُريثًا، واستَقِلّ بالأمر، فإنه ليس لك من الأمر شيء. وألحّ أصحابه عليه في ذلك حتى هَمَّ بِقتْلهما.

---

(١) الثط: الثقيل البطن، والقليل شعر اللحية والحاجبين.

(٢) السبل: موضع في بلاد الرباب قرب اليمامة.

(٣) الفلّ: المنهزمون.

(٤) كابل: أرضها بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور... وكابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... وقيل: كابل من ثغور طخارستان، ولها من المدن واذان، وخواش، وخشك، وجزه... (معجم البلدان لياقوت).

فبينما هم في ذلك إذ خرج عليهم الهيَاطلة(١) والتبَّت(٢) والترك في سبعين ألف مقاتل غَيْر الأتباع ومَنْ ليس هو كامِل السلاح.

فخرج موسى وقاتلَهم فيمنْ معه، ووقف مَلِكُ الترك على تَلٍّ في عشرةِ آلاف في أكْمَلِ عُدَّةٍ، وقد اشتدّ القِتَالُ، فقال موسى لأصحابه: إن أزَلْتُم هؤلاء فليس الباقون بشيء، فقصدهم حُرَيْث بن قُطْبَة وقاتلهم حتى أزالهم عن التلِّ، ورُمِي حُرَيث بنُشَّابة في جَبْهته، وتحاجزُوا وَبَيَّتَهم موسى، فحمل أخوه خازم بن عبْد الله بن خازم حتى وصل إلى شمعةِ مَلِكهم، فوجأ رجُلاً منهم بقَبِيعةِ(٣) سيْفه، فطعن فرسَه فاحتمله الفرس فألقاه في نهر بَلْخ فغرق وقُتِل من التُّرْك خَلْقٌ كثير، ونجا منْ نجا منهم بِشَرٍّ، ومات حُرَيْث بيومين ورجع موسى وحمل معه الرؤُوس، فبنى منها جَوْسَقَيْن(٤)، وقال أصحاب موسى: قد كُفينا أمر حُريث فاكْفِنَا أمْر ثابت، فأبى، وبلغ ثابتًا بعْضُ ذلك فدسَّ محمد بن عبْد الله الخُزَاعي على موسى، وقال: إياك أن تتكلم بالعربية، فإن سألوك فقل: أنا من سبْي البامِيان(٥)، ففعل ذلك، وتلطَّف حتى اتصل بموسى وصار يخدمه وينقل إلى ثابت خبَرهُم، فحذِر ثابت. وألَّبَ القوم على موسى، فقال لهم ليلةً: قد أكثرتُم عليّ؛ وفيم تريدون هلاككم، فعلى أيِّ وَجْهٍ تقتلونه ولا أغدر به. فقال له أخوه نوح: إذا أتاك غَدًا عدلْنَا به إلى بعْضِ الدُّور فضربنا عُنُقَه قبل أنْ يَصِلَ إليك. فقال: والله إنه لهلاكُكم، وأنتم أعلم.

فخرج الغلام فأخبر ثابتًا فخرج مِنْ ليْلته في عشرين فارسًا ومضى، وأصبحوا فلم يجدوه ولا الغلام، فعلموا أنه كان عينًا له، ونزل ثابت بحشورا، واجتمع إليه خَلْقٌ كثير من العرب والعجم، فأتاه موسى وقاتلَه فتحصن ثابتٌ بالمدينة، وأتى طَرْخون مُعينًا له، فرجع موسى إلى تِرْمِذ، وأقبل ثابت وطَرْخون ومعهما أهْلُ بخارى، ونَسَف وكشّ، فاجتمعوا في ثمانين ألفًا، فحصروا موسى حتى جهد هو وأصحابه، فقال يزيد بن هذيل: والله لأقتلن ثابتًا أو لأموتنَّ، فخرج إلى ثابت فاستأمنه، فقال له

---

(١) الهياطلة: الذين يسكنون هيطل، وهي بلاد بخارى، وسمرقند، وخجند.

(٢) التبت: سكان مملكة التبت، وهي مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة الشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك... (معجم البلدان).

(٣) قبيعة السيف: ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد.

(٤) الجوسق: القصر الصغير؛ أو الحصن.

(٥) الباميان: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وغزنة.

ظهير: أنا أعرَفُ بهذا منك، ما أتاك إلاَّ بغَدْرة، فاحذره. فأخذ ابنيه: قدَامة، والضحاك رَهْنًا، فكانَا في يَدِ ظُهير، وأقام يزيد يلتمس غِرَّة ثَابت، فلم يَقْدر على ما يريد حتى مات ابنٌ لزياد القصير الخُزَاعي، فخرج ثابت إليه ليعزيه ومعه ظهير ورهط من أصحابه، وفيهم يزيد بن هذيل وهو بغير سلاح، وقد غابت الشمسُ، فدنا يزيد من ثابت فضربه على رَأْسه فعضَّ السيف برأسه، فوصل إلى الدماغ وهرب، فسلِم. فأخذ طرخون قُدامة والضحاك ابني يزيد فقتلهما، وعاش ثابتٌ سبعة أيام، ومات.

وقام بأمْرِ العجم بعد موت ثابت طرخون، وقام ظهير بأمْرِ أصحاب ثابت فقاما قيامًا ضعيفًا، فانتشر أمْرُهم، وأجمع موسى على بَياتهم، فأُخبر طرخون بذلك فضَحك، وقال: موسى يعجز أن يدخلَ متوضّأه فكيف يُبَيِّتُنَا، لا يَحْرُس الليلة أحَدٌ.

فخرج موسى في ثمانمائة، وجعلهم أرباعًا، وبيّتهم فكانوا لا يمرُّون بشيء إلاَّ صرعوه من الرجال والدوابّ وغيرها، فأرسل طَرْخون إلى موسى: أنْ كُفَّ أصْحَابَك، فإنا نرحَلُ إذا أصبحنا، فرجع موسى وارْتَحَلَ طَرْخون والعَجَم جميعًا.

فلما عزل يزيد بن المهلب وولي المفضّل أراد أن يَحْظَى عند الحجّاج بقِتَال موسى، فسيَّر إليه عثمان بن مسعود في جيشٍ، وكتب إلى أخيه مدرك بن المهلب وهو ببَلْخ يأمره بالمسير معه، فعَبَر النَّهْرَ في خمسة عشر ألفًا، وكتب إلى السَّبَل وإلى طَرْخون فقدموا عليه، فحصروا موسى وضيَّقُوا عليه، فمكث شَهرَين في ضيق، وقد خَنْدَق عثمان عليه، وحذر البَيَات، فقال موسى لأصحابه: أخرُجُوا بنا، حتى متى نَصْبِر؟ فاجعلوا يومكم معهم إمَّا ظفرتم وإما قُتلتم، واقْصِدُوا الترك.

فخرجوا وخَلَّف النضر بن سليمان بن عَبْد الله بن خازم في المدينة، وقال له: إن قتلت فلا تدْفَعَنّ المدينةَ إلى عثمان، وادفعها إلى مدرك بن المهلب، وخرج وجعل ثلث أصحابِه بإزاء عثمان، وقال: لا تقاتلوه إلا إن قاتلكم، وقصد طَرْخون وأصحابه فصدقوهم القتال، فانهزم طَرْخون، واستولى موسى على عسكره، وزَحَفت التُركُ والصُغْد، فحالوا بين موسى والحصن، فقاتلهم، فعقروا فرسه فسقط، فقال لمولى له: احملني. فقال: الموت كَرِيه، ولكن ارتدف، فإنْ نَجَوْنا نجونا جميعًا، وإن هلكنا هلَكْنا جميعًا.

فارتدف، فلما نظر إليه عثمان حين وثب قال: وَثْبَةُ موسى وربّ الكعبة، وقصده وعُقِرَتْ فرَسُه، فسقَطَ هو ومَوْلاه فقتلوه، ونادى منادِي عُثمان: مَنْ لقيتموه فخذُوه أسيرًا، ولا تقتلوا أحَدًا، فقَتَلَ ذلك اليوم من الأسرى خَلْقًا كثيرًا من العرب خاصةً، فكان يقتل العَرِبي ويضرب المولى ويُطْلِقُهُ، وكان الذي أجهز على موسى

واصل بن طَيْسَلة العنبري، وسلَّم النضرُ المدينة إلى مُدْرك فسلمها مُدْرِك إلى عثمان، وكتب المفضل إلى الحجاج بقَتْل موسى فلم يَسُرّه ذلك، لأنه مِنْ قَيْس.

وكان مقتل موسى في سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين، وكان مقام موسى بالحصن أربع عشرة سنة. وقيل خمس عشرة سنة.

ذكر وفاة عبد العزيز بن مروان وولاية عبد الله بن عبد الملك مصر والبيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك بولاَيَةِ العَهْد

كانت وفاته بمصر في جُمادى الأُولى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين، وكان عبْدُ الملك أراد أنْ يَخْلَعُه مِنْ ولاية العهد، ويُبايع لابنه الوليد، فنهاه قَبِيصة بن ذُؤَيب عَنْ ذلك، وقال: لا تفعَلْ، ولعل الموت يأْتيه، فكَفّ عنه عبد الملك ونَفْسُه تُنَازِعه إلى خَلْعه؛ فدخل عليه رَوْح بن زِنْبَاع، وكان أجلَّ الناس عند عَبْد الملك، وقال: يا أَمِيرَ المؤمنين، لو خلعْتَه ما انتطح فيها عَنْزَان؛ وأنا أول مَنْ يُجيبك إلى ذلك. قال: نُصبح إنْ شاء الله ونفعل.

ونام رَوْح عنده، فدخل عليهما قَبِيصة بن ذؤَيب وهما نائمان، وكان عَبْدُ الملك قد تقدّم إلى حجّابه ألاَّ يحجبُوا قَبِيصة عنه، وكان إليه الخاتم والسكّة[١]، والأخبارُ تأْتيه قَبْل عبد الملك، فلما دخل سَلَّم عليه، وقال: آجرك الله في عبد العزيز أخيك! قال: هل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع، ثم أقبل على رَوْح، وقال: كفانا الله ما نريد. وكان هذا مخالفًا لكَ يا قَبِيصة. وضَمّ عبد الملك عَمَل عبد العزيز إلى ابنه عَبْد الله بن عبد الملك، وأمر بالبيعةِ لابْنَيْه: الوليد، وسليمان، فبايعهما الناسُ، وكتب بذلك إلى الأمصار، وكان على المدينةِ هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فأجابوا إلا سَعيد بن المسيّب، فإنه أبى، وقال: لا أبَايع وعَبْدُ الملك حيّ، فضربه هشام ضربًا مبرِّحًا، وطاف به وهو في تُبَّانِ[٢] شعرٍ حتى بلغ رأْس الثنية التي يقتلون ويصلبون عندها، ثم ردّه وحبسه.

---

(١) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٢) تبان: بالضم والتخفيف، من قرى سوبخ من ناحية خزار من بلاد ما وراء النهر من نوايح نسف. . . (معجم البلدان).

فبلغ ذلك عبد الملك، فقال: قَبَّح اللّهُ هِشامًا، إنما كان ينبغي له أنْ يدعوه إلى البيعة، فإن أبى أن يبايع يضرب عنقه أو يكفّ عنه.

وكتب إليه يَلُومُه ويقول: إن سعيدًا ليس عنده شِقَاق ولا خِلاف؛ وقد كان سعيد امتنع أيضًا من بَيْعَة ابْنِ الزبير، وقال: لا أُبايعُ حتى يجتمع الناس، فضربه جابر بن الأسود عاملُ ابن الزبير ستِّين سَوْطًا.

فكتب ابن الزبير إلى جابرٍ يَلومُهُ، وقال: ما لنا ولسعيد! دَعْه، لا تَعْرِض له.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل.

سنة ست وثمانين:

ذكر وفاة عبد الملك بن مروان

كانت وفاته بدِمَشْق في منتصف شوال سنة ستّ وثمانين، وكان يقول: أخافُ الموتَ في شهر رمضان، فيه وُلدت، وفيه فُطِمت، وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لي الناسُ، فمات في شوّال حين أمِن المَوْتَ في نفسه، واختلف في عمره من ثلاث وستين سنة إلى سبع وخمسين.

وصلى عليه ابنُه وليُّ عهْده الوليد.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يومًا، خلص له الأمْرُ منها بعد مَقْتَل عَبْدِ الله بن الزُّبَيْر ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلاَّ سبع ليال، ودُفِنَ بدمشق خارج باب الجَابِية.

قيل: ولما اشتدّ مَرَضُه نهاه بَعْضُ الأطباءِ أن يشرب الماء، وقال: إن شَرِبَ الماء مات، فاشتدَّ عطَشُه، فقال: يا وليد، اسقني ماء. قال: لا أُعِين عليك. فقال لابنته فاطمة: اسْقِيني، فمنعها الوليد. فقال: لتدعنَّها أو لأخلعنَّك. فقال: لم يَبْقَ بعد هذا شيء، فسقَتْه فمات.

ودخل عليه الوليد وابنتُه فاطمة عند رَأسه تبكي، فقال: كيف أمير المؤمنين؟ قال: هو أصلح مِمَّا كان. فلما خرج قال عبد الملك: [من الطويل]

ومستخبرٍ عنا يريد بنا الرَّدى ... ومُسْتخبَراتٍ والدموعُ سواجم(١)

(١) سجم الدمع: سال قليلاً أو كثيرًا.

ذكر وصيته بنيه عند موته

قال: وأوصى بَنيهِ عند موته، فقال: أُوصيكم بتقوى الله، فإنه أزْيَنُ حِلْية وأحصن كَهْف، ليَعْطِف الكبيرُ منكم على الصغير، وليعرف الصغير حَقَّ الكبير، وانظروا مسْلَمَة فاصْدُروا عن رَأْيِهِ، فإنه نَابُكم الذي تَفِرّون[١]، ومجِنُّكم[٢] الذي عنه تَرْمُون، وأكرِمُوا الحجاج فإنَّه الذي وَطَّأ لكم المنابر ودَوَّخ لكم البلاد، وأذلّ لكم الأعداء، وكونوا بني أُم برَرَة. لا تدبّ بينكم العقارِبُ، وكونوا في الحرْبِ أحرارًا، فإن القتالَ لا يقرِّبُ ميتة، وكونوا للمعروف منارًا؛ فإن المعروف يبقى أجره وذُخْره وذِكْرُه، وضَعُوا معروفكم عند ذوي الأحساب، فإنهم أصْونُ له وأشكر لما يُؤْتى إليهم منه، وتغمّدوا[٣] ذنوبَ أهلِ الذنوب، فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادُوا فانتقموا.

ذكر أولاده وأزواجه

كان له: الوليد، وسليمان، ومَرْوان الأكبر ـ دَرجَ[٤]، وعائشة؛ أُم هؤلاء ولادَةُ بنت العباس بن جَزء بن الحارث بن زُهَيْر بن جذيمة، ويزيد ومَرْوان ومعاوية دَرَجَ، وأُم كلثوم، أُمهم عاتكة ابنة يزِيد بن معاوية، وهشام أُمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية، واسمها عائشة، وأبو بكر، وهو بكار، أُمّه عائشة بنت موسى بن طَلْحة بن عُبيْد الله، والحكم ـ درج، أُمه أم أيوب بنت عَمْرو بن عثمان بن عفَّان، وفاطمة، أُمُّها أُم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة، وعبد الله ومسْلَمة والمنذر وعَنْبَسة ومحمد وسعيد الخير وقبيصة لأُمهات أولاد؛ وكان له من النساء سوى من ذكرناه شَقْراء بنت حلْبس الطائي، وأُم أبيها ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

ذكر شيء من أخباره وعماله

قالوا: كان عبْدُ الملك بن مرْوَان عاقلاً حازِمًا أديبًا لبيبًا عالمًا، قال أبو الزِّنَاد[٥]: كان فقهاءُ المدينة أربعة: سعِيد بن المُسَيِّب، وعُرْوَة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤَيب، وعبد الملك بن مرْوَان. وقال الشعبي رحمه الله: ما ذاكرْتُ أحدًا إلاَّ وجدْتُ

---

(١) فرّ الدابة: كشف عن أسنانها ليعرف ما سنها.
(٢) المجن: الترس.
(٣) تغمد الشيء: ستره.
(٤) درج: مات.
(٥) أبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان.

لي الفَضْل عليه، إلاَّ عبد الملك، فإني ما ذاكرته حديثًا إلاَّ زادني فيه، ولا شعرًا إلاَّ زادني فيه، قالوا: وكان محبًّا للفخر والبذخ، وكثرت الشعراء على أيامه، وكان من فحول شعرائه جرير والفرزدق والأخطل وكُثَيِّر.

وكان عبْدُ الملك مُقْدِمًا على سَفْك الدماء، وكذلك كانت عمّاله: فكان الحجاج بالعراق، والمهلب بن أبي صُفْرة بخراسان، وهشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة، وعبْد الله ولده بمصر، وموسى بن نُصَير اللَّخْمي بالمغرب، ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن، ومحمد بن مَرْوَان بالجزيرة؛ وما منهم إلاَّ منْ هو ظالم غَشُوم جائر.

وكان نَقْش خاتمه: آمنت بالله مخلصًا.

وكُتَّابه: رَوْح بن زِنْبَاع، ثم قبيصة بن ذؤيب، وغيرهما.

قاضيه: أبو بِشْر الخَوْلاَني، وعبد الله بن قيس.

حاجبه: يوسف مولاه.

الأمراء بمصر وقضاتها

أَقرّ عبْدُ الملك أخاه عبد العزيز على إمارة مصر إلى أن مات، فولَّى ابنه عبد الله. وكان القاضي بمصر عابس إلى أن مات، فولّى عبدُ العزيز بشير بن النَّضْر بن بشير المزني، ثم مات فولاَّها عبد الرحمٰن بن حجر الخولاني. ثم صرفه وولى يونس الحضرمي، ثم صرفه وولى عَبْدَ الرحمٰن بن معاوية بن خديج القضاء والشرطة، فلما ولى عبْد الله بن عبد الملك أَقرّ عبد الرحمٰن على القضاء ثم صرفه وولى عمران بن عبد الرحمٰن بن شرحبيل ابن حَسَنة ثم عزله، وولى عبد الواحد بن عبد الرحمٰن بن خَدِيج.

قال: وعبد الملك أول من غدر في الإسلام: حين قتل عَمْرو بن سعِيد الأشدق.

وهو أول منْ نَقَل الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية.

وأول مَنْ نهى عن الكَلاَم بحضرة الخلفاء، وكان الناس مِنْ قبله يُرَاجِعُونهم.

وهو أوّل مَنْ نهى عن الأمر بالمعروف، فإنه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أَحَدٌ بتَقْوَى اللّهِ تعالى بعد مقامي هذا إلاَّ ضربت عُنُقَه.

ذكر بيعة الوليد بن عبد الملك

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأُمه ولادة بنت العباس بن جزء، وقد تقدم ذِكْرُ نسبه، وهو السادس من ملوك بني أمية. بويع له بالخلافة بعد وفَاةِ أبيه، وذلك في يوم الخميس النصف من شوال سنة ست وثمانين. قال: ولما دُفِنَ أبوه عبد الملك انصرف عن قَبْرِه فدخل المسجد ورقي المنبر فخطب الناس، وقال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مُصيبتنا بِمَوْتِ أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنْعَم علينا من الخلافة. قُومُوا فبايعُوا، فكان أول مَنْ عزَّى نفسه وهنَّأها، وكانَ أول من قام لبيعته عبد الله بن همام السلولي[١] وهو يقول: [من الرجز]

اللّهُ أعطاكَ التي لا فَوْقَها وقد أرادَ المُلْحِدُون عَوْقَها
عنْكَ، ويأْبى اللّهُ إلاّ سَوْقَها إليكَ حتى قَلَّدُوكَ طَوْقَها

وبايعه، وقام الناسُ للبيعة.

وقد قيل: إنَّ الوليد لَمَّا صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، لا مُقَدِّم لما أخَّر اللّهُ، ولا مؤخِّر لما قدّم، وقد كان من قضاء الله وسابقِ عِلْمه، وما كتب على أنبيائه وحَمَلة عرْشه الموت، وقد صار إلى منازلِ الأبرار وليُّ هذه الأُمة بالذي يحقُّ للّهِ عليه في الشدةِ على المذنب واللين لأهْلِ الحقّ والفَضْل، وإقامة ما أقام الله مِنْ مَنَار الإسلام وأعلامه؛ مِنْ حجّ البيت، وغَزْو الثُّغور، وشنّ الغارةِ على أعداءِ الله، فلم يكن عاجِزًا ولا مُفَرّطًا.

أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزومِ الجماعة، فإنَّ الشيطان مع الفرد.

أيها الناس، منْ أبْدى لنا ذَات نَفْسِه ضَرِبْنَا الذي فيه عيْنَاه، ومن سكت مات بدائه، ثم نزل.

ولنبدأْ من أخبار الوليد بالغزوات والفتوحات، ثم نذكر الحوادث على حكم السنين:

---

(١) هو من بني مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة من قيس عيلان، وبنو مرة يعرفون ببني سلول لأنها أمهم، وهي بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة وهم رهط أبي مريم السلولي، وكانت له صحبة... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ذكر الغزوات والفتوحات
التي اتفقت في خلاف الوليد بن عبد الملك

ولْنَبْدأ من ذلك بأخبار قُتَيْبة بن مسلم وما فتحه من البلاد:

ذكر ولاية قتيبة بن مسلم خراسان
وغزواته وفتوحاته

فتح قُتيبة بن مُسلم في مدَّةِ ولايته خُراسان من بلادِ ما وراء النَّهْر: الصَّغَانِيان[١]، وأخرون، وكَاسان[٢]، وأورشت، وهي من فَرْغَانة وأخْسِيكت[٣]، وهي مدينة فَرْغَانة القديمة، وبِيْكَنْد[٤]، وبُخارى، والطالقَان[٥] والفَارِياب[٦] والجوزْجَان، وشُومان[٧] وكش، ونَسف، ورام جِرْد[٨]، وسمرْقَنْد، والشاش[٩] وفَرْغانة، ومدينة كَاشْغر.

وكان أول ما بدأ به قُتيبة أنه لما قدم خُرَاسان أميرًا للحجاج، وذلك في سنة ست وثمانين قدمها والمفضّل بن المهلب يحَرض الجند للغَزَاة، فخطب قُتَيْبَةُ الناس، وحَثَّهم على الجهاد، ثم عرضهم، وسار بهم.

فلما كان بالطالَقَان تلقَّاهُ دهاقين بلْخ وسارُوا معه، وقَطع النهر فتلقَّاه ملك الصَّغَانِيان بهدايا ومفتاح من ذهب، ودعاهُ إلى بلادِه، فمضى معه فسلَّمها إليه، لأن ملك أخرون وشُومان كان يُسيء جِواره، ثم سار قُتَيبة منها إلى أخرون وشُومان وهما من طخَارِسْتَان، فصالحه ملكها على فِدْيةٍ أدَّاها إليه، فقَبِلها قتَيبة. ثم انصرف إلى مرْو، واستخلف على الجُنْد أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قُتَيْبة كاشان وأورَشت، وهي من فرْغانة، وفَتَح أخْسِيكت وهي مدينة فَرْغانة القديمة.

---

(١) الصغانيان: ولاية عظيمة بما وراء النهر.
(٢) كاسان: مدينة كبيرة في أول بلاد تركستان وراء نهر سيحون وراء الشاش.
(٣) أخسيكت: مدينة بما وراء النهر، قصبة فرغانة.
(٤) بيكند: بلد بين بخارى وجيحون.
(٥) الطالقان: كورة وبلدة بين قزوين وأبهر.
(٦) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان قرب بلخ.
(٧) شومان: بلدة بالصغانيان، مما وراء جيحون.
(٨) رام جرد: قرية من قرى فارس قتل بها عبد الله بن معمر.
(٩) الشاش: قرية بالريّ؛ أو بلدة بما وراء النهر، ثم وراء سيحون.

وقيل: إن قُتيبة قَدم خُراسان في سنة خمس وثمانين، فعرض الجُنْدَ فغزَا أخرون وشُومان، ثم رجع إلى مرْو.

وقيل: إنه لم يغْزُ في هذه السنة، ولم يقطع النهر بسبب بلْخ، فإنَّ بعضها كان منتقضًا عليه، فحاربهم وسبى منهم، ثم صالحوه فأمر بردّ السَّبْيِ.

ذكر قتيبة ونيزك

قال: لمَّا صالح قُتَيْبة ملك شُومَان كتب إلى نَيْزَك طرخان صاحب باذَغِيس في إطلاق مَنْ عنده مِن أسْرَى المسْلمين، وكتب إليه يتهدَّدُه، فخافه نَيْزَك، فأطلقهم، وبعث بهم إليه، ثم كتب إليه قُتَيبة مع سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكْرَة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه، فصالحه نَيْزَك لأهل باذغِيس على ألا يدخلها قُتَيبة.

ذكر غزوة بيكند وفتحها

وغزا قُتيبة بِيْكَنْد في سنة سبع وثمانين، وهي أدْنى مدائن بُخارى إلى النَّهر، فلما نزل بهم استنصروا الصُّغد[1] واستمدُّوا منْ حولهم، فأتوهم في جَمْع كثير، وأخذوا الطرقَ على قُتَيْبَةَ فقاتلهم شهرين في كل يوم، ثم انهزم الكفَّار إلى المدينة، فتبعهُم المسلمون يقتلُونَ ويأسِرُون، وتحصَّنَ من دخل المدينة منهم بها، فأمر قُتَيْبةُ بهدْمِ سُورِها، فسألوه الصلح، فصالحهم، واستعمل عليهم عاملاً وارتحل عنهم. فلما سار خمس فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومَنْ معه. فرجع قُتيبة فنقب السُّور فسقط، فسألوه الصلح فأبى، ودخلها عنوةً، وقتل مَنْ كان بها من المقاتِلة، وكان فيمن أُخذ من المدينة رجلٌ أعور، وهو الذي استجاش التُّركَ على المسلمين، فقال لقُتَيبة: أنا أفْدِي نفسي بخمسة آلاف حريرة[2] قيمتُها ألف ألف، فاستشار قُتيبة الناس، فقالوا: هذا زيادة في الغنائم؛ وما عسى أن يبلغَ من كَيْد هذا؟ قال: والله لا يروِّعُ بك مُسلم أبدًا، وأمر به فقُتِل؛ وأصابوا فيها من الغنائم والسلاحِ وآنِيةِ الذهب والفضَّةِ ما لا يُحصى، ولا أصابوا بخراسان مثله.

ولما فرغ قتيبة من فَتْح بِيكَنْد رجع إلى مرْو.

---

(١) الصغد: بالضم ثم الكسون، وآخره دال مهملة، وقد يقال بالسين مكان الصاد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى. . . (معجم البلدان).

(٢) الحريرة: القطعة من الحرير، أو دقيق يطبخ بلبن أو دسم.

ذكر غزو نومشكث وراميثنة[١] وصلح أهلها وقتال التُّرْك والصُّغْد وأهل فَرْغَانة

وفي سنة ثمان وثمانين غزا قتيبة نومُشكَث، فتلقَّاه أهلُوها، فصالحهم، ثم سار إلى رامِيثَنَة، فصالحه أهلُها، وانصرف عنهم وزحف إليه التُّرْكُ ومعهم الصُّغد وأهل فَرْغانة في مائتي ألف، وملكهم كوربغانو ابن أُخت ملك الصِّين، فاعترضوا المسلمين؛ فلحقوا عبْد الرحمٰن بن مسلم أخا قُتَيْبَة وهو على الساقَةِ وبينه وبي قُتيبة وأوائل العَسْكَرِ ميل، فقاتلهم عبْدُ الرحمٰن ومَنْ معه، وأرسل إلى أخيه، فرجع بالمسلمين، وقد أشرفَ التركُ على الظهور على عَبْدِ الرحمٰن ومَنْ معه، فلما رأى المسلمون قُتيبة طابت نفوسُهم، وقَوِيت، وقاتلوا إلى الظُّهرِ، فانهزم الترك ومنْ معهم وكان نَيْزَكُ يومئذ مع قُتَيْبَة، فأبلى بلاءً حسنًا، ورجع قتيبةُ بعد الهزيمة إلى مَرْو.

ذكر غزو بخارى وفتحها

كانت غَزْوَةَ بخارى في سنة تسع وثمانين، والفتح في سنة تسعين؛ وذلك أن الحجاجَ بن يوسف كتب إلى قُتَيْبَة يأمره بقَصْدِ وَرْدان خُذَاه، فعبَر النَّهر من زُمّ[٢]، فلقي الصُّغد وأهل كِسّ[٣] ونَسَف[٤] في طريق المفَازة، فقاتلوه، فظفِر بهم، ومضى إلى بُخارى، فنزل خَرْقانة السُّفْلى عن يمين وَرْدَان، فلقوه في جمع كثير، فقاتلهم يَوْمَيْن وليلتين، فظفر بهم، وغزا وَرْدَان خُذَاه ملك بُخَارى فلم يظْفَرْ منه بشيء، فرجع إلى مَرْو. وكتب إلى الحجاج يُخْبِرُهُ؛ فكتب إليه الحجاجُ أن صَوِّرها. فبعث إليه بِصُورتِها، فكتب إليه أن تُبْ إلى اللّهِ جَلَّ ثناؤه مما كان مِنْك وأْتِها مِنْ مكانِ كذا وكذا.

قيل: وكتب إليه أن كِسْ بكِس، وانسِف نَسفًا، ورِدْ وَرْدَان، وإياك والتحويط، ودعْني من بُنَيَّات الطريق.

---

(١) راميثنة: قرية ببخارى.

(٢) زمّ: موضع ببلاد بني ربيعة وقيل: موضع ببلاد بني قيس بن ثعلبة.

(٣) كس: بكسر أوله وتشديد ثانيه: مدينة تقارب سمرقند.. وقيل: هي مدينة خصيبة تدرك فيها الفواكه أسرع ما تدرك بسائر ما وراء النهر، غير أنها وبئة، وعلى ما يكون عليه بلاد الغور... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) نسف: بفتح أوله وثانيه ثم فاء: هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيحون وسمرقند، خرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن... (معجم البلدان).

فخرج قتيبة إلى بُخَارى في سنة تسعين، فاستجاش وَرْدان خُذَاه الصُغْد والترك ومَنْ حوله، فأتوه وقد سبق إليها قُتَيْبة وحصرها. فلما جاءتهم أمْدادُهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونَهم، فقالت الأزد: اجعلُونَا ناحِيَةً، وخَلُّوا بيننا وبين قِتَالهم، فقال قُتيبة: تقدَّمُوا، فتقدّموا، وقاتلوا قتالاً شديدًا، ثم انهزم الأزْدُ، حتى دخلوا العسكر، وركبهم المشركون حتى حطموهم، وقاتلت مُجَنْبتا المسلمين الترك حتى ردُّوهم إلى مواقفهم، فوقفت الترك على نَشَزٍ[١]، فقال قُتيبة: مَنْ يُزيلهم عن هذا الموقف! فلم يقم لهم أحَدٌ من العرب، فأتى بني تميم، فقال لهم: يوم كأيَّامكم. فأخذ وَكِيع اللواءَ، وقال: يا بني تميم، أتسلمونني اليوم؟ قالوا: لا، يا أبا المُطَرِّف، وكان هُزيم بن أبي طَخْمَةَ على خَيْلِ تميم، ووَكيع رأسهم. فقال: يا هُزَيم قَدِّم خَيْلَكَ، ورفع إليه الرايةَ، وتقدم هُزَيْم، وتقدّم وكيع في الرَّجّالة، وكان بينهم وبين الترك نَهْر، فأمر وكيع هُزَيمًا بقَطْعه إليهم، فعبره في الخيل، وانتهى وَكِيع إلى النهر، فعمل عليه جسرًا من خَشَب، وقال لأصحابه: مَنْ وطَّن نفسه على الموت فليعبر وإلاَّ فليثبتْ مكانَه. فلم يعْبُر معه إلا ثمانمائة رجل. فلما عبر بهم قال لهُزَيم: إني مُطَاعنهم فاشغلهم عَنَّا بالخَيْل، وحمل عليهم حتى خالطهم، وحمل هُزَيم في الخيل فطاعنهم، وقاتلهم المسلمون حتى حَدَرُوهم عن التلّ، ثم عبر الناسُ إليهم بعد انهزام التُّرْكِ، ونادى قُتَيْبَة: منْ أتَى برأسٍ فله مائة، فأُتي برؤُوس كثيرة، وجُرِح خاقان وابنه، وفتح اللّهُ على المسلمين.

قال: ولما أوقع قُتَيْبة بأهل بخارى هابه الصُغْد، فرجع طَرْخون ملكهم ومعه فارسان، فدنا من عسكر قُتيبة، فطلب رجلاً يكلِّمُه، فأرسل إليه قتيبة حَيَّان النبطي، فطلب الصلح على فِدْيَةٍ يؤدّيها إليهم، فأجابه قُتَيْبة إلى ما طلب، وصالحه، ورجع طرخون إلى بلاده، ورجع قتيبة ومعه نَيْزَك.

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان
وما كان من خَبَر نَيْزَك إلى أن قُتل

قال: ولما رجع قُتَيْبَة عن بُخارى ومعه نَيْزَك وقد خاف لما رأى من الفتوح، فقال لأصحابه: أنا مع هذا ولست آمنُه، فلو استأْذَنْته ورجعْت كان الرأْي. قالوا:

---

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

افعل. فاستأْذن قُتيبة، فأذِنَ له وهو بآمُل[١]، فرجع يريد طَخَارِسْتان، وأسرع السَّيْرَ حتى أتى النُّوبهار[٢]، وقال لأصحابه: لا شَكَّ أن قتيبة قد ندم على إذْنه لي، وسيبْعثُ إلى المغيرة بن عَبْد الله يأمره بحَبْسِي، فكان كما قال: ندم قُتيبة، وبعث إلى المغيرة يأمره بحبْس نَيْزَك، فتَبِعَهُ المغيرةُ، فوجده قد دخل شِعْب خُلْم[٣]، فرجع المغيرةُ، وأظهر نَيْزَك الخلع، وكتب إلى أَصْبَهْذ بَلْخ وإلى باذَان ملك مرْو الرُّوذ وإلى ملك الطالَقَان وإلى ملك الفَارِيَاب وإلى ملك الجوزجان يدْعوهم إلى خَلْع قُتيبة، فأجابوه، وواعدهُم الربيع أنْ يجتمعوا ويغزوا قتيبة.

وكتب إلى كابُل شاه يستظهر به، وبعث إليه بثقله وماله، وسأله أن يأْذن له إن اضطُرّ أنْ يأْتيه، فأجابه إلى ذلك، وكان خَبْغُويه ملك طخارستان ضعيفًا؛ فأخذه نَيْزَك، فقيَّدَهُ بقَيْدٍ من ذَهب لئلا يخالف عليه، وكان خَبْغويه هو الملك ونَيْزَك عنده، فاستوثق منه، وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبْغويه، وبلغ قُتَيْبَة خلْعه، وقد تفرَّقَ الجنْدُ، فبعث أخاه عبد الرحمٰن في اثني عشر ألفًا إلى البرُوقَان[٤]، وقال: أَقِمْ بها ولا تُحدِث شيئًا، فإذا انقضى الشتاء فعسكرْ، وسر نحو طَخَارستان، فسار؛ فلما كان آخر الشتاء كتب قُتَيْبَة إلى نَيْسابور وغيرها من البِلاَد لتقدم عليه الجنود، فقدموا. فسار نَحْوَ الطالَقَان، وكان مِلكُها قد خلَع وطابق نَيْزَك على الخَلْع، فأتاه قُتَيبة، فأوقع بأهل الطالَقَان، فقَتَل مِنْ أهلها مقْتَلَةً عظيمة، وصلب منهم سِمَاطَيْن[٥] أربعة فراسخ في نظامٍ واحد، واستعمل أخاه عمرو بن مُسلم.

وقيل: إن ملك الطالَقَان لم يحارب قُتيبة، فكفَّ عنه، وكان بها لصوص، فقتلهم قُتَيبة وصلَبهم، ثم سار قتيبة إلى الفَارِياب في سنة إحدى وتسعين، فخرج إليه مَلِكُها مُقِرًّا مُذْعِنًا، فَقبل منه ولم يقتل بها أحدًا، واستعمل عليها رجلاً من باهِلة، وبلغ ملك الجوزْجَان خَبرُهم، فهرب إلى الجبال، وسار قُتيبة إلى الجوزْجَان، فلقيه أهلها سامِعينَ مُطيعين، فَقبِل منهم ولم يقتل بها أحدًا، واستعمل عليها عامر بن مالك الحمّاني، ثم أتى بَلْخ فلقيه أهلها، فلم يُقم إلاَّ يومًا واحدًا، وسار يتْبع أخاه عَبْدَ الرحمٰن إلى شِعْبِ خُلْم، ومضى نَيْزُك إلى بغْلاَن[٦]، وخلَّف مقاتلته على فَمِ

---

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل... (معجم البلدان).

(٢) النوبهار: في موضعين، أحدهما قرب الريّ، والآخر ببلخ.

(٣) خلم: بلدة بنواحي بلخ.

(٤) البروقان: قرية من نواحي بلخ.

(٥) السماط: الصف.

(٦) بغلان: بلدة بنواحي بلخ.

الشعْب ومضَايِقِه يَمْنَعُونَه، ووضع مقاتلته في قَلْعةٍ حصينةٍ مِنْ وراءِ الشِّعْب، فأقام قُتَيبة أيامًا لا يَقْدِرُ على دخوله، ولا يعرف طريقًا يَسْلكُه إلى نَيْزَك إلا الشِّعب أو مفَازةً لا تقدِرُ العساكر على قَطْعِها، فأتاه إنسانٌ فاستأْمنه على أنْ يدُلَّه على مدْخَل القلعة التي مِنْ وراء الشِّعْب، فأمّنه قُتَيْبة، وبعث معه رجالاً، فانتهى بهم إلى القلعةِ، فطرقُوهم[1] وهم آمِنُون، فقتلوا منهم، وهرب منْ بقي ومَنْ كان في الشِّعْب، فدخل قُتَيْبة الشِّعْب، فأتى القلعة ومضى إلى سمِنْجان[2]، فأقام بها أيامًا ثم سار إلى نَيْزَك، وقدم أخاه عبد الرحمٰن فارتحل نَيْزَك من مَنْزِله فقطع وادي فَرْغانة، ووجَّه ثَقَله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى حتى نزل الكُرز، وعَبْدُ الرحمٰن يتبَعُهُ، ونزل عبْدُ الرحمٰن وأخذ بمضايق الكُرْز، ونزل قُتَيْبة على فرسخين من أخيه، وتحصَّن نيزك بالكُرز، وليس له إلاّ مسلك من وجْهٍ واحد، وهو صعْبٌ لا تُطِيقه الدواب، فحصره قُتيبة شهرين حتى قلّ ما في يَدِ نَيْزَك من الطعام، وأصابهم الجُدْرِي. وخاف قُتَيبة الشتاء، فدعا سُليمًا الناصح، فقال: انطلق إلى نَيْزَك، واحتَلْ لتأْتِيني به بغَيْر أمان، فإن أعياك وأبى فأمِّنْه.

فخرج إليه، وأخذ معه أطعمةً وأخبِصة[3] كثيرة، وأتى نَيْزَك، فقال له: إنك أسأْتَ إلى نفسك وغدَرْت. قال نَيْزَك: فما الرأْي؟ قال: أرى أنْ تأْتِيَه، فإنه ليس ببَارِحٍ، وقد عزم على أن يشْتُو مكانَه، هلك أو سلم. قال نَيْزَك: فكيف آتيه على غَيْرِ أمَانٍ. قال: ما أظنُّه يُؤَمِّنك لما في نَفْسِه عليك، لأنك قد مَلأتَه غَيْظًا، ولكني أرى ألاّ يعلم حتى تضع يدك في يدِه، فإني أرجو أن يستحي ويعْفُو. قال: إنَّ نفسي تَأْبَى هذا. فقال سُليم: ما أتيتُك إلا لأُشِير عليك بهذا، ولو فعلتَ لرَجوْتُ أنْ تَسْلَم ويعودَ حالُك عنده، فإذا أبيت فإني أنصرف. وقدم الطعام الذي معه، ولا عَهْد لهم بمثله، فانتهبه أصحابُ نَيْزَك، فساءه ذلك، فقال له سُليم: أنا لك من الناصحين، أرى أصحابَك قد جُهدوا، وإن طال بهم الحصار لم آمَنْهم أنْ يستأْمنوا بك. فأْت قتيبة. فقال: لا آمنه على نَفْسي، ولا آتيه إلا بأمان، وإنَّ ظَنِّي أنه يقتلني، وإن أمنني؛ ولكن الأمان أعْذَر لي. فقال سليم: قد أمنك؛ أفتتهمني؟ قال: لا. وقال له أصحابه: اقبل قَوْل سليم. فخرج معه ومعه خَبْعويه وصُول طرخان خليفة خَبْعُويه، وخنس طرخان صاحب شرطته وشُقْران ابن أخي نَيْزَك، فلما خرجوا من الشِّعْب حالت خَيْلُ قُتَيبة بين

---

(١) طرقه: أتاه ليلاً.

(٢) سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ.

(٣) الأخبصة: جمع الخبيص: أي الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

أصحاب نَيْزَك وبين الخروج، فقال نَيْزَك: هذا أوّل الغَدْر. فقال سليم: تخلُّفُ هؤلاء عنك خَيْرٌ لك. وأقبل سُليم ونيزك ومَنْ معه حتى دخلوا على قُتَيْبة، فحبسهم.

وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قَتْلِ نَيْزَك، واستخرج قُتيبة ما فِي الكُرْزِ من مَتَاع، وأتاه كتابُ الحجاج بَعْد أربعين يأمره بقتْلِ نَيْزَك، فدعا قُتَيْبَةُ الناس، واستَشارهم، فاختلفوا، فقال ضِرار بن حُصين: إني سمِعْتُك تقول: أعطيْتُ اللّهَ عَهْدًا إن أمكنك منه أن تقتله، فإن لم تَفْعَلْ فلا ينصرك الله عليه أبدًا. فدعا نَيْزَك، فضرب رقَبته بيده، وأمر بقتل صُول وابن أخي نَيْزَك، وقَتَل مِنْ أصحابه سبعمائة. وقيل اثني عشر ألفًا، وصَلَب نَيْزَك وابْنَ أخيه، وبعث برَأسِه إلى الحجاج، وأخذ الزُّبيْرُ مولى عبّاس الباهلي خُفًّا[1] لنيزك فيه جوْهر، فكان أكثر مَن في بلاده مالاً وعقارًا مِن ذلك الجوهر، وأطلق قتيبة خبعويه ومنّ عليه، وبعث به إلى الوليد، فلم يزل بالشام حتى مات.

ولما قُتِلَ نَيزَك رجع قُتيْبة إلى مرْو، وأرسل ملكُ الجوزْجَان يطلب الأمانَ، فأمنه على أنْ يأْتِيَه، فطلب رهنًا يكونون في يده ويعطى رهائن، فأعطاه قُتَيْبَة حَبِيب بن عَبْد الله بن حبيب الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائنَ من أهل بَيْتِه، وقدم على قُتَيبة، ثم رجع فمات بالطالَقَان، فقال أهل الجوزجان: إنهم سمُّوه فقتلوا حَبِيبًا. وقتل قُتيبة الرهائن الذين كانوا عنده.

ذكر غزوة شومان وكشّ ونَسَف وفتح ذلك

وفي سنة إحدى وتسعين سار قُتَيْبَة إلى شُومان فحصرها، وكان سبب ذلك أنَّ مَلكِها طردَ عامِلَ قُتَيْبَة من عنده، فأرسل إليه قُتَيبة رسولَيْن: أحدهما من العرب اسمه عَيّاش، والآخر من أهل خراسان يدْعُوانه إلى أن يؤدِّي ما كان صالَح عليه، فقدما شُومان، فخرج أهْلُها إليهما، فرموهما. فانصرف الخُراسانيُّ وقاتلهم عيّاش فقتلوه، ووجَدُوا به ستِّين جراحةً، وبلغ قُتَيْبة قَتْلُه، فسار إليهم بنفسه، فلما أتاها أرسل صالحُ بن مسلم أخو قُتَيبة إلى ملكها، وكان صديقًا له، يأْمره بالطاعة، ويضْمَنُ له رِضَا قُتَيْبة إن رجع إلى الصلح، فأبى وقال لرسول صالح: أتخوِّفُني من قُتَيْبة وأنا أمْنَعُ الملوك حِصْنًا؟ فأتاه قُتَيبة وقد تحصَّن ببلده فنصب عليه المجانيقَ، ورمى الحِصْنَ

---

(١) الخف: ما يلبس في الرجل من جلد رقيق.

فهشمه، فلما خاف الملك أن يَظْهر قُتَيْبَةُ عليه جمع ما كان بالحِصْن مِنْ مالٍ وجوهر، ورمى به في بئر في القلعة لا يُدْرك قَعْرُها، ثم فتح القلعةَ، وخرج، فقاتل حتى قُتِل، وأخذ قُتيبة القلعةَ عنوةً، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة، ثم سار إلى كِشّ ونسف، ثم سار إلى بُخَارى.

وقيل: إنه سار إلى الصُّغد، فلما رجع عنهم قالت الصُّغد لطرخون: إنك قد رَضِيْتَ بالذُّل واستطبْتَ الجِزْية، وأنت شيخٌ كبير، فلا حاجةً لنا فيك. فحبسوه وولوا غَوْرَك فقتل طرخون نَفْسه.

ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد

وفي سنة ثلاث وتسعين صالح قُتَيْبة خُوارَزم شاه، وسبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفًا، فغلبه أخوه خُرّزاذ على أمْرِه، وكان أصغر منه، فكان إذا بلغه أنَّ عند أحد مِمَّنْ هو منقطع إلى الملك جاريةً أو مالاً أو دابّةً أو بيتًا أو أُختًا أو امرأة جميلة أرسل إليه، وأخذه منه، فلا يمتنع عليه أحد، ولا الملك، فإذا قيل للملك قال: لا أقْوى عليه.

فلما طال عليه ذلك كتب إلى قُتيبة يَدْعُوه إلى أرْضِه ليسلِّمها إليه، واشترط عليه أنْ يَدْفَع إليه أخاه وكلَّ من يُضَادّه ليحكم فيه بما يرى، ولم يطلع أحدًا من مَرازِبته على ذلك. فأجابه قُتيبة إلى ما طلب، وتجهَّز للغَزْوِ، وأظهر أنه يريد الصُّغد، وسار مِنْ مَرْو وجمع خُوارزم شاه أجنادَه ودَهاقِنَتَه. فقال: إن قُتَيبة يريد الصغد، وليس بغَازيكم، فهلمُّوا نتنعَّم في رَبيعنا هذا، فأقبلوا على الشرب والتنعُّم فلم يشْعُروا حتى نزل قتيبة في هَزَارَسْب[١]، فقال خُوارزم شاه لأصحابه: ما تَروْن؟ قالوا: نرى أنْ نُقَاتِله. قال: لكني لا أرى ذلك، لأنه قد عجز عنه منْ هو أقوى منا وأشدُّ شَوْكَةً، ولكن أصرفه بشيء أُخرجه إليه.

فأجابوه إلى ذلك، فسار خُوارَزم شاه إلى مدينة الفِيْل مِنْ وراء النهر، وهي أحْصَنُ بِلاده، وقُتَيْبَة لم يَعْبُر النهرَ، فأرسل إليه خُوارزم شاه، فصالحه على عشرة آلاف رأسٍ، وعيْنٍ ومتاع وعلى أن يعينه على خام جرد، فَقبِل قُتَيبة ذلك.

وقيل: صالحه على مائة ألف رأْس، وبعث قُتيبة أخاه عبد الرحمٰن إلى ملك خام جرْد، وكان يغازِي خوارزم شاه، فقاتله فقَتَلَه عبد الرحمٰن وغَلب على أرْضِه،

(١) هزارسب: قلعة حصينة ومدينة جيدة الماء محيط بها كالجزيرة، وهي من نواحي خوارزم.

وقدم بأربعة آلاف أسير، فقتلهم، وسلَّم قُتَيْبَةُ إلى خُوارزم شاه أخَاه ومنْ كان يخالفهم، فقتلهم، ودفع أموالَهم إلى قُتَيبة. والله أعلم.

ذكر فتح سمرقند[١]

قال: فلما قبض قُتَيبة صُلح خُوارزم قام إليه المُجَشِّر بن مُزاحم السلمي فقال له: سر الآن إن أردت الصُّغد يومًا من الدَّهْر، فإنهم آمِنُون مِنْ أن تأتيهم عامَك هذا، وإنما بيْنَك وبينهم عشرة أيام. قال: أشار عليك بهذا أحَد؟ قال: لا. قال: فسمعه مِنْكَ أحد؟ قال: لا. قال: والله لئن تكلم به أحدٌ لأضرِبَنَّ عنقك.

فلما كان الغَدُ من يوم كلامه له أمَر قُتَيْبَةُ أخاه عَبْدَ الرحمٰن فسار في الفُرسان والرُّمَاة، وقَدَّم الأثقالَ إلى مَرْو، فسار يوْمه، فلما أمسى كتب إليه قُتَيْبة: إذا أصبحْتَ فوجِّه الأثْقَال إلى مَرْو، وسِرْ في الفُرْسَان والرُّماة نحو الصُّغد، واكتُم الأخبار، فإني بالأثر.

ففعل عبْدُ الرحمٰن ما أمره، وخطب قُتَيْبة الناس، وقال لهم: إن الصُّغد شاغرة[٢] برِجْلها، وقد نقَضُوا العَهْد الذي بيننا، وصنَعُوا ما بَلَغَكُم؛ وإني أرجو أن تكون خُوارزم والصُّغد كقُريظة والنُّضير.

ثم سار فأتى الصُّغد، فبلغها بعْد عبد الرحمٰن بثلاثٍ أو أربع، وقدم معه أهل خُوارزم وبُخارى، فقاتلوا شهرًا من وَجْهٍ واحد وهم محصورون.

وخاف أهْلُ الصُّغد طول الحصارِ، فكتبوا إلى ملك الشاش وأخشاد وخَاقَان وفَرْغَانة: إنَّ العربَ إنْ ظَفِرُوا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به. فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابْذُلوها. فنظروا وقالوا: إنما نُؤتى من سِفْلَتِنا وإنهم لا يَجِدُون كوُجْدِنا، فانْتَخَبوا مِنْ أبناءِ الملوكِ وأهْلِ النَّجْدةِ من أبناء المَرازِبة والأساوِرة والأبطال، وأمَرُوهم أنْ يأْتوا عَسْكَر قُتيبة؛ فَيُبَيِّتوه، وولَّوا عليهم ابنًا لخاقان، فساروا.

وبلغ قُتَيْبَةَ الخَبرُ فانتخب من عَسْكَره مائةً، وقيل ستَّمائة من أهل النَّجْدةِ والشجاعة، وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إليهم، فساروا، وعليهم صالح بن مسلم، فنزلوا على فَرْسَخَيْنِ من العسكر على طريق القَوْمِ، فجعل صالح له كَمِينَين.

---

(١) سمرقند: بفتح أوله وثانيه، ويقال لها بالعربية سُمران: بلد معروف مشهور، قيل: هو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه... (معجم البلدان).

(٢) شاغرة: أي خالية، والمراد تسهل الإغارة عليها.

فلما مضى نِصْفُ الليل جاءهم عدوُّهم، فلما رأوا صالحًا حملوا عليه، واقتتلوا فشدّ الكمينان عن يمينٍ وشمال، فقتلهم المسلمون، وأسرُوا منهم، ولم يُفْلِتْ منهم إلا الشريد، واحتَوَوْا على سِلاَحِهم وأسلابهم. وسُئِل بعْضُ الأسرى عن القَتْلَى فقالوا: ما قتلتم إلا ابْن مَلك أو عظيمًا أو بَطَلاً، إن كان الرجل ليُعدّ بمائة رجل.

ونصب قُتَيْبة المَجَانِيق على سَمرْقَنْد، ورماهم فثلمه ثُلمة[١]. ثم أمر قُتيبةُ الناس بالجدّ في القتال، وأن يبلغوا ثُلْمَة المدينة، ففعلوا، وحملوا وقد تترَّسُوا حتى بلغوا الثُّلمةَ، ووقفوا عليها، فرماهم الصُّغد بالنشَّابِ، فلم يبرحوا، فأرسلوا إلى قُتيبة أن انْصَرفْ عنَّا اليوم حتى نصالحكَ غدًا. فقال: لا نُصالِحُهم إلا ورِجالُنا على الثُّلْمة.

وقيل: بل قال: جزِعَ العبيدُ! انصرفوا على ظَفَركم. فانصرفوا، فصالحهم من الغَدِ على ألفي ألفِ ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يُعْطُوه تلكَ السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يُخْلُوا المدينةَ لقُتَيبة، فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني فيها مسجدًا فيصلِّي فيه ويخطب ويتغدَّى ويخرج.

فلما تمَّ الصُّلْحُ بَنَى المسجد ودخلها قُتَيْبةُ في أربعةِ آلاف انتخبهم، فدخل المسجد، فصلَّى فيه، وخطب وأكل طعامًا، ثم أرسل إلى الصُّغد يقول: منْ أراد منكم أن يأْخُذَ متاعه فليأْخذ، فإني لسْتُ خارجًا منها، ولَسْتُ آخُذُ منكم إلاَّ ما صالحْتُكم عليه، غير أنَّ الجُنْد يقيمون فيها.

وقيل: إنه شَرَط عليهم في الصُّلح مائة ألف رأْس وبيوت النيران وحليةَ الأصنام. فقبض ذلك، وأُتي بالأصنام، فأَخَذَ ما عليها، وأمر بها فأُحرقت، فوجد من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مِثْقَال، وأصاب بالصُّغد جاريةً من ولد يزْدجرد، فأرسلها إلى الحجاج، فأرسلها الحجاج إلى الوليد، فولدت له ابْنَه يزيد بن الوليد. ثم رجع قُتَيْبة إلى مرْو، واستعمَل على سمرْقند إياس بن عبْد الله على الحرب، وجعل على الخراج عبيد الله بن أبي عُبيد الله مولى مسلم.

ذكر غزو الشاش وفرغانة

وفي سنة أربع وتسعين قطع قُتَيْبَة النَّهْر وفَرض على أهل بُخارى وكشّ ونَسف عشرين ألف مقاتل، فسارُوا معه، فوجَّههم إلى الشاش، وتوجَّه إلى فَرْغَانة فأتى

(١) الثلمة: الموضع الذي قد انثلم.

خُجَنْدَة[١] فجمع له أهلُها، ولَقُوه، واقتتلوا مِرارًا، كلُّ ذلك يكون الظَّفَرُ للمسلمين. ثم إن قُتيبة أتى كاسان مدينة فَرْغَانة، وأتاه الجنودُ الذين وجَّههم إلى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكْثَرَها، وانصرف إلى مَرْو.

وقال سَحْبَان[٢] يذكر قِتَالَهم بخُجَنْدَة: [من مجزوء الكامل]

وسلِ الفوارس في خُجنْـ ـدةَ تحت مُرْهَفَةِ العوالي
هل كنتُ أجمعهم إذا هُزوا وأُقْدِمُ في قتالي
أم كنت أضْرِبُ هامةَ الْـ ـعاتي وأصْبِرُ للعوَالي[٣]
هذا وأنت قريعُ قَيْـ ـس كُلِّها ضَخْمُ النَّوالِ
وفَضَلْتَ قَيْسًا في النَّدَى وأبوك في الحِجَج الخَوالي[٤]
ولقد تَبيَّن عَدْلُ حُكْـ ـمِك فيهمُو في كلِّ مالِ
تَمَّتْ مروءتكم ونا غَى عِزُّكم غُلْبَ الجِبالِ[٥]

ذكر فتح مدينة كاشغر[٦]

وفي سنة ست وتسعين سار قُتَيبةُ من مَرْو وحمل مع الناسِ عيالاتهم ليضَعهُمْ بسَمرْقَنْد، ومضى إلى فَرْغَانة وبعث جيشًا مع كثير ابن فلان إلى كاشْغَر، فغنم وسبى سَبْيًا، فختم أعناقَهم، وأوْغَل حتى بلغ قُرْب الصِّين، فكتب إليه ملكُ الصين أن ابعَثْ إليّ رجلاً شريفًا يُخْبِرُني عنكم وعنْ دينكم، فانتخب قُتيبة عشرةً لهم جَمالٌ وألسنة وبَأْس وعَقْلٌ وصلاَح، فأمر لهم بعُدَّةٍ حَسنة ومتَاعٍ حسَن من الخزِّ والوشْيِ وغير ذلك، وخيول حسَنة، وكان عليهم هُبَيرة بن مُشَمْرَج الكِلاَبي، وقال لهم قُتيبة: إذا دخلْتُم عليه فأعلموه أنّي قد حَلَفْتُ أنّي لا أنصرف حتى أطَأ بلادَهم، وأختم ملوكهم، وأجْبِي خراجَهم.

فساروا وعليهم هبيرة، فلما قدموا دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابًا بياضًا تحتها

(١) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على نهر سيحون... (المراصد).

(٢) سحبان: هو سحبان وائل، من رجالات سعد بن قيس عيلان، كان خطيبًا بليغًا... (الاشتقاق لابن دريد).

(٣) العاتي: الجبار.

(٤) الحجج الخوالي: السنوات الماضية.

(٥) يناغي الشيء: يدانيه كأنه يحادثه أو يجاريه في علوه.

(٦) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق، وهي في وسط بلاد الترك.

الغَلائَل[١]، وتطيّبوا، ولبسوا النّعالَ والأَرْدِية، ودخلوا عليه وعنده عُظَماء قومِه، فجلسوا فلم يكلِّمْهم المَلِكُ ولا أحد ممن عنده، فنهضوا.

فقال الملك لمن حضره: كيف رأيْتُم هؤلاء؟ قالوا: رأيْنَا قومًا ما هُم إلا نساء. ما بقي منا أَحَدٌ إلاَّ انتشر[٢] ما عنده.

فلما كان الغَدُ دعاهم فلبسوا الوشْي وعمائم الخزِّ والمطارف، وغَدوْا عليه. فلما دخلوا قيل لهم: ارجعوا. وقال لأصحابه: كيف رأيْتُمْ هذه الهيئة؟ قالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال مِنْ تلك.

فلما كان اليوم الثالث دعاهم فلبسوا سلاحهم، ولبسوا البَيض والمغافر، وأخذوا السيوف والرماح والقسِيَّ، وركبوا. فنظر إليهم مَلكُ الصين، فرأى مثل الخيل؛ فلما دنوا ركزوا رماحهم، وأقبلوا مشمِّرين. فقيل لهم: ارجعوا، فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم، ودفعوا خيلهم، كأنهم يتطاردون. فقال الملك لأصحابه: كيف تَرَوْنَهم؟ قالوا: ما رأيْنَا مِثْلَ هؤلاء.

فلما أمسى بعث إليهم أن ابْعَثُوا إليّ زعيمكم، فبعثوا إليه هُبيْرةَ بنَ مُشمْرج، فقال له: قد رأيتمُ عظم مُلْكِي، وأنه ليس أحَدٌ يمنَعُكم مِنِّي، وأنتم في يدِي بمنزلة البيضة في كفِّي. وإني سائلكم عن أمْرٍ، فإنْ لم تصدقوني قَتَلْتُكم. قال: سَلْ. قال: لِمَ صنَعْتم بزيِّكُمْ الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟ قال: أما زِيُّنا الأول فلِبَاسُنا في أهلنا. وأما الثاني فزِيُّنَا إذا أتينا أُمَرَاءنا، وأما الثالث فزِيُّنَا لعدُوِّنا. قال: ما أحسن ما دَبَّرْتُم دَهْرَكم، فقولوا لصاحبكم ينصرف، فإني قد عرفْتُ قلّةَ أصحابِه، وإني بعثْتُ إليكم مَنْ يُهلككم. قال: وكيف يكون قَلِيل الأصحابِ مَنْ أولُ خَيْلِه في بلادِك وآخرها في منابت الزيتون. وأما تخويفُك إيّانا بالقَتْل فإنّ لَنا آجَالاً إذا حضَرتْ فأكْرَمُها القَتْلُ، ولسنا نكرَهُه ولا نخافه، وقد حلف صاحبُنَا ألاّ ينصرف حتى يَطَأ أرضكم، ويختم ملوككم، وتُعْطِي الجزية. قال: فإنَّا نُخْرِجه من يمينه، ونبعث له بتُرَابٍ من أرضنا، فيطَؤه، ونبعث إليه ببَعْض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزْيةٍ يرضاها. فبعث إليه بهديَّة وأربعة غِلْمان من أبناء ملوكهم، وبتُرَابٍ من أرْضِه، وأعادهم وَأحْسنَ جوائزهم. فقدموا على قُتَيبة، فقَبِل ذلك، ووطىء التراب، وختم الغلمان، وردهم، فقال سَوَادة بن عبد الملك السَّلُولي[٣]: [من الكامل]

---

(١) الغلائل: جمع الغلالة، وهو ثوب رقيق يلبس تحت الدثار.

(٢) انتشر الشيء: انبسط؛ وانتشر العصب: انتفخ.

(٣) سوادة بن عبد الملك السلولي: لم نقف على ترجمته فيما وصل إلينا من المظان.

لاَ عيْبَ في الوَفْدِ الذين بَعثْتَهم للصِّين أنْ سلكوا طريقَ المنْهجِ
كسروا الجفونَ على القَذَى خَوْفَ الرَّدى حاشا الكريم هُبَيْرَة بن مُشَمْرَج
أدّى رسالتَك التي استَرْعيْتَه فأتَاكَ مِنْ حِنثِ اليمين بمخْرَج

هذه غزوات قتيبة وفتوحاته.

وكان قُتَيبة إذا رجع من غَزَاته كلَّ سنة اشتري اثني عشر فرسًا من جياد الخيل واثني عشر هجينًا، فَتُخْدَمُ إلى وقت الغزْو، فإذا تأهّب للغَزْوِ ضَمَّرها، وكان يَحْمِلُ عليها الطلائع، وكان لا يجعل الطلائع إلا فُرْسان الناس وأشرافَهم، ويجعل معه مِنَ العجم مَنْ يستنصحه. وإذا بعث طَلِيعةً أمر بلَوح فنُقِشَ ثم شقَّه نِصْفَيْن، وجعل شِقَّه عنده، وأعطى نِصْفَهُ للطليعة، ويأمرهم أن يَدْفِنُوه في موضع يصفُه لهم مِنْ شجرة أو مَخَاضَةٍ أو غيرها، ثم يبعث بعد الطَّلِيعةِ مَنْ يستخرجه ليَعْلَمَ أصدقَتِ الطليعةُ أم لا.

ولنذكر من الغَزَوات والفتوحات في أيام الوليد خلاف ما ذكرنا:

ذكر فتح السند وقتل ملكها
وما يتَّصِلُ بذلك من أخبار العمال عليها

وفي سنة تسع وثمانين قَتل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي داهر بن صَصَّة مِلِك السند، ومَلَك بلاده، وكان الحجاجُ قد استعمله على ذلك الثَّغْرِ وسيَّر معه ستةَ آلاف مقاتل، وجهَّزه بجميع ما يَحْتَاجُ إليه حتى المسالّ والإِبرِ والخيوط، فسار محمد إلى مُكْران، وأقام بها أيامًا، ثم أتى قَنَّزبُور ففتحها ثم سار إلى أرمائيل فقدمها يوم جُمعة، ووافته سفُنٌ كان حَمل فيها السلاحَ والرجالَ والأداة، فأنزل الناسَ منازِلَهم وخَنْدَقَ ونصب عليها مِنْجَنِيقًا يقال له العروس كان يمدّ به خمسمائة رجل، وكان بالدَّيْبُل بُدٌّ[١] عظيم عليه دقَل[٢] عَظِيم، وعلى الدّقَل رَايَةٌ حمراءُ إذا هبَّت الريحُ أطافتْ بالمدينة، والبُدُّ: صنم في بناء عظيم بأعلاه منارةٌ عظيمة مرتفعة، والدَّقَل في رأْسِ المنَارة. فرمى الدَّقَل بحَجر العروس فكسره فتطيّر الكفَّارُ بذلك وأعظموه، ثم فتحها محمدٌ عنوةً بعد قِتَال، وقَتَلَ فيها ثلاثة أيام، وهرب عاملُ داهَر عنها، وأنزلها محمد أربعةَ آلاف من المسلمين، وبنى جامعها، وسار إلى البيرون، وكان أهلها قد بعَثُوا إلى الحجّاج وصالحوه، فلقوا محمدًا بالمِيْرة، وأدخلوه مدينَتهم، ثم سار عنها،

(١) البدّ: الصنم، أو موضع عبادته.
(٢) الدقل: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع.

وجعل لا يمُر بمدينةٍ إلا فتحها حتى عَبَر نهرًا دون مِهْران فصالحه أهل سربيدس، ووظَّف عليهم الخراج، وسار إلى سهبان ففتحها، ثم أتى نهر مِهْرَان فنزل به، وبلغ خبره داهرًا فاستعدَّ لمُحَاربَتِهِ. وبعث محمدٌ جيشًا إلى سدوسان، فطلب أهلُها الأمانَ والصلح فأمَّنهم، ووظّف عليهم الخراجَ، ثم عبر نهر مِهْران مما يلي بلاد راسل الملك على جسْر عقَده، هذا ودَاهر مستخِفٌ به، فلقيه محمد ومَنْ معه وهو على فيل، والفِيَل حوله ومعه الذكاكرة، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا، وترجل دَاهر، وقاتل فقُتِل عند المساء، وانهزم الكفار وقاتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وقال قائلهم: [من الكامل]

الخَيْلُ تشهدُ يوم داهَر والْقَنَا ... ومحمدُ بْنُ القاسم بن مُحمَّدِ
أنّي فرَجْتُ الجَمْع غير مُعرِّدِ ... حتى علوتُ عظيمَهم بمهنَّدِ[1]
فتَركْتُهُ تحت العجاجِ مُجَنْدلا ... متعفِّرَ الخَدَّيْن غير مُوسَّدِ[2]

قال: ولما قُتلَ داهر تغلَّب محمدٌ على بلاد السند وفتح راوَر[3] عنوةً، وكان بها امرأة لداهَر، فخافت أن تؤخذ فأحرقت نَفْسها وجواريها وجميع مالها. ثم سار إلى برهمناباذ العتيقة، وكان المنهزمون من الكفَّار قد لجئوا إليها، ففتحها عنوة بعد قتال، وقَتَل بها بشَرًا كثيرًا، وسار يريد الرُور[4] وبغرور، فلقيه أهل ساونْدعرى، فطَلَبُوا الأمان فأمّنهم واشترط عليهم ضِيَافة المسلمين، ثم أسلم أهلُها بعد ذلك، ثم تقدم إلى بسمد فصالحه أهْلُها، وسار إلى الرُور، وهي من مدائن السند على جَبَلٍ، فحاصرهم شهورًا فصالحوه، وسار إلى السكة[5] ففتحها، ثم قطع نهر بَيَاس إلى المُلْتان، فقاتله أهْلُها وانهزموا، فحصرهم، وجاء إنسان فدلَّه على قَطْعِ الماء الذي يدخل المدينة، فقطعه فعطشوا وألْقَوْا بأيديهم، ونزلوا على حُكْمه، فقتل المقاتلة وسبى الذُّريّة وسدَنَةَ البُدِّ، وهم ستةُ آلاف، وأصابُوا ذَهَبًا كثيرًا، فجُمع في بيتٍ طُوله عشرة أذرع وعرْضُه ثمانية أذرع يُلْقَى إليه من كُوَّة في وسطه، فسمِّيت المُلْتان فَرْج بيت الذهب، والفَرْجُ: الثغر، وكان بُدُّ المُلْتان تُهْدَى إليه الأموالُ من كل مكان ويُحَجُّ إليه من البلاد، ويَحْلِقُون عنده رؤوسَهم ولِحَاهم، ويزعمون أنَّ صنمه هو أيوب النبي عليه الصلاة والسلام.

(١) يقال: عرّد عن قرنه: إذا نكل وأحجم، أو هرب.
(٢) العجاج: الغبار. (٣) راور: مدينة كبيرة بالسند.
(٤) الرور: ناحية من نواحي الأهواز. أو ناحية بالسند تقرب من الملتان، وهي على شاطىء نهر مهران.
(٥) السكة: مدينة دون بياص.

وعظُمَتْ فتوحاتُه، فنظر الحجاج في النفقة على ذلك الثغر، فكانت ستين ألف ألف درهم، ونظر إلى الذي حُمِل إليه منه فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف، فقال: ربحْنَا ستين ألف ألف، وأدركنا ثأْرَنَا ورَأْسَ دَاهَر.

قال: واستمر محمد بن القاسم بالهند إلى أن مات الحجاج في سنة خمس وتسعين، فأتاه الخبر وهو بالمُلْتَان فرجع إلى الرُّور والبغرور، فأعطى الناس، ووجّه إلى البَيْلَمَان[1] جيشًا، فأعطوا الطاعة من غير قتال، وسالمه أهل شرشت، ثم أتى محمد الكيرج، فخرج إليه دَوْهر فقاتله فانهزم دوْهر. وقيل: بل قُتل، فنزل أهْلُ المدينة على حكم محمد، فقتَل المُقَاتلة، وسبَى الذريّة؛ فقال شاعرهم: [من الرجز]

نحن قتلنا داهرًا ودَوهرَا ... والخيل تردي منسرًا فمنسرا

قال: ولما مات الوليدُ بن عَبْد الملك ووُلِّي سليمان عزَل مُحَمَّد بْنَ القاسم عن السند، واستعمل يزيد بن أبي كَبْشَة السكسي على السند، فأخذ محمدًا وقيَّدَهُ وحملَه إلى العراق، فقال متمثّلاً: [من الوافر]

أضَاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعُوا ... ليَوْمِ كَرِيهةٍ وسِدادِ ثَغْر

فبكى أهْلُ السند.

ولما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمٰن بواسط فقال: [من الكامل]

فلئِن ثَويْتُ بواسطٍ وبأرضها ... رَهْن الحديد مُكبّلاً مغلولا

فلربّ قَيْنَة فارسٍ قد رُعْتُها ... ولرب قِرْنٍ قد تركتُ قَتِيلا[2]

قال: فعذَّبَهُ صالح في رجالٍ من آل أبي عقيل حتى قتلهم، فقال حمزة بن بيْض يرثي محمدًا: [من الكامل]

إنّ المروءةَ والسماحةَ والندَى ... لمحمد بن القاسم بن محمدِ

ساسَ الجيوشَ لسبْع عشرة حجةً ... يا قُرْب ذلك سُؤددًا من مولدِ

قال: وأما يزيد بن أبي كَبْشَة فإنه مات بعد مقدمه إلى السند بثمانية عر يومًا، فاستعمل سليمانُ على السندِ حبِيبَ بن المهلب، فقدم السند وقد رجع الملوكُ إلى ممالكهم، ورجع حيْسَبة بن داهر إلى برهمنا باذ، فنزل حبيب على شاطىء مِهْران، وحارب قومًا فظفر بهم.

---

(١) البيلمان: ناحية من بلاد السند والهند تنسب إليها السيوف البيلمانية.

(٢) القينة: الأمة صانعة أو غير صانعة، وغلب على المغنية.

ثم مات سليمان، وولي عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى الملوك يدْعُوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولَهُمْ ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فأسلم حيَسبَةُ والملوك، وتسمَّوْا بأسماء العرب، وكان عمْرو بن مسلم الباهلي عامِل عُمر على ذلك الثغر، فغزا بَعْضَ الهند فظفر بهم، ثم ولّي الجُنَيْد بن عَبْد الرحمٰن السند أيام هشام بن عبد الملك، فأتى شطَّ مِهْران فمنعه حيْسَبة بن داهر من العُبور، وأرسل إليه: إني قد أسلمْتُ وولاَّنِي الرجلُ الصالح بلادِي، ولست أمكنك. فأعطاه رهنًا، وأخذ منه رهنًا على خراج بلادِه، ثم ترادَّ الرهون وكفر حيسبة، وحارب.

وقيل: لم يحارب، وإنما الجُنَيْد تجنَّى عليه، فأتى الهنْدَ، فجمع جموعًا وأعدّ السفن، واستعدّ للحرب، فسار إليه الجُنَيْد في السفُن، فالتقوا، فأُسر حيْسبة فقتله الجُنَيْد، وهرب صصَّة بن دَاهر، وهو يريدُ أن يمضيَ إلى العراق فيشكو غَدْر الجُنَيْد، فلم يزل الجُنَيْد يُؤْنِسه حتى وضع يده في يده فقتله.

وغزا الجنيد الكيرج؛ وكانوا قد نقضوا، فظَفر ودخل المدينة فغنم وسبى، ووجّه العمالَ إلى المرمَد والمنْدل[1] ودهْنَج[2]، ووَجَّه جيشًا إلى أزين فأغاروا عليها، وحَرَقوا ربضها، وفَتَح الجُنَيْد البيْلَمان، وحصل عنده سوى ما حِمْله أربعون ألف ألف، وحمل مِثْلَها.

وفي أيامه خرج المسلمون عن بلادِ الهند. ثم ولى الحكم بن عوام الكَلْبي، وقد كفر أهل الهِنْد إلاَّ أهل قَصَّة، فبنى مدينة سماها المحفوظة، وجعلها مأوى للمسلمين، وكان معه عَمْرو بن محمد بن القاسم فأغْزَاه من المحفوظة، فقدم عليه وقد ظهر أمْرُه، فبنى مدينةً وسمَّاها المنصورة، واسترجع ما كان غلب عليه العدوّ، ثم قتِل الحكم، فكان العمال يقاتلون العَدُوّ، ويفتتحون ما تيسر لهم لضَعْفِ الدولةِ الأُموية، ثم جاءت الدولةُ العباسية فكان من أمْرِ السند ما نذكره إن شاء الله تعالى، وإنما ذكَرْنَا أخبار السند ههنا لتكون متَّسِقَةً، فلنرجع إلى تَتِمَّةِ الغَزَوات في أيام الوليد بن عبد الملك:

ذكر الغزوات إلى بلاد الروم وما فتح منها وغزوات الصوائف على حُكم السنين

في سنة ست وثمانين غزا مسلمة بن عبْد الملك أرضَ الروم. وغزا أيضًا في

(١) المندل: بلد بالهند.

(٢) دهنج: بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده نون مفتوحة وجيم: من بلاد الهند.

سنة سبع وثمانين، فقتَل منهم عَدَدًا كثيرًا بِسُوسَنة من ناحية المصِّيْصة[١] وفتح حصونًا.

وقيل: إن الذي غَزَا في هذه السنة هشام بن عبْد الملك، ففتح حِصْن بولق، وحصن الأفرم، وحصن بولس وقَمقَم، وقَتَل من المستعربة نحوًا من أَلْف مقاتل، وسبى ذرِّيَتَهُم ونساءهُم. والله أعلم.

ذكر فتح طوانة[٢] وغيرها من بلد الروم

وفي سنة ثمانٍ وثمانين غزا مسلمة بن عَبْد الملك والعباس بن الوليد بلد الروم، وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية يأْمرُه أن يكتبَ إلى ملك الروم يعرِّفُه أنّ الخَزَر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد أجمعوا على قَصْد بلاده ففعلوا ذلك، وقطع الوليدُ البعْثَ على أهل الشام إلى أرمينية، فتجهَّزُوا، وساروا نحو الجزيرة، ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم فاقتتلوا هم والروم، فانهزم الرومُ، ثم رجعوا فانهزم المسلمون، وبقي العباس في نفرٍ، فنادى: يا أهل القرآن؛ فأقبلوا جميعًا، فهزم الله الرُّومَ حتى دخلوا طُوَانَة، وحصرهم المسلمون وفتحوها في جُمادى الأُولى منها.

ثم غزا مسلمة والعباس الروم في سنة تسع وثمانين، فافتتح مسلمة حِصْن سوريَة، وافتتح العباس أذروليَة، ولقي من الروم جمْعًا فهزمهم.

وقيل: إن مسلمة قصد عمُّورية، فلقي بها جمعًا كثيرًا من الروم فهزمهم وافتتح هرقْلية وقمولية. وغزا العباس الصائفة من ناحية البُدَنْدُون، وغزا مسلمة الترك من ناحية أذَربيجان، ففتح حصونًا ومدائن هناك، وذلك في سنة تسع وثمانين أيضًا.

وغزا مسلمة الروم في سنة تسعين، ففتح الحصون الخمسة التي بسورية.

وغزا العباس حتى بلغ أرْزَن[٣] وبلغ سورية.

وفي سنة إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد الصَّائفة، وكان على ذلك الجيش مسلمة بن عبد الملك.

---

(١) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس... (معجم البلدان).

(٢) طوانة: بضم أوله، وبعد الألف نون: بلد بثغور المصيصة... طولها ست وستون درجة وعرضها ثمان وثلاثون درجة... (معجم البلدان).

(٣) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. وأرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينية... (معجم البلدان).

وغزا مسلمة الترك في هذه السنة من ناحية أذْرَبيجان حتى بلغ الباب، وفتح مدائنَ وحصونًا، ونصب عليها المجانيق. وغزا مسلمة أرض الروم في سنة اثنتين وتسعين، ففتح حصونًا ثلاثة، وجَلاَ أَهْلُ سُوسَنَة إلى بلاد الروم.

وفيها كان فتح الأندلس على يَدِ طارق بن زياد مولى موسى بن نُصير على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار المغرب، وغُزِيت جزيرة سرْدَانية وسنذكر ذلك أيضًا إن شاء الله.

وغزا العباس الرومَ في سنة ثلاث وتسعين، ففتح سَبَسْطِيَة[١] المرزبانيين.

وغزا مَرْوان بن الوليد الروم فبلغ خَنْجرة[٢]، وغزا مسلمة ففتح مَاسِيَة وحِصْنَ الحدِيد. وغزالة مِنْ ناحية مَلَطْيَة.

وغزا العباسُ بْنُ الوليد الروم ففتح أنطاكية في سنة أربع وتسعين. وغزا العباس في سنة خمس وتسعين، ففتح هِرَقْلَة وغيرها، وفيها قُتل الوَضَّاحي بأرضِ الروم ونحو ألف رَجُل معه.

انتهت الغزوات في أيام الوليد بن عبد الملك. فلنذكر خلاف ذلك من الحوادث على حُكْم السنين:

ذكر الحوادث الكائنة في أيام الوليد بن عبد الملك خلاف ما قدمناه

سنة ست وثمانين:

في هذه السنة حبس الحجاج بن يوسف يزيد بنَ المهلب بن أبي صُفرة، وعزَل حبيب بن المهلب عن كِرْمَان وعبد الملك عن شرطته.

وحَجّ بالناسِ هشام بن إسماعيل المخزومي.

سنة سبع وثمانين:

في هذه السنة عزل الوليدُ بْنُ عبد الملك هشام بنَ إسماعيل عن المدينة لسبع ليالٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول، واستعمل عُمَرَ بن عَبْدِ العزيز، فقدمها في الشهر، وثَقَلُه على ثلاثين بعيرًا، فنزل دَار مَرْوَان، وأَحْسَنَ السيرة في الناس، واستعان بفقهاء

(١) سبسطية: مدينة قرب سميساط.
(٢) خنجرة: ناحية من بلاد الروم.

المدينة، وحَرَّضهم على أنْ يبلِّغوه ما يَبْلُغهم من أخبر عُمّاله، وأن يُعِيْنُوه على الحقِّ، وقال: إني أُريد ألاَّ أقطع أمْرًا دُونكم.

وحج عُمر بالناس في هذه السنة، وكان على قضاء المدينة أبو بكر بن عَمْرو بن حَزْم، وعلى قضاء البصرة عبد الله بن أُذينة، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم.

سنة ثمان وثمانين:

ذكر عمارة مسجد النبي ﷺ والزيادة فيه

في هذه السنة كتب الوليدُ إلى عُمرَ بن عبد العزيز في شهر ربيع الأول يأمره بإدخال حُجَر أزواج النبيِّ ﷺ في المسجد، وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكونَ مائتي ذراع، ويقول له: قَدِّم القِبْلَةَ إن قدَرْتَ، وأنت تقدرُ لمكان أخوالك؛ فإنهم لا يخالفونك، فمَنْ أَبَى منهم فقوِّموا مِلكَه قيمةَ عدْلٍ، واهْدِمْ عليهم، وادفع الأثمانَ إليهم، فإنّ لكَ في عُمر وعثمان رضي الله عنهما أُسوة.

فأحضرهم عمر وأقْرَأهم الكتاب، فأجابوا إلى أخْذِ الثمن؛ فأعطاهم إياه، وهَدَم الحُجر، وأرسل الوليد الفَعَلة من الشام، وبعث إلى ملكِ الروم يُعْلمه أنه قد هدم مَسْجِد النبي ﷺ ليعمُرَهُ، فبعث إليه الروم مائةَ ألفِ مثقال من ذَهَبٍ ومائة عامل، وبعث إليه من الفُسيفساء بأربعين جَمَلاً. فبعث الوليدُ بذلك إلى عُمر بن عبد العزيز، وحضر عُمَرُ ومعه الناس، فوضعوا أساسه.

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل البناء وحَفر الآبار، وأمره أن يعمل الفوّارة بالمدينة، فعملها وأجرى ماءها، وكتب إلى البُلْدَانِ جميعِها بإصلاح الطُّرق وعَمل الآبار.

وفيها منع الوليد المُجذَّمِين[١] من الخروج على الناس، وأجرى لهم الأرزاقَ.

وحجّ بالناس عمر بن عبد العزيز، ووصل جماعةً من قريش، وساق معه بُدْنًا[٢]، وأحرم من ذي الحُلَيْفَة[٣]، فلما كان بالتَّنْعيم أُخْبِرَ أنَّ مكَّةَ قليلةُ الماء، وأنهم

---

(١) المجذم: الذي أصابه الجذام، وهي علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٢) البدن: جمع البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانًا.

(٣) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة... (معجم البلدان).

يخافون على الحاجّ العَطَش. فقال عُمَرُ: تعالوا ندْعُوا الله تعالى؛ فدعا ودعا معه الناس، فما وصلوا إلى البيت إلاّ مع المطر، وسالَ الوادِي، فخاف أهْلُ مكَّةَ مِنْ شِدَّته، ومُطِرت عرفة ومكة، وكثر الخِصْبُ. وقيل: إنما حَجّ هذه السنة عمر بن الوليد والله أعلم.

سنة تسع وثمانين:

ذكر ولاية خالد بن عبد الله القسري مكة وما خطب الناس به وقاله

وفي هذه السنة ولّي خالدُ بن عبْد الله القَسْري، فخطب أهلها فقال: أيها الناس، أيهما أعظَمُ، أخليفة الرجل على أهله أو رسوله إليهم؟ والله لو لم تعلموا مِنْ فَضْلِ الخليفة إلاّ أنَّ إبراهيمَ خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام استسقاه فسقاه مِلْحًا أُجَاجًا[1]، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذْبًا فُراتًا، يعني بالملح زَمْزَم، وبالماء الفُرات بئرًا حفرها الوليد بثنية طُوى في ثنية الحجُون، فكان ماؤها عَذْبًا، وكان ينقل ماءها ويضعه في حوْضٍ إلى جنب زمزم ليُعْرَف فَضْلُه على زمزم، فغارت البئر وذهب ماؤها.

وقيل: كانت ولايةُ خالد في سنة إحدى وتسعين. وقيل سنة أربع.

وحج بالناس في هذه السنة عُمر بن عبد العزيز.

سنة تسعين:

ذكر هرب يزيد بن المهلب وإخوته من سِجْن الحجاج

في هذه السنة هرب يزيدُ بن المهلب وإخوته، وكان الحجاجُ قد خرج إلى رُسْتَقُبَاذ[2] للبعث، لأنَّ الأكْرَاد كانوا قد غَلَبُوا على فارس، وأخرج معه يزيد بن المهلب وإخوته، وجعل عليهم مِثْلَ الخَنْدَق، وجعلهم في فُسْطَاطٍ قريبٍ منه، وجعل عليهم الحَرَس مِنْ أهل الشام، وطلب منهم ستةَ آلافِ ألْفٍ، وعَذَّبهم؛ فكان يزيد يَصْبِرُ صَبْرًا حسنًا، فكان ذلكَ مما يَغيظُ الحجاج، فقيل له: إنه رُمِيَ في ساقه بنُشَّابة

(١) الأجاج: ما يلدغ الفم بمرارته أو ملوحته.

(٢) رستقباذ: بلدة في فارس... وقيل: بالأهواز.

فثبَتَ نَصْلُها فيه فهو لا يمسّها شيء إلاَّ صاح، فأمر أن يُعَذَّب في ساقِه، فعذب، فصاح، فسمعَتْه أُخْتُه هِنْد، وكانت عند الحجاج فصاحت، فطلقها الحجاج، ثم كفّ عنهم وجعل يَسْتَأْدِي منهم المال، فصنع يزيد للحرس طعامًا كثيرًا وأمر لهم بشَرَابٍ، فسُقوا، واشتغلوا، فلبِسَ يزيد ثيابَ طبّاخِه وخرج، وقد جعل له لحيةً بيضاء، فرآه بعْضُ الحرس، فقال: كأنَّ هذه مشية يزيد، فلحقه فرأى لِحْيَته بيضاء، فتركه، وعاد وخرج المفضَّلُ ولم يُفطَن له، وكذلك عبد الملك، فجاؤوا إلى سفن مُعَدَّة فركبوها، وساروا ليلتَهم.

ولما أصبح الحجاجُ وعَلِم بهم الحرس رفعوا أمْرَهم إليه ففزع، وظن أنهم قصدوا خراسان لفتْنَةٍ، فبعث إلى قُتيبة يأمُرِ بالجدِّ والاحتياط.

ولما دنا يزيدُ وإخوته من البطائح استقبلَتْهم خَيْلٌ قد ضُمِّرت وأُعِدَّت لهم، فركبوها ومعهم دَلِيلٌ من كلْب، فأخذوا على السَّمَاوة[1] إلى الشام، فأتى الحجاجَ الخبرُ، فكتب إلى الوليد يُعْلِمه. وسار يزيد حتى قدم فلسطين، فنزل على وُهيب بن عبد الرحمٰن الأزْدِي، وكان كريمًا على سليمان بن عبد الملك، فجاء وُهيب إلى سليمان فأعلمه بحال يزيد وإخوته، وأنهم قد استعاذُوا به من الحجاج. قال: فأْتني بهم، فإنهم آمنون لا يوصل إليهم وأنا حيّ. فجاء بهم إليه فكانوا عنده في مكانٍ آمنٍ.

وكتب الحجاج إلى الوليد: إنَّ آلَ المهلب خانُوا مال الله وهربُوا مِنِّي، ولحقوا بسليمان.

فلما علم أنهم عند أخيه سكنَ بَعْضُ ما بِه، وكتب إليه سليمان: إنَّ يزيدَ عِنْدي وقد أمَّنْتُه، وإنما عليه ثلاثةُ آلافِ ألفٍ، لأن الحجاج أغْرَمه ثلاثة آلاف ألف، والذي بَقِي عليه أنا أُؤَدِّيه.

فكتب الوليدُ: واللّهِ لا أُؤمِّنُه حتى تبعثَ به إليّ. . .

فكتب سليمان: لئن بعثتُ به إليك لأجيئنَّ معه.

فكتب إليه: والله لئن جئتَني لا أُؤمنه. فقال يزِيدُ بن المهلَّب: أرْسلْني إليه، فوالله ما أُحِبُّ أن أُوقعَ بينك وبينه عَداوة، واكتُبْ معي بألطف ما قدرْتَ عليه. فأرسله، وأرسل معه ابْنَه أيوب.

(١) السماوة: بفتح أوله. وبعد الألف واو: بادية السماوة هي بين الكوفة والشام قفرى. . وقيل: سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها. . والسماوة: ماء بالبادية، وقيل: السماوة: ماء لكلب. . . (معجم البلدان لياقوت).

وكان الوليدُ قد أمَره أن يَبْعَثَ به مُقَيَّدًا. فقال سليمانُ لابْنِه: إذا دخلْت على أمير المؤمنين فادخُلْ أنتَ ويزيدُ في سلسلةٍ. ففعل ذلك، فلما رأى الوليدُ ابْنَ أخيهِ في سلسلةٍ قال: لقد بلَغْنَا من سليمان.

ودفع أيوبُ كتابَ أبيه إلى عَمِّه، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تُخْفِر ذمَّةَ أبي، وأنت أحقُّ مَنْ منعها، ولا تَقْطَعْ مِنَّا رجاءَ مَنْ رجا السلامَةَ في جِوارِنا لمكاننا منك، ولا تُذل مَنْ رَجَا العِزَّ في الانقطاع إلينا لعِزِّنا بك.

فقَرَأ الوليدُ كتابَ سليمان فإذا هو يستَعْطِفُه ويشفَع فيه، ويضمَنُ إيصالَ المال.

فقال: لقد شقَقْنَا على سليمان.

وتكلم يزيد واعتذر، فأمَّنهُ الوليدُ، وردّه إلى سليمان، وكتب إلى الحجاج: إني لَم أصِلْ إلى يزيد وأهله لمكانهم مِنْ سليمان، فاكفُفْ عنهم، وكان أبو عُيَيْنَة بن المهلَّب عند الحجاج عليه ألف ألف، فتركها له، وكَفَّ عن حبيب بن المهلب، وكان يُعذَّبُ بالبصرة، وأقام يزيد عند سليمان في أرْغَدِ عيش، وكان لا تَصِلُ إليه هديَّةٌ إلاَّ بعث بنصفها إلى يزيد، ولا تعجبه جارية إلا بعث بها إليه، وكان يزيدُ إذا أتته هدية بعث بها إلى سليمان.

وفي هذه السنة استعمل الوليد قُرَّةَ بْنَ شَريك على مِصْر، وعزل أخاه عَبْدَ الله عنها.

وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحْرِ، فأهداه ملكهم إلى الوليد.

وحج بالناس عمر بن عبد العزيز.

وفيها مات أَنَسُ بن مالك رضي الله عنه الأنصاري وقيل: سنة اثنتين وتسعين، وكان عمره سِتًّا وتسعين سنة، وقيل مائة وست سنين.

سنة إحدى وتسعين:

في هذه السنة حَجّ الوليدُ بن عبد الملك بالناس، فلما قدم المدينة دخل المسجد ينظر إلى بنائه، فأخرج الناسَ منه، ولم يبْقَ غَيْر سعيد بن المسيّب، لم يجسر أحد من الحَرس أنْ يخرِجَه، فقيل لهُ رضي الله عنه: لو قُمْتَ. فقال: لا أقوم حتى يأْتي الوقتُ الذي كنتُ أقوم فيه. قيل له: فلو سلَّمْتَ على أمير المؤمنين. قال: لا، والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعْدِلُ بالولِيدِ في ناحيةِ المسجد لئلا يَراهُ، فالتفت الوليدُ إلى القِبْلَةِ، فقال: منْ ذَلِكَ الشيخ: أهو سعيد؟ قلت: نعم. ومِنْ حاله كذا وكذا، ولو علم بمكانك لقام فسلَّم عليك.

فقال الوليدُ: قد علمت حاله، نحن نأتيه، فأتاه فقال: كيف أنْتَ أيها الشيخ؟ فواللّهِ ما تحرّك سَعيد. فقال: بخير والحمد لله؛ فكيف أمير المؤمنين؟ وكيف حالُهُ؟ فانصرف وهو يقولُ: هذا بقِيَّةُ الناس. وقسم الوليدُ بالمدينة رقيقًا[1] كثيرًا وآنية مِنْ ذهبٍ وفضة وأموالاً، وصَلّى بالمدينة الجمعة، وخطب الخطبة الأُولى جالسًا والثانية قائمًا.

وفيها عزل الوليد عامله محمد بن مرْوَان عن الجزيرة وأرمينية، واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك، فغَزَا الترك كما تقدم.

سنة اثنتين وتسعين:

في هذه السنة حَجّ بالناس عمر بن عبد العزيز وهو على المدينة وكان من الغزوات والفتوحات ما تقدم ذكره.

سنة ثلاث وتسعين:

ذكر عزل عمر بن عبد العزيز

في هذه السنة عزل الوليدُ عُمَر بن عبد العزيز عن الحجاز والمدينة، وكان سبَبُ ذلك أنَّ عُمر كتب إلى الوليد يُخْبره بعسْفِ الحجَّاج وظُلْمِه، فبلغ ذلك الحجاج، فكتب إلى الوليدِ: إن مَنْ عندي منَ المُرّاق[2] وأهل الشقاق قد جَلَوْا عن العِرَاقِ ولحقُوا بالمدينة ومكة، وإن ذلك وَهن.

فكتب إليه الوليدُ يستشيره فيمَنْ يُوَلِّيه المدينةَ ومكة، فأشار بخالِدِ بن عَبْد الله القَسْري وعثمان بن حَيّان، فولى خالدًا مكة وعثمانَ المدينة، فلما قدم خالدٌ مكة أخرج مَنْ بها من أهْلِ العراق كرهًا، وتهدَّدَ مَنْ أنزل عِرَاقيًا أو أجره دارًا. وقيل: كان ذلك قبل هذا التاريخ. والله أعلم.

وفيها كتب الوليد إلى عمر قبل عزْله يأمره أن يضرب خُبَيْب بن عبْد الله بن الزُّبير، ويَصُبّ على رأْسه ماءً باردًا، فضربه خمسين سَوْطًا. وصبَّ على رأسه ماءً باردًا في يوم شاتٍ، ووقفه على باب المسجد، فمات من يومه.

وحج بالناس عبد العزيز بن الوليد.

---

(١) الرقيق: الدقيق اللطيف؛ أو المملوك كله أو بعضه.

(٢) المرّاق: جمع المارق وهو الخارج من دينه.

سنة أربع وتسعين:

ذكر مقتل سعيد بن جبير رضي الله عنه

في هذه السنة قَتَلَ الحجاجُ بن يوسف سَعِيدَ بن جُبير، وهو أبو عبْد الله سعيد بن جُبَيْر بن هشام الأسَدي مولى بني والبة: بطْنٌ من بني أسد بن خزيمة.

وكان سببَ قَتْله خروجُه مع عبْد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وكان الحجاجُ قد جعله على عطاء الجُنْدِ حين وجّه عبْدَ الرحمٰن لقتال رُتْبِيل، فلما خلع عبد الرحمٰن الحجاج وعبد الملك كان سعِيدٌ ممن خلع؛ فلما هزِم عَبد الرحمٰن هرب سَعِيد إلى أصبهان، فكتب الحجاجُ إلى عامِلها يأمره بإرساله، فتحرّج العاملُ من ذلك، وأرسل إلى سَعِيد يُعَرِّفُه أن يفارِقَ البلد، فخرج إلى أذْرَبِيجان ثم خرج إلى مكة، فكان بها حتى قدم خالدُ بن عَبْدِ الله مكة، وأخرج أهْلَ العراق إلى الحَجَّاج، فأُخذ سَعِيد فيمن أخذ، وسيره إلى الحجاج مع حَرَسيَّيْن[1]، فانطلق أحَدُهما لحاجته في بعض الطريق وبقي الآخر فنام واستيقظ. فقال لسعيد: إني أبرأُ إلى الله مِنْ دَمِك، إني رأيتُ في منامِي قائلاً يقول لي: ويلك! تَبرأْ إلى الله مِنْ دَم سَعيد بن جُبَيْر، فاذْهبْ حيث شئتَ، فإني لا أطْلُبك، فأبى سَعيد ذلك، ورأى الحَرَسِيُّ ذلك ثلاث مرات وهو يكرّر القولَ على سَعيد في الذهاب فلا يفعل. ثم قدم الكوفةَ فأُدخل على الحجاج، فلما رآه قال: لعنَ اللّهُ ابْنَ النصرانية ـ يعني خَالد بن عبْد الله ـ أما كنت أعرف مكانه، بلى والله والبيت الذي كان فيه بمكة. ثم أقبل عليه وقال: يا سعيد، ألم أُشركك في أمانتي؟ ألم أستعملك؟ قال: بلى. قال: فما أخْرَجَك عليّ؟ قال: إنما أنا امرؤٌ من المسلمين يُخْطىء مَرَّةً ويُصِيب مرة. فطابت نَفْسُ الحجاج، ثم عاوده في شيء، فقال: إنما كانت بَيْعتُه في عُنقي. فغضب الحجاجُ وانتفخ. وقال: يا سعيد، ألم أقدم مكة فقتلْتُ ابْنَ الزبير وأخَذْتُ بيعَةَ أهلها، وأخذْتُ بيعتَك لأمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: بلى. قال: ثم قدمتُ الكوفة والِيًا فجدّدْتُ البيعة فأخذت بيْعَتَك ثانيًا؟ قال: بلى. قال: فنكثْتَ بيعَتَيْن لأميرِ المؤمنين، وتُوفي بواحدةٍ للحائك ابن الحائك، والله لأقتلنْك. قال: إني إذًا لسعيد كما سمَّتْني أُمي، فأمَر به فضُرِبَتْ رقَبَتُهُ. فلما سقط رأْسه هلل ثلاثًا؛ أفصح بِمَرَّة ولم يُفْصح بمرَّتَيْن، والتبس عَقْل الحجاج فجعل يقول:

---

(١) الحرسيّ: واحد الحرس، وهم الجند، يرتبون لحفظ الحاكم وحراسته.

قيودُنا قيودُنا، فظنوا أنه يُريد القيودَ، فعطفوا رِجْلَيْ سعيد من أنصاف ساقيه وأخذوا القيودَ.

وكان الحجاج إذا نَامَ يراه في مَنامه يأْخذ بمجامع ثوبه، فيقول: يا عدوَّ اللّهِ، فيما قتلْتَني، فيقول: ما لي ولسعيد بن جُبير! ما لي ولسعيد بن جُبَير! يكررها.

وفيها كانت الزلازلُ بالشام فدَامَتْ أربعين يومًا، فخربت البلاد، وكان معظم ذلك بأنطاكية.

ذكر وفاة زين العابدين علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ونبذة من أخباره

كانت وفَاتُه بالمدينة في أول سنة أربع وتسعين. وقيل في سنة اثنتين. وقيل سنة ثلاث. وقيل سنة تسع وتسعين. وقيل سنة مائة. حكى هذا الاختلاف أبو القاسم بن عساكر[1] في تاريخ دِمشق، واقتصر ابنُ الأثير الجزري على سنة أربع وتسعين دونَ غيرها.

وكان رَحِمه الله يُكْنَى أبا عبد الله، ويقال أبو محمد، ويقال أبو الْحَسَن، ويقال أبو الحُسَين زَيْن العابدين. ومولده سنة ثلاث وثلاثين، وأُمه أُمّ ولد اسمها غَزَالة خلف عليها بعْدَ الحُسَين زُيَيْد مولى الحسين، فولدت له عبد الله بن زُيَيْد.

وقال إسماعيل بن موسى السُّدِّي: عَبْد الرحمٰن بن حبيب أخو عليّ بن الحسين لأبيه، وكان رحمه الله ثقة وَرِعًا مأْمونًا كَثِيرَ الحديث مِنْ أفْضل أهل بيته وأحسنهم طاعةً.

حكى أبو القاسم بن عساكر في تاريخه عن الزهري، قال: شهدْتُ عليَّ بنَ الحسين يوم حَمَلَهُ عَبْدُ الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأوثقه حَدِيدًا، ووكل به حُفَّاظًا فاستأْذنتهم في التسليم عليه والتوديع له فأذنوا لي فدخلْتُ عليه، وهو في قُبَّةٍ والقُيودُ في رجليه والغُلُّ في يديه، فسكنت وقلت: وَدِدْتُ أني مكانك وأنْتَ سليم.

(١) هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، الدمشقي الملقب ثقة الدين، كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية... صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق «تاريخ بغداد».. كانت ولادته سنة ٤٩٩هـ وتوفي سنة إحدى وسبعين وخمسماية بدمشق... (وفيات الأعيان ٣:٣٠٩).

فقال: يا زُهْرِيّ[١]، أوتظنُّ هذا مما تَرَى عليَّ وفي عنقي. أما إني لو شئْتُ ما كان. ثم أخْرَجَ يدَيْه من الغُلّ ورِجْلَيْهِ من القَيْد.

ثم قال: يا زهريّ، جُزْتُ معهم على هذا منزلتين من المدينة. فما لبثنا إلا أرْبع ليالٍ حتى قدم الموكَّلُون به يطلبونَه بالمدينة، فما وَجَدُوه، فكنْتُ فيمن سألهم عنه، فقال لي بَعْضُهم: إنا نَراه متبوعًا، إنه لنازِلٌ ـ ونحن حَوْلَه لا ننامُ نَرْصُده ـ إذ أصبحنا، فما وَجَدْنَا إلا حديدَه.

قال الزهري: فقدمْتُ بعد ذلك على عَبْد الملك فسألني عن عليّ بن الحسين، فأخْبَرْتُه، فقال لي: إنه قد جاءني في يوم فَقَدَهُ الأعوان، فدخل عليّ، فقال: أنا وأنت! فقلْتُ: أقِمْ عندي. فقال: لا أُحبُّ، فخرج، فواللّهِ لقد امتلأ ثَوْبِي منه خِيْفَةً.

قال الزهري: فقلت: يا أمِير المؤمنين، ليس عليّ بْنُ الحسين حيثُ تظنُّ، إنه لمشغولٌ بنفسه. فقال: نعم.

وقيل: وقع حريقٌ بالمدينة في بيتٍ فيه عليّ بن الحسين، فجعلوا يقولون: يا ابْنَ رسولِ اللّهِ، النار! فما رفع رَأْسَه حتى أُطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاكَ عنها؟ قال: ألهاني عَنْها النارُ الأُخرى..

وقيل: كان إذا مشى لا تجاوِزُ يَدُه فخذيه، ولا يَخْطر بيده. وكان إذا قام إلى الصلاة أخذَتْه رعدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: ما تَدْرُون بين يَدَيْ مَنْ أقوم ومَنْ أُناجي.

قيل: وكان إذا توضَّأ اصفرّ فيقول له أهله: ما هذا الذي يَعْتَادُك عند الوضوء؟ فيقول: تَدْرُونَ بين يَدَي مَنْ أُريد أقوم؟

وعن سُفْيَان بن عُيَيْنة[٢] قال: حَجَّ علي بن الحسين، فلما أحْرَم واستوَتْ به راحِلَته اصفرَّ لَوْنُه وانتفض، ووقع عليه الرعْدَةُ، ولم يستطع أن يُلَبّي. فقيل له: ما لك لا تُلَبّي؟ فقال: أخْشَى أنْ أقول لَبّيْكَ، فيقول لي: لا لَبّيْك. فقيل له: لا بُدَّ مِنْ هذا. فلما لَبّى غُشِي عليه، وسقَط مِنْ راحلته، فلم يَزَلْ يَعْتَريه ذلك حتى قَضَى حَجَّه.

---

(١) الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة... (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧).

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولى امرأة من بني هلال بن عامر رهط ميمونة زوج النبيّ ﷺ وقيل مولى بني هاشم، وقيل مولى الضحاك بن مزاحم، وقيل مولى مسعر بن كدام، وأصله من الكوفة... وكان مولده بالكوفة سنة ١٠٧هـ وتوفي سنة ١٩٨هـ بمكة، ودفن بالحجون... (الوفيات ٢: ٣٩١).

وقيل: كان رضي الله عنه يُصَلِّي في كلّ يوم وليلةٍ ألْفَ ركعة إلى أن مات رضي الله عنه.

وكان يُسَمَّى بالمدينة زَيْن العابدين لعبادته. وقيل: إنه قاسم اللّهَ مالَه مَرَّتَيْن، وكان يحمل الخُبْزَ على ظَهْرِه يتبع به المساكين في ظُلْمَة الليل، ويقول: إن الصَّدَقَةَ في ظلمة الليل تطفىءُ غَضَب الرّبِّ.

وأعْتَقَ غلامًا أعطاه به عَبْدُ الله بن جعفر عشرةَ آلاف درهم وألف دينار. قيل: وسكبت جاريةٌ عليه الماءَ ليتهيَّأ للصلاة، فسقط الإبريق مِنْ يَدِها على وجهه، فشجَّه، فرفَع رَأْسَه إليها، فقالت: إن الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: قد كظَمْت غَيْظِي. قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: قد عفا الله عنك. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: اذهبي فأنْتِ حُرَّة.

قيل: وأذنب له غلام ذنبًا استحقَّ منه العقوبةَ، فأخذ السَّوْطَ. فقال الغلام: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، وما أنا كذلك، إني لأرْجُو رحْمَةَ الله، وأخاف عَذَابَه، فألقى السَّوْطَ، وقال: أنْتَ عَتِيق.

وقيل: حَجَّ هشام بن عَبْد الملك في زَمَنِ عَبْد الملك أو في زَمن الوليد، فلما طاف جهد أنْ يَسْتَلم الحجرَ فلم يُطِق لزحامِ الناسِ عليه، فنُصِب له مِنْبَرٌ، وجلس ينظُرُ إلى الناس، إذْ أقبل عليُّ بن الحسين رضي الله عنه من أحسن الناس وجْهًا وأطيبهم ريحًا، فطاف بالبيت، فكان كلما بلغ الحجَر تَنَحَّى الناسُ له حتى يستلمه. فقال رجلٌ من أهل الشام: مَنْ هذا الذي قد هَابَه الناسُ هذه المهابة؟ فقال هشام: لا أعرفُه ـ مخافَةَ أنْ يَرْغَبَ الناس فيه، وكان حوله وجوهُ أهل الشام، والفرزدقُ الشاعر، فقال الفرزدق: لكنني أنا أعرفه، فقال أهل الشام: مَنْ هذا يا أبا فِرَاس؟ فزَبَره[1] هشام، وقال: لا أعرفه. فقال الفرزدق: بل تعرِفُه، ثم أنشد مشيرًا إليه: [من البسيط]

هذا سليل حُسين وابْنُ فاطمة ... بنت الرسول الذي انجابت به الظُّلم
هذا الذي تعرِفُ البَطْحَاءُ وطْأتَه ... والبيتُ يَعْرِفُه والحِلُّ والحرمُ[2]
هذا ابْنُ خَيْرِ عبادِ الله كلِّهمو ... هذا النَّقِي التَّقِيُّ الطاهر العَلَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هَذَا يَنْتَهي الكَرَمُ

---

(١) زبره: منعه ونهاه؛ أو انتهره وزجره. (٢) الحل: ما جاوز الحرم.

يَرْقَى إلى ذِرْوةِ العِزِّ الذي قَصُرَتْ ... عن نَيْلها عَرَبُ الإسلام والعَجَمُ
يكاد يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِه ... رُكْنُ الحَطِيم إذا ما جاء يَسْتَلِمُ
يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِه ... فلا يُكَلَّم إلا حين يَبْتَسِمُ
بكَفِّه خَيْزُران ريحها عَبِقٌ ... من كَفِّ أرْوَعَ في عِرْنِينِه شَمَمُ(١)
مَنْ جَدُّه دَانَ فضل الأنبياء له ... وفضل أُمته دانت له الأُمم
ينشقُّ نورُ الهُدَى عن نُور غُرَّتِه ... كالشمس تَنْجَابُ عن إشراقها الظُّلَمُ
مشتقة من رسول الله نَبْعَتُه ... طابت عناصِرُها والخِيْمُ والشِّيَمُ(٢)
هذا ابْنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهِلَه ... بجَدِّه أنبياءُ الله قد خُتِموا
اللّهُ شرَّفه قِدْمًا وفَضَّلَهُ ... جرى بذاك له في لَوْحِهِ القَلَمُ
فليس قولك مَنْ هذا بضائِره ... العرب تعرف من أنكرْتَ والعجمُ
كلتا يديه غِيَاثٌ عمَّ نفعهما ... يستَوْكِفان ولا يَعْرُوهما عدمُ(٣)
حَمّال أثقال أقوام إذا فُدِحوا ... حلْوُ الشمائل تَحْلُو عِنْدَه نَعَمُ
لا يخلف الوَعْدَ ميمونٌ نَقيبَتُه ... رَحْبُ الفِنَاء أريب حين يَعْتَزِمُ(٤)
مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهم دين وبَغْضُهمو ... كُفْرٌ وقربهمو مَنْجًى ومُعْتَصَمُ
إن عُدّ أهْلُ التُّقَى كانوا أئمتهم ... أو قيل مَنْ خير أهل الأرض قيل همُو
لا يستطيع جَوَادٌ بُعْدَ غايتهم ... ولا يدانيهمُ قَوْمٌ وإن كرمُوا
همُ الغيوثُ إذا ما أزْمَةٌ أزَمَتْ ... والأُسد أُسد الشَّرى والبأْسُ محتدِمُ(٥)
لا ينقص العُسْرُ بَسْطًا من أكُفِّهمُ ... سيَّان ذلك إن أثْرَوا وإن عَدِمُوا
يُستَدْفَع السوءُ والبَلْوَى بحبِّهمو ... ويُسْتَرَدُّ به الإحسانُ والنعمُ
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ الله ذِكْرُهمو ... في كل أمرٍ ومختومٌ به الكلمُ
يأبى لهم أن يَحُلَّ الذُّلُّ ساحتَهم ... خِيمٌ كريم وأيْدٍ بالندى هُضُمُ(٦)
أيّ الخلائق ليست في رِقابهمو ... لأوَّلِيَّةِ هذا أو لَهُ نِعَمُ
مَنْ يشكر الله يشكر أوليَّة ذا ... فالدِّيْن من بيت هذا بابُه الأممُ

---

(١) الأروع: المعجب بحسنه وجهارة منظره، أو بشجاعته. والعرنين: ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.
(٢) الخيم: جمع الخيمة، وهي المنزل. (٣) استوكف الماء: استقطره واستدعى جريانه.
(٤) الأريب: الماهر البصير، أو الذي يفتقر إليه.
(٥) الأزمة: القحط؛ وأزمت: اشتدت. (٦) الخيم: الأصل.

قال: فغضب هشام لذلك وتنغَّص عليه يَوْمُه، وأمر بحَبْس الفرزدق بعُسْفَان بين مكة والمدينة، وبلغ ذلك عليّ بن الحُسَين رضي الله عنه، فبعث إليه باثني عشر ألف درهم، وقال: اعذر أبا فِرَاس، لو كان عندنا أكثر من هذا لوصَلْنَاك بها، فردَّها الفرَزْدَق، وقال: ما قلْتُ الذي قلْتُ إلاَّ غضبًا لله ولرسوله، وما كُنْتُ لأُرْزَأ[1] عليها شيئًا، فردّها عليه، وقال: بحَقِّي عليك إلا قَبِلْتَها، فقد علِمْتَ أنَّا أهل بيت إذا أنفَذْنا أمرًا لا نرجع فيه، وقد رأى الله مكانك، وعلم نِيَّتَك، والجزاءُ عليه تعالى. فقبلها.

وجعل الفرزدق يَهْجُو هشامًا، فكان مما هجاه به: [من الطويل]

أتَحْبِسني بين المدينةِ والتي إليها قلوبُ الناس يَهْوَى مُنيبها
يُقَلِّبُ رأسًا لم يكن رَأْسَ سيِّدٍ وعينين حَوْلاَوَيْنِ بادٍ عُيُوبُها

وكان علي بن الحسين يقول: لقد استرقَّكَ بالودّ مَنْ سبقك بالشكر.

ولما حضرته الوفاة أوصى ألاَّ يُؤْذِنُوا به أحدًا، وأن يكفَّن في قُطن، ولا يجعلوا في حَنُوطهِ مِسْكًا، ودُفِنَ بالبَقيع رحمه الله ورضي عنه.

ومات أيضًا في هذه السنة عُرْوة بن الزبير رضي الله عنهما، وسَعِيد بن المُسَيّب[2]، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام.

وحجّ بالناس مسلمة بن عَبْد الملك. وقيل عبد العزيز بن الوليد.

وفيها استقضى الوليدُ على الشام سليمان بن حبيب.

سنة خمس وتسعين:

ذكر وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي وشيء من أخباره

هو أبو محمد الحجّاج بن يوسف بن الحَكم بن أبي عَقيل بن عامر بن مسعود بن مالك بن كعب بن عَمْرو بن سعد بن عوف بن ثَقِيف، كانت وفاتُه في شوال سنة

---

(١) أرزأ عليها: أصيب منها مالاً ونفعًا.

(٢) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المدني؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع... كانت وفاته سنة ٩٥هـ... (وفيات الأعيان ٢: ٣٧٥).

خمس وتسعين، وقيل لخَمْسٍ بقين من شهر رمضان من السنة، وله من العمر أربعٌ وخمسون، وقيل ثلاث وخمسون.

روي أن عُمَر بن عبد العزيز ذُكر عنده ظُلْمُ الحجاج وغيره من وُلاةِ الأمصار في أيام الوليد بن عبد الملك، فقال عُمَر بن العزيز: الحجاجُ بالعراق، والوليدُ بالشام، وقُرَّة بن شريك بمِصْر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة؛ اللهم قد امتلأتْ ظُلمًا وجَوْرًا، فأرِح الناسَ. فلم يَمْضِ غَيْرُ قليل حتى توفي الحجاج وقُرّة في شهر واحد، ثم تبعهم الوليد، وعُزِل عثمان بن حَيَّان، وخالد بن عَبْد الله القَسْري، واستجاب الله لعمر.

وما أشبه هذه القصة بقصة عَبْدِ الله بن عُمر رضي الله عنهما لما بلغه أنَّ زيادَ ابْنَ أبيه كتب إلى معاوية يقول: إنِّي قد ضبطْتُ العراقَ بشِمَالِي ويَمِيني فارِغَةٌ. فقال ابْنُ عمر: اللهم أرِحْنا من يمين زياد، وأرِحْ أهل العراقِ من شِمَاله. فاستجاب اللّهُ له.

وكان من خَبَر وفاةِ زياد ما ذكرناه.

وكانت ولاية الحجاج العراق عشرين سنة، ولما حضرته الوفاة استخلف على الصلاة ابْنَه عَبْدَ الله، وعلى حَرْبِ الكوفة والبَصْرَة يزيد بن أبي كَبْشَة، وعلى الخراج يزيد بن أبي مسلم، فأقرَّهما الوليد بَعْدَه.

وكان الحجاجُ مِنْ أفْصَح الناس. قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفْصَح مِن الحجاج ومن الحَسَن، وقد ذَكَرْنَا من كلامه عند مَقْدَمه الكوفة ما يدلُّ على فصاحته.

ومن أخباره أنَّ عَبْد الملك كتب إليه يأمره بقَتْل أسلم بن عَبْدِ الله البكري لشيءٍ بلغه عنه، فأحضره الحجاجُ، فقال: أمير المؤمنين غائب وأنتَ حاضر، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ [الحجرات: ٦] الآية. والذي بلغه عنّي فباطل، فاكتُب إلى أمير المؤمنين أني أعُول أربعًا وعشرين امرأة، وهُنَّ بالباب؛ فأحضرهن، وكان في آخرهن جاريةٌ قاربَتْ عشر سنين. فقال لها: مَنْ أنتِ منه؟ قالت: ابْنتُه، أصلح الله الأمير، ثم أنشأت: [من الطويل]

أحجاجُ لو تشهد مقام بناته ... وعماته يَنْدُبْنَهُ الليلَ أجمعا
أحجاج لا تقتل به إن قتلْتَه ... ثمانًا وعَشْرًا واثنتين وأربعا
أحجاج مَنْ هذا يقوم مقامَه ... علينا فمهلاً أنْ تَزِدْنَا تَضَعْضُعا
أحجاج إمّا أنْ تجُودَ بنِعْمَةٍ ... علينا وإما أن تُقَتِّلَنَا مَعا

فبكى الحجاج، وقال: والله لا أعنتُ الدهر عليكنّ ولا زِدْتُكُنَّ تَضَعْضُعًا.

وكتب إلى عبد الملك بخَبرِه وخَبَر الجارية، فكتب إليه: إذا كان الأمْرُ كما ذكرْتَ فأحْسِنْ صِلَتَه وتَفَقَّد الجارية، ففعل.

قال عاصم بن بَهْدَلة: سمعْتُ الحجاج يقول: اتَّقُوا الله ما استطَعْتُم، هذا والله مثنوية، واسمعوا وأطيعوا وأنفِقُوا خيرًا لأنفسكم ليس فيه مَثْنَوية، والله لو أمرتكم أن تَخْرجُوا من هذا الباب فخرجتم من هذا لحلَّتْ لي دِماؤُكم، ولا أجد أحدًا يقرَأُ على قراءة ابن أُمِّ عبد ـ يعني ابن مسعود ـ إلاَّ ضَربْتُ عنقه، ولأُحُكَّنَّها من المصحف ولو بضلع خنزير.

قال الأوزاعي[1]: قال عُمر بن عبد العزيز: لو جاءت كلُّ أمَّة بخبيثها وجِئْنَا بالحجاج لغَلَبْنَاهم.

قال الحسن: سمعْتُ عليًا يقول على المنبر: اللهم ائتمنتهم فخانوا، ونصحتهم فغَشُّوني، اللهم فَسلِّط عليهم غلامَ ثقيف يَحْكم في دمائهم وأموالهم بحُكم الجاهلية، فوصفه. قال الحسن: هذه والله صِفَة الحجاج.

قال حبيب بن أبي ثابت: قال عليّ رضي الله عنه لرجل: لا تَموت حتى تُدْرِك فَتَى ثقيف. قيل: يا أميرَ المؤمنين؛ ما فَتَى ثقيف؟ قال: ليُقَالَنَّ لَهُ يوم القيامة: اكْفِنَا زاويةً من زَوايا جهنم، رجل يمْلك عشرين سنة أو بِضْعًا وعشرين، فلا يدَعُ للّهِ مَعْصِيَةً إلا ارتكبها، حتى لو لم يبْق إلا معصية واحدة وبينها وبينه بابٌ مُغْلَقٌ لكسره، حتى يرتكبها، يقتل من أطاعه بمن عصاه.

وقيل: أُحصي مَنْ قتله الحجاج صَبْرًا فكانوا مائة ألف وعشرين ألفًا.

وقيل: إن الحجاج مرَّ بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر في مشْيَتِه، فقال رجل لخالد: مَنْ هذا؟ فقال خالد: بخ بخ! هذا عمْرو بن العاص. فسمِعَها الحجاجُ فرجع، وقال: والله ما يسرُّني أن العاص والدي، ولكنني ابْن الأشياخ من ثقيف، والعقائل من قريش، وأنا الذي ضربت بسيفي هذا مائةَ ألف كلُّهم يشهدُ أنَّ أباك كان يشربُ الخمر ويُضْمِر الكفر. ثم ولَّى، وهو يقول: بَخ بَخ عمرو بن العاص! فقد أقرَّ على نَفْسه بمائةِ ألف قتيل على ذَنْبِ واحد.

وحجَّ بالناس في هذه السنة بشر بن الوَليد بن عَبْد الملك.

---

(١) الأوزاعي: هو أبو عمرو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي إمام أهل الشام؛ لم يكن بالشام أعلم منه، قيل إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، وكان يسكن بيروت... كانت وفاته سنة ١٥٧ هجرية... (وفيات الأعيان ٣:١٢٧).

سنة ست وتسعين:

ذكر وفاة الوليد بن عبد الملك وشيءٍ من أخباره وسيرته وأولاده وعماله

كانت وفاته بدَيْر مُرَّان في النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة. ودَيْر مُرَّان كان بجَبَل قاسِيُون بظاهر دمشق، وهو الآن مدرسةٌ وترْبَةٌ منسوبة إلى الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ابن العادل بن أيوب. كانت مدة خلافته تسعَ سنين وثمانية أشهر. ودُفن خارج البابِ الصغير بدمشق. وقيل في مقابر الفَرَادِيس[١]. وصلَّى عليه عُمَرُ بن عبد العزيز. ولما دُلِّيَ في حُفْرته جُمِعتْ ركبتاه إلى عنقه، فقال ابنه: عَاشَ أبي؟ فقال له عمر بن عبد العزيز - وكان فيمن دفنه -: عُوجِل والله أبوك. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وستة أشهر. وقيل سبعًا وأربعين. وقيل ثمانيًا وأربعين. والله أعلم.

وكان أسمَرَ اللَّوْنِ، جميل الوجه، أفطس الأنف. وقيل: كان سائل الأنف جِدًّا وبوجهه آثار جُدْري.

وكان نَقْش خاتمه: يا وليد، إنك ميت.

وكان له من الأولاد تسعة عشر ذكرًا، وعَدّهم بعْض المؤرخين عشرين، وهم: يزيد، وإبراهيم - وليا الخلافة - والعباس فارس بني مَرْوان، وعمر فَحْل بني مَرْوان، وعبْد العزيز، وبشر، وصدقة، ومحمد، وتمام، وخالد، وعبد الرحمٰن، ومبشر، ومسرور، وأبو عبيدة، ومنصور، ومروان، وعَنْبَسة، وعمرو، وروح، ويحيى، هؤلاء الذكور، سوى البنات.

كتَّابُه: قرّة بن شريك، ثم قَبِيصة بن ذؤيب، ثم الضحاك بن يزيد، ثم يزيد بن أبي كَبْشَة، ثم عَبْد الله بن بلال.

قُضَاته: عبد الله بن بلال، وسليمان بن حبيب.

حُجَّابه: خالد، وسعيد مولياه.

الأُمراءُ بمصر: أخوه عَبْد الله، ثم قرَّة بن شريك.

قاضيها: عبد الله بن عبد الرحمٰن بن حجيرة، ثم صرفه قرّة وولَّى عياضَ بن عبد الله، ثم وليها عبد الملك بن رِفَاعة بعد وفاة قرّة.

---

(١) الفراديس: موضع بقرب دمشق.

وكان عُمّاله على الأمصار مَنْ ذَكَرْنَاهم.

قال: وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام مِنْ أفضل خلفائهم، وله آثارٌ حسنة ومبان عظيمة، وفتح في أيامه بلاد الأندلس وما وراء النهر وبلاد الهند.

قال: وكان الوليد يمرُّ بالبَقّال فيقف عليه، ويأْخذ منه حُزمةَ بَقْلٍ، فيقول: بكَمْ هذه؟ فيقول: بفَلْس. فيقول الوليد: زِدْ فيها.

وبنى جامع دمشق في سنة ست وثمانين، وهدم كنيسةَ النصارى التي كانت إلى جانبِه، وتُعْرف بمار يوحنا، وزادَها فيه.

وقيل: كان في الجامع وهو يُبْنى اثنا عشر ألف مرخم. وتوفّي الوليدُ ولم يتمّ بناؤه، وكان الفراغ منه في أيام سليمان أخيه.

وقيل: إن جُمْلَةَ ما أُنْفقَ عليه أربعمائة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وكان فيه ستمائة سلسلةٍ من الذهب للقناديل، ولم تطِق الناس الصلاة فيه لكَثْرة شعاعه، فدخنت حتى اسودَّتْ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز جعلها في بيْتِ المال، وعَوَّضَها بالحديد.

وأمر الوليد ببناءِ جامع البيت المقدس في سنة ثمان وثمانين.

قيل: وحجَّ الوليدُ بالناس ثلاث حجج: سنة ثمان وثمانين، وسنة إحدى وتسعين، وسنة أربع وتسعين.

قال: وكان الوليد أراد أنْ يَخْلَعَ أخاه سليمان، ويبايع لوَلَدِهِ عَبْد العزيز، فأبى سليمان، فكتب إلى عُمَّاله، ودعَا الناسَ إلى خَلعِه، فلم يُجبْه إلى ذلك إلا الحجاج وقتَيْبة وخَوَاصّ من الناس.

فكتب الوليدُ إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ، فعزَمَ على المسير إليه ليَخْلَعَهُ، وأخرج خيمةً فمات قبل أنْ يَسِيرَ إليه.

قال: وكان الوليدُ لحّانًا لا يُحسِن العربية، فعاتبه أبوه، وقال: إنه لا يلي العَرَب إلاّ مَنْ يُحْسن كلامَهم؛ فجمع النُّحاةَ، ودخل بيتًا فلم يخرج منه ستةَ أشهر، ثم خرج وهو أجْهَلُ منه يَوْمَ دخَل، فقال عبد الملك: قد أعذر. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر بيعة سليمان بن عبد الملك

هو أبو أيوب سليمان بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكم، وأُمُّه ولادة أم أخيه الوليد، وهو السابع مِنْ ملوك بني أُمية. بُويع له يوم السبت للنصف من جُمادى

الآخرة، وهو يوم وفاةِ أخيه الوليد، وكان إذ ذاك بالرَّمْلة[١]، وكان الوليد قد أراد خَلْعه مِنْ ولايةِ العهد، فمات قبل أن يُتِمّ له ما أراد من ذلك.

ولنذكر الحوادث الكائنة في أيامه على حكم السنين:

ذكر قتل قتيبة بن مسلم

وفي هذه السنة قُتِلَ قتَيْبَة بن مسلم الباهلي بخرَاسَان، وكان سبب ذلك أنه أجابَ الوليدَ إلى خَلْع سليمان كما ذكرنا، فلما أفْضَت الخلافة إلى سليمان خَشِي قتَيْبَةُ أنَّ سليمانَ يستعملُ يزيد بن المهلب على خراسان، فكتب قتَيْبَة إلى سليمان كتابًا يهنِّئه بالخلافةِ ويذكر بلاءه وطاعتَه لعبد الملك والوليد، وأنه له على مِثْل ذلك إنْ لم يَعْزِلْه عن خُرَاسان.

وكتب إليه كتابًا آخر يُعْلِمُه فيه بفتوحه ومكانَتِه، وعِظَم قَدْره عند ملوك العجم، وهَيْبَتِهِ في صدورهم، ويذمّ آل المُهلَّب، وَيَحْلِفُ بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنَّه.

وكتب كتابًا ثالثًا فيه خَلعُه، وبعث الكتبَ مع رجل من أهله، وقال له: ادفع الكتابَ الأول إليه، فإن كان يَزِيدُ حاضرًا فقَرَأهُ ثم ألقاه إليه فادْفَع إليه هذا الثاني. فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادْفَع إليه الثالث، وإن قرأ الأول ولم يَدْفَعْه إلى يزيد فاحبس الكتابيْن عنه.

فقدم رسولُ قتَيْبَةَ، فدخل على سليمان وعنده يَزِيد بن المهلَّب، فدفع إليه الكتابَ الأوّل، فقرأه وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الثاني، فقرأه وألقاه إليه، فأعطاه الثالث، فقرأه وتغيَّر لونه وختمه وأمسكه بيده. فقيل: كان فيه: لو لم تقرّني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنَّك، ولأمْلأنَّها عليك خَيْلاً ورَجْلاً.

ثم أمر سليمان بإنزال رسولِ قتَيْبَة، ثم أحضره ليلاً وأعطاه دنانير وعَهْدَ قتَيْبَة على خرَاسان وسيَّر معه رسولاً، فلما كانا بحُلْوان بلغهما خلع قتَيْبَة، فرجع رسولُ سلَيْمان، وكان قتَيْبةُ لما هَمّ بخلع سليمان استشار إخوته فقال عبد الرحمن: اقطع بعْثًا

(١) الرملة: واحدة الرمل: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتا قد خربت الآن، وكانت رباطًا للمسلمين. . . وقيل: الرملة: محلة بسرخس، ويقال أيضًا: رملة بني وبر، في أرض نجد. . . (معجم البلدان لياقوت).

فوجّه فيه كلَّ منْ تَخافه، ووجِّه قومًا إلى مَرْو، وَسِرْ حتى تَنْزلَ سمَرْقند، وقلْ لمنْ معك: مَنْ أحبَّ المقام فله المواساة، ومَنْ أراد الانصراف فغَيْرُ مستكْره، فإنه لا يُقيم عندك إلاَّ مُناصح. وقال له أخوه عبد الله: اخلعه مكانَك فلا يختلف عليك رَجلان. فوافقه وخلع سليمانَ، ودعا الناس إلى خَلْعه فلم يُجِبْه أحد، فغضب، وقال: لا أعزَّ الله منْ نصرْتُم، والله لو اجتمعْتم على عنز ما كَسرتم قَرْنها، وسبَّهم طائفةً طائفةً وقبيلةً قبيلة، وذكر مساويهم ومعايبهم، ونزل؛ فغضب الناسُ واجتمعوا على خَلع قتيبة وخِلاَفه، وكان أوّل منْ تكلم في ذلك الأزد، فأتوا حُضَين بن المنذر[1]، فقالوا: إنَّ هذا قد خلع الخليفة، وفيه فسادُ الدِّيْنِ والدنيا، وقد شتَمَنَا فما ترى؟ فأشار عليهم أن يأْتوا وَكيع بن أبي سُود التميمي، ويقدِّمُوه لرياسته في قَوْمه، فأتوه وسألوه أنْ يَلِي أمْرَهم، ففعل.

وكان بخرَاسَان يومئذ من أهل البصرة والْعالِيَة من المقاتلة تسعة آلاف، ومن بكْر سبعة آلاف، ورئيسُهم حُضَيْن بن المنذر، ومِنْ تميم عشرة آلاف وعليهم ضِرَار بن حُصَيْن، ومن عَبْد القيس أربعة آلاف وعليهم عبد الله بن حوذان، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف وعليهم جَهْم بن زَحْر. ومن الموالي سبعة آلاف وعليهم حَيَّان النبطي مولى بني شَيْبَان، وهو من الدَّيْلَم وقيل من خراسان، وإنما قيل له النبطي للكْنته.

فأرسل حَيّان إلى وَكيع يقول: إنْ أنا كفَفْتُ عنك وأعنْتك تجعل لي الجانبَ الشرقي من نهر بَلْخ آخذ خَرَاجَه ما دمْت حيًا، وما دمْتَ أميرًا! قال: نعم. فقال حيان للعجم: هؤلاء يقاتِلون على غيرِ دِين، فدعُوهم يقْتل بعْضهم بعضًا. ففعلوا.

وقيل لقتيبة: إن وَكِيعًا يبايعُ الناس، فدسّ عليه ضِرار بنَ سنان الضبي، فبايعه سِرًّا، فظهر أمْرُه لقتَيْبة، فأرسل إليه يَدْعُوه، فوجده قد طلى رجليه بمَغْرَة[2]، وعَلَّق على ساقِه خَرزًا، وعنده رجلاَن يَرْقِيان رِجْلَه. فقال للرسول: قد ترى ما بِرجْلي. فرجع إليه فأخبر قُتيبة، فأعاده إليه يقول: لَتأْتيَنِّي به محمولاً، فأتاه فقال: لا أسْتَطيع. فقال قتَيْبَة لِصاحِب شرطته: انطلق إلى وكيع فأْتِني به، فإنْ أبى فاضْرِبْ عُنقه، ووجّه معه خيلاً.

---

(١) هو الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي، أحد بني رقاش، فارس شاعر، وكانت معه راية علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين، دفعها إليها وهو ابن تسع عشرة سنة وفيه يقول علي:

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حضين تقدما

وكان حضين من كبار التابعين، مات على رأس المائة... (الخزانة ٢: ٨٩).

(٢) المغرة: طين أحمر.

وقيل: أرسل إليه شعبة بن ظهير التميمي. فقال له وكيع: يا ابْنَ ظهير، لبِّث قليلاً تلحق الكتائب. ولَبِس سلاحَه، ونادى في الناس، فأتوه، ورَكبَ فرسه، وخرج، فأتاه الناسُ أرسالاً، واجتمع إلى قتَيْبة أهْلُ بيته وخواصّ أصحابه وثقاته، منهم إياس بن بيْهس بن عَمْرو، وهو ابن عَمّ قتَيبة، ودعا قتيبة بِبرذَوْن له مدرَّب ليركبه، فاستصعب عليه حتى أعْياه، فجلس على سيريره وقال: دعُوه، فإن هذا أمرٌ يراد.

وجاء حيان في العجم وقتَيبة واجِدٌ عليه، فقال عبد الله أخو قتيبة: احمِلْ عليهم. فقال حيَّان: لم يأتِ بَعْدُ. وقال حَيّان لابنه: إذا رأيْتَني قد حوَّلْت قلنسوتي ومِلْت نحو عسكر وكيع فمِلْ بمنْ معك من العجم إليّ. فلما حوّل حيان قلنسوته مالت الأعاجِمُ إلى عسكر وكِيع فكبَّرُوا وهاجُوا، فقتل عبْد الرحمٰن أخو قتيبة، وجاء الناس حتى بلغوا فسْطَاط قتَيْبة، فقطعوا أطنابَه، وجُرِح قتَيْبةُ جراحات كثيرة، فقال جَهْم بن زَحْر بن قيس لسعد: انزِلْ فحزَّ رأسه، فنزل وشقَّ الفسْطَاطَ، واحتزَّ رأسه؛ وقتِل معه مِنْ أهْله وإخوته: عبْدُ الرحمٰن، وعبد الله، وصالح، وحُصَيْن، وعبد الكريم: بنو مسلم. وقُتل كثير ابنه، وكان عِدّة مَنْ قتل مع قتيبة من أهله أحد عشر رجلاً، فأرسل وَكيع إلى سليمان برَأسِه ورؤوس أهله.

ولما قتل قال رجل من خراسان: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان منّا فمات لجعلناه في تابوت، فكنا نستفتح به إذا غزونا.

وقال عبد الرحمٰن بن جُمانة الباهلي يَرْثي قتيبة: [من الطويل]

كأنّ أبا حفْصٍ قتيبةَ لم يَسِرْ ... بجيْشٍ إلى جَيْش ولم يعْلُ مِنْبرا
ولم تخْفق الرايات والجيشُ حوله ... وقوفٌ ولم تشهد له الناس عَسْكرا
دعتْه المنَايا فاستجاب لِربِّه ... وراح إلى الجنَّات عَفًّا مُطَهَّرا
فما رُزِىء الإسلامُ بعْدَ محمَّد ... بمثْل أبي حَفْصٍ فبكِّيْه عبْهَرا

وعبْهر: أُمُّ ولَد له.

ووصل خَبرُ مَقْتَله إلى الشام في اليوم الثاني من مقْتَلِهِ.

قال شيوخٌ من غَسان: كنا بثَنِيَّة العُقَاب(١) إذا نحن برجُل معه عصا وجراب، فقلنا: منْ أين أقبلْتَ؟ قال: مِنْ خراسان. قلْنَا: هل كان بها من خَبر؟ قال: نعم، قُتل بها قتَيْبة بن مسلم أمْسِ، فعجبْنَا مِنْ قولِه. فلما رأى إنكارنا قال: أين تروني الليلة من إفريقية؟ وتركَنا ومضى، فاتبعنا على خيولنا فإذا به يسبق الطَّرف. وثنيَّة العُقَاب في مرْج دمشق على نصف مرحلة منها.

* * *

(١) ثنية العقاب: هي ثنية مشرفة على غوطة دمشق؛ وثنية العقاب بالثغور الشامية قرب المصيصة.

وفي هذه السنة عزَل سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيَّان عن المدينة لسبْع بَقين من شهر رمضان، واستعمل عليها أبا بكر بن محمد بن عمْرو بن حَزْم، وكان عثمان قد عزم على أن يجْلدَ أبا بَكْر هذا ويحْلِقَ لحيته من الغد، فلما كان الليل جاء البريدُ إلى أبي بكر بتأْميره وعزْل عثمان وَحْده وتقييده.

وعزل سليمان أيضًا يزيد بن أبي مسلم عن العراق، واستعمل يزيد بن المهلَّب، وجعل صالح بن عبد الرحمٰن على الخَرَاج، وأمره ببسْطِ العذاب على آل أبي عقيل؛ وهم أهْلُ الحجاج، فكان يعذِّبهم، ويلِي عذابَهم عبد الملك بن المهلَّب.

وحجَّ بالناس أبو بكر بن محمد وهو أمير المدينة، وكان على مكة عبْد العزيز بن عَبْد الله بن خالد بن أسِيد وعلى حَرْب العراق وصلاَتها يزيد بن المهلَّب، وعلى خَراجها صالح بن عبد الرحمٰن. وعلى البصْرَةِ سفيان بن عبْد الله الكِنْدِي من قبل يزيد، وعلى قضائها عبد الرحمٰن بن أُذَيْنَة، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى، وعلى حرْب خراسان وكيع بن أبي سُود.

وفيها مات شُريح القاضي، وقيل سنة سبع وتسعين. وله مائة وعشرون سنة، ومحمود بن لبيد الأنصاري وله صُحْبة.

سنة سبع وتسعين:

ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان

في هذه السنة استعمل سليمان بن عبْد الملك يزيد بن المهلب على خراسان مضافةً إلى العراق، وكان سبب ذلك أنَّ سليمان لما ولَّى يزيد بن المهلَّب العراقَ فوَّض إليه الحَرْبَ والخراج والصلاةَ بها، فنظر يزيد لنفسه، فرأى أنَّ الحجاجَ قد أخرب العراقَ، وأنه إنْ أخذ الناس بالخراج وعذَّبهم عليه صار عندهم مِثْلَ الحجاج، وأنه متى لم يفعل ذلك ويأْت سليمان بمثْل ما كان الحجاجُ يأْتي به لم يَقْبَلْ منه، فأشار على سليمان أن يُوَلِّي صالح بن عبد الرحمٰن مولى تميم الخراج، فولاه الخراج وسيَّره قَبْلَ يزيد، فنزل واسطًا. ولما قدم يزيد خرج الناسُ يتلقَّوْنه، ولم يخرج صالح حتى قَرُب يزيد، فخرج وبين يديه أربعمائة من أهل الشام، فلقي يزيد وسايرَهُ، ولم يمكنه من شيءٍ، وضَيَّق عليه، فضجر يزيد من ذلك، فدعا عبْدَ الله بن الأهْتَم، وقال له: إني أُرِيدُك لأمْرِ أهمَّني، وأُحبُّ أن تكفِينيه. قال: أفعل. قال: أنا فيما ترى من الضِّيْقِ، وقد ضجرت منه، وخراسان شاغرةٌ فهل مِنْ حيلة؟ قال: نعم، سرِّحْني إلى أمير المؤمنين.

فكتب يزيد إلى سليمان وأعْلَمهُ بحالِ العراق، وأثنى على ابْنِ الأهْتم وذكر عِلْمه بها، وسيَّره على البريد؛ فأتى ابن الأهتم سليمان فقال له: إن يزيد كتب إليّ يذكر عِلْمَك بالعراق، فكيف عِلْمُك بخراسان؟ قال: أنا أعلمُ الناس بها، وُلِدْت بها ونشأت، ولي بها وبأهلها خبرٌ. قال: فأشِرْ علي برجُلٍ أُولِّيه خراسان. قال: أمِيرُ المؤمنين أعلم بمنْ يريد، فإنْ ذَكَر منهم أحدًا أخبرته بـرأْيي فيه، فسمَّى رجُلاً من قريش، فقال: ليس مِنْ رجالِ خراسان. قال: فعبْد الملك بن المهلب. فقال: لا يصح، فإنه يضيق عن هذا، وليس له مَكْر أبيه ولا شجاعته، حتى ذَكَر رجالاً، وكان آخر مَنْ ذكر وَكِيع بن أبي سُود، فقال: يا أمير المؤمنين، وكيع رجُلٌ شجاع صارم رئيس مِقْدام، وما أحد أوْجب شكرًا ولا أعظمَ عندي يَدًا مِنْ وكيع، لقد أدرك بثأري وشَفَاني من عَدُوِّي، ولكنَّ أمير المؤمنين أعظم حقًّا، والنصيحةُ له تلزمني، إنَّ وكيعًا لَمْ يجْتَمِعْ له مائة عِنان قطّ إلا حدَّث نفسه بغَدْرة، خامل في الجماعة، نابِه في الفتنة.

قال: فَمنْ لها ويْحك! قال: رجُلٌ أعْلَمه لم يُسَمِّه أمِيرُ المؤمنين. قال: فَمَنْ هو؟ قال: لا أذكره حتى يَضْمَنَ لي أمير المؤمنين ستْر ذلك، وأن يُجِيرني منه إنْ علم. قال: نعم، قال: يزيد بن المهلب. قال: العراقُ أحبُّ إليه من خراسان؟ قال: قد علمْت يا أمير المؤمنين، ولكن تُكْرِهُه فيستَخْلِفُ على العراق رجلاً ويسير هو إلى خرَاسان. قال: أصبْتَ الرأْي.

فكتب عهْدَ يزيد على خراسان، وسيَّره مع ابن الأهتم، فأتى يزيد، فأمر بالجهاز للمسير مِنْ ساعته، وقدم ابْنه مخلدًا إلى خراسان مِنْ يومه؛ ثم سار يزيد بَعْدَه، واستخلف على واسط الجرّاح بن عَبْد الله الحكمي، وعلى البصرة عبْد الله بن هلال الكلابي، وجعل أخاه مَرْوان بن المهلب على حَوائِجه وأُموره بالبصرة، واستخلف على الكوفة حَرْمَلة بن عمير اللخمي أشهرًا، ثم عزله، وولى بشير بن حيان النَّهْدي، وكانت قيس تَزْعُم أن قتَيْبة لم يُخْلَع، فأمر سليمان يزيدًا أنْ يسأل عن ذلك. فإن أقامت قَيْس البيِّنةَ أنَّ قتيبة لم يُخْلَع فنقيد وَكيعًا به، فلما وصل مخلد بن يزيد مَرْو أخذَهُ وكِيع فحبسه وعذَّبه، وعذَّب أصحابه قَبْلَ قدومِ أبيه، فكانت ولاية وكيع خرَاسان تسعة أشهر أو عشرة أشهر، ثم قدم يزيد خرَاسانَ فآذى أهْلَ الشام وقومًا من أهل خراسان، فقال نَهَار[1] ابن تَوسِعة رحمه الله: [من الوافر]

---

(١) هو نهار بن توسعة بن أبي عتبان من بكر بن وائل من بني حنتم، وكان أشعر بكر بن وائل بخراسان. هجا قتيبة بن مسلم، فطلبه فهرب وأتى أم قتيبة فأخذ منها كتابًا إليه في الرضى عنه، وترك مؤاخذته بما كان منه. . . (طبقات الشعراء).

وما كـنّـا نـؤمّـل مِـنْ أمـيـرٍ ... كـمـا كـنّـا نـؤمّـل مِـنْ يـزيـدِ
فـأخْـطَـأ ظـنُّـنَـا فـيـهِ وقِـدْمًـا ... زَهِـدْنـا فـي مُـعَـاشَـرةِ الـزَّهِـيـدِ
إذا لـم يُـعْـطِـنَـا نَـصَـفًـا أمَـيـرٌ ... مـشَـيْـنَـا نـحـوه مـشْـي الأُسُـودِ
فـمـهْـلاً يـا يـزيـد أنِـبْ إلـيـنـا ... ودَعْـنَـا مِـنْ مُـعَـاشَـرَةِ الـعَـبِـيـدِ
نـجـيءُ ولا نَـرى إلاَّ صُـدُودًا ... عـلـى أنَّـا نـسـلِّـمُ مِـنْ بَـعِـيـدِ
ونَـرجـع خـائِـبِـيْـنَ بـلا نَـوَالٍ ... فـمـا بـال الـتـجَـهُّـم والـصُّـدُود

* * *

وفي هذه السنة جَهَّزَ سليمان الجيوشَ إلى القسطنطينية، واستعمل ابْنَه داود على الصائِفَة، فافتتح حصن المرأة(١).

وفيها غَزَا مسلمة أرض الوَضّاحية، وفتح الحِصْنَ الذي فتحه الوضّاح.

وغزا عُمر بن هُبيرة الروم في البحر فشَتَا بها. وحجّ سليمان بن عبْد الملك بالناس.

وفيها عُزِل داود بن طلحة الحَضْرمي عن مكة، فكان عمله عليها ستة أشهر، ووَلِي عبْد العزيز بن عبْد الله بن خالد.

سنة ثمان وتسعين:

ذكر محاصرة القسطنطينية

في هذه السنة بعث سُليمان الجيوشَ إلى القسطنطينية مع أخيه مَسْلَمة بعد أنْ سَار سليمان إلى دَابِقَ(٢)، وكان ملك الروم قد مات، فجاء ألْيُون من أذربيجان إلى سليمان، وأخبره بوفاته، وضمن له فَتْحَ الروم، فبعث معه مسلمة، فسار هو وأليون، فلما دنَا من أرْضِ الروم أمر كلَّ فارس أن يحمل معه مُدَّيْنِ من طَعام، فلما أتاها أمر بإلقاءِ ذلك، فصار مِثْل الجبال، وقال مسلمة لمنْ معه: لا تأْكلوا منه شيئًا وأغيرُوا في أرضهم وازرعوا، وعمل بيوتًا من خشَب فشتا فيها وصاف وزَرَع الناسُ، فلما كَثر عندهم الطعام أقام مسلمة قاهرًا للروم معه أعيان الناس، فأرسل الرومُ إلى مسْلَمة

---

(١) المرأة: قرية بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة. بينها وبين ذات غسل مرحلة على طريق النباج.
(٢) دابق: مدينة في أقاصي فارس.

يُعْطونه عن كل رأسٍ دينارًا فلم يقبل، فقالت الروم لأليون: إن صرفْتَ عنا المسلمين مَلَّكْنَاك، فاستوْثَقَ منهم، وأتى مسلمة فقال له: إنَّ الروم قد علموا أنك لا تَصْدُقهم القتالَ، وأنك تطاوِلهم ما دام الطعام عندك، فلو أحرقْتَهُ أعطوا ما بأيديهم، فأمر مسلمة بالطعام فحرق، فقوى الروم وضاق المسلمون حتى كادُوا يهلكون، ودامُوا على ذلك حتى مات سليمان.

وقيل: إن أليون إنما خَدَع مسلمة بأنْ سأله أنْ يُدخل من الطعام إلى الروم ما يعيشون به ليلة واحدة، ليُصَدِّقوا أنَّ أمْره وأمْر مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السَّبْيِ والخروج من بلادهم، فأذن له في ذلك. وكان أليون قد أعدّ السُّفنَ والرجال فنقَلوا تلك الليلة الطعام كلَّه، وأصبح أليون محاربًا، ولقي الجند ما لم يلقه أحد، حتى أن كان الرجل ليَخَافُ أن يخرج من العسْكَر وحْده، وأكلوا الدواب والجلود وأُصول الشجر والورَق، وسُلَيمانُ مقيم بدابِقَ ووقع الشتاء فلم يقدر أنْ يمدَّهم حتى مات.

وفي هذه السنة بايع سُلَيْمان لابْنِه أيوب بولاية العهد.

وفيها فتحت مدينة الصقالبة.

وفيها غزا الوليد بن هشام وعَمْرو بن قيس، فأُصيب ناسٌ من أهل أنطاكية، وأصاب الوليدُ ناسًا من ضواحي الرُّوم، وأسر بشرًا كثيرًا.

ذكر فتح قهستان وجرجان وطبرستان

في هذه السنة غزا يزيدُ بن المهلَّب جُرجان وطبرِسْتان.

وكان سبب اهتمامِهِ بها أنَّ يَزيد لما كان عند سليمان بالشام في حياة الوليد، فكان كلما فتح قتَيْبة فَتْحًا يقول سُليمان ليزيد: ألا ترى إلى ما يفْتَحُ الله على قتَيْبة! فيقول يزيد: ما فعلَتْ جُرجان التي قطعتِ الطريقَ، وأفسدت قومِس ونَيْسابور، ويقول: هذه الفتوح ليست بشيءٍ، الشأن في جرجان.

وكان سعيد بن العاص قد صالح أهْلَ جُرْجَان، فكان يَجبُون أحيانًا مائة ألف، وأحيانًا مائتي ألف، وأحيانًا ثلاثمائة ألف، وربما منعوا ذلك، ثم أظهروا الامتناع وكفروا فلم يُعْطوا خراجًا، ولم يأْت جُرْجان بعْد سعيد أحد، وقد منعوا ذلك الطريق فلم يكنْ يسلك أحدٌ طريقَ خراسان إلا على فارس وكِرْمان.

فلما ولى سليمان يزيد خراسان لم يكن له هِمَّةٌ غير جُرْجان، فسار إليها في مائةِ ألفٍ سوى الموالي والمتطوعة، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة، إنما هي جِبال ومخارم وأبواب يقومُ الرجلُ على بابٍ منها فلا يقْدر عليه أحدٌ، فابتدأ بقهِسْتان فحاصرها، وكان أهلها طائفة من الترك، فقاتلهم قتالاً شديدًا، واشتدت الحَرْبُ، وقطع عنهم الميرة(١)، فبعث دهْقَانها، واسمه صَوْل يطلبُ مِنْ يزِيد الأمانَ لنفسه وأهله وماله، ويُسلِّمُ إليه المدينةَ بما فيها، فأمَّنَهُ ووفى له، ودخل المدينةَ فقَتَلَ بها أربعة عشر ألف تركي صَبْرًا، وأخذ ما فيها من الكنوز والسَّبي وغير ذلك، ثم خرج حتى أتى جُرْجَان فهابَه أهْلها، وأتوه وصالحوه، فأجابهم إلى ذلك، وصالحهم، فطمع في طَبَرِسْتَان، فسار إليها فصالحه اصبهذها على سبعمائة ألف، وقيل خمسمائة ألف وأربعمائة وقْر(٢) زَعْفَران، أو قيمته من العَيْن، وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترى وطَيْلَسان، ومع كل رجل جَامٌ من فضّة وسَرْقة(٣) حرير وكسوة، فأرسل من يَقْبضُ ذلك وانصرف إلى جُرْجَان. والله أعلم.

ذكر فتح جرجان(٤) الفتح الثاني وإنشاء مدينتها

قال: ولما سار يزيدُ إلى طَبرِسْتان غَدر أهْلُ جُرجَان، فعاد إليهم وعاهد الله إنْ ظَفر بهم لا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويأْكل من ذلك الطحين، فحصرهم سبعةَ أشهر وهم يخرجون إليه يقاتِلونه ويرجعون، فبينما هم على ذلك إذ خرج رجلٌ من عَجَمِ خراسان يتصيَّدُ، وقيل من طيِّىء، فأبصر وعْلاً في الجبَل فتَبِعه فلم يشعُر حتى هجم على عسْكرِهم، فرجع يُرِيدُ أصحابه، وجعل يُخَرِّقُ قَبَاءَه ويعْقِدُ على الشجر علاماتٍ، فأتى يزيد فأخبره فضمن له يزيدُ دِيةً إنْ دَلَّهُمْ على الحِصْن؛ فانتخب معه ثلاثمائة رجل، وأستعمل عليهم ابْنَهُ خالدًا، وقال له: إن غلِبت على الحياة فلا تغلَبنَّ على الموت، وإياك أنْ أراكَ عندي مهزومًا، وضمّ إليه جَهْم بن زَحْر، وقال للرجل: متى تصل؟ قال: غدًا العصر. قال يزيد: سأجهد على مناصحتهم عند الظهر.

(١) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه. (٢) الوقر: الحمل الثقيل.
(٣) السّرق: شقق الحرير، أو أجوده، الواحدة: سرقة.
(٤) جرجان: بالضم وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان... هي أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل ندى ومطرًا من طبرستان وأهلها أحسن وقارًا وأكثر مروءة ويسارًا... (معجم البلدان).

فساروا، فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كلَّ حَطَبٍ كان عندهم، فصار مثل الجبال مِنَ النيران، فنظر العدوّ إلى النار، فهالهُمْ ذلك، فخرجوا إليهم؛ وتقدّم يزيدُ إليهم، ودهمهم ابْنه بمن معه قُبَيْل العصر وهم آمِنون من ذلك الوجْه، ويزِيدُ يقاتلهم مِنْ هذا الوجْهِ، فما شعروا إلا والتكبير مِنْ ورائهم، فانقطعوا جميعًا إلى حِصْنِهم، وركبهم المسلمون؛ فأعطَوْا بأيديهم، ونَزَلوا على حُكْمِ يزيد، فسبى ذراريهم، وقَتَل مقاتلتهم، وصلبهم فرسخَيْن عن يمين الطريق ويسارِهِ، وقاد منهم اثني عشر ألفًا إلى وادِي جُرْجان فقتلهم، وأجْرى الماءَ على الدم، وعليه أرحاء، ليطحن بدمائهم ليبَرَّ يمينه، فطَحن وخَبز وأكلَ.

وقيل: قتل منهم أربعين ألفًا، وبنى مدينةَ جُرْجان، ولم تكن بُنِيتْ قَبْل ذلك مدينة، ورجع إلى خراسان، واستعمل على جرجان جهْم بن زَحْر الجعفي، وكتب إلى سليمان بالفَتْح وعَظّمه عنده، وأخبره أنه قد حصل عنده من الخُمْس ستمائة ألف ألف، فقال له كاتِبُهُ ـ المغيرة بن أبي قرَّة مولى بني تميم: لا تكتبْ بتسميةِ المالِ، فإنك من ذلك بين أمرين: إما اسْتَكْثَرَهُ فأمرَك بحَمْلِه، وإما سَخَت به نَفْسُه فأعطاكَه فتكلفْتَ الهديةَ؛ فلا يأْتيه من قِبَلك شيء إلاّ استقلَّه، فكأني بك قد استَغْرقْتَ ما سمَّيْت ولم يقع منه موقعًا، ويبقى المالُ الذي سميتَ مُخَلَّدًا في دَوَاوينهم، فإن ولي وال بعده أخذك به، وإن ولي مَنْ يتحاملُ عليك لم يرْضَ بأضْعافه، ولكن اكتب سلْه القدوم وشَافِهْهُ بما أصبْتَ فهو أسْلَم.

فلم يقبلْ منه، وكتب، فكان من أمره في ذلك ما نذكره في أخبَار عمر بن عبد العزيز.

وقيل: كان المبلغ أربعةَ آلاف ألف، والله تعالى أعلم.

* * *

وفيها توفي أيّوب بن سُلَيْمان بن عبد الملك، وهو وليّ العهد.

وفيها غَزَا داوُد بن سُليمان أرْضَ الروم؛ ففتح حِصْنَ المرأة مما يلي ملَطْية.

وفيها كانت الزلازل في الدنيا كثيرةً، ودامت ستة أشهر.

وحجَّ بالناس عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة.

سنة تسع وتسعين:

ذكر وفاة سليمان بن عبد الملك وشيءٍ من أخباره وعماله

كانت وفاتُه يوم الجمعة لعَشْرٍ مضين من صفر من السنة بدَابِقَ من أرض قِنَّسْرِين بذات الجنْب، وله خمس وأربعون سنة. وكانت مدةُ خلافته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام، وصلّى عليه عُمَر بن عبد العزيز؛ وكان طويلاً أبيضَ، جَمِيلَ الوَجْه، فصِيحَ اللسان، مُعْجبًا بنفسه، يتوقَّى سَفْكَ الدماء. وكان أكُولاً نكاحًا، وكان حَسَن السيرة، وكان الناسُ يقولون: سليمانُ مفتاحُ الخير؛ ذهب عنهم الحجاج، وولى سليمان، فأطلق الأسارى، وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عُمَر بن عبد العزيز. ويقال: إنه فعل في يومٍ واحد أكثر مما فعل عُمَرُ بن عبد العزيز جميع عُمْرِه، وذلك أنه أعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة، وكساهم.

ومن أعظم بركاته أنه جعل عُمر بن عبد العزيزَ وليّ عهده. وحكى أنه لبس يومًا حُلَّةً خضراء وعمامةً خضراء، ونظر في المرآة، فقال: أنا الملك الفتى، فما عاش جمعة.

وقيل: كانت له جاريةٌ معها مِرآة، فدعاها يومًا فجاءته بها، فنظر وجهه، ونظرت الجارية إليه، فقال لها: ما تَنْظرِين؟ قالت: [من الخفيف]

أنتَ نِعْمَ المتَاعُ لو كنْتَ تَبْقَى ... غيرَ أنْ لا بَقَاءَ للإنسانِ
ليس فيما بدا لنا منك عيْبٌ ... عابَه الناسُ غيْرَ أنّك فَانِي

وانصرفت، فاستدعاها فجاءت بالمرآة فسألها عن البيتين، فقالت: والله ما جئتك اليوم؛ فعلم أنه نُعي.

وقيل: إنه شهد جنازةً بدَابقَ فدُفنت في حَقْلٍ، فجعل سليمان يأْخذ من تلك التُّرْبة، ويقول: ما أحسن هذه وأطيبها! فما أتى عليه جمعة حتى دُفِنَ إلى جَنْب ذلك القَبْر.

وقيل: إنه كان له من الأولاد الذكور أربعة عشر.

وكان نقشُ خاتمه: آمنْت بالله مُخْلصًا.

وكتّابه: يزيد بن المهلب، ثم المفضل بن المهلب عم عبد العزيز بن الحارث بن الحكم.

قاضيه: محمد بن حزم.

حاجبه: أبو عبيدة مولاه.

الأمير بمصر: عبد الله بن رفاعة.

قاضيها من قِبله: عبْد الله بن عبد الرحمٰن، وهو متولّي بيت المال، ثم رد القضاء إلى عِياض بن عبد الله من قبل سليمان بن عبد الملك.

ذكر بيعة عمر بن عبد العزيز

هو أبو حَفْص عُمر بن عبد العزيز بن مزوان بن الحكم؛ وأُمُّه أُم عاصم بنت عاصم بن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الثامنُ من ملوك بني أُمية، بويع له بدابِقَ يوم الجمعة بَعْدَ وفاةِ سليمان لعَشْرٍ خَلَوْنَ من صفر سنة تسع وتسعين.

قال: وكان سليمان لما مرض بِدَابِقَ عهد في كتابٍ كتبه لبعض بنيه وهو غلامٌ لم يبلغ الحُلم، فدخل عليه رَجاء بن حيْوَة، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ إنه مما يحفظ الخليفة في قَبْره أن يستخلفَ على الناس الرجلَ الصالح. فقال سليمان: أنا أسْتَخِير الله، وأنظر. ومكث يومًا أو يومين ثم حرق الكتاب، ودعا رَجاء، فقال: ما ترى في ولَدِي داود؟ فقال رجاء: هو غائب بالقسطنطينية، ولم يُدْرَ أحيّ هو أم لا؟ قال: فما ترى في عُمر بن عبد العزيز؟ قال رجاء: أعْلَمُهُ واللّهِ خَيِّرًا فاضِلاً مسلمًا. قال سليمان: هو على ذلك، ولئن ولَّيْتُه ولم أُولِّ أحدًا سواه لتكونَنَّ فِتْنَةٌ ولا يتركونه أبدًا عليهم إلا أن أجعل أحدَهم بعده.

فأمر سليمان أن يُجْعَل يزيد بن عبد الملك بَعْد عُمَر. وكان يزيد غائبًا في الموسم.

فكتب سليمان: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتابٌ من عبْد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز؛ إني قد ولَّيْتك الخلافةَ من بعدي، ومِنْ بعدك يزيد بن عبد الملك؛ فاسمعوا له وأطيعوا، واتَّقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم.

وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن جابر صاحب شرطته، فقال: ادْعُ أهْل بيتي، فجمعهم كعب، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهبْ بكتابي هذا إليهم، ومُرْهم أن يُبايعوا مَنْ ولَّيْت فيه، ففعل، وبايعوا رجلاً رجلاً، ولم يعلموا مَنْ في الكتاب.

قال رجاء: فأتاني عُمَرُ بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكونَ هذا أَسْنَد إليّ مِنْ هذا الأمر شيئًا؛ فأنشدك الله إلاّ أعلَمْتَني إنْ كان قد وقع حتى أستعفي قَبْلَ أنْ يأتي حالٌ لا أقدِرُ على ذلك فيها. قال رَجَاء: فقلت: ما أنا مخبرك. فذهب عَنّي غَضْبان.

ولقيني هشامُ بن عبد الملك فقال: إن لي حرمةً ومودّةً قديمة فأعلمني بهذا الأمر؛ فإن كان إلى غيري تكلَّمْت، ولله عليّ ألاّ أذكرك. قال: فأبيت أن أُخبره. قال: ودخلْت على سليمان عند موته فغمضته وسجَّيْته، وأغلقْت الباب، وأرسلت إلى كَعْب بن جابر، فجمع أهلَ بيتِ سليمان في مسجد دابِقَ، فقلت: بايِعُوا! فقالوا: قد بايعْنَا مرةً. قلت: وأُخرى، هذا عهْدٌ من أمير المؤمنين، فبايِعُوا الثانية. قال رجاء: فلما بايعُوا بعْد موتِه رأيْت أني قد أحكمْت الأمْر فقلت: قومُوا إلى صاحبِكم فقد مات، فاستَرْجَعوا، وقرأْت الكتابَ، فلما انتهيت إلى ذِكْر عمر بن عبد العزيز قال هشام: لا نبايعه واللّهِ أبدًا. قلت: أضْرِب والله عُنقك. قم وبايع. فقام يجرُّ رجليه.

قال رجاء: وأجلسْت عمر على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه، فبايعوه.

قال: ولما دُفِن سليمان أُتي عُمر بمراكب الخلافة، فقال: دابَّتي أرفق لي، وركب دابَّته؛ ثم أقبل سائرًا، فقيل له: منازل الخلافة؟ فقال: فيها عِيَالُ سليمان، وفي فسْطَاطي كفاية حتى يتحوّلوا.

قال: وبلغ عبْدَ العزيز بن الوليد ـ وكان غائبًا ـ وفاةُ سليمان ولم يشعر بعُمَر، فدعا لنفسه، فبلغه بيْعَة عُمر، فأقبل حتى دخل عليه، فقال له عمر: بلغني أنك بايَعْتَ مَنْ قِبَلَك، وأردْتَ دخول دمشق. قال: نعم، وذلك أنه بلغني أنَّ سليمان ما عقد لأحد فخفْتُ على الأموال أن تنْتَهب. فقال له عمر: لو بايعْتَ وقمتَ بالأمر لم أُنازِعكَ فيه. فبايعه عَبْدُ العزيز.

قال: ولما استقرت البيعة لعُمر قال لامرأته فاطمة بنتِ عبد الملك: إن أردتني فرُدِّي ما معك من مالٍ وحليّ وجَوْهَر إلى بيتِ المالِ، فإنه للمسلمين، وإني لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيتٍ واحد، فردَّته جميعه. فلما توفي عمر ووُلّي أخوها يزيد ردّه عليها فلم تأخذه، وقالت: ما كنْت لأُطِيعه حَيًّا وأعصيه ميّتًا، ففرّقه يزيد على أهله.

قال: وكان من أول ما ابتدأ به عُمر بن عبد العزيز أنْ ترك سبَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على المنابر، وكان يُسَبُّ في أيام بني أُمية إلى أنْ ولي عُمر فترك ذلك، وأبْدله قول الله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

فحلّ ذلك عند الناس مَحَلاً حسنًا، وأكثروا مدْح عُمر بسببه، فكان ممن مدحه كثَيِّر عَزَّةَ(١) بقوله: [من الطويل]

وَلِيت فلم تَشْتم عليًا ولم تخِفْ ... بَرِيًّا ولم تتبعْ مقالةَ مُجْرِمِ
تكلَّمت بالحقِّ المبين وإنّما ... تَبَيَّن آيات الهُدَى بالتكلم
فصدّقت معروف الذي قلْت بالذي ... فَعَلْتَ فأضحى راضيًا كلُّ مُسْلم
ألا إن يكفي الفَتَى بعد زَيْغِه ... من الأوَد البادِي ثِقَافُ المقوّم(٢)

وفيها وجَّه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرْضِ الروم يأمُرُهُ بالقفول منها بمَنْ معه من المسلمين، ووجَّه لهم خَيْلاً عِتَاقًا وطعامًا كثيرًا.

وفيها أغارت الترك على أذْرَبِيجان. فقتلوا من المسلمين جماعة، فوجّه عمر حاتم بن النعمان الباهلي فقَتَلَ أُولئك الترك، ولم يُفْلِتْ منهم إلا اليسير، وقدم على عمر منهم بخمسين أسيرًا.

وفيها عزَل عمر يزيدَ بن المهلَّب عن أعماله، ووجَّه إلى البصرة عدي بن أرْطَاة الفَزَاري، وجعل على الكوفة عَبْدَ الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب العدَوِي، وضمَّ إليه أبا الزِّنَاد، واستعمل على خُراسان الجراح بن عَبْدِ الله الحكَمِي.

وحجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمْرو بن حزْم، وكان عاملَ المدينة، وكان العامل على مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد، وعلى الكوفة عبد الحميد، وعلى القضاء بها عامر الشعبي(٣)، وكان على البصرة عديّ من أرطاة، وعلى القضاء الحسن بن أبي الحَسَن البصْري، ثم استعفى عدِيًا فأعفاه، واستقضى إياس بن معاوية.

سنة مائة للهجرة:

ذكر خروج شوذب الخارجيّ

في هذه السنة خرج شَوْذَب واسمه بِسْطَام من بني يشْكر في جُوْخَى(٤) وكان في

(١) هو كثير بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة من خزاعة، وكان رافضيًا، وكان أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته عزة وإليها ينسب، وهي من ضمرة... (طبقات الشعراء).

(٢) الأود: الاعجاج؛ والثقاف: أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل.

(٣) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم... (الوفيات ٣: ١٢).

(٤) جوخى: اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد بالجانب الشرقي منه الراذانان، وهو بين خانقين وخوزستان... (معجم البلدان).

ثمانين رجلاً، فكتب عُمَرُ بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة ألاَّ يحرِّكهم حتى يسفِكوا الدِّمَاءَ أو يُفْسِدُوا في الأرض، فإنْ فعلوا وجّه إليهم رجُلاً صليبًا حازمًا في جُنْدٍ.

فبعث عبد الحميد محمد بن جرير بن عَبْد الله البجلي في ألفين، وأمره أن يفعل ما كتب به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يسأل عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه، وقد قدم عليه محمد، فكان في كتابِ عمر: بلغني أنك خرجْتَ غَضَبًا للّهِ ولرسولِه، ولستَ بذلك أوْلَى مني، فهلم إليّ أُناظرك، فإن كان الحقُّ بأيدينا دخلْتَ فيما دخل فيه الناسُ، وإن كان في يدك نظرْنَا في أمرك.

فكتب إليه بِسْطام: قد أنصفت، وقد بعثْتُ إليك برجُلَيْن يُدارسانك ويناظِرَانك. وأرسل إليه موْلًى حبشيًّا لبني شيبان اسْمُهُ عاصم، ورجُلاً من بني يشْكر، فَقَدِما على عمر بخنَاصرة(١)، فقال لهما: ما أخْرجكما هذا المخرج؟ وما الذي نقمتم؟ قال عاصم: ما نقمنا سِيرتَك، إنك للتحرَّى العدْل والإحْسانَ، فَأخْبِرْنَا عن قيامك بهذا الأمر؛ عن رضًا من الناس ومشورة، أم ابتززتم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألْتهم الولايةَ عليهم، ولا غلبْتهم عليها، وعهد إليَّ رَجُلٌ كان قبلي، فقمْت، ولم يُنْكِر عليّ أحد، ولم يكرهه غيركم، وأنتم تَرَوْنَ الرِّضَا بكل منْ عَدل وأنصف مَنْ كان مِنَ الناس، فأنْزلوني ذلك الرجل، فإن خالفْت الحقَّ وزِغْت عنه فلا طاعةَ لي عليكم. قالاَ: بيننا وبينك أمْرٌ واحِدٌ. قال: ما هو؟ قالا: رأيناك خالَفْتَ أعمال أهلِ بيتِك وسمَّيْتَها مَظَالم، فإن كنْتَ على هدى وهم على ضلالة فالْعَنْهم وابرأْ منهم. فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبًا للدنيا، ولكنكم أردْتم الآخرةَ فأخطأْتم طريقَها، إنَّ الله عزَّ وجل لم يبعث رسولَه لَعانًا. قال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقال الله عزّ وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد سميْت أعمالَهم ظلْمًا، وكفى بذلك ذمًّا ونَقْصًا، وليس لَعْن أهل الذنوبِ فريضةً لا بدّ منها، فإن قلْتم إنها فريضةٌ فأخْبِرْني متى لعنْتَ فرعون؟ قال: ما أذكر متى لعنْته. قال: أفَيَسعُك ألاَّ تلعن فرعون وهو أخْبَث الخلق وشَرُّهُمْ، ولا يسعني ألاَّ ألْعنَ أهْلَ بيتي وهم مُصلّون صائمون؟

(١) خناصرة: بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية، وهي قصبة كورة الأحص. . . قيل: بناها الخناصر بن عمرو خليفة الأشرم صاحب الفيل. . . (معجم البلدان).

قال عاصم: أَمَا هُمْ كفَّار بظلْمهم؟ قالَ: لا، لأنَّ رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان، فكان من أقرّ به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثًا أقيم عليه الحد. فقال عاصم: إن رسول الله دعا الناس إلى توحيد الله تعالى والإقرار بِما أنزل مِنْ عِنده.

قال عمر: فليس أحدٌ منهم يقول: لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ، ولكن القَوْم أسرفو على أنفسهم على عِلمهم أنه محرَّمٌ عليهم، ولكن غلب عليهم الشَّقَاءُ.

قال عاصم: فابرأ مما خالف عملَكَ ورُدَّ أحكامهم.

قال عمر: أخبراني عن أبي بكْرِ وعمر رضي الله عنهما، أليسا على الحق؟ قالا: بلى. قال: أتعلمان أنَّ أبا بكْر حين قاتل أهْل الرِّدَّةِ سفك دماءَهم، وسبى الذَّرارِي، وأخذ الأمْوالَ؟ قالا: نعم. قال: أفتعلمان أن عُمر رضي الله عنه ردّ السبايا بعْده إلى عشائرهم بفِدْية؟ قالا: نعم. قال: فهل برىء عمر من أبِي بكر؟ قالا: لا. قال: أفتبرؤُون أنتم منْ واحد منهما؟ قالا: لا. فأخْبِراني عن أهلِ النَّهْروان وهم أسلافكم، هل تعلمان أنَّ أهْل الكوفة خرجوا فلم يسفِكوا دمًا، ولم يأْخذوا مالاً، وأن منْ خرج إليهم من أهل البصْرةِ قتلوا عبْد الله بن خَبَّاب وجاريتَه وهي حامل؟ قالا: نعم. قال: فهل برىء مَنْ لم يقتل ممَّنْ قَتَل؟ قالا: لا. قال: أفتبرؤُون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالا: لا. قال: أفيَسعُكم أن تتولَّوا أبا بكْر وعمر وأهل الكوفة وأهل البصرة وقد علمتم اختلاف أعمالهم، ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي، والدِّين واحد؟ فاتقوا الله، فإنكم جُهَّال تقبلون من الناس ما ردَّ عليهم رسولُ الله ﷺ، وتردّون عليهم ما قَبل، ويأْمن عندكم من خاف عنده، ويخافُ عندكم مَنْ أمِنَ عنده، فإنكم يخَافُ عندكم مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسوله، وكان منْ فَعْل ذلك عند رسولِ اللّهِ ﷺ أمِن وحقَن دَمه وماله، وأنتم تقتلونه ويأْمن عندكم سائر أهل الأديانِ، فتحرِّمون دماءهم وأموالَهم.

قال اليشكري: أرأيْتَ رجلاً وَلي قومًا وأموالَهم فعدل فيها ثم صيّرها بَعْده إلى رجلٍ غير مأْمون، أتراه أدَّى الحقَّ الذي يلزمُه لله عزَّ وجل، وتراه قد سلم؟ قال عُمر: لا. قال: أفَتُسْلم هذا الأمرَ إلى يزيد مِنْ بعدك وأنت تعْلَم أنه لا يقوم فيه بالحقِّ. قال: إنما ولاَّه غيري، والمسلمون أوْلَى بما يكون منهم فيه بَعْدِي. قال: أفترى ذلك من صُنْع منْ ولاَّهُ حقًّا؟ فبكى عمر، وقال: أنْظِراني ثلاثًا.

فخرجا مِنْ عِنْده ثم عادا إليه، فقال عاصم: أشهد أنكَ على حق. فقال عمر لليشكري: ما تقول أنت؟ قال: ما أحسنَ ما وصَفت، ولكني لا أفْتَات على المسلمين بأمرٍ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجَّتهم. فأما عاصم فأقام عند عُمَر، فأمر له

بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشر يومًا، فكان عمر يقول: أهلكني أمْرُ يزيد، وخُصمت فيه، فأستغفر الله. فخاف بنو أُمية أن يخرج ما بأيديهم وأن يُخلع يزيد مِن ولاية العهد؛ فوضعوا على عمر منْ سقاه سُمًّا. فلم يلبثْ بعد ذلك إلاَّ ثلاثًا حتى مرض ومات، رحمه الله تعالى.

هذا ومحمد بن جرِير مقابل الخوارج لا يتعرض إليهم ولا يتعرَّضون إليه، فلما مات عمر وَوُلِّي يزيد كان ما نذكره في أخبار يزيد.

***

وفي هذه السنة عزل عُمَرُ يزيد بن المهلب عن خرَاسان وأحضره وطالبه بالمال الذي كان كتب به إلى سليمان واعتقله بحِصْن حلَب، واستعمل على خراسان الجرّاح بن عبْدْ الله الحَكَمِي، ثم عزله؛ واستعمل عَبْد الرحمٰن بن نعيم القشَيْري.

وفيها كان ابتداءُ خروج شيعة بني العباس على ما نذكره في أخبار الدولة العباسية إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر عُمرُ بن عبد العزيز أهل طَرَنْدة[١] بالقفول عنها إلى مَلَطْيَة، وطرنْدَة أوغَلُ في البلاد الرُّومية بثلاث مراحل، وكان عَبْدُ الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غَزاها سنة ثلاث وثمانين ومَلَطْيَة يومئذ خراب، وكان يأْتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أنْ ينزل الثَّلْج ويعودون إلى بلادِهم، فلم يزالوا كذلك إلى أنْ ولي عمر، فأمرهم بالعوْد إلى ملَطْيَة وأخلى طُرَنْدَة خوفًا على المسلمين من العدوّ، وأخرب طُرنْدَة، واستعمل على ملَطْية جعْوَنة بن الحارث أحدَ بني عامر بن صعْصعة.

وفيها كتب عُمر إلى ملوك السند يدْعُوهم إلى الإسلام، فأسلم منْ ذكرنا منهم على ما سبق ذكر ذلك.

وفيها استعمل عُمر بن عبد العزيز عُمَر بن هُبيرة الفَزَاري على الجزيرة.

وفيها مات أبُو الطُّفَيْل عامر بنَ واثِلة الليثي[٢] بمكة، وهو آخرُ من مات من الصحابة، ومولده عام أُحُد.

وحجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم.

---

(١) طرندة: هي من ملطية على ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم، وملطية يومئذ خراب، ثم نقل عمر بن عبد العزيز أهل طرندة إلى ملطية إشفاقًا عليهم، وخربت. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) عامر بن واثلة الليثي: من رجال بني سعد بن ليث، يُحدث عنه.

سنة إحدى ومائة:

في هذه السنة هرب يزيدُ بن المهلب من حبْس عمر بن عبد العزيز، وذلك أنه لما اشتدَّ مَرَض عمر بن عبد العزيز عمل يزيد في الهرب مخافةَ يزيد بن عبد الملك لإساءةٍ كانت صدرَتْ منه في حَقِّه أيام سليمان، فأرسل ابْن المهلب إلى مواليه فأعدّوا له خَيْلاً وإبلاً، وواعدهم مكانًا يأتيهم فيه، وأرسل إلى عامل حلَب وإلى الحُرَّاس مالاً، وقال: إنَّ أمِير المؤمنين قد ثَقل في مرضه، وليس يُرْجَى، وإنْ ولي يزيد سفَكَ دمي، فأخْرجوه، فهرب وقصد البَصْرة، وكتب إلى عُمر كتابًا يقول: إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفْت أنْ يَليَ يزيد فيقتلني شَرَّ قتلة.

فورد الكتاب وبه رَمَقٌ، فقال رضي الله عنه: اللهم إنْ كانَ يَزِيد يريدُ بالمسلمين سوءًا فألْحِقْه به وهِضْهُ[1] فقد هاضني، ثم كان من أمْرِ ابْنِ المهلَّب ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه وشيء من أخباره وسيرته رحمه الله تعالى

كانت وفاته رحمه الله بخنَاصِرة لستٍّ بقيت من شهر رجب سنة إحدى ومائة، وكانت شَكْواه عشرين يومًا، وقيل له في مرضه: لو تداويْتَ! فقال: لو كان دوائي في مسْحِ أُذنِي ما مسحْتها، نِعْمَ المذهوبُ إليه رَبِّي. ودفن بدَيْرِ سمْعان[2] من أرْضِ حِمْص.

وقيل: به توفي، وكان عمره تسعًا وثلاثين سنة وأشهرًا وقيل أربعين سنة وأشهرًا.

وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا.

وكان أبيض نحيفًا حسن الوجه، وهو أشجّ بني أُمية، رمحتُه دابّة فشجَّته، وهو غلام، فدخل على أُمه فضمَّتْه إليها ولامَتْ أباه حيث لم يجعل معه حاضنًا. فقال لها عَبْدُ العزيز: اسكتي يا أُمَّ عاصم، فطوبى له إنْ كان أشجّ بني أُميّة.

(١) يقال: هاض الحزن فلانًا: أصابه مرة بعد أخرى، ويقال: هاض المرض فلانًا: عاد إليه بعد الإبلال.

(٢) دير سمعان: يقال بكسر السين وفتحها: وهو دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور... (معجم البلدان).

وكان عَبْدُ الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يقول: يا ليت شِعْري، منْ هذا الذي مِنْ ولَد عُمر في وَجْهِهِ علامة يملأُ الدنيا عَدْلاً؛ فكان عُمرَ بْنَ عبد العزيز؛ لأنَّ أُمَّه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ذكر نبذة من سيرته رضي الله عنه

كان رحِمهُ الله ورضي عنه قد بَثَّ العَدْلَ ونَشَرَهُ في الدنيا واقتصر من دُنْيَاهُ على سدّ الخَلَّة[١] حتى إنَّ مسلمةَ بْنَ عبد الملك عادَه في مرضِ مَوْتِهِ، فرأى عليه قميصًا دَنِسًا، فقال لأُخته فاطمة، وهي زَوْجَة عمر: اغسلوا ثيابَ أمير المؤمنين. فقالت: نَفْعَلُ. ثم عاده فرأى الثَّوْبَ بحاله، فقال: ألم آمركم أنْ تغسلوا قميصَه. فقالت: والله ما لَهُ غَيْرُهُ، وكانت نفَقَتُهُ في كل يوم دِرْهَمين.

قال: ولما ولي الخلافة أتاهُ أصحابُ مَرَاكبِ الخلافة يطلبون عَلَفَهَا، فأمر بها فبِيْعَتْ، وجعل ثمنَها في بيْتِ المال، وقال: بغْلَتِي هذه تكفيني.

قال: ولما ولي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، منْ صحبنا فليصحبْنَا لخَمس، وإلاَّ فلا يقربنا: يَرْفَعُ إلينا حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ رَفْعَها، وَيُعِيننا على الخير بجهْدِهِ، ويدلُّنا على ما لا نَهْتَدِي إليه مِنَ الْخَيْرِ، ولا يغتابَنَّ أحدًا، ولا يعترض فيما لا يَعْنيه.

فانقشع الشعراءُ والْخُطَبَاءُ، وثبت عنده الفقهاء والزُّهَّادُ، وقالوا: ما يَسعُنَا أن نفارقَ هذا الرجلَ حتى يخالفَ قولَه فِعْلُه.

ولما وَلي أحضر قريشًا ووجوهَ الناس فقال: إنَّ فَدَك[٢] كانت بيَدِ رسولِ الله ﷺ فكان يضَعُهَا حيث أراه الله، ثم وَليها أبو بكر كذلك، وعُمر كذلك، ثم أقطعها مرْوان. ثم إنها صارت لي، ولم يكن مِنْ مَالي أعْوَدُ عليّ منها، وإني أُشهدكم أني قد ردَدْتها على ما كانت عليه في عهْدِ رسول الله ﷺ.

قال: فَيَئِسَ الناسُ من الظُّلْمِ.

وأخَذَ مِنْ أهله ما بأيديهم، وسمَّى ذلك مَظَالم، ففَزِعَ بنو أمية إلى عمَّتِهِ فاطمة بنت مروان فأتته، فقالت له: تكلَّمْ أنْتَ يا أمير المؤمنين. قال: إن الله بعث

---

(١) الخلة: الحاجة.

(٢) فدك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحًا. . . (معجم البلدان).

محمدًا ﷺ إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، وترك للناس نَهرًا شِرْبُهم سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهْر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عَمَلَهُمَا، ثم لم يَزَل النهر يستقي منه يزيد ومَرْوان، وعبد الملك ابْنه، والوليد وسليمان ابْنَا عَبْد الملك، حتى أفضى الأَمْرُ إليّ، وقد يَبِسَ النهرُ الأعظم، فلن يروي أصحابه حتى يعودَ إلى ما كان عليه.

فقالت: حسبك قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكرُ شيئًا أبَدًا، ورجعتْ إليهم فأخبرتهم بكلامه.

وقد قيل: إنها قالت له: إن بني أُميَّة كذا وكذا ـ ذكَرَتْ إنكارهم لفِعْلِه بهم ـ فلما تكلم بهذا قالت له: إنهم يُحَذِّرونك يومًا من أيامهم، فغضب وقال: كل يوم أخافُه غير يومِ القيامة؛ فلا أمّنني الله شرَّه.

فرجعت إليهم فأخبرتهم وقالت: أنتم فعلْتُم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولادِ عُمر بن الخطاب، فجاء يُشْبِهُ جَدَّه، فسكَتُوا.

قالت فاطمة امرأة عمر: دخلْتُ عليه في مُصَلاَّهُ ودموعُه تجري على لحيته، فقلت: أحَدَث شيء؟ قال: إني تقلَّدت أمْرَ أُمَّةِ محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع والعاري والمظلوم والمقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير وذي العِيَال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض، فعلمْتُ أنَّ ربي سيسألني عنهم يَوْمَ القيامة، وأنَّ خَصْمِي دونهم محمد ﷺ، فخشيتُ ألاَّ تثبت حُجَّتي عند الخصومة، فرحمت نَفْسي فبكيتُ.

وكتب إلى عمَّاله نسخةً واحدة: أما بعد فإنَّ الله عَزَّ وجل أكرَمَ بالإسلام أهلَه، وشرّفهم وأعزَّهم، وضرب الذِّلَّةَ والصَّغَار[1] على مَنْ خالفهم، وجعلهم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس، فلا تُوَلِّيَنَّ أمْر المسلمين أحدًا مِنْ أهل ذمتهم وخَرَاجهم، فَتَنْبَسِطَ عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلَّهم بعد أنْ أعَزَّهم الله، وتُهينهم بعد أن أكرمهم اللّهُ، وتُعرِّضهم لكَيْدِهم والاستطالة عليهم، ومع هذا فلا يُؤمن غِشُّهم إياهم، فإنَّ الله عزّ وجل يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] والسلام.

---

(١) الصغار: الذل.

وكتب لما ولي الخلافة إلى يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرَة، وهو إذ ذاك يلي العراقَ وخراسان:

أما بَعْدُ فإنَّ سليمان كان عبْدًا من عَبِيد الله، أنعم اللّهُ عليه ثم قَبَضَهُ، واستخلفني ويَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الملك مِنْ بَعْدِي إن كان، وإن الذي ولأني اللّهُ من ذلك وقدّر لي ليس عليّ بهيّن، ولو كانت رَغْبَتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال لكان في الذي أعطاني اللّهُ من ذلك ما قد بلغ بي أفضلَ ما بلغ بأحَدٍ من خَلْقِهِ، وأنا أخافُ فيما ابتُلِيْتُ به حسابًا شديدًا ومسألة غليظة إلاَّ ما عافى الله ورحم، وقد بايع من قِبَلنا فبايع مَنْ قِبَلك.

فلما قرأ الكتاب قيل له: لسْتَ من عُمَّاله، لأن كلامه ليس كلام من مَضَى مِنْ أهله.

وكتب إلى عبد الرحمٰن بن نُعيم:

أمابعد فاعمل عَمَلَ مَنْ يعلم أنَّ الله لا يُصْلح عملَ المفسدين.

وكتب إلى سليمان بن أبي السري: أن اعْمَل خانات، فمَنْ مَرّ بك من المسلمين فاقْرُوه يومًا وليلة، وتعهَّدُوا دوابَّهم. ومن كانت به علةٌ فاقْرُوه يومين وليلتين، وإن كان منقطعًا به فأبْلِغْهُ بلدَه.

فلما أتاه كتاب عمر قال له أهل سَمرْقَنْد: إنَّ قُتيبة ظلمنا وغَدَر بنَا، وأخذ بلادنا، وقد أظْهَرَ اللّهُ العدْل والإنصاف فأْذَنْ لنَا فلْيقْدم منا وَفْدٌ على أمير المؤمنين، فأذِن لهم، فوجَّهُوا وفْدًا إلى عمر، فكتب إلى سليمان: إنَّ أهل سَمَرْقَند شَكَوْا ظُلْمًا وتَحامُلاً من قُتَيْبَة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كِتابِي فأجْلس لهم القاضي فليَنْظُر في أمرهم، فإن قضى لهم فأَخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قُتَيْبَة.

فأجلس لهم سليمان جُميع بن حاضر القاضي، فقضى أنْ تخرجَ العرَبُ إلى معسكرهم ويُنَابِذُوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظَفَرًا عنْوَةً. فقال أهل الصُغْد: نَرْضَى بما كان ولا نحدث شَيْئًا وتواصوا بذلك.

وكتب إلى عبد الحميد: أما بعد فإنَّ أهل الكوفة أصابهم بلاءٌ وشدةٌ وجَوْرٌ في أحكام الله: وسُنَّةٌ خَبيثة سنَّها عليهم عُمَّالُ السوء، وإنّ قوامَ الدِّيْن العَدْلُ والإحسان، فلا يكوننَّ شيء أهَمَّ إليكَ مِنْ نفسك؛ فإنه لا قليلَ من الإثم، ولا تَحْمِلْ خَرابًا على عامر، وخُذْ منه ما أطاق؛ وأصْلِحه حتى يَعْمر، ولا يؤخذن من الْعَامر إلا وظيفة

الخراج في رِفْقٍ وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذنَّ أُجورَ الضرابين ولا هديَّة النوروز[(١)] والمهرجان[(٢)]؛ ولا ثمن الصحف ولا أُجور الفُيُوج[(٣)] ولا أُجورَ البيوت؛ ولا دَراهم النكاح؛ ولا خراجَ على مَن أسلم مِنْ أهل الأرض، فاتَّبعْ في ذلك أمْرِي، فإني قد ولَّيتك من ذلك ما ولاَّني الله، ولا تعجل دُوني بقَطْعٍ ولا صَلْب حتى تراجعني فيه، وانْظُرْ مَنْ أراد من الذريَّة أن يحج فعجِّل له مائة ليحجَّ بها. والسلام.

قال محمد بن علي الباقر: إن لكل قوم نَجيبةً، وإن نجيبةَ بني أُمية عمرَ بن عبد العزيز رحمَه الله، فإنه يُبْعَث يَوْمَ القيامة أُمةً وحْدَه.

وقال مجاهد: أتَيْنَا عمر نعلِّمه؛ فلم نبرح حتى تعلَّمْنَا منه.

وقيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما كان بدْءُ إنَابتك؟ قال: أردْتُ ضَرْب غلام لي، فقال لي: اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة.

وقال عمر: ما كذبْتُ منذ علمت أنَّ الكذب يضرُّ أهله.

وأخباره رضي الله عنه في الخير والعَدْلِ كثيرة لو استقصيناها أو أوْردْنا ما طالعْنَاه منها لطال ولخرج عن قاعدة هذا التأليف، وناهِيكَ بها سيرةً ضُرِب بها المَثَلُ في العَدْلِ والإحسان منذ كانت إلى يومنا هذا.

وكان له من الأولاد الذكور أربعة عشر وخمس بنات.

كُتَّابه: رجاء بن حَيْوة الكندي؛ وابن أبي رقَبة.

قاضيه: عبد الله بن سعد الأُبُلِّي.

حجَّابه: جيش، ومزاحم، موْلَياه.

الأمير بمصر: أيوب بن شُرحبيل.

وأقر على القضاء عِيَاض بن عبْدِ اللّهِ؛ ثم صرفه بأبي مسعود عبْد الله بن حُذافة.

وكان نقش خاتمه رضي الله عنه: «عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله».

---

(١) النوروز: (بالفارسية) اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية.

(٢) المهرجان: احتفال الاعتدال الخريفي، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين: الأولى: مهر، ومن معانيها الشمس. والثانية: جان، ومن معانيها: الحياة أو الروح.

(٣) الفيوج: جمع الفيج: وهو المطمئن من الأرض.

ذكر بيعة يزيد بن عبد الملك

هو أبو خالد يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكم، وأُمُّه عاتِكَةُ بنت يَزيد بن معاوية، وهو التاسع من ملوك بني أُمية، بويع له يوم الجمعة لخَمْس بقين من شهر رجب سنة إحدى ومائة بعد وفاة عُمرَ بن عبد العزيز؛ وذلك بعَهْدٍ من أخيه سليمان بن عبد الملك على ما تقدَّم ذكْرُ ذلك.

قيل: ولما احتضر عُمَر رضي الله عنه قيل له: اكتُبْ إلى يزيد فأوْصِه بالأُمَّةِ. قال: بماذا أُوصيه؟ إنه مِنْ بني عبد الملك.

ثم كتب إليه: أما بعد فاتَّق يا يزيد الصَّرْعةَ بعد الغَفْلَة، حين لا تُقَالُ العثْرة، ولا تَقْدِرُ على الرجْعَةِ، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى مَنْ لا يعذرك. والسلام.

فلما ولي يزيد نَزَع أبا بكر محمد بن عمرو بن حزْم عن المدينة، واستعمل عبْدَ الرحمٰن بن الضحاك بن قيس الفِهْرِي عليها؛ فأراد معارضة ابن حزم فلم يجد عليه سبيلاً حتى شكا عثمانُ بن حَيّان إلى يزيد بن عبد الملك من ابن حَزم، وأنه ضربه حدَّيْنِ، وطلب منه أن يُقيده منه.

فكتب يزيد إلى عَبْد الرحمٰن كتابًا: أما بعد فانْظُرْ فيم ضَرَب ابنُ حزْم ابْنَ حيان، فإن كان ضربه في أمرٍ بيِّن أو أمرٍ مختلَف فيه فلا تلتفت إليه.

فأرسل ابْنُ الضحاك إلى ابن حَزْم فأحضره؛ وضربَهُ حدَّيْنِ في مقام واحد، ولم يسأله عن شيء، وعمد يزيد إلى كلّ ما فعله عُمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه مما لم يوافق هَوَاهُ، فرده، ولم يَخفْ شناعةً عاجلة ولا إثْمًا آجلاً.

ذكر مقتل شوذب الخارجي وهزيمته بجيوش يزيد قبل ذلك

واسم شَوْذَب بِسطام.

قد ذكرنا خروجَه في أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ووصول رُسُلِه إلى عمر، وما كان بينهما من المناظرة، وخروج محمد بن جرير بن عبد الله البَجلي إليهم في ألفين ومُوَادَعتهم إلى أن يعُود رسولاً شَوْذَب من عند عمر؛ فلما مات عُمَرُ بْنُ عبد العزيز أحبّ عَبْدُ الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطَّاب، وهو الأمِيرُ على الكوفة، أن يَحْظَى عند يزيد بن عبد الملك؛ فكتب إلى محمد بن جَرير يأْمره

بمناجزة[1] شَوْذَب، فلما رآه يستعدُّ للحرب أرسل إليه يقول: ما أعجلكم قبل انقضاء المدَّة.

فأرسل إليه محمد: إنه لا يسَعُنَا ترككم على هذه الحال.

فقال الخوارج: ما فَعَلَ هؤلاء هذا إلاّ وقد مات الرجلُ الصالح، فاقتتلوا، فأُصيب مِنَ الخوارج نَفَرٌ، وقُتِل أكثر أهلِ الكوفة، وانهزم مَنْ بقِي منهم نحو الكوفة، وتبعهم الخوارِجُ حتى بلغوا الكوفة، ثم رجعوا إلى مكانهم.

ثم وجَّه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحباب في ألْفَيْن فقاتلوه، فقتل، وقُتِلَ أكثر أصحابه، ولَجأ مَنْ بَقِي منهم إلى الكوفةِ، والتحق بَعْضُهم بيزيد، فأرسل إليهم يزيد نَجْدة بنَ الحَكَمِ الأزَدِي في جَمْع، فَقَتَلُوه وهزموا أصحابه.

وأقام شَوْذَبَ بمكانه حتى دخل مسلمة بن عَبْد الملك الكوفة، فشكا إليه أهْلُ الكوفة مكان شَوْذب وحذَّرُوه أمْرَه، فأرسل إليه مسلمة سعِيد بن عمرو الْحرَشِيّ. في عشرة آلاف، فقال شَوْذَب لأصحابه: منْ كان منكم يريد الشهادة فقد جاءتْهُ، ومنْ كان يريد الدنيا فقد ذهبت. فكسروا أغمادَ سيوفِهم وحملوا فكشفوا سعِيدًا وأصحابه مِرارًا حتى خاف سعِيد رحمه الله الفضيحة، وكان فارسًا شجاعًا، فوبَّخ أصحابَه، وقَبَّح عليهم الفِرَار، فحملوا فقتلوا بِسْطَامًا ومَنْ معه مِنع الخوارج.

ذكر الغزوات والفتوحات
في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان

ذكر غزوة الترك

وفي سنة اثنتين ومائة كانت الحرْبُ بين المسلمين والترك عند قَصْر الباهلي.

وقيل: كان سبب ذلك أنَّ عظيمًا من عظماء الدَّهَاقين أراد أن يتزوَّجَ امرأةً من باهلة كانت في ذلك القَصْر، فأبَتْ فاستجاش التُّرْك، فجمعهم خَاقَان ووجَّهَهُم إلى الصُّغْد، فساروا وعليهم كورصول حتى نزلوا بِقَصْر الباهلي، ورجوا أن يَسْبُوا مَنْ فيه، وكان فيه مائةُ أهلِ بيتٍ بِذَرَارِيهم، وكان على سَمرْقَنْد يومذاك عثمان بن عبْد الله بن مُطَرِّف بن الشِّخِّير من قِبَل سَعِيدِ بن عبد العزيز عامل خُرَاسان، فكتب أهْلُ القصر إليه، وخافوا أن يُبْطىء عنهم المَدَدُ، فصالحوا الترك على أربعين ألفًا وأعطَوْهم سبعة

(١) ناجزه الحرب: نازله وقاتله.

عشر رجلاً رهينة؛ وانتدب عثمان الناس؛ فانتدب المسيب بن بشْر الرِّياحي، وانتدب معه أربعةَ آلاف من جميع القبائل، وعليهم شُعْبَةُ بن ظُهير، وكان على سمرقند قَبْلَ عثمان، فلما عَسْكَرُوا قال لهم المسيّب: إنكم تُقْدِمون على حَلْبَةِ التُّرْك عليهم خاقان، والعِوَض إنْ صبَرْتُم الجنةُ، والعِقَابُ إن فَرَرْتُم النارُ؛ فمن أراد الغَزْو والصبر فلْيُقْدِم.

فرجع عنه ألفٌ وثلاثمائة، فلما سار فرسخًا[1] آخر، فقال مثل ذلك؛ فاعتزلَه ألْفٌ، ثم سار فرسخًا آخر فقال مثل ذلك، فاعتزله ألْفٌ، وبقي في سبعمائة؛ فسار حتى بَقِي على فَرْسَخَيْنِ من التُّرْكِ، فأتاه الخَبَرُ أن أهْل القَصْرِ قد صالحوا التُّرْكَ على أربعين ألفًا، وأعْطَوْهم سبعة عشر رجلاً رهينة، وأنه لما بلغهم مَسِيرُ المسلمين قتلوا الرهائنَ وأنهم اتَّعدُوا القتالَ غدًا.

فبعث المسَيّبُ رجلَيْنِ إلى أهل القصر يُعْلمهم بقُرْبِه، ويستمهلهم يومًا وليلة، فأتيَا القَصرَ في ليلةٍ مظلمة وقد أجرتِ التركُ الماء في نواحي القصر، فليس يَصلُ إليه أحَدٌ. فلما دنَوْا من القصر صاح بهم الرَّبيئة[2] فاستنصتاه، وقالا له: ادْعُ لنا عَبْدَ الملك بن دِثَار، فَدَعَاه، فأعلماه قُرْب المسيَّب، وأمراه بالصَّبْر غدًا، ورجعا إلى المُسَيَّب، فبايع أصحابَه على الموت، فبايعوه، وسار حتى بقي بينه وبين القَصْرِ نِصْفُ فرسخ، فلما أمسى أمرَ أصحابَه بالصَّبْرِ، قال: ليكُنْ شِعَارَكُم: يا محمد، ولا تتبعوا مُوضِيًا، وعليكم بالدوابّ فاعقروها فإنها إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم، وسار بهم ليلاً فَوافَى عَسْكَرَ الترك وقْتَ السَّحر، فخالطهم المسلمون، وعَقَرُوا الدواب، فانهزمت التركُ، ونادى منادِي المسيّب، لا تتبعوهم، فإنهم لا يَدْرون من الرُّعْب أتبعتوهم أم لا.

وأمر أصحابه أن يَقْصِدُوا القَصْرَ ويحْمِلُوا ما فيه من المالِ ومَنْ بالقصر؛ ممن يَعْجز عن المشي، ففعلوا، ورجع إلى سَمَرْقَنْد، ورجع التُّرْكُ من الغَد، فلم يروا بالقَصْر أحدًا، ورأوا قَتْلاَهم، فقالوا: لم يكن الذين أَتَوْنَا من الإنس. والله أعلم.

ذكر غزو الصغد[3]

وفي سنة اثنتين ومائة أيضًا عبر سعيد النهر، وغزا الصُّغْد، وكانوا نقضوا العهْد،

---

(١) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال.

(٢) الربيئة: الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه.

(٣) الصغد: بالضم ثم الكسون، وآخره دال مهملة، وقد يقال بالسين مكان الصاد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان صغد سمرقند وصغد بخارى، وقيل غير ذلك. . . (معجم البلدان).

وأعانوا التُّرْكَ على المسلمين، فلَقِيه الترك وطائفة من الصُّغْد، فهزمهم المسلمون وساروا حتى انتهوا إلى واد بينهم وبين المرْج، فقطعه بعضُهم وقد أكمن لهم التُّرْكُ، فلما جازهم المسلمون خرجوا عليهم، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى الوَادِي، ثم جاء الأمير وبقيَّةُ الجيش فانهزم العدوّ.

وفيها غَزَا عُمر بن هُبَيْرة الروم من ناحية أرمينية، وهو على الجزيرة قَبْل أن يَلِي العراق، فهزمهم، وأسر منهم خَلْقًا كثيرًا. وقيل سبعمائة أسير.

وغزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم، فافتتح دلسة، وغزا أيضًا في سنة ثلاث مائة، ففتح مدينة يقال لها رسلة.

ذكر الوقعة بين سعيد الحرشي أمير خراسان وبين الصُّغْد

وفي سنة أربع ومائة غزا سعيد الحرشي، فقطع النَّهْر وسار فنزل قصر الرِّيح على فَرْسَخَيْنِ من الدَّبُوسِيَة[(١)]، وكان الصُّغْد لما بلغهم عَزْل سعِيد بن عبد العزيز عن خُراسَان واستعمال الحرَشي خافُوه على أنفسهم، فأجمع عظماؤُهم على الخُروج من بلادهم، فقال لهم ملِكُهم: أقيموا واحمِلُوا له خَراج ما مضى، واضْمَنُوا له خراج ما يأْتي، وعمارة الأرض، والغَزْو معه إنْ أراد ذلك، واعتذرُوا مما كان منكم، وأعطوه رهائن. قالوا: نخاف ألاَّ يقبَل ذلك منا، ولكنا نأْتي خُجنْدة[(٢)] فنَسْتَجير بملِكِها، ونرسل إلى الأمِير فنسأله الصَّفْح عما كان منَّا. فوافقهم.

فخرجوا إلى خُجَنْدَة، وأرسلوا إلى ملك فَرْغانة يسألونه أنْ يمْنَعهم، ويُنزلهم مدينَتَه، فأراد أنْ يفعلَ فنهَتْه أُمه، وقالت له: فَرِّغ لهم رُسْتاقًا يكونون فيه؛ فأرسل إليهم: سمُّوا رُسْتَاقًا تكونونَ فيه حتى نُفرغه لكم، وأجِّلُوني أربعين يومًا.

فاختاروا شِعْبَ عصام بن عبْد الله الباهلي، فقال: نعم، وليس عليّ عقد ولا جِوار حتى تدخلوه، وإن أتتكم العربُ قبل دخُولِه لم أمنعكم. فرضوا، وفرغ لهم الشِّعْب.

---

(١) الدبوسية: بليدة من أعمال الصغد مما وراء النهر.

(٢) خجندة: بضم أوله وفتح ثانيه ونون ثم دال مهملة: بلدة مشهورة مما وراء النهر على شاطىء جيحون. . . (معجم البلدان).

فلما انتهى الحَرَشي إلى قَصْر الرِّيح أتاه ابْنُ عم ملك فَرْغَانة فقال له: إنَّ أهل الصُّغْد بخُجَنْدَةَ، وأخبره خَبرهم، وقال: عاجِلْهُمْ قبل أن يصِلُوا إلى الشِّعْبِ، فليس لهم علينا جِوَار حتى يمضِيَ الأَجَل.

فوجّه معه عبد الرحمٰن القُشَيْرِي وزياد بن عبد الرحمٰن في جماعة، ثم ندما بعدما فصلوا، وقال: جاءني عِلْج لا أعْلَمُ صَدَق أم كذب؛ فغَرَّرْتُ بجنْد من المسلمين.

فارتحل في أثرهم حتى نزل أُشْرُوسنَة[1]، فصالحهم بشيء يسير، ثم سار مُسْرِعًا حتى لحق القُشَيْري، وسارُوا حتى انْتَهوا إلى خُجَنْدَة، فنزل عليهم وأخذ في التأَهُّبِ. وكان الصغد بخُجنْدة قد حَفَرُوا خَنْدَقًا في ربضِهِم وراء الباب، وغطّوه بقصَب وتُراب، وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا دخَلُوا مِنَ الطريق، ويُشكل على المسلمين فيسقطون في الخَنْدَق. فلما خرجوا قاتلوهم فانهزموا وأخطئوا هم الطريقَ فسقطوا في الخَنْدَقِ، فأخرج منهم المسلمون أربعين رجلاً، وحصرهم الحَرَشِيّ، ونصب عليهم المجانيق.

فأرسلوا إلى ملك فَرْغَانة: إنك قد غدرْتَ بنا، وسألوه أن ينصرهم، فقال: قد أتَوْكم قبل انقضاء الأجَل، ولسْتُم في جِوَاري، فطلبوا الصُّلْح، وسألوا الحَرشِيَّ أنْ يؤمنهم ويردَّهم إلى الصُّغْد، فاشترط عليهم أن يردُّوا ما في أيديهم من نساء العرب وذَرَاريهم، وأن يؤدوا ما كَسَرُوا من الخَرَاج، ولا يغتالوا أحدًا، ولا يتخلَّف منهم بخُجَنْدة أحد، فإن أحدثوا حَدَثًا حلَّت دماؤُهم.

فخرج إليهم الملوكُ والتجارُ من الصُّغْد، ونزل عظماءُ الصُّغْد على الجُنْدِ الذين يعرفونهم، ونزل كارَزَنْج على أيوب بن حسَّان، وبلغ الحَرشي أنهم قتلوا امرأةً ممن كان في أيديهم، فقال لهم: بلغني أنَّ ثابتًا الإشْتِيخَنِي قَتَل امرأةً؛ فجحدوا. فسأل حتى استصحّ الخبر، فأحضر ثابتًا وقتلَه، فلما بلغ كارَزَنج ذلك خاف أن يُقْتل فأرسل إلى ابن أخيه ليأْتيه بسَرَاوِيل، وكان قد قال لابْنِ أخيه: إذا طلبْتُ سراويل فاعلم أنه الْقَتْل. فبعث به إليه، وخرج اعترض الناس فقتَل ناسًا، وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت، وقتل الصُّغْدُ مائةً وخمسين رجلاً كانوا عندهم مِنْ أسرى المسلمين، فأمر الحرَشيُّ بقَتْلِ الصُّغْد بعد عَزْل التجارِ عنهم، فقاتلهم الصُّغْد بالخشَب، ولم يكن لهم سلاحٌ، فقُتِلوا عن آخرهم، وكانوا ثلاثةَ آلاف، وقيل سبعة

---

(١) أشروسنة: بالضم ثم السكون وضم الراء، وواو ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، ونون وهاء: بلدة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند. . . (معجم البلدان لياقوت).

آلاف، واصطفى الحَرَشِي أموالَ الصُّغْدِ وذَرارِيهم، وأخذ من ذلك ما أعجبه، وقَسَّم ما بقي، وفتح المسلمون حِصْنًا يُطِيف به وادِي الصُّغْدِ من ثلاث جهات صلحًا على ألاَّ يتعرض لنسائهم وذراريهم، ففعلوا.

وسار الحَرَشي إلى كَسّ[١]، فصالحوه على عشرة آلاف رأس. وقيل: ستة آلاف رأس، ووَلَّى الحَرَشِي نصر بن سيّار قبض صُلْح كَسّ، واستعمل سليمان بن أبي السري على كسّ، ونَسف ـ حَرْبَها وخَراجها. وكانت خُزَارُ[٢] منيعة، فأرسل الحَرشِيُّ إليها المُسرْبَلَ بنَ الخرِّيت النَّاجي، وكان صديقًا لملكها، واسم ملكها سُبُغْرِي، فأخبر الناجي الملكَ بما صنع الحَرَشِي بأهل خُجنْدَة، وخَوّفه. قال: فما ترى؟ قال: أرى أنْ تنزل بأمَانٍ، فصالحهم فأمنوه وبلاده، ورجع الحَرَشِي إلى مَرْو ومعه سُبُغْرِي فقتله وصلبه ومعه أمَانه.

ذكر ظفر الخزر بالمسلمين

وفي سنة أربع ومائة دخل جَيْشُ المسلمين إلى بلادِ الخَزَر من أرمينية، وعليهم ثُبَيت النَّهْرَاني، فاجتمعت الخَزَر في جَمْعٍ كثيف، وأعانهم قفجلق وغيرهم من التُّرْك، فلقوا المسلمين بمكانٍ يُعْرَفُ بمَرْج الحِجَارة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتِل من المسلمين خَلْقٌ كثير، واحتوت الخَزَر على عسكرهم، وغنموا ما فيه، وأقبل المنهزمون إلى الشام، فقدموا على يزيد، فوبَّخَهُمْ على الهزيمة، فقال ثَبيتٌ: يا أمِيرَ المؤمنين، ما جَبُنْتُ ولا نَكَبْتُ عن لقاء العدو، ولقد لصقت الخَيْل بالخيل والرجل بالرجل، ولقد طاعنْتُ حتى انقصف رُمْحي، وضاربْتُ حتى انقطع سَيْفِي، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء.

ذكر فتح بلنجر[٣] وغيرها

قال: لما تمَّت الهزيمةُ المذكورةُ على المسلمين طَمِع الخَزَر في البلادِ. فجمعوا وحشدوا، فاستعمل يَزيدُ بن عَبْد الملك الجرَّاح بن عبْد الله الحَكَمِيّ على أرمينية، وأمده بجيْش كثيفٍ، وأمره بغَزْو الخَزَر وغيرهم من الأعداء وقَصْدِ بلادهم، فسار

(١) كسّ: بكسر أوله وتشديد ثانيه: مدينة تقارب سمرقند.

(٢) خزار: بضم أوله، وآخره راء مهملة: موضع بقرب وخش من نواحي بلخ... وقيل: خزاز موضع بقرب نسف بما وراء النهر... (معجم البلدان).

(٣) بلنجر: مدينة ببلاد الخزار، خلف باب الأبواب.

الجرّاحُ وتسامعَتْ به الخزَرُ فعادوا حتى نزلوا بالبابِ والأبواب، ووصل الجرَّاحُ إلى بَرْدَعَة[١]، فأقام بها حتى استراح هو ومنْ مَعه، وسار نحو الخَزَر فعبر نهْر الْكُرّ، فبلغه أنَّ بَعْضَ مَنْ معه كتب إلى ملك الخَزَر يُخبِره بمسير الجرّاح إليه، فأمر الجرّاحُ مناديًا فنادى في الناس: إنَّ الأمير مقيم هاهنا عدةَ أيام، فاستكثرُوا من المِيْرَة.

فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخَزَر يُخبِره أن الجرَّاح مقيم، ويُشير عليه بتَرْك الحَركةِ لئلا يطمَعَ المسلمون فيه، ثم أمر الجرَّاح بالرحيل ليلاً، وسار مُجدًّا حتى انتهى إلى مدينةِ الباب والأبواب، فلم ير الخَزَر، فدخل البلد، وبثَّ سراياهُ للنَّهْب والغارة، فغنموا وعادوا، وسار الخزَرُ إليه، وعليهم ابنُ ملكهم فالتقوا عند نهر الرَّان[٢]، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فهزمهم المسلمون وتَبِعوهم يقتلون ويأسرون، فقُتِلَ منهم خَلْق كثير، وغنم المسلمون جميع ما معهم، وساروا حتى نزلوا على حصْن يعرف بالحُصَين، فنزل أهلُه بالأمان على مالٍ يحملونه، فأجابهم ونقلهم عنه، ثم سار إلى مدينة بُرْغَر[٣] فأقام عليها ستةَ أيام، وجَدّ في قتالِ أهلها، فسألوا الأمانَ فأمَّنهم وتسلَّم حِصْنَهُم ونَقَلَهم منه.

ثم سار إلى بَلَنْجر وهو حصْنٌ مشهور مِنْ حُصونهم، فنازَله، وقاتل عليه قتالاً شديدًا، وملك الحِصْن عنوة، وغنم المسلمون ما فيه، فأصاب الفارسَ ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفًا، وأخذ الجراح أولاد صاحب بَلَنْجَر وأهله، وأرسل إليه فأحضره وردّ إليه أموالَه وأهله وحصنه، وجعله عَيْنًا للمسلمين؛ ثم سار عن بلَنْجر فنزل على حصن الوبندر، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوا الجرَّاح على مالٍ يؤدُّونه، ثم تجمّع أهلُ تلك البلاد، وأخذوا الطرق على المسلمين، فكتب صاحب بَلَنْجَر إلى الجرّاح يُخْبِرُه بذلك، فعاد مُجِدًّا حتى وصل إلى رُسْتَاق سِلًّى[٤]، وأدركهم الشتاء، فما قام المسلمون به، وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبجموع الكفارِ، ويسألهُ المدَد، فوعده بإنفاذِ العساكر، فمات قبل ذلك، فأقر هشام الجرَّاح على عمله، ووعده المدد.

---

(١) بردعة: بلد في أقصى أذربيجان.

(٢) الرّان: مدينة بين مراغة وزنجان.. وفي المدينة نهر من شرب منه آمن الحصاة... وقيل: الران ولاية واسعة من نواحي أرمينية.

(٣) برغر: بالغين المعجمة المفتوحة والراء: على ساحل بحر متصل بخليج القسطنطينية... (معجم البلدان).

(٤) سلى: بكسر أوله، وفتح اللام وتشديدها، وقصر الألف: جبل بمناذر من أعمال الأهواز.

هذا ما كان من الغزوات والفتوحات في أيام يزيد بن عبد الملك.

فلنذكر حوادث السنين في أيامه.

ـ تتمة سنة إحدى ومائة:

ذكر استيلاء يزيد بن المهلب بن أبي صفرة على البصْرَةِ وخلعه يَزِيد بن عبد الملك

قد ذكرنا هرب يَزيد بن المهلب مِنْ حَبْس عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وأنه إنما هرب خَوْفًا من يزيدَ بنِ عبد الملك لمنافرةٍ كانت بينهما.

وقيل: كان السبب الذي أوْجب كراهة يزيد بن عبد الملك في يزيد بن المهلب أن ابْنَ المهلب خرج يومًا من الحمّام في أيام سليمان وقد تضمَّخ بالغَالِية[١]، فاجتاز بيزيدَ بنِ عبد الملك وهو إلى جانب عُمَر بن عبد العزيز، فقال يَزِيدُ بْنُ عبْد الملك: قَبَّح الله الدنيا! لودِدْتُ أنَّ مثقالَ الغاليةِ بألفِ دينار، فلا ينالُه إلا كلّ شريف، فقال ابْنُ المهلَّب: بل ودِدْت أنَّ الغالية في جبهةِ الأسد فلا ينالها إلاّ مثلي. فقال له يزيدُ بن عبد الملك: والله لئن وليتُ يومًا لأقتلنَّك. فقال ابْنُ المهلب: والله لئن وليتَ هذا الأمر وأنا حيٌّ لأضرِبنَّ وَجْهَك بمائة ألْفِ سيف.

وقيل: كان السبب أنَّ يزيد بن المهلب كان قد عذَّب أصهار يَزيد بن عبد الملك، وكان سليمانُ بن عبد الملك لما ولي الخلافة طلب آل عقيل فأخذهم وسلَّمهم إلى ابن المهلب ليخلِّص الأموالَ منهم، فبعث ابن المهلب إلى البلْقَاء من أعمال دمشق وبها خزائِنُ الحجاج بن يوسف وعياله، فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيمن أتى به أُمُّ الحجاج زوجةُ يزيد بن عبد الملك.

وقيل: بل أُختٌ لها ـ فعذَّبها، فأتى يزيدُ بن عبد الملك إلى ابْنه المهلب في منزله، فشفع فيها، فلم يشفّعه، فقال: الذي قرَّرْتُم عليها أنا أحمله، فلم يقبل منه، فقال لابْنِ المهلب: أما واللّهِ لئن ولِّيتُ من الأمر شيئًا لأقطعنَّ منك عُضوًا. فقال ابْنُ المهلَّب: وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينَّك بمائة ألف سيف.

فحمل يزيد بن عبد الملك المال عنها، وكان مائة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك. والله أعلم.

---

(١) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.

قال: فلما ولي يزيد بن عبد الملك كتب إلى عَبْد الحميد بن عبد الرحمٰن، وإلى عدي بن أرْطَاة، يُعَرِّفهُما هرب يزيد، ويأمرهما بالتحرز منه، وأمر عديًا أنْ يأخذ مَنْ بالبصرة مِنْ آل المهلَّب ويحبسهم، فقبض عليهم وفيهم المفضَّل وحبِيب ومرْوان بنو المهلب، وأقبل يزيدُ بن المهلب نَحوَ البصرة، وقد جمع عديُّ بن أرطاة الجموعَ، وخَنْدَقَ على البصرة، وندب الناس، وجاء يزيد في أصحابه، والذين معه، فالتقاه أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع إليه مِنْ أهله وقومه ومواليه، فمرّ بجموع عدِيّ؛ فجعل لا يمرُّ بخَيلٍ من خَيْل عدِيّ إلا تنحّوْا عن طريقه، وأقبل حتى نزل داره، واختلف الناسُ إليه، فبعث إلى عَدِيّ أن ابعث إليَّ إخوتي وأنا أُصالِحُكَ على البصرة وأُولِّيك وإياها حتى آخذَ لنفسي مِنْ يزيد ما أُحب. فلم يقبل منه، وأخذ يزيد بن المهلب يُعْطِي من أتاه قِطَع الذهب والفضَّةِ؛ فمال الناسُ إليه؛ وكان عديّ لا يُعْطِي إلاّ درهمين درهمين، ويقول: لا يحلُّ أنْ أُعطيكم مِن بَيْتِ المال درهمًا إلا بأمْرِ يزيد بن عبد الملك، ولكن تَبلَّغوا بهذه حتى يأْتي الأمر، فقال الفرزدق: [من الطويل]

أظُنُّ رِّجالَ الدّرهَمين تقودُهم ... إلى الموت آجالٌ لهم ومصارعُ
وأكيَسَهُمْ مَنْ قَرَّ في قَعْر بيته ... وأيقَنَ أنَّ الموتَ لا بُدَّ واقِعُ

وخرج يزيد حين اجتمع الناسُ له حتى نزل جَبّانَةَ بني يشكُر وهو المَنْصف فيما بينه وبين القصر، فلقيه قعيْس وتميم وأهْلُ الشام، فاقتتلوا هُنَيْهَة وانهزموا، فتبعهم يزيدُ وأصحابُه حتى دنا من القصر، وخرج إليهم عديٌّ بنفسه فقُتل من أصحابه وانهزم هو، وقصد قَتْل آل المهلب الذين في حَبْسه، فأغلقوا البابَ ومنعوا عن أنفسهم حتى أدركهم يزيد، ونزل في دار سالم بن زياد بن أبيه، وهي إلى جنْب القصر، ونصب السلاليم، وفتح القَصْر، وأتى بِعَدِي بن أرْطَاة فحبسه، وقال: لولا حَبْسك إخوتي لما حبسْتُك، وأخرج إخوته وهرب بوجوهِ أهل البصرة، فلحقوا بالكوفة، وكان يزيد قد بعث حُميد بن عبد الملك بن المهلب إلى يزيد بن عبْد الملك في طلب الأمانِ، فعاد بما طلب ومعه خالد القَسْري وعمرو بن يزيد الحَكَمِي، فوجد المغيرةَ بْنَ زياد وقد فَرّ من يزيد بن المهلب، فأخبرهم الخبر، فعادوا إلى يزيد بن عَبْد الملك ومعهم حُميد، وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى أهْلِ الكوفة يُثْنِي عليهم ويعِدُهم الزيادَة، وأرسل أخاه مسلمة وابن أخيه العباسَ بن الوليد، في سبْعين ألْف مقاتل مِنْ أهل الشام والجزيرة.

وقيل: كانوا ثمانين ألفًا، فساروا إلى العِراق حتى بلغوا الكوفةَ فنزلوا بالنُّخَيْلة[1]، واستوثق أمْرُ البصْرَةِ لابْن المهلَّب، وبعث عُمَّاله على الأهواز وفارس

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام.

وكَرْمَان، ثم سار يزيدُ من البصْرَة، واستعمل عليها أخاه مَرْوان، وأتى واسِطًا، وأقام عليها أيامًا يسيرةً إلى أن دخلت سنة اثنتين ومائة، فسار عنها.

واستخلف عليها ابْنَه معاوية، ونزَلَ عنده بَيْتَ المال، وقدم أخاه عبد الملك نحو الكوفة، فاستقبله العباسُ بن الوليد واقتتلوا، فظفر عبْدُ الملك أوّلاً، ثم كانت الهزيمة عليه، فعاد بمنْ معه إلى أخيه، وأقبل مسلمة يَسِيرُ على شاطىء الفُرَات إلى الأنبار، وعقد عليها جِسْرًا فعبر وسار حتى نزل على ابْن المهلَّب، والتحق بابن المهلَّب ناسٌ كثيرٌ مِنَ الكوفة والثغور، وأحصى ديوانه مائة ألف وعشرين ألفًا، فقال: لَودِدْت أنَّ لي بهم منْ بخراسان من قومي.

ثم قام في أصحابِه وحَرَّضهم على القِتَالِ، وكان اجتماع ابْنِ المهلب ومسلمة ثمانية أيام، فلما كان يوم الجمعة لأرْبع عشرة ليلة مضَتْ من صفر سنة اثنتين ومائة خرج مسلمةُ في جُنُودِهِ حتى قَرُب من ابْنِ المهلَّب، والْتَقَوْا واقتتَلُوا؛ فانهزَم أصحابُ ابْنِ المهلبِ، فترجَّل وبقي في جماعةٍ من أصحابه وقد استَقْتَل وهو يتقدَّمُ؛ فكلَّما مَرَّ بخَيْل كشفها أو جماعةٍ من أهل الشام عَدَلُوا عنه؛ وأقبل نحو مسلمة لا يُريدُ غيره، فلما دَنَا منه أدْنَى فَرَسه ليرْكَب، فعطف عليه أهْلُ الشام، فقتل يزيد والسَّمَيْدع[1] ومحمّد بن المهلَّب، وكان رجُلٌ من كَلْب يقال له القَحْل بن عَيَّاش لما نَظَر إلى يزيد قال: هذا والله يزيدُ، والله لأقتلنَّه أو ليقتلني، فمَنْ يحمل معي يكفيني أصحابَه حتى أصِلَ إليه، فحمل معه ناسٌ، فاقتتلوا ساعةً، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن القَحْل بآخرِ رَمَقٍ، فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكانَ يزيد وأنه هو الذي قَتَلَه، وأنَّ يزيد قتله، وأتى مَوْلى لبني مرّة برأس يزيد إلى مسلمة، فقيل له: أنْتَ قتلْتَه؟ قال: لا، فبعث مسلمة بالرأس إلى يَزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعيط.

وقيل: بل قتله الهذيل بن زُفر بن الحارث الكلابي، ولم ينزل لأخْذِ رأسه أنَفَةً.

قال: ولما قُتِل يزيد كان المفضّل بن المهلَّب يقاتِلُ أهْلَ الشام وهو لا يَدْرِي بقَتْلِ أخيه ولا بهزيمة الناس، فأتاه آتٍ وقال له: ما تصنع وقد قُتل يزيد وحبيب ومحمد، وانهزم الناسُ منذ طويل؟ فتفرَّق الناسُ عنه، ومضى المفضَّل إلى واسط.

وقيل: بل أتاه أخوه عَبْدُ الملك، وكرِهَ أن يُخْبِرَه بقَتْلِ يَزِيد فيستقتل، فقال له: إنَّ الأمِيرَ قد انحدر إلى واسط، فانْحدَرَ المفضَّلُ بمَنْ بقي مِنْ ولَدِ المهلب

(١) هو السميدع الكندي، من بني مالك من ربيعة.

إليها، فلما علم بقَتْل يزيد حَلف أنَّه لا يُكَلِّم عبْدَ الملك أبدًا، فما كلَّمَه حتى قتل بقَنْدَابِيل(١).

قال: ولما أتت هزيمةُ ابْنُ المهلَّب إلى واسط أخرج ابْنُه معاوية اثنين وثلاثين إنسانًا كانوا عنده، فضرب أعناقَهم، منهم عديّ بن أرْطَاة، وابنُه محمد، ومالك، وعبد الملك ابنا مِسْمَع وغيرهمْ، ثم أقبل حتى أتى البَصْرَةَ بالمال والخزائن، وجاء المفضّل بن المهلب واجتمع إلى المهلَّب بالبصرة، وأعدّوا السفن وتجهَّزُوا للركوب. في البحر إلى جبال كِرْمَان، وحملوا عِيالهم وأموالَهم في السفن الْبَحرِيَّةِ، ولجَّجوا حتى أتوا جِبال كَرْمان، فخرجوا مِنْ سفُنِهِمْ، وحملوا ما معهم على الدوابّ.

وكان المقدّم عليهم المفضّل، وكان بكَرْمَانِ فلولٌ كثيرة، فاجتمعوا إلى المفضل، وبعث مسلمة مُدْرك بن ضَب الكَلْبِي في طلبهم وفي أثر الفلّ، فأدْرَكَ المفضَّل ومن اجتمع إليه، فقاتلوه قتالاً شديدًا، فقُتل من أصحاب المفضل جماعةٌ، وطلب بعْضُ مَنْ معه الأمَانَ، ومضى آلُ المهلب إلى قَنْدابِيل، وبعث مسلمة إلى مدرك بن ضَب، فردَّهُ؛ وسيَّر في أثرهم هلال بن أحْوَز التميمي فلحقهم بقَنْدَابِيل، فأراد آلُ المهلب دخولَها فمنعهم أمِيرُها وادعُ بنُ حُميد، وكان يزيد بن المهلب قد استعمله عليها، وأخذ عليه العُهودَ والمواثيق أنه إنْ قتل في حرْبه يلجأُ أهْله إليها ويتحصَّنُوا بها حتى يأْخذوا أمانَ يزيد بن عبد الملك.

وقال له: قد اختَرْتُك لهم من بَيْن قومي فكُنْ عند حُسْن ظَنِّي؛ وعاهده لَيُنَاصِحَنَّ أهْل بيته إنْ هم لجَئُوا إليه.

فلما أتوه منعهم من الدخول، وكتب إلى هلال بن أحْوز، فلما التقوا نَصب هلالٌ رايةَ أمان، فتفرَّقَ الناسُ عن آل المهلب، وتقدموا هم بأسيافهم، فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم، وهم المفضل، وعبد الملك، وزياد، ومرْوَان بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب، والمِنْهال بن أبي عُيَيْنَة بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قَبِيصة بن المهلَّب، وحملت رؤُوسهم؛ وفي أُذُنِ كلّ واحد رُقْعَةٌ فيها اسمه، ولحق منهم بِرُتبيل أبو عُيَيْنة بن المهلب، وعمرو بن يزيد، وعثمان بن المفضل؛ وبعث هلال بالرؤوس والنساء الأسرى من آل المهلَّب إلى مسلمة بن عَبْد الملك وهو بالحيرة، فبعثهم إلى يزيد بن عبد الملك، فبعثهم يزيدُ إلى العباس بن الوليد وهو على

(١) قندابيل: بالفتح ثم الكسون، ودال مهملة، وبعد الألف موحدة مكسورة، ثم ياء بنقطتين من تحتها ولام: مدينة بالسند.

حَلَب، فنصب الرؤوس، وأراد مسلمةُ أن يبيع الذريةَ، فاشتراهم منه الجرّاح بن عبْد الله الحكَمي بمائة ألف، وخلى سبيلَهم، ولم يأْخذ مسلمة بن الجرّاح شيئًا، وكانت الأسرى من آل المهلَّب ثلاثة عشر رجلاً، فلما جيء بهم إلى يزيد بن عبد الملك كان عنده كثير عزّة فقال: [من الطويل]

حليمٌ إذا ما نال عاقب مُجْمِلاً ... أشدّ العقاب أو عفَا لم يُثَرّبِ(١)

فعفْوًا أمِيرَ المؤمنين وحسْبةً ... فما تأْتِه مِنْ صالِح لك يُكتب

أساؤوا فإنْ تصفَحْ فإنك قادرٌ ... وأفْضَلُ حلْمٍ حِسْبَةً حِلْمُ مُغْضَب

فقال يزيد: هيهات يا أبا صخر؛ أطَّتْ(٢) بك الرَّحِم، لا سَبيل إلى ذلك، إن الله أقاد منهم بأعمالهم الخبيثة، ثم أمر بهم فقُتِلُوا، وبقِي غلام صغير. فقال: اقتلوني، فما أنا بصغير. فقال: انظروا، أنبت؟ فقال: أنا أعلمُ بنفسي، قد احتلمت ووطئت النساء، فأمر به فقُتِل.

والذين قُتلوا من آلِ المهلَّب بين يدي يزيد بن عبد الملك المُعارِك، وعبد الله، والمُغيرة، والمفضل، ومِنْجاب أولاد يزيد بن المهلب ودُويَّة، والحجاج، وغَسّان، وشبيب، والفَضْل أولاد المفضل بن المهلَّب، والمفضل بن قَبيصة بن المهلب.

قال: وأما أبو عُيينة بن المهلَّب فأرسلت هِنْد بنت المهلب إلى يزيد بن عبد الملك في أمانِه فأمَّنَه، وبقي عمرو وعثمان حتى ولي أسد بن عَبْد الله القَسْرِي خُرَاسَان، فكتب إليهما بأمانهما فَقَدِما خُراسان.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الرحمٰن بن الضحاك بن قَيْس، وهو عاملُ المدينة، وكان على مكةَ عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسِيد، وعلى الكوفة عبد الحميد، وعلى قضائها الشَّعْبِي، وعلى خراسان عبد الرحمٰن بن نعيم.

سنة اثنتين ومائة:

ذكر ولاية مسلمة بن عبد الملك العراق وخراسان وعَزله وولاية عُمر بن هُبَيْرَة

قال: ولما فرغ مسلمةُ بن عبد الملك من حَرْبِ ابن المهلَّب جمع له أخوه يزيدُ

(١) ثرب فلانًا: لامه وعيّره بذنبه.

(٢) أطت به رحمي: رقت.

ولايةَ الكوفةِ والبصْرَة وخراسان، فأقر محمد بن عمرو بن الوليد على الكوفة، وبعث إلى البصْرةِ عبد الرحمٰن بن سليم الكلبي، وعلى شرطتها عمْرو بن يزيد التميمي، فأراد عبْدُ الرحمٰن أن يستعرضَ أهْل البصرة ويقتلهم، فنهاه عمْرو واستمهله عشرة أيام، وكتب إلى مسلمة بالخبر فعزَلَه، واستعمل على البَصْرةِ عبْد الملك بن بِشْر بن مَرْوَان، واستعمل على خُراسان سَعِيد بن عَبْد العزيز بن الحارث بن الحكَم بن أبي العاص بن أُمية، وهو الذي يُقال له سعيد خُذَيْنَة، وإنما لُقِّبَ بذلك لأنه كان رجلاً ليِّنًا متنعِّمًا، فدخل عليه بعْضُ ملوكِ العجم وسعِيد في ثياب مصبغَة وحوله مَرافق مُصبغة، فلما خرج مِنْ عنده قالوا له: كيف رأيْتَ الأمير. قال: خُذيْنَة. فلقِّب خُذيْنَة، وهي الدِّهْقَانَة رَبَّة البيت.

وكان سعيد زوج ابنة مسلمة، فلذلك استعمله، فغَزَا سعيد الصُّغْد كما تقدم.

قال: ولما ولي مسلمة العراق وخُراسانَ لم يرفع من الخَرَاج شيئًا، فأراد يَزِيدُ عَزْلَه فاستحيى من ذلك، فكتب إليه أن استَخلِفْ على عمَلِك، وأقْبِلْ. فلما قدم لقيه عُمر بن هُبيْرة الفَزَارِي بالطريق على دَوابّ البريد، فسأله عن مَقْدمه، فقال: وَجَّهني أميرُ المؤمنين في حِيازة أموالِ بني المهلَّب. ولم يكن الأمْرُ كذلك، وإنما كان يزيد قد استعمله، فلم يلبث حتى أتاه عزْلُ ابْنِ هُبيْرة عُمَّالَه والغِلْظة عليهم، وكان ابْنُ هبيرة قبل ذلك يلِي الجزيرة.

ذكر البيعة لهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد بولاية العهد

وفي هذه السنةِ أراد يزيدُ أن يأْخذ البَيْعةَ لابْنِهِ الوليد، فقال له سلمة بن عبْدِ الملك: إنَّ ابْنَكَ لم يبلغ الحُلم؛ وأشار عليه بالبيْعَة لهشام، ففعل، وبايع لهشام بولايةِ العَهْدِ، ثم مِنْ بعده لابنه الوليد بن يزيد، وعُمْرُه يومئذ إحدى عشرة سنة، ثم عاش يزيدُ حتى بلغ ابْنُه الوليدُ الحُلُمَ، فكان يزيد إذا رآه يقول: الله بيني وبين منْ جعل هشامًا بيني وبينك.

ذكر مقتل يزيد بن أبي مسلم

كان يزِيدُ بنُ عبْدِ الملك قد استعمل يزيدَ بن أبي مُسلم على إفريقية في سنة إحدى ومائة، فقُتِل في هذه السنة.

وكان سبب قتله أنه أراد أنْ يسير في أهل إفريقية بِسيرة الحجاج في أهلِ

الإسلام الذين سَكَنُوا الأمصار ممن كان أصله من السَّواد مِنْ أهل الذِّمة، فإنه ردهم إلى قُرَاهم، ووضع عليهم الجِزْيَة على ما كانوا عليه قبل الإسلام. فلما عزم يَزِيدُ بن مُسلم على ذلك اجتمع رأيُ أهل إفريقية على قَتْلِهِ، فقتلوه وولَّوا عليهم الوالي الذي كان قَبْله، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامَنَا ما لاَ يرْضَاه اللّٰهُ والمسلمون، فقتلناه، وأعَدْنَا عاملَك.

فكتب إليهم: إنه لم يرْضَ بما صنع. وأقرَّ محمد بن يزيد على عملِهِ.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبْد الرحمٰن بن الضحاك، وهو عاملُ المدينة.

سنة ثلاث ومائة:

ذكر استعمال سعيد الحرشي على خراسان وعزْل سعيد خُدينَة عنها

في هذه السنة عزل عُمَر بن هُبَيْرة سَعِيد خُدَيْنَةَ عن خراسان بشكوى المُجشِّر بْنِ مُزَاحم السلمي، وعبد الله بن عُمير الليثي، واستعمل سَعِيد بن عمرو الحَرشي، من بني الحَرِيش بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وكان خُدَيْنَة بباب سَمرْقَند، فبلغه عزْله فرجع وقدم الحَرَشِي خُراسان فلم يعرض لعمال خُدَيْنَةَ، وقرأ رجُلٌ عهْدَه فلحن فيه، فقال: صَه؛ مهما سمعتم فهو من الكاتب، والأمِيرُ منه بَريء.

وخطب النَّاس وحثّهم على الجهاد، وقال: إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعُدَّة، ولكن بنَصْرِ اللّٰهِ وعِزِّ الإسلام، فقولوا: لا حوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله.

وقال: [من الوافر]

فلستُ لعامِرٍ إن لم ترَوْني ... أمام الخيل أطْعنُ بالعوَالي
وأضرب هامَةَ الجبَّار منهُمْ ... بِعضْب الحدِّ حُودِثَ بالصَّقالِ[1]
فما أنا في الحروبِ بمسْتَكِينٍ ... ولا أخْشَى مُصاولَة الرِّجالِ
أبى لي والدِي مِن كُلِّ ذَمّ ... وخَالِي في الحوادث غيْرُ خالي

فهابه الصُّغد، وكان من قتاله إياهم وقَتْلهم ما ذكرناه.

(١) عَضْب السيف: صار قاطعًا.

ولما ظفر بهم كتب إلى يزيد بن عبد الملك ولم يكتب إلى ابْن هُبيْرة فوجد[(١)] عليه.

وفيها جُمِعت مكة والمدينة لعبْد الرحمٰن بن الضحاك، وولي عبْد الواحد بن عبد الله النَّضْري الطائف.

سنة أربع ومائة:

ذكر عزل عبد الرحمٰن بن الضحاك عن مكة والمدينة وولاية عَبد الواحد

وفي هذه السنة عزَل يزيدُ بْنُ عبد الملك عَبْدَ الرحمٰن بن الضحَّاك عن مَكَّة والمدينةَ.

وسبب ذلك أن عبْدَ الرحمٰن خطب فاطمة بنت الحُسَيْن بن عليّ رضي الله عنهما، فقالت: ما أُرِيدُ النكاح، ولقد قعدْتُ على بنِيّ هؤلاء، فألحّ عليها، وقال: لئن لم تَفْعَلِي لأجْلِدَن أكْبَر بنيك في الخمر، يعني عَبْد الله بن الحسن بن الحسَن بن علي، وكان على الديوان بالمدينة ابْنُ هرمز رجل من أهل الشام، وقد رفع حسابه، وهو يريد أنْ يسير إلى يزيد، فدخل على فاطمة يودّعها، فقالت: تُخْبِرُ أميرَ المؤمنين بما أَلْقَى من الضحاك.

وبعثَتْ رسولاً بكتابٍ إلى يزيد يُخْبره بذلك. فقدم ابن هُرمز على يزيد، فاستخبره عن المدينة، وقال: هل من مُغَرِّبَةِ خَبر؟ فلم يذكر شَأْنَ فاطمة، فقال الحاجب ليزيد: بالباب رسول من فاطمة بنت الحُسين. فقال ابن هُرْمُز: إنها حملَتْني رسالةً؛ وأخبره الخبر، فنزل عن فِراشِه، وقال: لا أُمَّ لك! عندك هذا وما تخبرنيه! فاعتذر بالنِّسيانِ، فأذِنَ لرسولها، فأُدخل، وقرأ كتابَها، وجعل يضرب بخَيْزُرَان في يده، ويقول: لقد اجترأ ابْنُ الضحّاك، هل مِنْ رجل يُسْمِعُني صَوْته في العذاب؟ قيل له: عبد الواحد بن عبْد الله النَّضْرِي. فكتب إليه بِيدِه:

قد ولَّيتُك المدينةَ، فاهبط إليها، واعزل عنها ابْنَ الضحاك، وأغرمه أربعين ألف دينار، وعَذِّبْه حتى أَسْمعَ صوْتَه، وأنا على فِراشي.

---

(١) وجد عليه: غضب.

وسار البرِيدُ بالكتابِ، ولم يدخل على ابْن الضحاك، فأحسَّ وأحضر البريد، وأعطاه ألْف دينار ليُخْبِره الخبر، فأخبره، فسار ابْنُ الضحاك مُجِدًّا فنزل على مسلمة بن عبْد الملك، فاسْتَجَار به، فحضر مسلمة عند يزيد، فطلب إليه حاجةً جاء لها، فقال: كلُّ حاجة هي لك إلا ابْنَ الضحاك. فقال: هي والله ابنُ الضحَّاك. فقال: والله لا أُعْفِيه أبدًا.

ورده إلى عبد الواحد بالمدينة فعذَّبهُ، ولبس جُبَّةَ صوف، فسأل الناس.

وكان قدوم النضْري في شوال سنة أربع ومائة، فأحْسن السيرةَ في الناس، وكان ابْنُ الضحاك قد آذى الأنصار طُرًّا، فأعفاهم اللّهُ منه.

وفيها عزل عُمر بنُ هُبَيرة سعِيدًا الحرشي عن خُراسان وولاَّها مسلم بن سعِيد بن أسلم بن زُرْعة الكِلاَبي، وسببُ ذلك أن الحَرشي كان يستخفُّ بابْنِ هُبَيْرةَ فعزَله وعذَّبه حتى أدَّى الأموال.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبْدُ الواحد النَّضْري.

سنة خمس ومائة:

ذكر أخبار الخوارج في أيام يزيد بن عبد الملك

وهؤلاء الخوارج الذين نذكرهم ذكرهم ابْنُ الأثير في حوادث هذه السنة، ولم يذكر أنهم خرجوا فيها، فقال:

وفي أيام يزيد خَرج حرُورِي اسمه عُقْفَان في ثلاثين رجُلاً، فأراد يَزيد أن يرسل إليه جُنْدًا يقاتلُونه، فقيل له: إن قُتِل بهذه البلاد اتخذها الخوارجُ دار هِجْرةٍ، والرأْيُ أنْ تبعثَ إلى كلِّ رجل من أصحابه رَجُلاً من قومِه يكلِّمه ويردُّه. ففعل ذلك، فرجعوا وبقي عُقْفان وحْده، فبعث إليه يزيد أخاه فاستعطفه ورده.

فلما ولي هشام بن عَبْد الملك ولاَّه أمْر العُصَاة، فقدم ابْنُه من خراسان عاصِيًا، فشدَّه وثاقًا، وبعث به إلى هشام، فأطلقه لأبيه، وقال: لو خانَنا عُقْفان لكتم أمْر ابنه، واستعمل عُقْفَان على الصدقَة فبقي إلى أن تُوفِّي هشام.

وخرج مسعود بن أبي زينب العبْدي بالبَحْريْن على الأشعث بن عَبْد الله بن الجَارُود، ففارق الأشعث البَحْرَيْن، وسار مسعود إلى اليمامة وعليها سُفيان بن عمْرو العُقَيلي من قِبَل ابْنِ هُبَيرة، فخرج إليه سفيان فاقتَتَلُوا بالخِضْرِمَةِ قِتَالاً شديدًا، فقتل مسعود، وقام بأمْرِ الخوارج بعده هلال بن مُدْلج، فقاتلهم يومه كلَّه، فلما أمسى تفرَّقَ

عنه أصحابُه، وبقي في نَفَرٍ يسير، فدخل قَصْرًا فتحصَّنَ به، فنصبوا عليه السلاليم، وصعدوا إليه فقتلوه.

وقيل: إن مسعودًا غلب على البَحْرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سُفْيان بن عمرو. والله أعلم.

وخرج مصعب بن محمد الوالبي، وكان من رؤساء الخوارج، فطلبه عُمر بن هُبيرة، وطلب معه مالك بن الصَّعْب وجابر بن سَعْد، فخرجوا واجتمعوا بالخَوَرْنَق، وأمَّرُوا عليهم مصعبًا، فاستمر إلى أن ولي خالد القَسْرِي العراقَ في أيام هشام، فبعث إليهم جيشًا، وكانوا قد صاروا بحَزَّة[١] من أعمال الموصل، فالتقوا واقْتتلوا، فقُتل الخوارج.

وقيل: كان قَتْلهم في أيام يزيد. والله أعلم.

ذكر وفاة يزيد بن عبد الملك وشيء من أخباره

كانت وفاته بحَوران[٢] لخمسٍ بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وله أربعون سنة.

وقيل خمس وثلاثون. وقيل: غير ذلك.

وكانت خلافته أرْبع سنين وشهرًا. وكان جميلاً أبْيض جسيمًا مدوَّر الوجْه شديد الكِبرِ عاجِزَ الرأْي، وكان صاحِب لهو، وهو أول من اتخذ القِيَان من بني أُمية، وكان يهْوى جاريتَيْن، وهما حبابة وسلاَّمة، وهي سلاَّمة القَس، وقال يومًا وقد طرب: دعوني أطير. فقالت حبابة: على مَنْ تَدع الأُمّة؟ فقال: عليك. وغَنَّتْ يومًا: [من الكامل]

بين التَّراقِي واللَّهاةِ حرارة ... ما تطمئنُّ وما تَسُوغُ فَتَبْرُدُ[٣]

فأهْوَى ليطير، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنَّ لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرنَّ. فقالت: فَعَلَى منْ تخلِّف الأُمَّة والمُلْك؟ فقال: عليكِ والله. وقَبَّل يدها.

---

(١) حزّة: موضع بين نصيبين ورأس عين على الخابور وبليدة قرب إربل من أرض الموصل. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق.

(٣) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، أو الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم.

وخرجت معه إلى ناحيةِ الأُرْدُن للتنزه فرماها بحبَّةِ عِنَب فدخلت حلْقَها فشرقت ومرضت وماتت، فتركها ثلاثةَ أيام لا يدْفِنُها حتى أنْتَنَت، وهو يقبِّلُها ويشمُّها وينظر إليها ويبكي، فكُلِّم في أمْرها فدفنها.

وقيل: إنه نبشها بَعْدَ دفْنِهَا، وبقي سبعة أيامٍ لا يظهر للناس، وأشار عليه مسلمة بذلك لئلا يَظْهَر منه ما يسفِّهه عندهم.

قال: وكان يزيد قد حجّ أيام أخيه سليمان، فاشترى حبابة بأربعة آلاف دِينار، وكان اسمها الغالية، فقال سليمان: لقد همِمْتُ أنْ أحْجر على يزيد. فردّها يزيدُ فاشتراها رجلٌ من أهل مِصر، فلما أفْضَت الخلافةُ إلى يزيد قالت له امرأتُه سُعْدَة يومًا: هل بَقي من الدنيا شيء تتمنَّاه؟ قال: نعم، حَبَابة، فأرسلت فاشتَرَتْها، وأتت بها فأجلستها مِنْ وراء الستر، وأعادت عليه القَوْل الأول. فقال: قد أعلمْتُك، فرفعت السِّتْرَ، وقالت: هذه حَبَابة، وقامت وتركتها، فحظيتْ سُعْدة عنده، وأكرمها.

وهي سُعْدَة بنت عبْد الله بن عمرو بن عثمان بن عفَّان.

قال: وإنما قيل لسلاَّمة القَسّ، لأن عبْد الرحمٰن بن عبد الله بن أبي عمار أحد بني جُشَم بن معاوية بن بَكْر كان فقيهًا عابدًا مجتهدًا في العِبَادةِ، وكان يسمى القَسّ لعبادَتِهِ. مرّ يومًا بمَنزل موْلاَها، فسمع غِنَاءَها، فوقف يسْمَعُهُ فرآه مولاها، فقال له: هل لك أن تَنْظُرَ وتسمع! فأبى، فقال: أنا أُقْعِدُها بمكانٍ لا تراها وتسمع غناءها. فدخل معه فغنَّت، فأعجبه غناؤها. ثم أخرجها مولاها إليه فشُغِفَ بها وأحبها وأحبته. فقالت له يومًا على خَلْوة: أنا والله أُحِبُّك. قال: وأنا واللّهِ. قالت: وأُحِبّ أن أُقَبِّلك. قال: وأنا والله. قالت: وأُحب أنْ أضَع بطْني على بطنك. قال: وأنا والله. قالت: فما يمنعك؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]. وأنا أكْرَهُ أن تؤولَ خُلَّتُنَا[1] إلى عداوة، ثم قام وانصرف عنها وعاد إلى عبادتِهِ. وله فيها أشعار كثيرة منها قوله: [من الطويل]

ألـم تَـرهَـا لا يُـبْـعِـدُ الـلّـهُ دَارَهـا ... إذا طَرَّبتْ في صوتها كيف تَصْنَع
تـمـدّ نـظـام الـقَـوْل ثـم تـرده ... إلى صَلْصَلٍ من صوتها يترجع

وله فيها غير ذلك.

وأما يزيد فأخباره مع سلاَّمة وحبَابَة كثيرة مشهورة أضربنا عن ذكْر كثير منها.

(١) الخلة: الصداقة المختصة لا خلل فيها.

فلنذكر خلافَ ذلك من أخباره:

وكان له من الأولادِ الذكور ثمانية، منهم عَبْد الله، والوليد.

كُتَّابُه: عُمر بن هُبيْرة، ثم إبراهيم بن جبَلة، ثم أُسامة بن زيد السَّلِيحي.

قاضيه: عبْد الرحمٰن بن الحسْحاس وغيره.

حُجَّابه: سعِيد وخالد مؤلياه.

نقش خاتمه: قِني السيئاتِ يا عزِيز.

الأمير بمصر: بِشْر بن صَفْوان.

وأقرَّ أبا مسعود على القضاء، ثم ولَّى إمارةَ مصر حَنْظَلَةَ بن صفوان أخا بشر، وسار بشر إلى إفريقية. وولى مصر أيضًا في خلافته أُسامَة بن زَيْد، والله أعلم.

ذكر بيعة هشام بن عبد الملك

هو أبو الوليد هشام بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكَم، وأُمُّه أُم هشام فاطمة، وقيل: عائشة بنت هشام المخزومي، وهو العاشر من ملوك بني أُميّة.

بويع له لخَمْس بقين من شعبان سنة خمس ومائة بعد وفاة أخيه، أتَتْهُ الخلافةُ وهو بالرُّصَافة[١]، فجاءه البريد بالخاتم والقَضِيب وسلم عليه بالخلافة، فركب منها، حتى أتى دِمشْق، وكان من أول ما ابتدأ به أنْ عَزَل عُمَر بن هُبَيْرة عن العِرَاق، واستعمل خالد بن عَبْد الله القَسْري، وذلك في شوال من السنة. ولنبدأ بذِكْر الغزواتِ والفتوحات في أيامه:

ذكر الغزوات والفتوحات في أيام هشام بن عبد الملك على حكم السنين

في سنة خمس ومائة غزا الجرّاح الحَكَمِيّ اللاّن[٢] حتى جازَ ذلك إلى مدائن وحصون وراء بَلَنْجَر، ففتح بَعْضَ ذلك وأصاب غنائم كثيرة.

---

(١) الرصافة: المراد رصافة الشام: في مواضع كثيرة؛ منها رصافة هشام بن عبد الملك، وهي في غربي الرق بينهما أربعة فراسخ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام، وكان يسكنها في الصيف. . . (معجم البلدان).

(٢) اللان: بلاد واسعة في طرف إفريقية بقرب باب الأبواب.

وغزا سعِيدُ بن عَبْد الملك أرْضَ الرُّوم، فبعث سَرِيّة في نحو ألف مقاتل فأُصيبوا جميعًا.

وغَزَا مُسلم بن سَعِيدُ الكِلاَبي أميرُ خُراسان التركَ بما وراء النهر فلم يفتح شيئًا، وقفل فاتبعه الترك فلحقوه، والناس يَعْبُرُونَ جيْحُون، وعلى الساقة عُبَيد الله بن زهير بن حيّان على خيل تميم، فحامُوا حتى عَبر الناس.

وغَزَا مسلم أفْشين[١]، فصالح أهلها على ستة آلاف رأس، ودفع إليه القَلْعَة.

وغَزَا مَرْوَان بن محمد الصائفة اليُمْنَى، فافتتح قُونِيَة من أرض الروم، وكمْخ. واللّهُ سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر غزوة مسلم الترك

وفي سنة ست ومائة غَزَا مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرْعَة الترك، فقطع النهر، فلما بلغ بُخَارى أتاه كتاب خالد القَسْري بولاَيتِه العراق، ويأْمره بإتمام غَزاته، فسار إلى فَرْغَانة[٢]، فلما وصلها بلغه أنَّ خاقان قد أقبل إليه، فارتحل، فسار ثلاثَ مراحل في يوم، وأقبل إليهم خاقان، فلقي طائفةً من المسلمين، فقتل جماعةً منهم، وأصاب دوابَّ لمسلم، ورحل مُسْلم بالناس، فسار ثمانيةَ أيام والترك يُطِيفون بهم، وأحْرَقَ الناسُ ما ثَقُل عليهم من أثقالهم، فحرقوا ما قيمتهُ ألْف ألْف، ونزل مسلم في الليلة التاسعة، وأصبح فسار فوردَ النَّهْرَ وأقام يومًا ثم قطعه من الغَدِ، واتبعهم ابنٌ لخَاقَان، فعطف حُميد بن عبْد الله وهو على السَّاقَةِ على طائفةٍ من الترك نحو المائتين فقاتلهم، فأسر أهلَ الصُّغد وقائدهم وقائد الترك في سبعة، ومضى البقيَّةُ. ورجع حُميد فرُمِيَ بنُشَّابة في ركبته فمات.

وعطش الناس في هذه الغَزْوَةِ عطشًا شديدًا وأتوا خُجَنْدَة وقد أصابتهم مَجَاعةٌ وجهد، فانتشر الناسُ. وجاء عَبْدَ الرحمٰن بن نُعيم عهْدُهُ على خراسان من قبل أسد بْن عَبْد الله أخي خالد القَسْري، فأقرأه عبْدُ الرحمٰن مسلمًا، فقال: سَمْعًا وطاعة.

قال بعض منْ شهد هذه الغزوة: قاتلنا الترك فأحاطوا بنا حتى أيقنَّا بالهلاك، فحمل حوْثَرة بن يزيد بن الحُرّ بْنِ الحُنَيْف على الترك في أربعة آلاف، فقاتلهم ساعةً.

---

(١) في معجم ياقوت: أفشنة: بفتح الهمزة، وسكون الفاء، والشين معجمة مفتوحة، ونون وهاء: من قرى بخارى.

(٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان.

ثم رجع، وأقبل نَصر بن سيّار في ثلاثين فارسًا فقاتلهم حتى أزالهم عن مواقِفِهم، وحمل عليهم الناسُ؛ فانهزم التركُ، وقَفَلَ عَبْدُ الرحمٰن بالناس ومعه مُسلم.

وغزا سعيد بن عبد الملك الصائفةَ في هذه السنة.

وغزا الجرّاح بن عَبْد الله اللاَّن، فصالح أهلها وأدّوا الجزية.

ذكر غزاة عنبسة الفرنج بالأندلس

وفي سنة سبع ومائة غزا عَنْبَسة بنُ سُحَيم الكَلْبي عاملُ الأندلس بلدَ الفرنج في جمْعٍ كثير، فنازل مدينة برشلونة[١]، وحصر أهلَها، فصالحوه على نِصف أعمالها، وعلى جميع ما في المدينة من أسْرَى المسلمين وأسْلاَبهم، وأن يعطوا الجِزْيَةَ ويلتزموا بأحكام الذمَّة.

وفيها غزا أسدُ بْنُ عَبْد الله أمير خراسان الغُور؛ وهي جِبال هَراة، فعمد أهْلُهَا إلى أثقالهم فصيَّرُوها في كَهْفٍ ليس إليه طريق، فأمر أسَد باتخاذِ تَوابيت، ووضع فيها الرجال، ودَلاَّها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه.

وفيها غزا الحارث بن عمْرو الطائي التُّرْكَ من جهة أرمينية فافتتح رُسْتاقًا من بَلَدِ التُّرْك وقُرًى كثيرة وأثَّر أثرًا حسَنًا.

وفي سنة ثمان ومائة قطع أسدَ بن عَبْد الله النَّهْر، وأتاه خاقان، فلم يكن بينهما قِتَال، ثم مضى أسَد إلى غُوريَان[٢]، فقاتلهم يومًا، ثم اقتتلوا من الغَدِ فانهزم المشركون، وحوَى المسلمون عسْكرهم، وظهَرُوا على البلاد، وأسرُوا وسبوْا وغَنِمُوا.

وفيها غَزَا مسلمةُ بنُ عبد الملك الرومَ مما يَلِي الجزيرةَ ففتح قَيْسارية، وهي مدينة مشهورة.

وغزا إبراهيم بن هشام ففتح حِصْنًا من حصونِ الروم.

وفيها سار ابن خاقان ملك الترك إلى أذْربِيجان، فحصر بعضَ مُدُنها، فسار إليه الحارث بن عمرو الطائي، فالتقوا واقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نَهْر رُوس، فعاد إليه ابْنُ خاقان فعاودُوا الحَرْب أيضًا، فانهزم ابْنُ خاقان، وقُتل من الترك خَلْق كثير.

---

(١) برشلونة: في معجم ياقوت؛ برشليانة: بسكون اللام، وياء، وألف، ونون: بلدة بالأندلس من أقاليم لبلة.

(٢) غوريان: قرية من قرى مرو.

وغزا معاويةُ بن هشام بن عبد الملك ومعه مَيْمُونُ بن مِهْرَان على أهل الشام فقطعوا البَحْر إلى قُبْرس.

وغزا البرَّ مسلمة بن عَبْد الملك بن مروان.

وفي سنة تسع ومائة غزا عَبْد الله بن عقبة الفهري في البحر، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم، ففتح حصنًا يقال له طيبة.

وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذْرَبيجان فغَنِم وسبَى وعاد.

وغزا بشْر بن صفْوان عامل إفريقية جزيرةَ صقلية، فغنم شيئًا كثيرًا، ثم رجع إلى القَيْروان فتوفي من سنته. واستعمل هشام عُبَيْدة بن عبد الرحمٰن بن أبي الأغَرّ السلمي.

ذكر خبر أشرس بن عبد الله السلمي أمير خراسان وأهل سمَرْقَنْد وغيرها بما وراء النهر وما يتصلُ بذلك من الحروب

في سنة عشرة ومائة أرسل أشرس إلى أهل سَمَرْقَند وغيرها مما وراء النَّهْر يدْعُوهم إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجِزْية، وأرسل في ذلك أبا الصَّيْداء صالح بن طَريف مولى بني ضَبَّة والرَّبيع بن عِمْران التميمي، فقال أبو الصَّيْداءِ: إنما أخْرُج على شرطة أنه منْ أسلم لا يُؤْخَذ منه الجِزْيَة، وإنما خَراجُ خراسان على رُؤوس الرجالِ. فقال أشرس: نَعم. فشخص إلى سمرْقَنْد وعليها الحسن بن أبي العَمَرَّطَة الكِنْدِي، فدعا أبو الصيْداءِ أهْلَ سمرقند ومنْ حولها إلى الإسلام، على أنْ تُوضَع عنهم الجزيةُ، فسارع الناسُ إلى الإسلام، فكتب إلى أشرس: إنَّ الخراج قد انكسر. فكتب أشرسُ إلى ابْنه أبي العمرَّطَة: إنَّ في الخراج قوةً للمسلمين، وقد بلغني أنَّ أهلَ الصُّغْد وأشباهَهم إنما أسلموا تعوُّذًا من الجزْيةِ، فانظر من اخْتَتَن وأقام الفرائض، وقرأ سورةً من القرآن فارْفَعْ خَراجه، ثم عزل أشرس ابن أبي العمرَّطَة عن الخراج، وصَيَّره إلى هانىء بن هانىء، فمنعهم أبو الصيداء من أخْذ الجزْية ممن تلفَّظَ بالإسلام، وكتب هانىء إلى أشرس: إنَّ الناس قد أسْلَمُوا وبَنوا المساجد.

فكتب أشرس إليه وإلى العمال: خُذوا الخراج ممَّنْ كُنْتُم تأْخذونه عنه، فأعادُوا الجزيةَ على منْ أسلم، فامتنعوا، واعتزلوا في سبعة آلاف على عِدّة فراسخ مِنْ سَمرْقَنْد، وخرج إليهم أبو الصَّيْداءِ وربيع بن عِمْران، والهيْثَم الشَّيْباني، وأبو فاطمة

الأزدي، وعامر بن قُشَير، وبشير الخُجَنْدِي، وبَيان العَنْبري، وإسماعيل بن عُقْبة لِيَنْصُروهم، فعزل أشْرَس ابن أبي العَمَرَّطة عن الحرْب، واستعمل مكانَه المُجشِّر بن مُزَاحم السلمي؛ فكتب المُجَشِّر إلى أبي الصَّيْداءِ في القُدُوم عليه هو وأصحابه، فقدم أبو الصَّيْداءِ وثابت قُطْنَة فحبسهما، واجتمع أصحابُ أبي الصَّيداءِ وولَّوْا أمْرَهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئًا، فقال لهم: كفُّوا حتى نكتب إلى أشرس.

فكتبوا إليه، فكتب أشرس: ضَعُوا عنهم الخراج. فرجع أصحابُ أبي الصَّيْداءِ وضَعُفَ أمْرُهم، فتُتُبِّع الرؤساءُ فأُخذوا وحُمِلوا إلى مرْو. وألحَّ هانىء في الخراج، واستخفُّوا بعظماءِ العَجَم والدَّهَاقين، وأخذوا الجزيةَ ممَّنْ أسلم، فكفَرَت الصُّغْدُ وبُخَارى، واستجاشوا التُّرْك، وخرج أشرس غازيًا، فنزل آمُل، فأقام ثلاثة أشهر.

وقَدِم قَطَن بنُ قُتَيْبة بنِ مسلم، فعبرَ النهْرَ في عشرة آلاف، وأقبل أهْلُ الصُّغد وبُخَارى معهم خاقَان والتُّرْكُ، فحصروا قَطَنًا في خَنْدَقه، وأرسل خاقان مَنْ أغار على سرْحِ الناس، فأخرج أشرس ثابت قُطْنة بكفالة عَبْدِ الله بن بِسْطَام بن مسعود، فوجهه مع عَبْد الله بن بسطام في خَيْل، فقاتلا الترْكَ بِآمُل حتى استَنْقَذُوا ما كان بأيديهم، ورجع الترْكُ.

ثم عبر أشْرس بالناس إلى قَطَن، وبعث سَرِيةً مع مسعود أحد بني حيّان، فلقيهم العدوُّ فقاتلوهم، فقُتِل رجالٌ من المسلمين، وهُزِم مسعود. فرجع إلى أشرس.

وأقبل العدوُّ، فلقيهم المسلمون، فجالوا جوْلَةً، فقُتِل رجالٌ من المسلمين.

ثم رجع المسلمون فصبروا، فهزم اللّهُ المشركين، وسار أشرس بالناسِ حتى نزل بِيْكَنْد[1]، فقطع عنهم العدوُّ الماءَ، وأقام المسلمون يومًا وليلة، وعطِشُوا؛ فرحلوا إلى المدينة التي قطع العدوُّ بها الماءَ، وعلى المقدمة قَطَن بن قُتَيْبَة، فلقيهم العدوّ، فقاتلوهم، فَجهِدُوا من العَطَش، فمات منهم سبعمائة، وعجز الناسُ عن القتال؛ فقال الحارث بن سُريج للناس: القَتْل بالسيف أكرمُ في الدنيا وأعظمُ أجْرًا عند الله من الموت عطشًا، وتقدم هو وقَطَن في فوارس من تميم فقاتلوا حتى أزَالُوا التُّرْكَ عن الماءِ، فشرب الناسُ واستقَوا، ثم قاتلوا التركَ قتالاً شديدًا، فقُتِل ثابت قُطْنَة في جماعةٍ من المسلمين بعد أن أبْلَوا أعْظَم بلاءٍ وأحسنه.

---

(١) بيكند: بالكسر، وفتح الكاف، وسكون النون: بلدة بين بخارى وجيحون، على مرحلة من بخارى، لها ذكر في الفتوح، وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء، خربت منذ زمان... (معجم البلدان).

ثم اجتمع رجالٌ من المسلمين تَبايعُوا على الموتِ مع قَطَن بن قُتَيْبة، وحملوا على العدوِّ فقاتلوهم فكشفُوهم، وركبهم المسلمون يقْتُلونهم حتى حجزَ بينهم اللَّيلُ، وتَفَرَّق العدوُّ، وأتى أشْرس بُخَارى، فحصر أهْلَها فعُزِل وهو يحاصِرُها بالجُنَيْدِ بن عبد الرحمٰن على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى.

ذكر وقعة كمرجة(١)

قال: ثم إنَّ خاقانَ حصر كَمْرجة، وهي من أعظم بُلْدان خراسان، وبها جمْعٌ من المسلمين، ومع خاقان أهلُ فَرْغَانه وأفْشِينة، ونَسف، وطوائفُ من أهْل بُخارى، فأغلق المسلمون البابَ، وقطعُوا القَنْطَرةَ التي على الخَنْدق، فأتاهم ابن خسرو بن يزْدجرد، فقال: يا معشر العَرب، لِمَ تَقتلُون أنفُسكم؟ أنا الذي جئْتُ بخاقان ليردَّ عليَّ مملكتي، وأنا آخُذُ لكم الأمانَ، فشتموه، وأتاهم بازغرى، فقال: إنَّ خاقانَ يقولُ لكم: إني أجْعلُ منْ عطاؤه منكم ستمائة ألفًا، ومنْ عطاؤه ثلاثمائة ستمائة، ويُحسن إليكم وتكونون معه، فأبوا ذلك، فأمر خاقانُ بجمْع الحطَب الرطْب، وأنْ يُلْقى في الخَنْدَقِ ليعْبُروا عليه. فجُمع في سبعةِ أيام، فكانوا يُلْقُون الحطَب الرَّطْب، ويُلْقي المسلمون الحطَبَ اليابس حتى سُوِّيَ الخَنْدَقُ بالأرض؛ فأشْعَل المسلمون فيه النيران، وهاجت ريحٌ شديدةٌ، فاحترق الحطَبُ الذي جُمِع في سبعةِ أيام في ساعةٍ واحدة، ثم فَرَّق خاقانُ على الترك أغنامًا، وأمرهم أنْ يأكُلُوها ويَحْشوا جلودها تُرَابًا، ويُلْقُوها في الخَنْدَقِ، ففعلوا ذلك، فأرسل اللّهُ تعالى مطَرًا شديدًا، فاحتمل السيلُ ما في الخَنْدقِ، وألقاه في النَّهْرِ الأعظم.

ورَماهُم المسلمون بالسهامِ فقُتِل بازغرى وكان داهيةً، وكان خاقان لا يخالِفهُ؛ ففرح المسلمون بقَتْله، وكان عند المشركين مائةٌ من أسْرى المسلمين فيهم أبو الحَوْجَاءِ العَتَكيّ والحجاجُ بن حُميد النضري، وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم، واستماتوا واشتدَّ القتالُ.

ثم وقع الاتفاقُ بينهم وبين الترك على أنَّ خاقان يَرْحل عن كَمَرْجة، ويرحلوا هم عنها أيضًا إلى سمرقند والدَّبُوسِية(٢)، فأجاب أهْلُ كَمَرْجة إلى ذلك، وأخذ كلٌّ منهم من الطائفتين رهائنَ من الأُخْرى على الوَفَاءِ، وارتحل خاقانُ، ثم رحلوا بعده،

(١) كمرجة: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وجيم: قرية من قرى الصغد، ينسب إليها محمد بن أحمد بن محمد الإسكاف المؤذن الصغدي، الكمرجي... (معجم البلدان).

(٢) الدبوسية: بليدة من أعمال الصغد مما وراء النهر.

وسيَّر معه كور صول التُّركي ليمنَعهم ممن يتعرَّضُ إليهم من الترك، فلما انتَهوْا إلى الدَّبُوسِية، وكان بها عشرةُ آلاف مقاتل من المسلمين، أمنوا وأطْلَقَ كلٌّ من الطائفتين ما بيدِهم من الرهائن، وكانت مدةُ حصارِ كَمرْجَة ثمانية وخمسين يومًا، فيقال: إنهم لم يسقُوا إبلهم خمسةً وثلاثين يومًا.

وفي هذه السنة ارتد أهلُ كَرْدَر[1]، فأرسل إليهم أشْرسُ جُنْدًا فظفِرُوا بهم.

وغزا مسلمة التُّرْكَ من نحو بابِ اللاَّنِ، فلقي خاقان في جُموعِه، فاقتتلوا قريبًا من شَهْرٍ، وأصابهم مطَرٌ شديد، فانهزم خاقان ورجع مسلمة.

وغزا مُعاوية الروم ففتح صَلم.

وغَزا الصائفةَ عبْدُ الله بن عُقْبة الفِهْري.

ذكر عزل أشرس عن خراسان واستعمال الجُنَيْد بن عبد الرحمٰن وقتاله الترك

وفي سنة إحدى عشرة ومائة عزل هشامُ بْنُ عبد الملك أشرسَ بن عبد الله عن خُراسان، واستعمل الجُنَيْد بن عبْد الرحمٰن بن عمْرو بن الحارث بن خارجة بن سِنَان بن أبي حارِثَة المرّي، وحمله على ثمانية من البريد، فقدم خراسان في خمسمائة، وسار إلى ما وراءَ النَّهْرِ، وسار معه الخطاب بن مُحْرز السلمي خليفةُ أشرس بخراسان، فقطَعَا النَّهْرَ، وأرسل الجُنَيدُ إلى أشرسَ، وهو يقاتل أهل بُخَارى والصُّغْد: أن أمِدّني بخَيْلٍ.

وخاف أن يُقْطَع دونه، فوجَّه إليه أشرَسُ عامرَ بن مالك الحمّاني، فلما كان عامرٌ ببَعْضِ الطريق عرض له التُّرْكُ والصغد، فدخل حائطًا حصينًا، وقاتلهم على الثلْمَة، وكان معه ورْد بن زياد بن أدْهم بن كُلْثوم وواصل بن عمْرو الْقَيْسِي، فخرج واصل وعاصم بن عُمَيْر السمرقندي وغيرهما، فاستَدَارُوا خَلْف الترك فلم يشْعُر خاقان إلاَّ والتكبير مِنْ وَارئه، وحمل المسلمون على التُّرْك، فقاتلوهم، وقتلُوا عظيمًا مِنْ عظماءِ الترك، فانهزم التُّرْك، وسار عامر حتى لقي الجُنَيْد، وأقبل معه وعلى مقدمة الجُنَيْد عمارة بن حُرَيم، فلما صار علَى فَرْسخَيْنِ من بِيْكَنْد تلقَّتْهُ خَيْلُ التُّرْكِ، فقاتلوهم، فكاد الجُنَيْد يهْلِك هو ومنْ معه، ثم أظهره الله، وسار حتى قدم العسكر،

---

(١) كردكر: بفتح أوله وسكون ثانيه، ودال مفتوحة، وآخره راء: ناحية من نواحي خوارزم وما يتاخمها من نواحي الترك.

وظَفِر الجُنَيْد، وقَتل من الترك، ثم زحف إليه خاقان، فالتقوا دُونَ زَرْمان[١] من بلاد سمرْقَنْد، وقَطَن بن قُتَيْبة على ساقَةِ الجُنيد، فأسر الْجُنيد ابنَ أخي خاقان، فبعث به إلى هشام، ورجع الْجُنَيْد بالظَّفَر إلى مرْو.

وفيها غزا معاويةُ بن هشام الصائفة اليسرى، وغَزَا سعيد بن هشام الصائفةَ اليمنى، حتى أتى قَيْسارية.

وغزا عبْدُ الله بن أبي مرْيم البَحْرَ.

وفيها سارت التُّرْكُ إلى أذْرَبِيجان، فلقيهم الحارثُ بن عمْرو، فهزمهم.

وفيها استعمل هشام الجرّاح بن عبْد الله الحَكَمِيّ على أرْمينية، وعزل أخاه مسلمة، فدخل بلاد الخزَر من ناحية تَفْلِيس[٢]، ففتح مدينتهم البيضاء، وانصرف سالمًا!.

ذكر مقتل الجراح بن عبد الله الحكمي
وولاية سَعيد الحَرشي وحروبه مع الخَزَر والتُّرْك
وما افتتحه من البلاد

وفي سنة ثنتي عشرة ومائة قُتِل الجرّاحُ بن عبْد الله الحكَمِي. وسبَبُ ذلك أنه لما هزم الخَزَر اجتمعُوا هم والتُّرْك من ناحيةِ اللاَّن، فلقيهم الجرّاحُ فيمَنْ معه من أهل الشام، فاقتتلوا أشَدَّ قتالٍ رآهُ الناسُ، وتكاثر الخَزَر والتّركُ على المسلمين، فاستشهد الجرّاح ومنْ معه بمَرْج أرْدَبِيل[٣]، فلما قتل طمع الخَزَر وأوْغَلُوا في البلادِ حتى قاربُوا الموصل، وعظم الخَطْبُ على المسلمين.

فبلغ الخبرُ هشامَ بن عبد الملك، فاستشار سعيدًا الحَرشي، فقال: أرى أن تبعثني على أربعين دابَّة من دَوَابِّ البريد، ثم تبعث إليّ كل يوم بأربعين رجلاً، واكتب إلى أمَراء الأجناد أن يُوَافُوني. ففعل ذلك، وسار الحَرَشيّ وهو لا يمرُّ بمدينة إلاَّ استَنْهَضَ أهْلَها، فيجيبه مَنْ يُريد الجهاد.

---

(١) زرمان: بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون: من قرى صغد سمرقند... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) تفليس: بلد بأرمينية الأولى.

(٣) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال وكسر الباء، وياء ساكنة ولام: من أشهر مدن أذربيجان... (معجم البلدان).

ولم يزل كذلك حتى وصل إلى مدينة أَرْزَن[(١)]، فلقِيه جماعة من أصحاب الجرّاح، فردّهم معه، وسار فبلغ خِلاَط[(٢)]، فحاصرها أيامًا وفتحها، وقَسَّمَ غنائِمهَا في أصحابه، ثم سار عنها وفتح الحصونَ والقِلاَعَ شيئًا بعد شيءٍ حتى أتى بَرْذَعَة، وكان ابْنُ خاقان يومئذ بأذْرِبيجان يُغر ويَنْهَب ويَسْبِي ويَقْتُل، وهو يُحاصر مدينةَ وَرْثَان[(٣)]، فأرسل الحَرَشيُّ رجلًا من أصحابه إلى أهلها يُعَرِّفُهم وصولَه، ويأْمرُهم بالصبر، فسار ولقِيَه بعْضُ الخَزَر، فأخذوه وسألوه عن الخبر، فأخبرهم وصدقهم، فقالوا له: إنْ فعلْتَ ما نأْمرُك به أحْسَنّا إليكَ، وأطلقناك، وإلا قتَلْنَاك. قال: فما الذي تريدون؟ قالوا: تقول لأهل وَرْثَان: إنكم ليس لكم مدَد، ولا منْ يكشف ما بكُم، وتأْمرُهم بتسليم البلَد إلينا. فأجابهم إلى ذلك.

فلما قارب المدينةَ وقف بحيث يَسْمعُ أهْلُها كلامَه، فقال لهم: أتعرفوني؟ قالوا: نعم، أنتَ فلانٌ. قال: فإنَّ الحرشي قَدْ وصل إلى مكان كذا في عساكرَ كثيرة، وهو يأْمركم بحفْظِ البلد، والصَّبْر، ففي هذين اليومين يَصِلُ إليكم.

فرفَعُوا أصواتَهم بالتهليل والتكْبير، وقتلت الخَزَر ذلك الرجلَ، ورحلوا عن مدينة ورْثَان، ووَصَلَها الحَرَشِي، وقد ارتحل الخَزَر إلى أرْدَبِيل[(٤)]، فسبقهم إليها، فساروا عنها، ونزل سعيد بَاجَرْوَان[(٥)]، فأتاه فارسٌ على فَرس أبيضَ، فقال له: أيها الأميرُ، هل لك في الجهادِ والغنيمة؟ قال: وكيف لي بذلك؟ قال: هذا عسكَرُ الخَزَر في عشرة آلاف، ومعهم خمسةُ آلاف بنت من المسلمين أسارى وسبَايا، وهم على أربعة فراسخ.

فسار الحَرشيُّ إليهم ليلًا، فوافاهم آخر الليل، وهم نِيَامٌ، فكبسهم مع الفَجْر، ووضع المسلمون فيهم السيفَ، فما بزغت الشمسُ حتى قُتِلوا عن آخرهم غَيْرَ رجل واحد.

---

(١) أرزن: مدينة مشهورة قبل خلاط... وقيل: أرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينيا أيضًا... (معجم البلدن لياقوت).

(٢) خلاط: قصبة أرمينية الوسطى... (المراصد).

(٣) ورثان: بلد هو آخر حدود أذربيجان بينه وبين الرس فرسخان.

(٤) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال، وكسر الياء، وياء ساكنة ولام: من أشهر مدن أذربيجان؛ وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية... (معجم البلدان).

(٥) باجروان: قرية من ديار مصر بالجزيرة من أعمال البليخ... وقيل: باجروان أيضًا مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان... (معجم البلدان لياقوت).

ثم أتاه ذلك الفارس الذي أتاه أولاً وقال له: هذا جَيْشُ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وأولادُهم، وحَرَمُ الجرّاح وأولاده، وهم بمكان كذا؛ فسار الحَرشي إليهم، فما شعروا إلاَّ والمسلمون معهم، فوضعوا فيهم السيفَ فقتلوهم كيف شاؤُوا، ولم يُفْلت من الخَزَر إلا الشريد، واستنقذوا مَنْ معهم، وغنموا أمْوالَ الخزَر، وحمل الأسارى إلى بَاجرْوان.

وبلغ الخبر ابْنَ ملك الخزر، فجمع أصحابَه من نواحي أذْربِيجان، فاجتمع له عساكر كثيرة، فحرَّضهم، وسار نحو الحرشيّ، وسار الْحرَشِيُّ إليه، فالتقيا بِزَرَنْد[١]، واقتَتَلُوا أشدَّ قتال، فانحاز المسلمون يَسِيرًا ثم عادُوا إلى القتال، فاشتدّت نكايتُهم في العدوّ، فهزموهم، وتبعهم المسلمون حتى بلَغُوا بهم نهر أوس[٢]، وعادوا عنهم وحَووْا ما في عسكرهم من الأمْوال والغنائم، وأطلقوا الأسارى والسَّبايَا، وحملوا الجميع إلى بَاجَرْوَان، ثم جمع ابْنُ ملك الخزر مَنْ لحق له مِنْ عساكره، وعاد بهم نحو الحَرَشي، فنزل على نَهْر الْبَيْلَقَان[٣]، فسار الحَرَشي نحوه؛ فوافاهم هناك، والتقوا، فكانت الهزيمةُ على الخَزَرِ، فكان مَنْ غَرِق مِنْهم أكثر ممن قتل، وجمع الحَرَشي الغنائم، وعاد إلى باجَرْوَان وكتب إلى هشام بالفتح، وأرسل إليه الخُمْس. فكتب إليه هشام يشكره، ويُثْني عليه، ويأْمره بالمسير إليه، واستعمل هشام أخاه مسلمة على أرمينية وأذْرَبيجان، فوصل إلى البلاد، وسار إلى الترك حتى جاز البلاد في آثارهم.

ذكر وقعة الجنيد بالشعب

وفي سنة ثنتي عشرة ومائة أيضًا خرج الجُنَيْدُ أمِيرُ خراسان غازِيًا يريد طخارستان؛ فوجه عمارة بن خُرَيم إلى طخَارستان في ثمانية عشر ألفًا، ووجَّه إبراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف إلى وَجْهٍ آخر، وجاشت التُّرْكُ فأتوا سمَرْقَنْد، وعليها سَوْرة بن الحُر؛ فكتب إلى الْجُنَيْد أنَّ خاقان جاشَ بالترك، فخرجتُ إليهم، فلم أطِقْ أن أمنَع حائطَ سمرقند، فالغَوْثَ الغَوْثَ.

فعبر الجُنَيْدُ النهر، وقد فَرّق عساكره، فسار بمَنْ معه حتى نزل كَشَّ[٤]، وتأهّب

---

(١) زرند: بليدة بين أصبهان وساوة. (٢) أوس: اسم موضع.

(٣) بيلقان: مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب تعد في أرمينية الكبرى قريبة من شروان. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٤) كش: أو بالسين: كسّ، وقد تقدم وصفها.

للمسير، وبلغ ذلك الترك؛ فغوَّرُوا الآبارَ التي في طريق كَش، وسار الجُنَيْد يُريد سَمَرْقَنْد، فأخذ طريقَ العَقَبة، وارتقى في الجبل، ثم سار حتى صار بَيْنَه وبين سَمَرْقَنْد أربعة فراسخ، ودخل الشِّعْب فصبَّحه خاقَان في جَمْع عظيم؛ فكانت بينهم وقْعَةٌ عظيمة صَبر الناسُ فيها وقاتلوا حتى كانت السيوفُ لَا تقطَعُ شيئًا، فقَطع عَبِيدُهم الخشَبَ يقاتلون به، ثم كانت المعانَقَةُ؛ ثم تحاجَزُوا، فاستشهد من المسلمين جماعةٌ.

فبينما الناس كذلك إذ أقبل رَهَج[1]، وطلعت الفرسان، فنادى مُنَادِي الجُنَيْد: الأرض الأرض! وترجَّل، وترجَّل الناسُ، ثم أمر أن يخندق كلُّ قائد على حِياله، فَخَنْدقُوا وتحاجزُوا وقد أُصيب من الأزْد يومئذ مائة وتسعون رجلاً، وكان قتالهم يوم الجمعة، فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقْتَ الظهر، فلم يَرَ موضعًا للقتال أسْهَلَ مِنْ موضع بكْر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقصدهم، فلما قَرَبُوا حملت بَكْرٌ عليهم فأفرجوا لهم، واشتد القتالُ بينهم.

فلما رأى الجُنَيْد شِدَّةَ الأمْر استشار أصحابه، فقال له عُبَيْد الله بن حبيب: اختر إمَّا أنْ تَهْلك أنْتَ أو سورة بن الحر. فقال: هلاكُ سَوْرة أهْوَنُ عليّ. قال: فاكتب إليه فليأْتك في أهل سمرْقَنْد؛ فإنه إذا بلغ الترْكَ إقبالُه توجَّهُوا إليه فقاتلوه.

فكتب إليه الجُنَيْد يأْمره بالقُدوم، فسار في اثني عشر ألفًا، فأصبح على رأْس جبلٍ، فتلقَّاهُ خاقان، وقد بقي بَيْنَه وبين الجُنَيْد نحو فَرْسَخ فقاتلهم فاشتدّ القتال، وسقط سَوْرة بن الحُرّ، فاندقَّتْ فخذه، وقُتِل وتَفرَّقَ الناس، وقتلهم الترْكُ، ولم يَنْج منهم غَيْرُ ألْفَيْنِ. ويقال: ألف.

ولما استقَلّ خاقان بقِتَالِ سَوْرَة خرج الجُنَيْد مبادِرًا يُريد سمرْقَند، فلقيه الترك قَبْلَ وصولهِ إليها، فقاتلهم قتالاً شديدًا. وقال الجُنَيْد: أيُّ عبد قاتَلَ فهو حُر. فقاتل العَبِيدُ قتالاً عجبَتْ منه الناسُ، وهزم الله التركَ.

ومضى الجُنيد إلى سمرقند، وكتب إلى هشام بن عبد الملك بالخبر. فكتب إليه هشام: قد وجَّهْتُ إليك عشرة آلاف من أهل البصرة، وعَشرةَ آلاف من أهْل الكوفة، ومن السلاح ثلاثين ألف رُمْح، ومثلها تِرسَة، فافرض فلا غايةَ لك في الفريضة لخمسة عشر ألفًا.

---

(١) الرهج: الغبار.

قال: وأقام الجُنَيْد بسمرقند، وتوجَّه خاقان إلى بُخارى، وعليها قَطَن بن قُتَيبة، فسار الجُنيد إليه، وخلّف بسمرقند عثمان بن عبْد الله بن الشِّخّير في أربعمائة فارس وأربعمائة راجل.

ولما انتهى الجُنيد إلى كَرْمِينِية[1] أتاه خاقَانُ وذلك في مستهلّ رمضان من السنة، فاقتتلوا يومهم؛ ثم ارتحل الجُنَيد وقد قَوِي الساقة بالرجال، فجاءت التركُ فمَالُوا على الساقة فاقتتلوا فاشتدَّ القتالُ بينهم، فقَتَل مسلمُ بن أحْوَزَ عظيمًا من عظماءِ الترك، فتطيَّرُوا من ذلك، وانصرفوا. وسار المسلمون فدخلوا بُخَارى، ثم قدمت الجنودُ من الكوفة والبصرة فسرَّح الجُنَيد معهم حَوْثرة بن زيد العَنْبَرِي فيمن انتدب معه.

وقيل: إنَّ وقعة الشِّعْب كانت في سنة ثلاث عشرة ومائة. والله أعلم.

وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة، فافتتح خَرْشَنَة[2] والله أعلم.

ذكر غزو مسلمة وعوده

في هذه السنة فَرّق مسلمة الجيوش ببلاد خَاقَان فَفُتحت مدائن وحصونٌ على يَديْه، وقتل منهم وسبى وأسَر وأحرق، ودانَ له مَنْ وراء جبال بلَنْجر، وأقبل ابْنُ خاقان وقد اجتمعت عليه الخَزَرُ وغيرهم من تلك الأُمم، وصار في جموع عظيمة. فلما بلغ مسلمة الخبرَ أمر أصحابَه فأوقدوا النيران، ثم ترك خيامَهم وأثقالَهم، وعاد بعسكره جريدة، وقدّم الضعفة[3] وأخَّر الشجعان، وطَوَى المراحل كلّ مرحلتين في مرْحلة حتى وصل الباب والأبواب في آخر رَمَق.

وفيها غَزَا معاوية بن هشام أرْضَ الروم فرابطَ من ناحية مرْعش[4] ثم رجع. والله أعلم.

---

(١) كرمينية: بالفتح ثم السكون، وكسر الميم، وياء مثناة من تحت ساكنة ونون مكسورة، وياء أخرى مفتوحة خفيفة: بلدة من نواحي الصغد. . . (المراصد).

(٢) خرشنة: بفتح أوله وتسكين ثانيه، وشين معجمة، ونون: بلدة قرب ملطية من بلاد الروم.

(٣) الضعفة: جمع الضعيف: المرأة أو المملوك.

(٤) مرعش: من ثغور أرمينية.

ذكر غزو مروان بن محمد بلاد الترك ودخوله إلى بلاد ملك السَّرير وغيرها من بلادهم وما افتتحه وقرره وصالح عليه الملوك

وفي سنة أربع عشرة استعمل هشام بن عبْد الملك مرْوان بن محمد بن مرْوان على الجزيرة وأذْرَبيجان وأرْمِينية. وسببُ ذلك أنه كان في عسْكَر مسلمة بن عبد الملك حين غَزَا الخَزَر، فلما عاد مَسْلمة ـ كما تقدّم ـ سار مرْوان إلى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سببِ قدومه، فقال: ضِقْتُ ذَرْعًا بما أذكره، ولم أرَ مَنْ يحْملُه غيري. قال: وما هو؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ إنه كان مِنْ دُخول الخَزَر إلى بلادِ الإسلام وقَتْلِ الجراح وغيرِه ما دخل به الوهَنُ على المسلمين. ثم رأى أميرُ المؤمنين أنْ يوجِّه أخاه مسلمة إليهم، فوالله ما وطىءَ مِنْ بلادهم إلاَّ أدناها، ثم إنه لما رأى كثرة جمْعِه أعجبَه ذلك، فكتب إلى الخَزَر يُؤْذِنُهُم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثةَ أشهر، فاستعدّ القَوْمُ وحشَدوا، فلما دخل بلادَهم لم يكن له فيهم نِكَايةٌ، فكان قُصاراهُ السَّلاَمَةَ، وقد أردْتُ أن تَأْذَن لي في غزوة أُذْهِبُ بها عَنَّا العَار، وأنْتَقِم من العدو. قال: قد أذنْتُ لك. قال: وتُمِدني بمائة ألف وعشرين ألف مقاتل؟

قال: قد فعلْتُ. قال: وتكتُم هذا الأمْرَ عن كل أحدٍ؟ قال: قد فعلْتُ. وقد استعملْتُكَ على إرْمِينية.

فودَّعه وسار إلى إرْمِينية واليًا عليها وسيَّر إليه هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة، فاجتمع عنده من الجنود والمتطوِّعة مائةُ ألف وعشرون ألفًا، فأظْهَر أنه يُريد غَزْو اللاَّن، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلُبُ منه المُهَادنَة، فأجابه إلى ذلك، وأرسل إليه مَنْ يقرر الصلح، فأمسك الرسولَ عنده إلى أن فرغ من جهَازه، وأحضره، ثم أغْلظ لهم في القول وآذَنَهُم بالحرب، وسيَّر الرسولَ إلى صاحبِه بذلك، ووكل به منْ يسيرُ به على طَريق فيه بُعْد، وسار هو في أقرب الطُّرُق، فما وصل الرسولُ إلى صاحبِه إلاَّ ومرْوَان قد وافاهم بالجنود، فاستشار ملكُ الخَزَر أصحابه، فقالوا: إنَّ هذا قد جمع ودخل بلادك، فإن أقَمْتَ إلى أنْ تجمع لم يجتمع جُنْدُك إلى مدَّةٍ، فيبلغ منك ما يريد، وإن أنْت لقيتَه على حالك هذه هزمك وظفِر بك، والرأْي أن تتأخَّر إلى أقصى بلادِك، وتَدَعه وما يُرِيد.

فقبل رأْيهم وسار ودخل مرْوان البلاد، وأوغَل فيها، وأخربها، وغَنِمَ وسبى، وانتهى إلى آخرها، وأقام فيها عِدَّة أيام أذَلَّهم، ودخل بلادَ ملك السَّرِير، فأوقع بأهْلها، وفتح قِلاعًا، ودان لَهُ الملك، وصالحه على ألْف رأْس: خمسمائة غلام، وخمسمائة جارية سود الشعور، ومائة ألف مُدي تُحْمَل إلى الباب، وصالح أهل تُومان

على مائة رأْس نصفين وعشرين ألف مدي، ثم دخل أرض زَدِيكران، فصالحه ملكها، ثم أتى أرض حمزين، فأبى حمزين أنْ يصالحهُ، فحصرهم، وافتتحَ حصنهم، ثم أتى سُغْدان[١]، فافتتحها صُلْحًا، ووظف على طَبَرْسرانْشاه عشرة آلاف مُدي كلَّ سنة تحمل إلى الباب؛ ثم نزل على قَلْعة صاحب اللَّكز[٢] وقد امتنع مِنْ أداءِ الوظيفة، فخرج مَلِك اللَّكز يُريد ملكَ الخزَر، فقتله راعٍ بِسهم وهو لا يعْرفُه، فصالح أهلُ اللَّكزِ مَرْوان، واستعمل عليهم عامِلاً وسار إلى قَلْعَة شَرْوان[٣] وهي على البحْر، فأذْعنَ له بالطاعة، وسار إلى الدُّوادَانِيَّة، فأوقع بهم، ثم عاد.

وغزا معاوية بن هشام الصائفةَ اليسرى، فأصاب ربَضَ[٤] أقْرُن.

وفيها التقى عَبْدُ الله البطَّال هو وقسطنطين في جموعٍ، فهزمهم البطَّال وأسر قسطنطين.

وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى، فبلغ قَيْسارية.

وفي سنة خمس عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام أرْضَ الروم.

وغزا أيضًا الصائفةَ في سنة ست عشرة. وفي سنة سبع عشرة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وسليمانُ بن هشام الصائفةَ اليمنى من نَحْو الجزيرة، وفرَّقَ سراياه في أرْض الروم.

وبعث مَرْوان بن محمد، وهو على إرْمينية بَعْثَيْن؛ فافتتح أحدُهما حصونًا ثلاثةً من اللاَّن، ونزل الآخر على نُومان شاه، فنزل أهلُها على الصُّلْح.

وفي سنة ثمان عشرة ومائة غَزَا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبْد الملك أرْض الروم.

وغزا مرْوان بن محمد من إرمينية، ودخل أرْضَ ورتيس من ثلاثة أبواب، فهرب ورتيس إلى الخَزَر، وترك حِصْنَه، فحصره مرْوان، ونصب عليه المجانيق، واتفق قَتْل ورتيس، قَتَلَه بعْض من اجْتَازَ به، وأرسل رأْسَه إلى مرْوَان، فنصبه لأهْلِ حِصْنِه، فنزلوا على حُكْمه، فقَتَلَ المُقَاتِلَةَ وسبَى الذرّيَّةَ. . .

(١) سغدان: بضم أوله: قرية من نواحي بخارى؛ عن علي بن محمد الخوارزمي. . . (معجم البلدان).

(٢) اللكز: بالفتح ثم الكسون وزاي: بليدة خلف الدربند تتاخم خزران.

(٣) شروان: مدينة من نواحي باب الأبواب.

(٤) الربض: الأمعاء؛ أو أحشاء البطن؛ أو حزام الرحل.

ذكر ظفر المسلمين بالترك
وقتل خاقان ملك الترك

وفي سنة تسع عشرة ومائة كانت الحَرْب بين أسد بن عبْدِ الله القَسْرِي أمير خُراسان وبين خَاقَان ملك التُّرْك.

وسبب ذلك أنَّ الحارثَ بن سُريج كان قد خُلع بخراسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السنين، وولي أسَد خراسان على ما نَذْكُره إن شاء الله، فكتب الحارث إلى خَاقَان يُعْلِمُه بضَعْف أسد وقِلَّةِ أصحابه، ويستَدْعيه لحَرْبِه.

فأقبل خاقَان، وقطع النَّهْرَ إلى بلْخ، فلقيه أسد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فظفر المسلمون بالتُّرْكِ، وهزموهم أقْبَح هزيمة، وغنموا أمْوالَهم وخُيُولَهم وأثْقالَهم، وقَتَلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة، وأرَاد خصيّ لخاقان حَمْلَ امرأةِ خاقان فأعجلُوه فقتَلها، ومضى خاقانُ إلى طَخَارسْتَان ثم إلى بلادِهِ. وحمل الحارث وأصحابه على خمسة آلاف برْذَوْن، واستعدَّ لِغَزْو المسلمين، فلاعَب خاقانُ يومًا كورصُولَ بالنَّرْدِ على خَطَر، فتنازعا، فضرب كورصول يدَ خاقان فكسرها وتنحَّى عنه، وجمع جمْعًا، وبلغه أنَّ خاقان قد حلف ليكسرنَّ يَده؛ فبيّت خاقانَ فقتله، وتفرَّقَت التركُ واشتغلوا بأنفسهم، وأرسل أسَد إلى هشام بن عبد الملك يُخْبرهُ بالفتح وبقَتْل خاقان، فلم يصدق ذلك. وأرسل مُبَشّرًا آخر فوقف على باب هشام وكبَّر، فأجابه هشام بالتكبير. فلما انتهى إليه أخبره بالفتح، فسجد شكرًا لله تعالى.

وفيها غزا أسد بن عَبْد الله أمير خراسان الخُتَّل[١]، فقتل بدرُ طرخان ملك الخُتَّل، وغلب على القَلْعَة العظمى، وفرّق عساكره في أوْدية الخُتَّل، فملَئُوا أيديهم من الغنائم والسبي، وهرب أهلُها إلى الصين.

وغزا الوليد بن القَعْقَاع أرْضَ الروم.

وغَزَا مَرْوَان بن محمد من إرمينية فدخل بلادَ اللاَّن، وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخَزَر، فمرّ ببَلَنْجر وسَمنْدَر[٢]، وانتهى إلى البَيْضَاءِ التي يكون فيها خاقان، فهرب خاقان منه.

---

(١) الختل: بضم أوله وتشديد ثانيه وفتحه: كورة واسعة كثيرة المدن وهي على تخوم السند. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) سمندر: بفتح أوله وثانيه ثم سكون ودال مفتوحة وآخره راء: مدينة خلف باب الأبواب من أرض الخزر.

وفي سنة عشرين ومائة غزا سليمانُ بن هشام بن عبْد الملك الصائفة وافتتح سندرة.

وغزا إسحاق بن مسلم العقيلي تُومان شاه وافتتح قِلاَعَه وخرَّب أرْضَه.

ذكر غزوات نصر بن سيار ما وراء النهر

وفي سنة إحدى وعشرين ومائة غزا نصر بن سيّار ما وراء النهر مرّتين: إحداهما من نحو الباب الجديد، فسار من بَلْخ، ثم رجع إلى مَرْو، فخطب الناس، وأخبرهم أنه قد أقام منصور بن عمر بن أبي الخَرْقاءِ على كَشْفِ المظالم، وأنه قد وضع الجِزْيَة عمَّنْ أسلم، وجعلها على منْ كان يخفِّف عنه من المشركين، فلم تمض جُمْعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدُّون الجِزْية عن رؤُوسهم، وثمانون ألفًا من المشركين كانت الجِزْيَةُ قد وُضِعَت عنهم، فحوَّل ما كان على المسلمين عليهم، ثم صنَّف الخراج ووضعه مواضِعَه.

ثم غزا الثانية إلى وَرَغْسَر[١] وسَمَرْقَنْد.

ثم غزا الثالثة إلى شاش مِنْ مَرْو، فحال بينه وبين عُبُور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر ألفًا، وكان معهم الحارث بن سُرَيْج، وعبر كورصول في أربعين رجلاً فبيَّت العَسْكَر في ليلةٍ مظلمة، ومع نصر بخارى خذاه في أهْلِ بخارى، ومعه أهل سمرقند وكشّ ونسف، وهم عشرون ألفًا، فنادى نَصْر: ألاَ لا يخرجنَّ أحدٌ، واثْبتُوا على مواضعكم.

فخرج عاصم بن عمير ـ وهو على جُنْدِ سمرقند ـ فمرَّت به خَيْلُ الترك، فحمل على رجُل في آخرهم فأسره، فإذا هو ملكٌ من ملوكهم صاحبُ أربعة آلاف قُبَّة، فأتى به إلى نَصْر، فقال له نصر: منْ أنت؟ قال: كورصول. قال: الحمد لله الذي أمْكَنَ منك يا عدُوَّ الله. قال: ما ترجو مِنْ قَتْلِ شيخ، وأنا أُعطيك أربعة آلاف بَعِير من إبل الترك وألف بِرْذَوْن تُقَوِّي به جُنْدك، وتطلق سبيلي.

فاستشار نَصْر الناس، فأشاروا بإطلاقه، فسأله عن عُمره قال: لا أدْري. قال: كم غَزَوْت؟ قال: ثنتين وسبعين غَزَاة. قال: أشَهِدْتَ يَوْمَ العطَشِ؟ قال: نعم. قال: لو أعطَيتَني ما طلعَتْ عليه الشمسُ ما أفلَتَّ من يَدِي بعْد ما ذكرت من مشاهِدِك.

---

(١) ورغسر: قرية من قرى سمرقند عندها مقاسم مياه الصغد وغيره.

وقال لعاصم بن عُمير السغدي: قُمْ إلى سلَبه فخُذْه. فقال: مَنْ أسرني؟ قال: نصر ـ وهو يضحك ـ أسرك يزيد بن قِرَّان الحنْظَلي، وأشار إليه. قال: هذا لا يستطيعُ أن يغْسل اسْتَه، أو لا يستطيع أن يتم بَوْله، فكيف يَأْسِرني؟ أخْبِرني مَنْ أسرَني؟ قال: أسرك عاصم بن عمير. قال: لستُ أجِد ألَم القَتْلِ إذا أسَرني فَارسٌ من فُرْسانِ العرب.

فقتله وصَلَبه على شاطىء النهر، فلما قُتل أحرقت الترك أبْنِيتَه، وقطعوا آذانَهم وشعورَهم وأذناب خيولهم.

فلما أراد نَصْر الرجوعَ أحرقه لئلا يحملوا عِظَامه، فكان ذلك أشدَّ عليهم من قَتْلِه.

وارتفع إلى فَرْغانة فسبى منها ألْف رأس. وكتب يوسف بن عمر الثقفي عاهلُ العراقَيْن إلى نَصْر بن سيَّار يأمره بالمسير إلى الشاش[1] لقتالِ الحارث بن سُريج، فاستعمل نصْر يحيى بن حُصين على مقدمته، فسار إلى الشاش، فأتاهم الحارث، وأغار الأخرم، وهو فارسُ التركِ، على المسلمين فقتلوه، وألقَوا رأسه إلى الترك، فصاحُوا وانهزموا، وسار نَصْر إلى الشاش فتلقَّاه ملكها بالصلح والهديّة والرُّهن، فاشترط عليه إخراج الحارث بن سُريج من بلده، فأخرجه إلى فَاراب[2]، واستعمل على الشاش نَيْزَك بن صالح مَوْلَى عمْرو بن العاص، ثم سار حتى نزل قُبَاء من أرض فَرْغَانة، وكانوا قد علموا بمجيئه، فأحرقوا الحشيش، وقطعوا المِيْرة، فوجَّه نَصر إلى ولي عهد صاحب فَرْغانة فحاصره في حِصْنٍ، فخرج وقد غَفَل المسلمون فَغنمَ دوابَّهم، فوجَّه إليهم نَصْرٌ رجالاً من تميم، ومعهم محمد بن المثنى، فكايدهم المسلمون وأهملوا دوابهم وكمنوا لهم، فخرجوا فاستَاقوا بعْضَها، وخرج عليهم المسلمون فهزموهم، وقتلوا الدِّهْقَان وأسروا منهم، فكان فيمن أسر ابن الدّهقَان، فقتله نَصْرٌ.

وأرسل نَصرٌ سليمان بن صول بكتابِ الصُّلْح إلى صاحب فَرْغَانة، فأمر به فأُدْخل الخزائنَ ليراها، ثم رجع إليه، فقال: كيف رأيتَ الطريق فيما بيننا وبينكم؟

---

(١) شاش: بالشين المعجمة: بالريّ قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة، ولكن الشاش التي خرج منها العلماء ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء فهي بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) فاراب: ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك.

قال: سَهْلاً كثير الماء والمَرْعَى، فكره ذلك، وقال: ما أعلمك؟ فقال سليمان: قد غَزوت غَرْشِتان[١] وغُور والخُتَّل وطَبِرستان، فكيف لا أعلم؟ قال: فكيف رأيْت ما أعدَدْنَا؟ قال: عُدَّة حَسنة، ولكن أما علمْت أنَّ المحصور لا يسلم من خِصَال؟ قال: وما هن؟ قال: لا يأْمَنُ أقرب الناسِ إليه، وأوثقهم في نفسه، أو يَفنى ما جمع، فيسلم برمته، أو يصيبه داءٌ فيموت.

فكره ما قاله له، وأمره فأحضر كتاب الصلح، فأجاب إليه، وسير أُمَّه معه، وكانت صاحبةَ أمْرِهِ، فقدمت على نَصْر فكلَّمها فكلمَتْه، وكان فيما قالت له: كلُّ مَلِكٍ لا تكون عنده ستة أشياءَ فليس بملك: وزير يُبثُّ إليه ما في نفسه، ويُشاوِره ويثِقُ بنصيحته. وطبّاخ إذا لم يشْتَهِ الطعام اتَّخذ له ما يشتهي، وزوجة إذا دخل عليها مُغْتَمًّا فنظر إلى وجهها زال غمّه، وحصْنٌ إذا فزِع أتاه فأنجاه ـ تعْني البِرْذَون ـ وسيف إذا قاتل لم يَخْشَ خيانته. وذخيرة إذا حملها عاش بها أيْنَ كان من الأرض.

ودخل تميم بن نَصْر في جماعة، فقالت: مَنْ هَذَا؟ قالوا: هذا فتى خُرَاسان تميم بن نصر. قالت: ما له نُبْل الكبير، ولا حلاوة الصغير.

ثم دخل الحجاج بن قُتيبة، فقالت: مَنْ هذا؟ قالوا: الحجاج بن قُتيبة، فحيَّتْه، وسألت عنه، وقالت: يا معشر العرب، ما لكم وفاءٌ، ولا يصلح بعضكُم لبعض، قُتيبة الذي ذلَّل لكم ما أرى، وهذا ابنُه تُقْعده دونك، فَحَقُّه أن تُجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنتَ مجْلسه.

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

وفي سنة إحدى وعشرين أيضًا غزا مرْوان بن محمد من إرْمِينية وهو وَاليها، فأتى قلعةَ بيت السَّرير فقَتَل وسَبَى، ثم أتى قلعة ثانية فقتل وسَبى، ودخل غرمسك، وهو حصْنٌ فيه بيتُ الملك وسريره، فهرب الملكُ منه إلى حصْن خَيْزَج[٢]، وهو الذي فيه السرير الذهب، فسار إليه مَرْوَان ونازله صيْفَةً وشتوةً، فصالحه الملكُ على ألْفِ رأْس في كل سنة، ومائة ألف مُدي، وسار مرْوان فدخل أرض أرْز[٣] وبطران، فصالحه ملكها. ثم سار في أرض تُومان فصالحه وسار حتى أتى حمزين، فأخْرَب بلادَه، وحصَر حِصْنًا له شهرًا فصالحه.

(١) غرشتان: بالفتح ثم السكون وشين معجمة مكسورة وسين مهملة وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: ناحية واسعة كثيرة القرى.

(٢) خيزج: من رساتيق الجبل.

(٣) أرز: بالفتح ثم السكون وراء: بليدة من أول طبرستان من ناحية الديلم وبها قلعة حصينة.

ثم أتى مرْوان أرض مسدار، فافتتحها على صُلْح، ثم نزل كِيْران[١] فصالحه طبرسران وفِيْلان، وكلٌّ هذه الولايات على شاطىء البحر من أرمينية إلى طبرستان.

وفيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير.

وفي سنة أربع وعشرين غزا سليمان بن هشام الصائفةَ فلقي أليُون ملك الروم فغنم.

هذا ما أمْكَن إيراده من الغزوات والفتوحات في أيام هشام فلنذكر حوادث السنين في أيامه.

سنة ست ومائة:

ذكر ولاية أسد خراسان

في هذه السنة استعمل خالدُ بن عبْد الله القَسْري أخاه أسَدًا على خُرَاسان، فقدمها ومُسلم بن سعِيد بفَرْغانَة، فلما أتى أسدٌ النهْرَ ليقْطَعه منَعهُ الأشهب بن عُبيدٍ التميمي؛ وكان على السفُن بآمُل، وقال: قد نُهيت عن ذلك، أعطاه ولاطفَه، فأبى. قال: فإني أمير، فأذن له، فقال أسَد: اعرفُوا هذا حتى نشركه في أمَانتنا.

وأتى الصُغْد فنزل بالمَرْج، وعلى سمَرْقند هانىء بن هانىء، فخرج في الناس للِقَاءِ أسَدٍ، فرآه على حجر، فقال الناس: ما عند هذا خير، أسد على حجر، ودخل سَمَرْقند وعزَلَ هانئًا عنها، واستعمل عليها الحسن بن أبي العَمَرَّطَة الكندي، ثم كان مِنْ عزْل أسد ما نذكره إن شاء الله.

وفيها استعمل هشام الحر بن يوسف بن يحيى بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمية على الموصل، وهو الذي عمل النَّهر الذي كان بالموصل.

وسببُ ذلك أنه رأى امرأةً تحمل جَرَّةً فيها ماء، وهي تحملُها ساعةً ثم تستريح قليلاً لبُعْد الماءِ، فكتب بذلك إلى هشام، فأمره أن يحفر نَهرًا إلى البلد، فحفره، وبقي العمل فيه عِدَّة سنين ومات الحرّ سنة ثلاث عشرة ومائة.

وفي سنة ست أيضًا عزل هشام عَبْد الواحد النَّضْري عن مَكَّة والمدينة والطائف، وولَّى ذلك كله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فقدم المدينة في جمادى الآخرة.

(١) كيران: مدينة بأذربيجان، بين تبريز وبيلقان.

وكانت ولاية النَّضْري سنة وثمانية أشهر.

وفيها استقضى إبراهيمُ بنُ هشام على المدينة محمد بن صَفْوَان الجُمحي، ثم عزله، واستقضى الصَّلْت الكِنْديّ، وكان العاملُ على العِرَاق وخُرَاسان خالد بن عَبْد الله القَسْري البَجَلي، وكان عاملَ خالد على البَصْرة عُقْبةُ بن عبد الأعلى على الصلاة. وعلى الشرطة مالك بن المنذر بن الجارُود، وعلى القضاء ثُمَامة بن عَبْد الله بن أَنس.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن عبد الملك.

سنة سبع ومائة:

في هذه السنة كان مِنْ خبَرِ دُعَاة بني العباس ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة العبّاسية.

وفيها عزل هشام الجرّاح بن عَبْدِ الله الحكَمي عن إرمينية وأذْرَبيجانَ، واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عَبْد الملك، فاستعمل عليها الحارث بن عمْرو الطائي، فافتتح من بلادِ الترك رُستاقًا وقُرًى كثيرة، وأثّر أثرًا حسنًا.

وفيها نقل أسد منْ كان بالبرُوقَان[1] إلى بلَخْ من الجند، وأقطع من كان بالبَرُوقان بقَدْر مسكنه، ومنْ لم يكن له مسكن أقطعه مسكنًا، وأراد أن يُنْزِلهم على الأخماس، فقيل له: إنهم يتعصَّبُون؛ فخلَّى بينهم، وتولَّى بناء مدينة بَلخ برمك، وهو أبو خالد بن برْمك، وبينها وبين البرُوقان فرسخان.

وحجَّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام.

سنة ثمان ومائة:

في هذه السنة كان مِنْ خبَر شيعة بني العباس ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها وقع الحريق بدَابِقَ، فاحترق المرْعَى والدوابّ والرجال.

وفيها خرج عبّاد الرُّعَيني باليمَن مُحكّمًا فقَتَلَه أمِيرُها يوسف بن عمرو، وقتل أصحابَه وكانوا ثلاثمائة.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام.

وفيها مات محمد بن كعب القُرظي، وقيل سنة سبع عشرة. وقيل: إنه وُلد على عهد رسول الله ﷺ.

---

(١) البروقان: بالقاف، والنون: قرية من نواحي بلخ؛ ينسب إليها محمد بن خاقان البروقاني... (معجم البلدان).

سنة تسع ومائة:

في هذه السنة عُزِل أَسَدُ بن عبْد الله القسري عن خراسان، وسبب ذلك أنه ضرب نَصْر بن سَيار ونَفَرًا بالسياط، منهم عبد الرحمٰن بن نُعيم وسَورة بن الحُرّ والبخْتَرِي بن أبي دِرْهم، وعامر بن مالك الحِمَّاني، وحَلقهم وسيّرهم هو إلى أخيه، وكتب إليه: إنهم أرادُوا الوُثوب بي.

فلما قدموا على خالد لاَمَ أَسَدًا وعنَّفَه، وقال: ألا بَعثَ إليَّ برُؤُوسهم.

وخطب أسدٌ يومًا، فقال: قَبَّح اللّهُ هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنِّفَاق والشَّغب والفَساد، اللهم فَرِّقْ بيني وبينهم، وأخْرجْني إلى مُهَاجري ووطَنِي.

فبلغ فِعْلُه هشام بن عبْد الملك، فكتب إلى خالد: اعْزِل أخاك، فعزله، فرجع إلى العِرَاق في رمضان من السنة، واستخلف على خرَاسان الحَكَم بن عَوانة الكلبي، فأقام الحكَمُ صيفيته فلم يغزُ، ثم استعمل هشام أشرسَ بْنَ عَبْد الله السلمي على خراسان، وأمره أنْ يُكَاتِب خالدًا، وكان أشرسُ فاضلاً خَيِّرًا، وكانوا يسمونه الكامل لفَضْلِه.

فلما قدم خراسان فَرِح الناس به، واستقضى أبا المنازل الكندي، ثم عزله واستقضى محمد بن يزيد.

وحجَّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام، فخطب الناس، فقال: سَلُوني، فإنكم لا تسألونَ أحدًا أعْلَم مني، فسأَلَهُ رجلٌ من أهل العِراق عن الأُضحية أوَاجبةٌ هي؟ فما دَرى ما يقول: فنزل.

سنة عشرة ومائة:

فيها جمع خالد القَسْرِي الصلاةَ والأحداث والشرط والقضاء بالبصْرَة لبِلال بن أبي بُرْدة، وعزل ثُمامة[١] عن القضاء.

وحجّ بالناس إبراهيم بن إسماعيل.

وفيها مات الفرزدق الشاعر، وله إحدى وتسعون سنة.

ومات جرير بن الخَطَفي الشاعر.

(١) هو ثمامة بن أشرس.

سنة إحدى عشرة ومائة:

في هذه السنة كان عَزْل أشرس عن خُرَاسان واستعمال الجُنَيْد بن عبد الرحمٰن؛ وقد تقدم ذكر ذلك في الغَزَوَات.

وفيها استعمل هشام الجرَّاح بن عبْد الله الحَكَمي على إرمينية، وعزل أخاه مسلمة كما تقدم.

وحجّ بالناس إبراهيم بن هشام المخزومي.

سنة ثنتي عشرة ومائة:

حجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزومي. وقيل سليمان بن هشام بن عبد الملك. والله أعلم.

سنة ثلاث عشرة ومائة:

في هذه السنة قُتِل عَبْد الوهاب بن بُخْت، وكان قد غزا مع البطَّال أرضَ الرُّوم، فانهزم الناسُ عن البطَّال، فحمل عبدُ الوهاب، وهو يقول: ما رأيت فَرَسًا أجبنَ منك، وسفك الله دمي إنْ لم أسفك دَمَك، ثم ألْقَى بيْضَتَه عن رأْسه، وصاح: أنا عبدالوهاب! مِنَ الجنَّةِ تَفرُّون!

ثم تقدم في نحو العدو، فجاء برجل وهو يقول: واعطشاه! فقال: تقدم، الرِّيّ أمامك، وخالط القوم فقُتل وقُتِل فرسه.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقيل إبراهيم بن هشام المخزومي، والله أعلم.

سنة أربع عشرة ومائة:

في هذه السنة كانت ولاية مَرْوَان بن محمّد بن مروان إرْمِينية وأذْرَبيجان، وقد تقدم ذكر ذلك في الغزوات.

وفيها عزل هشامٌ إبراهيم بنَ هشام المخزومي عن المدينة، واستعمل عليها خالدَ بْنَ عبد الملك بن الحارث بن الحكم في رَبيع الأول، فكانت إمْرة إبراهيم على المدينة ثماني سنين، وعزَلَه أيضًا عن مكَّةَ والطائف، واستعمل على ذلك محمد بن هشام المخزومي.

وحجّ بالناس خالدُ بْنُ عَبْد الملك بن الحارث وقيل: محمد بن هشام.

وفيها توفي محمد بن علي بن الحُسين البَاقِر. وقيل سنة خمس عشرة.

سنة خمس عشرة ومائة:

حجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام المخزومي، وكان الأمير بخُراسان الجُنَيْد. وقيل: بل كان قد مات، واستخلف عمارة بن حُريم المُرّي. والله أعلم.

سنة ست عشرة ومائة:

في هذه السنة عُزل الجنيد عَنْ خُراسان.

وسببُ ذلك أنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فغضب هشام؛ واستعمل عاصم بن عبْد الله بن يزيد الهلالي على خُرَاسان، وكان الجُنَيْد قد سُقِي بطْنُه، فقال هشام لعاصم: إنْ أدْركْتَه وبه رَمق فأزْهِقْ نفسه.

فقدم عاصم وقد مات الجُنَيْد، واستخلف عمارة بن حُريم وهو ابْنُ عمه، فعذَّبه عاصم، وعذَّب عمال الجُنَيْد لعَداوةٍ كانت بينه وبين الجُنَيْد...

ذكر خلع الحارث بن سريج بخراسان وما كان من أمره

وفي هذه السنة خلع الحارثُ بن سُريج وأقبل إلى الفارِياب فأرسل إليه عاصم رسُلاً. منهم مقاتل بن حيّان النَّبطي، والخطاب بن مُحْرز السلمي، فقالا لمن معهما: لا نَلْقَى الحارث إلاَّ بأمان، فأبى القومُ عليهما وأتوه، فأخذهم الحارث وحبَسهم، ووكل بهم رجُلاً فأوْثَقُوه، وخرجُوا من السجن، فركبوا وعادُوا إلى عاصم، فأمرهم فخطبوا وذَمُّوا الحارثَ، وذكروا خُبْثَ سِيْرتِهِ وغَدْرَه، وكان الحارث قد لبس السَّواد، ودعا إلى كتابِ الله وسُنَّةِ نبيه والبيْعةِ للرضا، فسار من الفَارِياب، وأتى بلْخ، وعليها نصر بن سيار والتُّجيبي، فلقِياهُ في عشرة آلاف وهو في أربعة آلاف، فقاتلهما، فانهزم أهل بلخ.

وتبعهم الحارث، فدخل مدينة بَلْخ، وخرج نَصْر بن سيّار منها، وأمر الحارث بالكف عنهم، واستعمل عليها رجلاً من ولد عبْد الله بن خازم، وسار إلى الجُوزْجَان[1] فغلب عليها وعلى الطالِقَان ومرْو الرُّوذ. فلما كان بالجُوزْجان استشار

---

(١) الجوزجان والجوزجانان: هما واحد، بعد الزاي جيم، وفي الثانية نونان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار... (معجم البلدان لياقوت).

أصحابه في أي بلدٍ يقْصِد، فقيل له: مرْوُ بيْضة خُراسان وفُرْسانهم كثير، ولو لم يلقوك إلا بعَبِيدهم لانْتَصفُوا منك، فأقم، فإن أتَوْك فقاتِلْهُمْ، وإن أقاموا قطعْت المادَّة عنهم.

قال: لا أرى ذلك؛ وسار إلى مرْو، فأقبل إليها يُقَالُ في ستين ألفًا، ومعه فُرسان الأزدِ وتميم، منهم محمد بن المثنّى، وحمّاد بن عامر الحِمَّاني، وداود الأعسر، وبشر بن أُنيف الرياحيّ، وعطاء الدبوسي.

ومن الدهاقين دِهْقَان الجُوزْجان، ودِهْقَان الفَارِياب، وملك الطالِقَان ودِهقَان مَرْو الرُّوذ في أشباههم، وخرج عاصمٌ في أهل مَرْو وغيرهم، فعسْكَر وقطع القناطر، وأقبل أصحابُ الحارث فأصلحوها، فمال محمد بن المثنّى الفَرَاهِيدي الأزدي إلى عاصم في ألفين، فأتى الأزد، ومال حمّاد بن عامر الحِمَّاني إليه، فأتى بني تميم، وأتى الحارثُ وعاصم فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحابُ الحارث، فغرق منهم بشَرٌ كثير، في أنهار مرْو وفي النَّهر الأعظم؛ ومضت الدهاقِينُ إلى بلادِهم، وغرق خازم بن عَبْد الله بن خازم، وكان مع الحارثِ. وقُتِل أصْحاب الحارِث قَتْلاً ذَرِيعًا، وقطع الحارث وادِي مَرْو، فضرب رواقًا عند منازل الدَّهَاقين، وكَفَّ عنه عاصم؛ واجتمع إلى الحارث زُهَاء ثلاثة آلاف، ثم كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها عزل هشامٌ عَبْد الله بن الحبْحاب عنْ ولاية مِصْر، واستعمله على إفريقية.

وقيل: كان ذلك في سنة سبع عشرة ومائة.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليد بن يزيد بن عبد الملك. والله أعلم.

سنة سبع عشرة ومائة:

ذكر عزل عاصم عن خراسان ووِلاية أسد وخبر الحارث بن سُرَيج

في هذه السنة عزل هشامُ بن عبد الملك عاصم بْنَ عَبْد الله عن خُراسان، وضَمَّها إلى خالد بن عبْد الله القَسْري أمير العراقين، فاستعمل عليها خالدٌ أخاه أسَد بن عبْد الله.

وكان سبب ذلك أنَّ عاصمًا كتب إلى هشام: أما بعد فإن الرائد لا يَكْذِبُ أهْلَه، وإن خُراسان لا تَصْلُح إلاَّ أنْ تُضَمّ إلى العراق وتكون معُونَتها ومَوَادها من قريبٍ، لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غِياثه عنها، فضمّ هشام خراسان إلى خالد بن عَبْد الله، وكتب إليه: ابعَثْ أخاك يُصلح ما أفسد؛ فإنْ كانت رجية كانَتْ به.

فسيَّر خالد إليها أخاه أسدًا، فلما بلغ عاصمٌ إقبال أسد، وأنه قد بعث على مقدمته محمد بن مالك الهمْداني صالح الحارثَ بن سُريج، وكتَبا بينهما كتابًا، على أن ينزل الحارثُ أيّ كُوَر خُراسان شاء، وأن يكتبا جميعًا إلى هِشَام يسْألاَنه كتابَ الله وسنَّةَ نَبيه، فإنْ أبَى اجتمعا عليه.

فختم على الكتاب بعْضُ الرؤساء، وأبى يَحْيَى بن حُضَيْن بن المنذر[١] أن يختم، وقال: هذا خَلْعٌ لأمير المؤمنين فانفسح ذلك.

وكان عاصم بقَرْيَة بأعلى مَرْو، فأتاه الحارث بن سُريج فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم الحارث، وأُسِر جماعةٌ من أصحابه، منهم: عبد الله بن عمْرو المازني رأْسُ أهلِ مرْو الرُّوذ[٢]، فقتل عاصمٌ الأسرى، وعَظَّم أهلُ الشام يحيى بن حُضَين لِما صنعَ في نَقْضِ الكتاب، وكتبوا كتابًا بما كان وبهزيمةِ الحارث وبعثوه إلى أسَد، فلقيه بالرَّي وقيل ببَيْهَق[٣].

فكتب أسد إلى أخيه خالد ينتحلُ أنه هزم الحارثَ، ويُخبره بأمْر يحيى، فأجاز خالد يحْيَى بعشرة آلاف دينار ومائة حُلَّة، وحَبَس أسدٌ عاصمًا وحاسَبهُ وطلَب منه مائةَ ألف درهم، وقال: إنكَ لم تَغزُ، وأطلق عُمَّال الجُنَيْد، وقدم أسد ولم يكن لعاصم إلا مَرْو ونَيْسابور، والحارث بمَرْو الرُّوذ، وخالد بن عُبَيْدَ الله الهجرِيّ بِآمُل موافقَ للحارث، فخاف أسد إنْ قصد الحارثَ بمرْو الرُّوذ أنْ يأْتيَ الهجري مَرْو من قِبل آمُل، وإنْ قَصَد الهجَري قصد الحارث مَرْو من قبل مرْو الروذ، فأجمع رأيه على تَوْجيه عبد الرحمٰن بن نُعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث بمَرْو الروذ، وسار أسَد بالناس إلى آمُل، فلقيه خَيْل آمُل؛ عليهم زِيَاد القُرشي موْلى حَيّان النبطي وغيره، فهُزِموا حتى رجعوا إلى المدينة، فحصرهم أسَد، ونصب عليهم المجَانِيق؛ فطلبوا الأمان، وطلبوا كتاب اللّهِ وسنَّةَ نبيِّه ﷺ، وألاَّ يُؤخذ أهْلُ المدن بجِنَايتهم، فأجابهم أسَد إلى ذلك، واستعمل عليهم يحيى بن نُعيم بن هُبَيْرة الشيباني؛ وسار يرِيد بلْخ، فأُخبر أنَّ أهلَها قد بايعُوا سليمان بن عبْد الله بن خازم، فسار حتى قدمها، واتَّخذَ

(١) الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي، أحد بني رقاش، فارس شاعر، كانت معه راية علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين.

(٢) مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى. . . (معجم البلدان).

(٣) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة من نواحي نيسابور وتشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية.

سُفُنًا، وسار منها إلى ترْمذ، فوجد الحارث مُحاصِرًا لها، وبها سِنَان الأعرابي، فنزل أَسَد دُونَ النهر، ولم يُطق العُبُورَ إليهم، ولا أنْ يُمِدَّهُم، وخرج أهل تِرْمِذ من المدينة، وقاتلوا الحارث قِتَالاً شديدًا، فاستطرد الحارثُ لهم، وكان قد وضع كَمِينًا، فلما جاوزُوه خرج عليهم، فانهزموا.

ثم ارتحل أسدٌ إلى بَلْخ، ثم خرج أهْلُ تِرْمِذ إلى الحارث، فهزموه، ثم سار أسد إلى سمَرْقَنْد في طريق زُمّ[١]، فلما قدم زُم بعث إلى الهيْثم الشيباني وهو في حِصْنٍ من حصونها ـ وهو من أصحابِ الحارث ـ فأمّنه، ووعده المُواساةَ والكَرَامةَ والأمَانَ لمَنْ مَعه، وأقسم إنه إن ردَّ ذلك ورمى بسهْم ألاَّ يؤمِّنَه أبدًا، وإنه إن جعل له ألْف ألْف أمان لا يَفِي له.

فخرج إليه وسار معه إلى سمرْقَند، ثم ارتفع إلى وَرَغْسرَ[٢] ـ وماء سمرقند منها ـ فسكَرَ[٣] الوادي، وصرفه عن سمرْقَند. ثم رجع إلى بلْخ، فلما استقرّ بها سرَّحَ جُدَيعًا الكرمَاني إلى القَلْعة التي فيها ثَقَلُ الحارث وأصحابه، واسمها التبوشكان من طَخَارستان العليا وفيها بنو بَرْزَى التغلبيُّون أصهار الحارث، فحصرهم الكَرْماني حتى فتحها، وذلك في سنة ثمان عشرة ومائة، فقتل مقاتِلَتَهم، وسبى عامَّةَ أهْلها من العرب والموالي والذَّراري، وباعهم فيمن يزِيد في سوق بَلْخ.

قال: ونَقَم على الحارث أربعمائة وخمسون رجلاً من أصحابه، وكان رئيسهم جرِير بن ميْمون القاضي، فقال لهم الحارث: إن كنْتُم لا بدَّ مُفَارقي فاطلبوا الأمَان، وأنا شاهِدٌ، فإنهم يجيبونكم. وإن ارتحلْتُ قَبْل ذلك لم يعطوا الأمانَ. فقالوا: ارتحل أنْتَ عنا، وخَلِّنَا.

فأرسلوا يطلُبُون الأمانَ، فأُخبر أسَدٌ أنَّ القوم ليس لها طعام ولا ماء، فسرَّح إليهم أسدٌ جُديعًا الكَرْمَاني وستةَ آلاف، فحصرهم في القَلْعةِ وقد عطش أهْلُها، وجاعوا، فسألوا أنْ يَنْزِلُوا على الحكم، ويتركَ لهم نساءهم وأولادهم، فأجابهم، فنزلوا على حُكْم أسَد.

---

(١) زمّ: قيل: هي بئر لبني سعد بن مالك. وقيل: هي ماء لبني عجل فيما بين أداني طريق الكوفة إلى مكة والبصرة.

(٢) ورغسر: بفتح أوله وثانيه، وغين ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، وراء: من قرى سمرقند.

(٣) يقال: سكر النهر: إذا سدّه.

فأرسل أَسَد إلى الكَرْماني يَأْمرُه أن يُحْمل إليه خمسون رجلاً من وجوههم، فيهم المُهَاجر بن ميمون، فحُمِلوا إليه فقتلهم، وكتب إلى الكَرْمَاني أنْ يجعلَ الذين بَقُوا عنده أثلاثًا، فثُلث يَقْتُلهم، وثلث يقطع أيديهم وأرجلَهم، وثلث يقْطَع أيديهم. ففعل ذلك بهم، وأخرج أَثْقَالَهم فباعَها، واتخذ أسعد مدينة بَلْخ دارًا، ونقل إليها الدواوين، ثم غزا طخارستان.

وحجّ بالناس في سنة سبع عشرة ومائة خالد بن عبد الملك.

سنة ثمان عشرة ومائة:

في هذه السنة عزل هشام خالد بن عبْد الملك بن الحارث بن الحكم عن المدينة، واستعمل عليها خالد بن محمد بن هشام بن إسماعيل، وحجَّ بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل. وكان أمير المدينة.

سنة تسع عشرة ومائة:

ذكر قتل المغيرة وبيان

في هذه السنة خرج المُغِيرة بن سعِيد وبَيَان في ستَّةِ نَفَر، وكانوا يسمون الوُصفاء، وكان المغيرةُ ساحرًا، وكان يقول: لو أردتُ أنْ أحيي عادًا وثمود وقُرُونًا بين ذلك كثيرًا لفعلتُ. وبلغ خالدَ بنَ عبْد الله القَسْرِي خروجُهم بظَهْر الكوفة، وهو يخطب، فقال: أطعموني ماء، فقال يحيى بن نوفل[(١)] في ذلك من أبيات: [من الوافر]

وقلتَ لِما أصابكَ أطْعِمُوني ... شرابًا ثم بُلْتَ على السرير
لأعْلاَجٍ ثمانيةٍ وشَيْخٍ ... كبيرِ السنِّ لَيْس بذِي نَصِير

فأرسل خالد فأخذهم وأمر بسريره فأُخرج إلى المسجد الجامع، وأحرقهم بالقَصب والنِّفْط.

وكان مذْهب المُغيرة التجسيم؛ يقول: إن ربَّه على صورةِ رجل على رأْسه تاج، وإنَّ أعضاءه على عدد حُرُوفِ الهجاء، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) هو يحيى بن نوفل اليماني، من حمير ويكنى أبا معمر ويقال أنه كان أولاً ينتمي إلى ثقيف فلما ولى الحجاج خالد بن عبد الله القسري العراق ادعى أنه من حمير، وكان أبان بن الوليد البجلي في زمن الحجاج (بن يوسف) في كتاب ديوان الضياع يجري عليه الرزق... وكان يحيى كثير الهجاء ولا يكاد يمدح أحدًا... (طبقات الشعراء).

وكان يقول: إنَّ الله تعالى لما أراد أنْ يخلقَ الْخَلْق تكلَّم باسْمه الأعْظَم، فطار فوقع على تاجه، ثم كتب بإصْبعه على كَفِّه أعمال عبادِه من المعاصي والطاعات، فلما رأى المعاصي ارْفَضَّ عرقًا، فاجتمع مِنْ عرقه بحْرانِ: أحدُهما مِلْحٌ مظلم، والآخر عذْب نيِّر، ثم اطَّلَع في الْبَحْر فرأى ظِلَّهُ فذهب ليأْخذه، فطار فأدْركه فقلع عيْني ذلك الظلّ ومحقَه، فخلق من عيْنَيْه الشمس وشمسًا أُخرى. وخَلَقَ مِنَ البحر المِلْحِ الكفَّار، وخلق من البحْرِ العذْب المؤمنين.

وكان لَعنَه الله يقول بإلَهية عليّ وتَكْفِيرِ أبي بكْر وعُمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم إلاَّ من ثبت مع عليّ رضي الله عنه.

وكان يقول: إنَّ الأنبياءَ لم يختلفوا في شيء من الشرائع.

وكان يقول بتحريم ماء الفُراتِ وكلِّ نَهْرٍ أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسةٌ.

وكان يخرج إلى المقبرةِ فيتكلم فيرى أمثالُ الجراد على القبور.

وأما مذهب بَيَان فإنه كان يقول بإلَهيَّةِ عليّ رضي الله عنه، وإنَّ الحسنَ والحُسيْن إلَهان، ومحمد ابن الحنفية بعْده، ثم بعده ابْنُه أبو هاشم بن محمد بنوْع من التناسخ.

وكان يقول: إن الله تعالى يفْنَى جميعه إلا وجْهه، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]. تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا.

وادَّعى النبوة، وزعم أنه المراد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

ذكر خبر الخوارج في هذه السنة

وفي هذه السنة خرج بُهْلُول بن بِشْر الملقَّبُ كُثَارة، وهو من الموصل من شيبان، وكان سبب مخْرجه أنه خرج يُريدُ الحجَّ، فأمر غلامه أن يبتاعَ له خَلاً بدِرْهم، فأتاهُ بخَمْرٍ فأمرهُ بردِّه فلم يُجبْه صاحبُ الخمر إلى ذلك، فجاء بُهْلُول إلى صاحبِ القَرْيةِ وهي من السَّوادِ، فكلَّمه، فقال العامل: الْخَمْرُ خَيْرٌ منك ومِنْ قومك.

فمضى إلى الحج وقد عزم على الخروجِ، فلقي بمكَّةَ مَنْ كان على مِثْل رأيه، فاتَّعدُوا قريةً من قُرى الموصل، فاجتمعوا بها ـ وهم أربعون رجُلاً ـ وأمَّرُوا عليهم البُهْلول، وكتمُوا أمْرهم، وجعلوا لا يمُرُّون بعامل إلا أخبروه أنَّهم قدموا من عند هشام على بعْضِ الأعمال، وأخذوا دوابَّ البريد.

فلما أتوا إلى القرية التي ابْتاع الغلامُ منها الخَمْر قال بُهْلول: نَبْدأُ بهذا العامل، فقال أصحابُهُ: نحن نريد قَتْل خالد، وإنْ بدأْنَا بهذا شُهر أمْرُنا، وحذِرنا خالدٌ وغَيْرهُ، فنَشَدْناك الله أن تَقْتُل هذا فيُفْلت منا خالدٌ الذي يهْدِمُ المساجدَ، ويبْنِي البِيع والكنائس، ويولي المجوسَ على المسلمين، ويُنْكح أهْل الذمة المسلماتِ، لعلَّنا نَقْتُله.

قال: والله لا أدعُ ما يلزمني لما بعْده، وأرجو أنْ أقْتُلَ هذا وخالدًا، فأتاه فقتله.

فعلم الناسُ أنهم خوارج، وهَربُوا، وخرجت البُرُدُ[١] إلى خالد فأعلموه بهم، فخرج خالد من وَاسِط، فأتى الحِيرة، وبها جُنْدٌ قد قدموا من الشام مَددًا لعاملِ الهِنْد، فأمرهم خالدٌ بقتَالهم، وقال: منْ قَتَل منهم رجُلاً أعطيْتُه عطاءً سِوَى ما أخذ في الشام، وأعفَيتُهُ من الدخول إلى الهند.

فسارَعُوا إلى ذلك، فتوجَّه مقدّمهم، وهو من بني القَيْن، ومعه ستمائة منهم، وضمَّ إليه خالد مائتين من الشرط، فالتقوا على الفُرات؛ فقال القَيْني لمَنْ معه من الشّرط: لا تكونوا مَعَنا ليكونَ الظَّفر له ولأصْحابه.

وخرج إليهم بُهلول، فحمل على القَيْني فطعنَه فأنفذه، وانهزم أهْلُ الشام والشرط، وتبعهم بُهْلول وأصحابُه يقْتُلونهم، حتى بلغوا الكوفَةَ، ووجد بُهلول مع القَيْني بَدْرةً فأخذها.

وكان بالكوفة ستة يرون رأي بُهلول، فخرجوا فقتلوا بِصَرِيْفين[٢]، فخرج بُهْلول فقال: منْ قَتَل هؤلاء، حتى أُعْطِيَهُ هذه البَدْرة؟ فجاء نَفَرٌ فقالوا: نحن قَتَلْناهم، وهم يظنُّونه من عند خالد، وصدّقهم أهْلُ القرية، فقتلهم، وترك أهْلَ القرية.

وبلغ خالدًا الخبر، فوجَّه إليه قائدًا من شَيْبَان أحد بني حَوْشب بن يزيد بن رُؤيم، فلقيه فيما بين الموصل والكوفة، فانهزم أهْلُ الكوفة، فأتَوْا خالدًا، وارتحل بُهْلول مِنْ يوْمِهِ يُريد الموصل، فكتب عَاملُ الموصل إلى هشام يُخْبِرُهُ بهم، ويسأله جُنْدًا، فكتب إليه هشام: وجِّه إليهم كُثارة بنَ بشْر.

فكتب إليه: إنَّ الخارج هو كُثَارة.

ثم قال بُهلول لأصْحابه: إنَّا والله ما نصنعُ بابْنِ النصرانيَّةِ شيئًا ـ يعني خالدًا ـ فلم لا نطْلُبُ الرأس الذي سلَّط خالدًا.

---

(١) البرد: جمع البريد وهو معروف. (٢) صريفون: موضع في سواد العراق.

فسار يريد هشامًا بالاسم، فخاف عُمَّالُ هشام من هشام إنْ تَركُوه يجوزُ إلى بلادهم، فسيَّر خالدٌ جُنْدًا من العراق، وسَيَّر عاملُ الجزيرة جُنْدًا من الجزيرة، ووجَّه هشام جُنْدًا من الشام، فاجتمعوا بديْرٍ بين الجزيرة والموصل، وأقبل بُهلول إليهم.

وقيل: التقوا بكُحيْل[١] دون الموصل، ونزل بُهلول على بابِ الدَّيْر، وهو في سبعين، فحمل عليهم فقتل منهم نَفَرًا ستة، وقاتلهم عامَّةَ نهاره، وكانوا عشرين ألفًا، فأكْثَر فيهم القَتْلَ والجِراح.

ثم إنَّ بُهلولاً وأصحابه عقَرُوا دَوابَّهم وترجَّلوا، فقاتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل كثير من أصحاب بُهْلُول وطعن فصُرع، فقال أصحابه: ولِّ أمْرنا، فقال: إنْ هلَكْتُ فأمير المؤمنين دِعامة الشيباني، فإن هلك فعمرو اليشكري، ومات بُهلول من ليلته، فلما أصبحوا هرب دِعَامة وتركهم، وخرج عمْرو اليشكري فلم يلبث أن قتل.

وخرج العنزي صاحب الأشهب على خالد في ستين فوجه إليه خالد السِّمْط بن مُسلم البجلي في أربعة آلاف، فالتقوا بناحية الفُرات، فانهزم الخوارجُ، فتلقَّاهم عبِيد أهْلِ الكوفة وسفْلَتُهم فرموهم بالحجارةِ حتى قَتَلُوهم.

ثم خرج وزير السّختياني على خالد بالحيرة في نَفَر، فجعل لا يمرُّ بقرْية إلا أحْرقها، ولا يلْقَى أحدًا إلاَّ قتله، وغلب على ما هنالك وعلى بيْتِ المال؛ فوجَّه إليه خالدٌ جُنْدًا، فقتلوا عامَّةَ أصحابه، وأُثْخن بالجِراحِ وأُتي به خالد، فأقبل على خالد فوعظَه، فأعْجب خالدٌ ما سمِع منه، فلم يقتله وحبسه عنده. وكان يُؤْتي به في الليل فيحادثه، فسُعِيَ بخالد إلى هشام.

وقيل: أخذَ حرُورِيا قد قَتَل وحرقَ وأباح الأموال فجعله سمِيرًا، فغضب هشام، وكتب إليه يأْمُرُهُ بقَتْلِهِ، فأخَّر قَتْله، فكتب إليه ثانيًا يذمُّه ويأْمره بقَتْلِهِ وإحراقه، فقتله وأحرقه ونفَرًا معه، ولم يزل يتْلُو القُرْآنَ حتى مات وهو يقْرأُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة ٨١].

وخرج الصُّحاريُّ بن شَبيب بن يزيد بناحية جَبُّل[٢]، وكان قد أتى خالدًا يسْأله الفَرِيضة، فقال له: وما يصنَعُ ابْن شبيب بالفَريضة؟ فمضى ونَدِم خالد، وخاف أن يفْتق

(١) كحيل: تصغير كحل: موضع بالجزيرة، وكان فيه يوم للعرب.. وقيل: الكحيل: مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي، وقيل: الكحيل في بلاد هذيل... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) جبل: بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها ولام: بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي.

عليه فَتْقًا، فطلبه فلم يرجع إليه، وسار حتى أتى جَبُل، وبها نَفَرٌ من بني تَيْم اللات بن ثعلبة، فأخبرهم خَبره، فقالوا: وما كنْتَ ترْجُو من ابْن النصرانِيَّة؟ كنْتَ أوْلَى أنْ تسير إليه بالسيف فتضربه به. فقال: والله ما أردْتُ الفَريضَةَ، وما أردْتُ إلا التوصُّل إليه لئلا يُنْكِرني، ثم أقتله بفُلاَن ـ يعني رجلاً من الصُّفْرِيّة، كان خالد قَتَلَهُ صبْرًا.

ثم دعاهم إلى الخروج معه فتَبِعه منهم ثلاثون رجُلاً، فخرج بهم، فبلغ خَبرُهُ خالدًا، فقال: قد كنْتُ خِفْتُها منه، ثم وجَّه إليه جُنْدًا فلقوه بناحية المَنَاذر(١)، فقاتلهم قتالاً شديدًا، فقتلوه وجميع أصحابه.

وحجَّ بالناس في هذه السنة أبو شَاكِر مسلمة بن هشام.

سنة عشرين ومائة:

في هذه السنة توفي أسد بن عبْد الله القَسْري أمير خراسان في شهر ربيع الأول بمدينة بلْخ، واستخلف جعفر بن حنْظَلَة البهْراني فعمل أربعة أشهر، ثم جاء عهد نَصْر بن سيار في شهر رجب من السنة.

ذكر عزل خالد بن عبد الله القسري وولاية يوسف بن عمر الثَّقفي

وفي هذه السنة عزَل هشام بْنُ عبد الملك خالدًا عن جميع أعمالِهِ. وقد اختُلِف في سبب ذلك، فقيل: إن أبا المثنى فَرُّوخ كان على ضِياع هشام بنهر الرُّمَّان(٢) بالعِراقِ فثَقُل على خالد أمْرُه، فقال خالد لحسّان النبطِي: اخْرُجْ إلى هشام وزِد على فَرُّوخ. ففعل حسّان ذلك وتولاَّها، فصار حسَّان أثقل على خالد من فَروخ، فجعل يُؤْذيه، فيقول له حسان: لا تُفسدْني، وأنا صنيِعتُك، فأبى إلا أذاه، فلما قدم عليه بثَق(٣) البثُوق على الضياع، ثم خرج حسّان إلى هشام، فقال له: إنَّ خالدًا بثَق البُثوق على ضِياعك، فوجَّه هشام منْ ينْظُر إليها. وقال حسان لخادم منْ خَدم هشام: إنْ تكلَّمت بكلمةٍ أقولُها لك حيث يسمع هشام فلك عندي ألفُ دينارٍ. قال: فعجلها فأعطاه، وقال له: تُبكِّي صبيًا من صِبْيان هشام، فإذا بكَى فقُلْ له: اسكُتْ، فكأنك ابْنَ خالد الذي غَلَّته عشرة آلاف ألف.

---

(١) المناذر: هما بلدتان بنواحي خوزستان، مناذر الصغرى، ومناذر الكبرى.

(٢) رمان: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هو جبل في بلاد طيء في غربي سلمى، أحد جبلي طيىء، وإليه انتهى فل أهل الردة يوم بزاخة... (معجم البلدان).

(٣) البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه، جمع بثوق.

ففعل الخادم، فسمعها هشام، فسأل حسان عن غَلَّةِ خالد فقال: ثلاثة عشر ألف ألف، فوقَرتْ في نفس هشام.

وقيل: بل كانت غلَّته عشرين ألف ألف، وإنه حفر بالعِراق الأنهار، ومنها نهر خالد وناجُوى وبارمانا، والمُبارك والجامع، وكُورة سابور، والصلح، وكان كثيرًا ما يقول: إنِّي مظلوم ما تحْتَ قدمي شيء إلاَّ وهو لي - يعْني أنْ عمر جعل لبجيلة ربع خمس السواد، وأشار عليه العُريان بن الهيْثَم وبِلاَل بن أبي بُرْدة بِعرض أمرِه على هشام ليأْخذَ منها ما أراد، ويضْمنَانِ له الرِّضَا، فإنهما بلغهما تغيُّرُ هشام عليه، فلم يفعل ولم يُجِبْهُم إلى شيء.

وقيل لهشام: إنَّ خالدًا قال لولده: ما أنْتَ بدون مسلمة بن هشام، وقد كان يذكر هشامًا، فيقول: ابن الحمْقَاء.

وكان خالد يخطب فيقول: زعمْتُم أني أُغْلِي أسعاركم فعلى مَنْ يُغْليها لعنةُ الله.

وكان هشام كتب إليه لا تبيعنَّ من الغَلاَّت شيئًا حتى تُباع غلاَّت أمِير المؤمنين.

وكان يقول لابْنِهِ: كيف أنْتَ إذا احتاج إليك ابْنُ أمير المؤمنين؟ فبلغ ذلك كلُّه هشامًا، فتنكَّر له، وبلغه أنه يستقلُّ ولايةَ العراق، فكتب إليه هشام: يا بْنَ أُمِّ خالد، بلغني أنكَ تقول: ما ولايةُ العراق لي بشرف. يا بْنَ اللخناء، كيف لا تكونُ ولايةُ العراق لك شرفًا، وأنت مِنْ بجيلة القليلة الذليلة! أما والله إني لأظنُّ أنَّ أوّل منْ يأْتيك صغير من قريش يشدُّ يديْك إلى عُنُقك.

ولم يزَل يَبْلُغه عنه ما يكْرهُ، فعزم على عزْله وكتم ذلك، وكتب إلى يوسف بن عمر - وهو باليمن يأْمُره أنْ يقْدُم في ثلاثين من أصحابه إلى العراقِ، فقد ولاَّهُ ذلك.

فسار يوسف إلى الكوفةِ فعرَّس[1] قريبًا منها، وقد ختن طارقٌ خليفةُ خالد بالكوفة ولده، فأهْدى إليه ألْف وصيف ووصيفة سِوى الأموال والثياب، فمرّ بيوسف بعْضُ أهلِ العراق فسألوه ما أنتم؟ وأين تريدون؟ قالوا: بعْضَ المواضع؛ فأتوا طارقًا فأخبروه خَبرهم، وأمروه بقَتْلِهم، وقالوا: إنهم خوارج.

وسار يوسف إلى دُور ثَقِيف. فقيل لهم: ما أنتم؟ فكتَمُوا حالَهم. وأمر يوسف فَجُمِع إليه منْ هناك مِن مُضر، فلما اجتمعوا دخل المسجد مع الفَجْر، وأمر المؤذِّنَ فأقام الصلاة. فصلَّى، وأرسل إلى خالد وطارق فأخذهما وإنَّ القدُور لتَغْلِي.

---

(١) عرّس: أقام.

وقيل: لما أراد هشام أن يُولِّي يوسف العراقَ كَتم ذلك، فقدم جُنْدب مولى يوسف بكتابٍ يوسف إلى هشام، فقرأه ثم قال لسالم مولى عَنْبسة - وهو على الدِّيوان -: أجِبْه عنْ لِسانِك، وأتني بالكتاب.

وكتب هشام بخطِّه كتابًا صغيرًا إلى يوسف يأمُرُه بالمسيرِ إلى العِراق.

فكتب سالم الكتاب وأتاه به، فجعل كتابه في وسطه وختمه، ثم دعا رسولَ يوسف فأمر به فضُرب ومُزِّقَتْ ثيابُه، ودفع إليه الكتاب، فسار وارْتاب بشير بن أبي ثَلَجة وكان خليفةَ سالم، وقال: هذه حيلةٌ، وقد ولي يوسف العراق. فكتب إلى عِياض - وهو نائبُ سالم بالعراق -: إنَّ أهْلك قد بعثُوا إليك بالثَّوب اليماني: فإذا أتاك فالبسْه، واحمد الله تعالى. وأعْلِم ذلك طارقًا. فأعلم عِياض طارقَ بْنَ أبي زِياد بالكتاب، ثم ندم بشير على كتابِهِ، فكتب إلى عِياض: إنَّ أهْلَك قد بدا لهم في إمساك الثوب.

فأتَى عياض بالكتاب الثاني إلى طارق، فقال طارق: الخبر في الكتاب الأول، ولكن بشيرًا ندم وخاف أنْ يظهر الخبر.

وركب طارقٌ من الكوفةِ إلى خالد وهو بواسط، فرآه داود، وكان على حجابة خالد وديوانه، فأعلم خالدًا فأذِنَ له، فلما رآه قال: ما أقْدمكَ بغير إذْنٍ؟ قال: أمْرٌ كنْتُ أخطأْت فيه، كنتُ قد كتبْتُ إلى الأميرِ أُعزِّيه بأخيه أسد، وإنما كان يجب أنْ آتيه ماشيًا، فرقَّ خالد ودمعتْ عيناه، فقال: ارجع إلى عملك. فأخبره الخبر لمّا غاب داود؛ قال: فما الرَّأْيُ؟ قال: تركبُ إلى أمير المؤمنين فتعتَذِرُ إليه مما بلغه عنك. قال: لا أفْعلُ ذلك بغير إذْن. قال: فترسلني إليه حتى آتِيك بإذْنِهِ. قال: ولا هذا. قال: فاضمن لأمير المؤمنين جَمْع ما انْكسر في هذه السنين وآتيك بعهْدِه. قال: وكم مبْلَغُه؟ قال: مائة ألف ألف. قال: ومن أين أجِدُها؟ والله ما أجِدُ عشرة آلاف ألف درهم. قال: أتَحمَّل أنا وفلان وفلان. قال: إني إذًا للئيم، أن كنْتُ أعطيتكم شيئًا وأعودُ فيه. قال طارق: إنما نَقِيك ونَقِي أنفُسنا بأموالنا، ونستأْنف الدُّنْيا وتَبْقَى النعمةُ عليك وعلينا خَيْرٌ من أن يجيء منْ يطالِبُنَا بالأموال. وهي عند أهل الكوفة فيتربصون فنُقتل ويأكلون تلك الأموال. فأبى خالد، فودَّعه طارق وبكَى، وقال: هذا آخِرُ ما نلتقي في الدنيا، ومضى إلى الكوفة، وخرج خالد إلى الحَمّة[1]، وقدم رسول يوسف

(١) الحمّة: بالفتح ثم التشديد: في بلاد العرب حمّات كثيرة، منها: حمّة أكيمة في بلاد كلاب، وحمّة الثوير لبني كلاب أيضًا، وحمة البرقة، وحمة خنزر، وحمة المنتضى، وحمة الهودرى، هذه الست في بلاد كلاب، فأما حمة المنتضى فهي حمة فاردة ليس بفرع جبل. . . (معجم البلدان لياقوت).

عليه اليمن، فقال: أَمِيرُ المؤمنين ساخط عليك، وقد ضربني، ولم يكتب جواب كتابك، وهذا كتاب سالم صاحب الديوان، فقرأه، فلما انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطِّه بولاية العِراقِ، ويأمره أن يأْخُذَ ابْنَ النَّصْرانية ـ يعني خالدًا وعُمّاله ـ فيعذِّبهم، فأخذه ليلاً، وسار مِنْ يومه، واستخلف على اليمنِ ابْنَه الصَّلْت، فقدم الكوفةَ في جُمادى الآخرة سنة عشرين ومائة، فنزل النَّجف، وأرسل مولاه كَيْسان، وقال: انطلق فأْتني بطارِق، فإنْ قَبل فاحْمِلْه على إكَاف[1]، وإن لم يقبلْ فأْت به سحْبًا، فأتى كَيْسان الحِيْرة فأخذ معه عبد المسيح سيِّد أهلها إلى طارق، فقال له: إنَّ يوسف قد قدم على العِراق وهو يستَدْعيك. فقال له طارق: إنْ أراد الأَمِير المال أعطَيْتُه ما شاء.

وأقْبلُوا به إلى يوسف بالحيرة، فضربه ضَرْبًا مُبرِّحًا يقال خمسمائة سوْط. ودخل الكوفةَ، وأرسل إلى خالد بالحمَّة. فأخذه وحبسه وصالحه عنه أبان بن الوليد على سبعة آلاف ألف، فقيل ليوسف: لو لم تفعلْ لأَخَذْتَ منه مائة ألف ألف، فندم، وقال: قد رهنْتُ لساني معه، ولا أرجعُ.

وأخبر أصحابُ خالد خالدًا، فقال: قد أخطأْتم ولا آمن أن يأْخذها ثم يعود. ارجعوا، فرجعوا، فأخْبرُوه أن خالدًا لم يرْضَ. فقال: قد رجعتم؟ قالوا: نعم. قال: والله لا أرْضَى بمثلها ولا مِثْلَيْها، فأخذ أكثرَ من ذلك.

وقيل: أخذ مائة ألف ألف، وحبس خالد بْنَ عبد الله بالحيرة ثمانيةَ عشر شهرًا مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد.

وكتب يوسف إلى هشام يستأْذِنُه في تَعْذِيبه، فأذِنَ له مرَّة واحدة، فعذَّبه ثم رده إلى حبْسه.

وقيل: بل عذَّبه عذابًا كثيرًا، وأمر هشامٌ بإطلاقه في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة، فأطلقه فأتى القَرْيَةَ التي بإزاء الرُّصافَة، فأقام بها إلى صفر سنة اثنتين وعشرين.

وخرج زيد بن علي بن الحُسيْن رضي الله عنهم على ما نذكره إن شاء الله.

فكتب يوسف إلى هشام: إنَّ بني هاشم كانوا قد هلَكُوا جُوعًا، فكانت هِمَّةُ أحدِهم قوتَ عياله، فلما ولّي خالدٌ العراقَ أعطاهم الأموال، فطمحت أنفُسهُم إلى الخلافة، وما خرج زَيْدٌ إلاَّ عنْ رأْيِ خالد.

---

(١) إكاف الحمار: برذعته.

فقال هشام: كذب يوسف، وضرب رسولَه، وقال: لَسْنَا نَتَّهِم خالدًا في طاعةٍ. وسمع خالد، فسار حتى نزل دِمشق، ثم كان من أمره ومقْتَله ما نذكره إن شاء الله في سنة ست وعشرين ومائة في أيام الوليد، وكانت ولايةُ خالد العراقَ في شوال سنة خمس ومائة، وعُزِل في جُمادى الآخرة سنة عشرين.

قال: ولما وُلّي يوسف العراقَ كان الإسلام ذليلاً والحكْمُ إلى أهْلِ الذمَّةِ، فقال يحيى بن نَوْفل فيه: [من الطويل]

أتانا وأهْلُ الشِّرْكِ أهلُ زَكاتِنَا ... وحكامُنَا فيما نُسِرُّ ونَجْهرُ

فلما أتانا يوسف الخَيْر أشْرقَتْ ... له الأرْضُ حتَّى كل وادٍ مُنَوّرُ

وحتى رأينا العذْل في الناسِ ظاهرًا ... وما كان مِنْ قبل العُقَيْليّ يظْهرُ

وحجّ بالناس في هذه السنةِ محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

وقيل: حجّ بهم سُلَيْمان بن هشام بن عبْد الملك، وقيل: أخوه يزيد بن هاشم، والله أعلم.

سنة إحدى وعشرين ومائة:

في هذه السنة كان ظهور زَيْد بن علي بن الحُسين بن علي رضي الله عنهم على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار مَنْ نهض في طلَبِ الخلافة من آل أبي طالب، فقُتل دُونَها وهو في السِّفْر الثالث والعشرين من كتابنا هذا.

وفيها فرغ الوليد بن بكير عامل الموصل مِنْ حفْر النهْرِ الذي أدخله البلد، وكان مبلغ النفقة عليه ثمانية آلاف ألف درهم، وجعل عليه ثمانين حجرًا تطحن. ووقف هشام هذه الأرْحاءَ على عملِ النهر.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

سنة اثنتين وعشرين ومائة:

في هذه السنة كان مقتل زَيْد بن علي رضي الله عنه على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى.

ذكر قتل البطّال

في هذه السنة قُتِل البطَّال، وهو أبو الحسين عبْد الله الأنطاكي، في جماعة من المسلمين. وقيل: كان مقْتَلُه في سنة ثلاث وعشرين ومائة، وكان كثير الغَزَاة إلى الروم والإغارة على بلادهم، وله عندهم ذِكْرٌ عظيم، وله حكاياتٌ في غزواته يطولُ الشَّرْح بسرْدِها.

حُكي أنه دخل بلادَ الروم في بعض غاراته هو وأصحابُه، فدخل قريةً لهم ليلاً وامرأةٌ تقول لصغِير يبْكي: تَسْكُت وإلاَّ سلمتك للبطَّال، ثم رفعتْه بيدها، وقالت: يا بطَّالُ خُذْه، فتناوله مِنْ يدِها. وقد وضع الناس له سيرة.

وحجّ بالناس محمد بن هشام المخزومي.

سنة ثلاث وعشرين ومائة:

ذكر صلح نصر بن سيّار مع الصغد

في هذه السنة صالح نَصْر بن سيّار الصُغْد، وكان خاقان لما قُتِل تفرَّقت التُرْك في غارةِ بعْضِها على بعض، فطمع أهْلُ الصُغْد في الرجعة إليها، وانحاز قَوْمٌ منهم إلى الشاش، فراسلهم نَصْر بن سيَّار، ودعاهم إلى الرجوع إلى بلادهم، وأعطاهم ما أرادُوا، فاشترطوا شروطًا منها ألاَّ يعاقب من كان مسلمًا وارتدَّ عن الإسلام، ولا يعدي عليهم في دَيْن لأحد من الناس، ولا يُؤخذ أسْرى المسلمين مِنْ أيديهم إلاَّ بقضيَّةِ قاضٍ وشهادةِ عدول.

فعاب الناسُ ذلك على نَصْر، فقال: لو عاينتُم شَوْكَتَهم في المسلمين مثل ما عاينْتُ ما أنكرتم ذلك.

وأرسل رسولاً إلى هشام في ذلك، فأجابه إليه.

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن هشام بن عبد الملك.

سنة أربع وعشرين ومائة:

في هذه السنة وما قبلها كان من خَبَر شِيْعة بني العباس ما نذكُرُه إنشاء الله في أخبارهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل.

سنة خمس وعشرين ومائة:

ذكر وفاة هشام بن عبد الملك ونبذة من أخباره

كانت وفاته بالرُّصافة لستٍّ خَلَوْنَ مِنْ شهر ربيع الآخر منها، وصلَّى عليه ابْنُه مسلم وكان عُمْرُهُ ستًّا وخمسين سنة. وقيل أقلّ من ذلك إلى اثنتين وخمسين. ومدةُ

خلافتِهِ تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحد عشر يومًا، وكان أحْول أبْيض سمِينًا مُنْقَلِب العينين ربْعة يخضب بالسَّواد، وكان حسنَ السياسة يقِظًا يُباشِرُ الأُمور بنفسه، وكان له من الستور والكُسْوة ما لم يكن لمن قبله.

وذكر صاحب العقد[١]: أنه لما حجّ حُمِلت ثياب لباسه على ستمائة جمل، وكان جمَّاعًا للأموال شديد البخل كأبيه.

قال عَقَّال بن شَبَّة: دخلْتُ على هشام وعليه قَباءٌ أخضر، فجعلْتُ أنْظُر إليه، فقال: ما لك؟ فقلت: رأيتُ عليك قبل أنْ تَلي الخلافة قَباء مثل هذا. فتأمَّلْتُه هل هو هو أم غيره؟ فقال: هو والله هو. وأما ما ترون مِنْ جمع المالِ فهو لكم.

قيل: وكتب له بعْضُ عُمَّاله: قد بعثْتُ إلى أمير المؤمنين بسلة دُراقِن[٢]. فكتب إليه: قد وصل وأعجب أمير المؤمنين فزِدْ منه واستوثق من الوعاء.

وكتب إليه عامل: قد بعثت بكَمْأةٍ[٣]. فأجابه: قد وصلت الكَمْأَةُ وهي أربعون، وقد تَغَيَّر بعْضُها من حَشْوِها، فإذا بعثْتَ شيئًا فأجِد الحشْو في الظَّرف التي تجعلها فيه بالرَّمْل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعْضُه بعضًا.

وقيل له: أتطمعُ في الخِلافَة وأنْتَ بَخِيل جَبَان؟ قال: ولِمَ لا أطمعُ، وأنا عفيف حليم؟

قالوا: وخلَّف من العَيْن أربعةً وأربعين ألف ألف دينار، وما لاَ يُحْصى من الورِق.

ولما مات طلبوا له قُمْقُمًا[٤] من بعْض الخُزَّان يسخَّنُ له الماء فيه، فمنعه عياض كاتب الوليد، فاستعاروا له قُمْقُمًا من بعض الخزان يسخن له فيه.

وفي أيامه بنى سعِيدٌ أخوه قُبَّةَ بيت المقْدِس.

---

(١) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي؛ كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وصنف كتابه «العقد» وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء، وله ديوان شعر جيد... (وفيات الأعيان ١: ١١٠).

(٢) الدراقن: المشمش والخوخ... (القاموس).

(٣) الكمأة: جمع الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية، وهي أرضية تنتفخ حاملات أبواغها: فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

(٤) القمقم: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ويكون ضيق الرأس.

أولاده: كان له عشرة أولاد من الذكور والإناث، منهم: معاوية، وسليمان.

نقش خَاتَمِه: الحكم للحكم الحكيم.

كُتَّابه: سعِيد بن الوليد، والأبرش الكَلْبِي، ومحمد بن عبْد الله بن حارثة.

قاضيه: محمد بن صفْوان الجُمحي.

حاجبه: غالب مولاه.

الأُمراء بمصر: محمد بن عبد الملك أخوه، ثم استعفاه فولاَّها بعْده أنس بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن العاص، ثم استعفى فولاها حفْص بن الوليد الحضرمي، ثم صرفه وولاَّها عبْد الملك بن رفاعة، ثم مات فولاَّها أخاه الوليد بن رفاعة، ثم مات فولاَّها عبد الرحمٰن بن خالد التميمي، ثم صرفه وولاَّها حنظلة بن صفوان، ثم سيَّرهُ إلى إفريقية، وولى حَفْصًا.

وكان على قَضَائها من قِبَل هشام يحيى بن ميمون الحَضْرميّ إلى أن وليها الوليد بن رفاعة فصرفه، وولاَّها أبا نَضْلَة الخيار بن خالد، ثم مات فولّى سعيد بن ربيعة الصّدفي، واستعفى، فولّى تَوْبة بن يمين الحضْرمي، ثم مات فولاًّها جَبْر بن نُعيم الحضرمي.

ذكر بيعة الوليد بن يزيد

هو أبو العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأُمه أُمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو الحادي عشر من ملوك بني أُمية.

بويع له لستٍّ مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة.

قال: وكان يزيد قد جعل ولايةَ العهْدِ لأخيه هشام مِنْ بعده، ثم مِنْ بعده للوليد، وكان عُمْر الوليد إحْدى عشَرة سنة، ثم عاش يزيدُ حتى بلغ الوليدُ خمس عشرة سنة، فكان يزيد يقول: الله بيني وبين منْ جعل هشامًا بيْني وبينك.

فلما ولّي هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون واشتهر بشُرْب الشراب، وكان يؤدِّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى يحْمِلُه على ذلك، واتَّخَذَ له نُدماء، فأراد هِشام أن يقْطَعهُمْ عنه، فولاَّه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كِلابًا في صناديق، وعمل قُبَّةً على قَدْرِ الكعبة ليضَعها على الكَعْبةِ، وحمل معه الخمر، وأراد أن ينصب القُبَّةَ على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوَّفَه أصحابهُ، وقالوا: لا نأْمنُ

الناس عليك وعلينا معك، فلم يفعل. وظهر للناس منه تهاونٌ بالدِّيْن واستخفافٌ، فطمع هشام في البيعة لابنه مسلمة، وخَلع الوليد، وأراد الوليد على ذلك فأبى، فقال له: اجعلْه بعْدك، فأبى؛ فتنكَّر له هشام، وعمل سِرًّا في البيْعةِ لابْنِهِ مسلمة، فأجابه قوم، فكان ممن أجابه خالاه: محمد، وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل، وبنو القَعْقَاع بن خُليد العبْسي وغيرهم من خاصَّتِهِ. وأفرط الولِيدُ في الشراب، وطلبِ اللذات؛ فقال له هشام: يا وليدُ، والله أدرِي أعلى الإسْلام أنْتَ أم لا؟ ما تدع شيئًا من المُنْكَر إلاَّ أتَيْتَه غير متحاش؛ فكتب إليه الوليد: [من السّريع]

يا أيُّها السائِلُ عن دِيننا ... نحن على دِيْن أبِي شاكر
نَشْرَبُها صِرْفًا ومَمْزُوجةً ... بالسُّخْنِ أحيانًا وبالْفاتِر

فغضب هشامٌ على ابنه مسلمة، وكان يُكْنَى أبا شاكر، وقال له: يُعيرُني الوليد بك، وأنا أرشِّحك للخلافةِ. فألزَمه الأدب، وأحضره الجماعةَ، وولاَّه الموسم سنة تسع عشرة ومائة، فأظْهر النُسك واللِّين، وقَسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة:

يا أيُّها السائلُ عن دِيننا ... نحن على دِيْن أبي شَاكرِ
الواهب الجُرْدَ بأرْسانِها ... ليس بزِنْدِيقٍ ولا كافرِ(١)

يُعرض بالوليد.

وكان هشام ينْتَقص الوليد ويَعِيبه، فخرج الوليد ومعه ناسٌ مِنْ خاصَّته ومواليه، فنزل بالأزرق(٢) على ماءٍ يقال له الأغْدف، وخلف كاتبه عِياض بن مسلم عند هشام ليُكاتِبه بما عندهم.

وقطع هشام عن الوليد ما كان يجْرِي عليه، وكاتَبه فيه الوليدُ فلم يُجِبْه إلى ردِّهِ، وأمره بإخراج عبد الصمد مِنْ عنده، فأخرجه وسأله أنْ يأْذَنَ لابْن سهيل في الخروج إليه، فضرب هشامٌ ابنَ سهيل وسيَّره إليه، وأخذ عياضَ بن مسلم كاتب الوليد فضربه وحبسه. فقال الوليد: منْ يثقُ بالناس، ومن يصنع المعروف؟ هذا الأحول المشئوم أبي، قدّمه على أهْل بيته فصيَّره وليَّ عهْده، ثم يصنع بي ما ترون، لا يعْلَمُ أنَّ لي في أحدٍ هوًى إلا عبث به.

---

(١) الجرد: جمع أجرد، وهو من الخيل والدواب، القصير الشعر وذلك من علامات العتق والكرم. . . (اللسان مادة ج ر د).

(٢) الأزرق: وادي الأزرق بالحجاز؛ والأزرق: ماء في طريق حاج الشام دون تيماء. . . (معجم البلدان).

وكتب إلى هشام في ذلك يُعاتبه، ويسأله أن يردَّ عليه كاتبه. فلم يردّه، فكتب إليه الوليد: [من الطويل]

رأيتُك تَبْنِي دائمًا في قَطِيعتي ولو كنتَ ذا حزْمٍ لهدَّمْتَ ما تَبْني
تُثِير علَى الباقين مجْنَى ضَغِينةٍ فويلٌ لهم إن متّ مِنْ شَرِّ ما تجْنِي
كأني بهم والليتُ أفْضَلُ قولهمْ ألا ليْتَنَا والليت إذ ذاك لا يُغْنِي
كفَرْت يدًا مِنْ مُنْعِمٍ لو شكَرْتَها جزاكَ بها الرحمٰن ذُو الفَضْل والمنِّ

قال: ولم يزل الوليدُ مُقيمًا بتلك البريَّةِ حتى مات هشام، فلما كان صبيحة اليوم الذي جاءتْهُ فيه الخلافَةُ قال لأبي الزُّبيْر المنذر بن أبي عمْرو: ما أتَتْ عليّ ليلة منذ عقَلْت عقْلي أطول من هذه الليلة، عرضَتْ لي أُمورٌ، وحدَّثْتُ نفسي فيها بأُمورٍ من أمْرِ هذا الرجل - يعْني هشامًا - قد أولع بي فاركب بنا نتنفَّس، فركبا فسارا مِيْلَين، ووقف على كَثِيبٍ[١]، فنظر إلى رَهْجٍ[٢]، فقال: هؤلاء رُسل هشام، نَسْألُ الله من خيرهم؛ إذْ بدا رجُلان على البرِيد: أحدهم مولًى لأبي محمد السُّفياني، فلما قَرُبا نَزلاً يَعْدُوان حتى دنَوا منه، فسلَّما عليه بالخلافة، فوجم، ثم قال: أمات هشام؟ قالا: نعم والكتاب معنَا من سالم بن عبْد الرحمٰن صاحب ديوان الرسائل. فقرأه؛ وسأل مولى أبي محمد السُّفياني عن كاتبه عِياض، فقال: لم يزل محبوسًا حتى نزل بهشام الموت، فأرسل إلى الخُزَّان فقال: احتفظوا بما في أيديكم، فأفاق هشام فطلب شيئًا فمنعوه، فقال: إنا لله، كنا خُزَّانًا للوليد، ومات من ساعته.

وخرج عِياض من السجن، فختم أبوابَ الخزائن، وأنزل هشامًا عن فُرشِه وما وجدُوا له قُمْقُمًا يسخَّنُ فيه الماء حتى استعارُوه، ولا وجدوا له كَفَنًا من الخزائن، فكفَّنه غالب مولاه، فقال الوليد: [من مجزوء الخفيف]

هلكَ الأحْولُ المشْؤُ م فقد أرسل المطَر
ومَلَكْنا مِن بعْدِ ذا ك، فقد أوْرق الشجر
فاشْكُرِ الله إنَّهُ زائدٌ كلَّ منْ شَكَر

وقيل: إنَّ هذا الشعر لغير الوليد.

قال: ولما سمع الوليد بموْتِهِ كتب إلى العباس بن عبْد الملك بن مرْوان أنْ يأْتي الرُّصافة فيُحْصى ما فيها من أموال هشام وولده وعماله وحشَمه إلاَّ مسلمة بن هشام

(١) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب. (٢) الرهج: الغبار.

فإنه كان يكلم أباه في الرفْقِ بالوليد، فقدم العباس الرُّصافة ففعل ذلك وكتب به إلى الوليد، فقال الوليد: [من السريع]

لَيْتَ هِشَامًا كَانَ حَيًّا يَرى ... مِحْلَبَهُ الأوْفَرَ قَدْ أُتْرِعَا[1]
لَيْتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرى ... مِكْيَالَهُ الأوفَرَ قَدْ طُبِّعَا
كِلْنَاهُ بِالصَّاعِ الذي كَالَهُ ... ومَا ظَلَمْنَاهُ بِهِ إصْبَعَا
ومَا أَتَيْنَا ذاكَ عَنْ بِدْعَةٍ ... أَحَلَّهُ الفُرْقَانُ لِي أَجْمَعَا[2]

وضيّق الوليدُ على أهْلِ هشام وأصحابه، واستعمل العُمّال، وكتب إلى الآفاق بأخْذِ البيْعةِ، فجاءته بيْعتُهم.

قال: ولما ولي الوليد أجرى على زَمْنَى[3] أهل الشام وعُمْيانهم وكَساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وأخرج لِعيالاتِ الناس الكُسْوة والطِّيب، وزادهم؛ وزاد الناس في العطاء عشرات؛ ثم زاد أهْل الشام بعد العشرات عشرةً عشرةً، وزاد الوفود، ولم يقُلْ في شيء يُسأله: لا.

وفي هذه السنة، عقد الوليد البيعةَ لابنيه: الحكَم، وعثمان مِنْ بعده، وكتب بذلك إلى الأمصار، وجعل الحكَم مقدمًا والآخر من بعده.

وفيها استعمل الوليدُ خالد بْنَ يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي على المدينة ومكةَ والطائف، ودفع إليه محمدًا وإبراهيم ابني هشام بن إسماعل المخزومي مُوثَقَيْن في عباءتَيْنِ؛ فقدم بهما المدينة في شعبان، فأقامهما للناس، ثم حُمِلا إلى الشام، فأُحضرا عند الوليد، فأمر بجلْدهما، فقال محمد: نسألُكَ القرابةَ. قال: وأيُّ قَرابة بيننا! قال: فقد نهى رسولُ الله ﷺ أنْ يُضْرب بسوط إلاَّ في حد. قال: ففي حدّ أضربك وقَوَد، أنت أوّل منْ فعَل بالعرْجي وهو ابْنُ عمي، وابن أمير المؤمنين عثمان - وكان محمد قد أخذه وقَيَّده وأقامه للناس وجلَده، وسجنه إلى أنْ مات بعد تسع سنين لهجاء العَرْجي إياه، ثم أمر به الوليد فجُلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوْثقهما، وبعث بهما إلى يوسف بن عمر، وهو على العراق فعذَّبهُما حتى ماتا.

وفيها عزل الوليد سعْد بن إبراهيم عن قضاء المدينة، وولّى القضاء يَحْيى بن سعيد الأنصاري.

---

(١) المحلب: الإناء يحلب فيه. (٢) الفرقان: القرآن.
(٣) الزمن: الذي ضعف بكبر سن أو مطاولة علة. جمع زمنى.

وفيها خرجت الرومُ إلى زِبَطْرة[١] وهو حِصْنٌ قديم كان افتتحه حبيب بن مسلمة الفِهْرِي، فأخربه الروم الآن فبُني بناءً غيْر محكم، فعاد الروم وأخربوه أيام مرْوان بن محمد ثم بناه الرشيد وشحنه بالرجال.

فلما كانت خلافةُ المأمون طَرقه الروم فشعَّثُوه، فأمر المأمون بمرمَّته وتحصينه، ثم قصده الرومُ بعد ذلك أيام المعتصم.

وفيها أغزى الوليد أخاه الغَمْر بن يزيد، وأمّر على جيْش البحْرِ الأسود بن بِلاَل المحاربي، وسيَّره إلى قُبْرس ليخيّر أهْلَها بين المسير إلى الشام أو إلى الروم، فاختارت طائفةٌ جوار المسلمين، فسيَّرهم إلى الشام، واختار آخرون الروم فسيَّرهُم إليهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة يوسف بن محمد بن يوسف. وغَزَا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفةَ.

سنة ست وعشرين ومائة:

ذكر مقتل خالد بن عبد الله القسري وشيء من أخباره

قد ذكرنا من أخباره في سنة عشرين ومائة ما تقدم، وذكرنا أنه لما أُفرج عنه سار من الحِيرة إلى دِمشْق.

قال: ولما قدمها كان العاملُ عليها يومئذ كلثوم بْنَ عِياض القُشَيْري، وكان يُبْغِضُ خالدًا، واتفق أنه ظهر في دُور دمشق حريق في كل ليلة، يُلقيه رجُلٌ من أهل العراق يُقَال له: أبو العمرَّس فإذا وقع الحريق يسرقون.

وكان أولاد خالد وإخوته بالساحل لحدثٍ كان من الروم، فكتب كلثوم إلى هشام: إنَّ موالي خالد يريدونَ الوُثُوب على بيْتِ المال، وإنهم يحرقون البلد كلَّ ليلة.

فكتب هشام إليه يأْمرُه بحبْس آل خالد: الصغير منهم والكبير ومواليهم، فأنفذ

---

(١) زبطرة: بكسر الزاي، وفتح ثانيه، وسكون الطاء المهملة، وراء مهملة: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلد الروم... (معجم البلدان لياقوت).

منْ أحضر أولاده وإخوتَه من الساحل في الجوامع[١]، ومعهم مواليهم، وحبس بنات خالد والنساء والصبيان، ثم ظهر على أبي العمرَّس ومنْ كان معه.

فكتب الوليدُ بن عبد الرحمٰن عاملُ الخراج إلى هشام بأخْذِ أبي العمرَّس وأصحابِه بأسمائهم وقبائلهم، ولم يذكر فيهم أحدًا من موالي خالد.

فكتب هشام إلى كلثوم يسبُّه ويأْمُرُه بإطلاق آل خالد، فأطلقهم وترك الموالي رجاء أن يشفع فيهم خالد إذا قدم من الصائفة.

ثم قدم خالد فنزل منْزِله بدمشق، وجاءه الناسُ للسلام عليه، فقال: خَرجْت مُغَازِيًا سميعًا مطيعًا، فخلفت في عقِبي، وأُخِذَ حُرمي وأهل بيتي فحُبسوا مع أهل الجرائم كما يُفْعل بالمشركين، فما منع عصابةً منكم أن تقول: علام حُبِس حرم هذا السامع المطيع؟ أخِفْتُم أن تُقتلوا جميعًا؟ أخافَكم الله.

ثم قال: ما لي ولهشام ليكُفَّنَّ عني أو لأدْعُونَّ إلى عِراقِي الهوى، شامي الدَّار، حجازي الأصل - يعني محمد بن علي بن عبْد الله بن عباس. ولقد أذِنْتُ لكم أنْ تُبلِّغوا هِشَامًا.

فلما بلغه قال: قد خَرِف أبو الهيثم، واسترمَّ خالدٌ مدةَ أيام وهو بدِمشْق ويوسف بن عُمر يطلُبُ ابْنَه يزيد بْنَ خالد، فلم يظفر به، وبذل فيه لهشام خمسين ألف ألف.

فلما هلك هشام وقام الوليدُ بعده كتب إلى خالِدٍ: ما حال الخمسين ألف ألف التي تعلم؟ واستقدمه، فقدم عليه حتى وقف بباب سُرادق[٢] الوليد، فأرسل إليه الوليدُ يقول: أين ابْنُك يزيد؟ فقال: كان قد هرب من هشام، وكنا نراه عند أمير المؤمنين، فلما لم نَره ظنناه ببلاد قومه من الشُّراة. فرجع الرسولُ، فقال: لا، ولكنك خلَّفْتَه طلبًا للفتْنَة. فقال: قد علم أميرُ المؤمنين أنَّا أهل بيت طاعة. فرجع الرسولُ فقال: يقول أمِيرُ المؤمنين: لتأْتينَّ به أو لأُزْهِقَنَّ نَفْسك. فرفع خالدٌ صوْتَه، وقال: قل له: هذا والله أردْت، لو كان تحت قدمي ما رفَعْتُها عنه.

فأمر الوليد بضَرْبِهِ فضُرب، فلم يتكلم، فحبسه حتى قدم يوسف بن عُمر مِنَ العراق بالأموال، فاشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف، فأرسل إليه الوليدُ: إنَّ يوسف قد اشتراك بخمسين ألف ألف، فإنْ كنْتَ تضمنُها وإلاَّ دفَعْتُك إليه.

---

(١) الجوامع: الأغلال.

(٢) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب؛ أو الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما.

فقال خالد: ما عهدْتُ العرب تُباع، والله لو سألني أنْ أضمنَ عُودًا ما ضمنتُه، فدفعه إلى يوسف، فنزع ثيابه، وحمله على بعِيرٍ بغير وِطَاءٍ، وعذَّبه عذَابًا شديدًا، وهو لا يكلِّمه كلمةً واحدةً، ثم حمله إلى الكوفة فعذَّبه، ووضع المُضَرّسَةَ على صدْره فقتله، ودفنه من الليل بالحيرة في العباءة التي كان فيها، وذلك في المحرم سنة ست وعشرين ومائة.

وقيل: بل أمر يوسف فوُضع على رجْلَيْه عُود، وقام عليه الرِّجالُ حتى تكسَّرت قدماه، وما تكلَّم ولا عبس، ثم على ساقيه وفخذيه، ثم على صدره حتى مات.

وكانت أُمُّ خالد نَصْرانيةً رُوميةً اسْتَلَبها أبوه، فأولدها خالِدًا وأسدًا، ولم تُسْلِم، وبَنَى لها خالد بِيعة فذمَّه الناسُ على ذلك، فقال الفرزدق: [من الطويل]

ألا قطع الرحمٰن ظَهْر مَطِيَّةٍ ... أتتنا تَهَادى من دِمشْقَ بخَالدِ
فكيف يؤمُّ الناس منْ كانت أمُّه ... تَدِين بأنَّ الله ليس بواحِدِ
بنى بِيْعةً فيها النصارَى لأُمِّه ... ويهدم منْ كُفْرٍ منار المساجدِ

وكان خالد قد أمر بهدْمه منَارِ المساجد؛ لأنه بلغه أنَّ شاعرًا قال: [من الخفيف]

ليتني في المؤذِّنِين حياتي ... إنهم يُبْصِرُون منْ في السطوح
ويُشيرون أو تُشير إليهم ... بالهوى كلُّ ذات دلٍّ مليح

فلما بلغ خالدًا هذا الشِّعر أمر بهدْمِها.

ولما بلغه أنَّ الناس يذمُّونَه لبنائه البيعة لأُمِّه قام يَعْتَذِرُ إليهم، فقال: لعن اللّهُ دِينَهم إن كان شرًّا من دِينكم.

وحُكي عنه أنه كان يقول: إنَّ خليفةَ الرجلِ في أهله أفضلُ مِنْ رسولِهِ إليهم - يعني أنَّ هشامًا أفْضَلُ من رسول الله ﷺ، نَبْرأُ إلى الله من ذلك.

وكان خالدٌ يصِلُ الهاشميين في أيام إمارته، ويبرُّهم، إلا أنه كان يبالغ في سبِّ علي رضي الله عنه، ويلْعنُه، فقيل: إنه كان يفْعل ذلك نَفْيًا للتهمة، وتَقَرُّبًا إلى بني أُمية، فأتاه مرةً محمد بن عبْد الله بن عمْرو بن عثمان بن عفَّان يستَمِيحُه، فلم ير مِنْه ما يُحِب، فقال: أمَّا الصِّلَة فللهاشميين، وليس لنا منه إلا أنْ يلعن عليًّا، فبلغ خالدًا كلامه، فقال: إنْ أحبَّ نِلْنَا عثمان بشيء؛ يريد بشيء من اللَّعْنِ أو السب، والله تعالى أعلم.

ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وشيء من أخباره

كان مقْتَلُه يوم الخميس الثامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

وكان سببُ ذلك ما قدَّمْنَاه من اشتهاره باللَّهْو واللَّعِب والخَلاَعة، فلما ولي الخلافةَ ما زاد إلاَّ تَماديًا وإصرارًا، واشتهر بمُنَادمةِ القِيان وشُرْب النبيذ، فثَقُل ذلك على رعيَّتِهِ وجُنْدِهِ، وكرهوه؛ فكان من أعظم ما جنَى على نفسه إفسادُ بني عمَّيْه: هشام، والوليد؛ فإنه أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته وغَرَّبه إلى عمَّان من أرض الشام، فحبسه بها، فلم يزَل محبوسًا حتى قُتل الوليد.

وأَخَذَ جاريةً كانت لآلِ الوليد، فكلَّمه عثمانُ بن الوليد في ردِّها، فقال: لا أردُّها. فقال: إذَنْ تكثر الصَّواهِلُ[1] حوْل عسكرك، وحبس الأفقم يزيد بن هشام، وفرَّق بين روح بن الوليد وبين أماته، وحبس عِدَّةً من ولد الوليد، فرماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر وغِشْيان أُمهات أولادِ أبيه، وقالوا: قد اتخذَ مائة جامِعةٍ[2] لبني أُمية، وكان أشد الناس عليه يزيدُ بن الوليد، وكان الناس إلى قوله أمْيل؛ لأنه كان يُظْهِرُ النُسْك ويتواضع.

وكان سعيد بن بيْهس بن صُهيب قد نهاه عن البيْعةِ لابْنَيْه الحكم وعثمان لصِغَرهما، فحبسه حتى مات، وفعل بخالد القَسْرِي ما ذكرناه ففسدت عليه اليمانيةُ وقُضَاعة، وهم أكْثَر جُنْدِ الشام؛ وكان حُريْث وشَبِيب بن أبي مالك الغَسَّاني، ومنصور بن جُمهور الكَلْبي؛ وابن عمه حِبال بن عمْرو، ويعقوب بن عبد الرحمٰن، وحُميد بن نَصْر اللَّخْمِي، والأصبغ بن ذُؤَالة والطُّفَيْل بن حارثة، والسري بن زياد، أتوا خالد بن عبْد الله القَسْري، فدعوْه إلى أمْرِهم، فلم يُجِبْهُم، وأراد الوليدُ الحجَّ، فخاف خالد أنْ يقْتلُوه، فنهاه عن الحج، فقال: ولِم؟ فلم يخبره، فحبسه، وطالبه بأموالِ العراقِ ثم سلَّمه إلى يوسف بن عمر كما تقدم، فقال بعضُ أهل اليمن شِعْرًا على لسان الوليد يحرِّضُ عليه اليمانية.

وقيل: بل قاله الوليد يوبخ اليمن على تَرْك نَصْر خالدٍ: [من الطويل]

أَلَـم تَـهْـتَـج فـتَـذّكـرَ الـوِصـالاَ   وحـبْـلاً كـان مُـتَّـصِـلاً فَـزَالاَ

---

(١) الصواهل: واحدها الصاهل، وهي الفرس.

(٢) الجامعة: الغل.

بلى فالدَّمْعُ منك إلى انسجامٍ ... كماء المُزْنِ ينسجِلُ انْسِجالا[١]
فدعْ عنكَ ادِّكارك آل سُعْدى ... فنحن الأكثرون حصى ومالا[٢]
ونحن المالِكُونَ الناسَ قَسْرًا ... نسومُهُمُ المَذَلَّةَ والنَّكالاَ
وطِئْنَا الأشْعرِيّ بعزِّ قَيْسٍ ... فيا لك وطأةً لن تُسْتَقالاَ
وهذا خالِدٌ فينا أسيرًا ... ألاَ منعوهُ إنْ كانوا رِجالا
عظيمُهُم وسيِّدُهُمْ قديمًا ... جعلنا المُخْزِياتِ له ظِلاَلا
فلو كانت قبائلَ ذاتَ عزٍّ ... لما ذهبتْ صنائِعُه ضَلاَلا
ولا تركوه مسلوبًا أسِيرًا ... يُعالج مِنْ سلاَسِلنا الثِّقَالا
وكِنْدةُ والسَّكُونُ فما استقاموا ... ولا برحتْ خُيولُهم الرِّحالاَ
بها سُمْنَا البريَّةَ كلَّ خَسْفٍ ... وهدَّمْنَا السهولةَ والجبالا
ولكنَّ الوقائع ضَعْضَعَتْهُمْ ... وجذَّتْهُمْ وردَّتْهُم شِلالا[٣]
فما زالوا لنا أبدًا عبيدًا ... نسومُهُمُ المذَلَّة والسفَالاَ
فأصبحتُ الغداةَ عليَّ تاجٌ ... لملك الناسِ لا يبغي انتقالا

فعظم ذلك عليهم، وسعَوْا في قَتْلِه، وازدادُوا حنَقًا، وقال حمْزَةُ[٤] بن بِيض في الوليد: [من الطويل]

وصلْتَ سماءَ الضُّرِّ بالضُّرِّ بعْدما ... زَعمْتَ سماءُ الذلِّ عنا ستُقْلعُ
فليت هشامًا كان حيًّا يسُوسُنا ... وكنّا كما كُنّا نرجِّي ونَطْمعُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

يا ولِيد الخَنَا تركْتَ الطَّرِيقَا ... واضحًا وارتكبت فَجًّا عمِيقا[٥]
وتماديْتَ واعتديتَ وأسرفْـ ... ـتَ وأغْويْتَ وانبعثْتَ فُسوقًا

(١) المزن: السحاب يحمل الماء. ويقال: انسجل الماء والدمع: انصب.
(٢) المراد بقوله: حصى، المناقب، لأن العرب كانت تجتمع في نواديها، فتعد مفاخرها ومناقبها، فكلما ذكر الرجل منقبة طرح حصاة، فمن كان أكثر حصى كان أكثر مناقب.
(٣) جذه: قطعه، أو كسره.
(٤) حمزة بن بيض الحنفي: شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية خليع ماجن، وكان منقطعًا إلى المهلب بن أبي صفرة وولده، ثم إلى أبان بن الوليد، وبلال بن أبي بردة، واكتسب بشعره مالاً عظيمًا بلغ ألف ألف درهم. ولم يدرك الدولة العباسية... (الأغاني ١٥: ١٤ ـ ٢٥).
(٥) الفجّ: الطريق الواسع البعيد.

أبـدًا هـات ثـم هـات وهـاتـي ثـم هـاتـي حـتـى تـخـرَّ صـعِـيـقـا
أنـت سـكـرانُ لا تُـفِـيـقُ فـمـا تـر تَـقُ فَـتْـقًـا إلاَّ فـتـقـت فُـتُـوقـا[١]

فأتت اليمانيةُ يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادُوه على البيْعةِ، فاستشار عمر بن زيد الحكَمِي، فقال له: لا يُبايِعُكَ الناسُ على هذا، وشاوِرْ أخاك العباس؛ فإنْ بايعك لم يخالِفْكَ أحدٌ، وإن أبى كان الناسُ له أطوع؛ فإن أبيتَ إلا المضيَّ على رأيك فأظْهِر أنَّ أخاك العباس قد بايعك.

وكان الشام وبيئًا فخرجوا إلى البوادي، وكان العباس بالقَسْطَل[٢] ويزيدُ بالبادية أيضًا، فأتى يزيدُ العباس فاستشاره فنهاه عن ذلك، فرجع وبايع الناس سِرًّا، وبثَّ دُعاتَه، فدعوا الناس، ثم عاود أخاه العباس أيضًا فاستشاره ودعاه إلى نَفْسه، فَزَبره[٣]، وقال: إن عُدْتَ لمثل هذا لأشدَّنَّك وثَاقًا، وأحْملنَّك إلى أميرِ المؤمنين.

فخرج منْ عنده، فقال العباس: إنِّي لأظُنُّه أشأم مولودٍ في بني مرْوان.

وبلغ الخبرُ مرْوان بن محمد بإرمينية. فكتب إلى سعيد بن عبْد الملك بن مرْوان يأمُره أن ينْهَى الناس ويكفَّهم ويحذرهم الفتنةَ ويخوِّفهم خروج الأمْرِ عنهم. فأعْظَم سعيد ذلك، وبعث الكتاب إلى العباس بن الوليد، فاستدعى العباسُ يزيد وتهدَّده؛ فكتمه يزيدُ أمْره فصدّقه، وقال العباس لأخيه بِشْر بن الوليد: إني أظنُّ الله قد أذِن في هلاككم يا بني أُمية، ثم تمثل: [من البسيط]

إنِّـي أعـيذكـم بـالله مـنْ فِـتَـنٍ مـثـلِ الـجِـبـال تَـسـامـى ثـم تَـنْـدفِـعُ
إنَّ الـبـريَّـةَ قـد مـلَّـتْ سِـيـاسـتَـكُـمْ فـاسـتـمسكوا بـعـمُـود الـدِّين وارتَـدِعُـوا
لا تُـلْـحِـمُـنَّ ذِئـاب الـنـاس أنـفـسـكُـمْ إن الـذئـاب إذا مـا أُلـحِـمـتْ رتَـعُـوا[٤]
لا تَـبْـقَـرُنَّ بـأيـديـكـم بـطـونـكـمُـو فـثـمَّ لا حـسـرةٌ تُـغْـنِـي ولا جـزَعُ

قال: فلما اجتمع ليزيد أمْرُه وهو بالبادية أقبل إلى دِمشْق، وكان بينه وبينها أربعُ ليال، وجاء متنكرًا في سبعةِ نَفَر على حَمِير، فنزلوا بجَرُود - وهي على مرحلة من دِمشْق، ثم سار فدخل دِمشْق ليلاً، وقدْ بايع له أكْثَر أهلِها سِرًّا، وبايع أهل المِزَّة[٥]؛ وكان على دِمشْق عبْد الملك بن محمد بن الحجاج، فخرج منها للوباءِ، فنزل

(١) فتق: شق.
(٢) القسطل: موضع بين حمص ودمشق.
(٣) زبره: نهره ونهاه.
(٤) ألحم القوم: أطعمهم اللحم.
(٥) المزة: قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق.

قَطَنًا[١]، واستخلف على دِمشق ابْنَه، وعلى شُرطته أبو العاج كثير بن عبْد الله السلمي؛ فأجْمع يزيد على الظُّهور، فقيل للعامل: إنَّ يزِيد خارجٌ فلم يصدِّقْ، وراسل يزيد أصحابه بعْد المغرب ليلة الجمعة، فكمنُوا عند باب الفرادِيس حتى أُذِّنَ بالعشاء؛ فدخلوا المسجد فصلُّوا، وللمسجد حرس قد كلوا بإخراج الناس منه بالليل، فلما صلَّى الناس أخرجهم الحرس وتَباطأ أصحابُ يزيد حتى لم يبْقَ في المسجد غيرهم، فأَخَذُوا الحرس، ومضى يزيد بن عَنْبسة إلى يزيد بن الوليد، فأعلمه، وأخذ بيده، فقال: قُمْ يا أمير المؤمنين، وأبْشِرْ بنَصْر اللّهِ وعوْنه. فقام، وأقبل في اثني عشر رجلاً.

فلما كان عند سُوق الحُمُر لقوا أربعين رجُلاً من أصحابهم، ولقيهم زُهاء مائتي رجل، فمضوا إلى المسجد فدخلوه وأتَوْا باب المقصورة فضربوه، وقالوا: رُسُل الوليد؛ ففتح لهم الباب خادمٌ فدخلوا فأخذوا أبا العاج وهو سكْران، وأخذوا خُزَّانَ بيت المال، وأرسل إلى كل منْ كان يحْذره فأُخذ وقُبض محمد بن عُبيدة وهو على بعْلَبك، وأرْسل إلى محمد بن عبد الملك بن الحجاج فأخذه، وكان بالمسجد سِلاَحٌ كثير، فأخذوه.

فلما أصبحُوا جاء أهْلُ المِزَّة وتبايع الناس، وجاءت السكاسِكُ، وأقبل أهلُ داريَّا[٢] ويعقوب بن عُمير بن هانىء العبْسي.

وأقبل عيسى بن شَبيب التغلبي وأهل دُومة وحَرَستا[٣]، وأقبل حُميد بن حبيب اللخمي في أهْلِ ديْر مُرَّان[٤] والأرْزَة وسطْرا[٥] وأقبل أهْلُ جَرَش[٦] وأهْلُ الحدِيثة[٧] ودَيْر زَكى[٨].

---

(١) قطن: من قرى دمشق.

(٢) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة، والنسب إليها داراني على غير قياس، وبها قبر أبي سليمان الداراني... (معجم البلدان).

(٣) حرستا: قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ... (معجم البلدان).

(٤) دير مران: هذا الدير بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة.

(٥) سطرا: من قرى دمشق.

(٦) جرش: شرقي جبل السواد من أرض البلقاء.

(٧) الحدثية: من قرى غوطة دمشق.

(٨) دير زكى: دير بالرها بإزاء تل، وقيل: هو بالرقة قريب من الفرات.

وأقبل رِبْعِيّ بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عُذْرة وسلاَمان، وأقبلت جُهينة ومَنْ والاهم.

ثم وجَّه يزيد بن الوليد عبد الرحمٰن بن مُصاد في مائتي فارس ليأْخذوا عبْد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قَصره، فأخَذوه بأمانٍ، وأصاب عبد الرحمٰن خُرْجيْن في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار، فقيل له: خُذْ أحد هذين الخُرْجيْن، فقال: لا تتحدث العربُ عني أني أوَّلُ منْ خان في هذا الأمْر.

ثم جهَّز يزيد جيْشًا عليهم عبْد العزيز بن الحجاج بن عبْد الملك، وسيَّرهم إلى الوليد. وكان يزيدُ لما ظهر بدِمشْق سار موْلًى للوليد إليه، وأعلمه الخبر وهو بالأغْدف من عمان، فضربه الوليد وحبسه، وسيَّر أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دِمشْق، فسار بعْضَ الطريق، وأقام فأرسل إليه يزيدُ بن الوليد عبْد الرحمٰن بن مُصاد، فبايع يزيد.

ولما أتى الخبَرُ الوليد قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: سِرْ حتى تنزلَ حِمْص، فإنها حصِينة، ووجِّه الخيولَ إلى يزيد فيقتل أو يُؤْسر.

فقال عبد الله بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص: ما ينبغي للخليفة أنْ يدع عسْكره ونساءَه قَبْلَ أن يقاتِل، والله يُؤيِّدُ أمِير المؤمنين بنَصْرِه.

فأخذ بِقَوْل ابن عنبسة، وسار حتى أتى البخْراءَ - قَصْر النعمان بن بشِير - وسار معه من ولَدِ الضحاك بن قيس أربعون رجلًا، فقالوا له: ليس لنا سِلاَح، فلو أمرْتَ لنا بسلاح! فلم يُعْطهم شيئًا، ونازله عبْد العزيز.

وكتب العباس بن الوليد بن عبْد الملك إلى الوليد: إني آتيك؛ فأخْرج الوليدُ سرِيرًا وجلس عليه ينتظر العبَّاس، فقاتلهم عبْدُ العزيز، ومعه منصور بن جُمهور، فبعث إليهم عبد العزيز زياد بن حُصَيْن الكَلْبي، يدْعُوهم إلى كتابِ الله وسُنَّةِ نبيه، فقتله أصحابُ الوليد واقتتلوا قتالاً شديدًا.

وكان الوليدُ قد أخرج لواءَ مرْوان بن الحكم الذي كان قد عقده بالجابية[1].

وبلغ عبد العزيز مسيرُ العباسِ إلى الوليد، فأرسل منصور بن جُمهور إلى

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران. . . (معجم البلدان).

طريقه، فأخذه قَهرًا، وأتى به عبْد العزيز، فقال له: بايعْ لأخيك يزيد، فبايع، ووقف ونَصبُوا رايةً، فقالوا: هذه رايةُ العباس قد بايع لأميرِ المؤمنين يزيد، فقال العباس:

إنا لله! خدْعة من خدع الشيطان، هلك والله بنو مروان.

فتفرَّقَ الناسُ عن الوليد، وأتَوا العباس وعبد العزيز، وأرسل الوليدُ إلى عبْد العزيز يبْذل لهُ خمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقي، ويُؤمِّنه مِنْ كل حدث، على أنْ ينْصرف عن قتاله، فأبى ولم يُجبْه، فظاهر الوليد من دِرْعين، وأتوه بفَرسَيْه: السندي، والزائد، فقاتلهم قِتالاً شديدًا، فناداهم رجلٌ: اقْتلوا عدُوَّ الله قِتْلَة قوم لوط، ارجمُوه بالحِجارة، فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق عليه الباب، وقال: [من الطويل]

ادفعُوا لي سُليْمى والطِّلاء وقَيْنَةً ... وكأْسًا، ألاَ حسْبي بذلك مالا[1]
إذا ما صفا عيْشي برمْلَةِ عالجٍ ... وعانَقْتُ سلْمى لا أُريدُ بدالاَ
خذوا مُلكَكم لا ثبَّت الله ملكَكُمْ ... ثَباتًا يساوي ما حييت عِقَالا[2]
وخلُّوا عِنَاني قبل عَيْرٍ وما جرى ... ولا تَحسُدوني أن أموت هُزالا[3]

قال: وأحاط عبدُ العزيز بالقَصْر، فدنا الوليدُ من الباب، فقال: أما فيكم رجُلٌ شريفٌ له حسبٌ وحياء أُكلِّمُه! قال يزيد بن عنْبسة السكسكي: كلِّمْني. قال: يا أخا السَّكَاسك، ألم أزِدْ في أعطياتكم! ألم أرْفَع المُؤن عنكم! ألم أُعطِ فقَراءَكم؛ ألم أخدم زَمْنَاكم؟ فقال: إنا ما نَنْقم عليك في أنفسنا، إنما نَنْقم عليك فيما حرَّم اللّهُ، وشرْب الخمر، ونِكاح أمهات أولادِ أبيك، واستخفافك بأمرِ الله.

قال: حسْبك يا أخا السكاسك، فلعمْرِي لقد أكثَرْتَ، وإن فيما أحلَّ الله سعة عما ذكرت.

ورجع وجلس، وأخذ مُصْحفًا، ونشَره يقْرأُ فيه، وقال: يوْم كيوم عثمان. فصعدوا على الحائط، وكان أول منْ علاَه يزيد بن عنْبسة، فنزل إليه، وأخذ بِيده، وهو يُريد أنْ يحبِسه، ويؤامر فيه، فنزل من الحائط عشرة؛ فيهم: منصور بن جُمهور، وعبد السلام اللخمي، فضربه عبْدُ السلام على رأسه، وضربه السريّ بن زياد بن أبي كَبْشة على وجْهه، واحتزُّوا رأْسه، وبعثوا به إلى يزيد، فأتاه الرأْسُ وهو يتغدى،

(١) الطلاء: الخمر.
(٢) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.
(٣) العير: الحمار.

فسجد وأمر بنَصْب الرأس. فقال له يزيد بن فَرْوة مولى بني مُرَّة: إنما تنصب رؤُوس الخوارج؛ وهذا رأسُ ابن عمك وخليفة، ولا آمن إنْ نصبْتَه أنْ ترِقَّ له قلوبُ الناس، ويغْضَب له أهل بيته.

فلم يسمع منه، ونصبه على رُمْح، وطاف به دِمشْق؛ ثم أمر به أنْ يُدْفَع إلى أخيه سليمان بن يزيد، فلما نظر إليه سليمان قال: بُعْدًا له! أشْهَدُ أنه كان شَرُوبًا للخمر ماجِنًا فاسقًا، ولقد أرادني على نَفْسي الفاسق ـ وكان سليمان مِمَّنْ سعى في أمره.

وحكى يزيد بن عنْبسة ليزيد بن الوليد أنَّ الوليد قال في آخر كلامه: والله لا يرتق فَتْقكم، ولا يلم شَعثكم، ولا تجتمع كلمتكم.

وكانت مدة خلافة الوليد سنة وشهرين واثنين وعشرين يومًا. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة. وقيل: قتِل وهو ابْن ثمان وثلاثين سنة.

وقيل: إحدى وأربعين.

وقيل: ست وأربعين سنة. والله أعلم.

وكان الوليد من فِتْيان بني أُمية وظرفَائهم وشُجعانهم، وأجوادهم، جيِّد الشِّعْر، له أشعارٌ حسنة في الغَزل والعتَاب ووصف الخمر وغير ذلك، إلا أنه كان كثير الانهماك في اللهو والشُّرْب وسماع الغناءِ.

ومن كلامه: المحبة للغناء تزيد الشهْوة، وتهْدِم المروءة، وتنوب عن الخمر، وتفعل ما يفعل السكر، فإنْ كنْتم لا بدَّ فاعلين فجنبوه النساءَ، فإن الغناءَ رخيّة الزنى، وإني لأقول ذلك على أنه أحب إليّ من كل لذة، وأشْهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلَّة[1]، ولكن الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع.

ومما اشتهر عنه أنه استفتح المصحف الكريم، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم: ١٥]. فألقاه ونَصبه غَرَضًا، ورماه بالسهام، وقال: [من الوافر]

تــهــدِّدُنــي بــجــبَّــار عــنِــيــد ... فــهــأنــا ذاك جــبَّــار عــنِــيــد
إذا مــا جــئْــت ربَّــك يــوْم حــشــرٍ ... فــقــلْ يــا ربّ مــزَّقــنــي الْــولــيــد

فلم يلبث بعد ذلك إلاَّ يسيرًا حتى قُتل. هذا هو المشهور عنه.

---

(١) الغلة: شدة العطش وحرارته.

وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى العلاء البندار، قال: كان الوليد زِنْدِيقًا، وكان رجُلٌ من كلب من أهل الشام يقول مقالةَ الثَّنَوية، فدخلْتُ على الوليد يومًا وذلك الكَلْبيُّ عنده، وإذا بينهما سفَط[١] قد رفع رأسه عنه، وإذا ما يبْدُو لي منه حرير أخْضَر؛ فقال: ادْنُ يا علاء، فدنَوْتُ، فرفع الحريرة فإذا في السفط صورةُ إنسان، وإذا الزئبق والنوشادر قد جُعلا في جفْنِه، فجفْنُه يَطْرِفُ كأنه يتحرَّكُ، فقال: يا علاء، هذا ماني، لم يبعث الله نبيًا قَبْلَه، ولا يبعثُ نبيًا بعده؛ فقلت: يا أمِير المؤمنين، اتق الله ولا يغرنَّك هذا الذي تَرى مِنْ دينك. فقال الكَلْبِي: يا أمير المؤمنين، قد قلْت لكَ: إن العلاء لا يحتملُ هذا الحديث.

قال العلاء: ومكثْتُ أيامًا، ثم جلسْت مع الوليد على بناء كان قد بناه في عسكره يُشْرِفُ منه والكَلْبيُّ عنده إذْ نَزَل من عنده، وقد كان الوليد حملَه على بِرْذَون هِمْلاَج[٢] أشقر من أفْخَر ما سُخِر، فخرج على بِرْذَونه، فمضى في الصحراء حتى غاب عن العسْكَر، فما شعر إلا وأعراب قد جاؤوا به يحملونه من فسحة عُنُقه، وبرذَوْنه يُقاد، حتى أسلموه.

فبلغني ذلك، فخرجْتُ حتى أتيْتُ أُولئك الأعراب، وكانت لهم أبياتٌ بالقُرْبِ من أرض البحر لا حجر فيها ولا مدر، فقلت لهم: كيف كانت قِصَّةُ هذا الرجل؟ فقالوا: أقْبلَ علينا على بِرْذَوْن، فوالله لكأنه دُهْنٌ يسيل على صفَاةٍ من فَراهِيته، فعجبنا لذلك إذ انقضّ رجُلٌ من السماء عليه ثيابٌ بِيضٌ، فأخذ بضَبُعيه[٣]، فاحتمله، ثم نكسه، وضرب برأسه الأرْضَ، فدقَّ عُنُقه، ثم غاب عن عُيونِنا فاحتملناه فجئْنَا به.

وقد نَزَّه قوم الوليد عما قيل، وأنكروه ونَفَوْه عنه، وقالوا: إنه اختُلق عليه وأُلصق به، وليس بصحيح.

حكي عن شبيب بن شيْبة أنه قال: كُنَّا جُلُوسًا عند المهدي، فذكروا الوليد، فقال المهدي: كان زِنْدِيقًا، فقام ابن عُلاَثَةَ الفقيه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ الله عزَّ وجلَّ أعْدلُ من أنْ يُولِّي خلافَة النبوة وأمْر الأُمَّةِ زنديقًا، لقد أخبرني منْ كان يشهده في ملاَبه وشربه عنه بمروءةٍ في طهارتِهِ وصلاتِه؛ فكان إذا حضرت الصلاةُ يطْرحُ الثيابَ التي عليه المطيَّبة المصبَّغة، ثم يتوضَّأ فيُحْسِنُ الوضوء، ويُؤْتَى بثيابٍ

(١) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.

(٢) الهملاج: الدابة التي يحسن سيرها في سرعة.

(٣) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها. وهما ضبعان.

نِظَاف بِيض فيلبسها، ويصلّي فيها، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها، واشتغل بشُرْبِه ولَهْوِه، فهذا فعال منْ لا يؤمن بالله!

فقال المهدي: بارك الله عليك يا بْنَ عُلاَثَة.

وللوليد كلامٌ حسن؛ فمن أحسن كلامه ما قاله لهشام بن عبْد الملك لما مات مسلمة بن عبد الملك وقَعد هشامٌ للعزَاء، فأتاه الوليد وهو نَشْوان يجرُّ مُطْرف خَزّ عليه، فوقف على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، إن عُقْبى منْ بقي لُحوقُ منْ مضى، وقد أقْفر بعد مسلمة الصَّيْدُ لمنْ رمى، واختلَّ الثَّغْرُ فَهَوى، وعلى أثر منْ سلف يمضي منْ خَلَف؛ فتزوَّدُوا فإنَّ خَيْر الزَّادِ التَّقْوى.

فأعرض هشام ولم يُحِرْ جوابًا،وسكت القومُ فلم ينْطِقُوا.

والوليد أوّل خليفة عدَّ الشِّعر وأجاز عن كلِّ بيْتٍ ألْف درهم، فإن يزيد بن ضبَّة مولى ثقيف مدحه وهنَّأه بالخلافة فأمر أن تُعدَّ الأبيات ويُعْطَى لكل بيت ألف درهم؛ فعُدَّتْ فكانت خمسين[(١)] بيتًا فأعطى خمسين ألف درهم.

قال: ودُفن الوليد باب الفَرادِيس بدِمشْق. وقيل: إنه قُتل بأرض حِمْص.

وحكى الدُّولابي أن رأس الوليد نُصِب في مسجد دمشق ولم يزل أثَرُ دمِه على الجِدار إلى أن قدم المأمون دمشق في سنة خمس عشرة ومائتين، فأمر بحكِّه.

وكان الوليد أبيض ربْعة قد وخَطهُ الشَّيْبُ.

وكان نَقْشُ خاتمه: يا وليدُ، احْذَر الموتَ.

وكان له من الأولاد الذكور والإناث ثلاثة عشر.

كاتبه: العباس بن مسلم.

قاضيه: محمد بن صفوان الجُمحي.

حاجبه: قطري مولاه.

الأمير بمصر: حفْص بن الوليد الحضرمي، ثم صرفه عن الخراج.

قاضيها: حسين بن نُعيم والله أعلمُ.

---

(١) وقيل بلغت واحدًا وثلاثين بيتًا رواها أبو الفرج في الأغاني (٦: ١٤٢) وأولها:

سـلـيـمـى تـلـك فـي الـعـيـر قـفـي أسـألـك أو سـيـري

ذكر بيعة يزيد بن الوليد الناقص

هو أبو خالد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مرْوان؛ ولقِّب بالناقص؛ لأنه نقص الزياداتِ التي كان الوليد زادها في أعطيات الناس، وهي عشرة عشرة، وردَّ العطَاء إلى أيام هشام. وقيل: أول منْ لَقَّبهُ بهذا اللقب مرْوان بن محمد.

وأُم يزيد شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجر بن شهريار.

بُويع له لليلتين بقِيتَا من جُمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

قال: ولما قُتِل الوليدُ خطب يزيدُ الناس فذَمَّ الوليد، وذكر إلحاده، وأنه قتله لفِعْلِه الخبيث، وقال: أيها الناس، إنَّ لكم عليّ ألاَّ أضَع حجرًا على حجر، ولا لبِنَةً على لبنةٍ، ولا أكْرُو[١] نَهْرًا، ولا أكْنِز مالاً، ولا أُعطيه زوجةً وولَدًا، ولا أنْقُل مالاً من بلد حتى أسدَّ ثغره وخَصاصة أهلِه بما يُغْنيهم، فما فضل نَقَلْتُه إلى البلد الذي يلِيه، ولا أُجمِّرُكم[٢] في ثغوركم فأفتنكم، ولا أُغلق بابي دونكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم، ولكم أعطياتُكم كل سنةٍ وأرزاقُكم في كل شهر، حتى يكون أقصاكم كأدناكم؛ فإن وفَّيت بما قُلْت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازَرة، وإن لم أوف فلكم أنْ تخلعوني، إلاَّ أنْ أتُوب، وإن علمْتُم أحدًا ممن يُعرفُ بالصلاح يعطيكم مِثْلَ ما أُعطيكم وأردْتُم أن تبايعوه فأنا أوَّلُ منْ يبايِعُه.

أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والله الموفِّق بمنِّه وكرمه.

ذكر اضطراب أمر بني أمية

وفي سنة ست وعشرين ومائة في أيام يزيد هذا اضْطَرب أمْرُ بني أُمية، وهاجت الفتنةُ، فكان من ذلك وثوبُ سليمان بن هشام بن عبْد الملك بعمان، وكان الوليدُ قد حبسه بها، فلما قتل خرج من الحبس، وأخذ ما كان بها من الأموال، وأقبل إلى دمشق، وجعل يلْعنُ الوليد ويعيبه بالكفر.

ومن ذلك خلاف أهل حمص وفلسطين:

(١) كرا الأرض: حفرها؛ وكرا البئر: طواها بالشجر.
(٢) أجمّركم: أحبسكم.

ذكر خلاف أهل حمص

قال: ولما قُتِل الوليد أغْلَقَ أهلُ حِمْص أبوابها، وأقاموا النوائح والبواكي عليه. وقيل لهم: إنَّ العباس بن الوليد بن عبْد الملك أعانَ عبْد العزيز على قَتْله، فهدمُوا داره، وانتهبوها، وسلبوا حريمه، وطلبوه؛ فسار إلى أخيه يزيد، وكاتَب أهْلُ حمص الأجناد، ودعَوْهم إلى الطَّلَبِ بدمِ الوليد، فأجابوهم واتفقوا على ألاَّ يُطِيعوا يزيد، وأمَّرُوا عليهم معاويةَ بن يزيد بن حُصين بن نمير، ووافَقَهُمْ مرْوان بن عبْد الله بن عبْد الملك على ذلك، فراسلهم يزيد، فأخرجوا رُسُلَه، فسيَّر إليهم أخَاهُ مسرورًا في جمْع كثير، فنزلوا حُوَّارِين[١]، ثم قدم على يزيد سليمان بن هشام، فردَّ عليه ما كان الوليدُ أخذَه من أموالهم، وسيَّره إلى أخيه مسرور، وأمرهم بالسَّمْع والطاعة له؛ وكان أهْلُ حمص يُريدونَ السير إلى دمشق، فقال لهم مرْوان بن عبْد الله: أرى أن تَسيروا إلى هذا الجيش فتُقاتلوهم، فإنْ ظَفِرتُم بهم كان ما بعْدهم أهْون عليكم، ولسْتُ أرى المسير إلى دمشق وتَرْك هؤلاء خلفكم.

فقال السِّمْطُ بن ثابت: إنما يريد خلافكم، وهو مائل ليزيد، فقتلوه وقتلوا ابنَه، وولَّوْا عليهم أبا محمد السفياني، وتركوا عسْكَر سليمان ذات اليسار، وساروا إلى دمشق، فخرج سليمان مُجِدًّا في طلبهم، فلحقهم بالسُّليْمانية ـ مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك خَلْف عذْراء[٢].

وأرسل يزيدُ عبدَ العزيز بن الحجاج في ثلاثة آلاف إلى ثنيَّة العُقَاب، وأرسل هشام بن مُصاد في ألف وخمسمائة إلى عقَبةِ السلامية. وأمرهم أنْ يُمدَّ بعْضهُم بعضًا، ولحقهم سليمان على تَعبِ مقاتلتهم، فانهزمت ميْمنتُه وميْسرتُه، وثبت هو في القَلْب، ثم حمل أصحابُه على أهلِ حِمْص حتى ردُّوهم إلى موضعهم، وحمل بعْضُهم على بعض مِرارًا.

فبينما هم كذلك إذْ أقبل عبْد العزيز مِنْ ثَنِيَّةِ العُقَاب، فحمل على أهل حِمْص حتى دخل عسْكَرهم، وقَتَل فيه منْ عرض له، فانهزموا ونادوْا: يا يزيد بن خالد بن عبْد الله القَسْرِي! الله الله في قَوْمك! فكفَّ الناسُ، وأُخذ أبو محمد السُّفْياني أسيرًا، ويزيد بن خالد بن معاوية، فأُتي بهما سليمان فسيَّرهما إلى يزيد فحبسهما.

---

(١) حوارين: من قرى حلب معروفة... وقيل: حوارين: حصن من ناحية حمص... (معجم البلدان).

(٢) عذراء: قرية بغوطة دمشق.

واجتمع أمرُ أهلِ دمشق ليزيد، وبايعه أهْلُ حمص، فأعطاهم العطاء، وأجاز الأشراف؛ واستعمل عليهم يزيد بن الوليد بن معاوية بن يزيد بن الحُصين.

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفي هذه السنة وثب أهلُ فلسطين على عامِلِهم سعِيد بن عبْد الملك فطردُوه، وكان الوليدُ قد استعمله عليهم، فأحضروا يزيد بن سليمان بن عبدِ الملك فجعلوه عليهم، فدعا الناس إلى قِتَال يزيد، فأجابوه إلى ذلك؛ وبلغ أهلُ الأُرْدُن أمر أهلِ فلسطين، فولّوْا عليهم محمد بن عبد الملك، واجتمعوا معهم على قِتَالِ يزيد بن الوليد، فبعث يزيدُ إليهم سليمانَ بْنَ هشام بن عبد الملك في أهل دمشق وأهْلِ حمص الذين كانوا مع السفياني، وعِدَّتُهم أربعة آلاف ونَيِّف، فبايع الناسُ ليزيد، واستعمل ضِبْعان بن روح على فلسطين وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك على الأُرْدُن.

ذكر عزل يوسف بن عمر عن العراق وما كان من أمره، واستعمال منصور بن جُمْهور

وفي هذه السنة عزل يزيدُ بن الوليد يوسف بن عُمر عن العراق، واستعمل منصور بن جُمهور، وقال له لَمَّا ولاَّه العراق: اتَّقِ الله واعْلَم أني إنما قتلْتُ الوليد لفِسْقِه، ولما أظْهَر من الجوْرِ، فلا تركب مِثْلَ ما قتلْنَاهُ عليه. فسار حتى إذا بلغ عيْنَ التَّمْر[1] كتب إلى منْ بالحيرة مِنْ قُوّادِ أهْل الشام يُخْبرهم بقتْلِ الوليد وتَأْمِيره على العِراق ويأمرهم بأخْذِ يوسف وعماله، وبعث بالكُتب كلِّها إلى سليمان بن سليم بن كَيْسان ليُفرقها على القُوَّاد، فحبس الكُتُب؛ وحمل كِتَابه فأقرأه يوسف بن عمر، فتحيَّر في أمْره، وقال: ما الرَّأيُ يا سليمان؟ قال: ليس لكَ إمامٌ تُقَاتِلُ معه، ولا يقاتِلُ أهْلُ الشام معك، ولا آمنُ عليك منصورًا. وما الرأيُ إلاَّ أنْ تلحق بشَامِك.

قال: فكيف الحِيْلَةُ؟ قال: تُظْهرُ الطاعةَ ليزيد وتَدْعُو له في خُطْبَتك؛ فإذا قرُب منصور تستَخْفِي عندي وتدعه والعمل.

ثم مضى سليمان إلى عمْرو بن محمد بن سعِيد بن العاص، فأخبره بالأمْر، وسأله أن يؤوي يوسف بن عُمر عنده، ففعل، فانتقل يوسفُ إليه، فلم يُر رجُلٌ كان مِثْل عُتُوِّه خاف مثل خَوْفِه.

---

(١) عين التمر: بلدة في طرف بادية الشام.

وقدم منصور الكوفةَ فحضَّهم وذمَّ الوليد ويوسف، وقامت الخطباء فذمُّوهُما معه، فأتى عَمْرو بن محمد إلى يوسف، فأخبره؛ فجعل لا يذْكرُ له رجلًا ممن ذكره بسوء إلا قال: لله عليَّ أنْ أضربه كذا وكذا سوْطًا؛ فجعل عمرو يتعجَّبُ من طَمعِه في الولاية، وتهديده الناس.

وسار يوسف مِنَ الكوفة سِرًا إلى الشام، فنزل البلْقَاء[1]، فلما بلغ خَبرةُ يزيد بن الوليد وجَّه إليه خمسين فارِسًا، فعرضَ رجُلٌ من بني نمير ليوسف، وقال: يا بنَ عمر، أنْتَ والله مقتولٌ، فأطِعْني وامْتَنِع.

قال: لا، فدعْني أقتلك أنا ولا تقتلك هذه اليمنية فتَغيظنا بقَتْلك.

قال: ما لي فيما عرضْتَ خِيار، فطلبه المسيَّرُون إليه، فلم يروْه، فتهدَّدوا ابنًا له، فقال لهم: انْطَلَقَ إلى مزْرعة له، فسارُوا في طلَبه، فلما أحسَّ بهم هرب وترك نَعْلَيْه، ففتَّشُوا عليه فوجدوه بين نِسْوةٍ قد ألْقَيْن عليه قطيفةَ خَز وجلَسْنَ على حواشيها حاسِرات، فجرُّوا برِجلِهِ، وأخذوه، وأقبلوا به إلى يزيد، فوثب عليه بعْضُ الحرسِ، فأخذ بلحيته ونتَف بعْضَها، وكان من أعظم الناس لحيةً، وأصغرهم قامةً.

فلما أُدخل على يزيد قبض على لحيةِ نفسه، وهي إلى سُرَّتهِ، وجعل يقول: يا أمير المؤمنين؛ نتفت والله لِحْيتي، حتى لم يبْقَ فيها شعرة؛ فأمر به فحبس في الخَضْراء فأتاه إنسان فقال له: أما تخافُ أنْ يطْلُع عليك بعْضُ من وتَرْتَ فيُلْقي عليك حجرًا فيقتلك؟

قال: ما فطنْتُ لهذا، فأرسل إلى يزيد يطلُب منه أن يُحوَّل إلى حبْس غير الخَضْراء، وإنْ كَانَ أضْيق منه، فعجبوا من حُمْقِهِ، فنقله وحبسه مع ابني الوليد، فبقي في الحبْسِ ولاية يزيد وشهرين وعشرة أيام من ولاَية إبراهيم.

فلما قرب مرْوان من دِمشْقَ ولّى يزيد بن خالد القسري مولًى لأبيه يقال له أبو الأسد قَتْلَهم، فقتل الحكم وعثمان ويوسف على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وكان يوسفُ بْنُ عُمر يُحمَّقُ، وفيه أشياء متباينَة متناقضة؛ كان طويل الصلاة، مُلاَزِمًا للمسجد، ضابطًا لحشَمه وأهْله عن الناس، لَيِّنَ الكلام، متواضِعًا، حسنَ الملكة كثير التضرُّع والدعاء، فكان يصلِّي الصُّبْح، ولا يكلم أحدًا حتى يصلّي الضُّحى، وهو فيما بين ذلك يقْرأُ القرآن ويتضرَّعُ، وكان بصيرًا بالشعر والأدب، وكان

(١) البلقاء: أرض بالشام.

شديد العُقوبةِ، مُسْرفًا في ضَرْبِ الأبْشار[١]، وكان يأْخذ الثوب الجيِّد فيُمِر ظفره عليه فإن تعلَّقَ به طاقُه ضرب صاحِبه، وربما قطع يده.

حكي أنه أُتي يومًا بثَوْبٍ فقال لكاتبه: ما تقولُ في هذا الثوب؟ قال: كان ينبغي أنْ تكونَ بيوتُه أصغر مما هي. فقال للحائك: صدق يا بْنَ اللخناء. فقال الحائك: نحن أعلم بهذا. فقال لكاتبه: صدق يا بْنَ اللخناء. فقال الكاتب: هذا يعْملُ في السنةِ ثوبًا أو ثوبين وأنا يمرُّ على يدِي في السنة مائة ثوب مِثْل هذا. فقال للحائك: صدقَ يا بْنَ اللَّخْنَاء، فلم يزل يكذِّبُ هذا مرةً، وهذا مرةً حتى عدّ أبيات الثوب، فوجدها تنقص بيْتًا من أحدِ جانبي الثوب، فضرب الحائك مائةَ سوط.

وقيل: إنه أراد السفر فدعا جواريه، فقال لإحْداهُنَّ: تَخْرُجين معي؟ قالت: نعم. قال: يا خبيثة. كلُّ هذا من حبِّ النكاح، يا خادم، اضربْ رأْسها. وقال لأُخرى: ما تقولين؟ فقالت: أُقِيم على ولَدِي. فقال: يا خبيثةُ، كلُّ هذا زهادة فيّ، اضْربْ رأْسها. وقال لثالثةٍ: ما تقولين؟ قالت: لا أدْرِي ما أقول، إن قلْتُ ما قالت إحداهما لم آمنْ عقوبتك. فقال: يا لخناء وتُنَاقِضين وتحتجِّين، اضْرِبْ رأْسها.

وكان قصيرًا، فكان يحضر الثوب الطويل ليفصِّله ليلبسه، فإن قال له الخياط: إنه يفْضُل منه ضرب رأْسه، وإن قال: لا يكفي إلاَّ بعد التصرُّف في التفصيل سرَّه ذلك، فكانوا يفصِّلُونَ له ويأْخذون ما بقِي. وكان له في ذلك أشياء كثيرة.

فلنرجع إلى أخبار منصور بن جُمهور.

قال: وكان دخول منصور الكوفة لأيامٍ خَلَتْ من شهر رجب سنة ست وعشرين ومائة، فأخذ بيوتَ الأمْوالِ، وأخْرج العطاءَ والأرزاق، وأطلق منْ كان في السجود مِنَ العمَّال وأهْل الخراج، وبايع ليزيد بالعراق، وأقام بقيَّةَ رجب وشعبان ورمضان، وانصرف لأيَّامٍ بقين منه.

وامتنع نَصْر بن سيَّار بخراسان مِنْ تسليم عمله لعامل منصور، فإنَّ يزيد كان قد ضَمَّ خراسان لمنصور مع العراق.

(١) البشار: بشار الناس: حثالتهم.

ذكر عزل منصور بن جمهور عن العراق وولاية عبد الله بن عُمر بن عبد العزيز

وفي هذه السنة عزَل يزيدُ بن الوليد منصور بن جُمهور عن العراق، واستعمل عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز، وقال له: سِرْ إلى العراق؛ فإنَّ أهْلَه يميلون إلى أبيك. وخاف ألاَّ يسلم إليه المنصورُ العمل، فانْقَاد له أهْلُ الشام، وسلَّم إليه منصورٌ الولايةَ، وانصرف إلى الشام، ففرَّقَ عبْدُ الله العمال، وأعْطَى الناس أرزاقهم وأعطياتهم، فنازعه قُوَّادُ أهلِ الشام، وقالوا: تَقْسِم على هؤلاء فَيْئنا، وهم عدُوُّنا! فقال لأهلِ العراق: إنِّي أُريدُ أن أرُدَّ عليكم فَيْئَكم، وعلِمْتُ أنكم أحقُّ به، فنازعني هؤلاء.

فاجتمع أهْلُ الكوفة بالجبَّانة، فأرسل إليهم أهلُ الشام يعتذرون، وثار غَوْغَاءُ الناس في الفريقين، فأُصيب منهم رهْطٌ لم يُعْرفوا، واستعمل عبْدُ الله بن عُمر على شرطتِهِ عُمر بن الغَضْبان بن القَبعْثَرى، وعلى خَراج السواد والمحاسبات أيضًا.

ذكر الاختلاف بين أهل خراسان

وفي سنة ست وعشرين ومائة وقع الاختلافُ بخراسان بين النِّزاريَّة واليمانية، وأظهر الكِرماني الخلاف لنَصْر بن سيَّار.

وكان سبب ذلك أن نَصْرًا رأى الفتنةَ قد ثارت، فرفع حاصِلَ بيْت المال، وأعطى الناس بعْضَ أعطياتهم ورِقًا وذَهبًا، من أوانٍ كان اتَّخَذَها للوليد بن يزيد، فَطَلب الناسُ منه العطَاءَ، وهو يخطبُ؛ فقال نصر: إيَّاي والمعصية، عليكم بالطاعة والجماعة. فوثب أهلُ السوقِ إلى أسواقهم، فغضب نَصْر، وقال: ما لكم عندي عطَاء ثم قال: كأني بكم وقد نَبع مِنْ تحت أرجلكم شَرٌّ لا يُطاق، وكأني بَكم مُطَرَّحِين في الأسواق كالجُزُرِ المنحورة، إنه لم تَطُلْ ولايةُ رجل إلاَّ ملُّوها، وأنتم يا أهْل خراسان مسْلَحةٌ في نحور العدو، فإياكم أن يختلف فيكم سيفان؛ إنكم ترِيشون[1] أمرًا وتريدون به الفِتْنَةَ، ولا أبْقَى اللّهُ عليكم، لقد نشرْتُكم وطَويْتُكم، فما عندي منكم عشرة. فاتقوا الله، فوالله لئن اختلف فيكم سيْفَان ليتمنَّيَنَّ أحدُكم أنه ينخلعُ من ماله وولده. يا أهل خُراسان، إنكم قد غمطتم[2] الجماعة، وركنْتُم إلى الفرقة.

---

(١) راش السهم: ركّب عليه الريش؛ وراش الأمر: هيأه ودبره.

(٢) غمط فلانًا: استصغره واحتقره.

ثم تمثل بقول النابغة: [من الوافر]

فإنْ يغْلِبْ شَقَاؤكمو عليكمْ فإنّي في صلاحكمُو سعيْتُ

وقدم على نصر عهْدُهُ على خُراسان من قِبلِ عَبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز؛ فقال الكَرْماني لأصحابه: الناسُ في فتنة فانظُروا لأُموركم رجلاً.

والكِرْماني اسْمُه جُديع بن عليّ الأزدي، وإنما سمي الكَرْماني لأنه وُلِد بِكَرْمان(١)، فقالوا له: أنت لنا. وقالت المُضَرِيّة لنَصْر: إن الكَرماني يُفْسِدُ عليك الأُمور، فأرْسِلْ إليه فاقْتُلْه أو احبسه.

قال: لا، ولكن لي أولاد ذكور وإناث، فأُزَوِّج بنيّ من بنَاته، وبناتي من بنيه.

قالوا: لا. قال: فأبْعثُ إليه بمائة ألف درهم، وهو بخيل، فلا يُعْطِي أصحابه شيئًا منها، فيتفرَّقُون عنه. قالوا: لا، هذه قوَّةٌ له، ولم يزالُوا به حتى قالوا له: إنَّ الكَرْماني لو لم يقْدِر على السلطنة والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصَّر وتَهَوَّد.

وكان نَصْرٌ والكِرماني متصافِيَيْن، وكان الكَرْمانيّ قد أحسنَ إلى نَصْر في ولاية أسد بن عبد الله القَسْرِي. فلما ولّي نَصْر عزَل الكَرْماني عن الرياسة وولاَّها غيره، فتباعد ما بينهما، فلما أكْثَرُوا على نَصْر في أمْرِه عزم على حبْسِه، فأرسل صاحب حرسِه ليأْتيه به، فأرادت الأزْدُ أنْ تُخلِّصه من يدِهِ، فمنعهم من ذلك، وسار مع صاحب الحرس وهو يضْحك.

فلما دخل على نَصْر قال له: يا كَرْماني، ألم يأْتني كتابُ يوسف بن عُمر بقَتْلك فراجعت وقلتُ: شيخُ خراسان وفارِسُها، فحقَنْتُ دمكَ؟ قال: بلى. قال: ألم أَغرم عنك ما كان لَزِمك من الغُرْم، وقسمْته في أعطيات الناس؟ قال: بلى. قال: ألم أرؤّس ابْنَك عليًا على كُرْهٍ من قومك؟ قال: بلى. قال: فبدَّلْتَ ذلك إجماعًا على الفِتْنَة.

قال الكَرْماني: لم يقُل الأميرُ شيئًا إلاّ وقد كان أكثر منه، وأنا لِذَلك شاكر، وقد كان منّي أيام أَسَد ما قد علمْتَ، ولسْتُ أحِبُّ الفتنةَ.

قال سلْم بن أحْوز: اضْرِبْ عُنُقه أيها الأمير، وأشار غَيْرُه بذلك، فقال المقدام وقدامة ابنا عبْد الرحمٰن بن نُعيم العامري: لَجُلَساءُ فرعون خَيْرٌ منكم؛ إذ قالوا: ﴿أَرْجِهْ

(١) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... (معجم البلدان).

وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] والله لا يقتل الكرماني بقولكم، فأمر نصر بحبسه في القهَنْدَز[1]. فحبس وذلك لثلاث بقين من شهر رمضان، فتكلمت الأزد فقال نصر: إني حلفت أن أحبسه، ولا يناله مني سوءٌ، فإن خشيتم عليه فاختاروا رجلاً يكون معه، فاختاروا يزيد النحوي، فكان معه؛ فجاء رجل من أهل نسف، فقال لآل الكرماني: ما تجعلون لي إن أخرجته؟ قالوا: كل ما سألْتَ، فأتى مجرى الماء في القهندز فوسعه، وقال لولد الكرماني: اكتبوا لأبيكم يستعد الليلة للخروج.

فكتبوا إليه، وأدخلوا الكتاب في الطعام، فتعشَّى الكرْماني، ويزيد النحوي، وحُصين بن حكيم؛ وخرجا من عنده.

ودخل الكَرْماني السَّرب[2]، فانطوت على بطْنِهِ حيَّةٌ فلم تضرّه؛ وخرج من السَّرب، وركب فرسه البشير، والقَيْدُ في رِجْله، فأتَوا به عبْد الملك بن حرْملة فأطلق عنه القَيْد.

وقيل: إنَّ الذي خلَّص الكَرْماني مولى له رأى خَرْقًا فوسَّعه وأخرجه منه، فلم يُصلِّ الصُّبْح حتى اجتمع معه زُهاء ألف، ولم يرتفع النهار حتى بلغُوا ثلاثة آلاف.

وكانت الأزْدُ قد بايعوا عبْد الملك بن حرْمَلَة. فلما خرج الكَرْماني قدمه عبد الملك.

قال: ولما خرج الكَرْماني عسكر نَصْرٌ بباب مرْو الرُّوذ، وخطب الناس، فنال مِنَ الكَرْماني، ثم ذكر الأزْد، فقال: إنْ يَسْتَوْسقُوا[3] فهم أذَلُّ قَوْمٍ، وإن يأبوا فهم كما قال الأخطل: [من الطويل]

ضفادِعِ في ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوبتْ فدلّ عليها صوْتُها حيّةَ البحر

ثم ندم على ما فَرط منه، فقال: اذكرُوا الله؛ فإنه خَيْرٌ لا شرّ فيه.

واجتمع إلى نَصْر بشَرٌ كثير، فسفَر الناسُ بينه وبين الكَرْمانيّ، وسألوا نَصْرًا أن يؤمِّنَهُ، ولا يحبسه؛ وجاء الكَرْمانيُّ، فوضع يدَهُ في يدِ نَصْر، فأمره بلزوم بيْتِهِ، ثم بلغ الكَرْماني عنِ نَصْر شيء، فخرج إلى قريةٍ له، وخرج نَصْرٌ فَعسْكَر بباب مَرْو، فكلَّموه فيه، فأمّنه.

---

(١) القهندز: في الأصل اسم الحصن أو القلعة وسط المدينة.
(٢) السرب: حفير تحت الأرض لا نفذ له؛ أو المسلك في خفية.
(٣) استوسق: انتظم، اجتمع وانضم.

فلما عُزل ابن جُمْهُور عن العراق ووُلِّي عبْدُ الله بن عمر في شوَّال من السنة خطب نَصر، وذكره، وقال: قد علمْتُ أنه لم يكن مِنْ عُمّال العراق، وقد عزله اللّهُ، واستعمل الطيِّب ابْنَ الطيِّب.

فغضب الكَرْماني لابن جُمْهور، وعاد في جمْعِ الرجال واتخاذِ السلاح؛ فكان يحضر الجمعة في ألْف وخمسمائة فيصلِّي خارج المقصورة، ثم يدخل فيسلِّم على نَصْر، ولا يجلس، ثم ترك إتْيان نَصْر وأظْهر الخِلاَف؛ فأرسل إليه مع سَلْم بن أحوز، يقول: إني والله ما أردْتُ بحبسك سُوءًا، ولكن خفْتُ فساد أمْرِ الناس فأْتِني. فقال: لولا أنَّك في منزلي لقتلْتك، ارجع إلى ابْنِ الأقطع، فأبلغه ما شئتَ من خَيْرِ أو شر.

فرجع إلى نَصْر فأخبره، فلم يزَلْ يُرْسِلُ إليه مرةً بعد أُخرى، فكان آخر ما قال له الكرْماني: إني لا آمنُ أنْ يحملك قوم على غير ما تريد، فتركب مِنا ما لاَ بقيَّةَ بعده، فإن شئْتَ خرجْتُ عنك لا مِنْ هيْبةٍ لك، ولكن أكْرهُ سفْكَ الدماء، فتهيّأ للخروج إلى جُرْجان؛ ثم كان من أمْرِ الكرْماني ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم

قال: لما قُتل الوليد بن يزيد كان على اليمامةِ عليُّ بن المهاجر، استعمله عليها يوسف بن عُمر، فقال له المُهَيْر بن سلمى بن هلال أحدُ بني الدؤُل بن حنيفة: اترك لنا بلادنا، فأبى؛ فجمع له المُهَيْر، وسار إليه، وهو بقَصْرِهِ في قاع هَجَر[١]، فالتقوا بالقاع، فانهزم عليّ حتى دخل قَصْرهُ، ثم هرب إلى المدينة، وقتل المُهَيْر ناسًا من أصحابه، وتأمّر المُهَيْر على اليمامة، ثم إنه مات، واستخلف على اليمامة عبْدَ الله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤَل، فاستعمل عبْد الله بن النعمان المندَلث بن إدريس الحنفي على الفَلَج - وهي قرية من قُرى بني عامر بن صعصعة - فجمع له بنو كَعْب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل، فأتوا الفَلَجَ[٢]، فلقيهم المُنْدَلِث، وقاتلهم، فقُتِل المندلِث وأكْثَرُ أصحابه، ولم يقتل مِنْ بني عامر كثير، وقُتل يومئذ يزيد ابن الطَّثَرِيَّةِ وهي أُمُّه، تُنْسب إلى طَثْر بن عَنْز بن وائل، وهو يزيد بن المنتشر.

---

(١) هجر: الهجر بلغة حمير والعارب العاربة القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة من مخلاف مازن، وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين. . . (معجم البلدان).

(٢) فلج: مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة، وقيل: فلج مدينة قيس بن عيلان بن مضر، ويقال لها فلج الأفلاج. . . (معجم البلدان).

فلما بلغ عبْد الله بن النعمان قَتْلُ المُنْدلِث جمع ألْفًا من حنيفة وغيرها، وغَزا الْفَلَج.

فلما تصافَّ الناسُ انْهزم أبو لطيفة بن مسلم العقيلي، وطارق بن عبْد الله القُشَيري، والجعُونيان، وتجلَّلت بنو جعْدة البراذِع، وولَّوْا، فقتل أكثرهم، وقُطعت يدُ زِيادِ بن حيان الجَعْدي؛ ثم قُتل.

ثم إن بني عقيل وقُشَيرًا وجَعْدة ونميرًا تجمَّعُوا وعليهم أبو سهْلَة النُّميري، فقتلوا مَنْ لقوا من بني حنِيفة بمعْدِن الصحراء، وسبَوْا نساءهم، وكفَّتْ بنو نمير عن النساء.

ثم إنَّ عمر بن الوازع الحنفي لَمّا رأى ما فعل عبْدُ الله بن النعمان قال: لَسْتُ بدون عبْد الله وغيره ممن يغير، وهذه فَتْرةٌ يُؤْمن فيها عقوبة السلطان، فجمع خَيْلَه وبثَّها فأغارت وأغار فملأ يده من الغنائم، وأقبل بمن معه حتى أتى النَّشّاش[1]، وأقبلت بنو عامر، وقد حشدت، فلم يشعر عُمر بن الوازع إلا بِرُغَاء الإبل، فجمع النساء في فُسْطَاط، وجعل عليهنَّ حرسًا، ولقي القومَ فقاتلهم، فانهزم هو ومنْ معه، وهرب ابْنُ الوازع، فلحق باليمامةِ، وكفَّت قَيْسٌ يوم النشَّاش عن السَّلَب، فجاءت عُكْل فسلبتهم.

وجمع عُبيد الله بن مسلم الحَنَفي جمْعًا، وأغار على ماءٍ لقُشَير يقال له حَلَبَان، وأغار على عُكْل فقَتَل منهم عشرين رجلاً.

ثم قدم المثنَّى بن يزيد بن عمر بن هُبَيْرة الفزاري والِيًا على اليمامة من قِبل أبيه يزيد بنِ عُمر حين ولِّي العراق لمرْوان بن محمد، فوردها وهم سلْم.

وسكنت البِلاَد؛ ولم يزل عُبيد الله بن مسلم الحنفي مستَخْفيًا حتى قدم السريّ بن عبْد الله الهاشمي واليًا على اليمامة لبني العباس، فدلَّ عليه فقتله.

وفي هذه السنة أمر يزِيدُ بن الوليد بالبيعة بولاية العهْد لأخيه إبراهيم، ومِنْ بعده لعبْد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مرْوان.

وفيها خالف مرْوان بن محمد يزيد بن الوليد وأظهر الخِلاَف، وتجهَّز للمسِير إلى الشام، وعرض جُنْد الجزيرة في نَيّفٍ وعشرني ألْفًا، فكاتبه يزيدُ ليُبايع له ويُوليه ما كان عبْد الملك ولَّى أباه محمدًا من الجزيرة وإرمينية والموصل وأذْرَبيجان، فبايع له مرْوان، وأعطاه يزيد ولاية ما شرطه له.

(١) النشاش: واد لبني نمير كانت به وقعة بين بني عامر وأهل اليمامة.

ذكر وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

كانت وفاتُه بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ستّ وعشرين ومائة؛ فكانت مدة ولايته خمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا، وقيل ستة أشهر وليلتين، وقيل ستة أشهر؛ وكان عمره ستًّا وأربعين سنة.

واختلف فيه إلى ثلاثين سنة.

وكان أسْمر نحيف البدنِ، رَبْع القامة، خفيف العارِضيْن، فصيحًا شديد العُجْب.

وقيل في صفته: أسمر طويلاً صغير الرأس جميلاً.

وكان نقش خاتمه: يا يزيد، قم بالحق. وقيل: كان نقش خاتمه: العظمةُ لله.

وكان آخر ما تكلَّم به: واحسْرتَاه! واأسفاه! وكان له عقِب كثير.

كاتِبُه: ثابت بن سليمان.

قاضيه: عثمان بن عُمر بن موسى بن معمر التميمي.

حاجبه: قطريّ مولاه. وقيل سلام.

الأمير بمصر: حفْص بن الوليد، ولم يزل عليها إلى أن ولّي مرْوان فاستعفى.

قاضيها: حسين بن نعيم.

ويزيد أوّلُ منْ خرج بالسلاح يوم العيد، وخرج بين صفَّيْن عليهم السلاح. وقيل: إنه كان قَدَرِيًّا. والله أعلم.

ذكر بيعة إبراهيم بن الوليد

هو أبو إسحاق إبراهيم بن الوليد بن عبْد الملك بن مرْوان وأُمُّه أُم ولد اسمها نعمة، وقيل خشَف؛ وهو الثالث عشر من ملوك بني أُمية، قام بالأمْرِ بعد وفاةِ أخيه يزيد في ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وكان يسلَّم عليه تارةً بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحدةٍ منهما؛ فمكث أربعة أشهر، وقيل سبعين يومًا، ثم سار إليه مَرْوان بن محمد، فخلعه على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله، ثم لم يزل حيًّا حتى أُصيب في سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ـ تتمة حوادث سنة ست وعشرين ومائة:

فيها عزَلَ يزيدُ بن الوليد يوسف بن محمد بن يوسف عن المدينة، واستعمل عبْد العزيز بن عمرو بن عثمان، فقدمها في ذي القعدة من السنة.

وحجَّ بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وقيل عُمر بن عبْد الله بن عبد الملك.

سنة سبع وعشرين ومائة:

ذكر مسير مروان بن محمد إلى الشام وخَلْع إبراهيم بن الوليد

في هذه السنة سار مرْوان بن محمد بن مرْوان إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن الوليد، فانتهى إلى قنسْرِين، وبها بِشر ومسرورٌ، ابْنَا الوليد أرسلهما أخوه إبراهيم، فتصافَوْا، ودعاهم مرْوان إلى بيْعته فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبيرة في القَيْسيّة، وأسلموا بشرًا وأخاه مسرورًا، فحبسهما مرْوان، وسار معه أهْلُ قِنّسرين إلى حِمْص، وكان أهلُ حِمْص قد امتنعوا من بيْعة إبراهيم وعبد العزيز، فوجَّه إليهم إبراهيمُ عبْد العزيز في جُنْدِ أهْلِ دمشق، فحاصرهم في مدينتهم، وأسرع مرْوان السير، فلما دنا من حِمْص رحل عبْدُ العزيز عنها، وخرج أهلُها إلى مرْوان فبايعوه، وسارُوا معه، ووجَّه إبراهيم الجنود مِنْ دمشْقَ مع سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفًا ومرْوانُ في ثمانين ألفًا، فدعاهم مرْوان إلى الكفِّ عن قِتَاله وإطلاق الحكم وعثمان ابني الوليد مِنَ السجن، وضَمِن لهم أنَّه لا يطْلُبُ أحدًا من قَتَلَةِ الوليد، فلم يجيبوه وجدُّوا في قتاله فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار إلى العصْر، وكَثُر القَتْلُ بينهم، وكان مرْوان ذَا رأْيٍ ومَكِيدةٍ، فأرسل ثلاثةَ آلاف فارس، وأمرهم أن يأْتُوا عسْكَر سليمان مِنْ خَلْفِه، ففعلوا ذلك، فلم يشعر سليمانُ إلاَّ والقَتْلُ في أصحابه مِنْ ورائهم، فانهزموا، ووضع أهْلُ حِمْص السلاح فيهم لحنَقِهم عليهم، فقتلوا منهم سبعة عشر ألفًا، وقيل ثمانية عشر ألفًا، وكفَّ أهْلُ الجزيرة وقِنّسْرين عن قِتَالهم، وأتوْا مرْوان مِنْ أسراهم بمثل القَتْلى، فأخذ مرْوانُ عليهم البيعة لولدي الوليد، وخَلَّى عنهم، وهرب يزيد بن عبْد الله بن خالد القَسْري فيمن هرب إلى دمشق، فاجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز، واتفقُوا على قَتْل الحكَم وعثمان ولَدِي الوليد، فقُتلا؛ وقتل معهما يوسف بن عمر، وأرادوا قَتل محمد السفياني، فدخل بيتًا من بيوت السجن وأغلقه، فلم يقدروا على فتحه، وأرادوا إحراقَه، فقيل لهم: قد دخلَتْ خَيْلُ مرْوان المدينة، فهربوا، وهرب إبراهيم، واختفى، وانتهب سليمانُ بن هشام ما في بيتِ المال، فقسَّمه في أصحابه، وخرج من المدينةِ، وعاش إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ثم قتله ابن عوف يوم الزَّاب.

وقيل: إنه غرق في ذلك اليوم.

وقيل: قتله مرْوان بن محمد وصلَبه. وكان إبراهيم عاجزًا ضعيف الرَّأْي، وكان خفيف العارِضَيْن له ضَفِيرتان.

وكان نقش خاتمه: توكَّلْتُ على الحيِّ القيوم.

كاتبه: بكير بن السراج اللخمي.

قاضيه: عثمان بن عُمر التميمي.

حاجبه: قطريّ مولى الوليد، ثم ورْدان مولاه. والله أعلم.

ذكر بيعة مروان بن محمد

هو أبو عبْد الله مرْوان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص، وأُمُّه لُبابة جارِية إبراهيم بن الأشْتَر، وكانت كُرْدِية، أخذها محمد من عسْكر إبراهيم، فولدت له مرْوان وعبد العزيز، ولقب بالجعْديّ لأن خاله الجعْد بن دِرهم، فنُسب إليه. ولقب أيضًا حمار الجزيرة.

بُويع له في صفر في سنة سبع وعشرين ومائة، وكان سبب بيْعته أنه لما دخل دِمشْق وهرب إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام ثار منْ بدمشق مِنْ موالي الوليد بن يزيد بن عبْد الملك إلى دارِ عبد العزيز بن الحجاج بن عبْد الملك، فقتلوه ونَبشُوا قَبْر يزيد بن الوليد، وأخرجوه فصلبوه على باب الجابِيةِ، وأُتي مرْوان بالغُلاَمين، الحكم وعثمان مقْتُولَيْن، وبيوسف بن عمر، فدفَنَهم، وأُتي بأبي محمد السُّفْياني في قُيوده، فسلم على مرْوان بالخلافة، ومرْوان يومئذ يسلِّمُ عليه بالإمرة، فقال له مرْوان: مهْ. فقال: إنهما جعلاها لك بعْدهما، وأنشدا شِعْرًا قاله الحكم في السجن، وكانا قد بلغا ووُلِد لأحدهما، وهو الحكم، فقال: [من الوافر]

ألا مَنْ مُبْلِغٌ مرْوان عنِّي ... وعمِّي الغَمْر طال به حنِيْنَا[1]

بأنِّي قد ظُلِمْتُ وصار قَوْمي ... على قَتْلِ الوليدِ مُشَايِعِينَا

أيذْهبُ كلُّهم بِدمي ومالِي ... فلا غَثًّا أصَبْتُ ولا سَمِينا

ومرْوان بأرْضِ بني نِزارِ ... كلَيْثِ الغَابِ مُفْتَرِش عرِينا

أتنكُثُ بيْعتي من أجْل أُمِّي ... فقد بايعْتُمو قَبْلي هجِيْنَا[2]

فإنْ أهْلِكْ أنَا ووليُّ عهْدِي ... فمرْوانٌ أمِيرُ المُؤْمِنِينَا

(١) الغمر: هو الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان أخو الوليد بن يزيد.

(٢) الهجين: اللئيم؛ والهجين من الناس: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية.

ثم قال: ابْسُطْ يدك أُبايعك، وسمعه منْ مع مرْوان.

وكان أول منْ بايعه معاوية بن يزيد بن حُصيْن بن نمير ورُؤُوسُ أهل حِمْص، والناس بعد. فلما استقرَّ له الأمرُ رجع إلى منْزِله بحرَّان، وطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمَّنهما فقدما عليه، وبايعاهُ.

وفي هذه السنة ظهر عبْدُ الله بن معاوية بن عبْد الله بن جعْفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه؛ وكان من أمره ما نَذْكُره إن شاء الله في أخبارهم.

ذكر رجوع الحارث بن سريج

وفي هذه السنة كان رُجوعُ الحارِثِ بن سُريج إلى مَرْو؛ وكان قدومه في جُمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة، وكان ببلاد التُّرْكِ، وكان مقامه عندهم اثْنتي عشرة سنة، وقد قدَّمْنَا من أخباره طَرفًا.

وكان سبب عوْدِه أنَّ الفِتْنَةَ لما وقعت بخُراسان بين نَصْرِ بن سيار والكَرْماني في سنة ست وعشرين في خلافةِ يزيد بن الوليد كما ذكرنا ـ خاف نَصرٌ قدومَ الحارثِ عليه في أصحابه، فأرسل مقاتل بن حيّان النَّبطي وغيره ليردُّوه من بلادِ التُّرْكِ، وسار خالد بن زياد البدِّي التِّرْمِذِي وخالد بن عمرو مولى بني عامر إلى يزيد، فأخذوا للحارث منه أمانًا فأمَّنَه، وأمر نَصْر بن سيار أن يُردَّ عليه ما أخذ له، وأمر عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز بذلك، فلما قدم تلقَّاهُ الناسُ بِكُشْمَيْهَن[1]، ولَقِيه نَصْرٌ وأنزله، وأجْرى عليه كلَّ يوم خمسين درهمًا، فكان يقتصِرُ على لَوْن واحد، وأطلق نَصْر أهْلَه وأولاده، وعرض عليه نَصْر أنْ يوليه ويُعْطيه مائة ألف دينار، فلم يقبل.

وأرسل إلى نَصْر: إني لسْتُ من الدنيا واللذاتِ في شيء، إنما أسألُ كتاب الله والعملَ بالسنَّة واستعمالَ أهْلِ الخير، فإنْ فعلْت ساعدْتُك على عدُوِّك.

وأرسل الحارثُ إلى الكرْماني إذا أعطاني نَصْرٌ العملَ بالكتاب وما سألْتُه عضَدْتُه وقُمْتُ بأمْرِ الله، وإنْ لم يفعل أعنْتُك إن ضَمِنْتَ لي القيام بالعدْل والسُّنة.

ودعا بني تميم إلى نَفْسه، فأجابه منهم ومِنْ غيرهم جمْعٌ كثير، واجتمع إليه ثلاثةُ آلاف، وقال لنصر: إنما خرجْتُ من هذه البلدة منذ ثلاث عشرة سنة إنكارًا للجور وأنت تُرِيدُني عليه.

(١) كشمهين: قرية، كانت عظيمة، من قرى مرو على طرف الرية.

ذكر انتقاض أهل حمص

وفي هذه السنة انتقض أهْلُ حِمْص بعد عوْدِ مرْوان إلى حرَّان[١] بثلاثة أشهر، وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نُعيم، وراسل أهْل حمص منْ بتَدْمُر من كَلْب، فأتاهم الأصبغ بن ذُؤالة الكَلْبي وأولاده، ومعاوية السَّكْسكي، وكان فارس أهل الشام وغيرهما في نحو ألْفٍ مِنْ فُرْسانهم، فدخلوا حِمْص ليلة الفِطْر، فجدَّ مرْوان في السير إليهم ومعه إبراهيم بن الوليد المخلوع، وسليمان بن هشام، فبلغها بعْد الفِطْر بيوْمَيْن، وقد سدَّ أهْلُها أبوابها، فأحْدق بالمدينة ووقف بإزاءِ بابٍ من أبوابها، فنادى مُنَادِيه: ما دعاكُمْ إلى النَّكْثِ؟ قالوا: إنَّا على طاعتِك لم ننكث. قال: فافتحوا. ففتحوا الباب، فدخله عمْرو بن الوضَّاح في الوضَّاحية في نحو ثلاثة آلاف، فقاتلهم منْ بالبلد فكسرتْهُمْ خَيْلُ مرْوان، فخرج مَنْ بها مِنْ باب تَدْمُر، فقاتلهم مَنْ عليه من أصحابِ مرْوان فقُتِل عامَّةُ مَنْ خرج منه، وأفلت الأصبغ وابْنُه، وقَتَل مرْوان جماعةً من أشرافهم، وصلَب خَمْسمائة من القَتْلى حوْلَ المدينة، وهدم مِنْ سُورِها نحو غَلْوة[٢]. وقيل: كان ذلك سنة ثمان وعشرين ومائة. والله أعلم.

ذكر خلاف أهل الغوطة

وفي هذه السنةِ خالف أهْلُ الغُوطَة وولَّوْا عليهم يزيد بن خالد القَسْرِي وحصرُوا دِمشْق وأميرها زَامل بن عمْرو، فوجَّه إليهم مرْوان من حِمْص أبا الورْد بن الكوثر بن زُفَر بن الحارث، وعمْرو بن الوضَّاح في عشْرةِ آلاف، فلما دنَوْا من المدينة حملُوا عليهم، وخرج عليهم منْ بالمدينة؛ فانهزموا، واستباح أصحابُ مرْوان عسْكَرهم، وأحرقوا المِزّة[٣] وقُرًى من قُرى اليمانية، وأُخِذَ يزيد بن خالد فقتل، وبعث زَامِل برأسه إلى مرْوان بحِمْص.

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفيها خَرج ثابت بن نُعيم بعد هؤلاءِ في أهْلِ فلسطين، وأتى طَبَرية فحاصرها،

---

(١) حرّان: قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم... (معجم البلدان).

(٢) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة.

(٣) المزة: قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق.

وعليها الوليد بن مُعاوية بن مرْوان بن الحكم، فقاتله أهْلُها أيامًا، فكتب مرْوان بن محمد إلى أبي الورْد يأمُره بالمسير إليهم، فسار فلما قَرُب منهم خرج أهْلُ طَبريَّة على ثابت فهزموه واستباحُوا عسْكَره، فانصرف إلى فِلَسْطين مُنْهَزِمًا، فتَبِعه أبو الورْد والتقوا واقتتلوا، فانهزم ثانية وتفرّق عنه أصحابُه وأسر ثلاثةً من أولاده، وبعث بهم إلى مرْوان، وتغيّب ثابت وولدُهُ رِفاعة.

واستعمل مرْوان على فلسطين الرُّماحِس بن عبْد العزيز الكناني، فظفر بثابت، فبعثه إلى مرْوان مُوثَقًا بعد شهرين، فأمر به وبأولاده الثلاثة، فقُطعتْ أيديهم وأرجلُهم، وحُمِلوا إلى دِمشْق، فأُلقوا على باب المسجد ثم صُلبُوا على أبوابِ دمشق؛ واستقام أمْرُ الشام لمرْوان إلا تَدْمُر؛ فسار مرْوان إليها، فنزل القَسْطَل(١)، وبعث إليهم فأجابوه إلى الطاعة فبايعهُم، وهدم سُور البلَدِ.

وفيها بايع مرْوان لابنيه عُبيد الله وعبْد الله وزَوَّجهُما ابنتي هشام بن عبد الملك، وجمع لذلك بني أُميّة.

وسار مرْوان إلى الرُّصافَةِ، ونَدَب يزيد بن عُمر بن هُبيْرة إلى العراق لقتالِ الضحاك الخارجي، وأمر أهْل الشام باللّحاق به.

ولما سار مرْوان استأْذَنَه سُليمان بن هشام ليُقِيم أيّامًا ليقوّي منْ معه وتستريح دوابُّهم، فأذِن له.

وتَقَدَّم مرْوان إلى قَرْقِيْسِياء(٢) وبها ابْنُ هبيرة ليُقَدِّمه إلى الضحّاك، فرجع عشرةُ آلاف ممَّنْ كان مرْوانُ أخذ مِنْ أهل الشام لقتالِ الضحاك، فأقاموا بالرُّصافة، ودعوا سليمان إلى خَلْع مرْوان فأجابهم.

ذكر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مرْوان بن محمد

وفي هذه السنة خَلَع سليمان بن هشام مرْوان، وذلك أنه لما استَأْذَنَه في المقام بعده، وأقام، وقدم عليه الجنودُ الذين ذكرناهم حسَّنُوا له خَلْع مروان وقالوا: أنْتَ

(١) القسطل: موضع بين حمص ودمشق، وقيل: موضع قرب البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة.

(٢) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق، وعندها مصب الخابور في الفرات.

أرْضَى عند الناس، وأوْلَى من مرْوان بالخلافة؛ فأجابهم إلى ذلك، وسار بإخْوتِهِ ومواليه، فعسكر بقِنَّسْرين[١]، وأتاه أهْلُ الشام مِنْ كلِّ مكان.

وبلغ الخبرُ مرْوانَ، فرجع إليه من قَرْقِيسياء، وكتب إلى ابْنِ هبيرة يأْمُره بالمقام؛ وكان أولادُ هشام وجماعةٌ مِنْ موالي سليمان بحِصْن الكَامِلِ، فمرَّ عليه مرْوانُ فتحصَّنُوا منه، فأرسل إليهم يحذِّرُهم أن يتعرَّضُوا لأحدٍ ممَّنْ يتْبعُه مِنْ جُنْدِه، فإن تعرَّضُوا لأحدٍ فلا أمانَ لهم، فأرسلوا إليه إنهم يكفُّون عنهم.

ومضى مرْوانُ فجعلوا يُغِيرون على منْ يتْبعُهُ، فاشتدَّ غَيْظُه عليهم.

قال: واجتمع إلى سليمان نَحْوٌ من سبعين ألفًا من أهل الشام والذَّكْوانيَّة وغيرهم، وعسْكَر بقَرْيةِ خُساف[٢] من أرض قِنّسرين.

وأتاه مرْوان والتَقَوْا؛ واشتدَّ القتالُ بينهم، فانهزم سليمان ومنْ معه، واتبعهم مرْوان، فاستباح عسْكَرهُ، وأمر مرْوان بقَتْل منْ يُؤْتَى به من الأسرى إلا عبْدًا مملوكًا، فأُحصي مِنْ قتلاهم يومئذ ما نيّف على ثلاثين ألف قتيل. وقُتل إبراهيم بن سُليمان أكبرُ ولده، وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبْد الملك، وادعى كَثِيرٌ من الجُنْد الأسرى أنهم عبيد؛ فكفَّ عن قَتْلِهم، وأمر ببيْعهِم فيمنْ يزيد.

ومضى سليمان إلى حِمْص، وانضمَّ إليه منْ أفْلت ممَّنْ كان معه، فعسكر بها، وبنى ما كان مرْوان هدمه من سُورِها؛ وسار مرْوانُ إلى حِصْن الكامل، فحصر من فيه، وأنزلهم على حُكْمِه، فمثَّل بهم، وأخذهم أهْلُ الرَّقّةِ فداووْا جِراحاتهم، فهلك بعْضُهم وكانت عِدَّتُهم نحو ثلاثمائة.

ثم سار إلى سليمان، فقال بعضهم لبعض: حتى متى نَنْهزِمُ من مرْوان، فتبايع تسعمائة من فُرْسانِهم على الموت، وساروا بأجمعهم مُجْمعين على أن يبيِّتُوه إنْ أصابُوا منه غِرَّةً، وبلغه خَبرُهم فتحرز منهم، فلم يمكِّنْهم أن يبيِّتُوه، وزحف على احترازٍ وتعبئة، فكمنوا في زَيْتُون في طريقهِ، فخرجوا عليه وهو يسيرُ على تَعْبِئَتِهِ، فوضعوا السلاح فيمنْ معه، فنادى مرْوان خيولَه، فرجعتْ إليه، فقاتلوا مِنْ لَدُن ارتفاع النهارِ إلى بعْدِ العصر، فانهزم أصحابُ سليمان وقُتِل منهم نحو ستةِ آلاف.

---

(١) قنسرين: مدينة قرب حمص قيل: في جبلها قبر صالح النبي عليه السلام، وقيل: قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١... (معجم البلدان).

(٢) خساف: برية بين بالس وحلب، وكان بها قرى وأثر عمارة.

فلما بلغ سليمانَ هزيمتُهُمْ خَلَّف أخاه سَعِيدًا بحِمْص، ومضى هو إلى تَدْمُر، فأقام بها، ونزل مرْوان على حِمْص، فحاصر أهْلَها عشرةَ أشهر، ونصب عليهم نَيِّفًا وثمانين مِنْجنِيقًا يرْمِي بها الليل والنهار، وهم يخرجون إليه في كل يوم فيقاتلونه.

فلما تتابع عليهم البَلاءُ طلبوا الأمانَ على أن يُمكِّنُوه من سعِيد بن هشام وابنيه: عثمان ومرْوان، ومِنْ رجُل كان يسمى السكسكي، كان يُغِير على عسْكَره، ومِنْ رجُلٍ حبشيّ كان يشتم مرْوان، فأجابهم إلى ذلك، واستوثق من سعِيد وابنيه، وقَتَل السكسكي، وسلَّم الحبشي إلى بني سليم، لأنه كان يخُصُّهم بالسّبِّ، فقطعوا ذَكَره وأنْفَه ومثَّلُوا به.

ولما فرغ مرْوان من حِمْص سار نحو الضحّاك الخارجي.

وقيل: إن سليمان لما انهزم بخُساف أقبل هاربًا حتى التحق بعبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز بالعراق، فخرج معه إلى الضحاك، فقال بعض شعرائهم: [من الطويل]

ألـم تـر أنَّ الله أظْـهـر دِيـنَـهُ وصلَّتْ قريشٌ خَلْف بكْر بن وائلِ

ذكر خروج الضحاك محكمًا وما كان من أمره إلى أن قُتِل

وفي سنة سبع وعشرين ومائة خرج الضحَّاك بن قَيْس الشيباني مُحْكمًا ودخل الكوفة.

وكان سببُ ذلك أنَّ الوليد لما قُتِل خرج بالجزيرة حَرُورِيّ يقال له سعيد بن بَهْدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة، فاغتنم سعيد قَتْل الوليد واشتغال مرْوان بالشام فخرج بأرض كَفَر تُوثَا(١)، وخرج بِسْطام البيْهسيّ، وهو مخالِفٌ لرأيِه في مثل عُدَّتهم من ربِيعة، فسار كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبِه.

فلما تقاربا أرسل سعِيدٌ أحد قوَّاده في مائة وخمسين، فقتلوا بسطامًا ومنْ معه إلا أربعة عشر رجلاً. ثم مضى سعِيد نَحْو العراق فمات في الطريق، واستخلف الضحّاك بن قَيْس، فأتى أرْضَ الموصل ثم شَهْرزُور(٢)، فاجتمعت عليه الصُّفْريَّة حتى صار في أربعة آلاف، وهلك يزِيدُ بْنُ الوليد وعامله على العراق عبْد الله بن عُمر بن

(١) كفر توثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، وقيل: كفرتوثا: من قرى فلسطين.

(٢) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك.. وأهل هذه النواحي كلهم أكراد.

عبد العزيز ومرْوان بالجزيرة. فكتب مرْوان إلى النَّضْر بن سعيد الحَرَشيّ ـ وهو أحد قوّاد ابْن عمر بولاية العراق ـ فلم يسلِّم ابْنُ عُمر إليه العمل، فشخص النَّضْرُ إلى الكوفةِ وبقي عبْدُ الله بالحيرة، وتحاربا أربعةَ أشهر.

فلما سمع الضحَّاكُ باختلافهم أقْبل نحْوهم، وقَصد العِراق سنة سبع وعشرين ومائة؛ فأرسل ابْنُ عُمر إلى النَّضْر في الاجتماع عليه، فتعاقدا واجتمعا بالكوفة؛ وكان كلٌّ منهما يُصلِّي بأصحابه.

وأقبل الضحاكُ فنزل بالنُّخَيْلَة[1] في شهر رجب سنة سبع وعشرين ومائة، والتقوا، واقْتَتَلُوا قِتَالاً شديدًا، فكشفوا ابْنَ عُمر، وقتلوا أخاه عاصمًا وجعْفَر بن العباس الكِنْدِيّ، ودخل ابْنُ عمر خَنْدقَه، وبقي الخوارج عليهم إلى الليل ثم انصرفوا؛ وذلك في يوم الخميس ثم اقتتلوا يوْم الجمعة، فانهزم أصحابُ ابْن عمر.

فلما كان يوم السبت تَسلَّلُوا إلى واسِط، فلحق بها وجوهُ الناسِ، فرحل عند ذلك ابْنُ عمر إليها، فلم يأْمنه عُبيْدِ الله بن العبَّاس الكندي على نَفْسه، فسار مع الضحاك وبايعهُ.

ولما نزل ابْنُ عُمر إلى واسِط نزل بدارِ الحجَّاج بن يوسف، وعادت الحرْبُ بينه وبين النَّضْر إلى ما كانت عليه، وسار الضحَّاكُ من الكوفَةِ إلى واسط، ونزل باب المضمار، فترك ابْنُ عمر والنَّضْرُ الحرْبَ بينهما، واتَّفَقَا على قِتَال الضحاك، فلم يزَالُوا على ذلك شعبان ورمضَان وشوَّال، والقِتَالُ بينهم مُتَواصِلٌ. ثم صالحه عبْدُ الله بْنُ عُمر بن عبْد العزيز وسليمان بن هشام، وبايعاهُ، ودفَعاهُ إلى مرْوان.

قال: وكاتب أهْلُ الموصل الضحَّاكَ في القدُوم ليمكِّنُوه من البلَد، فسار إلى الموصل ففتح أهْلُها لَهُ أبوابها، فدخلها، واسْتَوْلَى عليها وعلى كُورها، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة، فبلغ مرْوان خَبرُه وهو يُحاصِر حِمْص، فكتب إلى ابنِهِ عبْدِ الله ـ وهو خليفتُه بالجزيرة ـ أنْ يسير إلى نَصِيبين، ويمْنَع الضحاك من تَوسُّط الجزيرة؛ فسار إليها في سبْعةِ آلاف أو ثمانية آلاف، وسار إليه الضحاكُ، فحصر عبْد الله بن مرْوان بِنَصيبين، وكان مع الضحّاك ما يزيد على مائة ألف.

ثم سار مرْوان إليه، والتَقوْا بنواحي كَفَرْ تُوثَا من أعمال ماردِين[2]، فقاتله يوْمَه

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٢) ماردين: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات. . . (معجم البلدان لياقوت).

أجْمع، فقُتِل الضحاك ولم يَعْلمْ به مرْوان ولا أصحابُه؛ ثم بلغ مرْوان قَتْلُه، فاستخرجه من بين القتلى وفي وجْهِهِ ورأْسِه أكثَرُ من عشرين ضَرْبة.

وبعث مرْوانُ رأْسه إلى مدائن الجزيرة.

وقيل: إنَّ قَتْلَه كان في سنة تسع وعشرين ومائة والله أعلم.

وحيث ذكرنا أخبار الضحاك فلنذكر أخبار من خرج بعْدهُ في أيام مروان:

ذكر خبر الخيبري (الخارجي) وقَتْله وقيام شيبان

قال: ولما قُتل الضحّاكُ أصبح أهْلُ عسكرِه فبايعُوا الخَيْبرِيّ؛ وكان سليمان بن هشام معه، وأصبحوا واقتتلوا، فحمل الخَيبرِيُّ على مرْوان في نحو أربعمائة فارس من أهل الشُّراة، فهُزِم مرْوان وهو في القَلْب، وخرج من العسكر مُنْهزِمًا، ودخل الخَيْبري ومنْ معه عسْكَر مرْوان يُنَادُون بشعارهم ويقتلون منْ أدْركُوه، حتى انتهوا إلى خيم مرْوان، فدخلها الخَيْبرِي وجلس على فرش مرْوان، هذا وميْمنَةُ مرْوانَ ثابتة، وعليها ابْنُه عبد الله؛ وميسرته ثابتة وعليها إسحاق بنُ مُسْلِم العقيلي.

فلما رأى أهْلُ العسْكَرِ قِلَّةَ منْ مع الخَيْبري ثار إليه عبيدُهم بعمد الخيم، فقتلوا الخَيْبرِيّ وأصحابه جميعًا في خيم مروان وحوْلَها، وبلغ مرْوان الخَبرُ، وقد صار بينه وبين العسكر خَمْسةُ أميال أو ستة منهزمًا، فانصرف إلى عسْكَرِه، وبات ليلته تلك، وانصرف الخوارج فولَّوْا عليه شيبان.

ذكر أخبار شيبان الحروري وما كان من أمرِه إلى أنْ قُتل

هو شَيْبان بن عبد العزيز أبو الدَّلْفَاء اليشْكُري.

قال: ولما بايعوه بعد قَتْلِ الخَيْبرِيّ أقام يُقَاتِلُ مرْوان، وتَفَرَّقَ عنه كثير مِنْ أصحابِهِ، فبقي في نحو أربعين ألفًا، فأشار عليهم سليمانُ بن هشام أنْ ينْصرِفُوا إلى الموصل فيجعلوها ظَهْرهم.

فارتحلوا وتَبِعهُم مرْوان حتى انتهوا إلى الموصل فعسْكَرُوا شَرْقيّ دِجْلَة، وعقَدُوا عليها جسرًا، وخَنْدق مرْوان بإزائهم، وأهلُ الموصل يقاتلون مع الخوارج، فأقام مرْوان ستةَ أشْهرٍ يقاتلهم، وقيل تسعة أشهر.

وكتب مروان إلى يزيد بن عُمر بن هُبيْرة يأْمُره بالمسِير من قَرقِيْسِيا، بجميع منْ معه إلى العراق وعلى الكوفة المُثَنَّى بن عمران العائذي، وهو خليفةُ الخوارج بالعراق، فلقي ابْنَ هُبيرة بعيْن التَّمْر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت الخوارِجُ، ثم تجمَّعُوا بالكوفةِ بالنُّخَيْلة فهزمهم ابن هُبيْرة، ثم اجتمعوا بالصَّراة، فأرسل إليهم شيبان عُبيد بن سوَّار في خَيْلٍ عظيمةٍ، فالتقوا بالصَّراة، فانهزمت الخوارجُ، وقُتل عُبيدة، ولم يبْق لهم بقيةٌ بالعراق، واستولى ابْنُ هُبيْرة على العراق، وسار إلى واسط، وأخذ عبْد الله بن عُمر بن عبْد العزيز وحبسه، ووجّه نُباتَة بن حنْظلة إلى سليمان بن حبيب وهو على كُور الأهواز، فأرسل سليمان إلى نُباتة داود بن حاتم، فالتقوا على شاطىء دُجيل؛ فانهزم الناس، وقُتِل داودُ بن حاتم.

وكتب مرْوان إلى ابْنِ هُبيْرة لما استولى على العراق يأْمُره بإرسالِ عامر بن ضُبارة المُرِّي إليه، فسيَّرهُ في سبعة آلاف أو ثمانية، فبلغ شَيْبان خَبرُه، فأرسل الجوْنَ بن كِلاَب الخارجي في جمْع، فالتقوا فهُزم عامِرٌ؛ فأمدَّه مرْوان بالجنود، فقاتل الخوارجَ فهزمهم؛ وقتل الجوْنَ، وسار إلى الموصل، فلما بلغ شيبان قَتْلُ الجوْن ومسيرُ عامر نحوه كرِه أنْ يُقِيم بين العسكرين، فارتحل بمنْ معه، وقدم عامر على مرْوان بالموصل فسيَّره في جمعٍ كثير في أثر شيبان، وأمره ألاَّ يبْدأه بقتَالٍ، فإنْ قَاتَله شَيْبانُ قَاتَلَهُ، وإنْ أمسكَ عنه أمسك، فكان كذلك، حتى مرَّ على الجبل، وخرج على بيضاء[1] فارس، وبها عبْدُ الله بن معاوية بن جعفر، وسار إلى نَحْو كَرمان، فأدركه عامِرٌ، فالتقوا واقتتلوا، وانهزم شَيْبان إلى سجستان فهلك بها، وذلك في سنة ثلاثين ومائة.

وقيل: بل كان قِتَال شيبان ومرْوان على الموصل نحو شهر، ثم انهزم شَيْبان حتى لحق بفارس، وعامرٌ يتْبعه، وسار إلى جزيرةِ ابن كاوَان، ثم إلى عمان فقتله جُلَنْدى بن مسعود بن جَيْفَر بن جُلَنْدى الأزْدِي سنة أربع وثلاثين ومائة، وسنذكره إنْ شاء اللّهُ في أخبار الدولة العباسية.

فلنرجع إلى تتمة حوادث سنة سبع وعشرين ومائة وما بعدها.

فيها كان من أخبار الأندلس وشيعة بني العباس ما نذكرُه إن شاء الله في مواضعه.

---

(١) بيضاء فارس: أكبر مدينة في كورة إصطخر، وإنما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها، وكان معسكرًا للمسلمين يقصدونها في فتح إصطخر. . . (معجم البلدان).

وحجّ بالناس عبد العزيز بن عُمر بن عبد العزيز وهو عاملُ مرْوان على مكة والمدينة والطائف، وكان العامِلُ على العراق النَّضْر بن سعِيد الحَرَشي، وكان من أمره وأمْرِ ابْنِ عمر والضحاك ما قدَّمْنا ذكره. وكان بخراسان نَصْر بن سيّار والكرماني، والحارث بن سُريْج يُنَازِعانه.

وفيها مات سُويد بن غَفَلَة. وقيل سنة إحدى وثلاثين. وقيل سنة اثنتين وثلاثين، وعُمْرُه مائة وعشرون سنة. والله تعالى أعلم.

سنة ثمان وعشرين ومائة:

ذكر مقتل الحارث بن سريج وغَلَبة الكِرْماني على مرْو

وفي هذه السنة كان مقْتَل الحارث بن سُريْج وغَلَبة الكرماني على مرْو.

وكان سبب ذلك أنَّ ابْن هُبيْرة لما ولّي العراقَ كتب إلى نَصْر بن سيَّار بعهْدِ خراسان، فبايع لمرْوان بن محمد، فقال الحارث: إنما أمَّنني يزيد ولم يؤمّني مرْوان، ولا يُجيز مرْوانُ أمان يزيد، فلا آمنه. فخالف نصرًا فأرسل إليه نر يدْعُوه إلى الجماعة وينْهاه عن الفُرْقَة، فلم يُجبْهُ إلى ذلك، وخرج فعسْكَر وأرسل إلى نَصْر: أن اجعل الأمْر شُورى، فأبى نصر، وأمر الحارث جَهْم بن صفْوان رأس الجهْمِيّة، وهو مولى راسِب، أن يقرأ سيرته وما يدْعُو إليه على الناس، ففعل، فلما سمعوا ذلك كثروا وكَثُر جمْعه.

وكان الحارث يُظْهِرُ أنه صاحبُ الرايات السود، فأرسل إليه نَصْر إنْ كنْت كما تزعم وإنكم تهدمون سُور دمشق، وتزيلون مُلك بني أُمية فخذ مني خمسمائة رأْس ومائتي بَعِير، واحتمِلْ من الأموال ما شِئْتَ وآلة الحرب، وسِر، فلعمري إنْ كنْتَ صاحب ما ذكرت إني لفي يدِك، وإنْ كنْتَ لَسْتَ ذاك فقد أهلكْتَ عشيرتك؛ ثم عرض عليه نصر أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل. فقال له نصر: فابدأْ بالكَرْماني فإنْ قتَلْته فأنا في طاعتِكَ، فلم يقبل.

وأمر الحارث أن تُقْرأ سيرتُه في الأسواق والمسجد وعلى بابِ نَصْر، فقُرِئت، فأتاه خَلْق كثير، وقرأها رجلٌ على باب نَصر، فضربه غِلْمان نَصْر، فنابذهم الحارثُ وتجهَّزَ للحرْب، ودلَّه رجلٌ من أهل مرْو على نَقْب في سورها، فمضى إليه الحارث فنقبه، ودخل المدينة من ناحية بابِ بالِين. فقاتله جَهْم بْنُ مسعود الناجي، فقُتِل

جهْم، وانتهبوا منْزلَ سلم بن أحْوز، وقُتل من كان بحرس باب بالِين وذلك لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة يوم الاثنين.

وركب الحارث في سكة السغد(١)، فرأى أعْين مولى حيَّان فقاتله، فقُتِل أعْين، وركب سلْم حين أصبح، وأمر مناديًا فنادى: منْ جاء برأسٍ فله ثلاثمائة. فلم تطلع الشمس حتى انهزم الحارث بعد أنْ قاتلهم الليل كلَّه.

وأتى سلْم عسْكَر الحارثِ فقُتل كاتِبُهُ يزيد بن داود، وقُتِل الرجلُ الذي دلَّ الحارثَ على النقب، وأرسل نَصْر إلى الكَرْماني فأتاه على عهد، وعنده جماعةٌ، فوقع بين سلْم بن أحْوز والمِقْدام بن نُعيم كلامٌ، فأغلظ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، وأعان كلَّ واحدٍ منهما نَفَرٌ من الحاضرين؛ فخاف الكَرماني أن يكونَ مكْرًا مِنْ نَصْر، فقام وتعلَّقُوا به، فلم يجلس، وركب فرسه، ورجع، وقال: أراد نَصْرٌ الغَدْر بي.

وأسر يومئذ جَهْم بن صفْوان وكان مع الكَرْماني فقُتِل، وأرسل الحارثُ ابْنَه حاتمًا إلى الكَرْمانيّ، فقال له محمد بن المثنى: هما عدُوَّاك، دعْهُما يضْطربان.

فلما كان الغَد ركِب الكَرمانيّ فقاتل أصحابَ نَصْرٍ، ووجَّه أصحابه يوم الأربعاء إلى نَصْر، فتراموا ثم تحاجزُوا ولم يكن بينهم يوم الخميس قتالٌ. والتَقَوا يوْم الجمعة فانهزمت الأزْد حتى وصلُوا إلى الكَرْمانيّ، فأخذ اللواءَ بِيدِهِ، فقاتل به فانهزم أصحابُ نَصْر، وأخذوا لهم ثمانين فرسًا، وصُرع تميم بن نَصْر، وسقط سلْم بن أحوز فحُمِل إلى عسكر نَصْر.

فلما كان الليل خرج نَصْرٌ من مرْو، وقَتَل عِصْمة بن عبْد الله الأسدي، وكان يحمي أصحاب نَصْر، واقتتلوا ثلاثةَ أيام، فانهزم أصحابُ الكَرْمانيّ في آخر يوم، وهم الأزْد وربيعة، فنادى الخَليل بن غَزْوان: يا معشر ربيعة واليمن! فدخل الحارث السوقَ ففتَّ في أعضاد المُضَريّة، وهم أصحابُ نَصْر، فانهزموا وتَرجَّل تميم بن نصر فقاتل. فلما هزَمت اليمانيّة مُضَر أرسل الحارث إلى نَصْر: إن اليمانية يُعيِّرُونني بانهزامكم، وأنا كافٌّ. فاجعل حُماة أصحابِك بإزاء الكَرْمانيّ. فأخذ عليه نَصْرٌ العهود بذلك، وقدم على نَصْر عبد الحكم بن سعيد العَوْذي وأبو جعفر عيسى بن جرز مِن مكة: والعَوْذ: بطْنٌ من الأزْد، فقال أبو جعفر لنَصْرٍ: أيها الأمير، حسْبك من الولاية وهذه

---

(١) السغد: ناحية كثيرة المياه نضرة الأشجار متجاوبة الأطيار مؤنقة الرياض والأزهار ملتفة الأغصان خضرة الجنان... فيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند، وقصبتها سمرقند... (معجم البلدان).

الأُمور، فقد أظلَّك أمْرٌ عظيم، سيقوم رجلٌ مجهول النَّسبِ يُظْهِرُ السَّواد، ويدْعُو إلى دولة تكون فيغلب علَى الأمْرِ، وأنتم تنظرون.

فقال نصر: ما أشْبهَ أن يكونَ كما تقول لقلَّةِ الوفَاءِ وسوءِ ذات البيْن.

فقال: إنَّ الحارثَ مقتولٌ مصلوب، وما الكَرْماني من ذلك ببعيد.

قال: ولما خرج نَصْر مِنْ مرْو وغلب عليها الكَرْماني خطب الناس فأمّنهم ثم هدم الدُّور ونهب الأموال، فأنكر الحارث عليه ذلك، فهمَّ الكَرْمانيّ به، ثم تركه، واعتزل بشر بن جُرْمُوز الضبيّ في خمسة آلاف، وقال الحارث: إنما قاتلْتُ معكَ طلبًا للعدْلِ، فأما إذْ تَتْبع الكرماني فما تقاتِلُ إلا ليُقَال غَلَب الحارث، وهؤلاء يقاتِلُونَ عصبيّة؛ فلستُ مقاتلاً معك، فنحن الفئةُ العادِلةُ، لا نقاتل إلاَّ منْ قاتلَنَا، وأتَى الحارثُ مسجد عِياض، وأرسل إلى الكَرْماني يدْعُوه إلى أنْ يكونَ الأمْرُ شُورى، فأبى الكَرْماني، فانتقل الحارثُ عنه، وأقاموا أيامًا.

ثم إنَّ الحارث أتى السُّور فثلَم فيه ثُلْمة، ودخل البلد، وأتى الكرماني، فاقتتلوا، فانهزم أصحابُ الحارث وقُتِلوا ما بين الثلمة وعسكرهم، والحارث على بغل، فنزل عنه وركب فرسًا، وبقي في مائة، فقُتِل عند شجرة زيتون أو غُبيْراء[1]، وقتل أخوه سوادة وغيرهما.

وقيل: كان سبب قَتْله أنَّ الكَرْمانيّ خرج إلى بِشْر بن جُرْمُوز عند اعتزاله، ومعه الحارِثُ، فأقام أيامًا بينه وبين عسكر بِشْر فرسخان، ثم قرب منه ليُقَاتِلَهُ، فندم الحارث على اتِّباع الكَرْمانيّ وقال: لا تَعْجلْ إلى قتالهم فأنا أرُدُّهم عليك.

فخرج في عشرة فوارِس فأتى عسْكَر بِشْر، فأقام معهم، وخرج المُضَرِيَّةُ أصحابُ الحارث إليه، فلم يبْقَ مع الكَرْمانيّ مُضَريّ غير سلمة بن أبي عبْد الله، فإنه قال: لم أرَ الحارثَ إلاَّ غادرًا، وغير المهلَّب بن إياس، فقاتلهم الكَرماني مرارًا يقتتلون ثم يرجعون إلى خَنادِقهم مرّةً لهؤلاء ومرةً لهؤلاء.

ثم ارتحل الحارثُ بعد أيام، فنقب سُور مرْو ودخلها، وتَبعهُ الكَرْماني، فدخلها أيضًا، فقالت المضريَّة للحارث: قد فَررْتَ غير مرَّةٍ، فترجّل، فقال: أنا لكم فارسًا خَيْرٌ مني لكم راجِلاً. فقالوا: لا نَرْضَى إلا أنْ تَترجّل، فترجَّل، فاقتتلوا هم والكِرْماني، فقُتل الحارث وأخواه وبِشْر بن جُرْموز، وعِدّةٌ من فُرْسان تميم، وانهزم

(١) الغبيراء: جنس نبات شجيري من الفصيلة الوردية، فيه أنواع حرجية، وأخرى تزرع للتزيين أو لثمارها.

الباقون، وصفَتْ مرْو لِلْكَرْماني واليمن، فهدموا دُور المضريّة، فقال نصر بن سيَّار للحارث حين قُتِل: [من السريع]

يـا مُـدْخِـل الـذُّلّ عـلـى قَـوْمِـه بُـعْـدًا وسُـحْـقًـا لـك مِـنْ هـالِـكِ
شُـؤْمُـكَ أرْدى مُـضَـرًا كُـلَّـهـا وعـضَّ مِـنْ قَـوْمـكَ بـالْـحـارِكِ[1]
مـا كـانـت الأزْدُ وأشْـيـاعُـهـا تَـطْـمـعُ فـي عـمْـرِو ولا مـالـكِ[2]
ولا بـنـي سـعْـدٍ إذ ألْـجـمُـوا كُـلَّ طـمِـرٍّ لَـوْنُـهُ حـالِـك

وفي هذه السنة كان اجتماع أبي حمْزَة الخارجي وعبْد الله بن يحيى المعروف بطالب الحقّ، واتَّفَقَا على الخروج على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وحجَّ بالناس عبْد العزيز بن عُمر بن عبْد العزيز وهو عامل مَكَّةَ والمدينة، وكان بالعراق عمال الضحاك الخارجي وعبْد الله بن عمر بن عبد العزيز، وبخراسان نصر بن سيار والفتنةُ قائمةٌ.

سنة تسع وعشرين ومائة:

ذكر مقتل الكرماني
وهو جُديع بن علي الأزْدي

قال: ولما خلصت مرْو للكَرْماني وتنحّى نَصْرٌ عنها أرسل نَصْرٌ أصحابه لقتالِهِ مرارًا، كلُّ ذلك والظَفَرُ لأصحابِ الكَرْماني، ثم خرجوا جميعًا واقتتلوا قِتَالاً شديدًا، وذلك بعد ظُهور أمْرِ أبي مسلم الخُراساني ودعوته لبني العباس، فكتب أبو مسلم إلى نَصْر والكرماني: إن الإمام أوصاني بكما. ثم أقبل بمنْ معه حتى نزل خَنْدقَيْهما، فهابه الفريقان. وبعث إلى الكَرْماني: إني معك. فقَبِل ذلك، وانضمَّ أبو مسلم إليه، فاشتدَّ ذلك على نَصْر، وأرسل إلى الكَرْماني يخوِّفُه مِنْ أبي مُسْلم، ويقول له: ادْخُل إلى مرْو، واكتب بيننا كتابًا بالصُّلْح، وهو يريدُ أنْ يفرِّقَ بينهما، فدخل الكَرْماني منْزِلَه، وأقام أبو مسلم في العسْكَر، وخرج الكَرْماني حتى وقف في الرَّحْبَةِ[3] في مائة فارس وأرسل إلى نَصْر أن اخرج لنكتب الكتاب.

---

(١) الحارك: أعلى الكاهل.
(٢) سعد وعمرو ومالك: من رجالات تميم.
(٣) الرحبة: الساحة المتسعة، أو الأرض الواسعة.

فلما نظر نَصْرٌ إلى غِرَّة الكَرْماني أرسل إليه ثلاثمائة فارس، فاقتتلوا قتالاً شديدًا فطُعِنَ الكَرْماني في خاصرته، فخَرّ عن دابَّتِهِ، وحماه أصحابه حتى جاءهم ما لا قِبل لهم به. فقتل نَصْر الكرماني وصلَبه، وصلَب معه سمكة.

فأقبل ابْنُه عليٌّ وقد جمع جمْعًا كثيرًا، وانضمَّ إلى أبي مسلم، وقاتلوا نَصْر بن سيّار حتى أخرجوه من دارِ الإمارة. ودخل أبو مسلم مرْو على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الدولة العباسية.

قال: ولما رأى نَصْرٌ قوةَ أبي مُسْلم كتب إلى مرْوان بن محمد يُعْلِمُه حال أبي مسلم وخُروجه وكثرةَ منْ معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب إليه بأبياتِ شِعْرٍ، وهي: [من الوافر]

أرى بيْنَ الرَّمادِ ومِيضَ نارٍ ... فأوشك أنْ يكونَ له ضِرامُ
فإنَّ النار بالعُوديْنِ تُذْكَى ... وإنَّ الحرْب مبدؤُها كَلاَمُ
فقلْتُ من التَعجُب ليْتَ شِعْرِي ... أأيقاظٌ أُميَّةُ أم نِيامُ

فكتب إليه مرْوان: إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثُّؤْلُول[١] قِبلَك.

فقال نصر: أمّا صاحِبُكم فقد أعْلَمكُم أنَّهُ لا نَصْر عِنده.

وكتب نصر إلى يزيد بن هبيرة بالعراق يستمدُّه. فلما قرأ كتابه قال: لا تكثر، فليس له عندي رجل. ثم قبض مرْوان على إبراهيم الإمام وحبسه، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله في أخبارهم.

ذكر خبر أبي حمزة المختار
ابن عوف الأزدي البصري مع طالب الحقّ
عبْد الله بن محمد بن يحيى الحضرمي

كان المختار من الخوارج الأباضِيّة[٢]، وكان يُوافِي مكة في كل سنة يدْعُو الناس إلى خِلافِ مرْوان بن محمد، فلم يزل كذلك حتى وافَى عبْد الله بن محمد بن يحيى الحضرمي المعروف بطالب الحقّ في آخر سنة ثمان وعشرين ومائة، فقال له: يا

---

(١) الثؤلول: البثر الصغير.
(٢) الإباضية: فرقة من الخوارج، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي.

رجُل، أسْمعُ كلامًا حسنًا، وأراك تدعو إلى حقّ، فانْطَلِقْ معي، فإني رجُلٌ مُطَاعٌ في قومي، فخرج حتى ورد حضْرموت، فبايعه أبو حمزة على الخِلافَةِ، ودعا إلى خِلاف مرْوانَ، وقد كان أبو حمزة اجتاز مرَّة بمعْدِن بني سُلَيم(١)، والعامِلُ عليه كثير بن عبْد الله، فسمع كلام أبي حمزة فجلده أرْبعين سوطًا، فلما ملك أبو حمْزَةَ المدينةَ على ما نذكره تغيَّب كثير.

وفي هذه السنة قدم أبو حمزة إلى الحجّ من قِبل عبْد الله بن محمد طالب الحقِّ، فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلاَّ وقد طلعتْ عليه أعلامٌ وعمائمُ سُود على رؤوس الرماح، وهم سبْعمائة، ففزِع الناس، وسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بخلافِه مرْوان وآله، فراسلَهُمْ عبْدُ الواحد بنُ سليمان بن عبْد الملك، وهو يومئذ على مكَّةَ والمدينة، وطلب منهم الهُدْنَةَ أيام الحج، فقالوا: نحن بِحجِّنَا أضَنُّ وعليه أشحّ، فصالحهم على أنهم جميعًا آمِنُون بعضهم من بعض حتى تَنْفر الناسُ النفر الأخير، فوقفوا بعرفة على حِدة، ودفع بالناس عبْدُ الواحد ونزل بمنزل السلطان بِمنى، ونزل أبو حمزة بقُرين الثَّعالب. فلما كان النفر الأول نَفر عبْد الواحد وأخلى مكَّة فدخلها أبو حمزة بغير قتالٍ، فقال بعضهم في عبد الواحد: [من الكامل]

زار الحجيجَ عِصابةٌ قد خالفوا ... دِينَ الإلٰه ففَرَّ عبْدُ الواحد
تركَ الحلائِل والإمارةَ هارِبًا ... ومضى يُخَبِّطُ كالبعِير الشارِدِ

ومضى عبْد الواحد حتى دخل المدينة، وزاد أهلَها في العطاء عشرة عشرة، واستعمل عبْد العزيز بن عبْد الله بن عمرو بن عثمان، فخرجوا حتى وصلُوا العقِيق، وأتَتْهم رسلُ أبي حمزة يقولون: إنَّنا واللهِ ما لنا بقِتَالِكم مِنْ حاجة، دعُونا نمضي إلى عدُوِّنا.

فأتى أهْلُ المدينة وساروا حتى نزلوا قُديْدًا(٢)، وكانوا مُتْرفين ليسوا بأصحابِ حرْب، فلم يشعروا إلاَّ وقد خرج عليهم أصحاب أبي حمْزَة من الغِياض فقتلوهم. وكانت المقْتَلَةُ في قريش، فأُصِيب منهم عددٌ كثير، وقدم المنهزمون المدينة، فكانت المرأةُ تُقيم النوائح على حمِيمها، ومعها النساءُ فتأتيهم الأخبارُ عن رِجالهم، فيخرجن امرأةً امرأةً كلُّ واحدة تذهب لقَتْل رجُلِها فلا يبقى عندها امرأة، وذلك لكثْرةِ منْ قتل.

---

(١) معدن بني سليم: من أعمال المدينة على طريق نجد.

(٢) قديد: موضع قرب مكة.

قيل: كان عدد القتلى سبعمائة، وكانت هذه الوقعة لسبع مضَين من صفر سنة ثلاثين ومائة. والله أعلم.

ذكر دخول أبي حمزة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

قال: ودخل أبو حمْزَة المدينة في ثالث عشر صفر، ومضى عبْد الواحد إلى الشام.

ولما دخل أبو حمْزَة رقي المنبر فخطب، وقال: يا أهْل المدينة، مررت زمانَ الأحول ـ يعني هشام بن عبد الملك ـ وقد أصاب ثِمارَكم عاهةٌ، فكتبْتُم إليه تسألونه أنْ يضَع عنكم خَرْصكم[١]. ففعل فزاد الغَنِيُّ غِنًى والفَقِيرُ فقرًا، فقلتم له: جزَاكَ اللّهُ خَيْرًا، فلا جزاكم اللّهُ خيرًا، ولا جزَاه. واعلموا يا أهْل المدينة أنَّا لم نَخْرُجْ من ديارنا أشَرًا ولا بطَرًا، ولا عبثًا ولا لدولة ملك نُرِيد أن نخوضَ فيه ولا لثَأر قديم نِيْل منا، ولكنا لمَّا رأيْنَا مصابيح الحقّ قد عُطِّلَت، وعُنِّف القائل بالحق، وقُتِل القائمُ بالقِسْط ـ ضاقَتْ علينا الأرْضُ بما رحُبتْ، وسمعْنَا داعِيًا يدْعُو إلى طاعةِ الرحمٰن وحُكْم القرآنِ، فأجبْنَا داعِي الله، ومنْ لا يُجِبْ داعِي الله فليس بمُعْجزٍ في الأرضِ؛ فأقبلناَ من قبائل شتّى، ونحن قليلون مستَضْعفُون في الأرض، فآوانَا وأيَّدنَا بِنَصْرِه، فأصبحنا بنعمته إخوانًا.

ثم لَقينا رجالَكمُ فدعوْناهم إلى طَاعةِ الرحمٰن، وحُكْم القرآن، فدعوْنَا إلى طاعة الشيطان وحُكْم بني مرْوان، فشتَّانَ ـ لعمْرُ اللّهِ ـ ما بيْنَ الغيّ والرُّشْدِ. ثم أقبلوا يُهْرعُون قد ضَرب الشيطانُ فيهم بجِرانِه[٢]، وغلَتْ بدمائِهم مراجِلُه، وصدق عليهم ظَنُّه، وأقبل أنصار الله تعالى كتائب بكلّ مُهَنَّدٍ ذي روْنَق، فدارت رحانَا، واستدارت رحاهُمْ بضَرْب يرتابُ منه المُبْطِلُونَ.

وأنتم يا أهْل المدينة إنْ تَنْصُروا مرْوان وآل مرْوانَ يُسْحِتكم[٣] اللّهُ بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشْفِ صدور قَوْم مؤمنين.

يا أهل المدينة؛ أوَّلُكم خَيْرُ أول، وآخركم شرُّ آخر، يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم فَرضَها اللّهُ تعالى في كتابه على القويِّ والضعيف، فجاء تاسعٌ ليس له فيها سهْمٌ، فأخذها لنفسه مُكَابِرًا محاربًا ربَّه.

---

(١) الخرص: الحزر والتقدير.

(٢) جران الشيطان: ثقله.

(٣) يسحتكم الله: يستأصلكم.

يا أهلَ المدينة، بلغني أنكُم تنتقصون أصْحابي، قلتم: شبابٌ أحداث، وأعرابٌ جُفاة، ويْحكُم وهل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ إلا شبابًا أحْداثًا، شباب والله، إنهم مُكْتَهِلُون في شبابهم، غَضَّةٌ عن الشرِّ أعْيُنُهم، ثقيلة عن الحقّ أقدامُهم.

قال: وأحسنَ السيرةَ مع أهل المدينة، واستمال الناس حتى سمعوه يقولُ: من زَنَى فهو كافر، من سرق فهو كافر، ومن شَكَّ في كُفْرِهما فهو كافر.

وأقام أبو حمْزَة بالمدينة ثلاثة أشهر، ثم ودَّعهم، وقال: يا أهل المدينة؛ إنَّا خارجون إلى مرْوان، فإنْ نظفَرْ نعدِلْ في أحكامكم ونحملكم على سنَّةِ نبيكم، وإن يكن ما تتمنَّوْن فسيعْلَمُ الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَب ينْقَلِبُون.

ذكر مقتل أبي حمزة

قال: ثم سار أبو حمْزَةَ نحو الشام، وكان مرْوان قد انتخب من عسكره أربعة آلافِ فارس، واستعمل عليهم عبْد الملك بن محمد بن عطية السعدي - سعْد هوازنَ - وأمره أن يجِدَّ السير ويُقَاتِل الخوارج، فإن ظفر فيسير حتى يبلغَ اليمن ويقاتل عبْد الله بن يحيى طالب الحقّ، فسار ابْنُ عطية، فلقي أبا حمْزَة بوادِي القُرى[1]، فقال أبو حمزة لأصحابه: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم. فصاحوا بهم: ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابْنُ عطية: نَضَعُه في جوف الجُوالق[2]. قال: فما تقولون في مالِ اليتيم؟ قال ابن عطية: نأْكل مالَه ونَفْجُر بأُمِّه - في أشياء سألوه عنها.

فلما سمعوا كلامه قاتلوه حتى أمْسَوْا فصاحوا: ويحك يا بْنَ عطية! إنَّ الله قد جعل الليل سكَنًا، فاسْكُنْ.

فأبى وقاتلهم، فانهزم الخوارجُ، وأتوا المدينةَ فقتلهم أهلُها، وسار ابْنُ عطية إلى المدينة، فأقام بها شهرًا وسار إلى اليمن، واستخلف على المدينة الوليد بن عُروة بن محمد بن عطية، وعلى مكة رجل من أهل الشام.

ذكر مقتل عبد الله بن يحيى المنعوت بطالب الحقّ وقَتْل ابن عطية

قال: وأقبل ابْنُ عطية إلى اليمن، فبلغ عبْد الله خَبرُهُ وهو بصنْعاء، فأقبل إليه

(١) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى.

(٢) الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما.

بمنْ معه، والتَقَوْا واقتَتَلُوا، فَقُتِل طالبُ الحق، وحُمل رأسه إلى مرْوان بالشام، ومضى ابْنُ عطية إلى صنْعاء، فدخلها وأقام بها، فكتب إليه مرْوانُ يأمُرُه أنْ يُسْرِع السيْرَ ليحجَّ بالناس؛ فسار في اثني عشر رجلاً ومعه أربعونَ ألْف دينار، وخلَّف عسكَرهُ وخَيْلَه بصنْعاء؛ فبينا هو يسير أتاهُ ابنا جُمانة المراديّان في جمْعٍ كثير، فقالوا له ولأصحابه: أنتم لصوص، فأخرج ابْنُ عطيّة عهْده على الحج، وقال: هذا عهْدُ أمير المؤمنين، وأنا ابْنُ عطية. فقالوا: هذا باطل، وأنتم لصوص، فقاتلهم ابْنُ عطية حتى قُتِل في سنة ثلاثين ومائة.

- نعود إلى تتمة حوادث سنة تسع وعشرين ومائة:

في هذه السنة كان ظهورُ الدولةِ العباسية بخُراسان على ما نذكره في أخبار الدولةِ العباسية.

وفيها غلب عبْد الله بن معاوية على فارس على ما نذكر ذلك في أخبار آلِ أبي طالب.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الواحد، وكان هو العامل على مكَّةَ والمدينة والطائف وعلى العراق ابن هُبيْرة، وعلى خراسان نَصْرُ بن سيَّار، والفتنة قائمة.

سنة ثلاثين ومائة:

في هذه السنة دخل أبو مسلم الخُراساني مَرْو، وبايع الناس لبني العباس على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وفيها هرب نَصْر بن سيَّار عن خراسان.

وفيها كان من أخبارِ الدولة العباسية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها غَزَا الوليد بن هشام الصائفة، فنزل العَمْق[1] وبنى حِصْنَ مرْعش.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمدُ بن عبْد الملك بن مروان، وهو أمِيرُ مكَّةَ والمدينة والطائف.

سنة إحدى وثلاثين ومائة:

في هذه السنة مات نَصْر بن سيّار، ودخل قَحْطَبة الرَّيّ من قِبل أبي مسلم الخراساني، ثم دخل أصفهان، وفتحت شَهْرزور لبني العباس، وسار قَحْطَبةُ إلى العراق لقتال ابْنِ هُبيْرة.

---

(١) العمق: علم مرتجل على جادة الطريق إلى مكة بين معدن بني سليم وذات عرق.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بن عُرْوة بن محمد بن عطية السعدي، وهو ابْنُ أخِي عبْد الملك بن محمد، وكان على الحجاز؛ ولما بلغه قتلُ عمه عبد الملك توجّهَ إلى الذين قتلوه، فقتل منهم مقْتَلةً عظيمة؛ وبقَر بطونَ نسائهم، وقتل الصِّبْيان، وحرق بالنار منْ قَدر عليه منهم، وكان على العراق يزيد بن هبيْرة.

سنة اثنتين وثلاثين ومائة:

في هذه السنة كانت هزيمة يزيد بن هُبيرة عامل العراق.

وفيها خرج محمد بن خالد بن عبْد الله القَسْرِي مُسوّدًا بالكوفة، وأخرج عامل ابْن هُبيرة منها على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها كان انقضاءُ الدّوْلَةِ الأُموية، وابتداء الدولة العباسية، وبيْعةُ أبي العباس السفَّاح بالخلافة.

وسار عبْدُ الله بن عليّ بن عبْد الله بن عباس إلى مرْوان بن محمد بأمْر السفاح، فلقيه بِزَابِ الموْصِل، واقتتلوا، فانهزم مرْوانُ إلى مِصْر، فلحقه صالحُ بن علي أخو عبْد الله بِبُوصِير[1]، فقتله ليلةَ الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة على ما نذكر ذلك إن شاء الله مبيَّنًا في أخبار الدولة العباسية، جرْيًا في ذلك على القاعدةِ التي قدَّمْناها.

ولما قُتل مروانُ بن محمد كان له من العُمْر تسعٌ وخمسون سنة. وقيل: أقلّ من ذلك.

وكانت ولايته إلى أن بُويع للسفاح خمس سنين وشَهْرًا، وإلى أنْ قُتل خمس سنين وعشرة أشهر.

وكان نقش خاتمه: اذكر الموتَ يا غافلُ.

وكان له من الأولاد: عبْدُ الله، وعُبيد الله؛ هربا بعد قَتْله. فأما عبْد الله فقتله الحبشةُ، وعُبيد الله أعقب.

وقيل: إنه أُخذ وحُبس إلى أيام الرشيد، فمات ببغداد، بعد أنْ أضر.

كاتبه: عبد الحميد بن يحيى موْلَى بني عامر.

قاضيه: عثمان التيمي.

حاجبه: مقلار مولاه.

---

(١) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر... (معجم ياقوت).

الأُمراء بمصر: منهم حسّان بن عتاهية، أقام ستة عشر يومًا ثم وليها حفْص بن الوليد، ثم عزله مرْوان وولّى جوهر بن سهل العجلاني، ثم بعثه مددًا إلى ابن هُبيرة، وولاَّها المغيرة بن عُبيد الله، ثم توفي فولاَّها عبْدُ الملك بن مروان بن موسى بن نصير.

القاضي بها: عبْدُ الرحمٰن بن سالم بعد أنْ صرف حسين بن نُعيم، ولم يزل بها قاضيًا إلى إمارة عبْد الملك بن يزيد.

جامع أخبار بني أمية

كانت مدةُ ولايتهم منذ خلص الأمْرُ لمعاوية بن أبي سفيان وإلى أنْ قُتل مروان بن محمد إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام، منها مدةُ عبْدِ الله بن الزُّبير تسع سنين واثنان وعشرون يومًا.

وعدة من ولّي منهم أربعة عشر رجلاً، وهم: معاوية بن أبي سفيان، يزيد بن معاوية، الوليد بن يزيد بن عبد الملك، معاوية بن يزيد بن معاوية، مرْوان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، هشام بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، يزيد بن عبد الملك، مروان بن محمد بن مروان، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد بن عبد الملك، إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، يزيد بن معاوية بن عبْد الملك، هذا وعليه انقرضت دولتهم بالمشرق، ثم قامت لهم دولة بالأندلس، سنذكرها إن شاء الله تعالى بعد ذِكْرِنا الدولة العباسية، وإنما فصلنا ما بين دولتهم بالمشرق ودولتهم بالمغرب وجعلنا الدولة العباسية بينهما لتكونَ أخبارُ الدولتين سياقةً، ولأن بعض أخبار الدولة العباسيّة متعلِّقٌ بأخبار الدولة الأُموية، فإذا ذكرناها بعد لا ينقطع سِياق الأخبار، لأن دولتهم بالأندلس لم تكن تِلْو دولتهم هذه، بل كانت بعد سنين من قيام الدولةِ العباسية.

فصاروا إذًا كالخوارج عليهم، والله تعالى الموفق للصواب والهادي له بمنّه وكرمه.

تم الجزء الحادي والعشرون
ويليه الجزء الثاني والعشرون
وأوله: أخبار الدولة العباسية

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النّويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثاني والعشرون

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الرابع
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار الدولة العباسية بالعراق وغيره والديار المصرية وما معها خاصة وابتداء أمر الشيعة وظهورهم وما كان منهم إلى أن أفضى إلى أبي العباس عبد الله السفاح ومن قام بالأمر بعده إلى وقتنا هذا.

ذكر ابتداء ظهور دعوة بني العباس وأمر الشيعة

قال ابن الأثير[1] الجزري رحمه الله تعالى في تاريخه الكامل، كان ابتداء ظهور دعوة بني العباس في خلافة عمر بن عبد العزيز، وذلك أن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ـ وهو والد أبي العباس السفاح ـ بثّ دعاته في الآفاق في سنة مائة من الهجرة، وكان ينزل بأرض الشَّراة[2] من أعمال البلقاء بالشام، وكان أمر الشيعة بعد قتل الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما صار إلى أخيه محمد بن الحنفية،

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين؛ ولد بالجزيرة ونشأ بها، ثم سار إلى الموصل مع والده وأخويه، وسكن الموصل وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي ومن في طبقته... كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا التواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٢) الشراة: بفتح أوله: وهو جبل شامخ مرتفع في السماء من دون عسفان تأوي إليه القرود ينبت النبع والقرظ والشوحط، وهو لبني ليث خاصة ولبني ظفر من سليم.. وبه عقبة تذهب إلى ناحية الحجاز لمن سلك عسفان يقال لها الخريطة مصعدة مرتفعة جدًا... (معجم البلدان).

وقال بعض المؤرخين إنه صار إلى علي بن الحسين، ثم إلى محمد بن علي الباقر، ثم إلى جعفر بن محمد، والذي عليه الأكثر أن محمد بن الحنفية أوصى به إلى ابنه أبي هاشم، فلم يزل قائمًا بأمر الشيعة، فلما كان في أيام سليمان بن عبد الملك وفد عليه فأكرمه سليمان، وقال ما ظننت قرشيًّا قط يشبه هذا وقضى حوائجه، ثم شخص من عنده يريد فلسطين، فلما كان ببلد لَخْم وجُذَام ضربت له أبنية في الطريق ومعهم اللبن المسموم، فكلما مرّ بقوم قالوا: هل لك في الشراب، فيقول جزيتم خيرًا، حتى مرّ بآخرين فعرضوا عليه، وهو يظنهم أنهم من لَخْم وجُذام، فقال هاتوا وشرب، فلما استقر في جوفه أحسّ بالسم، فقال لأصحابه إني ميت، فانظروا مَنْ القوم؟ فنظروا مَنْ القوم فإذا هم قوّضوا أبنيتهم ورحلوا، فقال ميلوا بي إلى ابن عمي وأسرعوا، فإني أحسب أني لا ألحقه، وكان محمد بن علي والد أبي العباس السفاح بالحُمَيْمة[1] من أرض الشراة بالشام.

ذكر تفويض أمر الشيعة إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس وبثه الدعاة

قال: فلما وصل أبو هاشم إلى محمد بن علي قال: يا ابن عم، إني ميت وأنت صاحب هذا الأمر، وولدك ابن الحارثيّة هو القائم به، ثم أخوه من بعده، والله لا يتم هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من خراسان، ثم ليغلبنّ على ما بين حضرموت وأقصى إفريقية وما بين الهند وأقصى فرغانة، فعليك بهؤلاء الشيعة فهم دعاتك وأنصارك ولتكن دعوتك خراسان، واستبطن هذا الأمر الحيّ من اليمن، فإنّ كل مُلْك لا يقوم بهم، فأمره إلى انتقاض وأمرهم فليجعلوا اثني عشر نقيبًا وبعدهم سبعين نقيبًا، فإنّ الله تعالى لم يصلح بني إسرائيل إلا بهم، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، فإذا مضت سنة الحمار فوجّه رسلك نحو خراسان، فمنهم من يقتل ومنهم من ينجو، حتى يظهر الله دعوتكم، فقال محمد بن علي: أبا هاشم وما سنة الحمار؟ قال: إنه لم تمضِ مائة سنة من نبوّة إلا انتقض أمرها، لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] إلى قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية، ثم مات أبو هاشم وكان قد أعلم شيعته من

(١) الحميمة: بلفظ تصغير الحمة: بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام كان منزل بني العباس، وأيضًا قرية ببطن مرّ من نواحي مكة بين سروعة والبريراء فيها عين ونخل. . . (معجم البلدان).

أهل خراسان والعراق عند ترددهم إليه، أن الأمر صائر إلى ولده محمد بن علي، وأمرهم بقصده بعده، فلما مات أبو هاشم قصدوا محمدًا وبايعوه، وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم، وكان الذين سيّرهم إلى الآفاق جماعة، فوجّه مَيْسَرة إلى العراق، ومحمد بن خُنَيْس وأبا عِكْرَمة السرَّاج ـ وهو أبو محمد الصادق ـ وحَيَّان العطَّار ـ خال إبراهيم بن سَلَمَة ـ إلى خراسان، وعليها يوم ذاك الجرَّاح الحكمي، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب إلى محمد بن علي فدفعوها إلى مَيْسرة، فبعث بها إلى محمد، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيبًا، منهم سليمان بن كَثِير الخُزَاعي، ولاَهِز بن قُرَيْظ التميمي، وقَحْطَبَة بن شبيب الطائي، وموسى بن كَعْب التميمي، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني شيبان بن ذهل، والقاسم بن مُجَاشع التميمي، وعِمْران بن إسماعيل أبو النجم مولى أبي مُعَيْط، ومالك بن الهَيْثَم الخزاعي، وطلحة بن زُرَيق الخزاعي، وعمرو بن أعْيَن أبو حمزة مولى خُزاعة، وشِبْل بن طَهْمَان أبو علي الهَرَوي مولى لبني حنيفة، وعيسى بن أعْيَن مولى خزاعة، واختار سبعين رجلاً فكتب إليهم محمد بن علي كتابًا، ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها، وذلك في سنة مائة من الهجرة.

ذكر مولد أبي العباس السفاح

قال: كان عبد الملك بن مروان قد منع محمد بن علي أباه من زواج أمه، وهي ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي، ثم منعه الوليد وسليمان بعده لأنهم كانوا يرون أن ملكهم يزول على يد رجل من بني العباس يقال له ابن الحارثية، فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكى محمد بن علي ذلك، وسأله ألا يمنعه من زواجها وكانت بنت خاله، فقال له عمر: تَزوَّجْ مَنْ شئت فتزوّجها، فولدت له أبا العباس السفاح في شهر ربيع الآخر سنة أربع ومائة، ووصل إلى أبيه محمد بن علي أبو محمد الصادق من خراسان في عدة من أصحابه، فأخرج إليهم أبا العباس في خرقة وله خمسة عشر يومًا، وقال لهم هذا صاحبكم الذي يتم الأمر على يديه، فقبلوا أطرافه، وقال لهم: والله ليتمنّ هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوكم.

وفي سنة خمس ومائة: قدم بُكَيْر بن مَاهَان من السند وكان بها مع الجُنَيْد بن عبد الرحمٰن، فلما عزل الجُنَيْد قدم بُكَير إلى الكوفة، ومعه أربع لبنات[1] من فضة

---

(١) اللبنة: جمع اللبن: المضروب من الطين يبنى به دون أن يطبخ.

ولبنة من ذهب، فلقي أبا عكرمة الصادق، وميسرة، ومحمد بن خُنَيْس، وسالم الأعْيَن، وأبا يحيى مولى بني مسلمة، فذكروا له أمر دعوة بني هاشم فقبل ذلك، وأنفق ما معهم عليهم ودخل إلى محمد بن علي، فأقامه مقامه.

وفي سنة سبع ومائة: وجّه بُكَيْر بن ماهان أبا عكرمة ومحمد بن خُنَيْس وعَمَّار العِبَادِي وزيادًا ـ خال الوليد الأزرق ـ في عدة من شيعتهم دعاةً إلى خراسان، فجاء رجل من كِنْدة إلى أسَد بن عبد الله القَسْرِي وهو أمير خراسان، فوشى بهم فأتي بأبي عِكْرَمَة ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه، ونجا عمَّار، فقطع أسد أيدي من ظفر به منهم وصلبه، وأقبل عَمار إلى بُكَيْر بن ماهان فأخرجه، فكتب إلى محمد بن علي بذلك، فأجابه: الحمد لله الذي صدق دعوتكم ومقالتكم، وقد بقيت منكم قتلى ستقتل. وقيل إن أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى هَمدان.

وفي سنة تسع ومائة: بعثه محمد بن علي وقال له: انزل اليمن والطف مُضَر، ونهاه عن رجل من نيسابور يقال له غالب، فلما قدم دعا إلى بني العباس وذكر سيرة بني أمية وظلمهم، وأطعم الناس الطعام، وقدم عليه غالب وتناظرا في تفضيل آل عليّ وآل العباس، وافترقا وأقام زياد بمرو شَتْوَة يختلف إليه من أهلها يحيى بن عقيل الخزاعي وغيره، فأخبر به أسد فدعاه وقال له: ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال: الباطل، إنما قدمت في تجارة وقد فرّقت مالي على الناس، فإذا اجتمع خرجت، فقال له أسد: اخرج عن بلادي، فانصرف وعاد إلى أمره، فرفع أمره إلى أسد وخوّف جانبه، فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة، ولم ينج منهم إلا غلامان استصغرهما وقيل: أمر بزياد أن يوسط بالسيف، فضربوه فلم يعمل السيف فيه فكبّر الناس، فقال أسد: ما هذا؟ فقالوا: نبا السيف عنه، ثم ضرب مرة أخرى فنبا عنه، ثم ضرب الثالثة فقطعه باثنتين، وعرض البراءة منه على أصحابه، فمن تبرّأ خلى سبيله، فتبرّأ اثنان فتركا، وأبى البراءة ثمانية فقتلوا، فلما كان الغد أقبل أحدهما إلى أسد، فقال: أسألك أن تلحقني بأصحابي فقتله، وذلك قبل الأضحى بأربعة أيام من سنة تسع ومائة، ثم قدم بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيرًا، فنزل على أبي النجم وكان يأتيه الذين لقوا زيادًا، فكان على ذلك سنة أو سنتين وكان أميًا، فقدم عليه خِدَاش واسمه عمارة، فغلب كَثِيرًا على أمره. ويقال إن أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن عليّ حربُ بن عثمان مولى بني قيس بن ثعلبة، من أهل بلخ، والله تعالى أعلم.

وفي سنة ثماني عشرة ومائة: وجّه بكير بن ماهان عمَّار بن يزيد الخُزَاعي إلى خراسان واليًا على شيعة بني العباس، فنزل مرو وغيّر اسمه وتسمى بخِدَاش، ودعا إلى محمد بن علي فسارع إليه الناس وأطاعوه، ثم غيّر ما دعاهم إليه وأظهر دين الخُرَمِيَّة، ورخّص لبعضهم في نساء بعض، وقال لهم إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج، وأن تأويل الصوم أن يصام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه، والصلاة الدعاء له، والحج القصد إليه وكان يتأول من القرآن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣]، قال: وكان خِدَاش نصرانيًا بالكوفة فأسلم ولحق بخراسان، وكان ممن اتبعه على مقالته: مالك بن الهَيْثَم، والحُرَيش بن سُلَيْم الأعجمي وغيرهما، وأخبهرم أن محمد بن عليّ أمره بذلك، فبلغ خبره أسد بن عبد الله فظفر به، فأغلظ القول لأسد فقطع لسانه وسمل عينيه، وأمر يحيى بن نُعَيم الشيباني فقتله وصلبه بآمل[١].

وفيها مات علي بن عبد الله بن عباس بالحُمّيْمَة من أرض الشَّرَاة بالشام، وهو ابن ثمان أو سبع وسبعين، وهو والد محمد الإمام، وقيل إنه ولد في الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فسمّاه عليًا، وقال: سميته باسم أحب الناس إليّ، وكناه بأبي الحسن، فلما قدم على عبد الملك بن مروان أكرمه وأجلسه معه على سريره، وسأله عن اسمه وكنيته فأخبره، فقال: لا يجتمع هذا الاسم والكنية لأحد في عسكري، وسأله: هل لك ولد؟ قال: نعم وقد سميته محمدًا، قال: فأنت أبو محمد. وقيل إنه خلف اثنين وعشرين ولدًا.

وفي سنة عشرين ومائة: وجّهت الشيعة بخراسان إلى محمد الإمام سليمان بن كَثِير، ليعلمه أمرهم وماهم عليه، وكان محمد قد ترك مكاتبتهم ومراسلتهم، لطاعتهم لخِداش وقبولهم منه ما رواه عنه من الكذب، فقدم سليمان على محمد فعنّفه محمد في ذلك، ثم صرفه إلى خراسان ومعه كتاب مختوم، فلم يجدوا فيه إلا البسملة، فعلموا مخالفة خداش لأمره، ثم وجّه محمد إليهم بُكير بن ماهان بعد عود سليمان من عنده، وكتب إليهم يعلمهم كذب خِداش فلم يصدقوه واستخفوا به، فانصرف بُكَيْر إلى محمد، فبعث معه بعصى مضبّبة[٢] بعضها بحديد وبعضها بنحاس، فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع إلى كل واحد منهم عصى، فتابوا ورجعوا.

---

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل، وهي في الإقليم الرابع.. وبين آمل وسارية ثمانية عشر فرسخًا، وبين آمل والرّويان اثنا عشر فرسخًا، وبين آمل وسالوس، وهي من جهة الجيلان، عشرون فرسخًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) ضبب الخشب ونحوه: ألبسه الحديد ونحوه.

ذكر خبر أبي مسلم الخراساني وابتداء أمره

قال ابن الأثِير الجَزَري في تاريخه الكامل، قد اختلف الناس في أمر أبي مسلم، فقيل كان حرًّا، وكان اسمه إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جود زده من ولد بزرجمهر ويكنى أبا إسحاق، ولد بأصفهان ونشأ بالكوفة، وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السرّاج، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين، فلما اتصل بإبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الإمام قال له: غيّر اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك، على ما وجدته في الكتب، فسمى نفسه عبد الرحمٰن بن مسلم وكان يكنى أبا مسلم، ومضى لشأنه، وله ذؤابة وهو على حمار بإكاف[١] وله تسع عشرة سنة، وزوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطائي المعروف بأبي النجم؛ هذا نسبه على زعم من يقول إنه حر، ولما تمكّن وقوي أمره ادّعى أنه من ولد سَلِيط بن عبد الله بن عباس، وكان من حديث سَلِيط هذا أن عبد الله بن عباس كان له جارية مولدة صفراء تخدمه، فواقعها مرة ثم تركها دهرًا، فاستنكحت عبدًا من أهل المدينة فولدت له غلامًا، فاستعبده عبد الله بن عباس وسماه سَلِيطًا، فنشأ جلدًا ظريفًا وخدم ابن عباس، ثم صار له من الوليد بن عبد الملك منزلة، فادعى أنه من ولد عبد الله بن عباس، وأعانه الوليد على ذلك لما كان في نفسه من علي بن عبد الله بن عباس، وأمره بمخاصمته فخاصمه، واحتال في شهود على إقرار عبد الله أنه ولده، فشهدوا بذلك عند قاضي دمشق، واتبع القاضي رأي الوليد في ذلك، فأثبت نسبه وخاصم عليًّا في الميراث.

وأما من زعم أنه كان عبدًا فإنه حكى، أن بُكير بن ماهان كان كاتبًا لبعض عمال السند، فقدم الكوفة فاجتمع بشيعة بني العباس، فغُمِز بهم فحُبس وخُلِّي عن الباقين، وكان في الحبس أبو عاصم يونس، وعيسى بن مَعْقل العجلي ومعه أبو مسلم يخدمه، فدعاهم بكير إلى رأيه فأجابوه، ثم قال لعيسى بن معقل: ما هذا منك؟ قال: هو مملوك، قال: أتبيعه؟ قال: هو لك، قال: أحب أن تأخذ ثمنه، قال: هو لك بما شئت، فأعطاه أربعمائة درهم، ثم خرجوا من السجن، فبعث به بكير إلى إبراهيم الإمام، فدفعه إبراهيم إلى موسى السرّاج فسمع منه وحفظ، ثم صار يتردد إلى خراسان.

---

(١) إكاف الحمار: البرذعة.

وقيل إنه كان لبعض أهل هراة بُوشَنْج شيخ، فقدم مولاه على إبراهيم الإمام وأبو مسلم معه، فأعجبه فابتاعه منه وأعتقه، ومكث عنده عدة سنين، وكان يتردد بكتب إلى خراسان على حمار له بإكاف، ثم ولاه إبراهيم أمر الشيعة بخراسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة أربع وعشرين ومائة: مات محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في قول بعضهم، وأوصى إلى ابنه إبراهيم بالقيام بأمر الدعوة، وقيل بل مات في سنة خمس وعشرين ومائة في ذي القعدة، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وفي سنة ست وعشرين ومائة: وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا هاشم بُكير بن ماهان إلى خراسان، فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة ونعى لهم محمد بن علي، ودعاهم إلى ابنه إبراهيم ودفع إليهم كتابه فقبلوه، ودفعوا له ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة، فقدم بها بكير على إبراهيم.

وفي سبع وعشرين ومائة: توجّه سليمان بن كَثير، ولاَهِز بن قُرَيظ، وقَحْطَبَة إلى مكة فلقوا إبراهيم الإمام بها، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ومسكًا ومتاعًا، وكان معهم أبو مسلم.

وفيها كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره أنه في الموت، وأنه قد استخلف أبا سَلَمة حَفْص بن ماهان وهو رِضًى للأمر، فكتب إبراهيم إلى أبي سَلَمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنه قد أسند أمرهم إليه، ومضى أبو سلمة إليهم فقبلوا أمره، ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم.

ذكر ولاية أبي مسلم عبد الرحمٰن ابن مسلم الخراساني أمر الشيعة

قال: وفي **سنة ثمان وعشرين ومائة**: وجّه إبراهيم بن محمد الإمام أبا مسلم الخراساني إلى خراسان وعمره تسع عشرة سنة، وكتب إلى أصحابه: إني قد أمرته بأمري، فاسمعوا له وأطيعوا، فإني قد أمّرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك، فأتاهم فلم يقبلوا قوله، وخرجوا فالتقوا بمكة عند إبراهيم الإمام، فأعلمه أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه وأمره، فقال إبراهيم: هل عرضتَ هذا الأمر على غير واحد فأبوه عليّ؟ وكان قد عرضه على سليمان بن كثير، فقال: لا ألي على اثنين أبدًا، ثم

عرضه على إبراهيم بن سَلَمة فأبى، فأعلمهم أنه قد أجمع رأيه على أبي مسلم، وأمرهم بالسمع والطاعة له، ثم قال: إنك رجل منّا أهل البيت، فاحفظ وصيتي: انظر هذا الحيّ من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم[١] فإن الله تعالى لا يُتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منّي.

ذكر إظهار الدعوة بخراسان

وفي سنة تسع وعشرين ومائة: كتب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يستدعيه، فسار في النصف من جُمادى الآخرة مع سبعين من النقباء، فلما وصل إلى قُومِس[٢] أتاه كتاب إبراهيم، يقول: إني قد بعثت إليك براية النصر، فارجع من حيث لقيك كتابي، ووجِّه إليّ قحطبة بما معك يوافيني به في الموسم، وكتابًا إلى سليمان بن كثير، فانصرف أبو مسلم إلى خراسان، ووجّه قحطبة إلى إبراهيم بما معه من الأموال والعروض، وقدم أبو مسلم إلى مرو ودفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، يأمره بإظهار الدعوة، فنصبوا أبا مسلم وقالوا: رجل من أهل البيت، ودعوا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى مَنْ قرب منهم وبعد ممن أجابهم بإظهار الدعوة، ونزل أبو مسلم قرية من قرى مَرْو يقال لها فنين[٣]، على أبي الحكم عيسى بن أعْيَن النقيب، ووجّه منها أبا داود النقيب ومعه عمرو بن أعْيَن إلى طُخَارِسْتان فما دون بَلْخ، وأمرهما بإظهار الدعوة في شهر رمضان، وكان نزوله القرية في شعبان، وبث الدعاة إلى مرو الرُّوذ والطَّالِقَان وخُوارِزْم، وأمرهم بإظهار الدعوة في شهر رمضان لخمس بقين منه، وقال لهم: فإن أعجلكم عدوكم دون الوقت بالأذى والمكروه فقد حلّ لكم

---

(١) بين أظهرهم: بينهم.

(٢) قومس: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وسين مهملة: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الريّ ونيسابور... (معجم البلدان).

(٣) فنين: بالفتح ثم الكسر، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: قرية عهدي بها عامرة أحسن من مدينة مرو، بها قبر سليمان بن بريدة بن الحصيب صاحب النبيّ ﷺ... (معجم البلدان).

أن تدفعوا عن أنفسكم، وتجردوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله، ومن شغله منكم عدوه عن الوقت فلا حرج عليه أن يظهر بعده، ثم تحرك أبو مسلم فنزل في قرية سَفِيذَنْج على كَثِير بن سليمان الخُزاعي لليلتين خلتا من شهر رمضان، والكِرْماني(١) وشَيْبان يقاتلان نصر بن سَيَّار، فبث أبو مسلم دعاته في الناس وأظهر أمره، فأتاه في ليلة واحدة نحو ستين قرية، فلما كان ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان عقد اللواء، الذي بعث به الإمام إليه ويدعى الظل، وعلى رمح طوله أربعة عشر ذراعًا، وهو يتلو ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، ولبسوا السواد هو وأخوه سليمان بن كثير ومواليه، ومن كان أجاب الدعوة من أهل سَفِيذَنْج، وأوقدوا النيران ليلتهم لشيعتهم فكانت علامتهم، فتجمعوا إليه حين أصبحوا معدين، وقدم عليه الدعاة الذين بثهم في الدعوة بمن أجابهم، وذلك بعد ظهوره بيومين، فلما وافى عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلّي به وبالشيعة، ونصب له منبرًا في العسكر، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكان بنو أمية يبدؤون بالخطبة قبل الصلاة بأذان وإقامة، وأمره أيضًا أن يكبّر ست تكبيرات تباعًا، ثم يقرأ ويركع بالسابعة، ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعًا ثم يقرأ ويركع بالسادسة، ويفتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن، وكان بنو أمية يكبّرون في الأولى أربع تكبيرات وفي الثانية ثلاثًا، فلما قضى سليمان الصلاة انصرف أبو مسلم والشيعة، إلى طعام قد أعدّه لهم فأكلوا مستبشرين. وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار وبدأ بنفسه، وكتب إلى نصر ولم يقل إلى الأمير: أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه عيّر أقوامًا في القرآن فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٢ و٤٣]، فتعاظم نصر الكتاب وكسر له إحدى عينيه، وقال: هذا كتاب له أخوات ثم كان من خبر الكرماني ومقتله ما قدمناه في أيام مروان، فلما قتل انضم ابنه عليّ إلى أبي مسلم في جموع كثيرة، فاستصحبه معه وقاتلوا نصر بن سيّار حتى أخرجوه من دار الإمارة، وأقبل أبو مسلم إلى مرو وأتاه علي بن الكرماني وسلّم عليه بالإمارة.

(١) الكرماني: نسبة إلى كرمان وهي مدينة بين غزنة وبلاد الهند، وهي من أعمال غزنة.

ذكر دخول أبي مسلم مرو والبيعة بها

وفي سنة ثلاثين ومائة: دخل أبو مسلم الخراساني مرو ونزل قصر الإمارة في شهر ربيع الآخر وقيل في جُمادى الأولى، وكان سبب ذلك وسبب اتفاق ابن الكِرْماني أن ابن الكرماني ومن معه وسائر القبائل بخراسان كانوا قد تعاقدوا على قتال أبي مسلم، فجمع أصحابه لحربهم، فكان سليمان بن كثير بإزاء ابن الكرماني، فقال له سليمان: إن أبا مسلم يقول لك: أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالأمس أباك وصلبه! وما كنت أحسبك تجامع نصرًا في مسجد تصليان فيه! فرجع ابن الكرماني عن رأيه وانتقض صلح العرب، فبعث نصر بن سيار إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر، وبعث أصحاب الكرماني وهم ربيعة واليمن إلى أبي مسلم بمثل ذلك، وراسلوه أيامًا فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين، حتى يختار أحدهما ففعلوا، فأمر أبو مسلم الشيعة أن يختاروا أصحاب الكرماني، فتقدم الوفدان فأجلسهم أبو مسلم، وجمع عنده من الشيعة سبعين رجلاً، فقال لهم: لتختاروا أحد الفريقين، فقام سليمان بن كثير فتكلم وكان خطيبًا مفوّهًا، فاختار ابن الكرماني وأصحابه واختارهم السبعون، فقام وفد نصر وعليهم الكآبة والذلة، وأرسل إليه ابن الكرماني أن يدخل إلى مدينة مَرْو من ناحية، ليدخل هو وعشيرته من الناحية الأخرى، فأرسل إليه أبو مسلم أني لست آمن أن تجمع يدك ويد نصر على محاربتي، ولكن ادخل أنت وانشب الحرب، ففعل ابن الكرماني ودخل أبو مسلم مرو، والفريقان يقتتلان فأمرهما بالكف وتلى قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ... ﴾ [القصص: ١٥] الآية، ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة، وأرسل إلى الفريقين أن ينصرف كل منهما إلى عسكره ففعلوا، وصفت مرو لأبي مسلم وأمر بأخذ البيعة من الجند، وكان الذي يأخذها أبو منصور طلحة بن رُزَيق وهو أحد النقباء، وكان عالمًا بحجج الهاشمية ومعايب الأموية، وكانت البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، عليك بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام، وعلى ألا تسألوا رزقًا ولا طمعًا حتى يبدأكم به ولاتكم.

ذكر هرب نصر بن سيّار أمير خراسان من مرو

وكان سبب هربه أن أبا مسلم لما دخل مرو أرسل لاَهِز بن قُرَيْظ في جماعة إلى نصر، يدعوه إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ والرضا من آل محمد، فلما نظر ما جاءه

من اليمانية والربيعية والعجم وأنه لا قبل له بهم أظهر قبول ما أتاه به، وأنه يأتيه ويبايعه واستمهلهم، وأمر أصحابه بالتهيؤ والخروج إلى مكان يأمنون فيه، فأشار عليه سَلْم بن أحْوَز بالبيات ليلته تلك والخروج من القابلة: فلما أصبح عبأ أصحابه وكتائبه إلى بعد الظهر، فأعاد أبو مسلم إليه لاهز بن قريظ في جماعة، فقال: ما أسرع ما عدتم، فقال له لاهز: لا بدّ لك من ذلك، فاستمهله نصر بقدر ما يتوضأ ويصلّي، ويرسل إلى أبي مسلم يستأذنه في المضي إليه، فأجابه لاهز؛ فلما قدم نصر للوضوء تلا لاهز: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، فدخل نصر منزله وأعلمهم أنه ينتظر عود رسوله من عند أبي مسلم، وأقام حتى جنّه(١) الليل فخرج من خلف حجرته، ومعه تميم ابنه، والحكم بن نُمَيْلَة النُّمَيْري، وامرأته المَرْزُبَانة وانطلقوا هربًا، فلما استبطأه لاَهِز وأصحابه دخلوا منزله فوجدوه قد هرب، فلما بلغ أبا مسلم هربه سار إلى عسكر نصر، وأخذ ثقات أصحابه وصناديدهم فكتفهم، وفيهم سَلْم بن أحْوَز صاحب شرطة نصر، والبُخْتُري كاتبه، وابنان له، ويُونُس بن عبد ربه، ومحمد بن قَطَن، ومجاهد بن يحيى بن حُضَيْن وغيرهم، فاستوثق منهم بالحديد وحبسهم، وسار أبو مسلم وابن الكرماني في طلب نصر ليلتهما، فأدركا امرأته قد خلفها، وسار نصر إلى سَرَخْس(٢) واجتمع معه ثلاثة آلاف رجل، ورجع أبو مسلم وسأل من كان أرسلهم إلى نصر: ما الذي ارتاب به نصر حتى هرب؟ وهل تكلم أحد منكم بشيء؟ فذكروا له ما تلاه لاهز بن قريظ، فقال: هذا الذي دعاه للهرب، ثم قال: يا لاهز تدغل(٣) في الدين، وقتله، واستشار أبو مسلم أبا طلحة في أصحاب نصر، فقال: اجعل سوطك السيف، وسجنك القبر، فقتلهم وكانوا أربعة وعشرين رجلاً، وأما نصر فإنه سار من سَرَخْس إلى طُوس(٤) فأقام بها، ودخل ابن الكرماني مرو مع أبي مسلم وتابعه على رأيه.

---

(١) جنّه الليل: ستره.

(٢) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، بينها وبين كل واحدة منهما ست مراحل... (معجم البلدان).

(٣) أدغل في الدين: دخل دخول المريب، أو أدخل فيه ما يفسده ويخالفه.

(٤) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية... (معجم البلدان).

ذكر مقتل ابني الكرماني

وفي سنة ثلاثين ومائة أيضًا: قتل أبو مسلم عليًّا وعثمان ابني الكرماني. وكان سبب ذلك أن أبا مسلم كان وجّه موسى بن كَعْب إلى أَبِيوَرْد[١] فافتتحها، ووجه أبا داود إلى بَلْخ وفيها زياد بن عبد الرحمٰن، فلما بلغه قصدُ أبي داود بلخ خرج في أهلها وأهل التِّرْمِذ وغيرهما من كور طُخَارِسْتَان إلى الجُوزَجَان، فلما دنا أبو داود منهم انصرفوا منهزمين إلى ترمذ، ودخل أبو داود مدينة بلخ، فكتب إليه أبو مسلم بالقدوم عليه، ووجّه مكانه أبا الميلاء يحيى بن نُعَيْم على بلخ، فلما قدم كاتَبه زياد بن عبد الرحمٰن أن يصيّر أن أيديهم واحدة فأجابه، فرجع زياد ومسلم بن عبد الرحمٰن بن مُسْلم الباهلي وعيسى بن زَرْعة السُّلَمي وأهل بلخ وتِرْمِذ وملوك طُخَارِسْتَان وما وراء النهر ودونه فنزلوا على فرسخ من بلخ، وخرج إليهم يحيى بن نعيم بمن معه، فصارت كلمتهم واحدة - مضر وربيعة واليمن ومن معهم - على قتال المسوّدة، وجعلوا الولاية عليهم لمُقَاتل بن حَيّان النَّبطي، فأمر أبو مسلم أبا داود بالعود، فأقبل بمن معه حتى اجتمعوا على نهر السر جنان، وكان زياد وأصحابه قد وجهوا أبا سعيد القرشي مسلحة، لئلا يأتيهم أصحاب أي داود من خلفهم، وكانت أعلام أبي سعيد سودًا، فلما أقبل أبو سعيد ورأى زياد ومن معه أعلام أبي سعيد وراياته سودًا ظنوهم كمينًا لأبي داود فانهزموا وتبعهم أبو داود فوقع عامة أصحاب زياد في النهر، وقتل منهم خلق كثير ممَّن تخلف، ونزل أبو داود معسكرهم وحوى ما فيه، ومضى زياد ويحيى ومن معهما إلى ترمذ[٢]، واستقامت بلخ له فكتب إليه أبو مسلم بالقدوم عليه، ووجّه النَّضْر بن صُبَيْح المُرّي على بلخ، وقدم أبو داود على أبي مسلم واتفقا على أن يفرّقا بين ابني الكرماني، فبعث أبو مسلم عثمان بن الكرماني عاملاً على بلخ، فلما قدمها أقبلت المضرية من ترمذ وعليهم مُسْلم بن عبد الرحمٰن الباهِلي، فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب عثمان وغلب مسلم على بلخ، وكان عثمان بن الكرماني بمَرْو الرُّوذ لم يشهد هذه الوقعة، فلما بلغه الخبر أقبل هو والنَّضْر بن صُبَيح المُرّي فهرب أصحاب مسلم من ليلتهم، فلم يمعن النظر في طلبهم، ولقيهم أصحاب عثمان

---

(١) أبيورد: مدينة بخراسان، بين سرخس ونسا، وبئة، رديئة الماء، يكثر فيها خروج العرق... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر... (معجم البلدان).

فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحاب عثمان وقتل منهم خلق كثير، ورجع أبو داود من مرو إلى بلخ، وسار أبو مسلم إلى نيسابور ومعه علي بن الكرماني، واتفق رأي أبي مسلم ورأي أبي داود على أن يقتلا ابني الكرماني، فلما قدم أبو داود بلخ بعث عثمان عاملاً على الخُتَّل[1] فلما خرج عثمان من بلخ تبعه أبو داود وأخذه هو وأصحابه فحبسهم جميعًا، ثم ضرب أعناقهم صبرًا[2]، وقتل أبو مسلم في ذلك اليوم علي بن الكرماني، وكان أبو مسلم أمره قبل ذلك أن يسمي له خاصته، ليوليهم ويأمر لهم بجوائز وكساوي، فسماهم له فقتلهم جميعًا.

ذكر قدوم قَحْطَبَة بن شَبِيب من قبل إبراهيم الإمام على أبي مسلم

وكان قدومه سنة ثلاثين ومائة فقدم ومعه لواء عقده له إبراهيم، فوجّهه أبو مسلم في مقدمته، وضمّ إليه الجيوش وجعل إليه العزل والاستعمال، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له.

ذكر مسير قحطبة إلى نَيْسَابور واستيلائه عليها ومن استعمله أبو مسلم على الجهات

قال: ولما استولى أبو مسلم على خراسان وقتل ابنا الكرماني على ما تقدم بعث العمال على البلاد، فاستعمل سَبّاعِ بن النُّعْمان الأزْدِي على سَمَرْقَنْد، وأبا داود خالد بن إبراهيم على طخارستان، ومحمد بن الأشعث على الطّبَسَيْن[3]، وجعل مالك بن الهَيْثَم على شرطته، ووجّه قحطبة إلى طُوس ومعه عدة من القواد، منهم أبو عَوْن عبد الملك بن يزيد، وخالد بن برمك، وعثمان بن نَهِيك، وخَازِم بن خُزَيمة وغيرهم، فلقي قحطبة من بطوس فهزمهم، وبلغ عدة القتلى بضعة عشر ألفًا، ووجّه أبو مسلم القاسم بن مُجاشِع إلى نيسابور على طريق المَحَجّة، وكتب إلى قحطبة يأمره بقتال تميم بن نصر بن سيّار والنَّابِي بن سُوَيد ومن لجأ إليهما من أهل خراسان، ووجه أبو مسلم علي بن مَعْقِل في عشرة آلاف إلى تميم بن نصر، وأمره أن يكون مع

(١) الختّل: بضم أوله، وتشديد ثانيه وفتحه: مدينة واسعة كثيرة المدن، وهي أجل من صغانيان وأوسع خطة وأكبر مدنًا وأكثر خيرًا، وهي على تخوم السند... (معجم البلدان).
(٢) قتله صبرًا: حبسه حتى مات.
(٣) الطبسان: بفتح أوله وثانيه، وهو تثنية طبس: قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس... (معجم البلدان).

قحطبة، وسار قحطبة إلى السُوذَقَان ـ وهو معسكر تميم بن نصر والنابي بن سُوَيد ـ وقد عبّأ أصحابه فدعاهم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ وإلى الرضا من آل محمد فلم يجيبوه، فقاتلهم قتالاً شديدًا، فقتل تميم في المعركة، وقتل من أصحابه خلق كثير، وهرب النابي بن سويد فتحصن بالمدينة، فحصره قحطبة ونقبوا سورها ودخلوا المدينة فقتلوا النابي ومن كان معه، وبلغ الخبر نصر بن سيّار فهرب إلى قومس وتفرّق عنه أصحابه، فسار إلى نُبَاتة بن حَنْظَلَة بجُرْجَان(١)، وقدم قحطبة نيسابور فأقام بها هو ومن معه رمضان وشوال.

ذكر مقتل نُبَاتَة بن حَنْظَلَة عامل يزيد ابن هُبَيْرَة على جرجان

قد ذكرنا هرب نصر بن سيّار ولحاقه بنباتة بن حنظلة، فلما كان في ذي القعدة أقبل قحطبة إلى جرجان، وقد نزل نباتة ونصر بن سيار بالجُورجان، وخندقوا عليهم وهم في عَدَد وعُدَد، فهابهم أهل خراسان حتى تكلّموا بذلك وظهر عليهم، فبلغ قَحْطَبة فقام فيهم وقوّى عزائمهم وشجّعهم، وقال: إنّ الإمام وعدكم النصر عليهم، وقد عهد إليّ أنكم تلقونهم فينصركم الله عليهم، فالتقوا في مستهل ذي الحجة سنة ثلاثين ومائة في يوم الجمعة، وعلى ميمنة قحطبة ابنه الحسن، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل نُباتة وعشرة آلاف من أهل الشام، وانهزم من بقي منهم، وسار نصر بن سَيّار وكان بقُومِس فنزل خُوَار(٢) الريّ، وكاتب ابن هبيرة يستمده وهو بوَاسِط مع ناس من وجوه أهل خراسان، وقال له: أمدني بعشرة آلاف قبل أن تمدني بمائة ألف ثم لا تغني شيئًا، فحبس ابن هُبَيرة رسله، فأرسل إلى مَرْوان بن محمد يعلمه ما فعل ابن هبيرة برسله، وأنه استمده فلم يمده، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يأمره أن يمده، فجهز ابن هبيرة جيشًا كثيفًا عليهم ابن عُطَيف إلى نصر بن سيّار، قال: أما قحطبة فإنه بلغه أن أهل جُرجان يريدون الخروج عليه، فاستعرضهم وقتل منهم ما يزيد على ثلاثين ألفًا.

---

(١) جرجان: بالضم وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه. . . (معجم البلدان).

(٢) خوار الريّ: مدينة كبيرة من أعمال الريّ بينها وبين سمنان للقاصد إلى خراسان على رأس الطريق تجوز القوافل في وسطها، بينها وبين الريّ عشرين فرسخًا. . . (معجم ياقوت).

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة.

ذكر وفاة نصر بن سيار ودخول قحطبة الريّ[١]

قال: ثم وجه قحطبة ابنه الحسن لقتال نصر في المحرم من هذه السنة، ووجّه أبا كامل وأبا القاسم مُحْرز بن إبراهيم، وأبا العباس المَرْوَزي إلى الحسن ابنه، فلما كانوا قريبًا منه انحاز أبو كامل وترك عسكره وأتى نصر بن سيّار فأعلمه، فصار معه وأعلمه مكان الجند، فوجه إليهم جندًا فهرب جند قحطبة، وخلفوا شيئًا من متاعهم فأخذه أصحاب نصر، فبعث به نصر إلى ابن هبيرة، فعرض له ابن عُطَيف بالريّ فأخذ الكتاب والمتاع من رسول نصر، وبعثه إلى ابن هبيرة فغضب نصر، وقال: أما والله لأدعنّ ابن هُبَيرة فليعرفنّ أنه ليس بشيء، وكان ابن عُطَيف في ثلاثة آلاف، قد بعثه ابن هبيرة مددًا لنصر، فأقام بالري ولم يأت نصرًا، فسار نصر حتى نزل الري وعليها حبيب بن بديل النهشلي، فلما قدمها سار ابن عطيف منها إلى هَمَذَان، ثم عدل إلى أصفهان إلى عامر بن ضُبَارة، ولما قدم نصر الريِّ أقام بها يومين ثم مرض، فحمل إلى سَاوَة[٢] فمات بها لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول منها، وعمره خمس وثمانون سنة، ودخل أصحابه همذان؛ ولما مات نصر بعث الحسن بن قحطبة خَازِم بن خُزَيمة إلى سِمْنَان[٣]، وأقبل قحطبة من جرجان وقدم أمامه زياد بن زُرَارَة القُشَيْري، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم، فأخذ طريق أصْفهان يريد عامر بن ضُبارة، فوجّه قحطبة، المسيّب بن زُهَير الضّبِي فلحقه، وقاتله فانهزم زياد وقتل عامّة من معه، ورجع المُسَيَّب إلى قحطبة، ثم سار قحطبة إلى قُومِس وبها ابنه الحسن، فقدّمه إلى الريّ، وبلغ حبيب بن بُدَيل النّهْشَلَي ومن معه من أهل الشام مسير الحسن، فخرجوا عن الريّ ودخلها الحسن في صفر، وأقام حتى قدم أبوه، فبعثه بعد مقدمه بثلاث ليال إلى هَمَذان، فسار عنها مالك بن أدهم ومن كان معه من أهل الشام

---

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسان ١٦٠ فرسخًا. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) ساوة: بعد الألف واو مفتوحة بعدها هاء ساكنة: مدينة حسنة بين الريّ وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والريّ ثلاثون فرسخًا، وبقربها مدينة يقال لها آوه، فساوه سنية شافعية، وآوه أهلها شيعة إمامية، وبينهما نحو فرسخين. . . (معجم البلدان).

(٣) سمنان: بكسر أوله، وتكرير النون أيضًا: قيل: هي بلدة بين الري ودامغان، يعمل بها مناديل جيدة وعهدي بها كثيرة الأشجار والأنهار والبساتين. . . (معجم ياقوت).

وأهل خراسان إلى نهاوند[١]، فأقام بها وفارقه ناس كثير، ودخل الحسن همذان وسار منها إلى نهاوند، فنزل على أربعة فراسخ[٢] منها، وأمده أبوه بأبي الجهْم بن عطية مولى باهِلة في سبعمائة فحصر المدينة.

ذكر مقتل عامر بن ضُبارة ودخول قحطبة أصفهان

كان عامر بن ضُبارة قد بعثه يزيد بن هُبيرة لقتال عبد الله بن معاوية، لما خرج ودعا إلى نفسه على ما نذكره في أخبار آل أبي طالب إن شاء الله، وبعث معه ابنه داود بن يزيد فهزمه ابن ضُبارة، وسار في أثره، فلما بلغ ابن هبيرة مقتل نباتة بن حنظلة بجرجان كتب إلى عامر وإلى ابنه داود، أن يسيرا إلى قحطبة وكانا بكِرْمان[٣]، فسارا في خمسين ألفًا ونزلوا بأصفهان، وكان يقال لعسكر ابن ضبارة عسكر العساكر، فبعث قحطبة إليهم جماعة من القواد عليهم جميعًا مقاتل بن حكيم العَكّي، فساروا حتى نزلوا قُمّ، وبلغ ابن ضبارة نزول الحسن بن قحطبة نهاوند، فسار ليفتن من بها من أهلها، فأرسل مقاتل إلى قحطبة يعلمه بمسيره، فأقبل قحطبة من الريّ حتى لحق بمقاتل، ثم ساروا والتقوا بعامر بن ضبارة وداود بن يزيد، وكان عسكر قحطبة عشرين ألفًا فيهم خالد بن برمك، وعسكر ابن ضبارة مائة ألف وقيل خمسون ومائة ألف، فأمر قحطبة بمصحف فوضع على رمح، ونادى: يا أهل الشام إنما ندعوكم إلى ما في هذا المصحف، فشتموه وفحشوا في القول، فأمر قحطبة أصحابه بالحملة عليهم، فحمل عليهم العَكّي وتهايج الناس، ولم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أهل الشام، وقتلوا قتلًا ذريعًا، فقتل ابن ضبارة وهرب داود، وأخذ أصحاب قحطبة من عسكرهم ما لا يعلم قدره، من السلاح والمتاع والرقيق والخيل، وما رئي عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء ما في هذا العسكر، كان كأنه مدينة، فكان فيه من البرابط[٤] والطنابير والمزامير والخمر ما لا يحصى، وحقيق لعسكر فيه مثل ذلك أن ينهزم، وكانت هذه الوقعة بنواحي أصفهان في شهر رجب.

---

(١) نهاوند: هي مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام.

(٢) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال.

(٣) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة ين فارس ومكران وسجستان وخراسان... (معجم البلدان).

(٤) البربط: العود، جمع برابط.

ذكر دخول قحطبة نهاوند

قال: ولما قتل ابن ضبارة كان الحسن بن قحطبة يحاصر نِهاوَنْد، فكتب إليه أبوه بالخبر، فلما قرأ كتابه كبّر هو وجنوده ونادوا بقتله، فقال عاصم بن عُمَيْر السُّغْدِي: ما نادوا بقتله إلا وهو حق، فاخرجوا إلى الحسن قبل أن يأتي أبوه أو يمده بمدد، فقالت الرجّالة: تخرجون وأنتم فرسان وتتركونا! فقال مالك بن أدهم: لا أبرح حتى يقدم قحطبة، وأقام قحطبة بأصفهان عشرين يومًا ثم سار، فقدم على ابنه بنهاوند فحصرهم ثلاثة أشهر آخرها شوّال، ونصب عليهم المجانيق، وأرسل إلى من بنهاوند من أهل خراسان يدعوهم إليه، وبذل لهم الأمان فأبوا ذلك، فأرسل إلى من بها من أهل الشام بمثل ذلك فأجابوه، وقبلوا أمانه وبعثوا إليه أن يشغل عنهم أهل البلد بالقتال، ليفتحوا له الباب ففعل ذلك، ففتح أهل الشام الباب الذي يليهم وخرجوا، فلما رأى أهل البلد ذلك سألوهم عن سبب خروجهم، فقالوا: أخذنا لنا ولكم الأمان، فخرج رؤساء خراسان، فدفع قحطبة كل رجل منهم إلى قائد من قواده، ثم أمر فنودي: من كان بيده أسير فليضرب عنقه وليأت برأسه، ففعلوا ذلك، فلم يبق أحد ممن كان قد هرب من أبي مسلم إلا قتل، إلا أهل الشام فإنه وفّى لهم وخلّى سبيلهم، وأخذ عليهم الأيمان والعهود. قال: ولما حاصر قحطبة نِهَاوَنْد أرسل ابنه إلى مَرْج القلعة، فقدّم الحسن خازم بن خزيمة إلى حلوان، وعليها عبد الله بن العَلاَء الكِنْدِي، فهرب من حُلْوان[1].

ذكر فتح شهْرزُور[2]

قال: ثم وجّه قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الخراساني ومالك بن طَوَاف في أربعة آلاف إلى شَهْرزُور، وبها عثمان بن سُفْيان على مقدمة عبد الله بن مروان بن محمد، فنزلوا على فرسخين من شهرزور في العشرين من ذي الحجة، وقاتلوا عثمان بعد يوم وليلة من نزولهم، فانهزم أصحاب عثمان وقتل، وأقام أبو عون في بلاد الموصل، وقيل إن عثمان لم يقتل ولكنه هرب إلى عبد الله بن مروان، وغنم أبو عون عسكره، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وسيّر قحطبة العساكر إلى أبي عون، فاجتمع

---

(١) حلوان: حلوان في عدة مواضع: حلوان العراق: مدينة من كبريات المدن العراقية.

(٢) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك.

معه ثلاثون ألفًا، ولما بلغ مروان خبر أبي عون ـ وكان بحَرّان[١] ـ سار منها بجنود الشام والجزيرة والموصل وبني أمية، وأقبل نحو أبي عَوْن حتى نزل الزّاب الأكبر، وأقام أبو عون بشهرزور بقية ذي الحجة والمحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفرض بها لخمسة آلاف.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ذكر مسير قحطبة لقتال ابن هبيرة بالعراق وهلاك قحطبة وهزيمة ابن هبيرة

قال: ولما قدم داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة على أبيه منهزمًا، خرج يزيد نحو قحطبة في عدد كثير لا يحصى، ومعه حَوْثَرَة بن سُهَيْل البَاهِلِي، وكان مروان قد أمدّه به، فسار ابن هبيرة حتى نزل جَلُولاء[٢]، واحتفر الخندق الذي كانت العجم احتفرته أيام وقعة جَلُولاَء وأقام به، وأقبل قحطبة حتى نزل عُكْبَرَاء[٣]، ودخل دجلة ومضى حتى نزل ما دون الأنبار، وأرسل طائفة من أصحابه إلى الأنبار وغيرها، وأمرهم بإحدار ما فيها من السفن إلى دِمِمَّا[٤] ليعبر الفرات، فحملوا إليه كل سفينة هناك، فقطع الفرات إلى غربيّه، وذلك لثمان مضين من المحرم، وارتحل ابن هبيرة منصرفًا مبادرًا إلى الكوفة، فعبر دجلة من المدائن، واستعمل على مقدمته حَوْثَرَة وأمره بالمسير إلى الكوفة، والفريقان يسيرون على جانبي الفرات، فقال قحطبة: إن الإمام أخبرني أن لي بهذا المكان وقعة، يكون النصر لنا، واستدلّ على مخاضة فعبر منها، وقاتل حوثرة ومحمد بن نُباتة فانهزم أهل الشام، وفقد قحطبة فقال أصحابه: من كان عنده علم من قحطبة فليخبرنا به، فقال مُقاتل بن مالك العَكي: سمعت قحطبة يقول: إن حدث بي حدث فالحسن ابني أمير الناس، فبايع الناس حميد بن قحطبة لأخيه الحسن، وكان أبوه قد سيّره في سريّة، فأرسلوا إليه فأحضروه وسلموا الأمر إليه، وكشفوا عن قحطبة فوجدوه في جدول وحرب بن سَلْم قتيلين، فظنوا أن كل واحد منهما قتل الآخر، وقيل إن معن بن زائدة ضرب قحطبة، لما عبر الفرات على حبل

---

(١) حران: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم... (معجم البلدان).

(٢) جلولاء: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ...

(٣) عكبرا: اسم بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.

(٤) دِمِمَّا: قرية كبيرة على الفرات قرب بغداد عند الفلوجة.

عاتقه فسقط في الماء، فقال: شدوا يدي إذا أنا مت وألقوني في الماء، لئلا يعلم الناس بقتلي، وقاتل أهل خراسان فانهزم محمد بن نباتة وأهل الشام، ومات قحطبة وقال قبل موته: إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سَلَمَة الخَلاّل، فسَلِّمُوا هذا الأمر إليه، وقيل بل غرق قحطبة. ولما انهزم ابن نباتة وحوثرة لحقا بابن هبيرة فانهزم لهزيمتهم، ولحقوا بواسط وتركوا عسكرهم وما فيه من الأموال والسلاح وغير ذلك، فأمر الحسن بن قحطبة بجمع ذلك فجمع وغنموه.

ذكر خروج محمد بن خالد بالكوفة مُسَوّدًا

في هذه السنة خرج محمد بن خالد بن عبد الله القَسْرِي بالكوفة وسَوّد قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة، وأخرج عامل ابن هُبيرة، وكان خروجه ليلة عاشوراء سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكان على الكوفة يوم ذاك زياد بن صالح الحَارثي، فسار محمد إلى القصر ودخله، وارتحل زياد ومن معه من أهل الشام، وسمع حَوْثَرة الخير فسار نحو الكوفة، فتفرق عن محمد عامة من معه، فأرسل أبو سَلَمة الخلال إليه يأمره بالخروج من القصر، خوفًا عليه من حوثرة، هذا ولم يبلغ أحدًا من الفريقين بهلاك قحطبة، فأبى محمد أن يخرج وبلغ حوثرة تفرق أصحاب محمد عنه فتهيّأ لقصده، فبينما محمد في القصر إذ أتاه بعض طلائعه، فقال له: قد جاءت خيل من أهل الشام، فوجّه إليهم عدة من مواليه، فناداهم الشاميون: نحن جئنا لندخل في طاعة الأمير، ودخلوا وفيهم مَلِيح بن خالد البَجَلِي، ثم جاءه جَهْم بن الأَصْبَح الكِنَاني في خيل أعظم من تلك، ثم جاءت خيل أعظم منها مع رجل من آل بَحْدَل، فلما رأى حوثرة ذلك من صنع أصحابه ارتحل نحو واسط، وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة يعلمه أنه قد ظفر بالكوفة، فقدم القاصد على الحسن بن قحطبة، فقرأ الكتاب على الناس وارتحل نحو الكوفة، فوصلها يوم الاثنين، وقد قيل إن الحسن بن قحطبة أقبل نحو الكوفة، بعد هزيمة ابن هبيرة وعليها عبد الرحمٰن بن بَشِير العِجْلي فهرب منها، فسَوّد محمد بن خالد، وخرج في أحد عشر رجلاً وبايع الناس، ودخلها الحسن من الغد ولما دخل الحسن وأصحابه الكوفة أتوا أبا سلمة الخلال وهو في بني سَلَمة، فاستخرجوه وكان مختفيًا، فعسكر بالنخيلة[١] يومين ثم ارتحل إلى حمام أعْيَن[٢]،

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام.. وقيل: النخيلة ماء عن يمين الطريق قرب المغيثة والعقبة على سبعة أميال من جويّ غربي واقصة... (معجم البلدان).

(٢) حمام أعين: بتشديد الميم، بالكوفة.

ووجّه الحسن بن قحطبة إلى واسط لقتال ابن هبيرة، وبايع أبا سلمة الناس وكان يقال وزير آل محمد، وهو أبو سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع، واستعمل محمد بن خالد على الكوفة، ووجّه حميد بن قحطبة إلى المدائن في جماعة من القواد، وبعث المُسَيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قُنَّى[1]، وبعث المُهَلّبي وشُرَحْبِيل إلى عَيْن التمر، وبعث بَسّام بن إبراهيم بن بَسّام إلى الأهْواز وبها عبد الواحد بن عمر بن هبيرة، فقاتله وأخرجه منها فالتحق عبد الواحد بالبصرة، وبعث إلى البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب عاملاً عليها وعليها سَلْم، وقد لحق به عبد الواحد فأرسل سفيان إليه، يأمره بالتحول من دار الإمارة فأبى، وقاتل ونادى من جاء برأس فله خمسمائة ومن جاء بأسير فله ألف درهم، فقتل معاوية وأتي برأسه إلى سَلْم فأعطى قاتله عشرة آلاف، وانكسر سفيان لقتل ابنه فانهزم وذلك في صفر.

ذكر مقتل إبراهيم بن محمد الإمام

وكان مقتله في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وسبب ذلك أن مروان بن محمد أرسل للقبض عليه بالحُمَيْمَة، ووصف للرسول صفة أبي العباس السفاح، لأنه كان يجد في الكتب: أن مَنْ هذه صفته يقتلهم ويسلبهم ملكهم، وسمّى لرسوله إبراهيم بن محمد، فقدم الرسول فأخذ أبا العباس بالصفة، فلما ظهر إبراهيم وأمن قيل للرسول إنما أمرت بإبراهيم وهذا عبد الله، فترك أبا العباس وأخذ إبراهيم، وانطلق به إلى مَرْوان، فلما أتاه به قال: ليس هذه الصفة التي وصفت لك، فقال رسله: قد رأينا الصفة وإنما سميت إبراهيم، وهذا إبراهيم فحبسه بحَرَّان، وأعاد الرسل في طلب أبي العباس فلم يظفروا به، وكان قد توجّه إلى الكوفة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
وقد اختلف في قتل إبراهيم، فقيل إن مروان لما حبسه حبس سعيد بن هِشَام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، والعباس بن الوليد بن عبد الملك، وأبا محمد السفياني، فهلك إبراهيم في السجن في وباء وقع بحرّان، وهلك العباس بن الوليد، وعبد الله بن عمر، فلما كان قبل هزيمة مروان من الزاب بجمعة خرج سعيد بن هشام ومن معه، وقتلوا صاحب السجن فقتلهم أهل حَرَّان، وتخلّف أبو محمد بالسجن فلم يخرج فيمن خرج هو وغيره، فلما قدم مروان من الزاب خلّى عنهم. وقل إن مروان هدم على إبراهيم بيتًا فقتله. وقيل بل جعل

(١) دير قنى: ويعرف بدير مار ماري السليخ، هو على ستة عشر فرسخًا من بغداد منحدرًا بين النعمانية، وهو في الجانب الشرقي معدود في أعمال النهروان.. . (معجم البلدان).

رأسه في جراب مملوء نُورَة[1] فمات، وقيل إن شَرَاحِيل بن مَسْلَمة بن عبد الملك كان محبوسًا مع إبراهيم، فكانا يتزاوران وصار بينهما مودة، فأتى رسول من عند شراحيل إلى إبراهيم يومًا بلبن، فقال: يقول لك أخوك إني شربت من هذا اللبن فاستطبته، فأحببت أن تشرب منه، فشرب منه فشكى من ساعته، وكان يومًا يزور فيه شراحيل فأبطأ عليه، فأرسل إليه شراحيل: إنك قد أبطأت فما حبسك عني؟ فأعاد عليه إني لما شربت اللبن الذي بعثت به إليّ فاشتكيت، فأتاه شراحيل وحلف بالله أنه ما شرب لبنًا في يومه، ولا بعث به إليك واسترجع، وقال: احتيل والله عليك، فبات إبراهيم ليلته وأصبح ميتًا. وكان إبراهيم خيّرًا فاضلاً كريمًا، قدم المدينة مرّة ففرّق في أهلها مالاً جليلاً، فنال بعضهم منه ألف دينار ـ وخمسمائة دينار ـ وأربعمائة دينار، وكانت هذه عطاياه وهباته. وكان مولده في سنة اثنتين وثمانين، وأمه أم ولد بربرية اسمها سَلْمى.

قال: ولما قبض على إبراهيم بالحميمة نعى نفسه إلى أهل بيته، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد ـ وهو السفاح ـ وأوصاهم بالسمع والطاعة له، وأوصاه وجعله الخليفة من بعده وودّعهم، وسار فهلك على ما ذكرنا، وكان من أمر أبي العباس ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء الدولة العباسية وانقضاء الدولة الأموية

ذكر بيعة أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس عم رسول الله ﷺ

وهو ابن الحارثية الذي نصّ عليه أبو هاشم محمد بن الحَنَفِيّة، لما فوّض أمر الشيعة إلى والده، ووعدهم أنه صاحب الأمر، وكان ذلك قبل مولد أبي العباس على ما قدّمنا، وأمه رَيْطَة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المَدّان الحارثي، بويع له بالخلافة يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وذلك أنه لما قبض على أخيه إبراهيم بن محمد الإمام عهد إليه كما ذكرناه، وأمره بالمسير إلى الكوفة؛ سار من الحميمة ومعه أهل بيته وأخوه أبو جعفر المنصور، وعبد الوهاب ومحمد ابنا أخيه إبراهيم، وعمومته داود، وعيسى، وصالح،

(١) النورة: حجر الكلس؛ أو أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريوم تستعمل لإزالة الشعر.

وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد - بنو علي بن عبد الله بن عباس، وموسى ابن عمه داود، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس، فقدموا الكوفة في صفر من هذه السنة، وشيعتهم من أهل خراسان بظاهِر الكوفة بحمام أعْيَن، فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أوْد، وكتم أمرهم من جميع القواد نحو أربعين ليلة، وأراد فيما ذكر أن يحوّل الأمر إلى آل طالب، لما بلغه موت إبراهيم الإمام، فكان أبو الجهم يقول له: ما فعل الإمام، فيقول: لم يقدم بعد، فلما ألحّ عليه قال: ليس هذا وقت خروجه، لأن واسط لم تفتح بعد، وكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام يقول: لا تعجلوا، فلم يزل هذا دأبه حتى دخل أبو حميد محمد بن إبراهيم الحِمْيَرِي من حمام أعين يريد الكُنَاسة[١]، فلقي خادمًا لإبراهيم الإمام يقال له سابق الخُوارِزْمي فعرفه، فقال له ما فعل إبراهيم؟ فأخبره أن مروان قتله، وأنه أوصى إلى أخيه أبي العباس من بعده، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته، فسأله أبو حميد أن ينطلق به إليهم فقال له سابق: الوعد بيني وبينك غدًا في هذا الموضع، وكره سابق أن يأتيهم به إلا بإذنهم، فرجع أبو حميد إلى أبي الجهم وأخبره، وهو في عسكر أبي سلمة، فأمره أن يتلطف للقائهم، فرجع أبو حميد إلى موضع ميعاد سابق، فلقيه وانطلق به إليهم، فلما دخل سأل من الخليفة منهم؟ فقال له داود بن علي: هذا إمامكم وخليفتكم، وأشار إلى أبي العباس، فسلّم عليه بالخلافة وقبّل يديه ورجليه وعزّاه بإبراهيم، وقال: مرنا بأمرك، ثم رجع وصحبه إبراهيم بن سَلَمة - رجل كان يخدم بني العباس - إلى أبي الجهم، فأخبره عن منزلتهم وأن الإمام بعثه إلى أبي سلمة، يسأله مائة دينار يعطيها أجرة الجمال التي حملتهم، فلم يبعث بها إليهم، فمشى أبو الجهم وأبو حميد وإبراهيم بن سلمة إلى موسى بن كعب، وقصّوا عليه القصّة، وبعثوا إلى الإمام بمائتي دينار مع إبراهيم بن سلمة، واتفق رأي القواد أن يلقوا الإمام، فمضى موسى بن كعب وأبو الجهم وغيرهم من القواد إلى أبي العباس، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عنهم، فقيل له إنهم دخلوا الكوفة لحاجة لهم، وأتى القوم إليهم فقالوا: أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية؟ فقالوا: هذا، فسلّموا عليه بالخلافة وعزّوه بإبراهيم، ورجع موسى بن كعب وأبو الجهم، وأمر أبو الجهم بقية القواد فتخلفوا عند الإمام، فأرسل أبو سلمة إلى أبي الجهم: أين كنت؟ قال: ركبت إلى إمامي، فركب أبو سلمة إلى الإمام، فأرسل أبو الجهم إلى أبي حميد: أن أبا سلمة قد أتاكم، فلا يدخلنّ على الإمام إلا وحده، فلما

(١) الكناسة: محلة بالكوفة.

انتهى إليهم أدخلوه وحده ومنعوا حفدته من الدخول، فسلّم بالخلافة، فقال له رجل منهم: على رغم أنفك يا ماصّ بَظْر أمّه، فنهاه أبو العباس وأمر أبا سلمة بالعود إلى معسكره فعاد، وأصبح الناس يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فلبسوا السلاح، واصطفوا لخروج أبي العباس، وأتوه بالدواب فركب بِرْذَوْنًا أبلق[١]،وركب معه أهل بيته فدخلوا دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلّى بالناس، ثم صعد المنبر ثانية فقام في أعلاه، وصعد عمه داود فقام دونه، فتكلم أبو العباس فقال:

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرّمه وشرّفه وعظّمه واختاره لنا، وأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوّام به والذابّين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزًا عليه ما عنتنا، حريصًا علينا بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك كتابًا على أهل الإيمان يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل في محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم؛ وزعمت الشآمية الضُّلاّل أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منّا فشاهت وجوههم، ثم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وتمّم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومواساة في دينهم، وإخوانًا على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منّة ومنحة لمحمد ﷺ، فلما قبضه الله إليه قام بالأمر من بعده أصحابه شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم

(١) الأبلق: الذي كان فيه سواد وبياض.

فعدّلوا فيها، ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصًا[١] منها، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينًا حتى آسفوه[٢]، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم أهل محبّتنا، ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدرككم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح[٣]، والثائر المنيح[٤].

وكان موعكًا فاشتد عليه الوعك، فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقي المنبر، فقال:

الحمد لله شكرًا الذي أهلك عدوّنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبيّنا محمد ﷺ. أيها الناس: الآن قد قشعت حنادس[٥] الدنيا، وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطالعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيّكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم.

أيها الناس: والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكنز لجينا[٦]، ولا عقيانًا، ولا نحفر نهرًا، ولا نبني قصرًا، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرهنا من أموركم، فلقد كانت أموركم ترمضنا[٧]، ونحن على فراشنا، وتشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ، تبًا تبًا لبني حرب

(١) خماص: جمع خميص، وهو الذي ضعف وأدخل بطنه في جوفه.
(٢) آسفوه: أي جعلوه يأسف.
(٣) المبيح: اسم لأحد قداح الميسر يرجى منه حظ عظيم.
(٤) المنيح: الشديد الصلب.
(٥) الحنادس: جمع الحندس، وهو الليل الشديد الظلمة.
(٦) اللجين: الفضة.
(٧) رمض للأمر: احترق له غيظًا.

وبني أمية، آثروا مدتهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنّتهم في البلاد، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميدان الغي، جهلاً باستدراج الله، وأمنًا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومزّقوا كل ممزق، فبعدًا للقوم الظالمين، وأدالنا الله من مروان وقد غرّه بالله الغرور، وأرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه(١)، أظَنّ عدو الله أن لن يقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه، وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته، ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزّنا، وردّ إلينا حقّنا وإرثنا.

أيها الناس: إن أمير المؤمنين ـ نصره الله نصرًا عزيزًا ـ إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان، عدو الرحمٰن وخليفة الشيطان، المتبع السفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها الشاب المكتهل المتمهل، المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد إفسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى. فعجّ الناس بالدعاء له ثم قال:

يا أهل الكوفة: إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج(٢) بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، فأراكم الله بهم ما كنتم تنتظرون، وأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيّض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعزّ الإسلام، ومنّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة، فخذوا ما أتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم، فإنّ الأمر أمركم، وإنّ لكل أهل بيتٍ مصرًا، وإنكم مصرنا، ألا وإنّه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبي العباس). واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منّا، حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم ﷺ، والحمد لله على ما أبلانا وأولانا.

---

(١) الخطام: الزمام؛ أو ما وضع على خطم الجمل ليقاد به.
(٢) أفلج الحجة: أظهرها وأثبتها.

ثم نزلا، وداود أمامه حتى دخل القصر، وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور يأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلّى بهم العصر ثم المغرب وجنّهم الليل، وخرج أبو العباس فعسكر بحمام أعين في عسكر أبي سلمة، ونزل معه في حُجْرته بينهما ستر، وحاجب السفاح يومئذ عبد الله بن بَسَّام، واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن علي، وبعث عمه عبد الله بن علي إلى أبي عَوْن بن يزيد بشهرزور، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة، وهو يومئذ يحاصر ابن هبيرة بواسط[1]، وبعث يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن، وبعث أبا اليَقْظَان عثمان بن عُرْوة بن محمد بن عمّار بن ياسر إلى بسّام بن إبراهيم بن بسّام بالأهواز، وبعث سَلَمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف. وأقام السفاح بالعسكر أشهرًا، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية بقصر الإمارة، وكان قد تنكّر لأبي سلمة قبل تحوّله حتى عرف ذلك منه.

ذكر هزيمة مروان بالزاب[2]

قد ذكرنا أن قحطبة أرسل أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي إلى شهرزور، وأنه سار إلى ناحية الموصل، وأن مروان سار من حَرّان حتى بلغ الزاب وحفر خندقًا، وكان في عشرين ومائة ألف، وسار أبو عون إلى الزاب، فوجّه أبو سلمة إلى أبي عون عُيَيْنَة بن موسى، والمِنْهَال بن فَتَّان، وإسحاق بن طلحة، كل واحد في ثلاثة آلاف، فلما ظهر أبو العباس بعث سلمة بن محمد في ألفين، وعبد الله الطائي في ألف وخمسمائة، وعبد الحميد رِبْعِي الطائي في ألفين، ووَدَاس بن نَضْلة في خمسمائة إلى أبي عون، ثم قال: من يسير إلى مروان من أهل بيتي؟ قال عبد الله بن علي: أنا، فسيّره إلى أبي عون فقدم عليه، فتحوّل أبو عون عن سرادقه له، فلما كان لليلتين خلتا من شهر جُمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة سأل عبد الله بن علي عن مخاضة بالزاب فدُلّ عليها، فأمر عُيَيْنَة بن موسى فعبر في خمسة آلاف، فانتهى إلى عسكر مروان فقاتلهم حتى أمسوا، ورجع إلى عبد الله، وأصبح مروان فعقد جسرًا وعبر النهر، وسيّر ابنه عبد الله فنزل أسفل من عسكر عبد الله، فبعث عبد الله بن علي المُخَارق بن غفار في أربعة آلاف نحو عبد الله بن مروان، فبعث ابن مروان إليه

---

(١) واسط: سميت واسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، ومنها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا.

(٢) الزاب: بين الموصل وإربل ومخرجه من بلاد مشتكهر.

الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم فالتقيا، فانهزم أصحاب المخارق وثبت هو، فأسر في جماعة وسيّروهم إلى مروان، فأمر أن يؤتى برجل من الأسرى، فأتي بالمخارق، فقال له: أنت المخارق؟ قال: لا بل أنا من عبيد أهل العسكر، قال: أفتعرف المخارق؟ قال: نعم، قال: فانظر هل تراه في هذه الرؤوس؟ فنظر إلى رأس منها فقال: هذا هو المخارق، فخلّى سبيله، ولما بلغت الهزيمة عبد الله بن علي أرسل إلى طريق المنهزمين من يمنعهم من دخول العسكر، وأشار عليه أبو عون أن يبادر مروان بالقتال، قبل أن يظهر أمر المخارق، فنادى في الناس بلبس السلاح والخروج إلى الحرب فركبوا، وسار نحو مروان، وكان عسكره عشرين ألفًا وقيل اثنا عشر ألفًا، فلما التقى العسكران قال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: إن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنّا الذين ندفعها إلى عيسى ابن مريم، فإن قاتلونا قبل الزوال فإنا للّه وإنا إليه راجعون، فأرسل مروان إلى عبد الله يسأله الموادعة، فقال عبد الله: كذب، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله، ثم التقوا واقتتلوا فجعل عبد الله بن علي يقول: يا رب حتى متى نقتل فيك!! ونادى: يا أهل خراسان، يا لثارات إبراهيم واشتد القتال، فأمر مروان بالأموال فأخرجت، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم، فجعل ناس يصيبون منها، فقيل له: إن الناس قد مالوا على المال، ولا نأمنهم أن يذهبوا به، فأرسل إلى ابنه عبد الله أن يسير فيقتل من أخذ من المال شيئًا، فمال عبد الله برايته وأصحابه، فقال الناس: الهزيمة، الهزيمة، فانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر، وكان من غرق يومئذ أكثر مِمَّن قتل، وكان ممن غرق يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع، فاستخرجوه في الغرقى، فقرأ عبد الله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٥٠]، وقيل: بل قتله عبد الله بالشام، وحوى عبد الله عسكر مروان بما فيه، فوجد سلاحًا كثيرًا وأموالاً وكتب إلى السفاح بالفتح، فلما أتاه الكتاب أمر لكل من شهد الوقعة بخمسمائة خمسمائة، ورفع أرزاقهم، وكانت هزيمة مروان بالزاب يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جُمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر مقتل مروان بن محمد ودخول أهل الشام وغيرهم في الطاعة

قال: ولما انهزم مروان أتى مدينة الموصل، وعليها هشام بن عمرو التغلبي وبِشر بن خُزَيْمَة الأسدي فقطعا الجسر، فناداهم أهل الشام: هذا أمير المؤمنين

مروان، فاقلوا: كذبتم، لا يفر، وسبّه أهل الموصل، وقالوا له: يا جعدي[١]، يا معطل، الحمد لله الذي أزال سلطانكم، وذهب بدولتكم، الحمد للّه الذي أتانا بأهل بيت نبيّنا، فسار إلى حرّان فأقام بها نيّفًا وعشرين يومًا، وسار عبد الله حتى دخل الموصل فعزل هشامًا، واستعمل عليها محمد بن صُوَل، ثم سار في أثر مروان، فلما دنا منه حمل مروان أهله وعياله ومضى منهزمًا، وخلّف بحرّان ابن أخيه إبان بن يزيد، فقدم عبد الله حرّان فلقيه إبان مسوّدًا مبايعًا، فبايعه وأمّنه هو ومن كان معه بحرّان والجزيرة، ومضى مروان إلى حمص فلقيه أهلها بالطاعة، فأقام يومين أو ثلاثًا وسار، فلما رأوا قلة من معه طمعوا فيه، وقالوا: مرعوب منهزم فاتبعوه، والتقوا فقاتلهم وهزمهم، وأتى مروان دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فخلّفه بها ومضى إلى فلسطين. قال: وكان السفاح قد كتب إلى عبد الله بن علي باتباع مروان، فسار من حرّان بعد أن هدم الدار التي كان إبراهيم قد حبس بها، ووصل إلى مَنْبج[٢] وقد سوّدوا فأقام بها، وأتته بيعة أهل قِنّسْرِين، وقدم عليه أخوه عبد الصمد بن علي مددًا من قبل السفاح في أربعة آلاف، فسار عبد الله إلى قنسرين ثم إلى حِمْص فبايع أهلها، وأقام بها أيامًا ثم سار إلى بعلبك فأقام بها يومين، ثم سار فنزل قرية مِزَّة، ونزل أخوه صالح بن علي مَرْج عذراء[٣] في ثمانية آلاف، وكان السفاح قد بعثه مددًا لعبد الله، ثم تقدم عبد الله فنزل على الباب الشرقي، ونزل صالح على باب الجابية، وأبو عون على باب كيسان، وبسّام بن إبراهيم على الباب الصغير، وحميد بن قحطبة على باب توما، وعبد الصمد ويحيى بن صَفْوان والعباس بن يزيد على باب الفَرَادِيس، وبدمشق يومئذ الوليد بن معاوية فحصروه بها ودخلوها عَنوة في يوم الأربعاء لخمس مضين من شهر رمضان منها، فقاتلوا فيها ثلاث ساعات، وقتل الوليد بن معاوية فيمن قتل، وأقام عبد الله بدمشق خمسة عشر يومًا، ثم سار يريد فِلَسْطين فلقيه أهل الأردن وقد سوّدوا، فأقام بفلسطين، وأتاه كتاب السفاح يأمره

---

(١) الجعد بن درهم أستاذ مروان بن محمد، وكان من المنكرين للصفات أي فن المعطلة.

(٢) منبج: بالفتح ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، وجيم: وهو بلد قديم، وهي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ... (معجم البلدان).

(٣) مرج عذراء: قرية بغوطة دمشق من إقليم خولان.. وبها منارة، وبها قتل حجر بن عديّ الكندي وبها قبره.. وبالقرب منها راهط الذي كانت فيه الوقعة بين الزبيرية والمروانية... (معجم البلدان لياقوت).

بإرسال صالح بن علي في طلب مروان، فسار صالح في ذي القعدة، ومعه ابن فَتّان، وعامر بن إسماعيل الحارثي، وأبو عون ـ فبلغوا العريش(١)، وأحرق مروان ما كان حوله من علف وطعام وهرب إلى جهة مصر، وسار صالح فنزل النيل، ثم نزل الفسطاط(٢)، ثم سار ونزل موضعًا يقال له ذات الساحل(٣)، وهرب مروان إلى الصعيد، وقدّم صالح أبا عون، وعامر بن إسماعيل الحارثي وشُعْبَة بن كَثِير المازني ـ فساروا، فلقوا خيلًا لمروان فهزموهم وأسروا منهم رجالاً، فسألوهم عن مروان فأخبروهم بمكانه على أن يؤمنوهم فأمنوهم، وساروا فوجدوه نازلاً في كنيسة ببوصير فقاتلوه ليلًا، وكان أصحاب أبي عون قليلًا، فقال لهم عامر بن إسماعيل: إن أصبحنا ورأوا قلّتنا أهلكونا، فكسر جفن سيفه وفعل أصحابه مثله، وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا، وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه فصرعه، وصاح صالح جرح أمير المؤمنين فابتدروه، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة ـ كان يبيع الرمّان ـ فاحتز رأسه، فأخذه عامر بن إسماعيل فبعث به إلى أبي عون، وبعثه أبو عون إلى صالح، فلما وصل إليه أمر أن يقص ويقطع لسانه فأخذته هرّة، فقال صالح: لو لم ترنا الأيام من عجائبها إلا لسان مروان في فم هرة لكفانا، وقيل: إن عبد الله بن علي هو الذي قال هذا، قال: وسيّره صالح إلى عبد الله فبعثه إلى السفاح، وكان قتله لليلتين بقيتا من ذي الحجة، ورجع صالح إلى الشام، وخلف أبا عون بمصر. ولما وصل الرأس إلى السفاح كان بالكوفة، فلما رآه سجد ثم رفع رأسه، فقال: الحمد لله الذي أظهرني عليك، وأظفرني بك، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين، ثم تمثل: [من البسيط]

لو يشربون دمي لم يروِ شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ ترويني

قال: ولما قتل مروان قصد عامر الكنيسة التي فيها حرم مروان، وكان قد وكل بهنّ خادمًا له، وأمره أن يقتلهن بعده، فأخذه عامر وأخذهن، وهنّ نساء مروان وبناته، فسيّرهن إلى صالح بن علي، فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى

(١) العريش: هي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل.

(٢) الفسطاط: مدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص.

(٣) الساحل: بعد الألف حاء مهملة، وآخره لام: موضع من أرض العرب بعينه... قال الأزدي: هو موضع بعينه ولم يرد به ساحل البحر... (معجم ياقوت).

فقالت: يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك، فليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا، قال: إذنْ لا أستبقي منكّن واحدة، ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم؟! ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في الكوفة؟! ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟! ألم يقتل ابن زياد الدعيّ مُسْلم بن عُقَيل؟! ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأهل بيته؟! ألم يخرج إليه بحرم رسول الله ﷺ سبايا فوقفهن موقف السلبي؟! ألم يحمل إليه رأس الحسين وقد فرغ دماغه؟! فما الذي يحملني على الإبقاء عليكن؟! قالت: فليسعنا عفوكم، أما هذا فنعم، وإن أحببت زوَّجتك ابني الفضل، فقالت: بل تحملنا إلى حَرّان، فحملهن إليها.

ذكر من قتل من بني أمية بعد مقتل مروان بن محمد

قال: دخل سديف(١) مولى للسفاح عليه وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه السفاح، فقال سَدِيف: [من الخفيف]

لا يغرَّنك ما ترى من رجالٍ ... إن تحت الضلوع داءً دويّا
فضعِ السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فقال سليمان: قتلتني يا شيخ ودخل السفاح، وأخذ سليمان فقتل، قال: ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام، فأقبل عليه شبل فقال:

أصبح الملك ثابت الأسّاس ... بالبهاليل من بني العباس(٢)
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثارًا ... واقطعن كلّ رقلةٍ وغراس(٣)
ذلّها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحرّ المواسي
فلقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارقٍ وكراسي(٤)

---

(١) هو سديف بن ميمون، وهو مولى بني العباس وشاعرهم، ويقال إنه كان مولى لامرأة من خزاعة وكان زوجها من اللهبيين فنسب إلى ولاء اللهبيين وكان يقول في أيام بني أمية اللهم قد صار فيئنا دولة بعد القسمة وأمارتنا غلبة بعد المشورة وعهدنا ميراثًا بعد الاختبار. . . (طبقات الشعراء).

(٢) البهلول: السيد الجامع لصفات الخير. (٣) الرقلة: النخلة الطويلة.

(٤) النمرق: الوسادة الصغيرة يتكأ عليها.

أنـزلـوهـا بـحـيـث أنـزلـهـا الـلـه بـدار الـهـوان والإتـعـاس
واذكـروا مـصـرع الـحـسـيـن وزيـدًا وقـتـيـلاً بـجـانـب الـمـهـراس[١]
والـقـتـيـل الـذي بـحـرّان أضـحـى ثـاويًـا بـيـن غـربـة وتـنـاسـي

فأمر بهم عبد الله فضربو بالعمد حتى قتلوا، وبسط علهيم الأنطاع فأكل الطعام عليها، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعًا، وأمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أمية بدمشق، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطًا مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطامًا كالرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، وكان يوجد في القبر العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحًا، لم يبل منه إلا أرنبة أنفه، فضربه بالسياط ثم صلبه ثم حرقه وذراه في الريح، وتتبع بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم، فلم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس، واستصفى ما لهم من أموال وغيرها، فلما فرغ منهم قال: [من البسيط]

بـنـي أمـيـة قـد أفـنـيـت جـمـعـكـم فـكـيـف لـي مـنـكـم بـالأول الـمـاضـي
يُـطـيِّـب الـنـفـس أنّ الـنـار تـجـمـعـكـم عُـوضـتُـم مـن لـظـاهـا شـرّ مـعـتـاض
إن كـان غـيـظـي لـفـوت مـنـكـم فـلـقـد رضـيـت مـنـكـم بـمـا ربـي بـه راض

وقيل إن سَدِيفًا أفسد الشعر، الذي ذكرناه عنه للسفاح ومعه كانت الحادثة، وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة منهم جماعة، وألقاهم على الطريق فأكلتهم الكلاب، فاختفى من قدر من بني أمية، وتشتت شملهم، وكان ممن اختفى منهم عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عُتْبة بن أبي سفيان، قال: فكنت لا آتي مكانًا إلا عرفت فيه، فضاقت عليّ الأرض فقصدت سليمان بن علي، وهو لا يعرفني، فقلت له: لفظتني البلاد إليك، ودلّني فضلك عليك، فإما قتلتني فاسترحت، وإما رددتني سالمًا فأمنت، فقال: مَن أنت؟ فعرّفته بنفسي فعرفني، فقال: مرحبًا بك، حاجتك؟ فقلت: إن الحرم التي أنت أولى الناس بهنّ، وأقربهم إليهن قد خفن لخوفنا، ومن خاف خيف عليه، فبكى كثيرًا ثم قال: بل يحقن الله دمك، ويوفّر مالك، ويحفظ حرمك، ثم كتب إلى السفاح: يا أمير المؤمنين، إنّه قد وفد وافد بني أمية علينا، وإنّا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإنّا يجمعنا وإياهم

---

(١) الذي دفن بجانب المهراس هو حمزة بن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ.

عبد مناف، فالرحم تبل ولا تفل[١]، وترفع ولا توضع، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فليجعل كتابًا عامًا إلى البلدان، شكرًا للّه تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا، فأجابه إلى ذلك. وكتب لهم أمانًا، وكان هذا أول أمان بني أمية.

ذكر الخلاف على أبي العباس السفاح وأخبار من خالف وخلع

في هذه السنة: خلع حبيب بن مُرَّة المرّي، ومعه أهل البَثَنِيَّة[٢] وحُورَان، وكان من قواد مروان، فحمله الخوف على نفسه على الخلاف، فخرج إليه عبد الله بن علي وقاتله دفعات، ثم صالحه عبد الله لما خلع أبو الورد.

ذكر خلع أبي الورد وأهل قنّسرين ودمشق

وفيها خلع أبو الورد مِجْزَأة بن الكَوْثر بن زُفَر بن الحارث الكلابي، وكان من أصحاب مروان وقواده، وكان قد بايع عبد الله بن علي وأقام بقِنَّسْرِين، وكان ولد مسلمة بن عبد الملك مجاورين له ببَالِس[٣] والناعورة[٤]، فقدم قائد من قواد عبد الله إلى بَالِس، فبعث بولد مسلمة ونسائهم، فشكى بعضهم ذلك إلى أبي الورد، فقتل ذلك القائد ومن معه وأظهر الخلع لعبد الله، ودعا أهل قنّسرين إلى ذلك فبيّضوا بأجمعهم، والسفاح يومئذ بالحيرة وعبد الله بن علي يقاتل حبيب بن مرّة، فلما بلغ عبد الله ذلك صالح حبيب بن مُرَّة وأمّنه، وسار إلى قِنَّسرين للقاء أبي الوَرْد، فمرَّ بدمشق فخلّف بها أبا غانم عبد الحميد بن رِبْعي الطائي في أربعة آلاف، وكان بدمشق أهل عبد الله وأمهات أولاده وثقله، فلما قدم حمص انتقض أهل دمشق وبيّضوا، وقاموا مع عثمان بن عبد الأعلى بن سُرَاقة الأزدي فلقوا أبا غانم ومن معه فهزموه، وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة، وانتهبوا ثقل عبد الله ولم يتعرضوا لأهله، وأجمعوا

---

(١) المراد بقوله «تبل ولا تفل» أي تصل ولا تقطع.

(٢) البثنيّة: بالتحريك وكسر النون وياء مشددة: اسم ناحية من نواحي دمشق... وقيل: هي قرية بين دمشق وأذرعات... (معجم البلدان).

(٣) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.

(٤) الناعورة: موضع بين حلب وبالس فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك من حجارة وماؤه من العيون، وبينه وبين حلب ثمانية أميال.

على الخلاف، وسار عبد الله وكان قد اجتمع مع أبي الورد جماعة أهل قِنَّسرين، وكاتبوا من يليهم من أهل حِمْص وتَدْمُر، فقدم منهم ألوف، وقدّموا عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا إليه، وقالوا هو السفياني، واجتمعوا في نحو أربعين ألفًا فعسكروا بمَرْج الأخْرم[١]، ودنا عبد الله منهم ووجّه إليهم عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف، وكان أبو الورد هو المدبّر لعسكر قنّسرين وصاحب القتال، فناهضهم واقتتلوا وكثر القتل بينهم فانكشف عبد الصمد، ولحق بأخيه عبد الله فأقبل عبد الله والتقوا بمرج الأخرم، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم أصحاب أبي الورد، وثبت هو في خمسمائة من قومه فقتلوا جميعًا، وهرب أبو محمد ومن معه حتى لحقوا بتدمر، وأمّن عبد الله أهل قنّسرين وسوّدوا، وبايعوه ودخلوا في طاعته، ثم انصرف راجعًا إلى دمشق، فلما دنا منها هرب الناس بغير قتال، فأمّن عبد الله أهلها ولم يؤاخذهم وبايعوه؛ وأما أبو محمد السفياني فتغيّب إلى أيام المنصور، ولحق بالحجاز، فكان كذلك إلى أن بلغ زياد بن عبد الله الحارثي عامل المنصور مكانه، فبعث إليه خيلاً فقاتلوه فقتلوه. وقيل إن حرب أبي الورد كانت في سلخ ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين.

ذكر تبييض أهل الجزيرة[٢] وخلعهم

قال: وفي هذه السنة بيّض أهل الجزيرة وخلعوا السفاح، وساروا إلى حرّان وبها موسى بن كعب في ثلاثة آلاف من جند السفاح فحاصروه بها، وليس على أهل الجزيرة رأس تجمعهم، فقدم عليهم إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينية فاجتمع عليه أهل الجزيرة، وحاصر موسى بن كعب نحوًا من شهر، فوجّه أبو العباس السفاح أخاه أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود بواسط محاصرين ابن هبيرة فساروا، واجتاز بقَرْقِيسِيَا والرقَّة وقد بيّض أهلها، فلما انتهى إلى حرّان رحل إسحاق بن مسلم إلى الرُّها، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين، وخرج موسى بن كعب إليه، ووجّه إسحاق بن

(١) أخرم: في عدة مواضع، منها جبل في ديار بني سليم، مما يلي بلاد ربيعة بن عامر بن صعصعة، وأخرم جبل قبل توز بأربعة أميال من أرض نجد. والأخرم أيضًا: جبل في طرف الدهناء. . . (معجم البلدان).

(٢) الجزيرة: عدة مواضع منها: جزيرة أقور وهي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات. . . (معجم ياقوت).

مسلم أخاه بكّار بن مسلم إلى جماعة ربيعة بدَارَا[١] ومَارْدِين[٢]، ورئيس ربيعة يومئذ رجل من الحروريّة يقال له بُرَيكة، فعمد إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالاً شديدًا، فقتل بريكة في المعركة، وانصرف بكّار بن مسلم إلى أخيه بالرها فخلّفه إسحاق بها، وسار إلى سُمَيْسَاط[٣] فسار حتى نزل بإزاء إسحاق بها، وإسحاق يومئذ في ستين ألفًا وبينهم الفرات، وأقبل أبو جعفر من الرها وحاصر إسحاق بسميساط سبعة أشهر، وكان إسحاق يقول: في عنقي بيعة، فأنا لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل، فلما تيقّن قتله طلب الصلح والأمان، فكتبوا إلى السفاح في ذلك فأمرهم أن يؤمنوه هو ومن معه، فكتبوا بينهم كتابًا بذلك، وخرج إسحاق إلى أبي جعفر وكان عنده من آثر أصحابه، فاستقام أهل الجزيرة والشام، واستعمل أبو العباس السفاح أبا جعفر على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، فلم يزل عليها حتى استخلف.

ذكر قتل أبي سَلَمة الخَلاَّل وسليمان بن كَثِير

قد ذكرنا ما كان من أمر أبي سلمة مع أبي العباس السفاح في مبتدأ الأمر، وما عامله به عند مقدمه وتنكّر السفاح له، فلما فارق العسكر ونزل المدينة الهاشمية كتب إلى أبي مسلم الخراساني، يعلمه بخبره وما كان من أمره، فكتب إليه: إن كان أمير المؤمنين قد اطلع على ذلك فليقتله، فلما قدم عليه كتابه قال داود بن علي: لا تفعل يا أمير المؤمنين فيحتجّ بها أبو مسلم عليك، وأهل خراسان الذين معك أصحابه، ولكن اكتب إلى أبي مسلم أن يبعث إليه من يقتله، فكتب إليه فبعث أبو مسلم مِرار بن أَنَس الضَبّي ليقتله، فقدم على السفاح وأعلمه، فأمر السفاح مناديًا فنادى: إن أمير المؤمنين قد رضي على أبي سلمة، ودعاه فكساه، ثم دخل بعد ذلك عليه في ليلة فلم يزل عنده حتى ذهب عامة الليل، وانصرف إلى منزله وحده فقتله مرار بن أنس، وقالوا قتله الخوارج، ثم أخرج من الغد فصلّى عليه يحيى بن محمد أخو السفاح، ودفن بالمدينة الهاشمية فقال سليمان بن المُهَاجر البجلي فيه:

إن الوزير وزير آل محمد ... أودى فمن يشناك صار وزيرا[٤]

---

(١) دارا: هي بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين.

(٢) ماردين: بكسر الراء والدال: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم في أسواق كثيرة وقانات ومدارس وربط وخانقاهات. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم.

(٤) يشناك: يبغضك.

وكان يقال لأبي سلمة وزير آل محمد، ولأبي مسلم أمين آل محمد، قال: فلما قتل وجه السفاح أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم، فلما قدم سايره عبيد الله بن الحسن الأعرج وسليمان بن كثير، فقال سليمان لأبي جعفر: يا هذا إنّا كنّا نرجو أن يتمّ أمركم، فإذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون، فظنّ عبيد الله أنه دسيس من أبي مسلم، فأتى إلى أبي مسلم وأخبره بمقالة سليمان، فأحضر أبو مسلم سليمان بن كثير وقال له: أتحفظ قول الإمام ـ من اتهمته فاقتله ـ قال: نعم، قال: فإني قد اتهمتك، قال: أنشدك الله!! قال: لا تناشدني فأنت منطو على غش الإمام، وأمر به فضربت عنقه، ورجع أبو جعفر إلى السفاح فقال له: لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله، قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد، قال السفاح: فاكتمها. ووجّه أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث على فارس، وأمره أن يقتل عمّال أبي سلمة ففعل ذلك، فوجّه السفاح عمه عيسى بن علي على فارس وعليها محمد بن الأشعث، فأراد محمد قتل عيسى فقيل له: إن هذا لا يسوغ لك، فقال: بلى، أمرني أبو مسلم أن لا يقدم عليّ أحد يدّعي الولاية من غيره إلا قتلته، ثم ترك عيسى خوفًا من عاقبة قتله، واستحلف عيسى الأيمان المغلظة: أن لا يعلو منبرًا، ولا يتقلد سيفًا إلا في جهاد، فلم يل عيسى بعدها ولاية، ولا تقلّد سيفًا إلا في غزوة، ثمّ وجّه السفاح بعد ذلك إسماعيل بن علي واليًا على فارس.

ذكر أخبار ابن هُبَيْرة وما كان من أمره

قد ذكرنا أنه كان قد تحصّن بواسط، وأرسل أبو سلمة الحسن بن قحطبة لحصاره فحصره بواسط، وكانت بينهم وقعات أكثرها على ابن هبيرة، فلما ظهر السفّاح بعث أخاه أبا جعفر، لقتال ابن هبيرة بعد رجوعه من خراسان، وكتب إلى الحسن: إن العسكر عسكرك، والقوّاد قوّادك، ولكن أحببت أن يكون أخي حاضرًا فاسمع له وأطع، وأحسن مؤازرته؛ وكتب إلى مالك بن الهَيْثَم بمثل ذلك، فلمّا قدم تحوّل الحسن عن خيمته وأنزله فيها، ودام حصاره لابن هبيرة بواسط أحد عشر شهرًا، اقتتلوا فيها عدة وقعات، فلما بلغهم مقتل مروان طلبوا الصلح، وكان ابن هبيرة أراد أن يدعو إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ، فكتب إليه فأبطأ جوابه، وكاتب السفاح اليمانية من أصحاب ابن هبيرة وأطمعهم، فخرج إليه زياد بن صالح وزياد بن عبيد الله الحارثيّان، ووعدا ابن هبيرة أن يصلحا له ناحية السفاح فلم يفعلا، وخرجت السفراء بين أبي جعفر وابن هبيرة، حتى جعل له أمانًا وكتب له كتابًا، مكث ابن هبيرة يشاور العلماء فيه أربعين يومًا حتى رضيه، وأمر

السفاح بإمضائه، وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمرًا دون أبي مسلم، فكتب السفاح إليه بخبر ابن هبيرة، فكتب أبو مسلم إليه: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

قال: ولما تمّ الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائة، وأراد أن يدخل على دابته، فقام إليه الحاجب سَلاّم بن سليم فقال: مرحبًا يا أبا خالد، انزل راشدًا فنزل، وقد أطاف بحجرة المنصور عشرة آلاف من أهل خراسان، فأدخل ابن هبيرة وحده فحادثه ساعة، ثم مكث يأتيه يومًا ويتركه يومًا، وكان يأتيه في خمسمائة فارس وثلاثمائة، فقيل لأبي جعفر: إن ابن هبيرة ليأتي فيتضعضع له العسكر، فأنقص من سلطانه شيئًا، فأمره أبو جعفر ألا يأتي إلا في حاشيته، فكان يأتي في ثلاثين ثم صار يأتي في ثلاثة أو أربعة، وألحّ السفاح على أبي جعفر بقتل ابن هبيرة وهو يراجعه، حتى كتب إليه: والله لتقتلنّه أو لأرسلنّ إليه من يخرجه من حجرتك ويتولى قتله، فبعث أبو جعفر من ختم بيوت الأموال، ثم بعث إلى وجوه من مع ابن هبيرة فأحضرهم، فأقبل محمد بن نُباتة، وحَوْثَرة بن سُهَيْل في اثنين وعشرين رجلاً، فأدخل الحاجب حوثرة وابن نُباتة فنزعت سيوفهما وكتّفا، واستدعى أبو جعفر رجلين رجلين ففعل بهما كذلك، فقال بعضهم: أعطيتمونا عهد الله وغدرتم، إنا لنرجو أن يدرككم الله، وبعث خازم بن خزيمة والهيثم بن شعبة في مائة إلى ابن هبيرة، فقالوا: نريد حمل المال، فقال لحاجبه: دلهم على الخزائن، ففعل، فأقاموا عند كل بيت نفرًا، وأقبلوا نحوه وعنده ابنه داود وعدة من مواليه وبُنَيّ له صغير في حجره، فقام حاجبه في وجوههم فضربه الهيثم على حبل عاتقه فصرعه، وقاتل ابنه داود فقتل، وقتل مواليه، ونحّى ابنه من حجره وقال: دونكم وهذا الصبي وخرّ ساجدًا فقتل، وحملت رؤوسهم إلى أبي جعفر، فأمر فنودي بالأمان للناس إلا الحكم بن عبد الملك وخالد بن سَلَمة المخزومي، فهرب الحكم وأمّن أبو جعفر خالدًا فقتله السفاح، ولم يجز أمان أبي جعفر.

ذكر ولاية يحيى بن محمد المَوْصِل ومن قتله بها

وفي هذه السنة استعمل السفاح أخاه يحيى على المَوْصِل، وسبب ذلك أن أهل المَوْصِل امتنعوا من طاعة عاملهم محمد بن صُول، وقالوا: لا يلي علينا مَولًى لخَثْعَم، وأخرجوه عنهم، فكتب بذلك إلى السفاح، فاستعمل عليهم أخاه يحيى وسيّره إليها في اثني عشر ألفًا، فنزل قصر الإمارة ولم يظهر لهم ما يكرهونه ولا عارضهم

في أمر، ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح فأعطاهم الأمان، وأمر فنودي من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع فقتلوا الناس قتلاً ذريعًا، أسرفوا فيه فقيل إنه قتل عشرين ألفًا ممّن له خاتم[١]، ومن ليس له خاتم ما شاء الله، فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء يبكين رجالهن، فقال: إذا كان الغد فاقتلوا النساء والصبيان، فقتلوا منهم ثلاثة أيام، وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف زنجي، فأخذوا النساء قهرًا، فلما فرغ يحيى من قتل أهل الموصل ركب في اليوم الرابع، وبين يديه الحراب والسيوف مصلته، فاعترضته امرأة وأخذت بعنان دابته، فأراد أصحابه قتلها فنهاهم، فقالت له: ألست من بني هاشم؟! ألست من بني عم رسول الله؟! أما تأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهنّ الزنج؟!! فأمسك عن جوابها وبعث معها من أبلغها مأمنها، فلما كان الغد جمع الزنج للعطاء فاجتمعوا، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم. وقيل: كان السبب في قتل أهل الموصل ما ظهر منهم من كراهية بني العباس، وأن امرأة غسلت رأسها وألقت الخِطْمِيّ[٢] من السطح، فوقع على رأس بعض الخراسانية فظنّها فعلت ذلك تعمدًا، فاقتحم الدار وقتل أهلها، فثار أهل البلد وقتلوه وثارت الفتنة، وممن قتل معروف بن أبي معروف، وكان من الزهّاد العبّاد قد أدرك كثيرًا من الصحابة رضي الله عنهم وروى عنهم.

ذكر عمال السفاح

في هذه السنة كان العالم على مكة والمدينة واليمن واليمامة داود بن علي عم السفّاح، وكان قبل ذلك على الكوفة وسوادها فنقله واستعمل على الكوفة وسوادها ابن أخيه عيسى بن موسى، واستقضى على الكوفة ابن أبي ليلى، وكان العامل على البصرة سفيان بن معاوية المهلّبي، وعلى قضائها الحجّاج بن أرْطاة، وعلى السند منصور بن جُمْهور، وعلى فارس محمد بن الأشعث، وعلى الجزيرة وأرمينية وأذربيجان أبا جعفر عبد الله بن محمد بن علي، وعلى الشام عبد الله بن علي، وعلى مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد، وعلى الموصل يحيى بن محمد، وعلى خراسان والجبال أبا مسلم، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك. وحج بالناس في هذه السنة داود بن علي.

---

(١) المراد بقوله: «له خاتم»: أي من كبار الناس، لأنه يوقع بخاتمه.

(٢) الخطميّ: نبات من الفصيلة الخبازية، كثير النفع، يدق ورقه يابسًا ويجعل غسلاً للرأس فينقيه.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة.

ذكر دخول ملك الروم مَلَطِيَّة[١] وقَالِيقَلا[٢]

في هذه السنة أقبل قسطنطين ملك الروم إلى مَلَطِيَّة وكَمْخ[٣]، فنزل كمخ فاستنجد أهلها بأهل ملطية فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل، فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون، ونازل الروم ملطية وحصروها، والجزيرة يومئذ مفتونة بما ذكرناه، وعاملها موسى بن كعب بحرّان، فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية: إني لم أحصركم إلا على علم من اختلاف المسلمين، فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى أخرب ملطية، فلم يجيبوه، فنصب المجانيق فأذعنوا وسلّموا البلد بالأمان، وانتقلوا إلى بلاد الإسلام، فخرّبها الروم ورحلوا عنها، وسار ملك الروم إلى قَاليقَلا فنزل مَرْج الخَصِيّ[٤]، وأرسل كُوشَان الأرمني فحصرها، فنقب أخوان من الأرمن من أهل المدينة سورها، فدخل كوشان ومن معه البلد فغلبوا عليها، وقاتلوا الرجال وسبوا النساء والذريّة، وساق الغنائم إلى ملك الروم.

وفيها وجّه السفاح عمه سليمان واليًا على البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين ومِهْرِجَا نْقُذَق[٥] واستعمل عمه إسماعيل بن علي على الأهواز. وفيها مات داود بن علي في شهر ربيع الأول واستخلف ابنه موسى، فاستعمل السفاح على مكة والمدينة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي، ووجّه محمد بن يزيد بن عبد المدان الحارثي على اليمن. وفيها توجّه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتل أهلها حتى فتحها.

وفيها خرج شَرِيك بن شَيْخ المهري ببُخَارى على أبي مسلم، ونقم عليه وقال: ما على هذا اتبعنا آل محمد، نسفك الدماء ونعمل بغير الحق، وتبعه أكثر من ثلاثين ألفًا، ووجّه إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقتله زياد.

---

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين.

(٢) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد من نواحي أرمينية الرابعة... (معجم البلدان).

(٣) كمخ: بالفتح ثم السكون: مدينة بالروم.

(٤) الخصيّ: بلفظ الخصيّ: الخادم: موضع في أرض بني يربوع بين أفاق وأفيق.

(٥) في معجم ياقوت: مهرجان قذق: هي كورة حسنة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق إلى همذان في تلك الجبال.

وفيها عزل يحيى بن محمد عن الموصل واستعمل مكانه إسماعيل بن علي وفيها توجّه أبو داود خالد بن إبراهيم إلى الخُتَّل فتحصّن ملكها منه هو وأناس، فألحّ عليه أبو داود فخرج هو ومن معه من دَهَاقِينه، فسار حتى انتهى إلى أرض فَرْغَانَة، ودخل بلد الترك وانتهى إلى ملك الصين، وأخذ أبو داود من ظفر به منهم، فبعث بهم إلى أبي مسلم.

وحج بالناس في هذه السنة زياد بن عبيد الله.

ودخلت سنة أربع وثلاثين ومائة.

ذكر خلع بَسَّام بن إبراهيم وما كان من أمره وقتل أخوال السفاح

في هذه السنة خَلَع بسّام بن إبراهيم، وكان من فرسان أهل خراسان، وسار من عسكر السفاح هو وجماعة على رأيه سرًّا إلى المدائن، فوجّه إليهم السفاح خازم بن خزيمة فاقتتلوا، فانهزم بسّام وقتل أكثر من معه واستبيح عسكرهم، وتبعهم خازم إلى أن بلغ مَاه(١)، ثم انصرف فمرّ بذات المطامير(٢)، وبها أخوال السفاح من بني عبد المدان وهم خمسة وثلاثون رجلًا، ومن غيرهم ثمانية عشر ومن مواليهم سبعة عشر، فلم يسلّم عليهم فلما جاوزهم شتموه، وكان في قلبه منهم، لأنه بلغه أن المغيرة بن الفَزَع من أصحاب بَسَّام لجأ إليهم، فرجع إليهم فسألهم عن المغيرة، فقالوا: مرّ بنا رجل مجتاز لا نعرفه، فأقام في قريتنا ليلة ثم خرج منها، فقال لهم: أنتم أخوال أمير المؤمنين يأتيكم عدوه فيأمن في قريتكم!! فهلا اجتمعتم فأخذتموه!! فأغلظوا له في الجواب فأمر بهم فضربت أعناقهم جميعًا، وهدم دورهم ونهب أموالهم ثم انصرف، فبلغ ذلك اليمانية فاجتمعوا، ودخل زياد بن عبيد الله الحارثي معهم على السفاح، فقالوا: إن خازمًا اجترأ عليك واستخف بحقك، وقتل أخوالك الذين قطعوا البلاد وأتوك، معتزين بك طالبين معروفك، حتى إذا صاروا في جوارك قتلهم خازم، ونهب أموالهم وهدم دورهم بلا حدث أحدثوه، فهمّ بقتل خازم، فبلغ ذلك موسى بن كعب وأبا الجهم بن عطيّة، فدخلا على السفاح وصرفوه عن ذلك، وقالا إن له سابقة

---

(١) الماه، بالهاء الخالصة: قصبة البلد، ومنه قيل ماه البصرة وماه الكوفة وماه فارس، ويقال لنهاوند وهمذان وقم ماه البصرة. . . (معجم ياقوت).

(٢) المطامير: اسم قرية بحلوان العراق. وذات المطامير: بلد بالثغور الشامية.

وإن كنت لا بد قاتله فابعثه لأمر، إن قتل فيه فقد بلغت الذي تريد، وإن ظفر كان ظفره لك، وأشاروا عليه بتوجيهه إلى من بعمان من الخوارج، وإلى الخوارج الذين بجزيرة ابركاوان[١] مع شيبان بن عبد العزيز اليَشْكري، وأمر السفاح بتوجيهه مع سبعمائة رجل، وكتب إلى سليمان بن علي وهو بالبصرة بحملهم في السفن إلى جزيرة ابركاوان وعمان، فسار خازم.

ذكر خبر الخوارج وقتل شيبان بن عبد العزيز

قال: وسار خازم إلى البصرة وقد انتخب من أهله وعشيرته ومواليه ومن أهل مَرْو الرُّوذ من يثق به، ثم سار فلما وصل إلى البصرة انضم إليه عدة من بني تميم، فساروا في البحر إلى جزيرة ابركاوان، فوجّه خازم نَضْلة بن نُعيم النَّهْشَلِي في خمسمائة إلى شيبان، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فركب شيبان وأصحابه في السفن إلى عمان وهم صُفْرِيَّة[٢]، فقاتلهم الجُلَنْدَى وأصحابه وهم أبَاضِيَّة[٣]، واشتد القتال بينهم فقتل شيبان ومن معه، وقد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة في أخبار مروان بن محمد قتل شيبان هذا، وليس هو شيبان الذي قتل بخراسان، ذاك شيبان بن سلمة، ثم سار خازم في البحر بمن معه حتى أرسوا بساحل عمان، فخرجوا فلقيهم الجُلَنْدَى وأصحابه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وكثر القتل بينهم، ثم اقتتلوا من الغد فقتل من الخوارج نحو تسعمائة، وأحرقوا منهم نحو تسعين رجلاً، ثم التقوا بعد سبعة أيام من مقدم خازم، وجعلوا النفط على أسنة رماحهم، وأضرموا بيوت أصحاب الجلندى وكانت من خشب فاحترقت، واشتغلوا بها وبمن فيها من أولادهم وأموالهم، فحمل عليهم أصحاب خازم فقتل الجلندى، وبلغ عدة القتلى عشرة آلاف، فبعث برؤوسهم إلى البصرة ثم إلى السفاح، واستقدم خازمًا بعد ذلك بشهر فقدم عليه.

وفيها وجّه السفاح موسى بن كعب إلى السند لقتال منصور بن جُمْهُور، فسار إليه والتقوا فانهزم منصور ومن معه، فمات عطشًا في الرمال، وقيل أصابته بطنة[٤] فمات، وسمع خليفته على السند بهزيمته فرحل بعيال منصور، فدخل بهم بلاد الخَزَر.

---

(١) هذه الجزيرة قد تعرف الآن باسم كشم أو التي تسمى أيضًا الجزيرة الطويلة.

(٢) الصفرية: طائفة من الخوارج الأولى كانت في العراق وبقيت زمن الدولة الأموية.

(٣) الأباضية: فرقة من الخوارج شاع أمرها في أواخر الدولة الأموية، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي.

(٤) البطنة: الامتلاء الشديد من الطعام.

وفيها توفي محمد بن يزيد وهو على اليمن، فاستعمل السفاح مكانه علي بن الربيع بن عبيد الله. وفيها تحوّل السفاح من الحيرة إلى الأنبار في ذي الحجة. وفيها ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة المشرفة. وحج بالناس عيسى بن موسى وهو على الكوفة.

ودخلت سنة خمس وثلاثين ومائة.

ذكر خروج زياد بن صالح

في هذه السنة خرج زياد بن صالح وراء النهر، فسار إليه أبو مسلم من مرو، وبعث أبو داود خالد بن إبراهيم نصر بن راشد إلى ترمذ، مخافة أن يبعث زياد بن صالح إلى الحصن والسفن فيأخذها، ففعل ذلك نصر وأقام بها، فخرج عليه ناس من الطَّالِقَان مع رجل يكنى أبا إسحاق فقتلوا نصرًا، فبعث أبو داود عيسى بن ماهان فقتل قتلة نصر، ومضى أبو مسلم مسرعًا حتى انتهى إلى آمُل[1] ومعه سَبَّاع بن النعمان الأزدي، وكان السفاح قد أرسله لقتال زياد بن صالح، وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم ويقتله، فأخبر أبا مسلم بذلك فحبس سَبَّاعًا بآمُل، وغزا أبو مسلم حتى نزل بخارى، فأتاه عدّة من قواد زياد قد خلعوا زيادًا، وأخبروا أبا مسلم أن سَبَّاع بن النعمان أفسد زيادًا، فكتب إلى عامله بآمل أن يقتله فقتله، ولجأ زياد إلى دهقان هناك فقتله، وحمل رأسه إلى أبي مسلم، فرجع إلى مرو. وفيها غزا عبد الرحمٰن بن حبيب جزيرة صقلية فغنم ونهب وسبى بعد أن غزا تِلِمْسَان[2]. وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن علي.

ودخلت سنة ست وثلاثين ومائة.

ذكر وفاة أبي العباس السفاح

في هذه السنة: توفي أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح، وكانت وفاته بالأنبار بالمدينة التي بناها وسماها الهاشمية، لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة

---

(١) آمل: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل، وهي في الإقليم الرابع. . . (معجم ياقوت).

(٢) تلمسان: بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة: بالمغرب، وهما مدينتان متجاورتان مسوّرتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة.

ـ وقيل لاثنتي عشرة ليلة مضت منه ـ بمرض الجدري، وله ثلاث وثلاثون سنة، وقيل ست وثلاثون، وقيل ثمان وعشرون، وكانت ولايته من لدن قتل مروان إلى أن توفي أربع سنين، ومن لدن بويع بالخلافة أربع سنين وتسعة أشهر، وكان جعدًا أبيض طويلاً، أقنى[١] الأنف حسن الوجه واللحية، وقيل إنه سُمّ.

وحكي: أنه وصل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بألفي ألف درهم، ولم يعط خليفة هذه الجملة. وكان نقش خاتمه: الله ثقة عبد الله وبه يؤمن. أولاده: محمد مات صغيرًا ورَايِطة تزوجها المهدي. وزراؤه: أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال، وهو أول من لقب بالوزارة، ولم يكن خلاّلاً وإنما كان منزله بالكوفة بقرب الخلاّلين، فكان يجلس عندهم فسمي الخلاّل، ثم قتله على ما قدمناه واستوزر خالد بن بَرْمَك وقد قدّمنا أنه كان على الخراج. وكانت الدفاتر في الدواوين صحفًا مدرجة، فأول من جعلها دفاتر من جلود خالد بن برمك. قضاته: ابن أبي لَيْلَى الأنصاري ثم يحيى بن سعيد الأنصاري. حاجبه: أبو غسّان صالح بن الهيثم مولاه.

الأمير بمصر: صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم سار عنها واستخلف أبا عون عبد الملك بن يزيد، ثم عاد صالح بن علي وقد جمع له مصر وفلسطين وإفريقية، فسيّر أبا عون إلى إفريقية. قاضيه بها عبد الرحمٰن بن سالم إلى أن صرفه أبو عون وأعاد حسين بن نعيم، ثم اعتزل وولى أبو عون عون بن سليمان.

قال: ولما مات السفّاح صلّى عليه عمه عيسى بن علي، ودفنه بالأنبار العتيقة. وخلف تسع جباب وأربعة أقمصة وخمس سراويلات وأربعة طيالسة وثلاث مطارف خز.

قيل: نظر السفاح يومًا في المرآة فقال: اللهم إني لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك: أنا الملك الشاب، ولكني أقول: اللهم عمّرني طويلاً في طاعتك، متمتعًا بالعافية، فما استتم كلامه حتى سمع غلامًا يقول لغلام: الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام، فتطيّر من كلامه، وقال: حسبي الله ولا قوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين. فما مضت الأيام حتى أخذته الحمى، ومات بعد شهرين وخمسة أيام.

---

(١) الأقنى: الذي ارتفع وسط قصبة أنفه وضاق منخراه.

ذكر خلافة المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمّه سَلاّمة بنت بشر بن يزيد، وهو الثاني من خلفاء بني العباس. وكان أخوه السفاح قبل وفاته قد عقد البيعة له في هذه السنة، وجعله وليّ عهد المسلمين من بعده، وجعل من بعده ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي، وجعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى، فلما توفي السفاح كان أبو جعفر بمكة، فأخذ البيعة له عيسى بن موسى، وكتب إلى أبي جعفر يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له، فلقيه الرسول بمنزل صُفَيَّة، فقال: صفت لنا إن شاء الله، وكتب إلى أبي مسلم يستدعيه، وكان قد حجّ أيضًا وقد تقدّم المنصور فأقبل إليه، فلما جلس ألقى إليه الكتاب فقرأه وبكى واسترجع، ونظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعًا شديدًا، فقال: ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ فقال: أتخوّف شرّ عمي عبد الله وشيعة عليّ، فقال: لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله تعالى، إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان، وهم لا يعصونني فسرّى عنه، وبايع له أبو مسلم، وأقبلا حتى قدما الكوفة، قال: ولما بايع عيسى بن موسى الناس لأبي جعفر أرسل إلى عبد الله بن عليّ بالشام، يخبره بوفاة السفاح وبيعة المنصور، وأمره أن يأخذ البيعة للمنصور فبايع لنفسه.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة.

في هذه السنة قدم أبو جعفر المنصور من مكة إلى الكوفة، فصلّى بأهلها الجمعة وخطبهم، وسار إلى الأنبار فأقام بها وجمع أطرافه، وكان عيسى بن موسى قد أحرز بيوت الأموال والخزائن والدواوين حتى قدم فسلّم الأمر إليه.

ذكر خروج عبد الله بن علي وقتاله وهزيمته

كان عبد الله بن عليّ قدم على السفاح، فجعله على الصائفة[1] وسيّر معه أهل الشام وخراسان، فسار حتى بلغ دُلوك[2] ولم يُدْرِب، فأتاه الخبر بوفاة السفاح وبيعة المنصور، فرجع وبايع لنفسه وأعلم الناس أن السفاح لما وجّه الجنود إلى مروان بن محمد دعا أهل بيته، وقال: من انتدب منكم لقتال مروان وسار إليه فهو ولي عهدي،

---

(١) الصائفة: ميرة القوم في الصيف. والصائفة: الغزوة في الصيف.

(٢) دلوك: بضم أوله وآخره كاف: بليدة من نواحي حلب بالعواصم، كانت بها وقعة لأبي فراس بن حمدان مع الروم.

فلم ينتدب غيري وعلى هذا خرجت من عنده، وقتلت من قتلت، وشهد له أبو غانم الطائي وخُفاف المَرْوَرُوزِي وغيرهما من القواد فبايعوه، ومنهم حميد بن قحطبة وغيره، ثم سار عبد الله حتى أتى حرّان، وبها مُقاتل العكي قد استخلفه أبو جعفر لما سار إلى مكة، فتحصّن منه مقاتل فحصره أربعين يومًا، وكان أبو مسلم قد عاد من الحج مع المنصور كما ذكرناه، فقال للمنصور: إن شئت جمعت ثيابي في منطقتي(١) وخدمتك، وإن شئت أتيت خراسان وأمددتك بالجنود، وإن شئت سرت إلى حرب عبد الله بن علي، فأمره بالمسير لحرب عبد الله، فسار نحوه في الجنود ولم يتخلف عنه أحد، فلما بلغ عبد الله إقبال أبي مسلم الخراساني أعطى العكّي أمانًا، فنزل إليه فيمن معه فوجّهه إلى عثمان بن عبد الأعلى الأزدي بالرقة(٢)، ومعه ابناه، وكتب معه كتابًا، فلما قدموا على عثمان دفع العكّي الكتاب إليه فقتله واحتبس أولاده، قال: وخشي عبد الله ألا يناصحه أهل خراسان فقتل منهم نحوًا من سبعة عشر ألفًا، واستعمل حميد بن قحطبة على حلب، وكتب معه كتابًا إلى زُفَر بن عاصم يأمره بقتل حميد إذا قدم عليه، فلما كان ببعض الطريق قرأه، فإذا فيه قتله، فأعلم خاصته بما فيه وانقلب إلى العراق على الرصافة، فتبعه ناس كثير، وأمر المنصور محمد بن صُول بالمسير إلى عبد الله بن عليّ ليمكر به، فلما أتاه قال له: سمعت أبا العباس يقول: الخليفة بعدي عمي عبد الله، فقال له: كذبت إنما وضعك أبو جعفر وضرب عنقه، ثم أقبل عبد الله حتى نزل نَصِيبين وخندق عليه، وقدم أبو مسلم ناحية نصيبين وأخذ طريق الشام ولم يعرض لعبد الله، وكتب إليه: لم أومر بقتالك، وإنما أمير المؤمنين ولاّني الشام، فأنا أريدها، فقال: مَن كان مع عبد الله من أهل الشام له: كيف نقيم معك؟ وهذا يأتي بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا، ويسبي ذرارينا، ولكنّا نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله، فقال لهم عبد الله: والله ما يريد الشام وما توجّه إلا لقتالكم، ولئن أقمتم ليأتينّكم، فأبوا إلا المسير إلى الشام، فارتحل عبد الله نحو الشام، فنزل أبو مسلم في معسكر عبد الله، وغوّر ما حوله من المياه، فقال لأصحابه: ألم أقل لكم، ورجع فنزل في مكان عسكر أبي مسلم الذي كان به أولاً، ثم التقوا واقتتلوا خمسة أشهر عدة وقعات، حتى كادت الهزيمة تكون على أصحاب أبي مسلم، وانهزم بعضهم، فكان أبو مسلم يرتجز في ذلك فيقول:

مـن كـان يـنـوي أهـلـه فـلا رجـع فـرّ مـن الـمـوت وفـي الـمـوت وقـع

---

(١) المنطقة: ما يشد به الوسط.

(٢) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات؛ بينها وبين حران ثلاثة أيام. . . (معجم ياقوت).

فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جُمادى الآخرة سبع وثلاثين التقوا واقتتلوا، فانهزم أصحاب عبد الله وتركوا معسكرهم فحواه أبو مسلم، وكتب بذلك إلى المنصور، فأرسل أبا الخصيب مولاه يحصي ما أصابوا من العسكر، فغضب أبو مسلم. قال: ومضى عبد الله وعبد الصمد ابنا عليّ، فقدم عبد الصمد الكوفة فاستأمن له عيسى بن موسى المنصور، وأما عبد الله فإنه أتى أخاه سليمان بن عليّ بالبصرة، فأقام عنده زمانًا متواريًا.

ذكر مقتل أبي مسلم الخراساني

وكان مقتله لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة، قال: وسبب ذلك أن المنصور كان قد حقد عليه أشياء كثيرة، منها أن أبا مسلم كان قد كتب إلى السفاح يستأذنه فأذن له، وكتب السفاح إلى المنصور ـ وهو على الجزيرة وأرمينية وأَذَرْبَيْجَان[1] ـ أن أبا مسلم استأذنني في الحج وأذنت له، وهو يريد أن أوليه الموسم فاستأذني أنت في الحج، فإنك إذا كنت بمكة لا يطمع أن يتقدمك، فكتب المنصور إلى السفاح يستأذنه في الحج فأذن له، فقال أبو مسلم: ما وجد أبو جعفر عامًا يحج فيه غير هذا!! وحجّا معًا، فكان أبو مسلم يكسو الأعراب، ويصلح الآبار والطرق، فصار الذكر له، فلما صدر الناس عن الموسم تقدم أبو مسلم في الطريق على المنصور، وأتاه خبر السفاح كما قدّمناه، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه بالسفاح ولم يهنئه بالولاية، ولم يُقم حتى يَلحقه ولم يرجع، فغضب المنصور لذلك وكتب إليه كتابًا غليظًا، فلما أتاه الكتاب كتب إليه يهنئه بالخلافة، وتقدم أبو مسلم فأتى الأنبار، فدعا عيسى بن موسى إلى أن يبايع له، فأبى عيسى وقد قيل في أمره ما قدمناه، ثم جهّزه لمحاربة عبد الله بن علي ومعه الحسن بن قحطبة، فأرسل الحسن إلى أبي أيوب وزير المنصور يقول: إني قد ارتبت من أبي مسلم، فإنه يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلقيه إلى أبي الهيثم ويضحكان استهزاءً، فقال أبو أيوب: نحن لأبي مسلم أشد تهمة منّا لعبد الله.

فلما انهزم عبد الله وبعث المنصور أبا الخصيب يجمع الأموال، فأراد أبو مسلم قتله فكُلِّم فيه فخلى سبيله، وقال: أنا أمين على الدماء خائن في الأموال، وشتم

(١) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم: في الإقليم الخامس. . . معناه بيت النار، لأن بيوت النار في هذه الناحية كانت كثيرة.

المنصور فرجع أبو الخصيب وأخبر المنصور، فخاف أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان، فكتب إليه: إني قد ولّيتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام، فتكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحبّ لقاءك أتيته من قرب، فلما أتاه الكتاب غضب وقال: يولينى مصر والشام وخراسان لي!! فكتب الرسول إلى المنصور بذلك.

وأقبل أبو مسلم من الجزيرة وقد أجمع على الخلاف، وخرج يريد خراسان، وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن، وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه، فكتب إليه أبو مسلم وهو بالزاب: إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنّا نروي عن ملوك بني ساسان: إن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء[١]، فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريّون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنًّا بنفسي، فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إليه: قد فهمت كتابك، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشيشة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر ما أنت به، وليس من الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة، وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة، لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته[٢] وبينك، فإنه لم يجد بابًا يفسد به ذات بينك أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك.

وقيل إن مكاتبة أبي مسلم إلى المنصور كانت على خلاف ما قدمناه، وأن المنصور لما سار إلى المدائن أخذ أبو مسلم طريق حلوان، فقال المنصور لعمه عيسى بن علي ولمن حضره من بني هاشم: اكتبوا إلى أبي مسلم، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه، ويسألونه أن يتمّ ما كان منه وعليه من الطاعة، ويحذّرونه عاقبة البغي، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور، وبعث المنصور الكتب مع أبي حميد المروروذي وقال له: كلّم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحدًا، ومَنِّهِ وأعلمه أني رافعه وصانع به ما لم أصنع بأحد ـ إن هو صلح وراجع فله ما أحب، فإن أبَى فقل له:

(١) دهماء: موضع في بلاد قرنية من نواحي المدينة.

(٢) نزغ الشيطان: وساوسه وما يحمل به الإنسان على المعاصي.

يقول لك أمير المؤمنين: لستُ للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقًا ولم تأتني، إن وكلت أمرك إلى أحد سواي، وإن لم آل طلبك وقتالك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها، حتى أقتلك أو أموت قِبَل ذلك، وأوصاه ألا يقول له هذا القول إلا بعد الإياس منه، فسار أبو حميد وقدم على أبي مسلم بحُلْوان، فدفع إليه الكتاب وقال: إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله، وخلاف ما عليه رأيه فيك ـ حسدًا وبغيًا، يريدون إزالة النعمة وتغييرها، فلا تفسد ما كان منك، وقال له: يا أبا مسلم إنك لم تزل أمين آل محمد، يعرفك بذلك الناس وما ذخره الله لك في ذلك من الأجر عنده أعظم مما أنت فيه من دنياك، فلا تحبط أجرك ولا يستهوينّك الشيطان، فقال له: متى كنت تكلمني بهذا الكلام!! فقال أبو حميد: إنك دعوتنا إلى هذا الأمر وإلى طاعة أهل بيت النبي ﷺ في بني العباس، وأمرتنا بقتال من خالف، فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا الله على طاعتهم، وألف بين قلوبنا حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة، وطاعة خالصة، أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن يفسد أمرنا وتفرّق كلمتنا؟ وقد قلت لنا: من خالفكم فاقتلوه، وإن خالفتكم فاقتلوني، فأقبل أبو مسلم على أبي نصر مالك بن الهيثم، وقال: أما تسمع كلامه لي!! ما هذا بكلامه، فقال مالك: لا تسمع كلامه ولا يهولنّك هذا منه، فلعمري ما هذا كلامه، ولما بعد هذا أشد منه، فامض لأمرك ولا ترجع، فوالله لئن أتيته ليقتلنّك، ولقد وقع في نفسه منك ما لا يأمنك معه أبدًا، فأمرهم بالقيام فنهضوا.

وأرسل أبو مسلم الكتب إلى نَيْزَك فقال: لا أرى أن تأتيه، وأرى أن تأتي الري فتقيم بها، فتصيّر ما بين خراسان والري لك، وهم جندك لا يخالفونك، فإن استقام لك استقمت له، وإن أبى كنت في جندك، وكانت خراسان من ورائك، وأنت ورأيك.

فدعا أبا حميد وقال له: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه، قال: قد عزمتَ على خلافه، قال: نعم، قال: لا تفعل، قال: لا أعود أبدًا، فلما أيس منه أبلغه الرسالة، فوجم طويلاً ثم قال: قم كررها وارتاع لقوله. وكان المنصور قد كتب لأبي داود ـ خليفة أبي مسلم بخراسان ـ حين اتهم أبا مسلم: أن لك إمرة خراسان، فكتب أبو داود إلى أبي مسلم: إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيّه ﷺ، فلا تخالفنّ إمامك ولا ترجع إلا بأمره، فوافاه كتابه وهو على تلك الحال فزاده رعبًا، فأرسل إلى أبي حميد فقال له: إني كنت عازمًا على المضي إلى خراسان، ثم رأيت

أن أوجّه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه، فإنه ممن أثق به فوجّهه، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب، وقال له المنصور: اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان وأجازه، فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم وقال: ما أنكرت شيئًا، ورأيتهم معظمين لحقك، يرون لك ما يرون لأنفسهم، وأشار عليه أن يرجع إلى المنصور فيعتذر إليه، فقال له نيزك: قد أجمعت على الرجوع؟ قال: نعم، وتمثل: [من الكامل]

ما للرجال مع القضاء محالةٌ غلب القضاء بحيلة الأقوام

قال: فإذا عزمت على هذا فخار الله لك، احفظ عني واحدة: إذا دخلت عليه فاقتله، ثم بايع لمن شئت، فإن الناس لا يخالفونك.

وكتب أبو مسلم إلى المنصور إنه منصرف إليه، وسار نحوه واستخلف أبا نصر مالك بن الهيثم على عسكره، وقال له: أقم حتى يأتيك كتابي، فإن أتاك مختومًا بنصف خاتم فأنا كتبته، وإن أتاك بخاتمي كله فلم أختمه، وقدم المدائن في ثلاثة آلاف رجل وخلف الناس بحلوان. قال: ولما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه، فتلقاه بنو هاشم والناس؛ ثم قدم فدخل على المنصور فقبّل يده، فأمره أن ينصرف ويستريح ليلته ويدخل الحمام فانصرف.

فلما كان من الغد دعا المنصور عثمان بن نَهِيك وأربعة من الحراس، فأمرهم أنه إذا صفّق بيده أن يقتلوا أبا مسلم وتركهم خلف الرواق، واستدعى أبا مسلم فدخل عليه، فقال له المنصور: أخبرني عن نصلين أصبتهما مع عبد الله بن علي، قال: هذا أحدهما، قال: أرنيه فانتضاه وناوله إياه، فوضعه المنصور تحت فراشه، وأقبل يعاتبه وقال له: أخبرني عن كتابك إلى السفاح تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدين!؟ قال: ظننت أن أخذه لا يحلّ، فلما أتاني كتابه علمت أنه وأهل بيته معدن العلم؛ قال: أخبرني عن تقدمك إياي بطريق مكة، قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس، فتقدمت للرفق؛ وذكره بذنوبه وما أنكره عليه، وكان من جملة ما ذكر له ـ ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك، وتخطب عمتي آمنة بنت علي، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس، لقد ارتقيت ـ لا أمّ لك ـ مرتقًى صعبًا، ثم قال: وما الذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير؟ مع أثره في دعوتنا وهو أحد نقبائنا قبل أن يدخلك في هذا الأمر! قال: أراد الخلاف عليّ وعصاني فقتلته، فلما طال عتاب المنصور له قال: لا يقال لي هذا بعد بلائي وما كان منّي! قال: يا ابن الخبيثة، والله

لو كانت أَمَة مكانك لأجْزَأَت[1]، إنما عملت في دولتنا وبريحنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً، فأخذ أبو مسلم يد المنصور يقبّلها ويعتذر إليه، فقال: والله ما رأيت كاليوم، والله ما زدتني إلا غضبًا، فقال أبو مسلم: دع هذا، فوالله قد أصبحت ما أخاف إلا الله، فشتمه المنصور وصفّق بيده على الأخرى، فخرج إليه الحرس فضربه عثمان بن نَهِيك فقطع حبائل سيفه، فقال: استبقني لعدوّك يا أمير المؤمنين، فقال: لا أبقاني الله إذنْ، وأي عدو أعدى لي منك؟! وأخذته سيوف الحرس حتى قتلوه، وهو ينادي العفو العفو، فقال المنصور: يا ابن اللخناء والسيوف قد اعتورتك!! وأنشد المنصور: [من السريع]

إشربْ بكأسٍ كنت تسقي بها أمرّ في فيك من العلقم
زعمت أنّ الدين لا يقتضي كذبت والله أبا مجرم

قال: وكان أبو مسلم قد قتل ستمائة ألف صبرًا، قال: ولما قُتل قال لأصحابه اجتمعوا، فاجتمعوا فنثرت عليه بَدْرة[2]، فلما أكبوا ليلتقطوها طرح عليهم رأس أبي مسلم، فلما رأوه تخاذلوا وتفرقوا، قال: ثم خطب المنصور بعد مقتل أبي مسلم فقال:

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تمشوا في ظلمة الباطل بعد سعيكم في ضياء الحق، إن أبا مسلم أحسَنَ مبتدأً وأساء معقبًا، وأخذ من الناس أكثر مما أعطانا، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيّته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا في قتله، وعنّفنا في إمهاله، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحلّ لنا عقوبته، وأبحنا دمه فحكمنا فيه حكمه لنا في غيره، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني: [من البسيط]

فمنْ أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادلله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً تنهي الظلوم ولا تقعد على الصمد[3]

ثم نزل.

(١) أجزأت المرأة: ولدت الإناث، وأجزأ عنه: أغنى عنه.
(٢) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.
(٣) الصمد: المصمت لا جوف له.

قال: وكان أبو مسلم قد سمع الحديث من عِكْرمة وأبي الزبير المكي وثابت البناني ومحمد بن علي بن عبد الله بن عباس والسُدِّي وروى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ وعبد الله بن المبارك وغيرهما، وقيل لعبد الله بن المبارك[١]: أبو مسلم كان خيرًا أو الحجاج؟ قال: لا أقول إن أبا مسلم خير من أحد، ولكنّ الحجاج كان شرًّا منه، وكان أبو مسلم فاتكًا شجاعًا ذا رأي وتدبير وحزم وعقل ومروءة.

قال: ولما قتل كتب المنصور إلى أبي نصر مالك بن الهيثم عن لسان أبي مسلم يأمره بحمل ثقله، وما خلّف عنده، وأن يقدم، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم، فلما رأى الخاتم تامًا علم أن أبا مسلم لم يكتبه، فقال: أفعلتموها، وانحدر إلى همذان وهو يريد خراسان، فكتب المنصور له عهدًا على شهرزور، وكتب إلى زهير بن التركي وهو على همذان، إن مرّ بك أبو نصر فاحبسه، فأتاه الكتاب وهو بهمذان، فقال له زهير: قد صنعت لك طعامًا، فلو أكرمتني بدخول منزلي، فحضر عنده فأخذه زهير وحبسه، وقدم صاحب العهد على أبي نصر فخلّى زهير سبيله لهواه فيه فخرج، ثم كتب المنصور إلى زهير بقتله، فقال: جاءني كتاب بعهده فخليت سبيله، ثم قدم أبو نصر على المنصور فقال: أشرت على أبي مسلم بالمضي إلى خراسان، قال: نعم، كانت له عندي أياد فنصحته، وإن اصطنعني أمير المؤمنين نصحت له وشكرت، فعفا عنه، فلما كان يوم الراوَنْدِيَّة قام أبو نصر على باب القصر، وقال: أنا البواب اليوم، لا يدخل أحد وأنا حيّ، فعلم المنصور أنه نصح له، وقيل إن زهيرًا سيّر أبا نصر إلى المنصور مقيّدًا، فمنّ عليه واستعمله على الموصل والله أعلم.

ذكر خروج سُنْبَاذ بخراسان

وفي هذه السنة خرج سُنباذ بخراسان يطلب بدم أبي مسلم، وكان مجوسيًا من قرية من قرى نيسابور يقال لها هروانة، وكان من صنائع أبي مسلم فخرج غضبًا لقتله، وكثر أتباعه وكان عامتهم من أهل الجبال، فغلب على نيسابور وقُومِس[٢] والريّ

---

(١) هو أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، مولى بني حنظلة؛ كان قد جمع بين العلم والزهد، تفقه على سفيان الثوري ومالك بن أنس رضي الله عنهما، وروى عنه الموطأ، وكان كثير الانقطاع محبًا للخلوة شديد التورع، وكذلك كان أبوه... (وفيات الأعيان ٣: ٣٢).

(٢) قومس: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الري ونيسابور... (معجم البلدان).

وتسمى فيروز إِصْبَهْبَذ، فلما صار بالري أخذ خزائن أبي مسلم التي كان خلّفها هناك لما حجّ، وسبى الحرم ونهب الأموال ولم يتعرض للتجار، وأظهر أنه يريد قصد الكعبة ليهدمها، فوجّه إليه المنصور جُمْهور بن مَرَّار العجلي في عشرة آلاف فارس، فالتقوا بين همذان والري على طرف المفازة، فعزم جمهور على مطاولته فلما التقوا قدّم سنباذ النساء من سبايا المسلمات على الجمال في المحامل، فلما رأين عسكر المسلمين قمن في المحامل ونادين: وا محمداه!! ذهب الإسلام، وقعقعت الريح في أثوابهن فنفرت الإبل، وعادت على عسكر المجوس فتفرقوا، وكانت الهزيمة عليهم وتبع المسلمون الإبل، فوضعوا السيوف في المجوس ومن معهم فقتلوهم كيف شاؤوا، وكان عدد القتلى نحوًا من ستين ألفًا وسَبَى ذراريهم ونساءهم، ثم قتل سُنْبَاذ بين طبرستان وقومس، وكان بين مخرجه وقتله سبعون ليلة؛ وكان سبب قتله أنه قصد طَبَرِسْتَان ملتجئًا إلى صاحبها، فأرسل إلى طريقه غلامًا له اسم طوس، فضرب عنق سنباذ وأخذ ما معه من الأموال، وكتب إلى المنصور بقتله، فطلب المنصور الأموال التي كانت معه من صاحب طبرستان فأنكرها، فسيّر الجنود لحربه فهرب إلى بلاد الديلم.

ذكر خروج مُلبَّد الشيباني وقتله

وفي هذه السنة خرج مُلبَّد بن حرملة الشيباني فحكم بناحية الجزيرة، فسار إليه روابط الجزيرة وهم نحو ألف فارس، فقاتلهم فهزمهم، ثم سار إليه يزيد بن حاتم المهلبي فهزمه ملبّد، فوجّه إليه المنصور مولاه مهلهل بن صفوان في ألفين نخبة الجند فهزمهم، واستباح عسكرهم، ثم وجّه إليه نزارًا قائدًا من قواد خراسان، فقتله ملبّد وهزم أصحابه، ثم وجه إليه زياد بن مشكان في جمع كثير فهزمهم، فوجّه إليه صالح بن صبيح في جيش كثيف وخيل كثيرة وعدة فهزمهم، ثم سار إليه حميد بن قحطبة ـ وهو يومئذ على الجزيرة ـ فهزمه ملبّد، وتحصّن منه حميد وأعطاه مائة ألف درهم، على أن يكفّ عنه، فلما بلغ ذلك المنصور وجّه إليه عبد العزيز بن عبد الرحمٰن، وضمّ إليه زياد بن مشكان، فأكمن له ملبّد مائة فارس، فلما التقوا خرج الكمين عليهم، فانهزم عبد العزيز وقتل عامة أصحابه، فوجّه إليه خازم بن خزيمة في نحو ثمانية آلاف من المروروذية، والتقوا واقتتلوا مرة بعد أخرى، فانهزمت ميمنة خازم وميسرته وثبت هو في القلب، فنادى في أصحابه: الأرض، الأرض، فنزلوا وعقروا عامة دوابهم وضربوا بالسيوف حتى تقطعت، وتراجع أصحاب خازم ورشقوا

أصحاب ملبّد بالسهام، فقتل ملبّد في ثمانمائة رجل بالنشاب ـ وكانوا قد ترجلوا، وقتل منهم قبل ذلك ثلاثمائة، وهرب الباقون فاتبعهم أصحاب خازم، فقتل منهم مائة وخمسون رجلًا، وذلك في سنة ثمان وثلاثين ومائة. وقيل إن خروجه كان فيها.

وحجّ بالناس في هذه السنة إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس وهو على الموصل.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة.

ذكر خلع جُمْهُور بن مَرَّار وقتله

في هذه السنة خلع جمهور بن مَرَّار العجلي، وسبب ذلك أنه لما هزم سنباذ حوى ما في عسكره، وكان فيه خزائن أبي مسلم فلم يوجهها إلى المنصور، فخاف فخلع، فوجّه المنصور لحربه محمد بن الأشعث في جيش عظيم، فسار نحو الريّ ففارقها جمهور نحو أصفهان فملكها، فأرسل محمد عسكرًا وأقام هو بالري، فأشار على جمهور بعض أصحابه أن يسير في نخبة عسكره نحو محمد، فسار إليه فبلغ محمدًا الخبر فاحتاط وحذر، وأتاه عسكر من خراسان فقوي بهم، والتقوا بقصر الفيروزان بين الري وأصفهان، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم أصحاب جمهور، ولحق بأذَرْبيجان، وقتل من أصحابه خلق كثير، ثم قتله أصحابه باسباذروا[1] وحملوا رأسه إلى المنصور.

وفي هذه السنة خرج قسطنطين ـ ملك الروم ـ إلى بلاد الإسلام، فدخل مَلَطْية عنوة وقهر أهلها وهدم سورها، وعفا عمن فيها من المقاتلة والذريّة، ثم بنى صالح بن علي ما هدمه الروم من سورها.

وفيها بايع عبد الله بن علي للمنصور في المسجد الحرام. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن صالح بن علي.

ودخلت سنة تسع وثلاثين ومائة.

في هذه السنة: كان الفداء بين المنصور وملك الروم، فاستنقذ المنصور أسرى قَالِيقَلاَ وغيرهم من الروم، وعمّرها وردّ أهلها إليها، وندب إليها جندًا من أهل الجزيرة وغيرهم.

---

(١) في معجم ياقوت: اسبيذروذ: اسم لنهر مشهور من نواحي أذربيجان، مخرجه من عند بارسيس ويصب في بحر جرجان.

وفيها استولى عبد الرحمٰن بن معاوية على بلاد الأندلس، على ما نذكره في أخبار الدولة الأموية بالمغرب. وفيها عزل المنصور سليمان بن علي عن البصرة، فاختفى أخوه عبد الله بن علي ومن معه من أصحابه، خوفًا من المنصور، فأرسل المنصور إلى سليمان وعيسى ابني عليّ في إحضار عبد الله، وأمَّنه فأحضراه إليه وقواده ومواليه في ذي الحجة، فحبسه المنصور ومن معه من أصحابه، ثم قتل بعضهم بحضرته، وبعث بقيتهم إلى خالد بن إبراهيم ـ عامل خراسان ـ فقتلهم بها، واستعمل على البصرة سفيان بن معاوية. وحجّ بالناس العباس بن محمد بن علي.

ودخلت سنة أربعين ومائة.

في هذه السنة: هلك أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلي عامل خراسان، وكان سبب هلاكه أنّ ناسًا من الجند ثاروا به ـ وهو بكشمَاهَن[1] ـ ووصلوا إلى المنزل الذي هو فيه، فأشرف عليهم من الحائط ووطىء حرف آجرة، وجعل ينادي أصحابه ليعرفوا صوته، فانكسرت الآجرة به عند الصباح، فسقط على الأرض فانكسر ظهره فمات عند صلاة العصر، فاستعمل المنصور عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الأزدي، فقدم وأخذ جماعة من القواد الذين اتهمهم بالدعاء لولد علي بن أبي طالب فقتلهم، وحبس جماعة.

وفيها سيّر المنصور عبد الوهاب ابن أخيه إبراهيم الإمام، والحسن بن قحطبة، في سبعين ألف مقاتل إلى مَلَطْية، فعمروا ما كان خربه الروم منها في ستة أشهر، وأسكنها أربعة آلاف من الجند، وأكثر فيها السلاح والذخائر، وبنى حصن قَلَوْذية[2]، فعاد إلى مَلَطْية من كان جلا منها.

وفيها حجّ المنصور فأحرم من الحيرة، فلما قضى حجه توجَّه إلى البيت المقدس، ثم سار منه إلى الرَّقَة فقتل بها منصور بن جعونة العامري، وعاد إلى هاشمية الكوفة.

وفيها أمر المنصور بعمارة مدينة المصّيصَة على يد جبريل بن يحيى، وكان سورها قد تشعث من الزلازل وأهلها قليل، فبنى السور وسماها المعمورة، وبنى بها مسجدًا جامعًا، وفرض فيه لألف رجل، وأسكنها كثيرًا من أهلها.

---

(١) في معجم ياقوت: كشمهين: بالضم ثم السكون، وفتح الميم، وياء ساكنة، وهاء مفتوحة، وثون: قرية كانت عظيمة من قرى مرو على طرف البرية.

(٢) قلوذية: هو حصن كان قرب ملطية قيل إنه هدم ثم أعاد بناءه الحسن بن قحطبة في سنة ١٤١ في أيام المنصور. . . (معجم البلدان).

ودخلت سنة إحدى وأربعين ومائة.

ذكر خروج الراوندية على المنصور وقتلهم

والراوندية قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم حلّت في عثمان بن نهيك، وأن ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأن جبريل هو الهيثم بن معاوية، فلما ظهروا وأتوا قصر المنصور فقالوا: هذا قصر المنصور، فقالوا هذا قصر ربنا، فأخذ المنصور رؤساءهم فحبس منهم ثمانين رجلاً، فغضب أصحابهم، وأخذوا نعشًا فحملوه وليس فيه أحد، فمرُّوا على باب السجن ورموا النعش، وحملوا على الناس ودخلوا السجن وأخرجوا أصحابهم، وقصدوا المنصور وهم ستمائة رجل، فغلقت أبواب المدينة، وخرج المنصور من القصر ماشيًا، ولم يكن في القصر دابة، ثم أتى بدابة فركبها، وأمر بعد ذلك اليوم أن تربط دابة معه في القصر، وخرج المنصور لهم فتكاثروا عليه حتى كادوا يقتلونه، وجاء معن بن زائدة الشيباني ـ وكان مستخفيًا من المنصور لقتاله مع ابن هبيرة، وكان المنصور شديد الطلب له، وقد بذل فيه مالاً كثيرًا، فتلثّم وترجّل وقاتل قتالاً شديدًا، وكان المنصور على بغلة ولجامها بيد الربيع حاجبه، فأتاه معن بن زائدة وقال: يا شيخ أنا أحق بهذا اللجام منك في هذا الوقت وأعظم غَناء، فقال المنصور: صدق، فدفعه إليه، فلم يزل يقاتل حتى حصل الظفر بالراوندية، فقال له المنصور: من أنت؟ قال: طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، فقال: قد آمنك الله على نفسك ومالك وأهلك، مثلك يصطنع؛ وجاء أبو نصر مالك بن الهيثم فوقف على باب المنصور، وقال: أنا البواب كما ذكرنا ذلك، ونودي في أهل السوق فقاتلوهم، وفتح باب المدينة فدخل الناس، فحمل عليهم خازم بن خزيمة حتى ألجأهم إلى حاط، ثم حملوا عليه فكشفوه مرتين، فقال الهيثم بن شُعْبَة: إذا كرّوا علينا فاسبقهم إلى الحائط، فإذا رجعوا فقاتلهم، ففعل ذلك فقتلوا جميعًا، وكان ذلك بالمدينة الهاشمية، وأصيب يومئذ عثمان بن نهيك بسهم، فمرض أيامًا ومات فصلّى عليه المنصور، وجعل على الحرس أبا العباس الطُّوسِي ثم ولّى المنصور معن بن زائدة اليمن.

ذكر خلع عبد الجبار بخراسان ومسير المهدي إليه

وفي هذه السنة خلع عبد الجبار بن عبد الرحمٰن ـ عامل خراسان ـ المنصور، وكان سبب ذلك أنه لمّا استعمله المنصور على خراسان عمد إلى القواد، فقتل بعضهم

وحبس بعضهم، فبلغ ذلك المنصور، وأتاه كتاب بعضهم يقول: قد نغل[١] الأديم، فقال المنصور لأبي أيوب: إن عبد الجبار قد أفنى شيعتنا، وما فعل ذلك إلا وهو يريد أن يخلع، فقال اكتب إليه: إنك تريد غزو الروم فليوجه إليك الجنود من خراسان، وعليهم فرسانهم ووجوههم، فإذا خرجوا منها فابعث إليه من شئت فلا يمتنع، فكتب إليه المنصور فأجابه أن الترك قد جاشت[٢]، وإن فرّقت الجند ذهبت خراسان، فألقى الكتاب إلى أبي أيوب وقال: ما ترى، فقال: قد أمكنك من قياده، اكتب إليه: إن خراسان أهم إلي من غيرها، وأنا موجه إليك الجنود، ثم وجّه الجنود ليكونوا بخراسان، فإن همّ بخلع أخذوا بعنقه، فلما ورد الكتاب على عبد الجبار أجابه: إن خراسان لم تكن أسوأ حالاً منها العام، وإن دخلها الجنود هلكوا لضيق ما هم فيه من الغلاء، فلما أتاه الكتاب ألقاه إلى أبي أيوب، فقال له أبو أيوب: قد أبدى صفحته، وقد خلع فلا تناظره، فوجّه المنصور إليه المهدي، وأمره بنزول الري، فسار المهدي ووجه خازم بن خزيمة بين يديه لحرب عبد الجبار، ونزل المهدي نيسابور، فلما بلغ ذلك أهل مرو الروذ ساروا إلى عبد الجبار، وقاتلوه قتالاً شديدًا فانهزم منهم، والتجأ إلى مقطنة[٣] فتوارى فيها، فعبر إليه المجَشِّر بن مزاحم من أهل مرو الروذ فأخذه أسيرًا، فلما قدم خازم أتاه به وألبسه جبة صوف، وحمله على بعير وجعل وجهه مما يلي عجز البعير، وحمله إلى المنصور ومعه ولده وأصحابه، فبسط عليهم العذاب واستخرج منهم الأموال، ثم أمر فقطعت يد عبد الجبار ورجلاه وضربت عنقه، وأمر بتسيير ولده إلى دهلك ـ جزيرة باليمن، فلم يزالوا بها حتى أغار عليهم الهند فسبوهم فيمن سبوا، ثم فودوا بعد ذلك. وقيل كان أمر عبد الجبار في سنة اثنتين وأربعين في شهر ربيع الأول.

ذكر فتح طبرستان

قال: ولما ظفر المهدي بعبد الجبار بغير تعب كره المنصور أن تبطل تلك النفقات التي أنفقت على المهدي، فكتب إليه أن يغزو طبرستان وينزل الريّ، ويوجّه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود إلى الإصبهبذ، وكن الإصبهبذ يومئذ محاربًا المصمغان ملك دُنْبَاوَنْد[٤]، فبلغه دخول الجند بلاده، ثم قال المصمغان للإصبهبذ

---

(١) المراد فساد الأمر والحكم. (٢) جاشت: تجمعت جموعها.

(٣) المقطنة: حيث يزرع القطن، أو المقطنة: اسم موضع بعينه.

(٤) دنباوند: جبل من نواحي الريّ... وقيل: دنباوند جبل بكرمان.

متى قهروك صاروا إليّ، فاجتمعوا على حرب المسلمين وطالت تلك الحروب، فوجه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان، وهو الذي يقول فيه بشار: [من المتقارب]

إذا أيقظتك حروب العدا فنبّه لها عُمَرًا ثم نمْ

وكان عالمًا ببلاد طبرستان، فأخذ الجنود وقصد الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق(١) وما فيها، وطالت الحرب وألحّ خازم بالقتال ففتح طبرستان وقتل منهم وأكثر، وصار الإصبهبذ إلى قلعته وطلب الأمان، على أن يسلّم القلعة وما فيها من الذخائر، فكتب المهدي بذلك إلى المنصور، فوجّه المنصور صالحًا صاحب المصلّى فأحصى ما في الحصن وانصرفوا، ودخل الإصبهبذ بلاد جيلان من الديلم، وأخذت ابنته وهي أم إبراهيم بن العباس بن محمد، وقصدت الجنود المصمغان فظفروا به.

وفيها عزل زياد بن عبيد الله الحارثي عن مكة والمدينة والطائف، واستعمل على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري في شهر رجب، وعلى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العتكي من أهل خراسان. وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن علي بن عبد الله بن عباس وهو يومئذ على الشام.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة.

ذكر خلع عيينة بن موسى

في هذه السنة خلع عيينة بن موسى بن كعب بالسند وكان عاملًا عليها، وسبب خلعه أن أباه كان يستخلف المسيّب بن زهير على الشرط، فلما مات موسى أقام المسيّب على ما كان يلي من الشرط، وخاف أن المنصور يحضر عيينة فيوليه ما كان إلى أبيه، فكتب إليه بيت شعر ولم ينسب الكتاب إلى نفسه: [من المتقارب]

فأرضك أرضك إن تأتنا تنم نومةً ليس فيها حُلُم

فخلع الطاعة، فلما بلغ المنصور الخبر سار بعسكره حتى نزل جسر البصرة، ووجه عمر بن حفص بن أبي صفرة العتكي عاملًا على السند، وأمره بمحاربة عيينة فسار وغلب على السند.

---

(١) الطاق: حصن بطبرستان... وهو نقب في موضع من جبل صعب السلوك لا يجوزه إلا الراجل بجهد... (معجم البلدان).

ذكر نكث الإِصْبَهْبَذ

في هذه السنة: نقض الإصبهبذ بطبرستان العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده منهم، فلما انتهى الخبر إلى المنصور سيّر مولاه أبا الخصيب، وخازم بن خزيمة، وروح بن حاتم، وأقاموا يحاصرون الحصن وهو فيه، ولما طال عليهم المقام احتال أبو الخصيب في ذلك، فقال لأصحابه: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ففعلوا ذلك به، ولحق بالإصبهبذ فقال له: إنهم فعلوا بي هذا لأنهم تهموني أنّ هواي معك، وقال له: إنما أدلك على عورة عسكرهم، فقبل الإصبهبذ ذلك وجعله في خاصته، وكان باب حصنه من حجر، وكان يوكل بفتحه وغلقه ثقات أصحابه نوبًا بينهم، فلما وثق الإصبهبذ بأبي الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه وغلقه، فكتب أبو الخصيب إلى روح وخازم وأعلمهم أنه قد ظفر، وأوعدهم ليلة بفتح الباب، فلما كان في تلك الليلة فتح لهم، فدخلوا الحصن فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذريّة، وأخذوا شَكْلَة أم إبراهيم بن المهدي، وكان مع الإصبهبذ سم فشربه فمات، وقيل إن ذلك كان في سنة ثلاث وأربعين.

وفي هذه السنة مات سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس في جمادى الآخرة وعمره تسع وخمسون سنة، وفيها عزل نوفل بن الفرات عن مصر، ووليها حميد بن قحطبة، وولّى المنصور أخاه العباس بن محمد على الجزيرة والثغور والعواصم، وعزل عمه إسماعيل عن الموصل واستعمل عليها مالك بن الهيثم الخزاعي. وحجّ بالناس إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة.

في هذه السنة: ثار الديلم[1] بالمسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فندب الناس المنصور إلى قتال الديلم وجهادهم؛ وفيها عزل الهيثم بن معاوية عن مكة والطائف، واستعمل السَّرِي بن عبد الله بن الحارث بن العباس؛ وفيها عزل حميد بن قحطبة عن مصر واستعمل عليها يزيد بن حاتم، وحجّ بالناس في هذه السنة عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله.

(١) الديلم: جبل سمّوا بأرضهم.. وهو في الإقليم الرابع.. وقيل: ديلم: اسم ماء لبني عبس.. وقيل: الديلم أي الأعداء.

ودخلت سنة أربع وأربعين ومائة.

في هذه السنة: سيّر المنصور الناس من أهل الكوفة والبصرة والجزيرة والموصل إلى غزو الديلم، واستعمل عليهم محمد بن أبي العباس السفاح. وفيها عزل المنصور عن المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري، واستعمل عليها رياح بن عثمان المري، وكان سبب ذلك أن المنصور كان يتطلب محمد بن عبد الله بن الحسن وأخاه إبراهيم بن عبد الله، فلما استعمل محمد بن خالد على المدينة أمره بطلبهما، فقدم المدينة وأنفق أموالاً عظيمة في طلبهما، فلم يظفر بهما فعزله واستعمل رياحًا، وأمره بمطالبة القسري بالأموال وطلب محمد وإبراهيم، فقدم المدينة وطالب محمد بن خالد بالمال وضربه وسجنه، وأخذ كاتبه رِزَامًا وعاقبه، وألزمه أن يذكر له ما أخذ محمد من الأموال، فلم يجبه إلى ذلك، فلما طال عليه الأمر وشدّد عليه العذاب أجابه، فقال له رياح: أحْضر الرقيعة[1] وقت اجتماع الناس، فلما اجتمع الناس أحضره، فقال: أيها الناس إن الأمير أمرني أن أرفع على محمد بن خالد، وقد كتبت كتابًا وأنا أشهدكم أن كل ما فيه باطل، فأمر به رياح فضرب مائة سوط ورده إلى السجن.

وفيها حجّ المنصور فلما عاد من حجه إلى المدينة لم يدخلها، ونزل الرَّبَذَة[2]، وكان قد أمر رياحًا بحبس أولاد الحسن فحبسهم، فلما رجع أمر بحملهم إلى العراق، فأخرجهم من السجن إلى الربذة والأغلال في أعناقهم وأرجلهم، وحملوا بغير وطاء، وحبسهم بقصر ابن هبيرة، وضرب محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ـ وكان قد حبسه معهم ـ خمسين ومائة سوط، فسالت إحدى عينيه بضربة أصابتها، ومحمد هذا هو الذي يسمى الديباج، كل ذلك لخوفه من ظهور محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن حسن على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ودخلت سنة خمس وأربعين ومائة.

ظهور محمد بن عبد الله

في هذه السنة: ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة ودعا إلى نفسه، وحبس رياح بن عثمان عامل المدينة، وأخرج

---

(١) الرقيعة: قطعة من الورق أو الجلد تكتب.

(٢) الربذة: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، واسمه جندب بن جنادة... (معجم البلدان).

محمد بن خالد القسري من الحبس، واستعمل العمال على المدينة ومكة والطائف واليمن، وكان خروجه لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة منها، وكان بينه وبين المنصور مكاتبات سنذكرها في أخبار محمد بن عبد الله، ولم تغن شيئًا، فندب المنصور لقتاله عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس، فالتقوا فقتل محمد في يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها، وقتل معه جماعة سنذكر ذلك مستوفى في أخباره إن شاء الله.

وفيها ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ـ وهو أخو محمد ـ بالبصرة، وبايع الناس، وكان ظهوره في أول شهر رمضان، وقتل يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة منها. وسنذكر ذلك مستوفى في موضعه إن شاء الله تعالى.

ذكر وثوب السودان بالمدينة

وفي هذه السنة: ثار السودان بالمدينة على عاملها عبد الله بن الربيع الحارثي فهرب منهم، وسبب ذلك أن المنصور لما استعمله قدم المدينة لخمس بقين من شوال، فنازع جنده التجار في بعض ما يشترونه منهم، فشكوا ذلك إليه فانتهر التجار وشتمهم، فتزايد طمع الجند فعدوا على صيرفي فنازعوه كيسه، فاستعان بالناس فخلصوه منه، وشكا أهل المدينة إلى ابن الربيع فلم ينكره، ثم جاء رجل من الجند إلى جزار، فاشترى منه لحمًا في يوم جمعة فلم يعطه الثمن، وشهر عليه السيف فضربه الجزار بشفرة في خاصرته فقتله، واجتمع الجزارون وتنادى السودان فقاتلوهم، ونفخوا في بوق لهم فسمع السودان من العالية والسافلة فاجتمعوا، وكان رؤساؤهم ثلاثة، وهم: وثيق ويعقل وزمعة، فقتلوا في الجند حتى أمسوا، وقصدوا ابن الربيع فهرب منهم، وأتى بطن نخل على ليلتين من المدينة فنزل به، وانتهب السودان طعامًا للمنصور وزيتًا وغيره، فباعوا الحمل الدقيق بدرهمين، والراوية[1] الزيت بأربعة دراهم، ولم يصل الناس في ذلك اليوم جمعة، فذهب محمد بن عمران ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما إلى العبيد فكلموهم، فقالوا: مرحبًا بموالينا، والله ما قمنا إلا أنفة بما عمل بكم، فأمرنا إليكم، فأقبلوا بهم إلى المسجد فخطبهم ابن أبي سبرة، وحثهم على الطاعة فتراجعوا، ثم قال لهم ـ من الغد إنكم كان منكم ما كان بالأمس ـ نهبتهم طعام أمير المؤمنين، فلا يبقينّ عند أحد منه شيء إلا ردّه فردّوه، ورجع ابن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق ويعقل وغيرهما.

---

(١) الراوية: المزادة فيها الماء.

ذكر بناء مدينة بغداد وانتقال أبي جعفر المنصور إليها

وفي هذه السنة ابتدأ المنصور في بناء مدينة بغداد، وسبب ذلك أنه كان قد ابتنى المدينة الهاشمية بنواحي الكوفة، فلما ثارت الراوندية فيها كره سكناها لذلك، ولجوار أهل الكوفة فإنه كان لا يأمنهم على نفسه، فخرج يرتاد موضعًا لبنائها، وكان بعض جنده قد تخلف عنه بالمدائن لرمد أصابه، فسأله الطبيب الذي يعالجه عن سبب حركة المنصور فأخبره، فقال الطبيب: إنّا نجد في كتاب عندنا أن رجلاً يدعى مقلاصا يبني مدينة، بين دجلة والصراة[١] تدعى الزوراء[٢]، فإذا أسسها وبنى بعضها أتاه فتق من الحجاز، فقطع بناءها وأصلح ذلك الفتق، ثم أتاه فتق من البصرة أعظم منه، فلم يلبث الفتقان أن يلتئما، ثم يعود إلى بنائها فيتمه، ثم يعمر زمنًا طويلاً ويبقى الملك في عقبه، فقدم ذلك الجندي على المنصور وأخبره الخبر، فقال: أنا والله كنت أدعى مقلاصًا ثم زال عنّي، وسار حتى نزل الدير ـ هو جوار قصره المعروف بالخلد، ودعا صاحب الدير والبطريق وغيرهما، فاتفق رأيهم على عمارتها في موضعها، وابتدأ بعمارتها في سنة خمس وأربعين ومائة، وكتب إلى سائر البلاد في إنفاذ الصناع والفعلة، وأمر أن يختار له من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة، وأمر فخطت المدينة بالرماد، فشقها ورآها، ثم أمر أن يجعل على الرماد حب القطن ويشعل بالنار، ونظر إليها وهي تشتعل ففهمها، وأمر بحفر أساسها على ذلك الرسم، ووكل بها أربعة من القواد، كل قائد على ربع، ووكل أبا حنيفة بعدّ الآجر واللبن، وكان قبل ذلك أراده المنصور على ولاية القضاء والمظالم فلم يجب، فحلف المنصور أنه لا بد أن يعمل له، فأجابه أن ينظر في عمارة بغداد، ويعدّ الآجر واللبن بالقصب ـ وهو أول من فعل ذلك، وجعل المنصور عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعًا ومن أعلاه عشرين ذراعًا، وجعل في البناء القصب والخشب، ووضع بيده أول لبنة وقال: بسم الله والحمد لله والأرض للّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله،

---

(١) الصراة: بالفتح: هما نهران ببغداد: الصراة الكبرى والصراة الصغرى.

(٢) الزوراء: به سميت دجلة بغداد.. والزوراء: أرض كانت لأحيحة بن الجلاح.. وقيل: الزوراء: مدينة ببغداد في الجانب الشرقي.. وقيل أيضًا: الزوراء: مدينة أبي جعفر المنصور، وهي في الجانب الغربي.. والزوراء: دار بناها النعمان بن المنذر بالحيرة.. والزوراء: موضع عند سوق المدينة قرب المسجد وقيل: سوق المدينة نفسه.. والزوراء: ماء لبني أسد، وقيل: هي رصافة هشام وكانت للنعمان... (معجم البلدان لياقوت).

فلما بلغ السور قدر قامة جاء الخبر بظهور محمد بن عبد الله فقطع البناء وأقام بالكوفة حتى فرغ من حرب محمد وأخيه إبراهيم، ثم عاد إلى بغداد فأتم بناءها، وكان المنصور قد أعد جميع ما تحتاج إليه المدينة، من آلات البناء والخشب والساج[١] وغيره، واستخلف حين شخص إلى الكوفة على إصلاح ما أعدّ سَلْم مولاه، فبلغه أن إبراهيم قد هزم عسكر المنصور فأحرق جميع ذلك.

قال: ولما انقضى أمر إبراهيم عاد المنصور إلى بغداد في صفر سنة ست وأربعين ومائة، واستشار خالد بن برمك في نقض المدائن وإيوان كسرى، ونقل النقاضة إلى بغداد، فقال: لا أرى ذلك لأنه علم من أعلام الإسلام، فقال له: أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم!! وأمر بنقض القصر الأبيض فنقضت ناحية منه، فلم يوف ما تحصل من النقاضة بما غرم عليه من الكلفة، فاستشار خالد بن برمك فقال: كنت لا أرى ذلك قبل، أما إذ فعلت فأرى أن يهدم لئلا يقال عجزت عن هدم ما بناه غيرك، فأعرض عنه وترك هدمه، ونقل أبواب مدينة واسط فجعلها على بغداد، وبابًا جيء به من الشام، وبابًا من الكوفة كان عمله خالد القسري، وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض، وجعل لها سورين، فالسور الداخل أعلى من الخارج، وبنى قصره في وسطها، والمسجد الجامع بجانب القصر، وكان اللبن الذي يبنى به ذراع في ذراع، ووزن بعض اللبن لما نقص فكان مائة رطل وسبعة عشر رطلاً، وكانت الأسواق في المدينة فجاء رسول لملك الروم، فأمر أن يطاف به المدينة، ثم قال له: كيف رأيت؟ فقال: رأيت بناءً حسنًا إلا أنّ أعداءك معك، وهم السوقة[٢]، فأمر المنصور بإخراجهم إلى الكرخ[٣].

قال ابن الأثير: وكان مقدار النفقة على بنائها وبناء المسجد والقصر والأسواق والفصلان والخنادق والأبواب أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهمًا، وكان الأستاذ من البنائين يعمل يومه بقيراط فضة، والروز كاري[٤] بحبتين، وحاسب القواد عند الفراغ وأخذ منهم ما بقي عندهم، فبقي عند خالد بن الصلت خمسة عشر درهمًا فحبسه عليها وأخذها منه.

---

(١) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

(٢) السوقة: الرعية، أو أوساط الناس.

(٣) الكرخ: عدة مواضع وكلها بالعراق، منها: كرخ البصرة، وكرخ بغداد، وكرخ باجدا وكرخ الرقة.. وغيرها.

(٤) الروز كاري: أي العامل اليومي.

وفي سنة خمس وأربعين خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة وحجّ بالناس السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس.

ودخلت سنة ست وأربعين ومائة.

في هذه السنة كملت عمارة بغداد، وقد تقدم ذكر ذلك. وفيها عزل سلم بن قُتَيْبَة عن البصرة واستعمل عليها محمد بن سليمان؛ وعزل عن المدينة عبد الله بن الربيع، واستعمل عليها جعفر بن سليمان؛ وعزل عن مكة السري بن عبد الله، ووليها عبد الصمد بن علي. وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام.

ودخلت سنة سبع وأربعين ومائة.

في هذه السنة أغار استرخان الخوارزمي في جمع من الترك بناحية أرمينية، فسبى من المسلمين وأهل الذمّة خلقًا كثيرًا، ودخلوا تفليس[(١)]، وكان حرب بن عبد الله مقيمًا بالموصل في ألفين من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة، فسيّر المنصور لمحاربة الترك جبريل بن يحيى وحرب بن عبد الله، فقاتلهم فقتل حرب وهزم جبريل بن يحيى، وقتل خلق من أصحابه.

ذكر البيعة للمهدي وخلع عيسى بن موسى

في هذه السنة: كلم المنصور عيسى بن موسى في أن يخلع نفسه من ولاية العهد، وتقدّم للمهدي فامتنع من ذلك، فاطرحه المنصور وحطّ من رتبته، وقدّم المهدي عليه في الجلوس، وأذاه بأنواع الأذى وأهانه بأنواع الإهانة، وآخر الأمر إن المنصور أمر الربيع أن يخنق عيسى بحمائل سيفه، فخنقه وهو يستغيث: الله الله في دمي يا أمير المؤمنين، والمنصور يقول: ازهق نفسه، هذا بحضور أبيه موسى، فقام أبوه عند ذلك وبايع للمهدي، ثم جعل عيسى بن موسى بعده، فقال الناس: هذا الذي كان غدًا فأصبح بعد غد هذا أحد الأقوال في خلعه، وقيل بل شهد عليه ثلاثون نفرًا من شيعة المنصور، أنه خلع نفسه وبايع للمهدي فأنكر ذلك، فلم يسمع منه، وقيل بل اشترى المنصور ولاية العهد منه بأحد عشر ألف ألف درهم، وكانت مدة ولاية عيسى الكوفة ثلاث عشرة سنة، وعزله المنصور واستعمل محمد بن سليمان.

---

(١) تفليس: بفتح أوله ويكسر؛ بلد بأرمينية الأولى، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر وفاة عبد الله بن علي وخبر عيسى بن موسى

قال: كان المنصور قد أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه، وسلّم إليه عمه عبد الله بن علي وأمره بقتله، وقال: إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدي، فاضرب عنقه وإياك أن تضعف، فينتقض عليّ أمري الذي دبرته، ثم مضى المنصور إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه: ما فعل في الذي أمره، فكتب إليه عيسى: قد أنفذت ما أمرت به، فلم يشك أنه قتله، وكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا كاتبه يونس بن أبي فَرْوة، واستشاره في أمره، فقال: إنما أراد المنصور أن يقتله ثم يقتلك به، لأنه أمرك بقتله سرًّا ثم يدعيه عليك علانية، فلا تقتله ولا تدفعه إليه سرًّا أبدًا، واكتم أمره، ففعل عيسى ذلك، فلما قدم المنصور وضع على أعمامه من حرّكهم على الشفاعة في أخيهم عبد الله، ففعلوا فشفعهم فيه، وقال لعيسى: إني دفعت إليك عمي وعمك عبد الله ليكون في منزلك، وقد كلمني عمومتك فيه وقد صفحت عنه فإيتنا به، فقال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله!! قال: ما أمرتك إلا بحبسه، قال: بلى، قد أمرتني، فكذّبه، ثم قال لعمومته: إن هذا قد أقر بقتل أخيكم، قالوا: فادفعه لنا نقيده به، فسلمه إليهم فخرجوا به إلى الرحبة واجتمع الناس، وقام أحدهم ليقتله فقال عيسى: أفاعل أنت!! قال: إي والله، فقال: ردّوني إلى أمير المؤمنين فردّوه إليه، فقال: إنما أردت بقتله أن تقتلني، هذا عمك حيّ سويّ، قال: إيتنا به فأتاه به، فقال المنصور: يدخل حتى أرى فيه رأيي ثم صرفهم، وجعله في بيت أساسه ملح، ثم أجرى الماء على أساسه فسقط عليه البيت فمات، ودفن بمقابر المسلمين بباب الشام وهو أول من دفن فيها، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

وحجّ المنصور في هذه السنة بالناس.

ودخلت سنة ثمان وأربعين ومائة.

ذكر خروج حسّان بن مجالد بن يحيى بن مالك ابن الأجْدَع الهمداني

قال: وكان خروجه بنواحي الموصل بقرية بافخّارى[1] - وهي قرب الموصل على دجلة، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم وعليهم الصقر بن نجدة، ثم سار

(١) بافخارى: قرية من أعمال نينوى في شرقي الموصل.

حسّان إلى الرقة ومنها إلى البحر، ودخل بلد السند ثم عاد إلى الموصل، فخرج إليه الصقر أيضًا والحسن بن صالح بن حسّان الهمداني وبلال القيسي والتقوا، فانهزم الصقر وأسر الحسن بن صالح وبلال، فقتل حسان بلالاً واستبقى الحسن لأنه من همدان، ففارقه بعض أصحابه لهذا.

وفي هذه السنة استعمل الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي على إفريقية، وبعث بعهده إليه بها؛ وحجّ المنصور بالناس في هذه السنة.

ودخلت سنة تسع وأربعين ومائة.

في هذه السنة غزا العباس بن محمد الصائفة أرض الروم، ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث فمات محمد في الطريق وفيها استتمّ المنصور بناء سور بغداد وخندقها، وفرغ من جميع أمورها وسار إلى حديثة الموصل وعاد. وحجّ بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

ودخلت سنة خمسين ومائة.

ذكر خروج أستاذ سيس

في هذه السنة خرج استاذ سيس في أهل هراة وباذغيس وسجِسْتان وغيرها من خراسان، فكان ـ مما قيل ـ في ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان، وسار حتى التقى هو وأهل مرو الروذ وعليهم الأجثم المروروزي، فاقتتلوا فقتل الأجثم، وهزم استاذ سيس عدة من القواد، فوجّه المنصور خازم بن خزيمة لحربه وضمّ إليه القواد، فسار خازم والتقوا واقتتلوا، وكانت بينهم حروب آخرها أن أستاذ سيس انهزم، وأكثر المسلمون القتل في أصحابه، فكان عدة من قتل سبعين ألفًا، وأسروا أربعة عشر ألفًا، ونجا استاذ سيس إلى جبل في نفريسير، فحصرهم خازم وقتل الأسرى، ووافى أبو عون وابن سلم، فنزل استاذ سيس على حكم أبي عون، فحكم أن يوثق هو وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يعتق الباقون وهم ثلاثون ألفًا، فأمضى خازم حكمه وكسى كل رجل ثوبين؛ وقيل إن استاذ سيس ادعى النبوّة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل؛ وقيل إنه جد المأمون ـ أبو أمه مراجل.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن علي وهو عامل مكة.

ودخلت سنة إحدى وخمسين ومائة.

في هذه السنة عزل المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قَبِيصَة بن أبي صُفْرَة

عن السند، واستعمل عليها هشام بن عمرو التغلبي، واستعمل عمر بن حفص على إفريقية ثم عزله عنها، واستعمل يزيد بن حاتم بن قبيصة بن أبي صفرة.

ذكر بناء الرُّصَافَة(١) للمهدي

في هذه السنة قدم المهدي من خراسان في شوال، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة وغيرها، فهنؤوه بقدومه فأجازهم وحملهم وكساهم، وفعل بهم المنصور مثل ذلك، وبنى الرصافة، وكان سبب بنائها أن بعض الجند شغبوا على المنصور وحاربوه على باب الذهب، فدخل عليه قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس، وهو شيخهم وله الحرمة فيهم والتقدم عندهم، فقال له المنصور: أما ترى ما نحن فيه من وثوب الجند علينا، وقد خفت أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا، فما ترى؟ فقال: يا أمير المؤمنين عندي رأي، إن أظهرته لك فسد وإن تركتني أمضيته وصلحت خلافتك، وهابك الجند، قال: أفتمضي في خلافتي شيئًا لا أعلمه؟ فقال له: إن كنت عندك متهمًا فلا تشاورني، وإن كنت مأمونًا فدعني أفعل رأيي، فقال له: امضه، فانصرف قثم إلى منزله فدعا غلامًا له فقال له: إذا كان غدًا فتقدّمني فاجلس في دار أمير المؤمنين، فإذا دخلت وتوسطت أصحاب المراتب فخذ بعنان بغلتي، واستحلفني بحق رسول الله ﷺ وحق العباس وحق أمير المؤمنين لما وقفت لك، وسمعت مسألتك وأجبتك عنها، وسأنهرك وأغلظ لك فلا تجب، وعاود المسألة فسأضربك فعاود، وقل لي أي الحيين أشرف: اليمن أو مضر؟ فإذا أجبتك فاترك البغلة وأنت حرّ، ففعل الغلام ما أمره به؛ فقال له قثم: مضر أشرف لأن منها رسول الله ﷺ، وفيها كتاب الله، وفيها بيت الله، ومنها خليفة الله، فامتعضت اليمن إذ لم يذكر لها شيئًا، فقال بعض قوادهم: ليس الأمر كذلك مطلقًا بغير فضيلة!! ثم قال لغلام له: قم إلى بغلة الشيخ فاكبحها، ففعل حتى كاد يقعيها(٢)، فامتعضت مضر وقالوا: يفعل هذا بشيخنا!! وأمر بعضهم غلامه فضرب يد ذلك الغلام فقطعها، فتفرّق الحيّان، ودخل قثم على المنصور، وافترقت الجند، فصارت مضر واليمن فرقة والخراسانية فرقة، فقال قثم للمنصور: قد فرّقت بين جندك وجعلتهم أحزابًا، كل حزب منهم يخاف أن تضربه بالآخر، وقد بقي في التدبير بقية، وهي أن تترك ابنك

(١) الرصافة: هي رصافة بغداد، وفيها يقول علي بن الجهم:
عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
(٢) يقال: أقعى الكلب: إذا جلس على إسته وبسط ذراعيه مفترشًا رجليه وناصبًا يديه.

في ذلك الجانب، وتحوّل معه قطعة من جيشك، فيصير ذلك بلدًا وهذا بلدًا، فإن فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء، وإن فسد هؤلاء ضربتهم بأولئك، فقبل رأيه واستقام ملكه، وبنى الرصافة وتولى ذلك صاحب المصلّى.

وحجّ بالناس محمد بن إبراهيم الإمام، وهو عامل مكة والطائف. وفيها قتل معن بن زائدة الشيباني أمير سجستان، بعد منصرفه من غزاة رُتبِيل وانصرافه إلى بُسْت[1]، فاختفى بعض الخوارج في منزله، ثم دخلوا عليه وهو يحتجم فقتلوه، وشقّ أحدهم بطنه بخنجر، وقال بعض من ضربه: أنا الغلام الطاقي، والطاق رستاق بقرب زَرَنْج، فقتلهم يزيد بن مزيد فلم ينج منهم أحد، وقام يزيد بأمر سجستان.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين ومائة.

في هذه السنة غزا حميد بن قحطبة كابل[2]، وكان المنصور استعمله على خراسان سنة إحدى وخمسين ومائة. وغزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم، وقيل أخوه محمد.

وحجّ بالناس في هذه السنة المنصور.

ودخلت سنة ثلاثة وخمسين ومائة.

ذكر القبض على أبي أيوب المورياني الوزير وقتله

في هذه السنة قبض المنصور على أبي أيوب المورياني وعلى أخيه وبني أخيه، وكان قد سعى بهم كاتبه إبان بن صدقة، وقيل: كان سبب قبضه أن المنصور في دولة بني أمية ورد الموصل، وأقام بها مستترًا، وتزوج امرأة من الأزد فحملت منه، ثم فارق الموصل وأعطاها تذكرة، وقال لها: إذا سمعت بدولة بني هاشم فأرسلي هذه التذكرة إلى صاحب الأمر فهو يعرفها، فوضعت المرأة ولدًا سمته جعفرًا، فنشأ وتعلّم الكتابة وما يحتاج إليه الكاتب، وولي المنصور الخلافة فقدم جعفر إلى بغداد واتصل بأبي أيوب، فجعله كاتبًا بالديوان فطلب المنصور يومًا من أبي أيوب كاتبًا يكتب له شيئًا، فأرسل إليه جعفرًا، فلما رآه المنصور مال إليه وأحبّه، فأمره بالكتابة فرآه ماهرًا حاذقًا، فسأله: من أين هو؟ ومن أبوه؟ فذكر له الحال وأراه التذكرة فعرفها، فصار

---

(١) بست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة.

(٢) كابل: بضم الباء الموحدة، ولام: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند.. وهي ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنة... (معجم البلدان).

يطلبه في كل وقت بحجة الكتابة، فخافه أبو أيوب، ثم إن المنصور أحضره يومًا وأعطاه مالاً، وأمره أن يصعد إلى الموصل ويحضر والدته، وأنه إذا رجع وقارب بغداد لقيه المنصور بالعساكر وغيرها، وأمره أن يكتم حاله ويفارق الديوان مغضبًا، فخرج إلى الديوان فقال له أبو أيوب: ما أبطأك؟ قال: كنت في حاجة لأمير المؤمنين، فسأله عما كتب فقال: ما كنت لأذيع سر أمير المؤمنين، فسبّه أبو أيوب فأغلق جعفر دواته، وقال: والله لا عدت لهذا الديوان أبدًا، وفارقه مغضبًا فتوهم منه أبو أيوب، وتعرف أحواله ووضع عليه العيون، فقيل له: إن حاله حسنت، وأنه جدّد له مراكيب وسافر، فبعث في أثره من اغتاله، فقتل وأحضر إليه ما كان معه، فرأى في متاعه ما دلّه على أنه ولد أمير المؤمنين، فسقط في يده وتوقع السوء، ولما أبطأ خبره على المنصور بعث إلى الموصل من يسأل عنه، فقالت أمه: لا علم لي به إلا أنه ببغداد، يكتب في ديوان أمير المؤمنين، فأرسل المنصور من قصّ أثره، ولم يزل يدقّق البحث حتى علم أنّ قتله من قبل أبي أيوب، فنكبه هو وأهله.

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى، ووصل إلى حصن من حصون الروم ليلاً وأهله نيام، فسبى وأسر من كان فيه، وقصد اللاذقية الخراب فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين.

وحجّ في هذه السنة المهدي بن المنصور بالناس.

ودخلت سنة أربع وخمسين ومائة.

في هذه السنة سار المنصور إلى الشام وبيت المقدس، وبعث يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة إلى إفريقية في خمسين ألفًا، لحرب الخوارج الذين قتلوا عمر بن حفص.

وحجّ بالناس محمد بن إبراهيم.

ودخلت سنة خمس وخمسين ومائة.

في هذه السنة سيّر المنصور المهدي لبناء الرَّافقة[1]، فسار إليها فبناها على بناء مدينة بغداد، وعمل للكوفة والبصرة سورًا وخندقًا، وجعل ما أنفق فيه من أموال أهلهما.

---

(١) الرافقة: الفاء قبل القاف: بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع. . وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل، وهي على هيئة مدينة السلام. ولها ربض بينها وبين الرقة وبه أسواقها. . . (معجم البلدان لياقوت).

قال: وأراد المنصور معرفة عددهم، فأمر أن يقسّم فيهم خمسة دراهم خمسة دراهم، فلما انحصرت له عدتهم أمر بجبايتهم أربعين درهمًا من كل واحد، فقال شاعرهم: [من مجزوء الرمل]

يا لقوم ما لقينا ... من أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا ... وجبانا الأربعينا

ودخلت سنة ست وخمسين ومائة.

لم يكن في هذه السنة من الحوادث ما نذكره في هذا الموضع. وحجّ بالناس العباس بن محمد بن علي.

ودخلت سنة سبع وخمسين ومائة.

في هذه السنة بنى المنصور قصره الذي يدعى الخلد. وفيها حوّل الأسواق إلى الكرخ وتقدم السبب في ذلك وحجّ بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. وفيها مات عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام.

ودخلت سنة ثمان وخمسين ومائة.

ذكر وفاة أبي جعفر المنصور

كانت وفاته يوم السبت لست خلون من ذي الحجة من هذه السنة ببئر ميمون[١] على أميال من مكة، قال المؤرخ: ورأى المنصور قبل وفاته بيسير أعاجيب كثيرة، ومواعظ مؤذنة بوفاته، منها أنه هتف به هاتف في قصره فسمعه يقول: [من المنسرح]

أما وربّ السكون والحرك ... إن المنايا كثيرة الشرك
عليك يا نفس إن أسأت وإن ... أحسنت في اليوم كان ذاك لك
ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء في فلك
إلاّ لنقل السلطان عن ملكٍ ... قد انقضى ملكه إلى ملك
حتى يصيّرانه إلى ملكٍ ... ما عزّ سلطانه بمشترك
ذاك بديع السماء والأرض والـ ... ـمرسي الجبال المسخّر الفلك

فلما سمع المنصور ذلك قال: هذا أوان أجَلي، قال الطبري - وقد حكى عبد العزيز بن مسلم قال: دخلت على المنصور يومًا عليه، فإذا هو باهت لا يحير

(١) بئر ميمون: بمكة، منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر بن الحضرمي.

جوابًا، فوثبت لأنصرف لما أراه منه، فقال بعد ساعة: إني رأيت في المنام كأن رجلًا ينشدني: [من مجزوء الكامل]

أَأُخَيَّ أخفض من مناكا فكأنّ يومك قد أتاكا
ولقد أراك الدهر من تصريفه ما قد أراكا
فإذا أردت الناقص الـ عبد الذليل فأنت ذاكا
مُلِّكْتَ ما مُلِّكْتَهُ والأمر فيه إلى سواكا

فهذا ما ترى من قلقي وغمي، فقلت: خيرًا رأيت يا أمير المؤمنين، ولم يلبث أن خرج إلى مكة. ومن ذلك أنّه لما نزل آخر منزل نزله من طريق مكة نظر في صدر البيت الذي نزل فيه فإذا فيه مكتوب: [من الطويل]

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بدَّ واقعُ
أبا جعفر هل كاهنٌ أو منجمٌ لك اليوم من حرّ المنية مانع

فدعا المتولي لإصلاح المواضع فقال: ألم آمرك ألا يدخل أحد من الدعاة هذا البيت؟! فحلف أنه لم يدخله أحد، فقال: اقرأ ما في صدر هذا البيت، قال: ما أرى شيئًا، فالتفت إلى حاجبه وقال: اقرأ آية من كتاب الله تعالى تشوقني إلى لقائه، فقرأ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، فقال له: ما وجدت آية غير هذه الآية، قال: والله لقد محى القرآن من قلبي غيرها.

ذكر وصية المنصور لابنه المهدي

قال: ولما سار المنصور من بغداد ليحج نزل قصر عَبْدَوِيه، وأحضر المهدي وكان قد صحبه فوصّاه بالمال والسلطان، يفعل ذلك كل يوم من أيام مقامه بكرة وعشية، فلما كان في اليوم الذي ارتحل فيه قال له:

إني لم أدع شيئًا إلا وقد تقدمت إليك فيه، وسأوصيك بخصال وما أظنك تفعل منها واحدة ـ وكان له سفط[1] فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يفتحه غيره، فقال للمهدي: انظر إلى هذا السفط فاحتفظ به، فإنّ فيه علم آبائك ـ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ـ فإن أهمّك أمر فانظر إلى الدفتر الكبير، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا في الثاني والثالث حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة، فإنك واجد فيها

(١) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.

ما تريد، وما أظنك تفعل! واقطن هذه المدينة وإياك أن تستبدل بها غيرها، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين لكفاك لأرزاق الجند والنفقات ومصلحة الثغور والذريّة ومصلحة البعوث، فاحتفظ به، فإنك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا، وما أظنك تفعل! وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم، وأن تحسن إليهم وتقدمهم، وتوطىء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر، فإنّ عزّك في عزّهم وذكرهم لك، وما أظنك تفعل! وانظر إلى مواليك وأحسن إليهم وقرّبهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك، وما أظنك تفعل! وأوصيك بأهل خراسان فإنهم أنصارك، وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم، أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده، وما أظنك تفعل! وإياك أن تبني المدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها، وأظنك ستفعل! وإياك أن تستعين برجل من بني سُلَيْم، وأظنك ستفعل! وإياك أن تدخل النساء في أمرك، وأظنك ستفعل!

وقيل: إنه قال له إني ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، وقد هجس في نفسي أن أموت في ذي الحجة من هذه السنة، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي يجعل الله لك فيما كربك وحزبك فرجًا ومخرجًا، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب.

يا بني احفظ محمدًا ﷺ في أمته يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حُوب[1] عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحدود فإن فيها صلاحك في العاجل. ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله تعالى لو علم شيئًا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في كتابه. واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب، على من سعى في الأرض فسادًا، مع ما ذخره له عنده من العذاب العظيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. فالسلطان - يا بني - حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم، فاحفظه وحصّنه وذبّ عنه، وأوقع بالملحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن، فاحكم بالعدل ولا تشطط[2]، فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم للعدو، وأنجع في الدواء،

(١) الحوب: الإثم.
(٢) تشطط: تجاوز الحدّ.

وعفّ عن الفيء فليس بك حاجة إليه مع ما أخلفه لك، وافتتح بصلة الرحم وبرّ القرابة، وإياك والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمّن السبل، وسكن العامّة وأدخل المرافق عليهم، وادفع المكاره عنهم، وأعدّ الأموال واخزنها، وإياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة ـ وهي من شيم الزمان، وأعدّ الكراع[١] والرجال والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد فتتدارك عليك الأمور وتضيع؛ خذ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً أولاً وشمّر فيها، واعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون في الليل، وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حسن الظن وأسيء بعمالك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقد من أقمته على بابك، وستهل إذنك للناس وانظر في أمر النزاع إليك، ووكّل بهم عينًا غير نائمة ونفسًا غير لاهية، ولا تنم فإن أباك لم ينم مذ ولي الخلافة، ولا دخل عليه الغمض إلا وقلبه مستيقظ هذه وصيتي إليك، والله خليفتي عليك، ثم ودّعه وبكيا.

ثم سار المنصور إلى الكوفة وجمع بين الحج والعمرة، وساق الهدي[٢] وأشعره[٣] وقلّده[٤] لأيام خلت من ذي القعدة، فلما سار منازل من الكوفة عرض له وجعه الذي مات به ـ وهو القيام، ولما اشتد به جعل يقول للربيع: بادِرْ بي حرم ربي هاربًا من ذنوبي، وكان الربيع عديله، ووصّاه بما أراد، ولما وصل بئر ميمون مات بها في التاريخ الذي قدّمناه، ولم يحضر عند موته أحد إلا خدمه والربيع مولاه، فكتم الربيع موته ومنع من البكاء عليه؛ ثم أصبح فحضر أهل بيته على عادتهم، فأذن الربيع لعمه عيسى فمكث ساعة، ثم أذن لابنه موسى، ثم أذن للأكابر وذوي الأسنان منهم ثم لعامتهم، فبايعهم الربيع للمهدي ولعيسى بن موسى من بعده، ثم بايع القواد وعامة الناس، وسار العباس بن محمد، ومحمد بن سليمان إلى مكة ليبايعا الناس، فبايعوا بين الركن والمقام.

وجهزوا المنصور ففرغوا منه العصر، وكفن وغطي وجهه وبدنه وجعل رأسه مكشوفًا لأجل إحرامه، وصلّى عليه عيسى بن موسى، وقيل إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ودفن في مقبرة المَعْلاة[٥]، وحفر له مائة قبر

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح. (٢) الهدي: ما يهدى إلى الحرم من النعم.

(٣) أشعر الهدي: إذا طعن سنامه حتى يسيل منه دم ليعلم أنه هدي.

(٤) قلّد الهدي: أي أن يعلق في عنقها شيء ليعلم أنها هدي.

(٥) المعلاة: بالفتح ثم السكون: موضع بين مكة وبدر بينه وبين بدر الأثيل. والمعلاة: من قرى الحرج باليمامة... (معجم البلدان).

ليغمّوه على الناس، ودفن في غيرها، ونزل في قبره عيسى بن علي، وعيسى بن محمد، والعباس بن محمد والربيع والريان مولياه ويَقْطِين، وكان عمره ثلاثًا وستين سنة، وقيل أربعًا وستين سنة، وقيل ثمانيًا وستين. وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا سبعة أيام. وكان أسمر نحيفًا خفيف العارضين. أولاده: محمد المهدي وجعفر الأكبر أمهما أرْوَى بنت منصور أخت يزيد بن منصور الحميري، وكانت تكنى أم موسى، ومات جعفر قبل المنصور، ومنهم سليمان وعيسى ويعقوب أمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله، وجعفر الأصغر أمه أم ولد كرديّه، وصالح المسكين وأمه أم ولد روميّة، والقاسم مات قبل المنصور وله عشر سنين أمه أم ولد تعرف بأم القاسم، والعالية أمها امرأة من بني أمية ـ هذا ما نقله ابن الأثير، قال غيره وعبد العزيز والعباس. وزراؤه: أبو عطية الباهلي ثم أبو أيوب المورياني ثم الربيع مولاه، ووزر له: خالد بن برمك مدة يسيرة. قضاته: عبد الله بن محمد بن صَفْوان، وشريك بن عبد الله، والحسن بن عمار، والحجاج بن أرطاة؛ وقيل إن يحيى بن سعيد وأبا عثمان التميمي قضيا في أيامه. حجابه: الربيع مولاه قبل أن يستوزره، ثم عيسى مولاه، ثم أبو الخصيب مولاه.

الأمراء بمصر: صالح بن علي واستخلف أبا عون عبد الملك بن يزيد، ثم نقل المنصور صالحًا إلى الجزيرة، وأمَرَّ على مصر موسى بن كعب ثم صرفه، وولى محمد بن الأشعث الخزاعي ثم عزله، وولى حميد بن قحطبة، ثم يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وولّى عبد الله بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن حُدَيْج فتوفي، فأمّر عليها أخاه محمد بن عبد الرحمٰن فتوفي فوليها موسى بن علي بن رباح. القضاة بها: في أيام المنصور غَوْث بن سليمان، ثم سار مع صالح بن علي فولى أبو خالد يزيد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن بلال، ثم عاد غوث إليها، ثم صرفه يزيد بن حاتم وولى أبا خُزَيْمة إبراهيم بن يزيد الرعيني، ثم وليها أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فُرْعان الحضرمي من قبل المنصور، وهو أول قاض خرج لنظر هلال شهر رمضان.

ذكر شيء من سيرة أبي جعفر المنصور

قال سلاّم الأبْرش: كنت أخدم المنصور وكان من أحسن الناس خلقًا ما لم يخرج إلى الناس، وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان، فإذا لبس ثوبه اربد لونه واحمرت عيناه. قال: وقال لي يومًا: إذا رأيتني لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي

فلا يدنون مني أحد، قال: ولم ير في داره لهو ولا شيء يشبه اللهو والعبث إلا مرة واحدة، رأى بعض أولاده قد ركب راحلة ـ وهو صبي، وتنكب قوسًا في هيئة غلام أعرابي، بين جوالقين[١] فيهما مقل[٢] وأراك[٣] وما يهديه الأعراب، فعجب الناس من ذلك وأنكروه، وعلموا أنه ضرب من عبث الملوك، قال حماد التركي: كنت واقفًا على رأس المنصور فسمع جلبة، فقال: انظر ما هذا؟ فذهبت فإذا خادم له قد جلس وحوله الجواري، وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فأخبرته، فقال وأي شيء الطنبور!! فوصفته له، فقال: ما يدريك أنت ما الطنبور!! فقلت رأيته بخراسان، فقام المنصور إليهن فلما رأينه تفرقن، فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسّر الطنبور، وباع الخادم.

قال بعض المؤرخين كان المنصور يخضب بالسواد، وقيل: كان يغير لون شيبه في كل شهر بألف مثقال مسك. قال: وأمر بتوسعة المسجد الحرام من ناحية باب الندوة سنة تسع وثلاثين ومائة، وبنى مسجد الخيف. وفي أيامه فتحت المُولْتَان[٤] والقَنْدَهَار[٥] من أرض السند، وهُدم البدّ[٦] وبُني مكانه مسجد.

وفي أيامه مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت في سنة خمس وأربعين ومائة ومات جعفر بن محمد الصادق في سنة ثمان وأربعين ومائة. وقد قدمنا من أخبار أبي جعفر المنصور، ومن الوقائع التي اتفقت في أيامه وما أنشأه من المدن والعمائر ما فيه الكفاية، ولا يورد في التواريخ المختصرة أكثر من هذا فلنذكر أخبار من قام بالأمر بعده والله الموفق.

---

(١) الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما.

(٢) المقل: حمل الدوم، وهو يشبه النخل. أو صمغ شجرة يسمّى الكور، وهو من الأدوية.

(٣) الأراك: أو شجر المسواك: واحدته أراكه: نبات شجيري من الفصيلة الأراكية، كثير الفروع، خوار العود، متقابل الأوراق، له ثمار حمر دكناء تؤكل، ينبت في البلاد الحارة، ويوجد في صحراء مصر الجنوبية الشرقية.

(٤) مولتان: بضم أوله، وسكون ثانيه واللام يلتقي فيه ساكنان، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: بلد من بلاد الهند على سمت غزنة. . . (معجم البلدان).

(٥) قندهار: بضم القاف، وسكون النون، وضم الدال أيضًا: مدينة في الإقليم الثالث. . وهي من بلاد السند أو الهند مشهورة في الفتوح. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٦) البدّ: الصنم أو بيته.

ذكر خلافة المهدي

هو أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر عبد الله المنصور، وأمه أروى أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن يزيد بن شمر الحميري، وهو الثالث من الخلفاء العباسيين، بويع له يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة على ما قدمناه، وقيل إنه لما مات المنصور خرج الربيع وبيده قرطاس، ففتحه وقرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين ثم بكى وبكى الناس. ثم قال قد أمكنكم البكاء فانصتوا رحمكم الله ثم قرأ:

أما بعد فإني كتبت كتابي وأنا حيّ، في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وأقرىء عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم من بعدي ولا يلبسكم شيعًا، ولا يذيق بعضكم بأس بعض، ثم أخذ في وصيتهم وإذكارهم البيعة له، وحثهم على الوفاء بعهده. ثم تناول يد الحسن بن زيد العلوي فقال له: قم فبايع الناس، فقام إلى موسى بن المهدي فبايعه لأبيه، ثم بايع الناس الأول فالأول.

ودخلت سنة تسع وخمسين ومائة.

ذكر ظهور المُقَنَّع بخراسان وهلاكه

في هذه السنة ظهر المقنع بخراسان، وكان رجلاً أعور قصيرًا من أهل مرو[١]، وكان يسمى حكيمًا، وكان اتخذ وجهًا من ذهب، وجعله على وجهه لئلا يُرى فسمي المقنع، وادعى الإلهية ولم يظهر ذلك لجميع أصحابه، وكان يقول: إن الله خلق آدم فتحوّل في صورته، ثم في صورة نوح وهكذا إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحوّل إلى هاشم، وهاشم في دعواه هو المقنع، ويقول بالتناسخ، فبايعه خلق من ضُلال الناس، وكانوا يسجدون له من أي النواحي كانوا، وكانوا يقولون في الحرب: يا هاشم أعنّا، واجتمع إليه خلق كثير، وتحصّنوا في قلعة سام[٢] بزده، وظهرت المبيضة[٣] ببخارى والصغد معاونين له، وأعانه كفار الأتراك وأغاروا على أموال المسلمين، واجتمعوا بكش

(١) مرو: مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم.

(٢) سام: من قرى دمشق بالغوطة.

(٣) المبيضة: فرقة من الثنوية، وهم أصحاب المقنع، سموا بذلك لتبييضهم ثيابهم مخالفة للسودة العباسيين، وكذلك كان يطلق على جماعة خارجة على الدولة العباسية.

وغلبوا على بعض قصورها فحاربهم أبو النعمان والجنيد وليث بن نصر مرة بعد مرة، ثم اشتغلوا بقتال المبيضة فقاتلوهم أربعة أشهر، وهزموهم فلحق منهزموهم بالمقنع، ثم سيّر المهدي أبا عون لمحاربة المقنّع، فلم يبالغ في قتاله فعزله واستعمل معاذ بن مسلم، فسار معاذ في سنة إحدى وستين ومائة في جماعة من القواد والعساكر، فالتقوا واقتتلوا فهزموا أصحاب المقنع، فقصد المنهزمون المقنع وهو بسام، فأصلح خندقها وحصّنها، وأقبل معاذ فحاربهم وكان سعيد الحرشي مع معاذ فنافره، فكتب الحرشي إلى المهدي في معاذ وضمن له أنه إن أفرده بحرب المقنع كفاه، فأجابه إلى ذلك وانفرد الحرشي بحربه، وأمده معاذ بابنه رجاء في جيش وبجميع ما التمسه منه، وطال الحصار على المقنع فطلب أصحابه الأمان سرًّا منه، فأجابهم الحرشي فخرج إليه منهم نحو من ثلاثين ألفًا، وبقي المقنع في ألفين وضايقه العسكر، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله فسقاهم السم فأتى عليهم وأمر أن يحرق هو بالنار لئلا يقدر على جثته؛ وقيل بل حرق كل ما في قلعته من حيوان وغيره، ثم قال: من أحب أن يرتفع معي في السماء فليلق نفسه معي في هذه النار، وألقى نفسه مع نسائه وأهله وخواصّه فاحترقوا، ودخل العسكر القلعة فوجدوها خاوية خالية، وكان ذلك مما زاد في افتتان من بقي من أصحابه؛ وقيل بل شرب هو من السم فمات وأنفذ الحرشي رأسه إلى المهدي، فوصل إليه وهو بحلب في سنة ثلاث وستين ومائة.

نعود إلى بقية حوادث سنة تسع وخمسين. وفيها توفي حميد بن قحطبة عامل خراسان واستعمل المهدي أبا عون عبد الملك. وحجّ بالناس يزيد بن منصور خال المهدي عند قدومه من اليمن.

ودخلت سنة ستين ومائة.

في هذه السنة: خرج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم بخراسان منكرًا سيرة المهدي، واجتمع معه بشر كثير، وتوجّه إليه يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخي معن بن زائدة، فاقتتلا حتى صارا إلى المعانقة فأسره يزيد، وبعث به إلى المهدي وبعث معه بوجوه أصحابه، فقطعت يدا يوسف ورجلاه، وقتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر؛ وقيل إنه كان حروريًّا[١] وأنه تغلب على بوشنج[٢] ـ وعليها مصعب بن زريق فهرب منه، وتغلّب أيضًا على مرو الروذ والطالقان والجوزجان.

---

(١) الحرورية: طائفة من الخوارج تنسب إلى حروراء بقرب الكوفة، لأنه كان بها أول اجتماعهم وتحكيمهم حين خالفوا عليًّا، وكان عندهم تشدد في الدين حتى مرقوا منه.

(٢) بوشنج: بفتح الشين، وسكون النون، وجيم: بليدة نزهة خصيبة في واد مشجر من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ. . . (معجم البلدان).

ذكر خلع عيسى بن موسى وبيعة موسى الهادي

قال: كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهدي خاضعوا في خلع عيسى من ولاية العهد، والبيعة لموسى الهادي بن المهدي فسرّ المهدي بذلك، وكتب إلى عيسى في القدوم عليه وهو بقريته الرحبة من أعمال الكوفة، فأحسّ بما يراد منه فامتنع من القدوم عليه، فألحّ المهدي عليه حتى بعث إليه يقول: إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع من ولاية العهد لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحلّ من أهل المعاصي، وإن أجبتني عوضتك منها بما هو أجدى عليك وأعجل نفعًا، فلم يقدم عليه وخيف انتقاضه، فوجّه إليه المهدي عمه العباس يستدعيه فلم يجب فلما عاد العباس وجّه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ القائد، في ألف من شيعة المهدي فأشخصوه إليه، فلما قدم عيسى نزل دار محمد بن سليمان، وأقام أيامًا يختلف إلى المهدي، وهو لا يكلّمه بشيء ولا يرى مكروهًا، فحضر الدار يومًا قبل جلوس المهدي فجلس في مقصورة الربيع، وقد اجتمع رؤساء شيعة المهدي على خلعه، فثاروا به وضربوا باب المقصورة بالعمد حتى هشموه، وشتموا عيسى أقبح شتم، وأظهر المهدي إنكارًا لما فعلوه فلم يرجعوا، فبقوا في ذلك أيامًا وكان أشدهم عليه محمد بن سليمان، وكاشفه المهدي وألحّ عليه، فذكر أن عليه أيمانًا في أهله وماله، فأفتاه الفقهاء بما رأوا أنه لا يحنث فأجاب إلى خلع نفسه، فأعطاه المهدي عشرة آلاف ألف درهم وضياعًا بالزاب وكَسْكَر[1]، وخلع نفسه لأربع بقين من المحرم وبايع للمهدي ولابنه موسى الهادي، ثم جلس المهدي من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم، ثم خرج المهدي إلى الجامع وعيسى معه فخطب الناس، وأعلمهم بخلع عيسى وبيعة الهادي، وبايعهم فسارعوا إلى بيعته، فقال بعض الشعراء: [من الرّمل]

كره الموت أبو موسى وقد ... كان في الموت نجاءٌ وكرم
خلع الملك وأضحى مُلبسًا ... ثوب لومٍ ما ترى منه القدم

وحجّ المهدي في هذه السنة بالناس، واستخلف على بغداد ابنه موسى وخاله يزيد بن منصور؛ وفيها نزع المهدي كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة، وكان سبب نزعها أنّ حجبة الكعبة ذكروا له أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم، لكثرة ما عليها

(١) كسكر: بالفتح ثم السكون، وكاف أخرى، وراء: كورة واسعة وقصبتها واسط القصبة التي بين الكوفة والبصرة. . . (معجم البلدان).

من الكسوة فنزعها، وكانت كسوة هشام بن عبد الملك من الديباج[١] الثخين، وما قبلها من عمل اليمن؛ قال: وطلى جدرانها بالمسك والعنبر، وكانت الكعبة في جانب المسجد لم تكن متوسطة، فهدم حيطان المسجد وزاد فيه زيادات، واشترى الدور والمنازل حتى صارت الكعبة في الوسط على ما هي عليه الآن، وحمل من مصر إلى المسجد الحرام أربعمائة وثمانين أسطوانة، وصيّر فيه أربعمائة طاق وثمانية وتسعين طاقًا، وجعل له ثلاثة وعشرين بابًا، وجعل سلاسل قناديله ذهبًا، وجعل ذرعه مكسرًا مائة ألف وعشرين ألف ذراع، وقسم مالاً عظيمًا كان معه من العراق، مبلغه ثلاثون ألف ألف درهم، ووصل إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف درهم، ففرق ذلك كله وفرّق مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، ووسع مسجد رسول الله ﷺ، وألبس خارج القبر المقدس الرخام، وأخذ خمسمائة من الأنصار يكونون حرسًا له بالعراق، وأقطعهم بالعراق وأجرى عليهم الأرزاق. وحمل إليه محمد بن سليمان الثلج إلى مكة، وهو أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة.

ودخلت سنة إحدى وستين ومائة.

في هذه السنة: أمر المهدي ببناء القصور بطريق مكة، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل، وبتجديد الأموال والبرك وحفر الركايا[٢]، وولّى ذلك يقطين بن موسى، وأمر بالزيادة في مسجد البصرة، وأمر بتقصير المنابر في البلاد، وجعلها بمقدار منبر النبي ﷺ. وحجّ بالناس في هذه السنة موسى الهادي ولي العهد.

ودخلت سنة اثنتين وستين ومائة.

ذكر قتل عبد السلام الخارجي

في هذه السنة: قتل عبد السلام بن هاشم اليشكري بقنسرين، وكان قد خرج بالجزيرة فاشتدت شوكته وكثر أتباعه، فلقيه عدة من قواد المهدي فيهم عيسى بن موسى القائد، فقتله في عدة ممّن معه وهزم جماعة من القواد ـ فيهم شبيب بن واج المَرْوَرُوذِي، فندب المهدي إلى شبيب ألف فارس، وأعطى كل رجل منهم ألف درهم معونة، فوافوا شبيبًا فخرج بهم في طلب عبد السلام، فهرب عبد السلام منه فأدركه بقنسرين فقاتله بها فقتله.

(١) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

(٢) الركايا: جمع الركية: البئر لم تطو.

وفيها وضع المهدي ديوان الأزمّة[١]، وولّى عليها عمر بن بَزِيع مولاه. وأجرى المهدي على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق الأرزاق.

ودخلت سنة ثلاث وستين ومائة.

في هذه السنة: تجهّز المهدي لغزو الروم فجمع الأجناد من خراسان وغيرها، وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات إلى حلب، وأرسل وهو بحلب فجمع الزنادقة بتلك البلاد فقتلهم وقطع كتبهم، وسار عنها مشيعًا لابنه هارون حتى جاز الدرب وبلغ جيحان[٢]، وسار هارون بالعساكر فنازل حصن سمالو فحصره ثمانية وثلاثين يومًا، ونصب عليه المجانيق ففتحه بالأمان وفتح فتوحًا كثيرة.

وفيها ولّى المهدي ابنه هارون المغرب كله وأذربيجان وأرمينية، وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى، وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك. وحجّ بالناس في هذه السنة علي بن المهدي.

ودخلت سنة أربع وستين ومائة.

في هذه السنة سار المهدي ليحج فلما بلغ العقبة رأى قلة الماء وحمّ فرجع، وسيّر أخاه صالحًا ليحج بالناس، ولحق الناس عطش شديد حتى كادوا يهلكون.

ودخلت سنة خمس وستين ومائة.

في هذه السنة: سير المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم في خمسة وتسعين ألفًا وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ومعه الربيع، فوعك الرشيد في بلاد الروم، ولقيه عسكر نقيطا قومس[٣] القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد الشيباني فأثخنه يزيد، وانهزمت الروم وغلب المسلمون على معسكرهم، وساروا إلى الدمستق وهو صاحب المسالح[٤]، فحمل لهم مائة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفًا وأربعمائة وخمسين دينارًا،

(١) أي أن يكون لكل ديوان زمان وهو رجل يضبطه.

(٢) جيحان: بالفتح ثم السكون، والحاء مهملة، وألف، ونون: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفربيا بإزاء المصيصة.

(٣) قومس: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وسين مهملة: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان، وهي بين الريّ ونيسابور. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٤) المسالح: جمع مسلح، وهو موضع السلاح؛ أو كل موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة.

ومن الورق أحدًا وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألفًا وثمانمائة درهم، وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية، والروم يومئذ بيد أغسطه ـ امرأة إليون ـ لصغر ابنها، فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في الطرق، وذلك لأنه دخل مدخلاً ضيقًا مخوفًا، فأجابته إلى ذلك، ومقدار الفدية سبعون ألف دينار في كل سنة، ورجع عنها، وكانت الفدية ثلاث سنين، وكان مقدار ما غنم المسلمون إلى أن اصطلحوا خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأسًا، ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألف رأس، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس، وقتل من الروم في الوقائع كلها أربعة وخمسون ألفًا، وقتل من الأسارى صبرًا ألفان وتسعون أسيرًا.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن المنصور.

ودخلت سنة ست وستين ومائة.

في هذه السنة: أخذ المهدي البيعة لولده هارون بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادي، ولقب الرشيد، وفيها سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود وقبض عليه.

قال: وكان أول أمرهم أن داود بن طهمان وهو أبو يعقوب، كان يكتب لنصر بن سيار ـ هو وإخوته، فلما كان أيام يحيى بن زيد كان داود يعلمه ما يسمع من نصر، فلما طالب أبو مسلم الخراساني بدم يحيى بن زيد أتاه داود فأمنه أبو مسلم في نفسه، وأخذ ماله الذي كان قد استفاده أيام نصر، فلما مات داود خرج أولاده أهل أدب وعلم، ولم تكن لهم عند بني العباس منزلة، ولم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر، وأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل الحسين وطمعوا أن تكون لهم دولة، وكان داود يصحب إبراهيم بن عبد الله، وخرج معه في عدة من أصحابه، فلما قتل إبراهيم طلبهم المنصور، فأخذ يعقوب وعليًا فحبسهما، فلما ولي المهدي أطلقهما فيمن أطلق، فاتصل يعقوب بالمهدي بالسعاية بآل علي، ولم يزل يرتفع حتى استوزره، وكان المهدي يقول: وصف لي يعقوب في منامي فقيل لي استوزره فلما رأيته رأيت الخلقة التي وصفت لي فاتخذته وزيرًا.

فلما ولي الوزارة أرسل إلى الزيدية فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في الشرق والغرب، ولذلك قال بشار: [من البسيط]

بنو أميّة هبّوا طال نومكم ... إنّ الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافكم باقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود

فحسده موالي المهدي وسعوا به، وقالوا: إن الشرق والغرب في يد يعقوب وأصحابه، ولو كتب إليهم لوثبوا في يوم واحد وأخذوا الدنيا، فملأ ذلك قلب المهدي فقبض عليه، بعد القرب منه والاختصاص به والتمكّن من دولته.

وفيها أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن، ولم يكن قبل ذلك. وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى.

ودخلت سنة سبع وستين ومائة.

في هذه السنة: توفي موسى بن عيسى بالكوفة، وفيها أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ، فدخلت فيهما دور كثيرة، وكان المتولي للبناء يقطين بن موسى، فبقي البناء إلى أن توفي المهدي.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ـ وهو على المدينة، ثم توفي بعد فراغه من الحج بأيام وتولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي.

وفيها أفسد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين، وقطعوا الطريق وتركوا الصلاة وانتهكوا المحارم، فأرسل المهدي إليهم جيشًا فقاتلوهم، فكان الظفر للعرب وقتلوا عامة العسكر، فقويت وزاد شرهم.

ودخلت سنة ثمان وستين ومائة.

في هذه السنة: خرج بأرض الموصل خارجي اسمه ياسين من بني تميم، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم، وغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، فوجّه إليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين مولى بني ضبّة فحارباه، فصبر لهما حتى قتل عدة من أصحابه وانهزم الباقون.

وفيها في شهر رمضان نقض الروم الصلح، الذي كان بينهم وبين المسلمين قبل انقضاء مدة الهدنة بأربعة أشهر، فوجّه علي بن سليمان وهو على الجزيرة وقنّسرين يزيد بن البَطّال في خيل فغنموا وظفروا.

وحجّ بالناس في هذه السنة علي بن المهدي.

ودخلت سنة تسع وستين ومائة.

ذكر وفاة أبي عبد الله المهدي

كانت وفاته في يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة بمَاسَبْذَان[١]، وسبب خروجه إليها أنّه كان عزم على خلع ابنه موسى الهادي من ولاية العهد، والبيعة للرشيد وتقديمه على الهادي، فبعث إليه في ذلك وهو بجرجان فلم يفعل، فاستقدمه فضرب الرسول وامتنع، فسار المهدي إليه، فلما بلغ مَاسَبْذَان قال لأصحابه: إني أريد النوم فلا توقظوني حتى أكون أنا الذي أنتبه، ونام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين، وسألوه عن سبب بكائه فقال: وقف على الباب رجل فقال:

كأنّي بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعُه ومنازلُهْ
وصار عميد القوم من بعد بهجة ... ومُلْكٍ إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلا ذكره وحديثه ... تنادى عليه معولاتٍ حلائله

فمات بعد ذلك بعشرة أيام. وقد اختلف في سبب موته، فقيل إنّه كان يتصيّد فطردت الكلاب ظبيًا وتبعته، فدخل باب خربة ودخلت الكلاب خلفه، وتبعها فرس المهدي فدخلها، فدقّ الباب ظهره فمات من ساعته. وقيل: بل بعثت جارية من جواريه إلى ضرّة لها بلبن فيه سمّ، فشرب منه فمات. وقيل: بل عمدت جاريته حَسَنَة إلى كمثرى[٢]، فأهدته إلى طلة جاريته الأخرى، وجعلت السمّ في أبهى كمثراة فيه، فاجتاز بالمهدي فأخذ تلك الكمثراة المسمومة فأكلها، فلما وصلت إلى جوفه صاح ومات منها، فكانت الجارية تقول في بكائها عليه: أردت أن أنفرد بك فأوحشت نفسي منك؛ ومات في يومه وصلّى عليه ابنه الرشيد، ومات وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقيل ثلاث وأربعون، وكانت مدة خلافته عشر سنين وتسعة وأربعين يومًا، ودفن تحت جوزة كان يجلس تحتها.

وكان أبيض طويلاً وقيل أسمر، حسن الوجه بعينه اليمنى نكتة بياض.

---

(١) ماسبذان: بفتح السين والباء الموحدة، والذال معجمة، وآخره نون: قال مسعر بن مهلهل: وخرجنا من مرج القلعة إلى الطزر نعطف منها يمنة إلى ماسبذان ومهرجان قذق وهي مدن عدة. . . (معجم البلدان).

(٢) الكمثرى: شجر مثمر من الفصيلة الوردية، أصنافه كثيرة، ويسمى الإنجاص في الشام، وهي من إجاص، والإجاص في اللغة: ما يسمى البرقوق في مصر، أي غير الكمثرى، الواحدة كمثراة.

ذكر شيء من سيرته وأخباره

كان جوادًا حازمًا وصولاً يباشر الأمور بنفسه، وكان كثير الولاية والعزل لغير سبب، وردّ على الناس الأموال التي أخذها أبوه. وكان إذا جلس للمظالم قال: أدخلوا عليّ القضاة، فلو لم يكن ردّي للمظالم إلا للحياء منهم. وقال الحسن الوصيف: أصابتنا ريح شديدة أيام المهدي حتى ظننّا أنها تسوقنا إلى المحشر، فخرجت أطلب المهدي فوجدته قد وضع خدّه بالأرض، وهو يقول: اللهم احفظ محمدًا في أمّته، اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك؛ قال فما لبثنا إلا يسيرًا حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنّا فيه.

قال الربيع: رأيت المهدي يصلي في ليلة مقمرة، فقرأ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢]، قال: فأتم صلاته والتفت إليّ وقال: يا ربيع، موسى، فقلت في نفسي ما هو إلا موسى بن جعفر وكان محبوسًا عندي فأحضرته، فقطع صلاته ثم قال: يا موسى إني قرأت هذه الآية، فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوثّق لي أنك لا تخرج فوثق له، وخلّى المهدي سبيله.

قال: وبنى المهدي العلمين(١) في المسعى.

أولاده: موسى الهادي وهارون الرشيد وعلي وعبد الله ومنصور ويعقوب وإسحاق وإبراهيم والبانوقة وعُليّة وعباسة وسُلَيمة. ووزراؤه: أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله الأشعري ثم يعقوب بن داود بن طهمان ثم نكبه على ما ذكرناه، واستوزر الفَيْض بن أبي صالح. قضاته: محمد بن عبد الله بن عُلاَثة، وعَافِية بن يزيد وكانا يقضيان في مسجد الرصافة. حجّابه: سلام الأبرش، وقيل إن الفضل بن الربيع حجبه. الأمراء بمصر: عيسى بن لقمان بن محمد بن حاطب الجمحي ثم صرفه وولى واضحًا مولى أبي جعفر المنصور ثم صرفه وولّى أبا صالح يحيى بن داود الحرشي من أهل نيسابور ثم سالم بن سوادة التميمي ثم إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله عباس ثم موسى بن مصعب من أهل الموصل ثم الفضل بن صالح الهاشمي. القضاة بها: عبد الله بن لهيعة ثم إسماعيل بن اليسع الكندي الكوفي وهو أول حنفي ولي القضاء بها ثم غوث بن سليمان ثم توفي فولي القضاء المفضل بن فضالة. وكان نقش خاتم المهدي حسبي الله.

---

(١) في معجم ياقوت: علمان: يضاف إليها ذو فيقال ذو علمان: من قرى ذمار في اليمن.

قال بعض المؤرخين: والمهدي أول من مشى بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالجة في الإسلام، وله من الآثار الحسنة في عمارة المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ والاهتمام بذلك ما قدمنا ذكره.

ذكر خلافة الهادي

هو أبو محمد موسى بن أبي عبد الله محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور، وأمه الخَيْزُران مولدة وهي بنت عطاء مولى أبيه وهي أم الخلفاء، وهو الرابع من الخلفاء العباسيين، بويع له في يوم وفاة أبيه ـ وهو يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة، وهو إذ ذاك مقيم بجرجان يحارب أهل طبرستان، فبايع الرشيد للهادي وكتب إلى الآفاق بذلك وردّ العسكر إلى بغداد، وسار نصير الوصيف إلى الهادي بجرجان بالخبر، فنادى بالرحيل وركب على البريد مجدًّا فبلغ بغداد في عشرين يومًا، ولما قدم استوزر الربيع فهلك الربيع في هذه السنة، واشتد طلب الهادي للزنادقة في هذه السنة فقتل منهم جماعة، منهم علي بن يقطين وقتل أيضًا يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمٰن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان سبب قتله أنه أتي به إلى المهدي فأقر بالزندقة، فقال: أم والله، لولا أني جعلت على نفسي ألا أقتل هاشميًا لقتلتك، ثم قال للهادي: أقسمت عليك إن وليت هذا الأمر لتقتلنّه، ثم حبسه، فلما مات المهدي قتله الهادي. وكان أيضًا قد عهد إليه بقتل ولد لداود بن علي بن عبد الله بن عباس وكان زنديقًا، فمات في حبس المهدي، قال ابن الأثير: ولما قتل يعقوب أدخل أولاده على الهادي، فأقرت ابنته فاطمة أنها حبلى من أبيها فخوّفت فماتت من الفزع.

ذكر ظهور الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب

قال: وظهر في هذه السنة في جماعة من الطالبيين، وانتهبوا بيت المال، ثم قصد الحسين مكة فبعث إليه الهادي محمد بن سليمان بن علي، فأدركه بفَخّ[1] على فرسخ من مكة، فالتقوا واقتتلوا فقتل الحسين، وحمل رأسه إلى الهادي على ما نذكره في أخبارهم إن شاء الله. وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن منصور.

---

(١) فخ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه: هو واد بمكة... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة سبعين ومائة.

في هذه السنة عزم الهادي على خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر، فأجابه إلى ذلك يزيد بن مزيد الشيباني وعبد الله بن مالك وعلي بن عيسى وغيرهم، فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر، ووضعوا الشيعة فتكلموا في ذلك وتنقصوا الرشيد في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به؛ وكان يحيى بن خالد يتولى أمر الرشيد، فقيل للهادي: ليس عليك من أخيك خلاف إنما يحيى يفسده، وكان الرشيد قد اطمأن للخلع فمنعه يحيى منه، فطلب الهادي يحيى وتهدّده بالقتل ورماه بالكفر، فلم يزل يلطف به حتى سكن غضبه، ثم قال له: يا أمير المؤمنين ـ إنّك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة، قال: صدقت وسكت عنه، فعاد الذين كانوا بايعوه من القواد والشيعة فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع، فأحضر يحيى فكتب إليه:

إنّ عندي نصيحة، فأحضره فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر الذي لا تبلغه ـ ونسأل الله أن يقدمنا قبله ـ يعني موت الهادي ـ أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر، وهو لم يبلغ الحلم؟ أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟ قال: ما أظن ذلك، قال: يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم؟ فتكون قد أخرجت الأمر عن ولد أبيك، والله ـ لو أنّ هذا الأمر لم يعقده المهدي له كان ينبغي أن تعقده أنت له، فكيف بأن تحلّه عنه وقد عقده المهدي!! ولكنّي أرى أن تقرّ الأمر على أخيك، فإذا بلغ جعفر خلع الرشيد نفسه وبايعه، فقبل قوله وأطلقه، ثم عاد أولئك القوّاد إلى الهادي وأعادوا القول، فضيّق على الرشيد في ذلك، فقال له يحيى: استأذنه في الصيد، فإذا خرجت فأبعد ودافع الأيام، ففعل ذلك فأذن له فمضى إلى قصر مُقاتل[١] وأقام أربعين يومًا، فأنكر الهادي أمره وكتب إليه بالعود، فتعلّل ثم اعتل الهادي ومات.

ذكر وفاة أبي محمد الهادي

كانت وفاته ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول، وقيل لأربع عشرة ليلة خلت منه، وقيل بقيت منه سنة سبعين ومائة بِعِيساباذ[٢]، واختلف في سبب وفاته،

(١) قصر مقاتل: قصر كان بين عين التمر والشام، وهو منسوب إلى مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس بن إبراهيم بن أيوب بن محروق بن عامر بن عصية بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم. . . (معجم البلدان).

(٢) عيساباذ: معنى باذ العمارة، فكأن معناه عمارة عيسى: محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي. . . وبها بنى المهدي قصره الذي سماه مدينة السلام. . . (معجم البلدان).

فقيل كانت بقرحة في جوفه، وقيل مرض بحديثة الموصل وعاد مريضًا فمات، وقيل إن أمّه أمرت جواريها بقتله فقتلنه، قال: وكان سبب ذلك أنه لما ولي الخلافة كانت تستبد بالأمور دونه، وتسلك به مسلك المهدي، حتى مضى من خلافته أربعة أشهر، والمواكب تغدو إلى بابها؛ فكلّمته يومًا في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلاً، فقالت: لا بد منه فقد ضمنته لعبد الله بن مالك بن جعفر، فغضب الهادي وقال: والله لا قضيتها، فقالت: إذنْ والله لا أسألك حاجة أبدًا، قال: لا أبالي والله وغضب، وقامت مغضبة، فقال: مكانك، والله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوّادي وخاصّتي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟! أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكّرك أو بيت يصونك!! إياك إياك، لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذميّ، فانصرفت وهي لا تعقل فلم تنطق عنده بعدها؛ ثم قال لأصحابه: أيما خير، أنا أم أنتم؟ وأمي أم أمهاتكم؟ قالوا: بل أنت وأمك خير، قال: فأيّكم يحبّ أن يتحدث الرجال بخبر أمّه، فيقولوا فعلت أم فلان وصنعت؟ قالوا: لا نحبّ ذلك، قال: فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها!! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها، ثم بعث إلى أمّه بأرز، وقال: قد استطبتها فكلي منها، فقيل لها: أمسكي حتى تنظري، فجاؤوا بكلب وأطعموه منها فتساقط لحمه لوقته، فأرسل إليها كيف رأيت الأرز؟ قالت طيبًا، قال: ما أكلت منها ولو أكلت منها لاسترحت منك، متى أفلح خليفة له أم؟! وقيل كان سبب أمرها بقتله أنه لما جدّ في خلع الرشيد خافت عليه، فوضعت جواريها عليه فقتلنه بالغم والجلوس على وجهه، حتى مات والله أعلم.

ولما مات كان له من العمر ست وعشرون سنة، واختلف فيه إلى ثلاث وعشرين سنة. وكانت مدة خلافته سنة وشهرًا وأربعة وعشرين يومًا، وصلّى عليه أخوه الرشيد؛ ودفن بعيساباذ الكبرى في بستانه، وفي ليلة وفاته مات خليفة، وهو الهادي، وولي خليفة، وهو الرشيد، وولد خليفة، وهو المأمون، وكان طويلاً جسيمًا أبيض مشربًا بحمرة أفوه مقلص الشفة العليا، وكان المهدي قد وكل به خادمًا يقول له: موسى اطبق، فيضم شفته، وكان شجاعًا بطلاً جوادًا سخيًا أديبًا صعب المرام.

وكان له من الأولاد: عيسى وإسحاق وجعفر وعبد الله وموسى وإسحاق الأصغر. وذكر ابن الأثير في أولاده العباس وإسماعيل وسليمان ولم يذكر إسحاق الأصغر، وكان ابنه موسى ضريرًا، وأم عيسى كانت عند المأمون، وأم العباس وكانت تلقب نونه، وكلهم أولاد أمهات.

وكان نقش خاتمه: الله ربي. وزراؤه: الربيع بن يونس ثم عمر بن بزيع. حاجبه: الفضل بن الربيع قضاته: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بالجانب الغربي، وسعيد بن عبد الرحمٰن الجمحي بالجانب الشرقي. الأمير بمصر علي بن سليمان بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس. قاضيها أبو الطاهر عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم والله تعالى أعلم.

ذكر خلافة هارون الرشيد

هو أبو محمد هارون وقيل أبو جعفر بن أبي عبد الله محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وأمه الخيزران أم أخيه الهادي، وهو الخامس من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه الهادي.

قال: ولما مات الهادي كان يحيى بن خالد بن برمك محبوسًا، وقد عزم الهادي على قتله، فجاء هرثمة بن أعين إلى الرشيد وأخرجه وأجلسه للخلافة، فأرسل الرشيد إلى يحيى وأخرجه من الحبس واستوزره؛ وقيل لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم في فراشه، فقال له: قم يا أمير المؤمنين، فقال: كم تروعني إعجابًا منك بخلافتي! فكيف يكون حالي مع الهادي إن بلغه هذا؟! فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه. وأنشئت الكتب بوفاة الهادي وخلافة الرشيد. قال: ولما مات الهادي هجم خزيمة بن خازم على جعفر بن الهادي، وأخذه من فراشه وقال له: لتخلعنّها أو لأضربن عنقك، فأجاب إلى الخلع، وركب خزيمة من الغد وأظهر جعفرًا للناس، فأشهدهم بالخلع وأحلّ الناس من بيعته، فحظي بها خزيمة عند الرشيد.

وفيها أفرد الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيّزًا واحدًا وسمّيت العواصم، وأمر بعمارة طرسوس على يد فرج الخادم التركي ونزلها الناس. وحجّ بالناس الرشيد وقسم بالحرمين عطاءً كثيرًا.

ودخلت سنة إحدى وسبعين ومائة.

في هذه السنة خرج الصحصح الخارجي بالجزيرة وهزم عسكرها، وسار إلى الموصل فقاتله عسكرها، فقتل منهم خلقًا كثيرًا ورجع إلى الجزيرة، فغلب على ديار ربيعة، وعزل الرشيد أبا هريرة عن الجزيرة وأحضره إلى بغداد وقتله.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

ودخلت سنة اثنين وسبعين ومائة.

كان في هذه السنة من الحوادث ببلاد الأندلس ما نذكره في أخبار بني أمية ـ ملوك الأندلس، وحجّ بالناس يعقوب بن المنصور.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة.

في هذه السنة توفي محمد بن سليمان بن علي بالبصرة، فأرسل الرشيد من قبض تركته، فحمل منها ما يصلح للخلافة فكان جملة ما أخذ منها ستين ألف ألف. وفيها ماتت الخيزران أم الرشيد، فحمل الرشيد جنازتها ودفنها في مقابر قريش، ولما فرغ من جنازتها أخذ الخاتم من جعفر بن يحيى بن خالد وأعطاه للفضل بن الربيع. وحجّ الرشيد في هذه السنة بالناس وأحرم من بغداد.

ودخلت سنة أربع وسبعين ومائة.

في هذه السنة حجّ الرشيد فقسم أموالاً كثيرة في الناس، وفيها استقضى الرشيد يوسف بن أبي يوسف في حياة أبيه.

ودخلت سنة خمس وسبعين ومائة.

في هذه السنة عقد الرشيد لابنه محمد بن زبيدة بولاية العهد، ولقّبه الأمين وعمره خمس سنين. وحجّ الرشيد في هذه السنة بالناس.

ودخلت سنة ست وسبعين ومائة.

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله

في هذه السنة ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالديلم، واشتدت شوكته وكثرت جموعه وأتاه الناس من الأمصار، فأهمّ الرشيد أمره فندب الفضل بن يحيى في خمسين ألفًا، وولاه جرجان وطبرستان والري وغيرها وحمل معه الأموال، فكتب إلى يحيى بن عبد الله ولاطفه وبسط أمله وحذّره، ونزل الفضل بالطالقان ووالى كتبه إلى يحيى، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى، فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب الرشيد أمانه بخطه، ويشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلّة بني هاشم ومشايخهم، فأجاب الرشيد إلى ذلك وبعث له بالأمان وبعث بهدايا وتحف، فقدم يحيى مع الفضل إلى بغداد، فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير، ثم حبسه الرشيد فمات في الحبس.

ذكر الفتنة بدمشق

في هذه السنة هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية، وكان رأس المضرية أبو الهَيْذَام عامر بن عمارة بن خريم الناعم، وكان سبب الفتنة أن غلامًا للرشيد بسجستان قتل أخًا لأبي الهيذام، فخرج أخوه بالشام غضبًا له، وجمع جمعًا عظيمًا ورثاه فقال: [من الطويل]

سأبكيكِ بالبيض الرّقاق وبالقنا ... فإنّ بها ما يدرك الطالب الوترا[١]
ولسنا كمن ينعى أخاه بعبرةٍ ... يعصّرها من ماء مقلته عصرا
وإنّا أناسٌ ما تفيض دموعنا ... على هالكٍ منّا وإن قصم الظهرا
ولكنّني أشفي الفؤاد بغارةٍ ... ألهّب في قطري كتائبها جمرا

ثم إن الرشيد احتال عليه بأخ له، كتب إليه وأرغبه فشد عليه وكتفه، وأتى به الرشيد فمنّ عليه وأطلقه. وقيل في هياج هذه الفتنة غير هذا والله أعلم.

وفيها خرج الفضل الخارجي بنواحي نصيبين، وأخذ من أهلها مالاً، وسار إلى دارا وآمد وأرزن[٢] فأخذ منهم مالاً، وفعل كذلك بخلاط[٣] ثم عاد إلى نصيبين، وأتى الموصل فخرج إليه عسكرها فهزمهم على الزاب، ثم عادوا لقتاله فقتل الفضل وأصحابه.

ودخلت سنة سبع وسبعين ومائة.

ذكر الفتنة بالموصل

في هذه السنة خالف العطاف بن سفيان الأزدي على الرشيد، وكان من فرسان أهل الموصل، واجتمع عليه أربعة آلاف رجل وجبى الخراج، وكان عامل الرشيد على الموصل محمد بن العباس الهاشمي، وقيل عبد الملك بن صالح، والعطاف غالب على الأمر كله وهو يجبي الخراج، وأقام على ذلك سنتين، حتى خرج الرشيد إلى الموصل فهدم سورها بسببه.

---

(١) الموتور: الذي قتل حميمه؛ والوتر هنا بمعنى الثأر.

(٢) أرزن: بالفتح ثم السكون، وفتح الزاي، ونون: من أعمر نواحي أرمينية وأرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد إرمينية أيضًا... قال ابن الفقيه: بين نصيبين وأرزن ذات اليمين للمغرب سبعة وثلاثون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٣) خلاط: بكسر أوله، وآخره طاء مهملة: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة.. وهي قصبة أرمينية الوسطى... (معجم ياقوت).

وفيها عزل الرشيد حمزة بن مالك عن خراسان، واستعمل عليها الفضل بن يحيى بن خالد ـ مضافًا إلى ما كان بيده من الأعمال وهي الري وسجستان وغيرهما.
وحجّ بالناس في هذه السنة الرشيد.

ودخلت سنة ثمان وسبعين ومائة.

ذكر الفتنة بمصر

في هذه السنة وثبت الحوفية بمصر بعاملهم إسحاق بن سليمان، وقاتلوه فأمده الرشيد بهَرْثَمة بن أعْين ـ وكان عامل فلسطين، فقاتلوا الحوفية ـ وهم قيس وقضاعة ـ فأذعنوا بالطاعة وأدّوا ما عليهم للسلطان، فعزل الرشيد إسحاق واستعمل عليها هرثمة، ثم عزله واستعمل عليها عبد الملك بن صالح.

ذكر خروج الوليد بن طريف

في هذه السنة خرج الوليد بن طريف التغلبي الخارجي بالجزيرة، ففتك بإبراهيم بن خازم بن خزيمة بنصيبين، ثم قويت شوكة الوليد، فرحل إلى أرمينية وحصر خِلاَط عشرين يومًا، ففدوا أنفسهم منه بثلاثين ألفًا، ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد، ثم عبر إلى غربي دجلة وقصد مدينة بَلَد[1] ـ فافتدوا منه بمائة ألف، وعاث في أرض الجزيرة، فسيّر إليه الرشيد يزيد بن مزيد بن زائدة ـ وهو ابن أخي معن بن زائدة الشيباني، فقال الوليد: [من الوافر]

ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشطّ الزَّاب أي فتىً يكون

ثم التقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا فقتل الوليد، فقال بعض الشعراء: [من الخفيف]

وائلٌ بعضهم يقتّل بعضًا لا يفلُّ الحديدَ إلاّ الحديدُ[2]

قال: ولما قتل الوليد صحبتهم أخته ليلى بنت طريف مستعدة عليها الدرع، فجعلت تحمل على الناس فعرفت، فقال يزيد: دعوها، وخرج إليها فضرب قطاة[3] فرسها بالرمح، ثم قال: اغربي غرب الله عليك!! فقد فضحت

---

(١) بلد: بالتحريك: قال حمزة: بلد اسمها بالفارسية شهراباذ.. وقيل: هي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) فل السيف: ثلمه وكسره في حده. (٣) القطاة: مقعد الرديف من الفرس.

العشيرة، فاستحيت وانصرفت، ورثته أخته ليلى بقصيدتها المشهورة التي تقول فيها: [من الطويل]

فيا شجر الخابور ما لك مورقًا كأنّك لم تجزع على ابن طريف[1]
فتىً لا يريد الزّاد إلاّ من التُّقى ولا المال إلاّ من قنًا وسيوف

وفيها فوّض الرشيد أمر دولته كلها إلى خالد بن يحيى البرمكي. وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي.

ودخلت سنة تسع وسبعين ومائة.

في هذه السنة اعتمر الرشيد في شهر رمضان شكرًا لله تعالى على قتل الوليد بن طَريف، وعاد إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحج، وحجّ بالناس ومشى من مكة إلى عرفات، وشهد المشاعر كلها ماشيًا، ورجع على طريق البصرة، وفيها مات الإمام مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنه ورحمه، وكانت وفاته بالمدينة وله تسعون سنة.

ودخلت سنة ثمانين ومائة.

ذكر ولاية علي بن عيسى خراسان وخبر حمزة الخارجي

في هذه السنة عزل الرشيد منصور بن يزيد عن خراسان، واستعمل عليها جعفر بن يحيى ثم عزله بعد عشرين يومًا، واستعمل عليها علي بن عيسى بن ماهان فولّيها عشر سنين. وفي ولايته خرج حمزة بن أترك الخارجي، فجاء إلى بُوشَنْج فخرج إليه عمروية بن يزيد الأزدي، وكان على هراة في ستة آلاف، فقاتله فهزمه حمزة وقتل من أصحابه جماعة، ومات عَمْرَويه في الزحام، فوجّه إليه علي بن عيسى ابنه الحسين في عشرة آلاف، فلم يحارب حمزة فعزله وسيّر ابنه عيسى بن علي، فقاتل حمزة مرة بعد أخرى، وكان حمزة بنيسابور فانهزم حمزة وقتل أصحابه وبقي في أربعين رجلاً، فقصد قهستان فأرسل عيسى إلى القرى التي كان أهلها يعينون الخوارج، فأحرقها وقتل الخوارج حتى انتهى إلى زَرَنْجَ[2]، فقتل ثلاثين ألفًا ورجع،

(١) الخابور: جنس جنيبات طبية وتزيينية من فصيلة الخمايينات، له زهر زاهي المنظر أصفر جيد الرائحة.

(٢) زرنج: بفتح أوله وثانيه، ونون ساكنة، وجيم: مدينة هي قصبة سجستان، وسجستان اسم الكورة كلها.. (معجم البلدان).

وخلف بزرنج عبد الله بن العباس، فجبى الأموال وسار بها فلقيه حمزة وقاتله، فصبر عبد الله وانهزم حمزة، وقتل كثير من أصحابه واختفى هو ومن سلم من أصحابه في الكروم، ثم سار في القرى يقتل ولا يبقي على أحد، وكان علي بن عيسى قد استعمل طاهر بن الحسين على بوشنج، فسار إليه حمزة وانتهى إلى مكتب فيه ثلاثون غلامًا فقتلهم وقتل معلمهم، وبلغ طاهر الخبر فأتى قرية فيها قعد الخوارج، وهم الذين لا يقاتلون ولا ديوان لهم، فقتلهم طاهر وأخذ أموالهم. فكتب العقد إلى حمزة بالكفّ فكفّ. ووادعهم وأمن الناس مدة. وكانت بينه وبين أصحاب علي بن عيسى حروب كثيرة.

وحجّ بالناس في هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.

ودخلت سنة إحدى وثمانين ومائة.

في هذه السنة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حصن الصَّفْصَاف[١]، وغزا عبد الملك بن صالح الروم فبلغ أنقرة، وافتتح مَطْمورة. وفيها أحدث الرشيد في صدور الكتب الصلاة على محمد ﷺ. وحجّ بالناس الرشيد.

ودخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة.

في هذه السنة بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ولقبه المأمون، وسلّمه إلى جعفر بن يحيى. وفيها غزا الصائفة عبد الرحمٰن بن عبد الملك بن صالح فبلغ دفسوس[٢] مدينة أصحاب الكهف. وحجّ بالناس هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة.

في هذه السنة خرج الخزر من باب الأبواب، فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف، وانتهكوا أمرًا عظيمًا لم يسمع بمثله؛ وكان سبب ذلك أن ابنة خاقان ملك الخزر، كانت حملت في سنة اثنتين وثمانين ومائة إلى الفضل بن يحيى، فلما بلغت برْذَعَة[٣] ماتت، فرجع من معها إلى أبيها وأخبروه أنها قتلت غيلة

(١) الصفصاف: بالفتح، والسكون: كورة من ثغور المصيصة غزاها سيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٣٩هـ. . . (معجم ياقوت).

(٢) في معجم ياقوت: أفسوس: بلد بثغور طرسوس يقال إنه بلد أصحاب الكهف.

(٣) برذعة: بلد في أقصى أذربيجان.

فجهز العساكر إلى بلاد الإسلام ففعلوا ذلك؛ وقيل في سبب خروجهم إن سعيد بن سلم قتل المنجم السلمي، فدخل ابنه الخزر واستجاشهم على سعيد، فخرجوا ودخلوا أرمينية من الثلمة فانهزم سعيد، وأقاموا نحو سبعين يومًا فوجّه الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد، فأصلحوا ما أفسد سعيد، وأخرجوا الخزر وسدّوا الثلمة.

وفيها خرج بنسا من خراسان أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي، فاستقدم الرشيد علي بن عيسى ثم ردّه من قبل المأمون، وأمره بحرب أبي الخصيب.

وفيها توفي موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ببغداد في حبس الرشيد، وكان سبب حبسه أن الرشيد اعتمر في شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة، فلما عاد إلى المدينة دخل قبر النبي ﷺ ومعه الناس، فلما انتهى إلى القبر الشريف وقف، فقال: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم، قال ذلك افتخارًا على من حوله، فدنا موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبت، فتغيّر وجه الرشيد وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن جدًا، ثم أخذه معه إلى العراق فحبسه عند السِّنْدي بن شَاهِك حتى مات، وكان رجلًا صالحًا خيّرًا ديّنًا يقوم الليل كله، وهو الملقب بالكاظم ـ لقّب بذلك لإحسانه لمن أساء إليه.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن الهادي.

ودخلت سنة أربع وثمانين ومائة.

في هذه السنة طلب أبو الخصيب النسائي الأمان، فأمّنه علي بن عيسى بن ماهان. وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن عبد الله.

ودخلت سنة خمس وثمانين ومائة.

في هذه السنة قتل أهل طبرستان واليها مهرويه الرازي، فولّى الرشيد عبد الله بن سعيد الحرشي.

وفيها عاث حمزة الخارجي بباذغيس فقتل عيسى بن علي من أصحابه عشرة آلاف. وفيها غدر أبو الخصيب النسائي ثانيًا، وغلب على أَبِيوَرْد[١] وطُوس[٢]

(١) أبيورد: بفتح أوله وكسر ثانيه وياء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء ودال مهملة: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وبئة رديئة الماء يكثر فيها خروج العرق... (معجم البلدان).

(٢) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبها منبر علي بن موسى الرضا، وبها أيضًا منبر هارون الرشيد... (معجم البلدان لياقوت).

ونيسَابُور وحصر مرو، ثم انهزم عنها وعاد إلى سَرَخْس وقوي أمره. وحجّ بالناس في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن علي.

ودخلت سنة ست وثمانين ومائة.

ذكر حج هارون الرشيد وأمر كتاب العهد

في هذه السنة حجّ الرشيد من الأنبار، فبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية، أعطى هو عطاءً ومحمد الأمين عطاءً وعبد الله المأمون عطاءً، وسار إلى مكة فأعطى أهلها فبلغ ألف دينار وخمسين دينارًا، وكان الرشيد قد ولّى الأمين العراق والشام وإلى آخر المغرب، وضمّ إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق، ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقّبه المؤتمن، وضمّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان في حجر عبد الله بن صالح، وجعل خلعه وإثباته إلى المأمون، فلما وصل الرشيد إلى مكة ومعه أولاده والقضاة والفقهاء والقوّاد كتب كتابًا، أشهد فيه على محمد الأمين، وأشهد من حضر بالوفاء للمأمون، وكتب كتابًا للمأمون أشهد فيه عليه بالوفاء للأمين، وعلّق الكتابين في الكعبة، وجدّد العهود عليهما في الكعبة، فقال الناس: قد ألقى بينهم شرًّا وحربًا، وخافوا عاقبة ذلك وكان ما خافوه.

وفيها سار عيسى بن ماهان من مرو إلى نسا[1] لحرب أبي الخصيب، فحاربه وقتله وسبى نساءه وذراريه واستقامت خراسان.

ودخلت سنة سبع وثمانين ومائة.

ذكر إيقاع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى بن خالد

في هذه السنة أوقع الرشيد بالبرامكة ونكبهم النكبة المشهورة، وقد اختلف في سبب ذلك، فقيل إن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عبّاسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، فقال لجعفر أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها ولا تقربها، فأجابه إلى ذلك، فبقيا على ذلك ما شاء الله، فمالت العبّاسة إلى جعفر،

(١) نسا: بفتح أوله، مقصور: هي مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام... وهي مدينة وبئة جدًا يكثر بها خروج العرق المديني حتى أن الصيف قل من ينجو منه من أهلها... (معجم البلدان).

وراودته فأبى وخاف على نفسه، فلما أعيتها الحيلة في أمره علمت أن النساء أقرب إلى الخديعة، فبعثت إلى عَتّابة ـ وهي أم جعفر ـ وكانت عتابة ترسل إلى ابنها جعفر في كل ليلة جمعة جارية بكرًا، فقالت العبّاسة لها: أرسليني إلى ابنك كأني جارية من جواريك، اللواتي ترسلين إليه فأبت أم جعفر، فقالت لها العبّاسة: إن لم تفعلي قلت للرشيد كلمتني في كيت وكيت، وإن فعلت ذلك واشتملتُ منه على ولد زاد في شرف ابنك، وما عسى أن يفعل أخي لو علم، فمالت أم جعفر إلى ذلك، ووعدت ابنها أنها ترسل إليه جارية من صفتها وحسنها، فطالبها بها مرة بعد أخرى وهي تمطله، حتى اشتاق إليها فأرسلتها إليه، فأدخلت عليه ـ وكان لا يثبت صورتها، لأنّه كان إذا جلس عند الرشيد لا يرفع طرفه إليها، فلما دخلت عليه كان قد شرب نبيذًا، فاجتمع بها وقضى وطره، فقالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟ وأية ابنة ملك أنت!! قالت: أنا مولاتك العبّاسة، فتألم لذلك وقال لأمه: بعتني والله رخيصًا، فاشتملت العبّاسة من ليلتها على حمل، فلما ولدته وكلت به غلامًا يقال له رياش وحاضنة اسمها برّة، وبعثت بهم إلى مكة، وكان يحيى بن خالد ينظر على قصر الرشيد وحرمه وخدمه، ويغلق باب القصر بالليل وينصرف بالمفاتيح معه، فضيّق على حرم الرشيد، فشكت زُبيدة أم الأمين أمره إلى الرشيد، فقال له: يا أبت ـ وكان يدعوه بذلك ـ ما بال أم جعفر تشكوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين ـ أمتّهم أنا في حرمك وخدمك؟ قال: لا، قال: فلا تقبل قولها، وزاد يحيى في الحجر والتضييق، فدخلت زبيدة على الرشيد وقالت: ما يحمل يحيى على ما يفعل من منعه خدمي ووضعي في غير موضعه؟ فقال: إنّه عندي غير متهم في حرمي، فقالت: لو كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه!! قال: وما ذلك؟ فأخبرته بخبر العبّاسة، فقال: وهل على هذا من دليل؟! قالت: وأي شيء أدل من الولد، قال: وأين هو؟ قالت: كان هاهنا فلما خافت ظهوره وجهت به إلى مكة، قال: ويعلم بهذا سواك!! قالت ما في قصرك جارية إلا وقد عرفت ما أخبرتك به، فسكت عنها وأظهر أنه يريد الحج، وأخذ معه جعفرًا، فكتبت العبّاسة إلى الخادم والداية أن يخرجا بالصبي إلى نحو اليمن، فلما وصل الرشيد إلى مكة وكل من يثق به بالبحث عن ذلك، فلم يزل حتى تحقق الأمر، فأضمر السوء للبرامكة.

وقيل إن سبب نكبة البرامكة أن يَقْطين بن موسى كان من أكابر الشيعة، وممَّن كان مع إبراهيم الإمام، فقال يومًا للرشيد: حدّثني مولاي إبراهيم الإمام أن الخامس من خلفاء بني العباس يغدر به كتّابه، فإن لم يقتلهم قتلوه، فقال له الرشيد: الله ـ يحدثك الإمام بهذا!! قال: نعم.

وقيل كان سبب ذلك أن الرشيد دفع يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى جعفر بن يحيى فحبسه، ثم استدعاه وسأله عن بعض أمره، فقال له: اتق الله في أمري، ولا تتعرض غَدًا أن يكون خصمك رسول الله ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثًا ولا آويت مُحدثًا، فرقّ له وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله، فقال: كيف أذهب ولا آمن أن أوخذ؟ فوجّه معه من أوصله إلى مأمنه، وبلغ الخبر الفضل بن الربيع فرفعه إلى الرشيد، فقال: ما أنت وهذا ـ فلعلّه عن أمري!! ثم أحضر جعفرًا وسأله عن يحيى، فقال: هو بحاله في الحبس، فقال بحياتي!! ففطن جعفر وقال: لا وحياتك، وقصّ عليه أمره، وقال: علمت أنّه لا مكروه عنده، فقال: نِعْم ما فعلت، ما عدوت ما في نفسي، فلما قام عنه قال: قتلني الله إن لم أقتلك. وقيل إن الرشيد لما دفعه لجعفر بقي عنده ما شاء الله، وكان جعفر يرى سرور الرشيد بموت من يموت في حبسه من هؤلاء، فشرب جعفر عنده يومًا فقال: يا أمير المؤمنين إنّ يحيى قد مات، فسرّ بذلك وقال: الحمد لله الذي كفاني أمره ولم يؤثمني فيه. وانصرف جعفر فأخبره أباه يحيى بن خالد بما كان، فقال: إنّا للّه وإنا إليه راجعون، إن تركناه تلفنا، وإن قتلناه فالنار لنا، ثم كتب يحيى إلى علي بن عيسى بن ماهان وإلى خراسان يعرّفه ما جرى، وفزع إليه أن يكون عنده موسعًا عليه، إلى أن يقضي الله فيه قضاءه، ولم يكن يحيى يعلم ما كان بين علي بن عيسى وبين الفضل وجعفر من العداوة، فلما وصل الكتاب إلى عليّ ووصل إليه يحيى قال: هذا من حيل الفضل وجعفر عليّ، فأجاب يحيى بأنه فعل ما أراد، وأنفذ كتاب يحيى إلى الرشيد، فكتب إليه الرشيد يعرفه بحسن موقع ذلك عنده، وأمره بإنفاذ يحيى بن عبد الله إليه سرًّا، فلما وصل إليه أوقع بالبرامكة.

هذا مما قيل في سبب نكبة البرامكة أما كيفيّة الإيقاع بهم وقتل جعفر فقيل: إن الرشيد لما قضى حجّه أرسل السندي بن شاهك، وهو أحد قوّاده، وأمره أن يمضي إلى مدينة السلام والتوكل بالبرامكة وبدور كتّابهم وأقاربهم، وأن يجعل ذلك سرًّا بحيث لا يعلم به أحد حتى يصل إلى بغداد، ففعل السندي ذلك، وكان الرشيد قد نزل بالأنبار بموضع يقال له العُمرْ ومعه جعفر، فمضى جعفر إلى موضعه في سلخ المحرم، ودعا بأبي زكار الأعمى الطنبوري، ومدّت الستارة وجلس جواريه خلفها يضربن ويغنّين، وأبو زَكّار يغنّيه: [من مجزوء الرّمل]

مـــا يـــريـــد الـــنّـــاس مـــنّـــا مـــا يـــنـــام الـــنـــاس عـــنّـــا
إنّـــمـــا هـــمـــهـــمُ أن يـــكـــشـــفـــوا مـــا قـــد دفـــنّـــا

قال: واستدعى الرشيد من ساعته بيَاسِر، غلام من غلمانه، وقيل بمَسْرُور الخادم، فأرسله في جماعة من الجند إلى جعفر، ليضرب عنقه وليأتيه برأسه، فمضى حتى دخل على جعفر وعنده بَخْتَيْشُوع الطبيب، وأبو زَكَّار يغنيه: [من الوافر]

فلا تبعدْ فكلُّ فتىً سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي[1]
وكلُّ ذخيرةٍ لا بدّ يومًا وإن بقيت تصير إلى نفاد

فقال له جعفر: قد سررتني بإقبالك إليّ، وسؤتني بدخولك عليّ بغير إذن، فقال: الأمر أكبر من ذلك، إن أمير المؤمنين أمرني بكذا وكذا، فأقبل جعفر يقبّل يديه ورجليه، ويقول: دعني أدخل وأوصي، فقال: لا سبيل إلى ذلك، ولكن أوص بما شئت، فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه، ثم قال: إن لي عندك حقًا ولن تجد مكافأتي إلا في هذه الساعة، فارجع إلى أمير المؤمنين فأعلمه أنّك قد نفّذت كما أمرك به، فإن أصبح نادمًا كانت حياتي على يديك، وكانت لك عندي نعمة، وإن أصبح على مثل مذهبه نفّذ ما أمرك به، قال: ولا هذا، قال: فأسير معك إلى مضرب أمير المؤمنين بحيث أسمع كلامه ومراجعتك إياه، فإذا أبليت عذرًا ولم يرض إلا بمصيرك إليه برأسي فعلت، قال: أما هذا فنعم، فسارا جميعًا إلى مضرب الرشيد، فلما أتاه الخادم وجده في فرشه، فلما أحس به قال: إيتني برأسه، فعاد إلى جعفر وأخبره، فقال: الله الله، والله ما أمرك إلا وهو سكران، فدافع حتى أُصبح أو راجعه ثانية، فعاد ليراجعه فقال له: يا ماص بظر أمه، إيتني برأسه، فرجع إلى جعفر وأخبره، فقال ومرّة أخرى، فلما رجع إليه حذفه بعمود كان في يده، وقال: نفيت عن المهدي لئن لم تأتني برأسه لأقتلنّك، فخرج إلى جعفر وضرب عنقه وأتاه برأسه؛ قال: من نقل أن الرسول إلى جعفر ياسر، إنه لما وضع الرأس بين يدي الرشيد أقبل عليه مليًا، ثم قال: يا ياسر جئني بفلان وفلان، فلما أتاه بهما قال لهما الرشيد: اضربا عنق ياسر، فإني لا أقدر أن أرى قاتل جعفر.

وقيل: إنه وجد على قصر علي بن عيسى بن ماهان بخراسان في صبيحة الليلة التي قتل فيها جعفر كتابة بقلم جليل: [من السريع]

إنّ المساكين بني برمكٍ صبّت عليهم غير الدهر
إنّ لنا في أمرهم عبرة فليعتبر ساكن ذا القصر

(١) طرق: أتى ليلًا. وغدا: ذهب غدوة، والغدوة: ما بين الفجر وطلوع الشمس.

قال: وكان جعفر من أهل الفصاحة البارعة والفطنة التي لا تحد، إلا أنه كان فيه بخل بالنسبة إلى أبيه وأخيه، قال: ولما قتل جعفر أمر الرشيد بتوجيه من احتاط بيحيى وولده الفضل وجميع أسبابهم، وحبس الفضل في بعض منازل الرشيد، وحبس يحيى في منزله، وأخذ مالهم وما وجد لهم من ضياع ومتاع وغير ذلك، وأرسل من ليلته إلى سائر البلاد بالقبض على وكلائهم وأسبابهم وجميع أموالهم، وأصبح فأرسل جثة جعفر إلى بغداد وأمر بنصب رأسه وأن يقطع بدنه قطعتين، ينصب كل قطعة على جسر، ولم يعرض الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك وولده، لأنه علم براءته مما دخل فيه أهله؛ وقيل كان يسعى بهم، ثم حبس الرشيد يحيى بن خالد وبنيه الفضل ومحمد، ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم، ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيرها، ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض الرشيد على عبد الملك بن صالح، فعمّهم سخطه فضيّق عليهم.

وكان مقتل جعفر في ليلة السبت مستهل صفر سنة سبع وثمانين ومائة، وكان عمره سبعًا وثلاثين سنة، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة، ولما تكبوا قال الرَّقَاشِي[1]: وقيل إنّ الشعر لأبي نُوَاس: [من الطويل]

ألآن استرحنا واستراحت مطيُّنا ... وأمسكَ من يحدي ومن كان يحتدي
فقلْ للمطايا قد أمنت من السُّرى ... وطيّ الفيافي فدفدًا بعد فدفد[2]
وقلْ للمنايا قد ظفرت بجعفرٍ ... ولم تظفري من بعده بمسوّد
وقلْ للعطايا بعد فضلٍ تعطّلي ... وقلْ للرزايا كل يوم تجدّدي[3]
ودونك سيفًا برمكيًّا مهنّدًا ... أصيب بسيفٍ هاشمي مهنّد

وروى أبو الفرج الأصفهاني أن الرَّقَاشي اجتاز بجعفر وهو مصلوب، فوقف يبكي أحرّ بكاء، ثم أنشأ يقول: [من الوافر]

أمـا والله لـولا خـوف واشٍ ... وعـينٌ للخليفة لا تنامُ
لطفنا حول جذعك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلامُ
فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى ... حسامًا فلّه السيفُ الحسام
على اللذّات والدّنيا جميعًا ... ودولة آل برمكٍ السّلام

---

(١) الرقاشي: الفضل بن عبد الصمد الرقاشي: شاعر أديب، وليس من الرقاشيين بل هو من مواليهم (الأغاني ١٥: ٣٤)، وقد لجّ الهجاء بينه وبين أبي نواس.

(٢) الفدفد: الأرض الواسعة لا شيء بها. (٣) الرزايا: جمع الرزية، وهي المصيبة.

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأمر بإحضاره فأحضر، وقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، كان إليّ محسنًا، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حرّكني إحسانه، فما ملكت نفسي حتى قلت الذي قلت. قال: فكم كان يجري عليك؟ قال: ألف دينار، قال: فإنّا قد أضعفناها لك.

وقال يحيى بن خالد لما نكبوا: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفينا لمن بعدنا عبرة.

ذكر شيء من أخبار جعفر وتمكّنه من الرشيد وما آل أمرهم إليه

قيل: كان جعفر قد بلغ من الرشيد ما لم يبلغه وزير من خليفة قبله، كان يجلسه معه في حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان، وبلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وووولده، فمن ذلك ما حكاه إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد قال: قال لي جعفر يا إبراهيم، إذا كان غدًا فبكّر لي، فلما كان من الغد مشيت إليه باكرًا، فجلسنا نتحدث، فلما ارتفع النهار أحضر حجامًا فحجمنا، ثم قُدّم لنا الطعام فطعمنا، ثم خلع علينا ثياب المنادمة، وقال جعفر لحاجبه: لا يدخل علينا إلا عبد الملك القهرمان(١)، فنسي الحاجب فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي، وكان رجل بني هاشم فصاحة وملاحة وعلمًا وحلمًا وجلالة قدر وفخامة ذكر وصيانة وديانة، فظنّ الحاجب أنّه الذي أمره بدخوله فأدخله، فلما رآه جعفر تغيّر لونه، فعلم عبد الملك أنهم قد احتشموا، فأراد أن يرفع خجله وخجلهم بمشاركته لهم، فقال: اصنعوا بنا ما صنعتموه بأنفسكم، فجاء الخادم وطرح عليه ثياب المنادمة، وجلس يشرب فلما بلغ ثلاثًا قال: ليخفّف عنّا، فإنّه شيء ما شربته قط، فتهلل وجه جعفر ثم قال له: هل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك، مكافأة لما صنعت؟ قال: إن أمير المؤمنين عليّ غاضب فتسأله الرضى عنّي، قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين، قال: وعليّ أربعة آلاف دينار، قال: هي حاضرة من مال أمير المؤمنين، قال: وابني إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين، قال: قد زوّجه أمير المؤمنين ابنته عائشة، قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: قد ولاّه أمير المؤمنين مصر؛ قال إبراهيم بن المهدي: فانصرف عبد الملك، وأنا أعجب من إقدام جعفر على قضاء

---

(١) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين، فلما كان من الغد وقفنا على باب أمير المؤمنين، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ومحمد بن واسع وإبراهيم بن عبد الملك، فعقد له النكاح وحملت البدر إلى منزل عبد الملك، وكتب سجل إبراهيم على مصر، فأشار إليّ فصرت إلى منزله، فقال لي: قلبك معلّق بأمر عبد الملك، قلت: بلى، قال: دخلت على أمير المؤمنين فمثلت بين يديه، وابتدأت القصة من أوّلها إلى آخرها كما كانت، فجعل يقول أحسن والله، ثم قال: ما صنعت؟ فأخبرته بما سأل وبما أجبته، فجعل يقول في ذلك كله أحسنت أحسنت، وفي هذه الحكاية كفاية عما سواها.

ويقال إن عُليَّة بنت المهدي قالت للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة: ما رأيت لك يا سيدي يوم سرور تام، منذ قتلت جعفرًا، فلأي شيء قتلته!! فقال لها: يا أختاه لو علمت أن قميصي يعلم السبب لحرقته.

وأمّا ما آل أمرهم إليه من الضرورة والفاقة والاحتياج والذلة، فمن ذلك ما حكاه عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمي الإشبيلي في كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرّ قال:

حدث محمد بن غسان أن صاحب صلاة الكوفة وقاضيها قال: دخلت على أمي في يوم أضحى فرأيت عندها عجوزًا في أطمار رثة، وإذا لها بيان ولسان، فقلت لأمي من هذه؟ قالت: خالتك عتَّابة أم جعفر بن يحيى، فسلّمت عليها فسلّمتْ عليّ، فقلت: أضارك الدهر إلى ما أرى!! قالت: نعم - يا بني إنما كنّا في عوار[1] ارتجعها الدهر منّا، فقلت: حدثيني ببعض شأنك، قالت: خذه جملة، لقد مضى عليّ أضحى مثل هذا مذ ثلاث سنين وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وأنا أزعم أنّ ابني عاق لي، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدي شاة، أجعل أحدهما شعارًا[2] والآخر دثارًا، قال: فغمّني ذلك وأبكاني فوهبت لها دنانير كانت عندي. وهذه نهاية الاحتياج والضرورة والفاقة، فنسأل الله تعالى ألا يسلبنا نعمة أنعم بها علينا، ويجعل الموت قبل بلائه ومحنه.

وكتب يحيى بن خالد إلى الرشيد: لأمير المؤمنين وإمام المسلمين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين، من عبدٍ أسلمته ذنوبه وأوثقته عيوبه، وخذله شقيقه

(١) العوار: العيب؛ أو الخرق والشق في الثوب.

(٢) الشعار: ولي جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب.

ورفضه صديقه، وزلّ به الزمان وأناخ عليه الحدثان، فصار إلى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدعة، وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهر وافتقد الهجوع[١]، فساعته شهر وليلته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعًا. يا أمير المؤمنين، حجب الله عنّي فقدك لما أصبت به من بعدك، لا لمصيبتي بالحال والمال فإنّ ذلك كان بك ولك، وكانتا عارية في يدي منك، ولا بأس أن تُسترد العواري، فأما المحنة في جعفر فبجرمه أخذته وبجريرته عاقبته، وما أخاف عليك زلة في أمره، ولا مجاوزة به فوق ما يستحقه؛ فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتي وارحم ضعفي وشيبتي ووهن قوّتي، وهَبْ لي رضى عنّي، فمن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر ولكني أقرّ، وقد رجوت أن يظهر عند الرضى وضوح عذري، وصدق نيّتي، وظاهر طاعتي، وفلج[٢] حجّتي - ما يكفيني به أمير المؤمنين، ويرى الجليّة فيه، ويبلغ المراد منه إن شاء الله، وكتب: [من مجزوء الكامل]

قل للخليفة ذي الصنا ... يع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قريـ ... ـشٍ والملوك الهاديه
ملك الملوك وخير من ... ساس الأمور الماضية
إنّ البرامكة الذيـ ... ـن رموا لديك بداهيه
عمّتهُم لك سخطةٌ ... لم تبق منهم باقيه
فكأنهم ممّا بهم ... أعجازُ نخلٍ خاويه[٣]
صفر الوجوه عليهُم ... خلع المذلّةِ باديه
مستضعفون مطّردو ... ن بكلِّ أرضٍ قاصيه
من دون ما يلقون من ... عتب يشيب الناصيه
أضحوا وجلّ مناهُم ... منك الرضا والعافيه
بعد الوزارة والإما ... رة والأمور العاليه
انظر إلى الشيخ الكبيـ ... ـر فنفسهُ لك راجيه
أو ما سمعت مقالتي ... يا ابن الفروع الزاكيه
ما زلت أرجو راحةً ... فاليوم خاب رجائيه

(١) الهجوع: النوم ليلاً.
(٢) فلج الحجة: أحسن الإدلاء بها فغلب خصمه.
(٣) أعجاز النخل: أصولها.

والـيـوم قـد سـلـب الـزمـا ... ن كـرامـتـي وبـهـائـيـه
ألـقـى الـزمـان جـرنـه ... مـتـشـفـيًـا بـعـنـائـيـه[(١)]
ورمـى سـواد مـقـاتـلـي ... فـأصـاب حـيـن رمـانـيـه
يـا مـن يـودُّ لَـي الـردى ... يـكـفـيـك ويـحـك مـا بـيـه
يـكـفـيـك أنِّـي مـسـتـبـا ... ح عـشـيـرتـي ونـسـائـيـه
يـكـفـيـك مـا أبـصـرت مـن ... ذلّـي وضـيـق مـكـانـيـه
وذهـاب مـالـي كـلّـه ... وفـدى الـخـلـيـفـة مـالـيـه
إن كـان لا يـكـفـيـك إلْـ ... لا أن أذوق حـمـامـيـه[(٢)]
فـلـقـد رأيـت الـمـوت مـن ... قـبـل الـمـمـات عـلانـيـه
وفـجـعـت أعـظـم فـجـعـةٍ ... وفـنـيـت قـبـل فـنـائـيـه
وهـويـت فـي قـعـر الـسـجـو ... ن عـلـى رفـيـع بـنـائـيـه
انـظـر بـعـيـنـك هـل تـرى ... إلاّ قـصـورًا خـالـيـه
وذخـائـرًا مـوروثـةً ... قُـسّـمـن قـبـل مـمـاتـيـه
ومـصـارعًـا وفـجـائـعًـا ... ومـصـائـبًـا مـتـوالـيـه
ونـوادبًـا يـنـدبـنـنـي ... تـحـت الـدّجـى بـكـنـائـيـه[(٣)]
أأبـا عـلـيَّ الـبـرمـكْـ ... يّ فـمـا أجـيـب الـداعـيـه
ونـداؤهـنّ وقـد سـمـعـ ... ـت مـقـلـقـلٌ أحـشـائـيـه[(٤)]
أخـلـيـفـة الله الـرضـا ... لا تـشـمـتـنْ أعـدائـيـه
واذكـر مـقـاسـاتـي الأمـو ... ر وخـدمـتـي وغَـنـائـيـه
ارحـم جـعـلـت لـك الـفـدا ... كـربـي وشـدّة حـالـيـه
وارحـم أخـاك الـفـضـل والـ ... بـاقـيـن مـن أولاديـه
أخـلـيـفـة الـرحـمٰـن إنْـ ... ـنَـك لـو رأيـت بـنـاتـيـه
وبـكـاء فـاطـمـة الـصـغـيـ ... ـرة والـمـدامـع جـاريـه
ومـقـالـهـا بـتـوجـعٍ ... يـا شـقـوتـي وشـقـائـيـه

---

(١) جران الزمان: ثقله.

(٢) الحمام: قضاء الموت وقدره.

(٣) الكنة: السقيفة تشرع فوق باب الدار، أو ظلة تكون هنالك. والكنة: مخدع أو رف يشرع في البيت.

(٤) تقلقل: تحرك، وهو مقلقل.

من لي وقد غضب الإما م على جميع رجاليه
وعدمت طيب معيشتي وتغيّرت حالاتيه
يا نعمة الملك الرضا عودي علينا ثانيه

ويروى أن الرشيد لما قرأ الأبيات وقّع تحت الشعر يقول:

أجرى القضاء عليكُم ما جئتموه علانيه
من تركْ نصح إمامكم عند الأمور الباديه
يا آل برمك إنّما كنتم ملوكًا عاديه
فكفرتُم وعصيتُم وجحدتُم نعمائيه
فسلبتموها هكذا وكذا تردُّ العاريه
هذه عقوبة من عصا معبودَهُ وعصانيه

وكتب تحت الشعر ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

قال: ولم يزل يحيى في الحبس حتى مات سنة تسعين ومائة في المحرم منها، وهو ابن سبعين سنة، وتوفي الفضل بن يحيى في المحرم سنة ثلاث وتسعين ومائة.

نعود إلى بقية حوادث سنة سبع وثمانين ومائة من الهجرة.

ذكر القبض على عبد الملك بن صالح

في هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله، وكان سبب ذلك أنه كان له ولد اسمه عبد الرحمٰن وبه كان يكنى، فسعى به إلى الرشيد هو وقمامه كاتب أبيه، وقالا: إنه يطلب الخلافة ويطمع فيها، فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع، ولم يزل عبد الملك في الحبس إلى أن مات الرشيد، فأخرجه الأمين واستعمله على الشام.

ذكر غزو الروم

في هذه السنة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شعبان، فصالحه الروم على ثلاثمائة وعشرين أسيرًا من المسلمين، على أن يرحل عنهم فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم، وكان يملك الروم يومئذ امرأة اسمها رينى، فخلعها الروم وملّكوا عليهم

نِقْفُور، ويزعم الروم أنّه من أولاد جفنة من غسّان، وكان قبل أن يملك يلي الخَراج، فلما استوثق الروم لنقفور كتب إلى الرشيد من نقفور ـ ملك الروم ـ إلى هارون ـ ملك العرب ـ أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ[١]، وأقامت نفسها مقام البيدق[٢]، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهنّ، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع من المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرّق جلساؤه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: من هارون ـ أمير المؤمنين ـ إلى نقفور كلب الروم، قد قرأ كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام. ثم سار من يومه حتى نزل على هِرَقْلَة[٣]، ففتح وغنم وأحرق وخرّب، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله إليه في كل سنة، فأجابه إلى ذلك، فلما رجع الرشيد نقض نقفور العهد، وكان البرد قد اشتد فأمن رجعة الرشيد، فجاء الخبر بنقضه وقد بلغ الرشيد الرقة، فأشفق الناس من إعلام الرشيد، وخافوا عوده لشدة البرد، فاحتيل عليه بشاعر قيل هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، وقيل هو الحجاج بن يوسف التيمي فقال أبياتًا منها: [من الكامل]

نقض الذي أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور[٤]
أبشر أمير المؤمنين فإنّه ... فتحٌ أتاك به الإله كبير
فتحٌ يزيد على الفتوح يؤمّنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلما سمع الرشيد ذلك قال: أو فعل ذلك نقفور! ورجع إلى بلاد الروم في أشد زمان، حتى بلغ بلادهم فبلغ ما أراد، وقيل كان ذلك في سنة تسعين ومائة وفتح هرقلة ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها زلزلت المصِيصَة فانهدم سورها، ونضب ماؤها ساعة من الليل. وحجّ بالناس عبد الله بن العباس بن محمد بن علي.

---

(١) الرخ: قصعة من قطع الشطرنج، أو طائر خراميّ بالغ القدامى في وصفه.
(٢) البيدق: الجندي الراجل، ومنه بيدق الشطرنج.
(٣) هرقلة: بالكسر ثم الفتح: مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم بن أليفز بن سام بن نوح عليه السلام. . . (معجم البلدان).
(٤) البوار: الهلاك.

ودخلت سنة ثمان وثمانين ومائة.

في هذه السنة غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة، فدخل أرض الروم من درب الصَّفْصَاف فخرج إليه نقفور ملك الروم، فأتاه من ورائه أمر صرفه عنه، فلقي جمعًا من المسلمين فجرح ثلاث جراحات وانهزم، وقتل من الروم أربعون ألفًا وسبعمائة. وحجّ الرشيد بالناس في هذه السنة.

ودخلت سنة تسع وثمانين ومائة.

ذكر مسير الرشيد إلى الريّ

في هذه السنة سار الرشيد إلى الري، وسبب ذلك أن أهل خراسان تظلموا[١] من علي بن عيسى بن ماهان، وشكوا سوء سيرته فيهم، وقيل للرشيد إنه قد أجمع على الخلاف، فسار إلى الري في جُمادى الأولى ومعه ابناه المأمون والقاسم المُؤْتَمَن، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع[٢] وغير ذلك للمأمون، وليس له فيه شيء، وأقام الرشيد بالري أربعة أشهر، حتى أتاه علي بن عيسى من خراسان فأهدى إليه الهدايا الكثيرة والأموال العظيمة، وأهدى لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتّابه وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك، فرأى الرشيد خلاف ما كان يظن فردّه إلى خراسان، ورجع الرشيد إلى العراق في آخر هذه السنة.

وفيها كان الفداء بين الروم والمسلمين، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به. وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله.

ودخلت سنة تسعين ومائة.

ذكر فتح هِرَقْلَة

في هذه السنة فتح الرشيد هرقلة وخرّبها، وكان سبب مسيره إليها ما قدمناه في سنة سبع وثمانين من غدر نقفور، فكان فتحها في شوال وحصرها ثلاثين يومًا. قال: ودخل البلاد في مائة ألف وخمس وثلاثين ألفًا من المرتزقة، سوى الأتباع والمتطوعة ومن لا ديوان لهم، ووجّه داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفًا، فسار في أرض

---

(١) تظلم منه: اشتكى الظلم.

(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

الروم يخرب وينهب، وفتح شَرَاحِيل بن مَعْن بن زائدة حصن وديسه، وافتتح يزيد بن مَخْلَد الصفصاف ومِلوقية، واستعمل حميد بن مَعْيَوف على ساحل الشام ومصر، فبلغ قُبْرُس فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفًا، فلما قدم بهم الرافِقَة[١] بيعوا بها، وبلغ فداء أسقف قبرس ألفي دينار، ثم سار الرشيد إلى طُوَانَة[٢] فنزل بها، ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر، وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك؛ وكتب نقفور إلى الرشيد في جارية من سبي هرقلة، كان خطبها لولده فبعثها إليه.

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني عند ذكره ترجمة أَشْجَع بن عمرو السُّلَمِي[٣]، وما امتدح به الرشيد لما فتح هرقلة، وسياقه أتم من هذا السياق وأكثر تبيانًا، فأحببنا أن نشرحه هاهنا ليكون خبرها على توال واتساق، فقال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثنا محمد بن يزيد[٤] قال: كان من خبر غزاة الرشيد هرقلة أن الروم كانت ملكت امرأة، لأنّه لم يكن في زمانها من أهل المملكة غيرها، وكانت تكتب إلى المهدي والهادي والرشيد ـ في أول خلافته ـ بالتعظيم والتبجيل، وتدرّ عليه الهدايا حتى بلغ ابنها. فحاز الملك دونها وعاث وأفسد وفاسد الرشيد، فخافت على ملك الروم أن يذهب وعلى بلادهم أن تعطب، لعلمها بالرشيد وخوفها من سطوته، فاحتالت على ابنها فسملت عينيه. فبطل من الملك وعاد الملك إليها، فاستكبر ذلك أهل المملكة وأبغضوها من أجله، فخرج عليها نقفور وكان كاتبها، فأعانوه وعضدوه وقام بأمر المملكة وضبط أمر الروم، فلما قوي أمره وتمكّن من ملكه كتب إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى الرشيد ملك العرب، أما بعد، فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباك وأخاك موضع الملوك، ووضعت نفسها موضع السوقة، وإني

---

(١) الرافقة: بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات، بينهما مقدار ثلاثمائة ذراع... (معجم البلدان).

(٢) طوانة: بضم أوله، وبعد الألف نون: بلد بثغور المصيصة.

(٣) هو أشجع بن عمرو من بني سُليم وكان متصلاً بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة... (طبقات الشعراء).

(٤) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليمان بن سعد بن عبد الله بن زيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف بن أسلم... الثمالي الأزدي البصري المعروف بالمبرد النحوي؛ نزل بغداد، وكان إمامًا في النحو واللغة، وله التواليف النافعة في الأدب منها: كتاب «الكامل» وكتاب «الروضة» و«المقتضب» وغير ذلك... (وفيات الأعيان ٤: ٣١٣).

واضعك بغير ذلك الموضع، وعامل على تطرّق بلادك والهجوم على أمصارك، أو تؤدّي إليّ ما كانت المرأة تؤديه إليك والسلام.

فلما ورد الكتاب على الرشيد كتب إليه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله هارون ـ أمير المؤمنين ـ إلى نقفور ـ كلب الروم ـ أما بعد فقد فهمت كتابك، وجوابك عندي ما تراه عيانًا لا ما تسمعه. ثم شخص من شهره ذلك يؤم بلاد الروم، في جمع لم يسمع بمثله، فلما بلغ نقفور ذلك ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وشاور في أمره، وجدّ الرشيد فجعل يوغل في بلاد الروم، فيقتل ويسبي ويغنم ويعفي الآثار ويخرّب الحصون، حتى صار إلى طرق متضايقة دون قسطنطينيّة، فلما بلغها وجدها وقد أمر نقفور بالشجر فقطع ورمي به في تلك الطرق وأشعلت فيه النيران، فكان الرشيد أول من لبس ثياب النفاطين[١] فخاضها، ثم اتبعه الناس فبعث إليه نقفور بالهدايا، وخضع له أشد الخضوع وأدّى له الجزية، عن رأسه فضلاً عن أصحابه، فرجع هارون ـ لما أطاعه ما أعطاه ـ إلى الرقة.

فلما رجع وأمن نقفور أن يغزى اغتر بالمهلة، ونقض ما كان بينه وبين الرشيد ورجع إلى حالته الأولى، فلم يجترىء يحيى بن خالد فضلاً عن غيره على إخبار الرشيد بغدر نقفور، وبذل هو وبنوه أموالاً للشعراء على أن يقولوا أشعارًا في إعلام الرشيد بذلك، فكلهم أشفق[٢] إلا شاعر من أهل جدّة يكنى أبا محمد، وكان مجيدًا قويّ الشعر، فإنه أخذ من يحيى وبنيه مائة ألف درهم، ودخل إلى الرشيد فأنشده: [من الكامل]

نقض الذي أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنّه ... فتحٌ أتاك به الإله كبير
فتحٌ يزيد على الفتوح يؤمّنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور
فلقد تباشرت الرعيّة أن أتى ... بالنقض منه وافدٌ وبشير
درجت يمينك أن تعجّل غزوةً ... تشفي النفوس نكالها مذكور[٣]
أعطاك جزيته وطأطأ خدّهُ ... حذر الصوارم والرّدى محذور
فأجرته من وقعها وكأنّها ... بأكفنا شعل الظلام تطير[٤]

---

(١) النفاطون: جمع النفاط: وهو مستخرج النفط أو الرامي به، أو بائعه.

(٢) أشفق منه: خافه وحذر منه.

(٣) النكال: العقاب أو النازلة.

(٤) الشعل: جمع الشعلة، وهي الحرارة الساطعة؛ أو اللهب.

وصرفت من طول العساكر قافلاً — عنه وجارك آمنٌ مسرور
نقفور إنّك حين تغدر إن نأى — عنك الإمام لجاهل مغرور[1]
ألقاك حينك في زواخر بحره — فَطَمَتْ عليك من الإمام بحور[2]
إنّ الإمام على اقتسارك قادرٌ — قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً — عمّا يسوس بحزمه ويدير
ملكٌ تجرّد للجهاد بنفسه — فعدوّه أبدًا به مقهور
يا من يريد رضى الإله بسعيه — والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغشّ إمامه — والنصح من نصحائه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضةٌ — ولأهله كفارة وظهور

قال: فلما أنشده قال الرشيد: أو قد فعل!! علم أن الوزراء قد احتالوا في ذلك، قال: فسار الرشيد قاصدًا إليه، وجعل قبل وصوله إلى هرقلة يفتتح الحصون والمدن ويحرقها، حتى أناخ على هرقلة وهي أوثق حصن وأعزه جانبًا وأمنعه ركنًا، فتحصّن أهلها. وكان بابها على واد ولها خندق يطيف بها؛ قال: فحدثني شيخ من مشايخ المطوّعة وملازمي الثغور، يقال له علي بن عبد الله قال: حدّثني جماعة من أهل الثغر:

أنّ الرشيد لما حضر أهل هرقلة وألحّ عليهم بالمجانيق والسهام والعرّادات[3] فتح الباب ذات يوم، فاستشرف المسلمون لذلك، فإذا رجل من أهلها كأكمل الرجال، قد خرج في أكمل السلاح فنادى: قد طال مواقفتكم إيانا فليبرز إليّ منكم رجلان، ثم لم يزل يزيد حتى بلغ عشرين، فلم يجبه أحد، فدخل وأغلق الباب، وكان الرشيد نائمًا فلم يعلم بخبره إلا بعد انصرافه، فغضب ولام خدمه وغلمانه على تركهم إنباهه، وتأسّف لفوته، فقيل له إن الامتناع منه سيغريه ويطغيه، وأحوى به أن يخرج في غد فيطلب مثل ما طلب، فطالت على الرشيد ليلته وأصبح كالمنتظر له، فإذا بالباب قد فتح وخرج الرجل طالبًا للبراز، وذلك في يوم شديد الحر، فجعل يدعو أنه يثبت لعشرين منهم، فقال الرشيد: من له؟ فابتدره جلّة القواد كهرثمة ويزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وخزيمة بن خازم وأخيه عبد الله وداود بن يزيد

(١) نأى: بعد. (٢) طما: ارتفع.
(٣) العرادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.

وأخيه، فعزم على إخراج بعضهم، فضجّ المطوعة حتى سمع ضجيجهم، فأذن لعشرين منهم فقال قائلهم: يا أمير المؤمنين، قوّادك مشهورون بالنجدة والبأس وعلوّ الصوت ومدارسة الحرب، ومتى خرج واحد منهم فقتل هذا العلج لم يكبر ذاك، وإن قتله العلج كان وصمة على العسكر قبيحة وثلمة لا تسدّ، ونحن عامّة لم يرتفع لأحد منّا صوت إلا كما يصلح للعامّة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلاً فنخرجه إليه، فإن ظفر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين ظفر بأعرفهم[1]، على يد رجل من العامة من أفناء الناس، وإن قتل الرجل فإنما استشهد، ولم يؤثر ذهابه في العسكر ولم يثلمه رجل، وخرج إليه بعده مثله حتى يقضي الله ما شاء، فقال الرشيد: قد استصوبت رأيكم هذا، فاختاروا رجلاً يعرف بابن الجزري، وكان معروفًا في الثغر بالبأس والنجدة، فقال له الرشيد: أتخرج؟ قال نعم وأستعين بالله تعالى، فقال: أعطوه فرسًا ورمحًا وسيفًا وترسًا، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا بفرسي أوثق، ورمحي بيدي أشد، ولكني قد قبلت السيف والترس، فلبس سلاحه واستدناه الرشيد فودّعه وأتبعه الدعاء، وخرج معه عشرون من المطوّعة، فلما انقضّ في الوادي قال لهم العلج ـ وهو يعدّهم واحدًا واحدًا ـ إنما كان الشرط عشرين، وقد زدتم رجلاً ولكن لا بأس، فنادوه ليس يخرج إليك إلا رجل واحد، فلما فصل منهم ابن الجزري تأمّله الرومي، وقد أشرف أكثر الناس من الحصن يتأملون صاحبهم والقِرْن[2]، فقال له الرومي: أتصدقني عما استخبرك؟ قال: نعم، قال: أنت بالله ابن الجزري؟ قال: اللهم نعم، فكفر[3] له ثم أخذا في شأنهما، فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما وكاد الفرسان يقومان، وليس يخدش واحد منهما صاحبه، ثم تحاجزا بشيء فزجّ[4] كل واحد منهما رمحه، وانتضى سيفه فتجالدا مليًا، واشتد عليهما الحرّ وتبلّد الفرسان، وجعل ابن الجزري يضرب الضربة التي يرى أنه قد بلغ بها، فيتّقيها الرومي وكان ترسه من حديد، ويضربه الرومي ضربة معذر، فلما يئس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابن الجزري، فدخلت المسلمين كآبة لم يكتئبوا مثلها قط، وعطعط[5] المشركون اختيالاً وتطاولاً، وإنما كانت هزيمته حيلة منه فاتبعه العلج، وتمكّن ابن الجزري منه

(١) العريف القوم: الذي يدبر أمرهم ويقوم بسياستهم.
(٢) القرن: الكفء في الشجاعة.
(٣) كفر له: انحنى ووضع يده على صدره وطأطأ رأسه كالركوع تعظيمًا له.
(٤) زجّ الرمح: جعل له زجّا، والزجّ: الحديدة في أسفل الرمح.
(٥) عطعط القوم: قالوا: «عيط عيط» وذلك إذا غلب بعضهم بعضًا. والعطعطة: تتابع الأصوات واختلاطها في الحرب.

فرماه بوهق[١] فوقع في عنقه فما أخطأه، وركض فاستلبه عن فرسه ثم عطف عليه، فما وصل إلى الأرض حتى فارقه رأسه، فكبّر المسلمون أعلى تكبير، وانخزل المشركون وبادروا الباب يغلقونه، واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد: اجعلوا النار في المجانيق، ففعلوا وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة، وأضرموا نارًا ورموا بها السور، فكانت النار تلصق به وتأخذه الحجارة، وقد تصدّع فتهافت، فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الباب مستأمنين، فقال الشاعر المكي الذي ينزل جدّة: [من البسيط]

هوت هرقلة لمّا أن رأت عجبًا ... حوائمًا ترتمي بالنفط والنار
كأنّ نيراننا في جيب قلعتهم ... مصبغاتٌ على أرسان قصّار[٢]

قال محمد بن يزيد: وأعظم الرشيد الجائزة للجُدّي الشاعر، وصبّ الأموال على ابن الجزري وقوّد، فلم يقبل التقويد وسأل أن يعفى، ويترك مكانه من الثغر فلم يزل به طول عمره. وحجّ بالناس عيسى بن موسى الهادي.

ودخلت سنة إحدى وتسعين ومائة.

في هذه السنة عزل الرشيد عن خراسان علي بن عيسى بن ماهان، واستعمل عليها هرثمة بن أعين. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن العباس بن محمد بن علي.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة.

في هذه السنة تحرّكت الخُرَّمِيَّة[٣] بناحية أَذَرْبِيجَان، فوجّه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك في عشرة آلاف، فقتل وسبى وأسر. وحجّ بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر.

ودخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة.

ذكر وفاة الرشيد

كانت وفاته ليلة السبت ـ الثالث من جمادى الآخرة ـ من هذه السنة، وكان قد توجّه إلى خراسان في سنة اثنتين وتسعين ومائة، فمرض في الطريق بجرجان فسار إلى

(١) الوهق: الحبل في أحد طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ.
(٢) جيب القلعة: مدخلها.
(٣) الخرمية: أتباع بابك الخرمي نسبة إلى بلدة بفارس، ويقولون بالتناسخ والحلول والإباحية.

طوس[١]، فمات بها وصلّى عليه ابنه صالح ودفن بطوس. روى أبو الفرج الأصفهاني عن جحظة[٢] عن ميمون بن هارون قال:

رأى الرشيد فيما يرى النائم كأن امرأة وقفت عليه، وأخذت كف تراب ثم قالت: هذه تربتك عن قليل، فأصبح فزعًا فقصّ رؤياه، فقال له أصحابه: وما في هذا!! قد يرى النائم أكثر من هذا وأغلظ ثم لا يضره فركب وقال: إني لأرى الأمر قريبًا، فبينا هو يسير إذ نظر إلى امرأة واقفة من وراء شباك حديد تنظر إليه، فقال: هذه والله التربة التي رأيتها، وهذه المرأة بعينها، ثم مات بعد مدة ودفن في ذلك الموضع بعينه، أشتري له ودفن فيه، وأتى نعيه بغداد فقال أشجع[٣] يرثيه: [من مجزوء الرمل]

غربت بالمشرق الشمـ ... ـس فقل للعين تدمعْ
ما رأينا قطُّ شمسًا ... غربت من حيث تطلعْ

وكان عمره سبعًا وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وخلافته ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يومًا، وكان جميلاً وسيمًا أبيض جعدًا قد وخطه الشيب.

وكان له من الأولاد: محمد الأمين، وعبد الله المأمون، والقاسم المؤتمن، وأبو إسحاق المعتصم، وصالح، وأبو عيسى محمد، وأبو يعقوب محمد، وأبو العباس محمد، وأبو سليمان محمد، وأبو علي محمد، وأبو محمد ـ وهو اسمه، وأبو أحمد محمد، وكلهم لأمهات أولاد إلا الأمين. وله من البنات سُكَينة، وأم حبيب، وأروى، وأم الحسن، وأم محمد ـ وهي حمدونة، وفاطمة، وأم أبيها، وأم سلمة، وخديجة، وأم القاسم، ورملة، وأم جعفر، والغالية، وريطة، كلهن لأمهات أولاد، والواحدة من بناته تعد عشرة من الخلفاء كلهم لها محرم هارون أبوها، والهادي عمها، والمهدي جدها، والمنصور جد أبيها، والسفاح عم جدها، والأمين والمأمون والمعتصم إخوتها، والواثق والمتوكل ابنا أخيها.

وكان نقش خاتمه: العظمة والقدرة للّه، وقيل كن من الله على حذر. وزراؤه: يحيى بن خالد بن برمك ثم ابناه جعفر والفضل، ثم استوزر بعد البرامكة الفضل بن

---

(١) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين.

(٢) هو جمظة البرمكي، أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة البرمكي النديم؛ كان فاضلاً صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة. . . (الوفيات ١: ١٣٣).

(٣) أشجع: هو أشجع السلمي وقد تقدمت ترجمته.

الربيع. قضاته: نوح بن دراج بالجانب الغربي، وحفص بن غياث بالشرقي. حاجبه: بشر مولاه، ثم محمد بن خالد بن برمك، ثم الفضل بن الربيع. الأمراء بمصر: علي بن سليمان الهاشمي، ثم موسى بن عيسى، ثم إبراهيم بن صالح ثم مات فوليها أحمد بن خالد الأعرج، ثم إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي، ثم هرثمة بن أعين ثم ولاه المغرب، وولى عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي، ثم عبيد الله بن المهدي، ثم إسماعيل بن صالح بن علي الهاشمي، ثم الليث بن الفضل، ثم أحمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي، ثم عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي الهاشمي ويعرف بابن زينب، ثم الحسين بن جميل الأزدي، ثم مالك بن دلهم، ثم الحسن بن البحباح. القضاة بها: أبو طاهر عبد الملك، ثم المفضل بن فضالة، ثم محمد بن مسروق الكندي، ثم إسحاق بن الفرات، ثم عبد الرحمٰن بن عبد الله ـ من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أول مَن دوّن الشهود.

ذكر شيء من سيرة الرشيد وأخباره

قيل: كان الرشيد يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، لا يقطعها إلا في مرض، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة التامة والكسوة، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين، وكان يحب المديح لا سيما من شاعر فصيح، ويجزل العطاء عليه، ولما مدحه مروان بن أبي حفصة(١) بقصيدته التي منها: [من الطويل]

وسدّت بهارون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر

أعطاه خمسة آلاف دينار وعشرة من الرقيق الرومي وبرذونًا من خاص مراكبه.

وقيل: اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره من جدّ وهزل، ووزراؤه البرامكة لم ير مثلهم في السخاء، وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد، وحاجبه الفضل بن الربيع. إربة الناس، ومغنيه إبراهيم

---

(١) مروان بن أبي حفصة: ويكنى أبا السمط، هو مولى مروان بن الحكم وكان أعتق أباه أبا حفصة يوم الدار... ويقال إن يحيى بن أبي حفصة كان يهوديًا أسلم على يد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأثرى وكثر ماله وكان جوادًا فتزوج خولة بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم سيد أهل الوبر... (الشعر والشعراء).

الموصلي، واحد عصره في صناعته، وضاربه زلزل، وزامره برصوما، وزوجته أم جعفر بنت جعفر، أرغب الناس في خير، وأسرعهم إلى كل برّ، وأمه الخيزران أم الخلفاء.

قال: وبذل الرشيد الأمان للطالبيين، وأخرج الخمس لبني هاشم، وقسم للذكر والأنثى خمسمائة، وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار، وعمر طرسوس(١) وجعل فيها جماعة من الموالي رحمه الله تعالى.

ذكر خلافة الأمين

هو أبو عبد الله وقيل أبو موسى وقيل أبو العباس ـ محمد بن هارون الرشيد، وأمه أمة الواحد وقيل أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، ولقبت زبيدة، ولم يل الخلافة بعد علي والحسن مَن أمه هاشمية غيره، وهو السادس من الخلفاء العباسيين؛ بويع له بالخلافة بطوس في عسكر الرشيد، صبيحة الليلة التي توفي فيها الرشيد، لثلاث خلون من جُمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وكان المأمون يومئذ بمرو، فكتب حمويه ـ مولى المهدي وهو صاحب البريد ـ إلى نائبه ببغداد، وهو أبو مسلم سلام، يعلمه بوفاة الرشيد، فدخل أبو مسلم على الأمين فعزّاه بأبيه وهنّأه بالخلافة، وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين بذلك مع رجاء الخادم، وأرسل معه الخاتم والقضيب والبردة، فلما وصل رجاء انتقل الأمين من قصره الخلد إلى قصر الخلافة، وصلّى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر فنعى الرشيد وعزّى نفسه والناس، ووعدهم الخير وأمّن الأبيض والأسود، وفرّق في الجند الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهرًا، ودعا إلى البيعة فبايعه جلة أهل بيته، ووكل عم أبيه وأمه سليمان بن المنصور بأخذ البيعة على القواد وغيرهم، وأمر السُّدي بمبايعة من عداهم، وقدمت العساكر التي كانت مع الرشيد، وقدمت زبيدة امرأة الرشيد أم الأمين من الرقة إلى بغداد، فتلقاها ابنها الأمين بالأنبار، ومعه جميع من ببغداد من الوجوه، وكان معها خزائن الرشيد.

وفيها ابتدأت الوحشة بين الأمين والمأمون، وظهر الخلاف فيما بعدها وتفاقم الأمر، وسنذكر ذلك كله وأسبابه في آخر أيام الأمين، ليكون خبر ذلك متواليًا لا

---

(١) طرسوس: بفتح أوله وثانيه، وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة: هي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. . . (معجم البلدان لياقوت).

ينقطع بخروج سنة ودخول أخرى، فلنذكر من أخبار الأمين خلاف ذلك وفيها عزل الأمين أخاه القاسم المؤتمن عن الجزيرة، وأقرّه على العواصم، واستعمل على الجزيرة خزيمة بن خازم.

وحجّ بالناس في هذه السنة داود بن عيسى بن موسى بن محمد وهو أمير مكة.

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائة.

ذكر خلاف أهل حمص على الأمين

في هذه السنة خالف أهل حمص على الأمين، فتحوّل عاملهم إسحاق بن سليمان إلى سَلَمْية، فعزله الأمين واستعمل مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي، فقتل عدة من وجوههم وحبس عدة، وألقى النار في نواحيها، فسألوه الأمان فأجابهم، ثم هاجوا بعد ذلك فقتل عدة منهم.

ودخلت سنة خمس وتسعين ومائة.

في هذه السنة قطع الأمين خطبة المأمون، وأمر بإسقاط ما ضرب باسمه من الدنانير والدراهم بخراسان، وأمر فدعى لابنه موسى ولقّبه الناطق بالحق، ولابنه الآخر عبد الله ولقّبه القائم بالحق.

ذكر خروج السُّفْيَانِيّ وما كان من أمره

في هذه السنة خرج السفياني ـ وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية، وأمّه نَفِيسة بنت عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، وكان يقول: أنا ابن شيخي صفين ـ يشير إلى علي ومعاوية، وكان يلقب بأبي العُمَيْطر، لأنه قال لأصحابه: أي شيء كنية الحرذون؟ قالوا: لا ندري، قال: هو أبو العميطر، فلقبوه به، ولما خرج دعا لنفسه بالخلافة في ذي الحجة، وقوي على سليمان بن المنصور عامل دمشق، وأخرجه عنها وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية، وكان قد تغلب على صيدا، فبعث الأمين إليه الحسن بن علي بن عيسى بن ماهان، فبلغ الرقة ولم يصل إلى دمشق؛ قال: وكان عمر السفياني لما خرج تسعين سنة، وكان الناس قد أخذوا عنه علمًا كثيرًا، وكان حسن السيرة، فلما خرج ظلم وأساء السيرة، فتركوا ما كانوا نقلوه عنه، وكان أكثر أصحابه من كلب، وكتب إلى محمد بن بَيْهَس الكِلاَبِي يدعوه إلى طاعته، ويتهدده إن لم يفعل فلم يجبه إلى ذلك، فأقبل السفياني لقصد القيسية فكتبوا إلى محمد بن صالح، فأقبل إليهم في ثلاثمائة فارس ومواليه، فبعث

إليه السفياني يزيد بن هشام في اثني عشر ألفًا، فالتقوا فانهزم يزيد ومن معه، وقتل منهم زيادة عل ألفين، وأسر ثلاثة آلاف فأطلقهم ابن بيهس، وحلق رؤوسهم ولحاهم، فضعف السفياني، ثم جمع جمعًا وجعل عليهم ابنه القاسم، وخرجوا إلى بيهس فالتقوا فقتل القاسم وانهزم أصحاب السفياني، وبعث رأسه إلى الأمين، ثم جمع جمعًا آخر وبعثهم مع مولاه المعتمر، فلقيهم ابن بيهس فقتل المعتمر وانهزم أصحابه، فوهن أمر السفياني وطمعت فيه قيس، ثم مرض ابن بيهس، فاستخلف مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، وأمر بني نمير بمبايعته بالخلافة، وعاد ابن بيهس إلى حوران، واجتمعت نمير على مسلمة وبايعوه، فدخل على السفياني وقبض عليه وقيده، وقبض على رؤساء بني أميّة فبايعوه، وأدنى القيسية وجعلهم خاصته، فلما عوفي محمد بن بيهس عاد إلى دمشق فحصرها، فسلمها إليه القيسية، وهرب مسلمة والسفياني في زي النساء إلى المِزة[١]، وذلك في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وغلب ابن بيهس على دمشق، إلى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق ودخل إلى مصر وعاد إلى دمشق فأخذ ابن بيهس معه إلى العراق فمات بها.

وحجّ بالناس عامل مكة داود بن عيسى.

ودخلت سنة ست وتسعين ومائة.

في هذه السنّة استعمل الأمين على الشام عبد الملك بن صالح بن علي: فسار إليها فتوفي بالرقة[٢] قبل وصوله إلى الشام. وفيها خلع الأمين وبويع للمأمون، ثم عاد الأمين إلى الخلافة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ودخلت سنة سبع وتسعين ومائة.

في هذه السنة حجّ بالناس العباس بن موسى بن عيسى، وجّهه طاهر بأمر المأمون. وفيها سار المؤتمن بن الرشيد ومنصور بن المهدي إلى المأمون بخراسان، فوجّه المأمون أخاه المؤتمن إلى جرجان.

---

(١) المزة: بالكسر ثم التشديد: هي قرية غنّاء كبيرة في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، وبها قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله ﷺ، ويقال لها مزة كلب... (معجم البلدان).

(٢) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده، وأصله كل أرض إلى جانب واد ينبسط عليها الماء، وجمعها رقاق... وهي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة ثمان وتسعين ومائة.

ذكر أخبار الأمين والمأمون
وما كان بينهما من الفتن والاختلاف
وما أفضى إليه الأمر من قتل الأمين

كان ابتداء الخلف بينهما في سنة ثلاث وتسعين ومائة عند وفاة الرشيد. وكان سبب ذلك أن الرشيد كان قد أشهد عليه في سفرته التي مات فيها: أن جميع ما في عسكره من مال ومتاع ورقيق وكراع وغير ذلك للمأمون، وأخذ له البيعة على جميع من في عسكره، فعظم ذلك على الأمين، ثم بلغه شدة مرض الرشيد، فأرسل بكر بن المعتمر وكتب معه كتبًا وجعلها في قوائم صناديق المطبخ، وألبسها جلود البقر، وقال: لا تظهرنّ أمير المؤمنين ولا غيره عليها، فإذا مات فادفع الكتب إلى أربابها، فقدم بكر إلى طوس فبلغ الرشيد قدومه، فأحضره وسأله عن موجب قدومه، قال: بعثني الأمين لآتيه بخبرك، قال: فهل معك كتاب؟ قال: لا، فأمر بتفتيش ما معه فلم يصيبوا شيئًا، فأمر به فضرب فما أقرّ، ثم أمر الفضل بن الربيع بتقريره، فإن أقرّ وإلا ضرب عنقه، ثم مات الرشيد فأخرج بكر الكتب التي معه، وهي كتاب إلى المأمون يأمره بترك الجزَع، وأخذ البيعة على الناس لأخيهما المؤتمن، فلم يكن المأمون حاضرًا وكان بمرو، وكتاب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه، وأن يتصرف هو ومن معه برأي الفضل بن الربيع، وكتاب إلى الفضل بالحفظ والاحتياط على الحرم والأموال وغير ذلك، وأقرّ كل من كان على عمل من الأعمال على عمله، من صاحب شرط وحجابة وحرس، فلما قرؤوا الكتب تشاور القواد في اللحاق بالمأمون أو الأمين، فقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكًا حاضرًا لآخر ما أدري ما يكون من أمره، ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا، محبة منهم لأهليهم ووطنهم وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون، فلما بلغ المأمون ذلك جمع من كان عنده من القوّاد، وفيهم ذو الرئاستين الفضل بن سهل، وهو أعظمهم قدرًا عنده وأخصّهم به، واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم جريدة[١] في ألفي فارس ويردهم، فخلى به ذو الرئاستين وقال: إن فعلت ما أشار به هؤلاء جعلوك هديّة إلى أخيك

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتابًا مع رسول من عندك، تذكّرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث، ففعل ووجّه سهل بن صَاعِد ونَوْفلًا الخادم، فلحقا الجند والفضل بنيسَابور، فأوصلا الفضل كتابه فقال: إنما أنا واحد من الجند، وشدَّ عبد الرحمٰن بن جبلة على سهل بالرمح ليطعنه، فأمرّه على جنبه وقال: قل لصاحبك لو كنتِ حاضرًا لوضعته فيك، وسبّ المأمون فرجعا إليه بالخبر فقال ذو الرئاستين: أعداء استرحت منهم، وقال له: اصبر وأنا أضمن لك الخلافة، فقال المأمون: قد فعلت وجعلت الأمر إليك فقم به، قال ذو الرئاستين: والله لأصدقنّك، إن عبد الله بن مالك ومن معه من القواد قاموا لك بالأمر كانوا أنفع لك منّي، برياستهم المشهورة وبما عندهم من القوّة، فمن قام بالأمر كنت خادمًا له حتى تبلغ أملك وترى رأيك، وقام ذو الرئاستين فأتاهم في منازلهم، وذكر لهم البيعة وما يجب عليهم من الوفاء، قال: فكأني جئتهم بجيفة على طبق، فقال بعضهم: هذا لا يحل وأخرجه، وقال بعضهم: ومن الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه؟ قال: فجئت وأخبرته فقال: قم بالأمر، فأشار عليه أن يبعث إلى الفقهاء، ويدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وردّ المظالم، وأن تجلس على الصوف وتكرم القوّاد، ففعل ذلك ووضع عن خراسان ربع الخراج، فحسن ذلك عند أهلها وقالوا: ابن أختنا وابن عم نبيّنا ﷺ، ثم كتب المأمون إلى الأمين وعظّمه.

ولما قدم الفضل بن الربيع العراق ـ وقد نكث عهد المأمون ـ علم أنّ المأمون، إن أفضت إليه الخلافة وهو حيّ، لم يبق عليه، فسعى في إغراء الأمين وحثّه على خلع المأمون، والبيعة لابنه موسى بولاية العهد ـ ولم يكن ذلك في عزم الأمين، فلم يزل الفضل يصغّر أمر المأمون عنده ويزيّن له خلعه، ووافقه على ذلك علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما، فرجع الأمين إلى قولهم وجمع القوّاد لذلك، فنهاه عبد الله بن خازم وأبى القواد ذلك، وربما ساعده قوم، فلما بلغ إلى خزيمة بن خازم قال له: يا أمير المؤمنين، لم ينصحك من كذبك، ولم يغشك من صدقك، لا تجرّىء القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإنّ الغادر مخذول، والناكث مفلول، فأقبل الأمين على عليّ بن ماهان فتبسّم وقال: لكنّ شيخ هذه الدعوة وناب هذه الدولة لا يخالف على إمامه، ولا يوهن طاعته ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها. وألحّ الأمين في خلع المأمون، فأوّل ما فعل أن كتب إلى جميع العمال بالدعاء بالإمرة لابنه موسى بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن، فلما بلغ ذلك المأمون، وأن الأمين عزل المؤتمن عما كان بيده،

أسقط الأمين من الطُّرز[١] وقطع البريد عنه، وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيّار ـ لمّا بلغه حسن سيرة المأمون ـ طلب الأمان منه فأمّنه، فحضر عنده.

قال: ثم كتب الأمين إلى المأمون يستقدمه ويسأله أن يقدّم ابنه موسى على نفسه، وأرسل إليه أربعة في الرسالة ـ منهم العباس بن موسى بن عيسى، فلما أتوه امتنع من ذلك، فقال له العباس بن موسى: ما عليك أيها الأمير من ذلك؟ وقد فعله جدي عيسى بن موسى وخلع فما ضرّه ذلك، فصاح به ذو الرئاستين: فقال اسكت فإنّ جدّك كان أسيرًا بين أيديهم، وهذا بين أخواله وشيعته، ثم قاموا فخلي ذو الرئاستين بالعباس بن موسى، واستماله ووعده إمرة الموسم ومواضع، فأجاب إلى بيعة المأمون وسماه بالإمام، وكان يكتب إليهم بالأخبار من بغداد، ورجع الرسل إلى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون، وبعث المأمون ثقة من عنده إلى الحدّ، يمنع من الدخول إلى بلاده إلا مع ثقة من ناحيته، وضبط الطرق بثقاة أصحابه.

قال: وألحّ الفضل بن الربيع في قطع خطبة المأمون، وأغرى الأمين بحربه، فأجابه إلى ذلك وبايع لولده موسى، وجعله في حجر علي بن عيسى بن ماهان، وجعل على شرطه محمد بن عيسى بن نَهِيك، وعلى حرسه عثمان بن عيسى بن نَهِيك، وعلى رسائله علي بن صالح صاحب المصلّى، وأسقط خطبة المأمون في سنة خمس وتسعين ومائة، وبايع لوَلَده موسى في صفر وقيل في ربيع الأول، وأرسل إلى الكعبة فأتى بالكتابين اللذين وضعهما الرشيد ببيعة الأمين والمأمون، فمزّقهما الفضل بن الربيع.

ذكر محاربة علي بن عيسى بن ماهان وطاهر

قال: ثم أمر الأمين علي بن عيسى بن ماهان بالمسير لحرب المأمون، وكان سبب مسيره دون غيره أنّ ذا الرئاستين كان له عين عند الفضل بن الربيع، يرجع الفضل إلى قوله ورأيه، فكتب ذو الرئاستين إلى ذلك الرجل أن يشير بإنفاذ ابن ماهان لحربهم، وكان مقصده أن ابن ماهان ـ لمّا ولي خراسان أيام الرشيد أساء السيرة في أهلها فظلمهم ـ فبغضه أهل خراسان، فأراد ذو الرئاستين أن يزداد أهل خراسان جدًّا في قتال الأمين وأصحابه بسببه، فأشار ذلك الرجل بابن ماهان فأمره الأمين بالمسير؛ وقيل كان سببه أنّ عليًّا قال للأمين: إنّ أهل خراسان كتبوا إليه يذكرون أنّه إن قصدهم

(١) الطرز: جمع الطراز: وهو ما ينسج من الثياب للسلطان.

أطاعوه وانقادوا له، وإن كان غيره فلا، فأمره بالمسير وأقطعه كور[١] الجبل كلها نِهَاوَنْد وهَمَذَان وقُمّ وأصْفهان وغير ذلك ـ حربها وخراجها، وأعطاه الأموال وحكّمه في الخزائن، وجهّز معه خمسين ألف فارس، وكتب إلى أبي دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس العِجْلِي وهلال بن عبد الله الحضرمي بالانضمام إليه، وأمدّه بالأموال والرجال شيئًا بعد شيء، وخرج في شعبان سنة خمس وتسعين ومائة، وركب الأمين يشيّعه ومعه القوّاد والجنود، وأوصاه إن قاتله المأمون يحرص على أسره.

قال: وكان المأمون ـ لمّا بلغه ما فعله الأمين من خلعه وتمزيق كتب البيعة ـ أرسل طاهر بن الحسين بن مُصْعب بن رزيق بن أسعد الخزاعي أميرًا، وضمّ إليه جماعة من قوّاده وأجناده، فسار مجدًّا نحو الري فنزلها ووضع المسالح[٢] والمراصد. قال: وسار ابن ماهان فلقيته القوافل عند جلولاء، فسألهم فقالوا إن طاهرًا مقيم بالري، يعرض أصحابه والأمداد تأتيه من خراسان، فجعل يسير وهو لا يعبأ بطاهر ويستقله ولا يستعد له، فقيل له في ذلك فقال: مثل طاهر لا يستعدّ له، وإنّ حاله تؤول إلى أمرين: إما أن يتحصّن بالري فيسلمه أهلها، وإما أن يرجع ويتركها إذا قربت خيلنا منه؛ قال: فلما دنا من الري خرج طاهر منها، في أقل من أربعة آلاف فارس وعسكر على خمسة فراسخ، فأتاه أحمد بن هشام وكان على شرطته فقال له: إن أتانا علي بن عيسى؟ فقال: أنا عامل أمير المؤمنين فأقررنا له بذلك، فليس لنا أن نحاربه. فقال طاهر: لم يأتني في ذلك شيء، فقال: دعني وما أريد، فقال: افعل، فصعد المنبر فخلع الأمين ودعا للمأمون بالخلافة، وساروا وأقبل ابن ماهان وقد عبّأ أصحابه، وعبّأ عشر رايات مع كل راية ألف رجل، وقدّمها راية راية وجعل بين كل رايتين غَلْوة[٣] سهم، وعبّأ طاهر أصحابه كراديس[٤]، وسار بهم يحرّضهم ويوصيهم، وهرب من أصحاب طاهر نفر إلى عليّ، فجلد بعضهم وأهان الباقين، فكان ذلك مما ألب من بقي على قتاله، وزحف الناس بعضهم لبعض، فقال أحمد بن هشام لطاهر: ألا تذكّر علي بن عيسى البيعة اليت أخذها علينا هو للمأمون؟ قال: أفعل ـ فأخذ

(١) الكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة.

(٢) المسلح: كل موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة.

(٣) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة.

(٤) الكراديس: جمع الكردوسة: طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

البيعة وعلّقها على رمح، وقام بين الصفين وطلب الأمان، فأمّنه عليّ بن عيسى، فقال له: ألا تتقي الله!! أليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة علينا؟؟ اتق الله فقد بلغت باب قبرك! فقال عليّ: من أتاني به فله ألف درهم، فشتمه أصحاب أحمد ثم وثب أهل الري وأغلقوا باب المدينة، فقال طاهر لأصحابه: اشتغلوا بمن أمامكم عمّن خلفكم، فإنّه لا ينجيكم إلا الجد والصدق، ثم التقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت ميسرة طاهر هزيمة منكرة، وزالت ميمنته عن موضعها، فقال طاهر: اجعلوا جدّكم وبأسكم على القلب، واحملوا حملة خارجية، فحملوا على أول رايات القلب فهزموها، فرجعت الرايات بعضها على بعض وانتهت الهزيمة إلى عليّ، فجعل ينادي أصحابه: الكرّة بعد الفرّة، فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله، وحمل رأسه إلى طاهر، وحملت جثّته إليه فألقي في بئر، وأعتق طاهر من كان عنده من غلمانه شكرًا لله تعالى، وتمت الهزيمة ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف، وتبعوهم فرسخين وواقفوهم فيها اثنتي عشرة مرّة، كل مرّة يكسر عسكر الأمين، وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل، وغنموا غنيمة عظيمة، ونادى أصحاب طاهر: مَن ألقى سلاحه فهو آمن، فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم، ورجع طاهر إلى الري، وكتب إلى المأمون.

بسم الله الرحمٰن الرحيم كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في أصبعي، وجنده ينصرفون تحت أمري. والسلام.

وكتب إلى ذي الرئاستين فورد الكتاب مع البريد في ثلاثة أيام، وبينهما نحو من خمسين ومائتي فرسخ، فدخل ذو الرئاستين على المأمون وهنّأه بالفتح وأمر الناس فدخلوا عليه وسلّموا بالخلافة، ثم وصل رأس عليّ بعد الكتاب بيومين، فطيف به في خراسان. ولما وصل الكتاب كان المأمون قد جهّز هرثمة في جيش كبير نجدة لطاهر، فأتاه الخبر بالفتح.

قال: وأما الأمين فإنّه أتاه نعي علي بن عيسى ـ وهو يصطاد السمك، فقال الذي أتاه بالخبر: دعني فإنّ كَوْثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا ما صدت شيئًا، ثم بعث الفضل إلى نوفل الخادم ـ وهو وكيل المأمون على ملكه بالسواد ـ وكان للمأمون معه ألف ألف درهم ـ فأخذها منه وقبض ضياعه وغلاته، وندم الأمين على ما كان منه ومشى القوّاد بعضهم إلى بعض في النصف من شوال سنة خمس وتسعين واتفقوا على طلب الأرزاق ففرّق فيهم مالاً كثيرًا.

ذكر توجيه عبد الرحمٰن بن جبلة إلى طاهر وقتله واستيلاء طاهر على أعمال الجبل

قال: ولما اتصل بالأمين قتل علي بن عيسى وهزيمة عسكره وجّه عبد الرحمٰن بن جَبَلة الأنباري في عشرين ألف رجل، نحو همذان واستعمله عليها وعلى كل ما يفتحه من أرض خراسان، فسار حتى نزل همذان فحصّنها ورمّ سورها، وأتاه طاهر إليها فخرج إليه عبد الرحمٰن، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم عبد الرحمٰن، ودخل همذان فأقام بها أيامًا حتى قوي أصحابه واندملت جراحاتهم، ثم خرج إلى طاهر واقتتلوا وصبر الفريقان، وكثر القتل في أصحاب ابن جبلة وقتل صاحب علمه، فانهزم أصحابه وقتلهم أصحاب طاهر إلى المدينة، وأقام طاهر على بابها محاصرًا لها، فأرسل عبد الرحمٰن إلى طاهر يطلب الأمان لنفسه ولمن معه فأمّنه، فخرج عن همذان واستولى طاهر على قزوين وعلى سائر أعمال الجبل. قال: ولما خرج عبد الرحمٰن بأمان طاهر أقام مسالمًا لطاهر، ثم ركب في أصحابه وهجم على طاهر وأصحابه وهم آمنون، فثبت له رجّالة طاهر، وقاتلوه حتى أخذت الخيّالة أهبتها، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، حتى تكسرت الرماح وتقطّعت السيوف، فانهزم أصحاب عبد الرحمٰن وبقي في نفر من أصحابه فقاتل، وأصحابه يقولون له: قد أمكنك الهرب فاهرب، فقال: لا يرى أمير المؤمنين وجهي منهزمًا أبدًا، ولم يزل يقاتل حتى قتل، وانتهى من انهزم من أصحابه إلى عبد الله وأحمد ابني الحرشي، وكانا في جيش عظيم بقصر[(١)] اللصوص قد سيّرهما الأمين معونة لعبد الرحمٰن فانهزما في جندهما من غير قتال حتى دخلوا بغداد، وخلت البلاد لطاهر وأقبل يحوزها بلدة بلدة وكورة كورة، حتى انتهى إلى شَلاشان من كور حلوان فخندق بها، وحصّن عسكره وجمع أصحابه.

ذكر توجيه الأمين الجيوش إلى طاهر وعودهم من غير قتال

قال: وفي سنة ست وتسعين ومائة بعث الأمين أحمد بن مزيد وأمر الفضل أن يمكّنه من العسكر يأخذ منهم من أراد، وأمره بالجدّ في السير ودفع طاهر وحربه،

---

(١) قصر اللصوص: هو في الأصل موضع قصر كنكور وهو قصر شيرين.. وقيل: قصر اللصوص بناؤه عجيب جدًا وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الأرض نحو عشرين ذراعًا، فيه إيوانات وجواسيق وخزائن يتحير في بنائه وحسن نقوشه الأبصار... (معجم البلدان).

فاختار من العسكر عشرين ألف فارس، وسار معه عبد الله بن حُمَيْد بن قحطبة في عشرين ألفًا وسار بهم إلى حلوان[١]، فلم يزل طاهر يحتال في وقوع الاختلاف بينهم حتى اختلفوا، وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضًا، ورجعوا من غير قتال، وتقدم طاهر فنزل حُلوان، فلما نزلها لم يلبث إلا يسيرًا حتى أتاه هرثمة، في جيش من قبل المأمون ومعه كتاب إلى طاهر، يأمره بتسليم ما حوى من المدن والكور إلى هرثمة، ويتوجّه إلى الأهواز ففعل ذلك، وأقام هرثمة بحلوان وحصّنها وسار طاهر إلى الأهواز.

وفي هذه السنة خطب للمأمون بإمرة المؤمنين. ورفع منزلة الفضل بن سهل، وعقد له على المشرق من جبل همذان إلى التُّبَت[٢] طولاً، ومن بحر فارس إلى بحر الديلم وجرجان عرضًا، وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم، وعقد له لواءً على سنان ذي شعبتين، ولقّبه ذا الرئاستين ـ رئاسة الحرب والقلم ـ وحمل اللواء علي بن هشام وحمل القلم نُعَيم بن حازم. وولّى الحسن بن سهل ديوان الخراج، وذلك بعد قتل علي بن ماهان وعبد الرحمٰن بن جَبَلة.

قال: وأما طاهر فإنّه استولى على الأهواز، ثم سار منها إلى واسط وبها السِّندي بن يحيى والهَيْثم بن شُعْبة، فهربا عنها واستولى طاهر عليها، ووجّه قائدًا من قوّاده إلى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادي، فلما بلغه الخبر خلع الأمين وبايع للمأمون، وكتب بذلك إلى المأمون، وغلب طاهر على ما بين واسط والكوفة، وكتب المنصور بن المهدي ـ وكان عاملاً للأمين على البصرة ـ إلى طاهر ببيعته وطاعته، وأتته بيعة المطلب بن عبد الله بن مالك بالموصل. وكان ذلك كله في شهر رجب سنة ست وتسعين ومائة، فأقرّهم طاهر على أعمالهم. قال: ثم سار طاهر إلى المدائن وبها جيش كبير للأمين، عليهم البرمكي وقد تحصّن بها والمدد يأتيه كل يوم والخلع والصلات، فلما سمع البرمكي بمقدم طاهر وجّه قُرَيْش بن شِبْل والحسن بن علي المأموني، فلما سمع أصحاب البرمكي طبول طاهر سرجوا الخيل ورجعوا، وأخذ

(١) حلوان: بالضم ثم السكون: حلوان في عدة مواضع: حلوان العراق وهي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.. وحلوان أيضًا: قرية من أعمال مصر بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل.. وحلوان: بليدة بقوهستان نيسابور وهي آخر حدود خراسان مما يلي أصبهان... (معجم البلدان).

(٢) التبت: بالضم: هو بلد بأرض الترك.. وقيل: تبت مملكة متاخمة لمملكة الصين.. ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات سعة وقوة، ولأهلها حضر وبدو، وبداويهم ترك لا تدرك كثرة ولا يقوم لهم أحد من بوادي الأتراك... (معجم ياقوت).

البرمكي في التعبئة فكان كلّما سوّى صفًّا اضطرب صف وانتقض، فانضم أوّلهم إلى آخرهم، فقال: اللهم إنّا نعوذ بك من الخذلان، ثم قال لصاحب ساقته: خلّ سبيل الناس فلا خير عندهم، فركب بعضهم بعضًا نحو بغداد، فنزل طاهر المدائن واستولى على تلك النواحي، ثم سار إلى صرصر[1] فعقد بها جسرًا.

ذكر خلع الأمين ببغداد والبيعة للمأمون وعودة الأمين

قد قدّمنا إرسال الأمين عبد الملك بن صالح إلى الشام، واستعماله عليها ووفاته بالرقة، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، فلما مات عبد الملك أقبل الحسين بالجند إلى بغداد، فلما قدم لقيه القوّاد وأهل بغداد وعملت له القباب ودخل منزله، فلما كان في جوف الليل استدعاه الأمين، فقال للرسول: ما أنا بمغَنٍّ ولا مسامر ولا مضاحك، ولا وليت له عملاً ولا مالاً ولأي شيء يريدني في هذه الساعة؟! انصرف، وإذا أصبحت غدوت عليه إن شاء الله تعالى، فلما أصبح وافى الحسين باب الجسر واجتمع إليه الناس، فحرّضهم على الأمين وتنقّصه ودعاهم إلى خلعه، ثم أمرهم بعبور الجسر فعبروا وصاروا إلى سكة باب خراسان، وأسرعت خيول الأمين إلى الحسين فقاتلوه قتالاً شديدًا، فانهزم أصحاب الأمين، فخلع الحسين الأمين في يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب، وأخذ البيعة للمأمون من الغد يوم الاثنين، فلما كان يوم الثلاثاء وثب العباس بن موسى بن عيسى بالأمين، وأخرجه من قصر الخلد وحبسه بقصر المنصور، وأخرج أمّه أيضًا معه فجعلها مع ابنها، فلما كان يوم الأربعاء طالب الناس الحسين بالأرزاق، وماجوا بعضهم في بعض، وقام محمد بن أبي خالد وأسد الحربي وغيرهما فقاتلوا الحسين وأسروه، ودخل أسد على الأمين فكسر قيوده وأعاده إلى الخلافة، وحمل إليه الحسين أسيرًا فلامه فاعتذر إليه، فأطلقه وأمره بجمع الجند ومحاربة أصحاب المأمون، وخلع عليه وولاّه ما وراء بابه وأمره بالمسير إلى حلوان، فوقف الحسين بباب الجسر والناس يهنئونه، فلما خفوا عنه قطع الجسر وهرب، فنادى الأمين في الجند بطلبه فأدركوه

---

(١) صرصر: بالفتح وتكرير الصاد والراء: قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما. وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين.. وصرصر: في طريق الحاج من بغداد قد كانت تسمى قديمًا قصر الدير أو صرصر الدير... (معجم البلدان).

بمسجد كوثر على فرسخ من بغداد فقاتلهم فعثر به فرسه فسقط عنه، فقتل وحمل رأسه إلى الأمين، وقيل إن الأمين كان استوزره وسلم إليه خاتمه فلما قتل جدّد الجند البيعة للأمين، واختفى الفضل بن الربيع.

ذكر البيعة للمأمون بمكة والمدينة

وفي هذه السنة خلع داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي الأمين ـ وهو عامله على مكة والمدينة ـ وبايع للمأمون، وسبب ذلك أنّه لما بلغه ما فعل طاهر، وكان الأمين قد بعث إلى داود وأخذ الكتابين من الكعبة كما تقدّم فجمع داود وجوه الناس ومن كان شهد في الكتابين، وقال: قد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد عند البيت الحرام لابنيه، لنكوننّ مع المظلوم منهما على الظالم، ومع المغدور منهما على الغادر، وقد رأينا ورأيتم أن محمدًا قد بدأ بالظلم والبغي والنكث على أخويه المأمون والمؤتمن، وخلعهما عاصيًا لله وبايع لابنه طفل صغير رضيع، وأخذ الكتابين من الكعبة فحرقهما، وقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون، إذ كان مظلومًا مبغيًا عليه، فأجابوه إلى ذلك، فنادى في شعاب مكة فاجتمع الناس فخطبهم بين الركن والمقام، وخلع الأمين وبايع للمأمون، وكتب إلى ابنه سليمان ـ وهو عامله على المدينة ـ أن يفعل مثل ما فعل، فخلع وبايع للمأمون وكانت هذه البيعة في شهر رجب سنة ست وتسعين ومائة، وسار داود من مكة على طريق البصرة، ثم إلى فارس وإلى كرمان[(١)] حتى صار إلى المأمون بمرو فأخبره، فسرّ المأمون وتيمّن ببركة مكة والمدينة، واستعمل داود عليهما وأعطاه خمسمائة ألف درهم، وبعث معه العباس بن موسى بن عيسى بن موسى وجعله على الموسم، فسارا حتى أتيا طاهرًا ببغداد فأكرمهما، ووجّه معهما يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسري استعمله على اليمن، وبعث معه خيلاً كثيفة فقدمها، ودعا أهلها إلى خلع الأمين والبيعة للمأمون، فأجابوه وخلعوا وبايعوا للمأمون، فكتب بذلك إلى طاهر والمأمون.

ذكر تجهيز الأمين الجيوش وما كان من أمرهم

وفي سنة ست وتسعين ومائة عقد محمد الأمين ـ في رجب وشعبان ـ أربعمائة لواء لقوّاد شتى، وأمّر عليهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلى

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... وكرمان أيضًا: مدينة بين غزنة وبلاد الهند وهي من أعمال غزنة بينهما أربعة أيام أو نحوها... (معجم البلدان).

هرثمة بن أعين فساروا إليه فالتقوا بنواحي النَّهْرَوان في شهر رمضان، فأسر علي بن محمد فسيّره هرثمة إلى المأمون، ورحل هرثمة فنزل النَّهْروان.

ذكر وثوب الجند بطاهر والأمين

قد قدّمنا نزول طاهر بصرصر عند استيلائه على المدائن، فأقام بها مشمرًا في محاربة الأمين، لا يأتيه جيش إلا هزمه، فبذل الأمين الأموال فسار إليه من أصحاب طاهر خمسة آلاف، فسرّ بهم ووعدهم ومنّاهم وفرّق فيهم مالاً عظيمًا، وغلّف لحاهم بالغالية[١] فسمّوا قواد الغالية، وفرّق الأمين الجواسيس في أصحاب طاهر، ودسّ إلى رؤساء الجند وأطمعهم ورغبهم، فشغبوا على طاهر واستأمن كثير منهم إلى الأمين، وانضموا إلى عسكره وساروا حتى أتوا صَرْصَر، فعبّأ طاهر أصحابه كراديس، وحرّضهم ووعدهم ومناهم وتقدّم بهم، فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب الأمين وغنم عسكر طاهر ما كان لهم من سلاح ودواب وغير ذلك، فبلغ ذلك الأمين فأخرج الأموال وفرّقها، وجمع أهل الأرْباض[٢] وقوّد منهم جماعة وفرق فيهم الأموال، وقواهم بالسلاح وأعطى كل قائد قارورة غالية، ولم يعط الأجناد الذين معهم شيئًا، فراسلهم طاهر ووعدهم واستمالهم، وأغرى أصاغرهم بأكابرهم فشغبوا على الأمين في ذي الحجة، فأشار أصحابه عليه باستمالتهم والإحسان إليهم فلم يفعل، وأمر بقتالهم فقاتلهم جماعة من الأجناد، وراسلهم طاهر وراسلوه وأخذ رهائنهم على بذل الطاعة وأعطاهم الأموال، ثم تقدم إلى باب الأنبار في ذي الحجة، ونقب أهل السجون وخرجوا منها.

ذكر حصار بغداد واستيلاء طاهر عليها

في سنة سبع وتسعين ومائة حاصر طاهر وهَرْثَمة وزُهَير بن المُسَيّب الأمين ببغداد، وتفرّقوا عليها ونصبوا عليها المجانيق والعَرَّادات، وحفروا حول عساكرهم الخنادق، وسوّر هرثمة حول خندقه سورًا، وكان الأمين قد أنفذ ما في خزائنه من الأموال، فأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم ليفرّقها في أصحابه. قال: واستأمن إلى طاهر ـ سعيد بن مالك بن قادم، فولاّه الأسواق وشاطىء دجلة وما اتصل به، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان وأمدّه

---

(١) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.

(٢) الأرباض: جمع الربض: وهو الناحية من الشيء، أو ما حول المدينة. والمراد هنا: كل ما تأوي إليه وتستريح لديه من أم وزوج وبنت وقرابة وبيت وغيره.

بالأموال والرجال، وقبض طاهر ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم والقوّاد وغيرهم، وأخذ أموالهم فذلّوا وانكسروا، وضعف أجناد الأمين عن القتال وطاهر لا يفترّ عن قتالهم، فاستأمن محمد بن عيسى صاحب شرط الأمين وعلي فَرَاهْمَرْد، ثم كاتب طاهر جماعة القواد والهاشميين وغيرهم بعد أن قبض ضياعهم، فأجابوه إلى البيعة للمأمون، فكان ممن أجابه عبد الله بن حميد بن قحطبة وإخوته، وولد الحسن بن قحطبة، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العباس الطائي وغيرهم، هذا والأمين مقبل على الأكل والشرب، ووكل الأمر إلى محمد بن عيسى بن نهيك وإلى الهِرْش، ثم منع طاهر الأقوات أن تصل إلى بغداد فغلت الأسعار، ودام الحصار والقتال على بغداد إلى سنة ثمان وتسعين ومائة، حتى ضجر الناس وملّوا القتال، فلحق خزيمة بن خازم بطاهر وفارق الأمين، ودخل هرثمة إلى الجانب الشرقي لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين في ليلة الأربعاء، فلما كان الغد تقدّم طاهر إلى المدينة والكَرْخ(١)، فقاتل هناك قتالاً شديدًا، فهزم الناس ومرُّوا لا يلوون على شيء، فدخلها طاهر بالسيف، وأمر مناديه فنادى: من لزم بيته فهو آمن، وقصد مدينة المنصور وأحاط بها، وبقصر زبيدة وقصر الخلد ـ من باب الجسر إلى باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب الفرات، وشاطىء الفرات إلى مصبّها في دجلة، وثبت على قتال طاهر حاتم بن الصقر والهرش، فنصب طاهر المجانيق بإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد، وأخذ الأمين أمّه وأولاده إلى مدينة المنصور، وتفرّق عنه عامة جنده وخصيانه وجواريه في الطريق، لا يلوي بعضهم على بعض، وحصره طاهر وأخذ عليه الأبواب.

ذكر مقتل الأمين

قال: لما دخل الأمين مدينة المنصور، واستولى طاهر على أسواق الكرخ وغيرها، جاء محمد بن حاتم بن الصقر ومحمد بن إبراهيم بن الأغلب الإفريقي وغيرهما، فقالوا للأمين: قد آلت حالنا إلى ما ترى، وقد تفرّق عنك الناس، وقد بقي معك من خيلك سبعة آلاف فرس من خيارها، ونرى أن تختار ممن عرفناه بمحبّتك من الأبناء سبعة آلاف، فتحملهم على هذه الخيل وتخرج ليلاً، على باب من هذه

---

(١) كرخ بغداد: كانت الكرخ أولاً في وسط بغداد والمحال حولها، فأما الآن فهي محلة وحدها مفردة في وسط الخراب وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها، فبين شرقها والقبلة محلة باب البصرة وأهلها كلهم سنة حنابلة لا يوجد غير ذلك. . . (معجم البلدان).

الأبواب فلا يثبت لنا أحد إن شاء الله تعالى، فنلحق بالجزيرة والشام فنفرض الفروض ونجبي الخراج، ونصير في مملكة واسعة وملك جديد، فتسارع إليك الناس ويحدث الله أمورًا، فصوّب رأيهم ووافقهم عليه، فنما الخبر إلى طاهر فكتب إلى سليمان بن المنصور ومحمد بن عيسى بن نَهِيك والسِّنْدي بن شَاهِك، وأقسم لئن لم تردوه عن هذا الرأي لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها، ولا تكون لي همة إلا أنفسكم، فدخلوا على الأمين فقالوا: قد بلغنا الذي عزمت عليه، ونحن نذكّرك الله في نفسك، إن هؤلاء صعاليك وقد بلغ بهم الحصار إلى ما ترى، وهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك وعند طاهر لجدهم في الحرب، ولسنا نأمن إذا خرجت معهم أن تؤخذ أسيرًا، أو يأخذوا رأسك فيتقرّبوا بك ويجعلوك سبب أمانهم، وصرفوه عن ذلك فرجع إليهم، وأجاب إلى طلب الأمان والخروج، وقالوا له: إنّه لا بأس عليك من أخيك، وأنّه يجعلك حيث أحببت فركن إلى ذلك، وأجاب إلى الخروج إلى هرثمة بن أعْيَن، فدخل عليه الذين أشاروا عليه بقصد الشام وقالوا له: إذا لم تقبل ما أشرنا به عليك ـ وهو الصواب ـ وقبلت من هؤلاء المداهنين، فالخروج إلى طاهر خير لك من الخروج إلى هرثمة، فقال: أنا أكره طاهرًا، وهرثمة مولانا وهو بمنزلة الوالد، وأرسل إلى هرثمة في طلب الأمان، فأجابه إليه وحلف له أنّه يقاتل دونه ـ إن همّ المأمون بقتله، فلما علم طاهر ذلك اشتد عليه، وأبى أن يدعه يخرج إلى هرثمة وقال: هو في حربي والجانب الذي أنا فيه، وأنا ألجأته بالحصار إلى طلب الأمان، فلا أرضى أن يخرج إلى هرثمة فيكون الفتح له دوني، فاجتمع القوّاد أصحاب الأمين بطاهر وقالوا: إنّه لا يخرج إليك أبدًا، وإنّه يخرج إلى هرثمة ببدنه[1] ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة وهو الخلافة، فاغتنم هذا الأمر ولا تفسده، فرضي بذلك، فأتى الهرش إلى طاهر وأراد التقرب إليه، فأخبره أنّ الذي جرى بينهم مكر، وأنّ الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع الأمين إلى هرثمة، فاغتاظ منه وجعل حول قصر الأمين قومًا فلما تهيأ الأمين للخروج إلى هرثمة أرسل إليه هرثمة، يقول: وافيت للميعاد لأحملك، ولكنّي أرى ألا تخرج هذه الليلة، فإنّي قد رأيت على الشط ما قد رابني، وأخاف أن أغلب وتؤخذ من يدي، وتذهب نفسك ونفسي، فأقم الليلة حتى أستعد وآتيك الليلة القابلة، فإن حوربت حاربت دونك؛ فقال للرسول: ارجع إليه فقل له لا تبرح، فإنّي خارج إليك الساعة لا محالة، ولست أقيم إلى غد، وقلق، وقال: قد تفرّق عنّي الناس من الموالي والحرس وغيرهم، ولا آمن إن انتهى الخبر إلى طاهر أن يدخل

---

(١) البدن: جمع البدنة: وهي الناقة أو البقرة، تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمنونها لذلك.

عليّ ويأخذني، وخرج بعد العشاء الآخرة ليلة الأحد، لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، إلى صحن الدار وعليه ثياب بيض وطيلسان[١] أسود، فدعا بابنيه فضمّهما إليه وقبّلهما وبكى، وقال: أستودعكما الله، ثم جاء راكبًا إلى الشَّط فإذا حرّاقة[٢] هرثمة فصعد إليها، فذكر أحمد بن سلام صاحب المظالم قال: كنت مع هرثمة في الحرّاقة، فلما دخلها الأمين قمت له، وجثى هرثمة على ركبتيه واعتذر له من نقرس[٣] به، ثم احتضنه هرثمة وضمّه وجعله في حجره وجعل يقبّل يديه ورجليه وعينيه، وأمر هرثمة الحراقة أن تدفع، فشدّ علينا أصحاب طاهر في الزوارق ونقبوا الحرّاقة، ورموا بالآجر والنشاب فغرقت الحرّاقة، وسقط هرثمة إلى الماء وسقطنا، فتعلّق الملاح بشعر هرثمة فأخرجه، وأما الأمين فإنّه شق ثيابه لما سقط في الماء، قال أحمد بن سلام: وخرجت أنا إلى الشط فأخذني رجل من أصحاب طاهر، فأتى بي إلى رجل آخر من أصحابه، وأعلمه أنّي من الذين خرجوا من الحرّاقة، فسألني: من أنا؟ فقلت: أنا أحمد بن سلام صاحب المظالم مولى أمير المؤمنين، قال: كذبت، فاصدقني، قلت: قد صدقتك، قال ما فعل المخلوع، قلت: رأيته قد شق ثيابه فركب، وأخذني معه أعدو وفي عنقي حبل فعجزت عن العدو، فأمر بضرب عنقي فاشتريت نفسي منه بعشرة آلاف درهم، فتركني في بيت حتى يقبض المال، وفي البيت بواري[٤] وحصر مدرجة ووسادتان، فلما ذهب من الليل ساعة وإذا الباب قد فتح، وأدخل الأمين وهو عريان وعليه سراويل وعمامة، وعلى كتفه خرقة خلقة، فلما رأيته استرجعت وبكيت في نفسي، فسألني عن اسمي فعرّفته، فقال: ضمّني إليك فإني أجد وحشة شديدة، قال: فضممته وإذا قلبه يخفق، فقال: يا أحمد ـ ما فعل أخي، قلت: حيّ، قال: قبّح الله بريدهم!! كان يقول قد مات ـ شبه المعتذر من محاربته، فقلت: بل قبّح الله وزراءك، فقال: ما تراهم يصنعون بي؟ أيقتلونني أم يفون بأيمانهم؟ فقلت: يفون لك، وجعل يضم الخرقة على كتفه، فنزعت مبطّنة[٥]

---

(١) الطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خال عن التفصيل والخياطة، أو هو ما يعرف بالعامية المصرية بالشال. . . (فارس معرب).

(٢) الحراقة: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر. أو هي سفينة خفيفة المرّ.

(٣) النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك.

(٤) البواري: جمع الباريّ: (فارسي معرب): الحصير.

(٥) المبطنة: قد يراد بها الثوب المبطّن.

كانت عليّ وقلت: ألق هذه عليك، فقال: دعني فهذا من الله عزّ وجلّ، في هذا الموضع خير كثير، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل، فنظر في وجوهنا فاستثبته، فلما عرفه انصرف - وإذا هو محمد بن حميد الطاهري، فلما رأيته علمت أن الأمين مقتول، فلما انتصف الليل فتح الباب ودخل قوم عجم معهم السيوف مسلولة، فلما رآهم قام قائمًا وجعل يسترجع ويقول: ذهبت - والله - نفسي في سبيل الله، أما من مغيث!! أما من أحد من الأبناء!! وجاؤوا حتى وقفوا على باب البيت الذي نحن فيه، وجعل بعضهم يقدّم بعضًا ويدفعه، وأخذ الأمين بيده وسادة ويقول: ويحكم!! أنا ابن عم رسول الله ﷺ - أنا ابن هارون - أنا أخو المأمون - الله الله في دمي! فضربه رجل منهم بسيف وقعت في مقدّم رأسه، فضربه الأمين على وجهه بالوسادة، وأراد أن يأخذ السيف فصاح: قتلني، قتلني فدخل جماعة منهم فنخسه واحد بالسيف في خاصرته، ورموا نفوسهم عليه فذبحوه من قفاه، وأخذوا رأسه ومضوا به إلى طاهر، فلما كان السحر أخذوا جثّته فأدرجوها في جَلّ[1] وحملوها، فنصب طاهر الرأس على برج، وخرج أهل بغداد - وطاهر يقول: هذا رأس المخلوع محمد، ولما قتل ندم جند طاهر وجند بغداد على قتله، لما كانوا يأخذون من الأموال، وبعث طاهر رأسه إلى أخيه المأمون مع ابن عمه محمد بن الحسن بن مصعب، وكتب معه بالفتح، فلما وصل أخذ ذو الرئاستين الرأس وأدخله إلى المأمون على ترس، فلما رآه المأمون سجد، وبعث طاهر معه بالبردة والقضيب والخاتم. ولما قتل الأمين نودي في الناس كلهم بالأمان، ودخل طاهر المدينة يوم الجمعة وصلّى بالناس.

وحكي عن إبراهيم بن المهدي قال: كنت مع الأمين لما حصره طاهر، فخرج ليلة يريد الفرجة لما هو فيه من الضيق، فصار إلى قصر بناحية الخلد، ثم أرسل إليّ فحضرت عنده، فقال: ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوءه في الماء - وكان على شاطىء دجلة - فهل لك في الشرب؟ فقلت: شأنك، فشرب رطلًا وسقاني آخر، ثم غنّيته ما كنت أعلم أنه يحبّه، ثم دعا بجارية اسمها ضعف فتطيّرت من اسمها، فقال لها: غنّي فغنّت شعر الجَعْدِي[2]: [من الطويل]

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصرًا ... وأيسر حزمًا منك ضُرِّج بالدم

---

(١) الجلّ: ما تغطى به الدابة لتصان.

(٢) هو النابغة الجعدي، عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة وأخوه جعدة عقيل وقشير والحريش وكان يكنى أبا ليلى، وهو جاهلي وأن رسول الله ﷺ... (طبقات الشعراء).

فتطيّر من ذلك وقال: غني غير هذا، فغنت: [من البسيط]

أبكى فراقهمُ عيني فأرّقها إن التفرّق للأحباب بكّاء
ما زال يغدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء[١]

فسبّها، وقال: أما تعرفين من الغناء غير هذا، ثم غنته: [من المنسرح]

أما وربّ السكون والحرك إنّ المنايا كثيرة الشرك

الأبيات الأربعة، فغضب ولعنها فقامت، وكان له قدح من بلّور حسن الصنعة، فعثرت به فكسرته، فقال لي: ويحك يا إبراهيم! ما ترى إلى ما جاءت به هذه الجارية!! والله ما أظن أمري إلا قد قرب، فقلت: يديم الله ملكك ويعز سلطانك ويكبت عدوّك، فما استتمّ الكلام حتى سمعنا صوتًا ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، فقال يا إبراهيم: أما سمعت ما سمعت!! قلت ما سمعت شيئًا، فقتل بعد ليلة أو ليلتين.

ذكر صفة الأمين وعمره ومدة خلافته وشيء من أخباره

كان الأمين طويلاً أبيض سمينًا جميلاً صغير العينين أقنى عظيم الكراديس[٢] بعيد ما بين المنكبين؛ وكان عمره ثمانيًا وعشرين سنة وشهورًا؛ ومدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام وقيل سبعة أشهر وثمانية عشر يومًا؛ وكان له من الأولاد موسى، وعبد الله، وإبراهيم.

ونقش خاتمه: محمد واثق بالله؛ ووزراؤه: الفضل بن الرَّبيع إلى أن هرب بعد فساد حال الأمين، فوزر له إبراهيم بن صُبَيح وغيره؛ حاجبه: العباس بن الفضل بن الربيع؛ قضاته: وَهْب بن وهب، ومحمد بن سَمَاعة؛ الأمراء بمصر الحسن بن البحباح ثم حاتم بن هرثمة بن أعْيَن ثم جابر بن الأشْعث؛ قاضيها هاشم بن أبي بكر بن عبد الرحمٰن من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال: وكان الأمين ضعيف الرأي شديد القوى، حكي عنه أنّه أحضر إليه أسد في قفص حديد، فأمر بفتح القفص فوثب الأسد، فتفرق الغلمان، وانفرد بالأمين

---

(١) ريب الدهر: حوادثه.

(٢) الكراديس: جمع الكردوس، وهو كل عظم تام ضخم؛ أو كل عظمين التقيا في مفصل.

فوثب الأسد عليه، فعمد إلى مِرْفَقَة[1] تلقّاه بها لحمايته، ثم قبض على أصل أذنيه وهزّه فسقط الأسد ميتًا، وزاغت أكتاف الأمين فأحضر الأطباء، فأعادوها إلى مكانها، وانفقأت مرارة الأسد في جوفه، وقيل بل حاد عن الأسد حتى تجاوزه، ثم قبض على ذنبه وجذبه جذبة أقعى[2] لها الأسد، وانقطع ظهره فمات، وزاغت أنامل الأمين عن منابتها.

قال: ولما استقرت للأمين استكثر من الخصيان وغالى في ثمنهم، وصيّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وسمّى البيض منهم الجَرَادِيَّة والحِبْشَان والغُرابِية حتى رمى بهم، وقيل فيه الأشعار، وأحضر الملهين من جميع البلدان وأجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن الناس.

ذكر خلافة المأمون

هو أبو العباس ـ وقيل أبو جعفر ـ عبد الله بن هارون الرشيد، وأمه مراجل أم ولد، بويع له البيعة العامة صبيحة الليلة التي قتل فيها الأمين، وهو يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وكان هو بمرو. وهو السابع من خلفاء بني العباس وقد تقدم من أخباره وأخبار عساكره، والبيعة له بمكة والمدينة وخراسان وغيرها من الأمصار، ما لا يحتاج إلى إعادته، إلا أنّ تلك المدة لا تعد خلافة مع بقاء الأمين.

قال: ولما وصل رأسه إلى المأمون ـ كما ذكرنا ـ أذن للقوّاد، وقرأ ذو الرئاستين الفضل بن سهل الكتاب عليه فهنّؤوه بالظفر، وكتب إلى طاهر وهرثمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد فخلعاه في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين ومائة، وعامل المأمون أم جعفر زبيدة بنت جعفر ـ أم الأمين ـ بالإكرام والبر والتلطف، ورتب لها في كل سنة مائة ألف درهم جددًا[3]، يحملها إليها ويتعاهد زيارتها.

---

(١) المرفقة: المخدة، أو المتكأ.

(٢) أقعى في جلوسه: جلس على إليته ونصب ساقيه وفخذيه. وأقعى الكلب ونحوه: جلس على إسته وبسط ذراعيه مفترشًا رجليه وناصبًا يديه.

(٣) جددًا: أي قطعًا.

حكى أبو الفرج الأصفهاني أن المأمون أغفل حمل المال إليها في بعض السنين، فتقدمت إلى أبي العتاهية(١) أن يعمل أبياتًا تذكره بها فقال: [من الرّمل]

زعموا لي أنّ في ضرب السّنه جددًا بيضًا وصفرًا حسنه
سككًا قد أحدثت لم أرها مثلما كنت أرى كلّ سنه

فلما قرأ المأمون الشعر قال: إنا للّه ـ أغفلناها وتقدم يحمل ذلك إليها؛ قال: قال مخارق: ظهر لأم جعفر من المأمون جفاء، فبُعث إلي بأبيات أمرتني أن أغنيه بها إذا رأيته نشيطًا وأسنت لي الجائزة وكان كاتبها جعفر بن الفضل، قال الأبيات هي: [من الطويل]

ألا إنّ صرف الدهر يدني ويبعدُ ويؤنس بالأُلاَّف طورًا ويفقد
أصابت لريب الدهر منّي يدي فسلّمتُ للأقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يدٌ فقد بقيت والحمد لله لي يد
إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ولي جعفرٌ لم يفقدا ومحمد

قال مخارق: ففعلت، فسألني المأمون عن الخبر فعرفته فبكى، ورق لها وقام لوقته فدخل عليها، فقبل رأسها وقبلت يده، وقال لها: يا أمّه، ما جفوتك تعمدًا ولكني شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله، فقالت: يا أمير المؤمنين، إذا حسن رأيي لم يوحشني، وأتم عندها بقية يومه. نعود إلى سياق أخبار المأمون على حكم التوالي.

ذكر وثوب الجند بطاهر

قال: ووثب الجند بطاهر بعد مقتل الأمين بخمسة أيام، وكان سبب ذلك أنهم طلبوا منه مالاً، فلم يكن معه شيء فثاروا به، فظن أن ذلك بمواطأة الجند وأهل الأرباض(٢)، وأنهم معهم عليه فخشي على نفسه وهرب إلى عقرقوف(٣)، ونهبوا

---

(١) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم مولى لعنزة ويكنى أبا إسحاق وأبو العتاهية لقب وكان جرارًا ويرمى بالزندقة قيل: كان له ابنتان يقال لإحداهما لله، وللأخرى بالله.. وكان له ابن شاعر ناسك وكان أحد المطبوعين وممن يكاد يكون كلامه كله شعرًا وغزله ضعيف مشاكل لطبائع النساء ومما يستخففن من الشعر... (الشعر والشعراء).

(٢) الأرباض: جمع الربض: وهو كل ما تأوي إليه وتستريح لديه من أم وزوج وبنت وقرابة وبيت وغيره.

(٣) عقرقوف: هي قرية من نواحي دجيل، بينها وبين بغداد أربعة فراسخ، وإلى جانبها تل عظيم من تراب يرى من خمسة فراسخ كأنه قلعة عظيمة لا يدرى ما هو... (معجم البلدان).

بعض متاعه، وخرج معهم جماعة من القواد، ثم خرج إليه القواد الذين تخلّفوا وأعيان أهل المدينة، واعتذروا إليه وسألوه الصفح عنهم وقبول عذرهم، فقال طاهر: ما خرجت عنكم إلا لوضع السيف فيكم، وأقسم بالله عزّ وجل لئن عدتم لمثلها لأعودنّ إلى رأيي فيكم، ثم شكرهم وأمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ووضعت الحرب أوزارها واستوثق الأمر للمأمون.

ذكر خلاف نصر بن شَبَثِ العُقَيْلي على المأمون

في هذه السنة أظهر نصر الخلاف على المأمون، وكان يسكن كَيْسُوم[١] ناحية شمالي حلب، وكان في عنقه بيعة للأمين وله فيه هوى، فلما قتل الأمين أظهر الغضب وتغلّب على ما جاوره من البلاد وملك سُمَيْسَاط[٢]، واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي وحدثته نفسه بالتغلب عليه، وكثرت جموعه وحصر حرّان في سنة تسع وتسعين ومائة، فأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا: قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم وأغلقت عنهم المغرب، فلو تابعت لخليفة كان أقوى، فقال: من أي الناس؟ فقالوا: نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب، فقال: أبايع أولاد السوداوات!! فقالوا: بايع لبعض بني أمية، فقال: أولئك قد أدبر أمرهم، والمدبر لا يقبل أبدًا، وإنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة للعرب لأنّهم يقدمون عليهم العجم.

قال: ودام أمره إلى سنة تسع ومائتين، حاصره عبد الله بن طاهر بحصن كَيْسُوم مدة، ثم خرج إليه بالأمان فبعثه إلى المأمون، فوصل إليه في صفر سنة عشر ومائتين، وهدم عبد الله حصن كيسوم.

ذكر ولاية الحسن بن سهل العراق وغيره من البلاد

وفي هذه السنة استعمل المأمون الحسن بن سهل أخا الفضل على ما كان افتتحه طاهر، من كور الجبل والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن، وكتب إلى طاهر

---

(١) كيسوم: بالسين المهملة: هي قرية مستطيلة من أعمال سميساط ولها عرض صالح وفيها سوق ودكاكين وافرة، وفيها حصن كبير على تلعة. . .

(٢) سميساط: بضم أوله، وفتح ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ساكنة، وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن، وسميساط في الإقليم الرابع. . . (معجم ياقوت).

بتسليم ذلك إليه، فقدم الحسن بين يديه علي بن أبي سعيد فدافعه طاهر بتسليم الخراج إليه حتى وفّى الجند أرزاقهم، وسلّم إليه العمل، وقدم الحسن سنة تسع وتسعين ففرق العمال، وأمر طاهرًا أن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث، وولاّه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، فسار طاهر إلى نصر والتقوا بنواحي كَيْسُوم، واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر فيه لشبث، وعاد طاهر شبه المهزوم إلى الرقة، وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي من نصر.

وحجّ بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى.

ودخلت سنة تسع وتسعين ومائة.

ذكر ظهور ابن طَبَاطَبَا العلوي ووفاته وخبر أبي السرايا

في هذه السنة ظهر محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ وهو المعروف بابن طباطبا ـ بالكوفة، لعشر خلون من جُمادى الآخرة يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ والعمل بالكتاب والسنة، وكان القيّم بأمره في الحرب أبو السَّرَايَا السَّري بن منصور الشيباني، وكان سبب خروجه أن المأمون لما صرف طاهرًا ووجّه الحسن بن سهل إلى الأعمال التي ذكرناها تحدث الناس بالعراق، أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنّه أنزله قصرًا حجبه فيه عن أهل بيته وأولاده وقوّاده، وأنه يستبد بالأمور دونه، فغضب لذلك بنو هاشم ووجوه الناس، واجترأ على الحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار، فكان أوّل من ظهر ابن طَبَاطَبا بالكوفة، وكان سبب اجتماع ابن طباطبا بأبي السرايا أن أبا السرايا كان يكري[1] الحمير ثم قوي أمره فجمع نفرًا فقتل رجلاً من بني تميم بالجزيرة وأخذ ما معه، فطلب فاختفى وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي، فكان يقطع الطريق بتلك الناحية، ثم لحق بأسد بن زيد بن مَزْيَد الشيباني بأرمينية ومعه ثلاثون فارسًا، فقوّده فجعل يقاتل معه الخُرَميَّة فأثر فيهم، وقَتَل وأخذ منهم غلامه أبا الشوك، فلما عزل أسد عن أرمينية صار أبو السرايا إلى أحمد بن مزيد، فوجّهه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة في فتنة الأمين، واشتهرت شجاعته فراسله هرثمة واستماله فمال إليه، وانتقل إلى عسكره وقصد العرب بالجزيرة، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة، فصار معه نحو ألفي فارس وراجل، فصار يخاطب بالأمير، فلما قتل الأمين قصّر هرثمة في

(١) يكري الحمير: يؤجرها.

أرزاقه وأرزاق من معه، فاستأذنه في الحج فأذن له وأعطاه عشرين ألف درهم، ففرّقها في أصحابه ومضى وقال لهم: اتبعوني متفرقين، ففعلوا واجتمع معه منهم نحو مائتي فارس، فسار بهم إلى عين التمر[١] وحصر عاملها، وأخذ ما عنده من المال فقسمه في أصحابه، وسار فلقي عاملًا آخر ومعه مال على ثلاثة بغال فأخذها، وسار فلحقه عسكر بعثه هرثمة خلفه فقاتلهم وهزمهم، ودخل البرّية وقسم المال في أصحابه وانتشر خبره فلحق به من تخلف عنه من أصحابه وغيرهم وكثر جمعه فسار نحو دقوقا[٢] وعليها أبو ضِرْغامة العجْلِي في سبعمائة فارس، فخرج إليه واقتتلوا فهزمه أبو السرايا وحصره بقصر دقوقا وأخرجه بأمان، وأخذ ما عنده من الأموال وسار إلى الأنبار، وعليها إبراهيم السّروي مولى المنصور فقتله وأخذ ما فيها وسار، ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فاحتوى عليها، ثم ضجر من طول السري في البلاد فقصد الرقة، فمرّ بطوق بن مالك التَّغْلِبِي وهو يقاتل القَيْسِيَّة، فأعانه وقاتل معه أربعة أشهر حتى ظفر طَوْق، ثم سار عنه إلى الرقة، فلما وصلها لقيه ابن طباطبا فبايعه، وقال له: انحدر أنت في الماء وأسير أنا على البر حتى نوافي الكوفة فدخلاها، وابتدأ أبو السرايا بقصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ ما فيه من الأموال والجواهر ـ وكان عظيمًا لا يحصى كثرة، فبايعهم أهل الكوفة واستوثق أمرهما بها، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب فبايعوه ـ أعني ابن طباطبا، وكان العامل عليها للحسن بن سهل ـ سليمان بن المنصور، فلامه الحسن ووجّه زهير بن المسيّب الضبي إلى الكوفة في عشرة آلاف فارس وراجل، فخرج إليه ابن طباطبا وأبو السرايا فهزموه، واستباحوا عسكره وكانت الوقعة في سلخ جُمادى الآخرة، فلما كان الغد مستهل رجب مات محمد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة سمّه أبو السرايا، وكان سبب ذلك أنه لما غنم ما في عسكر زهير منع عنه أبا السرايا، وكان الناس له سامعين مطيعين، فعلم أبو السرايا أنّه لا حكم له معه، فسمّه ونصب مكانه غلامًا أمرد، يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وصار الحكم لأبي السرايا، ورجع زهير إلى قصر ابن هبيرة ووجّه الحسن بن سهل ـ عبدوس بن محمد بن أبي خالد المَرْوَرُوذِي في أربعة آلاف فارس، فلقيه أبو السرايا لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر

---

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة يقربها موضع يقال له شفاثا، منها يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جدًا، وهي على طرف البرية، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد. . . (معجم البلدان).

(٢) دقوقاء: مدينة بين إربل وبغداد.

رجب، فقتل عبدوسًا ولم يفلت من أصحابه أحد ـ كانوا بين قتيل وأسير، وانتشر الطالبيون في البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، وسيّر جيوشه إلى البصرة وواسط ونواحيها، فولى البصرة العباس بن محمد بن عيسى بن محمد الجعفري، وولّى مكة الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي ـ الذي يقال له الأَفْطَس ـ وجعل إليه الموسم، وولّى اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر، وولّى فارس إسماعيل بن موسى بن جعفر، وولّى الأهواز زيد بن موسى بن جعفر فسار إلى البصرة، وغلب عليها وأخرج عنها العباس بن محمد الجعفري ووليها مع الأهواز، ووجّه أبو السرايا ـ محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المدائن وأمره أن يأتي بغداد من الجانب الشرقي، فأتى المدائن وأقام بها وهزم أصحاب الحسن إلى بغداد، فلما رأى الحسن بن سهل أن عسكره لا يثبت لعسكر أبي السرايا أرسل إلى هرثمة يستدعيه، وكان قد سار إلى خراسان مغاضبًا للحسن، فحضر إليه بعد امتناع وسار إلى الكوفة في شعبان، وسيّر الحسن إلى المدائن وواسط علي بن أبي سعيد الحَرَشي، فوجّه أبو السرايا إليها جيشًا فدخل جيشه المدائن في شهر رمضان، وتقدّم هو حتى نزل بنهر صرصر[١]، وجاء هرثمة فعسكر بإزائه بينهما النهر، وسار علي بن أبي سعيد في شوال إلى المدائن، فقاتل أصحاب أبي السرايا وهزمهم واستولى عليها، فبلغ الخبر أبا السرايا فرجع من نهر صَرْصَر إلى قصر ابن هُبَيْرة، وسار هرثمة في طلبه، فوجد جماعة من أصحابه فقتلهم، ووجّه برؤوسهم إلى الحسن، ونازل هرثمة أبا السرايا وكانت بينهم وقعة. قتل فيها جماعة من أصحاب أبي السرايا. وانحاز إلى الكوفة ووثب من معه من الطالبيين على دور بني العباس ومواليهم وأتباعهم فانتهبوها وهدموها وخرّبوا ضياعهم، وأخرجوهم من الكوفة وعملوا أعمالاً قبيحة، واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس.

ذكر هرب أبي السرايا وقتله

قال: ولما انحاز أبو السرايا إلى الكوفة حاصره بها هرثمة، وقاتله ولازم قتاله فخرج أبو السرايا من الكوفة في ثمانمائة فارس، ومعه محمد بن محمد بن زيد، ودخلها هرثمة فأمّن أهلها ولم يعرض إليهم، وكان هرثمة في سادس عشر المحرم

(١) صرصر: بالفتح وتكرير الصاد والراء: قريتان من سواد بغداد، صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى، وربما قيل نهر صرصر فنسب النهر إليهما، وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين. . . (معجم البلدان).

سنة مائتين فأتى القَادِسِيَّة، وسار منها إلى السُّوس[١] بخوزستان، فلقي مالاً قد حمل من الأهْوَاز فأخذه وقسمه بين أصحابه، فأتاه الحسن بن علي المأموني، فأمره بالخروج من عمله وكره قتاله، فأبى أبو السرايا إلا قتاله فقاتله، فهزمه المأموني وخرج وتفرّق أصحابه، وسار هو ومحمد بن محمد وأبو الشوك نحو منزل أبي السرايا برأس عين[٢]، فلما انتهوا إلى جلولاء ظفر بهم حماد الكَنْدَغُوش فأخذهم، وانتهى بهم إلى الحسن بن سهل وهو بالنهروان، فقتل أبا السرايا وبعث رأسه إلى المأمون، ونصب جثته على جسر بغداد، وسيّر محمد بن محمد إلى المأمون. وأما هرثمة فأقام بالكوفة يومًا واحدًا وعاد منها، واستخلف بها غَسَّان بن أبي الفَرَج، وسار علي بن أبي سعيد إلى البصرة فأخذها من العلويين، وكان بها زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي وهو الذي يسمى زيد النار، وإنما سمي بذلك لما أحرق بالبصرة من دور العباسيين وأتباعهم، وكان إذا أتى برجل من المُسَوِدة أحرقه، وأخذ أموالاً كثيرة من التجار، فلما وصل عليّ إلى البصرة استأمنه زيد فأمّنه، وبعث إلى مكة والمدينة جيشًا وأمرهم بمحاربة من بها من العلويين. وكان بين خروج أبي السرايا وقتله عشرة أشهر. نعود لمساق السنين.

ودخلت سنة مائتين.

في هذه السنة كان ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد وكان بمكة، فلما بلغه خبر أبي السرايا وما كان منه سار إلى اليمن، وبها إسحاق بن موسى بن عيسى عاملاً للمأمون، فلما بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار نحو مكة، واستولى إبراهيم على اليمن، وكان يسمى الجزّار لكثرة من قتل باليمن وسبي وأخذ الأموال، ثم وجّه رجلاً من ولد عُقَيل بن أبي طالب في جند ليحج بالناس، فسار العقيلي حتى أتى بستان ابن عامر، فبلغه أن أبا إسحاق المعتصم قد حجَّ في جماعة من القواد، وفيهم حَمْدَويه بن علي بن عيسى بن ماهان ـ وكان الحسن بن سهل قد استعمله على

(١) السوس: بضم أوله وسكون ثانيه وسين مهملة أخرى: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام، قال ابن المقفع: أول سور وضع في الأرض بعد الطوفان سور سوس وتستر.. وقيل: السوس: بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية... وقيل غير ذلك... (معجم ياقوت).

(٢) رأس عين: هي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخًا، فيها عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور... (معجم البلدان).

اليمن، فعلم العقيلي أنّه لا يقوى لهم فأقام ببستان ابن عامر، فاجتازت قافلة من الحاج ومعهم كسوة الكعبة وطيبها، فأخذ أموال التجار والكسوة والطيب، وقدم الحجاج مكة عراة منهوبين، فاستشار المعتصم أصحابه فقال الجُلُودي: أنا أكفيك ذلك، فانتخب مائة رجل وسار بهم إلى العقيلي، وقاتلهم فانهزم أصحاب العقيلي وأسر أكثرهم، وأخذوه كسوة الكعبة وأموال التجار إلا ما كان مع من هرب، وضرب الأسرى كل واحد عشرة أسواط وأطلقهم، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون الناس، فهلك أكثرهم في الطريق.

ذكر ما فعله الحسين بن الحسن الأفطس بمكة ومبايعة محمد بن جعفر وما كان من أمره وخلعه لنفسه

قد ذكرنا أن أبا السرايا كان قد بعث الحسين بن الحسن الأفطس إلى مكة في سنة تسع تسعين ومائة لما ظهر أمره، فدخل مكة فلما كان في المحرم من هذه السنة نزع الحسين كسوة الكعبة، وكساها كسوة أخرى كان قد أنفذها أبو السرايا من الكوفة من القز. قال: وتتبع الحسين ودائع بني العباس وأخذ أموال الناس بحجة الودائع، فهرب الناس منه وتطرق أصحابه إلى قلع شبابيك الحرم، وأخذ ما على الأساطين من الذهب ـ وهو نزر حقير، وأخذ ما في خزانة الكعبة فقسمه مع كسوتها في أصحابه، فلما بلغه قتل أبي السرايا. ورأى تغيّر الناس عليه لسوء سيرته وسيرة أصحابه، فأتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، وكان شيخًا محبّبًا في الناس مفارقًا لما عليه كثير من أهل بيته من قبح السيرة، وكان يروي العلم عن أبيه ويكتبه الناس عنه ويظهر الزهد، فلما أتوه قالوا: تعلم منزلتك من الناس فهلم نبايعك بالخلافة، فإن فعلت لم يختلف عليك رجلان، فامتنع من ذلك فلم يزل به ابنه عليّ وحسين بن الحسن الأفطس حتى غلباه على رأيه، فأجابهم فأقاموه في شهر ربيع الأول وبايعوه بالخلافة، وجمعوا له الناس فبايعوه طوعًا وكرهًا ونعتوه بأمير المؤمنين، فبقي شهورًا وليس له من الأمر شيء، وابنه عليّ وحسين بن حسن وجماعتهما أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح فعلاً، فوثب حسين بن حسن على امرأة من بني فهر كانت جميلة، وأرادها على نفسها فامتنعت، وأخاف زوجها وهو من بني مخزوم حتى توارى عنه، ثم كسر باب دارها وأخذها مدة ثم هربت منه، ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام أمرد ـ وهو ابن قاضي مكة اسمه إسحاق بن محمد، وكان

جميلاً فأخذه قهرًا، فاجتمع أهل مكة ومن بها من المجاورين فصاروا في جمع كبير، فأتوا محمد بن جعفر وقالوا: لنخلعنّك ولنقتلنّك أو لتردن علينا هذا الغلام، فأغلق بابه وكلّمهم من شباك، وطلب منهم الأمان ليركب إلى ابنه ويأخذ منه الغلام، وحلف أنّه لم يعلم به، فأمّنوه فركب إلى ابنه وأخذه منه وردّه إلى أبيه، ولم يلبثوا إلا يسيرًا حتى قدم إسحاق بن موسى العباسي من اليمن، فنزل المُشَاش[١] فاجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر وأعلموه ذلك، وحفروا خندقًا وجمعوا الناس من الأعراب وغيرهم، فقاتلهم إسحاق ثم كره القتال فسار نحو العراق، فلقيهم الجند الذين بعثهم هرثمة إلى مكة، ومعهم الجلودي ورجاء بن جميل فردّوه معهم، فقاتلوا الطالبيين فهزموهم، فطلب محمد بن جعفر الأمان فأمّنوه، ودخل العباسيون مكة في جُمادى الآخرة وتفرّق الطالبيون من مكة، وأما محمد بن جعفر فسار نحو الجُحْفَة[٢]، فأدركه بعض موالي بني العباس فأخذ جميع ما معه، وأعطاه دريهمات يتوصل بها، فسار نحو بلاد جُهَيْنة فجمع بها وقاتل هارون بن المسيّب والي المدينة عند الشجرة وغيرها، عدة وقعات فانهزم محمد وفقئت عينه بسهم، وقتل من أصحابه بشر كثير ورجع إلى موضعه، فلما انقضى الموسم طلب الأمان من الجلودي ومن رجاء بن جميل ـ وهو ابن عم الفضل بن سهل فأمّناه، وضمن له رجاء عن المأمون وعن الفضل الوفاء بالأمان، فقبل ذلك وأتى مكة لعشر بقين من ذي الحجة، فخطب الناس وقال إنني كان بلغني أن المأمون مات، وكانت له في عنقي بيعة، وكانت فتنة عمت الأرض، فبايعني الناس، ثم إنه صحَّ عندي أن المأمون حيّ صحيح وأنا أستغفر الله من البيعة وقد خلعت نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها ـ كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، فلا بيعة لي في رقابكم.

ثم سار في سنة إحدى ومائتين إلى العراق، فسيّره الحسن بن سهل إلى المأمون بمرو، فلما سار المأمون إلى العراق صحبه فمات بجرجان.

---

(١) المشاش: بالضم، قال عرّام: ويتصل بجبال عرفات جبل الطائف وفيها مياه كثيرة أو شال وعظائم قنيّ منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة... (معجم البلدان).

(٢) الجحفة: بالضم ثم السكون، والفاء: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل.. وقيل: الجحفة على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة، والجحفة أول الغور إلى مكة، وكذلك هي من الوجه الآخر إلى ذات عرق وأول الثغر من طريق المدينة أيضًا الجحفة... (معجم ياقوت).

ذكر مسيرة هرثمة إلى المأمون وقتله

قال: فلما فرغ هرثمة من أمر أبي السرايا رجع ولم يأت الحسن بن سهل، وسار إلى خراسان فأتته كتب المأمون في غير موضع، أن يأتي إلى الشام والحجاز، فقال: لا أرجع حتى ألقى أمير المؤمنين، إدلالاً منه عليه ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرّف المأمون ما يدبّر عليه الفضل بن سهل، وما يكتم عنه من الأخبار، وأنه لا يدع المأمون حتى ينتقل إلى بغداد ليتوسط سلطانه، فعلم الفضل بذلك فعاجله بالتدبير عليه، وقال للمأمون: إن هرثمة قد أنغل[1] عليك البلاد والعباد، ودسّ أبا السرايا ـ وهو من جنده ـ ولو أراد لم يفعل ذلك، وقد كتب إليه عدة كتب ليرجع إلى الشام والحجاز فلم يفعل، وقد جاء مشاقًا وإن أطلق كان هذا مفسدة لغيره، فتغير قلب المأمون وأبطأ هرثمة إلى ذي القعدة، فلما بلغ مروخشي أن يكتم قدومه عن المأمون، فأمر بالطبول فضربت لكي يسمعها المأمون فسمعها، فقال: ما هذا!!! قال: هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق، فأمر المأمون بإدخاله، فلما دخل قال له المأمون: مالأت[2] أهل الكوفة والعلويين، ووضعت أبا السرايا ولو شئت أن تأخذهم جميعًا لفعلت، فذهب هرثمة يتكلم ويعتذر، فلم يقبل قوله وأمر به فديس بطنه، وضرب أنفه وسحب من يديه وحمل إلى الحبس، فمكث أيامًا ثم دسّوا عليه من قتله وقالوا مات.

ذكر وثوب الحربيّة ببغداد

وفي هذه السنة كان الشغب ببغداد بين الحربيّة والحسن بن سهل، وسبب ذلك أن الحسن بن سهل كان بالمدائن لما شخص هرثمة إلى المأمون، فلما بلغ أهل بغداد ما صنعه المأمون بهرثمة بعث الحسن بن سهل إلى علي بن هشام ـ وهو والي بغداد من قبله ـ أن امطل الجند من الحربيّة أرزاقهم، وكانت الحربيّة قبل ذلك قد وثبوا وقالوا: لا نرضى حتى نطرد الحسن وعماله عن بغداد فطردوهم، وصيّروا إسحاق بن موسى بن المهدي خليفة للمأمون ببغداد، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ورضوا به، فدسّ الحسن إليهم وكاتب قوّادهم، حتى شغبوا من جانب عسكر المهدي، فحوّل

---

(١) أنغل: أفسد.

(٢) مالأه على الأمر: ساعده وعاونه.

الحربيّة إسحاق إليهم وأنزلوه على دُجَيْل[1]، وجاء زهير بن المسيّب فنزل في عسكر المهدي، وبعث الحسن بن سهل علي بن هشام في الجانب الآخر هو ومحمد بن أبي خالد، فدخلوا بغداد في شعبان، وقاتل الحربيّة ثلاثة أيام على قنطرة الصراة، ثم وعدهم رزق ستة أشهر إذا أدركت الغلّة، فسألوه تعجيل خمسين درهمًا لكل رجل منهم ينفقونها في شهر رمضان، فأجابهم إلى ذلك وجعل يعطيهم، ثم هرب علي بن هشام بعد جمعة من الحربية ونزل بصرصر، لأنه لم يفِ بالعطاء، وقام بأمر الحربيّة محمد بن أبي خالد لأن علي بن هشام كان يستخف به، فغضب من ذلك وتحول إلى الحربية وهزموا علي بن هشام من صرصر، وقيل: كان السبب في شغبهم أن الحسن بن سهل جلد عبد الله بن ماهان الحد، فغضب الحربيّة وخرجوا.

وحجّ بالناس في هذه السنة المعتصم.

ودخلت سنة إحدى ومائتين.

ذكر ولاية منصور بن المهدي بغداد

في هذه السنة أراد أهل بغداد أن يبايعوا المنصور بن المهدي بالخلافة، فامتنع من ذلك فأرادوه على الإمرة عليهم، على أن يدعو للمأمون بالخلافة فأجابهم إلى ذلك، وكان سبب ذلك أن أهل بغداد ـ لما أخرجوا علي بن هشام من بغداد واتصل حين إخراجه بالحسن بن سهل سار من المدائن إلى واسط، وذلك في أول هذه السنة، فاتبعه محمد بن أبي خالد مخالفًا له، وقد تولى القيام بأمر الناس، وولي سعيد بن الحسن بن قحطبة بالجانب الغربي ونصر بن حمزة بن مالك بالجانب الشرقي، وكان ببغداد منصور بن المهدي والفضل بن الربيع وخزيمة بن خازم، وكان الفضل بن الربيع مختفيًا كما تقدم إلى الآن، فلما رأى محمدًا قد بلغ واسط طلب منه الأمان فأمّنه، وظهر الفضل وسار محمد بن أبي خالد إلى الحسن على تعبئة، وقد تحوّل الحسن عن واسط، فوجّه إليه الحسن بن سهل قواده وجنده، فاقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم أصحاب محمد بعد العصر، وثبت هو حتى جرح جراحات شديدة، وانهزموا هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير، وذلك لسبع بقين من شهر ربيع الأول، ثم أتاه

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامرا فيسقي كورة واسعة وبلادًا كثيرة... ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس.. مخرجه من أرض أصبهان ومصبه في بحر فارس قرب عبّادان، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج، وفيه غرق شبيب الخارجي... (معجم البلدان لياقوت).

الحسن بن سهل واقتتلوا، حتى جنّهم الليل فرحل محمد وأصحابه ثم التقوا واقتتلوا مرة ثانية إلى الليل، فاشتدت جراحات محمد فحمله ابنه أبو زنبيل إلى بغداد، وخلف عسكره لست خلون من ربيع الآخر، ومات محمد بن أبي خالد فدفن في داره سرًّا، وأتى أبو زنبيل خزيمة بن خازم فأعلمه وفاة أبيه، فأعلم حزيمة الناس وقرأ عليهم كتاب عيسى بن محمد إليه، أنه قام بأمر الحرب مقام أبيه، ثم كان بين الحسن وبين أولاد محمد بن أبي خالد وقعات، وانتصر فيها أصحاب الحسن عليهم وهزموهم مرة بعد أخرى.

قال: ولما مات محمد قال بنو هاشم والقواد نصيّر منا خليفة ونخلع المأمون، ثم أتاهم خبر هزيمة أولاد محمد فجدّوا في ذلك، وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فأبى، فجعلوه خليفة للمأمون ببغداد والعراق، وقالوا: لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي الحسن بن سهل، وقال المنصور: أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم، أو يولّى من أحب فرضي به الناس، وعسكر بكَلواذَى[١].

ذكر البيعة بولاية العهد لعلي بن موسى الرضا

في هذه السنة جعل المأمون علي بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب رضي الله عنه ولي عهد المسلمين، والخليفة من بعده ولقبه الرضا من آل محمد ﷺ، وأمر جنده بطرح السَّوادَ ولبس الخُضْرة وكتب بذلك إلى سائر الآفاق، وذلك لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، فتكلم بنو العباس في ذلك وقال بعضهم لا نرضاه، وتكلموا في خلع المأمون والبيعة لإبراهيم بن المهدي، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح جبال طَبِرِسْتَان وأسر ملك الدَّيلَم[٢]

في هذه السنة افتتح عبد الله بن خُرَّداذْبه ـ والي طبرستان ـ البلازر والشيزر من بلاد الديلم، وافتتح طبرستان وأنزل شَهْريَار بن شَرْوين عنها، وأسر أبا ليلى ملك الديلم.

---

(١) كلواذى: طسوج قرب مدينة السلام بغداد وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وهي الآن خراب أثرها باق، بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر. . . (معجم البلدان).

(٢) الديلم: الموت؛ والديلم: الأعداء؛ والديلم: النمل الأسود؛ والديلم: جيل سموا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر وليس باسم لأب لهم. . قيل: الديلم في الإقليم الرابع. . وقال الحفصي: في العرقة من أرض اليمامة ماء يقال له الديلم وثم الدحرضان، وهما ماءان لبني حدان بن قريع. . . (معجم ياقوت).

وحجّ بالناس في هذه السنة إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي.

ودخلت سنة اثنتين ومائتين.

ذكر بيعة إبراهيم بن المهدي ببغداد وخلع المأمون

في هذه السنة بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك، وخلعوا المأمون وذلك في أول المحرم، وقيل لخمس مضين منه، وبايعه سائر بني هاشم، وكان المتولي لأمر البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، وكان سبب ذلك ما ذكرناه، من إنكار الناس ولاية الحسن بن سهل والبيعة لعلي بن موسى، فوضع العباسيون رجلًا في يوم جمعة يقول: إنّا نريد أن ندعو للمأمون ومن بعده لإبراهيم، ووضعوا من يجيبه: إنّا لا نرضى إلا أن تبايعوا لإبراهيم بن المهدي ومن بعده لإسحاق بن موسى الهادي وتخلعوا المأمون، ففعلوا ذلك فلم يصلّ الناس جمعة وتفرّقوا لليلتين بقيتا من ذي الحجة، ثم خلعوا المأمون وبايعوا لإبراهيم، وكان الذي سعى في هذا الأمر السندي وصالح صاحب المصلّى ونصير الوصيف وغيرهم، فلما فرغوا من البيعة وعد الجند رزق ستة أشهر، ودافعهم بها فشغبوا فأعطاهم لكل رجل مائتي درهم، وكتب لبعضهم على السواد بقيمة ما لهم حنطة وشعيرًا، فخرجوا في قبضها فانتهبوا الجميع، وأخذوا نصيب السلطان وأهل السواد. واستولى على الكوفة والسواد جميعه وعسكر بالمدائن. واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس بن موسى الهادي وعلى الجانب الشرقي منها إسحاق بن موسى الهادي.

ذكر أخبار إبراهيم بن المهدي وما استولى عليه من الأماكن وما كان من أمره إلى أن خلع واستتر

ذكر استيلائه على قصر ابن هبيرة والكوفة

قال: وكان بقصر ابن هبيرة حميد بن عبد الحميد عاملًا للحسن بن سهل، ومعه من القواد سعيد بن الساجور وأبو البط وغسّان بن أبي الفرج ومحمد بن إبراهيم الإفريقي وغيرهم، وكاتبوا إبراهيم على أن يأخذوا له قصر ابن هبيرة، وكانوا قد انحرفوا عن حميد، وكتبوا إلى الحسن بن سهل يخبرونه أن حميدًا يكاتب إبراهيم، وكتب حميد فيهم بمثل ذلك، فاستقدم الحسن حميد بن عبد الحميد فامتنع، وخاف - إن هو سار إليه - سلّم القواد ماله وعسكره إلى إبراهيم، فألحّ الحسن عليه بالطلب

فسار إليه في شهر ربيع الآخر، فكتب القواد إلى إبراهيم لينفذ إليهم عيسى بن محمد بن أبي خالد، فوجّه إليهم عيسى فانتهبوا ما في عسكر حميد، فكان مما أخذوا له مائة بدرة، وأخذ ابن حميد جواري أبيه وسار إليه وهو بعسكر الحسن، ودخل عيسى القصر لعشر خلون من شهر ربيع الآخر، فعاد الحسن إلى الكوفة فأخذ أموالها، واستعمل عليها العباس بن موسى بن جعفر العلوي، وأمره أن يدعو لأخيه علي بن موسى بعد المأمون، وأعانه بمائة ألف درهم وقال له: قاتل عن أخيك وأنا معك، فوجه إبراهيم إلى الكوفة سعيد بن الساجور وأبا البط لقتال العباس بن موسى، وكان العباس قد دعا أهل الكوفة فأجابه بعضهم، وأما الغلاة من الشيعة فقالوا: إن كنت تدعو لأخيك وحده فنحن معك، وأما المأمون فلا حاجة لنا فيه، فقال: إنما أدعو للمأمون وبعده لأخي، فقعدوا عنه؛ فلما أتاه سعيد وأبو البط نزلوا قرية شاهي[1]، بعث إليهم العباس ابن عمه علي بن محمد بن جعفر - وهو ابن الذي كان قد بويع له بمكة - وبعث معه جماعة، فاقتتلوا ساعة فانهزم العلوي وأهل الكوفة، ونزل سعيد وأصحابه الحيرة، وكان ذلك في ثاني جُمادى الآخرة، ثم تقدموا فقاتلوا أهل الكوفة، وخرج إليهم شيعة بني العباس ومواليهم فاقتتلوا إلى الليل، وكان شعارهم: يا إبراهيم يا منصور، لا طاعة للمأمون، وعليهم السواد وعلى أهل الكوفة الخضرة، ثم اقتتلوا من الغد فسأل رؤساء الكوفة سعيد بن الساجور الأمان للعباس وأصحابه فأمّنهم، على أن يخرجوا من الكوفة فأجابوا إلى ذلك، وأتوا العباس فأعلموه فقبل منهم وتحول عن داره، ثم شغب أصحابه على من بقي من أصحاب سعيد وقاتلوهم، فانهزم أصحاب سعيد إلى الخندق، ونهب أصحاب العباس دور عيسى بن موسى، وأحرقوا وقتلوا من ظفروا به، فأرسل العباسيون إلى سعيد بالحيرة يخبرونه أن العباس بن موسى قد رجع عن الأمان، فركب سعيد وأصحابه وأتوا الكوفة عتمة فقتلوا من ظفروا به ممن انتهب، ومكثوا عامة الليل، فخرج إليهم رؤساء الكوفة فأعلموهم أن هذا فعل الغوغاء، وأن العباس لم يرجع عن الأمان فانصرفوا عنهم، فلما كان الغد دخلها سعيد وأبو البط ونادوا بالأمان ولم يعرضوا لأحد، وولّوا الكوفة الفضل بن محمد بن الصباح الكندي، ثم عزلوه لميله إلى أهل بلده، واستعملوا غسان بن أبي الفرج ثم عزلوه، واستعملوا الهول ابن أخي سعيد، فلم يزل عليها حتى قدمها حميد بن عبد الحميد فهرب، ودام أمر إبراهيم بن المهدي إلى سنة ثلاث ومائتين ثم خلع.

---

(١) شاهي: موضع قرب القادسية.

ذكر خلع إبراهيم بن المهدي

وفي سنة ثلاث ومائتين خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي، وكان سبب ذلك أنه قبض على عيسى بن محمد بن أبي خالد، لأنه كان يكاتب حميد بن عبد الحميد والحسن بن سهل، ويظهر لإبراهيم الطاعة، وكان إبراهيم يأمره بالخروج لقتال حميد فيعتذر، أن الجند يطلبون أرزاقهم ومرة يقول حتى تدرك الغلة، إلى أن توثق عيسى من الجيش وفارقهم على أن يدفع إليهم إبراهيم بن المهدي في يوم الجمعة سلخ شوال، فجاء هارون بن محمد أخو عيسى فأعلم إبراهيم بذلك، وجاء عيسى إلى باب الجسر فقال للناس: إني قد سألت حميد بن عبد الحميد أن لا يدخل عملي ولا أدخل عمله، ثم أمر بحفر خندق باب الجسر وباب الشام، وبلغ إبراهيم قوله وفعله، وكان عيسى قد سأل إبراهيم أن يصلّي الجمعة بالمدينة، فأجابه إلى ذلك ثم حُذّر إبراهيم وأرسل إلى عيسى يستدعيه، فاعتلّ عليه فتابع رسله إليه فحضر عنده بالرصافة(١)، فلما دخل عليه عاتبه ساعة وعيسى يعتذر وينكر بعض ذلك، ثم أمر به إبراهيم فضرب وحبس، وأخذ عدة من قواده وأهله فحبسهم، ونجا بعضهم ومضى بعض من نجا إلى بعض، وحرّضوا الناس على إبراهيم، وكان أشدهم العباس ـ خليفة عيسى ـ فاجتمعوا وطردوا عامل إبراهيم على الجسر والكرخ وغيره، وكتب العباس إلى حميد يسأله أن يقدم عليهم، حتى يسلّموا إليه بغداد، فسار حميد حتى أتى نهر صرصر، وخرج إليه العباس وقوّاد بغداد فلقوه، وكانوا قد شرطوا عليه أن يعطي لكل جندي خمسين درهمًا، فأجابهم إلى ذلك ووعدهم أن يضع لهم العطاء يوم السبت في اليَاسِرِيَّة(٢)، على أن يدعوا للمأمون بالخلافة يوم الجمعة ويخلعوا إبراهيم فأجابوه إلى ذلك، ولما بلغ إبراهيم الخبر أخرج عيسى ومن معه من الحبس، وسأله أن يرجع إلى منزله ويكفيه هذا الأمر فأبى ذلك، فلما كان يوم الجمعة أحضر العباس ـ محمد بن أبي رجاء الفقيه ـ فصلى بالناس الجمعة ودعا للمأمون بالخلافة، وجاء حميد إلى الياسرية فعرض جند بغداد، وأعطاهم الخمسين التي وعدهم بها فسألوه أن ينقصهم

---

(١) الرصافة: رصافة بغداد: بالجانب الشرقي، لما بنى المنصور مدينته بالجانب الغربي واستتم بناءها أمر ابنه المهدي أن يعسكر في الجانب الشرقي وأن يبني له فيه دورًا وجعلها معسكرًا له فالتحق بها الناس وعمروها فصارت مقدار مدينة المتصور. . وكان إفراغ المهدي من بناء الرصافة والجامع بها في سنة ١٥٩هـ. . . (معجم البلدان).

(٢) الياسرية: مسوبة إلى ياسر اسم رجل: قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى، بينها وبين بغداد ميلان، وعليها قنطرة ملحية فيها بساتين، بينها وبين المحول ميل واحد. . . (معجم ياقوت).

عشرة عشرة، لما تشاءموا به من علي بن هشام حين أعطاهم الخمسين وقطع العطاء عنهم، فقال حميد: لا، بل أزيدكم عشرة، فلما بلغ ذلك إبراهيم دعا عيسى وسأله أن يقاتل حميدًا، فأجابه إلى ذلك فخلّى سبيله، وكلّم عيسى الجند ووعدهم أن يعطيهم مثل ما أعطاهم حميد فأبوا ذلك، فعبر إليهم عيسى وقواد الجانب الشرقي، ووعد أولئك الجند أن يزيدهم على الستين فشتموه، وقالوا: لا نريد إبراهيم، فقاتلهم ساعة ثم ألقى نفسه في وسطهم حتى أخذوه شبه الأسير، فأخذه بعض قوّاده فأتي به منزله ورجع الباقون إلى إبراهيم، فأخبروه بالخبر فاغتم لذلك.

ذكر اختفاء إبراهيم بن المهدي

كان سبب ذلك أن حميد بن عبد الحميد تحول فنزل عند أرحاء عبد الله بن مالك، فلما رأى أصحاب إبراهيم وقوّاده ذلك تسلّلوا فصار عامّتهم عنده، فأخرج إبراهيم جميع من بقي عنده فالتقوا واقتتلوا، فهزمهم حميد وتبعهم أصحابه حتى أدخلوهم بغداد، وذلك في سلخ ذي القعدة، فلما كان الأضحى اختفى الفضل بن الربيع ثم تحوّل إلى حميد، وجعل الهاشميون والقوّاد يأتون حميدًا واحدًا بعد واحد، فلما رأى إبراهيم ذلك سقط في يده، وبلغه أن أصحابه يريدون أن يسلموه إليهم فداراهم حتى جنّه الليل، واختفى ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، ولم يزل متواريًا حتى ظفر به المأمون في سنة عشر ومائتين على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وكانت أيام إبراهيم سنة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا، واستقر بعده علي بن هشام على شرقي بغداد، وحميد على غربيّها. نعود إلى بقية حوادث سنة اثنتين ومائتين خلاف أخبار إبراهيم بن المهدي.

ذكر مسير المأمون إلى العراق وقتل ذي الرئاستين الفضل بن سهل

وفي سنة اثنتين ومائة سار المأمون من مرو إلى العراق، واستخلف على خراسان غَسَّان بن عَبَّاد، وكان مسيره أن علي بن موسى الرضا أخبره ما الناس فيه من الفتنة منذ قتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار الناس وأهل بيته، وأن الناس قد نقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون مسحور مجنون، وأنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة، فقال له المأمون: لم يبايعوه بالخلافة وإنما صيّروه

أميرًا، يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذبه، وأنّ الحرب قائمة بين الحسن وإبراهيم، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه الفضل ومكاني وبيعتك لي من بعدك، فقال المأمون: ومن يعلم ذلك؟ فقال: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وغيرهم من وجوه العسكر، فأمر بإدخالهم فدخلوا فسألهم عما أخبر به علي بن موسى، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل أن لا يعرض إليهم، فضمن لهم ذلك وكتب لهم خطة به، فأخبروه بما أخبره به علي بن موسى، وأخبروه أن أهل بغداد يسمون إبراهيم الخليفة السنّي، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان علي بن موسى، وأعلموه ما الناس فيه وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه فقتله الفضل، وأنه إذا لم يتدارك أمره وإلا خرجت الخلافة من يده، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما يعلمه، وأخرج من الأمر كله وضعف أمره، وشغبت عليه جنده، وأنه لو كان ببغداد ضبط الملك، وأن الدنيا قد تفتّقت من أطرافها وأقطارها، وسألوه أن يخرج إلى بغداد فإن أهلها لو رأوه أطاعوه، فلما تحقق ذلك أمر بالرحيل فعلم الفضل بالحال، فضرب بعضهم وحبس بعضهم ونتف لحى بعضهم، فذكر علي بن موسى ذلك للمأمون، فقال: أنا أداري، ثم ارتحل، فلما أتى سرخس[1] وثب قوم بالفضل بن سهل فقتلوه في الحمام، وكان قتله لليلتين خلتا من شعبان، وكان الذين قتلوه أربعة: أحدهم غالب المسعودي الأسود، وقسطنطين الرومي، وفَرَج الديلمي، ومُوَفَّق الصقلبي وكان عمره ستين سنة، وهربوا بعد قتله فجعل المأمون لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن الهيثم الدينوري، فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضربت رقابهم، ثم أحضر عبد العزيز بن عمران وغيره، وسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل منهم وقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيّره مكانه، ورحل المأمون إلى العراق.

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، وفيها زوج المأمون ابنته أم حبيب من علي بن موسى الرضا، وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر، ودعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد.

---

(١) سرخس: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، بينها وبين كل واحدة منهما ست مراحل. . . (معجم البلدان).

ودخلت سنة ثلاث ومائتين.

ذكر وفاة علي بن موسى الرضا ولي العهد

كانت وفاته في آخر صفر بمدينة طوس[١]، وكان سبب ذلك أنه أكل عنبًا فأكثر منه فمات فجأة، وصلّى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد، وقيل إن المأمون سمّه في عنب، واستبعد ذلك جماعة وأنكروه. قال: ولما مات كتب المأمون إلى الحسن بن سهل يعلمه بموته، وما دخل عليه من المصيبة بموته، وكتب إلى أهل بغداد وبني العباس والموالي يعلمهم بموته، وأنهم إنما نقموا بيعته وقد مات، وسألهم الدخول في طاعته فأغلظوا له في الجواب، وكان مولد علي بن موسى بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة.

وحجّ بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي، وفيها غلبت السوداء على الحسن بن سهل وتغيّر عقله حتى شُدّ في الحديد وحبس، فكتب القواد إلى المأمون بذلك فجعل في عسكره دينار بن عبد الله.

ودخلت سنة أربع ومائتين.

ذكر قدوم المأمون بغداد

في هذه السنة قدم المأمون بغداد وانقطعت الفتن، وخرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس، وكان كتب إلى طاهر وهو بالرقة ليوافيه بالنهروان فأتاه بها، ودخل بغداد في منصتف صفر ولباسه ولباس أصحابه الخضرة، فنزل الرصافة ثم تحوّل فنزل قصره على شاطىء دجلة، وأمر القواد أن يقيموا في معسكرهم، وكان الناس يحرقون كل ملبوس يرونه من السواد على إنسان، فمكثوا ثمانية أيام كذلك، فتكلم بنو العباس وقواد خراسان، فقيل إنه أمر طاهر بن الحسين أن يسأل حوائجه، فكان أول حاجة سألها أن يلبس السواد، فأجابه إلى ذلك وجلس المأمون للناس وأحضر سوادًا فلبسه، ودعا بخلعة سوداء فألبسها طاهرًا، وخلع على قوّاده السواد، وذلك لسبع بقين من صفر منها.

---

(١) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه وبها قبل علي بن موسى الرضا... (معجم البلدان).

وفي هذه السنة أمر المأمون بمقاسمة أهل السواد على الخُمْسين، وكانوا يقاسمون على النصف. وحجّ بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، واستعمله المأمون على الحرمين، وفي هذه السنة أعني سنة أربع ومائتين مات الإمام محمد بن إدريس الشافعي(١) بمصر، ومولده سنة خمسين ومائة رحمه الله ورضي عنه.

ودخلت سنة خمس ومائتين.

ذكر ولاية طاهر بن الحسين خراسان

في هذه السنة استعمل المأمون طاهر بن الحسين على المشرق ـ من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق، وكان قبل ذلك يتولى الشرط بجانبي بغداد، فشخص طاهر من يومه وذلك لليلة بقيت من ذي القعدة، وقدم طاهر البلد فأقام شهرًا فحمل إليه عشرة آلاف ألف درهم التي تحمل لصاحب خراسان، وجعل المأمون على الشرط عبد الله بن طاهر بعد أبيه وحجّ بالناس عبيد الله العلوي.

ودخلت سنة ست ومائتين.

ذكر ولاية عبد الله بن طاهر الرَّقَة وغيرها

في هذه السنة ولّى المأمون عبد الله بن طاهر من الرقة إلى مصر، وأمره بحرب نصر بن شبث، وقال له: يا عبد الله إني أستخير الله منذ شهر وأكثر وأرجو أن يكون قد خار لي، وقد ولّيتك هذه الأعمال ومحاربة نصر بن شَبَث، فقال: السمع والطاعة، وأرجو أن يجعل الله لأمير المؤمنين الخيرة وللمسلمين، فعقد له، وقيل كانت ولايته سنة خمس ومائتين، ولما سار استخلف على الشرط إسحاق بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب ـ وهو ابن عمه، وسار عبد الله إلى عمله، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وحجّ بالناس عبيد الله العلوي.

---

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، القرشي المطلبي الشافعي، يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف المذكور، وباقي النسب إلى عدنان معروف... كان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر، منقطع القرين، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنّة الرسول ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء... (وفيات الأعيان ٤: ١٦٣).

ودخلت سنة سبع ومائتين.

في هذه السنة خرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عَكّ[(١)] من اليمن، يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ، وكان سبب خروجه أن عمّال اليمن أساؤوا السيرة في الناس، فبايعوا عبد الرحمٰن فوجّه المأمون إليه دينار بن عبد الله في جيش كثيف، وكتب معه بأمانه، فحضر دينار الموسم وحجّ بالناس، ثم سار إلى اليمن فبعث إلى عبد الرحمٰن بأمانه فقبله، ودخل في طاعة المأمون ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه، وأمرهم بلبس السواد.

ذكر وفاة طاهر بن الحسين أمير خراسان واستعمال ابنه طلحة

كانت وفاته في جُمادى الأولى من هذه السنة، قال كُلثوم بن ثابت بن أبي سعيد: كنت على بريد خراسان، فلما كان في سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة، فصعد طاهر المنبر فلما بلغ ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، وقال: اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك، واكفها مؤونة من بغى عليها وحشد فيها، بلمّ الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين، قال: فقلت في نفسي أنا أول مقتول لأني لا أكتم الخبر، فانصرفت فاغتسلت غسل الموتى وتكفّنت، وكتبت إلى المأمون، فلما كان العصر دعاني طاهر، وحدث به حادث في جفن عينيه فسقط ميتًا، فخرج إليّ ابنه طلحة فقال: هل كتبت بما كان؟ قلت: نعم، قال: فاكتب بوفاته وبقيام طلحة بأمر الجيش، فوردت الخريطة على المأمون بخلعه، فدعا أحمد بن أبي خالد فقال: سر فإيت بطاهر ـ كما زعمت وضمنت، وكان هو قد أشار على المأمون بولاية طاهر خراسان وضمنه، فقال: يا أمير المؤمنين أبيت الليلة، قال: لا، فلم يزل به حتى أذن له في المبيت، ووافت الخريطة الأخرى ليلاً بموته، فدعاه فقال: قد مات طاهر فمن ترى؟ قال: ابنه طلحة، قال: اكتب بتوليته فكتب بذلك؛ ولما ورد الخبر بموت طاهر قال المأمون: لليدين والفم، الحمد لله لذي قَدّمه وأخّرنا. وكان طاهر أعور وفيه يقول بعضهم:

يا ذا اليمينين وعين واحده ... نقصان عين ويمين زائده

---

(١) علكّ: بفتح أوله: قبيلة باليمن يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك.. قيل: سميت بعك حين نزولها، واشتقاقها في اللغة جائز أن يكون من العك وهو شدة الحر... (معجم البلدان).

وكان لقبه ذا اليمينين وكنيته أبا الطيب. وقيل إن المأمون استعمل على أعمال طاهر ابنه عبد الله، فسيّر إلى خراسان أخاه طلحة، وكان عبد الله بالرقة يحارب ابن شبث، فلما وجّه طلحة إلى خراسان سيّر المأمون إليه أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره، فعبر أحمد إلى ما وراء النهر وافتتح أُشْرُوسَنَة[١]، وأسر كَاوُس بن خَارْخَرَه وابنه الفضل وبعث بهما إلى المأمون، ووهب طلحة لأحمد بن أبي خالد ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضًا بألفي ألف درهم، ووهب لإبراهيم بن العباس كاتبه خمسمائة ألف.

وحجّ بالناس في السنة أبو عيسى بن الرشيد.

ودخلت سنة ثمان ومائتين.

في هذه السنة سار الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى كرمان[٢] فعصى بها، فسار إيه أحمد بن أبي خالد فأخذه، وأتى به المأمون فعفا عنه، وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن الرشيد.

ودخلت سنة تسع ومائتين.

في هذه السنة حصل الظفر بنصر بن شبث، وقد قدمناه في أخباره. وحجّ بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي.

ودخلت سنة عشر ومائتين.

في هذه السنة ظفر المأمون إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة ومحمد بن إبراهيم الإفريقي ومالك بن شاهي ومن كان معهم ممن سعى في بيعة إبراهيم بن المهدي، فأقيم ابن عائشة على باب دار المأمون ثلاثة أيام في الشمس، ثم ضربه بالسياط وحبسه، وضرب مالك بن شاهي وأصحابهما، ثم قتل ابن عائشة وابن شاهي ورجلين من أصحابهما صبرًا[٣]، وصلب ابن عائشة - وهو أول عباسي صلب في الإسلام، ثم أنزل وكفّن وصلّى عليه ودفن بمقابر قريش.

---

(١) أشروسنة: بالضم ثم السكون، وضم الراء، وواو ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، ونون، وهاء: هي بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند، بينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: هي ولاية مشهورة، وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... وكرمان أيضًا: مدينة بين غزنة وبلاد الهند، وهي من أعمال غزنة بينهما أربعة أيام أو نحوها... (معجم ياقوت).

(٣) قتله صبرًا: حبسه حتى مات.

ذكر ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر أخذ إبراهيم بن المهدي، وهو متنقّب في زي امرأة بين امرأتين، أخذه حارس أسود ليلاً وقال له ولهنّ: أين تردن في هذا الوقت؟! فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان في يده، فاستراب منه الحارث ورفعهن إلى صاحب المسلحة[١]، فأمرهنّ أن يسفرن عن وجوههنّ، فامتنع إبراهيم فجذبه فبدت لحيته، فدفعه إلى صاحب الجسر فعرفه، فذهب به إلى باب المأمون وأعلمه به، فأمره بالاحتفاظ به إلى باكر النهار، فلما كان الغد أقعد إبراهيم في دار المأمون. والمقنعة[٢] في عنقه والملحفة على صدره ليراه بنو هاشم والناس، ويعلموا كيف أخذ، ثم حوّله إلى أحمد بن أبي خالد فحبسه عنده، ثم شفع فيه الحسن بن سهل ـ وقيل ابنته بوران لما بنى بها المأمون. وقيل إن إبراهيم لما أخذ حمل إلى دار أبي إسحاق المعتصم، وكان المعتصم عند المأمون فحمل رديفًا لفرج التركي، فلما دخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم، فقال: يا أمير المؤمنين وليّ الثأر محكّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار ـ بما مدّ له من أسباب الشقاء ـ أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك، فقال: بل أعفو يا إبراهيم، فكبّر وسجد. وقيل بل كتب إبراهيم هذا الكلام إلى المأمون وهو مختف، فوقّع المأمون في رقعته: القدرة تذهب الحفيظة[٣] والندم توبة وبينهما عفو الله عزّ وجلّ، وهو أكبر ما نسأله، فامتدحه إبراهيم بن المهدي بقصيدته التي هي: [من الكامل]

يا خير من رفلت يمانيه به ... بعد النبيّ لآيسٍ أو طامع[٤]
وأبرّ من عبد الإله على التقى ... غيبًا وأقوله بحقٍّ صادع[٥]
عسل الفوارع ما أُطِعت فإن تُهَجْ ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع[٦]
متيقظًا حذرًا وما تخشى العدى ... نبهان من وسنان ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافةً ... وتبيت تكلؤهم بقلبٍ خاشع
بأبي وأمّي فديةٌ وبنيهما ... من كل معضلة وريب واقع

---

(١) المسلحة: القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للحافظة.
(٢) المقنعة: القناع الذي تغطي به المرأة رأسها.
(٣) المراد بالحفيظة هنا: التقية والحذر، أو الحرز يعلق على الصبي.
(٤) رفل في ثوبه: أطاله وجره متبخترًا.
(٥) صدع الأمر: بيّنه وجهر به وهو صادع.
(٦) السم الناقع: البالغ القاتل.

منها:

نفسي فداؤك إذ تضلّ معاذري ... وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملًا لفضلك والفواضل شَيْمةٌ ... دفعت بناءك للمحلّ اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله ... وسعُ النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمّن لم يكن عن مثله ... عفوٌ ولم يشفع إليك بشافع
إلاّ العلو عن العقوبة بعدما ... ظفرت يداك بمستكينٍ خاضع
فرحمت أطفالاً كأفراخ القطا ... وعويل عانسة كقوس النازع[(١)]
الله يعلم ما أقول فإنّها ... جهد الألية من حنيفٍ راكع[(٢)]
ما إن عصيتك والغواة تقودني ... أسبابها إلاّ بنيّة طائع
حتى إذا علقت حبائل شقوتي ... بردّى إلى حفر المهالك هائع[(٣)]
لم أدر أنّ لمثل جرمي غافرًا ... فوقفت أنظر أيّ حتف مصارعي
ردّ الحياة عليّ بعد ذهابها ... ورع الإمام القادر المتواضع

ومنها:

كم من يدٍ لك لم تحدّثني بها ... نفسي إذا آلت إليّ مطامعي
أسديتها عفوًا إليَّ هنيئةً ... وشكرت مصطنعًا لأكرم صانع
إنّ الذي قسم الخلافة حازها ... من صلب آدم في الإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها ... وحوى رداؤك كلّ خيرٍ جامع

قال: فلما أنشدها قال المأمون: أقول كما قال يوسف لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده عن محمد بن عمرو الأنباري قال: لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي أحب أن يوبّخه على رؤوس الناس، فجيء بإبراهيم يحجل[(٤)] في قيوده، فوقف على طرف الإيوان وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين

---

(١) القطا: جمع القطاة، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ويتخذ أفحوصه في الأرض، ويطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقط. والنازع: الرامي بالسهم.
(٢) الألية: العجيزة. والحنيف: المسلم أو الحاج.
(٣) الرجل الهائع: الضعيف، والليل الهائع: المظلم.
(٤) حجل المقيد: وثب في مشيه.

ورحمة الله وبركاته، فقال له المأمون: لا سلّم الله عليك ولا حفظك ولا كلأك ولا رعاك يا إبراهيم، فقال له: على رسلك يا أمير المؤمنين، فلقد أصبحت وليّ ثأري، والقدرة تذهب الحفيظة، ومن مدّ له الاغترار في الأمل هجمت به الأناة على التلف، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذي ذنب، كما أن عفوك فوق كل ذي عفو. ومن رواية أخرى أنّه قال: وقد أصبحت فوق كل ذي ذنب، كما أصبح كل ذي عفو دونك، فإن عاقبت فبحقك وإن تعف فبفضلك، قال: فأطرق مليًا ثم رفع رأسه فقال: إن هذين أشارا عليّ بقتلك، فالتفت فإذا العباس بن المأمون والمعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين أما حقيقة الرأي في معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به، وما غشّاك إذ كان منّي ما كان، ولكنّ الله عوّدك من العفو عادة جريت عليها، دافعًا ما تخاف بما ترجو، فكفاك الله يا أمير المؤمنين، فتبسّم المأمون ثم أقبل على ثُمَامَة فقال: إن من الكلام ما يفوق الدر ويغلب السحر، وإنّ كلام عمي منه، أطلقوا حديده وردّوه إليّ مكرّمًا، فلما ردّ إليه قال: يا عم، صر إلى المنادمة وارجع إلى الأنس، فلن ترى مني أبدًا إلا ما تحب، فلما كان من الغد بعث إليه بدرج(١) فيه هذه القصيدة التي تقدّم ذكرها، لكن اختصرها أبو الفرج فذكر بعضها، فلما قرأها المأمون بكى وقال عليّ به فخلع عليه، وأمر له بخمسة آلاف دينار، ودعا بالفرّاش فقال له: إذا رأيت عمي مقبلاً فاطرح له متكأً، وكان ينادمه لا ينكر منه شيئًا. قال أبو الفرج: ورُوي بعض هذا الخبر عن محمد بن الفضل الهاشمي، فقال فيه: لما فرغ المأمون من خطابه دفعه إلى ابن أبي خالد الأحْوَل، وقال: هذا صديقك فخذه إليك، قال: وما تغني صداقتي عنه وأمير المؤمنين ساخط عليه، أما إني ـ وإن كنت صديقًا له ـ لا أمتنع عن قول الحق فيه، قال له: قل فإنك غير متّهم، فقال ـ وهو يريد التسلّق على العفو عنه ـ: إن قتلته فقد قتلت الملوك قبلك أقل جرمًا منه وإن عفوت عنه عفوت عمن لم يُعف قبلك عن مثله، فسكت المأمون ساعة ثم تمثل: [من الكامل الأحذّ]

قومي هُمُ قتلوا أميمَ أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفونْ جللاً ... ولئن سطوت لأوهننْ عظمي

خذه إليك يا أحمد مكرّمًا، فانصرف به ثم كتب إلى المأمون قصيدته المذكورة، فلما قرأها رقّ له وأمر بردّه إلى منزله، وردّ ما قبض من أملاكه وماله. وفي خبر عن أبي داود أن المأمون تقدّم إلى محمد بن يَزْداد ـ لما أطلق إبراهيم ـ أن يمنعه من داريْ

(١) الدرج: سفيط توضع فيه الأشياء، وأصله للمرأة تضع فيه خفّ متاعها وطيبها.

الخاصة والعامة، ووكل به رجلاً من قبله يثق به ليعرفه أخباره وما يتكلّم به، فكتب إليه الموكل أن إبراهيم ـ لما بلغه المنع من داري الخاصة والعامة ـ تمثّل: [من البسيط]

يا سرحة الماء قد سدّت مواردها أما إليك طريقٌ غير مسدود
لحائمٍ حامَ حتّى لا حيامَ بهِ مُحَلأٍ عن طريق الماء مِردود

فلما قرأها المأمون بكى وأمر بإحضاره من وقته مكرّمًا، وأنزله في مرتبته، فلما دخل على المأمون قبّل البساط وقال: [من البسيط]

البرّ بي منك وطّا العذر عندك لي دون اعتذاري فلم تعذر ولم تلم
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي مقام شاهد عدلٍ غير متّهم
رددت مالي ولم تمنن عليّ به وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فبؤتُ منك وقد كافأتها بيدٍ هي الحياتان من موت ومن عدم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به فلا عدمناك من عارف ومنتقم

فقال: اجلس يا عم آمنًا مطمئنًا. فلن ترى أبدًا منّي ما تكرهه، إلا أن تحدث حدثًا أو تتغير عن طاعة، وأرجو ألا يكون ذلك إن شاء الله تعالى. وروى الفضل بن مروان قال: لمّا دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون ـ لما ظفر به ـ كلّمه بكلام، كان سعيد بن العاص كلّم به معاوية بن أبي سفيان في سخطة سخطها عليه واستعطفه به، وكان المأمون يحفظ الكلام فقال المأمون: هيهات يا إبراهيم، هذا كلام سبقك به فحل بني أميّة وقارحهم[1] سعيد بن العاص وخطب به معاوية بن أبي سفيان، فقال له إبراهيم: يا أمير المؤمنين وأنت أيضًا إن عفوت فقد سبقك فحل بني حرب وقارحهم إلى العفو، فلا تكن حالي عندك في ذلك أبعد من حال سعيد عند معاوية، فإنك أشرف منه وأنا أشرف من سعيد، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية، وإنّ أعظم الهجنة تسبق أميّة هشامًا إلى مكرمة فقال له: صدقت يا عم قد عفوت عنك.

ذكر بناء المأمون ببُورَان ابنة الحسن بن سهل

في هذه السنة بنى المأمون بها في شهر رمضان، وكان المأمون قد سار من بغداد إلى فَمِ الصُّلح إلى معسكر الحسن، فنزله وزفت إليه بوران، فلما دخل إليها

(١) القارح من ذي الحافر: ما استتم الخامسة وسقطت سنه التي تلي الرباعية ونبت مكانها نابه.

المأمون كان عندها حَمْدُونَة بنت الرشيد وأم جعفر زُبَيْدة والدة الأمين وجدّتها ـ أم الفضل وأم الحسن ابني سهل، فلما دخل نثرت عليه جدّتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون، فأمر المأمون بجمعه وأعطاه لبوران، وقال: سلي حاجتكِ فأمْسَكَتْ، فقالت جدّتها: سلي سيدك فقد أمرك، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي، فقال: قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر في الحج فأذن لها، وألبستها أم جعفر البدنة[١] اللؤلؤ الأموية، وأوقد المأمون في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منّا[٢]، وأقام المأمون عند الحسن سبعة عشر يومًا، يعدّ له كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه، وخلع الحسن على القوّاد على مراتبهم وحملهم ووصلهم، وكتب الحسن أسماء ضياعه ونثرها. وحكى عبد الملك بن عبد الله بن عبدون الحضرمي الشبلي، في كتابه المترجم بكمامة الزهر وصدفة الدرر، قال حكى إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي قال: قال لي المأمون يومًا: هذا يوم سرور، ثم قال للغلمان: خذوا علينا الباب وأحضروا بالشراب، فبقينا بقية يومنا في أنس وشرب، فلما كان الليل قال لي: يا إسحاق إني أريد الصَّبُوح، فكن بمكانك حتى أدخل إلى الحرم وأخرج إليك، فاستبطأت خروجه فقلت: اشتغل وغلب عليه النبيذ ونسيني، وكانت عندي جارية بكر كنت اشتريتها فتطلعت لها نفسي، فنهضت فقال لي العبد: قد انصرف عبدك بدابتك، فمشيت فلما صرت ببعض الطريق أحسست بالبول، فعدلت عن الطريق وقضيت حاجتي، فلما أردت أن أستجمر[٣] عدلت إلى حائط، وإذا بزنبيل[٤] كبير معلّق، قد ألبس بالديباج وفيه أربعة أحبل من الإبريسم[٥]، فقلت: إنّ له لأمرًا، ثم تجاسرت وجلست فيه فجذب، وإذا أربع جوار يقلن بالسعة: أصديق أم جديد؟ فقلت جديد، فسارت إحداهن بين يدي حتى أدخلتني إلى مجلس لم أرَ مثله، فجلست في أدنى مجالسه، وإذا بوصائف بأيديهن الشمع والمجامر يتبخّر فيها العود[٦]، وبينهنّ جارية كالبدر الطالع ذات دّل وشكل، فنهضت لدخولها فقالت مرحبًا بالضيف، وسألتني عن دخولي، فقلت: عن غيرما قصد، قالت فما السبب؟ قلت انصرفت من عند بعض

---

(١) البدنة: الناقة أو البقرة، تنحر بمكة قربانًا. والمراد هنا: الثوب يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين.

(٢) المن: معيار قديم كان يكال به أو يوزن، وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان.

(٣) استجمر الرجل: استنجى بالجمار.

(٤) الزبيل والزنبيل: الجراب، وقيل الوعاء يحمل فيه، فإذا جمعوا قالوا زنابيل وقيل: الزنبيل خطأ وإنما هو زنبيل، وجمعه زبل وزبلان. والزبيل: القفة. . . (اللسان مادة زبل).

(٥) الإبريسم: أحسن الحرير.

(٦) العود: ضرب من الطيب يتبخر به.

أصحابي فلما رأيت الزنبيل حملني النبيذ على الدخول فيه، قالت: فما صناعتك؟ قلت: بزّاز[1]، قالت: ومولدك؟ قلت: بغداد، قالت: من أي الناس؟ قلت: من أوسطهم، قالت: حيّاك الله، هل رويت من الأشعار شيئًا؟ قلت: شيء ضعيف، قالت: فذاكرني، قلت: إن للداخل دهشة، ولكن ابدأيني فالشيء بالمذاكرة، قالت: هل تحفظ قصيدة فلان التي يقول فيها كذا وكذا، فأنشدتني لجماعة من الشعراء القدماء والمحدثين، وأنا مستمع أنظر من أي أحوالها أعجب: من حسنها أو من حسن إنشادها أو من حسن أدبها أو ضبطها للغريب من النحو واللغة!! ثم قالت: قد ذهب عنك بعض الحصر، قلت: إن شاء الله لقد كان ذلك، قالت: فأنشدني، فأنشدتها فجعلت تسألني عن أشياء تمرّ في الشعر كالمختبرة، ثم قالت: والله ما قصّرتَ ولا توهمتُ أن فيك هذا!! لا رأيت في أبناء التجار مثلك! فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس؟! قلت: نظرت في شيء من ذلك، فأمرت بإحضار الطعام فأكلنا، ثم أحضرت نبيذًا فشربت قدحًا، وقالت: هذا أوان المذاكرة، فاندفعت وقلت: بلغني كذا وكذا، وكان رجل من قصّته كذا وكذا، فسرّت بذلك، وقالت: ليس هذا من أمر التجار، وإنما هي من أحاديث الملوك، قلت: إنه كان لي جار ينادم بعض الملوك فكنت أدعوه في بعض الأوقات إلى منزلي، فما تسمعين منّي فمن عنده أخذته، قالت: يمكن هذا!! ثم قالت: لو كان عندك شيء واحد لكنت كاملًا! فحرك بعض الملاهي أو ترنّم، قلت: لا أحسن من هذا شيئًا على أني مولع بسماعه، فقالت: يا جارية ـ عودي، فضربت فأحسنت وغنّت غناءً بديعًا، ثم قالت: هذا الغناء لإسحاق، فلم تزل على ذلك حتى إذا كان عند الفجر قالت: المجالس بالأمانات، ثم أُخذت وأُخرجت إلى باب صغير، فانتهيت إلى داري فأرسل المأمون إليّ فمشيت إليه، وبقيت عنده إلى وقت البارحة ودخل إلى حرمه، فخرجت إلى ذلك الموضع ودخلت الزنبيل، فقالت: ضيفنا!! قلت: منوا بالصفح، قالت: فعلنا ولا تعد، فلما كان عند الصباح فعلت فعلة البارحة، وخرجت فأتيت المأمون، فقال: أين كنت!! فاعتذرت إليه، فلما كان الليل صنع صنعه وصنعت كذلك، فلما دخلت في الزنبيل قالت: ضيفنا!! قلت: اي ها الله!!، قالت: أجعلتها دار مقام!! قلت: الضيافة ثلاث فإن رجعت فأنت من دمي في حلّ، فلما كان عند الوقت أفكرت في المأمون، وعلمت أنّه لا يخلصني منه إلا أن أخبره، وعلمت من شغفه بالنساء أنه يطالبني بالمشي إليها، فقلت: جعلت فداك ـ أتأذنين في ذكر شيء حضر؟ قالت: قل، قلت: أراك ممّن يحب الغناء ويشغف

(١) البزاز: بائع البز، وهو نوع من الثياب أو السلاح.

بالأدب، ولي ابن عم هو من أهل الشعر والأدب والغناء، هو أعرف خلق الله بغناء إسحاق، الذي سمعتك تثنين عليه، فقالت: طفيلي ويقترح، قلت: إنما ذكرت ذلك لك وأنت المحكّمة، قالت: فإذا كان كما ذكرت فما نكره أن نعرفه، قلت: فالليلة، قالت: نعم، ثم انصرفت على عادتي فلما وصلت داري أتاني رسول المأمون، فمشيت إليه وهو حنق عليّ، فقال: يا إسحاق آمرك بشيء فلا تقف عنده، وكان لا يدخل إلى حرمه حتى يأمرني بانتظاره، فأتذكّر مجالسة الجارية فأنسى عقوبته، فقلت: لي قصّة أحتاج فيها إلى خلوة، فأومأ بيده إلى من كان واقفًا فتنحّوا، فذكرت له القصة فلما فرغت من كلامي قال: كيف لي بمشاهدة ذلك الموضع؟ قلت: قد علمت أنك تطالبني بهذا، وقد قلت لها لي ابن عم من صنعته ومن حديثه، ثم جلسنا على عادتنا في الأيام الخوالي - وهو يسألني عن حديثها، فلما جاء الليل صرنا إلى ذلك الموضع، فألفينا فيه زنبيلين فدخل في واحد ودخلتُ في الآخر، فلما صرنا في البيت جلست في صدره، وجلس المأمون دوني، فلما أتت قالت: حيّا الله ضيفينا بالسلام، ثم رفعت مجلسه وقالت: هذا ضيف وأنت من أهل البيت، ولكل جديد لذّة، فجلس المأمون في صدر البيت وأقبلت عليه تحدثه، وهو يأخذ معها في كل فن فيسكتها، فالتفتت إليّ وقالت: وفّيت بوعدك، ثم أحضرت النبيذ وجعلنا نشرب وهي مقبلة عليه، ثم قالت: وابن عمك هذا من أولاد التجار؟! إنّ حديثكما وأدبكما لمن أدب الملوك، وليس للتجار هذه المنزلة في الأحاديث والآداب، ثم قالت لي: موعدك؟ قلت: إنه ليجيب ولكن حتى يسمع شيئًا، فأخذت العود وغنّت فشربنا عليه رطلاً ثم ثانيًا وثالثًا، فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال ارتاح وطرب، وكان الصوت الثالث ما تقترحه عليّ أبدًا، فلما سمعه نظر إليّ نظر الأسد إلى فريسته، وقال لي: يا إسحاق غنّ لي هذا الصوت، فلما رأتني وقفت بين يديه علمت أنّه المأمون وأنّني إسحاق، فنهضت فقال لها: هاهنا وأومأ إلى كلّة(١) مضروبة فدخلتها، فلما فرغت من ذلك الصوت قال: يا إسحاق: انظر من صاحب هذه الدار؟ فسألت عجوز فقالت الحسن بن سهل وهذه ابنته بوران، فرجعت فأعلمته فقال: عليّ به الساعة فأحضرته فوقف بين يديه فقال: لك بنت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: زوجنيها، قال هي أمتك وأمرها إليك، قال: فإني أتزوّجها على ثلاثين ألفًا نحملها إليك صبيحة غد، فإذا وصل إليك المال فاحملها إلينا، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، ثم نهض وفتح الباب وخرجنا، فلما صرنا إلى الدار قال لي: يا إسحاق لا يقفنّ أحد على ما وقفت عليه

(١) الكلة: ستر رقيق مثقب يتوقى به من البعوض وغيره.

فإن المجالس بالأمانات، فقلت: يا أمير المؤمنين ـ ومثلي يحتاج إلى وصية! قال: فلما أصبحنا أمر بحمل المال إليه، ونقلت إليه من يومها، قال إسحاق: فما فُهت بالخبر إلا بعد موت المأمون.

قال ابن عبدون: وذكر أنّه لما أراد أن يعرس بها أمر بإخراج الفساطيط والقباب، وأن تضرب على ضفّة دجلة في موضع منخفض، وخرج وجوه الناس لحضور ذلك وعامّة الناس للتنزه، وكانت النفقة من عند الحسن بن سهل على كل من حضر. قال: وكان عدد الملاحين منهم خاصة أرباب الزلاليات والزواريق وما شاكلها ـ الذين يحملون الناس في مراكبهم إلى موضع العرس ـ عشرة آلاف، ويقال إنّه لما بسطت القبّة التي دخل فيها المأمون على بوران خَيّر الحسن الخاصة ـ ممّن حضر ذلك العرس ـ بين مائة دينار وحلّة أو قبضة من أرض تلك القبّة، فيقال إن القابض بكفّه من أرض القبّة كان أرجح ممن أخذ مائة دينار وحلّة، فإنه ربما كان يخرج من قبضته حجر ياقوت أو حجر زمرّد أو درّة نفيسة تساوي أضعاف ذلك القدر.

ذكر مسير عبد الله بن طاهر إلى مصر وفتحها وفتح الإسكندرية

وفي سنة عشر ومائتين سار عبد الله بن طاهر إلى مصر وافتتحها، واستأمن له عُبيد الله بن السَّرِي، وكان سبب مسيره أن عبيد الله بن السري كان قد تغلّب على مصر وخلع الطاعة، وخرج جمع من الأندلس فغلبوا على الإسكندرية، واشتغل عبد الله بن طاهر عنهم بحرب نصر بن شَبَث، فلما فرغ منه سار نحو مصر، فلما قرب منها قَدّم قائدًا من قوّاده إليها لينظر موضعًا يعسكر فيه، وكان ابن السري قد خندق على مصر، فاتصل الخبر به فخرج إلى القائد وقاتله قتالاً شديدًا، والقائد في قلة فسيّر بريدًا إلى عبد الله بن طاهر يخبره، فحمل عبد الله الرجال على البغال وجنّبوا الخيل، وأسرعوا السير فلحقوا القائد وهو يقاتل، فلما رأى ابن السرّي ذلك لم يثبت بين أيديهم، وانهزم وتساقط أكثر أصحابه في الخندق، فهلك منهم بالسقوط أكثر ممّن قتل بالسيف، ودخل ابن السري مصر وأغلق الباب، وحاصره عبد الله فأرسل إليه في الليل ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار، فردّهم ابن طاهر وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهارًا لقبلتها ليلاً ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦ و٣٧]، فعندها طلب ابن السري الأمان فأمّنه، ثم بعث عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية يؤذن الذين

تغلّبوا عليها بالحرب أو الدخول في الطاعة، وكانوا قد أقبلوا من الأندلس في مراكب، والناس في تلك الفتن التي ذكرناها، فأرسوا بالإسكندرية وتغلّبوا عليها، وكان رئيسهم يدعى أبا حَفْص، فلما أتتهم رسالته سألوا الأمان، على أن يرحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الإسلام، فأمّنهم على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزية اِقْرِيطِش(١)، واستوطنوها وأعقبوا وتناسلوا.

قال: وبعث ابن طاهر عبيد الله بن السري إلى بغداد، فقدمها في سنة إحدى عشرة ومائتين، وأنزل مدينة المنصور، وأقام ابن طاهر بمصر واليًا عليها وعلى الشام وعلى الجزيرة، إلى أن نقل إلى خراسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وروى أبو الفرج الأصفهاني أنّ المأمون أعطى عبد الله بن طاهر مال مصر لسنة خراجها وضياعها، فوهبه كله وفرّقه في الناس، ورجع صفرًا من ذلك فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه وأنشد أبياتًا قالها في هذا المعنى يقول منها: [من البسيط]

إليك أقبلتُ من أرضٍ أقمتُ بها حولين بعدك في شوقٍ وفي ألم
أقفو مساعيَكَ اللاّتي خُصصت بها حذو الشّراك على مثْلٍ من الأدم
وكان فضليَ فيها أنّني تبعٌ لما سننت من الإنعام والنعم
ولو وكلت إلى نفسي غنيت بها لكنْ بدأت فلم أعجز ولم أُلَمِ

فضحك المأمون وقال: والله ما نفست عليك بمكرمة نلتها، ولا أحدوثة حسن عنك ذكرها، ولكن هذا شيء إذا عوّدته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لمّ شعثك وإصلاح حالك؛ وزال ما كان في نفسه. قال: وكان المال الذي فرّقه عبد الله بن طاهر ـ وهو على المنبر ـ ثلاثة آلاف ألف دينار، أجاز بها قبل نزوله عن المنبر، قال: معلّى الطائي ـ وقد بلغه ما صنع عبد الله بن طاهر ـ فقال: أصلح الله الأمير، أنا معلّى الطائي وقد بلغ منّي ما كان منك إليّ من جفاء وغلظ، فلا يغلظنّ على قلبك، ولا يستخفنّك الذي بلغك، فأنا الذي أقول: [من البسيط]

لو يصبح النيل يجري ماؤه ذهبًا لما أشرت إلى خزنٍ بمثقال
تُغْلي بما فيه رقُّ الحمد تملكه وليس شيءٌ أعاض الحمد بالغالي

في أبيات أخر، قال: فضحك عبد الله وسرّ بما كان منه، وقال: يا فلان أقرضني عشرة آلاف دينار ـ فما أمسيت أملكها ـ فأقرضه، فدفعها إليه.

(١) إقريطش: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى. . . (معجم ياقوت).

ذكر خلع أهل قُمّ(١) المأمون وما كان من أمرهم

في هذه السنة خلع أهل قمّ المأمون ومنعوا الخراج، وكان سبب ذلك أن المأمون لما سار من خراسان إلى العراق أقام بالري عدة أيام، وأسقط عنهم شيئًا من خراجهم، فطمع أهل قمّ أن يضع عنهم كذلك، فكتبوا إليه يسألونه الحطيطة[٢]، وكان خراجهم ألفي ألف درهم، فلم يجبهم المأمون إلى ما سألوا فامتنعوا من أدائه، فوجّه المأمون إليهم علي بن هشام وعُجَيْف بن عَنْبَسَة فحاربوهم فظفروا بهم، وقتل يحيى بن عمران وهدم سور المدينة وجباها على سبعة آلاف ألف درهم، وكانوا يتظلمون من ألفي ألف درهم.

وحجّ بالناس صلاح بن العباس بن محمد أمير مكة.

ودخلت سنة إحدى عشرة ومائتين.

في هذه السنة قتل السيد بن أَنَس الأَزْدِي أمير الموصل، وسبب قتله أن زُرَيق بن علي بن صَدَقَة الأزدي الموصليّ كان قد تغلّب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان، وجرى بينه وبين الرشيد حروب كثيرة، فلما كان في هذه السنة جمع زُرَيق جمعًا كثيرًا، قيل كانوا أربعين ألفًا، وبعثهم إلى الموصل لحرب السيد فخرج إليهم في أربعة آلاف، فالتقوا واقتتلوا فحمل السيد بنفسه وكانت عادته، وحمل عليه رجل من أصحاب زريق، فقتل كل منهما صاحبه. ولما بلغ المأمون قتله غضب لذلك، وولّى محمد بن حميد الطوسي حرب زُرَيق وبَابِك الخُرَّمي، واستعمله على الموصل. وفيها قدم عبد الله بن طاهر بغداد، فتلقاه العباس بن المأمون والمعتصم وسائر الناس. وفيها أمر المأمون مناديًا برئت الذمّة ممّن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ.

وحجّ بالناس صالح بن العباس وهو أمير مكة.

---

(١) قم: بالضم، وتشديد الميم، وهي كلمة فارسية: مدينة تذكر مع قاشان، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري، وبها آبار ليس في الأرض مثلها عذوبة وبردًا. . . (معجم البلدان).

(٢) الحطيطة: ما يحط من جملة الحساب فينقص منه.

ودخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين.

ذكر استيلاء محمد بن حميد على الموصل

قد قدّمنا أن المأمون استعمله على حرب بابك الخُرَّمي، وأمره أن يجعل طريقه على الموصل ليصلح أمرها، ويحارب زريق بن علي، فسار إلى الموصل ومعه جيشه، وجمع فيها الرجال من اليمن وربيعة وسار نحوه، فالتقوا على الزاب فدعاه محمد إلى الطاعة فامتنع، فناجزه واقتتلوا فانهزم زريق وأصحابه،ثم أرسل بطلب الأمان فأمّنه محمد، فنزل إليه وسيّره إلى المأمون، وكتب المأمون إلى محمد يأمره بأخذ ما لزريق من قرى ورستاق[١] ومال وغيره، يأخذ ذلك لنفسه، فجمع محمد أولاد زريق وإخوته وأهله وأخبرهم بما أمر به المأمون، فأطاعوه لذلك، ثم قال لهم: إن أمير المؤمنين قد أمر لي به، وقد قبلته ورددته عليكم فشكروه؛ ثم سار إلى أذربيجان واستخلف على الموصل محمد بن السيد، وقصد المخالفين المتغلبين على أذربيجان، فأخذهم وسيّرهم إلى المأمون، وسار لمحاربة بابك.

وفيها أظهر المأمون القول بخَلْق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب على جميع الصحابة رضي الله عنهم، وكان ذلك في شهر ربيع الأول.

وحجّ بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين.

في هذه السنة ولّى المأمون ابنه العباس الجزيرة والثُّغُور والعَوَاصِم، وولّى أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام ومصر، وأمر لكل واحد منهما ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف درهم.

وفيها خلع عبد السلام وابن جَلِيس المأمون بمصر في القيسية واليمانية، وظهرا بها ووثبا بعامل المعتصم وهو عُمَيْر بن الوليد البَاذَغِيسي، فقتلاه في شهر ربيع الأول سنة أربع عشرة، فسار المعتصم إلى مصر وقاتلهما فقتلهما وافتتح مصر واستقامت أمورها، واستعمل عليها عماله.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس.

---

(١) الرستاق والرزداق: موضع فيه مزدرع وقرى أو بيوت مجتمعة.

ودخلت سنة أربع عشرة ومائتين.

في هذه السنة قتل محمد الطوسي في حرب بابك، فلما بلغ خبر قتله المأمون استعمل عبد الله بن طاهر على قتاله.

ذكر استعمال عبد الله بن طاهر على خراسان

في هذه السنة استعمل المأمون عبد الله بن طاهر على خراسان، فسار إليها وكان أخوه طلحة مات بخراسان في سنة ثلاث عشرة، فولى خراسان علي بن طاهر خليفة لأخيه عبد الله، وكان عبد الله بالدِّينَور[١] فجهّز العساكر إلى بابك، فأوقع الخوارج بخراسان بأهل قرية الحمراء من نِيسَابُور، فأكثروا فيهم القتل فاتصل ذلك بالمأمون، فأمر عبد الله بالمسير إليها.

وحجّ بالناس في هذه السنة إسحاق بن العباس بن محمد.

ودخلت سنة خمس عشرة ومائتين.

ذكر غَزاة المأمون إلى الروم

في هذه السنة سار المأمون من بغداد لغزو الروم في المحرم، واستخلف على بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب، وولاه مع ذلك السواد وحُلْوان وكور دجلة، وسار المأمون على طريق الموصل إلى مَنْبِج، ثم إلى دَابق[٢] ثم إلى أنْطَاكِيَة ثم إلى المَصِّيصَة[٣] وطَرَسُوس، ودخل منها إلى بلاد الروم في جُمادى الأولى، ودخل ابنه العباس من مَلَطْيَة، فأقام المأمون على حصن قُرَّة[٤] حتى افتتحه عنوة وهدمه لأربع بقين من جُمادى الأولى، وقيل إنه فتحه بالأمان، وفتح قبله حصن ماجدة بالأمان، ووجّه إشْنَاس إلى حصن سُنْدُس فأتاه برئيسه، ووجّه عُجَيْفًا وجعفرًا الخيّاط إلى حصن سِنَان[٥] فسمع وأطاع، وتوجّه المأمون بعد خروجه من بلاد الروم إلى دمشق.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل... (معجم ياقوت).

(٢) دابق: قرية قرب حلب من أعمال عزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ.

(٣) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس.

(٤) القرة: قرية قريبة من القادسية.

(٥) حصن سنان: في بلاد الروم.

ودخلت سنة ست عشرة ومائتين.

ذكر فتح هِرَقْلَة

في هذه السنة عاد المأمون إلى بلاد الروم، وسبب ذلك أنه بلغه أن ملك الروم قتل ألفًا وستمائة من أهل طرسوس والمصّيصة، فسار حتى دخل أرض الروم في جُمادى الأولى، إلى منتصف شعبان، وقيل كان سبب دخوله إليها أن ملك الروم كتب إليه بدأ بنفسه، فسار إليه ولم يقرأ كتابه، وسار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح، ووجّه أخاه أبا إسحاق المعتصم فافتتح ثلاثين حصنًا ومَطْمُورة ووجه يحيى بن أكثم من طَوَانة[١] فأغار وقتل وسبى وحرق ورجع، ثم عاد المأمون إلى دمشق.

وفيها ظهر بمصر عَبْدُوس الفهري، ووثب على عمال المعتصم فقتل بعضهم في شعبان، فسار المأمون من دمشق إلى مصر في منتصف ذي الحجة، فوصل إليها في المحرم سنة سبع عشرة فأتى بعبدوس الفهري فضرب عنقه، وعاد إلى الشام، وفيها قدم الأفْشِين من برقة إلى مصر، فأقام بها ثم كان من أمره وتمكّنه ما نذكره، وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم يأمره بأخذ الجند بالتكبير إذا صلّوا، فبدؤوا بذلك في منتصف شهر رمضان، فقاموا قيامه وكبّروا ثلاثًا، ثم فعلوا ذلك في الصلوات المكتوبة، وفيها ماتت أم جعفر زبيدة ابنة جعفر بن المنصور أم الأمين.

وحجّ بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان وقيل عبد الله بن عبيد الله.

ودخلت سنة سبع عشرة ومائتين.

وفي هذه السنة ظفر الأفْشِين بالفَرَمَا[٢] من أرض مصر، ونزل أهلها بأمان على حكم المأمون، وفيها قتل المأمون علي بن هشام، وكان قد استعمله على أذربيجان والجبال وقمّ وأصفهان في سنة أربع عشرة، فبلغ المأمون أنّه ظلم وأخذ الأموال وقتل الرجال، فوجّه إليه المأمون عُجَيف بن عَنْبَسة في سنة ست عشرة، فثار به علي بن هشام وأراد قتله واللحاق ببابك، فظفر به عُجَيف وقدم به على المأمون فقتله، وقتل أخاه حسينًا في جُمادى الأولى، وطيف برأس عليّ في العراق وخراسان والشام ومصر، ثم ألقي في البحر.

---

(١) طوانة: بلد بثغور المصيصة.

(٢) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر.. وقيل: الفرما: حصن على ضفة البحر لطيف لكنه فاسد الهواء وخمه... (معجم البلدان).

وفيها عاد المأمون إلى بلاد الروم، فأناخ عجيف على لُؤْلُؤة[(١)] مائة يوم، ثم رحل عنها فخدع أهلها عجيفًا حتى أسروه، وبقي عندهم ثمانية أيام ثم أخرجوه؛ وجاء تُوفِيل ـ ملك الروم ـ فأحاط بعجيف فسيّر المأمون إليه الجنود فارتحل ملك الروم قبل موافاتهم. وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بأمان.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.

ودخلت سنة ثماني عشرة ومائتين.

ذكر المحنة بالقرآن المجيد

في هذه السنة كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد في امتحان القضاة والفقهاء والمحدّثين بالقرآن، فمن أقرّ أنه مخلوق محدث خلى سبيله، ومن أبى أعلمه به ليأمر فيه برأيه، وطوّل كتابه بإقامة الدليل على خلق القرآن وكان الكتاب في شهر ربيع الأول، وأمره بإنفاذ سبعة نفر منهم محمد بن سَعْد كاتب الواقدي[(٢)]، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن مَعِين وأبو خَيْثَمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن أبي مَسْعود، وأحمد الدَّوْرَقي، فأشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن القرآن، فأجابوا جميعًا أن القرآن مخلوق فأعادهم إلى بغداد، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث، فأقروا بذلك فخلّى سبيلهم، وورد كتاب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم بامتحان القضاة والفقهاء، فأحضر أبا حَسَّان الزِّيَادِي، وبشْر بن الوَليد الكِنْدي[(٣)]، وعلي بن أبي مُقاتِل، والفضل بن غانم، والذَّيَّال بن الهَيْثَم وسَجَّادة، والقَوَارِيري، وأحمد بن حَنْبَل، وقُتَيْبَة، وسَعْدَوَيْه الوَاسِطي، وعلي بن الجَعْد، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهِرْشِ، وابن عُليّة الأكبر، ويحيى بن عبد الرحمٰن العُمَري، وشيخًا آخر من ولد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ـ كان قاضي الرقة، وأبا نصر التَّمَّار، وأبا مَعْمَر القَطِيعي، ومحمد بن

---

(١) لؤلؤة: ماء بسماوة كلب. ولؤلؤة: قلعة قرب طرسوس غزاها الملك المأمون وفتحها. ولؤلؤة الكبيرة: محلة كبيرة بدمشق خارج باب الجابية سكنها جماعة من الرواة. . . (معجم ياقوت).

(٢) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبي ﷺ. . . (وفيات الأعيان ٤: ٣٤٨).

(٣) هو بشر بن الوليد الكندي القاضي العلامة أبو الوليد. . تفقه على أبي يوسف وسمع من مالك وطبقته وولي قضاء مدينة المنصور، وكان محمود الأحكام كثير العبادة والنوافل. . . (شذرات الذهب ٢: ٨٩).

حاتم بن مَيْمون، ومحمد بن نُوح المضروب، وابن الفَرُّخَان، وجماعة منهم النَّضْر بن شُمَيْل، وابن علي بن عاصم، وأبو العَوَّام البَزَّاز، وابن شُجَاع، وعبد الرحمٰن بن إسحاق، فأدخلوا جميعًا على إسحاق فقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: قد عرف أمير المؤمنين مقالتي غير مرّة، قال: قد تجدّد من كتاب أمير المؤمنين ما ترى، قال: أقول القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ قال: الله خالق كل شيء، قال: والقرآن شيء؟ قال: نعم، قال: فمخلوق هو؟ قال: ليس بخالق، قال: ليس عن هذا سألتك ـ أمخلوق هو؟ قال: ما أُحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلّم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك، فأخذ إسحاق رقعة فقرأها عليه، فقال: أشهد أنّ لا إله إلا الله أحد فرد، لم يكن قبله شيء ولا يشبهه شيء من خلقه، في معنى من المعاني ووجه من الوجوه، قال للكاتب: اكتب ما قال. ثم قال لعلي بن أبي مُقاتل: ما تقول؟ قال: قد سمعت كلامي في هذا لأمير المؤمنين غير مرّة، وما عندي غيره، فامتحنه بالرقعة فأقرّ بما فيها، ثم قال له: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، قال: لم أسألك عن هذا، قال: القرآن كلام الله، فإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعناه وأطعنا، فقال للكاتب اكتب مقالته؛ ثم قال للذَّيَّال نحوًا من مقالته لعلي بن أبي مقاتل، فقال مثل ذلك؛ ثم قال لأبي حَسَّان الزيادي: ما عندك؟ قال: سل عمّا شئت، فقرأ عليه الرقعة فأقرّ بما فيها، قال: ومن لم يقل هذا القول فهو كافر، فقال له: القرآن مخلوق؟ قال: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وأمير المؤمنين إمامنا، وبسببه سمعنا عامّة العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقلّده الله أمرنا فصار يقيم حجّتنا وصلواتنا، ونؤدي إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته، فإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا، قال: والقرآن مخلوق؟ فأعاد مقالته، قال إسحاق: فإن هذه مقالة أمير المؤمنين، فقال: قد تكون مقالته ولا يأمر بها الناس، وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول، قلت ما أمرتني به، فإنّك الثقة فيما أبلغتني عنه، قال: ما أمرني أن أبلغك شيئًا، فقال أبو حسّان: وما عندي إلا السمع والطاعة، فَأْمُرْني أأْتمر، فقال: ما أمرني أن آمركم، وإنما أمرني أن أمتحنكم؛ ثم قال لأحمد بن حنبل[1]: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله ما أزيد عليها، فامتحنه بالرقعة، فلما أتى إلى ﴿لَيۡسَ

---

(١) أحمد بن حنبل: هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب.. يعود نسبه إلى معد بن عدنان، الشيباني المروزي الأصل... (وفيات الأعيان ١: ٦٣).

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأمسك عن لا يشْبِهُهُ شَيءٌ مِنْ خَلْقِه في معنىً مِن المَعَاني ولا وجه من الوجوه فاعترض عليه ابن البَكَّاء الأصغر فقال: أصلحك الله ـ إنه قول سميع من أذن، بصيرمن عين، فقال إسحاق لأحمد: ما معنى قولك سميع بصير؟ قال: كما وصف نفسه، قال: فما معناه؟ قال: لا أدري ـ هو كما وصف نفسه، ثم دعاهم رجلاً رجلاً ـ كلهم يقول القرآن كلام الله إلا قُتَيْبة، وعُبيد الله بن محمد بن الحسن، وابن عُلَيَّة الأكبر، وابن البَكَّاء، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن مُنَبِّه، والمُظَفَّر بن مُرَجًّا، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر، فأمّا ابن البكاء فإنّه قال: القرآن مجعول لقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، والقرآن محدث لقوله عزّ وجل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قال إسحاق: فالمجعول مخلوق، قال: نعم، قال: والقرآن مخلوق قال: لا أقول مخلوق ولكنَّه مجعول، فكتب مقالته ومقالات القوم ووجّهها إلى المأمون، فأجاب المأمون يذمّهم ويذكر كلاً منهم ويعيبه وقع فيه بشيء، وأمره أن يحضر بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي ويمتحنهما، فإن أجابا وإلا ضرب أعناقهما، وأما من سواهما فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن، وإلا حملهم موثقين بالحديد إلى عسكره مع نفر يحفظونهم، فأحضرهم إسحاق وأعلمهم بما أمر المأمون فأجاب القوم كلهم إلا أربعة نفر: منهم أحمد بن حنبل، وسَجَّادة، والقَواريري، ومحمد بن نوح المضروب، فأمر بهم إسحاق فشدّوا في الحديد، فلما كان الغد دعاهم في الحديد وأعاد عليهم المحنة، فأجاب سجَّادة والقواريري، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما، فشدّوا في الحديد ووجّههما إلى طرسوس، وكتب إلى المأمون بتأويل القوم فيما أجابوه، فأجابه المأمون أنّه بلغني عن بشر بن الوليد أنّه تناول الآية التي أنزلها الله عزّ وجل في عمّار بن ياسر ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] فقد أخطأ التأويل، إنما عنى الله تعالى بهذه الآية من كان معتقدًا للإيمان مظهرًا للشرك، وأما من كان معتقدًا للشرك مظهرًا للإيمان فليس هذا له، فأشخصهم جميعهم إلى طرسوس ليقيموا بها إلى أن يخرج أمير المؤمنين من بلاد الروم، فأحضرهم إسحاق وسيَّرهم جميعًا إلى العسكر وهم: أبو حسان الزيادي، وبشر بن الوليد، والفضل بن غانم، وعلي بن أبي مقاتل، والذيّال بن الهيثم، ويحيى بن عبد الرحمٰن العمري، وعلي بن الجعد، وأبو العوّام، وسجّادة، والقواريري، وابن الحسن بن علي بن عاصم، وإسحاق بن أبي إسرائيل، والنضر بن شميل، وأبو نصر التمّار، وسعدويه الواسطي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، وأبو معمر بن الهرش، وابن الفرخان، وأحمد بن شجاع، وأبو هارون بن البكّاء، فلما صاروا إلى الرقة بلغهم موت المأمون فرجعوا إلى بغداد.

ذكر وفاة أبي العباس المأمون

كانت وفاته بالبَذَنْدون[١] من أرض الروم لثمان خلون من شهر رجب، وقيل لاثنتي عشرة بقيت منه، سنة ثماني عشرة ومائتين، وكان ابتداء مرضه لثلاث عشرة خلت من جُمادى الآخرة منها؛ وكان سبب مرضه ما ذكره سعيد بن العَلاَّف القَارِىء، قال: دعاني المأمون يومًا فوجدته جالسًا على شاطىء البذندون، والمعتصم عن يمينه، وقد دلّيا أرجلهما في الماء، فأمرني أن أضع رجليّ في الماء، وقال: ذقه ـ هل رأيت أعذب منه! أو أصفى أو أشد بردًا؟ ففعلت وقلت ما رأيت قط مثله، فقال: أي شيء أن يؤكل ويشرب عليه هذا الماء؟ فقلت: أمير المؤمنين أعلم، فقال: الرطب الآزاد[٢]، فبينما هو يقول ذلك إذ سمع وقع لجم البريد، فالتفت فإذا بغال البريد عليها الحقائب فيها الألطاف، فقال لخادم: انظر إن كان في هذه الألطاف رطب آزاذ فأت به؟ فمضى وعاد ومعه سلّتان فيهما منه، كأنما جني تلك الساعة، فأظهر شكر الله تعالى وتعجبنا جميعًا، وأكلنا وشربنا من ذلك الماء، فما قام منّا أحد إلا وهو محموم، ودامت العلة بالمأمون حتى مات، ولمّا اشتدت عليه قال لأبي إسحاق: يا أبا إسحاق أُدن منّي واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة ـ إذا طوّقكها الله ـ عمل المريد لله، الخائف من عذابه وعقابه، ولا تغتر بالله ومهلته، ولا تغفل أمر الرعية الرعية ـ العوامّ العوامّ فإنّ الملك بهم وبتعهدك لهم، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين، ولا ينتهينّ إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدّمته وآثرته على غيره من هواك، وخذ من أقويائهم لضعفائهم، ولا تحمل عليهم في شيء، وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم، وعجّل الرحلة عنّي إلى دار ملكك بالعراق، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت، والخرّمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود، فإن طالت مدّتهم فتجرّد لهم فيمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمَلاً مقدم النية فيه راجيًا ثواب الله عليه، ثم دعاه بعد ساعة حين اشتد وجعه وأحسّ بمجيء أمر الله، فقال: يا أبا إسحاق عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ لتقومنّ بحق الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعة الله على معصيته، إذا أنا نقلتها من غيرك

(١) بذندون: بفتحتين، وسكون النون، ودال مهملة، وواو ساكنة، ونون: قرية بينها وبين طرسوس يوم من بلاد الثغر، مات بها المأمون فنقل إلى طرسوس ودفن بها. . . (معجم البلدان).

(٢) الآزاذ: نوع جيد من التمر.

إليك، قال: اللهم نعم، قال: هؤلاء بنو عمّك ولد أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة عند محلّها، فإنّ حقوقهم تجب من وجوه شتى، اتقوا الله ربكم حق تقاته، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون، واتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها، أستودعكم الله ونفسي أستغفر الله بما سلف منّي إنّه كان غفّارًا، فإنّه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي فعليه توكّلت من عظيمها وإليه أنيب، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسبي الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على محمد نبي الهدى والرحمة.

قال: ولما اشتد مرضه وحضره الموت كان عنده ابن مَاسَوَيْه[١]، فجاء من يلقنه فعرض عليه الشهادة، فقال الطبيب: دعه فإنه لا يفرّق في هذه الحال بين ربه وماني[٢]، ففتح المأمون عينيه وأراد أن يبطش به فعجز، وأراد الكلام فعجز عنه، ثم قال: يا من لا يموت ارحم من يموت، ومات من ساعته. ولما توفي حمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس، فدفناه بها بدار خاقان خادم الرشيد، وصلّى عليه المعتصم ووكلوا به حرسًا من أبناء طرسوس وغيرهم - مائة رجل، وأجرى لكل منهم تسعين درهمًا. وكان مولده للنصف من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرون يومًا، سوى تلك المدة التي كان فيها الاختلاف بينه وبين أخيه الأمين محصور.

ذكر صفته وشيء من أخباره وسيرته

كان المأمون ربعة[٣] أبيض طويل اللحية دقيقها قد وخطه[٤] الشيب، وقيل كان أسمر تعلوه صفرة أجنى[٥] أعين ضيّق الجبهة بخده خال أسود، وهو أول من اتخذ الأتراك للخدمة وتغالى في أثمانهم، فكان يشتري الواحد منهم بمائة ألف ومائتي ألف درهم، وكان يحب سماع أخبار الناس، حتى جعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز

(١) ابن ماسويه: هو أبو زكريا يحيى أو يوحنا، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل... (الفهرست).

(٢) ماني: هو متنبيء زعم أنه الفارقليط الذي بصر به عيسى عليه السلام، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية، وكان يقول: إن مبدأ العالم من كونين أحدهما نور والآخر ظلمة، وإنهما في صراع مستمر لا ينتهي إلا بانتهاء الدنيا.

(٣) الربعة: الوسيط القامة.

(٤) وخطه الشيب: أي فشا فيه، أو استوى سواده وبياضه.

(٥) الأجنى: الذي خرج ظهره ودخل صدره.

وسبعمائة عجوز، وكان كريمًا وقّع في يوم واحد بثلاثمائة ألف دينار، وكان يقول: لو علم الناس ما عندي من حلاوة العفو لما تقرّبوا إليّ إلا بالذنوب. وقال العتبي(١) صاحب إسحاق بن إبراهيم: كنت مع المأمون بدمشق، وكان المأمون قد قلّ عنده المال حتى ضاق وشكى ذلك إلى المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، كأنّك بالمال وقد وافاك بعد جمعة، وكان قد حمل إليه من خراج ما يتولاه ثلاثون ألف ألف درهم، فلما ورد عليه المال قال ليحيى بن أكثم: اخرج بنا ننظر إلى هذا المال، فخرجا ينظرانه وكان قد هيّىء بأحسن هيئة وحلّيت أباعره(٢)، فنظر المأمون إليه واستكثره واستبشر به الناس، فقال المأمون: يا أبا محمد ـ نتصرف بالمال ويرجع أصحابنا خائبين!! إنّ هذا للؤم، ودعا محمد بن يزداد فقال له: وقّع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بمثلها، فما زال كذلك حتى فرّق أربعة وعشرين ألف ألف ـ ورجله في الركاب، ثم قال: ادفع الباقي إلى المُعَلى يعطيه جندنا، قال: فقمت نصب عينه فلما رآه وقّع لي بخمسين ألفًا فقبضتها.

وكان أمر المأمون نافذًا من إفريقية المغرب إلى أقصى خراسان وما وراء النهر وولاية السند، وقدم ملك التبت ومعه صنم من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر فأسلم الملك، وأخذ المأمون الصنم وأرسله إلى الكعبة وكتب إليه ملك الهند مع هدية نفيسة أهداها إليه، من دهمى ـ ملك الهند وعظيم أركان المشرق، وصاحب بيت الذهب وأبواب الياقوت وفرش الدّر ـ الذي قصره مبني من العود(٣) الذي يختم عليه، فيقبل الصورة قبول الشمع، والذي تؤخذ رائحة قصره من عشرة فراسخ ـ والذي يسجد أمام البد(٤)، الذي وزنه ألف ألف مثقال من ذهب، عليه مائة ألف حجر من الياقوت الأحمر والدرّ الأبيض ـ الذي يركب في ألف مركب وألف راية مكللة بالدرّ، تحت كل راية ألف فارس معلّمين بالذهب والحرير ـ والذي في مربطه ألف

(١) العتبي: هو أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، الشاعر البصري المشهور، كان أديبًا فاضلاً شاعرًا مجيدًا وكان يروي الأخبار وأيام العرب... (وفيات الأعيان ٤ :٣٩٨).

(٢) الأباعر: جمع البعير، وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل.

(٣) العود: هو الأعالوجي والنيجوج واليلنجوج وهو نبت صيني يكون بجزائر الهند وهو أصناف، المندلي فالسمندوري فالقماري فالسحالة، وهو أشجار وقيل غصون توجد في نفس الأشجار لا كلها وأجوده الأسود الثقيل المر البراق الطيب الرائحة... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٤) البد: الصنم، أو بيت الصنم.

فيل، حزائمها أعنة الذهب ـ والذي يأكل في صحاف الذهب على موائد الدرّ، والذي في خزانته ألف تاج وألف حلّة جوهر لألف ملك من آبائه، والذي يستحيي من الله أن يراه خائنًا في رعيته، إذ خصّه بالأمانة عليهم والرياسة فيهم ـ إلى عبد الله ذي الشرف والرياسة على أهل مملكته، في كلام طويل في آخره ـ وقد افتتحنا إهداءك بأن وجّهنا إليك كتابًا، ترجمته صفوة الأذهان، وكانت الهديّة جام[١] ياقوت أحمر، فتحه شبر في غلظ الأصبع مملوءًا درًّا، وزن كل درّة مثقال ـ والعدد مائة، وفراشًا من جلد حيّة بوادي الدهراج تبلغ الفيل، ووشي جلدها دارات سود كالدراهم، في أوساطها نقط بيض، لا يتخوف من جلس عليه مرض السلّ، وإن كان به سلّ وجلس عليه سبعة أيام برىء، وثلاث مصليات من جلد السمندل[٢] فراوزها درّ، ومائة مثقال من العود الهندي يختم عليه فيقبل الصورة، وثلاثة آلاف منّ[٣] من الكافور المحبّب، كل حبّة أكبر من اللوزة، وجارية طولها سبعة أذرع تسحب شعرها، طول كل شفر من أشفار عينيها أصبع، تبلغ إذا أطرقت نصف خدّها، ناهدًا لها ثمان عكن[٤]، في نهاية الحسن والجمال ونقاء البشرة؛ وكان الكتاب من لحاء شجر الكادي[٥]، لونه إلى الصفرة والخط باللازورد مفتح بالذهب. فأجابه المأمون من عبد الله الإمام أمير المؤمنين ـ الذي وهب الله له ولآبائه الشرف بابن عمه النبيّ المرسل ﷺ وأعلى ذكره، والمصدّق بالكتاب المنزل ـ إلى ملك الهند وعظيم من تحت يده من أركان المشرق، سلام عليك ـ وأهدى له هديّة وهي فرس بفارسه، وجميع آلاته عقيق، ومائدة جزع[٦] فيها خطوط سود وحمر وخضر على أرض بيضاء، فتحها ثلاثة أشبار وغلظها أصبعان، قوائمها ذهب، وثمانية أصناف من بياض مصر وخز السُّوس ووشي اليمن ومُلحم

---

(١) الجام: إناء للطعام وللشراب من فضة أو نحوها، وقد غلب استعمالها في قدح الشراب.

(٢) السمندل: حيوان من رتبة البرمائيات، صغير الجسم غالبًا يشبه الغطاءة في شكلها العام أو هو طائر بالهند لا يحترق بالنار فيما زعموا.

(٣) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن، وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان: والرطل عندهم اثنتا عشرة أوقية بأواقيهم.

(٤) العكن: واحدتها عكنة: وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا.

(٥) الكادي: كالنخل في ذاته وصفاته لكن لا يطول من نبت الأوان وعمان... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٦) الجزع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، والحجر في جملته بلون الظفر.

خراسان، والديباج الخراساني، وفرش سُوسَنجرْد، ووشي تُسْتَر، من كل صنف مائة قطعة، ومائة طنفسة جنوية بوسائدها، وجام زجاج فرعوني فتحه شبر، في وسطه صورة أسد أمامه رجل قد برك على ركبتيه. وفوّق[١] السهم نحو الأسد في قوس؛ وكان الكتاب في طومار[٢] ذي وجهين.

وكان للمأمون من الأولاد: محمد الأكبر وعبد الله ومحمد الأصغر والعباس وعلي والحسن وإسماعيل والفضل وموسى وإبراهيم ويعقوب والحسين وسليمان وجعفر وإسحاق وأحمد وعيسى وهارون وعشر بنات نقش خاتمه: سل الله يعطك. وزراؤه: ذو الرئاستين الفضل بن سهل ثم أخوه الحسن بن سهل ثم أحمد بن أبي خالد الأحوال ثم أحمد بن يوسف وجماعة، قيل إنه ما استوزر بعد الفضل أحدًا، وإنما كانوا كتابًا. حجّابه: عبد الحميد بن شَبث ثم محمد وعلي ابنا صالح مولى المنصور ثم إسماعيل بن محمد بن صالح. قضاته: محمد بن عمر الواقدي ثم محمد بن عبد الرحمٰن المخزومي ثم بشر بن الوليد ثم يحيى بن أكثم. الأمراء بمصر: عبَّاد بن محمد البلخي ثم المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم ثم العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي ثم عاد المطلب ثم السَّرِيّ ثم الحكم مولى بني ضَبَّة من أهل بَلْخ ـ باجتماع من الجند عليه ـ ثم سليمان بن غالب ثم السريّ بعهد من المأمون ثم مات فوليها أبو نصر محمد بن السريّ ثم مات فوليها أخوه عبيد الله بن السريّ ـ بايعه الجند ـ ثم عبد الله بن طاهر بن الحسين مضافة للشام وغيره، فلما سار إلى العراق استخلف عيسى بن يزيد الجُلُودِي، ثم أبو إسحاق المعتصم مضافة إلى الشام فأقرّ الجلودي، ثم صرفه بعمير بن الوليد التميمي ثم أعاد الجلودي ثم عَبْدويْه بن جَبَلة ثم عيسى بن منصور، فلما قدم المأمون مصر عزل عيسى وولّى نصر بن عبد الله الصُّغْدِي ويعرف بكَيْدَر. القضاة بها: لَهِيعَة بن عيسى الحضرمي ثم الفضل بن غانم ثم عاد لهيعة ثم إبراهيم بن إسحاق القَارِيّ ثم إبراهيم بن الجراح ثم عيسى بن المُنْكَدِر ثم عاد إلى بغداد؛ ووصل المأمون إلى مصر وليس بها قاض، فأمر يحيى بن أكثم أن يحكم بين الناس إلى أن سار عنها، ووَلّى هارون بن عبد الله من ولد عبد الرحمٰن بن عوف.

---

(١) فوّق السهم: عمل له فوقًا، وهو من السهم حيث يثبت الوتر منه.
(٢) الطومار: الصحيفة.

ذكر خلافة المعتصم بالله

هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد وأمه مَارِدَة أم ولد، وهو الثامن من الخلفاء العباسيين، وهو أول من أضاف إلى لقبه اسم الله تعالى من الخلفاء فقيل المعتصم بالله وتداوله من بعده، بويع يوم وفاة المأمون بطرسوس لثمان خلون من شهر رجب أو لاثنتي عشرة بقيت منه سنة ثماني عشرة ومائتين، ولم يقل ابن الأثير في تاريخه غيره.

قال: ولما بويع له شغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون، فأرسل إليه المعتصم فأحضره فبايعه، ثم خرج العباس إلى الجند فقال: ما هذا الحب البارد! قد بايعت عمي فسكتوا، وكان المأمون قد وجّه ابنه العباس إلى طَوَانة[1]، وأمره ببنائها في هذه السنة، وجعلها ميلاً في ميل وجعل سورها على مسافة ثلاثة فراسخ، وجعل لها أربعة أبواب على كل باب حصن، فأول ما بدأ به المعتصم أن أمر بإخراب ما كان قد بني منها، وحمل ما أطاق من السلاح والآلة التي بها، وأحرق الباقي وانصرف إلى بغداد ومعه العباس بن المأمون، فقدمها في مستهلّ شهر رمضان من هذه السنة.

وفيها دخل كثير من أهل الجبال وهمذان وأصبهان وماسبذان[2] وغيرها في دين الخرميّة[3]، وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان، فوجّه إليهم المعتصم العساكر، وكان منهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال في شوّال، فسار إليهم فأوقع بهم في أعمال همذان، فقتل منهم ستين ألفًا وهرب الباقون إلى بلد الروم.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد.

ودخلت سنة تسع عشرة ومائتين.

ذكر خلاف محمد بن القاسم العلوي

في هذه السنة ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالطالقان من خراسان، يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ،

---

(١) طوانة: بضم أوله، وبعد الألف نون: بلد بثغور المصيصة.

(٢) ماسبذان: بفتح السين والباء الموحدة، والذال معجمة، وآخره نون... قال مسعر بن مهلهل: وخرجنا من مرج القلعة إلى الطرز نعطف منها نمية إلى ماسبذان ومهرجان قذق وهي مدن عدة... (معجم البلدان).

(٣) الخرمية: أتباع بابك الخرمي نسبة إلى بلدة بفارس، ويقولون بالتناسخ والحلول والإباحية.

وكان ابتداء أمره أنه كان ملازمًا لمسجد النبيّ ﷺ حسن السيرة، فأتاه إنسان من خراسان اسمه أبو محمد كان مجاورًا، فلما رآه أحبه وأعجبته طريقته، فقال له: أنت أحق بالإمامة من كل أحد، وحَسَّن له ذلك وبايعه، وصار الخراساني يأتيه بالنفر بعد النفر من حجاج خراسان يبايعونه، فلمّا رضي بكثرة من بايعه من خراسان سارا جميعًا إلى الجُوزَجَان، واختفى هناك وجعل أبو محمد يدعو الناس إليه فعظم أصحابه، وحمله أبو محمد على إظهار أمره فأظهره بالطَّالِقان، وكان بينه وبين قواد عبد الله بن طاهر وقعات، فانهزم هو وأصحابه وخرج هاربًا، يريد بعض كور خراسان كان أهلها كاتبوه، فلما صار بنَسَا[1] وبها والد لبعض من معه، فمضى الرجل الذي معه يسلّم على أبيه فسلّم عليه، فسأله أبوه عن الخبر فأخبره به، فمضى الأب إلى عامل نَسَا وأخبره بأمر محمد بن القاسم، فأعطاه العامل عشرة آلاف درهم، وجاء العامل إلى محمد فأخذه وبعثه إلى عبد الله بن طاهر، فسيّره إلى المعتصم فوصل إليه في منتصف شهر ربيع الأول فحبس عند مسرور الكبير، فلما كان ليلة الفطر اشتغل الناس بالعيد، فدلّي إليه حبل من كوّة فخرج منها، فأتوه بالطعام في يوم الفطر فلم يجدوه، وبذل لمن أتى به مائة ألف درهم فلم يعرف له خبر بعد ذلك.

ذكر محاربة الزُّط[2]

في هذه السنة وجّه المعتصم عُجَيف بن عَنْبَسة في جُمادى الأولى لحرب الزط، وكانوا قد غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا وأخذوا الغلات من البيادر بكسكر[3] وما يليها من البصرة، وأخافوا السبل، فسار عجيف حتى نزل واسط على نهر يقال له بَرْدُودَا فسدّه وسدّ أنهارًا أخر، كانوا يخرجون منها ويدخلون وأخذ عليهم الطرق، ثم حاربهم فقتل في معركة واحدة ثلاثمائة وأسر خمسمائة، فضرب أعناقهم وبعث الرؤوس إلى باب المعتصم، وأقام عجيف بإزائهم خمسة عشر يومًا، فظفر منهم بخلق

---

(١) نسا: بفتح أوله، مقصور، بلفظ عرق النسا: وهي مدينة وبئة جدًا يكثر بها خروج العرق المديني حتى إن الصيف قلّ من ينجو منه من أهلها... (معجم ياقوت).

(٢) الزط: نهر الزط: نهر قديم من أنها البطيحة... (معجم البلدان). والزط: جيل أسود من إليهم تنسب الثياب الزطية، وقيل: الزط إعراب جت بالهندية، وهم جيل من أهل الهند... (اللسان زطط).

(٣) كسكر: بالفتح ثم السكون، وكاف أخرى، وراء، معناه عامل الزرع: كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية لأنها تكثر بها جدًا... كانت قصبتها واسط القصبة التي بين الكوفة والبصرة... (معجم البلدان).

كثير، وكان رئيس الزُّط يقال له محمد بن عثمان، وصاحب أمره رجل يقال له سَمْلق، ثم استوطن عجيف وأقام بإزاء الزط ستة أشهر، وقاتلهم فطلبوا الأمان وخرجوا إليه في ذي الحجة، وكان عدّتهم بالنساء والصبيان سبعة وعشرين ألفًا، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفًا، فجعلهم عجيف في السفن وعبّأهم على تعبئتهم في الحرب ومعهم البوقات، فأدخلهم بغداد يوم عاشوراء سنة عشرين ومائتين، فخرج المعتصم إلى الشماسية في سفينة حتى مرّت به سفن الزط وهم ينفخون في البوقات، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام ثم نقلوا إلى الجانب الشرقي، فسُلّموا إلى بِشْر بن السُّمَيْدع فذهب بهم إلى خَانِقِين(١)، ثم نقلوا إلى الثغر إلى عَيْن زَرْبة(٢)، فأغارت الروم عليهم فلم يفلت منهم أحد.

وفي هذه السنة أحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلدًا شديدًا حتى غاب عقله، وتقطع جلده وحبس مقيّدًا.

ودخلت سنة عشرين ومائتين.

في هذه السنة عقد المعتصم للأفْشِين حَيْدَر بن كَاوُوس على الجبال، ووجّهه لحرب بَابَك الخُرَّمي فسار لذلك، فكان بينهما من الحروب ما نذكره في سنة اثنتين وعشرين، عند الظفر ببابك ونذكر أخباره هناك إن شاء الله تعالى.

ذكر بناء سَامَرَّا وهي سُرَّ مَنْ رأى

في هذه السنة خرج المعتصم إلى سَامَرَّا، وكان سبب ذلك أنه قال: إني هاهنا أتخوّف الحربيّة أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلماني، فأريد أن أكون فوقهم فإن رابني منهم شيء قاتلتهم في البر والماء حتى آتي عليهم؛ وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، وكانوا لا يزالون يرون الواحد منهم بعد الواحد قتيلًا، وذلك أنّهم كانوا حفاة يركبون الدّواب فيركضونها في الشوارع، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء عن دوابّهم فيضربونهم، وربما هلك أحدهم؛

---

(١) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال... وبخانقين عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل، وبها قنطرة عظيمة على واديها تكون أربعة وعشرون طاقًا... (معجم ياقوت).

(٢) في معجم ياقوت: عين زربى: بلد بالثغر من نواحي المصيصة، أمر الرشيد ببنائها سنة ١٨٠، وبتحصينها وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل.

ثم إن المعتصم ركب يوم عيد فقام إليه شيخ، فقال له: يا أبا إسحاق لا جزاك الله عن الجوار خيرًا، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك، فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا ـ والمعتصم يسمع كلامه، ولم يُر راكبًا بعدها أبدًا بل صلّى العيد وسار إلى ناحية القاطول[١] ولم يرجع إلى بغداد.

قال: ولما خرج المعتصم من بغداد استخلف بها ابنه الواثق، وكان المعتصم قد اصطنع قومًا من أهل الحوف[٢] بمصر واستخدمهم وسماهم المغاربة، وجمع خلقًا من سَمَرْقَنْد وأُشْرُوسَنة وفَرْغَانَة وسماهم الفراغنة، وكانوا من ثقاته فتركهم بعده بها.

وكان ابتداء العمارة بسامرّا في سنة إحدى وعشرين ومائتين، وبنيت في أسرع مدة وهي على شاطىء دجلة، وقيل إنّه أنفق على جامعها خمسمائة ألف دينار، وانتقل إليها وجعلها مقر خلافته، وقيل إنّه سماها بهذا الاسم لأنّه لما انتقل إليها بعساكره سرّ كل منهم برؤيتها، فسمّاها سرّ من رأى، ولما خرج المعتصم من بغداد نزل القَاطُول.

ذكر القبض على الفضل بن مروان ابن أحمد بن عمارة الوزير

كان الفضل من البَرَذَان[٣] وكان حسن الخط، فاتصل بيحيى الجَرْمَقَاني كاتب المعتصم قبل خلافته، فلما هلك الجرمقاني صار الفضل مكانه، وتوجّه مع المعتصم إلى الشام ومصر فحصّل أموالاً كثيرة، فلما صار المعتصم خليفة صار له اسمها وللفضل معناها، واستولى على الدواوين كلها وكنز الأموال، وكان المعتصم يأمره بإعطاء المغنّي والنديم فلا ينفّذ الفضل ذلك، فثقل على المعتصم، وكان له مضحك اسمه إبراهيم، فأمر له المعتصم بمال فلم يعطه الفضل، فداعب المعتصم يومًا إبراهيم

(١) القاطول: فاعول من القطل، وهو القطع... : اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة وهو نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمر وكان الرشيد أول من حفر هذا النهر وبنى على فوهته قصرًا أسماه أبا الجند... (معجم البلدان).

(٢) الحوف بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة... (معجم ياقوت).

(٣) البرذان: بالتحريك: مواضع كثيرة. البردان: اسم نهر بالشام؛ والبردان: عين بأعلى نخلة الشامية من أرض تهامة، والبردان: جبل مشرف على وادي نخلة قرب مكة، والبردان أيضًا: ماء بنجد لبني عقيل بن عامر..، والبردان: ماء لبني نصر بن معاوية بالحجاز لبني جشم..، والبردان: ماء بالسماوة دون الجناب وبعد الحني من جهة الطرف... وقيل غير ذلك... (معجم البلدان لياقوت).

فقال له إبراهيم: والله لا أفلحت، فضحك وقال: وهل بقي من الفلاح شيء لم أدركه بعد الخلافة؟ فقال: أتظن أنك أفلحت؟! لا والله - ما لك من الخلافة إلا اسمها، والله ما يجاوز أمرك أذنيك - إنما الخلافة الفضل، فقال: وأي أمر لي لم ينفّذ؟ فقال: أمرت لي من شهرين بكذا وكذا فلم أعط حبّة، فحقدها المعتصم على الفضل ثم نكبه هو وأهل بيته في صفر من هذه السنة، وصيّر مكانه محمد بن عبد الملك الزيات فصار وزيرًا وكاتبًا.

وحجّ بالناس في هذه السنة صالح بن العباس بن محمد.

ودخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين.

حجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود بن عيسى بن موسى؛ وكان فيها من محاربة بغا الكبير وبَابَك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

ذكر أخبار بَابَك الخُرَّمي وفتح البُذ[١] وأسر بابك وقتله

كان ابتداء أمر بابك في سنة إحدى ومائتين في خلافة المأمون، وتحرك في الجاويدانية - أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ، وادعى أن روح جاويدان حلّت فيه، وتفسير جاويدان: الدائم الباقي، ومعنى خُرّم: الفرج، والرجل منهم ينكح أمه وأخته وابنته - ولهذا يسمونه دين الفرج، ويعتقدون التناسخ وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره، وكان لبابك في أيام المأمون حروب مع جيوش المأمون، كان الظفر فيها لبابك وأصحابه، وقتل محمد الطوسي عامل المأمون على الموصل، في سنة أربع عشرة ومائتين في حرب كانت بينهم ولما حضرت المأمون الوفاة كان من جملة وصيّته للمعتصم غزو الخرّمية كما ذكرنا ذلك، فلما أفضت الخلافة إلى المعتصم عقد للأفشين حيدر بن كاووس على الجبال، ووجّهه لحرب بابك في سنة عشرين ومائتين، وكان قبل ذلك قد وجّه المعتصم - أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل[٢]، وأمره

(١) البذ: بتشديد الذال المعجمة: كورة بين أذربيجان وأران بها كان مخرج بابك الخرمي أيام المعتصم. . . (معجم البلدان).

(٢) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال، وكسر الباء، وياء ساكنة، ولام: من أشهر مدن أذربيجان؛ وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية.

أن يبني الحصون التي خرّبها بابك فيما بين زنجان[١] وأردبيل، ويجعل فيها الرجال لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل، فتوجّه أبو سعيد لذلك وبنى الحصون، ووجّه بابك سريّة في بعض غاراته فأغارت ورجعت، فبلغ ذلك أبا سعيد فخرج في طلب السريّة، فاعترضها في بعض الطريق فظفر بهم وقتل وأسر منهم، وبعث بالرؤوس والأسرى إلى المعتصم، وكانت هذه أول هزيمة على أصحاب بابك، ثم كانت الأخرى لمحمد بن البعيث، وذلك أن محمدًا كان في قلعة له حصينة تسمى شاهي من أذربيجان، وله حصن آخر في أذربيجان يسمى تبريز، وكان مصالحًا لبابك تنزل سراياه عنده فيضيفهم حتى أنسوا به، ثم وجّه بابك قائدًا من قوّاده اسمه عصمة في سرية، فنزل بمحمد بن البعيث فأنزل له الضيافة على عادته، واستدعاه إليه في خاصته ووجوه أصحابه فصعدوا إليه، فغذاهم وسقاهم الخمر حتى سكروا، ثم وثب على عصمة فاستوثق منه وقتل من كان معه من أصحابه، وأمره أن يسمي له رجلاً رجلاً من أصحابه، فكان يدعو الرجل باسمه فيصعد فيضرب عنقه حتى علموا بذلك، وسيّر عصمة إلى المعتصم، فسأله عن بلاد بابك فأعلمه طرقها ووجوه القتال فيها، ثم حبسه فبقي إلى أيام الواثق؛ ثم سار الأفشين بعد ذلك إلى بلاد بابك، فنزل برزند وعسكر بها وضبط الطرق والحصون فيما بينه وبين أردبيل، ثم سار الأفشين والتقى ببابك واقتتلوا قتالاً شديدًا، وكانت وقعة عظيمة في سنة عشرين ومائتين، قتل فيها كثير من أصحاب بابك الذين كانوا معه، وأفلت هو في نفر يسير، واستمرت الحرب بينه وبين بابك المرة بعد المرة إلى سنة اثنتين وعشرين ومائتين، ففتح الأفشين البذّ ـ مدينة بابك ـ وأسر بابك، وخرّب المسلمون المدينة واستباحوها وذلك لعشر بقين من شهر رمضان في هذه السنة، وكانت حروب يطول شرحها انجلت عن ظفر المسلمين.

قال: وكان الأفشين قد قصّر في الحصار، فرأى رجل من أصحابه في منامه رسول الله ﷺ وهو يقول له: قل للأفشين ـ إن أنت حاربت هذا الرجل وجددت في أمره وإلا أمرت الجبال أن ترجمك بالحجارة، وشاعت هذه الرؤيا فثار المتطوّعة وصمّموا على الحصار، وحاصروا وكانت حروب عظيمة انجلت عن الفتح في التاريخ المذكور، وهرب بابك ثم أحضر هو وأخوه عبد الله لعشر خلون من شوال، وكان وصولهما إلى المعتصم بسامرّا في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين. ولما وصل إلى

(١) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجم يقولون زنكان بالكاف. . . (معجم البلدان).

سامرّا أمر المعتصم أن يركب فيلاً والناس ينظرونه، وأدخل دار المعتصم فأمر بإحضار سيّاف بابك، وأمره أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما فسقط، ثم أمر به فذبح وشقّ بطنه، وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرّا، وأمر بحمل أخيه عبد الله إلى بغداد، وأن يفعل به كما فعل ببابك، ففعل به ذلك وصلب في الجانب الشرقي بين الجسرين، وكان من قتله بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان؛ هذا ما كان أمره على سبيل الاختصار.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

ذكر قدوم الأفْشِين إلى سَامَرَّا وما عامله به المعتصم

في هذه السنة قدم الأفشين ببابك إلى سامرّا، فكان من أمر بابك وأخيه ما ذكرناه، وأما الأفشين فإن المعتصم كان يوجّه إليه في كل يوم من حين سار من بَرْزَنْد إلى أن وافى سامرّا خلعة وفرسًا، فلما صار الأفشين بقناطر حذيفة تلقاه هارون الواثق بن المعتصم وأهل بيته، فلما وصل إليه توجّه المعتصم وألبسه وشاحين، ووصله بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف ألف درهم ففرقها في عسكره، وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه.

قال: وكان الذي أخرج الأفشين من المال مدة مقامه بإزاء بابك - سوى الأرزاق والأنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه - عشرة آلاف، وفي غيره خمسة آلاف. قال: وأسر مع بابك ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة نفر، واستنقذ ممن في يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة، وصار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلاً ومن البنات والكنات ثلاث وعشرون امرأة.

ذكر خروج الروم إلى زبطرة(١)

في هذه السنة خرج توفيل بن ميخائيل - ملك الروم - إلى بلاد الإسلام، وأوقع بأهل زَبَطْرة وغيرها، وكان سبب ذلك أن بابك لما ضيّق عليه الأفشين كتب إلى ملك الروم، يعلمه أن المعتصم قد وجّه عساكره إليه، وجمع مقاتلته حتى وجّه خيّاطه وطبّاخه يعني جعفر بن دينار الخياط ويعني بالطباخ إيتاخ، ولم يبق على بابه أحد،

---

(١) زبطرة: بكسر الزاي، وفتح ثانيه، وسكون الطاء المهملة، وراء مهملة: مدينة بين ملطية وسميساط الحدث في طرف بلد الروم. . . (معجم البلدان).

فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنع، فخرج توفيل في مائة ألف ـ وقيل أكثر من ذلك، فبلغ زبطرة فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء، وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون الإسلام، وسبى المسلمات ومثّل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم، فخرج أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابّة ولا سلاح.

ذكر فتح عَمُّورِيَّة(١)

قال: لما فعل تُوفيل ما فعل واتصل الخبر بالمعتصم كبر لديه واستعظمه، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم ـ وامعتصماه!! فأجابها ـ وهو على سريره ـ لبّيك لبّيك، ونهض من ساعته وصاح في قصره: النفير النفير، ثم ركب دابته وسمّط(٢) خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فيها زاده، ولم يمكنه المسير إلا بعد التعبئة وجمع العساكر، ثم جلس في دار العامّة وأحضر قاضيي بغداد عبد الرحمٰن بن إسحاق وشعيب بن سهل، ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة، فأشهدهم على ما وقف من الضياع، فجعل ثلثًا لولده وثلثًا لله تعالى وثلثًا لمواليه، ثم سار فعسكر بغربي دجلة لليلتين خلتا من جُمادى الأولى، ووجّه عجيف بن عنبسة وعمرو الفرغاني وجماعة من القواد إلى زبطرة معونة لأهلها، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده بعد أن فعل ما ذكرناه، فوقفوا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا، ثم سار المعتصم وسأل: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وأشرف عندهم من قسطنطينية، فسار المعتصم من سامرّا ـ وقيل كان مسيره في سنة اثنتين وعشرين، وقيل سنة أربع وعشرين ومائتين وتجهز جهازًا لم يتجهزه خليفة قبله قط من سلاح وآلات وعدد وغير ذلك، وبث سراياه فيها وجيوشه ـ يغير ويقتل ويأسر ويغنم، ثم نزل بعمورية لست خلون من شهر رمضان وحاصرها ونصب عليها المجانيق، ووالى الزحف والقتال ودام عليها خمسة وخمسين يومًا وكان بطارقة الروم قد اقتسموا الأبراج، وكان وندوا موكل ببعضها ومعناه بالعربية ثور، فقاتل قتالاً شديدًا وكثرت الجراحات في أصحابه، فمشى إلى الروم وقال: إن الحرب عليّ وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا جرح، فإما

---

(١) عمورية: بلد في بلاد الروم.. وعمورية أيضًا: بليدة على شاطىء العاصي بين فامية وشيزر فيها آثار خراب ولها دخل وافر.

(٢) سمّط الشيء: علقه على سمط السرج، والسمط: السير يعلق في مؤخر السرج تشد به الأشياء.

أن تمدوني وإلا ذهبت المدينة فلم يمدوه، وكان المسلمون قد هدموا ثلمة من السور مما يلي جهة وندوا، فعزم هو وأصحابه على الخروج إلى المعتصم، يسألونه الأمان على الذريّة ويسلّمون إليه الحصن بما فيه، فلما أصبح أوقف أصحابه بجانبي الثلمة وأمرهم ألا يحاربوا، فخرج إلى المعتصم فصار بين يديه، والناس يتقدمون إلى الثلمة وقد أمسك الروم عن القتال، ووصل المسلمون إلى الثلمة ووندوا بين يدي المعتصم، والناس يتقدمون حتى دخلوا المدينة، فالتفت وندوا وضرب بيده على لحيته، فقال له المعتصم: ما لك؟! قال: جئت أسمع كلامك فغدرت بي، فقال له المعتصم: كل شيء تريده فهو لك. قال: ولما دخل المسلمون المدينة سارت طائفة من الروم إلى كنيسة كبيرة، فأحرقها المسلمون عليهم فهلكوا بأجمعهم، وجاء ناطس - وهو من البطارقة - فوقف بين يدي المعتصم، فضربه المعتصم سوطًا وأخذ الرومَ السيفُ، وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه، وكثرت الغنائم حتى كان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة، ولا ينادي على الشيء أكثر من ثلاثة أصوات طلبًا للسرعة، وأمر المعتصم بعمورية فهدمت وأحرقت، وفرق الأسرى على القواد وسار نحو طرسوس.

ذكر القبض على العباس بن المأمون وحبسه والأمر بلعنه ووفاته

وفي هذه السنة حبس المعتصم - العبّاس بن المأمون وأمر بلعنه، وسبب ذلك أن عجيف بن عنبسة اجتمع به ووبّخه، كونه بايع المعتصم وكونه لم يطلب الأمر لنفسه، وحثّه على طلب الأمر لنفسه. فقبل العباس قوله وأخذ يدبّر في قتل المعتصم، وشرع في طلب البيعة ووافقه جماعة من القواد، فنمى الخبر إلى المعتصم فأحضر العباس وسقاه حتى سكر ولطف به واستعمل الخبر منه فذكر له الحال على غرة، فقيّده وسلّمه للأفشين فحبسه، فلما نزل منبج طلب العباس الطعام فقدم إليه طعام كثير، فأكل ومنع الماء وأدرج في مسح[1]، فمات بمنبج وصلّى عليه بعض إخوته، وتتبع المعتصم من كان قد وافقه على ذلك من القواد، فمنهم من فعل به مثل ذلك ومنهم من دفنه حيًا، وعاد المعتصم إلى سامرا وأمسك أولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا.

---

(١) المسح: الكساء من شعر، أو هو ثوب الراهب.

ودخلت سنة أربع وعشرين ومائتين.

ذكر مخالفة مَازْيَار بطَبَرِسْتَان وأسره

في هذه السنة أظهر مازيار بن قارن بنونداهرمز الخلاف على المعتصم، وعصى وقاتل عساكره، وسبب ذلك أنّه كان منافرًا لعبد الله بن طاهر لا يحمل إليه خراجه، فكاتبه المعتصم في ذلك فقال: لا أحمله إلا إليك، وكان المعتصم يأمر بأخذه من أصحاب مازيار بهمذان، ويسلمه لوكيل عبد الله بن طاهر، فلما ظفر الأفشين ببابك وعظم محله طمع في ولاية خراسان، فراسل الأفشين مازيار في الخلاف والخروج، على أنّه إذا خرج احتاج المعتصم إلى إرسال الأفشين لحربه، فينتقل من ذلك إلى ولاية خراسان، فخالف مازيار فكتب المعتصم لعبد الله بن طاهر بحربه، فأرسل ابن طاهر عمّه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحفظ جرجان، فنزل مقابل سرخاستان، وقد بنى سرخاستان سورًا على طميس وجعل له خندقًا، ومقدار السور ثلاثة أميال ليمنع من الدخول إلى طبرستان، وكانت الأكاسرة تبنيه لتمنع الترك من الدخول إليها، ووجّه حيّان بن جبلة في أربعة آلاف إلى قومس، فعسكر على حدّ جبال شروين[١]، ووجّه المعتصم من عنده محمد بن إبراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبري، ووجه منصور بن الحسن صاحب دُنْبَاوَنْد[٢] إلى الريّ ليدخل طبرستان من ناحية الريّ، ووجه أبا الساج إلى اللارز ودنباوند، فلما أحدقت الخيل بالمازيار من كل جانب وكان أصحاب سرخاستان يتحدثون مع أصحاب الحسن بن الحسين على غفلة من الحسن ـ ونظر الناس بعضهم إلى بعض فثاروا ـ وبلغ الحسن الخبر فجعل يصيح بالقوم ويمنعهم خوفًا عليهم فلم يقفوا ـ ونصبوا علمه على معسكر سرخاستان وهو في الحمام ـ فهرب في غلالة[٣]، ودخل أصحاب الحسن السور وهو يقول: اللهم إنهم عصوني وأطاعوك فانصرهم، واستولوا على عسكر سرخاستان وأسر أخوه شهريار فقتله الحسن، وسار سرخاستان حتى أجهده العطش، فنزل عن دابته وشدها، فضربه غلام له اسمه جعفر وجماعة من أصحابه،

---

(١) شروين: جبال شروين في أطراف طبرستان وهي من أعمال ابن قارن مجاورة الديلم وجيلان، وهي جبال ممتنعة صعبة ليس في تلك الولاية أمنع ولا أكثر شجرًا ودغلاً... (معجم البلدان).

(٢) دنباوند: بضم أوله، وسكون ثانيه، وبعد باء موحدة، وبعد الألف واو ثم نون ساكنة، وآخره دال: هو جبل من نواحي الريّ، ودنباوند أيضًا: جبل بكرمان في بلد يقال له دمندان.

(٣) الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت الدثار.

فسألهم الماء فأمسكوه وقالوا: نتقرب به إلى السلطان، فرجعوا به نحو العسكر فلقيتهم خيل الحسن بن الحسين فأخذوه منهم، وأتوا به الحسن فقتله ووجه برأسه إلى عبد الله بن طاهر.

وأما حيان بن جبلة ـ مولى ابن طاهر ـ فإنه كاتب قارن بن شهريار ـ وهو ابن أخي مازيار، ورغّبه في الملك وضمنه له، وكان قارن من قواد مازيار وقد أنفذه مازيار مع أخيه عبد الله بن قارن ومعه عدة من القواد فضمن له قارن عند ذلك أن تسلم إليه الجبال ومدينة سارية[1] واتخذ قارن طعامًا ودعا عمّه عبد الله والقواد فأتوه، ووضعوا سلاحهم فأحدق بهم أصحابه وقبضوا عليهم ووجّه بهم إلى حيّان فاستوثق منهم، وركب في أصحابه ودخل جبال قارن، وبلغ الخبر مازيار فاغتمّ له، قال: ولما بلغ الخبر أهل سارية أخذ سرخاستان ودخول حيان جبال شروين وثبوا على عامل مازيار بها فهرب منهم، وأتى حيان المدينة، وبلغ قوهيار أخو مازيار الخبر، فأرسل إلى حيان يطلب منه الأمان، وأن يملك على جبال أبيه وجدّه ويسلم إليه مازيار، ثم مات حيان قبل الاتفاق فوجّه عبد الله مكانه عمه محمد بن الحسين، ثم سار الحسن بن الحسين إلى خُرَّماباذ[2]، فأتته رسل قوهيار ثم جاءه بنفسه فأكرمه وأجابه إلى جميع ما طلب، وتواعدوا يومًا فحضر مازيار عنده، ورجع قوهيار إلى أخيه مازيار فأعلمه أنه أخذ له الأمان واستوثق له، فركب الحسن يوم الميعاد ومعه ثلاثة غلمان أتراك ـ وإبراهيم بن مهران يدلّه على الطريق، حتى أتيا هرمز أباذ فأتاه المازيار مع القوهيار، فأخذه ووجّهه إلى سارية، وسار الحسن إلى هرمز أباذ فأحرق قصر المازيار وانتهب ماله، وسار إلى خرّماباذ فأخذ إخوة المازيار وحبسهم، وسار إلى مدينة سارية فأقام بها، وأمره عبد الله بن طاهر بإرسال المازيار إلى المعتصم وأهله معه، وأن يسلمه إلى محمد بن إبراهيم ليسير به ففعل ذلك، وأمره أن يستصفي أمواله ويحرزها، فأحضره وسأله عن أمواله فذكر أنها عند خزّانه فضمن القوهيار ذلك، وقال المازيار: اشهدوا على أن جميع ما أخذت من أموالي ستة وتسعون ألف دينار وسبع عشرة قطعة زمرد، وست عشرة قطعة ياقوت، وثمانية أحمال من ألوان الثياب، وتاج وسيف مجوهر، وخنجر من ذهب مكلّل بالجوهر، وحق[3] كبير مملوء جوهرًا ـ قيمته ثمانية عشر ألف

---

(١) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.

(٢) خرماباذ: بضم أوله وتشديد ثانيه، وبعد الألف ياء، وآخره ذال: قرية من قرى بلخ.. وخرماباذ: من قرى الريّ... (معجم البلدان).

(٣) الحق: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما.

ألف درهم، وقد سلّمت ذلك إلى خازن عبد الله بن طاهر وصاحب خبره على عسكره، وكان المازيار قد أخذ هذا ليوصله إلى الحسن بن الحسين ليظهر للناس أنه أمنه على نفسه وماله وولده، وأنه جعل له جبال أبيه فامتنع الحسن من قبوله ـ وكان من أعف الناس، ثم أمر الحسن قوهيار أن يتوجه لحمل مال المازيار، وأعطاه من البغال ما يحملها عليها، وأراد أن ينفذ معه جيشًا فقال: لا حاجة لي بهم، وسار في غلمانه ففتح الخزائن وأخذ الأموال، فلما عبّأها وثب عليه مماليك المازيار ـ وكانوا ديالم، فقالوا: إنك غدرت بصاحبنا وأسلمته إلى العرب، وجئت لتحمل أمواله!! وكانوا ألفًا ومائتين فأخذوه وقيّدوه، فلما جنّهم[1] الليل قتلوه وانتهبوا المال؛ وانتهى الخبر إلى الحسن فوجّه جيشًا ووجّه قارن جيشًا، وبلغ محمد بن إبراهيم الخبر فأرسل في أثرهم فأخذوا، وبعثهم إلى مدينة سارية قال: وقد قيل إن سبب أسر المازيار أنه كان له ابن عم اسمه قوهيار، كان له جبال طبرستان وللمازيار السهل، فألزمه مازيار بابه وولّى الجبال غيره، فلما خالف مازيار دعا قوهيار ابن عمه ـ وقيل كان أخاه، وقال له: أنت أعرف بجبلك من غيرك، وأظهره على أمر الأفشين وكتبه، وأمره بالعود إلى جبله وحفظه، وأمر الذي ولاّه بعده على الجبل واسمه دَرِّي وأمره بالانضمام إليه بالعساكر، ووجهه إلى محاربة الحسن بن الحسين، وبقي المازيار في مدينته في نفر يسير، فدعا قوهيار الحقد الذي في قلبه أن كاتب الحسن وكاتبه الحسن، وضمن له ما يريد وأن يعيد إليه جبله وما كان في يده لا ينازع فيه، فرضي بذلك ووعده بتسليم الجبل، فلما جاء الميعاد تقدّم الحسن فحارب دَرِّي، وكان درّي قد انفرد بالمواضع المخوفة، وأرسل عبد الله بن طاهر جيشًا كثيفًا فوافوا قوهيار، فسلّم إليهم الجبل فدخلوه، ودَرِّي يحارب الحسن ومازيار في قصره، فلم يشعر إلا والخيل على باب قصره فأخذوه أسيرًا، وقيل أخذ وهو يتصيد، وقصدوا به نحو درّي وهو يقاتل، فلم يشعر هو وأصحابه إلا والخيل من ورائهم ومعهم مازيار، فانهزم درّي فأدركوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى عبد الله بن طاهر، وحملوا المازيار فأوعده عبد الله ـ إن هو أظهره على كتب الأفشين ـ أن يسأل فيه المعتصم ليصفح عنه، فأقرّ المازيار بذلك وأحضر الكتب إليه فسيّرها إلى المعتصم، فلما توجه مازيار إلى المعتصم سأله عن الكتب فأنكرها، فضربه حتى مات وصلبه إلى جانب بابك، وقيل إنه اعترف للمعتصم بالكتب والله أعلم، وكان قتله في سنة خمس وعشرين.

---

(١) جنهم الليل: سترهم.

ذكر عصيان مَنْكُجُور قرابة الأفشين والظفر به

قال: وكان الأفشين قد استعمل منكجور ـ وهو من أقاربه ـ على أذربيجان، فوجد في بعض قرى بابك مالاً عظيمًا فأخذه، ولم يطالع به المعتصم ولا الأفشين، فكتب صاحب البريد بذلك إلى المعتصم. فطولب بالمال فأنكره وكذّب صاحب البريد وهمّ بقتله، فمنعه أهل أردبيل منه فقاتلهم منكجور، فأمر المعتصم الأفشين بعزله فعزله، ووجه قائدًا من القوّاد إليه فخلع منكجور يده من الطاعة، وجمع إليه الصعاليك وخرج من أردبيل، والتجأ إلى حصن من حصون بابك الذي كان قد خرّبها بابك فعمره وأقام به، فبقي شهرًا ثم وثب عليه أصحابه فسلّموه للقائد، فقدم به إلى سامرّا في سنة خمس وعشرين. وقيل إن القائد كان بغا الكبير وأن منكجور خرج إليه بأمان، واتهم الأفشين بمباطنته.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ودخلت سنة خمس وعشرين ومائتين.

ذكر القبض على الأفشين وحبسه ووفاته وصلبه

في هذه السنة غضب المعتصم على الأفشين وحبسه، وذلك لما ظهر عنه من مباطنة المازيار وغيره، فأحضره وقوبل على ذلك وحُوقق على ما كان قد قصده من الخلاف، وحبس إلى أن مات في سنة ست وعشرين ومائتين، وقيل منع عنه الطعام حتى مات، ولما مات أمر المعتصم بإخراجه وصلبه على باب العامة، ووجد بقُلْفَته(١)، ثم ألقى وأحرق وأخذ ماله، ووجد في داره أصنامًا وكتابًا من كتب المجوس، ورتب المعتصم بعده على الحرس إسحاق بن يحيى بن معاذ. وفيها استعمل إيتاخ على اليمن وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ودخلت سنة ست وعشرين ومائتين.

في هذه السنة حجّ بالناس محمد بن داود بأمر إشناس، وكان إشناس حاجًّا وقد جعل إليه ولاية كل بلد يدخله، وخطب له على منابر مكة والمدينة وغيرها من البلاد التي اجتاز بها إلى مدينة سامرّا.

---

(١) القلفة: الجلدة التي يقطعها الخاتن من ذكر الصبيّ.

ودخلت سنة سبع وعشرين ومائتين.

ذكر خروج المُبَرْقَع بفلسطين

وفي هذه السنة خرج أبو حرب اليماني المبرقع بفلسطين على المعتصم، وكان سبب خروجه أنّ بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب، فمنعه بعض نسائه فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها، فلما رجع أبو حرب إلى داره اشتكت إليه ما فعل بها الجندي، فقتله أبو حرب وهرب وتبرقع، وقصد بعض جبال الأردن فأقام به، وكان يظهر بالنهار متبرقعًا فإذا جاءه أحد أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، ويذكر الخليفة ويعيبه فاستجاب إليه قوم من فلاحي تلك الناحية، وكان يزعم أنّه أمويّ فقال أصحابه هذا السفياني، فلما كثر أتباعه من هذه الطبقة، دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له ابن بَيْهَس - كان مطاعًا في أهل اليمن، ورجلان من أهل دمشق، فاتصل خبره بالمعتصم في مرضه الذي مات فيه، فسيّر لحربه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند فرآه في عالم كثير يبلغون مائة ألف رجل، فكره رجاء مواقعته وعسكر في مقابلته، حتى كان أوان الزراعة وعمل الأرضين فانصرف من كان مع المبرقع إلى عملهم، وبقي في زهاء ألف أو ألفين، وتوفي المعتصم وولي الواثق وثارت الفتنة بدمشق على ما نذكره فأمر الواثق رجاء بقتال من أثار الفتنة، والعود إلى المبرقع ففعل ذلك، وعاد والتقى العسكران، فقال رجاء لأصحابه: ما أرى في عسكره رجلًا له شجاعة غيره، وأنه سيظهر لأصحابه بعض ما عنده، فإذا حمل فأفرجوا له، فما لبث أن حمل المبرقع فأفرجوا له فجاوزهم ورجع إلى أصحابه، ثم حمل الثانية فلما أراد الرجوع أحاطوا به وأخذوه أسيرًا. وقيل إنّ خروجه كان في سنة ست وعشرين بنواحي الرملة، وصار في خمسين ألفًا، فوجّه المعتصم إليه رجاء الحضاري فقاتله وأخذ ابن بيهس أسيرًا، وقتل من أصحاب المبرقع نحوًا من عشرين ألفًا، وأسر المبرقع فيمن أسر، وحمل إلى سامرا والله تعالى أعلم.

ذكر وفاة أبي إسحاق المعتصم وشيء من أخباره

كانت وفاته في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين، وكان بدء علّته أنّه احتجم في أول يوم من المحرم فاعتلّ ومات، وكان أبيض أصهب اللحية طويلها، مربوعًا مشرب اللون بحمرة حسن العينين وكان شديد القوة، قيل إنه كان يرفع بيده ألف رطل ويمشي بها خطوات، وكان من

أشجع الناس، وقيل إنه كان أميًّا لا يكتب، ومن العجب أن الرشيد أخرجه من الخلافة وعهد إلى الأمين والمأمون والمؤتمن، فساق الله الخلافة إليه، وجعل الخلافة في ولده ولم يكن من نسل أولئك خليفة، والمعتصم هو المثمن من اثني عشر وجهًا: هو الثامن من ولد العباس، الثامن من الخلفاء منهم، وولي سنة ثماني عشرة ومائتين، وكانت خلافته ثماني سنين، وثمانية أشهر، ومات وهو ابن ثمان وأربعين سنة، وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من الشهور، وخلف ثمانية ذكور: منهم هارون الواثق وجعفر المتوكل ومحمد المستعين، وثماني بنات، وغزا ثماني غزوات، وخلف ثمانية آلاف ألف دينار ومثلها من الدراهم.

قال بعض المؤرخين: كان له من المماليك سبعون ألفًا سوى الأحرار. وكان نقش خاتمه: الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن؛ ووزراؤه: الفضل بن مروان بن أحمد بن عمارة إلى أن نكبه كما ذكرنا، ثم محمد بن عبد الملك الزيات، وهو الذي رثاه بقوله: [من المنسرح]

قد قلتُ إذ غيّبوك واصطفقت ... عليك أيدٍ بالترب والطين

اذهب فنعم المعين كنت على الـ ... ـدنيا ونعم الظهير للدين

لن يجبر الله أمّةً فقدت ... مثلك إلاّ بمثل هارون

حجابه: وصيف مولاه ثم محمد بن حماد. قضاته: شعيب بن سهل ثم محمد بن سماعة ثم عبد الله بن غالب، وقيل إنّ أحمد بن أبي دؤاد[١] الإيادي كان قاضي القضاة، وأن جعفر بن عيسى من ولد الحسن البصري كان من قضاته، الأمراء بمصر: كيدر ثم ولده المظفر، ثم ردّت مصر إلى أشناس فاستخلف عليها موسى بن ثابت الحنفي من أهل الشاش، ثم مالك بن كيدر ثم علي بن يحيى الأرمني. القضاة بها: هارون الزهري ثم محمد بن أبي الليث الخوارزمي.

قال: ومن أخبار المعتصم الدالة على كرمه ومكارم أخلاقه أنه بينما هو يسير وحده ـ وقد انفرد عن أصحابه ـ إذ مرّ بشيخ معه حمار عليه شوك، وقد زلق الحمار من المطر وسقط حمله، فسأله المعتصم عن حاله، فأخبره أنه ينتظر من يعينه على

(١) ابن أبي دؤاد: هو أبو عبد الله بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن مالك بن عبد هند بن لخم بن مالك.. يعود نسبه إلى معد بن عدنان، الإيادي القاضي؛ كان معروفًا بالمروءة والعصبية، وله مع المعتصم في ذلك أخبار مأثورة... (وفيات الأعيان ١ :٨١).

رفع الشوك على ظهر الحمار، فنزل المعتصم عن دابته وخلص الحمار من الوحل، ورفع عليه الحمل - والشيخ يقول: بأبي أنت وأمي - لا تهلك ثيابك، فيقول: لا عليك ثم غسل يديه وركب، فقال له الشيخ: غفر الله لك يا شاب، ثم لحقه أصحابه فأمر للشيخ بأربعة آلاف درهم، ووكل به من يوصله إلى بيته؛ وقال ابن أبي دؤاد: تصدق المعتصم ووهب على يدي مائة ألف ألف درهم، هذا على يد رجل واحد فما ظنّك بغيره!! قال بعض المؤرخين: إنه لما فتح عمورية امتدحه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي بقصيدته التي أولها: [من البسيط]

السيف أصدق إنباء من الكتب

فأعطاه عن كل بيت بها ألف درهم، وقيل إنّه أقطعه مدينة الموصل رحمه الله تعالى.

ذكر خلافة الواثق باللّه

هو أبو جعفر هارون بن المعتصم بن الرشيد هارون بن المهدي بن المنصور، وأمه أم ولد اسمها قَرَاطِيس، وهو التاسع من الخلفاء العباسيين، بويع له في يوم وفاة أبيه لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين.

ذكر الفتنة بدمشق

قال: لما توفي المعتصم ثارت القيسية بدمشق وعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم، فبعث الواثق إلى رجاء بن أيوب الحضاري، وكان قد توجّه لحرب المبرقع بفلسطين كما قدمناه، فرجع إليهم فنزل بدير مُرَّان[1]، وكانوا معسكرين بمرج راهط فدعاهم إلى الطاعة، فلم يرجعوا وتوعدوا الحرب بدُومة يوم الاثنين، فلما كان يوم الأحد تفرّقت القَيْسِيَّة، وسار رجاء إلى دومة الجندل[2] وبعضهم في حوائجه، فقاتلهم

(١) دير مران: بضم أوله، بلفظ تثنية المر: بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة، وبناؤه بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملون، وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة، وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني، والأشجار محيطة به... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) دومة الجندل: قال أبو سعد: دومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ... ومن قبل مغربه عين تثج فتسقي ما به من الزرع والنخل، وحصنها مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل.. وقيل: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيىء كانت به بنو كنانة من كلب... (معجم البلدان).

فهزمهم وقتل منهم ألفًا وخمسمائة، وقتل من أصحابه ثلاثمائة، وهر بمقدّمهم وهو ابن بيهس، وصلح أمر دمشق وعاد رجاء إلى حرب المبرقع فأسره كما ذكرناه.

وحجّ بالناس في هذه السنة جعفر بن المعتصم.

ودخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين.

في هذه السنة أعطى الواثق لإشناس تاجًا ووشاحين. وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود، وغلا السعر بطريق مكة، فبلغ رطل خبز بدرهم وراوية[١] ماء بأربعين درهمًا، وأصاب الناس في الموقف حرّ شديد، ثم أصابهم مطر فيه برد، فاشتد البرد عليهم بعد ساعة من ذلك الحر الشديد، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة[٢] فقتلت عدة من الحجاج.

ودخلت سنة تسع وعشرين ومائتين.

في هذه السنة حبس الواثق الكتاب وألزمهم أموالاً عظيمة، فأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب ـ كاتب إيتاخ ـ أربعمائة ألف دينار، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن إبراهيم بن رباح وكتابه مائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف دينار، ومن نجاح ستين ألف دينار ومن أبي الوزير مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار. وكان سبب ذلك أنه ذكر عنده نكبة البرامكة، وما حصّل الرشيد من أموالهم، فنكبهم بعد جمعة.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ودخلت سنة ثلاثين ومائتين.

ذكر مسير بُغا إلى الأعراب بالمدينة وما كان من أمرهم

في هذه السنة وجّه الواثق بغا الكبير إلى الأعراب، الذين أغاروا بنواحي المدينة، وكان سبب ذلك أن بني سُليم كانت تفسد حول المدينة، ثم قويت شوكتهم واغتصبوا أموال الناس، وأوقعوا بقوم من كِنانَة وبَاهِلة وقتلوا بعضهم في جُمادى

---

(١) الراوية: المزادة فيها الماء.

(٢) العقبة: منزل في طريق مكة بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل. وعقبة السير: بالثغور قرب الحدث وهي عقبة ضيقة طويلة. والعقبة: وراء نهر عيسى قريبة من دجلة بغداد محله. . . (معجم البلدان).

الآخرة من هذه السنة، فوجّه إليهم محمد بن صالح ـ عامل المدينة ـ حماد بن جرير الطبري في جيش فقاتلوه، واشتد القتال فقتل حمّاد وعامّة أصحابه، وأخذ بنو سليم الكراع والسلاح والثياب، فزاد طمعهم ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة، فوجه إليهم الواثق بغا الكبير في جمع من الجند، فقدم المدينة في شعبان فلقيهم ببعض مياه الحرّة ـ من وراء السُّوَارِقِيَّة(١) وهي قريتهم، التي يأوون إليها وبها حصون، فقتل بغا منهم نحوًا من خمسين رجلًا، وأسر مثلهم وانهزم الباقون، وأقام بغا بالسوارقيّة ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق، فأتوه متفرقين فنزل عنده من يعرف منهم بالفساد وهم زهاء ألف رجل، وخلّى سبيل الباقين وعاد بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة، فحبسهم بها ثم سار إلى مكة، فلما قضى حجه سار إلى ذات عرق، وعرض على بني هلال مثل الذي عرض على بني سُليم فقبلوه، فأخذ من مفسديهم نحو ثلاثمائة رجل إلى المدينة فحبسهم، ثم سار إلى بني مُرَّة فنقب الأعراب السجن ليخرجوا، فرأت امرأة النقب فصاحت يا أهل المدينة! فجاؤوا فوجدوهم قد قتلوا الموكلين وأخذوا سلاحهم، فاجتمع أهل المدينة وقاتلوهم، فقتل سودان المدينة كل من وجدوه منهم، وكان مقتلهم في سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

وفيها ـ أعني سنة ثلاثين ومائتين ـ مات عبد الله بن طاهر بنيسابور، وهو أمير خراسان والسواد والريّ وطبرستان وكرمان وما يتصل بها، وكان خراج هذه الأعمال يوم وفاته ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، فاستعمل الواثق على أعماله كلها ولده طاهر بن عبد الله بن طاهر. مات أشناس التركي بعد موت ابن طاهر بسبعة أيام.

ودخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

ذكر خبر أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي وما كان من أمره

في هذه السنة تحرّك ببغداد قوم مع أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، وجده مالك أحد نقباء بني العباس، وكان سبب هذه الحركة أن أحمد بن

(١) السوارقية: قرية أبي بكر بين مكة والمدينة، وهي نجدية وكانت لبني سليم... وقيل: السوارقية: قرية غناء كبيرة كثيرة الأهل فيها منبر ومسجد جامع وسوق تأتيها التجار من الأقطار لبني سليم خاصة.. وفي مائها بعض الملوحة ويستعذبون من آبار في واد يقال له سوارق... (معجم البلدان لياقوت).

نصر كان يغشاه أصحاب الحديث كابن معين وابن الدورقي وأبي زهير، وكان يخالف من يقول بخلق القرآن ويطلق لسانه فيه، مع غلظة الواثق، وكان يقول إذا ذكر الواثق: فعل هذا الخنزير، وقال: هذا الكافر، وفشا ذلك، وكان يغشاه رجل يعرف بأبي هارون السراج وآخر يقال له طالب وغيرهما، فدعوا الناس إليه فبايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرّق أبو هارون وطالب في الناس مالاً، فأعطيا كل رجل دينارًا، واتعدوا ليلة الخميس لثلاث خلون من شعبان، ليضربوا بالطبل ويثوروا على السلطان، وكان أحدهما في الجانب الشرقي من بغداد والآخر بالغربي، فاتفق أن رجلين ممّن بايعهم من بني الأشرس شربا نبيذًا ليلة الأربعاء قبل الموعد بليلة، فلما أخذ منهم ضربوا الطبل فلم يجبهم أحد، فسمع صاحب الشرطة الطبل فسأل عن الخبر، فدُل على رجل يكون في الحمّام مصاب العين يعرف بعيسى الأعور، فأخذه وقرّره فقرّ على بني الأشرس وأحمد بن نصر وغيرهم، فأخذ بعض من سمّي وفيهم طالب وأبو هارون، ورأى في منزل بني الأشرس علمين أخضرين، ثم أخذ خادمًا لأحمد بن نصر فقرّره فأقرّ بمثل ما قال عيسى، فأرسل إلى أحمد فأخذه وهو في الحمام، وفتش بيته فلم يجد فيه سلاحًا ولا شيئًا من الآلات، فسيّرهم إلى الواثق مقيدين على بغال بأكف بغير وطاء إلى سامرّا، فجلس الواثق مجلسًا عامًّا فيه أحمد بن أبي دؤاد، فلما حضر أحمد بن نصر عند الواثق لم يذكر له شيئًا من فعله والخروج عليه، بل قال له: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: كلام الله، قال: فما تقول في ربك ـ أتراه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين ـ جاءت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ـ لا تضامون في رؤيته»، وحدثني سفيان بحديث رفعه «أنّ قلب ابن آدم المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلّبه»، وكان النبيّ ﷺ يدعو: يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك، فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟! فقال عبد الرحمٰن بن إسحاق: هو حلال الدم، وقال بعض أصحاب ابن أبي دؤاد: اسقني دمه، وقال ابن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل، وكان كارهًا لقتله، فقال الواثق: إذا رأيتموني قد قمت إليه فلا يقومنّ أحد، فإني أحتسب خطاي إليه، ودعا بالصَّمْصَامَة ومشى إليه وهو في وسط الدار على نطع[1]، فضربه على حبل عاتقه ثم ضربه على رأسه، ثم ضرب سيما الدمشقي عنقه وطعنه الواثق بطرف الصمصامة في بطنه، وصلب عند بابك وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها، وكتب في أذنه رقعة: هذا رأس

---

(١) النطع: بساط من الجلد، كثيرًا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر، وتتبع أصحابه فجعلوا في الحبوس. هذا ما حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل.

وقد حكى الحافظ أبو بكر[١] أحمد بن علي بن ثابت خبر مقتله، فذكر ما تقدّم وذكر زيادات أخرى بأسانيد رفعها، قد رأينا أن نثبت منها طرفًا، فقال بسند رفعه إلى محمد بن يحيى الصولي: إنّه لما حمل أحمد بن نصر وأصحابه إلى الواثق بسرّ من رأى جلس لهم الواثق، وقال لأحمد بن نصر: دع ما أخذت له. قال: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: كلام الله، قال: أفترى ربك في يوم القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية، قال: ويحك!! كما يرى المحدود المتجسم ويحويه مكان ويحصره الناظر!! أنا أكفر برب هذه صفته، ما تقولون فيه؟ فذكر من كلام عبد الرحمٰن بن إسحاق ما تقدم، وقال جماعة من الفقهاء كما قال، فأظهر ابن أبي دؤاد أنّه كاره لقتله فقال للواثق: يا أمير المؤمنين ـ شيخ مختلّ لعله به عاهة أو تغير عقل، يؤخر أمره ويستتاب، فقال الواثق: ما أراه إلا مؤديًا لكفره، قائمًا بما يعتقد منه، وذكر من قيام الواثق إليه نحو ما تقدّم، إلا أنّه قال إن الواثق ضرب عنقه.

ثم قال بسند آخر رفعه إلى جعفر بن محمد الصائغ أنه قال: بصر عيناي ـ وإلا فعميتا ـ وسمع أذناي ـ وإلا فصُمتا ـ أحمد بن نصر الخزاعي حيث ضربت عنقه يقول رأسه: لا إله إلا الله.

وقال بسند آخر إلى العباس بن سعيد: نسخة الرقعة المعلقة في أذن أحمد بن نصر ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون ـ وهو الواثق بالله أمير المؤمنين ـ إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه فأبى إلا المعاندة، فجعله الله إلى ناره.

وكتب محمد بن[٢] عبد الملك الزيات قال: ولما جلس المتوكل دخل عليه عبد العزيز بن يحيى المكي فقال: يا أمير المؤمنين ـ ما رئي أعجب من أمر الواثق

(١) هو الخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، صاحب «تاريخ بغداد» وغيره من المصنفات؛ كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين. . . (وفيات الأعيان ١ : ٩٢).

(٢) هو الوزير ابن الزيات: أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم؛ كان جده أبان رجلاً من أهل جبُل من قرية كان بها يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، وكان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر، أديبًا فاضلاً بليغًا عالمًا بالنحو واللغة. . . (وفيات الأعيان ٥ : ٩٤).

قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن، قال: فوجد المتوكل من ذلك وساءه ما سمعه في أخيه، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات، فقال له: يا ابن عبد الملك ـ في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال له: يا أمير المؤمنين ـ أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا، ودخل عليه هرثمة فقال: يا هرثمة ـ في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين ـ قطعني الله إربًا إربًا إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا، قال: ودخل عليه أحمد بن أبي دؤاد، فقال: يا أحمد ـ في قلبي من قتل أحمد بن نصر، فقال: يا أمير المؤمنين ـ ضربني الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا، قال المتوكل: فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنّه هرب وتبدّى، واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل في الحيّ فقال: يا معشر خزاعة ـ هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر، فقطعوه إربًا إربًا، وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده.

وقال أحمد بن كامل القاضي عن أبيه أنه وكل برأس أحمد بن نصر من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر ببغداد، وأن الموكل به ذكر أنه يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه، فيقرأ سورة يّس بلسان طلق، وأنّه لما أخبر بذلك طلب فخاف على نفسه فهرب. وقال بسند آخر إلى إبراهيم بن إسماعيل بن خلف: كان أحمد بن نصر خلّي، فلما قتل في المحنة وصلب رأسه أخبرتُ أن الرأس يقرأ القرآن، فمضيت فبت بقرب من الرأس مشرفًا عليه، وكان عنده رجّالة وفرسان يحفظونه، فلما هدأت العيون سمعت الرأس يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١، ٢] فاقشعر جلدي، ثم رأيته بعد ذلك في المنام وعليه السندس والإستبرق(١) وعلى رأسه تاج، فقلت: ما فعل الله بك يا أخي؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنّة، إلا أني كنت مغمومًا ثلاثة أيام، قلت: ولمَ؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ مرّ بي فلما بلغ خشبتي حوّل وجهه عني، فقلت له بعد ذلك: يا رسول الله، قتلت على الحق أو على الباطل؟ فقال: أنت على الحق ولكن قتلك رجل من أهل بيتي، فإذا بلغت إليك أستحيي منك. وقال بسند إلى أبي جعفر الأنصاري: سمعت محمد بن عبيد ـ وكان من خيار الناس ـ يقول: رأيت أحمد بن نصر في منامي فقلت يا أبا عبد الله ما صنع بك ربك؟ قال: غضبتُ له فأباحني النظر إلى وجهه تعالى.

(١) الإستبرق: الديباج الغليظ.

قال: وكان مقتله يوم السبت غرة رمضان سنة إحدى وثلاثين ومائتين، وأنزل رأسه يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وثلاثين ومائتين، وجمع رأسه وبدنه ودفن بالجانب الشرقي في المقبرة المعروفة بالمالكية[١].

ذكر الفداء بين المسلمين والروم

في هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم، فاجتمع المسلمون على نهر اللاَّمس[٢] على مسيرة يوم من طَرَسُوس، واشترى الواثق من ببغداد وغيرها من الروم، وعقد الواثق لأحمد بن سَلْم بن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم، وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم، وأمرهما أن يمتحنا أسرى المسلمين، فمن قال: القرآن مخلوق وأنّ الله لا يُرى في الآخرة ـ فودي به وأعطي دينارًا، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم، فلما كان في عاشوراء سنة إحدى وثلاثين اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على نهر، وأتت الروم ومن معهم من الأسرى، وكان النهر بين الطائفتين، فكان المسلمون يطلقون أسيرًا فيطلق الروم أسيرًا ويلتقيان في وسط النهر، ويأتي هذا لأصحابه وهذا لأصحابه حتى فرغوا، وكان عدّة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعة وستين نفسًا، والنساء والصبيان ثمانمائة، وأهل الذمة مائة نفس.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

ذكر وفاة أبي جعفر الواثق وشيء من أخباره

كانت وفاته بسامرا في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة منها، وكانت علته الاستسقاء[٣] فعولج بالإقعاد في تنور مسخن، فوجد لذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة في إسخانه، ففعل ذلك وجلس فيه أكثر من اليوم الأول، فحمي عليه فأخرج

---

(١) المالكية: قرية على باب بغداد وأخرى على الفرات بالعراق.

(٢) اللامس: بالسين مهملة، وكسر الميم: من قرى الغرب... وقال أبو زيد: إذا جزت قلمسية إلى البحر نحو مرحلة بان لك مكان وكان يعرف باللامس وهي قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس كان فيه الفدا بين المسلمين والروم يقدمون الروم في البحر فيكونون في سفنهم والمسلمون في البر ويقع الفداء... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الاستسقاء: تجمع سائل مصلي في التجويف البريتوني لا يكاد يبرأ منه. والاستسقاء الدماغي مرض خلقي في الغالب يزداد فيه السائل المخيّ الشوكي في بطون الدماغ. فيمددها ويرققه.

منه ووضع في محفة[١] فمات فيها، ولم يشعر به حتى ضرب وجهه المحفة؛ وقيل إن أحمد بن أبي دؤاد حضر وفاته وغمّضه، وقيل إنه لما حضرته الوفاة جعل يردد هذين البيتين: [من البسيط]

الموت فيه جميع الخلق مشتركٌ لا سوقةٌ منهم تبقى ولا ملكُ
ما ضرّ أهلٌ قليلٌ في تفاقرهم وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا

وأمر بالبسط فطويت وألصق خده بالأرض، وجلع يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه. وقال أحمد بن محمد الواثقي: كنت فيمن يمرّض الواثق، فلحقته غشية وأنا وجماعة من أصحابه قيام، فقلنا لو عرفنا خبره! فتقدمت إليه فلما صرت عند رأسه فتح عينيه فكدت أموت خوفًا، فرجعت إلى خلفي وتعلقت قُنْبُعَة[٢] سيفي بعتبة المجلس، فاندقت وسلمت من جراحه، ووقفت في موقفي ثم مات الواثق وسجبناه، وجاء الفراشون فأخذوا ما تحته في المجلس ورفعوه لأنه مكتوب عليهم، واشتغل الناس بأخذ البيعة وجلست على باب المجلس لحفظ الميت، ورددت الباب فسمعت حسًّا ففتحت الباب، فإذا جرذ قد دخل من بستان هناك فأكل إحدى عيني الواثق؛ فقلت: لا إله إلا الله ـ هذه العين التي فتحها من ساعة، فاندق سيفي هيبة لها، صارت طعمة لدابة ضعيفة، فسألني ابن أبي دؤاد عن عينه فذكرت له القصة فعجب منها، وصلّى عليه ابن أبي دؤاد وأنزله في قبره، وقيل صلّى عليه أخوه المتوكل، ودفن بالهاروني[٣]، وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة، وقيل ستًّا وثلاثين سنة وشهورًا، وقيل سبعًا وثلاثين، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام. وكان أبيض مشربًا بحمرة جميلاً ربع القامة حسن الجسم بعينه اليمنى وقيل اليسرى نكتة[٤] بياض.

وقد وقفت في أثناء مطالعتي على حكاية غريبة اتفقت للواثق، أحببت أن أضمها إلى أخباره، وهي ما رواه أبو الفرج الأصبهاني بسنده إلى محمد بن الحارث، قال:

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له، تركب فيه المرأة.
(٢) القنبعة: مثل المقنعة تخاط.
(٣) الهاروني: قصر قرب سامراء، ينسب إلى هارون الواثق بالله، وهو على دجلة بينه وبين سامراء ميل وبإزائه بالجانب الغربي المعشوق.
(٤) النكتة: النقطة في الشيء تخالف لونه.

كانت لي نوبة في خدمة الواثق في كل جمعة. إذا حضرت ركبت إلى الدار، فإن نشط إلى الشرب أقمت عنده، وإن لم ينشط انصرفت، وكان رسمنا ألا يحضر أحد منا إلا يوم نوبته، فإني لفي منزلي في يوم غير يوم نوبتي إذا برسل قد هجموا علي، وقالوا لي: احضر، فقلت خيرًا، قالوا: خير، فقلت: إنّ هذا يوم لم يحضرني فيه أمير المؤمنين قط، ولعلكم غلطتم، قالوا: الله المستعان ـ لا تطل وبادر، فقد أمرنا ألا ندعك تستقر على الأرض، فدخلني فزع شديد وخفت أن يكون سعى بي ساع، أو بليّة قد حدثت في رأي الخليفة عليّ، فتقدمت بما أردت وركبت حتى وافيت الدار، فذهبت لأدخل على رسمي من حيث كنت أدخل فمنعت، وأخذ بيدي الخدم فعدلوا بي إلى ممرات لا أعرفها، فزاد ذلك في جزعي وغمّي، ثم لم يزل الخدم يسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة بالصخر، ملبّسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك.

قال: وإذا الواثق في صدره على سرير مرصّع بالجوهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب، وإلى جانبه فريدة جاريته عليها مثل ثيابه وفي حجرها عود، فلما رآني قال: جوّدت والله يا محمد ـ إلينا إلينا، فقبّلت الأرض ثم قالت: يا أمير المؤمنين ـ خيرًا! قال: خيرًا ـ ما ترانا طلبتُ والله ثالثًا يؤنسنا! فلم أرَ أحق بذلك منك، فبحياتي بادر فكُلْ شيئًا وبادر إلينا، والله ـ يا سيّدي ـ قد أكلت وشربت أيضًا، قال: اجلس فجلست، وقال: هاتوا لمحمد رطلاً في قدح فأحضرت ذلك، واندفعت فريدة تغني:
[من الطويل]

أهابك إجلالاً وما بك قدرةٌ   عليّ ولكن ملء عينٍ حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنّها   قلتك ولا أن قلّ منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر، وجعل الواثق يجاذبها وفي خلال ذلك تغنّي الصوت بعد الصوت، وأغنّي في خلال غنائها، فمرج لنا أحسن ما مرّ لأحد، فإنّا لكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر فريدة، ضربة تدحرجت منها من أعلى السرير إلى الأرض، وتفتّت عودها، ومرّت تعدو وتصيح وبقيت كالمنزوع الروح، فلم أشك في أنّ عينه وقعت عليّ ـ وقد نظرت إليّ ونظرت إليها، فأطرق ساعة إلى الأرض متحيرًا، وأطرقت أتوقع ضرب العنق، فإني لكذلك إذ قال لي: يا محمد ـ فوثبت، فقال: ويحك أرأيت أعجب ممّا تهيّأ علينا!! فقلت: يا سيّدي الساعة تخرج روحي، فعلى من أصابنا بعين لعنة الله، فما كان السبب والذنب؟ قال: لا والله، ولكنّي ذكرت في أنّ جعفرًا يقعد غدًا هذا المقعد، وتقعد معه كما هي قاعدة معي، فلم أطق الصبر

وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيت، فسُرِّي عنّي وقلت: بل يقتل الله جعفرًا ويحيا أمير المؤمنين أبدًا، وقبّلت الأرض وقلت: يا سيدي ارحمها ومُرْ بردّها، فقال لبعض الخدم الوقوف مرّ وجيء بها، فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفي يدها عود، وعليها غير الثياب التي كانت عليها، فلما رآها جذبها إليه وعانقها، فبكت وجعل هو يبكي واندفعت أنا في البكاء، فقالت: ما ذنبي يا مولاي؟ وبأي شيء استوجبت هذا؟ فأعاد عليها ما قال لي وهو يبكي، فقالت سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربت عنقي الساعة، وأرحتني من الفكر في هذا وأرحت قلبك من الهمّ، وجعلت تبكي ويبكي ثم مسحا أعينهما، ثم رجعت إلى الغناء، وأومأ إلى خدم وقوف بشيء لا أعرفه، فمضوا وأحضروا أكياسًا فيها عين[١] وورق[٢]، ورزمًا فيها ثياب كثيرة، وجاء خادم بدَرَج ففتحه وأخرج منه عقدًا ما رأيت قط مثل جوهر كان فيه، فألبسه إياها، وأحضرت بدرة[٣] فيها عشرة آلاف فجعلت بين يدي، وخمسة تخوت فيها ثياب، وعدنا إلى أمرنا وإلى أحسن ما كنّا فيه، فلم نزل كذلك إلى الليل ثم تفرّقنا، وضرب الدهر ضربة وتولى المتوكل، فوالله إني لفي منزلي بعد يوم نوبتي، إذ هجم عليّ رسل الخليفة فلم يمهلوني حتى ركبت وصرت إلى الدار، فأدخلت ـ والله ـ الحجرة بعينها، وإذا المتوكل في الموضع الذي كان فيه الواثق على السرير بعينه وإلى جانبه فريدة، فلما رآني قال: ويحك ما ترى ما أنا فيه من هذه ـ منذ غدوة!! أطالبها أن تغني فتأبى ذلك، فقلت لها: يا سبحان الله تخالفين سيّدك وسيّدنا وسيّد البشر!! بحياته غنّي فضربت والله ثم اندفعت تغنّي: [من الوافر]

مقيمٌ بالمجازة من قَنَوْنا ... وأهلك بالأجيفر والثماد[٤]

فلا تبعد فكلُّ فتًى سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي[٥]

ثم ضربت بالعود الأرض ورمت بنفسها عن السرير، ومرّت تعدو وهي تصيح واسيّداه، فقال لي: ويحك ما هذا؟ فقلت: لا أدري والله ـ يا سيّدي، قال: ما ترى؟ قلت: أرى أن تحضر هذه ومعها غيرها فإنّ الأمر يؤول إلى ما يريد أمير المؤمنين، قال: فانصرف في حفظ الله، فلم أدرِ ما كانت القصّة.

---

(١) العين: ما ضرب نقدًا من الدنانير.
(٢) الورق: الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة.
(٣) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به.
(٤) الأجيفر: موضع في أسفل السبعان من بلاد قيس. والثماد: بفتح الثاء: حصن باليمن في جبل جحاف. والثماد: بكسر الثاء: موضع في ديار بني تميم قرب المروت.
(٥) طرقه: أتاه ليلاً.

قال: وكان الواثق قد ذهب في أموره مذهب المأمون، وشغل نفسه بمحنة الناس في الدين وأفسد قلوبهم، ولما ولّي الخلافة أحسن إلى العلويين واشتمل عليهم وبالغ في إكرامهم وتعاهدهم بالأموال؛ وفرّق في أهل الحرمين أموالاً لا تحصى، حتى إنه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل، حتى إنّه ـ لما توفي ـ كان أهل المدينة تخرج من نسائهم كل ليلة إلى البقيع فيبكين عليه ويندبنه، يفعلن ذلك بينهن مناوبة حزنًا عليه لإحسانه لهم؛ وأطلق في خلافته أعشار سفن البحر وكانت مالاً عظيمًا.

وكان نقش خاتمه: الله ثقة الواثق. أولاده: محمد المهتدي بالله، وعبد الله، وإبراهيم، ومحمد وعائشة. وزيره: محمد بن عبد الملك الزيات. حجّابه: إيتاخ ثم وصيف مولاه ثم أحمد بن عمار. قاضيه: أحمد بن أبي دؤاد. الأمراء بمصر: علي بن يحيى الأرمني ثم عيسى بن منصور من قبل إشناس، فلما توفي إشناس ردّت مصر إلى إيتاخ فأقرّ عيسى بن منصور عليها. قاضيها: محمد بن أبي الليث.

ذكر خلافة المُتَوَكّل على الله

هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه تركية اسمها شُجاع، وهو العاشر من الخلفاء العباسيين، بويع له يوم وفاة أخيه الواثق لست بقين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائتين، قال: ولما توفي الواثق حضر الدار أحمد بن أبي دؤاد وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرج وابن الزيات وأبو الوزير أحمد بن خالد؛ وعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد قصير، فألبسوه درّاعة سوداء وقلنسوة فإذا هو قصير، فقال وصيف: أما تتقون الله ـ تولون مثل هذا الخلافة!! فتناظروا فيمن يولّونه فذكروا عدة ثم أحضروا المتوكل، فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعمّمه وقبّله بين عينيه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، وكان عمر المتوكل يوم ذاك ستًا وعشرين سنة، ووضع العطاء للجند لثمانية أشهر. قال: وأراد ابن الزيات أن يلقّبه، فقال أحمد بن أبي دؤاد: قد رأيت لقبًا أرجو أن يكون موافقًا ـ وهو المتوكل على الله، فأمر بإمضائه فكتب به إلى الآفاق. وقيل بل رأى المتوكل في منامه قبل أن يستخلف كأنّ سكّرًا ينزل من السماء ـ مكتوب عليه المتوكل على الله، فقصّها على أصحابه فقالوا: هي الخلافة، فبلغ ذلك الواثق فحبسه وضيّق عليه.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

ذكر القبض على محمد بن عبد الملك الزيات

وفي هذه السنة لسبع خلون من صفر قبض المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات، وكان سبب ذلك أنّ الواثق كان قد استوزره وفوّض إليه الأمور كلها؛ وكان قد غضب على أخيه جعفر المتوكل، ووكل عليه من يأتيه بأخباره كلها، فجاء المتوكل إلى ابن الزيات فسأله أن يكلّم الواثق ليرضى عنه، فوقف بين يديه وهو لا يكلّمه، ثم أشار إليه بالقعود فجلس، فلما فرغ من الكتب التي بين يديه التفت إليه كالمتهدّد، وقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لتسأل أمير المؤمنين الرضا عنّي، فالتفت إلى من حوله وقال: انظروا يغضب أخاه ثم يسألني أن أسترضيه له، اذهب فإنّك ـ إذا صلحت ـ رضي عنك، فقام من عنده حزينًا وأتى أحمد بن أبي دؤاد، فقام إليه واستقبله على باب البيت وقبّل يده، وقال: ما حاجتك؟ جعلت فداك، قال: جئت لتسترضي عنّي أمير المؤمنين، قال: أفعل ونعمة عين وكرامة، وكلّم أحمد الواثق فيه فوعده ـ ولم يرض عنه، ثم كلّمه ثانية فرضي عنه وكساه.

قال: ولما خرج المتوكل من عند ابن الزيّات، كتب أن جعفرًا أتاني في زي المخنثين له شعر قفا، يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه، فكتب إليه الواثق: ابعث إليه وأحضره، ومر بجزّ شعر قفاه، قال المتوكل: لما أتاني رسوله لبست سوادًا جديدًا، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عنّي، فاستدعى حجامًا وأخذ شعري على السواد الجديد، ثم ضرب به وجهي، فلما ولّي المتوكل الخلافة أمهله إلى صفر، وأمر إيتاخ بأخذ ابن الزيات وتعذيبه، فاستدعاه وأدخله حجرة ووكل به، وأرسل من أصحابه من هجم منازله وأخذ كل ما فيها، واستصفى أمواله وأملاكه في جميع البلاد، ثم جعله في تنّور كان قد عمله هو وعذّب به ابن أسباط وأخذ ماله، وكان التنّور من خشب فيه مسامير من حديد، أطرافها إلى داخل التنور، يمنع من يكون فيه من الحركة، وكان ضيّقًا بحيث إن الإنسان إذا دخل فيه يمد يديه إلى رأسه ليقدر على دخوله لضيقه، فبقي أيامًا ومات لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول منها، وقيل: بل ضرب فمات وهو يضرب، وقيل مات بغير ضرب؛ وقد تقدّم أن المتوكل حرقه بالنار والله أعلم.

ولما مات ألقي على الباب بقميص فغسّل ودفن، فقيل إن الكلاب نبشته وأكلت لحمه. قال: وسمع قبل موته يخاطب نفسه ويقول: يا محمد لم تقنعك النعمة

والدواب والدار النظيفة والكسوة وأنت في عافية، حتى طلبت الوزارة ـ ذق ما عملت بنفسك ثم سكت، وكان لا يزيد على التشهد وذكر الله عزّ وجل.

وفيها حبس عمر بن الفرج الرُّخَّجِي، وكان سبب ذلك أن المتوكل أتاه لما كان أخوه الواثق ساخطًا عليه، ومعه صك ليختمه عمر له ليقبض أرزاقه من بيت المال، فأخذ عمر صكّه فرمى به إلى صحن المسجد، فحقدها المتوكل ثم حبسه في شهر رمضان، وأخذ ماله وأثاث بيته وأصحابه، ثم صولح على أحد عشر ألف ألف على أن يرد إليه ضياع الأهواز.

وفيها غضب المتوكل على إبراهيم بن الجُنَيْد النصراني، وأخذ ماله ومال أخيه وكاتبه. وفيها عزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج، وولاّه يحيى بن خاقان الخراساني مولى الأزد، وولّى إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ديوان زمام النفقات.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

ودخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين.

ذكر خبر إيتاخ وابتداء أمره وقتله

كان إيتاخ غلامًا خزريًا، وكان طبّاخًا لسَلاَّم الأبْرَش، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة، وكان فيه شجاعة فرفعه المعتصم والواثق وضمّ إليه أعمالاً كثيرة، منها المعونة بسامرّا[١] مع إسحاق بن إبراهيم، فلما صار الأمر إلى المتوكل كان معه على أكثر من ذلك، وجعل إليه الجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة، فلما تمكّن المتوكل من الخلافة شرب ليلة، وعربد على إيتاخ فهمّ بقتله، فلما أصبح المتوكل قيل له فاعتذر إليه، وقال: أنت ربّيتني وأنت بمنزلة الوالد وما يناسب ذلك، ثم وضع عليه من يحسّن له الحج، فاستأذن فيه المتوكل فأذن له، وصيّره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وسار العسكر جميعه بين يديه، فلما فارق جعلت الحجابة إلى وصيف الخادم في ذي القعدة. قال: فلمّا عاد إيتاخ من مكة كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد يأمره بحبسه، فلما قرب إيتاخ من بغداد

---

(١) سامرا: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت... وقيل: سامراء: بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء... (معجم البلدان).

خرج إسحاق بن إبراهيم إلى لقائه، وكان إيتاخ أراد المسير على الأنبار إلى سامرّا، فكتب إليه إسحاق: إنّ أمير المؤمنين قد أمر أن تدخل بغداد، وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس، وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم وتأمر لهم بالجوائز، فجاء إلى بغداد فلما لقيه إسحاق أراد النزول له، فحلف إيتاخ عليه ألا يفعل ـ وكان في ثلاثمائة من غلمانه، فلما حصل بباب دار خزيمة وقف إسحاق، وقال له: يدخل الأمير أصلحه الله، فدخل إيتاخ ومنع إسحاق أصحاب إيتاخ من الدخول، ووكل بالأبواب وأقام عليها الحرس، فحين رأى إيتاخ ذلك قال: قد فعلوها!! ولو لم يفعلوا ذلك ببغداد ما قدروا عليه، وأخذوا معه ولديه منصورًا ومظفرًا وكاتبه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا، وقيّد إيتاخ وجعل في عنقه ثمانون رطلاً، فمات في جُمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين ومائتين، وأشهد إسحاق جماعة من الأعيان أنه لا ضرب به ولا أثر، قيل إنهم أطعموه ومنعوه الماء فمات عطشًا.

وحجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

ودخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين.

في هذه السنة عقد المتوكل البيعة بولاية العهد لبنيه الثلاثة، وهم محمد ولقبه المنتصر، وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله، وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله، وعقد لكل واحد منهم لواءين ـ أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل، وأعطى كل واحد منهم ما نذكره:

فأما المنتصر بالله فأقطعه إفريقية والمغرب كله والعواصم وقنسرين والثغور جميعها الشامية والجزرية وديار مضر وربيعة وهيت[(١)] والموصل وعانات[(٢)] والخابور وكوربَا جَرْمَى وكور دجلة وطساسيج[(٣)] السواد جميعها والحرمين واليمن وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومُكْران وقَنْدَابِيل[(٤)] وفَرج بيت الذهب وكور الأهواز

---

(١) هيت: بالكسر وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية. . . (معجم ياقوت).

(٢) عانات: هي في الإقليم الرابع من جهة المغرب طولها ست وستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة.

(٣) الطساسيج: جمع الطسوج: وهو الناحية.

(٤) قندابيل: هي مدينة بالسند وهي قصبة لولاية يقال لها الندهة كانت فيها وقعة لهلال بن أحوز المازني الشاري على آل المهلب. . . (معجم البلدان).

والمستغلات بسامرا ومَاهْ الكوفة ومَاه البصرة ومَاسَبذان ومهْرَجَانْقُذَق وشهرزور والصامغان وأصبهان وقمّ وقاشان[١] والجبل جميعه وصدقات العرب بالبصرة.

وأما المعتز بالله فأقطعه كور خراسان وما ينضاف إليها، وطبرستان، والريّ، وأرمينية، وأذربيجان وكور فارس، ثم أضاف إليه في سنة أربعين خزن الأموال في جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر أن تختم الدراهم باسمه.

وأما المؤيّد بالله فإنّه أقطعه جند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين.

ذكر ظهور رجل يدّعي النبوّة

وفيها ظهر رجل بسامرّا يقال له محمود بن الفَرَج النيسابوري، وزعم أنّه نبي وأنّه ذو القرنين، وتبعه سبعة وعشرون رجلاً، وخرج من أصحابه ببغداد رجلان بباب العامة واثنان بالجانب الغربي، فأتي به وبأصحابه إلى المتوكل فضرب ضربًا شديدًا، وحمل إلى باب العامة فأكذب نفسه، وأمر أصحابه أن يصفعه كل واحد عشر صفعات ففعلوا، وأخذوا له كتابًا فيه كلام قد جمعه وذكر أنّه قرآن، وأن جبريل نزل به عليه، ثم مات من الضرب في ذي الحجة وحبس أصحابه، وكان فيهم شيخ يزعم أنّه نبي وأن الوحي يأتيه.

وفيها أمر المتوكل أهل الذمّة بلبس الطَّيَالِسة[٢] العسلية، وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب، وعمل كرتين في مؤخر السرج، وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفتين لون الثياب، قدر كل رقعة منهما أربع أصابع، ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزارًا عسليًا، ومنعهم من لباس المناطق[٣]، وأمر بهدم بيعهم[٤] المستحدثة، وبأخذ العشر من منازلهم، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب، ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ـ ولا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليبًا، وأن يشعلوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض، وكتب بذلك إلى الآفاق.

وحجّ بالناس محمد بن داود.

---

(١) قاشان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضائر القاشاني... وأهلها كلهم شيعة إمامية... (معجم ياقوت).

(٢) الطالسان والطيلسان: ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف، أو يحيط بالبدن، خال عن التفصيل والخياطة، أو هو ما يعرف بالعامية المصرية بالشال.

(٣) المنطقة: ما يشد به الوسط. (٤) البيع: جمع البيعة، وهو معبد النصارى.

ودخلت سنة ست وثلاثين ومائتين.

ذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين ابن علي رضي الله عنهما

في هذه السنة أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهدم ما حوله من المنازل والدور ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى في الناس في تلك الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثالثة حبسناه في المطبق، فهرب الناس وتركوا زيارته وحرث وزرع، وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولأهل بيته، وكان يقصد من يتولّى عليًا وأهل بيته بأخذ المال والروح؛ وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث، وكان أصلع فيشد تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه ويرقص، والمغنون يغنون قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين، يحكي بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمتوكل يشرب ويضحك، فرآه المنتصر فتهدّده فسكت خوفًا منه، فقال له المتوكل: ما حالك! فأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين ـ إنّ هذا الذي يحكيه ـ هذا الكلب، ويضحك منه الناس هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت، ولا تطمع هذا الكلب وأمثاله فيه، فقال المتوكل للمغنين غنّوا: [من المجتث]

غـار الـفـتـى لابـن عـمّـه ... راس الـفـتـى فـي حـرّ أمّـه

وكان هذا من الأسباب التي استحلّ بها المنتصر قتل المتوكل.

وفيها غزا علي بن يحيى الأرْمَني الصائفة، فلقي صاحب الروم في ثلاثين ألفًا، وكان عليّ في نحو ثلاثة آلاف، فهزم الروميّ وقتل أكثر من عشرين ألفًا، ثم مضى إلى عمّورية فافتتحها وغنم ما فيها، وأخرج منها أسارى من المسلمين وكانوا خلقًا كثيرًا، وخرّب كنائسها، وفتح أيضًا حصنًا يقال له الفرطس، فأخرج عشرين ألف رأس من السبي، وغنم غنيمة بلغت مائة ألف وعشرين ألفًا. حكاه أبو الفرج الجوزي في تاريخه «المنتظم في أخبار الملوك والأمم».

وفيها استكتب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان. وحجّ المنتصر في هذه السنة بالناس.

ودخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين.

ذكر وثوب أهل أرمينية بعاملهم

في هذه السنة وثب أهل أرمينية بعاملهم يوسف بن محمد فقتلوه، وكان سبب ذلك أنّه لما صار إلى أرمينية خرج إليه بطريق يقال له بُقْراط بن أَشُوط ـ ويقال له بطريق البطارقة، فطلب الأمان فأخذه يوسف وابنه معه وسيّرهما إلى باب الخليفة، فاجتمع بطارقة أرمينية مع ابن أخي بقراط بن أشوط، وتحالفوا على قتله ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة ـ وهو صهر بقراط، فأتى الخبر يوسف ونهاه أصحابه عن المقام بمكانه فلم يقبل، فلما جاء الشتاء ونزل الثلج أتوه وهو بمدينة طرون[١]، فحصروه بها فخرج إليهم وقاتلهم فقتلوه وقتلوا من قاتل معه، وأما من لم يقاتل معه فقالوا له: انزع ثيابك وانج بنفسك عريانًا، فخرجوا حفاة عراة فهلك أكثرهم من البرد، وكان ذلك في شهر رمضان، وكان يوسف قبل ذلك قد فرّق أصحابه في رساتيق عمله، فتوجّه إلى كل طائفة منهم طائفة من البطارقة فقتلوهم في يوم واحد، فلما بلغ المتوكل الخبر وجّه بغا الكبير إليهم، فسار على الموصل والجزيرة فبدأ بأَرْزَن[٢]، وبها موسى بن زرارة وإخوته عيسى وإسماعيل وأحمد ومحمد وهارون فحملهم إلى المتوكل، وأناخ على قتلة يوسف فقتل منهم زهاء ثلاثين ألفًا، وسبى منهم خلقًا كثيرًا فباعهم، وسار إلى بلاد الباق فأسر أَشُوط بن حمزة صاحب الباق من كور البُسْفُرَّجان، ثم سار إلى مدينة دبيل[٣] من أرمينية فأقام بها شهرًا، ثم سار إلى تفليس[٤] فحصرها، وبها إسحاق بن إسماعيل مولى بني أميّة فخرج وقاتل أصحاب

---

(١) طرون: موضع بأرمينية ذكره البحتري. . والطرون أيضًا: حصن بين بيت المقدس والرملة كان مما فتحه صلاح الدين في سنة ٥٨٣هـ. . . (معجم البلدان).

(٢) أرزن: بالفتح ثم السكون، وفتح الزاي، ونون: هي مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. . . وأرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضًا، أهلها أرمن، وهي الآن أكبر وأعظم من الأولى، ولها سلطان مستقل بها مقيم فيها، وولاية ونواح واسعة كثيرة الخيرات. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) دبيل: بفتح أوله وكسر ثانيه: موضع يتاخم أعراض اليمامة. . وقيل: دبيل: اسم رمل معروف. . . ودبيل أيضًا: مدينة بأرمينية تتاخم أرّان، كان ثغرًا فتحه حبيب بن مسلمة في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه. . . (معجم البلدان).

(٤) تفليس: بفتح أوله ويكسر: بلد بأرمينية الأولى، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية. . . (معجم البلدان).

بغا، فأمر بغا بإحراق المدينة بالنفط فأحرقت ـ وكانت من خشب الصنوبر، وأسر إسحاق بن إسماعيل وأتي به إلى بغا فضرب عنقه وصلب جثته، واحترق بالمدينة نحو خمسين ألف إنسان وأسر من سلم من النار، وفرّق بغا جيوشه فيما يجاور تفليس من الحصون ففتحها، وكان أمر تِفْليس في سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

ذكر غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وولاية يحيى بن أكثم القضاء

وفي سنة سبع وثلاثين غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد، وقبض ضياعه وأملاكه وحبس ابنه أبا الوليد وسائر أولاده، فحمّل أبو الوليد مائة ألف وعشرين ألف دينار وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار، ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم، وأشهد عليهم جميعًا ببيع أملاكهم، وكان أبوهم أحمد قد فلج فأحضر المتوكل يحيى بن أكثم من بغداد إلى سامرا، ورضي عنه وولاّه قضاء القضاة ثم ولاه المظالم، فولّى يحيى بن أكثم قضاء الجانب الشرقي حيّان بن بشر والجانب الغربي سَوَّار بن عبد الله العنبري، وكلاهما أعور فقال الجماز[1]: [من الوافر]

رأيت من الكبائر قاضيين ... هما أحدوثةٌ في الخافقينِ
هما اقتسما العما نصفين قدرًا ... كما اقتسما قضاء الجانبينِ
وتحسب منهما من هزّ رأسًا ... لينظر في مواريثٍ ودينِ
كأنّك قد وضعت عليه دنًّا ... فَتَحْتَ بُزَالَهُ من فرد عينِ[2]
هما فأل الزمان بهلك يحيى ... إذا افتتح القضاء بأعورينِ

وفيها أمر المتوكل بإنزال خشبة أحمد بن نصر ودفعه إلى أوليائه، فحمل إلى بغداد وضم رأسه إلى بدنه وغسل وكفن ودفن، ونهى المتوكل عن الجدال في القرآن وغيره وكتب بذلك إلى الآفاق.

وحجّ بالناس في هذه السنة علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور.

---

(١) الجماز: أبو عبد الله الجماز، هو محمد بن عمرو، من أهل البصرة شاعر أديب، كان ماجنًا خبيث اللسان، دخل بغداد أيام الرشيد وفي أيام المتوكل، وأعجب به المتوكل وأمر له بعشرة آلاف درهم، فأخذها وانحدر فمات فرحًا بها. . . (تاريخ بغداد ١١٤٣).

(٢) البزال: أداة يثقب بها الدن ونحوه. والدن: وعاء ضخم للخمر ونحوها.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

ذكر مسير الروم إلى ديار مصر

في هذه السنة جاء الروم في ثلاثمائة مركب مع ثلاثة رؤساء، فأناخ أحدهم في مائة مركب بدمياط[١]، وكان على معونة مصر عَنْبَسَة بن إسحاق الضبي، وكان قد أمر جند الثغر أن يحضروا إلى مصر للعيد فحضروا، فاتفق وصول الروم وهي خالية من الجند، فخرج من له قوة منها والتحق بمصر، وطلع الروم إليها فنهبوا وأحرقوا الجامع، وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع وغير ذلك، وسبوا من النساء المسلمات والذميّات نحو ستمائة امرأة، وأوقروا سفنهم وسارت الروم إلى شتوم تنيس[٢]، وكان عليه سور له بابان من حديد، فأخذوهما ونهبوا ما فيه من السلاح ورجعوا.

ودخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين.

في هذه السنة أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس درّاعتين عسليّتين على الدراريع والأقبية، وبالاقتصار في مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل والبراذين.

قال ابن الجوزي وفيها غزا علي بن يحيى الأرمنيّ الصائفة، فوصل بلاد الروم فقتل عشرة آلاف علج، وسبى سبعة عشر ألف رأس، وأخذ سبعة آلاف دابة، وحرق أكثر من ألف قرية.

وحجّ بالناس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى ـ وهو والي مكة.

ودخلت سنة أربعين ومائتين.

ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم

في هذه السنة وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم، وكان قد قتل رجلاً من رؤسائهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه، فكتب إلى المتوكل فبعث عتاب بن عَتّاب ومحمد بن عبدويه الأنباري، وقال لعتاب: قل لهم إن أمير المؤمنين قد أبدلكم بعاملكم، فإن أطاعوا فولّ عليهم محمد بن عَبْدَوَيْه، فإن أبوا

---

(١) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل، مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق، وهي ثغر من ثغور الإسلام. . . (معجم البلدان).

(٢) الأشتوم: بالضم ثم السكون وتاء مثناة مضمومة والواو ساكنة وميم: موضع قرب تنيس. . . (معجم ياقوت).

فأقم واعلمني لأمدّك بالجنود، فساروا إليهم فوصلوا في شهر ربيع الآخر فرضوا بمحمد بن عبدويه، فشرع في أذاهم وعمل بهم الأعاجيب، فوثبوا به في سنة إحدى وأربعين وأعانهم عليه قوم من نصارى حمص، فكتب إلى المتوكل فأمره بمناهضتهم، وأمدّه بجند من دمشق والرملة[١]، فناجزهم وظفر بهم فضرب رجلين من رؤسائهم حتى مات وصلبهما على باب حمص، وبعث ثمانية من أشرافهم إلى المتوكل، وظفر بعد ذلك بعشرة رجال فضرب أعناقهم، وأمره المتوكل بإخراج النصارى وبهدم كنائسهم، وبإدخال البيعة التي بجانب الجامع فيه ففعل ذلك. وفيها عزل يحيى بن أكثم عن القضاء، وقبض منه ما مبلغه خمسة وسبعون ألف دينار، وأربعة آلاف جريب[٢] بالبصرة، وولّى جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي قضاء القضاة.

وفيها أخذ أهل الذمّة بتعليم أولادهم العبرانية ومنعوا من العربية، فأسلم منهم خلق كثير، حكاه أبو الفرج بن الجوزي.

ويها سمع أهل خلاط من السماء صيحة فمات خلق كثير ـ وكانت ثلاثة أيام، وخسف بثلاث عشرة قرية من قرى إفريقية، فلم ينج منها إلا اثنان وأبعون رجلاً سود الوجوه، فأتوا القيروان فأخرجهم أهلها، وقالوا: أنتم مسخوط عليكم فبنى لهم العالم حظيرة خارج المدينة فنزلوها.

وحجّ بالناس عبد الله بن محمد بن داود.

ودخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين.

ذكر الفداء بين المسلمين والروم

قال: وفي هذه السنة عرضت تدورة ملكة الروم على أسرى المسلمين النصرانية، فمن تنصّر جعلته أسوة من قبله من المتنصّرة، ومن أبى قتلته ـ حتى قتلت من أسرى المسلمين اثني عشر ألفًا، ثم أرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم، فأرسل المتوكل شنيفًا الخادم على الفداء، وطلب قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد أن

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها، قد خربت الآن، وكانت رباطًا للمسلمين... والرملة: محلة خربت نحو شاطىء دجلة مقابل الكرخ ببغداد... والرملة أيضًا: محلة بسرخس... ورملة بني وبر: في أرض نجد... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.

يحضر الفداء ويستخلف على القضاء، فأذن له المتوكل واستخلف على القضاء ابن أبي الشوارب ـ وهو شاب، ووقع الفداء على نهر اللاَّمِس، فكان أسرى المسلمين من الرجال سبعمائة وخمسة وثلاثين رجلاً، ومن النساء مائة وخمسًا وعشرين امرأة.

ذكر غارة البُجَاة بمصر

في هذه السنة غارت البجاة على أرض مصر، وكانت قبل ذلك لا تغير لهدنة قديمة، وكانوا يؤدون إلى عمال مصر الخمس مما في بلادهم من معادن الذهب، فامتنعوا من ذلك فكتب صاحب البريد إلى المتوكل بخبرهم، وأنّهم قتلوا عدة من المسلمين ممن يعمل في المعادن، وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد منهم على أنفسهم، فولّى المتوكل محمد بن عبد الله القمّي حربهم، واستعمله على معونة قفط[١] والأقصر وأرمنت[٢] وإسنا[٣] وأسوان، وأمره بمحاربة البجاة، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق الضبي ـ عامل حرب مصر ـ بإزاحة علّته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه ففعل، وسار محمد إلى أرض البجاة وتبعه من المتطوعة وعمال المعادن خلق كثير، فبلغت عدتهم نحوًا من عشرين ألفًا من فارس وراجل، وحمل له في بحر القلزم سبع مراكب موقورة[٤] بالدقيق والزيت والتمر والشعير والسويق، وسارت لتوافيه على ساحل البحر ببلاد البجاة، وسار هو إلى بلادهم في البر حتى بلغ حصونهم، فخرج إليه ملكهم ـ واسمه علي بابا ـ في جموع عظيمة أضعاف المسلمين وهم على المهاري، فلم يصدقهم القتال وأراد مطاولتهم حتى تفنى أزوادهم، فيأخذهم باليد من غير حرب، فأقبلت المراكب التي فيها الأقوات ففرقها محمد على من معه، فعندها صدقهم علي بابا القتال وقاتلهم قتالاً شديدًا، وكانت إبلهم زعرة[٥] تنفر من كل شيء، فجمع القمي الأجراس وجعلها في أعناق خيله، وحمل عليهم فنفرت إبل البجاة لأصواتها وتفرقت، وسارت على الجبال والأودية وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى الليل، ولم يقدروا على إحصاء القتلى لكثرتهم، ثم طلب ملكهم الأمان على أن يردّ عليه مملكته وبلاده، ويؤدي الخراج للمدة التي منعها وهي أربع سنين،

---

(١) قفط: مدينة في الصعيد الأعلى إلى أسوان في المشرق.

(٢) أرمنت: كورة بصعيد مصر بينها وبين قوص في سمت الجنوب مرحلتان، ومنها إلى مدينة أسوان مرحلتان. . . (معجم البلدان).

(٣) إسنا: مدينة بأقصى الصعيد، وليس وراءها إلا أدفو وأسوان ثم بلاد النوبة، وهي على شاطىء النيل من الجانب الغربي.

(٤) الموقورة: المحملة حملاً ثقيلاً.

(٥) الزعر: السيّىء الخلق.

فأمّنه محمد وسار به إلى المتوكل، فخلع عليه وعلى أصحابه وكساهم الحلل المدبّجة، وأعاده مع القمي فرجع إلى بلاده وهو على دينه، وكان معه صنم من حجر يسجد له وهو كهيئة الصبي.

وفي جُمادى الآخرة منها ماجت النجوم في السماء، وجعلت تتطاير شرقًا وغربًا ويتناثر بعضها خلف بعض كالجراد من قبل غروب الشفق إلى وقت الفجر، ولم يكن مثل هذا إلا لظهور رسول الله ﷺ. وفيها مات الإمام أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ببغداد، يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وله سبع وسبعون سنة وأيام، وقيل في هذا التاريخ من شهر ربيع الآخر والله أعلم.

وحجّ بالناس عبد الله بن محمد بن داود.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين.

في هذه السنة خرجت الروم من شِمْشَاط[١] بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة حتى قاربوا آمِد[٢]، وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحوًا من عشرة آلاف، فكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يسير إلى بلادهم شاتيًا.

قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في المنتظم وفيها في شعبان زلزلت الدَّامِغَان[٣]، فسقط نصفها على أهلها وعلى الوالي فقتلهم، ويذكر أن الهالكين كانوا خمسة وأربعين ألفًا؛ وكانت بقُومِس[٤] ورساتيقها في هذا الشهر زلازل فهدمت منها الدور، وسقطت بَذَش[٥] كلها على أهلها، وسقط نحو من ثلثي بَسْطَام، وزلزلت الري وجرجان وطبرستان ونيسابور وأصفهان وقمّ وقاشان، وذلك كله في وقت واحد، وتقطعت جبال ودنا بعضها من بعض، ورجفت أسدأباذ رجفة أصيب فيها الناس كلهم، وسمع للسماء والأرض أصوات عالية، وانشقت الأرض بقدر ما تدخل

---

(١) شمشاط: مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت وهي الآن محسوبة من أعمال خرتبرت. . . (معجم البلدان).

(٢) آمد: هي أعظم ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا. . . وآمد: بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشد دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين. . . (معجم البلدان).

(٣) دامغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور، وهو قصبة قومس.

(٤) قومس: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها، وقصبتها المشهورة دامغان. . . (معجم ياقوت).

(٥) بذش: قرية على فرسخين من بسطام من أرض قومس.

الرجل فيها؛ قال: ورجمت السويداء من أرض مصر بخمسة أحجار، فوقع حجر منها على خيمة أعرابي فاحترقت، ووزن منها حجر فكان فيه عشرة أرطال، فحمل منها أربعة إلى الفسطاط وواحد إلى تِنِّيس؛ قال: وذكروا أنّ جبلاً باليمن كان عليه مزارع لأهله سار حتى أتى مزارع قوم فصار فيها، فكتب بذلك إلى المتوكل. قال ابن حبيب: وذكر علي بن الوضاح أنّ طائرًا دون الرخمة[1] وفوق الغراب أبيض وقع على ذنبه بحلب لسبع مضين من شهر رمضان، فصاح يا معشر الناس: اتقوا الله الله الله، حتى صاح أربعين صوتًا ثم طار، وجاء من الغد فصاح أربعين صوتًا، فكتب بذلك صاحب البريد وأشهد خمسمائة إنسان سمعوه؛ ومات رجل في بعض كور الأهواز في شوال، فسقط طائر أبيض على جنازته فصاح بالفارسية والخوزية: إن الله قد غفر لهذا الميت ولمن شهده.

وحجّ بالناس عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

في هذه السنة سار المتوكل إلى دمشق وعزم على المقام بها، فوصل إليها في صفر سنة أربع وأربعين ومائتين، ونقل دواوين الملك إليها وأمر بالبناء، ثم استوبأ البلد فرجع إلى سامرّا، وكان مقامه بدمشق شهرين وأيامًا.

وحجّ بالناس عبد الصمد.

ودخلت سنة أربع وأربعين ومائتين.

في هذه السنة وجه المتوكل بغا الكبير لغزو الروم، وكان مسيره من دمشق لما كان المتوكل بها، فسار وفتح صَمَلة؛ وفيها أتى المتوكل بحربة كانت للنبي ﷺ تسمى العَنَزَة، وكانت للنجاشي فأهداها للزبير بن العوّام فأهداها الزبير للنبي ﷺ، وهي التي كانت تركز بين يديه ﷺ في صلاة العيدين، فكان يحملها بين يدي المتوكل صاحب الشرطة.

وحجّ بالناس عبد الصمد بن موسى. وفيها اتفق عيد الأضحى والشعانين للنصارى وعيد الفطر لليهود في يوم واحد.

---

(١) الرخمة: طائر أبقع على شكل النسر خلقة إلا أنه مبقع بسواد وبياض يقال له الأنوق... (اللسان مادة رخم).

ودخلت سنة خمس وأربعين ومائتين.

في هذه السنة أمر المتوكل ببناء الماحُوزَة[١] وسماها الجعفرى، وأقطع القوّاد وأصحابه فيها وجدّ في بنائها، وأنفق عليها ـ فيما قيل ـ ألف ألف دينار، وجمع فيها القرّاء فقرؤوا وأحضر أصحاب الملاهي، فوهب أكثر من ألفي ألف درهم، وكان يسميها هو وخاصّته المتوكلية، وبنى فيها قصرًا سماه لؤلؤة لم ير مثله، وحفر لها نهرًا يسقي ما حولها، فقتل المتوكل قبل كمال حفره فبطل الحفر وأخربت الجعفرية.

وفيها زلزلت بلاد المغرب فتهدّمت الحصون والمنازل والقناطر، ففرّق المتوكل ثلاثة آلاف ألف درهم فيمن أصيب منزله، وزلزلت المدائن وأنطاكية فقتل بها خلق كثير وسقط منها ألف وخمسمائة دار، وسقط من سورها نيّف وتسعون برجًا، وسمعوا أصواتًا هائلة لا يحسنون وصفها، وتقطّع جبلها الأقرع وسقط في البحر، وهاج البحر ذلك اليوم وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن، وغار منها نهر على فرسخ ما علم أين ذهب؛ وسمع أهل تنيس صيحة هائلة فمات منها خلق كثير؛ وزلزلت ديار الجزيرة والثغور وطرسوس[٢] وأذنة[٣] والشام، وهلك أهل اللاذقيّة وجبلة إلا اليسير.

وحجّ بالناس محمد بن سليمان.

ودخلت سنة ست وأربعين ومائتين.

في هذه السنة كانت للمسلمين غزوات في الروم برًّا وبحرًا، فغزا الفضل بن قارن في البحر في عشرين مركبًا، فافتتح حصن أنطاكية؛ وفيها كان الفداء على يد علي بن يحيى الأرمنيّ، ففودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفسًا. وفيها ورد الخبر أن سكة بناحية بلخ تعرف بسكة الدهاقين مطرت دمًا عبيطًا[٤].

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان الزينبي.

---

(١) الماحوزة: موضع قرب سامراء، فيه بنى المعتصم قصره الجعفري. كما ورد في معجم ياقوت.

(٢) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.

(٣) أذنة: موضع في جبل شرقيه... وأذنة أيضًا: بل من الثغور قرب المصيصة.

(٤) الدم العبيط: الطريّ.

ودخلت سنة سبع وأربعين ومائتين.

ذكر مقتل أبي الفضل المتوكل على الله

كان مقتله في ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوّال من هذه السنة، وكان سبب مقتله أنّه أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع بأصفهان والجبل، وأقطعها للفتح بن خاقان فكتبت وصارت إلى الخاتم، فبلغ ذلك وصيفًا، وكان المتوكل أراد أن يصلّي بالناس أول جمعة في شهر رمضان، وشاع ذلك وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب، فلما أراد الركوب للصلاة قال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان: يا أمير المؤمنين ـ إن الناس قد كثروا من أهل بيتك وغيرهم، فبعض متظلم وبعض يطلب حاجة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولاة العهد بالصلاة فليفعل ـ فأمر المنتصر، فلما نهض للركوب قالا له: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تأمر المعتز بالصلاة لتشرفه بذلك، فأمر المعتز فصلّى بالناس، فلما فرغ من الصلاة قاما إليه فقبّلا يديه ورجليه، وانصرف المعتز في موكب الخلافة حتى دخل على أبيه، فأثنوا عليه خيرًا فسره ذلك، ووجد المنتصر له أمرًا عظيمًا، فلما كان عيد الفطر قال المتوكل مروا المنتصر فليصل بالناس، فقال له عبيد الله: قد كان الناس يتطلعون إلى رؤية أمير المؤمنين واجتمعوا لذلك، ولا نأمن إن هو لم يركب اليوم أن يرجف[1] الناس بعلّته، فإن رأى أمير المؤمنين أن يسرّ الأولياء ويكبت الأعداء بركوبه فعل ـ فركب، وقد صفّ له الناس نحو أربعة أميال وترجّلوا بين يديه، فصلّى ورجع وأخذ حفنة من تراب فوضعها على رأسه، وقال: إني رأيت كثرة هذا الجمع وأنّهم تحت يدي فأحببت أن أتواضع للّه، فلما كان اليوم الثالث افتصد واشتهى لحم جزور فأكله، وسرّ في ذلك اليوم، ودعا الندماء والمغنين فحضروا، وأخذ في الشرب واللهو، ولهج[2] بأن يقول: أنا ـ والله ـ مفارقكم عن قليل، ولم يزل في سروره ولهوه إلى الليل.

وعزم المتوكل والفتح أن يفتكا بكرة غد بالمنتصر ووصيف وبغا وغيرهم من قوّاد الأتراك، هذا والمنتصر قد واعد الأتراك على قتل أبيه المتوكل، وكان ذلك لأمور: منها أن المتوكل قد عبث بالمنتصر مرة يشتمه ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يأمر بصفعه، ومرة يتهدّده بالقتل؛ ثم قال للفتح: برئت من الله ومن قرابتي من

---

(١) رجف الناس: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) لهج بالأمر: أولع به وثابر عليه واعتاده.

رسول الله إن لم تلطمه، فقام إليه فلطمه مرتين: يمر بيده على قفاه، ثم قال لمن حضره: اشهدوا عليّ جميعًا أنّي خلعت المستعجل يعني المنتصر، والتفت إليه وقال: سميتك المُنْتَصِر فسمّاك الناس ـ لحمقك ـ المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل، فقال المنتصر: لو أمرت بضرب عنقي لكان أسهل عليّ ممّا تفعل بي، فقال: اسقوه، ثم أمر بالعشاء فأحضر في جوف الليل فخرج المنتصر من عنده، وأخذ بيد زرافة الحاجب وقال له: امض معي، فقال: إن أمير المؤمنين لم يقم، فقال: إنّه أخذ منه الشراب، والساعة يخرج بغا والندماء، وأخذ المنتصر يشغل زرافة بالحديث حتى انتهى به إلى حجرة، وأكلوا طعامًا، فما لبثا أن سمعا صيحة وصراخًا فقاما، فإذا بغا قد لقي المنتصر فقال له: عظّم الله أجرك يا أمير المؤمنين، قد مات أمير المؤمنين المتوكل، فجلس المنتصر وأمر بالباب الذي فيه المتوكل فأغلق وأغلقت الأبواب، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتز والمؤيد عن رسالة المتوكل.

وأما كيفية قتل المتوكل

فإنّه لما خرج المنتصر وأحضرت المائدة وأكل المتوكل والندماء ورفعت المائدة دخل بغا الصغير الشرابي إلى المجلس، وأمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم، فقال له الفتح: ليس هذا وقت انصرافهم، فقال: إنّ أمير المؤمنين أمرني إذا جاوز السبعة ألا أترك أحدًا ـ وقد شرب أربعة عشر رطلًا، وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة، فأخرجهم ولم يبق إلا الفتح وعثعث وأربعة من خدم الخاصة وأبو أحمد بن المتوكل، وكان بغا قد أغلق سائر الأبواب إلا باب الشط، ومنه دخل القوم الذين قتلوه، فلما دخلوا بصر بهم أبو أحمد فقال: ما هذا يا سفّل!! وإذا سيوف مسلّلة، فرفع المتوكل رأسه فرآهم فقال: يا بغا ما هذا؟ قال: هؤلاء رجال النوبة فرجعوا إلى ورائهم، فقال لهم بغا: يا سفّل أنتم مقتولون لا محالة فموتوا كرامًا فرجعوا، فابتدره بَغْلُون وضربه على كتفه وأذنه فقدّه، فقال: مهلًا ـ قطع الله يديك، وأراد الوثوب به، واستقبله بيده فضربها فأبانها، وشركه باغر، فقال الفتح: ويلكم!! أمير المؤمنين، ورمى بنفسه على المتوكل فبعجوه بسيوفهم، فصاح الموت وتنحّى فقتلوه، وكان معهم خمسة من ولد وصيف.

قال: ولما قتلوا المتوكل والفتح خرجوا إلى المنتصر فسلّموا عليه بالخلافة، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف وقالوا: تبايع فبايع، وأرسل المنتصر إلى وصيف أن الفتح قتل أبي فقتلته، فأحضر في وجوه أصحابك فحضروا وبايعوه، وكان عبيد الله بن

يحيى في حجرته وبين يديه جعفر بن حامد، فلما علم بقتل المتوكل خرج فيمن معه وكسر ثلاثة أبواب، وخرج إلى الشط وركب في زورق فأتى منزل المعتز فسأل عنه فلم يصادفه، فقال: إنّا للّه وإنا إليه راجعون ـ قتل نفسه وقتلني، واجتمع إلى عبيد الله أصحابه في غداة يوم الأربعاء، فكانوا زهاء عشرة آلاف وقيل ثلاثة عشر ألفًا، فقالوا: إنما اصطنعتنا لمثل هذا اليوم، فمرنا بأمرك وأذَنْ لنا أن نميل على القوم فنقتل المنتصر ومن معه، فأبى ذلك وقال: إنّ المعتز في أيديهم.

وحكى عن علي بن يحيى قال: كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتابًا من كتب الملاحم، فوقفت على موضع فيه أن الخليفة العاشر من بني العباس يقتل في مجلسه فتوقفت عن القراءة فقال: ما لك؟ قلت خير، قال: لا بدّ أن تقرأ فقرأت فوجم لذلك، وقال: يا ليت شعري من هذا الشقي المقتول؟! فقلت: أخوك الواثق هو العاشر وما كل هذا يصح، قال: وكيف يكون العاشر؟ فذكرت الخلفاء وعددت منهم إبراهيم بن المهدي فطابت نفسه.

قال: وفسّر عليّ يومًا منامًا فقال: رأيت دابّة تكلّمني والله لو كانت بين ألف دابّة ميّزتها، فجرى على خاطري قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢]، ثم قلت: الدابّة عجماء لا تتكلّم، يدل على أن الله يفتح عليك ما لم يقدر غيرك على فتحه، فلما كان بعد شهر أهديت له هدايا فرأى فيها دابّة، فقال لي: هذه والله تلك الدابّة، فقتل بعد أيام.

وقال أبو الوارث قاضي نصيبين[١]: رأيت في النوم قائلًا يقول: [من البسيط]

يا نائم العين في جثمان يقظان ... ما بال عينك لا تبكي بتهتان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت ... بالهاشميّ وبالفتح بن خاقان[٢]

فأتى البريد بعد ثلاثة أيام بقتلهما. قال وكان عمره نحوًا من أربعين سنة، ومدة خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام، ولما مات دفن بالقصر الجعفري، وصلّى عليه ابنه المنتصر. وكان مربوعًا أسمر خفيف العارضين نحيفًا، ونقش خاتمه:

---

(١) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها أربعون ألف بستان. . . (معجم البلدان).

(٢) الفتح بن خاقان: هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي صاحب كتاب «قلائد العميان» الذي جمع فيه من شعراء المغرب طائفة كثيرة، وتكلم على ترجمة كل واحد منهم بأحسن عبارة وألطف إشارة. . وله أيضًا «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس». . . (وفيات الأعيان ٤ :٢٣).

على إلاهي اتكالي. أولاده: المنتصر وموسى الأحدب والمعز والمعتز والمؤيد وطلحة الموفق وإسماعيل والمعتمد وغيرهم. ووزراؤه: محمد بن عبد الملك الزيات ثم محمد بن الفضل الجَرْجَرَائِي ثم عبيد الله بن يحيى بن خاقان. حجّابه: وصيف التركي ثم محمد بن عاصم ثم يعقوب بن قوصرة ثم المَرْزُبَان ثم إبراهيم بن الحسن بن سهل وغيره. قضاته: أحمد بن أبي دؤاد ثم يحيى بن أكثم ثم جعفر بن عبد الواحد العباسي. الأمراء بمصر: هرثمة بن النضر من قبل إيتاخ ثم ابنه حاتم ثم علي بن يحيى الأرمّني ثم ردّت مصر إلى محمد المنتصر، فاستخلف إسحاق بن يحيى بن معاذ ثم عبد الواحد بن يحيى ابن عم طاهر بن الحسين ثم عنبسة بن إسحاق الضبّي ثم يزيد بن عبد الله. القضاة بها: محمد بن أبي الليث ثم الحارث بن مسكين ثم القاضي بَكّار بن قتيبة.

ذكر خلافة المنتصر بالله

هو أبو جعفر محمد بن المتوكل أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية، وهو الحادي عشر من الخلفاء العباسيين بويع له على ما ذكرناه في ليلة قتل المتوكل، قال: ولما أصبح في يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين حضر الناس من القوّاد والكتّاب والوجوه والشاكرية والجند وغيرهم إلى الجعفرية، فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتابًا عن المنتصر، أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتلته به فبايع الناس، وحضر عبيد الله بن يحيى بن خاقان فبايع.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن سليمان الزينبي.

ودخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين.

ذكر خلع المعتز والمؤيّد

قال: ولما استقامت الأمور للمنتصر قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبغا إنّا لا نأمن الحدثان، وأن يموت أمير المؤمنين فيلي المعتز الخلافة فلا يبقى منّا باقية، والرأي أن نعمل في خلع المعتز والمؤيد، فجدّ الأتراك في ذلك وألحّوا على المنتصر، وقالوا نخلعهما من الخلافة ونبايع لابنك عبد الوهاب فأجابهم، وأحضر المعتز والمؤيّد بعد أربعين يومًا من خلافته، وجعلا في دار وجاءت الرسل إليهما بالخلع، فأجاب المؤيّد وامتنع المعتز وقال: **إن** أردتم القتل فشأنكم، فأخبروا المنتصر

بقوله ثم عادوا بغلظة وشدة وأخذوا المعتز بعنف، وأدخلوه بيتًا فدخل إليه المؤيّد، وقال له: ويلك يا جاهل، إنّهم نالوا من أبيك ـ وهو هو ـ ما نالوا، ثم تمتنع عليهم؟ اخلع ولا تراجعهم وإن كان في سابق علم الله أن تلي لتلينّ، فقال أفعل، فخرج المؤيّد وقال: قد أجاب إلى الخلع، فمضوا وأعلموا المنتصر وعادوا ومعهم كاتب، فجلس وقال للمعتز: اكتب بخطّك خلعك، فقال المؤيد: هات قرطاسك ـ إمل ما شئت، فأملى عليه كتابًا إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر، وأنّه لا يحلّ له أن يأثم المتوكل بسببه، إذ لم يكن موضعًا له، ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحلّ الناس من بيعته ـ فكتب ذلك، وقال للمعتز: اكتب فأبى فأعاد عليه فكتب، وخرج الكاتب عنهما ثم دعاهما المنتصر، فدخلا عليه فأجلسهما، وقال: هذا كتابكما؟ قالا: نعم يا أمير المؤمنين، فقال لهما ـ والأتراك قيام ـ أترياني خلعتكما طمعًا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ لا ـ والله ـ ما طمعت في ذلك ساعة قط، وإذا لم يكن لي في ذلك طمع فوالله لئن يليها بنو أبي أحب إليّ من أن يليها بنو عمي، ولكنّ هؤلاء ـ وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم عنده وقاعد ـ وقد ألحُوا في خلعكما ـ فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة، فيأتي عليكما فما ترياني صانعًا؟ أقتله فوالله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل فقبّلا يده وضمّهما، ثم أشهدا على أنفسهما القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس بالخلع، وكتب بذلك المنتصر إلى محمد بن طاهر وغيره.

ذكر وفاة المنتصر بالله

كانت وفاته يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وقيل يوم الأحد وهو لخمس خلون منه. وكانت علّته الذبحة في حلقه، أخذته يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول، وقيل كانت علّته من ورم في معدته ثم صعد إلى فؤاده فمات، وقيل إنّه وجد حرارة فدعا بعض أطبائه، ففصده بمبضع مسموم فمات، وانصرف الطبيب إلى منزله وقد وجد حرارة، فدعا تلميذًا له ليفصده، ووضع مباضعه بين يديه ليتخيّر أجودها، فأخذ ذلك المبضع المسموم ـ وقد نسيه الطبيب ـ ففصده به، فلما فرغ نظر إليه فعرفه، فأيقن بالهلاك ووصّى من ساعته ومات، وقيل غير ذلك.

قال: ولما أفضت الخلافة إليه كان كثير من الناس يقولون: إنما مدة خلافته ستة أشهر ـ مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه، يقولها الخاصة والعامة. وقيل إنّ المنتصر رأى

في منامه رؤيا فانتبه وهو يبكي وينتحب، فسمعه عبد الله بن عمر البازيار فأتاه، فسأله عن سبب بكائه فقال: رأيت فيما يرى النائم المتوكل قد جاءني وهو يقول: ويحك يا محمد: قتلتني وظلمتني وغبنتني خلافتي، والله لا متّعت بها أبدًا إلا أيامًا يسيرة، ثم مصيرك إلى النار، فقال له عبد الله: هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب، بل يعمّرك الله ويسرك، ادع بالنبيذ وخذ في اللهو ولا تعبأ بها، ففعل ذلك ولم يزل منكسرًا حتى مات. وروى أبو الفرج بن الجوزي بسنده عن علي بن يحيى المنجم قال: جلس المنتصر بالله في مجلس كان أمر أن يفرش له، وكان في بعض البسط دائرة كبيرة، فيها مثال فرس وعليه راكب وعلى رأسه تاج، وحوالي الدائرة كتابة بالفارسية، فلما جلس المنتصر وجلس الندماء ووقف على رأسه وجوه الموالي والقواد نظر إلى تلك الدائرة وإلى الكتابة التي حولها، فقال لبغا: إيش هذا الكتاب؟ فقال: لا أعلم يا سيدي، فسأل من حضر من الندماء، فلم يحسن أحد أن يقرأه، فالتفت إلى وصيف وقال: احضر لي من يقرأه، فأحضر رجلاً فقرأ الكتابة وقطب، فقال له المنتصر: ما هو؟ فقال له: يا أمير المؤمنين ليس له معنى، فألحّ عليه وغضب، فقال: يقول ـ أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبي فلم أمتّع بالملك إلا ستة أشهر، فتغيّر وجه المنتصر وقام عن مجلسه إلى النساء، فلم يمكث إلا ستة أشهر ومات. وكانت خلافته ستة أشهر ويومين، وقيل ستة أشهر سواء، وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر، وقيل أربع وعشرون سنة، ووفاته بسامرا. ولما حضرته الوفاة أنشد: [من الطويل]

فما فرحت نفسي بدنيًا أخذتها ولكن إلى الربّ الكريم أصيرُ

وصلّى عليه أحمد بن المعتصم. وكان مربوعًا أسمر أعين حسن الوجه ذا شهامة وشدّة. وكان له أربعة أولاد ذكور. وزيره: أحمد بن الخصيب. حجابه: وصيف ثم بغا ثم ابن المرزبان ثم أوتامش. قاضيه: جعفر العباسي. أمير مصر: يزيد بن عبد الله. قاضيها: بكّار.

ذكر خلافة المُستَعِين بالله

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد، وأمه أم ولد اسمها مُخارق، وهو الثاني عشر من الخلفاء العباسيين، بويع له يوم الاثنين لأربع وقيل لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وكان سبب بيعته أنه لما مات المنتصر اجتمع الموالي في الهاروني من الغد، وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش وغيرهم، واستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضي به

بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش، وذلك برأي أحمد بن الخصيب فحلفوا، وتشاوروا فأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم فبايعوه، وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وكان ذلك في ليلة الاثنين، فلما أصبح صار إلى دار العامة في زي الخلفاء، وحمل إبراهيم بن إسحاق بين يديه الحربة قبل طلوع الشمس، واستوزر أوتامش، واستكتب أحمد بن الخصيب.

وحضر أصحاب المراتب من العباسيين والطالبيين وغيرهم، فبينما هو كذلك إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق، وإذا نحو خمسين فارسًا ذكروا أنّهم أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر، ومعهم غيرهم من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة، فشهروا السلاح وصاحوا: معتز يا منصور، وتحرّك من على باب العامة من المَبيّضة والشاكرية وكثروا، فحمل عليهم المغاربة وبعض الأشروسنية فهزموهم حتى أدخلوهم درب زرافة، ثم نشبت الحرب بينهم فقتل جماعة، وانصرف الأتراك بعد ثلاث ساعات وقد بايعوا المستعين هم ومن حضر من الهاشميين وغيرهم. قال: ولما دخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة انتهبوا الخزانة التي فيها السلاح، فأتاهم بغا الصغير في جماعة فأجلوهم عن الخزانة، وقتلوا منهم عدة وكثر القتل من الفريقين، وتحرّك أهل السجن بسامرّا فهرب منهم جماعة، ثم وضع العطاء على البيعة وبعث بكتاب البيعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، فبايع له هو والناس ببغداد.

وفي هذه السنة ورد على المستعين الخبر بوفاة طاهر بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان في شهر رجب، فعقد لابنه محمد بن طاهر على خراسان ولمحمد بن عبد الله بن طاهر على العراق، وجعل إليه الحرمين والشرطة ومعاون السواد وأفرده به. وفيها مات بغا الكبير فعقد لابنه موسى بن بغا على أعمال أبيه كلها؛ وفيها خرج عبيد الله بن يحيى بن خاقان إلى الحج، فوجّه خلفه ينفيه إلى برقة(١) ومنعه من الحج؛ وفيها ابتاع المستعين من المعتز والمؤيد جميع مالهما، وأشهد عليهما القضاة والفقهاء، وترك للمعتز ما يتحصّل منه في السنة عشرين ألف دينار وللمؤيد ما يتحصل منه في السنة خمسة آلاف دينار، وجعلا في حجرة في الجوسق(٢) ووكل بهما، وكان الأتراك أرادوا قتلهما حين شغب الغوغاء، فمنعهم أحمد بن الخصيب وأشار بحبسهما فحبسوهما. وفيها غضب الموالي على أحمد بن الخصيب في جُمادى الآخرة،

---

(١) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس... وبرقة أيضًا: من قرى قم من نواحي الجبل... (معجم البلدان).

(٢) الجوسق: القصر الصغير، والجوسق أيضًا: الحصن.

واستصفوا ماله ومال ولده ونفي إلى إقْريطش[١]. وفيها شغب أهل حمص على عاملهم كيدر فأخرجوه، فوجّه إليهم الفضل بن قارن فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وحمل مائة من أعيانهم إلى سامرّا. وفيها عقد المستعين لأوتامش على مصر والمغرب واتخذه وزيرًا، وعقد لبغا الشرابي على حلوان ومَاسَبْذَان ومِهْرَجَا نقُذَق. وجعل المستعين شاهك الخادك على داره وكراعه[٢] وحرمه وخاصّة أموره، وقدّمه هو وأوتامش على جميع الناس.

وحجّ بالناس محمد بن سليمان.

ودخلت سنة تسع وأربعين ومائتين.

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة شغب الجند الشاكرية ببغداد غضبًا على الأتراك، لتمكّنهم وقتلهم المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، يقتلون من شاؤوا من الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير نظر للمسلمين، فاجتمعت العامة بالصراخ ببغداد والنداء بالنفير، وانضم الأبناء والشاكرية تظهر أنّها تطلب الأرزاق وذلك في أول صفر، ففتحوا السجون وأخرجوا من فيها وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر، وانتهبوا دار بشر وإبراهيم ابني هارون كاتبي محمد بن عبد الله، ثم أخرج أهل اليسار من بغداد وسامرا أموالاً كثيرة وفرّقوها فيمن نهض إلى الثغور، وأقبلت العامة من نواحي الجبال وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم، فلم يأمر الخليفة في ذلك بشيء ولا بتوجيه عسكر، وكان قيام هؤلاء غضبًا لقتل عمر بن عبيد الله وعلي بن يحيى الأرمني، وكانا قتلا في غزو الروم.

وفيها في شهر ربيع الأول وثب نفر من الناس بسامرّا لا يدري من هم، ففتحوا السجن وأخرجوا من فيه فبعث في طلبهم جماعة من الموالي، فوثب العامة بهم فهزموهم، فركب بغا وأوتامش ووصيف وعامة الأتراك فقتلوا من العامة جماعة، فرمي وصيف بحجر فأمر بإحراق ذلك المكان. وانتهبت المغاربة منازل جماعة من العامة ثم سكن ذلك في آخر النهار.

---

(١) إقريطش: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى.

(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

ذكر قتل أوتَامِش الوزير

كان مقتله في هذه السنة، وسبب ذلك أن المستعين كان أطلق يد والدته ويد أوتامش ويد شَاهك في بيوت الأموال، وأباحهم فعل ما أرادوا فكانوا يقتسمون ما يرد من الآفاق من الأموال، وأخذ أوتامش أكثر ما في بيوت الأموال، وكان العباس بن المستعين في حجره فكان يأخذ له ما فضل عن هؤلاء الثلاثة من الأموال يصرفه في نفقاته، ووصيف وبغا بمعزل عن ذلك فغضبا، وأغريا الموالي بأوتامش وأحكما أمره، فاجتمعت الأتراك والفراغنة عليه وعسكروا في شهر ربيع الآخر، وأتوا الجوسق ـ وهو فيه مع المستعين ـ فأراد الهرب فلم يمكنه، واستجار بالمستعين فلم يجره، وأقاموا على ذلك يومين، ثم دخلوا الجوسق فأخذوه وقتلوه، وقتلوا كاتبه ابن القاسم، ونهبت دور أوتامش فأخذوا منها أموالاً جمة ومتاعًا وغير ذلك.

واستوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وعزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج، وولاّه عيسى بن فرُخانشاه، وولى وصيفًا الأهواز، وبغا الصغير فلسطين، ثم غضب بغا على أبي صالح فهرب إلى بغداد، واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجرائي.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام.

ودخلت سنة خمسين ومائتين.

في هذه السنة ظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة، وفتح السجون وأخرج من فيها وكثر جمعه، وكان من أخباره وقتله ما نذكره في أخبار آل أبي طالب. وفيها كان ابتداء الدولة العلوية بطبرستان، بظهور الحسن بن زيد العلوي على ما نذكره في أخبارهم أيضًا إن شاء الله تعالى.

وفيها وثب أهل حمص وقوم من كلب على عاملهم ـ الفضل بن قارن أخي مازيار بن قارن فقتلوه، فوجّه المستعين موسى بن بغا الكبير، فلقيه أهلها فيما بين حمص والرّستن[1] وحاربوه، فهزمهم وافتتح حمص وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، وأحرقها وأسر جماعة من أعيانها.

وحجّ بالناس في هذه السنة جعفر بن الفضل والي مكة.

---

(١) الرستن: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: بليدة قديمة كانت على نهر الميماس، وهذا النهر هو اليوم المعروف بالعاصي الذي يمر قدام حماة، والرستن بين حماة وحمص في نصف الطريق بها آثار باقية إلى الآن تدل على جلالتها. . . (معجم البلدان).

ودخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين.

ذكر قتل بَاغِر التركي

في هذه السنة قتل باغر التركي، قتله بغا ووصيف، وسبب ذلك أنّه أحد قتلة المتوكل على ما ذكرناه، فزيد في أرزاقه فكان مما أقطع قرى بسواد الكوفة، فتضمنها رجل من أهل بَارُوسَما[1] بألفي دينار، فوثب رجل من أهل تلك الناحية يقال له ابن مارمة بوكيل لباغر، فتناوله فحبس ابن مارمة وقيّد، ثم تخلّص وسار إلى سامرا فلقي دُلَيْل بن يعقوب النصراني وهو يومئذ صاحب أمر بغا الشرابي، وكان صديقًا له وكان باغر أحد قواد بغا، فمنعه دُلَيل من ظلم أحمد بن مارمه وانتصف له منه، فغضب باغر وباين دليلاً، وكان باغر شجاعًا يتقيه بغا وغيره، فحضر عند بغا في ذي الحجة سنة خمسين وهو سكران، وبغا في الحمّام فدخل عليه وقال: ما من قَتْل دُلَيْلِ بُدٌّ، فقال له بغا: لو أردت ولدي ما منعتك منه ولكن اصبر فإنّ أمور الخلافة بيد دليل، فإذا أقمتُ غيره افعل ما تريد، وأمر بغا دليلاً ألا يركب وأقام في كتابته غيره، يوهم باغر أنه قد عزله فسكن باغر، ثم أصلح بغا بينهما وباغر يتهدده. قال: ولزم باغر خدمة المستعين فثقل عليه، فلما كان نوبة بغا في منزله قال المستعين: أي شيء كان إلى إيتاخ من الخدمة، فأخبره وصيف، فقال: ينبغي أن يجعل ذلك إلى باغر، فسمع دليل ذلك فركب إلى بغا، فقال له: أنت في بيتك وهو في تدبير غيرك ـ وإذا عزلت قتلت، فركب بغا إلى دار الخليفة في يومه، وقال لوصيف: أردت أن تعزلني، فحلف أنّه ما علم ما أراد الخليفة، واتفقا على إخراج باغر من الدار وحلفا على ذلك، ودبّرا في الحيلة عليه ـ فأرجفوا له أنّه يؤمّر ويخلع عليه، ويكون في موضع بغا ووصيف، فأحسّ باغر بالشر فجمع إليه الجماعة الذين كانوا وافقوه على قتل المتوكل وغيرهم، فجدّد العهد عليهم في قتل المستعين وبغا ووصيف، وقال: نبايع علي بن المعتصم أو ابن الواثق ويكون الأمر لنا كما هو لهذين، فأجابوه إلى ذلك وانتهى الخبر إلى المستعين، فبعث إلى بغا ووصيف وقال لهما: أنتما جعلتماني خليفة ثم تريدان قتلي، فحلفا أنهما ما علما بشيء فأعلمهما الخبر، فاتفق رأيهم على أخذ باغر ورجلين من الأتراك وحبسهم، وطلبوه فأقبل في عدة فعُدل به إلى حمام وحبس فيه، فبلغ الأتراك الخبر فوثبوا على إسطبل الخليفة فانتهبوه، وركبوا ما فيه وحضروا إلى باب الجوسق بالسلاح، فأمر بغا ووصيف بقتل باغر فقتل.

---

(١) باروسما: الواو والسين ساكنتان: ناحيتان من سواد بغداد يقال لهما باروسما العليا وباروسما السفلى من كورة الأستان الأوسط.

ذكر مسير المستعين إلى بغداد

قال: ولما قتل باغر وانتهى خبر قتله إلى الأتراك أقاموا على ما هم عليه، فانحدر المستعين وبغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح ودليل إلى بغداد في حرّاقة[١]، وركب جماعة من قواد الأتراك إلى أصحاب باغر، فسألوهم الانصراف فلم يفعلوا، فلما علموا بانحدار المستعين ومن معه ندموا، ثم قصدوا دار دليل ودور أهله وجيرانه فنهبوها، حتى صاروا إلى أخذ الخشب. قال: ومنع الناس الأتراك من الانحدار إلى بغداد، فأخذوا ملاحًا قد أكرى سفينته فصلبوه على دقلها[٢]، فامتنع أصحاب السفن؛ ووصل المستعين إلى بغداد لخمس خلون من المحرم من هذه السنة، فنزل على محمد بن عبد الله بن طاهر في داره، ثم وافى القواد بغداد سوى جعفر الخياط وسليمان بن يحيى بن معاذ، وقدمها جلّة الكتّاب والعمال وبنو هاشم وجماعة من أصحاب بغا ووصيف، وبايع أولئك للمعتز وحاصروا بغداد، وكان من خلع المستعين وقتله ما نذكره في أخبار المعتز إن شاء الله تعالى.

ذكر البيعة للمعتز بالله

هو أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه أم ولد اسمها قَبيحة، وهو الثالث عشر من الخلفاء العباسيين، بويع له البيعة الأولى في هذه السنة ثم بويع له البيعة العامة ببغداد لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين، بعد خلع المستعين على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وكان سبب البيعة له أن المستعين لما استقر ببغداد أتاه جماعة من قواد الأتراك، ودخلوا عليه وألقوا نفوسهم بين يديه، وجعلوا مناطقهم في أعناقهم وسألوه الصفح عنهم، فوبخهم وسبّهم ثم عادوا سألوه وتضرّعوا له، فقال: قد رضيت عنكم وعفوت، فقال له أحدهم ـ واسمه بايِكْباك ـ: إن كنت قد رضيت فقم فاركب معنا إلى سامرا، فإن الأتراك ينتظرونك، فأمر محمد بن عبد الله بعض أصحابه فضربه، وقال له محمد: هكذا يقال لأمير المؤمنين ـ قم فاركب معنا!! فضحك المستعين وقال: هؤلاء قوم عجم لا يعرفون حدود الكلام، ثم قال لهم المستعين: ارجعوا إلى سامرا فإنّ

---

(١) الحراقة: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر. والحراقة: سفينة خفيفة المر.

(٢) الدّقل: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة مدّ عليها الشراع؛ وتسميه البحرية الصاري.

أرزاقكم دارّة عليكم، وأنظر أنا في أمري فرجعوا آيسين منه، وأغضبهم ما كان من محمد بن عبد الله، وأخبروا من وراءهم خبرهم وزادوا وحرّفوا فأجمعوا على إخراج المعتز وكان هو والمؤيد في حبس الجوسق، وعليهم من يحفظهم، فأخرجوا المعتز من الحبس وأخذوا من شعره ـ وكان قد كثر، وبايعوا له بالخلافة، فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة، فلم يوف المال فأعطوا شهرين لقلة المال عندهم، وكان المستعين خلّف بسامرا في بيت المال خمسمائة ألف دينار، وفي بيت مال أم المستعين ما قيمته ألف ألف دينار، وفي بيت مال العباس بن المستعين ستمائة ألف دينار، قال: وكان فيمن أحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد وبه النقرس[(١)]، فجيء به في محفّة فامتنع من البيعة، وقال للمعتز: خرجت إلينا طائعًا فخلعتها، وزعمت أنك لا تقوم بها، فقال المعتز: أكرهت على ذلك وخفت السيف، فقال: ما علمنا بإكراهك، وقد بايعنا هذا الرجل فتريد أن نطلّق نساءنا ونخرج من أموالنا؟! ولا ندري ما يكون، إن تركتني حتى يجتمع الناس وإلا فهذا السيف، فتركه المعتز، وكان ممّن بايع إبراهيم بن الديرج وعَتَّاب بن عتَّاب، فأما عتَّاب فهرب إلى بغداد، وأما الديرج فأقر على الشرطة واستعمل على الدواوين وبيت المال وعلى الكتابة وغير ذلك.

قال: ولما وصل خبر بيعة المعتز إلى محمد بن عبد الله أمر بقطع الميرة عن أهل سامرا، وكتب إلى مالك بن طوق في المسير إلى بغداد هو وأهل بيته وجنده، وكتب إلى نَجُوبَة بن قيس وهو على الأنبار في الاحتشاد والجمع، وإلى سليمان بن عمران الموصلي في منع السفن والميرة عن سامرا، وأمر المستعين محمد بن عبد الله بتحصين بغداد، فتقدم في ذلك فأدير عليها السور، وأمر بحفر الخنادق من الجانبين، وجعل على كل باب قائدًا، فبلغت النفقة على ذلك ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف دينار، ونصبت المجانيق والعرّادات[(٢)] على الأبواب وشحن الأسوار، وفرض فرضًا للعيارين[(٣)] ببغداد وجعل عليهم عريفًا، وعمل لهم تراسًا من البواري[(٤)] المقيّرة، وأعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الحجارة للرمي، وفرض أيضًا لقوم من خراسان قدموا حجاجًا، وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلد وموضع أن يحملوا الخراج إلى

---

(١) النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى: داء الملوك.

(٢) العرادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.

(٣) العيار: الكثير الذهاب والمجيء في الأرض.

(٤) البواري: جمع البارياء: أي الحصير.

بغداد، وكتب إلى الجند والأتراك الذين بسامرا بنقض بيعة المعتز - مراجعة الوفاء له، وذكر أياديه عندهم ونهاهم عن النكث؛ وجرت بين المعتز ومحمد بن عبد الله مكاتبات ومراسلات، فالمعتز يدعوه إلى بيعته ويذكره بما كان المتوكل أخذ عليه من البيعة بعد المنتصر، ومحمد يدعو المعتز إلى الرجوع إلى طاعة المستعين، واحتج كل منهما على صاحبه. قال: وكتب كل من المعتز والمستعين إلى موسى بن بغا يدعوه إلى نفسه، وكان بأطراف الشام فانصرف إلى المعتز وصار معه، وقدم عبد الله بن بغا الصغير من سامرا إلى المستعين وكان قد تخلّف بعد أبيه، فاعتذر وقال لأبيه: إنما جئت لأموت تحت ركابك، فأقام ببغداد أيامًا ثم هرب إلى سامرا، واعتذر إلى المعتز وقال: إنما صرت إلى بغداد لأعلم أخبارهم وآتيك بها، فقبل عذره وردّه إلى خدمته، وورد الحسن بن الأفشين بغداد فخلع عليه المستعين، وضمّ إليه جماعة من الأشروسنية وغيرهم.

ذكر حصار المستعين ببغداد

قال: ثم عقد المعتز لأخيه أحمد بن المتوكل وهو الموفق لسبع بقين من المحرم على حرب المستعين ومحمد بن عبد الله، وضم إليه الجيش وجعل إليه الأمور كلها، وجعل التدبير إلى كلباتكين التركي، فسار في خمسين ألفًا من الأتراك والفراغنة وألفين من المغاربة، ونزل بباب الشماسية[١] لسبع خلون من صفر، فراسله المستعين في الكف عن القتال، وبذل له الأموال وأن يكون المعتز ولي عهده، فأبى أبو أحمد ذلك فأمر المستعين عساكره ألا يبدؤوا بقتال، قال: وإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم بل ادفعوهم، قال: ثم تقدم الأتراك إلى باب الشماسية، فخرج إليهم الحسين بن إسماعيل فاقتتلوا، فقتل من الفريقين وجرح - وانهزم أهل بغداد، وسيّر الأتراك رؤوس القتلى إلى سامرا، ووجّه المعتز عسكرًا من الجانب الغربي فساروا إلى قطربل[٢] لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فأخر إليهم محمد بن عبد الله بن

---

(١) الشماسية: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، ثم سين مهملة: وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية... والشماسية أيضًا: محلة بدمشق... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قطربل: بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة، ولام: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر... وقيل: هو اسم لطسوج من طساسيج بغداد أي كورة، فما كان من شرقي الصراة فهو بادوريا وما كان من غربيها فهو قطربل... (معجم البلدان).

طاهر جيشًا فاقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر لأصحاب المعتز، وكان بين الفريقين عدة وقائع يطول شرحها.

قال: وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قائمًا في خدمة المستعين أحسن قيام، فغيّره عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وقال له: إنّ هذا الذي تنصره وتجدّ في أمره هو أشد الناس نفاقًا، وأبدى للمستعين مساوىء كثيرة، فتغيّر محمد بن عبد الله بن طاهر، فلما كان يوم الأضحى صلّى المستعين بالناس، ثم حضر محمد إليه وعنده الفقهاء والقضاة، فقال له: لقد كنت فارقتني على أن تنفّذ أمري في كل ما أعزم عليه، وخطك عندي بذلك، فقال المستعين: أحضر الرقعة فأحضرها، فإذا فيها ذكر الصلح، وليس فيها ذكر الخلع فقال: نعم امض الصلح، فخرج محمد بن عبد الله بن طاهر إلى ظاهر باب الشماسية، فضرب له مضرب كبير فنزل فيه ومعه جماعة من أصحابه، وجاء أبو أحمد في سمارية فصعد إليه، وتناظروا طويلاً ثم خرجا، فجاء ابن طاهر إلى المستعين فأخبره أنّه بذل له خمسين ألف دينار ويقطع عليه ثلاثين ألف دينار، وعلى أن يكون مقامه بالمدينة يتردد منها إلى مكة ويخلع نفسه من الخلافة، وأن يعطى بغا ولاية الحجاز جميعه، ويولّى وصيف الجبل وما والاه، ويكون ثلث ما يجبى من المال لمحمد بن عبد الله وجند بغداد، والثلثان للموالي والأتراك، فامتنع المستعين من الإجابة إلى الخلع، وظن أن وصيفًا وبغا معه فكاشفاه، فقال: النطع والسيف. فقال له ابن طاهر: لا بد من خلعها طائعًا أو مكرهًا، فأجاب إلى الخلع وكتب بما أراد لنفسه من الشروط، وذلك لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وجمع محمد الفقهاء والقضاة وأدخلهم على المستعين وأشهدهم عليه، أنّه صيّر أمره إلى محمد بن عبد الله، ثم أخذ منه جوهر الخلافة، وبعث ابن طاهر إلى قواده ليوافوه، ومع كل قائد عشرة نفر من أصحابه، فأتوه فمنّاهم، وقال: ما أردت بما فعلت إلا صلاحكم وحقن الدماء، وأمرهم بالخروج إلى المعتز بالشروط التي شرطها للمستعين ولنفسه وقوّاده، ليوقع المعتز عليها بخطه فتوجهوا إلى المعتز فأجاب إلى ما طلبوا، ووقع عليه بخطه وشهدوا على إقراره، وخلع عليهم ووجّه معهم من يأخذ البيعة له على المستعين، وحمل إلى المستعين أمه وعياله بعد أن فتشوا وأخذ ما معهم.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

ذكر خلع المستعين وخلافة المعتز بالله

قال: وخلع المستعين نفسه من الخلافة وبايع للمعتز بالله بن المتوكل وهي البيعة العامة للمعتز، وخطب له ببغداد يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم، وأخذ له البيعة على كل من بها. قال: ولما كتب كتاب الشروط دخل محمد بن عبد الله بن

طاهر إلى المستعين ومعه سعيد بن حميد وقد كتب شروط الأمان، فقال: يا أمير المؤمنين ـ قد كتب سعيد كتاب الشروط فأكده غاية التأكيد، فقرأه عليه ليسمعه، فقال المستعين: لا حاجة لي إلى توكيدها، فما القوم بأعلم بالله منك، ولقد أكّدت على نفسك قبلهم فكان ما علمت، فما ردّ محمد شيئًا.

ذكر أخبار المستعين بعد خلعه وما كان من أمره إلى أن قتل وذكر أولاده وعمّاله ومدة عمره وخلافته

قال: ولما أشهد المستعين على نفسه بالخلع نقل من الرصافة[١] إلى قصر الحسن بن سهل، ومعه عياله وجميع أهله، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسيّروا إلى المعتز مع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ومنع من الخروج إلى مكة فاختار المقام بالبصرة، فقيل له إن البصرة وبيّة، فقال: أهي أوبأ أو ترك الخلافة؟!.

وقال بعض الشعراء في خلع المستعين: [من الكامل]

خلع الخليفة أحمد بن محمدٍ وسيقتل التالي له أو يُخلعُ
ويزول ملك بني أبيه ولا يرى أحدٌ بملكٍ منهمُ يستمتعُ
إيهًا بني العباس إنّ سبيلكمُ في قتل أعبدكم سبيلٌ مَهْيعُ[٢]
رقّعتمُ دنياكُم فتمزّقتْ بكمُ الحياة تمزُّقًا لا يُرقعُ

قال: وسُيّر المستعين إلى واسط، ثم كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يأمره بتسليمه إلى سيما الخادم، فكتب محمد إلى الموكلين به بذلك، ثم أرسل أحمد بن طولون في تسليمه فأخذه أحمد، وسار به إلى القَاطُول[٣] فسلّمه إلى سعيد بن صالح، فأدخله سعيد منزله وضربه حتى مات. وقيل بل جعل في رجله حجرًا وألقاه في دجلة، وقيل كان قد حمل معه داية له، فلما أخذه سعيد وضربه صاح وصاحت دايته، فقتل وقتلت معه وحمل رأسه إلى المعتز وهو يلعب الشطرنج، فقيل له: هذا رأس المخلوع، فقال: ضعوه حتى أفرغ من الدست[٤]، فلما فرغ نظر إليه وأمر به فدفن، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم وولاّه معونة البصرة.

---

(١) الرصافة: رصافة الشام: في مواضع كثيرة منها: رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة.
(٢) المهيع من الطرق: البيّن.
(٣) القاطول: اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة، وهو نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمر.
(٤) الدست: اللعبة.

قال: وكان مقتل المستعين في آخر شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وعمره إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر إلا أيامًا وقيل أكثر، ومدة خلافته إلى أن خلع نفسه ثلاث سنين وسبعة أشهر. ونقش خاتمه: في الاعتبار غنى عن الاختبار. وكان سمينًا صغير العينين كبير اللحية أسودها بوجنته خال أسود، وكان فيه لين وانقياد لأتباعه؛ قال: وسبب تلقيبه بالمستعين أنه لما بويع له بالخلافة قال: أستعين بالله وأفعل. قال: ولم يلِ الخلافة من لدن المنصور إلى هذا الوقت من لم يكن أبوه خليفة غيره. وذكر ابن مسكويه[1] في كتاب تجارب الأمم: أن المستعين أخو المتوكل لأبيه، والصحيح أنه ولد أخيه محمد بن المعتصم، وكان له من الأولاد الذكور ستة. وقد ذكرنا وزراءه أثناء دولته. حجابه: أوتامش ثم وصيف ثم بغا. قاضيه: الحسن بن أبي الشوارب الأموي وقيل جعفر بن محمد بن عمار البُرْجُمِي. الأمراء بمصر: يزيد بن عبد الله. قاضيها بَكَّار بن قتيبة.

نعود إلى الحوادث في أيام المعتز بالله في بقية شهور سنة اثنتين وخمسين.

ذكر حال وصيف وبغا

قال: وفيها كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر في إسقاط اسم بغا ووصيف ومن معهما من الدواوين، فوجّه وصيف أخته سعاد إلى المؤيد وكان في حجرها، فكلّم المؤيد المعتز في الرضى عن وصيف فرضي عنه، وتكلم أبو أحمد ابن المتوكل في بغا فرضي عنه، وعاد إلى سامرّا وأعادهما المعتز إلى منزلهما من الخدمة، وخلع عليهما وعقد لهما على أعمالهما، وجعل البريد إلى موسى بن بغا الكبير، واستوزر أحمد بن أبي إسرائيل.

وفيها شغب الجند ببغداد على محمد بن عبد الله في طلب أرزاقهم، ففرّق فيهم ألفي دينار، ثم شغبوا مرة ثانية وعسكروا بباب الشماسية وباب حرب، وكانت بينهم وبين أصحاب محمد وقعات، ثم تفرّقوا ورجعوا إلى منازلهم.

---

(١) ابن مسكويه: هو أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه، الخازن، الرازي الأصل، الأصبهاني المسكن (أبو علي) فيلسوف، مؤرخ، أديب، توفي في ٩ صفر سنة ٤٢١هـ بأصبهان. من تصانيفه: الفوز الأكبر، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ترتيب العادات، أدب العرب والفرس، وتطهير الأعراق في علم الأخلاق. . . (معجم المؤلفين ـ كحالة ٢:١٦٨).

ذكر خلع المؤيد وموته

وفي شهر رجب من هذه السنة خلع المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد بعده، وحبسه هو وأبا أحمد وقيّد المؤيد وقيل إنه ضربه أربعين مقرعة، وأخذ خطّه بخلع نفسه، ثم بلغه أن الأتراك يريدون إخراجه فأخرجه من الغد ميتًا، وأوقف القضاة والفقهاء والوجوه عليه، وأنّه لا أثر به ولا جراحة، وحمل إلى أمّه ومعه كفنه وأمرت بدفنه، فقيل إنه أدرج في لحاف سمور[١] وأمسك طرفاه حتى مات، وقيل إنّه أقعد في الثلج وجعل على رأسه منه فمات من البرد، وكان ذلك في شهر رجب.

ذكر الفتنة بين الأتراك والمغاربة

وفي مستهل شهر رجب كانت الفتنة بين الطائفتين، وسببها أن الأتراك وثبوا بعيسى بن فرّخانشاه فضربوه وأخذوا دابته، فاجتمعت المغاربة مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد وأخرجوا الأتراك من الجوسق، وقالوا لهم: كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقيمون وزيرًا، وصار الجوسق وبيت المال في أيدي المغاربة وأخذوا دواب الأتراك، والتقوا هم والمغاربة وأعان الغوغاء والشاكرية المغاربة، فضعف الأتراك وانقادوا، فأصلح جعفر بن عبد الواحد بينهم على أن لا يحدثوا شيئًا، فمكثوا مدة ثم اجتمع الأتراك فقتلوا محمد بن راشد ونصر بن سعيد.

وفيها خرج مُسَاوِر بن عبد الحميد البَجَلِي المَوْصِلِي بالموصل بالبَوَازِيج[٢]، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى. وفيها عقد لعيسى بن الشيخ - وهو من ولد جَسَّاس بن مُرَّة - عَلى الرملة[٣]، فأنفذ خليفته أبا المغراء إليها فاستولى على فلسطين جميعها، فلما كان من أمر الأتراك بالعراق ما كان تغلّب على دمشق وأعمالها، وقطع ما كان يحمل من الشام إلى الخليفة واستبدّ بالأموال.

وحجّ بالناس محمد بن عيسى.

---

(١) السمور: حيوان ثديي ليلي من الفصيلة السمورية من آكلات اللحوم، يتخذ من جلده فرو ثمين، ويقطن شمالي آسيا.

(٢) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة... وهي من أعمال الموصل.

(٣) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن، وكانت رباطًا للمسلمين... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين.

ذكر قتل وصيف

وفيها قتل وصيف وسبب ذلك أن الأتراك والفراغنة والأشروسنية شغبوا وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما فكلّمهم فقال لهم: خذوا التراب، ليس عندنا مال، وقال لهم بغا: نعم نسأل أمير المؤمنين، ودخلوا دار إشناس، ومضى سيما وبغا إلى المعتز وبقي وصيف في أيديهم، فقتلوه ونصبوا رأسه على محراك تنّور، فجعل المعتز ما كان لوصيف إلى بغا الشَّرَابِي الصغير، وألبسه التاج والوشاحين.

ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن طاهر ابن الحسين بن مصعب الخزاعي

كانت وفاته في الليلة الرابعة عشر من ذي القعدة، وكانت علّته قروحًا أصابته في حلقه ورأسه فذبحته، ولما اشتد مرضه كتب إلى عمّاله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد الله بن عبد الله، فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه، فصلّى عليه ابنه، ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله.

وفيها نفي أبو أحمد بن المتوكل إلى البصرة ثم ردّ إلى بغداد، ونفي علي بن المعتصم إلى واسط ثم ردّ إلى بغداد.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن سليمان.

وفيها كان ابتداء دولة يعقوب بن الليث الصَفّار وملك هَرَاة[١] وبُوشَنْج[٢] على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

---

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان).

(٢) بوشنج: بفتح الشين، وسكون النون، وجيم: بليدة نزهة خصيبة في واد مشجر من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ.

ودخلت سنة أربع وخمسين ومائتين.

ذكر مقتل بُغَا الصغير الشَّرابي

كان سبب قتله أنّه كان يحرّض المعتز على المسير إلى بغداد، والمعتز لا يوافقه على ذلك ويكرهه، واتفق أن بغا اشتغل بتزويج ابنته من صالح بن وصيف، فركب المعتز ومعه أحمد بن إسرائيل إلى كرخ سامرّا إلى بايكباك التركي ومن معه، وهم من المنحرفين عن بغا، وبايكباك قد شرب مع بغا فعربد أحدهما على الآخر، فاختفى بايكباك، فلما أتاه المعتز اجتمع معه أهل الكرخ وأهل الدور، وأقبلوا مع المعتز إلى الجوسق بسامرا فبلغ ذلك بغا، فخرج في ألف فارس من غلمانه وقوّاده، فصار إلى السِّنّ[1] فلما جنّه الليل ركب في زورق، ومعه خادمان وشيء من المال الذي صحبه. وكان قد صحبه تسع عشرة بدرة من الدنانير ومائة بدرة من الدراهم، ولم يحمل معه سلاحًا ولا سكينًا ولم يعلم به أحد من عسكره، فصار إلى الجسر في الثلث الأول من الليل، وخرج إلى البستان الخاقاني فلحقه عدة من الموكلين بالجسر، فوقف وعرّفهم نفسه وقال: إما أن تذهبوا معي إلى صالح بن وصيف، وإما أن تصيروا معي حتى أحسن إليكم، فتوكّل به بعضهم وأرسلوا إلى المعتز بخبره فأمر بقتله فقتل وحمل رأسه إلى المعتز، فنصب بسامرا وببغداد وأحرقت المغاربة جثّته. قال: وكان أراد أن يختفي عند صالح بن وصيف، فإذا اشتغل الناس بالعيد ـ وكان قد قرب ـ خرج هو وصالح ووثبا بالمعتز، فلم يمهله القدر.

وحجّ بالناس علي بن الحسين بن إسماعيل بن العباس بن محمد.

ودخلت سنة خمس وخمسين ومائتين.

ذكر خلع المعتز بالله وموته وشيء من أخباره

وفي يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر رجب منها خلع المعتز، وكان سبب ذلك أن الأتراك شغبوا في طلب أرزاقهم، وصاروا إلى المعتز وقالوا: أعطنا أرزاقنا حتى نقتل صالح بن وصيف ـ وكان صالح قد دبّر عليه، فلم يجد ما يعطيهم فنزلوا

---

(١) السنّ: بكسر أوله، وتشديد نونه: مدينة على دجلة فوق تكريت لها سور وجامع كبير وفي أهلها علماء وفيها كنائس وبيع للنصارى... والسن: موضع بالعراق... والسن: قلعة بالجزيرة قرب سميساط... والسن أيضًا: جبل بالمدينة قرب أحد... (معجم البلدان).

معه إلى خمسين ألف دينار، فأرسل المعتز إلى أمّه يسألها أن تعطيه مالاً يعطيه لهم، فقالت: ما عندي شيء، فلما رأى الأتراك أنّهم لا يحصّل لهم من المعتز وأمه شيء اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلع المعتز، فصاروا إليه وصاحوا به، ودخل صالح بن وصيف ومحمد بن بغا وبايكباك في السلاح وجلسوا على بابه، وبعثوا إليه أن اخرج إلينا، فقال: قد شربت دواءً بالأمس وأفرط في العمل، وإن كان أمر لا بدّ منه فليدخل بعضكم، فدخل إليه جماعة فجروا برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرّقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر، وبعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، ثم أدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة فشهدوا على خلعه، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وأخته الأمان، وكانت أمه قد اتخذت في دارها سردابًا فخرجت منه هي وأخت المعتز. قال: وسلّموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حُسْوَة من ماء البئر فمنعوه، ثم أدخلوه سردابًا وجصّصوه[1] عليه فمات، فأخرجوه لليلتين خلتا من شعبان وأشهدوا على موته بني هاشم والقوّاد، وأنّه لا أثر به ودفنوه بسامرّا مع المنتصر، وصلّى عليه المهتدي بالله، وكان عمره ثلاثًا وعشرين سنة وثلاثة أشهر إلا أيامًا، وقيل أربعًا وعشرين سنة وثلاثة وعشرين يومًا.

ومدة خلافته من لدن بويع له بسامرّا إلى أن خلع أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرون يومًا، وكان أبيض أكحل أسود الشعر كثيفه حسن العينين ـ وكان يوثر اللذات. وكان نقش خاتمه: الحمد لله رب كل شيء وخالقه. ولده: عبد الله صاحب التشبيهات والشعر الرائق. وزراؤه: جعفر بن محمود الإسكافي ثم عيسى بن فرّخانشاه ثم أبو جعفر أحمد بن إسرائيل الأنباري. قاضيه: الحسن بن أبي الشوارب. حاجبه: صالح بن وصيف وكان غالبًا على أمره. الأمراء بمصر: يزيد بن عبد الله ثم مزاحم بن خاقان أخو الفتح ثم ابنه أحمد ثم أرخوز التركي ثم أحمد بن طولون. قاضيها: بكّار بن قتيبة.

ذكر خلافة المُهْتَدِي بالله

هو أبو عبد الله محمد بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه رومية اسمها قُرب، وهو الرابع عشر من الخلفاء العباسيين بويع له يوم

(١) جصصه: طلاه بالجصّ.

الأربعاء لليلة بقيت من شهر رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ولقِّب بالمهتدي ولم يقبل بيعته أحد حتى أتي بالمعتز فخلع نفسه، وأقر بالعجز عما أسند إليه وبالرغبة في تسليمها إلى محمد بن الواثق وبايعه، فبايعه الخاصة والعامة بسامرا؛ قال: وكتب إلى سليمان بن عبد الله أن يأخذ له البيعة ببغداد، فورد كتابه في سلخ شهر رجب، وكان أبو أحمد بن المتوكل ببغداد فأرسل سليمان إليه فأخذه إلى داره، فثار من ببغداد من الجند والعامة لما بلغهم خبر المعتز، وأتوا باب سليمان فقاتلهم أصحابه، فقيل لهم ما ورد علينا من سامرا خبر فانصرفوا ورجعوا من الغد، وهجموا دار سليمان في اليوم الثالث ونادوا باسم أبي أحمد ودعوا إلى بيعته، وسألوا سليمان أن يريهم أبا أحمد فأظهره لهم ووعدهم الخير ثم أُرسل إليهم من سامرا مال ففرّق فيهم، فرضوا وبايعوا للمهتدي وذلك لسبع خلون من شعبان.

ذكر ظهور قبيحة أم المعتز بالله

كانت قد خرجت من السرداب الذي صنعته في دارها واستترت، وكان سبب هربها أنّها كانت واطأت بعض الكتّاب على الفتك بصالح بن وصيف، فأوقع بهم صالح وعذّبهم فعلمت أنهم لا يكتمون عنه أمرها، فخرجت وأخرجت ما في الخزائن إلى خارج الجوسق، فلما جرت الحادثة على ابنها علمت أن حالها لا يخفى، وأن الذي تختفي عنده يطمع في مالها وفي نفسها ويتقرّب إلى صالح، فأرسلت امرأةً عطارةً إلى صالح بن وصيف فتوسطت الحال بينهما، وظهرت في شهر رمضان وأحضرت أموالها من بغداد وهي خمسمائة ألف دينار، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة، من جملتها دار وجد فيها ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار، ووجدوا في سفط مقدار مكوك(١) من الزمرد لم ير الناس مثله وفي سفط آخر مكوك من اللؤلؤ الكبار، وفي سفط آخر مقدار كيلجة(٢) من الياقوت الأحمر الذي لا يوجد مثله، فحمل الجميع إلى صالح، فسبّها وقال: عرّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار ـ وعندها هذا المال جميعه!! ثم سارت قبيحة إلى مكة فسُمعت تدعو على صالح بصوت عالٍ تقول: اللهم اخز صالحًا كما هتك ستري، وقتل ولدي، وبدّد شملي، وأخذ مالي، وغرّبني عن بلدي، وركب الفاحشة منّي؛ وكان المتوكل سماها قبيحة لجمالها ـ فهو من أسماء الأضداد.

---

(١) المكوك: مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعًا ونصفًا.

(٢) الكيلجة: كيل لأهل العراق يسع منّا وسبعة أثمان منّا.

وفيها استولى مُساوِر الخارجي على الموصل. وفيها خرج صاحب الزَّنْج في فرات البصرة، وكان منه ما نذكره إن شاء الله في أخباره. وفيها ولّي سليمان بن عبد الله بن طاهر بغداد والسواد في شهر ربيع الأول في أيام المعتز، وكان قد فرّ من الحسن بن زيد العلوي فاستعمله المعتز على بغداد، فقال ابن الرومي: [من الخفيف]

من عذيري من الخلايف ضلّوا　　في سليمان عن سواء السبيل
نقلوه على الهزيمة بغدا　　د كأن قد أتى بفتحٍ جليل
من يخوض الرّدى إذا كان من فـ　　ـرّ أثابوه بالجزاء الجليل

وحجّ بالناس: علي بن الحسين بن العباس العباسي.

ودخلت سنة ست وخمسين ومائتين.

ذكر وصول موسى بن بغا إلى سامرّا واختفاء صالح بن وصيف

وفي ثاني عشر شهر المحرم دخل موسى بن بغا إلى سامرّا، وقد عبّأ أصحابه فاختفى صالح بن وصيف وجاء موسى إلى الجوسق، والمهتدي جالس للمظالم فأعلم به، فأمسك ساعة عن الأذن ثم أذن له ولمن معه فدخلوا وتناظروا وأقاموا المهتدي من مجلسه وحملوه على دابّة من دواب الشاكرية، وانتهبوا ما كان في الجوسق وأدخلوا المهتدي دار ياجور، وكان سبب أخذه أنّ بعضهم قال: إنما هذه المطاولة حيلة عليكم حتى يكبسكم صالح بجيشه، فخافوا من ذلك فأخذوه، فقال لموسى: ويحك!! اتق الله فإنّك ركبت أمرًا عظيمًا، فقال له موسى: وتربة المتوكل ما نريد إلا خيرًا ـ ولو أراد به خيرًا لقال وتربة المعتصم أو الواثق، ثم أخذوا عليه العهود ألا يميل مع صالح، ولا يضمر إلا مثل ما يظهر، ثم جدّدوا له البيعة، وطلبوا صالح بن وصيف ليحضر ويطالبوه بدم الكتّاب الذين قتلهم ـ وهم أحمد بن إسرائيل وأبو نوح، ويطالبوه بأموال المعتز فوعدهم بالحضور، فلما كان الليل رأى أصحابه قد تفرّقوا عنه فهرب واختفى.

ذكر قتل صالح بن وصيف

كان صالح قد اختفى وقام الأتراك في طلبه، واتهموا الخليفة أنّه يعرف مكانه وراسلوه مراسلات وعزموا على خلعه، فحلف لهم أنه لا يعلم أين هو، وثارت الفتن

بسببه، فجاء غلام إلى دار يطلب ماءً فسمع قائلاً يقول: أيها الأمير تنحّ فهذا غلام يطلب ماء، فسمع الغلام فجاء إلى عيّار فأخبره، فأخذ معه ثلاثة نفر وجاء إلى صالح وبيده مرآة ومشط وهو يسرّح لحيته، فأخذه فتضرّع إليه فقال: لا يمكنني تركك، ولكنّي أمرّ بك على أبواب أهلك وقوّادك وأصحابك، فإن اعترضك منهم اثنان أطلقتك، فأخرج حافيًا وليس على رأسه شيء، والعامة تعدو خلفه وهو على برذون بإكاف[(١)]، فأتوا به نحو الجوسق فقتلوه، وذلك لثمان بقين من صفر منها، وأخذوا رأسه وحمل وطيف به على قناة ونادوا عليه: هذا جزاء من قتل مولاه، ولما قتل أنزل رأس بغا الصغير ودفع إلى أهله ليدفنوه.

ذكر خلع المهتدي وموته

قال: وكان خلعه في منتصف شهر رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه، وسبب ذلك أن أهل الكرخ والدورمن[(٢)] الأتراك تحركوا في طلب أرزاقهم أول شهر رجب، فسكّنهم المهتدي فرجعوا، فبلغ أبا نصر محمد بن بغا أن المهتدي قال: إن المال عند محمد وموسى ابني بغا، فهرب إلى أخيه وهو يقاتل مساور الخارجي، فكتب المهدي إليه أربع كتب يعطيه الأمان، فرجع هو وأخوه حَبْشُون فحبسهما ومعهما كَيْغَلَغ، وطولب أبو نصر محمد بن بغا بالمال، فقبض من وكيله خمسة عشر ألف دينار، وقتل لثلاث خلون من شهر رجب ورمي في بئر فأنتن، وأخرجوه إلى منزله وصلّى عليه الحسن بن المأمون. وكتب المهتدي إلى موسى بن بغا لما حبس أخاه يأمره بتسليم العسكر إلى بايكباك والرجوع إليه، وكتب إلى بايكباك أن يتسلّم العسكر ويقوم بحرب مساور، فصار بايكباك بالكتاب إلى موسى فقرأه عليه، وقال: لست أفرح بهذا فإنّه تدبير علينا جميعًا ـ فما ترى؟ قال موسى: أرى أن تصير إلى سامرّا وتخبره أنّك في طاعته، وناصره عليّ وعلى مُفْلح فإنّه يطمئن إليك ثم تدبّر في قتله، فأقبل إلى سامرا ومعه يَارْجُوخ وأَسَارْتَكِين وسيما الطويل وغيرهم، فدخلوا دار الخلافة لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر رجب، فحبس بايكباك وصرف الباقون،

---

(١) الإكاف: البرذعة.

(٢) الدور: بضم أوله وسكون ثانيه: سبعة مواضع بأرض العراق من نواحي بغداد، أحدها دور تكريت، والثاني بين سامرا وتكريت. . . والدور أيضًا: قرية قرب سميساط، والدور: محلة بنيسابور. . . (معجم البلدان).

فاجتمع أصحاب بايكباك وغيرهم من الأتراك وقالوا: لَمَ حبس قائدنا؟ ولَمَ قتل محمد بن بغا؟ وكان عند المهتدي صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور فشاوره فيه، فقال: إنه لم يبلغ أحد من آبائك ما بلغته من الشجاعة، وقد كان أبو مسلم أعظم شأنًا عند أهل خراسان من هذا عند أصحابه، وقد كان فيهم من يعبده، فما كان إلا أن طرح رأسه حتى سكنوا، فلو فعلت مثل ذلك سكنوا، فركب المهتدي وقد جمعوا له جميع المغاربة والأتراك والفراغنة، فصيّر في الميمنة مسرورًا البلخي ـ وفي الميسرة يارجوخ ـ ووقف هو في القلب مع أسارتكين وطبايغو وغيرهما من القواد، وأمر بقتل بايكباك فقتل وألقى رأسه إليهم عتّاب بن عتّاب فقتلوه، وعطفت ميمنة المهتدي وميسرته بمن فيها من الأتراك فصاروا مع إخوانهم الأتراك، فانهزم الباقون عن المهتدي وقتل جماعة من الفريقين، فانهزم المهتدي وبيده السيف وهو ينادي: يا معشر الناس ـ أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم، فلم يجبه أحد من العامة، فصار إلى السجن وأطلق من فيه وهو يظن أنهم يعينونه فهربوا، فصار إلى دار أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها وهم في أثره، فدخلوا عليه وأخرجوه وساروا به إلى الجوسق وهو على بغل، فحبس عند أحمد بن خاقان وقبّل المهتدي يده ـ فيما قيل ـ مرارًا كثيرة، وأرادوه على الخلع فأبى واستسلم للقتل، فداسوا خصيتيه فمات وأشهدوا على موته أنه سليم ليس فيه أثر؛ قال: وكانوا قد خلعوا أصابع يديه ورجليه من كعبيه، وقيل إنّ ابن عم بايكباك وجأه بسكين فقتله وشرب من دمه، قال: وطلبوا محمد بن بغا فوجدوه ميتًا فكسروا على قبره ألف سيف.

وكانت خلافة المهتدي أحد عشر شهرًا وخمسة عشر يومًا، وكان عمره ثمانيًا وثلاثين سنة، وقيل أكثر إلى أربعين سنة وقيل أقل إلى سبع وثلاثين. وكان مربوعًا أسمر واسع الجبهة رقيقًا أشهل(١) طويل اللحية عظيم البطن، وكان حسن الطريقة. قال: وصلّى عليه القاضي جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، ودفن بسامرا وكان مولده بالقاطول. وكان نقش خاتمه: من تعدّى الحق ضاق مذهبه. وكان له من الأولاد خمسة عشر ذكرًا. وزراؤه: أبو أيوب سليمان بن وهب وجعفر بن محمود الإسكافي وأبو صالح عبد الله بن محمد وغيرهم، قاضيه: الحسن بن أبي الشوارب ثم عبد الرحمٰن بن نائل البصري. حجّابه: صالح بن وصيف وبايكباك وموسى بن بغا. الأمير بمصر: أحمد بن طولون. قاضيها بكّار.

(١) الأشهل: الذي في عينه شهلة، والشهلة: أي أن يشوب إنسان العين حمرة.

ذكر شيء من سيرة المهتدي

كان رحمه الله من أحسن الخلفاء طريقة، وأكثرهم ورعًا وعبادة، قال عبد الله بن إبراهيم الإسكافي: جلس المهتدي يومًا للمظالم فاستعداه رجل على ابن له، فأمر بإحضاره فأحضر وأقامه إلى جانب خصمه، فقال الرجل للمهتدي: والله ما أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ إلا كما قال القائل: [من السريع]

حكّموهُ فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة في حكمه ولا يبالي عنت الخاسر(١)

فقال المهتدي: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك، وأما أنا فما جلست حتى قرأت ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] الآية، فما رأيت باكيًا أكثر من ذلك اليوم. وقال أبو العباس هاشم بن القاسم الهاشمي: كنت عند المهتدي في بعض عشايا رمضان، فقمت لأنصرف فأمرني بالجلوس فجلست حتى صلّى بنا المغرب، ثم أمر بالطعام فأحضر: طبق خلاف عليه رغيفان وفي إناء ملح وفي آخر زيت وفي آخر خلّ، فدعاني إلى الأكل فأكل وأكلت مقصرًا، ظنًّا منّي أنّه يحضر طعامًا جيدًا، فلما رأى أكلي كذلك قال: أما كنت صائمًا؟! قلت: بلى، ولست تريد الصوم غدًا؟ قلت: وكيف لا وهو شهر رمضان! فقال: كل واستوف عشاك فليس هناك غير ما ترى، فعجبت من قوله وقلت: لمَ يا أمير المؤمنين؟ أسبغ الله عليك النعمة ووسّع رزقه، فقال: إن الأمر على ما ذكرت والحمد لله، ولكني فكّرت أنّه كان من بني أمية عمر بن عبد العزيز فغرت على بني هاشم ألا يكون في خلفائهم مثله، فأخذت نفسي بما رأيت؛ قال إبراهيم بن مخلد عن بعض الهاشميين: إنهم وجدوا للمهتدي سفطًا فيه جبّة صوف وكساء وبرنس، كان يلبس ذلك بالليل ويصلّي، ويقول: أما يستحي بنو العباس ألا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز، ولما قتله الأتراك تضاربوا على السفط وقدروا أن فيه ذخائره، فلما اطلعوا على ما فيه أظهروا الندم على قتله. وكان قد اطّرح الملاهي وحرّم الغناء والشراب، ومنع أصحاب السلطان عن الظلم.

قال ابن الجوزي: وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين والخراج، يحبس نفسه في الحسابات، وكان يجلس في يوم الخميس والاثنين والكتّاب بين يديه رحمه الله تعالى.

---

(١) العنت: الوقوع في الشدة.

ذكر خلافة المُعْتَمد على الله

هو أبو العباس أحمد ـ وقيل أبو جعفر ـ بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه أم ولد اسمها فتيان، وهو الخامس عشر من الخلفاء العباسيين، بويع له في منتصف شهر رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وذلك أنّه لما أُخذ المهتدي وحبس حضر أبو العباس وكان محبوسًا بالجوسق، فبايعه الأتراك وكتب إلى موسى بن بغا بذلك وكان بخانِقين[١]، فحضر إلى سامرّا وبايعه، واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

ذكر عزل عيسى بن الشيخ عن الشام وولايته أرمينية

قد ذكرنا أن ابن الشيخ كان قد استولى على دمشق وقطع الحمل عن بغداد، واتفق أنّ ابن المُدَّبِر حمل من مصر إلى بغداد سبعمائة ألف دينار، فأخذها عيسى بن الشيخ، فأرسل إليه من بغداد حسين الخادم فطالبه بالمال، فذكر أنّه أخرجه على الجند، فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد، وكان قد امتنع من ذلك فأخذ العهد، وأقام الدعوة، ولبس السواد ظنًّا منه أن الشام يكون بيده، فأنفذ المعتمد أماجور وقلّده دمشق وأعمالها، فسار إليها في ألف رجل، فلما قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصورًا في عشرين ألف مقاتل، واقتتلوا فانهزم عسكر منصور وقتل هو، فوهن عيسى وسار إلى أرمينية على طريق الساحل.

وفيها ظهر علي بن زيد العلوي بالكوفة، واستولى عليها وأخرج عامل الخليفة منها، وكان من أمره ما نذكره ـ إن شاء الله ـ في أخبارهم.

ودخلت سنة سبع وخمسين ومائتين.

ذكر ورود أبي أحمد الموفق من مكة وما عقد له المعتمد من الأعمال

كان سبب وروده أن أمر الزنج كان قد اشتد وعظم شرهم وفسادهم في البلاد،

---

(١) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال. . . (معجم البلدان).

فأرسل المعتمد على الله إلى أخيه أبي أحمد الموفّق وأحضره من مكة، فلما حضر عقد له على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن، ثم عقد له على بغداد والسواد وواسط[١] وكور دجلة والبصرة والأهواز[٢]، وكان بين الزنج وعمال المعتمد وقائع كثيرة نذكرها إن شاء الله في أخبارهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن إسحاق بن العباس العباسي.

ودخلت سنة ثمان وخمسين ومائتين.

في هذه السنة في شهر ربيع الأول عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الموفق على ديار مضر وقِنّسْرِين[٣] والعواصم، وخلع على مُفْلح في شهر ربيع الآخر وسيّرهما لحرب الزنج بالبصرة، فقتل مفلح بسهم أصابه.

وفيها مات يارجوخ التركي في شهر رمضان وكان صاحب مصر ومقطعها ويدعي له فيها، فلما توفي استقل أحمد بن طولون بالأمر، وكان قبل ذلك نائبه بها.

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن إسحاق بن الحسن.

ودخلت سنة تسع وخمسين ومائتين.

في هذه السنة دخلت الزنج الأهواز، وسار موسى بن بغا لحربهم. وفيها ملك يعقوب بن الليث نيسابور على ما نذكره. وفيها قتل كنجور، وسبب قتله أنّه كان على الكوفة، فسار عنها إلى سامرّا بغير إذن، فأمر بالرجوع فأبى فحمل إليه مال ليفرقه في أصحابه فلم يقنع به، وسار حتى أتى عكبرا فوجّه إليه من سامرّا عدة من القوّاد فقتلوه، وحملوا رأسه إلى سامرّا.

وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان العباسي.

ودخلت سنة ستين ومائتين.

ذكر الفتنة بالموصل وإخراج عاملهم

كان المعتمد قد استعمل على الموصل أساتكين وهو من أكابر قوّاد الأتراك فسيّر

---

(١) واسط: بلدة متوسطة بين البصرة والكوفة منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا.

(٢) الأهواز: كان اسمها في أيام الفرس خوزستان... وهي كورة عظيمة ينسب إليها سائر الكور.

(٣) قنسرين: هي كورة بالشام منها حلب، وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم.

إليها ابنه اذكوتكين في جُمادى الأولى سنة تسع وخمسين ومائتين، فلما كان يوم النوروز من هذه السنة دعا وجوه أهل الموصل إلى قبّة في الميدان، وأحضر أنواع الملاهي وتجاهر بالشرب والفسوق وفعل المنكرات، وأساء السيرة، ثم طالب أهل الموصل بالخراج عن غلات كانت قد هلكت من البرد، فاشتد ذلك على الناس، وكان لا يسمع بفرس جيد إلا أخذه من صاحبه، وأهل الموصل صابرون على ذلك كله منه، إلى أن وثب رجل من أصحابه على امرأة فأخذها من الطريق، فامتنعت واستغاثت، فقام رجل من أهل القرآن والصلاح اسمه إدريس الحميري فخلّصها من يده، فعاد الجندي إلى ابن اساتكين فشكا من إدريس، فأحضره وضربه ضربًا شديدًا من غير أن يكشف عن الأمر، فاجتمع وجوه أهل الموصل بالجامع وقالوا: قد صبرنا على أخذ الأموال وشتم الأعراض وإبطال السنن وإظهار البدع فلا نصبر على أخذ الحريم، واتفقوا على أن يشكوه إلى الخليفة، فبلغه الخبر فركب في جنده ومعه النفّاطون[1]، فخرجوا إليه ولقوه وقاتلوه قتالاً شديدًا حتى أخرجوه عن الموصل، ونهبوا داره وأصابه حجر فشجّه، ومضى من يومه إلى سامرا، فاجتمع أهل الموصل إلى يحيى بن سليمان وقلّدوه أمرهم، فبقي كذلك إلى أن انقضت سنة ستين ودخلت إحدى وستين، فكتب اساتكين إلى الهيثم بن عبد الله بن المعمر التغلبي ثم العدوي في أن يتقلّد الموصل، وأرسل إليه الخلع[2] واللواء وكان بديار ربيعة، فجمع جموعًا كثيرة وسار إلى الموصل، فنزل بالجانب الشرقي وبينه وبين البلد دجلة فقاتلوه، فعبر إلى الجانب الغربي وزحف إلى باب البلد، فخرج إليه يحيى بن سليمان في أهل الموصل فقاتلوه، فقتل منهم قتلى كثيرة وكثرت الجراحات، وعاد الهيثم عنهم فاستعمل اساتكين على الموصل إسحاق بن أيوب التغلبي؛ فخرج في عشرين ألفًا منهم حمدان بن حمدون التغلبي وغيره، فنزل عند الدير الأعلى[3] فقاتله أهل الموصل، ومنعوه وداموا على ذلك مدة، ومرض يحيى بن سليمان فطمع إسحاق في البلد وجدّ في الحرب، فانكشف الناس بين يديه فدخل البلد، ووصل إلى سوق الأربعاء[4] وأحرق سوق الحشيش، فخرج بعض العدول واسمه زياد بن عبد الواحد

(١) النفاط: الذي يستخرج النفط.

(٢) الخلع: جمع الخلعة: خيار المال، أو ما يعطى من الثياب ونحوها.

(٣) الدير الأعلى: بالموصل في أعلاها على جبل مطل على دجلة، يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المستشرف. . . (معجم البلدان).

(٤) سوق الأربعاء: بليدة من نواحي الأهواز، بينها وبين عسكر مكرم ستة فراسخ. . . (معجم البلدان).

وعلّق في عنقه مصحفًا، واستغاث بالمسلمين فأجابوه وعادت الحرب، فأخرجوا إسحاق وأصحابه عن المدينة، وبلغ سليمان الخبر فأمر أن يحمل في محفّة[١] ويجعل أمام الصفّ، فلما رآه أهل الموصل قويت نفوسهم واشتد قتالهم، فلم يزل الأمر على ذلك وإسحاق يراسلهم ويبذل لهم الإحسان وحسن السيرة، فأجابوه إلى أن يدخل البلد ويقيم بالربض الأعلى، فدخل وأقام سبعة أيام، ثم وقع بين بعض أصحابه وبين قوم من أهل الموصل شرور، فرجعوا إلى الحرب وأخرجوه عنها واستولى يحيى بن سليمان على الموصل، إلى أن استعمل المعتمد الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي الموصلي في سنة إحدى وستين.

وحجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل وهو أمير مكة.

ودخلت سنة إحدى وستين ومائتين.

ذكر البيعة بولاية العهد
للمفوّض جعفر بن المعتمد وللموفق الناصر لدين الله
أبي أحمد أخي المعتمد

قال: وفي شوال من هذه السنة جلس المعتمد على الله في دار العامة. وولّى ابنه جعفرًا العهد ولقّبه المفوِّض إلى الله وضمّ إليه موسى بن بغا، فولاه إفريقية ومصر والشام والجزيرة والموصل وأرمينية وطريق خراسان ومهرجانقذق، وولّى أخاه أبا أحمد العهد بعد جعفر ولقّبه الناصر لدين الله الموفّق، وولاّه المشرق وسواد الكوفة وطريق مكة والمدينة واليمن وكسكر وكور دجلة والأهواز وفارس وأصبهان وقمّ وكرج[٢] ودينور والريّ وزَنجان[٣] والسند، وعقد لكل واحد منهما لواءين أبيض وأسود، وشرط إن حدث به أمر وجعفر لم يبلغ أن يكون الأمر للموفّق ثم لجعفر بعده، وأخذت البيعة بذلك، فعقد جعفر لموسى على المغرب وأمر الموفّق بالمسير لحرب الزنج، فولّى الموفّق الأهواز والبصرة وكور دجلة مسرورًا البلخي، وسيّره في

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له، تركب فيه المرأة.

(٢) كرج: بفتح أوله وثانيه، وآخره جيم: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة.

(٣) زنجان: بفتح وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره نون: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين. . . (معجم ياقوت).

مقدمته في ذي الحجة، وعزم على المسير بعده، ثم شغله حرب يعقوب الصفّار على ما نذكره إن شاء الله.

وفيها كان ابتداء الدولة السامانية بولاية نصر بن أحمد الساماني ما وراء النهر على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة السامانية.

وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن إسحاق العباسي.

ودخلت سنة اثنتين وستين ومائتين.

في هذه السنة كانت الحرب بين الموفق ويعقوب بن الليث الصفّار على ما نذكره في أخباره. وفيها وقعت الوحشة بين الموفّق وبين أحمد بن طولون أمير مصر واستحكمت، فطلب الموفّق من يتولّى الديار المصرية فلم يجد أحدًا، لأن ابن طولون كانت هداياه وخدمه متصلة إلى القوّاد وأرباب المناصب بالعراق، فكتب إلى أحمد بن طولون يتهدّده بالعزل، فأجابه بجواب فيه بعض الغلظة، فسيّر الموفّق إليه موسى بن بغا في جيش كثيف، فسار إلى الرقّة فبلغ الخبر ابن طولون فحصّن الديار المصرية، وأقام ابن بغا بالرقّة عشرة أشهر لم يمكنه المسير لقلّة الأموال معه، وطالبه الأجناد بالعطاء فلم يكن معه ما يعطيهم، فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره عبد الله بن سليمان فاستتر، فاضطر موسى إلى العود إلى العراق فعاد، وتصدّق ابن طولون بأموال كثيرة.

وحكى ابن الجوزي بسند رفعه إلى أبي عون الفرايضي قال: خرجت إلى مجلس أحمد بن منصور الزيادي سنة اثنتين وستين ومائتين، فلما صرت بطاق الحرّاني رأيت رجلًا قد أمر بالقبض على امرأة، وأمر بجرّها فقالت له: اتق الله، فأمر أن تجرّ فلم تزل تناشده الله وهو يأمر بجرها، إلى أن بلغت إلى باب القنطرة، فلما يئست من نفسها رفعت رأسها إلى السماء، ثم قالت: قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إن كان هذا الرجل يظلمني فخذه؛ قال أبو عون: فوقع الرجل على ظهره ميتًا وأنا أراه، فحمل على جنازة وانصرفت المرأة.

وحجّ بالناس الفضل بن إسحاق العباسي.

ودخلت سنة ثلاث وستين ومائتين.

في هذه السنة استولى يعقوب بن الليث على الأهواز. وفيها سُلمت قلعة الصقالبة إلى الروم. وفيها مات الشاري الخارجي فبايع أصحابه أيوب بن حيان الوارقي، فقتل فبايعوا محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقي المعروف بالغلام، فقتل

أيضًا فبايعوا هارون بن عبد الله البجلي، وكان من أخباره ما نذكره. وفيها مات عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله، صدمه خادم بالميدان فسقط فسال دماغه من منخريه وأذنيه فمات لوقته، واستوزر من الغد الحسن بن مخلد، وقدم موسى بن بغا فاختفى الحسن فاستوزر سليمان بن وهب.

ودخلت سنة أربع وستين ومائتين.

في هذه السنة أسرت الروم عبد الله بن رشيد بن كاووس، وكان سبب ذلك أنه دخل بلد الروم في أربعين ألف مقاتل من أهل الثغور الشامية فغنم وقتل فلما رحل عن البذندون[1] خرج عليه بطريق سلوقية وبطريق قرة وكوكب[2] وخرشنة[3] وأحدقوا بالمسلمين، فنزل المسلمون وعرقبوا دوابّهم وقاتلوا، إلا خمسمائة منهم فإنهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم، وقتل الروم من قتلوا وأسر عبد الله بن رشيد بعد ضربات أصابته وحمل إلى ملك الروم. وفيها دخلت الزنج إلى واسط.

ذكر أخبار الوزراء

في هذه السنة خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا، وشيّعه الموفّق والقواد، فلما صار إلى سامرّا غضب عليه المعتمد وحبسه وقيّده وانتهب داره، واستوزر الحسن بن مخلد في ذي القعدة، فسار الموفق إلى سامرا ومعه عبد الله بن سليمان بن وهب، فلمّا قرب من سامرا تحوّل المعتمد إلى الجانب الغربي مغاضبًا للموفّق، واختلفت الرسل بينهما فاتفقا، وخلع على الموفّق ومسرور وكيغلغ وأحمد بن موسى بن بغا وأطلق سليمان بن وهب، وعاد إلى الجوسق[4] وهرب الحسن بن مخلد ومحمد بن صالح بن شيرزاد، فكتب في قبض أموالهما، وهرب القوّاد الذين كانوا بسامرا مع المعتمد خوفًا من الموفّق، ووصلوا إلى الموصل وجبوا الخراج.

وفيها مات أماجور وملك أحمد بن طولون الشام وطرسوس على ما نذكره إن

(١) بذندون: قرية بينها وبين طرسوس يوم من بلاد الثغر، مات بها المأمون فنقل إلى طرسوس ودفن بها.

(٢) كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت بعد. . . (معجم البلدان).

(٣) خرشنة: بلد قرب ملطية من بلاد الروم، غزاه سيف الدولة بن حمدان.

(٤) الجوسق: الحصن.

شاء الله في أخبار الدولة الطولونية وفيها ملك المسلمون مدينة سرقوسة[١]، وهي من أعظم بلاد صقلية وذلك في رابع عشر شهر رمضان.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى الهاشمي.

ودخلت سنة خمس وستين ومائتين.

في هذه السنة استعمل الموفق مسرورًا البلخي على أعمال الأهواز، وكانت له وقعة مع الزنج فهزمهم، وفيها كانت وفاة يعقوب بن الليث الصفّار بجند يسابور في تاسع عشر شوال، وقام بالأمر بعده أخوه عمرو بن الليث. وفيها حبس الموفّق سليمان بن وهب وابنه عبد الله وعدة من أصحابهما، وقبض أموالهم وضياعهم خلا أحمد بن سليمان، ثم صالح سليمان وابنه عبد الله على تسعمائة ألف دينار، وجعلا في موضع يصل إليهما من أراد. وفيها عسكر موسى بن أوتامش وإسحاق بن كنداجق والفضل بن موسى بن بغا وعبروا جسر دجلة، فأتبعهم الموفق صاعد بن مخلد فردهم من صرصر[٢] وخلع عليهم. وفيها خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أذنه فقتلوا وأسروا أرخوز، وكان قبل ذلك يلي الثغور فعزل عنها وأقام مرابطًا، وأسروا نحوًا من أربعمائة وقتلوا نحوًا من ألف وأربعمائة وذلك في جُمادى الأولى.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي.

ودخلت سنة ست وستين ومائتين.

في هذه السنة غلب أساتكين على الريّ وأخرج عاملها، ومضى إلى قزوين وعليها أخو كيغلغ فصالحه فعاد إلى الريّ وفيها كانت وقائع بين المتغلبين على الأطراف لا فائدة من ذكرها.

وحجّ بالناس هارون الهاشمي.

ودخلت سنة سبع وستين ومائتين.

في هذه السنة كان بين الموفق والزنج حروب طويلة، ضعف بسببها أمرهم، ولم يكن من أحوال الخلافة ما نذكره، لتغلّب العمال على الأطراف واشتغال بعضهم ببعض، على ما نورد ذلك كله في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وحجّ بالناس هارون.

---

(١) سرقوسة: بفتح أوله وثانيه ثم قاف، وبعد الواو سين أخرى: أكبر مدينة بجزيرة صقلية. وكان بها سرير ملك الروم قديمًا. . . (معجم البلدان).

(٢) صرصر: بالفتح وتكرير الصاد والراء: قريتان من سواد بغداد صرصر العليا وصرصر السفلى، وهما على ضفة نهر عيسى.

ودخلت سنة ثمان وستين ومائتين.

لم تكن في هذه السنة إلا أخبار الزنج وحروبهم والخوارج، ويرد ذلك في موضعه.

وحجّ بالناس هارون.

ودخلت سنة تسع وستين ومائتين.

في هذه السنة حارب الموفّق أيضًا صاحب الزنج، واستولى الموفّق على مدينتي صاحب الزنج الغربية ثم الشرقية، وهدم قصره في حروب طويلة لا فائدة في ذكرها.

ذكر مسير المعتمد على الله إلى مصر وعوده قبل الوصول إليها

في هذه السنة سار المعتمد نحو مصر، وكان سبب ذلك أنّه لم يكن له من الخلافة إلا اسمها، ولا ينفذ له توقيع في قليل ولا كثير، وكان الحكم كله للموفّق والأموال تجبى إليه، فأنف وضجر المعتمد من ذلك، وكتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه من أخيه في السر، فأشار عليه باللحاق به بمصر ووعده النصر، وسيّر عسكرًا إلى الرقة ينتظرون وصول المعتمد إليهم، فاغتنم المعتمد غيبة الموفّق عنه، وسار في جُمادى الأولى ومعه جماعة من القوّاد، فأقام بالكحيل[1] يتصيّد ثم سار حتى صار إلى عمل إسحاق بن كنداجق ـ وهو عامل الموصل وعامة الجزيرة، فوثب إسحاق بمن مع المعتمد من القوّاد فقبضهم، وهم نيزك وأحمد بن خاقان وخطارمش وقيّدهم وأخذ أموالهم ودوابهم، وكان صاعد بن مخلد وزير الموفق قد كتب إليه بذلك عن الموفّق، وكان سبب تمكّنه منهم ووصوله إلى قبضهم أنّه أظهر أنّه معهم في طاعة المعتمد ـ إذ هو الخليفة، ولقيهم لما صاروا إلى عمله وسار معهم عدة مراحل، فلما قارب عمل أحمد بن طولون ارتحل الأتباع والغلمان الذين مع المعتمد ومع قواده، ولم يترك إسحاق أصحابه يرتحلون ثم قال للقوّاد وهم عند المعتمد: إنّكم قد قاربتم عمل ابن طولون والأمر أمره، وتصيرون جنده وتحت يده، أفترضون ذلك؟

(١) الكحيل: تصغير الكحل: موضع بالجزيرة، وكان فيه يوم للعرب... وقيل: هي مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي... (معجم ياقوت).

وقد علمتم أنّه كواحد منكم، وتناظروا في ذلك حتى ارتفع النهار ولم يرتحل المعتمد، ثم قال لهم: قوموا بنا حتى نتناظر في غير حضرة أمير المؤمنين، فأخذ بأيديهم إلى خيمة له فلما دخلوا الخيمة قبض عليهم وقيّدهم وأخذ سائر من مع المعتمد من القوّاد، ثم مضى إلى المعتمد فعذله في مسيره عن دار ملكه وملك آبائه وفراق أخيه الموفّق وهو على الحال التي هو بها من الحرب، ثم حمله ابن كنداجق ومن معه حتى أدخلهم سامرّا. وفيها لعن المعتمد أحمد بن طولون في دار العامة، وأمر بلعنه على المنابر، وولّى إسحاق بن كنداجق على أعمال ابن طولون، وفوّض إليه من باب الشماسية إلى إفريقية، وولاّه شرطة الخاصة؛ وكان سبب تغيره على ابن طولون أنّه قطع خطبة الموفّق، وأسقط اسمه عن الطرز، فتقدّم الموفّق إلى المعتمد بلعنه فلعنه مكرهًا، وكان المعتمد في الباطن مع ابن طولون.

ودخلت سنة سبعين ومائتين.

في هذه السنة قتل صاحب الزنج. وفيها كانت وفاة الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان في شهر رجب. وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام، وولّي بعده أخوه محمد بن زيد. وفيها كانت وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه خمارويه، ومسير ابن كنداجق إلى الشام على ما نذكر ذلك كله إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الطولونية.

قال أبو الفرج بن الجوزي في حوادث سنة سبعين ومائتين: إن الروم نزلت ناحية قلمية[١] على ستة أميال من طرسوس وهم زهاء مائة ألف مع بطريق البطارقة أندرياس، فبيّتهم يا زمان الخادم ليلاً، فقتل رئيسهم وخلقًا كثيرًا من أصحابه يقال إنّهم بلغوا سبعين ألفًا، وأخذ لهم سبعة صلبان من ذهب وفضة فيها صليبهم الأعظم مكلل بالجوهر، وأخذ خمسة عشر ألف دابة وبغل ومن السروج مثلها وسيوفًا محلاة بذهب وفضة ومناطق وأربع كراسي من ذهب ومائتي طوق من ذهب وآنية كثيرة، ونحوًا من عشرة آلاف علم، وذلك في يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر ربيع الأول.

(١) قلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، والباء خفيفة: كورة واسعة برأسها من بلاد الروم قرب طرسوس.. وقلمية: مدينة كانت للروم، وبعض أبواب طرسوس يسمى باب قلمية منسوب إليها، وقلمية ليست على البحر... (معجم البلدان).

ودخلت سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ذكر خلاف محمد وعلي العلويين بالمدينة

في هذه السنة دخل محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بالمدينة وقتلا جماعة من أهلها وأخذا من قوم مالاً، ولم يصلّ أهل المدينة في مسجد رسول الله ﷺ أربع جمع، لا جمعة ولا جماعة. وفيها كانت وقعة الطواحين[1] بين المعتضد بن الموفّق وخمارويه بن أحمد بن طولون، كان الظفر فيها لعسكر خمارويه، وهرب المعتضد إلى دمشق فمنع من دخولها.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

في هذه السنة قدم صاعد بن مخلد وزير الموفّق من فارس إلى واسط، فأمر الموفّق جميع القواد أن يستقبلوه، فاستقبلوه وترجّلوا له وقبّلوا يده وهو لا يكلّمهم كبْرًا وتيهًا، ثم قبض الموفّق عليه وعلى جميع أهله وأصحابه ونهب منازلهم بعد أيام، وكان قبضه في شهر رجب، وقبض على ابنيه أبو عيسى وصالح وأخيه عبدون ببغداد، واستكتب مكانه أبا الصقر إسماعيل بن بلبل، واقتصر على الكتابة دون الوزارة. وفيها صلح أمر مدينة رسول الله ﷺ، وتراجع الناس إليها.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

في هذه السنة وقع الخلاف بين أبي الساج وإسحاق بن كنداجق، وخطب لابن طولون بالجزيرة.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق.

ودخلت سنة أربع وسبعين ومائتين.

في هذه السنة كانت الحرب بين الموفّق وعسكر عمرو بن الليث الصفّار على ما نذكره في أخبار الدولة الصفّارية.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون.

---

(١) الطواحين: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام كانت عنده الوقعة المشهورة بين خمارويه بن طولون والمعتضد بالله سنة ٢٧١هـ انصرف كل واحد منهما مغلولاً، كانت أولاً على خمارويه ثم كانت على المعتضد. . . (معجم البلدان لياقوت).

ودخلت سنة خمس وسبعين ومائتين.

ذكر قبض الموفّق على ابنه المعتضد

في هذه السنة قبض الموفّق على ابنه أبي العباس أحمد المعتضد، وسبب ذلك أن الموفّق دخل إلى واسط ثم عاد إلى بغداد، وأمر ابنه المعتضد أن يسير إلى بعض الوجوه، فقال: لا أخرج إلا إلى الشام، لأنها الولاية التي ولاّنيها أمير المؤمنين. فغضب الموفّق وقبض عليه وجعله في حجرة ووكل به، فثار القوّاد من أصحابه ومن تبعهم وركبوا، واضطربت بغداد فركب الموفّق إلى الميدان، وقال لهم: ما شأنكم!! أترون أنّكم أشفق على ولدي مني؟ وقد احتجت إلى تقويمه فانصرفوا.

ودخلت سنة ست وسبعين ومائتين.

في هذه السنة جعلت شرطة بغداد إلى عمرو بن الليث، وكتب اسمه على الأعلام والأترسة وذلك في شوال، ثم ترتّب في الشرطة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر من قبل عمرو، ثم أمر بطرح اسم عمرو عن الأعلام وغرها في الشهر. وفيها ورد الخبر بانفراج تلّ بنهر البصرة يعرف بتلّ بني شقيق عن سبعة أقبر شبه الأحواض، من حجر في لون المسنّ عليها كتابة لا يدرى ما هي، وفيها سبعة أبدان صحيحة عليها أكفان جدد يفوح منها رائحة المسك، أحدهم شاب له جمّة[1] وعلى شفتيه بلل كأنّه قد شرب ماءً وكأنه قد كحل، وبه ضربة في خاصرته.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد.

ودخلت سنة سبع وسبعين ومائتين.

في هذه السنة دعي بطرسوس لخمارويه بن أحمد. وفيها ولّي يوسف بن يعقوب المظالم، وأمر أن ينادى من كان له مظلمة قبل الأمير الناصر لدين الله الموفّق أو أحد من الناس فليحضر.

وحجّ بالناس هارون.

ودخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين.

في هذه السنة كانت الحرب ببغداد بين أصحاب وصيف الخادم والبربر

---

(١) الجمة: من الإنسان: مجتمع شعر ناصيته؛ أو هي ما ترامى من شعر الرأس على المنكبين.

وأصحاب موسى ابن أخت مفلح أربعة أيام من المحرم، ثم اصطلحوا وقد قتل بينهم جماعة، ووقع بالجانب الشرقي وقعة بين النصريين وأصحاب يونس قتل فيها رجل ثم انصرفوا.

ذكر وفاة أبي أحمد الموفّق

في هذه السنة توفي أبو أحمد الموفّق بن المتوكل في يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر، ودفن ليلة الخميس بالرصافة، وكان قد مرض في بلاد الجبل فانصرف وقد اشتد به وجع النِّقْرِس، فلم يقدر على الركوب فحمل على سرير فيه قبة، وكان يجلس فيه هو وخادم له يبرد رجليه بالأشياء الباردة، ثم صار به داء الفيل[(١)]، وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة، فقال لهم يومًا وقد ضجر: أودّ أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسي وآكل وأنا في عافية؛ وقال في مرضه: أطبق ديواني على مائة ألف مرتزق، ما أصبح فيهم أسوأ حالاً منّي، ووصل إلى داره لليلتين خلتا من صفر، وشاع موته بعد انصراف أبي الصقر من داره، وكان قد تقدّم بحفظ أبي العباس فأغلقت عليه الأبواب. قال: ووجّه أبو الصقر إلى المدائن فحمل منها المعتمد وأولاده وجيء بهم، فلما رأى غلمان الموفّق ما نزل بمولاهم كسروا الأبواب المغلقة على أبي العباس، فظن أنهم يريدون قتله فأخذ سيفه في يده، وقال: والله لا يصلون إليّ وفيّ شيء من الروح، فلما وصلوا إليه رأى غلامه وصيفًا فألقى السيف من يده، وعلم أنّهم لا يريدون إلا الخير، وأخرجوه وأقعدوه عند أبيه وكان قد اعترته غشية، فلما أفاق ورآه قرّبه وأدناه إليه؛ وأما أبو الصقر فإنه لما حصل الإرجاف بموت الموفّق جمع القوّاد والجند وقطع الجسرين، وحاربه قوم من الجانب الشرقي فقتل منهم قتلى، فلما ظهر أن الموفّق حيّ حضر عنده محمد بن أبي الساج وفارق أبا الصقر، وتسلل القواد والناس عن أبي الصقر، فلما رأى ذلك أبو الصقر حضر هو وابنه دار الموفّق، وذكر أن أبا الصقر أراد أن يتقرب إلى المعتمد بمال الموفّق وأسبابه، وأشاعوا ذلك عنه عند أصحاب الموفّق، فنهبوا دار أبي الصقر وما يجاوره من الدور، وأخرجوا نساءه حفاة بغير أزر، وكسرت أبواب السجون وخرج من فيها. قال: وخلع الموفّق عند إفاقته على ابنه أبي العباس وعلى أبي الصقر، وركبا جميعًا فمضى أبو العباس إلى منزله وجاء أبو الصقر إلى منزله وقد نهب، فطلب له حصيرة يجلس عليها

---

(١) داء الفيل: تضخم في الجلد وما تحته ينشأ عن سد الأوعية اللمفاوية، ويحدثه جنس من الديدان الخيطية.

عارية، ثم مات الموفق في التاريخ الذي ذكرناه، وجلس ابنه أبو العباس للتعزية، وكان الموفّق عاد لأحسن السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة والفقهاء وغيرهم، فنيصف الناس بعضهم من بعض، وكان عالمًا بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك.

ذكر البيعة للمعتضد بالله بولاية العهد

قال: ولما مات الموفّق اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوّض إلى الله ابن المعتمد ولقب المعتضد بالله، وخطب له في يوم الجمعة بعد المفوّض وذلك لسبع بقين من صفر، واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولّى ما كان أبوه يتولاّه.

وفيها قبض المعتضد على أبي الصقر وأصحابه وانتهبت منازلهم، وطلب بني الفرات فاختفوا، واستوز عبيد الله بن سليمان بن وهب. وفيها كان ابتداء أمر القراطمة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة غار ماء النيل، وكان ذلك شيئًا لم يعهد مثله ولا سمع في الأخبار السالفة.

وحجّ بالناس في هذه النسة هارون بن محمد.

ودخلت سنة تسع وسبعين ومائتين.

ذكر خلع المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد وولاية أبي العباس المعتضد بالله بن الموفّق

في المحرم من هذه السنة خرج المعتمد على الله وجلس للقوّاد والقضاة ووجوه الناس، وأعلمهم أنّه خلع ابنه المفوّض إلى الله جعفرًا من ولاية العهد، وجعلها للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفّق، وشهدوا على المفوّض أنّه قد تبرأ من العهد، وأسقط اسمه من الخطبة والسكة والطرز وغير ذلك، وخطب للمعتضد وكان يومًا مشهودًا.

وفيها نودي بمدينة السلام ألا يقعد على الطريق ولا بالمسجد الجامع قاض ولا منجم ولا زاجر، وحلف الورّاقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل.

ذكر وفاة المعتمد على الله وشيء من أخباره

كانت وفاته ببغداد ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، وكان قد شرب على الشط بالجسر يوم الأحد شرابًا كثيرًا فمات ليلاً، وأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس، فنظروا إليه وحمل إلى سامرّا فدفن بها، وكان عمره خمسين سنة وستة أشهر، وكانت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أيام، وكان في خلافته محكومًا عليه، ضيّق عليه أخوه الموفّق حتى إنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها، فقال: [من الوافر]

أليس من العجائب أنّ مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعًا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا ... وما من ذاك شيءٌ في يديه
إليه تحمل الأموال طرًّا ... ويمنعُ بعض ما يُجبى إليه

وهو أول من انتقل من الخلفاء من سامرّا، ولم يعد إليها بعده خليفة. وكان طويل القدّ واللحية واسع العينين مقبلاً على اللذات، مشغولاً عن الرعيّة مضطرب الأحوال. وكان نقش خاتمه: السعيد من وعظ بغيره. أولاد: عبد العزيز وجعفر ومحمد وإسحاق. وزراؤه: عبيد الله بن يحيى بن خاقان ثم سليمان بن وهب[1] ثم الحسن بن مخلد ثم صاعد بن مخلد أخوه ثم أبو الصقر إسماعيل بن بلبل. حجّابه: موسى بن بغاثم جعفر بن غانم بن علي الجهشياري. قضاته: الحسن بن أبي الشوارب ثم أخوه علي بن محمد. الأمراء بمصر: أحمد بن طولون ثم ابنه خمارويه. قضاتها: بكّار بن قتيبة إلى أن توفي في سنة سبعين ومائتين بعد وفاة أحمد بن طولون بأربعين يومًا، وكانت ولايته أربعًا وعشرين سنة ونصف سنة، وبقيت مصر بغير قاض، ثم وليها أبو عَبْدَة محمد بن عبدة واستخلف أبا جعفر الطحاوي واستكتبه وأعفاه. وقد قيل في وفاة المعتمد على الله أنّه مات مسمومًا والله عزّ وجل أعلم.

(١) هو أبو أيوب سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين بن قيس بن فنال. كان سليمان هو وأخوه الحسن من أعيان عصرهما، وقد مدح هذين الأخوين خلق كثير من أعيان الشعراء مثل أبي تمام الطائي والبحتري ومن في طبقتهما... وكان سليمان يقول: إني أغار على أصدقائي كما أغار على حرمي... ونظر يومًا في المرآة فرأى شيبًا كثيرًا فقال: عيب لا عدمناه... (وفيات الأعيان ٢: ٤١٥).

ذكر خلافة المعتضد بالله

هو أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة الملقب الناصر لدين الله بن جعفر المتوكل بن المعتصم بالله بن الرشيد بن المهدي بن المنصور، وأمه أم ولد اسمها ضِرار وقيل اسمها خفيرة، وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين، بويع له يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بعد وفاة عمّه المعتمد على الله.

قال: ولما ولّي استعمل غلامه بدرًا على الشرطة، واستوزر عبيد الله بن سليمان بن وهب وجعل على حرسه محمد بن الشاه بن ميكال؛ ووصله في شوال رسول عمرو بن الليث ومعه هدايا كثيرة، وسأله أن يوليه خراسان فعقد له عليها، وسيّر إليه الخلع واللواء والعهد، فنصب اللواء في داره ثلاثة أيام. وفيها كانت وفاة نصر الساماني بما وراء النهر، فقام بعمله أخوه إسماعيل بن أحمد. وفيها قدم الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص من مصر بهدايا عظيمة من خمارويه، فتزوج المعتضد ابنة خمارويه وهي قطر الندى، وأصدقها المعتضد ألف ألف درهم، وفيها ملك أحمد بن عيسى بن الشيخ قلعة ماردين[١] ـ وكانت بيد إسحاق بن كنداجق.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد العباسي، وهي آخر حجة حجّها وأول سنة حجّ بالناس سنة أربع وستين ومائتين.

ودخلت سنة ثمانين ومائتين.

ذكر حبس عبد الله بن المهتدي وقتل محمد بن الحسن

في هذه السنة أخذ المعتضد عبد الله بن المهتدي ومحمد بن الحسن المعروف بشَيْلَمة وحبسهما، وكان شيلمة هذا مع صاحب الزنج إلى آخر أيامه، ثم لحق بالموفّق بأمان؛ وكان سبب أخذهما أن بعض المستأمنة سعى به إلى المعتضد، وأنّه يدعو

(١) ماردين: بكسر الراء والدال: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات. . . (معجم البلدان).

لرجل لا يعرف اسمه، وأنّه قد أفسد جماعة من الجند وغيرهم، فقرّره المعتضد فلم يقرّ بشيء وقال: لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه، فأمر به فشدّ في خشبة من خشب الخيم، ثم أوقد نارًا عظيمة وأدير عليها حتى تقطّع جلده، ثم ضربت عنقه وصلب عند الجسر. وحبس ابن المهتدي إلى أن علم براءته فأطلقه.

ذكر قصد المعتضد بني شيبان وصلحه معهم وإغارته على الأعراب

في أول صفر سار المعتضد من بغداد يريد بني شيبان بالمكان الذي يحتمون به من أرض الجزيرة، فلما بلغهم قصده جمعوا أموالهم، وأغار المعتضد على أعراب عند السِّنّ، فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم في الزاب مثل ذلك، وعجز الناس عن حمل ما غنموه، فبيعت الشاة بدرهم والجمل بخمسة دراهم، وسار إلى الموصل وبلد فلقيه بنو شيبان يسألون العفو، وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا، وعاد إلى بغداد، وأرسل إلى أحمد بن عيسى بن الشيخ يطالبه بما أخذ من أموال ابن كنداجق، فبعثها إليه ومعها هدايا كثيرة.

وفيها غارت المياه بالريّ وطبرستان حتى بلغ الماء ثلاثة أرطال بدرهم، وفي شوال منها انخسف القمر وأصبح أهل دبيل[1] وقد أظلمت الدنيا عليهم، ودامت الدنيا مظلمة عليهم، فلما كان عند العصر هبّت ريح سوداء ودامت إلى ثلث الليل، ثم زلزلوا في الثلث فخربت المدينة، ولم يبق من دورها إلا قدر مائة دار، وزلزلوا بعد ذلك خمس مرّات، وكان جملة من أخرج من تحت الردم مائة ألف وخمسين ألف كلهم موتى.

وحجّ بالناس أبو بكر محمد بن هارون.

ودخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين.

ذكر مسير المعتضد إلى مَارْدِين وملكها

في هذه السنة توجّه المعتضد بالله ـ وهي الخرجة الثانية إلى الموصل ـ قاصدًا حمدان بن حمدون، لأنّه بلغه أنّه مايل هارون الخارجي ودعا له، فلما بلغ الأعراب

---

(١) دبيل: بفتح أوله وكسر ثانيه: موضع يتاخم أعراض اليمامة... ودبيل: اسم رمل معزوف... ودبيل أيضًا: اسم مدينة بأرمينية تتاخم أران... (معجم ياقوت).

مسير المعتضد تحالفوا أنّهم يقتلون على دم واحد، واجتمعوا وعبؤوا عساكرهم، فسار المعتضد إليهم في خيل جريدة، فأوقع بهم وقتل منهم وغرّق في الزاب، وسار إلى الموصل يريد قلعة مَارِدِين وكانت لحمدان، فهرب حمدان منها وخلف ابنه بها فنازله المعتضد، وقالت من فيها يومه ذلك فلما كان الغد ركب المعتضد، وصعد إلى باب القلعة وصاح لابن حمدان فأجابه، فقال: افتح الباب ففتحه، فجلس المعتضد في باب القلعة وأمر بنقل ما فيها وهدمها، ثم وجّه خلف حمدان وطلبه أشد الطلب وأخذت أمواله، ثم ظفر به المعتضد بعد عوده من بغداد؛ وفي عوده قصد الحسنيّة[١] وبها رجل كردي يقال له شدّاد، في جيش كثيف قيل كانوا عشرة آلاف، فظفر به وهدم قلعته. وفيها سار المعتضد إلى ناحية الجبل وقصد الدِّيَنَور[٢] وولّى ابنه عليًّا ـ وهو المكتفي ـ الريّ وقزوين وزَنْجَان وأبْهَرَ وقُمّ وهمذان والدينور، وجعل كتابته لأحمد بن الأصبغ، وقلّد عمر بن عبد العزيز بن أبي دُلَف أصفهان ونهاوند والكرخ، وعاد إلى بغداد.

ودخلت سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

ذكر قصد حَمْدَان وانهزامه وعوده إلى الطاعة

في هذه السنة كتب المعتضد إلى إسحاق بن أيوب وحَمْدان بن حَمْدُون بالمصير إليه وهو بالموصل، فبادر إسحاق وتحصّن حمدان بقلاعه وأودع أمواله وحرمه، فبعث المعتضد الجيوش نحوه مع وصيف مُوشْكِير ونصر القشْوري وغيره فساروا إلى حمدان فواقعوه، فقتل من أصحابه جماعة وانهزم، واتبعه الجند حتى ضاقت عليه الأرض، فقصد خيمة إسحاق بن أيوب وهو مع المعتضد فاستجار به، فأحضره إلى المعتضد فأمر بالاحتفاظ به وتتابع رؤساء الأكراد في طلب الأمان.

وفيها انهزم هارون الخارجي من عسكر الموصل على ما نذكره في أخباره. وفيها في ربيع الأول قبض على بَكْتَمُر بن طَاشْتَمُر وقيّد وكان أميرًا على الموصل، واستعمل عليها الحسن بن علي الخراساني ويعرف بكوره. وفيها قدم ابن الجصاص بابنة خمارويه زوجة المعتضد ومعها أحد عمومتها، وكان المعتضد بالموصل وعاد إلى

---

(١) الحسنية: منسوب إلى الحسن: بلد في شرق الموصل على يومين، بينها وبين جزيرة ابن عمر.

(٢) دينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، ينسب إليها خلق كثير، بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخًا.

الجبل وبلغ الكرج[١]، وفيها قتل خمارويه بن أحمد بن طولون على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

في هذه السنة سار المعتضد إلى الموصل بسبب هارون الخارجي، وأحضر الحسين بن حمدان وسيّره في طلب هارون في جماعة من الفرسان والرجال، فقال له الحسين: إن أنا جئت به فلي ثلاث حوائج إلى أمير المؤمنين، أولها إطلاق أبي وحاجتان أذكرهما إذا جئت به، فقال: لكِ ذلك، فانتخب ثلاثمائة فارس وسار بهم نحوه، فظفر به وأحضره إلى المعتضد فانصرف إلى بغداد، فوصلها لثمان بقين من شهر ربيع الأول وخلع على الحسين بن حمدان وطوّقه، وخلع على إخوته وأمر بفك قيود حمدان والتوسعة عليه ووعد بإطلاقه، وأدخل هارون على فيل وصلبه.

وفيها كان الفداء بين الروم والمسلمين، وكان جملة من فودي به ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس. وفيها أمر المعتضد بالكتب إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام المواريث إلى ذوي الأرحام وبطل ديوان المواريث.

وفيها قتل رافع بن الليث وجيء برأسه إلى المعتضد، فوصل في سنة أربع وثمانين فأمر بنصبه ببغداد، وكان الذي قتله أصحاب عمرو بن الليث.

ودخلت سنة أربع وثمانين ومائتين.

في هذه السنة في شهر ربيع الأول ظهر بمصر ظلمة شديدة وحمرة في السماء، حتى كان الرجل ينظر إلى وجه الآخر فيراه أحمر، ومكثوا كذلك من العصر إلى العشاء الآخرة، وخرج الناس من منازلهم يدعون ويتضرعون إلى الله.

وفيها عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على المنابر، وذكر في الكتاب يزيد وغيره من بني أمية، وعملت بالكتاب نسخ قرئت في جانبي بغداد، ومنع القصاص والعامة من القعود في الجامِعَيْن، ونهى عن الاجتماع على قاض أو مناظرة وجدل في أمر الدين، ونهى الذين يسقون في الجامعَيْن ألا يترحّموا على معاوية ولا يذكروه، فقال له عبيد الله بن سليمان: إنّا نخاف اضطراب العامة وإثارة فتنة، فلم يرجع إليه، فقال عبيد الله للقاضي يوسف بن

---

(١) الكرج: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة.

يعقوب ليحتال في منعه، وكلّم يوسف المعتضد وحذّره اضطراب العامة فلم يلتفت، فقال: يا أمير المؤمنين فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون من كل ناحية، ويميل إليهم خلق كثير من الناس؟ فإذا سمع الناس ما في هذا الكتاب مالوا إليهم، وصاروا هم أبسط ألسنة وأثبت حجة منهم اليوم، فأمسك المعتضد ولم يأمر في الكتاب بشيء بعد ذلك.

وفيها ظهر بدار المعتضد إنسان بيده سيف، فمضى إليه بعض الخدم لينظر ما هو، فضربه بالسيف فجرحه فهرب الخادم، ودخل الشخص في زرع البستان فتوارى فيه، وطلب فلم يعرف له خبر واستوحش المعتضد، وكثر الناس القول حتى قالوا إنّه من الجن، وظهر مرارًا كثيرة فوكل المعتضد بسور داره وأحكمه، ثم أحضر المجانين والمعزّمين[١] بسبب الشخص، فقال المعزّمون: نحن نعزّم على بعض المجانين فإذا صرع سئل الجنّي فيخبر بخبره، فعزّموا على امرأة مجنونة فصرعت والمعتضد ينظر إليهم، فلما صرعت أمرهم بالانصراف.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الله بن داود الهاشمي المعروف بأُتْرُجَّة.

ودخلت سنة خمس وثمانين ومائتين.

في هذه السنة كان بالكوفة ريح صفراء فبقيت إلى المغرب ثم اسودّت، ثم وقع مطر شديد برعود هائلة وبروق متصلة، ثم سقط بعد ساعة بقرية تعرف بأحمد[٢]أباذ أحجار بيض وسود مختلفة الألوان، في أوساطها ضيق. وفيها كان بالبصرة ريح صفراء ثم عادت خضراء ثم سوداء، ثم تتابعت الأمطار بما لم ير مثله، ثم برد كبار الوزن البردة مائة وخمسون درهمًا. وفيها غزا راغب مولى الموفّق في البحر، فغنم مراكب كثيرة من الروم فضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم كانوا فيها، وأحرق المراكب وفتح حصونًا كثيرة وعاد سالمًا. وفيها توفي أحمد بن عيسى بن الشيخ، وقام بعده ابنه محمد بآمِد وما يليها على سبيل التغلب، فسار المعتضد إلى آمد فوصلها في

(١) المعزّم: الذي يقرأ العزائم، والعزائم: جمع عزيمة، وهي الرقية.

(٢) أحمد أباذ: معناه عمارة أحمد: قرية من قرى ريوند، من نواحي نيسابور قرب بيهق، وهي آخر حدود ريوند، وأحمد أباذ أيضًا: قرية من قرى قزوين على ثلاثة فراسخ منها... (معجم البلدان).

ذي الحجة، وحصرها إلى شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين ونصب عليها المجانيق، فطلب محمد الأمان لنفسه ولمن معه فأمّنهم المعتضد، فخرج إليه وسلّم البلد فخلع عليه المعتضد وأكرمه وهدم سور البلد، ثم بلغه أن محمدًا يريد الهرب فقبض عليه وعلى أهله.

وحكى أبو الفرج بن الجَوْزي في المنتظم عن أبي بكر الصولي أنّه قال: كان مع المعتضد رجل أعرابي فصيح يقال له شعلة بن شهاب اليشكري وكان يأنس به، فأرسله إلى محمد بن عيسى بن شيخ ليرغّبه في الطاعة ويحذّره العصيان، قال: فصرت إليه فخاطبته فلم يجبني، فتوجهت إلى عمّته فصرت إليها، فقالت: يا أبا شهاب كيف خلّفت أمير المؤمنين؟ فقلت: خلّفته أمّارًا بالمعروف فعّالاً للخير، فقالت: أهل لذلك ومستحقه، وكيف لا! وهو ظل الله الممدود على بلاده، وخليفته المؤتمن على عباده، فكيف رأيت صاحبنا؟ قلت: رأيت غلامًا حدثًا معجبًا قد استحوذ عليه السفهاء، واستبدّ بآرائهم، يزخرفون له الكذب، فقالت: هل لك أن ترجع إليه بكتابي قبل لقاء أمير المؤمنين؟ قلت: أفعل، فكتبت إليه كتابًا لطيفًا أجزلت فيه الموعظة، وكتبت في آخره: [من البسيط]

اقبل نصيحة أمّ قلبها وجعٌ ... خوفًا عليك وإشفاقًا وقلْ سددا
واستعمل الفكر في قولي فإنّك إن ... فكّرت ألفيت في قولي لك الرشدا
ولا تثقْ برجالٍ في قلوبهمُ ... ضغائن تبعث الشنآن والحسدا[1]
مثل النعاج خمولاً في بيوتهم ... حتى إذا أمنوا ألفيتهم أُسُدا
وداو داءك والأدواء ممكنةٌ ... وإذ طبيبك قد ألقى عليك يدا[2]
أعط الخليفة ما يرضيه منك ولا ... تمنعه مالاً ولا أهلاً ولا ولدا
واردد أخا يشكرٍ ردًا يكون له ... ردًا من السوء لا تشمت به أحدا

قال: فأخذت الكتاب وصرت إليه فلما نظر إليه رمى به إليّ ثم قال: يا أخا يشكر ما بآراء النساء تتم الدول، ولا بعقولهنّ يستأمن الملك، ارجع إلى صاحبك، ورجعت إلى المعتضد بالله فأخبرته الخبر، فأخذ الكتاب فقرأه فأعجبه شعرها وعقلها، ثم قال: إني لأرجو أن أشفّعها في كثير من القوم، فلما كان من فتح ما كان أرسل إليّ المعتضد، فقال: هل عندك علم من تلك المرأة، قلت: لا، قال: فامض مع

---

(١) الشنآن: البغضاء. (٢) الأدواء: الأمراض.

الخادم فإنّك ستجدها في جملة نسائها، فمضيت فلما بصرت بي من بعيد كشفت عن وجهها، وجعلت تقول: [من مجزوء الكامل]

ريب الزمان وصرفه ... وعثاره كشف القناعا[1]
وأذلّ بعد العزّ منّا الصعب والبطل الشجاعا
ولكم نصحت فما أطعتُ وكم صرخت بأن أطاعا
فأبى بنا المقدور إلا أن نقسّم أو نباعا
يا ليت شعري هل نرى ... أبدًا لفرّقتنا اجتماعا

ثم بكت حتى علا صوتها وضربت بيدها على الأخرى، وقالت: إنّا للّه وإنا إليه راجعون، كأني والله كنت أرى ما أرى، فقلت لها: إن أمير المؤمنين وجّه بي إليك، وما ذاك إلا لجميل رأيه فيك، قالت: فهل لك أن توصل لي رقعة إليه؟ قلت: أفعل، فدفعت إليّ رقعة فيها: [من الكامل]

قل للخليفة والإمام المرتضى ... وابن الخلايف من قريش الأبطح[2]
علم الهدى ومناره وسراجه ... مفتاح كلِّ عظيمة لم تفتح
بك أصلح الله البلاد وأهلها ... بعد الفساد وطال ما لم تصلح
وتزحزحت بك هضبة العرب التي ... لولاك بعد الله لم تتزحزح
أعطاك ربّك ما تحبُّ فأعطه ... ما قد يحبّ وجدْ بعفوِ واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها ... هبْ ظالميّ ومفسديّ لمصلح

قال: فصرت بها إلى المعتضد بالله، فلما قرأها ضحك وقال: لقد نصحت لو قبل منها، وأمر أن يحمل إليها خمسون ألف درهم وخمسون تختًا من الثياب، وأمر أن يحمل إلى ابن عيسى.

وفيها وصل رسول هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون إلى المعتضد على أن يقاطع على ما في يده ويد نوّابه من مصر والشام، ويسلّم أعمال قنّسرين إلى المعتضد، ويحمل في كل سنة أربعمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار، فأجابه المعتضد إلى ذلك، وسار من آمد واستخلف ابنه المكتفي، فوصل إلى قنّسرين

---

(١) العثار: الشر.

(٢) إن قريشًا على قسمين: قريش البطاح، وقريش الظواهر من سواهم.

والعواصم فتسلّمها من أصحاب هارون بن خمارويه، وذلك في سنة ست وثمانين ـ حكاه ابن الأثير[١] في تاريخه الكامل.

وقال ابن الجوزي في المنتظم: إن هارون بذل هذا المال على أن يسلّم له أعمال قنّسرين والعواصم، وأن تجدّد له ولاية مصر والشام فأجيب إلى ذلك، والصواب ما حكاه ابن الأثير.

وحجّ بالناس: محمد بن عبد الله بن داود الهاشمي.

ودخلت سنة ست وثمانين ومائتين.

في هذه السنة وجّه محمد بن أبي الساج ـ المعروف بأبي المسافر ـ رهينة بما ضمن من الطاعة والمناصحة، ومعه هدايا جليلة، وكان المعتضد قد ولاّه في سنة خمس وثمانين أعمال أذربيجان وأرمينية وبعث إليه الخلع فقبلها بعد أن كان تغلّب على ذلك. وفيها أرسل عمرو بن الليث هديّة من نيسابور إلى المعتضد، قيمتها أربعة آلاف ألف درهم ـ قال ابن الجوزي: كان مبلغ المال الذي وجّهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة، ومائة وعشرين دابة بجلال مشهّرة، وكسوة وطيب وبزاة وطرف.

وفيها كان ابتداء أمر القرامطة[٢] بالبحرين على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم. وفيها ولّى المعتضد بالله ابنه عليًا المكتفي قنّسرين والعواصم والجزيرة، وكان كاتبه الحسين بن عمرو النصراني ينظر في الأمور.

قال أبو الفرج بن الجوزي في حوداث هذه السنة بسند رفعه إلى محمد بن نعيم الضبّي قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن أحمد بن موسى القاضي بالريّ سنة ست وثمانين ومائتين يقول: تقدّمت امرأة فادعى وليّها على زوجها خمسمائة دينار مهرًا فأنكر، فقال القاضي: شهودك، قال: قد أحضرتهم، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد وقال للمرأة: قومي، فقال الزوج:

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين.. كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٢) القرامطة: فرقة من غلاة الشيعة، نشأت بالعراق واتسع سلطانها بالحجاز، وكان من أهم أغراضها طلب المساواة.

تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة، لتصحّ عندهم معرفتها، فقال الزوج: فإني أشهد القاضي أنّ لها عليّ هذا المهر الذي تدعيه ولا تسفر عن وجهها، فقالت المرأة: فإني أشهد القاضي أنّي قد وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه في الدنيا والآخرة، فقال القاضي: يكتب هذا في مكارم الأخلاق.

ودخلت سنة سبع وثمانين ومائتين.

في هذه السنة في شهر ربيع الأول أسر عمرو بن الليث الصفّار، وملك إسماعيل بن أحمد الساماني خراسان على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبارهم وفيها قتل محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان[1] والديلم على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الدولة العلوية.

وحجّ بالناس في هذه السنة: محمد بن عبد الله بن داود. وفيها توفيت قطر الندى بنت خمارويه زوجة المعتضد لسبع خلون من شهر رجب، ودفنت داخل قصر الرصافة.

ودخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين.

في هذه السنة توفي عبيد الله بن سلميان الوزير، فعظم موته على المعتضد وفوّض الوزارة إلى ابنه القاسم بن عبيد الله. وكان من أخبار المتغلبين على الأطراف على ما نذكره إن شاء الله في أخبارهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة هارون بن محمد.

ودخلت سنة تسع وثمانين ومائتين.

في هذه السنة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول أخرج من كان له دار أو حانوت بباب الشماسية عن داره وحانوته، وقيل لهم: خذوا أنقاضكم واخرجوا، وسبب ذلك أن المعتضد بالله كان قد عزم أن يبتني لنفسه دارًا يسكنها هنالك، فخط موضع السور وحفر بعضه، وابتدأ في دكة على دجلة لينتقل إليها فيقيم بها، إلى أن يفرغ من بناء الدار والقصر، فمرض المعتضد ومات قبل ذلك.

(١) طبرستان: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم؛ خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه والغالب على هذه النواحي الجبال، فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل، وهي قصبتها. . . (معجم البلدان).

ذكر وفاة المعتضد بالله
وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته ليلة الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين، قال: ولما اشتد مرضه اجتمع يونس الخادم وغيره من القواد إلى الوزير القاسم ليجدّد البيعة للمكتفي، وقالوا: إنّا لا نأمن الفتنة، فقال: أخاف أن أطلق المال فيبرأ أمير المؤمنين من علّته فينكر ذلك، فقالوا: إن برىء فنحن المحتجون والمناظرون، وإن صار الأمر إلى ولده فلا يلزمنا ونحن نطلب الأمر له، فأطلق المال وجدّد البيعة للمكتفي بالله، وأحضر أولاد المعتمد ووكل بهم، ثم توفي المعتضد وكانت علّته فساد الجوف والمزاج والجفاف من كثرة الجماع، وكان يؤمر بأن يقلّ الغذاء ويرطب معدته ولا يتعب نفسه، فيستعمل ضد ذلك ويريهم أنّه يحتمي، فإذا خرجوا من عنده دعا بالجبن والزيتون والسمك فأكل، فسقطت لذلك قوّته واشتدت علّته، ومات رحمه الله وتولّى غسله محمد بن يوسف القاضي، وصلّى عليه الوزير - حكاه ابن الأثير. وقال أبو الفرج بن الجوزي: غسّله أحمد بن شيبة عند زوال الشمس، وصلّى عليه يوسف بن يعقوب القاضي. ودفن ليلاً في دار محمد بن عبد الله بن طاهر بوصيّة منه، وجلس الوزير في دار الخلافة للعزاء وجدّد البيعة للمكتفي، ومات المعتضد وله من العمر ست وأربعون سنةً وقيل إلا شهرين، وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام، وقيل وثلاثة وعشرين يومًا. وكان نحيفًا خفيف العارضين يخضب بالسواد، ولما حضرته الوفاة أنشد: [من الطويل]

تمتّع من الدنيا فإنّك لا تبقى ... وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا[1]
ولا تأمننّ الدهر إنّي أمنته ... فلم يبق لي حالاً ولم يرع لي حقّا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع ... عدوًّا ولم أمهل على ظنة خلقا[2]
وأخليت دار الملك من كلّ نازع ... فشرّدتهم غربًا وشرّدتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزًّا ورفعةً ... وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقّا
رماني الردى سهمًا فأخمد جمرتي ... فهأنذا في حفرتي عاجلًا أُلقى
فيا ليت شعري بعد موتيَ ما ألقى ... إلى نعم الرحمٰن أم ناره أُلقى

(١) الرنق: الماء الكدر. (٢) الصنديد: الشريف الشجاع.

قال: وكان المعتضد ذا عزم وشهامة ونهضة، بصيرًا بالأمور حسن السياسة والسيرة، ولما ولّي وضع عن الناس البواقي وأسقط المكوس بالحرمين، وبث العدل في الآفاق وبذل الأموال، وغزا وجالس المحدّثين وأهل الفضل والدين. قال ثابت بن قرة الحرّاني(١): ولي المعتضد الخلافة وليس في بيت المال إلا قراريط لا تبلغ الدينار، والحضرة مطلوبة والأعمال منهوبة والأعراب والأكراد عائثون والأعداء متسلطون، فأصلح الأمور وأحسن التدبير وقمع الخوارج وبالغ في العمارة وأنصف في المعاملة ورفق بالرعيّة، حتى استفضل من ارتفاعه في سني خلافته تسعة عشر ألف ألف دينار، وتقدّم إلى أجناده وأتباعه بلزوم الطريقة الحميدة، وعرّفهم أنّه متى أفسد غلام أحد منهم كان المأخوذ به مولاه، فسمع يومًا صوتًا من بعض الكروم مما يلي دجلة فأمر باستعلام الحال، فأخبر أنّ غلام بعض الأمراء أخذ حصرمًا من الكرم فأمر بإحضار الأمير، وتقدّم بضرب عنقه، فلم يجسر أحد من الجند بعد ذلك على الفساد؛ ثم قال المعتضد بعد ذلك لوزيره عبيد الله بن سليمان: لعلّك أنكرت ما جرى من قتلي هذا الأمير بجرم جناه غيره، فقال: هو ذاك يا أمير المؤمنين، قال: كنت في خلافة المعتمد فرأيت هذا الأمير قتل رجلاً عمدًا بغير ذنب، ولم يكن له وارث فنذرت للّه تعالى إن ولاّني الله أن أقتله به، فلما وليت كنت أتطلّب له العورات حتى جرى ما جرى من غلامه، فقتلته بذلك الرجل وأقمت السياسة بقتله. قال: وكان المعتضد يسمى السفّاح الثاني لأنه جدّد ملك بني العباس، ووطّده بعد أن كانت الأتراك قد أخلقته، وفي ذلك يقول ابن الرومي: [من الطويل]

هنيئًا بني العبّاس إنّ إمامكم إمام الهدى والجود والبأس أحمدُ
كما بأبي العبّاس أسّس ملككم كذا بأبي العباس أيضًا تجدّدُ

وحكى أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم بسند رفعه إلى أبي محمد عبد الله بن حمدون:

قال: كان المعتضد بالله في بعض متصيّداته مجتازًا بعسكره وأنا معه، فصاح ناظور في قراح(٢) قثاء فاستدعاه، وسأله عن سبب صياحه فقال: أخذ بعض الجيش

---

(١) هو أبو الحسن ثابت بن قرة بن هارون بن ثابت بن كرايا بن إبراهيم بن كرايا بن مارينوس بن مالاجريوس الحاسب الحكيم الحراني، كان في مبدأ أمره صيرفيًا بحران، ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها، وبرع في الطب... (وفيات الأعيان ١:٣١٣).

(٢) القراح من الأرض: المخلاة للزرع وليس عليها بناء.

من القثاء شيئًا، فقال: اطلبوهم، فجاؤوا بثلاثة نفر، فقال: هؤلاء الذين أخذوا القثاء؟ فقال الناظور: نعم، فقيّدهم في الحال وأمر بحبسهم، فلما كان من الغد أنفذهم إلى القراح وضرب أعناقهم فيه، وسار فأنكر الناس ذلك وتحدّثوا به، ومضت على ذلك مدة طويلة، فجلست أحادثه ليلة فقال لي: يا أبا عبد الله ـ هل يعيب الناس عليّ شيئًا؟ عرّفني حتى أزيله، فقلت: كلا يا أمير المؤمنين، فقال: أقسمت عليك بحياتي إلا صدقتني، قلت: يا أمير المؤمنين ـ وأنا آمن؟ قال: نعم، قلت: سفك الدماء، قال: والله ما هرقت دمًا منذ وليت إلا بحقه، قال: فأمسكت إمساك من ينكر عليه، فقال: بحياتي ما تقول؟ فقلت: يقولون إنك قتلت أحمد بن الطيّب ـ وكان خادمك، ولم تكن له جناية ظاهرة، قال: دعاني إلى الإلحاد ـ قلت له يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة صلوات الله عليه وسلّم، وأنا الآن منتصب منصبه فألحد ـ حتى أكون من؟! فسكت سكوت من يريد الكلام، فقال: في وجهك كلام؟ فقلت: الناس ينقمون عليك أمر الثلاثة الذين قتلتهم في قَرَاح القثّاء، فقال: والله ما كان أولئك الذين أخذوا القثاء، وإنما كانوا لصوصًا حملوا من موضع كذا وكذا، ووافق ذلك أمر القثّاء، وأردت أن أهول على الجيش بأنّ من عاث في عسكري وأفسد في هذا القدر كانت عقوبتي له هكذا ليكفّوا عمّا فوقه، ولو أردت قتلهم لقتلتهم في الحال، وإنما حبستهم وأمرت بإخراج اللصوص من غد مغطين الوجوه ليقال إنّهم أصحاب القثّاء، فقلت: فكيف تعلم العامّة هذا؟ قال: بإخراج القوم الذين أخذوا القثّاء وإطلاقهم في هذه الساعة، ثم قال: هاتوا القوم، فجاؤوا بهم وقد تغيّرت حالهم من الحبس والضرب، فقال: ما قصّتكم؟ فقصّوا عليه قصّة القثّاء، قال: أفتتوبون من مثل هذا الفعل حتى أطلقكم؟ قالوا: نعم، فأخذ عليهم التوبة وخلع عليهم وأمر بإطلاقهم وردّ أرزاقهم عليهم، فاشتهرت الحكاية وزالت عنه التهمة.

وحكى عبد الله بن عبدون في كتابه المترجم بكِمَامَة الزهر وصَدَفة الدرر:

أنّ أحد كبراء دولته ووزرائه كان قد بنى بناءً عاليًا مشرفًا على جيرانه، فلم يعارضه أحد منهم لمكانه من الخليفة، وكان يجلس فيه فنظر يومًا إلى دار من دور جيرانه، فرأى جارية بارعة الجمال فأولع بها، وسأل عنها وإذا هي ابنة أحد التجار، فخطبها من أبيها فامتنع من زواجه ـ وكان من أهل اليسار، وقال: لا أزوّج ابنتي إلا من تاجر مثلي، فإنّه إن ظلمها قدرت على الانتصاف منه، وأنت إن ظلمتها لم أقدر لها على حيلة، فأرغبه بالأموال وهو يأبى، فلما أيس منه شكى ذلك إلى أحد خواصّه، فقال: ألف مثقال تقوم لك بهذا الأمر، فقال: والله لو علمت أني أنفق عليها مائة

ألف دينار وأنا لها لفعلت، قال له: لا عليك تحضر لي ألف دينار، وأمر بألف دينار فأحضرت فأخذها الرجل، ومشى بها إلى عشرة من العدول، وذكر لهم الأمر وسهّله عليهم، وقال: إنّكم تحيون نفسًا قد أشرفت على الهلاك، وقال: إنّه قد بذل لها كذا وكذا من المهر وأعلى لهم، وأبوها إنما هو عاضل[1] لها وإلا فما يمنعه، وقد خطبها مثل فلان في جلالة قدره، وقد أعطاها صداقًا لا يعطى إلا لبنت ملك، ثم هو يتأبى - هل هذا إلا عضل بيّن؟ ولكم ألف مثقال لكل منكم مائة، وتشهدون أنّه زوجها منه على صداق مبلغه كذا وكذا، ورفع قدر الصداق إلى غاية، وقال: إن أباها إذا علم أنّكم قد شهدتم عليه رجع إلى هذا، وليس فيه إلا الخير والعزّ، فأجابوه إلى ذلك وأخذوا الذهب، وشهدوا أن أباها زوّجها منه على صداق كبير، فلما علم أبوها بذلك زاد نفاره، فمشى الوزير إلى القاضي وقال: إني تزوّجت ابنة فلان على هذا الصداق وهؤلاء الشهود على أبيها، وقد أنكر ذلك، فأمر القاضي بإحضار أبيها فحضر، فشهد الشهود عليه، وأحضر الوزير مال النقد بين يدي القاضي - والرجل متمادٍ على الإنكار، فحكم القاضي عليه وأمر بحمل المال إليه، وأن تؤخذ ابنته أحَبَّ أم كره، فأخذت منه ونقلت إلى الوزير، فأعمل أبوها الحيلة في الوصول إلى المعتضد، وكان المعتضد غليظ الحجاب لا يصل إليه غير الخاصة، فقيل للرجل: إنه يحضر ساعة في كل يوم لبنيان بني له بقصره، فإن استطعت أن تكون في جملة رجال الخدمة فإنّك تصل إليه، فغيّر الرجل شكله ودخل في جملة رجال الخدمة للبناء، فلما جاء المعتضد ترامى الرجل إلى الأرض ونثر التراب على رأسه، فسأله المعتضد عن شأنه فقصّ عليه القصّة، فأحضر الوزير وأغلظ له في القول، فحملته هيبة المعتضد على أن ذكر له الواقعة كما وقعت، ثم أحضر الشهود فقالوا كما قال، كل ذلك إجلالاً له أن يقعوا في الكذب بين يديه، وهم يظنّون أنه لا يؤاخذهم لتمكن ذلك الوزير منه، فلما تبيّن له الأمر أمر أن يصلب كل شاهد منهم على باب داره، وأن يجعل ذلك الوزير في جلد ثور طريّ السلخ، ويضرب حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه، فصنع به ذلك، ثم أمر أن يفرغ بين يدي نمور كانت عنده، فلعقته تلك النمور، وأمر بتسليم الجارية إلى أبيها، وأن تعطى ما أقرّ الوزير لها به من الصداق من عقار وغيره.

وحكى أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي:

أنّ شيخًا من التجار كان له على أحد القوّاد في أيام المعتضد بالله مال، قال

(١) عضل المرأة: منعها التزوج ظلمًا.

التاجر: فمطلني وكان يحجبني إذا حضرت إلى بابه، ويضع غلمانه على الاستخفاف بي والاستطالة عليّ إذا رمت لقاءه وخطابه، وتظلّمت إلى عبيد الله بن سليمان الوزير منه، فما نفعني ذاك، فعزمت على الظلامة إلى المعتضد بالله، فبينما أنا متروٍّ في أمري قال لي بعض أصدقائي: عليّ أن آخذ لك مالك من غير حاجة إلى ظلامة ـ فاستبعدت هذا، فقمت معه فجئنا إلى خياط شيخ في سوق الثلاثاء، يقرأ القرآن في مسجد هناك ويخيط بأجرة، فقصّ عليه قصّتي وشرح له الصورة، وسأله أن يقصد القائد ويخاطبه في الخروج إليّ من حقّي، وكانت دار القائد قريبة من مسجد الخيّاط، فنهض معنا فلما مشينا خفت بادرة القائد وسطوته، وتصورت أنّ قول الخيّاط لا ينفع مع مثله مع محلّه وبسطته، فتأخرت وقلت لصديقي: قد عرّضنا هذا الشيخ ونفوسنا لمكروه عظيم، وما هو إلا أن يراه غلمانه وقد أوقعوا به، وإن كان لم يقبل أمر الوزير فأولى ألا يقبل منه ولا يفكّر فيه، فضحك وقال: لا عليك، وجئنا إلى باب القائد، فحين رأى غلمانه الخيّاط تلقّوه وأعظموه، وأهووا ليقبّلوا يده، فمنعهم منها، وقالوا: ما جاء بك أيها الشيخ فإنّ قائدنا راكب، فإن كان لك أمر تقدّم بذكره لنا ونحن نخبره به، وإن أردت الجلوس وانتظاره فالدار بين يديك، فلما سمعت ذلك قويت نفسي ودخلنا وجلسنا، ووافى القائد فلما رآه أكرمه إكرامًا شديدًا، وقال له: لست أنزع ثيابي حتى تأمر بأمرك، فخاطبه في أمري، فقال: والله ما معي إلا خمسة آلاف درهم، فتسأله أن يأخذها ويأخذ رهونًا من مراكبي الذهب والفضّة بقيمة ما بقي من ماله لأعطيه إياه بعد شهر، فبادرت أنا إلى الإجابة وأحضر الدراهم والمراكب بقيمة الباقي، وأشهدت الخيّاط وصديقي: أن الرهن عندي إلى مدة شهر، فإن جاز كنت وكيله في بيعه وأخذ مالي من ثمنه، وخرجنا فلما بلغنا مسجد الخيّاط ودخله طرحت الدراهم بين يديه، وقلت: قد ردّ الله مالي بك وعلى يديك فخذ ما تريده منه على طيب نفس منّي، فقال: يا هذا ـ ما أسرع ما قابلتني بالقبيح على الجميل، انصرف بمالك بارك الله لك فيه، قلت: قد بقيت لي حاجة، قال: ما هي؟ قلت: أحبّ أن تخبرني عن سبب طاعة هذا القائد لك، مع إقلاله الفكر بأكابر الدولة، فقال: قد بلغت غرضك فلا تقطعني عن شغلي بحديث لا فائدة لك فيه، فألححت عليه فقال: أنا رجل أقرأ وأؤم وأقرىء في هذا المسجد منذ أربعين سنة، لا أعرف كسبًا إلا من الخياطة، وكنت صلّيت المغرب منذ مدة وخرجت أريد منزلي، فاجتزت على تركي كان في هذه الدار، وأومأ إلى دار بالقرب منه، وإذا امرأة جميلة الوجه قد اجتازت عليه، فعلق بها وهو سكران وطالبها بالدخول إلى داره، وهي تمتنع وتستغيث وتقول في جملة كلامها: إنّ زوجي قد حلف بالطلاق لا أبيت عنه، وإن أخذني هذا وغصبني وبيّتني

عن منزلي خرب بيتي ولحقني من العار ما لا تدحضه الأيام عني، وما أحد يغيثها ولا يمنع منها، فجئت إلى التركي ورفقت به في أن يخلي عنها فلم يفعل، وضرب رأسي بدبّوس[1] كان في يده فشجّه، وأدخل المرأة، فصرت إلى منزلي وغسلت الدم عن وجهي وشددت رأسي، وخرجت لصلاة العشاء الآخرة، فلما فرغنا منها قلت لمن حضر: قوموا معي إلى هذا التركي عدو الله، لننكر عليه ونخرج المرأة من عنده، فقاموا فجئنا وصحنا على بابه، فخرج إلينا في عدة من غلمانه فأوقع بنا، وقصدني من بين الجماعة بالضرب الشديد الذي كاد يتلفني، وحملت إلى منزلي وأنا لا أعقل أمري، فنمت قليلاً للوجع ثم طار النوم عن عيني، وسهرت متقلّبًا على فراشي ومفكرًا في أمر المرأة، فإنّها متى أصبحت طلّقت، ثم قلت: هذا رجل شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات، فلو أذّنت لوقع له أن الفجر قد طلع، فربما أخرج المرأة فمضت إلى بيتها وبقيت في حبال زوجها، فتكون قد تخلّصت من أحد المكروهين، فخرجت متحاملاً إلى المسجد وصعدت المنارة وأذّنت، وجلست أطّلع إلى الطريق فأرتقب خروج المرأة من الدار، فما مضت ساعة حتى امتلأ الشارع خيلاً ورجلاً ومشاعل، وهم يقولون من ذا الذي أذّن؟ ففزعت وسكتّ ثم قلت أخاطبهم وأصدقهم عن أمري لعلّهم يعينونني على خروج المرأة، فصحت من المنارة: أنا أذّنت، فقالوا: انزل وأجب أمير المؤمنين، فنزلت ومضيت معهم فإذا هم غلمان بدر، فأدخلني على المعتضد بالله فلما رأيته هبته وأخذتني رعدة شديدة فقال لي: اسكن ـ ما حملك على الآذان في غير وقته؟ وأن تغرّ الناس فيخرج ذو الحاجة في غير حينه، ويمسك المريد للصوم وقت قد أبيح له الأكل والشرب، قلت: يؤمّنني أمير المؤمنين لأصدقه، قال: أنت آمن، فقصصت عليه قصة التركي، وأريته الآثار التي في رأسي ووجهي، فقال: يا بدر ـ عليّ بالغلام والمرأة، فجيء بهما فسألهما المعتضد عن أمرها فذكرت له مثل ما ذكرت له، فأمر بإنفاذها إلى زوجها مع ثقة يدخلها دارها، ويشرح له خبرها، ويأمره بالتمسك بها والإحسان إليها ثم استدعاني فوقفت بين يديه وجعل يخاطب الغلام ويسمعني، ويقول له: كم رزقك؟ وكم عطاؤك؟ فيقول كذا وكذا قال: فما كان لك في هذه النعمة وفي هذه السعة وفي هؤلاء الجواري ما يكفيك ويكفك عن محارم الله؟ وخرق سياسة السلطان والجرأة عليه؟ وما كان عذرك في الوثوب بمن أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر؟ فأسقط في يد الغلام ولم يكن له جواب يورده، ثم

(١) الدبوس: عمود على شكل هراوة مد ملكة الرأس.

قال: يحضر جوالق[١] ومداق الجص وقيود وغل. فأحضر جميع ذلك فقيّده وغلّه وأدخله الجوالق، وأمر فدقّوه بمداق الجص وهو يصيح إلى أن خفت صوته وانقطع حسّه، وأمر به فطرح إلى دجلة وتقدم إلى بدر بتحويل ما في داره، ثم قال لي: ـ وقد شاهدت ذلك كله ـ متى رأيت يا شيخ منكرًا كبيرًا أو صغيرًا فأنكره ولو على هذا ـ وأشار إلى بدر، ومن تقاعس عن القبول منك فالعلامة بيننا أن تؤذن في مثل هذا الوقت لأسمع صوتك وأستدعيك، قال الشيخ: فدعوت له وانصرفت، وشاع الخبر بين الجند والغلمان، فما سألت أحدًا منهم بعدها إنصافًا أو كفًّا عن قبيح إلا أطاعني فما رأيت خوفًا من المعتضد، وما احتجت أن أؤذّن في مثل ذلك الوقت إلى الآن.

وحكى أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي أيضًا بسند رفعه إلى أبي بكر بن حوري ـ وكان يصحب أبا عبد الله بن أبي عوف قال:

كنت ألزم ابن أبي عوف سنين بيننا جوار ومودة، وكان رسمي كل ليلة أن أجيء بعد العتمة، فحين يراني يمد رجله في حجري فأغمزها، وأحادثه ويسألني عن الحوادث ببغداد وكتب أستقريها له، فإذا أراد أن ينام قبض رجله فقمت إلى بيتي، وقد مضى ثلث الليل أو نصفه أو أقل، فلما كان ذات يوم جاءني رجل كان يعاملني، فقال: قد دفعت إلى أمر إن تمّ عليّ افتقرت، قلت وما هو؟ قال: رجل كنت أعامله فاجتمع لي عليه ألف دينار، فطالبته فرهنني عقد جوهر قوّم بألف دينار إلى أن يفتكه بعد شهور أو أبيعه، وأذن لي في ذلك، فلما كان أمس وجّه يونس صاحب الشرطة من كبس دكاني، وفتح صندوقي وأخذ العقد، فقلت: أنا أخاطب ابن أبي عوف فيلزمه بردّه، قال: وأنا مدلّ بابن أبي عوف لمكاني منه ومكانته من المعتضد، فلما كانت تلك الليلة جئته وحادثته على رسمي، وذكرت له في جملة حديثي حديث العقد، فلما سمع نحّى رجله من حجري وقال: ما لي ولهذا!! أعادي خادمًا صاحب شرطة الخليفة؟! فورد عليّ أمر عظيم وخرجت من بيته ألا أعود، فلما صلّيت العتمة من الليلة المقبلة جاءني خادم لابن أبي عوف، وقال: يقول لك لـِمَ تأخرت الليلة؟ إن كنت مشتكيًا جئناك، فاستحييت وقلت أمضي الليلة، فلما رآني مدّ رجله وأقبلت أحدّثه بحديث متكلف، فصبر على ساعة ثم قبض رجله فقمت، فقال: يا أبا بكر انظر أي شيء تحت المصلّى فخذه، فرفعت المصلّى فإذا برقعة فأخذتها، وتقدمت إلى الشمعة فإذا فيها: يا يونس جسرت على قصد دكّان رجل تاجر، وفتحت صندوقه

(١) الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما.

وأخذت منه عقد جوهر ـ وأنا في الدنيا، والله لولا أنّها أول غلطة غلطتها ما جرى في ذلك مناظرة، اركب بنفسك إلى دكّان الرجل حتى تردّ العقد في الصندوق بيدك ظاهرًا، فقلت لأبي عبد الله: ما هذا؟ فقال: خط المعتضد ـ مثلت بين وجدك وبين يونس فاخترتك عليه، فأخذت خط أمير المؤمنين بما تراه، وامض وأرسله إليه، فقبّلت رأسه وجئت إلى الرجل، فأخذت بيده ومضينا إلى يونس وسلّمت التوقيع إليه، فلما رآه اسودّ وجهه وارتعد، حتى سقطت الرقعة من يده، ثم قال: يا هذا ـ الله بيني وبينك ـ هذا شيء ما علمت به، فألا تظلّمتم فإن لم أنصفكم فإلى الوزير ـ بلغتم الأمر أمير المؤمنين من أول وهلة! قال: فقلت: بعلمك جرى والعقد معك فأحضره، فقال: خذ الألف دينار التي عليه، واكتبوا على الرجل ببطلان ما ادعاه، فقلت: لا نفعل، فقال: ألف وخمسمائة، فقلت: والله لا نرضى حتى تركب بنفسك إلى الدكان فتردّ العقد، فركب وردّ العقد إلى مكانه.

وحكى عبد الرحمٰن أبو الفرج بن الجوزي أيضًا بسند رفعه إلى أبي محمد عبد الله بن حمدون قال:

قال لي المعتضد ليلة ـ وقد قدّم له العشاء ـ لقّمني، وكان الذي قدّم فراريج ودراريج[1]، فلقّمته من صدر فرّوج، قال: لا، لقّمني من فخذه فلقّمته لقمًا، ثم قال: هات من الدراريج فلقّمته من أفخاذها، فقال: ويلك ـ هوذا أتتنادر عليّ، هات من صدورها، فقلت: يا مولاي ركبت القياس، فضحك، فقلت: إلى كم أضحكك ولا تضحكني، فقال: شل المطروح وخذ ما تحته، قال: فشلته فإذا دينار واحد، فقلت آخذ هذا؟ قال: نعم، فقلت: بالله هوذا تتنادر أنت الساعة عليّ، خليفة يجيز نديمه بدينار!! فقال: ويلك ـ لا أجد لك في بيت المال حقًا أكثر من هذا، ولا تسمح نفسي أن أعطيك من مالي شيئًا، ولكن هوذا احتال لك بحيلة تأخذ فيها خمسة آلاف دينار، فقبّلت يده فقال: إذا كان غدًا وجاء القاسم ـ يعني ابن عبيد الله ـ فهوذا أسارّك حتى تقع عيني عليه سرارًا طويلاً، ألتفت فيه إليه كالمغضب وانظر أنت إليه في خلال ذلك كالمخالس لي نظر المترثي، فإذا انقطع السرار فاخرج ولا تبرح من الدهاليز، فإذا خرج خاطبك بجميل وأخذك إلى دعوته وسألك عن حالك، فاشك الفقر والخلّة وقلّة حظّك معي وثقل ظهرك بالدين والعيال، وخذ ما يعطيك واطلب كل ما تقع عليه عينك، فإنّه لا يمنعك حتى تستوفي خمسة آلاف دينار، فإذا أخذتها

(١) الدراريج: واحده الدرّاج: نوع من الطير يدرج في مشيه.

فسيسألك عما جرى فاصدقه وإياك أن تكذبه، وعرّفه أن ذلك حيلة منّي عليه حتى وصل إليك هذا وحدّثه بالحديث كله على شرحه، وليكن إخبارك إياه بذلك بعد امتناع شديد، وإحلاف لك منه بالطلاق والعتاق أن تصدقه وبعد أن تخرج من داره كل ما يعطيك إياه ويصير في بيتك. قال: فلما كان من غد حضر القاسم فحين رآه بدأ يساررني، وفعل وفعلت كما تقرّر، ثم خرجت فإذا القاسم في الدهليز ينتظرني، فقال: يا أبا محمد - ما هذا الجفاء! لا تجيئني ولا تزورني ولا تسألني حاجة! فاعتذرت إليه باتصال الخدمة عليّ، فقال: لا يقنعني إلا أن تزورني اليوم ونتفرج، فقلت: أنا خادم الوزير - فأخذني إلى طيّارة وجعل يسألني عن حالي وأخباري فأشكو إليه الخلة والإضاقة والبنات وجفاء الخليفة وإمساكه يده، فيسترجع ويقول: يا هذا ما لي لك ولم تضيّق عليك ما يتسع عليّ؟ أو تتجاوز نعمة خلصت لي؟ أو يتخطّاك حظ نازل في فنائي؟ ولو عرّفتني لعاونتك على إزالة هذا كله فشكرته، وبلغنا داره فصعد ولم ينظر في شيء، وقال: هذا يوم أحتاج أن أختص فيه بالسرور بأبي محمد، ولا يقطعني أحد عنه، وأمر كتابه بالتشاغل بالأعمال، وخلاّني في دار الخلوة وجعل يحادثني ويبسطني، وقدّمت الفاكهة فجعل يلقمني بيده، وجاء الطعام وكانت هذه سبيله، ووقّع لي بثلاثة آلاف دينار فأخذتها للوقت، وأحضر لي ثيابًا وطيبًا ومركوبًا فأخذت ذلك، وكان بين يديّ صينيّة فضّة فيها مغسل فضّة فأخذتها، وخرداذي بلّور وكوز[1] وقدح بلّور فأمر بحمله إلى طيّاري، وأقبلت كلما رأيت شيئًا حسنًا له قيمة طلبته، فحمل إليّ فرشًا وقال: هذا للبنات، فلما تقوّض المجلس خلا بي وقال لي: يا أبا محمد - أنت عالم بحقوق أبي عليك ومودّتي لك، فقلت: أنا خادم الوزير، فقال: أريد أن أسألك عن شيء وتحلف لي أنك تصدقني عنه، فقلت: السمع والطاعة - فأحلفني بالله وبالطلاق وبالعتاق على الصدق، ثم قال: بأي شيء سارّك الخليفة اليوم في أمري؟ فصدقته عن كل ما جرى حرفًا بحرف، فقال: فرّجت عنّي، ولكون هذا هكذا مع سلامة نيّته لي أسهل عليّ فشكرته وودّعته وانصرفت إلى منزلي، فلما كان من غد بكرت إلى المعتضد فقال: هات حديثك فسقته عليه، فقال: احفظ الدنانير ولا يقع لك أنّي أعمل مثلها معك بسرعة.

وحكى عبد الرحمٰن أبو الفرج بن الجوزي أيضًا بسند رفعه إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي قال:

---

(١) الكوز: إناء بعروة يشرب به الماء.

دخلت على المعتضد بالله وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فنظرت إليهم فرآني المعتضد بالله، فلما أردت القيام أشار إليّ فمكثت ساعة، فلما خلا بي قال: أيها القاضي - والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وحكى أيضًا بسند رفعه إلى أبي محمد الحسن بن محمد الطلحي قال:

حدّثني أحد خدم المعتضد المختص بخدمته، قال: كنّا حوالي سرير المعتضد ذات يوم نصف النهار وقد نام بعد أن أكل، وكان رسمنا أن نكون حول سريره أوقات منامته من ليل أو نهار، فانتبه منزعجًا وقال: يا خدم - فأسرعنا الجواب، فقال: ويلكم أغيثوني والحقوا الشط، وأول ملاح ترونه منحدرًا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه، وجيئوني به ووكلوا بسفينته، فأسرعنا فوجدنا ملاحًا في سميرية[(١)] منحدرًا - وهي فارغة - فقبضنا عليه، ووكلنا بسميريّته وأصعدناه إليه، فحين رآه الملاح تلف[(٢)]، فصاح عليه صيحة عظيمة كادت روحه تخرج معها، وقال: اصدقني يا ملعون عن قصّتك مع المرأة التي قتلتها اليوم وإلا ضربت عنقك، قال: فتلعثم وقال: نعم، كنت اليوم من سحر في مشرعتي[(٣)] فنزلت امرأة وعليها ثياب فاخرة وحلى كثير وجوهر، فطمعت فيها فاحتلت عليها حتى سددت فاها وغرّقتها، وأخذت جميع ما كان عليها، ولم أجسر على حمل سلبها إلى بيتي كيلا يفشو الخبر، فعملت على الهرب وانحدرت الساعة لأمضي إلى واسط، فعلقني هؤلاء الخدم وحملوني، فقال له: أين الحلى والسلب؟ قال: في السفينة تحت البواري، فقال المعتضد للخدم: جيئوني به، فمضوا وأحضروه، فقال: خذوا الملاّح فغرّقوه ففعلوا، ثم أمر أن ينادى ببغداد على امرأة خرجت إلى المشرعة الفلانيّة سحرًا وعليها الثياب والحلى فليحضر من يعرفها، ويعطى صفة ما كان عليها ويأخذه فقد تلفت المرأة، فحضر في اليوم الثاني أو الثالث أهل المرأة، وأعطوا صفة ما كان عليها فسلّم ذلك إليهم، قال: فقلنا يا مولانا أوحى إليك، فقال: رأيت في منامي كأنّ رجلاً شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي بالأخذ لأوّل ملاّح ينحدر الساعة فاقبض عليه، وقرّره عن خبر امرأة قتلها اليوم وسلبها، وأقم عليه الحدّ - فكان ما شاهدتم.

وكان المعتضد بالله رحمه الله شجاعًا مقدامًا، فما حكي عن شجاعته ما حكاه أبو الفرج بسند رفعه إلى خفيف السمرقندي قال:

---

(١) السميرية: ضرب من السفن. (٢) تلف: هلك وعطب.

(٣) المشرعة: مورد الماء الذي يستقى منه بلا رشاء.

كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيّداته، وقد انقطع عن العسكر وليس معه غيري، فخرج علينا أسد فقَصَدنا، فقال لي المعتضد: يا خفيف ـ أفيك خير؟ فقلت: لا يا مولاي، قال: ولا حتى تمسك فرسي وأنزل أنا إلى الأسد، فقلت: بلى، فنزل وأعطاني فرسه وشدّ أطراف ثيابه في منطقته، واستلّ السيف ورمى بالقراب إليّ، فأقبل يمشي إلى الأسد، فحي قرب منه وثب الأسد عليه فتلقّاه المعتضد فضربه، فإذا يده طارت فتشاغل الأسد بالضربة، فغشيه بأخرى ففلق هامته فخرّ صريعًا، فدنا منه ـ وقد تلف ـ فمسح السيف في صوفه، فرجع إليّ فأغمد السيف وركب، ثم عدنا إلى العسكر، فإلى أن مات ما سمعته تحدّث بحديث الأسد، ولا علمت أنّه لفظ منه بلفظة، فلم أدرِ من أي شيء أعجب: من شجاعته وشدته أو من قلة احتفاله بما صنع حتى كتمه أو من عفوه عنّي، فما عاتبني على ضنّي بنفسي.

وكان رحمه الله حسن الفراسة صادقًا، فمن ذلك ما حكاه خفيف السمرقندي قال:

كنت واقفًا بحضرة المعتضد إذ دخل بدر وهو يبكي، وقد ارتفع الصراخ من دار عبيد الله بن سليمان الوزير عند موته، فأعلم المعتضد بالله الخبر، فقال: أوقد صحّ الخبر؟ أو هي غشية؟ قال: بل توفي وشدّ لحينه، فرأيت المعتضد بالله وقد سجد فأطال السجود، فلما رفع رأسه قال له بدر: والله يا أمير المؤمنين لقد كان صحيح الموالاة مجتهدًا في خدمتك عفيفًا عن الأموال، قال: يا بدر ـ أظننت أني سجدت سرورًا بموته؟ إنما سجدت شكرًا لله عزّ وجل إذ وفّقني فلم أصرفه ولم أوحشه، ورفّهت على ورثته ما خلفه لهم من كسبه معي ما يجاوز قيمته ألفي ألف دينار، وقد كنت عزمت على أخذ ذلك منهم، وأن استوزر أحد الرجلين: إما جرادة ـ وهو أقوى الرجلين في نفسي لهيبته في قلوب الجيش، والآخر أحمد بن محمد بن الفرات وهو أعرف بمواقع الأموال، فقال له بدر: يا مولاي ـ غرست غرسًا حتى إذا أثمر قلعته، أنت ربّيت القاسم وقد ألف خدمتك عشر سنين، وعرف ما يرضي حاشيتك، وجرادة رجل متكبّر ويخرج من الجيش جائعًا وابن الفرات لا هيبة له في النفوس، وإنما يصلح أن يكون بحضرة وزير ليحفظ المال، ومال القاسم وورثته لك أي وقت أردته أخذته، فراجعه المعتضد وبيّن له فساد هذا الرأي، فعدل عن المناظرة إلى تقبيل الأرض مرّات، فقال له المعتضد: قد أجبتك فامض إلى القاسم فعزّه بأبيه، وبشّره بتقرير رأيي على استيزاره، وليسلو عن مصابه، ومره بالبكور إلى الجامع، قال خفيف: فولّى بدر وخرجت معه فدعاني المعتضد فعدت، فقال: أرأيت ما جرى؟

قلت: نعم، قال: والله ليقتلنّ بدرًا القاسمُ ـ وكان الأمر كذلك، قتله في خلافة المكتفي بالله على ما نذكره إن شاء الله، فقال خفيف: رحم الله المعتضد كأنّه نظر إلى هذا من وراء ستر.

وكان المعتضد رحمه الله جيد الشعر، فمن شعره ما قاله عند موت جارية كان يحبها وتحبه غاية المحبة، فلما ماتت جزع لموتها جزعًا منعه عن الطعام والشراب فقال: [من مجزوء الرمل]

يا حبيبًا لم يكن يعـ ـدله عندي حبيب
أنت عن عيني بعيدٌ ومن القلب قريب
ليس لي بعدك في شي ءٍ من اللّهو نصيب
لك من قلبي على قلـ ـبي وإنْ بنت رقيب
وخيالي منك مذ غبـ ـت خيالٌ لا يغيب
لو تراني كيف لي بعـ ـدك عولٌ ونحيب
وفؤادي حشوهُ من حرق الحزن لهيب
لتيقّنت بأنّي بك محزونٌ كئيب
ما أرى نفسي وإن طبّـ ـبتها عنك تطيب
ليَ دمعٌ ليس يعصيـ ـني وصبرٌ ما يجيب

وقال أيضًا: [من السريع]

لم أبك للدار ولكن لمن قد كان فيها مرّةً ساكنا
فخانني الدهر بفقدانه وكنت من قبل له آمنا
ودّعت صبري يوم توديعه وبان(١) قلبي معه ظاعنا(٢)

فقال له عبيد الله بن سليمان: يا أمير المؤمنين ـ مثلك تهون عليه المصائب، لأنه يجد من كل فقيد خلفًا، ويقدر على ما يريد، والعوض منك لا يوجد، فلا ابتلى الله الإسلام بفقدك، وعمّره ببقائك. وقد قال الشاعر في المعنى الذي ذكرته:

يبكي علينا ولا نبكي على أحد ونحن أغلظ أكبادًا من الإبل

فضحك المعتضد وعاد إلى عادته.

---

(١) بان: بعد وانفصل. ويقال: بانت المرأة عن زوجها: إذا انفصلت بطلاق؛ فهي بائن.
(٢) ظعن: سار وارتحل.

وقال عبد الله بن المعتز يعزي المعتضد عن هذه الجارية: [من الخفيف]

يـا إمـام الـهـدى بـنـا لا بـك الـهـ ـمّ وأفـنـيـتـنـا وعـشـت سـلـيـمـا
أنـت علّمتنا على الـنـعـم الـشـكـ ـر وعـنـد الـمـصـائـب الـتـسـلـيـمـا
فـاسْـلُ عـمّـا مـضـى فـإنّ الـتـي كـا نـت سـرورًا صـارت ثـوابًـا عـظـيـمـا
قـد رضـيـنـا بـأن تـمـوت وتـحـيـا إنّ عـنـدي فـي ذاك خـطًّـا جـسـيـمـا
مـن يـمـت طـائـعًـا لـديـك فـقـد أعـ ـطـيَ نـورًا ومـات مـوتًـا كـريـمـا

وأخبار المعتضد بالله كثيرة، قد أشرنا إلى ما فيه كفاية.

وكان له من الأولاد علي ـ وهو المكتفي بالله، وجعفر ـ وهو المقتدر بالله، وهارون، ومحمد ـ وهو القاهر بالله، ومن البنات إحدى عشرة وقيل تسع عشرة.

وكان نقش خاتمه: الاضطرار يزيل الاختيار. ووزراؤه: عبيد الله بن سليمان بن وهب ثم ابنه القاسم بن عبيد الله. قضاته: إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، ثم أبو العباس أحمد بن محمد البرتي، ثم أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز السكّوني، ثم يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد بن زيد، ثم علي بن أبي الشوارب، ثم أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب. حاجبه: صالح الأمير.

الأمراء بمصر: خمارويه بن أحمد بن طولون، ثم ابنه جيش بن خمارويه، ثم هارون بن خمارويه. القضاة بها: أبو عبدة إلى أن خلع جيش ابن خمارويه فاستتر في داره، وولي بعده أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي من قبل هارون بن خمارويه.

تمّ الجزء الثاني والعشرون،
ويليه الجزء الثالث والعشرون،
وأوله: ذكر خلافة المكتفي بالله

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

٢٣-٢٤-٢٥

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٩٦١ ٥ +)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9 782745 138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر خلافة المكتفي بالله

هو أبو محمدٍ عليُّ بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفَّق بالله أبي أحمد بنِ المهديّ - وهو الملقب بالناصر لدين الله - بن المتوكِّل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد أبي محمد بن المهديِّ أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمدِ بن عليِّ بن عبد الله بن عباس، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأُمُّه خاضعُ أُمُّ ولد وتُلَقَّبُ جِيجِك، وقيل اسمها جنجورا، وهو الخليفةُ السابع عشر من الخلفاءِ العباسيين. بُويع له يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنةَ تسع وثمانين ومائتين - وكان إذ ذاك بالرقة[1] - فبايع له الوزير القاسمُ بن عبيد الله بنِ سليمان بن وهب، وكتب له يعلمه بوفاة أبيه وأخْذِ البيْعةِ له.

فلما وصله الخبرُ، أخذ البيعة على مَنْ عنده من الأجناد، ووضع لهم العطاء، وسار إلى بغداد، ووجَّه إلى النواحي بديار ربيعةَ ومضر ونواحي العرب مَنْ يضبطُها. ودخل بغداد لثمانٍ خَلَوْن من جُمادى الأولى، فلما صار إلى منزله أمر بهَدْم المطامير[2] التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم.

ذكر قتل بدر غلام المعتضد بالله

وكان سببُ قَتْلِهِ أنّ القاسم - الوزير - كان قد همَّ بِنقْلِ الخلافةِ إلى غير ولد المعتضد بعده، فقال لبدرٍ ذلك في حياة المعتضد بعد أن استحلفه أن يكتم عليه فقال

---

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي... (معجم البلدان).

(٢) المطامير: جمع المطمورة: السجن؛ أو المكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه الفول والبر ونحوه.

بذْرٌ: ما كنت لأصرفَها عن ولد مولاي ووليِّ نعمتي! فلم يمكنْه مخالفته لأنه صاحبُ الجيش، وحقدها عليه فلما مات المعتضدُ كان بَدْرٌ بفارس فعقد القاسمُ البيعةَ للمكتفي، وعمل على هلاك بدْر خَوْفًا على نفسه أن يذكر للمكتفي ما كان منه. وكان المكتفي مباعدًا لبدر في حياة المعتضد، فوجّه إلى القُوَّاد الذين مع بدر يأْمرهم بمفارقته والمصير إليه، ففارقه جماعة وأقبلوا إلى المكتفي فأحسن إليهم.

وسار بدْرٌ إلى الموصل وواسط[1] فوكل المكتفي بداره، وقبض على أصحابه وقواده فحبسهم، وأمر بِمحْوِ اسمه من الأعلام والتِّراس[2]. وسير الحسن بن علي إلى كورة واسطٍ في جيش، وأرسل بدْرٌ يعرض عليه أيّ النواحي شاء، فأبى ذلك وقال: لا بُدَّ من المصير إلى باب مولاي!

فوجد القاسمُ مَساغًا للقول، وخوّف المكتفي غائلتَه. وبلغ بدرًا ما فُعِلَ بأصحابه فأرسل من يأْتيه بولدِه هلال سِرًّا، فعلم الوزير بذلك فاحتاط عليه، ودعا قاضي الجانب الشرقيّ وأمره بالمسير إلى بدر وأن يطيِّبَ قلبَه عن المكتفي ويعْطِيَه الأمان على نفسه وولده وماله، فقال القاضي أبو حازم: أحتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين! فصرفه ودعا أبا عمر القاضي، وأمره بمثل ذلك فأجابه، وسار بكتاب الأمان. فسار بَدْر عن واسطٍ إلى بغدادَ فأرسل إليه الوزيرُ مَنْ قتله، فلما أيقن بالقتل سأله المهلة إلى أن يُصَلِّي رَكعتين، فأمهل حتى صلاهما. وضُرِبَتْ عُنقه يومَ الجمعة لسِتٍّ خلون من رمضان، وأُخِذ رأسُه وتُركَتْ جثتُه هنالك، فوَجَّه عِيالُه من أخذها سرًّا وجعلوها في تابوتٍ، فلما كان وقتُ الحجِّ حملوها إلى مكة فدفنوها بها ـ وكان أوْصَى بذلك ـ وأُعْتِق كلُّ مملوكٍ له. ورجع أبو عمر إلى داره كئيبًا لِما كان منه، وقال الناسُ فيه الشعرَ، فمن ذلك قوْل بعضِهم: [من الخفيف]

قُلْ لقاضِي مدينةِ المنصورِ كيف أحللتَ أخْذ رأسِ الأميرِ
عند إعطائه المواثيقَ والعَهْـ ـدَ وعقْد الأيْمان في منشور
أين أيْمانُك التي شهِدَ اللَّـ ـه على أنها يمينُ فجُور
إنَّ كفَّيْك لا تفارق كفَّيْـ ـهِ إلى أن تُرى مليكَ السرير
يا قليلَ الحياءِ يا أكْذبَ الأمْـ ـمة.. يا شاهدًا شهادةَ زور
ليس هذا فِعْل القُضاةِ ولا يُحْـ ـسِن أمثالَه وُلاةُ الجسور

(١) واسط: في عدة مواضع، أعظمها واسط الحجاج، وهي مدينة بين البصرة والكوفة.
(٢) التراس: من آلات الحرب للوقاية، مفرده ترس.

أيَّ أمرٍ ركبتَ في الجمعة الزَّهـ … راءِ منه في خَيْر هذي الشهور
قد مضى مَنْ قتَلْت في رمضانٍ … صائمًا بَعْد سَجْدَةِ التغفيرِ
يا بني يوسفَ بنِ يعقوبَ أضْحَى … أهلُ بغدادَ منكُمُ في غرورِ
بَدَّدَ اللّهُ شملَكم وأراني … ذُلَّكمْ في حياة هذا الوزيرِ
فأَعِدُّوا الجواب للحَكم العا … دِل من بَعْدِ منكر ونكيرِ[1]
أنتُمُ كلكم فِداءُ أبي حا … زمِ المستقيم كلَّ الأمورِ

وفيها لحق إسحاق الفَرْغاني - وهو من أصحاب بدْرٍ - بالبادية وأظهر الخلافَ على الخليفة المكتفي، فحاربه أبو الأغَرّ فهزمه إسحاق وقتل جماعةً من أصحابه.

وفيها خلع المكتفي على هلال بنِ بدْرٍ وغيرِه من أصحاب أبيه في جُمادى الأولى.

وفيها في فصل الصيف هَبّت ريحٌ باردةٌ بحِمْص وبغداد من جهة الشمال، فَبَرُد الوقت واشتد البردُ حتى جمُدَ الماءُ، واحتاج الناسُ إلى النار. وفيها هبّت ريحٌ عاصفةٌ بالبصرة قلعت كثيرًا من نخلها، وخُسفَ بموضع هلك فيه. ستون ألف نفسٍ. وزلزلت بغداد في شهر رجب عَشر مراتٍ فتضرّع الناس في الجامع فسكنت. وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي[2].

ودخلت سنة تسعين ومائتين.

في هذه السنة اشتدّ أمرُ القرامطة[3]، فجاء أهل الشام ومصر إلى المكتفي يشكون ما يلقون من القرمطي من الأسْرِ والسَّبْي والتخريب؛ فأمر الجند بالتأهب، وخرج من بغداد في شهر رمضان، وقدم بين يديه أبا الأغَرّ في عشرة آلاف، وسار إلى الشام. وجعل طريقَه على الموْصِل.

فنزل أبو الأغَرّ بالقرب من حلب، فكبسهم القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم خلقًا كثيرًا. ودخل أبو الأغر حلب في ألف رجلٍ وذلك في شهر رمضان، وسار القرمطي إلى باب حلب فحاربه أبو الأغَرّ بمن بقِيَ معه وأهلِ البلد، فرجع عنهم.

---

(١) منك رونكير: اسما ملكين.. قال ابن سيدة: منكر ونكير: فتّانا القبور... (اللسان مادة نكر).
(٢) كان صاحب الصلاة ببغداد وأمير مكة والموسم.. كانت وفاته سنة ٣٠٦هـ.
(٣) القرامطة: فرقة من غلاة الشيعة، نشأت بالعراق واتسع سلطانها بالحجاز؛ وكان من أهم أغراضها طلب المساواة.

وسار المكتفي حتى نزل الرَّقَّة، وسيّر الجيوش إليه وجعل أمْرهم إلى محمد بن سليمان الكاتب، وكان للقرامطة حروبٌ كثيرة ووقائعُ نذكرها ـ إن شاء اللّهُ تعالى ـ في أخبارهم.

وفيها أراد المكتفي البناء بسامرّاء[1]، وخرج إليها ومعه الصنّاع فقدَّروا ما تحتاج إليه فكان مالاً جزيلاً، فَعَظَّم الوزير ذلك عليه وصرفه عنها، ورجع إلى بغداد.. وحجَّ بالناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله العباسي.

ودخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين.

في هذه السنة سار من طرسوس غلام زرافة نحو بلد الروم ففتح مدينةَ أنطاكية عَنْوَة بالسيف؛ فقتل خمسة آلاف وأسَر نَحْوَهم، واستنقذ من الأسارى خمْسة آلاف، وأخذ لهم ستين مركبًا حمّلها ما غنم من الأموال، وقُدِّر نصيبُ كلِّ رجل فكان ألف دينار.

وفيها مات الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

في هذه السنة انقرضت الدولة الطولونيةُ، واستولى المكتفي بالله على ما بأيديهم بمصر والشام. وأرسل محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر بمواطأة قوّاد هارون بنِ خُمارويه فَتَوَجَّه، وقاتله هارون فَقُتِلَ هارون، واستولى ابن سليمانَ على مصر؛ على ما نذكر ذلك مُبَيَّنًا ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار الدولة الطولونية.

قال: وكتب ابنُ سليمانَ بالفتح إلى المكتفي بالله، فأمر بإشخاصِ آلِ طولونَ إلى بغدادَ ففعل ذلك، وولّى معونة مصر عيسى النُّوْشَرِي. ثم ظهر بمصرَ رجل يعرف بالخليجي ـ وهو من قوّادِ الدولة الطولونية ـ فخالف على الخليفة وكثر جمعه، وعجز النُوشَرِيُّ عنه فتوجَّه إلى الإسكندرية، ودخل إبراهيم الخليجي مصر. فسيّر إليه المكتفي الجنود مع فاتك ـ مولى المكتفي ـ وبدر الحماص، فساروا في شوّال فوصلوا حدود مصر في صفر سنة ثلاث وتسعين. وتقدَّم أحمد بن كَيْغَلَغَ في جماعة من

---

(١) سامراء: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت... وقيل: سامراء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء... (معجم البلدان).

القواد، فلقيهم الخليجي فهزمهم بالقرب من العريش[١] أقبح هزيمة. فَنَدَبَ من بغدادَ جماعةً من القُوَّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ، فخرجوا في شهر ربيع الأول. وبرز المكتفي إلى باب الشَّمَّاسِية[٢] يريد المسير لحرب الخليجي لِمَا بلغه من قُوَّته ـ وكان ذلك في شعبان ـ فورد كتابُ فاتك في شعبان أن «القوَّاد رجعوا إلى الخليجي وقاتلوه أشدَّ قتال، وكانت بينهم حروبٌ آخرُها أنه انهزم ودخل فسطاط مصرَ واستتر بها، ودخل عسكرُ الخليفةِ المدينةَ وظَفِروا به، وحُبِس هو ومن استتر عنده». فكتب المكتفي إلى فاتكٍ بحَمْله ومَنْ معه إلى بغداد، فوصلوا بغداد في شهر رمضانَ سنة ثلاث وتسعين، ودخل المكتفي بغداد وأمر بِرَدِّ خزائنه وكانت قد بلغت تكريت[٣].

وفيها ـ أعني سنةَ اثنتين وتسعين ـ أُخِذ بالبصرة رجل ذُكِرَ أنه أراد الخروج، وأُخِذَ معه وَلدُه وتسعةٌ وثلاثون رجلاً، وحُملوا إلى بغدادَ وهم يستغيثون ويحلفون أنهم بِراءٌ، فأمر المكتفي بِحبْسهم.

وفيها أغار أندرونقس الرومي على مرعش[٤] ونواحيها، فَنَفر أهلُ المصيصة[٥] وطرسوس فأصيب أبو الرجال ابن أبي بكار في جماعةٍ من المسلمين. فعزل الخليفة أبا العشائر عن الثغور واستعمل عليهم رستم بن بدر، وافتدى رستم فكان جملة من فُودِيَ به المسلمون ألف نفس ومائتي نفس. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبد الله.

وفيها كان ابتداءُ إمارةِ بني حمدان بالمَوْصِل، وذلك أن المكتفيَ بالله ولَّى على الموصلِ وأعمالها أبا الهيجاء عبدَ اللّهِ بنَ حَمدان بنِ حمدون التغلبيّ العدويّ، فقدمها في المحرم، وخرج في اليوم الثاني من مَقْدَمِهِ لقتال الأكراد على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الحمدانية.

---

(١) عريش: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت: هي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل... (معجم ياقوت).

(٢) الشماسية: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم سين مهملة: هي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية... (معجم البلدان).

(٣) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. تقع غربي دجلة وبها قلعة حصينة بناها سابور بن أردشير.

(٤) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، حصينة ولها سوران، وبوسطها قلعة، ولها ربض يعرف بالهارونية... (معجم البلدان).

(٥) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

في هذه السنة كان الظَّفَرُ بإبراهيم الخليجي المُغَلِّبِ على ديار مصر، وقد ذكرنا ذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

وفيها أغارت الروم على قورس[١] ـ من أعمال حلب ـ فقاتَلَهُم أهلُها قتالاً شديدًا، ثم انهزموا وقتل كثير منهم. ودخل الرومُ قورَس، وأحرقوا جامعها، وأخذوا مَنْ بقي من أهلها. وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائتين.

في هذه السنة قُتل زكرويه رئيسُ القرامطة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم وفيها غزا ابنُ كَيْغَلَغَ من طرسوس، فأصاب من الروم أربعةَ آلاف رأسْ سبيًا، ودوابّ ومتاعًا، ودخل بطريقٌ من بطارقة الروم في الأمان فأسلم. وغزا ابن كيغلغ أيضًا فبلغ شلندوا[٢].

* * *

وافتتحَ اللَّيْسَ[٣] فغنم نحوًا من خمسين ألف رأس، وقتل مقتلةً عظيمةً، وانصرف ومن معه سالمين. وكاتب أندرونقس البطريق المكتفيَ بالله في طلب الأمان فأعطاه ما طلب ـ وكان على حَرْبِ الثغور مِنْ قِبَلِ ملك الروم ـ فخرج ومعه نَحْوٌ من مائتي ألف أسير من المسلمين في السلاح، فقبضوا على بطريقٍ كان ملك الروم أرسله ليقبض على أندرونقس ـ ليحاربوه ـ فسار إليه جمْعٌ من المسلمين لإغاثته، فبلغوا قونية[٤] وانصرف الروم عنه. وسار جماعةٌ من المسلمين إلى أندرونقس وهو في حِصْنِه، فخرج إليهم ومعه أهله، وسار معهم إلى بغداد. وخَرَّب المسلمون قونية، فأرسل ملكُ الروم إلى الخليفة يطلب الفداء. وحجّ بالناس الفضلُ بن عبد الملك.

ودخلت سنةُ خمس وتسعين ومائتين.

في هذه السنة كانت وفاة إسماعيل بن أحمد الساماني أميرِ خرسان وما وراء النهر وقام بعده ابنُه أحمدُ على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبارهم.

---

(١) قورس: بالضم ثم السكون، وراء مضمومة، وسين مهملة: مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب وهي الآن خراب وبها آثار باقية... (معجم البلدان).

(٢) شلندوا: بلد في وسط بلاد الروم غزاه سيف الدولة الحمداني.

(٣) الليس: مدينة في بلاد الروم.

(٤) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها سكنى ملوكها.

ذكر وفاة المكتفي بالله

كانت وفاة المكتفي ببغداد لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من ذي القعدة سنةَ خمس وتسعين ومائتين، وطالت مرْضَتُه عدَّة شهور، ولما مات دُفِنَ بدار محمد بن عبد الله بن طاهر. وكان عمره ثلاثًا وثلاثين سنةً، واخْتُلِف فيه إلى إحدى وثلاثين سنةً وشهور، وكانت مدةُ خلافته سِتَّ سنين وستَّةَ أشهر وعشرين يومًا. وكان أسْمر أعْيَنَ[١]، قصيرًا، حسنَ اللحية والوجه. وهو الذي بنى جامع القصر بمدينة السلام ـ وكان موضعه مطامير فغطاها ـ وبنى تاج دار الخلافة على دجلة. وأنفق الأموال العظيمة في حرب القرامطة، وكان نقش خاتمه «بالله يثق عليُّ بن أحمد».

أولاده: المستكفي بالله، وثمانية ذكور.

وزراؤه: القاسم بنُ عبيد الله، ثم أبو العباس بن الحسن بن أيوب بن سواد جَرْجرايا[٢]، وهو أوَّل وزيرٍ منع أصحاب الدواوين الوصولَ إلى الخليفة.

قضاته: أبو حازم، ثم يوسف بنُ يعقوب، ثم أبو عمر بن علي بن أبي الشوارب.

حاجبه: خفيف السمرقندي.

الأُمراء بمصر: هارون بن خمارويه، ثم سِنان بن أحمد بن طولون بمبايعة الجند له، ثم محمد بن سليمان الكاتب دبَّرها إلى أن قَدِم ـ بأمر المكتفي ـ عليها عيسى بن محمد النوشري.

القضاة بها: أبو زرْعة وأبو عبيدة مستتر إلى أن قَدِم محمد بن سليمان، فظهر أبو عبيدةَ بعد استتاره عشر سنين، وعاد إلى القضاء واللّهُ أعلم!.

ذكر خلافة المقتدر بالله

هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ـ وقد تقدَّم ذِكْر نَسبِه ـ وأُمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها شغب! وهو الثامن عشر من الخلفاء العباسيين، بويع له لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من ذي القعدة سنة خمسٍ وتسعين ومائتين وعمرهُ يومذاك ثلاثَ عشرةَ سنة.

---

(١) الأعين: الذي عظم سواد عينيه في سعة.

(٢) جرجرايا: بلد من أعمال النهروان بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

قال ابن الأثير[١]: كان سبب ولاية المقتدر أنَّ المكتفي لما ثَقل مرضه فكَّر الوزيرُ أبو العباس بن الحسن فيمن يصلح للخلافة، فاستشار محمد بن داود الجراح في ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والرأي والأدب، واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فامتنع، وقال: هذا شيءٌ ما جَرَتْ عادتي أُشير به، وإنما أُشاورُ في العمال لا في الخلفاء! فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعةٌ وليس يخْفَى عليك الصحيحُ! وألَحَّ عليه فقال: إن كان رأيُ الوزيرِ قد استقرّ على أحدٍ فليفعل. فعلم أنه عَنى ابنَ المعتز لاشتهار خبره، فقال الوزير: لا أقنع إلا أن تَمْحضَني[٢] النصيحة! وألَحَّ عليه فقال ابن الفرات: فَلْيتَّقِ اللّهَ الوزيرُ ولا ينْصِبْ إلا منْ قد عَرفه واطّلع على جميع أحواله، ولا ينْصِبُ بخيلاً فيضيّق على الناس ويقطعَ أرزاقَهم، ولا طامعًا فَيَشْرهَ في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أملاكهم وأموالَهم، ولا قليلَ الدِّينِ فلا يخاف العقوبةَ والآثام ويرجو الثَّواب فيما يفعله، ولا منْ قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وضَيْعة هذا وفَرس هذا، ومنْ قد لَقِي الناس ولَقُوه وعاملهم وعاملوه وتحنَّك وحسب حساب الناس وعَرف وجُوه دخْلِهم وخَرْجِهم!

فقال الوزير: صدقت ونصحت، فيمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفرُ بنُ المعتضد بالله. قال: ويْحك هو صبي! قال: إلا أنه ابنُ المعتضد، ولِم نأتي برجلٍ يباشر الأمور بنفسه غير محتاجٍ إلينا؟ فمالت نَفْسُ الوزير إلى ذلك، وانْضاف إليه وصيّةُ المكتفي له بالأمر. فلما مات المكتفي بالله أرسل الوزيرُ صافيًا الحُرَمِيَّ ليحدر المقتدر من داره الغربي. فركب في الحراقة[٣] وانحدر. فلما صارت الحرّاقةُ مقابِلَ دارِ الوزيرِ صاح غلمانُ الوزيرِ بالملاّح ليدخل إلى دار الوزير، فَظَنَّ صافي الحرميُّ أنه يريد القبض على جعفر وينصب في الخلافةِ غَيْره، فمنع الملاّح من ذلك. وسار إلى دار الخلافة وأخذ له صافي البيْعةَ على جميع الخدم وحاشية الدّار، ولقب نَفْسه المقتدر بالله ولَحِقَ الوزيرُ به وجماعةُ الكُتّاب فبايعوه ثم جهّزوا ـ جماعة الكتاب ـ المكتفي ودفنوه.

---

(١) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين... كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم. صنّف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٢) يقال: محضه النصيحة: إذا أخلصها وأصدقها.

(٣) الحراقة: ضرب من مركبات الماء.

قال: وكان في بيت المال حين بويع خَمْسةَ عشْرَ ألف ألفِ دينارٍ، فأطلق يدَ الوزيرِ في بيت المال فأخرج حقَّ البيعة! قال: ثم استصغر الوزيرُ المقتدر، فعزم على خَلْعِهِ وتقليدِ الخلافةِ أبا عبد الله بن المعتَمِدِ على الله. فراسَله في ذلك واستقرَّت الحال، وانتظر الوزير قُدوم بارسِ حاجبِ إسماعيل صاحبِ خراسان، وكان قد أذِنَ له في القدوم وأراد أن يستعين به على ذلك ويَتَقَوَّى به على غلمان المعتضد بالله، فتأخَّر بارس.

واتَّفَق أنه وَقَع بين أبي عبد الله بن المعتمد وبين ابن عمرويه ـ صاحب الشرطة ـ منازعةٌ في ضَيْعةٍ مشتركةٍ بينهما، فأغلظ له ابنُ عمرويه، فغضب ابنُ المعتمد غضبًا شديدًا وأُغمي عليه، وفُلِج في المجلس فَحُمِل إلى بيته في محفَّةٍ[١] فمات في اليوم الثاني. فأراد الوزيرُ البَيْعَةَ لأبي الحسن بن المتوكل فمات أيضًا بعد خمسة أيام، وتَمَّ أمر المقتدر. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضلُ بن عبد الله الهاشمي.

ودخلت سنةُ ستٍّ وتسعين ومائتين.

ذكر خلع المقتدر وولاية ابن المعتز وانتقاض ذلك وعودة المقتدر ووفاة عبد الله بن المعتَزِّ

قال: وفي هذه السنة اجتمع القوّاد والقضاة والكتّاب مع الوزير على خَلع المقتدر والبيعة لابن المعتز بالله. وأرسلوا إلى عبد الله بن المعتز فأجابهم إلى ذلك على أن لا يكون فيه سفْكُ دم ولا حرب، فأخبروه أنَّ كلمتهم اجتمعت عليه، وأنه ليس له منازع ولا محارب. وكان القائم في ذلك الوزير المذكور ومحمد بن داود الجراح وأبو المثنّى أحمد بن يعقوب القاضي، ومن القُوَّاد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صَوَار تَكين ثم إن الوزير رأى أمره صالحًا مع المقتدر، وأنه على ما يحب، فبدا له في ذلك فَوَثَب به الآخرون فقتلوه، وكان الذي تولّى قَتْلَه منهم الحسينُ بنُ حمدان وبدرٌ الأعجمي ووصيفٌ. . لحقوه وهو سائر إلى بستانٍ له فقتلوه، وقتلوا معه فانكًا المعتضدي، وذلك في العشرين من شهر ربيع الأول، وخُلع المقتدر من الغد، وبايع الناسُ لابن المعتز.

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له، تركب فيه المرأة.

وركَضَ الحسينُ بنُ حمدان إلى الحلْبة ظنًا منه أن المقتدر يلعب هناك بالكرة فيقتله، فلم يصادِفْه لأنه لما بلغه قتْلُ الوزير ركض[١] دابته ودخل الدار. وغُلِّقَتِ الأبوابُ، فندم الحسينُ حيث لم يبدأ بالمقتدر! وأحضروا ابنَ المعتز وبايعوه بالخلافة، وتولى أخْذَ البَيْعةِ له محمدُ بنُ سعيد الأزرق، وحضرَ الناسُ والقواد وأصحابُ الدواوين سوى أبي الحسنِ بنِ الفرات وخَواصِّ المقتدرِ فإنهم لم يحضروا. ولقّب ابن الْمُعْتَزِّ المرتضيَ بالله أبا العباس عبد الله بن المعتز.

ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار ابنِ طاهر - التي كان بها قبل الخلافة - لينتقلَ هو إلى دار الخلافة، فأجابه بالسمْع والطاعةِ، وسأل الإمهالَ إلى الليل. وعاد الحسين بنُ حمدان بُكْرةَ غَدٍ إلى دار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرَّجَّالة من وراء السور عامةَ النهار، فانصرف عنهم آخِرَ النهارِ. فلما جنَّه[٢] الليلُ سار عن بغدادَ بأهله وماله إلى الموصِل لا يدري لِمَ فعل ذلك؟ ولم يكن قد بقِي مع المقتدر من القُوَّاد غيرُ مؤنسٍ الخادم ومؤنسٍ وغريبِ الخال وحاشيةِ الدار. فلما همَّ المقتدر بالانتقال عن الدار قال بعضهم لبعض: لا نسلم الخلافة من غير أن نُبْلِيَ[٣] عدوًا ونجتهدَ في دفع ما أصابنا!

فاجتمع رأْيهم على أن يصعدوا في الماء إلى الدار التي فيها ابنُ المعتز يقاتلونه، فأخرج لهم المقتدر السلاح والزرديات[٤] وركبوا السميريات[٥]. فلما رآهم منْ عند ابنِ المُعْتَزِّ هالهم كثرتُهم، واضطربوا، وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم، وقال بعضهم لبعض: إنَّ الحسينَ بنَ حمدانَ ما يريد يجري، فلهذا هرب من الليل، وهذه مواطأة بينه وبين المقتدر. ولما رأى عبد الله بن المعتَزِّ ذلك ركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا، وغلامٌ له ينادي: يا معْشَر العامة ادعوا لخليفتكم السُّنيِّ البربهاري! وإنما نَسبه لذلك لأنَّ الحسينَ بنَ القاسم بن عبيد الله البربهاري كان مُقَدِّمَ الحنابلةِ والسُّنَّةِ من العامة ولهم فيه اعتقادٌ عظيم، فأراد استمالتَهم بهذا القول.

ثم إنَّ ابنَ المعتَزِّ ومنْ معه ساروا نحو الصحراء ظنًّا منهم أنَّ مَنْ بايَعَه من الجُنْدِ يتبعونه، فلم يلحقْه منهم أحد. فرجعوا، واختفى محمد بن داود في داره، ونزل ابن

---

(١) ركض الدابة: ركلها برجليه يستحثها لتسرع به.

(٢) جنه الليل: ستره.

(٣) نبلي عدوًا: أي نسلمه للغم.

(٤) الزرديات: الدروع.

(٥) السميريات: جمع السميرية: ضرب من القوارب الخفيفة السريعة.

المعتَزِّ عن دابته ومعه غلامُه يُمْنٌ، وانحدرا إلى دار عبد الله بن الجصّاص، فاستجارا به. واستتر أكثر منْ بايع ابنَ المعتز، ووقعت الفتنةُ والنَّهْبُ والقَتْل ببغداد، وثار العيّارون[١] والسَّفِلَة[٢] ينهبون الدُّورَ. وكان ابن عمرويه ـ صاحبُ الشرطة ـ ممن بايع ابنَ المعتَزِّ، فلما هرب جمع ابنُ عمرويه أصحابَه ونادى بشعار المقتدر يدلِّس[٣] بذلك فناداه العامَّةُ: يا مُراءِ يا كذّاب! وقاتلوه، فهرب واستتر وتفرّق أصحابه.

وقَلَّد المقتدر في تلك الساعة الشرطةَ مؤنسًا الخازن، وخرج بالعسكرِ وقبض على. . وصيفِ بن صَوَار تَكين وغيرِه، فقتلهم. وقبض على القاضي أبي المُثَنَّى أحمدَ بنِ يعقوبَ فقتله لأنه قيل له «بايع المقتدر» فقال: لا أبايع صبيًّا!! فَذُبِحَ، وأرسل المقتدرُ إلى أبي الحسن علي بنِ الفرات ـ وكان مختفيًا ـ فأحضره، واستوزره، وخَلَع عليه.

وكان في هذه الحادثةِ عجائبُ منها أنَّ الناسَ كلَّهم أجمعوا على خَلْعِ المقتدرِ والبيْعةِ لابن المعتزِّ، فلم يتم ذلك، بل كان بالعكس. ومنها أنّ ابنَ حمدانَ على شدَّةِ تَشَيُّعِهِ يسعى في البيْعةِ لابن المعتزِّ على غُلوِّه في النَّصْب[٤].

ثم إنّ خادمًا لابنِ الجصاص ـ يعرف بسوسن ـ أخبر صافيًا الحرمي أن ابنَ المعتز عند مولاه ومعه جماعة، فكُبِستْ دارُه وأُخِذَ ابنُ المعتَزِّ منها وحُبِسَ إلى الليل، ثم عُصِرَت خصيتاه حتى مات وسُلِّم إلى أهله. وصودِر ابن الجصّاص على مالٍ كثيرٍ، وأُخِذَ محمدُ بن داود وزيرُ المعتزِّ فقتل، ونُفِيَ عليُّ بن عيسى إلى واسط، وصودِر القاضي أبو عمرو على مائة ألف دينار، وسُيِّرَتْ العساكر من بغداد في طَلَبِ الحسين بنِ حمدان، فتبعوه إلى الموصل ثم إلى بلده، فلم يظفروا به، فعادوا إلى بغداد. وأخذَ الوزير الجرائد[٥] التي كان فيها أسماء من أعان على المقتدر فَغَرَّقها في دجلة، وبسط ابن الفرات العدل والإحسان وأخرج الإدرارات للطالبيين والعباسيين. وأرْضى القوّاد بالأموال، ففرّق معظم ما كان في بيوت الأموال.

وفي هذه السنة كان ابتداء ظهور الدولة العُبَيْدية المنسوبة للعلوية بإفريقية على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبارهم.

---

(١) العيار: الذي يروح ويجيء في الأرض. والمراد هنا فئة الأشرار منهم.
(٢) السفلة: المراد أسافل الناس وغوغائهم.
(٣) دلّس: روى عمن عاصره ما لم يسمع منه، أو سمى شيخه بما لا يعرف به، أو خادع وظلم.
(٤) أهل النصب: الذين يعادون ويبغضون علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٥) الجرائد: جمع الجريدة: وهي دفتر أرزاق الجيش في الديوان.

وفيها سيّر المقتدرُ القاسم بنَ سِيما وجماعةً من القوّاد في طلب الحسين بن حمدان، فساروا حتى بلغوا قرقيسيا[١] فلم يظفروا به، فكتب المقتدر إلى أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان ـ وهو الأمير على الموصل ـ يأمره بِطَلَبِ أخيه الحسين. فسار هو والقاسمُ بن سيما، فالتَقَوْا عند تكريت فانهزم الحسين، وأرسل أخاه إبراهيم بنَ حمدان يطلب له الأمانَ فأُجيب إلى ذلك، ودخل بغداد وخلع عليه وعُقِد له على قم وقاجان[٢] فسار إليهما.

وفيها وصلَ بارس غلام إسماعيل الساماني، وقُلِّد ديارَ ربيعةَ.

وفيها خُلِعَ على المظفر مؤنسٍ الخادم، وأمر بالمسير إلى غزو الروم. فسار في جمعٍ كثيفٍ فغزا من ناحية مَلَطْية[٣] ومعه أبو الأغرّ السُلَمي، فظفر وغنم، وأسر منهم جماعة، وعاد.

وفيها قلِّد يوسف بن أبي الساج أعمال أرمينية وأذربيجان، وضمنها مائة ألفِ وعشرين ألف دينار.

وفيها أمر المقتدر أن لا يُسْتعانَ بأحدٍ من اليهود والنَّصَارى، فأُلْزِموا بيوتَهم، وأُخِذوا بِلُبْسِ العسليّ[٤]، وتعليقِ الرِّقاع من خلف ومن قُدام. وأن يكونَ رَكْبُهم خشبًا. وحجَّ بالناسِ في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة سبع وتسعين ومائتين.

في هذه السنة وجّه المقتدر القاسمَ بنَ سِيما لِغَزْوِ الصائفة[٥]، وحجَّ بالناس، الفضل بن عبد الملك.

وفيها مات عيسى النُّوشَري ـ أمير مصر ـ واستعمل المقتدرُ تَكينَ الخادم، وخَلَعَ

---

(١) قرقيسيا: بالفتح ثم السكون، وقاف أخرى، وياء ساكنة، وسين مكسورة، وياء أخرى، وألف ممدودة: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات.

(٢) قاجان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، وأهلها كلهم شيعة إمامية، وبين قاشان وقم اثنا عشر فرسخًا. . . (معجم ياقوت).

(٣) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة، تتاخم الشام.

(٤) عسليّ اليهود: علامتهم.

(٥) الصائفة: الغزو في الصيف.

عليه في منتصف رمضان. وقال أبو الفرج بن الجوزي(١) في حوادث هذه السنة «قال ثابت بن سنان رأيت في صدر أيام المقتدر ببغداد امرأة بلا ذراعين ولا عَضدَيْن، وكان لها كفّان بأصابع تامةٍ متعلقةٍ في رأس كتفيها لا تعمل بهما شيئًا وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها، ورأيناها تغزل برجليها وتمدّ الطاقة وتسَويها ـ قال ـ ورأيت امرأة أخرى بعضُدَيْن وذراعين وكفَّين إلا أنَّ كلَّ واحد من الكفين ينخرط ويدقُّ إذا فارق النَّهْديْن حتى ينتهيَ إلى رأسٍ دقيقٍ يمتدُّ ويصيرُ إصبعًا واحدةً، وكذلك رِجْلها على هذه الصورة، ومعها ابنٌ لها على مِثْل صورتها!».

ودخلت سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين.

في هذه السنة جُعلَتْ أم موسى الهاشمية قهرمانةَ(٢) دار المقتدر بالله، فكانت تؤدي الرسائل عن المقتدر بالله وأمّه إلى الوزراء. ثم صار لها أن تحكم كثيرًا في الدولة على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنة تسع وتسعين ومائتين.

ذكر القبض على ابن الفرات
ووزارة الخاقاني

في هذه السنة قَبَضَ المقتدر بالله على وزيره ابن الفرات، ووكل بداره، وهتك حُرَمَه، ونهب أمواله ودُورَ أصحابه ومن يتعلّق به فافتتنت بغداد لِقَبْضه، وكانت مدةُ وزارته ـ وهي الأُولى ـ ثلاث سنين وثمانية أشهر، وثلاثةَ عشر يومًا. وقُلد أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن خاقان الوزارة، فرتّب أصحاب الدواوين، وتولى مناظرة ابنِ الفرات. ثم انْجلتْ أمورُ الخاقاني لأنه كان ضجورًا ضَيِّقَ الصدر، مهملاً لقراءة كتب العمال، وجباية الأموال، وكان يتقرّب إلى الخاصة والعامة؛ فكان إذا رأى جماعة من الملاّحين والعامة يصلُّون ـ جماعةً ـ ينزل ويُصَلِّي معهم، وإذا سأله أحدٌ

---

(١) هو أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي... القرشي، التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ، كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنّف في فنون عديدة... كانت وفاته سنة ٥٩٧هـ... (وفيات الأعيان ٣: ١٤٠).

(٢) القهرمان: أمين الملك وخاصته.

حاجةً دقَّ صدره وقال: نعم وكرامةً! فَسُمِّيَ «دقَّ صدره» إلا أنه قَصَّر في إطلاق الأموال للقوّاد والفرسان فنفروا عنه. وكان أولاده قد تحكَّموا عليه وكلٌّ منهم يسعى لمن يرتشي منه؛ فكان يُوَلِّي في الأيام القليلة عدَّةً من العمال حتى إنه ولَّى ماه الكوفة[١] في مدة عشرة أيام سبعة من العمال، فاجتمعوا في الطريق فعرضوا توقيعاتهم، فسار الأخير وعاد الباقون يطلبون ما خدموا به أولاده، فقيل في ذلك:

[من الوافر]

وزيرٌ قد تكاملَ في الرقاعه يُولِّي ثم يعزل بعْد ساعه
إذا أهل الرِّشا اجتمعوا لدَيْه فَخَيْرُ القَوْم أوْفَرهُم بضاعه[٢]
وليس يُلام في هذا بحالٍ لأنَّ الشيخَ أَفلتَ من مجاعه

قال: ثم زاد الأمر حتى تَحَكَّم أصحابُه، فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال؛ فانْحَلَّت القواعد، وخبثت النيات واشتغل الخليفة بِعزْلِ وزرائه والقَبْضِ عليهم والرجوع إلى قَوْلِ النساء والخدم والتصرُّف على مقتضى إرادتهم، فخرجت الممالك وطمع العمّال في الأطراف، فصار مآل الأمر إلى ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثم أحضر المقتدرُ الوزيرَ ابنَ الفرات من محبسه، وجعله في حجرةٍ - من ضِمْن الحجر - مُكَرَّمًا، فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغَيْرَ ذلك بارًّا به بعد أن أخذ أمواله.

وفي هذه السنة غزا رستُم أميرُ الثغور الصائفةَ من ناحية طَرَسوس[٣] ومعه دمْيانة، فحصر حِصْنَ مليح الأرمني، ثم دخل بلده وأحرقه.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة وَرَدَ من مصر أربعةُ أحمالِ مالٍ، وقيل إنه وُجِدَ هناك كنزٌ قديم. وكان معه ضلع إنسان طولُه أربعةَ عشرَ شبْرًا في عرْضِ شبْرٍ، وزعموا أنه من قوم عاد.. وكان مبلغ المال خمسمائة ألف دينار، وكان مع ذلك هدايا عجيبة - قال - وذكر الصولي أنه كان في الهدايا تَيْسٌ له ضرْعٌ يحلب اللبن ووردت رُسُل أحمد بنِ إسماعيل بهدايا فيها بدنةٌ[٤] مرصَّعةٌ بِفاخرِ الجوهرِ، وتاجٌ من ذهبٍ مُرَصَّعٌ بجوهرٍ له قيمةٌ كبيرة، ومناطقُ ذهبٍ مرصعة، وخِلَعٌ سلطانيةٌ فاخرة،

---

(١) ماه الكوفة: هي الدينور.
(٢) الرشا: جمع الرشوة: وهي ما يعطى لقضاء مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطل أو إبطال حق.
(٣) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.
(٤) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمنونها لذلك.

وربعة ذهب مرصعة فيها شمَّامات مسك وعنبر كلُّه مرصّع، وعشر أفراسٍ بِسُرُوجها ولإحداها سرج ذهب. ووردت هدايا ابنِ أبي السّاج وهي أربعمائةُ دابَّةٍ وثمانون ألف دينار وفَرْشُ أرمني لم يُرَ مِثْله، فيه بساطٌ طولُه سبعون ذراعًا فيِ عَرْض ستين، لا قيمةَ له! وحَجَّ بالناس الفضلُ بن عبد الملك الهاشميّ.

ودخلت سنة ثلاثمائة من الهجرة النبوية.

ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة ووزارة عليّ بن عيسى

في هذه السنة ظهر للمقتدر بالله تخليطُ الخاقانيّ وعَجْزُه عن الوزارة، فأراد عزْلَه وإعادة أبي الحسن بن الفرات، فمنعه مؤنسٌ الخادمُ وقال له: متى أعدتَه ظَنَّ النَّاسُ أنَّك إنما قبضتَ عليه شَرهًا في ماله! وأشار عليه باستدعاء عليٍّ بنِ عيسى من مكة وتَقليده الوزارة وشكره مؤنس الخادمُ وأثنى عليه.

فأمر المقتدر بإحضاره، فوصل إلى بغدادَ في أوَّلِ سنة إحدى وثلاثمائة، فجلس في الوزارة وسُلِّم إليه الخاقانيّ فأحسن إليه ووسَّع عليه. ولما تولّى عليُّ بن عيسى لازم العملَ والنظرَ في الأمور وردّ المظالم، وأطلق من المكوس[1] شيئًا كثيرًا، وأسقط زياداتٍ كان الخاقاني قد زادها للجند؛ لأنه عمل معدّل الدَّخْل والخَرج فرأى الخرْج أكثر من الدَّخْل، فأسقط الزيادات. وأمر بعمارة المساجد والجوامع وتبييضها ويَبْسْطِها بالحصر وإشعالِ الأضواء فيها. وأمر بإصلاح البيمارستانات[2] وعمل ما تحتاج إليه، وغير ذلك من وجوه البر والقُرُبات.

قال: ولما عزل الخاقاني أكْثَر النَاسُ التزوير على خطِّ الخاقانيّ بصلاتٍ وإدرارات، فنظر عليّ بن عيسى في ذلك فأنكر الخطوط. وأراد إسقاطها، فخاف ذَمَّ الناس، فأنفذها للخاقانيِّ فقال: كلُّها خَطِّي وأنا أمرت بها فلما عاد الرسولُ إلى عليّ بن عيسى قال: واللّهِ لقد كذب، وقد علم المزوِّر من غيره ولكنه اعترف بها لتحمده الناس ويذموني! وأمر بإحراقها، وقال الخاقانيُّ لولده: يا بني، هذه ليست خطي ولكنه أنفذها إليّ وقد عرف الصحيح من السقيم وأراد أن نأخذ الشَّوْك بأيدينا ويبغضنا إلى النَّاس، وقد علمت مقصودَه، وعكسته عليه!

(١) المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار، جمع مكوس. والمكاس: الذين يقدرون الضريبة ويجبونها.

(٢) البيمارستانات: المصحات، أو المستشفيات.

قال ابن الجوزيّ: وفيها لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر ورد الخبرُ بانخساف جبل بالدِّينَوَر[١] يعرف بالتل وخرج من تحته ماء كثير أغرق عدَّةً من القرى، ووصل الخبرُ بانخساف قطعةٍ عظيمةٍ من جبل لبنان وسقوطها في البحر.

وفي هذه السنة خرج أهل صقليةَ عن طاعةِ المهديِّ صاحب إفريقية، وخُطِبَ للمقتدر بالله بها. وكان الذي قام بهذه الدعوة أحمد بن قرهب، فسيَّر إليه الخِلَعَ السُّودَ والألوية، ثم خرج أهل الجزيرة عليه وقبضوه وبعثوه للمهدي فقتله. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة إحدى وثلاثمائة.

وفي هذه السنة خلع المقتدر بالله على ابنه أبي العباس وقلَّده أعمال مصر والمغرب وعمره أربع سنوات، واستخلِفَ له على مصر مؤنس الخادم. وهذا أبو العباس الذي ولِيَ الخلافةَ بعد القاهر ولقِّبَ الراضي بالله على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وخَلَعَ أيضًا على ابنه علي وولاه الريَّ[٢] ودُنباوند[٣] وقزوين[٤] وزَنجان[٥] وأبهر[٦].

وفيها خالف أبو الهيجاء بن حمدان بالمَوْصل على المقتدر بالله، فسير إليه المُظَفَّرَ مؤنسًا، فأتاه ابن حمدانَ مستأمنًا، وورد مؤنس معه إلى بغداد فخلع المقتدر عليهما.

وفيها استولى الحسنُ بن عليِّ بن عمر بن الحسين بن عليٍّ على برستان، وتَلقَّب بالناصر على ما نذكره ـ إن شاء اللّهُ تعالى ـ في أخبار الطالبيين.

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل... وهي كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا... (معجم ياقوت).

(٣) دنباوند: جبل من نواحي الري.

(٤) قزوين: بالفتح ثم السكون وكسر الواو، وياء مثلثة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا.

(٥) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين.

(٦) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل.

وفيها جَهَّزَ المهديُّ ـ صاحبُ إفريقيةَ ـ العساكر مع ابنه القائد إلى الديار المصرية، فسار إلى برقةَ[(١)] واستولى عليها، وسار إلى مصر فَمَلَكَ الإسكندريةَ والفيوم، وصار في يده أكثرُ البلاد فسيَّر المقتدر لحربه مؤنسًا الخادم في جيشٍ كثيفٍ، فحارب عساكر المهديِّ وأجلاهم عن الديار المصرية، فعادوا إلى المغربِ منهزمين. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك أيضًا.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثمائة.

في هذه السنة أمر المقتدر بالقَبْض على أبي عبد الله الحسين بن عبد الله الجوهريّ المعروف بابن الجصاص وأُخِذَ ما في بيته من صنوف الأموال؛ فأخذ منه ما قيمتهُ أربعةُ آلافِ ألفِ دينار، وكان هو يدّعي أن ما أخذ منه عشرون ألف ألفِ دينارٍ، وأكثر من ذلك.

وفيها أنفذ الملقَّبُ بالمهدي ـ صاحب إفريقية ـ جيشًا إلى الديار المصرية مع قائد من قواده يقال له حَبَاسة في البحر، فَغَلَبَ على الإسكندرية ثم سار منها إلى مصر. فأرسل المقتدر لحربه مؤنسًا الخادم في عسكر فالتقوا في جُمادى الأُولى واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتِلَ من الفريقين وجُرِح خَلْقٌ كثيرٌ. ثم كانت بينهم وقعةٌ ثانية، ثم وقعة ثالثة ورابعة انهزم فيها المغاربةُ وقُتل منهم وأُسِر سبعةُ آلاف وذلك في سلْخ جُمادى الآخرة. وعاد من بقي إلى المهدي فقتل حباسة.

وفيها غزا بشْر الخادمُ والي طرسوس[(٢)] بلاد الروم، ففتح فيها وغزا وسَبَى وأسر مائةً وخمسين بطريقًا، وكان السَّبْيُ نحوًا من ألفَيْ رأس.

وفيها قُلِّد أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل والجزيرة[(٣)].

---

(١) برقة: بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن... وبرقة: بالضم: من نواحي اليمامة، وبرقة أيضًا: موضع بالمدينة من الأموال التي كانت صدقات رسول الله ﷺ وبعض نفقاته على أهله منها... (معجم البلدان).

(٢) طرسوس: بفتح أوله وثانيه، وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة: هي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم... (معجم ياقوت).

(٣) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، وهما يقبلان من بلاد الروم وينحطان متسامتين حتى يلتقيا قرب البصرة ثم يصبان في البحر... (معجم البلدان).

قال ابن الجوزي: وفيها في جُمادى الأُولى خَتَن المقتدر خمسةَ أولاد له، ونَثر عليهم خمسةَ آلاف دينار ومائة ألف درهم ورقًا - قال - ويقال إنه بلغت النفقةُ في هذا الختان ستمائة ألف دينار، وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام وفُرِّقَتْ فيهم دراهم كثيرة. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنةُ ثلاث وثلاثمائة.

ذكر خروج الحسين بن حمدان عن طاعة المقتدر

في هذه السنة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن الطاعة، وسبب ذلك أن الوزير عليَّ بنَ عيسى طالبه بملا عليه من ديار ربيعة - وهو يتوَّلاها - فدافعه فأمر بتسليم البلاد إلى العمال، فامتنع. فجهَّز الوزيرُ رائقًا الكبير في جيش لمحاربته، وكتب إلى مؤنسِ الخادمِ - وهو بمصر - يأمره بالمسير إلى الجزيرة لقتال ابنِ حمدان بعد فراغه من أصحاب المهديِّ. فسار رائقٌ إلى الحسين بن حمدان فالتقيا واقتتلا قتالاً شديدًا، فانهزم رائق، وغنم الحسين سواده، وسار رائق إلى مؤنس فأمره بالمقام بالمَوْصِل، وجدَّ مؤنسٌ في السَّيْر في طلب الحسين. فلما قارب منه راسله الحسين واعتذر وتكرَّرَت الرسائلُ بينهما، فلم يستقر حال. فرحل مؤنسٌ نحو الحسين، فسار إلى أرمينية بثقله وأولاده، وتفرّق عسكرُ الحسين عنه، وصاروا إلى مؤنس.

ثم جهَّز مؤنس جيشًا في أثره مُقدِّمُهُم يلبق فتبعوه إلى تلّ فافان[1]، فإذا هي خاويةٌ على عروشها قد قُتلَ أهلُها، وأحرقها فجدُّوا في اتِّباعِه، فأدركوه فقاتلوه، فانهزم مَنْ بَقي معه من أصحابه، وأُسر هو وابنُه عبد الوهاب وجميعُ أهْلِه وأكْثَرُ مَنْ صحِبَه وقبض أملاكهم. وعاد مؤنسٌ إلى بغداد على طريق الموصل والحسينُ معه، فأُرْكِبَ على جمَلٍ هو وابنه وعليهما اللُّبُود[2] الطِّوالُ وقمصانٌ من شعر أحمر. وحُبِس الحسين وابنهُ عند زيدانَ القهرمانة، وقبَضَ المقتدر على أبي الهيجاء بن حمدان وعلى جميع إخوته وحُبِسوا. وكان بعضُ أولاد الحسين بنِ حمدانَ قد هرب

(١) فافان: بفاءين، وآخره نون: موضع على دجلة تحت ميافارقين يصب في دجلة عنده وادي الرزم... (معجم البلدان).

(٢) اللبود: أردية من شعر الصوف للمطر.

فجمع جمعًا ومضى نحو آمِد(١)، فأوقع بهم مُسْتَحفظُها وقَتَلَ ابنَ الحسين وأنفذ رأسَه إلى بغداد.

وفيها خرج مليح الأرمني إلى مرعش(٢)، فعاث في بلدها، وأسر جماعة مِمَّنْ حولها. وحَجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة أربع وثلاثمائة.

ذكر وزارة ابن الفرات الثانية
وعزل علي بن عيسى

في هذه السنة في ذي الحجة عُزِل علي بن عيسى عن الوزارة وأعيد إليها أبو الحسن علي بن الفرات. وكان سبب ذلك أن أبا الحسن بن الفرات كان محبوسًا، وكان المقتدر بالله يُشَاوِرُه في الأُمور وهو في محبسه، ويرجع إلى قوله. وكان علي بن عيسى يُمشِّي أمر الوزارة ولم يتَّبعْ أصحابَ ابن الفرات ولا أسبابَه ولا غيره وكان جميل المحضر قليل الشر، فبلغه أن ابنَ الفراتِ قد تَحدَّثَ له جماعة من أصحاب الخليفة في إعادته إلى الوزارة، فاستعفى من الوزارة، وسأل في ذلك فأنكر المقتدرُ عليه ومنعَهُ من ذلك.

فلما كان في آخر ذي القعدة جاءت أم موسى القَهْرَمانةُ لتتفق معه على ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية التي للدار من الكسوات والنفقات فوصلت إليه وهو نائم فقال لها حاجبه: إنه نائم ولا أجسر أن أُوقظه فاجْلِسي في الدار حتى يستيقظ! فغضبتْ من هذا وعادتْ، واستيقظ الوزيرُ في الحال فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر فلم تقبل منه، ودخلت إلى المقتدر وخاطَبتْه في عزله وحرَّضَته على ذلك فَعزَلَهُ عن الوزارة وقبض عليه في ثامن ذي الحجة.

وأعيد ابنُ الفرات إلى الوزارة وضَمِنَ على نَفْسِه أن يحْمِل في كلِّ يومٍ أَلْف دينارٍ إلى بَيْتِ المال وخمسِمائة دينار، فقبض على أصحاب الوزير عليٍّ بنِ عيسى

---

(١) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأشهرها ذكرًا، تحيط دجلة بأكثرها، وفي وسطها عيون وآبار قريبة الغور.

(٢) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني، بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار. . . (معجم ياقوت).

وعاد فقبض على الخاقاني الوزيرِ وأصحابِه، واعترض العُمَّالُ وغيرُهم وعادَ عليهم بأموالٍ عظيمة. وكان أبو عليِّ بنِ مُقْلَةَ قد اسْتَخْفَى منذ قُبِض على ابن الفرات إلى الآن، فلما عاد ابنُ الفرات إلى الوَزارة ظَهرَ فأشخصه ابنُ الفرات الوزير وقَرَّبَه وأحْسنَ إليه.

وحكى عبد الرحمٰن أبو الفرج بن الجوزيّ في تاريخه المنتظم أنَّه لما قُلِّدَ الوزارة خُلِعَ عليه سَبْعُ خلَع وحَمل إليه من دار السُّلْطان ثلاثمائة ألفِ درهم، وعشرون خادمًا، وثلاثون دابَّةً لِرَحْله، وخمسون دابةً لغلمانه، وخمسون بغلاً لنقْله، وبغلان للعمارية بقبابها وثلاثون جملاً، وعَشْرُ تُخوتِ ثيابٍ وأنه ركب معه مؤنسٌ الخادم، وغلمانُ المقتدرِ، وصار إلى داره بسوق العَطَش[١]، ورُدَّتْ إليه ضِياعُه، وأُقطع الدارَ التي بالمخرم[٢] فسكنها. وأنه سَقَى النَّاسَ في ذلك اليوم وتلك الليلة أربعين ألفَ رطل ثلج، وزاد ثَمَنُ الشَّمْع والكاغد[٣] وكانت هذه عادته! قال:

وكانت مُدَّةُ اعتقالِهِ إلى أن رَجعَ إلى الوزارة خمْسَ سنين وأربعة أيام. قال: وسُمِعَ بعضُ العَوَام يقول يَوْمَ خُلِعَ عَلَى ابنِ الفرات واللّهِ خذلونا، أخذوا منّا مصحفًا وأعْطَوْنا طنبورًا! فبلغ ذلك إلى الخليفة، فكان ذلك سببًا للإحسان إلى علي بنِ عيسى وحُسْن النيَّة فيه إلى أن خَرَج من الحبس والله تعالى أعلم.

ذكر أمر يوسف بن أبي الساج

كان يوسُفُ بن أبي السَّاجِ على أذربيجان وأرمينة قد ولِي الحربَ والصلاةَ والأحكامَ وغيرَها منذ أول وزارةِ ابنِ الفرات الأُولى، فلما عُزل ابن الفراتِ وتولى الخاقانيُّ طمع فأخّر حمْلَ بعضِ المالِ، فاجتمع له من المالِ ما قَوِيتْ به نَفْسُه على الامتناع، وبقي كذلك إلى هذه السنة. فلما بَلَغَه القبضُ على الوزير عليِّ بن عيسى أظهر أَنَّ الخليفةَ أنفذَ إليه عَهْدَ الريّ وأن الوزيرَ عليَّ بنَ عيسى سَعَى له في ذلك، وجمع العساكر وسار إلى الريّ وبها محمد بن صُعْلُوكٍ يتولّى أمْرَها لصاحب خراسانَ نصر بن أحمد الساماني. وكان ابنُ صعلوكٍ قد تغلّب على الريّ وما يليها أيام وزارةِ

---

(١) سوق العطش: كان من أكبر محلة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلى بناه سعيد الحرشي للمهدي، وحوّل إليه التجار ليخرب الكرخ.

(٢) المخرم: محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى وفيها كانت الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية خلف الجامع المعروف بجامع السلطان.

(٣) الكاغد: الورق.

علي بن عيسى، ثم أرسل إلى ديوان الخلافةِ يقاطعُ عليها بمال يحمله، فلما بلغه مسيرُ يوسفَ نَحوَه سار إلى خراسان، فدخل يوسُف الرَّيَّ واستولى عليها وعلى قَزوين وزنجان وأبهر[١]، فلما اتّصل فعْلُه بالمقتدر بالله أنكره.

وكتب يوسُفُ إلى الوزير ابن الفراتِ يعرفه أنَّ عليَّ بنَ عيسى أنفذ إليه بالعهد واللواء وأنه افتتح هذه الأماكن وطَرَد عنها المتغلِّبين عليها واعْتَدَّ بذلك، وذكر كثرةَ ما أُخرِجَ عليه من الأموال، فعظم ذلك على المقتدر وأمر ابنَ الفرات أن يسأل عليَّ بنَ عيسى عن الذي ذكره يوسُف فأحضره وسأله فأنكر ذلك فَصَدَّقه. وكتبَ ابنُ الفرات إلى ابن أبي الساج ينكر عليه تعرُّضَه إلى هذه البلاد وكذبَه على الوزيرِ وَجَهَّزَ العساكر لمحاربته. فسارت في سنة خمسٍ وثلاثمائةٍ وعليها خاقان المفلحي ومعه جماعة من القواد، فساروا ولقوا يوسفَ واقتتلوا، فهزمهم يوسُف وأَسَرَ منهم جماعةً وأدخلهم الريَّ مشَهَّرين على الجِمال.

فسَيَّر الخليفةُ مؤنسًا الخادمَ في جيشٍ كثيفٍ لمحاربته، فسار وانضم إليه مَن كان مع خاقان، فصرف خاقانَ عن أعمال الجبل ووليها نحريرُ الصغيرُ وسار مؤنس وأتاه أحمد بنُ علي ـ وهو أخو محمد بن صعلوك ـ مستأْمِنًا فأكرمه، ووصلت كتب ابن أبي الساج يسأل الرِّضَى عنه وأن يقاطعَ على أعمال الريّ وما يليها على سبعمائة ألف دينارٍ لبيت المال سوى ما تحتاج إليه الجند وغيرهم، فلم يجبه المقتدر إلى ذلك وقال: لو بذل مُلْكَ الأرض لما أقررته على الرَّيِّ يومًا واحدًا لإقدامه على التَّزْويرِ! فلما عَرَفَ ابن أبي السَّاج ذلك سَار عن الرَّيِّ بعد أن أخربها وَجَبَى خراجَها في عشرة أيام. وقَلَّد المقتدرُ الرَّيَّ وقزوين وأبهر وصيفا البُكْتُمريّ، وطلب يوسف بنُ أبي الساج أن يُقَاطعَ على ما كان بيده من الولاية فأشار ابنُ الفرات بإجابته إلى ذلك، فعارضه نصر الحاجبُ وابن الحواريّ وقالا: لا يُجاب إلى ذلك إلا بعد أن يطأ البساط! ونُسبَ الوزيرُ ابنُ الفراتِ إلى مَواطَأتِهِ والميلِ معه. فامتنع المقتدر بالله من إجابته إلا أن يحضر إلى الخِدْمَةِ بنفسِه. فلما رأى يوسُف ذلك حاربَ مؤنِسًا فانهزم مؤنسٌ إلى زنجان، وقُتل من قواده جماعة وأُسِر جماعةٌ منهم هلال بنُ بدرٍ، فأدخلهم أردبيل[٢] مشهَّرين على الجمال.

---

(١) أبهر: بالفتح ثم السكون وفتح الهاء وراء: اسم جبل بالحجاز... وأبهر، أيضًا: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والعجم يسمونها أوهر... (معجم البلدان).

(٢) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال، وكسر الباء، وياء ساكنة، ولام: من أشهر مدن أذربيجان، وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية.. وهي مدينة كبيرة جدًا رآها ياقوت في سنة ٦١٧هـ فوجدها في فضاء من الأرض فسيح يتسرب في ظاهرها وباطنها أنها كثيرة المياه.

وأقام مؤنسٌ بزنجانَ بجمع من العساكر ويستمد الخليفة، وكاتبه يوسُف في الصُلْح وراسله فيه؛ فكتب مؤنس إلى الخليفة فلم يُجبْه إليه. فلما كان في المحرم سنة تَسع وثلاثمائة اجتمع لمؤنسٍ خلق كثيرٌ فسار نحو يوسفَ، فتواقعا على باب أردبيل، فانهزم عسكرُ يوسفَ، وأُسِرَ هو وجماعةٌ من أصحابه فعاد بهم مؤنسٌ إلى بغدادَ فدخلها في المحرم.

وأُدْخِل يوسف مُشَهَّرًا على جَمَلٍ وعليه برنسٌ بأذنابِ الثعالب، فأُدخل على المقتدرِ، ثم حُبسَ عند زيدان القهرمانة.

وفي سنة أربع وثلاثمائة توفِّي الناصرُ العلَويُّ صاحب طبرستان.

وفيها خالف أبو يزيدَ خالد بنَ محمدٍ على المقتدرِ بكرمان ـ وكان يتولى الخراج ـ وسار منها إلى شيراز يريد التغلب على فارس، فحاربه بَدْرٌ الحمامي وقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وفيها سار مؤنسٌ المظفَّر إلى بلادِ الروم للغزاة، فسار إلى ملَطية وغزَا منها، وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام. أنْ يغزُوَ من طرسوس في أهلها، ففعل وفتح مؤنس حصونًا كثيرةً من الروم وأثر آثارًا جميلة وعاد إلى بغداد فأكرمه الخليفةُ وخَلَع عليه.

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي وفيها وَرَدَ الخبرُ من خراسان أنه وُجدَ بالقندهار[1] في أبراج سورها أَزَجٌ[2] متصل بها، فيه ألف رأس في سلاسل، من هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأسًا في أذن كلِّ رأْسٍ رقعةٌ مشدودةٌ بخيطِ إبريسم[3] مكتوب فيها اسم الرجل. قال: وكان من الأسماء شريح بن حيان وخباب بن الزبير والخليل بن موسى وطلق بن معاد، وحاتم ابن حسنة، وهانىء بن عروة، وفي الرقاع تاريخٌ من سنة سبعين من الهجرة، وَوُجدوا على حالِهم لم يتَغيَّرْ شعْرُهم إلا أن جلودهم قد جَفَّت.

ودخلت سنة خمس وثلاثمائة.

قال أبو الفرج: في هذه السنة وَرَدَ على السلطان هدايا جليلةً من أحمد بنِ هلال صاحبِ عُمان، وفيها أنواعٌ من الطِّيب وطرائفُ من طرائِف البحرِ وطائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفْصَحَ من الببغاء وظباءُ سود.

---

(١) قندهار: بضم القاف، وسكون النون، وضم الدال أيضًا: مدينة من بلاد السند أو الهند مشهورة في الفتوح.

(٢) أزج: ضرب من الأبنية.

(٣) الإبريسم: الحرير.

قال ابنُ الأثير: وفي هذه السنة من المحرم وصلَ رسولان من ملك الرّوم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأجاب المقتدر إلى ما طَلَبَ ملكُ الروم من الفداء، وسير مؤنسًا الخادم ليحضر الفداء، وجعله أميرًا على كل بلَدٍ يدخله، يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه، وأرسل معه مائةَ ألفٍ وعشرين ألف دينار لفداء أُسارى المسلمين.

قال أبو الفرج بنُ الجوزيّ في خبر الرسل إنهما أُدْخِلا وقد عُبِّيء العسكرُ بالأسلحة التّامة وكانوا مائة ألفٍ وستين ألفًا، وكانوا من أعلى باب الشماسية إلى الدار، وبعدهم الغلمان الحُجرية والخدم الخوص بالبزة الظاهرة والمناطق[1] المحلاة، وكانوا سبعةَ آلاف خادم منهم أربعةُ آلافٍ بيض وثلاثةُ آلاف سود، وكان الحُجّابُ سبعمائةَ حاجبٍ، وفي دجلة الطيّاراتُ والزَّبارِبُ[2] والسَّميريّاتُ بأفضل زينةٍ. فسار الرسولان فَمَرَّا على دار نصر القشوري الحاجب، فرأيا منظرًا عجيبًا فَظنَّاه الخليفة وهاباه حتى قيل إنه الحاجب، ثم حُملا إلى دارِ الوزير فرأيا أكثر من ذلك ولم يشكا أنه الخليفة فقيل إنه الوزير.

قال: وزيِّنَتْ دار الخلافةِ، وطيف بهما فيها فشاهدا ما هالهما، وكانت الستور ثمانيةَ وثلاثين ألفَ سترٍ من الديباج المذهبة منها اثنا عشر ألفًا وخمسمائة، وكانت البُسْط والنِّخاخ[3] اثنين وعشرين ألْفًا وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس بالناس وتأكل من أيديهم، وكان هناك مائة سَبُع كلُّ سَبع بيد سبّاع، ثم أُخرجا إلى دار الشجرة، وكانت شجرة في وسط بركةٍ فيها ماءٌ صافٍ، والشجرةُ ثمانيةَ عشر غصنًا لكلِّ غصن منها شاخاتٌ كثيرةٌ عليها الطيورُ والعصافيرُ من كلِّ نوع مذهبة ومفضضة. وأكثر قضبانِ الشجرة فضةٌ وبعضها مذهبةٌ وهي تتمايل، وبها ورق مختلفُ الألوان، وكل من هذه الطيور تصفر. ثم أُدخلا إلى الفردوسِ، وكان فيه من الفراش والآلات ما لا يحصى، وفي دهاليزه عشرة آلاف جوْشَن[4] مذهبة معلقة.

قال: ويطول شَرْحُ ما شاهدا من العجائب إلى أن وصَلا إلى المقتدر وهو

(١) المناطق: جمع المنطقة، وهي ما يشد به الوسط.
(٢) الطيارات والزبارب والسميريات: ضرب من السفن.
(٣) النخاخ: جمع نخ، وهو البساط الذي يكون طوله أكثر من عرضه.
(٤) الجوشن: ضرب من السلاح زرد يوضع على الصدر.

جالس على سرير أبنوس(١) قد فُرِشَ بالدَّبيقي(٢) المطرَّزِ وعن يمنة السرِيرِ تسعةُ عقودٍ معلقة وعن يسرته تسعةٌ أخرى من أفخرِ الجواهرِ يضيءُ ضوؤها على ضوء النهار.

قال: فلما وصلَ الرسولان إلى الخليفة، وقَفا على نَحْوِ مائةِ ذراعٍ وابنُ الفراتِ قائم بين يَديْهِ والتَّرْجُمان قائمٌ يخاطب الخليفةَ. ثم أُخْرجا وَطِيف بهما في الدار حتى أُخْرجا إلى دجلةَ وقد أُقيمت على الشطوط الفيلة والسباع والفهود!

قال: ثم خُلِع عليهما وحُمِلَ إليهما خمسون بدرة(٣) ورقًا في كلِّ بدرة خمسة آلاف درهم.

قال: وفيها ورد كتابٌ من مَرْو أنَّ نَفَرًا عثروا على نَقْبٍ في سور المدينة فكشفوا عنه فوصلوا إلى أزج فأصابوا فيه ألْف رأسٍ، وفي أُذنِ كلِّ رأسٍ رقعة قد أُثْبِتَ فيها اسمُ صاحبها.

وفيها أُطْلقَ أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأهلُ بيته من الحبْس، وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة ست وثلاثمائة.

ذكر عزل ابن الفرات عن الوزارة ووزارة حامد بن العباس

في هذه السنة في جُمادى الآخرة قُبِضَ على الوزير أبي الحسَن بن الفرات، وكانت مدة وزارته هذه - وهي الثانية - سنةً وخمسةَ أشهرٍ وسبعةَ عشرَ يومًا وكان سبب ذلك أنّه أخَّر إطلاق أرزاقِ الفرسان، واحْتَجَّ عليهم بِضيقِ الأموال وأنها خَرَجَتْ في محاربة ابن أبي السَّاج وأنَّ الارتفاع نقص بِأَخْذ يوسف أموالَ الريِّ؛ فَشَغَب الجُنْدُ شَغَبًا عظيمًا وخرجوا إلى المصلَّى فالتمس الوزيرُ من المقتدر إطلاقَ مائتي ألفِ دينارٍ من بيت مالِ الخاصَّة ليضيف إليها مائتي ألف دينارٍ يُحَصِّلُها ويصرفُ الجميعُ في أرزاق الجند، فاشتد ذلك على المقتدر وأرسل إليه: إنك ضمنت أن تُرْضِيَ جميعَ الأجناد وتقوم بجميع النفقات وتحمل بعد ذلك ما ضمنت حمْلَه يومًا بيوم وأراك الآن

(١) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب، ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

(٢) الدبيقي: من دق ثياب مصر معروفة تنسب إلى دبيق.

(٣) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا؛ ويختلف باختلاف العهود.

تطلب من بيت مال الخاصة! فاحتج بقلة الارتفاع وما أخذه! ابنُ أبي السّاج منه وما خَرَجَ على محاربته، فلم يَسْمعِ المقتدِرُ حُجَّتَه وتنكّر له. وقيل كان سبب قَبْضِهِ أن المقتدر قيل له إنَّ ابنَ الفرات يريد إرسال الحسين بن حمدان لمحاربة بن أبي الساج فإذا صار عنده اتفقا عليك. ثم إنّ ابنَ الفراتِ قال للمقتدر أن يرسل ابنَ حمدان لحرْبه فقُتِلَ ابنُ حمدان في جُمادى الأُولى، وقبض ابن الفرات في جُمادى الآخرة.

قال: وكان بعض العمال قد ذَكَر لابن الفرات ما يتحصَّلُ لحامِدِ بن العبَّاس من أعمال واسط، زيادةً على ضمانه فاستكثره، وكاتبه في ذلك، فخاف حامدٌ أن يُؤخَذَ ويطالَبَ بالمال، فكتب إلى نصر الحاجب وإلى والدة المقتدر وضمن لهما مالاً لِيَتَحدَّثَا له في الوزارةِ. فذُكِرَ المقتدر حالُه وسعةُ نَفْسِه وكثرةُ أتباعه وأنَّ له أربعمائة مملوك يحملون السِّلاح، ووافق ذلك نفرة المقتدر عن ابن الفرات فأمره بالحضور من واسط، فحضر وقبض على ابن الفرات وولده المحسن وأصحابهما وأتباعهما.

ولما وصل حامدٌ إلى بغداد أقام ثلاثةَ أيامٍ في دار الخلافةِ، فكان يتحدَّث مع النّاس ويضاحكهم ويقوم لهم، فبان للخَدمِ وحاشيةِ الدَّارِ قلةُ معرفته بالوزارة، وقال له حاجبه يا مولانا.. الوزيرُ يحتاجُ إلى لبسة وجلسة وعبسة! فقال له: تعني أنه يلبس ويقوم ويقعد ولا يقوم لأحدٍ ولا يضحك في وجه أحد؟ قال نعم! قال حامد: إنَّ الله تعالى أعطاني وجهًا طَلْقًا وخلقًا حسنًا وما كنت بالذي أُعبس وجهي وأقبِّح خلقي لأجل الوزارة! فأمر المقتدر بإطلاق عليٍّ بن عيسى من محبسه، وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه في الأُمور ويصدر عن رأيه.

ثم إنه استبدّ بالأُمور دون حامد، ولم يبقَ لحامد غير اسم الوزارة ومعناها لعليّ حتى قيل فيهما: [من مخلّع البسيط]

أعْـجَـبُ مـن كـلِّ مـا تـراه ... أنَّ وزيـريـن فـي بـلاد
هـذا سـوادٌ بـلا وزيـرٍ ... وذا وزيـرٌ بـلا سـوادِ(١)

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي: وفي هذه السنة أمرت السيدة أُم المقتدر، قهرمانةً لها تعرف بِثَمَل أن تجلس بالتُّرْبَةِ التي بنتها بالرُّصافة للمظالم وتنظر في رقاع الناس في كل جمعة، فجلست وأحضرت القاضيَ أبا الحسين الإشناني وخرجت التوقيعات على السداد - قال - وقال أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد

(١) سواد الأمير أو الوزير: أتباعه وحاشيته وأمتعته ونحوها.

الحافظ[١]: قَعَدَتْ ثَمَلُ القهرمانةُ في أيام المقتدر بالله للمظالم، وحضَر مجلسها القضاةُ والفقهاء.

وفيها غزا يُسْرُ الأفشيني بلادَ الرُّوم فافتتح عِدَّةَ حصونٍ وغَنمَ وسَلِمَ، وغزا ثمال في بحر الروم فغنِم وسَبَى وعاد. وفيها أمر المقتدر ببناء بيمارستان فَبُنيَ وأُجْري عليه النفقات الكثيرة، وكان يُسمَّى المقتدريّ، وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنة سبع وثلاثمائةٍ.

في هذه السنة وصل القائِم بن المهدي من إفريقية من قِبل أبيه بجيشٍ كثيفٍ فكان وصولُه إلى الإسكندريةِ في شهر ربيع الآخر، فخرج عنها عاملُ المقتدر ودخل القائم، ثم رحل إلى مصر فدخل الجيزةَ[٢] وملك الأشمونين وأكثر الصعيد. وكتب إلى أهلِ مكّةَ يدعوهم إلى الدُّخول في طاعته فلم يُجيبوه، فبعث المقتدر بالله مؤنسًا الخادم في شعبان وَجَدَّ في السير فوصل إلى مصر وكان بينه وبين القائم عدةُ وقعاتٍ.

ووصل من إفريقية ثمانون مركبًا نجدةً للقائم، فأمر المقتدر بالله أن تسير مراكبُ طرسوسَ إليهم، فسارت خمسةٌ وعشرون مركبًا وفيها النِّفْط والعُدَدُ ومقدِّمُها أبو اليمن، فالتفت المراكب بالمراكب واقتتلوا على رشيد[٣]، فظفر أصحاب مراكب المقتدر بالله وأحرقوا كثيرًا من مراكب إفريقية وأُسر منهم كثير. وكان ممن أُسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وهما مقدما المراكب فمات سليمان في الحبس بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد ثم هرب منها وعاد إلى إفريقية.

---

(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان... أصله من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه.. كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفننًا في علوم جمة، عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك... (وفيات الأعيان ٣:٣٢٥).

(٢) الجيزة: بالكسر: بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور مصر... (معجم ياقوت).

(٣) رشيد: بفتح أوله وكسر ثانيه: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، خرج منها جماعة من المحدثين.

وفيها ضَمِنَ حامدُ بنُ العباسِ الوزير أعمالَ الخراج والضِّياع الخاصَّةِ والعامَّةِ والمستحدثة والفراتية بسواد بغدادَ والكوفةِ والبصرةِ وواسطٍ والأهواز وأصبهان. وسبب ذلك أنه رأى أنه قد تَعَطَّلَ عن الأمر والنَّهي وتفرَّدَ بِهِ عليُّ بنُ عيسى، فشرع في هذا ليصير له حديثٌ وأمْرٌ ونَهْيٌ، ثم استأذن المقتدرَ في الانحدار إلى واسط لِيُدَبِّرَ أمْرَ ضَمانِهِ الأوَّلَ فأذِنَ له فانْحَدَر إليها، واسم الوزارةِ عليه، وعليٌّ يدبر الأمور! وأظْهَرَ حَامدٌ زِيادةً عظيمةً ظاهرةً في الأموالِ، فَسُرَّ المقتدِرُ بذلك وبَسَطَ يدَ حامِدٍ في الأعمالِ حتى خافَه عليُّ بنُ عيسى.

ثم تَحَرَّكَ السِّعْرُ(١) ببغداد فثارت العامَّةُ والخاصّةُ، لذلك، واستغاثُوا وكسروا المنابِر، وكان حامد يخزن الغلال، وكذلك غَيْرُه من القواد، فأمر المقتدرُ بإحْضَار حامِدٍ فحضر من الأهواز، فعاد النَّاسُ إلى شَغَبِهِمْ. فأنْفَذَ حامِدٌ جماعةً لمنْعِهِم، فقاتلهم العامَّةُ، وأحرقوا الجِسْرَين وأخرجوا المحبسين من السجن ونهبوا دارَ صاحبِ الشُّرْطَة، فأنفذ المقتدرُ جيْشًا مع غريبِ الخال فقاتل العامَّةَ، فانهزموا بين يَدَيْه ودخلوا الجامع بباب الطَّاق(٢)، فأُخِذوا وحُبِسوا، ثم ضُرِب بعضُهم وقُطِعتْ أيْدي من عُرِفَ بالفسادِ.

ثم أمر المقتدرُ مِن الغَدِ فَنودِي في النَّاسِ بالأمان فسكنت الفِتنة، ثم ركِبَ حامدُ إلى دارِ المقتدر في الطيّار(٣) فرجمه العامّةُ، فأمر الخليفةُ بفتح مخازِنِ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ التي لحامدٍ ولأُم المقتدره وغيرهما، وبيع ما فيها فَرَخُصتِ الأسعارُ وسكنتِ النّاسُ، فقال علي بن عيسى للمقتدر: إنَّ سَبَبَ غلاءِ الأسْعارِ ضمانُ حامد، فإنه منعَ بيْع الغِلال في البيادرِ وخَزَنَها! فأمر المقتدِرُ بفَسْخ الضَّمان عن حامدٍ وصرف عُمّاله عن السواد، وأمر عليَّ بنَ عيسى أن يتولى ذلك، فسكن النّاسُ واطمأنوا.

وفيها قُلِّدَ إبراهيمُ بنُ حمْدانَ دِيار ربيعة، وحجَّ بالناس في هذه السنة أحمد بن العباس أخو أمِّ موسى القهرمانة.

ودخلت سنة ثمان وثلاثمائة.

في هذه السنة خلع المقتدر بالله على أبي الهيجاء عبدِ الله بن حمدان، وقَلَّده طريق خراسانَ والدينَوَر، وخلع على إخوته أبي العلاء وأبي السرايا.

---

(١) تحرك السعر: ارتفع.
(٢) باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي.
(٣) الطيار: ضرب من السفن.

وفيها توفي إبراهيمُ بن حمدان في المحرم، وحجَّ بالناس في هذه السنة أحمد بن العباس.

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة.

ذكر قتل الحسين بن منصور الحلاج[(١)] وشيء من أخباره

وفي هذه السنة قُتل الحسينُ بنُ منصور الحلاَّج الصوفي، وأُحْرِق بالنار وكان ابتداء حاله أنه كان يظهر الزُّهدَ والتصوّف، ويظهر الكرامات ويُخرج للناس فاكهةَ الصيف في الشتاء وفاكهةَ الشتاء في الصيف. ويمدُّ يده في الهواء فيعيدها مملوءةً دراهم وعليها مكتوب ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ ويسميها دراهم القدرة. ويخبر الناس بما أكلوه وما صنعوه في بيوتهم، ويتكلم بما في ضمائرهم. فافتتن به خَلْقٌ كثيرٌ واعتقدوا فيه الحلول، واختلفت فيه اعتقاداتهم؛ فمِن قائلٍ إنه حَلَّ فيه جزء إلهي ويدَّعي فيه الربوبية، ومِنْ قائل إنه وَليُّ اللّهِ تعالى وإنَّ الذي يَظْهَر منه من جُمْلَةِ كراماتِ الصلحاءِ، ومن قائلٍ إنه مُشَعْبِذٌ ومُمَخْرِقٌ وساحِر كذابٌ ومتكَهِّنٌ وإن الجنَّ تطيعه فتأْتيه بالفاكهة في غير أوانها.

وكان قَدِم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة وأقام بها سنة في الحجر[(٢)] لا يستظل تحت سقف صيفًا ولا شتاءً، وكان يصوم الدَّهْر فإذا جاء وقت العشاء أحضر له القَوْم كوزًا من ماءٍ وقرَصًا فيشرب ويعض من القرص ثلاث عضات من جوانبها فيأكلها ويترك الباقي فيأخذونه، ولا يأكل شيئًا آخر إلى وقت الفِطْر من الليلة الثانية. وكان شيخ الصوفيةِ يومئذ بمكةَ عبدَ الله المغربي فأخذ أصحابه وجاء لزيارةِ الحلاّج فلم يجِدْه في الحجر، وقيل قد صَعد إلى جبل أبي قُبَيْس، فصعد إليه فوجده على صخرةٍ حافيًا مكشوف الرأْس، والعرقُ يجري منه إلى الأرض، فأخذ أصحابَه وعاد ولم يُكَلِّمْه وقال: هذا يتصَبَّرُ على قضاءِ الله وسوف يبتليه الله بما يَعْجَزُ عنه صبرُه وقدرته! وعاد الحسين إلى بغداد.

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور؛ هو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره، والناس في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره... (وفيات الأعيان ٢: ١٤٠).

(٢) الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام؛ وهي قرية صغيرة قليلة السكان... (معجم البلدان).

وأما سببُ قَتْلِه فإنه نُقِل عنه عند عَوْدِه إلى بغداد إلى الوزيرِ حامد بنِ العباس أنه أحيا جماعةً وأنه يُحْيي المَوْتَى وأن الجنَّ يخدمونه فيحضرون عنده بما يشتهي، وإنّه قَدَّموه على جماعةٍ من حاشية الخليفة، وإنَّ نَصْرًا الحاجب قد مال إليه هو وغيرُه. فالتمس حامِدٌ من المقتدر أن يُسلِّم إليه الحلاجَ وأصحابه فدفع عنه نصرٌ الحاجبُ وألحّ الوزير في طلبه، فأمر المقتدر بتسليمه إليه، فأُخِذَ وأُخِذَ معه إنسان يعرف بالشميري وغيْرُه ـ قيل إنهم كانوا يعتقدون أنه إله ـ فَقَرَّرهم حامِدٌ فاعترفوا أنهم قد صَحَّ عندهم أنه إله وأنه يحيي الموتى، وقابلوا الحلاَّجَ على ذلك. فأنكره وقال: أعوذ بالله أن أدَّعي الربوبيةَ والنُّبوّةَ وإنما أنا رجل أعبد الله عزَّ وجل! فأحضر الوزير القاضيَ أبا عمر والقاضيَ أبا جعفرِ بن البهلول وجماعةً من وجوه الفقهاءِ والشهودِ واستفتاهم فقالوا: لا نفتي في أمره بشيء إلا أن يصحَّ عندنا ما يوجب قتله، ولا يجوز قبول قَوْل مَنْ يدَّعي عليه ما ادّعاه إلا ببيِّنَةٍ أو إقرار!

وكان حامد يُخرج الحلاَّجَ إلى مجلِسه ويستنطقه فلا يَظْهرُ منه ما تكرهه الشريعة، وطال الأمر وحامدٌ مُجِدٌّ له في أمْره، وجَرى له معه قَصَصٌ يطول شَرْحُها. وفي آخرِها أن الوزيرَ رأى له كتابًا حكى فيه أنَّ الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنْه أفْرد من داره بيتًا لا يلحقه شيء من النجاسات ولا يدخله أحدٌ، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا ويعمل أجْوَدَ طعام يمكنه ويطعمهم في ذلك البيت ويتَوَلّى خِدْمَتَهم بنفسِه، فإذا فرغوا كساهم وأعطى كلَّ واحد منهم سبعةَ دراهم، فإذا فَعَلَ ذلك كان كمن حَجّ.

فلما قُرِيء هذا على الوزير قال القاضي أبو عمر للحلاج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري. قال له القاضي: كذبت يا حَلالَ الدم قد سمعناه بمكةَ وليس فيه هذا. فلما قال له «يا حلال الدم» وسمعها الوزيرُ قال له: اكتب بهذا رقعةً، فدافعه أبو عمر فألزمه حامدٌ فكتب بإباحة دمِهِ وكتب بعْده مَنْ حضر المجلس. قال: ولما سَمِعَ الحلاَّجُ ذلك قال: ما يحلُّ لكم دمي واعتقادي الإسلامُ ومذهبي السنةُ ولي فيها كتب موجودة فالله الله في دمي!

وتفرّق الناس، وكتب الوزير إلى الخليفة يستأذنه في قتله وأرسل إليه الفتاوى فأذِن في قتله فَسَلَّمه الوزير إلى صاحب الشُّرطة فضربه ألْفُ سَوْط فما تأوّه ثم قَطَع يَدَه ثم رِجْلَه ثم يده ثم رجله ثم قتل وأُحرِق في النار، فلما صار رمادًا أُلْقِيَ في دجلة ونُصِبَ رأْسُه ببغدادَ وأُرسل إلى خراسانَ لأنه كان له بها أصحاب، وأقبل بعض أصحابهِ يقولون: إنه لم يُقْتَلْ وإنما أُلْقِي شَبَهُهُ على دابّة وإنه يعود بعد أربعين يومًا!

وبعضهم يقول: لقيته على حمارٍ بطريق النهروان وإنه قال لهم «لا تكونوا مِثْلَ هؤلاء النَّفَر الذين يظنون أني ضُرِبت وقُتِلْت»!

وفيها استعمل المقتدر على حرب الموصل ومعونَتِها محمد بنَ نصرٍ الحاجب، فسار إليها وأوقع بمن خالفه من الأكراد فقتل وأسر، وأرسل إلى بغدادَ نَيِّفًا وثمانين أسيرًا فشُهروا، وفيها قُلِّد داودُ بنُ حمدان ديار ربيعة.

ودخلت سنة عشر وثلاثمائة.

في هذه السنة أُطْلِق يوسف بن أبي السَّاج من الحبس بشفاعةِ مؤنسٍ الخادم، ودخل إلى المقتدر وخَلَعَ عليه، ثم عَقَد له على الرَّيِّ وقزوين وزنجان وأبهر. وقَرَّر عليه خمسمائة ألف دينار محمولة إلى بيت المال في كلِّ سنة سوى أرزاقِ العساكر الذين بهذه البلادِ.

وفيها وصلت هدية أبي زُنبورٍ الحسين الماذَرائي من مصر، وفيها بغلةٌ معها فلو[1] يتبعها ويرضع منها وغلام طويل اللسان يلحق لسانه أرنبةَ أنْفِهِ!

وفيها قبض المقتدر على أمِّ موسى القهرمانة وكان سبب ذلك أنها زَوَّجَتْ ابنة أخيها من أبي العباس أحمد بن محمد بن إسحاق بن المتوكل على الله وكان يُرشَّحُ للخلافة، فلما صاهرته أكثرت من النِّثارِ[2] والدعواتِ وخَسَرتْ أموالاً جليلة، فتكلم أعداؤُها وسَعَوْا بها إلى المقتدر وقالوا: إنها قد سعت لأبي العباس في الخلافة، وحَلَفَت له القُوَّادُ، وكَثُر القولُ فيها، فقبض عليها وأخذ منها أموالاً جليلة وجواهر نفيسة، قال ابنُ الجوزي: صحَّ منها لبيت المال ألفُ ألفِ دينارٍ.

ودخلت سنةُ إحدى عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل حامد بن العباس
وولاية ابن الفرات

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر عَزَل المقتدرُ حامدَ بنَ العباسِ عن الوزارة، وعليَّ بن عيسى عن الدواوين، وخَلَع على أبي الحسنِ بنِ الفرات وأُعيد إلى الوزارة. وكان سبب ذلك أن المقتدر ضجر من استغاثة الأولاد والحُرم والخدم والحاشية من

(١) الفلو: الجحش أو المهر يعظم أو يبلغ السنة.
(٢) النِّثار: ما نثر في حفلات السرور من حلوى أو نقود.

تأخير أرزاقهم؛ فإن عليَّ بنَ عيسى كان يؤخِّرُها، فإذا اجتمع لهم عِدَّةُ شهورٍ أعطاهم البعضَ، وحطَّ من أرزاق العمال في كل سنةٍ شهرين وكذلك من أرزاقِ مَنْ له رِزْقٌ فزادت عداوةُ النَّاسِ له. وكان حامد بن العباس قد ضجر من المقام ببغداد وليس له من الأمر شيء غير لبس السواد، وأنِفَ من اطِّراح علي بنِ عيسى لجانبه؛ فإنه كان يهينه في توقيعاته بالإطلاق عليه لضمانه بعضَ الأعمال، فكان يكتب ليطلق جُنْدَ الوزير أعزّه الله، وليبادر نائب الوزير، وكان إذا شكا إليه بعضُ نُوَّابِ حامدٍ يكتب على القصة «إنما عُقِد الضَّمانُ على النائِب الوزيريِّ عن الحقوق الواجبةِ السلطانية فَلْيتقدم إلى عُمَّالِهِ بكف الظلم عن الرَّعِيَّةِ».

فاستأْذن حامدٌ وسار إلى واسط لينظر في ضمانه فأذنَ له، وجرى بين مُفْلحٍ الأسود وبين حامدٍ كلامٌ فقال له حامد: لقد هممت أن أشتريَ مائة خادم أسودَ أُسميهم مفلحًا وأهبهم لغلماني فحقدها مُفْلح - وكان خصيصًا بالمقتدر - فسعى معه المحسِنُ بنُ الفراتِ لوالده بالوزارة وضمن أموالاً جليلَة، وكتب على يده رقعة يقول إن سُلِّم إليه الوزيرُ وعليُّ بن عيسى وابن الحواري وشفيع اللؤلؤي ونصر الحاجب وأُم موسى القهرمانة والماذَرائيون[1] استخرج منهم سبعة آلاف ألفِ دينارٍ! وكان الحسن مطلقًا، وكان يواصل السِّعايةَ بهؤلاء الجماعة، وذكر ابنُ الفرات للمقتدر ما كان يأخذه ابنُ الحواري في كلِّ سنةٍ من المال فاستكثره.

فَقُبِضَ على عليِّ بنِ عيسى في شهر ربيع الآخر وسُلِّم إلى زيدان القهرمانة فحبسته في الحجرة التي كان ابن الفرات محبوسًا فيها، وأُطلق ابنُ الفرات وخُلِع عليه، وتولَّى الوزارةَ وخُلع على ابْنِهِ المحسنِ، وهذه الوزارة الثالثة لابن الفرات.

قال: وسيَّر ابنُ الفراتِ إلى واسط مَنْ يقبض على حامدٍ فَهَرب واختفى ببغداد، ثم إن حامدًا لبس زِيَّ راهب وخرج من مكانه الذي كان فيه ومشى إلى نصر الحاجب ودخل عليه وسأله إيصالَ حالِه إلى الخليفة إذا كان عند حرمه، فاستدعى نصر مُفْلحًا الخادم فلما رآه قال: أهلاً بمولانا الوزير أين مَماليكُ السودان الذين سمَّيْتَ كلَّ واحدٍ منهم مفلحًا؟ فسأله نصر أن لا يؤاخذه وقال له: حامد يسأل أن يكونَ محبسهُ في دارِ الخلافةِ ولا يُسَلَّم إلى ابن الفراتِ.

فدخل مُفلِحٌ وقال ضدَّ ما قيل له فأمر المقتدر بتسليمه إلى ابنِ الفرات، فأُرْسلَ إليه فحبسه في دارٍ حَسَنَةٍ وأجرى له من الطَّعام والكُسْوَة والطِّيب وغير ذلك ما كان له

(١) الماذرائيون: كتاب الطولونية بمصر أبو زينور وآله.

وهو وزير، ثم أحضره وأحضر الفُقَهاءَ والعمالَ وناظره على ما وصل إليه من المال وطالبه به، فَأقرَّ بجهاتٍ تُقارب ألف ألفِ دينارٍ، وضَمِنَه المحسنُ بنُ أبي الحسن بن الفرات الوزير من المقتدر بخمسمائة ألف دينار فسلّمه إليه فعذَّبه بأنواع الغذاب، وأنفذه إلى واسط مع بعض أصحابه ليبيع مالَه هناك، وأمرهم أن يسقوه سُمًّا فسقَوْه سُمًّا في بيض مشويّ كان طلبه، فأصابه إسهال فلما وصل إلى واسط أفرط القيام به. وكان قد تسلَّمه محمدُ بنُ علي البروجري فلما رأى حاله أحْضَرَ القاضيَ والشهودَ ليشهدوا عليه أنه ليس له في أمره صنع! فلما حضروا عند حامد قال لهم: إن أصحاب المحسن سَقَوْني سمًّا في بيضٍ مشوِيٍّ فأنا أموت منه وليس لمحمد في أمري صنع، لكنه أخَذَ قطعةً من أموالي وأمتعتي وجعل يحشوها في المساور وتباع المسورة[1] بمحضر من أمين السلطان بخمسةِ دراهم فبضع[2] من يشتريها ويحملها إليه فيكون فيها أمتعةٌ تساوي ثلاثة آلاف درهم، فاشهدوا على ذلك! وكان صاحب الخبر حاضرًا فكتب بذلك، ثم مات حامد في شهر رمضان من هذه السنة.

وصودر علي بن عيسى بثلاثمائة ألف دينار وعذَّبه المحسن بن الفرات وصفعه فأنكر عليه أبوه لأن عليًا كان محسنًا إليهم في أيام ولايته وأعطى المحسنَ في أيام نكبته عشرة آلاف درهم، فلم يَرْعَ له حقَّ إحسانِهِ. قال: ولما أدّى علي بن عيسى مال المصادرة سيّره ابنُ الفرات إلى مكة وكتب إلى أميرها أن يُسَيِّرَه إلى صنعاء، ثم قبضَ ابنُ الفراتِ على أبي عليِّ بن مُقْلة لأنه بلغه أنه سعى به أيامَ نكبته وتقلّد بعض الأعمال في أيام حامدٍ ثم أطلقه ابنُ الفرات.

وقبض أيضًا على ابن الحواري وكان خصيصًا بالمقتدر وسلمه إلى ابنه المحسن فعذَّبه عذابًا شديدًا ـ وكان المحسن وقحًا ظالمًا سيىء الأدب ذا قسوةٍ شديدة، وكان الناس يسمونه الخبيث بن الطيب، وسير ابن الحواري إلى الأهواز ليستخرج منه الأموال فضربه الموكَّلُ به حتى مات. وقبض أيضًا على الحسين بن أحمد ومحمد بن علي الماذرائيين فصادرهما على ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار، ثم صادر جماعة من الكتّاب ونكبهم. ثم إنّ ابن الفرات ـ خَوَّفَ المقتدر من مؤنسٍ الخادم وأشار عليه أن يُسيِّرَه إلى الشام فأخرجه عن الحضرة في يوم شديد المطر، ثم سعى بِنَصْرِ الحاجبِ وأطمع المقتدرَ في ماله وكثرته فالتجأ نصر إلى أم المقتدر فحمتْهُ من ابنِ الفرات.

---

(١) المسورة: متكأ من جلد؛ أو هي الوسادة.

(٢) بضع فلان: أتجر؛ وأبضع الشيء: جعله بضاعة.

وفيها غزا مؤنس المظفر بلادَ الروم فغنم وفتح حصونًا وغزا ثمال في البحر فغنم من السبي ألف رأس، ومن الغنم ألف رأس، ومن الذهب والفضة شيئًا كثيرًا.

وفيها دخل القرمطيُّ البصرة وقتل عاملها وأقام بها سبعة عَشْرَ يومًا يقتل وينهب ويأسر.

ودخلت سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة.

في هذه السنة ظهر في دار الخليفة إنسان أعجمي عليه ثيابٌ فاخرة وتحته مما يلي بَدنه قميصُ صوفٍ ومعه قَدَّاحةٌ وكبريتٌ ودواةٌ وأقلامٌ وسكينٌ وكاغد[١]، وفي كيسٍ سويقٌ وسكر وحبل طويل من القنَّب[٢]، فأُحضِر إلى ابن الفرات الوزير فسأله عن حالِهِ فقال: لا أُخبِر إلا صاحب الدارِ! فأمر بضربه ليقر فقال: بسم الله بدأتم بالشر! ولزم هذا القوْلَ ثم جعل يقول بالفارسية ما معناه «لا أدري» ثم أُمِرَ به فأُحرق، وأنكر ابنُ الفرات على نصرِ الحاجبِ هذا الحالَ وعظَّم الأمْر بَين يَدَي المقتدرِ ونسبه إلى أنه أخفاه ليقتل المقتدر، وتفاوضا فقال الحاجب: لِمَ أسعى في قَتْلِ أميرِ المؤمنين وقد رفعني من الثرى إلى الثريا؟ إنما يسعى في قَتْلِهِ مَنْ صادَره وأخذ أموالَه وضياعه وأطال حَبْسَه!

وفيها أخذ القرمطي الحاجَّ بعد عودتهم من الحجاز ـ وكان لأبي الهيجاء طريقُ مكة ـ فسار إلى القرمطي فأوقع به، وأُسِر أبو الهيجاء وأحمدُ بن كشمرد ونحريرٌ وأحمد بنُ بدر عمُّ والدة المقتدر وغيرُهم، وأخذ القرمطِي جمال الحاجِّ جميعها وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان، وعاد إلى هَجَر[٣] وترك الحاجَّ في مواضِعِهم فمات أكثرُهُم جوعًا وعطشًا، فاجتمع حرم المأخوذين إلى حرم المنكوبين الذين نكبهم ابنُ الفراتِ وجعَلْنَ ينادين: القرمطي الصغير قَتَلَ المسلمين بطريقِ مكة والقرمطي الكبير قتل المسلمين ببغداد! وشَنَّعُوا عليه وكَسَرَ العامَّةُ منابرَ الجوامِع وسَوّدوا المحاريبَ يوم الجمعةِ لِستٍّ خَلَوْن من صفرٍ، فَضَعُفَت نفسُ ابنِ الفراتِ وحَضَر عند المقتدر ليأخذَ أمْرَه فيما يصنع.

---

(١) الكاغد: الورق.

(٢) القنب: نبات حولي زراعي ليفي من الفصيلة القنبية، تفتل لحاؤه حبالاً.

(٣) هجر: بفتح أوله وثانيه: قال ابن الحائك: الهجر بلغة حمير والعرب العارية القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر حصنة من مخلاف مازن.. وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر... (معجم البلدان).

وحضَرَ نَصْرٌ الحاجبُ المشورةَ فانبسط لسانُه على ابنِ الفرات وقال: الساعة تقول: أي شيء نصنع وما هو الرأيُ بعد أن زعزعتَ أركانَ الدولة وعرضتَها للزوالِ؛ في الباطِنِ بالميل مع كل عَدُوٍّ يظهر ومكاتبتِه ومُهَاداتِه، وفي الظاهر بإبعادِك مؤنسًا ومن معه إلى الرَّقَّةِ وهم سيوف الدولة، فمن يدفع الآنَ هذا الرجُلَ إذا قَصَدَ الحضرةَ أنت أم ولدك؟ وقد ظهر الآن مقصودُكَ بإبعادِ مؤنسٍ وبالقبض عليَّ وعلى غيري، أن تستضعَف الدولةَ وتُقَوِّي أعداءها لتشفي غيظَك مِمَّنْ صادَرَك وأخذ أموالَك! ومن الذي سلَّم النَّاسَ إلى القرمطي غيرُك لما يجمع بينكما من التَّشَيُّع والرَّفْضِ؟ وقد ظهر أيضًا أنَّ ذلك العجمي من أصحاب القرمطي وأنت أوصلته! فَحَلَفَ ابنُ الفراتِ أنه ما كاتب القرمطي ولا هَادَاه ولا رأى ذلك الأعجمي إلا تلك الساعةَ، والمقتدرُ مُعْرِض عنه. وأشار نَصْرٌ على المقتدر بالله أن يحضر مؤنسًا ومن معه فَفَعل ذلك، وكتب إليه بالحضورِ ففعل وسارع، وقام ابنُ الفراتِ فركب فَرَجَمَهُ العامَّةُ، ثم وصل مؤنسٌ المظفر إلى بغدادَ، ولما رأى المحسنُ. ابن الفرات انحلالَ أُمورهم أخذ كل من كان محبوسًا فقتله، لأنه كان قد أخذ منهم أموالاً جليلةً ولم يوصلها إلى المقتدر فخاف أن يقروا عليه بما أخذه منهم.

ذكر القبض على ابن الفرات الوزير وولده المحسن

قال: ثم كثر الإرجافُ[1] على ابن الفراتِ فكتب إلى المقتدر يُعَرِّفه بذلك، وأن الناس إنما عادوه لشفقتِهِ ونُصْحِهِ وأَخْذِ حقوقِه منهم فأنفذ المقتدرُ إليه يُسَكِّنه ويطيِّبُ قلبه فركِبَ هو وولدُه إلى المقتدر فطيّب قلوبهما، وخرجا من عنده فمنعهما نَصْرٌ الحاجبُ ووكل بهما، فدخل مُفْلح على المقتدر وأشار عليه بتأخير عَزْلِه فأمر بإطلاقهما فخرجا، فأما المحسن فإنه اختفى، وأما الوزير فإنه جلس عامَّة نَهارِه يقضي الأشغال إلى الليل ثم بات مفكرًا، فلما أصبح سمع بعض خدمه ينشد:

وأَصْبَحَ لا يدرِي وإن كان حازمًا ... أقُدَّامَه خيرٌ له أم وراءه

فلما ارتفع النهار وهو الثامنُ من شهر ربيع الأول أتاه نازوك ويلبق في عدة من الجند فدخلوا عليه وهو عند حرمه فأخرجوه حافيًا مكشوفَ الرأس فألقى عليه يلبقُ طيلسانًا غَطَّى به رأسَه وحُمل إلى طيَّارٍ فيه مؤنسٌ المظفر ومعه هلال بن بدر فاعتذر

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

إليه ابن الفرات وألان كلامَه له فقال له: أنا الآن الأُستاذُ وكنتُ بالأمس الخائنَ الساعيَ في فساد الدَّوْلة وأخرجتني والمطرُ على رأْسي ورؤوس أصحابي ولم تُمْهلني! وسُلِّم إلى شفيعِ اللؤلؤي فَحُبِسَ عنده، وكانت مدَّةُ وَزارتِه هذه عَشْرةَ أشْهُرٍ وثمانيةَ عشرَ يومًا، وأُخِذَ أصحابُه وأولادُه ولم يَنْجُ منهم إلا المحسن، وصودر ابنُ الفراتِ على ألف ألف دينارٍ.

ذكر وزارة أبي القاسم الخاقاني

قال: ولما تَغَيَّر حالُ ابنِ الفرات سَعى عبدُ الله بن أبي علي محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان في الوزارة، وكتب خطهُ أنه يتكفَّل ابنُ الفرات وأصحابه بمصادرةِ ألفي ألْف دينارٍ. وسعى له مؤنس الخادم وهارون بن غريبِ الخال ونصر الحاجب فتولى أبو القاسم الوزارة في تاسع شهر ربيع الأول، وكان المقتدر يكرهه فلما سمع ابن الفرات وهو محبوس بولايته قال: الخليفة هو الذي نُكب لا أنا! يعني أن الوزير عاجزٌ لا يعرف أمر الوزارة، ولما ولي الخاقانيُّ شَفَعَ إليه مؤنسٌ الخادم في إعادة عليٍّ بن عيسى من صنعاء إلى مكةَ، فكتب بإعادته وأذِن له في الاطِّلاع على أعمال مصر والشام.

ذكر مقتل ابن الفرات وولده

قال: كان المحسنُ بنُ الوزيرِ أبي الحسن بن الفرات مختفيًا كما ذكرنا، وكان عند حماته خنزابة ـ وهي والدة الفضل بن جعفر بن الفرات ـ وكانت تأخذه كلَّ يوم وتتوجَّهُ به إلى المقبرة في زِيِّ النِّساء وتعود به إلى المنازل التي تثق بها، فمضت به يومًا إلى مقابر قريش. وأدركها اللَّيْلُ فبعدت عليها الطريق وأشارت عليها امرأةُ معها أن تَقْصِدَ امرأةً صالحةً تعرفها بالخير، فأخذته وقصدت به تلك المرأة وقالت لها: معنا صبيةٌ بنت بكر نريد منك بيتًا تكون فيه! فأمرتهم بالدُّخول إلى بيتها وسَلَّمتْ إليهم قُبَّةً في الدار، فأدخلوا المحسنَ إليها، وجلس النساء الذين معه في صَفِّه أمام القبة، فجاءت جاريةٌ سوداءُ فرأت المحسنَ فأخبرت مولاتها أنَّ في الدار رجلًا، فجاءت المرأةُ صاحبة الدار فرأته وعرفته ـ وكان المحسن قد أخذ زَوْجَها ليصادِره فلما رأى الناس يعذبون في داره مات فجأة ـ فلما رأت المرأةُ المحسنَ ركبت في سفينة وقصدت دار الخليفة وقالت عندي نصيحة.

فأحضرها نصر الحاجبُ فأخبرته الخبر فطالع به المقتدر، فأمر صاحب الشرطة أن يسير معها فسار معها إلى منزلها أخذ المحسن وجاء به إلى المقتدر، فبعث به إلى دار الوزارة فَعُذِّب بأنواعِ العذابِ ليجيب إلى مالٍ يحمله فقال: لا أجمع بين الروح والمال! فأمر المقتدر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة فقال الوزير أبو القاسم لمؤنسٍ وهارون بن غريبِ الخالِ ونصرِ الحاجب: إنْ نُقِل ابنُ الفرات إلى دار الخلافة بَذَلَ أموالَه وأطمع المقتدرَ في أموالنا وضَمِنَنا منه وتسلَّمنَا فأهلكنا! فوضعوا القواد والجُنْدَ وقالوا: لا بُدَّ من قَتْلِ ابنِ الفرات وولده فإننا لا نأمن على أنفسنا ما داما في الحياة! فأمر المقتدرُ نازوكَ بقَتْلهما فبدأ بقتل المحسن فَذَبحه كما تُذْبَحُ الشاةُ وحَمَلَ رأسه إلى أبيه فارتاع لذلك، ثم عَرض أبوه على السَّيْف فقال: راجعوا في أمري فإنَّ عندي أموالاً جمَّةً وجواهر كثيرة، فقيل له جَلَّ الأمر عن ذلك. ثم ذُبح في يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الآخر منها، وكان عمره إحدى وسبعين سنةً وعمُرُ وَلَدِه ثلاثًا وثلاثين سنةً وحمِلَ رأساهما إلى المقتدر فأمر بتغريقهما.

ولما قتلا ركب هارونُ بنُ غريبِ الخال مسرِعًا إلى الوزير الخاقاني وهنأه بقتلهما فأُغْمِي عليه حتى ظَنَّ هارونُ ومَنْ هناك أنه مات، وصرخ عليه أهْلُه، ثم أفاق من غَشْيَتِه وأعطى هارونَ ألْفَيْ دينار. وشفع مؤنس في ابنَيْ ابنِ الفرات عبد الله وأبي نصر فأُطْلِقا له، فخلع عليهما ووَصلهما بعشرين ألف دينار من ماله.

قال: وكان ابنُ الفرات كريمًا ذا رياسة وكفاية في عمله، حسن السؤال والجواب، وكان مصطنعًا للناس؛ فإنَّ جميع كتَّابه الذين اصطنعَهُم صاروا وزراءَ. وكان يَسْتَغلُّ من ضِياعِه في كلِّ سنة ألْفَي ألْفِ دينارٍ وينفقها، وكان إذا وَزَرَ غلا الشَّمْعُ والكاغد والسكر والكافور[1] لكثرة استعماله لذلك! وكان يجري على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوتات والفقراء، قال الصولي[2]: ومن فضائله التي لم يُسْبَقْ إليها أنه كان إذا رُفِعَتْ له قضيةٌ فيها سِعايةٌ بأحدٍ خرج من حضرته غلامٌ فينادي. ابن فلانٌ بنُ فلانِ الساعي! فامتنع النَّاسُ من السِّعاية بأحد، ولم يكن فيه ما يعاب إلا

---

(١) الكافور: اسم لصمغ شجرة هندية تكون بتخوم سرنديب وآسية وما يلي المحيط كجزائر معلقة. وتعظم حتى تظل مائة فارس، خشبها سبط شديد البياض خفيف ذكي الرائحة وليس لها زهر ولا حمل. والكافور إما متصاعد منها إلى خارج العود ويسمى الرياحي لتصاعده مع الريح.. وإما مختلط بالخشب غليظ خشن الملمس فيه زرقة ما ويسمى الأزرار والأزاد... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٢) هو أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي.. كانت وفاته سنة ٣٣٥هـ.

أنَّ أصحابه كانوا يفعلون ما يريدون ويظلمون فلا يمنعهم؛ فمن ذلك أن بعضهم ظلم امرأةً في مِلْكٍ لها فكتبت إليه تشكو غير مرة ولا يردّ لها جوابًا فلقيته يومًا فقالت: أسألك بالله أن تسمع كلامي! فوقف لها فقالت: قد كتبت إليك في ظُلامتي غَيْرَ مرةٍ فلم تُجِبْني وقد تركتك وكتبتها إلى الله تعالى! فلما رأى تَغَيُّرَ حالِه قال لمن معه: قد خرج جوابُ رقعةِ تلك المظلومةِ.

وفي هذه السنة دخل أبو طاهر القرمطيّ الكوفة وأقام بها ستةَ أيام يقيم بالجامع نهارًا فإذا أمْسَى خرج إلى عَسْكَرِه وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال وغيرها وعاد إلى هَجَر، ولم يحج في هذه السنة أحد.

وفيها ظهر عند الكوفة رجلٌ ادعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وهو رئيس الإسماعيلية وجمع جَمعًا عظيمًا من الأعرابِ وأهلِ السَّوَاد واستفحل أمْرُه في شوال، فَسُيِّر إليه جيش من بغداد، فقاتلوه وظفِروا به وانهزم وقُتل كثيرٌ ممَّن معه.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة ووزارة أبي العباس الخصيبي

في هذه السنة في شهر رمضان، عزل أبو القاسم الخاقاني عن الوزارة. وكان سبب ذلك أنَّ أبا العباس الخصيبي عَلِمَ مكان امرأة المحسن بن الفرات فسأل أن يتولى النَّظَرَ في أمرها فأذِنَ له المقتدرُ في ذلك، فاستخلص منها سبعمائةَ ألف دينارٍ إلى المقتدر، وصار له معه حديث. فخافه الخاقاني فوضع من وقع عليه وسَعى به فلم يُصْغِ المقتدر إلى ذلك، فلما علم الخصيبي بالحال كتب إلى المقتدر يذكر معائب الخاقاني وابنهِ عبد الوهاب وعجزَهما وضياعَ الأموال وطمع العمال. ثم مرض الخاقاني مرضًا شديدًا وطال به، فوقفت الأحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل المقتدر إليه في ذلك فلم يقدر على شيء فعزله، واستوزر أبا العباس وخلع عليه. وكان يكتب لأُم المقتدر قبل ذلك، ولما ولي أقر عليَّ بن عيسى على الإشراف على أعمال مصر والشام فكان يتردد من مكة إليهما في الأوقات.

وفيها كتب مِلِكُ الرُّوم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذريّة، وقال: إنني صَحَّ عندي ضعف وُلاتِكم! فلم

يفعلوا ذلك، فسار إليهم وأخرب البلاد، ودخل مَلَطْيَةَ[1] في سنة أربعَ عشرة وثلاثمائة؛ فأخربها وسبى ونهب، وأقام بها ستةَ عشر يومًا.

ودخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل أبي العباس الخصيبي ووزارة عليّ بن عيسى

في هذه السنة في ذي القعدة عَزَل المقتدرُ أبا العباس الخَصيبي عن الوزارة، وسبب ذلك أنه أضاق إضاقةً شديدة. ووقفت أمورُ السلطان، واضطرب أمْرُ الخَصيبي، وكان حين وَلِي الوزارة قد اشتغَل بالشرب كلَّ ليلةٍ ويصبح وهو سكرانُ لا فَضْلَ فيه لعمل. وكان يترك الكتبَ الواردةَ عليه من العمال، فلا يقرؤها إلا بعد مُدَّةٍ ويُهْملُ الأجوبةَ عنها فضاعت الأموال وفاتت المصالح، ثم وكَلَ الأمور إلى نُوّابِه وأهمل الاطِّلاعَ عليهم فباعوا مصلحتَه بمصلحة نفوسهم.

فلما صار الأمر إلى هذهِ الصورةِ أشار مؤنس المظَفرُ بعزله وتَوْلية عليٍّ بنِ عيسى، فقُبض عليه، فكانت وزارتُه سنة وشهرين، وأُخِذَ ابنُه وأصحابُه فَحُبِسوا. وأرسل المقتدر يستدعي عليَّ بن عيسى، وأمر أبا القاسم عبيد الله بن محمد الكلوذانيّ بالنيابة عن علي إلى أن يحضر وقدم عليٌّ بغداد في أوائل سنة خمسَ عشرةَ، واشتغل بأُمور الوزارة، ولازم النظر فيها. فمشت الأُمور واستقامت الأحوال. وكان قد اجتمع عندَ الخَصيبي عِدَّةٌ من رِقاع المصادَرين وكفالات من كفل منهم وضماناتِ العمال بما ضمنوا من الأموال بالسَّواد وفارس والأهواز والمغرب، فنظر فيها وأرسل في طلب الأموال فأتته شيئًا بعد شيء فأدَرَّ الأرزاق وأخرج العطاءَ، وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح، ومن أولاد المرتزقة مَنْ هو في المهد. . فإنَّ آباءهم أثبتوا أسماءهم! ومن أرزاق المغنين والمساخرة[2] والصَّغاغنة[3] والندماء. وتولى الأعمال بنفسِه ليلاً ونهارًا، فاختار الكفاة[4] من العمال واستعملهم في الولايات. وأمره المقتدرُ بالله بمناظرة أبي العباس الخصيبي، فأحضره، وأحضر الفقهاء والقضاة والكُتَّابَ وغيرَهم

---

(١) ملطية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الطاء، وتخفيف الياء: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين. . . (معجم البلدان).
(٢) المساخرة: الذين يسخرون منه ويضحكون.
(٣) الصغاغنة: ضرب من الملاهي.
(٤) المراد بالكفاة: الأكفاء.

فسأله عما صَحَّ من الأموال والمصادرات والبواقي القديمة وغيرِ ذلك فقال: لا أعلم! وما أجاب عن شيء، فأنْكَر عليه كَوْنهُ دخَلَ في الوزارة وهو لا يعرفها، ووبّخه توبيخًا كثيرًا.

وفيها في شهر ربيع الأول خرجت الروم إلى ملَطْية وما يليها مع الدُّمستق ومعه مليح الأرمني صاحب الدروب، فحصروا ملطية ودخلوا الرَّبَض فقاتلهم أهله وأخرجوهم منه، فلم يظفروا من المدينة بشيء، وخرّبوا قرى كثيرةً من قُراها، ونبشوا الأموات ومثّلوا بهم ثم رحلوا، وقصد أهلُ ملَطْيَة بغدادَ مستغيثين فلم يُغاثوا، فعادوا إلى بلدهم بغير مقصودٍ!.

ودخلت سنة خمس عشرةَ وثلاثمائة.

ذكر ابتداء الوحشة بين المقتدر بالله وبين مؤنس

في هذه السنة هاجت الرُّوم وقصدوا الثغور ودخلوا شمْشَاط[١] وغنموا جميع ما فيها من مالٍ وسلاح وغير ذلك، ودقُّوا الناقوسَ[٢] في الجامع ثم خرج المسلمون في أثَرِ الروم فقاتلوهم وغنموا منهم غنيمة عظيمة، فأمر المقتدر بالله بتجهيزِ العساكرِ مع مؤنسٍ المُظَفَّرِ، وخَلَع عليه في شهر ربيع الآخر ولم يبق غير الوداع، فامتنع مؤنسٌ من الدخول إلى دار الخليفة واستوحش من المقتدر بالله وظهر ذلك. وكان قد أتاه بعض خُدَّام المقتدر وقال له: إنَّ الخليفة أمر خَواصَّ خَدَمِه أن يحفروا جُبًّا[٣] في دارِ الشجرةِ ويُغطُّوه بِبُرَايَةٍ[٤] وتراب فإذا حضرتَ أُلقيتَ فيه وخُنِقت!

فامتنع وركب إليه جميعُ الأجنادِ وفيهم عبدُ اللّهِ بن حمدان وإخوتُه وخلت دار المقتدر بالله، وقالوا لمؤنس: نحن نقاتل بين يديك حتى تَنْبُتَ لك لحيةٌ! فوجَّه المقتدرُ رقعةً بخَطِّه يحلف أنه ما أراد به سوءًا، فصرف مؤنسٌ الجيش وكتب الجواب أنه العبد المملوك، وأنَّ الذي أبلغه ذلك قد كان وضعه مَنْ يريد إيحاشه «من مولانا» وأنه ما استدعَى الجند وإنما هم حضروا وقد فرَّقَهُم!

---

(١) شمشاط: مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها حز قبرخت... (معجم البلدان).

(٢) الناقوس: مضراب النصارى الذين يضربونه إيذانًا بحلول وقت الصلاة.

(٣) الجبّ: البئر.

(٤) البراية: ما تساقط من كل ما بري أو نحت. أو حثالة القوم.

ثم قَصَد دارَ الخليفةِ في جميع القُوَّاد ودخل إليه وقَبَّل يده وحلَف له المقتدر على صفاء نيته له وَوَدَّعه وسار إلى الثَّغر وخرج لوداعه أبو العباس بن المقتدر والوزير عليُّ بنُ عيسى.

وفيها قَتَل أبو طاهرِ القرمطيُّ يوسفَ بنَ أبي السَّاج في وَقْعَةٍ كانت بينهما. وكان يوسف قد نُدِبَ لقتال القَرامطةِ فأسره القرمطي، ثم قَتَله.

وفيها سار الدمستق في جيش عظيم من بلاد الروم إلى مدينة ديبل[1] وبها نصر السبكي في عسكر يحميها وكان مع الدمستُق دبَّاباتٌ ومجانيقُ[2]، فحاصروا المدينةَ ونَقَبُوا السُّور ودخلوها فقاتلهم أهلُها ومَنْ فيها قتالاً شديدًا، فانتصر المسلمون وأخرجوا الرُّومَ منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل.

ودخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل علي بن عيسى عن الوزارة ووزارة أبي عليّ بن مقلة

في هذه السنة عُزِلَ عليُّ بنُ عيسى عن وزارة الخليفة ورُتِّب فيها عليُّ بنُ مقلةَ، وكان سبب ذلك أن عليًا لما رأى نَقْص الارتفاع واختلالَ الأعمالِ بوزارة الخاقانيِّ والخَصيبي وزيادةَ النفقات اسْتعْفى من الوزارة واحْتَج بالشيخوخة وقِلَّةِ النَّهْضَةِ، فأمره المقتدر بالصَّبر وقال له: أنت عندي بمنزِلَةِ والدي المعتضد! فألَحَّ في الاستعفاء، فشاور المقتدرُ مؤنِسًا في ذلك فأشار بمداراتِه وإبقائه. ثم لقي مؤنسٌ الوزير ولاطَفه وسكَّنه فأبى إلا العَزْل، وبلغ الخبر ابن مقلةَ فَسَعَى وضَمِن الضمانات الكثيرةَ وواصل بالهدايا واستمال نَصْرًا الحاجبَ، فساعده عند المقتدر، فأمر في نصف شهر ربيع الأول بالقَبْض عَلَى عليِّ بن عيسى وأخيه عبد الرحمٰن، وخلع على أبي علي بنِ مقلة واستوزره وأعانه عليها أبو عبد الله البريدي لمودَّةٍ كانت بينهما.

ذكر الحرب بين نازوك وهارون بن غريب الخال واستيحاش مؤنس

في هذه السنة وقعت الفتنةُ بين نازوك ـ صاحبِ الشرطة ـ وهارون بن غريبٍ، وأدّت إلى خَلْع المقتدر. وسبب ذلك أنَّ ساسةَ دوّابِّ هارون وساسةَ دوّابِّ نازوك

---

(١) ديبل: مدينة قريبة من السند.

(٢) المجانيق: جمع المنجنيق: هي آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة.

تغايروا[1] على غلام أمرد[2] وتضاربوا بالعِصيِّ، فضرب نازوكُ ساسةَ هارون وحبسهم. فسار أصحاب هارون إلى مجلس الشرطة، ووثبوا على نائب نازوك وانتزعوا أصحابهم من الحبس، فركب نازوك وشكا إلى المقتدر بالله فقال: كلاكما عزيزٌ ولست أدخل بينكما!

فعاد وجمع رجاله وجمع هارون رجاله، وزحف أصحاب نازوك إلى دار هارون فأغلق بابه، وبقي بعضُ أصحابه خارجَ الدار فقَتَّلَ فيهم أصحابُ نازوك وجرحوا. ففتح هارونُ الباب، وخرج أصحابُه فوضعوا السلاح في أصحاب نازوك، فقتلوا منهم وجرحوا، واشتبكت الحربُ بينهم. وأرسل المقتدرُ ينكر عليهما ذلك فكَفًّا، وسكنتِ الفتنةُ، واستوحش نازوك. ثم ركب إليه هارون وصالحه، وخرج بأصحابه ونزل بالبستان النجمي ليبعد عن نازوك، فأكْثَرَ النَّاسُ الأراجيف وقالوا: قد صار هارونُ أميرَ الأمراء!

فعظم ذلك على أصحاب مؤنسٍ وكتبوا له بذلك وهو بالرَّقَّة، فأسرع العَوْدَ إلى بغداد، ونزل بالشَّمَّاسية في أعلى بغداد. ولم يلْق المقتدرَ فصعد إليه أبو العباس بن المقتدر والوزير ابنُ مقلةَ فأبلغاه سلام المقتدرِ واستيحاشَه له ثم عادا واستشعر كلٌّ من المقتدرِ ومؤنسٍ من صاحبه فأحضر المقتدر هارونَ بنَ غريبِ الخالِ ـ وهو ابنُ خالِه ـ فجعله معه في داره. فلما علم مؤنسٌ بذلك ازداد نُفورًا واستيحاشًا وأقبل أبو الهيجاء بن حمدان من بلاد الجبل في عسكر كبير فنزل عند مؤنسٍ وترددتِ المراسلاتُ من الخليفة إلى مؤنسٍ، وانقَضَتِ السَّنَةُ وهم على ذلك.

ودخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

ذكر خلع المقتدر بالله وبيعة القاهر

في هذه السنة خُلِعَ المقتدرُ بالله من الخلافة وبويع أخوه القاهرُ بالله محمدُ بنُ المعتضد، فبقي يومين ثم أُعيد المقتدرُ بالله. قال: ولما نزل مؤنس باب الشَّمَّاسِية وانضم إليه ابنُ حمدانَ ونازوك صاحبُ الشرطة وغيرُهما جمع المقتدر عنده هارونُ بن غريب وأحمد بن كيْغَلَغ والغلمان الحجرية والرجّالة المصافية وغيرُهم. فلما كان آخر النهار مستهلَّ المحرم انفضَّ أكثر مَنْ عند المقتدرِ، وخرجوا إلى مؤنسٍ. ثم كتب إلى

(١) المراد بقوله: تغايروا: تبادلوا.
(٢) الأمرد: الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته.

المقتدر رقعةً يذكر أنَّ الجيشَ عاتبٌ منكر للسَّرَف فيما يطلق باسم الخَدمِ والحُرمِ من الأموال والضياع، ولدخولهم في الرَّأْيِ وتدبير المملكة، ويطالبون بخروجهم من الدار وأخْذِ ما في أيديهم من الأموال والأملاك، وإخراج هارون بنِ غريبٍ من الدار. فأجابه المقتدرُ أنه يفعل من ذلك ما يمكنه ويقتصر على ما لا بُدَّ له منه، واستعطفه وذكره ومَنْ معه بِبَيْعته التي في أعناقِهم مرةً بعد أخرى وخَوَّفَهم عاقبة النكث. وأمر هارون أن يخرجَ من بغداد وأقطعه الثغور الشامية والجزيرية فخرج في تاسع المحرم، فعندها دخل مؤنس وابن حمدان ونازوك إلى بغدادِ، وأرجف[١] النَّاسُ أن مؤنِسًا ومَنْ معه قد عزموا على خلع المقتدر.

فلما كان في الثاني عشر من المحرم خرج مؤنس بالجيش إلى باب الشماسية فتشاوروا ساعةً ثم زحفوا بأسرهم إلى دار الخليفة، فلما قربوا منها هرب المُظَفَّرُ بنُ ياقوت الحاجب وسائرُ الحُجَّابِ والخدم والوزير ابنُ مُقْلةٍ، ودخل مؤنسٌ والجيشُ إلى دار الخليفة وأخرج المقتدرَ ووالدته وخالتَه وخواصَّ جواريه وأولاده من دار الخلافة، وحُمِلوا إلى دار مؤنسٍ واعتُقلوا بها. وبلغ الخبر هارون وهو بِقُطْرَبُّل[٢] فدخل بغداد واستتر، ومضى ابنُ حمدانَ إلى دار ابنِ طاهرٍ فأحضر محمدَ بنَ المعتضد وبايعوه بالخلافةِ ولقَّبوه القاهرَ بالله، وأحضروا القاضي أبا عمر عند المقتدر ليشهدوا عليه بالخَلْعِ وعنده مؤنسٌ ونازوكُ وابنُ حمدان وبُنَيُّ بنُ يعيش فقال مؤنسٌ للمقتدر ليخْلَعَ نَفْسَه من الخلافةِ فأجاب وأشْهَدَ عليه القاضيَ بالخلع، فقام ابنُ حمدان وقال للمقتدر: يا سيدي يعزُّ عليَّ أن أراك على هذه الحالِ وقد كنتُ أخافُها عليكَ وأحْذَرُها وأنْصَحُ لك وأُحَذِّرُك عاقبةَ القبول من الخدم والنساء فتؤثر أقوالَهم على قولي، وكأني كنت أرى هذا، وبعدُ فنحنُ عبيدُك وخَدَمُك! ودمعت عيناه وعينا المقتدر وشهد الجماعةُ على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب عند القاضي أبي عمر فكتمه ولم يظهر عليه غيره. فلما عاد المقتدر إلى الخلافة سلَّمه إليه وأعلمه أنه ما أطْلَعَ عليه أحدًا، فاستحسن ذلك منه، وولاَّه قضاءَ القضاة.

قال: ولما اسْتَقَرَّ أمْرُ القاهرِ باللّهِ أخرج مؤنسٌ المظفرُ عليَّ بنَ عيسى من الحبس وأقرّ أبا عليٍّ بن مقلةَ على وزارته، وأضاف نازوك مع الشرطة حَجَبَةَ الخليفة

---

(١) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) قطربل: بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة، ولام: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزهًا للبطالين وحانة للخمارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. . . (معجم البلدان لياقوت).

وأقطع ابنَ حمدان مُضافًا إلى ما بيده من أعمال طريق خرسانَ حُلوانَ[١] والدِّينَوَر وهمَذان وكِنكور[٢] وكرمان شاهان[٣] والراذانات ودقوقا[٤] وخانيجار[٥] ونهاوند والصيمرة[٦] والسَّيْرَوَان[٧] وماسبَذَان[٨] وغيرها. ونُهِبَتْ دار الخليفة ومضى بُنَنيُّ بن يعيش إلى بَرِيَّةٍ لوالدة المقتدر فأخرج من قبرٍ فيها ستمائة ألفِ دينارٍ وحَملَها إلى دار الخليفة. وكان خَلْعُ المقتدر للنصف من المحرم منها، ثم سَكَن النَّهْبُ وانقطعت الفتنةُ.

قال: ولما تَقَلَّد نازوكُ حجبةَ الخليفة أمر الرجّالة المصافية[٩] بِقَلْع خيامِهِم من دارِ الخليفةِ وأن لا يَعْبُرَ الدار إلا مَنْ له وَطَرٌ، وأَمَرَ رجالَه وأصحابَه أنْ يقيموا مقام المصافية، فعظم ذلك عليهم وتقدم إلى خلفاءِ الحُجَّاب أن لا يمكِّنوا أحدًا أن يدخُلَ إلى دارِ الخليفة إلا مَنْ كانت له مرتبةٌ، فاضطرب الحجريةُ من ذلك.

ذكر عود المقتدر بالله إلى الخلافة وقتل نازوك وابن حمدان

قال: ولما كان في يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكَّر النَّاسُ إلى دار الخلافة لأنه يوم موكبٍ ودولةٍ جديدةٍ، فامتلأت الممراتُ والرِّحابُ وشاطىء دجلة من الناس، وحضر الرجالة المصافيةُ في السلاح يطالبون بِحَقِّ البيعةِ ورزقِ سنةٍ وهم حَنِقون لما فعل بهم نازوك، ولم يحضر مؤنس المظفَّر ذلك اليومَ. وارتفعت الأصواتُ وزعقاتُ الرِّجالِ، فسمعها نازوكُ فأشفق أن يقعَ بينهم وبين أصحابِه فتنةٌ وقتال. فأمر أصحابه أن لا يتعرَّضُوا لهم ولا يقاتلوهم، فزاد شَغَب الرجالة وهجموا يريدون الصَّحْنَ التسعيني، فلم يمنعهم أصحابُ نازوك. ودخل مَنْ كان على الشَّطِّ بالسِّلاح، وقويت زعقاتُهم من مجلس القاهر بالله وعنده الوزير ابنُ مقلةَ ونازوكُ وأبو الهيجاءِ بن

(١) حلوان: مدينة في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.
(٢) كنكور: بليدة بين همذان وقرميسين.. بها قصر عجيب يقال له قصر اللصوص.
(٣) كرمان شاه: يراد بها قرميسين، وهي بلدة قرب الدينور.
(٤) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد.
(٥) خانيجار: بليدة قرب دقوقا بين بغداد وإربل.
(٦) الصيمرة: وهي بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان، بها نخل وزيتون وفواكه وثلج.
(٧) السيروان: بلد أو كورة بالجبل.
(٨) ماسبذان: قرب حلوان والصيمرة... (معجم البلدان).
(٩) المصافية: فرقة من فرق الحرس.

حمدان، فقال القاهر لنازوك: اخرج إليهم فسكِّنْهم وطيِّبْ قلوبهم! فخرج إليهم نازوك وهو مخمور قد شرب طول ليلته، فلما رآه الرجالة تقدموا إليه ليشكوا إليه حالَهم بسببِ أرزاقهم فخافهم على نفسه وهرَب منهم، فطمعوا فيه وتبعوه، فانتهى به الهربُ إلى باب كان هو سَدَّه بالأمس فقتلوه عنده، وقتلوا خادمه عجيبًا وصاحوا: مقتدِرُ يا منصورُ! فهَرب كلُّ مَن كان في الدَّارِ من الوزير والحجَّاب وسائرِ الطبقات وبقيت الدار فارغةً. وصلبوا نازوك وعجيبًا بحيث يراهما مَنْ على شاطىء دجلة، ثم صار الرجَّالةُ إلى دار مؤنس يصيحون ويطالبونه بالمقتدر بالله. وبادر الخَدَمُ فأغلقوا أبوابَ دارِ الخليفةِ وكانوا جميعًا خَدَمَ المقتدرِ ومماليكه وصنائعه.

وأراد ابنُ حمدانَ الخروجَ من الدار فَتَعَلَّقَ به القاهرُ وقال: أنا في ذمامك فقال: والله لا أُسَلِّمك أبدًا! وأخذ بيده وقال: قم بنا نخرجْ جميعًا، وأدعو أصحابي وعشيرتي فيقاتلون دونك! فقاما ليخرجا فوجدا الأبواب مغلقةً ومعهما فائقٌ المعروفُ بِوجْهِ القَصْعَةِ، فأشرف القاهرُ من سطحٍ فرأى كثرةَ الجمْع، فنزل هو وابنُ حمدان وفائقٌ فقال ابن حمدان للقاهرة: قِفْ حتى أعود إليك! ونزع سوادَه وثيابه وأخذ جُبَّةَ صوفٍ لغلام هناك فلبسها ومشى نحو باب النوبيّ فرآه مغلَقًا والناسُ حوله. فعاد إلى القاهر وتأخر عنهما وجه القصعة، وأمر مَنْ معه من الخدم بقتلهما أخْذًا بِثَأْرِ المقتدرِ وما صنعا به، فعاد إليهما عشرةٌ من الخدم بالسِّلاح، فعاد إليهم أبو الهيجاءِ وسَيْفُه بِيَدِه فقاتلهم فقتلوه، وهرب القاهرُ إلى آخر البستان واختفى.

وأما الرجَّالة فإنهم لما انْتَهوْا إلى دارِ مؤنسٍ وسمع زعقاتِهم قال: ما الذي تريدون؟ قالوا: نريد المقتدر! فأمر بتسليمه إليهم فامتنع المقتدرُ من ذلك وخاف أن تكونَ حيلة، فَحُمِلَ وأُخْرِج إليهم فحملوه على أعناقِهم حتى أدخلوه دار الخلافةِ. فلمَا حصَلَ في الصَّحْنِ التسعيني اطمأنَّ وجلس وسأل عن أخيه القاهر وعن ابن حمدان فقيل إنهما حيّان فأمَّنَهما بخَطِّه، وأمر خادمًا بالسُّرْعة بكتاب الأمان لئلا يحدث على أبي الهيجاء حادثٌ، فمضى بالخط إليه فلقيه خادمٌ ومعهُ رأسُه فرجع به إلى المقتدر، فلما رآه استرجع وقال: ما كان يدخل إليَّ ويسليني ويُطَهِّر لي الغَمَّ غيره! ثم أُخِذَ القاهر وأُحْضِر إلى المقتدر فأجلسه إلى جانبه وقبَّل جبينه وقال: قد علمت أنَّكَ لا ذنبَ لك وأنك قُهرت ولو لقَّبوك بالمقهور كان أولى بك من القاهر! والقاهرُ يبكي ويقول: يا أمير المؤمنين نفسي نفسي اذكرنَّ الرَّحم التي بيني وبينك! فحلف له أنه لا يناله بسوء أبدًا، فسكن.

قال: ثم أخرج رأس نازوك ورأس أبي الهيجاء وشهرا، ونودي عليهما «هذا جزاءُ مَنْ عَصَى مولاه» وأما بُنَيُّ بن يعيش فإنه كان من أشَدِّ القوم على المقتدر بالله، فهرب عن بغداد وغيَّر زيَّهُ وسار حتى بلغ الموصل[١] ومنها إلى أرمينية، وسار حتى دخل القسطنطينية وتَنَصَّر. وهرب أبو السرايا نصر بن حمدان أخو أبي الهيجاء إلى الموصل وسكنت الفتنة. وعاد الوزير ابنُ مقلةَ إلى وزارته، وكتب إلى البلاد بهذه الحادثة، وأطلق للجند أرزاقَهم وزادهم وباع ما في الخزائن من الأمتعة والجواهر، وأذِنَ في بيْع الأملاك من الناس فبيع ذلك بأرخص الأثمان لتتم أعطياتُ الجند. وقيل إن مؤنسًا المظفر لم يكن مؤثرًا لما جرى على المقتدر من الخلع، وإنما وافق الجماعةَ مغلوبًا على رأيه ولعلمه أنه إن خالفهم لم ينتفع به المقتدر فوافقهم ليأمنوه وسعى مع الغلمان المصافية والحجرية ووضع قوادهم على أن عملوا ما عملوا، فلهذا أمَّنهُ المقتدر. وأما القاهر فإن المقتدر حبسه عند والدته فأحسنت إليه وأكرمته ووسعت عليه النَّفَقة واشترت له السراري والجواري للخدمة وبالغت في إكرامه.

نعود إلى بقية حوادث سنة ست عشرة وثلاثمائة فيها وصل الدمستق في جيش كبير من الروم إلى أرمينية فحصروا خِلاط[٢] فصالحه أهلُها، وأُخْرج المنبرُ من الجامع وجُعِلَ مكانَه صليبًا. ورحل إلى بَدْليس[٣] ففعل بها مثل ذلك وخافه أهلُ أرزنَ[٤] الروم وغيرهم، ففارقوا بلادهم، وانحدر أعيانهم إلى بغداد فلم يغاثوا.

وفيها وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى ملَطْية ومعهم الفؤوس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل، ثم ظهر أن مُلَيْحًا الأرمني صاحب الدروب وضعهم ليكونوا بها، فإذا حضر سلَّموها إليه، فعلم بهم أهل ملطية فقتلوهم عن آخِرِهم.

وفي سنة سبع عشرة جاء أبو طاهر القرمطي إلى مكة يوم التروية[٥]، فنهب أموال الحجاج، وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت، وقلع الحجر الأسود، وفعل ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

---

(١) الموصل: المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كبرًا وعظمًا وكثرة خلق وسعة رقعة، فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدن، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) خلاط: قصبة أرمينية الوسطى.

(٣) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين.

(٤) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط.

(٥) التروية: يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

ودخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمائة.

ذكر هلاك الرجالة المصافية

في هذه السنة هلك الرجالة المصافية في المحرم. وسبب ذلك أنهم لما أعادوا المقتدر إلى الخلافة - كما ذكرنا - زاد إدلالُهم واستطالَتُهم، وصاروا يقولون أشياء لا يحتملها الخلفاء، منها أنهم يقولون: منْ أعان ظالمًا سُلِّط عليه، ومن يُصْعدُ الحمار إلى السَّطْح يقدر أن يحطه وإن لم يفعل المقتدرُ معنا ما نستحقه قابلناه بما يستحق! إلى غير ذلك، وكثر شَغَبُهم ومطاولَتُهم وأدخلوا في الأرزاق أولادهم وأهليهم ومعارفَهم وأثبتوا أسماءَهم، فصار لهم في الشهر مائةُ ألْفٍ وثلاثون ألف دينارٍ.

واتفق أن الفرسان شغبوا في طلب أرزاقهم فقيل لهم إن بيتَ المالِ فارغٌ وقد انصرفت الأموال إلى الرَّجَّالةِ، فثار بِهم الفرسانُ واقتتلوا فقُتل من الفرسان جماعةٌ فاحتج المقتدر على الرجالة بِقَتْلِهم وأمر محمد بنَ ياقوت صاحب الشرطةِ فطرد الرَّجَّالة من دارِ المقتدر ونُودِي فيهم بخروجهم عن بغداد ومن أقام حُبِس، وهُدِّمتْ دورُ عُرَفَائهم[1] وقُبِضَت أملاكُهم، وظَفر بعد النِّداء بجماعةٍ منهم فضربهم وحلق لحاهم وشعورهم وشهرهم. وهاج السودان تَعصُّبًا للرَّجَّالةِ فركب محمد أيضًا في الحجرية وأوقع بهم وأحرق منازلهم، فاحترق فيها جماعةٌ منهم ومن أولادِهم ونسائهم، فخرجوا إلى واسط واجتمع منهم جمع كبير وتغلَّبوا عليها وطردوا عامل الخليفة، فسار إليهم مؤنس فأوقع بهم وأكثر القتل فيهم، فلم يقم لهم بعدها قائمة.

ذكر عزل ابن مقلة ووزارة سليمان

في هذه السنة عُزِلَ أبو علي محمد بن مقلةَ عن وزارة الخليفة. وكان سبب عزْله أن المقتدر كان يتهمه بالميل إلى مؤنسِ المظَفَّر وكان المقتدر مستوحشًا من مؤنس ويُظْهر له الجميل، فاتَّفَق أنَّ مؤنسًا خرج إلى أوانا[2] وعكبرا[3]، فركب ابنُ

---

(١) العرفاء: جمع عريف: وهو القيم بأمر القوم وسيدهم.

(٢) أوانا: بالفتح، والنون: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، وكثيرًا ما يذكرها الشعراء الخلفاء في أشعارهم... (معجم ياقوت).

(٣) عكبرا: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة: بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ... (معجم البلدان).

مقلةَ إلى دار المقتدر آخر جُمادى الأُولى فقبض عليه وكان بين ابن مقلة وبين محمد بن ياقوت عداوة فأنفذ إلى داره من حرقها ليلاً.

قال: وأراد المقتدر أن يستوزر الحسينَ بنَ القاسم بن عبد الله وكان مؤنس قد عاد، فأنفذ إلى المقتدر يسأل أنْ يعاد ابنُ مقلةَ فلم يُجِبْه إلى ذلك وأراد قَتْلَه، فردَّه عليُّ بن عيسى عن ذلك فسأل مؤنسٌ أن لا يستوزر الحسين، فتركه واستوزر سليمان بن الحسن في منتصف جُمادى الآخرة، وأمر المقتدرُ عليَّ بنَ عيسى بالاطِّلاعِ على الدواوين وأن لا ينفرد سليمانُ عنه بشيء. وصودر ابنُ مقلة بمائتي ألف دينار، وكانت مدةُ وزارته سنتين وأربعةَ أشهر وثلاثة أيام.

وفيها أمر المقتدر بالقبض على أولاد البريدي. وكان ابنُ مقلةَ لما وَلي الوزارةَ قلَّدهم الأعمالَ، فقلد أبا عبد الله الأهوازَ جميعها سوى السوس[١] وجُنْدَيْسابور وقلَّد أخاه الحسين الفراتية، وقلد أخاهما يوسُف الخاصة والأسافل، وارتشى منهم على ذلك عشرين ألف دينارٍ من أبي عبد الله. فلما قُبِضَ على ابنِ مقلة كتب المقتدر بِخَطِّه إلى أحمد بن نصرٍ القشوري الحاجب يأمره بالقَبْض عليهم، ثم استحضرهم إلى بغداد، وصودروا على أربعمائة ألف دينار، وكان لا يطمع منهم بهذا المبلغ وإنما طلب منهم ليجيبوا إلى بعضه فأجابوا إلى الجميع.

ذكر خروج صالح والأغر

في هذه السنة في جُمادى الأُولى خرج خارجي من بجيلة من أهل البوازيج[٢] بها اسمه صالح بن محمود وعبر إلى البريّة، واجتمع إليه جماعةٌ من بني مالك. وسار إلى سنجار[٣] فأخذ من أهلها مالاً وخطب بها، فذكَّر بأمر الله وحذَّر وأطال في هذا ثم قال: نتولّى الشيخَيْنِ ونبرأُ من الخبيثَيْن ولا نرى المَسْحَ على الخُفَّيْنِ! وسار منها إلى الشجاجية من أرض الموصل فطالب أهلها بالعشر ثم انحدر إلى الحديثة تحت الموصل وطالب المسلمين بزكاة أموالهم والنَّصارى بِجِزْيةِ رؤوسهم فجرى بينهم حرْبٌ فَقُتلَ من أصحابِه جماعةٌ، فعبر إلى الجانب الغربي فأسر أهلُ الحديثة ابنًا له اسمه

---

(١) السوس: بلدة بخوزستان.
(٢) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الميزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.
(٣) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. . . (معجم البلدان).

محمد فأدخلوه الموصل. ثم صار صالح إلى السن[١] فصالحه أهلها على مال أخذه، وانحدر إلى تكريت فحاربه أهلُها فَقَتَل منهم جماعةً ثم صالحوه على مال أخذه منهم، وانصرف إلى البوازيج وتنقَّلَ في بلادِ الْموصِل فسار إليه نَصْرُ بنُ حمدان لخمسٍ خلوْنَ من شعبان من السنة فقاتله قتالاً شديدًا فقتل من رجال صالح نحو مائةِ رجلٍ، وأُسِر صالحٌ وابنان له فأُدْخِلوا إلى الموصل، وحُملوا إلى بغداد فأُدْخِلوا مُشَهَّرين.

وخرج في شعبان خارجيٌّ بأرضِ الموْصِل اسمه الأغرُّ بنُ مطرِ الثغلبي، وسار من رأس عين[٢] إلى كفرتوثا[٣] واجتمع عليه ألفُ رجلٍ فدخلها ونهبها وقَتَّل فيها، وسار إلى نصيبين فنزل بالقرب منها فقاتله أهلها ومعهم جمْعٌ من الجُنْدِ فقتل منهم مائةَ رجلٍ وأسر ألفَ رجلٍ فباعهم نفوسَهم، وصادر أهلها على أربعمائة ألف درهم. وبلغ خبره ناصر الدولة بن حمدان - وهو أمير ديار ربيعة - فسيَّر إليه جيشًا فقاتلوه فظفِروا به وأسروه فسيَّره ناصرُ الدولةِ إلى بغداد.

وفيها خلع المقتدرُ بالله على ابنِهِ هارون، وركب معه الوزير والجيش وأعطاه ولايةَ فارس وكرمان وسجستان ومكران. وفيها أيضًا خلع على ابنه أبي العباس الراضي وأقطعه بلاد المغرب ومصر والشام وجعل مؤنسًا المظفر يخلفه فيها، وحجّ بالناس عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز الهاشمي.

ودخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل سليمان عن الوزارة وتولية أبي القاسم الكَلْوَذاني الوزارة

في هذه السنة قَبضَ المقتدر على وزيره سليمان. وسبب ذلك أن الأموال ضاقت عليه، وكثرت المطالباتُ من الجند وغيرِهم بأرزاقِهم، واتصلت رقاع منْ يُرشَّحُ للوزارة بالسِّعاية فيه والضمانِ بالقيامِ بأرزاقِ الجُنْدِ وأربابِ الوظائف، فأمر

(١) السن: مدينة على دجلة فوق تكريت لها سور وبها جامع ضخم للمسلمين، وكنائس للنصارى، وفي أهلها علماء، وعندها مصب الزاب الأسفل.

(٢) رأس عين: ويقال رأس العين: هي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخًا وقريب من ذلك بينها وبين حران... (معجم ياقوت).

(٣) كفر توثا: بضم التاء المثناة من فوقها، وسكون الواو، وثاء مثلثة: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دارا ورأس العين.

المقتدر بالقبض عليه وكان المقتدر يميل إلى وزارةِ الحسينِ بن القاسم، فامتنع مؤنسٌ من الموافقة عليه، وأشار بِتَوْلية أبي القاسم الكَلْوذانيّ فاستوزره المقتدر بالله لثلاث بقين من شهر رجب، فكانت وزارة سليمان سنةً واحدة وشهرين، ولم يستمر الكَلْوذانيّ في الوزارة غير شهرين وثلاثة أيام.

ذكر عزل الكلوذاني ووزارة الحسين

في هذه السنة عُزِلَ أبو القاسم الكَلْوذَانِيُّ عن وزارة الخليفة، ووزر الحسينُ بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب. وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد إنسانٌ يعرف بالدانيالي وكان زرّافًا[1] ذكيًّا محتالاً، فكان يُعتِّق الكاغدَ ويكتب فيه أشياء قد وقَعتْ فيما مضى من الزمان وأشياء تقع في المستقبل ويُري ذلك للناس. واتصل هذا الدانيالي بمفلح الخادم وأظهره على أشياءَ استماله بها. فَتَوصَّل الحسينُ لهذا الرجل حتى جعلَ اسمَه في جُمْلَة كتابٍ وضَعَهُ وعتَّقَه، وذكر فيه علامةً في وجْهِهِ وما فيه من الآثار ويقول «إنه يزرُ للخليفةِ الثامن عشر من الخلفاءِ العباسيين وتستقيم الأُمور على يديه ويقهر الأعادي» وذكر في هذا الكتاب حوادثَ وقَعتْ وحوادثَ تقع في المستقبل، ونسب ذلك إلى دانيال. وقرأ الكتاب على مفلح فأخذه منه وأوقف المقتدر عليه فقال له: أتعرف في الكتاب مَنْ هو بهذه الصفة؟ فقال: ما أعرف إلا الحسين بن القاسم قال: صدقت، قلبي يميل إليه، فإن جاءتْك رقعةٌ منه فاعْرِضْها عليّ واكتُم حالَه.

فخرج مفلح إلى الدنيالي وقال: هل تعرف في الكُتَّابِ مَنْ هو بهذه الصفة؟ قال: لا! قال: فمن أين لك هذا الكتاب؟ قال: ورثته عن أبي، وورثه أبي عن آبائه، وهو من ملاحم دانيال عليه السلام! فأعاد ذلك إلى المقتدر بالله فقبله. فكتب الحسينُ رقعةً إلى مفلح وهو يطلب الوزارة، فكان ذلك من أعظم الأسباب لوزارته مع كثرةِ الكارهين له.

ثم اتفق أنَّ الكَلْوذَانِيّ عمل حِسبةً بما يحتاج إليه من النفقات وما لهم من الأموال وعليها خطوط الدواوين فبقي يحتاج إلى سبعمائة ألف دينارٍ لا جهةَ لها، فعرضها على المقتدر وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين من بيت مال الخاصة! فعظم ذلك على المقتدر، وكتب الحسينُ رقعةً عندما بلغه ذلك سأل فيها

(١) الزراف: الذي يشرف على الزرافة، وهي منزمة الماء يسقى بها الزرع.

الوزارة وأنه يضمن جميع النفقات ويستخرج سِوى ذلك ألْف ألْف دينارٍ تكون في بيت المال، فاستقال الكَلْوذَاني، فَعُزل لليلتين بقيتا من شهر رمضان، واستوزر المقتدر بالله الحسين بن القاسم في هذا التاريخ.

ذكر تأكيد الوحشة بين مؤنس والمقتدر

في هذه السنة في ذي الحجة تجددت الوحشة بينهما. وسببُ ذلك أن مؤنسًا بلَغَهُ أنَّ الوزير قد وافق جماعةً من القُوَّاد في التدبير عليه، فتنكَّر له مؤنس. وبلغ الوزير أن مؤنسًا يريد أن يكبِس داره ليلاً ويقبضَ عليه، فتنقل في عِدَّةِ مواضع ثم انتقل إلى دار الخلافة. وطلب مؤنسٌ من المقتدر عزْلَ الحسينِ ومصادرتَه فأجابه إلى عزله ولم يصادره، وأمر الحسين بلزوم دارِه فلم يقنعْ مؤنسٌ بذلك فبقي في وزارته. فأوقع الحسين عند المقتدر أن مؤنسًا يريد أخْذَ ولده أبي العباس ويسيره إلى الشام ويبايع له، فَردَّه المقتدر إلى دارِ الخلافة فعلم ذلك أبو العباس، فلما أفْضَتْ إليه الخلافةُ فعل بالحسين ما نذكره إن شاء الله تعالى. وكتب الحسين إلى هارون ـ وهو يريد العاقول ـ بعد انْصرافه من حرب مرداويج وانهزامه وهو يستقدمه إلى بغداد، وكتب إلى محمد بن ياقوت ـ وهو بالأهواز ـ يأْمره بالإسراع إلى بغداد، فَصحَّ عند مؤنس أن الوزير يدبِّر عليه وزاد مؤنسًا نفارًا.

ودخلت سنة عشرين وثلاثمائة.

ذكر مسير مؤنس إلى الموصل

في هذه السنة في المحرم سار مؤنس المظفر إلى الموصل مغاضبًا، للمقتدر لما صحّ عنده إرسال الوزير إلى هارون بن غريبِ الخالِ ومحمد بن ياقوت يستحضرهما. قال: وسير مؤنس خادمه بشرى برسالة إلى المقتدر، فسأله الحسين عن الرسالة فقال: لا أذكرها إلا لأمير المؤمنين. فأنفذ إليه المقتدر يأْمره بذكر رسالته للوزير فامتنع وقال: ما أمرني صاحبي بهذا! فسبّه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلاثمائةِ ألْف دينارٍ وأخذ خَطَّه بها وحبسه ونهب داره. فلما بلغ مؤنسًا ما جرى على خادمِه وكان ينتظر أنَّ المقتدر يطيّب قلبه ويعيده، سار ومعه جميعُ قُوَّادِه ومماليكه، ومعه من الساجية ثمانمائة رجل. فتقدم الوزير بقَبضِ إقطاع مؤنسٍ وأملاكِه وأملاكِ مَنْ معه، فَحصَّلَ من ذلك أموالاً عظيمة فزاد ذلك في محلّه عند المقتدرِ ولقَّبه عميد الدولة وضرب اسْمه على الدنانير والدراهم وتمكّن من الوزارة وولى وعزل ثم أخذ في التهوير فعزله المقتدر بالله.

ذكر عزل الحسين عن الوزارة ووزارة ابن الفرات

كان سبب عزله أنه ضاقَت عليه الأموالُ وكثر الخَرْجُ، فاستسلف جملةً مِنْ مالِ هذه السنة وأخرجها في سنة تسعةَ عشر. فأنهى هارون بن غريبٍ ذلك إلى المقتدر، فرتَّب معه الخَصِيبي. فلما تَولَّى معه نَظَر في أعمالِه فرآه قد عمل حِسْبَةً للمقتدر ليس فيها عليه وجه فأظهر ذلك للمقتدر، فأمر بجمع الكُتَّاب وكَشفِ الحال. فاعترفوا بصدق الخَصِيبي وقابلوا الوزير، فقبض عليه في شهر ربيع الآخر فكانت وزارته سبعة أشهر إلا أيامًا. واستوزر المقتدر بالله الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، وسلم إليه الحسين بن القاسم فلم يؤاخِذْه بإساءته.

ذكر استيلاء مؤنس على الموصل

قال: ولما سار مؤنسٌ إلى الموْصل كَتَب الحُسين الوزيرُ إلى سعيدٍ وداودٍ ابني حمدان وإلى ابن أخيهما ناصرِ الدولة الحسنِ بنِ عبد الله بنِ حمدانَ يأمرهم بمحاربته وصدِّه عن الموصل، فاجتمع بنو حمدانَ على محاربته إلا داود فإنه امتنع لإحسان مؤنسٍ إليه؛ فإنه قد كان ربّاه في حِجره بعد أبيه فما زال به إخوتُه حتى وافَقهم، ولما أجابهم قال لهم: إنكم لتحملوني على البَغْي وكُفْرانِ النِّعمةِ والإحسانِ وما آمن أن يجيئني سهم عاثر فيقع في نحري فيقتلني! فلما الْتَقوْا أتاه سهمٌ كما وصف فقتله، ولما قَرُب مؤنسٌ من الموصل كان في ثمانمائة فارسٍ. واجتمع بنو حمدان في ثلاثين ألفًا فالْتَقوْا واقتتلوا فانهزم بنو حمدانَ ودخل مؤنس الموصلَ واستولى على أموالِ بني حمدانَ وديارِهم، فخرج إليه كثيرٌ من العساكرِ من بغدادَ والشام ومصر، وعاد إليه ناصرُ الدولة بن حمدان فصار معه وكان دخولُ مؤنس إلى الموصل في ثالث صفر، وأقام بها سبعةَ أشْهُرٍ، وعزم على الانحدار إلى بغداد.

ذكر مقتل المقتدر بالله

قال: ولما اجتمعتِ العساكر إلى مؤنس بالموصل قالوا له: اذهبْ بِنا إلى الخليفة فإنْ أنصفنا وأجْرى أرزاقَنا وإلا قاتلناه فانحدر مؤنس من الموصل[1] في

(١) الموصل: بالفتح وكسر الصاد: المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كبرًا وعظمًا وكثرة خلق وسعة رفعة، فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان. . . (معجم البلدان لياقوت).

شَوّال، وبلغ خبرُه جندَ بغدادَ فشغبوا وطلبوا أرزاقَهم، ففرّق المقتدرُ فيهم أموالاً كثيرة إلا أنها لم تَسَعْهُم وأنفذ المقتدرُ أبا العلاء سعيد بن حمدان وصافيًا البصري في خَيْلٍ عظيمةٍ إلى سامراء، وأنْفَذَ أبا بكر محمد بنَ ياقوت في ألْفَيْ فارسٍ ومعه الغلمان الحجرية إلى المعشوق[١]. فلما وصل مؤنس إلى تكريتَ جعل العسكر الذين مع ابن ياقوت يتسللون ويهربون إلى بغداد، ونزل مؤنس بباب الشمّاسية، فلما رأى ذلك رجع ابن ياقوت إلى عكبرا، وسار مؤنسٌ فتأخر ابنُ ياقوت وغيره وعادوا إلى بغداد. ونزل مؤنس بباب الشماسيَّة، ونزل ابنُ ياقوت وغيرُه مُقَابِلَهُم واجتهد المقتدرُ بخاله هارون بنِ غريبٍ ليخرج فلم يفعلْ وقال: أخاف من عسكري فإنَّ بعضَم أصحابُ مؤنسٍ وبعضهم قد انهزم أمس من مرداويج فأخافُ أن يسلموني وينهزموا عني! فلم يزَلْ به حتى أخرجه، وأشار النَّاسُ على المقتدرِ بإخراج المال منه ومن أُمِّه ليرضي الجند وقالوا: إنه متى سمع أصحاب مؤنس بتفريق الأموال تفرقوا عنه، فاضطُر إلى الهرب فقال: لم يبْقَ لي ولا لوالدتي شيء!

وأراد المقتدر أن ينحدر إلى واسط ويكاتب العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس إلى أن يجتمع إليه العساكر ويعود إلى قتاله، فَردَّه ابن ياقوت عن ذلك، وزيّن له اللقاء وقَوَّى نفسَه أنَّ القوم متى رأوْه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قَوله وهو كاره، ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كارهٌ وبين يديه الفقهاءُ ومعهم المصاحف منشورةً وعليه البُردة[٢] والناس حوله، فوقف على تلٍ عالٍ بعيدٍ من المعركة فأرسل إليه قواده يسألونه التَّقَدُّمَ مرة بعد أُخرى، فلما ألَحُّوا عليه تَقَدَّم من موْضِعِه فانهزم أصحابُه قبل وصولِهِ إليهم. وكان قد أمر فَنُودِي «من جاء بأسيرٍ فَلَهُ عشرةُ دنانيرَ ومن جاء برأسٍ فله خمسةٌ». فلما انهزم أصحابُه لَقِيهُ عليُّ بنُ يلبق ـ وهو من أصحابِ مؤنسٍ ـ فَتَرَجَّلَ وقَبَّلَ الأرضَ وقال له: أين تمضي؟ ارجعْ، فَلَعَنَ اللّهُ مَنْ أشار عليك بالحُضور!

فأراد الرُّجوع، فَلَحِقَهُ قومٌ من المغاربة والبربر، فتركه عليٌّ وسار، فشهروا سُيوفَهم فقال: ويْحكمْ أنا الخليفةُ! فقالوا: قد عرفناك يا سفلة، أنت خليفةُ إبليس، تبذل في كلِّ رأسٍ خمسةَ دنانير وفي كلِّ أسيرٍ عشرة دنانير. وضربه أحدهم بسيفه

(١) المعشوق: هو اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية.. ليس حوله شيء من العمران يسكنه قوم من الفلاحين إلا أنه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان هناك من القصور غيره. وبينه وبين تكريت مرحلة... (معجم ياقوت).

(٢) البردة: كساء مخطط يلتحف به، والمراد هنا بردة الخلافة.

على عاتقه فَسقَط إلى الأرض، وذبحه بعضُهم ـ وقيل إنّ عليّ بن يلبق رمز إلى بعضهم فقتله ـ وذلك في يوم الأربعاء لثلاثٍ بقين من شوّال سنة عشرين وثلاثمائة.

قال: ولما قُتل رفعوا رأسه على خشبةٍ وهم يكبِّرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله، وتركوه مكشوفَ العوْرةِ إلى أن مرَّ به رجل أكّار فستره بحشيش، ثم حُفِر له في موضعه ودُفِن، وعفا قبره. هذا ومؤنس في الراشدية[1] لم يشهدِ الحرب، فلما حُمِلَ رأسُ المقتدرِ إليه بكى ولطم وجهه ورأسه وقال: يا مفسدون ما هكذا أوصيتُكُم، والله لَنُقْتَلنَّ كلُّنا، وأقلُّ ما في الأمر أن تظهروا أنكم قتلتموه خَطَأً ولم تعرفوه!

وتقدم مؤنسٌ إلى الشمّاسية، وأنْفَذَ إلى دارِ الخلافة من يمنعها من النَّهْبِ. ومضى عبد الواحد بن المقتدر وهارُونُ بنُ غريبٍ ومحمدُ بنُ ياقوت وابنا رائق إلى المدائن. وكان ما فعله مؤنسٌ سببًا لجرأة أصحابِ الأطرافِ على الخلفاء وطمعهم واستبدادهم، وانحرفت حرمة الخلافة لقتل المقتدر، وضعف أمرها حتى انتهى إلى ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وقُتل وعمره ثمانٍ وثلاثون سنةً وخمسةُ أيام، وكان مُدَّةُ خلافته أربعًا وعشرين سنةً وأحد عشر شهرًا وستةَ عشَر يومًا، وكان رَبْعَ[2] القامة دُرِّيَّ اللون أحور أصهب[3]، وكان نقش خاتمه الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع خالق كل شيء» ويقال إن المقتدر بَذَّر من الأموال تضييعًا في غير وجهها نيِّفًا وتسعين ألفَ ألفِ دينارٍ سوى ما أنفقه في الوجوه، وكان يصرف إلى الحرمين وفي طريقهما في كلِّ سنةٍ ثلاثمائة ألفٍ وخمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ وأربعمائة وستة وعشرين دينارًا، وإلى الثغور أربعمائةَ ألفٍ وواحدًا وتسعين ألفًا وأربعمائةً وستةً وخمسين دينارًا وكان يُجري على القُضاة في كلِّ الممالك سنةً وخمسين ألفًا وخمسمائة وواحدًا وأربعين دينارًا، وعلى الفقهاء بالحضْرةِ ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائةً وتسعةً وستين دينارًا، وعلى منْ يتَولَّى الحِسْبَةَ والمظالم في جميع البلاد أربعةً وثلاثين ألفًا وأربعمائةً وتسعةً وثلاثين دينارًا، وعلى أصحابِ البريد تسعة وسبعين ألفًا وأربعمائة دينار، وغير ذلك من الجِرايات على أصناف الناس وطبقاتهم. وعجز ارتفاعُ ممالكه عن نفقاته ألْفَيْ ألفِ وتسعةً وثمانين ألفًا وثمانمائةً وأربعةً وسبعين دينارًا، ولم يُنْقِصْ أحدًا شيئًا فأنفق ما كان في بيوت الأموال قبله.

---

(١) الراشدية: قرية من قرى بغداد. (٢) الربع من الرجال: الوسيط القامة.
(٣) الأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.

قال: ومات في أيامه خمسةَ عشر ألفَ أميرٍ ومقدّم مذكور فكانت والدته تطوي عنه الرزايا[١] والفجائع وتقول: إظهارها يؤلم قلبه! فأدّى ذلك إلى انتشار الفساد في ممالكه.

وكان الناسُ قد ملُّوا أيّامَه لطولها، حتى إذا تَصرَّمَتْ تَمنَّوْا ساعةً منها، فأعوزتهم، وشملتهم الحوادثُ والطوارق. وكان له من الأولاد الرّاضي والمتقي والمطيع وعبد الواحد وعباس وهارون وعليّ وإسماعيل وعيسى وموسى وأبو العباس.

ووزر له من ذكرنا وهم: العباسُ بن الحسن، وأبو الحسن بن الفرات ثلاثَ دفعات وقد ذكرنا أخباره، ومحمد بن عبد الله بن خاقان، وعلي بن عيسى دفعتين، وكان موصوفًا بالعلم والدين والعقل، وساس الدنيا السياسةَ التي عمَّرت البلاد، وكان يستغلُ ضياعَه في السنة سبعمائةَ ألفِ دينارٍ يُخرج منها في وجوه البرِّ ستمائةَ ألف دينار وينفق أربعين ألفَ دينارٍ على خاصته، وكان يصوم نهاره ويقوم ليله، ولما حُبِس كان يلبس ثيابه ويتوضأُ ويقوم ليخرجَ إلى صلاة الجمعة فيرده الموكلون به فيقول: اللَّهُمَّ اشهد! وكانت له آثارٌ حسنةٌ ومآثر جميلةٌ منها أنه أشار على المقتدر أن يوقف المستَغَلاّتِ ببغدادَ على الحرس والثغور ـ وغلَّتُها في كلِّ شهرٍ ثلاثةَ عشرَ ألفَ دينارٍ ـ والضياعَ الموروثةَ بالسَّواد وارتفاعها نيِّفٌ وثمانون ألف دينارٍ سوى الغلة، ففعل ذلك وأفْرد لهذا الوقف ديوانًا سمّاه ديوان البِرِّ، وكان يُجري على خمسة وأربعين ألفَ إنسانٍ جراياتٍ تكفيهم، وخدم السلطان سبعين سنةً لم يُزِلْ فيها نعمةَ أحد ولم يقْتُلْ أحدًا، ولم يسْعَ في دَمِّه ولم يهتك حُرْمَةَ أحد، ومات في آخر ذي الحجة سنةَ خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة وله تسعٌ وثمانون سنةً وستة أشهر ويوم واحد، رحمه الله!

ووزر له حمد بن العباس، وأبو القاسم الخاقاني، وأحمد بن عبد الله الخَصيبي، وأبو علي بن مقلة، وسليمان بن الحسين بن مخلد، وعبد الله الكَلْوذانيّ، والحسين بن القاسم بن عبيد الله، والفضل بن جعفر بن الفرات.

قضاته: يوسف بن يعقوب ثم ابنه محمد بن يوسف، ثم أبو عمر، ثم عبد الله بن أبي الشوارب، ثم ابنه محمد، ثم أحمد بن إسحاق بن البهلول، ثم عمر بن محمد بن يوسف، والحسن بن عبد الله، وعمر بن الحسن بن أبي الشوارب.

حجّابه: سوْسنُ مولى المكتفي، ونصر القشوريّ، وياقت مولى المعتضد، وغيرهم.

---

(١) الرزايا: جمع الرزية، وهي المصيبة.

الأُمراء بمصر: عيسى النُّوشري، ثم تَكين الخزري، ثم وصل مؤنسٌ إلى مصر فصرف تَكينَ وولاّها ذكاءَ الأعور ثم مات فأُعيد تكينُ، ثم هلال بن بدر، ثم أحمد بن كيغَلَغ، ثم تَكين مرةً ثالثةً.

القضاة بها: أبو عبيد الله بن علي بن الحسين البزّاز[1] إلى أن ورد كتاب ابن الفرات بصرفه وردّ القضاءِ إلى عبد الله بن مُكرَم شابٌّ من شهود أبي عمر، فاستُخْلِف له أبو الذكر محمد بن يحيى التَّمّار، ثم ورد إبراهيم بن محمد الطبري خليفةً لعبد الله، ثم صُرِف عبد الله ووَلِيَ إبراهيم بن حمّاد فاستخلف أبا عليٍّ عبد الرحمٰن بن إسحاق، ثم صرف هارون وَوَلى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن رزين، وولّى تَكينُ أبا هاشم إسماعيل بن عبد الواحد الرَّبعي.

ذكر خلافة القاهر بالله

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد وقد تقدم ذِكْرُ نَسبه، وأمُّه أمُّ ولد اسمها قَبول. وهو التاسع عشَر من الخلفاءِ العباسيين، بويع له بعد مقتل أخيه المقتدر في يوم الخميس لِلَيْلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة. قال: ولمّا قتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس كما ذكرناه فقال: الرأْي ننصب ولده أبا العباس في الخلافة فإنه تربيتي، وهو صبِيٌّ عاقلٌ فيه دين وكرم ووفاء بما يقول، فإذا جلس في الخلافة سمحت نفسُ جدَّتِه والدةِ المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذْلِ الأموال ولم ينتطح في قتل المقتدر عنزان!

فعارضه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبخْتي وقال: بعد الكَدِّ استرحنا من خليفةٍ له أُم وخالة وخدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحالة، لا والله لا نَرْضَى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا! وما زال حَتى رَدَّ مؤنسًا عن رأيه، وذكر له أبا منصورٍ محمد فأجابه مؤنس إلى ذلك. وكان النوبختي في ذلك كالباحثِ عن حتْفِهِ بظلفه! فإنَّ القاهر قتله كما نذكر إن شاء الله تعالى، فأمر مؤنس بإحضاره فبايعوه بالخلافة، ولقَّبوه بالقاهر بالله. وكان مؤنس كارِهًا لخلافته والبيعة له ويقول: أنا عارفٌ بِشَرِّه وسوءِ نيته ولكن لا حيلة! قال: ولما بويع استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه عليِّ بن يلبق، وأخذ خَطَّه بذلك.

---

(١) البزاز: بائع البز، والبز: نوع من الثياب، أو السلاح.

ولما اسْتَقَرَّتِ الخلافةُ له وبايعه النَّاسُ استوزر أبا عليٍّ بنَ مقلةَ وكان بفارس فاستقدمه، واستحجب عليَّ بنَ يلبق. وشرع القاهرُ في البحث عمن استتر من أولادِ أخيه المقتدر وحُرمه، وأحضر والدتَه ـ وكانت مريضةً بالاستسقاء[١] ـ وسألها عن المال فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترفْ بشيءٍ من المال والجوهر، فضربها أشَدَّ ما يكون من الضرب وعلَّقَها بِرجْلها وضرب المواضع المستورةَ من بدنِها فَحَلَفَتْ أنها لا تملك غَيْر ما أَطْلَعتْه عليه وقالت: لو كان عندي مال لما سلَّمْتُ ولدي للقتل! ولم تعترف بشيء.

وصادر جميعَ حاشية المقتدر بالله وأصحابَه، وأخرج والدتَهُ لِتُشْهد على نفسِها القضاةَ والعدولَ بأنها قد حلَّتْ أوقافَها ووكَّلتْ في بيعها، فامتنعت من ذلك وقالت: قد أوقفتها على أبواب البِرِّ والقُرُبات بمكةَ والمدينة والثُّغورِ وعلى الضعفاءِ والمساكينِ ولا أستحل حلَّها ولا بَيْعَها، وإنما أوكل في بيع أملاكي! فلما علم القاهرُ بذلك أحضر القاضي والشهود وأشْهدهم على نَفْسِه أنه قد حلّ وقُوفَها جميعها ووكل في بيعها، فبيع ذلك كله واشتراه الجُنْدُ من أرزاقِهم.

وتقدم القاهر بكبس الدار التي سُعِي إليه أنَّ أولاد المقتدرِ اختفَوْا بها، فلم يزل كذلك إلى أن وجد منهم أبا العباس الراضيَ وعليًّا والعباسَ وهارون وإبراهيم والفضل فَحُمِلوا إلى دارِ الخلافة فصودروا على مالٍ كثير، وسلَّمهم علي بنُ يلبق لكاتبه الحسن بن هارون، فأحسن صُحبتهم وخدمهم. قال: وقبض الوزير على جماعة من العمال وعزَل بني البريديِّ وصادرهُم.

ودخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ذكر خبر عبد الواحد بن المقتدر ومن معه

كان عبد الواحد بن المقتدر باللّهِ قد هرب عند قتل أبيه ومعه هارون بن غريبٍ ومفلحٌ ومحمد بن ياقوت وابنا رائق إلى المدائن[٢] كما قدمنا، ثم انحدروا منها إلى

---

(١) الاستسقاء: تجمع سائل مصلي في التجويف البريتوني، لا يكاد يبرأ منه. والاستسقاء الدماغي: مرض خلقي في الغالب يزداد فيه السائل المخي الشوكي في بطون الدماغ، فيمددها ويرققه.

(٢) المدائن: موضع بين أرض الفرات ودجلة كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر ثم طيسفون من مدائنها ثم اسفانبر ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك... والمدائن أيضًا: اسم قريتين من نواحي حلب في نقرة بني أسد... (معجم ياقوت).

واسط، فخافهم الناس. فأما هارون بن غريبٍ فإنه كتب إلى بغداد في طلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلاثمائة ألف دينار على أن يطلق له أملاكه وينزل عن الأملاك التي استأجرها، ويؤدي من أملاكه حقوق بيت المال القديمة. فأجابه القاهر ومؤنس إلى ذلك، وكُتِبَ له كتابُ أمانٍ. وقلّد أعمالَ ماه الكوفة وماسبذان ومِهْرجانْقَذَق، وسار إلى بغداد.

وأما عبد الواحد فإنه خرج من واسط فيمن بَقِيَ معه ومضَوْا إلى السوس وسُوق الأهواز فَجنَوْا المالَ وطردوا العمالَ، وأقاموا بالأهواز؛ فجهز مؤنس إليهم جيشًا كثيفًا وجعل عليه يلبق. وكان الذي حرَّضَهُم على إيفادِ الجيش أبو عبد الله البريدي وبذل مساعدتَه معجلةً خمسين ألف دينار على أن يُولَّى الأهوازَ وعند استقراره في الولاية يعجّل ما بقي. فسار الجيش وفيهم أبو عبد الله، وكان محمدُ بن ياقوت قد اسْتَبَدَّ بالأموالِ والأمر، فنفرت قلوبُ منْ معه من القُوَّاد لذلك. فلما قرب يلبق من واسط أظهروا ما في نفوسهم وفارقوه. ولما وصل إلى السوس فارق عبدُ الواحدِ ومحمدُ بنُ ياقوت الأهوازَ وسار إلى تستر[1]، وفارقهما من معهما من القواد إلى يلبق بأمان.

وبقي مُفْلح وسرورٌ الخادم مع عبد الواحد فقالا لمحمد بن ياقوت: أنت معتصم بهذه المدينةِ وبمالك ورجالِك ونحن لا مالَ معنا ولا رجال ومقامنا يضرُّك ولا ينفعك وقد عزمنا على أخْذِ الأمان لنا ولعبدِ الواحدِ بن المقتدر! فأذن لهما في ذلك فكتب إلى يلبق فأمَّنهم، فعبروا إليه. وبقي محمد بن ياقوت منفردًا فتحير وضعفت نفسه فتراسل هو ويلبق واستقر بينهما أنَّ يلبق يؤمنه ويضمن له أمان مؤنسٍ والقاهر، ففعل. وخرج محمد بن ياقوت معه إلى بغداد ولما وصلوا وَفَى لهم القاهر بالله، وأطْلَقَ لعبد الواحد أملاكه وترك لوالدته المصادرة التي كان صادرها بها. واستولى أبو عبد الله البريديّ على البلاد، وعسف أهلها، وأخذ أموال التجار وعمل بأهل البلاد ما لا تعمله الفَرنْجُ ولم يمنَعْه أحد عما يريد وأعاد إخوانه إلى أعمالهم.

ذكر استيحاش مؤنس وأصحابه من القاهر

في هذه السنة استوحش مؤنس المظفر ويلبق الحاجب وولده عليّ والوزير أبو علي بن مقلة من القاهر بالله وضيّقوا عليه وعلى أسبابه. وكان سبب ذلك أن محمد بن

(١) تستر: بالضم ثم السكون، وفتح التاء الأخرى، وراء: أعظم مدينة بخوزستان.. وهي مختطة على شكل فرس، ونهر تستر أعظم أنهار خوزستان.. وتستر على مكان مرتفع من الأرض، وفيها قبر البراء بن مالك الأنصاري، وكان يعمل بها ثياب وعمائم فائقة... (معجم البلدان).

ياقوت تقدم عند القاهر وعلتْ منزلته وصار يخلو به ويشاوره، فعظم ذلك على ابن مقلة لعداوةٍ كانت بينَه وبين ابن ياقوت؛ فألقى إلى مؤنسٍ أن محمدًا يسْعى به عند القاهر وأن عيسى الطبيب يسفر بينهما في التدبير عليه، فَوجَّه مؤنس عليّ بن يلبق لإحضار عيسى الطبيب فوجده بين يدي القاهِر، فأخذه وأحضره عند مؤنسٍ فسيره من ساعته إلى الموصل، واجتمعوا على الإيقاع بمحمد بن ياقوت وكان في الخيام. فركب علي بن يلبق في جند لِيَكْبِسَه[1]، فوجده قد اختفى فَنَهب أصحابه، واستتر محمد بن ياقوت.

ووكل علي بن يلبق على دار الخليفة أحمدَ بنَ زيزك وأمره بالتضييق على القاهر بالله وتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها، وأن يكشف وجوه النساء، وإن وجد رقعةً رفعها إلى مؤنسٍ ففعل ذلك وزاد عليه حتى إنه حُمِل إلى دار القاهر لبنٌ فأدخل يدَه فيه. ونقل يلبق من كان بدار القاهرِ محبوسًا إلى داره كوالِدة المقتدر وغيرها، وقطع أرزاق حاشيتِه. فعلم القاهر أن العتاب لا يفيد وأنَّ ذلك بِرأْيِ مؤنس وابن مقلة، فأخذ في الحيلة والتدبير على جماعتهم. وكان قد عرف فَساد قَلْبِ طريفِ السبكري وبشري خادم مؤنس وحسدهُما ليلبق وولدِه على مراتبهما، فشرع في إغرائهما بيلبق وابنه. وعلم أيضًا أن مؤنسًا ويلبقَ أكثرُ اعتمادِهما على الساجية أصحاب يوسف بنِ أبي الساج وغلمان المنتقلين إليهما بعده، وكانا قد وعداهم بالموصل مواعد أخلفاها فأرسل القاهر إليهم وأغراهم بهما وحلف لهم على الوفاء بما أخلفاه، فتغيرت قلوبُ الساجية. ثم أرسل أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وكان صاحب مشورة ابن مقلة، ووعده بالوزارة فكان يطالعه بالأخبار.

ذكر القبض على مؤنس المظفر ويلبق الحاجب وابنه

وسبب ذلك أنه صحّ عندهم أن القاهر يُدبِّر عليهم فخافوه، وحملَهُم الخوفُ على الجدِّ في خَلْعِه، واتَّفَقَ رأْيُهم على البيْعةِ لأبي أحمد بن المكتفي، فاستخلفوه وعقدوا له البيعةَ سِرًّا، وحلَفَ له يلبقُ وابنه عليٌّ والوزير ابنُ مقلة والحسنُ بن هارون ثم كشفوا الأمر لمؤنسٍ فقال: لست أشكُّ في شَرِّ القاهِر وخُبْثِه، ولقد كنت كارِهًا لخلافَتِه وأشرْتُ بابن المقتدر بالله فخالفتم رأْيي، وقد بالغْتُم في الاستهانَةِ به وما صبر

---

(١) يقال: كبس على فلان، أو دار فلان: أي هجم عليه واحتاط به.

على الهوانِ إلا من خُبْثِ طَويَّتِه ليدبِّر عليكم، فلا تعجلوا حتى تؤنسوه وينبسطَ إليكم ثم تعرفوا من وطَأه من القواد والساجية والحجرية واعملوا بعد ذلك! فقال عليّ بن يلبقَ والحسنُ بن هارون: ما يحتاج إلى هذا التطويل فإن الحَجَبَةَ لنا والدار في أيدينا وما نحتاج إلى أن نستعين في القبض عليه بأحدٍ لأنه بمنزلةِ طائرٍ في قفصٍ! وعملوا على معالجته.

فاتفق أنْ سقَطَ يلبقُ من الدَّابة فاعْتَلَّ ولزم بيتَه، فاتفق عليٌّ وابنُ مقلةَ وحسَّنَا لمؤنسٍ خَلْع القاهر وهوَّنا عليه أمره، فأذِن لهما. فاتَّفَقَ رأيُهما على أن يُظْهِرا أنَّ أبا طاهرٍ القرمطي دخَلَ الكوفة وأن عليَّ بنَ يلبق سائر لِقِتَالِهِ ومنْعِهِ من بغداد، فإذا دخل لوداع القاهر باللّهِ قَبضَ عليه، فأشاعا ذلك، وكتب ابنُ مقلةَ رقعةً إلى الخليفة يُعرِّفُه ذلك ويقول: «إنني قد جهَّزْتُ عليَّ بنَ يلبق ليسير في هذا اليوم وأن يحضر الْعصْرَ للخدمة ليأمره مولانا بما يراه» فكتب القاهر في جَوَابِه يشكره ويأذن في حضور ابن يلبق. فجاء جواب الخليفةِ وابنُ مقلةَ نائم فتركوه ولم يوصلوه إليه. فلما استيقظ كتب رقعةً أُخرى في المعنى، فأنكر القاهرُ الحالَ.

فهو في هذا إذ وصلته رقعة طريف السبكري يذكر أن عنده نصيحة وأنه قد حضر في زِيِّ النِّساءِ لينهيها إليه، فاجتمع به القاهر، فذكر له جميع ما عزموا عليه وما هم فيه وما فعلوه من التدبير. فأنفذ القاهرُ إلى الساجية فأحضرهم متفرقين وكمنهم في الدهاليز والممرات والرّواقات، وحضر علي بن يلبق بعد العصر وفي رأسه نبيذٌ ومعه عددٌ يسير من أصحابه في طيارٍ له. وأمر جماعةً من أصحابه بالركوب إلى الأبواب وصعد من الطيارِ وطلب إذْنَ القاهرِ فلم يأذن له فغضب وأساء أدبه وقال: لا بُدَّ من لقائه شاء أو أبى! فأمر القاهرُ الساجيةَ بِردِّه، فخرجوا إليه وشتموه وشتموا أباه، وشهروا سلاحهم وتقدموا إليه، فَفَرَّ أصحابُه عنه وألقى نفسه في الطيّارِ وعبر إلى الجانب الغربي واختفى من ساعته.

وبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر، واستتر الحسن بن هارون، فلما سمع طريفٌ الخبر ركب في أصحابه بالسلاح، وحضر إلى دار الخليفة ووقف عند القاهر بالله. فعظم الأمر حينئذ على ابن يلبق وجماعتهم وأنكر يلبق ما جرى على ابنه، وسبَّ الساجيةَ وركب إلى دار الخليفة في جميع القُوَّادِ الذين بدار مؤنس، فلم يصل إلى القاهر وقَبضَ عليه وعلى أحمد بن زيزك صاحب الشرطة وحبسهما وحَصَرَ الجيش كلُّهم في الدَّارِ فأَنْفَذَ القاهر إليهم وطيَّب قلوبهم ووعدهم الزيارة، وأنه يوقف هؤلاء على ذنوبهم ثم يطلقهم ويحسن إليهم فعادوا.

وراسل القاهرُ مؤنسًا في الحضور عنده ليعرضَ عليه ما وقعَ عليهم ليفعل ما يراه وقال: إنه عندي بمنزلة الوالد، وما أُحِبُّ أن أعمل إلا عن رأيه! فاعتذر مؤنس عن الحركة، ونهاه أصحابهُ عن الحضور إليه فلما كان من الغد أحضر القاهر طريفًا السبكري وناوله خاتمه وقال له: قد فَوَّضْتُ إلى ولدي عبد الصَّمد ما كان المقتدر فَوَّضه إلى ابنه محمد وقلدتُك خلافَتَه ورئاسةَ الجيش وإمارةَ الأُمراء وبيوتَ الأموال كما كان ذلك إلى مؤنسٍ فامْض إليه واحمله إلى الدار فإنه ما دام في منزله يجتمع إليه من يريد الشر ولا نأمن أمره! فمضى إلى دار مؤنس وعنده أصحابُه في السلاح فسأله أصحاب مؤنس عن الحال فذكر سوءَ صنيع يلبقَ وابنِه فكلُّهم سبَّهُما، وعرَّفَهم ما أخذ لهم من الأمان والعهودِ فسكنوا. ودخل إلى مؤنس وقد استولى عليه الكبَرُ والضَّعْفُ وأشار عليه بالحضور عند القاهر وقال: إن تأخرت طمع ولو رآك نائمًا ما تجاسر أن يوقظك! فسار إليه، فلما دخل الدَّار قبض عليه وحبسه، وذلك في مستهل شهر شعبان.

وأمر القاهر بالختم على دور مَنْ قَبض عليهم ونقل دوابّهم ووكل بحريمهم، وأمر بنقل ما في دار ابن مقلة وحرقها، ونُهبَتْ دورُ المعتقلين بها. وظهر محمد بن ياقوت وقام بالحجبة، ثم رأى كراهة طريف والساجية له فاختفى وهرب إلى ابنه بفارس، فكاتبه القاهر يلومه على عجَلَتِه بالهرَبِ وقلده كور(١) الأهواز، واستقدم القاهرُ عيسى الطبيب من الموصل، وجَدَّ القاهرُ بالله في طلب أحمد بن المكتفي، فظفر به، فبنى عليه حائطًا وهو حَيٌّ فمات. وظفر بعلي بن يلبق، واستعمل على الحجبة سلامةَ الطولونيَّ وعلى الشرطة أحمد بن خاقان.

ذكر مقتل مؤنس ويلبق وابنه علي والنوبختي

كان مقتل هؤلاء في شعبانَ سنةَ إحدى وعشرين وثلاثمائة. وسبب ذلك أن أصحاب مؤنس شغبوا وثاروا، وتبعهم سائر الجند، ونادوا بشعار مؤنس، وقالوا لا نرضى إلا بإطلاقه. وكان القاهر قد ظفر بعليِّ بن يلبق، وأفرد كلَّ واحدٍ منهم في بيت، فلما شغب الجند دخل القاهر إلى علي بن يلبق فأمر به فَذُبح وجُعلَ رأسُه في

(١) الكور: واحدتها الكورة: وهي على حد قول ياقوت في مقدمة معجم البلدان، كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم: دارابجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارابجرد.

طست. ومضى والطست بين يديه حتى دخل على يلبق، فلما رأى رأس ابنه بكى وقبَّله، فأمر به القاهر فَذُبح وجُعل رأسه في طست. وحُمِلا بين يديه، ومضى حتى دخل على مؤنسٍ فوضعهما بين يديه.

فلما رآهما تَشَهَّدَ واسترجع[١] ولعن قاتلهُما، فقال القاهر: جُرُّوا بِرِجْلِ الكلب الملعون! فَجَرُّوا بِرِجْله وذبحوه، وجعلوا رأسهُ في طست. وطيف بالرؤوس في جانبي بغداد ونودي عليها «هذا جزاء من يخون الإمام ويَسْعَى في فساد دولته» ثم أعيدتْ فنظِّفت وجُعلت في خزانةَ الرؤوس على العادة. ولما قتلهم القاهر بالله اشتد أمره، وقَوِيتْ نفسه، وخافه منْ حوله مِمَّنْ وافقه وباطَنَه على قتلهم. وقتل أبا يعقوب النوبختي، ولقّب نفسه بعد ذلك «القاهر بالله المنتقم من أعداء الله لدين الله» وضرب ذلك على الدنانير والدراهم.

ذكر وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم وعزله وولاية الخَصيبي

قال: ولما قَبَضَ القاهرُ باللّهِ على مَنْ ذكرناه وهَرب ابنُ مقلةَ سأل: من يصلح للوزارة؟ فَدُلَّ على أبي جعفر ابن القاسم بن عبيد الله، فاسْتَوْزَرَه في شعبان فبقي وزيرًا إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي القعدة من السنة، فقبض القاهر بالله عليه وعلى أولاده وأخيه عبيد الله وحرمه، وكان مريضًا بقولنج[٢]، فبقي محبوسًا ثمانية عشر يومًا ومات، فَحُمِل إلى منزله وأُطْلِقَ أولادُه. واستوزر أبا العباس أحمدَ بنَ عبيد الله بن سليمان الخَصيبي فكانت وزارة أبي جعفر ثلاثةَ أشهر واثني عشر يومًا والله تعالى أعلم.

ذكر القبض على طريف السبكري

كان طريف كما ذكرناه قد أعان القاهرَ بالله على القبض على مَنْ ذكرنا، وثَبَّتَ قواعدَ دَوْلَتِه. فلما قَوِي القاهرُ بالله لم يقف عند أيمانِه لطريف وبقي يُسْمِعُه ما يكره، ويستَخِفُّ به، ويَعرِضُ له بالأذى. فلما رأى ذلك خافَه وتيقن السوءَ، فلما قبض

---

(١) المراد بقوله «استرجع» أي قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٢) القولنج: (يوناني) معناه وجع الأمعاء وهو في الحقيقة مغص قوي مشتد النخس يقال لنوع منه إيلاوس يقيء الأبراز ويخيل أنه يثقب الجنب ويفارق المغص بالثقل وعموم الظهر والجنب ووجع الكلى كذلك أيضًا مع ابتدائه من الأيسر وذلك بالعكس... (تذكرة داود الأنطاكي).

القاهرُ على الوزير أبي جعفر أحضر طريفًا وقَبضَ عليه، فبقي محبوسًا يتوقع الْقتل صباحًا ومساءً إلى أن خُلع القاهر بالله.

وفي هذه السنة أمر القاهر بتحريم الخمرة والغناء وسائر الأنبذة، ونَفَى بعْضَ مَنْ كان يُعْرفُ بذلك إلى البصرةِ والكوفة وأمر بِبيْع الجواري والمغنيات على أنَّهُنَّ سواذِجُ لا يَعْرِفْنَ الغناء، ثم وضع منْ يشتري له كلَّ حاذقةٍ في صنْعَةِ الغناء، فاشترى له منهن ما أراد بأبْخَسِ الأثمان. وكان القاهر مُشْتهرًا بالغناء والسَّماع، فجعل ذلك طريقًا إلى تحصيل غَرَضِهِ، وهذه نهايةُ في الخِسَّةِ والشُّحِّ، نعوذ بالله من ذلك!

وفيها كان ابتداء الدولة الدَّيلمية البويهية، وسيأْتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر عليُّ بن يلبق - قبل القَبْض عليه - بِلَعْنِ معاويةَ بنِ أبي سفيان وابنه يزيد على المنابر.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ذكر خلع القاهر وسمله(١) وشيء من أخباره

كان خلع القاهر وسمْلُه في يوم الأربعاء لِستٍّ خلون من جُمادى الأُولى من هذه السنة، وسبب ذلك أنَّ أبا عليٍّ بن مقلةَ والحسنَ بنَ هارون كانا قد استترا من القاهر، وجدَّ في طلبهما فلم يظفر بهما فكانا يراسلان قُوّاد السَّاجية والحجرية ويخوّفانهم من شَرِّه ويذكران غَدْرَه، وأنه لا يتمسَّك بأيْمانه، وأنه قَبَضَ على طريفٍ بعد نُصْحِه له، إلى غير ذلك. وكان ابنُ مقلةَ يجتمع بالقُوَّاد ليلاً - تارةً في زِيٍّ أعمى وتارةً في زِيِّ مكدٍ وتارةً في زِيِّ امرأةٍ - ويغريهم بالقاهر. ثم إنه أعطى منجمًا كان لِسِيما رئيس الساجية ومقدّمهم مائتي دينار، وأعطاهُ الحسنُ مائةَ دينارٍ فكان يذكر لِسِيما أن طالعه يقتضي أنَّ القاهر ينكُبُه ويقتُلُه. وأعطى ابنُ مقلةَ أيضًا شيئًا لمُعبِّرٍ كان لسيما، فكان يُحذِّرُه من القاهرِ بالله فازداد نُفورًا ونَقَل إلى سيما أنَّ القاهر يريد الْقَبْضَ عليه، فجمع الساجيةَ وأعطاهم السِّلاح، وأنفذ إلى الحجرية فاجتمعوا وتحالفوا على اجْتماع الكلمة وقَتْلِ منْ خَالَف منهم. فاتصل ذلك بالقاهر وبوزيره الخَصيبي فأرسل إليهم «ما الذي حملكم على هذا؟» فقالوا: قد صحَّ عندنا أنَّ القاهر يريد الْقَبْضَ على سيما وقد عمل مطامير(٢) ليحبس قوادنا فيها!.

---

(١) سمل العين: فقأها بمسمار أو حديدة محماة.

(٢) المطامير: جمع المطمورة: مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البر والفول ونحوه؛ أو السجن.

فلما كان في يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جُمادى الأُولى اجتمع الساجية والحجرية عند سيما وتحالفوا على القبض على القاهر، فقال سيما: قوموا بنا الساعةَ حتى نُمْضِيَ الْعزْم، فإنه إنْ تأخر عَلِم به واحترز وأهلكنا! وبلغ ذلك الوزير فأرسل سلاَّمًا الحاجب وعيسى الحاجب وعيسى الطبيب ليعلماه بذلك، فوجداه نائمًا قد شرب أكثرَ ليلته، فلم يقدر على إعلامه بذلك، وزحف الحجرية والساجيةُ إلى دار الخلافة، ووكل سيما بأبوابها من يحفظها، وبقي هو على باب العامَّةِ وهاجموا الدَّارَ من سائر الأبواب. فلما سمع القاهر الأصوات والجلَبَةَ استيقظ وهو مخمور، وطلب بابًا يهرب منه، فقيل له إن الأبواب جميعها مشحونةٌ بالرجال فهرب إلى سطْح حمام ودخل القومُ فلم يجدوه، فَدلَّهُم خادمٌ صغير على مَوْضِعِه فقصدوه. فإذا بيده سيف فألانوا له واجتهدوا به، فلم ينزلْ وقال: من صعد إليَّ قتلتُه! فأخذ بعضُهم سهمًا وقال: إن نزلتَ وإلا وضَعْتُه في نحرك! فنزل حينئذٍ إليهم وساروا إلى الموضع الذي فيه طريفُ السبكري فأخرجوه وحبسوا القاهر مكانه واستدعَوْا في تلك الليلة أحمدَ بنَ أبي الحسين الصابىء فكَحلَ القاهر بعد أن أُقيم بين يَدَي الراضي بالله، وسلَّم عليه بالإمارة.

وقيل في سبب خَلْعِه إنه لما تمكَّنَ من الخلافة تنقَّص الساجية والحجريةَ على مَرِّ الأيام حتى كان لا يقضي لأكابرهم حاجةً، ويلزمهم النَّوْبةَ في دارِه، ويؤخر أعطياتهم ويغْلظ لمن يخاطبه منهم في أمرٍ، فأقبل بعضهم ينذر بعضًا ويتشاكون. ثم كان يقول لسلامة حاجبه: أنت بين يَدَيَّ كَنْزُ مال يمشي فأيَّ شيء يتبيَّنُ في مالك لو أعطيتني ألف ألف دينارٍ! فيحمل ذلك على الهزل، وكان وزيره الخَصِيبي خائفًا لما يرى منه.

ثم إنَّه حَفَرَ في الدار نحو خمسين مطمورةً وأحكم أبوابها، فقيل إنها لمقدّمي الساجية والحجرية، فازدادوا نفورًا، ثم إنَّ جماعةً من القرامطة أُخِذُوا من فارس وأُرْسلوا إلى بغداد فحبسوا في تلك المطامير، فتقدم القاهر سِرًّا بفتح الأبواب عليهم والإحسان إليهم، وعَزَم على أن يتَقَوَّى بهم بالقبض على مقدّمي الساجية والحجرية. فأنكروا حالَ القرامطةِ وكونَهم معه في داره وهو يحسن إليهم، وذكروا ذلك لوزيره وحاجبه فقالا له، فأخرجهم من دارِ الخلافةِ وسلَّمهم إلى محمدِ بنِ ياقوت وهو على شُرْطَةِ بغداد فأنزلهم في دارٍ وأحسَن إليهم. ثم صار القاهر يذمُّ الساجيةَ والحجرية في مجْلسه ويظهر كراهتهم، فلما تبينوا ذلك من وجهه وحركاته أظهروا أنَّ لبعض قوادهم عُرْسًا، فاجتمعوا بِحَجْبتِهِ وقرروا بينهم ما أرادوا وافترقوا. وأرسلوا إلى سابور خادم

والدة المقتدر وكان قد اخْتَصَّ به فقالوا له: قد علمتَ ما فعل القاهر بمولاتِك وقد ركبتَ في موافقته كلَّ عظيم فإن وافقتنا على ما نحن عليه وتقدمت إلى الخدم بِحفْظِه فعفا الله عما سلف منك وإلا فنحن نبدأُ بك! فأعلمهم ما عنده من الخوفِ والكراهةِ للقاهر، وأنه موافقهم، هذا وابنُ مقلةَ يسعى كما ذكرنا.

قال: ولما قُبِضَ على القاهر هرب وزيره الخَصيبي وحاجبُه سلامة، فكانت خلافةُ القاهر باللّهِ سنةً واحدةً وستةَ أشْهُرٍ وثمانيةَ أيام وهو أولُ خليفةٍ سُمِلَ، ولم يزل في دار السلطان إلى أن أخرجه المستكفي بالله في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وردَّه إلى داره فأقام مدةً ثم خرج إلى جامع المنصور في يوم الجمعة، وقام فعرَّفَ النَّاسَ نَفْسَهُ وتصدَّقَ منهم وقال: أنا خليفتكم بالأمس وسائلكم اليوم! فأعطاه ابنُ أبي موسى ألْف درهم وردَّه إلى داره وتوفي في خلافة المطيع في يوم الجمعة ثالث جُمَادى الآخرة سنةَ تسع وثلاثين، ودُفن في دار طاهر وله اثنتان وخمسون سنةً. وكان أبيضَ يعلوه حمرة مربوعًا أعين[1] وافر اللحية ألثغَ شديدَ الإقدام على سَفْكِ الدِّماء، أهوجَ مُحِبًا لجمع المال قبيحَ السياسة. وقد تقدم من أفعاله وضَرْبِه لوالدة أخيه المقتدر ومصادرتِها ومصادرة أولاد أخيه وأمهات أولاده ما يُستدل به على قبح أفعاله وسوءِ طَوِيَّتِه وعدم تمسكه بما يبذله من الأيْمانِ المغلَّظة والعهود المؤكَّدةِ ثم لا يقف عند ذلك. وكان نقش خاتمه «محمد رسول الله» وكان له من الأولاد أبو الفضل عبد الصمد وأبو القاسم عبد العزيز وهو ولي عهده.

وزراؤه: أبو علي بن مقلة، ثم محمد بن القاسم، ثم أحمد بن عبد الله الخَصيبي.

حُجَّابُه: علي بنُ يلبق، ثم سلامة الطولوني.

قاضيه: عمر بن محمد بن يوسف.

الأُمراء بمصر: تَكين ثم محمد بن طُغْج الفَرْغاني المعروف بالإخشيد، ثم أحمد بن كَيْغَلَغ، وتغلَّب محمد بن تكين في أيامه ثم عاد الأمر إلى ابن كَيْغَلغ.

القضاة بها: ولَّى القاهرُ محمد بن الحسين بن أبي الشوارب فاسْتَخْلَفَ أبا جعفر أحمد بن عبد الله بن قُتَيْبَة فشغب الرعية عليه ولم يزل إلى أن صُرِف ابن أبي الشوارب، ورد القضاء إلى أبي عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد وإلى عبد الله بن موسى السرخسي.

---

(١) الأعين: الذي اتسعت عينه وحسنت.

ذكر خلافة الراضي بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله، وأُمه أُم ولد اسمها ظَلوم، وهو الخليفةُ العشرون من الخلفاء العباسيين بويع له بعد خلع عمِّهِ القاهرِ في يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جُمادى الأُولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وذلك أنه لما قُبض القاهر كما ذكرناه سألوا الخدم عن المكان الذي هو فيه وكان محبوسًا هو ووالدته، فَدلُّوهم عليه فقصدوه وفتحوا عليه وسلّموا عليه بالخلافةِ وأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر بالله ولقبوه الراضي بالله، وبايعه القُوَّادُ والناسُ، وأُقيم القاهر بين يديه وسلَّم عليه بالإمارة..

قال: ولما ولي أمر بإحضار عليٍّ بنِ عيسى وزيرِ المقتدر بالله وأخيه عبد الرحمٰن وصدر عن رأيهما فيما يفعله. وأراد عليَّ بنَ عيسى على الوزارةِ فامتنع، لِكِبرِه وضَعْفِهِ، وأشار بابن مقلة ثم قال سيما للراضي بالله: إن الوقت لا يحتمل أخلاق عليٍّ وابنُ مقلةَ أليق، فكتب له أمانًا فحضر واستوزره.

فلما وزَر أحسن إلى كلٍّ من أساء إليه وقال عاهدتُ الله عند اسْتِتَاري بذلك! وأرسل إلى الخَصيبي وعيسى الطبيب بالأمان فظهرا، فأحسن ابنُ مقلةَ إليهما، فاستعمل الخصيبي واستعمل أبا الفضل بن جعفر بن الفرات نائبًا عنه على سائر الأعمال بالموصل والجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزيرية والشامية، وأجناد الشام ومصر. واستعمل الراضي بالله على الشرطة بدرًا الخرشني[1] واستعمل محمد بن ياقوت على الحجبة ورئاسة الجيش، وأدخل يده في أمر الدواوين، وتقدم إليهم بأن لا يقبلوا توقيعًا بولايةٍ وعزلٍ وإطلاقٍ إلا إذا خَطُّه عليه، وأمرهم بحضور مجلسه فصبر ابنُ مقلةَ على ذلك وألزم نفسه بالمصير إلى دار ابن ياقوت في بعض الأوقات كالمتعطل.

ذكر مقتل هارون بن غريب

في هذه السنة قُتل هارون بن غريبِ الخالِ، وسبب ذلك أن القاهر باللّهِ كان استعمله على ماه الكوفةِ وماسبذان وغير ذلك كما ذكرناه. فلما استخلف الراضي بالله رأى هارونُ أنه أحق بالدولةِ من غيره لِقَرابتِه من الراضي بالله. وكاتَب القُوَّاد ببغداد

(١) نسبة إلى خرشنة؛ وهي بلد قرب ملطية من بلاد الروم.

يعدهم الإحسانَ والزيادة في الأرزاق، ثم سار من الدّينور إلى خانقين[١]، فعظم ذلك على ابن مقلة وابن ياقوت والحجرية والساجية، وشكوا ذلك إلى الراضي بالله فأعلمهم أنه كاره له وأذن لهم في منعه. فراسلُوا له وبذلوا طريقَ خراسان زيادةً على ما بيده، فلم يقنعْ وتَقَدَّم إلى النَّهْرَوَان[٢] وشَرع في جِبايةِ الأموال، وظَلَم النَّاس وعسفَهم وقَويتْ شوكته. فخرج إليه محمدُ بنُ ياقوتِ في سائرِ جيوش بغداد ونزل قريبًا منه، فهرب بعض أصحاب محمد بن ياقوت إلى هارون. فراسله ابن ياقوت يستميله، ويبذل له فقال: لا بُدَّ من دخول بغداد!

فلما كان في يوم الثلاثاء لِستٍّ بقين من جُمادى الآخرة تزاحف العسكران واشتد القتال فاستظهر أصحاب هارون لكثرتهم، وانهزم أكثر من مع ابن ياقوت ونهب أكثر سوادهم وكَثُر فيهم الْقَتْلُ والجراح، فسار محمد حتى قطع قنطرة نهر هناك. فبلغ ذلك هارون، فسار نحو القنطرة منفردًا عن أصحابه طمعًا في أسر محمد بن ياقوت وقتله، فتقنطر به فرسُه فسقط عنه في ساقية فلحقه غلام له اسمه يمن فضربه بالطبرزين حتى أثخنه وكسر عظامه ثم نزل إليه فذبحه، ثم رفع رأْسه وكبّر فانهزم أصحابُه وتفرقوا ودخل بعضُهم بغداد سِرًّا. ونُهِب سوادُ هارون، وقُتل جماعةُ قوادِه، وأُسر جماعةٌ، وسار محمد إلى موضع جثة هارون فأمر بحملها إلى مضربه وأمر بغَسْلِه وتكفينه وصلَّى عليه ودفَنَه، ودخل بغداد ورأْسُ هارونَ بين يديه ورؤوس جماعةٍ من قواد هارون فنُصبتْ ببغداد!.

ذكر مقتل ابن الشلمغاني ومذهبه

في هذه السنة قتل أبو جعفر محمد بن علي الشَّلَمْغاني المعروف بابن أبي العراقيد، وشَلَمغان التي ينسب إليها قرية بنواحي واسط، وكان سبب ذلك أنه قد أحدث مذهبًا غاليًا فِي التشُّيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه، إلى غير ذلك، وكان ظهورُه في مبدأ وزارة حامد بنِ العباس أحدِ وزراء المقتدر بالله، ثم اتصل الشَّلَمْغاني بالمحسن بن الفرات في وزارة أبيه الثالثة، ثم طُلب في وزارة الخاقاني فاستتر وهرب

(١) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال... قيل: بها عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل، وبها قنطرة عظيمة على واديها تكون أربعة وعشرين طاقًا... (معجم البلدان).

(٢) النهروان: هي ثلاثة نهراوات: الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة... (معجم ياقوت).

إلى الموصل. وبقي سنين عند ناصر الدولة بن حمدان، ثم انحدر إلى بغداد واستتر، ثم ظهر عنه أنه يدَّعي الربوبيةَ لنفسه. وقيل إنه اتَّبعه على ذلك الحسينُ بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الذي وزر للمقتدر بالله، وأبو جعفر، وأبو علي ابنا بسطام، وإبراهيم بن محمد بن أبي عون، وابن شبيب ويزيد وأحمد بن محمد بن عبدوس. . كانوا يعتقدون ذلك فيه وظهر ذلك عنهم، وطُلبوا في وزارة ابن مقلة للمقتدر فلم يوجدوا.

فلما كان في شوال سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ظهر ابن الشَّلَمْغانيّ فَقَبضَ عليه الوزيرُ ابنُ مقلةَ وسجنَه وكبس داره فوجد فيها رِقاعًا وكتبًا ممَّن يدعي فيه الربوبيةَ يخاطبونه بما لا تخاطب به البشر بعضهم بعضًا. وفيها خط الحسين بن القاسم، فعرضت الخطوط عليه فأقرَّ أنها خطوطُهم وأنكر مذهَبه، وأظهر الإسلامَ وتَبرَّأ مما يقال فيه. فأُخِذَ ابنُ أبي عون وابن عبدوس فأُحضرا معه عند الخليفة وأُمِرا بصفعه فامتنعا، فلما أُكرها صفعه ابن عبدوس، ومدَّ ابن أبي عون يده إلى لحيته ورأسه فارتعدت يده فَقَبَّل لحيتَه ورأسه وقال: إلهي وسيدي ورازقي! فقال له الراضي: قد زعمت أنك لا تَدَّعِي الإلهية فما هذا؟ فقال: وما عليّ مِنْ قَوْلِ ابن أبي عون، والله يعلم أنني ما قلتُ له إني إله قط! فقال ابنُ عبدوس: إنه لم يدَّعِ الإلهيةَ وإنما ادَّعى أنه البابُ إلى الإمام المنتظر مكان الحسين بن روح!

ثم أُحْضِروا عدةَ مراتٍ ومعهم القضاةُ والفقهاءُ وغيرهم، وفي آخر الأمر أفتى الفقهاءُ بإباحة دمِه فَصُلِب هو وابن أبي عون، وأُحْرِقا بالنَّار في ذي القعدة. وكان الحسينُ بن القاسم بالرَّقَّة[1] فأرسل الراضي بالله إليه فقتل في ذي القعدة، وحُمِلَ رأْسُه إلى بغداد.

وكان مذهب الشلمغاني أنه إله الآلهة بحقِّ الحق، وأنه الأول القديم، الظاهر الباطن، الرازق التام، المومأ إليه بكلِّ معنى. وكان يقول: إن الله سبحانه وتعالى يحلُّ في كل شيء على قدر ما يحتمل، وإنه خَلَقَ الضِّدَّ ليدلَّ على المضدود، فمن ذلك أنه حلّ في آدم عليه السلام لما خلقه، وفي إبليس لما خلقه وكلاهما ضِدٌّ لِصاحِبه لمضادته إياه في معناه، وأنَّ الدليلَ على الحقِّ أفضلُ من الحقِّ، وأن الضد أقرب إلى الشيء من شبيهه، وأن الله عزَّ وجلَّ إذا حلَّ في جسدِ ناسوتي أظهر من المقدرة

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. . . (معجم البلدان).

المعجزة ما يدل على أنه هو، وأنه لما غاب آدم ظهر اللاهوتُ في خمسةِ ناسوتيةٍ كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر في خمسة أبالسة أضدادٍ لتلك الخمسة، ثم اجتمعت اللاهوتيةُ في إدريسَ وإبليسهِ وتفَرَّقَتْ بعدهما كما تفرقت بعد آدم، واجتمعت في نوح عليه السلام وإبليسهِ وتفرَّقت بعدهما، واجتمعت في صالح وإبليسه عاقرِ الناقة وتفرقت بعدهما، واجتمعت في إبراهيم عليه السلام وإبليسه نمرود وتفرقت لمَّا غابا واجتمعت في موسى وإبليسه فرعون وتفرقت بعدهما، واجتمعت في سليمان وإبليسه وتفرقت بعدهما، واجتمعت في عيسى وإبليسه فلما غابا تفرقت في تلاميذ عيسى وأبالستهم، ثم اجتمعت في علي بن أبي طالب وإبليسه.

وإنَّ الله يظهر في كل شيء وكلِّ معنى، وإنه في كل أحد بالخاطر الذي يخطُر في قلبه فيتصوَّرُ له ما يغيب عنه حتَّى كأنه يشاهده. وإن الله اسم لمعنىً، وإن من احتاج الناس إليه فهو إله، ولهذا المعنى يستوجب كل أحد أن يسمّى إلهًا، وأن كل أحد من أشياعه لعنه الله يقول: إنه ربٌّ لمن هو في دون درجته. وأن الرجل منهم يقول «أنا رب لفلان وفلان رب ربي» حتى يقع الانتهاء إلى ابن الشلمغاني فيقول: أنا رب الأرباب لا ربوبية بعده! ولا ينسبون الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما إلى عليٍّ، لأن من اجتمعت له الربوبية لا يكون له ولد ولا والد.

وكانوا يسمون موسى ومحمدًا صلوات الله عليهما الخائنين، لأنهم يدّعون أن هارون أرسل موسى وعليًا أرسل محمدًا فخاناهما. ويزعمون أن عليًا أمهل محمدًا عدة سنين أصحاب الكهف فإذا انقضت العدة وهي ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة.

ويقولون: إن الملائكة كل من ملك نفسه وعرف الحق، وإن الجنةَ معرفتُهم وانتحالُ مذهبهم والنار الجهلُ بهم والعدولُ عن مذهبهم ويعتقدون تَرْكَ الصلاةِ والصيام وغيرِهما من العبادات، ولا يتناكحون بعقد ويبيحون الفروج، ويقولون: إن محمدًا ﷺ بعث إلى كبراء قريش وجهابذة[1] العرب ونفوسهم أبيه فأمرهم بالسجود، وإن من الحكمة الآن أن يُمْتَحنَ النَّاسُ بإباحة فروج نسائهم، وإنه يجوز أن يجامع الإنسانُ مَنْ شاء من ذوي رحِمه وحُرم صديقه وابنه بعد أن يكون على مذهبه، وإنه لا بدَّ للفاضلِ منهم أن ينكح المفضول ليولج النورَ فيه، ومن امتنع من ذلك قُلِبَ في الدور الذي يأْتي بعد هذا العالم امرأةً؛ إذ كان مذهبهم التناسخ.

(١) جهابذة: جمع الجهباذ: وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور.

وكانوا يعتقدون إهلاك الطالبيين والعباسيين، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا! وهذه المقالة شبيهةٌ بالمقالة النصيرية، فإنهم يعتقدون في ابن الفرات، ويجعلونه رأسًا في مذهبِهِم.

ذكر ظهور إنسان ادّعى النبوة

وفي هذه السنة ظهر بباسند(١) من أعمال الصغانيان رجل ادّعى النبوة فقصده فوج بعد فوج واتّبعه خلقٌ كثير وحارب من خالفه، فقتل خلقًا كثيرًا ممن كذبه، وكثر أتباعه خصوصًا من أهل الشاش(٢). وكان صاحبَ حِيَلٍ ومخاريق، وكان يدخل يده في حوض ماء فيخرجها مملوءةً دنانير إلى غير ذلك من المخاريق، فكثر جمْعُه. فأنفذَ إليه، أبو علي بن المظفر، جيشًا فحاربوه وضيّقوا عليه - وهو فوق جبلٍ عالٍ - حتى قبضوا عليه، وقتلوه وحملوا رأسه إلى أبي علي، وقتلوا خلقًا كثيرًا ممن اتبعه وآمن به. وكان يدَّعِي أنه متى مات عاد إلى الدنيا، فبقي جماعة كبيرة بتلك الناحية مدةً طويلةً على ما دعاهم إليه ثم اضمحلوا وفنوا.

وفيها سار الدمستق قرقاش في خمسين ألفًا من الروم فنازل مَلَطْية وحصرها مدةً طويلة حتى هلك أهلها بالجوع، وضرب خيمتين على إحداهما صليبٌ وقال: مَنْ أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب لِيُردَّ عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأُخرى وله الأمان على نَفْسِه ونبلغه مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلى خَيْمةِ الصَّليب طمعًا في أهلِهم ومالِهم. وسيَّر مع الباقين بطريقًا يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالأمان في مستهل جُمادى الآخرة، وملكوا شِمْشَاط(٣). وخرَّبوا الأعمال، وأكثروا القتل، وفعلوا الأفاعيلَ الشنيعةَ، وصار أكثر البلاد في أيديهم.

---

(١) باسند: مدينة فيما وراء النهر، وهي في الصغانيان الولاية الضخمة التي تتصل بأعمال ترمذ، ومشاربها من أنهار تمد إلى جيحون، وهي شديدة العمارة كثيرة الخيرات... (معجم البلدان).

(٢) الشاش: بالشين المعجمة: بالري قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة، ولكن الشاش التي خرج منها العلماء ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء فهي بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك وأهلها شافعية المذهب... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) شمشاط: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وشين مثل الأولى، وآخره طاء مهملة: مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

ذكر القبض على ابني ياقوت

في هذه السنة في جُمادى الأُولى قبض الراضي بالله على محمد والمظفر ابني ياقوت، وكان سبب ذلك أن الوزير أبا علي بن مقلة كان قد قَلِقَ لتحكُّم محمدِ بنِ ياقوت في الدولة بأسرها، وأنه هو ليس له حكم في شيء، فَسعى به إلى الرَّاضي وأدام السِّعاية. فلما كان في خامس الشهر ركب جميع القواد إلى دارِ الخليفة على عادتهم، وحضر الوزير وأظهر الرَّاضي أنه يريد يقلد جماعةً من القواد أعمالاً، وحضر محمد بن ياقوت للحجبة ومعه كاتبه أبو إسحاق القراريطي. فخرج الخدم فاستدعوا محمد بن ياقوت إلى الخليفة فدخل مبادِرًا، فعدلوا به إلى حجرة هناك فحبسوه، ثم استدعوا القراريطي فدخل فعدلوا به إلى حجرة، ثم استدعوا المظفر من بيته وكان مخمورًا فحبسوه أيضًا، وأنفذ الوزير ابن مقلة إلى دار محمد من يحفظها من النَّهب، وكان ياقوت حينئذ مقيمًا بواسط، فلما بلغه القبض على ابنيه انحدر يطلب فارس ليحارب ابن بويه، وكتب إلى الراضي باللّهِ يستعطِفُه ويسألُ إيفادَ ولَديْه ليساعداه على حزبِه.

ذكر حال أبي عبد الله محمد البريدي وتقدمه

في هذه السنة قَوي أمْرُ أبي عبد الله البريدي وعظُم شأْنُه، وسببُ ذلك أنه كان ضامنًا لأعمال الأهواز، ثم استولى عليها عسْكَرُ مرداويج الدَّيْلمي، وهزم ياقوت، فجاء إلى البصرة وصار يتصرف في أسافل أعمال الأهواز مضافًا إلى كتابة ياقوت. وادّعى أخواه ـ وكان إليهما ضمان السوس وجُنْديسابور[1] ـ أنَّ دَخْل البلاد لسنة اثنتين وعشرين أَخَذَه عسْكَرُ مرداويج وأنَّ دخْلَ البلاد لسنةِ ثلاث وعشرين لا يحصل منه شيء، لأنَّ نُوَّاب مرداويج ظلموا الناس فلم يبْقَ لهم ما يزرعونه. وكان الأمر بِضِدِّ ذلك في السنتين، فبلغ ذلك الوزير ابن مقلة فأنفذ نائبًا له ليحقِّقَ الحالَ فواطأ ابني البريدي وكتب بصدقهما فحصَّل لهما بذلك مالاً عظيمًا وقويت نفوسهما وكان مبلغ ما أَخَذَاه أربعة آلاف ألف دينار.

(١) جنديسابور: بضم أوله، وتسكين ثانيه، وفتح الدال، وياء ساكنة، وسين مهملة، وألف، وباء موحدة مضمومة، وواو ساكنة، وراء: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده... (معجم البلدان).

وفيها قَتل ناصرُ الدولة بن حمدانَ عمَّه أبا العلاء بن حمدان، وسبب ذلك أن أبا العلاء سعيدًا ضمن الموصل وديار ربيعة سرًّا، وكان بها ناصر الدولة أميرًا. فلما وصل إلى الموصل خَرج ابنُ أخيه للقائه فخالفه في الطريق قَصْدًا منه، فوصل أبو العلاء ودخل دار ابن أخيه وقعد ينتظره، فأنفذ ناصر الدولة جماعةً من غلمانه فقبضوا عليه ثم أنفذ جماعة غيرهم فقتلوه.

ذكر مسير ابن مقلة إلى الموصل وما كان بينه وبين ناصر الدولة

قال: لما قَتَل ناصرُ الدَّوْلةِ عمَّه أبا العلاء واتَّصل خَبَرُه بالراضي بالله عظُم ذلك عليه وأنكره، وأمر الوزيرَ ابنَ مقلةَ بالمسير إلى الموصل، فسار إليها في شعبان بالعساكر. فلما قاربها رَحلَ عنها ناصر الدولة ودخل الزوزان[1]، وتبعه الوزير إلى جبل التنِّين[2] ثم عاد عنه، وأقام بالموصل يجبي أموالَها. فلما طال مقامُه بالموصل احتال بعضُ أصحاب ابن حمدان على ولد الوزير - وكان ينوب عنه في الوزارة ببغداد - فبذل له عشرةَ آلافِ دينارٍ ليكتب إلى أبيه يستدعيه فكتب إليه يقول: إن الأُمور بالحَضْرَةِ قد اخْتلَّتْ وإنَّ تأَخُّرَه لم يؤمن معه حدوث ما يبطل أمرهم. فانزعج الوزير لذلك، واستعمل على الموصل عليَّ بنَ خلف بن طباب وماكرد الدَّيْلَمي - وهو من الساجية - وانحدر إلى بغداد في منتصف شوال. فلما فارق الموصل عاد إليها ناصر الدولة بن حمدان فاقتتل هو وماكرد الديلمي، فانهزم ابن حمدان. ثم عاد وجمع عسكرًا آخر، والتقوا على نصيبين[3] في ذي الحجة فانهزم ماكرد إلى الرَّقَّة ثم إلى بغداد، وانحدر ابنُ طباب أيضًا، واستولى ابنِ حمدان على الموصل والبلادِ وكتب إلى الخليفة يسأله الصُّلح وأن يضْمنَ البلاد فأُجيب إلى ذلك. وفيها في المحرم قَلَّدَ الراضي بالله ولَدَيْه أبا جعفر وأبا الفضل ناحيتي المشرق والمغرب مما بيده، وكتب بذلك إلى البلاد.

---

(١) الزوزان: بفتح أوله وثانيه ثم زاي أخرى، وآخره نون: كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل، وأهلها أرمن وفيها طوائف من الأكراد... (معجم ياقوت).

(٢) تنين: بكسرتين وتشديد النون، وياء ساكنة، ونون أخرى: جبل التنين مشهور قرب جبل الجودي من أعمال الموصل... (معجم البلدان).

(٣) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام... (معجم البلدان).

وفيها في ليلة الثاني عشر من ذي القعدة انْقَضَّتِ الكواكبُ انقضاضًا دائمًا مستمرًا من أوَّل الليل إلى آخره، وهي الليلةُ التي أوْقَع القرمطي فيها بالحجاج.

وفيها مات محمد بن ياقوت في الحبس، واتهم ابن مقلة أنه سمّه وأطلق أخوه المظفر من الحبس بشفاعةِ ابنِ مقلة، وحَلَف للوزير أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه فلم يفِ له.

وفيها أرسل الوزير ابنُ مقلةَ رسولاً إلى محمد بن رائق بواسط، وكان قَطَعَ الحِمْلَ عن الخليفة فطالبه بارتفاع أموال واسط والبصرة وما بينهما فأحسن إلى رسوله وَرَدَّه برسالةٍ ظاهرة إلى ابن مقلة يغالطه، وأُخرى باطنة إلى الخليفةِ الراضي باللّهِ مضمونُها أنه إنِ اسْتُدْعِي إلى الحضور وَفُوِّضَتْ إليه الأمورُ وتدبير الدولة، قام بجميع ما يحتاج إليه من نفقات الخليفة وأرزاق الجند. ولما سمع الخليفةُ، لم يُعِدْ إليه جَوَابها.

ودخلت سنةُ أربعٍ وعشرين وثلاثمائة.

ذكر القبض على الوزير ابن مقلة
ووزارة عبد الرحمٰن بن عيسى وغيره

في هذه السنة عَزَم الوزيرُ على المسير إلى ابنِ رائقٍ لما عاد رسوله بغير مال، وحضر إلى دار الراضي في منتصف جُمادى الأُولى. فلما حضر الدَّارَ قبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية وأعلموا الراضي بذلك، فوافق رأْيه فيه، واستحسن فِعْلَهم. واختفى أبو الحسين بن أبي علي بن مقلة الوزير، وسائر أولادِه، وحُرمُه وأصحابُه. وطلب الحجرية والساجية من الخليفة أن يشير بوزيرٍ فَرَدَّ الاختيار إليهم، فأشاروا بوزارة علي بن عيسى، فأحضره الراضي بالله، فامتنع وأشار بأخيه عبد الرحمٰن فاستوزره. وسُلِّم إليه ابنُ مقلةَ فصادره، ثم عجز عبد الرحمٰن عن تمشية الأُمور وضاق عليه المال فاستعفى من الوزارة وقبض عليه وعلى أخيه عليّ في سابع شهر رجب، واستُوزر أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي، وخلع عليه وسُلِّم إليه علي بن عيسى فصادره على مائة ألف دينار، وصادر أخاه عبد الرحمٰن بسبعين ألف دينار.

وفيها قتل ياقوت، وعظم البريدي وإخوته، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عزل أبي جعفر ووزارة سليمان بن الحسن

قال: ولما تولى أبو جعفر الكرخي الوزارة رأى قلة الأموال وانقطاع المواد فعجز عن تدبير الحال. وضاق الأمر عليه، وقطع ابنُ رائقٍ حِمْلَ واسط والبصرة، وقطع البريدي حِمْلَ الأهواز وأعمالها. وكان ابنُ بويه قد تغلب على فارس، فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونَقُصتْ هيْبتُه، فاستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته، فاستوزر الراضي أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان في الوزارة كأبي جعفر في وقوف الحال وقلة المال!.

ذكر استيلاء ابنِ رائقٍ على العراق وتغلب الملوك على الأعمال وخروجهم عن الطاعة وتغير أحوال الوزارة وإبطال الدواوين

قال: لما رأى الراضي بالله وقوف الحال بالحضرة ألجأته الضرورة إلى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه إجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد. فلما أتاه الرسول فرح بذلك وشرع يتجهز للمسير إلى بغداد، فأنفذ إليه الراضي بالله الساجية وقلَّده إمارَةَ الجيش وجعله أمير الأُمراء وولاَّه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين. وأمر أن يُخْطَب له على جميع المنابر، وأنفذ إليه الخلع وانحدر إليه أصحابُ الدواوين والكُتَّابُ والحُجَّابُ وتأخر الحجرية. فلما استقر الذين نزلوا إلى واسط بها قَبضَ على الساجيةِ في ذي الحجة ونَهب أموالَهم ودوابَّهم، وأظهر أنه إنما فعل ذلك لِتَتَوفَّر أرزاقُهم على الحجرية، فاستوحش الحجريةُ من ذلك وقالوا: اليومَ لِهؤلاء وغدٌ لنا وخَيَّموا بدارِ الخلافة. وصعد ابنُ رائقٍ إلى بغداد ومعه بجكم، فخلع الخليفةُ عليه في أواخر ذي الحجة، وأتاه الحجريةُ يُسلِّمون عليه فأمرهم بقلع خيامهم فقلعوها وعادوا إلى منازلهم.

وبطُلَت الدواوينُ من ذلك الوقت، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأُمور، إنما كان ابن رائقٍ وكاتبه ينظران في الأُمور جميعها، وكذلك كل من تولَّى إمرةَ الأُمراء بعده، وصارت الأموالُ تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون، وبطلت بيوتُ الأموال. وتغلب أصحاب الأطراف وخلعوا الطاعة، ولم يبْقَ بِيدِ الخليفة غَيْرُ بغداد وأعمالِها، والحكم في جميعها لابن رائقٍ ليس للخليفة حُكْمٌ. وأما باقي الأطرافِ فكانت البصرةُ بِيدِ ابنِ رائقٍ، وخوزستان والأهواز في يد البريدي، وفارس في يد

عِمَادِ الدَّوْلَةِ ابن بويه، وكرمان[١] في يد أبي محمد علي بن إلياس، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد شمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ربيعة ومُضَر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد أبي بكر محمد بن طُغْج والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي، والأندلس في يد عبد الرحمٰن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان[٢] وجرجان في يد الدَّيْلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي.

ذكر وزارة الفضل بن جعفر ابن الفرات

قال: ولما ولي ابن رائق كتب كتابًا عن الراضي بالله إلى أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات يستقدمه للوزارة. وكان يتولى الخراج بمصر والشام، فظن ابن رائق أنه إن استوزر جبى له أموال الشام ومصر، فنفذت إليه الخِلَع قبل وصوله فلقيته بهيت[٣]، فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابنِ رائقِ جميعًا.

ودخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة.

ذكر مسير الراضي بالله لحرب البريدي

في هذه السنة أشار ابن رائق على الراضي بالله بالانحدار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل أبا عبد الله البريدي، فإن أجاب إلى ما يطلب منه وإلا قرَّب قصده عليه، فأجاب الراضي بالله إلى ذلك. وانحدر أول المحرم فخالف الحجرية وقالوا: هذه حيلة علينا ليعمل بنا مثل ما عمل بالساجية! فلم يلتفت ابن رائق إليهم،

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. . . (معجم البلدان).

(٢) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم؛ خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه. . . ومن أعيان بلدانها دهستان وجرجان وأستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية وهي مثلها، وشالوس، وهي مقاربة لها. . . (معجم ياقوت).

(٣) هيت: بالكسر وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية.

وانحدر ومعه بعضهم، ثم انحدروا بعده. فلما صاروا بواسط اعترضهم ابن رائق فأسقط أكثرهم، فاضطربوا وثاروا فقاتلهم قتالاً شديدًا، فانهزم الحجرية وقتل منهم جماعة. ولما وصل المنهزمون إلى بغداد ركب لؤلؤ صاحب الشرطة ببغدادَ، ولقيهم وأوقع بهم، فاستتروا، فَنُهبَتْ دورُهم وقبِضَتْ أملاكُهم، وقُطِعَتْ أرزاقهم.

ولما فرغ ابنُ رائقٍ منهم قَتَلَ مَنْ كان قد اعتقله من الساجية سوى صافي الخازن وهارون بن موسى، ثم أخرج مضاربه ومضارب الراضي بالله نحو الأهواز[1]، وراسل البريديَّ في تأخير الأموال وما قد ارتكبه من الاستبداد وإفساد الجيوش إلى غير ذلك، ثم قال له بعد ذلك: إنه إنْ حمل الواجب عليه وسلَّم الجند الذين أفسدهم أُقِرَّ على عملِه وإن أبَى قوبِل بما يستحق. فلما سمع الرسالة جدَّد ضمانَ الأهواز في كل سنة بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار يحمل كل شهر بقسطه وأجاب إلى تسليم الجيش إلى مَن يؤمر بتسليمه إليه، ممن يسير بهم إلى قتال ابن بويه إذْ كانوا كارهين للعود إلى بغداد لضيق الأموال بها واختلاف الكلمة. فعقد عليه الضمان وعاد الراضي وابن رائق إلى بغداد فدخلاها في ثامن صفر، وكان هذا القول من البريدي خديعة ومكرًا؛ فإنه ما حمل من المال درهمًا واحدًا ولا سلَّم الجيش.

قال: ثم سعى ابنُ مقاتل عند ابن رائقٍ في عَزْلِ وزيره الحسين بن علي النُّوبختي، وأشار عليه بالاعتضاد بالبريدي وأن يجْعلَه وزيرًا، وبذل له ثلاثين ألفَ دينارٍ، فأجاب ابنُ رائقٍ إلى ذلك بعد امتناعٍ شديدٍ وأمر ابنَ مقاتل أن يكتبَ إلى البريديّ أن يرسلَ من ينوبُ عنه في وزارته فكَتب إليه بإنفاذ أحمد الكوفي لينوبَ عنه في وزارة محمد بن رائق فأنفذه واسْتَولَى على الأُمور هو وابن مقاتل، وشرعا في تضمين البصرة من أبي يوسف أخي أبي عبد الله البريدي. فامتنع ابنُ رائقٍ فَخَدعاه حتى أجاب إليه، وكان نائبَ ابن رائقٍ بالبصرة محمد بن يزداد، وقد أساء السيرةَ وظَلَم أهلَها، فَوعَدَهُم يوسُف ومنَّاهم وذمَّ ابنَ رائقٍ عنده بما كان يفعله ابن يزداد، فدعوا له. ثم أنفذ أبو عبد الله البريديُّ غلامَه إقبالاً في ألْفَي رجلٍ وأمرهم بالمقام بحصن مهدي[2] إلى أن يأمرَهم بأمرِه، فلما علم ابنُ يزداد بهم علم أن البريديَّ يريد

---

(١) الأهواز: آخره زاي، وهو جمع هَوْز: قيل اسمها هرمزشهر وهي الكورة العظيمة التي ينسب إليها سائر الكور. . . (معجم ياقوت).

(٢) حصن مهدي: بلد من نواحي خوزستان، قال الإصطخري: ليس بخوزستان أعمر وأزكى من نهر المسرقان، ومياه خوزستان من الأهواز والدورق وغير ذلك، تنحدر فيه حتى تنتهي إلى حصن مهدي فيصير هناك نهرًا كبيرًا ذا عرض وعمق، ثم يصب من حصن مهدي إلى البحر. . . (معجم البلدان).

التغلُّبَ على البصرة، وأمر البريديُّ بإسقاطِ بعض ما كان ابنُ يزداد يأْخذُه من أهل البصرة، فاطمأنوا وقاتلوا معه عسكر ابنِ رائقٍ، ثم عطف عليهم بعد ذلك وعمل بهم أعمالاً تمنَّوْا أيَّام ابنِ رائق وعدُّوها أعيادًا!.

ذكر الوحشة بين محمد بن رائق والبريدي والحرب بينهما

في هذه السنة ظهرت الوحشةُ بينهما، وكان لذلك أسبابٌ منها أن ابنَ رائقٍ لما عاد إلى بغدادَ أمر بظهورِ من اخْتَفَى من الحجرية، واستخدم منهم نحو ألفَيْ رجلٍ، وأمر من بقي بِطَلَبِ أرزاقِهم؛ فخرجوا من بغداد والتحقوا بأبي عبد الله البريديِّ فأكرمهم وأحسن إليهم وذمَّ ابنَ رائقٍ وعابه، وكتب إلى بغدادَ يقول: إني خفتهم فلهذا قبلتهم! وجعلهم طريقًا إلى قطْعِ ما استقر عليه من المال، وذكر أنهم اتفقوا مع الجيش الذي عنده ومنعوه من حملِ المال؛ فأنفذ إليه ابنُ رائقٍ يلزمه بإيفادهم فاعتذر ولم يفعل. ومنها أنه بلغه ما ذمّه به عند أهل البصرة فَساءه ذلك وبلغه مقام إقبال في جيشه بحصن مهدي فعظم عليه، فأمر الكوفي أن يكتب إلى البريدي يعاتبه على هذه الأشياء ويأمره بإعادةِ عَسْكَرِه من حِصْن مهديّ، فكتب إليه في ذلك فأجاب «أن أهلَ البصرة يخافون القرامطة[1] وأنَّ ابنَ يزداد عاجزٌ عن حمايتهم وقد تمسكوا لخوفهم بأصحابي».

فسار ابنُ رائق إلى واسط فبلغ البريدي، فكتب إلى عسكره بحصن مهديٍّ يأْمرهم بدخول البصرة وقتال من منعهم، وأنفذ إليهم جماعةً من الحجرية فَقَدِموا وقاتلوا ابن يزداد مرة بعد أُخرى وهُزموا إلى الكوفة، فكتب ابن رائقٍ إلى البريديّ يأْمره بإعادة أصحابه من البصرة وتهدَّدَه إن لم يفعل، فاعتذر إليه وغالطه!.

ذكر استيلاء بَجْكَم على الأهواز وخروج ابن البريدي منها

قال: ولما وصل جوابُ رسالة ابنِ البريديِّ إلى محمدِ بنِ رائقٍ بالمغالطةِ عن إعادة جُنْدِه مِنَ البصرة استدعى بدرًا الخرشني وخَلَع عليه وعلى بَجكم وسيَّرهما في

(١) القرامطة: فرقة من غلاة الشيعة، نشأت بالعراق واتسع سلطانها بالحجاز، وكان من أهم أغراضها طلب المساواة.

جيش وأمرهما أن يقيما بالجامدة[١]، فبادر بُجكم ولم يتوقف على بدرٍ وسار إلى السوس[٢]، فأخرج إليه البريديُّ جيشًا مع غلامه المعروف بالحمال عدته ثلاثة آلاف مقاتل، فالتقوا واقتتلوا بظاهر السوس. وكان مع بُجكم مائتان وسبعون رجلاً من الأتراك فانهزم أصحابُ البريدي وعادوا إلى صاحبهم فضرب الحمال وسَبَّهُ ووَبَّخهُ على انهزامه ثم ردّه وأضاف إليه مَنْ لم يشهدوا الواقعةَ فبلغوا ستةَ آلافِ رجلٍ.

فلما التقوا انهزموا من غير قتالٍ، فلما رآهم البريدي ركب هو وإخوَته ومَنْ يلزمه في سفينة ومعه ما بقي عنده من المال وهو ثلاثمائة ألفِ دينارٍ فغرقت السفينة بهم، فأخرجهم الغواصُون وقد كادوا يهلكون، وأخرج الغواصُون باقي المال لبُجْكَم ووصل أولاد البريدي إلى البصرة وأقاموا بالأُبلة[٣] وأعدُّوا المراكب للهرب إن هُزِم إقبال، وسيَّرَ أبو عبد الله البريدي غلامه إقبالاً إلى مطارا[٤] فالتقوا مع أصحاب ابن رائق فانهزمت الرائقية وأسر منهم جماعة فأطلقهم البريدي، وكتب إلى ابن رائق يستعطفه، وأرسل إليه جماعة من أعيان البصرة فلم يجبهم وطلبوا منه أن يحلف لأهل البصرة ليكونوا معه، فامتنع وحَلَف لئن ظفر بها ليحرقنها ويقتل كل من فيها فازدادوا بصيرة في قتاله واطمأن البريديُّ وأقام بالبصرة.

ثم جهز ابن رائقٍ جيشًا آخر وسيَّره في البَرّ وفي الماء، فالتقى عسكره الذي في البَرّ مع عسكر البريدي فانهزم الرائقية، وأما عسكر الماء فإنهم استولوا على الكلاءِ[٥] فلما رأى أبو عبد الله البريدي ذلك ركب في السفن وهرب إلى جزيرة أوال[٦]، وترك أخاه أبا الحسين بالبصرة في عسكر يحميها. فخرج أهل البصرة مع أبي الحسين لدفع عسكر ابن رائق عن الكلاء فقاتلوهم وأجلوهم عنه فسار ابن رائقٍ بنفسِه من واسط إلى البصرة على الظهر وكتب إلى بجْكم ليلحقَ به فأتاه فيمن عنده من الجند، فتقدَّموا

---

(١) الجامدة: بكسر الميم: قرية كبيرة من أعمال واسط بينها وبين البصرة... (معجم البلدان).

(٢) السوس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة أخرى: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام... (معجم ياقوت).

(٣) الأبلة: فرضة البصرة وأحد أحيائها.

(٤) في معجم ياقوت: مطارة: وهو اسم جبل، ومطارة أيضًا: من قرى البصرة على ضفة دجلة والفرات في ملتقاهما بين المذار والبصرة.

(٥) الكلاء: حي مشهور من أحياء البصرة كانت تصل إليه المراكب من الأبلة عن طريق نهر معقل وفيه دار الرزق.

(٦) أوال: بالضم: جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين، فيها نخل وليمون وبساتين... (معجم البلدان لياقوت).

وقاتلوا أهْلَ البصرة فاشتد القتال. فرجع ابن رائقٍ وبجْكَم إلى معسكرهم، وأما أبو عبد الله البريدي فإنه سار إلى عماد الدولة بن بويه واستجار به وأطمعهُ في العراق وهَوَّنَ عليه أمْرَ الخليفةِ وابنِ رائق، فَنَفَّذَ معه أخاه معز الدولةِ وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ولما سمع ابن رائق إقبالهم من فارس إلى الأهواز سيّر بَجْكَم إليها، ثم قَصَد جماعة من أصحاب البريديِّ عسكر ابنِ رائقٍ ليلاً فصاحوا في جوانبه، فانهزموا. فلما رأى ابن رائقٍ ذلك أمر بإحراق سوَادِه وآلاته لئلا يغنمه البريديون. وسار إلى الأهواز جريدةً[١] وأقام بها أيامًا، وعاد إلى واسط وكان باقي عسكره قد سبقه إليها.

ودخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز

في هذه السنة سار مُعزُّ الدَّوْلةِ أبو الحسين بنِ بويه إلى الأهواز وتلك النواحي فملكها، وسببُ ذلك ما ذكرناه من مسير أبي عبد الله البريدي إلى عماد الدولة بن بويه وتَرْكِ البريدي ولديه أبا الحسن محمدًا وأبا جعفر الفيّاض عند عماد الدولة رهينةً. وساروا فبلغ الخبر بجْكَم بنزولهم أرّجان[٢]، فسار لحربهم فانهزم من بين أيديهم إلى الأهواز، ثم إلى واسط. وأرسل إلى ابن رائقٍ يعلمه الخبر ويقول له «إن العسكر يحتاج إلى المال فإن كان معك مائتا ألف درهم فأقم بواسط حتى نصل إليك وتنفق فيهم المال وإلا فالرأي أن تعود إلى بغداد» فعاد ابن رائقٍ من واسطٍ إلى بغداد، ووصل بجْكَم إلى واسط.

قال: ودخل معز الدولة بن بويه الأهواز فأقام بها خمسة وثلاثين يومًا، ثم هرب البريدي خوفًا منه على نفسه، وأمر جيشه الذين بالسوس فصاروا إلى البصرة، وكاتب معز الدولة أن يُفْرِج له عن الأهواز حتى يتمكن من ضمانه؛ فإنه كان قد ضمن الأهوازَ والبصرة من عماد الدولة في كل سنةٍ بثمانيةَ عشرَ ألفَ ألفِ درهم. فرحل عنها عسكر مكرم وأنفذ البريدي خليفته إلى الأهواز وأنفذ إلى معز الدولة يذْكر خَوْفَه

---

(١) جريدة: هي الفرقة من الخيل لا رجالة فيها.

(٢) أرجان: بفتح أوله وتشديد الراء، وجيم وألف ونون: هي مدينة كبيرة كثيرة الخير بها نخيل كثير وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخًا. . . (معجم البلدان).

ويطلب منه أن ينتقل إلى السوس ليبعد عنه ويأمن بالأهواز، فامتنع معز الدولة من ذلك وعلم بجْكَم بذلك فأنفذَ جماعة من أصحابه واسْتَوْلَوا على السوس وجُنْدَيْسَابور وبقيت الأهواز بيد البريدي، ولم يبق مع مُعزِّ الدَّوْلةِ من كور الأهواز إلا عسكر مكرم فاشتد الحال عليه وفارقه بعض جندِه وأراد الرجوع إلى فارس فكتب إلى أخيه عمادِ الدَّوْلة يعرِّفه الحال فأنفذ إليه جيشًا تَقوَّى بهم، وعاد اسْتَوْلى على الأهواز، وهرب البريدي إلى البصرة. واستقر ابن بويه بالأهواز، وبَجْكَم بواسطِ طامعًا في الاستيلاء على بغداد ومكانِ ابنِ رائقٍ، وهو لا يُظْهِرُ ذلك.

قال: ولمّا رأى أبو الفتح الوزيرُ ببغداد إدبارَ الأُمور أطْمعَ ابنَ رائق في مصر والشام، وصاهره وعقد بينه وبين ابنِ طغْج عهدًا وصهرًا وقال لابن رائق: أنا أجبي لك مال مصر والشام إن سيّرتني إليهما! فسيّره إلى الشام في شهر ربيع الآخر.

ذكر الحرب بين بجكم والبريدي والصلح بعد ذلك

قال: ولما أقام بجْكم بواسطِ وعظم شأنه خافه ابن رائق أن يتغلَّبَ على العراق، فراسل أبا عبد الله البريدي وطلب منه الصلح على بجْكَم، فإذا انهزم تَسلَّم البريديُّ واسطًا وضمنها بستمائة ألف دينار في السنة. فسمع بجْكَم بذلك فاستشار أصحابَه فيما يفعله فأشاروا عليه أن يبتدئَ بأبي عبد الله البريديِّ وأن لا يهجم إلى حضرة الخلافة ولا يكاشف ابنَ رائقٍ إلا بعد الفراغ من البريديِّ. فجمع عسْكَره وسار إلى البصرة يريد البريدي، فسيّر أبو عبد الله البريديُّ جيشًا بلغت عدَّتهم عشرة آلاف رجل عليهم علامة أبو جعفر محمد الحمال، فالتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر البريدي فلم يتبعهم بجكم وكَفَّ عنهم. ثم أرسل إلى البريدي في ثاني يوم الهزيمة يعتذر إليه مما جرَى ويقول له: أنت بدأت وتَعرَّضْتَ لي وقد عفوت عنك وعن أصحابك ولو تبعتهم لقتلت أكثرَهُم، وأنا أُصالحك على أن أُقلدك واسطًا إن ملكت الحضرة وأُصاهرك! فسجد البريدي شكرًا لله تعالى وحلف لبجكم وتصالحا، وعاد إلى واسطِ وأخذ في التدبير على ابن رائق.

ذكر قطع يد ابن مقلة ولسانه

في هذه السنة في منتصف شوال قطعت يد الوزير أبي علي بن مقلة وكان سبب ذلك أنَّ الوزير أبا الفتح بن جعفر بن الفرات لما عجزَ عن الوزارة وسار إلى الشام اسْتَوْزَرَ الراضي بالله أبا علي بن مقلة وليس له من الأمر شيء، وإنما الأمْرُ والنَّهْيُ

لمحمد بن رائقٍ. وكان ابن رائق قد قَبضَ على أموالِ ابنِ مقلةَ وأملاكِه وأملاكِ ابنِه، فخاطبه في ردِّها فلم يفعل، فاستمال أصحابَه وسألهم مخاطبتَه في ردِّها فوعدوه ولم يفعلوا. فلما رأى ذلك سعى بابن رائق فكاتب بجكم يُطْمِعُه في موضعِ ابنِ رائقٍ، وكتب إلى وشمكير مِثْلَ ذلك، وكتب إلى الراضي باللّهِ يشير عليه بالْقَبْضِ على ابنِ رائقٍ وأصحابِه ويضمن أنه يستخرج منهم ثلاثةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وأشار باستدعاء بجكم وإقامته مقام ابنِ رائق فأطمعه الراضي وهو كاره لما قاله، فعجل ابن مقلة وكتب إلى بجْكَم يعرفه إجابةَ الراضي ويستحثه على الحركة والمجيء إلى بغداد. وطلب ابن مقلةَ من الراضي بالله أن ينتقلَ ويقيمَ عنده بدارِ الخلافة إلى أن يتم على ابنِ رائقٍ ما اتَّفَقَا عليه، فأذِن له في ذلك فحضر متنكرًا في آخر ليلةٍ من شهر رمضان. فلما حضر إلى دارِ الخلافةِ لم يصل إلى الراضي وأمر باعتقالِه فاعتُقِل في حجرةٍ.

فلما كان من الغد أرسل الراضي إلى ابن رائقٍ يعرفه الحال، وعرَض عليه خطَّ ابنِ مقلةَ، وما زالت الرسل تتردد بينهما في المعنى إلى منتصف شوال، فأخرج ابنَ مقلةَ من محبسه وقُطِعتْ يدُه، وعولج فبرأ.

ثم كاتب الراضي يخطب الوزارة ويذكر أنَّ قَطْع يده لم يَمْنَعْه من عمله، وكان يشدُّ القَلَم على يده المقطوعةِ ويكتب، فلما قرب بجكم من بغداد سمعَ الخدمَ يتحدثون بذلك فقال: إن وصلَ بجْكَم فهو يستخلصني وأكافيء ابن رائقٍ! وصار يدعو علَى من ظَلَمه وقَطَع يده، فوصل خَبَرُه إلى الراضي بالله وابن رائقٍ فأمر بقطع لسانِه، ثم نقِلَ في محبسٍ ضَيِّقٍ ولم يكن عنده من يخدمه، فآلت به الحال إلى أن كان يستقي الماءَ من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بِفيه وناله شقاء شديدٌ إلى أن مات في حادي عشر شوال سنة ثَمانٍ وعشرين وثلاثمائة ودفن بدار الخلافة.

ثم إن أهله سألوا فنُبش وسُلِّم إليهم فدفنوه، ثم نبشته زوجته ودفنته في دارها. ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث دفعات، وَوَزَرَ لثلاثة خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيًا إلى شيراز[1] وواحدة إلى الموصل في وزارته، ودفن بعد موته ثلاث مرات وخُصَّ به من خدمه ثلاثة، وكان في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة في شهر ربيع الآخر ضرب ابن شَنَبُوذ[2] سَبْع دررٍ لقراءات أُنكِرَتْ عليه، فدعا عليه بِقَطْع الْيَدِ وتشتيت الشَّمْلِ، فاستجاب الله له!.

---

(١) شيراز: بالكسر وآخره زاي: بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث... وهي في وسط بلاد فارس، بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب المقرىء البغدادي، توفي سنة ٢٧٤هـ.

ذكر استيلاء بجكم على بغداد وشيء من أخباره وكيف تَنَقَّلَتْ به الحال إلى أن بلغ هذه الرتبة

قال ابن الأثير الجزريّ في تاريخه الكامل: كان بجكم هذا من غلمان أبي العارض وزير ماكان بن كالي الدَّيْلَمي فطلبه ماكانُ منه فوهبه له، ثم فارق ماكان مع مَن فارقه من أصحابه، والتحق بمرداويج، وكان من جملة من قتله، وسار إلى العراق والتحق بمحمد بن رائق. وكان من أمره ما ذكرناه، فلما استقر بواسط تعلقت همته بالاستيلاء على حضرة الخليفة، وهو مع ذلك يظهر التبعية لابن رائقٍ، وكان على أعلامه وترأسه بجكم الرائقي. فلما وصلته كتب الوزير ابن مقلة تذكر أنه اسْتَقَرَّ مع الراضي أن يقلده إمْرة الأُمراء زاد طَمعُه في ذلك وكاشف ابنَ رائق وقلع نسبته إليه من أعلامه، وسار من واسط نحو بغداد في غرة ذي القعدة. واسْتَعَدَّ ابن رائقٍ لحربه وسأل الراضيَ أن يكتب إلى بجكم يأمره بالعوْد إلى واسط، فكتب إليه فلما قرأ الكتاب ألقاه من يده وسار حتى نزل شرقي نهر ديالى[1]. وكان أصحابُ ابنِ رائقٍ على غَيْرِ تَعْبِئَةٍ، فألقى أصحاب بجكم نفوسَهم في الماء فانهزم أصحابُ ابنِ رائقٍ، وعبر أصحاب بجكم وساروا إلى بغداد، وخرج ابن رائقٍ عنها إلى عكبرا[2]. وكان دخول بجكم بغداد في ثالث عشر ذي القعدة، ولَقِي الراضيَ مِن الغَدِ وخلَع عليه وجعله أمير الأُمراء، وكتب كتابًا عن الراضي إلى القواد الذين كانوا مع ابنِ رائقٍ بالرجوع إلى بغداد، ففارقوه جميعهم وعادوا. فلما رأى ابن رائقٍ ذلك عاد إلى بغداد واستتر، فكانت مدة إمارته سنةً واحدةً وعشرة أشهرٍ وستةَ عشرَ يومًا.

ودخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

ذكر مسير الراضي بالله وبُجكَم إلى الموصل وظهور ابن رائقٍ ومسيره إلى الشام

في هذه السنة في المحرم سار الراضي وبجْكَم إلى الموْصِل وديار ربيعة لِقَصْدِ ناصرِ الدَّوْلَةِ بن حمدان، فإنه كان قد أخّر المال المُقرَّر عليه من ضمان البلادِ، فلما

---

(١) ديالى: بفتح أوله، وإمالة اللام: نهر كبير بقرب بغداد وهو نهر يعقوبا الأعظم يجري في جنبها، وهو الحد بين طريق خراسان والخالص، وهو نهر تامرًا بعينه. . . (معجم ياقوت).

(٢) عكبرا: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة، وقد يمد ويقصر: هو اسم بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. . . (معجم البلدان).

بلغا تكريت أقام الراضي بها وسار بجكم، فلقيه ناصر الدولة بن حمدان على سِتَّةِ فراسخ من الموصل، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم ابن حمدان إلى نصيبين وتبعه بجكم إليها، فسار إلى آمد[١] ثم وقع الصُّلْحُ بينهما على أن يحمل ابن حمدانَ خمسمائة ألف درهم معجلة فأجابه إلى ذلك.

قال: وفي هذه الغيبة ظهر ابن رائق ببغداد واستولى عليها ولم يتعرض لدار الخليفة فعاد الراضي وبجكم إليها فراسلهما ابن رائق في طلب الصلح فأجابا إلى ذلك، فعقد له الخليفة على طريق الفرات، وديار مضر حَرّان والرُّها[٢] وما جاورهما، وجند قنسرين والعواصم، فأجاب ابن رائقٍ أيضًا وسار عن بغداد إلى ولايته، ودخل الراضي وبجكم بغداد في تاسع شهر ربيع الآخر، ثم استولى ابن رائقٍ على الشام ومَلَكَ مدينةَ حِمْص ثم سار إلى دمشق وبها بدْرُ بن عبد الله الإخشيدي المعروف بِبُدَيْر واليًا عليها من قبل الإخشيد، فأخرجه ابن رائق وملكها. وسار إلى الرَّمْلَةِ وإلى عريشِ مصر يريد الدِّيار المصرية، فلقيه الإخشيدُ وحاربه فانهزم الإخشيد. واشتغل أصحابُ ابن رائقٍ بالنَّهْب ونَزلوا في خيم الإخشيدية، فخرج عليهم كمينٌ للإخشيدِ فأوقع بهم وهزمهم، فنجا ابن رائق في سبعين رجلًا ووصل إلى دمشق في أقبح صورة.

فسيَّر إليه الإخشيد أخاه أبا نصر بن طغج في جيشٍ كثيفٍ، فالْتَقَوْا في رابع ذي الحجة سنة ثمانٍ وعشرين فانهزم الإخشيديون وقتل أبو نصر فأخذه ابن رائق وكفَّنه وحمَلَه إلى أخيه بمصر، وأنفذ معه ابنه مزاحمًا، وكتب إلى الإخشيد يعزِّيه بأخيه ويعتذر مما جرى ويحلف أنه ما أراد قَتْلَه، وأنه قد أنفذ ابنَه لِيُقيده به إن أحبَّ ذلك، فَلَقِيَ الإخشيدُ مزاحمَ بنَ محمدِ بنِ رائق بالجميل وخَلَعَ عليه وَرَدَّه إلى أبيه واصطلحا، على أن تكون الرَّمْلَة وما وراءها إلى مصر للإخشيد وباقي الشام لمحمد بنِ رائقٍ، ويحمل إليه الإخشيدُ عن الرَّمْلة في كلِّ سنةٍ مائةَ ألفِ دينارٍ وأربعين ألف دينارٍ.

نعود إلى أخبار الراضي وبجكم.

---

(١) آمد: بكسر الميم: هو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشز دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين، يتناول ماؤها باليد، وفيها بساتين ونهر يحيط بها السور. . . (معجم البلدان).

(٢) الرها: بضم أوله، والمد، والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرهاء بن البلندى بن مالك بن دعر. . . (معجم ياقوت).

ذكر وزارة أبي عبد الله البريدي للخليفة الراضي بالله

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة سعى أبو جعفر محمد بن يحيى بن شِيرْزاد وزير بجكم في الصلح بين بَجْكَم والبريديّ حَتَّى تَمَّ وضمن البريديُّ أعمالَ واسطٍ بستمائة ألفِ دينارٍ في كل سنة. ثم شرع ابن شيرزاد في تقليد البريديِّ الوزارة، فأرسل إليه الراضي في ذلك فأجاب إليه، وذلك في شهر رجب واستناب بالحضرة عبد الله بن علي النقري.

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي: كان الحج قد بطَلَ من سنة سبع عشرةَ وثلاثمائة. فلم يحج أحدٌ من العراق، فلما كان في هذه السنة كاتَب أبو علي عمر بن يحيى العلوي القرامطَةَ وسألهم أن يؤمِّنوا الحاج ليسيرَ بهم ويعطيهم عن كل جمل خمسةَ دنانير ومن المُحمَّلِ سبعةَ دنانير، فأذنوا له في الحج فحجّ الناسُ. وهي أوَّل سنة مَكَس[١] فيها الحاجُّ. وخرج في تلك السنة القاضي أبو علي بن أبي هريرة الشافعي فلما طولب بالخفارة[٢] لوى راحلته ورجع وقال: لم أرجع شحًّا على الدراهم ولكن قد سقط الحج بهذا المكْس!

ودخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

في هذه السنة سار ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه إلى واسط فنزل بالجانب الشرقي، وكان البريدي بالجانب الغربيّ فاستأمن من أصحاب ابن بويه مائةٌ إلى البريدي. ثم سار الراضي وبجكم من بغداد نحو واسط يريدان حَرْب ابن بويه فعاد إلى الأهواز ثم إلى رامهرمُز[٣].

وفيها استولى بجكم على واسط في ذي الحجة، وسار إليها ففارقها ابن البريدي إلى البصرة، وأسقط بجكم اسم البريدي من الوزارة، وجعل مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد.

---

(١) يقال: مكس الضريبة: إذا قدرها وجباها.

(٢) الخفارة: أجرة الخفير.

(٣) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان... (معجم البلدان).

ودخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

ذكر وفاة الراضي بالله وشيء من أخباره

كانت وفاته في منتصف شهر ربيع الأول من هذه السنة، وكانت مدة خِلاَفَتِه سِتَّ سنين وعشرةَ أشهر وعشرةَ أيام، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وأشهرًا، وكانت علَّته الاستسقاء، وكان أديبًا شاعرًا، فمن شعره: [من المنسرح]

يَصْفَرُّ وجهي إذا تأمَّلهُ ... طرفي ويحمَرُّ وجهه خجلا
حتى كأنّ الذي بوجنته ... من دم جسمي إليه قد نُقِلا

وقال يرثي أباه المقتدر بالله: [من الطويل]

ولو أنَّ حيًّا كان قبرًا لميِّتٍ ... لصيَّرْتُ أحشائي لأعظُمهِ قبرا
ولو أنَّ عمري كان طَوْع مشيئتي ... وساعدني التقديرُ قاسمتُه العمرا
بنفسي ثَرى ضاجعتُ في تربةِ البِلى ... لقد ضَمَّ منك الغَيْثَ والليْث والبدرا

وكان سَمْحًا سخيًا، يحبُّ محادثةَ الأُدباء والفضلاء. وكان الراضي بالله أسْمَرَ أعْيَنَ، خفيفَ العارِضَيْن[1]. وختمَ الخلفاءَ في عِدَّةِ أشياءِ فمنها أنه آخرُ خليفةٍ له شعر يُدَوَّن، وآخرُ خليفةٍ خَطَب على المنبر كثيرًا - وإن كان غيره خَطَب نادرًا - وآخرُ خليفة جالس الجلساء ووصَل النُّدماء، وآخرُ خليفة كانت له نفقاته وجوائزه وعطاياه وخزائنه ومطابخه وجراياته وخدّامه وحجّابه وأُموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين. وكان له من الأولاد أبو جعفر أحمد، وأبو الفضل عبد الله.

وزراؤه: أبو علي بن مقلة، وابنه الحسن، ثم عبد الرحمٰن بن عيسى، ثم محمد بن القاسم الكرخي، ثم سليمان بن الحسين بن مخلد، ثم الفضل بن جعفر بن الفرات، ثم أبو عبد الله البريدي.

قضاته: عمر بن محمد بن يوسف، ثم ابنه يوسف بن عمر.

حجابه: محمد بن ياقوت، وذكا مولاه.

الأمير بمصر: الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ الفَرْغاني.

---

(١) العارض: صفحة الخد؛ ويقال: هو خفيف العارضين: أي شعر العارضين.

القضاة بها: محمد بن الحسن بن أبي الشوارب من قبل الراضي واستخلف أبا بكر محمد بن بدر، ثم صرفه بعبد الرحمٰن بن أحمد بن الزين، ثم ولّى الإخشيد الحسين بن محمد بن أبي زُرْعة القضاء، واستخلف له أبا بكر محمد بن أحمد بن الحدّاد الشافعي، ثم ورد العهدُ للحسين بن محمد بن أبي زرعة من قِبَل محمد بن أبي الشوارب، ثم صرفه محمد بأبي نصر يوسف بن عمر بن أبي عمر القاضي، وأقرَّ الحسين بن أحمد إلى أن توفي وأبو بكر بن الحداد خليفته، ثم صرف يوسف بن عمر عن قضائها بمحمد بن أبي الشوارب واستخلف أحمد بن بدر ثانية، ثم صرف ابن أبي الشوارب بالحسين بن عيسى بن هارون فأقرَّ محمد بن بدر، ثم عاد ابن أبي الشوارب فاستخلف عبيد الله بن أحمد بن رزين، ثم استخلف عبد الله بن الوليد من قبلِ الحسين بن علي.

ذكر خلافة المتقي لله

هو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله، وأُمُّه أُم ولدٍ اسْمُها خَلوبُ. وهو الخليفة الحادي والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شهر ربيعِ الأول سنةَ تسع وعشرين وثلاثمائة.

قال: ولما مات الراضي بالله بقِيَ الأمْرُ في الخلافة موقوفًا انتظارًا لورود خبرِ من بجْكَم، فإنه كان بواسطٍ واحتيط على دار الخلافة. فَوَرد كتاب بَجْكَم مع كاتبه أبي العباس عبد الله الكوفي يأمر فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الرّاضي وكلُّ مَنْ تَقَلَّدَ الوزارةَ وأصحابُ الدواوين والعلويون والعباسيون والقضاة ووجوهُ البلد ويشاورهم الكوفي فيمن يُنْصَبُ للخلافة مِمَّنْ يَرْضَى مذْهَبه وطريقَه. فجمعهم الكوفي واستشارهم، فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر وتفرَّقوا على هذا، فلما كان الغدُ اتَّفَق النّاسُ عليه فأحضروه إلى دارِ الخلافة وبويع له في التاريخ الذي تقدم، وعرضت عليه ألقابٌ فاختار منها المتقي لله. وبايعه الناسُ كافَّةً وسيَّر الخِلَعَ واللواءَ إلى بَجْكَم بواسط وكان بجكم بعد موت الراضي وقبل استخلاف المتقي أرسل إلى دار الخلافة أخذ منها فرُشًا وآلاتٍ كان يستحسنها، وجعل سلامة الطولوني حاجبه، وأقَرَّ سليمانَ بنَ الحسين على وزارته وليس له من الوزارة إلا اسمُها والتدبير كله للكوفي كاتب بَجْكم.

ذكر مقتل بجكم

كان سبب قتله أن أبا عبد الله البريدي أنفذ جيشًا من البصرة إلى المذار[١]، فأنفذ بجكم جيشًا إليهم عليه توزون فاقتتلوا قتالاً شديدًا. كانت الحرب أولاً على توزون فكتب إلى بجكم أن يلحق به فسار من واسط في منتصف شهر رجب، فَلَقِيَهُ كِتَابُ توزون «أنه ظفر بهم وهزمهم» فأراد الرجوعَ إلى واسط، فأشار عليه بعض أصحابِه أن يتصيَّد فقبل منه وتصيَّد حتى بلغ نهر جور[٢]، فسمع أن هناك أكرادًا لهم مال وثروة فَشَرِهَتْ نفْسُه في أموالهم فقصدهم في قلةٍ من أصحابه وهو بغير جُنَّةٍ[٣] تقيه، فهرب الأكرادُ من بين يَدَيْه فأتاه غلامٌ من الأكراد من خلفه وطعنه في خاصرته فقتله وهو لا يعرفه، وذلك لأربعٍ بقين من شهر رجب واختلف عسكره فَمَضَى الدَّيْلَمُ خاصةً نحو البريدي ـ وكانوا ألفًا وخمسمائةً ـ فأحسن إليهم وأضعف أرزاقهم وأوصلها إليهم دفعة واحدةً، وعاد الأتراك إلى واسط وكان تكينك محبوسًا بها ـ حبسه بجْكَم ـ فأخرجوه فسار بهم إلى بغدادَ وأظهروا طاعة المتقي. وصار أبو الحسين أحمد بن ميمون يدبِّر الأمورَ.

قال: واستولى المتقي لله على دار بجكم وأخذ ما فيها، وكان مبلغ ما أخذه من دفائنه ألف ألف ومائتي ألف دينار، وكانت مدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام.

ذكر إصعاد أبي عبد الله البريدي إلى بغداد

قال: لما قُتِلَ بجْكَم وسارت الدَّيْلَمُ إلى أبي عبد الله البريدي تَقَوَّى بهم وعظمتْ شوكته، فأصعدوا من البصرة إلى واسط في شعبان، فأرسل المتقي إليهم يأمرهم أنْ لا يصْعدوا فقالوا: نحن محتاجون إلى مال! فأنفذ إليهم مائةَ ألفٍ وخمسين ألْف دينارٍ، فقال الأتراك للمتقي: نحن نقاتل بني البريديّ فأطلقْ لنا مالاً وانصبْ لنا مُقَدَّمًا! فأنفق فيهم وفي جند بغدادَ القدماء أربعمائةَ ألفِ دينارٍ وجعل عليهم سلامةَ الطولوني، وبرزوا مع المتقي لله إلى نهر دَيالى يوم الجمعة لثمان بقين من شعبان.

---

(١) المذار: بالفتح، وآخره راء: في ميسان بين واسط والبصرة وهي قصبة ميسان، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام... (معجم البلدان).

(٢) نهر جور: بضم الجيم، وسكون الواو، وراء: بين الأهواز وميسان فيما يحسب ياقوت صاحب معجم البلدان.

(٣) الجنّة: كل ما وقى.

وسار البريدي من واسط إلى بغداد، فلما قرب منها اختلفت الأتراك البجكمية، واستأمن بعضهم إلى البريدي، وبعضهم استتر وسار إلى الموصل، واستتر سلامة الطولونيُّ وأبو عبد الله الكوفي، ولم يحصل الخليفة إلا على أخراج المال[1]، وَهَمَّ أربابُ النِّعَمِ والأموالِ بالانتقال من بغدادَ خوفًا من ظلم البريدي وَتَهَوُّرِه.

ودخل أبو عبد الله البريدي إلى بغداد في ثاني شهر رمضان ونزل بالشفيعي، ولَقِيَه الوزيرُ أبو الحسين والقضاة والكتَّابُ وأعيان الناس. وأنفذ إليه المتقي يُهنِّئه بالسلامة، وأنفذ له طعامًا وغَيْره عدَّةَ ليالٍ، وكان يخاطَبُ بالوزير، وكذلك أبو الحسين بن ميمون وزير الخليفة، ثم عُزِلَ أبو الحسين، وكانت مدة وزارته ثلاثةً وثلاثين يومًا، وقَبَضَ عليه وسيَّرَه إلى البصرة فحبسه بها إلى أن مات في صفر سنة ثلاثين وثلاثماية.

قال: ثم أنفذ البريديُّ إلى المتقي لله يطلب منه خمسمائةَ ألفِ دينارٍ ليفرِّقَها في الجند، فامتنع فأرسل إليه يَتَهَدَّدُه ويذكِّرُه بما جرَى على المعتز والمستعين والمهتدي، وترددت الرسائل حتى أنفذ إليه تَمَام خمسمائةِ ألْفِ دينارٍ، ولم يلْقَ أبو عبد الله البريديُّ المتَّقِي مدةَ مقامِه ببغدادَ.

ذكر عود البريدي إلى واسط هاربًا

قال: كان البريدي يأمر الجند بطلب الأموال من الخليفة، فلما أنفذ إليه الخليفة المالَ انصرفت أطماعُ الجند عن الخليفة إلى البريدي، فشغب الجند عليه. وكان الديلم قد قَدَّموا على أنفسِهم كورتكين الديلمي، وقدَّم الأتراكُ عليهم تكينك التركي غلام بجكم. وسار الدَّيْلمُ إلى دار البريدي فأحرقوا دار أخيه أبي الحسين التي كان ينزلها، وانضاف تكينك التركي إليهم واتفقوا على قَصْدِ البريديِّ ونَهْبِ ما عنده. فساروا إلى النجمي ووافقهم العامة، فقطع البريديُّ الجِسْر ووقعت الحرب في الماء ووثَبَ العامَّة بالجانب الغربي على أصحابِ البريديِّ، فهرب هو وإخوته وابنه وانحدروا في الماء إلى واسط، ونهبت داره ودور قواده، وكان هربُه في سلخ شهر رمضان من السنة.

(١) الخراج: الإتاوة.

ذكر إمارة كورتكين الديلمي

لما هرب البريدي استولى كورتكين الديلمي على الأُمور ببغداد، ورَحل إلى المتقي لِلَّهِ فقلَّده إمارةَ الأُمراء، وخلع عليه. واستدعى المتقي عليَّ بنَ عيسى وأخاه عبد الرحمٰن، فأمر عبدَ الرحمٰن فدبَّر الأمر من غير تسميته بوزارة، ثم قبض كورتكين على تكينك التركي في خامس شهر شوال وغَرَّقه وتَفَرَّد بالأمر. ثم اجتمع العامَّة يوم الجمعة سادس شوال وتظلموا[١] من الدَّيْلم ونزولِهم في دورِهم فلم يُنْكَرْ ذلك، فمنعوا الخطيبَ مِن الصلاة واقتتلوا هم والدَّيلمُ فقُتِلَ من الفريقين جماعة.

ذكر عود محمد بن رائق إلى بغداد وولايته إمرة الأُمراء

كان سبب عوْدِهِ أن الأتراك البجكمية لما ساروا إلى الموصل لم يرَوْا عند ابن حمدان ما يريدون، فساروا نحو الشام إلى ابنِ رائق، وكان فيهم من القوَّادِ توزون وجُخجُخ ونوشتكين وصيغون. فلما وصلوا إليه أطمعوه في العَوْدِ إلى العراق، ثم وَصَلَ إليه كُتُبُ المتقي تستدعيه، فسار من دمشق في العشرين من شهر رمضان واسْتَخْلَفَ على الشام أبا الحسن أحمد بنَ علي بن مقاتل، وسار حتَّى وصل إلى الموصل فَتَنحَّى عن طريقه ناصر الدولة بن حمدان، ثم تراسلا وتصالحا على مائة ألف دينار يحملها ناصر الدولة بن حمدان إليه.

وسار ابن رائق إلى بغداد، وخرج كورتكين إلى عكبرا، ووصل إليه ابن رائقٍ فوقعت الحربُ بينهما عِدَّةَ أيام. فلما كان ليلة الخميس لتسع بقين من ذي الحجة سار ابن رائق ليلاً من عكبرا هو وجيشه فأصبح ببغداد، فدخلها من الجانب الغربي، ونزل في النجمي، وعبر من الغد إلى الخليفة فلقبه، وركب المتقي معه.

ووصل في هذا اليوم بعد الظهر كورتكين من الجانب الشرقي بجميع جيشه وهم يستهزئون بأصحابِ ابن رائق ويقولون: أين نزلت هذه القافلة الواصلة من الشام؟ ولما دخل كورتكين بغداد أيس ابن رائقٍ من ولايتها وعزَم على العود، وأمر بحمل أثقاله فَرُفِعَت، ثم عزم على أن يناوشَهم شيئًا من قتالٍ قبل مسيره، فأمر طائفةً من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم. ثم ركب هو في سميرية[٢] وركب معه عِدَّةٌ

---

(١) تظلموا: شكوا الظلم.

(٢) السميرية: ضرب من السفن.

من أصحابه في عشرين سميرية ووقفوا يترامون بالنشاب، ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم، واجتمعت العامة وصاحوا على أصحاب كورتكين فانهزم هو وأصحابه واختفى هو. ورَجمتْهُم العامَّةُ بالآجُرِّ وغيره، وَقَوِيَ أمر ابن رائق، وقَتَل من أساء إليه من الدَّيْلم وكانوا نحو أربعمائة، وقتل من قوادهم بضعة عشر رجلاً، وخلع عليه المتقي وجعله أميرَ الأُمراء، ثم ظفر بكورتكين فحبسه بدار الخليفة.

وفي هذه السنة في شوال استوزر المتقي لله أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي المعروف بالقراريطي بعد عَوْدِ البريدي، وجعل بدرًا الخرشني حاجبه، فبقي وزيرًا إلى الخامس والعشرين من ذي القعدة فقبض عليه كورتكين واستوزر بعده أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي[1]، فبقي وزيرًا إلى الثامن والعشرين من ذي الحجة منها فعزله ابن رائق، ودبَّر الأُمورَ أبو عبد الله أحمد الكوفي كاتب ابنِ رائقٍ من غير تسمية بوزارة.

وفيها انقطع الغَيْث بالعراق فاستسقى الناس في شهر ربيع الأول فسقوا مطرًا قليلاً لم يَجْرِ منه ميزاب[2]، فاشتد الغلاء والوباء وكثر الموت حتى دُفِنَ الجماعة في القبر الواحد من غير غسْلٍ ولا صلاةٍ عليهم، ورخص العقار والأثاث ببغداد حتى بيع ما ثمنه دينار بدرهم، وانقضى تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط الأول ولم يمطر الناس غير المطرة التي كانت عند الاستسقاء، ثم جاء المطر في آذر ونيسان.

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي في سبب هذا المطرِ بِسَنَد رَفعه إلى أبي محمد الصُلَيْحي الكاتب أنه قال: لما نادى المتقي في زمن خلافته في الأسواق أن أمير المؤمنين يقول لكم معشرَ رعيته: إنَّ امرأةً صالحةً رأت النبيَّ ﷺ في منامها فشكت احتباسَ المطرِ فقال لها: «قولي للناس يخرجون في يوم الثلاثاء الأدنى

(١) الكرخي: نسبة إلى الكرخ: كرخ البصرة... وكان لأبي جعفر محمد بن القاسم على ما بلغني في غير عمل تقلده وخرج إليه ستماية دابة وبغل ونيف وأربعون طباخًا ثم آلت حاله في آخر عمره إلى الفقر الشديد ومات بعد سنة ٣٤٠هـ في منزله ببغداد... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) المئزاب: والميزاب: المرزاب، وهو المتعب الذي يبول الماء، وهو من ذلك، وقيل: بل هو فارسي معرب معناه بالفارسية بُل الماء، وربما لم يهمز، والجمع المآزيب، ومنه مئزاب اللعبة، وهو مصب ماء المطر... وقال الجوهري: الميزاب: المتعب، فارسيّ معرب؛ قال: وقد عرب بالهمز، وربما لم يهمز، والجمع مآزيب إذا همزت، وميازيب إذا لم تهمز... (اللسان مادة: أزب ووزب).

ويستسقون ويدعون فإنه يسقيهم في يومهم» وإن أمير المؤمنين يأمركم كما أمركم رسول الله ﷺ، وأن تدعوا وتستسقوا بإصلاحِ من نيَّاتكم وإقلاعٍ عن ذنوبكم ـ قال ـ فأخْبَرَني الجمُّ الغفيرُ أنهم لما سمعوا النداء ضَجَّتِ الأسواق بالبكاء والدعاء، فشق ذلك عليّ وقلت: «منامُ امرأةٍ لا نَدْرِي ما تأويله، هل يصحُّ أم لا، ينادَى به في الأسواق في مدينة السلام، فإن لم يسقوا كيف يكون حالنا مع الكفار؟ فليته أمر الناس بالخروج ولم يذكر هذا» وما زلتُ قَلِقًا حتى أتى يوم الثلاثاء فقيل لي: إن الناس قد خرجوا إلى المصلّى مع أبي الحسين أحمد بن الفضل بن عبد الملك إمام الجامع، وخرج أكثر أصحابِ السلطان والفقهاء والأشراف، فلما كان قبل الظهر ارتفعت سحابة ثم طبقت الآفاق ثم أسلمت عزاليها[1] بمطر جود، فرجع الناس حفاة من الوحَل.

ودخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة.

ذكر وزارة أبي عبد الله البريدي

في هذه السنة وَزَرَ أبو عبد الله البريدي للخليفة المتقي لله، وسبب ذلك أن ابن رائقٍ استوحش منه لأنه أخَّر حمل المال وانحدر إلى واسط عاشر المحرم، فهرب البريدي إلى البصرة وسعى أبو عبد الله الكوفي للبريدي وإخوتِه حتى عادوا وضمنوا بقايا واسط بمائة وتسعين ألفَ دينارٍ، وضمنوها كلَّ سنة بستمائة ألفِ دينارٍ. وعاد ابن رائقٍ إلى بغدادَ فشغب الجندُ عليه ثاني شهر ربيع الآخر وفيهم توزون وغيرُهُ من القواد، وتوجَّهُوا إلى البريدي في العُشْر الآخر من شهر ربيع الآخر بواسط، فقوي بهم فاحتاج ابن رائق إلى مداراته فكاتبه بالوزارة، وأنفذ إليه الخِلعَ واستخلف أبا عبد الله بن شيرْزاد. ثم ورَدتِ الأخبارُ إلى بغدادَ فعزم البريديُّ على الإصعاد إلى بغداد، فأزال ابنُ رائقٍ اسم الوزارةِ عنه، وأعاد أبا إسحاق القراريطي وَلُعِن بنو البريدي على المنابر بجانبي بغداد.

ذكر استيلاء البريدي على بغداد وإصعاد المتقي لله إلى الموصل

قال: وسيّر أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسين إلى بغداد في جميع الجيش من الأتراك والدَّيلم، فعزم ابنُ رائقٍ على أن يتحصن بدار الخلافة، فأصلح سورَها

(١) عزاليها: مصبات الماء من الراوية.

ونَصَب عليها العرّاداتِ[1] والمجانيقَ وعلى دجلة، وأنهض العامة وجَنَّد بعضهم؛ فثاروا في بغداد وأحرقوا ونهبوا، وأخذوا الناسَ ليلاً ونهارًا. وخرج المتقي لله وابن رائق إلى نهر دَيالى في منتصف جُمادى الآخرة، ووافاهم أبو الحسين في الماء والبر، واقتتل النَّاسُ فانهزم أهل بغداد، واستولى أصحاب البريديِّ على دار الخلافة ودخلوا إليها من الماء، وذلك لتسعٍ بقين من جُمادى الآخرة. وهرب المتَّقي وابنُه الأمير أبو منصور في نحو عشرين فارسًا، ولحق بهما ابن رائقٍ في جيشه، وساروا جميعًا إلى الموصل.

وقَتَلَ أصحابُ البريديِّ مَنْ وجدوه في دار الخليفة من الحاشية، ونهبوا دور الحُرم، وكثر النَّهْبُ في بغدادَ ليلاً ونهارًا، وأخرجوا كورتكين من محبسه، فأنفذه أبو الحسين إلى أخيه بواسط، فكان آخر العهد به. ونزل أبو الحسين بدار مؤنسٍ التي يسكنها ابن رائقٍ، وأقام أبو الحسين توزونَ عَلى الشرطة بشرقي بغداد، وجعل نوشتكين على شُرْطَةِ الجانبِ الغربيِّ فسكن الناس، وأخذ أبو الحسين رهائن القواد فسيَّرهم إلى أخيه أبي عبد الله بواسِط.

قال: وعسَف أهل العراق وظَلَمهم ظلمًا لم يُسْمَعَ بِمِثْلِه قَطُّ، ذكر ابن الأثير رحمه الله ذلك في تاريخه الكامل وأفرده بترجمةٍ وهي «ذكر ما فعله البريديُّ ببغداد»، ولما انتهى كلامه قال «وإنما ذكرنا هذا الفصل ليعلم الظَّلَمَةُ أن أخبارهم تُنْقَل وتبقى على وجْهِ الدهر، فربما تركوا الظلم لهذا إذا لم يتركوه لله سبحانه وتعالى» وأظنه رحمه الله تعالى قال هذا لما علمه من حال الظلمة في عصره، وأنهم يستقبحون الظلم. ويتركونه خشية أن ينقل عنهم. وإنما تركت أن أشرح ما قاله من ظلم البريدي خوفًا أن يسمعه ظَلَمَةُ هذا العصرِ فيقتدون بأفعاله ويحملون الناس على مثاله؛ فإن فيهم من يتحلّى بالظلم ولا يتحاشى من فِعْله ويردُّ فرع كل مظلمة إلى أصله ويقول: قد فعله فلان وفلان وجرت عليه القاعدة في كل عصر وأوان! ويبرز بالظُّلْم بروزَ الليث من غابه، وتصدر عنه الحوادث كصدورِ الغَيْث من سحابه، ويرى أنَّ ذلك فرصةٌ يغتنمها وكعبةٌ يستلمها، ثم لا يقنعه ذلك إلى أن يُسَمِّي المظالمَ بالحقوق الواجبة، ويرى الملازمةَ عليها من السنن الراتبة. لا جرمَ أن الله تعالى يأخذه من مأمنه، ويسلبه ما حَوله من نِعَمِه ومِنَنِهِ، لأن مَلِكَ هذا العصر ـ خَلَّد الله سلطانَه وثبَّت أركانَه ونَصر جيوشَه وأعوانَه ـ ينكر المظالم إذا أُنهيَت إليه ويزيل اسمها، ويمحو من

(١) العرادة: آلة تستعمل في الحرب أصغر من المنجنيق وتقوم بدوره.

دواوين دولته رسمَها، ويكف الأكُفَّ العاديةَ إذا عدت، ويقبض الأيدي الجارية إذا انبسطت في العالم واعتَدَتْ.

ذكر قتل ابن رائق ولاية ابن حمدان إمرة الأُمراء

كان المتقي لله قد أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريديِّ، فأرسل أخاه سيف الدولة[١] نجدةً في جيشٍ كثيفٍ، فلقي المتقي لله وابن رائقٍ بتكريت قد انهزما، فخدم سيفُ الدَّوْلةِ المتقي خدمةً عظيمة، وسار معه إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى الجانب الشرقي وتوجه نحو معلثايا[٢] وترددتِ الرسائل بينه وبين ابن رائقٍ. ثم تعاهدا واتفقا فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي، فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسلمان عليه، فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقي. فلما أراد الانصراف من عنده ركب ولد المتقي وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة: أقم اليوم عندي لنتحدث فيما تفعله! فاعتذر بابن المتقي، فألح عليه ابن حمدان فاستراب[٣] به وجذب كُمَّه من يده فقطعه، وأراد الركوب فَشبَّ به فَرسُه فسقط، فصاح ابنُ حمدان «أنِ اقتلوه» فقتلوه وألقوه في دجلة. وأرسل ابنُ حمدان إلى المتقي يقول: إنه علم أن ابنَ رائقٍ أراد أن يغتاله ففعل ما فعل، فَرَدَّ عليه المتقي ردًّا جميلاً وأمره بالمسير إليه فسار ناصر الدولة إليه فخلع المتقي عليه ولقَّبه ناصرَ الدَّوْلةِ وجعلَه أميرَ الأُمراء، وذلك في مستهل شعبان، وخلع على أخيه أبي الحسين ولقَّبه سيف الدولة، وكان قَتْل ابنِ رائقٍ يوم الاثنين لسبعٍ بقين من شهر رجب، ولما قُتل سار الإخشيد من مصر إلى الشام فتسلمها.

ذكر عود المتقي لله إلى بغداد وهرب البريدي عنها

قال: ولما قتل ابن رائقٍ سارع الجندُ إلى الهربِ من البريديِّ لسوء سيرته فهرب جُخجخ وتوزون إلى المتقي في جماعةٍ من الأتراك، فأتَوْا الموصل في خامس شهر

---

(١) هو أبو الحسين علي بن عبد الله بن حمدان؛ يقال: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر... (وفيات الأعيان ٣: ٤٠١).

(٢) معلثايا: بليدة قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل... (معجم البلدان).

(٣) استراب به: رأى منه ما يريبه.

رمضان فقوِيَ بهم ابن حمدان، وسار هو والمتقي لله إلى بغداد. فلما قارباها هرب أبو الحسين البريديُّ منها إلى واسط، وكان مقامُه ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يومًا. ودخل المتقي إلى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة، واستوزر المتقي أبا إسحاق القراريطي وقلَّد توزون جانبي بغداد وذلك في شوال.

ذكر الحرب بين ابن حمدان والبريدي

قال: ثم خرج بنو حمدان نحو واسط لقتال البريدي، وسار أبو الحسين البريدي من واسط أيضًا لقتالهم. فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسيّر أخاه سَيْفَ الدولة وابن عمه الحسين بن سعيد في الجيش لقتاله، فالتقوا تحت المدائن بِفَرْسَخَيْنِ واقتتلوا عِدَّةَ أيام آخرُها رابعُ ذي الحجة فانهزم سيف الدَّوْلَةِ إلى أخيه، فأضاف إليه جماعةً وَرَدَّه، فقاتل وهزَمَ أبا الحسين البريديَّ وأسر جماعةً من أصحابه وقتل جماعةً. وعاد ناصر الدَّوْلَةِ إلى بغدادَ، فدخلها في ثالث عشر ذي الحجة، وانحدر سيفُ الدولة من موضع المعركة إلى واسط فرأى البريديَّ قد انحدر منها إلى البصرة، فأقام سيف الدولة بها.

ودخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر ما اتفق لسيف الدولة بواسط ورجوع ناصر الدولة إلى الموصل

قال: ولما أقام سيف الدولة بواسط، قصد الانحدار إلى البصرة ليأخذَها من البريديين، فلم يمكنْهُ لقلةِ المال عنده. فكتب إلى أخيه ناصر الدولة مرةً بعد أُخرى فأنفذ إليه مالاً مع أبي عبد الله الكوفي ليفرِّقَه في الأتراك فأسمعه توزون وجُخجخ المكروه وثارا به فَغَيَّبَهُ سيفُ الدولةِ عنهما، وسيّره إلى بغداد. وأمر توزون أن يسير إلى الجامدة[1] ويأخذها وينفرد بحاصلها، وأمر جُخجخ أن يسير إلى المذار[2] ويأخذ حاصلَها.

وكان سيفُ الدولة يُزَهِّدُ الأتراكَ في العراقِ ويُحَسِّن لهم قَصْدَ الشَّام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر ويقع في أخيه عندهم، فكانوا يصدقونه في أخيه ولا يجيبونه إلى الشام ويتجنَّوْن عليه، ثم ثاروا به في سَلْخ شعبان وكبسوه ليلاً، فهرب من معسكره إلى بغداد وَنُهِبَ سوادُه وقتِلَ جماعةٌ من أصحابِهِ.

(١) الجامدة: قرية كبيرة بين البصرة وواسط.
(٢) المذار: قصبة ميسان بينها وبين البصرة أربعة أيام.

وأما ناصر الدولة فإنه لما وصل إليه الكوفيُّ وأخبره الخَبَرَ برز للمسير إلى الموصل، فركب المتقي إليه وسأله التوقُّفَ عن المسير، فأظهر له الإجابة إلى أن عاد ثم سار إلى الموصل، ونُهِبَتْ دارُه، ودبَّر الأمرَ أبو إسحاق القراريطي من غيرِ تَسْمِيةٍ بوزارة، وكانت إمارة ناصر الدولة ببغدادَ ثلاثةَ عشرَ شهرًا وخمسةَ أيامٍ، ووصل سيْفُ الدولةِ إلى بغداد!.

ذكر حال الأتراك
بعد إصعادِ سيفِ الدولةِ من واسط

قال: ولما هرب سيف الدولة عاد الأتراك إلى معسكرهم، فوقع الخلاف بين توزون وجُخجخ وتنازعا الإمارة، ثم استقرت الحال أن يكون توزون أميرًا وجُخجخ صاحب الجيش، وتصاهرا. وطمع البريدي في واسط فأصعد إليها، وتراسل هو وتوزون ولم يتفقا، ثم بلغ توزون أن جُخجخ يريد الانتقال إلى البريدي فكبسه في فراسه في ليلةِ الثاني عشر من شهر رمضان وسمله.

ذكر عود سيف الدولة إلى بغداد
وهربه منها

قال: ولما هرب سيف الدولة من واسط قصد بغداد، وأرسل إلى المتقي لله يطلب منه مالاً ليقاتل توزونَ إن قصد بغداد، فأنفذ إليه أربعمائة ألف درهم ففرقها في أصحابه. وكان وصوله في ثالث عشر شهر رمضان، ولما بلغ توزون وصول ابن حمدان سيف الدولة إلى بغداد ترك كيغلغ بواسط في ثلاثمائة رجل وأصعد إلى بغداد، فلما سمع سيف الدولة بإصعاده رحل من بغداد.

ذكر إمارة توزون

قال: ولما فارق سيفُ الدولةِ بغدادَ دَخلها توزون، وكان دخولُه في الخامس والعشرين من شهر رمضان، فَخَلَعَ عليه المتقي لِلَّهِ وجعلَه أميرَ الأُمراء، وصار أبو جعفر الكَرْخي ينظر في الأُمورِ كما كان الكوفي ينظر فيها. ولما سار توزون عن واسطِ أصعد إليها البريدي، فهرب مَنْ بها مِنْ أصحابِ توزون إلى بغداد، فلم يمكنه المبادرة إلى واسط، حتى استَقَرَّتِ الأمورُ ببغداد، ثم انحدر إلى واسط في ذي القعدة، فأتاه أبو جعفر بن شِيرْزاد هاربًا من البريديِّ، ففرح توزون به وقلّده جميع أُموره.

ذكر الوحشة بين المتقي وتوزون

قال: كان محمد بن ينال الترجمان أكبر قواد توزون ـ وهو خليفته ببغداد ـ فلما انحدر إلى واسطٍ سعى بمحمد إليه وقَبَّح ذكره عنده فبلغ ذلك محمدًا، فنفر منه. وكان الوزير أبو الحسين بن مقلة ضَمنَ القُرى المختصة بتوزون ببغداد فخسر فيها جملةً، فخاف أن يطالب بها، وانضاف إلى ذلك اتصال ابن شيرزاد بتوزون فخافه الوزيرُ وغَيْرُه، وظنوا أن مسيره إلى توزون باتِّفاقٍ من البريديِّ، فاتفق الترجمان وابن مقلة، وكتبا إلى ابن حمدان لينفذ عسكرًا يسير صُحْبَةَ المتقي لله، وقالا للمتقي: قد رأيتَ ما فعل البريديُّ معك بالأمس، أخذ منك خمسمائة ألف دينار وأخرجْتَ على الأجناد مثلها، وقد ضمنك البريدي من توزون بخمسمائة ألف دينار أخرى رغم أنها في يدك من تركة بجكم، وابن شيرزاد واصل ليتسلمك ويخلعك ويسلمك إلى البريديّ! فانزعج لذلك، وعزم على الإصعاد إلى ابن حمدان، وورد ابن شيرزاد جريدة في ثلاثمائة رجل، فوصل في خامس المحرم.

وفيها تزوج الأمير أبو منصور بن المتقي لله بابنة ناصر الدولة بن حمدان، وكان الصداق ألف ألف درهم، والحِمْل مائة ألف دينار.

وفيها صرف ناصر الدولة أبا إسحاق القراريطي عن الوزارة وقبض عليه، واستوزر أبا العباس، أحمد بن عبد الله الأصفهاني في شهر رجب، ثم استوزر المتقي لله بعد إصعاد ناصر الدولة من بغداد إلى الموصل أبا الحسين بن مقلةَ في ثامن شهر رمضان.

وفيها أرسل ملك الروم إلى المتقي لله يطلب منديلاً زعم أن المسيح مسَحَ به وجهه فصارت صورة وجهه فيه، وأنه في بيعة[١] الرُّها[٢]، وذكر أنه إن أرسل إليه أطلق عددًا كبيرًا من أسارى المسلمين، فأحضر المتقي لله الفقهاءَ والقضاةَ واستفتاهم فاختلفوا فيه، فقال بعضهم إنَّ في تسليمه غَضَاضَةً على الإسلام، وبعضهم رأى تسليمه وفكاك الأسرَى أوْلَى من بقائه، فقال علي بن عيسى الوزير: إن خلاص المسلمين من الأسر والضُّرِّ والضَّنْك[٣] الذي هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل! فأمر الخليفة المتقي لله بتسليمه إليهم وإطلاق الأسْرَى من بلاد الروم، فأطلقوا!.

---

(١) البيعة: معبد النصارى.
(٢) الرها: مدينة عظيمة في جزيرة أقور بينها وبين حران يوم.
(٣) الضنك: الضيق من كل شيء.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر مسير المتقي لله إلى الموصل

في هذه السنة أصعد المتقي لله إلى الموصل، وسبب ذلك ما ذكرناه من إغراء من أغراه بتوزون وخَوْفه منه ووصولِ ابنِ شيرزاد إلى بغداد في خامس المحرم جريدة، فازداد خوف المتقي لله. وأقام ابن شيرزاد ببغداد يأمر وينهي ولا يراجع المتقي في شيء، وكان المتقي قد أنفذ في طلب جيشٍ من ناصر الدولة ليصحبه إلى الموصل، فأنفذهم مع ابن عمه الحسين بن سعيد، فوصلوا إلى بغداد ونزلوا بباب حرب. فاستتر ابن شيرزاد وخرج المتقي لله إليهم في حرمه وأهله ووزيره وأعيان بغداد، ولما سار المتقي لله من بغداد ظلم ابن شيرزاد الناس وعسفهم وصادرهم، وأرسل إلى توزون وهو بواسط يخبره بذلك. فلما بلغه الخبر عقد ضمان واسط على البريدي وزوّجه ابنته وسار إلى بغداد، وسار ناصر الدولة للقاء المتقي إلى تكريت[١] فوصل في الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر وركب إليه الخليفة وأكرمه. وأصعد الخليفة إلى الموصل، وأقام ناصر الدولة بتكريت، وسار توزون نحو تكريت فالتقى هو وسيف الدولة بن حمدان تحت تكريت بِفَرْسخَيْن فاقتتلوا ثلاثةَ أيام ثم انهزم سيفُ الدولة لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر، وغنم توزون سواده وسواد أخيه ناصر الدَّوْلة. وعادا من تكريت إلى الموْصل ثم التقوا مرة ثانية فانهزم سيفُ الدولة وتبعه توزون، فسار المتقي لله وبنو حمدان إلى نصيبين ودخل توزون المَوْصلَ وسار المُتَّقي إلى الرَّقَّة، ولحقه سيف الدولة.

وأرسل المتقي لله إلى توزون يذكر أنه استوحش منه لاتصاله بالبريديِّ، فإن آثر رضاه يصالح ناصرَ الدولة وسيف الدولة ليعود إلى بغداد، وترددت الرسائل بين المتقي وتوزون حتى تم الصلحُ، وعقد الضمان على ناصر الدولة عَمَّا بيده من البلاد ثلاثَ سنين كلُّ سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقي لله عند بني حمدان.

---

(١) تكريت: بفتح التاء والعامة يكسرونها: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخًا، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة... (معجم البلدان).

ذكر قتل أبي يوسف البريدي

في هذه السنة قَتَلَ أبو عبد الله البريديّ أخاه أبا يوسف، وسبب ذلك أنَّ أبا عبد الله كان نفذ ما عنده من المال في محاربة بني حمدان ومقامهم بواسط ومحاربة توزون، فلما رأى جُنْدُه قلةَ مالِه مالوا إلى أخيه أبي يوسف لكثرة أمواله، فاستقرض أبو عبد الله منه المال مرة بعد أُخرى فكان يعطيه القليلَ من المال ويعيبه ويذكر تضييعه وهَوجَه وتهوُّرَه، فبلغ ذلك أبا عبد الله. ثم صَحّ عنده أنه يريد الْقَبْضَ عليه والاستبدادَ بالأمر وحدَه، واستوحش كلٌّ منهما من صاحبِه؛ فدبَّر أبو عبد الله عليه وأقام غلمانَه في طريقٍ مسقف بين داره والشط[١]، فدخل أبو يوسف في ذلك الطريق فثار به الغلمان فقتلوه وهو يستغيث: يا أخي قتلوني! وهو يقول: إلى لعنة الله! ولما قتل دفنه فثار الجند وشغبوا ظَنًّا منهم أنه حي، فأمر به فَنُبِشَ وألقاه على الطريق، فلما رأوه سكتوا فأمر بدفنه. وانتقل أبو عبد الله إلى دار أبي يوسف، فأخذ ما فيها ولم يحصلْ من مالِ أخيه على طائلٍ فإن أكثره انكسر عند الناس!.

ذكر وفاة أبي عبد الله البريدي ومن قام بعده بالأمر

وفي هذه السنة في شوال مات أبو عبد الله البريدي بعد أن قتل أخاه بثمانية أشهر واستقر الأمر بعدَه لأخيه أبي الحسين؛ فأساء السيرةَ في الجند، فثاروا به ليقتلوه فَهَرَب إلى هَجَر[٢] واستجار بالقرامطة، ونصب الجند أبا القاسم بن أبي عبد الله.

قال: وسار أخوان لأبي طاهر مع أبي الحسين في جيش إلى البصرة، فرأوا أبا القاسم قد حفظها فأصلحوا بينه وبين ابن أخيه، وعادوا ودخل أبو الحسين البصرة، فتجهز منها وسار إلى توزون ببغداد، واستقام أمر أبي القاسم بن أبي عبد الله البريدي.

---

(١) شطّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: قرية في حجر اليمامة قبلتها بين الوتر والعرض قد اكتنفها حجر اليمامة.. وشط عثمان: موضع بالبصرة كانت سباقًا ومواتًا فأحياها عثمان بن أبي العاص الثقفي... (معجم البلدان).

(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: في عدة مواضع: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنه من مخلاف مازن.. وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر ما كان من أمر المتقي لله إلى أن خُلِع وسُمل

كان المتقي لله قد راسل توزون في طلب العود إلى بغداد، وسبب ذلك أنه رأى من بني حمدان تضجُّرًا منه وإيثارًا لمفارقته، فاضطر إلى مراسلة توزون. فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي في الصلح، فلقيهما توزون وابن شيرزاد بنهاية الرَّغْبَةِ فيه والحِرْصِ عليه واستوثقا من توزون وحلّفاه للمتقي وحَضَرَ اليمينَ خلق كثير من القضاةِ والعدولِ، والعباسيون والعلويون وغيرُهم. وحلف توزون للمتقي والوزير، وكتبوا خطوطهم بذلك، وكان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين.

وكان أيضًا قد كتب إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يشكو إليه حالَه ويستقدمه، فقدم إليه إلى الرَّقَّة في منتصف المحرم من هذه السنة ووقف بين يديه موقف الغلمان، ومشى بين يديه، وحمل إلى المتقي لله هدايا جليلة وإلى الوزير أبي الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب، واجتهد بالمتقي ليسير معه إلى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل، فأشار عليه بالمقام مكانَه ولا يرجعُ إلى بغداد وخوَّفه من توزون فأبى إلا العود إلى بغداد. وَعَرَضَ على ابنِ مُقْلَةَ المسير معه إلى مصر ليحكِّمَه في جميع بلاده، فلم يُجبْه إلى ذلك، فخوّفه أيضًا من توزون، فكان ابنُ مقلة يقول بعد ذلك: نصحني الإخشيد فلم أقبل نصيحته!.

ثم انحدر المتقي لله إلى بغداد لأربع بقين من المحرم، وعاد الإخشيد إلى مصر، فلما وصل المتقي لله إلى هيت أقام بها وأنفذ من يجدِّدُ اليمينَ على توزون، فَحَلَفَ وسار عن بغدادَ لعشر بقين من صفر للقاء المتقي لله، فلقيه بالسندية[1] ونزل توزون وقبَّل الأرض بين يدي المتقي وقال: ها أنا قد وفيت بيميني والطاعة لك! ثم وكَلَ به وبالوزير وبالجماعةِ وأنزلهم في مضربه مع حُرَم المتقي ثم كَحلَه فأذهب عينيه، فصاح وصاح مَنْ عنده من الحرم والخَدَم فارْتَجَّتِ الأرض فأمر توزون بضرب الدبادب[2] فخفيت الأصوات، وعمي المتقي.

(١) السندية: بكسر أوله، وسكون ثانيه: قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد وبين الأنبار. . . والسندية أيضًا: ماء غربي المغيثة على ضحوة من المغيثة، والمغيثة على ثلاثة أميال من حفير. . . (معجم البلدان).

(٢) الدبادب: جمع دبداب، وهو الطبل.

وانحدر توزون من الغد إلى بغداد، وكان خلع المتقي لله وسمله في يوم السبت لعشر بقين من صفر، فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا، وعاش إلى أيام المطيع، وتوفي في منتصف شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وله ستون سنة وأمر المطيع أبا تمام الزينبي فصلَّى عليه وكبّر خمسًا، ودفن في داره ثم ابتاعها عز الدولة بختيار من ورثته بثلاثين ألف دينار فنقلوه إلى تربة بإزائها فامتحن في الحياة وفي الممات.

قال أبو الحسين عياش اجتمع في أيام المتقي إسحاقات كثيرة، فانسحقت خلافة بني العباس في أيامه وانْهَدَمَتْ قُبَّة المنصور الخضراء التي كان فَخْرُهم بها، قيل له ما كانت الإسحاقات؟ قال: كان يُكنى أبا إسحاق، وكان وزيره القراريطي يكنى بأبي إسحاق، وكان قاضيه ابن إسحاق الخِرَقي[(١)] وكان محتسبَه أبو إسحاق بن بطحاء، وكان صاحبَ شرطته أبو إسحاق بن أحمد أمير خراسان، وكانت داره القديمة دار إسحاق بن إبراهيم المصعبي وهي دار إسحاق بن كنداج.

وكان المتقي لله أبيضَ أشهل العينين أشقر الشعر. قال بعض المؤرخين: كان في أيامه غلاء وشدة حتى بيع كُرُّ[(٢)] الحنطة بمائتين وعشرة دنانير، وخرج عدة من الخدم من قصر الخلافة بالرصافة ينادون: الجوع الجوع! وكان نقش خاتمه «المتقي لله».

ولده ولي عهده: أبو منصور، وزراؤه: قد تقدم ذكرهم في أنباء دولته، ولم يكن لهم من الأمر شيءٌ على ما قدمناه.

قضاته: أبو نصر يوسف بن عمر، ثم أخوه أبو محمد الحسين، ثم محمد بن عيسى بن إبراهيم، ثم أبو طاهر محمد بن أحمد بن نصر، ثم أبو الحسن أحمد بن أبي موسى.

حجابه: سلامة الطولوني مولى خمارويه، ثم بدر الخرشني ثم أحمد بن خاقان. الأمير بمصر: الإخشيد محمد بن طغج. القضاة بها: عبد الله بن الوليد، ثم محمد بن بدر، ثم أبو الذكر التمّار، ثم الحسن بن عبد الرحمٰن بن إسحاق، ثم أحمد بن عبد الله الليثي، ثم عبد الله بن وليد.

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي، والخرقي نسبة إلى خرق: وهي قرية كبيرة عامرة شجيرة بمرو.

(٢) الكرّ من الكيل المعلوم وهو ستون قفيزًا.

ذكر خلافة المستكفي بالله

هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله أبي محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بالله بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد أبي محمد بن المهدي أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم. يجتمع هو والمتقي لله في المعتضد بالله، وأُمُّه أُمُّ ولدٍ اسمها غُصن، وهو الخليفة الثاني والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له بعد خلْع المتقي للّه لعشرٍ بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

قال: ولما قَبَضَ توزون على المتقي أحضر المستكفي إلى السندية وبايعه هو وعامَّةُ الناس، وكان سبب البيعة له ما حكاه أبو العباس التميمي الرازي وكان من خواصِّ توزون قال: أنا كنت السبب في البيعة للمستكفي، وذلك أنني دعاني إبراهيم بن الزوبيندار الديلمي فمضيت إليه، فذكر لي أنه تزوج إلى قوم وأن امرأةً منهم قالت له: «إن هذا المتقي قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفوا قلبُه لكم، وهاهنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفي» وذكرت عقله ودينه «تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسَكم، ويدلكم على أموالٍ جليلة لا يعرفها غيره، وتستريحون من الخوف والحراسة» قال: فعلمت أنَّ هذا أمرٌ لا يتم إلا بك، فدعوتك له فقلت: أُريد أسمع كلامَ المرأة، فجاءني بها فرأيت امرأةً عاقلةً جزلة فذكرتْ لي نَحْوًا من ذلك، فقلت: لا بد أن ألقى الرجل! فقالت: تعود غدًا إلى هاهنا حتى أجمع بينكما فعدت من الغَد فوجدته قد أُخْرج من دار ابنِ طاهرٍ في زيِّ امرأةٍ فعرَّفني نَفْسه وضَمنَ لي إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون، وذكر وجوهها وخاطبني خطابَ رجل فَهِمٍ عاقل، ورأيته يتشيع - قال - فأتيت توزونَ فأخبرته فوقع الكلام بقلبه وقال: أُريد أُبَصِّرُ الرجلَ! فقلت: لك ذلك، ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد فقال: افعل! - قال - وعدت إليهم وأخبرتهم الذي جرى، ووعدتهم حضور توزون من الغد، فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مُستَخْفِيَّيْن واجتمعنا به، وخاطبه توزون وبايعه تلك الليلة وكتم الأمر. فلما وصل المتقي قلت لتوزون: أنت على ذلك العزم؟ قال: نعم! قلت: فافعله الساعةَ فإنه إن دخل الدار بَعُدَ عليك مرامُه، فوكل به وسمَله وجرى ما جرى، وبويع للمستكفي بالخلافة، وأحضر المتقي فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب، وصارت تلك المرأة قهرمانةَ[1] المستكفي وسمَّت نفسَها «علم»

---

(١) القهرمانة: أمينة الملك ووليكته الخاصة بتدبير دخله وخرجه.

وغلبت على أمره كلِّه، واستوزر المستكفي بالله أبا الفرج محمد بن علي السامري يوم الأربعاء لست بقين من صفر منها ولم يكن له غير اسم الوزارة ومعناها لابن شيرزاد، ثم قبض عليه المستكفي في شهر ربيع الآخر وصادره على ثلاثمائة ألف درهم فكانت وزارته اثنين وأربعين يومًا.

قال: وخلع المستكفي بالله على توزون وتَوَّجه، وطلب أبا الفضل بن المقتدر بالله ـ وهو الذي ولي الخلافة ولقب المطيع لله ـ لأنه كان يعرفه يطلب الخلافةَ فاسْتَتَر مُدَّةَ خلافَة المستكفي بالله فَهُدِّمَتْ دارُه حتى لم يَبْقَ منها شيءٌ.

ودخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

في هذه السنة في المحرم لَقَّب المستكفي بالله نفسَه إمام الحق، وضُرب ذلك على الدنانير والدراهم، وكان يُخطَب له بلقبين إمام الحق والمستكفي بالله.

ذكر وفاة توزون وإمارة ابن شيرزاد

في هذه السنة في المحرم مات توزون ببغداد، وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهرٍ وتسعةَ عشرَ يومًا. ولما مات كان ابن شيرزَاد كاتبهُ ببغدادَ بهِيت ليخلِّص أموالَها، فلما بلغه الخبر أراد عقْدَ الإمارة لناصر الدولة بن حمدان فاضطرب الجند، وعقدوا الرياسةَ عليهم لابن شيرزاد فعاد إلى بغداد ونزل بباب حرب[1] في مستهل صفر. وخرج إليه الأجناد جميعُهُم وحلفوا لَه ووُجِّه إلى المستكفي بالله ليحلَف له فأجابه إلى ذلك، وحلَف له بحضرة القضاة والعدول ودخل إليه وولاه إمرة الأُمراء. فزاد الأجناد زيادة كثيرة فضاقت عليه الأموال، فأرسل إلى ناصرِ الدَّوْلة يطالبه بِحمل المال ويعده بِرَدِّ الرياسة إليه، فأرسل له خمسمائة ألف درهم ففرقها في عسكره فلم تُغْنِ شيئًا، فقسط أرزاق الجُنْد على العمال والكُتَّاب والتجار وغيرهم، وظلم الناس ببغداد. واستعمل على واسط ينال كوشة وعلى تكريت الفتح اليشكري، فأما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه وصار معه، وأما الفتح فإنه الْتَحَق بناصر الدولة بن حمدان وصار معه فأقره على تكريت.

(١) باب حرب ببغداد: محلة تجاور قبر أحمد بن حنبل رضي الله عنه ينسب إليها حربيّ... (معجم ياقوت).

ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد

قال: لما كاتب ينال كوشة معز الدولة بن بويه وهو بالأهواز ودخل في طاعته سار نحوه، فاضطرب الناس فلما وصل إلى باجِسْرَى[1] اختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد. فلما استترا سار الأتراك إلى الموصل، فلما بعدوا ظهر المستكفي بالله وعاد إلى دار الخلافة. وقدم أبو محمد الحسن بن محمد المهلّبي صاحب معز الدلة إلى بغداد فاجتمع بابن شيرْزَاد بمكانه الذي استتر فيه، ثم اجتمع بالمستكفي بالله فأظهر السُّرورَ بقدوم مُعزِّ الدولة بن بويه وأعلمه أنه إنما استتر من الأتراك ليتفرقوا ليحصلَ الأمرُ لمعز الدولة بغير قتال.

ثم وصل معز الدولة إلى بغدادَ لإحدى عشرة خَلَت من جُمادى الأولى فنزل بباب الشمّاسية ودخل من الغد إلى المستكفي وبايعه، وحلف له المستكفي. وسأله معز الدولة أن يأْذن لابن شيرْزادَ بالظهور وأن يأذن له أن يستكتبه فأجابه إلى ذلك، فظهر ولقي مُعزَّ الدولة فولاَّه الخراجَ وجباية الأموال. وخلع الخليفةُ على مُعز الدولة ولقبه بهذا اللقب، وأمر بضرب ألقابه وألقاب إخوته وكناهم على الدنانير والدراهم. ونزل معز الدولة بدار مؤنس، ونزل أصحابه في دور الناس فنال الناسُ من ذلك شدةٌ عظيمة وصار رسمًا عليهم وهو أول من فَعَله ببغداد، ولم يعرف بها قبله.

وأُقيم للمستكفي بالله في كل يوم خمسةَ آلاف درهم لنفقاته، وكانت ربما تأخرت عنه فأُقرتْ له بعد ذلك ضياعٌ سُلِّمتْ إليه تولاها له أبو أحمد الشيرازي كاتبه!.

ذكر خلع المستكفي بالله وسمله

في هذه السنة خلع المستكفي بالله لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة، وكان سبب ذلك أن عَلَمْ القهرمانةَ صنعت دعوةً عظيمةً حضرها جماعةٌ من قواد الدَّيْلم والأتراك، فاتهمها معزُّ الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ البيعةَ للمستكفي بالله ويزيلوا معز الدولة، فساء ظنه لذلك. فلما كان في التاريخ المذكور حضر معز الدولة والناس عند الخليفة، وحضر رسول صاحب خراسان ومعز الدولة جالس، ثم حضر رجلان من نُقَباء الدَّيْلم فتناولا يدَ الخليفة فَظَنَّ أنهما يريدان يُقَبِّلان يَدَه، فجذباه عن سريرِه وجعلا عمامته في حلقه.

---

(١) باجسرى: بكسر الجيم، وسكون السين وراء، والقصر: بليدة في شرقي بغداد، بينها وبين حلوان، على عشرة فراسخ من بغداد؛ وهي عامرة نزهة كثيرة النخل والأهل... (معجم البلدان).

ونهض مُعزُّ الدولة، واضطر بالنَّاسُ وأخرج الديلميان المستكفي بالله إلى دار معز الدولة ماشيًا واعتُقِل بها، ونُهِبَتْ دارُ الخلافة حتى لم يبْق فيها شيء، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي وأُخذت عَلَمْ القهرمانةُ فقطع لسانها. وكانت مدةُ خلافةِ المستكفي بالله سنةً واحدةً وأربعةَ أشهرٍ وما زال مغلوبًا على أمره.

ولما بويع للمطيع لله سُلِّم إليه المستكفي فسمله، وبقي محبوسًا إلى أن توفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وله ست وأربعون سنة. وكان أبيضَ حسنَ الوجه قد وَخَطه الشيب، ولقَّب نفسه في آخر سنة ثلاثٍ وثلاثين إمامَ الحق، ونقشه على الدنانير والدراهم وقد تقدم ذكر ذلك، وكان نقْشُ خاتمه «المستكفي بالله».

وزراؤه: محمد بن علي السامري وهو آخر من دُعيَ بالوزارَة، ثم استكتب أحمد بن عبد الرحمٰن الشيرازي. قضاته في الجانبين: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخِرَقي وقَلَّد محمد بن أبي الحسن بن أبي الشوارب الجانب الشرقيَّ والمدينةَ ثم صرفه عن الشرقي بأبي الطَّاهر محمدِ بن أحمد بن نصر، وعن المدينة بأبي السَّائبِ عُتبةَ بنِ عبد الله الهمداني، ثم جمع لعتبةَ الجانبين بعد وفاة ابن أبي موسى، وجعل المدينة إلى محمد بن صالح بن شيبان الكوفي الهاشمي. حاجِبُه: أحمدُ بن خاقان. الأمير بمصر: الإخشيد بن طغُج. القضاة بها: الحسين بن عيسى بن هارون، ثم الوليد من قبلِ المستكفي.

ذكر خلافة المطيع لله

هو أبو القاسم الفضل وقيل أبو العباس بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد، وأُمُّه أم ولد اسمها مشعلة، وهو الخليفة الثالث والعشرون من الخلفاء العباسيين بويع له يوم خلع المستكفي، وهو يوم الخميس لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان مستترًا كما قدمناه من أول خلافة المستكفي بالله. فلما قَدِمَ مُعزُّ الدَّولةِ إلى بغداد قيل إن المطيع انتقل إليه واستتر عنده وأغراه بالمستكفي بالله حتى قَبَضَ عليه وسمله، وبويع للمطيع بالله ولقب بهذا اللقب، وحضر المستكفي عنده فسلّم عليه بالخلافة وأشْهدَ على نفسه بالخلع.

وزاد أمْرُ الخلافةِ إدبارًا ولم يَبْقَ لهم من الأمر شيء ألْبَتَّةَ، وقد كانوا يراجعون قبل ذلك والحرمةُ قائمةٌ بعضَ شيءٍ، فلما كان في أيام معزِّ الدولة زال ذلك جميعُه بحيث إن الخليفةَ لم يبْقَ له وزيرٌ، إنما كان له كاتب يدير إقطاعَه وأخراجاتِه لا غَيْر.

وصارت الوزارة إلى معز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان الديلم يغالون في التشيع ويعتقدون أن بني العباس قد غَصَبوا الخلافةَ وأخذوها من مستحِقِّيها فلم يكن باعثٌ ديني يحثهم على الطاعة حتى قيل إنَّ معز الدولة قَصد إخراجَ الأمرِ عن بني العباس والبيعة للمعتز لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين.

واستشار جماعةً من خواصِّ أصحابِه فكلُّهم أشار عليه بذلك إلا بعضَ خواصِّه، فإنه قال: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابُك أنه ليس من أهل الخلافةِ ولو أمرتهم بِقَتْلِه لقتلوه مستحلِّين دمَه، ومتى أجلستَ بعضَ العلويين خليفةً كان معك من تَعْتَقِدُ أنتَ وأصحابُك صحةَ خلافَتِه ولو أمرتَهم بِقَتْلِه لقتلوك! فأعرض عن ذلك.

ومن حيث استقل مُعِزُّ الدَّوْلةِ بالأمر اختصرنا الأخبارَ في أيام الخلفاء، ونذكر ذلك في أخبار الدَّوْلَةِ البويهية وغيرها من الدول، فإن الأمر والنَّهْيَ صار لهم دون الخلفاءِ، ولم يبقَ للخليفة من الأمر شيءٌ إلا ما أقطعه له مُعِزُّ الدَّوْلة ما يقوم بِبَعْضِ حاجتِه. فالذي نذكره الآن في أيام الخلفاء بني العباس ما يتعلق بحال الخليفة وأتباعه وأقاربه ومن خرج عليه من أهل بيته، وننبه على ابتداء دول الملوك وانقراضها ونحيل عليها في موضعها الذي تشرح فيه، ونذكر أيضًا في أيام الخلفاء ما غلب عليه الروم والفرنج من البلاد الإسلامية وما وقع من الحوادث العامة كالزلازل العظيمة والسيول، وما يناسب ذلك على ما يراه المطالع في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي القائم بن المهدي صاحب إفريقية والمغرب، وولى بعده ابنه المنصور.

وفيها توفي الإخشيد صاحب مصر والشام وولي بعده ابنه أبو القاسم ودبر الأمر كافور الخادم بمصر، واستولى سيف الدولة بن حمدان على دمشق.

وفيها اشْتَدَّ الغلاءُ ببغدادَ حتى أكل الناسُ الميتةَ والكلاب والسنانيرَ[1]، وأُخِذ بعضهم ومعه صبيٌّ قد شواه ليأكله، وأعقبه وباءٌ حتى عجز النَّاسُ عن دفْنِ موتاهم فكانت الكلابُ تأكل الناس والناسُ تأكل الكلابَ.

قال أبو الفرج بن الجوزي: وفي هذه السنة كَثُر القملُ برستاق[2] اليمن الكبرى

---

(١) السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواهم. من خير مآكله الفأر؛ ومنه أهلي وبريّ، جمع سنانير.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والأستان... (مقدمة معجم ياقوت).

حتى يئس الناس من غلاتهم فانحط من الطير طائر يزيد على جرْم العصفور، فكان الطائر يعلو على شجرة فيصفر فتطير الطير أفواجًا، فينحطُّ كلُّ فوجٍ منها على ضيعة فيلقط القمل حتى فني!.

ودخلت سنة خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة.

في هذه السنة كان الفداءُ بين المسلمين والروم على يد نَصْرِ الثملي أميرِ الثغور لسيف الدولة، وكان عدَّة الأسرى ألْفَيْن وأربعمائةَ أسير وثمانين أسيرًا.

وفي سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة استولى مُعزّ الدولة بن بويه على البصرة وهرب أبو القاسم بن أبي عبد الله البريدي منها إلى هجر إلى القرامطة، ثم استأمن بعد ذلك، ووصل إلى بغداد في سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة فأحْسن إليه وأقطعه.

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ملك الرومُ مرعش[١] من سيف الدولة بن حمدان، وكان قد قاتلهم فهزموه.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ كانت وفاة عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز.

ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة شرفها الله تعالى وقالوا: أخذناه بأمرٍ وأعدناه بأمرٍ! وكان بجكم قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوا إلى رده وردوه الآن بغير شيء في ذي القعدة، وكانوا أخذوه في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة. ولما أرادوا رده حملوه إلى الكوفة وعلقوه بجامعها، حتى رآه الناس ثم حملوه إلى مكة.

وفي سنة تسعٍ وثلاثين أيضًا توفي أبو نصر محمد بن الفارابي الحكيم الفيلسوف صاحب التصانيف، وكانت وفاته بدمشق.

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة توفي المنصور العلويُّ صاحبُ المغرب، وملَكَ بعده ابنه المعزُّ لدين الله.

وفيها ملَكَ الرُّومُ مدينةَ سروج[٢] وسَبَوْا أهلها وغنموا أموالهم وخرَّبوا المساجد.

وفي سنة ست وأربعين نقص البحر ثمانين باعًا فَظهر فيه جبال وجزائرُ لم تعرف

---

(١) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم... (معجم البلدان).

(٢) سروج: بفتح أوله..: وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر.. وقد نسبوا إليها أبا الفوارس إبراهيم بن الحسين إبراهيم بن برية السروجي الخطيب... (معجم ياقوت).

قبل ذلك. وفيها كان بالعراق وبلاد الجبل وقُمّ ونواحيها زلازل كثيرة متتابعة دامت نحو أربعين يومًا، تسكن وتعود؛ فتهدمت الأبنية، وغارت المياه وهلَكَ تحت الرَّدْمِ ما لا يُحصى من العالَم، وكذلك كانت أيضًا بالرَّيِّ والطالقان[١].

ذكر ظهور المستجير بالله

وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ظهر بأذربيجان رجلٌ من أولاد عيسى بن المكتفي بالله وتَلَقَّب بالمستجير بالله وبايع للوصي من آل محمد، ولَبس الصُّوف، وأظهر العدلَ، وأمر بالمعروف، ونَهَى عن المنكر. وكثر أتباعه واستفحل أمره، فسار إليه جستان وإبراهيم ابنا المرزبان صاحب أذربيجان والتقوا فاقتتلوا، فانهزم أصحاب المستجير وأخذوه أسيرًا فعدم فقيل إنه مات! وفيها أسْلَم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاه[٢].

ذكر ضمان الحسبة والقضاء والشرطة ببغداد

وفي سنة خمسين وثلاثمائة مات القاضي أبو السائب عتبة بن عبد الله وقُبضت أملاكه وتولى قضاء القناة أبو العباس عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب، وضمن أن يؤدي في كل سنة مائتي ألف درهم ولم يسمع بمثل ذلك فيما سلف! فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول إليه، وأمر أنْ لا يحضرَ الموكب لِما ارتكبه من ضَمان القضاء، ثم ضُمِنت الحسبة والشرطة. ثم عزَلَ ابنَ أبي الشوارب عن القضاء وأمر بإبطال أحكامِه وسجلاته، وذلك في سنة اثنتين وخمسين وتقلَّد القضاءَ بعده أبو بشر بن أكثم بغير ضمان.

ذكر استيلاء الروم على عين زربة[٣] وما حولها من الحصون

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة في المحرم نزل الدمستق بالروم على عين زَرْبَة، وهي في سفح جبل عظيم والجبل مشرف عليها. وكان في جمع عظيم فأنفذ بعض عسكره، فصعدوا الجبل وملكوه. فلما رأى أهلُها ذلك وأنَّ الدمستق قد ضيّق

---

(١) الطالقان: هما بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل.. وقيل: الطالقان: أكبر مدينة بطخارستان... (معجم البلدان).

(٢) خركاه: (فارسية معربة): الخيمة الكبيرة.

(٣) في معجم ياقوت: عين زربى: بفتح الزاي وسكون الراء، وباء موحدة، وألف مقصورة: هو بلد بالثغر من نواحي المصيصة.

عليهم ووصل إلى السور وشرع في التقرب طلبوا الأمان، فأمَّنهم الدمستق ففتحوا أبواب المدينة فدخلها، فرأى أصحابه الذين في الجبل نزلوا إلى المدينة فندم على إجابتهم إلى الأمان ونادى في البلد أن يخرج أهلُه إلى المسجد الجامع ومن تأخَّرْ في منزله قتل.

وكان ذلك في أول الليل، فخرج إلى الجامع مَن أمكنه الخروج، فلما أصبح أنفذ رجَّالتَه إلى المدينة وأمرهم بِقَتْل من يجدونه في منزله، فقتلوا خَلْقًا كثيرًا. ثم أمر منْ بالمسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا، فخرجوا على وجوههم لا يرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات. وقَتَلَ الرُومُ من وجدوه بالمدينة إلى آخر النهار، وهُدِم سور المدينة.

وأقام الدمستقُ في بلاد الإسلام واحدًا وعشرين يومًا، وفتح حول عين زربة أربعةً وخمسين حِصنًا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد، وخلف جيشه بقيسارية[١] وراسله أهل بغراس[٢] وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم.

وفيها استولى الدمستق على مدينة حلب وعاد عنها، على ما نذكره في أخبار ابن حمدان.

ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس

كان استيلاؤهم عليهما في سنة أربعٍ وخمسين وثلاثمائة وذلك أن الدمستق حصر المصيصة في سنة ثلاث وخمسين وقاتلَ أهلها ونقب أسوارها واشتد القتال وأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنه[٣] وطرسوس لمساعدتهم أهلها، وقُتِلَ من المسلمين خمسةَ عشرَ ألف رجلٍ. ثم ضاقت المِيرة على الروم فرحل الدمستق إلى بلاد الروم، وأرسل إلى أهل المصيصة وأذنه وطرسوس «أني منصرف عنكم لا لِعجْزِ ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء، وأنا عائد إليكم، فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودي قتلته».

(١) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعد في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام.

(٢) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، في البلاد المطلة على نواحي طرسوس.

(٣) أذنة: بحذاء توز جبل يقال له الغمر شرقي توز، ثم يمضي الماضي فيقع في جبل شرقيه أيضًا.. وأذنة أيضًا: بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور... (معجم البلدان).

ونزل ملك الروم أيضًا على طرسوس وحصَرها وجرى بينه وبين أهلها حروبٌ كثيرة سقط في بعضها الدمستق بن الشمشقيق إلى الأرض وكاد يؤسر فقاتل عليه الروم وخلصوه. وأسر أهلُ طرسوس بطريقًا كبيرًا من بطارقة الروم، ورحل الرومُ عنهم لاشتداد الغلاء والعناء.

وكان نقفور ملك الروم قد بنى بِقَيْسَارية مدينة وأقام بها بأهله ليقْرُب من بلادِ الإسلام، فلما كان في سنة أربع وخمسين أرسل أهلُ طرسوس والمصيصة[1] إليه يبذلون الطاعةَ ويطلبون منه أن يُنْفِذَ إليهم بعضَ أصحابه ليقيم عندهم، فعزم على إجابتهم إلى ذلك فأتاه الخبرُ أنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصرَ لهم وأن الغلاءَ قد اشتد عندهم وعدِموا القوتَ وأكلوا الكلابَ والميتة وكثر فيهم الوباءُ فيموت منهم في اليوم ثلاثمائةُ نفسٍ، فرجع نقفور عن إجابتهم وأحضر الرسولَ وأحرقَ الكتاب على رأسه فاحترقت لحيته وقال لهم: أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت، فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته، وأنتم إنما أطعتم لضعفكم، وإن تُركْتم حتى تستقيمَ أحوالكم تأذَّيْت بكم!

وأعاد الرسولَ وجمع جيوشَ الروم وسار إلى المصيصة بنفسه، فحاصرها وفتحها عنْوَةً يومَ السبت ثالث عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مقتلةً عظيمةً. ثم أمر برفع السيف عنهم، ونقل كل من بقي منهم إلى بلد الروم، وكانوا نحو مائتي ألف إنسان. ثم سار إلى طرسوس فحاصرها فأذعن أهلُها بالطاعة وطلبوا الأمان فأمّنهم، وفتحوا له البلدَ فلقيهم بالجميل[2] وأمرهم أن يحملوا من سلاحِهم وأموالهم ما يطيقون حمله ففعلوا ذلك برًّا وبحرًا، وسيّر معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية.

وجعل الملِكُ المسجدَ الجامع اسطبلاً لدوابه، وأحرق المنبر، وعمَّرَ طرسوسَ وحصَّنَها، وجلب إليها الميرة حتى رخُصتِ الأسعارُ ورجع إليها كثيرٌ من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصَّر بعضهم، وأراد المقام بها ليقرب من بلاد الإسلام ثم عاد إلى

(١) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس... (معجم البلدان).

(٢) جميل: ببغداد، ينسب إليه إبراهيم بن محمد بن عمر بن يحيى بن الحسين أبو طاهر العلوي الجميلي، نزل درب جميل فنسب إليه... (معجم ياقوت).

القسطنطينية. وأراد الدمستق وهو ابن الشمشقيق أن يقصد ميافارقين[١] وبها سيفُ الدولة بن حمدان فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية فمضى إليه. ثم فتح نقفور أذنه.

وفي سنة أربع وخمسين أيضًا قتل المتنبي الشاعر واسمه أحمد بن الحسين الجُعْفِيّ بالقرب من النعمانية[٢] وقُتِلَ معه ابنه، وكان قد عاد من عند عضد الدولة بفارس فقتله الأعراب وأخذوا ما معه.

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة كانت وفاة معز الدولة بن بويه وولاية ابنه عز الدوبة بختيار على ما نذكره في أخباره. ومات وشمكير بن زيار، والحسن بن الفيرزان، وكافور الإخشيدي، ونقفور ملك الروم، وأبو علي محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدولة بن حمدان.

وفيها توفي أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني الأموي، وهو من ولد مروان بن الحكم وكان شيعيًا وهذا من العجب، وهو صاحب كتاب الأغاني.

ذكر البيعة لمحمد بن المستكفي وما كان من أمره

وفي سنة سبعٍ وخمسين وثلاثمائة ظهر ببغداد بين الخاص والعام دعوةٌ إلى رجل من أهل البيت اسمه محمد بن عبد الله، وقيل إنه الرجل الذي وعد به النبي ﷺ، وإنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحدد ما عفى من أمور الدين، فمن كان من السُّنة قال: إنه عباسي، ومن كان من الشيعة قال: إنه علوي. فكثرت دعاته وظهرت بيعته، وكان الرجل بمصر وقد أكرَمه كافورٌ الإخشيديّ وأحسن إليه. وكان في جملة من بايع له سَبُكْتَكِين العجمي من أكابر قواد معز الدولة وكان يتشيع فظنه علويًا، فكتب إليه يستدعيه

---

(١) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء، وبعد الألف راء، وقاف مكسورة، وياء، ونون: أشهر مدينة بديار بكر... ما بني منها بالحجارة فهو بناء أنوشروان بن قباذ، وما بني بالآجر فهو بناء أبرويز... وهي من أبنية الروم لأنها في بلادهم... (معجم البلدان).

(٢) النعمانية: بالضم: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته وأهلها شيعة غالبة كلهم... والنعمانية أيضًا: قرية بمصر، وفي كل واحدة منها مقلع للطين الذي تغسل به الرؤوس في الحمامات... (معجم ياقوت).

من مصر. فسار حتى بلغ الأنبار[١]، وخرج سبكتكين إلى طريق الفرات وهو يتولى حمايتها فلقي ابن المستكفي وترجل له وخدمه وأخذه، وعاد به إلى بغداد وهو لا يشك في حصول الأمر له. ثم ظهر لسبكتكين أنه عباسيٌّ فعاد عن رأيه فيه، فخاف ابن المستكفي وهرب هو وأصحابه وتفرقوا، ثم أُخِذَ ومعه أخٌ له وأُحْضِرا عند بختيار فأمنهما ثم تسلمه المطيعُ لله من بختيار فَجَدع أنفه، ثم خَفِي خبرُه.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائةٍ انقطعت الدعوةُ العباسيةُ من الديار المصرية والشامية، وقامت الدعوةُ العلويةُ بها للمعز لدين الله صاحب إفريقية والمغرب، على يد جوهرِ القائدِ غلامِ المنصور ووالد المعز على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة العُبَيْدية.

وفيها مات ناصر الدولة بن حمدان.

ذكر ما فعله الروم بالشام والجزيرة

في هذه السنةِ دخل ملك الروم الشامَ فَلَمْ يَمْنَعْه أحدٌ ولا قاتله، فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدَها، وملك قلعة عرقة[٢]. وكان صاحب طرابلس قد أخرجه الرومُ لِشِدَّةِ ظُلْمِه، فقصد عرقة فأخذه الرُّومُ وجميعَ ماله، وقصدَ ملكُ الروم حِمْص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها، فأحرقها الرومُ ورجع إلى بلد الساحل، فأتى عليها نَهْبًا وتخريبًا وملك ثمانيةَ عشرَ شهرًا وما لا يُحْصى من القرى، وأقام بالشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء فلا يمنعه أحد، وعاد إلى بلادِه ومعه من السَّبْي نحو مائةِ ألف رأسٍ ولم يأخذْ إلا الصِّبيان والصبايا والشبابَ، وأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه، وسيَّر سريَّةً إلى بلد الجزيرة فبلغوا كفرتوثا وتعصبوا وسَبوْا وأحرقوا وعادوا.

ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية

وفي سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة أنطاكية[٣]، وسبب ذلك

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها... (معجم البلدان).

(٢) عرقة: هي من نواحي الروم، غزاها سيف الدولة.

(٣) أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة لماء وكثرة الفواكه وسعة الخير... (معجم البلدان).

أنهم حَصروا حِصْنًا بالقرب منها يقال له حصن لوقا، فوافقوا أهلَه وهم نصارى على أن يرتحلوا منه إلى أنطاكية، ويظهر أنهم انتقلوا منه خوفًا من الروم فإذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فَتْحِها. وانصرف الرومُ عنهم بعد هذا التقرير، وانتقل أهل الحِصْن ونزلوا بأنطاكية بالقرب من الجبل الذي بها. فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافَى الرومُ مع أخي نقفور وكانوا نحو أربعين ألف رجل، فأحاطوا بالسور وصعدوا الجبل إلى الناحيةِ التي بها أهل الحصن فأخْلَوْا لهم السور، فملكه الرومُ وملكوا البلدَ ووضعوا السيفَ في أهله، ثم أخرجوا العجائزَ والأطفالَ والمشايخَ من البلد وقالوا لهم: اذهبوا حيث شئتم! وأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم إلى بلاد الروم سبيًا، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسان.

قال: وأنفذ الرُّومُ جيشًا كثيفًا إلى حلب وبها قرعوية غلام سيف الدولة بن حمدان قد تغلب عليها ونزع يده من طاعة أبي المعالي بن سيف الدولة، فملك الرّومُ المدينةَ دون القلعة وحصروا القلعةَ، وترددتِ الوسائطِ والرسائل بينهم وبين قرعوية، فاسْتَقَرَّ الأمرُ على هدنة مؤبدة على مالٍ يحمله قرعوية إليهم وأن يكونَ الرّومُ إذا أرادوا الغزو لا يُمكن قرعوية أهلَ القرى عن الجلاء عنها ليبتاعَ الرّومُ ما يحتاجون إليه منهم. وكان مع حلب في الهدنة حماه وحمص وكفرطاب[١] والمعرة وأفامية[٢] وشيرز[٣] وما بين ذلك من الحصون والقلاع والقرى، وسَلَّموا الرهائنَ إلى الروم، وعادوا عن حلب.

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفيها أرسل الروم جيشًا إلى ملازكرد من أعمال أرمينية، فملكها عنْوةً وقهرًا من المسلمين، وعظمت شوكتهم، وخافهم المسلمون في أقطار البلاد.

ذكر مقتل ملك الروم نقفور

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة قتل نقفور ولم يكن من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقًا والدمستق عندهم الذي يلي بلاد الروم التي هي شرقي خليج

---

(١) كفرطاب: بالطاء مهملة، وبعد الألف باء موحدة: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. . . (معجم البلدان).

(٢) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص كما يقول ياقوت.

(٣) شيرز: من قرى سرخس شبيهة بالمدينة بينهما مسيرة يومين للجمال على طرف من طريق هراة، بها سوق عامرة وخلق كثير وجامع كبير. . . (معجم البلدان).

قسطنطينية. وكان نقفور هذا شديدًا على المسلمين، وهو الذي فتح طرسوس والمصيصة وأذنه وعين زَرْبة وغيرها، ولم يكن نصرانيَّ الأصل وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس تنصر، وكان ابنه هذا شَهْمًا شجاعًا حسنَ التدبير لما يتولاه. فلما عظم أمره وصار دمستقًا قتل الملكَ الذي كان قبلَه وملَكَ الرومَ بعده، وتزوّج امرأة الملك المقتول على كُرْهٍ منها وكان لها ابنان من الملك، فعزم على أن يخصيهما ليقطع نَسْلَهما ويبقى المُلْك فيه وفي ذُرِّيته. فلما علمت أُمهما ذلك احتالت في قتله، فأرسلت إليه ابن الشمشقيق ـ وهو الدمستق حينئذ ـ ووافقته على أن يسيرَ إليها في زِيِّ النساء ومعه جماعةٌ وقالت لزوجها: إن نسوة من أهلها قد زرنها! فلما سار إليها هو ومن معه جعلتهم في بيعة تتصل بدار الملك. فلما كان في ليلة الميلاد نام نقفور واستثقل في نَوْمه، ففتحت امرأته البابَ وأدخلتهم إليه فقتلوه، وثار بهم جماعةٌ من خاصته وأهلِه فقُتِل منهم نيِّفٌ وسبعون رجلًا، وأُجْلِس في المُلْكِ الأكبَرُ من وَلَدي الملكِ المقتول، وصار المدبر له ابن الشمشقيق، ويقال: إن نقفور ما بات قَطُّ بغير سلاح إلا في تلك الليلة التي قتل فيها.

ذكر الفتنة ببغداد ومصادرة الخليفة المطيع لله

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائةٍ وقعت ببغداد فتنةٌ عظيمة، وكان سببها أن الرّوم استطالوا على أهل بلاد الجزيرة وامتدوا في البلاد وعظم أمْرُهم وقويت شوكتهُم، فسار جماعةٌ من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في المساجدِ والمشاهدِ واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الرّومُ من النَّهْبِ والأسْرِ والسَّبْي. فاستعظمه النَّاسُ واجتمع أهلُ بغداد وقصدوا دار الخليفة، وأرادوا أن يهجموا عليه فَمُنِعوا وأُغْلِقَتِ الأبوابُ فأسمعوه القبيح، ثم تجمعوا وثاروا في البلَدِ، ونهبتِ الأموال وقُتِلَتِ الرِّجال، وأُحْرقَتِ الدورُ، وفي جملةِ ما أُحرق محلة الكرخ وكانت معدن التجار والشيعة.

فأنفذ عز الدولة بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالاً يخرجه على الغزاة فقال المطيع: إنَّ النفقة على الغزاة وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدُّنيا في يَديَّ والأموال تُجبى إليّ، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيءٌ من ذلك، وإنما يُلْزَمَ مَنِ البلادُ في يَدِه وأنا ليس لي إلا الخطبةُ، فإن شئتم أن أعتزل فعلت!

وترددتِ الرسائلُ بينهما حتى بلَغَا إلى التهديد، فبذل المطيعُ لله أربعمائة ألفِ درهمٍ فاحتاج إلى بيْع ثيابه وإنقاصِ داره وغير ذلك. وشاع عند النَّاسِ من أهل العراق وحجّاج خرسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قَبَضَ بختيارُ المال صَرَفَه في مصالح نَفْسه وبطُلَ حديث الغزاة، ولم يسمع بمثل هذا فيما مضى.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وقعت الفتنة بين بختيار وسبكتكين التركي الحاجب، فانتصر الحاجبُ عليه واستولى على بغداد، وأخرج مَنْ فيها من أهل بختيار وأصحابِه، وترك الأتراكَ في دُورِ الدَّيْلَم، وأخذوا أموالَهم على ما نذكر ذلك مبيَّنًا في أخبار الدولة البويهية إن شاء الله تعالى.

ذكر خلع المطيع للّه نفسه من الخلافة وخلافة ابنه الطائع لله

وفي منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وقيل في الثالث عشر منه خَلَع المطيعُ لِلَّهِ نَفْسه من الخلافة. وكان سبب ذلك أنه أصابه مرض الفالج وثقُل لسانه وتَعذَّرَتِ الحركة عليه، وكان يستُر ذلك، فانكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى خَلْع نَفْسِه وتسليمها لولده ففعل ذلك وأشهد عليه به. فكانت مُدَّة خلافتِهِ تسعًا وعشرين سنة وأربعة أشهرٍ وعشرين يومًا، وكان له من الأولاد أبو بكر وهو الطائع وعبد العزيز وجعفر.

وزراؤه: أبو الحسن محمد بن علي بن مقلة، وأبو الفضل أحمد الشيرازي. قضاته: محمد بن الحسين بن أبي الشوارب، ومحمد ابن أُمِّ شيبان الهاشمي، وأبو السائب، وأبو بشر عمر بن أكثم. حجابه: بختيار بن معز الدولة ويخلفه عبد الواحد ابن أبي عمر الشرابي[1]. الأمير بمصر: الإخشيد إلى أن مات، ثم ابنه أنوجور، ثم أخوه، ثم كافور الإخشيدي إلى أن مات، ثم عُقد الأمرُ لأحمدَ بنِ عليِّ بنِ الإخشيد وهو ابن إحدى عشرةَ سنةً، ثم خرجت مصر عن الدولة العباسية باستيلاء المغاربة عليها. القضاة بمصر: أبو الوليد، ثم عمر بن الحسين بن عبد العزيز العباسي من قِبَلِ أخيه محمد، واستخلف ابنَ الحدَّادِ، ثم وَلِيَها أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخَصيب، ثم ابنه محمد، ثم أبو طاهر محمد بن نصر.

(١) لقب بالشرابي لأنه كان يقدم الشراب في القصر كالساقي.

ذكر خلافة الطائع لله

هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله الفضل بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، وأُمه أُم ولد اسمها عتب. وهو الخليفة الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين، وبويع له في يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلَتْ من ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وسِنُّه يوم ذلك ثمانٍ وأربعون سنةً، ولم يلِ الخلافةَ أكبرُ منه سِنًّا من بني العباسي، ولم يتقلَّدِ الخلافةَ من له أبٌ حيٌّ بعد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه غيره!.

ذكر الحوادث في أيام خلافته

في هذه السنة خُطِب للمعزِّ صاحبِ مصر بمكةَ والمدينة. وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة استولى عَضُدُ الدولة على العراق وقبض على بختيار، ثم عاد بختيار إلى مُلْكِهِ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة توفي المعز لدين الله صاحب مصر، وقام بعده ابنه العزيز.

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة توفي ركن الدولة بن بويه، وملك ابنه عضد الدولة وفيها كان ابتداء الدولة الغزنوية وأول من ملك منهم بغزنة سبُكْتَكِين، وسنذكر أخباره في دوْلَتِهِم إن شاء الله تعالى.

وفيها في جُمادى الأُولى نُقِلَتْ ابنة عِزِّ الدولة بختيار إلى الطائع لله، وكان قد تَزَوَّجها.

وفي سنة سبع وستين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على العراق وأخرج بختيار عنها ثم قتله، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة تزوج الطائع ابنة عضد الدولة، وكان عضد الدولة قد زوجه بها، وقال: لعلها تلد منه ولدًا ذكرًا فنجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولدهم! وكان الصداق مائة ألف دينار، وزُفت إليه في سنة سبعين وكان معها من الجواهر والجهاز ما لا يحصى.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة تُوفِيَ عضدُ الدولةِ بن بويه، ووَلي صمصامُ الدولة ولدُه.

وفي سنةِ خمسٍ وسبعين وثلاثمائةِ خرج طائر من البحر بعمان وهو أكبر من الفيل، ووقف على تل هناك وصاح بصوت عالٍ ولسان فصيح: قد قرب قد قرب قد قرب! ثلاثًا، ثم غاص في البحر، فَعلَ ذلك ثلاثةَ أيامٍ ثم غاب ولم يُرَ بعد ذلك.

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة ملك شرف الدولة العراق، وقبض على أخيه صمصام الدولة وَسَملَه في سنةٍ تسعٍ وسبعين، ومات شَرَفُ الدَّوْلةِ في السنة، وملك بعده أخوه بهاء الدولة وله إخوة.

ذكر القبض على الطائع وشيء من أخباره

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في يوم السبت لثمانٍ من شعبان قبض بهاءُ الدولة بن بويه على الخليفة الطائع لله، وكان سبب ذلك أن بهاء الدولة قَلَّتْ عنده الأموالُ وكثر شَغَبُ الجُنْدِ عليه، فَقَبضَ على وزيره سابورَ فلم يُغْنِ عنه شيئًا. وكان أبو الحسن ابن المعلم قد غَلَبَ على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسَّن له القبضَ على الطائع وأطمعه في ماله، وهوَّن ذلك عليه وسهَّله. فأقدم عليه بهاء الدولة وأرسل إلى الطائع لله وسأله الإذْنَ في الحضور إليه ليجدِّد العهد بخدمته، فأذن له بذلك. وجلس له كما جَرتِ العادةُ، فدخل بهاءُ الدولة ومعه جمعٌ كبيرٌ فلما دخل قَبَّل الأرض. فأُجلس على كرسي، فدخل بعض الدَّيْلم كأنه يريد تقبيلَ يدِ الخليفة، فجذبه وأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنَّا لله وإنا إليه راجعون! ويستغيث ولا يُلْتَفَتُ إليه، وأخذ ما في دار الخلافة من الذخائر، ونهب الناسُ بعضُهم بعضًا. وكان في جملتهم الشريف الرضي[1] فبادر بالخروج فسلّم وقال أبياتًا من جملتها: [من البسيط]

من بَعْدِ ما كان ربُّ المالِ مبتسمًا ... إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني

أمْسيْتُ أرْحمُ مَنْ قد كنت أغبطه ... لقد تقارب بين العِزِّ والهُونِ

ومنظرٍ كان بالسرّاء يُضْحِكني ... يا قُرْبَ ما عاد بالضَّرَّاء يُبكيني

هيهاتَ أغْتَرُّ بالسُّلطانِ ثانيةً ... قد ضَلَّ وَلاَّجُ أبوابِ السلاطينِ

قال: ولما حُمِلَ الطائعُ إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع، فكانت مدة خلافته سَبْع عَشْرَةَ سنةً وتسعةَ أشهر وثمانية أيام، وبقيَ في حبس القادرِ باللّهِ إلى أن تُوفي في يوم الثلاثاء سَلْخَ شهر رمضان سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة وصلَّى عليه القادر بالله في دار الخلافة وكبَّر خَمْسًا، وتحدَّث الناسُ في ذلك فقال: هكذا يصلّى

(١) هو الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر... قيل: توفي سنة ٤٠٣ ببغداد ودفن بمقابر قريش بمشهد باب التين... (وفيات الأعيان ٤: ٤١٤).

على الخلفاء! ودفن بالرصافة، ويقال: إن القادر بالله شيّع جنازته إليها ورثاه الشريف الرَّضِيّ بقصيدته التي أولها: [من البسيط]

ما بَعْدَ يَوْمِكَ ما يَسْلو به السَّالِي ومثلُ يومِكَ لم يَخْطُرْ على بالِي

وكان مولدُه في سنةِ سبعَ عشْرَةَ وثلاثمائةٍ، وكان أبيضَ مرْبوعًا حسن الجسْم، وكان أنْفه كبير جدًا، وكان شديد القوة كثير الإقدام، ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يُعرف به حاله ويستدَلُّ على سيرته.

ذكر خلافة القادر بالله

هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي أحمد بن الموفق، وأُمه أم ولد اسمها دمنة وقيل تمنى، وهو الخليفة الخامس والعشرون من الخلفاء العباسيين. وبويع له في يوم خلع الطائع لثمان بقين من شعبان سنةَ إحدى وثمانين وثلاثمائةٍ وكان يوم ذاك بالبطِيحةِ(١) عند مُهذّب الدولة أميرها. وكان سبب توجهه إليها أن إسحاق بن المقتدر والد القادر لما توفي جرى بين القادر وبين أخيه منازعةٌ في ضَيْعة، وطال الأمرُ بينهما. ثم إن الطائع لله مرِض مرضًا شديدًا أُشْفِي منه ثم أبلّ(٢) فسعت إليه بأخيها القادر وقالت: إنه شَرع في طلب الخلافةِ عند مَرَضك! فتغيّر رأْيُه فيه، وأنفذ أبا الحسن ابن حاجب النُّعمان وغيره لِلْقَبض عليه وكان بالحريم الطاهري، فأصعدوا في الماء إليه.

وكان القادر قد رأى في منامه كأن رجُلًا يقرأ عليه.. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] فهو يحكي هذا المنام لأهله ويقول: أنا خائف من طَلَبٍ يطلبني!

ووصل أصحابُ الطائع لله وقَبضُوا عليه، فأراد لِبْس ثيابه فمنعوه ولم يمكّنوه من مفارقتهم، فأخذه النساءُ منهم قهْرًا وخرج من داره واستتر وذلك في سنة تسع وسبعين. ثم سار إلى البطيحة فسار فنزل على مهذب الدولة، فأكرم نُزُلَه ووسّع عليه وبالغ في خِدْمتِه، ولم يزَلْ عنده حتى أُفْضِيَ إليه الأمر فجعل علامته ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

---

(١) البطيحة: هي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكانت قديمًا قرى متصلة وأرضًا عامرة... (معجم البلدان).

(٢) يقال: أبل من مرضه: إذا حسنت حاله بعد الهزال.

قال: ولما قبض على الطائع ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة فاتفقوا على القادر بالله، فأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد.

وشَغَب الجُنْدُ والدَّيْلَمُ ببغدادَ، ومَنعُوا من الخُطبة له، فقيل على المنبر: اللَّهُمَّ أصلحْ عبدك وخليفتَك القادر بالله! ولم يُذْكَرْ اسمُه، ثم أرضاهم بهاء الدولة.

قال: ولما وصل الرسول إلى القادر بالله كان في تلك الساعة يحكي منامًا رآه في تلك الليلةِ هو ما حكاه عبد الله بن عيسى كاتبُ مهذَّب الدولة قال: كنت أحضر عند القادر بالله كلَّ أسبوع مرتين، فكان يكرمني، فدخلت عليه يومًا فوجدته قد تأهب لم تَجْرِ به عادتُه، ولم أرَ منه ما أَلِفتُ من كرامته[1] فاختلفت بي الظنونُ، فسألته عن سبب ذلك فإن كان لِزَلَّةٍ مِني اعتذرتُ عن نفسي فقال: «بل رأيتُ البارحةَ في منامي كأن نهركم هذا نهر الصليق[2] قد اتَّسع فصار مثل دجلةَ دفعاتٍ، فسرتُ على جانبه متعجبًا منه، ورأيت عليه قنطرةً عظيمةً فقلت مَنْ قد حدَّثَ نفسه بعمل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم؟ ثم صعدتها ـ وهي محكمة ـ فبينا أنا عليها أتعجب منها إذْ رأيتُ شخصًا يتأملني من ذلك الجانب فقال: أتريد أن تعبر؟ قلت: نعم، فَمدّ يدَه حتَّى وصعلتْ إليّ فأخذَنِي وعَبَر بي فهالني، وتعاظمني فِعْلُه، فقلت: مَن أنت؟ قال: عليُّ بنُ أبي طالبٍ وهذا الأمر صائرٌ إليك ويطول عمرك فيه فأحْسِنْ إلى ولدي وشيعتي»!

قال: فما انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياحَ الملاّحين وغيرهم فسألنا عن ذلك فإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولى الخلافةَ، فخاطبته «يا أمير المؤمنين» وقام مهذَّب الدولة بخدمته أحْسَنَ قيام، وحمل إليه من المال وغيرِه ما يحمله كبارُ الملوك إلى الخلفاء وشَيَّعه، فسار القادرُ إلى بغداد، فلما وصلَ جَبُّل[3] انحدر بهاء الدولة وأعيانُ الناسِ إليه واستقبلوه وساروا في خِدْمَتِه، فدخل دار الخلافةِ في ثاني عشر شهر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس، وخطب له في ثالث عشر الشهر المذكور.

وجُدِّد أمْرُ الخلافةِ وعَظُم ناموسها وحُمِل إليه ما نُهِبَ من دار الخلافة، ولم يُخْطَبْ له في جميع خراسان بل كانت الخطبةُ فيها للطائع لله وحلَف له بهاء الدولة

---

(١) الكرامة: العزة.

(٢) الصليق: مواضع كانت في بطيحة واسط بينها وبين بغداد.

(٣) جبّل: بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي.

على الطاعة والقيام بشروط البيعة، وحلف القادر له بالوفاء والخلوص، وأشهد عليه أنه قلّده ما وراء بابه.

ذكر تسليم الطائع لله إلى القادر وما فعله معه

وفي شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائةٍ سَلَّمَ بهاءُ الدولة الطائعَ لله إلى الخليفة القادر بالله، فأنزله في حجرةٍ من خاصِّ حُجَرِه، وَوَكَل به من ثقات خَدَمِهِ من يقوم بِخِدْمَتِهِ وبالغ في الإحسان إليه، وكان الطائع يطلب الزيادة في الخدمة كما كان أيام الخلافة فيؤمر له بذلك. حكي عنه أن القادر أرسل إليه طِيبًا فقال: من هذا يتطيب أبو العباس؟ يعني القادر فقالوا: نعم! فقال: قولوا له عني: في الوضع الفلاني كندوج[1] فيه طيب مما كنت أستعمله، فَلْيُرْسِلْ إليَّ بعضَه ويأخذ الباقيَ لنفسه! ففعل ذلك، وأرسل إليه القادر يومًا عدسية فقال: ما هذا؟ قالوا: عدس وسَلْق! فقال: أوقَد أكل أبو العباس من هذا؟ قالوا: نعم! قال: قولوا له عني: لَمَّا أردت أن تأكل عدسية لِمَ اختفيت فما كانت العدسية تعوزك، ولم تقلدت هذا الأمر؟ فأمر حينئذ القادرُ أن تفْرِدَ له جاريةٌ من طباخاته تحضر له ما يلتمسه في كل يوم، فأقام على هذا إلى أن توفي.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائةٍ عُقِد نكاح القادر بالله على بنت بهاء الدولة على صداق مبلغه مائة ألف دينار، وماتت قبل النَّقْلَةِ إليه.

وفيها اشْتَدَّ الغلاءُ بالعراق وبيعت الكارةُ[2] الدقيق بمائتين وستين درهمًا، والكُرُّ الحنطة بستةِ آلافٍ وستمائة درهم غياثية[3].

وفي سنةِ ستٍّ وثمانين وثلاثمائة توفي العزيز بالله صاحب مصر، وولي بعده ابنُه الحاكم.

وفي سنةِ تسعٍ وثمانين انقرضتِ الدَّوْلةُ السامانية وملك التُّرك ما وراء النهر.

وفيها عمل أهل باب البصرة ببغداد يومَ السادس والعشرين من ذي الحجة زينةً عظيمةً وفرحًا كثيرًا، وعملوا في ثامن عشر المحرم مثلَ ما تعمل الشيعة في يوم

---

(١) كندوج: (فارسي معرب): صندوق أو مخزن.

(٢) الكارة: ما يجمع ويشد ويحمل على الظهر من طعام أو ثياب.

(٣) نسبة إلى غياث الأمة لقب بهاء الدولة الذي خلع عليه عام ٣٨١.

عاشوراء. وسبب ذلك أن الشيعة بالكرخ كانوا ينصبون القِباب ويعلِّقون الثياب للزينة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وهو يوم الغدير. وكانوا يعْملون ـ يومَ عاشوراء ـ المآتمَ والنَّوْح، ويُظهرون الحزنَ لمقتل الحسين، فعمل أهلُ باب البصرة مقابلَ ذلك بعد يوم الغدير بثمانيةِ أيام مثلهم وقالوا: يوم دخول النبيّ ﷺ وأبو بكر رضي الله تعالى عنه الغار! وعملوا بعد عاشوراء بثمانية أيام مثل عمل الشيعة يوم عاشوراء وقالوا: هذا يوم قتل مصعب بن الزبير رضي الله تعالى عنهما.

وفي سنة تسعين وثلاثمائة ظهر في سجستان معدن الذهب الأحمر.

ذكر البيعة لوليّ العهد

وفي شهر ربيع الأول سنةَ إحدى وتسعين وثلاثمائةٍ أمر القادر بالله بالبيعة لولَدِهِ أبي الفضل بولاية العهد، ولقّبه الغالبَ بالله. وكان سبب ذلك أن أبا عبد الله بن عثمان الواثقي من ولد الواثق بالله كان من أهل نصيبين، فَقَصد بغداد ثم سار إلى خراسان وعبر النَّهْرَ إلى هارون بن أيلك بغراخان، وصحبه الفقيه أبو الفضل التميمي وأظهر أنه رسولٌ من الخليفة إلى هارون يأمره بالْبيْعةِ لهذا الواثقيّ وأنه وليُّ عهْدِه. فأجاب بغراخان إلى ذلك وبايع له وخطب له ببلاده، فبلغ ذلك القادر فعظم عليه وأرسل إلى بغراخان في معناه فلم يُصْغِ إلى رسالته. فلما توفي هارون وولي بعده أحمد بغراخان كاتَبَه الخليفةُ في معناه، فأُمر بإبْعادِه فحينئذ بايع القادر لولده، وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم ذلك.

وأما الواثِقيُّ فإنه خرَج من عند أحمد بغراخان وقصد بغداد فعُرِف بها، فطُلِبَ منها فَهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان، ثم إلى بلاد الترك، فلم يتم له ما أراد، وأرسل الخليفةُ إلى الملوك يطلبه فضاقت عليه الأرض، فسار إلى خوارزم(١) فأقام بها ثم فارقها، فأخذه يمينُ الدولة محمود بن سَبُكْتَكِين فحبسه إلى أن مات.

وفي سنة إحدى وأربعمائة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العلوي صاحب مصر بالكوفة والموصل والأنبار والمدائن وغيرها من أعماله ثم قطعت في السنة.

(١) خوارزم: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة: ليس اسمًا للمدينة إنما هو اسم للناحية، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم الجرجانية، وأهلها يسمونها كركانج... (معجم البلدان لياقوت).

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائةٍ مات الحاكمُ صاحبُ مصر وولي بعده ابنُه الظاهر لإعزاز دين الله.

وفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة توفي علي بن هلالٍ المعروف بابنِ[١] البواب، وإليه انتهى الخطُّ، ونُقِل عنه إلى وقتنا هذا، ودفن بجوار أحمد بن حنبل، وكان يَقص بجامع بغداد، وقيل إنه مات في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ورثاه المرتضى[٢].

ذكر الفتنة بمكة

وفي سنة أربعَ عشْرةَ وأربعمائةٍ في يوم النفر الأول وكان يوم الجمعة، قام رجلٌ من أهل مصر بإحدى يديه سيف مسلول والأُخرى دبوس، بعد فراغ الإمام من الصلاة فَقَصد الحجر الأسود فضربه ثلاثَ ضربات بالدبوس وقال: إلى متى يُعْبدُ الحجرُ الأسود ومحمدٌ وعليٌّ؟ فليمنَعْني مانعٌ من هذا، فإني أُريد هدْم هذا البيت! فخاف أكثر من حضر وتراجعوا عنه وكاد يفلت، فثار به رجل فضربه بخنجر فقتله، وقَطَّعه النَّاسُ وأحرقوه، وقُتل مِمَّن اتُّهِم بمصاحبته جماعةٌ وأُحرقوا، وثارت الفتنة، وكان الظَّاهرُ من الْقَتْلى أكثر من عشرين رجلاً غير ما أُخفي منهم.

وأَلَحَّ النَّاسُ في ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالنَّهْبِ والسَّلب، فلما كان الغدماج النَّاسُ واضطربوا وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل فقالوا: نحن مائةُ رجلٍ! فَضُرِبت أعناق الأربعة. وتَقَشَّر بعضُ وجْهِ الحجر من الضربات، فأُخذ ذلك الفتاتُ وعجن بِلَك[٣] وأُعيد إلى موضعه.

وفي سنة ثماني عشرةَ وأربعمائةٍ سقط بالعراق جميعه بردٌ كِبارٌ وَزْنُ الواحدةِ رطلٌ ورطلان، وأصغره كالبيضة، فأَهْلَكَ الغَلاَّتِ ولم يصح منها إلا القليلُ، هكذا حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور؛ لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه، وإن كان أبو علي بن مقلة أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة وله بذلك فضيلة السبق وخطه أيضًا في نهاية الحسن... كانت وفاته سنة ٤١٠هـ ببغداد... (وفيات الأعيان ٣: ٣٤٢).

(٢) الشريف المرتضى: هو أبو القاسم علي بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم... كان نقيب الطالبيين وكان إمامًا في علم الكلام والأدب والشعر... وله تصانيف على مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كبير... (وفيات الأعيان ٣: ٣١٣).

(٣) اللك: صبغ أحمر تفرزه بعض الحشرات على بعض الأشجار في جزر الهند الشرقية، يذاب في الكحول فيكون منه دهان للخشب.

وفيها في آخر تشرين الثاني هبَّتْ ريحٌ باردة بالعراق جَمَدَ منها الماءُ والخَلُّ، وبطلَ دورانُ الدواليب التي على دجلة.

وفي سنةِ تسعَ عشرةَ وأربعمائةِ انقطع الحجُّ من العراق، فمضى بعض حجاج خراسان إلى كرمان وركبوا في البحر إلى جدة وحجُّوا!.

ذكر البيعة لولي العهد

كانَ القادر بالله قد جَعَلَ ولاية العهد لولده أبي الفضل كما قدمناه فمات فلما كان في سنة إحدى وعشرين أربعمائة مرض القادر وأُرجف بموته، فجلس جلوسًا عامًا وأذن للخاصة والعامة فدخلوا عليه. فلما اجتمعوا قام الصَّاحب أبو الغنائم فقال: خَدمُ مولانا أميرِ المؤمنين داعون له بالبقاء وشاكرون لما بلغهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الأمير أبي جعفر لولاية العهد! فقالِ القادر للناس: قد أذنّا لكم في العهد له! وكان أراد أن يبايع له قبل ذلك فنهاه عنه الحسن ابن حاجب النعمان، فلما عيّنه القادرُ الآن جلس على السرير الذي كان قائمًا عليه. وأُلْقِيتِ الستارة التي على القادر، فتقدم الحاضرون وخدموا وليَّ العهد وهنَّؤوه، وتقدَّم أبو الحسن ابن حاجب النعمان فَقَبَّلَ يده وهنَّأه فقال له أبو جعفر: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥] يعرض له بإفساده رأي القادرِ فيه فأكب على تقبيل قدميه وتعفير خدِّه بين يديه، فَقَبِلَ عذره. ودُعِي لأبي جعفر على المنابر يوم الجمعة لسِتٍّ بقين من جُمادى الأُولى، ومات أبو الحسن ابن حاجب النعمان في نفس السنة.

ذكر ملك الروم مدينة الرها

وفي سنةِ اثنتين وعشرين وأربعمائةِ ملَكَ الرّومُ مدينةَ الرُّها وكانت بيد نصير الدولة بن مروان صاحب ديار بكر، ملكها من صاحبها عطير في سنة ست عشرة وأربعمائة ثم مات عطير فَشَفع صالحٌ بنُ مِرداس صاحبُ حلب إلى نصير الدولة في إعادتها إلى ابن عطير وإلى ابن شبل بينهما، فقبل شفاعته وسلمها إليهما. وكان في الرُّها بُرجانِ حَصِينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير، وبقيت المدينة معهما إلى هذه السنة. فراسل ابنُ عطير أرمانوس ملك الروم وباعه حِصّنَه من الرُّها بعشرين ألف دينار وعِدَّةَ قرًى من جملتها القرية التي عرفت بسن ابن عطير، وتسلموا البرج الذي له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل. وقَتلَ الرُّومُ المسلمين، وخرَّبوا المساجد، فسمع نصير الدولة الخبر فسيَّر جيشًا

كثيفًا إلى الرها فَحصرها وفتحها عَنوةً، واعتصم مَنْ بها من الروم بالبرجيْن واحتمى النَّصارى بالبيعة التي لهم، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد، وبقي الروم بالبرجين. فسيّر إليهم ملِكهم عسكرًا نَحْو عشرةِ آلافِ مقاتلٍ، فانهزم أصحابُ ابن مروان من بين أيديهم، ودخل الروم البلد ونهبوا ما جاورهم من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثَّاب النميري على حَرّان وسَروج[١] وحملَ إليهم خراجًا.

ذكر وفاة القادر بالله
وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه رحمه اللّهُ في اليوم الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وعمره ستٌّ وثمانون سنةً وعشرةُ أشهرٍ. وكانت مدَّةُ خِلافتِه إحدى وأربعين سنةً وأربعةَ أشهرٍ إلا أيامًا. وكان حليمًا كريمًا خَيِّرًا يُحِبُّ الخَيْر وأهلَه ويأمر به، وينْهي عن الشَّرّ ويبغض أهلَه. وكان حسن الاعتقاد، وصنَّف كتابًا على مذهب السنة. وكان يخرج من داره في زِيِّ العامَّةِ ويزور قبور الصالحين كَقَبْرِ معروفِ الكرْخِيِّ[٢] وغيرِه.

قال القاضي الحسينُ بنُ هارون: كان بالكرخ مِلِكٌ ليتيم وكان له قيمةٌ جيِّدةٌ، فأرسل إلى ابن حاجب النعمان ـ وهو حاجب القادر بالله ـ يأْمرني أفُكُّ الحجْر عنه ليشتريَ بعضُ أصحابه ذلك المِلْكَ فلم أفعلْ فأرسل إلي يستدعيني فقلت لغلامه: «تقدمني حتى ألْحَقك» وخفْتُه وقصدتُ قَبْرَ معروف الكرخي فدعوت الله أن يكفيَني شَرَّه وهناك شيخ فقال: «على مَن تدعو؟» فذكرت له الْخَبر ووصلت إلى الحاجب فأغلظ لي في القول ولم يقبلْ عُذري، فأتاه خادمٌ بِرُقْعةٍ ففتحها فقرأها فتغير لونُه واعتذر إلي ثم قال: «كتبتَ إلى الخليفة رقعةً؟» قلت: «لا» وعلمت أن ذلك الشَّيْخَ كان الخليفة!

(١) سروج: بفتح أوله: هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر، وقد نسبوا إلى سروج أبا الفوارس إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم بن برية السروجي الخطيب. . . (معجم البلدان).

(٢) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، وقيل الفيروزان، وقيل علي، الكرخي، الصالح المشهور، وهو من موالي علي بن موسى الرضا. . وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي. . وكان مشهورًا بإجابة الدعوة، وأهل بغداد يستسقون بقبره. . . وتوفي سنة مائتين ببغداد وقبره مشهور بها يزار. . . (وفيات الأعيان ٥: ٢٣١).

وقيل إنه كان يقسم إفطاره كلَّ ليلةٍ ثلاثةَ أقسام؛ فقِسْمٌ يتركه بين يديْه، وقِسْمق يُرْسله إلى جامع الرصافة، وقِسْمٌ يرسله إلى جامع المدينة يُفَرِّقه على المقيمين فيهما. فاتَّفق أن الفَرَّاشَ حمل الطعام ليلةً إلى جامع المدينة ففرَّقه على الجماعة، فأخذوا إلا شابًّا فإنه رده، فلما صلَّوْا المغرب خرج الشاب وتبعه الفرَّاش فوقف على بابٍ فاسْتَطْعم فأطعموه كسيراتٍ فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش: ويْحكَ أما تستحي.. يَنْفُذُ إليك خليفةُ الله بطعام حلالٍ فتردَّه وترجع فتأخذه من الأبواب؟ فقال: والله ما رددْتُه إلا لأنك عرضْتَه عليّ قبل المغرب وكنت غير محتاجٍ إليه فلما احتجت طلبتُ! فعاد الفراش وأخبر القادر بالله فبكى وقال له: راعِ مثْلَ هذا واغتنمْ أجْره وأقم إلى وقت الإفطار.

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة وكان أبيض نقيَّ الجسم كثَّ اللحية طويلها يخضب. ودبَّر الملك في أيامه بهاءُ الدولة إلى أن مات، ثم ابنُه سلطان الدولة أبو شجاع إلى أن مات، ثم أخوه أبو علي شرف الدولة إلى أن مات، ثم أخوه أبو طاهر جلال الدولة.

وكان للقادر بالله من الأولاد أبو الفضل الغالب بالله مات في حياته، وأبو جعفر عبد الله القائم، وأبو القاسم ومات في حياته أيضًا.

وزراؤه: محمد بن أحمد الشيرازي الصاحب، وسعيد بن نصر بن علي الفيروزابادي، وسعيد بن الحسن بن برتك البصري، وعلي بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان، ثم ابنه أبو الفضل محمد بن علي.

حجابه: أبو الفتح محمد بن الحسين السعيدي، ثم أبو القاسم بكران، ثم ولده أبو منصور وغيرهم، نقش خاتمه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقيل: «حسبي الله ونعم الوكيل».

ذكر خلافة القائم بأمر الله

هو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، وقد تقدم ذكر نسبه. وأُمه أُم ولد اسمها بدر الدجى، وقيل: قطر الندى وقيل: علَم، وكانت أرمنية وقيل: رومية. وهو الخليفة السادس والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له الْبيْعةَ العامَّةَ بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من ذي الحجة في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. وصلَّى بالناس عشاءَ المغربِ في صحْنِ

السلام من دار الخلافة، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما ذكرناه، وأول من بايعه الآن الشريف أبو القاسم المرتضى، وأنشد: [من المتقارب]

فإمَّا مضى جبلٌ وانقضى ... فمنكَ لنا جبلٌ قد رسى
وإما فُجِعْنَا بِبَدرِ التَّمامِ ... فقد بقِيَتْ منه شَمْسُ الضُّحَى
فكم حزَنٌ في محلِّ السرور ... وكم ضَحكٌ في خلال البُكى
فيا صارمًا أغْمَدَتْهُ يَد ... لنا بغدك الصارمُ المنتضى[1]

وأرسل القائم بأمر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماوردي[2] إلى الملك أبي كاليجار ليأخذَ عليه البيعةَ، ويخطب له في بلاده، فأجاب وبايع، وخطب له في بلاده، وأرسل إليه هدايا جليلةً وأموالاً كثيرةً.

ذكر الحوادث في أيام القائم

في منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة توفي الظَّاهِرُ صاحبُ مصر، وولي بعده ابنه المستنصر.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة كان ابتداء الدولة السُّلجقية على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر المُعِزُّ بن باديس الدَّعْوةَ للدولة العباسيَة، وخطب ببلاده للخليفة القائم بأمر الله فَسُيِّرتْ إليه الخلع والتقليد.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة في ذي القعدة ارتفعت سحابةٌ سوداء مظلمةٌ ليلاً فزادت ظلمتها على ظلمةِ الليل، وظهر في جوانب السماء كالنار المضطرمة، وهبَّتْ ريحٌ قلعت روْشَن[3] دار الخليفة، ثم انكشف ذلك في بقية الليل.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وأربعمائة في يوم الأربعاء سابع صفر وقت العصر ظهر ببغداد كوكب غَلَب نورُه على نور الشمس له ذؤابةٌ نحو ذراعين، وسار سيرًا بطيئًا، ثم انقض والناس يشاهدونه.

---

(١) انتضى السيف: أخرجه من غمده.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، الفقيه الشافعي؛ كان من وجوه الفقهاء الشافعية ومن كبارهم، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الأسفرايني ببغداد، وكان حافظًا للمذهب وله فيه كتاب «الحاوي» وله تصانيف كثيرة غيره.. وفوّض إليه القضاء ببلدان كثيرة... (وفيات الأعيان ٣:٢٨٢).

(٣) الروشن: الشرفة.

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة زَلْزَلَتِ الأرضَ نحو رستان وأرّجان وغيرها زلازلُ كثيرةٌ كان معظمها بأرجان فَخُرِّب كثيرٌ من بلادها، وانفرج جبل كبير بالقرب من أرجان فانصدع فظهر في وسطه درجة بالآجُرِّ والجِصِّ وقد خفيت في الجبل، فعجب الناس من ذلك!

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائةٍ وصل طغرلبك السُّلجُقي إلى بغداد وخطب له بها، وانقرضت الدولة البويهية.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة تَزوَّج الخليفة القائم بأمر الله بأرسلان خاتون واسمها خديجة ابنة داود أخي السلطان طغرلبك، وقبل الخليفةُ النِّكاح لنفسه.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة في العشر الثاني من جُمادى الآخرة ظهر وقْتَ السَّحر في السماء ذؤابةٌ بيضاء طولها نحو عشرة أذرع في رأْي العين وعرْضها ذراع، وبقيت كذلك إلى نصف شهر رجب واضْمحلَّت.

وفيها أمر الخليفةُ القائمُ بأمر الله أن يُؤَذَّن بالكَرْخ والمشهد وغيرهما «الصلاة خير من النوم» وأن يتركوا «حي على خير العمل» ففعلوا ذلك.

وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة اشْتَدَّ الغلاءُ ببغداد والعراقِ حتَّى بيعت الكارة الدقيق السميذ بثلاثة عشر دينارًا والكارة الشعير والذرة بثمانية دنانير، ومقدار الكارة[١] وأكل النَّاسُ الميْتَةَ والكلاب وغيرها وكثر الوباءُ، حتى عجز الناسُ عن دفن الموتى فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة.

وفيها كَثر الوباء ببخارى[٢] حتى قيل: إنه مات في يوم واحد ثمانيةَ عشر ألف إنسانٍ من أعمال بُخارى، وهلك في هذه الولاية في مدة الوباء ألفُ ألفٍ وستمائة ألف وخمسون ألفًا، وكان بسمرقند مثل ذلك، ووُجِد ميِّتٌ وقد دخل عليه تركي يأخذ لحافًا عليه فمات التركي وطرُف اللِّحاف بيده، وبقيت أموال الناس سائبةً لا تجد من يجمعها!

---

(١) بياض في الأصل. . والكارة: خمسون رطلاً بالدمشقي.

(٢) بخارى: بالضم: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانية. . . (معجم البلدان).

ذكر أخبار أبي الحارث أرسلان البساسيري وابتداء حاله وما كان منه إلى أن تغلب على بغداد وقطع خطبةَ القائم بأمر الله وخَطَب للمستنصر العلوي صاحب مصر

كان أبو الحارث البساسيري[(١)] مملوكًا تركيًا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي، وهو منسوب إلى مدينة بساسير من بلاد فارس، كان سيده الأول منها فقيل له: البساسيري لذلك. وأما ما وَلِيَهُ من المناصب التي تَرقَّى منها إلى أن صار منه ما صار، فإنه ولِي في سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائةٍ حمايةَ الجانب الغربي ببغداد، لأن العيارين كان قد اشتد أمرهم وعظم فسادُهم وعجزَ عنهم نوابُ السلطان فاستعْمل لكفاءته ونَهْضَتِه وذلك في سلطنة جلال الدولة أبي طاهر بهاء الدولة بن بويه، فظهرت كفاءته. وتَقَلَّبتْ به الحال وصحب جلال الدولة في حروبه وأبلى بين يديه بلاءً حسنًا، فعظم شأنه وارتفع محلُّه وعلَت رتبته وتقدَّم على الجيوش، وكان بينه وبين العرب الذين خالفوا جلال الدولة وخرجوا عن طاعته وكاشفوه بالعداوة حروب كان النَّصر في أكثرها له، ثم صار يخلف الملكَ الرحيم ببغداد. واستولى على الأنبار في سنةِ إحدى وأربعين وأربعمائة وملكها من قرواش بن المقلَّد، واستولى على الدَّردار، وملكها من سعيد بن أبي الشول. ولما استولى الملك الرحيم على البصرة في سنة أربع وأربعين وأربعمائة وأخذها من أخيه أبي علي بن أبي كاليجار سلَّمها إلى البساسيري فنهض فيها وضبطها وأوقع بالأكراد والأعراب في سنةِ خمسٍ وأربعين وأربعمائة ـ وكانوا قد أفسدوا في البلاد ـ فقتل منهم خَلْقًا كثيرًا وغنم أموالهم وأجلاهم عن البلاد. ثم أتى بغداد ووقع بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله وحشةٌ عظيمةٌ في سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة لأسباب يطول شرحُها أدَّت إلى إسقاطه مشاهراتِ الخليفة ومشاهراتِ رئيس الرؤساء[(٢)] الوزير وحواشي الدار، ودام ذلك من شهر رمضان إلى ذي الحجة! ثم سار إلى الأنبار فمنعه أبو الغنائم بن المحلبان من دخولها فحاصرها

(١) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأتراك ببغداد، يقال إنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، والله أعلم... والبساسيري هذه النسبة إلى بلدة بفارس لها بسا، وبالعربية فسا، والنسبة إليها بالعربي فسوي... وأهل فارس يقولون في النسبة إليها: البساسيري، وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل... (وفيات الأعيان ١: ١٩٢).

(٢) هو علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة.

ونصب عليها المجانيق، وفتحها عنْوةً ونهبها وأسر من أهلها خمسمائةَ رجل ومائة من بني خفاجة وأُسِر أبو الغنائم. وعاد إلى بغداد وهو بين يديه على جمل وعليه قميصٌ أحمرُ وعلى رأسه برنس وهو مقيّد، وأتى إلى مقابل التّاج وقبّل الأرض وعاد إلى منزله وهو يجعل الذَّنْب كلَّه لرئيس الرؤساء وزير الخليفة ـ ويقول لست أشكو إلا منه فإنه أخرب البلاد.

وكاتب السُلْجوقية وأطمعهم في البلاد، ثم توجه البساسيري إلى واسط، فلما كان في سنة سبع وأربعين وضع رئيس الرؤساء الأتراكَ البغداديين على البساسيري وثلبه ونسب ما يقع من النقص إليه، ففعلوا ذلك وزادوا عليه حتى حضروا إلى دار الخلافة في شهر رمضان واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها فأذن لهم في ذلك، فنهبوا دُوره وأحرقوها، ووكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابَّه وجميعَ ما يملكه ببغداد. وأطلق رئيسُ الرؤساء لسانَه في البساسيري وذمَّه ونَسبه إلى مكاتبة المستنصر صاحبِ مصر، وأرسل الخليفةُ إلى الملك الرحيم يأْمره بإبعاد البساسيري فأبعده، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرلبك العراق.

ووصل السلطان طغرلبك إلى بغداد إثر هذه الحادثة وملَكها، وانقرضت الدَّوْلة البويهية، فعند ذلك أظهر البساسيري الخلافَ وجاهر بالعصيان، وانضم إليه نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيَد. والْتَقَوْا هم وقريشُ بن بدران صاحبُ الموصل وكان مع قريش قُتُلْمِش السَّلجوقي ـ وهو ابن عم طغرلبك ـ واقتتلوا فكانت الهزيمة على قريش وقُتُلْمِش، وكانت هذه الواقعة عند سنجار[1] في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة. ثم صار قريش بن بدران مع البساسيري ونور الدولة دبيس، فساروا إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر بالله العلوي صاحب مصر ـ وكانوا قد كاتبوه بطاعتهم فأرسل إليه الخِلَعَ عن مصر ـ فلما بلغ ذلك السلطان طغرلبك سار إلى الموْصل وديار بكر لإخلائها من البساسيري وغيره من المفسدين، فاستولى على الموْصل وأعمالِها وسلَّمها إلى أخيه إبراهيم ينال وعاد إلى بغداد في سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها إلى سنة خمسين وأربعمائة. ثم فارقها وتوجه نحو بلاد الجبل فعاد البساسيري إلى الموْصِل واستولى عليها وحصر قلعتها أربعة أشهر، وملَكها فهدمها وعفى أثرها، وكان السلطان قد فرق عساكره فكتب إلى أخيه إبراهيم واستدعاه، فحضر إليه إلى بلاد

(١) سنجار: بكسر أوله وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال... (معجم البلدان).

الجبل فسار السلطان جريدةً(١) في ألفي فارس إلى الموْصل فوجد البساسيري وقريش بن بدران قد فارقاها.

فسار إلى نَصيبين ليتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد، ففارقه أخوه إبراهيم يِنال إلى همذان فكاتبه البساسيري وأطمعه في السلطنة، فأظهر إبراهيمُ العصيانَ على السلطان طغرلبك فسار طغرلبك إلى همذَان في منتصف شهر رمضان سنةَ خمسين وأربعمائة، واشتغل بحرب أخيه حتى ظفر به، ثم عرض له ما شغله عن العود إلى بغداد.

ذكر استيلاء أبي الحارث البساسيري على العراق وخروج الخليفة القائم بأمر الله من بغداد والخطبة للمستنصر بالله العلوي صاحب مصر وقطع الدعوة العباسية

قال: ولما اشتغل السلطانُ طغرلبك بِحرْب أخيه قصد البساسيري بغدادَ، فلما وصل إلى هيت أمر الخليفة الناس بالعبور إلى الجانب الشرقي، وكان الأتراك كلُّهم قد التحقوا بالسلطان إلى همذَان. وكان الخليفةُ قد كتب إلى نور الدولة دُبَيْس يأمره بالوصول إلى بغداد فَورد إليها في مائةِ فارسٍ، فلما قَوِيَ الإرجافُ بوصول البساسيري أرسل دُبَيْس بن مَزْيد إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء والوزير يقول: الرأي عندي خروجُكما من البلد معي، فإنني أجتمع أنا وهزارسب بواسط على دفْع عدوِّكما. فأتاه الجواب أن يقيم حتى يقع الفكرُ في ذلك، فقال: العرب لا تطيعني على المقام، وأنا أتقدم إلى دَيالى فإذا انحدرتم سرت في خدمتكم! وسار وأقام بِدَيالى ينتظرهما فلم ير لذلك أثرًا، فسار إلى بلده.

ثم وصل البساسيري إلى بغداد في يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه أربعمائة غلام في غاية الضر والفقر، فنزل بمشرعة(٢) الروايا وكان معه قريش بن بدران وهو في مائتي فارس فنزل مشرعة باب البصرة. وركب عميدُ العراق ومعه العسكر والعوام وأقاموا بإزاء عسكر البساسيري وعادوا، وخطب البساسيري بجامع المنصور للمستنصر العلوي صاحب مصر فأُذِّنَ «حي على خير العمل» وعقَد الجِسْر وعبر عسكره إلى الزاهر واجتمعوا فيه، وخطب في الجمعة الثانية للمصري بجامع الرصافة، وجرى بين الطائفتين حروب في أثناء الأسبوع.

---

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٢) المشرعة: شريعة الماء: مورد الماء الذي يستقى منه بلا رشاء.

وكان عميدُ العراق يشير على رئيس الرؤساء وزير الخليفة بالتوقف عن المناجزة، ويرى المحاجزة ومطاولةَ الأيام انتظارًا لقدوم طغرلبك، ولِما يراه من مَيْل العوامِ للبساسيري. فاتّفق في بعض الأيام أن القاضي الهمذَاني حضر إلى رئيس الرؤساء واستأذنه في الحرب وضمِن له قَتْلَ البساسيري فأذن له من غير علم عميد الدولة، فخرج ومعه الخَدمُ والهاشميون والعجمُ والعوامُ إلى الخليفة فاستخرجهم البساسيري حتى أُبعدوا، ثم حملَ عليهم فعادوا منهزمين، وقُتِلَ جماعةٌ منهم، ومات في الزَّحْمةِ جماعةٌ، ونهب باب الأزج. وكان رئيس الرؤساءِ واقفًا دون الباب فدخل الدار وهرب كل مَنْ في الحريم، ورجع البساسيري إلى معسكره.

واستدعى الخليفةُ عميدَ العراق وأمره بالقتال على سور الحريم فلم يرُعْهُم إلا والزعقات قد علَت ونُهب الحريم، ودخلوا الباب النوبي. فركب الخليفة لابِسًا السَّواد وعلى كتفه البردة وبيده سيفٌ على رأسِه اللواء، وحوله زمرةٌ من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة، فرأى النَّهْبَ قد وصل إلى باب الفردوس من داره، فرجع إلى ورائه ومضَى نَحْو عميدِ العراق، فوجده قد استأمن إلى قريش فعاد وصعد إلى المنظرة.

وصاح رئيس الدولة «يا علم الدين» يعني قريشًا «أمير المؤمنين يسْتَدْنيك» فدنا منه فقال له رئيس الرؤساء: قد أنالَكَ اللّهُ منزلةً لم ينَلْها أمثالُك، وأمير المؤمنين يستذِم[1] منك على نَفْسِه وأهلِه وأصحابه بذِمام الله تعالى وذِمام رسوله ﷺ وذِمام العربية. قال: أذَمَّ الله تعالى! قال: ولي ولمن معه؟ قال نعم! وخلع قَلَنْسُوَته وأعطاها الخليفةَ، وأعطى رئيس الرؤساء ذِمامًا. فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وسارا معه فأرسل إليه البساسيري: أتخالف ما استقر بيننا وتَنْقُض ما تعاهدنا عليه؟ فقال قريش: لا! وكانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما وأنْ لا يستبدَّ أحدُهما دون الآخر بشيء، فاتفقا على أن يُسلِّم قريشٌ رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدُوُّه ويترك الخليفة عنده!.

ذكر مقتل رئيس الرؤساء وعميد العراق

قال: ولما أرسل قريشٌ رئيس الرؤساء إلى البساسيري قال له: مرحبًا بمُهلكِ الدول ومخرِّبِ البلاد! فقال: العفوُ عند المقدرة! فقال له البساسيري: قدرتَ فما

(١) استذم: طلب الذمام، وهو العهد والأمان.

عفوتَ وأنت صاحب طيلسان، وركبتَ الأفعالَ الشنيعةَ مع حُرَمي وأطفالي، فكيف أعفو أنا وأنا صاحب السيف؟ وأمر به فحُبس إلى آخر ذي الحجة، ثم أخرجه من محبسه مقيدًا وعليه جبة صوف وطرطور[1] من لَبَدٍ أحمر وفي رقبته ـ مُخَنَّقة جلد بعير وهو يقرأ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية. . وطِيف به محالَّ بغداد وهو على جمل ووراءه منْ يصفعه.

فلما اجتاز بِالْكَرْخ بصَقَ أهل الكرخ في وجهه لأنه كان يتعصَّبُ عليهم! وجيء به إلى البساسيري وقد نُصِبتْ له خشبة فأُنزل من على الجمل وأُلْبِس جلدَ ثورٍ قد سُلِخَ في ذلك اليوم، وجُعلت قرونهُ على رأسه وعُلِّق بكلوبيْن مِنْ حديدٍ، فلم يزَل يضطربُ إلى آخرِ النهار ومات، فقال بعض الشعراء في هذه الواقعة: [من السّريع]

أقبلتِ الرَّاياتُ مُبْيضَّةً ... يقْدمهُنَّ الأسَدُ الباسلُ

وولتِ السوداءُ منكوسةَ ... ليس لها من ذِلَّةٍ سائلُ

انظرْ إلى الباغِي على جذْعِهِ ... والدَّمُ من أوداجه سائلُ[2]

يعني رئيسَ الرؤساء، قال: ودخل البساسيريُّ داره ونَهب ما فيها وشَهر حُرَمَه وأمر بِنَقْضِ دارِه وقال عند ذلك: فواحدة بواحدة جزاءُ! قال: وكان رئيس الرؤساء حسنَ التِّلاوة جيِّد المعرفة بالنَّحْوِ.

وقَتَل البساسيريُّ عميد العراقِ وكان فيه شجاعةٌ وله فتوة، وهو الذي بنى رباط شَيْخ الشيوخ. وأما الخليفة فإن قريشًا نقله إلى معسكره راكبًا وعليه السَّوادُ والبردة وبيده السيفُ وعلى رأسه اللواءُ وأنزله في خيمةٍ، وأخذ أرسلان خاتون ابنة أخي السلطان طغرلبك فسلَّمها إلى أبي عبد الله بن جردة ليقوم بخدمتها. ونُهِبَت دارُ الخلافة وحريمُها أيامًا، ثم سلَّم قريشٌ الخليفةَ إلى ابن عمِّه مهارش بن المُجَلّى[3] وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله في هوْدج وسار به إلى حديثة عانة[4] فنزل بها، ولما وصل إلى الأنبار شكا البرد، فأنفذ إلى مقدمها يطلب منه شيئًا يلبسه فأرسل إليه جبة فيها قطن ولحافًا.

---

(١) الطرطور: القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس.

(٢) الوداج: عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة. جمع أوداج.

(٣) هو أمير العرب محيي الدين أبو الحارث مهارش بن المجلّى العقيلي صاحب الحديثة وعانة. . . (شذرات الذهب ٣:٢٨٨).

(٤) عانة: بلدة مشهورة بين الرقة وهيت وتعد من أعمال الجزيرة.

قال: وركب البساسيري يوْم عيدِ النَّحْر[١] وعبر إلى المصلّى بالجانب الشرقي وعلى رأسه الألوية المصرية، فأحسن إلى الناس وأجْرى الجِرايات على المُتَفَقِّهةِ ولم يتعصبْ لمذْهبٍ، وأقام بالعراق إلى ذي القعدة سنةَ إحدى وخمسين وأربعمائة.

واشتغل السلطان طغرلبك في هذا لمُدَّة بأمر أخيه إبراهيم حتى ظفر به وقتله، ومات أخوه داود بخراسان فاحتاج طغرلبك إلى المقام حتى قَرَّر القواعدَ بعده لإلب أرسلان ابن أخيه داود ثم عاد إلى العراق.

ذكر عود الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد وخروج البساسيري منها وقتله

قال: ولما فرغ السلطان طغرلبك من أخيه إبراهيم ينال وقتله، وقتل ابنيه معه - وكان قد خرج عليه مرارًا فعفا عنه، وإنما قتله في هذه الوَقْعة لأنه علم أن الذي جرى على الخليفة كان بسببه فلهذا لم يَعْفُ عنه - عاد إلى العراق وليس له همٌّ إلا إعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى داره. فأرسل إلى البساسيريِّ وقريشٍ في إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخلَ طغرلبك العراقَ ويقنع بالخطبة والسِّكة، فلم يُجب البساسيريُّ إلى ذلك، فرحل طغرلبك إلى العراق، فلما وصلت مقدِّمَتُهُ إلى قصر شيرين[٢] خرج حُرَم البساسيري وأولاده، ورحل أهل الكرخ بنسائهم وأولادهم في دجلة وعلى الظهر.

وكان دخولُ البساسيريِّ بغدادَ في سادس ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة، وخروجه منها في سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ووصل طغرلبك إلى بغدادَ وقد أرسل من الطريق الإمامَ أبا بكر أحمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على فِعْلِه بالخليفة وحفْظِه وصيانَتِه ابنَةَ أخيه امرأة الخليفة، ويعرفه أنه أرسل أبا بكر بن فورك لإحضارهما. ولما سمع قريش بقصد طغرلبك العراق أرسل إلى مهارش يقول له: «إنا أودعنا الخليفة عندك ثقةً بأمانتك لينكشف بلاءُ الغزِّ عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك، فارحل بأهلك إلى البرية فإنهم إذا علموا أن الخليفةَ عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونتحكم عليهم بما نريد» فقال مهارش: «إن الخليفة قد استحلفني بعهودٍ لا أخلص منها».

---

(١) عيد النحر: عيد الأضحى.

(٢) قصر شيرين: قرب قرميسين بين حلوان وهمذان. . . (معجم ياقوت).

وسار مهارش ومعه الخليفة في حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين إلى العراق فوافيا ابن فورك في الطريق، وأرسل إليه طغرلبك الخيام العظيمةَ والسرادقاتِ والخيلَ بمراكبِ الذهب وغير ذلك من التحف فلقوه.

ووصل الخليفةُ إلى النهروان في الرابع والعشرين من ذي القعدة، وخرج السلطان إلى خدمته وقبّل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة واعتذر من تأخره. فشكر له ذلك وقلّده سيفًا وقال: لم يَبْقَ مع أمير المؤمنين من دارِه سواه وقد تَبَرَّكَ أمير المؤمنين به!

قال: ولم يبقَ ببغداد من أعيانِها مَنْ يستقبل الخليفةَ غيرُ القاضي أبي عبد الله بن الدامغانيِّ وثلاثةِ نفرٍ من الشُّهود. وتقدّم السلطانُ في المسير ووصل إلى بغدادَ، وجلس إلى الباب النوبي مكانَ الحاجب، ووصل القائمُ بأمرِ اللّهِ فقام طغرلبك وأخذ بلجام بغلته حتى صار إلى حجرته. وكان وصوله يومَ الاثنين لخمسٍ بقين من ذي القعدة، وكانت السنةُ مجدبةً، ولم ير النَّاسُ فيها مطرًا فجاء المطرُ في تلك الليلة.

قال: ولما استقرَّ الخليفة القائم بأمر الله أنفذ السلطان جيشًا عليهم خمار تَكين الطُّغرائي في ألْفَيْ فارسٍ نحو الكوفة، وسار في أثرهم فلم يشعر دُبَيْس والبساسيري إلا والسَّرِيَّة قد وصلت إليهم في ثامن ذي الحجة من طريق الكوفة، فجعل أصحاب دُبَيْس بن مزْيد يرتحلون بأهليهم فيتبعهم الأتراك فيتقدم دُبيسْس ليَردَّ العربَ إلى القتال فلا يرجعون! فمضى، ووقف البساسيريُّ وقاتل فسقط عن فرسه ووقع في وجهه ضربة، ودلَّ عليه بعضُ الجرْحَى فأخذه كمشتكين، وأتى عميد الملك الكندري وزير السلطان وقتله، وحمل رأسه إلى السلطان فأمر بِحمْلِهِ إلى دار الخليفة، فطيف به على قناةٍ في نصف ذي الحجة، ومضى، ومضى نور الدولة دُبَيْس إلى البطيحة.

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة رتَّب الخليفةُ أبا تراب الأثيريّ في الأنهار وحضور المواكب ولقَّبه حاجب الحُجَّاب، واستوزر أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست، بعد أن شَرط على نفسه أن يخدم بغير إقطاع ويحمل مالاً.

وفي سنَة أربعِ وخمسين وأربعمائة عقَد السلطان طغرلبك على ابْنَةِ الخليفةِ القائم بأمر الله وحملَ مائةَ ألف دينار، ولم يقعْ مثل هذا فيما تقدّم، وامتنع الخليفة من ذلك ثم أجاب إليه.

وفي هذه السنة عُزِل ابن دارست عن الوزارة ووليها أبو نصر بن جهير.

وفيها عمَّ الرخصُ جميع الأصقاع، فبيع بالبصرة ألفُ رطلٍ من الثمر بثمانية قراريط.

وفي سنةِ خمسٍ وخمسين وأربعمائةٍ وصل السلطان بابْنةِ الخليفةِ في شهر المحرم، وسار من بغداد في شهر ربيع الأول إلى الرَّيِّ فمرض بها وتوفي لثمانٍ خلون من شهر رمضان.

وفيها ملك ألب أرسلان بعد عمِّه طغرلبك.

وفي سنة ستٍّ وخمسين وأربعمائة عادت ابنة الخليفة زوجة السلطان طغرلبك وسيّر السلطان في خدمتها الأمير إيتكين السليماني وجعله شحنةً[1] على بغداد وسأل ألب أرسلان أن يُخطَب له ببغداد واقترح أن يخاطب بالولد المؤيد فأُجيب إلى ذلك، ولُقِّب ضياءَ الدين عضُد الدولة وجلس الخليفةُ جلوسًا عامًّا وشافَهَ الرسل بتقديم ألب أرسلان في السلطنة وسيّر إليه الخلع.

وفيها في شهر ربيع الأول ظهر ببغداد والعراق وخوزستان وكثير من البلاد أن جماعة من الأكراد خرجوا يتصيدون فرأوا في البرية خِيَمًا سُودًا، وسمعوا فيها لَطْمًا شديدًا وسمعوا فيها قائلاً يقول: قد مات سيدوك ملكُ الجن وأيُّ بلدٍ لم يلطم أهله عليه ويعملون له المأتم قُلع أصله وأُهْلِك أهله! فخرج كثيرُ من النساء في البلاد إلى المقابر يلطمن ويَنُحن وينشُرْن شعورهن، وخرج رجالُ من سفلة الناس يفعلون ذلك.

قال ابن الأثير: وقد جرى في أيامنا نحن في الموْصل وما والاها إلى العراق وغيرِه أنَّ الناس في سنةِ ستمائةٍ أصابهم وَجَعٌ كثير في حُلوقهم ومات منه كثيرٌ من الناس فظهر أن امرأة من الجن يقال لها أُم عنقود مات ابنها عنقود وأنَّ كلَّ من لا يعْمل له مأْتمًا أصابه هذا المرض! فكثر فعل ذلك، وكانوا يقولون:

يـــا أُمَّ عـــنـــقـــودِ اعـــذريـــنـــا قـــد مـــات عـــنـــقـــود ومـــا دريـــنـــا

وكان النساءُ يلطمن وكذلك الأوباش!

وفي سنةِ سبعٍ وخمسين وأربعمائة ابتُدِىء بعمارة المدرسة النظامية ببغداد، وكمُلت عمارتُها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة.

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في العشر الأوسط من جُمادى ظهر كوكبٌ كبير له ذؤابةٌ طويلة ممتدة إلى وسط السماء عرضها نحو ثلاثة أذرع في رأْي العيْن وهو بناحية المشرق، وبقي إلى السابع والعشرين من الشهر وغاب.

(١) المراد بالشحنة: رئاسة الشرطة.

وفيها في جُمادى الآخرة كان بخراسان والجبال زلزلة عظيمة بقِيتْ تتردد أيامًا تَصدَّعتْ منها الجبال وأهلكت خلقًا كثيرًا، وانخسفت منها عدة قرى، وخرج النَّاسُ إلى الصحراء.

وفيها وُلِدَتْ صَبِيَّةٌ بباب الأزج لها رأسان ورقبتان ووجهان وأربعُ أيدٍ على بدن واحد.

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة في ذي القعدة قُتِل الصُّلَيْحي صاحب اليمن وخُطِب بها للدولة العباسية.

وفي سنة ستين وأربعمائة كانت زلزلةٌ عظيمة بمصر وفلسطين خربت الرملة[1]، وطلع الماءُ من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسةٌ وعشرون ألف نسمة، وانشقت صخرة البيت المقدس ثم عادت بإذن الله تعالى، وانحسر البحر عن الساحل مسيرةَ يوم فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقًا كثيرًا.

وفيها عزل فخر الدولة بن جهير عن الوزارة ثم أُعيد في سنة إحدى وستين بشفاعة نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد فمدحه أبو الفضل فقال:

قد رَجَعَ الحقُّ إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلاَّ السيفَ سَلَّته يَدٌ ثم أعادته إلى قِرابه

وهي قصيدة طويلة.

وفيها في شعبان احترق جامع دمشق، وكان سبب ذلك أنه وقع بين المغاربة والمشارقة حربٌ فأحرقوا دارًا مجاورة للجامع فاتصل الحريق بالجامع، فَدُثِرَت محاسِنهُ وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة.

وفي سنةِ اثنتين وستين وَرَدَ رسولُ صاحب مكة محمد بن أبي هاشم بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان بمكةَ وإسقاط خطبة صاحب مصر وترك الأذان بـ«حي على خير العمل» فأعطاه السلطان ثلاثين ألفَ دينار وخِلَعًا نفيسةً وأجرى له في كلِّ سنة عشرةَ آلافِ دينار. وخطب محمود بن صالح بن مرداس صاحب حلب لهما أيضًا في سنة ثلاثٍ وستين على ما نشرحه في أخبار الدولة السُّلجقية فقال أبو عبد الله بن عطية يمدح الخليفة:

كم طائعٍ لك لم تَجلِبْ عليه ولَمْ تَعرِفْ لطاعَتِهِ غَيْرَ التُّقَى سَبَبا
هذا البَشيرُ بإذعان الحجاز وذا داعِي دمشقَ وذا المبعوثُ من حلَبا

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن، وكانت رباطًا للمسلمين.. والرملة أيضًا: قرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين. والرملة: محلة بسرخس... ورملة بني وبر: في أرض نجد... (معجم ياقوت).

وفيها خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف إلى خِلاط[1] وأُسِر على ما نذكره ـ إن شاء الله ـ في أيام ألب أرسلان.

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة عُزل إيتكين السليماني من شحنكية بغداد واستعمل عليها سعد الدولة كوهر آيين، وكان سبب عزل السليماني أنه كان قد سار إلى السلطان ألب أرسلان واستخلف ابنَه شحنةَ بغدادَ فقتل أحدَ مماليك الدارية فأنفذ قميصَه من الديوان إلى السلطان ووقع الخطاب في عَزْله، فورد إلى بغداد في ربيع الأول من هذه السنة وقصد دار الخلافة وسأل الْعَفْو عنه وأقام أيامًا فلم يُجَبْ إلى ذلك، وكان نظام الملك يعتني بالسليماني فأضاف إلى إقطاعه تكريت، فكوتب واليها من ديوان الخلافة بالتوقُّف عن تسليمها. فلما رأى السلطانُ ونظامُ الملك إصرارَ الخليفة على الْغَضَبِ على السليماني عزلاه، وَسَيَّرا سعدَ الدولة إليها، فتلقاه الناس وجلس له الخليفة.

وفي سنةِ خمسٍ وستين وأربعمائة قُتِلَ السلطان ألب أرسلان وملك بعده ابنُه السلطان ملكشاه. وفيها أُقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس قدّسه الله. . .

ذكر غرق بغداد

وفي سنة سِتٍّ وستين وأربعمائةٍ غرق الجانب الشرقي وبعضُ الغربي من بغداد، وسببُ ذلك أن دجلة زادتْ زيادةً عظيمة وطفح الماءُ من البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى المنازل ونبع من البلاليع[2] والآبار بالجانب الشرقي، وهلك خلقٌ كثير تحت الهدم، وشدت الزواريق تحت التاج خَوْف الغَرَق. وقام الخليفة يتضرّع ويصلّي وعليه البردة وبيده القضيب، وغرق من الجانب الغربي مقبرةُ أحمد بن حنبل ومشهدُ باب التنين وتهدَّم سورُه، ودخل الماءُ من شبابيك البيمارستان العضُدِيّ.

ذكر وفاة القائم بأمر الله
وشيء من سيرته

كانت وفاته في ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنةَ سبع وستين وأربعمائة، وكان سببُ وفاته أنه كان قد أصابه مأْشر فافتصد[3] ونام، فانتفخ فصادُه وخرج منه دمٌ

---

(١) خلاط: بكسر أوله، وآخره طاء مهملة: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة. . . (معجم البلدان).

(٢) البلاليع: جمع البالوعة: وهي ثقب يعد لتصريف الماء.

(٣) الفصد: شق العرق. وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمه فيشربه.

كثير ولم يشعر، فاستيقظ وقد ضَعُفَ وسقطت قوَّته. فأيقن بالموت وأحضر وليَّ عَهْدِه ووصّاه وأحضر نقيبَ العباسيين ونقيب الطالبيين وقاضيَ القُضاة وغيرَهم مع الوزير ابن جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم وليَّ عهده.

ولما تُوفِيَ غسله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، وصلَّى عليه المقتدي بأمر الله. ومات وله من العمر سِتٌّ وسبعون سنةً وثلاثةُ أشهر وخمسةُ أيام، ومدةُ خلافته أربعٌ وأربعون سنةً وثمانية أشهر إلا أيامًا. وقيل كان مولدهُ في ثامن عشر ذي القعدة سنةَ إحدى وتسعين وثلاثمائة فعلى هذا يكون عمره ستًّا وسبعين سنةً وتسعةَ أشهرٍ وخمسةَ أيام.

وكان جميلاً أبيضَ مشربًا بحمرةٍ، حسنَ الوجه والجسم، ورِعًا ديِّنًا زاهِدًا عالمًا قوي اليقين بالله تعالى، وله عنايةٌ بالأدب ومعرفةٌ حسنةٌ بالكتابة، ولم يكن يرضى عن أكثر ما يكتب من الديوان ويُصلح أشياء منه. وكان مؤثرًا للعدل والإحسان؛ مريدًا لقضاء حوائج الناس؛ لا يرى أن يمنع ما يطلب منه، حُكِي عن محمد بنِ علي بن عامر الوكيل قال: «دخلتُ يومًا إلى المخزن فلم يَبْقَ أحدٌ إلا وأعطاني قصةً فامتلأت أكمامي فقلت في نفسي لو كان الخليفة أخي لأعرض عن هذه كلِّها فألقيتها في البِرْكة والقائمُ ينظر ولا أشعر، فلما دخلت عليه أمر الخدم بإخراج الرِّقاع من البِركة فأُخرجت ووقف عليها، ووقَّع بأغراض أصحابِها ثم قال لي: يا عامي ما حَمَلك على هذا؟ فقلت: خوف الضجر منها! فقال: لا تعود إلى مثلها فإنا ما أعطيناهم من أموالنا شيئًا.

ومما يُحْكَى من جُمْلَةِ كَرمه أن أحدَ السلاطين في أيَّامه سأله أن يَتَقَدَّمَ باعتقال وزرائه وذكر أنهم استَوْلَوْا على أموالِه فخرج توقيعه «ليست دارنا دارَ حَبْسٍ وسجنٍ بل هي دار طمأنينة وأمن» وكان له شعر رائق فمنه قوله: [من الكامل]

قالوا: الرحيل، فأنشبَتْ أظفارَها ... في خدِّها وقد اعتلقن خِضابا
واخْضَرَّ تحت بَنانِها فكأنما ... غَرَسَت بأرضِ بَنَفْسجٍ عِنَّابا[1]

وفي أيامه أسْلَم من كفار الأتراك ألف خركاه وضَحَّوْا بثلاثين ألفَ رأسٍ من الغنم وقيل: أكثر من ذلك.

(١) العنّاب: شجر شائك من الفصيلة السدرية، يبلغ ارتفاعه ستة أمتار، ويطلق العناب على ثمره أيضًا، وهو أحمر حلو لذيذ الطعم على شكل ثمرة النبق.

ولم يخلف ولدًا لأن ابنَه ذخيرةَ الدين تُوفي في ذي القعدة سنة سبع وأربعين وعمره خمسَ عشرةَ سنةً.

وزراؤه وكتّابه: كتب له عميد الرؤساء أبو طالب محمد بن أيوب، ثم رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن بن مسلمة ـ وزر له ولقَّبه بهذا اللقب وبجمال الورى ـ ووَزَرَ له بعده أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، ثم فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جُهير. قضاته: قاضي القضاة أبو عبد الله الحسن بن علي بن ماكولا البصري إلى أن مات، فَوَلَّى أبا عبد الله محمد بن علي الدامغاني شيخ أصحاب أبي حنيفة. حُجَّابه: أبو منصور بن بكران ثم أبو عبد الله الحسن بن علي المردوسي.

ذكر خلافة المقتدي بأمر الله

هو أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس أحمد بن القائم بأمر الله، وأُمُّه أُمُّ ولدٍ اسمُها أرجوان وقيل شراب، وتدْعى قرة العين. وهو الخليفة السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له بعد وفاةِ جدِّه القائم بأمر الله في يوم وفاته وهو يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة. وكان القائم جَدُّه قد عهد له كما ذكرنا، فلما مات القائمُ حضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابنُه عميد الدولة والشيخ أبو إسحاق وأبو نصر الصباغ ونقيبُ النقباء طرّاد والنقيب المعمر بن محمد وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني وغيرُهم من الأعيان والأتابكة فبايعوه، وكان أولَ من بايعه الشريفُ أبو جعفر محمد بن أبي موسى الهاشمي بعد فراغه من غسل القائم وأنشد: [من الطويل]

* إذا سَيِّدٌ منا مَضَى قام سَيِّدٌ *
* وأُرْتج عليه فقال المقتدي: *
* قؤول بما قال الكرام فعول *

ولما فرغوا من البيعة صلَّى المقتدي بأمر الله بهم العصر.

ذكر الحوادث في أيام المقتدي

في ذي القعدة ملك الأقسيس دمشق وخطب بها للمقتدي بأمر الله، وكان آخر مَنْ خَطَب بها للمصريين.

وفيها ملَكَ نصر بن محمود بن مرداس مدينة منبج[١] من الروم.

وفيها قدم سعد الدولة بن كوهر آيين شحنةً إلى بغداد من قِبَل السلطان ملكشاه ومعه العميد أبو نصر ناظرًا على أعمال بغداد.

وفي سنةِ تسعٍ وستين وأربعمائة قدِم أبو نصر ابن الأُستاذ أبي القاسم القُشَيْريّ حاجًّا، وجلس في المدرسة النظامية يَعِظ النَّاسَ، وفي رباط شيخ الشيوخ، وجَرَى له مع الحنابلة فتنٌ لأنه كلَّم على مذهب الأشعري ونَصَرَه. وكثُر أتباعُهُ والمتعصبون له، فثار الحنابلةُ ومن تَبِعَهُم من سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعةً من المتعصبين للقشيري كالشيخ أبي إسحاق وشيخ الشيوخ وغيرِهما من الأعيان، فَجَرَى بين الطائفتين أُمورٌ عظيمة. فنسب أصحاب نظام الملك ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جُهير وكتب أبو الحسين محمد[٢] بن علي بن أبي القصر الواسطي الفقيه الشافعي إلى نظام الملك: [من مجزوء الرّمل]

* يا نظامَ المُلْكِ قد حلَّ ببغداد النِّظامُ *
* وابنُك القاطنُ فيها مستلانٌ مستضامُ *
* وبها أوْدَى له قتلى غلامٌ فغلامُ *
* والذي منهم تَبَقَّى سالمًا فيه سهامُ *
* يا قوامَ الدِّين لم يَبْقَ ببغدادَ قوامُ *
* عظُم الخطْبُ فَلِلْحَرْبِ اتِّصالٌ ودوامُ *
* فمتى لم يُحْسَمِ الدَّاء بأيديك الحسامُ *
* ويكفّ القوم في بغداد قتلٌ وانتقامُ *
* فَعَلى مدرسةٍ فيها وَمَنْ فيها السلامُ *
* واعتصام بحريمٍ لك من بعْدُ حرامُ *

---

(١) منبج: بالفتح ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، وجيم: هي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. . . (معجم ياقوت).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن عمر الواسطي، (أبو الحسن) فقيه، أديب، شاعر، حسن الخط. تفقه في بغداد على أبي إسحاق الشيرازي، وسمع من أبي بكر الخطيب وغيره، وروى عنه أبو منصور موهوب الجواليقي وغيره. من آثاره ديوان شعر. كانت وفاته سنة ٤٦٨هـ. . . (معجم الأدباء لياقوت ١٨ : ٢٥٧).

فلما اتَّصَل ذلك بنظام الملك عَظُمَ عليه فأعاد سعد الدولة كوهر آيين شحنةً إلى العراق في سنة إحدى وسبعين، وحمله رسالةً إلى الخليفة تتضمّن الشكْوَى من بني جُهير ويسأل عَزْلَ فخر الدولة عن الوزارة، فلما وصل إلى بغداد وأبلغ الخليفة الرسالة أمر فخر الدولة بلزوم داره واستوزر بعده أبا شجاعٍ محمد بن الحُسين! قال: ولما بلغ ابن جهير تغيُّرَ نظامِ الملك عليه أرسل ابنَه عميدَ الدولة إليه يستعطفه، فسار إليه قبل وصول كوهر آيين إلى بغداد، ولم يزل يستعطِفه حتى عاد إلى ما ألفَه منه وزوّجه بابنته. فعاد إلى بغداد فلم يرُدّ الخليفةُ أباه إلى الوزارة وأمرهما بملازمة منازلهما فأرسل نظام الملك إلى الخليفة في إعادة بني جهير إلى الوزارة فأعيد عميدُ الدولة إليها وأُذن لأبيه فخر الدولة بفتح بابه، وذلك في صفر سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان دمشق على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة السُّلجقية.

وفي سنةِ أربع وسبعين وأربعمائة في شوال توفي نور الدولة أبو الأغرّ دُبَيْس بن علي بن مَزْيد الأسدي، وولي بعده أبو كامل منصور ولقّب بهاء الدولة.

وفيها أرسل الخليفة فخر الدولة إلى السلطان ملكشاه بأصبهان يخطب ابْنَتَه للخليفةِ فسار إليه وخطبها، فتقررت القاعدة على أن يكون الحِمْلُ المعجل خمسين ألف دينارٍ وأن لا يبقي الخليفة سرّ ولا زوجة غيرها فأجيب إلى ذلك.

ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة

وفي سنةِ خمسٍ وسبعين كانت الفتنةُ بين الطائفيين، وسببها أنه ورَدَ إلى بغدادَ الشريف أبو القاسم البكري المقرىء الواعظ وكان أشعريَّ المذهب، وكان قد قصد نظام الملك فأحبَّه ومال إليه وسيّره إلى بغداد، وأجرى عليه الجراية الوافرة. وكان يعِظ بالمدرسة النظامية، ويذكر الحنابلة ويعيبهم ويقول ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا ثم قصد يومًا دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني فَجَرَى بينه وبين قومٍ من الحنابلة مشاجرة أدّتْ إلى الفتنة. وكثر جمْعُه فكبس دور بني الفَرّاء وأخذ كتُبَهم ومنها كتاب الصفات لأبي يعلى فكان يقرأُه بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، وشنّع عليهم وجرى له معهم خصومات وفتن. ولقّب البكريُّ من الديوان بِعَلَم السُّنَّةِ، ومات ببغداد ودفن عند قبر أبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى.

ذكر مسير الشيخ أبي إسحاق برسالة الخليفة إلى السلطان ملكشاه

وفي ذي الحجة سنةَ خمسٍ وسبعين وأربعمائةٍ أرسل الخليفة المقتدي الشيخَ أبا إسحاق الشيرازي برسالةٍ إلى السلطان تتضمن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث عميد العراق، وأمره أن يُنْهِيَ إليه وإلى نظام الملك ما يجري على أهل البلاد من النُّظَّارِ. فسار الشَّيْخُ، فكان الشَّيْخُ كلما وصل إلى مدينةٍ من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادِهم يتمسحون بِركابه ويأخذون من تراب بغلته للتبرُّك. وكان في صُحبته جماعةٌ من أعيان أصحابهِ فلما وصل إلى ساوة[١] خرج إليه جميع أهلها وسأله كلٌّ من فقهائها أن يدخلَ بيتَه فلم يفعل. ولقِيَهُ أربابُ الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته، فخرج الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهاهم فلم ينتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة والحلوى وغيرهم، وخرج إليه الأساكفة وقد عملوا مداساتٍ لطافًا تصلح لأرجُلِ الأطفال ونثروها فكانت تسقط على رؤوس النَّاسِ فكان الشيخ يتعجب ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه ويقول: ما كان حظكم من ذلك النثار؟ فقال بعضهم: ما كان حظ سيدنا منه! فقال الشيخ: أما أنا فتغطيت بالمحفة! يقول ذلك وهو يضحك.

قال: ولما وصل الشَّيخ إلى السلطان وإلى نظام الملك أكرماه، وأُجيب إلى جميع ما التمسه من الخليفة. ولما عاد أهين عميد العراق، ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة.

وفيها قدم مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من أصفهان ونزل بالمدرسة النظامية، وضرب على بابه الطبول في أوقات الصلوات الخمس، فأُعْطِيَ مالاً جزيلاً حتى قَطَع ذلك، فأرسل الطبول إلى تكريت والله تعالى أعلم.

ذكر عزل عميد الدولة عن الوزارة ومسير ولده إلى ديار بكر

وفي سنَةِ سِتٍّ وسبعين وأربعمائة في صفر عزل عميد الدولة فخر الدولة بن جهير عن الوزارة، ووصل في يوم عزله له رسول من السلطان ومن نظام الملك إلى

---

(١) ساوه: بعد الألف واو مفتوحة بعدها هاء ساكنة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخًا، وبقربها مدينة يقال لها آوه، فساوه سنية شافعية وآوه أهلها شيعة إمامية. . . (معجم البلدان لياقوت).

الخليفة يطلبان معه أن يرسل إليهما بني جهير فأذن لهم. فساروا بجميع أهلهم ونسائهم، فصادفوا من السلطان ومن نظام الملك الإكرام والاحترام، وعقد السلطان لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوسات[١] وسيّر معه العساكر وأمره أن يأخذهَا من بني مروان، وأن يخطب لنفسه ويذكر اسمه على السِّكَّة، فسار إليها.

قال: ولما فارق بنو جُهير بغدادَ رتَّب الديوان أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرؤساء، ثم عزله في السنة وولّى أبا شجاع محمد بن الحسين وخلع عليه خلع الوزراء.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة استولى عميد الدولة على الموصل.

وفيها فتح سليمان بن قُتُلمِش السُّلجقي صاحب الروم أنطاكية وكانت بيد الروم من سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة.

وفي شهر صفرٍ انْقَضَّ كوكبٌ من الشرق إلى الغرب كان حجمه وضَوْؤه كالقمر، وساد مدًى بعيدًا على مَهَلٍ في نحو ساعة.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائةٍ استولى الفَرَنْجُ على مدينة طُلَيْطلَة[٢] وأخذوها من المسلمين على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار الأندلس.

وفيها في شهر ربيع الأول هاجتْ رِيحٌ عظيمةٌ سوداء بعد العشاء، وكثُر الرَّعْدُ والبرق وسقط على الأرض رملٌ أحمرُ وترابٌ كثير، وكانت النيران تضطرم في أطراف السماء، وكان أكثر ذلك بالعراق والمَوْصل، فألقتِ النخلَ، وسقط معها صواعق في كثير من البلاد ثم انجلى ذلك نصف الليل.

وفيها في شهر ربيع الأول توفي أبو المعالي عبد الملك[٣] بن عبد الله بن يوسف الجويني إمام الحرمين، ومولده سنة سبع عشرة وأربعمائة.

---

(١) الكوسات: أي الطبول (فارسية معربة).

(٢) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس... وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم... (معجم البلدان).

(٣) هو إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الفقيه الشافعي ضياء الدين أحد الأئمة الأعلام، قال ابن الأهدل: تفقه على والده في صباه واشتغل به مدته فلما توفي والده أتى على جميع مصنفاته ونقلها ظهرًا لبطن وتصرف يها وخرج المسائل بعضها على بعض ولم يرض بتقليد والده من كل وجه حتى أخذ في تحقيق المذهب والخلاف وسلك طريق المباحثة والمناظرة وجمع الطرق بالمطالعة... (شذرات الذهب ٣:٣٥٩).

وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب واللاذقية وكفرطاب وأفامية.

وفيها في شهر ربيع الأول توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دُبيْس بن علي بن مزيد الأسدي صاحب الحلة والنيل وولّي ابنُه سيف الدولة صدقة.

وفيها أُسْقِطَ اسم العلويّ صاحب مصر من الحرمَيْن الشريفين وذُكر اسمُ الخليفة المقتدي بأمر الله.

وفيها أُسقطت المكوس من العراق.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة في المحرم زُفَّتْ ابنةُ السلطان ملكشاه إلى الخليفة، ونُقل جهازُها على مائةٍ وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة، وثلاث عماريات، وعلى أربعةٍ وسبعين بغلاً مجلَّلة بأنواع الديباج الملكي وأجراسُها وقلائِدُها من الذهب، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقًا من فضةٍ فيها من الجواهر والحلي ما لا تُقَدَّر قيمتُه، وأمام البغال ثلاث وثلاثون فرسًا من الخيول السَّوابق عليه مراكبُ الذهب. وسار أمام الجِهاز سعدُ الدولة والأمير برسق وغيرُهما، وكانت ليلة مشهورة، فلما كان من الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لِسِماطٍ[1] أمر بعمله حُكِيَ أنه عُملَ فيه أربعون ألف مَنٍّ[2] من السكر. وخلع الخلفية على جميع أُمراء السلطان ومن له ذِكْرٌ في العسكر، وأرسل الخلع إلى جميع الخواتين. وولدت في هذه السنة من الخليفة ولدًا وهو أبو الفضل جعفر.

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع الآخر أمر الخليفةُ بإخراج الأتراك الذين مع الخاتون زوجته من حريم دار الخلافة، وكان سبب ذلك أن تركيًا منهم اشترى فاكهة من طواف فتكالما فشتمه الطوافُ فضربه التركي فَشَجَّه، فاجتمعت العامَّةُ وشنَّعوا واستغاثوا، فأمر الخليفة بإخراج الأتراك فأُخْرِجوا على أقبح صورة.

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة يطلب ابنتَه طلبًا لا بُدَّ منه، وسبب ذلك أنها كانت قد أرسلت إليه تشكو من اطراح الخليفةِ لها

(١) السماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.

(٢) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن، وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان، والرطل عندهم اثنتا عشرة أوقية بأواقيهم.

وإعراضِه عنها فأذن لها في المسير، فسارت في شهر ربيع الأول ومعها ابنُها من الخليفة فوصلت إلى أصفهان فأقامت إلى ذي القعدة وتوفيت.

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع الأول عُزل الوزير أبو شجاع، وكان عزله في يوم الخميس فقال: [من الوافر]

تولاها وليس له عَدُوٌّ وفارقَها وليس له صديق

فلما كان من الغد يومَ الجمعة خَرَج من دارِهِ إلى الجامع ماشيًا فاجتمع عليه خلق كثير، فأُمر أن لا يخرج من بيته، واستنيب في الوزارة أبو سعد بن موصلايا كاتب الإنشاء وأرسل الخليفةُ إلى السلطان يستدعي منه عميد الدولة بن جُهير يستوزره، فَسُيِّر إليه فاستوزره في ذي الحجة من السنة.

وفيها ملك الفرنج جزيرةَ صِقِلية.

وفيها في تاسع شعبان كان بالشام وكثيرٍ من البلاد زلازلُ، ففارق النَّاسُ مساكِنَهم وانهدم بأنطاكية كثير من المساكن والدور، وهلك تحتها خلق كثير، وخُرِّب من بروجها تسعون برجًا.

وفي سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة قُتِل نظام الملك في عاشر شهر رمضان.

وفيها توفي السلطان ملكشاه وملك بَعْده ابنُه محمود.

وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة خطب للسلطان بركيارق بن ملكشاه ببغداد في يوم الجمعة رابع المحرم.

ذكر وفاة المقتدي بأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في يوم السبت خامس عشر المحرم سنةَ سبع وثمانين وأربعمائة فجأة، وكان قد أُحْضِر إليه تَقْلِيدُ السلطان بركيارق ليعلِّم عليه فقرأه ثم قُدِّم إليه الطعام فأكل منه وغسل يديه وعنده قهرمانتُه شمسُ النهار فقال لها: ما هذه الأشخاص التي قد دخلت علي بغير إذن؟ قالت: فالتفتُّ فلم أرَ شيئًا فرأيته قد تغيَّرت حالتُه واستَرْخَت يداه ورجلاه وانحلَّت قُوَّتُهُ فسقط إلى الأرض، فَظَنَنْتُها غشيةً لحِقته، فحللت أزرار ثوبه فوجدتُهُ قد ظهرت عليه أمارات الموت، فتماسكتُ وقلت لجارية عندي: ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء! وأحضرت الوزيرَ وأعلمته الحالَ فشرعوا في الْبَيْعَةِ لولي العهد، وجَهَّزوا المقتدي وصلَّى عليه ابنه المستظهر بالله ودُفن.

وكان عمره ثمانيًا وثلاثين سنة وثمانية أشْهُرٍ وسبعة أيام، وخلافَتُهُ تسعَ عشرةَ سنةً وخمسةَ أشْهُرٍ ويومين، وكان عظيمَ الهمة شديد العزمة، ولم يكن له أعوان على ذلك تذبُّ عنه بل كانت له دعوة مجابة، وكانت أيامه كثيرةَ الخير واسعةَ الرزق. وعظُمَتِ الخلافةُ فيها أكثرَ ممن كان قبله، وعُمِّر ببغدادَ عدة محال في خلافته منها البصلية والقطيعية والحلبية والمعيدية والأجمة ودرب القبار وخزانة الهراس والخاتونتين.

قال: وأمر بِنَفْي المغنّيات والمفسدات من بغداد، وأمر ببيع دورهن ومنع دخول الحمّام إلا بمئزر، وقلع الهرادى والأبراج التي للطيور، ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس، ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه، ومنع الملاحين من حَمْلِ النساء والرجال مجتمعين.

ووزر له: من ذكرناهم. قضاته: أبو عبد الله الدامغاني إلى أن مات، ثم أبو بكر محمد بن المظفر الشامي الشافعي. حجابه: أبو عبد الله بن دوشتي ثم أبو منصور بن محمد محمد.

ذكر خلافة المستظهر بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العبَّاس أحمد بن القائم بأمر الله، وهو الخليفة الثامن والعشرون من الخلفاء العباسيين. قال: ولما مات المقتدي بأمر الله أُحْضِر ولدهُ المستظهر بالله وأُعْلِمَ بموته فبايعه الوزيرُ، وركب إلى السلطان بركيارق فأعلمه الحال، وأَخَذَ بَيْعَتَه للمستظهر بالله. فلما كان في اليوم الثالث من وفاة المقتدي أظهر موته، وحَضَر عِزُّ المُلْكِ بن نظام الملك وزير بركيارق، وأمر السلطان جميعَ أربابِ المناصب بالجُلوس للعزاءِ والبيعةِ للمستظهر بالله. فبويع له البيعةَ العامةَ في السادس عشر من المحرم سنةَ سبعٍ وثمانين وأربعمائة، وله من العمر ستة عشر سنة وشهران.

ذكر الحوادث في أيام المستظهر بالله

في سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة كان بين الملوك السلاجقة وبين بعضِهم حروب كثيرة نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفيها شَرَع الخليفة في عمل سورٍ على الحريم، وأمر الوزير عميد الملك بالجِدِّ في عمارته.

وفيها في شهر ربيع الأول خُطِب لولي الْعَهدِ أبي الفضل منصور بن المستظهر بالله.

وفي سنةِ تسعٍ وثمانين وأربعمائةٍ اجتمع سِتَّةُ كواكب في برج الحوت، وهي الشمس والقمر والمشتري والزهرة والمريخ وعطارد فحكم المنجمون بطُوفانٍ يكون في الناس، وأحضر الخليفة ابنَ عسون المنجم فسأله فقال: إن في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت والآن فقد اجتمع منها فيه ستة وليس فيها زحل، فلو كان فيها لكان مثلَ طوفان نوح، ولكن أقول إنَّ مدينة أو بقعة من الأرض يجتمع فيها عالَم كثير من بلادٍ كثيرة فيغرقون، فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها! فأُحكمت المواضعُ التي يُخْشَى منها الانفجار والغَرق. واتَّفق أنَّ الحجاج نزلوا في المناقب[1] فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم، ونجا من تعلَّق بالجبال، وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك، فخلع الخليفة على المنجّم!

وفي سنة تسعين وأربعمائة كان ابتداء الدولة الخوارزمية وفيها خطب الملكُ رضوان بولايته بالشام للمستعلي صاحب مصر، ثم رجع عن ذلك وأعاد الخطبة للدولة العباسية.

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة كان ابتداء استيلاء الفَرنج على بلاد السواحل الشامية، وملكوا مدينة أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس، وغيرَ ذلك على ما نذكره في أخبار العلويين ملوك مصر، فإن أكثر ذلك كان في ولايتهم.

وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قُتِل أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور - وكان خطيبها - فاتهم العامة أبا البركات الثعلبي أنه هو الذي سعى في قتله، فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه.

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة في شهر رمضان عُزِل عميد الدولة من وزارة الخلافة وأُخِذَ من ماله خمسةُ وعشرون ألفَ دينارٍ، وتوفي في سادس عشر شوال.

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وقتلوا كثيرًا من أهلها، ونهبوا أموالهم وسبوْا حريمَهم، ولم يسلمْ إلا من انهزم، وملكوا مدينة حيفا وهي بقرب عكا، وملكوا أرسوف[2] بالأمان وأخرجوا منها أهلها، وملكوا قَيْسارية بالسَّيْفِ وقتلوا أهلها.

---

(١) المناقب: قالوا: وسمي بذلك لأن فيه ثنايا وطرقًا إلى اليمن وإلى اليمامة وإلى أعالي نجد وإلى الطائف... (معجم البلدان).

(٢) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، كان بها خلق من المرابطين.

وفيها تقدّم أمر الخليفة المستظهرِ بالله بِفَتْح جامع القصر وأنْ يُصَلَّى فيه التراويح ولم تَجْرِ بذلك عادةٌ، وأمر الخليفة بالْجهْرِ بالبسملة وبالقنوات على مذهب الإمام الشافعي.

وفي سنةٍ خمسٍ وتسعين وأربعمائة في شهر رمضان استوزر الخليفة سديد الملك أبا المعالي بن عبد الرزاق ولقبه عَضُدَ الدولة.

وفيها بنى سَيْفُ الدَّوْلة صدقة بن مَزْيد الحلَّةَ بالجامعين وسكنها وإنما كان يسكن هو وآباؤه في البيوت العربية.

وفي سنة ستٍّ وتسعين وأربعمائة في منتصف شهر رجب قُبض على الوزير سديد الملك وحُبس بدار الخليفة، وأُعيد أمينُ الدولة أبو سعيد بن موصلايا إلى الوزارة، ثم استَوْزَرَ في شعبان زعيمَ الرؤساء أبا القاسم بن جُهير واستقدمه من الحلة، وكان عند سيفِ الدولةِ صدقة، ولما حضَرَ خلع عليه وجلس في الديوان ولُقِّب قوام الدين.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج جبيل[١] وعكا.

وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة توفي السلطان بَرْكِيارقُ بأصفهانَ وخُطِب لابنه ملكشاه بالجوامع ببغداد.

وفي سنة خمسمائةٍ في صفر عُزِل الوزير أبو القاسم بن جُهير فَقَصَدَ دار سيفِ الدولة صدقة ببغدادَ ملتجئًا إليها فأرسلَ من أخذه وحمله إليه، فأمر الخليفة بِنَقْضِ داره، وكان في ذلك عبرة لمن يعتبر، فإن أباه أبا نصرٍ كان قد بناها بأنقاضِ دورِ الناس فخُرِبَتْ عن قريب، ولما عزل استنيب في الوزارة قاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني، ثم تقررتِ الوزارة في المحرم سنة إحدى وخمسمائة لأبي المعالي هبةِ الله بن محمد عبد المطلب وخلع عليه.

وفي سنة إحدى وخمسمائة في شهر رجب قُتِل الأميرُ سيفُ الدولة صدقةُ[٢] بنُ منصور بن دُبَيْس بن مَزْيَد الأسدي أمير العرب، وهو الذي بنى الحلة السيفية[٣] بالعراق وكان قد عظُم شأنه واتَّسع جاهُه واستجار به كبارُ الناس وصغارُهم.

---

(١) جبيل: بلد خارج دمشق على ثمانية فراسخ من بيروت شرقيها. . . (معجم البلدان).

(٢) كان صدقة شيعيًا له محاسن ومكارم وحلم وجود، ملك العرب بعد أبيه اثنتين وعشرين سنة.

(٣) الحلة السيفية: أي مدينة الحلة المشهورة.

وفيها في شهر رمضان ورد القاضي فخر المُلكِ أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام إلى بغداد مستنفِرًا على الفَرَنج، فأنزله الخليفةُ وأكرمه وأجْرَى عليه الجِرايات العظيمة، وأحضر معه من التقدمة والهدية من الأعلاق النفسية والخيل العربية، وغير ذلك ما لم يوجد مِثْلُه عند ملك، وأقام ببغدادَ إلى أن رحل السلطانُ محمد عن بغداد في شوال. فتقدم إلى الأمير حسين بن أتابك قتلغتكين أن يسيِّرَ معه العساكرَ التي سيَّرها إلى المَوْصل مع أولاد مودود، وخَلَع عليه السلطان خِلَعًا سنيةً وأعطاه شيئًا كثيرًا وودعه: وسار مع الأمير حسين فلم يُجْدِ ذلك نفعًا.

وفيها عَزَل الخليفةُ وزيرَه مَجْدَ الدين هبةَ الله بن المطلب برسالةٍ من السلطان، ثم أُعيد إلى الوزارة بإذن السلطان محمد، وشَرَط عليه شروطًا منها العدلُ وحُسْنُ السِّيرةِ وأن لا يستعمل أحدًا من أهل الذمة.

وفي سنة اثنتين وخمسمائةٍ في نيسان زادت دجلةُ زيادةً عظيمةً انقطعت منها الطرق، وغرقتِ الغلالُ الشِّتْوية والصيفية، وحدث غلاءٌ عظيم بالعراق، وعدم الخيرُ، وأكل الناس التَّمْر والباقلاء الأخضر، وأما أهل السَّواد فإنهم لم يأكلوا في شهر رمضان ونصف شوال إلا الحشيشَ والتُّوتَ.

وفيها في شهر رجب عُزلَ وزيرُ الخليفةِ أبو المعالي هبةُ الله بن المطلب، وَوَزَرَ أبو القاسم علي بن نصر بن جهير.

وفيها في شعبان تَزَوَّج الخليفة المستظهر بالله ابنةَ السلطان ملكشاه وهي أُخت السلطان محمد، وتولَّى قَبولَ العقد بوكالة الخليفة نظامُ الملك وزير السلطان، والصداق مائة ألفِ دينارٍ، ونثرَتِ الجواهرُ والدنانير، وكان العقدُ بأصفهانَ، وخَطَب خُطَبَه النِّكاح القاضي أبو العلاء صاعد بن[1] محمد النيسابوري الحنفي.

وفيها تولى مجاهدُ الدين بهروز شَحْنكيةَ بغداد.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ في حادي عشر ذي الحجة ملك الفَرَنج طرابلس وجبيل وبيروت وبانياس.

وفي سنة أربع وخمسمائة ملكوا صيدا في شهر ربيع الأول، وفيها في شهر رمضان المبارك زُفَّت ابنةُ السلطان ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله فَزُيِّنتْ بغداد لذلك.

---

(١) هو، كما يقول ابن العماد في شذرات الذهب، صاعد بن سيار أبو العلاء الإسحاقي ـ نسبة إلى إسحاق جد ـ الهروي الدهان قرأ عليه ابن ناصر ببغداد جامع الترمذي عن أبي عامر الأزدي. قال السمعاني كان حافظًا متقنًا كتب الكثير وجمع الأبواب وعرف الرجال. . . (٤: ٦١).

وفي سنة خمسٍ وخمسمائة تُوفي الإمام أبو حامد الغزالي(١) رحمه الله.

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي أبو القاسم علي بن جهير وزير الخليفة، ووزر بعده الربيب أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.

وفي سنة ثمان وخمسمائة في جُمادى الآخرة كانت زلزلةٌ شديدة بديار الجزيرة والشام وغيرِها، فَخَرَّبَتْ كثيرًا من الرُّها وحران وسميساط وبالس(٢) وغيرها، وهلك كثيرٌ من الخَلْق تحت الرَّدم.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة تُوفي السلطان محمد بن ملكشاه وملك ابنه محمود بن محمد.

وفيها غرقت مدينة سنجار وكان سبب ذلك أن المطر دام فيها ليلاً ونهارًا واشتد، وجاء السَّيْلُ في واديها وأفسد الشباك الذي يجري فيه الماء في سورها، فاجتمع الماء وعظم على السور حتى ألقاه، وهَجَم على المدينة بِشِدَّةٍ وقوة فلم يطقِ الناس ينتقلون عنه، فخرب كل ما مرَّ به من البلد، وغرقَ جمعٌ كثير من الناس. ومن عجيب ما حكي أن الماء حَمَل مهْدًا فيه مولود فتعلَّق المهد بشجرة زيتون، ثم نَقُص الماء والمهد معلَّق بالشجرة، فَسلِم المولود.

وفيها تناثرت النجوم بديار الجزيرة جميعها ـ الْمَوْصِل وغيرِها ـ وكثير من البلاد، وكانت الكواكب تنزل حَتَّى تَقْرُبَ من الأرض ثم تضمحل فلا يوجد لها أثر.

وفيها في يوم عرفة كانت زلزلةٌ بالعراق والجزيرة وكثير من البلاد، وخَرَّبَتْ ببغدادَ دوارًا كثيرةً بالجانب الغربي.

ذكر وفاة المستظهر بالله
وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه في سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وكان عمره إحدى وأربعين سنةً وستةَ أشهر. خلافته خَمْسٌ وعشرون سنةً وثلاثةُ أشهر، وكانت دعوتُهُ قائمةً بالمغرب، قام بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولم تزل إلى أن ظهر محمد بن تومرت على ما نذكره في أخبار ملوك المغرب إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي؛ لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني... (وفيات الأعيان ٤: ٢١٦).

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.. وكانت على ضفة الفرات الغربية... (معجم البلدان).

وكان المستظهر بالله ـ رحمه الله ـ لَيِّنَ الجانب كريم الأخلاق مشكور المساعي، يحب اصطناعَ المعروف وفِعْلَ الخير ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات، لا يردّ مكرمةً تُطْلَبُ منه. وكان كثير الوثوق بمن يُوَلِّيه، غير مصغ إلى سعاية ساعٍ ولا راجعٍ إلى قَوْله. وكانت أيامه أيام سرور للرعية، وكان يسره ذلك، وكان حَسَنَ الخط جَيِّدَ التوقيعات. ولما توفي صلّى عليه ابنُه المسترشد بالله، وكبّر أربعًا، ودُفِنَ في حجرة له كان يألفها.

أولاده: أبو منصور الفضل المسترشد، وأبو عبد الله محمد المقتفي، وأبو طالب، وأبو الحسن. وكان له من الوزراء مَنْ قَدَّمنا ذِكرهم في أخباره، ومضى في أيامه ثلاثةُ سلاطين خطب لهم بالحضْرة وهم: تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، وبركيارق ومحمد بن ملكشاه. ومن عجب الاتفاق أنه لما تُوفي السلطان ألب أرسلان توفي معه القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعدَه المقتدي بأمر الله، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده الخليفةُ المستظهر بالله.

ذكر خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، وهو الخليفة التاسع والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه في سادس عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة. وكان وليّ عهْدِ أبيه الخليفةِ المستظهر وخُطِبَ له في خلافةِ أبيه ثلاثًا وعشرين سنة.

قال: وبايعه أخَوَاه أبو عبد الله محمد ـ وهو المقتفي لأمر الله ـ وأبو طالب العباسي، وعمومتُه بنو المقتدي بأمر الله، وغيرُهُم من الأُمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وكان المتولي لأخْذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني ـ وكان نائبًا عن الوزارة ـ فأقر المسترشد عليها، ثم عزله واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود.

ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد بالله وعوده

قال: ولما اشتغل الناس بِبَيْعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينةً ومعه ثلاثةُ نفرٍ وانحدروا إلى المدائن، وسار منها إلى دُبَيْس بن صَدَقة بالحلة فأكرمه دُبَيْس ورتَّب له الإقاماتِ الكثيرَة. فلما علم المسترشد بالله خَبَره

أَهَمَّه ذلك وأقلقه، وأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادته فأجاب «إنني عبد الخليفة وواقفٌ عند أمره وقد اسْتذَمَّ بي ودخل منزلي ولا أُكرِهُه على أمرِ أبدًا» وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي، فقصد الأميرَ أبا الحسنِ وتحدّث معه في الْعَوْد وضمن له كل ما يريد، فأجاب إلى ذلك وقال: إنني لم أُفارق خِدْمة أخي لِشَرٍّ أُريده، وإنما الخوف حَمَلَني على ذلك، فإذا أَمَّنَني قصدتُه!

وتكفَّل له دُبَيْس إصلاحَ الحال والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفةَ فأجاب إلى ما طلب ثم تأخّر بعد ذلك ولم يحضرْ وأقام عند دُبَيْس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث عشرة. وسار عن الحلة[1] إلى واسط وكثر جمعه وقَوِيَ الإرجافُ بأمْرِه، وملك مدينة واسط وخيف جانبُهُ، فتَقَدَّم الخليفةُ المسترشدُ بالله بالخُطْبَة لولده أبي جعفر المنصور وجَعلَه وليَّ عهدِه وعمرُه يومئذ اثنتا عشرة سنةً. فخطب له في ثاني شهر ربيع الأول ببغداد وكتب إلى البلاد بذلك، وأرسل إلى دُبَيْس في معنى الأمير أبي الحسن وأنه الآن فارق جِواره ومدَّ يدَه إلى بلاد الخليفة وأمره بقصده ومُعَاجَلَتِه قبل فَوْته. فأرسل دُبَيْسٌ العساكر إليه ففارق واسط وقد تحيّر هو وأصحابهُ فضلُّوا الطريق، وصادفتْهُم عساكر دُبيْسٍ فنهبوا أثقالَه وهرب الأكرادُ من أصحابِهِ والأتراكُ، وعاد الباقون.

وبقِيَ الأميرُ أبو الحسن في عشرةٍ من أصحابه وهو عطشانُ وبينَه وبين الماءِ خمسةُ فراسخ، وكان الزمان قيظًا فأيقن بالتلف. وكان معه بدوِيان فأراد الهرب منهما فلم يقدِرْ، وأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه الماء وحملاه إلى دُبيس فسيره إلى بغداد وسلمه إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرة آلاف دينار. وكان بين خروجه وعوده أَحَدَ عَشَرَ شهرًا، ولما دخل على المسترشد بالله قَبَّل قدمَه وقبّلهُ المسترشدُ وبكيا، وأنزله في دار حسنة كان يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحمل إليه الخِلَعْ والتحف وأمَّنَه.

وفيها نُقِل الخليفةُ الْمُسْترشد بالله من دار الخلافة إلى الرصافة، ونُقِل كلُّ من كان مدفونًا بها.

---

(١) الحلة: وهو اسم قفّ من الشريف بناحية أحناخ بين ضربة واليمامة... والحلة أيضًا: قرية مشهورة في طرف دجيل بغداد من ناحية البرية، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ، تنزلها القفول... (معجم ياقوت).

ذكر ظهور قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

قال ابنُ الأثير وأحال على حمزة بنِ أسدِ بنِ علي بن محمد التميمي[١] أنه ذكر في تاريخه: وفي سنة ثلاث عشرةَ وخمسمائةٍ ظهر قبر إبراهيم الخليل وقبرا ولديْه إسحاق ويعقوب صلّى الله عليهم وسلّم بالقرب من المقدس، ورآهم الناس ولم تَبْلَ أجسادُهُم، وعندهم قناديلُ من ذهبٍ وفضة.

وفيها تُوفي قاضي القُضاة أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني، ومولده في شهر رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ووليَ القضاءَ بباب الطَّاقِ من بغداد إلى المَوْصِل وعمره ست عشرة سنة ولم يكن ذلك لغيره. ولما توفي ولي القضاءَ بعده الأكمل أبو القاسم علي بن طراد بن محمد الزينبي[٢]، وخُلِعَ عليه في ثالث صفر.

وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج الكرج ـ وهم الخزر ـ إلى دار الإسلام ومعهم القفجاق وغيرهم من الأُمم، وحاصروا مدينة تفليس[٣]، ودام الحصار إلى سنةِ خمسَ عشرةَ فملكوها عَنْوَةً.

وفي سنة خمس عشرة كانت زلزلة تضعضع منها الركن اليماني في البيت الحرام ـ زاده الله شرفًا ـ وانْهَدَم بعضُه وتَشَعَّثَ بعضُ حرمِ النبيّ ﷺ.

وفيها ظهر بمكةَ إنسان علويٌّ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكثر جمعه ونازع أمير مكة ابنَ أبي هاشم وقَوِيَ أمرُه، وعزم على أن يُخْطَب لنفسه، ثم ظفر به ابن أبي هاشم ونفاه عن الحجاز إلى البحرين، وكان هذا العَلَوِيُّ من فقهاءِ المدرسةِ النظامية ببغداد.

---

(١) هو العميد بن القلانسي صاحب التاريخ أبو يعلى حمزة التميمي الدمشقي الكاتب صاحب تاريخ دمشق. . . (شذرات الذهب ٤: ١٧٤).

(٢) هو علي بن طراد الوزير الكبير أبو القاسم الزينبي العباسي وزير المسترشد والمقتفي سمع من عمه أبي نصر الزينبي وأبي القاسم بن البسري وكان صدرًا مهيبًا نبيلاً كامل السؤدد بعيد الغور دقيق النظر ذا رأي ودهاء وإقدام نهض بأعباء بيعة المقتفي وخلع الراشد في نهار واحد. . . (شذرات الذهب ٤: ١١٧).

(٣) تفليس: بفتح أوله ويكسر: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول بأران، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية. . . (معجم البلدان).

وفي سنةِ ستَّ عشرة وخمسمائةٍ قبض الخليفة المسترشد بالله على وزيره جلال الدولة صدقة وأُقيم نقيب النقباء علي بن طراد في نيابة الوزارة، فأرسل السلطان إلى الخليفةِ أن يستوزر نظامَ الدين أحمد بن نصر بن نظام الملك فاستوزره وخلع عليه.

وفيها ظهر بديار بكر بالقرب من قلعة ذي القرنين معدن نحاس.

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دبيس بن صدقة

وفي سنةِ سبعَ عشرةَ وخمسمائةٍ كانت الحرب بين دُبَيْس بنِ صدقة وبين الخليفة، وكان سبب ذلك أنَّ دُبيْسًا كان عنده عفيف خادم الخليفة مأسورًا، فأطلقه وحمّله رسالة فيها تهديدٌ للخليفة، وبالغ في وعيده ولبس السواد وجزَّ شعره، وحلف لينهبنّ بغدادَ ويخربها فاغتاظ الخليفةُ لهذه الرسالة وغضب، وتقدم إلى البرسقيّ بالتبريز إلى حرب دُبَيْس، فبرز في شهر رمضان سنة ست عشرة.

وتجهز الخليفة وبرز من بغداد، واستدعى العساكر فأتاه سليمانُ بنُ مهارش صاحبُ الحديثة[1]، وأتاه قِرواش بن مسلم وغيرهما. وأرسل دُبَيْسٌ إلى نهر الملك[2] فنبهه وعمل أصحابه كلَّ عظيم من الفساد فوصل أهل نهر الملك إلى بغداد، فأمر الخليفة فَنُودي ببغداد «لا يتخَلَّفْ من الجند أحَدٌ ومن أحبَّ الجنديةَ فليحضرْ» فجاء خلق كثير ففرّق فيهم الأموال والسِّلاح فلما علم دُبَيْسٌ الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرِّضَى عنه، فلم يُجِبْ إلى ذلك. وأُخْرِجتْ خيامُ الخليفة في العشرين من ذي الحجة سنة ست عشرة فنادى أهل بغداد: النفير النفير الغراة الغراة! وكثر الضجيج من الناس وخرج عالَم كثيرٌ لا يُحْصَوْنَ كثرةً وبرز الخليفةُ لستٍّ بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، وعبر دجلة وعليه قباءٌ أسودُ وعمامةٌ سوداء وطرحة، وعلى كتفه البردةُ وفي يده القضيبُ وفي وسطه منطقة حديد صينيّ.

وسار في سنة سبع عشرة إلى النيل ونزل بالمباركة، وعبأ البرسقيُّ أصحابَه ووقف الخليفة وراء الْجَمْع في خاصَّته وجعل دُبَيْس أصحابَه صفًّا واحدًا وجعل

---

(١) الحديثة: هي في عدة مواضع ينسب إلى كل واحدة منها حديثي وحدثاني منها: حديثة الموصل: وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الغربي قرب الزاب الأعلى.. وحديثة الفرات: وتعرف بحديثة النورة، وهي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة.. والحديثة أيضًا: من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش... (معجم البلدان).

(٢) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى.

الرَّجَّالةَ أمام الخيّالة بالسلاح وكان قد وَعدَ أصحابَه بنَهبِ وسَبْيِ النِّساء. فَلَمَّا تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماءُ يضربن بالدُّفوف والمخانيثُ بالملاهِي، ولم يُرَ في عَسْكَرِ الخليفة غيرُ قارىء ومسبِّح وداعٍ. فقامت الحرب على ساق، فلما رأى الخليفة ذلك جرَّد سيفَه وكبّر وتقدم للقتال، فانهزم دُبيْسٌ وحُملت الأسرَى بين يَدَي الخليفة فأمر بِقَتْلِهم فضُرِبت أعناقُهم صَبْرًا.

وكان عسكر دبيس عشرةَ آلاف فارسٍ واثني عشر ألفَ راجلٍ، وعسكر البرسقيّ ثمانيةَ آلاف فارسٍ وخمسةَ آلافِ راجلٍ، ولم يُقْتَلْ من أصحاب الخليفة غيرُ عشرة وجُعِلَتْ نساءُ دُبَيْسٍ وسراريه تحت الأسر.

وعاد الخليفةُ إلى بغداد فدخلها في يوم عاشوراء من السنة وأما دُبيْسٌ بنُ صدقة فإنه لما انهزم نَجا بفرسه وسلاحِه واتبعته الخيل ففاتها. وعبر الفرات فرأته عجوز فقالت له: دبير جئت؟ فقال دبير من لم يجيء! واختفى خبره بعد ذلك وأُرْجِف بقتله ثم ظهر أنه قصد غُزَيَّة[1] من عربِ نجد، وطلب منهم أن يحالفوه فامتنعوا عن ذلك وقالوا لا نُسْخِط الخليفة والسلطان! ثم رحل إلى طائفة من الأعراب واتَّفق معهم على قصد البصرة وأخذها، فساروا إليها ودخلوها ونهبوها وقُتِل مقدّم عسكرِها فتجهز البرسقيّ لقتاله. فسمع دبيس ذلك ففارق البصرةَ وسار على البرِّ إلى قلعة جعبر[2] والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم في أخْذها فلم يظفروا وعادوا عنها في سنة ثماني عشرةَ ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد، وأقام معه وحسَّن له قصد العراق.

وفيها في صفرٍ أمر المسترشد ببناء سور بغداد وأن يجبي ما يخرج عليه من البلد فشقَّ ذلك على النَّاس، وجُمِع منه مال كثير. فلما علِم كراهةَ النَّاسِ لذلك أمر بإعادة ما أُخِذَ منهم فسروا بذلك، وقيل إن الوزير أحمد بن نظام الملك بذَل من مالِه خمسةَ عشر ألف دينار وقال «نقسط الباقي على أرباب الدولة» وكان أهل بغداد يعملون بأنفسهم فيه ويتناوبون العمل.

---

(١) غزيّة: موضع قرب فيد وبينهما مسافة يوم، وثم ماء يقال له غمر غزية، قيل إنه أغزر ماء لغني وهو قرب جيلة... (معجم البلدان). وبنو غزية من قبائل بني جشم منهم دريد بن الصمة بن جداعة بن غزية... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الوقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً بدوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به... (معجم ياقوت).

وفي سنة ثماني عشرة وخمسمائةٍ ملك الفرنج مدينة صور من نواب العلوي المصري.

ذكر الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان محمود

وفي سنة عشرين وخمسمائة وقع الاختلاف بينهما وسببه أن يرَنقش شحنةَ بغداد جرى بينه وبين نواب الخليفة منافرةٌ فهدَّده الخليفة بسببها فخاف على نفسه، فسار عن بغداد إلى السلطان وشكا إليه وحذره جانب الخليفةِ، وأعلمه أنه قاد العساكر وباشَر الحرب وقويتْ نفسُه و«متى لم تعالجه بِقَصْدِ العراقِ ودخولِ بغداد ازداد قوة وجمعًا ومنَعك عنها، فتوجه السلطان نحو العراق، فأرسل إليه الخليفة يعرّفه البلاد وما أهلَها عليه من الضَّعْفِ والْوهَن بسبب دُبيس بن صدقةَ وأن الغلاء قد اشْتَدّ لعدم الغلات والأقوات، وطلب أن تتأخر هذه الدفعة إلى أن ينصلح الحال ثم يعود إلى البلاد ولا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالاً عظيمًا.

فلما سمع السلطان هذه الرسالةَ قَوِي عنده ما ذكر يرنقش وصمَّم على العزم وجدَّ في السَّيْر فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهلهُ وجيوشُه ومن عنده من أولادِ الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة مظهِرًا الغضب والانتزاح عن بغداد إن قَصدها السلطانُ، فبَكى النَّاس بكاءً شديدًا لخروجِهِ من دارِه فبلغ ذلك مِنَ السلطانِ كلَّ مبلغ واشْتَدَّ عليه، وأرسل إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الْعوْد إلى داره فأعاد الجواب «أنه لا بد من عودة هذه الدفعة فإنَّ الناس هلكى لشدة الغلاءِ وخراب البلاد» وأنه لا يرى في دينه أن يُزاد ما بهم! فغضب السلطان ورحل نحو بغداد، وأقام الخليفة بالجانب الغربي وأرسل عفيفًا الخادم ـ وهو من خَواصِّه ـ في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نُوّاب السلطان، كان بها عماد الدين زنكي فقاتله فانهزم عسكر الخليفة وقُتِل منهم جماعةٌ وأُسِر مثلُهم، وتغافل زنكي عن عفيف حتى نجا لمودةٍ كانت بينهما.

ثم إن الخليفة جمع السُفُنَ جميعها وسدَّ أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي، وأمر صاحب الباب بالمقام فيه لحفظ الدار ولم يبْقَ من حواشي الخليفة بالجانب الغربي سواه. ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من ذي الحجة ونزل بباب الشماسيّة ودخل بعضُ عسكرِه إلى بغداد ونزلوا في دور الناس، فشكا الناس إليه ذلك، وأمر بإخراجهم، وبقي بها منْ له دار. وبقي السلطان يراسل الخليفة في الْعوْد

ويطلب الصُّلْحَ وهو يمتنعُ، وكان يجري بين العسكرين مناوشةٌ والعامَّة من الجانب الشرقي يسبُّون السلطان أقبح سبٍّ وأفحشه.

ثم دخل جماعةٌ من عسكر السلطان إلى دار الخلافة ونهبوا التَّاجَ، فَضَجَّ النَّاسُ ونادوا: الغُزَاةَ الغُزَاةَ! وأقبلوا من كلِّ ناحية، وخرج الخليفةُ من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلى صوته: يا آل هاشم! وأمر بتقديم السُّفُن، ونصب الجسر وعبرَ النَّاسُ دفعةً واحدةً وكان له في الدار ألفُ رجلٍ قد أخفاهم في السرداب، فظهروا وعسكر السلطان قد اشتغل بالنَّهْب فأسر منهم جماعة من الأُمراء، ونهب العامَّةُ دار وزير السلطان ودور جماعةٍ من الأُمراء ودارَ عز الدين المستوفي ودار الحكم أوحد الزمان، وقُتِل خلق كثيرٌ مِمَّن في الدروب.

ثم عبر الخليفةُ إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتلٍ من أهل بغداد والسَّواد وأمر بِحفْر الخنادق فحُفِرتْ بالليل وحُفِظتْ بغداد من عسكر السلطان، ووقع الغلاءُ عند العسكر واشتد الأمرُ عليهم وكان القتال كلَّ يوم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة. وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي صاحب إرْبل[1] وخرج كأنه يريد القتال فالتحق بالسلطان!

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسطٍ يأمره بالحضور بِنَفْسِه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الظهر، فجمع كلَّ سفينة بالبصرة وشحنها بالرجال المقاتلة. وسار إلى بغداد فلما قاربها أمَرَ مَنْ معه بلبْس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلَد والنهضة وسارت السفن في الماء والعسكر في البر على شاطىء دجلة وقد انتشروا وملأُوا الأرض. فرأى النَّاسُ ما ملأ قلوبَهم هيبةً، وعزم السلطان على الجد في القتال، فعندها أجاب الخليفةُ المسترشد بالله إلى الصلح، وترددت الرسائل بينهما فاصطلحا.

وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، وحمل الخليفة إليه من المال ما استقرت القاعدة عليه، وأهدى إليه سلاحًا وخيلاً وغير ذلك. ومرض السلطان ببغداد فأشار عليه الأطباء بمفارقتها فرحل إلى هَمَذَان فلما وصلها

(١) إربل: بالكسر ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، ولام: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق غميق، وهي في طرف المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي على تل عال من التراب، عظيم واسع الرأس. . . (معجم البلدان).

عوفي من مرضِه، ودام في الملك إلى سنة خمس وعشرين فتوفي. وملك بعده ابنه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه على ما نذكره.

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة قَبَضَ المسترشد بالله على وزيره شرف الدين علي بن الزينبي واستوزر أنوشروان بن خالد بعد الامتناع منه.

ذكر حصار الخليفة المسترشد بالله الموصل

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة حاصر الخليفةُ المسترشد بالله الموْصل في العشرين من شهر رمضان المبارك، وسبب ذلك أنها كانت قد صارت في مَمْلَكةِ عمادِ الدين زنكي وكان قد حضر إلى بغداد لمَّا وقعتِ الحربُ بين السلطان مسعود السُّلجقي وبين أخيه سُلجوق شاه على ما نذكره في أخبار السُّلجُقية وظهر منه مباينة للخليفة المسترشد بالله، فلما كانت هذه السنة واشتغل الملوك السلجقية بقتّال بعضِهم بعضًا قَصدَ جماعةٌ من الأُمراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه.

واتفق أنَّ الخليفة المسترشد بالله أرسل الشيخَ بهاء الدين أبا الفتوح الواعظ الإسفرايني برسالة إلى عماد الدين زنكي فيها خشونة فأداها أبو الفتوح وزاد عليها ثِقةً منه بقوةِ الخليفة وناموس الخلافة فَقَبض عليه زنكي وأهانه ولقيه بما يكره. فأرسل الخليفةُ إلى السلطان مسعود بن محمد يعرّفه ذلك وأنه على قَصْدِ الموْصل وحصْرِها، وتمادتِ الأيام إلى شعبان فسار الخليفةُ في النصف منه في ثلاثين ألفَ مقاتل. فلما قارب الموصل فارقها زنكي في بعض عساكره إلى سنجار ونزل بقية العسكر بها مع نائبه نصير الدين جقر دِزدارها[١] فنازلها الخليفة وضَيَّقَ على مَنْ بِها.

وكان عماد الدين يركب كلَّ ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ويأخذ من ظفر به من عسكر الخليفة، ودام الحصار ثلاثة أشهر فتضايقتِ الأُمورُ بالعسكر الخليفي ولم يبلُغْه عَمَّن بها أنهم احتاجوا إلى ميرة ولا وهنوا، فعاد إلى بغداد في الماء في شبارة[٢] فوصل يوم عرفة من السنة.

وفي سنة سبع وعشرين أيضًا اشترى الإسماعيليةُ بالشام حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون، وصعدوا إليه، وقاموا بِحرْب من يحاربهم من المسلمين والفَرنْج.

---

(١) الذردار: حاكم الحصن... (فارسية).
(٢) قد يراد بالشبارة ضرب من السفن.

وفي سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة عَزَلَ الخليفةُ أنوشروان بن خالد، وأُلْزِم داره، وأُعيد إلى الوزارة شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي.

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب السلطان مسعود بن محمد وأسره

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة كانت الحرب بين الخليفة والسلطان في شهر رمضان. وكان سبب ذلك أن السلطان مسعود توفي أخوه الملك طغرل في المحرم من هذه السنة بِهَمذَان، وكان بينهما من العداوة والحروب ما نذكره في أخبارهم إن شاء الله. وكان الخليفةُ يُعين السلطانَ مسعود على أخيه ويساعده ويُقَوِّيه، وكان السلطان مسعودٌ قد انهزم من أخيه طغرل ورحلَ إلى بغداد، فأعانه الخليفة لجميع ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان ووعده أن يسير معه ويعينه على حرب أخيه. وكان البقش السِّلاحيُّ وغَيْرُه من الأمراء قد التحقُوا بالخليفة وصاروا معه واتَّفَقَ أن إنسانًا أُخِذَ فَوُجِد معه ملطفاتٌ من طغرل إلى بعض الأمراء وخاتمه بإقطاع لهم فلما رأى الخليفةُ ذلك قبض على أمير منهم اسمه غلبك ونَهَب مالَه فاستشعر غيرهُ من الأُمراء الذين مع الخليفة، فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود؛ فأرسل الخليفة إليه في إعادتهم فلم يفعل، فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرةٌ ووحشةٌ أوجبت تأخُّره عن المسير معه فأرسل إليه يأمره بالمسير معه حتمًا.

فبينما هم في ذلك إذ ورد الخبر بوفاةِ طغرل، فسار مسعود من يوْمه واحتوى على ممْلكةِ الجبل، فلما اسْتَقَرَّ بِهَمذَان فارقه جماعةٌ من أعيان الأُمراء خَوْفًا منهم على أنفسهم. منهم يرنقش البازدار، وقزل، وسنقر الخمارتكين والي همذان، وعبد الرحمٰن بن طغايرك ومعهم دبيس، وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون أمانَة ليحضروا إلى خدمته فقيل للخليفة إنها مكيدةٌ لأن دُبيْس بنَ صدقة معهم. فساروا نحو خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل الخليفةُ إلى الأُمراء سديدَ الدولة بن الأنباري بتوقيعات يطَيِّبُ قلوبهم، وأمرهم بالحضور فعزموا على قَبْض دُبيْس بن صدقة ليتقربوا به إلى الخليفة، فهرب إلى السلطان مسعود.

وسار الأُمراء إلى بغداد في شهر رجب فأكرمهم وقطع خطبةَ السلطان مسعود من بغداد. وبرز الخليفةُ في العشرين من شهر رجب على عزم المسير لحرب مسعود، وأقام بالشفيعي، فهرب منه بكبه صاحب البصرة إليها، فراسلَه وبذلَ له الأمانَ فلم يعُدْ. فتوقف الخليفةُ عن المسير، فَحسَّن له الأُمراءُ الرحيلَ، وضَعّفوا أمْر السلطان

مسعود، فسيّر مقدِّمتَه إلى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا فلم يُنْكِر عليهم. ثم سار في ثامن شعبان والتحق به الأمير برسق بن برسق فبلغت عِدَّتُه سبعة آلافِ فارسٍ، وتخلَّف بالعراق مع إقبال الخادم ثلاثةُ آلافِ فارسٍ وكان السلطان في ألفٍ وخمسمائة فارس.

وكان أكثر أصحابِ الأطراف يكاتبون الخليفةَ ويبْذُلون له الطاعةَ فاستصلح السلطان أكثرهم، فعادوا إليه، فصار في نحو خمسةَ عشر ألفَ فارسٍ. فأرسل الملك داود ابن السلطان محمود إلى الخليفة يشير عليه بالميل إلى الدينور[1] ليحصِّن نفسه ومنْ معه فلم يفعل المسترشدُ بالله. وسار حتى بلغ دايمرج، وعبأ أصحابه.

وسار السلطانُ مسعودٌ إليهم فوافاهم في عشر رمضان، فانحازت ميْسرةُ الخليفةِ إلى السلطان وقاتلت الميمنةُ قتالاً ضعيفًا، ودارت عساكرُ السلطان حول عسكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه، فانهزم عسكره وأُخِذَ هو أسيرًا ومعه جمع كثير من أصحابه منهم: شرف الدين علي بن طرَّاد الزينبي وقاضي القضاة، وصاحب المخزن ابن طلحة، وابن الأنباريُ والخطباء، والفقهاء والشهود وغيرهم. وأُنْزِل الخليفةُ في خَيْمةٍ وأُخذ ما في عسكره، وحُمل الأعيان إلى قلعة سرجهان[2] ولم يقتل في هذه المعركة أحد ألبتةَ.

وعاد السلطان إلى همذَان، وأمر فَنُودِيَ «من تبعنا من البغداديين إلى همذان قتلناه» فرجع الناس كلُّهم على أقبح صورة وسيّر السلطان الأمير بكبه المحمودي شحنةً إلى بغداد فوصلها في رمضان. فقبض جميع أملاكِ الخليفةِ وأخذ غلاَّتها، وثار جماعةٌ من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك، ومنعوا من الخطبة، وخرجوا إلى الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويصيحون ويبكون، وخرج النساء حاسراتٍ في الأسواق يلطمن ويبكين، واقتتل أصحابُ الشحنة والعامة فقُتِل من العامةِ ما يزيد على مائة وخمسين رجلاً.

ذكر مقتل المسترشد بالله

كان مقتله في يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل، والدينور بمقدار ثلثي همذان وهي كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف. . . (معجم البلدان).

(٢) سرجهان: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وجيم وآخره نون: قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر. . وهي من أحصن القلاع وأحكمها. رآها ياقوت.

على باب مراغة[١]، وذلك أن السلطانَ سار في شوال من هَمَذان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود، وكان قد عصى عليه، فنزل على فرسخين منها والمسترشد معه وقد وكل به من يحفظه. وترددت الرسائل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة للسلطان وأنه لا يعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره فأجاب السلطان إلى ذلك. وركب الخليفة وحمل الغاشية ولم يبْقَ إلا عَوْدُ الخليفة إلى بغداد، فوصل الخبرُ أن الأمير قرآن خوان قد ورد رسولاً من السلطان سنجر فتأخَّر مسيرُ المسترشدِ لذلك وخرج النَّاسُ إلى لقائه مع السلطان. وفارق الخليفةُ بعض الموكلين به وكانت خيمتُهُ منفردةً عن العسكر فقصده أربعةٌ وعشرون رجلًا من الباطنية[٢] فدخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثلوا به فَجَدعوا أنْفَه وأُذنيه وتركوه عريانَ وقُتِل نَفَرٌ من أصحابه، منهم: أبو عبد الله ابن سكينة وبقي الخليفة حتى دفنه أهل مراغة. وقُتِلَ من الباطنية عشرة وقيل بل قُتِلوا كلهم، وقد قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لِقَتلِهِ.

وقُتل رحمه الله تعالى وله ثلاث وأربعون سنة وثلاثة أشهر. ومُدَّةُ خِلافتِهِ سبعَ عشرةَ سنةً وسبعةُ أشْهُرٍ ويومٌ واحد وكان رحمه الله شهمًا شُجاعًا كبير الإقدام بعيدَ الهِمَّةِ وكان فصيحًا بليغًا حسن الخط.

قال: ولما قُتِل حُمِل إلى باب مراغة وخرج أهلُها حُفاةً حاسرين رؤوسهم فبلغوا جنازته وكسروا المنابر. وقال: وصل الخبر إلى بغداد في يوم الجمعة لِستٍّ بقين من ذي القعدة فاجتمع الرجالُ والنساء وناحوا عليه في الطرقات وكسروا منابر الجوامع وأكثروا الشناعات وسَبُّوا السلطان سنجر ومسعودًا أقبح سَبٍّ من غير مراقبة ولا حِشْمةٍ، ولما قتل وليَ بعده ابنُه الخليفةُ الراشد بالله.

ذكر خلافة الراشد بالله

هو أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله وهو الخليفة الثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له عند وصول الخبر بمقْتَل أبيه في يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وكتب السلطان مسعودُ بن محمد السُلجُقي إلى بكبه الشحنة ببغداد، فبايع له، وحضَر النَّاسُ

---

(١) مراغة: بالفتح والغين المعجمة: بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. . . (معجم ياقوت).

(٢) الباطنية: فرقة من الشيعة تعتقد أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وتمعن في التأويل.

البيعةَ. وحضر بيعتَه واحدٌ وعشرون رجلًا من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة.

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة الراشد بالله وعسكر السلطان مسعود

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة وصل يرنقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفةَ بما كان استقر على أبيه المسترشد بالله من المال وهو أربعمائة ألف دينار فقال الخليفة: لا شيء عندي والمالُ جميعهُ كان مع المسترشد فَنُهب! ثم بلغ الراشد بالله أن يرنقش يريد الهجوم على دار الخليفة وتفتيشهَا ليأخذَ المال، فجمع العساكر وأعاد عملَ السور. فلما علم يرنقش بذلك اتَّفَق هو وشحنةُ بغداد على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد فاستعد لِمنْعِهم وركب يرنقش ومعه الأُمراء البكجية والعسكر، واجتمعوا في نحو خمسة آلافِ فارسٍ ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا، وأعان العامَّةُ عسْكَر الخليفة فأخرجوا عسكر السلطانِ ونَهَبتِ العامَّةُ دار السلطنة.

ثم حضر الملك داود بن محمود بعسكر أذربيجان واجتمع الأطراف ببغداد على الخروج عن طاعةِ السلطان مسعود وفيهم عمادُ الدين زنكي وغيره، وولى الملك داود يرنقش بازدار شحنكية بغداد. واتفق أن الخليفة قَبضَ على ناصح الدَّوْلة أبي عبد الله الحسن بن جهير أُستاذ الدار وكان هو السبب في ولايته، وقبض على جمال الدولة إقبالِ المسترشديِّ وعلى غيرِهما من أعيان الدولة، فتفرقت نِيَّاتُ أصحابِه عليه فشفع أتابك زنكي في إقبال. وخرج موكب الخلية مع وزيره جلال الدين أبي الرضي بن صدقة إلى عماد الدين زنكي يهنئه بالقدوم، فأقام الوزير عنده وسأله أن يمنَعه من الخليقة فأجابه إلى ذلك. وعاد الموكب بغير وزير، وأرسل زنكي مَنْ حرس دار الوزير ثم أصلح حاله مع الخليفة وأعاده إلى وزارته. ثم جدَّ الخليفةُ في عمارة السور فأرسل الملك داود من قلع أبوابه وخرَّب قطعةً منه، فانزعج الناسُ ببغداد ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة، وقُطعت خطبة السلطانُ، وخُطِب للملك داود، وجرت الأيْمان بين الخليفةِ والملك داود وعماد الدين زنكي. ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعودٍ إلى بغداد لقتال ابن أخيه داود وزنكي. ثم وصلت رُسل السلطان إلى الخليفة بالبذْل من نفسِه الطاعة والموافقةَ والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفةُ الرسالة عليهم وكلمهم في قتاله، فكُلٌّ رأى ذلك ووافقهم الخليفة!.

ذكر مسير الراشد بالله
إلى المَوْصِل وخلعه

كان سبب ذلك أن السلطان مسعودًا لما بلغه اجتماع العساكر والملوك والأُمراء ببغداد على خِلافِه والخُطبة للملك داود ابن أخيه جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل بالملكية، فسار بعضُ العسكر وطاردوا عسكره وعادوا، ونزل السلطان على بغداد وحصرها نيِّفًا وخمسين يومًا، فلم يظفرْ منها بشيء. ثم عاد إلى النهروان عازِمًا على العوْدِ إلى همذان فوصل إليه طرنطاي صاحبُ واسط ومعه سفنٌ كثيرة، فعاد إلى بغداد وعبر إلى غربي دجلة واختلفت كلمة العسكر البغدادي فعاد الملك داود إلى بلاده في ذي القعدة وتفرّق الأُمراء.

وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إلى الخليفةِ وسار إلى الموصل. ودخل السلطان بغداد واستقر بها، وذلك في نصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة.

قال: وأمر السلطان فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعُرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد وفيها بخط يده «إنني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدًا من أصحاب السلطان بالسَّيف فقد خلعتُ نفسي من الأمر» فأفْتَوْا بخروجِه من الخلافة، وقيل إن الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وكاتب الإنشاء ابن الأنباري وصاحِب المخزن كمال الدين طلحة كانوا منذ أسْرِهم مع المسترشد، فحضروا الآن معه، واجتمعوا في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقِيتْ من ذي القعدة سنة ثلاثين، وكتبوا محضرًا شهد فيه جماعةٌ من العُدول بما صدر من الراشد من الظُّلْم وأخْذِ الأموال بغير حقها وسفْكِ الدماء وشُرْبِ الخمور وارتكابِ المحارم، واسْتفْتَوْا الفقهاء فيمن فَعلَ ذلك هل تصِحُّ معه إمامة أم لا؟ وهل يجوز للسلطان أن يخلعه ويستبدلَ به من أهل بيته من هو خيرٌ منه طريقةً ودينًا؟ فأفْتى الفقهاءُ بِخَلْعِه وفَسْخ عهده والاستبدالِ به غيره، وعُرضتِ الفُتيا والمحضر على السلطان فقال: هذا أمر قلدتكم إياه وأنا بريء منه عند الله! ثم خُلع وقُطعت خطبته من بغدادَ وسائرِ البلاد في ذي القعدة وبويع بعده للمقتفي.

وكانت خلافَتُه أحد عشر شهرًا وأيامًا، وكتب السلطانُ إلى أتابك زنكي في القبض عليه وإرساله إلى بغداد فمنع من ذلك فارس الإسلام زين الدين علي بن بكتكين صاحب إرْبِل رحمه الله وقال: والله لا سلَّمناه حتى تُراق دماؤُنا! واعتذر إلى السلطان وقال: أنا أخرجهُ من ولايتي؟ فأرسلْ أنت عسكرًا للقبض عليه من غير جهتنا!

وأعد زينُ الدين جماعةً من الأكراد فساروا بين يديه على طريق لا يعرفها كثيرٌ من الناس فَوصل إلى مراغة أذربيجان ونزل بِبريَّةٍ أبيه وتلقَّاه أهلُها وولَّوْه أمرهم فأقام بها يسيرًا ثم ارتحل إلى الرَّيِّ فلما قرب من بلاد الباطنية جرَّد عسكره لِقَتْل مَنْ وجد منهم فقتل منهم جماعةً ثم تنقَّلَت به الحال وكابد الغربة ووصل إلى همذان وسار منها يريد أصفهان. فلما كان في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثَب عليه نفر من الباطنية ـ وكانوا في خدمته على زِيِّ الخراسانية ـ فقتلوه وهو يريد القَيْلولة وكان قد بَلَّ من أثر مرض قد برأ منه ودفن في شهرستان[١] على فَرْسخ من أصفهان، وقتل أصحابُه الباطنيةَ الذين قتلوه. ولما ورد الخبرُ بِمقْتَلِ الراشد بغداد جلسوا للعزاء في دار النوبة يومًا واحدًا. وكان الراشد بالله أشقر اللون حسن الصورة، مهيبًا شديد القوة والبطش.

ذكر خلافة المقتفي لأمر الله

هو أبو عبد الله محمد وقيل الحسين بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله، وأُمُّه أُمُّ ولد تدعى ياعى. وهو الخليفة الحادي والثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له بعد خَلْع ابن أخيه الراشد بالله في ثامن عشر ذي الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة. وذلك أنه لما خُلِع الراشد بالله استشار السلطان مسعود بن محمد السُّلجقي جماعةً من أعيان بغداد فيهم الوزير شرف الدين علي بن طرّاد الزَّيْنَبي وكمالُ الدين صاحبُ المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلي الخلافةَ فقال الوزير: أحدُ عُمومة الراشد بالله وهو رجل صالح! قال: مَنْ هو؟ قال: لا أقدر أن أُفصح باسْمِهِ لئلا يُقْتل: فَتَقدَّم إليهم بعملِ محضرٍ فعُمِلَ المحضرُ على ما ذكرناه فلما كمُلَ المحضر أحْضِر القاضي أبو طاهرِ الكرخي وشهدوا عندَه بما تضمَّنَه المحضرُ فحكم بفِسْق الراشد وخَلْعِه وحكم بعدَه غيرُهُ. ولم يكن قاضي القضاة ببغدادَ لِيَحْكمَ فإنه كان بالمَوْصِل عند أتابك زنكي فلما كَمُل ذلك ذكره الوزير للسلطان وذكر دينَه وعِفَّتَه ولينَ جانِبه، فحضر السلطانُ إلى دار الخلافة ومعه الوزيرُ وصاحب المخزن وغيرُهما وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي كان يسكن فيه، فأُحْضِرَ وأُجْلِسَ في الميمنة ودخل السلطان وتحالفا وقررا القواعدَ بينهما. وخرج السلطانُ من عنده وحضر الأمراء وأربابُ المناصب والقضاة والفقهاء. ولُقِّب المقتفي بأمر الله.

---

(١) شهرستان: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وبعد الراء سين مهملة، وتاء مثناة من فوقها، وآخره نون: في عدة مواضع، منها: شهرستان بأرض فارس... وشهرستان أيضًا: مدينة جيّ بأصبهان... وشهرستان: بليدة بخراسان قرب نسا بينهما ثلاثة أميال... (معجم البلدان).

وقيل في سبب هذا اللقب أنه رأى رسولَ الله ﷺ قبل أن يَلِيَ الخلافةَ بستة أيام وهو يقول: إن هذا الأمر يصير إليك فاقتفِ بي فَلقِّبَ بذلك ولما بويع له سُيِّرتِ الكتبُ الحكيمة بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرفَ الدين علي بن طرّاد الزينبي، وأرسل إلى الموصل فأحضر قاضي القضاة علي بن حسين الزينبي - وهو ابن عم الوزير - وأعاده إلى منصبه، وأقرَّ كمالَ الدين صاحب المخزن على منصبه، وأجرى الأُمور على أحسن نظام.

قال: وأرسل السلطان مسعود إلى الخليفة في تقرير إقطاع يكون لخاصته فكان جوابه «إن في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه مَنْ يشربُ هذا الماء فَتَقَرَّرتِ القاعدة على أن يجْعَلَ له ما كان للمستظهر فأجاب إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله: «لقد جَعَلنا في الخلافة رجلاً عظيمًا نسأل الله تعالى أن يكفينَا أمره» قال: وخُطِبَ له على سائر المنابر إلا في المَوْصل، فإنه لم يُخْطَبْ له فيها إلا في شهر رجب سنةَ إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تزوج الخليفة المقتفي فاطمة أخت السلطان مسعود وكان الصداق مائة ألف دينار، والوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة علي بن طراد، ووكيل السلطان في العقد وزيره الكمال الدَّرْكزيني.

وفيها في الرابع والعشرين من أيار ظهر بالشام سحاب أسودُ وأظلمت له الدنيا، وصار الجوّ كالليل المظلم، ثم طلع بعد ذلك سحابٌ أحمرُ كأنه نار أضاءت له الدنيا، وهبَّ ريحٌ عاصف ألقت كثيرًا من الشَّجَر، وكان أشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعد ذلكَ مطر كثير وبَرَدٌ كِبار.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل ملك الروم صاحب القسطنطينية إلى الشام وملك بزاغة[1] بالأمان لخمس بقين من شهر رجب ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية في أيام زنكي.

وفيها انقطعت كسوةُ الكعبةِ للاختلاف الواقع بين الملوك السُّلجُقية فقام بكسوتها رامشت الفارسي التاجر، وكان من التجار المسافرين إلى الهند - وهو كثير المال - فكساها من الثياب الحَبرَة[2] وبكل ما وجد إليه السبيل، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية.

---

(١) بزاغة: مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب.

(٢) الحبرة: ضرب من برود اليمن، وكان النبي ﷺ يلبس الحبرات.

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغير ذلك من البلاد فخُرِّبَ كثيرٌ منها، وهلك عالم كثير تحت الرَّدْم. ثم كانت زلازلُ كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد في سنة ثلاث وثلاثين، وكانت متواليةً عِدَّة أيام كلَّ ليلة عِدَّة دفعات وكان أشدها بالشام، فعدُّوا في ليلة واحدة ثمانين مرةً. ففارق الناس مساكنهم، ولم تزل تتعاهد من أربع صفر إلى تاسع عشر، وكان معها صوت وهدة شديدة.

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة جَرَى بين الخليفة المقتفي وبين الوزير علي بن طراد منافرةٌ، وسببها أن الوزير كان يعارض الخليفةَ في جميع ما يأْمر به فنفر الخليفةُ من ذلك، فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان واحْتَمى بها، فأرسل الخليفةُ إليه في العَوْدِ إلى منصبه فامتنع. فاستناب قاضي القضاة الزينبي، وأرسل الخليفةُ رسلاً إلى السلطان مسعود في معنى الوزير فأرخص السلطان للخليفة في عَزْلِه فعزله، ثم عزل الزينبي من النيابة، وناب سديد الدولة بن الأنباري.

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة بكنجة[1] وغيرها من أعمال أذربيجان وأرّان[2]، وكان أشدها بكنجة فَخُرِّبَ منها كثيرٌ، وهلكَ عالَم قيل كانوا مائتي ألف وثلاثين ألفًا وتهدَّمَت قلعةٌ هناك.

وفيها ابْتَنَى الخليفةُ بفاطمة أخت السلطان مسعود وكان يوم حمْلِها إلى دار الخلافة يومًا مشهودًا. وغُلِّقَت بغدادُ عدة أيام، وتزوج السلطان مسعود بابْنَةِ الخليفة.

وفي سنة خمسٍ وثلاثين وخمسمائة وصل رسولُ السلطان سنجر ملكشاه إلى المقتفي ومعه بُردة النبيّ ﷺ والقضيب، وكان أخذهما من المسترشد لما قُتل.

وفيها ملك الإسماعيلية حصن مصافٍ بالشام وكان واليه مملوكًا لبني مُنْقذٍ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكَرُوا به حتى صعدوا إليه فقتلوه وملكوا الحِصْنِ.

وفيها توفي سديد الدولة بن الأنباري فاستوزر الخليفة بعده نظامَ الدين أبا نَصْرِ محمد بن الأنباري وكان قبل ذلك أستاذَ الدار.

---

(١) كنجة: بالفتح ثم السكون، وجيم: مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أران، وأهل الأدب يسمونها جنزة... وكنجة: من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان... (معجم ياقوت).

(٢) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة وهي التي تسميها العامة كنجة، وبرذعة، وشمكور، وبيلقان. وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرسّ... (معجم البلدان).

وفيها بُنِيتْ المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي صاحب المخزن. ولما فَرَغت درَّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل.

وفي سنة أربعين وخمسمائةٍ اتَّصَل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه فَضَيَّق عليه وعلى غَيْرِه من أقاربه.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في جمادى الأُولى خُطِب للمستنجد بالله يوسف بن المقتفي بِوِلاية العهد.

وفي سنة أربع وأربعين استوزر الخليفة أبا المظفر يحيى بن هُبيْرة وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزِّمام فظهرت منه كفاءة عظيمة، فرغب الخليفةُ فيه واستوزره يوم الأربعاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر.

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة، فيقال إن جبلاً بالقرب من حلوان ساخ في الأرض.

وفي سنة سبع وأربعين مات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بِهَمذَان فلما وصل الخبرُ إلى بغداد بِمَوْتِهِ هرب شحْنَتُها مسعود بلال إلى تكرِيت فاستظهر الخليفةُ المقتفي على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ أموالهم وودائعهم واسْتَبدَّ الخليفةُ بالأمر وقطع خطبة الملوك السُّلْجُقية وفوّض الأمر إلى الوزير ابنِ هبيرة!.

ذكر تفويض أمور الدولة والوزارة إلى الوزير عون الدين بن هبيرة وما أقطعه الخليفة من الإقطاعات

كان الخليفة المقتفي لأمر الله لمّا اسْتَخْلَفَ حلف أنْ لا يُملِّكَ تركيًا لما جرى على أخيه المسترشد ولم يمكنه المبادرة بذلك فلما تَمكَّن وقَوِيَ أمرُه ومات السلطان مسعود فَوَّضَ الأُمور إلى الوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن هبيرة، ولَقَّبه بتاج الملوك ملك الجيوش وأقطعه إقطاعًا عظيمًا وهو: واسط وبطائحها والبصرة والحلَّة، والنيل، والنعمانية، وقرسان(١)، ونهر الملك(٢)، ونهر عيسى(٣)، ودجيل،

(١) هي قاسان: كما في معجم ياقوت: بلدة وراء النهر قرب حدود الأتراك.

(٢) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد تشتمل على ثلاثمائة وستين قرية.

(٣) نهر عيسى: كورة بقرى كثيرة غربي بغداد مأخذها من الفرات وتنسب لعيسى بن علي بن عبد الله بن العباس.

والراذان[١]، وطريق خراسان، والقرايا، والنجف، والبَنْدنيجَيْنَ[٢]، وبادَرايا[٣]، وباكُسايا[٤]، وهِيت، والأنبار، وعين التمر[٥]، وشفاثا. وأقطعه إقطاع وزير السلطان وأعانَه على الاستعداد للحرب وجهزه بالجيوش فاسْتَوْلى على الحلة والكوفة وواسط ثم عاد إلى بغداد وكانت غيبته خمسةً وعشرين يومًا.

ذكر حصر تكريت
وعود عسكر الخليفة عنها وأسر ابن الوزير

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة سيَّر الخليفةُ المقتفي لأمر الله عسكرًا إلى تكريت وأرسل عليهم مقدّمًا أبا المنذر ابن الوزير عون الدين والأمير ترشك وهو من خواصِّ الخليفة وغيرهما، فجرى بين أبي المنذر وبين ترشك منافرة اقتضت أن كتب ابن الوزير يشكو منه، فأمر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فأرسل إلى مسعود صاحب تكريت وصالحه وقبض على أبي المنذر ومَنْ معه من المقدمين، وسلَّمهم إلى مسعود بلال فانهزم العسكر وسار مسعود وترشك من تكريت إلى طريق خراسان فنهباها وأفسدا. فسار الخليفةُ لدفعهما، فَهَرَبا من بين يديه فقصد تكريتَ وحَصرَهَا أيامًا، ثم عاد بعد أن جرَى بينه وبين أهلها قتالٌ من وراء السور، وقُتل من عسكر الخليفة جماعة بالنشابِ.

ذكر حصار تكريت ووقعة بكمزا[٦]

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة أرسل الخليفة رسولاً إلى صاحب تكريت بسبب مَنْ عنده من المأسورين فقبض على الرسول. فسيّر المقتفي عسكرًا فخرج أهل تكريت فقاتلوا عسكر الخليفة، فسيّر عسكرًا آخر، فمانعوه. فسار الخليفةُ بنفسه ونَزَل على البلد فهرب أهله، فدخل عسكر الخليفة فشغبوا ونهبوا بعضه، ونَصَبَ على القلعة ثلاثةَ عشر منجنيقًا فسقط من أسوارها برجٌ، وبقي الجيش كذلك إلى الخامس

---

(١) الراذان: كورتان لهما قرى كثيرة.
(٢) البندنيجين: بلدة مشهورة في طرف النهروان ناحية الجبل من أعمال بغداد.
(٣) بادرايا: طسوج بالنهروان، وهي بليدة قرب باكسايا.
(٤) باكُسايا: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار وذات نخل كثير وخير غزير.
(٥) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة يقربها موضع يقال له شفاثا.
(٦) بكمزة: بالفتح والزاي: قرية بينها وبين يعقوبا نحو فرسخين، كان بينها وبين بعيقبة الوقعة المشهورة بين المقتفي لأمر الله والبقش كون خر أحد الأمراء... (معجم البلدان).

والعشرين من شهر ربيع الأول فأمر الخليفة بالقتال والزَّحْف، فاشتد القتال، وكثرت القتلى، ولم يبلغ منها غَرَضًا، فعاد إلى بغداد ودخلها في آخر الشهر.

ثم أمر الوزير عون الدين بالعَوْد إليها والاستعدادَ والاستكثار من آلات الحصار، فسار إليها في شهر ربيع الآخر وضيّق عليها، فبلَغَه الخبر أن مسعود بلال وصل إلى شهرابان[١] ومعه البغوش كون خر وترشك في عسكر كبير ونهبوا البلاد فعاد الوزيرُ إلى بغداد وكان سبب تَحَوُّل هذا العسكر أنهم حثُّوا الملكَ محمدًا على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك، فسّير إليه هذا العسكرَ وانضاف إليهم خلقٌ كثير من التركمان.

فخرج الخليفةُ إليهم فأرسل مسعود بلال إلى تكريت وأخرج منها الملك أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوسًا بها وقال: هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة! والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا[٢]، ودامت الحربُ بينهم والمناوشة ثمانيةَ عشرَ يومًا، ثم التقوْا في آخر شهر رجب واقتتلوا فانهزمت ميمنةُ عسكرِ الخليفة وبعضُ القلب حتى بلغت الهزيمة بغدادَ، ونُهبت خزائنُه وقتل خازنُه، فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح: يا آل هاشم كذب الشيطان! وقرأ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥] وحمل هو وبقيةُ العسكر فانهزم مسعودٌ ومن معه، وظفر الخليفة، وغنم العسكرُ جميعَ ما هو للتركمان من دوابَّ وغنمٍ وغير ذلك. وكانوا قد أحضروا نساءهم وأولادهم وخركاهاتهم فأُخِذ جميعُ ذلك، فبيع كل كَبْش بِدانِقٍ[٣] وأخذ كون خر الملكَ أرسلان وانهزم به إلى بلد النجف وقلعة الماهكي.

ورجع الخليفةُ إلى بغداد فدخلها في أوائل شعبان المبارك، فأتاه الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينةَ واسط فنهبا وخربا فسيّر إليهم الوزيرَ في عسكر، فانهزم العَجمُ، ولحقهم عسكرُ الخليفة ونَهَب شيئًا كثيرًا، وعاد إلى بغداد فَلُقِّب الوزير سلطان العراق ملكَ الجيوش، وسيّر الخليفةُ عسكرًا إلى بلد النجف فاحتوى عليه.

---

(١) شهرابان: بالنون: قرية كبيرة عظيمة ذات نخل وبساتين من نواحي الخالص في شرقي بغداد، وقد خرج منها قوم من أهل العلم... (معجم ياقوت).

(٢) بعقوبا: قرية كبيرة كالمدينة، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من أعمال طريق خراسان، وهي كثيرة الأنهار والبساتين، واسعة الفواكه متكاثفة النخل، وبها رطب وليمون... (معجم البلدان).

(٣) الدانق: سدس الدرهم.

وفي سنةِ خمسين وخمسمائة سار الخليفة إلى دقوقا[١] فحصرها وقاتل مَنْ بها، ثم رحل عنها ولم يبلغ غرضًا.

وفيها استولى شملة التركماني على خوزستان وصاحِبُها حينئذ ملكشاه محمود، فسيّر الخليفةُ إليه عسكرًا فقاتَلَهُم شملة وهزمهم وأسر وجوهَهُم، ثم أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله يعتذر منه فقبل عذره.

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر السلطان محمد بن محمود السُلْجُقي بغدادَ، وكان قد راسل الخليفةَ في الخطبة له ببغداد والعراق، فامتنع الخليفةُ من إجابته، فسار من هَمَذَان وواعده قطب الدين صاحبُ المَوْصِل أن يرسل إليه العساكرَ، فقَدَم في ذي الحجة ودام الحصارُ والقتالُ إلى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، فبلغ السلطان محمد أن أخاه ملكشاه وإيلدكَر وأرسلان طغرل دخلوا همذان واستولَوْا عليها، فرجع عن بغداد ولم يبلغ رضا، وتفرقت العساكر.

وفي شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين أُطْلق ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت فتلقته المواكب وكان يومًا مشهودًا.

وفيها في شهر ربيع الآخر احترق أكثر بغداد، واحترقت دارُ الخلافة.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة كان بالشام زلازلُ كثيرةٌ خربت كثيرًا من البلاد والقلاع والأسوار، وهلك من العالم ما لا يحصى كثرةً. ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل: «أن معلمًا كان بمدينة حماه يعلِّم الصبيان، ففارق المكتب لحاجة عرضت له فجاءت الزلزلة فخرَّبتِ البلد وسقط المكتب على الصبيان فهلكوا عن آخرهم» قال: فقال المعلم: فلم يأت أحد يسألني عن صَبِيٍّ كان له! فيدل على موْتِ جميع أهاليهم.

وفيها قلع الخليفة المقتفي لأمر الله بابَ الكعبة وعمل عِوَضَه بابًا مصفحًا بالفضة المذهبة، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتًا يدفن فيه إذا مات!

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة في ثامن عشر ربيع الأول كثرت الزيادة في دجلة فغرقت بغدادُ، وتهدّمت الدور وسور المدينة وكثر الخراب ولم يعرف الناس حدودَهم على التحرير، بل بالتخمين.

---

(١) دقوقاء: بفتح أوله، وضم ثانيه، وبعد الواو قاف أخرى، وألف ممدودة ومقصورة: مدينة بين إربل وبغداد معروفة. . . (معجم البلدان).

وفيها مات السلطان محمد الذي حاصر بغداد بِمَرضِ السُّلِّ.

وفيها عاد ترشك إلى بغداد ولم يعرفه أحد ولا شعر به إلا وقد ألقى نَفْسَه تحت التاج ومعه سيف وكفن. فَرَضِيَ عنه الخليفةُ، وأذِنَ له في دخول الدار وأنعم عليه بمال!

ذكر وفاة المقتفي لأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاة المقتفي لأمر الله في شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل لليلتين خَلَتَا من شهر رجب. ومولده في ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسع وثمانين وأربعمائة، وكان عمره سِتًّا وستين سنة تقريبًا، ومدةُ خلافته أربعًا وعشرين سنةً وشهورًا. وكان شيخًا أبيضَ الرأسِ واللحية طويلَها، وكان حليمًا كريمًا عادلاً حسَنَ السيرة جميل الرأْي وافر العقل، شجاعًا مِقدامًا يباشر الحروب بنفسه، كان يحب جَمْع المال. وفي أول خلافته ولّى القضاء بمدينة السلام لرجل يعرف بابن المرخم[1]، وجعله يتولى عقوبة عماله ووجوه دولته وأخذ أموالهم، فقال بعض الشعراء في ذلك: [من مجزوء الخفيف]

ضَخِّمي ويْكِ والْطُمِي ... وَلِيَ ابنُ المرخَّمِ[2]
وَاهِ على الحكمِ والقَضَا ... وعلى كلِّ مُسْلِمِ
وأرى المقتفي الإما ... م عن الحقِّ قد عَمِي

فبلغ المقتفي ذلك فأخذ الشاعر بنكاله وعذبه وما زاده ذلك إلا تماديًا في حاله. وهو أول من استبدّ بالعراق منفردًا عن سلطانٍ يكون معه من أوَّلِ أيام الدَّيْلم وإلى هذا الوقت، وأول خليفة تمكن من عسكره وأصحابِه وحكم على الخلافة منذ تحكم المماليكُ على الخلفاء في خلافةِ المستنصر بالله وإلى الآن، إلا أن يكون المعتضد بالله. وكان المقتفي يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى لا يفوتَه منها شيءٌ، وكانت دعوتُهُ بالعراق والحجاز والشام وخراسان.

---

(١) هو السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي قاصدًا وطبيبًا في هذا البيمارستان... (وفيات الأعيان ٣: ١٢٤).

(٢) يقال: ضخمته الشمس: أي لفحته.

ذكر خلافة المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأُمه أُم ولد تدعى طاوُس وقيل نرجس، رومية. وهو الخليفة الثاني والثلاثون من الخلفاء بويع له بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الأول في سنة خمس وخمسين وخمسمائة وقيل لليلتين خَلَتا من شهر رجب منها والله تعالى أعلم.

قال: وكان للمقتفي حظية وهي أم ولده أبي علي. فلما اشْتَدَّ مَرضُه وأيست منه، أرسلت إلى جماعةٍ من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعاتِ الكثيرةَ والأموالَ الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدُها الأمير أبو علي خليفةً فقالوا: كيف الحيلةُ مع ولي العهد؟ فقررت أنها تقبض عليه إذا دخل، وكان يدخل على أبيه في كلِّ يوم فقالوا: لا بد لنا من أحدِ أرباب الدَّوْلة فوقع اختيارهم على أبي المعالي بن الكيال الهراس فَدَعَوْه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرًا، فبذلوا له ما طلب. فلما استقرت القاعدة بينهم أحضرت عِدَّةً من الجواري وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتْل ولي العهد المستنجد بالله. وكان له خصيٌّ صغيرٌ يرسله في كل وقت يتعرف أخبارَ والده فرأى الجواري وبأيديهن السكاكين وبيد أبي علي وأُمه سيفين، فعاد إلى المستنجد وأخبره.

وأرسلت هي إلى المستنجد تقول: «إن والدك قد حَضَرَتْهُ الوفاةُ فاحضر لتشاهده» فاستدعى أستاذ الدار عضُدَ الدين، وأخذ معه جماعةً من الفراشين، ودخل الدار وقد لبس الدِّرْعَ والسيفُ في يده، فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدةً منهن فجرحها وجرح أُخرى وصاح فدخل أُستاذ الدار والفراشون فهرب الجواري وأخذ أخاه أبا علي وأمَّه فَسَجَنَهُما، وقتل من الجواري وغَرَّق وجلس للمبايعة فبايعه أهلُه وأقاربُه.

وأول من بايعه عمُّه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي وكان أكبر من المستنجد، ثم بايعه الوزير ابنُ هبيرة، وقاضي القضاة، وأرباب الدولة والعلماء. وخُطِب له في يوم الجمعة، ونُثرت الدنانيرُ والدراهم.

قال ابنُ هبيرة الوزيرُ عنه: «إنه قال «رأيت رسول الله ﷺ في المنام منذ خمسَ عشرةَ سنةً فقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خَمْس عشرة سنة فكان كما قال رسول الله ﷺ في المنام «ثم قال» رأيته قبل مَوْتِ المقتفي بأربعة أشهر، فدخل بي في باب كبير ثم ارْتَقَى إلى رأس جبل وصلَّى بي ركعَتَين وأَلْبَسني قميصًا ثم قال لي: قل (أللهم اهدني فيمن هديت) وذكر دعاء القنوت».

قال: ولما وَلِي المستنجدُ بالله أقر ابنَ هبيرةَ على وزارته، وأصحابَ الولايات على ولاياتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقبض على ابن المرخَّم وأخذ منه مالاً كثيرًا وأخذ كُتُبه فأحرق منها ما كان من علوم الفلاسفة. وقدم عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ـ وكان أُستاذ الدار ـ فَمَكَّنه وتقدَّم إلى الوزير بأن يقوم له، وعزل قاضي القضاة علي بن أحمد الدامغاني[١]، ورتَّب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه.

ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي

وفي شهر رجب سنة سَبْع وخمسين وخمسمائة ملك الخليفة قلعة الماهكي، وسبب ذلك أن صاحبها سنقر الهَمَذَاني سلَّمها إلى أحد مماليكه ومضى إلى همذان فضعف مملوكُه عن حفظها ومقاومة من حولها من الأكراد والتركمان فأُشير عليه ببَيْعِهَا من الخليفة فراسل في ذلك؛ فاستقرَّ بينهما خمسةَ عشر ألف دينارٍ وسلاحٌ ومتاعُ وعِدَّةٌ من القرى فسلَّمها وتسلَّم ما استقرّ له وأقام ببغداد، ولم تزل هذه القلعة من أيام المقتدر بالله بيد التركمان إلى الآن.

ذكر إجلاء بني أسد من العراق

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة أمر الخليفة بإهلاك بني أسد أهل الحلة المزْيدِيَّة لِما ظَهَر من فسادهم ولِما كان في نفسه منهم من مساعدتهم للسلطان محمد في حِصار بغداد، فأمر يزدن بن قماج بقتالهم وإخراجهم من البلاد، كانوا منبسطين في البلاد في البطائح. فَتَوجَّه إليهم وجمع العساكر الكثيرةَ، وأرسل إلى ابن معروف مقدم المقتفي وهو بأرض البصرة فجاء في خَلْقٍ كثير وحصرهُم وسكَّ[٢] عنهم الماءَ وضيّق عليهم فاستسلموا، فقتل منهم أربعةَ آلافٍ ونادى فيمن بقي «من وُجد في الحلة المَزْيدية بعد هذا فقد حلّ دمه فتفرقوا في البلاد، ولم يبْقَ في العراق منهم مَنْ يُعرف، وسُلِّمت بطائحهُم وبلادُهم إلى ابن معروف».

---

(١) هو قاضي القضاة ابن الدامغاني أبو الحسن علي بن أحمد ابن قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن علي الحنفي. . وكان ساكنًا وقورًا محتشمًا حدّث عن ابن الحصين وطائفة وولى القضاء بعد موت قاضي القضاة أبي القاسم الزينبي ثم عزل عند موت المقتفي فبقي معزولاً إلى سنة سبعين وخمسمائة ثم ولي إلى أن مات. . . (شذرات الذهب ٤: ٢٧٦).

(٢) سكّ الشيء: سدّه.

وفي سنة ستين وخمسمائة في صفر قبض المستنجد بالله على الأمير ثوبة بن العقيلي وكان قد قَرُب منه قُرْبًا عظيمًا حتى كان يخلو معه، وأحبَّهُ محبةً عظيمةً، فَحسَده الوزيرُ ابنُ هبيرة، فوضع كُتُبًا من العجم مع قوم وأمرهم أن يتعرضوا ليؤخَذوا ففعلوا ذلك، وأُخِذوا وأُحْضِروا عند الخليفة.

وأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيَّد وكانت حلل ثوبة على الفرات، فحضر عنده فأمر بالقبض عليه، فقُبض عليه وأُدْخِل بغداد ليلاً وحُبس فكان آخر العهد به فما تمتع الوزيرُ بعده بالحياة، مات بعد ثلاثة أشهر وكان ثوبة من أكمل العرب مروءةً وسخاءً وعقلاً وإجادةً، واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرّق في غيره.

وفيها في جُمادى الأولى توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد[١] بن هبيرة ومولده سنة تسعين وأربعمائة ودفن بمدرسته التي هو بناها للحنابلة بباب البصرة، ولما مات قبض على أولاده وأهله!

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة استوزر الخليفةُ المستنجد بالله شَرَف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، وكان ناظرًا بواسط، وظَهَرَ عن كفاءةٍ عظيمةٍ، فأحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أُستاذ الدار قد تحكَّم تحكُّمًا عظيمًا، فتقدَّم أمرُ الخليفة إلى وزيره بكَفِّ يدِه وأيدي أصحابه ففعل ذلك، وَوَكلَ بأخيه تاج الدين وطالبه بحساب نهر الملك وكان يتولاه أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصَّل أموالاً جَمَّةً وخافه أُستاذ الدار على نفسه فحمل مالاً كثيرًا وأعطاه الورقة التي بخط الخليفة فقال له: تعود إليه وتقول قد أوصلت الْخطَّ إلى الوزير! ففعل ذلك وأحضر أُستاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض عليهم الخط فاتفقوا على قتل الخليفة. فدخل عليه يزدن وقايماز فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح حتى مات.

وقبض على الحسين بن محمد المعروف بابن البستي وعلى أخيه الصغير، وكانا ابنَيْ عَمِّ عضد الدين. وكان الصغير عامل البيمارستان فقطع يدَه ورجله؛ فقيل إنه كان

---

(١) هو الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد الشيباني وزير المقتفي وابنه، ولد ٤٩٩ بالسواد ودخل بغداد شابًا فطلب العلم وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وسمع الحديث وقرأ القراءات وشارك في الفنون وصار من فضلاء زمانه... (شذرات الذهب ٤: ١٩١).

يستخرج المال بصنوج كبار ويحمله إلى الديوان بصنجة صحيحة وقيل غير ذلك، وحمل إلى البيمارستان فمات.

ذكر وفاة المستنجد بالله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في تاسع شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة ومولده في مستهل شهر ربيع الآخر سنة عشرة وخمسمائة. وكان عمره ستًّا وخمسين سنة وثمانية أيام، ومدة خلافته أحد عشر سنة وشهرًا واحدًا وستة أيام على القول الأول. وكان أسمر، تامَّ القامة؛ طويل اللحية.

وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه؛ وكان بجانبه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوي ـ وهما من الأُمراء ببغداد ـ فوصيا الطبيب على أن يصف له ما يقتله فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه، فأدخله وأغلق عليه بابه فمات. وقيل إنه كتب إلى الوزير... النصراني ابن صفية يأمره بالقبض على أُستاذ الدار.

وكان رحمه الله من أحسن الخلفاء سيرةً، عادلاً في الرعية كثير الرِّفق بهم، وأطلق كثيرًا من المكوس حتى لم يترك بالعراق شيئًا منها. وكان شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل «بلغني أن المستنجد قبض على إنسان كان يَسْعَى بالناس فأطال حَبْسَه، فشفع فيه بعض خواصِّه، وبذل عنه عشرة آلافِ دينارٍ فقال: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس!» ولم يطلقه وَرَدَّ كثيرًا من الأموال على أصحابها رحمه الله.

ذكر خلافة المستضيء بأمر الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأُمُّه أم ولد أرمينية تدعى غَضَّة وهو الخليفة الثالث والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة يومَ وفاة أبيه في التاسع من شهر ربيع الآخر في سنة ست وستين وخمسمائة.

قال: ولما مات المستنجد بالله كان بين الوزير أبي جعفر ابن البلدي وبين أُستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوةٌ شديدةٌ لأن المستنجد كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فيظنان أنه هو الذي يسعى بهما فلما أُرْجِفَ بمَوْت المستنجد ركب الوزيرُ

ومعه الأُمراءُ والأجنادُ وغيرهم بالعُدْوة ولم يتحققوا مَوْت الخليفة. فأرسل إليه أُستاذ الدار يقول: إن أمير المؤمنين قد خفَّ ما به من المرض وأقبلتِ العافية إليه! فخاف الوزير أن يدخل دارَ الخلافة بالْجُنْد فربما أنكر عليه ذلك، فعاد إلى داره وتفرّق النَّاسُ عنه.

وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدًّا لِلهَرَب لما ركب الوزير خَوْفًا أن يدخلَ الدار فيأْخذهما، فلما عاد أغلق أُستاذ الدار أبوابَ دارَ الخلافة وأظهر موتَ الخليفة، وأحضر ولدَه أبا الحسن محمدًا وبايعه هو وقطب الدين بالخلافة، ولقباه بالمستضيء بأمر الله، وشرطوا عليه شروطًا منها: أن يكون عضد الدين وزيرًا، وابنه جمال الدين أستاذَ الدار، وقطبُ الدين أميرَ العسكر، فأجابهم إلى ذلك، وبايعه أهل بَيْتِهِ البيعةَ الخاصة في يوم وفاة أبيه، وبايعه الناسُ من الغدِ في التاج بيعةً عامة، وأظهر العدل وفرّق أموالاً جليلة المقدار.

ذكر مقتل الوزير أبي جعفر بن محمد المعروف بابن البلدي

قال: ولما علم الوزير بوفاةِ الخليفة سقط في يده وقرع سِنَّه ندَمًا على عوْدِه، وأتاه مَن يستدعيه للجُلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صُرف إلى موضع وقتِل وقُطِّع وأُلقِي في دجلة، وأخذا جميع ما في داره، فرأيا خطوطَ المستنجد بالله يأمره بالقبض عليهما، وخطُّ الوزير وقد راجَعَهُ في ذلك وصرفه عنه، فنَدِما على قتلِهِ.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائةٍ أُقيمت الدعوةُ العباسية بالديار المصرية وخطب للخليفة بها، وانقرضت الدولة العُبَيْدِيَّة المنسوبة إلى العلوية بِخَلْع العاضد لدين الله، وكان ذلك على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله على ما نذكر ذلك مُبَيَّنًا - إن شاء الله تعالى - في أخبار الدولة العُبَيْدِيَّة.

وفيها عزل الخليفة وزيرَه عضد الدين من الوزارة لأن قطب الدين قايماز ألزمه ذلك فلم يمكنه مخالفة، ثم قصد الخليفة إعادتَه في جُمادى الأُولى سنة تسع وستين فثارت الفتنة بين الخليفة وقايماز، وأغلق قايماز باب النوبى وباب العامَّةِ وبقيت دار الخلافة محاصرةً. فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته فقال قايماز: لا أقنع إلا بخروج عضد الدين من بغداد! فأمر بإخراجِهِ منها فالتجأ إلى صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل وهو شيخ الشيوخ وصار في رباطه فأجاره، ثم عاد إلى داره في جُمادى الآخرة.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة زادت دجلة فتجاوزت كلَّ زيادة كانت ببغدادَ منذ بنيت إلى الآن بذراع وكسر. وخاف الناس الغَرَق وفارقوا البلد ونبع الماء من البلاليع، وخُرِّب كثير من الدور وغرق البيمارستان العضدِي، ودخلت المراكب من شبابكيه وكانت قد تقلعت.

وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد ـ وهو الذي صار خليفة ولُقِّب الناصر لدين الله ـ من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده وسَلِما جميعًا فقيل لنجاح: لمَ ألقيتَ بنفسك؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مَوْلاي! فَرَعى له الأمير أبو العباس ذلك فلما صار خليفةً جعله شرابيًا وحكّمه في الدولة ولقّبه الملك الرحيم عز الدين وخَدمه جميع أُمراء العراق.

وفيها في شهر رمضان وقع ببغداد بَرَدٌ كِبار ما رأى الناس مثلَه فهدم الدُّور وقَتَل جماعةً من الناس والمواشي، فوُزِنت بردةٌ منه فكانت سبعةَ أرطال، وكان عامتهُ كالنارنج[١] يكسر الأغصان، قال ابن الأثير هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه.

ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد وعود عضد الدين إلى الوزارة

كان سبب ذلك وابتداؤه أن علاء الدين تنامش ـ وهو من أكابر الأُمراء ببغداد ـ وقطب الدين قايماز زَوْج أُختِهِ سيَّرا عسكرًا إلى العراق في شوال سنة سبعين وخمسمائة فَنَهَبُوا النَّاس وبالغوا في أذاهم، فجاء جماعةٌ منهم إلى بغداد واستغاثوا فلم يُغاثوا لِضَعْفِ الخلافةِ وتحكم قايماز وتنامش على الدولة، فقصدوا جامع القصر واستغاثوا ومنَعوا الخطيب من الخطبة فأنكر الخليفةُ ما جرى، فلم يلتفت قايماز وتنامش إلى قَوْله.

فلما كان في خامس ذي القعدة قصد قايماز دارَ ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن ـ وللخليفة به عناية تامة وبينهما صُحبَةٌ ـ فلم يراعِ قايماز الخليفة فيه،

(١) النارنج: فارسي معناه أحمر اللون أو الرمان الأحمر وهو شجر ورقه بالنسبة إلى الليمون وغيره فيه ملاسة طيب الرائحة زهره يحصل في الربيع ويمكن بقاء ثمرته مدة العام وأجوده المستدير الأحمر المحبب القشر الخفيف.. وفي قِشره وورقه تفريح عظيم وفي بزره ودهنه وعروقه التي في الأرض نجاة من السموم الباردة وحماضه يكسر الصفراء وشدة الحرارة والعطش، وقشره يسكن المغص والقيء والغثيان... (تذكرة داود الأنطاكي).

واستدعاه فَهَرَب، فأحرق قطب الدين قايماز دارَه وحالف الأُمراءَ على المساعدة والمعاضدة له، وجمعهم وقَصَدَ دار الخلافةِ لِعِلْمِهِ أن ابن العطار فيها.

فلما علم الخليفة ذلك صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادمًا فصاح وقال للعامة: مالُ قطب الدين لكم ودمُه لي! فقصد الْخَلْقُ كلُّهم دارَ قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المُقام لِضِيق الشوارع، وغلبت العامةُ، فهرب من دارِهِ من باب فتَحهُ من ظهرها لكثرة مَنْ على بابها مِنَ الخَلْق. وخرج مِن بغداد، ونُهِبَتْ دارُه وسُلِبَت نعمته في ساعة واحدة وتبعه تنامش وجماعة من الأُمراء، فنهبت دُورهم وأُحْرق بعضها، وأُخِذَت أموالهم.

وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه مَنِ الْتَحَق من الأُمراء، فسيّر الخليفة إليه شيخ الشيوخ صدر الدين فخَدَعه حتى سار عن الحلة نَحْو المَوْصل على البرّ فَلَحقَه هو ومَنْ معه عَطَشٌ عظيم فهلك أكثرُهم ومات قايماز قبل وصولِه إلى المَوْصل، ودُفن بظاهر باب العمادى وكانت وفاتُه في ذي الحجة. ووصل تنامش إلى الْمَوْصل فأقام مدةً، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد فسار إليها وبقي بغير إقطاع!

قال: ولما هرب قايماز أُعيد عضد الدين إلى الوزارة، وقال بعض الشعراء في قطب الدين قايماز وتنامش بن قماج: [من الكامل]

إنْ كنت معتبرًا بمُلْكٍ زائلٍ ... وحوادثٍ عنقيَّة الإدلاجِ
فدعِ العجائبَ والتواريخ الأُلى ... وانظرْ إلى قَيْمازَ وابنِ قماجِ
عَطَفَ الزَّمان عليهما فسقاهُما ... مِنْ صرفِهِ كأسًا بغير مزاجِ (١)
فتَبَدَّلوا بعد القصورِ وظِلِّها ... ونَعيمها بِمَهَامِهِ وفِجاجِ (٢)
فَلْيَحْذَرِ الباقون من أمثالِها ... نكَبَاتِ دهرٍ خائنٍ مِزْعاجِ

* * *

قال: وكان قطب الدين كريمًا طَلْقَ الوجه، محبًا للعدل والإحسان، كثيرَ البذل للمال، وإنما كان يحمله على ما يقع منه تنامش بغير إرادته.

وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وَلّى الخليفةُ المستضيءُ حَجَبَةَ البابِ أبا نصر علي بن الناقد وكان الناس تلقبه في صغره قنبرًا، فصار الناس يصيحون به بهذا

---

(١) صروف الدهر: حوادثه ومصائبه.
(٢) المهامه: واحدتها المهمة، وهي المفازة البعيدة؛ أو البلد المقفر. والفج: الطريق الواسع البعيد، جمع فجاج.

اللقب إذا ركب. فأمر أن يركبَ معه جماعةٌ من الأتراك يمنعون الناس من ذلك، فامتنعوا فلما كان قبل العيد بثلاثة أيام خُلِع عليه ليركب في الموكب، فاشترى جماعةٌ من أهل بغداد شيئًا كثيرًا من القنابر[(١)] وعزموا على إرسالها في الموكب، فأُنْهِيَ ذلك إلى الخليفة فعزله وولّى ابن المعوج.

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفوي أُستاذ الدار ورتَّب مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب[(٢)].

ذكر مقتل الوزير عضد الدين وولاية ظهير الدين بن العطار

كان مقتلُه رحمه الله في رابع ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، وهو أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وسبب مقتله أنه عزم على الحج وعبر دجلةَ للمسير ومعه أربابُ المناصب وهو في موكب عظيم، وتقدم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحدًا، فلقيه إنسان كهل وقال: أنا مظلوم!

وتقدَّم إليه يسمع كلامَهُ فضربه بسكين في خاصرته، فصاح الوزير: قتلني! ووقع إلى الأرض وسقطت عمامته، فغطَّى رأسَه بكمه وضرب الباطنيَّ بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه بسكين وأقبل صاحبُ الباب ابن المعوج لينصرَ الوزير، فضربه الباطنيُّ بسكين، وقيل بل ضربه رفيق له، وكان له رفيق ثالث فصاح وبيدهِ سكين فقُتِل ولم يصنعْ شيئًا. وأُحْرِقَ الثلاثة، وحُمل الوزير إلى دارٍ له هناك، وحُمِلَ الحاجبُ إلى بيته فمات هو والوزير.

وكان الوزير[(٣)] قد رأى في منامِه أنه يعانق عثمان بنَ عفان، قال ابن الأثير: وحكَى عنه ولدُه أنه اغتسل قبل خروجه وقال: هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك!

---

(١) القنابر: جمع القنبراء، وهي من الطيور التي على رأسها فضل ريش قائمة مثل ما على رأس القنبر... (اللسان مادة قنبر).

(٢) هو مجد الدين بن الصاحب هبة الله بن علي ولي إسناد راية المستضيء ولما ولي الناصر رفع منزلته وبسط يده وكان رافضيًا سبابًا تمكن وأحيا شعار الإمامية وعمل كل قبيح إلى أن طلب إلى الديوان فقتل وأخذت حواصله... (شذرات الذهب ٤: ٢٧٩).

(٣) روى الوزير أبو الفرج عن ابن الحصين وجماعة ووزر للمستضيء وكان جوادًا سريًا معظمًا مهيبًا... (شذرات الذهب ٤: ٢٤٥).

وكان له معروف كثير وكانت داره مجمعًا للعلماء وسمع الحديث، وختمت أعماله بالشهادة وهو على قَصْدِ الحج رحمه الله. ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر بن منصور المعروف بابن العطّار، وكان حسنَ السيرة وتمكن تَمَكُّنًا عظيمًا.

ذكر فتنة ببغداد وهَدْم بيعة اليهود

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة كانت الفتنة ببغداد، وسببها أن قومًا من مسلمي المدائن حضروا إلى بغداد وشَكَوْا من يهود المدائن وقالوا: لنا مسجد نؤذِّن فيه ونصلِّي وهو مجاور لِبِيْعَة اليهود، فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بِكَثْرَةِ الأذان وأنهم اختصموا هم والمؤذن، وكانت فتنة استظهر فيها اليهودُ. فلما شَكوْا أَمَرَ ابنُ العطَّارِ بِحَبْسِهِم فَحُبِسُوا، ثم خرجوا فقصدوا جامعَ القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفَّف الخطيبُ الخطبةَ والصلاةَ، فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعةٌ من الجند ومنعوهم، فغضب عامة بغدادَ لذلك واستغاثوا، وخلعوا طوابيق[1] الجامع ورجموا الجُنْدَ بها، ثم قصدوا دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهودٌ فنهبوها. فأراد حاجبُ الباب مَنْعَهم فرجموه فهرب منهم، وضربوا الكنيسةَ التي عند دار البساسيري، وأحرقوا الورقَ الذي فيها الذي يزعم اليهود أنه التوراة. واختفى اليهودُ فأمر الخليفةُ بنَقْض الكنيسة التي بالمدائن وتُبنَى مسجدًا ونُصِبَ بالرحبةِ أخشاب لِيُصْلَبَ عليها أقوامٌ من المفسدين فظنَّها العامةُ تخويفًا لهم لأجْلِ ما فعلوه باليهود، فجعلوا عليها جرذانًا ميتة، فأُخْرِج جماعةٌ من الحبس من اللصوص فصُلِبوا عليها وسكنت الفتنة!.

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله

كانت وفاته لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ومولده في سنة ستٍّ وثلاثين، وكان عمره أربعين سنة تقريبًا، ومدة خلافته تِسْعُ سنين وسبعة أشهر إلا أيامًا. وكان رحمه الله عادلاً حسنَ السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليمًا، قليل المعاقبة على الذنوب، محبًّا للعفو والصَّفح عن المذنبين، وأولاده أبو العباس أحمد وأبو منصور هاشم.

---

(١) الطوابيق: جمع الطابق: الآجر الكبير.

ذكر خلافة الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وأمُّه أُمُّ ولدٍ تركية اسمها زمُرُّد وهو الخليفة الرابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالْبَيعَةِ العامَّةِ في يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقام له بالبيعة ظهيرُ الدين بن العطار وبايع له، فلما تَمَّتِ البيعةُ صار الحاكم في الدولة أُستاذ الدار مجد الدين الصاحب، وسيَّر الرسل إلى الآفاق يأخذ البيعة له.

ذكر القبض على ابن العطار وموته

وفي سابع ذي القعدة قبض على ظهير الدين بن العطار الوزير وَوُكِلَ به في داره، ثم نقل إلى التاج وقُيِّد وأُخِذَت أمواله وطُلِبَتْ ودائعُه وأُخرج ميتًا في ليلة الأربعاء ثاني عشر الشهر على رأس حمَّال. فغمز به بعضَ الناس فثار به العامَّةُ وألْقَوْه عن رأْس الحمال وكشفوا عن سَوْأته، وشدُّوا في ذكره حَبْلاً وسحبوه في البلد وكانوا يضعون بيده مغرفة ويقولون: وقع لنا مولانا! إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة، ثم خلص منهم ودفن.

قال: وفعلوا به هذه الأفعال القبيحَة مع حُسْن سيرته فيهم وكَفِّه عن أموالهم وأعراضهم.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور وأخْذِ المفسدات، فبينما امرأة منهن في موضع علمت بمجيء الحاجب فاضطجعت وأظهرت أنها مريضةٌ وارتفع أنينها، فرأوْها على ذلك فانصرفوا عنها، فهمّت بالقيام فلم تستطع وعجزت وجعلت تصيح: الكرب الكرب! إلى أن ماتت.

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قَبَضَ الخليفةُ على أُستاذ الدار مجد الدين أبي الفضل بن الصاحب وقَتَلَه، وكان قد تحكَّم في الدولة ليس للخليفةِ معه حُكْمٌ. وكان الذي سَعَى به عند الخليفة وقَبَّح آثاره رجلٌ من صنائعه وأصحابِه يقال له عبيد الله بن يونس فقبض عليه الخليفة وقتله، وأخذ أمواله وكانت عظيمة. وكان رحمه الله حسن السيرة، واستوزر الخليفة بعدَه أبا المظفر عبيد الله بن يونس في شوال، ولقبه جلال الدين، ومشى أكابرُ الدولة في ركابه حتى قاضِي القضاة، وكان ابن يونس هذا من شهوده، فكان يمشي ويقول: لَعَنَ الله طول العمر!.

ذكر انهزام عسكر الخليفة من طغرل

كان طغرل السَّلجُقي قد قوِيَ أمره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكثر جَمْعُه، وأرسل إلى بغداد يقول: أُريد أن يتقدم إليَّ الديوان بعمارة دار السلطنة لأنْزلَ فيها إذا قدمت! فرد الخليفة رسولَه بغير جواب، وأمر بنَقْض دار السلطنة فَهدِّمَتْ إلى الأرض وعفى أثرها ووصل رسولُ قزل ـ وهو صاحب أران[١] وأذربيجان وهمذان وأصفهان والريّ وما بينهما ـ ببذل الطاعة والخدمة ويستنجد الخليفةَ على طغرُل، فأكرم الخليفةُ رسولَه ووعدَه بتجهيز العساكر إليه، وجهَّزَها في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وقدم عليها الوزير جلال الدين عبيد الله بن يونس وسيّرهم لمساعدة قزل وكف السلطان طغرل عن البلاد، فسار العسكر في ثالث صفر إلى أن قارب همَذان، فلم يصل قزل إليهم. وأقبل طغرل في عساكره، والتقوا في ثامن شهر ربيع الأول بمرج عند همذان، فلم تثبت عساكر الخليفة وانهزمت، وبقي الوزيرُ قائمًا ومعه مصحف وسيف، فأُسِر وأُخذ ما معه من خزانة وسلاح وغيره، وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين.

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة خُطِبَ لولي العهد أبي نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد، ونثرت الدنانيرُ والدراهمُ، وأُرْسِلَ إلى البلاد في إقامة الخطبة له.

وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت، وسبب ذلك أن صاحبَها الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعَة بعده، فسيّر الخليفةُ إليهم عسكرًا فحصروها وتسلموها، ودخل أصحابُها إلى بغداد فأُعطوا إقطاعًا.

وفي سنة سِتٍّ وثمانين وخمسمائةٍ في شهر ربيع الأول ملك الخليفةُ الناصر لدين الله حديثة عانة، وكان قد سيَّر إليها جيشًا في سنة خمس وثمانين وخمسمائة فحاصروها وقاتلوا عليها شديدًا، وقتل من الفريقين خلْقٌ كثير، ودام الحصار فضاقتِ الأقواتُ على أهْلِها، فسلموها على إقطاع عَيَّنوه، ووصل صاحبُها وأهلُها بغدادَ وأُعطوا إقطاعًا ثم تفرّقوا في البلاد، واشتدت بهم الحاجةُ حتى تعرَّض بعضهم للسؤال وبعضهم خدَمَ الناسَ.

---

(١) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة، وهي التي تسميها العامة كنجة، وبرذعة، وشمكور، وبيلقان، وبين أران وأذربيجان نهر يقال له الرس، كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال، فهو من أران... (معجم ياقوت).

وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة أمر الخليفةُ الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونَقَل إليها من الكتب النفيسة أُلوفًا لا يُقْدَرُ على مِثلِها.

وفيها في شهر ربيع الأول كملت عمارة الرباط الذي أمر الخليفة بإنشائه بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة.

وفيها ملك الخليفةُ قلعةً من بلاد خوزستان، وسبب ذلك أن صاحبَها سوسيان بن شملة جعل عليها دِزدَارًا فأساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله وأرسل إلى الخليفة، وأرسل إليها وملكها.

وفيها انْقَضَّ كوكبان عظيمان بعد طلوع الفجر واصطدما وسمع صوت هدَّة عظيمة وغلب ضوؤهما ضوءَ القمر والنهار.

وفي سنة تسعين وخمسمائة قتل السلطان طغرل السلجقي في حرب كانت بينه وبين خوارزم شاه علاء الدين، وملك خوارزم شاه البلاد.

ذكر ملك الخليفة خوزستان

وفي سنة تسعين أيضًا خَلَع الخليفة الناصر لدين الله على نائب الوزارة مؤيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب خِلَعَ الوزارةِ، وسار في شهر رمضان من السنة إلى بلاد خوزستان بالعساكر. وقد كان قد خَدَم بها أولاً وعرفها، فلما ولي نيابة الوزارة ببغداد أشار على الخليفة الناصر لدين الله أن يرسلَه بعسكر ليملكها. واتَّفَق وفاة صاحِبها ابن شملة التركماني واختلاف أولاده، فأرسل بعضُهم إلى مؤيد الدين يستنجده، فَقَوِيَ طَمَعُهُ فيها، فسار إليها ودخلها في سنة إحدى وتسعين، وملكها في المحرّم منها، وملك غيرها من البلادِ والقلاع: منها قلعة الناظر، وقلعة كاكرد، وقلعة لاموج، وغيرها من القلاع والحصون، وأنفذ بني شملَة التركماني أصحاب خوزستان إلى بغداد فوصلوا في ربيع الأول.

ذكر ملك الوزير همذان وغيرها من بلاد العجم

قال: ثم ملك الوزير مؤيد الدين المذكور همذان في شوال سنة إحدى وتسعين وخمسمائة من عسكر خوارزم شاه وولده، فتوجه الخوارزميون إلى الرَّيِّ فتبعهم الوزيرُ

ففارقوها من غير قتال وتوجهوا إلى دامغان وبِسْطام[١] وجرجان. فعاد عسكرُ الخليفة إلى الريّ فأقاموا بها، ثم رحل الوزيرُ إلى همَذان فأقام بها نحو ثلاثة أشهر وأتته رسلُ خوارزم شاه بِطَلَب إعادة البلاد وتقرير قواعد الصلح فلم يُجِبِ الوزيرُ إلى ذلك. فسار خوارزم شاه محمد بن تكش إلى همذان فوجد الوزير قد توفي في شعبان، فوقع بينه وبين عسكر الخليفة الناصر لدين الله مصافٌ في نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين، فقُتِل من العسكرَيْن خلقٌ كثير، وانهزم عسكرُ الخليفة، وغنم الخوارزميون منهم شيئًا كثيرًا، وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزيرَ وقطع رأْسَه وسيّره إلى خوارزم وأظهر أنه قتله في المعركة، ثم رجع خوارزم شاه إلى خراسان لموجب عَرَضَ له.

ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان

وفي سنة إحدى وتسعين جَهَّزَ الخليفةُ جيشًا وسيَّره إلى أصفهان، ومقدم الجيش سيف الدين طغرل فقطع بلد اللحف[٢] من العراق، وكان بأصفهان عسكر الخوارزم شاه مع ولده، وأهل أصفهان يكرهونهم. فكاتب صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية الديوانَ العزيزَ ببغداد يبذل من نَفْسِه تسليمَ البلد إلى مَنْ يصل إلى الديوان العزيز بالعسكر. فلما وصلت العساكر ظاهر أصفهان فارقها العسكر الخوارزمي إلى خراسان وتبعهم عسكرُ الخليفة، فأخذوا من قدروا عليه من ساقةِ العسكر، ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملَكوها.

قال: واجتمع مماليك ابن البهلوان وقدَّموا على أنفُسِهم كوكجه وهو من أعيان البهلوانية، واستولوا على الريِّ وما حَوْلَها من البلاد، وساروا إلى أصفهان لإخراج الخوارزميةِ منها، فسمعوا بوصول عسكر الخليفة إليها. فأرسل إلى طغرل مملوك الخليفة يعرضُ نفسَه على خدمة الديوان وأظهر العبوديةَ وأنه إنما قصد أصفهان في طلب العسكر الخوارزمي، وأنه ساق في طلبهم فلم يدركهم.

قال: ثم سار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان، وساق كوكجه خَلْفَ العسكر الخوارزمي إلى بلاد الإسماعيلية، وعاد فقصد أصفهان وملكها. فأرسل إلى بغداد يسأل أن تكون له الريّ وجواره وساوة[٣] وقم وقاجان وما ينضم إليها، وتكون

---

(١) بسطام: مدينة كبيرة على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين وهي بقومس.

(٢) اللحف: هو واد بالحجاز يقال له لحف عليه قريتان جبلة والستارة... واللحف: صقع من نواحي بغداد سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند وتلك النواحي.

(٣) ساوة: مدينة بين الريّ وهمذان في وسط وأهلها سنية شافعية... (معجم ياقوت).

أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة. فأُجيب إلى ذلك، وكتب منشوره بما طلب، وأُرسِلت إليه الخلع، فعظم شأنه وقَوِيَ أمرُه وكثُرت عساكره.

وفي سنة إحدى وستمائة يوم الجمعة رابع عشر جُمادى الآخرة قُطِعَت خطبة وليِّ العهد أبي نصر ابن الخليفة الناصر لدين الله، وذلك أنه أظهر خَطَّه بدار الوزير نصير الدين الرازي إلى أبيه يتضمن الْعجْز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الإقالة، وشَهِدَ عَدلان أنه خطه وأن الخليفة أقاله، وعُمِل بذلك محضر شَهِدَ فيه القضاة والعلماء والعدول والفقهاء.

وفي سنة أربع وستمائة عُزِل وزير الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي، وكان من أهل الدين. قدم إلى بغداد لما مَلَك الوزير ابن القصَّاب الرَّيَّ، فَلَقِيَ نصير الدين من الخليفة قبولاً فجعله نائب الوزارة، ثم استوزره وجعل ابنَه صاحبَ المخزن. فلما كان في الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة، عُزل وأُغلق بابُه. وسبب عَزْلِه أنه ساءات سيرته مع أكابر مماليك الخليفة حتى هَرَبَ من يده أميرُ الحج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع إلى الشام في سنة ثلاثٍ وستمائةٍ وكتب إلى الخليفة أن هذا الوزير لا يُبقي في خدمة الخليفة أحدًا من مماليكه، ولا شك أنه يريد أن يدَّعي الخلافة، وأكثرَ النَّاسُ الْقَوْلَ في ذلك وقالوا فيه الشعر، فمنه قول بعضهم: [من الطويل]

ألا مبلغٌ عنِّي الخليفة أحْمَدًا ... تَوَقَّ وُقِيتَ السُّوءَ ما أنت صانعُ
وزيرُك هذا بَيْنَ أمرَيْنِ فيهما ... فَعالُك يا خيرَ البَريَّةِ ضائِعُ
فإن كان حقًّا من سُلالةِ أحمدٍ ... فهذا وزيرٌ في الخلافةِ طامِعُ
وإنْ كان فيما يَدَّعِي غيْرَ صادقٍ ... فَأَضْيَعُ ما كانت لَدَيه الصَّنائعُ

فعزله، وقيل في سبب عَزْلِه غير ذلك. ولما عزل عاد أمير الحج من مصر وعاد قشتمر، وأُقيم في نيابة الوزارة فخر الدين أبو المنذر محمد بن أمسنا الواسطي إلا أنه لم يكن متحكمًا.

وفيها أطلق الخليفةُ جميع حقّ البيع، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات، وكان مبلغًا كبيرًا. وسبب ذلك أن ابنة عز الدين نجاح الشرابي توفيت فاشْتَرى بقرةً لتذبح ويتصدق بلحمها، فرفعوا في حسابها مؤونة البقرة ـ وكانت كثيرة ـ فوقف الخليفةُ على ذلك، فأمر بإطلاق المؤونة جميعًا.

وفيها في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور بمحال بغداد يفطر فيها الفقراء وسُمِّيت دور الخلافة.

وفي سنة ستٍّ وستمائة في شهر ربيع الأول عُزل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة، وأُلزِم بيتَه، ثم نُقِلَ إلى المخزن، وولي بعده لنيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن القمي كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين، ونقل إلى دار الوزارة.

وفي سنة اثنتي عشرة وستمائة في العشرين من ذي القعدة توفي الملك المعظم أبو الحسن علي ولد الخليفة الناصر لدين الله - وهو الولد الصغير - فحصل للخليفة عليه ألم عظيم لم يسمع بمثله، وأمر الخليفةُ أن لا يعزُّوه به وكانت له جنازة عظيمة لم يُسْمَعْ بمثلها، ولم يبقَ ببغداد منزل إلا وفيه نَعْيٌ.

ذكر وفاة الناصر لدين الله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في آخر ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكانت عِلَّته عشرين يومًا إصابةَ دوسنطاريا[١]. وكانت مدة خلافته ستًّا وأربعين سنةً وعشرة أشهر وثمانيةَ وعشرين يومًا، قال ابن الأثير: وكان قبيح السيرة في رعيته ظالمًا، فَخُرِّبَ في أيامه العراقُ وتفرَّق أهله في البلاد، فأخذ أموالهم وأملاكَهم. وكان كثير التلَوُّن يفعل الشيء وضِدَّه، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ثم قَطَعها، ثم عمل دارًا لضيافة الحج وأبطلها، وأطلق بعضَ المكوس التي جددها ببغداد ثم أعادها، وجعلَ جُلَّ همه في رمْي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفُتُوَّة، وبطل الفتوة من البلاد أجمع إلا من لَبِس منه، ومنع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيورِهِ، ومنع من الرَّمْي بالبندق إلا من ادَّعى له وانتسب إليه. فأجابه النَّاسُ إلى ذلك إلا رجلًا واحدًا يقال له ابن السفت فإنه فارق العراق والتَحق بالشام فأرسل إليه يرغبه بالمال الجزيل ليرمي عنه وينتسب إليه فأبى. فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك فقال: يكفيني افتخارًا أنَّ كل رام في الدنيا رمى الخليفة إلا أنا! والعجم ينسبون إلى الناصر أنه هو الذي راسل التتار وجرَّأهم على البلاد، وهذه المصيبة العظمى إن كانت!.

---

(١) دوسنطاريا: يونانية معناها إسهال الدم وأكثرهم يذكر هذه العلة في أمراض الكبد لا لاختصاصها بل لخطرها هناك وبعضهم يذكرها في الأمعاء... وبالجملة فيه علة خطرة لمضادتها الحياة في إخراج الدم الذي به القوام... (تذكرة داود الأنطاكي).

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، وهو الخليفة الخامس والثلاثون من الخلفاء العباسيين. بويع له البيْعة العامَّةَ بعد وفاة والده الناصر لدين الله في شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان قد خلع من ولاية العهد وقطِعت خطبتُه كما تقدّم، وإنما فعل ذلك أبوه لِميْلِهِ إلى ولده الصغير، فلما مات اضطُر إلى إعادته لولاية العهد.

قال: ولما ولِيَ الخلافةَ أظهر العدْل والإحسان وأمر بإبطال المظالم وكَفِّ الأيْدِي عن الناس، وأعاد على الناس ما كان أبوه قد اغْتصبه من أموالِهم وأملاكهم، وأبطل المكوس والحوادث. فمن ذلك أن المخزن كان له صنجة[1] للذهب تزيد على صنجة البلد نصْف قيراط في الدينار، فيقبضون بها المال ويصرفون بصنجة البلد، فسمع بذلك فخرج خطه للوزير أوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ١ ـ ٥] قد بلغَنا الأمر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصحيحة المتعامل بها. فكتب إليه بعض النواب يقول «إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فكان في السنة الماضية خمسةً وثلاثين ألف دينار» فأعاد عليه الجواب بالإنكار ويقول: لو كان ثلاثمائة ألف دينار وخمسين ألفًا يطلق! وأطلق زيادةَ صنجة الديوان وهي في كل دينار حبة، وتقدم إلى القاضي أنَّ كل من عرض كتابًا قديمًا بمِلْكٍ صحيح يعيده إليه من غير إذْنِهِ. وأقام رجلاً صالحًا لولاية الحشري وبيت المال وكان حنبليًّا فقال: إن مذهبي أن أُورث ذي الأرحام فإن أذن أميرُ المؤمنين أن أفعلَ ذلك ولِيتُ وإلا فلا! فقال أعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه واتَّق اللّهَ ولا تَتَّقِ سواه! وأبطل مطالعات حراس الدروب ببغداد بأخبارِ الناس وقال «لا يُكتب إلينا إلا فيما يتعلق بمصالح دولتنا».

ومنه أنه لما وَلِيَ الخلافةَ وصل صاحبُ الديوان من واسطٍ وكان وُجِّه في خلافةِ الناصر لتحصيل الأموال، فأحضر ما يزيد على مائةِ ألف دينارٍ وطالع بذلك، فأعاد الخليفة الظاهر الجواب بإعادة المال إلى أربابه، فأُعيد إليهم. وأطلق مَنْ كان في السجون وأمر أن يُحمل إلى القاضي عشرة آلاف دينار يوفي بها دَيْنَ مَنْ هو في سِجْنِ الحاكم على شيءٍ يعجز عنه. وتصدَّق في ليلة عيد الفطر وفرَّق في العلماء وأهل الدين مائةَ ألف دينار، ولم تطُل مدَّتُه في الخلافة.

(١) الصنجة أو السنجة: ما يوزن به كالرطل والأوقية.

وكانت وفاتُه في رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فكانت مدةُ خلافته منذ أفضى إليه الأمر تسعة أشهر وأربعة عشر يومًا. قال: وأخرج قبل وفاته توقيعًا بخطِّه إلى الوزير ليقرأه على أرباب الدولة فقال الرسول: إنَّ أميرَ المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال بَرَزَ مرسومٌ أو نَفذ مثال لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعَّال أحوجُ منكم إلى إمام قوَّال! فقرأ المرسومَ فإذا فيه بعد البسملة «اعلموا أنه ليس إمهالُنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن نبلوكم أيكم أحسن عَمَلاً، وقد غفرنا لكم ما سَلف من إخراب البلاد وتشريدِ الرعايا وتقبيحِ الشنعة وإظهارِ الباطل الجَلِيِّ في صورةِ الْحَسَن الْخَفِيِّ حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاءً واستدراكًا لأغراض انتهزتم فرصَته مختلسةً من براثن لَيْثٍ باسلٍ وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أُمناؤه وثقاته فتميلون إلى هواكم، وتمزجون باطِلَكم بِحَقِّه فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون. والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنًا، وبفقركم غِنًى، وبباطلكم حقًّا. ورزقكم سلطانًا يُقيل الْعَثرةَ ولا يؤاخِذ إلا مَنْ أصرَّ، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأْمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجَوْر وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مَكْرَه ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأُمنائه على خلقه وإلاَّ هلكتم، والسلام» قال: ووجد في داره رقاع مختومة لم يَفْتَحها فقيل له: ما عليك لو فتحتها! فقال: لا حاجة لنا فيها كلها سعايات!.

ذكر خلافة المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور ولُقِّب في خلافته بالمستنصر بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، وهو الخليفة السادس والثلاثون من الخلفاء العباسيين. بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله في رابع عشر شهر رجب سنة ثلاثٍ وعشرين وستمائة، فسلك من العدل والخير والإحسان مسلك والده، ونادَى بإفاضة العَدْلِ وأن يطالع الناس بحوائجهم. ولما كان أول جمعة أتت في خلافته أراد أن يصلّي الجمعة في المقصورة التي يصلّي فيها الخلفاء فقيل له إن المطبق الذي يَسْلُك إليها فيه خَراب لا يُسْلَك فركب فرسًا وسار إلى الجامع ظاهرًا للناس بخادم وركاب دارٍ وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير، ولم يترك أحدًا يمشي في خُدْمته. وكذلك فعل في الجمعة الثانية حتى صلح المطبق!

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة كانت وقعةٌ بين التتار وعساكر الخليفة، وكان مقدم العسكر الخليفتي[١] جمال الدين بكلك الناصري. وقتل من الطائفتين خلق كثير، فانهزم عسكر الخليفة وهو أول مصاف كان بين التتار وعسكر الخلفاء، ودامت أيام المنتصر إلى سنة أربعين وستمائة.

وكانت وفاتُه بكرةَ يوم الجمعة لعشر خَلَوْن من جُمادى الآخرة منها، وكان سبب وفاتِه أنه فُصِد بمبضعٍ مسموم فَتُوفي. وكانت مُدَّة خلافته سبعَ عشرةَ سنةً إلا ثلاثةً وثلاثين يومًا، وكان الناسُ في زمن خلافته في شُغْلٍ شاغلٍ عن ضبط أيامه بالتاريخ، لما دَهَمَهم من حادثة التتار. فلذلك اخْتَصَرْنا أيامَه وسترد أخبارُ التتار وخروجُهم وما اسْتَوْلَوْا عليه من الممالك وما فعلوه بأهل البلاد مبيَّنًا عند ذكرنا للدولة الخوارزمية والجنكزخانية إن شاء الله تعالى.

ذكر خلافة المستعصم بالله

هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصرٍ محمدِ بنِ الناصر لدين الله أبي العباس أحمدَ بن المستضيء بأمر الله أبي محمدِ الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله بنِ المستظهر بالله أبي العباس أحمدَ بنِ المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله ابن ذخيرةِ الدِّين أبي العباس أحمدَ بنِ القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بنِ الموفق بالله أبي أحمد طلحة - وهو الملقَّب بالناصر - ولم يَلِ الخلافة - ابن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه ابن عبد المطلب، وهو الخليفة السابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في يوم الجمعةِ لِعَشْر خلون من جُمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة.

وكان مُتَدَيِّنًا متمسكًا بمذهب السُّنَّةِ والجماعةِ، وحَسَّنَ له أصحابه جَمْعَ الأموال والاقتصار على بعْضِ مَنْ ببغداد من الجنْد، وقَطْعَ الباقِي، ومسالمَةَ التتارِ وحَمْل

---

(١) نسبة إلى الخليفة، وهي نسبة خطأ، ولكن جمهور المؤرخين يصطلح عليها ويأخذ بها. . . (شذرات الذهب ٥: ١٧٠).

القطيعةِ[١] إليهم ليكفُّوا عنهم، وقالوا له: هؤلاء ملكوا معظمَ بلادِ الإسلام ولم يقفْ أحدٌ من الملوك أمامهم»! فأذعن إلى ذلك.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وستمائة قصد التتار بغدادَ، حتى انْتَهوْا إلى ظاهرها ونهبوا ما مَرُّوا عليه من البلاد، فخرجت إليهم العساكر الخليفتية فأجَّجوا النيران بالليل ورحلوا، ودامت أيام المستعصم بالله إلى أن ملك التتار بغدادَ.

ذكر مقتل المستعصم بالله وانقراض الدولة العباسية واستيلاء هولاكو على بغداد

كان مقتله في العشرين من المحرم سنةَ سِتٍّ وخمسين وستمائةٍ عندما اسْتوْلى هولاكو على بغداد على ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار. ولما ملك هولاكو بغدادَ أحضر الخليفةَ المستعصم بالله وأمر أن يُجْعَل في عِدْلٍ[٢] ويداسَ بأرجُلِ الخيل حتى يموت، ففعل به ذلك. ومن عادة التتار أن لا يسفكوا دماءَ الملوك والأكابر، وسَبي كلَّ مَنْ حواه قصر الخلافة من الحريم، واستولى على ذخائر الخلفاء، ونُهبت بغداد، وبذلوا السيف فيها سبعةَ أيامٍ متوالية ثم رُفع في اليوم الثامن. وكانت خلافة المستعصم بالله خمسةَ عشرَ سنةً، وسبعةَ أشهُر، وعشرةَ أيام. وكان الذي بعث هولاكو على قَصْدِ بغداد أنّ الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي كان شيعيًا والشيعةُ يسكنون بالكرخ وهي محلة مشهورة بالجانب الغربي من بغداد، فأحدث أهلها حَدَثًا فأمر الخليفة بنَهْبِهِمْ فَنَهبهمُ العَوَامُ، فوجِد[٣] الوزير لذلك وكاتب هولاكو، وأخذ في التدبير على الخليفة وقطع أرزاق الجند، وأضْعَفَهُم حتَّى تَمَكَّنَ التتارُ من أخْذِ البلاد.

قال: ولما فتح هولاكو بغداد وأحضر الوزير المذكور فقال: كيف كانت حالُك مع الخليفة؟ فذكر ما كان عليه من التقدُّم ونفاذِ الكلمةِ وكثرةِ الأتباع وأنه كان يركب في جمع عظيم، فقال: إذا كان هذا فعلك في حقٍّ من قَدَّمَك وأحْسَنَ إليك كيف يكون منك معنا؟ وأمر بقتله. وقيل استبقاه وأنَّ امرأة رأته في يوم وهو على برذون ليس معه أحد فنظرت إليه وقالت: يابن العلقمي هكذا كنت في أيام أمير المؤمنين؟.

---

(١) المراد بالقطيعة هنا ما اقتطع من المال.

(٢) العدل: الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما.

(٣) وجد عليه: حزن وغضب.

جامع أخبار خلفاء الدولة العباسية بالعراق ومن ولي منهم ومدة خلافتهم

وَلِيَ منهم بالعراق سبعةٌ وثلاثون خليفةً وهم: أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وهو السفاح، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله أخوه، ثم المهدي أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور، ثم ابنه الهادي أبو محمد موسى، ثم أخوه الرشيد أبو محمد هارون، ثم ابنه الأمين أبو عبد الله محمد، ثم أخوه المأمون أبو العباس عبد الله، ثم أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد وهو أول مَنْ أضاف إلى لقبه اسم الله عَزَّ وجل، ثم ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون، ثم أخوه المتوكل على الله أبو الفضل جعفر، ثم ابنه المنتصر بالله أبو جعفر محمد، ثم المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله، ثم المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل، ثم المهتدي بالله أبو عبد الله محمد بن الواثق، ثم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله، ثم المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل، ثم المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد، ثم المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد وخلع مرتين فالأُولى بويع لابن المعتز والثانية بويع للقاهر، ثم القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد، ثم الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر، ثم المتقي لله أبو إسحاق إبرهيم بن المقتدر، ثم المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي، ثم المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر، ثم الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع، ثم القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ثم القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر، ثم المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله ابن ذخيرة الدين أبي العباس أحمد بن القائم، ثم المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي، ثم المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر، ثم الراشد بالله أبو العباس جعفر المنصور بن المسترشد، ثم المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر، ثم المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي، ثم ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، ثم ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد، ثم ابنه الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، ثم ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، ثم ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله.

وكانت مدَّة خلافتِهم منذ بويع أبو العباس السفاح وإلى أن قتل المستعصم بالله خمسمائةَ سنةٍ وثلاثًا وعشرين سنةً وعشرةَ أشْهُرٍ وستةَ أيامٍ وانقرضتِ الدَّوْلَة العباسية وانْقَطعَتْ دعوتهم من سائر أقطار الدنيا ثلاث سنين وخمسةَ أشْهُرٍ وعشرين يومًا إلى أن عادت بالدِّيار المصرية المحروسة في الدولة الظاهرية.

ذكر عود الدولة العباسية وقيامها بالديار المصرية المحروسة

ذكر خلافة المستنصر بالله

هو أبو العباس أحمد بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، بويع له بالخلافة بالدِّيار المصرية في التاسع من شهر رجب سنةَ تسع وخمسين وستمائة. وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في هذا اليوم، فركبَ السُّلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرسٍ للقائه في موكبٍ مشهودٍ، وأنزله بِقَلْعَةِ الجبل[(١)] وأمر بإثبات نَسَبِه. وحضر الأُمراء والوزير وقاضِي القُضاة ونُوَّابُ الحُكم والفقهاءُ والصلحاءُ وأكابرُ المشايخ وأعيانُ الصوفية واجتمعوا بقاعة العمد بقلعة الجبل وأمر السُّلطانُ بإحضار العُرْبان الذين حضروا مع الخليفة فحضروا وحضر خادمٌ من البغاددة فسألوا عنه هل هو أحمد بن الظاهر فقالوا إنه هو!

فشهد جماعة من القضاة الأكابر بالاستفاضة وهم: جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر، والفقيه علم الدين بن رشيق صدر الدين مرهوب الجزري، ونجيب الدين الحراني، وسديد الدين التزمنتي[(٢)] نائب الحكم بالقاهرة.. أنه هو فأسجل قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز[(٣)] وحَلف على نَفْسِهِ بِثبوت نَسَبِه وهو قائم على قدميه، ولقِّب المستنصر بالله على اسم أخيه. وبايعه السلطان على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، والجهادِ في سبيل الله، وأخذِ الأموال بحقِّها وصَرْفِها في مستحقِّها، ثم بايعه النَّاسُ على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم.

ولمّا تَمَّتْ بيعته قَلَّدَ السلطانَ البلادَ الإسلامية وما يضافُ إليها وما يفتحه اللّهُ تعالى على يديه من البلاد، وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأَخْذِ البيعة له، وأن يُخْطَبَ باسمه على النابر، وتُنْقَشَ السِّكَّةُ باسمه واسم السلطانِ. وخطب الخليفةُ

---

(١) الجبل: كورة بحمص... والجبل: اسم جامع لهذه الأعمال التي يقال لها الجبال.. والعامة في أيامنا يسمونها العراق، وقد نسب إليها خلق كثير.. والجبل: موضع بالأندلس نسبوا إليه محمد بن أحمد الجبلي الأندلسي... (معجم البلدان).

(٢) نسبة إلى تزمنت: وهي قرية من عمل البهنسا على غربي النيل من الصعيد.

(٣) هو قاضي القضاة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المصري الشافعي، صدر الديار المصرية ورئيسها. كان ذا ذهن ثاقب وحدس صائب وعقل ونزاهة وتثبت في الأحكام... (شذرات الذهب ٥:٣١٩).

بالناس في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب بجامع القلعة، ونُثرت عليه الدنانيرُ والدراهمُ، وخَلَعَ على السلطان وطوّقه[١] يوم الاثنين.

واستخدم السلطان للخليفة من يحتاج إليه من أرباب الوظائف فجعل الأمير سابق الدين بوزبا أتابك العسكر، وكتب له بألف فارس وجعل الطواشي بهاء الدين صندل شرابيا وكتب له بخمسمائة فارس والأمير ناصر الدين محمد بن صريم خزندارا وكتب له بمائتي فارس، والأمير نجم الدين أُستاذ الدار وكتب له بخمسمائة فارس، والأمير سيف الدين بلبان الشمسي داوادارًا وكتب له بخمسمائة فارس. وأمر جماعةً من العربان بالطبلخانات واشترى للخليفة مائةَ مملوكٍ جعلهم جمدارية وسلحدارية وأعطى كلاً منهم ثلاثة أرؤس خيلٍ وجملاً لعدته. واستخدم له صاحبَ ديوان وكُتَّابَ إنشاءٍ وأئمةً ومؤذنين، وحكماء وجرائحية[٢]، وغلمانًا. وكَمَّلَ له البيوتاتِ وجهّزهُ وجهّزَ معه ملوك الشرق الذين كانوا قد وصلوا إلى السلطان وهم: الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك الرحيم صاحب الموْصِل، وكتب له بالموصل وولاياتها ورساتقها ونصيبين وولاياتها، ودارا وأعمالها، والقلاع العمادية وبلادها، وغير ذلك مما جاوره. وكتب للملك المجاهد سيف الدين إسحاق أخيه بلاد الجزيرة، وكتب للملك المظفر علاء الدين على سنجار وأعمالها التي كانت بيده. وأرسل إليهم الطبلخانات والسناجق، وتقدم إليهم بسفرهم صُحْبتَه إلى الشام ليُجَهِّزَهم إلى مستقرهم صحبَةَ الخليفة.

ذكر مسير الخليفة المستنصر بالله إلى بلاد الشرق وقتله

قال: وتوجه الخليفة والسلطان والملوك إلى الشام في سادس شوال من السنة، وكان مبلغ النفقة على الخليفة والملوك ألف ألفِ دينارٍ وستين ألف دينار عينًا، ووصلوا إلى دمشق. ونزل الخليفة بجبل الصالحية[٣] في برية الملك الناصر، وجرد

---

(١) كان رسم الخلعة يتضمن تسليم الطوق المذهب ليوضع في العنق، والقيد للقدم وهو من الذهب أيضًا. . . (راجع البداية والنهاية ١٣: ٢٣٢).

(٢) الجرائحية: يراد بها الجراحون.

(٣) الصالحية: قرية قرب الرها من أرض الجزيرة. . وقيل: قرية قرب الرقة. . . والصالحية أيضًا: محلة ببغداد تنسب إلى صالح بن المنصور المعروف بالمسكين. والصالحية أيضًا: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق وفيها قبور جماعة من الصالحين. . . (معجم البلدان).

السلطان عسكرًا صحبه الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي وشمس الدين سنقر الرومي وودع السلطان الخليفة والملوك وسفرهم وأوصى الرشيديَّ والروميَّ وَمَنْ معهما أن يقيموا بجهة حلب وبر الفرات ومتى طلبهم الخليفة ساروا إليه.

وسار الخليفة من دمشق وعبر الفرات ـ ولم يتأنَّ في أمره ـ فوصل عانة والحديثة. فخرج عليه مقدم من مقدمي التتار اسمه أورداي ومعه نمانا، فالتَقوْا واقتتلوا فاستشهد الخليفة، وقتل أكثر من كان معه.

وأما عن الملك الصالح[1] فإنه دخل الْمَوْصِل وملكها واستقرّ بها، فسار إليه أورداي المذكور وحاصره، وملك البلد، وصلَبه هو وابنه على باب الموصل، وانهزم أخواه الملك المجاهد والمظفر عليّ إلى الديار المصرية، فأقاما بها إلى أن ماتا في الدولة المنصورية السيفية، رحمهما الله.

وانقضت الخلافة، وانقرضت الدَّوْلة العباسية ثانيةً من سائر الأرض، وتعطَّلتِ المنابرُ من ذكرِ دعوتِهِم إلى أن عادت بالديار المصرية أيضًا ببيعة الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد.

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الفتى ابن الحسن ابن الخليفة الراشد بالله بن جعفر المنصور بن المسترشد بالله وقد تقدم نسبه مستوفى. بويع له بالخلافة بالديار المصرية في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة. وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة، فلما كان في هذا اليوم جلس السلطان الملك الظاهر مجلسًا عامًا، وحضر الخليفة راكبًا إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل. وجلس إلى جانب السلطان. وبايعه بعد ثبوت نسبِه كما بايع المستنصر، ثم قلَّد السلطان أمور البلاد والجيوش. وبايَعه النَّاسُ على اختلاف طبقاتِهم، وكان ذلك بحضور الرسل وَمَنْ وَفَدَ من التتار.

وخَطَبَ يومَ الجمعة بجامع القلعة، ثم خَطَبَ مرةً ثانية في ثامن عشر شعبان بحضُور رسُل بركة، ودعا للسلطان وللملك بركة وصلَّى بالناس، وحُجِب عن الناس بِبُرْجٍ في القلعة إلى سنةِ تسعين وستمائة، فأخرجه السلطان الملك المنصور حسام الدين

---

(١) هو ركن الدين إسماعيل ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

لاجين المنصوري من البرج وأسكنه بالمناظِر الصالحيةِ المعروفة بالكبش(١) ووسَّع عليه في رِزْقه ورزق أولادِه.

وحجَّ في هذه السنةِ ورجع، فكان بالمناظر إلى أن مات. وكانت وفاته في الثامن عشرِ من جُمادى الأُولى سنة إحدى وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر الثانية وصلَّى عليه الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأَبُلِّي الصوفي - شيخ الصوفية بمشهد السيدة نفيسة - ودفن بجوار المشهد. وكانت مدة خلافته أربعين سنة وأربعة أشهر، وستة عشر يومًا. وهو أول خليفة دُفِنَ بمصر من الخلفاء العباسيين، رحمه الله.

ذكر خلافة المستكفي بالله

هو أبو الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله وهو الثالث من خلفاء بني العباس بمصر، والخليفة الأربعون من خلفائهم. بويع له يوم وفاةِ والدهِ الحاكم بأمر الله في الثامن عشر من جُمادى الأولى سنَةَ إحدى وسبعمائة وخُطِب له على المنابر وحضَر مع السلطان الملك الناصر مصافَّ مرْجِ الصُّفْر(٢) الذي انْهَزم فيه التَّتَارُ في ثاني شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائةٍ.

واستمر في صحبة السلطان، يركب معه إلى الصيد وإلى الميدان، ويلعب الكرة. وسكن بمناظر الكبش وغيرها من المساكن الحسنة المُتْرفَةِ على نهر النيل، ورتَّب له من النفقات والكساوي وغير ذلك ما يحتاج إليه هو ومَن عنده. وكذلك رتَّب لابن أخيه إبراهيم، ولم يحجرِ السلطان عليهما، بل يركب كلٌّ منهما متى شاء ويزور من شاء.

الباب الخامس
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار الدولة الأموية ببلاد الأندلس

كان ابتداءُ هذه الدولةِ في سنة ثمانٍ وثلاثين، وقيل تسع وثلاثينِ ومائةٍ، في خلافة أبي جعفر المنصور الثاني من الخلفاء العباسيين، وأول مَن ملَكَ بلاد الأندلسِ

---

(١) الكبش والأسد: شارعان عظيمان كانا بمدينة السلام بغداد بالجانب الغربي وهما الآن برّ قفر، وهما بين النصرية والبرية في طرفهما قبر إبراهيم الحربي رحمه الله... (معجم ياقوت).

(٢) مرج الصّفر: بالضم، وتشديد الفاء: بدمشق.. قال خالد بن سعيد بن العاصي وقتل بمرج الصفر:

هل فارس كره النزال يعيرني   رمحًا إذا نزلوا بمرج الصفر

من بني أُمية أبو المظفر عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. وقيل كنيته أبو المطرّف، وقيل أبو سليمان، وقيل أبو زيد، وأُمه بربرية من سبْي إفريقية واسمُها راحُ ولقِّب عبدُ الرحمٰن بالدَّاخل عند دخوله. وكان استيلاء عبد الرحمٰن على الأندلس في سنةِ ثمانٍ وثلاثين ومائة. وقيل تسع وثلاثين. وكان سببُ دُخولِه إليها واستيلائه عليها أنه لما قتل مروان بن محمد، وانقرضت الدولة الأموية، وقتل من قتل من بني أُمية، وتشتتوا في البلاد... كان عبد الرحمٰن هذا بذات الزَّيتون[١] فَفَرَّ منها إلى فلسطين، فأقام بها هو ومولاه بدرٌ يتجسَّسُ له الأخبار، فحكي عنه أنه قال:

«لما أُعطِينا الأمان ثم نُكث بنا بنهر أبي فُطرس[٢] أتاني الخبر وكنت منتبذًا عن الناس. فرجعتُ إلى منزلي آيسًا ونظرت فيما يصلحني وأهلي، وخرجت خائفًا حتى صرتُ إلى قريةٍ على الفرات ذات شجر وغياض. فبينا أنا ذات يوم فيها وولدي سليمان يلعب بين يدي ـ وهو يومئذ ابن أربع سنين ـ فخرج عني ثم دخل عليَّ باكيًا فزعًا، فتعلق بي وجعلت أدفعه، وخرجت لأنظر فإذا بالخَوْفِ قد نزل بالقرية والراياتُ السُّودُ منحطَّةٌ عليها وأخٌ لي حَدَثٌ يقول لي: النجاةَ النجاةَ! فأخذتُ دنانيرَ معي ونجوت بنفسِي وأخي وأعلمت أخواتي بمقصدي وأمرتهنَّ أن يُلْحِقْنَنِي مولاي بدرًا ـ قال ـ وأحاطتِ الخيلُ بالقرية فلم يجدوا لي أثرًا. فأتَيْتُ رجُلاً من معارفي وأمَرْتُه فاشتَرى لي دوابَّ وما يصلحني فَدلَّ عليَّ عبدٌ له العاملَ، فأقبل في خَيْله يطلبني فخرجنا على أرْجُلِنا والخيلُ تبصرنا، فدخلنا الفرات فسبحنا فنجوتُ أنا والخيلُ ينادون بالأمان وأنا لا أرجع وأما أخي فإنه عجزَ عن السباحة في نصف الفرات فرجع إليهم بالأمان، فقتلوه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت ثُكْلَه ومضيتُ وتواريتُ في غَيْضَة حتى انْقطَع الطَّلَبُ عني. وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية، ثم ألحقتني أُختي أُمُّ الإصبع مولاي بدرًا بنَفقَةٍ وجوهرٍ.

قال المؤرخ: ولما بلغ إفريقية كان بها عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري عاملاً لمروانَ بنِ محمد، فَظَنَّ عبدُ الرحمٰن بن معاوية أن ابن حبيب يرعاهم ويحوطهم

---

(١) ذات الزيتون: جبل بالشام كما يقول ياقوت في معجمه.

(٢) نهر أبي فطرس: بضم الفاء، وسكون الطاء، وضم الراء، وسين مهملة: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين، قال المهلبي: على اثني عشر ميلاً من الرملة في سمت الشمال نهر أبي فطرس ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس وينصب في البحر الملح بين يدي مدنيني أرسوف ويافا... (معجم البلدان).

ويحسن مجاورتَهم. فلما علم ابنُ حبيب أن مروان قد قتل وأن أهلَه وولده قد تفرقوا وأن رجالَه قد استأمنوا إلى أعمال أبي العباس السفَّاح طلب لنفسه السلامة، وكتب بالسَّمْع والطَّاعةِ، وأراد قَتْلَ عبد الرحمٰن بن معاوية ومن معه والتقرُّب بهم إلى عمال السفاح. وأرسل في طلبه فهرب منه وأتى مكناسة وهي قبيلةٌ من البربر وعندهم شدة، ثم هرب منهم وأتى نفراوة وهم أخواله. وقيل أتى قومًا من الزناتيين فأحسنوا قبولَه فيهم وأخذوا في التدبير والمكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس يعلمونهم بقدومه ويدعونهم إلى عبد الرحمٰن.

ووَجه بدرًا مولاه إليهم، وكان أمير الأندلس يومذاك يوسف بن عبد الرحمٰن الفِهْري فسار بدر إليهم وأعلمهم حالَ عبد الرحمٰن ودعاهم إليه فأجابوه، ووجَّهوا إليه مركبًا فيه تمّام بن علقمة ووهب بن الأصفر وشاكر بن أبي الأسمط، فوصلوا إليه وأبلغوه طاعتَهم، وأخذوه ورجعوا به إلى الأندلس فأرسى بالمركب بالجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة. فأتاه جماعة من رؤسائهم من أهل إشبيلية[١]، ثم انتقل إلى كورة ريّة[٢] فبايعه إبراهيم ابن شجرة عاملها. ثم سار إلى إشبيلية فبايعه أبو صالح يحيى بن يحيى، ونهض إلى قرطبة فبلغ خبره يوسف بن عبد الرحمٰن وكان غائبًا عن قرطبة بنواحي طليطلة[٣]، فأتاه الخبر وهو راجعٌ إلى قرطبة فتراسل هو ويوسفُ في الصلح فخادعه، فلم يشك أصحاب يوسف في انتظام الصُّلْح وذلك في يومين أحدهما يوم عرفة، فأقبل يوسف في إعداد الطعام ليأكله الناس في يوم الأضحى وعبد الرحمٰن يرتِّب خيلَه ورجله وعبر النهر في أصحابه.

وأنشب القتال ليلَةَ الأضحى، وصبر الفريقان حتى ارتفع النهار، وركب عبد الرحمٰن على بغلة وأسرع القتْل في أصحاب يوسف فانهزم وظفر عبد الرحمٰن بن معاوية. ولما انهزم يوسف أتى مارِدة[٤] وأتى عبد الرحمٰن قرطبةً، وأخرج حشَم يوسف وأهله من القصر على تؤدة ورفق، ودخله بعد ذلك. ثم سار في طلب

---

(١) إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، ولام، وياء خفيفة: مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها.. وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره... (معجم البلدان).

(٢) ريّة: بفتح أوله وتشديد ثانيه: كورة واسعة بالأندلس متصلة بالجزيرة الخضراء وهي قبل قرطبة، وهي كثيرة الخيرات، ولها مدن وحصون ورستاق واسع... (معجم ياقوت).

(٣) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة... (معجم البلدان).

(٤) ماردة: كورة واسعة بينها وبين قرطبة ستة أيام، وقد شهرت بحصونها الكثيرة وبقراها ذات الآثار القديمة وبر خامها الفريد.

يوسف، فلما أحسّ به يوسف سار إلى قرطبة فدخلها وملك قصرها، وأخذ جميع أهله وماله، ولحق بمدينة إلْبيرة[١]. ورجع عبد الرحمٰن إلى قرطبة فلم يجده فسار إلى إلبيرة، وتراسلا في الصلح فاصطلحا على أن ينزل يوسف هو ومن معه بأمانٍ وأن يسكن مع عبد الرحمٰن بقرطبة ويرهنه يوسفُ ابنه أبا الأسود محمدًا وسار يوسف مع عبد الرحمٰن إلى قرطبة فلما دخل قرطبة تمثل: [من الطويل]

فبينا نسوس النَّاسَ والأمْرُ أمرُنا إذا نَحْن فيهم سُوقَةٌ تَتَنَصَّفُ

قال: واستقر عبد الرحمٰن بقرطبة وبنى القصر والمسجد الجامع، وأنفق فيه ثمانين ألف دينارٍ، ومات قبل تمامه.

ذكر مقتل عبد الرحمٰن بن يوسف الفهري

قال: وفي سنة إحدى وأربعين ومائة نكث يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري، وكان سبب ذلك أن عبد الرحمٰن كان يضع عليه مَنْ يُهينه وينازعه في أملاكه، فإذا أظهر حُجَّتهُ الشرعيةَ لا يُعمل بها، ففطن لما يراد منه. فقصد مارِدة واجتمع عليه عشرون ألفًا فسار نحو عبد الرحمٰن، وخرج عبد الرحمٰن من قرطبة نحوه إلى حصن المدور[٢] ثم رأى يوسف أن يسير إلى عبد الملك بن عمر بن مروان ـ وكان واليًا على إشبيلية وإلى ابنه عمر بن عبد الملك وكان على المُدَوَّر ـ فسار نحوهما فخرجا إليه واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم أصحاب يوسف، وبقي مترددًا في البلاد فقتله بعض أصحابهِ في شهر رجب سنة اثنتين وأربعين ومائة بنواحي طلَيْطِلة وحُمل رأسه إلى عبد الرحمٰن بن معاوية فنصبه بقرطبة وقتل ابنه عبد الرحمٰن بن يوسف الذي كان عنده رهينةً ونصب رأْسه مع رأس أبيه وبقي ابنُه الأسود عند عبد الرحمٰن.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة ثار رِزْقُ بن النعمان الغَسَّاني وكان على الجزيرة الخضراء[٣]. فاجتمع إليه خلق كثير، فسار إلى شَذُونَةَ[٤] فملكها ودخل مدينة إشبيلية.

---

(١) إلبيرة: هي كورة كبيرة من الأندلس ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار، وفيها عدة مدن، منها: قسطيلية وغرناطة وغيرهما. . . (معجم البلدان).

(٢) المدور: حصن شهير بالأندلس قرب قرطبة.

(٣) الجزيرة: الرأس الجنوبي للأندلس يفصله عن إفريقية مضيق جبل طارق الذي يعرف بجبل الفتح، وتطل على بحر الزقاق شرقًا والمحيط الإطلنطي غربًا.

(٤) شذونة: تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، كما يقول ياقوت في معجم البلدان.

وعاجله عبد الرحمٰن فحَصره بها وضيَّق على مَنْ فيها، فتقربوا إليه بتسليمه له. وأمَّنهم ورجع عنهم.

وفي سنة أربع وأربعين ومائة ثار هشام بن عذرة الفهري وهو من بني عَمِّ يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري بطليطلة فحاصره الأمير عبد الرحمٰن وشدَّد عليه الحصارَ فمال إلى الصلح وأعطاه ابنه أفلح رهينةً فأخذه عبد الرحمٰن ورجع إلى قرطبة. ثم عاد هشام وخلع عبد الرحمٰن، فعاد إليه وحاصره ونصب المجانيق عليها، أي على طليطلة، فلم يؤثر فيها لحصانتها فَقَتَلَ ابْنَه أفلح ورمى برأسه إلى أبيه في المنجنيق ورحل إلى قرطبة. ولم يظفر بهشام في هذه السنة واستمر إلى سنة سبع وأربعين ومائة فبعث عبدُ الرحمٰن مولاه بدرًا وتمامَ بنَ علقمَة فحصرا طليطلة وضيَّقا على هشام ثم أسراه هو وحيوة بن الوليد اليحصُبي وعثمان بن حمزة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأتى بهم إلى عبد الرحمٰن بن معاوية في جباب صوف وقد حلقت رؤوسُهم ولحاهم، وركبوا الحميرَ وهم في السلاسل، فصلبهم بقرطبة!.

ذكر خروج العلاء وقتله

وفي سنة سِتٍّ وأربعين ومائةٍ سار العلاءُ بن مغيث اليحصُبي من إفريقية إلى مدينة باجة[١] من الأندلس، ولبس السواد وقام بالدَّعْوة العباسية. وخَطَبَ لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خَلْقٌ كثير. فخرج إليه الأمير عبد الرحمٰن فالتقيا بنواحي إشبيلية وتحاربا زمانًا، فانهزم العلاء وأصحابُهُ، وقُتِل في المعركة سبعة آلاف فارسٍ وقُتل العلاء، فأمر عبدُ الرحمٰن بعضَ التجارِ بحَمْل رأسه ورؤوس أصحابه إلى القيروان وإلقائها في السُّوق سِرًّا ففعل ذلك. ثم حُمل منها إلى مكة ومعه لواء أسود فوصلت والمنصور بمكة ومعه كتاب كان المنصور قد كتبه إلى العلاء.

وفي سنة سبع وأربعين ومائة قدم رسول عبد الرحمٰن الذي أرسله إلى الشام في إحضار ولده الأكبر سليمان، وحضر معه سليمان.

---

(١) باجة: كورة من الكور الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية متصلة بكورة ماردة ومشهورة بدباغة الجلد وصنع الكتان وبوجود معدن للفضة.

ذكر خروج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري وقتله

قال: وكان خروجُه في سنة ثمان وأربعين ومائة بمدينة لبلة[١] من الأندلس وسبب ذلك أنه سكر يومًا، فتذكَّر مَنْ قتل من قومه اليمانيَة مع العلاء، فعقد لواء فلما صحا رآه معقودًا، فسأل عنه فأخبروه فأراد حَلَّه ثم قال: ما كنت لأعقد لواءً ثم أحلَّه بغير شيءٍ وشرع في الخلاف، فاجتمعت اليمانيةُ إليه وقصد إشبيلية وتغلَّب عليها وكثُر جمعُه، فبادره عبد الرحمٰن في جموعه. فامتنع المطري في قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فحصره بها وضيّق عليه، ومنع أهلَ الخلاف من الوصول إليه.

وكان قد وافقه على الخلاف علقمة اللخمي وكان بمدينة شَذُونة وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل وهم يريدون إمداد المطريِّ في جمْع كثيرٍ. فلما سمع عبد الرحمٰن بذلك سيَّر إليهم بدْرًا مولاه في جيشٍ فحال بينهم وبين المطريِّ، وطال الحصار وقلَّت رجالُه بالقتل، وفارقه بعضُهم. فخرج يومًا من القلعة فقاتل فقُتِل وحُمِل رأسَه إلى عبد الرحمٰن، فقدَّم أهلُ القلعة عليهم خليفةَ بن مروان، فدام الحصار عليها. فأرسل أهلُها يطلبون الأمان من عبد الرحمٰن على أن يسلموا إليه خليفة فأجابهم إلى ذلك، وتسلَّم الحِصنَ وخرَّبه وقتل خليفة وخَلْقًا كثيرًا مِمَّنْ معه ثم انتقل إلى غِياثٍ الأزدي وكان مِمَّنْ وافق المطريَّ على الخلاف فحصره ومَنْ معه وضَيَّق عليهم فطلبوا الأمان فأمَّنَهُم إلا نفرًا فقبض عليهم، وعاد إلى قرطبةَ فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيَّان[٢] واجتمع إليه جموع فأغار على قرطبة فسيَّر إليه عبد الرحمٰن جيشًا فتفرّق جمعه، فطلب الأمان فأمنه ووفى له.

وفي سنة تسعٍ وأربعين ومائة أغزى عبدُ الرحمٰن مولاه بدرًا إلى بلاد العدو فأخذ الجزية منهم.

وفيها عزل عبد الرحمٰن أبا الصباح حَيَّ بن يحيى عن إشبيلية فدعاه إلى الخلاف، فخدعه عبد الرحمٰن حتى حضر عنده فقتله.

---

(١) لبلة: قصبة إحدى الكور الكبيرة، بينها وبين قرطبة، عن طريق إشبيلية، خمسة أيام، وهي بحرية برية غزيرة الزرع والشجر.

(٢) جيان: كورة واسعة بالأندلس، تتصل بكورة إلبيرة وتجمع قرى كثيرة وبلدانًا مختلفة... (معجم البلدان).

وفيها خرج غياث بن المسيّر الأزدي، فخرج إليه عامل عبد الرحمٰن وقاتله فانهزم غِياثٌ ومَنْ معه، وقُتِل وحُمِل رأسُه إلى عبد الرحمٰن بقرطبة.

وفيها أمر عبد الرحمٰن ببناء سور مدينة قرطبة.

ذكر أخبار شقنا بن عبد الواحد وخروجه بالأندلس

كان خروجه بشرق الأندلس في سنة إحدى وخمسين ومائة وكان من بربر مكناسة يعلِّم الصبيان وكانت أُمُّه تُدْعَى فاطمة فادَّعى أنه من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها وأنه من ولد الحسين، وتَسمَّى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية(١) واجتمع عليه خَلْق كثير من البربر وعظُم أمرُهُ فسار إليه عبد الرحمٰن فلم يقف له وزاغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط وإذا خاف صعد الجبال حيث يصعُبُ طلبهُ. فاستعمل عبد الرحمٰن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، واستعمل حبيبٌ على شنتبرية سليمان بن عفان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وأمر بِطلب شقنا فنزل شقنا إلى سليمان فقتله. واشْتَدَّ ذِكرُ شقنا وطار اسمُهُ، وغلب على ناحية قورية(٢). وأفسد في الأرض، فعاد عبد الرحمٰن وغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له شقنا، فأعياه أمره فعاد عنه، وسير إليه في سنة ثلاثٍ وخمسين بدرًا مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران، ثم غزاه عبد الرحمٰن بنفسه في سنة أربع وخمسين فلم يثبت له، فعاد عنه وبعث لِحَرْبه أبا عثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جُنْدَه. فهرب عبد الله وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أُمية كانوا في العسكر وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة.

وسار شقنا إلى حصن الهواريين(٣) وبه عامل لعبد الرحمٰن فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله وأخذ خَيْلَه وسلاحه وما كان معه. ولم يزل شقنا كذلك وعبد الرحمٰن يغزوه تارةً بنفسه وتارةً بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معْن وأبو خرَيْم وهما من أصحابه، فقتلاه وأخذا رأسه ولحقا بعبد الرحمٰن واستراح الناسُ من شره!.

---

(١) شنتبرية: مدينة بحوز سالم بالأندلس وهي شرق قرطبة وبها حصن اسمه شنت مرية.

(٢) قورية: بالضم ثم السكون، والراء مكسورة، وياء خفيفة: مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الإفرنج... (معجم البلدان).

(٣) الهواريون: قال الحسن بن رشيق القيرواني، ومن خطه نقله ياقوت: ميمون بن عبد الله الهواريّ وليس بهواريّ على الحقيقة لكن سكن أبوه قرية تعرف بالهواريين فنسب إليها فهو من مسالمة تونس، وكان متشيعًا شديد الصلف.

ذكر عصيان أهل إشبيلية على الأمير عبد الرحمٰن

قال: وفي سنة خمس وخمسين ومائة خرج أهل إشبيلية عن الطاعة مع عبد الغفار وحيوة بن مُلابِس، وكان عبد الرحمٰن قد خرج من قرطبة لحرب شقنا واستخلف عليها ابنَه سليمان فأتاه كتابُه بخروجهم عن طاعته وعصيانِهم عليه واتِّفاق من بها من اليمانية على ذلك. فرجع عبد الرحمٰن إليها ولم يدخلْ قرطبة، وهاله ما سمع من اجتماعهم وكثرتهم، فقدّم ابن عمِّه عبد الملك بن عمر، فلما قارب عبد الملك إشبيلية قدّم ابنُه أُمية ليُعْلِمه حالَهم، فرآهم متيقظين فرجع إلى أبيه فَلامه أبوه على رجوعه وإظهار الوهن، فضرب عنقَه وجميعَ بنيه وخاصَّته وقال: طردنا من المشرق إلى أقصى هذا الصُقْع ونُحْسد على لقمة تبْقِي الرَّمَق، اكسروا جُفونَ سيوفكم فالموت أولى أو الظفر! ففَعَلوا، وحمَل أمامهم فَهزَمَ اليمانيَة وأهل إشبيلية فلم يَقُمْ بعدها لليمانية قائمةٌ.

وجُرِح عبدُ الملك وبلغ الخبر عبد الرحمٰن فأتاه وجُرحه يجري دمًا وسيفُه يقطر وقد لصقت يده بقائمة سيفه، فقبَّل بين عينيه وجزاه خيرًا وقال له: يابن عم قد أنْكَحْتُ ابني وليَّ عهدِي هشامًا ابنتَك فلانة وأعطيتُها كذا وكذا، وأعطيتك كذا وكذا، وأولادُك كذا وكذا، وأقطَعْتُك وإياهم كذا وكذا، ووليتك الوزارة! وعبد الملك هذا هو الذي ألزم عبد الرحمٰن بقَطْع خطبة المنصور وقال له: تقطعها وإلا قتلت نفسي! وكان قد خطب له عشرةَ أشْهُرٍ وقطعها.

قال: وفي سنة سبع وخمسين ومائة سار عبد الرحمٰن إلى إشبيلية وقتل خَلْقًا كثيرًا مِمَّن كان مع عبد الغفار، وبسبب هذه الوقعة وِشٌ العَربِ مال عبدُ الرحمٰن إلى اقتناء العبيد.

وفي سنة سِتٍّ وخمسين سَخِطَ الأمير عبد الرحمٰن على مولاه بدرٍ لِفَرْط إدلاله عليه، وأخَذ ماله وسلب نعمته ونفاه إلى الثغور ولم يَرْعَ له حقوقَ الخدمة.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومائة غزا الأمير عبد الرحمٰن مدينة قورية وقَصد البربرَ الذين كانوا أسلموا عاملَه إلى شقنا فقتل منهم خلقًا كثيرًا من أعيانهم!.

ذكر عبور الصقلبي إلى الأندلس وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي سنة إحدى وستين ومائة وقيل سنة ستين عبر عبدُ الرحمٰن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي ـ ولم يكن صقلبيًا وإنما سُمّي بذلك لطوله ورقته وشقرته ـ من إفريقية إلى الأندلس ليحارب عبد الرحمٰن ويدعوه إلى طاعة المهدي بن أبي جعفر المنصور. وكان عبورُه في ساحل تُدمير[1]، وكاتب سليمان بن يقظان بالدُّخول معه، وكان سليمان ببرشلونة فلم يجبه، فاغتاظ الصقلبي وقصد بلده فيمَن معه من البربر. فقصده سليمان والتقَوا واقتتلوا، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تُدمير، وجاء عبد الرحمٰن نحوه وأحرق السفنَ ليمنَعه من الهرب، فقصد الصقلبي جبلًا منيعًا بناحية بَلَنْسِية[2]. فبذل عبدُ الرحمٰن ألف دينار لِمَن يأْتيه برأسه فاغتاله رجل من البربر وحمل رأسه إلى عبد الرحمٰن، فأعطاه ألف دينار، وكان قتله في سنة اثنتين وستين ومائةٍ.

وفي سنة اثنتين وستين ومائة أرسل عبدُ الرحمٰن شهيدَ ابنَ عيسى إلى دُحَيَّة الغساني وكان عاصيًا في بعض حصون إلبيرة، فقتله وسيّر بدرًا مولاه إلى إبراهيم ابن شجَرَة وكان قد عصَي عليه فقتله. وسيّر تمَّام بن عَلْقَمة إلى العباس البربري ـ وهو في جمع البربر وأظهر العصيان ـ فقتله وفرّق جموعه.

وفيها سيّر جيشًا مع حبيب بن عبد الملك القرشي إلى القائد السُّلمِي، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمٰن. فشرب ليلة وقصد باب القنطرة ليفتحه على سُكْرٍ، فمنعه الحرس فعاد. فلما صحا من سُكره خاف فهرب إلى طليطلة واجتمع إليه كثير مِمَّن يريد الخلافَ والثَّمرّ فعاجله عبد الرحمٰن بإنفاذ الجيوش، فحَصَره في مكان كان قد تحصّن به، فطلب السُّلَمي البراز فبرز إليه عبد أسودُ فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين وماتا جميعًا.

وفي سنة ثلاثٍ وستين ومائةٍ أظهر الأمير عبد الرحمٰن التَّجَهُّزَ إلى الخروج لِقَصد الشام لطلب الثأْر من بني العباس فعَصَى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن

(١) تدمير: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وياء ساكنة، وراء: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيّان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق... وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للراكب القاصد... (معجم ياقوت).

(٢) بلنسية: كورة ومدينة مشهورة تقع شرقي قرطبة وهي برية بحرية بينها وبين تدمير أربعة أيام... (معجم ياقوت).

سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري بِسَرَقُسْطة[١] واشْتَدَّ أمرُهما فرجع عن ذلك وترك ما كان أظهره منه.

وفي سنة خمسٍ وستين ومائةٍ غدر الحسين بن يحيى بسرقسطة ونَكَثَ، فسيّر إليه عبد الرحمٰن غالبَ بن تمام بن علقمة في جُنْدٍ كثيف فاقتتلوا، فأسر جماعةً من أصحاب الحسين فيهم ابنُه عيسى، فسيّرهم إلى عبد الرحمٰن فقتلهم، وأقام غالب بن تمام بن علقمة يحاصر الحسين. ثم سار عبد الرحمٰن في سنة ستٍّ وستين إلى سرقسطة فحَصَرها وضايقها ونصب عليها ستَّةً وثلاثين منجنيقًا، فملكها عَنْوَةً وقتل الحسين أقبح قتلة، ونفى أهل سرقسطة منها ليمينٍ كانت تَقَدَّمَتْ منه، ثم ردَّهم إليها.

وفي سنة سِتٍّ وَستين ومائةٍ قتل عبد الرحمٰن ابن أُخْتِهِ المغيرةَ بن الوليد بن هشام وهذيل بن الصُّمَيْل وسمرة بن جبلة لاجتماعهم على خَلْعه مع العلاء.

ذكر مخالفة أبي الأسود محمد بن يوسف الفهري

وفي سنة ثمانٍ وستين ومائةٍ ثار أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري ببلاد الأندلس. وكان من خبره أنه كان في السجن بقرطبة منذ هرب أبوه على ما تَقَدَّم، فأظهر أنه عَمِيَ وصار لا يطرف عينه لشيء، وبقي دهرًا طويلاً حتى صحّ عند عبد الرحمٰن ذلك. وكان في أقصى السجن سردابٌ يُفْضي إلى النَّهْر الأعظم يخرج منه المسجونون يقضون حوائجهم من غسل وغيره، وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه فإذا رجع من النهر يقول: من يدل الأعمى إلى موضعه! وكان مولى له يحادثه على شاطىء النهر فلا ينكر عليه.

فواعده أن يأْتيه بخيلٍ يحمله عليها فخرج يومًا ومولاه ينتظره فعبر النهر سباحةً وركب الخيل ولحق بطليطلَة فاجتمع إليه خلق كثير فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمٰن. فالتَقَيا على الوادي الأحمر بقسطلونة[٢] واشْتَدَّ القتال فانهزم ابن الفهري، وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردّى في النهر. وأتبعه عبد الرحمٰن فقتل مَنْ لحق حتى جاوز قلعة رباح، ثم جمع أبو الأسود الرجال وعاد إلى قتال عبد الرحمٰن سنةَ تسع وستين ومائةٍ فهلك بقرية من أعمال طليطلة. وقام بعده أخوه قاسم وجمع جمْعًا فغزاه عبد الرحمٰن فجاء إليه بغير أمان فقتله.

وفي سنة سبعين ومائة أمر عبد الرحمٰن ببناء جامع قرطبة ـ وكان موضعه كنيسة ـ وأخرج عليه مائة ألف دينار، ولم يتم بناؤه في حياته فأتمه ابنُه بعده.

---

(١) سرقسطة: تقع في الأندلس الشرقي على نهر برة الذي يصب في البحر المتوسط.

(٢) قسطلونة: فوق بلنسية على شاطىء البحر قبالة ميورقة ومنورقة.

ذكر وفاة عبد الرحمٰن وصفته وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته بقرطبة في يوم الثلاثاء لسِتٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنةَ إحدى وسبعين ومائة، وقيل توفي في غرة جُمادى الأُولى سنة اثنتين وسبعين ومائة، وهو الصحيح وصلَّى عليه ابنه عبد الله، وكان قد عهد إلى ابنه هشام بمدينة مارِدة واليًا عليها، وابنه سليمان بطليطلة واليًا عليها، فلم يحضرا موت أبيهما.

وكان مولد عبد الرحمٰن بدير حنا من عمل دمشق، وقيل بالعلياء من ناحية تَدْمُر في سنة ثلاثَ عشرة ومائةٍ فكان عمره تسعًا وخمسين سنة، ومدةُ ولايته بالأندلس ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشْهر وأربعةَ عشر يومًا. وكان أصهب خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم أعور، وكان فصيحًا لَسِنًا شاعرًا حليمًا عالِمًا حازمًا، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه. لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكِل أُموره إلى غيره، ولا ينفرد في إبرامها برأيه. وكان يُشَبَّه بأبي جعفر المنصور في حزمه وشِدَّته وضَبْطه لملكه، وبنى الرصافة بقرطبة تشبهًا بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام، وقال: وكان عبد الرحمٰن من ذوي الآداب، وله شِعر حسن، فمن شعرِه ما قاله بالأندلس يتشوّق معاهده بالشام: [من الخفيف]

أَيُّـهـا الـراكـبُ الـمُـيَـمِّـمُ أرضـي ... أَقْـرِ مـن بـعـضِـيَ الـسَّـلام لِـبـعْـضِـي
إنَّ جـسـمـي كـمـا عـلِـمْـتَ بـأرضٍ ... وفـؤادي كـمـا عـلـمـتَ بـأرضٍ
قُـدِّر الـبـيْـن بـيْـنَـنَـا فـافْـتـرَقْـنَـا ... وطوى البين عن جُفونِيَ غُمْضي
قـدْ قـضَـى الله بـالـفـراق عـلـيـنـا ... فـعـسـى بـاجـتـمـاعـنـا سـوف يـقـضـي

ومن شعره ما قاله لما عمَّر الرصافة بقرطبة، وقد رأى فيها نخلة منفردة، فقال: [من الطويل]

تَـبـدَّتْ لـنـا بـيـنَ الـرَّصـافـة نَـخْـلَـةٌ ... تَنَاءَتْ بأرض الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ
فقلت شبيهي في التَّغَرُّب مثلها ... وطولُ اكتئابي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نـشَـأتِ بـأرضٍ أنـتِ فـيـه غـريـبـةٌ ... فَمِثلكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقَتْكِ غوادِي المُزْنِ من صوبْها الذي ... يَسِحُّ ويسْتمري السِّماكَيْن بالوبلِ(١)

(١) السماكان: نجمان نيران. أحدهما في الشمال وهو السّماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السّماك الأعزل.

وله غير ذلك من الشعر. وسار أحسنَ سيرة وكان نقش خاتمه «بالله يثق عبد الرحمٰن ويعتصمُ» وكان له من الأولاد الذكور أحد عشر ولدًا وهم: أيوب الشامي ولد بالشام، وسليمان وهشام ولي عهده وهو الوالي بعده وُلد بالأندلس، وعبد الله ولد ببلنسية وعرف بالبلنسي، ومسلمة المعروف بكليب، وأُمية، ويحيى، والمنذر، وسعيد الخير، ومحمد، والمغيرة، ومعاوية، وتسع بنات.

حاجبه: تمام بن علقمة وغيره.

كتَّابه: أبو عثمان، وعبد الله بن خالد، وغيرهما.

قضاته: يحيى بن يزيد التجيبي، ومعاوية بن يوسف الحضرمي، وعمر بن شراحيل، وعبد الرحمٰن بن طريف اليحصبي.

ذكر إمارة هشام

هو أبو الوليد هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وأُمه أُم ولد واسمها حوراء وهو الثاني من ملوك بني أُمية بالأندلس. بويع له في غُرَّة جُمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة عند وفاة أبيه، وقيل في يوم الثلاثاء لِسِتٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة والله أعلم. وكان بماردِة متوليًا عليها ـ كما ذكرنا ـ وكان أبوه قد عهد إليه قبل وفاته، وقدَّمه على سليمان وهو أكبر منه لأنه كان يتَوَسَّم فيه الشَّهامة، فلذلك عهد إليه فبايع له أخوه عبد الله وكتب إليه بنعي أبيه ويعزيه به ويعرفه أنه بايع الناسَ له. فلما وصل إليه الكتابُ سار من ساعته إلى قرطبة فدخلها في ستة أيام، واستولى على المُلْك، وخرج عبد الله إلى داره مُظْهِرًا الطاعةَ وفي نفسه خلاف ذلك!.

ذكر خروج سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمٰن على أخيهما هشام

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائة خرَجَا على أخيهما، وكان عبد الله عند أخيه هشام وهو يؤثره ويبرُّه ويقدمه، فلم يُرْضِه ذلك ولا قنع إلا بمشاركته في الأمر، ثم خاف فَهَرَب إلى أخيه سليمان وهو بطليطلة. فأرسل هشام في أثره جماعةً ليردُّوه، فلم يدركوه، فجمع هشام عساكره وسار إلى طليطلة فحصر أخويه بها.

وكان سليمان قد حشَد وجمع جمْعًا كبيرًا فلما حصرها هشام سار سليمان من طليطلة وترك ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلاد، وسار هو إلى قرطبة ليملكها، فعلم هشام به فلم يفارق الحصار.

وسار سليمان فوصل إلى شقنْدَة[١] فدخلها، وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين له، ودافعوه عن المدينة. وبعث هشام في أثر سليمان عبدَ الملك في قطعةٍ من الجيش، فلما قاربه هرب سليمان وقصد مدينة مارِدة، فَحَاربَه واليها، فانهزم سليمانُ. وبقيَ هشام على طليطلة شهرين وأيامًا محاصرًا لها، ثم عاد منها وقد قطع أشجارها، وسار إلى قرطبة، وأتاه أخوه عبد الله بغير أمان فأكرمه وأحسن إليه.

ثم سيَّر هشام ابنَه معاويةَ في جيشٍ كثيف في سنة أربع وسبعين إلى تُدمير وبها سليمان فحاربه، وخرّب أعمالَ تُدمير، فهرب سليمان منها، فلجأ إلى البربر بناحية بَلَنسية، فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسلك. وعاد معاويةُ إلى قرطبة، ثم استقرَّت الحال بين هشام وسليمانَ أن يأْخذ سليمانُ أهله وأولاده وأمواله ويفارق الأندلس، وأعطاه هشام ستين ألفَ دينارٍ مصالحةً عن ميراث أبيه عبد الرحمٰن وسار إلى بلد البربر فأقام به.

ذكر خروج جماعة أخر على الأمير هشام

وفي سنة اثنتين وسبعين خرج عليه أيضًا سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بشاغنت ـ من أقاليم طَرْطُوشة[٢] في شرق الأندلس ـ وكان قد التجأ إليها حين قُتِل أبوه، ودعا إلى اليمانية وتعصّب لهم، فاجتمع له خَلْقٌ كثير، فملك مدينة طُرطوشة فأخرج عاملَها يوسف القَيْسيَّ. فعارضه موسى بن فرتون وقام بدعوة هشام، ووافقته مُضَر، فاقتتلا فانهزم سعيد وقُتل، وسار موسى إلى سرقسطة فملكها فخرج عليه مولى الحسين بن يحيى واسمه جحدر في جمع كثير فقاتله فقُتِل موسى.

وخرج أيضًا مطروح بنُ سليمانَ بنِ يقظانَ بمدينة برشلونة، وخرج معه جمع كثير، فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشْقَة[٣] وتغلّب على تلك الناحية وقَوِي أمرُهُ، وكان هشام إذ ذاك في حربِ أخويْه سليمانَ وعبدِ الله، فلما خلاَ وجهُهُ من أمْرِ أخوَيْه انتدب لمطروحِ جيشًا كثيفًا وجعل عليهم أبا عثمانَ عبيد الله بن عثمان. فسار إليه وهو

---

(١) شقندة: بلدة رومانية كانت واقعة تجاه قرطبة على الشاطىء الأيسر للوادي الكبير، ومنها إسماعيل الشقندي الأديب الأندلسي.

(٢) طرطوشة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر ابره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة. . . (معجم البلدان).

(٣) وشقة: هي من مشاهر من الثغر، وفوق سرقسطة وتحت جبال البرت.

بسرقسطة فحصروه بها فلم يظفروا به، فرجع عنه أبو عثمان ونزل بحصن طرسونة[١] بالقرب من سرقسطة ورتَّب سراياه يغيرون على أهل سرقسطة ويمنعون عنهم الميرة. ثم خرج مطروح إلى الصيد في بعض الأيام، فلما كان آخر النهار أرسل البازي على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له قد انفرد بهما عن أصحابه فقتلاه وأتيا برأسه إلى أبي عثمان، فسار إلى سرقسطة فكاتبه أهلها فقبل منهم وأرسل الرأس إلى هشام.

قال: وأخذ أبو عثمانَ الجيشَ وسار بهم إلى بلاد الفرنج فأوقع بهم وظفر وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وبعث هشام يوسف بن بخت في جيش إلى جليقية فَلَقِيَ ملكهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزمت الجلالقةُ وقتل منهم خلق كثير.

وفيها أيضًا سَجنَ هشامٌ ابنَه عبدَ الملك لشيء بلَغَه عنه، فَبَقِيَ في السجن مدةَ حياةِ أبيه وبعض ولاية أخيه إلى أن تُوفِّيَ سنة ثمان وتسعين ومائة.

وفي سنة ست وسبعين ومائة غزا عبد الملك بن عبد الواحد بلاد الفَرنْجِ فغنم وظفر.

وفيها استعمل هشام ابنَه الحكَم على طليطلة وسيّره إليها بضبطها، وأقام بها، وَوُلِد له بها ابنُه عبد الرحمٰن.

ذكر غزو الفرنج

وفي سنة سبع وسبعين ومائةٍ أغزى هشام عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في جيش، فدخلوا بلاد الفرَنْج فبلغوا أربونة[٢] وجرندة فبدأ بجرندة وبها حامية الفرنج فقتل رجالَها وهدم أسوارَها وأشرف على فتحها. ورحل عنها إلى أربونة ففعل مثل ذلك وأوْغل في بلادهم ووطىء برطانية واستباح حريمها وقتل مُقاتِلَتَها وجاس البلاد شهورًا يُخرِّب الحصون ويحرق ويغنم. وجفل العدو بين يديه، وأوغل في بلادهم ورجع ومعه الغنائم وما لا يُحْصَى كثرة، وهي أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.

---

(١) طرسونة: بفتح أوله وثانيه ثم سين مهملة، وبعد الواو الساكنة نون: مدينة بالأندلس بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ. . . (معجم البلدان).

(٢) أربونة: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، بينها وبين قرطبة ألف ميل. . . (معجم البلدان).

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة بعث هشامٌ جيشًا مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج فغزا ألية[١] والقلاع فغنم وسلم. وسيَّر جيشًا آخر مع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد الجلالقة فخرَّبَ دار ملكهم وكنائسَه وغنم، فلما قفل المسلمون ضلَّ الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ومات منهم خلق كثير، ونفقت[٢] دوابُّهم وتلفت آلاتهم، وعاد من سلم منهم.

ثم بعثه في سنة تسع وسبعين في جيش كثيف فساروا حتى انتهروا إلى أَسْتُرْقة وكان ملك الجلالقة قد جمع وحشد واستمد جيرانه من الملوك، وصار في جمع عظيم. فلما قدم عبد الملك رجع ملك الجلالقة هيبةً له، وتبعهم عبد الملك يقفو أثرَهم ويخرب، وهتك حريم ملك الجلالقة! وبلغه أنه احتمى بوادٍ فسار إليه وواقعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة فهزمه، وقتل من قمامصتهم ورؤسائهم كثيرًا، ورجع سالمًا.

وكان هشامٌ قد سيَّر جيشا آخر من ناحية أُخرى، فدخلوا البلاد أيضًا على ميعاد من عبد الملك، فأخربوا ونهبوا وغنموا فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو عارضهم عسكر الفرَنج، فنال منهم، وقتل من المسلمين، ثم تخلصوا وعادوا.

ذكر فتنة تاكرتا

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة هاجمته فتنة تاكرتا[٣] بالأندلس، وخلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد، وأغاروا على البلاد وقطعوا الطريق، فسيَّر هشامٌ إليهم جيشًا كثيفًا عليهم عبد القادر بن أبان بن عبد الله مَوْلى معاوية بن أبي سفيان، فقصدوها وتابعوا قتال مَنْ فيها، إلى أن أبادوهم قتلاً وسَبْيًا، وفرَّ مَن بَقِيَ منهم فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرتا خالية سَبْع سنين!.

ذكر وفاة هشام بن عبد الرحمٰن وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه في ليلة الخميس لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَت من صفر سنة ثمانين ومائة بقصر قرطبة وكان عمره تسعًا وثلاثين سنةً وأربعةَ أشهر، ومدة ولايته سبع سنين

---

(١) ألية: ناحية من نواحي أشبيلية. (٢) يقال: نفقت الدابة: إذا ماتت.

(٣) تاكرتا: كورة كبيرة بالأندلس ذات جبال حصينة يخرج منها عدة أنهار وفيها معقل رندة.

وتسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا. وكان أبيض مشربًا بحمرة أشهل، بعينيه حول وكان عاقلًا حازمًا ذا رأي وشجاعة وعدل، محبًا لأهل الخير والصلاح، راغبًا في الجهاد. وكان يعود المرْضَى ويشهد الجنائز، ومن محاسن أعماله أنه أخرج متصدقًا يأخذ الصدقة على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ. وهو الذي تمَّمَ بناء جامع قرطبة وبنى عِدَّة مساجد، وبلغ من عز الإسلام في ولايته وذل الكفر أنَّ رجلًا مات وأوْصَى بفَكِّ أسيرٍ من المسلمين من تركته، فَطُلِب ذلك فلم يوجدْ في دار الكفار أسيرٌ من المسلمين يُشْتَرى ويفَكُّ لضعف العدو! وله مناقب كثيرة بالغ أهل الأندلس فيها حتى قالوا: كان يُشبَّهُ بعمر بن عبد العزيز، وكان نقش خاتمه «بالله يثق هشام ويعتصم».

وكان له من الأولاد الذكور عبد الملك الأكبر، والحكم الوالي بعده، ومعاوية، والوليد، وعبد العزيز، وخمس بنات.

وزراؤه: أبو عثمان صاحب الأرض، ويوسف بن بخت، وشهيد ابن عيسى وغيرهم. حجابه: عبد الواحد بن مغيث إلى أن توفي، ثم ولده عبد الملك وهو رجل الأندلس جمع الحِجابة والوزارة والكتابة والتقدُّم على الجيوش مع حسن الأدب والعفاف والدين والتواضع والكرم والمروءة. كتابه: فطيس بن سلمة، وخطّاب بن يزيد. قاضيه: المصعب بن عمران الهمذاني. أصحاب شرطته: الحسن بن بسام، ثم علي بن خريم المزني، ثم سعيد بن عياض اليحصبي.

ذكر إمارة الحكم بن هشام
الملقب بالمرتضى

هو أبو العاص الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأُمُّه أُم ولد اسمها زخرف، وهو الثالث من ملوك بني أُمية بالأندلس. بويع له يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة، وتولَّى أخْذَ البيعةِ له عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ولما وليَ الحكم كان أول ما بدأ به الغزو في سبيل الله تعالى.

ذكر غزو الفرنج

في هذه السنة ـ أعني سنة ثمانين ومائة ـ بعث الحكم جيشًا مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فدخل البلاد وبثَّ السرايا. وسيّر سرية، فجازوا خليجًا من البحر كان الماء قد جزر عنه وكان الكفار قد جعلوا أموالهم وأهلهم

وراء ذلك الخليج ظنًّا منهم أن أحدًا لا يقدر أن يعبر إليهم. فجاءهم ما لم يكن في حسبانهم، فغنم المسلمون جميعَ أموالِهم، وأسروا الرجال وقتلوا منهم فأكثروا القتل، وسبوا الحريم والذُّريَّة، وعادوا سالمين.

وما أشبه هذه الواقعة بفتح طرابلس الشام! فإنه لما فتحها السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي ـ قدَّس اللّهُ روحه ـ في سنة ثمان وثمانين وستمائة جزَرَ البحرُ ساعة الفتح وانطرد عنها حتى دخل المسلمون بخيلهم إلى جزيرة النحلة وهي بعيدة عن الميناء، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

قال: وعاد المسلمون إلى عبد الكريم وقد ملأُوا أيديهم من الغنائم. وسيّر طائفةً أُخرى فخربوا كثيرًا من بلاد فرنسية وغنموا الأموال وأسروا الرجال فأخبرهم بعضُ الأسرى أن جماعةً من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى وادٍ وعْر المسلك على طريقهم وبلغ ذلك عبد الكريم فجمع عساكره وسار على بغيته وجَدَّ السير، فلم يشعر الكفارُ إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيفَ فيهم فانهزموا، وغنم المسلمون ما معهم وعادوا بالظفر والغنيمة والسلامة.

ذكر خلاف بهلول بن مرزوق وغيره

وفي سنة إحدى وثمانين ومائةٍ خالف بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج في ناحية الثغر، ودخل مدينة سرقسطة فملكها. وقدم على بهلولٍ بها عبدُ الله بن عبد الرحمٰن عمُّ الحكم ـ وهو المعروف بالبلنسي ـ وكان متوجهًا إلى الفرنج، ثم سار إلى مدينة طلبيرة[1] فنزل بها مع عمروس بن يوسف. فسار إليهم بهلول وحاصرهم فتفرّق العرب عنهم، ودخل بهلول مدينة طلبيرة وسار عبد الله إلى مدينة بلنسية فأقام بها وذلك في سنة أربع وثمانين.

وخالف عبيدة بن حمير بطليطلة، فأمر الحكم القائد عمروس بن يوسف وهو بمدينة طلبيرة أن يحارب أهل طليطلة ففعل، وضيّق عليهم، وكاتب رجالاً من أهلها يُعرفون ببني مخشي واستمالهم، فوثبوا على عبيدةَ، فقتلوه وحملوا رأْسه إلى عمروس فأنزلهم عنده ـ وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طلبيرة دخول ـ فتَسَوَّر البربر عليهم، فقتلوهم، فسيّر عمروس رؤوسهم مع رأس عبيدة إلى الحكم وأخبره الخبر.

(١) طلبيرة: بفتح أوله وثانيه، وكسر الباء الموحدة، ثم ياء مثناة من تحت ساكنة، وراء مهملة: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر تاجة... (معجم البلدان).

ذكر مسير سليمان بن عبد الرحمٰن لقتال ابن أخيه الحكم وقتل سليمان

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة جاز سليمان بن عبد الرحمٰن إلى بلاد الأندلس من الشرق لحرب ابن أخيه الحكم، فسار إليه الحكم في جيوش كثيرة من أهل الشقاق ومَن يريد الفتنة، والتقيا واقتتلا، واشتدتِ الحرب فانهزم سليمانُ وأتبعه عسكر الحكم. وعادتِ الحربُ بيْنهما ثانيةً في ذي الحجة، فانهزم سليمانُ واعتصم بالأوعار والجبال، فعاد الحكم، ثم عاد سليمان فجمع بربرًا وأقبل إلى جانب إستجة[1]. فسار إليه الحكم فالتقوا واقتتلوا في سنة ثلاث وثمانين، واشتد القتال فانهزم سليمان وقصد جهة ماردة فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه، وأحضروه إلى الحكم فقتله، وبعث برأْسه إلى قرطبة، وكتب إلى أولاد سليمان وهم بسرقسطة كتابَ أمانٍ واستدعاهم فحضروا عنده بقرطبة.

ذكر استيلاء الفرنج على برشلونة

وفي سنة خمس وثمانين ومائة مَلك الفَرنْجُ ـ لعنهم الله تعالى ـ مدينة برشلونة[2] بالأندلس، وأخذوها من المسلمين، ونقلوا حماة ثغورهم إليها، وتأخر المسلمون إلى ورائهم وكان سبب ذلك اشتغال الحكم بمحاربة عمه سليمان بن عبد الرحمٰن.

ذكر الاتفاق بين الحكم وبين عمه عبد الله البلنسي

وفي سنة سِتٍّ وثمانين ومائة حصل الاتفاق بين الأمير الحكم بن هشام وبين عمِّه عبد الله بن عبد الرحمٰن بن معاوية، وذلك أن عبد الله لما سمع بقتل أخيه سليمان عظم عليه وفُتَّ في عضدِه، وخاف على نفسه، ولزم بلنسية ولم يتحرك لإثارة فتنة. وأرسل إلى الحكم يطلب المسالمةَ والدخول في الطاعة، وقيل بل الحكم راسله في ذلك وبذل له الأرزاق الواسعة له ولأولاده، فأجاب إلى ذلك، واستقر الصلح بينهما على يد يحيى بن يحيى صاحب الإمام مالك بن أنس. وزوَّج الحكم أخواته من

---

(١) إستجة: كورة أندلسية متصلة بأعمال رية وهي واسعة الرساتيق على نهر سنجل... بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ.

(٢) برشلونة: ميناء على البحر المتوسط في الشمال الشرقي.

أولاد عمه عبد الله، وأكرم عمَّه وأجْرى له ولأولاده الأرزاق الواسعة والصلات السنية. وقيل كانت المراسلة في هذه السنة، واستقر الصلح في سنة سبع وثمانين.

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة تطيله

وفي سنة سبع وثمانين ومائة ملك الفرنج ـ لعنهم الله ـ مدينة تُطَيْلَة. وسبب ذلك أن الحكم بن هشام استعمل على ثغور الأندلس قائدًا كبيرًا من قواده وهو عمروس بن يوسف. فاستعمل عمروس ابنه يوسف على تطيلة. وكان قد انهزم من الحكم أهلُ بيت من بيوت الأندلس أُولُو قُوَّةٍ وبأْسٍ، وخرجوا عن طاعته، والتحقوا بالمشركين فَقَوِيَ أمرهم، واشتدت شوْكتُهم، وتقدموا إلى تُطيلة فحصروها وملكوها من المسلمين، وأسروا أميرها يوسف بن عمروس وسجنوه وتقدموا بصخرة قيس. واستقر عمروس بمدينة سَرَقُسْطة ليحفظها من الكفار، وجمع العساكر وسيرها مع ابن عمٍّ له، فلقي المشركين فقاتلهم وفَضَّ جمْعَهم، وقتل أكثرهم، وسار إلى صخرة قبس بالجيش فحصرها وافتتحها وخلَّص يوسف منها.

ذكر إيقاع الحكم بأهل قرطبة

كان ذلك في سنة سبع وثمانين ومائة، وسببه أن الحكم في صدْرِ ولايته كان قد تظاهر بِشُرْبِ الخمر والانهماك على الملذات. وكانت قرطبة دارَ علم وبها فضلاء أهل علم وورع، منهم يحيى بن يحيى الليثي راوي موطأ مالك بن أنس وغيره. فثار أهل قرطبة وأنكروا فعل الحكم ورموه بالحجارة وأرادوا قَتْلَه، فامتنع منهم ثم سكن الحال واجتمع بعد ذلك بأيامٍ وجوهُ أهلِ قرطبةَ وفقهاؤها وحضروا عند محمد بن القاسم القرشي المرواني ـ عمِّ هشام بن حمزة ـ وأخذوا له البيعةَ على أهل البلد وعرّفوه أن الناس قد ارتضوه كافَّةً. فاستظهرهم ليلةً ليرى رأْيَه، ويستخيرَ الله تعالى فانصرفوا، وحضر هو عند الحكم وأعلمه الحالَ وأنه على بيْعته له لم يتغير، فطلب الحكمُ تصحيح ذلك عنده وسيَّر مع محمد بن القاسم بعض ثقاتِه فأجلسه محمد في قبة في دارِه وأخْفى أمره، وحضر عنده القوم يستعلمون منه هل يتقلد أمرهم أم لا. فأراهم المخافة على نفسِهِ وعظَّم عليهم الخَطْبَ وسألهم تعدادَ أسمائهم ومن معهم، فذكروا له جميع مَنْ معهم من أعيان البلد وصاحبُ الحكم يكتب أسماءهم، فقال لهم محمد بن القاسم: يكون هذا الأمر يومَ الجمعة إن شاء الله تعالى في المسجد الجامع! فانصرفوا ومشى إلى الحكم مع صاحِبِه فأعلماه جلية الحال. وكان ذلك يومَ الخميس، فما جاء الليل حتى حَبَسَ الجماعةَ عن آخرهم، ثم أمر بهم بعد أيام فَصُلِبُوا عند

قصرِه وكانوا اثنين وَسبعين رجلاً، وكان يومًا شنيعًا ثم كانت وقعة الرَّبض بعد ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر إيقاع الحكم بأهل طليطلة
وهي وقعة الحُفرة

قال: وفي سنة إحدى وتسعين ومائةٍ أوقع الحكم بأهل طليطلة، فقتل منهم ما يزيد على خمْسةِ آلافِ رجل من أعيان أهلِها. وكان سبب ذلك أن أهل طليطلة كانوا قد طمعوا في الأُمراء وخلعوهم مرَّة بعد أُخرى، وقويتْ نفوسُهم؛ لِحصانة بلدِهم وكثرة أموالهم، فلم يكونوا يطيعون أمراءهم طاعةً مُرْضِيةً. فلما أعيا الحكمَ شأْنُهم أعمل الفكرةَ، فاستعان بعمروس بن يوسف المعروف بالمولد، وكان قد ظهر في هذا الوقت بالثَّغْر الأعلى، وأظهر طاعةَ الحكم ودعا إليه فاطمأن إليه لهذا السبب. واستقدمه فَقدِم عليه، فبالغ الحكم في إكرامه وأطْلَعه على عزْمه في أهل طليطلة فوافقه عليه.

وكتب إلى أهلها يقول «إنني قد اخترت لكم فلانًا وهو منكم لتطمئنَّ قلوبُكم إليه وأعْفيْتُكم مِمَّن تكرهون من عُمَّالِنا وموالينا، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم» ومضى عمروس ودخل طليطلة فأنس أهلها به واطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم.

وكان أول ما احتال به عليهم أن أظهر موافقتهم على بُغْضِ بني أُمية وخلْع طاعتِهم، فمالوا إليه ووثقوا به ورضوا بِفِعله ثم قال لهم: إن سبَبَ الشرِّ بينكم وبين أصحاب الأُمراء اختلاطُهم بكم، وقد رأيت أن أبني بناءً أعتزل فيه أنا وأصحابُ السلطان رفقًا بكم! فأجابوه إلى ذلك، فبنى في وسط البلد ما أراد.

فلما مضى لذلك مدة كتب الحَكمُ إلى عامل له على الثغر الأعلى سِرًّا يأمره أن يرسل إليه يستغيثُ من جيوش الكفرَة، وطلب النجدة والعساكر، ففعل ذلك، فحشد الحكم الجيوشَ واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمٰن، وجهَّز معه القوادَ والوزراءَ، فسار الجيش حتى اجتاز مدينة طليطلة فلم يتعرض عبدُ الرحمٰن لدخوله إليها. وأتاه وهو عندها خبرُ العامل على الثغر الأعلى يقول «إن عساكر الكفرة قد تفرَّقتِ وكفى الله شرَّها» فوقف العسكر وعزم عبد الرحمٰن على الْعَوْد إلى قرطبة فقال عمروس عند ذلك لأهل طليطلة: قد ترَوْن نزول ولد الحكم إلى جانبي، وأنه يلزمني الخروج إليه وقضاء حقِّه، فإن نشطتم إلى ذلك وإلا سرتُ إليه وحدي! فقالوا: بل نكون معك.

فخرج ومعه وجوه أهل طليطلة فأكرمهم عبدُ الرحمٰن وأحسن إليهم، وكان الحكم قد أرسل مع ولده خادمًا له ومعه كتاب لطيف إلى عمروس فَلَقِيه الخادم وصافحه وسلَّم الكتابَ إليه من غير أن يحادِثه. فلما قرأ عمروسُ الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على أهل طليطلة، فأشار إلى عيون أهلِها أن يسألوا عبد الرحمٰن الدُّخولَ إليه ليرى هو وأهلُ عسكرِهِ كثرتَهم وقوتَهم ومنعتهم فظنوا أنه ينصحهم، ففعلوا ذلك. وأدخلوا عبدَ الرحمٰن البلد، فنزل مع عمروس في دارِه، وأتاه أهل طليطلة أرسالاً يسلمون عليه، وأشاع عمروس أن عبد الرحمٰن يريد أن يَتَّخِذ لهم وليمةً عظيمةً. وشرع في الاستعداد لذلك وواعدهم يومًا ذكره لهم، وقرر أنهم يدخلون من بابٍ ويخرجون من آخر ليقلَّ الزحام ففعلوا ذلك! وأتى الناسُ أفواجًا عند الميعاد، فكان إذا دخل فوج أُخِذوا وحُمِلوا إلى جماعةٍ من الجنْدِ على حُفْرةٍ كبيرةٍ في القصر فتضرب رقابُهم. فلما تعالى النهار أتى بعضُهم فلم يَرَ أحدًا فقال: أين الناس؟ فقيل له: إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الآخر! فقال: لم أَلْقَ منهم أحدًا! وعَلِم الحال فعاد وصاح بالناس وأَعْلَمَهُم هلاك أصحابِهِ، فكان سبب نجاة مَن بَقِيَ منهم، ودانوا وحسنت طاعتُهم بقية أيام الحكم وأيام ولدِه عبد الرحمٰن ثم كان منهم بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عصيان أهل ماردة على الحكم وما فعله بأهل قرطبة

وفي سنة إحدى وتسعين عَصى أصبغ بن عبد الله عَلَى الحكم ووافقه أهل ماردة وأخرجوا عامله عنها، فاتَّصل الخبرُ بالحكم، فسار إليها وحصَرَها. فبينما هو في ذلك أتاه الخبرُ عن أهل قرطبة أنهم أعلنوا العِصْيَان له، فرجع إلى قرطبة مبادِرًا، فوصلها في ثلاثةِ أيام وكشفَ عن الذين أثاروا الفتنة فصلبهم منكَّسين، وضرَب أعناق جماعةٍ. فارتدع الباقون بذلك واشْتدّت كراهتهم للحكم، ولم يزل أهلُ مارِدة تارةً يطيعون وتارةً يعصون إلى سنة اثنتين وتسعين، فضعُفَ أمرُ أصبغ بن عبد الله لأن الحكم تابع إرسال الجيوش واستمال جماعةً من أهل ماردة وثقات أصحابه فمالوا إلى الحكم وفارقوا أصبغ حتى أخوه، فضعفت نفسُه فطلب الأمان فأمَّنه الحكم، ففارق ماردة، وحضر إلى الحكم وأقام بقرطبة.

ذكر غزو الفرنج

وفي هذه السنة تجهز لُذَريق ملك الفرنج وجَمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة[1] ليحصُرَها، فبلغ ذلك الحكم فجمع العساكر وسيَّرها مع ولده عبد الرحمٰن، فاجتمعوا في جيشٍ عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة، فساروا حتى لقوا الفرنج في أطراف بلادِهم قبل أن ينالواْ من بلادِ الإسلام شيئًا، فاقتتلوا وبذلَ كلٌّ من الطائفتين جهده واستنفد وُسْعه فأنزل الله تعالى نَصْره على المسلمين، وهزم الكفار وكثُر القتلُ فيهم والإسار، وانتُهبتْ أموالهم، ورجع المسلمون بالظفر.

ذكر عصيان حزم على الحكم

وفي هذه السنة خالف حزم بن وهب بناحية باجة ووافقه غيره، وقصدوا لشبونة[2] فلما بلغ الحكم الخبر، سار إليه الحكم في جمع كبير، فنازله وقطع الأشجار وضيَّق عليهم حتى أذعنوا إلى طلب الأمان، فأمَّنه وأخذ رهائنه على المصالحة والطاعة، وعاد عنه الحكم إلى قرطبة.

ذكر عودة أهل ماردة إلى العصيان وغزو الحكم بلاد الفرنج

قال: ثم عاد أهل ماردة إلى العصيان والخلاف على الحكم في سنة أربع وتسعين، فسار الحكم بنفسه إليهم وقابلهم. ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد وتقاتِلُهم إلى سنة سِتٍّ وتسعين ومائة، فطمع الفرَنج في ثغور المسلمين وقصدوها بالغارات والقتل والنَّهْب والسَّبْي. وقد شغل الحكم بأهل ماردة عنهم حتى أتاه الخبر بشدَّة الأمر على أهل الثغور وما نال العدوُّ منهم، وسمع أن امرأة مسلمة أُخِذَتْ أسيرة فقالت: واغوثاه يا حكم فعظُم عليه الأمرُ وجمع العساكرَ واستعدّ وحشد، وسار إلى بلاد الفرنج في سنة ست وتسعين ومائة فأثخن[3] في بلادهم، وافتتح عدَّة حصون وخرَّب وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال، وقصد الناحية التي بها تلك المرأة فأسر لهم من الأسرى ما يفادون به أسراهم، وبالغ في الوصية في تخليص تلك المرأة فخلصت من الأسر وقتل بقية الأسرى.

---

(١) طرطوشة: مدينة تصل بكورة بلنسية وهي شرقيها قريبة من البحر.

(٢) لشبونة: مدينة تتصل بشنترين قريبة من البحر وعلى ساحلها يوجد العنبر الفائق.

(٣) أثخن فيها: أي بالغ في ضربه.

فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: أغاثكم الحكم؟ قالوا: نعم! وأثْنوْا عليه خيْرًا، وعاد إلى قرطبة مظفرًا منصورًا.

وفي سنة سبع وتسعين ومائة اشتد الغلاء بالأندلس وعمَّ البلادَ، ومات كثير من الخلق، وكان أكثر الناس يطوون للعدم.

ذكر وقعة الربض[(١)] بقرطبة

وفي سنة ثمانٍ وتسعين ومائةٍ كانت وقعة الربض بقرطبة، وسببها أن الحكم كان كثير التشاغل بالشُّرب واللهو والصيد وغير ذلك مما يُجانِسُه، وقد قدَّمنا ما كان قد فعله بأهل قرطبة لما أرادوا خلْعه ومَنْ صلب منهم. فزادت كراهةُ أهلِها فيه، وصاروا يتعرَّضون لِجُنْدِهِ بالأذى والسَّبِّ، وبالغوا حتى إنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان الصلاةَ يا مخمورُ الصلاةَ! وشافههُ بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف. فشرع في تحصين قرطبة وعمارةِ أسوارها، وحفْرِ خنادِقِها، وارتبط الخيل على بابه، واستكثر من المماليك، ورتب جمْعًا لا يفارقون باب قصرِه بالسلاح. فزاد ذلك في حِقدِ أهل قرطبة، وتحققوا أنه يفعل ذلك للانتقام منهم، ثم وضع عليهم عُشْر الأطعمة في كلِّ سنةٍ من غير حِرْصٍ فكرهوا ذلك.

ثم عمد إلى عشرة من رؤسائهم فقتلهم وصلبهم، فهاج لذلك أهلُ الرَّبض، وانضاف إلى ذلك أن مملوكًا له سلّم إلى صيْقل سيفًا ليصقله له فمطله الصيقل، فأخذ ذلك المملوك السيف ولم يزل يضرب به ذلك الصيقل إلى أن مات وذلك في شهر رمضان من هذه السنة، فكان أول من شهر السلاح أهل الرَّبض القبلي، واجتمع أهلُ الأرباض جميعهم بالسلاح، واجتمع الجندُ والأمويون والعبيد بالقصر. وفرق الحكم الخيل والسلاح، وجعل أصحابه كتائب.

ووقع القتالُ بين الطائفتين، فغلبهم أهل الربَض وأحاطوا بالقصر، فنزل الحَكم من أعلى القصر ولبس سلاحَه وحرَّض الناس على القتال، فقاتلوا قتالاً شديدًا. ثم أمر ابن عمِّه عبيد الله فثلم من السور ثلمة وخرج منها بقطعة من الجيش وأتى أهلَ الرَّبض من وراء ظهورهم فلم يشعروا به، وأضرم النارَ في الرَّبضَ. فانهزم أهله وقتلوا قتلًا ذريعًا وأُسِر من وجد في المنازل والدور فانْتقَى الحكمُ ثلاثمائة من وجوه الأسرى فَصَلَبَهم منكسين، ودام النُّهْبُ والقتل والحريقُ في أرباض قرطبة ثلاثة أيام.

---

(١) ربض قرطبة: محلة فيها.

ثم استشار الحكم فيهم عبدَ الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فأشار عليه بالصَّفْح عنهم والْعفو، وأشار غيره بالقتل، فقبل قولَ عبد الكريم. وأمر فَنُودِيَ بالأمان على أنه من بَقِيَ من أهل الربض بعد ثلاثة أيام قُتِل وصُلِب، فخرج من بقِيَ منهم بعد ذلك مستخفيًا، وتحمَّلُوا على الصَّعْب والذلول[١] وخرجوا من حضرة قرطبة بنسائهم وأولادِهم وما خفَّ من أموالهم. وقعد لهم الجند والسفلة بالمرصاد، ينهبون أموالهم، ومَن امتنع عليهم قتلوه!

فلما انقضتِ الأيامُ الثلاثةُ أمر الحكم بكَفِّ الأذى عن حرم الناس، وجمعهن إلى مكانٍ واحدٍ، وأمر بِهدْم الرَّبَض القبلي. وكان بزيع مولى أُمية ابن الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية محبوسًا في حبْسِ الدم وفي رجله قيدٌ ثقيل، فلما رأى أهلَ قرطبةَ قد غلبوا الجُنْد سأل الحرس أن يُفرِجوا عنه فأخذوا عليه العهدَ أن يعود فأطلقوه، فخرج فقاتل قتالاً شديدًا لم يكن في الجيش من قَاتَل مثله، فلما انهزم أهلُ الربض عاد إلى السجن، فانْتَهَى خبرُه إلى الحكم فأطلقه وأحسن إليه. وقيل إن هذه الوقعة كانت في سنة اثنتين ومائتين والله أعلم. قال بعض المؤرخين: اجتمع في الرَّبض أربعة آلاف فقيه وطالب!

وكان مِمَّن خرَج عليه يحيى بن يحيى الليثي[٢]، فهرب ونزَلَ على حَيٍّ من البربر، ثم أمَّنه الحكمُ بعد ذلك وحظي عنده. ومنهم الفقيه طالوت بن عبد الجبار، ففرَّ واستتر عند رجل يهوديٍّ عامًا كاملاً. وكان بينه وبين أبي البسام صداقة، فقصد فأخبر الحكم به، وأحضره إليه فعنَّفه الحكمُ على خروجه عليه، ثم أمَّنه وصرفه إلى منزله وسأله أين استتر فأخبره باليهودي وبأبي البسام، فاغتاظ على أبي البسام وعزلهُ عن وزارته وكتب عهدًا أن لا يخدمه أبدًا. ومنهم عبد الملك بن حبيب، وغيرهم.

ذكر غزو الفرنج

وفي سنة مائتين جهَّزَ الحكمُ جيشًا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فسار حتى توسَّط بلادهم، فخربها ونهبها وهدم عدةً من حصونهم، واستنفد خزائن ملوكهم. فلما رأى ملكُهم ذلك كاتب جميع ملوك تلك النواحي، واسْتَنْصر بهم فاجتمعت إليه أهلُ النصرانية من كلِّ مكان. وأقبل في جموعٍ عظيمةٍ ونزل بإزاء عسكر

(١) الذلول: السهل الانقياد. والصعب بخلافها.

(٢) هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شمّال بن منغايا الليثي، أصله من البربر من قبيلة يقال لها مصمودة، تولى بني ليث فنسب إليهم... (وفيات الأعيان ٦: ١٤٣).

المسلمين وبينهم نهر، فاقتتلوا عدَّة أيام والمسلمون يريدون عبور النهر إليهم وهم يمنعونهم من ذلك. فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون واقتتلوا أعظم قتال، فانهزم الكفار إلى النهر وأخذهم السَّيْفُ والأسر، فأُسِر جماعةٌ من ملوكهم وكنودهم وقمامصتهم. وعاد الفَرَنْجُ لزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من عبورِه فأقاموا ثلاثةَ عشرَ يومًا يقتتلون في كلِّ يوم، فجاءت الأمطار وزاد النهر فتعذر جوازه، فقفل عبد الكريم عنهم في سابع ذي الحجة من السنة.

ذكر غزو البربر بناحية مورور

وفيها خرج خارجيٌّ من البربر من ناحية مورور ومعه جماعةٌ، فوصل كتابُ العامِل بها إلى الحكم بخبره، فأخفى الحكم أمْره واسْتدْعى من ساعته قائدًا من قواده فأخبره بذلك سرًّا وقال له: سِرْ من ساعتك إلى هذا الخارج وائتِني برأْسِه وإلا فرأْسك عِوضه وأنا قاعدٌ في مكاني هذا إلى أن تعود! فسار القائد إلى الخارج، فلما قاربه سأل عنه فأخبر أنه في احتياط كثير واحتراز شديد، فعجز عنه ثم تذكر قول الحكم فأعمل الحيلة حتى دخل عليه وقتله وأتى برأسه إلى الحكم، فرآه بمكانه ذلك لم يتغيرْ، وكانت غيبته أربعةَ أيام، فأحسن إلى القائد وأكرمه ووصله وأعْلى محلَّه.

ذكر وفاة الحكم

كانت وفاته يومَ الخميس بعد الظهر لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين، وكان عمره اثنتين وخمسين سنةً وقيل ثلاثًا وخمسين سنة وقيل أقل من ذلك إلى تسع وأربعين سنة، ومدةُ إمارته ستًّا وعشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثةَ عشرَ يومًا. وكان طويلاً أسمر نحيفًا، وله شِعر جيِّدٌ، وهو أول من جَنَّد الجنود المرتزقة بالأندلس وجمع الأسلحة والعُدَد واستكثر من الحَشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتَّخذ المماليك وجعلهم في المرتزقة فبلغت عدتهم خمسةَ آلاف. وكانوا يسمون الخرس لِعُجْمةِ ألْسِنتِهِم، وكانوا نوابًا على باب قصره.

وكان يطَّلع على الأمور بنفسه ما قرُب منها وما بَعُد، وكان له نفر من ثقاة أصحابه يطالعونه بأحوال الناس، فيردع الظالم، وينصف المظلوم. وكان شجاعًا مِقْدامًا مُهَيْمِنًا وكان يُقرِّبُ الفقهاءَ وأهل العلم. وكان له من الأولاد أبو مطرف عبد الرحمٰن وثمانيةَ عشر ولدًا ذكرًا. كاتبه: الوزير أبو البسام.

ذكر إمارة عبد الرحمٰن بن الحكم

هو أبو المطرف وقيل أبو المظفر عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأمه أُم ولد يقال لها حلاوة، وهو الرابع من ملوك بني أُمية بالأندلس. بويع له بعد وفاة أبيه في يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سَنة سِتٍّ ومائتين وذلك في خلافة المأمون بن الرشيد العباسي.

قال: ولما ولي خرَج عليه عمُّ أبيه عبد الله البلنسي - من بلنسية - وطمِع في المُلْك، فوصل إلى تُدمير يريد قرطبة، فتجهز له عبد الرحمٰن، فلما بلغ ذلك عبد الله خاف وضَعُفَت نفسُه فرجع إلى بلنسية.

ذكر إيقاع عبد الرحمٰن بأهل إلبيرة وجندها

كان ذلك في سنة سبعٍ ومائتين وسبب ذلك أن الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمُه ربيع أنه ظلم أبناءَ أهلِ الذمة فقبض عليه وصلبه، فلما توفي الحكم وولي ولدهُ عبد الرحمٰن وسمع النَّاسُ بصلْب ربيع أقبلوا إلى قرطبة من النواحي يطلبون الأموال التي كان ظلمهم ربيعٌ فيها ظنًّا منهم أنها ستُرَدُّ إليهم. وكان جُنْدُ إلبيرة أشدَّهم وأكثرهم طلبًا وأشدَّهم إلحاحًا وتألُّبًا، فأرسل عبد الرحمٰن من يسكنهم، فلم يقبلوا ودفعوا من أتاهم، فخرج إليهم جمْعٌ من الجند من أصحاب عبد الرحمٰن فقاتلوهم فانهزم جند إلبيرة ومن معهم وقتلوا قتلاً ذريعًا، ونجا من بقي منهم، وأدْرَكَهم الطلبُ فقَتَلَ كثيرًا منهم.

وفيها ثارت بمدينة تُدمير فتنةٌ بين المضريَّة واليمانية فاقتتلوا بلورْقَة(١) فكان بينهم وقعة تعرف بيوم المصابرة قتل بينهم ثلاثة آلاف رجل، ودامت الحربُ بين الفريقين سبع سنين، ووكَل عبدُ الرحمٰن بكفِّهم ومنْعِهِم يحيى بنَ عبد الله بن خالد وسيَّره في جمع من الجيش، فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى افترقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة حتى أعياه أمرهم.

وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدةٌ ذهب فيها خَلْقٌ كثير وبلغ المُد في بعض المدن ثلاثين دينارًا.

---

(١) لورقا: في الطريق من غرناطة إلى مرسية، مدينة حصينة، ومنعة قلعتها تضرب بها الأمثال.

وفي سنة ثمانٍ ومائتين جهز عبدُ الرحمٰن جيشًا إلى بلاد المشركين، واستعمل عليهم عبدَ الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فساروا إلى بلاد ألية والقلاع فنهبوا بلاد أَلَيَة وخربوها وأحرقوها، وفتحوا حصونًا وصالحهم أهل حصون أُخر على مالٍ وإطلاق أسرى المسلمين، وذلك في جُمادى الآخرة.

وفيها توفي عبد الله بن عبد الرحمٰن المعروف بالبلنسي.

وفي سنة عشر ومائتين سيَّر عبدُ الرحمٰن سَرِيَّةً كبيرةً إلى بلاد الفرنج واستعمل عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسي. فسار ودخل بلادهم وتردَّد فيها بالغارات والسَّبْي والقتل والأسْر ولقي جيوشَ الأعداء فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وكان فتحًا عظيمًا.

وفيها افتتح عسكر سيَّره عبد الرحمٰن أيضًا حِصْنَ القلعة من أرض العدو في شهر رمضان المبارك.

وفيها أمر ببناء المسجد الجامع بجيّان.

وفيها أخذ عبد الرحمٰن مقدم اليمانية بتُدمير وهو رجاء بن الشماخ لتسكن الفتنةُ بين اليمانية والمضرية فلم تسكن ودامت، فأمر العاملَ بتُدمير أن ينتقل منها ويجعل مرسية[1] قاعدة تلك البلاد.

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين سيَّر عبدُ الرحمٰن جيشًا إلى برشلونة من بلاد العدو فأقام الجيش شهرين يحرقون وينهبون.

وفيها كانت سيول عظيمة وأمطار متتابعة، فخربت أكثر أسوار مدن الأندلس وخربت قنطرة سرقسطة، ثم جددت عمارتها.

وفي سنة ثلاثَ عشرة ومائتين قتل أهلُ ماردة عامِلهم فثارت الفتنة عندهم فسيَّر إليهم عبدُ الرحمٰن جيشًا فحَصَرَهم وأفسد زرْعَهم وأشجارَهم فعادوا للطاعة وأعطَوْا رهائنهم، وعاد الجيشُ عنهم بعد أن خربوا سورَ المدينة، ثم أرسل إليهم مَنْ ينقل أحجارَ السورِ إلى النهر لئلا يطمع أهلها في عمارته، فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العاملَ عليهم وبنَوْا السور وأتقنوه. فسار عبدُ الرحمٰن بجيوشه إليهم في سنة أربع عشرة ومائتين ومعه رهائن أهلها فراسله أهلها وافتدَوْا رهائنهم بالعامل الذي أسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدَهم ثم رحل عنهم. ثم سَيَّر إليهم جيشًا في سنة سبعَ عشرةَ فحصروها وضيّقوا على أهلها، ودام الحصار ثم رحلوا عنهم. وسيَّر

---

(١) مرسية: من أعمال تدمير وقاعدتها بناها الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم وهي ذات أشجار كثيرة وحدائق، تبعد عن قرطبة إلى الشرق منها... (صفة جزيرة الأندلس ص١٨١).

إليهم جيشًا في سنة ثماني عشرةَ ومائتين ففتحها وفارقها أهلُ الشر والفساد. وكان من أهلها رجلٌ اسمُه محمود بن عبد الجبار المارِدي في جماعةٍ من الجند، فمضى بمن سَلِم من أصحابه إلى مُنْت سالوط فسيَّر إليه عبد الرحمٰن جيشًا في سنةِ عشرين ومائتين فهرب بمن معه إلى جليقية[١] فأرسل سرية في طلبهم، فقاتلهم محمود وهزمهم وغنم ما معهم، وقتل عدةً منهم ثم مضى لِوَجْهِهِ فلقيهُ جَمعٌ من أصحابِ عبد الرحمٰن مصادفةً فقاتلوهم، ثم كفَّ بعضُهم عن بعض وساروا فلقيته سريةٌ أخرى فانهزمت السريةُ وغنم محمود ما معهم ووصل إلى بلاد المشركين فاسْتولى على قلعة لهم فأقام بها خمسة أعوام وثلاثةَ أشهر فحصره أذفونس ملك الفرنج فَملك الحصن وقتلَ محمودًا ومن معه وذلك في سنة خمس وعشرين في شهر رجب.

وفي سنة أربعَ عشرة ومائتين سار عبد الرحمٰن إلى مدينة باجة[٢] وكانت عاصية عليه فملكها عَنْوَةً.

وفيها خالف هاشم الضراب بمدينة طليطلة، وكان هاشمٌ مِمّن خرج من طليطلة لما أوقع الحكم بأهلها، وسار إلى قرطبة، فلما كان الآن سار إلى طليطلة فاجتمع إليه أهل الشر والفساد فسار إلى وادي جونيه وأغار على البربر وغيرهم فطار اسمُه واشْتدَّت شوكتُه وكثر جمعُه فأوقع بأهل شنت بريّه. وكان بينه وبين البربر وقعاتٌ كثيرة، فسيّر إليه عبدُ الرحمٰن جيشًا فقاتلوه فلم تستظهر إحدى الطائفتين على الأُخرى، وغلب هاشم على عِدَّةِ مواضعَ وجاوز بركة العجوز وأبعدت غارةُ خَيْله. فسيّر إليه عبد الرحمٰن جيشًا في سنة سِتَّ عشرة ومائتين فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا[٣] المجاور لرورية فدامت الحربُ بينهم عِدَّةَ أيَّام ثم انْهَزَمَ هاشم وقُتِل هو وكثيرٌ مِمَّن معه.

ذكر محاصرة طليطلة وفتحها

وفي سنة تسعَ عشرةَ ومائتين جهّز عبد الرحمٰن جيشًا مع ابنه أُميةَ إلى مدينة طليطلة فحصرها ـ وكانوا قد خالفوا وخرجوا عن الطاعة ـ فاشتد في حصارهم وقطع

---

(١) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب. . . (معجم البلدان).

(٢) باجة: بلد بإفريقية. . وهي كثيرة الأنهار وهي على جبل يقال له عين الشمس. . وباجة أيضًا: من أقدم مدائن الأندلس بينها وبين قرطبة مائة فرسخ.

(٣) سمسطا: قرية بالصعيد الأدنى من البهنسا على غربي النيل، ينسب إليها الحزم السمسطية، وهي حزم من الحبل لا يفضل عليها شيء. . . (معجم ياقوت).

أشجارهم وأهلك زرعهم، فلم يذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم وترك بقلعة رباح جيشًا عليهم ميسرةُ المعروف بِفَتَى أبي أيوب. فلما أبعد أُمية خرج جمع كثيرٌ من أهل مدينة طليطلة لعلَّهم يجدون فرصةً وغفلةً فينالون منه ومن أصحابه غَرَضًا، وكان قد بلغه الخبر فكمن في عدة مواضع. فلما وصلوا إلى قلعة رباح خرج الكمين عليهم من جوانبهم ووضعوا السَّيْف فيهم فأكثروا الْقَتْل وعاد من سلم منهزمًا إلى طليطلة، وجمعت رؤوس القتلى وحملت إلى ميسرة فلما رأى كَثْرَتَها عظم عليه وارتاع لذلك، وَوَجَدَ في نفسه غمًّا شديدًا، فمات بعد أيام يسيرة!

ثم سيَّر عبد الرحمٰن جيشًا في سنة عشرين ومائتين فقاتلوا ولم يظفرا منها بشيء. فلما كان في سنة إحدى وعشرين ومائتين خرج جماعةٌ من أهلها إلى قلعة رباح وبها عسكرٌ لعبد الرحمٰن فاجتمعوا كلُّهم على حصار طليطلة وضيَّقوا على أهلها واشْتَدُّوا في حصارهم إلى سنة اثنتين وعشرين ومائتين، فسيّر عبد الرحمٰن أخاه الوليدَ بن الحكم فرأى أهلها وقد بلغ بهم الْجَهْدُ كلَّ مبلغ واشْتَدَّ عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال والدفع، ففتحها عَنْوَةً يومَ السبت لثمان خلون من شهر رجب منها، وأمر بتجديد القصرِ على باب الجسر الذي كان هُدِمَ أيامَ الحكم، وأقام بها آخر شعبان سنة ثلاثٍ وعشرين حتى استقرَّتْ قواعدُ أهلِها.

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين ومائتين سيَّر عبد الرحمٰن جيْشًا إلى ألبَة والقلاع فنازلوا حِصْن الفرات، وقتلوا أهله، وغنموا ما فيه وسبوا النساء والذُّرِّية وعادوا.

وفي سنة أربع وعشرين سيَّر جيشًا عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسي إلى بلاد العدو، فوصلوا أَلَبة والقلاع فالْتَقَوْا هم والمشركون، وكانت بينهم حروبٌ شديدة وقتالٌ عظيم انْهَزَمَ أهلُ الشرك، وقتِل منهم ما لا يُحْصَى كثرةً، وجمعت الرؤوس حتى كان الفارس لا يرى من يقاتله!

ثم سار عبدُ الرحمٰن في سنة خمسٍ وعشرين في جيش كثيفٍ إلى بلاد المشركين فدخل بلاد جليقية وافتتح عِدَّةَ حصونٍ منها، وغنم وسَبى وقتل وخرَّب ثم عاد إلى قرطبةَ ولم تطل مدَّةُ هذه الغزاة.

وفي سنةِ أربعِ وعشرين ومائتين سيَّر الأمير عبد الرحمٰن جيشًا إلى أرض العدو، فلما كانوا بين أوشَنة وشرطانية تجمعتِ الرُّوم عليهم وأحاطوا بهم وقاتلوهم الليل كلَّه، فلما أصبحوا أنزل الله نصْرَه على المسلمين وهزم عَدُوَّهم. وأبلى موسى بن موسى في هذه الغزاة بلاءً حسنًا، وكان على مقدمة العسكر وهو العامل على تطيلة، وجرى بينه وبين جرير بن موفَّق ـ وهو من أكابر الدولة ـ أيضًا شر فخرج موسى عن طاعته.

ذكر الحرب بين موسى بن موسى والحارث بن بزيع وما كان من أمره

قال: ولما بلغ عبد الرحمٰن خروج موسى عن الطاعة سَيَّر إليه جيشًا، واستعمل عليهم الحارث بن بزيع فسار إليه والْتقوْا عند بَرْجَة[١] واقتتلوا فَقُتِل أكثر أصحاب موسى، وقتل ابن عم له، وعاد الحارث إلى سرقسطة. فسيَّر موسى ابنه إلى بَرْجَة فعاد الحارث إليها فحصرها وملكها وقَتَل ابنَ موسى وتقدم إلى مدينة تطيلة فحصرها فصالحه موسى على أن يخرج عنها فانتقل موسى إلى أرنيط وبقي الحارث بتطيلة أيامًا ثم سار إلى موسى ليحاصرَه. فأرسل موسى إلى غرسية وهو من ملوك الأندلس واتَّفقا على الحرب واجتمعا وجعلا للحارث كمائن في طريقه وأعدا له الخيل والرجل بموضع يقال له ثلمة على نهرٍ هناك، فلما جاوز الحارث النهر خرج إليه الكمناء وأحدقوا به وكانت وقعة عظيمة وأصابه ضربةٌ في جبهته قلعت عينيه ثم أُسِرَ، وذلك في سنة ثمانٍ وعشرين.

فلما بلغ خبره عبد الرحمٰن عظُم عليه وجهَّز جيشًا عظيمًا وجعل عليه ابنه محمدًا وسيّره لقتال موسى في شهر رمضان سنة تسعٍ وعشرين، فوصل إلى تطيلة وحصرها وضيّق على أهلها، وأهلك زرعها فصالحه موسى. وتقدم محمد إلى ينبلونة فأوقع عندها بجمع كثير من المشركين وقُتِل غرسية فيمن قُتِل، ثم عاد موسى إلى الخلاف على عبد الرحمٰن فجهز جيشًا كثيرًا وسيَّرهم إلى موسى فطلب المسالمة فأُجيب إليها، وأعطى ابنَه إسماعيلَ رهينةً وولاَّه عبد الرحمٰن مدينة تطيلةَ فسار موسى إليها وأخرج منها مَنْ يخافه واستقرَّ بها.

ذكر خروج المشركين إلى بلاد الإسلام بالأندلس

قال: في سنة ثلاثين ومائتين خرج المجوس في أقاصي بلاد الأندلس إلى بلاد المسلمين، وكان أول ظهورهم في ذي الحجة سنة تسعٍ وعشرين ومائتين وعند أشبونة فأقاموا بها ثلاثةَ عشر يومًا كان بينهم وبين المسلمين فيها وقائعُ، ثم ساروا إلى قادس[٢] ثم إلى شذونة وكان بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة، ثم قصدوا إشبيلية

---

(١) برجة: مدينة قرب النهر الأخضر الذي يصب في البحر المتوسط وبين المرية وغرناطة في وادي عذراء.

(٢) قادس: مدينة قرب شذونة ولكنها تقع مباشرة على المحيط الإطلنطي في الجنوب الغربي من الأندلس.

في ثامن المحرم فنزلوا على اثني عشر فرسخًا منها، فخرج إليهم المسلمون فهزمهم العدوُّ في ثاني عشر لمحرَّم وقُتِل كثير منهم، ثم نزلوا على ميلين منها فخرج أهلُها إليهم وقاتلوهم فانهزموا في رابع عشر المحرم وكثر القتلُ والأسْرُ فيهم. ولم يرفع المجوسُ السَّيْف عن أحدٍ ولا عن دابَّةٍ، ودخلوا حاضر إشبيلية وأقاموا بها يومًا وليلةً وعادوا إلى مراكبهم، فوافاهم عسكر عبد الرحمٰن فبادر إليهم المجوس فثبت المسلمون وقاتلوهم فقتل من المشركين سبعون رجلاً وانهزموا ودخلوا مراكبهم، وأحجم المسلمون عنهم، فسيَّر عبد الرحمٰن جيشًا آخر فقاتلهم المجوس قتالاً شديدًا ورجعوا عنهم فتبعهم العسكر في ثاني شهر ربيع الأول وقاتلوهم، وأتاهم المدد من كل ناحية فنهضوا لقتال المجوس من كل جانب فانهزم المجوس وقتل نحو خمسمائةِ رجلٍ وأخذوا منهم أربعة مراكب فأخذوا ما فيها وأحرقوها.

ثم خرج المجوس إلى لَبْلَة فأصابوا سبيًا ونزلوا جزيرة بالقرب من قوويس فقسموا ما كان معهم مما غنموه، فدخل المسلمون إليهم في النهر فقتلوا رجلين ثم رَحَل المجوس فطرقوا شَذُونة فغنموا أطعِمَةً وسبيًا وأقاموا يومين، فوصلت مراكبُ عبد الرَّحمٰن إلى إشبيلية. فلما أحسّ بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبَوْا ثم لحقوا بأشبونة ثم مضوا إلى باجة، ثم قفلوا إلى مدينة أشبونة، ثم ساروا فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين سار جيش للمسلمين بقرطبة إلى بلاد المشركين وقصدوا جلِّيقية فغنموا وقتلوا وأسروا وسبَوا وواصلوا إلى مدينة ليون[1] فحصروها ونصبوا عليها المجانيق، فخاف أهلها وخرجوا هاربين وتركوها بما فيها، فغنم المسلمون منها ما أرادوا وأحرقوا الباقيَ، ولم يقدروا على هدْمِ سورِها لأن عَرْضَه سبعةَ عشرَ ذراعًا، فمَضوْا وقد ثلموا فيه ثلمة كبيرة.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين غدر موسى بن موسى، فسَيَّر إليه عبدُ الرحمٰن جيشًا مع ابنِهِ محمدٍ.

وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدة، فهلك خلْقٌ كثير من الناس والدوابّ، ويبست الأشجار فاستسقى الناس فسُقوا وزال الْقحْطُ.

وفي سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين سيَّر عبد الرحمٰن ابنه المنذر في جيش كثيف إلى غزو الروم فبلغوا ألية والقلاع.

---

(١) ليون: مدينة من بلاد الجلالقة شمالي الأندلس.

وفيها كان سَيْلٌ عظيم بالأندلس فخرب جسر إستجة والأرجاء وغرَّق نهرُ إشبيلية سِتَّ عشرة قريةً، وخرَّب نهرُ باجة ثمانيَ عشرة قرية، وعَرُضَ حتى صار عَرْضُه ثلاثين ميلاً وكان هذا حدثًا عظيمًا وقع في جميع البلاد في شهر واحد.

وفي سنة سبْعٍ وثلاثين ومائتين سارت جيوشُ المسلمين إلى بلادِ العدُوِّ وكانت بينهم وقعةٌ عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين وهي وقعة البيضاء.

ذكر وفاة عبد الرحمٰن وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في ليلة الخميس لثلاثٍ خلون من شهر ربيع الأول سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومائتين، وقيل في شهر ربيع الآخر منها. وكان مولده في شعبان سنةَ سِتٍّ وسبعين ومائة. فكان عمره اثنتين وستين سنة ومدة ولايته إحدى وثلاثين سنةً وشهرين وستةَ أيام. وكان أسمر طويلاً أغرَّ أقنى عظيم الجبهة يخضب بالحناء. وكان له من صلبه من الأولاد الذكور والأناث سبعةٌ وثمانون ولدًا منهم خمسةٌ وأربعون ذَكَرًا. وكان عالمًا أديبًا شاعرًا، يعرف علوم الفلاسفة. وفي أيامه دخل زِرْياب المُغَني إلى الأندلس فحضر يومًا عند عبد الرحمٰن وغنَّى وعبيد الله بن قزمان الشاعر حاضر فقال زرياب[1]: [من الكامل الأحذّ]

قــالــت ظــلُـومُ سَـمِـيَّـةُ الـظُّـلْـمِ ... مـا لـي رأيـتـك نـاحِـلَ الـجِـسْـم
يـا مَـنْ رأى قـلـبـي فـأقـصـده ... أنـتَ الـعـلـيـم بـمـوضـع الـسَّـهْـمِ[2]

فقال عبد الرحمٰن: البيت الثاني منقطع عن الأول غير متصل به! فقال ابنُ قزمان بديهةً بعد البيت الأول:

فـأجـبـتُـهـا والـدَّمْـعُ مـنـحـدِرٌ ... مـثـل الـجُـمـان زهـا عـلـى الـنَّـظْـم

فكساه عبد الرحمٰن وحباه.

وهو أول من رتَّب اختلاف الفقهاء إلى قصره، وأمرهم بالكلام بين يديْه. وكان عبدُ الرحمٰن بعيد الهمة، اخترع قصورًا ومستنزهات كثيرةً، وزاد في الجامع بقرطبة رواقَيْن. وكانت أيامه أيام عافية وسكونٍ، وكثُرت الأموالُ عنده وأقام أُبَّهَة المملكة

---

(١) هو علي بن نافع مولى الخليفة المهدي وتلميذ إبراهيم الموصلي.

(٢) أقصده: أصابه.

ورتَّب رسومها. وكان يُشَبَّهُ بالوليد بن عبد الملك في أُبَّهَتِهِ. وهو أول من اجتلب الماءَ العذب إلى قرطبة وأدخله قصوره وجعل لفصل الماء مصنعًا كبيرًا يَردُه النَّاسُ إذا خرج من قصوره رحمه الله تعالى.

ذكر إمارة محمد بن عبد الرحمٰن المنعوت بالأمين

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وأمه أُم ولد اسمها تهتز. وهو الخامس من أُمراء بني أُمية بالأندلس، قام بالأمر بعد أبيه في يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين، وقيل في شهر ربيع الآخر منها، وكانت ولايته في خلافة المتوكل إلى بعض أيام المعتمد قال: ولما ولي جَرَى في العدل على سيرة أبيه، وتمَّمَ زيادة بناء أبيه في جامع قرطبة.

ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج

وفي سنة أربعين ومائتين كان بين المسلمين والفرنج حربٌ شديدةٌ، وسببها أن أهل طليطلة كانوا على ما ذكرناه من الخلاف على الملوك فلما وَلِيَ محمدٌ هذا سار بجيوشه إليها، فراسل أهلُها ملك جليقية يستمدونه، فأمدَّهم بالعساكر الكثيرة، فبلغ محمد ذلك وقد قارب طليطلة فعبَّأ أصحابَه وكمن الكمناء بناحية وادي سليط، وتقدم إليهم في قِلَّةٍ من العسكر فطمع فيه أهل طليطلة والفرنجُ، وأسرعوا إليه فلما نشبت الحرب خرجت الكمناء من كلِّ جهة فَقُتِل من المشركين ومن أهلِ طليطلة ما لا يُحْصَى، وجُمع من الرؤوس ثمانية آلافِ رأسٍ، وذكر أهل طليطلة أن عِدَّة القَتْلَى عشرون ألفًا.

قال: وفي سنةِ إحدى وأربعين ومائتين استكثر محمد الرجال بقلعة رباح لِيُضيِّق على أهل طليطلة، وسيّر الجيوشَ إلى غَزْوِ الفرنج مع موسى بن موسى، فدخلوا بلادَهم ووصلوا إلى أَلَبَة والقلاع، فافتتحوا بعض حصونها وعادوا.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين خرج أهل طليطلة واقتتلوا هم ومسعود بن عبد الله العرّيف فانهزم أهل طليطلة وقُتِل أكثرُهم وحُمِل إلى قرطبة سبعمائةُ رأسٍ.

ذكر خروج المجوس
إلى بلاد الإسلام بالأندلس

وفي سنة خمسٍ وأربعين ومائتين خرج المجوسُ في المراكب إلى بلاد الأندلس، فوصلوا إلى إشبيلية وحلُّوا بالحاضر وأحرقوا الجامعَ، ثم جازوا إلى الْعَدوة، ثم عادوا إلى الأندلس فانهزم أهل تُدمير، ودخلوا حصن أريول[1] ثم تقدموا إلى خليط أفرنجة فأغاروا وأصابوا من النَّهْبِ والسَّبْي كثيرًا، ثم انصرفوا فلقيهم مراكبُ الأميرِ محمدٍ فقاتلوهم وأحرقوا مركبيْن من مراكب المجوس، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيهما، فَجَدَّ المجوسُ عند ذلك في القتال واستشهد جماعةٌ من المسلمين، ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى فَفَدى نَفْسه بتسعين ألف دينارٍ.

وفي سنة سِتٍّ وأربعين ومائتين سار محمدٌ في جيوشٍ عظيمةٍ إلى بلد بنبلونة فوطىء بلادَها ودوَّخها وخرَّب ونَهَبَ وقَتَل، وافتتح حصونًا وأصاب في بعضها فرتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنةً ثم أطلقه إلى بلده، وأقام محمد بأرض بنبلونة اثنين وثلاثين يومًا.

وفي سنة سبع وأربعين سار جيشُ المسلمين إلى بلد برشلونة وهي للفرنج فأوقعوا بأهلها، فأرسل صاحبُها إلى ملك الفرنج يستمدُّه فأرسل إليه جيشًا كثيفًا، وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم الْمَدَدُ فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالاً شديدًا، فملكوا أرباضَها وبرجَيْن من أبراج المدينةِ، وقُتِل من المشركين ما لا يُحْصَى كثرةً وعاد المسلمون بالظفر والغنيمة.

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين جَهَّزَ محمدٌ جيشًا مع ابْنِه إلى مدينة ألَبَة والقلاع من بلد الفرنج فغنموا وافتتحوا حصونًا منيعة.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين سَيَّر محمدٌ جيشًا إلى بلاد المشركين في جُمادى الآخرة وقصدوا المِلاحة، وكانت أموال لذَريق بناحية ألَبَة والقلاع. فلما عَمَّ المسلمون بلدهم بالخراب والنَّهْبِ جمع لذريق عسكره وسار إليهم فالْتَقَوْا بموضع

---

(١) اريول: بالفتح ثم السكون، وياء مضمومة، وواو ساكنة، ولام: مدينة بشرق الأندلس من ناحية تدمير، ينسب إليها أبو بكر عتيق بن أحمد بن عبد الرحمٰن الأزدي الأندلسي الأريولي. . . (معجم البلدان).

يقال له فج المركون، به تعرف هذه الغزاة، واقتتلوا فكانت الهزيمةُ على المشركين ثم اجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فانهزم الفرنج لا يلوون على شيء، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون، وكانت هذه الوقعة في ثاني عشر شهر رجب، وكان عدد ما أُخِذَ من رؤوس القتلى ألفين وأربعمائة رأس وتسعين رأسًا، وكان فتحًا عظيمًا.

وفي سنة تسع وخمسين ومائتين سار محمد إلى طليطلة وحصرها ـ وكان أهلُها قد خالفوا عليه ـ فطلبوا الأمان فأمَّنهم وأخذ رهائنهم.

وفيها خرج أهل طليطلة إلى حصن سكيان وفيه سبعمائةٌ من البربر وأهلُ طليطلة في عشرة آلاف، فلما التحمت الحرب بينهم انهزم مطرّف بن عبد الرحمٰن بن حبيب وهو أحد مقدّمي أهل طليطلة فتبعه أهلها في الهزيمة، وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدم آخر اسمه طريشة فأراد أن يوهنه بذلك فَقُتِلوا أعظمَ قتْلٍ.

وفيها عاد عمروس بن عمر بن عمروس الأندلسي إلى طاعة الأمير محمد، وكان مخالفًا عليه عِدَّة سنين، فولاَّه محمد مدينة أشقة.

وفي سنة سِتٍّ وستين ومائتين أمر محمد بإنشاء مراكب بنهر قرطبة وحملها إلى البحر وسيّرها إلى البحر المحيط ليسيرَ منه إلى بلاد جليقية فلما دخلته تقطعت، فلم يجتمع منها مركبان، ولم يرجع منها إلا اليسير!

وفي سنة سبع وستين ومائتين خالف عمر بن حفصون على الأمير محمد بن عبد الرحمٰن فخرج إليه جيشُ تلك الناحية وعامِلُها، فقاتلوه فهزمهم. وقويَ أمرُه وشاع ذكره، وأتاه من يُريد الشَّرَّ والفساد، فسَيّرَ إليه محمد عاملاً آخر في جيشٍ فصالحه عمر، وطلب العاملُ كلَّ مَنْ كان له مساعَدَةٌ لعمر، فأهلكه، ومنهم مَنْ أبْعَدَه، واستقامت تلك الناحية.

وفي سنة ثمان وستين سيَّر محمد جيشًا إلى المخالفين مع ابنه المنذرِ فقصد مدينة سَرَقسْطة فأهلك زرْعَها وخرَّب بلدَها. وافتتح حِصْنَ رَوْطة، وأخذ منه عبد الواحد الرَّوْطي ـ وهو من أشجع أهل زمانه ـ وتقدّم إلى دير تروجة وهتكها بالغارة، وقصد مدينة لاردة وقرطاجنة وأخذ رهائنهم، ثم قصد مدينة ألَيَة والقلاع فافتتح بهما حصونًا، وعاد بالظَّفَر والنَّصْرِ والسلامة.

ذكر وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمٰن

كانت وفاته في سلْخ صفر سنةَ ثلاث وسبعين ومائتين وقيل في يوم الأحد غُرَّة شهر ربيع الأول منها، وأنه خرج يوم الأحد إلى الرصافة متنزِّهًا ومعه هشامُ بنُ

عبد العزيز فقال له: يا سيدي ما أطيب الدنيا لولا الموت! فقال له: يابن اللخناء وهل ملَّكنا هذا الذي نحن فيه إلا الموت؟ ولو بقي مَنْ كان قبلنا فمن أين كان يصل إلينا؟ ورجع من نزهته فحُمَّ ومات في بقية يومه، نقله ابن الرقيق[(١)] في تاريخ إفريقية وكان مولد محمد في ذي القعدة سنةَ سبع ومائتين وعمره خمسًا وستين سنةً وثلاثة أشهر وأيامًا. وكانت ولايته أربعًا وثلاثين سنةً وأحد عشر شهرًا.

وكان أبيضَ مشربًا بحمرة، ربع القامة أوْقَص[(٢)]، يخضب بالحناء والكتم[(٣)] ووُلِد له مائةُ ولدٍ ذكورٌ، مات عن ثلاثةٍ وثلاثين منهم. وكان ذكيًا فطنًا بالأُمور المستبهمة، محبًا للعلوم، مؤثرًا لأهل الحديث، عارفًا حَسَن السيرةِ. قال ابن مخلد[(٤)] الفقيه: ما كلمت أحدًا من الملوك أكمل عقلًا ولا أبلغ من الأمير محمد بن عبد الرحمٰن، رحمه الله تعالى. وكانت وفاة محمد في خلافةِ المعتمد على الله العباسي.

ذكر إمارة المنذر بن محمد

هو أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أُمّ ولد اسمها ايل، وهو السادس من أُمراء بني أُمية بالأندلس. قام بالأمر في يوم وفاة أبيه في غُرَّة شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وقيل بويع له بعد وفاة أبيه بثلاث ليال وخالف عليه ابن حفصون ـ وقد ذكرنا خلافه على أبيه ـ وتحصن عمر بن حفصون بطليطلة، فسار المنذر إليها وأحدق بها؛ فأعمل ابن حفصون الحيلة وسلك طريق المكر والخديعة، وسأل الأمان، وأظهر الرغبة في سكن قرطبة بأهله وولده. فأمنه المنذر وكتب له بما أراد، وفصّل لأولاده الثياب. ثم سأل مائة بغل يحمل عليها أثقاله وعياله إلى قرطبة، فأمر له المنذر بها وسُلّمت إليه وعليها عشرة من العرفاء.

---

(١) هو إبراهيم بن القاسم الرقيق، القيرواني، كاتب، أخباري، مؤرخ، شاعر، سهل الكلام تلوح الكتابة على ألفاظه، قليل صنعة الشعر، غلب عليه اسم الكتابة، وعلم التاريخ، وتأليف الأخبار، له تصانيف كثيرة منها: تاريخ إفريقية والمغرب عدة مجلدات، وكتاب النساء كبير، وغيرهما... (معجم المؤلفين ـ كحالة ١: ٧٦).

(٢) الأوقص: القصير العنق.

(٣) الكتم: نبات يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٤) هو أبو عبد الرحمٰن الأندلسي بقي بن مخلد.

وارتحل العسكر، فأخذ ابن حفصون البغال وقتل العرفاء، وعاد إلى سيرته الأولى. فعقد المنذر على نفسه أنه لا أعطاه صلحًا ولا عهدًا إلا أن يُلْقَى بيده وينزل على حكمه، وأمر بالسكنى، وأن تردَّ أسواق قرطبة إلى طليطلة. ودام الحصار، فمات المنذر وهو يحاصره.

وكانت وفاته في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنةَ خمسٍ وسبعين ومائتين، وقيل في نصف صفر. وعمره نحوًا من ستٌّ وأربعين سنة وولايته سنةٌ واحدةٌ وأحدَ عشرَ شهرًا، وأيامٌ.

وكان أسمر طويلًا، جَعدًا كثَّ اللحية، بوجهه أثر جدري، وخلف ستة أولاد ذكورًا. وقيل لم يعقب فولّي بعده أخوه!.

ذكر إمارة عبد الله بن محمد

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أُمُّ ولدٍ اسمُها عشار، وهو السابع من أُمراء بني أُمية ببلاد الأندلس. بويع له بعد وفاة أخيه المنذر في يوم السبت لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من صفر سنةَ خمسٍ وسبعين ومائتين، وقيل في منتصفِ صفرٍ منها، وذلك في خلافة المعتمد على الله العباسي.

ولما بويع له كان بالمعسكر على طليطلة فرحل نحو قرطبة، ودخل القصر بها لثلاثٍ بقين من صفر المؤرَّخ. قال إبراهيم بن الرقيق: ولما تولّى ألّب بنُ حفصون عليه، وحشد كور الأندلس حتى لم يبْق منها إلا قرطبة، وأقبل فيمن أطاعه من أهل الكور. وخرج إليه الأمير عبد الله في أربعة عشر ألفًا من أهل قرطبة خاصة، وأربعةِ آلاف من حشمه ومواليه. فبرز إليه ابنُ حفصون في سفح الجبل وثار له، فلم تكن إلا صدمةٌ صادقةٌ حتى أزالوهم عن مراكزهم. ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقي فيه، فثلم فيه ثلمة أخرج منها أهله وما كان له. فلما انتهى ذلك إلى عسكره ولَّوْا مدبرين لا يلوي أحد منهم على أحد فقتلوا قتلًا ذريعًا ودخل منهم جماعةٌ في عسكره فأمر بالتقاطهم وجلس لهم في مظلة فقتِل بين يديه ألفٌ صبْرًا.

وكانت في أيامه فِتَنٌ عظيمةٌ، وكثُر قيام الثوّار عليه حتى لم يبْق في يده إلا مدينةُ قرطبة وحدها. وخالف عليه أهل إشبيلية وشَذُونة، ولم تبْق مدينةٌ إلا خالفت عليه. وعزموا على الدعاء على منابر الأندلس للمعتضد بالله العباسي، فكتبوا إلى إبراهيم بن أحمد الأغلب يسألونه أن يبعث إليهم رجلًا من قِبلِه، فتثاقل عنهم إبراهيمُ وشَغَلَه أيضًا اضطرابُ أهلِ إفريقية عليه، فأمسكوا عن ذلك!

وقَلَّت رجالُ عبد الله بن محمد، وذهب من كان يصول به - هو وآباؤه - من مواليهم وأصحابهم، وقلَّتْ الأموالُ في يده لخروج أهل المدن وامتناعهم من أداء الخراج إليه. وكان خَراج الأندلس الذي يُؤَدَّى إلى آبائه ثلاثمائة ألف دينارٍ في كلِّ سنةٍ، فكانوا يُعطون رجالَهُم وخَدمهُم مائة ألفِ دينار، وينفقون في أُمورهم ونُوَّابِهم وجميع ما يعرض لهم مائةَ ألفٍ، ويدّخرون مائة ألَف. فلما امتنع أهل مدن الأندلس من أداء الخراج إليهم رجعوا إلى تلك الذخائر ينفقونها، واتصلت عليهم لحروبُ خَمْس عشرةَ سنةً فنفدت ذخائرهم واحتاجوا للقروض!

وكانت أيامه على هذه الحال إلى أن توفي، وكانت وفاتُه في يوم الثلاثاء غُرة شهر ربيع الأول سنةَ ثلاثمائة، وعمره سبعون سنةً إلا شهورًا، ومدةُ ولايته خَمْسٌ وعشرون سنةً ونصفُ شهر وكان مستبدًا بآرائه، مخالفًا لنصحائه، ليِّنَ الجانِبِ جدًا. بلغ من لينه أنَّ ابنَه مطرّفًا قتل أخاه محمد بنَ عبد الله والد الناصِر فلم ينكر عليه ذلك، بل قال له: قد سوّغتك قَتلَ أخيك فاللّهَ اللّهَ في ابن أُمية (يعني وزيره) فإنك إن قتلتَه قتلتُك به! ثم حذَّر ابنَ أُميةَ من مطرّف، وكان مطرّف قد عزم على خلعه فلم يمكنه ذلك لمكان ابن أُمية، فعمل عليه حتى قتله. ولما مات عبد الله ولِي بعده ابنُ ابنه عبد الرحمٰن.

ذكر إمارة عبد الرحمٰن بن محمد

هو أبو المطَرّف عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أُمُّ ولدٍ اسمُها مُزْنة، وهو الثامن من أُمراء بني أُميةَ بالأندلس. بويع له بعد وفاة جدّه، في مستهل شهر ربيع الأول سنةَ ثلاثمائة. وقال ابن الرقيق إنه أَخٌ لعبد الله بن محمد، وليس بصحيح! وينقض ذلك عليه أنه قال فيه: ولي وهو ابنُ أربع وعشرين سنةً ووفاةُ محمد بن عبد الرحمٰن قبل مولد عبد الرحمٰن هذا بأربع سنين، وأظنه أُشْكِل عليه أمْرُه، والتبس عليه محمد بن عبد الله بجدّه محمد بن عبد الرحمٰن، والله تعالى أعلم..

قال: ولما ولي عبد الرحمٰن هذا تَلَقَّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وهو أوّلُ مَنْ لُقّب بأمير المؤمنين ببلاد الأندلس. وكان منْ قَبْلَه يُسمَّوْن ببني الخلائف، ويُسلَّمُ عليهم ويُخطبُ لهم بالإمرة فقط. وإنما تَسمَّى هذا بأمير المؤمنين لما بلغه ضَعْفُ الخلافةِ بالعراق في أيام المقتدر بالله، وظهورُ الشيعةِ بالقَيْروان، ودعاؤهم للمهدي. فكان في ذلك الوقت ثلاثةُ خلائف تَلقَّبَ كل منهم بأمير المؤمنين؛ فالمقتدر بالعراق، والمهدي بالقيروان، وهذا الناصر بالأندلس.

قال: وولي والأندلس نار تضطرم، وجمرةٌ تَتَّقِدُ شقاقًا ونفاقًا، فأخمد نيرانها وسكَّن زلازلها، وغزا غَزَوات كثيرةً، وكان يُشَبَّه بعبد الرحمٰن الداخل. ولم يجد من المال ما يستعين به على مصالح جيشه، فاتفق أن صاحب الدُّوجَر أغار على قرطبة في نَحْوِ ثلاثمائة فارسٍ فهزمه عبد الرحمٰن وأسره. فسلَّم إليه الحصن بجميع ما فيه فَتقوَّى به، ثم التقى مع ابن حفصون في وادي التفاح بجيّان ـ وكان ابن حفصون في عشرين ألف فارس ـ فهزمه عبد الرحمٰن وأفْنَى أكثر من معه قَتْلاً وأسْرًا.

وبعث إلى المغرب الأوسط، فملك سبتة وفاس وسجلماسة[1] وعمّرها. وغزا الروم بعد ذلك اثنتي عشرةَ غزوةً حتى دوّخ بلادها، ووضع عليهم جزية يؤدونها. وكان فيما شرط عليهم اثنا عشر ألفَ صانع يصنعون له في مدينته التي بناها وسمَّاها الزهراء، وهي على ثلاثة أميال من قرطبة، أسندها إلى سفح الجبل وساق المياه إليها. وقسمها أثلاثًا، فالثلث الذي يلي الجبل لقصوره ومنازله، والثلث فيه دور خدَمِهِ وكانوا اثني عشر ألفًا بمناطق الذهب والسيوف المحلاة يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، والثلث بساتين تحت مناظره وقصوره. وجلب إليها أنواع الفواكه، قال: ومن غريب ما بناه فيها مجلسٌ مشرفٌ على البساتين مرفوعٌ على العمد مبنيٌّ بالرخام المجزَّع، مصفَّح بالذهب، مرصَّع باليواقيت والجواهر. وصنع أمام المجلس بحرًا ملأه بالزئبق فكان النور ينعكس منه إلى المجلس، فحضر إليه القاضي بقرطبة الفقيه مُنْذِر بن سعيد البلُّوطي فقرأ ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥] فقال له: وعظت فأحسنت! وأمر بنزع الصفائح.

قال: وكمل بناء الزهراء في اثنتي عشرةَ سنةً، بألف بنّاء في كل يوم، مع كل بنّاء اثنا عشر رقّاصًا، وسكنها خمسًا وعشرين سنةً.

وطالت أيام الناصر، وتمكن، واتسعت مملكته. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء لليلتين، وقيل لثلاثٍ خلت من شهر رمضان المعظم سنةَ خمسين وثلاثمائة بالزهراء. وحُمل إلى مدينة قرطبة، فدُفن بها مع أسلافه من بني أُمية. ومولده في يوم الخميس لتسع بقين من شهر رمضان سنة سبعٍ وسبعين ومائتين، وكان عمره ثلاثًا وسبعين سنةً، ومدةُ ولايته خمسين سنةً وستة أشهرٍ وأيامًا.

---

(١) سجلماسة: بكسر أوله وثانيه، وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل درن. . . (معجم البلدان).

وكان شهمًا صارمًا، لم يزل منذ ولي يستذل المتغلبين حتى خلصت له جميع الأندلس في خمسٍ وعشرين سنةً من ولايته. وكان له من الأولاد الحكمُ وليُّ عهده، وعبد الجبار، وسليمان، وعبد الملك، وعبيد الله، والمغيرة، ولما مات ولي بعده ابنه الحكم.

ذكر إمارة الحكم المستنصر بالله

هو أبو العاص الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أُم ولد اسمها مرجان، وهو التاسع من أُمراء بني أُمية ببلاد الأندلس. بويع له في شهر رمضان سنةَ خمسين وثلاثمائة في جميع مدن الأندلس وثغورها، فأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم وضبط الثغر، وغزا الروم في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، ففتح مدنًا جليلة، وسبى وغنم وانصرف غانمًا.

ثم أصابه الفالج فتغيَّب عن الناس، فلما كان في يوم السبت لعشرٍ خلون من المحرم سنَةَ ستٍّ وستين وثلاثمائة أُظْهِر موتُه، وقيل توفي فجأة ليلة الأحد لأربعٍ خلون من صفر منها. ومولده في يوم الجمعة مستهل شهر رجب سنة اثنتين وثلاثمائة، فمات وله من العمر ثلاثٌ وسبعون سنة وستةُ أشهر وعشرةُ أيام، ومدةُ ولايته خمس عشرةَ سنةً وأربعةُ أشهر وأيام.

وكان حسن السيرة، جامعًا للعلوم مكرمًا لأهلها، وجمع من الكتب على اختلاف أنواعها ما لم يجمعه غيره من الملوك قَبْلَه، واشتراها من سائر الأقطار، وغالى في أثمانها، فحملت إليه من كل جهة. وكان قد رام قَطْعَ الخمر، من الأندلس، وأمر بإراقتها وشدَّد في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله. فقيل له إنها تعمل من التين وغيره، فتوقف في ذلك. وهو الذي رحل إليه أبو علي القالي البغدادي صاحب الأمالي[(١)]، وأبو بكر الزبيدي[(٢)] مُخْتَصِرُ كتابَ العين. وكان منذر بن

---

(١) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالي اللغوي.. كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين، أخذ الأدب عن أبي بكر بن دريد الأزدي وأبي بكر بن الأنباري ونفطوية وابن درستوية وغيرهم... (وفيات الأعيان ١ : ٢٢٦).

(٢) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة؛ كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر، إلى علم السير والأخبار... (وفيات الأعيان ٤ : ٣٧٢).

سعيد البلوطي قاضيَه وقاضيَ أبيه، فلما توفي ولي القضاءَ ابن بشير الفقيه، فاشترط على المستنصر نفوذ الحكم فيه فمن دونه.

فكان من أخباره أن امرأة منقطعة كان لها أُريضة تجاور بعض قصور الأمير، فاحتاج إليها ليبني فيها شيئًا مما أراد بناءه، فساومها الوكيل في البيع فامتنعت، فأخذها الوكيل قهرًا وبنى فيها منظرة بديعة وأنفق عليها جملة وافرة. فوقفت المرأة لابن بشير القاضي وقصَّت عليه قصتها، فركب حماره وجعل عليه خرجًا كبيرًا لا يطيق حَمْله إلا جماعةٌ من الرجال. وقصد الزهراء والمستنصر في تلك المنظرة، فدخل عليه فقال: ما جاء بالقاضي في هذا الوقت؟ فقال: أُريد ملْءَ هذا الخرج من تراب هذا الموضع! فتعجّب منه الحكم وأمر فَمُلِىءَ الخرج ثم خلا القاضي به فقال: أدل عليك إدلال العلماء على الملوك الحلماء أن لا ينقل هذا الخرج على الحمار إلا أنا وأنت! فضحك الحكم وقال: كيف نطيق ذلك أيها القاضي؟ فبكى ابن بشير وقال: فكيف نطيق أن نطوق هذا المكان أجمعه من سبع أرضين في حلقي وحلقك يوم القيامة وأنا شريكك في الإثم إن رضيت هذا الحكم؟ وقَصَّ عليه القصة، فبكى الحكم وقال: وعظتَ فأبلغت أيها القاضي! ثم خرج عن المكان وسلَّمه إلى المرأة بكل ما بُني فيه وغُرِس.

قال: وكتب إليه العزيز بن المعز صاحب مصر كتابًا يشتمه فيه ويسبه، فكتب إليه «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك، والسلام» وكتب إليه قصيدة يفتخر فيها منها: [من الطويل]

ألسنا بني مروانَ كيف تَبَدَّلَتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلِدَ المولودُ منا تَهَلَّلَتْ ... له الأرضُ واهتزتْ إليه المنابرُ

وكان للحكم من الأولاد هشام، وسليمان، وعبد الله. وحاجبه جعفر الصقلي، المعروف بالفتى!.

ذكر إمارة هشام المؤيد بالله

هو أبو الوليد هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر بالله، وهو العاشر من أُمراء بني أُمية ببلاد الأندلس. بويع له بولاية العهد في حياة أبيه في غُرَّةِ جُمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة. وجُدِّدَتْ له البيعةُ في يوم الأحد لإحدى عشرةَ خلت من المحرم سنة ستٍّ وستين وثلاثمائة. وقيل في يوم الاثنين لخمسٍ خلون من صفر منها، وهو ابن اثنتي عشرةَ سنة باتفاق الوزراء. وعلموا أن عمَّه المغيرةَ بنَ عبد الرحمٰن

ينازعه في الأمر ويتطاول إلى بعض ما عُقِدَ له ويرى أنه أحقُّ بذلك منه لِصِغَر سِنِّه، فَهُجِم عليه في منزله فَذُبح. وكان الذي تولّى قَتْلَه محمد بن أبي عامر الوزير، فَصَعَّبَ الأُمورَ لهشام.

ولما ولي احتيج إلى مدبرٍ للمملكة، فوقع الاختيار على جعفر بن عثمان المصحفي، فقلَّده هشام حجابته وتدبيرَ أمره، وأشرك معه في الحجابة غالب بن عبد الرحمٰن. وقلَّد المنصور بن أبي عامر الوزارة ـ وكان على الشرط والسكّة ـ فانحط المصحفي وارتفع ابن أبي عامر، ثم عزل المصحفي عن الحجابة في يوم الاثنين لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وستين وحوقق وطولب بمائة ألف دينار، وتوفي في المطبق بعد خمسة أعوام، فكانت مدة ولايته ستة أشهر وثلاثة أيام.

ذكر أخبار المنصور محمد بن أبي عامر

قال: ولما عزل المصحفي اتفق الرأي على تقديم محمد بن أبي عامر المعافري[1]، فولى الحجابَة في يوم الاثنين المؤرّخ، وبقي غالبٌ شريكهُ إلى أن قُتل وتفرَّد المنصور بالأمر.

قال بعض المؤرخين: كان محمد بن أبي عامر من الجزيرة الخضراء، وله بها قَدْرٌ وأثرة وورد وهو شابٌ إلى قرطبة واشتغل بالعلم والأدب، وسمع الحديث وتميّز. وكانت له همة يحدِّث بها نفسه بإدراك معالي الأمور، وكان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك. وله أخبار كثيرة أورد منها أبو عبد الله الحميدي[2] ـ في كتابه المترجم بالأماني الصادقة ـ كثيرًا قال: ثم علت حاله، وتعلَّق بوكالةِ صُبْحٍ أُمِّ هشام المؤيد، والنظر في أموالها؛ فزاد أمره في التَّرقِّي إلى أن مات وولي ابنُها هشام، فخافت اضطرابَ الأمرِ عليه، فضمن لها سكونَ الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها. فساعدته المقادير، وأمدّته المرأةُ بالأموال فاستمال العساكر إليه، فصار صاحبَ التدبير والمتغَلِّبَ على الأمر.

---

(١) المعافري: نسبة إلى معافر، وهو حي كبير من اليمن.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد بن يصل، الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي الحافظ المشهور.. كان موصوفًا بالنباهة والمعرفة والإتقان والدين والورع.. ولأبي عبد الله كتاب «الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم» وله أيضًا تاريخ علماء الأندلس سماه «جذوة المقتبس»... (وفيات الأعيان ٤: ٢٨٢).

وحجب هشامًا وتلقَّب بالمنصور وأقام الهيبة، فدانت له أقطار الأندلس كلها، ولم يضطربْ عليه شيء منها لعظم هيبته وحُسْنِ سياسته. وكان يدخل إلى القصر ويخرج فيقول: أمر أميرُ المؤمنين بكذا ونهى عن كذا! فلا يُعْتَرَضُ عليه في مقال ولا يُنازَع في أفعال.

وكان إذا غزا بلد الروم وكل بهشام من يمنعه من التصرف والظهور والإِذْنِ في دخول أحدٍ من الناس إلى أن يعود من سفره، فإذا كان بعد سنين أركبه وجعل عليه بُرْنسًا وألبس جواريه البرانس حتى لا يُعْرَفَ منهن، ويوكل بالطرقات من يطرد الناس عنها حتى ينتهي إلى الزَّهراء وغيرها من المتنزهات، ثم يعيده على مثل ذلك. وليس له من الملك إلا الدعاءُ على المنابر، وإثباتُ اسمِهِ على السكة والطرر، والمنصور على أتمِّ ما يكون من الحزم وسَدِّ الثغور وإقامةِ العدل وشمولِ الناس بالإحسان والفضل. فلم يُرَ في الضبط وحُسْنِ السياسة وأمْنِ السبيل وتوفية حقوق الرياسة بجزيرة الأندلس كأيامه!

ودامت له هذه الحال بضعًا وعشرين سنة إلى أن توفي، وكانت وفاته في أقصى الثغور بمدينة سالم[١] في سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة في طريق الغزو.

قال: وكان رحمه الله تعالى له مجلس في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام بحضرته مدةَ بقائه بقرطبة، قال وختن أولاده فختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد الضعفاء ما لم تُحْص عدتهم، وأنفق فيه خمسمائة ألف دينار.

وكان ذا همة عالية في الجهاد، مواصلاً لغزو الروم، وربما خرج لصلاة العيد فيقع له فيه الجهاد، فلا يرجع إلى قصده ويركب من فوره بعد انصرافه من الصلاة، فلا يصل إلى أوائل الدروب إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر. وغزا ستًّا وخمسين غزاةً ذكرت في المآثر العامرية بأوقاتها، وفتح فتوحًا كثيرةً، ووصل إلى معاقل جمَّةٍ امتنعت على مَنْ كان قبله. وملأ الأندلس بالغنائم والسبي.

قال: وكان إذا انصرف من قتال العدو إلى سُرادقه يأْمر بِنفْضِ غبار ثيابه التي شهد فيها الحرب، ويُجمعُ ويُحتفظ به. فلما حضرته الوفاةُ أمر أن ينشر على كفنه ما جمع من ذلك إذا وضع في قبره.

---

(١) سالم: مدينة بالأندلس تتصل بأعمال باروشة، وكانت من أعظم المدن وأشرفها وأكثرها شجرًا وماء... (معجم البلدان).

قال: وبنى مدينة الزاهرة بقرب قرطبة، وانتقل إليها بأهله وولده وحواشيه. وكان قد يُخَوَّفُ من بني أُمية أن يثوروا به، فأخذ في تقتيلهم صغارًا وكبارًا، عملاً في الباطن لنفسه وفي الظاهر إشفاقًا على المؤيد منهم، حتى أفْنَى من يصلح منهم للولاية، وفرّق الباقين في البلاد. فكان ممن هرب الوليد بن هشام الخارج على الحاكم بمصر، الملقب بأبي زكوة.

وأخبار المنصور طويلة مشهورة لو استقصيناها لطال الكتاب، وفيما نَبَّهنَا عليه من أخباره وذكرناه من آثاره كفاية. وأخبرني بعض أهل الأندلس أن على قبره مكتوبًا: [من الكامل]

آثاره تُنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعِيان تَراهُ
تالله لا يأتي الزمانُ بمثله ... أبدًا ولا يحمي الثغورَ سواهُ

ولما مات رحمه الله قام بالأمر بعده ولده.

ذكر المظفر أبي مروان عبد الملك

قال: وكان الناسُ قد تجمعوا وقصدوا الزهراء وقالوا: لا بُدَّ من ظهور المؤيد وولايته الأمْرَ بنفسه! فلما بلغه ذلك آثر الراحة والدعة، وأحضر عبد الملك وخلع عليه وقلّده ما كان بيد أبيه من الولاية، ونعته بالحاجب المظفر سيف الدولة. وأُمر فاتن الصغيرُ الخادمُ أن يخرج إلى المجتمعين فيصرفَهم ويخبرَهم برضائه بِحجْبَةِ المظفر، فأخبرهم، فأبوا!

وخرج المظفر فقابلته الفئة المجتمعة فهزمهم، وأقام في الحجبة إلى أن توفي لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من صفر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة بموضع يقال له القبران في غزوته، فحمل في تابوت ودفن بالزاهرة وعمره ستٌّ وثلاثون سنة. ومدةُ ولايته ستة أعوام وأربعة أشهر وأيام وغزا الروم ثماني غزوات وبأيامه تضرب المُثل بالأندلس عدلاً وأمنًا.

ولما مات وَلِيَ الحجْبَةَ عبدُ الرحمٰن بنُ المنصور محمد بن أبي عامر وهو أخو المظفر ونُعِتَ بالحاجب المأمون ناصر الدولة، ويلقب بشنشول فافتتح أموره بالخلاعة والمجانة. وكان يخرج من منية إلى منية ومن متنزه إلى متنزه بالملاهي والمضحكين، ويجاهر بشرب الخمر والتهتُّك. ثم طلب من المؤيد أن يدعو له ويوليه العهد بعده، وهدّده بالفَتْكِ به إن لم يفعل، وكثر الإرجاف بذلك.

ثم ركب شنشول من الزاهرة ومعه سائر أهل الخدمة بسلاحهم، والوزير وقاضي الجماعة، والفقهاء والعدول، وأصحاب الشُرَط، ووجوه الناس على طبقاتهم. وسار إلى باب القصر بقرطبة، وحضر المؤيد هشام، وأخرج كتابًا قُرِىء بحضرته وهو بخط الوزير أبي عمر، وفيه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم.. هذا ما عهد به هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عزَّ وجلَّ عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعةً تامّةً، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة وعصب به من أمره، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرف، وخشي إن هجم محتوم ونزل مقدور به ولم يرفعْ لهذه الأُمة علمًا تأْوي إليه وملجأً تنعطف عليه.. أن يكون بلقاء ربه تبارك وتعالى مفَرطًا فيها ساهيًا عن أداءِ الحقِّ إليها ونقض عند ذلك من طبقات الناس من أحياء قريش غيرها ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته، بعد اطِّراح الهوى والتحرِّي للحق والتزلُّف إلى الله جَلَّ جلاله بما يرضيه. بعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقارب فلم يجد أحدًا هو أجدر أن يقلده عهده ويفوِّض إليه الخلافةَ بعده، بفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مركبه وعلو منصبه، مع تقواه وعفافه، ومعرفته وإشرافه، وحزمه وتقاته.. من المأْمون الغَيْبِ الناصِح الجيْبِ، أبي المطرِّف عبد الرحمٰن بن محمد المنصور أبي عامر بن أبي عامر، وفقه الله إذ كان أمير المؤمنين ـ أيّده اللّهُ ـ قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأْنه واعتبره، فرآه مسارعًا في الخيرات سابقًا في الحلبات مستوليًا على الغايات جامعًا للمأْثرات! ومن كان المنصورُ أباه، والمظفرُ أخاه.. فلا غَرْوَ أن يبلغ من سُبُل البِرِّ مداه، ويحوي من سبيل الخير ما حواه. مع أن أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ بما طالع من مكنون العلم، ودعاه من مخزون الأمر، أمَّل أن يكون قد ولِّي عهده القحطاني الذي حدَّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أنَّ النبيّ ﷺ قال: لا تقوم الساعةُ حتى يخرجَ رجلٌ من قحطان يسوق الناسَ بعصاه. فلما استوى منه الاختيار، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مهربًا، ولا إلى غيره معدلاً.. خرج إليه من تدبير الأُمور في حياته، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وفاته، طائعًا راضيًا مستخيرًا مجتهدًا. وأمضى أمير المؤمنين عهدَه هذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه مثْنويةً[1] ولا خيارًا، وأعطى على الوفاء به في سِرِّه وجَهْره وقوله وفِعله عَهْدَ الله وميثاقه ودمه وذِمّةَ نبيه

(١) المثنوية: يراد بها الاستثناء.

محمدٍ ﷺ، وذِمّة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه، وذِمّة نفسه.. أن لا يبدِّلَ، ولا يغيِّر، ولا يحوِّل، ولا يزول، وأشهَدَ اللّهَ تعالى وملائكته على ذلك، وكفى بالله شهيدًا.. وأشهد من وقع اسمُه في هذا وهو جائز الأمر، ماضي القول والفعل بمحضرِ من ولي عهده المأمون أبي المطرف عبد الرحمٰن بن المنصور ـ وفَّقه الله ـ وقبوله ما قلَّده، وإلزامه نفسه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة».

ثم كتب الوزراء والقضاة والفقهاء شهاداتهم بذلك، فلما تَمَّ له ما أراد من ولاية العهد ودُعِيَ له على المنابر، أخذ في التخليط وارتكاب المحرّمات. ثم عزم على الغزاة، وتقدّم إليه هشام أن يتعمَّم هو وسائر الجند ففعل، وخرجوا في العمائم ـ وكانوا بها في أقبح زِيٍّ لمخالفة العادة ـ وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة خَلَتْ من جُمادى الأُولى.

وسار للغزاة وهي المعروفة بغزوة الطين، وقيل إنه انتهى إلى طليطلة، فأتاه الخبر بقيام محمد بن هشام بن عبد الجبار وخلعه للمؤيد، وأنه أخرب الزاهرة، فخلف الناس لنفسه، ثم تفرقوا عنه، والتحقوا بمحمد بن هشام وكان من أمره وأمر المؤيد ما نذكره في أيام محمد بن هشام بن عبد الجبار!

ذكر إمارة محمد المهدي

هو أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الناصر، وهو الحادي عشر من ملوك بني أُمية بالأندلس استولى على الأمر في جُمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ونحن نذكر سبب ذلك وكيف كان خروجه وكيف استولى على الأمر، لأنَّ في ذلك من الغرائب والحوادث ما يتعين إيراده بسببه ويفيد تجرُّبه، ويعتبر به مَنْ يتأمله، ويعلم أنَّ المقادير تجري على غير قياسٍ، وإذا أراد اللّهُ أمرًا هيَّأ أسبابه.

وكان ابتداء هذا الأمر أنَّ هشام بن عبد الجبار والد محمد المهدي هذا قد ترشَّح لطلب هذا الأمرِ لنفسه، وعزم على خلع هشام المؤيد، فبلغ ذلك المظفر عبد الملك فقتل هشام بن عبد الجبار قبل أن يستحكم أمره في سنة تسع وتسعين. وكان محمد بن هشام جسورًا مقدامًا شجاعًا، ولم يتهيأْ له أمرٌ لهيبة عبد الملك واجتماعِ جنده، فلم يزل محمد يترصَّد الأمر حتى مات عبد الملك وولي عبد الرحمٰن. وتطاول لولاية العهد ونالها، وخرج للغزاة ـ على ما قدّمنا ـ فخلا البلد

من الجند. وقَوّى عزمَ محمد رجلان وهما حسن بن حيّ الفقيه ومطرف بن ثعلبة. وكان محمد يعاشر في مدة استتاره قومًا من الصعاليك لهم إقدامٌ على كل عظيمة، فَدَسَّ بعضهم إلى بعضٍ وأعطاهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وأكثر من ذلك، فاجتمع له منهم نحو أربعمائة رجلٍ. وطاوعه على ذلك جماعة من المروانيين لخروج الأمر عنهم وصَرْفِهِ إلى أبي عامر.

وكان عبد الرحمٰن قد رتَّب أُمورَ البلد قبل مسيره، وجعل النظر في الأموال وتدبير البلد إلى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمة المعروف بابن الشرس، وجعل على المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بابن عُسْفلاجة وهو أحد بني أبي عامر. وظن شنشول أن الأُمور لا تتغير وأن دولتهم قد استحكم أمرُها، هذا ومحمد في تقرير حاله، فشنع الناس أنَّ قائمًا يقوم على بني الأغلب، فبلغ ابن عسفلاجة الخبر فأظهر البحث وبالغ في الكشف فلم يتبيَّن له شيء وهجم دورًا كثيرة فلم يقف على أمرٍ واضحٍ.

فلما كان في يوم الثلاثاء النصف من جُمادى الآخرة مات ابنُ عبد الجبار بقرطبة، وتقدم إلى ثلاثين رجلًا من كُفَاة أصحابه أن يشتملوا على سيوفهم ويدخلوا من باب القنطرةِ متفرقين حتى يقفوا على السترة التي تشرف على الرصيف والوادي، كما يفعل من يريد التفرّج بذلك المكان. وأمرهم أن لا يحدثوا حدثًا حتى يأمرهم وأنذر سفهاءه وواعدهم ساعةً قبل زوال الشمس، ففعل أُولئك النَّفَرُ ما أمرهم به، وكان من سواهم على انتظار الوقت الذي حدّده لهم. وركب محمد بغلته وعبر القنطرة وحده حتى انتهى إلى باب الشكال ومعه نفرٌ من أصحابه كانوا قيامًا على باب القنطرة فاقتحموا باب الشكال فأنكرهم حَرَسُ الباب وأرادوا مَنْعَهُمْ، فبادر محمدٌ ودخل. وسلَّ أولئك النَّفرُ سيوفهم وقصدوه، فقصدهم صاحب المدينة ابن عسفلاجة، فيقال إنه كان يشرب مع حارسين له، فأتاه محمد وهو على أُهْبةٍ فقتله واحتزُّوا رأْسه. وتتابع أصحاب محمد من جهاتهم إليه.

واتصل الخبر بأهل الزاهرة عند العصر وقد عظم جمع محمد من أصحابه ومَنِ اجتمع إليه من العوام وأهل البادية، فنُقب القصر من ناحية باب السباع ومن ناحية باب الجنان، ولم يقدر حرس القصر على مقاومته.. ووصل إلى القصر من جهة باب السدة وأهل الزاهرة غير مصدقين بالأمر، وظنوا أنه أمر يدفعه صاحب المدينة إلى أن قوي عندهم الخبر بدخول محمدِ القصر، فكان حسبهم اعتصامهم بالزاهرة في ليلتهم.

فلما صار محمد داخل القصر أرسل إليه المؤيد هشام يقول له: تؤمنني على نفسي وأنخلع لك من الأمر! فقال «سبحان الله أتراني إنما قمت في هذا الأمر لأقتل أهل بيتي، وإنما قمت غَضَبًا له ولنفسي وبني عمي، فإن خلع نفسه طائعًا قبلت ذلك، وليس له عندي إلا ما يحبّ».

وأرسل محمد إلى الفقهاء ووجوه الناس فأحضرهم، وكتب كتاب الخلع والبيعةِ لمحمد، وبات تلك الليلة في القصر وأهل بالس وهي الزهراء[1] لم يتحركْ منهم أحد، وكانوا جمعًا كبيرًا منهم أبو عمرو بن حزم وعبد الله بن سلمة وابن أبي عبيدة وابن جهور، وجماعة من الفقهاء والوزراء والصقالبة ـ وهم الخصيان ـ ونفر من الجند والخزّان والكتّاب.

وأصبح محمد فجعل حجابته إلى ابن عمه محمد بن المغيرة، وجعل على المدينة ابنَ عمِّه أُميَّةَ بن إسحاق. وأمرهما بإثبات كل من جاءهما في الديوان، فلم يبق أحد حتى أثبت نفسه حتى الزهّاد والعبّاد وأئمة المساجد وغيرهم وقبضوا العطاء، وكذلك التجار الأغنياء. واتّبعه سائر أهل البوادي والأطراف، وأرسل حاجبه محمد بن المغيرة في خَلْقٍ من العامة لمحاربة أهل بالس فردّوه أقبح ردٍّ وهزموه إلى داخل قرطبة. ثم كثر العامة فهزموهم إلى بالس، ودخلها الحاجب ونُهبت، فسأل الوزراء والصقالبةُ الأمانَ فأمَّنهم محمد، فساروا إليه فوبخهم ثم عفا عنهم ورد ابن الشرس مع الحاجب لِنَقْلِ ما ببالس من الأموال والأمتعة والأثاث وقد نُهِبَ منه ما لا يُحصى، ونُهِبَتْ ليْلةَ الأربعاء دورٌ كثيرةٌ للعامرية، ونهِب ما جاوز بالس من دور الوزراء، وانْتُهِبَ ما في الزاهرة حتى قُلِعتْ الأبوابُ والأخشابُ، والحاجب مع ذلك ينقل.

ثم أمر محمد بَعْدَ أربعةِ أيام بِكَفِّ أيْدي العامةِ عن النَّهْب فمنعوا، وتَفَرّد بنقل ما يريد، فيقال إن الذي وصل إليه من الزاهرة في ثلاثة أيام ألفُ ألفِ وخمسمائة ألفِ دينارٍ، ومن الدراهم الأندلسية ألفا ألف ومائة ألف، ووجد بعد ذلك خَوابىءُ فيها نَحْوٌ من مائتي ألف دينار، وأطلقت النارُ في الزاهرة لعشر بقين من جُمادى الآخرة.

وخُطِب لمحمد بالخلافة وقطعت خطبةُ هشام وشنشول، وقُرِىءَ بعد صلاة الجمعة كتابٌ بِلَعْنِ شنشول وذِكْرِ مساوئه، وقُرِىء كتابٌ آخرُ من محمد بإسقاط رسوم جارية وقبالات محدثة. وصلّى محمد بالناس الجمعةَ لأربع من جُمادى الآخرة ودعا لنفسه وتلقَّب بالمهديّ، وقُرىءَ بعد نزوله كتابٌ على المنبر بالنفير لقتال شنشول.

(١) الزهراء: مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس اختطها عبد الرحمٰن الناصر بن محمد كما تقدم.

ووصل أهل الأقاليم من أقصى الأندلس مظهرين عُدَّةَ الحرب، ووَلّى محمدٌ جُنْدَه قوادًا من طبيب وحائك وجزار وسرّاج، وخرج بهم ونزل يفحص السُّرادقَ، وأمر أهلَ النواحي بالنزول حول سرادِقه.

ذكر أخبار شنشول ومقتله

قال: وأما شنشول فإنه لما بلغه الخبر ـ وكان قد انتهى إلى طليطلة ـ عاد إلى قلعة رباح[١] وقد تخاذل عنه الناس؛ فعزم على استجلابِ الناسِ لنفسه فامتنعوا وقالوا: قد خَلَفنا مرةً ولا يخلف أُخرى! فعلم أنهم خاذلوه، فدعا محمد بن يعلى الزناتي وكان عزَم على خذلانه فقال له: ما ترى فيما نحن فيه؟ فقال له: أصدقك عن نفسي وعن الجند ليس والله يقاتل معك أحدٌ منهم! قال ما الدليل على ذلك؟ قال: تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة وتظهر الرحيل إليها فتعلم مَنْ يتبعك ومن يتخلّف عنك! قال: صدقت.

وكان ابن عومس القومس مع شنشول يريد قرطبةَ معاقدًا له يستنصر به على مَنْ يناوئه من القمامسة[٢]. فلما رأى اضطرابَ حال شنشول أشار عليه أن يرحل معه إلى بلده، ويكونوا يدًا واحدة، ويلجأوا إلى مكانٍ، فأبى ذلك وقال: لا بُدَّ من الإشراف على قرطبة فإني أرجو أنني إذا اطلعت عليها اختلفتْ كلمةُ محمدٍ، ولي أنصارٌ يميلون إلى سلطاني ويحبون ظهوري! فقال له القومس: خذ باليقين ودع الظن، أمرك والله مُخْتَلٌّ وجندك عليك لا لك! فقال: لا بُدَّ من المسير إلى قرطبة! فقال: أنا معك على كراهية لرأيك وعِلْم بخطاياك.

وسار شنشول من قلعة رباح والأخبار تتواتر بتظاهر أهل قرطبة مع ابن عبد الجيار، فلما بلغ منزل هانىءٍ فارقه عامَّةُ البربرِ ليلاً، وذلك في سلْخ جُمادى الآخرة، ثم فارقه الناسُ بعد ذلك وبقي في نَفَرٍ يسيرٍ مِنْ خَدَمِهِ، وابن عومس في نَفَرٍ من النصارى، فقال له: سِرْ بنا مِنْ هنا قبل أن يدهمنا ما يمنعُنا من ذلك! فأبى شنشول وقال: قد بعثتَ القاضي في طلب الأمان لي. ثم تجبّر في أمره وسار إلى ديرٍ يعرف بدير شَوْش[٣] ليلةَ الجمعة لثلاث خلون من شهر رجب.

---

(١) رباح: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، وهي غربي طليطلة وبين المشرف والجوف من طليطلة، ولها عدة قرى ونواح... (معجم ياقوت).

(٢) القمامسة: جمع القمّس: أحد أصحاب المراتب الكنسية، كلمة يونانية معناها: المدبر، وهو أعلى من القس.

(٣) شوش: قرية مشهورة على نهر كبير يمر على مدينة إستجة ويصب في نهر قرطبة.

وبلغ خبره محمد، فأرسل إليه حاجبه في مائتي فارس، فأرسل الحاجبُ ابنَ ذرى مولى الحكم فسبقه إلى الدير فصبّحه في يوم الجمعة، فقال شنشول لما عاينه ومن معه: ما لكم عليّ سبيلٌ، أنا في طاعة المهدي! فاستنزلوه من الدير ومعه ابن عومس ومن تبعهما، وأخَذَ نساءَ شنشول ـ وهن سبعون جارية ـ فبعث بهن إلى قرطبة، ولحق الحاجب بابن ذرى قبل العصر من يوم الجمعة. فلما أقبل عليهم نزل شنشول فقبّل الأرض بين يدي الحاجب مرارًا، فقيل له: قَبِّلْ حافِرَ فَرسِهِ! ففعل وقَبَّل رِجْلَه ويده، ثم حُمِل على غير فرسه وابنُ عومس ساكت لم ينطق، وأشار الحاجب بانتزاع قلنسوة شنشول عن رأْسه فانتزِعت.

ورجع يريد قرطبة، فسار إلى أن غربت الشمس، فنزل وأمر أن يكتف شنشول فعطفت يده عطفًا شديدًا فقال: نَفِّسُوا عني وأطْلِقُوا يديَ لأستريح ساعة! فنفسوا عن يده، فأخرج من خُفِّه سكينًا كالبرق فعوجل قبل أن يصنع شيئًا، ثم أضجعه الحاجب وذبحه. وقتل ابن عومس وأخذ رأْسيهما، وحمل جثة شنشول، وسار بها إلى القصر بقرطبة. فأمر محمد بِشَقِّ بَطْنِهِ ونَزْعِ ما فيه وحُشيَ بعقاقير تحفظه، ثم نصب رأْسه على قناة ووقف به على باب السدة ثم رُكِّبَ على جسده، وكُسِي قميصًا وسراويل، وأخرِج فَسُمِّرَ على خشبةٍ على باب السدة. وأمر الرَّسَّانَ صاحب شرطه شنشول أن ينادي: هذا شنشول المأْمون! ثم يلعنه ويلعن نفسَه، وذلك في يوم السبت لأربع خلون من شهر رجب.

وكانت مدةُ ولاية شنشول أربعةَ أشهر وأيامًا، وكان قبيح الفعال كثير التخليط متجاهرًا بالفِسْق، شُهِدَ عليه بأشياء لا تصدر عن مسلم، منها أنه سمع المؤذن يقول «حيّ على الصلاة» فقال: لو قال حيّ على الكبير لكان خيرًا له! وكثيرٍ من هذا القول وما يناسبه، وانقرضت الدولة العامرية بمقتل شنشول.

قال إبراهيم بن الرقيق: ومن أعجب ما رأيناه أنه كان من نِصْفِ نهار يوم الثلاثاء لأربعَ عشرة بقيت من جُمادى الآخرة إلى نصف نهار الأربعاء الذي يليه، فُتحت مدينةُ قرطبة وهُدِمتْ مدينةُ الزاهرة، وخُلع خليفة وهو هشام بن الحكم، وولي خليفةٌ وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وزالت دولة بني عامر، وحدثت دولةُ بني أُمية، وقُتل وزيرٌ وهو ابن عُسفلاجة، وأُقيمت جيوش من العامة، ونُكبَ خَلْقٌ من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك على أيدي عشرة رجالٍ حجّامين وجزارين وحاكة وزبالين، وهم جندُ ابنِ عبد الجبار!

قال: وفي يوم الخميس لسبعٍ خلون من شهر رجب وصل كتابُ واضحٍ من مدينة سالم إلى محمد بِسَمْعِهِ وطاعته وإظهارِ الاستبشارِ بمقتل شنشول، فَسُرَّ به محمدٌ وشكر ذلك لواضح، وحمل إليه مالاً كثيرًا وكساءً وفُرُشًا وطرائف، وولاَّه سائر الثغر.

قال: ولما استوثق الأمرُ لمحمدٍ أسقط من جنده نَحْوًا من سبعة آلاف وعادوا إلى بنيهم فانتفع بهم الناس، ثم نفى جماعةً من الصقالبة العامرية، ثم أخرج بعد ذلك صقالبة القصر وسدَّ أبوابه. وأظهر محمدٌ من الخلاعة واللَّهْوِ والشُّرْبِ ما كان يفعله شنشول، واستعمل مائة عود ومائة بوق. وفي شعبان توفي رجل يهوديٌّ فأخذه محمد وأوقف عليه رجالاً من أصحابه، وكان يشبه بهشام فشهدوا عند العامة أنهم وقفوا على هشام ميّتًا لا جُرْحٌ به ولا أثرٌ وأنه مات حَتْفَ أنفه. وحضر الفقهاء والعدول وخَلْقٌ من العامة إلى القصر وصَلُّوا عليه يومَ الاثنين لأربع بقين من شعبان وأخفاه عند وزيره الحسن بن حيّ.

وفي شهر رمضان سَجَنَ محمدٌ سليمانَ بن عبد الرحمٰن ـ وكان قد جعله وليَّ عهده ـ وسجن جماعةً من قريش، وأظهر بُغْضَ البربر فكان يسبُّهم في مجلسه.

ذكر قيام هشام بن سليمان
عَلَى محمدٍ وما كان من أمره إلى أن قُتِل

قال: ولما شرع محمد بنُ عبد الجبار في اطِّراح البربر ودبّر في قَتْل عشرةٍ منهم، سعى هشام بنُ سليمان بن عبد الرحمٰن في خَلْع محمدٍ ووافَقَه جماعةٌ من الجند واحتفل أمره، وخرج إلى فحص السرادق وانضم إليه الذين أسقطهم محمد من جنده، فراسله محمدٌ وقَبَّح عليه فِعْلَه فقال: سُجِنَ والذي على غير شيءٍ ولا أدري ما صُنِع به! فأطلقه محمد فلم يرجع هشام عن رأيه، وتحرّك بالجند وأحرق سوق السَّرَّاجين. ثم خذله جنده وأخذوه أسيرًا هو وأخوه أبو بكر وأبوه سليمان، فسلموهم إلى محمد؛ فقتل هشامًا وأبا بكر صَبْرًا، وذلك لأربعٍ بقين من شوال. ونُهِبتْ دور البربر، ونودِيَ في البلد «من أتى برأسِ بربريٍّ فله كذا وكذا» فشرع أهل قرطبةَ في قَتْلِ مَنْ قدروا عليه منهم، وسُبِيَتْ نساؤهم، وهرب من سلم من البربر إلى أزملاط ثم جَلَوْا إلى الثَّغْرِ. وكان من فَرَّ بعد قَتْل هشامٍ سليمانُ بنُ الحكم بنِ سليمان بنِ الناصر، فنصبه البربرُ خليفةً.

ذكر قيام سليمان بن الحكم المستعين بالله

قال: لما نصبه البربرُ خليفةً نَعتَ نفسه المستعينَ بالله، واستوزر أحمد بن سعيد، ونهض بمن معه إلى وادي الحجارة[١] فدخلوه عَنْوةً، وعرضوا أنفسهم على واضح العامريِّ غلام المنصور بن أبي عامر صاحبِ مدينة سالم، فلم يقبلهم، وبعث إليه محمد بن هشام المهدي قيصر الفتى في جيشٍ ليُعينه على سليمان، فالتَقوْا واقتتلوا، فانهزم واضحٌ وقتل قيصر. ولحق واضح بمدينة سالم فتحصن بها، ومنع الميرة عن البربر، فأقاموا خمسةَ عشر يومًا يأكلون الحشيش. فلما اشتد ذلك عليهم أرسلوا إلى ابن مادويه الرومي واستُنْجدَ به، وسأله سليمان أن يدخل بينهم وبين ابن عبد الجبار وواضح في الصلح وقال: يخرج معنا إلى واضح ويرغبُ إليه في الإصلاح بيننا وبينه وبين صاحبه، فإن أبى ذلك سرنا إلى قرطبة وناجزنا ابنَ عبدِ الجبار!

فسارت الرسل إليه فوجدوا رُسُلَ ابنِ عبد الجبار وواضح عنده يسألونه الصلح معهما على أن يعطياه ما اشترط من مدائن الثَّغْر، وأتوه بِخيْلٍ وبغالٍ ومالٍ وكساءٍ وجوهرٍ وطيبٍ وتحفٍ كثيرةٍ. فأجاب البربر إلى ما أرادوه من الصلح أو الاتفاق معهم على أن يعطوه ما بذل واضح والمهديُّ من مدائن الثغور إذا ظفروا. فقبلوا ذلك منه، وَرَدَّ رُسُلَ واضح وابنِ عبد الجبار، ثم أرسل إلى البربر ألْفَ عجلةٍ تحمل الدقيق والشعير وأنواع المأكل وألف ثور وخمسةَ آلاف شاة وجميع ما يصلحهم من الملبس وغير ذلك. فقويت البربر بذلك، وسار إليهم في جموعه وساروا إلى مدينة سالم، وأرسلوا واضحًا في الصلح فأبى، فساروا إلى قرطبة في المحرم سنةَ أربعمائة. واتبعهم واضح بمن معه وقابلهم، فانهزم وقُتل خَلْقٌ كثير من أصحابه، ووصل المنهزمون من أصحابه إلى قرطبة، وملك البربر جميعَ ما كان في عَسْكر واضح. هذا وابن عبد الجبار في لَهْوِه واستهتاره، ثم خرج إلى فحص السرادق وخندق عليه، وأتاه واضحٌ في أربعمائةِ فارسٍ من أهل مدينة سالم، ووصل غلامه يلبق في مائتي فارس.

وأقبل سليمان بالبربر فنادى ابنَ عبد الجبار أن يُخْرِجَ كل من بلغ به الحُلُمُ[٢] من سائر الناس، فلم يتخلف أحدٌ فلا ترى إلا شيخًا ضعيفًا أو حَدَثًا غِرًّا وبقَّالاً ونسّاجًا. فلما كان في يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول التقى البربرُ وأهلُ قرطبة

---

(١) وادي الحجارة: بلد بالأندلس؛ ينسب إليه عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن بريال الحجاري أبو بكر. . . (معجم البلدان).

(٢) أي أدرك وبلغ مبلغ الرجال.

فحمل عليهم من البربر نحو ثلاثين فارسًا فلم يقفوا لهم وانهزموا، وسقط بعضهم على بعض. ومضى واضحٌ من فَوْره إلى الثَّغْر لم يعرج على شيءٍ.. ووضع البربر السيف في أهل قرطبة فقتلوا خلقًا كثيرًا، وغرق في وادي قرطبة ما لا يُحْصى.

وسار ابن عبد الجبار إلى القصر وأظهر هشامًا المؤيد وأقعده حيث يراه الناس في مكان يشرف على باب الشكال والقنطرة، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر يقول: إنما أنا قائم دون هشام ونائبٌ عنه كما يحجبه الحاجب والأمر له، وهو أمير المؤمنين! فلما أبلغهم القاضي الرسالةَ قالوا: بالأمس يموت هشامٌ وتصلِّي عليه أنت وأميرُك، واليوم يعيش وتُرجع الخلافة إليه! فاعتذر القاضي من ذلك.

ثم خرج أهلُ قرطبةَ بأجمعهم إلى سليمانَ فأكرمهم، وأحسن لقاءهم. ودخل سليمانُ القصرَ، وهرب ابنُ عبد الجبار فكانت مدةُ ولايته تسعةَ أشهر. واستنجز ابن مادوية البربرَ أن يعطوه الحصونَ التي شرطوها له فقالوا: ليست الآنَ بأيدينا فإذا عهد سلطاننا أنجزنا لك ما وافقناك عليه! ورحل يومَ الاثنين لسبع بقين من شهر ربيع الأول.

قال: ثم فَرَّق سليمانُ العمال في الولايات، وأنزل البربر بالزهراء، وأعاد المؤيد إلى السجن، وأنزل شنشول عن خشبته وأمر بغَسْلِه والصلاةِ عليه ودفنه، فدفن في دار أبيه.

وأما المهدي محمد بن هشام فإنه هرب إلى طليطلة بعد اختفائه بقرطبة، فوصل في أول جُمادى الأُولى فقبله أهلُها أحْسَنَ قَبُولٍ، وخالفوا هشامَ بنَ سليمان. فتأهب لقصد طليطلة. ورحل يوم الاثنين لإحدى عشرةَ خَلَتْ من جُمادى الآخرة. فلما قرب منها أرسل الفقهاء إلى أهلها ليعذر إليهم فرجعوا بخلافهم، فسار إليهم. وكان رجلٌ يعرف بالقرشي الحرّاني قد جمع جموعًا عظيمةً ودعا لِنَفْسِه، فسرح إليه سليمانُ عليَّ بن وداعة في جيش كثيف فهزم جموع القرشي وأسره وأحضره إلى سليمان، فاعتقله ثم قتله.

قال: وتجاوز سليمانُ طليطلة رجاءَ أن يرجعوا إلى الطاعة، ورحل إلى الثغر ونزل على مدينة سالم. ثم التحق بمحمد بن عبد الجبار في جماعةٍ من العبيد، وانضم إليه ابن مسلمة صاحب الشرطة. وخرج واضحٌ من مدينة سالم إلى طرطوشة وكتب إلى سليمان يرغب في المعافاة من الخدمة ويكون في ميورقة[1] مرابطًا وينقطع

(١) ميورقة: جزيرة في البحر المتوسط شرقي بلنسية.

عن الناس، وإنما يفعل ذلك تطمينًا لسليمان حتى يحكم أمره. فأرسل سليمانُ إليه بالنظر في سائر الثغر وجهادِ العدوِّ، فأخذ واضح في الاتفاق مع الفرنج وشرط لهم ما أرادوه، واجتمعوا كلهم مع المهدي بطليطلة. وبلغ سليمان ذلك فاستنفر الناسَ فاستعفاه أهل قرطبة، وذكروا عجزهم عن القتال فأعفاهم بشفاعةِ البربر. وخرج لقتال القوم، فالتَقَوْا عند عقبة الثغر في العُشر الأخير من شوّال، فجعل البربرُ سليمانَ في ساقتهم وجعلوا معه خيلاً من المغاربة وقالوا له: لا تبرح موضعك ولو وطئتك الخيل! ثم تقدموا فحملت الفرنج عليهم حملةً منكرة فأخرجوا لهم ليتمكنوا منهم، فرأى سليمانُ خيل الفرنج وقد خرقت صفوفَ البربر فلم يشك أن البربر قد اصطلموا[١]، فانهزم فيمن معه. ثم عطف البربر على الفرنج فقتلوا ملكهم أرمغند، وستين من وجوههم.. ورأى البربر هزيمة سليمان فانحازوا إلى الزَّهراء، ثم خرجوا منها ليلاً. ومضى سليمان إلى مدينة شَاطِبة[٢]، فكانت مدة ولاية سليمان سبعة أشهر.

ذكر دولة المهدي محمد الثانية

قال: ولما انهزم سليمان دخل محمد بن هشام بن عبد الجبار قرطبة ومعه الفرنج فأفسدوا غايةَ الفساد، ونهبوا الأموال، واستطالوا على الناس ثم سألهم المهديُّ وواضحٌ المسير معهما لقتال البربر فخرجوا كلُّهم، والتَقَوْا بالبربر بوادي لدة لِسِتٍّ خلون من ذي القعدة، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم واضحٌ وابنُ عبد الجبارِ والفرنجُ أقبح هزيمة، وقتل في المعركة يلبق غلام واضح ومؤمن الصقلبي، وتَخَلَّف ابن زُرْزور مولى الحكم وغيرهم. وقتل من الفرنج أكثرُ من ثلاثةِ آلافٍ وغرق في البحر كثيرٌ، واحْتَوى البربرُ على ما في معسكرِهم، ووصل المنهزمون إلى قرطبةَ في اليوم الثاني من الْوَقْعَةِ فزاد حنقُ الفرنج وعاثوا بقرطبَةَ وقتلوا كلَّ من يُشَبَّهُ بالبربر بها. فسألهم محمد وواضحٌ، ورغبا إليهم في الرجوع معهم لقتال البربر، فأَبَوْا عليهما وقالوا: قد قُتل ملكُنا وخيارُنا ووجوهُنا! وفارقوا مدينةَ قرطبة وعادوا إلى بلادهم، وكان رحيلُهم عنها لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ من البربر، حتى كان الرجل من أهلها يلقَى الآخر فيعزيه كما يُعَزَّى مَنْ فَقَدَ أهلَه وماله!

(١) اصطلم: أي استؤصل.

(٢) شاطبة: مدينة عظيمة نشزت على بلنسية في مدة ملوك الطوائف.

ثم فرض محمد بن عبد الجبار على أهل قرطبةَ مالاً فأدَّوْه، وتهيأ للخروج وخرج بواضحٍ وأهلِ قرطبةَ والعبيد لقصْد البربر. فلما ساروا ثلاثين ميلاً كرُّوا راجعين إلى قرطبة، وأقام من ورائه سورًا وتحصن به. هذا والبربر يغيرون في نواحي قرطبة، وأخذوا الجبل المعروف بابن حفصون ـ وهو كثيرُ الماء والمرعى والثمار والزرْع ـ فزاد ذلك في قُوَّتهم. وابن عبد الجبار وجندُه في انهماك على اللَّهو وارتكابِ المحارم وإظهار الفسق، وإفساد ما قدروا عليه، والنزول على الناس في دورهم، وقتْل من دافعهم، فكره واضح ذلك منه ـ وكان قد حقد عليه ما أتاه إلى بني أبي عامر ـ فأخذ في التدبير عليه.

وبلغ ذلك محمد فجمع ما في القصر من النفائس وسلمها إلى ابن رافعِ رأْسِه ـ رجل من أهل طليطلة ـ وأمره بالخروج إليها، وتحيّل في الخروج في أثره. فلما كان في يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة أربعمائة ـ وقيل لثمان خلون منه ـ ركب واضح والعبيدُ وأهل الثغر وصاحوا: لا طاعة إلا طاعة المؤيد!

ثم قصدوا القصر وأخرجوا المؤيد، وأجلسوه على منبر الخلافة وألبسوه لباسَها. وكان محمد بن عبد الجبار في الحمام، فدخل عليه ابن وداعة وأخبره الخبر، فخرج وجاء إلى هشام وأراد أن يجلس إلى جانبه، فأخذ عنبرٌ الخادمُ بيده ورمى به من على المنبر وأجلسه بين يدي المؤيد. فسَبَّهُ المؤيدُ ووبَّخه وعدَّد عليه ما أتاه وما فعله معه، فأخذ عنبرٌ بيده وأقامه وأصعده إلى السطح وأراد ضرْب عُنُقِهِ فتعلق به، فتعاورته سيوفُ العبيدِ والخدم والصقالبة فقتلوه، وأخذوا رأْسه ورموا بجثته، فسقطت في الموضع الذي كانت فيه جثة ابن عُسفلاجة لما قتله. فكانت مدةُ ولايته هذه نحو شهرٍ، ومدةُ مملكته الأُولى والثانية عشرة أشهر، وعمره خمسًا وثلاثين سنة!.

ذكر دولة المؤيد هشام الثانية

قال: وبايع الأجناد هشامًا المؤيد في يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة أربعمائة وأُحْضِر بين يديه رأْسُ محمدِ المهدي، فأمر بإرساله إلى البربر وهم يومئذ بوادي شوش في خدمة المستعين بالله سليمان بن الحكم، طمعًا أنَّ البربر يفعلون به كما فعل هو بالمهدي، ويعودون إلى طاعته فيتم أمرُه وتستقيم دولتُه. فلما وصل إليهم مع جماعة من أهل قرطبةَ كادوا يقتلونهم، فمنعهم المستعين بالله بعد أن أفرط في توبيخهم، فعادوا إلى قرطبة.

وتولى واضحُ العامريُّ حجابة المؤيد، وأمره بِحفْر الخندق على قرطبة فحفره، وحصنها. قال: وكان لمحمدِ بن عبد الجبار ولدٌ بقرطبةَ عمرُه نحو ستٌّ عشرة سنةً فاحتال له شيعةُ أبيه حتى أوصلوه إلى مدينة طليطلة، فقبله أهلُها، وأمّروه عليهم. فأغار على بعض ما كان لواضح، فلقيه محاربُ التجيبي فقهره وأسره وأرسل به إلى واضح، فقتله.

قال: ثم قصد المستعينُ قرطبةَ في جموعة من البربر، فلم يتمكنْ منها، فقصد الزهراء فاستولى عليها في يوم السبت لستٌّ بقين من شهر ربيع الأول سنةَ إحدى وأربعمائة، وقتل مَنْ بها من الجند، وأخذ في قتال أهل قرطبة، وواضحٌ يتولّى حرْبَه. ثم رحل البربر من الزهراء لخمسٍ بقين من شعبان، وجعلوا يغيرون على البلاد ويخرِّبون، فانضم أهلُ البوادي إلى قرطبةَ خوفًا منهم، فصاروا أكثرَ من أهلِها، وغلت الأسعار فمات أكثرهم جوعًا. وقطع البربر الميرة عن قرطبة، فاشتد بها الغلاء فبيع مُدُّ القمح - وهو قفيزان[1] ونصف بالقروي - بثلاثمائة دينار دراهم وهي مائة مثقال عينًا. وجاءت رسل ابن مادويه يستنجزون تسليمَ الحصون إليه على أن لا يغزوهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم، فرَضُوا بهدنة وسلَّموا إليه مدنًا كثيرة وأكثرَ من مائتي حصنٍ مما افتتحه الحكم بن عبد الرحمٰن ومحمد بن أبي عامر. وسمع ابنُ شالوس بما تسلَّم ابن مادويه من الحصون، فكاتبَ على حصونٍ أُخرى وتَوعَّد وتهدَّد، فأُجيب إلى ما سأل وسُلِّمت إليه.

وأخرب البربرُ مدنًا جليلة، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تسلم منهم إلا طليطلة ومدينةُ سالم، وبلغت خيلهم أندراوه وما وراءها حتى إنَّ الراكب يسير شهورًا لا يرى أحدًا في قريةٍ ولا طريق. قال: واستخف جندُ قرطبةَ بواضح حتى صاروا يصرحون بِسَبِّه، فعزم على مراسلة البربر في الصلح لما رأى من اضطراب الجند عليه وطمعهم فيه، وأظهر أن ذلك عن رأي هشام لما فيه من الصلاح للعامة والخاصة. فبعث واضحُ إلى البربر رجلًا يعرف بابن بكر فاجتمع بسليمان وعاد بجوابه فقتله الجند في المجلس - ولم يقدر هشام ولا واضحٌ على مَنعهم - واحتزُّوا رأْسه، وطافوا به البلد. فعزم واضحٌ على الهرب إلى البربر، وكان ابن أبي وداعة يعاديه فزحف إلى داره في عِدةٍ من الجند فأخرجوه حاسرًا وعاتبوه على ما أتلف من الأموال وما عزم عليه من

(١) القفيز: مكيال يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجرامًا.

مصالحة البربر. وضربه ابنُ أبي وداعة بسيفه وحمل عليه القوم فقتلوه، واحتزوا رأسه وطافوا به، وألقوا جثته في الرصيف بالموضع الذي أُلقِيَ فيه ابنُ عُسفلاجة وابنُ عبد الجبار، ونُهبت دور أصحابه.

وولَّى هشام ابنَ أبي وداعة المدينة، فاشتدَّ على أهل الريب وهاب الجند وغيرهم، وكان مقتل واضح في يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة.

ثم قدم البربر وسليمان، ونازلوا قرطبة وظاهرها وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، وقلَّت الأقواتُ على أهل قرطبة، وعظم عليهم الخطب، واشتد الأمر، وكان بين أهلها والبربر مراسلاتٌ وأُمورٌ يطول شرحها. كان آخر ذلك أن سليمان ملك قرطبة في يوم الأحد لثلاث خلون من شوّال سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة، وكانت مدةُ ولاية المؤيد الثانية سنتين وتسعةَ أشهر واثنين وعشرين يومًا وفُقِد المؤيد لخمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة.

ذكر دولة المستعين بالله الثانية

قال: ولما فتح سليمانُ بنُ الحكم المستعين قرطبةَ دخل القصر لخمسٍ خلون من شوّال وتلقَّب بالظافر بحول الله، وأحضر هشامًا ووبخه وقال: قد كنتَ تبرأْتَ لي من الخلافة فأعطيت صفقةَ يمينك فما حملك على نَقْضِ عهدِك؟ فاعتذر أنه مغلوب عليه، وتبرأ له، وسلَّم الأمر إليه. وضرب سرادق سليمانَ بشقنده، ونزل البربر حوله، وهرب كثير من موالي بني أُمية فاحتوى البربر عليها واقتسموا البلد بينهم. وطالب سليمانُ الناسَ بالأموال فغرمهم فوق طاقتهم، واشتد أمر البربر على الناس فاستباحوا الأموالَ والحريم وسليمانُ لا يمكنه دفعهم وليس في يده مع قرطبة غيرُ إشبيلية ولبلة والشنبة وباجة.

وكان في عسكره رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون فقوّدهما على المغاربة، ثم ولَّى عليًا الأصغر منهما سبتة[١] وطنجة[٢]، وولى القاسم الجزيرةَ الخضراء، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق[٣]، وسعة البحر هناك ثمانية عشرة ميلاً.

(١) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق.

(٢) طنجة: بلد للبربر على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء. . . (معجم ياقوت).

(٣) الزقاق: يراد به مضيق جبل طارق اليوم.

وكانت العبيد لما خرجوا من قرطبة عند دخول البربر إليها ملكوا مدنًا عظيمة وتحصَّنوا فيها، فراسلهم علي بن حمّود وذكر أنَّ هشام بنَ الحكم لما كان محاصَرًا بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجاب له العبيد وبايعوه. فزحف من سبتة إلى مالقة[١] وفيها عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق ـ مولى المستنصر ـ فأطاعه وأدخله مالقة. فملكها عليُّ بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة، فأخرج له المستعين ولده ـ ولي عهده محمد بن سليمان ـ في عساكر البربر، ومعه أحمد بن سعيد الوزير. فانهزموا، ورجع محمد بن عبد الله الزناتي إلى قرطبة، وأخرج المستعين بالله وضمن له أن يقاتل بين يديه. فلما قربوا من عسكر علي بن حمود قادوه بلجام بغلته وسلموه لعلي، فلما حصل في يده دخل القصر في يوم الأحد لسبع بقين من المحرم سنةَ سبع وأربعمائة، وضَرب عنقَ سليمان بيده وقتل أباه الحكم ـ وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة ـ فكانت مدةُ ولايةِ سليمانَ ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأيامًا. وكان مولده سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وكان أديبًا شاعرًا، فمن شعره: [من الكامل]

عـجبًا يـهـابُ الـلَّـيْـث حـدّ سِـنـانـي   وأهــابُ لَـحْـظَ فَـوَاتِـر الأجـفـانِ

وهي أبيات عارض بها العباس بن الأحنف في أبياته التي أنشدها على لسان الرشيد التي أولها: [من الكامل]

مـلَـكَ الـثـلاثُ الآنـسـات عـنـانـي   وحـلَـلْـنَ مـن قـلـبـي بـكـلِّ مـكـانِ

وقد ذكرنا ذلك في باب الغزل والنسيب، قال: ولما قُتِل سليمانُ بنُ الحكم هذا انقطعت دعوة بني أُمية من سائر أقطار الأندلس وقامت دعوة الفاطميين بها. وولي منهم ثلاثة ملوك وهم: علي بن حمود، والقاسم بن حمود أخوه، ويحيى بن علي، ثم عادت بعد ذلك الدعوةُ الأُموية على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر إمارة الناصر علي بن حمود

ابن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ملك قرطبة لسبعٍ بقين من المحرم سنةَ سبع وأربعمائة على ما ذكرناه، وخوطب بأمير المؤمنين، وتلقّب بالناصر. ولما دخل

---

(١) مالقة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء وألمرية.

قرطبةَ أحضر الفقهاء والوزراء وسأل سليمانَ بحضرتهم عن المؤيد فقال «مات» فألزمه أن يُرِيَه قبره فأخرجه دفينًا لا أثرَ فيه فأمر بتكفينه ودفنه في الروضة. ثم استفتى الفقهاء في قَتْلِ سليمانَ، فقتله هو وأباه الحكم وأخاه عبد الله وولده سليمانَ في وقت واحدٍ، وتَمَّ لعلي ما أراد واستقامت أُموره.

وفي سنة ثمانٍ وأربعمائة خَالَف عليه العبيدُ الذين كانوا بايعوه، وقَدَّموا عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر أخا المهدي وسمَّوه المرتضى وزحفوا به إلى قرطبة، ثم ندموا على إقامته لِما رأوه من صرامته، وخافوا عواقب تَمكُّنِهِ فانهزموا عنه ودسُّوا عليه من قتله غيلةً. وبقي عليُّ بنُ حمود بقرطبةَ إلى آخر سنةِ ثمانٍ وأربعمائة فقتله صقالبتُه في الحمام، فكانت مدة ولايته سنةً واحدةً وعشرةَ أشهر، وكان له من الولد يحيى وإدريس.

ذكر ولاية المأمون
القاسم بن حمود بن ميمون الفاطميّ

ولي بعد مقْتَلِ أخيه الناصر في أواخر سنةِ ثمانٍ وأربعمائة، وكان أسنَّ من الناصر بعشرة أعوام، ونعت نفسه بالمأمون وكان يحبّ الموادعةَ، فأمن الناس معه. وكان يذكر عنه أنه يتشيّع ولم يُظْهِرْ ذلك، ولا غَيَّر للناس عادةَ ولا مذهبًا، وكذلك سائر من ولِي منهم بالأندلس. فبقي القاسمُ إلى شهر ربيع الأول سنةَ اثنتي عشرة وأربعمائة، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمُّود بمالقة، فهرب القاسم عن قرطبةَ بغير قتال، وصار إلى إشبيلية.

وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر، فدخل قرطبةَ دون مانع، وتسمَّى بالخلافة وتَلَقَّب، فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر، وزحف بهم إلى قرطبة فدخلها في سنةِ ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة. وهرب يحيى بن علي إلى مالقة، فبقي القاسم بقرطبة شهورًا. . ثم اضطرب أمره، وغلب ابنُ أخيه يحيى على الجزيرة الخضراء وكانت معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره. وغلب ابنُ أخيه إدريس بن علي شقيق يحيى صاحب سبتة على طنجة، وكانت عدة القاسم يلجأ إليها إن رأى ما يخاف. وقام عليه جماعة أهل قرطبة في المدينة، وأغلقوا أبوابه دونه، فحاصرها نَيِّفًا وخمسين يومًا، ثم زحف أهلُ قرطبةَ فانهزموا عن القاسم. ولحقت كلُّ طائفةٍ بِبلدٍ فغلبت عليه، وذلك في شعبان سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة وأعاد أهلُ قرطبةَ الدولةَ الأُموية على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأما القاسم فقصد إشبيليةَ وبها ابناه محمدٌ والحسن فلما عرف أهل إشبيليةَ خروجَه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيْهِ ومَنْ كان معهما، وضبطوا بلدهم وقَدَّموا على أنفسهم ثلاثةَ رجال؛ منهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعِيل بن عبّاد اللخمي، ومحمد بن مرثم الإهابي، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، ومكثوا كذلك أيامًا مشتركين في سياسة البلد وتدبيره، ثم انفرد القاضي أبو القاسم بن عباد على ما نذكره إن شاء الله.

ولحق القاسم بشريش[١]، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى، وحصروا القاسم حتى صار في قبضة ابنِ أخيه. وانفرد بولاية البربر، وبقي القاسم أسيرًا عنده وعند أخيه إدريس إلى أن مات إدريس، فقُتل القاسم خَنْقًا في سنةِ إحدى وثلاثين وأربعمائة، وحُمِل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك.

وكانت ولايةُ القاسم تسمَّى بالخلافة بقرطبةَ إلى أن أسره ابنُ أخيه ستَّةَ أعوام، ثم كان مقبوضًا عليه ستَّ عشرةَ سنةً عند ابنَيْ أخيه إلى أن مات ـ قيل ومات وهو ابن ثمانين سنة ـ وله من الولد محمد والحسن وأُمهما أميرة بنت الحسن بن فنون بن إبراهيم العلوي.

ذكر ولاية المعتلي يحيى بن علي

وكنيته أبو إسحاق، وقيل أبو محمد تَسمَّى بالخلافة بقرطبة في سنةِ ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة، ثم هرب منها إلى مالقة في سنة أربع عشرة. ثم سعى قومٌ من المفسدين في إعادة دعوته بقرطبة في سنةِ ستَّ عشرةَ ولم يدخلها، واستخلف عليها عبد الرحمٰن بن عطاف، ثم قطعت خطبته من قرطبة في سنة سبع عشرة. وبقي يتردد إليها بالعساكر إلى أن اتفق جماعة البربر على طاعته، وسلّموا إليه الحصونَ والقلاع والمدن، وعظم أمره فصار بقرمونة[٢] ليحاصر مدينة إشبيلية. فخرج يومًا وهو سكران إلى خَيْلٍ ظهرت من إشبيلية بقرب قرمونة، فلقيها وقد كمن له كمناء، فلم يكن بأسرع من أن قتل، وذلك في يوم الأحد لسبعٍ خلون من المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وكان له من الولد الحسن وإدريس.

(١) بشريش: مدينة كبيرة من كورة شذونة.
(٢) قرمونة: مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية.

ذكر عود الدولة الأموية بمدينة قرطبة ومن ولي منهم

أ ـ ذكر إمارة المستظهر بالله

هو أبو المطرّف عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار ـ أخو المهدي ـ بويع له بالخلافة بقرطبةَ لثلاثَ عشرةَ من شهر رمضان سنةَ أربع عشرةَ وأربعمائة. وذلك أن أهل قرطبةِ لما هزموا البربر وأخرجوا القاسم ـ كما قدمنا ـ اتفق رأْيُهُم على ردِّ الأمرِ إلى بني أُمية. فاختاروا منهم ثلاثة، وهم: عبد الرحمٰن هذا، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبد الرحمٰن. فاتفق رأيهم على إمارة عبد الرحمٰن فبايعوه، وتلقب بالمستظهر، وكان مولده في ذي القعدة سنةَ اثنتين وتسعين وثلاثمائة. وقام عليه محمد بن عبد الرحمٰن مع طائفةٍ من أرذال العوام فقتل عبد الرحمٰن لثلاثٍ بقين من ذي القعدة منها، وقيل لثلاثٍ خلون منه. وكان في غاية الأدب، وله شعر. وزيره الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم.

ب ـ ذكر إمارة المستكفي بالله

هو أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن الناصر بن هشام المستظهر، وأُمه أُم ولد اسمها حوراء ولِي بعد قَتْل المستظهر لثلاثٍ خلون أو بقين من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائةٍ، وله ثمان وأربعون سنةً. وكان أبوه ممن قتله الوزير محمد بن أبي عامر في أوَّل دولة المؤيدِ هشام لِسَعْيِه في القيام وطلبه الأمرَ، فولِيَ محمدٌ هذا عشرةَ أشهرٍ وأيامًا، وخُلع وقيل بل خلع في يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ستَّ عشرةَ، وخرج من قرطبة يريد الثَّغْرَ فمات بقريةٍ من قُرى شنت مرية في أول شهر ربيع الآخر منها، فكانت مدةُ مملكته بقرطبةَ على هذا القول سنةً وأربعة أشهر. وكان الحاكم في أيامه صاحب المظالم محمد بن عبد الرؤوف.

وكان محمد بن عبد الرحمٰن في نهاية التخلف، صاحب أكْلٍ وشرْبٍ ونكاح، ولم يزل مُتَغَلَّبًا عليه طولَ ولايته لا يُنفذ له أمر، ولا عقب له. وقيل في وفاته إنه لما هرب من قرطبة سار حتى انتهى إلى قرية يقال لها سمّونت من أعمال مدينة سالم فجلس ليأكل وكان معه عبد الرحمٰن بن محمد بن السليم ـ من ولد سعيد بن المنذر ـ فكره التمادِي معه، فَسمَّه في دجاجةٍ فمات لوقته، فَقَبْرُه هناك. ولما خلع أعيدت خطبةُ يحيى بن عليٍّ الفاطميّ، ثم قطعت وأُعيدت الخطبة للدولة الأُموية.

جـ ـ ذكر ولاية المعتمد على الله

هو أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر، وهو أخو المرتضى، بويع له في شهر ربيع الأول سنةَ ثماني عشرةَ وأربعمائة، وقيل في يوم الجمعة سلخ شهر ربيع الآخر منها. وذلك أنه لما قُطِعت خطبة يحيى بن علي في سنةِ سبعَ عشرةَ وأربعمائةٍ اجتمع رأي أهل قرطبة على ردّ الأمر إلى بني أُمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهْور بن محمد بن جهور. فراسل أهل الثغورِ في ذلك فاتفقوا عليه بعد مُدةٍ، فبايعوا لأبي بكرٍ وهو بالثغر في حصن البُونت[1] عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم.

فبقي يتردّد في الثغور سنتين وعشرةَ أشهر ـ وقيل سبعة أشهر ـ وثارت هناك فتَنٌ كثيرةٌ يطول شَرْحُها، واضطرابٌ شديدٌ من الرؤساء بها، إلى أن اتفق رأْيهم على أن يسير إلى قرطبة الملكُ. فسار إليها، ودخلها في يوم منى ثامن ذي الحجة سنةَ عشرين وأربعمائة. ولم يُقم إلا يسيرًا حتى قامت عليه فرقةٌ من الجند، فخلع!

قال بعض المؤرخين: كان سبب خلعه أنَّ وزيره ومدبِّر أمره أبا العاص الحكم بن سعيد كان فاسدَ الطريقة، ولم يكن له سابقة رئاسة. فكرهه الناس فَدسُّوا عليه في بعض الطرق من قال نصيحة تقربه منه ـ وكان أطروشًا ـ فأصغى إليه ليقولها في أُذنه، فَجرَّه عن دابته فقتل.

وخلع المعتمد، وخرج إلى الثغر لينتزعه من يد المنذر بن يحيى، فمات بِلارِدَةَ[2] ـ وهي في مملكة سليمان بن هود ـ في يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنةَ ثمانٍ وعشرين وأربعمائة.

قال: وولي قرطبة بعده قريب من سِتَّةٍ، ثم دُعِي للمؤيد هشام ـ وذُكر أنه حيٌّ ـ في يوم الخميس لليلتين خَلَتا من المحرم سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة إلى أن أُشيع موت هشام هذا. فتغلّب على قرطبةَ أبو الحزم بن جَهْور ـ على ما سنورده ـ وانقطعت دعوة بني أُمية من سائر البلاد إلى هلم. وكانت مدة مُلْكِ بني أُميةَ ببلاد الأندلس ـ من سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة وإلى هذا التاريخ ـ مائتي ستةٍ وتسعين، وعدة من ملك منهم خمسةَ عشر ملكًا وهم:

---

(١) حصن البونت: أحد معاقل إقليم بلنسية.

(٢) لاردة: مدينة من مدن الثغر قرب طرسونة.

عبد الرحمٰن بن معاوية الداخل، هشام بن عبد الرحمٰن، الحكم بن هشام المرتضى، عبد الرحمٰن بن الحكم، محمد بن عبد الرحمٰن الأمين، المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن، عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله، الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمٰن، هشام المؤيد بالله (دفعتين)، محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي (دفعتين) سليمان بن الحكم المستعين بالله (دفعتين). ثم انقطعت دعوتهم بقيام العلويين سبْعَ سنين، وعادت بقرطبة بإمارة المستظهر بالله عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار، ثم المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله، ثم المعتمد على الله أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم..

ذكر أخبار الأندلس
ومن ملكها بعد انقطاع الدعوة الأُموية

قال: ولما انقطعت دعوةُ بني أُمية بعد خَلع هشام تغلَّب كلُّ رئيسٍ على بلدٍ، واستولى عليها، ونحن نذكر ذلك على سبيل الاختصار. فأما قرطبة فاستولى عليها الوزير أبو الحزم جهْور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن العمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبيدة. قال: وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرئاسة موصوفًا بالدهاء والعقل، لم يدخل في شيء من الفِتَنِ قبل ذلك. فلما خلا له الجوُّ وأمكنته الفرصة وثب عليها، فتولَّى الأمر واستقلَّ به، ولم ينتقلْ عن رتبة الوزارة إلى الإمارة ظاهرًا، بل دبَّر تدبيرًا حسنًا لم يُسْبقْ إليه. وجعل نفسه مُمْسِكًا للوضع إلى أن يجيءَ مستحقٌّ يتفق عليه الناسُ فيسلمه إليه، ورتَّب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور ـ على ما كانت عليه أيام الدولة ـ ولم يتحول عن داره إليها. وجعل ما يُرْفَعُ من الأموال السلطانية بأيْدي رجالٍ رتَّبهُم لذلك وهو المشرف عليهم، وصيّر أهلَ الأسواق جندًا وجعل أرزاقهم رؤوس أموالٍ تكون بأيديهم يأخذون رِبْحَها خاصةً ورؤوس الأموال باقية، يؤخذون ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حِفْظُهم لها. وفرق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه في الدكاكين والبيوت، حتى إذا دهَم أمرٌ ليلاً أو نهارًا كان سلاح كلٍّ واحدٍ معه، وكان يشهد الجنائز ويعود المرضى.

وكانت قرطبةُ في أيامه حرمًا يأمن فيه كلُّ خائف، ولم تزل أيامه على أحسن نظام وأكمل اتِّساق إلى أن توفي في صفر سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، وتولى بعده ابنهُ محمد.

ذكر ولاية أبي الوليد محمد بن جهور

ولي بعده أبيه فجرى على سُنَّتِهِ في تدبير الأُمور ورعايةِ قلوبِ الرعية إلى أن مات، وغلب عليها الأمر المُلَقَّب بالمأمون صاحبُ طليطلة إلى أن مات، ثم استولى ابن عبّاد على قرطبة على ما نذكره.

ذكر أخبار مدينة طليطلة ومن ملكها بعد بني أُمية وكيف كان استيلاء الفرنج عليها

أول من تغلَّب عليها بعد بني أُمية مع بقائهم بقرطبة رجل يقال له ابن يعيش، وذلك أن أهلها لما خلعوا طاعةَ بني أُمية قَدَّموه على أنفسهم وولَّوْه أمرهم، فلم تَطُلْ مدته. وصارت رئاسته إلى إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن عامر بن مطرّف بن ذي النون الهواري، فتغلب على طليطلة. ولم تزل بيده إلى أن توفي في سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، فقام بعده ابنُه.

ذكر ولاية المأمون يحيى بن إسماعيل

وَلِيَ طليطلة بعد أبيه، ولما ولي أراد أن يستعين بالفرنج على ما حوله من المدائن والحصون لينتزعها ممن هي بيده. فكتب إلى ملك من ملوك الفرنج ـ كان قريبًا منه وبينهما مودةٌ ومُرَاسلةٌ ـ يُقال له شنشكند وقال له «اخرج إليّ في مائة من فرسانك وإنني في مكان كذا لأجتمع بك في أمرٍ لك فيه راحة» فخرج إليه شنشكند في ستة آلاف فارس، وخرج ابن ذي النون في مائتي فارسٍ من عسكر طليطلة.

وكمّن الفرنجيُّ أصحابَه خلف جبل بالقرب من الموضع وقال لهم: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فاخرجوا إلينا بأجمكم! فلما فعلوا ذلك ورآهم المأمونُ سُقِط في يده، وحيل بينه وبين عَقْله فقال له شنشكند: يا يحيى وحقِّ الإنجيل ما كنتُ أظنُّك إلاّ عاقلاً وإذا بك أحمقُ خلْقِ الله، خرجتَ إليّ في هذا العدد القليل وسلَّمت إليّ مُهْجَتَك بغير عهدٍ كان بيني وبينك قبل خروجك ولا دين يجمعنا وقد أمكنني اللّهُ منك، وحقِّ الإنجيل لا نجوت مني حتى تعطيني الحِصْن الفلاني والحصن الفلاني

ـ وسمَّى حصونًا من حصون المسلمين بين طليطلة وبينه ـ وتجعل لي عليك مالاً في كل سنة!.

فأجابه يحيى إلى ما طلب، وسلَّمَ إليه الحصون، ورجع إلى طليطلة شر رجوع. وتواتر الخِذْلانُ عليه إلى أن مات في سنة ستين وأربعمائة، وصارت ولايتهُ إلى ابنه القادر يحيى، فدام بطليطلة إلى أن ملكها الفرنج.

قال: ولما ملك امتدت يدُه إلى أموال الرعية، واستعمل السفلة وأهلَ الثغور، ولم تزل النصارى تطوي حصونَه حصنًا بعد حصن حتى اسْتَوْلوْا على طليطلة في سنة ثمانٍ وسبعين بعد أن حاصرهم ألفونش سبْعَ سنين وملكها، واتخذها دارَ مُلْكٍ، وغَيَّرَ جامِعَها كنيسة وردَّ المسلمين إلى مسجدٍ غيره وعَوَّضَهم مالاً وقال: هذه كنيسةٌ كانت لنا فردّها اللّهُ علينا! وانتقل القادر بالله إلى بلنْسِية فقبله القاضي الأحنف بنُ حجاب.

ذكر أخبار دولة بني عباد

وابتداء أمرهم ومن ملك منهم إلى أن انقضت مُدَّتهم وانقرضت دولتهم.

أول من قام منهم القاضي محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد بن عمرو بن عطاف بن نُعَيْم ـ ونعيم وابنُهُ عطاف هما دخلا إلى الأندلس من المشرق ـ وهم من لخم من بني المنذر بن المنذر، وفيهم يقول الشاعر: [من الخفيف]

مِنْ بنِي المنذَرِين وهو انْتِسَابٌ زادَ في فَخْرِهِ بنو عبّادِ
فيه لمّا تَلِدْ سِواها المعالي والمعالي قليلةُ الأولادِ

وكان محمد بن إسماعيل هذا قد تقدّم بإشبيلية إلى أن ولِي القضاء، فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفةَ بهم؛ فرمقته العيون، ومالت إليه القلوب. فلما كان في سنة ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة ولّى يحيى بن عليّ الفاطمي قرطبة، وكان من أمره وأمرِ عمِّه القاسم ما ذكرناه. ثم إنَّ أهلَ قرطبةَ أخرجوا القاسم بنَ حمّود فقصد مدينةَ إشبيلية ثم فارقها، وقصدها بعد ذلك يحيى بن عليِّ المعتلي ونزل بقرمونة لحصار مدينة إشبيلية وكانت الرئاسةُ بها بين ثلاثة ـ كما ذكرنا ذلك ـ فاجتمع وجوه المدينة وفيهم حبيب بن عامر القرشي ومحمد بن مرثم الإهابي ومحمد الزبيدي وغيرهم. وأتَوْا إلى أبي القاسم محمد بن إسماعيل وقالوا: ما ترى ما نحن فيه وما حلَّ بنا من هذا الكافر وما أفْسد من أموال الناس، فَقُمْ بنا نخرجْ إليه ونملكك ونجعلْ الأمر لك وننتصر لهشام!

ففعل، وخرجوا لقتال يحيى بن علي المعتلي، فركب إليهم وهو سكران فقتل كما قَدَّمْنا. وملك محمد بن إسماعيل إشبيلية، وقالوا له: نخرج إلى قرمونة من قبل أن يسبقك إليها إسحاق بن عبد الله البرزالي! فَهَمَّ محمد بذلك فسبقه إسحاق وملكها، فكتب محمد إلى يحيى بن ذي النون الهواري صاحب طليطلة يقول له: اخرج بعسكرك أو ابعث إلي بعسكر مع قائدٍ من عندك حتى أُخْرِج إسحاقَ بنَ عبد الله من قرمونة، وأن أُعينك على أخْذِ قرطبة وأجعلها لك مِلْكًا!

فلما وصل كتابه إلى المأمون خرج إليه بنفسه في عسكرٍ كبير، فاجتمعا ونزلا على قرمونة، وحاصراها وأخرجها عنها إسحاق. وأخذها محمدُ بنُ إسماعيل وأدخل ولده إليها، وسارا إلى قرطبة وحاصراها. فلما رأى أهلها ما حلَّ بهم كاتبوا محمد بنَ إسماعيل وقالوا: أنتَ أوْلى من المأمون بالبلد وأحبُّ إلينا منه! فاستوثقْ منهم ودخلها ليلاً ويحيى لا علم له بذلك.. فلما أصبح وعلم الحال رجع بعسكره إلى طليطلة وكتب إلى ابن عكاشة ـ وهو رجل شجاع كان بيده بعضُ حصون الأندلس، يقطع حوله السبيل ويقتل التجار ويأخذ الأموال، وهو يظهر ليحيى طاعةً مشوبةً بمعصية ـ فأمره أن يجمع أصحابه وعضَّده بعسكر كبير ووجههم إلى قرطبة، فتوجهوا إليها وقد فارقها محمد بنُ إسماعيل إلى إشبيلية وترك ولده بها.

فدخلها ابن عكاشة ليلاً، ودخل القصر، وقتل كلَّ منْ وجَد من الحرس، وذبح ولدَ محمد بنِ إسماعيل بيده. فلما بلغ ذلك محمد جمع العساكر وخرج إلى قرطبة، فحصر ابنَ عكاشة وضيّق عليه، فخرج هاربًا. واستوثق من الرعية وعاد إلى إشبيلية، فوصل إليها يحيى بن ذي النون وتغلَّب عليها. فَدَسَّ عليه محمد بنُ إسماعيل طبيبه، فَسَمَّه، فمات! فعندها خلص الأمرُ لمحمد بن إسماعيل، وذلك في سنةِ أربع وعشرين.. هكذا نقل عز الدين عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعز بن باديس في كتابه المترجم بالجمع والبيان، وذكر أيضًا في هذا الكتاب أنَّ يحيى توفي في سنة ستين وأربعمائة، وهذا فيه تنافٍ والله تعالى أعلم.

ذكر أخبار خلف الحصري المشبّه بالمؤيد هشام وقيام دعوته بمملكة محمد ابن إسماعيل، وما قيل في ذلك

فأما قيام دعوته فإن محمد بن إسماعيل لما استولى على الأمر في سنة أربعِ وعشرين وأربعمائة وتعاظم أمره، حسده أمثاله وكثُر الكلام فيه وقالوا «قتل يحيى بن

علي الحسني من أهل البيت وقتل يحيى بن ذي النون ظلمًا» واتّسع القول فيه فبقي يفكر فيما يفعله. فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل من أهل قرطبة فقال له: إني رأيت ـ هشامًا في قلعة رباح! فقال له محمد: انظرْ ما تقول! فقال: إني واللّهِ رأيتُهُ وهو هشام بلا شك!

وكان عند محمد بن إسماعيل عَبدٌ من عبيد هشام يسمى تومرت ـ وهو الذي كان يقوم على رأس هشام ـ فقال له محمد: إذا رأيتَ مولاك تعرفه؟ فقال: نعم ولي فيه علامات.

فأرسل محمدٌ رجلين من الذين ذكروا أنهم رأوا هشامًا وقال: توَجَّها إلى قلعة رباح وائتياني بهشام! وأسرعا، فَتَوَجَّهَا فوجداه في مسجد في قلعة رباح، فدخلا عليه وأعلماه أنهما رسولا القاضي محمد بن إسماعيل إليه. فسار معهما إلى إشبيلية. فلما دخل على القاضي قام إليه وسلم عليه وأنزله ووكل بخدمته تومرت مولاه. فلما رآه تومرت قَبّل يديه ورجليه وقال للقاضي: هو والله مولاي هشام بن الحكم.

فعند ذلك قام إليه القاضي محمد بن إسماعيل وقَبَّلَ رأسَه ويديه، وأمر بنيه فدخلوا عليه وفعلوا كفعله، وسلّموا عليه بالخلافة. وأخرجه محمد بن إسماعيل في يوم الجمعة إلى الجامع بمدينة إشبيلية، ومشى هو وبنوه بين يديه رجّالةً حتى أتى المسجد، فخطب الناس وصلّى بهم الجمعة. وبايعه محمد بن إسماعيل وبنوه وجميعُ أهل البلد ورجع إلى موضعه، وتولّى محمد بن إسماعيل الخدمةَ بين يديه وجرى في ذلك على طريقة ابن أبي عامر، غير أنه يخرج إلى الجمعة والأعياد ويصلّي طولَ مدته، ومحمد في رتبة الوزارة آمرًا وناهيًا عنه، واستقام لمحمد أكثر مدن الأندلس، فهذا كان سبب قيام دعوته.

وأما ما نقل من أخباره فقد ذكرنا في أخبار بني أمية أن المستعين بالله سليمانَ بن الحكم لما فتح قرطبةَ المرة الثانيةَ في شوّال سنةَ ثلاث وأربعمائة أحضره وَوبّخه، وأن المؤيد فُقِدَ لخمسٍ خلون من شوال. وذكرنا أيضًا أنّ الناصرَ عليَّ بنَ حمّود الفاطميّ لما ملك قرطبةَ أحضر المستعين وسأله بحضرة الفقهاء والوزراء عن المؤيد هشام فقال «مات فألزمه أن يُرِيَهُ قبره فأخرجه دفينًا لا أثر فيهِ فأمر الناصر بتكفينه ودفنه في الروضة».

وقيل بل هرب بنفسه إلى المشرق مستخفيًا حتى وصل إلى مكة ـ شرّفها الله ـ وكان معه كيسٌ فيه جوهر وياقوت ونفقة، فشعر به حَرَّابة مكة، فأخذوه منه، فمال إلى جهةٍ من الحرم وأقام يومين لم يُطْعَمْ طعامًا. فمضى إلى المروة فأتاه رجل فقال

له تُحسن عَمَلَ الطين؟ قال: نعم! فمضى به إلى تراب ليعجنه ووافقه على درهم وقرصة، فقال له: عجِّل القرصةَ فإني جائع! فأتاه بها فأكلها، ثم عمد إلى التراب فكان مرةً يعجن ومرةً يجلس، فلما طال عليه ذلك تركه ومضى هاربًا على وجهه.

وخرج مع القافلة إلى الشام على أسوإ حالٍ، فوصل إلى بيت المقدس، فمشى في السوق فرأى رجلًا يعمل الحصر الحلفاء[1] فنظر إليه فقال له الحصري: كأنّك تحسن هذه الصناعة! قال: لا! قال: فتقيم عندي تناولني الحلفاء وأجعل لك أُجرة على ذلك. قال: أفعل.

فأقام عنده يناوله ويعاونه على ما يأمره به من أُمور صناعته، فتعلّم هشامٌ صناعة الحصر، فصار يعملها ويتقوّت منها. وأقام بِبيْت المقدس أعوامًا كثيرةً لم يعلمْ به أحدٌ، ثم رجع إلى الأندلس في سنة أربع وعشرين وأربعمائة.. هكذا روى جماعة من مشايخ الأندلس!

وقال الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في كتابه المسمى «نقط العروس في هذه الحكاية: أُخلوقة لم يقع في الدهر مثلها، وإنما ظهر رجل يقال له خلف الحصري بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد وادَّعى أنه هشام، وبويع له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسَفكِ الدماءَ وتصادمت الجيوش في أمره.

وقال أبو محمد بن حزم: وفضيحة لم يقع في الدهر مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يُسَمَّى كلُّ واحدٍ منهم بأمير المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد، أحدهم خَلَفٌ الحصريّ المذكور بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد، والثاني محمد بن القاسم بن حمّود بالجزيرة الخضراء، والثالث محمد بن إدريس بن علي بن حمّود بمدينة مالقه، والرابع إدريس بن يحيى بن علي بشنترين[2].

وأقام المُدَّعِي أنه هشام بن الحكم نيِّفًا وعشرين سنةً والقاضي محمد بن إسماعيل في رتبة الوزير بين يديه، والأمر إليه. وقد استقام لمحمدٍ أكثرُ بلاد الأندلس، ودفع به كلام الحسّاد وأهل العناد، إلى أن توفي هشامٌ المذكورُ. فاستبدّ القاضي بالأمر بعده وملك أكثر مدن الأندلس وحصونها. ولم ينتقل عن مدينة إشبيلية

(١) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.

(٢) بشنترين: مدينة في غربي قرطبة وعلى نهر تاجة قرب انصبابه في البحر المحيط... (معجم البلدان).

بل جعلها دار ملكه، واستقامت له الأُمور، وأطاعته المدن والثغور، واجتهد في جهاد الفرنج. وكان له في ذلك القدم المشهور، ومات محمد في عشر الخمسين وأربعمائة، وولي بعده ابنُه عباد.

ذكر ولاية أبي عمرو عباد بن محمد

ولي بعد أبيه وتلقَّب بالمعتضد بالله، وكان فيه كرم وبأس. فطابت أيامه، وحسنت أفعاله، واستقامت له الأحوال، ورُفعت له من بلاد الأندلس الأموال. قال: واتفق له واقعة غريبة في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وهي أنه شرب ليلةً مع رجاله وندمائه فلما عملت فيه الخمر صَرَفهم وخرج في الليل ومعه رجلٌ واحدٌ من عَبيدِه. وسار نحو قرمونة وهي تبعد عن مدينة إشبيلية ثمانية عشر ميلاً، وكان صاحبُ قرمونة إسحاق بن سليمان البرزالي وقد جرت بينه وبينه حروب.

فسار عبّاد حتى أتى قرمونة، وكان إسحاق تلك الليلة في جماعةٍ من أهل بَيْتِهِ يشربون، فدخل عليه بعضُ خُدَّامه فقال: إن صاحبَ الحرسِ ذكر أنَّ المعتضد عبّادًا قائم على باب المدينة ليس معه إلا رجلٌ واحدٌ وهو يستأذن عليك! فعجب القومُ من ذلك غايةَ العجب، وخرج إسحاق ومَنْ عنده إلى باب المدينة فسلَّم على عبّاد وأدخله إلى القصر، وأمر بتجديد الطعام والشراب. فلما شرع في الأكل تذكر ما فعل فسقط في يده ولم يطق أن يسفه، وندم على ما صنع لما يعلم بينه وبين برزال من الحرب وسفك الدماء، فأظهر التجلُّد والانشراحَ ثم قال لإسحاق: أُريد أن أنام!

فرفعه على الفراش، فأراهم عبّاد أنه نائم، فقال بعض القوم لبعض: هذا كبشٌ سمينٌ حصل لكم، والله لو أنفقتم عليه مُلْكَ الأندلس ما قدرتم على حصوله في أيديكم، وهو شيطانُ الأندلس وإذا قُتل خلصت لكم البلاد!

فقام معاذ بن أبي قُرَّةَ وكان من كُبَرائهم فقال: والله لا فعلنا هذا ولا رضينا به، رجلٌ قصدنا ونزل بنا، ولو علم أنَّا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأْمنًا إلينا، كيف تتحدث القبائلُ عنَّا أننا قتلنا ضيْفنا وخَفَرْنَا ذِمَّتَنَا، فَعَلَى مَنْ يَرْضَى هذا لعنةُ الله! وهو يسمع فنزل عن السرير فقام القوم بأجمعهم فقبّلوا رأسه وجددوا السلام عليه فقال لحاجبه: أين نحن؟ قال: في منزلك وبين أهلك وإخوانك! قال: ائتوني بدواة وقرطاس.

فأتوه بهما، فكتب أسماء القوم، وكتب لكلِّ واحدٍ بخلعةٍ ودنانير وأفراسٍ وعبيد وجوارٍ، وأمر أن يرسل كلُّ واحدٍ منهم رسولاً ليقبض ذلك. ثم ركب وخرج القوم

يشيِّعونه إلى قرْب إشبيلية، فصرفهم ودخل. وأرسلوا مَنْ قَبضَ لهم ما كتب به، ثم أغفلهم سِتَّة أشهر وكتب إليهم يستدعيهم لوليمةٍ، فجاءه سبعون رجلاً منهم فأنزلهم عند رجاله، وأنزل معاذًا عنده. وأمر بهم فأُدْخِلوا حمامًا، وبنَى عليهم بابه، فماتوا جميعًا، فَعزَّ ذلك على معاذ بن أبي قرة فقال له عبّاد: لا تُرَعْ فإنهم قد حضَرتْ آجالهم وقد أرادوا قتلي، ولولاك ما كنتُ ناجيًا منهم، وإنما جعل اللّهُ صيانَة دمي بك، فإن أردتَ الرجوع إلى بلدِك رددتُك على أجملِ الوجوه وأحسنِها وأسرِّها! فقال له معاذ: بأيِّ وجْه أرجع أنا دونهم؟

فأمر له المعتضد بألف دينار وعشرة أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعْبُدٍ، وأنزله في قصرِ من أعظم قصوره، وأقطعه في كلِّ عام اثني عشر ألف دينار، وكان ينفذ إليه في كل يوم التُّحَفَ والطرف. ولم يكن يحضر مجلسه أحدٌ قبله إلى أن مات عبّاد فأوصى ولده بمعاذ وقال: يا بني احفظني فيه! فجرى فيه على عادة أبيه، ودام بإشبيلية حتى انقرضت دولة بني عبّاد.

قال بعض أهل إشبيلية: رأيت معاذ بن أبي قرة يوم دخل يوسف بن تاشفين إشبيلية أوَّل النهار وعليه ثوب ديباج مخرطم بالذهب وأمامه نحوٌ من ثلاثين عَبْدًا، ورأيته آخِرَ النهار عليه مُليسٌ[1] مشتمل به فسبحان من لا يزول مُلْكه، نسأل اللّهَ تعالى أن لا يسلبنا ثوب نعمةٍ أنعمها علينا بمَنِّه وكرمه.

وفي أيام عبّاد توفي الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سعدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أُمية. أصل آبائه من قرية مُنت ليسم من عمل الولبة[2] من كور غرب الأندلس، وسكن هو وآباؤه قرطبة ونالوا بها جاهًا عريضًا ومالاً وممدودًا. وولّى ابنُ أبي عامر جدَّه سعيدًا الوزارة، وولى أبو محمدٍ هذا الوزارة في أيام المستظهر بالله عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار الأموي. وكان مولده يومَ الأربعاء سلخَ شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ووفاته في سلخ شعبان سنة سبع وخمسين وأربعمائةٍ، وكانت مدة حياته اثنتين وسبعين سنةً وأحد عشرَ شهرًا. وله كثير من المصنَّفات، ذكر أنه اجتمع مع الإمام أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب التواليف ـ وقيل بل الفقيه إبراهيم الخفاجي ـ فجرت بينهما مناظرة،

(١) المليس: ضرب من القماش.
(٢) ولبة: بلدة جنوب غربي لبلة على شاطىء المحيط الإطلنطي.

فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سُرُج الحُرَّاسِ! فقال له ابنُ حزم: وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة!

وفي سنة ستين وأربعمائة توفي المعتضد بالله عبّاد بن محمد، وحُكِي أنه استحضر مغنيًا يغنيه ليجعل أوّل ما يبدأ به فألاً فكان أول شعر قاله: [من البسيط]

نطْوِي الليالِيَ عِلْمًا أنْ ستطوينا ... فشعشعينا بماءِ المُزْنِ واسقينا

فمات بعد خمسةِ أيام رحمه الله، ولما مات ولي بعده ابنه محمد.

ذكر ولاية المعتمد على الله
محمد بن عباد

ابن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد، وكنيته أبو القاسم. ولي بعد وفاة أبيه في سنة ستين وأربعمائة، وقيل في سنة إحدى وستين، وكان مولده بباجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، فكان عمره حين وَلِيَ ثلاثين سنة. وكان فيه أدب وشعر وكرم وتواضع وشجاعة، قال أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة كاتبه يصف الدولة العبادية: كانت الدولة العبادية تشبه العباسية، بها وسعة ملك ووثاق عهد وانتظام عقد، وعدل أئمة واعتدال أُمة، كان أربابها يتنافسون في المكارم ويتغايرون على الشرف المتقادم: [من البسيط]

من حلْبة السَّبْق لا برقٌ يخاطِفُها ... إلى مداها ولا ريحٌ يجاريها
تردُّهم نِسْبَةٌ نحوَ السماءِ فهُمْ ... من مائها، وعُلاهُم من دراريها

يشير إلى المنذر ابن ماء السماء، ثم قال: «جمعوا كرم الأخلاق إلى شرف الأعراق، وحملوا حلى الآداب على الأحساب، وعضَّدوا البأس بالكرم وأُيِّدوا بالسيف والقلم»: [من الكامل]

نفرٌ إلى ماءِ السماءِ نمَاهمُ ... نسَبٌ على أوج النجوم مُخيِّمُ
بالبِيضِ والبَيْضَاتِ والخُلُقِ اكتَسَوْا ... فتَوَشَّحوا وتَتَوَّجوا وتَعَمَّموا

وكان بهذا البيت سريرُ الفلك الدائر وغريبُه البحر الزاخر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد» وذكر نَسَبَه، ثم قال: من بني المنذر وهو انتساب... البيتين، وقد ذكرناهما آنفًا، وقال تِلْوَهُما: وكذلك يطَّرِد النَّسَبُ اطرادَ الشآبيب، ويتَّسقُ اتِّساق الأنابيب، فهو كما قيل: [من الكامل]

شَرَفٌ يُنقِّلُ كابِرًا عن كابرِ ... كالرُّمْح أُنبوبٌ على أُنبوب

إلى مركز الدائرة من لخم وواسطة المنتخبين من يعرب وقحطان! ثم ذكر مولده وولايته على ما قدمنا وذكر خَلْعَهُ في سنة أربع وثمانين على ما نذكره إن شاء الله.

وكان سبب خلعه وانقراض دولته أن الفرنج ـ لعنهم الله ـ لما استَوْلَوْا على طليطلة وملكها الأذفونش ـ وهو ألْفُنْش ـ في سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة على ما قدمناه. وكان المعتمد يؤدّي إليه ضريبةً في كلِّ سنة، فلما سيّرها إليه بعد استيلائه على طليطلة لم يقبلْها وأعادها، وأرسل إليه يتوعده ويقول له: أنا آخذ مدينة قرطبةَ كما أخذت طليطلة إلا أن ترفع يدَكَ عن جميع الحصونِ وتُسَلِّمَها إلينا ويكونَ لك السَّهْلُ من البلاد!

وكان الرسولُ شلبيب اليهوديَّ ومعه خمسمائةُ فارس، وطلب منه اثني عشر ألفَ دينار، فأمر المعتمد بإنزال الخيالة على أهل العسكر متفرقين وأمر كلَّ من عنده فارس منهم أن يقتله. ولما جنَّ الليل أحضر اليهوديَّ وكشف رأسه، وأمر بضربه بالنعال المسمرة، حتى خرجت عيناه من رأسه. وهرب من الخيالة ثلاثة، فوصلوا إلى الأذفوشن وأعلموه بِقَتْلِ أصحابه وكان متوجهًا إلى قرطبة يريد حصارها، فلما جاءه الخبر رجع إلى طليطلة ليستعد ويُهَيِّىءَ آلات الحصار.

فلما سمع المعتمد برحيله إلى طليطلة سار هو إلى إشبيلية فبَلَّغ مشايخ قرطبة ما جرى، فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا: هذه مدائن الأندلس قد غلبَ عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرّت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيةً كما كانت! ثم ساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: ألا تَنْظُر إلى ما فيه المسلمون من الصّغار والذلة وإعطائهم الجزيةَ إلى الفرنج بعد أن كانوا يأْخذونها منهم، وابن عبّاد هو الذي حمل الفرنْجَ على المسلمين حتى جرى ما جرى وطلب منه ما طلب، وقد دَبَّرْنا رأيًا نعرضه عليك! قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية ونعلمهم أنهم إن وصلوا إلينا قاسمناهم في أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله تعالى! قال: أخاف أن يخربوا الأندلس كما فعلوا بإفريقية ويتركوا الفرنج ويبدأُوا بكم والمرابطون أقْرَبُ إلينا وأصلح حالاً. قالوا: فكاتِبْ يوسف بن تاشفين ورغِّب إليه أن يدخل إلينا بنفسه أو يرسل إلينا قائدًا من قُوّاده. قال: أمّا الآن فقد أشرتم برأي فيه السّداد!

وقدم المعتمد إلى قرطبةَ في أثَرِ ذلك، فدخل عليه القاضي وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قرطبة وما اتفقوا عليه، فقال المعتمد: نِعْمَ ما أشاروا به وأنت رسولي إليه! فامتنع القاضي واستعفاه وإنما أراد أن يقوِّيَ عزمه على إرساله فقال: لا أجد لها غيرك.

فسار القاضي، وصحبه أبو بكر بن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين، فوجداه بسبتة، فأبلغاه الرسالة. وأعلماه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش، وأنهم يستنصرون بالله ثم به؛ وأن المعتمد يستنجده عليه. فأمر يوسف في الحال بإدخال العساكر إلى الجزيرة الخضراء، وأقام بسبتة وأنفذ إلى مراكش في طلب من بقي، ودخل في آخر العساكر.. هذا ما نقله أهل التاريخ، أن القاضي وابن القصيرة كانا رسولين إليه، وقيل إن المعتمد بن عبّاد سار بنفسه بِغيْرِ واسطةٍ وتلطّف في الدخول عليه إلى أن انتهى إلى آخر بواب فقال له: قل لأمير المسلمين إن ابن عبّاد بالباب! فلما أعلمه بذلك ارتاع وظن أنه قدم بعساكره، وسأله عن حقيقة الحال فقال: هو ببابك وَحْدَهُ فأذن له، فدخل عليه، فأكرمه ووعده النصر. وعاد ابن عباد، ولحقه أمير المسلمين.

ذكر وقعة الزلاقة
وانهزام الفرنج لعنهم الله

قال: وجمع المعتمد العساكر وأقبل أمير المسلمين بعساكره، واجتمعوا كلهم بإشبيلية، وخرج من أهل قرطبة ـ من المتطوعين ـ أربعةُ آلاف فارس وراجل. وجاء المسلمون من بلاد الأندلس، من كل بلد وحصن. واتصلت الأخبار بالأذفونش، فخرج من طليطلة في أربعين ألف فارس غير من انضاف إليها، وكتب إلى يوسف كتابًا كتبه عنه رجل من أُدباء المسلمين يغلظ فيه القول ويصف ما عنده من القوة والعُدَد والعَدَد، ووسّع وأطال وبالغ. ووصل الكتاب إلى يوسف بن تاشفين فأمر الكاتب أبا بكر ابن القصيرة أن يجاوبه. وكان كاتبًا مجيدًا فكتب وأطال وبالغ، فلما قرأه على يوسفَ استطاله وكتب على ظهر كتابه «الذي يكون ستراه» [من الطويل]

ولا كُتْبَ إلاّ المشْرَفيَّةُ والقنا ولا رسْل إلاّ بالخميسِ العَرَمْرَم[(١)]

وردّه إليه، فلما قرأ الجواب ارتاع وقال: هذا رجلٌ له عزم! قال: ولما استعد الأذفونش لِلِّقاء رأى في منامه كأنه راكبٌ فيلاً وبين يديه طبل صغير ينقر فيه، فقصّ ذلك على القسيسين فلم يعرفوا تأْويله، فاستحضر رجلاً مسلمًا عالمًا ديِّنًا فاستعفاه من القول فأمّنه وعزم عليه، فقال: تأْويل هذه الرؤيا في آيتين من كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ!

---

(١) الخميس: الجيش الجرار؛ سمي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.

وقرأ سورة الفيل، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٨ - ١٠] وذلك يقتضي هلاك الجيش الذي تجمعه.

فلما اجتمع الجيشُ وعبّأه أعجبته كثرتُه، فاستحضر المُعبر وقال له: هذا الجيشُ الذي ترى ألقى به محمدًا صاحبَ كتابِكم! فانصرف المُعَبِّرُ عنه وقال: هذا الملكُ هالكٌ لا محالة وكلُّ مَنْ معه فإنه قد أُعْجِبَ بِجمْعِهِ... وذكر قوْل النبيِّ ﷺ «ثلاث مهلكات» الحديث...

قال: وسار المعتمدُ بنُ عبّاد وأميرُ المسلمين بالعساكر حتى أتوْا موضعًا يقال له الزلاَّقة من بلد بطَلْيَوْس وأتى الأذفونش فنزل موضعًا بينه وبينهم ثمانيةَ عشرَ ميلاً، فقيل ليوسف بن تاشفين إنَّ ابنَ عبّاد ربما لم يُنْصَحْ ولا يبذل نفسَه دونك، فأرسِلْ تقول له «كُنْ في المقدمة ونكون نحن في أثرِك». فتقدّم ابنُ عباد.

وضرب الأذفونش خيامه في سفح جبل والمعتمدُ بن عبّاد في سفح جبل آخر بحيث يتراءان، ونزل يوسف بن تاشفين في جبل من وراء الجبل الذي فيه المعتمد. وظَنَّ الأذفونش أن عَسْكر المسلمين ليس إلاَّ ذاك الذي يَظْهرُ له مع المعتمد والأذفونش في زهاء خمسين ألف فارس، فما شَكَّ أنه الغالب واستعمل الخدعة. وأرسل ابنُ عبّاد في ميقات اللقاء يوم الخميس، وقال: نحن قد وصلنا على حالِ تعَبٍ وأمامكم الجمعة وأمامنا الأحد فيكون اللقاءُ يوم الاثنين بعد أُهْبَةٍ! فاستقر الأمرُ بينهما على ذلك.

ثم ركب الأذفونش صبيحة الجمعة ليلاً، وصبَّحَ بجيشه جيش المعتمد، فوق القتال بينهم، فصبر المسلمون وقتل منهم خلقٌ كثيرٌ، وأشرفوا على الانهزام. وقد كان المعتمد أرسل إلى ابن تاشفين فقال للأدِلَّةِ: احملوني إلى مضارب الأذفونش! فما شعر الفرنج إلا وقد نُهِبَتْ خيامُهم وخزائنُ الأذفونش وعُدَدُه، والقتْلُ يُعمل فيهم من وراء ظهورهم. فلم يتمالك الفرنج أن انهزموا وأخذهم السيف من كلِّ مكان، فقُتلوا عن آخرهم، فما سَلِم إلا آحاد! وهرب الأذفونش في نَفَرٍ يسيرٍ ودخل طليطلة في سبعةِ فوارس، ولم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غيرُ ثلاثمائة نفرٍ أكثرهم رجّالة.

وكانت هذه الوقعةُ في يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنةَ تسع وسبعين وأربعمائة، وأصاب المعتمد جراحًا في وجهه، ووُصِفَ في ذلك اليوم بالشجاعة. وغنم المسلمون من أموال الفرنج وأسلحتهم ما لا يُحْصَى كثرةً، وجعل المسلمون رؤوسَ القَتْلَى كَوْمًا كبيرًا وصعدوا عليه وأذَّنوا إلى أن جافت فأحرقوها!.

وعاد المعتمدُ إلى إشبيلية، ورجع أميرُ المسلمين إلى الجزيرة الخضراء وعدّى إلى سبتة وسار إلى مراكش. وعاد في السنة الثانية إلى جزيرة الأندلس وحاصر ليطة هو وابنُ عباد وصاحبُ غَرْناطة، فلم يتهيأْ لهم فتْحُه، فرجع وأخذ غرْناطة من صاحبها عبد الله بن بلكمين، وهي أول ما ملكك من بلاد الأندلس على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر انقراض الدولة العبادية
وشيء من أخبار المعتمد وشعره

في سنة أربع وثمانين وأربعمائة أتى يوسف بن تاشفين إلى سبتة ودخل العساكر إلى الأندلس مع سيرين بن أبي بكر، فقصدوا مدينة إشبيلية، فحصروا المعتمد وضيّقوا عليه. فقاتل قتالاً شديدًا، وظهر من شجاعته وشِدَّةِ بأْسه وحُسْنِ دفاعِهِ عن بلدهِ ما لم يُشاهَدْ من غيره فسمع الفرنج بِقصد عساكر المرابطين بلادَ الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا وأكثروا وساروا لمساعدة المعتمد وإغاثته على المرابطين. فلما سمع بمسيرهم فارق إشبيلية وتوجّه إلى لقاء الفرنج، وقابلهم وهزمهم، ورجع إلى إشبيلية. وداوم الحصار والقتال إلى العشرين من شهر رجب من السنة، فعظُم الخطْبُ واشتد الأمر على أهل البلد. ودخله المرابطون من واديه ونهبوا الأموال، ولم يُبْقُوا على شيء حتى سلبوا الناسَ ثيابهم، وخرجوا من مساكنهم يستُرون عوراتهم بأيديهم.

وأُسِر المعتمد ومعه أولادُه الذكورُ والإناثُ، بعد أن استأْصلوا جميع أموالهم. وقيل إن المعتمد سلَّم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم على نفسِه وأهله وماله وعبيده وجميع ما يتعلق به. فلما سلَّم إليهم إشبيلية لم يفوا له، وسيِّر المعتمد إلى مدينة أغمات[1]، فحُبِسوا بها، وفعَل بهم أميرُ المسلمين أفعالاً قبيحةً لم يفعلها أحد قبله. وذلك أنه سجنهم ولم يُجْرِ عليهم ما يقوم بهم، حتى كان بناتُ المعتمد يغزلن للناس بأُجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين في ذلك عن لؤم طباع وضيق نفس.

قال: وبقي المعتمد في حَبْسه بأغمات إلى سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة، فتوفي فيها، وقبره بأغمات. فكان من بني عبّاد ثلاثة: القاضي محمد بن إسماعيل، وابنه عباد، ومحمد بن عبّاد هذا، ومدة مُلْكِهم ستون سنةً.

---

(١) أغمات: مدينة قرب مراكش.

وكان رحمه الله من محاسن الزمان كرمًا وعلمًا ورئاسةً وأخباره مشهورة وآثاره مدوَّنة. وقد ذكره ابنُ خاقان[١] في «قلائد العقيان»، وذكر شيئًا من نظمه ونثره. وكان شاعرُه أبا بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبَّانة يأتيه في سجنه فيمدحه لإحسانِه القديم إليه وبِرِّهِ الذي بقيت آثارُه مع طول الزمن عليه، قال ابن اللبَّانة: فأمضيت عزيمتي بعد انقضاء الدولة في زيارته، فوصلت إليه بأغمات، فقلت في ذلك أبياتًا عند دخولي عليه: [من الخفيف]

لم أقُلْ في الثِّقافِ كان ثِقافًا ... كنتُ قلبًا له وكان شغافا[٢]
يمكث الزَّهْرُ في الكِمام ولكن ... بعد مُكْثِ الكِمام يدنو قطافا
وإذا ما الهلالُ غاب بغَيْمٍ ... لم يكنْ ذلك المغيبُ انكسافا
إنما أنت درّةٌ للمعالي ... ركَّب الدَّهْرُ فوْقها أصْدافا
حَجَبَ البيتُ منك شخصًا كريمًا ... مثل ما يحجب الدِّنانُ السّلافا[٣]
أنت للفضْل كعبةٌ ولو أنّي ... كنتُ أستطيع لالتزمتُ الطَّوافا

قال: وجرت بيني وبينه مخاطباتٌ ألذُّ من غفلات الرقيب، وأشهى من رشَفَات الحبيب، وأدلُّ على السماح، من فجرٍ على صباح، قال: فلما قاربت الصدر وأزمعت السفر، صرف حبله واستنفذ ما قبله، وبعث إليّ شرفَ الدولة ابنَه ـ وكان من أحسن الناس سمتًا وأكثرهم صمتًا، تخجله اللفظة وتجرحه اللحظة، حريصًا على طلب الأدب مسارعًا في اقتناء الكتب، مثابرًا على نَسْخ الدواوين ففتَّح من خطِّه فيها زَهْر البساتين ـ بعشرين مثقالاً مرابطية وثوبين غير مخيطينْ، وكتب مع ذلك أبياتًا منها: [من الوافر]

إليكَ النَّزْرَ من كفِّ الأسيرِ ... وإن تَقْنَعْ نَكُنْ عَينَ الشَّكور
تَقَبَّلْ ما ندوتُ به جِباءً ... وإن عَذَرَتْه حالات الفقير

قال ابن اللبَّانة فأجبته: [من الخفيف]

حاش لله أنْ أُحيجَ كريمًا ... يَتَشَكَّى فقْرًا وكم سَدَّ فَقْرا

---

(١) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي. له كتاب «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس»... (وفيات الأعيان ٤: ٢٤).
(٢) النقف: الفرخ حين يخرج من البيضة. والشغاف: غلاف القلب.
(٣) السلاف: أفضل الخمر وأخلصها. والدنان: جمع الدن، وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها.

وكفاني كلامُك الرطب نَيْلاً ... كيف ألقى دُرًّا وأطلب تِبْرا
لم تَمُتْ إنما المكارم ماتتْ ... لا سَقَى اللّهُ بعدك الأرضَ قَطْرا

مما قاله المعتمد من شعره في مدة أسره ـ فمن ذلك ـ قوله: [من الكامل]

سَلَّتْ عليَّ يَدُ الخُطوب سُيوفَها ... فَجَرْزن من جسدِي الخصيف الأمتُنا(١)
ضَربَتْ بها أيْدي الضروبِ وإنما ... ضربت رقاب الآمنين بها المنى
يا آمِلِي العادات مِنْ نفحاتِنا ... كُفُّوا فإن الدهر كَفَّ أكُفَّنا

وقال في قصيدة يصف القيد في رجليه: [من الطويل]

تعَطَّفَ من ساقي تعَطُّفَ أرْقَمِ ... يساورها عَضًّا بأنياب ضيْغَمِ(٢)
وإنِّيَ مَنْ كان الرجالُ بِسَيْبِهِ ... ومِنْ سَيْفِهِ في جَنَّةٍ وجهنَّمِ

وقال في يوم عيدٍ: [من البسيط]

فيما مضى كنتُ بالأعياد مسرورا ... فَصِرْتُ كالعبد في أغْمات مأسورا
قد كان دهرُكَ إنْ يأمُره ممتثلاً ... فَردَّكَ الدَّهْرُ مَنهِيًّا ومأمُورا
مَنْ بات بَعْدَكَ في مُلْكٍ يُسَرُّ به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وتعرَّض له أهل الكُدْية وهو في الحبس فقال: [من الكامل]

سألوا اليسيرَ من الأسيرِ وإنّه ... بسؤالهم لأحقُّ منهم فاعْجبِ
لولا الحياءُ وعِزَّة لخْمِيَّةٌ ... طيُّ الحشا لحكاهمُ في المطلبِ

ورثا ولديْه وقد ذُبحا بين يديْه فقال: [من الطويل]

يقولون صبرًا.. لا سبيل إلى الصَّبْرِ ... سأبكي وأبكي ما تطاول من عُمْري
أفَتْحُ.. لقد فتَّحت لي بابَ رحمةٍ ... كما بيزيدَ اللّهُ قد زاد في أجْرِي
هوًى بِكُما المقدارُ عنِّي ولم أمُتْ ... فأُدْعى وفِيًّا قد نكصتُ إلى الغدْرِ
ولو عُدْتما لاخترتما العوْدَ في الثَّرَى ... إذا أنتُما أبْصَرْتُمانِيَ في الأسْرِ
أبا خالدٍ أوْرثْتَني البثَّ خالدًا ... أبا النَّصْرِ مُذْ وَدَّعتَ وَدَّعني نصري

قال: وكان الشيخ عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس توجه من

(١) المراد بالأمتن: المتنان: وهما مكتنفا الصلب من العصب واللحم عن يمينه وشماله.
(٢) الأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها.

المغرب إلى الأندلس في سنةِ إحدى وسبعين وأربعمائة، فقصد المعتمد، وأقام عنده إلى أن خُلع، فكتب إليه المعتمد بعد أن عاد إلى المهدية: [من الطويل]

غريبٌ بأقصى المغربين أسيرُ ... يُبَكِّي عليه منبرٌ وسريرُ
أذلَّ بني ماءِ السماء زمانُهم ... وذلُّ بني ماءِ السماء كثيرُ
فما ماؤها إلا بكاءٌ عليهم ... يفيض على الآفاقِ مِنْه بحورُ

فأجابه محمد بن حمديس[1]: [من الطويل]

جرى لك جدٌّ بالكرام عَثورُ ... وجار زمانٌ كنت منه تجير
لقد أصبحتْ بيض الظُّبا في غُمودها ... إناثًا بِتركِ الضَّرْبِ وهي ذكور
ولما رحلْتُم بالنَّدى في أكُفِّكم ... وقُلْقِلَ رضوى منكمُ وثبير[2]
رفعتُ لساني بالقيامة قد دنتْ ... ألا فانظُروا كيف الجبالُ تسير؟

قال: ولما توفي المعتمد وقف ابنُ اللّبانة على قبره في يوم عيدٍ ـ والناسُ عند قبور أهاليهم ـ وأنشد بصوتٍ عال:

ملك الملوكِ أسامعٌ فأُنادِي ... أم قدْ عداك عن الجواب عوادِ
لما خلَتْ منك القصورُ ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الأعيادِ
قبَّلْتُ في هذا الثرى لك خاضعًا ... وتخِذتُ قبرك مَوْضعَ الإنشادِ

وأخذ في إتمام القصيدة، فاجتمع الناسُ كلُّهم عليه يبكون لبكائه وإنشاده. وحكى بعض المعتنين بأخبارهم أن فخر الدولة بن المعتمد على الله مَرَّ يومًا في بعض شوارع مدينة إشبيلية، فطمحت عينه إلى رَوشنٍ[3] فرأى وجهًا حسنًا فتعلَّق قلبهُ به، ولم يمكنه الوصول، فخامره الهوى ومرض من ذلك. فاتصل خبره بأبيه، فسأل عن المرأة فقيل إنها ابنةُ رجلٍ خبازٍ، فأمر الوزيرُ أن ينفذ إلى أبيها ويخطبها منه. فأرسل إليه الوزير فعلم ما يُراد به، فامتنع من الوصول إليه وقال: هو أحقُّ بالوصول إليّ في هذه الحالة!

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور... مدح المعتمد بن عباد فأحسن إليه وأجزل عطاياه، ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات سمع ابن حمديس له أبياتًا عملها المعتمد في الاعتقال، فأجابه عنها بهذه الأبيات.

(٢) يقال: بثر فلان: أي هلك.

(٣) الروشن: الشرفة.

فأعلم المقتدر بذلك فقال: تصل إليه وتخطبها. فلما وصل إليه وخطبها قال الخباز للوزير: أَلَهُ صنعةٌ؟ فقال الوزير: ابنُ المعتمد يُطْلَبُ منه صنعة وهو سلطان الأندلس؟ فقال له: أُمها طالق إن زوجتها إلا مَنْ له صناعةٌ يَسْتُر حالَه وحالها بها إن احتاج إليها.

فأعلم الوزيرُ المعتمد فقال: هذا رجل عاقل! فأمر بإحضار الصاغة إلى القصر وعلَّم فخر الدولة الصياغة وحذق فيها فلما جرى عليهم ما جرى دخل حوانيت الصاغة، وصاغ بالأُجرة فرآه ابنُ اللبّانة وهو ينفخ في بعض الحوانيت فقال: [من البسيط]

أذكى القلوبَ أسًى، أبكى العيونَ دمًا ... خَطْبٌ وُجُودُك فيه يشبه العدَما
صرَّفتَ في آلةِ الصيّاغ أُنْمَلَةً ... لم تَدْرِ إلاّ النّدى والسيفَ والقلما
يا صائغًا كانت الدنيا تُصاغُ له ... حَلْيًا وكان عليه الحَلْيُ منتظما
النَّفْخُ في الصور هَوْلٌ ما حكاه سوى ... هَوْلٌ رأيتُك فيه تَنْفُخُ الفحما

قال: ولما انقرضت الدولة العبادية صار مُلْكُ بلاد المسلمين إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب مراكش والمغرب، وسنذكر ذلك إن شاء الله في أخباره.

* * *

وأما سرقسطة والثغر الأعلى فكان ذلك بيد منذر بن يحيى إلى أن توفي وولي بعده ابنُه يحيى، ثم ولي بعده سليمان بن أحمد بن محمد بن هود الجذامي، وكان يُلقَّبُ بالمستعين، وكان من قواد منذر على مدينة لاردة، وله وقعة مشهورة مع الفرنج في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة. ثم توفي وَوَلِي بعده ابنُه أحمد المقتدر بالله، وولي بعده يوسف المؤتمن، ثم ولي بعده أحمد المستعين على لقب جدِّه، ثم ولي ابنه عماد الدولة. ثم ابنهُ أحمد المستنصر بالله، وعليه انقرضت دولتهم على رأس الخمسمائة، وصارت للملثمين.

وأما طُرْطوشة فوليها الفتى العامري.

وأما بَلنسية فكان بها المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن محمد بن المنصور بن أبي عامر، ثم انضاف إليه إلمرية، وما كان إليها. وبعده ابنهُ محمد، ودام فيها إلى أن غدَرَ به صهره المأمون بن إسماعيل بن ذي النون في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

وأما السَّهْلة فملكها عبُّود بن رَزين، وأصله بربري، ومولده بالأندلس. فلما هلك ولي بعده ابنُه عبد الملك، ثم ابنُه عِزُّ الدولةِ، ثم الملثمون.

وأما دَانِيَةُ[١] والجزائر فكانتا بيد الموفق أبي الجيش مجاهد العامري، وسار إليه من قرطبة الفقيه أبو محمد عبد الله المعيطي ومعه خلْقٌ كثير. فأقامه مجاهدٌ شِبْه خليفةٍ يصدر عن رأيه، وبايعه في جُمادى الآخرة سنة خمسٍ وأربعمائة. وأقام المعيطي معه بدانية نحوَ ثلاثةِ أشهر، ثم سار هو ومجاهد في البحر إلى الجزائر وهي ميورقة ومنورقة ويابسة[٢]. ثم بعث المعيطي بعد ذلك مجاهدًا إلى سردانية في مائةٍ وعشرين فارسًا ومعه ألف فرسٍ، ففتحها في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة وقتل بها خلْقًا كثيرًا من النصارى، وسبى. فسار إليه الفرنج والروم في آخر السنة فأخرجوه منها، فرجع إلى الأندلس فوجد المعيطي قد مات. وبقي مجاهدُ إلى أن مات، وولي بعده ابنُه عليٌّ ابن مجاهد ثم مات، فولي بعده ابنُه أبو عامر. ثم صارت دانية وسائرُ بلادِهِ إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود، في شهر رمضان سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة.

وأما مُرْسِية فوليها بنو طاهر، واستقامت رئاستُها لأبي عبد الرحمٰن المدعو بالرئيس إلى أن أخذها منه المعتمد بن عباد على يد وزيره أبي بكر بن عمّار الفهري، فلما ملكها عصى على المعتمد فيها، فوجَّه إليه عسكرًا مقدِّمهم أبو محمد عبد الرحمٰن بن رشيق العشيري فحصره. وضيّقوا عليه فهرب منها، ودخلها العشيري وملكها فعصى فيها على المعتمد بن عبّاد إلى أن دخل في طاعة الملثمين، وبقي بها إلى أن مات في سنة سبعٍ وخمسمائة.

وأما إلمرية فملكها خيران العامريّ إلى أن توفي، وملكها زهير العامري واتسع ملكه إلى شاطبة إلى ما يجاور عمل طليطلة. ودام إلى أن قتل وصارت مملكته إلى المنصور أبي الحسن بن أبي عامر صاحب بلنسية، فولّى عليها محمدًا ابنَه، فأقام بها مدةً في حياة أبيه وبعد وفاته إلى أن أخذها منه صهره ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبي. ودانت له لورقة وبيّاسه[٣] وجيّان وغيرها، إلى أن توفي في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وولي بعده ابنُه أبو يحيى محمد بن معن ـ وهو ابنُ أربع عشْرة سنة ـ فكفَّله عمه أبو عتبة بن محمد إلى أن توفي في سنةِ ستٍّ

(١) دانية: بلد في مقاطعة بلنسية.

(٢) يابسة: جزيرة نحو الأندلس في طريق من يقلع من دانية في المراكب يريد ميورقة فيلقاها قبلها، وهي كثيرة الزبيب، فيها ينشأ أكثر المراكب لجودة خشبها... (معجم البلدان).

(٣) بياسة: ياء مشددة: مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، بينها وبين أبدة فرسخان، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب... (معجم ياقوت).

وأربعين وأربعمائة. فبقي أبو يحيى مستضأًلاً لصغره، وأُخِذ ما بَعُدَ من بلاده عنه، ولم يبق له غير إلمرية وما جاورها. فلما كبر أخذ نفسه بالاشتغال بالعلوم ومكارم الأخلاق، فامتد صيته واشتهر ذكره وعظم سلطانه والتحق بأكابر الملوك. ودام بها إلى أن نازله جيشُ الملثمين فمرض في أثناء ذلك، وكان القتال تحت قصره فسمع يومًا صياحًا وجلبه فقال: يغصّ علينا كلُّ شيءٍ حتى الموت! وتوفي في مرضه ذلك لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وملك الملثمون إلمرية. ودخل أولاده وأهله في البحر إلى بجاية(١)، والتحقوا ببني حمّاد.

وأما مالقة فملكها بنو علي بن حمّود، فلم تزل في مملكة العلويين يُخطب لهم فيها بالخلافة إلى أن أخذها منهم باديس بن حبّوس صاحب غَرْناطة.

وأما أغَرْناطة فملكها حيوس بن ماكسني الصنهاجي، ثم مات في سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولي بعده ابنه باديس إلى أن توفي وولي بعده ابنُ أخيه عبد الله بن بُلَكِّين. وبقي إلى أن ملكها منه الملثمون في شهر رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

وانقرضت جميع هذه الدول، وصارت الأندلس جميعها للملثمين على ما نذكره إن شاء اللّهُ عَزَّ وجل في أخبارهم أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. ولما كانت جزيرة الأندلس بيد هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم، كانوا يُسَمَّوْن بملوك الطوائف وبسبب انفرادِ كلِّ ملكٍ منهم بجهةٍ استولى الفرنج على طليطلة كما ذكرنا.

تمّ الجزء الثالث والعشرون، ويليه الجزء الرابع والعشرون،
وأوله: الباب السادس من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومن وليها من العمال
ومن استقلّ منهم بالملك وسُمّيت أيامهم بالدولة الفلانية

---

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، وهي في لحف جبل شاهق.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الرابع والعشرون

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

الباب السادس
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومَن وَليها من العمال، ومَن استقل منهم بالمُلك وسُميت أيامُهم بالدولة الفُلانية

قد ذكرنا فتوح إفريقية في خلافة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، في سنة ست وعشرين من الهجرة النبوية. وأوردنا ذلك هناك على سبيل الاختصار والإجمال. ونحن الآن نذكره في هذا الباب مبينًا.

ولم نقدم ذكر أخبار المغرب وملوكه على أخبار ملوك المشرق، إلا أنا لما ذكرنا أخبار الدولة الأموية بالأندلس ومن ملك الأندلس بعد بني أمية، احتجنا إلى ذكر إفريقية وبلاد المغرب، لتكون الأخبار يتلو بعضها بعضًا. ولم نقدم أيضًا ذكر الأندلس على إفريقية، مع كون إفريقية فتحت قبل الأندلس إلا للضرورة التي دعت إلى ذكر أخبار الدولة الأموية بالأندلس تلو الدولة العباسية. ولا ضرر في التقديم والتأخير، لأنا لم نجعل التاريخ على حكم مساق السنين بل على الدول. وأول دولة قامت على الدولة العباسية الدولة الأموية بالأندلس. ولنذكر الآن فتوح إفريقية، ومن وليها.

ذكر فتوح إفريقية

كان فتوحها في سنة سبع وعشرين، وذلك أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ لما ولي الخلافة عزل عمرو بن العاص عن مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن

أبي سرْح، وهو أخو عثمان لأمه. فكان عبد الله يبعث المسلمين في جَرائد الخيل[١] فيُصيبون من إفريقيَّة. ويكتب بذلك إلى عثمان.

فلما أراد عثمان أن يُغزِي إفريقية استشار الصحابة، فكلُّهم أشار عليه بإنفاذ الجيش إليها إلا أبا الأعور سعيد بن أبي يزيد فإنه كره ذلك. فقال له عثمان: «ما كرهت يا أبا الأعور من بعثة الجيش؟» قال: «سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا أُغزِيها أحدًا من المسلمين ما حَمَلَت عيني الماء ولا أرى لك خلاف عمر» وقام. ثم دعا عثمان زيد بن ثابت ومحمد بن مَسْلمة واستشارهما. فأشارا بإنفاذ الجيش.

فَندَب الناس إلى الغزو. فكان هذا الجيش يسمّى جيش العَبادِلة[٢]. خرج فيه من بني هاشم: عبد الله بن عباس وكان واليًا على المسلمينَ وعبيد الله بن عباس؛ ومن بني تَيْم: عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وعبد الرحمٰن بن صبيحة في عِدَّةٍ من قومه، ومن بني عَدِي: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، وعبيد الله بن عمر، وعاصم بن عمر في عدة منهم؛ ومن بني أسد بن عبد العُزّى: عبد الله بن الزُّبير في عدة من قومه؛ ومن بني سَهْم: عبد الله بن عمرو بن العاص والمُطَّلب بن السَّائب أبي وَداعة، في عدة منهم. وخرج في الجيش مَرْوان بن الحَكم، وأخوه الحارث، وجماعة من بني أُميَّة، والمِسْوَر بن مَخْرَمة بن نَوْفَل، وعبد الرحمٰن بن الأسْود بن عبد يَغُوث، وعدة من بني زُهرة؛ ومن بني عامر بن لُؤي بن غالب: السائب بن عامر بن هشام، وبُسْر بن أرْطاة؛ وعدة من بني هُذَيل، منهم أبو ذُؤَيب. خُوَيْلد بن خالد الهُذَلي - وتوفي بإفريقية وواراه في قبره عبدُ الله بن الزبير - وعبد الله بن أُنَيس وأبو ذَر الغِفاري، والمقْداد بن عمرو البَهْراني، وبلال بن الحارث المُزَني، وعاصم، ومعاوية بن حُدَيج، وفَضالة بن عُبَيد، ورُوَيفع بن ثابت، وجَرْهَد بن خُوَيلد، وأبو زمْعَة البلوي، والمُسَيَّب بن حَزْن، وجَبَلة بن عمرو الساعِدي، وزياد بن الحارث الصُّدائِي، وسفيان بن وَهْب، وقيس بن يَسَار بن مَسْلمة، وزُهير بن قيس، وعبد الرحمٰن بن صَخْر، وعمرو بن عوف، وعُقْبة بن نافع الفِهْري. وخرج من جُهَينة ستمائة رجل، ومِن أسْلَم حمزة بن عمرو الأسْلَمي، وسَلَمة بن الأكْوع في ثلاثمائة رجل، ومِن مُزَيْنة

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها؛ جمع جرائد.
(٢) سمي الجيش بهذا الاسم لكثرة من خرج فيه ممن يسمى عبد الله.

ثمانمائة رجل، ومِن بني سُليم أربعمائة رجل، ومِن بني الدِّيل وضَمْرة وغِفار خمسمائة رجل، ومِن غَطَفان وأشْجع وفزارة سبعمائة رجل، ومِن كعب بن عمرو أربعمائة رجل، وكانوا آخر من قدم على عثمان، والناس مُعرِّسون[١] بالجُرف[٢]، والجرفُ على ثلاثة أميال من المدينة.

وأعان عثمان الجيش بألف بعير من ماله، فحمل عليها ضعفاء الناس، وحَمَل على خيْل، وفرق السلاح، وأمر للناس بأعطياتهم. وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين.

وخطب عثمان الناس ورغّبهم في الجهاد. وقال لهم: «قد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدّموا على عبد الله بن سعد، فيكون الأمر إليه. واستودعتكم الله» وساروا حتى أتوا مصر.

فجمع عبد الله بن سعد جيشًا عَرمْرَمًا، وضمه إليه. فبلغ عسكر المسلمين عشرين ألفًا. واستخلف على مصر عُقْبة بن نافع، وتَوجَّه.

وحكى الزُّهْري[٣] عن ربيعة بن عباد الدِّيلي قال: لما وصلنا قَدَّم عبد الله الطّلائع والمقدمات أمامه. وكنت أنا أكثر ما أكون في الطلائع. فوالله إنا لبِطَرابُلُس قد أصبنا من بها من الروم قد تحصنوا منا فحاصرناهم، ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه، فأمر الناس بالرحيل. فنحن على ذلك إذا مراكب قد أرست إلى الساحل فشددنا عليها، فترامى مَن بها إلى الماء. فأقاموا ساعة ثم استأسَرُوا فكتفناهم، وكانوا مائة. حتى لحق بنا عبد الله فضرب أعناقهم، وأخذنا ما في السفن. فكانت هذه أول غنيمة أصبناها.

ومضى حتى نزل بمدينة قابِس[٤] فحاصرناها. فأشار عليه الصحابة أن لا يشتغل

---

(١) معرسون: أي مقيمون.

(٢) الجرف: بالضم ثم السكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة... والجرف أيضًا: موضع بالحيرة كانت به منازل المنذر... والجرف أيضًا: موضع قرب مكة كانت به وقعة بين هذيل وسليم. والجرف أيضًا: من نواحي اليمامة... والجرف: موضع باليمن... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة... كانت وفاته سنة ١٢٤هـ... (وفيات الأعيان ٤: ١٧٧).

(٤) قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر فيها نخل وبساتين غربي طرابلس الغرب... (معجم ياقوت).

بها عن إفريقية، فسار وبثَّ السرايا في كل وجه. وكان يُؤْتَى بالبقر والشاء والعَلف. قال: وكان ملكهم يُدعَى جُرْجير، وسلطانه من طرابلس إلى طنجة وولايته من قِبَل هرقل. فلما بلغه الخبر بورود الجيوش الإسلامية، جمع وتأهب للِّقاء، فبلغ عسكره عشرين ومائة ألف.

قال: ثم ذهبنا قاصدين عسكره على تعبئة، فأقمنا أيامًا تجرى بيننا وبينهم الرسل: ندعوه إلى الإسلام، وهو يستطيل ويتجبر وقال: «لا أقبل هذا أبدًا» فقلنا له «فخراجٌ تخرجه كل عام». فقال: «لو سألتموني درهمًا واحدًا لم أفعل» فتأهبنا للقتال بعد الإعْذار(١) منا. فعبأ عبد الله بن سعد ميمنته وميسرته والقلب، وفعل ملك الروم مثل ذلك. وتلاقى الجمعان في فَحْص(٢) متسع يسمى بعقوبة، بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلة، وهي المدينة المساة سُبَيْطلَة(٣)، وكذلك مدينة قرْطاجنّة، وهي مدينة عظيمة، شامخة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض، وفيها العمُد والرخام الملون ما لا يُحصَى.

قال: ودامت الحرب بين الفريقين وطالت، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان. فأنفذ عبد الله بن الزبير وصحبته اثنا عشر فارسًا من قومه. فسار يُجِد السير حتى قدم على المسلمين فوصل ليلاً. فسُروا به ووقع في العسكر ضجة، خافت الروم منها، وظنوا أنهم يحملون عليهم، فباتوا بشر ليلة. وأرسل ملكهم جاسوسًا يستعلم الخبر. فأعلمه أن نجدةً وصلت إلى المسلمين. وكان المسلمون يقاتلون الروم في كل يوم إلى الظهر، ثم ترجع كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها. فلما أصبح عبد الله بن الزبير، صلّى الصبح وزحف مع المسلمين وقاتل. فلقي الروم في يومهم أشد نكال. ولم ير ابن الزبير عبد الله بن سعد في الحرب فسأل عنه. فقالوا: «هو في خبائه وله أيام ما خرج منه» ولم يكُنْ ابن الزبير اجتمع به، فمضى إليه، وسلّم عليه، وبلغه وصية عثمان وسأله عن سبب تأخره. فقال: «إن ملك الروم أمر مناديًا فنادى باللغة الرومية والعربية: معاشر الروم والمسلمين: مَن قتل عبد الله بن سعد زَوَّجتهُ ابنتي، ووهبت له مائة ألف دينار» وكانت ابنته بارعة الجمال، تركب معه في الحرب، وعليها أفخر ثياب، وتحمل على رأسها مظلة من ريش الطاووس «وغير خافٍ عنك

---

(١) الإعذار: أي الإنذار.

(٢) الفحص: المتّسع من الأرض.

(٣) سبيطلة: بضم أوله، وفتح ثانيه، وياء مثناة من تحت، وطاء مكسورة، ولام: مدينة من مدن إفريقية، وهي كما يزعمون مدينة جرجير الملك الرومي، وبينها وبين القيروان سبعون ميلاً... (معجم البلدان).

مَنْ معي، وأكثرُهم حديثو عهد بالإسلام، ولا آمَن أن يرغِّبَهم ما بذل لهم جرجير فيقتلوني، فهذا سبب تأخري». فقال له ابن الزبير: «أزِلْ هذا من نفسك، وَأمُرْ من ينادي في عسكرك ويُسمع الروم: معاشر المسلمين والروم: مَن قتل الملك فله ابنته ومائة ألف دينار، وواحدة بواحدة». ففعل ذلك. فلما سمع ملك الروم النداء، انتقل ما كان عبد الله يجده من الخوف إليه. وبقي القتال على ما كان عليه.

فَعَنَّ لعبد الله بن الزبير رأيٌ. فأتى عبد الله بن سعد ليلاً وقال له: «إني فَكَّرتُ فيما نحن فيه فرأيتُ أمرًا يطول والقوم في بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا. وقد اتصل بي أنه نَفَّذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع. وقد رأيت أصحابه إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم، وكذلك المسلمون، جريًا على العادة. والرأي عندي أن تترك غدًا إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعُدَدهم، وتقاتل ببقايا الناس على العادة، وتطوِّل في القتال حتى تتعب القوم. فإذا انصرفوا ورجع كلٌّ إلى مضربه وأزال لأمة[1] حَرْبه، يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة. فعسى الله سبحانه أن يُظفرنا بهم وينصرنا عليهم، وما النصر إلا من عند الله». فلما سمع عبد الله بن سعد ذلك، أحضر عبد الله بن عباس وإخوته والصحابة ورؤوس القبائل، وعرض عليهم ما أشار به ابن الزبير فاستَصْوبوا رأيه واستخاروا الله. وكتموا أمرهم وباتوا على تعبئة. ولجئوا إلى الله تعالى وسمحوا بنفوسهم في إعزاز دين الله وإظهار كلمته.

وأصبح أبطال الإسلام في خيامهم، وخيولهم قائمة معهم في الخيام. وخرج لفيف الناس إلى القتال، ومعهم عبد الله بن سعد وابن الزبير، فقاتلوا أشد قتال وكان يومًا حارًّا فلقي الفريقان فيه التعب العظيم. وركب ملك الروم ومعه الصليب، وكان مُتوّجًا عندهم، عظيم القدر فيهم. وحرّض أصحابه على القتال. فاشتد الأمر في القتال حتى أذَّن الظهر فهمّ الروم بالانصراف جريًا على العادة. فداوم ابن الزبير القتال ساعة أخرى. فاشتد الحر وعَظُم الخَطْب حتى لم يبق لأحدٍ من الفريقين طاقة بحمل السلاح فضلاً عن القتال به. فعند ذلك رجعوا إلى خيامهم، ووضعوا أسلحتهم، وسيَّبوا خيولهم وألقوا أنفسهم على فُرُشهم.

فاستنهض عبد الله أبطال المسلمين. فلبسوا دروعهم وركبوا خيولهم في خيامهم. وتقدّم عبد الله بن الزبير في زي رسول، وقد لبس ثوبًا فوق درعه. وقال:

---

(١) اللأمة: الدرع الحصينة؛ أو هي عدة السلاح من رمح وخوذة وسيف ونبل.

«إذا رأيتموني قد قربت من خيام الروم فاحملوا حملة رجل واحد». فلما قَربَ من الخيام كبّر المسلمون وهلّلوا، وحملوا فأعجَلُوا الروم عن لبس دروعهم أو ركوب خيولهم. فانهزمت الروم، وقُتل ملكهم، وقتل منهم ما لا يُحصى كثرة وهرب من سلم منهم إلى المدينة، وغنم المسلمون ما في معسكرهم. وأُسرت ابنة الملك وأُتي بها إلى عبد الله بن سعد فسألها عن أبيها. قالت: «قُتل» قال: «أتعرفين قاتله؟» قالت: «نعم، إذا رأيته عرفته» وكان كثير من المسلمين ادّعوا قتله. فعرض عليها مَن ادّعى قتله فقالت: «ما من هؤلاء مَنْ قتله» فأحضر ابن الزبير، فلما أقبل قالت: «هذا قاتل أبي» فقال له ابن سعد: «ما منعك أن تُعلمنا بذلك لنفي لك بما شرطناه؟» فقال: «أصْلحك الله! ما قتلتُه لما شرطت، والذي قتلته له يعلم ويُجازي عليه أفضل من جزائك، ولا حاجة لي في غير ذلك» فنفَّله[١] ابن سعد ابنة الملك، فيقال إن ابن الزبير اتخذها أُم وَلد.

ثم نزل المسلمون على المدينة، وحاصروها حصارًا شديدًا حتى فتحها الله عليهم. فأصابوا فيها خلقًا كثيرًا، وأكثر أموالهم الذهب والفضة. فجمع عبد الله بن سعد الغنائم وقسمها بد أن خَمَسها. فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

وبثّ السرايا والغارات من مدينة سُبَيطلة فبلغت خيوله إلى قصور قَفْصة. فَسَبَوْا وغنموا، وجازوا إلى مرْمَجَنّة[٢]. فأذلت تلك الوقعة من بقي من الروم. وأصابهم رعب شديد فلجأوا إلى الحصون والقلاع. واجتمع أكثرهم بفحص الأجم حول الحصن، وهو من أعظم حصون إفريقية. وراسلوا عبد الله بن سعد أن يأْخذ منهم ثلاثمائة قنطارٍ ذهبًا على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم. فقبل ذلك منهم بعد امتناع. وقيل: إنه صالحهم على ألفي ألف وخمسمائة ألف. وقبض المال. وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد التّرْداد[٣] ردوه عليهم.

ودعا عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير وقال: «ما أحدٌ أحقّ بالبشارة منك، فامض وبَشِّر عثمان والمسلمين بما أفاء الله تعالى عليهم». فتوجه عبد الله يُجِدُّ

---

(١) نفّله: أعطاه زيادة على نصيبه الواجب له.

(٢) في معجم البلدان لياقوت: مرماجنة: بالفتح ثم السكون، وبعد الألف جيم ونون مشددة: قرية بإفريقية لهوارة قبيلة من البربر؛ قيل: بين مرماجنة والأربس مرحلة...

(٣) الترداد: المفاوضة.

المسير. فبعض الناس يقول: دخل المدينة من سبيطلة في عشرين ليلة، وبعضهم يقول: وافى المدينة يوم أربعة وعشرين، ولا يُستغرَب ذلك من مثله. فلما وصل المدينة أمره عثمان أن يصعد المنبر فيُعلم الناس بما فتح الله عليهم. فبلغ الزبير. فجاء إلى المسجد ونال من عثمان بكلمات، وقال: «بلغ من عبد الله بن الزبير أن يرقى موضعًا كان رسول الله ﷺ يطأه بقدمه! وددتُ والله أنّي متُّ قبل هذا»! وقيل: إنّ عبد الله لم يَرْقَ المنبر، وإنما وقف بإزائه وخطب، وعثمان على المنبر جالسًا.

قال: وكان فعْل عبد الله بن الزبير في القتال بإفريقية كفعل خالد بن الوليد بالشام، وعمرو بن العاص بمصر، رضي الله عنهم أجمعين.

قال: ثم انصرف عبد الله بن سعد إلى مصر إثر سفر ابن الزبير. قال: وكان مقام الجيش بإفريقية خمسة عشر شهرًا، ولم يفقد من المسلمين إلا ناس قلائل. ثم كان بعد ذلك من مقتل عثمان وخلاف عليٍّ ومعاوية ما قدمنا ذكره، إلى أنْ استقرّ أمر معاوية فاستعمل معاويةَ بن حُدَيج.

ذكر ولاية معاوية بن حديج الكندي وفتح إفريقية ثانيًا

كانت ولايته في سنة خمس وأربعين من الهجرة. وسبب ذلك أن هرقل صاحب القسطنطينية كان يُؤدَّى إليه من كل ملك من ملوك البر والبحر إتاوة معلومة في كل سنة. فلما بلغه ما صالح عليه أهل إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سرْح، بعث بطريقًا إلى إفريقية يُقال له «أوليمة» وأمره أن يأْخذ من أهلها ثلاثمائة قنطار ذهبًا كما أخذ منهم ابن أبي سرح. فنزل البطريق قَرْطاجَنَّة(١) وأخبرهم بأمر الملك. فأبوا عليه ونابَذوه(٢) وقالوا: «الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا، والملك فهو سيدنا يأخذ منا كما كنا نعطيه في كل سنة». وكان القائم بأمر إفريقية بعد جرجير رجل يُقال له «جُناحَة»، فطرد أوليمة البطريق.

ثم اجتمع أهل إفريقية وولّوا على أنفسهم رجلًا يُقال له «الأطريون» وقيل فيه: «الأطيلون» فسار جناحة إلى الشام إلى معاوية بن أبي سفيان. فذكر له حال إفريقية

---

(١) قرطاجنّة: بالفتح ثم السكون، وطاء مهملة، وجيم، ونون مشددة: بلد قديم من نواحي إفريقية.. وهي على ساحل البحر، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلًا... (معجم ياقوت).

(٢) نابذوه: أي فارقوه عن خلاف وبغض.

وسأله أن يبعث معه جيشًا من العرب. فوجه معه معاوية بن حُديج في جيش كثيف. فلما انتهى إلى الإسكندرية هلك جناحة.

ومضى ابن حديج حتى انتهى إلى إفريقية، وهي حَرْب، وقد صارت نارًا. وكان في عسكره عبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحَكم، وكُرَيب بن إبراهيم بن الصباح، وخالد بن ثابت الفَهْمي. وقيل: كان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وأشراف من جند الشام ومصر. فقدم ولا يشك أهل إفريقية أن جناحة معه. فنزل معاوية غربي قَمُونيَة[١] في سفح جبل على عدة فراسخ منها. فأصابه فيه نَوْءٌ[٢] شديد فقال: «إن جبلنا هذا لَمَمْطور» فسُمِّي الجبل ممطورًا إلى اليوم. ثم قال: «اذهبوا بنا إلى ذلك القرن» فسمي أيضًا القرن[٢].

وبعث ملك الروم بطريقًا يقال له نِجْفُور في ثلاثين ألف مقاتل. فنزل على ساحل البحر بسَنْطَبَرِيَّة. فبعث ابن حديج إليه خيلًا. فقاتلوه فانهزم وأقلع في البحر.

وقاتل معاوية أهل جَلُولاء[٣] على باب المدينة. فكان يقاتلهم صدر النهار، فإذا مال الفَيْء[٤] انصرف إلى معسكره بالقرن. فقاتلهم ذات يوم. فلما انصرف نسي عبد الملك بن مروان قوسًا له معلقة بشجرة. فانصرف ليأخذها، وإذا جانب المدينة قد انهدم. فصاح في أثر الناس فرجعوا. وكانت بينهم حرب شديدة وقتال عظيم حتى دخلوا المدينة عنوة، واحتووا على جميع ما فيها، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية. وقيل: بل كان معاوية بن حديج مقيمًا بالقرن وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء، في ألف فارس. فحاصرها أيامًا فلم يظفرْ بها. وانصرف الناس منكسرين فلم يسر إلا يسيرًا حتى رأى في ساقة الناس غبارًا كثيرًا، فظنوا أن العدو قد اتبعهم. فرجعوا فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها من جهة واحدة. فانصرف المسلمون إليها فقتلوا من فيها وغنموا وسبوا. وانصرف عبد الملك إلى معاوية وهو معسكر بالقرن

---

(١) قمونية: بالفتح، وبعد الواو نون ثم ياء مخففة: مدينة بإفريقية... وقد قال بعضهم: إن قمونية هي المدينة المعروفة بسوس المغرب... (معجم البلدان).

(٢) القرن: أعلى الجبل.

(٣) جلولاء: بالمدّ: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا.. وجلولاء أيضًا: مدينة مشهورة بإفريقية، بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً، وبها آثار وأبراج من أبنية الأول، وهي مدينة قديمة أزلية مبنية بالصخر... (معجم البلدان).

(٤) الفيء: الظل.

ينتظره. فلما أتاه بالغنائم اختلفوا فيها. فقال عبد الملك: «هي لأصحابي خاصة». وقال ابن حديج: «بل لجماعة المسلمين». وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان. فعاد جوابه: «العسكر رِدءُ[1] السَّرية، فأقسم بين الناس جميعهم» فوقع سهم الفارس ثلاثمائة دينار.

قال البلاذري[2]: أول من غزا صقلية معاوية بن حديج، بعث إليها عبد الله بن قيس، وسنذكر ذلك في أخبارها إن شاء الله تعالى.

قال: ثم انصرف معاوية بن حديج إلى مصر. فأقره معاوية بن أبي سفيان عليها، وعزله عن إفريقية، وأفردها عن مصر، واستعمل عليها من قِبله.

ذكر ولاية عقبة بن نافع الفهري
وفتح إفريقية الفتح الثالث وبناء القيروان

قال: ثم أرسل معاوية بن أبي سفيان عُقْبَة بن نافع إلى إفريقية في سنة خمسين، وكان مقيمًا ببَرْقَة وزَوِيلة[3] من أيام عمرو بن العاص فجمع من أسلم من البربر وضمه إلى الجيش الوارد عليه. وكان جملة الجيش الوارد من معاوية عشرة آلاف فارس من المسلمين. فسار عقبة إلى إفريقية فافتتحها، ووضع السيف حتى أفنى مَن بها من النصارى.

ثم قال: «إن إفريقية إذا دخلها إمام تَحَرَّموا بالإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم منهم وارتد إلى الكفر. وأرى لكم - يا معشر المسلمين - أن تتخذوا بها مدينة نجعل بها عسكرًا وتكون عزَّ الإسلام إلى آخر الدهر» فأجابه الناس إلى ذلك.

---

(١) الرّدء: العيون.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري، أديب، شاعر، مؤرخ من أهل بغداد، سمع بدمشق، وبأنطاكية، وكان أحد النقلة من الفارسية إلى العربية، له من الكتب: كتاب البلدان الصغير، كتاب البلدان الكبير، التاريخ في أنساب الأشراف وأخبارهم وفتوح البلدان، وغيرها... وكانت وفاته سنة ٢٧٩ هجرية... (معجم المؤلفين - كحالة ٢: ٢٠١).

(٣) زويلة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام: بلدان. أحدهما زويلة السودان مقابل إجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية.. وزويلة: مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان، وفيها جامع وحمام وأسواق... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر بناء مدينة القيروان

قال المؤرخون: لما أراد عُقْبة بن نافع بناء مدينة القيروان وأجابه المسلمون إلى ذلك، أتى بهم إلى موضعها، وهو إذ ذاك شَعَارى[(١)] لا تُسلَك وقال: «شأْنكم» فقالوا له: «إنك أمرتنا بالبناء في شعارى وغياض لا تسلك ولا تُرام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من خَشاش[(٢)] الأرض». وكان عقبة مستجاب الدعوة، فدعا الله عزّ وجل. وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائه. وكان في عسكره ثمانية عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فجمعهم ونادى: «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنّا إنا نازلون. ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها، والذئاب تحمل أجْراءها، والحيات تحمل أولادها. فأسلم كثيرٌ من البربر. ونادى عقبة في الناس «كُفُّوا عنهم حتى يرتحلوا عنا» فلما خرج ما فيها من ذلك، جمع عقبة وجوه أصحابه ودار بهم حول المكان وأقبل يدعو الله ويقول: «اللهم املأها علمًا وفقهًا، واغْمُرْها بالمطيعين والعابدين، وامنعها من جبابرة الأرض» ثم نزل عقبة الوادي. وأمر الناس أن يختطوا ويقلعوا الشجر. قال: فأقام أهل إفريقية بعد ذلك أربعين سنة لا يرون بها حية ولا عقربًا.

قال: واختطّ دار الإمارة والمسجد الأعظم، ولم يُحدث فيه بناء، وكان يصلّى فيه وهو كذلك. فاختلف الناس في القِبْلة وقالوا: «إن أهل الغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فاجهد نفسك في أمرها» فأقاموا مدة ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس. فلما رأى عقبة الاختلاف اهتم لذلك وسأل الله تعالى، فأتاه آت في منامه فقال له: «يا وليَّ رب العالمين، إذا أصبحت فخُذ اللواء واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعه غيرك. فالموضع الذي ينقطع عنك التكبير فهو قبلتك ومحرابه مسجدك. وقد رضي الله عزّ وجل أمر هذه المدينة وهذا المسجد. وسوف يعزّ بها دينه ويُذل بها من كفره إلى آخر الدهر». فاستيقظ من منامه وقد جزع جزعًا شديدًا. فتوضأ وأخذ في الصلاة في المسجد وهو لم يُبْنَ بعد، ومعه أشراف الناس. فلما طلع الفجر وركع عقبة سمع التكبير بين يديه. فقال لمن حوله: «ألا تسمعون؟» قالوا: «لا نسمع شيئًا» فقال: «إن الأمر من عند الله عزّ وجل» وأخذ اللواء ووضع على عاتقه. وأقبل يتتبع التكبير بين يديه حتى انتهى إلى

(١) شعارى: واحدتها شعراء، وهي الأجمة. (٢) الخشاش: الحشرات والأفاعي.

محراب المسجد. فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: «هذا محرابكم». ثم أخذ الناس في بنيان الدور والمساكن والمساجد فعُمرت. وكان دَوْرها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع. فكملت في سنة خمس وخمسين. وسكنها الناس وعظم قدرها. وكان في موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمّى قَمُونيَة.

قال: ودبر عقبة أمر إفريقية أحسن تدبير إلى أنْ عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حُديج عن مصر وولى مَسْلمة بن مُخلَّد الأنصاري مصر وإفريقية.

ذكر ولاية مسلمة بن مخلد

قال: ولما وصل مسلمة إلى مصر، استعمل على إفريقية مولًى له يُقال له دينارًا ويُكنى أبا المُهاجر، وذلك في سنة خمس وخمسين، وعزل عقبة. فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذي اختطه عقبة، فنزل عنه بمسافة ميلين. واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ويفسد ما عمله عقبة. فسماها البربر تيكيروان. فأخذ في عمارتها. وأمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته.

وتوجه عقبة مغضَبًا إلى معاوية بن أبي سفيان. فقال له: «إني فتحت البلاد، ودانت لي، وبَنَيتُ المساجد، واتخذت المنازل، وأسكنتُ الناس. ثم أرسلتَ عبد الأنصار فأساء عزلي» فاعتذر إليه معاوية وقال: «قد رددتُك إلى عملك واليًا» وتراخى الأمر حتى توفي معاوية وولي يزيد ابنُه. فلما علم حال عقبة غضب وقال: «أدركْها قبل أن تهلك وتفسد» ورده واليًا على إفريقية.

ذكر ولاية عقبة بن نافع ثانية

قال: وكانت ولايته في سنة اثنتين وستين، فسار من الشام. فلما مر على مصر، ركب إليه مَسْلَمة بن مُخَلد وسلم عليه، واعتذر من فعل أبي المهاجر، وأقسم بالله لقد خالفه فيما صنع. فقبل عقبة عذره. ومضى مسرعًا حتى قدم إفريقية. فأوثق أبا المهاجر في الحديد، وأمر بخراب مدينته، ورد الناس إلى القيروان.

ثم عزم على الغزو وترك بالقيروان جندًا وعليهم زهير بن قيس ودعا أولاده فقال لهم: «إني بعتُ نفسي من الله تعالى بيعًا مربحًا أن أجاهد مَن كفر حتى ألحق بالله. ولست أدري أترونني بعدها أو أراكم، لأن أملي الموت في سبيل الله» ثم قال: «عليكم سلام الله، اللهم تقبل مني نفسي في رضاك».

ومضى في عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية[١]، وقاتل أهلها قتالاً شديدًا، وأخذ لهم خيلاً لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها. ودخل الروم حصنهم.

فكره عقبة أن يقيم عليه. فمضى إلى لميش، وهي من أعظم مدن الروم. فلجأ إليها من كان حولها منهم. وخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديدًا حتى ظن الناس أنه الفناء. فهزمهم وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة.

وكره المقام عليها فرحل إلى بلاد الزاب. فسأل عن أعظم مدائنهم قَدْرًا فقالوا: مدينة يقال لها أزبة[٢] فيها الملك، وهي مجمع ملوك الزاب، وحولها ثلاثمائة قرية وستون قرية كلها عامرة. فلما بلغهم أمره لجئوا إلى حصنهم، وهرب بعضهم إلى الجبال والوعر. فنزل عليها وقت المساء. فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حروب حتى يئس المسلمون من الحياة. فأعطاه الله الظفر. فانهزم القوم وقُتل أكثر فرسان الروم. وذهب عزّهم من الزاب وذلوا آخر الدهر.

ورحل حتى نزل تاهَرْت[٣] فلما بلغ الروم خبره، استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم. فقام عقبة وخطب الناس وحرضهم على القتال والتقوا واقتتلوا فلم يكُن للروم والبربر طاقة بقتالهم. فقتلهم قتلاً ذريعًا وفرق جموع الروم عن المدينة.

ثم رحل حتى نزل طنْجَة. فلقيه رجل من الروم يقال له إيليان وكان شريفًا في قومه. فأهدى إليه هدية حسنة ولاطفَه ونزل على حكمه. فسأله عن بحر الأندلس. فقال: «إنه محفوظ لا يُرام» فقال: «دُلني على رجال البربر والروم» فقال: «قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر. وفرسانهم في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى وهم أنْجاد البربر وفرسانهم» فقال عقبة: «فأين موضعهم؟» قال: «في السوس الأدنى[٤]»، وهم قومٌ ليس لهم دين، يأكلون المَيْتة، ويشربون الدم من أنعامهم. وهم أمثال

---

(١) باغاية: الغين معجمة، وألف، وباء: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينية الهواء.

(٢) أربة: بالتحريك والباء الموحدة: اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب، وهي أكبر مدينة بالزاب، يقال إن حولها ثلاثمائة وستين قرية. . . (معجم البلدان).

(٣) تاهرت: بفتح الهاء، وسكون الراء، وتاء فوقها نقطتان: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة بينها وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد. . . (معجم ياقوت).

(٤) السوس: بلد بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية، وقيل: السوس بالمغرب كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصى: كورة أخرى مدينتها طرقلة، ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده بحر الرمل وليس وراء ذلك شيء يعرف. . . (معجم البلدان).

البهائم، يكفرون بالله ولا يعرفونه» فقال عقبة لأصحابه: «ارحلوا على بركة الله». فرحل من طنجة إلى السُّوس الأدنى، وهو في جنوب مدينة طنجة التي تُسَمى تارودَانت. فانتهى إلى أوائلهم فقتلهم قتلاً ذريعًا. وهرب من بقي منهم، وتفرقت خيله في طلبهم.

ومضى حتى دخل السُّوس الأقصى فاجتمع البربر في عددٍ كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى. فقاتلهم قتالاً لم يُسمَع بمثله. فقتل خلقًا كثيرًا منهم. وأصاب نساءً لم يرَ الناسُ مثلهن. فقيل: إن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر وأقل.

وسار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد ولا يقوم له. فدخل فيه حتى بلغ الماء لبَان[١] فرسه. ورفع يده إلى السماء وقال: «يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد إلى ملك ذي القَرْنين مدافعًا عن دينك، ومقاتلاً مَن كفر بك وعَبَد غيرك».

ثم قال لأصحابه: «انصرفوا على بركة الله وعونه» فخلا الناس عن طريق عساكره هاربين. وخاف المشركون منه أشد مخافة. وانصرف إلى إفريقية. فلما انتهى إلى ماء اسمه اليوم ماء فرس ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش أشْفى منه عقبة ومَن معه على الموت. فصلّى ركعتين ودعا الله عزّ وجل. فجعل فرسه يبحث الأرض بيديه حتى كشف عن صفاةٍ[٢]. فانفجر منها الماء. وجعل الفرس يمصّ ذلك الماء فنادى عقبة في الناس أنْ احتفروا فحفروا سبعين حَسا[٣] فشربوا وأسْقَوا فسمّي ماء فرس.

وسار حتى انتهى إلى مدينة طُبْنَة، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام. فأمر أصحابه أنْ يتقدموا فوجًا بعد فوج إلى إفريقية ثقةً منه بما دَوخ من البلاد، وأنه لم يبقَ أحدٌ يخشاه. وسار يريد تَهُوذة[٤] لينظر إليها وإلى بادس[٥]، ويعرف ما يسدهما من الفرسان، فيترك فيهما بقدر الحاجة. فلما نظر الروم إلى قلّة ما معه، طمعوا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه، وشتموه، ورموه بالنبْل والحجارة، وهو يدعوهم إلى الله عزّ وجل. فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كَسيلة بن بهْرم الأوْرَبي وكان في عسكر عقبة.

---

(١) لبان الفرس: صدره. (٢) الصفاة: الحجر الصلد الضخم.

(٣) الحسا: الرمل المتراكم أسفله جبل صلد فإذا مطر الرمل تسرب الماء إلى أسفل فيمسكه الجبل، فإذ حفرت قليلاً بزغ الماء.

(٤) تهوذة: بالفتح ثم الضم، وسكون الواو، والذال معجمة: اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية، لهم أرض تعرف بهم.

(٥) بادس: اسم لموضعين بالمغرب: بادس فاس.. وبادس الزاب... (معجم البلدان).

ذكر خروج كسيلة وقتل عقبة بن نافع واستيلائه على القيروان

كان كَسيلة هذا من أكابر البربر. وكان قد أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه. وقدم عقبة فعرّفه أبو المهاجر بحال كسيلة وعظمه في البربر وانقيادهم إليه. فلم يعبأ به عقبة واستخف به وأهانه. فكان من إهانته له أنه أتى بغنم فأمر بذبحها، وأمر كَسيلة أن يسلخ منها شاة. فقال: «أصلح الله الأمير! هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة» فسبّه عقبة وأمره بالقيام. فقام مغضَبًا وذبح الشاة. وجعل يمسح لحيته بما على يديه من دمها. فجعلت العرب يمرون به ويقولون له: «يا بربري، ما هذا الذي تصنع؟» فيقول: «هذا جيد للشعر» حتى مر به شيخ من العرب فقال: «كلا، إن البربري يتواعدكم» فقال أبو المهاجر لعقبة: «ما صنعت؟ أتيت إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه، وهو قريب عهد بالشِّرك، فأفسدت قلبه. أرى أنْ تُوثقَه كتافًا، فإني أخاف عليك من فتكه» فتهاون به عقبة.

فلما رأى كسيلةُ الرومَ قد راسلوه ورأى فرصة، وثب وقام في بني عمه وأهله ومَن اجتمع إليه من الروم. فقال أبو المهاجر لعقبة: «عاجِلْه قبل أن يجتمع أمره» وأبو المهاجر مع ذلك كله صحبة عقبة وهو في الحديد. فزحف عقبة إلى كَسيلة فتنحى عنه. فقال البربر له: «لِمَ تنحيت من بين يديه ونحن في خمسة آلاف؟» فقال: «إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه. فإذا طلب إفريقية زحفت إليه» وأما أبو المهاجر فإنه تمثل بقول أبي مِحْجَن الثقفي[1]: [من الطويل]

كفى حَزنًا أنْ تَمْزِع الخيلُ بالقنا ... وأُتْرَك مشدودًا عليّ وَثاقيا[2]
إذا قمتُ غنّاني الحديد وأُغلقت ... مصارعُ من دوني تصُم المُناديا[3]

فبلغ ذلك عقبة بن نافع. فأطلقه وقال له: «الحَقْ بالمسلمين فقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة» فقال أبو المهاجر: «وأنا أغتنم ما اغتنمت» فصلّى عقبة ركعتين وكسر جفن[4] سيفه. وفعل أبو المهاجر كفعله. وكسر المسلمون أغماد سيوفهم. وأمر عقبة أن ينزلوا عن خيلهم، ففعلوا وقاتلوا قتالاً شديدًا. وكَثر عليهم العدو فقُتلوا عن آخرهم ولم يفلتْ منهم أحد.

---

(١) أبو محجن الثقفي: هو من ثقيف وكان مولعًا بالشراب مشتهرًا به، وكان سعد بن أبي وقاص حبسه فيه... (طبقات الشعراء).

(٢) مزع الفرس: عدا سريعًا أو في خفة. (٣) عناني: أعجزني.

(٤) الجفن: غمد السيف ونحوه.

فعزم زهير بن قيس على قتال البربر فخالفه بعض أصحابه ففارق القيروان، وسار إلى برقة وأقام بها. وتبعه أكثر الناس. وأما كَسيلة فاجتمع إليه جمع كبير فقصد القيروان وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين. فطلبوا الأمان من كَسيلة فأمَّنهم. ودخل القيروان واستولى على إفريقية. وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان. فذكر عنده أمر القيروان ومَن بها من المسلمين. فأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إليها، ليستنقذها من يد كسيلة. فاستعمل عليها زهير بن قيس.

ذكر ولاية زهير بن قيس البلوي وقتل كسيلة البربري

قال: ولما أُشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش إلى إفريقية، قال: «لا يصلح للطلب بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلا مَن هو مثله في دين الله عزّ وجل» فاتفق رأيهم على زهير بن قيس، وقالوا: «هو صاحب عقبة وأعرفُ الناس بسيرته وأولاهم بطلب ثأره» وكان زهير ببرقة مرابطًا منذ قفل من إفريقية. فكتب إليه عبد الملك بالخروج على أعنَّة الخيل إلى إفريقية. فكتب إليه زهير يستمدّه بالرجال والأموال. فوجه إليه بالأموال ووجوه أهل الشام. فلما وصل ذلك إليه أقبل إلى إفريقية في عسكرٍ عظيم، وذلك في سنة تسع وستين. فبلغ خبره كَسيلة فجمع البربر وتحول عن القيروان إلى مَمش[(١)]. وجاء زهير فأقام بظاهر القيروان ثلاثة أيام حتى استراح وأراح. ثم رحل إلى كَسيلة. والتقيا واشتد القتال وكثر القتل في الفريقيْن. فأجلت الحرب عن قتل كَسيلة وجماعة من أصحابه. وانهزم من بقي منهم. فتبعهم الجيش فقتلوا مَن أدركوه.

وعاد زهير إلى القيروان. فرأى ملك إفريقية ملكًا عظيمًا، فقال: «إنما أحببت الجهاد، وأخاف أنْ أميل إلى الدنيا فأهلك» وكان عابدًا زاهدًا. فترك بالقيروان عسكرًا ورحل في جمع كبير يريد المشرق. وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسيره من برقة إلى إفريقية وخلوها، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة من جزيرة صقلية[(٢)]. فأغاروا على برقة وقتلوا ونهبوا. ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية فقاتلهم بمَن معه أشدَّ قتال. وترجل هو ومَن معه وقاتلوا فعَظم الخطْب. وتكاثر الروم عليهم فقُتل زهير وأصحابه، ولم ينجُ منهم أحد. وعاد الروم بما غنموه إلى القسطنطينية.

---

(١) لعلها ممسى كما ورد في معجم البلدان لياقوت: وهي قرية بالمغرب.

(٢) صقلية: بثلاث كسرات، وتشديد اللام والياء أيضًا مشددة: من جزائر بحر المغرب مقابلة إفريقية، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام... (معجم البلدان).

ولما بلغ عبد الملك قتل زهير عَظم ذلك عليه، وكانت المصيبة به كالمصيبة بعُقْبة. وشغل عبد الملك عن القيروان ما كان بينه وبين عبد الله بن الزبير. فلما قتل ابن الزبير جهّز عبد الملك حسان بن النعمان إليها.

ذكر ولاية حسان بن النعمان الغساني إفريقية

قال: كان عبد الملك قد أمر حسان بن النعمان بالمقام بمصر في عسكر عدّته أربعون ألفًا. وتركه بها عُدة لما يحدث. فكتب إليه بالنهوض إلى إفريقية ويقول: «إني قد أطلقتُ يدك في أموال مصر، فاعطِ مَن معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد إفريقية على بركة الله». قال ابن الأثير[(١)] في تاريخه الكامل: إنه استعمله في سنة أربع وسبعين بعد مقتل عبد الله بن الزبير. وقال ابن الرَّقيق إنه ندبه إلى إفريقية في سنة تسع وستين. قال: فدخل إفريقية بجيشٍ عظيم ما دخلها مثله قط. فدخل القيروان وتجهز منها إلى قرْطاجَنّة.

ذكر فتح قرطاجنّة وتخريبها

قال: ولما دخل حسان إلى القيروان سأل عن أعظم ملك بقي بإفريقية. فقيل له: صاحب قرطاجنّة، وهي بلدة عظيمة، ولم تُفتح بعد، ولا قَدَر عليها عقبة. فسار إليها. وقاتل مَن بها من الروم والبربر أشد قتال. فانهزموا وركبوا في البحر. وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس. ودخل حسان قرطاجنّة بالسيف فقتل وسبى ونهب. وأرسل الجيوش إلى حولها. ثم أمر بهدمها فهدم المسلمون منها ما أمكنهم. ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في صَطْفورة[(٢)] وبنزرت[(٣)]. فسار إليهم وقاتلهم، فهزمهم وأكثر القتل فيهم. واستولى المسلمون على بلادهم. ولم يترك موضعًا منها حتى وطئه. فخافه أهل إفريقية خوفًا شديدًا. ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين.. كان إمامًا في لفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنّف في التاريخ كتابًا كبيرًا أسماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٢) صطفورة: بالفتح ثم السكون، والفاء، وبعده واو ساكنة، وراء مهملة، وهاء: بلدة من نواحي إفريقية... (معجم البلدان).

(٣) بنزرت: مدينة بإفريقية بينها وبين تونس يومان، وهي من نواحي صطفورة مشرفة على البحر... (معجم ياقوت).

باجَة[١] فتحصنوا بها. وتحصن البربر بمدينة بُونَة[٢]. وعاد حسان إلى القيروان فأقام بها حتى أراح واستراح.

ذكر حروب حسان والكاهنة وتخريب إفريقية وقتل الكاهنة

قال: ثم قال حسَّان للناس: «دلوني على أعظم مَن بقي من ملوك إفريقية» فدلّوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة، وقالوا: «إنها بجبل أوراس، وهي بربرية اجتمع البربر عليها بعد قتل كسيلة». وكانت تخبر بأشياء فتقع كما أخبرت عنها. وعَظَّموا محلَّها عند حسان وقالوا: «إنْ قتلتَها لم تختلف البربر بعدها عليك». فسار إليها. فلما قاربها هدمت حصن باغاية[٣]، ظنًّا منها أنه يريد الحصون. فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها. فالتقوا على نهر نِينِي واقتتلوا أشد قتال. فانهزم المسلمون وقُتل منهم خلْق كثير وأُسرت جماعة من أصحابه. فأكرمتهم الكاهنة وأطلقتهم إلا خالد بن يزيد القيسي، وكان شريفًا شجاعًا فاتخذته ولدًا.

وسار حسان منهزمًا وفارق إفريقية. وكتب إلى عبد الملك بما كان من أمره. فأمره بالمقام إلى أنْ يأتيه أمره. فأقام بعمل برقة خمس سنين فسُمِّي ذلك المكان قصور حسان. وملكت الكاهنة إفريقية كلها وأساءت السّيرة في أهلها.

ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالأموال والجيوش. وأمره بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة. فسار إليها. فقالت الكاهنة لقومها: «إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها». وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها، وهدموا الحصون، وقطعوا الأشجار ونهبوا الأموال. قال عبد الرحمٰن بن زياد بن أنْعُم: «وكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحدًا وقرى متصلة، فأخربت ذلك». فلما قرب حسان من البلاد، لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون به من الكاهنة. فسره ذلك. وسار إلى قابس. فلقيه أهلها بالأموال والطاعة، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء. فجعل فيها

---

(١) باجة: في خمسة مواضع؛ منها: باجة، بلد بإفريقية تعرف بباجة القمح سميت بذلك لكثرة حنطتها بينها وبين تونس يومان... (معجم البلدان).

(٢) بونة: بالضم ثم السكون: مدينة بإفريقية بين مرس الخرز وجزيرة بني فرغناي، وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه والبساتين القرينة... (معجم ياقوت).

(٣) باغاية: مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينية الهواء... (معجم البلدان).

غلامًا. وسار على قفَصْة[١] فأطاعه من بها. واستولى عليها وعلى قَسْطيلية[٢] ونَفْزاوة[٣].

وبلغ مقدمه الكاهنة، فأحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم: «إنني مقتولة، فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانًا» فساروا إليه. فوكل بولديها من يحفظهما. وقدم خالد بن يزيد على أعنّة الخيل.

وسار حسان نحو الكاهنة فالتقوا واقتتلوا، واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء. ثم نصر الله المسلمين. وانهزم البربر وقُتلوا قتلاً ذريعًا. وانهزمت الكاهنة ثم أُدركت فقُتلت. ثم استأمن البربر إلى حسان فأمنهم. وقرر عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفًا يجاهدون العدو. وقدم عليهم ابني الكاهنة ثم فشا الإسلام في البربر.

وعاد حسان إلى القيروان وبطل النزاع واستقامت إفريقية له.

فلما مات عبد الملك وولّي الوليد ـ وكان على مصر وإفريقية عبد العزيز بن مروان ـ فعزل حسان واستقدمه. وبعث إليه بأربعين رجلاً من أشراف أصحابه، وأمرهم أن يحتفظوا بجميع ما معه. فعلم حسان ما يُراد منه، فعمد إلى الجوهر واللؤلؤ والذهب، فجعله في قِرَب الماء وطرحها في المعسكر، وأظهر ما وراء ذلك. فلما قدم على عبد العزيز بن مروان بمصر أهدى إليه مائتي جارية ووصيف من خيار ما كان معه ويقال: إن حسان كان معه من السبي خمسة وثلاثون ألف رأس. فانتخب منها عبد العزيز ما أراد وأخذ منه خيلاً كثيرة. ورحل حسان بما بقي معه حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكا إليه ما صنع به عبد العزيز. فغضب الوليد وأنكره. فقال حسان لمن معه: «ائتوني بالقرب» فأُتي بها فأفرغها بين يدي الوليد. فرأى ما أذهله من أصناف الجوهر واللؤلؤ والذهب. فقال حسان: «يا أمير المؤمنين إنما

---

(١) قفصة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة في أرض سنجة لا تنبت إلا الأشنان والشيح... (معجم ياقوت).

(٢) قسطيلية: بالفتح ثم السكون، وكسر الطاء، وياء ساكنة، ولام مكسورة، وياء خفيفة، وهاء: مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة إلبيرة كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار تشبه دمشق... (معجم البلدان).

(٣) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية، وبها عين تسمى بالبربرية تاورغي، ولها سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة وهي كثيرة النحل والثمار... (معجم ياقوت).

خرجتُ مجاهدًا في سبيل الله، ولم أخُن الله تعالى ولا الخليفة». فقال له الوليد: «أردك إلى عملك وأحسن إليك» فحلف حسان أنه لا وَلي لبني أمية ولاية أبدًا. فغضب الوليد عى عمه عبد العزيز لما عامل به حسانًا. وكان حسان يسمّى الشيخ الأمين لثقته وأمانته ثم ولي بعده موسى بن نُصير.

ذكر ولاية موسى بن نصير إفريقية وما كان من حروبه وآثاره

كانت ولايته في سنة تسع وثمانين، وذلك أن حسان بن النعمان لما امتنع من إجابة الوليد إلى رجوعه إليها، كتب الوليد إلى عمه عبد العزيز أن يوجه موسى بن نصير إلى إفريقية وأن تكون ولايته من قبل الوليد. وأفرد إفريقية عن مصر. فسار موسى حتى قدم إفريقية وعزل عنها صالحًا خليفة حسان بها.

فبلغه أن بأطراف إفريقية قومًا خارجين عن الطاعة. فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم وظفر بهم. وأتاه بمائة ألف رأس من سبْيهم. ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه بمائة ألف رأس. ثم توجه هو بنفسه إلى جهة أخرى فأتى بمائة ألف رأس. قال الليث بن[1] سعد: «فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس ولم يُسمَع بمثل هذا في الإسلام».

ثم خرج غازيًا إلى طنجة يريد مَن بقي من البربر. فهربوا منه فاتبعهم يقتل فيهم حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد. فاستأمن البربر إليه وأطاعوه. فقبل طاعتهم وولّى عليهم واليًا. ثم استعمل على طنجة وبلادها مولاه طارق بن زياد. وتركه بها في تسعة عشر ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب لتعلّم البربر القرآن وفرائض الإسلام.

ورجع إلى إفريقية فمرّ بقلعة مَجّانة[2] فتحصن أهلها منه فترك عليها مَن يحاصرها مع بُسْر بن فلان ففتحها، فسُمّيت قلعة بُسْر. ولم يَبْقَ بإفريقية مَن ينازعه من البربر ولا من الروم.

---

(١) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمٰن إمام أهل مصر في الفقه والحديث؛ كان مولى قيس بن رفاعة، وهو مولى عبد الرحمٰن بن خالد بن مسافر الفهمي وأصله من أصبهان، وكان ثقة سريًا سخيًا... (وفيات الأعيان ٤: ١٢٧).

(٢) مجانة: بالفتح، وتشديد الجيم، وبعد الألف نون: بلد بإفريقية فتحه بسر بن أرطأة وهي تسمى قلعة بسر وبها زعفران كثير ومعادن حديد وفضة، بينها وبين القيروان خمس مراحل... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر فتح جزيرة الأندلس وشيء من أخبارها

كان فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير. وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل أخبار الأندلس وابتداء أمرها. فاخترنا إيراد ذلك لأنها من أعظم الفتوحات الإسلامية.

قال ابن الأثير: قالوا: أول مَن سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأَنْدَلُش - بشين معجمة - ثم عُرِّب بعد ذلك بسين مهملة، والنصارى تسميها إشْبانيَة باسم رجل صُلِب فيها يقال له إشبانش، وقيل: باسم ملك كان لها في الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطش. وهذا هو اسمها عند بطليموس. وقيل: سميت بأندلس بن يافث بن نوح، وهو أول مَن عمرها.

وقيل: أول مَن سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس فعمروها وتداولوا ملكها دهرًا طويلاً، وكانوا مجوسًا. ثم حبس الله عنهم المطر وتوالَى عليهم القحط. فهلك أكثرهم، وفرّ منها من أطَاق الفرار. فخلت مائة سنة.

ثم ابتعث الله لعمارتها الأفَارِقَة. فدخل إليها قوم منهم أجْلاهم ملك إفريقية لقحط توالى على بلاده حتى كاد يُفني أهلَها. فحملهم في السفن مع أمير من عنده. فأرسوا بجزيرة قادس[1] فرأوا الأندلس وقد أخصبت بلادها وجرت أنهارها. فسكنوها وعمروها. ونصبوا لهم ملوكًا ضبطوا أمرهم. وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب من أرض إشبيلية، بنوها وسكنوها. وأقاموا مدة تزيد على مائة وخمسين سنة، ملك منهم فيها أحد عشر ملكًا.

ثم أرسل الله عليهم عجم رُومَة، وملكهم إشْبان بن طيطش فغزاهم ومزقهم وقتل منهم وحاصرهم بطالقة[2]، وقد تحصنُوا بها، فابتنى عليها إشبانية - وهي إشبيلية[3] - واتخذها دار مملكته. وكثرت جموعه وعتا وتجبر. وغزا بيت المقدس وغنم ما فيه، وقتل منه مائة ألف، ونقل المرمر منه إلى إشبيلية وغيرها. وغنم منه

---

(١) قادس: بعد الألف دال مكسورة مهملة ثم سين كذلك: جزيرة في غربي الأندلس تقارب أعمال شذونة طولها اثنا عشر ميلاً... (معجم البلدان).

(٢) طالقة: ناحية من أعمال إشبيلية بالأندلس.

(٣) إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، ولام، وياء خفيفة: مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضًا، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عبّاد، ولمقامهم بها خربت قرطبة... (معجم ياقوت).

مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي التي غنمها طارق لما فتح طليطلة، وغنم قليلة الذهب والحجر الذي لقي بماردة[١].

وكان هذا إشبان قد وقف عليه الخَضِر، وهو يحرث الأرض فقال له: «يا إشبان، سوف تحظى وتعلو وتملك. فإذا ملكت إيليا فارْفُق بذرية الأنبياء» فقال له: «أتسخر بي وكيف ينال مثلي الملك؟» فقال له: «قد جعله فيك من جعل عصاك هذه كما ترى» فنظر إليها، فإذا هي قد أوْرَقت. فارتاع وذهب عنه الخضر وقد وثق بقوله. فداخَل الناس وارتقى حتى ملك ملكًا عظيمًا. وكان ملكه عشرين سنة ودام ملك الإشبانية إلى أن ملك منهم خمسة وخمسون ملكًا.

ثم دخل عليها من عجم رومة أمةٌ يدعَوْن البشتولقات، وملكهم طلوبش بن بيطة، وذلك حين بعث الله المسيح عليه السلام. فغلبوا عليها، واستولوا على مُلْكها، وقتلوا ملكها. وملك منهم سبعة وعشرون ملكًا. وكانت مدينة ماردة دار ملكهم.

ثم دخلت عليهم أمة القوط مع ملك لهم. فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب رومة. وكان ظهورهم من ناحية أنطالية[٢] شرق الأندلس، فأغارت على بلاد مجْدُونية من تلك الناحية في أيام قليوديوس قيصر، ثالث القياصرة. فخرج إليهم وهزمهم وقتل فيهم. ولم يظهروا بعدها إلى أيام قسطنطين الأكبر. وأعادوا الغارة. فسيّر إليهم جيشًا فلم يثبتوا له. وانقطع خبرهم إلى دولة ثالث ملك بعد قسطنطين، فقدموا على أنفسهم أميرًا اسمه لذريق، وكان يعبد الأوثان. فسار إلى رومة ليحمل النصارى على السجود لأوثانه وظهر منه سوء سيرة، فتخاذل أصحابه عنه ومالوا إلى أخيه وحاربوه. فاستعان بصاحب رومة. فبعث إليه جيشًا فهزم أخاه ودان بدين النصارى. وكانت ولايته ثلاث عشرة سنة. ثم ولّي بعده أقريط، وبعده أمريق وبعده وغديش. وكانوا قد عادوا إلى عبادة الأوثان. فجمع من أصحابه مائة ألف وسار إلى رومة. فسيّر إليه ملك الروم جيشًا فهزموه وقتلوه. ثم ملك بعده الريق.

ثم تداولها عدة ملوك ذكرهم ابن الأثير: منهم مَن عبد الأوثان ومنهم مَن دان بدين النصرانية، إلى أنْ انتهى الملك إلى غِيْطِشة، وكانت ولايته سنة سبع وسبعين

---

(١) ماردة: كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فرّيش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب... (معجم البلدان).

(٢) أنطالية: بلد كبير من مشاهير بلاد الروم كان أول من نزله أنطالية بنت الروم بن اليقن بن سام بن نوح أخت أنطاكية فسمي بها... (معجم ياقوت).

للهجرة. ثم توفي وخلف ولدين. فلم يرضَ بهما أهل الأندلس ورضوا برجل يقال له رُذريق، وكان شجاعًا وليس من بيت الملك.

وكانت عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طُلَيْطلة[١] يكونون في خدمة الملك لا يخدمه غيرهم، يتأدبون بذلك. فإذا بلغوا الحُلمُ أنكح بعضهم بعضًا وتولى تجهيزهم. فلما ولّي رذريق، أرسل إليه يليان ـ وهو صاحب الجزيرة الخضراء[٢] وسَبْتة[٣] وغيرهما ـ ابنته فاستحسنها رذريق فافْتضها. فكتبت إلى أبيها بذلك. فأغضبه فكتب إلى موسى بن نصير عامل إفريقية بالسمع والطاعة. واستدعاه فسار إليه. فأدخله يليان مدائنه. وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به. ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها، وذلك في آخر سنة تسعين. فكتب موسى إلى الوليد بذلك، واستأذنه في غزوها. فأذن له إذا لم يكن الوصول إليها في بحر متسع.

فبعث موسى مَولًى من مواليه، يقال له طَريف، في أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس. فساروا في أربع سفن. فخرجوا في جزيرة بالأندلس فسُميت جزيرة طريف. ثم أغار على الجزيرة الخضراء فأصاب غنائم كثيرة ورجع سالمًا، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين. فلما رأى الناس ذلك، تسرعوا إلى الغزو.

ثم إن موسى دعا مولاه طارق بن زياد، وكان على مقدمات جيوشه، فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي وأقلّهم العرب. فساروا في البحر. وقصدوا جبلًا مُنيفًا في البحر، وهو متصل بالبر. فنزله فسُمِّي الجبل جبل طارق. ولما ملك عبد المؤمن البلاد أمر ببناء مدينة على هذا الجبل وسمّاه جبل الفتح، فلم يثبت له هذا الاسم، وجرت الألسن على الاسم الأول. وكان حلول طارق به في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين.

---

(١) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة... (معجم البلدان).

(٢) الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وقبالتها من البر بلاد البربر سبتة، وأعمالها متصلة بأعمال شذونة، وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة، ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضًا... (معجم ياقوت).

(٣) سبتة: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة... (معجم البلدان).

قال: ولما ركب طارق البحر غلبته عينه، فرأى النبيّ ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار وقد تقلدوا السيوف وتنكّبوا القسيّ. فقال النبي ﷺ له: «يا طارق تقدم لشأنك» وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد. ونظر طارق فرأى النبيّ ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه. فاستيقظ من نومه، وبشر أصحابه، وقويت نفسه، وأيقن بالظّفر.

فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل إلى الصحراء، وفتح الجزيرة الخضراء فأصاب بها عجوزًا. فقالت له: «إنّي كان لي زوج، وكان عالمًا بالحوادث، وكان يحدثهم عن أمير يدخل بلدهم ويغلب عليه، ووصف من صفته أنه ضخم الهامة وأن في كتفه الأيسر شامةً عليها شعر» فكشف طارق ثوبه فإذا الشامة كما ذكرت فاستبشر.

قال: ولما فتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذي في الجبل، بلغ رذريق خبره. فأعظم ذلك، وكان غائبًا في غزاة فرجع منها، وقد دخل طارق بلاده. فجمع له جمعًا يُقال بلغ مائة ألف. فكتب طارق إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح. فأمده بخمسة آلاف، فتكامل المسلمون اثني عشر ألفًا، ومعهم يليان يدلُّهم على عَوْرة البلاد ويتجسس لهم الأخبار. وأتاهم رُذريق في جنده، فالتقوا على نهرِ بكّة من أعمال شَذُونة[(١)] لليلتيْن بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين. واتصلت الحرب بينهم ثمانية أيام. وكان على ميمنة رذريق وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك. فاتفقوا على الهزيمة بغضًا لرذريق وقالوا: «إنَّ المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي الملك لنا» فانهزموا. وهزم الله رذريق ومَن معه وغرق في النهر.

وسار طارق إلى مدينة إسْتجَة في اتباعهم. فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلْق كثير. فقاتلوه قتالاً شديدًا ثم انهزم أهل الأندلس. ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة إستجة أربعة أميال فسميت عين طارق.

قال: ولما سمع القُوط بهاتيْن الهزيمتين، قذف الله في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى طُليْطُلة، وأخلوا مدائن من الأندلس فقال له يليان: «قد فرغت من الأندلس، ففرّق جيوشك، وسرْ أنت إلى طليطلة» ففرّق جيوشه من مدينة إستجة: فبعث جيشًا إلى قُرْطبة، وجيشًا إلى أغرناطة، وجيشًا إلى مالقة، وجيشًا إلى تُدْمير[(٢)].

---

(١) شذونة: بفتح أوله، وبعد الواو الساكنة نون: مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب مائلة إلى القبلة... (معجم البلدان).

(٢) تدمير: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وياء ساكنة، وراء: كورة بالأندلس تتصل بأهواز كورة جيان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق... (معجم ياقوت).

وسار هو ومعظم الجيش إلى طليطلة. فلما بلغها وجدها خالية وقد لحق مَن بها بمدينة خلف الجبل يُقال لها مَايَة. قال: وفتح سائر الجيوش الذين بعثهم ما قصدوه من البلاد. قال: ولما رأى طارق طليطلة خالية، ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه. وسار هو إلى وادي الحجارة[١]. وقطع الجبل من فَجّ فيه فسُمِّي بفج طارق. وانتهى إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة[٢]، وفيها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها مكلّلة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك، وكان لها ثلاثمائة وستون رجلاً.

ثم مضى إلى مدينة ماية فغنم منها. ورجع إلى طليطلة في سنة ثلاث وتسعين. وقيل: إنه اقتحم أرض جِلِّيقِيَة[٣] فاخترقها حتى انتهى إلى مدينة اسْتُرْقة، وانصرف إلى طليطلة. ووافته جيوشه التي وجهها من إستجة بعد فراغهم من فتح تلك المدائن التي سيّرهم إليها.

ودخل موسى بن نصير الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاثٍ وتسعين في جمْع كثير، وقد بلغه ما صنع طارق فحسده. فلما نزل الجزيرة الخضراء قيل له: «تسلك طريق طارق؟» فأبى. فقال له الأدلاء: «نحن ندلُّك على طرق أشرف من طريقه ومدائن لم تُفتح بعد». ووعده يليان بفتح عظيم، فسُرَّ بذلك. فساروا به إلى مدينة ابن السليم فافتتحها عنوة. ثم سار إلى مدينة قَرْمُونة[٤]، وهي أحصن مدن الأندلس. فتقدم إليها يليان وخاصته على حال المنهزمين فأدخلوهم مدينتهم. وأرسل موسى إليهم الخيل ففتحوها لهم ليلاً. فدخلها المسلمون وملكوها. ثم سار موسى إلى إشبيلية، وهي من أعظم مدائن الأندلس بنيانًا وأغربها آثارًا فحصرها أشهرًا وفتحها، وهرب مَن بها. فأنزلها موسى اليهود. وسار إلى مدينة ماردة فحصرها، وقد كان أهلها خرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديدًا. فكمن لهم موسى ليلاً في مقاطع الصخر، فلم يرهُمْ الكفار. فلما أصبحوا زحف إليهم. فخرجوا إلى المسلمين على عادتهم. فخرج عليهم الكمين، وأحْدَقُوا بهم، وحالوا بينهم وبين البلد، وقتلوهم قتلاً ذريعًا. ونجا مَن سلم منهم

---

(١) وادي الحجارة: بلد بالأندلس، ينسب إليه عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن يريال الحجاري أبو بكر. . .

(٢) المائدة: مدينة على مقربة من قلعة منارس.

(٣) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب. . .

(٤) قرمونية (في معجم ياقوت): كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية قديمة البنيان.

فدخل المدينة، وكانت حصينة. فحصرهم بها أشهرًا. وزحف إليهم بدَبابة عملها ونقبوا سورها. فخرج أهلها على المسلمين فقتلوهم عند البرج فسمّي برج الشهداء. ثم افتتحه آخر شهر رمضان سنة أربع وتسعين صلحًا، على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين.

ثم إن أهل إشبيلية اجتمعوا وقصدوها، فقتلوا من بها مِن المسلمين. فسيّر موسى إليها ابنه عبد العزيز بجيش فحصرها وقتل مَن بها من أهلها.

وسار عنها إلى لَبْلة وباجة فملكهما وعاد إلى إشبيلية.

قال: وسار موسى من مدينة ماردة في شوال بريد طليطلة. فخرج طارق إليه فلقيه. فلما أبصره نزل إليه، فضربه موسى بالسّوط على رأسه، ووبخه على ما كان من خلافه. ثم سار به إلى مدينة طليطلة وطلب منه ما غنم والمائدة. فأتاه بها وقد انتزع رجلًا من أرجلها. فسأله عنها فقال: «لا علم لي بها. كذلك وجدتها» فعمل عِوَضها من ذهب.

وسار موسى إلى مدينة سَرَقُسْطة[(١)] ومدائنها فافتتحها.

وأوغل في بلاد الفرنج. فانتهى إلى مفازةٍ كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنمًا قائمًا، فيه مكتوب: «يا بني إسماعيل، إلى هاهنا منتهاكم، فارجعوا. وإنْ سألتم إلى ماذا ترجعون، أخبركم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض، وقد فعلتم» فرجع ووافاه رسول الوليد في أثناء ذلك يأمره بالخروج عن الأندلس والقفول إليه. فساءه ذلك ومَطَل الرسول، وهو يقصد بلاد العدو في غير ناحية الصنم، يقتل ويسبي ويهدم الكنائس ويكسر النواقيس، حتى بلغ صخرة بِلاي على البحر الأخضر، وهو في قوة وظهور. فقدم عليه رسول آخر من الوليد يستحثّه، وأخذ بعنان بغلته وأخرجه. وكان موافاة الرسول له بمدينة لُكّ[(٢)] بجليقية. وخرج على الفج المعروف بفج[(٣)] موسى. ووافاه طارق من الثغر الأعلى فأقْفله معه، ومضيا جميعًا.

---

(١) سرقسطة: بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة، وسين مهملة ساكنة، وطاء مهملة: بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيلة، ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس... (معجم البلدان).

(٢) لك: بالضم وتشديد الكاف: بلدة من نواحي برقة بين الإسكندرية وطرابلس الغرب. ولُكّ أيضًا: مدينة بالأندلس من أعمال خرص البلوط، ولك أيضًا: قرية قرب الموصل من أعمال نينوى في الجانب الغربي... (معجم ياقوت).

(٣) الفج: الطريق الواسع بين الجبلين، وجمعه فجاج ثم كل طريق فج... (معجم ياقوت).

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى. فلما عبر موسى البحر إلى سبتة استخلف عليها وعلى طنجة وما والاهما ابنه عبد الملك. واستخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله. وسار إلى الشام. وحمل الأموال التي غُنمت من الأندلس والذخائر والمائدة، ومعه ثلاثون ألف بكر من بنات ملوك القُوط وأعيانهم، ومن نفيس الجوهر والأمتعة ما لا يُحصى. فورد الشام، وقد مات الوليد واستخْلف سليمان بن عبد الملك، وكان منحرفًا عن موسى بن نصير. فعزله عن جميع أعماله وأقصاه وأغْرمَه غرمًا حتى احتاج أنْ يسأل العرب في معونته.

وقيل: إنه قدم إلى الشام والوليد حيٌّ. وكان قد كتب إليه، وادعى أنه هو الذي فتح الأندلس وأخبره خبر المائدة. فلما حضر عنده عرض عليه ما معه وعرض المائدة، ومعه طارق. فقال طارق: «أنا غنمتها» فكذبه موسى. فقال طارق للوليد: «سَلْه عن رجلها المعدومة» فسأله عنها، فلم يكن عنده منها علم. فأظهرها طارق وذكر أنه أخفاها لهذا السبب. فعلم الوليد صدق طارق. وإنما فعل هذا لأن موسى كان قد ضربه وحبسه حتى أرسل الوليد «أخْرِجْه» وقيل: لم يحبسه.

قالوا: ولما دخلت الروم بلاد الأندلس، كان في مملكتهم بيت إذا ولّي ملك منهم أقْفل عليه قفلاً. فلما ملكت القوط فعلوا كفعلهم. فلما ملك رذريق فتح الأقفال فرأى في البيت صور العرب، عليهم العمائم الحمر على خيول شُهْب، وفيه كتاب: «إذا فُتح هذا البيت دخل هؤلاء القوم هذا البلد» ففتحت الأندلس في تلك السنة.

ذكر غزو جزيرة سردانية

قال: ولما فتح موسى بلاد الأندلس سيّر طائفة من عسكره إلى هذه الجزيرة، وهي في بحر الروم كثيرة الفواكه. فدخلوها في سنة اثنتين وتسعين. فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقُوا الجميع في الماء. وجعلوا أموالهم في سقف البِيعة[١] الكبرى التي تحت السقف الأول. وغنم المسلمون منها ما لا يُحَد ولا يوصف، وأكثروا الغُلول[٢]. واتفق أن رجلًا من المسلمين اغتسل في الماء فعلق في رجله شيء. فأخرجه، فإذا هو صَحْفة من فضة. فأخرج المسلمون جميع ما فيه. ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حَمام. فرماه بسهم فأخطأه

---

(١) البيعة: معبد النصارى.

(٢) الغلول: الخيانة. والمراد احتجازهم المغانم لأنفسهم دون اقتسامها.

ووقع في السقف. فانكسر لوح ونزل منه شيء من الدنانير. فأخذوا الجميع. وزادوا في الغلول، فكان بعضهم يذبح الهِرّ، ويرمي ما في جوفه، ويملأه دنانير، ويَخيط عليها، ويلقيه في الطريق. فإذا خرج أخذه. وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملأه ذهبًا. فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلاً يقول: «اللهم غَرِّقهم» فغرقوا عن آخرهم.

ذكر ولاية محمد بن يزيد مولى قريش ومقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير

قال: ثم استعمل سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش. وقال له عند ولايته: «يا محمد، اتّقِ الله وحده لا شريك له، وقُم فيما وليتك بالحق والعدل. اللهم اشهد» فخرج محمد وهو يقول: «ما لي عذر إنْ لم أعدل» وكانت ولايته في سنة تسع وتسعين. فولّي سنتين وشهورًا. وكتب إليه سليمان يأمره أن يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسب إليه حتى يقوموا بما بقي عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب. فقبض على عبد الله والي القيروان فحبسه في السجن. ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمر بضرب عنقه.

وأما عبد العزيز فإنه لما استخلفه أبوه موسى على الأندلس سدّ ثغورها، وضبط بلادها، وافتتحَ مدائن كانت بقيت بعد أبيه، وكان خَيِّرًا فاضلاً. فتزوج امرأة الملك لذريق. فحَظيت عنده، وغلبت على رأيه. فحملته على أن يأخذ أصحابه بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يُفعَل بزوجها. فقال: «إن ذلك ليس من ديننا» فلم تزَل به حتى أمر بفتح باب قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه. فكان أحدهم إذا دخل عليه من الباب طأطأ رأسه فيصير كالراكع. فرضيت بذلك وقالت: «الآن لحقت بالملوك. وبقي أنْ أعمل لك تاجًا مما عندي من الذهب واللؤلؤ» فأبى. فلم تزل به حتى فعل. فانكشف للمسلمين، فقالوا: «تنصر» وفطنوا للباب فثاروا عليه، فقتلوه في آخر سنة تسع وتسعين في آخر خلافة سليمان بن عبد الملك. ثم مكثوا بعد ذلك سنة لا يجمعهم إمام.

وحكى الواقدي قال: لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته، خلع الطاعة وخالف. فأرسل إليه سليمان رسولاً، فلم يرجع. فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرًّا بقتله. فلما خرج

عبد العزيز إلى صلاة الصبح، قرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ الحاقة[١] فقال له حبيب: «حَقّت عليك يا ابن الفاعلة» وعلاه بالسيف فقتله فحُمل رأس عبد الله ورأس عبد العزيز ابنيْ موسى حتى وُضعا بين يدي أبيهما، وعُذِّب حتى مات.

وأُضيفت ولاية الأندلس إلى إفريقية. فاستعمل عليها محمد الحُر بن عبد الرحمٰن القيسي. ولم يزل محمد بإفريقية إلى أن مات سليمان وولّي عمر بن عبد العزيز، فعزله واستعمل إسماعيل بن عبد الله.

ذكر ولاية إسماعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر مولى بني مخزوم

قال: ولما ولّي عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل إسماعيل على إفريقية، وكان خير وال. فدعا إسماعيل مَن بقي من البربر إلى دين الإسلام. فأسلموا وغلب الإسلام على المغرب جميعه. ودامت ولايته إلى سنة إحدى ومائة، إلى أن توفي عمر بن عبد العزيز وولّي يزيد بن عبد الملك، فاستعمل على إفريقية يزيد بن أبي مُسلم مولى الحجاج فقدمها في سنة اثنتين ومائة وقُتل. وقد ذكرنا سبب مقتله في أخبار يزيد بن عبد الملك.

ثم ولّي بعده بِشر بن صَفوان الكَلْبي، فقدمها في سنة ثلاث ومائة. فلما قدم استعمل على الأندلس عَنْبَسة الكلبي وعزل الحُر بن عبد الرحمٰن القيسي. ثم غزا بشر جزيرة صقلية بنفسه فأصاب سَبْيًا كثيرًا. ثم رجع من غزوته فتوفي بالقيروان في سنة تسع ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك.

عبيدة بن عبد الرحمٰن السلمي

فلما اتصلت وفاته بهشام استعمل على إفريقية: عبيدة بن عبد الرحمٰن السُلَمي وهو ابن أخي أبي الأعور السُلَمي، صاحب خيل معاوية. فأخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وأغرمهم وتحامل عليهم وعذب بعضهم. وكان فيهم أبو الخَطّار بن ضرار الكلبي، وكان قائدًا جليلاً، فقال: [من الطويل]

أَفَأُتُم بني - مروان - قَيْسًا دماءَنا ... وفي الله إنْ لم يَعْدلوا حَكَمٌ عَدْلُ[٢]

كأنكُمُ لم تشهدوا ليَ وقعةً ... ولم تعلموا مَن كان قَبْلُ له الفَضْلُ

(١) الحاقة: السورة ٦٩.

(٢) المراد جعلتم دماءنا فيئًا ومغنمًا لبني قيس.

وقـيـنـاكـمُ حَـرَّ الـقَـنـا بـصُـدورنـا وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رَجْلُ[(١)]
فـلـمـا بـلـغـتـم نَـيْـل مـا قـد أردتـمُ وطاب لكم فينا المشاربُ والأكلُ
تـغـافـلـتُمُ عـنّـا كـأنْ لـم نـكـن لـكـم صديقًا وأنتم ما علمتم لنا وَصْلُ

وبعث بها إلى هشام. فلما قُرئت عليه غضب وأمر بعزل عبيدة. فقَفَل[(٢)] عنها، واستخلف على إفريقية عُقْبة بن قُدامة التُّجِيبي[(٣)]، وترك بها عبد الله بن المغيرة بن بُرْدة القرشي قاضيًا، وذلك في شوال سنة أربع عشرة ومائة.

عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول

ثم استعمل هشام عبيد الله بن الحَبْحاب مولى بني سَلول، وكان رئيسًا كاتبًا بليغًا، حافظًا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها. وهو الذي بنى الجامع ودار الصناعة بمدينة تونس. وكانت ولايته في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائة.

فاستعمل على طنجة[(٤)] وما والاها عمر بن عبد الله المُرادي. فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والقَسْم. وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فَيءٌ للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله. وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يُجِب منهم إلى الإسلام. فانتقضت البربر بطنجة على عبيد الله وتداعت عليه بأسرها، وذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائة. وهي أول فتنة كانت بإفريقية في الإسلام.

وخرج مَيْسَرة المَدْغري[(٥)] وقتل عمر المرادي. وظهر بالمغرب في ذلك الوقت قوم جَرَت منهم دعوة الخوارج، وصار منهم عدد كبير وشوكة قوية. قال: فبعث عبيد الله الجيوش من أشراف العرب لقتال المدْغري، وجعل عليهم خالد بن أبي حبيب الفهري. وأردفَه بحبيب بن أبي عبيدة. فسار خالد حتى أتى ميسرة دون طنجة. فالتقوا واقتتلوا قتالاً لم يُسمع بمثله. ثم انصرف ميسرة إلى طنجة. فأنكرت عليه

---

(١) الرجل: اسم لجمع الراجل الماشي على رجليه.
(٢) قفل: عاد.
(٣) نسبة إلى تجيب، اسم قبيلة من كندة، وهم ولد عدي وسعد ابني أشرس بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن مرتع، وهو كندة، وأمهما تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رها من مذحج... (معجم ياقوت).
(٤) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو من البر الأعظم وبلاد البربر... (معجم البلدان).
(٥) المدغريّ: نسبة إلى مدغرة، وهي قبيلة بربرية.

البربر سوء سيرته، وتغيروا عما كانوا بايعوه عليه، وكان قد بويع بالخلافة فقتلوه وولوا أمرهم خالد بن حميد الزَّناتي.

ثم التقى خالد بن أبي حبيب بالبربر، وكان بينهم قتالٌ شديد. فبينما هم كذلك إذ غشيهم خالد بن حميد الزناتي بعسكر عظيم. فانهزم أصحاب خالد بن أبي حبيب. وكره هو أن ينهزم فألقى بنفسه هو وأصحابه فقُتل هو ومن كان معه، ولم يسلم منهم أحد. وقُتل في هذه الوقعة حُماة العرب وفرسانها فسميت وقعة الأشراف.

وانتقضت البلاد ومرِج[١] الناس واختلفت الأمور على عبيد الله. فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فقال: «أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من العرب؟» قيل: «نعم» فقال: «والله، لأغضَبن لهم غضبةً عربيةً، ولأبعثن إليهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي. ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو يمني». وكتب إلى عبيد الله بن الحبحاب يستقدمه. فخرج في جُمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة.

قال: وكان عبيد الله لما قدم إفريقية استعمل على الأندلس عُقْبة بن الحجاج وعزل عَنبسة. فلما بلغ أهل الأندلس ثورة البربر وثبوا على عقبة فعزلوه. وولّوا عليهم عبد الملك بن قَطَن الفهْري. قال: ثم استعمل هشام بن عبد الملك على إفريقية كُلثوم بن عياض القُشَيْري، فقدم في شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائة، وقد عُقد له على اثني عشر ألف فارس من أهل الشام. وكتب إلى والي كل بلد أن يخرج معه، فسار معه عمال مصر وبرقة وطرابلس. فلما قدم إفريقية نَكَّب[٢] عن القيروان وسار إلى سبتة. واستخلف على القيروان عبد الرحمٰن بن عُقبة الغفَاري، وهو إذ ذاك قاضي إفريقية وكان حبيب بن أبي عبيدة مواقف البربر. فسار كلثوم ومَن معه حتى وافى البربر، وهم على وادي طنجة، وهم في ثلاثين ألفًا. وتوجه إليهم خالد بن حميد الزناتي فصاروا في جميع كبير. فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وسليمان بن أبي المهاجر، ووجوه العرب. وانهزمت العرب، وكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس، وعبروا في المراكب، وهزيمة أهل مصر وأهل إفريقية إلى إفريقية.

قال: ولما بلغ أهل إفريقية قتل كلثوم، كان بها هرج. فثار عكاشة بن أيوب الفَزاري مخالفًا على الناس بمدينة قابس، وكان صُفْريًا[٣]، وهو الذي قدم على طليعة

---

(١) مرج الناس: اختلطوا.
(٢) نكّب عنه: عدل وتنحى.
(٣) الصفرية: طائفة من الخوارج الأولى كانت في العراق وبقيت زمن الدولة الأموية.

أهل الشام مع عبيد الله بن الحبحاب فسار إليه عبد الرحمٰن بن عقبة فقاتله. فانهزم عكاشة، وقُتل كثيرٌ من أصحابه، وتفرق مَن بقي منهم.

حنظلة بن صفوان الكلبي

ولما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك، بعث إلى إفريقية حنظلة بن صَفْوان الكَلْبي، وكان عامله على مصر ولاه عليها في سنة تسع عشرة ومائة، فأقام بها إلى أن بعثه إلى إفريقية. فقدمها في شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة. فلم يمكث بالقيروان إلا يسيرًا حتى زحف إليه عكاشة الصُّفْري الخارجي في جمع عظيم من البربر، لم يَرَ أهل إفريقية مثله ولا أكثر منه، وكان لما انهزم جمع قبائل البربر. وزحف إلى حنظلة أيضًا عبد الواحد بن يزيد الهواري في عدد عظيم وكانا قد افترقا من الزاب: فأخذ عكاشة على طريق مَجانة[1] فنزل القرن، وأخذ عبد الواحد على طريق الجبال فنزل طَبِيناس، وعلى مقدمته أبو قرة المغيلي. فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة قبل أن يجتمعا عليه، فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. والتقوا بالقرن وكان بينهم قتالٌ شديد فني فيه خلق كثير. وهزم الله عكاشة ومَن معه. وقُتل من البربر ما لا يُحصَى كثرة. وانصرف حنظلة إلى القيروان خوفًا أن يخالفه عبد الواحد إليها.

وقيل: إن عبد الواحد لما وصل إلى باجة، أخرج إليها حنظلة رجلًا من لَخْم في أربعين ألف فارس. فقاتلوه بباجة شهرًا في الخنادق والوعر. ثم انهزم اللخمي إلى القيروان، وفقد ممن معه عشرين ألفًا.

ونزل عبد الواحد بالأصنام من جُراوةَ ثلاثةَ أميال عن القيروان، وكان في ثلاثمائة ألف. فأخرج حنظلة جميع ما في الخزائن من السلاح، ونادى في الناس. فكان يعطي لكل منهم درعًا وخمسين دينارًا. فلم يزلْ يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين. ولم يقدم إلا شابًا قويًا. فعبأ الناس طول ليلته والشمع حوله وبين يديه. فعبأ في تلك الليلة خمسة آلاف دارع[2] وخمسة آلاف نابِل[3]. وأصبح وقدّم للقتال. وكسرت العرب جفون سيوفها. والتقوا واقتتلوا. ولزم الرجال الأرض وجثَوا على الرُّكَب فانكسرت ميسرة العرب وميسرة البربر ثم كرت ميسرة العرب على ميمنة البربر. فكانت الهزيمة على البربر. وقُتل عبد الواحد

---

(١) مجانة: بالفتح، وتشديد الجيم، وبعد الألف نون: بلد بإفريقية، بينها وبين القيروان خمس مراحل، ومعدن المرتك والحديد والرصاص في جبل من جنوبها... (معجم البلدان).

(٢) الدارع: الذي يلبس الدرع. (٣) النابل: الذي يرمي النبل.

وأُتي حنظلة برأسه فخرّ ساجدًا لله. وقيل: إنه ما عُلم في الأرض مقتلة أعظم منها قُتل فيها من البربر مائة ألف وثمانون ألفًا. وكانوا صُفْرية يستحلون الدماء وسبي النساء. ثم أُتي بعكاشة أسيرًا فقتله حنظلة. وكتب بذلك إلى هشام. فكان الليث بن سعد يقول: «ما غزوةٌ كنتُ أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحبّ إليّ من غزوة القرن والأصنام».

ذكر أخبار عبد الرحمٰن بن حبيب وتغلبه على إفريقية ورجوع حنظلة إلى المشرق

كان عبد الرحمٰن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري قد هرب إلى الأندلس عند هزيمة كلثوم. فلم يزلْ يحاول أن يغلب على الأندلس، وهو لا يمكنه ذلك، إلى أن وَجّه حنظلة بن صفوان أبا الخَطار بن ضرار الكلبي إلى الأندلس وأطاعه الناس ودانت له البلاد. فخاف عبد الرحمٰن على نفسه. فخرج مستترًا وركب في البحر إلى تونس. فنزل بها في جُمادى الأولى سنة سبع وعشرين ومائة. ودعا الناس إلى نفسه فأجابوه.

وسار حتى نزل سِمِنْجة. فأراد أصحاب حنظلة الخروج لقتاله فمنعهم حنظلة كراهةً لهراقة دماء المسلمين، وكان رجلًا وَرعًا زاهدًا لا يرى بذل السيف إلا في الكفرة والصُّفْرية الذين يستبيحون دماء المسلمين. فوجه حنظلة إلى عبد الرحمٰن جماعة من وجوه أهل إفريقية يدعوه إلى مراجعة الطاعة والرجوع عما هو عليه. فلما قدموا عليه أوْثَقهم في الحديد. وقال: «إنْ رماني أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم» فبلغ ذلك من الناس كل مبلغ. فلما رأى حنظلة ذلك دعا القاضي وجماعة من أهل الدين والفضل. وفتح بيت المال بحضرتهم وأخذ منه ألف دينار وترك الباقي. وقال: «ما آخذ منه إلا بقدر ما يكفيني ويبلِّغني» ثم شخص عن إفريقية في جُمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة.

وأقبل عبد الرحمٰن بن حبيب ودخل القيروان ونادى مناديه ألا يخرج أحد إلى حنظلة ولا يشيعه. وكان حنظلة مجاب الدعوة فقال: «اللهم لا تُهنِّ عبد الرحمٰن بن حبيب هذا الملك ولا أهله، واسفكْ دماءهم بأيديهم، وابعث عليهم شرار خلقك». ودعا على أهل إفريقية. فوقع الوباء والطاعون بها سبع سنين لا يكاد يرتفع إلا وقتًا في الشتاء ووقتًا في الصيف.

قال: ولما ولّي عبد الرحمٰن، ثار عليه جماعة من العرب والبربر ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصَّدَفي واستولى على تونس. ثم ثار عليه عرب الساحل. وقام ابن

عطّاف الأزدي حتى نزل بَطبيناس. وثارت البربر من الجبال. وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها. وخرج بناحية طرابلس رجلان يُقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث، وهما من البربر على دين الخوارج. فقاتل كل من خرج عليه، طائفةً بعد أخرى بنفسه وبجيوشه، حتى دَوَّخ المغرب كله، وأذلَّ مَن به من القبائل. ولم ينهزم له عسكر ولا رُدَّت له راية. وخافه جميع أهل المغرب.

وكتب إلى مروان بن محمد، وأهدى له هدية، وتقوّل على حنظلة، ونسب إليه ما لم يقع منه. فكتب إليه مروان بولاية إفريقية والمغرب كله والأندلس.

ثم قُتل مروان وانقرضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية. فكتب عبد الرحمٰن إلى أبي العباس السفاح بطاعته، وأقام الدعوة العباسية. فلما صار الأمر إلى أبي جعفر المنصور كتب إلى عبد الرحمٰن يدعوه إلى الطاعة. فأجابه وكتب بطاعته، وأرسل إليه بهدية نَزْرة كان فيها بُزاة وكلاب. وكتب إليه: «إن إفريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها. فلا تسألني ما ليس قبَلي». فغضب أبو جعفر المنصور وكتب إليه يتوعده. فلما وصل كتابه إليه غضب غضبًا شديدًا. ثم نادى: «الصلاة جامعة». فاجتمع الناس في المسجد الجامع. ثم خرج عبد الرحمٰن في مُطْرَف خَزّ، وفي رجليه نعلان. فصعد المنبر. فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمد نبيه ﷺ. ثم أخذ في سبّ أبي جعفر. ثم قال: «إني ظننت هذا الخائر[1] يدعو إلى الحق ويقوم به، حتى تبين لي منه خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل. وأنا الآن قد خلعته كما خلعت نَعْليَّ هاتين». وقذفهما وهو على المنبر. ثم دعا بخلعة أبي جعفر التي كان أرسلها إليه، وفيها سواده ـ وكان قد لبسها قبل ذلك ودعا فيها لأبي جعفر، وهو أول سَواد لُبس بإفريقية ـ فأمر بتخريقها وحرقها. وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابًا بخلعه، ويُقرَأ على المنابر في سائر بلاد المغرب، ففعل ذلك.

ذكر مقتل عبد الرحمٰن بن حبيب
وولاية أخيه إلياس بن حبيب وقتله
وولاية حبيب بن عبد الرحمٰن وقتله

كان سبب قتل عبد الرحمٰن أنه لما قُتل مروان بن محمد الحمار هرب جماعة من بني أمية ومعهم حَريمهم نحو إفريقية، فتزوج عبد الرحمٰن وإخوته منهم. وكان ممن قدم عليه ابنان للوليد بن يزيد بن عبد الملك، يقال لأحدهما العاص والآخر

(١) الخائر: الذي ضعف وانكسر.

عبد المؤمن. وكانت ابنة عمهما تحت إلياس بن حبيب. فأنزلهما عبد الرحمٰن بدار شيبة بن حسان. وتسلك عليهما ليسمع كلامهما وكانا على نبيذ، وغلامهما يسقيهما. فقال العاص: «ما أغفل عبد الرحمٰن! أيظن أنه يتهنى معنا بولاية ونحن أولاد الخلفاء؟». فنزل وانصرف ولم يعلما به ثم أمر بقتلهما. فقالت ابنة عمهما لزوجها إلياس: «إنه قتل أخْتانك[1] تهاوُنًا بك، وجعل العهد من بعده لابنه حبيب وأنت صاحب حربه وسيفه الذي يصول به»! ولم تزل تغريه به. وكان عبد الرحمٰن إذا ثار عليه ثائر أو خرج عليه خارجي يرسل أخاه إلياس لقتاله. فإذا ظفر، نسب الظفر لابنه حبيب وجعل العهد فيه. فاجتمع رأي إلياس بن حبيب وعبد الوارث أخيه على قتل عبد الرحمٰن أخيهما. ووالاهما على ذلك جماعة من أهل القيروان والعرب وغيرهم، على أن يكون الأمر لإلياس، الدعاء لأبي جعفر المنصور. فأتاه إلياس ليلاً فاستأذن عليه بعد العشاء الآخرة. فقال: «ما جاء به وقد ودعني؟» وكان إلياس قد عزم على الخروج إلى تونس. وأذن له، فدخل عليه وهو في غلالة[2] وردية وابن له صغير في حجره. فقعد طويلاً وعبد الوارث يغمز. فلما قام يودعه، أكبّ عليه يعانقه، فوضع السكين بين كتفيه حتى صارت إلى صدره. فصاح عبد الرحمٰن وقال: «فعلتها يا ابن اللخناء؟». ثم ضربه إلياس بالسيف. فاتقاه بمرفقه، فأبان يده. وضربه حتى أثْخَنه. ودهش إلياس وخرج هاربًا. فقال له أصحابه: «ما فعلت؟» قال: «قتلته» فقالوا: «ارجع وحُزّ رأسه، وإلا قُتلنا عن آخرنا» ففعل. وثارت الصيحة. وأخذ إلياس أبواب دار الإمارة.

وسمع حبيب بن عبد الرحمٰن الصيحة فهرب من القيروان. وأصبح بقرب تونس فدخلها، واجتمع مع عمه عمران بن حبيب. ولحق بهما موالي عبد الرحمٰن من كل ناحية. فخرج إليهما إلياس إلى سمنجة. فَوافياه بمن معهما، وهَمُّوا بالقتال. ثم اصطلحوا على أن يعود عمران إلى ولاية تونس وصَطْفورة والجزيرة، ويكون حبيب على قفصة وقصيطلة ونفزاوة، ولإلياس سائر إفريقية والمغرب.

ومضى إلياس مع عمران إلى تونس، وانصرف حبيب إلى القيروان. فوثب إلياس على أخيه عمران، وعلى عمر بن نافع بن أبي عبيدة الفهري، وعلى الأسود بن موسى بن عبد الرحمٰن بن عقبة وعلى ابن قطن، فشَدهم وثاقًا، ووجههم في سفينة إلى الأندلس إلى يوسف بن عبد الرحمٰن بن عقبة.

---

(١) الختن: كل من كان من قبل المرأة كأبيها، وأخيها، وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت. جمع أختان.

(٢) الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت الدثار.

وانصرف إلى القيروان فبلغه عن حبيب أخبار كرهها. فأغرى إلياس به، وأرسل إليه مَن زَين له الخروج إلى الأندلس، ففعل. وجهزه إلياس في سفينة. فتعذّرت عليهم الريح. فكتب إلى إلياس أن الريح قد ردته، وأن المسير لا يمكنه. فاتهمه إلياس وخاف ناحيته. وكتب إلى عامله سليمان بن زياد الرُّعَيْني يحذره أمره. فاجتمع إلى حبيب موالي أبيه، فأسروا سليمان بن زياد وشدوه وثاقًا وكان معسكرًا يُحارس حبيبًا. وأخرجوا حبيبًا إلى البرّ وأظهروا أمره. فتوجه إلى الأرْبُس[1] فأخذها.

وبلغ خبره إلياس فتوجه إليه. واجتمع لكل واحد منهما جماعة. فلما التقيا، قال حبيب لعمه إلياس: «لِمَ نقتل موالينا وصنائعنا بيننا وهم لنا حصن؟ ولكن ابرز أنت وأنا، فأينا قتل صاحبه استراح منه: إنْ قتلتَني ألحقتني بأبي، وإن قتلتك أدركت ثأري منك» فارتاب إلياس ساعة. فنادى الناس: «قد أنصفك فلا تجبن، فإن ذلك سُبَّة عليك وعلى ولدك من بعدك» فخرج كل منهما إلى صاحبه والتقيا ساعة. فضرب إلياس حبيبًا فأعمل السيف في ثيابه ودرعه ووصل إلى جسمه. فعطف حبيب عليه وضربه بالسيف ضربة سقط بها عن فرسه إلى الأرض. فألقى حبيب نفسه عليه فحزّ رأسه ثم أمر برفعه على رمح. وهرب عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه إلى بطن من البربر يقال لهم وَرْفَجُومة ودخل حبيب القيروان وبين يديه رأس إلياس، ورأس محمد بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع عم أبيه، ورأس محمد بن المغيرة بن عبد الرحمٰن القرشي. وجاءه محمد بن عمرو بن مصعب الفزاري وهو زوج عمة أبيه مهنئًا له، فضرب عنقه. وكان ذلك كله في شهر رجب سنة ثمان وثلاثين ومائة.

قال: ولما وصل عبد الوارث بن حبيب ومن معه إلى ورفجومة نزلوا على عاصم بن جميل الورفجومي. فكتب إليه حبيب يأمره أن يوجه بهم إليه، فلم يفعل، فَنَهد[2] إليه حبيب. ولقيه عاصم واقتتلوا فانهزم حبيب. وكان قد استخلف على القيروان أبا كُرَيب جميل بن كريب القاضي. فقوي أمر ورفجومة، وكاتَبَهم بعض وجوه القيروان خوفًا منهم على أنفسهم. فزحف عاصم بن جميل وأخوه مُكرَّم بالبربر وبمن لجأ إليهم وصاروا بناحية قابِس. فلما قربوا من القيروان، خرج إليهم أبو كريب القاضي بأهل القيروان. حتى إذا دنوا من بعضهم، خرج من عسكر عاصم جماعة من

---

(١) الأربس: بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمومة وسين مهملة: مدينة وكورة بإفريقية، وكورتها واسعة، وأكثر غلتها الزعفران، وبها معدن حديد، وبينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب. . . (معجم ياقوت).

(٢) نهد: برز.

أهل القيروان، فخذلوا الناس ودعَوْهم إلى عاصم. فافترق أكثر الناس عن أبي كريب ورجعوا إلى القيروان. وثبت أبو كريب في نحو ألف رجل من وجوه الناس، وأهل البصائر والخشية والدين. وقاتلوا فقُتل أبو كريب. وقاتل من معه حتى قُتلوا. ودخلت ورفجومة القيروان. فاستحلوا المحَارم وارتكبوا العظائم. ونزل عاصم بعسكره بالموضع الذي يسمّى مصلّى روح.

واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبي جَعْدة النَّفْزي. وسار إلى حبيب وهو بقابس. فقاتله فانهزم حبيب ولحق بجبل أوراس[1] وهم أخوال أبيه. فسار عاصم في طلبه إلى أوراس، والتقوا واقتتلوا، فهُزم عاصم وقُتل هو وأكثر أصحابه. وأقبل حبيب إلى القيروان. فخرج إليه عبد الملك بن أبي جعدة والتقوا. فقُتل حبيب في المحرم سنة أربعين ومائة. فكانت ولاية عبد الرحمٰن بن حبيب عشر سنين وأشهرًا، وولاية إلياس ستة أشهر، وولاية حبيب بن عبد الرحمٰن سنة واحدة وستة أشهر.

ذكر تغلب ورفجومة على إفريقية وما كان منهم ومن ولي بعدهم إلى أن ولّي محمد بن الأشعث

قال: ولما حكمت ورفجومة على القيروان، قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب، وربطوا دوابهم في المسجد الجامع. وندم الذين أعانوهم أشد ندامة.

قال: ثم دخل رجل من الإباضية[2] القيروان فرأى ناسًا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة وأرادوها على نفسها، والناس ينظرون. فترك حاجته التي أتى فيها، وخرج إلى أبي الخطاب عبد الأعلى بن السَّمْح المَعافري، فأعلمه بالذي رأى. فخرج وهو يقول: «لبيك اللهم لبيك». فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان. وتوجهوا نحو طرابلس فأخرجوا منها عمر بن عثمان القرشي، واستولى عليها أبو الخطاب.

ثم سار إلى القيروان فخرج إليه عبد الملك بن أبي جعدة بجماعة ورفجومة. والتقوا فقُتل عبد الملك وأصحابه، وذلك في صفر سنة إحدى وأربعين. فكان تغلّب

---

(١) أوراس: بالسين المهملة: جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر... (معجم البلدان).

(٢) الإباضية: فرقة من الخوارج شاع أمرها في أواخر الدولة الأموية، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي.

ورفجومة على القيروان سنة وشهرين. وتبع أبو الخطاب من انهزم منهم فقتلهم. ثم انصرف إلى القيروان فولّى عليها عبد الرحمٰن بن رستم القاضي، ومضى إلى طرابلس. فصارت طرابلس وما يليها وإفريقية كلها في يده، إلى أن وجه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث في سنة أربع وأربعين.

ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي

قال: لما غلبت الصُفْرية على إفريقية بعد أن قتلت ورفجومة من قتلت من عربها، خرج جماعة إلى أبي جعفر المنصور، منهم عبد الرحمٰن بن زياد بن أنْعُم، ونافع بن عبد الرحمٰن السُلَمي، وأبو البهلول بن عبيدة، وأبو العِرْباض. فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر، ووصفوا عظيم ما لقوه منهم. فولّى المنصورُ أبو جعفر محمد بن الأشعث مصر. فوجه أبا الأحْوص عمرو بن الأحوص العجْلي إلى إفريقية. فهزمه أبو الخطاب في سنة اثنتين وأربعين.

فكتب أبو جعفر المنصور إلى محمد بن الأشعث يأمره بالمسير بنفسه، ووجه إليه الجيوش. فخرج في أربعين ألفًا: ثلاثين ألف فارس من أهل خراسان، وعشرة آلاف من أهل الشام. ووجه معه الأغلب بن سالم التَّميمي والمحارب بن هلال الفارسي، والمُخارق بن غِفار الطائي، وأمرهم بالسمع والطاعة له. فإن حدث به حدث كان أميرهم الأغلب، فإن حدث به حدث فالمخارق، فإن حدث به حدث فالمحارب بن هلال. فمات المحارب قبل وصولهم إلى إفريقية. وبلغ أبا الخطاب خروج محمد بن الأشعث إليه، فجمع أصحابه من كل ناحية. ومضى في عدد عظيم فوصل إلى سُرْت(١). واستقدم عبد الرحمٰن بن رستم من القيروان، فقدم بمن معه.

فضاق ابن الأشعث ذَرْعًا بلقاء أبي الخطاب لما بلغه من كثرة جموعه. فاتفق تنازع زَناته وهَوارة فيما بينهم. فقتلت هوارة رجلاً من زناته. فاتهمت زناتة أبا الخطاب في ميله مع هوارة، ففارقه جماعة منهم. فبلغ ذلك ابن الأشعث فسر به. وضبط أفواه السكك(٢) حتى انقطع خبره عن أبي الخطاب. فرجع إلى طرابلس.

---

(١) سرت: بضم أوله، وسكون ثانيه، وآخره تاء مثناة من فوق: مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس الغرب لا بأس بها. . . (معجم البلدان).

(٢) السكك: جمع السكة: وهي الطريق المستوي.

ووصل ابن الأشعث إلى سُرْت. فخرج إليه أبو الخطاب حتى صار بورَدْاسَة. فلما قرب منه ذكر ابن الأشعث لأصحابه أن خبرًا أتاه من المنصور بالرجوع إلى المشرق. وأظهر لهم المسرة بالرجوع. فشاع ذلك في الناس. وسار منصرفًا ميلاً ثم نزل. فانتهى ذلك إلى أبي الخطاب وسمع به من معه، فتفرق كثير منهم. ثم أصبح ابن الأشعث فسار أميالاً متثاقلاً في سيره. وفعل ذلك في اليوم الثالث. ثم اختار أهل الجَلَد والقوة من جيشه، وسار بهم ليله كله. فصبح أبا الخطاب وقد اختلّ عسكره. فلما التقوا ترجَّل جماعة من أصحاب ابن الأشعث وقاتلوا. فانهزم البربر وقُتل أبو الخطاب وعامة من معه، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة أربع وأربعين ومائة. فكانت عدة من قُتل من البربر أربعين ألفًا.

ولما انتهى الخبر إلى عبد الرحمٰن بن رستم هرب إلى تَيْهَرْت[1] واختطها وبلغ أهل القيروان خبر أبي الخطاب، فأوثقوا عامل ابن رستم وولّوا عليهم عمرو بن عثمان القرشي إلى أن قدم محمد بن الأشعث.

ووصل ابن الأشعث إلى طرابلس فاستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي.

ووجه إسماعيل بن عكرمة الخُزاعي إلى زَويلة وما والاها، ففتح تلك النواحي وقتل من بها من الخوارج.

وتوجّه محمد إلى القيروان، وأمر ببناء سورها، وذلك في يوم السبت غرة جُمادى الأولى. فبُني في ذي القعدة، وكان تمامه في شهر رجب سنة ست وأربعين. وضبط إفريقية وأعمالها. وأمعن في قتل كل من خالفه من البربر فخافوه خوفًا شديدًا وأذعنوا له بالطاعة.

ثم فسد عليه جنده بعد ذلك، وتحدثوا أن المنصور كتب إليه يأمره أن يَقْدَم عليه وأنه أبى ذلك. فاجتمع رأيهم على إخراجه وتولية عيسى بن موسى الخُراساني. فلما رأى ذلك علم أنه لا طاقة له بهم. فخرج في شهر ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة. وقام بأمر الناس عيسى بن موسى من غير أمر أبي جعفر ولا رضا العامة إلا أن قواد المُضَرية تراضوا به.

---

(١) تيهرت: هي تاهرت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة، بينها وبين المسيلة ست مراحل؛ وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد. . . (معجم ياقوت).

ذكر ولاية الأغلب بن سالم ابن عقال بن خفاجة التميمي

قال: ولما بلغ المنصور ما كان من المُضَرية وصَرْفهم محمد بن الأشعث، بعث إلى الأغلب عهده بولاية إفريقية، وكان بطُبنَة[١] فقدم إلى القيروان وأخرج عيسى بن موسى في جُمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين. وأخرج جماعة من قواد المضرية واستقامت له الحال.

ثم خرج عليه أبو قُرَّة في جمع كثير من البربر. فسار إليه الأغلب في جميع قواده، فهرب منه. وقدم الأغلب الزاب، وعزم على الرحيل إلى تلمْسان ثم إلى طنجة. فاشتد ذلك على الجند، وجعلوا يتسللون عنه ويخرجون ليلاً إلى القيروان، حتى بقي في نفر يسير من وجوههم.

وكان الحسن بن حرب الكنْدي بتونس. فلما خرج الأغلب يريد أبا قرة، كاتب جماعة من القواد. فلحق به بعضهم الذين فارقوا الأغلب من الزاب. فأقبل إلى القيروان، ووازَره على ذلك بسطام بن الهُذيل القائد والفضل بن محمد وغيرهما، فدخل القيروان من غير ممانعة. وحبس سالم بن سوادة التَّميمي، وهو الذي استخلفه الأغلب على القيروان عند رحيله منها. وبلغ الخبر الأغلب فأقبل في عدة يسيرة ممن صبر على طاعته. وكتب إلى الحسن بن حرب يُعرِّفه فضل الطاعة وعقبى المعصية. فأعاد جوابه وكتب في آخره: [من الوافر]

ألا قُولا لأغلبَ غيرَ سرٍّ ... مُغَلغَلَةً من الحَسنِ بنِ حربِ[٢]
بأنَّ البَغْيَ مَرْتَعُهُ وَخيمٌ ... عليك وقُرْبُه لك شرُّ قربِ
وإنْ لم تَدْعُني لتَنالَ سَلمِيْ ... وإلا فاذْنُ من طَعْني وضربي

فأقبل الأغلب نحوه يُجِد السير. فأشار عليه أصحابه الذين معه بالمصير إلى قابس، وأن يلطُف بالناس حتى يرجعوا عن الحسن إليه. ففعل ذلك. وقدم رسول المنصور إلى الأغلب، وإلى الحسن بن حرب يدعوه إلى الطاعة فلم يفعل. فزحف إليه الأغلب واقتتلوا قتالاً شديدًا. فانهزم الحسن وقُتل من أصحابه خلق كثير. فرجع إلى تونس. وأقبل الأغلب إلى القيروان.

---

(١) طبنة: بضم أوله ثم السكون، ونون مفتوحة: بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب... (معجم ياقوت).

(٢) المغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد.

وحشد الحسن بن حرب وسار في عدة عظيمة إلى القيروان. فجمع الأغلب أهل بيته وخاصته وأعلمهم أنه يُلاقي الحسن وحده إنْ لم يُعنْه أحد. فلما قرب، خرج إليه الأغلب فشدّ هو وأصحابه على الميمنة فكشفهم. ثم انصرف وهو يقول: [من الرجز]

لـم يـبـقَ إلا الـقـلـبُ أو أمـوتُ   إن تَـحْـمَ لـي الـحـربُ فـقـد حَـمـيـتُ
* وإنْ تـــولّـــيـــتُ فـــلا بـــقـــيـــتُ *

ثم حمل على القلب فلم يثن حَدَّه حتى قُتل بسهم أصابه، وذلك في شعبان سنة خمسين ومائة. قال: ولما سقط الأغلب صاح الناس: «قُتل الأمير». وارتفعت الأصوات بذلك. قال: وكان سالم بن سوادة في الميمنة هو وأبو العنبس. فقال سالم لأبي العنبس: «لا أنظر إلى الدنيا بعد اليوم». ودفع في عسكر الحسن بن حرب، فقَتل من أصحاب الحسن مَقْتلةً عظيمة. ووُجد الحسن بن حرب مقتولاً.

ذكر ولاية عمر بن حفص هزارمرد

وتفسيره بالفارسية ألف رجل، ويكنى أبا جعفر. وكان شجاعًا بطلاً. وهو من ولد قَبيصة بن أبي صُفْرة أخي المُهَلَّب. استعمله المنصور على إفريقية لما بلغه قتل الأغلب. فقدمها في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس. فاجتمع إليه وجوه الناس، فوصلهم وأحسن إليهم. فاستقامت له الأمور ثلاث سنين وأشهرًا من ولايته.

ثم سار إلى الزاب فنزل طُبْنَة. واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب، وكان كتاب المنصور قدم عليه بالشخوص إلى الزاب لبناء طبنة. فخلت إفريقية من الجند فثار بها البربر. فخرج إليهم حبيب وقاتلهم فقُتل. واجتمع البربر بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب مولى كِنْدة، وهو الذي يسمى أبا قادم. وكان عامل عمر على طرابلس الجُنَيْد بن سَيار الأزدي، فبعث إليهم الجنيد خيلاً عليهم خازم بن سليمان. فالتقوا واقتتلوا، فانهزم خازم وأصحابه ولحقوا بالجنيد بطرابلس.

فكتب الجنيد إلى عمر يستمده. فبعث إليه خالد بن يزيد المهلبي في أربعمائة فارس. فاجتمع هو والجنيد والتقيا مع البربر. فانهزم خالد والجنيد إلى قابس.

فبعث عمر بن حفص سليمان بن عباد المهلبي في جماعة من الجند. فلقي أبا قادم بقابس، فقاتله. فانهزم سليمان إلى القيروان. فسار إليها وحصرها، وعمر مقيم بطُبْنَة، وقد صارت إفريقية وأعمالها نارًا تتّقد.

وأتى البربر من كل مكان، ومضوا إلى طُبْنة فأحاطوا بها وهم في اثني عشر عسكرًا: أبو قُرَّة الصُّفْري في أربعين ألف فارس، وعبد الرحمٰن بن رستم الإباضي في خمسة عشر ألف فارس، وأبو حاتم في عدد كثير، وكان إباضيًا، وعاصم السِّدْراتي الإباضي في ستة آلاف، والمِسْوَر الزَّناتي الإباضي في عشرة آلاف فارس، وعبد الملك بن سُكَرديد الصِّنْهاجي الصُّفْري في ألفي فارس، وجماعة غير هؤلاء، وليس مع عمر إلا خمسة آلاف وخمسمائة.

فلما رأى ما حلّ به جمع قواده فاستشارهم في مناجزتهم. فأشاروا عليه ألا يخرج من المدينة. فأعمل الحيلة في صَرْف الصُّفْرية، ووجه إليهم رجلًا من أهل مِكْناسَة[١] يقال له إسماعيل بن يعقوب. ودفع إليه أربعين ألف درهم وكُسًا كثيرة، وأمره بدفع ذلك إلى أبي قرة على أن ينصرف عنهم. فقدم عليه وعرض المال والكسا. فقال له: «أبعد أربعين سنة يُسلِّم علي بالإمامة أبيع حربكم بعَرَض قليل من الدنيا؟ لا حاجة لي به». فانصرف إلى ابنه وقيل إلى أخيه. ودفع إليه أربعة آلاف درهم وأثوابًا على أن يعمل في صرف أبيه ورَد الصفرية إلى بلدهم فعمل ذلك من ليلته. فلم يشعر أبو قرة حتى ارتحل العسكر منصرفين إلى بلدهم. فلم يجد بُدًّا من أتباعهم.

فلما انصرف الصفرية وجه عمر مَعْمر بن عيسى السَّعْدي في ألف وخمسمائة إلى ابن رستم، وهو بتَهُوذا في خمسة عشر ألف فارس. فالتقوا فانهزم ابن رستم ووصل إلى تَيْهَرْت.

ثم أقبل عمر بن حفص يريد القيروان. واستخلف على طُبْنة المُهَنّا بن المُخارق بن غفار الطائي. فلما بلغ أبا قرة مسيره، أقبل بجموعه وحصر المهنا بطبنة. فخرج إليه وقاتله. فانهزم أبو قرة واستباحوا عسكره.

وكان أبو حاتم لما حاصر القيروان أقام عليها ثمانية أشهر، وليس في بيت مالها درهم واحد ولا في أهْرائها[٢] شيء من الطعام وكان الجند في تلك المدة يقاتلون البربر طرفي النهار حتى جهَدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم. فجعل الناس

---

(١) مكناسة: بكسر أوله وسكون ثانيه، ونون، وبعد الألف سين مهملة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينا وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق، وهي مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء بينهما حصن جواد. . . (معجم البلدان).

(٢) الأهراء: المستودعات يجمع فيها الطعام.

يخرجون فيلحقون بالبربر. فبلغ ذلك عمر فأقبل يريد القيروان في نحو سبعمائة من الجند حتى نزل مدينة الأُرْبُس فبلغ البربر إقباله، فرجعوا إليه بأجمعهم ورحلوا عن القيروان. فلما بلغه إقبالهم توجه إلى ناحية تونس، وأغَذّ السير. ومضى البربر حتى صاروا بناحية سمنجة. وسار عمر من تونس وخرج جميل بن صخر من القيروان، فالتقوا في بئر السلامة. ثم أقبل حتى دخل القيروان. فبثّ خيوله حول القيروان وجعل يُدخل إليها ما يُصلحه من الطعام والحطب وغير ذلك. واستعدّ للحصار، وخندق خندقًا على باب أبي الربيع فعسكر فيه الجند.

ثم قدم أبو حاتم في جنوده وقد بلغوا مائة ألف وثلاثين ألفًا. فقاتله عمر بمن معه أشدّ قتال. فانكشف حتى صار إلى الفسطاط[١]. ثم اقتتلوا بالفسطاط واشتد قتالهم وكاثَرُوه حتى انحاز إلى الخندق بباب أبي الربيع. وكان عمر يخرج إليهم في كل يوم ويقاتلهم فما زالوا على ذلك حتى فنيت أقواتهم وأكلوا دوابهم والسنانير. فاضطرب على عمر أمره وضجر أصحابه وساءت آراؤهم. فقال لمن معه من الجند: «قد كان أصابكم من الجهد أمر عظيم حتى قدمت عليكم ففرج الله عنكم بعض ما كنتم فيه. وقد ترون ما أنتم الآن فيه. فإن شئتم خرجت أنا على ذراريهم وبلادهم. وجعلت عليكم أي الرجلين شئتم: جميلاً أو المخارق. وأخرج في ناس من الجند فأُغير على نواحيهم وآتيكم بالميرة»[٢]. فقالوا: «قد رضينا». وكان قد اجتمع حول القيروان من الإباضية مع أبي حاتم ثلاثمائة ألف وخمسين ألفًا: الخيل منها خمسة وثلاثون ألفًا. فلما همّ بالخروج، اختلفوا عليه وقالوا: «تحب أن تخرج ونبقى نحن في الحصار، لا تخرج وأقم معنا». قال: «نعم، أقيم معكم وأُخرج جميلاً والمخارق ومن أحببتم». قالوا: «نعم». فلما جاؤوا إلى باب المدينة قالوا: «تقيم أنت في الراحة ونخرج نحن! لا والله لا نفعل». فغضب عمر وقال: «والله لأُورِدَنّكم حياض الموت».

وجاءه وهو محصور كتاب خُليدة بنت المُعارك امرأته تخبره فيه: إن أمير المؤمنين قد استبطأك فبعث يزيد بن حاتم إلى إفريقية، وهو قادم في ستين ألفًا، ولا خير في الحياة بعد هذا. قال خراش بن عَجْلان: فأرسل إلى فجئته، وقد ثار عرق بين عينيه وكان علامة غضبه. فأقرأني الكتاب فدمعت عيناي. فقال: «ما لك؟»

---

(١) الفسطاط: مدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص.

(٢) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

فقلت: «وما عليك أن يقدمَ رجل من أهلك فتخرج من هذا الحصار؟» فقال: «إنما هي رقدة حتى نُبعَث إلى الحساب فاحفظ وصيتي».

قال خراش: فأوصى بما أحب. وخرج كالبعير الهائج. فلم يزل يطعن ويضرب حتى قُتل، وذلك في يوم السبت للنصف من ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة.

فلما قُتل بايع الناس جميل بن صخر، وهو أخو عمر لأمه. فلما طال عليه الحصار دعاه ذلك إلى موادعة أبي حاتم. فصالحه على أن جميلاً وأصحابه لا يخلعون طاعة سلطانهم ولا ينزعون سوادهم، وعلى أن كل دم أصابه الجند من البربر فهو هَدَر، وعلى أن لا يُكرهوا أحدًا من الجند على بيع سلاحهم ودوابهم. فأجابهم إلى ذلك أبو حاتم. ففتح جميل أبواب المدينة وخرج أكثر الجند إلى طُبْنة. وأحرق أبو حاتم أبواب المدينة وأثَّر في سورها.

وبلغه قدوم يزيد بن حاتم فتوجه إلى طرابلس، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السَّمْح المَعافري. ثم بعث إليه أبو حاتم يأمره بأخذ سلاح الجند، وألا يجتمع منهم اثنان في مكان واحد، وأن يوجه إليه بهم واحدًا بعد واحد. فاجتمعوا واستوثق بعضهم من بعض بالأيمان المؤكدة أن لا يرضوا بهذا. وقويت قلوبهم بيزيد بن حاتم. فلقوا عمر بن عثمان الفهري واتفقوا معه وولوه أمرهم. فقَبله وقام على أصحاب أبي حاتم فقتلهم. واتصل ذلك بأبي حاتم فزحف من طرابلس. فلقي عمر بن عثمان ومن معه. فاقتتلوا فقُتل من البربر خلق كثير. ومضى عمر بن عثمان وأصحابه نحو تونس. ومضى جميل بن صخر والجنيد بن سيار هاربين نحو المشرق.

وخرج أبو حاتم في طلب عمر بن عثمان. ووجه قائدًا من قواده يقال له جرير بن مسعود المديوني على مقدمته. فأدركه بِجيجَل[1] من ناحية كُتامة. فقاتلوه فقُتل جرير بن مسعود وأصحابه. وانصرف عمر والمخارق فدخلا تونس، ومضى أبو حاتم إلى طرابلس حين بلغه قدوم يزيد بن حاتم. ولحق جميل بن صخر بيزيد وهو بسُرْت. فأقام إلى أن لقي أبا حاتم.

فيقال: إنه كان بين الجند والبربر من لدن قتالهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة.

---

(١) جيجل: بكسر الجيم الأولى، وفتح الثانية، بينهما ياء ساكنة، وآخره لام: موضع... (معجم البلدان).

ذكر ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة[١] ابن المهلب بن أبي صفرة

قال: ولما اتصل بأبي جعفر المنصور حال عمر بن حفص وحَصْره ثم بلغه أنه قُتل، غَمَّه ذلك وساءه. فوجه يزيد بن حاتم في ثلاثين ألفًا من أهل خراسان، وستين ألفًا من أهل البصرة والكوفة والشام. فأقبل حتى صار إلى سُرْت. فاجتمع بجميل بن صخر وبمن معه من الجند القادمين عليه من القيروان، وسار نحو طرابلس. فسار أبو حاتم إلى جبال نفوسة[٢]. وجعل يزيد على مقدمته سالم بن سَوادة التَّميمي. فالتقى سالم هو وأبو حاتم، واقتتلوا قتالاً شديدًا. فانهزم سالم وأصحابه، ورجعوا إلى عسكر يزيد.

وهال أبو حاتم أمر يزيد فطلب أوعر المنازل وأمنعها، فعسكر فيها، وخَنْدق على عسكره. فأتاه يزيد من ناحية الخندق، والتقوا واقتتلوا. فقُتل أبو حاتم وأهل البصائر من أصحابه، وانهزم الباقون. وطلبهم يزيد فقتلهم قتلاً ذريًا. وبعث خيله في طلبهم بكل ناحية. فكان عدة من قُتل منهم ثلاثين ألفًا. ويقال: إنه لم يُقتَل من الجند إلا ثلاثة. وذلك في يوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومائة. وأقام يزيد بمكانه ذلك نحوًا من شهر. وبثّ خيله في طلب الخوارج فقتلهم في كل سهل وجبل.

ثم رحل حتى نزل قابس فدخلها لعشر بقين من جُمادى الآخرة. واستقامت له الأمور بعد أن قتل البربر بكل ناحية. وبنى يزيد المسجد الأعظم بالقيروان، وجدده في سنة سبع وخمسين. ورتب أسواق القيروان، وجعل كل صناعة في مكانها، حتى لو قيل: إنه الذي مَصَّرها، لم يُبْعَد من الحق.

ولم تزل البلاد مستقيمة والأمور ساكنة مدةَ حياته إلى أن توفي في شهر رمضان

---

(١) هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أرسله المنصور لحرب الخوارج واستمر واليًا على إفريقية خمس عشرة سنة وكان من الممدحين الأجواد... (شذرات الذهب ١: ٢٧٥).

(٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك، وفيها منبران في مدينتين إحداهما سروس في وسط الجبل... والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفزاوة... (معجم البلدان).

سنة سبعين ومائة في خلافة الرشيد. وكان كريمًا شجاعًا نافذ الرأي، بعيد الصّيت، غاية في الجود. وهو القائل: [من البسيط]

لا يألف الدرهَمُ المَضْروبُ خِرْقَتنا ... إلا لِـمـامًـا قـلـيـلاً ثـم يـنـطـلـقُ
يَـمُـرُّ مَـرًّا عـلـيـهـا وهـي تَـلْـفـظـه ... إني امرؤٌ لم يُحالفْ خرْقَتي الوَرِقُ[١]

وله أخبار بإفريقية تدل على كرمه وبُعْد همته. فمن مشهورها أن بعض وكلائه أتاه يومًا فقال: «أعزّ الله الأمير! أُعطيت في الفول الذي زرعناه بفَحْص القيروان كذا وكذا!». وذكر مالاً جليلاً. فسكت وأمر قَهْرمانه وطباخه أن يخرجا إلى ذلك الموضع. وأمر فرّاشيه أن يضربوا قُبة، فضربوا مضارب كثيرة. وخرج مع أصحابه فتنزه فيه وأطعم. فلما أراد الانصراف دعا بالوكيل وأمر بمأدبة وقال له: «يا ابن اللَّخْناء، أردت أن أُعيَّر بالبصرة فيقال: يزيد بن حاتم باقلاني! أمثْلي يبيع الفول، لا أُمَّ لك؟». ثم أمر بإباحته. فخرج الناس إليه من بين آكل وشارب ومتنزه حتى أتوا على جميعه.

ومن أخباره المشهورة أنه خرج متنزهًا إلى مُنْية الخيل، فنظر في طريقه إلى غنم كثيرة. فقال: «لمن هذه؟» قالوا: «لابنك إسحاق» فدعا به فقال له: «ألك هذه الغنم؟» قال: «نعم» قال: «لمَ أردتها؟» قال: «آكل من خرافها وأشرب من ألبانها وأنتفع بأصوافها» قال: «فإذا كنت أنت تفعل هذا، فما بينك وبين الغنامين والجزارين فرق» وأمر أن تُذبح وتُباح للناس. فانتهبوها وذبحوها وأكلوا لحومها. وجعلوا جلودها على كُدْية[٢]، فهي تعرف بكدية الجلود.

وله مكارم يطول شرحها رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية داود بن يزيد بن حاتم

قال: ولما مرض يزيد استخلف ابنه داود، فاستقل بالأمر بعده فانتقض عليه البربر بجبال باجة، وخرج صالح بن نُصَير النَّفْري في الإباضية. فلقيه المهلّب بن يزيد بباجة. فهزموه وقتلوا من أصحابه جماعة. فوجه إليهم داود سليمان بن الصِّمَّة بن يزيد بن حبيب بن المهلب في عشرة آلاف فارس. فهزم البربر وتبعهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف، وسلّم الجند. قال: وانضم إلى صالح بن نصير جماعة من مَشْيَخة البربر. فزحف إليهم سليمان بن الصمة فقتل من أهل البصائر منهم وانصرف إلى القيروان.

(١) المراد بالورق: الدراهم المضروبة.
(٢) الكدية: الأرض الغليظة.

وأقام داود على إفريقية حتى قدم عمه رَوْح بن حاتم أميرًا. فكانت ولاية داود تسعة أشهر ونصف شهر. وسار إلى المشرق فأكرمه الرشيد وولاه مصر، ثم ولّي السند فمات بها.

ذكر ولاية روح بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب بن أبي صفرة

قال: ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم استعمل روح بن حاتم على المغرب، وكان أكبر من يزيد سنًا. فوصل إلى القيروان في شهر رجب سنة إحدى وسبعين ومائة في خمسمائة فارس من الجند. ثم لحق به ابنه قَبيصَة في ألف وخمسمائة فارس. ولم تزل البلاد معه هادئة والسبل آمنة. ومُلِيء البربر منه رعبًا. ورغب في موادعة عبد الوهاب بن رستم الإباضي صاحب تيهرت، وهو الذي تنسب إليه الوهبية. فلم تزل الأحوال مستقيمة مدة ولايته إلى أن توفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة.

ذكر ولاية نصر بن حبيب المهلبي

قال المؤرخ: كان روح بن حاتم قد أَسَنّ وكبر، وإذا جلس للناس غلبه النوم من الضعف. فكتب أبو العنبر القائد وصاحب البريد إلى الرشيد بضعفه وكبره، وأنهما لا يأْمنان موته، وهو ثَغْر لا يقوم بغير سلطان، وذكرا نصر بن حبيب، وحسن سيرته، ومحبة الناس له. وقالا: «إنْ رأى أمير المؤمنين ولايته في السر إنْ حدث بروح حادث حتى يرى أمير المؤمنين رأيه» فكتب الرشيد عهده سرًا.

فلما مات روح فُرش لابنه قبيصة في الجامع فجلس واجتمع الناس للبيعة له. فركب أبو العنبر وصاحب البريد إلى نصر ومعهما عهده. فأوصلاه العهد وسلّما عليه بالإمرة، وأركباه إلى المسجد فيمن معهما. فأقاما قبيصة وأجلسا نصرًا. وقُرِىء كتاب الرشيد على الناس فسمعوا وأطاعوا. فَبَسط العدل وأحسن إلى الناس. وأقام واليًا على المغرب سنتين وثلاثة أشهر.

وكان الفضل بن روح لما مات أبوه عاملًا على الزاب، فلما ظهر كتاب الرشيد بولاية نصر سار إلى الرشيد، ولزم بابه حتى ولاه المغرب.

ذكر ولاية الفضل بن روح

قال: ولما ولاه الرشيد كتب إلى إفريقية بعزل نصر، وأن يقوم بإفريقية المهلب بن يزيد إلى أن يقدم. ثم قدم في المحرم سنة سبع وسبعين ومائة.

وولّى على تونس ابن أخيه المُغِيرة بن بِشْر بن رَوْح، وكان غِرًّا فاستخفّ بالجند، وسار فيهم بغير سيرة من تقدمه، ووثق أن عمه لا يعزله. فاجتمعوا وكتبوا إلى الفضل كتابًا يخبرونه بسوء صنيع المغيرة فيهم وقبيح سيرته. فتثاقل الفضل عن جوابهم. فانْضاف هذا إلى أمور كانوا قد كرهوها من الفضل منها استبداده برأيه دونَهم. فاجتمعوا وولوا أمرهم عبد الله بن الجارُود وهو المعروف بعَبْدُويْه وبايعوه بعد أن استوثق منهم.

ثم انصرفوا إلى دار المغيرة فحصروه. فبعث إليهم يسألهم ما الذي يريدون. فقالوا: «ترحل عنا وتلحق بصاحبك أنت ومن معك» وكتب عبدويه إلى الأمير الفضل:

«من عبد الله بن الجارود.

أما بعد، فإنا لم نخرج المغيرة إخراجَ خلاف عن طاعة، ولكن لأحداث أحدثها فيها فساد الدولة. فوَلِّ علينا من نرضاه وإلا نظرنا لأنفسنا، ولا طاعة لك علينا والسلام».

فكتب إليه: «من الفضل بن روح إلى عبد الله بن الجارود.

أما بعد، فإن الله عزّ وجل يُجْرِي قضاياه فيما أحب الناس أو كرهوا، وليس اختياري واليًا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شيء أراد الله عزّ وجل بلوغه فيكم. وقد وليتُ عليكم عاملاً، فإن دفعتموه فهو آية النُّكْث منكم. والسلام».

وبعث عبد الله بن يزيد المهلّبي عاملاً على تونس. وضم إليه النَّضر بن حَفْص، وأبا العنبر، والجنيد بن سيار. فلما وصل ظاهر تونس، أشار أصحاب عبدويه عليه بقَبْضه هو ومن معه وحبسهم. فخرج أصحاب عبدويه إلى عبد الله بن يزيد، فحملوا عليه وقتلوه وأسروا من معه. فقال عبدويه: «ما لهذا بعثتكم، فأما إذ وقع فما رأيكم؟» فأجمعوا على الخلاف.

وأخذوا في المكائد. وتولى أمر عبدويه محمد بن الفارسي، وهو الذي أثار هذه الفتنة. وشرع في مكاتبة القواد وإفسادهم، ووعد كل واحد منهم أنه يوليه الأمر. ففسد الحال على الفضل. وكانت أمور يطول شرحها، وحرب آخرها أن ابن الجارود

سار فيمن معه إلى القيروان، وقاتل الفضل وهزمه، واستولى على البلد وأخرجه منها. ثم قبض عليه وأراد أن يحبسه. فقال أصحابه: «لا نزال في حرب ما دام الفضل حيًا» فدافع عنه محمد بن الفارسي وأشار أن لا يقتلوه. فقاموا إليه وقتلوه. فعند ذلك أمر عبدويه المهلب بن يزيد ونصر بن حبيب وخالدًا وعبد الله بن يزيد بالخروج من إفريقية، فخرجوا كلهم.

ذكر أخبار عبد الله بن الجارود

قال: ولما قُتل الفضل واستولى عبد الله على القيروان، سمع شَمْدُون القائد ما صنع بالفضل، فقام غضبًا له. واجتمع في الأُرْبُس هو وفَلاح بن عبد الرحمٰن الكُلاعي القائد، والمغيرة، وغيرهم. وأقبل عليهم أبو عبد الله مالك بن المُنْذِر الكَلْبي من مِيلَة[1]، وكان واليًا عليها في عدد كثير، فقدموه على أنفسهم. واجتمع إليهم الناس. والتقوا بابن الجارود واقتتلوا. فقُتل مالك بن المنذر، وانهزم أصحابه حتى صاروا إلى الأُرْبُس.

فكتب شمدون إلى العلاء بن سعيد ـ وهو بالزاب ـ أن يقدم عليه. فأقبل إلى الأربس واجتمع بالمغيرة وشمدون وفلاح وغيرهم. وأقبل العلاء يريد القيروان فصادف ابن الجارود وقد خرج منها يريد يحيى بن موسى خليفة هَرْثَمة بن أعْيَن، وذلك أن الرشيد لما اتصل به وثوب ابن الجارود على الفضل وإفساده إفريقية، وجَّه يَقْطين بن موسى لمحله من دعوتهم، ومكانه من دولتهم، وكبر سنّه، وحاله عند أهل خراسان. وأمره بالتلطف بابن الجارود وإخراجه من البلد. ووجه معه المهلب بن رافع. ثم وجه منصور بن زياد، وهرثمة بن أعين أميرًا على المغرب. فأقام ببرقة.

وقدم يقطين القيروان فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير. ودفع إليه كتاب الرشيد، فقال ليقطين: «قد قرأت كتاب أمير المؤمنين، وأنا على السمع والطاعة. وفي كتاب أمير المؤمنين أنه ولّى هرثمة بن أعين، وهو ببرقة يصل بعدكم. ومع العلاء البربر، فإن تركت الثغر وثب البربر فأخذوه وقتلوا العلاء ولا يدخله وال لأمير المؤمنين أبدًا، فأكون أشأم الخلق على هذا الثغر. ولكن أخرج إلى العلاء، فإنْ ظفر بي فشأنكم بالثغر، وإن ظفرتُ به انتظرت قدوم هرثمة. ثم أخرج إلى

(١) ميلة: بالكسر ثم السكون، ولام: مدينة صغيرة بأقصى إفريقية، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام، ليس لها غير المزدرع وهي قليلة الماء، بينها وبين قسطنطينية يوم واحد. . . (معجم البلدان).

أمير المؤمنين» فاجتمع يقطين مع محمد بن يزيد الفارسي - وهو صاحب ابن الجارود - ووعده التقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة في أي المواضع شاء، على أن يفسد حال عبد الله بن الجارود. ففعل ذلك وسعى في إفساد الخواطر على ابن الجارود، ورغّب الناس في الطاعة. فمالوا إليه وانضموا له. وخرج على ابن الجارود، فخرج عبد الله لقتاله. فلما تواقفا للقتال، ناداه ابن الجارود أن اخرج إلي حتى لا يسمع كلامي وكلامك غيرنا. فخرج إليه فحدثه وشاغَله بالكلام، وكان قد وضع على قتله رجلاً من أصحابه يقال له أبو طالب فخرج إليه - وهو مشغول بحديث عبد الله - فما شعر حتى حمل عليه وضربه فدقّ صلبه، فانهزم أصحابه.

وقدم يحيى بن موسى خليفة هرثمة إلى طرابلس. فصلّى عيد الأضحى بالناس وخطبهم. وقدم عليه جماعة من القواد واستفحل أمره.

وأقبل العلاء بن سعيد يريد القيروان. فعلم ابن الجارود أنه لا طاقة له بالعلاء. فكتب إلى يحيى أن اقدم إلى القيروان فإني مسلم إليك سلطانها. وأجاب إلى الطاعة. فخرج يحيى بن موسى بمن معه من طرابلس في المحرم سنة تسع وسبعين ومائة. فلما بلغ قابس تلقاه بها عامة الجند الذين بالقيروان. وخرج ابن الجارود من القيروان في مستهلّ صفر، واستلخف عليها عبد الملك بن عباس. وكانت أيام ابن الجارود سبعة أشهر. وأقبل العلاء بن سعيد ويحيى بن موسى متسابقين إلى القيروان، فسبقه العلاء إليها. فقتل منها جماعة من أصحاب ابن الجارود. فبعث إليه يحيى: «إن كنت على الطاعة ففَرِّق جموعك» فأمر من معه بالانصراف إلى مواضعهم. وسار في نحو ثلاثمائة من خاصته إلى طرابلس. وكان ابن الجارود قد وصل إليها قبل وصوله وخرج مع يقطين بن موسى نحو المشرق حتى وصل إلى هارون الرشيد.

قال: وكتب العلاء إلى منصور وهرثمة أنه الذي أخرج ابن الجارود من إفريقية. فكتب إليه هرثمة بالقدوم، وأجازه بجائزة سنية. وبلغ خبره هارون، فكتب إليه بمائة ألف درهم صلة سوى الكُسَا، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى توفي بمصر.

ذكر ولاية هرثمة بن أعين

قال: وقدم هرثمة القيروان في مستهلّ شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة فأمن الناس وسكنهم وأحسن إليهم. وهو الذي بنى القصر الكبير بالمُنْسَتِير[1] في سنة

---

(١) المنستير: بضم أوله، وفتح ثانيه، وسكون السين المهملة، وكسر التاء المثناة من فوقها، وياء، وراء: هو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية، بينه وبين كل واحدة منهما مرحلة، وهي خمسة قصور يحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم... (معجم البلدان).

ثمانين ومائة. وبنى أيضًا سور مدينة طرابلس مما يلي البحر. وواتر الكتب إلى الرشيد أن يعفيه من إفريقية لما رأى الاختلاف بها وسوء طاعة أهلها. فكتب إليه بالقدوم إلى المشرق. فرجع في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة.

ذكر ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي[(١)]

قال: ولما كتب هرثمة إلى هارون يسأله الإعفاء وجّه محمد بن مقاتل أميرًا للمغرب، وكان رضيع هارون. فقدم القيروان في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة. ولم يكن بالمحمود السيرة، فاضطربت عليه أحواله واختلف جنده، وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفي الرعية. فقام فلاح القائد، ومشى في أهل الشام وخراسان حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الأزدي.

وخرج عليه بتونس تَمام بن تَميم التَّميمي - وكان عامله عليها - فَبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان. فخرج في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة إلى القيروان. وخرج إليه ابن العكي فيمن معه، فقاتله قتالاً شديدًا في منية الخيل، فانهزم ابن العكي ودخل القيروان، وتحصن في دار كان قد بناها، وجلا عن دار الإمارة. وأقبل تمام ودخل القيروان في يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر رمضان. فأمَّنه تمام على دمه وماله، على أنه يخرج عنه.

فخرج تلك الليلة وسار حتى وصل إلى طرابلس ثم مضى إلى سُرْت. وعاد إلى طرابلس بمكاتبة بعض أهل خراسان.

فنهض إبراهيم بن الأغلب من الزاب على تمام غضبًا للعكّي. فلما بلغ تمامًا إقباله جلا عن القيروان، ودخلها إبراهيم بن الأغلب. فخطب الناس وأعلمهم أن أميرهم محمد بن مقاتل. وكتب إليه بالرجوع، فرجع.

ثم أخذ تمام في مراسلة الناس وإفسادهم على العكي فمالوا إليه. فكثُر جمعه وطاب نفسًا بقتال العكي. وكتب إليه: «أما بعد. فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردك من كرامتك عليه ولا للطاعة التي يُظهرها، ولكنه كره أن يبلغك أنه أخذ البلاد فترجع إليه. فإن منعك كان مخالفًا، وإن دفعها إليك كان كارهًا. فبعث إليك

(١) نسبة إلى عكّ، وهي قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن ومقابله مرساها دهلك. . . (معجم ياقوت ٤ :١٤٢).

لترجع ثم يسلمك إلى القتل. وغدًا تعرف ما جربت من وقعتنا أمس» وفي آخره: [من الطويل]

وما كان إبراهيمُ من فَضْل طاعة ... يَرُدُّ عليك الثَّغْرَ إلا لتُقتَلا
فلو كنتَ ذا عقلٍ وعلمٍ بكيده ... لَما كنتَ منه يا بن عكٍّ لتَقْبلا

فلما وصل كتابه، قرأه العكي ودفعه إلى إبراهيم بن الأغلب. فقرأه وضحك وقال: «قاتله الله! ضَعْفُ عقله زَيَّن له ما كتب به» فكتب إليه ابن العكي:

«من محمد بن مقاتل إلى الناكث تمام.

أما بعد، فقد بلغني كتابك، ودلني ما فيه على قلة رأيك. وفهمت قولك في إبراهيم. فإن كنت كتبتَ نصيحة، فليس من خان الله ورسوله وكان من المفسدين بمقبول منه ما يَتنصَّح به. وإن كانت خديعة فأقبحُ الخدائع ما فُطِن له. وأما ما ذكرت من إسلام إبراهيم إذا التقينا، فَلعمْر أبيك ما يلقاك أحد غيره. وأما قولك: إنا جربنا من وقعتك أمس ما سنعرفه غدًا، فإن الحرب سِجال[1]: فلنا يا تمام عليك العُقْبَى إن شاء الله» وفي أسفله: [من الطويل]

وإنّي لأرجو إن لَقيت ابنَ أغْلَبٍ ... غداةَ المنايا أن تُفَلَّ وتُقْتَلا[2]
تُلاقي فتىً يَسْتصحب الموتَ في الوغى ... ويحمي بصدر الرمح مَجْدًا مؤثَّلا[3]

فأقبل تمام من تونس في جمع عظيم. وأمر ابن العكي من كان معه من أهل الطاعة بالخروج إليه وتقدمة إبراهيم بن الأغلب. والتقوا واقتتلوا فانهزم تمام إلى تونس، وقُتل جماعة من أصحابه.

وانصرف العكي إلى القيروان ثم أمر إبراهيم بالمسير إلى تمام بتونس، وذلك في شهر المحرم سنة أربع وثمانين ومائة. فلما بلغ تمامًا إقباله كتب إليه يسأله الأمان، فأمّنه. وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من الشهر. فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب بعث تمام بن تميم وغيره من وجوه الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد، فحبسوا في المُطْبَق[4].

---

(١) الحرب بينهم سِجال: أي نصرتها بينهم متداولة، سجل منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء. والسّجْل: النصيب من الشيء.
(٢) تفلّ: فلَّ حدُّ السيف تقطّع وتكسّر. (٣) المؤثّل: الأصيل الشريف.
(٤) المطبق: السجن تحت الأرض.

قال: ودام محمد بن مقاتل في القيروان إلى أن عزله الرشيد واستعمل إبراهيم بن الأغلب، على ما نذكره في أخبار دولة بني الأغلب إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء دولة بني الأغلب

هذه الدولة أول دولة قامت بإفريقية وجرى عليها اسم الدولة. وكان من قَبْلهم عمالاً إذا مات أحد منهم أو صَدَر منه ما يوجب العزل، عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء في الدولة الأموية والعباسية. فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر. وإنما كانت ملوكها تراعي أوامر الدولة العباسية، وتعرف لها حق الفضل والأمر، وتُظهر طاعة مَشوبة بمعصية. ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم. وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يرونه من أولادهم وإخوتهم، فلا يخالفه قوادهم ولا يراعون أهلية من يوصَى إليه بل يقدمونه على أي صفةٍ كان مستحقًا أو غير مستحق. وسنذكر من أخبارهم ما يدل على ذلك. وكان عدّة من ملك منهم أحد عشر ملكًا. ومدة أيامهم مائة سنة واثنتي عشرة وأيامًا. وأول من ملك منهم إبراهيم بن الأغلب.

ذكر ولاية إبراهيم بن الأغلب بن سالم ابن عقال بن خفاجة التميمي

قال: لما كان من أمر إبراهيم بن الأغلب ما ذكرناه، من نُصْرته لابن العكي وإخراجه تمام بن تميم وإعادة العكي، كتب يحيى بن زياد صاحب البريد بالخبر إلى هارون الرشيد. فقرأ الكتاب على أصحابه، وقال لهرثمة بن أعين: «أنت قريب العهد» فقال: «يا أمير المؤمنين، قد سألتني في مقدمي منها عن طاعة أهلها، وأخبرتك أنه ليس بها أحد أفضل طاعة ولا أبعد صيتًا ولا أرضى عند الناس من إبراهيم. ثم صدق قولي قيامُه بطاعتك» فأمر الرشيد بكتابة عهده على إفريقية. فلما وصل إليه العهد، أرسل إلى ابن العكي: «أقم ما شئت حتى تتجهز».

فأقام أيامًا ثم رحل إلى طرابلس. فوافاه حماد السعودي بكتابين قدم بهما إلى إفريقية على العادة. فافترى ابن العكي كتابًا ثالثًا بعزل إبراهيم وولايته وبعث به إلى القيروان. فلما قرىء على الناس قالوا لإبراهيم: «أقم بمكانك واكتب إلى أمير المؤمنين، فإن ابن العكي اختلق هذا زورًا، ولم يكافئك على نصرتك له وحقنك دمه» فقال: «والله لقد ظننت ظنكم وإنما اجترأ ابن العكي على الثغر لموضعه من

جعفر بن يحيى» ثم عسكر إبراهيم يريد الخروج إلى الزاب وأتى كتاب محمد بن مقاتل إلى سهل بن حاجب يستخلفه إلى أن يقدم. فكتب صاحب البريد إلى الرشيد. فغضب وكتب إلى ابن العكي: «أما بعد، فلم يكن آخر أمرك يشبه إلا أوله. فلأيِّ مناقبك أوثِرك على إبراهيم بولاية الثغر: ألفرارك وإقدامه أم لجزعك وصبره أم لِخلافك وطاعته؟ فإذا نظرت في كتابي، فاقْدَم غيرَ محمود الفعال». وكتب إلى إبراهيم بتجديد ولايته. فوصل الرسول إلى القيروان وإبراهيم بالزاب فمضى إليه. وكانت ولايته الثانية التي استقر بها ملكه وملك بنيه من بعده، لاثنتي عشرة ليلة مضت من جُمادى الآخرة سنة أربع وثمانين ومائة. وقفل ابن العكيّ إلى المشرق.

قال: ولما ولّي إبراهيم قمع أهل الشر بإفريقية، وضبط البلاد، وأحسن إلى من بها. وبعث بأهل الشر الذين جرت عادتهم بمخالفة الأمراء والوثوب عليهم إلى بغداد كما ذكرنا.

وابتنى إبراهيم قصرًا وجعله متنزهًا. ثم جعل ينقل إليه السلاح والأموال سرًا. وهو مع ذلك يراعي أمور أجناده ويُصلح طاعتهم ويصبر على جفائهم. وأخذ في شراء العبيد وأظهر أنه يحب أن يتخذ من كل صناعة من يُغنيه عن استعمال الرعية في كل شيءٍ. ثم اشترى عبيدًا لحمل سلاحه وأظهر للجند أنه أراد بذلك إكرامهم عن حمله. ولما تهيأ له من ذلك ما أراده انتقل من دار الإمارة وصار إلى قصره بعبيده وحشمه وأهل بيته؛ وكان انتقاله ليلاً. وأسكن معه من يثق به من الجند. وكان يتولّى الصلاة بنفسه في المسجد الجامع بالقيروان والمسجد الذي بناه بالقصر.

وفي أيامه خرج حمديس بن عبد الرحمٰن الكندي فخلع السواد. وجمع جموعًا كثيرة وأتى بعرب أهل البلد وبربرها، وكثرت جموعه بمدينة تونس. فبعث إليه إبراهيم عمران بن مجالد ومعه وجوه القواد. فالتقوا بسبخة تونس واقتتلوا قتالاً شديدًا، وكثر بينهم القتل. وجعل أصحاب حمديس يقولون: «بغداد بغداد، فلا والله لا اتخذت لكم طاعة بعد اليوم أبدًا». ثم قُتل حمديس وانهزم أصحابه. ودخل عمران تونس وتتبع من كان مع حمديس وقتلهم حتى أفناهم. وكان خروجه في سنة ست وثمانين ومائة.

وفي أيامه جمع إدريس[١] بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب جموعًا كثيرة، وأطاعه من حوله من القبائل. فكره إبراهيم قتاله وعمل في

(١) كان إدريس فارسًا شجاعًا شاعرًا... (مقاتل الطالبيين ٤٩١).

إفساد أصحابه عليه. وكتب إلى بهلول بن عبد الواحد المدغري، وكان رئيسًا مطاعًا في قومه، وهو القائم بأمر إدريس وصاحب سره، ولم يزل به حتى فارقه وعاد إلى الطاعة. فلما فعل ذلك كتب إدريس إلى إبراهيم كتابًا يستعطفه ويسأله الكفّ عنه ويذكر قرابته من رسول الله ﷺ، فلم يجر بينهما حرب.

وخرج عن طاعة إبراهيم أيضًا عمران بن مجالد. وكان سبب خروجه أن إبراهيم لما بنى قصره المعروف القديم ركب يومًا وهو يفكر في الانتقال إليه ومعه عمران بن مجالد. فجعل عمران يحادثه من حيث ركبا إلى أن بلغا مصلّى روح، فلم يفقه إبراهيم من حديثه شيئًا. فقال لعمران: «ألم تعلم أني لم أسمع من حديثك شيئًا أعِدْه علي» فغضب عمران وقال: «أحدثك من حيث خرجت وأنت لاهٍ عني». وتغير من ذلك اليوم وألب على إبراهيم. فلما انتقل إبراهيم إلى قصره وأقام مدة، ثار عمران في جيشه. واستولى على القيروان وقوي أمره وكثرت أتباعه. ودامت الحرب بينه وبين إبراهيم سنة كاملة، كانت خيل إبراهيم تضرب إلى القيروان فتقتل من قدرت عليه، وخيل عمران تفعل مثل ذلك.

ثم وصل إلى إبراهيم رسول أمير المؤمنين بأرزاق الجند فوجه ابنه عبد الله إلى طرابلس، فقبض أرزاق الجند ووصل بها إلى أبيه. فلما صار المال إليه، تطلعت أنفس الجند إلى أرزاقهم وهمُّوا بإسلام عمران. وتبين ذلك له. فركب إبراهيم في خيله ورَجْله وعبيده، وعبأ عساكره تعبئة الحرب، وتوجه إلى القيروان. حتى إذا قرب منها أمر مناديه فنادى: «من كان له اسم في ديوان أمير المؤمنين فليقدم لقبض عطائه». ثم انصرف إلى قصره ولم يُحْدث شيئًا. فلما أمسى عمران أيقن أن الجند تسلمه. فركب وسار إلى الزاب ليلاً ومعه عمرو بن معاوية وعامر بن المعتمر. فخلع إبراهيم أبواب القيروان وثلم في سورها. وقوي عند ذلك أمره. وزاد في بناء القصر القديم. وأقطع فيه الدور لأهل بيته وأنصاره ومَواليه.

وبقي عمران بالزاب إلى أن توفي إبراهيم وصار الأمر إلى ابنه أبي العباس. فكتب إليه يسأله الأمان فأمنه. وقدم إليه وأسكنه القصر. ثم سُعي به فقتله.

واستمرت أيام إبراهيم إلى سنة ست وتسعين ومائة، فتوفي لثمان بقين من شوال منها، وهو ابن ست وخمسين سنة. وكانت مدة ولايته اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام.

وكان فقيهًا، عالمًا، خطيبًا، شاعرًا، ذا رأي وبأس، وحزم، وعلم بالحروب ومكائدها، جريء الجَنان، طويل اللسان، حسن السيرة. قال ابن الرقيق: لم يَلِ

إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة ولا أحسن سياسة، ولا أرفق برعية، ولا أضبط للأمر. وكان كثير الطلب للعلم، والاختلاف إلى الليث بن سعد. وله أخبار حسنة وآثار جميلة، رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية أبي العباس عبد الله ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: لما مات إبراهيم بن الأغلب، صار الأمر بعده إلى ابنه أبي العباس عبد الله، وكان إذ ذاك بطرابلس، فقام له أخوه زيادة الله بالأمر، وأخذ له البيعة على نفسه وأهل بيته وجميع رجاله. وقدم عبد الله من طرابلس في صفر سنة سبع وتسعين ومائة. فتلقاه زيادة الله وسلّم إليه الأمر.

قال: فحمل عبد الله في ولايته على أخيه زيادة الله حملاً شديدًا وتَنَقصه، وأمر بإطلاق من كان في حبسه. وزيادة الله مع ذلك يُظهر له التعظيم والتبجيل.

وأراد عبد الله أن يحدث جورًا عظيمًا على الرعية فأهلكه الله عزّ وجل قبل ذلك. وكان قد أمر صاحب خراجه أن لا يأْخذ من الناس العشر، ولكن يجعل على كل زوج تحرث ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب. فاشتد ذلك على الرعية وسألوه فلم يجب سؤالهم. وقدم حفص بن حُميد الجَزَري[1]، ومعه قوم صالحون من أهل الجزيرة وغيرها. فاستأذنوا على أبي العباس فأذن لهم. فدخلوا عليه ـ وكان من أجمل الناس ـ فكلمه حفص بن حميد فكان فيما قال له: «أيها الأمير، اتق الله في شبابك، وارحم جمالك وأشفِق على بدنك من النار. ترى على كل زوج يُحرَث به ثمانية دنانير. فأزل ذلك عن رعيتك، وخذ فيهم بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ. فإن الدنيا زائلة عنك كما زالت عن غيرك» فلم يُجبه إلى شيء مما أراد. وتمادى على سوء فعله وأظهر الاستخفاف بهم. فخرج حفص بن حميد ومن معه فتوجهوا نحو القيروان. فلما صاروا بوادي القصارين قال لهم حفص: «قد يئسنا من المخلوقين فلا نيأس من الخالق». فسألوا الله وتضرعوا إليه، فدعوا الله على أبي العباس أن يمنعه مما أراده بالمسلمين ويكفّ جوره عنهم. ثم دخلوا مدينة القيروان، فخرجت لأبي العباس قرحة تحت أذنه فقتلته في اليوم السابع من دعائهم واسودّ لونه. وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين. فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرًا واحدًا وأربعة عشر يومًا.

---

(١) نسبة إلى الجزيرة.

ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله
ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولما توفي أخوه أبو العباس صار الأمر إليه بعده. وهو أول من سُمِّي زيادة الله. وكذلك هبة الله بن إبراهيم بن المهدي، هو أول من سمّي هبة الله.

قال: ولما ولي زيادة الله أغلظ على الجند، وأمعن في سفك دمائهم، واستخف بهم، وحَمَله على ذلك سوء ظنه بهم لتوثُّبهم على الأمراء قبله وخِلافهم على أبيه مع عمران بن مجالد. وكان أبوه أغضى عن كثير من زلاتهم وصفح عن إساآتهم فسلك زيادة الله فيهم غير سبيل أبيه. وكان أكثر سفكه وسوء فعله إذا شرب وسكر. فخرجوا عليه. وكان الذي هاجهم على الخروج عليه أنه ولّى عمر بن معاوية القيسي، وكان من شجعان الجند ورؤسائهم وأهل الشرف منهم، على القصرين وما يليهما. فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف عليه. وكان له ولدان يقال لأحدهما حُباب والآخر سُكنان. فوجه إليه زيادة الله موسى مولى إبراهيم المعروف بأبي هارون، وكان قد ولاه القيروان. فخرج إليه وحاصره أيامًا. فلما ضاق به الأمر ألقى بيده ونزل معه. وسار إلى زيادة الله هو وولداه. فلما قدموا عليه حبسهم عند غلبون ابن عمه. ثم نقلهم إلى حبسه من يومه وقتلهم.

فلما بلغ منصور بن نصر الطُّنبُذي وهو من ولد دُرَيد بن الصِّمَّة ذلك ساءه، وكان على طرابلس. فقال: «يا بني تميم، لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد» فكتب صاحب الخبر بكلامه إلى زيادة الله. فعزله واستقدمه، فقدم. وكان غلبون معتنيًا به فأصلح أمره عند الأمير زيادة الله، فخلى عنه. فأقام أيامًا يتردّد إلى زيادة الله حتى ذهب ما بقلبه عليه. ثم استأذنه في الوصول إلى منزله فأذن له. فخرج إلى تونس، وكان له بإقليم المحمدية قصر يقال له طُنبذة، وبه لقّب الطنبذي، فنزل به. وجعل يُراسل الجند ويذكر لهم ما يلقَون من زيادة الله وما فعل بعمر بن معاوية وابنيه، ويخوفهم أن يفعل بهم وبأولادهم كفعله بعمر.

فبلغ ذلك زيادة الله فعَرَض الجند على عادته. ثم دعا محمد بن حمزة فأخرجه في خمسمائة فارس بالسلاح كما عُرِضوا بين يديه. وقال له: «امض إلى تونس فلا يشعر منصور إلا وقد أخذته ومن معه، واقْدَم به موثقًا». فخرج ابن حمزة حتى أتى تونس فلقي منصورًا غائبًا بقصره، فنزل في دار الصناعة. ووجه إلى منصور شجرة بن عيسى القاضي وأربعين شيخًا من أهل تونس، يُرَغبه في الطاعة ويدعوه إلى إتيانه.

فمضوا إليه وأبلغوه رسالة محمد بن حمزة فقال: «ما خلعتُ يدًا من طاعة، ولا أحدثتُ حَدَثًا، وأنا صائر إليه معكم. ولكن أقيموا عليّ يومي هذا حتى أُعدَّ لهؤلاء القوم ما يُصلحهم». فأقاموا. فوجه إلى ابن حمزة ببقر وغنم وعلف وأحمال نبيذ. وكتب إليه: «إني قادم بالغداة مع القاضي» فركن إلى قوله، وأخذ هو ومن معه في الأكل والشرب.

فلما أمسى منصور قبض على القاضي ومن معه، وحبسهم في قصره. وجمع خيله ورجْله ومضى إلى تونس. فما شعر به محمد بن حمزة حتى ضرب طبوله على باب دار الصناعة. فقام ابن حمزة وأصحابه لأخذ سلاحهم وقد عمل الشراب فيهم. فأوقع بهم منصور وأصحابه فقتلهم. ولم يسلم منهم إلا من ألقى نفسه في البحر فسبح. وأصبح منصور، فاجتمع إليه الجند. وكان عامل زيادة الله على تونس إسماعيل بن سفيان بن سالم من أهل بيت زيادة الله، فقتله منصور وقتل ابنه.

فلما اتصل بزيادة الله قتل ابن عمه وولده ورجاله، جمع صناديد الجند، ووجَّههم مع غلبون. وركب بنفسه مشيِّعًا له. فلما ودع الجند قال لهم زيادة الله: «انظروا كيف تكونون وكيف تناصحون. فبالله أقسم إن انصرف إليّ أحد منكم منهزمًا لا جعلتُ عقوبته إلا السيف». فكان ذلك مما ساءت به نفوس القوم حتى همُّوا بالوثوب على غلبون. فمنعهم من ذلك جعفر بن مَعْبد وقال: «لا تحملكم إساءة زيادة الله فيكم أن تغدروا بمن أحسن إليكم وفكّ رقابكم». وكان غلبون يعتني بأمر القواد عند زيادة الله. فانصرفوا عن رأيهم فيه ومضوا حتى صاروا بسبخة تونس. فكاتب القواد الذين مع غلبون منصورًا وأصحابه وأعلموهم أنهم منهزمون عنه. فلما التقوا حمل منصور وأصحابه عليهم فانهزموا بأجمعهم. ثم اجتمعوا بعد الهزيمة إلى غلبون واعتذروا وحلفوا أنهم ناصحون واجتهدوا. وقالوا: «نحن لا نأمن على أنفسنا. وإن أصبت لنا ما نأمن به قدِمنا إن شاء الله». وتفرقوا عنه. وسار كل منهم إلى جهة فتغلب عليها. واضطربت إفريقية فصارت نارًا تتَّقد.

وصار الجند كلهم إلى منصور الطنبذي، وأعطوه أزمة أمورهم، وولّوه على أنفسهم. وقدم غلبون على زيادة الله فأعلمه الخبر. فكتب الأمانات وبعث بها إلى الجند والقواد. فلم يقبلوها وخلعوا الطاعة.

ثم جمعوا جمعًا ووجه عليهم منصور عامر بن نافع. فعقد زيادة الله لمحمد بن عبد الله بن الأغلب، ووجه معه جيشًا كثيفًا وأوعب فيه من رجاله ومواليه. فالتقوا واقتتلوا، فانهزم محمد بن عبد الله وقُتل جماعة من وجوه أصحابه، منهم محمد بن

غلبون، وعبد الله بن الأغلب، ومحمد بن حمزة الرازي، وغيرهم، وقُتلت الرجَّالة عن آخرهم. وتتبع الجند أصحاب زيادة الله فقتلوهم.

فعند ذلك زحف زيادة الله بنفسه ونزل بين القيروان والقصر وخَنْدَق هناك. وكانت بينهم وقعات كثيرة تارة لهؤلاء وتارة لأولئك. ثم انهزم منصور ومن معه حتى لحقوا بتونس. وكان أهل القيروان أعانوا منصورًا على قتال زيادة الله، فقال له أصحابه «ابدأ بها واقتل من فيها» فقال: «إني عاهدت الله تعالى إن ظفرت أن أعفو وأصفح» فعفا عنهم إلا أنه هدم سور القيروان ونزع أبوابها.

قال: ثم اجتمع لمنصور أصحابه وقوي أمره. ولم يبق في يد زيادة الله من إفريقية كلها إلا الساحل وقابس. فكتب الجند إلى زيادة الله: «أن ارحَلْ حيث شئت وخَلِّ عن إفريقية، ولك الأمان في نفسك ومالك وما ضمه قصرك». فاستشار أصحابه في ذلك. فقال له سفيان بن سوادة: «أيها الأمير، أمكِنِّي من ديوان رجالك حتى أنتقي مائتي فارس ممن أثق به». فدفع إليه الديوان فاختار منه مائتي فارس، وأعطاهم وأفضَل عليهم ثم خرج حتى أتى نفزاوة[١] وعليها من الجند عبد الصمد بن جُناح الباهلي. فدعا سفيان بربر ذلك الموضع فأجابوه. فاجتمع إليه خلق كثير من زناتة وغيرهم وسائر القبائل. ففتح البلاد بلدًا بلدًا حتى بلغ قسطيلية[٢]. ثم قدم على زيادة الله في سنة ثماني عشرة ومائتين. فكان سعيد يقول: «والله، ما رأيت أعظم بركة من تلك المائتي فارس».

ووقع الشتات والحسد بين الجند. ووقع الخلاف بين منصور وعامر بن نافع. فحاصره عامر بقصره بطنبذة. فجرت بينهما السفراء على أن يؤمن منصورًا على نفسه وماله وحشمه، ويركب سفينة فيتوجه فيها إلى المشرق، فأجابه عامر إلى ذلك. فقال له بعض أصحابه: «تفعل ذلك بنفسك ويسومك الضيم؟ انهض إلى الأربس فإنهم سامعون مطيعون» فوافق على ذلك وخرج من القصر ليلاً وسار إلى الأربس. فلما أصبح عامر لم يره بقصره، فسار في إثره إلى الأربس وحاصره. وآخر الأمر أنه عاد سأل الأمان على أن يتوجه إلى المشرق ويركب في سفينة من تونس. وخرج إلى عامر

---

(١) نفزاوة: بالكسر ثم السكون، وزاي، وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال إفريقية.. وبها عين تسمى بالبربرية تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها.. ولها سور صخر وطوب ولها ستة أبواب... (معجم البلدان).

(٢) قسطيلية: بالفتح ثم السكون، وكسر الطاء، وياء ساكنة، ولام مكسورة، وياء خفيفة، وهاء: مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة إلبيرة كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار تشبه دمشق... (معجم ياقوت).

فوجه معه خيلاً. وأمر صاحب الخيل أن يأخذ به على طريق قَرْنة وأن يُصيِّره في سجنها. ففعل ذلك وحبسه بها عند حمديس بن عامر. ثم كتب عامر إلى ابنه أن يضرب عنقه ففعل. وضرب عامر عنق أخي منصور.

وصار أمر الجند إلى عامر بن نافع فظن أن الأمور تستقيم له. فكتب إليه زيادة الله كتابًا يدعوه فيه إلى الطاعة ويبذل له الأمان. فكتب إليه عامر يعدد عليه مساوىء أفعاله، ويقول في آخره: «ما بيني وبينك موادّة حتى تضع الحرب أوزارها ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين». ثم اختلف الجند على عامر، وانتقض عليه أمره، ووَجد[1] عليه قواد المضرية، لما صنع بمنصور وأخيه، فنافروه وحاربوه. وخالفه عبد السلام بن المفَرِّج، وكان قد استولى على باجة وبايع له جماعة من الجند. وزحف إلى عامر فاقتتلوا، فانهزم عامر، ومضى إلى قرنة، وتفرق شمل الجند وأمر زيادة الله يعلو.

ثم اعتلّ عامر فلما أيقن بالموت استدعى بنيه وقال لهم: «يا بني، ما رأيت في الخلاف خيرًا. فإذا أنا مت ودفنتموني فلا تُعرِّجوا على شيء حتى تلحقوا بزيادة الله، فهو من أهل بيت عفو. وأرجو أن يسركم ويقبلكم أحسن قبول». فلما مات، فعلوا ذلك وأتوا زيادة الله. وجعل الجند يستللون إلى زيادة الله ويستأْمنون، وهو يؤمنهم ويُحسن إليهم.

وأما عبد السلام فقاتلته عساكر زيادة الله وحصروه وضايقوه فوُجد ميتًا فقيل مات عطشًا. فبعثوا برأسه إلى زيادة الله.

واستقامت إفريقية وصفت بعد أن دامت الفتنة ثلاث عشرة سنة.

قال: ثم أمر زيادة الله ببناء المسجد الجامع بالقيروان وهدم ما كان بناه يزيد بن حاتم، وذلك في جُمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين ومائتين. وذكر أن زيادة الله قال يومًا لخاصته «إني لأرجو رحمة الله، وما أراني إلا أفوز بها إذا قدمت عليه يوم القيامة وقد علمت أربعة أشياء: بنيت المسجد الجامع بالقيروان وأنفقت عليه ستة وثمانين ألف دينار، وبنيت قنطرة باب أبي الربيع، وقصر المرابطين بسوسة[2]، ووليت القضاء أحمد بن أبي محرز».

---

(١) وجد عليه: غضب وحزن.

(٢) سوسة: بضم أوله: بلد بالمغرب، وهي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب إلى الصفرة، ومن السوسة يخرج إلى السوس الأقصى على ساحل البحر المحيط بالدنيا... (معجم البلدان).

وفي أيام زيادة الله فُتحت صقلية، وذلك أنه وجه إليها أسد بن الفرات القاضي في عشرة آلاف. فزحف إليه ملكها في مائة وخمسين ألفًا. فهزمه وفتحها. واستعمل عليها زيادة الله محمد بن عبد الله بن الأغلب.

وكانت وفاة زيادة الله في يوم الثلاثاء لأربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ثلاثة وعشرين ومائتين، وهو ابن إحدى وخمسين سنة. وكانت ولايته على إفريقية إحدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وثمانية أيام.

وكان من أفصح أهل بيته لسانًا وأكثرهم بيانًا، وكان يُعرب كلامه ولا يلحن من غير تشَادُق ولا تَقْعير. وكان يقول الشعر الحسن الجيد.

حكي أن رسولاً أتاه من أبي عبد الله المأمون بغير ما يحب. فكتب جواب الكتاب وهو سكران، وفي آخره أبياتًا، وهي: [من الطويل]

أنا النارُ في أحجارِها مستكِنَّةٌ فإن كنتَ ممن يَقْدَح الزَّنْدَ فاقْدَحِ[1]
أنا الليث يحمي غِيله بزئيره فإن كنتَ كلبًا حان يومُك فانْبَحِ[2]
أنا البحر في أمواجه وعُبابِه فإن كنت ممن يَسْبح البحر فاسْبَح

فلما صحا بعث في طلب الرسول ففاته. فكتب كتابًا آخر فيه تلطف. فوصل الكتاب الأول والثاني. فأعرض المأمون عن الأول وأجاب عن الثاني بكل ما أحب.

وله حكايات حسنة تدل على عفوه وصَفْحه وحِلْمه. فمن ذلك أنه بلغ أُمَّه جلاجل أن أخت عامر بن نافع قالت: «والله لأجعلنَّ جلاجل تطبخ لي الفول بِيصارا». فلما ظفر ابنها زيادة الله بالقيروان، أمرت جلاجل بفول فطُبخ بِيصارا وبعثت منه إليها مع بعض خدمها، فوُضع بين يديها، وقالت الجارية التي أحضرته إليها: «سيدتي تسلم عليك وتقول لك: قد طبختُ هذا لك لأبرّ قَسَمك» فأوْحَشها ذلك وقالت: «قولي لها: قد قدرتِ فافعلي ما شئت» فبلغ ذلك زيادة الله فقال لأمه: «قد ساءني ما فعلت يا أم، إن الاستطالة مع القدرة لؤم ودناة، وقد كان أولى بك أن تفعلي غير هذا» قالت: «نعم، سأفعل ما يُرضيك ويُحسن الأُحدوثة عنا» وبعثت إليها بكسوة وصلة وألطاف. ورَفَقت بها حتى قبلت ذلك وطابت نفسها.

---

(١) الزند: العود الأعلى الذي تقدح به النار، والأسفل هو الزندة.

(٢) الغيل: الشجر الكثير الملتفّ، مكان الأسد.

ذكر ولاية أبي عقال الأغلب
ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولما توفي زيادة الله ولّي أخوه أبو عقال، وهو الملقب بخَزَر. وكان في مبدإ ولاية أخيه زيادة الله قد خافه على نفسه لأن الأغلب كان شقيق عبد الله. فخشي أن يطالبه زيادة الله بفعل أخيه فاستأذنه على الحج، فأذن له. فخرج وأخرج معه ابني أخيه عبد الله، وهما محمد وإبراهيم. فحجّ وأقام بمصر. ثم كتب إلى زيادة الله يستعطفه ويستميله. فقدم إليه، فأكرمه وأحسن إليه. وجعل أمور دولته بيده.

فلما مات زيادة الله وصار الأمر إليه، لم يكن في أيامه حروب فأمن الجند وأحسن إليهم. وغيّر أحداثًا كثيرة كانت للعمال، وأجرى على العمال الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة. وقبض أيديهم عن أموال الناس، وكَفَّهم عن أشياء كانوا يتطاولون إليها. وقطع النبيذ من القيروان.

وتوفي في يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين. فكانت ولايته سنتين وتسعة أشهر وتسعة أيام. وكان شبيهًا بجده الأغلب في الخَلْق والخُلُق.

ذكر ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب
ابن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولّي بعد أبيه، وكان من أجهل الناس، لكنه أُعطِي في إمارته ظفرًا على من ناوأه. وقلّد أخاه كثيرًا من أعماله. وكان قد غلب عليه وتولّى أموره ووزارته ابنا علي بن حُمَيد، وهما أبو عبد الله وأبو حميد. فساء ذلك أبا جعفر أخاه، وعَظُم عليه وعلى أصحابه، وحسدوهما على مكانهما من الأمير محمد وكان المقدم عند أبي جعفر أحمد بن الأغلب نصر بن حمزة الجَرَوي. فأخذ أبو جعفر في التدبير على أخيه الأمير محمد. وصانع رجالاً من مواليه، ومحمد في غفلة عن ذلك قد اشتغل باللهو واللعب وانهمك على الملاذّ. فلما اجتمع لأحمد من أصحابه ما علم أنه يقوم بهم ركب في وقت الظهيرة ـ وقد خلا باب محمد من الرجال ـ فهجم على أبي عبد الله بن علي بن حميد فقتله، وعلا الصياح. فبلغ الخبر محمدًا فقصد قبّة عمه زيادة الله. ووقع القتال بين رجال الأمير محمد ورجاله أخيه أحمد. فجعل أصحاب أحمد يقولون لأصحاب محمد: «ما لكم تقاتلون؟ لا طاعة إلا طاعة محمد. إنما قمنا على

أولاد علي بن حُميد الذين قهروكم واستأثروا بمال مولاكم دونكم. وأما نحن ففي الطاعة ما خلعنا منها يدًا» فلما سمعوا ذلك فشلوا عن القتال.

ولما رأى محمد ما دهمه ـ وهو على غير استعداد ـ جلس في مجلس العامة. وأذن لأخيه أحمد والذين معه من الرجال بالدخول، فدخلوا عليه. فعاتب أخاه أحمد فقال له: «إن أولاد علي بن حميد كادوا الدولة وأرادوا زوال ملكك، فقمت غضبًا لك وحذرًا على أيامك» فلم يجد محمد بُدًا من مداراته والإغضاء عما فعل. فتحالفا أن لا يغدر أحد منهما بصاحبه. واصطلحا على أن يدفع محمد لأخيه أحمد أبا حميد بن علي، وكان قد لجأ إليه في وقت قتل أخيه. فدفعه إليه على أن أحمد لا يقتله ولا يصله بمكروه. فانصرف إلى منزله.

وعظم قدر أحمد، واشتد سلطانه، وجعل الدواوين إلى نفسه. وصار الأمر كله له، ولم يبق لمحمد من الإمارة إلا مجرد الاسم وعزل أحمد حجاب محمد، وجعل على بابه حجابًا من قبله. ووكل خمسمائة من عبيده ومواليه ببابه. وعذب أبا حميد، وأخذ أمواله. ووجه به مع أبي نصر مولى إبراهيم بن الأغلب، وأمره أن يسير به إلى طرابلس ويبعثه إلى مصر. وأسرَّ إليه أنه إذا صار بقَلْشانة[1] يقتله. ففعل ذلك وخنقه حتى مات. وحمله على نعش إلى قلشانة. وأحضر من شهد أنه لا أثر فيه ولا جرح وقال: «إنه سقط عن الدابة فمات».

قال: ولما صارت الأمور إلى أحمد قدم نصر بن أحمد الجروي واستوزره. وكان داود بن حمزة الرادري يظن أنه يكون المقدم عليه لأنه كان المدبر لهذا الأمر. ففسدت نيته وأخذ في العمل على أحمد ومكاتبة محمد، وكان محمد قد ترك اللهو وأخذ في الحيلة والتدبير على أخيه أحمد. وكان محمد قد ولّى سالم بن غلبون الزاب. فلما كان من أمر أحمد ما كان، خالف سالم على أحمد، ولم يُطعه. وجعل محمد يبعث إلى وجوه قَرابته وجنده وعبيده ويسألهم نُصْرَته ويعدهم ويمنِّيهم. فكان ممن سعى في نصرة محمد وأتقن له الأمور وأحسن التدبير أحمد بن سفيان بن سَوادة. وكان يقال لأحمد: «إن أخاك يعمل عليك» فلا يُصدق، وعنده أنه قد أتقن التدبير. وكان من حال محمد أنه إذا جاءه رسول من أخيه أحمد يستدعي كأسًا كبيرًا ويمسكه بيده، ويحضر الرسول فيتوهم أنه يشرب. فإذا انصرف رد الكأس فلا يشربه.

---

(١) قلشانة: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة بإفريقية أو ما يقاربها.

فلما كان في اليوم الذي عزم محمد فيه على الوثوب على أخيه، بعث إلى أحمد بنِ سفيان. فجعل يُسلِك من واعَده من العبيد والموالي وغيرهم حتى أدخلهم من أبواب المدينة في الأكسية. وجعلهم يحملون على رؤوسهم جرار الماء حتى اجتمع منهم قبل الزَّوال ثلاثمائة رجل. فصيَّرهم أحمد بن سفيان في داره وأعطاهم السلاح وكان أحمد إذا قيل له: «إنك تُراد ويُعمَل عليك». غضب على من يقول ذلك. واشتغل بالشراب كما كان أخوه في أول أمره. وكان جماعة ممن نصر محمدًا واعَدُوه أن ينزلوا بقصر الماء، والأمارة بينهم أن يسمعوا الطبل ويروا الشمع في أعلى القبّة. وكان أحمد قد دخل الحمام في ذلك اليوم وأطال اللُّبْث فيه. وأتاه عثمان بن الربيع بعد الظهر؛ فأخبره أن أخاه يريده تلك الليلة، وأنه أعدّ رجالاً بقصر الماء. فلم يصدق ذلك، ووجه خيلاً إلى قصر الماء فلم يجدوا به أحدًا. وكان الموعد المغرب، فازداد أحمد تكذيبًا للأخبار وقلّة الاكتراث بما يراد به.

فلما قربت صلاة المغرب، وجه محمد خادمًا له إلى جماعة رجال أخيه الذين كان قد جعلهم ببابه، فقال: «يقول لكم الأمير: إني أحببت بِرَّكم وإكرامكم، فاجتمعوا حتى أبعث إليكم طعامًا وشرابًا. فاجتمعوا، وبعث إليهم بطعام وشراب، فأكلوا وشربوا حتى إذا ظنّ أن الشراب قد عمل فيهم، أرسل الخادم إليهم وقال: يقول لكم الأمير: إني قد أحببت أنْ أُحَلِّي لكم سيوفكم، فمن كان عنده سيف فليَأْت به» فجعلوا يتسابقون بسيوفهم طمعًا في ذلك. فلما كان وقت المغرب وغُلِّقت أبواب القصر، أتاهم عامر بن عَمْرون القرشي فيمن معه. فوضعوا فيهم السيوف فقتلوهم عن آخرهم.

ثم أمر بالطبل فضُرب، والشموع فأُوقدت، فأقبل أصحابه من كل ناحية إلى نُصْرته. وخرج أحمد بن سفيان بن سوادة فجعل يقتل من علم أنه من ناحية أحمد. وأقام القتال بين أحمد بن سفيان وأصحاب أحمد بن الأغلب بقية ليلتهم كلها. وبعث أحمد بن سفيان إلى القيروان يستنصر بأهلها. فأقبلوا إليه في جموع عظيمة وهم ينادون بطاعة محمد. فانهزم أصحاب أحمد بن الأغلب ووُضِعت السيوف فيهم، وهرب أحمد إلى داره.

وكان في حبسه خَفاجة بن سفيان بن سوادة، فأخرجه وقال له: «اللّهَ اللّهَ في دمي وحُرَمي، فإنها حرمك» فقال له خفاجة: «حبستَني ظلمًا منذ سبعة أشهر» فقال: «ليس هذا وقت العتاب فأغثني» فقال له خفاجة: «أعطني فرسًا وسلاحًا» ففعل فركب خفاجة. وصاح به الناس: «يا خفاجة، يا ابن شيخنا ومن نكرمه ونحفظه، إنما

أخرجك هذا الملعون من حبسه الساعة بعد سبعة أشهر، فما هذه النصيحة له؟» فانصرف إلى أحمد فقال له: «أما إنه لا طاقة لك بالقوم، فاستأمِنْ إلى أخيك من قبل أن تهلك» قال: «وكيف لي بذلك؟ فكُنْ أنت رسولي إليه» فسار إليه واستأمن له. فأمنه محمد وأتاه.

فأمر محمد بالخلع على أهل القيروان ومن نصره. فخُلع عليهم جميع ما كان في خزائنه، ورجع إلى ثياب حرمه. وأمر أهل القيروان بالانصراف. ولما صار أحمد إلى أخيه محمد عدَّد عليه ما فعل ثم أخرجه إلى مصر، وسار إلى العراق.

قال: وبنى محمد بن الأغلب القصر الذي بسوسة في سنة ثلاثين.

وفي أيامه توفي سَحْنون بن سعيد[١] في سنة أربعين ومائتين، ودفن بباب نافع. وكان يتولى المظالم بمدينة القيروان.

قال: واعتل محمد بن الأغلب فأقام بعلته أربعة أشهر. ثم توفي في يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وله ست وثلاثون سنة وولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام.

ذكر ولاية أبي إبراهيم أحمد بن محمد ابن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

قال: ولما مات محمد، ولّي بعده ابنه أحمد. وكانت أيامه كلها ساكنة، لم يحدث فيها إلا ما كان بناحية طرابلس. وذلك أن قبائل البربر تجمعت، فكان بينهم وبين عاملها عبد الله بن محمد بن الأغلب حروب كثيرة. فكتب إلى أبي إبراهيم بذلك فأرسل إليهم العساكر، فكانت بينهم وبين البربر حروب شديدة. ثم انهزم البربر وقُتلوا قتلًا ذريعًا. ولأبي إبراهيم آثار عظيمة في المباني بإفريقية. فمن ذلك بنيان المأجَل الكبير بباب تونس. وهو بمعنى الصهريج عندنا. وزاد في جامع القيروان البهو والمجنَّبات والقبة. وبنى المأجَل الذي بباب أبي الربيع والمأجل الكبير الذي بالقصر القديم، وبنى المسجد الجامع بمدينة تونس. وبنى سور مدينة سوسة. وكان آخر ما عمل المأجل الذي بالقصر القديم. فلما فرغ اعتلّ أبو إبراهيم فكان يسأل: هل دخله الماء، إلى أن دخله، فعرفوه فسُرّ به وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه، فشربها

(١) هو مفتي القيروان وقاضيه أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الحمصي الأصل المغربي المالكي صاحب المدونة أخذ عن أبي القاسم وابن وهب وأشهب وله عدة أصحاب وعاش ثمانين سنة... (شذرات الذهب ٢: ٩٤).

وقال: «الحمد لله، الذي لم أمت حتى كمل أمره» ثم مات إثر ذلك. ولم يَزَل أهل القيروان ومن دخلها يترحمون عليه.

وفي أيامه فُتحت قَصْريانَة[1]، وهي من أعظم مدن الروم بصقلية.

وكانت وفاة أبي إبراهيم يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين وله تسع وعشرون سنة. ومدة ولايته سبع سنين وعشرة أشهر وخمسة عشر يومًا.

وكان رحمه الله تعالى حسن السّيرة، جميل الأثر، كريم الأخلاق والأفعال، من أجود الملوك وأسمحهم وأرفقهم برعيته، مع دين وإنصاف للمظلوم، هذا مع حداثة سنه. وكان يركب ليالي شعبان وشهر رمضان، وبين يديه الشمع. فيخرج من القصر القديم حتى يدخل من باب أبي الربيع، ومعه دواب محملة دراهم. فيأمر بإعطاء من لقيه حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقيروان. ويقصد دور العلماء والصالحين فيأمر بقرع أبوابهم. فإذا خرجوا إليه أمر بإعطائهم من ذلك المال.

ذكر ولاية أبي محمد زيادة الله بن محمد ابن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

ولي بعد أخيه. ولم تطل أيامه حتى توفي. وكانت وفاته ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة سنة خمسين ومائتين فكانت ولايته سنة واحدة وسبعة أيام. وكان عالمًا، عاقلاً جميلاً، حسن السيرة، جميل الأفعال، ذا رأي ونجدة وجُود وشجاعة، رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن الأغلب المكنّى بأبي الغرانيق

ولّي بعد عمه زيادة الله.

وكان مشغوفًا بالصيد، فلقب أبا الغرانيق، وذلك أنه بنى قصرًا في السهلين لصيد الغرانيق[2]، أنفق فيه ثلاثين ألف دينار.

---

(١) قصريانة: بالياء المثناة من تحت، وألف ساكنة ثم نون مكسورة وبعدها هاء ساكنة: هو اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقلية على سنّ جبل يشتمل سورها على زروع وبساتين وعيون ومياه... (معجم ياقوت).

(٢) الغرانيق: جمع غرنوق، وهو طائر مائي طويل القوائم والعنق، أو هو الكركي.

ولُقّب في آخر أيامه بالميت، وذلك أنه اعتلّ وطالت علته، فكان يُشنّع عليه بالموت في كثير من الأيام.

وكان في أيامه حروب منها اضطراب ثغر الزاب عليه. فأخرج إليه أبا خفاجة محمد بن إسماعيل في عسكرٍ عظيم. ففتح فتوحات عظيمة في طريقه. وخافه جميع البربر ولم يقُم أحد له إلى أن وصل تَهُودة وبَسْكِرَة[١]. وأعطاه أهل تلك النواحي أزمة أمورهم.

ثم نهض إلى طُبنة، وأتى حي بن مالك البلوي في خيل بَلِزْمَة، فصار في عسكره.

ثم نهض إلى مدينة أبَّة[٢] بجميع عساكره فنزلها. فخافه البربر وسمعوا له وأطاعوا وبذلوا له الرهائن والخراج والعشور والصدقات فلم يقبل منهم.

ومضى يريد بني كملان من هوارة، وكبيرهم في ذلك الوقت مهلب بن صولات فتحرزوا منه، وأرسلوا إليه يطلبون الأمان، ويبذلون له كل ما طلب، فلم يقبل وقاتلهم. فلما نشبت الحرب بينهم، جرّ الهزيمة عليه حي بن مالك من أهل بلزمة. فقُتل أبو خفاجة في جماعة من القواد وكثير من الناس. ووصلت الهزيمة إلى طبنة.

وفي أيامه فتحت مالطة، وهي جزيرة في البحر على يد أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب.

وتوفي أبو عبد الله محمد في يوم الأربعاء لست خلون من جُمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين، وهو ابن أربع وعشرين سنة. وكانت مدة ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يومًا.

وكان غاية في الجود، مسرفًا في العطاء، حسن السّيرة في الرعية رفيقًا بهم، غير أن اللهو والطرب والاشتغال بالصيد واللذات والشراب غلب عليه، حتى إنه مرة سكر وهو بمدينة سوسة وقد ركب في البحر حتى صار إلى جزيرة قَوْصَرَة[٣]. فلما

---

(١) بسكرة: بكسر الكاف، وراء: بلد بالمغرب من نواحي الزاب، بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان... وهي مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات.. وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل... (معجم ياقوت).

(٢) أبّة: بضم أوله وتشديد ثانيه والهاء: اسم مدينة بإفريقية، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام، وهي من ناحية الأربس، موصوفة بكثرة الفواكه وإنبات الزعفران... (معجم البلدان).

(٣) قوصرة: بالفتح ثم السكون، والصاد مهملة: هي جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية... (معجم ياقوت).

ذهب عنه السكر انصرف وهو خائف. وما زال على الانهماك طول عمره. ولم تكن له همّة في جمع المال، فلما مات لم يجد إخوته في بيت المال شيئًا.

ذكر ولاية أبي إسحاق
إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب

قال ابن الرقيق: كان أبو الغرانيق قد عقد لابنه أبي العقال ولاية العهد، وبايع له، واستحلف إبراهيم بن أحمد أخاه خمسين يمينًا بجامع مدينة القيروان أن لا ينازعه في ملكه، وذلك بحضرة مَشْيخة بني الأغلب وقضاة القيروان وفقهائها. فلما مات أبو الغرانيق، أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وهو إذ ذاك والٍ عليهم فقالوا له: «قُم فادخل القصر فإنك الأمير» وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم. فقال: «قد علمتم أن أخي عقد البيعة لابنه، واستحلفني خمسينَ يمينًا أن لا أنازع ولده ولا أدخل قصره» فقالوا: «نحن الدافعون له عن الأمر، والكارهون ولايته، والمانعون له. وليست له في أعناقنا بيعة». فركب من القيروان ومعه أكثر أهلها. فحاربوا أهل القصر حتى دخله إبراهيم. وبايعه شيوخ القيروان ووجوهها وجماعة من بني الأغلب.

فلما ولّي أمر بإنفاذ الكتب إلى العمال والجُباة بحسن السيرة والرفق بالرعية. وولّى حجابته محمد بن قَرْهَب.

وفي صفر سنة ثلاث وستين ومائتين ابتدأ إبراهيم في بناء رَقَّادة[1] وانتقل إليها في السنة. قال: ودَوْرُها أربعة عشر ألف ذراع. وليس بإفريقية أرق هواء ولا أعدل نسيمًا ولا أطيب تربةً من موضعها. قال ابن الرقيق: وقد سمعت من منتقري المعاني من يزعم أنه يعرض له فيها الضحك من غير عجب، والسرور من غير سبب.

وفي أيامه فتحت سَرَقُوسة من صقلية في شهر رمضان سنة أربع وستين ومائتين، على يد أحمد بن الأغلب، وقتل فيها أكثر من أربعة آلاف علج. وأصاب من الغنائم ما لم يوجد في مدينة من مدائن الشّرك. ولم ينجُ من رجالها أحد. وكان مقام المسلمين عليها إلى أن فتحت تسعة أشهر. وأقاموا بعد فتحها شهرين ثم هدموها وانصرفوا.

---

(١) رقادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرقّ تربة منها. . . (معجم البلدان).

وفي سنة أربع وستين، وثب الموالي على إبراهيم وعقدوا الخلاف في القصر القديم، ومنعوا من يجوز إلى رقادة من القيروان. وسبب ذلك أن إبراهيم أمر بقتل رجل منهم يقال له مطروح بن بادر فخالفوا عليه لذلك. فأقبل إليهم أهل القيروان في عدد لا يحصى. فارتدع الموالي وسألوا الأمان فأُمِّنوا. فلما جاؤوا وقت إعطاء الأرزاق، جلس إبراهيم بقصر أبي الفتح، وحضر جميع العبيد لقبض أرزاقهم. فكلما تقدم رجل نُزع سيفه حتى أُخذوا كلهم فقُتل أكثرهم بضرب السياط وصُلبوا. وحُبس بعضهم بسجن القيروان حتى ماتوا فيه. ونُفي بعضهم إلى صقلية. وأمر بشراء العبيد فاشتُري منهم عدد كثير. وحملهم وكساهم وأخرجهم في الحروب، فظهر منهم شجاعة وجلد وقوة.

وفي سنة خمس وستين ومائتين، تجهز العباس بن أحمد بن طولون من مصر عند خروجه على أبيه يريد برقة. واجتمع إليه الناس على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الطولونية. فأخرج إليه إبراهيم حاجبه محمد بن قَرْهَب فلقيه بوادي ورداسة. فاقتتلوا فانهزم ابن قرهب. وقدم ابن طولون إلى لَبْدة[1] فأخذها. ثم نهض منها يريد طرابلس فحصرها أيامًا. فعزم إبراهيم على الخروج بنفسه، فلما صار إلى قابس لقيه ابن قرهب بالفتح وهزيمة العباس. وأخذ من أمواله كثيرًا.

وفي أيامه في سنة ثمان وستين ومائتين اشتد القحط وغلت الأسعار حتى بلغ قفيز[2] القمح ثمانية دنانير. والقفيز مقدار إردب[3] وربع بالمصري. فهلك الناس حتى أكل بعضهم بعضًا.

وفي أيامه عصت وَزْداجَة ومنعوا صدقاتهم. فقاتلهم العامل عليهم وهو الحسن بن سفيان فهزموه حتى وصل إلى باجة. فأرسل إبراهيم حاجبه محمد بن قرهب بالجيوش إليهم. فسار ونزل بجبل من جبال وزداجة يقال له المنار. فكانت خيله تخرج إليهم صباحًا ومساءً. فلم يزل حتى أخذ رهائنهم وأطاعوا واستقاموا.

---

(١) لبدة: مدينة بين برقة وإفريقية، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة، وهو حصن من بنيان الأُول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة، يسكن هذا الحصن قوم من العرب نحو ألف فارس... (معجم ياقوت).

(٢) القفيز: مكيال كان يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجرامًا.

(٣) الإردب: مكيال يسع أربعة وعشرين صاعًا، أو ست ويبات.

وكانت هوارة قد عاثت في البلاد وقطعت السبل فمضى الحاجب إليهم وعرض عليهم الأمان والرجوع إلى الطاعة. فأبوا فقاتلهم وهزمهم. ونهب العسكر ما في منازلهم وأحرقها بالنار. وعاد الحاجب ثم استأمنت هوارة بعد ذلك.

ثم تجمعت لواتة بأجمعها وحاصروا مدينة قرنة أيامًا وانتهبوا ما كان فيها. ومضوا إلى باجة وقصر الإفريقي. فأخرج إليهم إبراهيم محمد بن قرهب. فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب ابن قرهب وكبابه فرسه فأدركوه، وهرب من كان معه. وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وستين ومائتين. فاشتد ذلك على إبراهيم، وأمر بحشد الجند والأنصار والموالي. وأخرجهم مع ابنه أبي العباس عبد الله في سنة تسع وستين. فانتهى الخبر إلى لواتة فهربوا بين يديه فلحقهم بباجة وقتلهم قتلاً ذريعًا. وافترق من سلم منهم في كل ناحية.

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين بلغ إبراهيم أن جماعة من الخدام والصقالبة يريدون قتله وقتل أمه، فقتلهم عن آخرهم. وقتل بناته بعد ذلك.

وفي هذه السنة قتل رجال بَلزَمَة بمدينة رقادة. وكان قبل ذلك قد زحف إليهم وبادرهم بنفسه فلم يتمكن منهم. فأظهر العفو عنهم ورجع. ثم وَفَد عليه وفدهم ووفد أهل الزاب. فأنزلهم في رقادة في دار عظيمة كالفندق، وأجرى عليهم نُزُلاً واسعًا، وخلع عليهم وأكرمهم، حتى اجتمع نحو ألف رجل. فأحاط بهم فامتنعوا وقاتلوا، فقتلهم عن آخرهم. وكان قتلهم سبب انقطاع دولة بني الأغلب، لأن أهل بلزمة كانوا قد أذلوا كتامة[1] واتخذوهم خَوَلاً وعبيدًا، وفرضوا عليهم العشور والصدقات وأنْ يحملوا ذلك على أعناقهم. فكان الذي صنع إبراهيم بأهل بلزمة مما أنقذ كتامة من تلك الذلة وأوجدهم السبيل إلى القيام مع الشيعي.

وفي هذه السنة أمر إبراهيم بشراء العبيد السودان، فبلغت عدّتهم مائة ألف. فكساهم وألزمهم بابه. وجعل عليهم ميمونًا وراشدًا. وقتل حاجبه ابن الصمصامة وإخوته وقرابته.

وولى حجابته الحسن بن ناقد، وأضاف إليه عدة ولايات، منها إمارة صقلية.

---

(١) بنو كتامة: بطن من البرانس، من البربر.. وقال الطبري: هم من حمير وليسوا من قبائل البربر، خلفهم إفريقي الذي تنسب إليه إفريقية، وحينئذ فيكونون معدودين في جملة قبائل العرب... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وفي سنة ثمان وسبعين أيضًا اضطربت إفريقية على إبراهيم. فخالفه أهل تونس والجزيرة وصطفورة وباجة وقمودَة والأربس، وذلك في شهر رجب ولم يجتمع أهل هذه الكور بمكان واحد بل أقام كل رئيس بمكانه. ولم يبق بيد إبراهيم من إفريقية وكورها إلا الساحل الشرقي. فأمر إبراهيم بحفر الخندق على رقادة. وجمع ثقاته على نفسه. وقَرب السودان من قصره. وأحضر شيخًا من بني عامر بن نافع فشاوره في أمره. فقال له: «إنْ عاجلوك قبل أن تختلف كلمتهم خفتُ أنْ ينالوا منك. وإنْ صبروا أمكنك منهم ما تريد». فلما خرج من عنده، قال إبراهيم لابنه أبي العباس: «احبسه عندك لئلا يتكلم بهذا الرأي فيصل إليهم» فحبسه حتى ظفر بهم. وكان سبب ظفره أنه بعث عسكره إلى الجزيرة فقتل منهم خلقًا كثيرًا. وأخذ رئيسها المعروف بابن أبي أحمد أسيرًا. وجيء به إلى إبراهيم فقتله وصلبه. ووجه صالحًا الخادم إلى قمودة فهزمهم. وبعث إلى تونس عسكرًا عظيمًا عليهم ميمون الخادم والحسن بن ناقد حاجبه. فانهزم أهل تونس وقُتلوا قتلاً ذريعًا بعد قتال شديد. ودخل العسكر إلى مدينة تونس فانتهبوا الأموال واستباحوا الحرم وسبوهم. وبعثوا إلى إبراهيم بألف ومائتي أسير، وهم أكابر القوم ورؤساؤهم. وذلك في شهر رمضان من السنة. ووصل الخبر إلى إبراهيم في وقته على جناح طائر. فبعث إلى قائده ألا يقطع رأس قتيل. ووجه العَجَل فحُملت القتلى وشُقّ بها سماط القيروان.

ذكر انتقال إبراهيم إلى تونس

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين، أمر إبراهيم أن تُبنى له بتونس قصوره ومساكنه، فبنيت. ثم انتقل إليها يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جُمادى الأولى. وانتقل أهل بيته وجميع قواده ومواليه.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين، تحرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون بمصر. وحشد وخرج من تونس لعشرٍ خلون من المحرم. فأقام برَقادة إلى سبع بقين من صفر. ثم خرج بعساكره، فاعترضه أهل نفوسة[1] بجمع عظيم في النصف من شهر ربيع الأول. فكان بينهم قتالٌ عظيم، فقُتل ميمون الخادم وجماعةٌ ممن معه. ثم انهزم أهل نفوسة، وتبعهم إبراهيم فقتلهم قتلاً ذريعًا. وتطارَح منهم خلق كثير في البحر

(١) نفوسة: بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك... (معجم البلدان).

فقتلوا حتى احمر لون الماء من دمائهم. فقال إبراهيم «لو كان هذا القتل لله لكان إسرافًا». فقال له بعض رجاله: «لِيَدْعُ الأمير بعضَ مَن أحبّ من مشايخهم ويسأله عن اعتقاده. فإذا سأله علم أن ذلك لله» فأحضر بعضهم، فقال: «ما تقولون في علي بن أبي طالب؟» فقال: «نقول: إنه كان كافرًا، في النار من لم يكفره» فقال إبراهيم: «فجميعكم على هذا الرأي؟» قالوا: «نعم» قال: «الآن طابت نفسي على قتلكم». وجلس على كرسي وبيده حربة. فكان يُقدَّم إليه الرجل منهم فَيقد أضلاعه من تحت منكبيه ثم يطعنه فيصيب قلبه حتى قتل منهم خمسمائة رجل بيده في وقت واحد.

ثم تمادى إبراهيم بعد فراغه من أهل نفوسة إلى طرابلس. وكان محمد بن زيادة الله عامله عليها، وكان إبراهيم كثير الحسد له من صغره على علمه وأدبه. فقتله إبراهيم وصلبه.

ثم سار من طرابلس حتى بلغ عين تاورغا. فرجع كثير ممن معه إلى إفريقية، ولم يبقَ معه إلا أقل من النصف. فلما رأى ذلك انصرف إلى رقادة ثم إلى تونس.

وفي سنة أربع وثمانين، جهز إبراهيم ابنه أبا العباس إلى صقلية لقتال أهلها. فسار إليها في جُمادى الآخرة. فقاتله أهلها قتالاً شديدًا ثم انهزموا. ودخل المدينة بالسيف فقتل خلقًا عظيمًا. ثم عفا عن الناس وأمنهم. ثم ركب حتى جاز المجاز، وأوقع بالروم فقتل المقاتلة وسبى الذرية. ورجع إلى صقلية وقد أثخن في الروم.

ذكر اعتزال إبراهيم الملك وزهده وغزوه ووفاته

وكان سبب ذلك أن رسول الخليفة المعتضد بالله العباسي قدم عليه في سنة تسع وثمانين ومائتين من بغداد إلى تونس. فخرج إبراهيم إليه وضُربت له فازة[١] سوداء في سبخة تونس. فخلا بالرسول وكان بينهما محاورة ولم يأته بكتاب. وكان المعتضد قد أرسله على غضب وسخط لشكوى أهل تونس منه، وصياحهم على المعتضد، ووصفهم له ما صنع بهم إبراهيم، وقالوا: «أهدى إليك نساءنا وبناتنا» فغضب المعتضد، وأمره باللحاق به وأن يعتزل عن إفريقية. وولّى عليها ابنه أبا العباس.

فكره إبراهيم المسير إلى المعتضد. وأظهر التوبة، ورفض الملك، ولبس الخشن من الثياب. وأمر بإخراج من في سجونه. وقطع القَبالات[٢] وبعث إلى ابنه

(١) الفازة: مظلة بعمودين أو بعمود واحد.
(٢) القبالات: الكفالات.

أبي العباس وهو بصقلية ليصير إليه الملك، ويخرج له من الأمر. فقدم عليه في شهر ربيع الأول فسلّم إليه الأمر وخرج من تونس. وأظهر أنه يريد الحج. ووصل إلى سوسة، ووجه رسله إلى بغداد بذلك. ثم بعث من يذكر رجوعه عن الحج وخروجه إلى الجهاد خشية من بني طولون لئلا تسفك بينهما الدماء. واستقرّ الناس، ودعاهم إلى الجهاد، ووسع على من أتاه.

وخرج من سوسة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخرة. فنزل نُوبَة[1] ففرق الخيل والسلاح على أصحابه وأمر بالعطاء. فأُعطي الفارس عشرين دينارًا والراجل عشرة.

وخرج من نوبة إلى طَرابُنْش[1] في البحر. فأقام بها سبعة عشر يومًا يعطي الأرزاق لمن معه.

ثم رحل فدخل مدينة بلرْم[2] لليلتين بقيتا من شهر رجب. وأمر برد المظالم. وأقام بصقلية أربعة عشر يومًا يعطي أهلها ومن بها من البحريين الأرزاق.

وارتحل لتسع خلون من شعبان. فنزل على طَبَرْمين[3] وحاصرها. وكان بينه وبين أهلها قتال شديد حتى أثخنت الجراح في الفريقين. وهمَّ المسلمون بالانحياز فقرأ قارىء: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] الآية. فحمل حُماة العسكر وأهل البصائر بنيات صادقة. فانهزم الكفرة هاربين. فقتلهم المسلمون أبرح قتل، وقَفوا آثارهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال. ودخل إبراهيم ومن معه طبرمين فقتل وسبى.

وبعث زيادة الله ابن ابنه أبي العباس إلى قلعة ميقَش.

وبعث أبا الأغلب ولده بعسكر إلى دَمْنيش[4] فوجد أهلها قد هربوا على وجوههم، فأخذ جميع ما كان بها.

---

(١) طرابنش: اسم مدينة بجزيرة صقلية؛ ينسب إليها قوم، منهم: سليمان بن محمد الطرابنشي... (معجم ياقوت).

(٢) بلرم: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وميم: وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر الغرب على شاطىء البحر... قيل: سورها شاهق منيع مبني من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم... (معجم البلدان).

(٣) طبرمين: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وكسر الميم ثم ياء مثناة من تحت، ونون: قلعة بصقلية حصينة... (معجم ياقوت).

(٤) في معجم ياقوت دمنش: بتشديد النون: من مدن صقلية على البحر... (معجم البلدان).

وبعث ابنه أبا حجر إلى رَمْطَة[١] فطلب القوم الأمان. وأجابوا إلى الجزية.

وبعث سعدون الجَلوي بطائفة إلى لياج فدعوا القوم جميعًا. فأجابوا إلى أداء الجزية. فلم يجبهم ولم يُرضه إلا نزولهم عن الحصون، فنزلوا. وهدم جميع القلاع ورمى حجارتها إلى البحر.

ثم تمادى بالعساكر إلى مَسِّيني[٢] فأقام بها يومين.

وأمر الناس بالتعدية إلى قِلَوْرِيَة[٣] لأربع بقين من شهر رمضان. وتمادى في رحيله إلى أن قرب من مدينة كُسَنْتة. فجاءته الرسل يطلبون الأمان فلم يجبهم. وسار إلى أن وصل كسنتة وقدم العساكر وبقي في الساقة لضعف أصابه. فنزلت العساكر بالوادي. وأمر الناس بالزحف لخمس بقين من شوال. وفرق أولاده وخاصته على أبوابها، فقاتلوا من كل ناحية، ونصبوا المجانيق.

واشتدت علّة إبراهيم، وكانت علته البطن. وعَرَض له الفُواق[٤] فأيس أصحابه منه. فقلدوا الأمر إلى زيادة الله ابن ابنه أبي العباس سرًا. وكانت وفاة الأمير إبراهيم في ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين. فركب القواد إلى أبي مضر زيادة الله، وهو أكبر أولاد أبي العباس بن إبراهيم، فقالوا له: «توَلَّ هذا الأمر حتى تصل إلى أبيك» فقال لعمه أبي الأغلب: «أنت أحق بحق أخيك». فلم يتقدم على زيادة الله، وكان يحب السلامة.

ثم طلب أهل كسنتة الأمان، وهم لا يعلمون بوفاة الأمير، فأُمِّنوا. وأقام المسلمون حتى قدم عليهم من كان توجه إلى الجهات. فلما قدموا ارتحلوا بأجمعهم وعادوا إلى مدينة بلرم. ونقلوا إبراهيم معهم فدفنوه بها. وبُني على قبره قصر. وعادوا إلى إفريقية بأجمعهم.

وكان مولد إبراهيم يوم الأضحى سنة خمس وثلاثين ومائتين. فكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة وأحد عشر شهرًا وأيامًا. ومدة ولايته إلى حين وفاته ثماني وعشرين سنة وستة أشهر واثني عشر يومًا.

---

(١) رمطة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وطاء مهملة: اسم أعجمي لقلعة حصينة بجزير ة صقلية بينهما ثمانية أيام، هي بعيدة من البحر فوق جبل وفيها آثار الماء... (معجم البلدان).

(٢) مسّيني: بالفتح ثم السين المشددة مكسورة، وياء تحتها نقطتان، ونون مكسورة، وياء ساكنة: بليدة على ساحل جزيرة صقلية مما يلي الروم مقابل ريو... (معجم ياقوت).

(٣) قلورية: هي جزيرة في شرقي صقلية وأهلها إفرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة... (معجم البلدان).

(٤) الفواق: تقلص فجائي للحجاب الحاجز يحدث شهقة قصيرة يقطعها تقلص المزمار.

وكان لإبراهيم محاسن ومساوىء ذكرها ابن الرقيق، ونحن نذكر لُمْعَة من محاسن أفعاله ومساوئها، تدل على ما كان عليه. ونترك الإطالة جريًا على القاعدة في الاختصار.

قال: كان على حالة محمودة من الحزم والضبط للأمور. وأقام سبع سنين من ولايته، وهو على ما كان عليه أسلافه من حسن السيرة وجميل الأفعال، إلى أن خرج لمحاربة العباس بن طولون. فلما كُفي مؤنته تغيرت حاله وحرص على جمع الأموال. ثم اشتد أمره فأخذ في قتل أصحابه وكُفاته وحجابه. ثم قتل ابنه وبناته وأتى بأمور لم يأْت غيره بمثلها.

فمن محاسن أعماله أنه كان أنصف الملوك للرعية، لا يُرَد عنه متظلم يأتيه. وكان يجلس بعد صلاة الجمعة، وينادي مناديه: «من له مَظْلُمة» فربما لم يأته أحد لكفِّ بعض الناس عن بعض. وكان يقصد ذوي الأقدار والأموال فيقمَعُهم ويقول: «لا ينبغي أن يظلم إلا الملك، لأن هؤلاء إذا أحسّوا من أنفسهم قوّة بما عندهم من الأموال لم يُؤمَن شرُّهم وبَطَرهم. فإذا كفّ الملك عنهم وأمنوا دعاهم ذلك إلى منازعته وإعمال الحيلة عليه. وأما الرعية فهم مادة الملك، فإن أباح ظُلْمَهم لم يصل إليه نفعهم، ولحقه الضرر، وصار النفع لغيره».

ووقف له رجلان من أهل القيروان، وهو بالمقصورة في جامع رقادة. فأدناهما إليه وسألهما عن حالهما فقالا له: «كنا شريكين للسيدة - يعنيان أمه - في جمال وغيرها. فاحتبست لنا ستمائة دينار» فأرسل إليها خادمًا فقالت: «نعم هو كما ذكرا إلا أن بيني وبينهما حسابًا. وإنما احتبست هذا المال حتى أحاسبهما. فإن بقي عليهما شيء وإلا دفعت مالهما إليهما» فقال للخادم: «ارجع إليها وقل لها: والله لئن لم توجهي بالمال وإلا أوقفتك الساعة معهما بين يدي عيسى بن مسكين» فوجهت بالمال إليه. فدفعه إليهما وقال: «أما أنا فقد أنصفتكما فيما ادعيتما، فاذهبا واقطعا حسابها وإلا فأنتما أعلم».

وكان إذا تبين له الظلم قِبَل أحد من أهل بيته وولده بالغَ في عقوبته والإنصاف منه. فكان ولده ورجاله يوم الخميس يأمرون عبيدهم ورجالهم أن يطوفوا في الأزقة والفنادق، ويسألوا: هل أتى شاكٍ أو متظلّم من عبد أو وكيل؟ فإذا وجدوا أحدًا أتوا به إلى دار ولد الأمير أو قرابته فينصفه.

ومن مساوىء أفعاله أنه أسرف في سفك دماء أصحابه وحجابه حتى يقال إنه افتقد منديلاً كان يمسح به فمه من شرب النبيذ - وكان قد سقط من يد بعض جواريه

فأصابه خادم ـ فقتله وقتل بسببه ثلاثمائة خادم. وهذا غاية في الجور ونهاية في الظلم.

وقتل ابنه المكنى بأبي الأغلب لظنٍّ ظنَّه به، فضرب عنقه بين يديه صبرًا. وقتل ثمانية إخوة كانوا له رجالاً، ضُربت أعناقهم بين يديه صبرًا. وكان أحدهم ثقيل البدن فسأله واستَرْحمه. فقال: «لا يجوز أن تخرج عن حكم الجماعة» وقتله. ثم قتل بناته.

وأتى بأمور لم يأْت بها أحد قبله ولم يتقدمه إلى مثلها ملك ولا أمير. فكانت أمه إذا وُلد له ابنة من أحد جواريه أخفتها عنه وربتها حتى اجتمع عندها منهن ست عشرة جارية. فقالت له ذات يوم، وقد رأت منه طيب نفس: «يا سيدي، قد ربيت لك وَصائف ملاحًا، وأحب أن تراهن» فقال: «نعم، قَرِّبيهن مني» فأدخلتهن إليه فاستحسنهن. فقالت: «هذه ابنتك من جاريتك فلانة، وهذه من فلانة» حتى عدَّتهن عليه. فلما خرج قال لخادم له أسود كان سيّافًا يقال له ميمون: «امض فجئني برؤوسهن» فتوقف استعظامًا منه لذلك. فسبَّه وقال: «امض وإلا قدمتك قبلهن». فمضى إليهن. فجعلن يصحن ويبكين ويسترحمن، فلم يُغن ذلك عنهن شيئًا. وأخذ رؤوسهن وجاء بهن معلقة بشعورهن، فطرحها بين يديه.

ومن قبيح أفعاله ما كان عليه من أمر الأحداث، وكان له نَيِّف وستون حَدَثًا. وقد رتب لكل واحد منهم مرقدًا ولحافًا. فإذا جاء وقت النوم، طاف عليهم الموكل بهم فسقى كل واحد منهم ثلاثة أرطال، وينام كل واحد منهم في مكانه. فبلغه أن بعضهم يمشي في الليل إلى بعض. فجلس بباب القصر على كرسي وأمر بإحضارهم. فبعضهم أقرّ وبعضهم جحد، حتى مرّ به صبي كان يحبه فقال: «والله يا مولاي ما كان من هذا شيء» فضربه بعمود من حديد فطار دماغه. وأمر بتنور فأُحمي. فكان يطرح فيه كل يوم خمسة أو ستة حتى أفناهم. وأدخل عددًا منهم الحمام وأغلق عليهم البيت السخن، فماتوا من ساعتهم.

وقتل بناته وجواريه بأنواع من العذاب: منهن من بنى عليها البناء حتى ماتت جوعًا وعطشًا، ومنهن من أمر بخنقها، ومنهن من ذبحها، حتى لم يبق في قصره أحد. فدخل على أمه في بعض الأيام فقامت إليه ورحبت به. فقال لها: «إني أحب طعامك» فسُرَّت بذلك وأحضرت الطعام. فأكل وشرب وانبسط. فلما رأت سروره قالت له: «إن عندي وصيفتين ربيتهما لك وادخرتهما لمسرتك. وقد طال عهدك بالأندلس بعد قتل الجواري وهما يحسنان القراءة بالألحان. فهل لك أن أحضرهما للقراءة بين يديك؟» قال: «افعلي» فأمرت بإحضارهما فأُحضرتا. وأمرتهما بالقراءة

فقرأتا أحسن قراءة. ثم قالت له أمه: «هل لك أن ينشداك الشعر؟» قال: «نعم» فغنتا بالعود والطنبور أبدع غناء حتى عمل فيه الشراب وأراد الانصراف. فقالت له: «هل لك أن تمشيا خلفك حتى تصل إلى مكانك ويقفا على رأسك ويؤنساك، فقد طال عهدك بالأنس» قال: «نعم» فمضى وهما خلفه. فلم يكن إلا أقل من ساعة حتى أقبل خادم وعلى رأسه طبق وعليه منديل. فظننت أنه وجّه إليها بهدية. فوضع الخادم الطبق بين يديها ورفع المنديل، وإذا برأسيهما. فصرخت أمه وغشي عليها. وأفاقت بعد ساعة طويلة، وهي تدعو عليه وتلعنه. وأخباره في أمثال هذا طويلة.

وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي الداعي[١]، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله عزّ وجل.

ذكر ولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم ابن أحمد بن محمد بن الأغلب

ولي الأمر كما قدمناه في حياة أبيه ثم استقل بالأمر بعد وفاته. وكان على خوف شديد من أبيه لسوء أخلاقه وجرأته على قتل من قرب منه أو بعد. فكان يظهر له من الطاعة والتذلل أمرًا عظيمًا. فكان إبراهيم يكرمه ويفضله على سائر أولاده.

وكانت ولايته بعد أبيه في يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين. فجلس للناس للمظالم. ولبس الصوف، وأظهر العدل والإحسان والإنصاف. ولم يسكن قصر أبيه. ولكنه اشترى دارًا مبنية بالطوب فسكنها إلى أن اشترى داره التي عرف بها.

وخاف من قيام ابنه زيادة الله عليه فحبسه هو وخَلْقًا من رجاله.

وولّى أبا العباس محمد بن الأسود الصديني قضاء القيروان والأحكام والنظر في العمال وجُباة الأموال. فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكان قويًا في قضائه، شديدًا على رجال السلطان، رفيقًا بالضعفاء والمظلومين. ولم يكن واسع العلم، فكان يشاور العلماء، فلا يقطع حكمًا إلا برأي ابن عبدون القاضي. وكان يظهر القول بخَلْق القرآن فكرهه العامة.

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعي القائم بدعوة عبيد الله المهدي جد ملوك مصر؛ وقصته في القيام بالمغرب مشهورة... وهو من أهل صنعاء اليمن، وكان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون، فإنه دخل إفريقية وحيدًا بلا مال ولا رجال، ولم يزل يسعى إلى أن ملكها... (وفيات الأعيان ٢: ١٩٢).

ولم تطل أيام أبي العباس حتى وثب به ثلاثة من خدمه كان زيادة الله قد وَضَعهم عليه، فقتلوه وهو نائم. وأتوا بحداد إلى زيادة الله ليقطعوا قيده ويسلموا عليه بالإمارة. فخاف أن يكونوا دسيسًا عليه من أبيه، فأبى ذلك. فمضوا إلى أبيه فقطعوا رأسه وأتوا به في الليل. فلما رأى ذلك أمر بقطع قيوده وخرج. وكان مقتل أبي العباس في ليلة الأربعاء آخر شعبان سنة تسعين ومائتين. فكانت إمارته من حين خروج أبيه وإلى أن قُتل سنة واحدة واثنين وخمسين يومًا، ومنذ استقل بالأمر بعد أبيه تسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا.

وكان رحمه الله شجاعًا بطلاً عالمًا بالحرب، حسن النظر في الجدل. وأستاذه في ذلك عبد الله بن الأشج(١).

ذكر ولاية أبي مضر زيادة الله بن أبي العباس

عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب.
قال: ولما أفضي إليه الأمر بعد مقتل أبيه، كان أول ما بدأ به أنه أمر بقتل الخصيان الذين قتلوا أباه وصلبهم، وأظهر الكراهة لفعلهم.

وأرسل من إخوته وبني عمه تسعة وعشرين رجلاً إلى جزيرة في البحر يقال لها جزيرة الكُراث(٢) فقُتلوا في شهر رمضان من هذه السنة.

وبعث زيادة الله خمسين فارسًا مع فتوح الرومي إلى أخيه الأحول بكتاب على لسان أبيه أبي العباس يأمره فيه بالقدوم عليه ولا يتخلف ـ وكان أبو العباس قد أخرجه لقتال أبي عبد الله الشيعي ـ فرجع. فلما وصل أمر زيادة الله بقتله فقُتل. فكان ذلك أعظم فتح عند الشيعي.

قال: وأمر زيادة الله بالعطاء.

وولّى الوزارة والبريد عبد الله بن الصائغ. وولّى الخراج أبا مسلم. وعزل القاضي الصديني لرأيه بخلق القرآن. وكتب كتابًا إلى القيروان: «إني قد عزلت عنكم الجافي الجلف، المبتدِع المتعسف، ووليت القضاء حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنّة».

---

(١) هو أبو سعيد الأشج عبد الله بن سعيد الكندي الكوفي الحافظ صاحب التصانيف في ربيع الأول وقد جاوز التسعين روى عن هشيم وعبد الله بن إدريس وخلق وكان ثقة حجة. قال أبو حاتم: هو إمام أهل زمانه وقال محمد بن أحمد الشطري: ما رأيت أحفظ منه... (شذرات الذهب ٢: ١٣٧).

(٢) هي على ١٢ ميلاً من تونس.

وفي أيامه قوي أمر أبي عبد الله الشيعي، وكان قد ظهر في أيام جده إبراهيم بن أحمد، فاستفحل الآن أمره. وكثرت أتباعه، واشتدت وطأته. ففارق زيادة الله تونس إلى رقادة ونزلها خوفًا من الشيعي أن يخالفه إليها. ولما نزلها زيادة الله عمر سورها، فلم يغن ذلك عنه شيئًا لأن الشيعي لما قوي أمره بكتامة، انضمت إليه القبائل واجتمعت له الرجال، وهزم جيوش زيادة الله مرة بعد أخرى وقتل جموعه. واستولى على البلاد: فبدأ بميلة[1] ثم بمدينة سطيف[2] ثم غلب على البلاد والمدن بلدًا بلدًا ومدينة مدينة، إلى أن غلب على مدينة الأربس، وهزم إبراهيم بن أبي الأغلب. وكان زيادة الله قد جهزه لقتاله في جيوش عظيمة، وهو آخر جيش جهزه زيادة الله. فهزمه الشيعي، وذلك في جُمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين، على ما نذكره إن شاء الله مبينًا في أخبار الدولة العُبَيدية المنسوبة للعلوية.

ذكر انهزام زيادة الله إلى المشرق وانقراض دولة بني الأغلب

قال: ولما بلغت هزيمة إبراهيم بن الأغلب زيادة الله ـ وكان هذا الجمع آخر جمع جمعه ـ فتّ ذلك في عضده. وكان برقادة فأظهر أنه أتاه الفتح وأرسل إلى السجون فأتى برجال منها. فضرب أعناقهم وأمر أن يطاف برؤوسهم في القيروان والقصر القديم.

وأخذ في حمل أثقاله وأمواله. وأرسل إلى خاصة رجاله وأهل بيته يُعرِّفهم الحال وأنذرهم بالخروج معه. فأشار عليه وزيره ابن الصائغ بالمقام. وقال له: «العساكر تجتمع إليك، فأخرج العطاء يأتيك الناس. والشيعي لا يجسر أن يقدم عليك». وشجعه وقواه وذكَّره بحروب جده زيادة الله، فلم يرجع إلى قوله. فلما ألحّ عليه ابن الصائغ، قال له زيادة الله: «هذا يصدق ما قيل عنك: إنك كاتبت الشيعي وأردت أن تمكنه مني» فتبرأ من ذلك وأمسك عنه.

وأخذ زيادة الله في شد الأموال والجواهر والسلاح وما خفّ من الأمتعة النفيسة، وفعل رجاله كذلك واتّعدوا إلى الليل. ثم انتخب زيادة الله من عبيده الصقالبة

---

(١) ميلة: بالكسر ثم السكون، ولام: مدينة صغيرة بأقصى إفريقية، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام، ليس لها غير المزدرع وهي قليلة الماء. . . (معجم البلدان).

(٢) سطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، وآخره فاء: مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب. . . (معجم البلدان).

ألف خادم وجعل على وسط كل خادم ألف دينار. وحمل من يعزّ عليه من جواريه وأمهات أولاده.

ولما عزم على الرحيل، قامت إليه جارية من قيانه، وأخذت العود واندفعت تغنّي: [من المنسرح]

لـم أنـسَ يـومَ الـرحـيـل مـوقـفـهـا وجَـفْـنُـهـا فـي دمـوعـهـا غَـرِقُ
وقـولـهـا، والـركـاب سـائـرة تـتـركـنـي سـيـدي وتـنـطـلـق

فدمعت عيناه وأمر بحطّ حمل مال عن بغل وحَملها عليه.

وكانت الهزيمة بلغته بعد صلاة العصر، فما أذّن مؤذن العشاء الآخرة إلا وقد رحل من رقادة. واتبعه الناس قومًا بعد قوم يهتدون بالمشاعل. وأخذ طريق مصر.

وخرج عبد الله بن الصائغ بعده بثَقَله وحشمه وأمواله. فقصد جهة لَمْطَة[1]، وقد كان أعدّ هناك مركبًا لنفسه، ليركب فيه إلى صقلية ويفارق زيادة الله خوفًا على نفسه من رجاله أن يحملوه على قتله، لأنه كان معاديًا لأكثرهم ورموه بمكاتبة الشيعي؛ ولم يكن كذلك.

قال: ولما علم الناس بهروب زيادة الله، أسرعوا إلى رقادة، وانتهبوا ما فيها، واحتووا على قصور زيادة الله، حتى صاروا إلى البحث عن المطامير[2] وانتزاع حديد الأبواب وحمل الأسرَّة ونقل الماعون. وأقاموا على ذلك ستة أيام، حتى تراءت خيل الشيعي. وتخلف عن زيادة الله كثير من رجاله وعبيده وأصحاب الدواوين، فافترقوا في البلدان.

وأما إبراهيم بن أبي الأغلب، فإنه وافى القيروان في جماعة من انضم إليه. فلما علموا بهروب زيادة الله، تفرقوا عنه وقصد كل قوم إلى ناحيتهم. وقصد إبراهيم دار الإمارة فنزل بها. ونادى مناديه بالأمان، وسكّن الناس. وأرسل إلى الفقهاء ووجوه أهل القيروان، فاجتمع على بابه خلق كثير وسلّموا عليه بالإمارة. فذكر لهم أحوال زيادة الله، وما كان عليه من سوء الحال، وأن ذلك أخلّ بدولته وأجْلَب عدوه وسَلَبه ملكه. وذكر الشيعي وكتامة وشنّع عليهم أقبح الأشانيع. وطلب من الناس الإعانة. وقال: «إنما

---

(١) لمطة: بالفتح ثم السكون، وطاء مهملة: أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم يقال للأرض وللقبلة معًا لمطة... (معجم البلدان).

(٢) المطامير: واحدتها مطمورة، وهي مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البر والفول ونحوه، أو السجن.

قصدت المجاهدة عن حريمكم ودمائكم وأموالكم، فأعينوني على ذلك بالسّمع والطاعة» وأمدوني بأموالكم ورجالكم، وادفعوا عن حريمكم ومهجكم». فقالوا: «أما السمع والطاعة فهما لك ولكل من ولينا. وأما إعانتك بأموالنا فهي لا تبلغ ما تريده. والقتال فما لنا به قوة ولا معرفة. وأنت فقد ناصبت هؤلاء ومعك صناديد الحرب ووجوه الرجال ووراءك بيوت الأموال، فلم تظفر بهم. وتروم الآن ذلك منا نحن وبأموالنا». فراجعهم في ذلك وراجعوه، حتى قال لهم: «فانظروا ما كان في أيديكم من أموال الأحباس والودائع فأعطوني ذلك سَلَفًا، فأُنادي بالعطاء فيجتمع إلي الناس» قالوا: «وما يغني عنك ذلك، ولو مددت يدك إليها لأنكر الناس عليك».

فلما يئس منهم صرفهم والناس مجتمعون حول دار الإمارة لا يعلمون ما كان الكلام. فلما خرجوا أخبروهم بما كانوا فيه. فصاحوا به: «اخرج عنا، فما لنا بك من حاجة، ولا نسمع ولا نطيع لك». وجلب الغوغاء وصاحوا به وشتموه. فلما سمع ذلك، وثب من كان معه في سلاحهم واقتحموا الباب. فهرب من كان على الباب. ومضوا يُركضون[1] دوابهم، والناس يركضون وراءهم ويرجمونهم بالحجارة. وانضم إلى ابن الأغلب من كان قد بقي بعد زيادة الله من رجاله ممن خاف على نفسه، ولحقوا زيادة الله.

ثم دخل الشيعي رقادة وانقرضت دولة بني الأغلب.

ذكر ما كان من أخبار زيادة الله وقتله عبد الله ابن الصائغ ومسيره إلى بلاد الشرق ووفاته

قال: ولما خرج زيادة الله من رقادة، ولحق به إبراهيم بن أبي الأغلب فيمن انضم إليه، فاجتمع معه خلق كثير. فسار بهم إلى طرابلس فدخلها ونزل دار الإمارة. وافتقد ابن الصائغ فلم يره، فتحقق ما كان يُرمَى به من مكاتبة الشيعي. وأكثَرَ أصحابه القول فيه. وكان قد ركب في مركب له يريد صقلية، فصرفته الريح إلى طرابلس. فدخل على زيادة الله فعاتبه على تخلُّفه. فاعتذر أنه كانت معه أثقال لم يُطق حملها في البرّ. فلما علم أصحاب زيادة الله أنه قرب ابن الصائغ ساءهم ذلك وغمّهم. فأتوه وقالوا: «إنه كذبك وإنما كان يريد صقلية». واجتمعوا كلهم وقالوا: «هذا الذي أخرجك من ملكك، وعمل في ذهاب دولتك، وكاتب الشيعي عليك». فنقم عليه

(١) ركض الدابة: ضرب جنبيها برجله أو برجليه ليحثّها على السير.

وأمر بتسليمه إلى راشد ـ وهو أحد المتعصبين عليه ـ فضرب عنقه بيده. وتلاعب الصبيان برأسه حتى وقع في قناة حمام. وحُكي عن الشيعي أنه قال: «والله ما كاتبني قطّ».

قال: وأقام زيادة الله بطرابلس سبعة عشر يومًا وخرج منها يريد مصر. وكان قد نقم على إبراهيم بن أبي الأغلب لما أراده من العقد لنفسه بمدينة القيروان، فاطرحه وأعرض عنه وعن أبي المصعب بن زُرارة. وسُعي بهما عنده أنهما يَقعان فيه وينالان منه، وقيل له: «هذا قولهما فيك وهما معك وفي قبضتك، فكيف إذا وصلا إلى مصر؟» فعزم على قتلهما. فهربا إلى الإسكندرية واستجارا بعاملها. فأجارهما ووجه بهما إلى مصر. فدخلا قبل زيادة الله، واجتمعا بعيسى النوشري عاملها، ووقعا عنده في زيادة الله، وذكروا سوء فعله وأنه يُطمع نفسه بمصر. فهم النوشري أن يصد زيادة الله عن مصر إلى أن يكتب إلى بغداد. فأتى زيادة الله الخبر من عيون كانت له بمصر، فأرسل ابن القديم بكتاب إلى النوشري، يبجّله فيه ويسأله أن ينظر له دارًا ينزل فيها، ويخبره أنه يقيم إلى أن يصل إليه الرسول. ثم سار زيادة الله في أثر ابن القديم وجاء إلى مصر. فأنزله النوشري في دار ابن الجصاص، وأنزل رجاله في دور كثيرة.

وأقام بمصر ثمانية أيام ثم خرج يريد بغداد. فتخلّف عنه بمصر جماعة ممن كان معه. فسار حتى وصل إلى الرملة ففقد وجوه رجاله، فوجدهم هربوا عنه. وهرب له غلام بمائة ألف دينار، وصار إلى النوشري والتحق بغلمانه. فكتب زيادة الله إلى بغداد بذلك. فورد الجواب إليه، وإلى النوشري يؤمَر فيه أن يبعث إليه بكل من تخلف عنه. ففعل النوشري وردّ غلمانه وأصحابه إليه.

وسار زيادة الله حتى وصل إلى الرّقة. وكتب إلى ابن الفرات الوزير أن يستأْذن له المقتدر بالله في الدخول إلى الحَضْرة. فأتاه كتاب يؤمر فيه بالإقامة في الرقة حتى يأْتيه رأي المقتدر. فأقام بها سنة فتفرق عنه رجاله وتشتّت أمره. وباع عليه قاضي الرقة بعض خصيانه، وذلك أنه كان معه خصيان لهم وضاءة وجمال. فلما أقام بالرقة أدمن شرب الخمر وسماع الملاهي. فاحتسب عليه محتسب عند القاضي، وأقام بينة شهدت عليه أنه يفجر بأولئك الصقالبة. فباعهم عليه. وتلطف زيادة الله في الدخول على المقتدر بالله فلم يؤذن له. وصرفه إلى النوشري وابن بسطام بمصر. وكتب المقتدر إليهما بتقويته بالرجال وأن يُعطَى من خراج مصر ما يقيم أود عسكره حتى يعود إلى المغرب ويطلب بثأره ويسترجع دولته.

فلما وصل إلى مصر شقّها متقلدًا بسيفين. فأخرجه النوشري إلى ظاهرها وقال له: «تكون متبرِّزًا حتى تأْتيك الرجال والأموال». وجعل يمطله ويسوِّف به ويُتحفه بالهدايا والخمور. فأقام على اتباع شهواته والانهماك على لذاته حتى أنفق ما كان معه وباع السلاح والعدّة. ثم اعتلّ فيقال إن بعض عبيده سمه في طعام فسقط شعر لحيته ورأسه. فانصرف إلى البيت المقدس فمات هناك. وتفرق آل الأغلب وانقرضت دولتهم بخروج زيادة الله من الملك.

وكانت مدة ولاية زيادة الله منذ أفضى إليه الأمر بعد أبيه وإلى أن هرب إلى رقادة خمس سنين وعشرة أشهر. وانقرضت دولتهم كأن لم تكن. فسبحان من لا يزول ملكه ولا ينقضي دوامه. وبانقراض دولة بني الأغلب زال ملك بني مدْرار بسجِلْماسَة، وكان له مائة سنة وستون سنة، وزال ملك بني رستم من تَيْهرت، وله مائة سنة وثلاثون سنة.

ذكر أخبار من ملك المغرب بعد بني الأغلب إلى أن قامت دولة بني زيري بن مناد

نحن نذكر ذلك في هذا الموضع على سبيل التنبيه عليه لا الاستيعاب له. وسنذكره إن شاء الله تعالى مبيَّنًا مستوفى في أخبار الدولة العُبيدية مع ملوك مصر.

فنقول هاهنا: لما قام أبو عبد الله الشيعي على دولة بني الأغلب، وهزم جيوشهم، واستولى على بلاد المغرب وانتزعها من زيادة الله بن أبي العباس، وظهر أبو محمد عبيد الله المنعوت بالمهدي - وهو الذي كان الشيعي يدعو له - فانخلع له الشيعي من الأمر كله، وسلمه إليه في سنة ست وتسعين ومائتين. فلما استقامت الأمور للمهدي، وتوطَّد ملكه، واشتدت شوكته، قتل أبا عبد الله الشيعي وأخاه، واستقلّ بالأمر. وبنى مدينة المهدية[1] وانتقل إليها. ودامت أيامه إلى أن توفي في النصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ثم قام بالأمر بعده ولده أبو القاسم محمد المنعوت بالقائم بأمر الله. فملك إلى أن توفي في يوم الأحد الثالث عشر من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

---

(١) المهدية: مدينة بإفريقية منسوبة إلى المهدي، بينها وبين القيروان مرحلتان، القيروان في جنوبيها، والثياب السوسية المهدوية إليها تنسب، وقد اختطها المهدي، واختلف في نسبه... (معجم البلدان).

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو الطاهر إسماعيل المنعوت بالمنصور بنصر الله. وبنى المنصورية. ودامت أيامه إلى أن توفي في يوم الجمعة آخر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو تميم معَد المنعوت بالمعز لدين الله. ودامت ولايته ببلاد المغرب إلى أن جهز القائد جوهرًا إلى الديار المصرية فملكها بعد انقراض الدولة الإخشيدية. وأنشأ القاهرة المعزية، ثم كتب إلى مولاه المعز لدين الله بذلك. فتوجه المعز إلى الديار المصرية، وكان رحيله من المنصورية ووصوله إلى سرْدانية(١) في يوم الاثنين لثمان بقين من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة. وسلم إفريقية وبلاد المغرب كلها ليوسف بن زِيرِي بن مَناد في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة من السنة. وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة له. ثم رحل المعز لدين الله من سردانية لخمس خلون من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. ثم سار منها إلى طرابلس وأقام بها أيامًا. ورحل منها يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر منها. ووصل ثغر الإسكندرية لست خلون من شعبان منها. فكانت مدة مقامهم ببلاد المغرب خمسًا وستين سنة وشهورًا. وصار أمر المغرب بعده ليوسف بن زيري ثم لبنيه من بعده، على ما نذكره إن شاء الله عزّ وجل. وكانوا في مبدإ الأمر كالنواب لملوك الدولة العُبيدية بمصر. ثم استقلوا بعد ذلك بالأمر على ما يأتي من أخبارهم.

ذكر ابتداء دولة بني زيري بن مناد ونسبهم ومبدأ أمرهم ومن ملك منهم إلى انقضاء دولتهم

أول من ملك منهم أبو الفتوح بُلُكِّين يوسف بن زِيرِي. ولنبدأ بذكر نسبه وأخبار آبائه ومبدإ أمرهم.

فأما نسبه فهو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مَناد بن منقوش بن زِناك بن زيد الأصغر بن واشفاك بن وزعفى بن سري بن وتلكي بن سليمان بن الحارث بن عدي الأصغر - وهو المثنى بن المسور بن يحصب بن مالك بن زيد بن الغوث الأصغر - بن سعد - وهو عبد الله بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن شداد بن زُرْعة - وهو

---

(١) سردانية: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم دال مهملة، وبعد الألف نون مكسورة، وياء آخر الحروف مفتوحة مخففة: جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وإقريطش أكبر منها. . . (معجم ياقوت).

حمْيَر الأصغر بن سَبَأ الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قطن بن عوف بن عَريب بن زهير بن أيمن بن الهَمَيْسَع بن عمرو بن حمير - وهو العَرَنْجَج - ابن سَبَأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عامر - وهو هود.

هكذا قال عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس في تاريخه المترجم «بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان» وهم المقول فيهم: [من الطويل]

ذوو الملكِ والتِّيجان والغُرَر التي حَقيقٌ بها التيجانُ أنْ تتَباهَى
له مُعجِز التَّأسيسِ في سُدِّ مَأْرِبِ وإن كان قد أوْهاهُ فَيْضُ نَداها[1]
لها ركنُ بيت الله غير مدافع وميقاتُ حجِّ الله غير مُضاهَى
لها اللغة العليا التي نزلت بها فواتح ياسينٍ ومبدأ طَه
لها يومُ بَدْرٍ والنَّضيرِ وخَيْبَر وأيُّ مُنادٍ في حُنَينَ دَعاها

قال: وأول من دخل منهم بلاد المغرب المثنى بن المسور. وكان سبب دخوله أنه لما رأى الحبشة قد غلبت على اليمن وأخرجت حمْيَر عن ملكها، سار إلى الشِّحْر[2] فوجد به كاهنًا من حمير. فلما رأى المثنى، سلّم عليه وسأله عن خبره وما الذي أتى به. فأعلمه أن الحبشة غلبتهم على ملكهم. فقال له الكاهن: «اذهب إلى المغرب واتخذه قرارًا. فوالله، ليكونن لولدك فيه شأن، وليملكنّ منهم جماعة، ويتوارثونه، ويطول ملكهم». فهاج ذلك المثنى على دخول المغرب فدخله. وأعلم المثنى بنيه بذلك وأعلم بنوه بنيهم.

فما زالوا يتوقعون الملك إلى أن وُلد مناد بن منقوش ونشأ، فجاء شديد القوة كثير المال والبنين. فأخذ في الإفضال على من يمر به. فاشتهر ذكره وشاع خبره في الناس. وكان له مسجد يطرقه[3] كل من يأتي إليه. فإذا خرج إلى الصلاة، سلم على من ينزل المسجد من الأضياف وحمله إلى داره، ويضيفه ويكرمه. ويقيم عنده ما شاء الله أن يقيم. فإذا أراد الانصراف، زوّده وكساه ووصله وصرفه.

---

(١) أوهاه: أضعفه.

(٢) الشحر: بكسر أوله، وسكون ثانيه: هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. قال الأصمعي: هو بين عدن وعمان قد نسب إلى بعض الرواة؛ وإليه ينسب العنبر الشحري لأنه يوجد في سواحله... (معجم البلدان).

(٣) يطرقه: يأتيه بعد غروب الشمس، والطارق: الضيف يأتي ليلاً.

فإنه على ذلك، إذ أتاه آتٍ فقال له: «إن في المسجد رجلاً وصل في هذه الساعة، وهو يذكر أنه جاء من الحج» وكان وقت صلاة الظهر. فخرج مناد إلى المسجد، فصلّى وسلّم على الرجل، وسأله عن حاله ومن يكون ومن أين أقبل فقال: «إنه من أهل المغرب، وإنه انصرف من الحج فخرج عليه لصوص، وأخذوا ما كان معه فانقطع عن أصحابه، ووصل إلى إفريقية فسمع بمناد وما يفعل مع أبناء السبيل، فقصده ليعينه على الوصول إلى أهله». فقال له مناد: «قد وصلت فأبشر بالخير إن شاء الله». ومضى به مناد إلى منزله، فأكل ونام. وأمر مناد بشاة فذُبحت وعُمل طعام ثان. وأيقظ الرجل وأُتي بالطعام فأكل منه. ونظر إلى كتف الشاة فأخذه وقلبه ونظر فيه وإلى مناد، وأقبل يتعجب. فقال له مناد: «لأي شيء تنظر في الكتف وتنظر إلي؟» قال: «لا لشيء». فعزم مناد عليه أن يخبره ممَّ تَعجُّبه. فقال: «ألك امرأة حامل؟» قال: «بلى» قال: «فلك منها أولاد؟» قال: «لا ولكن من غيرها» قال: «فاعرضهم علي» فعرضهم مناد عليه، فقال: «ألك غير هؤلاء؟» قال: «ليس لي ذكر إلا من رأيت» قال: «احتفظ بالمرأة الحامل. فوالله، لَتلدَنَّ ولدًا يملك المغرب جميعه، ويملك بنوه من بعده. فقال له مناد: «والله، ما زلنا نَتوكَّفُ[1] زمانَ هذا القائم منا، روايةً عندنا عن أسلافنا. وكنا لا نعلم من أي فَخذ من أفخاذنا يكون. والآن فقد أنبأتني بنبأ ما كنا ننتظر من هذا القائم» قال: وأكرم مناد الرجل وصرفه.

ذكر أخبار زيري بن مناد

قال: ووضعت زوجة مناد حملها، فجاء ذكرًا فسماه أبوه زيري. فخرج من أجمل مولود رآه الناس، وكذلك كان أولاده يُضرب بجمالهم المثل في المغرب فيقال: «لو أنك من بني مناد».

فلما صار له من العمر عشر سنين، كان من رآه يظنه أنه ابن عشرين سنة لبهائه. وكانت الصبيان يدورون حوله، ويدعونه بالسلطان، ويركبون العيدان يتشبهون بالعساكر. ويأمرهم بالقتال بين يديه، يُغري بعضهم ببعض. ويأتي بهم إلى أمه فتصنع لهم الطعام. فيقف على رؤوسهم ويطعمهم ولا يأكل.

فلما تكامل شبابه وقوي أمره، جمع إليه جماعة من بني عمه ومن كان له نجدة. فكان يشنّ بهم الغارات على القبائل من زَناتة فيقتل ويسبي ويقسم على

(١) توكف الأمر: تتبعه، أو توقعه وسأل عنه.

أصحابه فلا يُؤثر نفسه بشيء. فحسده كثير من قبائل صنْهاجة لأن كل قبيل كان يطمع أن يكون القائم منهم. فلما تحققوا أنه القائم اجتمعت القبائل من صنهاجة على زيري وحاربوه. وطالت الحرب بينهم فظفر بهم وقتل وسبى ورجع بالغنائم إلى الجبل.

فلما سمعت بذلك زناتة، اجتمعوا وتحالفوا وكاتبوا مَن كان خالفه من صنهاجة وحالفوهم على حرب زيري. فاتصل ذلك به فخرج إليهم وضرب على زناتة بأرض مَغيلة في الليل وهم مطمئنون، فقتلهم وسباهم، وقطع منهم رؤوسًا كثيرة.

وخرج إلى جبل تِيطَرِي وقد امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم، وأخذ من خيلهم ثلاثمائة فرس فحمل أصحابه عليها. وشاع خبره في سائر أقطار المغرب وتسامع الناس به، فعظموا أمره واسْتَهالُوه. واجتمع إليه كل من فيه منعة. فكثر أصحابه وضاق بهم المتّسع. فقالوا له: «لو رأيت مكانًا أوسع من مكاننا هذا» فأتى إلى موضع أشير(١)، وهو إذ ذاك خال ليس فيه ساكن وفيه عيون، فاستحسنه.

ذكر بناء مدينة آشير

قال: ولما نظر زيري إلى موضعها قال لأصحابه: «هذا موضعكم الذي يصلح أن تسكنوه» وعزم على بنائها، وذلك في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة أيام القائم بأمر الله بن المهدي. قال: وأمر زيري بإحضار البنّائين والنجارين من حَمْزَة(٢) والمسيلة وطُبْنة. وبعث إلى القائم بأمر الله في طلب صُنّاع. فبعث إليه برجل لم يكن بإفريقية أعلم منه. وأعانه بعُدة كثيرة من الحديد وغيره. وشرع زيري في البناء إلى أن كملت المدينة.

وكانت زناتة قد استطالت على أهل تلك الناحية من أيام بني الأغلب ثم تزايد ضررهم في أيام المهدي والقائم. فلما سمع القائم ببناء زيري هذه المدينة، حمد الله على ذلك وقال: «مجاورة العرب خير لنا من مجاورة البربر». وأعانه وساعده. ثم خرج زيري إلى طبنة والمسيلة وحمزة، فنقل منها وجوه الناس إلى مدينة آشير. فعمرت وجاءت حصنًا منيعًا لا يقاتل إلا من شرقيها - يحميها عشرة من الرجال، ولو

---

(١) أشير: بكسر ثانيه، وياء ساكنة، وراء: مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي مقابل بجاية في البر. . . (معجم البلدان).

(٢) حمزة: بالفتح ثم السكون، وزاي: مدينة بالمغرب. . قيل: بناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. . وحمزة: في جبل عظيم. . . (معجم البلدان).

لم يكن عليها سور لاستغنت بعلوها عن السور. وفي وسطها عينان تجريان بماء عذب غزير. وامتلأت البلد بالعلماء والفقهاء والتجار. وتسامع الناس بها. ولم يكُن الناس إذ ذاك يتعاملون بالذهب والفضة وإنما بالبعير والبقرة والشاة، فضرب زيري السكة[(١)]. وبسط العطاء في الجند، وجعل لهم الأرزاق. فكثرت الدنانير والدراهم في أيدي الناس. واطمأنت نفوس أهل البادية للحرث والزراعة. وصانهم زيري مما كان ينالهم من زناتة. وتمكنت العداوة بين صنهاجة وزناتة.

ثم خرج زيري إلى المغرب، وولى أخاه ماكِسن بن مناد على آشير. فلما وصل إلى جُراوَة، خرج إليه صاحبها موسى بن أبي العافية، وكان واليًا عليها لعبد الرحمٰن بن محمد الأموي صاحب قُرْطُبة، بهدية سنية وجوارٍ وغير ذلك. وقال له: «يا مولاي، إنما استعملت نفسي لبني أمية لأرهب بهم على زناتة، وإذ قد أتاني الله بك وجمع بيني وبينك فأنا عبدك، ومنقطِع إليك، وغَوْثك. أنت مني قريب، وسيف قريب مني أمنع من سيف بعيد». فقربه زيري وأدناه وقال له: «اكتب إلي بما يعن لك. فأنا أمدك بالعساكر متى أردت». فشكا إليه من غُمارة[(٢)] وقال: «إنهم قوم على غير مذهب يُبيحون المَحارم. وقام فيهم رجل يدّعي النبوة، وسَنّ سُنَنًا من المنكرات». فرحل زيري إلى غمارة وصحبه موسى، فأوقع بهم. وأخذ الذي يدعي النبوة فوصل به إلى آشير. وجمع عليه الفقهاء فقالوا له: «إن كنت نبيًا فما علامة نبوتك؟» فقال: «اسمي في القرآن» قالوا: «وما اسمك؟» قال: «اسمي حم، واسم أبي من الله، وفي القرآن ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية: ١، ٢] فأباحوا قتله فقُتل.

قال: واتصلت المودة بين زيري والقائم بأمر الله. وسبب ذلك أن أبا يزيد لما حاصر المهدية ومنع الميرة عنها، كتب القائم إلى زيري يُعلمه ما الناس فيه من الجهد والغلاء. فبعث إليه زيري بألف حمل حِنْطة. وأخرج معها مائتي فارس من صنهاجة وخمسمائة من عبيده. فلما وصل ذلك إلى المهدية، بعث القائم له هدية لم يُسمَع بمثلها كُسًا جليلة وخيل مُسوَّمة بسروج محلاة.

---

(١) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٢) بنو غمارة: بطن من معمورة، من البرانس، من البربر. وهم: بنو غمارة بن مسطح بن قليل بن مصمودة بن برنس بن بربر... ومن هذه القبيلة الشيخ عبد الله الغماري، خادم سيد أبي العباس البصير الخزرجي الأندلسي البلنسي... (نهاية الأرب للقلقشندي).

ذكر الحرب بين زيري وزناتة

قال: ثم إن كمات بن مَدِيني الزناتي سيد زناتة جَيَّش واحتفل ونزل على آشير، فخرج إليه زيري. وكانت بينهم حروب يطول شرحها. وكان لزيري ولد صغير اسمه كباب استخلفه على البلد، ومنعه من الخروج لصغرسنه. فلما سمع الصياح وضرب الطبول، لبس لأمة[١] الحرب وركب ـ وهو إذ ذاك لم يُراهق الحُلُم ـ وخرج من باب المدينة. وكان كمات قد أبلى في ذلك اليوم بلاءً حسنًا، وقتل جماعة من أصحاب زيري. فوقعت عين كباب عليه فقصده، وعلا عليه من فوق ربوة، فضربه على عاتقه. وكانت على كمات درع، فَقدَّت الضربة الدرع والعاتِق، وسقطت ذراع كمات إلى الأرض. فخرّ صريعًا والناس ينظرون إليه ولا يعلمون من هو قاتله. فلما صُرع انهزم أصحابه. ورجع كباب إلى المدينة ودخل من الباب الذي خرج منه، فسمّي باب كباب. قال: ولما قتل كمات وقع التكبير والصياح. فجاء بعض الجند إلى زيري ـ وكان قد نظر كباب وعرفه عند ضربه لكمات ـ وقال له: «إن ابنك كباب قاتله». وأتى بجماعة من أصحابه أسارى، فأمر زيري بضرب أعناقهم وصلب جماعة من كبارهم.

قال: ثم ظهر في جبل أوراس قائم يقال له سعيد بن يوسف، وأظهر النفاق على المنصور بن القائم، فأخرج إليه زيري ولده بُلُكّين في جيش كثيف. فلقيه في موضع بفحص أبي غزالة، من غربي باغايَة فاقتتلوا. وكان سعيد قد احتفل في جمع من هوارة[٢] وغيرهم. فهزمهم بلكين وقتل سعيدًا وجماعة من أصحابه. وأنفذ برؤوسهم إلى المنصور. فقوي الحسد لزيري من جميع القبائل، وجمعوا عليه الجموع، وكان منصورًا على جميع من عانَدَه.

ذكر مقتل زيري

كان مقتله في شهر رمضان سنة ستين وثلاثمائة في أيام المعز لدين الله المنصور بن القائم بن المهدي. وسبب ذلك أن جعفر بن علي صاحب المسيلة كان

---

(١) اللأمة: أداة الحرب كلها من رمح، وبيضة، ومغفر، وسيف، ودرع.

(٢) بنو هوارة: بطن من أوريغ، من البرانس من البربر. وهم بنو هوارة بن أوريغ بن برنس بن بربر. قال الحمداني: إنهم من ولد بر بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. قال في العبر: وبعضهم يزعم أنهم من عرب اليمن... وذكر في مسالك الأبصار: إن منازلهم الديار المصرية وبالجيرة، ومن الإسكندرية غربًا إلى العقبة الكبيرة من برقة... وقيل غير ذلك... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

أميرًا على الزاب كله، وأبوه هو الذي بنى المسيلة. وكبر جعفر وشمخ فكان ملكًا جليلاً. وكان في طاعة المعز بن المنصور، وبينه وبين زيري ضغائن في النفوس وعداوة في الصدور. ثم اتفق أن المعزل لدين الله أمر ببناء دار ابن رَباح، وهي المعروفة في القيروان بدار الإمارة. فشاع عند الناس أنها بُنيت لجعفر بن علي، وأنه يُعطَى ولاية إفريقية، وأن المغرب كله يعْطَى لزيري. فعظم ذلك على جعفر بن علي وأراد أن لا يكون لأحد معه في المغرب ولاية. فأنفذ المعز لدين الله إليه يستدعيه، فلم يأت ولم يمتنع. فأرسل إليه ثانية فرجًا الصقلبي. فلما بقي بين فرج وجعفر مقدار مرحلة، وكان في المسيلة فخرج منها وأظهر المسير إلى المعز. ثم مال بعسكره ومعه السلاح والأموال ومضى إلى زناتة. وخلع الطاعة، وأظهر أن الذي حمله على ذلك عداوة زيري بن مناد لأنه كان يؤذيه في أعماله. ووصل فرج الصقلبي إلى المسيلة، فأخبروه بخبر جعفر.

قال: ولما وصل جعفر إلى زناتة، قبلوه أحسن قبول، وقدّموه على أنفسهم. فبلغ الخبر زيري، فبادر بالخروج إلى جعفر. وزحف إليه في عسكر عظيم من صنهاجة وغيرها، وذلك في شهر رمضان من السنة. وزحف جعفر في زناتة والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا. فكبا بزيري فرسه فسقط إلى الأرض. وكانت جولة عظيمة، وقطعت قُدامه خمسمائة يمين ثم قُتل. وبعث جعفر بن علي أخاه يحيى إلى الحكم صاحب الأندلس يبشّره بقتل زيري. ثم أحسّ جعفر أن زناتة يريدون الغدر به وأنهم ندموا على قتل زيري، فاحتال لنفسه ودخل الأندلس.

قال: وكان زيري حسن السيرة في الرعية والتجار. وكان له آشير التي بناها، وأعطاه المنصور تاهرت وأعمالها وباغاية وأعمالها. وكان شديدًا على البربر. وأقام على ذلك ستًا وعشرين سنة. ورُزق من الأولاد ما يزيد على المائة، كلهم أنْجاد فرسان كرماء كان يكتفي بهم في بعض حروبه.

ذكر أخبار أبي الفتوح يوسف بلكين ابن زيري بن مناد

ولي الرئاسة على صنهاجة بعد مقتل أبيه. فكان أول ما بدأ به أنه ـ لما جاءه الخبر بقتل أبيه وهو بآشير ـ جمع وحشد. ونهض لطلب دم أبيه، فاجتمع له خلق كثير. فقال: «لا يخرج معي أحد ممن حضر مقتل والدي» فلم يخرج معه منهم غير ثلاثة رجال. ومضى مسرعًا حتى لحق بزناتة. فجرت بينه وبينهم حروب صبرت فيها

صنهاجة صبرًا جميلاً. ثم انهزمت زناتة، وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وسبى جميع نسائهم، ونهب أموالهم. وهرب من بقي منهم. ونزل في موضع المعركة ثلاثة أيام. فشكا صنهاجة ريح القتلى. فنادى أن لا يطبخ في العسكر قدر إلا على ثلاثة رؤوس من رؤوس القتلى. وجعل الجثث أكوامًا. وصعد المؤذنون فأذّنوا عليها. ثم رجع إلى آشير.

فلما اتصل بالمعز لدين الله ما فعل يوسف بزناتة، أعجبه ذلك وسُرَّ بقتلهم. فزاده على ما كان لأبيه المسيلة وأعمالها التي كانت لجعفر بن علي.

ثم كتب المعز إلى يوسف في المحرم سنة إحدى وستين وثلاثمائة في القدوم عليه وأن لا يتشاغل بقتال أحد. وأمره أن لا يعترض زناتة ولا غيرها في هذا الوقت، وأن يستعمل اللين والرفق بزناتة، ويرد عليهم ما سبى من نسائهم وأولادهم. فامتثل يوسف ما أمره المعز به. وردّ على زناتة سباياهم. وتجهز للمسير إليه. واستعمل على تاهرت وآشير والمسيلة وبسكرة وطبنة[1] وباغاية ومجانة عمالاً من عبيده. وسار حتى قدم على المعز. فلما دخل عليه، أكرمه وأثنى عليه وحمد أفعاله، وذكر فراسته فيه واختياره له. وخلع عليه خلعته التي كانت عليه. ونزع سيفه فقلّده إياه بيده. وأمر أن يُحمَل بين يديه عند خروجه من عنده أربعون تختًا من فاخر الكُسَا ومعها رُزَم مما يخلَع على أصحابه. وقادوا بين يديه أربعين فرسًا بالسروج المحلاة المثقلة. فشقّ ذلك على الكُتاميين وحسدوه وتكلموا عليه عند المعز وعابوه، فلم يضره ذلك. ولما عزم المعز على الرحيل إلى مصر. أتاه بلكين بألفي جمل لحمل أمواله من إبل زناتة[2].

ذكر ولاية أبي الفتوح يوسف بلكين بلاد المغرب

وهو أول ملوك بني زيري. وذلك أن المعز لدين الله أبا تميم معد بن المنصور بنصر الله بن القائم بأمر الله بن المهدي لما توجه من المنصورية إلى ديار مصر في سنة

---

(١) طبنة: بضم أوله ثم السكون، ونون مفتوحة: بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير... وسورها مبني بالطوب، وبها قصر وأرباض، وليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها... (معجم البلدان).

(٢) بنو زناتة: هم بطن من البربر ببلاد المغرب... قال في العبر: ونسابة زناتة تزعم الآن أنهم من حمير، من التبابعة، فتكون من الفرس. وبعضهم يقول إنهم من العمالقة... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

إحدى وستين وثلاثمائة بعد أن فتحها القائد جوهر له توجه بجميع من كان في قصره وأهل بيته. ورحل معه يوسف إلى سردانية، فسلّم إليه إفريقية وأعمالها وسائر أعمال المغرب، وذلك في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة إحدى وستين وثلاثمائة. وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة له. وفوّض إليه جميع الأعمال إلا جزيرة صقلية فإنها كانت بيد أبي القاسم علي بن حسن بن علي بن أبي الحسين، وكذلك طرابلس فإن المعز جعل عليها عند وصوله إليها عبد الله بن يُخْلِف الكُتامي فلم تزل بيده إلى أن توفي المعز. ثم سلمها ابنه نزار إلى يوسف هي وسُرْت وما والاهما في سنة سبع وستين وثلاثمائة، بسؤال يوسف لذلك.

قال: ولما ولّى المعز يوسفَ، ولّى أيضًا أبا مضر زيادة الله بن عبيد الله بن القديم نظر الدواوين بسائر كور إفريقية. وقال ليوسف عند وداعه: «إني تركت زيادة الله بن القديم عونًا لك على جميع الأموال بإفريقية، كَبِّره». وأوصاه وصايا كثيرة كان آخرها أن قال له: «يا يوسف، إنْ نسيتَ مما أوصيتك به فلا تنسَ ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البلاد، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تولِّ أحدًا من إخوتك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوصِ بأبي مضر خيرًا».

ثم ودّعه يوسف ورجع. فكان دخوله إلى المنصورية في يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. فنزل بقصر السلطان وخرج إليه أهل القيروان وتلقوه، وأظهروا الفرح بمقدمه والبشر والسرور. فأخرج العمال وجباة الأموال إلى سائر البلدان، وعقد الولايات للعمال. فاستقامت الأمور بحسن تدبيره.

ولما رتب ذلك كله رحل إلى المغرب في شعبان من السنة. فوصل إلى باغاية فولّى عليها عاملاً، وأمره أن يلطف بأهلها. ففعل. فدخلوا في الطاعة. ثم خالفوا فقاتلهم العامل، فتحصنوا بمدينتهم. فهمّ يوسف أن يرجع إليهم، فوافاه رسول خَلوف بن محمد عامله على تيهرت يذكر أن أهلها خالفوا. فسار إليهم وقاتلهم. ودخل البلد بالسيف في شهر رمضان، فقتل وسبى ونهب وأحرق البلد.

وأراد الرجوع إلى باغاية، فأتاه الخبر أن زناتة قد نزلوا على تلمسان[1]. فرحل

(١) تلمسان: بكسرتين، وسكون الميم، وسين مهملة: هما مدينتان متجاورتان مسوّرتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تافرزت. . . (معجم البلدان).

إليهم فهربوا بين يديه. فحصر تلمسان مدة فنزلوا على حكمه. فعفا عنهم من القتل، ونقلهم إلى آشير، فبنوا بقربها مدينة سموها بلنسان.

ذكر ولاية عبد الله بن محمد الكاتب

كان سبب ولايته أن يوسف كان قد ولّى جعفر بن يموت مدينة القيروان وصَبْرة، وجعل معه خيلاً كثيرة، عند مسيره إلى بلاد المغرب في شهر ربيع الأول. فمات في جُمادى الآخرة. فكتب ابن القديم إلى أبي الفتوح بموته، ويسأله أن يرسل إليه بدلاً منه يعاونه على أمور البلد. فاستعمل عبد الله على ذلك. فأبى عليه وامتنع واستعفى مرة بعد أخرى. فجمع يوسف حبوس بن زيري، وكرامة بن إبراهيم، وكبّاب بن زيري، وخلوف بن أبي محمد. وأحضر عبد الله وقال لأولئك: «ما جزاء من عاند أمري، وخالف رأيي ومرادي، ولم يعبأ بما كلفته؟» قالوا: «القتل، ونحن نتولّى قتله». فقال: «كاتبي هذا أمرته بالرجوع إلى إفريقية إذ لا ينوب عني أحد غيره فامتنع» فقالوا له: «إن لم ترجع وإلا قتلناك» فرجع كارهًا. وعبد الله هذا من بني الأغلب، كان أبوه محمد قد هرب إلى نفزاوة[١] فولد بها عبد الله. فربّاه خاله صالح وتعلّم الخط والترسُّل. فاستكتبه زيري وهو صبي شاب. ثم استكتبه بعده أبو الفتوح، فحظي عنده. وكان فصيحًا بليغًا، عالمًا بلغة العرب ولسان البربر.

قال: فلما وصل عبد الله إلى القيروان، تلقاه ابن القديم. وترجّل كل منهما لصاحبه، وتعانقا، واتفقا وصارت كلمتهما واحدة. ثم وقع بينهما بعد ذلك، وكانت فتنة عظيمة بالقيروان يطول شرحها، انتصر فيها عبد الله وقبض على ابن القديم، وأرسله إلى الأمير أبي الفتوح، فحبسه حتى مات.

وكانت ولاية ابن القديم سنتين وشهرًا ونصفًا. ثم توفي في الاعتقال يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من جُمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة. واستقل عبد الله بن محمد الكاتب وحده لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وثلاثمائة.

ذكر أخبار خلف بن خير

قال: وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة صعد خلف بن خير من بني هراش إلى قلعة منيعة من ناحية بلده. واجتمع إليه خَلْق عظيم من سائر قبائل البربر. وخرج إليه

---

(١) نفزاوة: بالكسر ثم السكون، وزاي، وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال إفريقية...

كل من كان قد خالف مع ابن القديم. فكتب عبد الله إلى أبي الفتوح كتابًا يذكر فيه أن إفريقية قد استوت كلها له، وأنه لا خوف بها إلا من الذين اجتمعوا مع ابن خير في القلعة. فرحل يوسف إلى القلعة ونازلها، في عساكر عظيمة. فظفر بها في اليوم الرابع من منازلتها، وهرب خلف، وقتل في القلعة ما لا يحصى. وبعث منها سبعة آلاف رأس طوفها عبد الله في القيروان ثم بُعثت إلى مصر. ونفي أكثر ممن قتل. وغنم جميع ما فيها. وسار خلف بن خير إلى بلد كتامة. فبعث إليهم يوسف يقول: «برئت الذمة ممن دفع عنه وآواه، ومن فعل جازيته» فأخذه القوم الذين انتهى إليهم ومعه ابنه وأخوه وخمسة من بني عمه، وأتوا بهم إلى يوسف. فأحسن صلة من جاء بهم. وبعثهم إلى عبد الله الكاتب وأمره أن يشهرهم ويطوف بهم على الجمال. ففعل ذلك بهم ثم صلبهم وضرب أعناقهم، وبعث برؤوسهم إلى مصر.

قال: ولما فتح أبو الفتوح هذه القلعة، اختار من عبيدهم أربعة آلاف من الشجعان فشحّ بقتلهم لشجاعتهم وقربهم، وأراد أن يجعلهم في جملة عبيده. فاتفق أن أحدهم سأل عن أبي الفتوح وقال: «عندي نصيحة». فأشاروا إليه إلى ابن عم لأبي الفتوح ولا يشك الذي أشار إليه أنه هو. فأتاه وقال له: «إني أريد أن أخبرك بنصيحة» فلما دنا منه، ضربه بسكين كانت معه فشقّ بطنه وأخرج أمعاءه فسقط من ساعته ميتًا. وكان ذلك الغلام لرجل ممن قتله أبو الفتوح في تلك القلعة. فعندها أمر بقتل أولئك فقُتلوا في ساعة واحدة.

ثم بعث عشرة من أهل القيروان إلى باغاية يحذرهم المخالفة ويطلب منهم النزول على حكمه، وإلا فعل بهم ما فعل بأهل القلعة فأجابوه إلى الطاعة ونزلوا على حكمه. فحكم أن يسلموا إليه المدينة ويمضوا حيث شاؤوا. ففعلوا ذلك ووفَى لهم. وأخرب المدينة القديمة التي عليها السور، وترك الربض[١] ثم أتى إفريقية.

وأتاه الخبر بوفاة المعز لدين الله وولاية ابنه نزار بن معد فكتب إليه يوسف في سنة سبع وستين، يسأله في طرابلس وسُرْت وأجْدابِيَة[٢]، فأجابه ودفع ذلك إليه.

(١) الربض: كل ما تأوي إليه وتستريح لديه من أم وزوج وبنت وقرابة بيت وغيره.

(٢) أجدابية: بالفتح، ثم السكون، ودال مهملة، وبعد الألف باء موحدة، وياء خفيفة، وهاء: هو بلد بين برقة وطرابلس الغرب، بينه وبين زويلة نحو شهر سيرًا، على ما قاله ابن حوقل... (معجم ياقوت).

وفي سنة تسع وستين، رحل أبو الفتوح إلى فاس[١]، وسِجِلماسة وأرض الهبط. فملك ذلك كله وطرد منه عمال بني أمية.

ثم بعث إلى سبتة[٢] في طلب من لجأ إليها من زناتة. فلقي فيما قرب منها جبالاً شامخة وشعارى غامضة فأمر بقطعها وإطلاق النيران فيها حتى وجد العسكر فيها مسلكًا. وأمر عساكره بالوقوف. ومضى هو بنفسه وخواص أصحابه حتى أشرف على سبتة من جبل عال مُطل عليها. فخاف أهل سبتة منه وغلقوا أبوابهم. فنظر إليها ورأى منعتها، فعلم أنه لا يستطيعها إلا بالمراكب، فرجع عنها.

ومضى يريد البصرة، بصرة المغرب. فلما علمت به زناتة رحلوا بأجمعهم إلى الرمال والصحاري هاربين منه. ودخل البصرة وكانت قد عمرت عمارة عظيمة مع بني الأغلب. فأمر بنهبها وهدمها، فهُدِّمت وحرقت.

ورحل بعساكره إلى بلد برغَواطَة، وكان ملكهم عيسى بن أبي الأنصار شَعْوَذيًا ساحرًا، فسحر من عقولهم حتى جعلوه نبيًا وأطاعوه في كل ما أمرهم به، وشرع لهم شريعة، وأتاهم بغير دين الإسلام. فاتبعوه فضَلّ وأضلّهم. فغزاهم أبو الفتوح، وكانت بينهم حرب شديدة لم ير مثلها، كان الظفر للمسلمين. وقُتل عيسى الكافر وتفرقت عساكره، فقُتلوا قتلاً ذريعًا. وسبى من نسائهم وذراريهم ما لا يُحصَى كثرة، وأرسل بسبيهم إلى إفريقية.

ورجع أبو الفتوح وملك فاس وسجلماسة وبلد الهبط والبصرة وجميع بلدان المغرب. وأقام في تلك النواحي من سنة تسع وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وسبعين.

ذكر وفاة أبي الفتوح يوسف

كانت وفاته رحمه الله في يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، عند قفوله من برغواطَة وقد فصل من سجلماسة، بموضع يقال له

(١) فاس: بالسين المهملة: مدينة مشهورة كبيرة على برّ المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش، وفاس مختطة بين ثنيتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه... (معجم البلدان).

(٢) سبتة: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر.

وارِكنين، ويقال فيه وارَكْلان، بعلة القُولَنْج[١]، وقيل بحَبة خرجت في يده فمات منها.

حكى الشيخ أبو محمد[٢] بن حزم في كتابه المترجم «بنَقْط العَروس» «أن بُلُكِّين بن زِيرِي كان له في موضع ألف امرأة لا يحل له نكاح واحدة منهن، كلهن من نسل إخوته وأخواته، ومن الرجال مثل هذا العدد.

قال: وكان له قبل أن يستخلفه المعز لدين الله على المغرب قصور تشتمل على أربعمائة جارية، فيقال: إن البشارات تواترت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولدًا.

وكانت مدة إمارته منذ تسلم المغرب من المعز لدين الله ثنتي عشرة سنة، ومنذ قام بالأمر بعد أبيه ثلاث عشرة سنة وشهورًا. ولما مات قام بالأمر بعده ابنه المنصور أبو الفتح.

ذكر ولاية أبي الفتح المنصور
ابن يوسف بلكين بن زيري

قال: ولما توفي يوسف، أسند وصيته إلى أبي زعبل بن مسلم، وكان من جملة عبيده وخاصة قواده. فكتب إلى المنصور يعرفه بوفاة أبيه، وكان المنصور إذ ذاك بآشير. فاستقل بالأمر بعد أبيه. وأتاه عبد الله بن محمد الكاتب ومشايخ القيروان والقضاة وأصحاب الخراج؛ فعزوه بأبيه وهنّؤوه بالولاية، فأكرمهم وعظمهم وأحسن جوائزهم وأعطاهم عشرة آلاف دينار. فدعوا له وشكروه. فقال لهم: «إن أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهرًا، وأنا لا آخذ الناس إلا بالإحسان. ولستُ ممنْ يُوَلَّى ولا يُعزَل بكتاب. ولا أحْمَدُ في هذا الملك إلا الله ويدي. وهذا الملك ما زال في يد

---

(١) القولنج: يوناني معناه وجع الأمعاء وهو في الحقيقة مغص قوي مشتد النخس يقال لنوع منه إيلاوس يقيء الأبراز ويخيل أنه يثقب الجنب ويفارق المغص بالثقل وعموم الظهر والجنب ووجع الكلى كذلك أيضًا مع ابتدائه من الأيسر وذلك بالعكس، وبالجملة فكل مرض يشتبه به كوجع الكبد والرحم يخص موضعه بخلاف القولنج... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي... كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفننًا في علوم جمة... (وفيات الأعيان ٣:٣٢٥).

آبائي وأجدادي ورثناه عن حمْير».. وكلام كثير في هذا المعنى. ثم قال لهم: «انصرفوا في حفظ الله فإن قلوب أهليكم مشغولة بكم» فانصرفوا.

وقدم المنصور إلى رقادة[١] في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. فتلقاه عبد الله الكاتب ووجوه الناس. فأظهر لهم الخير ووعدهم بكل جميل. وأتاه العمال من كل بلد بالهدايا والأموال. وأهدى إليه عبد الله ما لا يحيط به الوصف. فجهز المنصور هدية إلى نزار بلغت قيمتها ألف ألف دينار.

وأقام برقادة إلى يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة من السنة. ورجع إلى المغرب ومعه عبد الله الكاتب. واستخلف عبد الله ابنه يوسف على القيروان، فسار أحسن سيرة.

وفي هذه السنة، أعطى المنصور أخاه يَطُوفت العساكر والعُدَد ووجهه إلى فاس وسجلماسة يطلب ردهما، وكانت زناتة قد ملكت تلك البلاد بعد موت أبي الفتوح. فمضى حتى وصل إلى قرب فاس وبها زيري بن عطية الزناتي المعروف بالقرطاس، ومعه عساكر زناتة. فعاجله زيري والتقوا واقتتلوا. فانهزم يطُوفت وجميع مَن معه. وتبعه زيري فقتل من عسكره خلقًا عظيمًا وأسر وهرب من سلم إلى تيهرت. فلما بلغ المنصور هزيمة يطُوفت، أرسل أخاه عبد الله بعسكر يلقاه به ثم وصل يطُوفت إلى آشير. فلم يتعرض المنصور بعدها لشيء من بلد زناتة.

وفي سنة ست وسبعين، أخذ يوسف بن عبد الله بن محمد الكاتب في بناء قصر المنصور. فبلغ الإنفاق عليه ثمانمائة ألف دينار ثم عمل عليه وعلى قصر بجواره كان بناه قديمًا شفيع الصقلبي صاحب المظلة سورًا محدقًا عليهما. وغُرست حوله الأشجار من كل جهة.

وفي سنة سبع وسبعين، وصل المنصور من آشير إلى إفريقية في يوم الاثنين منتصف المحرم، ونزل في قصره الذي بُني له. ونزل عبد الله الكاتب وجميع القواد حوله.

(١) رقادة: بلدة كانت بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أيام، وكان دورها أربعة وعشرون ألف ذراع وأربعين ذراعًا، وأكثرها بساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرقّ تربة منها... (معجم البلدان).

ووصل كتاب السلطان نِزار إلى المنصور يُعلمه أنه جعل الدعوة لعبد الله بن محمد الكاتب، ويأمره بذلك. ففعل المنصور ذلك وأمر أن يُفرَش له قصر السلطان في الموضع المعروف بقصر الحجر(١)، وذلك في يوم الاثنين لسبع خلون من جُمادى الآخرة منها. وجلس فيه المنصور وأقرباؤه ووجوه بني عمه. ثم دخل عبد الله فأخذ عليهم الدعوة، وصار عبد الله داعيًا. فذُكر أنه لما تمّ هذا له مسح بيده على رأسه وقال: «الآن قد خلصت من القتل وأمنت على شعري وبَشَري». وما علم أن ذلك سبب هلاكه.

ذكر مقتل عبد الله بن محمد وولده يوسف

قال: كان عبد الله قد بلغ مبلغًا عظيمًا لم يبلغه أحد من قرابة المنصور وأهل دولته، وانحصرت أمور المنصور كلها تحت قبضته. وأعطى الرياسة حقها ووثق بما قدم من نصحه. فرفع فيه حسن ابن خاله إلى المنصور أمورًا من القدح في دولته، وأنه كاتَب ابن كلِّس وزير نزار، واختلفت بينهم السفراء، وعقد الغدر بالمنصور. فوجد المنصور لذلك. وكان عبد الله لا يداري أحدًا من أولاد زيري ووجوه بني مناد وغيرهم من أكابر الدولة. فلما أحسوا من المنصور بعض الأمر وشوا بعبد الله وطعنوا عليه.

فاستراب المنصور به وأراد إبقاءه مع التحرُّز منه، فقال له: «اعتزِلْ عمل إفريقية واقتصر على الخاتم والكتابة، وكل من تولّى فهو متصرف تحت أمرك ونهيك». فكان جوابه أن قال: «القتلة ولا العزلة» فلما كان يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، ركب المنصور فركب عبد الله وهو يقول: [من الطويل]

ومن يأمنِ الدنيا يكن مثلَ قابضٍ ... على الماء خانتْه فروجُ الأصابعِ(٢)

فلما نزل المنصور، نزل عبد الله فقبّل يده. ثم وقف ودار بينهما كلام كثير لم يقف أحد على صحته. فطعنه المنصور برمحه. فجعل أكمامه على وجهه وقال: «على ملّة الله وملّة رسوله». ولم يُسمع منه غير ذلك. وطعنه عبد الله أخو المنصور

---

(١) الحجر: وصف ياقوت عدة مواضع يطلق عليها «الحجر» ولكنه لم يذكر موضعًا يعرف بقصر الحجر.

(٢) خروج الأصابع: فُتحاتها.

برمحه بين كتفيه فأخرجه من بين ثدييه. فسقط إلى الأرض. ثم أُتي بابنه يوسف. فصاح واستغاث وقال: «العفو» فضربه المنصور برمحه، وضربه ماكسن بن زيري، وضربه سائر من حضر فماتا جميعًا.

ولما قُتلا جاء القاضي وشيوخ القيروان واجتمعوا بالمنصور. فقال لهم «ما قتلت عبد الله على مال ولا شيء اغتنمه وإنما خفته على نفسي فقتلته» فدعوا له بطول البقاء ثم انصرفوا. ودفن عبد الله ابنه بغير غسل ولا كفن وإنما رُدّ عليهما التراب في إسطبل كان للمنصور تحت الحنايا بالقرب من قصره.

قال: وولّى المنصور بعده إفريقية يوسف بن أبي محمد، وكان على قَفصَة[١] فأتى يوم الخميس لخمس خلون من شعبان. فأعطاه المنصور الطبول والبنود، وخلع عليه ثيابه وأنزله في دار القائد جوهر. فولّي إلى سنة اثنتين وثمانين: ثم عزله يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول، وولّى أبا عبد الله محمد بن أبي العرب الكاتب.

ذكر أخبار أبي الفهم حسن بن نصرويه الخرساني

كان أبو الفهم رجلًا خراسانيًا قدم في سنة ست وسبعين وثلاثمائة من مصر من قبَل نزار داعيًا. فأنزله يوسف بن عبد الله وأجرى عليه جرايات جليلة. وأعطاه أموالاً سَنية وبره وأكرمه. فطلب أبو الفهم الخروج إلى بلد كتامة[٢] يدعوهم وينتهي إلى ما أمره به نزار ووجهه إليه، فكاتب يوسف أباه. فكتب إليه عبد الله أن أعْطه ما أراد واتركه يذهب حيث يشاء. فأعطاه يوسف ما طلب، وحمله على أفراس بسروج محلاة، وحمل بين يديه تُخوت ثياب وبِدَر[٣] دراهم.

وتوجه إلى بلد كتامة فوصل إليهم ودعاهم. ثم تزايدت أموره حتى صار يجمع العساكر ويركب الخيل. وعمل بنودًا وضرب سكة واجتمع إليه خلق كثير من كتامة، وكان هذا من الأسباب التي حقدها المنصور على عبد الله وابنه.

---

(١) قفصة: بالفتح ثم السكون، وصاد مهملة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام مختطة في أرض سبخة لا تنبت إلا الأشنان والشيح... (معجم ياقوت).

(٢) بنو كتامة: هم بطن من البرانس من البربر... وقال الطبري: هم من حمير وليسوا من قبائل البربر، خلفهم إفريقي الذي تنسب إليه إفريقية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٣) بدر: جمع البدرة، وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.

ثم ورد من مصر رسولان من نزار إلى المنصور في سنة سبع وسبعين أحدهما رجل كتامي يعرف بأبي العزم، ورجل من عبيدهم يقال له محمد بن ميمون الوزان، ومعهما سجلات إلى المنصور. فقيل: إنهما أمراه عن نزار ألا يعرض لأبي الفهم ولا لكتامة. فشتمهما المنصور وأسمعهما مكروهًا وقال: «أبو الفهم وكتامة فعلوا وفعلوا» وأغلظ لهما في القول ولمن أرسلهما.

فأقاما عنده شعبان وشهر رمضان. ومنعهما من الخروج إلى كتامة وأبي الفهم. وقال: «امضيا معي إليه حتى تريا ما يكون منه» ثم تهيأ المنصور للخروج إلى كتامة وأبي الفهم، وقد تفاقم أمره، وظهرت سكته، وصار حوله جيوش عظيمة. فسار المنصور حتى وصل إلى بلاد كتامة. وتثاقل في سيره حتى دخلت سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة. فلما قرب من ميلة عزم على قتل أهلها، فخرج إليه النساء والأطفال. فلما رآهم بكى وكفّ عنهم القتل. ونهبت العساكر كُلَّ ما فيها. وأمر بهدم سورها فهُدم. ونقل أهلها إلى باغاية، فاجتمعوا ومضوا إليها وقد سلم لبعضهم ما خفّ من عيْن ووَرِق[1] وغير ذلك. فلقيهم ماكسن بن زيري بعسكره فأخذ كل ما كان معهم.

ثم رحل المنصور إلى داخل بلد كتامة، فجعل لا يمر للكتاميين بمنزل ولا قصر ولا دار إلا أمر بهدم ذلك وتحريقه بالنار، ومعه أبو العزم وابن ميمون ينظران إلى فعله، ويقول لهما: «هؤلاء الذين زعمتما أنهم يمضون بي بحبل في عنقي إلى مولاكما» وكانا قد خاطباه بذلك لما اجتمعا به.

وسار حتى بلغ مدينة سَطيف وبها جَمْعهم. فحاربهم وظفر بهم وهزمهم. وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر. فأرسل إليه المنصور من أخذه وجاء به إليه. فأدخله إلى حُرَمه فضربنه ضربًا شديدًا حتى أشرف على الموت. ثم أمر المنصور بإخراجه وقد بقيت فيه حشاشة من الروح[2] فنحره وشقّ بطنه. وأُخرجت كبده فشُويت وأُكلت. وشرّح عبيد المنصور لحمه وأكلوه حتى لم يبقَ إلا عظامه. وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث خلون من صفر سنة ثمان وسبعين. وقتل جماعة من وجوه كتامة، وأنزل بهم الذلّ والهوان. وولّى بلدهم أبا زعبل بن مسلم وأولاده. وبقيت ميلة خرابًا ثم عمّرت بعد ذلك.

---

(١) العين: الذّهب والفضة المضروبان، والورِق: الفضّة.

(٢) الحشاشة: البقيّة من الروح.

ودخل المنصور إلى آشير. وردّ أبا العزم وابن الوزان إلى مصر ليخبرا من أرسلهما. فأخبراه بما كان منه. وقالا: «أتينا من عند شياطين يأكلون بني آدم، ليسوا من البشر في شيء».

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، ثار ثائر آخر ببلد كتامة، يقال له أبو الفرج. وقيل: إنه كان يهوديًا. وقال لكتامة: إنه من أولاد الأمراء الذين كانوا بالمهدية، وإن أباه كان من ولد القائم. فانضموا إليه وكثرت جموعه، واتخذ البنود والطبول. وزحف إلى عسكر أبي زعبل وقاتَلَه فلم يقم بحربه. فكتب إلى المنصور فقدم بعساكره. والتقوا واقتتلوا، فهزمهم المنصور وقتل من كتامة مقتلة عظيمة. وهرب أبو الفرج واختفى في غار في جبل. فعمل عليه غلامان كانا له. فأخذاه وأتيا به إلى أبي زعبل. فأتى به إلى المنصور فقتله شرّ قتلة. وشحن بلد كتامة بالعمال والعساكر ورجع إلى آشير.

ذكر وفاة المنصور أبي الفتح بن يوسف

كانت وفاته في يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلاثمائة. فكانت مدة ملكه ثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام. وكان ملكًا كريمًا جوادًا صارمًا. وكانت أيامه أحسن أيام وأطيبها. وما زال مظفَّرًا منصورًا لا تُرَدّ له راية.

ذكر ولاية أبي مناد باديس بن أبي الفتح المنصور بن يوسف

قال: ولما مات المنصور قام بالأمر بعده بإفريقية ولده أبو مناد، وكان مولده في ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. فلما صار الأمر إليه رحل إلى سردانية يوم الأربعاء لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ونزل في قصرها. وأتاه الناس من كل ناحية بإفريقية للتهنئة والتعزية. وأقام بسردانية أيامًا ثم رجع إلى قصره. وتوفي بعد ولايته الأمير نزار وولّى بعده ابنه الحاكم بأمر الله.

ذكر ولاية حماد بن يوسف مدينة آشير

قال: وفي صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، عقد أبو مناد ولاية آشير لعمه حماد بن يوسف بن زيري، وأعطاه خيلاً كثيرة وكُسا. ثم اتسعت أعماله وعَظُم شأنه وكثرت عساكره، واجتمعت أمواله.

وفي يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وصل من مصر الشريف الداعي علي بن عبد الله العلوي المعروف بالتِّيْهَرتي(١). وكان أبو مناد بعث في حشد عساكره وأجناده، فلم يبق بإفريقية وأعمالها فارس ولا راجل إلا وصل إلى المنصورية. فنزل أبو مناد بهم إليه في هذا اليوم، فكانوا صفوفًا من باب قصر السلطان بالمنصورية إلى باب قلشانة(٢). فرأى الداعي من العساكر والعُدد ما لم ير مثله. وأتى بسجلين قُرئا على منبر المنصورية والقيروان: أحدهما بولاية أبي مناد باديس، وتلقيبه نصير الدولة؛ والثاني بوفاة نزار، وولاية ابنه الحاكم، والجواب عن وفاة المنصور والعزاء عن نزار وعن المنصور. وكان معه سجل ثالث بأخذ البيعة على باديس وجماعة بني مناد للحاكم. فأنزل الشريف بدار الأمير يوسف بجوار قصر السلطان. ثم جلس باديس بعد ذلك وأحضر الشريف. ودعا بني مناد وسائر قبائل صنْهاجة(٣) وأخذ عليهم البيعة. ثم كان الشريف يجلس في الدار التي نزل فيها، ويأخذ البيعة على كل من أتاه من الصنهاجيين وغيرهم. ثم وصله أبو مناد بمال جليل وتخوت ثياب وبراذين بسروج محلاة، وصرفه إلى مصر. ثم جهز هدية بعده.

ذكر خروج محمد بن أبي العرب إلى زناتة

قال: وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وصل كتاب يَطُّوفَت بن يوسف بن زيري إلى ابن أخيه أبي مناد يعرفه أن زيري بن عطية الزناتي قد نزل عليه بتيهرت، وسأله أن يمده بالعساكر. فأمر باديس محمد بن أبي العرب بالخروج فنهض بالعساكر الثقيلة حتى بلغ آشير فأقام بها أيامًا يسيرة. ثم رحل ورحل معه حماد بن يوسف عاملها بعساكر عظيمة حتى وصلا إلى تيهرت. فاجتمعا بيطوفت في غرة جُمادى الأولى من السنة. وكان زيري بن عطية بموضع يقال له أمسان على مرحلتين من تيهرت فزحفوا إليه واقتتلوا قتالاً شديدًا. وكان معظم جيش حماد التُلُكّاتيين(٤)، وقد أساء عشرتهم، وكلف بأمورهم غلامه خلفًا الجِيزي فسامهم الخسف. فلما حمي

---

(١) التيهرتي: نسبة إلى تيهرت، وهو اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب.

(٢) قلشانة: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة بإفريقية أو ما يقاربها.

(٣) صنهاجة: بطن من البرانس من البربر. مساكنهم بلاد المغرب... ويقال: إنهم من حمير من عرب اليمن وليسوا من البربر. قاله الطبري، والمسعودي، وعبد العزيز الجرجاني، وابن الكلبي، والبيهقي. وحكى ابن حزم أن صنهاج إنما هو ابن ارمأة اسمها أداس، وليس له أب معروف... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٤) نسبة إلى تلكات: وهي إحدى بطون صنهاجة.

الوطيس واشتد البأس ولّوا منهزمين، واتبعهم الناس. فكانت الهزيمة على الجميع. ورام محمد ردّ الناس فلم يقدر على ذلك. ووصلوا إلى آشير، وقد أسلموا عساكرهم وما فيها من بيوت الأموال وخزائن السلاح والمضارب وغير ذلك فاحتوى زيري على جميع ذلك وأمر ألا يُتَّبعوا. ووقف على باب تيهرت، فخرج إليه أهلها. فوعدهم الجميل وأطلق خلقًا كثيرًا ممن أُسر في المعركة أو لجأ إلى تيهرت، فمضوا حتى وصلوا إلى آشير. وكانت هذه الهزيمة يوم السبت لأربع خلون من جُمادى الأولى منها.

قال: وبلغ خبر الهزيمة الأمير باديس، فبرز بنفسه من رقادة للقاء زيري بن عطية، وذلك لليلتين خلتا من جُمادى الآخرة. فلما وصل إلى قرب طُبْنَة بعث في طلب فلفل بن سعيد بن خزرون. فخاف وأرسل يعتذر. وسأل أن يكتب له سجل بولاية طُبنة إلى أن يقدم باديس. فكتب له سجلاً بولايتها وبعث به إليه. وتمادى أبو مناد في مسيره. فلما علم فلفل أنه أبعد عنه أتى إلى طبنة فأكل ما حولها ونهب وأفسد. ومضى إلى تيجس وما والاها فنهبها. وتمادى إلى باغاية فحصرها أيامًا ثم رحل عنها، وباديس في هذا مستمر السير إلى آشير. فلما بلغ المسيلة، رحل زيري بن عطية عن آشير إلى تيهرت. فرحل إليها باديس. فلما بلغها توغل زيري هاربًا منه إلى داخل المغرب.

فعند ذلك ولّى أبو مناد على تيهرت وآشير عمه يطوفت. فاستخلف يطوفت على تيهرت ابنه أيوبًا وتركه في أربعة آلاف فارس.

ثم رجع باديس إلى آشير وعمه يطوفت معه. فبلغه ما فعل فلفل بن سعيد. فأرسل إليه أبا زعبل وجعفر بن حبيب ومحمد بن حسن في عسكر.

ثم رحل بعدهم من آشير، وبقي يطوفت ومعه أولاد زيري وقد سألوا باديس أن يتركهم أعوانًا ليطوفت. فأبى ذلك وقال: «لا بد من رحيلكم معي» فقالوا: «لنا أمور نقضيها ونلحق بك» فتركهم على هذا ورحل ومعه أبو البهار بن زيري حتى وصل إلى المسيلة، فعيَّد بها عيد الفطر. فبينا هو في صلاة العيد، إذ وصل إلى أبي البهار رسول أخبره أن إخوته ماكسن وزاوي ومَغنِين وعَرَما نافقوا بآشير، وقبضُوا على يَطوفت، وأنه أفلت منهم بحيلة بعد أن عزموا على قتله. فخاف أبو البهار أن يصل يطوفت إلى باديس فيتهمه بمباطنة إخوته، فهرب لوقته. وطُلِب فلم يُدرَك. فلقي يطوفت في طريقه فعرّفه ما كان من إخوته، فحلف أنه لم يعاقدهم على ذلك، وأنه إنما هرب خوفًا على نفسه. وفارقه والتحق بإخوته. وسار يطوفت حتى لحق بابن

أخيه الأمير باديس وهو بالمسيلة. فرحل إلى إفريقية، فاتصل به أن فلفل بن سعيد قتل أبا زعبل، وهزم أصحابه، وأسر حميد بن أبي زعبل فمثَّل به ثم قتله، وأن فلفلاً تمادى إلى القيروان. فرحل باديس إلى باغاية فوصل إليها لإحدى عشرة بقيت من شوال. فأقام بها بقية الشهر. ورحل في غرة ذي القعدة حتى وصل إلى مرمجنة.

فلما صار إلى بني سعيد، زحف إليه فلفل في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة. فلم يلقه باديس ولم يلتفت إليه. فلما كان يوم الاثنين، زحف فلفل إليه. فالتقيا بوادي اغْلان[1]، فكانت بينهم من الحروب العظيمة ما لم يسمع بمثلها. وقد كان اجتمع لفلفل من قبائل البربر ما لا يحصى كثرة، وكذلك من زناتة، وكلهم أصحاب خسائف. فثبتت صنهاجة بين يدي باديس. وظهر منه في ذلك اليوم ما قرّت به أعينهم. ثم أجْلت الحرب عن هزيمة زناتة والبربر هزيمة فاحشة. وهرب فلفل واتبعته صنهاجة والعبيد حتى حال بينهم الليل. ورحل باديس من الغد فنزل في مناخ فلفل. وقتل من زناتة في ذلك اليوم تسعة آلاف رجل سوى من قتل من البربر. ثم رحل باديس فوصل إلى المنصورية[2] في يوم الأربعاء لعشر بقين من ذي القعدة.

ثم وصل الخبر أن فلفل بن سعيد وأولاد زيري بن مناد عمومة والدباديس تصالحوا وتعاقدوا على قتال باديس. فلما تحقق ذلك خرج إلى رقادة سنة تسعين وثلاثمائة. ورحل حتى انتهى إلى قصر الإفريقي. فبلغه أن أولاد زيري رجعوا إلى المغرب خوفًا منه، وأنه ما بقي مع فلفل منهم سوى ماكسن وولده محسن فرجع باديس إلى المنصورية.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، دخل باديس إلى المغرب في طلب فلفل بن سعيد. فهرب منه إلى الرمال وافترق جمعه. فرجع باديس إلى إفريقية ومعه أبو البهار بن زيري عم أبيه، وكان قبل ذلك قد أتاه معتذرًا بأنه لم يدخل في شيء مما دخل فيه إخوته. فقبل عذره وطيّب قلبه. وأما فلفل بن سعيد فإنه سار إلى طرابلس، فقبله أهلها أحسن قبول، فاستوطن بها.

وفي سنة اثنتين وتسعين، وصل رسول ابن يوسف إلى ابن أخيه باديس، يذكر أنه زحف إليه عمه ماكسن وأولاده ومن معهم. فكانت بينهم وقعة شديدة فقُتل فيها ماكسن وأولاده محسن وباديس وحباسَة.

---

(١) وادي أغلان: لم نجد موضعًا بهذا الاسم فيما وصل إلينا من المظان.
(٢) في معجم ياقوت: المنصورة مدينة بقرب القيروان من نواحي إفريقية بناها المنصور بن القائم بن المهدي الخارج بالمغرب.

ثم توفي زيري بن عطية الزناتي بعد ذلك بتسعة أيام.

وفي سنة خمسة وتسعين، اشتد الغلاء بإفريقية وأعقبه وباء عظيم. وكان يُدفَن في اليوم الألف والأكثر والأقل.

وفي سنة أربعمائة مات فلفل بن سعيد الزناتي من علة أصابته. وولّى أخوه وَرُّو، فأطاعته زناتة. ثم سار باديس في عساكر عظيمة لقتال زناتة. فلقيه في بعض الطريق عبد الله وسواشي أولاد ينال التركي وأصحابهما. فعَرفوه أنهم لما علموا بخروجه أغلقوا أبواب طرابلس ومنعوا الزناتيين منها. فسُرّ بذلك ووصلهم وأحسن إليهم. وسار إلى طرابلس فتلقاه أهلها فدخلها. ثم جاءته رسل ورّو بن سعيد ومن معه من الزناتيين، يرغبون في الأمان، ويسألون أن يُجعَلوا عمالاً كسائر رجال الدولة. ووصل جماعة منهم، فأحسن إليهم، وأعطاهم نفزاوة على أنهم يرحلون عن أعمال طرابلس. وأعطى النُّعيم قَصْطيلية(١). ورجع إلى المنصورية.

ثم تغير ورّو ومن معه وخلعوا الطاعة في سنة إحدى وأربعمائة، ورحلوا عن نفزاوة. ولم يتغير النّعيم. فأضاف باديس نفزاوة إلى النّعيم.

وفي سنة خمس وأربعمائة، وصلت رسل الحاكم بأمر الله إلى المنصورية، وهما عبد العزيز بن أبي كدية وأبو القاسم بن حسين، ومعهما خلع سنية، وسيف مكلَّل، وسجل من الحاكم إلى المنصور بن باديس بولاية ما يتولاه أبوه في حياته وبعد وفاته، ولَقَّبه عزيز الدولة. فقُرىء السجل على الناس بالمنصورية والقيروان. وسُرَّ باديس به. وتقرب وجوه الدولة إلى المنصور بالهدايا الجليلة والأموال.

ذكر خلاف حماد بن يوسف وأخيه إبراهيم على ابن أخيهما الأمير باديس

قال: كان سبب ذلك أنه ـ لما وصل سجل الحاكم إلى المنصور بن باديس ولُقِّب ـ أراد أبوه أن يقدمه ويرفع قدره، ويضيف إليه أعمالاً يستخدم له فيها أتباعه وصنائعه. وكانت قد اتصلت به عن حماد أمور أنكرها وأراد اختبار حقيقة ما هو عليه. فكتب إليه كتابًا لطيفًا يأمره فيه أن يسلم العمل الذي بيد أبي زعبل، وهو مدينة

(١) قسطيلية: (كما في معجم ياقوت): بالفتح ثم السكون، وكسر الطاء، وياء ساكنة، ولام مكسورة، وياء مخففة، وهاء: مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة إلبيرة كثيرة الأشجار متدفقة الأنهار تشبه دمشق.

تيجس وقصر الإفريقي وقسطنطينة إلى خليفة ولده المنصور. ودعا باديس هاشم بن جعفر فخلع عليه وأعطاه الطبول والبنود. وأمره بالخروج إلى هذا العمل. فخرج بخزائن وعُدَد.

وبعث باديس إلى عمه إبراهيم بن يوسف يشاوره: من يمضي بالكتاب إلى حماد؟ فقال إبراهيم: «لا يجد سيدنا من عبيده أنصح له ولا أنهض بخدمته مني» وضمن ذلك وأكد على نفسه العهود والمواثيق تبرعًا منه. وذكر أنه لا يقيم في مضيه وعَوْده بإحكام هذا الأمر إلا أقل من عشرين يومًا. فأشار على باديس ثقاته أن يعتقل إبراهيم حتى يرى ما يكون من طاعة أخيه. فأبت نفسه ذلك، وقال له: «امض إلى أخيك يا عم. فإن كنت صادقًا فيما عقدته على نفسك ووفيت بعهدك، وإلا فاجعل يدك في يده وافعلا ما تقدران عليه وتستطيعانه».

فخرج إبراهيم بمال جملته أربعمائة ألف دينار عينًا وبجميع خزائنه وذخائره ورجاله وعبيده. وكان خروجه على تلك الحال من أدل الأشياء على نفاقه. وذلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة خمس وأربعمائة. وصحبه هاشم بن جعفر، وقد أضمر إبراهيم الغدر إذا صار إلى الموضع الذي يدخل منه إلى عمل أخيه. فلما قرب منها ترك هاشمًا واعتذر إليه بأشغال له بباجة، وعدل إلى طريقها، ووعده أن يلحق به. ومضى إبراهيم حتى وصل إلى مدينة تامدنت[1] فكاتب أخاه حمادًا بالذي في نفسه. فوصل إليه في ثلاثين ألف فارس. فاجتمعت كلمتهما على خلع الطاعة وأظهرا النفاق.

فانتهى ذلك إلى باديس فرحل لخمس خلون من ذي الحجة منها. ونزل رقادة ووضع العطاء. ثم رحل بعد عيد الأضحى وكتب إلى هاشم بن جعفر أن يصعد إلى قلعة شقبانارية[2] فيتحصن بها ففعل. فحاصره حماد وإبراهيم بها. ووقع بينهم قتال شديد فانهزم هاشم ومن معه إلى باجة. واحتوى حماد وإبراهيم على جميع ما كان معه من الأموال والخزائن والأثقال والخدم، ونجا هو بأولاده ووجوه أصحابه.

---

(١) تامدنت: بلد من بلاد المغرب شرقي لمطة، وقيل تامدلت باللام: مدينة في مضيق بين جبلين في سند وعر، ولها مزارع واسعة وحنطة موصوفة من نواحي إفريقية، ولعلهما واحد، والله أعلم. . . (معجم البلدان).

(٢) شقبا نارية: بعد القاف باء موحدة، وبعد الألف نون، وبعد الألف الأخرى راء: أماكن بإفريقية. . . (معجم البلدان).

ورحل باديس حتى نزل بمكان يسمّى قبر الشهيد. فوصل إليه جماعة كثيرة من عسكر حماد. ثم ورد عليه كتاب من حماد على يد أبي مغنِين الوتلكاتي يذكر فيه أنه على الطاعة، وأنه كان قد هيأ هدية في جملتها ألفا برذون وغير ذلك لينفذها إلى المنصور، إلى أن وافاه إبراهيم واعتذر أعذارًا كثيرة، فخالفها ما يظهر من أفعاله. وذلك أنه أحرق الزرع، وسبى الذراري، وسفك الدماء. وتواترت أصحابه واصلين إلى باديس متنصلين من فعله.

ورحل باديس حتى صار بينه وبين حماد مرحلة واحدة، وقد بلغ عسكر حماد ثلاثين ألف فارس، غير من لحق بباديس وغير الراجل.

قال: وورد الخبر وهو بتامديت بوفاة ابنه المنصور بجُدَري أصابه فكتم أصحابه عنه ذلك. فبعث إليه إبراهيم يقول: «إن ولدك الذي طلبت له ما طلبت قد مات» فما تضعضع لذلك، وتلقاه بالصبر والشكر، وجلس للعزاء، وذلك لخمس خلون من صفر.

ثم سار ونزل بمدينة دَكْمَة(١). وجاءه جماعة من أقارب حماد وخواصه ورجال دولته، وكتاب من قبل خلف الجيزي، وهو الوالي على مدينة آشير، وكان عند حماد أقرب من الولد لا يوازيه في رتبته أحد، يذكر أنه منع حمادًا من الدخول إلى مدينة آشير وأغلقها دونه. فكان ذلك أول الفتح وأعظم الظفر.

قال: فلما رأى حماد مخالفة خلف عليه مضى إلى تاهرت. ورحل باديس يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول. فنزل مدينة المحمدية وهي المسيلة. فأقام بها ستة أيام ثم زحف إلى القلعة. ورجع من غير قتال.

ثم أنفذ باديس أخاه كرامت إلى المدينة التي أحْدَثها حماد. فخرج إليها في عسكر كثير، فهدم قصورها ومساكنها جزاء لما فعله حماد وأخوه في البلاد. ولم يتعرض لأخذ مال ولا سفك دم. واتصل ذلك بإبراهيم، فأقبل يهدم كل قصر كان لأخيه خارجًا عن القلعة، مخافة أن يسبقه كرامت إليه. وهرب من القلعة جماعة إلى باديس وتركوا نساءهم وأولادهم وأموالهم. فأقبل إبراهيم يذبح الأولاد على صدور أمهاتهم، ويشقّ بطونهم. وفعل أفعالاً شنيعة.

قال: ورحل باديس إلى آشير ثم منها إلى وادي شَلَف. ونزل حماد في الجبهة الأخرى من الوادي. ورتب كل منهما عساكره وعبأها وتهيأ للحرب. والتقوا في يوم

(١) دكمة: بفتح أوله، وسكون ثانيه: بلدة بالمغرب من أعمال بني حماد... (معجم البلدان).

الأحد غرة جُمادى الأولى. وكان حماد قد أسند ظهره إلى جبل بني واطيل، وهو جبل منيع صعب المرتقى، وبينه وبين عسكر باديس الوادي، وهو واد عميق لا يطمع في تعديته لشدة توعره وعمق قعره وصعوبة انحداره وكثرة مائه. فلما رأى باديس ذلك حمل بفرسه واقتحم الوادي. فتبعته العساكر وعَدت الرجالة سباحة. فما كان إلا كرَجْع الطَّرف حتى صاروا في الجهة الأخرى مع عساكر حماد. ثم اصطفوا واقتتلوا واشتدّ القتال وكثر القتل. فانكشف حماد وتفرق أصحابه عنه بعد قتال شديد. فولّى منهزمًا لا يلوي على شيء، وقتل حُرَمه بيده. فوقف باديس عليهن وهن قتيلات. وخلص حماد فيمن ثبت معه من عبيده إلى قلعة مُغِيلة[1] في خمسمائة فرس. ولولا اشتغال الناس بالنهب لما فاتهم. وأصبح باديس فبعث في طلب حماد فسبقهم إلى القلعة. وأراد التحصن بها إن أدركته العساكر. ثم سار عنها إلى قلعته فوصل إليها لسبع مضين من جُمادى الأولى، واستعدّ للحصار.

وسار باديس إلى المحمدية فوصل إليها لليلتين بقيتا من الشهر. فأتاه رسول عمه إبراهيم بالاعتذار ويذكّر باديس بما سلف لحماد من الخدمة في دولته، وأنه هو الذي سدّ ثغور المغرب، وقام محاميًا عن هذه الدولة كقيام الحجاج بن يوسف بدولة بني أمية، واعترف بالخطأ. فردّ عليه باديس رسله بجواب. واختلفت الرسائل إليه منهما طلبًا للمدافعة. فأمر باديس بالبناء. وبذل لرجاله الأموال وأعطى الألفي دينار والخمسمائة. فاشتد ذلك على حماد، ورأى من رجاله ما أنكره، وضعفت نفسه. وغلت الأسعار عنده فجعل يكذب على من عنده، ويكتب كتبًا يذكر فيها أن باديس قد عزم على الرحيل إلى إفريقية، وأن كتبه تصل إليه في الصلح إلى غير ذلك مما يختلقه. وداوم باديس الحصار حتى مات.

ذكر وفاة باديس

كانت وفاته في ليلة الأربعاء آخر ذي القعدة سنة ست وأربعمائة وذلك أنه وصل إليه وهو في الحصار سليمان بن خلف بعساكر عظيمة، جمهورهم تلكاتة وصنهاجة، فضمن لباديس فتح القلعة وسائر بلاد المغرب. فلما كان يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة، أمر باديس بالعرض، فعرضهم إلى الليل. ثم مات في نصف الليل. فخرج الخادم إلى حبيب بن أبي سعيد وباديس بن حمامة وأيوب بن يطُوفت ابن

(١) مغيلة: بضم أوله ثم الكسر: إقليم من أعمال شذونة بالأندلس فيه قلعة ورد في أرضه سعة. . . (معجم ياقوت).

عمه، وكان حبيب من أكبر رجاله، وبينه وبين باديس بن حمامة منافسة وعداوة. فلما أعلمه الخادم، خرج حبيب مسرعًا إلى فازة باديس، وخرج باديس مسرعًا إلى فازة حبيب. فاجتمعا في الطريق، فقال كل منهما لصاحبه: «بيننا عداوة ولا تبرح، والأوْلى بنا في هذا الوقت الموافقة والاجتماع في تدبير هذا المهم. فإذا انقضى رجعنا إلى ما كنا عليه». فحضرا ومعهما أيوب بن يطوفت وقالا: «إن صاحب هذا الأمر بعيد منا والعدو قريب مشرف علينا. ومتى لم نقدم رأسًا نرجع في أمورنا إليه لم نأمن العدو على أنفسنا. ونحن نعلم أن ميل تلكاتة وصنهاجة المغرب إلى كرامت بن المنصور أخي باديس» فاجتمع رأيهم على تولية كرامت ظاهرًا. فإذا وصلوا موضع الأمن قدم المعز بن باديس، وينقطع الخلاف، وتُصان بيوت الأموال والعُدد. فأحضروا كرامت وبايعوه وكتموا الأمر.

وأصبحت العساكر للسلام على ما جرت به العادة. ولم يعلم بوفاته سوى من ذكرناه. فأرادوا صرف الناس بأن يقولوا: إن الأمير قد أخذ دواء. فبينا هم في ذلك أتى الخبر أن أهل مدينة المحمدية قد شاع عندهم موت باديس، وأنهم أغلقوا أبواب المحمدية،وطلعوا على سورها. وكأنما نودي في الناس بوفاته. فاضطرب لموته بنو مناد وجميع القواد. وخافوا من الفرقة وشتَات الكلمة فأظهروا ولاية كرامت وأمر بالكتب إلى سائل الأعمال باسمه، ولم يذكر المعز بن باديس. فلما رأى عبيد باديس ومن كان على مثل رأيهم من الحشم والأجناد أنكروا ذلك إنكارًا شديدًا. فخلا حبيب بن أبي سعيد بأكابرهم وقال: «إنما رضيناه وقدمناه على أن يحوط الرجال، ويحرس الخزائن والأموال، حتى يسلم جميع ذلك إلى مستحقّه وهو المعز». ومشى بعضهم إلى بعض وتحالفوا على ذلك سرًا.

ثم اتفق رأي الجميع على تقديم كرامت في الخروج إلى أشير ليحشد قبائل تلكاتة وصنهاجة. فإذا اجتمعوا رجع بهم إلى المحمدية فيقطن بها، وترحل العساكر بتابوت باديس حتى يسلموه إلى ولده المعز. ودفعوا إلى كرامت مائة ألف دينار وخزانة سلاح وأمتعة. وتوجه إلى مدينة آشير يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة. وكان من خبره ما نذكره إن شاء الله في أيام المعز.

وكانت مدة ولاية باديس عشرين سنة وتسعة أشهر إلا أربعة أيام. وعمره اثنان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وأيام.

ذكر ولاية أبي تميم المعز بن أبي مناد باديس ابن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بالمحمدية يوم السبت لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة على ما قدمناه، وله من العمر يوم ذاك ثمان سنين وسبعة أشهر. وأما ولايته بالمهدية فكانت يوم الاثنين لسبع بقين من ذي الحجة هذا. وذلك أن الخبر لما وصل بموت باديس، كانت السيدة أم ملاّل بالمهدية، فخرج إليها منصور بن رشيق عامل القيروان، بجماعة القضاة والفقهاء والمشايخ وشيوخ صنهاجة إلى المهدية فعَزَّوها. وأخرجت المعز وبين يديه الطبول والبنود. فنزل إليه الناس وهنّؤوه وعزّوه. وعاد إلى قصره. ودخل الناس على السيدة فهنؤوها. فأمرت منصور بن رشيق بالانصراف بمن كان معه فرجعوا إلى القيروان.

قال: وأما العسكر الذي بالمحمدية فإنهم ارتحلوا عن مناخها يوم عيد الأضحى بعد أن أضرموا النار فيما كان هناك من الأبنية. وسارت العساكر على تعبئة الزحف مقدمة وساقة وقلبًا، يقدُمها التابوت. وأمامه البنود والطبول والجنائب والقباب. وكان وصولهم إلى المنصورية يوم الاثنين لأربع خلون من المحرم سنة سبع وأربعمائة. ووصلوا إلى المحمدية لثمان خلون منه. فركب المعز وقام حبيب بن أبي سعيد عن يساره. ونزل الناس فوجًا فوجًا وحبيب يعرفه بهم قائدًا قائدًا وعرافة عرافة، وهو يسأل الناس عن أحوالهم ألطف سؤال. فرأى الناس من عقله وإقباله وفطنته ما ملأ قلوبهم وأقرّ عيونهم. وأقاموا يركبون إليه في كل غدوة وغشية ثلاثة أيام. ثم خرج المعز من المهدية وسار إلى القيروان. ودخل المنصورية يوم الجمعة النصف من المحرم سنة سبع وأربعمائة فسُرَّ به الناس وابتهجوا.

ذكر قتل الروافض

قال: وفي يوم السبت سادس عشر المحرم منها، ركب المعز في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له فمرّ بجماعة فسأل عنهم فقيل: «هؤلاء رفضة والذين قبلهم سنة» فقال: «وأي شيء الرَّفَضة والسنة؟» قالوا: «السنة يترضّون عن أبي بكر وعمر والرفضة يسبونهما» فقال: «رضي الله عن أبي بكر وعمر». فانصرفت العامة من فورها إلى الناحية المعروفة بدرب المقلى من مدينة القيروان ـ وهو موضع يشتمل على جماعة منهم ـ فقتلوا منهم جماعة، ووقع القتل فيهم. وصادفت شهوة من العسكريين وأتباعهم طمعًا في النّهب. وانبسطت أيدي العامة فيهم. فأقبل عامل القيروان يظهر أنه يسكِّن الناس، وهو يحرضهم ويشير إليهم بزيادة الفتنة، لأنه كان قد أصلح البلد فبلغه

أنه معزول، فأراد إفساده. فقُتل من الرافضة خلق كثير في ديارهم وحوانيتهم، وأحرقوهم بالنار. وانتُهبت ديارهم وأموالهم. وزاد الأمر واتصل القتل فيهم في جميع بلاد إفريقية. وقيل: إن القتل وقع فيهم في جميع المغرب في يوم واحد في المدائن والقرى، فلم يُترَك رجل ولا امرأة ولا طفل إلا قُتل وأُحرق بالنار. ونجا من بقي منهم بالمهدية إلى الجامع الذي بالحصن، فقُتلوا فيه عن آخرهم.

ولما كان في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة خلت من جُمادى الأولى، خرج من بقي من المشارقة ـ وهم الرافضة ـ إلى قصر المنصور بظاهر المنصورية، وهم زُهاء ألف وخمسمائة، وتحصنوا به. فحاصرهم السنة فاشتد عليهم الحصار والجوع. فأقبلوا يخرجون والناس يقتلون منهم ويحرقون إلى أن قُتلوا عن آخرهم، وطهر الله تعالى المغرب منهم.

وعمل الشعراء في هذه الواقعة القصائد. فممن عمل فيها أبو الحسن الكاتب المعروف بابن زنجي[1] من قصيدة: [من الطويل]

شفى الغيظَ في طَيِّ الضميرِ المكتَّم ... دماءُ كلابٍ حُلِّلت في المحرَّم
فلا أرْقَأ اللّهُ الدموعَ التي جرَتْ ... أسًى وجَوًى فيما أُريق من الدم[2]
هي المنَّة العظمى التي جَلَّ قَدْرُها ... وسارت بها الرُّكبان في كلّ موسم
فيا سمَرًا أمسى عُلالة مُنْجِدٍ ... ويا خَبرًا أضحى فكاهة مُتْهِم[3]
ويا نعمةً بالقيروان تباشرَتْ ... بها عُصَبٌ بين الحطيم وزمزم[4]
وأهدت إلى قبر النبيِّ وصَحْبه ... سلامًا كَعرْف المسْك عن كل مسلم
غزَوْنا أعادي الدين لا رمحَ ينثني ... نُبوًّا ولا حدّ الحسام المصمِّم[5]
بكلّ فتًى شَهْم الفؤاد كأنما ... تسربل يوم الروع جلدة شَيْهم[6]
إذا أمَّ لم يشْدُدْ عُرا متخوِّف ... وإنْ هَمَّ لم يحْلُل حُبًا متندِّم[7]
من القيروانيين في المنصب الذي ... نمي، وإلى خير الصحابة ينتمي

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زكريا الجرجاني الزنجي. كان حافظًا ثقة. وكانت وفاته سنة ٤٦٩هـ... (شذرات الذهب ٣:٣٣٤).
(٢) رقأ الدمع والدم ونحوهما: سكن وجفّ وانقطع بعد جريانه.
(٣) منجد: نسبة إلى نجد في الحجاز، ومتهم: نسبة إلى تهامة في البحرين.
(٤) العصب: الجماعات.
(٥) نبا السهم عن الفرض: أي جاوزه ولم يصبه.
(٦) الشيهم: حيوان من القوارض له شوك طويل كأنه المسالّ، من فصيلة القنافذ، ويسمى الدلدل أيضًا.
(٧) الحُبا: ما يحتبى به، أي يشتمل من ثوبٍ أو نحوه.

وأوسع الشعراء في ذلك. وقالوا فيه قصائد كثيرة تركناها اختصارًا.

وأما كرامت بن المنصور فإنه أقام بمدينة آشير ومعه من تلْكاتَة وغيرهم من قبائل صُنهاجَة، فما شعر إلا وقد وافاه حماد في ألف وخمسمائة. فبرز إليه كرامت في سبعة آلاف. فلما نشبت الحرب بينهم عمد التلكاتيون إلى بيت ماله فانتهبوه، ورجعوا على أدراجهم. فكانت الهزيمة على كرامت فدخل مدينة آشير وحماد في أثره. فأرسل إلى كرامت ليجتمع به فتوثَّق منه وأتاه. فزوَّده حماد بثلاثة آلاف دينار وبعث معه من أصحابه من يشيعه. فوصل إلى الحضرة في يوم الأربعاء لإحدى عشرة بقيت من المحرم سنة سبع وأربعمائة. وطلب تلكاتة وصنهاجة بما صار إليهم من أموال كرامت ومواشيه، فتفرقوا عنه وامتنعوا عليه.

وفي يوم السبت لعشر بقين من صفر منها، ولي محمد بن حسن أمور المعز وجيوشه، وكان قبل ذلك على طرابلس، وأضيف إليه قابس ونفزاوة وقصطيلية وقفصة[١] فبعث عماله عليها. وعقد لأيوب بن يطوفت على سائر أعمال المغرب.

وفي يوم الأحد لعشر بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعمائة، خُتِن المعز وخُتِن معه من أبناء الضعفاء عدة كثيرة. وأُعطوا الكساوى والنفقة.

وفي آخر ذي الحجة هذا، وصلت الرسل من مصر بسجل الحاكم إلى المعز واللقب والتشريف، وخوطب بشرف الدولة.

ذكر مسير المعز لحرب حماد

قال: وفي يوم الخميس لسبع بقين من صفر سنة ثمان وأربعمائة، برز المعز إلى مدينة رقادة في عساكره وفرق الأموال. ثم رحل منها لأربع خلون من شهر ربيع الأول. ووصل إليه عدة من القبائل من عسكر حماد ومن كتامة. فجاءه الخبر أن إبراهيم وقف على باب مدينة باغاية فدعا بأيوب بن يطوفت فخرج إليه. فعاتبه على ما كان منه وذكر أنهم إخوة، وأن الذي كان إنما وقع بقضاء الله وقدره. وقال: «نحن على طاعة سيدنا المعز. وقد أردنا أن يتم الصلح على يدك. وحماد يقرأ عليك السلام ويقول لك: ابعث من تثق به أن يحلِّفني ويأخذ عليّ من العهود ما يسكن إليه قلبك، ويكتب به».

---

(١) قفصة: بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب.

فانخدع أيوب ودعا بحمامة أخيه وحبوس بن القاسم بن حمامة وأنفذهما معه. ثم تبعهما تورين غلام أيوب، وهو أعز عنده من إخوته. فلما وصل بهم إبراهيم إلى أخيه حماد، أنزلهم في فارة السلام[١]. ومضى إلى أخيه فأخبره. فبعث إليهما زكنون ابن أبي حُلا فجرد ما عليهما من الثياب، وألقى عليهما ثيابًا رثّة، وقيدهما بقيدين ثقيلين وأنفذهما إلى القلعة. ودعا حماد بتورين فقال له: «هذان ابنا عمي وأنت فما جاء بك معهما؟ أردت أن تتحدث فتقول: قال لي حماد، وقلت لحماد!» وأمر به فضربت عنقه.

فلما اتصل الخبر بالمعز، سار بالعساكر حتى انتهى إلى حماد. والتقوا واقتتلوا، فكانت الهزيمة على حماد وعساكره. وقُتل حُماة أصحابه، وأُسر إبراهيم، وفرّ حماد.

وعقد المعز لعمه كرامت بن المنصور على أعمال المغرب، ففرّق عماله.

ذكر الصلح بين المعز وحماد عمّ أبيه

قال: ولما تمت الهزيمة على حماد، راسل المعز في طلب الصلح واعترف بالخطأ وسأل العفو عنه. فأنفذ المعز من يقف على صحة أمره وصدق طاعته، فعاد بسمعه وطاعته. ورغب في ترك العمل، وأن يعقد له أخوه إبراهيم ما يسكن إليه من العهود والمواثيق التي يطمئن إليها، فيبعث حينئذ بولده القائد أو يصل بنفسه. فحصل الاتفاق، وأرسل ابنه القائد إلى المعز. فوصل بعد عَوْد المعز إلى المنصورية، وذلك في النصف من شعبان من السنة. فأكرمه المعز وأحسن إليه. وكتب له منشورًا بولاية المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وزواوة[٢] ومقرّة[٣] ودَكمة وبلزمة وسوق حمزة، وأُعطي البنود والطبول. وانصرف إلى أبيه لأربع خلون من شهر رمضان سنة ثمان وأربعمائة. فلما وصل إلى أبيه أظهر الطاعة. وبقي القائد يتردّد إلى المعز.

ذكر مقتل القائد محمد بن حسن

كان مقتله لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. وذلك أنه كان قد استقلّ بالأمور وجبى الأموال منذ فُوِّضت إليه أمور الدولة. فلم يدخر

---

(١) فارّة: بالراء المشددة، والهاء: مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تطيلة... (معجم ياقوت).

(٢) زواوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو أخرى: بليد بين إفريقية والمغرب... (معجم البلدان).

(٣) مقرة: بالفتح ثم السكون، وتخفيف الراء: مدينة بالمغرب في بر البربر قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ... (معجم البلدان).

درهمًا واحدًا في سبع سنين مع ما ورد من الهدايا الجليلة والتقادم النفيسة. وانتهت حاله إلى أن أخذ مالاً من الذخيرة فلم يرد عوضه. وضاقت الدولة واتسعت أحواله وكثرت أبنيته التي لا تصلح إلا للملوك. وهادى الأكابر بمصر حتى وصل إليه سجل من الحضرة. فضاق منه المعز، فدسّ إليه بعض خواصه، وأشار عليه أن يقتصر على الخدمة، وله ما حَصَّله من الأموال والأبنية. فأبى إلا تماديًا واستمرارًا. فقتله المعز في التاريخ الذي ذكرناه، وكتب بالحَوْطة على أمواله ونعمه ورجاله. وقلد القاسم بن محمد بن أبي العرب سيفه. وأخرج بين يديه الطبول والبنود. وصرف إليه النظر في سائر إفريقية.

قال: ولما قتل محمد بن حسن ثار أخوه عبد الله بن حسن عامل طرابلس وغضب لذلك. وبعث إلى زناتة فعاقدهم وأدخلهم طرابلس. فقتلوا كل من كان بها من صنهاجة والعسكريين وأخذوا المدينة. فلما انتهى ذلك إلى المعز. أمر بالقبض على جميع بني محمد وحبسهم ثم ظفر محمد بن وليمة بعبد الله، فأنفذه إلى المعز فاعتقله. ثم أمر بقتل الجميع، وذلك لما استغاثت نساء الصنهاجيين وأولادهم الذين قَتَلوا آباءهم بطرابلس.

وكان بإفريقية في تلك السنة مجاعة شديدة لم يكن مثلها قط.

وفي ليلة الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة عشرة وأربعمائة وُلد للمعز مولود سماه نزار.

وفي صفر سنة تسع عشرة وأربعمائة، ورد الخبر إلى المعز بوفاة حماد بن يوسف بُلُكّين، وهو عم أبيه. فكتب إلى ولده القائد بالتعزية بأبيه.

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة، خرج عسكر المعز إلى الزاب. ففتح مدينة نورس وقتل من البربر خلقًا كثيرًا. وفتح من بلاد زناتة قلعة تسمى كردُوم.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة، دخل قائده جزيرة جربة[١]، ففتحها وقتل رجالها، وأسر مقدمهم ابن كلدة وصلبه، لقطعهم الطريق وسوء اعتقادهم.

---

(١) جربة: بالفتح ثم السكون، والباء موحدة خفيفة: قيل: هي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر، وقال أبو عبيد البكري: وعلى مقربة من قابس جزيرة جربة، وفيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج، وبينها وبين البر الكبير مجاز. . . (معجم البلدان).

وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، خرج المعز بجيوشه إلى قلعة حماد. وحاصرها مدة سنتين وضيّق عليهم لرجوعهم إلى ما كانوا عليه من النفاق.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، أظهر المعز الدعاء للدولة العباسية. ووردت عليه الرسل. ووصله السجل من القائم بأمر الله، وأوله: «من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد نور الإسلام، وشرف الأيام، وعمدة الأنام، ناصر دين الله، وقاهر أعداء الله، ومؤيد سنّة رسول الله ﷺ، أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين» بألفاظ طويلة، وخلع طائلة، وسيفه وفرسه وخاتمه وألوية كثيرة. فوصل ذلك في يوم الجمعة والخطيب على المنبر في الخطبة الثانية عند الاستغفار. فدخلت الألوية إلى الجامع، فقيل للخطيب: «اذكر الساعة ما أمكن» فقال: «هذا لواء الحمد يجمعكم، وهذا معز الدين يسمعكم، وأستغفر الله لي ولكم».

ذكر خروج العرب إلى المغرب والسبب الموجب لذلك

كان سبب ذلك أن المستنصر ـ لما ولّي خلافة مصر بعد الظاهر بن الحاكم ـ خطب المعز في أيامه للقائم بأمر الله العباسي. فكتب إليه وهو يرغّبه ويرهّبه، ويقول له: «هلاّ اقتفيت آثار من سلف من آبائك في الطاعة والولاء» ويتوعّده بإرسال الجيوش. فكتب المعز إليه: «إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم. ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم».

وكان المستنصر قد ولّى وزارته في اثنتين وأربعين وأربعمائة لأبي محمد الحسن بن اليازوري، ولقبه بالوزير الأجل المكين، سيد الوزراء، وتاج الأمراء، قاضي القضاة، وداعي الدعاة، علم المجد، خالصة أمير المؤمنين». ولم يكن من أهل الوزارة ولا من الكتّاب، بل كان من أهل التِّناية[1] والفلاحة بالشام. فأجراه ملوك الأطراف في مكاتباتهم على عادة الوزراء إلا المعز فإنه امتنع من مخاطبته بما كان يخاطب به الوزراء قبله، وذلك أنه كان يكاتب الوزراء بعبده فكاتبه بصنيعته. فعظم ذلك عليه. فأعمل الوزير الفكرة ودسّ إلى زُغْبة ورياح دسائس ووصلهم بصلات سنية. وبعث إليهما أحد رجال الدولة حتى أصلح بين الفئتين بعد فتن توالت وحروب

(١) التناية: الزراعة.

استمرّت ودماء أُريقت. ثم أحضر أمراءهم وأباحهم على لسان المستنصر أعمال القيروان. ووعدهم بالمدد والعُدد. وأمرهم بالعَيْث والإخراب. فدخلت العرب إلى بلاد المغرب في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة. وأنفذ اليازوري كتابًا يقول فيه: «أما بعد، فقد أرسلنا إليكم فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً». ودخلت العرب فوجدوا بلادًا خالية طيبة كثيرة المرعى، كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز. فأقاموا بها واستوطنوها وعاثوا في أطراف البلاد. وبلغ ذلك المعز فاستحقر أمرهم لتمام المقدور.

ذكر وفاة القائد بن حماد وولاية ابنه وقتله وولاية بلكين بن محمد

وفي شهر رجب سنة ست وأربعين وأربعمائة توفي القائد بن حماد بن يوسف بلكين بن زيري وكان في مرضه ولّى محسنًا، وأوصاه بالإحسان إلى بني حماد عمومته. فلما ولّي خالف ما أمره به أبوه وأراد عزل جميعهم. فلما سمع عمه يوسف بن حماد ما أراده من الغدر بإخوته بني حماد خالف[1] عليه. وجمع العساكر فاجتمع له خلق كثير. وكان يوسف قد بنى قلعة في جبل منيع وسماها الطيارة. فلما اتصل بمحسن خلافه خرج إليه والتقى بعسكر عمه مَدِيني. فانهزمت تلكاتة عنه، فظُفر به، فقتل من عمومته أربعة، وهم مديني وإخوته مناد ونغلان وتميم. وكتب إلى عمه يوسف يأمره بالقدوم إليه. فقال: «كيف أطمئن إليك وقد قتلت أربعة من عمومتك؟».

وكان ابن عمه بلكين بن محمد متولي أفريون فكتب إليه محسن يأمره بالقدوم، فقدم عليه. فلما قرب منه أمر محسن قومًا من العرب أن يأتوه برأسه. فلما خرجوا، قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: «هذا بلكين لم يزل محسنًا إلينا. فكيف نفعل به هذا؟» فأتوه وأعلموه بما أُمروا به، فخاف عند ذلك. فقال له خليفة: «لا خوف عليك إن كنت تريد قتل محسن فأنا أقتله لك». فتدرع بلكين وركب وأقبل يريد لقاءه. فبلغ محسنًا قصدُه إليه، فهرب إلى القلعة. فأدركوه في الطريق فقتله بلكين، ودخل القلعة، وولّي الأمر. وذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

---

(١) خالف عليه: خرج.

بقية أخبار المعز بن باديس

نعود إلى أخبار المعز بن باديس، قال: ولما تكاسلت صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى المعز العبيد، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك. وكانت العرب زُغْبة[(١)] قد ملكوا مدينة طرابلس في سنة ست وأربعين. ووصل مؤنس بن يحيى المِرْداسي إلى المعز بالقيروان. فأكرمه المعز وأحسن إليه. فنهاه مؤنس أن يجعل للعرب سبيلاً إلى دخول إفريقية وقال: «إنهم قوم لا طاقة لك بهم» فقال له المعز: «هم دون ذلك» فلما رأى مؤنس استهزاء المعز بالعرب، خرج عنه ولحق بأرض طرابلس.

وتتابعت بنو رياح[(٢)] والأثبج وبنو عدي[(٣)]، فدخلوا إفريقية، وقطعوا السبيل، وعاثوا في البلاد. وعزموا على الوصول إلى القيروان. فقال لهم مؤنس: «ليس هذا عندي برأي. وهذا يحتاج إلى تدبير» فقالوا: «وكيف تحب أن نصنع؟» قال: «ائتوني ببساط» فأتوه به. فبسطه وقال لهم: «من يدخل إلى وسط هذا البساط من غير أن يمشي عليه؟» قالوا: «كيف يقدر أحد على ذلك» قال: «أنا» قالوا: «فأرنا كيف تقدر على ذلك» فطوى البساط، وأتى إلى طرفه ففتح منه مقدار ذراع ووقف عليه. ثم فتح شيئًا آخر ودخل إليه. وقال: «هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب املكوها شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأْتوها، فإنكم تملكونها» فقال له رافع بن حماد: «صدقت يا مؤنس. والله إنك لشيخ العرب وأميرها. فقد قدمناك على أنفسنا فلسنا نقطع أمرًا دونك».

---

(١) زغبة: بطن من رياح، من بني هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية، قال في العبر: وفي بلاد زناتة بالمغرب منهم خلق كثير.. وبنو زغبة: بطن من بني عبد الأشهل، من الأوس، من القحطانية. وبنو زغبة أيضًا: بطن من بني القين، من قضاعة، من القحطانية... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

(٢) بنو رياح: بطن من حنظلة، من تميم، من العدنانية. وهم: بنو رياح بن يربوع بن حنظلة. وبنو رياح أيضًا: بطن من بني هلال بن عامر بن صعصعة، من العدنانية.

(٣) بنو عدي: بطن من الرباب، من العدنانية. وبنو عدي أيضًا: بطن من بني النجار. وبنو عدي: بطن من بني الخزرج. وبنو عدي: بطن من بهراء من القحطانية. وهم أيضًا: بطن من أبي حنيفة بن غنم من القحطانية. وبنو عدي أيضًا: بطن من بني مزيقياء. وبنو عدي: بطن من خزاعة من القحطانية. وبنو عدي: بطن من طانجة من العدنانية. وبنو عديّ أيضًا: بطن من ذهل، من طيّيء، من القحطانية. وبنو عدي بطن من فزارة. وبنو عدي: بطن من قضاعة... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٣٥٤ ـ ٣٥٨).

وقدم أمراء العرب إلى المعز، وهم: مُطرِف بن كسلان، وفرح بن أبي حسان، وزياد بن الدونية، وفارس بن كثير، وفارس بن معروف، وهم أمراء بني رياح وساداتهم، فأنزلهم المعز، وأكرمهم وأحسن إليهم. فخرجوا من عنده ولم يجازوه بما فعل معهم بل شنُّوا الغارات على البلاد، وقطعوا على الرفاق، وأفسدوا الزرع، وقطعوا الأشجار، وحاصروا المدن. فضاق الناس وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم. وحلّ بإفريقية من البلاء ما لم ينزل بها مثله قط.

ذكر الحرب بين المعز والعرب وانتصار العرب عليه

قال: ولما كان من أمرهم ما ذكرناه، احتفل المعز وجمع العساكر. وخرج في ثلاثين ألف فارس ومثلهم رجالة، وسار حتى انتهى إلى جندران، وهو جبل على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان. وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس. فلما شاهدوا عساكر صنهاجة هالهم ذلك. فقال مؤنس بن يحيى المرداسي: «يا وجوه العرب، ما هو يوم فرار» فقالوا: «أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكَازغندات[١] والمغافر[٢]؟» فقال أمير منهم: «في أعينهم» فسُمّي من ذلك اليوم «أبا العينين». والتقوا والتحم القتال وحميت الحرب، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة. وتركوا المعز مع العبيد حتى يُرى فعلهم ويُقتَل أكثرهم، وبعد ذلك يرجعون على العرب. فانهزمت صنهاجة، وثبت المعز والعبيد. ووقع القتل فيهم، فقُتل منهم خلق كثير. وحاولت صنهاجة الرِّدة على العرب فلم يمكنهم، واستمرت الهزيمة. وقُتل من صنهاجة أمّة عظيمة. وانهزم المعز ودخل القيروان مهزومًا على كثرة من كان معه وقلّة العرب. واحتوت العرب على الخيل والعُدد والمُخيَّم والأثقال والأموال. وفيها يقول الشاعر[٣]: [من الطويل]

وإنَّ ابن باديسٍ لأفضلُ مالكٍ ولكنْ لعمري ما لديه رجالُ
ثلاثون ألفًا منهمُ غلبتهمُ ثلاثةُ آلاف إنَّ ذا لَمُحالُ[٤]

---

(١) هي أردية محشوة من القطن أو الحرير يتدرع بها في الحرب.

(٢) المغافر: واحدتها المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٣) هو علي بن رزق الرياحي.

(٤) الشطر الثاني لا يستقيم وزنه، بالشكل الذي ورد فيه ومن الممكن أن يستقيم على الشكل الآتي: «ثلاثة آلافٍ فذاك محاك» وقد ورد في بعض النسخ على الشكل التالي:

ثلاثة آلافٍ لنا غلبت له ثلاثين ألفًا إنّ ذا لنكالُ

وفي نسخة أخرى:

ثمانون ألفًا منكمُ هزمتهمُ ثلاثون ألفًا إن ذا لنكال

قال: ولما كان يوم عيد النحر من السنة، جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس. وهجم على العرب وهم في صلاة العيد. فقطعت العرب الصلاة وركبوا خيولهم. فانهزمت صنهاجة وقتل منهم خلق كثير.

ثم جمع المعز وخرج في صنهاجة وزناتة في جمع عظيم. فلما أشرف على بيوت العرب، ركبت خيولها وهم زغبة وعدي، وكانوا سبعة آلاف. والتقوا واقتتلوا فانهزمت صنهاجة، وولّى كل رجل منهم إلى منزله. ثم انهزمت زناتة وكان أميرها المنصور بن خزرون. وثبت المعز فيمن كان حوله من عبيده ثباتًا ما سُمع بمثله، ثم رجع إلى المنصورية. وأُحصي من قتل من صنهاجة في ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة.

ثم أقبلت العرب حتى نزلوا بمصلّى القيروان. ووقعت الحرب فقُتل من أهل رقادة والمنصورية خلق كثير. فلما رأى المعز ذلك ذهب إلى رفع الحرب بينهم، وعلم عكس الدولة، وظن أنهم راجعون. فأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء. فلما دخلوا، استطال عليهم العامة وأهانوهم. فوقع بينهم حرب كانت الغلبة فيها للعرب.

قال: وكانت الكسرة الأولى على المعز في سنة ثلاث وأربعين والثانية في سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

ذكر انتقال المعز إلى المهدية ومحاصرة العرب القيروان واستيلائهم عليها

قال: وفي سنة ست وأربعين حاصرت العرب القيروان، وأخذ مؤنس باجة. فأشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية. وشرع العرب في هدم الحصون والقصور، وقلع الثمار، وتعمية العيون، وخراب الأنهار، فخرج المعز من القيروان إلى المهدية في سنة تسع وأربعين وأربعمائة، لليلتين مضتا من شعبان وكان بها ابنه الأمير تميم. فتلقى أباه ومشى في ركابه من مَيانِش[1] إلى القصر.

وفي أول شهر رمضان منها نهبت العرب القيروان.

---

(١) ميانش: بالفتح وتشديد الثاني، وبعد الألف نون مكسورة، وشين معجمة: قرية من قرى المهدية بإفريقية صغيرة، بينها وبين المهدية نصف فرسخ... (معجم البلدان).

وفي سنة خمسين وأربعمائة، خرج بُلُكِّين بن محمد، ومعه من العرب الأثبج وعدي لحرب زناتة. فكسرهم وقتل منهم عددًا كثيرًا.

وفي سنة إحدى وخمسين، قُتل منصور أفروم البرغواطي، قتله حمُّو بن مُلَيل البرغواطي غدرًا، وملك سفاقس مكانه.

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة، غدر الناصر بن عَلنَّاس بلكين بن محمد وولّي مكانه، وذلك في غرة شهر رجب.

ذكر وفاة المعزّ بن باديس

كانت وفاته في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بضعف الكبد. وكانت مدة إقامته في الملك سبعًا وأربعين سنة. وكان رقيق القلب، كثير الرحمة، خاشعًا لله، متحرزًا من سفك الدماء إلا في الحدود، حليمًا يتجاوز عن كبائر الجرائم، لينًا لخدامه وعبيده وجلسائه وندمائه حتى كأنه واحد منهم أو أخ لهم محبًّا لرعيته مشفقًا عليهم، مكرمًا لأهل الفضل والعلم كثير العطاء لهم، شجاعًا كريمًا، رحمه الله. وكان له من الأولاد الذين مات عنهم تسعة، وهم: نِزار، وتميم، وعبد الله، وعلي، وعمرو، وحماد، وبلكين، وحمامة، والمنصور.

ولما مات المعز ملك بعده ابنه.

ذكر ولاية تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. وكان أبوه قد ولاه المهدية في صفر سنة خمس وأربعين. وأقام بها إلى أن خرج المعز إليها. فدبّر الأمر بين يديه إلى أن توفي المعز فاستقل بعده بالملك. ودخل القضاة ووجوه الناس إليه فعزُّوه بأبيه وهنّؤوه بالولاية. ووصل كتاب الناصر بن علناس بذلك.

ذكر خروج حمّو عن طاعة الأمير تميم وحربه وانهزامه

وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة، خرج حمّو بن مليل صاحب مدينة سفاقس[1] عن الطاعة. فجمع أصحابه. واستعان بالعرب، فوافقته طائفة من الأثبج

(١) سفاقس: بفتح أوله، وبعد الألف قاف، وآخره سين مهملة: مدينة من نواحي إفريقية جل غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، بينها وبين المهدية ثلاثة أيام وبين سوسة يومان وبين قابس ثلاثة أيام. . . (معجم ياقوت).

وعدي. فزحف بهم إلى المنزل المعروف ببئر قشيل فملكه. ثم توجه منه نحو المهدية. فخرج إليه تميم في عساكره ومعه طائفة من العرب: زغبة ورياح ووصل إلى حمو والتقوا واقتتلوا. فكانت الهزيمة على حمّو وأصحابه وأخذهم السيف. فقُتل أكثر أصحابه ونجا هو بنفسه. وكانت هذه الواقعة بسلقطة[١].

وفيها بعد الوقعة قصد تميم مدينة سوسة وكان أهلها قد خالفوا على أبيه، فملكها وعفا عنهم وحقن دماءهم.

ذكر الحرب بين بني حماد والعرب وانتصار العرب عليهم

وفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة، كانت الحرب بين الناصر بن علناس بن محمد بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة وزناتة، ومن العرب عدي والأثبج؛ وبين العرب وهم رياح وزغبة وسُليم[٢]، ومع هؤلاء المعز بن زيري الزناتي. وكان سبب هذه الواقعة أن حماد بن يوسف بلكين جد الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور الخلف الكبير والحرب التي ذكرناها. ومات باديس وهو يحاصر قلعة حماد كما ذكرنا. ثم دخل حماد في طاعة المعز. وكان القائد بن حماد بعد أبيه يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه، إلى أن رأى قوة العرب وما نال المعز منهم. فعندها خلع الطاعة واستبدّ بالبلاد. وجاء بعده ولده محسن، وبعده ابن عمه بلكين، وبعده ابن عمه الناصر بن علناس، وكل منهم متحصن بالقلعة، وهي المعروفة بقلعة حماد وقد جعلوها دار ملكهم. فلما رحل المعز من القيروان، وصار إلى المهدية، وتمكنت العرب وأخربوا البلاد ونهبوا الأموال، انتقل كثير من أهل القرى والبلاد إلى بلاد بني حماد لحصانتها. فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم، وفي نفوسهم ما فيها من الضغائن والحقود من باديس وبنيه، يرثه صغير عن كبير. ووليّ تميم بن المعز بعد أبيه، واستبدّ كل منهم ببلد وقلعة، وتميم يصبر ويداري.

فاتصل بتميم أن الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمه وأنه عزم على المسير ليحاصره بالمهدية، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على

---

(١) سلقطة: بينها وبين المهدية ثمانية أميال. . . (المسالك والممالك للبكري).

(٢) بنو سليم: بضم السين: قبيلة عظيمة من قيس عيلان، والنسبة إليهم سلمى. وهم: بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس. . . قال الحمداني: بإفريقية منهم حي عظيم. وقال: مساكنهم ببرقة مما يلي المغرب ومما يلي مصر. . . (نهاية الأرب للقلقشندي ص٢٩٥).

حصار المهدية. فلما صحّ ذلك عنده أرسل إلى بني رياح فأحضرهم إليه. وقال لهم: «أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثرها في البحر لا يُقاتَل من البرّ إلا من أربعة أبرجة يحميها أربعون رجلاً. وإنما جمع الناصر هذه العساكر إليكم وإلى بلادكم» فقال له أمراء العرب: «إن الذي قاله السلطان حق ونحب منك المعونة بالعُدّة» فقال: «علي العدة والرِّفادة»[١] وأمر لهم بعشرة آلاف دينار، لكل أمير منهم ألف دينار، وألف درع، وألف رمح، وألف سيف هندي. فخرجت الأمراء من عنده، وجمعوا رجالهم، وتحالفوا على لقاء الناصر. وأنفذوا شيخين سرًّا إلى بني هلال الذين صاروا مع الناصر فقالا لهم: «كيف وقعتم في هذا الأمر وأردتم تلاف ملككم؟ هذا الناصر قد سمعتم غدر جده حماد لباديس، وغدر بنيه بعضهم بعضًا، وقد اتفق مع زناتة، فإذا وطىء بلدنا بصنهاجة وزناتة قاصدًا تميم بن المعز - وتميم في حصن منيع بالمهدية لا يقدر عليه - فعندها يملك بلاد إفريقية ويخرجنا وإياكم عنها» فقال لهما مشايخ بني هلال: «والله، لقد صدقتم. فإذا التقينا فقاتلونا فإنا ننهزم ونرجع عليهم. فإذا ملكنا رقابهم كان لنا من الغنيمة الثلث ولكم الثلثان» فقال الشيخان: «رضينا».

وأرسل المعز بن زيري الزناتي إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك، فوعدوه أن ينهزموا.

فحينئذ رحلت رياح وزناتة جميعًا. وسار إليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبني هلال[٢]. فالتقوا بموضع يسمى سبيبة[٣]. فلما تراءى الجمعان حملت بنو رياح على بني هلال. فانهزم بنو هلال كما وقع الاتفاق، وأظهروا الغدر من وراء العسكر. فانهزم عند ذلك الناصر بن علناس، وسلم في عشرة أفراس.

فكان جملة من قُتل في هذه الوقعة من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرون ألفًا. وصارت الغنائم كلها للعرب، وبهذه الوقعة تمّ لهم ملك البلاد. فإن أكثرهم عند دخولهم كانوا رجالة، والفرسان منهم في أضيق حال. فتقاسموا هذه الغنائم على ما قرروه بينهم إلا الطبول والبوقات والفازات بأبغالها، فإنهم حملوها إلى تميم. فردها ولم يقبلها، فعزّ ذلك على العرب وقالوا: «نحن خدمك بين يديك» فقال: «ما فعلت

---

(١) الرفادة: الإعانة.

(٢) بنو هلال: بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية. قال الحمداني: ومنهم طائفة بساقية قلته، من الأعمال الإطفيحية، من الديار المصرية. وهم بطون: بنو رفاعة، وبنو حجير، وبنو عزيز. ومنهم طوائف بإفريقية، من بلاد المغرب... (نهاية الأرب للقلقشندي ٤٣٧).

(٣) سبيبة: ناحية من أعمال إفريقية ثم من أعمال القيروان.

هذا انتقاصًا بكم وإنما المانع منه أنني لا أرضى أخذ سلب ابن عمي» وظهر عليه من الحزن بقوة العرب ما لم يوصف.

ذكر بناء مدينة بجاية والسبب فيه

قال: ولما كانت هذه الواقعة بين بني حماد والعرب، وبلغ النصر ما نال ابن عمه تميم من الألم والحزن، وكان وزيره أبو بكر بن أبي الفتوح محبًّا في دولة تميم، فقال للناصر: «يا مولاي، ألم أُشر عليك ألا تقصد ابن عمك، وأن تتفقا على العرب. فلو اتفقتما لأخرجتما العرب» فصدقه الناصر ورجع إلى قوله، وقال له: «أصلح ذات بيننا» فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح. فقبل تميم قوله.

وأراد أن يرسل رسولاً إلى الناصر، فاستشار أصحابه. فاتفقوا على إرسال محمد بن البُعْبُع، وقالوا: «هذا رجل غريب، قد شمله إحسانك وبرّك، وقد اقتنى من إنعامك الأموال والأملاك، وهو لا يعرف صنهاجة. فما يصلح لهذا الأمر سواه» فأحضر تميم محمد بن البعبع وأمر له بعبيد وخيل وكسًا ودنانير. وأوصاه وأرسله وأجاز الرسول الواصل.

وخرجا معًا إلى أن وصلا إلى بجاية، وهي حينئذ منزل ينزله رعية البربر. فنظرها ابن البعبع وتأملها، وقال في نفسه: «هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن» وتمادى إلى أن وصل إلى القلعة ودخل على الناصر، وقد علم ابن البعبع أن الوزير محب في دولة تميم. فلما انبسط ودفع المكاتبة، قال للناصر: «يا مولاي، معي وصية إليك فأحب أن يخلّى المجلس» فقال الناصر: «ليس هنا إلا الوزير، وأنا لا أخفي عنه أمرًا» فقال: «بهذا أمرني سيدنا تميم» فقال الناصر لوزيره: «انصرف». فلما خرج، قال محمد للناصر: «يا مولاي، إن الوزير مُخامر عليك مع تميم، وهو لا يخفى عنه من أمورك شيئًا، وتميم مشغول مع عبيده النصارى. قد استبدّ بهم واطرح صنهاجة وتلكاتة وجميع القبائل. فوالله، لو وصلت بعسكر إلى المهدية ما بثُّ إلا فيها لبغض الأجناد والرعية في تميم، وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها. وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة. فاجعلها لك مدينة، يكون فيها دار ملكك وتقرب من جميع بلاد إفريقية. وأنا أنتقل إليك بأهلي وولدي، وأترك مالي بالمهدية من الرباع، وأخدمك حقّ الخدمة» فأجابه الناصر إلى ذلك واستراب من وزيره.

وخرج الناصر من ساعته ومعه ابن البعبع إلى بجاية، وترك الوزير بالقلعة. فوصلا إليها. ورسم ابن البعبع المدينة والصناعة والميناء وموضع القصر واللؤلؤة. وأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل. وشكره وأثنى عليه، وعاهده على وزارته. ورجعا جميعًا إلى القلعة.

وأحضر الوزير وقال: «هذا محب لدولتنا ناصح في خدمتنا. وقد أشار علينا ببناء بجاية. وعزم على الانتقال إلينا بالأهل والولد. فاكتب له جواب كتبه إلى تميم» وأمر له بألف دينار، وأربع وصائف، وأربع بغال من مراكبه.

وسار ابن البعبع فوصل إلى المهدية بكتب ناقصة وصلة تامة. فاستراب به تميم. وسأله عن بناء بجاية وسببه، فقال: «يا مولاي، ما لي بهذا علم. أنا رجل غريب» فتحقق تميم أنه الذي أشار عليه ببنائها. وخرج ابن البعبع إلى داره خائفًا وجلًا.

وكان لما فارق الناصر سأله أن ينفِّذ معه رجلًا من ثقاته ينفذ معه ما يعاين من الأخبار. فنفَّذ معه رجلًا. فلما خرج إلى داره كتب إلى الناصر: «إنني لما وصلت إلى تميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن أمر بجاية، إنه قد وقع على قلبه منها أمر عظيم. وقد اتهمني فانظر من تثق به من العرب ممن يصل إلى أولاد عكابش، فإنني خارج إليهم مسرعًا، وقد عاهدتهم على ذلك. فتنفذ من بني هلال من تثق به. وقد أوثقت شيوخ زويلة[١] وغيرها على طاعتك. فالله الله أسرعْ إلي بمن ذكرت».

قال: فمضى الرسول بالكتاب فقرأه الناصر وأوقف الوزير أبا بكر عليه. فاستحسن الوزير ذلك منه وقال: «لقد خدم هذا الرجل ونصح» فقال الناصر: «خذ الكتاب إليك، وجاوب الرجل عنه، وانظر في إنفاذ العرب إليه قولاً وفعلاً، ولا تؤخر ذلك عنه» فمضى الوزير إلى داره وكتب نسخة كتاب ابن البعبع، وحكاها حتى كأنها هي، خشية أن يسأله الناصر عن الكتاب بعد ذلك. وأنفذ كتابه الذي بخطه إلى تميم وكتب كتابًا منه يصف الحال من أوله إلى آخره.

فلما وقف تميم على ذلك، عجب منه وبقي يتوقع له ما يأخذه به. وجعل عليه من يحرسه في ليله ونهاره من حيث لا يشعر. فأتاه بعض الحرس وأخبره أن ابن

(١) بنو زويلة: بطن من البربر. قال الحمداني: وهم: بنو زويلة بن قيدار بن إسماعيل. وذلك على مذهبه في نسب البربر... وزويلة عند الإسرائيليين هم أهل برقة، فيحتمل أنهم هم، ويحتمل أنهم غيرهم... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص٢٧٦).

البعبع صنع طعامًا وأحضر عنده الشريف الفهري ـ وكان هذا الشريف من خواص تميم ـ فلما أصبح استدعاه تميم. فحضر وقال: «يا مولاي، ما كنت إلا واصلاً إليك». وحدثه أن محمد بن البعبع دعاني وقال لي: «أنا في ذمامك وحسبك، أحب أن تعرفني من أين أخرج من المهدية، فأنت أعرف الناس بذلك» فقلت له: «ولِمَ تفعل ذلك، وأنت في هذه المنزلة الكبيرة مع مولانا تميم؟» فقال: «إنه اتهمني أنني أشرت على الناصر ببناء بجاية، وقد خفت» فقلت له: «يا أبا عبد الله، إن كنت سالمًا من قول قلته أو أمر أبرمته فلا تبالِ، فسيدنا تميم رجل رؤوف لا يؤاخذ بقول ولا بظن» فقال لي: «دني فلا قدرة لي على المقام» فقلت له: «أنا أنظر في هذا الأمر بالغداة إن شاء الله وأعرفك بمن تثق به من العرب» فأخذ يدي على ذلك.

قال: فأخرج تميم كتاب ابن البعبع الذي بخطه إلى الناصر وأوقف الشريف عليه. ثم قال له: «أحضِره إلي» فمضى الشريف إليه وقال له: «سيدنا تميم أمر بحضورك معي ولا يكون إلا خيرًا» فلبس ثيابه وخرجا. فلقيهما ماضي بن عكابش فقال له: «يا أبا عبد الله، الهلاليون قد وصلوا إلينا البارحة، وهذه كتب قد وصلت إليك منهم» فتناولها الشريف من يده فقال له ابن البعبع: «استر عليّ ستر الله عليك» وسأله. فدخلا القصر وابن البعبع يسأله فيها. فقال: «خذها فوالله ما ينفعك أخذها» فتناولها.

وخرج تميم إليهما فجزع ابن البعبع حتى سقطت الكتب من يده وإذا عنوان أحدها: «من الناصر بن علناس إلى شيخنا وخليلنا» فقال له تميم: «من أين هذه الكتب؟» فسكت. فقرأها تميم فوجد فيها الحجة عليه. فقال ابن البعبع: «العفو يا مولانا» فقال: «لا عفا الله عنك؟» وأمر بضرب عنقه وتغريق جثته.

ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، سيّر تميم عسكرًا كثيفًا إلى مدينة تونس. فأقام محاصرًا لها مضيِّقًا عليها سنة وشهرين. وكان بها أحمد بن خراسان وقد أظهر الخلاف.

وسبب ذلك أن المعز بن باديس أبا تميم ـ لما فارق القيروان والمنصورية ورحل إلى المهدية ـ استخلف على القيروان وعلى تونس قائد بن ميمون الصنهاجي. فأقام بها ثلاث سنين ثم غلبته هوارة عليها، فسلمها إليهم وخرج إلى المهدية. فلما ولّي تميم بعد أبيه رده إليها، فأقام بها مدة ست سنين. ثم أظهر الخلاف على تميم وأطاع

الناصر بن علناس. فجرد إليه تميم عسكرًا من أجناده وعبيده. فعلم أنه لا طاقة له بهم، فترك القيروان وسار إلى الناصر. ودخل عسكر تميم القيروان وخربوا قصر القائد الذي بناه بباب سلم.

وسار العسكر إلى تونس وبها ابن خراسان فحصروه، فأطاع وصالح الأمير تميمًا.

وأما قائد بن ميمون فإنه مكث عند الناصر سنتين. ثم مضى إلى حَمُّو بن مليل فاشترى له مدينة القيروان من العرب وولاه عليها. فابتدأ ببناء سورها وحَصَّنها.

وفي سنة سبعين وأربعمائة، تمّ الصلح بين تميم والناصر بن علناس. وزوّجه تميم ابنته السيدة بلارة وجهزها إليه من المهدية في البرّ.

ذكر استيلاء مالك بن علوي الصخري على القيروان وأخذها منه، وعودها إلى تميم

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة، جمع مالك بن علوي العرب، وسار إلى المهدية وحصرها. فدفعه تميم عنها ولم يظفر منها بشيء. فسار إلى القيروان فحصرها وملكها. فجرد تميم العساكر إليه فحصروه بها. فلما رأى مالك أنه لا طاقة له بعساكر تميم تركها. واستولت عساكر تميم عليها وعادت إلى ملكه كما كانت.

ذكر ملك الروم مدينة زويلة وعودهم عنها

قال: وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، اجتمع الروم في أربعمائة قطعة وأعانهم الفرنج. وأتوا كلهم إلى جزيرة قوصرة[1] وأخربوا ونهبوا وأحرقوا. وملكوا مدينة زويلة وهي بقرب المهدية. وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عليه، فصالح تميم الروم على ثمانين ألف دينار، بشرط أن يردوا جميع ما حوَوْه من السبي، ففعلوا ذلك ورجعوا جميعًا.

وفيها مات الناصر بن علناس. وولّي ابنه المنصور فقَفا آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة. وأتته كتب تميم وغيره بالتهنئة والتعزية.

(١) قوصرة: بالفتح ثم السكون، والصاد مهملة: هي جزيرة في بحر الروم بين المهدية وجزيرة صقلية... وقيل: إن في أيامنا هذه فيها قوم من الخوارج الوهبية... (معجم البلدان).

ذكر خبر شاه ملك التركي ودخوله إلى إفريقية وغدره بيحيى بن تميم

كان شاه ملك هذا من أولاد بعض أمراء الأتراك ببلاد المشرق فناله في بلده أمر أخرجه عنها. فخرج وسار إلى مصر في مائة فارس. فأكرمه الأفضل أمير الجيوش ووصله وأعطاه إقطاعًا ومالاً. ثم بلغه عنه أشياء أوجبت حبسه هو وأصحابه. وجرى بمصر أمر فخرج شاه ملك هو وأصحابه هاربين، واحتالوا في خيل وعُدة.

وتوجهوا إلى المغرب فوصلوا إلى طرابلس المغرب وأهل البلد كارهون لواليها. فأدخلوهم البلد وأخرجوا الوالي. فصار شاه ملك أمير البلد. فبلغ تميم الخبر فأرسل العساكر فحصروها وفتحوها وأخذوا شاه ملك ومن معه إلى المهدية. فسر بهم تميم وقال: «قد ولد لي مائة ولد أنتفع بهم» وكانوا لا يخطىء لهم سهم.

فلم تطل الأيام حتى جرى منهم أمر غير تميمًا عليهم. فعلم شاه ملك ذلك، وكان صاحب دهاء وخبث. فلما كان في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، خرج يحيى بن تميم إلى الصيد ومعه شاه ملك ومن معه. وكان أبوه قد تقدم إليه ألا يقربه فلم يقبل منه. فلما أبعدوا في طلب الصيد، غدر به شاه ملك، وقبض عليه، وسار به وبمن أخذ من أصحابه إلى حمّو بن مليل صاحب مدينة سفاقس. فركب حمّو وخرج للقاء يحيى بن تميم. وترجل وقبّل يده ومشى في ركابه وعظّمه واعترف له بالعبودية. وأقام عنده أيامًا ولم يذكره أبوه بكلمة واحدة. وكان قد جعله ولي عهده، فلما أُخذ أقام أبوه مقامه ابنًا آخر اسمه مثنى.

قال: ثم إن صاحب سفاقس خاف يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد فيملكوه عليهم، فكتب إلى تميم يسأله إنفاذ الأتراك وأولادهم إليه ليرسل إليه ابنه يحيى. ففعل ذلك بعد امتناع كثير. وقدم يحيى فحجبه أبوه عنه مدة. ثم رضي عنه وأعاده وجهزه إلى سفاقس بجيش فحصرها برًا وبحرًا مدة شهرين. فخرج الأتراك عنها إلى قابس.

ذكر خلاف مثنى بن تميم على أبيه

قال: كان سبب ذلك أن تميم بن المعز لما رضي عن ابنه يحيى وأعاده إلى ولاية عهده، عظم ذلك على المثنى وداخَلَه الحسد فلم يملك نفسه. فنُقل إلى أبيه عنه ما غيّر قلبه عليه. فأمر بإخراجه من المهدية بأهله وولده وعبيده. فركب في البحر إلى سفاقس، فلم يمكنه عاملها من الدخول إليها.

فقصد مدينة قابس، فلقيه الثائر بها مكن بن كامل الدهماني فأنزله وأكرمه. فحسن له مثنى الخروج معه إلى سفاقس والمهدية وأطمعه فيها، وضمن له الإنفاق على الجند من ماله. فجمع ما أمكنه جمعه. وسارا إلى سفاقس ومعهما شاه ملك التركي وأصحابه فنزلوا على سفاقس وقاتلوا من بها فبلغ تميمًا الخبر فجرد إليها جندًا من الرماة. فلما علم المثنى ومن معه أنهم لا طمع لهم فيها تركوها. وقصدوا المهدية فنزلوا عليها وقاتلوا. فتولى قتالهم بها يحيى بن تميم وظهر من شدته وصبره وحزمه وحسن تدبيره ما استُدل به على نجاح أمره وحسن عاقبته. ولم يبلغ أولئك منها غرضًا فعادوا وقد تلف ما كان مع المثنى من مال وغيره.

ذكر ملك تميم مدينة قابس

وفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ملك تميم مدينة قابس، وأخرج منها أخاه عمرو بن المعز. وكان أهلها ولّوه عليها بعد موت قاضي بن إبراهيم بن بَلْمُويه. فلم يحسن عمرو السياسة ولا نهض بشرط الولاية. وكان قاضي بن إبراهيم عاصيًا على تميم، وتميم يعرض عنه. فسلك عمرو طريقته في العصيان، فأخرج تميم العساكر إلى أخيه ليأخذ قابس منه. فقال له أصحابه: «يا مولانا، لما كان فيها قاضي توانيت عنه وتركته، فلما صار أمرها إلى أخيك جردت إليه العساكر!» فقال: «لما كان فيها عبد من عبيدنا كان زواله سهلًا علينا. وأما الآن فابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس. هذا لا يمكن السكوت عليه».

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة قصيدته المشهورة التي أولها: [من الكامل]

ضحك الزمانُ وكان يُلْفَى عابسًا ... لما فتحتَ بحدِّ سيفك قابسا
أنكحتَها بكرًا وما أمْهَرتَها ... إلاّ قَنًا وصَوارمًا وفوارسا
الله يعلم ما جنيتَ ثمارها ... إلا وكان أبوك قَبلُ الفارسا
من كان بالسُّمْر العوالي خاطبًا ... جُلِيتْ له بيضُ الحُصون عرائسا
فأبشر تميمَ بن المعزّ بفتكةٍ ... تركتْك في أكناف قابس قابسا[1]
ولّوا فكم تركوا هناك مصانعًا ... ومَقاصرًا ومَخالدًا ومجالسا
فكأنها قلبٌ وهُنَّ وَساوسٌ ... جاء اليقين فذاد عنه وساوسا

(١) القابس: طالب النار.

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فتح تميم جزيرة جرْبة وجزيرة قرقنة[١] ومدينة تونس. وكان بإفريقية غلاء شديد هلك فيه كثير من الناس.

وفي سنة ثلاث وتسعين، فتح تميم مدينة سفاقس. وخرج منها حمّو بن مليل هاربًا فقصد مكن بن كامل الدُّهماني، فأحسن إليه وأقام عنده حتى مات. وكان حمّو قد تغلب عليها واشتد أمره بوزير كان عنده من كتاب المعز حسن الرأي والتدبير والسياسة، فاستقامت به دولته وعظم شأنه. فأرسل إليه تميم وبالغ في استمالته ووعده بكل جميل فلم يقبل. فاشتد أمره على تميم فسيّر جيشًا إلى حصار سفاقس. وأمر مقدم الجيش أن يهدم ما حول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار سوى ما يتعلق بذلك الوزير، فإنه لا يتعرض إليه ويبالغ في صيانته، ففعل ذلك. فلما رأى حمّو ذلك اتهمه وقتله. فانحلّ نظام دولته وتسلّم عسكر تميم البلد.

وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، مات المنصور بن الناصر بن علناس، وولّي بعده ولده باديس. ثم مات بعد يسير فولّي أخوه العزيز بالله.

ذكر وفاة تميم بن المعز

كانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى وخمسمائة، وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدة ولايته سبع وأربعون سنة وعشرة أشهر وعشرون يومًا.

وكان شهمًا شجاعًا كريمًا حليمًا كثير العفو عن الجرائم العظيمة ذكيًا حسن الشعر. فمن شعره ما قاله وقد وقع حرب بين طائفتين من العرب، وهما عدي ورياح فقُتل رجل من رياح ثم اصطلحوا وأهدروا دمه، وكان صلحهم مما يضر بتميم وبلاده، فقال أبياتًا يحرض فيها على الطلب بدم المقتول، وهي: [من الوافر]

متى كانت دماؤكمُ تُطَلُّ ... أمَا فيكم بثأرٍ مُستقِلُّ[٢]

أغانمُ ثم سالمُ إنْ فشلتم ... فما كانت أوائلكم تَذلُّ

ونمتم عن طِلاب الثأر حتى ... كأنّ العزّ فيكم مضمحلُّ

وما كسَّرتُمُ فيه العوالي ... ولا بيضٌ تُفَلُّ ولا تُسَلُّ[٣]

---

(١) قرقنة: قال أبو عبيد البكري: ويقابل سفاقس في البحر جزيرة تسمى قرقنة... وهي في وسط البحر بينها وبين سفاقس في ذلك البحر الميت القصير القعر عشرة أميال... (معجم البلدان).

(٢) تطل الدماء: تهدر وتبطل ولم يثأر بها ولم تؤخذ ديتها.

(٣) فلّ السيف: تثلم حدّه.

فعمد إخوة المقتول فقتلوا أميرًا من بني عدي. فقامت الحرب بينهم واشتد القتال، وكثرت القتلى بينهم حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية، وبلغ تميم فيهم ما يريد. وكان يوقع بالشعر الحروب بين العرب فبلغ بلسانه ما لم يبلغه بسنانه.

ومن أخباره في رعيته وشفقته عليهم ما حُكي أنه اشترى جارية بثمن كثير. فبلغه أن مولاها الذي باعها ذهب عقله وأسف على فراقها. فأحضره تميم إلى بين يديه وأرسل الجارية إلى داره ومعها من الكسوة والأواني والفضة والطيب شيئًا كثيرًا. ثم أمر مولاها بالانصراف وهو لا يعلم بذلك. فلما وصل إلى داره ورآها بمنزله سقط إلى الأرض وغُشي عليه لكثرة ما ناله من السرور. ثم أفاق وأصبح من الغد فحمل الثمن وجميع ما كان معها إلى دار تميم. فغضب وانتهره وأمره بإعادة ذلك إلى داره. وهذه نهاية في الجود، وغاية في الكرم والشفقة والإحسان.

وكان له في البلاد أصحاب أخبار يطالعونه بأخبار الناس لئلا يُظلَموا.

قال: وخلّف من البنين مائة، ومن البنات ستين.

ولما مات رحمه الله ولّي بعده ابنه يحيى.

ذكر ولاية يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ابن المنصور يوسف بن زيري

كانت ولايته عند وفاة أبيه تميم في يوم السبت النصف من شهر رجب سنة إحدى وخمسمائة، ومولده بالمهدية في يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة. ولما ولّي عم أهل دولته من الخواص والجند بالخلع السنيّة، ووهب الأجناد والعبيد أموالاً كثيرة.

وفي هذه السنة، جرد عسكرًا إلى قلعة إقليبية[1]، وهي من أحصن قلاع إفريقية. وقدَّم عليهم الشريف «علي الفهري» فنزل عليها وحاصرها حصارًا شديدًا ففتحها. وكان تميم قد رامها فلم يقدر على فتحها.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة، وصل إلى المهدية ثلاثة نفر غرباء. فكتبوا إلى يحيى يقولون إنهم يعملون الكيمياء. فأحضرهم عنده وأمرهم أن يعملوا شيئًا من صناعتهم. وأحضر لهم ما طلبوه من صناعتهم، وأحضر لهم ما طلبوه من آلة وغيرها. وقعد معهم

---

(١) إقليبية: بكسر الهمزة، وسكون القاف، وكسر اللام، وياء ساكنة، وباء مكسورة، وياء مخففة: هو حصن منيع بإفريقية قرب قرطاجنة مطل على البحر... (معجم البلدان).

هو والشريف أبو الحسن. فلما رأى الكيميائية المكان خاليًا ثاروا بيحيى. فضربه أحدهم على رأسه، فوقعت السكين في عمامته فلم تصنع شيئًا. ورفسه يحيى فألقاه على ظهره. ودخل يحيى بابًا وأغلق على نفسه. وضرب الثاني الشريف فقتله. وأخذ إبراهيم القائد السيف فقاتل الكيميائية. ورفع الصوت فدخل أصحاب الأمير يحيى فقتلوا أولئك. وكان زيهم زي أهل الأندلس، فقُتل جماعة في البلد على مثل زيهم.

وقيل ليحيى: «إن هؤلاء رآهم بعض الناس عند المقدم بن الخليفة» واتفق أن الأمير أبا الفتوح إبراهيم أخا يحيى وصل في تلك الساعة إلى القصر، في أصحابه وقد لبسوا السلاح. فمُنع من الدخول. فثبت عند يحيى أن ذلك بوضع منهما. فأحضر المقدم بن خليفة وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصًا، لأنه كان قد قتل أباهم. وأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته إلى قصر زياد بين المهدية وسفاقس، ووكل بهما. فبقي هناك حتى مات يحيى وولّي ابنه علي. فسيَّره إلى ديار مصر في البحر.

وفي سنة أربع وخمسمائة، أنفذ ابنه أبا الفتوح واليًا على مدينة سفاقس. فقام أهلها عليه فنهبوا قصره وهمُّوا بقتله. فلم يزل يحيى يعمل الحيلة حتى فرق كلمتهم وبدّد شملهم وملك رقابهم وملأ السجون منهم. ثم عَفَّ عن دمائهم وعفا عن ذنوبهم.

وفي أيام يحيى وصل إلى المهدية من طرابلس المهدي محمد بن تومرت، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة يحيى بن تميم وشيء من أخباره

كانت وفاته فجأة يوم عيد الأضحى سنة تسع وخمسمائة. وكان منجمه قد قال له في تسيير مولده: «إن عليه قطعًا في هذا اليوم» ومنعه من الركوب فلم يركب وخرج أولاده وأهل بيته وأرباب دولته إلى المصلّى. فلما انقضت الصلاة حضروا للسلام عليه وتهنئته. وقرأ القراء وأنشد الشعراء وانصرفوا إلى الطعام. فقام يحيى من باب آخر ليحضر معهم على الطعام. فلم يمش غير ثلاث خطوات ووقع ميتًا رحمه الله.

وكان عادلاً في رعيته، ضابطًا لأمور دولته، مدبّرًا لجميع أحواله، رحيمًا بالضعفاء والفقراء كثير الصدقة، يقرب أهل العلم والفضل. وكان عالمًا بالأخبار وأيام الناس والطب. وكان حسن الوجه، أشهل[1] العينين، مائلاً في قَدِّه إلى الطول.

(١) الأشهل: الذي في عينيه شهلة، وهي أن يشوب إنسان العين حمرة.

ومات وله من العمر اثنتان وخمسون سنة إلا سبعة عشر يومًا. ومدة ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر إلا خمسة أيام.

وخلَّف من الأولاد الذكور ثلاثين ولدًا.

وقال عبد الجبار محمد بن حَمْديس[١] الصقلي يرثيه ويهنىء ابنه عليًّا بالملك: [من البسيط]

ما أغمد العضبُ حتى جُرِّدَ الذَّكرُ ... ولا اختفى قمرٌ حتى بدا قمرُ[٢]
بموت يحيى أُميتَ الناسُ كلّهمُ ... حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشروا[٣]
إنْ يُبْعثوا بسرورٍ من تملُّكه ... فمن منيَّة يحيى بالأسى قُبروا
أوفى عليٌّ فسنُّ المُلْك ضاحكةٌ ... وعينه من أبيه دمعُها هَمِرُ
شُقَّت جُيوب المعالي بالأسى فبكتْ ... في كلّ أُفقٍ عليه الأنجمُ الزُّهُر
وقلَّ لابن تميمٍ حزنُ مأتمها ... فكل حُزنٍ عظيم فيه مُحتقَر
قام الدليل ويحيى لا حياةَ له ... إن المنية لا تُبقِي ولا تَذرُ

ذكر ولاية عليّ بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بعد وفاة أبيه. وكان إذ ذاك بمدينة سفاقس، فاجتمع رجال الدولة منهم عبد العزيز بن عمار والقائد زكو وغيرهما. ووقع الاتفاق على أن يُكتب كتاب على لسان يحيى لولده يؤمر فيه بالوصول إليه مسرعًا. فكُتب وسيِّر إليه فوصل إليه ليلاً. فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب. وجدّ السير فوصل إلى المهدية الظهر من يوم الخميس الثاني من يوم العيد، وهو الحادي عشر من ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة. ودخل القصر. وبدأ بتجهيز أبيه ومواراته في قبره ثم جلس للعزاء والهناء.

ولما استقامت له الأمور، جهز أسطولاً إلى جربة[٤]، وكان أهلها يقطعون على

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور... (وفيات الأعيان ٣: ٢١٢).

(٢) العضب: السيف القاطع، والذّكر: السيف القاطع أيضًا.

(٣) نشر الله الموتى: بعثهم وأحياهم.

(٤) جربة: بالفتح ثم السكون، والباء موحدة خفيفة: قرية بالمغرب لها ذكر كثير في كتاب الفتوح... وقيل: هي جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر... (معجم ياقوت).

الناس في البحر. وجعل قائد الأسطول القائد إبراهيم قائد جيشه، وأصحبه جماعة من رجال الدولة. فمضوا إليها وحاصروها وضيّقوا على أهلها، حتى أذعنوا للطاعة ونزلوا على الحكم والتزموا الكفّ عن الفساد. فأمن من يسافر في البحر.

وفي سنة عشر وخمسمائة، جهز جيشًا إلى مدينة تونس، وبها أحمد بن خراسان. فحاصرها وضيّق على من بها. فصالح ابن خراسان السلطان على ما أراد.

وفتح أيضًا في هذه السنة جبل وسلات واستولى عليه. وهو جبل منيع لم يزل أهله طول الدهر يقطعون الطريق ويقتلون الناس. فملكه وقتل من فيه.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة، حاصر الأمير علي مدينة قابس في البحر. وسبب ذلك أن رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركبًا بساحلها، وقصد إجراءه في البحر في آخر أيام يحيى فلم ينكر ذلك وأعانه بالخشب والحديد. وتوفي يحيى قبل إكماله. فلما ولي عليّ أنف من ذلك. فعمّر ست حربيات وأربع شوان. فاستعان رافع بُرجار صاحب صقلية، فأنفذ رجار لإعانته أسطولاً جملته أربعة وعشرون شينيًا، لتأخذ المركب معها وتشيعه إلى صقلية لئلا تقطع عليه مراكب عليّ. فلما اجتاز أسطول رجار بالمهدية، أخرج على الحربيات والشواني[1] تتبعه إلى قابس، فتوافَوا بها. فرجع أسطول رجار إلى صقلية وبقي أسطول علي يحاصر قابس. فضيّق على من بها وأثر في مأجِلها وأفسد ثم رجع إلى المهدية. وتمادى رافع في إظهار المخالفة والتمسك بصاحب صقلية.

ذكر حصار رافع المهدية وانهزامه

قال: ثم أقبل رافع بن مكن الدهماني على جميع قبائل العرب وحالفهم. وسار بهم لحصار المهدية ونازلها. فأمر عليّ العسكر بالخروج وقتاله. فخرجوا عشية النهار فحملوا على رافع ومن معه حتى أزالوهم عن مواقفهم. ووصل الجند إلى أخبية العرب. فصاح الحريم: «هكذا نُسْبى، هكذا نُستَباح» فعادت العرب ونشبت الحرب واشتد القتال إلى المغرب. ثم افترقوا، وقد قُتل من عسكر رافع خلق كثير، ولم يقتل من أصحاب عليّ إلا رجل واحد. ثم خرج إليهم الجند مرة ثانية واقتتلوا. فكان الظهور لأصحاب عليّ.

---

(١) الشواني: نوعٌ من المراكب العسكرية.

وهرب رافع بالليل إلى القيروان فدخلها بعد قتال. فأرسل عليّ بن يحيى إليه عسكرًا فحاصروه بالقيروان. ووقع بينهم قتال شديد قُتل فيه أحمد بن إبراهيم صاحب الجيش بسهم أصابه. وكان الغلب مع ذلك لأصحاب عليّ. ورجع رافع إلى قابس.

وتوسط ميمون بن زياد لرافع في الصلح مع عليّ. فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. وتمّ الصلح بينهما وانتظم وزالت الوحشة.

ثم وصل رسول رجار صاحب صقلية بمكاتبة يلتمس فيها تأكيد العهود وتجديد العقود. فأجاب إلى ذلك. ثم وقعت الوحشة بينهما. فأمر عليّ بتجديد الأسطول فعمر عشرة مراكب حربية، وثلاثين غرابًا[1]، وشحنها بالرجال والعُدد والنفط وجميع ما تحتاج إليه.

وكان دأبه الحزم والصرامة والشهادة والعزم إلى أن توفي.

وكانت وفاته في يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة. وكان مولده بالمهدية صبيحة يوم الأحد للنصف من صفر سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وكانت مدة ولايته خمس سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا. وخلف من الأولاد أربعة، وهم: الحسن وباديس وأحمد وعزيز.

ولما مات ولّي بعده بعهده ولده الحسن.

ذكر ولاية الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري

كانت ولايته بعهد من أبيه. فاستقلّ بعد وفاة أبيه، وله من العمر إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وشهورًا. فدبّر دولته صندل الخصيّ وحفظ الملك. فلم تطل أيام صندل حتى مات. ووقع الاختلاف بين أكابر الدولة والقواد، وكل منهم يطلب التقدم على الجميع، ويبدي أنه صاحب الحل والعقد. فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى القائد أبي عزيز موفق، وهو من قواد أبيه، فصلحت الأمور.

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة، استولت الفرنج على جربة من بلاد إفريقية. وكان أهلها لا يدخلون تحت طاعة سلطان. فخرج إليها جيش من صقلية وأداروا

(١) الغراب: سفينة من سفن البحر القديمة.

المراكب بجهاتها. فقاتل أهلها قتالاً شديدًا فقُتل منهم خلق كثير وانهزموا. وملكها الفرنج، وغنموا الأموال، وسبوا النساء والأطفال. وهلك أكثر رجالها، وعاد من بقي منهم فأخذوا لأنفسهم أمانًا من صاحب صقلية وافتكّوا أسراهم وسَبْيهم.

ذكر ملك الفرنج مدينة طرابلس

وفي أيامه ملك الفرنج مدينة طرابلس الغرب، وذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وسبب ذلك أن رجار صاحب صقلية جهز أسطولاً كثيرًا وسيّره إليها. فأحاطوا بها برًا وبحرًا في ثالث المحرم من السنة. فقاتلهم أهلها ودامت الحرب بينهم ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الثالث سمع الفرنج صيحة عظيمة في البلد وخلت الأسوار من المقاتلة. وكان سبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا. وأخرجت بنو مطروح طائفة. وقدموا على أنفسهم رجلاً من الملثمين كان قد قدم يريد الحج ومعه جماعة، فولوه أمرهم. فلما نازلهم الفرنج، أغارت تلك الطائفة على بني مطروح[1]. فوقعت الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار. فانتهز الفرنج الفرصة، ونصبوا السلالم، وصعدوا على السور، وملكوا المدينة. فسفكوا دماء أهلها، وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم. وهرب من قدر على الهرب والتجئوا إلى البربر والعرب. ثم نودي بالأمان للناس كافة. فرجع كل من فرّ منها. وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا أسوارها وحفروا خندقها. وعند رجوعهم أخذوا رهائن أهلها والملثم وبني مطروح ثم أعادوا رهائنهم واستقام أمر المدينة وعمرت سريعًا.

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة المهدية وسفاقس وسوسة

كان استيلاء الفرنج على ذلك في سنة ثلاث وأبعين وخمسمائة، وذلك أن الغلاء تتابع في جميع بلاد المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة، وكان أشده في سنة اثنتين وأربعين، فإن الناس فارقوا البلاد، ودخل أكثرهم إلى جزيرة صقلية، وأكل الناس بعضهم بعضًا، وكثر الفناء. فاغتنم رجار ملك صقلية هذه الفرصة، وعمر أسطولاً نحو مائة وخمسين شينيًا، وشحنها بالرجال والعُدد. وساروا إلى جزيرة

(١) بنو مطروح: طائفة من الطوائف.

قوصرة ـ وهي بين المهدية وصقلية ـ فصادفوا بها مركبًا وصل من المهدية. فأُخذ أهله وأُحضروا بين يدي جُرْجي مقدم الأسطول، فسألهم عن حال إفريقية. ووجد في المركب قفص حمام. فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه: «إننا لما وصلنا إلى قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية. فسألناهم عن الأسطول المخذول، فذكروا أنه أقلع إلى القسطنطينية». وأطلق الحمام فوصل إلى المهدية فسرّ الأمير والناس، وأراد جُرجي بذلك أن يصل بغتة.

ثم سار الأسطول من قوصرة فوصل إلى المهدية في ثاني صفر فأرسل مقدم الأسطول إلى الحسن يقول: «إنا لم نأت إلا طلبًا بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها. (وكان قد أُخرج منها وبينه وبين الفرنج مودة ومصالحة) وأما أنت فبيننا وبينك عهود ومواثيق إلى مدة، ونريد منك عهودًا ومواثيق إلى مدة. ونريد منك عسكرًا يكون معنا».

فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم. فقالوا: «نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين» فقال: «نخشى أن ينزلوا إلى البرّ، ويحصرونا برًا وبحرًا، وتنقطع الميرة عنا وليس عندنا ما يقوم بنا شهرًا واحدًا. وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خيرًا من الملك. وقد طلب مني عسكرًا إلى قابس، فإن فعلت فما يحلّ إعانة الكفار على المسلمين، وإن امتنعت يقول: انتقض ما بيننا من الصلح. وليس لنا بقتاله طاقة. والرأي عندي أن نخرج بالأهل والولد، ونترك البلد. فمن أراد أن يفعل كفعلنا فلْيُبادر معنا». وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه ما خفّ حمله وخرج، وتبعه الناس على وجوههم بأهلهم وأولادهم وما خفّ من أموالهم وأثاثهم. ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس هذا والأسطول في البحر يمنعه الريح من الوصول إلى المدينة. فما مضى ثلثا النهار حتى لم يبق بالبلد ممن عزم على الخروج أحد.

ودخل الفرنج البلد بغير مانع ولا مدافع. ودخل جرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ منه الحسن شيئًا إلا ما خفّ من ذخائر الملوك. ووجد فيه عدة من حظاياه. ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة، ومن كل شيء غريب فختم عليه. وجمع سراري الحسن في قصر. ولما ملك المدينة نُهبت مقدار ساعتين ثم نودي بالأمان. فخرج من كان مستخفيًا. وأصبح جرجي من الغد، فأرسل إلى من قرب من العرب فدخلوا البلد. فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلة. وأرسل أمانًا إلى من خرج من المهدية، ودواب يحملون عليها الأطفال فرجعوا.

قال: ولما استقرّ جرجي بالمهدية سيّر أسطولاً بعد أسبوع إلى مدينة سفاقس، وأسطولاً إلى مدينة سوسة. فأما سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدية ـ وكان علي بن الحسن واليًا عليها ـ فخرج إلى أبيه، وخرج الناس لخروجه. فدخلها الفرنج بغير قتال في ثاني عشر صفر منها. أما سفاقس فإن أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم. فقاتلهم الفرنج فخرج إليهم أهل البلد. فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم المسلمون حتى أبعدوا عن البلد. ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم إلى البلد، وقوم إلى البرية. وقُتل منهم جماعة. ودخل الفرنج البلد بعد قتال شديد وقتلى كثيرة. وأُسر من بقي من الرجال وسُبي الحريم. وذلك في الثالث عشر من صفر منها. ثم نُودي بالأمان فعاد أهلها إليها. ووصلت كتب من رجار صاحب صقلية بالأمان إلى جميع أهل إفريقية، والمواعيد الحسنة. وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قريب تونس، ومن المغرب إلى دون القيروان.

ذكر انقراض دولة بني زيري من إفريقية
وما اتّفق للحسن بن علي بعد خروجه من المهدية

كان انقراض دولتهم من إفريقية بخروج الحسن بن علي بن يحيى بن تميم من المهدية، وكان خروجه منها على ما قدمناه في ثاني صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ومدة ملكه سبعًا وعشرين سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام.

وعدة من ولّي منهم تسعة ملوك، وهم زِيرِي بن مناد، ثم ابنه يوسف بُلُكِّين، ثم ابنه المنصور بن يوسف، ثم ابنه بادِيس بن المنصور، ثم ابنه المُعِز بن باديس، ثم ابنه تَميم بن المعز، ثم ابنه يحيى بن تميم، ثم ابنه علي بن يحيى، ثم ابنه الحسن بن علي هذا، وعليه انقرضت الدولة.

ومدة قيامهم منذ عَمَّر زيري بن مناد مدينة آشير في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وإلى هذا الوقت مائتي سنة وتسع عشرة سنة، ومنذ تسلّم يوسف بلكين بلاد المغرب من المعز لدين الله أبي تميم مَعد ـ عند رحيله إلى الديار المصرية على ما قدمناه ـ مائة سنة، وإحدى وثمانين سنة وشهرًا واحدًا وتسعة أيام.

ولم يبق منهم ببلاد المغرب غير بني حماد[١]، وسنذكر انقراض دولتهم في أخبار عبد المؤمن إن شاء الله تعالى.

(١) بنو حماد: بطن من لواته، من البربر. وقيل: بنو حماد: بطن من بلى، من القحطانية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

ذكر ما اتفق للحسن بن علي بعد خروجه من المهدية

قال: لم خرج من المهدية سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ذكرًا غير الإناث. وقصد محرز بن زياد وهو بالمعلّقة فوصل إليه فلقيه لقاءً جميلاً وتوجّع لما حلّ به. وأقام عنده شهورًا والحسن كاره للمقام. وأراد المسير إلى ديار مصر إلى الحافظ العُبيْدي، واشترى مركبًا ليسافر فيه. فاتصل ذلك بجرجي الفرنجي المتغلب على ملكه، فجهز شواني لأخذه. فرجع الحسن عن ذلك.

وقصد المسير إلى عبد المؤمن ببلاد المغرب يستنصر به على الفرنج. فأرسل ثلاثة من أولاده، وهم يحيى وعلي وتميم، إلى يحيى بن العزيز بالله، وهو من بني حماد، وهما ابنا عم يرجعون كلهم في النسب إلى زيري بن مناد، وكان يحيى هذا قد ولي بعد أبيه. واستأذنه في الوصول إليه، وتجديد العهد به، والمسير من عنده إلى عبد المؤمن. فأذن له يحيى في ذلك فسار الحسن إليه. فلما وصل إلى بلاده لم يجتمع به وسيّره إلى جزيرة بني مزغنان هو وأولاده ووكل بهم من يمنعهم من التصرف. فبقوا هناك إلى أن ملك عبد المؤمن مدينة بجاية في سنة سبع وأربعين وخمسمائة. ثم صار من أصحاب عبد المؤمن وشهد معه فتح المهدية على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار عبد المؤمن.

ذكر ابتداء دولة الملثمين وأخبارهم ومن ملك منهم

كان ابتداء أمرهم ـ على ما حكاه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس في تاريخه المترجم «بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان» بسند يرفعه إلى القاضي أبي الحسن علي بن فنون قاضي مراكش: أن رجلاً من قبيلة جُدّالة من كبرائهم اسمه الجوهر أتى من الصحراء إلى بلاد المغرب طالبًا للحج، وذلك في عشر الخمسين وأربعمائة. وكان مُؤثرًا للدين، محبًّا في الخير، مكرمًا للصالحين. فمرّ بفقيه يُقرَأ عليه مذهب الإمام مالك بن أنس وحوله جماعة. قال: والغالب أنه أبو عمران قاضي[1] القيروان. فآوى إليه وأصغى إلى ما يُذكَر في

(١) هو أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حاج البربري الغفجومي نسبة إلى غفجوم بطن من زناتة قبيلة من البربر بالمغرب شيخ المالكية بالقيروان وتلميذ أبي الحسن القابسي دخل الأندلس وأخذ عن عبد الوارث بن سفيان وطائفة وحجّ مرات وأخذ علم الكلام ببغداد عن ابن الباقلاني... (شذرات الذهب ٣:٢٤٧).

مجلسه من علم الشريعة. فأحبّ سماعه وأناب إليه قلبه. ثم استمر في وجهته إلى الحج وقد أثر ذلك في نفسه.

فلما حجّ وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه، وسمع الكلام فيما تقتضيه ملّة الإسلام من الفرائض والسنن والأحكام. فقال الجوهر: «يا فقيه، ما عندنا في الصحراء من هذا الذي تذكرونه شيء إلا الشهادتين في العامة، والصلاة في بعض الخاصة» فقال الفقيه: «فاحمل معك من يعلّمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم» فقال له الجوهر: «فابعث معي أحد الفقهاء، وعليّ حفظه وبره وإكرامه». وكان للفقيه ابن أخ اسمه مر، فقال له: «اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء فعلِّم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الإسلام، ولك الثواب الجزيل من الله عزّ وجل، والذكر الجميل من الناس» فأجابه إلى ذلك. فلما أصبح عمر من الغد جاء إلى عمه فقال له: «أعْفِني من الدخول إلى الصحراء فإن أهلها جاهلية، قد ألفوا سِيَرًا نشؤوا عليها فمتى نُقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها». وكان من طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي فرأى الفقيه وقد عزّ عليه مخالفة ابن أخيه، فقال: «يا فقيه، أرسلني معه والله المُعين» فأرسله معه. وتوجها إلى الصحراء. وكان عبد الله بن ياسين فقيهًا عالمًا ورِعًا دينًا شهمًا قويّ النفس حازمًا ذا رأي وصبر وتدبير حسن.

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء. فانتهوا إلى قبيلة لمتونة، وهي على ربوة عالية. فلما رأوها نزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تعظيمًا لدين الإسلام. فأقبلت أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء الجوهر والسلام عليه. فرأوه يقود الجمل فسألوه عنه فقال: «هو حامل سنة رسول الله ﷺ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الإسلام» فرحّبوا به وأنزلوه أكرم نُزل.

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم أبو بكر بن عمر. فقالوا: «تذكر لنا ما أشرت إليه أنه يلزمنا؟» فقصّ عليهم عبد الله عقائد الإسلام وقواعده وبيّن لهم حتى فهم ذلك أكثرهم. ثم اقتضاهم الجواب، فقالوا: «أما ما ذكرته من الصلاة والزكاة فذلك قريب. وأما قولك: من قَتل يُقتَل، ومن سرق يُقطع، ومن زنا يُجلد، فأمر لا نلتزمه ولا ندخل تحته. اذهب إلى غيرنا».

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين فنظر إليه شيخ كبير منهم فقال: «أرأيتم هذا الجمل؟ لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم».

قال: وكان بالصحراء قبائل العرب[1]، وهي لمتونة وجدالة ولمطة وانبيصر وايتوارى ومسوفة وأفخاذ عدة، وكل قبيلة قد حازت أرضًا تسرح فيها مواشيهم، ويحمونها بسيوفهم. وهذه القبائل ينسبون إلى حمير، ويذكرون أن أسلافهم خرجوا من اليمن في الجيش الذي أنفذه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الشام. وانتقلوا إلى مصر ثم توجهوا إلى المغرب مع موسى بن نصير. وتوجهوا مع طارق إلى طنجة ثم اختاروا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها وأقاموا بها.

قال: وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله إلى قبيلة جدالة. فخاطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم. فمنهم من سمع وأطاع ومنهم من أعرض وعصى. ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا. فقال عبد الله للذين قبلوا منه الإسلام: «قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام. فاستعدوا لقتالهم، واجعلوا لكم حزبًا، وأقيموا لكم راية، وقدموا لكم أميرًا» فقال له الجوهر: «أنت الأمير» فقال عبد الله: «لا يمكنني هذا! إنما أنا حامل أمانة الشرع، أقص عليكم نصوصه وأبيّن لكم طريقه، وأعرِّفكم سلوكه. ولكن أنت الأمير» فقال الجوهر: «لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء، ويكون وزر ذلك عليّ. لا رأي لي في هذا» فقال عبد الله: «فهذا أبو بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل جليل القدر، مشكور الحال، محمود السيرة، مطاع في قومه، نسير إليه ونعرض تقدمة الإمرة عليه، فلحب الرياسة يستجيب إلى ذلك بنفسه، ولمكان الجاه ستجتمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا. والله المستعان».

ذكر ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني

قال: فأتوا أبا بكر بن عمر فأجاب، وعقدوا له راية وبايعوه بيعة الإسلام، وتبعه زمرة من قومه. وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين.

ورجعوا إلى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن إسلامهم، ومن الأقوام الذين تألفت قلوبهم. وحرّضهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله، وسماهم المرابطين. وتألبت عليهم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشّر والفساد، وجيّشوا لمحاربتهم. فلم يناجزهم الحرب ولا بادرهم بلقاء بل تلطف عبد الله

(١) لم يذكر هذه القبائل ياقوت في معجمه، وكذلك ابن خرداذبة في كتاب «المسالك والممالك» فقد وردت «لمطة» في الكلام على أعراض البربر. . . ص٩٠.

وأبو بكر في أمرهم، واستمالوهم، واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يَسْبُونَهم قومًا بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زَرْب[١] عظيم وثيق ما ينيف على ألفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أيامًا بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته، وقد خندقوا حوله. ثم أخرجوهم قومًا بعد قوم وقتلوهم عن آخرهم.

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها، وقويت شوكة المرابطين. هذا وعبد الله بن ياسين يعلّم الشريعة ويقرىء الكتاب والسنة، حتى صار حوله فقهاء. وكل من انقاد إلى الحق على طريق الورع والتقى والخشية لله والمراقبة، فرتَّب له أوقاتًا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد. فاستقام منهم خلق كثير، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم، وصفت قلوبهم.

ذكر مقتل الجوهر الجدالي

قال: كان الجوهر أصح القوم عقيدة، وأخلصهم لله دينًا، وأكثرهم صومًا وتهجدًا[٢]. فلما استبدّ أبو بكر بالأمر دونه، وعبد الله ينفِّذ الأمور بالسنة، فصارت الدولة لهما. وبقي الجوهر لا حكم له فداخله الحسد، وأزلّه الشيطان، فشرع في إفساد الأمر سرًّا. فعُلم بذلك منه وعُقد له مجلس. فثبت عليه ما ذُكر عنه، فحُكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة، وشقّ العصا، وهمَّ بمحاربة أهل الحق. فقال الجوهر: «وأنا أيضًا أحب لقاء الله عزّ وجل حتى أرى ما عنده» فاغتسل وصلّى ركعتين، وتقدم طائعًا. فضُربت عنقه رحمه الله تعالى.

قال: وكثرت طائفة المرابطين، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسّبي إلا من أسلم منهم وسالم. وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحريم. فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على إرساله، وكتب له في ذلك. فأجابه عبد الله بن ياسين: «أما إنكارك علي ما فعلت وندامتك على إرسالي، فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام[٣] فيعزبان[٤] في المرعى. فتأتي المرأة حاملاً من أخيها ولا ينكرون ذلك. وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض

---

(١) الزرب: حظيرة الغنم، أو الحفرة يكمن فيها الصائد.
(٢) التهجد: صلاة الليل. (٣) السوام: ما يرعى من حيوان.
(٤) يعزبان: يبعدان.

وقتل بعضهم لبعض. ولا دية لهم في الدماء، ولا حرمة عندهم للحريم، ولا توقى بينهم في الأموال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم. فمن قبل واليته، ومن تولى أزديته، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته. والسلام».

ذكر خروج الملثّمين إلى السوس أولاً وثانيًا ومقتل عبد الله بن ياسين

قال: وفي سنة خمسين وأربعمائة، قحطت بلاد الملثمين وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة. فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج إلى السوس الأقصى وأخذ الزكاة. فخرجوا وقالوا: «نحن مرابطون خرجنا إليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم» فجمعوا لهم شيئًا له بال. فرجعوا به إلى الصحراء.

ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم. فطلبوا إظهرا كلمة الحق، فخرجوا إلى السوس الأقصى. فتسامع بهم أهل بلاد السوس، فاجتمعوا وجيَّشوا، وخرجوا لقتالهم. وصدَقوهم القتال، فكسروهم. وقُتل ابن ياسين، وانهزم جيش المرابطين.

فجمع أبو بكر جيشًا وخرج إلى بلاد السوس ثانية في ألفي راكب. فاجتمع عليه من قبائل بلاد السوس وزناتة اثني عشر ألف فارس. فأرسل إليهم رسلاً وقال لهم: «افتحوا لنا الطريق، فما قصدنا إلا غزو المشركين» فأبوا ذلك واستعدُّوا للقتال. فنزل أبو بكر وصلّى الظهر على درقته[1] ثم قال: «اللهم إن كنا على الحق فانصرنا عليهم، وإن كنا على الباطل فأرِحنا بالموت مما نحن فيه». ثم ركب ولقيهم فانهزموا. وقتل فيهم قتلاً ذريعًا، واستباح أسلابهم وأموالهم وعُدَدهم. فقويت نفسه ونفوس أصحابه.

ذكر استيلائه على مدينة سجلماسة[2]

قال: ثم سار أبو بكر في أطراف البلاد إلى مدينة سجلماسة. فنزل عليه وطلب أصحابه من أهلها الزكاة. فقالوا لهم: «إنكم لما أتيتمونا في عدد قليل وسعكم فضلنا. والآن فضعفاؤنا فيهم كثرة، وقد آثرناكم سنين. وما هذه حالة من يطلب

---

(١) الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب.

(٢) سجلماسة: بكسر أوله وثانيه، وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب. . . (معجم البلدان).

الزكاة بالسلاح والخيل. وإنما أنتم قوم محتالون ولو أعطيناكم أموالنا بأسرها ما عمتكم». وخرج إليهم صاحبها في عسكر كبير فحاربوه. وطالت الحرب بينهم.

ثم ساروا إلى قُول، وهو جبل قريب من الصحراء. فاجتمع إليهم من كزولة خلق كثير. ورجعوا إلى سجلماسة، واستولوا عليها بعد حروب. وقتل مسعود بن ورُّو. واستخلف أبو بكر عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني من بني عمه الأقربين ورجع إلى الصحراء. وكان فتحها في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

قال: ولما ولّي يوسف بن تاشفين أحسن إلى الرعية واقتصر منهم على الزكاة.

قال: وأقام أبو بكر بالصحراء مدة ثم عاد إلى سجلماسة فأقام بها سنة، والخطبة والدعاء والأمر والنهي له. ثم استخلف على سجلماسة ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر. وجهز يوسف بن تاشفين وجيشًا من المرابطين إلى السوس ففتح له وعلى يديه.

وتوفي أبو بكر في سنة اثنتين وستين وأربعمائة بالصحراء.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

قال: ولما توفي أمير المسلمين أبو بكر بن عمر، اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وولوه أمرهم، وسموه أمير المسلمين. وكانت الدولة حينئذ في بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيام الفتن. وهي دولة رديئة مختلّة سيئة السيرة مذمومة الطريقة. وكان يوسف ومن معه على نهج السنة واتباع أئمة الشريعة فاستغاث به أهل بلاد المغرب، فافتتحها شرقًا وغربًا بأيسر سعي. وأحبته الرعية وصلحت أحوالهم.

ذكر بناء مدينة مراكش

قال: ثم قصد أمير المسلمين موضع مدينة مراكش، وهو قاع صفْصف لا عمارة فيه، وهو سُقْع[١] متوسط في مملكة بلاد المغرب كالقيروان في بلاد إفريقية، تحت جبال المصامدة[٢] الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم معقلاً. فاختط المدينة هناك ليتقوى على تدويخ أهل تلك البلاد. واتخذها دار ملكه، ومقرّ سكنه. فلم

---

(١) السقع: الصقع.

(٢) المصامدة: نسبة إلى مصمودة: وهي قبيلة بالمغرب فيه موضع يعرف بهم... (معجم ياقوت).

يعانده أحد من أهل تلك النواحي لهيبته في نفوسهم وعظم ذكره بالمغرب. وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسَلا[١] وطنجة وغيرها. وكثرت أمواله وجنوده. وخرج إليه جماعة لمتونة وكثير من القبائل. وضيّق لثامه هو وجماعته.

ذكر ما قيل في سبب لثام المرابطين

قيل: إنهم كانوا في الصحراء يتلثمون لشدة الحر والبرد كما يفعل العرب في البرية، والغالب على ألوانهم السمرة. فلما ملكوا البلاد ضيّقوا ذلك اللثام.

وقيل: إن طائفة منهم من لمتونة في الصحراء خرجوا للإغارة على عدوهم. فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا الصبيان والمشايخ والنساء. فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب رجالهن، ويتعممن بالعمائم، ويسترن وجوههن باللثام، وأن يضيقنه حتى لا يعرفن. ففعلن ذلك ولبسن السلاح. وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدرن هن بالبيوت. فلما أشرف العدو رأى جمعًا عظيمًا هاله وقال: «هؤلاء حول حريمهم يقاتلون عليه قتال نخوة وقد ترجلوا للموت. والرأي أن نسوق النّعم ونمضي. فإن تبعونا قاتلناهم خارج البيوت». فبينما هم في جمع النعم من مراعيها إذ أقبل رجال الحي، فصار العدو بينهم، فقُتلوا شر قِتلة ولم يسلم منهم إلا القليل. وقتل النساء منهم أكثر مما قتل الرجال. فاستَنُّوا اللثام من ذلك الوقت. فلا يزيلونه ليلاً ولا نهارًا حتى إن الرجل لا يأكل ولا يشرب مع أهله إلا من تحت اللثام والمقتول منهم في المعركة لا يعرفه أصحابه بوجهه بل بلثامه.

قال ابن شداد: ومما رأيت أنه كان لي صديق منهم بدمشق فأتيت يومًا إلى زيارته. فدخلت إليه وقد غسل عمامته، وسراويله مشدودة على رأسه، وقد تلثم بخلخاله[٢]. هذا بعد أن انقضت دولتهم، وتفرقت جملتهم، وتغربوا في البلاد.

قال: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى شيخًا من الملثمين بالمغرب بعد انقضاء الدولة، منزويًا في ضفة نهر، يغسل خُلْقانه[٣] وهو عريان، وعورته بارزة، ويده اليمنى يغسل بها والأخرى يستر بها وجهه. فقال له: «استر عورتك بيدك» فقال: «أنا ملثم بها».

---

(١) سلا: مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلا مدينة صغيرة يقال لها غرينطوف... (معجم البلدان).

(٢) لعل المراد بالخلخال هنا: الثوب الخلخال، وهو ضرب من الثياب الرقيقة.

(٣) خلقانه: ثيابه البالية.

وقال بعض الشعراء في اللثام: [من الطويل]

قومٌ لهم دَرَك العُلى في حمْيرٍ ... وإذا انتموا صنهاجةً فهمُ همُ[1]
لما حَووا إحرازَ كلِّ فضيلة ... غلب الحياءُ عليهمُ فتلثّموا

وقال آخر: [من الطويل]

إذا التثموا بالرَّيط خِلتَ وجوههم ... أزاهرَ تبدو من فُتوق الكمائم[2]
أو التأموا بالسابِرية أبْرزوا ... عيونَ الأفاعي من جلود الأراقم[3]

نرجع إلى أخبار يوسف بن تاشفين

قال: واستقامت له الأمور. وتزوج زينب بنت إبراهيم زوجة أبي بكر بن عمر، وكانت حظية عنده، وأميرة عليه. وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم، ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون: ابن فلانة، ولا يقولون: ابن فلان.

وكانت زينب لها عزم وحزم. حُكي عنها أن زرهون ـ ويعرف بابن خلوف ـ وكان له أدب، فبلغ زينب أنه مدح حواء امرأة سير بن أبي بكر وفضّلها على سائر النساء بالجمال والكمال. فأمرت بعزله عن القضاء. فوصل إلى أغمات[4] واستأذن عليها. فدخل البواب وأعلمها به، فقالت: «قل له: امضِ إلى التي مدحتَها تردك إلى القضاء». فبقي بالباب أيامًا حتى نفدت نفقته. فأتى إلى خادمها فقال له: «إن مولاتك صرفتني ونقمت على مدحي لامرأة سير. ولو علمتُ أن ذلك يغضبها ما قلته. وقد نفدت نفقتي، وأردت بيع هذا المُهر، وعزّ علي أن يصير في يد من لا يستحقه، وأنا أحب أن تعطيني مثقالين أتزود بهما إلى أهلي. وخذ المهر فأنت أحق به». فسُرَّ الخادم وأعطاه مثقالين وأخذ المهر. ودخل على مولاته زينب وهو فرحان. فقالت له: «ما شأنك؟» فأخبرها الخبر. فرقّت للقاضي وندمت على ما فعلت به. وقالت: «اذهب فأتني به الساعة» فأحضره إليها. فقالت له: «تمدح زوجة سير وتفضلها على

---

(١) درك العلا: أقصاه وأبعد مراميه.

(٢) الريط: جمع الرائطة، وهي الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة؛ أو هي كل ثوب لين رقيق.

(٣) الأراقم: جمع الأرقم، وهو أخبث الحيات أو ذكرها.

(٤) أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل. . . (معجم البلدان).

سائر النساء، وخرجتَ في وصفك لها عن الحدّ، وزعمت أن ليس في الأرض أجمل منها، وما هذه منزلة القضاء ولا يليق بك أن تُنزل نفسك في هذه المنزلة» فقال ارتجالاً: [من مجزوء الخفيف]

أنتِ بالشمس لاحِقَهْ ... وهي بالأرض لاصِقَهْ
فمتى ما مدحتُها ... فهي من سِيرَ طالقه

فقالت له: «يا قاضي، طلقتها منه؟» قال: «نعم، ثلاثة وثلاثة وثلاثة» فضحكت حتى افتضحت وقالت له: «والله، لا شم لها قفًا أبدًا». وكتبت إلى يوسف برده إلى القضاء، فرده.

ذكر استيلائه على مدينة أغرناطة من جزيرة الأندلس

كان سبب ذلك ما قدمناه في أخبار الدولة العبادية أن المعتمد بن عباد لما وقع بينه وبين الأدفونش ملك الفرنج صاحب طليطلة، وقتل ابن عباد رسله، وجمع الأدفونش عساكره؛ استنجد ابن عباد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين. فدخل بعساكره إلى جزيرة الأندلس، واجتمع بالمعتمد بن عباد، وتوجها جميعًا لقتال الفرنج. وكانت وقعة الزلاقة[1] التي انهزم فيها الأدفونش وقُتل عامة عسكره على ما قدمناه مبيَّنًا في أخبار المعتمد بن عباد. وذلك في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش فأقام بها إلى العام الآتي. ثم دخل إلى الأندلس. وخرج إليه محمد بن عباد من إشبيلية في عسكره. وأتى عبد الله بن بلكين صاحب أغرناطة في عسكره. وساروا حتى نزلوا على ليطة، وهو حصن منيع كان فيه النصارى فحاربوه أيامًا فلم يطيقوا فتحه، فرحلوا عنه بعد مدة.

ورجع المعتمد إلى إشبيلية. وكان طرق يوسف بن تاشفين على مدينة أغرناطة. فدخل عبد الله بن بلكين إليها ليخرج إلى يوسف الوظائف. فغدر به يوسف ودخل أغرناطة وأخرجه منها واستولى عليها. ودخل قصر عبد الله فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لم يحوه ملك من ملوك الأندلس. ومما وجد فيه سُبْحة فيها أربعمائة

(١) الزلاقة: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وقاف: أرض بالأندلس بقرب قرطبة.

جوهرة، قُوِّمت كل جوهرة بمائة مثقال؛ ومن أنواع الجواهر واليواقيت والزمرد ما لا تحصى قيمته؛ من العيْن ألف ألف دينار؛ ومن فاخر الثياب وأواني الذهب والفضة ما لا تعرف له قيمة. وأخرج منها تميم بن بلكين أخا عبد الله، وسار بهما إلى مراكش. وذلك في سنة ثمانين وأربعمائة. ورجع أمير المسلمين إلى مراكش فأطاعه من كان لم يُطعه من بلاد السوس وورْغة وقلعة مهدي.

ذكر ملك أمير المسلمين جزيرة الأندلس

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ملك من جزيرة الأندلس ما كان بقي بيد المسلمين بها، وهي قرطبة وإشبيلية والمرية وبطليوس[١]. وذلك أنه سار في هذه السنة من مراكش إلى سبتة. وأدخل العساكر مع سير بن أبي بكر إلى الأندلس وحشد خلقًا كثيرًا، وأمره بمحاصرة إشبيلية. فحاصرها وفتحها في يوم الأحد لتسع بقين من شهر رجب من هذه السنة. وأسر المعتمد بن عباد ونقله إلى أغمات فحبسه بها حتى مات، على ما قدمناه مهينًا في أخبار ابن عباد.

قال: ثم خرج سير من إشبيلية إلى مدينة المرية فنزل عليها. وكان واليها محمد بن معن بن صُمادح فقال لولده: «ما دام المعتمد بن عباد بإشبيلية فلسنا نُساءَل عنه» فأتاه الخبر بفتح إشبيلية وأسر ابن عباد فمات غمًّا. فخرج ولده بإخوته وأهله في مركب حربي شحنه بأمواله. وأقلع إلى الجزائر والتحق ببني حماد، فأحسنوا إليه وأسكنوه مدينة تَدلَّس[٢].

قال: وكان أبو محمد عمر بن محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس صاحب بطليوس ممن أعان المعتمد، فلما سمع بإشبيلية رجع إلى بلده. فسار إليه سير بن أبي بكر فحاربه وغلبه. وأُتي به وبولده الفضل أسيرين، فأمر سير بضرب أعناقهما. فقال: «قدِّموا ولدي قبلي للقتل ليكون في صحيفتي» فقُتل قبله ثم قُتل هو بعده.

قال: ولم يترك سير من ممالك الأندلس وملوكهم سوى بني هود[٣]. فإنه لم

---

(١) بطليوس: بفتحتين، وسكون اللام، وياء مضمومة، وسين مهملة: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنه غربي قرطبة... (معجم البلدان).

(٢) في معجم ياقوت: تدليس: مدينة بالمغرب الأقصى على البحر المحيط.

(٣) بنو هود: بطن من جذام من القحطانية. وهم بنو هود بن عبد الله بن موسى بن سالم الجذامي... كان لهم ملك بالأندلس أيام الطوائف... (نهاية الأرب للقلقشندي).

يقصد بلادهم وهي شرقي الأندلس. وصاحبها يومئذ المستعين بالله بن هود، وهو من الشجعان الذين يضرب بهم المثل. وكان قد حصَّل عنده من آلات الحصار والأقوات ما يكفيه عدة سنين بمدينة رُوطَة(١)، وكانت قلعة حصينة. وكان يهادن أمير المسلمين قبل ملكه الأندلس ويُكثر مراسلته. فرعى له ذلك حتى أنه أوصى ابنه على ابن يوسف عند موته بترك التعرض إلى بلاد بني هود. وقال «اتركهم بينك وبين العدو فإنهم شجعان».

قال: وتتابعت الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميع بلاد الأندلس التي كانت للمسلمين وما والاها من البلاد في البرّ الكبير، من جميع بلاد السوس والجبال والصحراء. وفتح في بلاد الفرنج فتوحًا كثيرًا.

ذكر حيلة لأمير المسلمين ظهرت ظهورًا عجيبًا

قال: كان بالمغرب إنسان اسمه محمد بن إبراهيم الكزولي سيد قبيلة كزُولة، ملَك جبلها، وهو جبل شامخ منيف، وهي قبيلة كبيرة وكان بينه وبين يوسف بن تاشفين مودّة واجتماع. فلما كان في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، أرسل يوسف إليه يطلب الاجتماع به. فركب حتى قاربه ثم رجع وخافه على نفسه. فكتب إليه أمير المسلمين يحلف أنه ما أراد به سوءًا ولا قصد إلا خيرًا. فلم يرجع لذلك.

فدعا يوسف حجامًا وأعطاه مائة دينار وضمن له مثلها إن سار إلى محمد بن إبراهيم وتحيّل في قتله. فسار الحجام ومعه مشاريط مسمومة فصعد الجبل. وجعل ينادي بالقرب من مساكن محمد. فسمعه فقال: «هذا الحجام من بلدنا؟» فقيل: «إنه غريب» فقال: «أراه يكثر الصياح، وقد ارتبت منه» فأحضره عنده. واستدعى حجامًا غيره وأمره أن يحجمه بمشاريطه التي معه. فامتنع الحجام الغريب. فأُمسك وحُجم بها، فمات. فلما بلغ ذلك يوسف ازداد غيظًا وحنقًا، ولجّ في السعي في أذى يوصله إلى الكزولي.

فاستمال قومًا من أصحابه فمالوا إليه. فأرسل إليهم جرارًا من عسل مسموم. فحضروا عند محمد وقالوا: «قد وصل إلينا قوم معهم جرار من عسل، وأردنا إتحافك به» وأحضروها بين يديه. فلما قُدمت له أمر بإحضار خبز، وأمر أولئك القوم الذين

(١) روطة: بضم أوله، وسكون ثانيه، وطاء مهملة: حصن من أعمال سرقسطة بالأندلس، وهو حصين جدًا على وادي شلون... (معجم البلدان لياقوت).

أحضروا العسل أن يأكلوا منه فامتنعوا واستعفوا من الأكل. فقال: «مَن لم يأكل منه قُتل بالسيف» فأكلوا فماتوا عن آخرهم.

فكتب إلى أمير المسلمين: «إنك قد أردت قتلي بكل سبب فلم يُظفِّرك الله، وكشف لي عن سريرتك. وقد أعطاك الله المغرب بأسره، ولم يعطني إلا هذا الجبل. وهو في بلادك كالشامة البيضاء في الثور الأسود. فلم تقنع بما أعطاك الله عزّ وجل». فكفّ أمير المسلمين عنه.

ذكر ولاية أمير المسلمين من قبل الخليفة أمير المؤمنين المستظهر بالله

قال: كان الفقهاء بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين: «إنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة». فأرسل قومًا من أهله إلى بغداد بهدية نفيسة، وكتاب يذكر فيه ما فعل بالفرنج، وما قصده من نصرة الدين والجهاد في سبيل الله. فجاءه رسول من أمير المؤمنين أبي العباس أحمد المستظهر بالله بهدية وكتاب وتقليد وخلع. ودام ملك أمير المسلمين إلى سنة خمسمائة فتوفي فيها. فكانت مدة ولايته ثماني وثلاثين سنة تقريبًا.

وكان ديِّنًا حازمًا سؤوسًا ذا دهاء، إلا أنه أبان عن لؤم لما اعتقل المعتمد بن عباد بأغمات، فإنه لم يجْرِ عليه ما يقوم به حتى كانت بناته يغزلن بالأجرة للناس وينفقن عليهن وعليه.

ولما مات يوسف ولّي بعده ابنه.

ذكر ولاية علي بن يوسف بن تاشفين

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في سنة خمسمائة. وكان أبوه قد عقد له الأمر بعده في سنة تسع وتسعين وأربعمائة فاستقلّ بالأمر بعده وتلقب بأمير المسلمين. وكان يقتدي في القضايا والأحكام بفقهاء بلاده، ويقربهم ويكرمهم. وإذا أتته نصيحة قبلها أو موعظة خشع لها. وسار في رعيته أحسن سيرة، فأحبه الناس واشتملوا عليه ومالوا إليه.

ذكر محاربة الفرنج خذلهم الله تعالى وانهزامهم

وفي سنة خمس وخمسمائة، خرج ملك الفرنج صاحب طليطلة إلى بلاد الإسلام وجمع وحشد. وكان قد قوي طمعه في البلاد لما مات يوسف بن تاشفين.

فخرج أمير المسلمين عليّ لحربه، ولقيه واقتتلوا قتالاً شديدًا. وكان الظفر للمسلمين، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقُتلوا قتلاً ذريعًا، وأسر منهم أسرى كثيرة، وسبى، وغنم من أموالهم ما يخرج عن الإحصاء. فخافه الفرنج بعد ذلك. وامتنعوا من قصد بلاده وذل الأدفونش.

ذكر الفتنة بقرطبة

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقيل: أربع عشرة، كانت فتنة عظيمة بين عسكر أمير المسلمين علي بن يوسف وبين أهل قرطبة وسببها أنه كان قد استعمل عليها أبا بكر يحيى بن داود. فلما كان يوم عيد الأضحى، خرج الناس متفرجين. فمدّ عبد من عبيد أبي بكر يده إلى امرأة ومسكها. فاستغاثت بالمسلمين فأعانوها. فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة. ودامت جميع النهار إلى الليل وتفرقوا. واجتمع الفقهاء والأعيان إلى أبي بكر وقالوا له: «المصلحة أن تقتل واحدًا من العبيد الذين أثاروا الفتنة» فأنكر ذلك وغضب منه.

وأصبح من الغد وأظهر السلاح والعدد وأراد قتال أهل البلد فركب الفقهاء والأعيان والشباب، وقاتلوه فهزموه. وتحصن منهم بالقصر، فحصروه ونصبوا السلاليم وصعدوا إليه. فهرب من البلد بعد مشقّة وتعب. فنهبوا القصر وأحرقوا جميع دور المرابطين ونهبوا أموالهم. وأخرجوهم من البلد على أقبح صورة.

واتصل الخبر بأمير المسلمين فأكبر ذلك واستعظمه. وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم. وجاء إلى قرطبة في سنة خمس عشرة وخمسمائة وحصرها. فقاتلهم أهلها قتال من يذب[1] عن نفسه وماله وحريمه. فلما رأى شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا في الصلح. فأجاب إلى ذلك على أن يغرم أهل قرطبة للمرابطين ما نهبوه من أموالهم. فاستقرت القاعدة على ذلك، وعاد عن قتالهم.

وفي أيام عليّ بن يوسف، ظهر المهدي محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي، فضعف أمر الملثمين. وكان بينهم من الحروب ما نذكره في أخبار الموحدين.

وكانت وفاة عليّ بمراكش في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. فكانت مدة ولايته خمسًا وثلاثين سنة.

وولّي بعده ابنه.

---

(١) ذبّ عن نفسه: دفع عنها ومنع.

ذكر ولاية تاشفين بن عليّ بن يوسف بن تاشفين

كان أبوه قد ولاه العهد وأخرجه لحرب عبد المؤمن. فما زال يحاربه والغلبة والظفر لعبد المؤمن إلى أن توفي والده عليّ بن يوسف. فاستقل بالأمر بعده ولازم حرب عساكر عبد المؤمن إلى أن مات في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع ثلاثين وخمسمائة.

إسحاق بن عليّ

ووَلّي بعده أخوه إسحاق بن عليّ فضعف أمر دولتهم، واستولى عبد المؤمن على البلاد وملكها بلدًا بلدًا، إلى أن حاصر عبد المؤمن مراكش وملكها في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فقتله عبد المؤمن صبرًا. وانقرضت دولة الملثمين.

وكانت مدة ولايتهم من حين خرجوا من البرية في سنة خمسين وأربعمائة إلى أن قتل إسحاق إحدى وتسعين سنة. وعدة من ملك منهم خمسة ملوك، وهم أبو بكر بن عمر، ثم يوسف بن تاشفين، ثم ابنه علي بن يوسف، ثم ابنه تاشفين بن علي، ثم إسحاق بن علي. وعليه انقرضت الدولة. وسنورد في أخبار الموحدين طرفًا من أخبارهم وحروبهم، إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء دولة الموحدين وأخبارهم وسبب ظهورهم

أول من ظهر من ملوك هذه الدولة، وأسس قواعدها، وقام بأعبائها وأنشأها، المهدي محمد بن تُومَرْت. وكان ابتداء أمره وظهوره في سنة أربع عشرة وخمسمائة. وسنذكر ابتداء حاله وكيف تنقلت به الحال وما كان منه، إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار المهديّ محمد بن تومرت

هو أبو عبد الله محمد بن تومرت الحَسني، وقبيلته من المَصامدة تعرف بَهرْغَة في جبل السوس، نزلوا به لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير. وكان ابتداء أمر المهدي أنه رحل في شبيبته إلى بلاد المشرق في طلب العلم. وكان فقيهًا فاضلًا محدِّثًا، عارفًا بأصولي الدين والفقه، محققًا لعلم العربية، وكان ورعًا ناسكًا. ووصل

في سفره إلى العراق. واجتمع بالغزالي[١] والكِيَا الهراسي، وقيل: لم يجتمع بالغزالي. واجتمع بأبي بكر الطرطوشي[٢] بالإسكندرية. وحجّ ورجع إلى المغرب.

قال: ولما ركب البحر من الإسكندرية مُغرِّبًا غيَّر المنكرات في المركب. وألزم من فيه بإقامة الصلاة وقراءة القرآن حتى انتهوا إلى المهدية، وسلطانها حينئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، وذلك في سنة خمس وخمسمائة. فنزل بمسجد وليس معه سوى رَكْوة[٣] وعصا. فتسامع به أهل البلد فقصدوه يقرؤون عليه أنواع العلوم. فكان إذا مرّ به المنكر أزاله وغيره. فلما كثر ذلك منه، أحضره الأمير يحيى مع جماعة من الفقهاء. فأعجبه سَمْتُه وكلامه فاحترمه وسأله الدعاء.

ثم رحل من المهدية وأقام بالمُنَستير[٤] مع جماعة من الصالحين مدة.

وسار إلى بجاية وفعل مثل ذلك. فأُخرج منها إلى قرية بالقرب منها اسمها ملالة[٥]، فلقيه بها عبد المؤمن. فرأى منه من النجابة والنهضة ما تفرّس فيه التقدم والقيام بالأمر. فسأله عن اسمه وقبيلته. فأخبره أنه من قيس عَيْلان ثم من بني سُلَيم فقال محمد بن تومرت: «هذا الذي بشّر به رسول الله ﷺ حين قال: إن الله لينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس. فقيل: من أي قيس؟ فقال: من بني سليم». واستبشر بعبد المؤمن وسُرَّ بلقائه. وكان مولد عبد المؤمن بمدينة تاجرة[٦] من أعمال تلمسان، وهو من بني عائد قبيلة من كومية نزلوا بذلك الإقليم في ثمانين ومائة.

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني... وخرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام الملك فأكرمه وعظّمه... (وفيات الأعيان ٤: ٢١٦).

(٢) هو أبو بكر الطرطوشي - وطرطوشة من نواحي الأندلس - محمد بن الوليد القرشي الفهري الأندلسي المالكي المعروف بابن أبي زيد نزيل الإسكندرية وأحد الأئمة الكبار، أخذ عن أبي الوليد الباجي ورحل فأخذ السنن عن أبي علي التستري وسمع ببغداد من رزق الله التميمي وطبقته وتفقه على أبي بكر الشاشي... (شذرات الذهب ٤: ٦٢).

(٣) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٤) المنستير: بضم أوله، وفتح ثانيه، وسكون السين المهملة، وكسر التاء المثناة من فوقها، وياء، وراء: هو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية بينه وبين كل واحد منهما مرحلة... (معجم البلدان).

(٥) ملالة: بالفتح ثم التشديد: قرية قرب بجاية على ساحل بحر المغرب.

(٦) تاجرة: بفتح الجيم والراء: بلدة صغيرة بالمغرب من ناحية هنين من سواحل تلمسان، بها كان مولد عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب... (معجم البلدان).

قال: ولم يزل المهدي يلازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن وصل إلى مراكش، وهي دار مملكة علي بن يوسف بن تاشفين. فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه. فزاد أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر أتباعه وحسنت ظنون الناس فيه.

فبينما هو في بعض الأيام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها عدة من الجواري الحسان، وهن مُسفِرات. وكانت هذه من عادتهم. فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن. وضرب هو وأصحابه دوابهن. فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها. فرُفع أمره إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف. فأحضره الفقهاء لمناظرته، فأخذ يعظه ويذكِّره ويخوفه، فبكى أمير المسلمين. وأمر أن يناظروه فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته. وكان عند أمير المسلمين رجل من وزرائه اسمه مالك بن وهيب فقال له: «يا أمير المسلمين إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما هو يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي، فاقتله وقَلِّدني دمه». فلم يفعل ذلك فقال: «إذا لم تقتله فاحبسه وخَلِّده في السجن وإلا أثار شرًّا لا يمكن تلافيه» فأراد حبسه فمنعه من ذلك رجل من أكابر الملثمين يسمى بنيان بن عمران. فأمر بإخراجه من مراكش.

فسار إلى أغمات ولحق بالجبل. وسار منه حتى التحق بالسوس الذي فيه قبيلته هرغة وغيرهم من المصامدة، وذلك في سنة أربع عشرة وخمسمائة. فأتوه واجتمعوا حوله. وتسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا إليه، وحضر أعيانهم بين يديه. فجعل يعظهم، ويذكرهم شعائر الإسلام وما غيِّر منها وما حدث من الظلم والفساد، وأنه تجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم مما هم عليه. فأقام على ذلك نحو سنة. وتابعته قبيلة هرغة.

وسمّي أتباعه الموحدين. وأعلمهم أن النبيّ ﷺ بشّر بالمهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً، وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى. فقام إليه عشرة رجال منهم عبد المؤمن فقالوا: «لا يوجد هذا إلا فيك، وأنت المهديّ» وبايعوه على ذلك.

فانتهى خبره إلى أمير المسلمين فجهز جيشًا من أصحابه لقتاله. فلما قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لأصحابه: «إن هؤلاء يريدونني وأخاف عليكم منهم. والرأي أن أخرج إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم» فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة: «هل تخاف شيئًا من السماء؟» فقال: «بل من السماء تنصَرون» فقال ابن نوفيان: «فليأتنا كل من في الأرض» ووافقته جميع قبيلته. فقال المهدي عند ذلك: «أبشروا بالنصر والظفر

بهذه الشرذمة. وبعد قليل تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم» فنزلوا من الجبل ولقوا جيش أمير المسلمين، فهزموهم وأخذوا أسلابهم. وقوي ظنهم بصدق المهديّ حيث ظفروا كما أخبرهم.

فأقبلت إليه أفواج القبائل من الجبال التي حوله شرقًا وغربًا فأقبل عليهم واطمأن إليهم، وأتته رسل أهل تينملّ بطاعتهم وطلبوه إليهم. فتوجه إلى جبل تينمل وأقام به واستوطنه. وبايعته قبيلة هنتاتة(1)، وهي من أقوى القبائل. وألّف كتابًا في التوحيد، وكتابًا في العقيدة. ونهج لمن معه طريق الأدب مع بعضهم بعضًا، والاقتصار على لباس الثياب القليلة الثمن. وهو في خلال ذلك يحرضهم على قتال عدوهم، وإخراج الأشرار من بين أظْهُرهم. وبني له مسجدًا بتينمل خارج المدينة، فكان يصلّي فيه الصلوات الخمس هو وجميع من معه، ويدخل البلد بعد العشاء الآخرة.

فلما رأى كثرة أهل البلد وحصانة المدينة، خاف أن يرجعوا عنه. فأمرهم أن يحضروا عنده بغير سلاح. ففعلوا ذلك عدة أيام. ثم أمر أصحابه أن يقتلوهم، فقتلوهم في ذلك المسجد. ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر، وسبى الحريم، ونهب الأموال. فكانت عدة القتلى خمسة عشر ألفًا. وقسم المساكن والأرض بين أصحابه. وبنى على المدينة سورًا وقلعة على رأس جبل تينمل، وهو جبل عال فيه أشجار وزرع وأنهار جارية، والطريق إليه صعب.

وقيل: إنه لما خاف أهل تينمل، نظر إلى أولادهم فرآهم شقرًا زرقًا، والذي يغلب على الآباء السمرة، فقال لهم: «ما لي أراكم سمر الألوان وأولادكم شقرًا زرقًا؟» فقالوا: «إن لأمير المسلمين عدة من المماليك الفرنج والروم، وإنهم يصعدون إلى هذا الجبل في كل عام مرة، يأخذون ما لهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان، فيسكنون البيوت، ويُخرجون أصحابها منها» فَقبَّح الصبر على هذا وأزرى عليهم وعظّم الأمر عندهم. فقالوا له: «فكيف الحيلة في الخلاص منهم، وليس لنا بهم قوة؟» فقال: «إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد وتفرقوا في مساكنكم، فليقم كل رجل إلى نزيله فيقتله، واحفظوا جبلكم فإنه لا يرام». ففعلوا ذلك عند مجيء مماليك أمير المسلمين إليهم ثم خافوا على نفوسهم فامتنعوا في الجبل وسدُّوا ما فيه من طريق يسلك إليهم منه.

---

(1) هنتاتة: بطن من مصمودة، من البربر. منهم أبو حفص، أحد أصحاب المهدي بن تومرت، الذي من ذريته بقايا الموحدين ملوك إفريقية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

فقويت عند ذلك نفس المهديّ ثم أرسل أمير المسلمين جيشًا كثيفًا. فحصرهم في الجبل وضيّق عليهم ومنع عنهم الميرة. فقلّت الأقوات عند أصحابه، فكان يطبخ لهم الحساء في كل يوم، وجعل قوت الرجل منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها، فما علق عليها فهو قوته في ذلك اليوم. فاجتمع أهل تينمل وأرادوا إصلاح حالهم مع أمير المسلمين فبلغه ذلك فأعمل من الحيلة عليهم ما نذكره.

ذكر خبر أبي عبد الله الونشريسي

قال: كان مع المهدي إنسان يقال له أبو عبد الله الونشريسي، وهو يُظهر الوَلَه وعدم المعرفة بشيء من العلم والقرآن، وبُصاقُه يجري على صدره، وهو كالمعتوه، والمهديّ يقربه ويكرمه ويقول: «إن لله سرًّا في هذا الرجل سوف يظهر» هذا والونشريسي يشتغل بالقرآن والعلم في السر بحيث لا يعلم به أحد.

فلما كان في سنة تسع عشرة وخمسمائة، خاف المهدي من أهل الجبل. فخرج يومًا لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنسانًا طيب الرائحة، فأظهر أنه لا يعرفه وقال: «مَن هذا؟» قال: «أنا أبو عبد الله الونشريسي» فقال له المهديّ: «إن أمرك لعجيب» ثم صلّى. فلما فرغ من صلاته نادى في الجبل. فاجتمع الناس وحضروا إليه. فقال لهم: «إن هذا الرجل يزعم أنه الونشريسي، فانظروه وحققوا أمره». فلما أضاء النهار عرفوه. فقال له المهدي: «ما قصتك؟» قال: «إنني أتاني الليلة مَلَك من السماء، فغسل قلبي، وعلمني القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث» فبكى المهديّ بحضرة الناس ثم قال: «نمتحنك؟» فقال: «افعل» وابتدأ بقراءة القرآن فقرأه قراءة حسنة من أي موضع سُئل. وكذلك الموطأ وغيره وكتب الفقه والعلوم والأصول. فعجب الناس من ذلك واستعظموه.

ثم قال: «إن الله قد أعطاني نورًا أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة. قد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر الفلانية يشهدون بصدقي» فسار المهديّ والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر. ووقف عند رأسها وصلّى وقال: «يا ملائكة الله، إن أبا عبد الله قد زعم كيت وكيت» فسمع من أسفل البئر: «صَدَق، صَدَق» وكان قد رتب بها رجالاً يفعلون ذلك. فلما تكلموا قال المهديّ: «إن هذه البئر بئر مطهَّرة مقدَّسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطَمّ(١) لئلا يقع فيها نجاسة». فألقوا فيها من الحجارة والتراب ما طمها.

(١) طمّ الشيء: غمره وغطاه.

ثم نادى في الجبل بالحضور للتمييز ومعناه العرض. فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي تخاف ناحيته فيقول: «هذا من أهل النار» فيلقى من الجبل، وإلى الشاب الغر ومن لا يخشاه فيقول: «هذا من أهل الجنة». فيُترَك عن يمينه. فكانت عدة القتلى سبعين ألفًا. فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه. هذا هو المشهور عنه في التمييز.

وقيل إن ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد في الجبل أحضر شيوخ القبائل وقال لهم: «إنكم لا يصلح لكم دين ولا تقوى إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخراج المفسدين من بينكم، فابحثوا عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد فانْهوهم، فإن انتهوا وإلا فأثبتوا أسماءهم وارفعوها إليّ لأنظر في أمرهم. ففعلوا ذلك وكتبوا له أسماء المفسدين من كل قبيلة. ثم أمرهم بذلك مرة ثانية وثالثة. ثم جمع أوراقهم وأخذ منها ما تكرر من الأسماء وأثبته عنده. ودفع ذلك إلى الونشريسي المعروف بالبشير. وأمره أن يعرض القبائل، وأن يجعل أولئك من جهة الشمال، ومن عداهم في جهة اليمين، ففعل ذلك. وأمر المهديّ أن يكتف من على شمال الونشريسي فكتّفوا. ثم قال: «إن هؤلاء أشقياؤكم قد وجب قتلهم». وأمر كل قبيلة بقتل أشقيائها فقُتلوا عن آخرهم.

قال: ولما فرغ من التمييز رأى من بقي من أصحابه على نيات خالصة وقلوب متفقة على طاعته. فجهز جيشًا وسيَّرهم إلى جبال أغمات، وبها جمع كبير من المرابطين. فقاتلوهم فانهزم أصحاب ابن تومرت، وكان أميرهم الونشريسي. وقُتل كثير منهم. وجُرح عمر أنتات وهو الهَنْتاني[1]، وكان من أكبر أصحاب المهديّ وسَكَن حسُّه ونَبْضه. فقالوا: «مات». فقال الونشريسي: «لم يمت ولا يموت حتى يملك البلاد». فبعد ساعة فتح عينيه وعادت قوته إليه. فافتتنوا به ورجعوا إلى ابن تومرت فوعظهم وشكر صبرهم.

ثم لم يزل بعد ذلك يرسل السرايا في أطراف البلاد فإذا رأوا عسكرًا تعلقوا بالجبل فأمنوا على أنفسهم. وعلا أمر المهديّ فرتب أصحابه على طبقات.

ذكر ترتيب أصحاب المهديّ

قال: ورتب المهدي أصحابه مراتب. فالأولى آية عشرة، يعني أهل عشرة، وأولهم عبد المؤمن، ثم أبو حفص عمر انتات وهو الهَنْتاتي وغيرهما، وهم أشرف أصحابه، وأهل الثقة عنده، والسابقون إلى مبايعته.

---

(١) الهنتاني: نسبة إلى هنتانة، وقد تقدم ذكرها.

والثانية آية خمسين، وهم دون تلك الطبقة، وهم جماعة من رؤساء القبائل.

والثالثة آية سبعين، وهم دون الذين قبلهم في الرتبة والسابقة.

وسمّي عامة أصحابه والداخلين في طاعته مُوَحِّدين.

ذكر حصار مراكش ووقعة البحيرة ومقتل أبي عبد الله الونشريسي

قال: وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة، جهز المهدي جيشًا كثيفًا يبلغون أربعين ألفًا أكثرهم رجالة. وجعل عليهم الونشريسي وسيّر معه عبد المؤمن. فساروا إلى مراكش وحصروها وضيّقوا على مَن بها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف. فبقي الحصار عليها عشرين يومًا. فأرسل أمير المسلمين إلى متولي سجلماسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش. فجمع جمعًا كثيرًا وسار. فلما قارب عسكر المهدي، خرج أهل مراكش من غير الجهة التي أقبل منها. والتقوا واقتتلوا، واشتد القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي. وقتل أميرهم الونشريسي. فولُّوا عبد المؤمن أمرهم، وقدّموه عليهم. ودام القتال بينهم عامة النهار. وصلّى عبد المؤمن صلاة الخوف الظهر والعصر والحرب قائمة. فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير يسمونه عندهم البحيرة. وصاروا يقاتلون من وجه واحد إلى أن حجز بينهم الليل.

قال: ولما قُتل الونشريسي، دفنه عبد المؤمن لوقته سرًّا. فطلبه المصامدة فلم يروه في القتلى فقالوا: «رفعته الملائكة».

قال: ولم جَنَّهم[1] الليل، سار عبد المؤمن ومن سلم من القتل إلى الجبل. وسميت هذه الوقعة بالبحيرة، وعام البحيرة.

ذكر وفاة المهدي محمد بن تومرت

كانت وفاته في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه مرض بعد إرسال الجيش لحصار مراكش واشتد مرضه. وأتاه خبر الهزيمة وقتل الونشريسي، فسأل عن عبد المؤمن. فقيل: «هو سالم» فقال: «ما مات أحد، والأمر قائم، وهو الذي يفتح كل البلاد» ووصّى أصحابه بتقديمه، واتباعه، وتسليم الأمر إليه، والانقياد له. ولقبه

(١) جنّهم الليل: سترهم.

أمير المؤمنين ثم مات. وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: مات وله خمس وخمسون سنة. ومدة ولايته عشر سنين.

ذكر ولاية عبد المؤمن بن علي

كانت ولايته بعد وفاة المهدي محمد بن تومرت في سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بوصية من المهدي كما ذكرناه. وكان في الغزو فعاد إلى تينمل وتسلم الأمر، وتلقَّب بأمير المؤمنين على ما لقَّبه به المهدي قبل وفاته. وأقام يتألف القلوب ويحسن إلى الناس إلى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

ذكر خروجه للغزو وما فتحه من البلاد ومن أطاعه من القبائل

قال: وفي هذه السنة ابتدأ عبد المؤمن بالغزو. وسار في جيش كثيف، وجعل يمشي في الجبل إلى أن وصل إلى تَادِلة[1] فمانعه أهلها وقاتلوه فهزمهم وفتحها. وتم منها إلى البلاد التي تليها. ومشى في الجبال يفتح ما امتنع عليه. وأطاعه صنهاجة الجبل. قال: فعند ذلك جعل أمير المسلمين علي بن يوسف ولده تاشفين بن علي ولي عهده، وأحضره من الأندلس، وكان أميرًا عليها، وندبه لقتال عبد المؤمن، وذلك في سنة إحدى وثلاثين. فسار تاشفين لحربه، فكان يمشي في الصحراء وعبد المؤمن في الجبال.

وفي سنة اثنتين وثلاثين، كان عبد المؤمن بجيشه في النواظر - وهو جبل عال مشرف - وتاشفين في الوطأة، ويخرج من الطائفتين قوم يتطاردون ويترامون، ولم يكن بينهم لقاء. وسمّي هذا عام النواظر، ويؤرخونه به.

وفي سنة ثلاث وثلاثين، توجه عبد المؤمن مع الجبل في الشَّعْراء[2] حتى انتهى إلى جبل كَرانطة[3] فأقام به في أرض صلبة بين شجر، وتاشفين قبالته في الوطأة في أرض لينة لا نبات بها. وكان الفصل شتاء، فتوالت الأمطار أيامًا كثيرة. فصار

---

(١) تادلة: مدينة على الطريق بين تلمسان وسجلماسة، قريبة من أغمات، اشتهرت بالقطن والخصب والغنى.

(٢) الشعراء: الشجر الكثير، أو الأرض ذات الشجر الكثير.

(٣) كرانطة: مدينة ذات كروم وفواكه ومزارع، على الطريق من فاس إلى التلمسان.

الموضع الذي فيه تاشفين وعسكره كالسباخ[١] لا يستطيع الماشي أن ينقل فيها قدمًا. وقلّت الأقوات عندهم فهلكوا جوعًا وبردًا حتى وقدوا رماحهم وقَرابيس[٢] سروجهم، وعبد المؤمن ومن معه في تلك الأرض الصلبة والميرة تصل إليهم.

وفي ذلك الوقت سيّر عبد المؤمن جيشًا إلى وَجْدة[٣] من أعمال تلمسان. وقدم عليهم أبا عبد الله محمد بن رفُوا من آية خمسين. فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحيى متولي تلمسان. فخرج إليهم بجيش من الملثمين فالتقوا بموضع يعرف بمرج الحُمُر واقتتلوا فهزمهم الموحدون. وقُتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنم الموحدون ما معهم ورجعوا بأسلابهم إلى عبد المؤمن.

فتوجه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى جبال غمارة[٤] فأطاعوه قبيلة بعد قبيلة. وأقام عندهم مدة.

وما برح يمشي في الجبال وتاشفين يحاذيه في الصحاري إلى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فتوفي علي بن تاشفين بمراكش، وملك بعده ابنه تاشفين. فقوي طمع عبد المؤمن في البلاد إلا أنه لم ينزل الصحراء.

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، توجه عبد المؤمن إلى تلمسان. فنازلها وضرب خيامه في جبل عال بأعلاها يسمّى بين الصخرتين. ونزل تاشفين خارج مدينة تلمسان على باب القرمادين. وكان بين أقوام من العسكرين مراماة ومطاردة مع الأيام. ودام ذلك أشهرًا. ولم يكن بينهم مناجزة.

ورحل عبد المؤمن في سنة تسع وثلاثين إلى جبل تاجرة. ووجّه جيشًا مع عمر بن يحيى الهنتاتي إلى مدينة وهران[٥] فهاجمها بغتة وصار هو وجيشه فيها. فسار إليه تاشفين فخرج الهنتاتي منها. ونزل تاشفين على الجانب الآخر من البلد. وذلك في شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

---

(١) السباخ: جمع السبخ، وهو المكان يظهر فيه الملح وتسوخ فيه الأقدام.

(٢) القرابيس: جمع قربوس، وهو حنو السرج، وهما قربوسان.

(٣) وجدة: مدينة كبيرة البساتين والمزروعات بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل.

(٤) بنو غمارة: بطن من معمورة، من البرانس، من البربر. وهم: بنو غمارة بن مسطح بن قليل بن مصمودة بن برنس بن بربر... ومن هذه القبيلة الشيخ عبد الله الغماري، خادم سيد أبي العباس البصير الخزرجي الأندلسي البلنسي... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٥) وهران: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره نون: مدينة على البر الأعظم من المغرب، بينها وبين تلمسان سرى ليلة، وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار لا يعدو نفعهم أنفسهم... (معجم البلدان).

فلما كان في ليلة سبع وعشرين من الشهر. وهي ليلة معظمة سيما بالمغرب، وبظاهر وهران ربوة مطلة على البحر، وبأعلاها ثنية يجتمع فيها المتعبدون ـ وهو موضع معظم عندهم ـ فسار إليه تاشفين في نفر قليل من خاصة أصحابه. وصعد إلى ذلك المعبد سرًّا بالليل، ولم يعلم به إلا النفر الذين معه. وقصد التبرك بحضور ختم القرآن مع الصالحين. فانتهى خبره إلى الهنتاتي، فسار لوقته بجميع عساكره إلى ذلك المعبد، وأحاطوا به وملكوا الربوة. فخاف تاشفين على نفسه أن يأخذوه، فركب فرسه وحمل به إلى جهة البحر من جرف[١] عال فسقط على حجارة فهلك. ورفعت جثته على خشبة، وقتل من كان معه.

وقيل: إن تاشفين قصد حصنًا هناك على رابية وله فيه بستان كبير فيه من كل الفواكه. واتفق أن الهنتاتي سيّر سرية إلى ذلك الحصن لضعف من فيه، ولم يعلم أن تاشفين هناك. فألقوا النار في باب الحصن فاحترق. فركب تاشفين فرسه وأراد الهرب. فوثب به الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور فسقط في النار. فأُخذ تاشفين فعُرف. فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن فمات لوقته. وتفرّق عسكره واحتمى بعضهم بمدينة وهران.

قال: وأرسل الموحدون بالخبر إلى عبد المؤمن. فجاء من تاجرة في يومه، ودخل وهران بالسيف وقتل من فيها.

ذكر استيلاء عبد المؤمن على تلمسان وفاس ومكناسة[٢] وسلا وسبتة

قال: ثم سار عبد المؤمن إلى تلمسان، وهي مدينتان بينهما شوط فرس: تاجرت وبها أصحاب السلطان، والأخرى أجادير. وتاجررت ينطق بها بجيم محيرة بين الكاف والجيم، وكذلك أجادير. وتاجرت محدثة البناء، وأجادير قديمة. فامتنعت أجادير وتأهب أهلها للقتال. وأما تاجرت فكان بها يحيى بن الصحراوية واليًا عليها فخرج منها بعسكره فارًّا إلى مدينة فاس. ودخلها عبد المؤمن، فلقيه أهلها بالخضوع والاستكانة. فلم يقبل ذلك منهم وقتل أكثرهم.

---

(١) الجرف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله.

(٢) مكناسة: بكسر أوله، وسكون ثانيه، ونون، وبعد الألف سين مهملة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو الشرق، وهي مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء بينهما حصن جواد. . . (معجم ياقوت).

ثم رحل عنها في سنة أربعين وخمسمائة إلى مدينة فاس. ورتب على أجادير جيشًا يحصرها، وجعل عليهم يوسف بن وانُودِين بن تامصُلت الهنتاتي. فداوم الحصار وضيّق على من بها، ونصب عليها المجانيق وأبراج الخشب والدبابات. ودام الحصار نحو سنة وكان المقدم على أهلها الفقيه عثمان. فلما اشتدّ الحصار على أهلها، اجتمع جماعة منهم وراسلوا الموحدين بغير علم الفقيه، وأدخلوهم البلد. فلم يشعر أهله إلا والسيف قد أخذهم. فقتل أكثر أهل البلد، ونهبت الأموال، وسبيت الذراري والحُرَم. وبيع من لم يُقتل بأبخس الأثمان. وأُخذ من الأموال والجواهر ما لا يحصى. وكان عدة من قتل مائة ألف. وقيل: إن عبد المؤمن هو الذي حصر تلمسان وفتحها، وسار منها إلى فاس.

قال: ولما وصل عبد المؤمن إلى مدينة فاس، نزل على جبل الفرض المطل عليها. وعمل حول مخيَّمه سورًا وخندقًا. وحصرها تسعة أشهر، وبها يحيى بن الصحراوية بعسكره الذين فرُّوا من تاجرت. فعمد عبد المؤمن إلى نهر يدخل البلد فسَكَره[1] حتى صار بحيرة تسير السفن فيها. ثم هدم السُّكْر فجاء الماء دفعة واحدة، فخرب سور البلد. فأراد الدخول فقاتله أهلها خارج السور. وكان القائد عبد الله بن خيار الجَياني عاملاً عليها وعلى جميع أعمالها، فاتفق هو وجماعة أعيان البلد، وكاتبوا عبد المؤمن سرًّا في طلب الأمان لأهل فاس. فأجابهم عبد المؤمن إلى ذلك. ففتحوا له بابًا من أبواب المدينة، فدخلها عسكره. وهر بيحيى بن الصحراوية بمن معه إلى مدينة طنجة. وكان فتحها في أواخر سنة أربعين وخمسمائة. ورتب عبد المؤمن أمرها وأخذ جميع ما فيها من سلاح.

وسيّر سرية إلى مكناسة فحصروها مدة ثم سلمها أهلها بالأمان، فوفَوْا لهم.

ثم سار عبد المؤمن إلى مدينة سلا ففتحها.

وحضر إليه جماعة من أعيان سبتة، فدخلوا في طاعته وسألوا أمانه فأمنهم، وذلك في أول سنة إحدى وأربعين.

ذكر ملك عبد المؤمن مراكش وقتله إسحاق بن عليّ وانقراض دولة الملثمين

قال: ولما فرغ عبد المؤمن من مدينة فاس وتلك النواحي، سار إلى مدينة مراكش، وهي كرسي مملكة الملثمين، وبها إسحان بن عليّ بن يوسف بن تاشفين،

---

(١) سكره: سدّه.

وهو صبي. فنازلها في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وضرب خيامه في غربيها على جبل صغير، وبنى عليه مدينة له ولعسكره وجامعًا. وجعل لنفسه بناءً عاليًا يشرف منه على المدينة ويرى أحوال أهلها وأحوال المقاتلين. فأقام عليها أحد عشر شهرًا والقتال مستمر، ومن بها من المرابطين يخرجون ويقاتلون ظاهر البلد. فاشتد الجوع على أهله وتعذرت الأقوات عندهم.

ثم زحف إليهم يومًا، وجعل لعسكره كمينًا، وقال لعسكره: «قاتلوهم ثم انهزموا لهم» وقال للكمين: «لا تخرجوا حتى تسمعوا الطبل». وجلس هو على المنْظرة يشاهد القتال. وتقدم أصحابه للقتال فقاتلوا وصبروا ثم انهزموا. وتبعهم أهل مراكش حتى جاوزوا الكمين ووصلوا إلى مدينة عبد المؤمن وهدموا أكثر سورها. وصاحت المصامدة ليضرب الطبل. فقال عبد المؤمن: «اصبروا حتى يخرج كل طامع من البلد» فلما خرج أكثر أهله أمر بضرب الطبل فضُرب وخرج الكمين عليهم وعطفت المصامدة. فقتلوا الملثمين كيف شاؤوا وتمت الهزيمة. فمات في زحمة الأبواب خلق كثير.

وكان شيوخ الملثمين يدبرون دولة إسحاق لصغر سنّه. فاتفق أن إنسانًا من جملتهم يقال له عبد الله بن أبي بكر استأمن إلى عبد المؤمن، وأطلعه على عورة البلد وضعْف من فيه، وقَوّى طمعه فيهم. فنصب عبد المؤمن عليه المجانيق والأبراج. وفنيت الأقوات فأكلوا دوابهم، ومات من العامة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان. فجاف[1] البلد من جثثهم.

وكان بمراكش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم وأتوهم نجدة. فلما طال الأمر عليهم راسلوا عبد المؤمن يطلبون الأمان فأمنهم. ففتحوا له بابًا من أبواب البلد يقال له باب أغمات. فدخلت عساكر عبد المؤمن بالسيف، وملكوا المدينة عنوة، وقتلوا من وجدوه. ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا إسحاق وجميع من معه من المرابطين. وقدموهم للقتل وإسحاق يرتعد ويسأل العفو عنه رغبة في البقاء، ويدعو لعبد المؤمن ويبكي. فقام إليه الأمير سير بن الحاج، وكان إلى جانبه مكتوفًا، فبصق في وجهه وقال: «تبكي على أمك أم أبيك. اصبر صبر الرجال فهذا رجل لا يخاف الله تعالى ولا يَدينه بدين». فقام الموحدون إليه فضربوه بالخشب حتى مات، وكان من الشجعان. وضُربت عنق إسحاق. وذلك في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة أو ثلاث وأربعين.

---

(١) جاف: أنتن.

قال: وأقام عبد المؤمن بمدينة مراكش واستوطنها واستقرّ ملكه بها. وقتل من أهلها فأكثر، واختفى كثير منهم. فلما كان بعد أسبوع أمر فنودي بالأمان، فخرج من اختفى من أهلها. فأراد المصامدة قتلهم، فمنعهم وقال: «هؤلاء صنّاع وأهل الأسواق ومن ينتفَع به» فتُركوا وبنى بالقصر جامعًا كبيرًا وزَخرفه وأتقن عمله. وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

ذكر ظفره بدكالة

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، سار بعض المرابطين من الملثمين إلى دُكّالة[١]. فاجتمع إليه قبائلها وصاروا يغيرون على أعمال مراكش، وعبد المؤمن لا يلتفت إليهم. فلما كثر ذلك منهم، سار إليهم عبد المؤمن في سنة أربع وأربعين. فلما سمعت دكالة بمسيره، اجتمعت كلها وانحسروا إلى ساحل البحر، وكانوا في مائتي ألف راجل وعشرين ألف فارس، وهم من الشجاعة بالمكان المعروف. وكانت جيوش عبد المؤمن تخرج عن الحصر. وكان الموضع الذي فيه دكالة كثير الحجر والحُزون[٢]، فكَمَنوا فيه كمينًا ليخرجوا على عبد المؤمن إذا سلكه. فكان من الاتفاق الحسن أنه قصدهم من غير الجهة التي فيها الكمناء. فانحلّ عليهم النظام وفارقوا ذلك الموضع وأخذهم السيف فدخلوا البحر. فقُتل أكثرهم، وغُنمت أموالهم وأغنامهم، وسُبيت نساؤهم. فبيعت الجارية بدراهم يسيرة. وعاد عبد المؤمن إلى مراكش بالظفر والنصر. وثبت ملكه وخافه جميع من بالمغرب، وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر ملكه جزيرة الأندلس

قال: كان ملكه لها في سنة إحدى وأربعين، وذلك أنه لما كان يحاصر مراكش، وردّ عليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمْدين، ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل الأندلس لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين، والتزامهم لطاعته، وإقامتهم لأمره في بلادهم. وجميع أسماء القوم الذين بايعوه مثبتة في المكتوب. فقبل عبد المؤمن طاعتهم، وشكر هجرتهم، وطيب قلوبهم. فطلبوا منه النصرة على الفرنج، فإن الفرنج كانوا قد ملكوا من بلاد

(١) دكاله: بفتح أوله وتشديد ثانيه: بلد بالمغرب يسكنه البربر.

(٢) الحزون: جمع الحزن، وهو من الأرض ما غلظ؛ ومن الدواب: ما صعبت رياضته؛ ومن الناس من خشنت معاملته.

المسلمين مدينة شنترين[1] وباجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها، وذلك في سنة أربعين وخمسمائة. وكان سبب ذلك ما وقع من الاختلاف بين المسلمين، فطمع العدو فيهم وأخذ هذه المدن وقوي بها. ثم ملكوا في سنة اثنتين وأربعين مدينة المرية، ومدينة بياسة[2]، وجميع ولاية جيان.

فجهز عبد المؤمن جيشًا كثيفًا وجعل مقدمه أبا عمر بن صالح من آية الخمسين. وجهز أسطولاً في البحر وجعل قائده يحيى بن عيسى بن ميمون. فغدوا إلى جزيرة الأندلس. ودخل الأسطول إلى مدينة إشبيلية في النهر، وحاصروها برًا وبحرًا، وبها جيش من الملثمين. فملكتها عساكر عبد المؤمن عنوة وقتلوا فيها جماعة. ثم أُمن الناس. واستولت عساكره على البلاد الإسلامية التي بها، ودان له أهلها.

وفي سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج مدنًا من الأندلس، وهي طرطوشة وجميع قلاعها وحصون لاردة[3]، وذلك لاختلاف المسلمين.

ذكر حصار الفرنج مدينة قرطبة ورجوعهم عنها

قال: وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة، حصر السليطين - وهو الأدفونش ملك طليطلة وأعمالها، وهو من ملوك الجلالقة - مدينة قرطبة - أعادها الله - في أربعين ألف فارس من الفرنج. فبلغ الخبر عبد المؤمن وهو بمراكش. فجهز اثني عشر ألف فارس ومقدمهم أبو زكريا يحيى بن يومُور. فساروا حتى قربوا من قرطبة. فلم يقدروا على لقاء الفرنج في الوطأة، فساروا في الجبال الوعرة. وجعلوا يقطعون الأشجار حتى يجدوا مسلكًا. فمشوا عشرين يومًا في الوعر مسافة أربعة أيام في السهل. فأفضوا إلى جبل شامخ مطل على قرطبة. فلما رآه السليطين وتحقق أمرهم،

---

(١) شنترين: مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس ثم في غربي قرطبة وعلى نهر تاجة قريب من انصبابه في البحر المحيط، وهي حصينة، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يومًا. . . (معجم البلدان).

(٢) بياسة: ياء مشددة: مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، بينها وبين أبرة فرسخان، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب، دخلها الروم سنة ٥٤٢ وأخرجوا عنها سنة ٥٥٢هـ. . . (معجم ياقوت).

(٣) لاردة: بالراء مكسورة، والدال المهملة: مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طرّكونة منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف؛ ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون. . . ونهرها يقال له سيقر. . . (معجم البلدان).

رحل لوقته بجميع من معه وسار حتى غاب عن فجاج قرطبة. وكان بقرطبة القائد أبو الغمر السائب، من ولد القائد ابن غلبون من أبطال الأندلس فخرج لوقته من قرطبة وصعد إلى الجبل. واجتمع بيحيى وقال له: «انزل بمن معك إلى قرطبة وعجِّل» ففعلوا ذلك وباتوا بها. فما أصبح اليوم الثاني إلا وعسكر السليطين قد غشي الجبل الذي كان فيه يحيى. فقال لهم أبو الغمر: «هذا الذي كنت خفته عليكم». فلما علم أنهم قد فاتوه، ورأى أنه لا مطمع له في قرطبة، رحل إلى بلاده بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر قبل وصولهم.

ذكر ملكه مدينة بجاية وملك بني حماد وانقراض دولتهم

وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة، سار عبد المؤمن من مدينة مراكش إلى سبتة. وهيأ الأساطيل والناس يعتقدون أنه يدخل الأندلس. ونفَّذ أعيان أصحابه إلى جميع القبائل: أن يجمعوا العساكر ويرتبوها. وقطع السابلة[١] عن بلاد شرق المغرب برًا وبحرًا.

ثم خرج من سبتة في صفر سنة سبع وأربعين. وتوجه إلى المشرق مسرعًا وطوى المراحل، والعساكر المرتبة تلقاه. فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكانت ليحيى بن العزيز بالله آخر ملوك بني حماد. وكان مولعًا بالصيد واللهو واللعب لا ينظر في شيء من أمور مملكته بل فوضها لميمون بن حمدون. فجمع ميمون العساكر وخرج عن بجاية. فأقام أيامًا وأحجم عن اللقاء ورجع ولم يقاتل عساكر عبد المؤمن. واعتصم يحيى بن العزيز بقلعة قسنطينية[٢]. وهرب أخوه الحارث في مركب إلى جزيرة صقلية. ولحقه أخوه عبد الله وجماعة من بني عمه إلى صقلية.

ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد يحيى بن العزيز بغير قتال. ثم نزل إليه يحيى بالأمان فأمنه وأنفذه إلى المغرب، وكان فيها مدة حياته رخي البال.

---

(١) السابلة: الطريق المسلوك: أو المارون عليه.

(٢) قسنطينية: بضم أوله، وفتح ثانيه ثم نون، وكسر الطاء، وياء مثناة من تحت، ونون أخرى بعدها ياء خفيفة، وهاء: مدينة وقلعة يقال لها قسنطينية الهواء، وهي قلعة كبيرة جدًا حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب لها طريق واتصال بآكام متناسقة جنوبيها... (معجم البلدان).

وانقرضت دولة بني حماد. وكانت مدة ملكهم منذ ولّي حماد مدينة آشير من قبل أبي مناد باديس بن المنصور بن يوسف في صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة مائة سنة وستين سنة. وعدة من ملك منهم تسعة ملوك، وهم حماد بن يوسف بلكين بن زيري، ثم القائد بن حماد ثم محسن بن القائد بن حماد، ثم ابن عمه بلكين بن محمد، ثم الناصر بن علناس بن محمد بن حماد، ثم ابنه المنصور، ثم ابنه باديس بن المنصور ولم تطل أيامه حتى مات، وولّي بعده العزيز بالله بن المنصور بن الناصر، ثم يحيى بن العزيز هذا. وعليه انقرضت دولتهم.

وكان يحيى قد اعتقل الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ـ كما ذكرناه ـ وسُرّ بما ناله من أخذ الفرنج بلاده. فلم تطل المدة حتى فاجأه القدر واستلب ملكه. واجتمع الحسن ويحيى في مجلس عبد المؤمن على بساط واحد. واستصحب عبد المؤمن الحسن معه، وألحقه بخاصته، وأعلى مرتبته. ولم يفارقه في سفر ولا حضر إلى أن فتح المهدية، فأقرّ الحسن بها وأمر واليها أن يقتدي برأيه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ظفره بصنهاجة وملكه قلعة حماد

قال: ولما ملك عبد المؤمن بجاية، تجمعت صنهاجة في أمم كثيرة. وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قبيصة. واجتمع معهم من كتامة ولوانة وغيرها ما لا يحصى كثرة، وقصدوا حرب عبد المؤمن. فأرسل إليهم جيشًا كثيفًا، ومقدمهم أبو سعد يخلف، وهو من آية خمسين. فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية[١]. فانهزم أبو قبيصة، وقتل أكثر من معه، ونهبت أموالهم، وسبيت نساؤهم وذراريهم.

ثم سار أبو سعيد إلى قلعة حماد، وهي من أحصن القلاع وأعلاها. فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤوس الجبال. ومُلكت القلعة وحمل جميع ما فيها من الأموال والذخائر وغير ذلك إلى عبد المؤمن.

ذكر الحرب بين عبد المؤمن والعرب وظفر عساكر عبد المؤمن بهم

قال: وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة في صفر، كانت الحرب بين عساكر

(١) بجاية: بالكسر، وتخفيف الجيم، وألف، وياء، وهاء: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب... (معجم البلدان).

عبد المؤمن والعرب عند مدينة سطيف[١] وذلك أن عبد المؤمن لما فتح بلاد بني حماد اجتمعت العرب، وهم بنو هلال والأثبج وعدي ورياح وزغيف وغيرهم ممن يقول بقولهم من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب. وقالوا: «إن جاورنا عبد المؤمن أجْلانا من بلاد المغرب. وليس الرأي إلا اللقاء معه، وأخذه بالجد، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن». وتحالفوا على التعاون والتعاضد، وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال.

واتصل الخبر بصاحب صقلية الفرنجي، فأرسل إلى أمراء العرب وهم محرز بن زياد، وجُبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى بن حسن، وغيرهم، يحثّهم على ذلك، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على أن يرسلوا إليه رهائن. فشكروه وقالوا: «لا حاجة بنا إلى نجدته، ولا نستعين على المسلمين بغيرهم».

وساروا في عدد لا يحصى. وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب. فلما بلغه خبرهم جهز إليهم جيشًا من الموحدين زهاء ثلاثين ألف فارس، ومقدمهم أبو سعيد يخلف، وعبد العزيز وعيسى أولاد أبي مَغار. وكان العرب أضعافهم، فاستخرجهم الموحدون. وتبعهم العرب إلى أن وصلوا أرض سطيف بين جبال. فصدمهم الموحدون بغتة والعرب على غير أهبة. والتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه. فانجلت المعركة عن هزيمة العرب. وذلك في يوم الخميس غرة صفر. وتركوا أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونَعمهم. فأخذ الموحدون جميع ذلك وعادوا به إلى عبد المؤمن. فقسم الأموال في عسكره وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط. ووكل بهم الخصيان يخدمونهم وأمر بصيانتهم. ونقلهم معه إلى مراكش فأنزلهم في المساكن الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة.

وأمر عبد المؤمن محمدًا بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة. وأمرهم أن يحضروا ليسلمهم إليهم. فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش. فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم، وأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة فاسترقّ قلوبهم بذلك وأقاموا عنده، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد العهد بعده.

---

(١) سطيف: مدينة في جبال كتامة بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب، وهي صغيرة إلا أنها ذات مزارع وعشب عظيم... (معجم ياقوت).

ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن
بولاية العهد بعد أبيه

قال: وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، أمر عبد المؤمن بالبيعة بولاية العهد لابنه محمد. وكان الشرْط بين عبد المؤمن وعمر الهنتاتي أن يلي الأمر بعده. فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثرت أولاده أحبّ أن يكون الملك فيهم. فأحضر أمراء العرب من هلال وزُغبة وعدي وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم. ثم وضع عليهم من يقول لهم: «اطلبوا من عبد المؤمن أن يجعل لكم ولي عهد من ولده بعده». ففعلوا ذلك. فلم يُجبهم إكرامًا لعمر الهنتاتي لعلوّ منزلته في الموحدين. فلما علم الهنتاتي ذلك خالف على نفسه. فحضر عند عبد المؤمن وخلع نفسه. فحينئذ بايع عبد المؤمن لابنه بولاية العهد. وكتب إلى جميع بلاده بذلك. وخطب له في جميع البلاد. وأخرج من الأموال شيئًا كثيرًا في ذلك اليوم.

ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد وأعماله

وفي سنة إحدى وخمسين أيضًا، استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد والأعمال، فجعل ابنه أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، وأبا حفص عمر على مدينة تلمسان وأعمالها، وأبا الحسن عليًا على مدينة فاس وأعمالها، وأبا سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة[١].

ولقد سلك عبد المؤمن في استعمالهم من حسن السياسة وجميل التدبير طريقًا عجيبًا يستدل به على جودة رأيه، وتوصُّله إلى مقاصده بأحسن صورة وأجمل طريقة. وذلك أنه كان قد استعمل على الأعمال شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدي، فكان يتعذر عليه أن يعزلهم. فأخذ أولادهم وتركهم عنده، وأشغلهم بالعلوم. فلما مهروا فيها، قال لآبائهم: «إني أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده وتكون أولادكم في أعمالكم» فأجابوا إلى ذلك وفرحوا به، فاستعمل أولادهم. ثم وضع عليهم من يعتمد عليه منهم فقال لهم: «إني أرى أمرًا عظيمًا قد فعلتموه فارقتم فيه الحزم والأدب» فقالوا: «وما هو؟» قال: «أولادكم في الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس إليهم شيء منه مع ما هم فيه من العلم وحسن السياسة.

---

(١) مالقة: بفتح اللام والقاف: كلمة عجيبة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمريّة... (معجم البلدان).

وإني أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده» فعلموا صدقه. وحضروا إلى عند عبد المؤمن وسألوه أن يستعمل أولاده. فقال: «لا أفعل». فعزموا عليه حتى فعل بسؤالهم.

ذكر ملكه مدينة المرية من الفرنج وأغرناطة من الملثمين

قال: وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، كاتب ميمون بن بدر صاحب أغرناطة أبا سعيد بن عبد المؤمن صاحب مالقة والجزيرة الخضاء وسبتة أن يسلم إليه أغرناطة، فتسلمها منه. وسار إلى مالقة بأهله وولده، فسيّره أبو سعيد إلى مراكش. فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه.

وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم إلا جزيرة مايرْقة مع حمو بن غانية اللمتوني.

قال: ولما ملك أبو سعيد أغرناطة جمع الجيوش وسلم إلى مدينة المرية[١] ـ وهي بيد الفرنج، كانوا قد أخذوها في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ـ فنازلها وحصرها برًّا وبحرًا. ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها. وبنى سورًا على الجبل إلى البحر، وعمل عليه خندقًا. فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورين بهذا السور والجبل. لا يمكن أن يصل إليها من ينجدها. وجمع السليطين ملك الفرنج بالأندلس الجيوش وجاء إليها، فلم يتمكن منها ورجع ومات قبل وصوله إلى طليطلة. وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر، فقلّت الأقوات على الفرنج فطلبوا الأمان. فأمنهم أبو سعيد وتسلّم الحصن. ورحلوا في البحر عائدين إلى بلادهم. وكانت مدة ملكهم المرية عشر سنين.

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وجميع بلاد إفريقية

كان الفرنج قد تغلّبوا على مدينة المهدية وملكوها في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمناه في أخبار الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن

(١) المريّة: بالفتح ثم الكسر، وتشديد الياء بنقطتين من تحتها: هي مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس. . . (معجم البلدان).

باديس، وفعلوا بمدينة زَويلة[١] الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب. فسار أهلها إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستنجدونه ويستجيرون به فأكرمهم. وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس في ملوك الإسلام من يُقصد غيره. فأطرق ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار.

ثم أمر بعمل الروايا[٢] والقرب والحياض وما يحتاج إليه العساكر. وكتب إلى جميع نوابه ببلاد المغرب وكان قد ملك إلى قريب تونس، فأمرهم بتحصيل الغلات، وأن تترك في سنبلها وتخزن في مواضعها، وأن يحفروا الآبار في الطرق. ففعلوا ذلك فصارت كأنها تلال.

فلما كان في صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وسار من مراكش يريد إفريقية ومعه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن السوقة [٣] والأتباع أمثالهم. وبالغ في حفظ العساكر حتى كانوا يسيرون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واحدة. وإذا نزلوا صلُّوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد. وقدّم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الذي كان صاحب المهدية وإفريقية.

فسار حتى وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جُمادى الآخرة. وأقبل الأسطول في البحر في سبعين شينيًا وطريدة وشلندى[٤]. فنازلها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى الطاعة. فامتنعوا وقاتلوا أشد قتال. فلما جاء الليل خرج إليهم سبعة عشر رجلًا من أعيان أهلها، وسألوا عبد المؤمن الأمان لأهل بلدهم. فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهلهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فأمنهم في أنفسهم وأهليهم، ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين، وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله. فاستقر ذلك وتسلم البلد. وأرسل أمناء ليقاسموا الناس على أموالهم. وأقام عليها ثلاثة أيام. وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سلم، ومن أبى قُتل.

وسار عبد المؤمن إلى المهدية والأسطول يحاذيه في البحر. فوصل إليها في ثاني عشر شهر رجب من السنة. وبها أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان، وقد أخلوا

---

(١) زويلة: بفتح أوله وكسر ثانيه، وبعد الياء المثناة من تحت الساكنة لام: بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل أجدابية في البر بين بلاد السودان وإفريقية... والأخرى مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهي أول حدود بلاد السودان... (معجم البلدان).

(٢) الروايا: القرب.

(٣) السوقة: العامة التي تتبع الجيوش للغنائم والسّلب.

(٤) الشيني والطريدة والشلندى: من المراكب المختلفة الأحجام والمهمّات التي يتألّف منها الأسطول.

مدينة زويلة وبينها وبين المهدية غلوة[١] سهم. فدخلها عبد المؤمن، وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة. ومن لم يكن له من العسكر موضع نزل بظاهرها. وانضاف إليهم من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء. وأقبلوا على قتال من بالمهدية، وهي لا يؤثر فيها شيء لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها، وهي كأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر. فكانت شجعان الفرنج تخرج إلى أطراف العسكر فينالون منه ويسرعون العوْد. فأمر عبد المؤمن ببناء سور من غربي المدينة يمنعهم من الخروج. وأحاط الأسطول بها في البحر. وهال عبد المؤمن ما رأى من حصانة البلد، وعلم أنها لا تفتح بقتال، وليس لها غير المطاولة. وقال للحسن: «كيف نزلت عن هذا الحصن؟» فقال: «لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر». فقال: «صدقت» وأمر بجمع الغلات فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير. وتمادى الحصار.

وفي مدته أطاع عبد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسة[٢] وقصور إفريقية وما والاها. وفتح مدينة قابس وأتاه يحيى بن تميم صاحب قفصة[٣] ومعه جماعة من أعيانها. ولما قدموا عليه دخل حاجبه عبد السلاسم الكومي يستأذنه عليهم. فقال له عبد المؤمن: «أتِي عليك ليس هؤلاء أهل قفصة» فقال: «لم يشتبه علي وإنهم أهلها» فقال عبد المؤمن: «كيف يكون ذلك والمهدي يقول: إن أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها؟ ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم وننتظر ما يكون ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢ و٤٤] وقضى شغلهم وأرسل معهم طائفة من الموحدين، وفيهم زكري بن يومون، وولاه عليها. وورد في جملة أهل قفصة شاعر[٤] منهم، فمدحه بقصيدة أولها: [من البسيط]

ما هزَّ عِطفَيْه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي[٥]

---

(١) غلوة السهم: مقدار رميته، وتقدر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة.

(٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم، والسكون، وسين مهملة: جبال في المغرب بعد إفريقية عالية نحو ثلاثة أميال في أقل من ذلك، وفيها منبران في مدينتين إحداهما سروس في وسط الجبل... والأخرى جادو من ناحية نفزاوة... (معجم البلدان).

(٣) قفصة: بالفتح ثم السكون، وصاد مهملة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام... (معجم ياقوت).

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي.

(٥) عطفاه: جانباه، والبيض والأسل: السيوف والرّماح.

فلما أنشده هذا البيت قال: «حسبك» ووصله بألف دينار.

قال: ولما كان في يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان سنة أربع وخمسين، جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيًا غير الطرائد، فقاتلهم أسطول عبد المؤمن فانهزموا. وتبعهم المسلمون وأخذوا منهم سبعة شوان. فحينئذ أيس من بالمهدية من النجدة.

وصبروا على الحصار إلى آخر ذي الحجة من السنة حتى فنيت أقواتهم وأكلوا خيلهم. فنزل عشرة من فرسانهم إلى عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم، ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم. فعرض عليهم الإسلام، فأبوا. ولم يزالوا يستعطفونه حتى أجابهم وأمنهم. وأعطاهم سفنًا فنزلوا فيها. وساروا إلى جزيرة صقلية. وكان الفصل شتاء، فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا القليل. وكان صاحب صقلية قد قال: «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم» فأهلك الله الفرنج غرقًا وكان مدة استيلاء الفرنج على المهدية اثنتي عشرة سنة.

ودخل عبد المؤمن مدينة المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة. وسماها عبد المؤمن سنة الأخماس. وأقام بالمهدية عشرين يومًا. ورتب أحوالها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والسلاح والعدد والرجال. واستعمل عليها أبا عبد الله محمد بن فرج. وجعل معه الحسن بن علي بن يحيى الذي كان صاحبها. وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله. وأقطع الحسن بها إقطاعًا وأعطاه دورًا بالمهدية. ورتّب لأولاده وعبيده أرزاقًا. ثم رحل عبد المؤمن من المهدية في غرة صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

ذكر إيقاع عبد المؤمن بالعرب

كان سبب ذلك أنه ـ لما أراد العود إلى بلاد المغرب بعد فراغه من أمر المهدية ـ جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقية، وقال لهم: «إنه قد وجب علينا نصرة الإسلام، وإن المشركين قد استفحل أمرهم بجزيرة الأندلس. واستولوا على كثير منها مما كان بيد المسلمين، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فُتحت البلاد أول الإسلام، وبكم دُفع عنها العدو الأول. ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله» فأجابوه بالسمع والطاعة فحلّفهم على ذلك.

وساروا معه حتى انتهوا إلى مضيق جبل زغوان(١). وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك، وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيهم. فجاء إلى عبد المؤمن بالليل وقال له سرًّا: «إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا: ما غرض عبد المؤمن إلا إخراجنا من بلادنا، وإنهم لا يفون بأيمانهم» فقال: «يأخذ الله تعالى الغادر». فلما كانت الليلة الثانية، هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البر، ولم يبق منهم إلا يوسف بن مالك، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق. ولم يُحدث في أمرهم شيئًا.

وسار مغربًا يحث السير حتى قرب من القسنطينة، ونزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء. فأقام به وضبط الطرق فلا يسير أحد البتة ودام هناك عشرين يومًا. وانقطع خبره عن جميع الناس لا يعرفون للعسكر خبرًا مع كثرته وعظمه، ويقولون: «ما أزعجه إلا خبر وصله من الأندلس» فعادت العرب الذين أجفلوا منه من البرية إلى البلاد لما أمنوا جانبه.

فلما علم برجوعهم جهز إليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألفًا من أعيان الموحدين وشجعانهم. فجدُّوا السير وقطعوا المفاوز. فما شعرت العرب إلا والجيش قد أقبل، وجاء من ورائهم من جهة الصحراء من يمنعهم من الدخول إليها، وكانوا قد نزلوا جنوبًا من القيروان عند جبل القرن(٢) وهم زهاء ثمانين ألف بيت، ومشاهير مقدميهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل ومسعود بن زمام وغيرهم. فلما أطلت عليهم العساكر اضطربوا وماجوا واختلفت كلمتهم. ففرّ مسعود وجبارة ومن معهما من عشائرهما. وثبت محرز بن زياد ومعه جمهور العرب. فناجزهم الموحدون القتال. وذلك في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين. واشتد القتال وكثرت القتلى. فانجلت الحرب عن قتل محرز وانهزم العرب.

ولما انهزموا أسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال. فحمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بتلك المنزلة. فأمر بحفظ النساء العربيات الصَّرائح. وحُملن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد المغرب. ثم أقبلت إليه وفود رياح، فأجمل لهم الصنيع وردّ إليهم الحريم. فلم يبق منهم إلا من صار له كالعبد الطائع، وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان. ثم جهزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول.

---

(١) زغوان: جبل عال بين تونس والقيروان... (المسالك والممالك للبكري).

(٢) جبل القرن: ذكر ياقوت مواضع كثيرة يطلق عليها «القرن» منها: القرن: جبل بإفريقية له ذكر في الفتوح.

قال: وجمعت عظام من قتل من العرب عند جبل القرن فبقيت دهرًا طويلاً كالتل يلوح للناظرين من مكان بعيد. وبقيت بلاد إفريقية بيد نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة، لم يبق من العرب خارج عن الطاعة إلا مسعود بن زمام وطائفة في أطراف البلاد.

وفي سنة ست وخمسين، توجه عبد المؤمن إلى جبل طارق، وهو على ساحل الخليج مما يلي الأندلس، فعبر المجاز إليه. وبنى عليه مدينة حصينة. وأقام بها أشهرًا ثم انصرف إلى مراكش.

ذكر وفاة عبد المؤمن بن عليّ وشيء من أخباره

كانت وفاته في العشر الآخر من جُمادى الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بمدينة سلام. وكانت مدة ولايته ثلاثًا وثلاثين سنة وأشهرًا. وخلف ستة عشر ولدًا ذكورًا.

وكان عاقلاً، حازمًا، سديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال، إلا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على صغار الذنوب. وكان يعظِّم أمر الدين ويقويه، ويُلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة. ومن رُئي في وقت الصلاة غير مُصلٍّ قُتل. وجمع الناس على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول. وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين، وإليهم المرجع والكلام معهم.

قال ابن شداد[1]: وقفت على كتاب كتبه عنه بعض كتابه، يقول فيه بعد البسلمة: «من الخليفة المعصوم الرَّضي الهاشمي الزّكي، الذي وردت البشارة به من النبي ﷺ، العربي القامع لكل مجسِّم غوِي، الناصر لدين الله العليّ، أمير المؤمنين الولي، عبد المؤمن بن عليّ».

وحكى أيضًا قال: أخبر رجل من أهل المهدية اجتمعت به بمدينة صقلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، قال: لما فتح عبد المؤمن مدينة بجاية وجميع ملك بني حماد، وافق ذلك وصولي بعد أيام من المهدية إلى بجاية بأحمال متاع مع قَفَل[2]،

(١) هو عبد الله بن شداد، مؤرخ، من آثاره: الأغلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة... (كشف الظنون: حاجي خليفة ٢٩٦).

(٢) القفل: أي القافلة.

فبِتْنا على مرحلة من بجاية. فلما أصبح الصباح فقدت شدَّة[١] من المتاع، فحمدت الله وسألته الخَلَف. ودخلنا البلد وبعت المتاع أحسن بيع وأفدت فيه فائدة كبيرة. فقلت لصاحب الحانوت الذي بعت على يديه: «فقدت من هذا المتاع شدة، وأخلَف الله علي في الباقي» فقال لي: «وما أنهَيْتَ ذلك إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن؟» قلت: «لا». قال: «والله، إن علم ذلك من غيرك لحقك الضرر بسترك على المفسدين. فاتقِ الله في نفسك» فرُحت إلى القصر واستأذنت عليه وأعلمته. ثم خرجت فسألني خادم عن منزلي فوصفته له. ورجعت إلى صاحب الحانوت فأخبرته. فقال: «خرجت من العُهْدة».

فلما كان صبيحة اليوم الثالث من وصولي إليه، جاءني غلام أسود فقال: «أجب أمير المؤمنين» فخرجت معه. فلما وصلنا باب القصر وجدت جماعة كبيرة والمصامدة دائرة عليهم بالرماح. فقال لي الأسود «تعلم من هؤلاء؟» قلت: «لا» قال: «هم أهل المكان الذي أخذ متاعك فيه» فدخلت أنا خائف، فأُجلست بين يديه. واستدعى مشايخهم وقال لي: «كم صحّ لك في الشدة التي فقدت أختها» فقلت: «كذا وكذا» فأمر من وزن لي المبلغ ثم قال لي: «قم. أنت أخذت حقك وبقي حقي وحق الله عزّ وجل». وأمر بإخراج المشايخ وقتل الجميع. وقال: «هذه طريق شوك أُزيلها عن المسلمين» فأقبلوا يبكون ويتضرعون ويقولون: «يؤاخذ سيدنا الصلحاء بالمفسدين؟» فقال: «تُخرج كل طائفة منكم من فيها من المفسدين» فصار الرجل يخرج ولده وأخاه وابن عمه إلى أن اجتمع منهم نحو خمسمائة فأمر أهلهم أن يتولوا قتلهم، ففعلوا ذلك. وخرجت أنا إلى صقلية خوفًا على نفسي من أولياء المقتولين.

قال: وكان عبد المؤمن لا يداهن في دولته، ويأخذ الحق من ولده إذا وجب عليه.

قال: ولا مُشرِك في بلاده ولا كنيسة في بقعة منها، لأنه كان إذا ملك بلدًا إسلاميًا لم يترك فيه ذميًا إلا عرض عليه الإسلام. فمن أسلم سلِم، ومن طلب المضي إلى بلاد النصارى أذن له في ذلك، ومن أبى قُتل. فجميع أهل مملكته مسلمون لا يُخالطهم سواهم.

ولا لهو ولا هزل تحت أمره بل تلاوة كتاب الله العزيز، ومُدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية، والاشتغال بالعلوم الشرعية، وإقام الصلوات. فهذا كان دأب أصحابه.

---

(١) شدّة المتاع: أي ما يشدّ ويلفُّ من المتاع الذي يجهّز به للانتقال من مكانٍ إلى آخر.

وكان لعبد المؤمن من الأولاد الذكور ستة عشر، وهم محمد وهو ولي عهده، وعلي، وعمر، ويوسف، وعثمان، وسليمان، ويحيى، وإسماعيل، والحسن، والحسين، وعبد الله، وعبد الرحمٰن، وموسى، وإبراهيم، ويعقوب.

ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن عليّ

كانت ولايته بعد وفاة أبيه. وذلك أن عبد المؤمن لما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال لهم: «قد جربت ابني محمدًا فلم أجد فيه نجابة تصلح للأمر، ولا يستحق الولاية ولا يصلح لها إلا ابني يوسف، وهو أولى بها، فقدِّموه لها» ووصاهم به فبايعوه وعقدوا له الولاية. وخوطب بأمير المؤمنين.

ثم مات عبد المؤمن فكتموا موته وحُمل في محفّة[١] من سلا[٢] بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مراكش. وكان ابنه أبو حفص حاجبًا لأبيه فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج إلى الناس فيقول أمر أمير المؤمنين بكذا وكذا، ويوسف يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت المبايعة له في جميع البلاد. فأظهر موت أبيه بعد انقضاء أشهر من وفاته. واستقامت الأمور لأبي يعقوب وانقاد الناس لأمره.

ذكر عصيان غمارة مع مفتاح بن عمرو وقتالهم وقتل مفتاح

قال: ولما تحقق الناس موت عبد المؤمن، ثارت قبائل غمارة[٣] في سنة تسع وخمسين وخمسمائة مع مفتاح بن عمرو؛ وكان مقدمًا كبيرًا فيهم، فاتبعوه بأجمعهم، وامتنعوا في جبالهم، وهي معاقل مانعة، وهم أمم جمة. فتجهز إليهم أبو يعقوب ومعه أخواه عمر وعثمان في جيش كثيف من الموحدين والعرب. وتقدموا إليهم والتقوا واقتتلوا في سنة إحدى وستين. فانهزمت غُمارة، وقُتل مفتاح وجماعة من أعيانهم ومقدميهم وخلْق كثير منهم. وملكوا بلادهم عنوة. وكانت قبائل كثيرة يريدون الفتنة، وهم ينظرون ما يكون من غمارة، فلما قُتلوا انقادت تلك القبائل إلى الطاعة، ولم يبق متحرك لفتنة، وسكنت الدهماء في جميع المغرب.

(١) المحفة: هودج لا قبة له.

(٢) السلا: نوعٌ من القصب تصنع منه السّلال، والسّلاء: الجذع نزع سُلاؤه أي شوكه.

(٣) بنو غمارة: هم بن غمارة بن مسطح بن قليل بن مصمودة بن برنس بن بربر... ومن هذه القبيلة الشيخ عبد الله الغماري.

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة، وجه أبو يعقوب أخاه عمر بن عبد المؤمن إلى الأندلس بالعساكر لقتال محمد بن سعد بن مرْدنيش. وكان قد ملك شرق الأندلس، واتفق مع الفرنج، وامتنع على عبد المؤمن ثم على ابنه، وتمادى في عصيانه، واستفحل أمره. فدخل العسكر إلى بلاده، وجاس خلال دياره، وأخذوا مدينتين من بلاده. وأقاموا مدة يتنقلون في بلاده ويجبون أموالها. ثم توفي محمد بن سعد في سنة سبع وستين، وأوصى أولاده أن يقصدوا الأمير أبا يعقوب، ويسلموا البلاد إليه، ويدخلوا في طاعته. فلما مات قصدوه. فسُرَّ بهم وأكرمهم وتسلم البلاد منهم، وهي مرسية، وبلنسية، وجيان، وغير ذلك، وتزوج أختهم. وأقاموا عنده مكرمين. وكان اجتماعهم به بمدينة إشبيلية، وقد دخل الأندلس في مائة ألف فارس في سنة ست وستين وخمسمائة.

ذكر غزوة الفرنج

قال: وفي سنة ثمان وستين، جمع أبو يعقوب عساكره. وسار من إشبيلية وقصد بلاد الفرنج. ونزل على مدينة وَبذَى[1]، وهي بالقرب من طليطلة شرقًا منها، وحصرها. فاجتمعت الفرنج مع الأدفونش ملك طليطلة في جميع كبير، فلم يُقدموا على لقاء المسلمين. واتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم. فعادوا إلى إشبيلية.

وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وهو يجهز العساكر في كل وقت، ويرسلها إلى بلاد الفرنج. وكان في هذه المدة عدة وقائع وغزوات، ظهر فيها من شجاعة العرب ما لا يوصف، حتى كان الفارس من العرب يسير بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد.

ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش.

ذكر ملك أبي يعقوب مدينة قفصة

قد ذكرنا أن صاحب قفصة قدم على عبد المؤمن وهو يحاصر المهدية، وأطاعه، وما قاله عبد المؤمن لحاجبه عند قدوم أهل قفصة من إخبار المهدي عن قفصة. فلما كان في سنة ثمان وستين وخمسمائة، دخلت طائفة من الترك من ديار

(١) وبذى: مدينة بالأندلس قرب طليطلة؛ هذا ما ذكره ياقوت في معجمه. ولم نجدها في غيره من المظان التي توفرت لنا.

مصر في أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مع قراقوش مملوك تقي الدين. واجتمع إليه مسعود بن زمام وجماعة من العرب، ونزلوا على طرابلس وملكوها، واستولى على كثير من بلاد إفريقية.

فعند ذلك طمع صاحب قفصة ونزع يده من الطاعة، واستبدّ بالأمر. ووافقه أهل بلده فقتلوا من عندهم من الموحدين وذلك في شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. فكتب والي بجاية إلى أبي يعقوب بالخبر واضطراب أمور البلاد. فسدّ الثغور التي يخشى عليها بعد مسيره. وسار إلى إفريقية في سنة خمس وسبعين، ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر، وقطع أشجارها. فلما اشتد الأمر على صاحبها خرج منها مستخفيًا لم يعلم به أحد من أهل البلد. وجاء إلى خيمة أبي يعقوب فاستأذن عليه. فأذن له وقد عجب من إقدامه على الدخول عليه بغير أمان. فدخل عليه واستعطفه وقال: «قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عني وعن أهل بلدي، وأن يفعل ما هو أهله» فعفا عنه وعن أهل بلده. وتسلم المدينة في أول سنة ست وسبعين وخمسمائة وسيره إلى المغرب فكان مكرمًا عزيزًا، وأقطعه ولاية كبيرة. ورتب لقفصة واليًا من الموحدين.

ووصل مسعود بن زمام أمير العرب إلى يوسف. فعفا عنه وسيره إلى مراكش. وتوجه يوسف إلى المهدية وشاهدها.

ووافاه رسول من صاحب صقلية يلتمس الصلح، فهادنه عشر سنين، ورجع إلى المغرب.

ذكر وفاة أبي يعقوب يوسف

كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة. وكان قد سار إلى بلاد الأندلس في جمع عظيم. فلما عبر الخليج قصد غزو الفرنج، فحصر مدينة شَنْترين شهرًا. فأصابه بها مرض، فمات وحُمل في تابوت إلى مدينة إشبيلية.

وكانت مدة ولايته اثنتين وعشرين سنة وشهورًا.

ومات وله عدة من الأولاد، رأيت في بعض التواريخ أنهم كانوا خمسة عشر، وهم: عمر، ويعقوب وهو ولي عهده، وأبو بكر، وعبد الله، وأحمد، ويحيى، وموسى، وإبراهيم، وإدريس، وعبد العزيز، وطلحة، وإسحاق، ومحمد، وعبد الواحد، وعثمان، وعبد الحق، وعبد الرحمٰن. فهذه سبعة عشر عدها وجمع على خمسة عشر، والله أعلم.

وذكر هذا المؤرخ أن وفاته كانت في يوم السبت لسبع خلون من شهر رجب من السنة، من طعنة طعنها على مدينة شنترين من أيدي الروم، لما عبر المسلمون وتركوه في شرذمة يسيرة. ومات في الليلة الثالثة. والله تعالى أعلم.

وقال أيضًا: ودفن بتينمل عند أبيه وابن تومرت.

قال: وكان يحمل إليه من مال إفريقية في كل سنة وقر[١] مائة وخمسين بغلاً، خارجًا عما يرتفع إليه من سائر البلاد.

وكان حسن السيرة، يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم، وهم أهل خاصته، وكان فقيهًا عالمًا حافظًا متقنًا، رحمه الله تعالى.

ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمسمائة. وكان أبوه قد مات ولم يوص لأحد بالملك، فاجتمع رأي أشياخ الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تقديم أبي يوسف يعقوب. فبايعوه وعقدوا له الولاية وقدموه للأمر، ودعوْه بأمير المؤمنين. فقام بالملك أحسن قيام، ورفع راية الجهاد، وأحسن السيرة. فاستقامت له الدولة بأسرها مع سعة أقطارها. ورتب ثغور الأندلس، وشحنها بالرجال، ورتّب المقاتلة في سائر بلادها، وأصلح أحوالها، وعاد إلى مدينة مراكش.

ذكر أخبار الملثمين وما ملكوه من إفريقية واستعادة ذلك منهم

قال: ولما بلغ علي بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية اللمتوني صاحب جزيرة ميورقة[٢]، وكان من أعيان الملثمين، وفاة أبي يعقوب، سار إلى بجاية في عشرين شينيًا. وملكها في شعبان سنة ثمانين وخمسمائة، وأخرج من كان بها من الموحدين. وكان الأمير بها سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن. وخطب اللمتوني بها للخليفة الناصر لدين الله العباسي.

(١) الوقر: الحمل الثقيل.

(٢) ميورقة: بالفتح ثم الضم، وسكون الوا والواء يلتقي فيه ساكنان، وقاف: جزيرة في شرقي الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، بالنون. . . (معجم البلدان).

فاتصل الخبر بأبي يوسف فجهز العساكر واستعدادها في صفر سنة إحدى وثمانين. وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن إسحاق قد تركهما بها وتوجه لحصار القسنطينة، فخرجا منها هاربين والتحقا بأخيهما. فأقلع إلى جهة إفريقية واجتمع بمن بها من العرب وانضاف إليه الترك الذين كانوا قد دخلوها من مصر. ودخل من مصر مملوك آخر اسمه بُوزابه، فانضم إليه، وكثر جمعه، وقويت شوكته. واتبعوه جميعًا لأنه من بيت الملك ولقبوه بأمير المسلمين. فقصد بلاد إفريقية فملكها شرقًا وغربًا إلا مدينتي تونس والمهدية، فإن الموحدين حفظوهما على خوف وضيق وشدة. وانضاف إلى الملثم كل مفسد يريد الفتنة والفساد والنهب.

فأرسل الوالي على تونس وهو عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي إلى أبي يوسف يُعلمه بالحال. فلما ورد عليه الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين. وقصد قلة العساكر لقلة لقوت في البلاد. وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس. وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه أبي حفص، فساروا إلى علي بن إسحاق الملثم وهو بقفصة فوافوه. وكان مع الموحدين جماعة من الترك الذين كانوا مع قراقوش، فلما التقوا خامر الترك عليهم، وانضموا إلى أصحابهم الذين مع الملثم. فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم. وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين.

قال: فأقام أبو يوسف بمدينة تونس إلى نصف شهر رجب منها. ثم خرج في خمسة عشر ألف فارس من الموحدين وسار يريد حرب الملثم. فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا. فانهزم الملثم ومن معه. وأكثر الموحدون القتل فيهم حتى كادوا يفنونهم.

ورجع من يومه إلى قابس ففتحها. وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وأمواله فحملهم إلى مراكش.

وتوجه إلى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر، وقطع أشجارها، وخرب ما حولها. فأرسل إليه الترك الذين كانوا بها في السر يسألونه الأمان لأنفسهم ولأهل قفصة. فأجابهم إلى ذلك. وخرج الأتراك منها سالمين فسيّرهم إلى الثغور لما رآه من شجاعتهم ونكايتهم. وتسلّم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين. وهدم أسواره، وترك المدينة مثل قرية. وظهر ما قاله المهدي.

ولما فرغ من أمر قفصة واستقامت له إفريقية، عاد إلى مراكش. فكان وصوله إليها في سنة أربع وثمانين.

وأما ابن غانية اللمتوني فإنه ثبت بعد انكشاف أصحابه وقاتل قتالاً شديدًا فأصابته جراحات كثيرة. ومرّ على وجهه فمات في خيمة لعجوز أعرابية. وكان معه إخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير. فقدموا عليهم يحيى لشجاعته وشهامته ولحقوا بالمغرب. ولم يزل بإفريقية يثور تارة ويسكن أخرى.

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة، ملك الفرنج بغرب الأندلس مدينة شلب(١)، وهي من أكبر مدن المسلمين. فوصل الخبر إلى أبي يوسف فتجهز بالعساكر الكثيرة. وعبر المجاز إلى الأندلس، وسيّر طائفة كثيرة في البحر. ونازل شلب وحصرها، وقاتل من بها قتالاً شديدًا حتى ذلوا وطلبوا الأمان. فأمنهم وتسلم البلد. ورجع من به إلى بلادهم.

وسيّر جيشًا من الموحدين ومعهم جمع من العرب إلى بلاد الفرنج. ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وقتلوا طائفة من الفرنج فخافهم ملك طليطلة، وأرسل في طلب الهدنة فصالحه خمس سنين. وعاد أبو يوسف بعد ذلك إلى مدينة مراكش.

ذكر غزوة الفرنج بالأندلس والوقعة الكبرى والثانية وحصر طليطلة

كانت هذه الغزاة المباركة في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة. وكان سببها أن الفنش ملك الفرنج صاحب طليطلة كتب إلى أبي يوسف كتابًا، نسخته:

«باسمك اللهم، فاطر السماوات والأرض.

أما بعد، أيها الأمير، فإنه لا يخفى على ذي عقل لازب(٢)، ولا ذي لبّ وذكاء ثاقب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية. وإنك لا يخفى عليك ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على

---

(١) شلب: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره باء موحدة: هي مدينة بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غربي قرطبة، وهي قاعدة ولاية أشكونيه، بينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس المجدّ. . . (معجم البلدان).

(٢) اللازب: الثابت.

الراحات. وأنا أسومهم سوم الخسف، وأسبي الذراري، وأُخلي الديار، وأُمثِّل بالكهول، وأقتل الشباب، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم، وقد أمكنتك منهم القدرة، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحدٍ منكم. والآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا، وقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم(١). ونحن الآن نقاتل عددًا منكم بواحد منا. ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا. ثم حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتُمطل نفسك عامًا بعد عام، تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى. ولا أدري: الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أُنزل عليك؟ وحُكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً إلى جواز البحر لعلةٍ ما يسوغ لك التقحُّم بها فها أنا أقول لك ما فيه الراحة وأعتذر عنك. ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان: أن توجِّه بجملة من عبيدك في الشواني والمراكب وأجوز إليك بجملتي. وأبارزك في أعزّ الأماكن عندك. فإن كانت لك، فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك. وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت إمارة المسلمين والتقدم على الفئتين. والله يسهل الإرادة ويقرب السعادة بمنِّه، ولا ربّ غيره ولا خير إلا خيره».

قال: فلما وصل كتابه وقرأه كتب في أعلاه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧] وأعاده إليه. وجمع عساكره وعبر المجاز إلى الأندلس.

وقيل: كان سبب عبوره إلى الأندلس أنه لما صالح الفرنج في سنة ست وثمانين على ما ذكرناه، بقيت طائفة من الفرنج لم ترضَ بالصلح. فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعًا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وأسروا وغنموا وعاثوا. فانتهى ذلك إلى أبي يوسف. فجمع العساكر وعبر إلى الأندلس في جيش يضيق به الفضاء. وجمعت الفرنج قاصيها ودانيها، وأقبلوا إليه مجدِّين واثقين بالظفر لكثرتهم. والتقوا في تاسع شعبان من السنة شمالي قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الجديد واقتتلوا قتالاً عظيمًا. وكانت الحرب في أولها على المسلمين ثم صارت الدائرة على الفرنج. فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم.

وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفًا. وأُسر ثلاثة عشر ألفًا. وحاز المسلمون من الخيل ستة وأربعين ألفًا ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير

(١) هنا إشارة إلى الآيتين ٦٥ و٦٦ من سورة الأنفال.

مائة ألف. وكان يعقوب نادى في عسكره: «من غنم شيئًا فهو له سوى السلاح» فأحصى ما حمل إليه، فكان يزيد على سبعين ألف لباس. وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفًا. ولما انهزم الفرنج، اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد خلّفوا قلعة رباح وساروا عنها. فملكها وجعل فيها واليًا وجندًا. وسار إلى مدينة إشبيلية.

وأما الفنش فإنه حلق بأسه، ونكس صلبانه، وركب حمارًا، وأقسم ألا يركب فرسًا ولا بغلاً حتى ينصر النصرانية. فجمع جموعًا كثيرة. فبلغ الخبر إلى أبي يوسف، فأرسل إلى مراكش وغيرها من بلاد الغرب يستنفر الناس من غير إكراه. فاجتمع إليه جمع عظيم. فالتقوا في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة. وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك.

وتوجه أبو يوسف إلى مدينة طليطلة. فحصرها وقاتل من بها قتالاً شديدًا، وقطع أشجارها.

وشنّ الغارة على ما حولها من البلاد. وفتح عدّة حصون، فقتل رجالها، وسبى حريمها، وهدم أسوارها، وخرب دورها. فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس. وعاد إلى إشبيلية فأقام بها.

فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، سار إلى الفرنج وفعل مثل فعله الأول والثاني. فذل العدو واجتمعت ملوك الفرنج وراسلوه في الصلح، فأجابهم إليه بعد امتناع. وكان عزم على أن لا يجيبهم إلى الصلح وأن يداوم الغزو حتى يفنيهم. فأتاه خبر علي بن إسحاق الملثم بخروجه على إفريقية. فصالحهم سنين. وعاد إلى مراكش في آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

ذكر ما فعله الملثم بإفريقية

قال: ولما عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس، وداوم الغزو، وانقطعت أخباره عن إفريقية، قوي طمع علي بن إسحاق فيها. وكان بالبرية مع العرب. فعاود قصد إفريقية. وبثّ جنده في البلاد وأكثر الفساد. وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب. فوصل الخبر إلى أبي يوسف فصالح الفرنج، وعاد إلى مراكش عازمًا على قصده وإخراجه.

ولما عاد استعمل على مدينة تونس أبا سعيد عثمان بن عمر الهنتاتي وولّى أخاه أبا علي يونس بن عمر على المهدية. وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم،

وهو رجل مشهور بالشجاعة. فعظمت نكايته في العرب، ولم يبق إلا من يخافه. وخرج إلى طائفة من عوف[١]، فانهزموا منه وتركوا أموالهم وعيالهم. فأخذ الجميع ورجع إلى المهدية. وأخذ من الغنيمة والأسلاب ما شاء، وسلم البعض لأبي علي، والبعض للجند. فجاءت تلك الأعراب إلى أبي سعيد بن عمر فوحّدوا[٢] وصاروا من حزب الموحدين. واستجاروا بأبي سعيد في ردّ عيالهم وأموالهم. فأحضر محمد بن عبد الكريم وأمره بإعادة ما أخذ لهم. فقال: «أخذه الجند ولا أقدر على رده» فأغلظ له في القول وأراد أن يبطش به. فاستمهله إلى أن يرجع إلى المهدية ويسترد من الجند ما يجده، وما عدم غرمه من ماله؛ فأمهله. وانصرف إلى المهدية وهو لا يأمن على نفسه. فلما وصل إليها جمع أصحابه، وأعلمهم بما كان من أبي سعيد، وحالفهم على المخالفة عليه، فحلفوا له على ذلك. فقبض على أبي علي يونس وتغلب على المهدية وملكها ونزع يده من الطاعة. فأرسل إليه أبو سعيد في إطلاق أخيه يونس. فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فأخذها وفرقها في جنده. فجمع أبو سعيد الجند وأراد قصده. فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى علي بن إسحاق الملثم واعتضد به. فامتنع أبو سعيد من قصده. وفي خلال ذلك مات أبو يوسف.

ذكر وفاة أبي يوسف يعقوب

كانت وفاته في سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا. وكان قد سار إليها من مراكش، وبنى مدينة مجاورة لها وسماها المهدية، وجاءت من أحسن البلاد وأنزهها. فسار ليشاهدها فتوفي بها. وقيل: بل توفي بمراكش بعد انصرافه من سلا، في جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين. وقيل: بل كانت وفاته في صفر منها.

وكانت ولايته خمس عشرة سنة.

وكان رحمه الله ديِّنًا، حسن السيرة، كثير الجهاد، إلا أنه كان يتمذهب بمذهب الظاهرية ولا يكتمه. فعظموا في أيامه وانتشروا في البلاد، ومال إليهم.

---

(١) بنو عوف: بطن من بهثة، وبنو بهثة: بطن من سليم، من العدنانية... قال الحمداني: ومنهم في الصعيد والفيوم والبحيرة، وبالمغرب فيما بين قابس وبلد العناب من إفريقية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) وحدّوا: أي صاروا من حزب الموحدين.

وحكى بعض المؤرخين أنه كان في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة أظهر الزهد والتقشف وخشونة المأكل والملبس. وانتشرت في أيامه الصالحون وأهل الحديث. وانقطع علم الفروع. وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد منها الحديث والقرآن. فحرّق منها جملة في سائر البلاد كالمدونة وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، ومختصره، والتهذيب للبرادعي، والواضحة. وأمر بجمع الحديث من المصنفات كالبخاري، ومسلم، والترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، والبزار، وابن أبي شيبة، والدارقطني، والبيهقي، فجمع ذلك كله. فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه. قال: وانتشر هذا المجموع في بلاد المغرب، وحفظه العوام والخواص. وكان يجعل لمن حفظه الجوائز السنية. وكان قصده أن يمحو مذهب مالك من بلاد المغرب، ويحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنّة. وكان له من الأولاد محمد وهو ولي عهده، وإبراهيم، وعبد الله، وعبد العزيز، وأبو بكر، وزكريا، وإدريس، وعيسى، وموسى، وصالح، وعثمان، ويونس، وسعد، ومساعد. فهؤلاء أربعة عشر ولدًا.

ولما مات ولّي بعده ابنه محمد.

ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي الملقب الناصر لدين الله

كان أبوه قد ولاه العهد في حياته. واستقل بالملك بعده، واستقام أمر دولته، وأطاعه الناس، وذلك في جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين وخمسمائة. ولما ولّي اتصل به فساد إفريقية. فأنفذ عمه أبا العلاء في سبعين شينيّا مشحونة بالعدد والمقاتلة. وجهز جيشًا في البرّ مع أبي الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن فوصل إلى قسنطينة الهواء. ووصل الأسطول إلى بجاية. فلما اتصل خبرهم بعلي بن إسحاق ومن معه من العرب هربوا وتركوا إفريقية ودخلوا إلى الصحراء. وتمادى بعض الأسطول إلى المهدية، فقبح مقدمهم على محمد بن عبد الكريم فعله. فشكا إليه ما ناله من أبي سعيد، وقال: «أنا في طاعة سيدنا أمير المؤمنين محمد، وما أسلم المهدية إلا له أو لمن يأمرني بتسليمها إليه. وأما أبو سعيد فلا أسلمها إليه أبدًا» فأرسل محمد من تسلمها منه. وعاد إلى الطاعة.

قال: وجهز محمد جماعة من العرب إلى الأندلس واحتاط واحترز. فأتاه جماعة رسل من ملوك الفرنج يطلبون دوام الهدنة ويشاهدون أحوال الدولة. فأنزلهم على العادة، وحضروا مجلسه فطلبوا دوام الهدنة التي كانت بينهم وبين أبيه، واستقراض مائة ألف دينار. فقال لهم: «المال والحمد لله لدينا والرجال، ونحن نجيب إلى ذلك بشرط أن ترهنوا عندنا معاقل على المال تكون بأيدينا إلى حين الوفاء. وإن كان هذا منكم امتحانًا فالسيوف التي تعرفون ما رُدَّت في أغمادها والرماح ما حصلت على أوتادها» فانصرفوا وقد ملأ قلوبهم رعبًا. وأبقوا الهدنة على ما كانت وأعرضوا عن ذكر السلف.

قال: وخرج أقارب يحيى بن إسحاق الميورقي من ميورقة لما علموا بموت يعقوب في أسطول كبير إلى جزيرة مَنُرقة[١]، وهي في طاعة محمد. ففتحوها واحتووا على أموالها، وتركوا فيها جندًا يحفظونها. فاتصل ذلك بالأمير محمد. فجهز أسطولاً في غير أوان ركوب البحر في كانون، وقدم عليهم أبا زيد. فوصل إلى منرقة ففتحها عنوة بالسيف وقتل بعض من فيها. وتوجه إلى جزيرة ميورقة ففتحها وقتل بعض من بها من الجند. وأسر ثلاثة من أقارب يحيى بن إسحاق وقُتل منهم واحد في المعركة. وذلك كله في سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

انتهى تاريخ ابن شداد وابن الأثير في أخبار المغرب إلى هذه الغاية.

وقال غيرهما ممن أرخ للمغاربة: وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، قام بالسوس رجل جَزولي يعرف بأبي قصبة، ودعا لنفسه، واجتمع عليه خلق كثير ثم هزمه الموحدون وأسلمه أصحابه، وقتل.

وفي سنة إحدى وستمائة، تجهز محمد بن يعقوب في جيوش عظيمة لقصد إفريقية، وكان يحيى بن غانية اللمتوني قد استولى عليها ما خلا قسنطينة وبجاية. فنزل إفريقية وملكها، ولم يمتنع عليه منها إلا المهدية. فأقام عليها أربعة أشهر، وكان فيها الحسن بن علي بن عبد الله بن محمد بن غانية واليًا لابن عمه يحيى. فلما طال عليه الحصار سلمها وخرج يقصد ابن عمه. ثم بدا له فراسل الأمير محمدًا فقبله أحسن قبول ووصَله بالصِّلات السنية.

---

(١) منورقة: (في معجم البلدان لياقوت): جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة، إحداهما بالنون والأخرى بالياء.

ثم ترك بإفريقية من يقوم بحمايتها، واستعمل عليها أبا محمد عبد الواحد. ورجع إلى مراكش في سنة أربع وستمائة. وأقام بها إلى أول سنة سبع وستمائة. فقصد بلاد الروم بالغزو، ونزل على قلعة تسمى شَلْبَ تِرَّة ففتحها. فجمع له الأذفنش جموعًا عظيمة من الأندلس والشام والقسطنطينية. فالتقيا بموضع يعرف بالعِقاب. فدهم الأدفنش المسلمين وهم على غير أهبة. فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير. وثبت الأمير محمد ثباتًا لم ير من ملك قبله. ولولا ذلك لاستُؤصلت تلك الجموع. ثم رجع إلى مراكش. وكانت الهزيمة في يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة. وانفصل الأدفنش، وقصد بياسة فوجدها خالية. فقصد أبُذَّة[1] فوجد فيها من المسلمين عددًا كثيرًا من المنهزمين وأهل بياسة. فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا، ودخلها عنوة وسبى وغنم. فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة.

ذكر وفاة أبي عبد الله محمد وشيء من أخباره

كانت وفاته بمدينة مراكش لعشر خلون، وقيل: لخمس خلون من شعبان سنة عشر وستمائة. فكانت ولايته خمس عشرة سنة وشهورًا.

وكان شديد الصمت، بعيد الغور، كثير الإطراق، حليمًا، شجاعًا، عفيفًا عن الدماء، قليل الخوض فيما لا يعنيه، إلا أنه كان نحيلاً ألثغ.

وكان له من الأولاد يوسف، وهو ولي عهده، ويحيى، وإسحاق. توفي يحيى في حياته.

ولما مات ولّي بعده ابنه يوسف.

ذكر ولاية يوسف بن محمد بن يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ

كانت ولايته بعد وفاة أبيه في شعبان سنة عشر وستمائة، وعمره يوم ذاك ست عشرة سنة. وقام ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن عمّ جده، الذي دخل عليه الميورقيون بجاية، وهو آخر من بقي من ولد عبد المؤمن لصلبه، وأبو زكريا يحيى بن عمر بن عبد المؤمن. بويع له البيعة الخاصة في يومي الخميس

(١) أبُذَّة: بالضم ثم الفتح والتشديد: اسم مدينة بالأندلس من كورة جيان، تعرف بأبدة العرب... (معجم البلدان).

والجمعة، بايعه أشياخ الموحدين والقرابة. وفي يوم السبت أذن للناس عامة وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم على رأسه يقول للناس: «تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ من السمع والطاعة في المَنْشط والمَكْرَه واليُسْر والعُسر، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين، هذا ما له عليكم. ولكم عليه أن يحمي ثغوركم، وأن لا يدخر عنكم شيئًا مما نعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم. وأن لا يحتجب دونكم. أعانكم الله على الوفاء، وأعانه على ما قلده من أموركم».

قال المؤرخ: ولما مضى من ولاية يوسف هذا أربعة أشهر، قبض على رجل كان قد ثار عليهم اسمه عبد الرحمٰن، ادعى أنه من أولاد العاضد من خلفاء المصرين. وكان خروجه في زمن أبيه محمد بن يعقوب، والتَّفت عليه ببلاد صنهاجة جماعة كبيرة. وكان كثير الإطراق والصمت، حسن الهيئة. وقصد سجلماسة في حياة محمد بن يعقوب في جيش عظيم. فخرج إليه متوليها سليمان بن عمر بن عبد المؤمن. فهزمه عبد الرحمٰن هذا، وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عَوْد. ولم يزل يتنقل في قبائل البربر ولا تثبت عليه جماعة لأنه غريب البلد، حتى قُبض عليه بظاهر فاس. فضُربت عنقه وصُلب، ووُجِّه برأسه إلى مراكش.

وثار في أيام يوسف رجل ببلاد جَزولة يدعي أنه فاطمي، فقُتل وجِيء برأسه.

وثار آخر من صنهاجة، فقُتل في سنة ثماني عشرة وستمائة، بعد أن أثر آثارًا قبيحة، وهزم بعوثًا كثيرة، وأفسد خلقًا من الناس.

واستمر يوسف هذا إلى سنة عشرين وستمائة.

ذكر وفاة يوسف بن محمد

كانت وفاته في شوال أو ذي القعدة سنة عشرين وستمائة. فكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر تقريبًا. ولم أقف من أخباره على غير ما وضعت، فأُورده.

ذكر ولاية أبي محمد عبد العزيز بن يوسف ابن عبد المؤمن

كانت ولايته في ذي القعدة سنة عشرين وستمائة بعد وفاة يوسف بن محمد. وكان يوسف بن محمد ولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء إدريس وولاه إفريقية. فلما توفي يوسف اضطرب الأمر. فاجتمع معظم الناس على تقديم أبي محمد عبد العزيز. فبايعوا له وولّوه أمرهم.

قالوا: وكان عبد العزيز هذا في أيام إمارته قبل أن يصير الأمر إليه مجتهدًا في دينه، شديد البصيرة في أمره، قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الله لومة لائم، أرطب الناس لسانًا بذكر الله وأتلاهم لكتابه، مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه، مع سخاء نفس وطلاقة وجه.

هذا ما وقفت عليه من أخبار ملوك دولة الموحدين مما دُوِّن لهم، على ما فيه من الاختصار. ثم انقطعت أخبار ملوك المغرب عن الديار المصرية. فلم يصل إلينا من خبرهم إلا ما نتلقاه من أفواه الناس. ولم يتحقق من أخبارهم ما نورده فتكون العمدة عليه، لكنا علمنا مَنْ ولي الأمر من ملوك هذه الدولة بعد أبي محمد عبد العزيز هذا واحدًا بعد واحد إلى أن انقرضت الدولة وقامت دولة زناتة، من غير أن نتحقق تاريخ ولاية أحد منهم ولا وفاته. فرأينا أن نذكر ذلك مجردًا عاريًا من الأخبار والوقائع. ونقلت ذلك عن ثقة أخبرني أنه نقله عن ثقات. وها أنا أورده كما أخبرني.

قال: ولي الأمر بعد أبي محمد عبد العزيز المستنصرُ بالله أبو يعقوب يوسف بن الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد بن المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ثم ولّي الأمر بعده أبو محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ثم ولّي الأمر بعده العادل أبو محمد عبد الله بن المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ثم ولّي بعده أبو زكريا يحيى بن الناصر لدين الله أبي عبد الله محمد، وهو أخو المستنصر بالله المقدم ذكره.

ثم ولّي بعده أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور أبي يوسف يعقوب.

ثم ولّي بعده ابنه الرشيد عبد الواحد بن المأمون إدريس.

ثم ولّي بعده أخوه السعيد أبو الحسن علي بن المأمون إدريس، وهو المعروف بالبرّاك، وإنما سمي بالبراك لثبوته في الحرب.

ثم ولّي بعده المرتضى أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق.

ثم ولّي بعده الواثق بالله أبو العلاء إدريس المعروف بأبي دبوس بن أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد المؤمن، وإنما سمّي بأبي دبوس لثقل دبوسه[١].

---

(١) الدبوس: عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس.

ثم ولّي بعده ولده أبو مالك عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس. وعليه انقرضت دولتهم وقامت الدولة المرينية، وهم زنانة، وهي الدولة القائمة في عصرنا هذا. ولما انتزع من الملك انتقل إلى بلاد الفرنج فكان بها إلى أن ثار على بني أبي حفص بساحل طرابلس الغرب وأعانته الأعراب على ذلك. ثم قُتل بعد أربعة أشهر أو نحوها من نهوضه ولم يتم له ما قصده.

ثم قام بعده أخوه أبو سعيد عثمان بن إدريس، وملك مدينة قابس وبلاد نفزاوة[1]، وأقام بها مدة. ثم أُخرج منها فتوجه مع العرب إلى البرية. ثم ثار معهم بإفريقية حتى انتهى إلى جبل الريحان، وهو على مرحلة من تونس. ثم خذله العرب فتوجه إلى بلاد الفرنج.

قال: وكان انقراض دولة الموحدين في سنة ست وستين وستمائة تقريبًا.

جامع أخبار دولة الموحدين

كانت مدة قيام هذه الدولة من حين ظهر المهدي محمد بن تومرت في سنة أربع عشرة وخمسمائة وإلى حين انقراضها في سنة ست وستين وستمائة، مائة سنة وثلاثًا وخمسين سنة تقريبًا. وعدة من ملك منهم سبعة عشر ملكًا، وهم:

المهدي محمد بن تومرت الحسني.

عبد المؤمن بن علي.

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو عبد الله محمد بن أبي يوسف.

ولده يوسف بن محمد.

أبو محمد عبد العزيز بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

المستنصر بالله أبو يعقوب يوسف بن أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

(١) نفزاوية: بالكسر ثم السكون، وزاي، وبعد الألف واو مفتوحة: مدينة من أعمال إفريقية... وبها عين تسمى بالبربرية تاورغي، وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها... (معجم ياقوت).

أبو محمد عبد الله بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو زكريا يحيى بن أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

أبو العلاء إدريس بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

ولده عبد الواحد بن إدريس.

أخوه أبو الحسن علي بن إدريس وهو البراك.

أبو حفص عمر بن أبي إبراهيم إسحاق.

أبو العلاء إدريس بن أبي عبد الله محمد بن عمر بن عبد المؤمن.

ولده أبو مالك عبد الواحد بن أبي العلاء إدريس.

ذكر تسمية ملوك بني مرين

أول من قام من ملوكهم أبو بكر بن عبد الحق. استولى على بعض بلاد الموحدين بني عبد المؤمن ثم مات قبل أن يخلص له الأمر ببلاد المغرب.

فملك بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق المعروف بابن تابطويت وهي أمه نسبت إلى قبيلة بَطُّويت، وهي قبيلة كبيرة من قبائل زناتة. وفي أيامه انقرضت دولة بني عبد المؤمن، وعظم شأنه، واتّسع ملكه، وطالت مدته ثم مات.

فملك بعده ولده يوسف المعروف بأبي الزردات واهتز له المغرب، وعظم شأْنه، وهابه ملوك المغرب ومع ذلك لم يأْت بطائل. وحاصر تلمسان فمكث على حصارها نحو أربع عشرة سنة، وابتنى عليها مدينة سكنها بجيوشه. ومات قبل أن يملكها، وذلك أن بعض خدامه وثب عليه فضربه.

فلما تحقق الموتَ عهد بالملك إلى ولده أبي سالم إبراهيم فملك بعده. وخالف عليه ابن أخيه أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف أبي الزردات وعمه أبو يحيى أبو بكر بن يعقوب بن عبد الحق. واجتمع عليهما بنو مرين[١] وهم على تلمسان. فخافهما إبراهيم وهرب من ليلته، فاتُّبع وقُتل.

---

(١) بنو مرين: بطن من زناتة، من البربر.

واستقر الملك لعامر وعم أبيه أبي يحيى يومًا واحدًا. ثم قام عبد الله بن أبي مدين المكناسي وزير يوسف بن يعقوب ـ وهو المستولي على الدولة ـ وعلم أن أبا يحيى إن استمر تغلب على الملك وتحكم عليه، ورأى أنه إذا انفرد عامر بالملك مع صغر سنّه كان هو المتحكم في المملكة فأغرى عامرًا بأبي يحيى، فأمر به فقُتل في اليوم الثاني. واستقل عامر بالملك مدة سنة واحدة وشهر ثم مات بطنجة.

فقام لطلب الملك بعده عمه علي بن يوسف المعروف بابن رُزيجة ورزيجة أمه أم ولد. فلم يتم له أمر. فقام عبد الله بن أبي مدين الوزير وبايع لأبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب، وهو ابن سبع عشرة سنة أو نحوها. واستقر في الملك ثلاث سنين حتى مات بناحية تازا.

ثم ملك بعده عم أبيه عثمان بن يعقوب. وقتل ابن أبي مدين في أيام سليمان بن عبد الله بأمره بمدينة فاس. وولي الوزارة بعده لأبي الربيع سليمانَ أخوه محمد بن أبي مدين. وعثمان هذا هو الملك القائم في وقتنا هذا، في سنة تسع عشرة وسبعمائة.

وإنما اقتصرنا من أخبارهم على هذه النبذة لأنهم منعوا في ابتداء دولتهم أن يُؤرَّخ لهم أو تُدوَّن أخبارهم، وقتلوا محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، وكان قد أرخ أخبارهم وأخبار غيرهم، وأعدموا ما وجدوه عنده وعند غيره من أوراق التاريخ المنسوبة لهم ولغيرهم. فهذا هو الذي منع من انتشار أخبارهم.

فلنذكر أخبار جزيرة صقلية واقريطش(١).

ذكر أخبار جزيرة صقلية ومن غزاها من المسلمين وما افتتح منها، وكيف استولت الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ عليها

قد ذكرنا صفة جزيرة صقلية، وما بها من الأنهار والعيون والفواكه والأشجار والنبات والكلأ، وما بها من المدن المشهورة. وأتينا على ذلك مبينًا، وهو في السِّفر الأول من كتابنا هذا في أخبار الجزائر. فلنذكر الآن في هذا الموضع خلاف ما قدمناه من أخبارها. فنقول:

(١) إقريطش: بفتح الهمزة وتكسر، والقاف ساكنة، والراء مكسورة، وياء ساكنة، وطاء مكسورة، وشين معجمة: اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء. . . (معجم البلدان).

أول من غزا جزيرة صقلية في الإسلام

عبد الله بن قيس الفَزاري من قِبَل معاوية بن حُديج، وكان قد بعثه من إفريقية، وذلك في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ففتح وسبى وغنم فكان مما غنم أصنامًا من ذهب وفضة مكللة بالجواهر. فحملها إلى معاوية بن أبي سفيان. فأنفذها معاوية إلى الهند لزيادة ثمنها. فأنكر المسلمون ذلك عليه.

ثم غزاها بعد ذلك محمد بن أبي إدريس الأنصاري، في أيام يزيد بن عبد الملك، فقدم بغنائم وسبايا.

ثم غزاها بشر بن صَفْوان الكَلْبي، في أيام هشام بن عبد الملك فقدم بغنائم وسبايا.

ثم غزاها حبيب بن أبي عبيدة، في سنة اثنتين وعشرين ومائة ومعه ولده عبد الرحمٰن بن حبيب. فوجهه على الخيل فلم يلقه أحد إلا هزمه عبد الرحمٰن حتى انتهى إلى سَرَقوسة، وهي دار الملك فقاتلوه، فهزمهم وضرب باب المدينة بسيفه فأثّر فيه. فهابه النصارى ورضوا بالجزية. فأخذها منهم ثم توجه إلى أبيه. فرجعا إلى إفريقية.

ثم غزاها عبد الرحمٰن بن حبيب، في سنة ثلاثين ومائة فظفر.

ثم اشتغل ولاة إفريقية بالفتن التي قدمنا ذكرها في أخبارهم فأمن أهل جزيرة صقلية، وعمرها الروم من كل الجهات، وبنوا بها المعامل والحصون، ولم يتركوا جبلًا إلا جعلوا عليه حصنًا.

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين، ولّى ملك القسطنطينية على صقلية قسنطين البطريق الملقب بسودة فعمر أسطولاً وسيره إلى برّ إفريقية. وولّى عليهم فيمي الرومي، وكان مقدمًا من بطارقته، فاختطف من بعض سواحلها مجازًا[1]، وبقي مدة. فوصل كتاب صاحب القسطنطينية إلى قسنطين، يأمره بعزل فيمي وأن يعذبه لشيء بلغه عنه. فاتصل ذلك بفيمي، فمضى إلى مدينة سرقوسة. وملكها ونزع يده من الطاعة. فخرج إليه قسنطين، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم قسنطين وقتل. وخوطب فيمي بالملك. وكان ممن انقطع إليه علج من الأرمنيين، يقال له بلاطة. فقدمه وولاه على ناحية من الجزيرة. فخالف على فيمي وخرج إليه وقاتله. فانهزم فيمي وقتل من أصحابه ألف رجل. ودخل بلاطة مدينة سرقوسة.

---

(١) مجازًا: أي قطعة من الساحل، وهي ما يعبر عنه الآن برأس الجسر.

وركب فيمي ومن معه في البحر. وتوجه إلى إفريقية إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب يستنصر به. فجمع زيادة الله وجوه أهل القيروان وفقهاءها واستشارهم في إنفاذ الأسطول إلى جزيرة صقلية. فقال بعضهم: «نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطنًا» فقال سحنون بن قادم رحمه الله: «كم بينها وبين بلاد الروم؟» فقالوا: «يروح الإنسان مرتين وثلاثة في النهار ويرجع» قال: «ومن ناحية إفريقية» قالوا: «يوم وليلة» قال: «لو كنت طائرًا ما طرت عليها» وأشار من بقي بغزوها، ورغبوا في ذلك، وسارعوا إليه. فخرج أمر زيادة الله إلى فيمي بالتوجه إلى مرسى سوسة[1]، والإقامة هناك إلى أن يأتيه الأسطول. وجمع الأسطول والمقاتلة. واستعمل عليهم القاضي أسد بن الفرات. وأقلع الأسطول من مدينة سوسة يوم السبت للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين، وهو نحو مائة مركب سوى مراكب فيمي، وذلك في خلافة المأمون. فوصل مازَر يوم الثلاثاء. فأمر بالخيل فأُخرجت من المراكب، وكانت سبعمائة فرس وعشرة آلاف راجل. وأقام ثلاثة أيام. فلم يخرج إليه إلا سرية واحدة. فأخذها، فإذا هي من أصحاب فيمي، فتركها.

ثم رحل من مازر على تعبئة قاصدًا بلاطة وهو بمرج ينسب إليه. فعبأ القاضي أسد أصحابه للقتال. وأفرد فيمي ومن معه ولم يستعن بهم. والتقوا واقتتلوا، فانهزم بلاطة ومن معه. وقُتل منهم خلق كثير. وغنم المسلمون ما معهم. ولحق بلاطة بقَصْريانة[2] ثم غلبه الخوف فخرج منها إلى أرض قِلَّوْرِية فقُتل بها.

ثم سار القاضي أسد إلى الكنيسة التي على البحر وتعرف بأفيمية واستعمل على مازر أبا زكي الكناني.

ثم سار إلى كنيسة المسلقين. فلقيه طائفة من بطارقة سرقوسة فسألوه الأمان خديعة ومكرًا. واجتمع أهل الجزيرة إلى قلعة الكُرّاث وجمعوا فيها جميع أموال أهل الجزيرة. وذلّ أهل سرقوسة وألقوا بأيديهم. فلما شاهد ذلك فيمي داخلته حمية الكفر. فأرسل إليهم أن يثبتوا وأن يجدوا في الحرب ويستعدوا. وأقام القاضي أسد

---

(١) سوسة: بضم أوله: هي مدينة عظيمة بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب إلى الصفرة، ومن السوسة يخرج إلى السوس الأقصى على ساحل البحر المحيط بالدنيا، فمن السوس الأقصى إلى القيروان ثلاثة آلاف فرسخ يقطعها السالك في ثلاث سنين... (معجم البلدان).

(٢) قصريانة: بالياء المثناة من تحت، وألف ساكنة، ثم نون مكسورة وبعدها هاء ساكنة: هو اسم لمدينة كبيرة بجزيرة صقلية على سنّ جبل يشتمل سورها على زروع وبساتين وعيون ومياه... (معجم ياقوت).

في موضعه أيامًا. وتبين له أنهم مكروا به حتى أصلحوا حصنهم وأدخلوا إليه جميع ما كان في الرَّبض وفي الكنائس من الذهب والفضة والميرة. فتقدم وناصَبهم القتال. وبثّ السرايا في كل ناحية فغنموا وسبوا سَبْيًا كثيرًا. وأتوه بالسبي والغنائم وأتته الأساطيل من إفريقية والأندلس. وشدّد القاضي الحصار على مدينة سرقوسة. فسألوه الأمان فأراد أن يفعل. فأبى عليه المسلمون وعاودوا الحرب. فمرض القاضي أسد في خلال ذلك، ومات في شعبان سنة ثلاث عشرة ومائتين.

ذكر ولاية محمد بن أبي الحواري

قال: ولما توفي القاضي أسد بن الفرات، ولّى المسلمون على أنفسهم محمد بن أبي الحُوّارَى، فضيّق على أهل سرقوسة. فوصل من القسطنطينية أسطول كبير وعساكر في البر. فعزم المسلمون على العود إلى إفريقية، فرحلوا عن سرقوسة وأصلحوا مراكبهم وركبوها. فوقفت مراكب الروم على المرسى الكبير ومنعوهم من الخروج.

فأحرق المسلمون مراكب نفوسهم. ورحلوا إلى حصن مناو[١] ومعهم فيمي. فملكوا الحصن وسكنوه.

وملكوا حصن جرجنت[٢] وسكنه طائفة من المسلمين.

ثم خرج فيمي إلى قصريانة، فخرج إليه أهلها وبذلوا له الطاعة وخدعوه. وقالوا له: «نكون نحن وأنت والمسلمون على كلمة واحدة ونخلع طاعة الملك» وسألوه أن يرجع عنهم ذلك اليوم لينظروا فيما يصالحون عليه. فرجع عنهم يومه ذلك. ثم جاءهم في الغد في نفر يسير. فخرجوا يقبلون الأرض بين يديه، وكانوا قد دفنوا سلاحًا في تلك البقعة. فلما قرب منهم، أخرجوا السلاح وثاروا به فقتلوه.

ثم وصل تُودِط البطرك من القسطنطينية في عساكر عظيمة من الأرمن وغيرهم، وتوجه إلى قصريانة. وخرج بمجموعة للقاء المسلمين. فالتقوا فانهزم تودط. وقتل من عسكره خلق كثير، وأسر من بطارقته تسعون بطريقًا. ثم توفي محمد بن أبي الحوارى في أول سنة أربع عشرة ومائتين.

فولى المسلمون عليهم زهير بن برغوث. وكان بينه وبين تودط حروب كثيرة. وحاصر المسلمين في حصنهم وضاقت عليهم الميرة وقلّت الأقوات حتى أكلوا

(١) في معجم ياقوت: ميناو: مدينة بصقلية.

(٢) في معجم البلدان لياقوت: كركنت: بلد على ساحل البحر في جزيرة صقلية.

دوابهم. ولم يزالوا كذلك حتى قدم أصْبَغ بن وكيل الهواري في مراكب كثيرة من الأندلس قد خرجوا غزاة، وقدم سليمان بن عافية الطرطوشي بمراكب. فأرسل المسلمون إليهم وسألوهم النصرة، وأرسلوا إليهم دواب. فخرجوا وقصدوا تودط، وهو مقيم على مناو. فانصرف إلى قصريانة وارتفع الحصار عن المسلمين، وذلك في جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين.

ذكر فتح مدينة بلرم(١)

كان ابتداء حصارها في جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين. ودام إلى شهر رجب سنة عشرين ومائتين، وفتحت بالأمان، وذلك في ولاية محمد بن عبد الله بن الأغلب.

وفي سنة خمس وعشرين ومائتين، استأْمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها جَرصَة وقلعة البلوط(٢)، وابلاطنوا وقلعة قُرلُّون(٣)، ومرناو، وغير ذلك.

ذكر وفاة محمد بن عبد الله بن الأغلب وولاية العباس بن الفضل بن يعقوب

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين، توفي محمد بن عبد الله بن الأغلب لعشر خلون من شهر رجب. فكانت ولايته تسع عشرة سنة. وكان في مدة ولايته لا يخرج من مدينة بَلَرْم بل كان يخرج السرايا مع ولاته. فلما مات اجتمع الناس على ولاية العباس بن الفضل فولوه. وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن الأغلب أمير القيروان فولاه الجزيرة. فكان يخرج بنفسه تارة وبسراياه أخرى. وهو يخرب في بلاد العدو ويُنكي، وينال منهم ومن بلادهم، ويصالحونه على الأموال والرقيق.

---

(١) بلرم: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وميم: هي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطىء البحر. . . وقيل: هي مدينة كبيرة سورها شاهق منيع مبني من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم. . . (معجم البلدان).

(٢) البلوط: قلعة البلوط: بصقلية، حولها أنهار وأشجار وأثمار وأراض كريمة تنبت كل شيء. . . (معجم ياقوت).

(٣) قرلون: بضم أوله وثانيه، وتشديد اللام، وسكون الواو، وآخره نون: مدينة بسواحل جزيرة صقلية.

ذكر فتح قصريانة وهي دار مملكة الروم بجزيرة صقلية

قال المؤرخ: كانت سرقوسة دار ملك الجزيرة إلى أن فتح المسلمون بلرم.

فانتقل الروم إلى قصريانة لحصانتها وجعلوها دار ملكهم. فلما كان في سنة أربع وأربعين ومائتين، خرج العباس بن الفضل فوصل إلى قصريانة وسرقوسة. وأخرج أخاه عليًا في المراكب الحربية في البحر. فلقيه الإقريطشي في أربعين شُلُنْدِيا. فقاتلهم أشدّ قتال، فهزمهم وأخذ منهم عشر شلنديات برجالها، ورجع.

ثم سيّر العباس سرية إلى قصريانة فغنموا وقدموا بعلج. فأمر العباس بقتله، فقال له العلج: «استبقِني ولك عندي نصيحة» فخلا به وسأله: «ما النصيحة؟» فقال: «أُدخِلك قصريانة» فعند ذلك خرج العباس في كانون في أنجاد رجاله، والعِلج معه، وهو في ألف فارس وسبعمائة راجل، فجعل على كل عشرة مقدمًا. ثم سار بهم ليلاً حتى نزل على مرحلة من جبل الغدير. وقدم عمه رباحًا في خيار أصحابه. وأقام هو بموضعه وهو مستتر. ومضى عمه رباح بمن معه يدبون دبيبًا حتى صاروا إلى جبل المدينة، والعلج معهم. فأراهم الموضع الذي ينبغي أن توضع عليه السلاليم. فتلطفوا في الصعود إلى الجبل، وذلك الوقت قريب الصبح وقد نام الحرس. فلما وصلوا إلى السور، دخلوا من خوْخة[1] كانت في السور يدخل منها الماء. ووضعوا السيف. وفتحوا الأبواب. وأقبل العباس يجد السير. وقصد باب المدينة، ودخلها صلاة الصبح من يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شوال. وقتل من وجد بها من المقاتلة، وكان بها بنات البطارقة وأبناء ملوك الروم. فوجد المسلمون بها ما لا يحصى من الأموال. وبنى العباس فيها مسجدًا في يومه، ونصب فيه منبرًا، وخطب عليه الخطيب يوم الجمعة.

وما زال العباس يُداوم الغزو بنفسه إلى أن توفي في يوم الجمعة لثلاث خلون من جُمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ومائتين. فكانت ولايته إحدى عشرة سنة.

قال: ولما مات العباس، ولّى الناس على أنفسهم أحمد بن يعقوب.

ثم ولُّوا عبد الله بن العباس، وكتبوا إلى أمير القيروان. فولّي خمسة أشهر.

---

(١) الخوخة: كوة في البيت تؤدي إليه الضوء.

ثم وصل إليهم خفاجة بن سفيان في سنة ثمان وأربعين ومائتين. ودام الغزو إلى أن اغتاله رجل من جنده عند مُنصرَفه من غزاة فقتله. وذلك في يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة خمس وخمسين ومائتين. ويقال: إن الذي قتله خلفون بن أبي زياد الهواري.

قال: ولما قتل خفاجة، ولّى الناس على أنفسهم ابنه محمد بن خفاجة. ثم أتته الولاية من قبل أمير القيروان. ثم قتله خدامه الخصيان لثلاث خلون من شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين وهربوا. فأُخذوا وقُتلوا.

فولّى الناس عليهم محمد بن أبي الحسين، وكتبوا إلى إفريقية. فبعث أمير إفريقية بولايتها إلى رباح بن يعقوب. وولّى الأرض الكبيرة عبد الله بن يعقوب. فمات رباح في المحرم سنة ثمان وخمسين ومائتين. ومات بعده أخوه في صفر مِن السنة.

فولّى الناس عليهم أبا العباس بن عبد الله بن يعقوب فأقام أشهرًا ثم مات. فولوا أخاه.

ثم ولّي الحسين بن رباح من قبل أمير إفريقية.

ثم عزله واستعمل عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب في شوال سنة تسع وخمسين ومائتين.

ثم عزله وولّى أبا مالك أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بحبشي. فبقي متوليًا عليها ستًا وعشرين سنة.

ثم وليها أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد في سنة سبع وثمانين ومائتين. فأقام إلى أن انخلع له أبوه إبراهيم بن أحمد من الملك، فرده إلى إفريقية. وسار إبراهيم إلى صقلية وغزا بنفسه، كما ذكرناه في أخباره آنفًا. ومات في الغزو.

ثم وليها محمد بن السرقوسي مولى إبراهيم بن أحمد.

ثم ولي علي بن أبي الفوارس في سنة تسعين ومائتين. فأقام بها إلى سنة خمس وتسعين ومائتين. فعزله زيادة الله. واستعمل أحمد بن أبي الحسين بن رباح.

ثم بلغ أهل صقلية تغلب أبي عبد الله الشيعي على بلاد إفريقية. فوثب أهل صقلية على أحمد، وانتهبوا ماله وحبسوه. وولوا عليهم علي بن أبي الفوارس لعشر من شهر رجب سنة ست وتسعين ومائتين. وأرسلوا ابن أبي الحسين إلى أبي عبد الله الشيعي. وكتبوا إليه كتابًا يسألونه إبقاء عليّ عليهم، فأجابهم إلى ذلك. وكتب إليه أن يغزو برًا وبحرًا. وكان أحمد بن أبي الحسين آخر ولاة بني الأغلب بصقلية.

وكان لكل واحد من الولاة الذين ذكرناهم غزوات وسرايا وجهاد في العدو.

قال: ولما ولّي المهدي بعد بني الأغلب، كتب إليه ابن أبي الفوارس يستأذنه في القدوم إلى إفريقية، فأذن له فخرج إليه. فلما وصل حبسه برقادة.

ذكر ولاية حسن بن أحمد بن أبي خنزير

كانت ولايته من قبل المهدي. فوصل إلى صقلية في عاشر ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين. فثار به أهل المدينة في سنة ثمان وتسعين وقبضوا عليه. وكان سبب ذلك أن عماله جاروا على الناس. واتفق أنه صنع طعامًا ودعا إليه وجوه الناس. فلما صاروا عنده زعم بعضهم أنه رأى عبيده يتعاطون السيوف المسلولة. فخافوا وفتحوا طاقات المجلس وصاحوا: «السلاح، السلاح» فثار إليهم الناس، واجتمعوا حول الدار، وأطلقوا النار في الأبواب. فأخرج إليهم من كان عنده من وجوه الناس، وأنكر أن يكون أراد بهم سوءًا فلم يقبلوا منه وتألبوا عليه. فوثب من داره إلى دار رجل من جيرانه فسقط فانكسر ساقه. فأخذوه وحبسوه. وكتبوا بذلك إلى المهدي. فعزله واغتفر فعلهم. وضبط المدينة خليل صاحب الخُمس.

ثم استعمل المهدي علي بن عمر البلوي. فوصل إلى المدينة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين. فلم يرض أهل صقلية سيرته، وكان شيخًا هينًا لينًا رفيقًا بالرعية. فألّب عليه أحمد بن قرهب ودعا الناس إلى طاعة المقتدر بالله. فأجابه إلى ذلك جماعة وولوه على أنفسهم. ووردت عليه رسل المقتدر بالله العباسي في سنة ثلاثمائة بكتاب بالولاية والخلع والبنود وطوق ذهب وسوار. ثم عصى عليه أهل صقلية وكاتبوا المهدي. واجتمعوا إلى أبي الغفار فزحف بهم إلى ابن قرهب، وقالوا له: «اخرج عنا واذهب حيث شئت» فأبى ذلك وقاتلهم ثم تحصن منهم ثم قُتل بعد ذلك في آخر سنة ثلاثمائة. فكانت ولايته أحد عشر شهرًا.

ذكر ولاية أبي سعيد موسى بن أحمد

قال: ولما قُتل ابن قرهب، أرسل المهدي موسى بن أحمد واليًا. وأرسل معه جماعة ليساعدوه على أهل صقلية إن أرادوا به سوءًا. فلما قدم، ورد عليه رؤساء جرجنت، فأكرمهم وكساهم. ثم أخذ بعد ذلك أبا الغفار فقيده وحبسه. فهرب أخوه أحمد إلى جرجنت، فألب على موسى بن أحمد. فوافقه الناس عليه. وكانت بينه وبينهم حرب شديدة. ثم طلبوا الأمان فأمنهم. وكتب بذلك إلى المهدي، فولّى مكانه سالم بن أبي راشد الكناني في سنة خمس وثلاثمائة.

ذكر ما فتح من بلاد قلورية

قال المؤرخ: وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة وصل صابر الصقلبي من إفريقية في ثلاثين حربيًا. فخرج معه سالم إلى أرض قلَّورية ففتحا مدينة طارنت[١] عنوة. ووصلا إلى مدينة أذرنت[٢]، وحاصراها وخربا منازلها. وأصاب الناس وخم فرجعوا إلى المدينة. ثم عاودوا الغزو إلى أن أذعن أهل قلورية لإعطاء الجزية وأدوها مدة بقاء المهدي.

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، أخرج القائم بن المهدي يعقوب بن إسحاق في أسطول إلى ناحية إفرنجة[٣]، ففتح مدينة جنوة ومروا بسردانية[٤] فأوقعوا بأهلها وأحرقوا مراكب كثيرة.

وفي هذه السنة، كان الطوفان بصقلية فهدم الدور.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، خالف أهل جرجنت على سالم. وأخرجوا عامله ابن أبي حُمران فأخرج إليهم سالم عسكرًا فهزموه. ورجعوا إلى سالم فقاتلهم سالم وهزمهم. ثم خرج على سالم أهل المدينة وحاربوه مع إسحاق البستاني ومحمد بن حمُّو وكانت بينهم حرب. فهزمهم وحصرهم بالمدينة.

واتصل الخبر بالقائم، فأنفذ خليل بن إسحاق في عسكر وجماعة من القواد لقتال أهل صقلية. فورد كتاب أهل البلد على القائم بطاعتهم وأنهم كرهوا أفعال سالم. فاستعمل عليهم خليل بن إسحاق. فوصل إلى المدينة في آخر سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. فأطاعه أهل صقلية فأكرمهم. وعزل عنهم عمال سالم. فأقام خليل بها أربع سنين ثم رجع إلى إفريقية.

فوليها محمد بن الأشعث وعطّاف في سنة ثلاثين وثلاثمائة. فمات محمد بن الأشعث في سنة أربع وثلاثين.

واستقل عطّاف بالأمر إلى سنة ست وثلاثين. فكتب إلى المنصور يخبره بتحامل أهل البلد وأن أمرهم يؤول إلى فساد.

---

(١) طارنت: مدينة بصقلية. (٢) أذرنت: مدينة بصقلية.

(٣) إفرنجة: وإفرنجة: أمة عظيمة لها بلاد واسعة وممالك كثيرة وهم نصارى، ينسبون إلى جد لهم واسمه افرنجش... (هذا ما ذكره ياقوت).

(٤) سردانية: جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وإقريطش أكبر منها... (معجم البلدان).

فاستعمل المنصور بن القائم بن المهدي على صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، وكان مكينًا عند المنصور لمحبته ونصحه وتقدم خدمة سلفه لآبائه. فوصل إلى صقلية وأقام بها سنتين وأشهرًا. ورجع إلى إفريقية في ولاية المعز لدين الله بن المنصور. فسأله تشريف ولده أبي الحسين بالولاية، فولاه في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.

ذكر فتح قلعة طبرمين

قال المؤرخ: وفي أيام أبي الحسين فتح المسلمون طَبَرْمِين[١]، وكانت يومئذ أشد قلاع الروم شوكة. وكان فتحها لخمس بقين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، بعد أن حوصرت سبعة أشهر ونصفًا، ونزلوا على حكم الملك دون القتل. فأمر المعز بتسميتها المُعِزِّية. ووجه الأمير أحمد إلى المعز بسبْيها وهو ألف وخمسمائة وسبعون رأسًا.

ذكر فتح رمطة وما كان بسبب ذلك من حروب

قال: لما فتح المسلمون طبرمين، وسكنوها وعمرت بهم وتحصنت، خرج أهل رَمْطَة[٢] عن الطاعة، واستنصروا بالدُّمُسْتق ملك القسطنطينية. فورد كتاب المعز إلى أحمد يأمره بإخراج الحسن بن عمار إلى حصار رمطة وقتال من بها وإزالتهم منها. فنزل ابن عمار عليها في يوم الخميس آخر شهر رجب سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، ونصب عليها المَجانيق والعَرادات[٣]. ودام القتال في كل يوم. وبنى له قصرًا وسكنه. وأخذ الناس في بنيان البيوت.

فلما بلغ ذلك الدمستق، أمر بالحشود، وجهز العساكر صحبة منويل، وأمرهم بالتعدية إلى صقلية. فابتدؤوا بالتعدية يوم الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة. وأقاموا يعدون تسعة أيام في عدد عظيم. وحفروا خندقًا حول

---

(١) طبرمين: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وكسر الميم، ثم ياء مثناة من تحت، ونون: قلعة بصقلية حصينة. . . (معجم البلدان).

(٢) رمطة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وطاء مهملة: اسم أعجمي لقلعة حصينة بجزيرة صقلية بينهما ثمانية أيام، هي بعيدة من البحر فوق جبل، وفيها آثار الماء. . . (معجم البلدان).

(٣) العرادة: آلة من آلات الحرب القديمة، وهي منجنيق صغير.

مدينة مَسِّينِي[١] وشيّدوا أسوارها. وكاتب الحسن بن عمار بذلك، فخرج الأمير أحمد بالجيوش. ورحل الكفرة من مسيني قاصدين الحسن بن عمار بقلعة رمْطة.

ذكر وقعة الحفرة على رمطة

قال: وفي النصف من شوال سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، زحف منويل بجميع عسكره من المجوس والأرمن والروس، في جمع لم يدخل الجزيرة مثله قط. فلما علم الحسن بن عمار بتقدمهم استعد للقاء، وجعل عسكرًا في مضيق ميقش وعسكرًا في مضيق دمنّش[٢]. فبلغ ذلك منويل فوجه عسكرين بإزائهما، ووجه عسكرًا ثالثًا إلى طريق المدينة يمنع من يصل إليهم بنجدة. ورتب الحسن المقاتلة على القلعة وبرز بالعساكر للقاء الكفرة. وقد عزموا على الموت.

وزحف الكفرة في ستة مواكب. وأحاطوا بالمسلمين من كل ناحية. ونزل أهل رمطة إلى من يليهم. والتقوا وقاتلت كل طائفة من يليها. فقاتلوا حتى دخل المسلمون خيام أنفسهم وأيقن العدو بالظفر. فاختار المسلمون الموت، ورأوا أنه أسلم لهم وأوفر لحظوظهم، فحميت الحرب. ونادى الحسن بن عمار بأعلى صوته: «اللهم، إن بني آدم أَسْلَمُوني فلا تُسْلِمْني». وحمل بمن معه حملة رجل واحد. فصاح منويل بالكفرة يقول: «أين افتخاركم بين يدي الملك؟ أين ما ضمنتم له في هذه الشرذمة القليلة؟». فحمي الوطيس عند ذلك. وحمل منويل وقتل رجلاً من المسلمين. فطُعن عدة طعنات فلم تعمل فيه شيئًا لحصانة ما عليه من اللباس. فحمل عليه رجل من المسلمين فطعن فرسه فعَقَره، وقُتل. وجاءت سحابة ذات برق ورعد وظلمة، وأيد الله المسلمين بنصره. فانهزم الكفرة وركبهم المسلمون بالقتل. فمالوا إلى موضع ظنوه سهلاً، فوقعوا في الوعر، وأفضى بهم إلى حرف خندق عظيم كالحفرة من بُعد قَعْره. فسقطوا فيها وقتل بعضهم فيها بعضًا. وامتلأت الحفرة منهم على طولها وعرضها وعمقها حتى مرت الخيل عليهم مسرعة. وحصل من بقي منهم في مواضع وعرة وخنادق هائلة. وكانت الحرب من أول النهار إلى بعد صلاة الظهر، وتمادت هزيمة من بقي إلى الليل. وبات المسلمون يقتلونهم في كل ناحية وأُسر جماعة من أكابرهم، وغنم المسلمون من الأموال والخيل والسلاح ما لا يُحَد. وبلغ القتلى فوق العشرة

(١) مسيني: بالفتح ثم السين المشددة مكسورة، وياء تحتها نقطتان، ونون مكسورة، وياء ساكنة: بليدة على ساحل جزيرة صقلية مما يلي الروم مقابل ريو... (معجم ياقوت).

(٢) دمنش: بتشديد النون: من مدن صقلية على البحر. هذا ما ذكره ياقوت.

آلاف.. وكان فيما غنموه سيف فيه منقوش: «هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً، طالما ضُرب به بين يدي رسول الله ﷺ». فبعث به الحسن إلى المعز لدين الله، مع مائتي عِلْج من وجوههم، ودروع وجواشن[١] وسلاح كثير. ونجا من الكفرة نفر يسير فركبوا المراكب. وجاء الخبر إلى الأمير أحمد بالهزيمة قبل وصوله إلى ابن عمار.

وفي أثر هذه الوقعة توفي الحسن بن علي بن أبي الحسين والد الأمير أحمد.

قال: وبلغ الدمستق خبر هذه الوقعة وكسرة أصحابه، وهو بالمصيصة وقد ضيَّق على أهلها، فرجع مسرعًا إلى القسطنطينية. ودام الحصار على رمطة أشهرًا. فنزل منها ألف نفس من شدة ما نالهم من الجوع. فوجه بهم الحسن بن عمار إلى المدينة وبقيت المقاتلة ثم فُتحت رمطة.

وكان بين المسلمين بعد ذلك وبين الكفار وقائع كثيرة، منها وقعة الأسطول بالمجاز، قُتل فيها من الكفار في الماء حتى احمرّ المجاز.

ثم وقع الصلح بعد ذلك بين المعز والدمستق في سنة ست وخمسين وثلاثمائة وأتته هداياه. ووصل كتاب المعز إلى الأمير أحمد يعرفه بالصلح، ويأمره ببناءِ أسوار المدينة وتحصينها ويُعْلمه أن البناء اليوم خير من غد، وأن يبني في كل إقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعًا ومنبرًا، وأن يأخذ أهل كل إقليم بسكنى مدينتهم ولا يُتركوا متفرقين في القرى. فسارع الأمير أحمد إلى ذلك، وشرع في بناء سور المدينة. وبعث إلى جميع الجزيرة مشايخ ليقفوا على العمارة.

ذكر إخلاء طبرمين ورمطة

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وصلت هدية ملك القسطنطينية فأمر المعز لدين الله بإخلاء طبرمين ورمطة، فاغتمّ المسلمون لذلك. فأمر الأمير أحمد أخاه أبا القاسم وعمه جعفرًا، فنزلا بينهما وهُدِمتا وأُحرقتا بالنار.

وفيها أمر المعز لدين الله الأمير أحمد بمفارقة صقلية والقدوم إلى إفريقية. ففارقها بجميع أهله وماله وأولاده وإخوته. فركبوا في ثلاثين مركبًا. ولم يبق منهم بصقلية أحد. فكانت ولايته خاصة ست عشرة سنة. واستخلف على صقلية يعيش مولى أبيه.

(١) الجوشن: الدرع.

ذكر ولاية أبي القاسم نيابة عن أخيه أحمد واستقلاله

قال: وفي نصف شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وصل الأمير أبو القاسم إلى صقلية نيابة عن أخيه الأمير أحمد. ثم توفي الأمير أحمد في بقية السنة، فوصل سجل المعز إلى أبي القاسم بالاستقلال. وكانت له غزوات كثيرة مع العدو. فالأولى في سنة خمس وستين وثلاثمائة. وفيها أمر بعمارة قلعة رمطة، فعمرت وولّى بعض عبيده عليها. وداوم الغزو إلى أن استشهد في غزاته الخامسة، في المحرم سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

وولّي بعده الأمير جابر بن أبي القاسم. وأتاه سجل العزيز بالله بن المعز لدين الله من مصر. فولّي سنة.

ثم عزله العزيز واستعمل جعفر بن محمد بن الحسين فوصل إلى صقلية في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة. فبقي بها إلى أن توفي في سنة خمس وسبعين.

وولّي بعده أخوه عبد الله بن محمد إلى أن توفي في شهر رمضان سنة تسع وسبعين وثلاثمائة.

وولّي بعده ابنه يوسف.

ذكر ولاية أبي الفتح يوسف الملقب بثقة الدولة

كانت ولايته عند وفاة والده بعهدٍ منه، ثم أتاه سجل العزيز بالله من مصر بالولاية فضبط الجزيرة وأحسن إلى الرعايا. واستمر إلى أن أصابه الفالج، في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، فبطل شقه الأيسر وضعف الأيمن.

فاستناب ولده جعفر، وكان بيده سجل من الحاكم بولايته بعد أبيه. ثم بعث إليه الحاكم بعد ذلك تشريفًا، وعقد له لواء، ولقبه بتاج الدولة سيف الملة. فضبط الأحوال إلى سلخ شهر رجب سنة خمس وأربعمائة. فأظهر عليه أخوه الأمير علي بن أبي الفتح الخلاف، وخرج إلى موضع بقرب المدينة. فاجتمع إليه البربر والعبيد الذين عاقدهم على القيام معه. فأخرج إليه جعفر عسكرًا فالتقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من شعبان. فجرى بينهم قتال شديد قُتل فيه كثير من البربر والعبيد الذين مع علي. وهرب من بقي منهم. وأُسر علي وجِيء به إلى أخيه الأمير جعفر فقتله. فكان بين خروجه وقتله ثمانية أيام. فعزّ ذلك على أبيه. ثم أمر جعفر بنفي من بالجزيرة من

البربر بعيالاتهم، فنُفوا حتى لم يبق منهم أحد. وأمر بقتل العبيد فقُتلوا عن آخرهم. وجعل جميع جنده من أهل صقلية. فقَلّ العسكر عنده. وأدى ذلك إلى وثوب أهل صقلية به وإخراجه.

ذكر وثوب أهل صقلية بالأمير جعفر وإخراجه

قال المؤرخ: كان سبب ذلك أنه ولّى عليهم كاتبه حسن بن محمد الباغاني[1]، فصادَر الناس وعاملهم بسوء. وأشار على جعفر أن يأخذ من صقلية الأعشار في طعامهم وثمارهم على عادة البلاد. ولم يجرِ لهم بذلك عادة وإنما كانت العادة أن يؤخذ على الزوج البقر شيء معلوم ولو أصاب ما أصاب. ثم أظهر جعفر الاستخفاف بأهل صقلية، وشيوخ بلادها، واستطال عليهم.

فزحف إليه أهل البلد صغيرهم وكبيرهم. فحاصروه في قصره وهدموا بعض أرباضه. وباتوا ليلة الاثنين لست خلون من المحرم سنة عشر وأربعمائة، وقد أشرفوا على أخذه. فخرج إليهم أبوه يوسف في محفة، وكانوا له مكرمين. فلطف بالناس ووعدهم أنه لا يخرج عن رأيهم. فذكروا له ما أحدث ولده. فقال: «أنا أكفيكم أمره، وأعتقله وأولي عليكم من ترضونه» فوقع اختيارهم على ولده أحمد الأكحل.

ذكر ولاية الأمير تأييد الدولة أحمد الأكحل

كانت ولايته في يوم الاثنين السادس من المحرم سنة عشر وأربعمائة. وتسلم أهل صقلية حسن الباغائي الكاتب، فقتلوه، وطافوا برأسه، وأحرقوه بالنار. وخاف يوسف على ابنه جعفر، فحمله في مركب حربي إلى مصر، وسار يوسف أيضًا، ومعهما من الأموال ستمائة ألف وسبعون ألف دينار. وكان ليوسف ثلاثة عشر ألف حجْر[2] سوى البغال وغيرها، فمات بمصر وليس له إلا دابة واحدة.

قال: ولما ولّي الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد. فسكن الناس وصلحت أحوالهم.

ثم وصل كتاب الحاكم ولقب الأكحل تأْييد الدولة.

---

(١) نسبة إلى باغاية، وهي مدينة كبيرة في أقصى إفريقية بين مجانة وقسطينية الهواء.

(٢) الحجر: الفرس الأنثى.

وجمع الأكحل المقاتلة، وبثّ سراياه في بلاد الكفرة، وكانوا يحرقون ويغنمون ويخربون البلاد. فأطاعه جميع القلاع.

وكان للأكحل ابن اسمه جعفر، كان يستخلفه إذا سافر للغزاة فخالف سيرة أبيه في العدل الإحسان. ثم جمع أهل صقلية وقال: «إني أحب إخراج أهل إفريقية عنكم، فإنهم قد شاركوكم في بلادكم وأموالكم» فقالوا: «كيف يكون ذلك، وقد صاهرناهم واختلطنا بهم وصرنا شيئًا واحدًا؟» فصرفهم. ثم أرسل إلى الإفريقيين وقال لهم مثل ذلك في حق أهل صقلية، فأجابوه إلى ما أراد. فجمعهم حوله فكان يحمي أملاكهم، ويأخذ الخراج من أملاك أهل صقلية.

فسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس، وأعلموه بما حلّ بهم. وقالوا: «نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا الجزيرة إلى الروم» وذلك في سنة سبع وعشرين وأربعمائة. فوجه المعز ولده عبد الله إلى صقلية بعسكر عدته ثلاثة آلاف فارس ومثلهم رَجالة. فسار إلى الجزيرة ووقعت بينه وبين الأكحل حروب، وحصَره في قصره بالخالصة. ثم اختلف أهل صقلية وأراد بعضهم نصرة الأكحل. فقتله الذين أحضروا عبد الله بن المعز غدرًا، وأتوا برأسه إلى عبد الله.

ثم رجع بعض الصقليين عن بعض، وندموا على إدخال عبد الله إلى الجزيرة، واجتمعوا على حربه، وقاتلوه فانهزم عسكر عبد الله وقُتل منهم نحو ثلاثمائة رجل. ورجعوا في المراكب إلى إفريقية.

وولّى أهل صقلية على أنفسهم الصمصام أخا الأكحل. واضطربت أحوال أهل الجزيرة، وانفردت كل طائفة بجهتها. فرجع أمر أهل المدينة إلى المشايخ الذين بها، وأخرجوا الصمصام. وانفرد القائد عبد الله بن منكوت بمازَر(١) وطرابنش(٢) والشاقة(٣) ومرسى(٤) علي وما حولها من البوادي. وانفرد القائد علي بن نعمة المعروف بابن الجواش بقلعة قصريانة ومدينة جرجنْت وقصر نوبو وما يلي ذلك. واختبطت الجزيرة. ثم ثار رجل يعرف بابن الثُّمنَة فاستولى على

(١) مازر: بفتح الزاي، وآخره راء: مدينة بصقلية نسب بعض شراح الصحيح إليها.

(٢) طرانبش: اسم مدينة بجزيرة صقلية؛ ينسب إليها قوم، منهم: سليمان بن محمد الطرابنشي الشاعر... (معجم البلدان).

(٣) شاقة: من مدن صقلية، ينسب إليها أبو عمر عثمان بن حجاج الشافي الصقلي من سكان الإسكندرية.

(٤) مرسى علي: مدينة على سواحل جزيرة صقلية.

مدينة سرقوسة وما يليها. وخرج منها بعسكر إلى مدينة قَطانيَة فدخلها، وقتل ابن المكلاتي وملكها.

وكان ابن المكلاتي مصاهرًا للقائد علي بن نعمة المعروف بابن الجواش بأخته ميمونة. فلما انقضت عِدَّتها، خطبها ابن الثمنة لأخيها، فزوجه بها، وكانت امرأة عاقلة. فجرى بينها وبينه في بعض الأيام خصام أدى إلى أن أغلظ لها في القول، فأجابته بمثله. وكان سكران، فغضب وأمر بفَصدها في عضديها وتركها لتموت. فسمع ولده إبراهيم فحضر وأحضر الأطباء، وعالجها إلى أن عادت قوتها. ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر، فأظهرت قبول عذره. ثم طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها، فأذن لها وسيّر معها التحف والهدايا. فلما وصلت إليه ذكرت له ما فعل بها، فحلف أنه لا يُعيدها إليه. فأرسل ابن الثمنة يطلبها فلم يردها إليه، فجمع عساكره، وكان قد استولى على أكثر الجزيرة وخُطب له بالمدينة وسار لحرب ابن الجواش بقصريانة. فخرج إليه وقاتله. فانهزم ابن الثمنة، وتَبعه وقتل من أصحابه فأكثر. فلما رأى ابن الثمنة أن عساكره قد تمزقت أراد الانتصار بالكفار.

ذكر استيلاء الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على جزيرة صقلية

كان سبب ذلك أنه لما وقعت الحرب بين ابن الثمنة وابن الجواش وانهزم ابن الثمنة، سار إلى مدينة ملطية، وكانت بيد الفرنج ملكوها في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. وكان ملكها حينئذ رُجار الفرنجي. فوصل إليه وقال: «أنا أملِّكك الجزيرة» فسار معه في شهر رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة. فلم يلقوا من يدافعهم، واستولوا على ما مروا عليه في طريقهم. وقصد بهم قصريانة فقاتلهم ابن الجواش. فهزمه الفرنج فرجع إلى الحصن. فرحلوا عنه واستولوا على مواضع كثيرة. ففارق الجزيرة كثير من العلماء والصالحين.

وسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس، وذكروا له ما الناس فيه بالجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها. فعمر أسطولاً كبيرًا وشحنه بالرجال والعُدد. وكان الزمان شتاء، فساروا إلى قوصرة. فهاج عليهم البحر، فغرق أكثرهم ولم ينج إلا القليل. وكان ذهاب هذا الأسطول مما أضعف المعز بن باديس وقوى العرب عليه حتى أخذوا البلاد منه. فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة لا يمنعهم أحد. واشتغل المعز بما دهمه من العرب.

ثم مات في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وولّي ابنه تميم. فبعث أسطولاً وعسكرًا إلى الجزيرة، وقدّم عليه ولديه أيوب وعليًا، فوصلوا إلى صقلية. فنزل أيوب والعسكر المدينة، ونزل علي جرجنت. ثم انتقل أيوب إلى جرجنت فأحبه أهلها. فحسده ابن الجواش فكتب إلى أهلها ليخرجوه، فلم يفعلوا. فسار إليه في عسكره وقاتله. فقُتل ابن الجواش بسهم غَرب[١] أصابه. وملك أيوب بن تميم. ثم وقع بعد ذلك بين أهل المدينة وبين عسكر أيوب فتنة، أدّت إلى القتال. ثم دار الشر بينهم وتراقّى، فرجع أيوب وأخوه في الأسطول إلى إفريقية، وذلك في سنة إحدى وستين وأربعمائة. وصحبهم جماعة من أعيان صقلية.

فلم يبق للفرنج مانع ولا ممانع، فاستولوا على الجزيرة. ولم يثبت بين أيديهم غير قصريانة وجرجنت. فحصرهما الفرنج وضيّقوا على المسلمين حتى أكلوا الميتة وعدموا ما يأكلونه. فأما أهل جرجنت فسلموها إلى الفرنج في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وبقيت قصريانة بعد ذلك ثلاث سنين. فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم. فتسلمها الفرنج خذلهم الله تعالى في سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وملك رجار جميع الجزيرة، وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين. ولم يترك لأحد من أهلها حمامًا ولا دكانًا ولا طاحونًا ولا فرنًا.

ومات رُجار بعد ذلك قبل التسعين وأربعمائة، وملك بعده ولده روجار. فسلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والسلاحية والجاندارية وغير ذلك. وخالف عادة الفرنج. وجعل له ديوانًا للمظالم يُرفَع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم ولو من ولده، وأكرم المسلمين، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه. وعمر أسطولاً كبيرًا وملك الجزائر التي بين المهدية وصقلية مثل مالطة وقوصرة وغيرهما. وتطاولوا بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وملكوا المهدية وغيرها. ثم استُرجِعت منهم على ما ذكرناه في أخبار عبد المؤمن بن علي.

ذكر أخبار جزيرة أقريطش

هذه الجزيرة دون جزيرة صقلية، وهي كثيرة الخصب مستطيلة الشكل.

وأول من غزاها في الإسلام ابن أبي أمية الأزدي[٢]، في أيام معاوية بن أبي سفيان.

---

(١) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه.

(٢) نسبة إلى بني أزد، وهم حي من همدان، من كهلان، من القحطانية.

فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها.

ثم غزاها حميد بن معيون الهَمداني في أيام الرشيد ففتح بعضها.

ثم غزاها أبو حفص عمر بن شعيب الأندلسي المعروف بالأقريطشي في أيام المأمون. ففتح منها حصنًا واحدًا. ولم يزل يفتح شيئًا بعد شيء حتى لم يبق بها من الروم أحد، وأخرب حصونهم وتداولها بنوه بعده.

ولما جرى لأهل قرطبة مع الحكم بن هشام الأموي وقعة الربض التي ذكرناها في سنة ثمان وسبعين ومائة، أخرج جماعة منهم. فوصلوا إلى الإسكندرية وأقاموا بها، فعمرت بهم وصار فيها منهم خلق كثير. فغلبوا على الإسكندرية وملكوها إلى أن جاء عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية وأخرجهم منها كما ذكرنا ذلك في أخبار الدولة العباسية في أيام المأمون بن الرشيد. فصالحهم على مال ونقلهم إلى جزيرة أقريطش. فعمروها وملكوا عليهم رجلاً منهم. وعمروا فيها أربعين قطعة. وغزوا جميع ما حولها من جزائر القسطنطينية ففتحوا أكثر الجزائر وغنموا وسبوا.

ولم يكن لملك القسطنطينية بهم قِبَل، فأفكر فيما يفعله معهم من المكر والخديعة. فأقبل الملك أرمانوس إلى عبد العزيز بن شعيب بن عمر صاحب جزيرة أقريطش. وتقرب إليه بالهدايا والتحف، وأظهر له المودة والمحبة. فلما استحكمت الوُصلة بينهم وتأكدت، أنفذ أرمانوس رجلاً من المسلمين ومعه هدية جليلة. فلما حضر بين صاحب أقريطش وقدّم الهدية، قال له: «الملك يسلم عليك ويقول لك: نحن جيران وأصدقاء، وهؤلاء المساكين سكان الجزائر قوم ضعفاء فقراء، وقد خلا أكثرهم من خوفك، وقلوبهم تحنّ إلى أوطانهم. ولي ولك بهم راحة وفائدة. فإن خَفّ عليك أن تحسب ما يحصل لك من غزهم في كل عام وأنا أضاعفه لك أضعافًا، وتؤمِّنهم وترفع عنهم الغزو وتفسح لهم في السفر إلى جزيرتك، ويتوجه التجار إليك، ويحصل لك من الحقوق أضعاف ما يحصل لك من الغزو» فأجابه إلى سؤاله. وتحالفا وتصالحا واتفقا على مال يؤدّى في كل عام. فوفي له أرمانوس بجميع ذلك. وألزم التجار بالسفر إلى اقريطش والقسطنطينية وجميع الجزائر. فكثرت أموال صاحبها وأخذ في جمع الأموال واختصر العطاء للجند.

ثم وقع بالقسطنطينية قحط وغلاء. فأنفذ الملك إلى صاحب اقريطش رسولاً يقول: «قد وقع بالبلاد ما اتصل بك من الجدب. ولنا خيل عِراب[1] برسم النتاج تعزّ

---

(١) العراب: العتيقة السليمة من الهجنة.

علينا، فإن رأيت أن أنفذها إلى الجزيرة، وما نتجت من الذكور تكون للملك، وما نتجت من الإناث فهو لك» فأجابه إلى ذلك. فأرسل إلى الجزيرة خمسمائة فرس في المراكب ومعها رُعاتها.

فلما استقرت الخيل بالجزيرة، عبأ العساكر على تلطف واستخفاء، وقدم عليها نخفور الدمستق وأنجاد رجاله، وذلك في غرة المحرم سنة خمس وثلاثمائة. فدخل الأسطول إلى الجهة التي فيها الأفراس. ونزل كل فارس بسرجه ولجامه وشدوا له على فرس وفاجؤوا أهل الجزيرة على غرة وغفلة. فملكوها وقتلوا صاحبها ومن معه من الجند، وعفَوا عن قتل الرعية. ووجدوا الأموال التي كانوا بذلوها مضاعفة فأخذوها. وسبَوا نساء الأجناد وذراريهم. وشحنوها بالعُدد والأجناد.

ذكر تنصر أهل أقريطش

قال المؤرخ: ولما قرب عيد الميلاد، أمروا أكابر الجزيرة بالمسير إلى الملك للهناء بالعيد. فتوقف الأمائل ونفّذوا مائة رجل من أوساط القوم. فلما وصلوا إلى الملك وسلموا عليه، أمر بإكرامهم، وخلع عليهم، وأمر لكل رجل منهم بعشر أوان من الذهب. فرجعوا فرحين، وندم من تأخر عن المسير.

فلما أقبل عيد الفصح، تهيأ أكابر أهل الجزيرة للمسير، واجتمع منهم جماعة كبيرة. فلما وصلوا إلى القسطنطينية، أمر الملك أن يُجعَلوا في موضع، وجعل عليهم حرسًا. ومُنعوا من الطعام والشراب إلى أن أيقنوا بالهلاك. فشكوا ذلك إلى الموكلين بهم وقالوا: «القتل خير لنا من هذا. وما الذي يريده الملك منا؟» قالوا: «إنه يريد دخولكم في دين النصرانية، فإن لم تجيبوا متم على هذه الحالة وسُبيت ذراريكم». فلما اشتد عليهم البلاء تنصروا فخلع عليهم، وتوجهوا إلى أهاليهم.

فلما وصلوا الجزيرة مُنعوا الدخول إلى بيوتهم. وقيل لهم: «أنتم نصارى وهؤلاء مسلمون. فإن دخلوا في دين الملك اجتمعتم، وإن أبوا ملكناهم» فتنصر الباقون في يوم واحد. ثم مات الآباء وبقي الأولاد على أشد ما يكون في دين النصرانية والبغض في المسلمين. نسأل الله تعالى أن لا يُمكَر بنا ولا بأهالينا ولا بذرارينا ولا بعقبنا، ولا يمتحننا في ديننا، وأن يجعل عواقب أمورنا خيرًا من مبادئها، بمَنّه وكرمه.

ولنصل هذا الفصل بذكر ما استولى عليه الفرنج من جزيرة الأندلس.

ذكر ما استولى عليه الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ من البلاد الإسلامية بجزيرة الأندلس بعد أخذ طليطلة

هذه المدن التي نذكرها مما استولى الفرنج، خذلهم الله تعالى، عليه من أعمال جزيرة الأندلس. كان الاستيلاء عليها في التواريخ التي نذكرها، وهي في المدة التي انقطعت فيها الأخبار وتعطلت التواريخ. فلم تصل إلينا مفصلة، ولا علمنا كيف أُخذت ولا ممن انتُزعت من ملوك المسلمين، فنذكر ذلك على وجهه. وإنما اطلعنا من حالها على تواريخ الاستيلاء عليها خاصة. فرأينا ذكر ذلك أولى من إهماله.

والمدن التي أُخذت هي مدينة قرطبة استولى الفرنج عليها في يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

ومدين بَلنسية، نازلها الروم وملكوها صلحًا في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين وستمائة.

وجَيَّان: استولوا عليها في سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

وطرطوشة: أُخذت في سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ولاردة[١]: أُخذت في سنة خمس وأربعين وستمائة.

ومدينة إشبيلية: أُخذت في مستهل شهر رمضان سنة ست وأربعين وستمائة.

ولم يتأخر للمسلمين بجزيرة الأندلس إلى وقتنا هذا غير الجزيرة الخضراء وما يليها. وهي جزء يسير جدًا بالنسبة إلى ما أُخذ. أعاد الله ما أُخذ، وحمى ما بقي. وقد بلغنا أن الجزيرة الخضراء حاصرها الفرنج، خذلهم الله تعالى، في سنة خمس عشرة وسبعمائة ونحوها. ولم يصل إلينا ما تجدد من ذلك. فإن وصل إلينا من خبرها شيء أوردناه في حوادث السنين في أخبار ملوك الديار المصرية، إن شاء الله تعالى.

فهذا ما أمكن إيراده من أخبار بلاد المغرب. فلنذكر خلاف ذلك.

---

(١) لاردة: مدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طركونة منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجوف. . . (معجم البلدان).

الباب السابع
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين في الدولة الأموية والدولة العباسية فقتل دونها

وذلك بعد مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

كان أول من رام ذلك منهم في الدولة الأموية:

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وكان ظهوره في سنة إحدى وعشرين ومائة، وقُتل في سنة اثنتين وعشرين في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان. وقد اختلف في سبب قيامه وطلبه الخلافة ما هو. فقيل: إن زيدًا هذا وداود بن علي بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قدموا على خالد بن عبد الله القَسري، وهو أمير العراق. فأجازهم وأكرمهم ورجعوا إلى المدينة. فلما ولي يوسف بن عمر الثَّقَفي الراق كتب إلى هشام بذلك. وذكر له أن خالدًا ابتاع من زيد أرضًا بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم ردّ الأرض عليه. فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيِّرهم إليه ففعل. فسألهم هشام عن ذلك، فأقروا بالجائزة، وأنكروا ما سوى ذلك، وحلفوا فصدقهم. وأمرهم بالمسير إلى العراق، ليقابلوا خالد بن عبد الله. فساروا على كره وقابلوا خالدًا فصدقهم فعادوا نحو المدينة. فلما نزلوا القادسية راسل أهل الكوفة زيدًا فعاد إليهم.

وقيل: بل ادعى خالد القسري أنه أودع زيدًا وداود بن علي ونفرًا من قريش مالاً. فكتب يوسف الثقفي بذلك إلى هشام، فأحضرهم هشام من المدينة، وسيّرهم إلى يوسف ليجمع بينهم وبين خالد. فقدموا عليه، فقال يوسف لزيد: «إن خالدًا زعم أنه أودعك مالاً» قال: «كيف يودعني وهو يشتم آبائي على منبره؟» فأرسل إلى خالد فأحضره في عباءة. فقال: «هذا زيد قد أنكر أنك قد أودعته شيئًا». فنظر خالد إليه وإلى داود، وقال ليوسف: «أتريد أن تجمع مع إثمك في إثمًا في هذا؟ كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر؟» فقال لخالد: «ما دعاك إلى ما صنعت؟» فقال: «شدِّد على العذاب فادَّعيت ذلك، وأملت أن يأتي الله بفرج قبل قدومك». فرجعوا وأقام زيد وداود بالكوفة.

وقيل: إن يزيد بن خالد القسري هو الذي ادّعى المال وديعة عند زيد. فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف، استقالوه خوفًا من شر يوسف وظلمه. فقال: «أنا أكتب إليه بالكف عنكم» وألزمهم بذلك، فساروا على كره. فجمع يوسف بينهم وبين يزيد، فقال يزيد: «ليس لي عندهم قليل ولا كثير». قال يوسف: «أفبي تهزأ أم بأمير المؤمنين؟» فعذبه يومئذ عذابًا كاد يهلكه. ثم أمر بالقرشيين فضُربوا وترك زيدًا. ثم استحلفهم وأطلقهم فلحقوا بالمدينة. وأقام زيد بالكوفة، وكان زيد قد قال لهشام لما أمره بالمسير إلى يوسف: «والله، ما آمن إن بعثتَني إليه أن لا نجتمع أنا وأنت حيين أبدًا» قال: «لا بد من المسير إليه».

وقيل: كان السبب في ذلك أن زيدًا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي في وقُوف[1] على ابن أبي طالب رضي الله عنه؛ زيد يخاصم عن بني حسين، وجعفر يخاصم عن بني حسن. فكانا يتبالغان كل غاية ويقومان فلا يُعيدان مما كان بينهما حرفًا. فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن حسن بن الحسن. فتنازعا يومًا بين يدي خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة. فأغلظ عبد الله لزيد وقال: «يا بن السندية» فضحك زيد وقال: «قد كان إسماعيل لأمة، ومع ذلك فقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم تصبر غيرها» يعني فاطمة ابنة الحسين أُم عبد الله فإنها تزوجت بعد أبيه الحسن. ثم ندم زيد واستحيى من فاطمة وهي عمته، فلم يدخل عليها زمانًا. فأرسلت إليه: «يا ابن أخي إني لأعلم أن أمك عندك كأم عبد الله عنده» وقالت لعبد الله: «بئس ما قلت لأم زيد، أمَ والله لنِعمَ دخيلة القوم كانت».

قال: فذُكر أن خالدًا قال لهما: «اغدُوا علينا غدًا. فلستُ لعبد الملك إن لم أفصل بينكما». فباتت المدينة تغلي كالمراجل يقول قائل: قال زيد كذا، ويقول قائل: قال عبد الله كذا. فلما كان من الغد، جلس في المسجد واجتمع الناس، فمن بين شامت ومهموم. فدعا بهما خالد، وهو يحب أن يتشاتما. فذهب عبد الله يتكلم. فقال زيد: «لا تعجل يا أبا محمد، أعتَقَ زيد ما يملك إنْ خاصمك إلى خالد أبدًا» ثم أقبل على خالد فقال له: «أجمعتَ ذرية رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر أو عمر؟ فقال خالد: «أما لهذا السفيه أحد؟» فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم فقال: «يا ابن أبي تراب، وابن حسين السفيه، أما ترى لوالٍ عليك حقًا ولا طاعة؟» فقال زيد «اسكت أيها القحطاني، فإنا لا نجيب مثلك» قال: «ولمَ ترغب عني؟ فواللّهِ إني لخير منك، وأبي خير من أبيك، وأمي خير من أمك». فتضاحك زيد وقال: «يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب، أفتذهب الأحساب؟ فوالله ليذهب

---

(١) وقوف عليّ: يراد بها: ولاية أوقاف عليّ.

دين القوم وما تذهب أحسابهم». فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال: «كذبت والله أيها القحطاني، فوالله لهو خير منك نفسًا وأمًا وأبًا ومحتدًا». وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفًا من حَصباء فضرب بها الأرض ثم قال: «إنه والله ما لنا على هذا من صبر» وقام.

وشخَص زيد إلى هشام بن عبد الملك فجعل هشام لا يأذن له فَيرفع إليه القصص[١]. فكلما رفع قصة يكتب هشام في أسفلها «ارجع إلى منزلك» فيقول زيد: «والله، لا أرجع إلى خالد أبدًا». ثم أذن له يومًا بعد طول حبس، ورقي عِلِّية طويلة. وأمر خادمًا أن يتبعه بحيث لا يراه زيد ويسمع ما يقول. فصعد زيد، وكان بادنًا، فوقف في بعض الدرجة فسمعه يقول: «والله، لا يحب الدنيا أحد إلا ذلّ» ثم صعد إلى هشام فحلف له على شيء. فقال: «لا أصدقك» فقال: «يا أمير المؤمنين إن الله لم يرفع أحدًا عن أن يرضَى بالله، ولم يضَع أحدًا عن أن لا يُرضَى بذلك منه» فقال هشام: «لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها، ولستَ هناك وأنت ابن أمَة». قال زيد: «إن لك جوابًا» قال: «فتكلم» قال: «إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة من نبي ابتعثه. وقد كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة وأخوه من صَريحة. فاختاره الله عليه، وأخرج منه خير البشر. وما على أحد من ذلك إذا كان جده رسول الله ﷺ ما كانت أمه» قال له هشام: «اخرج» قال: «أخرج ثم لا أكون إلا بحيث تكره» فقال له سالم: «يا أبا الحسين، لا يظهرن هذا منك».

فخرج من عنده وسار إلى الكوفة. فقال له محمد بن عمر بن أبي طالب: «أُذكِّرك الله يا زيد، لَما لحقت بأهلك، ولا تأت أهل الكوفة فإنهم لا يَفُون لك». فلم يقبل وقال: «خُرِج بنا أسرى على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق إلى تيس ثقيف يلعب بنا». وقال[٢]: [من الكامل]

بَكَرَتْ تُخوِّفُني الحُتوفَ كأنني ... أصبحتُ من غَرضِ الحتوف بمَعْزل[٣]
فأجبتها إن المنية منهل ... لا بد أن أُسْقى بكأس المنهلِ
إن المنية لو تُمثَّل مُثِّلت ... مِثلي إذا نزلوا بضيق المنزلِ
فاقْنَي حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أُقْتَل[٤]

---

(١) المراد بالقصص، ما نسميه اليوم المذكرات التي تضم ما يؤيد قضيته.
(٢) الأبيات من قصيدة لعنترة بن شدّاد «راجع ديوانه ص١٢٠ ط دار الكتب العلميّة».
(٣) بكرت: أسرعت وعجّلت.
(٤) اقني: الزمي.

ثم قال زيد: «أستودعك الله، وإني أعطي الله عهدًا أن لا دخلت يدي في طاعة هؤلاء ما عشت».

وفارقه وأقبل إلى الكوفة. فأقام بها مستخفيًا يتنقل في المنازل. وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه. فبايعه جماعة منهم سَلَمة بن كُهَيل، ونصر بن خزيمة العبسي، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، وناس من وجوه أهل الكوفة. وكانت بيعته: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقَسْم هذا الفَيء بين أهله بالسواء، ورد المظالم، وإقفال[١] المُجْمَر[٢] ونصرة أهل البيت. أتبايعون على ذلك؟» فإذا قالوا: «نعم» وضع يده على أيديهم ويقول: «عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لَتَفِينّ ببيعتي، ولتقاتلن عدوي، ولتنصحن لي في السر والعلانية» فإذا قال: «نعم» مسح يده على يده. ثم قال: «اللهم اشهد» فبايعه خمسة عشر ألفًا، وقيل: أربعون ألفًا. وأمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه يستعدّ ويتهيأ. فشاع أمره في الناس. هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام واختفى بها يبايع الناس.

وأما على قول من زعم أنه أتى الكوفة إلى يوسف بن عمر لمقابلة خالد بن عبد الله القسري أو ابنه يزيد بن خالد، فإنه يقول: إنه أقام بالكوفة ظاهرًا ومعه داود بن علي بن عبد الله بن عباس. وأقبلت الشيعة تختلف إلى زيد، وتأمره بالخروج، ويقولون: «إنا لنرجو أن تكون أنت المنصور، وأن هذا الزمان هو الذي يهلك فيه بنو أمية» فأقام بالكوفة.

وجعل يوسف بن عمر الثقفي يسأل عنه، فيقال: «هو هاهنا» ويبعث إليه ليسير فيقول: «نعم» ويعتل بالوجع. فمكث ما شاء الله. ثم أرسل إليه يوسف ليسير، فاحتج بأنه يبتاع أشياء يريدها. ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفة، فاحتج بأنه يحاكم بعض آل طلحة بن عبيد الله في ملك بينهما بالمدينة، فأرسل إليه ليوكل وكيلاً ويرحل عنها.

فلما رأى جد يوسف في أمره سار حتى أتى القادِسية وقيل الثَّعْلَبية[٣]. فتبعه

---

(١) الإقفال: الإرجاع.

(٢) المجمر: الجندي الذي طالت غيبته عن أهله.

(٣) الثعلبية: من منازل مكة من الكوفة بعد الشقوق وقيل الخزيمية، وهي ثلثا الطريق، وأسفل منها ماء يقال له الضويجعة على ميل منها مشرف. . . (معجم البلدان).

أهل الكوفة وقالوا: «نحن أربعون ألفًا لم يتخلف عنك أحد، نضرب عنك بأسيافنا، وليس هاهنا من أهل الشام إلا عدة يسيرة بعضُ قبائلنا تكفيهم بإذن الله تعالى» وحلفوا بالأيمان المغلظة، فجعل يقول: «إني أخاف أن تخذلوني وتُسلموني كفعلكم بأبي وجدي» فيحلفون له. فقال له داود بن علي: «يا ابن عم، إن هؤلاء يغرونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعزّ عليهم منك: جدك علي بن أبي طالب حتى قتل، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له ثم خذلوه وأسلموه، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم» فقالوا لزيد: «إن هذا لا يريد أن تظهر أنت، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم» فقال زيد لداود: «إن عليًا كان يقاتله معاوية بدهائه ومكره، وإن الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم» فقال داود: «إني خائف إنْ رجعت معهم أن لا يكون أحد أشد عليك منهم، وأنت أعلم». ومضى داود إلى المدينة ورجع زيد إلى الكوفة.

فلما رج زيد، أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من رسول الله ﷺ وحقه فأحسن. ثم قال له: «نَشَدْتُك الله: كم بايعك؟» قال: «أربعون ألفًا» قال: «فكم بايع جدك؟» قال: «ثمانون ألفًا» قال: «فكم حصل معه؟» قال: «ثلاثمائة» قال: «نشدتك الله: أنت خير أم جدك؟» قال: «جدي» قال: «فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟» قال: «ذلك القرن» قال: «أفتطمع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟» قال: «قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وعنقهم» قال: «أفتأذنُ لي أن أخرج من هذا البلد، فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسي» فأذن له فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله بن الحسن بن الحسن إلى زيد: «أما بعد، فإن أهل الكوفة نُفخ[1] العلانية، خُور السريرة، هرج في الرخاء، جُزع في اللقاء، تقدُمهم ألسنتهم، ولا تُشايعهم قلوبهم. ولقد تواترت إلي كتبهم بدعوتهم، فصمَمت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأسًا منهم واطراحًا لهم. وما لهم مثل إلا ما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنْ أُهملتم خُضْتم، وإنْ حُوربتم خُرتم[2]، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أُجبتم إلى مُشاقّة نَكَصْتم» فلم يصغ زيد إلى شيء من ذلك وأقام على حاله يبايع الناس ويتجهز للخروج.

---

(١) النفخ: الفخر والكبر.
(٢) خار: ضعف وانكسر.

وتزوج بالكوفة ابنة يعقوب بن عبد الله السلمي. وتزوج أيضًا ابنة عبد الله بن أبي العنبس الأزدي. وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت تتشيع، فأتت زيدًا تسلم عليه، وكانت جميلة حسنة قد دخلت في السن ولم يظهر عليها. فخطبها زيد إلى نفسها. فاعتذرت بالسن وقالت له: «لي بنت هي أجمل مني وأبيض وأحسن دَلاً وشكلاً» فضحك زيد ثم تزوجها وكان ينتقل بالكوفة تارة عندها، وتارة عند زوجته الأخرى، وتارة في بني عبْس، وتارة في بني نَهْد، وتارة في بني تغلب وغيرهم إلى أن ظهر.

ذكر ظهور زيد بن علي بن الحسن ومقتله

كان ظهور زيد ومقتله في سنة اثنتين وعشرين ومائة. وذلك أنه لما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج، أخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز. فانطلق سليمان بن سراقة البارقي إلى يوسف بن عمر فأخبره. فبعث يوسف في طلب زيد فلم يوجد. وخاف زيد أن يؤخذ فتعجل الخروج قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة، وعلى الكوفة يومئذ الحكم بن الصَّلْت، وعلى شرطته عمرو بن عبد الرحمٰن من القارة[1]، ومعه عبيد الله بن العباس الكندي في ناس من أهل الشام، ويوسف بن عمر بالحيرة.

فلما رأى أصحاب زيد بن علي أن يوسف بن عمر قد بلغه حاله وأنه يبحث عن أمره، اجتمع إليه جماعة من رؤوسهم فقالوا: «رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟» قال زيد: «رحمهما الله وغفر لهما. ما سمعت أحدًا من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيرًا وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم: أنّا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، فدفعونا عنه. ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرًا. وقد وَلُوا فعدَلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسُّنة» قالوا: «فلم يظلمْك هؤلاء إذا كان هؤلاء لم يظلموك فلمَ تدعو إلى قتالهم؟» فقال: «إن هؤلاء ليسوا كأولئك. هؤلاء ظالمون لي ولأنفسهم ولكم. وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وإلى السنن أن تُحيا، وإلى البدع أن تُطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلستُ عليكم بوكيل» ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: «سبق الإمام»، يعنون محمدًا الباقر، وكان قد مات. وقالوا: «جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه» فسماهم زيد الرافضة. وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حيث فارقوه. وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد. فقال: «بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا» فعادوا وكتموا ذلك.

---

(١) القارة: اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وهي كانت آخر حدود حمص، وما عداها من أعمال دمشق... (معجم البلدان).

وكان زيد قد واعد أصحابه أول ليلة من صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة. فبلغ يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم يأمره أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم يحصرهم فيه، فجمعهم فيه. وطلبوا زيدًا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري، فخرج منها ليلاً. ورفعوا النيران ونادوا: «يا منصور» حتى طلع الفجر.

فلما أصبحوا بعث زيد القاسم الحضرمي وآخر من أصحابه يناديان بشعارهم. فلما كانوا بصحراء عبد القيس لقيهم جعفر بن العباس الكندي. فحملوا عليه وعلى أصحابه، فقُتل الذي كان مع القاسم، وارتُثَّ[1] القاسم وأُتي به الحكم فضرب عنقه. فكانا أول من قُتل من أصحاب زيد.

فأغلق الحكم دروب السوق وأبواب المسجد على الناس. وبعث إلى يوسف بالحيرة فأخبره الخبر. فأرسل جعفر بن العباس ليأتيه بالخبر. فسار في خمسين فارسًا حتى بلغ جبانة سالم، فسأل ثم رجع إلى يوسف فأخبره. فسار يوسف إلى تل قريب من الحيرة، فنزل عليه ومعه أشراف الناس. فبعث الريان بن سليمة الإراشي في ألفين ومعه ثلاثمائة من القيقانية[2] رجّالة معهم النُّشّاب.

وأصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتي رجل وثمانية عشر رجلاً. فقال زيد: «سبحان الله! أين الناس؟» فقيل: «إنهم في المسجد الأعظم محصورون» فقال: «والله، ما هذا بعذر لمن بايعنا» وسمع نصر بن خزيمة العبسي النداء فأقبل إليه. فلقي عمرو بن عبد الرحمٰن صاحب شرطة الحكم في خيله من جُهينة في الطريق فحمل عليه نصر، فقُتل عمرو وانهزم من كان معه.

وأقبل زيد على جبانة سالم حتى انتهى إلى جبانة الصائديين[3] وبها خمسمائة من أهل الشام. فحمل عليهم زيد فيمن معه فهزمهم. وانتهى زيد إلى دار أنس بن عمرو الأزدي، وكان فيمن بايعه، وهو في الدار. فنُودي فلم يجبهم. وناداه زيد فلم يخرج إليه. فقال زيد: «ما أخْلَفكم! قد فعلتموها! الله حَسيبكم!» ثم انتهى زيد إلى الكُناسة[4] فحمل على من بها من أهل الشام فهزمهم. ثم سار زيد ويوسف ينظر إليه

---

(١) ارتث: أي صرع ولم يمت بعد.

(٢) نسبة إلى قيقان: وهي بلاد قرب طبرستان، وقيقان أيضًا: من بلاد السند مما يلي خراسان وإليها تنسب الخيل القيقانية. . . (معجم البلدان).

(٣) في معجم ياقوت: الصيادين: وهي قرية تجاور الكوفة.

(٤) الكناسة: بالضم: هي محلة بالكوفة.

في مائتي رجل، فلو قصده زيد لقتله، والريان يتبع آثار زيد بالكوفة في أهل الشام. فأخذ زيد على مصلّى خالد حتى دخل الكوفة. وسار بعض أصحابه نحو جبانة مخنف بن سليم فلقوا أهل الشام فقاتلوهم. فأسر أهل الشام منهم رجلًا، فأمر به يوسف بن عمر فقُتل.

فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال: «يا نصر بن خزيمة، أتخاف أن يكونوا فعلوها حُسَيْنية؟» قال: «أما أنا فوالله لأُقاتلن معك حتى أموت، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم» فلقيهم عبيد الله بن العباس الكندي عند دار عمر بن سعد، فاقتتلوا فانهزم عبيد الله أصحابه. وجاء زيد حتى انتهى إلى باب المسجد. فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون: «يا أهل المسجد، اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، اخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم في دين ولا دنيا» فرماهم أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد.

وانصرف الريان عند المساء إلى الحيرة. وانصرف زيد فيمن معه. وخرج إليه ناس من أهل الكوفة. فنزل دار الرزق. فأتاه الريان بن سليمة فقاتله عن دار الرزق. وخرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسْوَأ شيء ظنًا.

فلما كان الغد أرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد المزني في أهل الشام، فانتهى إلى زيد في دار الرزق. فلقيه زيد وعلى مجنبتيه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا. وحمل نائل بن فروة العبسي من أهل الشام على نصر بن خزيمة. فضربه بالسيف فقطع فخذه، وضربه نصر فقتله. ولم يلبث نصر أن مات. واشتد قتالهم فانهزم أصحاب العباس، وقتل منهم نحو من سبعين رجلاً.

فلما كان العشي عبأهم يوسف بن عمر ثم سرحهم. فالتقوا هم وأصحاب زيد، فحمل عليهم في أصحابه، فكشفهم. وتبعهم حتى أخرجهم إلى السبخة ثم حمل عليهم بالسبخة حتى أخرجهم إلى بني سليم.

وجعلت خيلهم لا تثبت لخيله. فبعث العباس إلى يوسف يعلمه ذلك وقال له: «ابعث إليّ الناشبة» فبعثهم إليه، فجعلوا يرمون أصحاب زيد. فقاتل معاوية بن إسحاق الأنصاري بين يدي زيد قتالاً شديدًا فقُتل. وثبت زيد ومن معه إلى الليل. فرُمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت في دماغه. ورجع أصحابه، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا للمساء والليل.

ونزل زيد في دارٍ من دور أرحب. وأحضر أصحابه طبيبًا، فانتزع النصل فضج زيد. فلما نزع مات زيد رحمه الله. فقال أصحابه: «أين ندفنه؟» فقال بعضهم: «نطرحه في الماء» وقال بعضهم: «بل نقطع رأسه ونلقيه في القتلى» فقال ابنه يحيى: «والله، لا يأكل لحم أبي الكلاب» وقال بعضهم: «ندفنه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء» ففعلوا. فلما دفنوه أجروا الماء عليه. وقيل: دفن بنهر يعقوب: سَكَر[1] أصحابه الماء، ودفنوه وأجروا الماء. وكان معهم مولى لزيد سِنْدي، وقيل: رآهم قصار، فدل عليه. وتفرّق الناس عنه.

وسار ابنه يحيى نحو كَربلاء. فنزل نِينوَى[2] على سابق مولى بشر بن عبد الملك بن بشر. ثم إن يوسف بن عمر تتبع الجرحى في الدور. فدله السندي مولى زيد يوم الجمعة على زيد. فاستُخرج من قبره فقُطع رأسه وسُيِّر إلى يوسف بن عمر، وهو بالحيرة، سيّره إليه الحكم بن الصلت. فأمر يوسف أن يُصلَب، فصُلِب زيد بالكناسة، هو ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق وزياد النهدي، وأمر بحراستهم. وبعث الرأس إلى هشام بن عبد الملك، فصُلب على باب مدينة دمشق. ثم أُرسل إلى المدينة. وبقي البدن مصلوبًا إلى أن مات هشام وولي الوليد، فأمر بإنزاله وإحراقه.

وقيل: كان خِراش بن حَوشَب بن يزيد الشيباني على شرطة يوسف بن عمر، وهو الذي نبش زيدًا وصلبه. فقال السيد الحِميَري[3]: [من مجزوء الخفيف]

بِتُّ ليلي مُسهَّدًا ساهرَ العين مُقْصَدا[4]
ولقد قلتُ قولةً وأطلتُ التَّبلُّدا:
لعن الله حَوشَبًا وخِراشًا ومَزْيَدا
ويَزيدًا فإنّه كان أعتى وأعتَدا[5]

(١) سكر الماء: حبسها.
(٢) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو: هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء... (معجم البلدان).
(٣) هو السيد الحميري الشاعر المشهور من ولد يزيد بن المفرغ الحميري، والسيد: هو إسماعيل بن محمد بن بكار بن يزيد المذكور، ولقبه السيد، وكنيته أبو هاشم، وهو من كبار الشيعة. وله في ذلك أخبار وأشعار مشهورة... (وفيات الأعيان ٦:٣٤٣).
(٤) المقصد: المريض المشرف على الهلاك.
(٥) العاتي: الظالم، والأعتد: الشّديد والمهيّأ للظلم.

ألـــفَ ألـــفٍ وألـــفَ ألـــ فِ مـــن الـــلـعـــن سَـــرمَـــدا
إنّـــهـــم حـــاربـــو الإلـــ ـه وآذَوا مـــحـــمـــدا
شَـــرِكـــوا فـــي دم الـــحـــسيـــ ـن وزيـــدٍ تَـــعـــبُّـــدا
ثـــم عـــالُـــوه فـــوق جِـــذ ع صـــريـــعًـــا مـــجـــرَّدا[1]
يـــا خـــراش بـــن حـــوشـــبٍ أنـــت أشـــقَـــى الـــوَرَى غـــدا

وأما يحيى بن زيد بن علي فإنه قيل فيه غير ما قدمناه. وهو أنه لما قُتل زيد قال له رجل من بني أسد من أهل خراسان: «إن بخراسان لكم شيعة، والرأي أن تخرج إليها» قال: «وكيف لي بذلك؟» قال: «تتوارى حتى يسكن الطلب ثم تخرج» فواراه عنده. ثم خاف فأتى به عبد الملك بن بشر بن مروان فقال له: «قرابة زيد بك قريبة وحَقُّه عليك واجب» فقال: «أجل، ولقد كان العفو عنه أقرب للتقوى» فقال: «قد قُتل وهذا ابنه غلام حدَث لا ذنب له، وإنْ علم يوسف به قتله أفَتُجيره؟» قال: «نعم» فأتاه به، فأقام عنده. فلما سكن الطلب سار في نفر من الزيدية إلى خراسان.

ذكر مسير يحيى بن زيد بن عليّ إلى خراسان ومقتله

قال: ولما سكنت الفتنة، سار يحيى إلى خراسان. فأتى بلخ[2] فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود، حتى هلك هشام بن عبد الملك وولّي الوليد بن يزيد. فكتب يوسف بن عمر الثقفي إلى نصر بن سيار بمسير يحيى بن زيد وبمنزله عند الحريش، وقال له: «خذه أشد الأخذ» فأخذ نصر الحريش فطالبه بيحيى. فقال: «لا علم لي به» فأمر به فجُلد ستمائة سوط. فقال الحريش: «والله، لو أنه تحت قدمي ما رفعتهما عنه». فلما رأى ذلك قريش ابن الحريش قال: «لا تقتل أبي وأنا أدلك على يحيى» فدله عليه.

فأخذه وحبسه. وكتب نصر إلى الوليد يخبره به. فكتب إليه الوليد يأمره أن يؤمنه ويخلي سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه نصر، وأمره أن يلحق بالوليد، وأمر له بألفي درهم.

---

(١) عالوه: رفعوه وصلبوه.

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.

فسار إلى سرَخْس(١) وأقام بها. فكتب نصر إلى عبد الله بن قيس بن عُبَاد يأمره أن يسيره عنها.

فسار حتى انتهى إلى بَيهَق(٢). وخاف أن يغتاله يوسف بن عمر فعاد إلى نيسابور، وبها عمرو بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلًا. فرأى يحيى تجارًا فأخذ هو وأصحابه دوابهم، وقالوا: «علينا أثمانها» فكتب عمرو بن زرارة إلى نصر يخبره. فكتب إليه نصر يأمره بمحاربته. فقاتله عمرو وهو في عشرة آلاف ويحيى في سبعين رجلًا. فهزمهم يحيى وقتل عمرًا، وأصاب دواب كثيرة.

وسار حتى مرّ بهَراة فلم يعرض لمن بها، وسار عنها. وسَرّح نصر بن سيار سلم بن أحوَز في طلب يحيى. فلحقه بالجُوزجان(٣) فقاتله قتالاً شديدًا. فرُمي يحيى بسهم فأصاب جبهته: رماه رجل من عَنَزة(٤) يقال له عيسى. وقُتل أصحاب يحيى من عند آخرهم. وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه.

فلما بلغ الوليد بن يزيد قتل يحيى، كتب إلى يوسف بن عمر: «خذ عجل أهل العراق فأنزِله من جذعه ـ يعني زيدًا ـ وأحرقه بالنار ثم انسِفْه في اليم نَسفًا» فأمر به يوسف فأُحرِق ثم رضّه وحمله في سفينة. ثم ذراه في الفرات. وأما يحيى فإنه لما قتل صُلب بالجوزجان. فلم يزل مصلوبًا حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان، فأنزله وصلّى عليه ودفنه. وأمر بالنياحة عليه في خراسان. وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية، وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى. فمن كان حيًا قتله، ومن كان ميتًا خَلفَه في أهله بسوء.

وكانت أم يحيى بن زيد رَيْطة بنت عبد الله بن محمد بن الحنفية. وكان مقتل يحيى في سنة خمس وعشرين ومائة.

---

(١) سرخس: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، بينها وبين كل واحدة منها ست مراحل... (معجم البلدان).

(٢) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية... (معجم ياقوت).

(٣) جوزجان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية... (معجم البلدان).

(٤) بنو عنزة: بطن من أسد ربيعة... وديارهم عين التمر، من برية العراق، على ثلاث مراحل من الأنبار... (نهاية الأرب للقلقشندي).

هذا ما كان من خبر زيد وابنه يحيى، ثم ظهر عبد الله بن معاوية فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ظهور عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب

كان ظهوره بالكوفة في سنة سبع وعشرين ومائة، في أيام مروان بن محمد الحمار بن مروان، ودعا إلى نفسه. وكان سبب ذلك أنه قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي الكوفة فأكرمه وأجازه، وأجرى عليه وعلى إخوته كل يوم ثلاثمائة درهم.

فكانوا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد وبعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. فلما بلغ خبر بيعتهما عبد الله بن عمر بالكوفة بايع لهما الناس، وزاد في العطاء، وكتب ببيعتهما إلى الآفاق، فجاءته البيعة. ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره من الشام إليهما، فحبس عبد الله بن معاوية عنده، وزاد فيما كان يُجريه عليه، وأعده لمروان بن محمد إن هو ظفر بإبراهيم بن الوليد، ليبايع له ويقاتل به مروان. فماج الناس وورد مروان الشام وظفر بإبراهيم. فانهزم إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة مسرعًا، وافتعل كتابًا على لسان إبراهيم بإمرة الكوفة، وجمَع اليمانية وأعلمهم ذلك فأجابوه. وامتنع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عنه وقاتله. فلما رأى إسماعيل الأمر كذلك، خاف أن يظهر أمره ويفتضح ويُقتَل، فقال لأصحابه: «إني أكره سفك الدماء فكفوا أيديكم» فكفوا وظهر أمر إبراهيم وهربه.

ووقعت العصبية بين الناس. وكان سببها أن عبد الله بن عمر كان قد أعطى مضر وربيعة عطايا كثيرة. ولم يعط جعفر بن نافع بن القعقاع بن شور الذهلي وعثمان بن الخيبرى من تيم اللات[1] بن ثعلبة شيئًا، وهما من ربيعة، فكانا مغضَبين. وغضب لهما ثُمامة بن حَوشب بن رُوَيم الشيباني. وخرجوا من عند عبد الله بن عمر وهو بالحيرة إلى الكوفة، فنادوا: «يا آل ربيعة» فاجتمعت ربيعة وتنمروا. وبلغ الخبر

---

(١) بنو تيم اللات: ومعناه عبد اللات، بطن من بني النجار، من الخزرج، من الأزد، من القحطانية. وبنو تيم اللات أيضًا: بطن من ضبة... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

عبد الله بن عمر فأرسل إليهم أخاه عاصمًا. فأتاهم وهم بدير هند[1] فألقى نفسه بينهم وقال: «هذه يدي لكم فاحكموا» فاستحيوا ورجعوا وعظّموا عاصمًا وشكروه. فلما كان المساء، أرسل عبد الله بن عمر إلى عمر بن الغضبان بن القَبَعثَرَى بمائة ألف، فقسمها في قومه بني همام بن مُرَّة بن ذُهل الشَّيباني، وإلى ثمامة بن حوشب بمائة ألف، فقسمها في قومه. وأرسل إلى جعفر بن نافع بمال، وإلى عثمان بن الخيبري بمال.

فلما رأى الشيعة ضعف عبد الله بن عمر، طمعوا فيه ودعوا إلى عبد الله بن معاوية. واجتمعوا في المسجد، ودعوا إلى عبد الله بن معاوية، وأخرجوه من داره، ثم أدخلوه القصر. ومنعوا عاصم بن عمر عن القصر فلحق بأخيه بالحيرة. وجاء ابنَ معاوية الكوفيون وبايعوه، فيهم عمر بن الغضبان ومنصور بن جمهور وإسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد. وأقام أيامًا يبايعه الناس وأتته البيعة من المدائن وفم النيل.

واجتمع إليه الناس، فخرج إلى عبد الله بن عمر بالحيرة. فقيل لابن عمر: «قد أقبل ابن معاوية في الخَلْق» فأطرق رأسه مليًا. وأتاه رئيس خبازيه فأعلمه بإدراك الطعام. فأمر بإحضاره، فأكل هو ومن معه وهو غير مكترث، والناس يتوقعون أن يهجم عليهم ابن معاوية. وفرغ من طعامه وأخرج المال وفرقه في قواده. ثم دعا مولى له كان يتبرك به ويتفاءل باسمه، كان اسمه إما ميمونًا وإما رَباحًا أو فتحًا أو اسمًا يُتبرَّك به. فأعطاه اللواء وقال: «امضِ به إلى موضع كذا فاركُزْه، وادعُ أصحابك، وأقم حتى آتيك» ففعل.

وخرج عبد الله فإذا الأرض بيضاء من أصحاب ابن معاوية. فأمر عبد الله بن عمر مناديًا ينادي: «من جاء برأس فله خمسمائة» فأُتي برؤوس كثيرة وهو يعطي ما ضمن.

وبرز رجل من أهل الشام، فبرز إليه القاسم بن عبد الغفار العجلي. فسأله الشامي فعرفه. وقال: «قد ظننت أنه لا يخرج إليّ إلا رجل من بكر بن وائل. والله، ما أريد قتالك ولكني أحببت أن ألقي إليك حديثًا أخبرك أنه ليس معكم رجل من أهل

---

(١) دير هند: دير هند الصغرى: بالحيرة يقارب خطة بني عبد الله بن دارم بالكوفة مما يلي الخندق في موضع نزه.. ودير هند الكبرى: هو أيضًا بالحيرة بنته هند أم عمرو بن هند... (معجم البلدان).

اليمن لا إسماعيل ولا منصور ولا غيرهما إلا وقد كاتب ابن عمر، وكاتبته مُضَر. وما أرى لكم يا ربيعة كتابًا ولا رسولاً وأنا رجل من قيس، فإن أردتم الكتاب أبلغتُه. ونحن غدًا بإزائكم، فإنهم اليوم لا يقاتلونكم». فبلغ الخبر ابن معاوية فأخبر عمر بن الغضبان. فأشار عليه أن يستوثق من إسماعيل ومنصور وغيرهما، فلم يفعل.

وأصبح الناس من الغد غادين على القتال. فحمل عمر بن الغضبان على ميمنة ابن عمر، فانكشفوا. ومضى إسماعيل ومنصور من فورهما إلى الحيرة. فانهزم أصحاب ابن معاوية إلى الكوفة وابن معاوية معهم. فدخلوا القصر. وبقي من بالميسرة من ربيعة ومضر، ومن بإزائهم من أصحاب ابن عمر. فقالوا لعمر بن الغضبان: «ما كنا نأمن عليكم ما صنع الناس بكم، فانصرِفوا» وقال ابن الغضبان: «لا أبرح حتى أُقتَل» فأخذ أصحابه بعنان دابته فأدخلوه الكوفة.

فلما أمسوا قال لهم ابن معاوية: «يا معشر ربيعة، قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد أعلقنا دماءنا في أعناقِكم. فإن قاتلتم قاتلنا معكم وإن كنتم ترون الناس يخذلوننا وإياكم، فخذوا لنا ولهم أمانًا» فقال له عمر بن الغضبان: «إما أن نقاتل معك وإما أن نأخذ لكم أمانًا كما نأخذ لأنفسنا فطِيبوا نفسًا» فأقاموا في القصر والزيدية على أفواه السكك يقاتلون أصحاب ابن عمر أيامًا. ثم إن ربيعة أخذت أمانًا لابن معاوية ولأنفسهم وللزيدية ليذهبوا حيث شاؤوا.

وسار ابن معاوية من الكوفة فنزل المدائن، فأتاه قوم من أهل الكوفة. فخرج بهم فغلب على حلوان والجبال وهمذان وأصفهان والريّ[١]. وخرج إليه عبيد أهل الكوفة.

ذكر غلبته على فارس وأخذها منه وقتله

كانت غلبة عبد الله بن معاوية على فارس في سنة تسع وعشرين ومائة. وذلك أنه لما غلب على ما ذكرناه أقام بأصبهان. وكان محارب بن موسى مولى بني يشكر عظيم القدر بفارس. فجاء إلى دار الإمارة باصْطَخْر[٢]، فطرد عامل ابن عمر عنها.

---

(١) الريّ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه: وهي مدينة مشهورة من أمهات البلاد، وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا. . . (معجم البلدان).

(٢) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة: بلدة بفارس في الإقليم الثالث. . وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها. . . (معجم البلدان).

وبايع الناس لعبد الله بن معاوية. وخرج محارب إلى كرمان[١] فأغار عليها. وانضم إلى محارب قواد من أهل الشام. فسار إلى سليم بن المسيب، وهو عامل ابن عمر بشيراز، فقتله في سنة ثمان وعشرين ومائة، ثم خرج محارب إلى أصبهان إلى عبد الله بن معاوية، فحوله إلى اصطخر.

فاستعمل عبد الله أخاه الحسن على الجبال. وأقبل معه إلى اصطخر، فأقام بها. وأتاه الناس: بنو هاشم وغيرهم، وجبى المال، وبعث العمال. وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام بن عبد الملك. وأتاه شيبان بن عبد العزيز الحَروري الخارجي، وكان قد خرج في جموع كثيرة، كما ذكرنا في أخباره فلم يتفق بينهما أمر. وأتاه أبو جعفر المنصور وعبد الله وعيسى بن علي.

فلما قدم ابن هبيرة على العراق أرسل نباتة بن حنظلة الكلابي إلى عبد الله بن معاوية. وبلغ سليمان بن حبيب أن ابن هبيرة استعمل نباتة على الأهواز، فسرح داود بن حاتم بكريج دينار. ليمنع نباتة من الأهواز. فقاتله فقُتل داود. وهرب سليمان من الأهواز إلى نيسابور وفيها الأكراد وقد غلبوا عليها. فقاتلهم سليمان فطردهم عن نيسابور وكتب إلى ابن معاوية بالبيعة.

ثم إن محارب بن موسى اليشكري نافر بن معاوية وفارقه. وجمع جمعًا وأتى نيسابور. فقاتله يزيد بن معاوية، فانهزم محارب. وأتى كرمان، فأقام بها حتى قدم محمد بن الأشعث فصار معه. ثم نافره فقتله ابن الأشعث وأربعةً وعشرين ابنًا له.

ولم يزل عبد الله بن معاوية باصطخر حتى أتاه داود بن ضُبارة مع داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة. وسيّر ابن هبيرة أيضًا مَعن بن زائدة من وجه آخر. فقاتلهم معن عند مرو الشاذان، ومعن يقول: [من الرجز]

لـيـس أمـيـرُ الـقـوم بـالـخِـبِّ الـخُـدَعْ فـرّ مـن الـمـوت وفـي الـمـوت وقَـع[٢]

وانهزم ابن معاوية فكفّ معن عنهم. وقُتل في المعركة رجل من آل أبي لهب، وكان يقال: يُقتَل رجل من بني هاشم بمرو الشاذان. وأسروا أسرى كثيرة، وقتل ابن ضبارة منهم عدة كثيرة. وهرب منصور بن جمهور إلى السند، وعبد الرحمٰن بن يزيد إلى عمان، وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان إلى مصر. وبعث ببقية الأسرى إلى ابن هبيرة فأطلقهم.

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... (معجم ياقوت).

(٢) الخبّ: الخبيث المخادع.

ومضى ابن معاوية إلى خراسان. فسار معن بن زائدة(١) يطلب منصور بن جمهور فلم يدركه، فرجع. وكان مع ابن معاوية من الخوارج وغيرهم خلق كثير، فأُسر منهم أربعون ألفًا، وكان ممن أسر عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس فسبَّه ابن ضبارة وقال: «ما جاء بك إلى ابن معاوية وقد عرفت خلافةَ أمير المؤمنين» فقال: «كان عليّ دين فأتيته» فشفع فيه حَرب بن قطن الهلالي وقال: «هو ابن أختنا» فوهبه له. فعاب عبد الله بن علي عبدَ الله بن معاوية ورمى أصحابه باللواط فسيَّره ابن ضبارة إلى ابن هبيرة ليخبره أخبار ابن معاوية.

وسار في طلب عبد الله بن معاوية إلى شيراز فحصره بها. فخرج عبد الله منها هاربًا ومعه أخواه الحسن ويزيد ابنا معاوية وجماعة من أصحابه. وسلك المفازة على كرمان. وقصد خراسان طمعًا في أبي مسلم لأنه يدعو إلى الرِّضا من آل محمد، وقد استولى على خراسان. فوصل إلى نواحي هَراة وعليها أبو نصر مالك بن الهيثم الخُزاعي. فأرسل إلى ابن معاوية يسأله عن قدومه، فقال: «بلغني أنكم تدعون إلى الرضا من آل محمد» فأرسل إليه مالك: «انتسب نعرفك» فانتسب له فقال: «أما عبد الله وجعفر فمن أسماء آل رسول الله ﷺ، وأما معاوية فلا نعرفه في أسمائهم» فقال: «إن جدي كان عند معاوية بن أبي سفيان لما وُلد له أبي، فطلب إليه أن يسمّي ابنه باسمه، ففعل، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم» فأرسل إليه مالك: «لقد اشتريتم الاسم الخبيث بالثمن اليسير، ولا نرى لك حقًّا فيما ندعو إليه». ثم أرسل إلى أبي مسلم يعرفه خبره. فأمره بالقبض عليه وعلى من معه، فقبض عليهم وحُبسوا. ثم ورد عليه كتاب أبي مسلم يأمره بإطلاق الحسن ويزيد ابني معاوية وقتل عبد الله بن معاوية. فأمر من وضع فراشًا على وجهه. فمات وأُخرج فصُلّي عليه ودُفن.

وكان عبد الله بن معاوية شاعرًا مجيدًا. فمن قوله: [من المتقارب]

ولا تَركَبنَّ الصَّنيعَ الذي ... تلومُ أخاكَ على مثلِهِ(٢)

ولا يُعجِبنَّكَ قولُ امرئٍ ... يخالفُ ما قالَ في فعلِهِ

فهؤلاء الذين ظهروا من الطالبيين في الدولة الأموية وقُتلوا. ثم ظهر في الدولة العباسية من نذكرهم إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا.

تمّ الجزء الرابع والعشرون، ويليه الجزء الخامس والعشرون، وأوله:

الباب السابع من القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين في مدة الدولتين الأموية والعباسية

---

(١) معن بن زائدة الشيباني الأمير بسجستان وليها عام أول وكان أحد الأبطال والأجواد وكان مع بني أمية متنقلاً في ولاياتهم مواليًا لابن هبيرة... (شذرات الذهب ١: ٢٣١).

(٢) تركبنّ الصنيع: أي تعملن العمل عنادًا.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الخامس والعشرون

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السابع
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبيين
في مدة الدولتين الأموية والعباسية

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ ابن أبي طالب وأخوه إبراهيم

ونحن نذكر سبب ظهورهما وما كان من أمرهما وما اتفق لأولاد الحسن رضي الله عنه بسبب ذلك، ثم نذكر ظهور محمد وما اتفق له، إلى أن قتل، وظهور إبراهيم بعده، وما كان من خبره وحروبه ومقتله، وما يتصل بذلك فنقول:

كان سبب ظهورهما أنّ محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي هذا، كان يدّعي أنّ أبا جعفر المنصور كان ممّن بايعه، لمّا تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة، عند اضطراب أمر مروان بن محمد الحمار، فلما قامت الدولة العباسية وبويع السفاح، واتفق حج المنصور في سنة ست وثلاثين ومائة سأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: ما يهمك من أمرهما؟ أنا آتيك بهما، وكان معه بمكة، فردّه المنصور إلى المدينة، فلما استخلف المنصور لم يكن همّه إلا أمر محمد، والمسألة عنه وما يريد، فدعا بني هاشم رجلاً رجلاً يسأل كل واحد سرًا عنه، فكلهم يقول قد علم أنّك عرفته بطلب هذا الأمر، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافًا، وما أشبه هذا الكلام، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب فإنه أخبره خبره، وقال: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فأيقظ بكلامه مَنْ لم ينم عنه، وزاده ذلك حرصًا على طلبه، وشدةً في طلبه، وكان موسى بن عبد الله بن حسن يقول بعد ذلك: اللهم اطلب حسن بن زيد بدمائنا.

ثم ألحّ المنصور على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد سنة حج، فقال عبد الله لسليمان بن علي بن عبد الله بن عبّاس: يا أخي بيننا من الصهر والرحم ما تعلم، فما ترى؟ فقال سليمان: والله لكأنّي أنظر إلى أخي عبد الله بن علي حين حال الستر بيننا وبينه، وهو يشير إلينا، إن هذا الذي فعلتم بي، فلو كان المنصور عافيًا عن أحد عفا عن عمّه، يشير إلى خبر المنصور لما حبس عمه عبد الله بن علي، فقبل عبد الله بن حسن رأي سليمان، وعلم أنه قد صدقه ولم يظهر ابنه.

ثم شرع المنصور في إعمال الفكرة، والتوصل إلى أن يطّلع على حقيقة خبر محمد بن عبد الله، وجعل عليه العيون والمراصد، وتوصل بكل طريق، حتى إنه اشترى رقيقًا من رقيق الأعراب، وأعطى الرجل منهم البعير، والرجل البعيرين، والرجل الذود[١]، وفرّقهم في طلب محمد في ظهر المدينة، فكان الرجل منهم يرد الماء كالمارّ وكالضالّ فيسألون عنه؛ وبعث المنصور عينًا وكتب معه كتابًا على ألسن الشيعة إلى محمد، يذكرون طاعتهم ومسارعتهم، وبعث معه بمال وألطاف[٢]، فقدم الرجل المدينة فدخل على عبد الله بن حسن، وسأله عن ابنه محمد فكتم خبره، فتردّد إليه الرجل وألحّ في المسألة فذكر له أنّه في جبل جهينة[٣]، وقال له: أمرر بعلي بن حسن، الرجل الصالح الذي يدعى الأغرّ، وهو بذي الأبر[٤]، فهو يرشدك إليه، فأتاه فأرشده، وكان للمنصور كاتبٌ على سرّه يتشيع، فكتب إلى عبد الله بن حسن يخبره بخبر ذلك العين[٥]، فلما قدم الكتاب ارتاع له، وبعث إلى محمد ابنه وإلى علي بن حسن يحذرهما الرجل، وأرسل بذلك أبا هَبَّار، فخرج أبو هَبَّار فنزل بعلي بن حسن وأخبره، ثم سار إلى محمد بن عبد الله في موضعه الذي هو به، فإذا هو جالس في كهف ومعه جماعة من أصحابه، وذلك العين معهم أعلاهم صوتًا وأشدّهم انبساطًا، فلما رأى أبا هَبَّار خافه، فقال أبو هبار لمحمد: إنّ لي حاجة، فقام معه فأخبره الخبر، قال: فما الرأي؟ قال: أرى إحدى ثلاث، قال: وما هي؟ قال: تدعني أقتل هذا الرجل، قال: ما أنا بمقارف دمًا إلا مكرهًا، قال: أثْقِلْه حديدًا، وتنقله معك

(١) الذود: القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر.
(٢) ألطاف: جمع اللطف، وهي الهدية.
(٣) جهينة: قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة، وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل... وجهينة: قلعة بطبرستان حصينة مكينة عالية في السحاب... (معجم البلدان).
(٤) الأبر: بضمتين: من مياه بني نمير، ويعرف بأبر بني الحجاج... (معجم ياقوت).
(٥) العين: الجاسوس.

حيث تنقَّلْت، قال: وهل بنا فراغ مع الخوف والإعجال؟ قال: تشدّه وتودعه عند بعض أهلك من جهينة، قال: هذه إذنْ، فرجعا فلم يريا الرجل، فقال محمد: أين الرجل؟ قالوا: قام بركوة[(١)] فيها ماء وتوارى، فطلبوه فلم يجدوه فكأنّ الأرض التأمت عليه، وسعى على قدميه حتى اتصل بالطريق، فمرّ به أعرابي معه حمولة إلى المدينة، فقال له: فرّغ هذه الغرارة[(٢)] وأدخلنيها أكن عِدْلاً لصاحبتها، ولك كذا وكذا ففعل، وحمله حتى أقدمه المدينة، ثم قدم على المنصور فأخبره الخبر كلّه، ونسي اسم أبي هَبَّار وكنيته، فقال: وبر، فكتب أبو جعفر في طلب وبر المرّي، فحُمل إليه فسأله عن قصة محمد، فحلف أنّه لا يعرف من ذلك شيئًا، فأمر به فضرب سبعمائة سوط، وحبس حتى مات المنصور.

ثم أحضر المنصور عُقْبة بن سَلْم الأزْدِي، فقال له: إني أريدك لأمرٍ أنا به مَعْنِيٌّ، لم أزل أرتاد له رجلًا عسى أن تكونه، وإن كفيتنيه رفعتُك؟ فقال: أرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين فِيَّ، قال: فاخف شخصك واستر أمرك، وَأْتِني يوم كذا وكذا في وقت كذا، فأتاه في ذلك الوقت، فقال له: إنّ بني عمّنا قد أبوا إلا كيدًا لملكنا واغتيالاً له، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف من ألطاف بلادهم، فاخرج بكتبي وبمال وألطاف، حتى تأتيهم متنكرًا بكتاب تكتبه عن أهل هذه القرية، ثم تعلم حالهم فإن كانوا نزعوا[(٣)] عن رأيهم فأحْبِبْ والله بهم وأقْرِبْ، وإن كانوا على رأيهم علمتُ ذلك وكنتُ على حذر، فاشخصْ حتى تلقى عبد الله بن حسن متخشعًا متقشفًا، فإن جبهك ـ وهو فاعل ـ فاصبر وعَاوِدْه، حتى يأنس بك وتلين لك ناحيته، فإذا ظهر لك ما قِبَله فعجِّلْ إليّ؛ فشخص عقبة حتى قدم على عبد الله بن حسن، فلقيه بالكتاب فأنكره ونهره، وقال: ما أعرف هؤلاء القوم، فلم يزل يتردد إليه حتى قبل كتابه وألطافه وأنس به، فسأله عقبة الجواب فقال: أمّا الكتاب فإنّي لا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرهم السلام وأعلمهم أنّ ابنيّ خارجان لوقت كذا وكذا، فرجع عقبة إلى المنصور وأعلمه الخبر، فأنشأ المنصور الحجّ، وقال لعقبة: إذا لقيني بنو حسن فيهم عبد الله بن حسن، فأنا مكرمه ورافع مجلسه وداعٍ بالغداء، فإذا فرغنا من طعامنا فلحظتُك فامثلْ بين يديه قائمًا، فإنه سينصرف بصره عنك، فاستَدِرْ حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك،

(١) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء؛ أو هي الدلو الصغيرة.
(٢) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.
(٣) نزع عن الأمر: كفّ وانتهى.

حتى يملأ عينه منك ثم حسبك، وإياك أن يراك ما دام يأكل؛ وخرج المنصور إلى الحج، فلما لقيه بنو حسن أجلس عبد الله إلى جانبه، ثم دعا بالغداء فأصابوا منه ثم رفع، فأقبل المنصور على عبد الله بن حسن فقال له: قد علمتَ ما أعطيتني من العهود والمواثيق ألاّ تبغيني سوءًا، ولا تكيد لي سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين، فلحظ المنصورُ عُقْبَةَ بن سَلْم، فاستدار حتى وقف بين يدي عبد الله، فأعرض عنه، فاستدار حتى قام وراء ظهره فغمزه بأصبعه، فرفع رأسه فملأ عينه منه، فوثب حتى قعد بين يدي المنصور، وقال: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله، قال: لا أقالني الله إن أقلتك، ثم أمر بحبسه.

وكان محمد قد قدم قبل ذلك البصرة فنزلها في بني راسب، يدعو إلى نفسه، وقيل نزل على عبد الله بن شيبان ـ أحد بني مُرَّة بن عُبَيْد، ثم خرج منها، فبلغ المنصور مقدمه البصرة، فسار إليها مجدًا، فلقيه عمرو بن عُبَيْد، فقال له: يا أبا عثمان، هل بالبصرة أحد نخافه على أمرنا؟ قال: لا، قال: فأقتصرُ على قولك وأنصرف؟ قال: نعم، وكان محمد قد سار عنها قبل مقدم المنصور، فرجع المنصور واشتد الخوف على محمد وإبراهيم ابني عبد الله، فخرجا حتى أتيا عَدَن، ثم صارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة.

وكان المنصور حجّ سنة أربعين ومائة، فقسم أموالاً عظيمة في آل أبي طالب، فلم يظهر محمد وإبراهيم، فسأل أباهما عبد الله عنهما فقال: لا علم لي بهما، فتغالظا فأمَصَّه[1] المنصور، فقال امصص كذا وكذا من أمك!! فقال عبد الله: يا أبا جعفر بأي أمهاتي تمصّني!! أبفاطمة بنت رسول الله ﷺ؟! أم بفاطمة بنت الحسين بن علي؟! أم بأم إسحاق بنت طلحة؟! أم بخديجة بنت خُوَيلِد؟! قال لا بواحدة منهن، ولكن بالجرباء بنت قَسَامَة بن زهير، وهي امرأة من طيىء، فقال المُسَيَّب بن زُهَير: يا أمير المؤمنين دعني أضرب عنق ابن الفاعلة، فقام زياد بن عبيد الله فألقى عليه رداءه، وقال: هَبْه لي يا أمير المؤمنين، فأنا أستخرج لك ابنيه، فخلّصه.

وكان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله قد تغيّبا حين حجّ المنصور سنة أربعين ومائة عن المدينة، وحجّا أيضًا، فاجتمعوا كلهم بمكة وأرادوا اغتيال المنصور، فقال لهم الأشتر[2] عبد الله بن محمد: أنا أكفيكموه، فقال محمد: لا والله لا أقتله غيلة أبدًا حتى

---

(١) أمصّ فلانًا: قال له: يا مصّان؛ ويقال في الشتم للرجل: يا مصّان.

(٢) الأشتر: هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة... (الاشتقاق لابن دريد ص٤٠٤).

أدعوه، فنقض ما كانوا أجمعوا عليه، وكان قد دخل معهم قائد من قواد المنصور من أهل خراسان ـ اسمه خالد بن حسّان يدعى أبا العساكر ـ على ألف رجل، فنمي الخبر إلى المنصور فطُلِب القائد فلم يظفر به، وظفر بأصحابه فقتلهم، وأما القائد فإنه لحق بمحمد بن عبد الله فسيّره إلى خراسان، ومعه ابنه عبد الله بن محمد، ثم إن المنصور حثّ زياد بن عبيد الله على طلب محمد وإبراهيم، فضمن له ذلك ووعده به، فقدم محمد بن عبد الله المدينة قدمة، فبلغ ذلك زيادًا فتلطّف له وأعطاه الأمان، على أن يظهر وجهه للناس، فوعده محمد ذلك، فركب زياد مغلسًا[1] ووعد محمدًا سوق الظهر، وركب محمد فتصايح الناس: يا أهل المدينة، المهديَّ المهديّ، فقف هو وزياد فقال زياد: يا أيها الناس هذا محمد بن عبد الله بن حسن، ثم قال: إلحق بأي بلاد الله شئت، فتوارى محمد؛ وسمع المنصور الخبر فأرسل أبا الأزهر في جُمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين ومائة إلى المدينة، وأمره: أن يستعمل على المدينة عبد العزيز بن المطّلب، وأن يقبض زيادًا وأصحابه ويسير بهم إليه، فقدم أبو الأزهر المدينة ففعل ما أمره، وأخذ زيادًا وأصحابه وسار بهم نحو المنصور، وخلّف زياد ببيت مال المدينة ثمانين ألف دينار، فسجنهم المنصور ثم مَنَّ عليهم بعد ذلك.

واستعمل المنصور على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القَسْري، وأمره بطلب محمد بن عبد الله وبسط يده بالنفقة في طلبه، فقدم المدينة في شهر رجب سنة إحدى وأربعين ومائة، فأخذ المال، ورفع في محاسبته أموالاً كثيرة أنفقها في طلب محمد، فاستبطأه المنصور واتهمه، فكتب إليه يأمره بكشف المدينة وأعراضها، فطاف ببيوت الناس فلم يجد محمدًا، فلما رأى المنصور ما قد أخرج من الأموال ولم يظفر بمحمد استشار أبا السِّغْلاء ـ رجلاً من قيس عيلان ـ في أمر محمد وأخيه، فقال: أرى أن تستعمل رجلاً من ولد الزبير أو طلحة فإنهم يطلبونهما بذَحْلٍ[2]، ويخرجونهما إليك، فقال: قاتلك الله، ما أجود ما رأيت!! والله ما خفي عليّ هذا، ولكنّي أعاهد الله ألاّ أنتقم من بني عمي وأهل بيتي بعدوّي وعدوّهم، ولكنّي أبعث عليهم صعيليكًا من العرب يفعل بهم ما قلت، فاستشار يَزيد بن أُسَيْد السُّلَمِي، وقال له: دلّني على فتى مقلّ من قيس أغنيه وأشرّفه، وأمكّنه من سيد اليمن ـ يعني ابن القسري ـ قال: نعم، رِبَاح بن عثمانِ بن حَيَّان المُريّ، فسيّره المنصور أميرًا على المدينة في شهر رمضان سنة أربع وأربعين ومائة؛ وقيل إنّ رياحًا

(١) المغلس: الذي يسير بغلس؛ والغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.
(٢) الذحل: الثأر؛ أو هي العداوة والحقد.

ضمن للمنصور أن يُخرج محمدًا وإبراهيم ابني عبد الله، إنْ استعمله على المدينة، فاستعمله عليها، فسار حتى دخلها، فلما دخل دار مروان، وهي التي كان ينزلها الأمراء قال لحاجب كان له، يقال له أبو البَخْتَري[1]، هذه دار مروان؟ قال: نعم، قال: أما إنّها مِحْلال مِظْعان، ونحن أول من يظعن منها، فلما تفرّق الناس عنه قال لحاجبه أبي البختري: خذ بيدي فدخل على هذا الشيخ ـ يعني عبد الله بن الحسن ـ فدخلا عليه، فقال له رياح: أيها الشيخ، إن أمير المؤمنين ـ والله ـ ما استعملني لرحم قريبة، ولا ليدٍ سلفت إليه منّي، والله لا لَعِبْتَ بي كما لعبْتَ بزياد وابن القسري، والله لأزهقنَّ نفسك أو لتأتيني بابنيك محمد وإبراهيم، فرفع عبد الله رأسه إليه وقال نعم، أما والله إنّك لأزَيْرِق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة، قال أبو البخْترِي: فانصرف ـ والله ـ رياح آخذًا بيدي أجدّ برديده[2]، وإنّ رجليه لتخطّان الأرض ممّا كلمه، قال: فقلت له: إن هذا ما اطّلع على الغيب، قال: إيهًا ويلك، فوالله ما قال إلا ما سمع، فذبح كما تذبح الشاة، ثم إنه دعا القسري وسأله عن الأموال، فضربه وسجنه، وجدّ رياح في طلب محمد، فأخبر أنّه في شعب من شعاب رضوى[3]، جبل جهينة، وهو في عمل ينبع، فأمر عامله بطلب محمد، فطلبه بالخيل والرجل، ففزع منه محمد فهرب راجلاً فأفلت، وله ابن صغير وُلد في خوفه ذلك، وهو مع جارية له، فسقط من الجبل فتقطع، فقال محمد:

مُنْخَرِق السربال يشكو الوَجَى ... تنكبه أطرافُ مَرْو حداد[4]

شرّده الخوف فأزرى به ... كذاك من يكره حرَّ الجلاد

قد كان في الموت له راحةٌ ... والموتُ حتمٌ في رقاب العباد

قال: وبينا رياح يسير بالحرّة إذ لقي محمدًا، فعدل محمد إلى بئر هناك فجعل يستقي، فقال رياح: قاتله الله أعرابيًا ما أحسن ذراعه.

---

(١) هو أبو البختري وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي المدني... كان فقيهًا أخباريًا ناسبًا جوادًا سريًا سخيًا يحب المديح ويثيب عليه العطاء الجزيل... (وفيات الأعيان ٦: ٣٧).

(٢) قد يراد بالرديد: الهياج الشديد.

(٣) رضوى: هو جبل بالمدينة، والنسبة إليه رضويّ، ورضوى: جبل عند ينبع لجهينة بينه وبين الحوراء.

(٤) الوجى: رقة القدم أو الحافر من كثرة المشي.

ذكر حبس أولاد الحسن

قد ذكرنا أن المنصور حبس عبد الله بن حسن، وقيل إن رياحًا هو الذي حبسهم، حُكي عن علي بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي أنه قال: حضرنا باب رياح في المقصورة، فقال الآذن: مَنْ كان ههنا من بني حسن فليدخل، فدخلوا من باب المقصورة، وخرجوا من باب مروان، ثم قال: مَنْ كان ههنا من بني حسن فليدخل، فدخلوا من باب المقصورة، ودخل الحدادون من باب مروان، فدعا بالقيود فقيّدهم وحبسهم، وكانوا: عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وحسن وإبراهيم ابني حسن، وحسن بن جعفر بن حسن بن حسن، وسليمان وعبد الله ابني داود بن حسن بن حسن، ومحمد وإسماعيل وإسحاق بني إبراهيم بن حسن بن حسن، وعباس بن حسن بن حسن، فلما حبسهم لم يكن فيهم علي بن حسن بن حسن بن علي العابد، فلما كان الغد بعد الصبح وإذا برجل قد أقبل متلففًا، فقال له رياح: مرحبًا بك ما حاجتك؟ قال: جئتك لتحبسني مع قومي، فإذا هو علي بن حسن بن حسن، فحبسه معهم.

وكان محمد قد أرسل ابنه عليًا إلى مصر يدعو إليه، فبلغ خبره عامل مصر، وقيل له إنّه على الوثوب بك، والقيام عليك بمن شايعه، فقبضه وأرسله إلى المنصور، فاعترف له وسمّى أصحاب أبيه، وكان فيمن سمّى عبد الرحمٰن بن أبي الموال وأبو جبير، فضربهما المنصور وحبسهما وحبس عليًا، فبقي محبوسًا إلى أن مات؛ وكتب المنصور إلى رياح أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان المعروف بالديباج، وكان أخا عبد الله بن حسن بن حسن لأمه ـ أمهما جميعًا فاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فأخذه معهم، وقيل إن المنصور حبس عبد الله بن حسن بن حسن بن علي وحده وترك باقي أولاد حسن، فترك حسن بن حسن بن حسن خضابه حتى نصّل[1] حزنًا على أخيه عبد الله، فكان المنصور يقول: ما فعلت الحادَّة؟ ومرّ حسن بن حسن بن حسن على إبراهيم بن حسن وهو يعلف إبلاً فقال: أتعلف إبلك وعبد الله محبوس!! يا غلام ـ أطلق عُقُلَها ففعل، ثم صاح في أدبارها فلم يوجد منها بعير، فلما طال حبس عبد الله بن حسن قال عبد العزيز بن سعيد للمنصور: تُطمع في خروج محمد وإبراهيم وبنو حسن مخلّون؟! والله للواحد منهم أهيب في صدور الناس من الأسد، فكان ذلك سبب حبس الباقين في سنة أربع وأربعين.

(١) نصّل الخضاب: زال.

ذكر حملهم إلى العراق

قال المؤرخ: ولما حجّ المنصور في سنة أربع وأربعين ومائة أرسل محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ومالك بن أنس إلى بني الحسن وهم في الحبس، يسألهم أن يدفعوا إليه محمدًا وإبراهيم ابني عبد الله، فدخلا عليهم وعبد الله قائم يصلّي فأبلغاهم الرسالة، فقال حسن بن حسن أخو عبد الله: هذا عمل ابني المشؤومة!! أما والله ما هذا عن رأينا ولا عن ملأٍ منّا ولا لنا فيه حيلة فقال له أخوه إبراهيم: علام تؤذي أخاك في ابنيه؟! وتؤذي ابن أخيك في أمه؟! ثم فرغ عبد الله من صلاته فأبلغاه الرسالة، فقال: والله، لا أرد عليكما حرفًا، إن أحبّ أن يأذن لي فألقاه فليفعل، فانطلق الرسولان إلى المنصور فأبلغاه قوله، فقال: أراد أن يسحرني لا والله لا ترى عينه عيني حتى يأتيني بابنيه، وكان عبد الله بن حسن لا يحدّث أحدًا قط إلا فتله[١] عن رأيه.

ثم سار المنصور لوجهه، فلما حجّ ورجع لم يدخل المدينة ومضى إلى الربذة[٢]، فخرج إليه رياح إلى الربذة فردّه إلى المدينة، وأمره بإشخاص بني حسن إليه، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو بني حسن لأمهم، فرجع رياح وأخذهم وسار بهم إلى الربذة، وجعلت القيود في أرجلهم وأعناقهم، وجعلهم في محامل بغير وطاء، ولما خرج بهم رياح من المدينة وقف جعفر بن محمد من خلف ستر يراهم ولا يرونه، وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله، ثم قال: والله، لا تحفظ لله حرمه بعد هؤلاء، ولما ساروا كان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله يأتيان كهيئة الأعراب، فيسايران أباهما ويستأذنانه في الخروج، فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك وقال لهما إنْ منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين، فلا يمنعكما أن تموتا كريمين، فلما وصلوا إلى الربذة أدخل محمد بن عبد الله العثماني على المنصور، وعليه قميص وإزار رقيق، فلما وقف بين يديه قال: إيهًا يا ديوث، قال محمد: سبحان الله!! والله لقد عرفتني بغير ذلك صغيرًا وكبيرًا، قال: فمِمَّنْ حملت ابنتك رقيّة؟ وكانت تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وقد أعطيتني الأيمان ألاّ تغشني، ولا تمالىء عليّ عدوًا، وأنت ترى ابنتك حاملاً وزوجها غائب!! فأنت بين أن تكون

---

(١) فتله عن رأيه: صرفه ولواه.

(٢) الربذة: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة. . . (معجم البلدان).

حانثًا أو ديوثًا، وأيم الله إني لأهمّ برجمها، قال محمد: أما إيماني فهي عليّ؛ إنْ كنت دخلت لك في أمر غش علمتُه، وأما ما رميتَ به هذه الجارية فإنّ الله قد أكرمها بولادة رسول الله ﷺ إيّاها، ولكني ظننتُ حين ظهر حملها أنّ زوجها ألمّ بها على حين غفلة منّا، فاغتاظ المنصور من كلامه، وأمر بشقّ ثيابه وإزاره فبدت عورته، ثم أمر به فضرب خمسين ومائة سوط، فبلغت منه كل مبلغ والمنصور يفتري عليه لا يكنّي، فأصاب سوط منها وجهه، فقال: ويحك!! اكفف عن وجهي، فإنّ له حرمة برسول الله ﷺ، فأغرى المنصور فقال للجلاد: الرأس الرأس، فضرب على رأسه نحوًا من ثلاثين سوطًا، وأصاب إحدى عينيه سوط فسالت، ثم أخرج وكأنه زنجي من الضرب، وكان من أحسن الناس، وكان يكنى الديباج لحسنه، فلما أخرج وثب إليه مولى له فقال: ألا أطرح ردائي عليك، قال: بلى جزيت خيرًا، والله لشقّ إزاري أشدّ عليّ من الضرب. وكان سبب أخذه أنّ رياحًا قال للمنصور: يا أمير المؤمنين، أمّا أهل خراسان فشيعتك، وأمّا أهل العراق فشيعة آل أبي طالب، وأما أهل الشام فوالله ما عَلِيٌّ عندهم إلا كافر، ولكن محمد بن عبد الله العثماني لو دعا أهل الشام ما تخلّف عنه منهم أحد، فوقعت في نفس المنصور فأمر به فأخذ معهم، وكان حسن الرأي فيه قبل ذلك.

ثم إنّ أبا عون كتب إلى المنصور أنّ أهل خراسان قد تقاعسوا عنّي، وطال عليهم أمر محمد بن عبد الله العثماني، فأمر المنصور به فقتل، وأرسل رأسه إلى خراسان، وأرسل معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله، وأنّ أمّه فاطمة بنت الحسين بن علي، فلما قتل قال أخوه عبد الله بن الحسن: إنا لله!! إن كنّا لنأمن به في سلطانهم، ثم قد قتل بنا في سلطاننا. قال: ثم سار بهم المنصور من الربذة فمرّ بهم وهو على بغلة شقراء، فناداه عبد الله بن حسن: يا أبا جعفر، ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر، فأخسأه أبو جعفر وتفل عليه ومضى، فلما قدموا إلى الكوفة قال عبد الله لمن معه: ألا ترون في هذه القرية من يمنعنا من هذا الطاغية!! قال: فلقيه الحسن وعليّ ابنا حيّ مشتملين على سيفين، فقالا له: قد جئناك يا ابن رسول الله، فمرنا بالذي تريد، قال: قد قضيتما ما عليكما، ولن تغنيا في هؤلاء شيئًا فانصرفا، فانصرفا، ثم إن المنصور أودعهم بقصر ابن هبيرة شرقي الكوفة، وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن حسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصغر؟ قال: نعم، قال: لأقتلنّك قتلة لم أقتلها أحدًا، ثم أمر به فبنى عليه أسطوانة وهو حيّ، فمات فيها، وهو أول من مات منهم، ثم عبد الله بن حسن، ثم مات

علي بن حسن؛ وقيل إن المنصور أمر بهم فقتلوا، وقيل بل أمر بهم فسقوا السمّ، وقيل وضع المنصور على عبد الله مَنْ قال له: إنّ ابنه محمدًا قد خرج وقتل، فانصدع قلبه فمات والله أعلم، ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود بن حسن بن حسن، وجعفر بن حسن، وبقيّتهم ماتوا في حبس المنصور.

ذكر ظهور محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

كان ظهوره بالمدينة لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة، وقيل بل كان في رابع عشر رمضان منها. وكان سبب خروجه أن المنصور لما حمل أهله إلى العراق، وسار من الربذة، ردّ رياحًا إلى المدينة أميرًا عليها، فألحّ في طلب محمد، وأرهقه الطلب يومًا فتدلّى في بئر في المدينة، يناول أصحابه الماء، وانغمس في الماء إلى حلقه، وكان بدنه لا يخفى لعظمه، وبلغ رياحًا خبره أنه بالمذاد[1]، فركب نحوه في جنده، فتنحّى محمد عن طريقه واختفى في دار الجُهَنيّةَ، فحيث لم يره رياح رجع إلى دار مروان، فلما اشتد الطلب على محمد خرج قبل وقته، وكان قد واعد أخاه إبراهيم أنّه يخرج لوقت عَيَّنه بالمدينة، ويخرج إبراهيم بالبصرة، وقيل بل خرج لميعاده مع أخيه، وإنما أخوه تأخّر لجدري لحقه.

وكان عبيد الله بن عمرو بن أبي ذؤيب وعبد الحميد بن جعفر يقولون لمحمد بن عبد الله: ما تنتظر بالخروج؟ فوالله ما على هذه الأمة انتقام منك، اخرج ولو لوحدك، فحرّكه ذلك للخروج أيضًا، وأتى رياحًا الخبر: أنّ محمدًا خارج الليلة، فأحضر محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة والعباس بن عبد الله بن الحارث بن العباس وغيرهما عنده، فصمت طويلاً ثم قال لهم: يا أهل المدينة، أمير المؤمنين يطلب محمدًا في شرق الأرض وغربها، وهو بين أظهركم، أقسم بالله: لئن خرج لأقتلنّكم أجمعين، وقال لمحمد بن عمران: أنت قاضي أمير المؤمنين فادع عشيرتك، فجمع بني زهرة فجاؤوا في جمع كبير، فأجلسهم بالباب، وأرسل فأخذ نفرًا من العلويين وغيرهم، فيهم: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وحسين بن علي بن حسين بن علي، وحسن بن علي بن حسين بن علي، ورجال من قريش

---

(١) المذاد: بالفتح، وآخره دال مهملة، موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبيّ ﷺ.. وقيل: المذاد واد بين سلع وخندق المدينة... (معجم البلدان).

فيهم: إسماعيل بن أيوب بن سَلَمَة بن عبد الله بن الوليد بن المُغِيرة وابنه خالد، فبينا هم عنده إذ ظهر محمد فسمعوا التكبير، فقال ابن مُسْلم بن عُقْبَة المُرّي(١): أطعني في هؤلاء واضرب أعناقهم، فقال له الحسين بن علي بن الحسين بن علي: والله، ما ذاك إليك، إنّا لَعلى السمع والطاعة، وأقبل محمد من المَذَاد في مائة وخمسين رجلاً في بني سَلَمَة تفاؤلاً بالسلامة، وقصد السجن فكسر بابه وأخرج مَنْ فيه، وممّن كان فيه محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه النَّذِير بن يزيد ورزام فأخرجهم، وجعل على الرجّالة خَوَّات بن بُكَيْر بن خَوَّات بن جُبَير، وأتى دار الإمارة وهو يقول لأصحابه: لا تقتلوا لا تقتلوا، فامتنع منهم رياح فدخلوا من باب المقصورة، وأخذوا رياحًا أسيرًا وأخاه عباسًا وابن مسلم بن عقبة المرّي، فحبسهم في دار الإمارة، ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإنّه قد كان من أمر هذه الطاغية ـ عدوّ الله أبي جعفر؛ ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندة لله في ملكه، وتصغيرًا للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، وإنّ أحقّ الناس بالقيام في هذا الأمر أبناء المهاجرين والأنصار المواسين، اللهم إنّهم قد أحلُّوا حرامك وحرّموا حلالك، وأمّنوا مَنْ أخفت، وأخافوا مَنْ أمَّنت؛ اللهم فاحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا؛ أيها الناس: إنّي والله ما خرجت بين أظهركم، وأنتم عندي أهل قوّة ولا شدّة، ولكنّي اخترتكم لنفسي، والله ما جئتُ هذه وفي الأرض مصرٌ يُعبد الله فيه إلا أُخذ لي فيه البيعة.

وكان المنصور يكتب إلى محمد بن عبد الله على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول هذا، ويقول: لو التقينا مال القوّاد كلهم إليّ، واستولى محمدٌ على المدينة، واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي(٢)، وعلى بيت السلاح عبد العزيز الدَّرَاوَرْدِي، وعلى الشرط أبا القَلَمَّس عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمٰن بن

(١) هو من قبائل مرة بن عوف؛ ووالده مسلم هو الذي اعترض أهل المدينة فقتلهم يوم الحرة في طاعة يزيد بن معاوية. . . (الاشتقاق).

(٢) نسبة إلى بني مخزوم، وبنو مخزوم: بطن من لؤي بن غالب، من قريش. منهم: خالد بن الوليد رضي الله عنه. . ومنهم: سعيد بن المسيب التابعي المشهور. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

المِسْوَر بن مَخْرمَة؛ وقيل كان على شرطته عبد الحميد بن جعفر فعزله، وأرسل محمد إلى محمد بن عبد العزيز: إن كنتُ لأظنّك ستنصرنا وتقوم معنا، فاعتذر إليه وقال افعل، ثم انسلّ منه وأتى مكة، ولم يتخلّف عن محمد أحد من وجوه الناس، إلا نفر منهم الضَحَّاك بن عثمان بن عبد الله بن حزام، وعبد الله بن المُنْذِر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد، وأبو سَلَمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وخُبَيْب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

وكان أهل المدينة قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد، وقالوا: إنّ في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين، فأسرع الناس إلى محمد، ولزم مالكٌ بيته، وأرسل محمد إلى إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان شيخًا كبيرًا، فدعاه إلى بيعته فقال: يا ابن أخي، أنت والله مقتول فكيف أبايعك!! فارتدع الناس عنه قليلاً، وكان بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر قد أسرعوا إلى محمد، فأتت حمّادة ابنة معاوية إلى إسماعيل بن عبد الله، وقالت له يا عم: إن إخوتي قد أسرعوا إلى ابن خالهم، وإنّك إنْ قلت هذه المقالة ثبّطتَ الناس عنهم، فيُقتل ابن خالي وإخوتي، فأبى إسماعيل إلا النهي عنه، فيقال إن حَمَّادة عَدَتْ عليه فقتلته، فأراد محمد الصلاة عليه فمنعه عبد الله بن إسماعيل، وقال: أتأمر بقتل أبي وتصلّي عليه!! فنحّاه الحرس وصلّى عليه محمد.

ولما ظهر محمد كان محمد بن خالد القَسْري في حبس رياح فأطلقه، قال محمد بن خالد: لما سمعت دعوة محمد التي دعا إليها على المنبر، قلت: هذه دعوة حق، والله لأبْلِيَنَّ الله فيها بلاءً حسنًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّك قد خرجت بهذا البلد، والله لو وقف على نقب من أنقابه أحد، مات أهله جوعًا وعطشًا، فانهض معي فإنما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف، فأبى عليّ، فبينما أنا عنده إذ قال: ما وجدنا من حرّ المتاع شيئًا أجود من شيء وجدناه عند ابن أبي فروة ختن أبي الخصيب، وكان انتهبه، قال: فقلت له: ألا أراك قد أبصرت حرّ المتاع، فكتبت إلى المنصور فأخبرته بقلة من معه، فأخذني محمد فحبسني حتى أطلقني عيسى بن موسى بعد قتله إياه. وكان رجل من آل أويس بن أبي سرح العامري ـ عامر بن لؤي ـ اسمه الحسين بن صخر بالمدين لمّا ظهر محمد، فسار من ساعته إلى المنصور فبلغه في تسعة أيام، فقدم ليلاً فقام على أبواب المدينة، فصاح حتى علموا به فأدخلوه، فقال له الربيع: ما حاجتك هذه الساعة وأمير المؤمنين نائم؟ قال: لا بدّ لي منه، فدخل الربيع على المنصور فأخبره خبره، وأنه قد طلب مشافهته فأذن له، فدخل عليه فقال:

يا أمير المؤمنين، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة، قال: قتلتُه والله؛ إنْ كنت صادقًا، قال: أخبرني مَن معه؟ فسمّى له من معه من وجوه أهل المدينة وأهل بيته، قال: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وعاينته وكلمته على منبر رسول الله ﷺ جالسًا، فأدخله أبو جعفر بيتًا، فلما أصبح جاءه رسول لسعيد بن دينار ـ غلام عيسى بن موسى يلي أمواله بالمدينة، فأخبره بأمر محمد وتواترت عليه أخباره، فأخرج الأويسي فقال: لأوطئنّ الرجال عقبيك ولأغنينّك، وأمر له بتسعة آلاف درهم، لكل ليلة ألف درهم، وأشفق من محمد، فقال له الحارثي المنجّم: يا أمير المؤمنين، ما يجزعك منه؟! فوالله لو ملك الأرض ما لبث إلا تسعين يومًا، فأرسل المنصور إلى عمّه عبد الله بن علي وهو محبوس: إن هذا الرجل قد خرج فإن كان عندك رأي فأشر به علينا، وكان ذا رأي عندهم، فقال: إن المحبوس محبوس الرأي، فأرسل إليه المنصور: لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك، وأنا خير لك منه، وهو ملك أهل بيتك، فأعاد إليه عبد الله: ارتحل الساعة حتى تأتي الكوفة، فاجثم على أكبادهم فإنّهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم، ثم احْفُفْها بالمسالح[1]، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه، أو أتاها من وجه من الوجوه، فاضرب عنقه، وابعث إلى سَلْم بن قتيبة ينحدر إليك وكان بالريّ، واكتب إلى أهل الشام فمرهم: أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما حمل البريد، فأحسِنْ جوائزهم ووجّههم مع سلم، ففعل. وقيل أرسل المنصور إلى عبد الله إخوته يستشيرونه في أمر محمد، وقال لهم: لا يعلم عبد الله أنّي أرسلتكم إليه، فلمّا دخلوا عليه قال: لأمرٍ ما جئتم، ما جاء بكم جميعًا وقد هجرتموني جميعًا؟! قالوا: استأذنّا أمير المؤمنين فأذن لنا، قال: ليس هذا بشيء، فما الخبر؟ قالوا: خرج محمد بن عبد الله، قال: فما ترون ابن سلامة صانعًا ـ يعني المنصور؟ قالوا: لا ندري والله، قال: إنّ البخل قد قتله، فمروه فليخرج الأموال، وليعط الأجناد، فإن غَلَب فما أسرع ما يعود إليه ماله، وإن غُلِب لم يقدم صاحبُه على دينار ولا درهم.

قال: ولمّا ورد الخبر على المنصور بخروج محمد، كان قد خطَّ مدينة بغداد بالقصب، فسار إلى الكوفة ومعه عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان، فقال له المنصور: إنّ محمدًا قد خرج بالمدينة، فقال عبد الله: هَلَك والله وأهْلَكَ، خرج في غير عدد ولا رجال. حَدثني سعيد بن عمر بن جعدة المخزومي قال: كنت مع

---

(١) المسالح: واحدتها المسلحة، وهي كل موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة.

مروان يوم الزاب واقفًا فقال لي مروان: من هذا الذي يقاتلني؟ قلت: عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، قال: وددت والله أنّ علي بن أبي طالب يقاتلني مكانه، إنّ عليًا وولده لاحظَ لهم في هذا الأمر، وهذا رجل من بني هاشم وابن عم رسول الله ﷺ، ومعه ريح الشام ونصر الشام، يا ابن جعدة: تدري ما حملني على أن عقدتُ لعبد الله وعبيد الله بعدي، وتركتُ عبد الملك وهو أكبر من عبيد الله، قال ابن جعدة: لا، قال: وجدتُ الذي يلي هذا الأمر عبد الله وعبيد الله، وكان عبيد الله أقرب إلى عبد الله من عبد الملك فعقدتُ له، فاستحلفه المنصور على صحة ذلك فحلف له فسُرّي عنه.

قال: ولما بلغ المنصور خبر ظهور محمد قال لأبي أيوب وعبد الملك: هل من رجل تعرفانه بالرأي نجمع رأيه إلى رأينا؟ قالا بالكوفة: بُدَيْل بن يحيى، وكان السفّاح يشاوره، فأرسل إليه، وقال له: إنّ محمدًا قد ظهر بالمدينة! قال: فاشْحِنْ الأهواز بالجنود، قال: إنّه إنما ظهر بالمدينة، قال: قد فهمت، وإنما الأهواز الباب الذي تؤتون منه، فلما ظهر إبراهيم بالبصرة قال له المنصور ذلك، قال: فعاجِلْه بالجنود واشغل الأهواز عليه، وشاور المنصور أيضًا جعفر بن حَنْظَلَة البَهْرَاني عند ظهور محمد قال: وَجِّهْ الجند إلى البصرة، قال: انصرف عنّي حتى أرسل إليك، فلما صار إبراهيم إلى البصرة أرسل إليه، فقال له ذلك فقال: إياها خفت، بادِرْهُ بالجنود، قال: وكيف خفت البصرة؟ قال: لأن محمدًا ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب، بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب، فلم يبق إلا البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله كتابًا ابتداؤه بأن قال:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣]، ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ أن أؤمّنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومَنْ اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأُسوِّغك ما أصبتَ من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم، وما سألتَ من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق مَنْ في حبسي من أهل بيتك، وأن أؤمّن كل مَنْ جاءك وبايعك واتبعك أو دخل في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحدًا منهم بشيء كان منه أبدًا، فإنْ أردتَ أن تتوثّق لنفسك فوجِّهْ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تتوثَّق به والسلام.

فكتب إليه محمد: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ١ ـ ٦]، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ، فإنّ الحق حقنا، وإنما ادّعيتم هذا الأمر لنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، فإن أبانا عليًا كان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء، ثم قد علمتَ أنه لم يطلب الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمُتُّ أحد من بني هاشم بمثل الذي نمُتُّ به من القرابة والسابقة والفضل ـ وإنّا بنو أم رسول الله ﷺ ـ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنت رسول الله ﷺ ـ فاطمة في الإسلام ـ دونكم إنَّ الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيّين محمد ﷺ أفضلهم، ومن السّلف أوّلهم إسلامًا علي بن أبي طالب، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة، وأوّل من صلّى إلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيّدا شباب أهل الجنة، وإن هاشمًا ولد عليًا مرتين، وإنَّ عبد المطلب ولد حسنًا مرّتين، وإنَّ رسول الله ﷺ ولدني مرّتين، من قِبَل حسنٍ وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسبًا، وأصرحهم أمًا وأبًا، لم تعرّق[1] فيّ العجمة، ولم تنازع فيّ أمّهات الأولاد، فما زال يختار لي الآباء والأمّهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذابًا في النار، فلك ذمّة الله عليّ، إن دخلتَ في طاعتي، وأجبت دعوتي، أن أؤمّنك على نفسك ومالك، وعلى كل حدث أحدثته، إلا حدًا من حدود الله أو حقًا لمسلم أو مُعَاهِد، فقد علمتَ ما يلزمني من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من الأمان والعهد ما أعطيته رجالاً قبلي، فأي الأمانات تعطيني؟ أمان ابن هبيرة!! أم أمان عمّك عبد الله بن علي!! أم أمان أبي مسلم!!

فلما ورد كتابه على المنصور قال له أبو أيوب المُورَيَاني[2]: دعني أجبه عنه، قال: لا، إذا تقارعنا على الأحساب دعني وإياه، ثم كتب إليه المنصور:

---

(١) عرق في العجمة: كان له أصل فيها.

(٢) نسبة إلى موريان، وهي قرية من نواحي خوزستان. وأبو أيوب المورياني: هو سليمان بن أبي سليمان بن أبي مجالد، قتله المنصور... (معجم البلدان).

بسم الله الرحمٰن الرحيم أما بعد فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء، لتضلّ به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعَصَبَة[١] والأولياء، لأن الله جعل العم أبًا، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهنّ، لكانت آمنة أقربهنّ رحمًا، وأعظمهنّ حقًا، وأولى من يدخل الجنة غدًا، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه فيما قضى فيهم واصطفائه لهم؛ وأمّا ما ذكرتَ من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحدًا من ولدها الإسلام، لا بنتًا ولا ابنًا، ولو أن رجلًا رزق الإسلام بالقرابة رُزِقه عبد الله، ولكان أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة، لكنَّ الأمر لله يختار لدينه من يشاء، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، ولقد بعث الله محمدًا ﷺ وله عمومة أربعة، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبي، وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه، فلَم يجعل بينه وبينهما إلًّا[٢] ولا ذمة ولا ميراثًا؛ وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابًا، وابن خير الأشرار، وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن ـ يؤمن بالله ـ أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبيّ ولدك مرتين، فخير الأوّلين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة؛ وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسبًا وأصرحهم أمًا وأبًا، وأنه لم تلدك العجم، ولم تعرّق فيك أمّهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرًا، فانظر ويحك أين أنت من الله غدًا!! فإنك قد تعدّيْت طورك، وفخرت على من هو خير منك ـ نفسًا وأبًا وأوّلاً وآخرًا ـ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمّهات الأولاد، ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد ولهو خير من جدّك حسن بن حسن، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي، وجدّته أم وَلد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر وجدّته أم ولد، وهو خير منك؛ وأما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ فإن الله تعالى يقول في كتابه ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ...﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة، ولكنّها لا تجوّز الميراث ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة

---

(١) عصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه. (٢) الإل: العهد.

فكيف يورّث بها، ولقد طلبها أبوك بكل وجه، فأخرج فاطمة رضي الله عنها نهارًا، ومرّضها سرًا ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين: أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يُوَرّثون؛ وأمّا ما فخرت به من عَلِيّ وسابقته، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستّة فتركوه كلهم دفعًا له، ولم يروا له حقًا فيها؛ وأما عبد الرحمٰن فقدّم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له مُتَّهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبَى سَعْد بيعته وأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده؛ ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها، وتَفرّق عنه أصحابه، وشكّ فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما، وأعطاهما عهد الله وميثاقه، فاجتمعا على خلعه، ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حلَه، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه، ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه؛ ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوكم بلا وطاء في المحامل، كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم وطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسَنَّيْنا سلفكم وفَضَّلْناه فاتخذتَ ذلك علينا حجة، وظننت أنَا إنما ذكرنا أباك وفضَلناه للتقدِمة منَا له، على حمزة والعباس وجعفر، وليس ذلك كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلمًا منهم مجتمعًا عليهم بالفضل، وابتلي أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا عليهم وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلّمناهم بما نالوا منه. ولقد علمتَ أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى ربّه ولم يتقرّب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به، ولقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره، فكانت وراثته من عمومته، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده، فالسقاية سقايته، وميراث النبي ﷺ له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام - في دنيا ولا آخرة - إلا والعباس وارثه ومُوَرِّثه. أمّا ما ذكرت من بدر فإنّ الإسلام جاء، والعباس يمون أبا طالب وعياله، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته،

ولولا أن العبّاس أخرج إلى بدرٍ كارهًا لمات طالب وعقيل جوعًا، ولَلَحِسَا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنكم العار والسُّبة، وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدا عقيلاً يوم بدر، فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

وكان محمد قد استعمل الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على مكة، والقاسم بن إسحاق على اليمن، وموسى بن عبد الله على الشام، فأما الحسن والقاسم فسارا إلى مكة، فخرج إليها السريّ بن عبد الله، عامل المنصور على مكة، فلقيهما ببطن أذاخر[(١)] فهزماه، ودخل الحسن مكة وأقام بها يسيرًا، فأتاه كتاب محمد بن عبد الله يأمره بالمسير إليه فيمن معه، ويخبره بمسير عيسى بن موسى إليه ليحاربه، فسار إليه من مكة هو والقاسم، فبلغه بنواحي قُدَيْد[(٢)] قَتْلُ محمد، فهرب هو وأصحابه وتفرّقوا، فلحق الحسن بإبراهيم فأقام عنده حتى قتل إبراهيم، واختفى القاسم بالمدينة حتى أخذت له ابنة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر امرأة عيسى الأمان له ولإخوته معاوية وغيره، وأما موسى بن عبد الله فسار نحو الشام ومعه رزام مولى محمد بن خالد القسري، فانسلّ منه رزام بتيماء[(٣)]، وسار إلى المنصور برسالة من مولاه محمد القسري، فظهر محمد بن عبد الله على ذلك فحبس محمد القسري، ووصل موسى إلى الشام فرأى منهم سوء ردّ عليه وغلظة، فكتب إلى محمد:

أخبرك أنّي لقيت الشام وأهله، فكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء، وضقنا حتى ما فينا لهذا الأمر موضع، ولا لنا به حاجة؛ ومنهم طائفة تحلف لئن أصبحنا من ليلتنا أو أمسينا من غدٍ ليرْفَعُنَّ أمرنا؛ فكتبت إليك، وقد غيّبت وجهي، وخفت على نفسي.

---

(١) أذاخر: بالفتح، والخاء المعجمة مكسورة؛ قال ابن إسحاق: لما وصل رسول الله ﷺ مكة، عام الفتح، دخل من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، وضربت هناك قبته... (معجم البلدان).

(٢) قديد: تصغير القد: اسم موضع قرب مكة، قال ابن الكلبي: لما رجع تبع من المدينة بعد حربه لأهلها نزل قديدًا فهبّت ريح قدّت خيم أصحابه فسمي قديدًا.

(٣) تيماء: بالفتح والمد: بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق.

ثم رجع إلى المدينة، وقيل أتى البصرة، وأرسل صاحبًا له يشتري له طعامًا فاشتراه، وجاء به على حمّال أسود، فأدخله الدار التي سكنها وخرج، فلم يكن بأسرع من أن كبست الدار، وأُخذ موسى وابنه عبد الله وغلامه فحملوا إلى محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، فلما رأى موسى قال: لا قرّب الله قرابتكم، ولا حَيًّا وجوهكم، تركت البلاد كلها إلا بلدًا أنا فيه!! فإن وصلتُ أرحامكم أغضبت أمير المؤمنين، وإن أطعته قطعت أرحامكم، ثم أرسلهم إلى المنصور، فأمر بضرب موسى وابنه كل واحد خمسمائة سوط فلم يتأوّها، فقال المنصور: عذرت أهل الباطل في صبرهم، فما بال هؤلاء!! فقال موسى: أهل الحق أولى بالصبر، ثم أخرجهم وأمر بهم فسجنوا.

ذكر مسير عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله بن حسن وقتل محمد

قال: ثم إن المنصور أحضر ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد بن عبد الله بن حسن، فقال: شاوِرْ عمومتك يا أمير المؤمنين، قال: فأين قول ابن هرمة[1]: [من الطويل]

نزور امرأً لا يمخض القوم سرّه ... ولا ينتجي الأدنين فيما يحاول[2]

إذا ما أتى شيئًا مضى كالذي أتى ... وإنْ قال إني فاعلٌ فهو فاعل

فقال المنصور: امض أيها الرجل ـ فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا، فسار وسيّر معه الجنود، وكان عيسى ولي عهد المنصور إذ ذاك؛ فقال المنصور حين سار عيسى: لا أبالي أيهما قتل صاحبه؛ وبعث معه محمد بن أبي العباس السفاح، وكثير بن حُصَين العبدي، وحُميد بن قحطبة، وهزار مرد وغيرهم، وقال له المنصور حين ودّعه: يا عيسى، إنّي أبعثك إلى ما بين هذين، وأشار إلى ما بين جنبيه، فإن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك، وابذل الأمان، وإن تغيّب فضَمِنْهم إياه فإنّهم يعرفون مذاهبه، ومن لقيك من آل أبي طالب، فاكتب إليّ باسمه،

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن هرمة وهو من الخلج من قيس عيلان، وابن هرمة آخر الشعراء الذين يحتج بقولهم.. وهو من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكان مولعًا بالشراب... (شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٢: ٧٣).

(٢) مخض الرأي: قلّبه وتدبر عواقبه حتى ظهر وجهه.

ومن لم يلقك فاقبض ماله، وكان جعفر الصادق تغيّب عنه، فقبض ماله، فلما قدم المنصور المدينة قال له جعفر في معنى ماله، فقال: قبضه مهديّكم، فلما وصل عيسى إلى فَيْد(١) كتب إلى الناس في خرق الحرير، منهم عبد العزيز بن المطلب المخزومي، وعبيد الله بن محمد بن صفوان الجُمَحِي، وكتب إلى عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، يأمره بالخروج من المدينة فيمن أطاعه، فخرج هو وعمر بن محمد بن عمر، وأبو عقيل محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل فأتوا عيسى.

قال: ولما بلغ محمدًا قرب عيسى من المدينة، استشار أصحابه في الخروج من المدينة والمقام بها، فأشار بعضهم بالخروج عنها، وبعضهم بالمقام بها، لقول رسول الله ﷺ: رأيتُني في درع حصينة فأوّلتُها المدينة، فأقام ثم استشارهم في حفر خندق رسول الله ﷺ، فقال له جابر بن أنَس ـ رئيس سُلَيم ـ يا أمير المؤمنين: نحن أخوالك وجيرانك وفينا السلاح والكراع(٢)، فلا تخندق الخندق، فإن رسول الله ﷺ خندقه لمّا أعلمه الله به، وإن خندقته لم يحسن القتال رجالةً، ولم توجّه لنا الخيل بين الأزقة، وأن الذين نخندق دونهم هم الذين يحول الخندق دونهم؛ فقال له أحد بني شُجَاع: خندق رسول الله ﷺ فاقتد أنت به، وتريد أن تدع أثر رسول الله ﷺ لرأيك!! قال: إنه والله ـ يا ابن شُجاع ـ ما شيء أثقل عليك وعلى أصحابك من لقائهم، وما شيء أحبّ إلينا من مناجزتهم(٣)، فقال محمد: إنما اتّبعنا في الخندق أثر رسول الله ﷺ، فلا يردّني أحد عنه فلست بتاركه، فأمر به فحفر، وبدأ هو فحفر بنفسه الخندق، الذي حفره رسول الله ﷺ للأحزاب، وسار عيسى حتى نزل الأعوص(٤)، وكان محمد قد جمع الناس وأخذ عليهم الميثاق: ألا يخرج منهم أحد، ثم خطبهم فقال:

---

(١) فيد: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن يودع الحاج فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئًا من ذلك... (معجم البلدان).

(٢) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٣) ناجزه الحرب: نازله وقاتله.

(٤) الأعوص: بفتح الواو، والصاد مهملة: موضع قرب المدينة.. والأعوص: واد في ديار باهلة لبني حصن منهم، ويقال الأعوصين... (معجم ياقوت).

إنّ عدوّ الله وعدوّكم قد نزل الأعوص، وإنّ أحق الناس بالقيام بهذا الأمر، لأبناء المهاجرين والأنصار، ألا وإنّا قد جمعناكم وأخذنا عليكم الميثاق، وعدوّكم في عدد كثير، والنصر من الله والأمر بيده، وأنه قد بدا لي أن آذن لكم، فمن أحبّ منكم أن يقيم أقام، ومن أحبّ أن يظعن ظعن[١]؛ فخرج عالم كثير، وخرج ناس من أهل المدينة بذراريهم وأهليهم إلى الأعراض والجبال، وبقي محمد في شرذمة يسيرة، فأمر أبا القَلَمَّس بردّ من قدر عليه، فأعجزه كثير منهم فتركهم.

قال: وكان المنصور قد أرسل ابن الأصم مع عيسى بن موسى ينزله المنازل، فلما قدموا نزلوا على ميل من المدينة، فقال ابن الأصم: إن الخيل لا عمل لها مع الرجّالة، وإنّي أخاف إنْ كشفوكم كشفة أن يدخلوا عسكركم، فتأخروا إلى سقاية سليمان بن عبد الملك بالجُرْف وهو على أربعة أميال من المدينة، وقال: ولا يهرول الراجل أكثر من ميلين أو ثلاثة حتى تأخذه الخيل، وأرسل عيسى خمسمائة رجل إلى بطحاء ابن أزهر ـ على ستة أميال من المدينة ـ فأقاموا بها، وقال: أخاف أن ينهزم محمد فيأتي مكة، فيردّه هؤلاء، فكانوا بها حتى قتل محمد، وأرسل عيسى إلى محمد يخبره أن المنصور أمّنه وأهله، فأعاد الجواب: يا هذا، إنّ لك برسول الله ﷺ قرابة قريبة، وإني أدعوك إلى كتاب الله وسنّة نبيّه والعمل بطاعته، وأحذرك نقمته وعذابه، وإني والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر حتى ألقى الله عليه، وإياك أن يقتلك من يدعوك إلى الله: فتكون شر قتيل، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك. فلما بلغته الرسالة قال عيسى: ليس بيننا وبينه إلا القتال؛ وقال محمد للرسول: علام تقتلوني؟ وإنما أنا رجل فرّ من أن يقتل، قال: إن القوم يدعونك إلى الأمان، فإن أبيت إلا قتالهم قاتلوك، على ما قاتل عليه خير آبائك طلحة والزبير، على نكث بيعتهم وكيد ملكه.

قال: ونزل عيسى بالجرْف لاثنتي عشرة خلت من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة وذلك يوم السبت، فأقام السبت والأحد وغدا يوم الاثنين فوقف على سَلْع[٢]، فنظر إلى المدينة ومن فيها، ونادى يا أهل المدينة: إنّ الله تعالى حرّم دماء بعضنا على بعض، فهلمُّوا إلى الأمان، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن،

---

(١) ظعن: سار وارتحل.

(٢) سلع: بفتح أوله، وسكون ثانيه: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: موضع بقرب المدينة. وسلع أيضًا: حصن بوادي موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس... (معجم البلدان).

خلّوا بيننا وبين صاحبنا فإمّا لنا وإمّا له. فشتموه فانصرف من يومه وعاد من الغد، وقد فرّق القوّاد من سائر جهات المدينة، وأخلى ناحية مسجد أبي الجرّاح وهو على بُطْحان، أخلى تلك الناحية لخروج من ينهزم، وبرز محمد في أصحابه ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وكان شعاره: أحد أحد، فبرز أبو القَلَمَّس وهو من أصحاب محمد، فبرز إليه أخو أسد، فاقتتلوا طويلاً فقتله أبو القلمّس، وبرز إليه آخر فقتله، وقال حين ضربه: خذها وأنا ابن الفاروق، فقال رجل من أصحاب عيسى: قتلتَ خيرًا من ألف فاروق، وقاتل محمد يومئذ قتالاً عظيمًا، فقتل بيده سبعين رجلاً، وأمر عيسى حُمَيد بن قحطبة فتقدم في مائة كلهم راجل سواه، فزحفوا حتى بلغوا جدارًا دون الخندق، عليه ناس من أصحاب محمد، فهدم حُميد الحائط وانتهى إلى الخندق، ونصب عليه أبوابًا وعبر هو وأصحابه عليها، فجازوا الخندق وقاتلوا مَنْ وراءه أشد قتال من بكرة النهار إلى العصر، وأمر عيسى أصحابه فألقوا الحقائب وغيرها في الخندق، وجعل الأبواب عليها وجازت الخيل، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنّط ثم رجع، فقال له عبد الله بن جعفر: بأبي أنت وأمّي، والله ما لك بما ترى طاقة أتيت الحسن بن معاوية بمكة فإنّ معه جلّ أصحابك!! فقال: لو خرجتُ لقُتل أهل المدينة، والله لا أرجع حتى أقتل أو أُقتل، وأنت منّي في سعة فاذهب حيث شئت، فمشى معه قليلاً ثم رجع عنه، وتفرّق عنه جل أصحابه، حتى بقي في ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً، فقال بعض أصحابه: نحن اليوم بعدة أهل بدر؛ وصلّى محمد الظهر والعصر، وكان معه عيسى بن خُضَير وهو يناشده: إلا ذهب إلى البصرة أو غيرها، ومحمد يقول: لا والله لا تُبتلون بي مرّتين، ولكن اذهب أنت حيث شئتَ، فقال ابن خضير: وأين المذهب عنك!؟ ثم مضى فأحرق الديوان، الذي فيه أسماء مَنْ بايعهم، وقتل رياح بن عثمان وأخاه عباس بن عثمان، وقتل ابن مُسْلِم بن عُقْبَة المُرسي، ومضى إلى محمد بن خالد القسري وهو محبوس ليقتله فعلم به، فردم الأبواب دونه فلم يقدر على قتله، وكان محمد بن عبد الله قد حبس محمد بن خالد بعدما أطلقه، ورجع عيسى بن خضير إلى محمد فقاتل بين يديه حتى قتل، وتقدّم حُميد بن قحطبة، وتقدّم محمد بن عبد الله فلما صار ببطن مسيل سَلْع عرقب فرسه، وعرقب بنو شجاع الجهنيون دوابّهم، ولم يبق أحد منهم إلا كسر جفن سيفه، فقال لهم محمد: قد بايعتموني ولست بارحًا حتى أُقتل، فمَنْ أحبّ أن ينصرف فقد أذنتُ له، واشتد القتال فهزموا أصحاب عيسى بن موسى مرّتين أو ثلاثًا، فقال يزيد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر: ويل أمّه فتحًا، لو كان له رجال!! وصعد نفر من

أصحاب عيسى على جبل سَلْع، وانحدروا منه إلى المدينة، وأمرت أسماء بنت حسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بخمار أسود فرفع على منارة مسجد رسول الله ﷺ، فقال أصحاب محمد بن عبد الله: دُخِلت المدينة فهربوا، فقال يزيد: لكل قوم جبل يعصمهم، ولنا جبل لا نؤتى إلا منه!! - يعني سَلْعًا، وفتح بنو أبي عمرو الغفاريّون طريقًا في بني غفار لأصحاب عيسى، فدخلوا منه أيضًا وجاؤوا من وراء أصحاب محمد، ونادى محمد حُميدَ بن قَحطبة: أبرزْ إليّ فأنا محمد بن عبد الله، فقال حُميد: قد عرفتُك، وأنت الشريف ابن الشريف، الكريم ابن الكريم، والله، لا أبرز إليك وبين يديّ من هؤلاء الأغمار واحد، فإذا فرغت منهم فسأبرز إليك، وجعل حميد يدعو ابن خُضَير إلى الأمان، وابن خضير يحمل على الناس راجلًا، لا يصغي إلى أمانه وهو يأخذهم بين يديه، فضربه رجل من أصحاب عيسى على إليته فحلّها، فرجع إلى أصحابه فشدّها بثوب، ثم عاد إلى القتال، فضربه إنسانٌ على عينه فغاص السيف، وسقط فابتدروه فقتلوه وأخذوا رأسه، وكأنه باذنجانة مفلقة من كثرة الجراح فيه، فلما قُتل تقدّم محمد فقاتل على جيفته، فجعل يهدّ[1] الناس هدًا، وكان أشبه الناس بقتال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ولم يزل محمد يقاتل حتى ضربه رجل دون شحمة أذنه اليمنى، فبرك لركبتيه وجعل يذبّ عن نفسه، ويقول: ويحكم ابن نبيّكم مجرّح مظلوم، فطعنه ابن قحطبة في صدره فصرعه، ثم نزل إليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى، وهو لا يُعرف من كثرة الدماء؛ وقيل إن عيسى بن موسى اتّهم حُميد بن قحطبة وكان على الخيل، فقال له: ما أراك تُبالغ!! فقال له: اتتّهمني!! فوالله لأضربنّ محمدًا حين أراه بالسيف أو أُقتل دونه، قال: فمرّ به وهو مقتول فضربه ليبرّ يمينه، وقيل بل رُمي بسهم وهو يقاتل، فوقف إلى جدار فتحاماه الناس، فلما وجد الموت تحامل على سيفه فكسره، وهو ذو الفقار، سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقيل بل أعطاه رجلًا من التجار، كان معه وله عليه أربعمائة دينار، وقال خذه فإنك لا تلقى أحدًا من آل أبي طالب إلا أخذه وأعطاك حقّك، فلم يزل عنده حتى ولّي جعفر بن سليمان المدينة، فأُخبر به فأخذ السيف منه وأعطاه أربعمائة دينار، ولم يزل معه حتى أخذه منه المهدي، ثم صار إلى الهادي فجرّبه في كلب فانقطع السيف؛ وقيل بل بقي إلى أيام الرشيد، وكان يتقلّده وكان به ثماني عشرة فقارة.

---

(١) هدّ الشيء: كسره بشدة.

قال: ولما أُتي عيسى برأس محمد قال لأصحابه: ما تقولون فيه؟ فوقعوا فيه، فقال بعضهم: كذبتم ما لهذا قاتلناه، ولكنّه خالف أمير المؤمنين، وشقّ عصا المسلمين، وإن كان لصوّامًا قوّامًا فسكتوا. وأرسل عيسى بن موسى الرأس إلى المنصور مع محمد بن أبي الكرام بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وبالبشارة مع القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وأرسل معه رؤوس بني شجاع[1]، فأمر المنصور برأس محمد فطيف به في الكوفة وسيّره إلى الآفاق. قال: ولمّا رأى المنصور رؤوس بني شجاع قال: هكذا فليكن الناس! طلبتُ محمدًا فاشتمل عليه هؤلاء، ثم نقلوه وانتقلوا معه، ثم قاتلوا معه حتى قُتلوا. وكان مقتل محمد وأصحابه يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان خمس وأربعين ومائة.

قال: وكان المنصور قد بلغه أن عيسى بن موسى قد هزم، فقال: كلا، فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟ ما أنى لذلك بعد. ثم بلغه أنّ محمدًا هرب، فقال: كلاّ، إنّا أهل بيت لا نفرّ، فجاءته بعد ذلك الرؤوس. قال: ولما وصل رأس محمد إلى المنصور كان الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عنده، فلما رأى الرأس عظم عليه وتجلّد خوفًا من المنصور، فالتفت المنصور إليه وقال: أهو هو؟ قال: نعم، ولوددتُ أن الله تعالى قاده إلى طاعتك، ولم تكن فعلت به كذا، قال: وأنا وإلاّ فأم موسى طالق، ولكنه أراد قتلنا فكانت نفسنا أكرم علينا من نفسه.

قال: وأرسل عيسى بن موسى ألوية فنُصبت في مواضع بالمدينة، ونادى مُناديه: من دخل تحت لواءٍ منها فهو آمن؛ وأخذ أصحاب محمد فصلبهم ما بين ثنية الوداع إلى دار عمر بن عبد العزيز صفّين، ووكل بجثة ابن خضير من يحفظها، فاحتمله قوم من الليل فواروه سرًا، وبقي الآخرون ثلاثًا، ثم أمر بهم عيسى فألقوا في مقابر اليهود، ثم ألقوا بعد ذلك في خندق ذباب، فأرسلت زينب بنت عبد الله، أخت محمد ـ وابنته فاطمة إلى عيسى: إنكم قد قتلتموه وقضيتم حاجتكم منه، فلو أذنتم لنا في دفنه!! فأذن لهما فدفن بالبقيع[2]. قال: وقطع المنصور الميرة عن المدينة في البحر، ثم أذن فيها المهدي.

---

(١) بنو شجاع: بطن من بني صخر، من جذام، من القحطانية. مساكنهم مع قومهم بني صخر ببلاد الكرك من بلاد الشام... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) البقيع: مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة.

قال: ورد الخبر بقتل محمد بن عبد الله على أخيه إبراهيم بالبصرة يوم العيد، وكان إبراهيم قد استولى على البصرة، فخرج فصلّى بالناس، ونعاه على المنبر وأظهر الجزع عليه.

قال: وكان محمد بن عبد الله بن حسن أسمر شديد السمرة، سمينًا شجاعًا كثير الصوم والصلاة شديد القوّة رحمه الله تعالى. قال: وسئل جعفر الصادق عن أمر محمد فقال: فتنة يقتل فيها محمد، ويقتل أخوه لأبيه وأمّه بالعراق، وحوافر فرسه في ماء. قال: وقال محمد بن عبد الله لعبد الله بن عامر السُلمِي: تغشانا سحابة فإن أمطرتنا ظفرنا، وإن تجاوزتنا إليهم فنظر إلى دمي عند أحجار الزيت، قال: فوالله لقد أظلّتنا سحابة فلم تمطرنا، وتجاوزتنا إلى عيسى وأصحابه فظفروا، وقتلوا محمدًا ورأيت دمه عند أحجار الزيت، وكان محمد يلقّب المهدي رحمه الله.

ذكر تسمية المشهورين
ممن كان مع محمد بن عبد الله بن حسن

كان معه من بني هاشم أخوه موسى بن عبد الله بن حسن، وحسين وعلي ابنا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ ولمّا بلغ المنصور أن ابني زيد أعانا محمدًا عليه قال: عجبًا لهما!! قد خرجا عليّ وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله، وصلبناه كما صلبه، وأحرقناه كما أحرقه؛ وكان معه حمزة بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين، وعلي وزيد ابنا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أبوهما مع المنصور، والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والقاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر، والمُرَجَّى علي بن جعفر بن إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر، وكان أبوه مع المنصور؛ وكان معه من غيرهم:

محمد بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن العاص، ومحمد بن عجلان، وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم أخذ أسيرًا، فأُتي به المنصور فقال له: أنت الخارج علي؟ قال: لم أجد إلا ذلك أو لكفر بما أنزل الله على محمد، وكان معه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سَبْرَة، وعبد الواحد بن أبي عَوْن ـ مولى الأزد، وعبد الله بن جعفر بن عبد الرحمٰن بن المِسْوَر بن مَخْرَمة، وعبد العزيز بن محمد

الدَّراوَرْدي[١]، وعبد الحميد بن جعفر، وعبد الله بن عطاء بن يعقوب، مولى بني سباع، وإبراهيم وإسحاق وربيعة وجعفر وعبد الله وعطاء ويعقوب وعثمان وعبد العزيز بنو عبد الله بن عطاء، وعيسى بن خُضَير وعثمان بن خُضير، وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير هرب بعد مقتل محمد، فأتى البصرة فأخذ منها وأُتي به المنصور، فقال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج عليّ مع محمد!! قال: بايعته أنا وأنت بمكة، فوفيت ببيعتي وغدرت ببيعتك، قال: يا ابن اللخناء، قال: ذاك من قامت عنه الإماء يعني المنصور، فأمر به فقُتل، وكان مع محمد عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأُخذ أسيرًا فأطلقه المنصور: وعبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع؛ وعلي بن المطّلب بن عبد الله بن حَنْطَب؛ وإبراهيم بن جعفر بن مصعب بن الزبير؛ وهشام بن عُمارة بن الوليد بن عدي بن الخِيار، وعبد الله بن يزيد بن هرمز وغيرهم.

ذكر ظهور إبراهيم بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد

كان ظهوره بالبصرة في أول شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وكان قبل ظهوره قد طلب أشد الطلب، فحكت جارية له أنّهم لم تقرّهم أرض خمس سنين، مرة بفارس، ومرة بكرمان[٢]، ومرة بالجبل، ومرة بالحجاز، ومرة باليمن، ومرة بالشام، ثم إنّه قدم الموصل وقدمها المنصور في طلبه، فحكى إبراهيم عن نفسه قال: اضطرّني الطلب بالموصل حتى جلست على مائدة المنصور، ثم خرجت وقد كفّ الطلب، وكان قوم من أهل العسكر يتشيّعون، فكتبوا إلى إبراهيم يسألونه القدوم عليهم ليثبوا بالمنصور فقدم عسكر أبي جعفر وهو ببغداد وقد خطّها، وكانت له مرآة ينظر فيها، فيرى عدوّه من صديقه، فنظر فيها فقال: يا مُسَيَّب قد رأيت إبراهيم في عسكري، وما في الأرض أعدى لي منه، فانظر أيّ رجل يكون؟ ثم إنّ المنصور أمر

(١) هو عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد من أهل المدينة الدراوردي فأصله درابجرد فاستثقلوه فقلبوه إلى هذا، كما قال أبو سعد. وقيل: إنه نسب إلى أندرايه.. وقد يكون نسبة إلى دراورد: قرية بخراسان... (معجم البلدان).

(٢) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران.

ببناء قنطرة الصراة العتيقة، فخرج إبراهيم ينظر إليها مع الناس، فوقعت عليه عين المنصور، فجلس إبراهيم وذهب في الناس، فأتى فاميًا فلجأ إليه فأصعده غرفة له، وجدّ المنصور في طلبه ووضع الرصد بكل مكان، فثبت إبراهيم مكانه، فقال له صاحبه سفيان بن حيّان العَمِيّ: قد نزل بنا ما ترى، ولا بد من المخاطرة، قال: فأنت وذاك، فأقبل سفيان إلى الربيع، فسأله الإذن على المنصور فأدخله إليه، فلمّا رآه شتمه فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أهل لما تقول، غير أني أتيتك تائبًا ولك عندي كلّ ما تحبّ، وأنا آتيك بإبراهيم بن عبد الله، إنّي قد بلوتهم فلم أجد فيهم خيرًا، فاكتب لي جوازًا ولغلام معي، واحملني على البريد ووجِّهْ معي جندًا، فكتب له جوازًا ودفع إليه جندًا، وقال له: هذه ألف دينار فاستعن بها، قال: لا حاجة لي فيها، فأخذ منها ثلاثمائة دينار، وأقبل والجند معه فدخل البيت على إبراهيم، وعلى إبراهيم جبة صوف وقباء كأقبية الغلمان، فصاح به فوثب فجعل يأمره وينهاه، وسار على البريد، وقيل لم يركب البريد، وسار حتى قدم المدائن، فمنعه صاحب القنطرة بها، فدفع جوازه إليه، فلما جازها قال له الموكّل بالقنطرة: ما هذا غلام وإنه لإبراهيم بن عبد الله، اذهب راشدًا فأطلقهما، فركبوا سفينة حتى قدموا البصرة، فجعل يأتي بالجند الدار لها بابان، فيقعد البعض منهم على أحد البابَيْن، ويقول: لا تبرحوا حتى آتيكم، فيخرج من الباب الآخر ويتركهم، حتى فرّق الجند عن نفسه وبقي وحده، وبلغ الخبر سفيان بن معاوية أمير البصرة، فأرسل إلى الجند فجمعهم، وطلب العَمِيّ فأعجزه وكان إبراهيم قد قدم الأهواز قبل ذلك فاختفى عند الحسن بن حبيب، وكان محمد بن حُصَين يطلبه، فقال يومًا: إنَّ أمير المؤمنين كتب إليّ يخبرني أنّ المنجّمين أخبروه: أنّ إبراهيم نازل بالأهواز، وهو في جزيرة بين نهرين، وقد طلبتُه في الجزيرة وليس هناك، وقد عزمتُ أن أطلبه غدًا بالمدينة، لعلَّ أمير المؤمنين يعني بقوله - بين نهرين - بين دجيل[1] والمَسْرُقان[2]، فرجع الحسن بن حبيب إلى إبراهيم فأخبره، وأخرجه إلى ظاهر البلد، ولم يطلبه محمد ذلك اليوم، فلما كان آخر النهار خرج الحسن إلى إبراهيم، فأدخله البلد وهما على حمارين وقت العشاء الآخرة، فلحقه أوائل خيل ابن

---

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين، أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبنيها مقابل القادسية... ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس... (معجم البلدان).

(٢) المسرقان: بالفتح ثم السكون، والراء مضمومة، وقاف، وآخره نون: هو نهر بخوزستان عليه عدة قرى وبلدان ونخل يسقي ذلك كله ومبدؤه من تستر.

الحصين، فنزل إبراهيم عن حماره كأنّه يبول، فسأل ابن الحُصَيْن الحسن بن حبيب عن مجيئه، فقال: جئت من عند بعض أهلي، فمضى وتركه، ورجع الحسن إلى إبراهيم فأركبه وأدخله إلى منزله، فقال له إبراهيم: والله لقد بُلْت دمًا، فأتيت الموضع فرأيته وقد بال دمًا، ثم إن إبراهيم قدم البصرة، قيل قدمها في سنة خمس وأربعين ومائة، بعد ظهور أخيه محمد بالمدينة، وقيل قدمها في سنة ثلاث وأربعين ومائة، وكان الذي أقدمه وتولى أمره ـ في قول بعضهم ـ يحيى بن زياد بن حيان النبطي، وأنزله في داره في بني ليث[1]، وقيل نزل في دار أبي فروة، ودعا الناس إلى بيعة أخيه، وكان أوّل من بايعه نُمَيْلة بن مُرَّة العَبْشمِي، وعَفْوُ الله ابن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمرو بن سَلمة الهُجَيْمِي، وعبد الله بن يحيى بن حُصَين الرَّقَاشِي، وندبوا الناس، فأجابهم المغيرة بن الفزع وأشباه له، وأجابه أيضًا عيسى بن يونس، ومُعَاذ بن مُعَاذ[2]، وعَبَّاد بن العَوَّام، وإسحاق بن يوسف الأزرق، ومعاوية بن هشيم بن بشير، وجماعة كثيرة من الفقهاء وأهل العلم، حتى أحصى ديوانه أربعة آلاف، وشهر أمره فقالوا له: لو كنت تحوّلت إلى وسط البصرة، أتاك الناس وهم مستريحون، فتحوّل فنزل دار أبي مروان ـ مولى بني سُلَيم ـ في مقبرة بني يَشْكُر.

وكان سفيان بن معاوية ـ أمير البصرة ـ قد مالأ[3] على أمره، ولما ظهر أخوه محمد كتب إليه يأمره بالظهور، فوجم لذلك واغتمّ، فجعل بعض أصحابه يسهّل عليه ذلك، وقال له: قد اجتمع لك عالم من الناس، فطابت نفسه، وكان المنصور بظاهر الكوفة في قلّة من العساكر، وقد أرسل ثلاثة من القوّاد إلى سفيان بن معاوية بالبصرة مددًا له، ليكونوا عونًا له على إبراهيم، إن ظهر، فلما أراد إبراهيم الظهور أرسل إلى سفيان فأعلمه، فجمع القوّاد عنده، وظهر إبراهيم أول شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، فغنم دوابّ أولئك الجند، وصلّى بالناس الصبح بالجامع، وقصد دار الإمارة وبها سفيان متحصنًا، فحضره فطلب سفيان منه الأمان، فأمّنه إبراهيم ودخل إلى الدار، ففرشوا له حصيرًا فهبّت الريح فقلبته قبل أن يجلس، فتطيّر الناس لذلك،

(١) بنو ليث: بطن من بكر، من كنانة. ومن بني ليث هذا: الصعب بن جثامة، الصحابي رضي الله عنه.

(٢) هو قاضي البصرة أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، روى عن حميد الطويل وطبقته وكان أحد الحفاظ. قال يحيى القطان: ما بالبصرة ولا بالكوفة ولا بالحجاز أثبت من معاذ بن معاذ... (شذرات الذهب ١: ٣٤٥).

(٣) مالأه على الأمر: ساعده وعاونه.

فقال إبراهيم: إنّا لا نتطيّر وجلس عليه مقلوبًا، وحبس القوّاد وحبس أيضًا سفيان بن معاوية في القصر وقيّده بقيد خفيف، ليعلم المنصور أنه محبوس، وبلغ جعفرًا ومحمدًا، ابني سليمان بن علي ظهور إبراهيم، فأتيا في ستمائة رجل، فأرسل إليهما إبراهيم المضاء بن القاسم الجزري في خمسين رجلاً فهزمهما، ونادى منادي إبراهيم: لا يتبع منهزم ولا يذفف[١] على جريح، ومضى إبراهيم بنفسه إلى باب زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس؛ وإليها ينسب الزينبيون من العباسيين، فنادى بالأمان وألاّ يعرض لهم أحد، فصفت له البصرة ووجد في بيت مالها ألفي ألف درهم، فقوي بذلك وفرض لأصحابه لكل رجل خمسين درهمًا.

فلما استقرت له البصرة أرسل المغيرة إلى الأهواز، فبلغها في مائتي رجل، وكن فيها محمد بن الحُصَين عاملاً للمنصور، فخرج إليه في أربعة آلاف فالتقوا، فانهزم ابن الحصين ودخل المغيرة الأهواز؛ وقيل إنّما سيّر إبراهيم المغيرة إلى الأهواز بعد مسيره من البصرة إلى بَاخمْرَى، وسيّر إبراهيم إلى فارس عمرو بن شدّاد، فقدمها وبها إسماعيل وعبد الصمد ابنا علي بن عبد الله بن العباس، فبلغهما دنو عمرو ـ وهما باصطخر[٢] ـ فقصدا داربجرد[٣] فتحصّنا بها، فصارت فارس في يد عمرو، وأرسل إبراهيم، هارون بن سعد العجليّ في سبعة عشر ألفًا إلى واسط، وبها هارون بن حُمَيد الإِيَادِي من قبل المنصور ـ فملكها العجليّ، وأرسل المنصور لحربه عامر بن إسماعيل المسليّ في خمسة آلاف وقيل في عشرين ألفًا، وكانت بينهم وقعات ثم تهادنوا على ترك الحرب، حتى ينظروا ما يكون من إبراهيم والمنصور، فلما قتل إبراهيم هرب هارون بن سعد عنها، واختفى حتى مات.

قال: ولم يزل إبراهيم بالبصرة، يفرّق العمّال والجيوش حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل الفطر بثلاثة أيام، فخرج بالناس يوم العيد وفيه الانكسار، فصلّى بهم وأخبرهم بقتل محمد، فازدادوا في قتال المنصور بصيرة، وأصبح من الغد فعسكر واستخلف على البصرة نُمَيْلَة، وخلف ابنه حسنًا معه.

---

(١) يقال: ذف على الجريح: إذا أجهز عليه.

(٢) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة: هي مدينة وسطة وسعتها مقدار ميل، وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى أجور. . . (معجم البلدان).

(٣) في معجم البلدان لياقوت: دارابجرد: ولاية بفارس، ينسب إليها كثير من العلماء. . . ودارابجرد: قرية من كورة اصطخر، وبها معدن الزئبق. ودارابجرد أيضًا: موضع بنيسابور.

ذكر مسير إبراهيم ومقتله

قال: ثم عزم إبراهيم على المسير، فأشار عليه أصحابه البصريون أن يقيم ويرسل الجنود، فيكون، إذا انهزم لك جند أمددتهم بغيرهم، فخيف مكانك واتقاك عدوك، وجبيت الأموال وثبتت وطأتك، فقال من عنده من أهل الكوفة: إنّ بالكوفة أقوامًا لو رأوك ماتوا دونك، وإن لم يروك قعدت بهم أسباب شتى؛ فسار عن البصرة إلى الكوفة، وكان المنصور ـ لما بلغه ظهور إبراهيم ـ في قلة من العسكر فقال: والله ما أدري كيف أصنع!! ما في عسكري إلا ألفا رجل، فرّقتُ جندي!! فمع المهدي بالريّ[١] ثلاثون ألفًا، ومع محمد بن الأشعث بإفريقية أربعون ألفًا، والباقون مع عيسى بن موسى، والله، لئن سلمتُ من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفًا، ثم كتب إلى عيسى بن موسى يأمره بالعود مسرعًا، فأتاه الكتاب وقد أحرم بعُمْرة فتركها، وعاد وكتب إلى سلم بن قتيبة فقدم عليه من الريّ، فقال له المنصور: اعمد إلى إبراهيم ولا يروعنّك جمعه، فوالله ـ إنّهما جملا بني هاشم المقتولان، فثِقْ بما أقول، وضمّ إليه غيره من القوّاد. وكتب إلى المهدي يأمره بإنفاذ خُزيْمَة بن خازِم إلى الأهواز، فسيّره في أربعة آلاف فارس فوصلها، وقاتل المغيرة، فرجع المغيرة إلى البصرة، واستباح خزيمة الأهواز ثلاثًا، وتوالت على المنصور الفتوق: من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد، وإلى جانبه أهل الكوفة في مائة ألف مقاتل، ينتظرون به صيحة، فلما توالت الأخبار عليه بذلك أنشد: [من الكامل]

وجعلتُ نفسي للرماح دريَّةً ... إنّ الرئيس بمثل ذاك فعول[٢]

ثم إن المنصور رمى كل ناحية بحجرها، وبقي على مصلاّه خمسين يومًا، ينام عليه ويجلس عليه، وعليه جبة ملوّنة، قد اتسخ جيبها، ما غيّرها ولا هجر المصلّى، إلا أنه، إذا ظهر للناس لبس السواد، فإذا فارقهم رجع إلى هيئته، وأهديت إليه امرأتان من المدينة، إحداهما فاطمة بنت محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله والأخرى أمَة الكريم بنت عبد الله من ولد خالد بن أسيد، فلم ينظر إليهما، فقيل له: إنهما قد ساءت ظنونهما، فقال: ليست هذه أيام نساء، ولا سبيل إليهما حتى أنظر: أرأس إبراهيم لي أم رأسي له؟ قال الحجّاج بن قتيبة: لما تتابعت الفتوق على

---

(١) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال. . . (معجم ياقوت).

(٢) الدرية: ما يتعلم عليه الطعن.

المنصور، دخلتُ مسلّمًا عليه وقد أتاه خبر البصرة والأهواز وفارس، وعساكر إبراهيم قد عظمت، وبالكوفة مائة ألف سيف بإزاء عسكره، تنتظر صيحة واحدة فيثبون به؛ فرأيته أحوذيًا[١] مشمرًا قد قام إلى ما نزل به من النوائب يعركها، فقام بها ولم تقعد به نفسه، وإنّه لكما قال الأوّل[٢]: [من الرجز]

نفس عصامٍ سوَّدَتْ عصاما   وعلّمته الكرَّ والإقداما
* وصيّرته ملكًا هماما *

ثم وجّه المنصور إلى إبراهيم، عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفًا، وعلى مقدّمته حُميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف، وقال له ـ لمّا ودّعه ـ: إنّ هؤلاء الخبثاء ـ يعني المنجّمين ـ يزعمون أنّك إذا لاقيت إبراهيم، تجول أصحابك جولة حين تلقاه، ثم يرجعون إليك وتكون العاقبة لك. قال: ولمّا سار إبراهيم عن البصرة مشى ليلة في عسكره سرًا، فسمع أصوات الطنابير، ثم فعل ذلك ليلة أخرى فسمعها أيضًا، فقال: ما أطمع في نصر عسكر فيه مثل هذا، وسمع وهو ينشد في طريقه أبيات القطاميّ[٣]: [من الوافر]

أمورٌ لو تدبّرها حليمٌ   إذًا لَنَهَى وهَيَّبَ ما استطاعا
ومعصيةُ الشفيق عليك مِمَّا   يَزِيدك مَرَّةً منه استماعا
وخيرُ الأمرِ ما اسْتَقْبَلْتَ منه   وليس بأنْ تَتَبَّعَهُ اتباعا
ولكنَّ الأدِيمَ إذَا تَفَرَّى   بِلىً وتَعَيُّبًا غلب الصَّنَاعا

فعلموا أنّه نادم على مسيره، وكان ديوانه قد أحصى مائة ألف، وقيل كان معه في طريقه عشرة آلاف، وقيل له في طريقه ليأخذ غير الوجه الذي فيه عيسى بن موسى ويقصد الكوفة، فإن المنصور لا يقوم له وينضاف أهل الكوفة إليه، ولا يبقى للمنصور مرجع دون حُلْوان[٤]، فلم يفعل، وقيل له ليبيّت عيسى بن موسى، فقال: أكره البيات إلا بعد الإنذار، وقال له بعض أهل الكوفة: ائذن لي بالمسير إلى الكوفة،

---

(١) الأحوذي: الذي ينزل وحده ولا يخالط القوم.

(٢) هو النابغة الذبياني.

(٣) القطامي: هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه... وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابي وأسماء بن خارجة الفزاري... (الشعر والشعراء).

(٤) حلوان: بالضم ثم السكون: وحلوان في عدة مواضع: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.

أدعو الناس سرًا ثم أجهر، فإذا سمع المنصور الهيعة[١] بأرجاء الكوفة، لم يردّ وجهه شيء دون حُلْوان، فاستشار إبراهيم بشير الرحّال، فقال: لو وثقنا بالذي تقول لكان رأيًا، ولكنَّا لا نأمن أن تجيئك منهم طائفة، فيرسل إليهم المنصور الخيل، فيأخذ البريء والصغير والمرأة، فيكون ذلك تعرُّضًا للمآثم، فقال الكوفي: كأنّكم خرجتم لقتال المنصور وأنتم تتوقون قتل الضعيف والصغير والمرأة، وقد كان رسول الله ﷺ يبعث سراياه، فيقاتل ويكون نحو هذا، فقال بشير: أولئك كفار وهؤلاء مسلمون، فاتَّبع إبراهيم رأيه وسار حتى نزل باخمْرَا[٢]، وهي من الكوفة على ستة عشر فرسخًا، مقابل عيسى بن موسى، فأرسل إليه سَلْم بن قُتَيْبَة يقول: إنّك قد أصحرت[٣]، ومثلك أنفس به عن الموت، فخنْدِق على نفسك حتى لا تؤتى إلا من وجه واحد، فإن أنت لم تفعل فقد أعرى أبو جعفر عسكره، فتخفف في طائفة حتى تأتيه فتأخذ بقفاه، فدعا إبراهيم أصحابه وعرض عليهم ذلك، فقالوا: نخندق على أنفسنا ونحن ظاهرون عليهم؟! لا والله لا نفعل؛ قال: فنأتي أبا جعفر، قالوا: ولِمَ وهو في أيدينا، متى أردناه؟! فقال إبراهيم للرسول: أتسمع، فارجع راشدًا.

ثم إنّهم تصافوْا، فصَفّ إبراهيم أصحابه صفًا واحدًا، فأشار عليه بعض أصحابه بأن يجعلهم كراديس[٤]، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس، فإنّ الصَفّ إذا انهزم بعضه تداعى سائره، فقال الباقون: لا نصفّ إلا صفّ أهل الإسلام، يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، ثم التقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم حُميد بن قحطبة وانهزم الناس معه، فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة، فلا يلوون عليه، وأقبل حُميد منهزمًا فقال له عيسى: الله الله والطاعة، فقال لا طاعة في الهزيمة، ومرّ الناس فلم يبق مع عيسى إلا نفر يسير، فقيل له: لو تنحّيت عن مكانك حتى يثوب إليك الناس، فتكرّ بهم؟ فقال: لا أزول عن مكاني هذا أبدًا حتى أقتل أو يفتح الله على يدي، والله لا ينظر أهل بيتي إلى وجهي أبدًا وقد انهزمت عن عدوّهم، وجعل يقول لمن يمرّ به: اقرأوا أهل بيتي السلام، وقولوا لهم لم أجد فداءً أفديكم به أعزّ من نفسي، وقد بذلتها دونكم، فبينما هم كذلك لا يلوي أحد على أحد إذ أتى جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي من ظهور أصحاب إبراهيم، ولا يشعر باقي أصحابه الذين يتّبعون المنهزمين، حتى نظر بعضهم

---

(١) الهيعة: كل ما أفزعك من صوت أو فاحشة تشاع.

(٢) باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب.

(٣) أصحرت: برزت إلى الصحراء لا يواريها شيء.

(٤) الكراديس: واحدتها الكردوسة، وهي طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

فرأى القتال من ورائهم، فعطفوا نحوه ورجع أصحاب المنصور يتبعونهم، فكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، فلولا جعفر ومحمد لتمّت الهزيمة، وكان من صنع الله للمنصور أن أصحابه لقيهم نهر في طريقهم، فلم يقدروا على الوثوب ولم يجدوا مخاضة فعادوا بأجمعهم، وكان أصحاب إبراهيم قد مخروا الماء ليكون قتالهم من وجه واحد، فلما انهزموا منعهم الماء من الفرار، وثبت إبراهيم في نفر من أصحابه يبلغون ستمائة، وقيل أربعمائة، فقاتلهم حُميد وجعل يرسل بالرؤوس إلى عيسى، وجاء إبراهيم سهم عائر[١] فوقع في حلقه فنحره، فتنحّى عن موقفه وقال: أنزلوني، فأنزلوه عن مركبه وهو يقول: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، أردنا أمرًا وأراد الله غيره، واجتمع عليه أصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه، فقال حُميد بن قحطبة لأصحابه: شدّوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن موضعهم، وتعلموا ما اجتمعوا عليه، فشدّوا عليهم فقاتلوهم أشد القتال، حتى أفرجوهم عن إبراهيم وخلصوا إليه وحزّوا رأسه، فأتوا به عيسى بن موسى، فأراه ابن أبي الكرام الجعفريّ، فقال: نعم هو رأسه، فنزل عيسى إلى الأرض فسجد، وبعث برأسه إلى المنصور، وكان مقتله يوم الاثنين لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائة، وكان عمره ثمانيًا وأربعين سنة، ومكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام.

وقيل كان سبب انهزام أصحاب إبراهيم، أنهم لما هزموا أصحاب المنصور وتبعوهم نادى منادي إبراهيم: ألاَ تتبعوا مدبرًا فرجعوا، فلما رآهم أصحاب المنصور راجعين ظَنوهم منهزمين، فعطفوا في آثارهم وكانت الهزيمة. قال: وبلغ المنصور الخبر بهزيمة أصحابه أولاً، فعزم على إتيان الريّ، فأتاه نَوْبَخْت المنجّم فقال: يا أمير المؤمنين، الظفر لك، وسيُقتل إبراهيم فلم يقبل منه، فبينما هو كذلك إذ أتاه الخبر بقتل إبراهيم، فتمثل: [من الطويل]

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النَّوَى كما قرّ عينًا بالإياب المسافرُ

فأقطع المنصور نوبخت ألفي جريب[٢] بنهر جَوْبَر[٣]، وحمل رأس إبراهيم إلى المنصور، فوضع بين يديه فلما رآه بكى، حتى جرت دموعه على خد إبراهيم، ثم قال: أما والله إن كنت لهذا كارهًا، ولكنك ابتُليت بي وابتُليتُ بك، ثم جلس مجلسًا

(١) السهم العائر: الذي لا يدرى من رمي به.
(٢) الجريب: مكيال قدر أربعة أقفزة.
(٣) جوبر: بالراء: قرية بالغوطة من دمشق، وقيل نهر بها.. وقد نسب إليها جماعة من المحدثين وافرة... (معجم البلدان).

عامًا وأُذن للناس، فكان الداخل يدخل فيتناول إبراهيم، ويسيء القول فيه ويذكر فيه القبيح، التماسًا لرضا المنصور، والمنصور ممسك متغيّر لونه، حتى دخل جعفر بن حَنْظلة البَهْرَاني، فوقف فسلّم ثم قال: عظّم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمّك، وغفر له ما فرط فيه من حقك، فاستقرّ لون المنصور وأقبل عليه، وقال: مرحبٌ أبا خالد ههنا، فعلم الناس أن ذلك يرضيه، فقالوا مثل قوله. قيل ولما وضع الرأس بين يدي المنصور بصق في وجهه رجل من الحرس، فأمر به المنصور فضرب بالعمد، فهشمت أنفه ووجهه، وضرب حتى خمد وأمر به فجروا برجله فألقوه خارج الباب.

قال: وممّا رثي به محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم قول عبد الله بن مصعب بن ثابت: [من الكامل]

يا صاحبيَّ دعا الملامة واعلما ... أن لستُ في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبيّ فسلّما ... لا بأس أن تقفا به فتسلّما
قبرٌ تضمّن خير أهل زمانه ... حسبًا وطيب سجيةٍ وتكرّما
رجلٌ نفى بالعدل جور بلاده ... وعفا عظيمات الأمور وأنعما[1]
لم يجتنب قصد السبيل ولم يجر ... عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيئًا قبله ... بعد النبيّ به لكنت المعْظما
أو كان أمتع بالسلامة قبله ... أحدًا لكان قُصَارُه أن يسلما
ضحّوا بإبراهيم خير ضحيّةٍ ... فتصرّمَتْ أيامه وتصرّما[2]
بطلًا يخوض بنفسه غمراتها ... لا طائشًا رعشًا ولا مستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما ... كانت حُتُوفُهُم السيوف وربّما
أضحى بنو حسن أُبيح حريمهم ... فينا وأصبح نهبهم متقسَّما
ونساؤهم في دورهنّ نوائحٌ ... سجع الحمام إذا الحمام ترنّما
يتوسّلون بقتلهم ويرونه ... شرَفًا لهم عند الإمام ومغنما
والله لو شهد النبيّ محمدٌ ... صَلّى الإله على النبيّ وسلّما
إشراع أمّتِه الأسنّة لابنه ... حتى تقطر من ظباتهم دما[3]
حقًا لأيقن أنهم قد ضيّعوا ... تلك القرابة واستحلّوا المحرما

(١) عفا عظيمات الأمور: أزالها ومحاها من النفوس والديار.
(٢) تصرم فلان: تجلد؛ وتصرمت الأيام: ذهبت وانقضت.
(٣) الظبات: جمع الظّبة: وهو حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.

هذا ما كان من أخبار محمد بن عبد الله بن حسن وأخيه إبراهيم رحمهما الله تعالى، ثم لم يتحرك بعدهم أحد من الطالبيين إلى أن ظهر الحسين بن علي بن الحسن.

ذكر ظهور الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو المقتول بفخ

كان ظهوره بالمدينة في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائة في خلافة الهادي موسى، وسبب ذلك أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما وليها أخذ أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن، ومسلم بن جُنْدُب[1] الشاعر الهُذَلي، وعمر بن سلام مولى آل عمر، على شراب لهم، فأمر بهم فضربوا جميعًا، وجُعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة، فجاء الحسين بن علي إلى العُمَرِي، وقال له: قد ضربتَهم ولم يكن لك أن تضربهم! لأنّ أهل العراق لا يرون به بأسًا، فلِمَ تطوف بهم؟ فأمر بهم فردّوا وحبسهم؛ ثم إن الحسين بن علي هذا ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاً الحسن بن محمد فأخرجه العُمَري من الحبس، وكان قد ضمن بعض آل أبي طالب بعضًا، وكانوا يعرضون، فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين، فأحضر العُمَري الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله وسألهم عنه وأغلظ لهما، فحلف له يحيى أنّه لا ينام حتى يأتيه به، أو يدقّ عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به، فلمّا خرجا قال له الحسين: سبحان الله! ما دعاك إلى هذا؟ ومن أين تجد حسنًا؟ حلفتَ له بشيء لا تقدر عليه، فقال: والله لا نمتُ حتى أضرب عليه باب داره بالسيف، فقال له الحسين: إنْ هذا ينقض ما كان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد، وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى أو بمكة في الموسم، فقال يحيى: قد كان ذلك فانطلقا، وعملا في ذلك من ليلتهم، وخرجوا آخر الليل، وجاء يحيى حتى ضرب على العُمَري باب داره فلم يجده، وجاؤوا فاقتحموا المسجد بعد الصبح، فلما صلّى الحسين الصبح أتاه الناس فبايعوه: على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، للمرتضى من آل محمد، وجاء خالد البربري في مائتين من الجند، وجاء العمري ووزير ابن إسحاق الأزرق ومحمد بن واقد الشَّرَوي ومعهم ناس كثير، فدنا خالد منهم فقام إليه يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن

---

(١) لم نجد في «شرح أشعار الهذليين» لأبي سعيد السكري غير إياس بن جندب، وأبو جندب.

حسن، فضربه يحيى على أنفه فقطعه، ودار له إدريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه، وانهزم أصحابه ودخل العمري في المسوّدة، فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد، وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار، وقيل سبعون ألفًا، وتفرّق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم، فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بني العباس فقاتلوهم، وفشت الجراحات في الفريقين، واقتتلوا إلى الظهر ثم افترقوا،ثم إن مباركًا التركي أتى شيعة بني العباس من الغد ـ وكان قدم حاجًا ـ فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال إلى منتصف النهار، ثم تفرّقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد، وواعد مبارك الناس الرواح إلى القتال، فلمّا غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق، وراح الناس فلم يجدوه، فقاتلوا شيئًا من قتال إلى المغرب ثم تفرّقوا، وقيل إن مباركًا أرسل إلى الحسين يقول له: والله لئن أسقط من السماء فيتخطفني الطير أيسر عليّ من أن تشوكك شوكة، أو تُقطع من رأسك شعرة، ولكن لا بدّ من الإعذار، فبيّتني فإني منهزم عنك، فوجّه إليه حسين أو خرج إليه في نفر، فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبّروا، فانهزم هو وأصحابه، وأقام الحسين وأصحابه أيامًا يتجهّزون، فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يومًا، ثم خرجوا لست بقين من ذي القعدة، فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد، فوجدوا فيه الطعام الذي كانوا يأكلون وآثارهم، فدعوا عليهم.

ولما فارق الحسين المدينة قال: يا أهل المدينة، لا خلف الله عليكم بخير، فقالوا: بل أنت، لا خلف الله عليك بخير، ولا ردّك إلينا، وكان أصحابه يُحْدِثون في المسجد، فغسله أهل المدينة. قال: ولما أتى الحسين مكة فنودي: أيما عبدٍ أتانا فهو حرّ، فأتاه العبيد، فانتهى الخبر إلى الهادي؛ وكان قد حجّ تلك السنة رجال من أهل بيته، منهم سليمان بن المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي، وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى، فكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب، وكان قد سار من البصرة بجماعة وسلاح لخوف الطريق، فاجتمعوا بذي طوًى[1]، وكانوا قد أحرموا بعُمرة، فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وحلّوا من العمرة، وعسكروا بذي طوى وانضمّ إليهم من حجّ من شيعتهم ومواليهم وقوّادهم، والتقوا واقتتلوا يوم التروية[2]، فانهزم أصحاب الحسين، وقُتل منهم وجرح، وانصرف محمد بن سليمان ومن معه إلى مكة، ولا يعلمون حال الحسين، فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول: البشرى، البشرى؛ هذا رأس

(١) ذو طوى: بالضم: موضع عند مكة. (٢) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

الحسين فأخرجه وبجبهته ضربة طولاً، وعلى قفاه ضربة أخرى، وكانوا قد نادوا الأمان، فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد، فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس فقتلاه، فغضب محمد بن سليمان غضبًا شديدًا، وأخذ رؤوس القتلى فكانت مائة رأس ونيّفًا، وفيها رأس سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأُخذت أخت الحسين فتُركت عند زينب بنت سليمان، واختلط المنهزمون بالحاج، وأُتي الهادي بستة أسرى، فقتل بعضهم واستبقى بعضهم، وغضب على موسى بن عيسى كيف قتل الحسن بن محمد، وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات، وغضب على مبارك التركي، وأخذ ماله وجعله سائس الدوابّ، فبقي كذلك حتى مات الهادي، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، فأتى مصر وعلى بريدها واضح، مولى صالح بن المنصور، وكان شيعيًا فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بأرض طَنْجَة[1] بمدينة وَلِيلَة، فاستجاب له من بها من البربر، فضرب الهادي عنق واضح وصلبه، وقيل إن الرشيد هو الذي قتله، وأن الرشيد دسّ إلى إدريس الشمّاخ اليماميَ، مولى المهدي، فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظّمه وآثره على نفسه، فمال إليه إدريس وأنزله عنده، ثم إن إدريس شكا إليه مرضًا في أسنانه، فوصف له دواءً وجعل فيه سمًّا، وأمره أن يستنّ[2] به عند طلوع الفجر فأخذه منه، وهرب الشمّاخ ثم استعمل إدريس الدواء فمات منه، فولّى الرشيد الشمّاخ بريد مصر. قال: ولما مات إدريس بن عبد الله خلف مكانه ابنه إدريس بن إدريس، وأعقب بها وملكوها، ونازعوا بني أميّة في إمارة الأندلس، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار الأندلس فلا فائدة في إعادته. قال: وحملت الرؤُوس إلى الهادي، فلمّا وُضع رأس الحسين بين يديه قال: كأنّكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت!! إن أقلَ ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم، فلم يعطهم شيئًا.

قال: وكان الحسين شجاعًا كريمًا، قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرّقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه، إلا وبرًا ليس تحته قميص، وهذا غاية في الجود ونهاية في الكرم والإيثار، رحمه الله تعالى وغفر له.

---

(١) طنجة: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر. . . (معجم البلدان).

(٢) استنّ: استاك.

ذكر ظهور يحيى بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب

كان ظهوره في خلافة الرشيد بن المهدي في سنة ست وسبعين ومائة ببلاد الديلم[١]، واشتدت شوكته وكثرت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار، فاغتمّ الرشيد لذلك، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في خمسين ألفًا، وولاّه جرجان وطبرستان والريّ وغيرها وحمل معه الأموال، فكاتب يحيى بن عبد الله ولطف به وحذّرَه، وأشار عليه وبسط أمله، ونزل الفضل بالطالقان[٢]، بمكان يقال له أشَب، ووالى كتبه إلى يحيى، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألْف ألف درهم، على أن يسهّل له خروج يحيى بن عبد الله، فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطّه، يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم؛ منهم عبد الصمد بن علي، فأجابه الرشيد إلى ذلك، وسرّ به وعظمت منزلة الفضل عنده، وسيّر الأمان مع هدايا وتحف، فقدم يحيى مع الفضل بغداد، فلقيه الرشيد بكل ما أحبّ وأمر له بمال كثير، ثم حبسه الرشيد بعد ذلك فمات في حبسه؛ وكان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى على محمد بن الحسن الفقيه وعلى أبي البختري القاضي، فقال محمد: الأمان صحيح، فحاجّه الرشيد، فقال محمد: وما يصنع بالأمان؟ لو كان محاربًا ثم ولّى كان آمنًا، وقال أبو البختري: هذا أمان منتقض من وجه كذا، فمزقه الرشيد، وقد ذكرنا خبر يحيى في حبسه فيما تقدّم من كتابنا هذا، عند ذكرنا لأخبار القبض على البرامكة في أيام الرشيد، وأن الرشيد كان قد حبسه عند جعفر، فأطلقه جعفر بغير أمر الرشيد، وقيل بل أخبره بوفاته، ثم نقله إلى خراسان وأودعه عند أميرها علي بن عيسى بن ماهان، وأوصاه به أن يكون عنده موسعًا عليه واستكتمه أمره، فكتب عليّ بذلك إلى الرشيد، فكان ذلك سبب زوال نعمة البرامكة، وقد تقدّم ذكر هذه القصّة هناك مبسوطة، ولا فائدة في تكرار ذلك وإعادته، فلنذكر خلافه من أخبار من ظهر من الطالبيين.

---

(١) الديلم: جيل سموا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر ويسمى باسم لأب طم. . . (معجم ياقوت).

(٢) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ. . والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر وبها عدة قرى يقع عليها هذا الاسم. . . (معجم البلدان).

ذكر ظهور محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو المعروف بابن طباطبا

كان ظهوره بالكوفة لعشر خلون من جُمادى الآخرة سنة تسع وتسعين ومائة، في خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون، وخرج يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ، والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ، وكان القيّم بأمره في الحرب أبو السرايا[(١)] السري بن منصور، وهو من ولد هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيباني، فلما اشتد أمر محمد أراد أن يستقل بالأمر دون أبي السرايا، فسقاه أبو السرايا سمًّا فمات، في مستهلّ شهر رجب من السنة المذكورة، وقد ذكرنا خبره مبيّنًا في أخبار المأمون بن الرشيد. ولما مات محمد بن إبراهيم نصب أبو السرايا مكانه غلامًا أمرد يقال له:

محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي

وصار الحكم لأبي السرايا، واستعمل العمّال على البصرة والأهواز وفارس ومكة واليمن، وانتشر الطالبيون في البلاد وقوي أمرهم، إلى أن قتل أبو السرايا وذلك في المحرم سنة مائتين، فاستعيدت البلاد من الطالبيين على ما قدّمناه في أخبار أبي السرايا في خلافة المأمون.

ذكر ظهور إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وما كان من أمره

كان ظهوره بمكة في سنة مائتين في خلافة المأمون، وكان أبو السرايا قد ولّاه اليمن، فأتاه الخبر بمقتل أبي السرايا وهو بمكة، فسار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى عاملاً للمأمون، فلمّا بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار نحو مكة، واستولى إبراهيم على اليمن، وكان يسمى الجزّار لكثرة من قتل باليمن، وسبى وأخذ

---

(١) هو أبو السرايا السري بن منصور أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيبان، كان قد خالف السلطان ونابذه، وعاث في نواحي السواد.. من غلمانه: أبو الشوك، وسيار، وهرماس.. وكان علويّ الرأي ذا مذهب في التشيع... (مقاتل الطالبيين ص٥٢١).

الأموال، ولم يتمّ أمره ولا أمر غيره ممّن كان أبو السرايا استعملهم، وقد ذكرنا خبر الحسين بن الحسن الأفطس ومحمد بن جعفر وما كان من أمرهما بمكة في أخبار المأمون، ولا فائدة في إعادته، وقد ذكرنا أيضًا خبر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وخروجه بالطالقان، وما كان من أمره في أخبار المعتصم بالله بن الرشيد في سنة تسع عشرة ومائتين.

ذكر ظهور يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب وهو المكنّى بأبي الحسين

وكان ظهوره بالكوفة في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالله، وسبب ظهوره أنه نالته ضائقة، ولزمه دين ضاق به ذرعًا، فلقي عمر بن فرج وهو يتولى أمر الطالبيين، فكلّمه في صلته فأغلظ له عمر، وحبسه فلم يزل محبوسًا حتى كفله أهله، فأطلق وسار إلى بغداد، فأقام بها سنة ثم رجع إلى سامرّا[١]، فلقي وصيفًا فكلّمه في رزق يجريه له، فأغلظ له وصيف وقال: لأي شيء يُجرى على مثلك؟ فانصرف إلى الكوفة وبها أيوب بن الحسن بن موسى بن جعفر بن سليمان الهاشمي، عامل محمد بن عبد الله بن طاهر، فجمع أبو الحسين جمعًا كثيرًا كثيرًا من الأعراب وأهل الكوفة، وأتى الفَلُّوجَة[٢] فكتب صاحب البريد بخبره إلى محمد بن عبد الله، فكتب محمد بن عبد الله إلى أيوب وعبد الله بن محمود السرخسي[٣]، عامله على معاون السواد، يأمرهما بالاجتماع على حرب يحيى. قال: ومضى يحيى بن عمر إلى بيت مال الكوفة فأخذ ما كان فيه، وهو ألفًا دينار وسبعون ألف درهم، وأظهر أمره بالكوفة وفتح السجون وأخرج من فيها، وأخرج العمّال عن الكوفة، فلقيه عبد الله بن محمود السرخسي فيمن معه، فضربه يحيى على وجهه ضربة أثخنه[٤] بها، فانهزم عبد الله،

(١) سامراء: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.. قال أبو سعد: سامراء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) الفلوجة: بالفتح ثم التشديد، وواو ساكنة، وجيم: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر.

(٣) نسبة إلى سرخس، وهي مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق.

(٤) أثخنه بها: غلبه.

وأخذ أصحاب يحيى ما كان معهم من الدوابّ والمال، وخرج يحيى إلى سواد الكوفة، وتبعه جماعة من الزيدية[١] وغيرهم إلى ظهر واسط، وأقام بالبستان فكثر جمعه، فوجّه محمد بن عبد الله إلى محاربته الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن مصعب في جمع من أهل النجدة والقوّة، فسار إليه ونزل في مقابلته ولم يقدم عليه، وسار يحيى والحسين في أثره حتى نزل الكوفة، ولقيه عبد الرحمٰن بن الخطاب المعروف بوجه الفَلْس قبل دخولها، فقاتله فانهزم عبد الرحمٰن إلى ناحية شاهي[٢] فوافاه الحسين بها، واجتمعت الزيدية إلى يحيى بن عمر، ودعا بالكوفة إلى الرضا من آل محمد ﷺ، واجتمع الناس إليه، وتولاه العامّة من أهل بغداد، ولا يُعلم أنّهم تولوا أحدًا من أهل بيته سواه، وبايعه جماعة من أهل الكوفة ممّن له تدبير وبصيرة في تشيعهم، ودخل فيهم أخلاط لا ديانة لهم، وأقام الحسين بشاهي فأراح واستراح، واتصلت به الأمداد، ويحيى بالكوفة يعدّ الرجال ويصلح السلاح، فأشار عليه جماعة من الزيدية ممّن لا علم لهم بالحرب بمعاجلَة الحسين بن إسماعيل، وألحّوا عليه فزحف إليه في ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب من السنة، ومعهم الهيضم العجلي وغيره، ورجاله من أهل الكوفة ليس لهم علم بالحرب ولا شجاعة، وأسْروا ليلتهم وصبّحوا حسينًا وهو مستريح، فثاروا بهم في الغلس، فركب أصحاب الحسين وحملوا عليهم فانهزموا، ووضعوا فيهم السيف وأَسَروا منهم، فكان أوّل من أسر الهيضم العجلي، وانكشف العسكر عن يحيى وعليه جوشن[٣]، وقد تقطّر[٤] به فرسه، فوقف عليه ابن لخالد بن عمران يقال له خير، فلم يعرفه وظنّه من أهل خراسان لما رأى عليه الجوشن، فأمر رجلاً فنزل إليه وأخذ رأسه، فعرفه رجل وسيّر الرأس إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، وادعى قتله غير واحد، فبعث محمد الرأس إلى المستعين، فنصب بسامرّا ثم حطّ وسيّر إلى بغداد لينصب بها، فلم يقدر محمد بن طاهر على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس، فلم ينصبه وخاف أن يأخذوه، فجعله في صندوق في بيت السلاح، ووجّه الحسين بن إسماعيل رؤوس من قتل ومن أسر إلى بغداد فحبسوا بها، وكتب محمد بن عبد الله فيهم فأمر بتخليتهم ودفن الرؤوس.

---

(١) الزيدية: هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم... (الملل والنحل للشهرستاني ١: ١٥٤).

(٢) شاهي: موضع قرب القادسية.

(٣) الجوشن: الدرع.

(٤) تقطر به فرسه: ألقاه على أحد جانبيه.

قال: ولما ورد الخبر بقتل يحيى على محمد بن عبد الله جلس ليهنَأ بذلك، فدخل عليه داود بن الهيثم الجعفري فقال: أيها الأمير، إنك لتهنَأ بقتل رجل لو كان رسول الله ﷺ حيًا لعُزّى به، فما ردّ محمد عليه شيئًا، وأكثر الشعراء المراثي في يحيى، لما كان عليه من حسن السيرة والديانة، فمن ذلك قول بعضهم: [من الخفيف]

بكت الخيل شجوها بعد يحيى ... وبكاه المهنَّد المصقول
وبكته العراق شرقًا وغربًا ... وبكاه الكتّاب والتنزيل
والمصلّى والبيت والركن والحِجْـ ... ـر جميعًا له عليه عويل
كيف لم تسقط السماء علينا ... يوم قالوا أبو الحسين قتيل
وبنات النبي يندبن شجوًا ... موجعات دموعهن همول[1]
قطَعت وجهه سيوف الأعادي ... بأبي وجهه الوسيم الجميل
إنّ يحيى أبقى بقلبي غليلاً ... سوف يودي بالجسم ذاك الغليل
قتله مُذكر لقتل علي ... وحسين ويوم أوذي الرسول
صلوات الإله وقفا عليهم ... ما بكى موجّع وحنّ ثكول[2]

ذكر ظهور الحسين بن محمد

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين في زمن الخلف الذي وقع بين المستعين والمعتز، ظهر بالكوفة رجل من الطالبيين، اسمه الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن حسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، واستخلف بها محمد بن جعفر العلوي، فوجّه إليه المستعين مُزَاحم بن خَاقَان، وكان العلويّ بسواد الكوفة في جماعة من بني أسد ومن الزيدية، وأجلى عنها عامل الخليفة، وهو أحمد بن نصر بن حمزة بن مالك الخزاعي إلى قصر ابن هبيرة، فاجتمع وهشام بن أبي دُلَف العِجْلي فسارا إلى الكوفة، فحمل أهل الكوفة العلوية على قتالهما ووعدوهم النصرة، فقاتلهم مُزاحِم وكان قد سيّر قائدًا مع جماعة، فأتى الكوفة من الجهة الأخرى، فأطبقوا عليهم فلم يفلت منهم أحد، ودخل الكوفة فرماه أهلها بالحجارة فأحرقها بالنار، وأحرق منها سبعة أسواق حتى خرجت النار إلى السبيع[3]، ثم هجم على الدار التي فيها العلوي، فهرب وأقام مزاحم بالكوفة.

---

(١) هملت العين: فاضت وسالت. (٢) الثكول: التي ثكلت ولدها: أي فقدته.

(٣) السبيع: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم ياء، وآخره عين مهملة: هي المحلة التي كان يسكنها الحجاج بن يوسف، وهي مسماة بقبيلة السبيع رهط أبي إسحاق السبيعي... (معجم البلدان).

ذكر خبر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

كان ظهوره بمكة في سنة إحدى وخمسين ومائتين، ولما ظهر هرب عاملها، وانتهب إسماعيل داره ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ ما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحوًا من مائتي ألف دينار، وخرج منها بعد أن نهبها وأحرق بعضها في شهر ربيع الأوّل، بعد أن أقام بها خمسين يومًا، وصار إلى المدينة فتوارى عاملها، ثم رجع إلى مكة في شهر رجب، فحصرهم حتى غلت الأسعار، ولقي أهل مكة منه كل بلاء، ثم سار إلى جُدّة بعد مقامه سبعة وخمسين يومًا، فحبس عن الناس الطعام، وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ثم وافى عرفة وبها محمد بن عيسى الملقب كعب البقر، وعيسى بن محمد المخزومي كان المعتز قد وجّههما إليها، فقاتلهما إسماعيل، وقُتل من الحاج نحو ألف ومائة إنسان، وسلب الناس فهربوا إلى مكة، ولم يقفوا بعرفة ليلاً ولا نهارًا، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جُدّة فجبى أموالها.

ذكر ظهور علي بن زيد العلوي بالكوفة وخروجه عنها

كان ظهوره في سنة ست وخمسين ومائتين واستولى على الكوفة، وأزال عنها نائب الخليفة المعتمد على الله واستقرّ بها، فسيّر إليه المعتمد الشاه بن ميكال في جيش كثيف، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت جيوش المعتمد، وقتل جماعة منهم، فسيّر لمحاربته كنجور التركي، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة ويبذل له الأمان، ففعل ذلك فطلب عليّ أمورًا لم يجبه كنجور إليها، فخرج عليّ عن الكوفة إلى القادسية فعسكر بها، ودخل كنجور الكوفة في ثالث شوال من السنة، ومضى علي بن زيد إلى خَفَّان[1]، ثم دخل البرّ إلى بلاد بني أسد وكان قد صاهرهم، فأقام هناك ثم فارقهم وصار إلى جهة، فبلغ كنجور خبره فسار إليه من الكوفة في سلخ ذي الحجة، فواقعه فانهزم عليّ وقتل نفر من أصحابه، ولم يزل عليّ بن زيد إلى سنة ستين فقتله صاحب الزنج. فلنذكر أخبار دولتهم بطبرستان.

---

(١) خفان: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا، وهو مأسدة. . . (معجم ياقوت).

ذكر أخبار الدولة العلوية بطبرستان
الداعي إلى الحق الحسن بن زيد

كان ظهور هذه الدولة في سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين بالله، وأول من ظهر منهم الداعي إلى الحق: الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان سبب ظهوره أنَّ محمد بن عبد الله بن طاهر لما ظفر بيحيى بن عمر أقطعه المستعين بالله من صوافي السلطان بطبرستان، قطائع منها قطيعة بقرب ثغر الديلم، وهي كَلاَر وسَالُوس؛ وكان بجوارها أرض يحتطب منها أهل تلك الناحية، وترعى فيها مواشيهم ليس لأحد عليها مِلْك، إنما هي موتان[١]، وهي ذات عيون وأشجار وكلأ، فوجّه محمد بن عبد الله نائبه لحيازة ما أُقطع، وهو جابر بن هارون النصراني، وكان عامل طبرستان يومئذ سليمان بن عبد الله بن طاهر، خليفة عن محمد بن طاهر، وكان الغالب على أمر سليمان، محمد بن أوْس البلخي، وقد فرّق محمد بن أوس هذا أولاده في مدن طبرستان، وهم أحداث سفهاء فتأذّى بهم الرعيّة، وشكوا سوء سيرتهم وسيرة أبيهم وسيرة سليمان، ثم دخل محمد بن أوس بلاد الديلم، وهم مسالمون لأهل طبرستان[٢]، فسبى منهم وقتل، وساء ذلك أهل طبرستان، ولما قدم جابر بن هارون لحيازة ما أُقطع لمحمد بن عبد الله عَدَا على تلك الأرض المباحة، فحازها إلى كَلاَر وسالوس، وكان في تلك الناحية أخوان لهما بأس ونجدة، مذكوران ببذل الطعام وشدة الطعان، يقال لأحدهما محمد والآخر جعفر ابنا رستم، فأنكرا ما فعل جابر من حيازة المَوَات، وكان مطاعين في تلك الناحية، فاستنهضا من أطاعهما لمنع جابر من حيازة ذلك الموات، فخافهما جابر وهرب منهما ولحق بسليمان بن عبد الله، وخاف محمد وجعفر ومن معهما من عامل طبرستان، فراسلوا من جاورهم من الديلم يذكرونهم العهد الذي بينهم ويعتذرون ممّا فعله محمد بن أوس بهم من السبي والقتل، واتفقوا على المعاونة على حرب سليمان بن عبد الله وغيره، ثم أرسل ابنا رستم إلى رجل من الطالبيين ـ اسمه محمد بن إبراهيم ـ كان بطبرستان، يدعونه إلى

(١) موتان: التي لم تزرع ولم تغمر ولا جرى عليها ملك لأحد.

(٢) طبرستان: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه... فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل... (معجم البلدان).

البيعة له فامتنع من ذلك، وقال: ولكنّي أدلّكم على رجل منّا، هو أقوم بهذا الأمر منّي، فدلّهم على الحسن بن زيد وهو إذ ذاك بالريّ، فوجّهوا إليه برسالة محمد بن إبراهيم يدعونه إلى طبرستان، فشخص إليها وقد اجتمعت كلمة الديلم وأهل كلار وسالوس على بيعته، فبايعوه وطردوا عمّال ابن أوس عنهم، فلحقوا بسليمان.

وانضم إلى الحسن بن زيد أيضًا أهل جبال طبرستان، فتقدم الحسن ومن معه نحو مدينة آمُل[١] طبرستان. وهي أقرب المدن إليهم. وأقبل ابن أوس من سارية لدفعهم عنها. والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا. فتوجه الحسن بن زيد في جماعة إلى آمُل فدخلها، فلما سمع ابن أوس الخبر ـ وهو مشغول بحرب أصحاب الحسن ـ لم تكن له همّة إلا النجاة بنفسه، فهرب ولحق بسليمان إلى سارية[٢]، واستولى الحسن على آمل، وكثر جمعه وأتاه كل طالب نهب وفتنة. فأقام بآمل أيامًا ثم سار نحو سارية لحرب سليمان بن عبد الله، فالتقوا خارج مدينة سارية، ونشبت الحرب بينهم، فسار بعض قوّاد الحسن نحو سارية فدخلها، فلما سمع سليمان الخبر انهزم هو ومن معه، وترك أهله وعياله وأثقاله بها، واستولى الحسن وأصحابه على جميع ذلك، وسيّر إليه أولاده وأهله في مركب إلى جرجان، وقيل إنّ سليمان إنما انهزم اختيارًا، لأن الطاهريّة كلها كانت تتشيع، فلما أقبل الحسن نحو طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدة تشيعه، وقال: [من البسيط]

نبّئت خيل ابن زيدٍ أقبلت حِينا ... تريدنا لِتُحَسّينَا الأمرّينا
يا قوم إن كانت الأنباء صادقة ... فالويل لي ولجمع الطاهريّينا
أما أنا فإذا اصطفَت كتائبهم ... أكون من بينهم رأس المولّينا
والعذر عند رسول الله منبسط ... إذا احتسبت دماء الفاطميّينا

فلما التقوا انهزم سليمان، قال: ولما اجتمعت طبرستان للحسن بن زيد وجّه إلى الريّ جندًا مع رجل من أهله، يقال له الحسن بن زيد أيضًا، فملكها وطرد عامل الطاهرية عنها، واستخلف بها رجلاً من العلويين يقال له محمد بن جعفر، وانصرف عنها.

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل... (معجم البلدان).

(٢) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.. وبها منزل العامل في أيام الطاهرية.. وبين سارية والبحر ثلاثة فراسخ... (معجم البلدان).

قال: وورد خبر الحسن على المستعين بالله، ومُدبّر أمره يومئذ وصيف، وكاتبه أحمد بن صالح، فوجّه إسماعيل بن فراشة في جند إلى همذان، وأمره بالمقام بها ليمنع خيل الحسن بن زيد عنها، وما عدا همذان فأمره إلى محمد بن طاهر.

قال: ولما استقرّ محمد بن جعفر الطالبي بالريّ، ظهر منه أمور كرهها أهل الريّ، ووجّه محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قائدًا يقال له ابن مِيكَال، في جمع من الجند إلى الريّ، فالتقى هو ومحمد بن جعفر الطالبي خارج الريّ، فأسر محمد وانهزم جيشه، ودخل ابن ميكال إلى الريّ وأقام بها، فوجّه إليه الحسن بن زيد عسكرًا، مع قائد من قوّاده يقال له واجن، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ابن ميكال واعتصم بالريّ، فاتبعه واجن وأصحابه حتى قتلوه، وصارت الريّ في يد أصحاب الحسن بن زيد.

ثم ظهر بالريّ في سنة خمسين ومائتين أيضًا

أحمد بن عيسى بن علي بن حسين (الصغير) بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإدريس بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فصلّى أحمد بن عيسى بأهل الريّ صلاة العيد، ودعا إلى الرضا من آل محمد، فحاربه محمد بن علي بن طاهر، فانهزم ابن طاهر وصار إلى قزوين(١).

ثم مسك أحمد في سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وسيّر إلى نيسابور، وكان الذي ظفر به عبد الله بن عزيز.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين

رجع سليمان بن عبد الله بن طاهر إلى طبرستان بجمع كثير، ففارقها الحسن بن زيد ولحق بالديلم، ودخلها سليمان وقصد سارية، وأتاه أهل آمل وغيرهم، منيبين مظهرين الندم يسألون الصفح، فلقيهم بما أرادوا، ونهى أصحابه عن القتل والنهب، ثم فارقها سليمان وعاد الحسن بن زيد إليها، فسار مفلح إليه من قبل موسى بن بغا في سنة خمس وخمسين ومائتين، وحاربه فانهزم الحسن ولحق بالديلم، ودخل مفلح آمل وأحرق منازل الحسن، وسار إلى الديلم في طلبه، ثم كتب إلى موسى بن بغا بالقدوم عليه إلى الريّ، فسار إليه ثم سار إلى سامرّا.

---

(١) قزوين: بالفتح ثم السكون، وكسر الواو، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا وإلى أبهر اثنا عشر فرسخًا. . . (معجم ياقوت).

ذكر ملك الحسن بن زيد جرجان

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين قصد الحسن جُرْجان[١] واستولى عليها، وكان محمد بن عبد الله بن طاهر أمير خراسان ـ لما بلغه عزم الحسن على قصد جرجان ـ جهّز العساكر، وأخرج عليها الأموال الكثيرة، وسيّرها لحفظ جرجان، فلم يقوموا بحرب الحسن، وظفر بهم وملك البلد وقتل كثيرًا من العساكر، وغنم هو وأصحابه ما معهم، فضعف حينئذ محمد بن طاهر، وانتقض عليه كثير من الأعمال التي يجبى خراجها إليه، ولم يبقَ في يده إلا بعض خراسان، وأكثرها بيد المتغلبين كيعقوب بن الليث الصفّار وغيره.

وفيها فارق عبد العزيز بن أبي دُلَف الريّ من غير سبب يُعلم وأخلاها، فأرسل الحسنُ بن زيد القاسمَ بن علي بن القاسم العلوي، فغلب عليها فأساء السيرة في أهلها، وخلع أبواب المدينة ـ وكانت من حديد ـ وسيّرها إلى الحسن، وبقي كذلك نحو سنتين.

وفي سنة تسع وخمسين ومائتين

غلب الحسن بن زيد على قومس[٢]، ودخلها أصحابه، وفي سنة ستين ومائتين دخل يعقوب بن الليث الصفّار طبرستان، وانهزم الحسن إلى أرض الديلم على ما نذكره في أخبار الدولة الصفَارية.

ذكر وفاة الحسن بن زيد وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته يوم الاثنين لثلاث خلون من رجب سنة سبعين ومائتين، فكانت مدة ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام ـ وقيل ـ واثني عشر يومًا، وكان مهيبًا عظيم الخلق. حكى صاحب كنوز المطالب في بني أبي طالب عن الصولي: أن الحسن عطس يومًا عطسة، وكان رجل يؤذن في المنارة ففزع فسقط منها إلى الأرض فمات. قال: وكان أقوى البغال لا تحمله أكثر من فرسخين، وكان في آخر عمره

(١) جرجان: بالضم وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(٢) قومس: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وسين مهملة: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان.. وقصبتها المشهورة دامغان... (معجم البلدان).

يشق بطنه ويخرج منه الشحم ثم يخاط. وكان جوادًا ممدوحًا، امتدحه رجل فأعطاه عشرة آلاف درهم، وفيه يقول محمد بن إبراهيم الجرجاني وقد افتصد: [من الخفيف]

إنّما غيّب الطبيب شَبا المِبْضع عندي في مهجة الإسلام(١)
سرّت الأرض حين صُبّ عليها دمُ خير الورى وأعلى الأنام

وكان متواضعًا لله عزّ وجل. حكي عنه أنه مدحه شاعر فقال الله فرد وابن زيد فرد، فردّ فقال: بفيك الكثكث يا كذّاب!! لِمَ لا قلتَ: الله فرد وابن زيد عبد، ثم نزل عن مكانه وخرّ ساجدًا لله تعالى، وألصق خدّه بالتراب وحرم ذلك الشاعر. وكان عالمًا بالشعر والعربية.

فمدحه شاعر فقال: [من الرّمل]

لا تقل بشرى ولكن بُشْريان غرّة الداعي ويوم المهرجان(٢)

فقال: كان الواجب أن تفتح الأبيات بغير لا، لأن الشاعر المجيد يتخيّر لأول القصيدة، ما يعجب السامع ويتبرّك به، ولو ابتدأت بالمصراع الثاني لكان أحسن، فقال الشاعر: ليس في الدنيا كلمة أجلّ من لا إله إلا الله وأوّلها لا، فقال له الحسن: أصبت، وأجازه. وأهدى إليه أبو العمر الطبري سهمين في بعض الأعياد عليهما مكتوب: [من الرجز]

أهديت للداعي إلى الحقّ سهمي فتوح الغرب والشرق
زُجّاهما النصر وريشاهما ريشا جناحي طائر السبق(٣)
أيّد هذا الفال بالصدق هما بشيرا دعوة الحق

فسرّه الفأل، وأعطاه عشرة آلاف درهم. وحكي عنه أنه غنّى عنده مُغنٍ بأبيات الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، التي أوّلها: [من الرمل]

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب

فلما وصل إلى قوله:

برسول الله وابني عمّه وبعبّاس بن عبد المطّلب

(١) شبا المبضع أعلاه.
(٢) المهرجان: احتفال الاعتدال الخريفي، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين: الأولى: مهر، ومن معانيها الشمس؛ والثانية: جان، ومن معانيها الحياة أو الروح.
(٣) الزج: نصل السهم.

غيّر البيت فقال: لا بعبّاس بن عبد المطّلب، فغضب الحسن وقال: يا ابن اللخناء، أتهجو بني عمّنا بين أيدينا، وتغيّر ما مُدحوا به؟! إن فعلتها مرة ثانية لأجعلنّها آخر غنائك.

وكان الحسن شاعرًا فمن شعره: [من السريع]

لم نُمْنعِ الدنيا لفضلٍ بها ... ولا لأنّا لم نكن أهلها
لكن لنعطى الفوز في جنّة ... ما إن رأى ذو بصر مثلها
هاجرها خير الورى جدّنا ... فكيف نرجو بعده وصلها

وله أشعار مستحسنة تركناها اختصارًا، وكان كاتبه سعيد بن محمد الطبري. قال: ولما مات قام بالأمر بعده أخوه محمد بن زيد.

ذكر أخبار محمد بن زيد

لما مات الحسن كان أخوه هذا بجرجان، وكان في مرضه قد أمر صهره محمد بن إبراهيم العلوي - أن يكتب إلى أخيه محمد بن زيد ليسارع بالحضور، فينتصب في المملكة، فتباطأ، فلما توفي الحسن انتصب محمد بن إبراهيم مكانه، وتلقّب بالقائم بالحق، فبلغ الخبر محمد بن زيد فسار من جرجان، فلمّا قرب هرب محمد بن إبراهيم إلى سالوس[1]، فأنفذ في أثره سريّة فأدرك وقتل، ولبس محمد بن زيد القلنسوة وتلقّب بالداعي.

واستقامت له طبرستان وذلك في بقية رجب سنة سبعين ومائتين، ووصل إلى الري في جموع كثيرة، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين ومائتين في جُمادى الأولى، سار اذكوتكين - صاحب الريّ - من قزوين إلى الريّ، ومعه أربعة آلاف فارس، وكان مع محمد بن زيد من الديلم والطبرية والخراسانية عالم كثير، فالتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر محمد وتفرّقوا، وقتل منهم ستة آلاف وأسر ألفان، وغنم اذكوتكين من أموالهم وأثقالهم ودوابّهم ما لم ير مثله.

قال: وجلس اذكوتكين بالمصلّى، ليضرب أعناق الأسرى بين يديه، فمن عجيب ما اتفق أنّ ديلميًا قدّم ليضرب عنقه، فوثب على السيّاف واستلب السيف من يده، وعلاه به فقتله ومرّ هاربًا فلم يلحق، واذكوتكين ينظر إليه ويضحك؛ ودخل

---

(١) سالوس: هي في الإقليم الرابع، طولها خمس وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة... (معجم ياقوت).

اذكوتكين الريّ وأقام بها، وأخذ من أهلها مائة ألف دينار، وفرّق عمّاله على أعمال الريّ.

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين

استولى رافع بن هرثمة ـ أمير خراسان ـ على جرجان، وأزال عنها محمد بن زيد، فسار محمد إلى استراباذ[1] فحصره بها رافع نحو سنتين، فغلت الأسعار بحيث إنه عدم المأكل، وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة، ففارقها محمد ليلاً في نفر يسير، فبعث رافع إليه عسكرًا فتحاربا، وسار محمد عن سارية وطبرستان في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين.

ثم سار إلى الديلم فدخل رافع خلفه، فوصل إلى حدود قزوين، وعاد إلى الريّ وأقام إلى سنة تسع وسبعين، حتى توفي المعتمد على الله، ودام محمد إلى أن قتل، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مقتل محمد بن زيد وشيء من أخباره

كان مقتله سنة ثمان وثمانين ومائتين، وكان سبب قتله أنه اتّصل به أن إسماعيل بن أحمد الساماني ـ صاحب ما وراء النهر ـ أسر عمرو بن الليث الصفّار ـ أمير خراسان ـ فخرج من طبرستان ظنّا منه أن إسماعيل الساماني لا يتجاوز عمله ولا يقصد خراسان، وأنّه لا دافع له عن ملك خراسان، فلما انتهى إلى جرجان أرسل إليه إسماعيل ـ وقد استولى على خراسان ـ يقول له: ألاّ يتجاوز عمله، ولا يقصد خراسان وترك جرجان له، فأبى محمد ذلك، فندب إسماعيل محمد بن هارون، فكان محمد هذا يخلف رافع بن هرثمة أيام ولايته خراسان، فجمع محمد جمعًا كثيرًا من فارس وراجل، وسار نحو محمد بن زيد فالتقوا على باب جرجان، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم محمد بن هارون أولاً، ثم رجع وقد تفرّقت عساكر محمد بن زيد في الطلب، فلما رأوه قد رجع ولّوا هاربين، وقُتل منهم خلق كثير، وأصاب محمد بن زيد ضربات، وأسر ابنه زيد وغنم ابن هارون معسكره وما فيه، ثم مات محمد بن زيد بعد أيام من الجراحات التي أصابته، فدفن على باب جرجان.

---

(١) استراباذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة من فوق، وراء، وألف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: بلدة كبيرة. . من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان. . . (معجم البلدان).

وقيل: كانت الوقعة التي جرح فيها يوم الجمعة لخمس ليال خلون من شوال سنة سبع وثمانين، ومات بعد ذلك بيوم، وكانت مدة قيامه ـ بعد وفاة أخيه ـ نحوًا من ثمانية عشر سنة.

وكان أديبًا شاعرًا فاضلاً حسن السيرة، قال أبو عمرو الاستراباذي: كنتُ أورد على محمد بن زيد أخبار العباسيين، فقلت له: إنّهم قد لقّبُوا أنفسهم، فإذا ذكرتهم عندك أسمّيهم أو ألقبهم؟ فقال: الأمر موسع عليك، سمّهم ولقّبهم بأحسن ألقابهم وأسمائهم وأحبّها إليهم. قال: وحُمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد الساماني ـ لمّا أُسر ـ فأكرمه، وكتب إليه المكتفي كتابًا في حمله إليه فدافع عنه، وهو القائل: [من الكامل]

ولقد تقول عصابةٌ ملعونةٌ غوغاء ما خلقت لغير جهنَّم
من لم يسبّ بني النبي محمدٍ ويرى قتالهم فليس بمسلم
عجبًا لأمّة جدّنا يجفوننا وتجيرنا منهم رجال الديلم

ولم يزل عند آل سامان مكرّمًا إلى أن مات في سنة أربع عشرة وثلاثمائة.

ولمّا مات محمد بن زيد وأسر ابنه زيد بن محمد، قام بالأمر ابن ابنه المهدي أبو محمد الحسن بن زيد بن محمد بن زيد، وخطب له ببلاد الديلم، وكانت له خطوب وحروب لم نرَ مَنْ دوّن فيها شيئًا فنورده، ولا وقفنا على تاريخ وفاته.

قالوا: ثم كانت بين الحَسَنيين والحُسَينيين حروب على الإمارة بطبرستان والديلم، إلى أن استقرت الإمارة في بني الحسين، وأول من قام منهم: الحسن بن علي الأطرُوش.

ذكر أخبار الناصر للحق

هو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويعرف بالأطروش، كان استيلاؤه على طبرستان في سنة إحدى وثلاثمائة، وذلك أنه لما قتل محمد بن زيد استعمل إسماعيل بن أحمد الساماني محمد بن هارون على طبرستان، وأمره بقتل من وجد من العلويّة فهربوا في البلاد، وكان الحسن بن عليّ هذا شيخًا من شيوخ الزيدية، شديد الصحبة لمحمد بن زيد، وكان قد دخل خراسان سرًا ليدعو الناس إليه، فجرت عليه مكاره وحبس، ثم هرب من السجن وعاد إلى محمد بن زيد، وشهد معه الحرب الذي قتل فيها؛ وكان سبب صممه أنّه ضرب في حرب مع محمد بن زيد بسيف على رأسه فطرش.

فلما وقع عليه الطلب وعلى أمثاله هرب، ودخل إلى بلاد الديلم، وأقام عند ملكهم جستان بن وهسوزان بن المرزبان فأكرمه، وأنزله فأخذ في دعاء الديلم إلى الإسلام، فأسلم جمهورهم، وجعل يتنقّل على قراهم ويدعو، ثم دخل إلى بلاد الجيل(١)، ودعاهم فأسلم أكثرهم، ووقعت دعوته على حدّ النهر باسباذروذ(٢)، فاجتمع أهل دعوته عليه، وعاد من بلاد الجيل فيمن جمع، فلما دخل بلاد الديلم وجد جستان على خلاف ما فارقه عليه، لأنّه فارقه على أنّه معلم، يدعو الناس لا طالب مملكة، فمنعه جستان من الأعشار والصدقات، فوقع بينهما حرب كانت الهزيمة فيها على جستان، ثم ألْجأه الأمر إلى مسالمة الناصر والدخول في طاعته.

وأقام الناصر في هرسم قاعدة مملكة الديلم، واتفق أنّ محمد بن هارون السرخسي ـ نائب إسماعيل بن أحمد على طبرستان ـ تخوّف منه، فهرب واستأمن إلى الحسن، وتسلّم طبرستان وجرجان محمد بن علي المعروف بصعلوك الساماني وكان في عسكر كثيف، واتصل السرخسي بالناصر في عسكر قوي فاستظهر به، واجتمعا على لقاء صعلوك، فاحتال عليهما صعلوك، حتى افترقا بحيلة غريبة، فلما افترقا مضى السرخسي إلى نواحي الريّ، ورجع الناصر إلى بلاد الديلم، ولم يتمّ له أمر، ثم أنفذ كرّة ثانية جيشًا مع كالي والحسن بن الفَيْرُزان، فهزمهما صعلوك وقتلا في الوقعة، ثم خرج الناصر بنفسه إلى سالوس، وسار إليه صعلوك ومعه اصفهبد شهريار من الخراسانية، فالتقوا وكان مع الناصر كما ذكر المكثّر عشرة آلاف رجل من الديلم والجيل، وأكثرهم رجّالة ليس معهم من الخيل والأسلحة إلا القليل، وعدّة الخراسانية نيّف وثلاثون ألف رجل على غاية القوّة والمنعة، فهزمهم الناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة، وألجأهم إلى بحر طبرستان، فكان من غرق أمثال من قتل، قال الصابي(٣) في الكتاب التاجي: يقال إنّ المفقودين كانوا نيّفًا على عشرين ألفًا، وقال حمزة بن

(١) الجيل: قرية من أعمال بغداد تحت المدائن بعد زرارين.. والجيل: هم جيلان، وجيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان... (معجم البلدان).

(٢) اسبيذروذ (كما في معجم ياقوت): معناه النهر الأبيض: وهو اسم نهر مشهور من نواحي أذربيجان مخرجه من عند بارسيس، ويصب في بحر جرجان.

(٣) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابىء، الحران (أبو إسحاق) أديب، عالم، غلبت عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر وله يد طولى في علم الرياضة، وخصوصًا الهندسة والهيئة. ولد بحران وتوفي ببغداد سنة ٣٨٤هـ. من مؤلفاته: مصنف في المثلثات، ديوان شعر، ديوان رسائل، التاجي في أخبار الدولة الديلمية، وكتاب في أخبار أهل المهلبي... (معجم المؤلفين ـ كحالة ١:١٢٤).

الحسن الأصفهاني: كانوا سبعة آلاف رجل، وكانت الوقعة في سنة ثلاثمائة، ودخل الناصر مدينة آمل في جُمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة.

ولما دخل طبرستان وملكها فوّض أمر الجيش إلى الحسن بن القاسم العلوي، فاستبدّ بالأمر واصطنع الرجال ووسّع عليهم في العطاء، وقبض على الناصر وحبسه، فاستكبر الديلم هذا الفعل، وحضروا إلى القاسم العلوي وطالبوه بإخراجه إليهم، ووثب إليه ليلى بن النعمان وأخوه ـ وهما من أكبر القوّاد ـ وقالا له: إن أفرجت عنه الساعة وإلا قتلناك، فأخرجه لهم وهرب إلى بلاد الجيل، فأطاعوه فتلقّب بالداعي، فتكلّم الناس عند الناصر في أن يردّه ويولّيه جيشه وعهده، وكان الناصر قد ولّى ليلى بن النعمان الجيش، فأجاب وعاد الحسن بن القاسم فوفّى له الناصر بذلك، وزوّجه بابنة ولده علي بن الناصر، واستمرت الحال على ذلك إلى أن توفِي الناصر، وكانت وفاته في شعبان سنة أربع وثلاثمائة، وله من العمر تسع وسبعون سنة، وكانت مدة مملكته المستقيمة الدائمة إلى حين وفاته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأيامًا.

وكان الحسن الناصر شاعرًا ظريفًا كثير المجون حسن النادرة، وهو الذي حرّر مذهب الزيدية وألّف فيه، وكان يقول: بزر القز ليس بمال، والديلم ليسوا بعسكر، أما البزر فلأنّه إذا أقبل الربيع صار بعوضًا، وأما الديلم فلسرعة تنقّلهم من عسكر إلى عسكر. وكان يقول لأصحابه: من قتل منكم مقبلاً فهو مؤمن، ومن قتل منكم مدبرًا فهو كافر، فإذا أتي بجريح جرح مقبلاً نثر عليه الكافور المسحوق، فيجد راحة ويسكن ألمه، وإذا أتي بجريح جرح مدبرًا نثر عليه ملحًا فيشتد أمره، فيقول: قد بان لكم أن المؤمن ينتفع بالدواء لإيمانه، والكافر لا ينتفع به لكفره.

وكان له من الأولاد أبو الحسن علي، وأبو القاسم جعفر، وأبو الحسين أحمد. ولما مات الحسن الناصر قام بالأمر بعده.

الحسن بن القاسم الداعي العلوي

وهو ولي العهد، ولبس القلنسوة، وكان أول ما بدأ به أن بعث أبا القاسم جعفر وأبا الحسين أحمد ـ ولدي الناصر ـ إلى جرجان لانتزاعها من أيدي الخراسانية، فلقيهما دونها إلياس بن محمد بن اليسع الصفدي ـ والي جيش خراسان ـ بموضع يقال له سيماله فلما اصطَف الجيشان برز بين الصفّين ودعا إلى المبارزة، فبرز إليه من جيش ولدي الناصر بويه بن فناخسره ـ جد عضد الدولة ـ فقتله وانفضّ جيش

الخراسانية، فبعث إليهما بعد ذلك الأمير نصر بن أحمد الساماني جيشًا عليه سيمجور الدواتي، فلقياه بحلايين[(١)] من سواد جرجان فهزماه، فوقف غير بعيد وتجمّعت الخراسانية كعادتهم في ذلك، فكرّ راجعًا إليهم فهزمهم أقبح هزيمة، وقتل الديلم أفظع قتل، وانهزموا وسلكوا مضايق ليأمنوا جولان الخيل، فوصلوا جرجان فتجمّع الديلم بها، وأخلوها قاصدين طبرستان وقد اتفق رأيهم على خلع الداعي، فخلعوه في الطريق وبايعوا أبا القاسم جعفر بن الناصر، وألبسوه القلنسوة، وقيل إن المبايَع أبو الحسين أحمد، وبالجملة فالأمير على الجيش أبو الحسين؛ ولما وصلا في جيوشهما إلى آمل لقيهما الداعي دونها، وخرج هاربًا إلى بلاد الجيل، وملكا طبرستان مُدَيْدَة، ثم كرّ راجعًا ـ وقد احتشد ـ فلقياه فهزمهما، فمضيا إلى بلاد الجيل واحتشدا، وعادا فحاربهما الداعي حربًا شديدًا ثم انهزم واستوليا على عسكره، وهرب وحيدًا متنكرًا يريد بلاد الجيل، واخترق بلاده الديلم بأسره بعضهم ثم منّ عليه وأطلقه، فانتهى إلى بلاد الجيل وأقام عندهم.

واتفقت وفاة أبي الحسين فجأة، وتلاه أخوه أبو القاسم بعده، فبقي أمر الديلم بطبرستا بغير مدبّر، فعقدوا الإمرة عليهم لليلى بن النعمان، فقام بأمرهم وهو يدعو للداعي إلى أن قتل بنيسابور[(٢)]، قتله حمّويه بن علي صاحب جيش نصر بن أحمد الساماني، فعقدوا بعده لعلي بن خورشيد فعاجلته المنيّة، فعزموا على الحسن بن كالي، فأشار عليهم بأخيه ماكان بن كالي، وهو أشجع أهل الديلم بالإنفاق، فلما ولّي عليهم اجتمع هو وأخوه على نصب أبي عليّ محمد بن أبي الحسين بن الناصر، فنصبوه فجرى على يده قتل الحسن بن كالي بسارية، وكان ماكان بآمل، ثم سقط بعد ذلك أبو علي في الميدان فهلك، ولمّا اتصل بماكان ما جرى على أخيه كاتب الداعي يستدعيه، فوافى في عسكر قوي واجتمع معه وملك طبرستان، ثم سار ومعه ماكان إلى جرجان فملكها، وأقام الداعي بجرجان، وكانت في نفسه حفائظ على الديلم لنصرتهم عليه أولاد الناصر، فعمل دعوة لهم جعل يستدعيهم واحدًا واحدًا فيقتله، ففطنوا لذلك وهربوا إلى خراسان، ودخلوا في طاعة نصر بن أحمد الساماني، وسوّدوا أعلامهم وقدّموا على أنفسهم أسفار بن شيرويه الجيلي، وبعث معهم نصر بن أحمد

---

(١) هذه الكلمة بالأصل دون نقط سوى النون (الحرف الأخير).

(٢) نيسابور: بفتح أوله: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء... (معجم البلدان).

جيشًا كثيفًا، وساروا فدخلوا جرجان، وسار الداعي منها إلى طبرستان ثم إلى الريّ، واجتمع فيها بماكان وأمره أن يمضي إلى طبرستان لدفع أسفار عنها، فعلم أنّه لا طاقة له بذلك، فقال له: الرأي أن تمضي أنت فإنك الإمام، ولو قد رأتك الديلم لانفضّوا إليك، فاضطر الداعي إلى ذلك، وسار ووقعت الحرب بينه وبين الخراسانية، فانهزم جيشه وكان مرداويج بن زيار الجيلي يراصده، فأمكنته فرصة منه فرماه فأشواه، وولّى منهزمًا ودخل آمل واستتر بها، فتتبّع الديلم أثر دمه، وأظهره لهم أهل البلد، فبادروا إلى الدار التي دلُّوهم عليها وهجموها، فلما رآهم بادر إلى الصلاة فقتلوه، وكان مقتله يوم الثلاثاء لست بقين من شهر رمضان سنة ست عشرة وثلاثمائة في أيام المقتدر بالله، فكانت مدة مملكته ثنتي عشرة سنة وشهرًا وأيامًا، على ما فيها من الاختلاف عليه وقيام من ذكرنا.

ملك أسفار جرجان

ولما قتل الداعي ملك أسفار جرجان، وأبو موسى هارون بن بهرام طبرستان، والدعوة فيها لنصر بن أحمد الساماني، فأجمع رأيهما على نصب أبي جعفر محمد بن أحمد الناصر بآمل، فنصباه وألبساه القلنسوة، والدعوة لنصر لم تقطع، وبلغ نصرًا الخبر فأنكر على أسفار غاية الإنكار، وأمره بالقبض عليه والبعث به إليه، ففعل أسفار ذلك وبلغ مكان الخبر وهو بالري، فسار إلى طبرستان فهرب هارون منها إلى الديلم، وأظهر ماكان ما هو عليه من التشيّع، ونصب إسماعيل بن جعفر بن الناصر، فتوفي بعد مدّة ووقعت فترة لم يل فيها أحد من العلويين، ثم تخلّص بعد ذلك أبو الفضل جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من حبس نصر بن أحمد، وهو ممّن قبض عليه أسفار بن شيرويه مع أبي جعفر محمد بن الناصر، وسار إلى بلد الجيل وابتدأ في الدعاء لنفسه بها في سنة عشرين وثلاثمائة ونعت نفسه بالثائر في الله، وكان ذا حزم وتدبير، وساعدته الأقدار فخرج من بلد الجيل، قاصدًا طبرستان في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وبها الأستاذ أبو الفضل بن العميد[1]، وزير ركن الدولة بن بويه، وأبو

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، والعميد لقب والده، لقبوه بذلك على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم، وكان فيه فضل وأدب وله ترسل. . . (وفيات الأعيان ٥: ١٠٣).

الحسن علي بن كامة، من قبل ركن الدولة، فاستظهر عليهما وملك البلاد، وانصرفا إلى الريّ فأعاد ركن الدولة بن بويه أبا الحسن علي بن كامة في جيش، وكتب إلى الحسن بن الفيروزان ـ صاحب جرجان ـ يأمره بمعاونته ففعل، وسار إلى طبرستان في بقية سنة سبع وثلاثين، فرحل الثائر عنها وقصد الجيل، ثم خرج كرّة ثانية، واتفق مع وشمكير ولم يتم لهما أمر، ثم خرج ثالثة إلى طبرستان لاجئًا إلى ركن الدولة بن بويه فنصره، وأقام مدة بها، ثم عاد إلى بلاد الجيل وملك هرسم، ولم يخرج منها إلا في سنة خمسين وثلاثمائة، فإنه صار إلى نواحي أذربيجان زائرًا للمرزبان بن مسافر، وعاد فأقام بهرسم من بلاد الجيل إلى أن توفي بها، وكانت وفاته في سنة خمسين وثلاثمائة.

وملك بعده جماعة من العلويين بلاد الجيل، ولم يكن لأحد منهم دولة قائمة في بلد مشهور، فيعتني بأمرهم وتدوّن أخبارهم، وإنما كانوا بتلك الناحية شبه الأعيان والأكابر، لا كالملوك والخلفاء، ثم ظهر بعد ذلك أبو عبد الله محمد الحسني.

ذكر ظهور أبي عبد الله محمد بن الحسين الحسني المعروف بابن الداعي

قال ابن الأثير: كان ظهوره في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وذلك أنه هرب من بغداد وسار نحو الديلم، فاجتمع عليه عشرة آلاف رجل، فهرب ابن الناصر العلوي من بين يديه، وتلقّب ابن الداعي بالمهدي لدين الله، وعظم شأنه وهزم قائدًا من قواد وشمكير.

ثم أظهر النسك والعبادة ولبس الصوف، وحارب ابن وشمكير فهزمه في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وعزم على المسير إلى طبرستان وكتب إلى العراق كتابًا يدعوهم إلى الجهاد، هذا ما أورده ابن الأثير في خبره، ولم يذكر خبر وفاته، إلا أنه لم يتم له أمر، ولا ظهر لغيره من أهل هذا البيت بعد ذلك بهذه الناحية ذكر، ولا كانت لهم مملكة في جهة من الجهات، إلا ما نورده من أخبار العبيديين، الذين ملكوا المغرب والديار المصرية وغيرها، وانتسبوا إلى علي بن أبي طالب ونفاهم أكثر الناس ـ بل عامّتهم ـ عن هذا النسب الشريف، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى من أخبارهم.

الباب الثامن
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار صاحب الزنج والقرامطة والخوارج
ببلاد الموصل

وإنما أفردنا هؤلاء بباب، لأنّهم ممن شاع ذكرهم وعظم محلّهم وطار اسمهم، واستولوا على كثير من البلاد وهزموا الجيوش، وأهمّ الخلافةَ أمرهم، وطالت مدتهم ولم يكونوا في أيام خليفة واحد، فنذكرهم في حوادث دولته، وإنما هم في أيام جماعة من الخلفاء، فلو ذكرناهم في حوادث أيامهم لانقطعت أخبارهم، وعسر على المطالع معرفتها، فلذلك أفردناهم لتكون أخبارهم سياقة، لا تنقطع بغيرها من الأخبار.

ذكر أخبار صاحب الزنج
وابتداء أمره وسبب خروجه

كان خروجه في شوّال سنة خمس وخمسين ومائتين - في خلافة المهتدي بالله - بفُرات البصرة، وزعم أنّه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجمع الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ(١)، وعبر دجلة فنزل الديناري.

قال أبو جعفر الطبري: وكان اسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، ونسبه في عبد القيس، وأمّه ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من أهل الكوفة، وهو أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك، مع زيد بن علي بن الحسين، فلما قتل زيد هرب والتحق بالري، فجاء إلى قرية وَرْزَنين(٢) فأقام بها، وجدّه عبد الرحيم رجل من عبد القيس، كان مولده بالطالقان وقدم العراق، واشترى جارية فأوكدها محمدًا أباه.

قال: وكان صاحب الزنج هذا في ابتداء أمره متصلاً بجماعة من حاشية المنتصر، منهم غانم الشطرنجي وسعيد الصغير، وكان معاشه منهم ومن أصحاب السلطان، وكان يمدحهم ويستميحهم بشعره، ثم إنّه شخص من سامرّا سنة تسع

(١) السباخ: جمع سبخة. وهي من الأرض: ما لم يحرث ولم يعمر لملوحته؛ أو هي السماد.
(٢) ورزنين: من أعيان قرى الريّ كالمدينة.

وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادعى بها أنّه علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس بهجَر[(١)] إلى طاعته، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرها، فجرى بين الطائفتين عصبيّة قتل فيها جماعة.

قال: وكان أهل البحرين قد أحلّوه محل نبي، وجبا الخراج ونفذ فيهم حكمه، وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه، ثم تنكّر له منهم جماعة، فانتقل عنهم إلى الأحْسَاء، ونزل على قوم يقال لهم بنو الشمّاس من بني سعد بن تميم فأقام فيهم، وفي صحبته جماعة من البحرين، منهم يحيى بن محمد الأزرق البَحْراني، وسليمان بن جامع ـ وهو قائد جيشه وكان ينتقل في البادية فذكر عنه أنه قال: أوتيت في تلك الأيام آيات من آيات إمامتي، ظاهرة للناس، منها إني لُقّنْتُ سورًا من القرآن فجرى بها لساني، في ساعة واحدة وحفظتها في دفعة واحدة، منها سبحان والكهف وصّ، ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده حيث نِبثْ بي البلاد فأظلّتني غمامة، وخوطبت منها فقيل لي: اقصد البصرة، وقيل عنه إنه قال لأهل البادية إنّه يحيى بن عمر أبو الحسين، المقتول بالكوفة، فخدع أهلها فأتاه منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم إلى الرَّدْم[(٢)] من البحرين، فكانت بينهم وقعة عظيمة، وكانت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، قُتلوا قتلاً ذريعًا فتفرّقت الأعراب عنه، فسار ونزل البصرة في بني ضُبَيعة[(٣)]، فاتبعه منهم جماعة منهم علي بن أبان المهلبي، وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين، وعاملها يوم ذاك محمد بن رجاء الحضاريّ.

فوافق قدومه فتنة أهل البصرة، بالبلالية والسعديّة، فطمع في إحدى الطائفتين أن تميل إليه، فأرسل إليهم يدعوهم فلم يجبه من أهل البلد أحد، وطلبه ابن رجاء فهرب، فأخذ جماعة ممن كانوا يميلون إليه وحبسهم، وكان ممّن حبس ابنه وابنته وزوجته وجارية له حاملاً منه، وسار يريد بغداد ومعه من أصحابه محمد بن سلم،

---

(١) هجر: بفتح أوله وثانيه: الهجر بلغة حمير والعرب العارية القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة من مخلاف مازن، وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين. . . (معجم البلدان).

(٢) الردم: بفتح أوله وسكون ثانيه: وهو ردم بني جمح بمكة لبني قراد الفهريين. والردم أيضًا: قرية لبني عامر بن الحارث العبقسيين بالبحرين، وهي كبيرة. . . (معجم ياقوت).

(٣) بنو ضبيعة: بطن من الأوس من القحطانية. وبنو ضبيعة أيضًا: بطن من بكر بن وائل من العدنانية. وبنو ضبيعة أيضًا: بطن من ربيعة بن نزار، من العدنانية. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبُرَيش القريعي، فلما صار بالبطيحة نذر به وبأصحابه، فدخل بغداد فأقام بها حولاً، فانتسب إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه، وما يفعله كل واحد منهم، فاستمال جماعة من أهل بغداد منهم جعفر بن محمد الصُوحاني، ومحمد بن القاسم، ومُشرق ورفيق غلاما يحيى بن عبد الرحمٰن، فسمّى مشرفًا حمزة وكنّاه أبا أحمد، وسمّى رفيقًا جعفرًا وكنّاه أبا الفضل، واتفق عزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثب رؤساء البلالية والسعدية فأخرجوا من كان في الحبس، فخلص أهله فيهم، فلما بلغه خلاص أهله رجع إلى البصرة، وكان رجوعه في شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه علي بن أبان ويحيى بن محمد وسليمان ومشرق ورفيق، فوافوا البصرة فنزل بقصر القرشي على نهر يعرف بعمود ابن المنجّم، وأظهر أنّه وكيل لولد الواثق في بيع السباخ.

قال: وذكر ريحان، أحد غلمان الشورجيين وهو أوّل من صحبه منهم، قال: كنت موكَلاً بغلمان مولاي أنقل لهم الدقيق فأخذني أصحابه فصاروا بي إليه، وأمروني أن أسلّم عليه بالإمرة ففعلت، فسألني عن الموضع الذي جئت منه فأخبرته، وسألني عن أخبار البصرة فقلت لا علم لي، وسألني عن غلمان الشورجيين وعن أحوالهم وما يجري لهم فأعلمته، فدعاني إلى ما هو عليه فأجبتُه، فقال: احْتَلْ فيمن قدرتَ عليه من الغلمان فأقبلْ بهم، ووعدني أن يقودني على من آتيه به، واستحلفني ألاّ أُعلم أحدًا بموضعه وأن أرجع إليه، وخلّى سبيلي وعُدت إليه من الغد، وقد أتاه جماعة من غلمان الدبّاسين، فكتب في حريرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ...﴾ [التوبة: ١١١] الآية ورفعها علمًا، وما زال يدعو غلمان أهل البصرة وهم يقبلون إليه، للخلاص من الرق والتعب، حتى اجتمع عنده خلق كثير، فخطبهم ووعدهم أن يقوّدهم ويملّكهم، وحلف لهم الأيمان ألاّ يغدر بهم ولا يخذلهم، ولا يدع شيئًا من الإحسان إلا أتى به إليهم، فأتاه مواليهم وبذلوا له عن كل عبد خمسة دنانير، ليسلّم إليه عبده، فبطح أصحابهم وأمر كل عبد أن يضرب مولاه أو وكيل مولاه خمسمائة شطب[1]، ثم أطلقهم فمضوا نحو البصرة.

ثم ركب في سفن هناك فعبر دُجَيْلا إلى نهر ميمون[2]، فأقام هناك والسودان

(١) الشطبة من الشيء: القطعة تقطع طولاً. وقد يراد بها العصا.

(٢) ميمون: نهر من أعمال واسط قصبته الرصافة.

تجتمع إليه إلى يوم الفطر، فخطبهم وصلّى بهم وذكّرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال، وأنّ الله تعالى أنقذهم من ذلك، وأنّه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال، فلما كان بعد يومين رأى أصحابه الحميريّ، فقاتلوه حتى أخرجوه من دجلة، فاستأمن إلى صاحب الزنج رجل يكنى بأبي صالح ويعرف بالقصير، في ثلاثمائة من الزنج، فلما كثروا جعل القوّاد منهم، وقال لهم: من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه، وكان ابن أبي عون قد نقل من واسط إلى ولاية الأُبلَة[١] وكور دجلة، وسار قائد الزنج إلى المحمديّة، فلما نزلها وافاه أصحاب ابن أبي عون، فصاح الزنج: السلاح!! وقاموا وكان منهم فتح الحجّام، فقام وأخذ طبقًا كان بين يديه، فلقيه رجل من الشورجيين يقال له بُلبُل، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي بيده، فرمى سلاحه وولّى هاربًا، وانهزم أصحابه وكانوا أربعة آلاف، وقُتل منهم جماعة ومات بعضهم عطشًا، وأسر منهم فضرب أعناقهم، ثم سار إلى القادسيّة فنهبها أصحابه بأمره، وما زال يتردّد إلى أنهار البصرة، فوجد بعض السودان دارًا لبعض بني هاشم فيها سلاح فانتهبوه، فصار معهم ما يقاتلون به.

فأتاه وهو بالسَّيْب جماعة من أهل البصرة يقاتلونه، فوجّه يحيى بن محمد في خمسمائة رجل فلقوا البصريين، فانهزم البصريون منهم وأخذوا سلاحهم، ثم قاتل طائفة أخرى عند قرية تعرف بقرية اليهود فهزمهم أيضًا، وأثبت أصحابه في الصحراء، ثم أسرى إلى الجعفريّة فوضع في أهلها السيف، فقتل أكثرهم وأتى منهم بأسرى فأطلقهم، ولقي جيشًا كبيرًا للبصريين مع رُمَيْس وعقيل، فهزمهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وكان معهم سفن فهبّت ريح فألقتها إلى الشط، فنزل الزنج وقتلوا من وجدوا فيها وغنموا ما فيها، وكان مع رُمَيْس سفن فركبها ونجا، فأنفذ صاحب الزنج فأخذها ونهب ما فيها، ثم نهب القرية المعروفة بالمهلبيّة وأحرقها، وعاث في الأرض وأفسد، ثم لقيه قائد من قواد الأتراك، يقال له أبو هلال في أربعة آلاف مقاتل، فاقتتلوا على نهر الريّان[٢]، فحمل السودان عليهم حملة صادقة، فقتلوا صاحب علمه فانهزم أبو

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: بلد على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة. . . (معجم البلدان).

(٢) الريان: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، وآخره نون: وهو في مواضع كثيرة منها: الريان قرية من قرى نسا بلدة بخراسان قرب سرخس. . . والريان: اسم أطم من أطم المدينة؛ والريان: اسم جبل في بلاد بني عامر؛ والريان جبل في طريق البصرة إلى مكة. . والرياني أيضًا: موضع على ميلين من معدن بني سليم كان الرشيد ينزله إذا حج. . . (معجم البلدان).

هلال وأصحابه، وتبعهم السودان فقتلوا من أصحاب أبي هلال أكثر من ألف وخمسمائة رجل، وأخذوا منهم أسرى فأمر صاحب الزنج بقتلهم، ثم أتاه من أخبره أنّ الزينبي قد أعدّ له الجند والمتطوّعة والبلاليّة والسعديّة، وهم خلق كثير، وأنّهم قد أعدُّوا الحبال لتكتيف من يأخذونه من السودان، وأنّ المقدّم عليهم أبو منصور أحد موالي الهاشميين، فأرسل علي بن أبان في مائة أسود ليأتيه بخبرهم، فلقي طائفة منهم فهزمهم، وصار من معهم من العبيد إلى علي بن أبان، وأرسل طائفة أُخرى من أصحابه، إلى موضع فيه ألف وتسعمائة سفينة ومعها من يحفظها، فلما رأوا الزنج هربوا عنها، فأخذ الزنج السفن وأتوا صاحبهم بها، فلما أتوه جلس على نشز[1] من الأرض، وكان في السفن قوم حجّاج أرادوا أن يسلكوا طريق البصرة، فناظرهم فصدقوه في قوله، وقالوا له: لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك فأطلقهم، وأرسل طليعة تأتيه بخبر ذلك العسكر فأتاه بخبرهم: أنهم قد أتوه بخلق كثير، فأمر محمد بن سلم وعلي بن أبان أن يعقدوا لهم بالنخيل، وقعد هو على جبل مشرف، فلم يلبث أن طلعت الأعلام والرجال، فأمر الزنج فكبّروا وحملوا عليهم، فحملت الخيول فتراجع الزنج حتى أتوا الجبل، ثم حملوا فثبتوا لهم، وقتل من الزنج فتح الحجّام، وصدق الزنج الحملة فأخذوهم بين أيديهم، وجرح محمد بن سلم، وحملوا عليهم فقتلوا منهم، وانهزم الناس وذهبوا كل مذهب، وتبعهم السودان إلى نهر بيان فوقعوا في الوحل، فقتلهم السودان وغرق كثير منهم، وأتى الخبر إلى الزنوج بأنّ لهم كمينًا، فساروا إليه فإذا الكمين في ألف من المغاربة، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، ثم حمل السودان عليهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا سلاحهم، ثم وجّه أصحابه فرأوا مائتي سفينة، فيها دقيق فأخذوه ومتاع فنهبوه، ونهب قرية المُعَلَّى بن أيوب، ثم سار فرأى مسلحة الزينبي فقاتلوه، فقاتلهم فقتلهم أجمعين، وكانوا مائتين، ثم سار فنهب قرية مُنْذَران، ورأى فيها جمعًا من الزنج ففرقهم على قوّاده، ثم سار فلقيه ستمائة فارس مع سليمان؛ ابن أخي الزينبي، ولم يقاتله فأرسل من ينهب، فأتوه بغنم وبقر فذبحوا وأكلوا، وفرّق أصحابه في انتهاب ما هناك.

ثم سار صاحب الزنج يريد البصرة، حتى إذا قابل النهر المعروف بالرياحي، أتاه قوم من السودان، فأعلموه أنّهم رأوا في الرياحي بارقة، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى تنادى السودان: السلاح السلاح!! فأمر علي بن أبان بالعبور إليهم، فعبر في ثلاثمائة

---

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

رجل، وقال له: إن احتجت إلى مدد فاستمدني، فلما مضى علي بن أبان صاح الزنج، السلاح السلاح!! لحركة رأوها في جهة أخرى، فوجّه محمد بن سلم بجمع فحاربهم من وقت الظهيرة إلى وقت العصر، ثم حمل الزنوج حملة صادقة فهزموهم، وقتلوا من أهل البصرة والأعراب زهاء خمسمائة، ورجعوا إلى صاحبهم، ثم أقبل علي بن أبان في أصحابه ـ وقد هزموا مَنْ بإزائهم وقتلوا منهم، ومعه رأس ابن أبي الليث البلالي القواريري من أعيان البلالية، ثم سار من الغد عن ذلك المكان، ونهى أصحابه عن دخول البصرة، فتسرّع بعضهم فلقيهم أهل البصرة في جمع عظيم، وانتهى الخبر إليه فوجّه محمد بن سلم وعلي بن أبان ومشرقًا وخلقًا كثيرًا، وجاء هو يسايرهم فلقوا البصريين، فأرسل إلى أصحابه ليتأخروا عن المكان الذي هم فيه، فتراجعوا فأكبّ عليهم أهل البصرة فانهزموا، وذلك عند العصر، ووقع الزنوج في نهر كبير، وقتل منهم جماعة وغرق جماعة وتفرّق الباقون، وتخلّف صاحبهم عنهم وبقي في نفر يسير فنجا، ثم لحقهم وهم متحيّرون لفقده، وسأل عن أصحابه فإذا ليس معه منهم إلا خمسمائة رجل، فأمر بالنفخ في البوق الذي يجتمعون إليه، فنفخ فيه فلم يأته أحد، وكان أهل البصرة قد انتهبوا السفن التي كانت للزنوج وبها متاعهم، فلما أصبح رأى أصحابه في ألف رجل، فأرسل محمد بن سلم إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم: ما الذي دعاه إلى الخروج؟ فقتلوه، فلما كان يوم الاثنين لأربع عشرة خلت من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين جمع أهل البصرة وحشدوا، لما رأوا من ظهورهم عليه، وانتدب لذلك رجل يعرف بحمّاد الساجيّ وكان من غزاة البحر، وله علم في ركوب السفن، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خَفّ معه من البلاليّة والسعديّة وغيرهم، وشحن ثلاثة مراكب مقاتلة، ومضى جمهور الناس رجّالة، منهم من معه سلاح ومنهم نظّارة، فدخلت المراكب في المدّ والرجّالة على شاطىء النهر، فلما علم صاحب الزنج بذلك وجّه طائفة من أصحابه مع زريق الأصفهني كمينًا في شرقي النهر، وطائفة مع شبل وحُسين الحمّامي في غربيّه كمينًا، وأمر علي بن أبان أن يلقى أهل البصرة وأن يتستر هو ومَن معه ـ بتراسهم، ولا يقاتل حتى يظهر أصحابه، وتقدّم إلى الكمينَيْن ـ إذا جازوهم أهل البصرة ـ أن يخرجوا ويصيحوا بالناس، وبقي هو في نفر يسير من أصحابه، وقد هاله ما رأى من كثرة الجمع، فثار أصحابه إليهم وظهر الكمينان من جانبي النهر وراء السفن والرجّالة، فضربوا من ولّى من الرجّالة والنظّارة، فغرقت طائفة وقُتلت طائفة وهرب الباقون إلى الشط، فأدركهم السيف فمن ثبت قُتل، ومن ألقى نفسه في الماء غرق، فهلك أكثر ذلك الجمع فلم ينج إلا الشريد، وكثر المفقودون من أهل البصرة، وعلا العويل من

نسائهم، وهذا اليوم يسمّى يوم الشذا - وهو يوم أعظمه الناس، وكان فيمن قتل جماعة من بني هاشم وغيرهم في خلق كثير لا يحصى، وجمعت الرؤوس لصاحب الزنج، فأتاه جماعة من أولياء المقتولين فأعطاهم ما عرفوا، وجمع الرؤوس التي لم تطلب في جُرَيبيّة[1] وأطلقها، فوافت البصرة فجاء الناس وأخذا كل ما عرفوه منها، وقوي صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وتمكّن الرعب في قلوب أهل البصرة وأمسكوا عن حربه، وكتب الناس إلى الخليفة بخبر ماكان، فوجّه إليهم جُعْلاَن التركي مددًا، وأمر بالأحوص الباهلي بالمسير إلى الأُبُلَّة واليًا، وأمدّه بقائد من الأتراك يقال له جُرَيح، وانصرف صاحب الزنج بأصحابه في آخر النهار إلى سبخة - وهي سبخة أبي قُرَّة - وبثّ أصحابه يمينًا وشمالاً للغارة والنهب.

ووصل جُعْلان إلى البصرة في سنة ست وخمسين ومائتين، ونزل بمكان بينه وبين صاحب الزنج فرسخ، وخندق عليه وعلى أصحابه وأقام ستة أشهر في خندقه، وجعل يوجّه الزينبيّ وبني هاشم ومن خَفّ لحرب الزنج، ثم سار جُعْلان للقائه فلم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والسهام، ولا يجد جعلان إلى لقائه سبيلاً لضيق المكان عن مجال الخيل، وكان أكثر أصحاب جعلان خيّالة، فلما طال مقامه في خندقه أرسل صاحب الزنج أصحابه إلى مسالك الخندق، فبيّتوا جعلان وقتلوا من أصحابه جماعة، وخاف الباقون خوفًا شديدًا، وكان الزينبيّ قد جمع البلاليّة والسعديّة ووجّه بهم من مكانين، وقاتلوا صاحب الزنج فظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، فترك جعلان خندقه وسار إلى البصرة، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج، وأمر سعيد الحاجب بمحاربتهم، وتحوّل صاحب الزنج بعد ذلك من السبخة - التي كان فيها - ونزل بنهر أبي الخصيب[2]، وأخذ أربعة وعشرين مركبًا من مراكب البحر، وأخذ منها أموالاً عظيمة لا تحصى، وقتل من فيها وأنهبها أصحابه ثلاثة أيام، وأخذ لنفسه بعد ذلك من النهب.

ذكر دخول الزنج الأبله

وفي سنة ست وخمسين ومائتين دخل الزنج الأُبُلَّة، فقتلوا فيها خلقًا كثيرًا وأحرقوها، وكان سبب ذلك أنّ جُعْلان لما تنحّى عن خندقه إلى البصرة ألَحّ صاحب

---

(١) الجريبيّة: وعاءٌ من جلدٍ أو غيره.

(٢) نهر أبي الخصيب: بالبصرة، كان مولى لأبي جعفر المنصور أقطعه إياه، واسم أبي الخصيب مرزوق.

الزنج بالغارات على الأبلَة، وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر مَعْقِل، ولم يزل يحارب إلى يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر رجب فافتتحها، وقُتل بها الأحوص(١) وعبد الله بن حميد الطوسي وأضرمها نارًا، وكانت مبنيّة بالساج(٢) فأسرعت النار فيها، وقُتل من أهلها خلق كثير، وفرّق الأموال العظيمة، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذي نهب.

قال: ولما اتصل خبر أهل الأبلَة بأهل عبّادان راسلوا صاحب الزنج في طلب الأمان، على أن يسلّموا إليه البلد، فأمّنهم وسلّموه إليه وأخذ ما فيه من الأموال والسلاح، ففرّقه في أصحابه.

ذكر أخذ الزنج الأهواز

قال: ولما فرغ صاحب الزنج من الأبلّة وعبّادان طمع في الأهواز، واستنهض أصحابه وسار إليها، فهرب من بها من الجند ومن أهلها ولم يبق إلا القليل، فدخلها وأخربها، وكان بها إبراهيم بن المدبّر يتولّى الخراج فأخذوه أسيرًا، بعد أن قاتل وجرح ونهب جميع ماله، وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان من السنة، فخافه أهل البصرة وانتقل كثير من أهلها إلى البلدان.

وأما إبراهيم بن المدبّر فإنّ صاحب الزنج وكل به وحبسه في بيت يحيى بن محمد البَحْراني، فكان به إلى سنة سبع وخمسين ومائتين، فأرغب الموكَّليْن به بمال فأطلقوه، فخرج هو وابن أخ له ورجل هاشمي.

ذكر انهزام الزنج من سعيد الحاجب وغلبة الزنج

وفي شهر رجب سنة سبع وخمسين ومائتين أوقع سعيد الحاجب بجماعة من الزنج، فهزمهم واستنقذ من معهم، وذلك في خلافة المعتمد على الله بن المتوكل، فكانت المرأة من نساء تلك الناحية تأخذ الزنجي فتأتي به عسكر سعيد فلا يمتنع عليها، ثم عبر سعيد إلى غرب دجلة فأوقع بصاحب الزنج عدّة وقعات، ثم عاد إلى معسكره بهَطْمة فأقام من ثاني رجب إلى آخر شعبان.

---

(١) هو الأحوص بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح... وكان الأحوص يرمى بالأبنة والزنى وشكي إلى عمر بن عبد العزيز فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر... (طبقات الشعراء لابن قتيبة ٢٦٢).

(٢) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

ثم أوقع صاحب الزنج بسعيد، وذلك أنه سيّر إلى سعيد جيشًا، فأوقعوا به ليلاً وأصابوا مقتلة من أصحاب سعيد، فقتلوا خلقًا كثيرًا وأحرقوا عسكره، فأمر بالمسير إلى باب الخليفة، وترك بُغْراج بالبصرة، فسار سعيد من البصرة وأقام بها بغراج يحمي أهلها، فردّ السلطان أمرها إلى منصور بن جعفر الخيّاط بعد سعيد، فجمع منصور الشذا[1] وسار نحو صاحب الزنج، فكمّن له صاحب الزنج كمينًا، فلما أقبل خرجوا عليه فقتلوا في أصحابه مقتلة عظيمة، وغرق منهم خلق كثير، فلم يقابله منصور بعد ذلك.

ذكر انهزام الزنج بالأهواز

قال: وفي سنة سبع وخمسين ومائتين أرسل صاحب الزنج جيشًا مع علي بن أبان ليقطع قنطرة أربك[2]، فلقيهم إبراهيم بن سيما منصرفًا من فارس، فأوقع بهم وهزمهم وقتل منهم وجرح علي بن أبان، ثم سار إبراهيم قاصدًا نهر جُبَّى[3]، وأمر كاتبه شاهين بن بسطام بالمسير على طريق آخر، ليوافيه بنهر جُبَّى بعد الوقعة، وكان علي بن أبان قد سار من الوقعة فنزل الخَيْزُرَانيّة، فأتاه رجل فأخبره بإقبال شاهين إليه، فسار نحوه فالتقيا وقت العصر بموضع بين جُبَّى ونهر موسى، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم صدمهم الزنج صدمة صادقة فهزموهم، وقتلوا شاهين وابن عم له وخلقًا كثيرًا، فلما فرغ الزنج منهم أتاهم الخبر بقرب إبراهيم بن سيما منهم، فسار عليّ نحوه فوافاه وقت العشاء الآخرة، فأوقع بإبراهيم وقعة شديدة قتل فيها جمعًا كثيرًا؛ قال علي بن أبان: وكان أصحابي قد تفرّقوا بعد الوقعة مع شاهين، ولم يشهد معي حرب إبراهيم غير خمسين رجلاً، ثم انصرف علي بن أبان إلى جُبَّى.

ذكر أخذ الزنج البصرة وتخريبها

قال: وفي شوال سنة سبع وخمسين ومائتين جمع صاحب الزنج أصحابه لدخول البصرة، وتخريبها لضعف أهلها وتفرّقهم، وكان منصور الخيّاط قد أمسك عن

---

(١) الشذاة: بقية القوة والشدة.

(٢) أربك: بالفتح ثم السكون، وباء موحدة، تضم وتفتح، وآخره كاف: بلد وناحية ذات قرى ومزارع، وعنده قنطرة مشهورة، فتحها المسلمون عام ١٧هـ. . . (معجم البلدان).

(٣) جبّى: بالضم ثم التشديد، والقصر: بلد أو كورة من عمل خوزستان، ومن الناس من جعل عبّادان من هذه الكورة، وهي في طرف من البصرة والأهواز. . . وجبّى أيضًا: من أعمال النهروان. . . وجبّى أيضًا: قرية قرب هيت. . . (معجم ياقوت).

حربه بعد تلك الوقعة التي ذكرناها، واقتصر على تخفير[١] القيروانات[٢] والسفن، فامتنع أهل البصرة فعظم ذلك على صاحب الزنج، فتقدّم إلى علي بن أبان بالمقام بالخيزرانيّة ليشغل منصورًا عن تسيير القيروانات، وكان عليّ بنواحي جُبَّى والخيزرانيّة، ثم أمر محمد بن يزيد الدارمي - وهو أحد من صحبه بالبحرين - أن يخرج إلى الأعراب فيجمعهم، فخرج إليهم فأتاه منهم خلق كثير فأناخوا بالقَنْدَل[٣]، ووجّه إليهم سليمان بن موسى الشَّعْراني، وأمرهم بطرق البصرة والإيقاع بها ليتمرّن الأعراب على ذلك، ثم انهض عليّ بن أبان وضمّ إليه طائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة من ناحية بني سعد، وأمر يحيى بن محمد البَحْراني بإتيانها من ناحية نهر عدي[٤] وضمّ إليه سائر الأعراب، فكان أوّل من واقع أهل البصرة علي بن أبان، وبُغْرَاج يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند، فأقام يقاتلهم يومين ومال الناس نحوه، وأقبل يحيى بن محمد فيمن معه نحو الجسر، فدخل علي بن أبان البصرة وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت، ثم عاد يحيى إلى البصرة يوم الأحد فتلقّاه بُغْراج في جمع، فردّوه يومه ذلك، ثم غاداهم يوم الاثنين فدخل وقد تفرق الجند، وانحاز بغراج ومن معه، ولقيه إبراهيم بن يحيى المُهَلَّبي فاستأمنه لأهل البصرة فأمّنهم، فنادى منادي إبراهيم: من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم، فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملأوا الرحاب، فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرقوا فغدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم منهم إلا النادر، ثم انصرف يومه ذلك، ودخل عليّ بن أبان إلى الجامع فأحرقه، وأُحرقت البصرة من عدة مواضع، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل، وعظم الخطب وعمّها القتل والنهب والإحراق، وقتلوا كل من رأوه بها، فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيرًا قتلوه لوقته، فبقوا كذلك عدة أيام، ثم أمر يحيى أن ينادي بالأمان ليظهروا فلم يظهر أحد، ثم انتهى الخبر إلى صاحب الزنج فصرف علي بن أبان عنها، وأقرّ يحيى عليها لموافقته هواه في كثرة القتل، وصرف عليًا

(١) التخفير: الحماية.
(٢) القيروان: معظم الكتيبة؛ أو القافلة؛ أو الجماعة من الخيل.
(٣) القندل: موضع بالبصرة.
(٤) نهر عديّ (عدي بن أرطأة): بالبصرة، كان نهر عديّ خورًا من نهر البصرة حتى فتقه عديّ بن أرطأة الفزاري من بثق نهر شيرين جارية أبرويز... (معجم البلدان).

لإبقائه على أهلها، فهرب الناس على وجوههم، وصرف صاحب الزنج جيشه عن البصرة.

قال: ولما أخرب البصرة انتمى إلى زيد لمصير جماعة من العلويين إليه، وترك الانتساب إلى عيسى بن زيد، وانتسب إلى يحيى بن زيد، قال القاسم بن الحسن النوفلي(١): كذب، ابن يحيى لم يُعقب غير بنت ماتت وهي ترضع.

ذكر مسير المولد لحرب صاحب الزنج وانتصار صاحب الزنج

وفي ذي القعدة من السنة أمر المعتمد على الله المُوَلَّد بالمسير إلى البصرة لحرب الزنج، فسار فنزل الأبلّة فسيّر صاحب الزنج يحيى بن محمد لحربه، فسار إليه فقاتله عشرة أيام، ثم وطّن المولَّد نفسه على المقام، فكتب صاحب الزنج إلى يحيى يأمره بتبييت(٢) المولَّد، وسيّر إليه أبا الليث الأصفهاني فبيّته، ونهض المولّد فقاتله تلك الليلة ومن الغد إلى العصر، ثم انهزم عنه ودخل الزنج عسكره فغنموا ما فيه، واتبعه يحيى إلى الجَامِدَة(٣) فأوقع بأهلها، ونهب تلك القرى وسفك ما قدر عليه من الدماء، ثم رجع إلى نهر معقل.

ذكر الحرب بين منصور الخياط والزنج وقتل منصور

قال: وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين قتل منصور بن جعفر الخياط، وسبب ذلك أن صاحب الزنج لما فرغ من أمر البصرة أمر علي بن أبان بالمسير إلى جُبَّى، لحرب منصور بن جعفر وهو يومئذ يلي الأهواز، فأقام بإزائه شهرًا وكان منصور في قلّة من الرجال، ثم وجّه صاحب الزنج جلّة أصحابه مع أبي الليث الأصفهاني، وأمره بطاعة علي بن أبان فلما صار إليه خالفه واستبدّ، وجاء منصور كما كان يجيء للحرب، فتقدّم إليه أبو الليث عن غير إذن عليّ، فظفر به منصور وقتل من الزنج خلقًا كثيرًا، وأفلت أبو الليث ورجع إلى صاحب الزنج، ثم إنّ علي بن أبان وجّه

(١) القاسم بن الحسن النوفلي: راوية، عاصر الشاعر بشار بن برد وروى عنه وعن معاصريه.

(٢) بيّت القوم: أوقع بهم ليلًا بغتة.

(٣) الجامدة: بكسر الميم: قرية كبيرة جامعة من أعمال واسط بينها وبين البصرة... (ياقوت).

طلائع يأتونه بخبر منصور، وأسرى إلى وال كان لمنصور على بعض الأعمال، فقتله وقتل أكثر أصحابه وغنم ما كان معهم ورجع، وبلغ الخبر منصور بن جعفر فأسرى إلى الخيزرانيّة، وخرج إليه علي بن أبان فتحاربوا إلى الظهر فانهزم منصور وتفرّق عنه أصحابه، وأدركته طائفة من الزنج فحمل عليهم، وقاتلهم حتى تكسّر رمحة وفني نشّابه، ثم حمل حصانه ليعبر النهر فوقع في النهر، وسبب وقوعه أن بعض الزنج رآه حين أراد أن يعبر النهر، فألقى نفسه في النهر قبل منصور وتلقّى الفرس حين وثب، فنكص(١) الفرس وسقط منصور في النهر فقتله الأسود وأخذ سلبه، وقُتل معه أخوه خلف بن جعفر وغيره من أصحابه.

ذكر مسير أبي أحمد الموفق لقتال الزنج وقتل مفلح

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين عقد المعتمد على الله لأخيه أبي أحمد الموفّق على ديار مضر وقنّسرين والعواصم، وخلع عليه وعلى مُفْلِح في شهر ربيع الآخر وسيّرهما لحرب الزنج بالبصرة، وركب المعتمد معه وشيّعه وسار نحو البصرة، ونازل صاحب الزنج، وكان سبب إرساله ما فعله الزنج بالبصرة، فأكبر الناس ذلك وتجهّزوا إليه وساروا في عدة وعُدة كاملة، وصحبه من سوقة بغداد خلق كثير، وكان عليّ بن أبان بجُبَّى، وسار يحيى بن محمد البحراني إلى نهر العباس ومعه أكثر الزنوج، وبقي صاحبهم في قلّة من الناس، وأصحابه يغادون البصرة ويراوحونها لثقل ما نالوه منها، فلما نزل عسكر الموفّق نهر معقل أجفل من فيه من الزنوج إلى صاحبهم مرعوبين، وأخبروه بعظم الجيش وأنّهم لم يرد عليهم مثله، فأحضر رئيسين من أصحابه فسألهما عن قائد الجيش فلم يعرفاه، فجزع لذلك ثم سيّر إلى علي بن أبان يأمره بالمسير إليه فيمن معه، فلما كان يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى أتاه بعض قوّاده، فأخبره بمجيء العساكر وتقدّمهم، وأنّهم ليس في وجوههم من الزنوج من يردّهم، فكذّبه وسبّه وأمر فنودي في الزنوج بالخروج إلى الحرب فخرجوا، فرأوا مُفْلِحًا قد أتاه في عسكر فقاتلوه، فبينما مفلح يقاتلهم إذ أتاه سهم غرب(٢)، لا يعرف من رمي به، فأصابه فرجع وانهزم أصحابه، وقتل الزنج فيهم قتلاً ذريعًا، وحملوا الرؤوس إلى صاحب الزنج، واقتسم الزنج لحوم القتلى، وأتى بالأسرى فسألهم عن

(١) نكص الفرس: رجع إلى خلف.
(٢) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه.

قائد الجيش فأخبروه أنّه أبو أحمد، ومات مفلح من ذلك السهم ولم يلبث صاحب الزنج إلا يسيرًا حتى وافاه علي بن أبان، ثم رحل الموفّق إلى الأبلّة ليجمع ما فرّقته الهزيمة ثم صار إلى نهر أبي الأسد[١].

ذكر مقتل يحيى بن محمد البحراني

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين أيضًا أُسر يحيى بن محمد البَحْرَاني قائد صاحب الزنج، وكان سبب ذلك أنّه لما سافر نحو نهر العبّاس لقيه عسكر اصفجون، عامل الأهواز بعد منصور، فقاتلهم وكان أكثر منهم عددًا، فنال ذلك العسكر من الزنج بالنشاب وجرحوهم، فعبر يحيى النهر إليهم فانحازوا عنه، وغنم سفنًا كانت مع العسكر فيها الميرة، وساروا بها إلى عسكر صاحب الزنج، على غير الوجه الذي فيه علي بن أبان لتحاسدٍ كان بينه وبين يحيى، ووجّه يحيى طلائعه إلى دجلة فلقيهم جيش أبي أحمد الموفّق، سائرين إلى نهر أبي الأسد، فرجعوا إلى عليّ فأخبروه بمجيء الجيش، فرجع من الطريق الذي كان سلكه وسلك طريق نهر العبّاس، وعلى فم النهر مراكب تحميه من عسكر الخليفة، فلما رآهم يحيى راعه ذلك، وخاف أصحابه فنزلوا السفن وعبروا النهر، وبقي يحيى ومعه بضعة عشر رجلاً، فقاتلهم هو وذلك النفر اليسير فرموهم بالسهام، فجرح ثلاث جراحات فلما جرح تفرّق أصحابه عنه، فرجع حتى دخل بعض السفن وهو مثخن بالجراح، وأخذ أصحاب السلطان الغنائم وأخذوا السفن، وعبروا إلى سفن كانت للزنج فأحرقوها، وتفرّق الزنج عن يحيى في بقيّة نهارهم، فلما رأى تفرّقهم ركب سميريّة[٢] وأخذ معه طبيبًا لأجل الجراح، وسار فيها فرأى الملاحون سميريّات السلطان فخافوا فألقوا يحيى ومن معه. فمشى وهو مثقل وقام الطبيب الذي معه فأتى أصحاب السلطان، فأخبرهم خبره فأخذوه وحملوه إلى أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى سامرّا فقطعت يداه ورجلاه ثم قُتل، فجزع صاحب الزنج عليه جزعًا شديدًا وقال لهم لما قتل يحيى: اشتدّ جزعي عليه فخوطبت أنّ قتله كان خيرًا لك، إنّه كان شرها.

---

(١) نهر أبي الأسد: كنية رجل: أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة في طريق البصرة يصب هناك في دجلة العظمى ومأخذه أيضًا من دجلة قرب نهر دقلة. وأبو الأسد أحد قواد المنصور... (ياقوت).

(٢) السميرية: ضرب من السفن.

ذكر عود أبي أحمد الموفق إلى سامرا واستخلافه محمد المولد على حرب الزنج

وفي هذه السنة أيضًا انحاز أبو أحمد الموفق إلى واسط، ثم منها إلى سامرّا، وكان سبب ذلك أنه لما صار إلى نهر أبي الأسد كثرت الأمراض في أصحابه وكثر فهيم الموت، فرجع إلى باذَوَرْد(١) فأقام هناك، وأمر بإعطاء الجند أرزاقهم وإصلاح الآلات والسميريّات وشحنها بالقوّاد، وعاد إلى عسكر صاحب الزنج، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سمّاها من نهر أبي الخصيب وغيره، وبقي معه جماعة، فمال أكثر الخلق، حتى التقى الناس ونشبت الحرب، إلى نهر أبي الخصيب، وبقي أبو أحمد في قلّة من أصحابه، فلم يزل عن موضعه خوفًا أن يطمع الزنج فيه، ولما رأى الزنج قلّة من معه طمعوا فيه وكثروا عليه، واشتدت الحرب عنده وكثر القتل والجراح، وأحرق أصحاب أبي أحمد منازل الزنوج، واستنقذوا من النساء جمعًا كثيرًا، ثم ألقى الزنج جدّهم نحوه، فلما رأى أبو أحمد ذلك علم أنّ الحزم في المحاجزة، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على مهل وتؤدة، واقتطع الزنج طائفة من أصحابه فقاتلوهم، فقتلوا من الزنج خلقًا كثيرًا ثم قتلوا بأجمعهم، وحملت رؤوسهم إلى قائد الزنج، وهي مائة رأس وعشرة أرؤوس، فزاد ذلك في عتوّ صاحب الزنج، فعبّى أبو أحمد أصحابه للرجوع إلى الزنج، فوقعت نار في أطراف عسكره في يوم ريح عاصف، فاحترق كثير منه فرحل إلى واسط، فلما نزل إلى واسط تفرّق عنه عامّة أصحابه، فسار منها إلى سامرّا، واستخلف على واسط لحرب الزنج محمد المولّد، ثم عاد الموفّق بعد ذلك لحرب الزنج، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر دخول الزنج الأهواز ومسير موسى بن بغا لحربهم

قال: وفي سنة تسع وخمسين ومائتين في شهر رجب دخل الزنج الأهواز، وذلك أنّ صاحبهم أنفذ علي بن أبان وضمّ إليه الجيش، الذي كان مع يحيى البحراني وسليمان بن موسى الشعراني، وسيّره إلى الأهواز، وكان المتولي عليها بعد منصور بن جعفر رجلاً يقال له اصغجون، فبلغه خبر الزنج فخرج إليهم، والتقى العسكران

---

(١) باذورد: اسم مدينة كانت قرب واسط بينها وبين البصرة، وإلى هذه الغاية يسمون دجلة البصرة العظمى باذورد تسمية بهذا الموضع. . . (ياقوت).

بدَشْت[١] مِيسَان، فانهزم اصغجون وغرق وقتل وأُسر خلق كثير من أصحابه، وكان ممّن أُسر الحسن بن هرثمة والحسن بن جعفر، وحملت الرؤوس والأعلام والأسرى إلى صاحب الزنج، فأمر بحبس الأسرى، ودخل الزنج الأهواز فأقاموا يفسدون فيها ويعبثون، إلى أن قدم موسى بن بغا.

قال: ولما كان في ذي القعدة أمر المعتمد على الله موسى بن بُغا بالمسير إلى حرب صاحب الزنج، فسيّر إلى الأهواز عبد الرحمٰن بن مُفْلِح، وإلى البصرة إسحاق بن كنداجيق، وإلى بَاذَوَرْد إبراهيم بن سيما، وأمرهم بمحاربة صاحب الزنج، فسار عبد الرحمٰن إلى محاربة علي بن أبان فتواقعا، فانهزم عبد الرحمٰن ثم استعدّ وعاد إلى عليّ، فأوقع به وقعة عظيمة قتل فيها من الزنج قتلاً ذريعًا، وأسر خلقًا كثيرًا، وانهزم علي بن أبان، ثم أراد ردّ الزنج فلم يرجعوا من الخوف الذي دخلهم من عبد الرحمٰن، فلما رأى ذلك أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا إلى مدينة صاحبهم، ووافى عبد الرحمٰن حصن مهدي[٢] ليعسكر به، فسيّر إليه صاحب الزنج عليّ بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه، ومضى يريد الموضع المعروف بادركه، وكان إبراهيم بن سيما بالبَاذَوَرْد، فواقعه علي بن أبان فهزمه عليّ، ثم واقعه ثانية فهزمه إبراهيم، فمضى عليّ بالليل حتى انتهى إلى نهر يحيى، وانتهى خبره إلى عبد الرحمٰن فوجّه إليه طَاشْتُمرُ في جمع من الموالي، فلم يصل إليه لامتناعه بالآجام والقصب والحلافي، فأضرمه عليه نارًا فخرجوا هاربين، فأسر منهم أسرى وانصرف أصحاب عبد الرحمٰن بالأسرى والظفر، ثم سار عبد الرحمٰن نحو علي بن أبان بمكان نزل فيه، فكتب إلى صاحب الزنج يستمده فأمدّه بثلاث عشرة شذاة، ووافاه عبد الرحمٰن فتواقعا يومهما، فلما كان الليل انتخب عليّ من أصحابه جماعة ممّن يثق بهم، وسار وترك عسكره وأتى عبد الرحمٰن من ورائه فبيّته، فنال منه شيئًا يسيرًا وانحاز عبد الرحمٰن، فأخذ عليّ منهم أربع شذوات وأتى عبد الرحمٰن دولاب[٣] فأقام به، وسار طاشتَمر إلى عليّ فوافاه وقاتله، فانهزم عليّ إلى نهر السّدره، وكتب طاشْتِمُر يستمد عبد الرحمٰن ويخبره بانهزام عليّ، فأتاه عبد الرحمٰن وواقع عليًا بنهر السَّدرة وقعة عظيمة، فانهزم عليّ إلى صاحب الزنج، وعسكر عبد الرحمٰن ببيان فكان هو وإبراهيم بن سيما يتناوبان المسير

(١) الدشت: (في معجم البلدان لياقوت): قرية من قرى أصبهان.

(٢) حصن مهدي: بلد من نواحي خوزستان.

(٣) دولاب: بفتح أوله ورخره باء موحدة: هو في عدة مواضع منها: دولاب مبارك في شرقي بغداد... ودولاب: من قرى الريّ... ودولاب أيضًا: قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ.

إلى عسكر الزنج فيوقعان به، وإسحاق بن كنداجيق بالبصرة، وقد قطع الميرة عن الزنج، فكان صاحبهم يجمعهم يوم محاربة عبد الرحمٰن وإبراهيم، فإذا انقضت الحرب سيّر طائفة منهم إلى البصرة لقتال إسحاق، فأقاموا كذلك بضعة عشر شهرًا، إلى أن انصرف موسى بن بُغا عن حرب الزنج، ووليها مسرور البلخي على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة إحدى وستين ومائتين ولّي أبو الساج الأهواز وسُيّر عبد الرحمٰن إلى فارس، وأُمر أبو الساج بمحاربة الزنج فندب صهره لمحاربتهم، فلقيه عليّ بن أبان بناحية دولاب، فقتل عبد الرحمٰن وانحاز أبو الساج إلى ناحية عسكر مُكْرَم، ودخل الزنج الأهواز فقتلوا أهلها وسبوا وأحرقوا، ثم انصرف أبو الساج عما كان وليه من الأهواز وحرب الزنج، ووليها إبراهيم بن سيما فلم يزل بها حتى انصرف عنها مع موسى بن بغا.

ذكر انتداب أبي أحمد الموفق لحرب الزنج وما شغله عن ذلك واستعماله مسرورًا البلخي على حربهم وما كان في خلال ذلك من أخبارهم

وفي سنة إحدى وستين ومائتين ولى المعتمد على الله أخاه أبا أحمد العهد بعد ابنه جعفر، ولقّبه الناصر لدين الله الموفّق، وولاّه من الأعمال ما قدّمنا ذكره في أخباره الدولة العباسية، وولّى موسى بن بغا إفريقية على ما قدمناه، وأمر المعتمد على الله أخاه الموفّق بحرب الزنج، فولّى الموفّق الأهواز والبصرة وكور دجلة - وذلك من جملة ما هو مضاف إلى ولايته - مسرورًا البلخي، وسيّره على مقدمته في ذي الحجة من السنة وعزم على المسير بعده، فحدث من أمر يعقوب بن الليث الصفّار ما منعه عن المسير على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الصفارية، ثم رجع مسرور البلخي لقتال يعقوب، فخلت البلاد من العساكر السلطانية، فبثّ صاحب الزنج سراياه في تلك البلاد تنهب وتحرق وتخرّب، وذلك في سنة اثنتين وستين ومائتين، وأتته الأخبار بخلوّ البطيحة من جند السلطان، فأمر سليمان بن جامع وجماعة من أصحابه بالمسير إلى الحوانيت، وأمر سليمان بن موسى بالمصير إلى القادسية، وقدم أبًا التركي في ثلاثين شذاة يريد عسكر الزنج فنهب وأحرق، فكتب صاحب الزنج إلى سليمان بن موسى يأمره بمنعه من العبور، فأخذ سليمان عليه الطريق، فقاتلهم شهرًا حتى تخلّص، وانحاز إلى سليمان بن جامع من مذكوري البلاليّة وأنجادهم جمع كثير

في خمسين ومائة سميرية، وكان مسرور البلخي قد وجّه قبل مسيره عن واسط جماعة من أصحابه في شذاة إلى سليمان، فأشار الباهليون على سليمان أن يتحصّن في عَقْر ما وراء طهيثا والأدغال التي فيها، وكرهوا خروجه عنهم لموافقته في فعله وخافوا السلطان، فسار فنزل إليه بقربة مروان بالجانب الشرقي من نهر طهيثا، وجمع إليه رؤساء الباهليين، وكتب إلى صاحب الزنج يعلمه بما صنع، فكتب إليه يصوّب رأيه ويأمره بإنفاذ ما عنده من ميرة ونِعَم، فأنفذ ذلك إليه.

وورد الخبر على سليمان أنّ أغَرْتميش وخُشَيْشًا قد أقبلا في الخيل والرجال والسميريات والشذاة يريدون حربه، فجزع جزعًا شديدًا، فلما أشرفوا عليه ورآهم أخذ جمعًا من أصحابه، وسار راجلًا واستدبر أغرتميش، وجدّ أغرتميش في المسير إلى عسكر سليمان، وكان سليمان قد أمر الذي استخلفه في جيشه ألاّ يظهر منهم أحد لأصحاب أغرتميش، وأن يخفوا أنفسهم ما قدروا إلى أن يسمعوا أصوات طبولهم، فإذا سمعوها خرجوا عليه، وأقبل أغرتميش إليهم فجزع أصحاب سليمان جزعًا شديدًا فتفرّقوا، ونهضت شرذمة منهم فواقعوهم وشغلوهم عن دخول العسكر، وجاء سليمان من خلفهم وضرب طبوله، وألقوا أنفسهم في الماء للعبور إليهم، فانهزم أصحاب أغرتميش وظهر من كان من السودان بطهيثا، ووضعوا السيوف فيهم فقتل خُشَيْش وانهزم أغرتميش، وتبعه الزنوج إلى عسكره فنالوا حاجتهم منه، وأخذوا شذاوات فيها مال وغيره، فعاد أغرتميش إليهم فانتزعها من أيديهم، وعاد سليمان وقد ظفر وغنم، وكتب إلى صاحب الزنج بالخبر وسيّر إليه رأس خُشَيْش، فسيّره إلى عليّ بن أبان وهو بنواحي الأهواز، وسيّر سليمان سريّة فظفروا بإحدى عشرة شذاة وقتلوا أصحابها.

ثم كانت للزنج وقعة عظيمة انهزموا فيها في سنة اثنتين وستين أيضًا.

وكانت هذه الوقعة مع أحمد بن لَيْثَوَيه، وكان سببها أن مسرورًا البلخي وجّه أحمد بن ليثويه إلى كور الأهواز، فنزل السوس[1] وكان يعقوب الصفّار ـ المستولي على خراسان ـ قد قلّد محمد بن عبيد الله بن هزار مرد الكردي كور الأهواز، فكاتب محمد قائد الزنج يطمعه في الميل إليه، وأوهمه أنّه يتولى له كور الأهواز، وكان

---

(١) السوس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة أخرى: بالمغرب كورة مدينتها طنجة، وهناك السوس الأقصى: كورة أخرى مدينتها طرفلة... والسوس أيضًا: بلدة بما وراء النهر... (معجم البلدان).

محمد يكاتبه قديمًا، وعزم على مداراة الصفَّار وقائد الزنج، حتى يستقيم له الأمر فيها، فكاتبه صاحب الزنج يجيبه إلى ما سأل، على أن يكون علي بن أبان المتولّي للبلاد، ومحمد بن عبيد الله يخلفه عليها، فقبل محمد ذلك، فوجّه إليه علي بن أبان جيشًا وأمدّهم محمد بن عبيد الله، فساروا نحو السوس فمنعهم أحمد بن ليثويه ومن معه من جند الخليفة عنها، وقاتلهم فقتل خلقًا كثيرًا وأسر جماعة، وسار أحمد حتى جُنْدَيْ سَابور، وسار علي بن أبان من الأهواز منجدًا محمد بن عبيد الله على أحمد بن ليثَوَيْه، فلقيه محمد في جيش كثير من الأكراد والصعاليك، ودخل محمد تُسْتَر[1]، فانتهى إلى أحمد بن ليثويه الخبر بتضافرهما على قتاله، فخرج عن جُنْدَيْ سَابور إلى السوس، وكان محمد قد وعد عليَّ بن أبان أن يخطب لصاحبه قائد الزنج يوم الجمعة على منبر تُستر، فلما كان يوم الجمعة خطب للمعتمد على الله وللصفّار، فلما علم علي بن أبان ذلك انصرف إلى الأهواز، وهدم قنطرة كانت هناك لئلا تلحقه الخيل، وانتهى أصحاب عليّ إلى عَسْكر مُكْرَم فنهبوها، وكانت داخلة في سلم صاحب الزنج فغدروا بها، وساروا إلى الأهواز، فلما علم أحمد ذلك أقبل إلى تستر، فأوقع بمحمد بن عبيد الله ومن معه، فانهزم محمد ودخل أحمد تُستر، وأتت الأخبار علي بن أبان أن أحمد على قصده، فسار إلى لقائه ومحاربته فالتقيا واقتتل العسكران، فاستأمن جماعة من الأعراب، الذين كانوا مع عليّ بن أبان - إلى أحمد بن ليثويه، فانهزم باقي أصحاب عليّ وثبت معه جماعة يسيرة، فاشتد القتال وترجّل علي بن أبان وباشر القتال راجلاً، فعرفه بعض أصحاب أحمد فأنذر به، فلما عرفوه انصرف هاربًا، وأتاه بعض أصحابه بسميريّة فركب فيها ونجا مجروحًا، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة، وعاد إلى الأهواز ولم يُقم بها، ومضى إلى عسكر صاحبه يداوي جراحه، واستخلف على عسكره بالأهواز، فلما برئت جراحه عاد إلى الأهواز، ووجّه أخاه الخليل بن أبان في سنة ثلاث وستين ومائتين في جيش كثيف إلى أحمد بن ليثويه، وكان أحمد بعسكر مُكْرَم فكمّن لهم أحمد وخرج إلى قتالهم، فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال، وخرج الكمين على الزنج فانهزموا وتفرّقوا وقتلوا، ووصل المنهزمون إلى علي بن أبان، فوجّه عليّ مسلحة إلى المَسْرقان، فوجّه إليهم أحمد بن ليثويه ثلاثين فارسًا من أعيان أصحابه فقتلهم الزنج جميعهم.

---

(١) تستر: بالضم ثم السكون، وفتح التاء الأخرى، وراء: أعظم مدينة بخوزستان... (معجم ياقوت).

ذكر دخول الزنج واسط
وما تقدم ذلك من الحروب والوقائع

كان دخول الزنج واسط[١] في سنة أربع وستين ومائتين، وذلك أن سليمان بن جامع لما سار إلى البطائح في سنة اثنتين وستين - وكان بينه وبين أغَرتِمِيش ما ذكرناه - كتب إلى صاحبه يستأذنه في المسير إليه ليحدث به عهدًا، فأذن له في ذلك، فأشار عليه الجبّائي أن يتطرق إلى عسكر تكين البخاريّ، وهو ببَرْدُود[٢]، فقبل قوله وسار إلى تكين، فلما كان على فرسخ منه قال له الجبّائي: الرأي أن تقيم أنت هاهنا، وأمضي أنا في السميريّات فأجرّ القوم إليك فيأتونك وقد تعبوا، فتنال منهم حاجتك، ففعل سليمان ذلك وجعل بعض أصحابه كمينًا، ومضى الجبّائي إلى تكين فقاتله ساعة، ثم تطارد لهم فتبعوه، فأرسل إلى سليمان يعلمه ذلك، وقال لأصحابه - وهو بين يدي أصحاب تكين شبه المنهزم ليسمع أصحاب تكين قوله - غرّرتموني وأهلكتموني!! وكنت نهيتكم عن الدخول هاهنا فأبيتم ولا أرانا ننجو منه!! فطمع أصحاب تكين وجدُّوا في طلبه، وجعلوا ينادون «بلبل في قفص»، فما زالوا كذلك حتى جاوزوا موضع الكمين وقاربوا عسكر سليمان، وقد كمَن أيضًا خلف جدر هناك، فخرج سليمان إليهم فقاتلهم، وخرج الكمين من خلفهم، وعطف الجبّائي على من في النهر، فاشتد القتال، فانهزم أصحاب تكين من الوجوه كلها، وركبهم الزنج فقتلوهم وسلبوهم أكثر من ثلاثة فراسخ، وعادوا عنهم، فلما كان الليل عاد الزنج إليهم وهم في معسكرهم فكبسوهم، فقاتلهم تكين وأصحابه فانكشف سليمان، ثم عبّى أصحابه وأمر طائفة أن تأتيه من جهة ذكرها لهم، وطائفة من الماء، وأتى هو في الباقين، وقصدوا تكين من جهاته كلها، فعلم يقف من أصحابه أحد، وانهزموا وتركوا عسكرهم فغنم الزنج ما فيه، وعادوا بالغنيمة.

واستخلف سليمانُ الجبّائي على عسكره، وسار إلى صاحبه وذلك في سنة ثلاث وستين، فلما سار سليمان إلى صاحب الزنج خرج الجبّائي بالعسكر إلى مازَرْوَان[٣]

---

(١) واسط: في عدة مواضع: واسط الحجاج: وهي متوسطة بين البصرة والكوفة.. وواسط نجد.. وواسط الحجاز.. وواسط الجزيرة.. وواسط اليمامة... (معجم ياقوت).

(٢) البرود: بالفتح ثم الضم، وسكون الواو، ودال مهملة: فيما بين ملل وبين طرف جبل جهينة.. والبرود أيضًا بطرف حرة النار أودية يقال لهن البوارد.. والبرود: واد فيه بشر بطرف حرة ليلى... (معجم البلدان).

(٣) ماروان: (كما في معجم ياقوت) بفتح الراء والواو، وآخره نون: موضع بفارس.

لطلب الميرة، فاعترضه جُعْلان فقاتله، فانهزم الجبّائي وأخذت سفنه، وأتته الأخبار أنّ منجور ومحمد بن علي بن حبيب اليشكري قد بلغا الحجَّاجِيَّة، فكتب إلى صاحبه بذلك، فسيّر إليه سليمان فوصل إلى طهيثا مجدًا، وأظهر أنّه يريد قصد جُعْلان، وقدم الجبّائي وأمره أن يأتي جُعْلان ويقف بحيث يراه ولا يقاتله، ثم سار سليمان نحو محمد بن علي بن حبيب مجدًّا فأوقع به وقعة عظيمة، وغنم غنائم كثيرة، وقتل أخًا لمحمد بن علي ورجع، وذلك في شهر رجب سنة ثلاث وستين أيضًا.

ثم سار في شعبان إلى قرية حسّان[١]، وبها قائد يقال له جيش بن خمارتكين فأوقع به، فهزمه ونهب القرية وأحرقها وعاد، ثم سار في شعبان أيضًا إلى مواضع فنهبها وعاد، ثم سار في رمضان وأظهر أنّه يريد جُعْلان بمازَرْوَان، فبلغت الأخبار جُعلان فضبط عسكره، فتركه سليمان وعدل إلى أبًا فأوقع به وهو غارٌّ، وغنم منه ست شذاوات، ثم أرسل الجبّائي في جماعة لينهب، فصادفهم جعْلان فأخذ سفنهم وغنم منهم، فأتاه سليمان في البرّ فهزمه واستنقذ سفنهم، وغنم شيئًا آخر وعاد، ثم سار سليمان إلى الرصافة في ذي القعدة فأوقع بمطر بن جامع وهو بها، وغنم غنائم كثيرة وأحرق الرصافة واستباحها، وحمل أعلامًا وانحدر إلى مدينة صاحب الزنج، وأقام ليعيّد هناك بمنزله، فسار مطر إلى الحجّاجيّة فأوقع بأهلها وأسر جماعة، وكان بها قاض لسليمان فأسره مطر وحمله إلى واسط، وصار مطر إلى قريب طهيثا ورجع، فكتب الجبّائي إلى سليمان بذلك، فسار نحوه فوافاه لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين.

ثم صرف جعلان ووافاه أحمد بن ليثويه فأقام بالشَدِيديَّة، ومضى سليمان إلى تكين في خمس شذاوات، وذلك في سنة أربع وستين، فواقعه تكين بالشديديّة، وكان أحمد بن ليثويه حينئذ قد سار إلى الكوفة، فظهر تكين على سليمان وأخذ الشذاوات بما فيها، وكان فيها صناديد سليمان وقوّاده فقتلهم، ثم إنّ أحمد عاد إلى الشديدية وضبط تلك الأعمال، حتى وافاه محمد المولَّد وقد ولاّه الموفّق مدينة واسط، فكتب سليمان إلى صاحبه يستمده، فأمدّه بالخليل بن أبان في زهاء ألف وخمسمائة فارس، فلما أتاه المدد قصد إلى محاربة محمد المولَّد، فأوقع به وهرب المولّد، ودخل سليمان مدينة واسط فقتل فيها خلقًا كثيرًا ونهب وأحرق، وكان بها كنجور البخاري،

---

(١) حسّان: بالفتح وتشديد السين، قرية حسان: بين دير العاقول وواسط، ويقال لها قرنا أم حسان أيضًا.

فقاتله يومه إلى العصر ثم قتل، وانصرف سليمان عن واسط إلى جُنْبُلاَءَ[١] ليعيث ويخرّب، فأقام هناك تسعين ليلة.

ذكر وقائع كانت بين الزنج وبين أحمد بن ليثويه وتكين البخاري وأغرتميش في سنة خمس وسنة ست وستين ومائتين

وفي سنة خمس وستين كانت وقعة بين أحمد بن ليثويه وبين سليمان بن جامع والزنج بناحية جُنبلاء، وسبب ذلك أن سليمان كتب إلى صاحب الزنج، يخبره بحال نهر يسمّى الزهيري ويسأله أن يأذن في عمله، ويقول إنّه متى أنفذه تهيّأ له حمل ما في جنبلاء وسواد الكوفة، فأنفذ إليه زكرويه لذلك، وأمره بمساعدته والنفقة على عمل النهر، فمضى سليمان فيمن معه وأقام بالشريطيّة نحوًا من شهر، وشرعوا في عمل النهر، وكان أصحاب سليمان في أثناء ذلك يتطرّقون إلى ما حولهم، فواقعه أحمد بن ليثويه، وهو عامل الموفّق بجنبلاء، فقتل من الزنوج نيّفًا وأربعين قائدًا، ومن عامّتهم ما لا يحصى كثرة وأحرق سفنهم، فمضى سليمان مهزومًا إلى طهيثا.

وفيها سار جماعة من الزنوج في ثلاثين سميريّة إلى جَبُّل[٢]، فأخذوا أربع سفن فيها طعام وانصرفوا. وفيها دخل الزنج النُّعْمَانِيَّة فأحرقوها وسبوا، وصاروا إلى جَرْجَرايَا[٣] ودخل أهل السودان بغداد.

وفيها استعمل الموفّق مسرورًا البلخي على كور الأهواز، فولّى مسرور ذلك تكين البخاريّ، فسار تكين إليها، وكان علي بن أبان والزنج قد أحاطوا بتُسْتَر، فخاف أهلها وعزموا على تسليمها إليهم، فوافاهم تكين وهم على تلك الحال، فواقع علي بن أبان حال وصوله، فانهزم عليّ والزنج وقتل كثير منهم وتفرقوا، ونزل تكين تستر. قال: وهذه الوقعة تعرف بوقعة كودَك وهي مشهورة.

---

(١) جنبلاء: بضمتين، وثانيه ساكن، وهو محدود: كورة وبليد، وهو منزل بين واسط والكوفة منه إلى قناطر بني دارا إلى واسط.

(٢) جبّل: بفتح الجيم، وتشديد الباء وضمها، ولام: بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي.

(٣) جرجرايا: بفتح الجيم، وسكون الراء الأولى: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

قال: ثم إن عليًا قدم عليه جماعة من قوّاد الزنج، فأمرهم بالمقام بقنطرة فارس، فهرب منهم غلام رومي إلى تكين وأخبره بمقامهم بالقنطرة، وتشاغلهم بالنبيذ وتفرّقهم في جمع الطعام، فسار تكين إليهم ليلاً فأوقع بهم، وقتل من قوّادهم جماعة وانهزم الباقون، وسار تكين إلى علي بن أبان فلم يقف له عليّ وانهزم، وأسر غلام له يعرف بجعفرويه ورجع عليّ إلى الأهواز ورجع تكين إلى تستر، وكتب عليّ إلى تكين يسأله الكفّ عن قتل غلامه فحبسه، ثم تراسل عليّ وتكين وتهادنا، فبلغ الخبر مسرورًا بميل تكين إلى الزنج، فسار حتى وافى تكين وقبض عليه وحبسه حتى مات، وتفرّق أصحاب تكين: ففرقة صارت إلى الزنج، وفرقة صارت إلى محمد بن عبيد الله الكردي، فبلغ ذلك مسرورًا فأمّنهم، فجاءه الباقون منهم. قال: وبعض ما ذكرناه كان في سنة ست وستين ومائتين.

وفي سنة ست وستين ولّي أغرتميش ما كان يتولاه تكين البخاري من أعمال الأهواز، فدخل تُستر ومعه أُبًا ومطر بن جامع، فقتل مطر جعفرويه ـ غلام عليّ بن أبان ـ وجماعة معه كانوا مأسورين، وساروا إلى عسكر مكرم، وأتاهم الزنج هناك مع علي بن أبان فاقتتلوا، فلما رأوا كثرة الزنج قطعوا الجسر وتحاجزوا، ورجع عليّ إلى الأهواز وأقام أخوه الخليل بالمَسْرُقان[١] في جماعة كثيرة من الزنج، وسار أغرتميش ومن معه نحو الخليل، ليعبروا إليه من قنطرة أرْبُك، فكتب إلى أخيه عليّ فوافاه في النهر، وخاف أصحابه الذين خلّفهم بالأهواز فارتحلوا إلى نهر السِّدْرَة، وتحارب عليّ وأغرتميش يومه، ثم انصرف عليّ إلى الأهواز فلم يجد أصحابه، فرجّه من يردّهم من نهر السدرة، فعسر عليهم ذلك فتبعهم وأقام معهم ورجع أغرتميش، فنزل عسكر مكرم واستعد لقتالهم، وبلغ ذلك أغرتميش ومن معه من عسكر الخليفة، فساروا إليه فكمّن لهم عليّ، وقدّم الخليل إلى قتالهم فاقتتلوا، فكان أوّل النهار لأصحاب الخليفة، ثم خرج عليهم الكمين فانهزموا وأسر مطر بن جامع وعدّة من القوّاد، فقتله عليّ بغلامه جعفرويه وعاد إلى الأهواز، وأرسل رؤوس القتلى إلى صاحب الزنج، وكان عليّ وأغرتميش بعد ذلك في حروبهم على السواء، وصرف صاحب الزنج أكثر جنوده إلى عليّ بن أبان، فلما رأى ذلك أغرتميش وادعه، وجعل عليّ يغير على النواحي، فأغار على قرية بيروذ ونهبها، ووجّه الغنائم إلى صاحبه.

---

(١) مسرقان: بالفتح ثم السكون، والراء مضمومة، وقاف، وآخره نون: هو نهر بخوزستان عليه عدة قرى وبلدان ونخل يسقي ذلك كله ومبدؤه من تستر.

ذكر دخول الزنج رامهرمز

وفي سنة ست وستين ومائتين دخل عليّ والزنج رَامَهُرْمُز[١]، وسبب ذلك أن محمد بن عبيد الله كان يخاف عليّ بن أبان، لما في نفس عليّ منه لما ذكرناه، فكتب إلى انكلاي ابن صاحب الزنج، وسأله أن يسأل أباه ليرفع يد عليّ عنه ويكون إلى نفسه، فزاد ذلك غيظ عليّ منه، وكتب إلى صاحب الزنج بالإيقاع بمحمد، ويجعل ذلك الطريق إلى مطالبته بالخراج، فأذن له فكتب إلى محمد يطلب منه حمل الخراج، فمطله ودافعه فسار إليه عليّ وهو برامهرمز، فهرب محمد عنها ودخلها عليّ والزنج فاستباحها، ولحق محمد بأقصى معاقله، وانصرف عليّ غانمًا، وخاف محمد فكتب إليه يطلب المسالمة، فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه، فحمل إليه مائتي ألف درهم فأنفذها إلى صاحب الزنج، وأمسك عن محمد بن عبيد الله وأعماله.

وفيها كانت وقعة للزنج انهزموا فيها، وكان سببها أن محمد بن عبيد الله كتب إلى عليّ بن أبان بعد الصلح يسأله المعونة على طائفة من الأكراد، على أن يجعل له ولأصحابه غنائمهم، فكتب عليّ إلى صاحبه يستأذنه، فكتب إليه أن: وجِّهْ إليه جيشًا وأقم أنت، ولا تنفذْ حتى تستوثق منه بالرهن، ولا تأمنْ غدره والطلب بثأره، فكتب عليّ إلى محمد يطلب منه اليمين والرهائن، فبذل له اليمين ومطله بالرهائن، فلحرص عليّ على الغنائم أنفذ إليه جيشًا، فسيّر محمد معهم طائفة من أصحابه إلى الأكراد، فخرج إليهم الأكراد فقاتلوهم ونشبت الحرب، فتخلى أصحاب محمد عن الزنج فانهزموا، وقتلت الأكراد منهم خلقًا كثيرًا، وكان محمد قد أعدّ لهم من يتعرض لهم إذا انهزموا، فأوقعوا بهم وسلبوهم وأخذوا دوابّهم، ورجعوا بأسوأ حال، فكتب عليّ إلى صاحب الزنج يعرّفه فقال: ضيّعت أمري في ترك الرهائن، وكتب إلى محمد يتهدّده فخاف محمد، وكتب يخضع ويذل وردّ بعض الدواب، وقال: إنني كبست من كانت عندهم، وخلّصت هذه منهم، فأظهر صاحب الزنج الغضب عليه، فأرسل محمد إلى بهبوذ ومحمد بن يحيى الكرمانيّ، وكان أقرب الناس إلى عليّ، فضمن لهما مالاً إن أصلحا له عليًا وصاحبه ففعلا ذلك، وأجابهما صاحب الزنج بالرضا عن محمد، على أن يخطب له على منابر بلاده، فأعلما محمدًا ذلك فأجابهما إلى جميع ما طلبا، وجعل يراوغ في الدعاء له على المنابر، ثم إنّ عليًا استعدّ لمَتُّوث[٢] وسار

---

(١) رامهرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد الأكاسرة: هي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان.

(٢) متوث: بالفتح ثم التشديد، والضم، وسكون الواو، وآخره ثاء مثلثة: قلعة حصينة بين الأهواز وواسط.

إليها فلم يظفر بها، فرجع وعمل السلاليم والآلات التي يصعد بها إلى السور، واستعدّ لقصدها فعرف ذلك مسرور البلخي، وهو يومئذ بكور الأهواز، فلما سار عليّ إليها سار إليه مسرور، فوافاه قبل المغرب وهو نازل عليها، فلما عاين الزنج أوائل خيل مسرور انهزموا أقبح هزيمة، وتركوا ما كانوا أعدّوه وقُتل منهم خلق كثير، وانصرف عليّ مهزومًا، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى أتته الأخبار بإقبال الموفّق، ولم يكن لعليّ بعدها وقعة، حتى فتحت سوق الخميس وطهيثا على الموفّق؛ على ما نذكره إن شاء الله، فكتب إليه صاحبه يأمره بالعود إليه ويستحثه حثًّا شديدًا.

ذكر مسير أبي العباس بن الموفق وهو المعتضد بالله إلى حرب الزنج وانتزاعه عامة ما كان بيد سليمان ابن جامع والزنج من أعمال دجلة

كان مسيره لذلك في سنة ست وستين ومائتين، وسبب ذلك أن الزنج لما دخلوا واسط وفعلوا بها ما فعلوا ـ واتصل ذلك بالموفّق ـ أمر ابنه أبا البعاس بتعجيل المسير بين يديه، إليهم، فسار في شهر ربيع الآخر وشيّعه أبوه، وسيّر معه عشرة آلاف من الرجّالة والخيّالة في العدّة الكاملة، وأخذ معه الشذاوات والسميريّات والمعابر للرجّالة، فسار حتى وافى دير العاقول[1]، وكان على مقدمته في الشذاوات نُصير المعروف بأبي حمزة، فكتب نصير إليه يخبره أنّ سليمان بن جامع قد وافى خيله ورجله وشذاوات وسميريّات ـ والجبّائي على مقدمته، حتى نزل الجزيرة فحصر بردودا، وأنّ سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافى الصلح، ووجّه طلائعه ليعرف أخبارهم، فعادوا وأعلموه موافاة الزنج وجيشهم، وأن أوّلهم بالصلح وآخرهم ببستان موسى بن بغا أسفل واسط.

قال: وكان سبب جمع الزنج وحشدهم أنهم قالوا: إن العباس فتى حدث غرّ بالحرب، والرأي لنا أن نرميه بحدّنا كلّه، ونجتهد في أول مرّة نلقاه فلعلّ ذلك يروعه فينصرف عنّا، فجمعوا وحشدوا، فلما علم أبو العباس قربهم عدل عن سنن الطريق واعترض في مسيره، ولقي أصحابه أوائل الزنج فتطاردوا له حتى طمعوا فيهم وتبعوهم، وجعلوا يقولون: اطلبوا أميرًا للحرب فإنّ أميركم قد اشتغل بالصيد، فلما

(١) دير العاقول: بين مدائن كسرى والنعمانية، بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخًا على شاطىء دجلة كان، أما الآن فبينه وبين دجلة مقدار ميل، وكان عنده بلد عامر وأسواق أيام كون النهروان عامرًا. . . (معجم البلدان لياقوت).

قربوا منه خرج عليهم فيمن معه، وصاح بنُصير إلى أين يتأخر عن هذه الأكلب، فرجع نصير، وركب أبو العباس سميريّة وحفّ به أصحابه من جميع الجهات، فانهزمت الزنج وكثر القتل فيهم، وتبعوهم إلى أن وصلوا قرية عبد الله، وهي على ستة فراسخ من الموضع الذي لقوهم به وأخذوا منهم خمس شذاوات وعدّة سميريّات، وأُسر جماعة واستأمن جماعة، فكان هذا أول الفتح.

فسار سليمان بن جامع إلى نهر الأمير، وسار سليمان الشعرانيّ إلى سوق الخميس، وانحدر أبو العباس فأقام بالعُمْر، وهو على فرسخ من واسط، وأصلح شذاواته وأخذ يراوح القوم القتال ويعاديهم، ثم إن سليمان استعدّ وحشد وجعل أصحابه في ثلاثة أوجه، وقالوا إنّه حدث غرّ يغرّر بنفسه وكمّنوا كمينًا، فبلغ الخبر أبا العبّاس فحذر، وأقبلوا وقد كمّنوا الكمناء ليغتر باتّباعهم فيخرج الكمين عليه، فمنع أبو العبّاس أصحابه من اتّباعهم، فلما علموا أنّ كيدهم لم يتمّ خرج سليمان في الشذاوات والسميريّات، فأمر أبو العبّاس نصيرًا أن يبرز إليهم، وركب هو في شذاة من شذاواته سماها الغزال، ومعه جماعة من خاصّته، وأمر الخيّالة بالمسير بإزائه على شاطىء النهر إلى أن ينقطع، فيعبروا دوابّهم، ونشبت الحرب بين الفريقين فوقعت الهزيمة على الزنج، وغنم أبو العبّاس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والجبّائي بعد أن أشفيا على الهلاك، وبلغوا طهيثا وأسلموا ما كان معهم، ورجع أبو العباس إلى معسكره، وأقام الزنج عشرين يومًا لا يظهر منهم أحد، وجعلوا على طريق الخيل آبارًا وجعلوا فيها سفافيد(١) حديد، وجعلوا على رؤوسها البواري(٢) والتراب ليسقط فيها المجتازون، فسقط فيها رجل ففطنوا لها فتركوا ذلك الطريق. واستمد سليمان صاحب الزنج فأمدّه بأربعين سميريّة بآلاتها ومقاتليها، فعادوا للتعرض للحرب فلم يثبتوا لأبي العبّاس، ثم سيّر إليهم عدة سميريّات فأخذها الزنج، فبلغه الخبر وهو يتغدّى فركب في سميريّة ولم ينتظر أصحابه وتبعه منهم من خفّ فأدرك الزنج، فانهزموا وألقوا أنفسهم في الماء، فاستنقذ سميريّاته ومن كان فيها، وأخذ منهم إحدى وثلاثين سميريّة ورمي أبو العبّاس يومئذ عن قوس حتى دميت إبهامه، فلما رجع أمر لمن معه بالخلع، وأمر بإصلاح السميريّات المأخوذة من الزنج.

---

(١) السفافيد: واحدتها السفود، وهو عود من حديث ينظم فيه اللحم ليشوى.

(٢) البواري: جمع الباريّ: (فارسي معرب)، الحصير.

ثم إنّ أبا العبّاس رأى أن يتوغّل مازروان حتى يصير إلى الحجّاجيّة ونهر الأمير، ويعرف ما هناك، فقدّم نصيرًا في أوّل السميريّات وركب أبو العبّاس في سميريّة ومعه محمد بن شُعيب، ودخل مازروان وهو يظن أنّ نصيرًا أمامه، فلم يقف له على خبر، وكان قد سار على غير طريق أبي العباس، وخرج من مع أبي العبّاس من الملاّحين إلى غنم رأوها ليأخذوها، فبقي هو ومحمد بن شعيب فأتاهما جمع من الزنج من جانبي النهر، فقاتلهم أبو العباس بالنشّاب، ووافاه زِيرَك في باقي الشذاوات، فسلم أبو العبّاس وعاد إلى عسكره، ورجع نصير، وجمع سليمان بن جامع أصحابه وتحصّن بطهيثا، وتحصّن الشعرانيّ وأصحابه بسوق الخميس، وجعلوا يحملون الغلات إليها، واجتمع بالصينيّة[1] جمع كثير، فوجّه أبو العباس جماعة من قوّاده على الخيل إلى ناحية الصينيّة، وأمرهم بالمسير في البرّ وإذا عرض لهم نهر عبروه، وركب هو في الشذاوات والسميريّات، فلما أبصرت الزنج الخيل خافوا ولجأوا إلى الماء والسفن، فلم يلبثوا أن وافتهم الشذاوات مع أبي العبّاس، فلم يجدوا ملجأ فاستسلموا، فقُتل منهم فريق وأسر فريق، وألقى فريق أنفسهم في الماء، وأخذ أصحاب أبي العبّاس سفنهم وهي مملوءة أرزًا، وأخذ الصينيّة وأزاح الزنج عنها، فانحازوا إلى طهيثا وسوق الخميس، ورجع أبو العباس إلى عسكره وقد فتح الصينيّة.

وبلغه أنّ جيشًا عظيمًا للزنج مع ثابت بن أبي دُلَف ولؤلؤ، فسار إليهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وقت السحر، فقتل منهم خلقًا كثيرًا منهم لؤلؤ، وأسر ثابتًا فمنّ عليه وجعله مع بعض قوّاده، واستنقذ خلقًا كثيرًا من النساء، فأمر بردّهنّ إلى أهلهنّ، وأخذ كلّ ما كان الزنج جمعوه، وأمر أصحابه أن يتجهزوا للمسير إلى سوق الخميس، وأمر نصيرًا بتعبئة أصحابه للمسير، فقال له: إن نهر سوق الخميس ضيّق، فأقِمْ أنت ونسير نحن، فأبى عليه، فقال له محمد بن شعيب: إن كنت لا بدّ فاعلاً فلا تكثر الشذاوات ولا الرجال فإنّ النهر ضيّق، فسار نصير بين يديه إلى فم برمساور، فوقف أبو العبّاس وتقدّمه نصير في خمس عشرة شذاة، في نهر يؤدي إلى مدينة الشعراني، التي سمّاها المَنِيعة في سوق الخميس، فلما غاب عنه نصير خرج جماعة كثيرة في البرّ على أبي العبّاس، فمنعوه من الوصول إلى المدينة، وقاتلوه قتالاً شديدًا من أوّل النهار إلى الظهر، وخفي عليه خبر نصير، وجعل الزنج يقولون: قد قتلنا نصيرًا، فاغتمّ أبو العبّاس لذلك وأمر محمدًا يتعرّف خبره، فسار فرآه عند سكر الزنج، وقد أحرقه

---

(١) الصينية: هي بليدة تحت واسط؛ ينسب إليها قوم من أهل العلم، منهم: الحسن بن محمد بن ماهان الصيني.

وأضرم النار في مدينتهم، وهو يقاتلهم قتالاً شديدًا، فعاد إلى أبي العبّاس فأخبره فسُرّ بذلك، وأسر نصير من الزنج جماعة كثيرة، ورجع حتى وافى أبا العبّاس، ووقف أبو العبّاس فقاتلهم فرجعوا عنه، وكمّن بعض شذاواته وأمر أن تظهر واحدة منها، فطمعوا فيها وأدركوها فعلقوا بسكّانها، فخرجت عليهم السفن الكمائن وفيها أبو العبّاس، فانهزم الزنج وغنم أبو العبّاس منهم ست سميريّات، وانهزموا لا يلوون على شيء من الخوف، ورجع أبو العبّاس إلى عسكره سالمًا، وخلع على الملاّحين وأحسن إليهم.

ذكر مسير الموفق لقتال الزنج وفتح المنيعة

قال: وفي سنة سبع وستين ومائتين أيضًا سار الموفّق عن بغداد إلى واسط لحرب الزنج، وجمع وحشد الفرسان والرجّالة واستكثر من العدّة، وسدّ الجهات التي يخاف منها لئلا يبقى له ما يشغل قلبه وكان صاحب الزنج قد أرسل إلى عليّ بن أبان المهلبيّ، يأمره أن يجتمع مع سليمان بن جامع على حرب أبي العبّاس بن الموفّق، فخاف الموفّق وَهْنا يتطرق إلى ابنه أبي العبّاس، فسار عن بغداد في صفر سنة سبع وستين فوصل إلى واسط في شهر ربيع الأوّل، فلقيه ابنه فأخبره بحال جنده وقوّاده فخلع عليه وعليهم، ورجع أبو العبّاس إلى معسكره بالعُمْر، ثم نزل الموفّق على نهر بسنداد[1] بإزاء قرية عبد الله، وأمر ابنه فنزل شرقيّ دجلة بإزاء فوّهة بردودا، وولاّه مقدّمته وأعطى الجيش أرزاقهم، وأمر ابنه أن يسير بما معه من الآلات الحربية إلى فوّهة برمساور، فرحل في نخبة أصحابه، ورحل الموفّق بعده فنزل فوّهة برمساور، فأقام يومين ثم وصل إلى المدينة التي سماها صاحب الزنج ـ المنيعة ـ من سوق الخميس يوم الثلاثاء لثمان خلون من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين، وسلك بالسفن في برمساور وسارت الخيل شرقيّة حتى حاذوا براطق، الذي يوصل إلى المنيعة، وأمر أن تعبر الخيل لتصير من الجانبين، وأمر ابنه أبا العبّاس بالتقدّم بالشذاوات بعامة الجيش، ففعل فلقيه الزنج فحاربوه حربًا شديدة، ووافاهم أبو أحمد الموفّق والخيل من جانبي النهر، فلما رأوا ذلك انهزموا وتفرّقوا، وعلا أصحاب أبي العبّاس السور ووضعوا السيوف في من لقيهم، ودخلوا المنيعة فقتلوا بها خلقًا كثيرًا، وأسروا عالمًا عظيمًا، وغنموا ما كان فيها، وهرب الشعراني ومن معه وتبعه أصحاب الموفّق إلى البطائح، فغرق منهم خلق كثير ولجأ الباقون إلى الآجام، ورجع الموفق

---

(١) سنداد: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وتكرير الدال: نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلة، وكان عليه قصر تحج العرب إليه، وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر. . . (معجم البلدان).

إلى معسكره من يومه، وقد استنقذ من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة، سوى من ظفر به من الزنجيّات، وأمر بحفظ النساء وحملهنّ إلى واسط ليُدفعن إلى أهلهنّ، ثمّ بكّر إلى المدينة وأمر الناس بأخذ ما فيها فأخذ جميعه، وأمر بهدم سورها وطمّ خندقها وإحراق ما بقي فيها من السفن، وأخذوا من الطعام والشعير والأرز شيئًا كثيرًا، فأمر ببيع ذلك وصرفه إلى الجند.

قال: ولما انهزم سليمان لحق بالمَذَار، وكتب إلى صاحب الزنج بذلك، فورد الكتاب عليه ـ وهو يتحدّث ـ فانحلّ بطنه فقام إلى الخلاء دفعات، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشّعرانيّ ويأمره بالتيقّظ. قال: وأقام الموفّق ببر مساور يومين يتعرّف أخبار الشّعرانيّ وسليمان بن جامع، فأتاه من أخبره أن سليمان بن جامع بالحَوَانيت، فسار حتى وافى الصِينيّة، وأمر ابنه أبا العبّاس بالتقدّم بالشذاوات والسميريّات إلى الحوانيت، فسَار أبو العبّاس إليها فلم ير سليمان بها، ورأى هناك جمعًا من الزنج مع قائديْن لهم، خَلّفهم سليمان بن جامع هناك لحفظ غلاّت كثيرة لهم فيها، فحاربهم أبو العبّاس إلى أن حجز بينهم الليل، واستأمن إلى أبي العبّاس رجل، فسأله عن سليمان بن جامع فأخبره أنّه مقيم بطهيثا بمدينته التي سماها المنصورة، فعاد أبو العبّاس إلى أبيه بالخبر، فأمره بالمسير إليه فسار حتى نزل بَرْدُودا، فأقام بها لإصلاح ما يحتاج إليه، واستكثر من الآلات التي يسدّ بها الأنهار ويصلح بها الطرق للخيل، وخلّف ببردودا بُغْراج التركي.

ذكر استيلاء أبي أحمد الموفق على طهيثا

قال: ولما فرغ الموفّق من الذي يحتاج إليه سار عن بَرْدُودا إلى طهيثا لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين ومائتين، وكان مسيره على الظهر في خيله، وحُدِّرت السفن والآلات فنزل بقرية الجوزيّة وعقد جسرا، ثم غدا فعبر خيله عليه ثم عبر بعد ذلك، فسار حتى نزل معسكرًا على ميلين من طهيثا فأقام بها يومين، ومطرت السماء مطرًا شديدًا فشغل عن القتال، ثم ركب لينظر موضعًا للحرب، فانتهى إلى قريب من سور مدينة سليمان بطهيثا ـ وهي التي سمّاها المنصورة ـ فتلقّاه خلق كثير وخرج عليه كمناء من مواضع شتى، واشتدت الحرب وترجّل جماعة من الفرسان، وقاتلوا حتى خرجوا عن المضيق الذي كانوا فيه، وأسر من غلمان الموفّق جماعة، ورمى أبو العبّاس بن الموفّق أحمد بن مهدي الجبّائي بسهم خالط دماغه فسقط، وحُمل إلى صاحب الزنج فلم يلبث أن مات بحضرته، فصلّى عليه وعظمت لديه

المصيبة بموته، وكان أعظم أصحابه غناءً، وانصرف الموفّق إلى معسكره وقت المغرب، وأمر أصحابه بالتحارُس ليلتهم والتأهُّبِ للحرب، فلما أصبحوا ـ وذلك في يوم السبت لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر ـ عبّى الموفّق أصحابه وجعلهم كتائب يتلو بعضها بعضًا فرسانًا ورجّالة، وأمر بالشذاوات والسميريّات أن يُسار بها إلى النهر، الذي يشقّ مدينة سليمان، وهو النهر المعروف بنهر المُنْذِر، ورتّب أصحابه في المواضع التي يخاف منها، ثم نزل فصلّى أربع ركعات وابتهل إلى الله عزّ وجلّ في النصر ثم لبس سلاحه، وأمر ابنه أبا العبّاس أن يتقدّم إلى السور، فتقدم إليه فرأى خندقًا فأحجم الناس عنه، فحرّضهم قوّادهم وترجّلوا معهم فاقتحموه وعبروه، وانتهوا إلى الزنج وهم على سورهم، فلمّا رأى الزنج تسرّعهم إليهم ولّوا منهزمين، واتبعهم أصحاب أبي العبّاس فدخلوا المدينة، وكان الزنج قد حصّنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق سورًا، فجعلوا يقفون عند كل سور وخندق فيكشفهم أصحاب أبي العباس، ودخلت الشذاوات والسميريّات المدينة من النهر، فجعلت تغرق كل ما مرّت لهم به من سميريّة وشذاة، وقتلوا من بجانبي النهر وأسروا، حتى أجلوهم عن المدينة وعمّا اتصل بها، وكان مقدار العمارة بها برسخًا، وحوى الموفّق ذلك كلّه، وأفلت سليمان بن جامع ونفر من أصحابه، وكثر القتل فيهم والأسر، واستنقذ أبو أحمد من نساء أهل واسط والكوفة والقرى وصبيانهم أكثر من عشرة آلاف، فأمر بحملهم إلى واسط ودفعهم إلى أهليهم، وأخذ ما كان فيها من الذخائر والأموال، وأمر بصرف ذلك إلى الأجناد، وأسر عدّة من نساء سليمان وأولاده، وتخلص من كان أُخذ من أصحاب الموفّق، ولجأ جمع كثير إلى الآجام فأمر أصحابه بطلبهم، وأقام سبعة عشر يومًا، وهدم سور المدينة وطمّ خنادقها، وجعل لكل من أتاه برجل منهم جُعْلاً[1]، فكان إذا أُتي بالواحد منهم عفا عنه وضمّه إلى قوّاده وغلمانه، لما كان دبّره من استمالتهم، وأرسل في طلب سليمان بن جامع حتى بلغوا دجلة العوراء فلم يظفروا به، وأمر زِيرَك بالمقام بطهيثا ليتراجع أهل تلك الناحية إليها.

ذكر مسير الموفق إلى الأهواز وإجلاء الزنج عنها

قال: ولما فرغ أبو أحمد الموفّق من المنصورة رحل نحو الأهواز لإصلاحها وإجلاء الزنج عنها، فأمر ابنه أبا العبّاس أن يتقدّمه، وأمر بإصلاح الطرق للجيوش، واستخلف على من ترك من عسكره بواسط ابنه هارون، ولحقه زِيرك فأخبره بعود أهل

---

(١) الجعل: ما جعل على العمل من أجر أو رشوة.

طهيثا إليها وأمّن الناس، فأمره الموفّق بالانحدار في الشذا والسميريّات مع نصير، ليتتبّع المنهزمين ويوقع بهم وبمن ظفروا به من الزنج، حتى ينتهي إلى مدينة صاحب الزنج بنهر أبي الخصيب، فسارا وارتحل الموفّق في مستهل جُمادى الآخرة من واسط حتى أتى السوس، وأمر مسرورًا بالقدوم عليه، وهو عامله هناك فأتاه، وكان صاحب الزنج ـ لما بلغه ما عمل الموفّق بسليمان بن جامع ـ خاف أن يأتيه، وهو على حال تفرّق أصحابه عنه، فكتب إلى عليّ بن أبان بالقدوم عليه، وكان بالأهواز في ثلاثين ألفًا، فترك جميع ما كان عنده من طعام ودوابّ وأغنام وغير ذلك، واستخلف عليه محمد بن يحيى الكَرْنَبَائِيّ، فلَم يُقم ولا تبع عليًا، وكتب صاحب الزنج أيضًا إلى بهبوذ بن عبد الوهاب، وهو بالفَنْدَم(١) والبَاسِيَان وما اتصل بهما، يأمره بالقدوم عليه، فترك ما كان عنده من الذخائر وسار نحوه، فحوى ذلك جميعه الموفّق وقوي به على حرب صاحب الزنج.

قال: ولما سار علي بن أبان عن الأهواز تخلف بها جمع من أصحابه زهاء ألف رجل، فأرسلوا إلى الموفّق يطلبون الأمان فأمّنهم، فقدموا عليه فأجرى عليهم الأرزاق، ثم رحل عن السوس إلى جُنْدَيْسَابور وتُسْتَر وجبا الأموال، ووجّه إلى محمد بن عُبيد الله الكردي ـ وكان خائفًا منه ـ فأمّنه وعفا عنه وطلب منه الأموال والعساكر، فحضر عنده فأحسن إليه، ثم رحل إلى عسكر مُكْرَم ووافى الأهواز، ثم رحل عنها إلى نهر المُبَارك من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون أن يوافيه بجميع الجيش إلى نهر المبارك، فلقيه هناك في منتصف شهر رجب، وكان زِيرَك ونصير ـ لما خلَفهما الموفّق ليتتبّعا الزنج ـ انحدرا حتى وافيا الأُبُلّة، فاستأمن إليهما رجل أخبرهما: أن صاحب الزنج قد أرسل إليهما عددًا كثيرًا في الشذا والسميريّات إلى دجلة، ليمنع عنها من يريدها، وأنهم يريدون عسكر نصير ـ وكان عسكره بنهر المرأة(٢)، فرجع نصير من الأبلّة إلى عسكره لما بلغه ذلك، وسار زيرك من طريق آخر، لأنه قدّر أن الزنج تأتي عسكر نصير من ذلك الوجه، فكان كذلك فلقيهم في طريقه فظفر بهم وانهزموا منه، وكانوا قد جعلوا كمينًا فدُلّ زيرك عليه، فتوغّل حتى أتاه، فقتل من الكمناء جماعة وأسر جماعة، وكان ممّن ظفر به مقدّم الزنج، وهو أبو عيسى محمد بن

(١) الفندم: موضع بالأهواز، يقول ياقوت: لا أدري ما هو، من كتاب نصر.

(٢) نهر المرأة: بالبصرة، حفره أردشير الأصغر؛ واسم المرأة طماهيج؛ كانت طماهيج هي التي صالحت خالد بن الوليد، عند نزول البصرة، من رأس الفهرج إلى نهر المرأة، على عشرة آلاف درهم... (معجم البلدان لياقوت).

إبراهيم البصري، وهو من أكابر قوادهم، وأخذ منهم ما يزيد على ثلاثين سميرية، فجزع لذلك جميع الزنج، فاستأمن إلى نصير منهم زهاء ألفي رجل، فكتب بذلك إلى الموفّق، فأمره بقبولهم والإقبال إليه بالنهر المبارك، فوافاه هنالك؛ وأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى محاربة صاحب الزنج بنهر أبي الخصيب، فسار إليه فحاربه من بكرة النهار إلى الظهر، واستأمن إليه قائد من قوّاد الزنج ومعه جماعة، فكسر ذلك صاحب الزنج، وعاد أبو العبّاس بالظفر، وكتب الموفّق إلى صاحب الزنج يدعوه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وخراب البلدان واستباحة الفروج والأموال وادعاء النبوّة والرسالة، ويبذل له الأمان، فوصل الكتاب إليه فقرأه ولم يكتب جوابه.

ذكر محاصرة مدينة صاحب الزنج
وهي المدينة التي سمّاها المختارة

قال: ولما أنفذ الموفّق الكتاب إلى صاحب الزنج ولم يرد جوابه، عرض عسكره وأصلح آلاته ورتّب قوّاده، ثم سار هو وابنه أبو العبّاس في العشرين من شهر رجب سنة سبع وستين إلى مدينة صاحب الزنج، فلما أشرف عليها وتأمّلها ورأى حصانتها بالأسوار والخنادق ووعور الطريق إليها وما أعدّ من المجانيق والعرّادات والقسي وسائر الآلات على سورها مما لم ير مثله ممّن تقدّم من منازعي السلطان، ورأى من كثرة عدد المقاتلة ما استعظمه، فلما عاين الزنج أصحاب الموفّق ارتفعت أصواتهم حتى ارتجّت الأرض، فأمر الموفّق ابنه بالتقدّم إلى سور المدينة ورمى مَنْ عليه بالسهام، فتقدّم حتى ألصق شذاواته بقصر صاحب الزنج، فكثر الزنج وأصحابهم على أبي العبّاس، وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم ومقاليعهم، ورمى عوامّهم بالحجارة عن أيديهم، حتى ما يقع الطرف إلا على سهم أو حجر، وثبت أبو العبّاس، فرأى صاحب الزنج من ثباته وثبات أصحابه ما لا رأى مثله من أحد ممّن حاربهم، ثم أمرهم الموفّق بالرجوع ففعلوا، واستأمن إلى الموفّق مقاتلة من سمارتين فأمّنهم، وخلع على من فيها من المقاتلة والملاحين على أقدارهم ووصلهم، وأمر بإدنائهم إلى موضع يراهم فيه نظراؤهم، فكان ذلك من أنجع المكائد، فلما رأوهم الباقون رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه وابتدروا إليه، فصار إلى الموفّق في ذلك اليوم عدد كثير من أصحاب السميريّات فعمّهم بالخلع والصلات، فلما رأى صاحب الزنج ذلك أمر بردّ أصحاب السميريّات إلى نهر أبي الخصيب، ووكل بفوّهة النهر من

يمنعهم من الخروج، وأمر بهبوذ ـ وهو من أشرّ قوّاده: أن يخرج في الشذاوات، فخرج فبرز إليه أبو العبّاس في شذاواته وقاتله، واشتدت الحرب فانهزم بهبوذ إلى فناء قصر صاحب الزنج، وأصابته طعنتان وجرح بالسهام، فولج نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت، وقُتل ممّن كان معه قائد ذو بأس ـ يقال له عُميرة، وظفر أبو العبّاس بشذاة فقتل أهلها، ورجع هو ومن معه سالمين، واستأمن إلى أبي العباس أهل شذاة فأمّنهم وأحسن إليهم وخلع عليهم، ورجع الموفّق ومن معه إلى عسكره بالنهر المبارك، واستأمن إليه عند منصرفه خلق كثير، فأمّنهم وخلع عليهم ووصلهم وأثبت أسماءهم مع أبي العبّاس، وأقام في عسكره يومين ثم نقل عسكره لست ليال بقين من شهر رجب إلى نهر جَطَّى[1] فنزله، وقام به إلى منتصف شعبان لم يقاتل.

ثم ركب في منتصف شعبان في الخيل والرَّجْل وأعدّ الشذاوات والسميريّات، وكان معه من الجند والمطَوعة زهاء خمسين ألفًا، وكان مع صاحب الزنج أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان، كلهم ممّن يقاتل بسيف أو رمح أو مقلاع أو منجنيق، وأضعفهم رماة الحجارة من أيديهم وهم النظَارة، والنساء تشركهم في ذلك، فأقام أبو أحمد ذلك اليوم، ونودي بالأمان للناس كافّة إلا صاحب الزنج، وكُتب الأمان في رقاع ورميت في السهام، ووعد فيها الإحسان، فمالت قلوب أصحاب صاحب الزنج فاستأمن من ذلك اليوم خلق كثير، فخلع عليهم ووصلهم، ولم يكن ذلك اليوم حرب.

ثم رحل من نهر جَطَّى من الغد فعسكر قرب مدينة صاحب الزنج، ورتّب قوّاده وأجناده وعيّن لكل طائفة موضعًا يحافظون عليه ويضبطونه، وكتب الموفّق إلى البلاد في عمل السميريّات والشذاوات والزواريق والإكثار منها، ليضبط بها الأنهار لتنقطع الميرة عن صاحب الزنج وأسّس في منزلته مدينة سمّاها الموفّقيّة، وكتب إلى عمّاله في النواحي بحمل الأموال والميرة في البر والبحر إلى مدينته، وأمرهم بإنفاذ من يصلح للإثبات في الديوان، وأقام ينتظر ذلك شهرًا، فوردت عليه الميرة متتابعة، وجهّز التجار صنوف التجارات إلى الموفّقيّة، واتخذت فيها الأسواق، ووردتها مراكب البحر، وبنى الموفّق بها المسجد الجامع وأمر الناس بالصلاة فيه، فجمعت هذه المدينة من المرافق وسيق إليها من صنوف الأشياء ما لم يكن في مصر من الأمصار القديمة، وحُملت الأموال وأُدرّت الأرزاق.

---

(١) نهر جطّى: بفتح الجيم وتشديد الطاء، والقصر: نهر بالبصرة عليه قرى ونخل كثير، وهو من نواحي شرقي دجلة.

قال: وعبرت طائفة من الزنج فنهبوا أطراف عسكر نصير وأوقعوا به، فأمر الموفّق نصيرًا بجمع عسكره وضبطهم، وأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى طائفة من الزنج كانوا خارج المدينة، فقاتلهم فقتل منهم خلقًا كثيرًا وغنم ما كان معهم، فصار إليه طائفة منهم بالأمان، فخلع عليهم وأمّنهم ووصلهم، وأقام أبو أحمد يكايد صاحب الزنج، يبذل الأمان لمن صار إليه، ومحاصرة الباقين والتضييق عليهم، وكانت قافلة قد أتت من الأهواز فأسرى إليها بهبوذ في سميريات، فأخذها فعظم ذلك على الموفّق، وغرم لأهلها ما أخذ منهم، وأمر بترتيب الشذاوات على مخارج الأنهار، وقلّد ابنه أبا العبّاس الشذاوات وحفظ الأنهار بها من البحر إلى المكان الذي هم به. قال: وفي شهر رمضان من السنة عبرت طائفة من الزنج يريدون الإيقاع بنصير، فردّهم الله خائبين، وظفروا بصَنْدَل الزنجي، وكان يكشف رؤوس المسلمات ويقلبهن تقليب الإماء، فلما أتي به أمر الموفّق أن يرمى بالسهام ثم قتله، واستأمن إلى الموفّق من الزنج خلق كثير، فبلغت عدة من استأمن إليه إلى آخر شهر رمضان خمسين ألفًا؛ وفي شوّال انتخب صاحب الزنج من عسكره خمسة آلاف من الشجعان والقوّاد، وأمر علي بن أبان المهلبيّ بالعبور لكبس عسكر الموفّق، وكان فيهم أكثر من مائتي قائد، فعبرا ليلاً واختفوا في آخر النخل، وأمرهم: أنّه إذا ظهر أصحابهم وقاتلوا الموفّق من بين يديه ظهروا وحملوا على عسكره، وهم غارون مشاغيل بحرب مَنْ أمامهم، فاستأمن منهم إنسان من الملاّحين فأخبر الموفّق، فسيّر ابنه أبا العبّاس لقتالهم وضبط الطرق التي يسلكونها، فقاتلوا قتالاً شديدًا، وأسر أكثرهم، وغرق منهم خلق كثير، وقُتل بعضهم ونجا بعضهم، فأمر أبو العبّاس أن تحمل الأسرى والرؤوس في السميريات، ويعبر بهم على مدينة صاحب الزنج، ففعلوا ذلك، وبلغ الموفّق أنّ صاحب الزنج قال لأصحابه: إن الأسرى والرؤوس من المستأمنة، فأمر بإلقاء الرؤوس إليهم في منجنيق، فلما رأوها عرفوها فأظهروا الجزع والبكاء، وظهر لهم كذب صاحبهم.

وفيها أمر صاحب الزنج باتخاذ شذاوات فعملت له، فكانت خمسين شذاة فقسمها بين ثلاثة من قوّاده، وأمرهم بالتعرض لعسكر الموفّق، وكانت شذاوات الموفّق يومئذ قليلة، لأنّه لم يصل إليه ما أمر بعمله، والتي كانت عنده منها فرّقها على أفواه الأنهار، ليقطع الميرة عن صاحب الزنج، فخافهم أصحاب الموفّق فورد عليهم الشذاوات التي كان الموفّق أمر بعملها، فسيّر ابنه أبا العباس يوردها خوفًا عليها من الزنج، فلما أقبل بها رآها الزنج فعارضوها بشذاواتهم، فقصد غلام لأبي العبّاس

منعهم وقاتلهم، فانكشفوا بين يديه وتبعهم حتى أدخلهم نهر أبي الخصيب، وانقطع عن أصحابه فعطفوا عليه فأخذوه ومن معه بعد حرب شديدة، فقتلوا وسلمت الشذاوات التي مع أبي العبّاس، وأصلحها ورتّب فيها من يقاتل، ثم أقبلت شذاوات صاحب الزنج على عادتها، فخرج إليهم أبو العبّاس في أصحابه، فقاتلهم فهزمهم وظفر منهم بعدّة شذاوات، فقتل منهم من ظفر به فيها، فمنع صاحب الزنج أصحابه من الخروج عن فناء قصره، وقطع أبو العبّاس الميرة عن الزنج فاشتد جزع الزنج، وطلب جماعة من وجوه أصحاب صاحب الزنج الأمان فأمّنوا؛ وكان منهم محمد بن الحارث العَمّي، وكان إليه ضبط السور مما يلي عسكر الموفق، فخرج ليلاً فأمّنه الموفّق ووصله بصلات كثيرة له ولمن خرج معه، وحمله على عدّة دواب بآلاتها وحليتها، وأراد إخراج زوجته فلم يقدر، وأخذها صاحب الزنج فباعها؛ ومنهم أحمد البرذعي، وكان من أشجع رجال صاحب الزنج، فخلع عليه وعلى غيره ممّن أتاه ووصلهم بصلات كثيرة. قال: ولما انقطعت الميرة والمواد عن صاحب الزنج أمر شِبْلاً وأبا الندا وهما رؤساء قوّاده - وكان يثق بهم - بالخروج إلى البطيحة في عشرة آلاف من ثلاثة وجوه للغارة وقطع الميرة عن الموفّق، فسيّر الموفّق إليهم زيرك في جمع من أصحابه، فلقيهم بنهر ابن عمر فرأى كثرتهم فراعه ذلك، ثم استخار الله تعالى في قتالهم فحمل عليهم وقاتلهم، فقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم فانهزموا، فوضع فيهم السيف وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم مثل ذلك وأسر خلقًا كثيرًا، وأخذ من سفنهم ما أمكنه أخذه، وغرق منها ما غرق، وكان ما أخذه من سفنهم نحو أربعمائة سفينة، وأقبل بالأسرى والرؤوس إلى مدينة الموفّق.

ذكر عبور الموفق إلى مدينة صاحب الزنج وخروجه عنها وعوده إليها

قال: وفي ذي الحجّة سنة سبع وستين أيضًا عبر الموفّق مدينة صاحب الزنج لست بقين من الشهر، وكان سبب ذلك أنّ جماعة من قوّاد صاحب الزنج، لما رأوا ما حلّ بهم من البلاء، من قتل من يظهر منهم، وشدّة الحصار على من لزم المدينة، وحال من خرج بالأمان، جعلوا يهربون من كل وجه ويخرجون إلى الموفّق، فلما رأى ذلك صاحب الزنج جعل على الطريق التي يمكنهم الهرب منها من يحفظها، فأرسل جماعة من القوّاد إلى الموفّق يطلبون الأمان، وأن يوجّه لمحاربة صاحبهم جيشًا ليجدوا طريقًا إلى المصير إليه، فأمر ابنه أبا العبّاس بالمسير إلى النهر الغربي

ـ وبه عليّ بن أبان ـ ففعل، واشتدت الحرب فاستظهر أبو العباس على الزنج، فأمّدهم صاحبهم بسليمان بن جامع في جمع، واتصلت الحرب من أوّل النهار إلى العصر، وكان الظفر لأبي العبّاس وصار إليه القوم الذين كانوا طلبوا الأمان منه، واجتاز أبو العبّاس بمدينة صاحب الزنج عند نهر الأتراك، فرأى قلّة الزنج هناك، فطمع فيهم فقصدهم وقد انصرف أكثر أصحابه إلى الموفقيّة، فدخل البلد بمن بقي معه، وندب صاحب الزنج أصحابه لحربهم، فلما رأى أبو العباس اجتماعهم وقلّة أصحابه رجع، وأرسل إلى أبيه الموفّق يستمدّه فأتاه من خفّ من الغلمان وظهروا على الزنج وهزموهم، وكان سليمان بن جامع لما رأى ظهور أبي العبّاس سار في النهر مصعدًا في جمع كثير فأتى أصحاب أبي العبّاس من خلفهم وهم يحاربون من بإزائهم، وخفقت طبوله فانكشف أصحاب أبي العبّاس، ورجع عليهم من كان انهزم عنهم من الزنج، فأصيب جماعة من غلمان الموفّق، وأخذ الزنج عدة أعلام وحامى أبو العبّاس عن أصحابه فسلم أكثرهم ثم انصرف وطمع الزنج بهذه الوقعة وشدّت قلوبهم، فأجمع الموفّق على العبور إلى مدينتهم بجميع جيوشه، وأمر الناس بالتأهّب وجمع المعابر والسفن وفرّقها عليهم، ودخل يوم الأربعاء لست بقين من الشهر، وفرّق أصحابه على المدينة ليضطر صاحبها إلى تفرقة أصحابه، وقصد الموفّق إلى ركن من أركان المدينة وهو أحصن ما فيها، وقد أنزله صاحب الزنج ابنه انكلاي وسليمان بن جامع وعليّ بن أبان، وعليه من المجانيق وآلات القتال ما لا يحدّ، فلما التقى الجمعان أمر الموفّق غلمانه بالدنوّ منه، وبينهم وبين ذلك السور نهر الأتراك، وهو نهر عريض كثير الماء فأحجموا عنه، فصاح بهم الموفّق وحرّضهم على العبور، فعبروا سباحة والزنج ترميهم بالمجانيق والمقاليع والحجارة والسهام، فصبروا حتى جاوزوا النهر وانتهوا إلى السور، ولم يكن معهم من الفعلة من كان أُعدّ لهدم السور، فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح، وسهّل الله تعالى ذلك وكان معهم بعض السلاليم، فصعدوا على ذلك إلى السور، ونصبوا علمًا من أعلام الموفّق، فانهزم الزنج عنه وسلّموه بعد قتال شديد، وقُتل من الفريقين خلق كثير، ولما علا أصحاب الموفّق السور أحرقوا ما كان عليه من مجانيق وآلات وغير ذلك، وكان أبو العبّاس قصد ناحية أخرى، فمضى علي بن أبان لقتاله فهزمه أبو العبّاس وقتل جمعًا كثيرًا من أصحابه، ولحق أصحاب أبي العبّاس بالسور فثلموا فيه ثلمة، ودخلوه فلقيهم سليمان بن جامع فقاتلهم حتى ردّهم إلى مواضعهم، ثم إن الفعلة وافوا السور فهدموه في عدة مواضع، وعملوا على الخندق جسرًا فعبر الناس عليه من ناحية الموفّق، فانهزم الزنج عن سور ثان كانوا قد اعتصموا به، وجعل أصحاب الموفّق يقتلونهم

حتى انتهوا إلى نهر ابن سمعان، وقد صارت دار ابن سمعان في أيدي أصحاب الموفّق فأحرقوها، وقاتلهم الزنج هناك ثم انهزموا حتى بلغوا ميدان صاحبهم، فرجع في جمع من أصحابه فانهزم أصحابه عنه، وقرب منه بعض رجّالة الموفّق، فضرب وجه فرسه بترسه وذلك مع مغيب الشمس، فأمر الموفّق الناس بالرجوع فرجعوا، ومعهم من رؤوس أصحابه شيء كثير، وقد استأمن إلى أبي العباس أوّل النهار نفر من قوّاد صاحب الزنج، فتوقف عليهم حتى حملهم في السفن.

وأظلم الليل وهبّت ريح عاصف وقوي الجزر، فلصق أكثر السفن بالطين، فخرج جماعة من الزنج فنالوا من أصحابه، وقتلوا منهم نفرًا، وكان بهبوذ بإزاء مسرور البلخي فأوقع بأصحاب مسرور، وقتل منهم وأسر جماعة، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق، وكان بعض أصحاب صاحب الزنج قد انهزم على وجهه نحو نهر الأمير[١] وعبّادان، وهرب جماعة من الأعراب إلى البصرة، فأرسلوا يطلبون الأمان فأمّنهم الموفّق، وخلع عليهم وأجرى عليهم الأرزاق، وكان ممّن رغب في الأمان من قوّاده رَيْحان بن صالح المغربي ـ وكان من رؤساء أصحابه، فأرسل يطلب الأمان وأن يرسل جماعة إلى مكان ذكره ليخرج إليهم، ففعل الموفّق فصار إليه فخلع عليه وأحسن إليه ووصله، ثم ضمّه إلى أبي العبّاس، ثم استأمن بعده جماعة من أصحابه، وكان خروج ريحان إليه لليلة بقيت من ذي الحجّة من هذه السنة.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين في المحرّم خرج إلى الموفق من قوّاد صاحب الزنج جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجّان، وكان من ثقات أصحابه فارتاع لذلك، وخلع عليه الموفق وأحسن إليه، وحمله في سميرية إلى إزاء قصر صاحبه، وأخبرهم أنّهم في غرور وأعلمهم بما وقف عليه من كذب الخبيث وفجوره، فاستأمن في ذلك اليوم خلق كثير من قوّاد الزنج وغيرهم، فأحسن إليهم الموفّق وتتابع الناس في طلب الأمان، ثم أقام الموفّق لا يحارب ليريح أصحابه إلى شهر ربيع الآخر من السنة.

فلما انتصف الشهر قصد الموفّق مدينة الزنج، وفرّق قوّاده على جهاتها، وجعل مع كل طائفة منهم من النقّابين جماعة لهدم السور، وتقدّم إلى جميعهم ألا يزيدوا على هدم السور ولا يدخلوا المدينة، وتقدّم إلى الرماة أن يحموا بالسهام من يهدم

(١) نهر الأمير: بواسط.. ونهر الأمير أيضًا: بالبصرة حفره المنصور ثم وهبه لابنه جعفر، فكان يقال نهر أمير المؤمنين ثم نهر الأمير.

السور وينقبه، فتقدموا إلى المدينة من سائر جهاتها، ووصلوا إلى السور وثلموه في مواضع كثيرة، ودخل أصحاب الموفّق المدينة من تلك الثلم، وجاء أصحاب صاحب الزنج فقاتلوهم فهزمهم أصحاب الموفّق، وتبعوهم حتى أوغلوا في طلبهم، واختلفت بهم طرق المدينة، فبلغوا أبعد من الموضع الذي وصلوا إليه في المرّة الأولى وأحرقوا وأسروا، وتراجع الزنج عليهم وخرج الكمناء من مواضع يعرفونها ويجهلها أصحاب الموفّق، فتحيّروا ودافعوا عن أنفسهم وتراجعوا نحو دجلة، بعد أن قتل منهم جماعة وأخذ الزنج أسلابهم، ورجع الموفّق إلى مدينته وأمر بجمع أصحابه، ولامهم على مخالفته في دخولهم وإفساد رأيه وتدبيره، وأمر بإحصاء مَنْ فُقد من أصحابه، وأقر ما كان لهم من الرزق على أولادهم وأهليهم، فحسن موقع ذلك عندهم، وزاد في صحة نيّاتهم وصدق عزائمهم.

ذكر إيقاع أبي العباس بن الموفق بالأعراب وانقطاع الميرة عن الزنج ومقتل بهبوذ بن عبد الوهاب

وفي سنة ثمان وستين ومائتين أوقع أبو العبّاس أحمد بن الموفّق، وهو المعتضد بالله بقوم من الأعراب، كانوا يحملون الميرة إلى الزنج فقتل منهم جماعة وأسر الباقين وغنم ما كان معهم، وأرسل إلى البصرة من أقام بها لأجل قطع الميرة، وسيّر الموفّق رشيقًا مولى أبي العبّاس، فأوقع بقوم من بني تميم كانوا يجلبون الميرة إلى صاحب الزنج، فقتل أكثرهم وأسر جماعة منهم، فحمل الأسرى والرؤوس إلى الموفقيّة، فأمر بهم الموفّق فوقفوا بإزاء عسكر الزنج، وكان فيهم رجل يسفر بين صاحب الزنج والأعراب، فقطعت يده ورجله وألقي في عسكر الزنج، وأمر بضرب أعناق الأسرى فانقطعت الميرة بذلك عن صاحب الزنج، فأضرّ بهم الحصار وأضعف أبدانهم، فكان يسأل الأسير والمستأمن عن عهده بالخبز فيقول: عهدي به منذ زمان طويل، فلما وصلوا إلى هذه الحال رأى الموفّق أن يتابع عليهم الحرب، ليزيدهم ضرًّا وجهدًا، فكثر المستأمنون في هذا الوقت، وخرج كثير من أصحاب الخبيث فتفرّقوا في القرى والأنهار البعيدة في طلب القوت، فبلغ ذلك الموفّق فأمر جماعة من قوّاد غلمانه بقصد تلك المواضع، ويدعون من بها إليه فمن أبى قتلوه، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وأتاه كثير منهم، فلما كثر المستأمنون عند الموفّق عرضهم، فمن كان ذا قوّة وجَلَد أحسن إليه وخلطه بغلمانه، ومن كان منهم ضعيفًا أو شيخًا أو جريحًا قد أزمنته[1] الجراحة كساه

(١) زمن: مرض مرضًا يدوم زمانًا طويلاً.

وأعطاه دراهم، وأمر به أن يُحمل إلى عسكر صاحب الزنج، فيذكر ما رأى من الإحسان، فتهيأ له بذلك ما أراد من استمالة أصحاب الخبيث، وجعل الموفّق وابنه أبو العبّاس يلازمان قتال صاحب الزنج ـ تارة هذا وتارة هذا ـ وجرح أبو العبّاس ثم برىء، وكان من جملة من قتل من أعيان قوّاد صاحب الزنج بهبوذ بن عبد الوهاب، وكان كثير الخروج في السميريّات، وكان ينصب عليها أعلامًا تشبه أعلام الموفّق، فإذا رأى من يستضعفه أخذه، فأخذ من ذلك مالاً جزيلاً، فواقعه في بعض خرجاته أبو العباس، فأفلت بعد أن أشفى على الهلاك، ثم خرج مرّة أخرى فرأى سميريّة، فيها بعض أصحاب أبي العباس فقصدها طامعًا في أخذها، فحاربه أهلها فطعنه غلام من غلمان أبي العبّاس في بطنه، فسقط في الماء فأخذه أصحابه فحملوه إلى عسكر صاحبه، فمات قبل وصوله وكان قتله من أعظم الفتوح، وعظمت الفجيعة على صاحب الزنج وأصحابه، فاشتد جزعهم عليه، وأحسن الموفّق إلى ذلك الغلام فوصله وكساه وطوّقه وزاد في رزقه، وفعل بكل من كان معه في تلك السميريّة نحو ذلك، ثم ظفر بالذوائبي وكان ممايلاً لصاحب الزنج.

وفي سنة تسع وستين ومائتين رُمي الموفّق بسهم في صدره، وكان سبب ذلك أنّ بهبوذ لما هلك طمع صاحب الزنج في أخذ أمواله، وكان قد صحّ عنده أن ملكه قد حوى مائتي ألف دينار وجواهر وفضّة، فطلب ذلك وأخذ أهله وأصحابه فضربهم، وهدم أبنيته طمعًا في المال فلم يجد شيئًا، فكان فعله مما أفسد قلوب أصحابه عليه، ودعاهم إلى الهرب منه، فأمر الموفّق بالنداء بالأمان في أصحاب بهبوذ، فسارعوا إليه فألحقهم في العطاء بمن تقدّم، ورأى الموفّق ما كان يتعذّر عليه من العبور إلى الزنج، في الأوقات التي تهب فيها الرياح لتحرّك الأمواج، فعزم على أن يوسّع لنفسه ولأصحابه موضعًا في الجانب الغربي، فأمر بقطع النخل وإصلاح المكان، وأن تعمل له الخنادق والسور ليأمن البيات، فعلم صاحب الزنج أنّ الموفّق إذا جاوره قرجب على من يريد اللحاق به المسافة، مع ما يدخل قلوب أصحابه من الخوف وانتقاض تدبيره عليه فاهتمّ بمنع الموفّق من ذلك وبذل الجهد فيه وقاتل أشد القتال، فاتفق أن الريح عصفت في بعض تلك الأيام وقائد من القواد هناك، فانتهز صاحب الزنج الفرصة في انفراد هذا القائد وانقطاع المدد عنه فسيّر إليه جميع أصحابه فقاتلوه فهزموه، وقتلوا كثيرًا من أصحابه ولم يجد الشذاوات التي لأصحاب الموفق سبيلاً إلى القرب منهم، خوفًا من الزنج أن تلقيها على الحجارة فتنكسر، فغلب الزنج عليهم وأكثروا القتل والأسر، ومن سلم منهم ألقى نفسه في الشذاوات وعبروا إلى الموفقيّة فعظم ذلك على الناس، ونظر الموفّق فرأى أنّ نزوله بالجانب الغربي لا يأمن معه

حيلة الزنج وصاحبهم وانتهاز فرصة لكثرة الأدغال وصعوبة المسالك، وأنّ الزنج أعرف بتلك المضائق وأجرأ عليها من أصحابه، فترك ذلك وجعل قصده إلى هدم سور صاحب الزنج وتوسعة الطرق والمسالك، فأمر بهدم السور من ناحية النهر المعروف بمنكى، وباشر الحرب بنفسه واشتد القتال، وكثر القتل والجراح من الجانبين ودام ذلك أيامًا عدّة، وكان أصحاب الموفّق لا يستطيعون الولوج لقنطرتين كانتا على نهر منكى، وكان الزنج يعبرون عليها وقت القتال، فيأتون أصحاب الموفّق من وراء ظهورهم فينالون منهم، فأعمل الحيلة في إزالتهما، فأمر أصحابه بقصدهما عند اشتغال الزنج وغفلتهم عن حراستهما، وأمرهم أن يعدّوا الفؤوس والمناشير وما يحتاجون إليه من الآلات، فقصدوا القنطرة الأُولى نصف النهار فأتاهم الزنج لمنعهم، فاقتتلوا فانهزم الزنج، وكان مقدّمهم أبا النداء فأصابه سهم في صدره فقتله، وقطع أصحاب الموفّق القنطرتين ورجعوا، وألحّ الموفّق على صاحب الزنج بالحرب، وهدم أصحابه من السور ما أمكنهم، ودخلوا المدينة وقاتلوا فيها، وانتهوا إلى دار ابن سمعان وسليمان بن جامع فهدموهما، ونهبوا ما فيهما، وانتهوا إلى سويقة لصاحب الزنج سمّاها الميمونة، فهُدمت وأُخربت وهدموا دار الجبّائي وانتهبوا ما كان فيها من الخزائن، وتقدّموا إلى الجامع ليهدموه فاشتد محاماة الزنج عنه، فلم يصل إليه أصحاب الموفّق، لأنّه كان قد خلص مع صاحب الزنج نخبة أصحابه وأرباب البصائر، فكان أحدهم إذا قتل أو جرح اجتذبه الذي إلى جنبه ووقف مكانه، فلما رأى الموفّق ذلك أمر أبا العبّاس بقصد الجامع من أحد أركانه بشجعان أصحابه، وأضاف إليهم الفعول للهدم ونصب السلاليم ففعل ذلك، وقاتل عليه أشد قتال فوصلوا إليه فهدموه، وأخذ منبره فأُتي به الموفّق، ثم عاد الموفّق لهدم السور فأكثر منه، وأخذ أصحابه دواوين صاحب الزنج وبعض خزانته، فظهر للموفّق أمارات الفتح، فإنهم لعلى ذلك إذ وصل سهم إلى الموفّق فأصابه في صدره رماه به رومي كان مع صاحب الزنج اسمه قرطاس وذلك لخمس بقين من جُمادى الأولى، فستر الموفّق ذلك وعاد إلى مدينته فبات، ثم عاود الحرب على ما به من ألم الجراح، ليشدّ بذلك قلوب أصحابه فزاد في علّته، وعظم أمرها حتى خليف عليه، واضطرب العسكر والرعيّة وخافوا وأشار عليه بعض أصحابه وثقاته بالعود إلى بغداد، ويخلف من يقوم مقامه فأبى ذلك، وخاف أن يستقيم من حال صاحب الزنج ما فسد، واحتجب عن الناس مدّة ثم برىء من علّته، وظهر لهم ونهض لحرب صاحب الزنج وكان ظهوره في شعبان من هذه السنة.

ذكر إحراق قصر صاحب الزنج
وما يتصل بذلك من الحروب والوقائع

قال: ولما صحّ الموفّق من جراحه عاد إلى ما كان عليه من حرب صاحب الزنج، وكان قد أعاد بعض الثلم في السور، فأمر الموفّق بهدم ذلك وهدم ما يتصل به وركب في بعض العشايا[١]، وكان القتال متصلاً ذلك اليوم مما يلي نهر مُنْكي، والزنج مجتمعون فيه قد شغلوا أنفسهم بتلك الجهة، وظنوا أنّهم يؤتون إلا منها، فأتى الموفّق ومعه الفعلة وقرب من نهر مُنْكِي وقاتلهم، فلما اشتدت الحرب أمر الذين في الشذاوات بالمصير إلى أسفل نهر أبي الخصيب، وهو خال من المقاتلة والرجال، فتقدّم أصحاب الموفّق وأخرجوا الفعلة فهدموا السور من تلك الناحية، وصعد المقاتلة فقتلوا في النهر مقتلة عظيمة، وانتهوا إلى قصور من قصور صاحب الزنج فأحرقوها وانتهبوا ما فيها واستنقذوا عددًا كثيرًا من النساء اللاتي كنّ فيها، وغنموا منها، وانصرف الموفّق عند غروب الشمس بالظفر والسلامة، وبكّر إلى حربهم وهدم السور، فأسرع الهدم حتى اتصل بدار انكلاي، وهي متصلة بدار صاحب الزنج، فلما أعيت صاحب الزنج الحيل أشار عليه علي بن أبان بإجراء الماء على السباخ، وأن يحفر خنادق في مواضع عدة تمنعهم من دخول المدينة ففعل ذلك، فرأى الموفّق أن يجعل قصده طمّ الخنادق والأنهار والمواضع المُعَوَّرَة ففعل ذلك، وحامى الزنج عنه ودامت الحرب، ووصل إلى الفريقين من القتل والجراح أمر عظيم، وذلك لتقارب ما بين الفريقين، فلما رأى شدّة الأمر من هذه الناحية قصد إحراق دار صاحب الزنج والهجوم عليها من دجلة، فكان يعوقه عن ذلك كثرة ما أعدّ لها من المقاتلة والحماة عن داره، فكانت الشذاوات إذا قربت من قصره رُميت من فوق القصر بالسهام والحجارة والمجانيق والمقاليع، وأُذيب الرصاص وأُفرغ عليهم فتعذّر إحراقها لذلك، فأمر الموفّق أن يسقف الشذا بالأخشاب، ويعمل عليها الخيش وتطلى بالأدوية التي تمنع النار من إحراقها ففعل ذلك، ورتّب فيها أنجاد أصحابه وجمعًا من النفَاطين[٢].

واستأمن إلى الموفّق محمد بن سمعان كاتب صاحب الزنج، وكان أوثق أصحابه في نفسه، وكان سبب استئمانه أنّ صاحب الزنج أطلعه على أنّه عازم على الخلاص

---

(١) العشايا: جمع العشي: وهو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب؛ أو من صلاة المغرب إلى العتمة.

(٢) النفاطين: جمع النفاط، وهو الذي يرمي بالنفط.

وحده بغير أهل ولا مال، فلما رأى ذلك من عزمه أرسل يطلب الأمان، فأمّنه الموفّق وأحسن إليه؛ وقيل كان سبب خروجه أنّه كان كارهًا لصحبة صاحب الزنج، مطّلعًا على كفره وسوء باطنه، ولم يمكنه التخلّص منه إلى الآن، ففارقه في عاشر شعبان.

فلمّا كان الغد بكّر الموفّق لمحاربة الزنج، وأمر أبا العبّاس بقصد دار محمد الكَرَنْبَائِي - وهي بإزاء دار صاحب الزنج - وإحراقها وما يليها من منازل قوّاد الزنج، يشغلهم بذلك عن حماية دار صاحبهم وأمر المرتّبين في الشذاوات المطليّة بقصد دار صاحب الزنج وإحراقها ففعلوا ذلك، وألصقوا شذاواتهم بسور قصره، وحاربوهم أشد حرب فنضحهم الزنج بالنيران فلم تعمل شيئًا، وأُحرق من القصر الرواشن[1] والأبنية الخارجة وعملت النار فيها، وسلم الذين كانوا في الشذا مما كان الزنج يرسلونه عليهم، وأمر الموفّق الذين في الشذا بالرجوع فرجعوا، فأخرج من كان فيها ورتّب غيرهم، وانتظر إقبال المدّ وعلوّه فلما أقبل عادت الشذا إلى قصره، وأحرقوا بيوتًا منه كانت تشرع على دجلة، واضطرمت النار فيها وقويت واتصلت، فأعجلت صاحب الزنج ومن كان معه عن التوقف على ما كان فيها من الأموال والذخائر وغير ذلك، فخرج هاربًا وتركه، وعلا غلمان الموفّق قصره مع أصحابهم فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الذهب والفضّة والحليّ وغير ذلك، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان صاحب الزنج يأنس بهن من اللواتي كان استرقهنّ، ودخلوا دوره ودور ابنه انكلاي فأحرقوها جميعًا، وفرح الناس بذلك وتحاربوا، هم وأصحاب صاحب الزنج على باب قصره، فكثر القتل في أصحابه والجراح والأسر، وفعل أبو العبّاس في دار الكرنبائي من النهب والهدم والإحراق مثل ذلك، وقطع أبو العبّاس يومئذ سلسلة عظيمة كان صاحب الزنج قطع بها نهر أبي الخصيب، لتمتنع الشذا من دخوله، فحازها أبو العباس وأخذها معه، وعاد الموفّق بالناس مع المغرب مظفَرًا، وأصيب صاحب الزنج في نفسه وماله، وجرح ابنه انكلاي في بطنه جرحًا أشفى منه على الهلاك.

ذكرُ غرقِ نصير صَاحبِ الشّذَا

قال: وفي يوم الأحد لعشر بقين من شعبان غرق أبو حمزة نصير وهو صاحب الشذاوات، وكان سبب غرقه أن الموفّق بكّر إلى القتال وأمر نصيرًا بقصد قنطرة

(١) الروش: الرف؛ أو الكوة؛ أو الشرفة.

لصاحب الزنج، كان عملها في نهر أبي الخصيب دون الجسرين، اللذين كان اتخذهما على النهر، وفرّق أصحابه من الجهات، فعجّل نصير فدخل في أوّل المدّ في عدة من شذاواته، فحملها الماء فألصقها بالقنطرة، ودخلت عدّة من شذاوات الموفّق مع غلمانه، ولم يأمرهم بالدخول فضلّت شذاوات نصير ولم يبق للملاّحين فيها عمل، ورأى الزنج ذلك فاجتمعوا على جانبي النهر، وألقى الملاّحون أنفسهم في الماء خوفًا من الزنج، ودخل الزنج الشذاوات فقتلوا بعض المقاتلة، وغرق أكثرهم، وصابرهم نصير حتى خاف الأسر، فقذف بنفسه في الماء فغرق، وأقام الموفّق يومه ذلك يحاربهم وينهبهم ويحرق منازلهم، ولم يزل يومه مستعليًا عليهم، وكان سليمان بن جامع ذلك اليوم من أشد الناس قتالاً لأصحاب الموفّق، وثبت مكانه حتى خرج عليه كمين للموفّق فانهزم أصحابه، وجرح سليمان جراحة في ساقه، فسقط لوجهه في مكان كان به حريق وفيه بعض الجمر فاحترق بعض جسده، وحمله أصحابه بعد أن كاد يؤسر، وانصرف الموفّق سالمًا ظافرًا، وأصاب الموفّق مرض المفاصل فبقي به شعبان وشهر رمضان وأيامًا من شوّال، وأمسك عن حرب الزنج ثم برىء وتماثل، فأمر بإعداد آلة الحرب.

ذكرُ إحراقِ قَنْطَرةِ صَاحبِ الزنْج

قال: ولما اشتغل الموفّق بعلّته أعاد صاحب الزنج القنطرة التي غرق عندها نصير، وزاد فيها وأحكمها ونصب دونها أدقال[١] ساج، وألبسها الحديد وسكر أمامها سكرًا من حجارة، ليضيق المدخل على الشذا وتحتدّ جرية الماء في النهر، فندب الموفّق أصحابه، وندب طائفة من شرقيّ نهر أبي الخصيب وطائفة من غربيّه، وأرسل النجّارين والفعلة لقطع القنطرة وما جعل أمامها، وأمر بسفن مملوءة قصبًا أن يُصبّ عليها النفط، وتدخل النهر ويلقى فيها النار لتحرق الجسر، وفرّق جنده على أصحاب صاحب الزنج، ليمنعوهم من معاونة من عند القنطرة، فسار الناس إلى ما أمرهم به، وذلك في عاشر شوّال، وتقدّمت الطائفتان إلى الجسر فلقيهما انكلاي ابن صاحب الزنج وعليّ بن أبان وسليمان بن جامع، واشتبكت الحرب ودامت وحامى أولئك عن القنطرة، لعلمهم بما عليهم في قطعها من الضرر، ودامت الحرب على القنطرة إلى العصر، ثم إنّ غلمان الموفّق أزالوا الزنج عن القنطرة، وقطعها النجّارون ونقضوها وما كان عمل من الأدقال الساج، وكان قطعها قد تعذّر عليهم فأدخلوا تلك السفن

(١) أدقال: جمع دقل، وهو خشبة طويلة تشد وسط السفينة عليها الشراع؛ والمراد هنا الألواح.

التي فيها القصب والنفط وأضرموها نارًا، فوافت القنطرة فأحرقتها فوصل النجّارون بذلك إلى ما أرادوا، وأمكن أصحاب الشذا دخولهم النهر فدخلوا، وقتلوا الزنج حتى أجلوهم عن مواقفهم إلى الجسر الأوّل الذي يتلو هذه القنطرة، وقُتل من الزنج كثير واستأمن كثير، ووصل أصحاب الموفّق إلى الجسر وقت المغرب، فكره الموفّق أن يدركهم الليل فأمرهم بالرجوع، وأثاب المحسن على قدر إحسانه ليزدادوا جدًّا في حرب عدوّه، وأخرب من الغد برجين حجارة كانوا عملوهما، ليمنعوا الشذا من الخروج منه إذا دخلته، فلما أخربهما سهل له ما أراد من دخول النهر والخروج منه.

ذكر انتقال صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي وإحراق سوقه

قال: لم أُحرقت دور صاحب الزنج وقصوره ومنازل أصحابه، كما قدّمنا ذكر ذلك ـ ونُهبت أموالهم انتقلوا إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وجمع عياله حوله ونقل أسواقه، فضعف أمره بذلك ضعفًا شديدًا، ظهر للناس وامتنعوا من جلب الميرة إليه، فانقطعت عنه كل مادّة، وبلغ الرطل من خبز البُرّ[1] عشرة دراهم، فأكلوا الشعير وأصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر بهم إلى أن كان أحدهم يأكل صاحبه إذا انفرد به، والقوي يأكل الضعيف، ثم أكلوا أولادهم، ورأى الموفّق أن يخرب الجانب الشرقي كما أخرب الغربيّ، فأمر أصحابه بقصد دار الهمدانيّ ومعهم الفعلة، وكان هذا الموضع محصّنًا بجمع كثير، وعليه عرّادات ومنجنيقات وقسي، فاشتبكت الحرب وكثرت القتلى فانتصر أصحاب الموفّق عليهم وقتلوهم وهزموهم، وانتهوا إلى الدار فتعذر عليهم الصعود إليها لعلوّ سورها، فلم تبلغه السلاليم الطوال فرمى بعض غلمان الموفّق كلاليب معهم، فعلّقوها في أعلام صاحب الزنج وجذبوها فتساقطت الأعلام منكوسة، فلم تشك المقاتلة عن الدار في أنّ أصحاب الموفّق قد ملكوها، فانهزموا لا يلوي أحد منهم على صاحبه فأخذها أصحاب الموفّق وصعد النفَاطون فأحرقوها وما كان عليها من المجانيق والعرّادات، ونهبوا ما كان فيها من المتاع والأثاث، وأحرقوا ما كان حولها من الدور، واستنقذوا من كان فيها من النساء، وكنّ كثيرًا، فحملن إلى الموفقيّة وأمر الموفّق بالإحسان إليهن، واستأمن يومئذ من أصحاب صاحب الزنج وخاصّته الذين يلون خدمته جماعة كثيرة، فأمّنهم الموفّق وأحسن إليهم، ودلّ جماعةٌ

(١) البرّ: حب القمح.

من المستأمنة الموفّق على سوق عظيمة كانت لصاحب الزنج، متصلة بالجسر الأوّل تسمّى المباركة، وأعلموه أنّه إن أحرقها لم يبق لهم سوق غيرها، وخرج عنهم تجّارهم الذين بهم قواهم، فعزم الموفّق على إحراقها وأمر أصحابه بقصد السوق من جانبيها ففعلوا، وأقبلت الزنج إليهم فتحاربوا أشد حرب، واتصل أصحاب الموفّق إلى طرف من أطراف السوق وألقوا فيه النار فاحترق، واتصلت النار، وكان الناس يقتتلون والنار محيطة بهم، وسقطت على المقاتلة واحترق بعضهم، فكانت هذه حالهم إلى مغيب الشمس، ثم تحاجزوا[١] ورجع أصحاب الموفّق إلى عسكرهم، وانتقل تجّار السوق إلى أعلى المدينة، وكانوا قد نقلوا معظم أمتعتهم وأموالهم.

قال: ثم فعل صاحب الزنج بالجانب الشرقي من حفر الخنادق وتعوير[٢] الطرق مثل ما كان فعل بالجانب الغربيّ بعد هذه الوقعة، واحتفر خندقًا عظيمًا حصّن به منازل أصحابه التي على النهر الغربيّ، فرأى الموفّق أن يخرب باقي السور إلى النهر الغربيّ، ففعل ذلك بعد حرب طويلة في مدة بعيدة، وكان بالجانب الغربيّ جمع من الزنج قد تحصّنوا بسور منيع، وهم أشجع أصحابه، فكانوا يحامون عنه وكانوا يخرجون على أصحاب الموفّق عند محاربتهم، فأمر الموفّق أن يقصد هذا الموضع ويخرب سوره ويخرج من فيه، وأمر ابنه أبا العبّاس والقوّاد بالتأهُّب لذلك، وتقدّم إليهم وأمر أن تقرب الشذاوات من السور، ونشبت الحرب ودامت إلى بعد الظهر، وهدم في السور مواضع وأُحرق ما كان عليه من العرّادات، وتحاجز الفريقان وهما على السواء سوى هذا السور وإحراق عرّادات كانت عليه، ونال الفريقين من الجراح أمر عظيم، وعاد الموفّق فوصل الناس على قدر بلائهم، هكذا كان عمله في محاربته، وأقام الموفّق بعد هذه الوقعة أيامًا، ثم رأى معاودة هذا الموضع لما رأى من حصانته وشجاعة من فيه، وأنّه لا يقدر على ما يريد إلا بعد إزالته، فأعدّ الآلات ورتّب أصحابه وقصده، وقاتل مَنْ فيه وأدخلت الشذاوات النهر، واشتدت الحرب ودامت، وأمدّ صاحب الزنج بالمهلبيّ وسليمان بن جامع في جيشهما، فحملوا على أصحاب الموفّق حتى ألحقوهم بسفنهم وقتلوا منهم جماعة، فرجع الموفّق ولم يبلغ منهم ما أراد، وتبيّن له أنّه إذا قاتلهم من وجوه عدّة خفّت وطأتهم على من يقصد هذا الموضع، ففرّق أصحابه على جهات أصحاب الزنج، وصار هو في جهة النهر الغربي

---

(١) تحاجزوا: تزايلوا فانفصل بعضهم عن بعض.

(٢) عوّر الطرق: أي جعلها وعرة.

وقاتل من فيه وصدقهم أصحابه القتال فهزموهم، فولّوا وتركوا حصنهم في أيدي أصحاب الموفّق، فهدموه وأسروا وقتلوا وخلّصوا من هذا الحصن خلقًا كثيرًا من النساء والصبيان، ورجع الموفّق إلى عسكره بما أراد.

ذكر استيلاء الموفّق على مدينة صاحب الزنج الغربية

قال: لما هدم الموفّق سور دار صاحب الزنج أمر بإصلاح المسالك، ليتسع على المقاتلة[1] الطريق إلى الحرب، ثم رأى قلع الجسر الأوّل الذي على نهر أبي الخصيب، لما في ذلك من منع معاونة بعضهم بعضًا، وأمر بسفينة كبيرة أن تملأ قصبًا ويجعل فيه النفط، ويوضع في وسطها دَقل طويل يمنعها من مجاوزة الجسر إذا التصقت به، ثم أرسلها عند غفلة الزنج وقوة المدّ، فوافت الجسر وعلم بها الزنج فأتوها وطمّوها بالحجارة والتراب، ونزل بعضهم فخرقها فغرقت، وكان قد احترق من الجسر شيء يسير فأطفأه الزنج، فاهتم الموفّق بالجسر فندب أصحابه وأعدّ النفّاطين والفعلة والفؤوس، وأمرهم بقصده من غربيّ النهر وشرقيّه، وركب الموفّق في أصحابه وقصد فوّهة نهر أبي الخصيب، وذلك في منتصف شوّال سنة تسع وستين فسبق الطائفة التي في غرب النهر، فهزم الموكّلين على الجسر وهم سليمان بن جامع وانكلاي ابن صاحب الزنج وأحرقوه، وأتى بعد ذلك الطائفة الأخرى ففعلوا بالجانب الشرقي مثل ذلك، فأحرق الجسر وتجاوزه إلى جانب حظيرة كان يعمل فيها سميريّات صاحب الزنج وآلاته، فاحترق ذلك كله إلا شيئًا يسيرًا من الشذاوات والسميريّات كانت في النهر، وقصدوا سجنًا للزنج فقاتلهم الزنج ساعةً من النهار، ثم غلبهم أصحاب الموفّق عليه فأطلقوا من فيه، وأحرقوا ما مرّوا به إلى دار مُصْلح - وهو من قدماء أصحابه - فدخلوها فنهبوها وما فيها وسبوا نساءه وولده واستنقذوا خلقًا كثيرًا، وعاد الموفّق وأصحابه بالظفر والسلامة، وانحاز صاحب الزنج وأصحابه من هذا الجانب إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، واستولى الموفّق على الجانب الغربي غير طريق يسيرة على الجسر الثاني، فأصلحوا الطرق فزاد ذلك في رعب الزنج، فأجمع كثير من القوّاد - الذين كان صاحب الزنج يرى أنّهم لا يفارقونه - على طلب الأمان فطلبوه، فبُذل لهم فخرجوا أرسالاً[2] فأحسن الموفّق إليهم وألحقهم

---

(١) المقاتلة: الذين يصلحون للقتال أو يباشرونه.

(٢) خرجوا أرسالاً: أي رسلاً بعد رسل؛ والرسل: الجماعة من الناس؛ فالمراد: خرجوا جماعات بعضهم إثر بعض.

بأمثالهم، وأحب الموفّق أن يتمرّن أصحابه على سلوك النهر ليحرق الجسر الثاني فكان يأمرهم بإدخال الشذا فيه وإحراق ما على جانبه من المنازل، فهرب إليه في بعض الأيام قائد للزنج ومعه قاض كان لهم ففتّ ذلك في أعضادهم، ووكّل صاحب الزنج بالجسر الثاني من يحفظه وشحنه بالرجال، فأمر الموفّق بعض أصحابه فأحرق ما عند الجسر من سفن فزاد ذلك في احتياط صاحب الزنج وحراسته للجسر، لئلا يُحرق ويستولي الموفّق على الجانب الغربيّ، وكان قد تأخّر من أصحابه جمع في منازلهم المقاربة للجسر الثاني، وكان أصحاب الموفّق يأتونهم ويقفون على الطريق الخفيّة، فلما عرفوا ذلك عزموا على إحراق الجسر الثاني، فأمر الموفّق ابنه أبا العبّاس والقوّاد أن يتجهّزوا لذلك، وأن يأتوا من عدّة جهات ليوافوا الجسر، وأعدّ معهم الفؤوس والنفط والآلات ودخل هو في الشذا ومعه أنجاد(١) أصحابه، واشتبكت الحرب في الجانبين جميعًا واشتد القتال، وكان في الجانب الغربي بإزاء أبي العباس ومن معه انكلاي ابن صاحب الزنج وسليمان بن جامع، وفي الجانب الشرقي بإزاء راشد مولى الموفّق ومن معه صاحب الزنج والمهلبي في باقي الجيش، فدامت الحرب مقدار ثلاث ساعات ثم انهزم الزنج لا يلوون على شيء، وأُخذت السوق منهم، ووصل أصحاب الشذا النهر ودانوا من الجسر، وقاتلوا من يحميه بالسهام وأضرموه نارًا، وانهزم انكلاي وسليمان وقد أُثخنا بالجراح، فوافيا الجسر والنار فيه فحالت بينهما وبين العبور، فألقيا أنفسهما ومن معهما في النهر فغرق منهم خلق كثير، وأفلت انكلاي وسليمان بعد أن أشفيا على الهلاك، وقطع الجسر وأُحرق وتفرّق جيش الموفّق في جانبي المدينة، وأُحرق من الدور والقصور والأسواق شيئًا كثيرًا واستُنقذ من النساء والصبيان ما لا يُحصى ودخلوا الدار التي كان صاحب الزنج سكنها بعد إحراق قصره فنهبوا ما كان فيها وأحرقوها، وهرب هو واستنقذ في هذا اليوم نسوة من العلويّات، كنّ محبسات في موضع قريب من داره فأحسن الموفّق إليهن، وفتح سجنًا كان له وأخرج خلقًا كثيرًا ففكّ عنهم الحديد، وأخرج ذلك اليوم كلّ ما كان بنهر أبي الخصيب من شذا ومراكب بحرية وسفن كبار وصغار وحرّاقات(٢) وغير ذلك من أصناف السفن إلى دجلة، وأباحها أصحابه بما فيها من السلب، وكانت قيمته عظيمة، وأرسل انكلاي ابنه يطلب الأمان، وسأل أشياء فأجابه الموفّق إليها، فعلم أبوه بذلك

(١) الأنجاد: جمع النجد، وهو الذي يمضي فيما لا يستطيعه سواه.

(٢) الحرّاقة: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر؛ والحراقة: سفينة خفيفة المرّ؛ والحراقات: مواضع القلايين والفحامين.

فردّه عما عزم عليه، فعاد إلى الحرب ومباشرة القتال، ووجّه سليمان بن موسى الشعراني ـ وهو أحد رؤساء صاحب الزنج ـ يطلب الأمان، فلم يجبه الموفّق إلى ذلك لما تقدّم منه من سفك الدماء والفساد، ثم اتصل به أنّ جماعة من أصحاب صاحب الزنج قد استوحشوا لذلك فأجابه وأرسل الشذا إلى موضع ذكره فخرج هو وأخوه وأهله وجماعة من قوّاده، فأرسل صاحبهم من يمنعهم من ذلك فقاتلهم ووصل إلى الموفّق فزاد في الإحسان إليه وخلع عليه وعلى من معه، وأمر بإظهاره لأصحابه ليزدادوا ثقة، فلم يرجع من مكانه حتى استأمن جماعة من القوّاد، منهم شبْل بن سالم، فأجابه الموفّق وأرسل إليه شذاوات فركب فيها وعياله وولده وجماعة من قوّاده، فلقيهم قوم من الزنج فقاتلهم ونجا ووصل إلى الموفّق فأحسن إليه ووصله بصلة سنيّه، وهو من قدماء أصحاب الخبيث، فعظم ذلك عليه وعلى أوليائه لما رأوا من رغبة رؤسائهم في الأمان قال: ولما رأى الموفّق مناصحة شبل أمره أن يكفيه بعض الأمور، فسار ليلاً في جمع من الزنج لم يخالطهم غيرهم إلى عسكر الزنج، فأوقع بهم وأسر منهم وقتل وعاد فأحسن إليه الموفّق وإلى أصحابه، وصار الزنج بعد هذه الوقعة لا ينامون الليل ولا يزالون يتحارسون، وأقام الموفّق يُنفذ السرايا إليهم ويكيدهم ويحول بينهم وبين القوت، وأصحابه يتدرّبون في سلوك تلك المضايق التي في أرضه ويوسّعونها.

ذكر استيلاء الموفّق على مدينة صاحب الزنج الشرقية

قال: ولما علم الموفّق أن أصحابه قد تمرّنوا على سلوك تلك الأرض وعرفوها صمّم على العبور إلى محاربة صاحب الزنج من الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، فجلس مجلسًا عامًا وأحضر قوّاد المستأمنة وفرسانهم فوقفوا بحيث يسمعون كلامه، ثم عرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم ومعصية الله عزّ وجلّ، وأنّ ذلك قد أحلّ لهم دماءهم، وأنّه غفر لهم زلّتهم وأمّنهم ووصلهم، وأن ذلك يوجب عليهم حقّه وطاعته، وأنّهم لن يرضوا ربّهم وسلطانهم بأكثر من الجدّ في محاربة الخبيث، وأنّهم يخبرون مسالك ذلك العسكر ومضايق مدينته وأولى أن يجتهدوا في الولوج عليه والتوغّل في حصونه حتى يمكنهم الله منه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، ومن قصّر منهم فقد أسقط منزلته، فارتفعت أصواتهم بالدعاء والاعتراف بإحسانه، وبما هم عليه من المناصحة والطاعة وأنهم يبذلون دماءهم في كل ما يقرّبهم منه، وسألوه أن يفردهم بناحية ليظهر من نكايتهم في العدو ما يعرف به إخلاصهم وطاعتهم، فأجابهم إلى ذلك وأثنى عليهم، وكتب في جمع السفن والمعابر

من دجلة والبطيحة[١] ونواحيها ليضيفها إلى عسكره، إذ كان ما عنده يقصر عن الجيش لكثرته، وأحصى ما في الشذا والسميريّات وأنواع السفن، فكانوا زهاء عشرة آلاف ملاَّح ممّن يجري عليه الرزق من بيت المال مشاهرة، سوى سفن أهل العسكر التي تحمل فيها الميرة ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما لكل قائد من السميريات والحربيّات والزواريق، فلما تكاملت السفن تقدّم إلى ابنه أبي العباس وقوّاده بقصد المدينة الشرقية من جهاتها، فسيّر ابنه إلى ناحية دار المهلبيّ أسفل العسكر، وكان قد شحنها بالرجال والمقاتلة، وأمر جميع أصحابه بقصد دار صاحب الزنج وإحراقها، فإن عجزوا عنها اجتمعوا على دار المهلبيّ، وسار هو في الشذا وهي مائة وخمسون قطعة فيها أنجاد غلمانه، وانتخب من الفرسان والرجّالة عشرة آلاف وأمرهم أن يسيروا على جانبي النهر إذا سار، وأن يقفوا معه إذا وقف، وبكَّر يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين، وكانوا قد تقدّموا إليهم يوم الاثنين وواقعوهم، وتقدّمت كلّ طائفة إلى الجهة التي أمرهم بها، فلقيهم الزنج واشتدت الحرب وكثر القتل والجراح في الفريقين، ثم نصر الله عزّ وجلّ أصحاب الموفّق بانهزام الزنج، وقتل منهم خلق كثير وأسر من أنجادهم وشجعانهم خلق كثير فأمر الموفّق بضرب أعناق الأسرى في المعركة، وقصد بجمعه الدار التي يسكنها صاحب الزنج، وكان قد لجأ إليها وجمع أبطال أصحابه للمدافعة عنها فلم يغنوا شيئًا فانهزموا عنها وأسلموها. ودخلها أصحاب الموفّق، وفيها بقايا ما كان سلم من مال صاحب الزنج وولده وأثاثه فنهب ذلك أجمع وأخذوا حرمه وأولاده وكانوا عشرين ما بين صبي وصبيّة، وهر بصاحب الزنج نحو دار المهلبي لا يلوي على أهل ولا مال، وأحرقت داره وأتى الموفّق بأهل صاحب الزنج وولده فسيّرهم إلى بغداد، وكان أصحاب أبي العبّاس قد قصدوا دار المهلبيّ، وقد لجأ إليها خلق كثير من المنهزمين فغلبوهم عليها واشتغلوا بنهبها وأخذوا ما فيها من حرم المسلمين وأولادهم وجعل من ظفر منهم بشيء حمله إلى سفينته، فلما رآهم الزنج كذلك رجعوا إليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكان جماعة من غلمان الموفّق قد قصدوا دار صاحب الزنج، فتشاغلوا بحمل الغنائم إلى السفن أيضًا، فأطمع ذلك الزنج فيهم فكشفوهم واتبعوا آثارهم، وثبت جماعة من أبطال الموفّق فردّوا الزنج حتى تراجع الناس إلى مواقفهم، ودامت الحرب إلى العصر فأمر الموفّق غلمانه بصدق الحملة عليهم ففعلوا، فانهزم صاحب

---

(١) البطيحة: بالفتح ثم الكسر: هي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكانت قديمًا قرى متصلة وأرضًا عامرة. . . (معجم البلدان).

الزنج ومن معه وأخذتهم السيوف حتى انتهوا إلى داره أيضًا، فرأى الموفّق أن يصرف أصحابه فردّهم، وقد استنقذوا جمعًا من النساء المأسورات فحملن إلى الموفقيّة، وكان أبو العبّاس قد أرسل في ذلك اليوم قائدًا فأحرق بيادر كانت ذخيرة لصاحب الزنج وكان ذلك مما أضعفه وأضعف أصحابه. قال: ثم وصل إلى الموفّق كتاب لؤلؤ غلام أحمد بن طولون يستأذنه في القدوم عليه، فأمره بذلك وأخّر القتال إلى أن يحضر.

ذكر مقتل صاحب الزنج

قال: ولما ورد كتاب لؤلؤ على الموفّق يستأذنه في الحضور إليه أذن له، وأحبّ أن يؤخر القتال إلى أن يحضر فيشهده، وكان لؤلؤ قد خالف على مولاه أحمد بن طولون، وكان في يده حمص وقنّسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة وصار إلى بالس[1] فنهبها، وكاتب الموفّق في المصير إليه واشترط شروطًا فأجابه الموفّق إليها، وكان بالرقة فسار إلى الموفّق فوصل إليه في ثالث شهر المحرّم سنة سبعين ومائتين في جيش عظيم، فأكرمه الموفّق وأنزله وخلع عليه وعلى أصحابه ووصلهم وأحسن إليهم، وأمر لهم بالأرزاق على قدر مراتبهم، وأضعف ما كان لهم.

ثم تقدّم إلى لؤلؤ بالتأهب لحرب الزنج، وكان صاحب الزنج، لمّا غُلب على نهر أبي الخصيب وقُطعت القناطر والجسور التي عليه، أحدث سكرًا[2] في النهر من جانبيه، وجعل في وسط النهر بابًا ضيّقًا لتحتد جرية الماء فيه فيمتنع الشذا من دخوله في الجزر، ويتعذّر خروجها منه في المدّ، فرأى الموفّق أنّ حربة لا يتهيّأ إلا بقلع هذا السكر، وحاول ذلك فاشتدت محاماة الزنج عليه، وجعلوا يزيدون كل يوم فيه، فشرع الموفّق في محاربتهم بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ، ليتمرّنوا على قتالهم ويقفوا على المسالك والطرق في مدينتهم، وأمر لؤلؤًا أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر ففعل، فرأى الموفّق من شجاعتهم وإقدامهم ما سرّه، فأمر لؤلؤًا بصرفهم إشفاقًا عليهم ووصلهم وأحسن إليهم، وألحّ الموفّق على هذا السكر، فكان يحارب والفعلة يعملون في قلعه، واستأمن إليه جماعة، وكان قد بقي لصاحب الزنج وأصحابه أرضين بناحية النهر الغربي، لهم فيها مزارع وحصون وقنطرتان وبه جماعة يحفظونه، فسار إليهم أبو العباس وفرّق أصحابه من جهاتهم، وجعل كمناء،

(١) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، كانت على ضفة الفرات الغربية.

(٢) السّكر: ما يسد به النهر ونحوه.

ثم أوقع بهم فانهزموا فما قصدوا جهة إلا خرج عليهم من يقاتلهم فيها، فقُتلوا ولم يسلم منهم إلا الشريد، وأخذوا من أسلحتهم ما أثقلهم حمله، وقطع القنطرتين، ولم يزل الموفّق يقاتلهم على سكرهم حتى تهيّأ له فيه ما أحبّ وحرقه.

فلما فرغ منه عزم على لقاء صاحب الزنج، فأمر بإصلاح السفن والآلات للماء والطين، وتقدّم إلى ابنه أبي العبّاس أن يأتي الزنج من ناحية دار المهلبيّ، وفرّق العساكر من جميع جهاته، وأضاف المستأمنة إلى شِبْل، وأمر الناس ألاّ يزحفوا حتى يحرّك علمًا أسود كان نصبه على دار الكَرَنْبائي، وحتى ينفخ في بوق بعيد الصوت، وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرّم، فعجّل بعض الناس وزحف نحوهم، فلقيه الزنج فقتلوا منهم وردّوهم إلى مواقفهم، ولم يعلم سائر العسكر بذلك لكثرتهم وبُعْد المسافة فيما بين بعضهم وبعض، وأمر الموفّق بتحريك العلم الأسود والنفخ في البوق، فزحف الناس في البر والماء يتلو بعضهم بعضًا، فلقيهم الزنج وقد حشدوا واجترأوا بما تهيّأ لهم، فلقيهم الجيش بنيّات صادقة وبصائر نافذة، واشتد القتال وقتل من الفريقين جمع كثير، فانهزم أصحاب صاحب الزنج وتبعهم أصحاب الموفّق، فقتل منهم ما لا يحصى وغرق منهم مثل ذلك، وحوى الموفّق المدينة بأسرها، فغنم أصحابه ما فيها واستنقذوا من كان بقي من الأسارى من الرجال والنساء والصبيان، وظفروا بجميع عيال علي بن أبان المهلبيّ وبأخويه الخليل ومحمد وأولادهما، فسيّروا إلى الموفقيّة، ومضى صاحب الزنج في أصحابه ومعه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع وقوّاد من الزنج وغيرهم هرابًا، عامدين إلى موضع كان قد أعدّه ملجأ إذا غُلب على مدينته، وذلك المكان على النهر المعروف بالسفياني[1]، وكان أصحاب الموفّق قد اشتغلوا بالنهب والإحراق، وتقدّم أصحاب الموفّق في الشذا نحو نهر السفياني، وانتهى الموفّق ومن معه إلى عسكر صاحب الزنج وهم منهزمون، واتبعهم لؤلؤ في أصحابه حتى عبروا النهر فاقتحم لؤلؤ النهر بفرسه واتبعه أصحابه حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريري[2] فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه، فأوقعوا به وبمن معه فهزموهم حتى عبروا نهر المساوان ولؤلؤ في أثرهم، فاعتصموا بجبل وراءه، وانفرد لؤلؤ وأصحابه باتباعهم إلى هذا المكان إلى آخر النهار، فأمر الموفّق بالانصراف فعاد مشكورًا محمود الفعل، فحمله الموفّق معه وجدّد له البرّ والكرامة ورفع منزلته، ورجع الموفّق فلم ير أحدًا من أصحابه بمدينة الزنج، وكانوا قد انصرفوا إلى الموفقيّة بما حووا في سفنهم،

---

(١) قد يكون نسبة إلى سفيان وهي قرية من قرى هراة.

(٢) القريري: نسبة إلى قرير، وهو بلد بين نصيبين والرقة.

فرجع الموفّق إلى مدينته واستبشر الناس بالفتح، وغضب الموفّق على أصحابه لمخالفتهم أمره وتركهم الوقوف حيث أمرهم، فجمعهم ووبّخهم على ذلك وأغلظ لهم، فاعتذروا بما ظنّوه من انصرافه، وأنّهم لم يعلموا بمسيره ولو علموا ذلك لأسرعوا نحوه، ثم تعاقدوا وتحالفوا على ألاّ ينصرف منهم أحد إذا توجّهوا نحو صاحب الزنج حتى يظفروا، فإنْ أعياهم أقاموا حتى يحكم الله بينهم وبينه، وسألوا الموفّق أن يردّ السفن التي يعبرون فيها إلى صاحب الزنج، لينقطع الناس عن الرجوع فشكرهم وأثنى عليهم وأمرهم بالتأهّب. وأقام الموفّق بعد ذلك إلى يوم الجمعة يصلح ما يحتاج الناس إليه، وأمر الناس بالمسير إلى حرب الزنج بُكرة السبت، وطاف عليهم بنفسه يعرّف كل قائد مركزه والمكان الذي يقصده.

وغدا الموفّق يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين وعبر الناس، وأمر بردّ السفن فردّت، وسار يقدمهم إلى المكان الذي قدّر أن يلقاهم فيه، وكان صاحب الزنج وأصحابه قد رجعوا إلى مدينتهم بعد انصراف الجيش عنهم، وأمّلوا أن تتطاول بهم الأيام وتندفع عنهم المناجزة، فوجد الموفّق المتسرّعين من غلمانه من الفرسان والرجّالة قد سبقوا الجيش، فأوقعوا بصاحب الزنج وأصحابه وهزموهم بها، وتفرّقوا لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم أصحاب الموفّق يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، فانقطع صاحب الزنج في جماعة من حماة أصحابه منهم المهلبيّ، وفارقه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع، فقصد كل فريق منهم جمعًا كثيفًا من الجيش، وكان أبو العبّاس قد تقدّم فلقي المنهزمين في الموضع المعروف بعسكر رَيْحان، فوضع أصحابه فيهم السلاح، ولقيهم طائفة أخرى فأوقعوا بهم وقتلوا منهم جماعة، وأسروا سليمان بن جامع فأتوا به الموفّق من غير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأسره، وأُسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني ـ وكان أحد أمراء جيوشه ـ فأمر الموفّق بالاستيثاق منهما، ثم إنّ الزنج الذين انفردوا مع صاحبهم حملوا على الناس حملة أزالوهم عن مواقفهم ففتروا، فجدّ الموفّق في طلبهم وأمعن، فتبعه أصحابه وانتهى إلى آخر نهر أبي الخصيب، فلقيه البشير بقتل صاحب الزنج، وأتاه بشير آخر ومعه كفّ ذكر أنّها كفّه، ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض ومعه رأس صاحب الزنج، فعرض الموفّق الرأس على جماعة من المستأمنة فعرفوه، فخرّ لله ساجدًا وسجد معه الناس، وأمر برفع الرأس على قناة فعرفه الناس.

قال: ولما أُحيط بصاحب الزنج كان معه المهلبي وحده، فولّى عنه هاربًا وقصد نهر فألقى نفسه فيه، وكان انكلاي قد سار نحو الديناريّ ورجع الموفّق والرأس بين

يديه وسليمان بن جامع، فأتى مدينته وأتاه من الزنج عالم عظيم يطلبون الأمان فأمنهم، وانتهى إليه خبر انكلاي والمهلبيّ ومكانهما ومن معهما من مقدّمي الزنج، فبثّ أصحابه في طلبهم وأمرهم بالتضييق عليهم، فلما أيقنوا ألاّ ملجأ أعطوا بأيديهم فظفر بهم وبمن معهم وكانوا زهاء خمسة آلاف، فأمر بالاستيثاق من المهلبيّ وانكلاي، وكان ممّن هرب قرطاس الروميّ الذي رمى الموفّق بالسهم في صدره، فانتهى إلى رَامَهُرْمُز فعرفه رجل فدلّ عليه عامل البلد، فأخذه وسيّره إلى الموفّق فقتله ابنه أبو العبّاس، ثم استأمن دَرْمويَه الزنجي إلى أبي أحمد الموفّق، وكان درمويه هذا من أنجاد الزنج وأبطالهم، وكان صاحب الزنج قد وجّهه قبل هلاكه بمدّة إلى موضع كثير الأدغال والشجر والآجام متصل بالبطيحة، وكان هو ومن معه يقطعون الطريق هناك على السابلة في زواريق خفاف، فإذا طلبوا دخلوا الأنهار الضيّقة واعتصموا بالأدغال، وإذا تعذّر عليهم مسلك لضيقه حملوا سفنهم ولجأوا إلى الأمكنة الوسيعة، ويغيرون على قرى البطيحة ويقطعون الطريق، فظفروا بجماعة من عسكر الموفّق معهم نساء قد عادوا إلى منازلهم، فقتلوا الرجال وأخذوا النساء، فسألهنّ دَرْمويه عن الخبر فأخبرنه بقتل صاحب الزنج وأسر أصحابه وقوّاده، وأن كثيرًا منهم قد صار إلى الموفّق بالأمان فأحسن إليهم، فسقط في يده ولم يرَ لنفسه ملجأ إلا طلب الأمان والصفح عن جرمه، فأرسل إلى أبي أحمد الموفّق يطلب الأمان فأجابه إلى ذلك وأمّنه، فخرج هو ومن معه حتى وافى عسكر الموفّق فأحسن إليهم وأمّنهم، فلما اطمأن درمويه أظهر ما كان في يده من الأموال والأمتعة، وردّها إلى أربابها ردًا ظاهرًا فعلم بذلك حسن نيّته فزاد الموفّق في الإحسان إليه، وأمر أن يكتب إلى أمصار المسلمين بالنداء في أهل النواحي التي دخلها الزنج بالرجوع إلى أوطانهم، فسارع الناس إلى ذلك.

وأقام الموفّق بالمدينة الموفقيّة ليأمن الناس بمقامه، وولّى البصرة والأبلّة وكور دجلة رجلًا من قواده قد حمد مذهبه وعلم حسن سيرته يقال له العبّاس بن تَرْكس، وأمره بالمقام بالبصرة، وولى قضاء البصرة والأبلّة وكور دجلة محمد بن حمّاد، وقدم ابنه أبا العباس إلى بغداد ومعه رأس صاحب الزنج ليراه الناس، فبلغها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى من هذه السنة.

قال: وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين، فكانت أيّامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيّام.

انقضت أخبار صاحب الزنج فلنذكر أخبار القرامطة.

ذكر أخبار القرامطة وابتداء أمرهم وما كان من أخبارهم وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك من أخبارهم

والقرامطة منسوبون إلى قِرْمِط، وقد اختلف فيه: فمن الناس من يقول إنه حمدان بن الأشعث، وأنّه إنما سمّي قرمطًا لأنّه كان رجلًا قصيرًا قصير الرجلين متقارب الخطو فسمّي بذلك، وقيل قُرْمط: ثور كان لحمدان بن الأشعث هذا، وأنّه كان يحمل غَلات السواد على أثوار له بسواد الكوفة، والله تعالى أعلم.

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين:

وفيها تحرّك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة، وكان ابتداء أمرهم: أن رجلًا يقال له حمدان يظهر الدين والزهد والتقشف، ويأكل من كسبه، وأقام على ذلك مدة، فكان إذا جالسه رجل ذاكره الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم، حتى فشا ذلك بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله ﷺ، فاستجاب له جمع كثير وكان يقعد إلى بقّال هناك، فجاء رجل إلى البقّال يطلب منه من يحفظ له ما صرم[١] من نخله، فدلّه عليه وقال لعلّه يجيب، فكلّموه في ذلك فاتفق معهم على أجرة معلومة، فكان يحفظ له ويصلّي أكثر نهاره، ويصوم ويأخذ عند إفطاره من البقّال رطل تمر، يفطر عليه ويجمع نواه ويعطيه للبقّال، فلما حمل التجار تمرهم جلسوا عند البقّال وحاسبوه وأعطوه أجرته، وحاسب هو البقّال على ما أخذ من التمر وحطّ ثمن النوى فضربوه، وقالوا: ألم يكفك أن تأكل تمرنا حتى تبيع نواه؟! فأوقفهم البقّال على الخبر فاعتذروا واستحلوا منه، وازداد بذلك عند أهل القرية، ودعا أهل تلك الناحية إلى مذهبه فأجابوه، وكان يأخذ من الرجل إذا أجابه دينارًا واحدًا، ويزعم أنّه للإمام، واتخذ منهم اثني عشر نقيبًا أمرهم أن يدعو الناس إلى مذهبه وقال: أنتم كحواري عيسى ابن مريم، فاشتغل أهل تلك الناحية عن أعمالهم، وكان للهَيْصَم في تلك الناحية ضياع، فرأى تقصير الأكارة[٢] في عمارتها، فسأل عن ذلك فقيل له خبر الرجل فحبسه، وحلف ليقتلنّه لما اطّلع على مذهبه، وأغلق عليه الباب ليقتله في غد، وجعل المفتاح تحت رأسه، فسمع بعض جواريه خبره فرقّت له، فسرقت المفتاح وأخرجته وأعادت المفتاح إلى موضعه، فلما أصبح الهَيْصَم فتح الباب ليقتله فلم يجده، فشاع ذلك في الناس فافتتنوا

(١) يقال: صرم النخل: إذا جزّه.
(٢) الأكارة: الحرّاث والزرّاع.

به وقالوا رفع، ثم ظهر في ناحية أخرى، ولقي جماعة من أصحابه فسألوه عن قصّته فقال: لا يمكن أن ينالني أحد بسوء، فعظم في أعينهم ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام، فلم يوقف له على خبر، هذا ما حكاه عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الكامل.

وحكى الشريف أبو الحسين محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - وهو المعروف بأخي مُحْسِن - في كتاب ألّفه ذكر فيه عبيد الله الملقب بالمهدي، الذي استولى على بلاد المغرب واستولى بنوه من بعده على الديار المصرية والشام وغير ذلك، وذكر الشريف أصل عبيد الله هذا ونفاه عن النسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستدلّ على ذلك بأدلة يطول شرحها أجاد في تبيانها، وقال في أثناء ما حكاه أنّه لما صار الأمر إلى أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان بعد أبيه - وأحمد هذا هو جد عبيد الله الملقّب بالمهدي - بعث - وهو بسَلَمْيَة[1] - الحسين الأهوازي داعية إلى العراق، فلقي حمدان بن الأشعث قُرْمُطا بسواد الكوفة ومعه ثور ينقل عليه، فقال له الحسين الأهوازي: كيف الطريق إلى قس بهرام؟ فعرّفه حمدان أنّه قاصد إليه، وسأله الأهوازي عن قرية تعرف ببَانبورَا[2] من قرى السواد، فذكر أنّها قريبة من قريته وكان حمدان هذا من قرية تعرف بالدُّور على نهر هد من رستاق مَهْرُوسَا من طَسُّوج فرات بادقلي، قال: فتماشيا ساعة، فقال له حمدان: إنّي أراك جئت من سفر بعيد، وأنت معي فاركب ثوري هذا، فقال له الحسين: لم أومر بذلك، فقال له حمدان: كأنّك تعمل بأمْر أمر لك؟ قال: نعم، قال: ومن يأمرك وينهاك؟ قال: مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة، قال: فبهت حمدان قرمط مفكرًا، وأقبل ينظر إليه ثم قال له: يا هذا ما يملك ما ذكرتَه إلا الله تعالى! قال: صدقت، والله يهب ملكه لمن يشاء، قال له حمدان: فما تريد في القرية التي سألتني عنها؟ قال: دفع إليّ جراب[3] فيه علم سِرّ من أسرار الله تعالى، وأمرتُ، أن أشفي هذه القرية وأُغني أهلها وأستنقذهم وأملّكهم أملاك أصحابهم.

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وياء: هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين، وكانت تعد من أعمال حمص... (معجم البلدان).

(٢) بانبورا: بالراء: ناحية بالحيرة من أرض العراق.

(٣) الجراب: وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه.

وابتدأ يدعوه فقال له حمدان: يا هذا نشدتك الله إلا دفعت إليّ من هذا العلم الذي معك وأنقذتني ينقذك الله!! قال له: لا يجوز ذلك أو آخذ عليك عهدًا وميثاقًا أخذه الله تعالى على النبيّين والمرسلين وألقي عليك ما ينفعك، قال: فما زال حمدان يضرع إليه حتى جلسا في بعض الطريق وأخذ عليه العهد، ثم قال له: ما اسمك؟ قال: قرمط، ثم قال له قرمط: قم معي إلى منزلي حتى تجلس فيه، فإنّ لي إخوانًا أصير بهم إليك لتأخذ عليهم العهد للمهدي، فصار معه إلى منزله، فأخذ على الناس العهد هناك، وأقام في منزل حمدان وأعجبه أمره وعظَمه وكرّمه، وكان على غاية ما يكون من الخشوع، صائمًا نهاره قائمًا ليله، وكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة، وكان ربما خاط لهم الثياب وتكسّب بذلك، وكانوا يتبرّكون به وبخياطته. قال: وأدرك التمر فاحتاج أبو عبد الله محمد بن عمر بن شهاب العَدَوي إلى عمل تمره، وكان من وجوه أهل الكوفة ومن أهل العلم والفضل والتوحيد، فوصف له هذا الرجل فنصبه لحفظ تمره والقيام في حظيرته، فأحسن حفظها واحتاط في أداء الأمانة، وظهر منه من التشديد في ذلك ما خرج به عن أحوال الناس في تساهلهم في كثير من الأمور، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين، فاستحكمت ثقة الناس به، وثقته بحمدان قرمط وسكونه إليه، فأظهر له أمره وكشف له الغطاء.

قال: وكلّ ما كان هذا الداعية يفعله من الثقة والأمانة وإظهار الخشوع والنسك إنما كان حيلة ومكرًا وخديعة وغشًا، قال: فلما حضرت هذا الطاغية الوفاة جعل مقامه حمدان بن الأشعث قرمطا، فأخذ على أكثر أهل السواد وكان ذكيًا خبيثًا، قال: وكان ممّن أجابه من أصحابه الذين صار لهم ذكر ذَكْرُويَه بن مِهَرُويَه السلماني وجُلَنْدَى الرازي، وعِكْرَمة البَابِلي، وإسحاق السُورَاني، وعُطَيْف النِّيلي وغيرهم، وبث دعاته في السواد يأخذون على الناس، وكان أكبر دعاته عَبْدَان متزوجًا أخت قرمط أو قرمط متزوجًا أخته، وكان عَبْدَان رجلاً ذكيًا خفيفًا فطنًا خبيثًا، خارجًا عن طبقة نظرائه من أهل السواد ذا فهم وخبث، فكان يعمل عند نفسه على حدّ قد نصب له، ولا يرى أنّه يجاوزه إلى غيره من خلع الإسلام، ولا يظهر غير التشيّع والعلم ويدعو إلى الإمام من آل رسول الله ﷺ، محمد بن إسماعيل بن جعفر، وكان أحد مَنْ تبع عبدان زكرويه بن مهرويه، وكان زكرويه شابًا فيه ذكاء وفطنة، وكان من قرية بسواد الكوفة يقال لها المنسانيّة تلاصق قرية الصَوَّان، وهاتان القريتان على نهر هد، نصبه عبدان على إقليم نهر هد وطسّوج السالحين وإقليم نهر يوسف داعية، ومن قبله جماعة دعاة متفرقون في عمله، يدور كل واحد منهم في عمله في كل شهر مرّة، وكلّ ذلك بسواد الكوفة،

ودخل في دعوته من العرب من بني ضُبَيعة بن عجل ـ وهم من ربيعة ـ رجلان، أحدهما يعرف برباح والآخر يعرف بعلي بن يعقوب القمر، فأنفذهما دعاة إلى العرب في أعمال الكوفة وسُورا[١] وبَرْبِسْما[٢] وبابل، ودخل في دعوته من العرب أيضًا رفاعة من بني يشكر، ثمّ من بكر بن وائل رجل يعرف بسند وآخر يعرف بهارون، فجعلهما دعاة نخيلة وما والاها في العرب خاصة إلى حدود واسط، فمال إليه هذان البطنان ودخلا في دعوته فلم يكد يختلف رفاعي ولا ضبعي، ولم يبق من البطون المتصلة بسواد الكوفة بطن إلا دخل في الدعوة منه ناس كثير أو قليل، من بني عَايش[٣] وذُهل[٤] وغيره وبني عنز[٥] وتيم الله وثُعَل وغيرهم، وفيهم نفر يسير من بني شيبان، فقوي قرمط بهم وزاد طمعه فأخذ في جمع أموالهم.

ذكر ما فرضه قرمط على من دخل في دعوته واستجاب له وكيف نقلهم في استئصال أموالهم من اليسير إلى الكثير حتى استقام له أمرهم

كان أول ما ابتدأ به أن فرض عليهم وامتحنهم بتأدية درهم واحد، وسمّى ذلك الفِطْرَة من كل رأس من الرجال والنساء والصبيان فسارعوا إلى ذلك، فتركهم مُدَيْدَة ثم فرض عليهم الهجْرة، وهو دينار على كل رأس أدرك الحِنْث[٦]، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: هذا تأويل هذا، فدافعوا ذلك مبادرين به إليه، وتعاونوا عليه فمن كان فقيرًا أسعفوه، فتركهم مديدة ثم فرض عليهم البُلْغَة: وهي سبعة دنانير، وزعم أنّ ذلك هو البرهان بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن

---

(١) سورا: هي مدينة السريانيين، وهي قريبة من الوقف والحلة المزيدية.

(٢) بربسما: بكسر الباء الثانية، وسكون السين المهملة: طسوج من كورة الإستان الأوسط من غربي سواد بغداد.

(٣) هم بنو عايش بن مالك، منهم عبيد الله بن ظبان الفاتك... (الاشتقاق لابن دريد).

(٤) بنو ذهل: بطن من بكر بن وائل.. وبنو ذهل: بطن من طانجة من العدنانية.. وبنو ذهل: بطن من طيىء، من القحطانية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٥) بنو عنز: بطن من الخزرج، من الأزد، من القحطانية، وهم: بنو عنز بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٦) الحنث: الذنب؛ أو الشرك.

﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وزعم أنّ ذلك بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين السابقين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١١]، وصنع لهم طعامًا طيبًا حلوًا لذيذًا وجعله على قدر البنادق، يطعم كلّ من أدّى إليه سبعة دنانير واحدة منها، وزعم أنّه طعام أهل الجنّة نزل إلى الإمام، واتخذ ذلك كالخواتيم ينقل إلى الداعي منها مائة بُلغة ويطالبه بسبعمائة دينار، فلما توطأ له هذا الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون وما يتكسبون، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ...﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، فقوّموا جميع ما يملكونه من ثوب وغيره وأدّوا خمسه إليه، حتى كانت المرأة تخرج خُمس ما تغزل، والرجل خُمس ما يكسب، فلما تمّ ذلك له واستقرّ فرض عليهم الأُلفة، وهو أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد وأن يكونوا في ذلك أسوة واحدة، لا يفضل أحد منهم صاحبه وأخاه في ملك يملكه، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وعرّفهم أنّه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم، لأنّ الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم، وقال لهم: هذه محنتكم التي امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون، وطالبهم بشراء السلاح وإعداده، وذلك كلّه في سنة ست وسبعين ومائتين.

وأقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختارًا من ثقاتها، يُجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره، فكان يكسو عاريهم وينفق عليهم ما يكفيهم، ولا يبقى فقيرًا بينهم ولا محتاجًا ضعيفًا، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والتكسب بجهده، ليكون له الفضل في رتبته، وكانت المرأة تجمع إليه كسبها من مغزلها، والصبي أجر نطارته الطير، فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه، فلما استقام له ذلك كلّه وصبوا[1] إليه وعملوا به، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ويختلطن بالرجال، وقال: إنّ ذلك من صحة الودّ والأُلفة بينهم فربما بذل الرجل لأخيه امرأته متى أحبّ فلما تمكّن من أمورهم ووثق بطاعتهم وتبيّن مقدار عقولهم أخذ في تدريجهم إلى الضلالة، وأتاهم بحجج من مذهب الثنويّة فسلكوا معه في ذلك، حتى خلعهم من الشريعة ونقض عليهم ما كان يأمرهم به في مبدأ أمرهم من

(١) وصب على الأمر: واظب عليه.

الخشوع والورع والتقى، وأباح لهم الأموال والفروج والغنى عن الصوم والصلاة والفرائض، وأنّ ذلك كلّه موضوع عنهم وأن أموال المخالفين ودماءهم حلال لهم، وأنّ معرفة صاحب الحق الذي يدعو إليه يغني عن كل شيء، ولا يُخاف معه إثم ولا عذاب.

ذكر دعوة القرامطة وعهدهم الذي كانوا يأخذونه على من يغرونه، ويستميلونه إلى مذهبهم، وكيف ينقلونه من مرتبة إلى أخرى، حتى ينسلخ من الدين ويخلع ربقة الإسلام من عنقه

قال الشريف أبو الحسين محمد بن علي: أول الدعوة بعد عمل الداعي بالرزق وقوة إجابة المدعو من سائر الأُمم أن يُسلك به في السؤال عن المشكلات، مسلك الملحدين والشكاك، ويكثر السؤال عن تأويل الآيات ومعاني الأمور الشرعيات، وشيء من الطبائع ووجوه القول في الأمور التي تكثر فيها الشُبَه، ولا يصل إليها إلا العالم المبرّز ومن جرى مجراه، فإن اتّفق له مجيب عارف ممارس جدل سلّم إليه الدّاعي وعظّمه وكرّمه وحشمه وصوّب قوله، وداخله بما يحب من علم شريعته التي يومي إليها، وكل ذلك ليقطع كلامه لئلا يتبيّن ما هو عليه من الحيلة والمكر، وما يدخل به على الناس من أمر الدعوة، وإن اتّفق مغرور مغفَل غليظ الحواسّ ألقى إليه ما يشغل به قلبه، مثل قوله: إن الدين لمكتوم وإنّ الأكثر له لمنكرون وبه جاهلون، ولو علمت هذه الأمّة ما خصّ الله به الأئمة من العلم لم تختلف، ويوهم من سمع كلامه أنّ عنده علومًا خفيّة لم تصل إليهم، فتطلع نفس المستمع إلى معرفة بيان ما قال، وربما وصل أمره مع من يجالسه ـ واحدًا كان أو جماعة ـ بشيء من معاني القرآن، وذكر شرائع الدين وتأويل الآيات وتنزيلها وكلام لا يشك المسلم العارف في حقيقته، ويوهم المستمعين منه أنّه قد ظفر بعلم، لو صادف له مستمعًا لكان ناجيًا منتفعًا، وقرّر عندهم أنّ الآفة التي نزلت بالأمة وحيّرت في الديانة وشتّتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلّة ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقائقها، ويحفظون عليهم معانيها وبواطنها، وأنّهم لما عدلوا عنهم ونظروا من تلقاء عقولهم، واتباعهم لِمَا حَسُن في رأيهم وسمعوه من أسلافهم وغلاتهم ـ اتباع الملوك في طلب الدنيا ـ وحاملي الغنى ومسمعي الإثم وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة الطالبين العاجلة، والمجتهدين في الرياسة على الضعفاء، ومن يكايد

رسول الله ﷺ في أمته وغيّر كتابه وبدّل سنّته، وقتل عِتْرته[١] وخالف دعوته وأفسد شريعته وسلك بالناس غير طريقته، وعاند الخلفاء من بعده، وخلط بين حقّه وباطل غيره فتحيّر وحيّر من قَبِل منه، وصار الناس إلى أنواع الضلالات به وبأتباعه، وقالوا لهم حينئذ ـ كالنصحاء الحكماء ـ: إنّ دين محمد لم يأت بالتحلّي ولا بالتمرّي، ولا بأمانيّ الرجال ولا شهوات الخلق، ولا بما خفّ على الألسنة وعرفته دهماء العامّة، وإنما الدين صعب مستصعب، أمر مستثقل وعلم خفي غامض، سيّره الله في حجبه وعظّم شأنه عن ابتذال الأشرار له، فهو سرّ الله عزّ وجلّ المكتوم وأمره المستور، الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا مَلَكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، في أمثال هذا الكلام، ويموّه على من لا يعلم بأنّهم لو أظهروا ما عندهم من العلم لأنكره من يسمعه، وتعجّب منه وكفّر أهله، وهذه مقدّمة يجعلونها في نفوس المخدوعين، ليواطئوهم على ألاّ ينكروا ما يسمعونه منهم ولا يدفعوه، فيجعلوا ذلك تأنيسًا وتأسيسًا لينخلع من الشرائع وترتيب أصولها والحرص على طلبها، وربما قالوا لهم شيئًا يموّهون به أن له تفسيرًا، وإنما هو تقليد في الديانة.

فمن مسائلهم: ما معنى رمي الجمار[٢]؟ والعدو بين الصفا والمروة؟ ولمَ قضت الحائض الصيام ولم تقضِ الصلاة؟ وما بال الجنُب يغتسل من ماء دافق لشيء طاهر منه البشر، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر، وما بال الله تعالى خلق الدنيا في ستة[٣] أيام؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً؟ والكاتبين الحافظين[٤]؟ وما لنا لا نراهما؟ أيخاف ربنا أن نكابره ونجاحده فأذكى[٥] العيون وأقام علينا الشهود؟ وقيّد ذلك بالقرطاس والكتابة؟! وما تبديل الأرض غير الأرض[٦]؟ وما عذاب جهنّم؟ وكيف يصحّ تبديل جلدٍ مذنب بجلد لم يذنب يعذب[٧]؟! وما معنى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[٨]؟ وما إبليس؟ وما

(١) العترة: نسل الرجل ورهطه وعشيرته.
(٢) الجمار: جمع الجمرة، وهي الحصاة الصغيرة التي يرمى بها في منى.
(٣) هنا إشارة إلى سورة السجدة آية ٤.
(٤) إشارة إلى الآية ١٠ و١١ من سورة الانفطار.
(٥) أذكى العيون: أرسل الطلائع.
(٦) إشارة إلى الآية ٤٨ من سورة إبراهيم. (٧) إشارة إلى الآية ٥٦ من سورة النساء.
(٨) إشارة إلى الآية ١٧ من سورة الحاقة.

ذكرته الشياطين؟ وما وُصفوا به، ومقدار قدرهم؟ وما يأجوج ومأجوج؟ وهاروت وماروت؟ وما سبعة أبواب النار؟ وما ثمانية أبواب الجنّة؟ وما شجرة الزقّوم النابتة في الجحيم؟ وما دابّة الأرض؟ ورؤوس الشياطين؟ والشجرة الملعونة في القرآن؟ والتين والزيتون؟ وما الخُنَّس؟ وما الكُنَّس؟ وما معنى الم، والمص؟ وما معنى كهيعص؟ وما معنى حم عسق؟ وأمثال هذا من الكلام، ولِمَ جعلت السماوات سبعًا والأرضون سبعًا؟ والمثاني من القرآن سبع آيات؟ ولم فجّرت العيون اثنتي عشرة عينًا؟ ولِمَ جعلت الشهور اثني عشر شهرًا؟ وأمثال هذا من الكلام والأمور، ممّا يوهمون أنّ فيه معاني غامضة وعلومًا جليلة.

وقالوا للمغرورين: ما يعمل معكم الكتاب والسنّة ومعاني الفرائض اللازمة؟ وأين أرواحكم؟ وكيف صورها؟ وأين مستقرّها؟ وما أوّل أمرها؟ والإنسان ما هو؟ وما حقيقته؟ وما فرق بين حياته وحياة البهائم؟ وفرق ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات؟ وما بانت به حياة الحشرات من حياة النبات؟ وما معنى قول رسول الله ﷺ: «خُلقت حوّاء من ضلع آدم»؟ وما معنى قول الفلاسفة: الإنسان هو العالم الصغير؟ ولِمَ جعلت قامة الإنسان منتصبة دون الحيوان؟ ولِمَ جعل في أربع أصابع من يديه ثلاثة شقوق وفي الإبهام شقّان؟ ولِمَ جعل في وجهه سبعة ثقب وفي سائر بدنه ثقبان؟ ولِمَ جعل في ظهره اثنتا عشرة عقدة وفي عنقه سبع؟ ولِمَ جعل رأسه في صورة ميم ويداه حاءً وبطنه ميمًا ورجلاه دالاً حتى صار لذلك كتابًا مرسومًا يترجم عن محمد؟ ولِمَ جُعلت أعداد عظامكم كذا وأعداد أسنانكم كذا؟ ولِمَ صارت الرؤساء من أعضائكم بكذا وكذا، وسألوا عن التشريح والقول في العروق وفي الأعضاء ووجوه منافع الأعضاء، ويقولون لهم: ألا تفكّرون في حالكم وتعتبرون؟ وتعلمون أنّ الذي خلقكم حكيم غير مجازف، وأنّه فعل جميع ذلك بحكمة، وله في ذلك أغراض باطنة خفيّة، حتى جمع ما جمعه وفرّق ما فرّقه، وكيف الإعراض عن هذه الأمور، وأنتم تسمعون قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١] وقوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات: ٢٠] ويقول: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٥] ويقول: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣] فأي شيء رآه الكفّار في أنفسهم وفي الآفاق فعرفوا أنّه الحق؟ وأي حق عرفه من جحد الديانة؟ أولا يدلّكم هذا على أنّ الله عزّ وجلّ أراد أن يدلّكم على بَواطن الأُمور الخفيّة وأمور في باطنه، ولو عرفتموه لزالت عنكم كل حيرة وشبهة، ووقعت لكم المعارف السنيّة، أو لا ترون أنّكم جهلتم

أنفسكم؟ التي من جهلها كان حريًا بأن لا يعلم غيرها، أوَليس الله تعالى يقول: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢]، وأمثال هذه الأمور مما يسألون عنه ويعرضون به من تأويل القرآن وتفسير ألفاظ كثيرة من ألفاظ السنن والأحكام، والجواب مَعَانٍ يفسّر بها وضع الشرائع السمعيات فيما رفع منها وما نصب، وكثير من أبواب التعديل والتجويز مما يأتي في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى، فإن أوجب ذلك للمسؤول عنه شكًا وحيرة واضطرابًا وتعلّقت نفسه بالجواب عنه، وتشوّق إلى معرفته فسألهم عنه عاملوه بمثل ما يفعل به صاحب الفأل والزرّاق والقصّاص على العوامّ عند امتلاء صدورهم بما يفخرون به أولاً عندهم من أحوال قد عرفوها من أحوالهم، فهم إلى معرفتها أكثر الحاجة وعلقوا بمعرفتها أنفسهم، وعند بلوغ القصاص إلى ما يبلغون إليه يقطعون الحديث، لتعلّق قلوب المستمعين بما يكون بعده، وهذه صفة الدعاة وحالهم، يقدمون على الكلام والمسائل ثم يقطعون فتتعلق أنفس المغرورين، بما قد تأخّر من القول الذي قدّموا له مقدّمة، فإذا خاطبهم على علم معرفته تأويل البيان قالوا له: لا تعجل، فإنّ دين الله أجلّ وأكبر من أن يبذل لغير أهله، ويجعل عرضًا للّعب وما جانسه، ويقولون: قد جرت سنّة الله جلّ وعزّ في عباده عند شرع من نصبه من النبيّين أخذ الميثاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧] وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النحل: ٩١، ٩٢] وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ...﴾ [المائدة: ٧٠] في أمثال هذا خبّر الله عزّ وجلّ فيه أنّه لم يملك حقّه إلا لمن أخذ عهده، فأعطنا صفقة يمينك بالتوكيد من أيمانك وعقودك، ألا تفشي لنا سرًا ولا تظاهر علينا أحدًا ولا تطلب لنا غيلة[1]، ولا تكلمنا إلا نصحًا ولا توالِ علينا عدوًا، في أمثال لهذا، وإنّما غرضهم في ذلك كلّه أمور: منهم أن يستدلّوا به بظاهر ما يعطيهم المخدوع من انقياده وطاعته، على باطن أمره من شكّه واضطرابه، وكيف موقع ذلك منه، ومنها التوثّق بالأمن من كشف أحوالهم وانتشار أمورهم، إلا بعد توطئه ما يريدونه حالاً فحالاً، ومنها أن يرسموه بالذل والطاعة لم والرضى منه بأن

(١) الغيلة: الاسم من الاغتيال.

يكون منقادًا، تابعًا لهم ومكبرًا، وإلا فإنَّ نكث الأيمان وقلة الاكتراث بها والفكر فيها والاعتداد بها، هو دينهم عند البلوغ إلى غايتهم التي يجرون إليها، وإنما يجعلون ذلك مانعًا لأهل هذه الطبقات، ما داموا مستشعرين للعمل بالديانات، فإن سمح المدعو بإعطاء عهده وتصاغر لهم بقوة اضطراب قلبه وشكّه قالوا له حينئذ: أعطنا جُعْلاً من مالك، وغرمًا نجعله مقدّمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها، وكان ذلك مما يستظهرون به عليه بالاستدلال به أيضًا على قوّة شكّه وتعلّق نفسه، وظهريًا لهم على الاستعانة على أمرهم وتمكينهم لدعوتهم، ثم رسموا في مبلغ ذلك رسمًا بحسب ما يراه الداعي في أمره صلاحًا، وإن امتنع عليهم المخدوع في رتبة العهد وإعطائه الداعي، أو في رتبة العزم وعطيّته أمسكوا عنه وزادوه أبدًا في شكّه وحيرته.

فهذا حال الدعوة الأولى ووصفها وما تدرّج به الدعاةُ المخدوعين.

ذكر صفة الدعوة الثانية

قال الشريف رحمه الله: فإذا قبل المخدوع الرتبة الأولى وحصل عليها اعتقد تهمة الأُمّة، فيما نقلته عمّن كان قبلها من علماء المسلمين، وقوى شكّه في ذلك ثم تقرّر في نفسه أن الله تعالى لم يرض في إقامة حقه وما شرعه لعباده إلا بأخذ ذلك عن أئمة نصبهم لهم وأقامهم لحفظ شرائعه على مراده، وسلكوا به في تقرير هذه الأمور عنده والدلالة على صواب قولهم، وجعلوا على قولهم وبرهانهم طريقًا يسلكون به مسلك أصحاب الإمامة، في تعاطي إتيانها من جهة السمع والعقل حتى يتأثر، ذلك عند مَنْ يأخذون عليه، ويقرّره في نفسه فيكون ذلك منزلة ثانية، ودعوة مرتَبة بعد الدعوة الأولى التي قدّمنا ذكرها.

ثم ينقلوه إلى الدعوة الثالثة.

ذكر صفة الدعوة الثالثة

قال: وأما الدعوة الثالث فهي أن يُقرّر الداعي عند المخدوع أنّ الذي ينبغي أن يعتقده في عدد الأئمة أنّهم سبعة، عظموا في أنفسهم وأعدادهم، ورُتّبوا سبعة كما رتبت جلائل الأمور، وأصول الترتيب كالنجوم السيّارة والسماوات والأرضين، ثم يُعدّد له ما في ذلك جارٍ على هذا العدد، ممّا سنذكره في المقامة الرابعة ونبيّنه ونذكر مذهبهم فيه إن شاء الله تعالى.

قال: ثم يقرّر عند المخدوعين أمر الأئمة وعددهم، فيقول: أوّل هؤلاء الأئمة علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ابناه، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الجليل الرضي، ثم أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، ثم السابع وهو عندهم القائم وصاحب الزمان الآخر. وقد كان منهم من يجعل القائم محمد بن إسماعيل بن جعفر، ولا يبتدىء بإسماعيل بن جعفر قبله، ومنهم من يجعل إسماعيل ثم القائم محمد بن إسماعيل، فمن فعل هذا خرج من أعداد السبعة، فإذا قرّر الداعي عند المخدوع: أن الأئمة سبعة، أسقط ستة لم يجعل لهم إمامة وهم: موسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن أحمد والحسن بن علي، ومحمد المنتظر، فإذا قبل منه المغرور ما يلقي إليه من هذا القول استقر عقله، وأخذ في صرفه عن طريق الإمامة، ويقع في أبي الحسن موسى بن جعفر ويثلبه[1] بما ليس فيه، ثم يقول له: إن الإماميّة الذين يقولون باثني عشر إمامًا ليس لهم حقيقة بما يعتقدونه يريد بهذا أن يسهّل عليه طريق المخالفة لأهل الإمامة، كما سهّل عليه التهمة لما عليه سائر الأُمة من الاعتقاد ـ كما تقدم في الدعوة الأُولى، يصدون عن طريق الإمامة في أبي الحسن، ويقال إنّ موسى بن جعفر يكنى أبا إبراهيم، يقولون: إنّا وجدنا صاحبنا محمد بن إسماعيل بن جعفر عنده علوم المستورات وبواطن المعلومات، وفقدنا ذلك عند كل أحد سواه، وربما أتوا بروايات في الطعن على أبي الحسن موسى بن جعفر ورموه بالعظائم، ويقولون: ليس له إمامة، وقد أجمعت الشيعة ـ التي إجماعها أولى بالاتباع والحجّة ـ أنّه لا يستحق الإمامة بعد مضي الحسين بن علي إلا في ولد الإمام، وقد اتفقنا وهم على صحّتها وترتيبها إلى جعفر بن محمد، ثم اختلفنا في أي أولاده أحق بها، فوجدنا عن صاحبنا علم التأويل وتفسير ظاهر الأُمور، وسرّ الله جلّ وعزّ في وجه تدبيره المكتوم، واتفاق دلالته في كلّ أمر يسأل عنه، في جميع المعلومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كلّه والتأويلات وتأويل التأويلات، فنحن الوارثون لذلك من بين طبقات الشيعة المعبّرين عنه أخذناه من جهته رويناه ممّن لا نجد من خالفنا، يمكنه أن يساوينا فيه ولا يتحقّق به ويدّعيه، فصحّ بذلك أن صاحبنا أولى بالإمامة من جميع ولد جعفر بن محمد، وربما قالوا: وجدنا فلانًا من ولد جعفر بن محمد من شأنه كذا، وفلانًا من قصّته كذا، في فروق لهم كاذبة بأقاويل لا تليق بهم، ثم يقولون: فلم يبق من سلم من الطعون المعروفة إلا صاحبنا، فوجب أن يكون هو صاحب الأمر دون كل أحد، وليس غرض هؤلاء

(١) ثلبه: عابه وتنقصه.

ـ أصحاب هذه الدعوة الخبيثة ـ أن يؤخروا موسى بن جعفر، ولا يقَدموا إسماعيل بن جعفر ولا ابنه محمد، وإنما جعلوا هذا كأداة الصانع التي لا يتم الصنعة إلا بها، فإذا انقاد لهم المغرور وسمع قولهم تيقّنوا أنهم قد تمكنوا من عقله، وسلكوا به أي مسلك أرادوه. فهذه الدعوة الثالثة.

ذكر صفة الدعوة الرابعة

قال الشريف: اعلم أنّ الدعوة الرابعة أن تقرّر عند المدعو بأن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لها أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال الناطقين على الأمور سبعة بعدد الأئمة سواء، كل واحد منهم له صاحب يأخذ عنه دعوته، ويحفظها على أُمّته، ويكون معه ظهريًا[1] في حياته وخليفة له من بعد وفاته، إلى أن يؤديها إلى آخر، يكون سبيله معه سبيله هو مع نبيّه الذي هو تابعه، ثم كذلك لكل مستخلف خليفة، إلى أن يمضي منهم على تلك الشريعة سبعة، ويسمّون هؤلاء السبعة الصامتين، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أوّلهم، ويسمّون صاحب الأوّل سوسه، وربما عبّروا عنه بغير ذلك، ثم يزعمون أنّه لا بد عند انقضاء هؤلاء السبعة واستنفاد دورهم بشرعهم من استفتاح دور ثان، ينسخ به شرع من قبله، ويكون خلفاؤه بعده يجري أمرهم كأمر من كان قبلهم، ثم يأتي بعدهم ناسخ، ثم اتباع سبعة صمت أبدًا إلى أن يأتي السابع، فينسخ لجميع ما قبله، ويكون صاحب الزمان الأخير الناطق.

ثم يرتّبون هؤلاء بالتسمية لهم والأوصاف، فيقولون: أوّل هؤلاء النطقاء آدم، وصاحبه وسوسه شيث، ويقال بابه في موضع سوسه ويسمّون بعده تمام سبعة صمتوا على شريعة آدم، ثم نوح فإنّه ناطق ناسخ وسام سوسه، ثم تمام السبعة، ثم الثالث إبراهيم وسوسه إسماعيل، ثم تمام السبعة، ثم الرابع موسى وسوسه هارون، ثم مات هارون في حياته فصار سوسه يوشع بن نون، ثم تمام السبعة بعده، ثم الخامس المسيح عيسى ابن مريم أخذها عن يحيى، وهو أحد السبعة قبله، وهو أقامه ونصبه، ولهم في هذا ما سيأتي ذكره، وسوس المسيح شمعون الصفا، ثم تمام السبعة بعده، ثم السادس محمد بن عبد الله ﷺ، وسوسه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثمّ ستة ثم السابع قائم الزمان محمد بن إسماعيل بن جعفر، وهو المنتهى إليه علوم من قبله،

(١) جعله ظهريًا: أي نسيًا منسيًا.

والقائم بعلم بواطن الأمور وكشفها، وإليه تفسيرها، وإلى أمره أُجري ترتيب سائر من قبله، في أمور سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

فهذه درجة أخرى قرّرها الداعي عند المدعو نبوّة نبيّ بعد محمد ﷺ، وسهّل بها النقل عن شريعة، وأخرج بها المدعو إليهما عما هو معلوم عند كل سامع لدعوة رسول الله ﷺ من أنّ من دينه وما علم من مذهبه ونحلته أنّه خاتم الرسل وأنّه لا نبيّ بعده، وأنّ دولته مبقاة وشريعته مفترضة أبدًا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالعلم بذلك من ديانته وما عرف من مذهبه، وأنّ أمّته بلَغت عنه ذلك وفهمته، وأنّ من مفهوم شريعته أنّه لم يكن يجوز لأحد نبوّة غيره، في وقته ولا فيما بعده، فكانت هذه الدعوة أوّل ما أخرج الداعي بها المدعوّ عن شريعة رسول الله ﷺ وأدخله في جملة الكفّار المرتدّين عن شريعته، وهو مع هذا لا يعلم ما خرج منه ولا دخل فيه.

ذكر صفة الدعوة الخامسة

قال: اعلم أنه من يحصل على ما قدّمنا ذكره يحصل عليه، وقد مهد له بطريق تعظم الأعداد، ووُكد بذكر الطبائع في أبنية العالم، وأمور كثيرة سيأتي ذكرها في المقالة الثامنة، كلها مبيّنة، على مذاهب مدخولة وأمور فاسدة مرذولة، مذاهب كثير من الملحدين المتفلسفة، مع اطّراح ما نقلت الأمّة، والاستخفاف بحال الشريعة، والاعتقاد لتعظيم الشيعة، والانتظار لفسخ ما ورث عن النبوّة، وتوقّع أمور باطنة بخلاف ما ألف من علم الظاهر، وقلة احتفال بدلالة ظاهر القرآن وغيره من الكلام، على الأمور بحقائق اللغة العربية واقتفاء أثر العرب في أوضاع كلامهم، مع تمقيت(١) العرب ومع تحبيب دناءة العجم، ويوهم أن العرب للعجم أعداء وظالمون وأنّهم لملكهم مغتصبون، هذا يقال للمدعوّ إذا كان أعجميًا، فإن كان أعرابيًا خوطب في حال دعوته: بأنّ العجم غلبوا على دعوته وفازوا بمملكته، وأنّ له الاسم ولهم الدنيا، وأنّه أحقّ بذلك منهم وأولى، في أمور من هذا يطول وصفها بحسب ما يتخرّج(٢) للداعي فيها.

ثم يمكن عنده طرفًا من الهندسة في الأشكال، ويعرف أنّ طبائع الأعداد في النظام، لأمر يستخرج منه علوم الأئمة، والطريق إلى علم الإلّه والنبوّة، ويقرّر عنده أنّ مع كل إمام حججًا متفرقين في الأرض وأنّ عددهم في كل زمان اثنا عشر رجلًا،

---

(١) مقت فلانًا: أبغضه أشد البغض. (٢) تخرج: خرج.

كما أن عدد الأئمة سبعة، وأن دلالة ذلك ظاهرة وحجّته قاهرة، بأن تعلم بأنّ الله جلّ وعزّ لا يخلق الأمور مجازفة على غير معانٍ توجبها الحكمة، وإلا فلمَ خلف النجوم، التي فيها قوام العالم سبعة؟ وجعل السماوات والأرضين سبعة؟ وأمثال هذا وبالغوا، وكذلك الاثنا عشر حجّة، عدد البروج المعظّمة، وعدد الشهور المعروفة، وعدد النقباء من بني إسرائيل، ونقباء النبي ﷺ من الأنصار، وفي كَف الإنسان أربعة أصابع في كل إصْبَع ثلاثة شقوق تكون اثني عشر شقًا، وفي كل يد إبهام فيها شقّان بها قوام جميع كفّه، وسداد أصابعه ومفاصله، فالبدن كالأرض، والأصابع كالجزائر الأربع، والشقوق كالحجج فيها، والإبهام كالذي يقوم الأرض بعد ما فيها، والشقّان فيها الإمام وسوسه لا يفترقان، ولذلك صار في ظهر الإنسان اثنتا عشر خرزة كالحجج، وفي عنقه سبعة عالية كالأنبياء والأئمة، وكذلك حال السبعة الأنقاب[1] في وجه الإنسان العالية على بدنه، في أمثال لهذا كثيرة، يحصلون بها المدعوّ على الإنس بتمهيد طريق للخروج عن أحوال الأنبياء وشرائعهم والعدول عن ذلك إلى أمور الفلاسفة في ترتيب شبههم أبدًا، ما رأوا أنّ هناك بقيّة من دين.

ذكر صفة الدعوة السادسة

قال الشريف رحمه الله: اعلم أنّهم إذا مكّنوا ما وصفنا وأحكموه ووثقوا لمساكنة المدعوّ أخذوا في تفسير معاني الشرائع بغير ما يدين به أهلها وسهّلوا عليه العدول عنها، فرتّبوا له معاني الصلاة والزكاة والحجّ والإحرام والطهارة وسائر الفرائض، على أمور سيأتي وصفها في المقالة الثامنة، على أنّ ذلك يكون تفسيره على إحكام وتمهيد بغير مجازفة ولا استعجال، فيحصل أولاً على معنى: أنّ ذلك وضع دلالة على أمور نذكرها وننبّه عليها، فإذا قوي الانسلاخ من جملة الأمّة في نفسه، وسهل عليه طريق العدول عمّا هي عليه، لم يحتشم حينئذ أن يجعل ذلك موضوعًا على جهة الرموز، إلى فلسفة من الأنبياء والأئمة، وسياسة للعامّة للجياشة إلى منافعهم في ذلك، وفي شغل بعضهم عن البغي على بعض أو عن الفساد في الأرض، مع إظهار تعظيم الناصبين لذلك، وأنّهم أهل الحكمة فيما رتّبوه منه، وإذا تمكّن أيضًا في نفسه ما بدأنا بذكره ـ نقلوه إلى التمييز بين الأنبياء وبين أفلاطون وأرسطوطاليس وغيرهما، وحسّنوا عنده أشياء من حِكَمهم، وعادوا على ناصب هذه الشرائع بالاستخفاف والمذمّة والاستحقار والطعن واللائمة، فيأتي ذلك على قلوب قد فرغت له، وسهل عليها فلم تنكره، ورأته مما بدأت به في تأنيسها.

---

(١) الأنقاب: الخروق.

ذكر صفة الدعوة السابعة

قال رحمه الله: اعلم أنّه متى أنس المدعو، بما ذكرناه كلّه أو بكثير منه، وقوى في نفس الداعي أنّه يصلح لما بعد هذا، إن كان الداعي بالغًا، وبأغراض الدعوة عالمًا، وإلى التبليغ بمن يدعوه إلى هذه الأمور قاصدًا - أتى بما نذكر؛ وأمّا إن كان الداعي مخدوعًا ومتّخذًا كالآلة ليتوصل به إلى التكسّب، ويُمهّد به الطريق ويرتّب، وهو غير بالغ إلى أعلى الرتبة في دعوة دون ذلك، فإنّه غافل لا يدري كيف قصّته، ولا يظنّ أنّ الأمر الذي يراد به إلا ما عرفه وبلغه، أو ما يجانسه ويقاربه، فإذا أراد الداعي أن يسلك بالمدعو فوق ما وصفنا قال له: قد صحّ لك أنّ صاحب الدلالة الناصب للشريعة لا يستغني بنفسه، ولا بدّ له من صاحب معه يعبّر عنه، ليكونا اثنين أحدهما هو الأصل والآخر عنه كان.

واعلم أنّ ذلك لم يحصل في العالم السفلي إلا وقد يحصل مثله في العالم العُلوي، فمذ بدء العالم اثنان هما أصل الترتيب وقوام النظام، أحدهما هو الأعلى والمفيد، والآخر هو الآخذ عنه المستفيد، وربما أنسوه في ذلك بأن يقولوا له: هذا هو الذي أراده الله بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يٓس: ٨٢]، وكن هو الأكبر في الرتبة، وأما الثاني فهو القدر الذي قال (الله) فيه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وربما قالوا: هذا معنى ما تسمعه مما جاءت به الملّة، من أنّ أوّل ما خلق الله اللوح والقلم، وقال للقلم اكتب ما هو كائن، واللوح والقلم هما ما ذكرنا، وربما قالوا: هذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فسلك به في هذا الطريق العدول عن التوحيد، وأنّ الصانع اثنان، وإن كان عندهم صنع الأجسام على جهة المِثْل والنظام، لا على معنى الاختراع والإحداث، وسيأتي ذلك وبيانه، وإنّما قدّم هذا تمهيدًا له.

ذكر صفة الدعوة الثامنة

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: اعلم أنّهم إذا رتّبوا ما ذكرنا قرّروا عند المدعوّ أنّ أحد المدَبِريْن أسبق من الآخر في الوجود وأعلى منه في الرتبة، وأنّ الآخر مخلوق منه وكائن به، ولولاه لم يكن وأنّه كوّنه من نفسه، وأنّ السابق أنشأ الأعيان، والثاني صوّرها وركّبها، ثم ذكروا له منزلة السابق، وأنّ السابق كان عمّن كان منه، كما كان الثاني عن السابق، إلاّ أنّ الذي كان عنه السابق لا اسم له ولا

صفة ولا ينبغي لأحد أن يعبّر عنه ولا أن يعبده، فإذا بلغ هذه الرتبة سارعوا: إلا أنّ في الأسباب التي كان لها عندهم السابق عمّن كان منه ممّن لا اسم له ولا صفة، ما هو؟ وهل هو باختيار أم بغير اختيار؟ وكذلك الحال التي كان لها الثاني عن السابق اختلافًا، فذهب بعضهم إلى أنّ ذلك كان لفكرة عرضت لمن كان عنه السابق، فجاء منها السابق، ثم عرضت فكرة للسابق فجاء منها الثاني، على نحو ما يقوله بعض المجوس في توليدِ، اتفق واهرمن الذي هو الشيطان ـ عن القديم، وأنّ ذلك بفكرة وقعت رديّة ولدته؛ وربما قال بعضهم إنّ تلك الفكرة، لأنّ الذي لا صفة له فكّر: أقدر أخلق مثلي أم لا؟ وكان من ذلك أن تصوّر التالي، ثم فكّر التالي في ذلك فلم يأتِ بمثله، في أنحاء من هذه الأمور التي سيأتي وصفها، ممّا يخرج به قائلوه عن كل ديانة دان بها أحد من أهل الشرائع، التي ينعقد معها نبوّة وشريعة ولا يكون إلا مع دهريّة أو ثنويّة(١).

ثم رتّب هؤلاء أنّ التالي يدأب في أعمال منه، حتى يلحق بمنزلة السابق، وأنّ الناطق في الأرض يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة التالي، فيقوم مقامه فيكون بمنزلته سواء، وأنّ السُوس يدأب في أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء، وأنّ الداعي يدأب في أعماله حتى يبلغ منزلة السُوس وحاله سواء، وأن هكذا ترجي أمور العالمين في أدواره وأكواره، في أمثال لهذا.

ثم قرّر عنده أنّ القول في معنى النبيّ الصادق الناطق ليس يجري على ما يقوله أهل الشرائع، من أنه جاء بمعجزات ودلالات خارجة عن أحوال العادات، وأنّ معنى ذلك إنّما هو يأتي بأمور تنتظم بها السياسة ووجوه الحكمة، وترتّب بها الفلسفة، ومعانٍ تنبىء عن حقائق ابتداء السماوات والأرض، وبدأتها على حقائق الأمور إمّا برموز وإمّا بإفصاح، وتنظيم ذلك شريعة يقتفي عليها الناس، ورتّب له أمر القرآن، وما معنى كلام الله، بخلاف ما يدين به أهل الكتب، ورتّب له أمر القيامة وتقضّى أمر الدنيا وحصول الجزاء من الثواب والعقاب، على أمور ليست ممّا يعتقده الموحّدون في شيء، بل ذلك على معان أخر، من تقلّب الأمور وحدوث الأدوار عند انقضاء الكواكب وعوالم جماعتها، والقول في الكون والفساد على ترتيب الطبائع، على أمور كلها سيأتي شرحها إن شاء الله تعالى.

---

(١) الثنوية: هؤلاء هم أصحاب الاثنين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه... (الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤٤).

ذكر صفة الدعوة التاسعة

قال: اعلم أنّه إذا حصل المدعوّ على ما ذكرنا أحيل حينئذ على طلب الأمور وتحقيقها وحدودها والاستدلال عليها من طرق المتفلسفة وإدراكها من كتبهم، وجعلوا ما قدّموه سابقًا له على طرائقهم، واستنباط ما خفي عنهم وبنوه على علم الأربع طبائع، التي هي استقصّات وأصول الجواهر عندهم، وعلى ترتيب القول في الفلك والنجوم والنفس والعقل وأمثال ذلك فيما هو معروف، فيحصل الآن البالون إلى هذه الرتب على أحد هذه الوجوه، التي يعتقدها بعض أهل الإلحاد ممّن يدين بقدم أعيان الجواهر، ويصير ما قدم من ذكر الحدث والأصول رموزًا إلى معاني المبادىء، وتقلّب الجواهر وحدوث الأمور التي يكون لها على أحوال وأحكام، وعلى نحو تنزيل كثير منهم لحال العقل من حال النفس وحال الفلك من حال العقل، وحال الطبائع والأعراض من حال النفس والعقل، وحال المنقلب بالكون والفساد وما يكون من حال الهيولى(١) بتقلّب الأعراض المختلفة وترتيب العناصر، والقول في العلّة: هل تفارق المعلول أم لا؟ وإقرار بعضهم بصانع لم تزل معه العناصر والمبادىء أوّلاً، وما هي تلك الأمور وكيف حدودها، وما يصحّ من صفاتها والأسباب التي تعلم بها، فربّما صار البالغ في النظر في هذا إلى اعتقاد مذهب ماني(٢) وابن ديصان، وربما صار إلى مذهب المجوس، وربما دان بما يحكى عن أرسطاطاليس، وربما صار إلى أمور تحكى عن أفلاطون، وربما اختار من تلك معاني مركبة من هذه الأمور، كما يجري كثير من هؤلاء المتحيّرين.

قال: وجميع ما وصفنا من التدريج بالمقدّمات إنما يحصل الانسلاخ من شرائع أهل الكتُب والنبوّة فقط، وجميعها يصلح أن تُجعل تمهيدًا ورموزًا إلى جميع هذه المذاهب التي ذكرناها، وتجتذب بألفاظها إليها بالتأويل بحسب ما يريد المعتقد، لما شاء منها ممّا سنبيّن ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الهيولى (عند القدماء): مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير في شتى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية.

(٢) ماني: هو ماني بن فاتك الحيكم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية. . . (الملل والنحل للشهرستاني ١: ٢٤٤).

قال: وأمّا سلخه من جميع ما تقدم عليه من أمر الإمامة والنبوّة فإنّه أوّلاً يجعل عنده منازل، جميعهم منقوصة غير منزلة محمد بن إسماعيل صاحب الدور الآخر، ويرتّب له أنّ جميعهم لا يأتي بوحي من الله عزّ وجلّ، ولا معجزة كما يقول الظاهرية، وإنما يختص بالصفا فيلقى في فهمه ما يريد الله، فيكون ذلك كلامًا، ثم يجسّده النبيّ ويظهره للخلق، وينظّم الشرائع بحسب المصالح في سياسات الناس ثم يؤمر بالعمل بذلك مدّة، ثم يترك إلى أن يؤمر بذلك، يستدعي بها الناس، لا لأنّها تجب على أهل المعرفة بأعراضها وأسبابها ثم يقال له بعد ذلك إنّما هي آصار(١) وأثقال حملها الكفار، وكذلك سائر المحرّمات، ثم يلقّن أنّ إبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء أنبياء سياسات وشرائع، فأما أنبياء الحكمة فإنّ هؤلاء أخذوا عنهم كأفلاطون وأمثاله من الفلاسفة، فبنوا شرائعهم ليوصلوا بها العامّة إلى علومهم؛ ثم يقال له: انظر أيهما أحكم، فلان النبيّ أو فلان؟ ثم يلقّن أن في بعض أحكامهم اختلالاً وفسادًا، ثم يلقن البراءة منهم وسوء سيرتهم، وأنّهم قتلوا النفوس، وأمثال هذا. ويلقّن في محمد بن إسماعيل بن جعفر أنّه سيظهر، ثم يقال له بعد ذلك: إنما يظهر في العالم الروحاني إذا صرنا إليه، أما الآن فإنما ظهر أمره على ألسن أوليائه، ثم يلقّن أنّ الله أبغض العرب لما قتلت الحسين بن عليّ فنقل خلافة الأئمة عنهم كما نقل النبوّة عن بني إسرائيل لما قتلوا الأنبياء، ولا يقوم بخلافة الأئمة إلا أولاد كسرى، فيكون ذلك غاية ما يقدّموه في هذا الباب كلّه متى استوى لهم، فإنْ لم يتمّ له ذلك مع الدعوة تركه في أي منزلة نزلها، مستعيذًا بهذه الوجوه.

قال: ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أنّ هذا الترتيب والتخريج والتنزيل إنّما كانت الدعاة عليه عند اجتماعها على مبتدأ الدعوة، والانعقاد على طلب الغوائل(٢) للمسلمين، فيها اتفقوا على جملةٍ منها وأصولها، وفتحوا بالفكر طريقها، ومهّدوه على معنى ما ذكرناه، وتفرّقوا في البلدان، وتمهيدهم بحسب أفكارهم واجتهادهم في الحيلة على المستمع، وتميّزوا في ذلك وتمكّنوا منه في طول الأيّام، سيّما مذ قويت أحوال الجنّابي على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخباره.

قال: فقد بيّنا خبر هذه الدعوة وكيف جرى أمرها، وكيف يُسلك بالمخدوع كل مسلك، حتى يصير إلى التعطيل والإباحة، فهذا أصل هذه الدعوة الملعونة وما أُسّست

---

(١) الآصار: جمع الإصر، وهو الثقل، أو هو العهد المؤكد.

(٢) الغوائل: جمع الغائلة، وهي الفساد والشر؛ أو هي الداهية.

عليه قديمًا، ثم تغيّرت وتفرّعت منذ انتشرت ببلاد المغرب ومصر والشام، وجعلوا منها طرقًا وأبوابًا، فمنها علم القوت وعلم الكفاف وبلاغات مفصّلة، وبطل الترتيب الأول الذي وصفنا: من أنّ الدعوة كانت إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، فصار موضعه من يكون من ولد عبيد الله بن ميمون القدّاح، الذين ملكوا المغرب ومصر والشام، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبارهم، ولنصل هذا الفصل بذكر العهد الذي يحلفون به.

ذكر العهد الذي يؤخذ على المخدوعين في مبدأ الدعوة الخبيثة

قال الشريف: يقول الداعي لمن يأخذ عليه العهد: جعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته، وذمّة رسول الله ﷺ وأنبيائه وملائكته ورسله، وما أخذه على النبيّين من عهد وعقد وميثاق أنّك تستر جميع ما تسمعه وسمعته، وعلمته، وتعلمه، وعرفته وتعرفه من أمري وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الإمام، الذي عرفت إقراري له: ونصحي لمن عقد ذمته، وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ومخالصته له، من الذكور والإناث والصغار والكبار، فلا يظهر من ذلك قليلاً ولا كثيرًا ولا بشيء يدل عليه، إلا ما أَطْلقتُ لك أنّك تتكلم به، أو أطلقه صاحب الأمر المقيم بهذا البلد، فتعمل في ذلك بأمرنا ولا تتعدّاه ولا تزيد عليه، وليكن ما تعمل عليه قبل العهد بقولك وفعلك: أن تشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وتشهد أنّ الجنّة حق وأنّ النار حق، وأنّ الموت حق وأنّ البعث حق وأنّ الساعة حق آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مَنْ في القبور، وتقيم الصلاة لوقتها، وتؤتي الزكاة بحقّها، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت الحرام، وتجاهد في سبيل الله حق جهاده، على ما أمر الله به رسوله ﷺ، وتوالي أولياء الله وتعادي أعداء الله وتقول بفرائض الله وسننه وسنن نبيّه ﷺ وعلى آله الطاهرين، ظاهرًا وباطنًا وعلانيةً وسرًا وجهرًا، فإنّ ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه، ويثبته ولا يزيله، ويقرّبه ولا يباعده، ويشدّه ولا يضعفه، ويوجب ذلك ولا يبطله، ويوضحه ولا يعميه، كذلك هو في الظاهر والباطن، وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين، على الشرائط المبينة في هذا العهد.

وجعلتَ على نفسك الوفاء بذلك ـ قل نعم، فيقول المغرور: نعم، ثم يقول له: والصيانة له بذلك وأداء الأمانة له على ألا تُظهر شيئًا أُخذ عليك في هذا العهد ـ

في حياتنا ولا بعد وفاتنا، ولا على غضب ولا على حال رضى، ولا على حال رغبة ولا رهبة، ولا على حال شدّة ولا على حال رخاء ولا على طمع، ولا على حال حرمان، تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له ـ على الشرائط المبيّنة في هذا العهد.

وجعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وعلى آله أن تمنعني وجميع من أسمّيه معي لك وأثبته عندك، ممّا تمنع منه نفسك، وتنصح لنا ولوليك ـ وليّ الله ـ نصحًا ظاهرًا وباطنًا، فلا تخن الله ووليّه، ولا تخنّا ولاَ أحدًا من إخواننا وأوليائنا، ومن تعلم أنه منا بسبب، في أهل ولا مال ولا رأي ولا عهد ولا عقد تتأوّل عليه بما تبطله.

فإن فعلتَ شيئًا من ذلك ـ وأنت تعلم أنّك قد خالفته، وأنت على ذكر منه ـ فأنت بريء من الله خالق السموات والأرض، الذي سوّى خلقك وألّف تركيبك وأحسن إليك في دينك ودنياك وآخرتك، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقرّبين الكروبيين[1] والروحانيّين، والكلمات التامّات والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتبرأ من التوراة والإنجيل والزبور والذكر الحكيم، ومن كل دين ارتضاه الله في مقدم الدار الآخرة، ومن كل عبد رضي الله عنه، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه، وخذلك الله خذلانًا بيّنًا، فعجّل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير إلى نار جهنّم، التي ليس فيها رحمة وأنت بريء من حول الله وقوّته، مُلْتجأً إلى حول نفسك وقوّتها، وعليك لعنة الله التي لعن بها إبليس، فحرم عليه بها الجنّة وخلّده النار.

إن خالفت شيئًا من ذلك لقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان، ولله عليك أن تحجّ إلى بيته الحرام ثلاثين حجة نذرًا واجبًا، ماشيًا حافيًا، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بذلك؛ وإن خالفت ذلك فكلّ ما تملكه في الوقت الذي تخالف فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين، الذين لا رحم بينك وبينهم، لا يأجرك الله عليه، ولا يدخل عليك بذلك منفعة، وكل مملوك لك ـ من ذكر أو أنثى ـ في ملكك وتستعبده إلى وقت وفاتك، إن خالفت شيئًا من ذلك، فهم أحرار لوجه الله عزّ وجلّ، وكل امرأة لك وتتزوّجها إلى وقت وفاتك ـ إن خالفت شيئًا من ذلك ـ فهن طوالق ثلاثًا بتّة، طلاق الحرج والسنّة لا مثنويّة لك فيها ولا اختبار ولا رجعة ولا مشيئة، وكلّ ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام، وكل ظهار فهو لازم لك.

---

(١) الكروبيون: المقربون إلى الله من الملائكة، منهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، في رأي بعض المفسرين.

وأنا المستخلف لك لإمامك وحجّتك، وأنت الحالف لهما وإن نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلّفك به، فهذه اليمين من أوّلها إلى آخرها محدّدة عليك لازمة لك، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بها، والقيام على ما عاهدت بيني وبينك، قل نعم، فيقول المخدوع: نعم.

فهذه اليمين التي يؤنس بها المخدوع من ذكر الصلاة والصيام والزكاة والحج وشرائع الإسلام، فما ينكر شيئًا مما يسمعه، وكل ذلك تأنيس ما يتوصل به إلى هذه الأمور، التي تقدّم ذكرها على التدريج.

قال الشريف رحمه الله تعالى: ووجدتُ في كتاب من كتبهم يعرف بكتاب السياسة ما يشرح به ذكر ما تقدم من أمر الدعوة، فيه وصايا الدعاة، وهذا مختصر منه يقول فيه:

من وجدته شيعيًا فاجعل التشيع عنده دينك، واجعل المدخل عليه من جهة ظلم الأُمّة لعلي وولده، وقتلهم الحسين وسَبْيهم البنات، والتبرُّؤ من تيم وعدي ومن بني أميّة وبني العبّاس، وما شاكل ذلك من الأعاجيب التي تسلك عقولهم، فمن كان بهذه الصورة أسرع إلى إجابتك بهذا الناموس، حتى يتمكّن ممّا يحتاج إليه؛ ومن وجدتَه صائبًا داخله بالأسابيع يقرب عليك جدًا، ومن وجدته مجوسيًا فقد اتفقتَ معه في الأصل من الدرجة الرابعة، من تعظيم النار والنور والشمس، واتل عليه أمر السابق فإنّه لهرمُس الذي يعرفونه بالنور المكنون من ظنّه الجيّد والظلمة المكنونة من وهمه الرديء، فإنّهم مع الصابئين[1] أقرب الأمم إلينا وأولاهم بنا، لولا يسير صحّفوه بجهلهم به؛ وإن ظفرت بيهودي فادخل عليه من جهة المسيح، يعني مسيح اليهود الدجّال وأنّه المهدي، وأنّ عند معرفته تكون الراحة من الأعمال وترك التكليفات، كما أمر بالراحة في يوم السبت، وتقرّب من قلوبهم بالطعن على النصارى والمسلمين الجهّال، وزعمهم أن عيسى لم يولد ولا أب له، وقرّر في نفوسهم أنّ يوسف النجّار أبوه، وأنّ مريم أُمّه، وأنّ يوسف كان ينال منها ما ينال الرجال من نسائهم وما يشاكل ذلك، فإنّهم لا يلبثون أن يتبعوك؛ وادخل على النصارى بالطعن على اليهود والمسلمين جميعًا، وبصحة عقدهم الصليب عندهم وعرّفهم تأويله، وأفسد عليهم ما قام لهم من جحد الفارقليط، وقرّر عندهم أنه جاء وأنك إليه تدعوهم، ومن وقع إليك

(١) الصابئون: قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنهم على ملة نوح، وقبلتهم مهب الشمال عند منتصف النهار. والصابئون أيضًا: من يتركون دينهم ويدينون بآخر.

من المنانية[١] فإنّه يحرّك الذي منه تغترف، فداخلهم بالممازجة من الباب السادس، وأظهر من الدرجة السادسة من حدود البلاغ، وامتزاج الظلمة بالنور إلى آخر ما في الباب من ذلك، فإنّك تملكهم به وتحيلهم، فإن أنست من بعضهم رشدًا كشفت له الغطاء. ومن وقع إليك من الفلاسفة فقد علمت أن على الفلاسفة العهدة، وإنّا قد اجتمعنا وهم على نواميس الأنبياء وعلى القول بقدم العالم، لولا ما يخالفنا بعضهم فيه من أنّ للعالم مدبّرًا لا يعرفونه، فإنّه وقع الاتفاق على أنّه لا مدبّر للعالم فقد زالت الشبهة فيما بيننا وبينهم، وإن لك ثنوي فبَخٍ بَخٍ قد ظفرت، فالمدخل عليه بإبطال التوحيد، والقول بالسابق والتالي ووراثة أحدهما، على ما هو مرسوم في أوّل درجة البلاغ وثالثه، وإنْ وقع لك سُنيّ فعظّم عنده أبا بكر وعمر واذكر فيهما فضائل، واثلب عليًّا وولده واذكر لهم مساوىء، ولوّح له أنّ أبا بكر وعمر قد كان لهما في هذا الأمر ـ الذي تلقيه إليه ـ نسب، فإذا دخلت عليه بهذا المدخل درجته إلى ما تريد وملكته، واتخذ غليظ العهود ووكيد الأيمان وشديد المواثيق جُنّة لك وحصنًا، ولا تهجم على مستجيبيك بالأشياء التي تبهر عقولهم، حتى ترقّيهم إلى المراتب حالاً فحالاً، ودرّجهم درجة درجة، فواحد لا تزيده على التشيّع والأيمان لمحمد بن إسماعيل شيئًا، وأنّه حي لا تجاوز به هذا الحد، وأظهر لهم العفاف عن الدرهم والدينار وخفّف عليهم وطأتك، ومره بالصلاة السبعين، وحذّره الكذب والزنا واللواط وشرب الخمر، وعليك في أمره بالرفق والتؤدة والمداراة يكن لك عونًا على دهرك وعلى من يعاديك أو يتغيّر عليك من أصحابك وينافسك، فلا تخرجه عن عبادة إلهه، والتدبّر بشريعته، والقول بإمامة عليّ وبنيه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأقم له دلائل الأسابيع فقط، ودقّه بالصلاة دقًا، فإنّك إن أومأت إلى كرائمه يومًا ـ فضلاً عن ماله ـ لم يمنعك، فإن أدركته الوفاة وصّى إليك بما خلف وورثّك إياه، ولم ير أنّ في العالم أوثق منك، وأخّر ترقّيه من ذلك إلى نسخ شريعة محمد، وأنّ السابع هو الخاتم للرسل، وأنّه ينطق كما نطقوا ويأتي بأمر جديد، وأنّ محمدًا صاحب الدور السادس، وأنّ عليًا لم يكن إمامًا، وحسّن القول فإنّ هذا باب كبير وعلم عظيم، مرجيّ الارتقاء إلى ما هو أكبر منه، ويعينك على زوال ما جاء من قبله من وجود النبوّات، على المنهاج الذي هو عليه، وقليل من ترقّيه من هذا الباب إلى معرفة أم القرآن ومؤلفه وسننه.

(١) المنانية: أتباع ماني ديانة فارسية.

وإياك أن تغتر بكثير ممّن يبلغ معك إلى هذه المنلزة فترقّيه إلى غيرها، إلا من بعد طول المؤانسة والمداوسة واستحكام الثقة، إنّ ذلك يكون عونًا لك عند بلاغه على تعطيل الكتب، التي يزعمون أنّها منزلة من عند الله، فيكون هذا نعم المقدّمة؛ وآخر ترقّيه من هذا إلى ما هو أعلى منه، فإنّ القائم قد مات، وأنّه يقوم روحانيًا، وأنّ الخلق يرجعون إليه بصور روحانيّة، وأنّه يفصل بين العباد بأمر الله عزّ وجلّ، يشتفي من الكافرين للمؤمنين بالصور الروحانيّة، فإن ذلك يكون عونًا لك عند بلاغه على إبطال المعاد، الذي يزعمونه والنشور من القبور؛ وآخر ترقّية من هذا إلى إبطال الملائكة في السماء والجنّ في الأرض، فإنّه قبل آدم بشر كثير، وتقيم على ذلك الدلائل المرسومة من كتب شيوخنا المتقدّمين، فإنّ ذلك مما يعينك في وقت بلاغه، على تسهيل التعطيل[1] لله، والإرسال بالملائكة إلى الأنبياء، والرجوع به إلى الحق، والقول بقدم العالم؛ وآخر ترقّيه إلى أوائل درج التوحيد، وتدخل عليه بما تضمّنه كتاب الدرس الشافي للنفس من أن لا إله لا صفة ولا موصوف، فإنّ ذلك ممّا يعينك على القول بالإلهية، تستحقّها عند البلاغ إلى ذلك، ومن رقّيته إلى هذه المنزلة فعرّفه حسب ما عرّفناك حقيقة من أمر الإمام، وأنّ إسماعيل ومحمدًا ابنه من أبوابه، وفي ذلك عون لك على إبطال إمامة ولد علي بن أبي طالب، عند البلوغ والرجوع إلى القول بالحق لأهله ثم لا تزال شيئًا فشيئًا في أبواب البلاغ السبعة، حتى تبلغ الغاية القصوى على تدريج، وكل باب يأتي يشهد للمتقدّم قبله، والمتقدّم يشهد للمتأخر.

واستعمل في أمرك الكتمان كما يوصي بني القوم خاصّته، فقال: استعينوا على أموركم بالكتمان، ولا تظهر أحدًا على شيء ممّا تُظهر عليه من هو فوقه بوجه ولا سبب، وعليك بإظهار التقشُّف للعامّة والوقار عندهم، وتجنَّبْ ما هو منكر عندهم، ولا تنبسط كل الانبساط لإخوانك البالغين كما فعل من كان قبلك فإنه أتى بالتشديد ثم حلّ الأمور، فإذا تدبّرت بهذا التدبير وسلكت طريقته فقد سلكت طريق الأنبياء وأخذت حدودهم، وعليك بعد ذلك بالاجتهاد في معالجة خفّة اليد، والأخذ بالأعين والحذق بالشعبذة، فلن يخلو من الحاجة إلى ذلك عند قوم ينسبونك بعمله إلى إقامة المعجزات، كما نسبوا قومًا تقدّموا؛ وعليك بمعرفة أحاديث الأوّلين وقصصهم وطرائقهم ومذاهبهم، لتكون بيّنة أمرك في الأقاويل على قدر ما يصلح لأهل زمانك، ترشد وتوفَق ويقدّم على الأيام أمرك، ويعلو ذكرك، ويكون الداخل في أمرك بعد

(١) المراد بالتعطيل: نفي الصفات، والمعطلة، هم المعتزلة.

وفاتك أكثر من الداخل معك في حياتك، فينفع لك ولمخلفيك من بعدك بك، وعلى يديك ويدي أمثالك من أهل النجابة والعقل دعوة الحق، وتملك لك ولعقبك وذريّتك ملكًا لا ينبغي لغيرك مثله.

فهذه وصيّتي لك مشتملة على جمل من النواميس الطارقة للأنبياء على قدر عقولهم.

قال الشريف رحمه الله تعالى: ووجدتُ في هذا الكتاب المعروف بكتاب السياسة أيضًا فصلاً فيه (ولشيخنا الجليل المقدس)، وهذا مختصر منه يوصي دعاته في أهل الأديان ـ وذلك لأمّة محمد خاصة: ـ

فابذل الآن سيفك فيهم إذا تمكنت منهم وصار لك حزب، وظهرْتَ بهذه الحيل التي قد وقفتك عليها، واستملت الناس بها فإنّهم أعداؤنا، وصفْ أموالهم واستفرد بناتهم وأولادهم، ولا تخفر[1] لهم ذمّة ولا تحفظ لهم قربة، ولا ترحم علويًا، فلو تمكن علوي كتمكّن غيره من الأنبياء للقينا منه جهدًا، وعبّر بما يدّعيه من حقوق جدّه على هؤلاء الحمير ما هو أكثر مما عبره جده، وإياك والإغضاء عمّن تجده من ولد عليّ، يعني اقتله إذا تمكّنت منه، وإيّاك والرخصة لأحد من أسنانك في الثقة بواحد منهم، تهتدي وتوفّق لا زلت بالعلم سعيدًا، وإلى الخير هاديًا ومهديًا، وعلى جميع الأحوال الحمد لإلهنا على ما منحنا، وصلواته على عباده المصطفين، يعني إلهه الذي أباحه اللذات وأعماه عن الهدى، وفتح له طرق الضلالة، وعباده الذين اصطفى دعاته الذين بهم يضلّون الناس.

هذا ما حكاه الشريف أبو الحسين من دعواتهم التسع، وعهدهم الذي يأخذونه ووصاياهم.

وحكى عز الدين بن الأثير الجزري رحمه الله تعالى في تاريخه الكامل ـ عند ذكره لأخبار القرامطة قال:

وكان فيما يحكى عن مذهبهم أنّهم جاؤوا بكتاب فيه ـ يقول الفَرَج بن عثمان ـ وهو من قرية يقال لها نصرانة، وهو داعية المسيح وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفيّة، وهو جبريل، وذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان وقال: إنّك الداعية، وإنّك الحجّة، وإنّك الناقة، وإنّك الدابّة، وإنّك يحيى بن زكريا، وإنّك روح القدس، وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات ـ ركعتان قبل

(١) خفر العهد: نقضه.

طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأنّ الأذان في كل صلاة أن يقول: الله أكبر، أربع مرات أشهد أنّ لا إله إلا الله مرتين، أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحًا رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أنّ موسى رسول الله، أشهد أنّ عيسى رسول الله، أشهد أنّ محمدًا رسول الله، أشهد أنّ أحمد بن محمد ابن الحنفيّة رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهو من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفيّة، والقبلة إلى بيت المقدس، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة التي يقرأها:

الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه، المنجد لأوليائه بأوليائه، قل إنّ الأهلّة(١) مواقيت للناس ظاهرها، ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها، أوليائي الذين عرفوا عبادي، سبيلي: اتّقوني يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أُسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري أدخلته في جنّتي وأخلدته في نعيمي، ومن زال عن أمري وكذّب رسلي أخلدته مهانًا في عذابي، وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يَعْلُ عليّ جبّار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس الذي أصرّ على أمره ودام على جهالته، وقال: لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين، أولئك هم الكافرون، ثم يركع ويقول في ركوعه: سبحان ربّي ورب العزّة، وتعالى عما يقول الظالمون يقولها مرّتين، فإذا سجد قال: الله أعلى مرّتين، الله أعظم مرّتين.

ومن شرائعه أن يصوم يومين في السنة، وهما المهرجان والنيروز(٢)، وأنّ النبيذ حرام، والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وأنّ من حاربه واجبٌ قتله، ومن لم يحاربه ممّن خالفه أخذ منه الجزية، ولا يؤكل كلّ ذي ناب ولا ذي مخلب.

وقد أخذ هذا الفصل حقّه من الإطالة والإسهاب، فلنذكر مبدأ هذه الدعوة.

ذكر ابتداء دعوة القرامطة

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: كان مبدأ هذه الدعوة الخبيثة إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وزعموا أنّه الإمام المهدي الذي يظهر في آخر الزمان

(١) الأهلة: واحدتها هلال.

(٢) النوروز أو النيروز: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية.

ويقيم الحق وأنّ البيعة له، وأنّ الداعي إنما يأخذها على الناس له، وأنّ ما يجمع من الأموال مخزون له إلى أن يظهر، ولم تزل هذه الدعوة إلى محمد بن إسماعيل إلى أن هرب سعيد المسمّى بعبيد الله من سَلَمْيَة(١) إلى المغرب، وتلقّب بالمهدي فصار هو الإمام، وانتسب إلى أنّه من ولد إسماعيل بن جعفر، فنقلوا الدعوة إليه، وكان القول في المبدأ: أن محمد بن إسماعيل حيّ لم يمت، وأنّه يظهر في آخر الزمان وأنه مهديّ الأمّة.

قال: ولم يكن غرض هذا المحتال أن يرفع محمد بن إسماعيل، ولا يأخذ له بيعة، إنّما جعله بابًا يستغل به عقل من يدخل فيه ويتبيّن له أنّه قد تمكّن من خديعته وبلغ المراد منه، شيعيًا كان أو سنيًّا. قال: ولما أظهر اللعين ما أظهر من هذه الأقوال كلها، بعد تعلقه بذكر الأئمة والرسل والحجّة والإمام، وأنّه المعوّل والقصد والمراد، وبه اتسقت هذه الأمور ولولا هو لهلك الحق وعدم الهدى والعلم، وظهر في كثير منهم الفجور، وبسط بعضُهم أيديهم بسفك الدماء، وقتل جماعة ممّن أظهر خلافًا لهم، فخافهم الناس جدًا واستوحشوا من ظهور السلاح بينهم، فأظهر موافقتهم كثير من مجاوريهم، مقاربةً لهم وجزعًا منهم.

ثم إنّ الدعاة اجتمعوا واتّفقوا على أن يجعلوا لهم موضعًا، يكون وطنًا ودار هجرة يهاجرون إليها ويجتمعون بها، فاختاروا من سواد الكوفة في طسّوج الفرات ـ من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميّات، قرية تعرف بمهيماباذ، فنقلوا إليها صخرًا عظيمًا، وبنوا حولها سورًا منيعًا عرضه ثمانية أذرع، وجعلوا من ورائه خندقًا عظيمًا، وفرغوا من ذلك في أسرع وقت، وبنوا فيها البنيان العظيم، وانتقل إليها الرجال والنساء من كل مكان، وسمّيت دار الهجرة وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين.

فلم يبق بعد هذا أحد إلا خافهم، ولا بقي أحد يخافونه لقوّتهم وتمكّنهم في البلاد، وكان الذي أعانهم على ذلك تشاغل السلطان ببقيّة الخوارج وصاحب الزنج بالبصرة، وقصر يد السلطان وخراب العراق وركوب الأعراب واللصوص وتلف الرجال وفساد البلدان وقلّة رغبة من يلي الأعمال من ذوي الإصلاح والأمانة من العمّال وأصحاب الحروب، فتمكّن هؤلاء الدعاة ومن تبعهم بهذا السبب، وبسطوا أيديهم في البلاد وعلت كلمتهم، فغلبوا على ذلك سنين.

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وياء مثناة من تحت خفيفة: هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين. . . (معجم البلدان).

ذكر انتفاض الدعوة عن حالتها الأولى ومقتل عبدان وما كان من أمر زكرويه بعده

قال الشريف: وكان قرمط يكاتب من بسَلَمْية من الطواغيت فلما توفي من كان في وقته وجلس ابنه من بعده كتب إلى حمدان قُرْمُط كتابًا، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه أنكر ما فيه، وتبيّن فيه ومنه ألفاظًا قد تغيّرت، وشيئًا ليس هو على النظام الأوّل، فاستراب به وفطن أنّ حادثة حدثت، فأمر قرمط ابن مليح ـ وكان داعيًا من دعاته ـ أن يخرج فيتعرف الخبر، فامتنع عليه واعتذر، فأنفذ من أحضر عبدان الداعية من عمله، فلما حضر أنفذه ليتعرف ما حدث من هذا الأمر، ويكشف عن سبب تغيّره، فسار عبدان لذلك، فلما وصل عُرّف بموت الطاغية الذي كانوا يكاتبونه، فاجتمع بابنه وسأله عن الحجّة ومَنْ الإمام بعده، الذي يدعو إليه، فقال الابن: ومَنْ الإمام؟ قال عبدان: محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه، وكان حجّته، فأنكر ذلك عليه وقال: محمد بن إسماعيل لا أصل له، ولم يكن الإمام غير أبي وهو من ولد ميمون بن ديصان، وأنا أقوم مقامه، فعرف عبدان القصة واستقصى الخبر وعلم أنّ محمد بن إسماعيل ليس له في هذا الأمر حقيقة، وإنما هو شيء يحتالون به على الناس، وأنّه ليس من ولد عقيل بن أبي طالب، فرجع عبدان إلى قرمط فعرّفه الخبر، فأمره قرمط أن يجمع الدعاة ويعرّفهم صورة الأمر وما تبين منه، ويقطع الدعوة، ففعل عبدان ذلك وقطعت الدعوة من ديارهم، ولم يمكنهم قطعها من غير ديارهم، لأنها كانت قد امتدّت في سائر الأقطار وامتدّ شرها، وقطعت الدعاة مكاتبة أصحابهم الذين بسَلَمْيَة.

وكان رجل من أولاد القَدّاح قد نفذ إلى الطالقان يبث الدعاة، ونزل بقرمط وهو بسواد الكوفة عند عبوره إلى الطالقان، وكانت الدعاة يكاتبونه، فلما انقطعت المكاتبة عن جميع أولاد القدّاح قطعت عن هذا الذي بالطالقان، فطال انتظاره، فشخص عن الطالقان ليقصد قرمط، وكان قرمط قد سار إلى كَلْواذَى[1]، فلما وصل إلى كلواذى سأل عن قرمط، فعرف أنّه انتقل فلا يُدرى أين مضى وما عرف لقرمط بعد ذلك خبر، ولا عُلمت وفاته ولا ما اتفق له، فقصد ابن القدّاح سواد الكوفة، فنزل على عبدان، فعتب عليه وعلى جميع الدعاة في انقطاع كتبهم عنه، فعرّفه عبدان أنهم

(١) كلواذى: هو طسوج قرب مدينة السلام بغداد، وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وهي الآن خراب... (معجم ياقوت).

قطعوا الدعوة وأنهم لا يعودون فيها وأن أباه كان قد غرّهم وادّعى نسبه من عقيل بن أبي طالب كذبًا ودعا إلى المهدي، فكنّا نعمل على ذلك، فلما تبينا أنّه لا أصل لذلك، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان وأنّه صاحب الأمر، تُبْنا إلى الله تعالى مما تحمَّلناه، وحسبنا ما كفرنا أبوك فتريد أن تردّنا كفارًا؟! انصرف عنا إلى موضعك.

قال: وكان عبدان قد تاب من هذه الدعوة حقيقة، فلما أَيِس منه صار إلى زَكْرُويه بن مهْرُويَه، فعرّفه خبر عبدان وما ردّ عليه، فلقيه زكرويه بكل ما يحب، وقدر أنّه ينصبه داعيًا مقام أبيه، فيستقيم له أخذ الأموال وجمع الرجال، وواطأه على ذلك، وقال له: إن هذا الأمر لا يتم مع عبدان، لأنه داعي البلد كلّه، والدعاة من قبله والناس من تحت يده، وأنه لا يجيبه إلا أهل دعوته خاصة. وشرعًا في إعمال الحيلة على قتل عبدان، واتفقا على ذلك، ثم وجّه زَكْرُويَه إلى رجل من بني تميم بن كليب وأخ له كانا من أهل دعوته، وأحضر جماعة من قراباته وثقاته فأظهرهم على ابن اللعين، وعرّفهم أنّه ابن الحجّة، وأن الحجّة توفي وأن ابنه هذا يقوم مقامه، فأجلّوه وأعظموه وقالوا له: مرنا بأمرك، فأمرهم بقتل عبدان، وعرّفهم أنه نافق وعصى وخرج عن الملّة، فساروا إليه من ليلتهم وبيّتوه[1] فقتلوه، وكان زكرويه هذا من تحت يد عبدان، وعبدان هو الذي أقامه داعية فلما شاع في الناس أنّ زكرويه قتل عبدان طلبه الدعاة والقرامطة ليقتلوه فاستتر، وخالفه القوم بأسرهم إلا أهل دعوته، وخاف على نفسه، ولم يتم له أمره الذي دبّره، فقال لابن اللعين: قد ترى ما حدث، ولا آمن عليك وعلى نفسي، فارجع إلى بلدك ودعني، فإني أرجو أن يتغيّر الأمر، فأتمكن من الناس وأدعوهم إليك، فإذا تمكنت من ذلك أرسلت إليك لتصير إليّ، فانصرف إلى الطالقان واستتر زكرويه وتنقّل في القرى، وذلك في سنة ست وثمانين ومائتين، والقرامطة تطلبه وأصحاب عبدان يرصدونه، وكان قد اتّخذ مطمورة تحت الأرض على بابها صخرة، فإذا دخل قوم إلى القرية في طلبة قامت امرأة في الدار التي هو فيها إلى تَنور ينقل، فوضعته بقرب الصخرة ثم أشعلت النار، وأرت أنها تريد أن تخبز، فيخفى أمره على من يطلبه، فمكث كذلك سنة ست وسنة سبع وثمانين ومائتين فلما رأى انحراف أهل السواد عنه إلا أهل دعوته وطال أمره، أنفذ ابنه الحسن في سنة ثمان وثمانين ومائتين إلى الشام، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا لأخبار أبي سعيد الجنّابي.

---

(١) بيت القوم: أوقع بهم ليلاً بغتة.

ذكر أخبار أبي سعيد الجنابي وظهوره بالبحرين

هو أبو سعيد بن بهرام من أهل جنَّابة[١]، وأصله من الفرس وكان يعمل الفراء، وسبب دخوله في هذه الدعوة وظهوره، أنّه سافر إلى سواد الكوفة، فذكر أنه تزوّج بقرية من سواد الكوفة، إلى قوم يقال لهم بنو القصّار، وكانوا أصولاً في هذه الدعوة الخبيثة فأخذها عنهم، وقيل بل أخذ الدعوة عن نفسه، وقد قيل إنه تلقاها عن حمدان قُرْمُط، وسار داعية من قبله فنزل القَطِيف، وهي حينئذ مدينة عظيمة، فجلس بها يبيع الدقيق ولزم الوفاء والصدق، ودعا الناس، فكان أوّل من أجابه الحسين وعلي وحمدان بنو سنبر، وقوم ضعفاء ما بين قصّاب وحمّال وأمثال هؤلاء.

قال الشريف أبو الحسين: فلما دعا بتلك الناحية وقويت يده واستجاب له الناس وجد بناحيته داعيًا يقال له أبو زكريا الصمامي كان عبدان الداعي أنفذه قبل أبي سعيد إلى القطيف وما والاه، فلما تبيّن أمره أبو سعيد الجنَّابي عظم عليه أن يكون داع غيره، فقبض عليه وحبسه في بيت حتى مات هزلاً. قال: وقد ذكر أنّ هذا الداعي أخذ على بني سنبر قبل أبي سعيد، وكان في أنفسهم حقد عليه لقتله أبا زكريا.

وحكى ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل ابتداء أمر القرامطة بناحية البحرين:

أن رجلاً يعرف بيحيى بن المهدي قصد القطيف، ونزل على رجل يعرف بعلي بن المُعَلّى بن حمدان، وكان متغاليًا في التشيّع، فأظهر له يحيى أنّه رسول المهدي، وذلك في سنة إحدى وثمانين ومائتين، وذكر أنه خرج إلى شيعته يدعوهم لأمره، وأنّ خروجه قد قرب، فجمع علي بن المُعَلّى الشيعة من أهل القطيف، وأوقفهم على الكتاب الذي أحضره يحيى بن المهدي من المهدي إليهم، فأجابوه: إنهم خارجون معه إذا ظهر أمره، وأجابه سائر قرى البحرين بمثل ذلك، فكان فمين أجابه أبو سعيد الجَنَّابِي، ثم غاب يحيى بن المهدي مدة، ورجع بكتاب يزعم أنّه من المهدي إلى شيعته، فيه: قد عرّفني رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم إلى أمري، فليدفع إليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثي دينار، ففعلوا ذلك ثم غاب وعاد بكتاب، فيه ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم، فدفعوا إليه الخمس.

---

(١) جنابة: بالفتح ثم التشديد وألف، وباء موحدة: بلدة صغيرة من سواحل فارس... وقيل: جنابة ناحية بالبحرين بين مهروبان وسيراف ويرى ياقوت أن هذا غلط... (معجم البلدان).

قال: وحكي أن يحيى بن المهدي جاء إلى منزل أبي سعيد الجنَابي فأكل طعامًا، وخرج أبو سعيد من البيت وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى، وأن لا تمنعه إذا أرادها، فانتهى الخبر إلى الوالي فضرب يحيى وحلق رأسه ولحيته، وهرب أبو سعيد إلى جنَابة، وصار يحيى إلى بني كلاب وعقيل والحَرِيش[١]، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد فعظم أمر أبي سعيد، واشتدت وطأته وظهر أمره؛ قال: وكان ظهوره بالبحرين في سنة ست وثمانين ومائتين.

ذكر استيلاء أبي سعيد الجنابي على هجر وما كان من خلال ذلك من حروبه ووقائعه

قال الشريف أبو الحسين: كان من الاتفاق لأبي سعيد أن البلد الذي قصده بلد واسع كثير الناس، ولهم عادة بالحروب، ورجال شداد جهّال غُفل القلوب، بعيدون من علم شريعة الإسلام ومعرفة نبوّة أو حلال أو حرام، فظفر بدعوته في تلك الناحية، ولم يناوئه مناوىء، فقاتل بمن أطاعه من عصاه حتى اشتدت شوكته جدًا، وكان لا يظفر بقرية إلا قتل أهلها ونهبها، فهابه الناس وأجابه كثير منهم طلبًا للسلم، ورحل من البلد خلق كثير إلى نواحي مختلفة وبلدان شتى، خوفًا من شرّه، ولم يمتنع عليه إلا هَجَر[٢]، وهي مدينة البحرين ومنزل سلطانها والتجّار والوجوه، فنازلها شهورًا يقاتل أهلها، فلما طال عليه أمرها وكل بها جلّ أصحابه من أهل النجدة، ثم ارتفع فنزل الأحساء وبينها وبين هجر ميلان، فابتنى بها دارًا وجعلها منزلاً، وتقدّم في زراعة الأرض وعمارتها، وكان يركب في الأيام إلى هجر هو ومن يحاصرها، ويعقب من أصحابه في كل يوم قومًا، ثم دعا العرب فأجابه أوّل الناس، بنو الأضبط من كلاب[٣]، لأن عشيرتهم كانوا أصابوا فيهم دمًا، فساروا إليه بحرمهم وأموالهم فنزلوا

---

(١) الحريش: اسم معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر، بن صعصعة، بن معاوية، بن بكر بن هوازن.

(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: الهجر بلغة حمير والعرب العارية القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة من مخلاف مازن، وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) بنو كلاب: بطن من عامر بن صعصعة، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. منهم القتال الكلابي الشاعر المشهور. . . وكانت ديارهم حمى ضربة، وهي حمى كليب، وحمى الربذة، في جهات المدينة، وفدك، والعوالي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام. . . (نهاية الأرب للقلقشندي ٤٠٧).

الأحساء، وأطمعوه في بني كلاب وسائر من يقرب منه من العرب، وطلبوا منه أن يضمّ إليهم رجالاً ففعل ذلك، فلقوا بهم عشيرتهم فاقتتلوا فهزمتهم القرامطة فأكثروا فيهم القتل، وأقبلوا بالحريم والأموال والأمتعة نحو الأحساء، فاضطر المغلوبين إلى أن دخلوا في طاعته وصاروا تحت أمره، ثم وجّه أبو سعيد بجيش آخر إلى بني عقيل فظفر بهم، فقصدوه ودخلوا في طاعته، فملك تلك الفلاة، وتجنّب قتاله كلّ أحد إلا بني ضبّة[١]، فإنها ناصبته الحرب، فلما اجتمع إليه من اجتمع من العرب وغيرهم خوّفهم ومنّاهم مُلك الأرض كلها، فاستجاب بعضهم إلى دعوته فردّ إليهم ما أخذ منهم من أهل وولد، وأجاب آخرون رغبة في دعوته، ولم يردّ على أحد إبلاً ولا عبدًا ولا أمة وأنزل الجميع معه الأحساء، وأبى قوم دعوته فردّ عليهم حرمهم ومن لم يبلغ من أولادهم أربع سنين وشيئًا من الإبل يحملون عليه، وحبس ما سوى ذلك كله.

وجمع الصبيان في دور وأقام عليهم قوّامًا، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، ووسم جميعهم على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم، وعرّف عليهم عرفاء، وعلّم من صلح لركوب الخيل والطعان فنشأوا لا يعرفون غيره، وصارت دعوته طبعًا لهم، وقبض كل مال في البلد والثمار والحنطة والشعير، وأنفذ الرعاة في الإبل والغنم، وقومًا للنزول معها لحفظها والتنقُّل معها على نوب معروفة، وأجرى على أصحابه جرايات[٢] فلم يكن يصل أحد إلى غير ما يطعمه، وهو لا يغفل مع ذلك عن هَجَر، فلما أضجروه وطال أمرهم وقد كان بلغ منهم الحصار كل غاية، وأكلوا السنانير والكلاب وكان حصارهم يزيد على عشرين شهرًا، ثم جمع أصحابه وحشد لهم وعمل الدبّابات، ومشى بها الرجال إلى السور، فاقتتلوا أشد قتال لم يقتتلا مثله قبل ذلك، ودام القتال عامّة النهار، وكلٌّ منتصفٌ من الآخر، وكثرت بينهم القتلى، ثم رجع إلى الأحساء، ثم باكرهم فناوشوه فانصرف، فلما قرب من الأحساء أمر الرجّالة ومن جرح أن ينصرف، وعاود في خيل فدار حول هجر، وفكّر فيما يكيدهم به، وإذا لِهَجَر عين عظيمة كثيرة الماء، يخرج من نشز من الأرض غير بعيد منها، ثم يجتمع ماؤها في نهر ويستقيم حتى يمرّ بجانب هجر ملاصقًا، ثم ينزل إلى النخيل فيسقيها، فكانوا لا يفقدون الماء في حصارهم، فلما تبيّن له أمر العين انصرف إلى الأحساء، ثم غدا فأوقف على باب المدينة عسكرًا، ثم رجع إلى الأحساء وجمع الناس كلّهم وسار في

---

(١) بنو ضبة: هم بنو ضبة بن أد بن طانجة... وإليهم ينسب: الضبي، صاحب الأمثال... وهم قتلوا المتنبي الشاعر... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) الجرايات: جمع الجراية، وهي الجاري من الرواتب.

آخر الليل فورد العين بُكْرَة بالمعاول والرمل وأوقار[١] الثياب الخلقان ووبر وصوف وأمر قومًا بجمع الحجارة وآخرين ينفذون بها إلى العين، وأعدّ الرمل والحصى والتراب، فلما اجتمع أمر أن يطرح الوبر والصوف وأوقار الثياب في العين، وأن يطرح فوقها الرمل والحصى والتراب والحجارة ففعل ذلك، فقذفته العين ولم يغن ما فعلوه شيئًا، فانصرف إلى الأحساء هو ومن معه، وغدا في خيل فضرب في البرّ، وسأل عن منتهى العين فقيل له إنها تتصل بساحل البحر، وأنها تنخفض كلما نزلت، فردّ جميع من كان معه وانحدر على النهر نحوًا من ميلين ثم أمر بحفر نهر هناك، ثم أقبل هو وجَمعه يأتون في كل يوم، والعمّال يعملون حتى حفره إلى السباخ، ومضى الماء كله عنهم فصبّ في البحر، فلما تمّ له ذلك نزل على هجر وقد انقطع الماء عمّن بها، فأيقنوا بالهلاك فهرب بعضهم نحو البحر، فركبوه إلى جزيرة أدالى وسيراف[٢] وغيرهما، ودخل قوم منهم في دعوته، وخرجوا إليه فنقلهم إلى الأحساء، وبقيت طائفة لم يقدروا على الهرب ولم يدخلوا في دعوته، فقتلهم وأخذ ما في المدينة ثم أخربها، وصارت الأحساء مدينة البحرين.

ذكر الحرب بين القرامطة أصحاب أبي سعيد وأهل عمان

قال: ولما استولى على هجر وخرّبها أنفذ سريّة من أصحاب ستمائة فارس إلى عُمان، فوردت على غفلة فقتلوا ونهبوا وأسروا في عمل عمان وأنفذ أهل عُمان سريّة إليهم في ستمائة رجل من أهل النجدة فأدركوهم فجعلت القرامطة ما غنموه وراء ظهورهم، وأقبلوا نحو أهل عمان فاقتتلوا، حتى تكسّرت الرماح وتقطّعت السيوف وتعانقوا، وتكادموا[٣] وتراضخوا[٤] بالحجارة، فلم تغرب الشمس حتى تفانوا، فبقي من أهل عمان خمسة نفر لا حراك بهم، ومن القرامطة ستة نفر مجرَّحين إلا أنّهم أحسن حالاً من العُمَانيّة، فركب القرامطة ست رواحل وعادوا إلى أبي سعيد، فأخبروه الخبر واعتذروا إليه، فلم يقبل عذرهم وأمر بهم فقتلوا، وقال: هؤلاء خاسوا بعهدي

---

(١) الأوقار: واحدتها الوقر، وهو الحمل الثقيل.

(٢) سيراف: بكسر أوله، وآخره فاء: هي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديمًا فرضة للهند، وقيل: كانت قصبة كورة أردشير خرة من أعمال فارس... وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام... (معجم البلدان).

(٣) يكادم الفرسان: عض أحدهما صاحبه.

(٤) تراضخوا بالسهام أو بالحجارة: تراموا بها.

ولم يواسوا أصحابهم الذين قتلوا، فأنزلت بهم ما كانوا له أهلاً، وتطيّر بهلاك السريّة وأمسك عن أهل عمان.

ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المعتضد بالله وانتصار القرامطة

قال: ولما كان من أمر أبي سعيد الجنّابي ما كان، اتصلت أخباره بالمعتضد بالله، وكتب إليه أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي - وهو إذ ذاك يتولى البصرة - يعلمه خبر أبي سعيد، وأنّه اتّصل به أنّه يريد الهجوم على البصرة، فأمره المعتضد بالله أن يعمل على البصرة سورًا فعمله، فكان مبلغ ما صرف عليه أربعة عشر ألف دينار، ثم كتب الواثقي إلى المعتضد يسأله المدد، فسيّر إليه ثلاثمائة رجل في سماريّات، وأنفذ المعتضد بالله العبّاس بن عمرو الغنوي في ألفي رجل، وأقطعه اليمامة والبحرين وأمره بمحاربة القرامطة - وكان يتولّى بلاد فارس - فسار إلى البصرة فوردها وذلك في سنة سبع وثمانين ومائتين، وخرج منها نحو هجر وبينهما بضع عشرة ليلة في فلاة مقفرة، وتبعه من مطوّعة[1] البصرة نحو من ثلاثمائة رجل من بني ضبة وغيرهم، وعرف أبو سعيد خبرهم فسار نحوهم وقدّم أمامه مقدّمة، فلما عاينهم العبّاس بن عمرو خلف سواده وسار إليهم فيمن خفّ من أهل العسكر وأدرك أبو سعيد مقدّمته في باقي أصحابه، فتناوشوا القتال فكانت بينهم حملات، ثم حجز الليل بينهم فانصرفوا على السواء فلما جاء الليل انصرفت مطوّعة البصرة ومن معهم من بني ضبّة، فكسر ذلك الجيش وفتّ في أعضادهم، وأصبح العباس بن عمرو فعبّى أصحابه للقتال والتقوا، فجعل بدرًا غلام أحمد بن عيسى ابن الشيخ في نحو مائة من أصحابه على ميمنة أبي سعيد، فأوغل فيهم فلم يرجع منهم أحد، وحمل أبو سعيد على العبّاس وأصحابه فانهزموا، وأسر العبّاس بن عمرو ومعه نحو من سبعمائة رجل من أصحابه، واحتوى القرامطة على عسكره، وقتل أبو سعيد من غد يومه جميع الأسرى ثم أحرقهم، وترك العبّاس بن عمرو ومضى المنهزمون فتاه كثير منهم في البرّ وتلف كثير منهم عطشًا، وورد قوم منهم البصرة فارتاع الناس لهم، حتى أخذوا في الانتقال عن البصرة فمنعهم الواثقي.

قال: ولما كان بعد الوقعة بأيام أحضر أبو سعيد الجنّابي العبّاس بن عمرو، وقال له: أتحب أن أطلقك؟ قال: نعم، قال: على أن تبلغ عني صاحبك ما أقول،

(١) المطوعة: جمع المطوع، وهو المتطوع للجهاد ونحوه.

قال: أفعل، قال: تقول الذي أنزل بجيشك ما أنزل بغيُك، هذا بلد كان خارجًا عن يدك غلبتُ عليه وأقمتُ به وكان فيّ من الفضل ما آخذ غيره، فما عرضتُ لما كان في يدك ولا هممتُ به، ولا أخَفْتُ لك سبيلًا، ولا نلتُ أحدًا من رعيّتك بسوء، فتوجيهك إلي الجيوش لأي سبب؟! اعلم أني لا أبرح عن هذا البلد ولا يوصل إليه وفيّ، وفي هذه العصابة التي معي روح، فاكفني نفسك ولا تتعرّضْ لما ليس لك فيه فائدة، ولا تصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر، وأطلقه وأرسل معه من يردّه إلى مأمنه، فأوردوه بعض السواحل فصادف مركبًا فركب فيه إلى الأُبلة، ووصل إلى بغداد في شهر رمضان من السنة. قال: وقد كان الناس يعظّمون أمر العباس ويكثرون ذكره ويسمّونه قائد الشهداء، فلما وصل إلى المعتضد بالله عاتبه على تركه الاستظهار والتحرّز وأنّبه، فاعتذر بهرب بني ضبّة ومن كان معهم من المطَوّعة وهرب أصحابه عنه، وأنّه لو أراد الهرب لأمكنه، فلم يبرح حتى رضي عنه وزال همّه، ثم سأله عن خبره فعرّفه جميعه، ووصف له أحوال القرامطة وما قاله أبو سعيد بعد أن استأذنه في ذلك فأذن له، فقال: صدق ما أخذ شيئًا كان في أيدينا، وأطرق مفكرًا ثم رفع رأسه، فقال: كذب عدوّ الله الكافر، المسلمون رعيّتي حيث كانوا من بلاد الله، والله لئن طال بي عُمْر لأشخصنّ بنفسي إلى البصرة وجميع غلماني، ولأوجهنّ إليه جيشًا كثيفًا فإن هزمه وجّهت جيشًا، فإن هزمه خرجتُ في جميع قوّادي وجيشي إليه، حتى يحكم الله بيني وبينه، وشغله بعد ذلك أمر وصيف غلام ابن أبي السّاج وأحفزه، فخرج في طلبه وهو عليل، وذلك في شوّال من هذه السنة، فأخذه وعاد إلى بغداد فدامت علّته واستمرّ وجعه ومات.

قال القاسم بن عبيد الله: ما زال أمير المؤمنين المعتضد بالله يذكر أمر أبي سعيد في مرضه ويتلهّف، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: حسرة في نفسي كنت أحب أن أبلغها قبل موتي، والله لقد كنت وضعت في نفسي أن أركب، ثم أخرج إلى باب البصرة متوجّهًا نحو البحرين، ثم لا ألقى أحدًا أطول من سيفي إلا ضربت عنقه، وإني أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة.

قال: وأقبل أبو سعيد بعد إطلاق العبّاس على جمع الخيل وإعداد السلاح واتخاذ الإبل وإصلاح الرجال ونسج الدروع والمغافر ونظم الجواشن وضرب السيوف والأسنّة واتخاذ الروايا والمزاد والقرب وتعليم الصبيان الفروسية، وطرد الأعراب عن قربه وسدّ الوجوه التي يُتعرّف منها أمر بلده وأحواله بالرجال وإصلاح أراضي المزارع وأصول النخل وعمارته، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها، ونصب الأمناء على

ذلك، وإقامة العرفاء على الرجال، والاحتياط على ذلك كلّه، حتى بلغ من تفقّده واحتياطه أنّ الشاة كانت تذبح فيسلَم اللحم إلى العرفاء، ليفرّقوه على من يُرسم لهم، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء، ويجزَ الصوف والشعر من الغنم ويفرّقه على من يغزله، ثم يُدفع إلى من ينسجه عبيًا وأكسية وغرائر[١] وجوالقات ويُفتل منه حبال، ويسلم الجلد إلى الدبّاغ، فإذا خرج من الدبّاغ سُلَم إلى خرّازي القرب والروايا والمزاد، وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفافًا عمل منه، ثم يجمع ذلك كلّه إلى خزائن، فكان ذلك دأبه لا ينفل عنه، ويوجّه في كل مدينة بخيل إلى ناحية البصرة، فتأخذ من وجدت فتصير بهم إليه فيستعبدهم، فزادت بلاده وعظمت هيبته في صدور الناس.

قال الشريف أبو الحسين: وقد كان وَاقَع بني ضبّة عند طرده لهم عن قرب بلده، فأصاب منهم وأصابوا منه، ولم يتباعدوا عنه بعيدًا، فلما شخص مع العبّاس بن عمرو منهم من شخص - في وقت مسيره لقتاله - ازداد بذلك حنقًا عليهم، فواقعهم وقائع مشهورة بالشدّة والعظم، ثم ظفر بهم فأخذ منهم خلقًا، وبنى لهم حبسًا عظيمًا وجمعهم فيه وسدّه عليهم، ومنعهم الطعام والشراب فصاحوا وضجّوا فلم يغثهم، فمكثوا على ذلك شهرًا ثم فتح عليهم، فوجد الأكثر منهم موتى، ووجد نفرًا يسيرًا قد بقوا على حال الموتى، وقد تغذوا بلحوم الموتى، فخصاهم وخلاَّهم فمات أكثرهم.

ذكر مقتل أبي سعيد الجنابي

كان مقتله في سنة إحدى وثلاثمائة بعد أن استولى على سائر بلاد البحرين، وكان سبب مقتله أنّه لما هزم جيش العباس بن عمرو كما تقدم، واستولى على عسكره، أخذ من عسكره خادمًا له صقلبيًا، فاستخدمه وجعله على طعامه وشرابه، فمكث كذلك مدة طويلة لا يرى أبا سعيد فيها مصليًا لله عزّ وجلّ صلاة واحدة، ولا يصوم في شهر رمضان ولا في غيره يومًا واحدًا، فأضمر الخادم لذلك قتله، فدخل معه الحمّام يومًا - وكان الحمّام في داره، فأخذ الخادم معه خنجرًا ماضيًا - ولم يكن معه في الحمّام غيره، فلما تمكّن منه أضجعه فذبحه، ثم خرج فقال: السيد يستدعي فلانًا لبعض بني سنبر فأحضر فقال: ادخل فدخل، فبادره فقبض عليه وذبحه، ولم يزل يستدعي من رؤساء القرامطة واحدًا واحدًا حتى قتل جماعة من الرؤساء والوجوه،

(١) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق، جمع غرائر.

إلى أن استدعى بعضهم فنظر عند دخوله إلى باب البيت الأوّل دمًا جاريًا، فاستراب بذلك وخرج مبادرًا فلم يدركه الخادم وأعلم الناس، وعمد الخادم إلى الباب فأغلقه وكان وثيقًا، فاجتمع الناس ونقبوا نقوبًا إلى أن وصلوا إليه، فأخذه ابنه سعيد فأمر بشدّه بالحبال، ثم قرض لحمه بالمقاريض حتى مات رحمه الله تعالى.

وخلَف أبو سعيد من الأولاد: أبا القاسم سعيدًا، وأبا طاهر سليمان، وأبا منصور أحمد، وأبا العباس إبراهيم، والعبّاس محمد، وأبا يعقوب يوسف. وكان أبو سعيد قد جمع رؤساء دولته وبني زرقان، وكان أحدهم زوج ابنته، وبني سنبر، وكان متزوجًا إليهم، وهم أخوال أولاده وبهم قامت دولته وقوي أمره، فأوصى إليهم إن حدث به موت أن يكون القيّم بأمرهم ابنه سعيدًا إلى أن يكبر أبو طاهر، وكان سعيد أكبر من أبي طاهر سنًا، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبّر لهم، فلما قتل جرى الأمر على ما وصّاهم به، وكان قد أخبرهم أنّ الفتوح يكون لأبي طاهر، فجلس سعيد يدبّر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة، ثم سلم الأمر لأخيه أبي طاهر، فدبّره وعمل أشياء موّه بها على عقول أصحابه فقبلوها وعظموا أمره، وكان من أخباره ما نذكره إن شاء الله تعالى، وكانت مدة تغلُّب أبي سعيد على البحرين وما والاها نحوًا من ستة عشر سنة.

ذكر أخبار أبي القاسم الصناديقي ببلاد اليمن

وفي سنة ست وثمانين ومائتين استولى أبو القاسم النجّار المعروف بالصناديقي على اليمن، وكان ابن أبي الفوارس داعي عبدان قد أنفذه داعيًا إلى اليمن، وكان هذا الصناديقي من موضع يعرف بالنَّرْس[(١)]، وكان يعمل فيه الثياب النرسيّة، وقيل إنه كان يعمل في الكتّان، فلما صار إلى اليمن أجابه رجل من الجند يعرف بابن الفضل، فقوي أمره على إقامة الدعوة الخبيثة، فدخل فيها خلق كثير، فخلعهم من الإسلام، وأظهر العظائم، وقتل الأطفال وسبى النساء، وتسمّى برب العزّة وكان يكاتب بذلك، وأظهر شتم النبيّ ﷺ وسائر الأنبياء، واتخذ دارًا سمّاها دار الصفوة، وكان يأمر الناس بجمع نسائهم من أزواجهم وبناتهم وإخوانهم، ويأمرهم بالاختلاط بهن ليلاً ووطئهنّ،

---

(١) النرس: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره سين مهملة: قرية كان ينزلها الضحاك ببوارسب ببابل، والنرس: نهر حفره نرس بن بهرام بن بهرام بنواحي الكوفة فأخذه من الفرات عليه عدة قرى قد نسب إليه قوم والثياب النرسية منه. . . (معجم البلدان).

ويحتفظ بمن تحيل منهن في تلك الليلة وبمن تلد من بعد ذلك، ويتخذهم لنفسه خولا[١] ويسمّيهم أولاد الصفوة، وعظمت فتنته باليمن، وأجلى أكثر أهله عنه وأجلى السلطان، وقاتل القاسم بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني الهادي وقلعه عن عمله بصَعْدة[٢]، وألجأه إلى أن هرّب عياله إلى الرسّ[٣] حذرًا منه لقوّته عليه، ثم إنّ الله عزّ وجل رزقه الظفر به فهزمه، وكان ذلك بلطف من ألطاف الله تبارك وتعالى، وهو أن ألقى على عسكره وقد بايته بردًا وثلجًا، قتل به أكثر أصحابه في ليلة واحدة، وقل ما يعرف مثل هذا من البرد والثلج في ذلك البلد، ولما طغى وبغى قتله الله بالأكلة[٤] وأنزل بالبلدان التي غلب عليها بثرًا قاتلاً، كان يخرج على كتف الرجل منهم بثرة فيموت في سرعة، فسمّي ذلك البثر حبّة القرمطيّ، وأخرب الله تعالى أكثر تلك البلاد التي ملكها، وأفنى أهلها بموت ذريع، واعتصم ابنه بعده بالجبال والقلاع، ولم يزل بها مقيمًا يكاتب أهل ملّته، ويُعنْوِن كتبه، من ابن رب العزّة، ثم أهلكه الله عزّ وجل وبقيت منهم بقيّة، فاستأمنوا إلى القاسم بن أحمد الهادي، ولم يبق للنجّار بقيّة ولا لمن كان على مذهبه.

ولنرجع إلى أخبار زَكْرُويَه بن مَهْرُويَه وخبر من أرسله إلى الشام.

ذكر ظهور القرامطة بالشام وما كان من أمرهم وحروبهم

قد قدّمنا من أخبار زكرويه بن مهرويه واختفائه وحرص أصحاب عبدان على قتله، وأنّه لما طال عليه الأمر أرسل ابنه الحسن إلى الشام وذلك في سنة ثمان وثمانين ومائتين.

قال الشريف أبو الحسين محمد بن علي الحسيني رحمه الله: ولما أرسل

---

(١) الخول: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم... (للواحد والجمع والذكر والأنثى).

(٢) صعدة: بالفتح ثم السكون: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخًا... وقيل: صعدة مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد... وصعدة: ماء جوف العلمين، علمي بني سلول قريب من مخمّر... (معجم البلدان).

(٣) الرسّ: بفتح أوله والتشديد: ماء لبني منقذ بن أعياء من بني أسد... والرس: وادي أذربيجان.

(٤) الأكلة: الحكّة.

زكرويه بن مهرويه ابنه إلى الشام أرسل معه رجلاً من القرامطة من أهل نهر ملحانا[١]، يقال له الحسن بن أحمد ويكنى بأبي الحسين، وأمره أن يقصد بني كلب وينتسب لهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، ويدعوهم إلى الإمام من ولده، فاستجاب له فخذ من بني العليص بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب بن وبرة ومواليهم وانضاف إليه طائفة من بني الأصبع من كلب، ويسمّى هؤلاء بالفاطميين وبايعوه، وكان الخبيث لما رجع إلى الطالقان يكتب إلى زَكْرُوَيه يستأذنه في القدوم عليه، فيجيب بالتوقف، فخرج نحو العراق، فلما وصل إلى السواد وجد زكرويه مختفيًا، فلم يزل حتى توصل إلى المكان الذي هو فيه، فلم يُظهر له لومًا على قدومه وبعث إليه بخبر من استجاب له بالشام، فقال: أنا أخرج حتى أظهر فيهم هناك، فوجّه إليه: نِعْم ما رأيت، فضمّ إليه ابن أُخته عيسى بن مهرويه، ويسمّى بالمدثّر لقبًا وبعبد الله اسمًا، وغلامًا من بني مهرويه فتلقب بالمطوّق وكان سيّافًا، وأنفذهم إلى الشام، وكتب إلى ابنه الحسن يعرّفه أنّه ابن الحجّة، ويأمره له بالسمع والطاعة، فسار حتى نزل في بني كلب، فلقيه الحسن بن زكرويه وسُرّ به، وجمع له الجمع وقال: هذا صاحب الإمام فامتثلوا أمره، وسرُّوا به وقالوا له: مرنا بأمرك وبما أحببت، فقال لهم: استعدوا للحرب فقد أظلّكم النصر، ففعلوا ذلك، واتصلت أخبارهم بشبل الديلمي مولى المعتضد، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائتين. فقصدهم فقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، وكانت الوقعة بالرصافة من غربي الفرات، ودخلوا الرصافة وأحرقوا مسجدها ونهبوها، وأصعدوا نحو الشام، واعترضوا الناس بالقتل والتحريق ونهب القرى، إلى أن وردوا أطراف دمشق، وكان هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ردّ أمر دمشق إلى طُغْج بن جُفْ الفرغاني، فلقيتهم عساكره فانهزمت ولم تثبت، وقتل كثير منهم وأخذوا منهم ما قدروا عليه.

قال: ولما هَزَم طغج نزل على دمشق وقاتل أهل البلد، وكان يحضر الحرب على ناقة ويقول لأصحابه: لا تسيروا من مصافّكم حتى تنبعث بين أيديكم، فإذا سارت فاحملوا فإنه لا تُردّ لكم دابّة إذ كانت مأمورة، فسُمّي بذلك صاحب الناقة، وحصر طغج بدمشق سبعة أشهر، فكتب طغج إلى مصر بخبر من قتل من أصحابه، وأنه محصور وقد فني أكثر الناس وخرب البلد، فأنفذوا إليه بدرًا الكبير غلام ابن طولون ـ وهو المعروف بالحمّامي ـ فسار حتى قرب من دمشق وخرج إليه طغج واجتمعوا على محاربة القرامطة، والتقوا واقتتلوا بقرب دمشق، فأصاب رئيس القرامطة

(١) ملحان: (في معجم ياقوت): بالكسر ثم السكون، وحاء مهملة، وآخره نون: هو مخلاف باليمن.. وملحان أيضًا: جبل في ديار بني سليم بالحجاز.

- ابن القدّاح - سهم فقتله، ويقال أصابه الزراقون بمزراق[١] فيه نفط فاحترق، وحمى أصحابه فقاتلوا عسكر بدر الحمّامي وطغج حتى انحازوا عنهم وانصرفت القرامطة وكان صاحب الناقة هذا المقتول قد ضرب دنانير ودراهم، وكتب على السكّة على أحد الوجهين: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وعلى الوجه الآخر: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥]، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. قال: فلما انصرفت القرامطة عن دمشق بعد قتل الطاغية بايعوا:

الحسن بن زكرويه بن مهرويه

فسمّى نفسه أحمد وتكنى بأبي العباس وهو صاحب الشامة.

قال ابن الأثير: ولما بايعه القرامطة دعا الناس فأجابه كثير من أهل البوادي وغيرهم، فاشتدت شوكته وأظهر شامة في وجهه، وزعم أنها آيته.

قال الشريف أبو الحسين وسياقه أتمّ: ولما بايعوه ثار حتى افتتح عدّة مدن من الشام، وظهر على جند حمص، وقتل خلقًا كثيرًا من جند المصريين، وتسمّى بأمير المؤمنين على المنابر وفي كتبه، وذلك في سنة تسع وثمانين ومائتين وبعض سنة تسعين ومائتين، ثم سار بمن معه إلى نحو الرقّة[٢]، فخرج إليهم مولى الخليفة المكتفي بالله وكان عليها، فواقعهم فهزموه، وقتلوه واستباحوا عسكره ورجعوا يريدون دمشق، وجعلوا ينهبون جميع ما يمرّون به من القرى، ويقتلون ويسبون ويخربون، فلما قربوا من دمشق أخرج إليهم طغج جيشًا كثيفًا أمّر عليه غلامه بشيرًا، فهزم القرامطةُ الجيش وقُتل بشير في خلق من أصحابه، فلما اتصل بالمكتفي قتل غلامه الذي كان على الرقّة وخبر قتل بشير ندب أبا الأعزّ السُّلَمي، وضمّ إليه عشرة آلاف من الجند والموالي والأعراب، وخلع عليه لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة تسعين ومائتين وأنفذه، فسار حتى نزل حلب ثم خرج فنزل وادي بطنان[٣]، فتفرّق الناس ودخل قوم منهم الماء يتبرّدون فيه وذلك في القيظ، ووافاهم

---

(١) المزراق: الرمح القصير.

(٢) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. . . (معجم ياقوت).

(٣) بطنان: بالضم ثم السكون، ونونان بينهما ألف؛ وبطنان الأودية: المواضع التي يستريض فيها الماء، ماء السيل فيكرم بناتها واحدتها بطن. . . وبطنان: هو اسم واد بين منبج وحلب. . . (معجم البلدان).

القرامطة يقدمهم المطوّق، فكان كل إنسان يحذر على نفسه وينجو بها، وركب أبو الأعزّ فرسه وصاح بالناس، فسار إليه جماعة لقي بها أوائل القوم، فلم يلبث إلا اليسير حتى انهزم، وركبت القرامطة أكتاف الناس يقتلون وينهبون حتى حجز الليل بينهم، وقد أتوا على عامّة العسكر وسلم منهم قليل، ولحق أبو الأعزّ في جُميعيّة معه بحلب، ثم تلاحق به قوم حتى حصل في نحو ألف رجل، ووافت القرامطة فنازلوا أهل حلب فحاربهم أبو الأعزّ، فلم يقدروا منه على شيء فانصرفوا، وجمع الحسين بن زكرويه أصحابه، وكان قد اتصل به خلق كثير من اللصوص ومن بني كلب، فسار حتى نزل أطراف حمص فخطب له على منابرها، ثم نهض إليها فأعطاه أهلها الطاعة، وفتحوا له البلد فدخلها، ثم سار إلى حماة ومَعَرَّة النُّعمَان وغيرهما فقتل الرجال والنساء والأطفال، ثم رجع إلى بعلبك فقتل عامّة أهلها، ثم صار إلى سَلَمْيَة فحاربه أهلها وامتنعوا منه، فأعطاهم الأمان ففتحوا له، فبدأ بمن كان فيها من بني هاشم، وكان بها جماعة كثيرة، فقتلهم أجمعين، ثم كرّ على أهلها فأفناهم أجمعين وخرّبها، وخرج عنها وما بها عين تطرف، وكان مع ذلك لا يمرّ بقرية فيدع فيها أحدًا، حتى أخرب البلاد وسبى الذراري وقتل الأنفس من المسلمين وغيرهم، ولم يقم له أحد.

قال الشريف: ووردت كتب التجّار وسائر الناس من دمشق وغيرها بصورة الأمر وغلظه، وأنّ طغج قد فنيت رجاله وبقي في عدّة يسيرة، وأنّ القرامطة تقصد دمشق في أوقات فلا يقاتلهم إلا العامّة وقد أشرف الناس على الهلكة وكثر الضجيج بمدينة السلام، واجتمعت العامّة إلى يوسف بن يعقوب[١] القاضي وسألوه إنهاء أخبار الناس إلى الخليفة، فوعدهم بذلك، ووردت كتب المصريين على المكتفي بالله يعرّفونه ما قتل من عسكرهم الذي خرج إلى الشام، وأن القرامطة أفنتهم وأنّهم قد أخربوا الشام، فأمر المكتفي الجيش بالاستعداد وإخراج المضارب إلى باب الشماسيّة[٢]، وخرج إلى مضربه في القوّاد والجند، ورحل لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة تسعين ومائتين، وسلك طريق الموصل ومضى نحو الرقّة بالجيوش حتى نزلها وانبثت جيوشه

(١) هو يوسف بن يعقوب القاضي أبو محمد الأزدي ابن عم إسماعيل القاضي ولي قضاء البصرة وواسط ثم ولي قضاء الجانب الشرقي وولد سنة ٢٠٨ وسمع في صغره من مسلم بن إبراهيم وسليمان بن حرب وطبقتهما وصنف السنن وكان حافظًا دينًا عفيفًا مهيبًا. . . وكانت وفاته سنة ٢٩٧هـ. . . (شذرات الذهب لابن العماد ٢: ٢٧٢).

(٢) الشماسية: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، ثم سين مهملة: هي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية. . . (معجم البلدان).

من حلب وحمص، وقلَّد محمد بن سليمان حرب الحسين بن زكرويه، واختار له جيشًا كثيفًا، وكان محمد بن سليمان صاحب ديوان العطاء وعارض الجيش، فسار نحو القرامطة بجيشه.

ذكر الحرب بين محمد بن سليمان وبين القرامطة وانهزام القرامطة والظفر بالحسن بن زكرويه صاحب الشام وأصحابه وقتلهم

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: ولما دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين كتب القاسم بن عبيد الله وهو وزير المكتفي بالله إلى محمد بن سليمان الكاتب يأمره بمناهضة القرامطة، فسار إليهم والتقى الجمعان يوم الثلاثاء لست خلون من المحرم من هذه السنة، بموضع بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى حجز الليل بينهم، وقتل عامّة رجالهم، وورد كتاب محمد بن سليمان الكاتب إلى القاسم بن عبيد الله الوزير، يخبره بكيفيّة المصاف والقتال ومن كان في الميمنة والميسرة والقلب والجناحين من قوّاد عسكره، وأن القرامطة اجتمعوا ستَّة كراديس، وأن ميسرتهم كان فيها ألف وخمسمائة فارس، وكمنوا خلفها أربعمائة فارس، وفي القلب ألف فارس وأربعمائة فارس، وفي ميمنتهم ألف فارس وأربعمائة فارس، وكمنوا خلفها مائتي فارس، وذكر كيف كانت حملاتهم وقتالهم، وكيف كانت هزيمتهم، في كلام مطوّل تركناه اختصارًا لطوله، إلا أنّ ملخّصه أنّ القرامطة قتلوا قتلاً ذريعًا، وذكر أن الكردوس الذي كان في ميسرة القرامطة قصده الحسين بن حمدان، وكان في جناح ميمنة عسكر الخليفة، واقتتلوا أشدّ قتال حتى تكسّرت الرماح وتقطّعت السيوف فصرع من القرامطة ستمائة في أول دفعة، وأخذ أصحاب الحسين منهم خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضّة، وأن القرامطة ولّوا مدبرين فاتبعهم الحسين بن حمدان، فرجعوا عليه فلم يزل يحمل حملة بعد حملة ـ وهم في خلال ذلك يصرعون منهم الجماعة بعد الجماعة ـ حتى أفناهم الله تعالى، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتي رجل. قال: وحمل الكردوس الذي كان في ميمنتهم على القاسم بن سهل ويُمْن الخادم، فاستقبلوهم بالرماح فكسروها في صدورهم وعانق بعضهم بعضًا، فقتلوا من الكفرة جماعة كبيرة. قال: وأخذ بنو شيبان منهم ثلاثمائة فرس ومائة طوق فضّة، وأخذ أصحاب خليفة بن المبارك منهم مثل ذلك، وذكر في كتابه أنه حمل هو عليهم في القلب، فما زال أصحابه يقتلون القرامطة ـ فرسانهم ورجّالتهم ـ أكثر من

خمسة أميال، وذكر في كتابه أن الحسن بن زكرويه لم يشهد هذا المصاف وأنه يشخص إليه إلى سلمية. قال الشريف رحمه الله: وكان الحسن بن زكرويه ـ لما أحسّ بقرب الجيوش ـ عرض أصحابه، وأخرج الأقوياء منهم عن الضعفة والسواد، وأنفذ الجيش وتخلّف هو في السواد والضعفة، فلما انهزم أصحابه ارتاع لذلك ورحل لوقته وسار خوفًا من الطلب، وتلاحق به من أفلت من أصحابه، فخاطبهم بأنّهم أتوا من قبل أنفسهم وذنوبهم وأنهم لم يصدقوا الله، وحرّضهم على المعاودة إلى الحرب فلم يجبه منهم أحد إلى ذلك، واعتلُّوا بفناء الرجال وكثرة الجراح فيهم، فلما أيس منهم قال لهم: قد كاتبني خلق من أهل بغداد بالبيعة لي، ودعاتي بها ينتظرون أمري، وقد خلت من السلطان الآن، وأنا شاخص نحوها لأظهر بها، ومستخلف عليكم أبا الحسين القاسم بن أحمد صاحبي، وكتبي ترد عليه بما يعمل به فاسمعوا له وأطيعوا أمره فضمنوا له ذلك، وشخص معه قريبه عيسى ابن أُخت مهرويه المسمّى بالمدثّر وصاحبه المطوّق وغلام له روميّ، وأخذ دليلًا يرشدهم إلى الطريق وساروا يريدون سواد الكوفة، وسلك البرّ وتجنّب المدن والقرى، حتى إذا صار قريبًا من الدالية[١] نفد زاده، فأمر الدليل فمال بهم إليها، ونزل بالقرب منها خلف رابية، ووجّه بعض من كان معه لابتياع ما يصلحه، فلما دخلها أنكر زيّه بعض أهلها وساءله عن أمره فورى وتلجلج[٢]، فاستراب به وقبض عليه وأتى به واليها، وكان يعرف بأبي خُبْزَة يخلف أحمد بن كَشْمَرْد صاحب الحرب بطريق الفرات، قال: والدالية قرية من عمل الفرات، قال: فسأله أبو خبزة عن خبره ورهب عليه، فعرّفه أن القرمطي، الذي خرج أمير المؤمنين المكتفي بالله في طلبه، خلف رابية أشار إليها، فسار أبو خبزة إلى ذلك الموضع ومعه جماعة بالسلاح حتى أشرف عليهم، فأخذهم وشدّهم وثاقًا وتوجه بهم إلى صاحبه ابن كُشمرد، فسار بهم إلى المكتفي وهو يومئذ بالرقّة، فأمر أن يشهّروا بها ففُعل بهم ذلك، وألبس الحسن بن زكرويه درّاعة ديباج وبرنس من حرير وهو على بختيّ[٣]، والمدثّر والمطوّق على جملين عليهما درّاعتا ديباج وبرانس حرير، وهم بين يديه، وذلك في يوم الأربعاء لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين.

قال: وقدم محمد بن سليمان الكاتب الرقّة والجيوش معه، بعد أن تتبّعوا ما

---

(١) الدالية: مدينة على شاطىء الفرات في غربيه بين عانة والرحبة صغيرة.

(٢) تلجلج: تردد في كلامه ولم يبن.

(٣) البخت: الإبل الخراسانية، واحدها: بختيّ.

بقي من القرامطة فأسروا وقتلوا، فخلف المكتفي بالله عساكره مع محمد بن سليمان بالرقّة، وشخص في خاصّته وغلمانه وتبعه وزيره القاسم بن عبيد الله إلى بغداد، وحمل القرمطي وأصحابه معه ومن أُسر في الوقعة، وذلك في أول يوم من صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين، فلما صار إلى بغداد عمل له دميانه غلام يا زمان كرسيًّا سمكه ذراعان ونصف، ركّبه على فيل وأركبه عليه ودخل المكتفي بالله وهو بين يديه مع أصحابه الأسرى، عليهم دراريع الديباج والبرانس والمطوّق في وسط الأسرى على جمل، وهو غلام حدث قد جعل في فيه خشبة مخروطة قد شدّت إلى قفاه كاللجام، وذلك أنّهم في وقت دخولهم الرقّة أكثر الناس الدعاء عليهم، فكان هو يشتم الناس الذين يدعون عليهم ويبصق عليهم، وكان دخولهم كذلك لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول من هذه السنة.

قال: فلما وصل المكتفي إلى داره حبسهم ووكل بهم، ووصل محمد بن سليمان بعد ذلك على طريق الفرات في الجيش، وقد تلقّط بقايا القرامطة من كل وجه، فنزل بباب الأنبار في ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل من السنة، فأمر المكتفي القوّاد وأصحاب الشرط بتلقّيه والدخول معه، فدخل محمد بن سليمان في زي حسن ومعه بين يديه نيّف وسبعون أسيرًا، وخلع الخليفة على محمد بن سليمان وطوّقه بطوق من ذهب، وسوّره بسوار من ذهب، وخلع على جميع القوّاد وطوّقوا وسوّروا، وحبس الأسرى وكان المكتفي بالله وقت دخوله أمر أن تبنى له دكّة[١] في المصلّى العتيق من الجانب الشرقي، مربّعة ذرعها عشرون ذراعًا في مثلها وارتفاعها عشرة أذرع يصعد إليها بدرج، فلما كان يوم الاثنين لأربع بقين من شهر ربيع الأول أمر المكتفي القوّاد وجميع الغلمان وصاحب جيشه محمد بن سليمان وصاحب شرطته أن يحضروا هذه الدكّة، فحضروها وصعد الوجوه ووقف الباقون على دوابّهم، وخرج التجّار والعامّة للنظر وحملوا الأسرى كلّهم مع خلق كثير منهم كانوا بالكوفة وحملوا إلى بغداد وغيرهم ممّن حمل ممّن كان على مذهبهم، فأحضر جميعهم على الجمال وقتلوا جميعًا وعدّتهم ثلاثمائة وستون وقيل ثلاثمائة ونيّف وعشرون، وقدم الحسن بن زكرويه وعيسى ابن أُخت مهرويه، وهما زميلان، على بغل في عماريّة، قد أرسل عليهما أغشية، فأُصعدا إلى الدكّة وأُقعدا، وقدم أربعة وثلاثون إنسانًا من الأسرى من وجوه القرامطة، ممّن عرف بالنكاية والعداوة للإسلام

(١) الدكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.

والكلب على سفك الدماء واستباحة النساء وقتل الأطفال، وكان كل واحد منهم يبطح على وجهه فتقطع يده اليمنى ويرمي بها إلى أسفل ليراها الناس، ثم تقطع رجله اليسرى، ثم يده اليسرى، ثم رجله اليمنى ويرمي بها إلى أسفل ثم تضرب عنقه ويرمي به إلى أسفل، فلما فرغ منهم قدّم المدثر ففعل به مثل ذلك ثم كوي ليعذب ثم ضربت عنقه، ثم قدم الحسن بن زكرويه فضرب مائتي سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وكوي وضربت عنقه، ورفع رأسه على خشبة، وحملت الرؤوس فصلبت على الجسر، وصلب بدن الحسن فمكث مصلوبًا نحوًا من سنة، ثم سقط عليه حائط ودفنت أجساد الأسرى عند الدكة، وهدمت بعد أيام.

قال الشريف: ومن كتب اللعين الحسن بن زكرويه إلى بعض عمّاله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله المهدي المنصور الناصر لدين الله، القائم بأمر الله، الداعي إلى كتاب الله، الذابّ عن حريم الله، المختار من ولد رسول الله، أمير المؤمنين وإمام المسلمين، ومذلّ المنافقين، وقاصم المعتدين، ومبيد الملحدين، وقاتل القاسطين، ومهلك المفسدين، وسراج المنتصرين، ومشتت المخالفين، والقيم بسنة المرسلين، وولد خير الوصيين صلّى الله عليه وعلى آله الطيّبين وسلّم ـ كتاب إلى جعفر بن حميد الكردي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلّي على محمد جدّي رسول؛ أما بعد: فقد أنهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة، وما فعلوه بناحيتك من الظلم والعبث والفساد في الأرض فأعظمنا ذلك، ورأينا أن ننفذ إلى هناك من جيوشنا من ينتقم الله به، من أعدائنا الظالمين الذين يسعون في الأرض فسادًا فأنفذنا جماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص ونحن في أثرهم، وقد أوعزنا إليهم في المصير إلى ناحيتك، لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجزينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا في أمثالهم، فينبغي أن يكون قلبك وقلوب من اتبعك من أوليائنا، وتثق بالله وبنصره الذي لم يزل يعوّدنا في كل من مرق(١) من الطاعة وانحرف عن الإيمان، وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يحدث فيها، ولا تخف عنّا شيئًا من أمرها.

سبحانك اللهم وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على جدي رسوله وعلى أهل بيته وسلّم كثيرًا.

---

(١) مرق من الدين: خرج.

وكان عمّاله يكاتبونه بمثل هذا الصدر. قال ابن الأثير: وكان قد نجا من أعيان القرامطة رجل من بني العليص يسمى إسماعيل بن النعمان في جماعة معه، فكاتبه المكتفي بالله وبذل له الأمان، فحضر في نيّف وستين نفسًا، فأحسن الخليفة إليهم وسيّرهم إلى رحبة مالك بن طوق مع القاسم بن سيما، فأقاموا معه مدّة وعزموا على إنشاء فتنة بالرحبة، وكان قد انضم إليهم جماعة كثيرة، فشعر بهم القاسم فقتلهم فارتدع من كان قد بقي من موالي بني العليص، وذلّوا ولزموا السماوة[١] حتى جاءهم كتاب من زكرويه بن مهرويه، يذكر لهم أن ممّا أوحي إليه أن صاحب الشامة وأخاه يقتلان، وأن إمامه، الذي هو حي، يظهر بعدهما ويظفر.

ذكر خبر إرسال زكرويه بن مهرويه محمد بن عبد الله إلى الشام وما كان من أمره إلى أن قتل

كان الحسن بن زكرويه قد خلف القاسم بن أحمد المكنى بأبي الحسين خليفة على من بسَلَمية من أصحابه كما قدّمنا، فقدم سواد[٢] الكوفة إلى زكرويه فأخبره بخبر القوم، الذين استخلفه عليهم ابنه الحسن أنهم اضطربوا عليه، وأنه خافهم وتركهم وانصرف، فلامه زكرويه على قدومه لومًا كثيرًا، وقال له: ألا كاتبتني قبل انصرافك إليّ، وجده على ما به تحت خوف شديد من طلب السلطان من وجه وطلب أصحاب عبدان الذي كان قد تسبّب في قتله من وجه آخر ثم إنّ زكرويه أعرض عن القاسم وأنفذ رجلًا من أصحابه، كان يعلم الصبيان بالزابوقة[٣] يقال له محمد بن عبد الله بن سعيد المكنى أبا غانم في سنة ثلاث وتسعين ومائتين فتسمّى نصرًا، وأمره أن يتوجّه إلى أحياء كلب ويدعوهم، فدار أحياء كلب ودعاهم فلم يقبله إلا رجل من بني زياد يعرف بمقدام بن الكيّال، ثم استجاب له طوائف من الأصبعيين الذين يعرفون بالفواطم، وقوم من بني العليص وصعاليك من بني كلب، فسار بهم نحو الشام، وعامل المكتفي بالله يومئذ على دمشق والأردن أحمد بن كَيْغَلَغ، وهم بنواحي مصر على حرب إبراهيم الخليجي، وكان قد خالف كما قدّمنا ذكر ذلك،

---

(١) السماوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو: بادية السماوة: التي هي بين الكوفة والشام قفرى.. وقيل: السماوة ماءة لكلب... (معجم البلدان).

(٢) سواد المدينة: ما حولها من القرى والريف.

(٣) زابوقة البيت: زاويته وناحيته.

فاغتم محمد بن عبد الله بن سعيد غيبته فصار إلى مدينتي بُصْرَى وأذرعات[(١)] فحارب أهلها ثم أمّنهم فلما استسلموا قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأخذ جميع أموالهم، وسار نحو دمشق فخرج إليه صالح بن الفضل خليفة ابن كيغلغ فيمن معه، فأثخنوا فيهم وظفروا عليهم ثم غرّوهم ببذل الأمان، فتقلوا صالحًا وعسكره وقصدوا دخول دمشق فدفعهم عنها أهلها فانصرفوا إلى طبريّة، ولحق بهم جماعة من الجند ممّن سلم بدمشق، فواقعهم يوسف بن إبراهيم، عامل ابن كيغلغ على الأردن، فهزموه، وبذلوا له الأمان ثم غدروا به فقتلوه ونهبوا طبريّة وقتلوا وسبوا النساء، فأنفذ المكتفي الحسين بن حمدان في طلبهم مع وجوه من القوّاد، فدخل دمشق وهم بطبريّة، فلما علموا بذلك عطفوا نحو السماوة، وأتبعهم الحسين بن حمدان في البريّة، فأقبلا ينتقلون من ماء إلى ماء يغورون ما يرتحلون عنه من الماء، فلم يزالوا على ذلك حتى وردوا الماءين المعروفين بالدِمْعَانة[(٢)] والحالّة، فانقطع عنهم لعدم الماء فمال نحو رحبة مالك بن طوق، وأسرى عدو الله حتى وافى هيت وهم غازون وذلك لتسع بقين من شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين، طلوع الشمس، فنهب ربض هيت والسفن التي في الفرات وقتل نحو مائتي إنسان، وأقام هناك يومين والقوم متحصّنون، ثم رحل بما أخذه وبمائتي كرّ[(٣)] حنطة إلى نحو الماءين وبقيّة أصحابه هناك، فلما اتصل الخبر بالمكتفي أرسل إلى هيت محمد بن إسحاق بن كنداجيق ومعه جماعة من القوّاد في جيش كثيف، ثم أتبعه بمؤنس الخادم، فنهض محمد بن إسحاق نحوهم فوجدهم قد غوّروا المياه، فأنفذ إليه من بغداد بالروايا والقرب والمزاد، وكتب إلى الحسين بن حمدان بالنفوذ إليهم من الرحبة، فلما أحسُّوا بذلك ائتمروا بصاحبهم نصر، فوثب عليه رجل من أصحابه يقال له الذيب بن القائم فقتله، وشخص إلى بغداد متقرّبًا بذلك ومستأمنًا، فأُسنيت له الجائزة وكُف عن طلب قومه بقتل محمد هذا، فمكث أيامًا ببغداد وهرب، ثم إن طلائع محمد بن كنداجيق ظفرت برأس محمد المقتول هذا، فحمل إلى بغداد.

---

(١) أذرعات: بالفتح، ثم السكون، وكسر الراء، وعين مهملة، وألف وتاء: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليها الخمر.

(٢) الدمعانة: بكسر أوله وسكون ثانيه، والعين مهملة، وبعد الألف نون: ماء لبني بحر من بني زهير بن جناب الكلبيين بالشام. . . (معجم البلدان).

(٣) الكر: مكيال لأهل العراق؛ أو ستون قفيزًا، أو أربعون إردبًا.

قال: ثم إن قومًا من بني كلاب أنكروا ما فعله الذيب من قتل محمد، ورضيه آخرون فتحزّبوا أحزابًا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى كثرت القتلى بينهم ثم افترقوا، فصارت الفرقة التي رضيت قتله إلى ناحية عين التمر، وتخلف من كره قتله على الماء الذي كانوا ينزلون عليه، واتصل الخبر بزكرويه بن مهرويه فردّ القاسم إليهم.

ذكر إرسال زكرويه بن مهرويه القاسم بن أحمد ودخوله الكوفة وما كان من أمره

قال: ولما اتّصل الخبر بزكرويه كان القاسم بن أحمد عنده، فردّه إليهم لمعرفتهم به، فلما ورد عليهم جمعهم ووعظهم، وقال: أنا رسول وليّكم وهو عاتب عليكم فيما أقدم عليه الذيب بن القائم، وأنّكم قد ارتددتم عن الدين، فاعتذروا وحلفا ما كان ذلك بمحبّتهم، وذكروا ما جرى بينهم وبين أهلهم من الخلف والقتل والبعد بهذا السبب، فقال لهم: قد جئتكم الآن بما لم يأتكم به أحد تقدّمني، وليّكم يقول لكم: قد حضر أمركم وقرب ظهوركم، وقد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفًا ومن أهل سوادها أكثر، وموعدكم اليوم الذي ذكره الله، يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى، فأجمعوا أمركم وسيروا إلى الكوفة، فإنه لا دافع لكم عنها، ومنجز وعدي الذي جاءتكم به رسلي، فسرُّوا بذلك سرورًا كثيرًا وارتحلوا نحو الكوفة، فلما وردوا إلى القُطْقُطَانَة[1]، وهي قرية خراب في البرّ، بينها وبين الكوفة ستة وثلاثون ميلاً، وذلك يوم الأربعاء قبل يوم عرفة بيوم من سنة ثلاث وتسعين ومائتين، خلَفوا بها الخدم والأموال ثم أمرهم أن يلحقوا به عين الرحبة[2] على ستة أميال من القادسية، ثم شاور الوجوه من أصحابه في أي وقت يأتي الكوفة؟ فقال قائل ليلاً فلا يتحرك أحد إلا قتلناه، ويخرج إلينا وإليها في قلة فنأخذه ونقتله، وقال آخر: نمهل إلى أن ندخلها عشاء في يوم العيد، والجند سكارى والبلد خال، فنقصد باب إسحاق وهو غافل فنأخذه ونقف على بابه، فلا يأتينا أحد إلا قتلناه، فإنهم لا يأتونا إلا نفر بعد نفر، وكانت شحنة الكوفة يومئذ سبعة آلاف رجل، إلا أن المقيم بالكوفة يومئذ أربعة آلاف

(١) القطقطانة: بالضم ثم السكون ثم قاف أخرى مضمومة، وطاء أخرى، وبعد الألف نون، وهاء: موضع قرب الكوفة جهة البرية بالطف به كان سجن النعمان بن المنذر.

(٢) الرحبة: ناحية بين البادية والشام قريبة من وادي القرى.. وعين الرهبة هي من القادسية على ثلاثة أيام.. والرحبة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة... (معجم البلدان لياقوت).

من الدميانية والمصريين وغيرهم، والناس فيها أحياء والبلد على غاية الاجتماع والحسن وكثرة الناس، وقال آخرون: نسير ليلتنا ثم نكمن في النجف في شعابه فنريح الخيل والإبل وننام، ونركب عمود الصبح فنشنّها غارة على أهل المصلّى، وقد نزل الجند للصلاة وركب غلمانهم الدوابّ، ونضع السيف وجل أهل البلد هناك، فقال اللعين: هذا هو الرأي، فركبوا وساروا حتى حصلوا في بعض المواضع فناموا، فلم يوقظهم إلا مسّ الشمس يوم العيد، لطفًا من الله تعالى بالناس؛ قال: وقد كان أحد ما شغلهم أنهم اجتازوا بقوم من اليهود يدفنون ميتًا لهم بالنُّخَيْلَة[١]، فشغلهم قتلهم فلم يصلوا إلى الكوفة إلا وقد صلّى إسحاق بن عمران بالناس العيد، وانصرف الناس متبدّدون في ظاهر الكوفة ومنهم من قد انصرف، ولإسحاق بن عمران طلائع تتفقد، وكان ذلك لأمور قد أرجف[٢] الناس بها في البلد، من فتن تحدث من غير جهة القرامطة، وقيل كانت عدّتهم ثمانمائة فارس وأربعمائة راجل: وهم يقاتلون على طمع وشبهة، فأقبلوا يقدمهم هذا المكنى بأبي الحسين. قال: وكان أحد الألطاف أنّ إسحاق بن عمران قد أحدث مصلّى بالقرب من طرف البلد فصلّى فيه، وكان الرجوع منه إلى البلد سهلاً، فقصدت القرامطة المصلّى العتيق، على ما كانوا يقدرون من اجتماع الناس فيه، فلم يصادفوا فيه أحدًا، فأقبلت خيل منهم من تلك الجهة، فدخلوا الكوفة من يمينها، فوضعوا السيف حتى وصلوا إلى حبسها ففتحوه، وقتلوا كثيرًا من الناس وأخرجوا خلقًا، فارتجت الكوفة وخرج الناس بالسلاح، وتكاثر الناس على من دخل الكوفة من القرامطة، فقذفوهم بالحجارة فقتل منهم جماعة، وأقبل جل القوم نحو الخندق فقتلوا ناسًا، وناوشهم طوائف من الجند تخلفوا بالصحراء وبعض ما كان أنفذ إسحاق بن عمران طليعة، فقتلوا بعضهم وأفلت بعضهم إلى البلد، وكان إسحاق بن عمران قد انصرف في أحسن زي وأجمله، فلما صار قرب داره تفرّق الجيش عنه إلا خواصًا، كان قد عمل لهم سماطًا[٣] في داره، فلما سار في بعض الطريق لحقه فارس من بني أسد على فرس له بلقاء، قد طعنت في عنقها ودمها سائل على كتفها إلى الحافر، فشق الجند وزاحم غلمانه وجاوز إسحاق بن عمران، ثم قلب رأس فرسه إليه فوقف له، فقال: جاءتنا أيها الأمير خيل من الأعراب، فقتلت وسلبت

---

(١) النخيلة: تصغير نخلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام... والنخيلة: ماء عن يمين الطريق قرب المغيثة والعقبة على سبعة أميال من جويّ غربي واقصة... (معجم البلدان).

(٢) أرجف الناس: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٣) السماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.

وخرجت إلى الصحراء، فلما رددناهم طعنت فرسي، فقلب إسحاق بن عمران فرسه راجعًا، وأمر بإخراج الجند نحو الخندق، وبين يدي إسحاق بن عمران نحو من ستين راجلًا، ومعه غلمانه ونفر يسير من الجند، حتى إذا صار عند قصر عيسى بن موسى ومعه أبو عيسى صالح بن علي بن يحيى الهاشمي يسايره فالتفت إليه، وقال: خذ هؤلاء الرجّالة وامض إلى قنطرة بني عبد الوهاب ـ وهي إحدى قناطر الخندق ـ فاكشفها، فأخذهم ومضى، وتقدّم إلى عبد الله الحسين بن عمر العلوي أن يدور في البلد ويسكّن الناس، فدار وعليه السواد فسكن الناس، وخرج كثير من الناس بالسلاح، وتفرّق من دخل الكوفة من القرامطة لمّا رماهم أهلها، وقتل بعض القصابين رجلًا منهم بساطور، وكان فيمن تفرّق منهم رجل من كلب يعرف بالمُقَلْقل، وهو أحد رجالهم وشجعانهم في جمع معه، فأفضى به الطريق إلى دار عيسى بن علي، فلقيهم أحد الفرسان من الجند يعرف بالورداني، قد ركب لمّا سمع الصيحة، فلم يشك أنّهم من الجند لما رأى من كثرة الجواشن عليهم والدروع، فقال لهم: سيروا يا أصحابنا، فأمسكوا عنه حتى توسّطهم ثم عطفوا عليه بالسيوف فقتلوه، وأخذوا دابّته وساروا نحو الخندق للقاء أصحابهم، فلما صاروا بالصحراء من الكوفة نظر إليهم أبو عيسى، فلم يشك أنّهم من أصحاب السلطان، ثم نظر إليهم وقد لقوا جماعة من العامّة، فأقبلوا يسلبونهم، فتبيّن أمرهم فحمل عليهم فعدلوا عن سلب أولئك، وحمل فارسهم المقلقل ـ وكان رجلًا عظيمًا جسيمًا ـ وفي يده سيف عريض، فالتقى هو وأبو عيسى فطعنه أبو عيسى تحت ثندوته[١] فصرعه، فحذفه المقلقل بالسيف فأصاب جحفلة[٢] فرسه فعقره، وأمر أبو عيسى بعض الرجّالة فاحتزّ رأسه ووجّه به إلى إسحاق بن عمران، وقد رفع رأسه، فكان ذلك أحد ما كسرهم؛ قال: واجتمعت الخيل والرجّالة فقاتلهم إسحاق بمن معه ـ وليسوا بالكثيرين ـ قتالاً شديدًا، في يوم صائف شديد الحرّ طويل إلى الزوال، وخرج الناس من العامّة فانصرف القرامطة مكدودين فنزلوا الغدير على ميلين من الكوفة وارتحلوا عشيًا نحو سوادهم، واجتازوا بالقادسية، وقد وصل إليهم رسول إسحاق بن عمران، فحذّرهم أمرهم يعني حذّر أهل القادسيّة، وعرف يومئذ صبر إسحاق بن عمران على حملاتهم وتشجيعه لأصحابه.

قال: وأخرج إسحاق بن عمران مضاربه بظاهر الكوفة، وخرج إليه أصحابه فعسكر، وبات الناس بالكوفة على غاية الجزع والتحارس ونصب الحجارة على

(١) الثندوة: ثدي الرجل؛ أو طرف الأنف؛ أو مقدمه.

(٢) الجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير.

الأسطحة؛ قال: ولما وصلت القرامطة إلى عين الرحبة وكانوا قد خلَفوا سوادهم هناك، فرحلوا ثم ساروا بهم فنزلوا عينا بسرّة[١] العُذَيب[٢] تعرف بعين عبد الله، ثم رحلوا فنزلوا قرية تعرف بالصوّان على نهر هِد من سواد الكوفة، ثم مضى أبو الحسين إلى قرية تعرف بالدرنة على نهر زياد من سواد الكوفة، فخرج إليه بها زكرويه وكان من أمره ما نذكره.

ذكر ظهور زكرويه بن مهرويه وقتاله عساكر الخليفة وأخذه الحاج وما كان من أمره إلى أن قتل

كان ظهور زكرويه بن مهرويه في سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وذلك أنّه لما وصل القاسم بن أحمد إلى الدرنة خرج زكرويه إليه منها، وكان بها مستترًا كما ذكرنا فيما تقدّم، فقال القاسم للعسكر: هذا صاحبكم وسيّدكم ووليّكم الذي تنتظرونه، فترجّلوا بأجمعهم وألصقوا خدودهم بالأرض، وضرب لزكرويه مضرب عظيم وطافوا به وسرّوا سرورًا عظيمًا، واجتمع إليه أهل دعوته من أهل السواد فعظم جيشه جدًا، وكان إسحاق بن عمران قد كتب إلى العباس بن الحسن وزير المكتفي - يخبره خبر القرامطة ومهاجمتهم على الكوفة وما كان من خبرهم، وأثنى على من عنده من الجند وذكر حسن بلائهم، فلما وصل إليه الكتاب قلق له، وشاور بعض أصحابه في لقاء الخليفة المكتفي بالله بذلك، فأشار عليه بتعجيله بذلك، فقال الوزير: كيف ألقاه بهذا مع ما يحتاج إليه من الأموال ولعهدي به، وقد ناظرني منذ يومين في دينار واحد، ذكر أنّه فضل[٣] بقيّة نفقة رفعت إليه، فقال له صاحبه: أيها الوزير إنْ أسعفك وإلا ففي أموال خدمك وأسبابك فضل فوظّفها علينا، وتنفق فيها، فقال: فرّحت، والله - عنَي، ثم لبس ثيابه وأتى إلى المكتفي بالله فدخل عليه في غير وقت الدخول فعرّفه الخبر، فقال له المكتفي: كأنّك يا عباس قد قلت: كيف أخبر أمير المؤمنين بمثل هذا وقد ناظرني في دينار فضل نفقة! فقال: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، قال: إنّما جرى ذلك لمثل هذا، فلا تبخل بمال في مثل هذا، وأباحه الأموال والإنفاق في

(١) السرّة: مستقر الماء في أقصى الحوض.

(٢) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، وقيل: هو واد لبني تميم... وقيل: العذيب يخرج من قادسية الكوفة إليه وكانت مسلحة الفرس... والعذيب: ماء قرب الفرما من أرض مصر... والعذيب: موضع بالبصرة... (معجم البلدان).

(٣) فضل: زيادة.

الرجال ليّ ونهارًا، فأنفذ الوزير جَنِيّ الصفواني ومباركًا القمّي ونحرير العمري ورائقًا وطائفة من الغلمان الحُجرية وجماعة من القوّاد في جيش عظيم، فوصل أوائلهم في اليوم السادس من يوم النحر، فركب إليه إسحاق بن عمران وذكر لهم قوّة من لقي من القرامطة، وأنّه قد مارسهم، وحذّرهم أن يغتروا بهم، وقال لهم: سيروا إلى القادسيّة فإنّ بينكم وبينها مرحلة، وإذا صرتم بها فأريحوا واستريحوا وتجمّعوا، ثم سيروا إليهم وطاولوهم ونازلوهم فإنّ الظفر يرجى بذلك فيهم عندي، ولا ترموا بأنفسكم عليهم فإنّهم صبر غير أنكال، فقال له بشر الأفشيني: إن رأيناهم كفيناك القول يا أبا يعقوب، إنما نخشى أن يهربوا، فدعا لهم بالنصر ورحلوا نحو القادسيّة، فباتوا بها ليلة ورحلوا في آخرها إلى الصِوّان، وبين الموضعين نحو العشرة أميال، ورحلوا بالأثقال والفهود والبزاة وهم على غير تعبئة مستخفّين بهم، فأسرعوا السير ووصلوا وقد تعب ظهرهم وقلّ نشاطهم وقد عمد القرامطة فضربوا بيوتهم إلى جانب جرف عظيم لنهر هناك وأثقالهم مما يلي البيوت، والرجّالة في أيديهم السيوف، وقتالهم من وجه واحد صفًا واحدًا قدّام البيوت بقدر نصف غلوة، والفرسان جلس خلف الرجّالة، فلما تراءى الفريقان ركب الفرسان وافترقوا فصاروا جناحين للرجّالة، وحملوا على الناس فصدقوهم الحملة فانكفأوا راجعين، وتلاقى الرجّالة من الفريقين، فأتت رجّالة العسكر على رجّالة القرامطة وألجأوهم إلى البيوت، وأقبلت الفرسان فنظروا إلى الرجّالة ينهبون بيوتهم، فترحّلوا وحمّلوا خيلهم الأمتعة، وكانت القرامطة في مجنبات الناس لما رأوا من صدق القتال، فلما رأوا الناس قد حمّلوا الدواب والجمازات[١] وتشاغلوا حملوا على الجمازات والبغال بالرماح، فأقبلت لا يردّها شيء عن الناس تخبطهم، فانهزم الناس ووُضع السيف فيهم، وقتل الأكثر وتبع الأقل نحو القادسيّة وفيهم مبارك القمّي، فأقاموا ثلاثًا يجمعون السلب والأسرى، وجمع زكرويه الآلة والمتاع والأثاث والجمازات، فقيل إنّه أخذ ثلاثمائة جمل وخمسمائة بغل ممّا كان للسلطان سوى ما أُخذ للقواد، وقيل إنّه قتل ألفًا وخمسمائة رجل، فقوي أصحابه جدًا، ودخل الكوفة فلول الجيش عراة.

ورحل زكرويه يريد الحاج وبعث دعاته إلى السواد، فلم يلحق به فيما قيل إلا النساء والصبيان، قال: ولما وقف الخليفة على صورة الأمر عظم عليه وعلى الناس وخافوا على الحجّاج، فأنفذ المكتفي بالله محمد بن إسحاق بن كنداج لحفظ الحاج

(١) الجمّازة: مركب سريع يتخذه الناس في المدن (شبه العجلة التي تجرها الخيل) والجماز من الدواب: السريع العدو الوثاب.

وطلب زكرويه، وضمّ إليه خلقًا عظيمًا وجماعة من القوّاد ونحو ألفي رجل من بني شيبان واليمن وغيرهم، وكان زكرويه قد نزل على عين الزبيديّة[١]، ثم نزل على أربعة أميال من واقصة، فوافت القافلة لست أو سبع خلت من المحرم من سنة أربع وتسعين ومائتين، فأنذرهم أهل المنزل بالقرامطة فلم ينزلوا وطووا، فنجّاهم الله عزّ وجلّ، وكان معهم من أصحاب السلطان الحسن بن موسى وسما الإبراهيمي، فلما وافى زكرويه واقصة[٢] تعرّف الخبر فعرف أنهم قد حذّروهم، فقتل جماعة من أهل المنزل ونهب وأحرق الحشيش وتحصّن الباقون منه، ورحل فلقيته الخراسانية من الحجّاج على الأرض البسيطة التي تخرج منها حجارة النار، يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم، وليس معهم أحد من أصحاب السلطان، فرشقوا القرامطة بالنشّاب وقد أحاطوا بهم فانحازوا عنهم، ثم تقدّم إلى الحاج جماعة منهم فسألوهم: هل فيكم سلطان، فإنّا لا نريدكم؟ فقالوا لهم: لا، إنما نحن قوم حجّاج، فقال لهم زكرويه: امضوا، فرحلوا وأمهلهم حتى ساروا ثم قصدهم، يبعج[٣] الجمال بالرماح حتى كسر بعضها بعضًا واختلطت، ووضع السيف فقتل خلقًا عظيمًا واستولى على الأموال.

وقدم محمد بن إسحاق بن كنداج الكوفة ثم رحل إلى القادسية فلما وقف على خبر مسيرهم نحو واقصة أنفذ عَلاَّن بن كُشْمَرْد في خيل جريدة، حتى لقي فلّ الخراسانيّة فأشاروا عليه أن يلحق الحاج فإنّ القافلة الثانية تنزل العقبة الليلة أو من غد، فحُثّ حتى تسبق إليها فتجتمع أنت ومن فيها على قتال الكفرة، الله الله في الناس أدرِكْهم، فرحل راجعًا نحو القادسية وقال: لا أغرّر برجال السلطان للقتل، فلقي بعد ذلك من المكتفي شرًّا؛ وورد زكرويه العقبة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم وفي القافلة مبارك القمّي وأحمد بن نصر الديلمي وأحمد بن علي الهمذاني، وقد كانت كتب المكتفي اتصلت إلى أُمراء القافلة الثانية والثالثة مع رسله، يأمرهم أن يتجنّبوا الطريق ويرجعوا إلى المدينة، ويأْخذوا على طريق البصرة أو غيرِها فلم يفعلوا ذلك، ولما التقوا اقتتلوا قتالاً شديدًا فكانت الغلبة لأصحاب السلطان حتى لم يشكُّوا في ذلك، ثم خرج اللعين زكرويه إلى آخر القافلة وقد رأى خللاً هناك، فعمل في الجمال كما عمل في جمال الخراسانية، وقتل سائر الناس إلا يسيرًا استعبدهم أو شريدًا، ثم

(١) الزبيدية: اسم بركة بين المغيثة والعذيب وبها قصر ومسجد.

(٢) واقصة: بكسر القاف والصاد مهملة: موضعان: واقصة منزل بطريق مكة بعد القرعاء نحو مكة وقبل العقبة... وواقصة أيضًا: ماء لبني كعب.. وواقصة: بأرض اليمامة.

(٣) بعج البطن: شقه، فبرزت حشاؤه.

أنفذ خيلاً فلحقت من أفلت من أوائل القوم حتى ردّوهم إليه، فقتلهم وأخذ النساء وجميع ما في القافلة، وقتل مباركًا القمّي ومظفّرًا ابنه وأسر أبا العشائر، فقطع يديه ورجليه وضرب عنقه، وأطلق من النساء ما لا حاجة له فيها، ووقع بعض الجرحى بين القتلى حتى تخلّصوا ليلاً، ومات كثير من الناس جوعًا وعطشًا، وورد من قدّم من الناس يخبرون أن نساء القرامطة كنّ يطفن بين القتلى فيقلن: عزيز علينا، من يرد ماءً نسقيه، فإن كلّمهنّ جريح مطروح أجهزن عليه، قال: ويقال إنّ جميع القتلى كانوا نحوًا من عشرين ألفًا، وأخذ من الأموال ما لا يحصى كثرة.

قال: ولما اتصل خبر القافلتين بمدينة السلام جاء الناس من ذلك ما شغلهم، وتقدّم السلطان بإخراج المال وإزاحة العلل، وأخرج العباس بن الحسن ومحمد بن داود الجرّاح الكاتب المتولي دواوين الخراج والضياع بالمسير إلى الكوفة لإنقاذ الجيش منها، وحمل معه أموالاً عظيمة، وقال: كلّما قرب نفاد ما معك كاتبني لأمدّك بالأموال، وخرج إليها يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم، وقدّم خزانة سلاح جعلها بالكوفة فما زالت بقاياها هناك إلى أن أخذها الهَجَريّ. قال: ثم رحل زكرويه يريد القافلة. الثالثة فلم يدع ماءً في طريقه إلا طرح فيه جيف الموتى، ونزل زُبَالة فقتل من بها من التجار، ونهب الحصن وبث الطلائع خوفًا من لحوق عسكر السلطان به، فلما أبطأت القافلة عليه فنزل الشُّقُوق[1] ثم نزل في رمل يقال له الهَبِير[2] والطليح، وأقام ينتظر القافلة وفيها من القوّاد نُفَيْس المُوَلَّدي، وعلى ساقتها صالح الأسود ومعه الشَّمْسَة، وكان المعتضد جعل فيها جوهرًا نفيسًا ومعه الخزانة، وكان في القافلة من الوجوه إبراهيم بن أبي الأشعث، ومعه كاتبه المنذر بن إبراهيم وميمون بن إبراهيم الكاتب وكان إليه ديوان الخراج، والفرات بن أحمد بن محمد بن الفرات، والحسن بن إسماعيل قرابة العبّاس بن الحسن، وعلي بن العبّاس النَّهيكي وغيرهم من الرؤساء، وخلق من مياسير التجّار وفيها من المتاجر والرقيق ما يخرج عن الوصف، وفيها جماعة من الأشراف منهم أبو عبد الله أحمد بن موسى بن جعفر وجماعة من أهله، فأصاب بعضهم جراحات وأسر بقيّتهم، فعرفهم بعض المولّدين من وجوه عسكره فأخبره بهم، فخلّى لأبي عبد الله أحمد بن موسى وأهله الطريق، ومكّنهم من جمال تحمّلوا عليها، وكان أحمد بن موسى أحد من دخل بغداد وخبّر السلطان بأمرهم

(١) شقوق: منزل بطريق مكة بعد واقصة من الكوفة وبعده تلقاء مكة بطان وقبر العبادي وهو لبني سلامة من بني أسد. والشقوق أيضًا: من مياه ضبة بأرض اليمامة.

(٢) الهبير: بفتح أوله وكسر ثانيه: رمل زرود في طريق مكة... (معجم البلدان).

وجلالة حالهم؛ وأقاموا بفَيْد وقد اتَّصل بهم أنّهم ينتظرون مددًا من السلطان ففعل ابن كشمرد ما فعل من رجوعه إلى القادسيّة ولم ينجدهم، فلمّا طال مقامهم نفذ ما في المنزل وغلا السعر جدًا، وجلوا عن الأجفر والخزيميّة ثم الثعلبية ثم الهَبير، فلم يستتم نزولهم حتى ناهضهم زكرويه فقاتلهم يومهم كلّه، ثم باتوا على السواء، ثم باكرهم فقاتلهم فبينما هم كذلك إذ أقبلت قافلة العُمرة، وكان المعتمرون يتخلّفون للعمرة بعد خروج الحاج إذا دخل المحرّم، وينفردون قافلة واحدة وانقطع ذلك من تلك السنة، فاجتمع الناس وقاتلوهم يومهم، ونفذ الماء وعطشوا ولا ماء لهم هناك، وباتوا وزكرويه مستظهر عليهم، ثم عاودوهم القتال حتى ملك القافلة، فقتل الناس وأخذ ما فيها من حريم ومال وغير ذلك، وأفلت ناس قليل قتل أكثرهم العطش، ثم سار مصعدًا نحو فيد فتحصّن من أهلها، فطاولهم فصبروا عليه ونزل منهم ثمانية عشر رجلاً بالحبال من رأس الحصن، فقاتلوا رجّالتهم قتالاً شديدًا وقد أسندوا ظهورهم بسور الحصن، ورمى أهل الحصن بالحجارة؛ قال: سمعت داود بن عتّاب الفيدي ـ وكان نبيلاً صدوقًا ـ قال: نزلنا إليهم نحو أربعين رجلاً متزرين بالسراويلات، وقد كان لحقهم ـ لا أدري ـ عطش قال أو جوع، قال: فطردناهم فمالوا إلى حصن يقرب منّا، قد كان بيننا وبين أهله عداوة قديمة، فأخذوا منهم الأمان ونزلوا ليفتحوا لهم، فقال بعضنا لبعض: إن ظفروا به أخذوا منه ما يحتاجون إليه، وعادوا إليكم، قال: فطرحنا أنفسنا عليهم وأحسّ بذلك أهل الحصن فقويت قلوبهم، وخرجوا فكشفناهم، وتبعهم جماعة منا فسلبوا منهم جمالاً، وكان ذلك سبب صلاحنا مع أصحاب الحصن.

قال الشريف: ولم يبق دار بالكوفة وبغداد والعراق إلا وفيها مصيبة وعَبرة سائلة وضجيج وعويل، حتى قيل إنّ المكتفي اعتزل النساء همّا وغمّا، قال: وخفي أمر زكرويه، لا يُعلم أين توجه، وقد كان أخذ ناحية مطلع الشمس، فتقدّم المكتفي يتتبّع أحواله وإشحان البلدانَ ـ التي يخاف مصيره إليها ـ بالرجال، وأنفذ وصيف ابن صوارتكين ولُجيْم بن الهيثم والقاسم بن سيما في جيش عظيم بالميرة والزاد والمال والجمال، لاستقبال الناس وإزاحة عللهم، وتقدّم يطلب زكرويه حيث كان، إلى أن وردت كتب أهل فيد بخبره، فكوتب عند ذلك إسحاق بن كنداج بأن يلزم القادسيّة ونواحي الكوفة بجيشه، وكوتب لُجَيْم بالمسير إلى خَفَّان[1] ومعارضة زكرويه حيث

(١) خفان: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وآخره نون: موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانًا، وهو مأسدة، قيل هو فوق القادسية.

كان، وأن ينفذ الطلائع والأعراب ويُرغّبوا في تتبّع حاله حتى يعرف، فجاءت الأخبار بما غلب على ظنّهم، أنه لم يخط ناحية البصرة وأنه يقصد الاجتماع مع أبي سعيد الجنَابي وهو المقدّم ذكره، فاجتمع القوّاد وتشاوروا واستقبلوا طريقًا يقال له الطريق الشامي، ويقال له طريق الطَفْ وهو بين الكوفة والبصرة، وعملوا على المقام هناك ليكونوا بين الكوفة وواسط والبصرة، فساروا مستدبري القبلة مستقبلي البصرة يرتحلون من ماء إلى آخر، حتى نزلوا يوم السبت لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين ومائتين ركيا[1] فيه ماء بقرية خراب يقال لها صُمَاخ، كان يسكنها على قديم الدهر قوم من ربيعة يقال لهم بنو عنزة، وبين هذا الموضع وبين البصرة ثلاثة أيام، فلقيهم قوم من الأعراب فخبّروهم أن القرامطة بالثَنِيّ، وهو موضع من ذي قار الذي كانت فيه وقعة العرب مع العجم في أيام كسرى، وهو واد كثير الماء العذب وبينه وبين صُماخ[2] عشرة أميال، فبات الجيش بصماخ وتراءت الطلائع في عشي يومئذ، ورحل زكرويه من غد وهو طامع بالظفر، فالتقوا بقرية خراب يقال لها إرمَ، بينها وبين الثَنِيّ ثلاثة أميال، وذلك يوم الأحد لسبع بقين من شهر ربيع الأول، فاقتتلوا قتالاً شديدًا صبر فيه الفريقان جميعًا، ثم انهزم زكرويه فقتل الجيش أكثر من معه، وأسر خلق كثير منهم وأفلت صعاليك من العرب على الخيل مجرّدين، ووصل إلى زكرويه ـ وهو في القبّة ـ في أوائل السواد، فظنّا أنّه في الخيل التي انهزمت، فقذف رجل بنار فوقعت في قُبّته فخرج من ظهرها فألقى نفسه من مؤخّرها ولحقه بعض الرجّالة ـ وهو لا يعرفه ـ فضربه على رأسه ضربة أثخنته فسقط إلى الأرض فأدركه صاحب لِلُجَيْم كان يعرفه فأخذه وصار به إليه، فأخذه لجيم وأركب الذي جاءه به نجيبًا فارهًا[3]، وقال له: طِرْ ـ إن أمكنك ـ حتى تأتي بغداد، وعرّف العبّاس بن الحسن الوزير أنّك رسولي إليه، واشرح له ما شاهدت وسلّم إليه الخاتم، فسار حتى دخل بغداد وأعلمه بالخبر.

قال: ومضى لجيم إلى وصيف والقاسم بن سيما فعرّفهما خبر زكرويه واجتمعوا جميعًا وكتبوا كتاب الفتح، ونهب الجيش عسكر القرامطة وأخذت زوج زكرويه واسمها مؤمنة وأخذ خليفته وجماعة من خاصّته وأقربائه وكاتبه، وانصرف العسكر نحو

---

(١) الركية: البئر التي لم تطو.

(٢) الصّماخ: ماء على منزل واحد من واسط لقاصد مكة.. والمياه التي بين جبلي طيىء والجبال التي بينهما وبين تيماء منها صماخ.

(٣) الفاره: الذي خف ونشط؛ أو هو الذي حذق ومهر.

الكوفة فمات زكرويه بخَفَّان من جراحات أصابته، فصُبّر وكُفّن وحمل على جمل إلى بغداد، وأُدخلت جثّته وزوجته وحرم أصحابه وأولادهم والأسرى ورؤوس من قتل بين يديه وخلفه ونساؤه في الجوالقات.

قال ابن الأثير: وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم أصحاب الحسين بن حمدان فقتلوا عن آخرهم، وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه يعرف أحدهما بالحدّاد والآخر بالمنتقم وهو أخو امرأة زكرويه، كانا قد توجّها إليهم يدعوانهم إلى الخروج إلى صاحبهم، فسيّروهما إلى بغداد، وتتبّع الخليفة القرامطة بالعراق فقتل بعضهم وحبس بعضهم، وبات هذه الطائفة منهم بالعراق مدّة.

ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بعد مقتل زكرويه بن مهرويه

قال الشريف أبو الحسين: ولمّا قتل زكرويه سكن أمر القرامطة وانقطعت حركاتهم وذكر دعوتهم، فلما دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين خرج رجل من السواد من الزُّطّ يعرف بأبي حاتم، فقصد أصحاب البُوراني خاصة، وكان هذا البوراني داعيًا وأصحابه يعرفون بالبورانيّة، فلما ظهر أبو حاتم حرّم عليهم الثوم والكرّاث والفجل، وحرّم عليهم إراقة الدم من جميع الحيوان، وأمرهم بأشياء لا يقبلها إلا الأحمق السخيف من ترك الشرائع، وهذه الطائفة من القرامطة تعرف بالبقليّة.

وأقام أبو حاتم هذا نحو سنة ثم زال، ثم اختلفوا بعده وكانوا أهل قرى بسواد الكوفة، فقالت طائفة منهم زكرويه بن مهرويه حيّ، وإنّما شبّه على الناس به، وقالت فرقة منهم الحجة لله محمد بن إسماعيل.

ثم خرج رجل من بني عجل قرمطي يقال له:

محمد بن قطبة

فاجتمع له نحو من مائة رجل، فمضى بهم إلى نحو الجَامِدَة من واسط، فنهب وأفسد فخرج إليهم أمير الناحية فقتلهم وأسرهم.

ذكر أخبار
أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي

قد قدّمنا أخبار أبيه أبي سعيد وحروبه وما استولى عليه، وذكرنا خبر مقتله وولاية ابنه سعيد، وأنّه سلّم الأمر إلى أخيه أبي طاهر سليمان، هذا في سنة خمس

وثلاثمائة، وقد قيل بل عجز سعيد عن الأمر فغلبه عليه أخوه أبو طاهر سليمان. قال: وكان شهمًا شجاعًا، وكان الخليفة المقتدر بالله قد كتب إلى أبي سعيد كتابًا ليّنًا في معنى من عنده من أسرى المسلمين، وناظره وأقام الدليل على فساد مذهبه، فلما وصلت الرسل إلى البصرة بلغهم موته، فكتبوا بذلك إلى الخليفة فأمرهم بالمسير إلى ابنه، فأتوا أبا طاهر بالكتاب فأكرم الرسل وأطلق الأسرى وأجاب عن الكتاب، ثم تحرّك أبو طاهر بعد ذلك في سنة عشر وثلاثمائة، وعمل على أخذ البصرة فعمل سلاليم عراضًا، يصعد على كل مرقاة اثنان بزارفين ـ إذا احتيج إلى نصبها وتخلع إذا أريد حملها، ورحل بهذه السلالم المزرقنة يريد البصرة، فلما قرب منها أمهل إلى أن جنّ الليل، وأمر بإخراج الأسنّة وقد كانت وضعت في رمل كيلا تصدأ فركّبت على الرماح، وفرّق الجنن[1] على أصحابه، وحشيت الغرائر[2] بالرمل وحمّلت على الجمال وحمّلت أشياء من حديد قد أُعدّت لما يحتاج إليه، ثم سار بأصحابه إلى السور قبل الفجر، فوضعوا السلالم وصعد عليها قوم من جلداء أصحابه، وتقدّم إليهم بقتل من يتكلم من الموكّلين بالأبواب، ودفع للآخرين ما أعدّه لكسر الأقفال، وقد كان التواني وقع في أرزاق الموكّلين على الأبواب، فتفرّقوا للمعاش إلا بقيّة من المشايخ القدماء فإنّ أرزاقهم كانت جارية عليهم، فصادفوا بعضهم هناك تلك الليلة فتسوّروا ونزلوا ووضعوا السيف عليهم، وجاء الآخرون فكسروا الأقفال ودخل القرامطة، فأوّل ما عملوا أن طرحوا الرمل المحمول معهم في الأبواب نحو ذراع، ليمنعوا غلقها إلا بتعب، وساروا ونذر بهم قوم فبادروا سُبُكًا المُفْلِحي وهو يومئذ الأمير فأعلموه، فركب وقد طلع الفجر ومعه بعض غلمانه فتلقوه وقتلوه، وفزع الناس وركبت الخيل فقتل من تسرّع منهم، وكانت العامّة قد منعها السلطان أن تحمل سلاحًا، فاجتمعوا بغير سلاح ومعهم الآجر، وحضر سُبُك واجتمعت الجند ووقت الحرب، فأصابت القرامطة جراحات والقتل في العامّة كثير، واستمرّ ذلك إلى آخر النهار واختلاط الظلام، ثم خرج القرامطة وقد قتلوا من الناس مقتلة عظيمة إلى خارج البلد فباتوا خارج الدرب، وخرج الناس بعيالاتهم فركبوا السفن، وباكر أبو طاهر البلد فنزل دار عبد السلام الهاشمي، وتفرّق أصحابه في البلد يقتلون من وجدوا وينهبون ما يجدون في المنازل، ويُحمل ذلك إلى موضع قد أمر بجمعه فيه.

---

(١) الجنان: الترس.

(٢) الغرائر: جمع الغرارة، وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.

وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أن دخولهم البصرة كان في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وأنّه وصل إليها في ألف وسبعمائة رجل، وأقام بها سبعة عشر يومًا يحمل منها ما يقدر عليه من الأموال والأمتعة والنساء والصبيان، وعاد إلى بلده.

قال الشريف: وتراجع الناس فاشتغلوا بدفن من قتل، ولم يرُدّ كثير منهم حريمه خوفًا من عود القرامطة، قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالسلطان أنفذ ابن نُفَيْس في عِدة وعُدة فسكن الناس، وولّي البلد فشحن السور بالرجّالة، وتحرّز الناس وأعدوا السلاح، قال: وكان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان قد قلّد أعمال الكوفة وقصر ابن هبيرة والسواد وطريق مكة، فجرى بينه وبين البوراني وقائع عظيمة حتى ردّهم عن عمله بشجاعته وإقدامه، فعمرت البلاد وأمن الناس وصلحت الطرق واستقام عزّ السلطان، فوقف القرمطي من ذلك على ما هاله، وكانت جواسيس أبي طاهر لا تنقطع عن العراق في صور مختلفة، واتّصل به أنّ أبا الهيجاء يهوّن أمره ويتمنّى أن ينتدب لحربه، فخاف ذلك ولم يأمنه.

ذكر أخذ أبي طاهر الحاج
وأسره ابن حمدان وما كان من أمره في إطلاقه

كانت هذه الحادثة في سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة، وذلك أن أبا طاهر بن أبي سعيد الجنَابي القُرمطي أنفذ رجلاً من جواسيسه إلى مكة في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وقد خرجت قوافل الحاج مع أبي الهيجاء بن حمدان في تلك السنة، فكان الجاسوس يقوم على المحجّة فيقول: يا معشر الناس ادعوا على القرمطي عدوّ الله وعدوّ الإسلام، ويسأل عن أمير الحاج وفي كم هو وكم أرزاقهم، ويسأل عمّن خرج من التجّار وما معهم من الأموال، فكان ذلك دأبه حتى قضى الحج، ثم خرج في أوّل النفر فأسرع إلى سواد باهلة، ثم إلى اليمامة وصار إلى الأحساء في أيام يسيرة، فأخبر سليمان القُرمطي بصورة الأمر، فوجّه سليمان من يثلّ[1] الآبار بينه وبين لُبْنَة[2] وبعض آبار لُبْنه ويسوّي حياضها، وورد بعض الأعراب إلى أبي الهيجاء - وهو بعيد ينتظر رجوع الحاج وذلك في آخر ذي الحجة من السنة - فأخبره أنّ آبار

(١) ثلّ البئر: أخرج ترابها.

(٢) لبنى (كما في معجم البلدان لياقوت): واد لعمرو بن كلاب كثير النخل، وليس لبني كلاب بشيء من بلادها نخل غيره.

لبنه قد ثلَت فاستراب بذلك، وجاء بعض الأعراب بجِلَّة[١] فيها قطعة من تمر هجّر فتيقّن أمر القرامطة، فشغل ذلك قلبه، وجاءه ما لم يقدره ولا ظنّه فاضطرب من ذلك اضطرابًا شديدًا، وورد حاتم الخراساني بقافلة الحاج من مكة ثاني ذلك اليوم، ومعه قافلة عظيمة، فزاد ذلك في شغل قلب أبي الهيجاء لخوفه عليه، ولم يظهر ذلك لحاتم ولا لغيره ثم ارتحل فلم يعترض عليه، فلما صار حاتم بالثعلبيّة أُنهي إليه شيء من أخبار القرامطة وأنهم بلُبنه، وكان القرمطي رحل من بلده في ستمائة فارس وألف راجل، وسار حاتم فاجتاز بالهبير ليلاً فلم ينزله، وسار حتى نزل الشقوق، وأغذّ السير وسلّمه الله ومن معه، ونزلت بفيد قافلة أخرى من غد رحيل حاتم من الخراسانيّة، ثم ساروا عنها حتى إذا كانوا بالهبير ظهر لهم أبو طاهر سليمان القرمطي، فقتل بعضهم وأفلت البعض حتى وردوا الكوفة، فاشتد خوف الناس بالكوفة على الحاج واضطربوا، إلا أن نفوسهم قويّة بمقام أبي الهيجاء بفيد، وكان أبو الهيجاء قد أنفذ رجلاً طائيًا يعرف له أخبار القرامطة، يقال له مسبع بن العيدروس من بني سِنْبِس ـ وكان خبيرًا بالبرّ، وتقدّم إليه أن يسرع إليه بالخبر ويعدل عن الطريق، ومعه جماعة قد أزاح عللهم في الرزق والمحمل، فساروا حتى قربوا من لُبنه فنزل إليهم فارسان، فركبا خيولهم وتلقّوهما فتطاردوا، وقصّرا في الركض وهبطا واديًا خلفهما وخرجا منه، ولحقتهم الخيل فساروا على أرض جدب، فدفع عليهم نحو من سبعين فارسًا، فلم ينته حتى طعنت فيهم وضربت، فرجع القوم على خيل مطرودة وخيول القرامطة مستريحة، فبالغوا في دفعهم بكل جهد فلم تك إلا ساعة حتى قتلوا جميعًا، وأسروا مسبعًا دليل القوم فحملوه إلى لبنه، فسأله القرمطي وقال: إن صدقتني أطلقتك، فلما أخبره أمر بحفظه، قال: ولم يمض لأبي الهيجاء يومان بعد إرسال الطليعة حتى وردت قوافل الحاج وأصحاب السلطان معها، وفيها من الوجوه أحمد بن بدر، عم السيدة أم المقتدر بالله، وشفيع الخادم، وفلفل الأسود صاحب خزانة السلطان، وإسحاق بن عبد الملك الهاشمي صاحب الموسم وغيرهم، فأعلمهم أبو الهيجا الخبر فأجالوا الرأي، فقال لهم: قد أنفذت رجالاً أثق بهم طليعة، وأخذت عليهم ألا يرجعوا حتى يشربوا من لبنه والصواب التوقف عن الرحيل لننظر ما يأتون به، فعملوا على ذلك وأقاموا بفيد ستة أيام، ونزلت القافلة الوسطى فيد وكثر الناس وغلت الأسعار، ولم يقدروا على حشيش للعلف ولا خبز، فضجّ الناس وأجمعوا على الرحيل فرحلوا عن فيد يوم الأحد، وخلّف أبو الهيجاء

(١) الجلة: قفة كبيرة للتمر.

ابن أخيه علي بن الحسين بن حمدان بفَيْد، في خيل ينتظرون الحاج الذي مع قافلة الشَّمْسَة؛ قال: وكان الحاج قبل ذلك يسيرون قافلة بعد قافلة لكثرتهم، ومن أراد أن يسير بعد الحاج سار، ومن أراد أن يتخلّف ليعتمر في الحرم تخلّف، وكان الأمر يحملهم على ذلك فيسيرون قافلة بعد قافلة؛ قال: ثم وردت قافلة الشَمسَة فَيْد، فجاءهم بعض التجار بخبر ما اتصل بأبي الهيجاء، وكان في القافلة أبو عيسى صالح ابن علي الهاشمي، وجماعة من العبّاسيين، وأبو محمد بن الحسن بن الحسين العلوي وعمر بن يحيى العلوي وغيرهما من الطالبيين وتجار الكوفة، فتجلّت حقيقة الأخبار من أمر القرامطة، فاجتمعوا في مضرب أبو عيسى وتشاوروا، فاجتمع رأيهم على المقام بفَيْد[1] إلى أن ترتحل القافلة، ثم ينظروا لأنفسهم في عرب يخرجون معهم إلى الكوفة، فأقام الناس بفَيْد يومهم ثم رحلوا بكرة، فلما جاوزوا المنزل افتقد علي بن الحسين بن حمدان من تخلّف من القافلة، فسأل عنهم فأخبر بتخلّفهم فرجع إلى فَيْد ومعه بعض أصحابه فاجتمع بهم، وسألهم عن تخلّفهم فقالوا بأجمعهم لا تحبّ سلوك هذه الطرق، ودافعوا عن الأخبار بسبب تخلّفهم، وقالوا له: أنت وعمّك بريّان منّا، قال: اكتبوا إلَي خطوطكم بذلك، ففعلوا، وانصرف فسار بالناس فلما وصل إلى عمّه أبي الهيجاء عرّفه ذلك، فلامه عليه وقال: وددت أنّ جميع من ترى كان معهم، قال: ولمّا سارت القافلة مع علي بن الحسين بن حمدان أحضر هؤلاء الذين تخلّفوا بفَيْد ابن نزار وابن توبة تاجرين من أهلها، فعرّفوهم حاجتهم إلى من يسلك بهم إلى الكوفة على غير طريق الحاج، فجمعوا لهم جماعة من سنْبِس[2] وتوصلوا بهم إلى بني زبيد من الطائيين، ثم أخذوا ينزلون على العرب يقاتلون من قاتلهم، ويصلون من استرفدهم ويبرّون ويخلعون، فسلّمهم الله حتى وردوا الكوفة، وذلك بعد شدائد عظيمة وقتال في مواضع، ولم يسلم من الحاج غيرهم والقافلة الأولى التي كانت مع حاتم.

قال: ولمّا وصل علي بن الحسين بن حمدان إلى عمّه أبي الهيجاء اجتمعت القوافل، وكثر الناس، وتجلّى لهم خبر القرامطة وصحّ، فسار أبو الهيجاء بالناس إلى

---

(١) فيد: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: منزل بطريق مكة.. وفيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة إلى الآن يودع الحاج فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ووهبوا لمن أودعوها شيئًا من ذلك... (معجم البلدان).

(٢) بنو سنبس، ويقال لهم: سنبس باسم أبيهم: بطن من طيىء، من القحطانية... (نهاية الأرب للقلقشندي).

الخزيميّة ثم إلى الثعلبيّة، ثم ساروا يريدون البِطان[١]، واجتمع الناس من أصحاب السلطان والرؤساء فتشاوروا، فلم يدع الأمير أبو الهيجاء الاستغاثة بالقومي قول: ارجعوا ودعوني ألقى القرامطة في أصحابي، فإن أصبتُ فمعكم من تسيرون معه، وإلا فامضوا إلى وادي القرى أو المدين أو غير ذلك، وإن ظفرتُ وجّهتُ إليكم فعدتم وقد زال المحذور، ولم يزل يردّد عليهم هذا القول من الأجفر[٢] إلى الثعلبيّة، فمنهم من أجاب ومنهم من أبى ذلك وقال: لا نفترق، وكان أحمد بن بدر عم السيّدة ممن أبى ذلك وصمّم على الملازمة، فعمل ابن حمدان بما أرادوه دون رأيه، وبات الناس على أميال بقيت من البطان والأحمال على ظهور الجمال، وذلك ليلة الأحد لأيام خلت من صفر، فلما يضاء لهم الفجر ارتحلوا، وقدّم أبو الهيجاء ستمائة راجل من الأولياء، كان السلطان أبعدهم لكثرة شغبهم ببغداد فكانوا بين يدي القوافل، وقارب بين القُطُر ودخل بعض الناس في بعض، وتقدّم نزار بن محمد الضبيّ فكان في أوّل القافلة في أصحابه خلف الرجّالة، وسار أبو الهيجاء في التغالبة والعجم في ميمنة القافلة، وألزم الساقة وميسرة القافلة جماعة من الأولياء مع بعض الأمراء، واحتاط بكل ما أمكن، وسار فلما أضحى النهار أقبلت عليهم خيل القرامطة، والقافلة في نهاية العظم جدًا، فكان أوّل من لقيهم رجّالة أبي الهيجاء، فحملت القرامطة عليهم فخالطوهم فقتلوا جميعًا إلا نحوًا من عشرين رجلًا، وحمل نزار في جيشه فضارب بعض خيل القرامطة بالسيوف ساعة، فلحقته ضربة فهوى إلى الأرض واعتنق فرسه، ومضى نحو المشرق وتبعه بقيّة أصحابه، فاستقاموا حتى وصلوا إلى زُبالة[٣] وساروا إلى الكوفة، فلما سمع الأمير أبو الهيجاء الصوت وعرف الخبر وكان في آخر القافلة أسرع في خيله نحو أوّل القافلة، فوجد الأمر قد فاته بقتل من كان أمامها، وقويت القرامطة على حربه ووجد الحاج قد أخذوا يمنة ويسرة، فحمل على القرامطة فاستقبلوه فقُتل جماعة من أهل بيته صبروا معه، وانهزم وضرب على رأسه ضربة لم تضره إلا أنه قد نزف منها، وأخذ أسيرًا ونزل أبو طاهر القرمطي على غلوتين من القافلة، ورجّالته نحو من ستمائة على المطي فأنفذهم وفرسانًا من فرسانه فأحاطوا

---

(١) البطان: بكسر أوله: منزل بطريق الكوفة بعد الشقوق من جهة مكة دون الثعلبية. . . (معجم البلدان).

(٢) الأجفر: بضم الفاء: موضع بين فيد والخزيمية، بين وبين فيد ٣٦ فرسخًا نحو مكة. وقال الزمخشري: الأجفر ماء لبني يربوع، انتزعته منهم بنو جذيمة.

(٣) زبالة: بضم أوله: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. . . (معجم البلدان).

بالقافلة، ومنعوا الناس من الهرب، وكان قد هرب خلق منهم في وقت القتال، فتلف كثير منهم في الطريق عطشًا وأخذ بعضهم الأعراب فسلبوهم، وسلم قوم منهم إلى زُبالة وساروا إلى الكوفة، وأتى بأبي الهيجاء إلى سليمان فلما نظر إليه تضاحك، وقال: قد جئناك عبد الله ولم نكلّفك قصدنا، فتلطّف له أبو الهيجاء بفضل عقله ودهائه وسعة حيلته وقوّة نفسه، وألان له القول حتى أنس به، فاستأمنه على نفسه فأمّنه فخلّص بذلك ناسًا كثيرًا، وعمل في سلامة كثير من الحاج عملاً كثيرًا، ثم أمر القرمطي بتمييز الحاج وإخراجهم من القوافل، وعزل الجمّالين والصنّاع ناحية فظّنوا أنّه إنما أخرجهم للقتل فارتاعوا لذلك، وكانوا قد عطشوا عطشًا شديدًا، فلما جنّهم الليل ضجر الموكّلون منهم، فأخذوا ما معهم وخلّوهم، فورد من ورد منهم الكوفة بشرّ حال متورّمي الأقدام في صور الموتى، ورحل أبو طاهر من الغد بعد أن أخذ من أبي الهيجاء وحده نحوًا من عشرين ألف دينار من الأموال التي لا تحصى كثرة، وقدم كثير من الناس بخبر أبي الهيجاء، وأنّه راكب مع القرامطة يدور معهم ويسأل في خلاصة أسرى كانوا معه، منهم أحمد بن بدر عم السيدة وفلفل الأسود وأحمد بن كشمرد ونحرير الخادم صاحب الشمسة وبدر الطائي وأخوه وغيرهم.

قال: وزادت غلبة أبي طاهر لأصحابه فتنة، وعظّموا أمره وسلب عقولهم حتى قالا فيه أقوالاً مختلفة بحسب جهلهم، قالَ: ولمّا مضى لأبي الهيجاء شهور وهو عندهم أخذ يحتال في الخلاص، فمرّة يعرض به ومرّة يفصح به حتى أنس القرمطي بذلك وأجابه إليه، فسأله في ابن كشمرد وقال: وهو ضعيف لكبره وعلّته، وهذا الخادم الأسود ممّن لا يضر السلطان فقده ولا ينفعه إطلاقه، وكلّمه في أحمد بن بدر فامتنع عليه، فضمن له عشرين ألف دينار وبزاةً وفهودًا وعبدانًا وثيابًا، فاستحلفه وضمنه، وتخلّص منه ناس كثير من الحاج، وأطلقه، وصار إلى بغداد فتباشر الناس بذلك وابتهجوا به.

ذكر دخول أبي طاهر القرمطي الكوفة ورجوعه

كان أبو طاهر قد كتب إلى الخليفة المقتدر بالله ـ بعد إطلاق أبي الهيجاء بن حمدان ـ يطلب منه البصرة والأهواز، فلم يجبه إلى ذلك، فسار من هجر في سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة يريد الحاج عند توجههم إلى الحجاز، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني يتقلّد أعمال الكوفة وطريق مكة، فسار مع الحاج خوفًا عليهم من أبي طاهر، ومعه ألف رجل من بني شيبان، وسار مع الحجاج من أصحاب السلطان ثمل صاحب

البحر وغيره في ستة آلاف رجل، فلقي أبو طاهر الجيش فانهزموا منه، وردّت القافلة الأولى هم وعسكر الخليفة بعد أن انحدروا من العقبة، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة وبها يومئذ جنِيّ الصفواني، كان الخليفة قد أنفذه في جيش عظيم إلى الكوفة، وبها أيضًا ثمل في جيش عظيم، وأقبل أبو طاهر حتى نزل بظاهر الكوفة في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، وأقبل جنِيّ إلى خندق الكوفة في عشية هذا اليوم، وأهل البلد والعامّة منتشرون على الخندق، وجعفر بن ورقاء في بني شيبان نازل على القنطرة التي على الخندق مما يلي دور بني العبّاس، وثمل على القنطرة التي تليها، وجنيّ مما يلي ذلك من ناحية يمنة الكوفة، فناوشه الناس، وخرج أبو محمد الحسن بن يحيى بن عمر العلوي فطارد بعض فرسانه، وانكفأ أبو طاهر راجعًا، وبات الناس على تلك الحال وقد قوي الطمع فيه، فلما كان الليل ورد كتاب السلطان يخاطب أبا محمد بن ورقاء في تدبير الجيش، فعمل على لقاء جنيّ الخادم ليعرّفه ذلك، فأشير عليه ألاّ يفعل فأبى ذلك، ثم ركب يعرّف جنيًا ما كتب به إليه، فأنف جنيّ أن يكون تابعًا وأسرّ ذلك في نفسه، وباكرهم القرمطي بالقتال بعد أن أضحى النهار، فدخلت الرجّالة وراء الفرسان بجيش خرس عن الكلام صمت وحركات خفيّة، والبارقة فيهم ظاهرة في ضوء الشمس، وهم يزفون[1] عسكرهم زفًا، حتى إذا وصلوا إلى عسكر السلطان مالوا على جيش ابن ورقاء وهو في ميسرة الناس، فلما تمهّل بنو شيبان حتى انهزموا راجعين، فعبروا القنطرة التي على الخندق إلى جانب الكوفة وتبعوهم، فصاروا من وراء جنيّ وثمل فوضعوا السيف في الناس، وجنيَ جالس قبل ذلك على كرسي حديد يبيّن أنه لا يقاتل وكأنه يريد قتاله بعد الناس فأسروه، وقاتله ثمل وقاومه وهو منهزم على محاملة ومدافعة، إلى أن تخلّص وسلم جعفر بن ورقاء وكثير من أصحابه، وقتل كثير من العامّة وغيرهم في الطرقات، ووصل أبو طاهر إلى البلد فرفع السيف ونهب منازل الناس، وأقام بالكوفة ستة أيام بظاهرها[2] يدخل البلد نهارًا ويقيم بجامعها إلى الليل، ثم يخرج فيبيت بعسكره، وحمل منها ما قدر على حمله، ودخل المنهزمون بغداد ولم يحجّوا في هذه السنة، وخاف أهل بغداد وانتقل الناس إلى الجانب الشرقيّ.

قال: ورحل أبو طاهر عن الكوفة في يوم الاثنين لعشر بقين من ذي القعدة، وقُتل يوم دخوله أبو موسى العبّاسي صاحب صلاة الكوفة ورحل مؤنس المظفر من

---

(١) زف العسكر: حمله على الإسراع.

(٢) ظاهر البلد: ما يشرف منه.

بغداد بجيش السلطان عند اتصال الأخبار ببغداد، فسار منها حتى دخل الكوفة، فكان وصوله إليها بعد رحيل القرامطة عنها، فأقام بها ثلاثة أيام ثم رحل عنها، ثم عاد القرمطي في سنة خمس عشرة.

ذكر دخول أبي طاهر القرمطي إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج

قال: وفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة سار أبو طاهر من هَجَر إلى الكوفة، وكان المقتدر بالله قد استعمل يوسف بن أبي الساج على حرب القرامطة، فاستصعب ابن أبي الساج المسير إلى بلد القرامطة، وثقل مسيره في أرض قفر لكثرة من معه من العساكر، فاحتال على أبي طاهر وكتب إليه وأطمعه في بغداد، وأظهر له المواطأة والتزم بمعاضدته فغرّه بذلك، حتى رحل بعيال وحشم واتباع وصبية، وجيشه على أقوى عدّة تمكّنه، وأقبل يريد الكوفة وعمّيت أخباره عن أهلها، إنما هي أراجيف، ورحل يوسف بن أبي الساج بجيشه من واسط يريد الكوفة، فسبقه أبو طاهر إليها ودخلها في يوم الخميس لسبع خلون من شوّال من هذه السنة، وأخذ ما يحتاج إليه ونزل عسكره خارج الكوفة ما بين الحيرة إلى ناحية الخورنق[١]، وأقبلت جيوش ابن أبي الساجّ تسيل من كل وجه على غير تعبئة، وأقبل هو في جيشه ورجاله حتى نزل في غربيّ الفرات، وعقد عليه جسرًا محاذيًا لأبي طاهر، وعبر إليه مستهينًا بأمره مستحقرًا له لا يرى أنه يقوم به، وذلك في يوم الجمعة، فأرسل إلى أبي طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة المقتدر بالله أو الحرب في يوم الأحد، فقال: لا طاعة إلا لله والحرب غدًا، فلما كان في يوم السبت لتسع خلون من شوّال سنة خمس عشرة التقوا واقتتلا قتالاً شديدًا عامّة النهار، وكثير من عسكر ابن أبي الساج لم يستتم نزوله، وهو جيش يضيق عنه موضعه ولا يملك تدبيره، وقد تفرّق عنه عسكره تفرّقًا منتشرًا في فراسخ كثيرة، وركبوا مِنْ نهب القرى وأذى الناس وإظهار الفجور ما تمنى كثير من الناس هلاكهم. قال الشريف أبو الحسين: ولمّا لقيه بظهر الكوفة ما بين الحيرة والخورنق والنهرين من الفرات اتفق له تلول وأنهار وموضع يضيق عن جيشه ولا يتمكن معه الإشراف عليه، فقدّم بين يديه رجّالة بالرماح والتراس مع قائد يعرف بابن الزرنيخي، فأقبل القرمطي نحوه في أربعة آلاف فقاومته

(١) الخورنق: قرية على نصف فرسخ من بلخ.

الرجّالة طويلًا، ثم دخلتها الخيل وتعطفت عليها واضطرب الناس، فوضع فيهم السيف؛ قال الشريف: وأخبرني بعض الجند قال: كنت والله قبل الهزيمة أريد أن أضرب دابّتي بالسوط فلا يمكنني ذلك لضيق الموضع، ووصل كثير من عسكر القرمطي إلى ابن أبي الساج في مصافه على أتمّ عدّة، فلما التقوا اقتتلوا كأعظم قتال شوهد، وكثرت القتلى والجراح في القرامطة جدًا، وقتل رجّالة ابن أبي الساج، وخلص إليه فانهزم الناس وقتلوا قتلًا ذريعًا، حتى صاروا في بساط واحد نحو فرسخين أو أرجح، فلما كان عند غروب الشمس انهزم أصحاب ابن أبي الساج بعد صبر عظيم، وأسر هو وجماعة كثيرة من أصحابه، وذلك في وقت المغرب من يوم السبت، فوكل به أبو طاهر طبيبًا يعالج جراحه، واحتوى القرامطة على عسكر ابن أبي الساج، ولم تكن فيهم قوّة على جمع ما فيه لضعفهم وقتْل من قتل منهم، فمكث أهل السواد من الأكرة وغيرهم ينهبون القتلى نحو أربعين يومًا، ووصل المنهزمون إلى بغداد بأسوأ حال، فخاف الخاص والعام ببغداد من القرامطة، وكان أبو طاهر القرمطي يظن أن مؤنسًا المظفّر لا يتأخّر عن حربه، وكان على وجل منه، فلمّا لم يخرج إليه اشتد طمعه وظن أنه لا يلقاه أحد ولا يقاومه، وأنّ ما كان قد خدع به من أنّ ببغداد من يظاهره على أمره، وينتظر وصوله إليه من الرؤساء ـ حق، فخرج يريد بغداد، فلما قرب من نواحي الأنبار وقصر ابن هبيرة ونزل بسواده وكل بهم جندًا ليست بالكثير، وركب في جيشه فوافى الأنبار واحتال إلى أن عبر الفرات وصار من الجانب الغربي، وتوجّه بين الفرات ودجلة يريد مدينة السلام، وعف الناس ذلك فكثر اضطرابهم وجزعهم، فبرز مؤنس المظفّر الخادم من بغداد للمسير إلى الكوفة، فبلغه أنّ القرامطة قد ساروا إلى عين التمر، فأرسل من بغداد خمسمائة سمارية فيها المقاتلة لتمنع من عبور الفرات، وسيّر جماعة من الجيش لحفظ الأنبار، وقصد القرامطة الأنبار فقطع أهلها الجسور، فنزلوا غرب الفرات وأنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة، فأتوه بسفن فعبر فيها ثلاثمائة من القرامطة، فقاتلوا عسكر الخليفة وقتلوا منهم جماعة واستولوا على الأنبار؛ قال: ولما ورد الخبر بذلك إلى بغداد خرج نصر الحاجب في عسكر جرّار، ولحق بمؤنس المظفّر فاجتمعا في نيّف وأربعين ألفًا سوى الغلمان ومن يريد النهب، وكان في العسكر أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأصحابهم، فلما أشرف القرامطة على عسكر الخليفة هرب منه خلق كثير إلى بغداد من غير قتال؛ قال ابن الأثير: كان عسكر القرامطة ألف فارس وسبعمائة فارس وثمانمائة راجل؛ قال: وقيل كانوا ألفين وسبعمائة فارس.

قال الشريف: وسار مؤنس المظفّر حتى نازل القرامطة على قنطرة نهر زُبارا[١]، على نحو ثلاثة فراسخ من بغداد، وشحن الموضع بالجيش، وأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة خوفًا من عبور القرمطي، وإن اتفق أدنى جولة مع امتلاء صدور الجيش من القرامطة فلا يملك البلد لشدة اضطرابه وكثرة أهله، ففعل مؤنس ذلك وقطعها وقاتل عليها نفر من القرامطة قتالاً شديدًا، لا يمنعهم كثرة النشّاب ولا غيره، وشحن مؤنس الفرات ما بين بغداد إلى الأنبار بسماريّات، فيها رماة ناشبة تمنع أحدًا من القرامطة من شرب الماء إلا بجهد، فضلاً عن تمكنٍ من العبور، وكان أحد من نصب لذلك إسحاق بن إبراهيم بن ورقاء، وكان شيخًا ذا دين وبصيرة ونيّة في الخير، فأقام على حصاره لأبي طاهر وكان لا يقدر على مذهب لا إلى وجهه ولا إلى جوانبه، ومتى دنا من الماء أخذته السهام؛ قال الشريف: فحدثني من حضر يومئذ وقد ورد كتاب المقتدر بالله، يأمر مؤنسًا بمعاجلته القتال ويذكر ما لزم من الأموال إلى وقت وصوله، فكتب مؤنس كتابًا ظاهرًا ـ جواب كتاب الخليفة ـ يمليه على كاتبه والناس يسمعون، يقول: إن في مقامنا، أطال الله بقاء مولانا نفقة المال، وفي لقائنا نفقة الرجال، ونحن اخترنا نفقة المال على نفقة الرجال، قال: ثم أنفذ المظفر مؤنس رسولاً إلى القرمطي يقول: ويلك! تظن أنني كمن لقيك، أبرز لك رجالي والله ما يسرّني أن أظفر بك بقتل رجل مسلم من أصحابي، ولكنّني أطاولك وأمنعك مأكولاً ومشروبًا حتى آخذك أخذًا بيدي إن شاء الله؛ قال: وأنفذ المظفّر حاجبه يلبق في ستة آلاف مقاتل إلى القرامطة، الذين بقصر ابن هبيرة مع سواده، ليوقعوا بهم ويخلّصوا يوسف بن أبي الساج، فعلم أبو طاهر بذلك فاضطرب واجتهد في عبور الفرات فعجز. ثم اتفق له طوف حطب فعبر عليه في نفر يسير، وصار إلى سواده الذي خلَفه، وجاءه يلبق فواقعه أبو طاهر في نفر يسير، فكرّ يلبق راجعًا منهزمًا وسلَم السواد وذلك بعد قتال شديد.

ونظر أبو طاهر إلى ابن أبي الساج ـ وقد خرج من الخيمة، ينظر ويرجو الخلاص، وقد ناداه أصحابه: أبشر بالفرج، فلما تمّت الهزيمة أحضره أبو طاهر وقتله وقتل من معه من الأسرى، وقصد القرامطة مدينة هيت[٢] وكان المقتدر قد سيّر إليها

(١) زمارا: يكتفي ياقوت بالقول في معجمه: زمارا: موضع أظنه من نواحي الكوفة، ذكر في قتال القرامطة أيام المقتدر.

(٢) هيت: بالكسر، وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة.

سعيد محمد بن حمدان وهارون بن غريب، فسبقوا القرامطة إليها وقاتلوهم عند السور، فقتل من القرامطة جماعة فعادوا عنها، فرجع مؤنس إلى بغداد وسار أبو طاهر إلى الدالية من طريق الفرات، فقتل من أهلها جماعة ثم سار إلى الرَّحْبة فدخلها في ثامن عشر المحرم سنة ست عشرة وثلاثمائة، بعد أن حاربه أهلها فظفر بهم ووضع السيف فيهم، فراسله أهل قرقيسيا[١] يطلبون الأمان فأمّنهم على ألا يظهر أحد منهم بالنهار، فأجابوا إلى ذلك، وخافه الأعراب وهربوا من بين يديه، فقرّر عليهم أتاوة عن كل رأس دينار يحملونه إلى هجر، ثم صعد من الرحبة إلى الرقّة فدخل أصحابه إلى نصيبين، وقتلوا بها ثلاثين رجلاً وقتل من القرامطة جماعة، وقاتلوا ثلاثة أيام ثم انصرفوا في آخر ربيع الأوّل، وساروا إلى سنجار ونهبوا فطلب أهل سنجار الأمان فأمنهم، ثم عاد إلى الرحبة، ووصل مؤنس إلى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها، فاحتال مؤنس في إرسال زواريق فيها فاكهة قد جعل فيها سمومًا قاتلة، فكانت القرامطة يلقونها فيأخذونها، فمات كثير منهم وضعفت أبدان بعضهم، وجهدوا وكثر فيهم الذَّرب[٢] فكرّوا راجعين وهم قليلو الظهر مرضى، فلما بلغوا هيت قاتلهم أهلها من وراء السور، فقتلوا منهم رئيسًا كبيرًا وانصرفوا عنهم مفلولين.

ثم رحل أبو طاهر فدخل قصر ابن هبيرة فنهب وقتل، ثم دخل الكوفة على حال ضعف وعلل وجراحات، وأصحابه على ظهور حُمُر أهل السواد، وكان دخوله إليها يوم الجمعة لثلاث ليال خلت من شهر رمضان سنة ست عشرة وثلاثمائة، فأقام بها إلى مستهل ذي الحجة من السنة، ولم يقتل في البلد ولا نهب، وساس أهل الكوفة أمرهم مع القرامطة، ورحل أبو طاهر عن الكوفة في ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة.

ذكر أخبار من ظهر من القرامطة بسواد العراق في أثناء وقائع أبي طاهر الجنابي

قال ابن الأثير والشريف أبو الحسين ـ وقد لخّصت من روايتيهما ما أورده، ودخل خبر بعضهم في خبر بعض ـ ولمّا كان من أمر أبي طاهر في سنة ست عشرة

(١) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات، فهي في مثلث بين الخابور والفرات. . . (معجم البلدان).

(٢) الذرب، بتسكين الراء: ورم يكون في عنق الإنسان أو الدابة مثل الحصاة؛ أو هو داء يكون في الكبد بطيء البرء. والذرب: بفتح الراء: داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه.

وثلاثمائة ما قدّمناه، اجتمع بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة وكان يكتمه خوفًا فظهروا واجتمع منهم بسواط واسط أكثر من عشرة آلاف، وولُّوا عليهم رجلًا يسمّى حُريث بن مسعود، فخرج إليه الأمير بواسط فنام عسكره في بعض المواضع، فكبسه القرامطة فقتلوا منهم خلقًا، واستولوا على سائر ما حواه العسكر من السلاح وغيره فقوي أمرهم؛ واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر في جمع كثير، فولوا عليهم رجلًا يسمّى عيسى بن موسى، وكانوا يدعون إلى المهدي، فسار عيسى بن موسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها، وجبى الخراج وصرف العمال عن السواد وكان والي الكوفة قد هرب منها قبل دخولهم، ووجّهوا إلى جميع السواد من يطالبهم بالرحيل إليهم، فخرج إليهم من بين راغب وراهب، ففرّقوا العمّال في الطساسيج[1]، وولّوا المعاون لقوم من وجوه عشائرهم، وولوا ابن أبي البوادي الكوفي خراج الكوفة، ونصبوا بعض بني ربيعة واليًا لحربها، وأقاموا في البلد أيامًا وراحوا إلى الجمعة بأجمعهم، وأقاموا أبا العيث بن عبدة خطيبًا، وأحدثوا في الأذان ما لم يكن فيه، فركب إليهم أبو علي عمر بن يحيى العلوي وعيسى بن موسى نازل على شط الفرات في بعض الأيّام، فأظهروا الاستطالة على أبي علي بن يحيى وأنقصوا رتبته، وأقيم وحجب أوقاتًا طويلة، فخرج أبو علي إلى السلطان وذكر له صورة أمر القوم، وقرّر في نفسه أخذهم، فأنفذ السلطان معه صافي النصري في جيش وضمن أبو علي معاونته، وكان هؤلاء قد خرجوا من الكوفة وخلَفوا واليهم عليها وصاحب خراجهم، وقصدوا موضعًا يعرف بالجامع وما يليه فنهبوا واستباحوا، ووثب أهل الكوفة بعد خروجهم على منْ خلَفوه عندهم، فقتلوا منهم جماعة وأخرجوا من بقي، واتصل الخبر بالقرامطة فانكفأوا راجعين يريدون الكوفة ليقاتلوا أهلها، فاجتمع الناس وحملوا السلاح وحفظوا البلد وطافوا به ليلًا ونهارًا مدة أيّام، وجاءت القرامطة فنزلوا على الكوفة ولم يكن لهم فيها مطمع فساروا إلى سُورا، وقدم أبو علي العلوي وصافي النصري من بغداد، فواقعوهم على نهر بقرب اجهاباذ يعرف بنهر المجوس، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى هزمهم الله تعالى، فقتل منهم ما لا يحصى وغرق منهم قوم وهرب الباقون، وتفرقوا وأسر عيسى بن موسى وخلق كثير معه وأعمى كان من دعاتهم كان يقول الشعر يعرف بأبي الحسن الخصيبي، ودار أبو علي في السواد فتلقّط منهم قومًا، فسكن البلد وتفرّق ذلك الجمع ولم يبق لهم بقيّة قائمة، وحملت الأسرى والرؤوس إلى بغداد فقتل

---

(١) الطساسيج: جمع الطسوج: هو أخص وأقل من الكورة والرستاق والأستان، كأنه جزء من أجزاء الكورة. وهي لفظة فارسية أصلها تسو. . . (معجم ياقوت: المقدمة).

الأسرى بباب الكناسة وصلبوا هناك، وحبس عيسى بن موسى ثم تخلّص بغفلة السلطان وحدوث ما حدث من اضطراب الجيش وكثرة الفتن في آخر أيام المقتدر، وأقام ببغداد يدعو ويتوصل إلى ناس استغرّهم، ويعمل كتبًا يجمع فيها ما يأخذه من كتب يشتريها من الورّاقين، يمخرق فيها بذكر أمور ينسخها ويوهم أنّ له بذلك علمًا، ورتّب كتبًا ينسبها إلى عبدان الداعي، ليوهم أنّ عبدان كان أحد العلماء بكل فلسفة وغيرها، وأنه يعلم ما يكون قبل كونه، ومخرق بجهده على جهّال فصاروا له أتباعًا، وأفسد فسادًا عظيمًا، قال الشريف: وادعى خلافته من مخرق بعده إلى الآن.

وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل: أن الخليفة المقتدر بالله أرسل إلى حُريث بن مسعود، هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى صافي النصري، فأوقعوا بهم وانهزمت القرامطة وقتل أكثرهم وأسروا وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء وعليها مكتوب ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥] فدخلت بغداد منكوسة، واضمحل أمر القرامطة بالسواد.

نعود إلى أخبار أبي طاهر.

ذكر مسير أبي طاهر إلى مكة شرّفها الله ونهبها وأخذ الحجر الأسود وإعادته وما كان من أخباره في خلال ذلك

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة حجّ بالناس منصور الديلمي، وسلموا في مسيرهم حتى أتوا مكة، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، وهو يوم الاثنين لثمان خلون من ذي الحجة، فنهب هو وأصحابه أموال الحجّاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام والبيت، وقلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هجر، وأخذوا كسوة الكعبة وباب البيت، وطلع رجل منهم ليقلع الميزاب فسقط فمات، وخرج أمير مكة ابن مجلب في جماعة من الأشراف إلى أبي طاهر، وسألوه في أموالهم فلم يشفَعهم فقاتلوه فقتلهم جميعًا وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الناس في المسجد الحرام حيث قتلوا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة على أحد منهم، ونهب دور أهل مكة، قال الشريف أبو الحسين: ولما نهب القرامطة مكة ورجع أبو طاهر إلى بلده لحقه كدّ شديد عند خروجه من مكة، وحاصرته هذيل فأشرف على الهلكة إلى أن عدل به دليل من الطريق المعروف إلى غيره، فوصل إلى بلده بعد ذلك في المحرم سنة ثماني

عشرة وثلاثمائة، فأقام به ثم سار إلى الكوفة فدخلها في شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، فاشتروا منها أمتعة وأسروا خلقًا من السواد، وعاثوا ورجعوا بعد خمسين يومًا إلى بلدهم، فأقاموا به.

وأنفذ أبو طاهر سريّة إلى جنّابة وسِينِيز[١] ومهْرُوبان[٢] في البحر، فيها وجوه أصحابه في نحو أربعين مركبًا، فوافت ساحل سِينِيز فصعدوا من المراكب، فحملوا على أهلها حملة واحدة فانكشف الناس عنهم، فوضعوا فيهم السيف فما لقوا أحدًا إلا قتلوه من رجل وامرأة، فما نجا إلا من لحق بالجبال وسبوا النساء، فترك الناس الديار وخرجوا يريدون الهرب، فنادى أبو بكر الطرازي في الناس: لا يهرب أحد، فإنّا نقاتل من ورد إلينا، وضرب بالبوق ووجّه من حبس الناس عن سلوك الطرقات وردّهم إلى البلد، وجمع الناس بالمسجد الجامع ورغّبهم في الجهاد وأسعفهم بماله، ورغبت المتطوّعة في الاجتماع فقويت قلوب الناس، وأنفذ أبو بكر سريّة من وقته من خاصة غلمانه في نحو ثلاثمائة رجل في البحر، ووجّه سريّة أخرى في البر، وأنفذ إلى مهروبان يخبر أنّه على لقاء العدوّ، وسألهم الإنجاد في المراكب لمعاونة أهل جنّابة على قتال القرامطة، فساروا والتقى الفريقان في البرّ والبحر من أهل جنّابة وسينيز، ووافت قوارب مهروبان فأشعلوا النيران في القوارب، فأحرقوا بعضها وتخلّص منهم نحو عشرين قاربًا، وانتشبت الحرب فقتل الله منهم خلقًا كثيرًا، وأسر جماعة ولحق بعضهم بالجبال، وورد على أبي بكر الطرازي من أخبره بذلك، فجمع الناس وغدا نحو الجبال، وأرسل فارسًا إلى من بسينيز من أصحابه أن يلحقوا به، وأنفذ إلى جنّابة ألاّ يتخلّف عنه من فيه حراك، لتكون الوقعة بهم من كل وجه، فوافوا المنهزمين من القرامطة في بعض كهوف الجبال، وذلك في يوم الأربعاء فلمّا رأوا الناس قد أقبلوا نحوهم كسروا جفون سيوفهم، وحملوا عليهم فثبتوا لهم، ولم تزل الحرب قائمة بينهم يوم الأربعاء والخميس إلى نصف النهار، ثم نادى أبو بكر الطرازي: من جاء برأس فله خمسون درهمًا، فتنادى الناس بالشهادة وجدّوا ونشطوا، وقتلا خلقًا كثيرًا وأخذوا جميع من بقي أسرى، وحملوا مشهّرين والناس يكثرون حمد الله عزّ وجلّ والثناء عليه، ولم يفلت منهم أحد.

---

(١) سينيز: بكسر أوله، وسكون ثانيه ثم نون مكسورة، وياء أخرى ثم زاي: بلد على ساحل بحر فارس أقرب إلى البصرة من سيراف وتقرب من جنابة.

(٢) مهروبان: الواو ساكنة ثم باء موحدة وآخره نون، في موضعين: أحدهما على ساحل البحر بين عبادان وسيراف بليدة صغيرة... وقيل: مهروبان: ناحية مشتملة على عدة قرى بهمذان... (معجم البلدان لياقوت).

وكتب الناس محضرًا أنفذوه إلى بغداد، وحملت الأسرى والرؤوس معه، قال الشريف: ونسخة المحضر:

بسم الله الرحمٰن الرحيم - حضر من وقّع بخطّه وشهادته آخر هذا الكتاب المحضر، وقد حضر عندهم ثلاثة من القرامطة - لعنهم الله - ذكر أحدهم أنه يقال له - سيّار بن عمر بن سيّار، والآخر ذكر أنّه يقال له - علي بن محمد بن عمر، والآخر ذكر أنه يعرف بأحمد بن غالب بن جعفر الأحساوي، فذكروا أنّهم متى نفذ رسولهم إلى صاحبهم سليمان بن الحسن القرمطي ردّ الحجر والشَّمْسة وكسوة البيت وأطلق الأسارى الذين في قبضته، وهادن السلطان وارتدع عن السعي بالفساد والقطع على الحاج، ولم يحفزهم ولم يعترض عليهم، ويقول هؤلاء النفر من جملة الأسرى الذين في يد محمد بن علي الطرازي - وهم الذين ظفّر الله بهم - فمتى ما وفى سليمان بن الحسن القرمطي بما بذلوه عنه أفرج السلطان عنهم وردّهم إليه، وذلك في يوم الجمعة لعشر خلون من جُمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وأسفل ذلك خطوط أهل البلد بالشهادة.

وأحضر سيّار بن عمر بن سيّار وعلي بن محمد بن عمر المعروف بأبي الهذيل بن المهلّب وأحمد العيّار، وهم من جملة الأسرى في الوقعتين بسينيز وجنّابة، فعُرض علهيم رؤوس أصحابهم ممّن قتل من القرامطة، ليُعرفوا بأسمائهم وأنسابهم فذكروا نحو المائة رأس، ومن الأسرى نحوهم، وحملوا إلى بغداد فحبسوا وأجرى عليهم، ويقال إنّه قد كان فيهم من إخوة سليمان بن الحسن من كُتم أمره.

وحدّثني ابن حمدان أنّهم كانوا بعد خلاصهم ومصيرهم إلى أبي طاهر يتحدثون: أن كثيرًا من الكبراء وغيرهم كانوا يرسلون إليهم ما يتقرّبون به إلى قلوبهم، وذكروا أنهم كانوا يكثرون الخشوع وذكر النبيّ ﷺ وتعظيمه وإقامة الصلاة؛ قال: ويضحكون من فعلهم هذا وخديعتهم الناس، قال: ويضحك أبو طاهر وإخوته مما يتحدثون به، قال: وكان سبب تخلُّص هؤلاء الأسرى أن أبا بكر بن ياقوت كتب في المهادنة، وجرى بينهم خطوب في المراسلة إلى أن وافقهم أن يردّوا الحجر الأسود ويخلوا الأسرى ولا يعرضوا للحاج، فجرى الأمر على ذلك.

قال الشريف: وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة دخل القرمطي الكوفة، واستقبل لؤلؤًا الأمير خارجًا بالحاج في ذي القعدة، فرجع بهم لؤلؤ إلى الكوفة وتفرّقوا فيها، بعد أن واقعته الخراسانية فلم يقدر على مقاومتهم وامتنعوا منه، إلا أن الناس تسرّبوا وافترقوا، فظفر بمن ظفر منهم فلم يكثر القتل وأخذ ما وجد، وأشار

بعض أهل الكوفة على بعض أصحابه في هذه السنة ـ عند نزولهم بالكوفة ـ أن يسار في الحاج بغير ما يجري فيهم، فقال الرجل: الذي من أصحاب القرمطي: والله ما ندري ما عند سيّدنا أبي طاهر، من تمزيق هؤلاء الذين من شرق الأرض وغربها، واتخاذهم ومن وراءهم أعداء، وما يفوز بأكثر أموالهم إلا الأعراب والشرّاد من الناس، قال الكوفي: فلو أنه حين يظفر بهم دعاهم أن يؤدي كل رجل دينارًا وأطلقهم وأمّنهم لم يكره أحد منهم ذلك وخفّ عليهم وسهل، وحجّ الناس من كل بلد لأنّهم ظماء إلى ذلك جدًا، ولم يبق ملك إلا كاتبه وهاداه واحتاج إليه في حفظ أهل بلده وخاصّته، فجبى في كل سنة ما لا يصير إلى سلطان مثله من الخراج، واستولى على الأرض انقاد له الناس، وإن منع من ذلك السلطان اكتسب المذمّة، وصار عند الناس هو المانع من الحج، فاستصوب رأيه وفرجج عنه، لأن أصحاب أبي طاهر كان قد ظهر منهم اضطراب عليه وقلّت طاعتهم له، قال: حتى لقد سمعت بعضهم وقد لحقه فارس من العرفاء يركض ويدور في الكوفة ويقول: ارجع إلى العسكر فإنّ السيّد يأمرك بذلك، فذكر أُمّه بقبيح من الشتيمة بعد أن كانوا يعبدونه، قال: ولما سمع رئيس القرامطة كلام الكوفي وما أشار به من أمر الحاج وما جرى من الكلام في ذلك دخل إلى أبي طاهر فعرّفه ما جرى، فبادر من وقته ونادى في الناس بالأمان، وأحضر الخراسانيّة وقرّر معهم أنهم يحجّون ويؤدون إليه المال في كل سنة، ويكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم فلم يأمنوا له، فسلّم سياسة أمرهم إلى أبي علي عمر بن يحيى العلوي، واستقرّ للقرامطة ضريبة ورسم على سفر الحاج.

قال الشريف: ولمّا كان في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة كبس أبو طاهر الكوفة عشية، وفيها شفيع اللؤلؤي أمير، فهرب من مجلسه والناس عنده، ورمى بنفسه من سطحه واستتر عند امرأة ضعيفة، وظهر الجند من الطرقات فقاوموا من لحقهم من جيشه، وامتنع أكثرهم منه وخرجوا سالمين إلا نفرًا منهم أصيبوا، ووجّه أبو طاهر إلى شفيع اللؤلؤي فأمّنه وأحضره، فحضر إليه وقدّم إليه طعامًا يأكله، وطلبت مائدة يأكل عليها، فقيل ما يحضر إلا مائدة نهبت من داره، فقال أبو طاهر: قبيح أن يراها فافرشوها بالرقاق لكي لا يعرفها، ففعلوا ذلك وقدّمت إليه، وكان يحمل إلى أبي طاهر صحفة صحفة مما يقدّم إليه، فينظر إليها أولاً وينفذها إليه وكان ذلك لدناءته ومهانته، وتفرّق أصحابه عنه وقلّت طاعتهم له فاحتاج إلى المداراة، فوجّه إلى شفيع من يخاطبه في أن يمضي إلى السلطان، ويعرّفه أنّهم صعاليك لا بدّ لهم من أموال، وأنّه إن أعطاهم مالاً لم يفسدوا عليه شيئًا وخدموه فيما يلتمسه، وإن أبى ذلك لم

يجدوا بُدًا من أن يأكلوا بأسيافهم وسيّره أبو طاهر ووصله، وخرج شفيع إلى السلطان فقدم إلى القرمطي أبو بكر بن مقاتل من قبل السلطان يناظره، ففتّ في عضده وملأ صدره من السلطان وأتباعه، فزاده ذلك انكسارًا وذلة وسار عن الكوفة.

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة فسدت رجال القرامطة وقتل بعضهم بعضًا، وسبب ذلك أنه كان منهم رجل يقال له ابن سَنْبَر، وهو من خواص أبي سعيد الجنّابي المطلعين على سرّه، وكان له عدوّ من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك، فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصفهان، وقال له: إذا ملّكتك أمر القرامطة تقتل عدوّي، فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه، فأطلعه على أسرار أبي سعيد وعلامات كان يذكرها في صاحبهم الذي يدعو إليه، فحضر إليه أولاد أبي سعيد فذكر لهم العلامات، فقال أبو طاهر: هذا هو الذي ندعو إليه، فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل منهم بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجل منهم يقول إنه مريض - يعني قد شك في دينه ويأمر بقتله، وبلغ أبو طاهر أنّ الأصفهاني يريد قتله لينفرد بالأمر، فقال لإخوته: قد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله، فقال له: إنّ لنا مريضًا فانظر إليه ليبرأ، وأضجعا والدتهم وغطوها بإزار، فلما رآها قال: إنّ هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه، فقالوا: كذبت، هذه والدتنا ثم قتلوه، وذلك بعد أن أفنى أكثر أكابرهم بالقتل.

ذكر وفاة أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابي وأخيه وقيام أخويهما بعده

قال: وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة هلك أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد وأخوه أبو منصور بجدري أصابهما، وملك التدبير بعده أخواه أبو القاسم سعيد وهو أكبرهم، وأبو العبّاس، وكانا يتّفقان معه على تدبير الأمر، وكان لهما أخ آخر لا يختلط بهم لاشتغاله بالشرب واللهو، قال: وشركهما في تدبير الأمر ابن سنبر.

ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة شرّفها الله تعالى

قال: وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أراد القرامطة أن يستميلوا أهل الإسلام، فحملوا الحجر الأسود وأتوا به الكوفة، فنصبوه في المسجد الجامع على الأسطوانة السابعة في القبلة ممّا يلي صحن المسجد حتى يراه الناس ثم حملوه إلى مكة شرّفها الله تعالى، وقالوا: أخذناه بأمر ورددناه بأمر.

قال ابن الأثير: وكان بجكم الرايقي قد بذل لهم فيه خمسين ألف دينار، فلم يردّوه وردّوه الآن بغير شيء، وذلك في ذي القعدة من السنة، فكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا أيامًا، وحكى ابن الأثير في سبب ردّه: أنّ عبيد الله المنعوت بالمهدي القائم ببلاد المغرب والمستولي عليها كتب إلى القرمطي ينكر فعله ويلومه ويلعنه، ويقول أخفقت علينا سعينا وأشهرت دولتنا بالكفر والإلحاد بما فعلت، ومتى لم ترد على أهل مكة ما أخذته وتعيد الحجر الأسود إلى مكانه وتعيد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة. فلما وصل هذا الكتاب أعيد الحجر إلى مكة شرّفها الله تعالى.

ذكر ملك القرامطة دمشق وسيرهم إلى الديار المصرية ومحاصرة من بها ورجوعهم عنها

قال الشريف أبو الحسين رحمه الله تعالى: وفي سنة ستين وثلاثمائة سار الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنّابي، وهو الذي انتهى إليه أمر القرامطة، من بلده إلى الكوفة، وعزم على قصد الشام وسبب ذلك أنّه كان قد تقرّر للقرامطة في الدولة الإخشيديّة من مال دمشق في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، فلما ملك المعز لدين الله العُبيدي الديار المصرية، واستولى جعفر بن فلاح على الشام، علموا أن ذلك يفوّتهم، فسار الحسن بن أحمد إلى الكوفة، وراسل بختيار الديلمي أحد ملوك الدولة البويهية، في طلب السلاح والمساعدة، فأنفذ إليه خزانة سلاح من بغداد وسبب له على أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم، فرحل الحسن من الكوفة حتى أتى الرحبة وعليها أبو تغلب بن حمدان، فحمل إليه المال المسبّب له به عليه وحمل إليه العلوفة، وأرسل إليه يقول: هذا شيء كنت أردت أن أسير أنا فيه بنفسي، وأنت تقوم مقامي فيه، وأنا مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد عليّ خبرك، فإن احتجت إلى مسيري سرت إليك، ونادى في عسكره: من أراد المسير من الجند الإخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد فلا اعتراض عليه، فقد أذنّا له في المسير والعسكران واحد، فخرج إلى عسكر القرمطي جماعة من عسكر أبي تغلب، وكان فيه كثير من الإخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين، صاروا إليه لما انهزموا من المغاربة عند ملكهم الديار المصريّة بعد الدولة الإخشيدية؛ قال: وسبب مظاهرة[1] ابن حمدان

(١) المظاهرة: المعاونة.

للقرمطي أنه كان قد وقع بينه وبين جعفر بن فلاح مراسلات، أغلظ جعفر فيها على أبي تغلب وتهدّده بالمسير إليه، فلما أرسل ابن جعفر إلى الحسن بن أحمد هذه الرسالة ومكّن الجند من المسير معه سرّه ذلك وزاد قوّة، وسار عن الرَّحبة وقرب من أرض دمشق ووصل إلى ضياع المرْج فظفرت خيله برجل مغربي يقال له علي بن مولاة، فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المغاربة فوقعت الذلّة على المغاربة، وكان ظالم بن موهوب العُقَيلي على مقدّمة القرامطة في جمع من بني عقيل وبني كلاب، فلقي المغاربة في صحراء المِزَّة(١) وأقبل شبل بن معروف العقيلي معينًا لظالم، ولم يزل القتال بينهم إلى أن أقبل الحسن بن أحمد القرمطي فقوي العقيليون، وتشمّرت المغاربة ولم يزل القتال إلى العصر، ثم حمل ظالم ومن معه فانهزمت المغاربة وأخذهم السيف وتفرّقوا، وقتل جعفر بن فلاح ولم يعرف، واشتغلت العرب بنهب العسكر، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة، فلما كان بعد الوقعة عثر بجعفر بن فلاح من عرفه وهو مقتول مطروح على الطريق، فاشتهر خبره في الناس، ثم نزل الحسن بن أحمد بعد الوقعة على ظاهر المزَّة فجبى مالاً من البلد وسار يريد الرملة(٢)، وكان جوهر القائد قد أنفذ من مصر رجلًا من المغاربة يقال له سعادة بن حيّان ذكر أنه في أحد عشر ألفًا، فلما بلغ ابن حيّان أنّ ابن فلاح قد قتل وجاءه بعد ذلك قوم من المنهزمين فأخبروه بخبر الواقعة، تحيّر وتقطّعت به الأسباب، فلم تكن له جهة غير الدخول إلى يافا، ولم يكن له بها عُدّة ولا دار، فلما دخل إليها جاءه الحسن بن أحمد فنزل عليها، واجتمعت إليه عرب الشام فنازلها وناصبها بالقتال، حتى اشتدّ الحصار وقلّ ما بها جدًا، وكان يدخل إليها شيء سرًا فجعل عليها حرسًا، فمن وجد معه شيء من الطعام يريد الدخول به إلى يافا ضربت عنقه، فلما طال بهم الأمر أكلوا دوابّهم وجميع ما عندهم من الحيوان، ثم هلك أكثرهم من الجوع، وكان الحسن بن أحمد قد سار عن يافا نحو مصر، وخلّف على حصارها أبا المُنجّي وظالمًا العقيلي ونزل على مصر يوم الجمعة مستهلّ شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وثلاثمائة، فقاتل المغاربة على الخندق الذي لمدينتهم، وقتل كثيرًا منهم خارج الخندق وحاصرهم شهورًا، ثم رحل عنها إلى

(١) المزة: بالكسر ثم التشديد: هي قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. . . (معجم ياقوت).

(٢) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين. . . وكانت رباطًا للمسلمين. . . والرملة أيضًا: محلة خربت نحو شاطىء دجلة مقابل الكرخ ببغداد، والرملة أيضًا: محلة بسرخس. . . (معجم البلدان).

الأحساء ولم يعلم الناس ما كان السبب في ذلك، فلما تيقّنت المغاربة أنه قد رحل إلى بلده أنفذ جوهر القائد ابن أخته نحو يافا، وبلغ من عليها يحاصرها أن الحسن بن أحمد رحل عن مصر، وأنّ إبراهيم ابن أخت جوهر خارج يريد يافا، فسار القوم عنها وتوجّهوا نحو دمشق، فنزلوا بعسكرهم على ظاهرها، فجرى بين ظالم وأبي المنجّي كلام وخلاف ذكر أنّه بسبب أخذ الخراج، وكان كلّ واحد منهما يريد أخذه للنفقة في رجاله، وكان أبو المنجيّ كبيرًا عند القرمطي يستخلفه على تدبير أحواله.

قال: ولما رحل القوم عن يافا إلى دمشق جاءها إبراهيم ابن أخت جوهر القائد، فأخرج من كان بها وسار بهم إلى مصر، ورجع الحسن بن أحمد فنزل الرملة، ولقيه أبو المنجّي وظالم فذكر أبو المنجّي للحسن بن أحمد ما جرى من ظالم وما تكلّم به، فقبض عليه ولم يزل محبوسًا حتى ضمنه شبل بن معروف فخلّى سبيله، فهرب إلى شط الفرات إلى حصن كان له في منزل بني زياد، ثم إنّ الحسن بن أحمد طرح مراكب في البحر وجعل فيها رجالاً مقاتلة، وجمع كل من قدر عليه من العرب وغيرهم وتأهّب للمسير إلى مصر، وكان جوهر يكتب إلى المعز لدين الله إلى القيروان بما جرى على عسكره، من القتل والحصار والقتل، أن الحسن بن أحمد يقاتلهم على خندق عسكرهم، وقد أشرف على أخذ مصر فقلق من ذلك قلقًا شديدًا، وجمع من يقدر عليه وسار إلى مصر، وهو يظن أنها تؤخذ قبل أن يصل إليها، فدخلها في يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وكان شديد الخوف من الحسن بن أحمد، فلما نزل مصر عزم على أن يكتب إلى الحسن بن أحمد كتابًا يعرّفه فيه أنّ المذهب واحد، وأنهم منهم استمدوا، وأنهم ساداتهم في هذا الأمر، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة وترهَب عليه، وكان غرض المعز لدين الله العبيدي في ذلك أن يعلم من جواب القرمطي ما في نفسه، وهل خافه لما وافى مصر أم لا؟ قال: والحسن بن أحمد يعرف أنّ المذهب واحد، لأنّه يعلم الظاهر من مذهبهم والباطن، لأن الجميع اتفقوا على تعطيل الخالق وإباحة الأنفس والأموال وبطلان النبوّة، فهم متّفقون على المذهب، وإذا تمكّن بعضهم من بعض يرى قتله ولا يبقي عليه.

قال الشريف: وكان عنوان الكتاب:

من عبد الله ووليّه وخيرته وصفيّه معدّ أبي تميم بن إسماعيل المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، وسلالة خير النبيّين ونجل عليّ أفضل الوصيّين إلى الحسن بن أحمد، ونسخة الكتاب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ رسوم النطقاء ومذاهب الأئمة والأنبياء ومسالك الرسل والأوصياء، السالف والآنف منا صلوات الله علينا وعلى آبائنا، أولي الأيدي والأبصار في متقدّم الدهور والأكوار وسالف الأزمان والأعصار عند قيامهم بأحكام الله، وانتصابهم لأمر الله، بالابتداء بالإعذار والانتهاء بالإنذار، قبل إنفاذ الأقدار في أهل الشقاق والإصرار، لتكون الحجّة على من خالف وعصى، والعقوبة على من بان(١) وغوى، حسبما قال الله جلّ وعزّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ [البقرة: ١٣٧]، أما بعد أيها الناس: فإنّا نحمد الله بجميع محامده ونمجّده بأحسن مماجدة، حمدًا دائمًا أبدًا ومجدًا عاليًا سرمدًا، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه، ونبتغي إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة، على طاعته والتسديد في نصرته، ونستكفيه ممايلة الهوى والزيغ عن قصد الهدى، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضة البركات وطيب التحيات، على أوليائه الماضين وخلفائه التالين، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين، الذين قضوا بالحقّ وكانوا به يعدلون.

أيها الناس ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤] ليتذكّر من تذكر وينذر من أبصر واعتبر. أيها الناس: إن الله جلّ وعزّ إذا أراد أمرًا قضاه، وإذا قضاه أمضاه، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحًا، وأبرز أرواحنا بالقدرة مالكين، وبالقوّة قادرين، حين لا سماء مبنيّة، ولا أرض مدحيّة، ولا شمس تضيء، ولا قمر يسري، ولا كوكب يجري، ولا ليل يجنُّ، ولا أفق يكنّ، ولا لسان ينطق ولا جناح يخفق، ولا ليل، ولا نهار، ولا فلك دوّار، ولا كوكب سيّار، فنحن أوّل الفكرة، وآخر العمل بقدر ومقدور، وأمر في القدم مبرور، فعندما تكامل الأمر وصحّ العزم أنشأ الله جلّ وعز المنشآت فأبدأ الأمّهات من هيولانا، فطبعنا أنوارًا وظلمة وحركة، وسكونًا، فكان من حكمه السابق في عمله ما ترون من فلك دوّار، وكوكب سيّار، وليل ونهار، وما في الآفاق من آثار معجزات، وأقدار باهرات، وما في الأقطار من الآثار، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع، من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم وظاهر وباطن، ومحسوس وملموس،

(١) بان: فارق وهجر. وبان منه وعنه: بعد وانفصل.

ودانٍ وشاسع، وهابط وطالع. كل ذلك لنا ومن أجلنا، دلالة علينا وإشارة إلينا، يهدي الله ما كان له لب سجيح[1]، ورأي صحيح، قد سبقت له منّا الحسنى، فدان بالمعني، ثم إنه جلّ وعلا أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم آدم وحوّاء أبوين ذكرًا وأُنثى، سببًا لإنشاء البشرية، ودلالة لإظهار القدرة القويّة الكونيّة، وزوّج بينهما فتوالدا الأولاد، وتكاثرت الأعداد، ونحن ننقل في الأصلاب الزكيّة والأرحام الطاهرة المرضية، كلّما ضمنّا من صلب ورحم أظهر منّا قدرة وعلمًا وهلم جرّا إلى آخر الجد الأول والأب الأفضل سيد المرسلين وإمام النبيين أحمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله في كل نادٍ ومشهد، فحسن آلاؤه وبان غناؤه، وأباد المشركين وقصم الظالمين، وأظهر الحق واستعمل الصدق، وبان بالأحديّة ودان بالصمديّة، فعندها سقطت الأصنام وانعقد الإسلام، وظهر الإيمان وبطل السحر والقربان، وارتفع الكفر والطغيان، وخمدت بيوت النيران وهربت عبدة الأوثان، وأتى بالقرآن شاهدًا بالحق والبرهان فيه خير ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم، مبينًا عن كتب تقدّمت في صحف قد نزلت، تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة ونورًا وسراجًا منيرًا، وكل ذلك دلالات لنا ومقدّمات بين أيدينا، وأسباب لإظهار أمرنا، هدايات وآيات وشهادات، وسعادات قدسيات إلاهيات أوّليات كائنات، منشآت مبديات معيدات وما من ناطقٍ نطق ولا نبيّ بعث ولا وصيّ ظهر إلا قد أشار إلينا، ولوّح بنا ودلّ علينا في كتابه وخطابه، ومنار أعلامه ومرموز كلامه، ما هو موجود غير معدوم وظاهر وباطن، يعلمه من سمع الندا أو شاهد ورأي، من الملأ الأعلى، فمن أغفل منكم أو نسي أو ضلّ أو غوى فلينظر في الكتب الأولى والصحف المنزَلة، وليتأمل آي القرآن وما فيه من البيان، وليسأل أهلِ الذكر إن كان لا يعلم، فقد أمر الله عزّ وجل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

قال: وهذا الكتاب طويل جدًا لا طائل فيه، قطعناه ههنا وسنذكر جملة من هذا الكتاب في أخبار المعز لدين الله غير ما في هذا الموضع، على ما نقف عليه إن شاء الله تعالى في موضعه.

قال: والجواب من الحسن بن أحمد القرمطي الأعصم:

وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقلّ تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام.

---

(١) السجيح: اللين السهل.

وسار الحسن بن أحمد بعد ذلك إلى مصر، فنزل بعسكره عين شمس، وناشب المغاربة القتال، وانبثت سراياه في أرض مصر وبعث عمّالاً إلى الصعيد تجبي الأموال، وضيّق على المغاربة وداومهم القتال على خندق مدينتهم، يعني الشريف بمدينتهم القاهرة المعزيّة، قال: فذكر أنه هزمهم حتى عبر الخندق فامتنعوا منه بالسور، وعظم ذلك على المعز لدين الله وتحيّر في أمره، ولم يجسر أن يخرج بعسكره خارج الخندق، قال: وكان ابن الجرّاح الطائي في جمع عظيم مع الحسن بن أحمد القرمطي، وكان قوة لعسكره ومنعة ومقدّمة، فنظر القوم فإذا ليس لهم بالحسن بن أحمد طاقة، ففكّروا في أمره فلم يجدوا لهم حيلة غير فلّ عسكره، وعلموا أنّه لا يقدر على فلّه إلا بابن الجراح، وأنّ ذلك لا يتمّ إلا ببذل ما يطلبه من المال، فراسلوا ابن الجرّاح وبذلوا له مائة ألف دينار، على أن يفلّ لهم عسكر القرمطي فأجابهم إلى ذلك، ثم إنهم فكروا في أمر المال فاستعظموه، فعملوا دنانير من النحاس وطلوها بالذهب وجعلوها في أكياس، وجعلوا على رأس كل كيس منها دنانير يسيرة من الذهب تغطي ما تحتها وشدّوها وحملت لابن الجراح بعد أن استوثقوا منه، وعاهدوه ألا يغدر بهم إذا وصل إليه المال، فلما وصل إليه المال عمل على فلّ عسكره، وتقدم إلى كبراء أصحابه بأن يتبعوه إذا تواقف العسكران، وقامت الحرب فلما اشتدّ القتال ولّي ابن الجرّاح منهزمًا، واتّبعه أصحابه في جمع كثير، فلما نظر إليه القرمطي قد انهزم بعد الاستظهار تحيّر ولزمه أن يقاتل هو ومن معه فاجتهد في القتال حتى تخلص، ولم تكن لهم بهم طاقة وكانوا قد بادروه من كل جانب، فخشي على نفسه وانهزم واتّبعوه قومه ودخل المغاربة معسكره، فظفروا بأتباع وباعة نحو من ألف وخمسمائة رجل، فأخذوهم أسرى وانتهبوا العسكر وضربوا أعناقهم، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، ثم جرّدوا خلف الحسن بن أحمد، أبا محمود إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجل من المغاربة، فسار خلفه وتباطأ في السير خوفًا من أن يعطف عليه، وسار الحسن فنزل أذرعات وأنفذ أبا المنجّي في طائفة كثيرة من الجند إلى دمشق، وكان ابنه قبل ذلك واليًا عليها، ثم سار القرمطي في البريّة إلى بلده وفي نيّته العود، وكانت المغاربة، لمّا سمعوا بقصّة ظالم، وقبض القرمطيّ عليه لما جرى بينه وبين أبي المنجّي ما ذكرناه، وهربه إلى حصنه، راسلوه ليأتي القرمطيَّ من خلفه، فسار يريد بعلبك فلقيه الخبر بهزيمة القرمطي ونزول أبي المنجّي على دمشق، فسار ظالم نحو دمشق ونزل أبو محمود أذرعات، وذُكر أنه كان بينه وبين ظالم مراسلة واتّفقا على أبي المنجّي، وبلغ أبو المنجّي مسير ظالم إليه وكان في شرذمة يسيرة، وأبو المنجّي بدمشق في نحو ألفي رجل، وكان قد ورد إليه الخبر في أنّ ظالمًا يصبح

من غد في عقبة دُمَّر[١]، وكان الجند قبل ذلك قد طلبوا منه الرزق، فقال: ما معي مال، فلما ورد إليه خبر ظالم أعطى الجند على السُّرُج دينارين لكل رجل، ثم إنّ ظالمًا أصبح من غد ذلك اليوم في عقبة دُمَّر، فخرج أبو المنجّي وابنه بمن معهما إلى الميدان للقتال، فذكر أنّ ظالمَ أنفذ إلى أبي المنجّي رسولاً يقول له: إنما جئت مستأْمنًا إليكم، وقد كان الجند حقدوا على أبي المنجّي من جهة الرزق، فلما صار ظالم في عقبة دُمَّر مشرفًا على دمشق ذهب قوم من الجند نحو العقبة، فاستأْمنوا إلى ظالم وتبعهم قوم بعد قوم، فقوي طمع ظالم بهم فانحدر من العقبة، ثم سار بمن معه حتى قرب من أبي المنجّي فأحاط به فلم يقدر على الهرب فأخذ هو وابنه من بعد أن وقعت فيه ضربة، وانقلب عسكره إلى ظالم، وملك ظالم البلد، وذلك في يوم السبت لعشر خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

فلما تمكّن ظالم ونزل البلد أوثق أبا المنجّي وابنه ثم حبسهما، وقبض على جماعة من أصحابه فأخذ أموالهم، ثم قدم أبو محمود بعد ذلك دمشق في يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان، فلقيه ظالم وتقرّب إليه بأبي المنجّي وابنه، فعمل لكل واحد منهما قفصًا من خشب وحملهما إلى مصر فحبسا، وكان بعد ذلك بين ظالم وأبي محمود وأخبار دمشق ما ليس ذكره في هذا الموضع من غرضنا، فلنرجع إلى أخبار القرامطة.

ذكر عود القرامطة إلى الشام ووفاة الحسن بن أحمد

قال: وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة كاتب هفتكين التركي وهو بالشام القرامطة، وقد جرى بينه وبين المغاربة حروب ووقائع واستنصر بهم، فكاتبوه بأنّهم سائرون إلى الشام، فوافوا دمشق في هذه السنة، وكان الذي وافى منهم إسحاق وكسرى وجعفر، فنزلوا ظاهر دمشق نحو الشماسيّة[٢]، ووافى معهم كثير من العجم ممّن كان من أصحاب هفتكين، فلقي هفتكين القرامطة وحمل إليهم الأموال وأكرمهم وفرح بهم وأمن، فأقاموا على دمشق أيامًا ثم رحلوا متوجّهين إلى الرملة، وكان بها أبو محمود إبراهيم بن جعفر فتحصّن منهم بيافا، ونزلت القرامطة الرملة ونصبوا القتال على يافا، حتى كلّ الفريقان من القتال وصار بعضهم يحدّث بعضًا، وأقامت القرامطة بالرملة يجبون المال، فندب العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ـ وكان قد ولّي الأمر بعد وفاة أبيه ـ جوهر القائد إلى الخروج إلى الشام في سنة خمس وستين، وحمل إليه

(١) دمّر: عقبة دمر مشرفة على غوطة دمشق.. وهي من جهة الشمال في طريق بعلبك.
(٢) الشماسية: هي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد وإليها ينسب باب الشماسية.

خزائن السلاح والأموال، فسار يريد الشام في عساكر لم تخرج المغاربة من مصر بمثلها، وتواترت الأخبار إلى هفتكين بمسيره، وهو على عكّا وكان قد ملك صيدا، فنزل عكّا وسار فنزل طبريّة، وفارق القرامطة الرملة ونزلها جوهر، وسار إسحاق وكسرى القرمطيّان إلى الأحساء، وبقي جعفر لم يسر معهم وانضمّ إلى هفتكين بطبريّة، وسار جوهر في طلبهما فسارا إلى دمشق وتبعهم جوهر حتى نزل بالشماسيّة بظاهر دمشق، والمناوشة تقع بينهم تارة والموادعة أخرى، فلم يزل الأمر كذلك إلى جُمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة، فوردت الأخبار وقويت بقرب الحسن بن أحمد القرمطي من دمشق، وجاء من بشَّر ابن عمّه جعفر بذلك، فسار إليه وصحّ ذلك عند جوهر، فنزل دمشق وسار نحو طبريّة وجدّ في السير، وكان قد هلك من عسكره خلق كثير، فخاف أن يدركه الحسن بن أحمد القرمطي فأسرع المسير من طبريّة، وخرج الحسن بن أحمد من البريّة يريد طبريّة فوجده قد سار عنها، فأنفذ خلفه سريّة فلحقته فرجع عليها أصحاب جوهر، فقتلوا جماعة من العرب وسار جوهر حتى نزل ظاهر الرملة، وأتاه الخبر عن الحسن فدخل جوهر زيتون الرمل وتحصّن به، وسار هفتكين من دمشق في أثر الحسن بن أحمد فلحقه، وتوفي الحسن بن أحمد بالرملة، وتولّى أمر القرامطة بعده ابن عمّه جعفر، واجتمع هو وهفتكين على قتال جوهر، فقاتلوه بقيّة سنة ست وستين وثلاثمائة، ثم رجع جعفر إلى بلده، وكان بين هفتكين وجوهر من الحصار ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك مصر.

ذكر استيلاء القرامطة على الكوفة وخروجهم عنها

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ورد إسحاق وجعفر الهَجريَّان ـ وهما من القرامطة الذين تلقّبوا بالسادة ـ فملكا الكوفة، قال: وكان للقرامطة من الهيبة ما إن عضد الدولة وبختيار أقطعاهم الكثير من الإقطاعات، وكان نائبهم ببغداد وهو أبو بكر بن شاهويه يحْكم حكم الوزراء، فقبض عليه صمصام الدولة بن بويه، فلما جاء القرامطة إلى الكوفة كتب صمصام الدولة إلى إسحاق وجعفر بالملاطفة ويسألهما عن سبب حركتهما، فذكرا أن السبب في ذلك ما وقع منه من القبض على صاحبهما، وبثّا أصحابهما في جباية الأموال، ووصل الحسن بن المنذر ـ وهو من أكابر القرامطة ـ إلى الجامِعيْن[1]، فأرسل صمصام الدولة العساكر

---

(١) الجامعين: هو حلة بني مزيد التي بأرض بابل على الفرات بين بغداد والكوفة، وهي الآن مدينة كبيرة آهلة.. وقد أخرجت خلقًا كثيرًا من أهل العلم والأدب ينسبون الحلي... (معجم البلدان لياقوت).

والعرب فقاتلوه وأسروه وجماعة من القوّاد وانهزم من معه، ثم جهّز القرامطة جيشًا آخر في عدد كثير فهزمته عساكر صمصام الدولة، وقتل مقدّم القرامطة، وكانت هذه الوقعة بالجامعين، فلما بلغ المنهزمون الكوفة رحل القرامطة عنها، وتبعتهم العساكر إلى القادسية وأخذ أمر القرامطة في الانتقاض، ولم يكن لهم بعد ذلك بالعراق والشام وقعة بلغنا خبرها.

ذكر ظفر الأصغر بالقرامطة

قال ابن الأثير: وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة جمع إنسان يعرف بالأصفر من بني المنتفق[١] جمعًا كثيرًا، وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة، قتل فيها مقدّم القرامطة وانهزم أصحابه وقتل منهم وأسر خلق كثير، وسار الأصفر إلى الأحساء فتحصّن القرامطة منه، فعدل إلى القطيف[٢] فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأثقالهم ومواشيهم، وسار بذلك إلى البصرة وانتقض أمر القرامطة وضعفوا، وكان مدة ظهور مذهبهم إلى هذا التاريخ مائة سنة، ومنذ ظهر أمرهم واستولوا على البلاد وتجهّزت العساكر لقتالهم خمسًا وتسعين سنة، وكانت فتنتهم قد عمّت أكثر البلاد والعباد؛ ولم أقف لهم بعد واقعة الأصفر على واقعة أخرى فأذكرها.

وقد ذكرنا من أخبارهم ما فيه كفاية، فلنذكر أخبار الخوارج ببلاد الموصل.

ذكر أخبار الخوارج ببلاد الموصل

مساور ومن بعده

كان خروج مساور بن عبد الحميد بن مُساوِر البجلي بالبوازيج[٣] من بلاد الموصل في شهر رجب من شهور سنة اثنتين وخمسين ومائتين في خلافة المعتز بالله، وكان سبب خروجه أنّ شرطة الموصل كان يتولاّها رجل اسمه حسين بن بكير لبني

---

(١) بنو المنتفق: بطن من عامر بن صعصعة، من العدنانية. اشتهروا باسم أبيهم فقيل لهم: المنتفق... (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٢) القطيف: بفتح أوله، وكسر ثانيه: هي مدينة بالبحرين.. وقيل: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس.

(٣) البوازيج: بعد الزاي ياء ساكنة، وجيم: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.

عمران أمراء الموصل، فأخذ ابنًا لمساور هذا اسمه حوثرة فحبسه بالحديثة(١)، وكان حوثرة جميلاً فكان متولّي الشرطة يخرجه من الحبس ليلاً ويحضره عنده، ويردّه إلى الحبس نهارًا، فكتب حوثرة إلى أبيه - وهو بالبوازيج - يقول: أنا بالنهار محبوس وبالليل عروس، فغضب لذلك وقلق وخرج وتابعه جماعة، وقصد الحديثة فاختفى حسين بن بكير، فأخرج ابنه من الحبس وكثر جمعه من الأعراب والأكراد، فسار إلى الموصل ونزل بالجانب الشرقي، وكان الوالي عليها عقبة بن محمد بن جعفر بن محمد بن الأشعث بن أهبان الخزاعي، وأهبان يقال إنه مكلّم الذئب وله صحبة، فوافقه من الجانب الغربي وعبر دجلة رجلان من أهل الموصل إلى مساور، فقاتلا مساورًا فقتلا عاد مساور وكره القتال، وكان حوثرة ابنه معه فكان يقول: [من الرجز]

أنا الغلام البجلي الشاري ... أخرجني جوركمُ من داري

ذكر قتل مساور بندارا الطبري متولي طريق خراسان

قال: ولمّا فارق مساور الموصل بلغ بُندارا الطبريّ وهو بالدسكرة أنّه يريد كرخ جُدان، وكان بُندار الطبري يلي طريق خراسان هو ومظفَر بن سيسل، فقال بندار ذلك لمظفّر فقال مظفّر: قد أمسينا وغدًا عيد، فإذا قضينا العيد سرنا إليه، فسار بندار ليلاً طمعًا في أن يكون الظفر له، حتى أشرف على عسكر مساور، فأشار عليه بعض أصحابه أن يبيّتهم فأبى، وقال: حتى أراهم ويروني، فأحسّ به الخوارج فركبوا واقتتلوا، وكان مع بندار ثلاثمائة فارس ومع مساور سبعمائة، فاشتدّ القتال بينهم وحمل الخوارج حملة، اقتطعوا من أصحاب بندار أكثر من مائة فصبروا لهم وقاتلوهم حتى قتلوا جميعًا، فانهزم بُندار وأصحابه وجعل أصحاب مساور يقتطعونهم قطعة بعد قطعة فقتلوهم، وأمعن بندار في الهرب فطلبوه حتى أدركوه فقتلوه ونصبوا رأسه، ونجا من أصحابه نحو خمسين رجلاً، وقيل مائة، وأتى الخبر إلى المظفَر فرحل نحو بغداد، وسار مساور نحو حُلوان فقاتله أهلها، فقتل منهم أربعمائة إنسان، وقتلوا من أصحابه جماعة وقتل مساور عدّة من أصحاب خراسان كانوا بحلوان، فأعانوا أهلها على مساور، ثم انصرف عن حلوان، فقال مساور في ذلك: [من المتقارب]

فجعتُ العراق ببُندارها ... وحزت البلاد بأقطارها

وحُلوان صبّحتها غارةً ... فقتّلتُ أغرار غرّارها

وعقبة بالموصل أجحرتُه ... وطوّقه الذل بي كارها(٢)

---

(١) الحديثة: حديثة الموصل: هي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى... (معجم البلدان).

(٢) أجحرته: أي جعله محصورًا كأنّه في جحر.

قال: وكان قتل بُندار في سنة ثلاث وخمسين ومائتين، ثم لقي مساور عسكرًا للخليفة، ومقدّمهم خَطَرمش بناحية جلولاء[١] في ذي الحجة من السنة، فهزمهم مساور واستولى على أكثر بلاد الموصل فقوي أمره وكثرت أتباعه.

فجمع له الحسن بن أيوب بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي ـ وكان خليفة أبيه على الموصل ـ عسكرًا كثيرًا منهم حمدان بن حمدون جدّ الأمراء الحمدانيّة وغيره، وسار إليه وعبر إليه نهر الزاب، فتأخر مساور عن موضعه ونزل بموضع يقال له وادي الذئاب، وهو واد عميق، فسار الحسن في طلبه فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم عسكر الموصل وكثر القتل فيهم، وسقط كثير منهم في الوادي فهلك فيه أكثر من القتلى، وذلك في جُمادى الأولى سنة أربع وخمسين ومائتين، ونجا الحسن فوصل إلى حزّة من أعمال إربل[٢]، وهرب محمد بن علي بن السيّد، فظنّ الخوارج أنه الحسن فتبعوه فقتلوه، وكان فارسًا شجاعًا، واشتدّ أمر مساور وعظم شأنه وخافه الناس.

ذكر استيلاء مساور على الموصل وخروجه منها

قال: ولما انهزم عسكر الموصل من مساور قوي أمره وكثرت أتباعه، فسار من موضعه وقصد الموصل فنزل بظاهرها عند الدير الأعلى[٣]، فاستتر أمير البلد عبد الله بن سليمان لضعفه عن مقاتلته ولم يدافعه أهل الموصل، فوجه مساور جمعًا إلى دار عبد الله أمير البلد فأحرقها، ودخل الموصل بغير حرب فلم يتعرّض لأحد، وحضرت الجمعة فدخل المسجد الجامع، وحضر الناس فصعد مساور المنبر، وجعل على درج المنبر من أصحابه من يحرسه بالسيوف وكذلك في الصلاة، ولما خطب قال في خطبته: (اللهم أصلحنا وأصلح ولاتنا) ولما دخل في الصلاة جعل إبهاميْه في أذنيه وكبّر ست تكبيرات ثم قرأ بعد ذلك.

---

(١) جلولاء: بالمد: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى بعقوبا ويجري بين منازل أهل بعقوبا ويحمل السفن إلى باجسرا. . . (معجم ياقوت).

(٢) إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعته خندق عميق. . . وهي على تل عال من التراب. . . (معجم البلدان).

(٣) الدير الأعلى: بالموصل في أعلاها على جبل مطل على دجلة، يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المستشرف.

ثم فارق البلد ولم يقدر على المقام به لكثرة أهله، وسار إلى الحديثة وكان قد اتخذها دار هجرته، وكان دخوله الموصل في سنة خمس وخمسين ومائتين، ثم كان بينه وبين عسكر الخليفة في هذه السنة وقعة فانهزم عسكر الخليفة.

ذكر اختلاف الخوارج على مساور انتصار على من خالفه وقتاله عساكر الخليفة

وفي سنة ست وخمسين ومائتين خالف إنسان من الخوارج اسمه عُبيدة من بني زهير، على مساور، وسبب ذلك أنه خالفه في توبة المخطىء، فقال مساور: تُقبل توبته، وقال عُبيدة: لا قبل، فجمع عبيدة جمعًا كثيرًا وسار إلى مساور، وتقدّم إليه مساور من الحديثة، فالتقوا بنواحي جُهينة[1] في جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين، واقتتلوا أشد قتال فترجّل عبيدة ومعه جماعة من أصحابه وعرقبوا دوابّهم فقتل عُبيدة وانهزم جمعه، فقتل أكثرهم واستولى مساور على كثير من العراق، ومنع الأموال عن الخليفة فضاقت على الجند أرزاقهم فاضطرهم ذلك إلى أن سار إليه موسى بن بغا وبايكباك وغيرهما في عسكر عظيم، وذلك في سنة ست وخمسين، فوصلوا إلى السنّ وأقاموا به، ثم عادوا بسبب خلع المهتدي، فلما ولّي المعتمد على الله الخلافة سيّر مُفلحًا في عسكر كبير لقتال مساور، فسار فلما قارب الحديثة فارقها مساور، وقصد جبلَيْن يقال لأحدهما زيني والآخر عامر وهما بالقرب من الحديثة، فتبعه مفلح فعطف عليه مساور وهو في أربعة آلاف فارس، وكان مساور قد انصرف من حرب عُبيدة وقد جرح كثير من أصحابه، فلحقوا مفلحًا بجبل زيني فلم يصل إلى ما يريد، فصعد مساور رأس الجبل فاحتمى به، ونزل مفلح في أصل الجبل، وجرى بينهما وقعات كثيرة، ثم أصبحوا يومًا فطلبوا مساورًا فلم يجدوه، وكان قد نزل من غير الوجه الذي نزل به مفلح، لمّا أيس من الظفر لضعف أصحابه من الجراح، فلمّا لم يره مفلح سار إلى الموصل وسار منها إلى ديار ربيعة، سنجار ونصيبين والخابور، فنظر في أمرها ثم سار فأتى الموصل، فأحسن السيرة في أهلها ورجع عنها وقد تأهّب للقاء مساور، فلمّا قارب الحديثة فارقها مساور وتبعه مفلح، فكان مساور يرتحل عن المنزل فينزله مفلح، فلمّا طال الأمر على مفلح وتوغّل في الجبال والشعاب والمضايق عاد عنه فتبعه مساور يقفو أثره ويأخذ من ينقطع عن ساقة العسكر، فرجع إليه طائفة من

(١) جهينة: قرية كبيرة من نواحي الموصل على دجلة، وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل، وعندها مرج يقال له مرج جهينة... (معجم ياقوت).

العسكر فقاتلوه، ثم عادوا ولحقوا مفلحًا، ووصل مفلح الحديثة فأقام بها أيامًا، وانحدر في أول رمضان إلى سامرّا، فاستولى حينئذ مساور على البلاد، وقوي أمره واشتدت شوكته.

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين خرج على مساور خارجيّ آخر اسمه طَوْق من بني زُهير، فاجتمع إليه أربعة آلاف فصار بهم إلى أذْرَمَة[1]، فحاربه أهلها فدخلها بالسيف، وأخذ جارية بكرًا فافتضّها في المسجد، فجمع الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعًا كثيرًا فحاربه وقتله، وأنفذ رأسه إلى سامرّا، واستمر مساور بتلك النواحي إلى أن مات في سنة ثلاث وستين.

ذكر وفاة مساور وخبر من قام بعده إلى أن قام هارون البجلي

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين توفّي مساور الشاري، وكان قد رحل من البوازيج يريد لقاء سكر قد سار إليه من قبل الخليفة، فكتب أصحابه إلى محمد بن خرّزاد وهو بشهرزور[2] ليولّوه أمرهم، فامتنع وكان كثير العبادة فبايعوا أيوب بن حيّان الوارقي البجلي، فأرسل إليهم محمد بن خرّزاد يذكر أنّه نظر في أمره فلم يسعه إهمال الأمر، لأنّ مساورًا عهد إليه به، فقالوا له: قد بايعنا هذا الرجل ولا نغدر به، فسار إليهم فيمن بايعه فقاتلهم، فقتل أيوب بن حيّان فبايعوا بعده محمد بن عبد الله بن يحيى الوارقي المعروف بالغلام فقتل أيضًا فبايع أصحابه هارون بن عبد الله البجلي، فكثر أتباعه وعاد عنه ابن خرّزاد، واستولى هارون على بلد الموصل وجبى خراجه.

ذكر محاربة محمد بن خرّزاد هارون بن عبد الله ما كان من خبر خرّزاد ومقتله واستقلال هارون بالأمر بمفرده

وفي سنة سبع وستين ومائتين كانت الحرب بين محمد بن خرّزاد وهارون بن عبد الله، وذلك أن محمدًا جمع أصحابه وسار لحرب هارون، فنزل واسط وهي قرية من قرى الموصل، وكان يركب البقر لئلا يفرّ من القتال، ويلبس الصوف الغليظ

---

(١) أذرمة: كانت في أيام ياقوت، على حد قوله: من أعمال الموصل من كورة تعرف بين النهرين.

(٢) شهرزور: مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة، وهي قصبتها... (معجم البلدان).

ويرقع ثيابه، وكان كثير العبادة والنسك ويجلس على الأرض ليس بينه وبينها حائل، فلما نزل واسط خرج إليه وجوه أهل الموصل، وكان هارون بمُعْلَثَايا(١) يجمع لحرب محمد، فلما سمع بنزول محمد عند الموصل سار إليه، ورحل ابن خرّزاد نحوه، فالتقوا بالقرب من قرية شمرخ واقتتلوا قتالاً شديدًا، كان فيه مبارزة وحملات كثيرة، فانهزم هارون وقتل من أصحابه نحو مائتي رجل، منهم جماعة من الفرسان المشهورين، ومضى هارون منهزمًا فعبر دجلة إلى الغرب قاصدًا بني تغلب فنصروه واجتمعوا إليه، ورجع محمد بن خرّزاد من حيث أقبل وعاد هارون إلى الحديثة فاجتمع إليه خلق كثير، فكاتب أصحاب ابن خرّزاد واستمالهم، فأتاه منهم خلق كثير، ولم يبق مع ابن خرّزاد إلا عشيرته من الشمردليّة، وهم أهل شهرزور، وإنما فارقه أصحابه لأنّه كان خشن العيش، وهو ببلد شهرزور كثير الأعداء من الأكراد وغيرهم، وكان هارون ببلد الوصل قد صلح حاله وحال أصحابه، فمال إليه أصحاب ابن خرّزاد وقصدوه لهذا السبب، وأوقع ابن خرّزاد بالأكراد الجلاليّة بنواحي شهرزور وغيرهم، فقتل وتفرّد هارون بالأمر وقوي، وكثر أتباعه وغلبوا على القرى والرساتيق، وجعلوا على دجلة من يأخذ الزكاة من الأموال المنحدرة والمصعدة، وبثُّوا نوّابهم في الرساتيق يأخذون الأعشار من الغلاّت.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين دخل هارون الموصل، وصلّى الجمعة بالناس وكان معه حمدان بن حمدون.

ذكر خروج محمد بن عبادة على هارون وكلاهما خارجي

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين خرج محمد بن عُبادة ويعرف بأبي جورة - وهو من بني زهير على هارون، وكان محمد هذا في أوّل أمره من الفقراء الصعاليك، وكان هو وأبناؤه يلتقطون الكمأة(٢) ويبيعونها إلى غير ذلك من الأعمال، ثم إنه جمع جماعة وحكم، فاجتمع إليه أهل تلك النواحي والأعراب وقوي أمره، وأخذ عشر الغلات وقبض الزكاة، وسار إلى مُعْلَثَايا فقاطعه أهلها على خمسمائة دينار، وجبى تلك الأعمال وبنى عند سنجار حصنًا، وحمل إليه الميرة والأمتعة، وجعل فيه ابنه أبا هلال

(١) معلثايا: بالفتح ثم السكون، وبالثاء المثلثة، وياء: بليد قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل.

(٢) الكمأة: واحدتها: الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكميئة، وهي أرضية تنتفخ حاملات أبواغها: فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

ومعه مائة وخمسون رجلاً من وجوه بني زهير وغيرهم، ووصل الخبر إلى هارون فاجتمع رأيه ورأى وجوه أصحابه على قصد الحصن أولاً، فإذا فرغوا منه ساروا إلى محمد بن عُبادة، فجمع أصحابه به فبلغوا ألف فارس ومائتي فارس ومائة راجل، فأحدق بالحصن وحصره، ومحمد بن عُبادة في قَبْراثَا[1] لم يعلم بذلك، وجدّ هارون في قتال أهل الحصن، ونصب عليهم السلاليم وملكه، فلما رأى من معه من نبي تغلب تغلبه على الحصن أعطوا من فيه من بني زهير الأمان، بغير أمر هارون فشقّ ذلك عليه، إلا أنه قتل أبا هلال بن محمد ونفرًا معه قبل الأمان، ثم ساروا إلى محمد فوافوه وهو في أربعة آلاف رجل، فاقتتلوا فانهزم هارون ومن معه، ووقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم فاجتمعوا نحو أربعين رجلاً، وحملوا على ميمنة محمد فانهزمت، وعادت الحرب فانهزم محمد وأصحابه، ووضعوا فيهم السيف فقتل منهم ألفان وأربعمائة رجل وحجز بينهم الليل وجمع هارون مالهم فقسّمه بين أصحابه، وانهزم محمد إلى آمد فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى ابن الشيخ بعد حرب وأسره، وحمله إلى المعتضد بالله فسلخ جلده كالشاة.

ذكر انهزام هارون من عسكر الموصل

كان المعتضد بالله قد سار إلى ماردين في سنة إحدى وسبعين، وخلَف بالموصل نصر القشُوري يجبي الأموال ويعين العمّال على جبايتها فخرج عامل مُعْلَثَايا إليها ومعه جماعة من أصحاب نصر، فوقع عليهم طائفة من الخوارج فاقتتلوا إلى أن أدركهم الليل ففرّق بينهم، وقتل من الخوارج إنسان اسمه جعفر، وهو من أعيان أصحاب هارون، فعظم عليه ذلك وأمر أصحابه أن يفسدوا في البلاد، فكتب نصر القشوري إلى هارون يتهدّده بقرب الخليفة، وأنّه إن همّ به أهلكه وأصحابه، فلا يغتر بمن سار إلى حربه فعاد عنه بمكره وخديعته، فأجابه هارون بجواب غليظ، من جملته وإنّا وإياك كما قيل:

فلا توعدونا باللقاء وأبرزوا إلينا سوادًا نلقهُ بسواد

فبعث نصر جواب هارون إلى المعتضد بالله فجدّ في قصده، وولّى الحسن بن عليّ كورة الموصل وأمره بقصد الخوارج، وأمر كافة مقدّمي الولايات والأعمال بطاعته، فجمعهم وسار إلى أعمال الموصل وخندق على نفسه، وأقام إلى أن رفع الناس غلاّتهم، ثم سار إلى الخوارج وعبر نهر الزاب إليهم، فالتقوا واقتتلوا قتالاً

(١) قبراثا: قرية من نواحي بقعاء الموصل.

شديدًا فانكشف الخوارج عنه، ليفرّقوا جمعيته ثم يعطفوا عليه، فأمر الحسن أصحابه بلزوم مواقفهم ففعلوا، ورجع هارون وأصحابه وحملوا سبع عشرة حملة، فانكشفت ميمنة الحسن وثبت هو، فحمل عليه الخوارج حملة رجل واحد وهو ثابت، وضرب على رأسه عدّة ضربات فلم تؤثر فيه، فلما رأى أصحابه ثباته رجعوا إليه وقاتلوا وصبروا، فانهزم هارون ومن معه وقتل خلق كثير، وكانت هذه الوقعة في سنة اثنتين وثمانين ومائتين، فتحيّر هارون في أمره فقصد البريّة، ونزل عند بني تغلب ثم عاد إلى ملعثايا، ورجع إلى البريّة ثم رجع إلى دجلة، وتكرّر ما بين ذلك، فلما رأى أصحابه قوّة دولة الخليفة المعتضد بالله راسلوا الخليفة في طلب الأمان، فأمّنهم فأتاه ثلاثمائة وستون رجلًا، وبقي مع هارون بعضهم، وهو يجول في البلاد إلى أن قتل.

ذكر مقتل هارون

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين سار المعتضد بالله إلى الموصل، ووصل إلى تكريت وأقام بها، وأحضر الحسين بن حمدان وبعثه في طلب هارون في جماعة من الفرسان والرجّالة، فانتخب الحسين ثلاثمائة رجل فسار بهم، ومعه وصيف فقال له الحسين: مره يا أمير المؤمنين بطاعتي، فأمره بذلك، فسار بهم الحسين حتى انتهى إلى مخاضة في دجلة، فقال الحسين لوصيف ولمن معه ليقفوا هناك، وقال: ليس لهارون طريق ـ إن هرب ـ غيرها، فلا تبرحوا من هذا الموضع حتى يمرّ بكم فتمنعوه من العبور وأكون أنا من خلفه، ومضى الحسين في طلب هارون فلقيه، واقتتلوا وقتل من الفريقين عدّة قتلى، ثم انهزم هارون، وأقام وصيف على المخاضة ثلاثة أيام، فقال له أصحابه: قد طال مقامك ولسنا نأمن أن يأخذ حسين هارون، فيكون الفتح له دوننا، والصواب أن تمضي في آثارهم فأطاعهم ومضى، ولما فارق المخاضة جاء هارون فعبرها، وجاء الحسين في أثره إلى الموضع فلم ير وصيفًا وأصحابه في الموضع الذي تركهم فيه، فعبر في أثر هارون وانتهى إلى حيّ من أحياء العرب، فسأل عنه فكتموه أمره فهدّدهم فأعلموه أنّه اجتاز بهم، فتبعه حتى أدركه بعد أيام وهارون في نحو مائة رجل، فناشده فأبى الحسين إلا قتاله، وحاربه وألقى نفسه عليه وأسره، وجاء به إلى المعتضد بالله إلى بغداد فوصلها لثمان بقين من شهر ربيع الأول، وأدخل هارون على فيل، وأرادوا أن يلبسوه ديباجًا مشهّرًا فامتنع، وقال: هذا لا يحلّ فألبسوه كارهًا، ولما صلب نادى بأعلى صوته لا حكم إلا لله ولو كره المشركون، وكان هارون صُفْريًا، وكانت مدة خروج هذه الطائفة، منذ خرج مساور إلى أن أسر هارون ثلاثين سنة، منها أيام مساور عشر سنين، ومدة خروج هارون عشرون سنة، والله تعالى أعلم.

الباب التاسع
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار من استقلّ بالملك والممالك بالبلاد الشرقية والشمالية في خلال الدولة العباسية وهم ملوك خراسان وما وراء النهر والجبال وطبرستان وغزنة والغور وبلاد السند والهند والدولة السامانية والدولة الصّفارية والغزنوية والغورية والدولة الديلمية الختلية

ذكر أخبار الدولة السامانية وقيامها بما وراء النهر ونسب ملوكها وابتداء أمرهم

كان أوّل من نبغ منهم وظهر اسمه وولّي من قبل الخلافة نصر بن أحمد بن أسد بن سامان خداه بن جثمان بن طمغاث بن نوشرد بن بهرام جوبين بن بهرام خُشْنُش، وكان بهرام خُشْنُش من الريّ فجعله كسرى هرمز مرزبان أذربيجان[١]، وكانت ولاية نصر بن أحمد ما وراء النهر في سنة إحدى وستين ومائتين من قبل الخليفة المعتمد على الله العبّاسي؛ وكان المأمون، لمّا ولّي خراسان في خلافة أبيه الرشيد، اصطنع أولاد أسد بن سامان، وهم نوح وأحمد ويحيى وإلياس، فقدّمهم ورفعهم واستعملهم، فلمّا أفضت الخلافة إلى المأمون ورجع إلى العراق استخلف غسّان بن عبّاد، فاستعمل غسان نوح بن أسد على سمرقند، وأحمد بن أسد على فرغانة، ويحيى على الشاش[٢] وأشروسنة[٣]، وإلياس على هراة وذلك في سنة أربع ومائتين، ثم أقرّهم طاهر بن الحسين على هذه الأعمال لما ولّي خراسان، ثم توفي

---

(١) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم: حدّ أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجيل، والطرم. . . . ومن مشهور مدائنها: تبريز، وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها. . . (معجم البلدان).

(٢) الشاش: بالشين المعجمة: بالريّ قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة. . والشاش: قرية بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. . . (معجم ياقوت).

(٣) أشروسنة: بالضم ثم السكون، وضم الراء، وواو ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، ونون، وهاء: بلدة كبيرة بما رواء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند.

نوح بن أسد فأقرّ طاهر أخويه يحيى وأحمد على عمله، وكان أحمد بن أسد عفيفًا عن المطاعم الدنيّة حسن السيرة، لا يقبل الرشا، ففيه يقول الشاعر:

ثوى ثلاثين حولاً في ولايته فجاع يوم ثوى في قبره حشمه

وقيل إن هذا الشعر إنما قيل في ابنه نصر.

وأمّا إلياس فإنه أقام بهراة إلى أن مات، فأقرّ عبد الله بن طاهر ابنه أبا إسحاق محمد بن إلياس على عمله بهراة. وكان لأحمد بن أسد سبعة بنين وهم: نصر وأبو يوسف يعقوب أبو زكريا يحيى وأبو الأشعث أسد وإسماعيل وإسحاق وأبو غانم حُميد، فلما توفي أحمد بن أسد استخلف ابنه نصرًا على أعماله بسمرقند، فبقي عاملاً عليها إلى آخر الأيام الطاهريّة وبعدها إلى أن مضى لسبيله، وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرًا، فولاه بخارى[1] في سنة إحدى وستين ومائتين، فهذا ابتداء أمرهم على سبيل الاختصار.

وهذه الولاية هي أوّل ولاية كانت لملوك هذه الدولة ولأهل هذا البيت من قبل الخليفة، ففي هذه السنة كان ابتداء دولتهم، وأوّل من استقلّ منهم بالولاية نصر هذا في هذا التاريخ، وكان قبل ذلك يلي الأعمال من قبل عمّال خراسان، قال: ثم وقع خلاف بين نصر وأخيه إسماعيل مرة بعد أخرى حتى أفضى ذلك إلى الحرب بينهما، فتحاربا في سنة خمس وسبعين ومائتين، فظفر إسماعيل بأخيه نصر فلما جيء به إليه ترجّل إسماعيل له، وقبّل يده وردّه إلى موضعه بسمرقند، وتصرّف في النيابة عنه ببخارى وصلح ما بينهما، وكان إسماعيل خيّرًا يحب أهل العلم والدين ويكرمهم، وببركتهم دام الملك في عقبه من بعده.

حكي عن أبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد هذا قال: كنتُ بسمرقند فجلست للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى جانبي، فدخل أبو عبد الله محمد بن نصر[2] الفقيه الشافعي فقمت له إجلالاً لعلمه دينه، فلما خرج عاتبني أخي وقال: أنت أمير خراسان

---

(١) بخارى: بالضم: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانية.

(٢) هو محمد بن نصر المروزي الإمام أبو عبد الله أحد الأعلام، كان رأسًا في الفقه، رأسًا في الحديث، رأسًا في العبادة، عدلاً خيرًا... وكان يقع على أذنه الذباب وهو في الصلاة فيسيل الدم ولا يذبه كان ينتصب كأنه خشبة. وقيل: كان ابن نصر أعلم الناس بالاختلاف. وصنف كتبًا... ولم يكن للشافعية في وقته مثله... (شذرات الذهب ٢:٢١٦).

يدخل عليك رجل من رعيّتك فتقوم له فتذهب السياسة بهذا!! قال إسماعيل فبتّ في تلك الليلة فرأيت النبيّ ﷺ، وكأني واقف أنا وأخي إسحاق، فأقبل النبيّ ﷺ وأخذ بعضدي وقال لي: يا إسماعيل ثبت ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر، ثم التفت إلى إسحاق وقال: ذهب ملكك وملك بنيك باستخفافك بمحمد بن نصر.

ذكر وفاة نصر وقيام أخيه إسماعيل

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين توفي نصر بن أحمد، وكانت مدة استقلاله بالأمر ثماني عشرة سنة تقريبًا، وكان دينًا عاقلاً حسن الشعر، ولما مات قام مقامه في أعماله بما وراء النهر أخوه إسماعيل بن أحمد.

وفي سنة ثمانين ومائتين غزا إسماعيل بلاد الترك، وافتتح مدينة ملِكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوًا من عشرة آلاف، وقتل منهم خلقًا وأصاب من الدواب ما لا يعلم عدده، وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم.

ذكر ملك إسماعيل خراسان

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين ملك خراسان من عمرو بن الليث الصفّار، وسبب ذلك أن عمرًا كان قد أرسل إلى الخليفة المعتضد بالله يطلب منه أن يوليه ما وراء النهر، فوجّه إليه الخلع واللواء بذلك، وكان هو إذ ذاك بنيسابور، فوجّه لمحاربة إسماعيل محمد بن بشير ـ وكان صاحبه وخليفته ـ وعشرة من قوّاده، فتوجّهوا إلى آمل فعبر إليهم إسماعيل نهر جيحون[1]، والتقوا فهزمهم وقتل محمد بن بشير في نحو ستة آلاف رجل، وبلغ المنهزمون إلى عمرو بنيسابور، وعاد إسماعيل إلى بخارى، فتجهّز عمرو لقصده وسار من نيسابور نحو بلخ، فراسله إسماعيل يستعطفه ويقول: إن ولايتك قد اتّسعت ولك دنيا عريضة، وأنه ليس بيدي إلا ما وراء النهر، وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركني، فأبى عمرو إلا قتاله، فذكر أصحاب عمرو له شدّة العبور إلى نهر بلخ، فقال: لو شئت أن أسكره ببدر الأموال لفعلت، وسار إسماعيل نحوه وعبر النهر إلى الجانب الغربي، ونزل عمرو بلخ وأخذ إسماعيل عليه النواحي لكثرة جيوشه، فبقي

(١) جيحون: يجيء جيحون من موضع يقال له ريوساران، وهو جبل يتصل بناحية السند والهند وكابل.. وقال الإصطخري: فأما جيحون فإن عموده نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخّاب من حدود بذخشان وينظم إليه أنهار في حدود الختل ووخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم... (معجم البلدان).

عمرو كالمحاصر فطلب المحاجزة[١] فأبى إسماعيل، والتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كبير قتال حتى ولّى عمرو هاربًا، ومرّ بأجمة في طريقه فقيل له إنَّها أقرب الطرق فقصدها في نفر يسير وقال لعامة من معه: اسلكوا الطريق الواضح، ودخل الأجمة فوحل به فرسه ومضى من معه، فجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرًا، فسيّره إسماعيل إلى سمرقند، فلما وصل الخبر إلى المعتضد ذمّ عمرًا ومدح إسماعيل، قال: ثم خيّره إسماعيل بين المقام عنده أو إنفاذه إلى المعتضد فاختار التوجّه إلى الخليفة فسيّره إليه، كانت هذه الوقعة في شهر ربيع الأول من السنة.

وأرسل الخليفة المعتضد بالله إلى إسماعيل الخلع، وولاه ما كان بيد عمرو وخلع على نائبه بالحضرة وهو المعروف بالمرزباني، فاستولى إسماعيل على خراسان وصارت بيده.

ذكر ملكه طبرستان

وفي سنة سبع وثمانين أيضًا ملك إسماعيل طبرستان من محمد بن زيد العلوي، وسبب ذلك أنه سار لقصد خراسان، ظنًا منه أن إسماعيل لا يتجاوز ما وراء النهر، فبعث إليه ينهاه عن التعرض إليها وترك له جرجان فامتنع من ذلك، فندب إسماعيل لقتاله محمد بن هارون فالتقوا واقتتلوا على باب جرجان، فانجلت الحرب عن انهزام العلوي بعد أن جرح عدّة جراحات وأسر ابنه زيد بن محمد، وحمل إلى إسماعيل فأكرمه وأحسن نزله، وسار محمد بن هارون إلى طبرستان وملكها، وتولاّها من قبل إسماعيل.

ثم استولى محمد بن هارون على الريّ في شهر رجب سنة تسع وثمانين بعد أن خلع طاعة إسماعيل، وكان أهل الريّ قد كاتبوه في تسليمها إليه، فسار إليهم فحاربه واليها وهو اكرتمش التركي، فقتله محمد وقتل ابنيه وأخاه كيغلغ وهو من قواد الخليفة.

ذكر القبض على محمد بن هارون ووفاته

وفي سنة تسعين ومائتين أنفذ المكتفي بالله عهدًا إلى إسماعيل بولاية الريّ، فسار إليها ففارقها ابن هارون إلى قزوين ثم عاد إلى طبرستان[٢]، واستعمل، إسماعيل

---

(١) يقال: تحاجز القوم: إذا تزايلوا وانفصل بعضهم عن بعض.

(٢) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم.. فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل... (معجم البلدان).

على جرجان بارس التركي الكبير، وألزمه إحضار محمد بن هارون، فكاتبه بارس وضمن له إصلاح أمره، فقصد بخارى فلما بلغها قيد وحمل على جمل، وحبس فمات بعد شهرين محبوسًا؛ وكان ابتداء أمر محمد بن هارون أنّه كان خياطًا، ثم جمع جمعًا من أهل الفساد وقطع الطريق في مفازة سرخس مدّة، ثم استأمن إلى رافع بن هَرْثمة وبقي معه إلى أن انهزم من عمرو الصفّار فاستأمن إلى إسماعيل الساماني فسيّره إسماعيل لقتال العلوي كما قدّمناه ثم خرج عليه كما ذكرنا.

وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون كثرة، وكان عسكرهم سبعمائة قبّة تركية، ولا تكون القبّة التركية إلا لرؤسائهم، فوجّه إليهم إسماعيل جيشًا عظيمًا وتبعهم خلق من المطَوّعة فوصلوا إلى الترك وهم غادون، فكبسهم المسلمون في الصبح فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وانهزم الباقون أقبح هزيمة.

ذكر وفاة إسماعيل وولاية ابنه أحمد

كانت وفاته في منتصف صفر سنة خمس وتسعين ومائتين، ولُقِّب بعد موته بالماضي، وكان رحمه الله تعالى عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيّته حليمًا.

حكي عنه أنه كان لولده أحمد مؤدب يؤدّبه، فمرّ به الأمير إسماعيل فسمع المؤدب يسبّه، ويقول: لا بارك الله فيك ولا فيمن ولدك، فدخل عليه وقال: يا هذا نحن لم نذنب ذنبًا فتسبّنا، فهل ترى أن تعفينا من سبّك، وتخص المذنب بذمّك وشتمك؟ فارتاع المؤدب وخرج إسماعيل عنه، وأمر له بصلة جزاء لخوفه منه. وجرى بين يديه ذكر الأنساب والأحساب فقال لبعض جلسائه: كن عصاميًا ولا تكن عظاميًا. ومن مكارمه وآدابه أنه لما ولّي بعد أخيه نصر واستقل بالأمر استمرّ يكاتب أصحابه وأصدقاءه بما كان يكاتبهم به أوّلاً، فقيل له في ذلك فقال: يجب علينا إذا زادنا الله رفعة ألا ننقص إخواننا، بل نزيدهم رفعة وعلاء وجاهًا ليزدادوا لنا خلوصًا وشكرًا؛ وكانت مدة ولايته منذ أفضى الأمر إليه بعد وفاة أخيه ست عشرة سنة.

ولما مات ولّي بعده ابنه:

أبو نصر أحمد بن إسماعيل

قال: ولما استوثق له الأمر ببخارى قصد بالخروج إلى الريّ فأشار عليه إبراهيم بن زيدويه بقصد سمرقند، والقبض على عمّه إسحاق بن أحمد لئلا يخرج عليه، فاستدعى عمّه إلى بخارى فحضر إليه واعتقله بها، ولم يزل إلى سنة ثمان

وتسعين فأطلقه وأعاده إلى سمرقند وفرغانة، قال: ولما قبض على عمّه عبر إلى خراسان، فلما ورد نيسابور هرب بارس الكبير من جرجان إلى بغداد خوفًا منه، وكان لخوفه منه أسباب منها: أن الأمير إسماعيل كان قد استعمل ابنه أحمد على جرجان ـ لما أخذها من محمد بن زيد ـ ثم عزله عنها، واستعمل عليها بارس الكبير، فاجتمع عند بارس أموال عظيمة من خراج الريّ وطبرستان وجرجان، فحملها إلى إسماعيل فلما سارت عنه بلغه وفاة إسماعيل فردّها وأخذها، فلمّا قاربه أحمد خافه فكتب إلى المكتفي بالله يستأذنه في المصير إليه، فأذن له فسار إلى بغداد في أربعة آلاف فارس، فوصل إليها بعد وفاة المكتفي وولاية المقتدر، فأعجب المقتدر فسيّره إلى بني حمدان بعسكره وولاه ديار ربيعة، فخافه أصحاب الخليفة أن يتقدّم عليهم، فدسُّوا عليه غلامًا له فسمّه فمات بالموصل، واستولى غلامه على أمواله وتزوّج بامرأته.

ذكر استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

وفي شهر رجب سنة ثمان وتسعين ومائتين استولى على سجستان[1]، وذلك أنه لما استتب ملكه واستقرت قواعده سار في سنة سبع وتسعين ومائتين إلى الريّ، وكان مسكنه ببخارى ثم سار إلى هراة، فسيّر منها جيشًا في المحرّم سنة ثمان وتسعين إلى سجستان وعدّة من قوّاده، واستعمل عليهم الحسين بن علي المروروذي، وكان بسجستان المُعَدَّل بن علي بن الليث الصفار، وهو صاحبها، فسيّر المُعدَّل أخاه أبا علي محمد إلى بُسْت ليجبي أموالها، فسار الأمير أحمد إليه ببُست وحاربه، وأخذه أسيرًا وعاد به إلى هراة، وتوجّه الحسين إلى سجستان وحصر المُعدَّل، فلما بلغه أن أخاه أُسر، صالح الحسينَ واستأمن له، واستولى الحسين على سجستان، واستعمل عليها الأمير أحمد أبا صالح منصور بن إسحاق ـ وهو ابن عمه ـ وعاد الحسين ومعه المعدّل إلى بخارى، قال: ولما استولى على سجستان سار سُبُكرى من فارس إليها على طريق المفازة، فسيّر إليه أحمد جيشًا فأخذوه أسيرًا واستولى على عسكره، وكتب الأمير أحمد بذلك إلى المقتدر بالله فشكره، وأمره أن يحمل السُبُكرى ومحمد بن علي بن الليث إلى بغداد، فسيّرهما فأُدخلا مشهورَيْن على فيلَيْن، وأعاد المقتدر رسل أحمد بالتحف والهدايا.

(١) سجستان: بكسر أوله وثانيه، وسين أخرى مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة.

ثم خالف أهل سجستان على الأمير أحمد

في سنة ثلاثمائة، وسبب ذلك أن محمد بن هرمز المعروف بالمولى الصَّنْدليّ كان خارجيّ المذهب، وأقام ببخارى وهو من أهل سجستان وكان شيخًا كبيرًا، فجاء يومًا إلى الحسين بن علي العارض يطلب رزقه، فقال له: إن الأصلح لمثلك من الشيوخ أن يلزم رباطًا[1]، يعبد الله فيه حتى يوافيه أجله، فغاظه ذلك وانصرف إلى سجستان، فاستمال جماعة من الخوارج، وكان رئيسهم محمد بن العبّاس المعروف بابن الحفّار، ودعا لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفّار، فقبضوا على منصور بن إسحاق وحبسوه وخطبوا لعمرو وسلّموا إليه سجستان، فلما بلغ الخبر الأمير أحمد سيّر الجيوش مع الحسين بن علي فحصرها تسعة أشهر، فصعد يومًا محمد بن هرمز الصَّنْدلي إلى السور، وقال: ما حاجتكم إلى أذى شيخ كبير لا يصلح إلا للزوم رباط؟ ثم مات الصندليّ فاستأمن عمرو بن يعقوب الصفار وابن الحفّار إلى الحسين، وأطلقوا منصور بن إسحاق، وكان الحسين يكرم ابن الحفّار ويقرّبه، فواطأ ابن الحفّار جماعة على الفتك بالحسين، فبلغ الحسين ذلك فقبض عليه وأخذه معه إلى بخارى، واستعمل الأمير أحمد على سجستان سيمْجُور الدَّواتِي، فتوجّه إلى سجستان واستصحب معه عمرو بن يعقوب وابن الحفّار، فتوفي ابن الحفّار.

ذكر مقتل الأمير أحمد وولاية ابنه نصر

وفي سنة إحدى وثلاثمائة خرج الأمير أحمد إلى الصيد، وكان له أسد يُربط على باب مبيته في كل ليلة، فلما كان في ليلة قتله أغفل الغلمان إحضار الأسد، فدخل إليه نفر من غلمانه فذبحوه على سريره وذلك في ليلة الخميس لسبع بقين من جُمادى الآخرة، فحمل إلى بخارى فدفن بها وقُتل بعض أولئك الغلمان، ولُقّب بعد موته بالشهيد وكانت مدة ولايته ست سنين وأربعة أشهر وأيامًا.

ووليّ بعده ابنه:

أبو الحسن نصر بن أحمد

وهو الرابع من الملوك السامانية. قال: ولما قتل والده كان عمره ثمانين سنين، فبايعه أصحاب والده وكان القائم ببيعته أحمد بن محمد بن الليث متولّي بُخارى،

(١) الرباط: ملجأ الفقراء من الصوفية.

فحمله على عاتقه فقال: أتريدون أن تقتلوني كما فعلتم بأبي، قالوا: لا وإنما نريد أن نضعك في موضع أبيك أميرًا، فسكن روعه، وبايعوا له ولقّب بالسعيد، فاستصغره الناس وظنّوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه ـ الأمير إسحاق، وقوّته وكونه شيخ السامانيّة وصاحب سمرقند، وميل الناس بما وراء النهر إليه وإلى أولاده، فكان الأمر بخلاف ما ظنّه الناس، وطالت مدّته ونافت على ثلاثين سنة.

قال: وتولّى تدبير دولته أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني، فأمضى الأُمور وضبط المملكة، واتّفق هو وحشم نصر بن أحمد على تدبير الأمر فأحكموه بالحضرة، وإنّما طمع أصحاب الأطراف في البلاد، وكان ممن خرج عن طاعته أهل سجستان، فانصرف عنها سيمجُور الدواتي فولاّها المقتدر بالله بدرًا الكبير.

ذكر خروج إسحاق بن أحمد وابنه إلياس

قال: ولما توفي الأمير أحمد وولّي ابنه نصر خالف عليه عم أبيه الأمير إسحاق بن أحمد ـ وكان يلي سمرقند ـ وخالف ابنه إلياس، وقوي أمرهما، فسارا نحو بخارى فسار إليهم حمُّويه بن علي في عسكر كثيف، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم إسحاق إلى سمرقند، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثمائة، ثم عاد وجمع مرّة ثانية والتقوا فانهزم إسحاق ثانيًا، وتبعه حمُّويه إلى سمرقند فملكها قهرًا، واختفى إسحاق فشدّد عليه الطلب وضيّق عليه، فاستأْمن إلى حمُّويه فأمّنه وحمله إلى بُخارى، فأقام بها إلى أن مات. وأمّا ابنه إلياس فسار إلى فرغانة فكان بها إلى أن خرج في سنة ست عشرة.

ذكر مخالفة منصور بن إسحاق

وفي سنة اثنتين وثلاثمائة خالف منصور بن إسحاق بن أحمد، على الأمير نصر بن أحمد، ووافقه على ذلك الحسين بن علي المرْورُوذِي ومحمد بن حيْد، وكان سبب ذلك أن الحسين لمّا فتح سجستان في الدفعة الأُولى في أيام الأمير أحمد بن إسماعيل طمع أن يتولاّها، فولاّها منصور بن إسحاق، ثم افتتحها ثانيًا وظن أنه يتولاّها، فوليها سيْمجُور على ما قدّمناه، فاستوحش لذلك ونفر خاطره، وتحدّث مع منصور بن إسحاق في الموافقة والتعاضد بعد موت الأمير أحمد، على أن تكون إمارة خراسان لمنصور ويكون الحسين خليفته، فلمّا قتل الأمير أحمد كان منصور بنيسابور والحسين بهراة، فأظهر الحسين العصيان وسار إلى منصور بنيسابور، يحثه على ما اتّفقا عليه فوافقه منصور، وأظهر الخلاف وخطب لمنصور بنيسابور،

فتوجّه إليهما حمّويه بن علي من بُخارى في عسكر كثيف، فاتّفق وفاة منصور، فقيل سمّه الحسين، فلمّا قاربه حمّويه سار الحسين عن نيسابور إلى هراة وأقام بها، وكان محمد بن حيد يلي بُخارى مدة طويلة، ويسير منها إلى نيسابور في شغل يقوم به، فوردها ثم عاد منها بغير أمر، فكُتب إليه من بُخارى بالإنكار فخاف على نفسه، فعدل عن الطريق إلى الحسين بهراة فقوي به، وسار إلى نيسابور واستولى عليها، واستخلف بهراة أخاه منصور بن علي، فسُيّر إليه من بُخارى أحمد بن سهل لقتاله، فابتدأ أحمد بهراة فحصرها وأخذها، واستأمن إليه منصور بن علي، ثم سار أحمد بن سهل منها إلى نيسابور، وكان وصوله إليها في شهر ربيع الأوّل سنة ست وثلاثمائة، فنازل الحسين إلى أن انهزم أصحابه، فأسره ابنُ سهل وأقام بنيسابور، وكان ابن حيد بمرو فلمّا بلغه استيلاء أحمد بن سهل على نيسابور، وأسره للحسين بن علي سار إليه، فقبض عليه ابنُ سهل وأخذ ماله وسواده وسيّره والحسين إلى بُخارى فحبس الحسين بن علي ببُخارى إلى أن خلّصه أبو عبد الله الجيهاني، وسيّر ابن حيد إلى خوارزم[١] فمات بها، ثم اد الحسين بن علي بعد خلاصه إلى خدمة الأمير نصر بن أحمد. قال: ولما ظفر أحمد بن سهل بالحسين أقام بنيسابور واستولى عليها، وخالف على الأمير نصر وقطع خطبته، وسار من نيسابور إلى جرجان وبها قراتكين، فحاربه واستولى عليها وأخرجه عنها، ثم عاد إلى خراسان واستولى على مرو وبنى عليها سورًا وتحصّن بها، فأرسل الأمير نصر الجيوش مع حمّويه بن علي من بُخارى، فوافى مرو الروذ وأقام بنواحيها فلم يخرج إلهي أحمد بن سهل، فلمّا رأى حمّويه أنه لا يخرج إليه وأنه تحصّن بمرو شرع في إعمال الحيلة، وأمر جماعة من أصحابه بمكاتبة أحمد سرًا وإظهار الميل إليه، ودعوه إلى الخروج إليهم ليسلّموا حمّويه إليه، فأجابهم إلى ذلك وخرج إليه فالتقوا على مرحلة من مرو الروذ[٢]، في شهر رجب سنة سبع وثلاثمائة، فانهزم أصحاب أحمد وحارب هو حتى عجزت دابته فنزل عنها، واستأسر فأُخذ أسيرًا وأنفذه حمّويه إلى بُخارى فمات بها في ذي الحجة من السنة في الحبس.

---

(١) خوارزم: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة: خوارزم ليس اسمًا للمدينة وإنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم الجرجانية. . . (معجم البلدان).

(٢) مرو الروذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى. . . (معجم ياقوت).

ذكر خروج إلياس بن إسحاق بن أسد ثانيًا

قد ذكرنا أنه لما انهزم مع أبيه بفرغانة، فلما كان في سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة استعان بمحمد بن الحسين بن مت، وجمع طائفة من الترك فاجتمع معه ثلاثون ألف عنان، فقصد سمرقند، فسيّر إليه الأمير السعيد أبا عمرو محمد بن أسد في ألفين وخمسمائة رجل، فكمنوا خارج سمرقند في يوم ورود إلياس إليها، فاشتغل هو ومن معه بالنزول فخرج عليهم الكمين من بين الشجر، ووضعوا فيهم السيف فانهزم إلياس وأصحابه، فوصل إلياس إلى فرغانة ووصل ابن مت إلى طراز، فقبض عليه دهقان[١] الناحية وقتله وأنفذ رأسه إلى بُخارى، ثم عاد إلياس فخرج مرّة ثالثة، وأعانه أبو الفضل بن أبي يوسف صاحب الشاش، فسيّر إليه السعيد، محمد بن اليسع فحاربهم، فانهزم إلياس إلى كاشغر[٢] وأسر أبو الفضل وحُمل إلى بُخارى فمات بها، وصار إلياس إلى دهقان كاشغر طغانتكين واستقرّ بها.

ثم ولّي محمد بن المظفّر فرغانة فرجع إلياس بن إسحاق إليها، فحاربه فهزمه مرة أُخرى فعاد إلى كاشغر، فكاتبه محمد بن المظفّر واستماله ولطف به فحضر إلى بُخارى، فأكرمه السعيد وصاهره فأقام عنده.

ذكر استيلاء السعيد على الريّ

وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة كتب المقتدر بالله إلى الأمير السعيد بولاية الريّ، وأمره أن يقصدها ويأخذها من غلام يوسف بن أبي الساج فسار إليها واستولى عليها وأخرج فاتك عنها في جُمادى الآخرة، وأقام بها شهرين، وولّى عليها سيمجور الدواني وعاد إلى بُخارى، ثم استعمل عليها محمد بن صعلوك فوصل إليها وأقام بها إلى أوائل شعبان من السنة، فمرض فكاتب الحسن الداعي وما كان في القدوم عليه ليسلّم الريّ لهما، فقدما وتسلّما الريّ، وسار عنها وبلغ الدامغان.

---

(١) الدهقان: رئيس القرية، أو هو رئيس الإقليم.

(٢) كاشغر: هي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون. . . (معجم البلدان).

ذكر مخالفة جعفر بن أبي جعفر بن أبي داود وعوده

كان جعفر مقيمًا بالخُتَّل[١] واليًا عليها للسامانيّة، فبدت منه أُمور نسب فيها للتقصير، فكوتب أبو علي أحمد بن محمد بن المظفّر بقصده، فسار إليه وحاربه وقبض عليه وحمله إلى بُخارى، فحبس بها إلى أن خالف أبو زكريا على الأمير السعيد فأخرجه وصحبه، ثم استأذنه في العود إلى ولاية الختّل فأذن له، فسار إليها وتمسّك بطاعة الأمير السعيد، وذلك في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة.

ذكر خروج أبي زكريا وأخويه ببخارى

وفي سنة ثماني عشرة وثلاثمائة خرج أبو زكريا يحيى وأبو صالح منصور وأبو إسحاق إبراهيم ـ أولاد أحمد بن إسماعيل الساماني، على أخيهم السعيد نصر بن أحمد، وكان سبب ذلك أن أخاهم كان قد حبسهم في القهنْدُز[٢] ببخارى، ووكل بهم من يحفظهم فتخلّصوا منه، وسبب خلاصهم أن رجلاً يعرف بأبي بكر الخبّاز الأصفهاني كان يقول ـ إذا جرى ذكر السعيد نصر ـ: إن له مني يومًا طويل البلاء والعناء، فكان الناس يضحكون منه، فخرج السعيد إلى نيسابور واستخلف على بخارى أبا العباس الكَوْسج، وكانت وظيفة إخوته تحمل إليهم من عند هذا الخبّاز وهم في السجن، فسعى لهم مع جماعة من أهل العسكر فأجابوه إلى ذلك، فأعلمهم بما فعل، فلما سار السعيد عن بُخارى تواعد هؤلاء للاجتماع بباب القهندز في يوم جمعة، وكان الرسم ألاّ يفتح باب القهندز في يوم الجمعة إلا بعد العصر، فلما كان يوم الخميس دخل أبو بكر الخبّاز إلى القهندز وبات فيه، وجاء من الغد إلى الباب وأظهر الزهد للبوّاب، وسأله أن يفتح له لئلا تفوته صلاة الجمعة أعطاه خمسة دنانير، فلما فتح الباب صاح الخبّاز بمن واعدهم، فوثبوا بالبوّاب وقبضوا عليه وخرج إخوة السعيد وجميع من في الحبس من الديلم والعلويين والعيّارين، واجتمعوا إليهم من كان قد وافقهم من العسكر، ورئيسهم شيروين الجيلي وغيره من القوّاد، فعظمت شوكتهم ونهبوا خزائن السعيد ودوره واختص يحيى بن أحمد بأبي بكر الخبّاز وقرّبه وقدّمه

(١) الختل: بضم أوله، وتشديد ثانيه وفتحه: كورة واسعة كثيرة المدن، منهم من ينسبها إلى بلخ وذاك خطأ لأنها خلف جيحون وإضافتها إلى هيطل، وهو ما وراء النهر، أوجب، وهي أجل من صغانيان، وأوسع خطة وأكبر مدنًا وأكثر خيرًا. . . (معجم البلدان).

(٢) القهندز: هو في الأصل اسم الحصن أو القلعة في وسط المدينة. . وهو تعريب كهندز معناه القلعة العتيقة.

وجعله من قوّاده، وبلغ السعيد هذا الخبر فسار من نيسابور إلى بُخارى، فوكل يحيى بالنهر أبا بكر الخبّاز ليمنع السعيد من عبوره، فظفر السعيد به وأخذه أسيرًا، وعبر النهر إلى بخارى وبالغ في تعذيب الخبّاز، ثم أحرقه في التنّور الذي كان يخبز فيه، وسار يحيى من بُخارى إلى سمرقند ثم خرج منها، وبقي يكرر الدخول إلى البلاد والسعيد في طلبه، واستمرت هذه الفتنة ثائرة إلى سنة عشرين وثلاثمائة، فأنفذ السعيد الأمان إلى أخيه يحيى فجاء إليه هو وأخوه منصور، وزالت الفتنة وسكن الشر، وأما إبراهيم فإنه هرب إلى بغداد ثم إلى الموصل.

ذكر ولاية محمد بن المظفر خراسان

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة استعمل الأمير نصر بن أحمد، أبا بكر محمد بن المظفّر بن محتاج على جيوش خراسان، ورد إليه تدبير الأمور بنواحيها جميعًا، وكان سبب تقدّم محمد عنده أنه كان يومًا بين يدي السعيد ـ وهو يحادثه في بعض مهماته ـ فلسعته عقرب في إحدى رجليه عدّة دفعات، ولم يتحرّك ولا ظهر عليه أثر ذلك، فلما فرغ من حديثه وعاد إلى منزلة نزع خفّه وقتل العقرب، فاتصل الخبر بالأمير السعيد فأعجب به، وقال له: ما عجبت إلا من فراغ بالك لتدبير ما قلته لك! فهلاً قمت وأزلتها!! فقال: ما كنت لأقطع حديث الأمير بسبب عقرب، وإذا لم أصبر بين يديك على لسعة عقرب، فكيف أصبر ـ عند البعد منك ـ على حدّ سيوف أعداء دولتك، إذا دفعتهم عن مملكتك؟ فعظم محلّه عنده وأعطاه مائتي ألف درهم، ثم استعمله على خراسان فأقام واليًا عليها إلى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، فاستقدمه واستعمل ابنه أبا علي أحمد بن محمد، وكان سبب ذلك أن أبا بكر مرض مرضًا شديدًا فعزله واستعمل ابنه في شهر رمضان، فأقام بها ثلاثة أشهر وهو يتجهّز ويستعد، وسار في المحرم سنة ثمان وعشرين إلى جرجان فاستولى عليها وأخذها من ماكان بن كالي، لأن ماكان كان قد خلع طاعة السعيد بعد أن حاصرها أبو عليّ بقية السنة، واستخلف إبراهيم بن سيمجور الدواتي، ثم استولى أبو علي على الريّ في سنة تسع وعشرين، ثم استولى على بلد الجبل زَنْكان وأبْهَر وقزوين وقُمّ وكَرج[1] وهمذان ونهاوند والدِّينَور إلى حدود حلوان، وذلك في سنة ثلاثين، ورتّب فيها العمال وجبى أموالها، ورحل إلى جرجان في سنة إحدى وثلاثين في جُمادى الآخرة، فأتاه الخبر بوفاة السعيد فسار إلى خراسان.

(١) كرج: بفتح أوله وثانيه، وآخره جيم: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة. . . (معجم البلدان).

ذكر وفاة الأمير السعيد نصر بن أحمد وشيء من سيرته

كانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، وكانت علّته السل فأقام به ثلاثة عشر شهرًا، ولم يكن قد بقي من مشايخ دولتهم أحد، وكانت ولايته ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يومًا، وعمره ثمانيًا وثلاثين سنة.

وكان عالمًا ذا حلم وكرم وعقل، ومن مكارمه ولين جانبه أن بعض الخدم سرق جوهرًا نفيسًا، وباعه على بعض التجّار بثلاثة عشر ألف درهم، فحضر التاجر عند السعيد وأعلمه أنّه اشترى جوهرًا نفيسًا لا يصلح إلا للسلطان، وأحضر الجوهر فحين رآه السعيد عرفه، فسأل عن ثمنه ومن أين اشتراه، فذكر الخادم والثمن فأربحه ألفي درهم، ثم سأله التاجر في دم الخادم فقال: لا بدّ من أدبه، وأما دمه فهو لك، فأحضره وأدّبه ثم أنفذه إلى التاجر، وقال: كنّا وهبنا لك دمه، وقد أنفذناه إليك. وحكي عنه أنّه لما خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهبت خزائنه وأمواله، فلما عاد السعيد إلى ملكه قيل له عن جماعة انتهبوا أمواله فلم يتعرض إليهم؛ وأخبر أن بعض السوقة اشترى منها سكينًا نفيسًا بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه الثمن فأبى أن يبيع السكين إلا بألف درهم، فقال السعيد: ألا تَعجبون من هذا الرجل! أرى عنده ما لي فلم أعاتبه وأعطيه حقّه فيشتط في الطلب! ثم أمر بإرضائه.

ولما طال مرضه أقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له بيتًا وسمّاه ببيت العبادة، فكان يلبس ثيابًا نظافًا ويمشي إليه حافيًا ويصلّي ويدعو ويتضرّع، ولما مات دفن عند قبر والده رحمهما الله.

وولّي بعده الأمير:

نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد وهو الخامس من الملوك السامانية

قال: بويع له بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ولقب الأمير الحميد، وفوّض أمر تدبير دولته وملكه إلى أبي الفضل محمد بن أحمد الحاكم، وصدر عن رأيه، ولما هرب منه أبو الفضل بن أحمد بن حمُّويه ـ وهو من أكابر أصحاب أبيه ـ فأمّنه وأعاده وأحسن إليه، وولاه سمرقند.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة خالف عبد الله بن أشكام على الأمير نوح، وامتنع بخوارزم، فسار نوح من بخارى إلى مرو بسببه وسيّر إليه جيشًا وجعل عليهم إبراهيم بن بارس، فمات إبراهيم في الطريق، وكاتب ابن اشكام ملك الترك واحتمى به وكان لملك الترك ولد عند نوح في اعتقاله ببخارى، فراسل نوح أباه في إطلاقه ليقبض على ابن اشكام، فأجاب ملك الترك إلى ذلك، فلما علم ابن اشكام بذلك عاد إلى الطاعة، وفارق خوارزم فعفا عنه نوح وأكرمه.

ذكر مخالفة أبي علي بن محتاج على الأمير الحميد

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة خالف أبو علي بن محتاج على الأمير الحميد نوح، وسبب ذلك أنه كان قد جهّزه للمسير إلى الريّ فأنفذ إليه عارضًا يستعرض العسكر، فأسقط العارض جماعة منهم وأساء على أبي عليّ، فنفرت قلوب الجند وساروا وهم كذلك، وانضاف إلى ذلك أن نوحًا أنفذ معه من يتولّى أعمال الديوان، وجعل إليه الحل والعقد والإطلاق، بعد أن كان جميع ذلك أيام السعيد لأبي عليّ، فازداد قلبه نفورًا لذلك، ثم عزله عن خراسان واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور، ثم إن المتولّي أساء إلى الجند في أرزاقهم فنفروا وشكا بعضهم إلى بعض، وهم إذ ذاك بهمذان، فاتفق رأيهم على مكاتبة الأمير إبراهيم بن أحمد، عمّ الأمير نوح، وكان كما قدّمناه في خدمة الأمير ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، فأظهروا أبا عليّ على ذلك فنهاهم عنه، فتواعدوه بالقبض عليه إن خالفهم، فأجابهم إلى ما طلبوه وكاتبوا إبراهيم، فحضر إليهم في شهر رمضان في تسعين فارسًا وساروا في شوّال في خدمته إلى الريّ، فلما وصلوا إليها اطلع أبو عليّ أن أخاه الفضل كتب إلى الأمير نوح بخبره، فقبض عليه وعلى المتولّي الذي أساء إلى الجند، وسار إلى نيسابور واستخلف نوّابه على الجبل والريّ، واتصل الخبر بالأمير نوح فسار من بُخارى إلى مرو، وكان الجند قد ضجروا من محمد بن أحمد الحاكم، مدبّر دولة نوح، لسوء سيرته فيهم، فقالوا لنوح: إنّ الحاكم قد أفسد عليك الأمور بخراسان، وأحوج أبا عليّ بن محتاج إلى العصيان، وطلبوا تسليمه إليهم وإلاّ ساروا إلى عمّه إبراهيم، فسلّمه إليهم فقتلوه في جُمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

ولما وصل أبو عليّ إلى نيسابور كان بها إبراهيم بن سيمجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القوّاد، واستمالهم فمالوا إليه وصاروا معه، ودخل نيسابور في

سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، ثم ظهر له من منصور بن قراتكين ما كرهه فقبض عليه، ثم سار أبو عليّ وإبراهيم من نيسابور في شهر ربيع الأوّل من السنة إلى مرو، وبها الأمير نوح، فهرب الفضل أخو أبي عليّ من محبسه إلى قوهستان(١)، ولمّا قارب أبو عليّ مرو انحاز إليه كثير من عسكر نوح، فسار نوح إلى بُخارى واستولى أبو عليّ على مرو في جُمادى الأولى سنة خمس وثلاثين، وأتاه أكثر أجناد نوح فسار نحو بُخارى، وعبر النهر ففارقها نوح وسار إلى سمرقند، ودخلها أبو عليّ في جُمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وخطب فيها لإبراهيم وبايع له، ثم إنّ أبا عليّ اطلع على أنّ إبراهيم أضمر له شرًا، فسار إلى تركستان وبقي إبراهيم ببُخارى، وفي خلال ذلك أطلق أبو عليّ، منصور بن قراتكين، فسار إلى الأمير نوح، ثم إنّ إبراهيم وافق جماعة في السرّ على أن يخلع نفسه من الأمر، ويردّه إلى ابن أخيه الأمير نوح، ويكون هو صاحب جيشه، ويتفق معه على قصد أبي عليّ، ودعا إلى ذلك فأجابوه وخرجوا إلى أبي عليّ، وقد تفرّق عنه أصحابه، فركب إليهم وردّهم أقبح ردّ، ثم فارق إبراهيم ومن معه بخارى وخرجوا إلى سمرقند إلى خدمة الأمير نوح، وأظهروا الندم على ما كان منهم فقرّبهم وقبلهم وعذرهم، وعاد إلى بُخارى في شهر رمضان، ثم قتل الأمير نوح في تلك الأيام طغان الحاجب، وسمل عمّه إبراهيم وأخويه أبا جعفر محمدًا وأحمد، وعادت الجيوش والعساكر اجتمعت عليه. أما الفضل بن محمد أخو أبي عليّ فإنّه لما هرب من أخيه لحق بقوهستان وجمع جمعًا كثيرًا وسار نحو نيسابور، وبها محمد بن عبد الرزّاق من قبل أبي عليّ، فخرج إلى الفضل وتحاربا فانهزم الفضل ومعه فارس واحد، فلحق ببُخارى فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه وأقام في خدمته.

ذكر استعمال منصور بن قراتكين على خراسان

قال: ولما عاد الأمير نوح إلى بُخارى كان أبو عليّ بالصغانيان، وبمرو أبو أحمد محمد بن علي القزويني، فرأى الأمير نوح أن يجعل منصور بن قراتكين على جيوش خراسان، فولاّه وسيّره إلى مرو، وبها أبو أحمد وقد غوّر المناهل ما بين آمل ومرو، ووافق أبا عليّ ثم تخلّى عنه، فسار منصور جريدة في ألفي فارس، فلم يشعر

(١) قوهستان: بضم أوله، ثم السكون، ثم كسر الهاء، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: مدينة بكرمان قرب جيرفت بينها وبين جبال البلوص والقفص وفيها نخل كثير.. وبها قهندز أي قلعة.

به إلا وقد نزل بكُشماهِن[(١)]، على خمسة فراسخ من مرو، فاستقبله أبو أحمد القزويني بالطاعة، فأكرمه وسيّره إلى بُخارى بماله وأصحابه، فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه، ثم ذكر له ذنوبه وقتله.

ثم كانت بعد ذلك حروب بين عسكر الأمير نوح وأبي عليّ، استمرت إلى جُمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فراسل بعد ذلك في الصلح؛ وسيّر أبو عليّ ابنه عبد الله رهينة فوصل إلى بُخارى، فأمر الأمير نوح باستقباله وأكرمه وأحسن إليه، وخلع عليه قلنسوة وجعله في ندمائه، فزال الخلف، واستمرّ أبو عليّ بالصغانيان إلى سنة أربعين.

ذكر عود أبي علي إلى خراسان

وفي سنة أربعين أعيد إلى قيادة الجيوش بخراسان، وذلك بعد وفاة منصور بن قراتكين، فأرسل إليه الأمير نوح الخلع واللواء، وأمره بالمسير إلى نيسابور وأقطعه الريّ، فسار عن الصغانيان واستخلف مكانه ابنه أبا منصور، ثم خالف على الأمير نوح في سنة اثنتين وأربعين فعزله، فكتب إلى ركن الدولة بن بُويه في المصير إليه، فأذن له في ذلك فسار إليه فأكرمه ركن الدولة، فسأله أن يكتب له عهدًا من جهة الخليفة بولاية خراسان، فأرسل ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة في ذلك، فسيّر له عهدًا بما طلب وسيّر له نجدة، فسار أبو عليّ إلى خراسان واستولى على نيسابور، وخطب بها ـ وفيما استولى عليه من خراسان ـ للمطيع، ولم يُخطب له بها قبل ذلك.

ذكر وفاة الأمير الحميد نوح بن نصر ولاية ابنه عبد الملك

كانت وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، وكان رحمه الله تعالى حسن السيرة كريم الأخلاق، ولما مات ملك بعده ولده.

---

(١) في معجم ياقوت: كشمهين: بالضم ثم السكون، وفتح الميم، وياء ساكنة، وهاء مفتوحة، ونون: قرية كانت عظيمة من قرى مرو على طرف البرية.

ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل ابن أحمد وهو السادس من الملوك السامانية

كانت ولاية عبد الملك بما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه الأمير نوح بن نصر، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين.

قال: ولما استقرّ حاله في الملك وثبت أمره ابتدأ بإرسال بكر بن مالك من بُخارى إلى خراسان، وولاّه قيادة جيوشها، وأمره بإخراج أبي عليّ بن محتاج منها وندب معه العساكر، فسار إلى نيسابور فلمّا قاربها تفرّق عن أبي عليّ أصحابه وعساكره، وبقي معه من أصحابه نحو من مائتي رجل، سوى من كان عنده نجدة من الديلم، فاضطر إلى الهرب فسار نحو ركن الدولة، فأنزله معه في الريّ واستولى ابن مالك على خراسان، وأقام بنيسابور، وكان بين عساكره وبين بني بُويه حروب، ثم حصل بينهما الصلح والاتفاق، ودامت أيام عبد الملك إلى سنة خمسين وثلاثمائة، فركب في يوم الخميس حادي عشر شوّال منها فسقط الفرس من تحته، فوقع إلى الأرض فمات، وكانت مدة ملكه سبع سنين وستةَ أشهر تقريبًا، ولما مات، ولّي بعده أخوه.

ذكر ولاية منصور بن نوح بن نصر بن أحمد وهو السابع من الملوك السامانية

كانت ولايته بعد وفاة أخيه عبد الملك لإحدى عشرة ليلة خلت من شوّال سنة خمسين وثلاثمائة، وخالف عليه في سنة إحدى وخمسين الفتكين، وهو من أكابر القوّاد، وكان قد طلبه الأمير منصور فامتنع من الحضور، فأرسل إليه جيشًا فهزمهم الفتكين، وأسر وجوه القوّاد وأظهر العصيان والمخالفة.

ذكر الصلح بين الأمير منصور وبين بني بويه

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة تمّ الصلح بين الأمير منصور بن نوح وبين ركن الدولة وعضد الدولة بني بويه، على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه في كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وتزوج الأمير منصور بابنة عضد الدولة، وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لم يُر مثله، وكتب بينهم كتاب صلح شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق، وكان الذي سعى في الصلح وقرّره محمد بن إبراهيم بن سيمجور صاحب جيوش خراسان من جهة الأمير منصور.

ذكر وفاة الأمير منصور

كانت وفاته ببُخارى في منتصف شوّال سنة ست وستين وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه ست عشرة سنة وأربعة أيام، ولما مات ولّي بعده ابنه.

ذكر ولاية المنصور
أبي القاسم نوح بن منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد، وهو الثامن من الملوك السامانية

ملك ما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه في منتصف شوّال سنة ست وستين وثلاثمائة ولقب بالمنصور، واستوزر أبا الحسن العُتْبي فقام في حفظ الدّولة المقام المرضي، وعزل محمد بن إبراهيم بن سيمجور عن قيادة جيوش خراسان لأنّه كان قد استوطنها، وبقي لا يطيع إلا فيما يختار فعزله في سنة سبعين، واستعمل عوضه حسام الدولة أبا العبّاس تاش، ثم قتل الوزير في سنة اثنتين وسبعين، وسبب قتله أن أبا الحسن بن سيمجور وضع عليه جماعة من المماليك فقتلوه، فكتب الأمير المنصور نوح إلى حسام الدولة تاش يستدعيه إلى بُخارى لتدبير الدولة، فسار عن نيسابور إليها وقتل من ظفر به من قتلة الوزير.

وفي سنة اثنتين وسبعين سار محمد بن سيمجور نحو خراسان عند خلوّها من حسام الدولة، وكاتب فايقًا وطلب موافقته على الاستيلاء على خراسان، فوافقه واجتمعا بنيسابور، واتصل الخبر بحسام الدولة فسار عن بُخارى إلى مرو في جمع كبير، وتردّدت الرسائل بينهم فاصطلحوا: على أن تكون نيسابور وقيادة الجيوش لأبي العبّاس حسام الدولة تاش، وتكون بلخ لفايق، وهراة لأبي عليّ بن أبي الحسن بن سيمجور، وتفرّقوا على ذلك وقصد كل منهم عمله.

ولمّا عاد أبو العبّاس إلى نيسابور وترك بخارى استوزر الأمير نوح، عبد الله بن عزير وكان ضدًا لأبي الحسين العتبي، فلما ولّي الوزارة ابتدأ بعزل حسام الدولة عن خراسان، وأعاد ابن سيمجور إليها، فكتب القوّاد بخراسان يسألونه أن يقرّ حسام الدولة عليها فلم يجبهم فكتب حسام الدولة إلى فخر الدولة بن بويه يستمدّه، فأمدّه بالأموال والعساكر، وكانت بينهم حروب انتصر فيها حسام الدولة، واستولى على خراسان وأقام بنيسابور، وانهزم ابن سيمجور ثم تراجع أصحاب ابن سيمجور إليه، وجاءته الأمداد من بُخارى وعاد لقتال حسام الدولة، والتقوا واقتتلوا نهارًا كاملًا انتصر

فيه ابن سيمجور، وانهزم حسام الدولة وأصحابه وأقام بجرجان، ولم يصل إلى خراسان إلى أن مات في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وأقام ابن سيمجور بخراسان إلى أن توفي فجأة وهو يجامع بعض خطاياه.

وفي سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة سار بُغْراجَان إيلك ملك الترك بعساكره إلى بُخارى، فسيّر إليه الأمير نوح جيشًا كثيفًا فهزمهم بُغْراخَان، فعادوا إلى بُخارى وهو في آثارهم، فخرج نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت الهزيمة على بُغْراخان، فعاد إلى بلاَسَاغُون[١] وهي كرسي ملكه.

ذكر ملك الترك بُخارى وشيء من أخبارهم وخروج الأمير نوح منها وعوده إليها

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ملك شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي مدينة بُخارى، وكان له كَاشْغَر وبلاَساغُون وخُتَن[٢] وطَراز[٣] وغير ذلك إلى حدود الصين، وله عساكر جمّة وهم مسلمون، وكان سبب إسلامهم أن جدّهم الأول شبق قراخَاقَان رأى في منامه كأنّ رجلاً نزل من السماء، فقال له بالتركية ما معناه: اسلم تسلم في الدنيا والآخرة، فأسلم في منامه، وأصبح فأظهر إسلامه، فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق، ثم انتهى ملك هذه الطائفة من الترك إلى بُغْراخان، وكنّا قصدنا أن نفرد هذه الدولة الخانيّة بترجمة، ونذكر من ملك منهم وما استولوا عليه من البلاد وغير ذلك، فلم نظفر بمؤرخ ذكر أخبارهم سياقة ولا متفرّقة، إذا جُمعت انتظمت على سياقة، فلذلك دمجنا أخبارهم في أثناء الدول بحسب وقائعهم مع الملوك، وما أظن أخبارهم اتّسقت لمؤرخ لأن أخبار الملوك والدول إنما يعتني بجمعها كتّاب الإنشاء والفضلاء من الناس، وهؤلاء كانوا أتراكًا لا كتّاب لهم ولا اعتناء بشيء من ذلك، فلذلك انقطعت أخبارهم.

---

(١) بلاساغون: السين مهملة، والغين معجمة: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر؛ ينسب إليه جماعة... (معجم البلدان).

(٢) ختن: بضم أوله وفتح ثانيه، وآخره نون: بلد وولاية دون كل شغر ووراء يوزكند، وهي معدودة من بلاد تركستان، وهي في واد بين جبال في وسط بلاد الترك... (معجم البلدان).

(٣) طراز: بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك وهو قريب من طرازبند، وقد نسب إليه قوم من العلماء... وطراز أيضًا: محلة بأصبهان نسب إليها أيضًا... (معجم ياقوت).

ولنرجع إلى سبب مُلك بُغراخان بُخارى. كان سبب ذلك أن أبا الحسن بن سيمجور عامل خراسان - لمّا مات - ولّى ابنه أبو علي بعده وكاتب الأمير الرضي نوحًا أن يقرّه على ما كان بيد أبيه، فأجيب إلى ذلك، وحُملت إليه الخلع وهو لا يشك أنّها له، فلما بلغ الرسول طريق هراة عدل إليها وبها فايق، فأوصل إليه العهد بولاية خراسان والخلع إليه، فعلم أبو عليّ أنّهم مكروا به، وأنّ هذا دليل سوء يريدونه به، فلبس فايق الخلع وسار عن هراة نحو أبي عليّ، فبلغه الخبر فسار جريدة في نخبة أصحابه، وطوى المنازل حتى سبق خبره، وأوقع بفايق بين هراة وبوشنج[1]، فانهزم فايق وأصحابه إلى مرو الروذ، وكتب أبو عليّ إلى الأمير نوح يجدّد طلب ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك وجمع له ولاية خراسان جميعها بعد أن كانت هراة لفايق، وعاد أبو علي إلى نيسابور ظافرًا وجبى أموال خراسان، فكتب إليه نوح يستتر له عن بعضها ليصرفه في أرزاق الجند، فاعتذر إليه ولم يفعل وخاف عاقبة المنع فكتب إلى بُغْراخان يدعوه إلى قصد بُخارى، واستقرّ الأمر بينهما على أن يكون لبغراخان ما وراء النهر جميعه، ولأبي عليّ خراسان، فطمع بغراخان في البلاد وتجدّدت حركته إليها.

وأما فايق فإنّه أقام بمرو الروذ حتى اجتمع إليه أصحابه، وسار نحو بُخارى من غير إذن، فارتاب الأمير نوح به وسيّر الجيوش وأمرهم بمنعه، فقاتلوه وهزموه فعاد وقصد ترمذ[2]، وكاتب بغراخان أيضًا يطمعه في البلاد، فسار نحو بُخارى واستولى على بلاد السامانيّة شيئًا بعد شيء، فسيّر إليه نوح جيشًا واستعمل عليهم قائدًا كبيرًا من قوّاده اسمه انجْ، فهزمهم بغراخان وأسرانج وجماعة من القوّاد، فلما ظفر بهم قوي طمعه في البلاد، وضعف نوح وأصحابه وكاتب أبا عليّ بن سيمجور يستنصره، ويأمره بالقدوم إليه بالعساكر فلم يجبه إلى ذلك ولا لبّى دعوته، وطمع في الاستيلاء على خراسان، وسار بغراخان نحو بُخارى فلقيه فايق واختص به وصار في جملة أصحابه، ونازلوا بخارى فاختفى الأمير نوح وملكها بغراخان ونزلها، وخرج نوح منها مستخفيًا فعبر النهر إلى آمل الشط، وأقام بها ولحق به أصحابه، وتابع نوح كتبه ورسله إلى أبي عليّ يستنجده ويخضع له، فلم يصغ إلى ذلك؛ وأما فايق فإنّه استأذن بغراخان في قصد بلخ والاستيلاء عليها فأمره بذلك، فسار نحوها واستولى عليها.

(١) بوشنج: بفتح الشين، وسكون النون، وجيم: بليدة نزهة خصيبة في واد مشجر من نواحي هراة، بينهما عشرة فراسخ. . . (معجم ياقوت).

(٢) ترمذ: بالفتح ثم السكون، وضم الميم، والدال مهملة: موضع في بلاد بني أسد أقطعه النبيّ ﷺ حصين بن نضلة الأسدي. . . (معجم البلدان).

ذكر عود نوح إلى بُخارى ووفاة بُغراخان وقيام إيليك الخان

قال: ولما نزل بغراخان ببُخارى استوخمها فمرض واشتدّ مرضه، فانتقل نحو بلاد الترك، ولمّا فارق بُخارى ثار أهلها بساقة عسكره، فقتلوا منهم وغنموا أموالهم، ووافقهم الأتراك الغزيّة على الفتك والنهب لعسكر بُغراخان، وبادر الأمير نوح بالعود إلى بُخارى فيمن معه من أصحابه، فدخلها وعاد إلى دار ملكه وتباشر أهلها به، ومات بُغراخان وعاد أصحابه إلى بلادهم، وكان بُغراخان ديّنًا خيرًا عادلاً حسن السيرة محبًا للعلماء وأهل الدين مكرمًا لهم، وكان يحب أن يكتب عنه مولى رسول الله ﷺ، وولّي بعده أمر الترك ايليك الخان شمس الدولة أبو نصر أحمد بن علي.

ذكر ما كان من أخبار أبي عليّ بن سيمجور وفايق واستعمال محمود بن سبكتكين على خراسان

قال: ولما عاد الأمير نوح إلى بُخارى أسقط في يد أبي عليّ بن سيمجور، وندم على ما فرط منه من ترك إعانته عند الحاجة إليه؛ وأما فايق فإنه لمّا استقرّ الأمير نوح ببُخارى حدّث نفسه بالمسير إليه والحكم في دولته، فسار عن بلخ إلى بُخارى فسيّر الأمير نوح الجيوش لردّه، فالتقوا واقتتلوا فانهزم فايق وأصحابه، ولحق بأبي عليّ بن سيمجور ففرح به وقوي جنانه، واتّفقا على مكاشفة الأمير نوح وإظهار العصيان، فكتب الأمير نوح إلى سبكتكين وهو يومئذ بغزنة[1]، يعرّفه الحال ويأمره بالمصير إليه لينجده وولاّه خراسان وكان سبكتكين في هذه الفتن مشغولاً بالغزو غير ملتفت إلى ما هم فيه، فلما أتاه الكتاب سار نحو جريدة، واجتمع به وقرّرا ما يفعلانه واتّفقا عليه، وعاد سبكتكين فجمع عسكره وحشد وسار عن غزنة، ومعه ولده محمود نحو خراسان، وسار نوح من بُخارى واجتمعا وقصدا أبا عليّ وفايقا، وقد جمعا عساكرهما أيضًا واستنصرا بفخر الدولة بن بويه، فسيّر إليهما عسكرًا كثيرًا، والتقوا بنواحي هراة واقتتلوا، فانحاز دارا بن قابوس بن وشْمكَير من عسكر أبي عليّ إلى عسكر نوح ومعه أصحابه، فانهزم أصحاب أبي عليّ وركبهم أصحاب سبكتكين يقتلون

(١) غزنة: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم نون: هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدًا... (معجم البلدان).

ويأسرون ويغنمون، وعاد أبو عليّ وفايق إلى خراسان وأقام الأمير نوح وسبكتكين بظاهر هراة، حتى أراحوا واستراحوا وساروا نحو نيسابور، فسار أبو عليّ وفايق نحو جرجان، واستولى نوح على نيسابور واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقّبه سيف الدولة ولقّب أباه ناصر الدولة، وعاد نوح إلى بُخارى وسبكتكين إلى هراة وذلك في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

وفي سنة خمس وثمانين في شهر ربيع الأول سار أبو عليّ وفايق عن جرجان إلى نيسابور، فكتب محمود إلى أبيه بذلك وبرز إلى ظاهر نيسابور، وأقام ينتظر المدد فأعجلاه فصبر لهما، فقاتلاه وهو في قلّة من الرجال فانهزم عنهما نحو أبيه، وغنما منه شيئًا كثيرًا ورجع أبو عليّ إلى نيسابور، وكتب إلى الأمير نوح يستميله ويستقيل من عثرته، وكاتب سبكتكين بمثل ذلك وأحال فيما جرى على فايق، فلم يجيباه إلى ما أراد، وجمع سبكتكين العساكر وسار نحو أبي عليّ فالتقوا بطوس في جُمادى الآخرة واقتتلوا عامّة يومهم، وأتاهم محمود بن سبكتكين في عسكر ضخم من ورائهم، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير، ونجا أبو عليّ وفايق إلى آمل الشط، فراسلا الأمير نوح يستعطفانه، فأجاب أبا عليّ إلى ما طلب وقبل عذره، إن فارق فايقًا ونزل بالجرجانية، ففعل ذلك فحذّره فايق وخوّفه مكرهم ومكيدتهم فلم يرجع إلى قوله، وفارقه وسار إلى الجرجانيّة ونزل بقرية بقرب خوارزم تسمى هزاراسب[1]، فأرسل إليه أبو عبد الله خُوارزْم شاه من أقام له ضيافة، ووعده أنه يقصده ليجتمع به فسكن إلى ذلك فلما كان الليل أرسل إليه خوارزم شاه جمعًا من عسكره، فأحاطوا به وأخذوه أسيرًا في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، فاعتقله في بعض دوره، وطلب أصحابه فأسر أعيانهم وتفرّق الباقون.

وأما فايق فإنه سار إلى إيليك الخان فأكرمه وعظّمه ووعده أن يعيده إلى قاعدته، وكتب إلى نوح يشفع فيه ويطلب منه أن يوليه سمرقند، فأجابه إلى ذلك وأقام بها؛ وأما ما كان من أبي عليّ بن سيمجور فإنه لمّا أسره خوارزم شاه بلغ خبره إلى مأمون بن محمد والي الجرجانية، فقلق لذلك وعبر إلى كاث[2] وهي مدينة

---

(١) هزارأسب: معناه بالفارسية ألف فرس: وهي قلعة حصينة ومدينة جيدة، الماء محيط بها كالجزيرة وليس إليها طريق واحد على ممر قد صنع من نواحي خوارزم بينها ثلاثة أيام... (معجم ياقوت).

(٢) كاث: ومعنى الكاث بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء، بلدة شرقي جيحون كبيرة من نواحي خوارزم.

خوارزم شاه فحصرها وفتحها عنوة، وأحضر أبا عليّ وفكّ قيده وعاد به إلى الجرجانية، واستخلف مأمون بعض أصحابه على بلد خوارزم شاه، وصارت من ملة ما بيده، وقتل خوارزم شاه بين يدي أبي عليّ بن سيمجور، وكتب مأمون إلى الأمير نوح وهو يشفع في أبي عليّ ويسأل الصفح عنه، فأجابه إلى ذلك وأمر أبو علي بالمسير إلى بُخارى، فسار إليها فيمن بقي معه من أهله وأصحابه، فلمّا بلغها لقيه الأُمراء والعساكر ودخل على الأمير نوح فأمر بالقبض عليه وعلى من معه، واعتقله فمات في حبسه في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ذكر وفاة الأمير نوح بن منصور

كانت وفاته في شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فكان مدة ملكه عشرين سنة وثمانية أشهر، فاختلّ بموته ملك آل ساسان وضعف أمرهم ضعفًا ظاهرًا، وطمع فيهم أصحاب الأطراف، وزال ملكهم بعد ذلك بمدّة يسيرة على ما نذكره إن شاء الله تعالى، فكأنّه المعنى بقول القائل:

وما كان قبيسٌ هلكهُ هلك واحد ولكنّهُ بنيان قوم تهدّما

ذكر ولاية أبي الحارث منصور بن نوح بن منصور ابن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد وهو التاسع من الملوك السامانية

ملك ما وراء النهر وخراسان بعد وفاة أبيه في شهر رجب سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وبايعه الأُمراء والقوّاد وسائر الناس، وفرّق فيهم بقايا الأموال فاتّفقوا على طاعته، وقام بأمر دولته وتدبيرها بكتُوزُون، ولما بلغ خبر وفاة أبيه إلى إيليك الخان سار إلى سمرقند وانضم إليه فايق والخاصة فسيّره جريدة إلى بُخارى، فلما سمع الأمير منصور بمسيره تحيّر في أمره وأعجله عن أن يتجهّز، فسار عن بُخارى وقطع النهر، ودخل فايق بُخارى وأظهر أنّه قصد القيام بخدمة الأمير منصور، رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليه مشايخ بُخارى في العودة إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق، فعاد إليها ودخلها وولّى فايق أمره، وحكمه في دولته، وولى بكتوزون أمر الجيش بخراسان، وكان محمود بن سبكتكين حينئذ مشغولاً بمحاربة أخيه إسماعيل، فسار بكتوزون إلى خراسان ووليها واستقرت قواعده بها.

ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وسمله

وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة اجتمع بكتوزون وفايق وتشاكيا ما هما فيه من قلة إنصاف الأمير لهما، فقبضا عليه وأمر بكتوزون من سمل عينيه، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وسبعة أشهر.

ذكر ولاية عبد الملك بن نوح بن منصور

قال: ولما قبضا على الأمير منصور وسملاه أقاما أخاه عبد الملك في الملك مقامه وهو صبيّ صغير، فأرسل محمود بن سبكتكين إلى فايق وبكتوزون يلومهما ويقبّح فعلهما، وقويت نفسه على لقائهما، وطمع في الملك والاستقلالِ به، وسار لقتالهم فسارا نحوه ومعهما عبد الملك، والتقوا واقتتلوا أشدّ قتال فانهزم السامانيّة، ولحق عبد الملك وفايق ببُخارى، وقصد بكتوزون نيسابور فاتبعته جيوش محمود حتى لحق بجرجان، وسار محمود إلى هراة فعاد بكتوزون إلى نيسابور وملكها، فقصده محمود فهرب إلى بُخارى بعد أن نهب مرو، واستقرّ ملك محمود بن سبكتكين بخراسان وخرجت عن ملك آل سامان.

ذكر انقراض الدولة السامانية

كان انقراضها في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة على يد محمود بن سبكتكين بخراسان وإيليك الخان بما وراء النهر. فأما محمود فإنه ملك خراسان كما ذكرناه، وأما إيليك الخان وهو شمس الدولة أبو نصر أحمد بن علي فإن عبد الملك ـ لما انهزم من محمود ـ بقي بيده ما وراء النهر، فقد بُخارى واجتمع بها هو وفايق وبكتوزون وغيرهما من الأُمراء والأكابر، فقويت نفوسهم وشرعوا في جمع العساكر، وعزموا على العود إلى خراسان، فاتفقت وفاة فايق في شعبان من السنة، فلما مات ضعفت نفوسهم ووهت قوّتهم، فإنه كان هو المشار إليه من بينهم، وكان خصيًا من موالي الأمير نوح بن نصر. قال: ولمّا اتصل الخبر بإيليك الخان سار في جميع الأتراك إلى بُخارى، وأظهر لعبد الملك المودّة والموالاة والحميّة له، فظنّوا صدقه فلم يحترسوا منه، وخرج إليه بكتوزون وغيره من الأُمراء والقوّاد، فلمّا حضروا عنده قبض عليهم، وسار حتى دخل بُخارى في يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة، فلم يدر عبد الملك ما يصنع لقلّة من معه فاختفى، ونزل إيليك الخان في دار الإمارة وبثّ العيون على عبد الملك، وشدّد في طلبه فظفر به فأودعه بايكند فمات بها، وهو آخر الملوك

السامانيّة، وانقرضت دولتهم على يده وحبس معه أخاه أبا الحارث منصور بن نوح، الذي كان في الملك قبله، وأخويه أبا إبراهيم إسماعيل وأبا يعقوب، وأعمامه أبا زكريا وأبا سليمان وغيرهم من آل سامان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة، وكانت دولتهم قد انتشرت من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر، وكانت من أحسن الدول سيرة وعدلاً، وعدّة من ملك منهم عشرة ملوك وهم: نصر بن أحمد بن أسد بن سامان، ثم أخوه إسماعيل بن أحمد، ثم ابنه أحمد بن إسماعيل، ثم ابنه نصر بن أحمد، ثم ابنه نوح بن نصر، ثم ابنه عبد الملك بن نوح، ثم أخوه منصور بن نوح، ثم ابنه نوح بن منصور، ثم ابنه منصور بن نوح، ثم أخوه عبد الملك بن نوح. ومدّة ملكهم منذ ولّي نصر بن أحمد بن أسد وإلى أن قبض على عبد الملك مائة سنة وتسع وعشرون سنة تقريبًا، ولم يقم لهم بعد ذلك دولة، وإنما ظهر إسماعيل بن نوح ولم يستقم له أمر ولا قامت له دولة، فلذلك لم نجعله في جملة ملوكهم، لأنه كان كالخارجي، ونحن الآن نذكر ظهوره وما كان من أمره.

ذكر ظهور إسماعيل بن نوح وما اتفق له بخراسان

وفي سنة تسعين وثلاثمائة خرج أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من محبسه، وكان السبب في ظهوره أنه كان له جارية تأتيه لخدمته ثم تنصرف، فجاءته في بعض الأيام على عادتها فلبس ما كان عليها، وخرج فظنّه الموكّلون به الجارية، ولما خرج استخفى عند عجوز من أهل بُخارى، إلى أن سكن الطلب عنه، فسار من بُخارى إلى خوارزم وتلقب المستنصر، واجتمع إليه بقايا القوّاد السامانية والجند فكثرت جموعه، فبعث قائدًا من قوّاده إلى بُخارى، فقاتل من بها من أصحاب إيليك الخان وهزمهم وتبعهم إلى حدود سمرقند، فاجتمع المنهزمون وعسكر سمرقند وقاتلوه فهزمهم أيضًا عسكر المستنصر، وغنموا أثقالهم فصلحت أحوالهم وعادوا إلى بُخارى، فاستبشر أهلها بعود السامانية، فجمع إيليك الخان الترك وقصد بُخارى، فانحاز من بها من السامانيّة وعبروا النهر إلى آمل الشط، فضاقت عليهم فساروا هم والمستنصر نحو أبيورد[(١)]، فملكوها وجبوا أموالها، وساروا نحو نيسابور وبها منصور بن سبكتكين نائبًا عن أخيه محمود، فاقتتلوا فانهزم ابن سبكتكين وملك المستنصر نيسابور وكثر جمعه، فاتصل الخبر بيمين الدولة محمود فجدّ في السير إليها فسار المستنصر عنها

---

(١) أبيورد: بفتح أوله وكسر ثانيه وياء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء ودال مهملة: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وبئة، رديئة الماء، يكثر فيها خروج العرق.

إلى أسفرايين[١]، فلما أزعجه الطلب سار إلى شمس المعالي قابوس بن وشمكير ملتجئًا إليه، فأكرمه وحمل إليه كثيرًا وأشار عليه بقصد الريّ، إذ كانت ليس لها مني ذبّ عنها، لاشتغال أصحابها باختلافهم، ووعده أن ينجده بعسكر مع أولاده، فسار نحو الريّ ونازلها فضعف من بها عن مقاومته، إلا أنهم حفظوا البلد، وبذلوا الأموال لأصحابه ليردّوه عنها، فردّوه وحسّنوا له العود إلى خراسان فسار نحو الدامغان، وعاد عنه عسكر قابوس، ووصل المستنصر إلى نيسابور في شوّال سنة إحدى وتسعين فجبى أموالها، فأرسل إليه يمين الدولة جيشًا فانهزم وسار نحو أبِيوَرْد، وقصد جرجان فردّه شمس المعالي عنها، فقصد سرخْس وجبى أموالها وسكنها، فسار إليه نصر بن سبكتكين من نيسابور، والتقوا واقتتلوا فانهزم الساماني، وأسر جماعة من أعيان عسكره وحملوا إلى غزنة، وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، ثم سار الساماني تائهًا حتى وافى الأتراك الغُزيّة، ولهم ميل إلى آل سامان فاجتمعوا معه، وسار إيليك الخانَ وذلك في شوّال سنة ثلاث وتسعين، فلقيهم بنواحي سمرقند فهزموه، واستولوا على أمواله وسواده وأسروا جماعة من قوّاده وعادوا، وأجمع أصحاب المستنصر على إطلاق الأسرى تقرّبًا إلى إيليك الخان، فشعر بذلك فاختار من أصحابه جماعة يثق بهم، وسار بهم فعبر النهر إلى آمل الشط فلم يقبله مكان، فعاد وعبر النهر إلى بُخارى واقتتل هو وواليها الذي هو من قبل إيليك الخان، فانهزم المستنصر إلى دبوسيّة[٢] وجمع بها جمعًا، ثم عاودهم وهزمهم فاجتمع عليه جماعة من فتيان سمرقند وصاروا في جملة أصحابه، فجمع إيليك الخان الأتراك وسار إليه والتقوا بنواحي سمرقند، فانهزم إيليك الخان وذلك في شعبان سنة أربع تسعين وثلاثمائة، ثم عاد إيليك الخان إلى بلاد الترك فجمع وحشد وعاد إلى المستنصر، فوافق عوده تراجع الغزيّة الذين كانوا مع الساماني إلى أوطانهم، فاقتتلوا بنواحي أشروسنة فانهزم الساماني وأكثر أصحاب إيليك الخان القتل في أصحابه، وعبر النهر إلى الجوزجان فنهب أموالها، وسار يريد مرو فسيّر إليه يمين الدولة العساكر، ففارق مكانه وسار وهم في أثره، فأتى بسطام فأزعجه قابوس عنها فضاقت به المذاهب، فعبر ما وراء النهر وقد ضجر أصحابه منه وسئموا من السهر والتعب والخوف، ففارقه كثير منهم إلى بعض أصحاب إيليك الخان وأعلموهم بمكانه، فلم يشعر إلا وقد

---

(١) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. . . (معجم البلدان).

(٢) دبوسية: بليدة من أعمال الصغد من ما وراء النهر، منها أبو زيد الدبوسي. . . (معجم البلدان).

أحاطت به الخيل من كل جانب، فطاردهم ساعة وانهزم ونزل بحلّة للعرب، وكانوا في طاعة يمين الدولة محمود بن سبكتكين، فأمهلوه حتى أظلم الليل ووثبوا عليه فأخذوه وقتلوه، وكان ذلك خاتمة أمره وآخر ما اتّفق لآل سامان، ولم يقم منهم بعده أحد، والله أعلم.

ذكر أخبار الدولة الصفّارية وابتداء أمرها

أوّل من قام منهم يعقوب بن الليث الصفّار، وكان يعقوب هذا وأخوه عمرو يعملان الصُّفْر[1] بسجستان ويظهران الزهد والتقشف، وكان في أيّامهما رجل من أهل سِجِسْتان اسمه صالح بن النضر الكناني قد تغلّب على سِجِسْتان في سنة سبع وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكّل على الله، فصحبه يعقوب وقاتل معه وجعله صالح مقام الخليفة عنه، فاستنقذ طاهر بن عبد الله بن طاهر ـ أمير خراسان ـ سجستان من يده، ثم هلك صالح بعد ذلك فقام مقامه بأمر المتطوّعة رجل اسمه درهم بن الحسن، فغلب على سجستان وكان غير ضابط لعسكره وكان يعقوب هو قائد العسكر، فلمّا رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث، وملّكوه أمرهم لما رأوه من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم، فلمّا تبيّن ذلك لدرهم لم ينازعه في الأمر، وسلّمه إليه واعتزل عنه فاستبدّ يعقوب بالأمر؛ وقيل بل احتال صاحب خراسان على درهم حتى قبض عليه، وحمله إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم الخليفة ببغداد، واستقلّ يعقوب بعده بالأمر وعظم شأنه وتولّى أمر المتطوّعة، وقام بمحاربة الشراة[2] فظفر بهم وأكثر القتل فيهم حتى كاد يفنيهم، وخرّب قراهم، وأطاعه أصحابه طاعة لم يطيعوا أحدًا قبله، فاشتدت شوكته فغلب على سِجِسْتَان وأظهر التمسك بطاعة الخليفة، وكاتبه وصدر عن أمره وأظهر أنه أمره بقتال الشراة، وملك يعقوب سجستان وضبط الطريق، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فكثر أتباعه.

ذكر ملك يعقوب هراة وبوشنج

قال: ولما كثر أتباعه خرج عن حدّ طلب الشراة، فصار يتناول أصحاب أمير خراسان، وسار من سجستان إلى هراة من أعمال خراسان في سنة ثلاث وخمسين

(١) الصّفر: النحاس الأصفر.

(٢) الشراة: فرقة من الخوارج.

ومائتين، وأمير خراسان يومذاك محمد بن طاهر بن عبد الله، وعامله على هراة محمد بن أوس الأنباري فخرج منها لمحاربته، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبُوشَنْج وصارت المدينتان في يده، فعظم أمره وهابه أمير خراسان وغيره من أصحاب الأطراف، وذلك في خلافة المعتز بالله.

ذكر استيلائه على كرمان

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين استولى يعقوب بن الليث على كِرْمان[١]، وسبب ذلك أن عليّ بن الحسين بن سبل كان على فارس، فتباطأ بحمل الخراج منها وكتب إلى المعتز بالله يطلب منه كرمان، ويذكر عجز الطاهريّة عنها، فكتب إليه بولايتها وكتب إلى يعقوب أيضًا بولايتها، وقصد بذلك إغراء كل واحد منهما بالآخر فتسقط عنه مؤونة الهالك منهما وينفرد بالآخر، وكان كل منهما يظهر الطاعة للخليفة وهو في باطن أمره على معصيته، والمعتز يعلم بذلك منهما، فأرسل عليّ بن الحسين، طَوْق بن المُغَلِّسِ إلى كرمان، وسار يعقوب إليها فسبقه طوق واستولى عليها، وأقبل يعقوب حتى بقي بينه وبين عسكر كرمان مرحلة، فأقام بها شهرين لا يتقدّم إلى طوق، ولا طوق يخرج إليه، فلمّا طال ذلك عليه أظهر الارتحال إلى سجستان ورجع مرحلتين، وبلغ طوقًا ارتحاله فظنّ أنه قد بدا له في حربه، فوضع آلة الحرب وقعد للشرب واللهو، واتصل ذلك بيعقوب فكرّ راجعًا وطوى المرحلتين في مرحلة واحدة، فلم يشعر طوق إلا بغبرة العسكر قد طلعت، فقال: ما هذا؟ فقيل غبرة المواشي، فلم يكن بأسرع من موافاة يعقوب فأحاط به وبأصحابه، فذهب أصحابه يريدون المناهضة والدفع عن أنفسهم، فقال يعقوب لأصحابه: أفرجوا لهم، فأفرجوا لهم فمروا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم، وأسر يعقوب طوقًا، وكان عليّ بن الحسين قد سيّر مع طوق قيودًا في صناديق، ليقيّد بها من يأخذه من أصحاب يعقوب، وفي صناديق أطوقة وأساور يعطيها لأصحاب البلاء من أصحابه، فلمّا غنم يعقوب عسكرهم رأى ذلك فقال يا طوق: ما هذا؟ فأخبره، فأعطى يعقوب الأطوقة والأساور لأصحابه، وقيّد بالقيود والأغلال أصحاب عليّ، ولما أخرج يد طوق ليجعل الغلّ فيها رآها يعقوب وعليها عصابة[٢]، فسأله عنها فقال: أصابتني حرارة

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون: ناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان.

(٢) العصابة: العمامة؛ أو هي ما يشد به من منديل أو خرقة.

ففصدتها، فأمر يعقوب بنزع خف نفسه فتساقط منه كسر يابسة، فقال: يا طوق هذا خفّي لم أنزعه من رجلي منذ شهرين، وخبزي فيه منه آكل، وأنت جالس في الشرب، ثم دخل كرمان وملكها مع سِجِسْتان.

ذكر ملكه فارس

قال: ولما بلغ علي بن الحسين صاحب فارس ما فعله يعقوب بطَوْق أيقن بمجيئه إليه وكان بشيراز، فجمع جيشه وصار إلى مضيق خارج شيراز، من أحد جانبيه جبل لا يسلك، ومن الآخر نهر لا يُخاض على رأس المضيق، وهو مضيق لا يسلكه إلا واحد بعد واحد وقال: إن يعقوب لا يقدر على الجواز إلينا، وأقبل يعقوب حتى دنا من ذلك المضيق ونزل على ميل منه، وسار وحده ومعه رجل آخر فنظر إلى المضيق والعسكر فسبّه أصحاب عليّ وهو ساكت، ثم رجع إلى أصحابه، فلما كان الغد سار حتى صار إلى طريق المضيق مما يلي كرمان، وأمر أصحابه بالنزول وحطّ الأثقال ففعلوا وركبوا دوابّهم وأخذ يعقوب كلبًا كان قد ألفه فألقاه في الماء، فجعل يسبح إلى جانب أصحاب عليّ، وكان عليّ وأصحابه قد ركبوا لينظروا إلى فعله ويضحكون منه، فألقى يعقوب نفسه وأصحابه في الماء على خيولهم وبأيديهم الرماح، وجعلوا يسيرون خلف الكلب، فلما رأى عليّ يعقوب وقد قطع عامّة النهر تحيّر في أمره، وانتقض عليه ما كان قد دبّره، وخرج أصحاب يعقوب فلما صار أوائلهم في البرّ هرب أصحاب عليّ إلى مدينة شيراز، فسقط عليّ بن الحسين عن فرسه فأخذ أسيرًا، وأتى به إلى يعقوب فقيّده واحتوى على ما كان في عسكره، ثم رحل من موضعه ودخل شيراز ليلاً فلم يتحرّك أحد، فلمّا أصبح انتهب أصحابه دار عليّ ودور أصحابه، وأخذ ما في بيوت الأموال وجبى الخراج، ورجع إلى سجستان. وقيل إنه كان بينه وبين عليّ حرب بعد عبور النهر، وذلك أن عليًا كان قد جمع عنده جمعًا كثيرًا من الموالي والأكراد وغيرهم، بلغت عدّتهم خمسة عشر ألفًا من فارس وراجل، وعبأ أصحابه وأقبل يعقوب وعبر النهر فلما صاروا في أرض واحدة حمل يعقوب وعسكره حملة رجل واحد، وتابع الحملات حملة بعد أُخرى فانهزم أصحاب عليّ، وتبعهم وهو يصيح بهم فلا يرجعون، وقتل الرجّالة قتلاً ذريعًا، وأقبل المنهزمون إلى باب شيراز وقت العصر، فازدحموا إلى الأبواب وتفرّقوا في نواحي فارس، وبلغ بعضهم إلى الأهواز فأمر يعقوب بالكف عنهم، وكانت القتلى منهم خمسة آلاف؛ قيل وأصاب عليّ بن الحسين ثلاث جراحات ثم أُخذ أسيرًا.

ودخل يعقوب مدينة شِيراز وطاف بها، ونادى بالأمان فاطمأن الناس، وعذّب عليّ بن الحسين بأنواع العذاب، وأخذ من أمواله ألف بدرة(١) وقيل أربعمائة، وأخذ من السلاح والأقمشة وغير ذلك ما لا يُحدّ، وكتب إلى الخليفة المعتز بالله بطاعته، وأهدى له هدية جليلة: منها عشرة بزاة بيض وباز أبلق(٢) صيني ومائة منّ(٣) من المسك وغير ذلك من الطرائف، وعاد إلى سجستان ومعه عليّ وطوق، فلما فارق بلاد فارس أرسل الخليفة عماله إليها.

ذكر قصد يعقوب فارس وملكه بلخ وغيرها

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين سار يعقوب إلى بلاد فارس، فأرسل إليه المعتمد على الله ينكر ذلك، وكتب إليه الموفق أخو المعتمد بولاية بلْخ وطُخَارسْتَان وسِجْستَان والسّنْد فقبل ذلك، وعاد وسار إلى بلخ وطخارستان، فلما وصل نزل بظاهرها وخرّب نوشَاد؛ وهي أبنية كان قد بناها داود بن العبّاس خارج بلخ، ثم سار إلى كَابُل واستولى عليها وقبض على رُتْبيل(٤)، وأرسل رسولاً إلى الخليفة بهديّة جليلة المقدار، وفيها أصنام أخذها من كابُل(٥) وتلك البلاد، وسار إلى بُسْت فأقام بها سنة، وسبب إقامته أنه أراد الرحيل فرأى قوّاده قد حمل بعض أثقاله، فغضب وقال: ترحلون قبلي!! ثم أقام سنة، وسار إلى بوشنج وقبض على الحسين بن طاهر بن الحسين، فأنفذ إليه محمد بن طاهر بن عبد الله يسأله في إطلاقه فلم يجب سؤاله.

ذكر ملكه نيسابور

وفي شوال سنة تسع وخمسين ومائتين دخل يعقوب نيسابور، وكان سبب مسيره إليها أن عبد الله السِّجْزي كان ينازع يعقوب سجستان فلما قوي أمر يعقوب هرب منه إلى محمد بن طاهر، وطلبه يعقوب منه فلم يفعل، فسار نحوه إلى نيسابور فلما قرب منها وأراد دخولها وجّه إليه محمد بن طاهر يستأذنه في تلقّيه، فلم يأذن له فبعث

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا، ويختلف باختلاف العهود.
(٢) الأبلق: الذي فيه سواد وبياض.
(٣) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن، وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان، والرطل عندهم اثنتا عشرة أوقية بأواقيهم.
(٤) كل ملك لهم يسمى رتبيل.
(٥) كابل: بضم الباء الموحدة، ولام: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... (معجم البلدان).

بعمومته وأهل بيته فتلقوه، ودخل نيسابور وأرسل إلى الخليفة يذكر تفريط محمد بن طاهر في عمله، وأن أهل خراسان سألوه المصير إليهم، ويذكر غلبة العلويين على طبرستان وبالغ في هذا المعنى، فأنكر عليه ذلك وأمره بالاقتصار على ما أسند إليه، وألا يسلك معه مسلك المخالفين. وقيل بل كان سبب ذلك أنه كتب إلى محمد يعلمه أنه على قصد طبرستان، ليمضي ما أمره به الخليفة في الحسن بن زيد العلوي المتغلّب عليها، وأنه لا يتعرض إلى شيء من عمله ولا إلى شيء من أسبابه، وكان بعض خاصّة محمد وأهله لمّا رأوا إدبار أمره مالوا إلى يعقوب، وكاتبوه واستدعوه وهوّنوا على محمد أمر يعقوب، وأعلموه أنه لا خوف عليه منه وثبّطوه عن التحرّز منه، فركن محمد إلى قولهم حتى قرب يعقوب من نيسابور، فوجّه إليه قائدًا من قوّاده يطيّب قلبه، وأمره بمنعه عن الانتزاح من نيسابور إن أراد ذلك، ثم وصل يعقوب إلى نيسابور في رابع شوّال، وأرسل أخاه عمرو بن الليث إلى محمد بن طاهر فأحضره عنده، فقبض عليه وقيّده وعنّفه على إهماله أمر عمله وعجزه عن حفظه، ثم قبض على جميع أهله، وكانوا نحوًا من مائة وستين رجلاً، وحملهم إلى سجستان واستولى على خراسان، ورتّب نوّابه في الأعمال، وكانت ولاية محمد بن طاهر خراسان إحدى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام.

ذكر دخوله طبرستان

وفي سنة ستين ومائتين سار يعقوب إلى طبرستان وملكها، وسبب ذلك أنه لمّا دخل نيسابور هرب منه عبد الله السِّجْزِي إلى الحسن بن زيد بسارية[1]، فأرسل يعقوب إلى الحسن يسأله أن يبعثه إليه ويرجع عنه، فإنّه إنما جاء لذلك لا لحربه فلم يسلّمه الحسن، فحاربه يعقوب فانهزم الحسن ودخل بلاد الديلم ودخل يعقوب سارية وآمُل، وجبى من أهلها خراج سنة، ثم سار في طلب الحسن بن زيد فصار إلى بعض جبال طبرِسْتان، فتتابعت عليه الأمطار نحوًا من أربعين يومًا فلم يتخلّص إلا بمشقّة شديدة، وهلك عامّة ما معه من الظهر، ثم أراد الدخول خلف الحسن فوقف على الطريق الذي يريد يسلكه، وأمر أصحابه بالتوقّف عن المسير، ثم تقدّم وحده فتأمّل الطريق ورجع إليهم، فأمرهم بالانصراف وقال: إن لم يكن طريق غير هذا فلا طريق إليه، وكان نساء تلك الناحية قلن للرجال: دعوه يدخل فإنه إن دخل كفيناكم أمره

(١) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.. وبها منزل العامل في أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك بآمل... (معجم ياقوت).

وعلينا أسره لكم، فلمّا خرج من طبرستان عرض رجاله ففقد منهم أربعين ألفًا، وذهب أكثر ما معه من الخيل والإبل والأثقال.

وكتب إلى الخليفة بما فعله من هزيمة الحسن، وسار إلى الريّ في طلب عبد الله السجزي، فإنه كان قد سار إليها بعد هزيمة الحسن فلما قاربها يعقوب كتب إلى واليها الصلابي، يخيّره بين تسليم عبد الله إليه ويرحل عنه وبين المحاربة، فسلّمه إليه فانصرف يعقوب عنه وقتل عبد الله السجزي.

ذكر عود يعقوب إلى بلاد فارس والحرب بينه وبين محمد بن واصل

كان سبب ذلك أن محمد بن واصل كان قد تغلّب على فارس وقتل الحارث بن سيما، فأضاف المعتمد على الله فارس والأهواز البصرة والبحرين واليمامة إلى موسى بن بُغا مع ما كان إليه، فوجّه موسى، عبد الرحمٰن بن مُفلح إلى الأهواز، وولاه إيّاها مع فارس وأضاف إليه طاشتمُر، فقاتله محمد بن واصل برام هُرْمُز[1]، فانهزم عبد الرحمٰن وأُخذ أسيرًا وقتل طاشتمر، وغنم ما كان في عسكرهما، فأرسل الخليفة إلى محمد بن واصل في إطلاق عبد الرحمٰن، فلم يفعل وقتله وأظهر أنه مات، وسار ابن واصل من هذه الوقعة - وقد أظهر أنه يريد واسط - لحرب موسى بن بُغا، فلما رأى موسى شدّة الأمر استعفى من ولاية فارس؛ فلما بلغ ذلك يعقوب - وكان بسجستان، تجدّد طمعه في ملك بلاد فارس، وأخذ ما غنمه ابن واصل من الخزائن والسلاح من عبد الرحمٰن بن مفلح وطاشتمر، فسار يعقوب حتى نزل البيضا من أرض فارس، فبلغ ابن واصل خبره وهو بالأهواز، فعاد منها لا يلوي على شيء، وأرسل خاله أبا بلال مرداسًا إلى يعقوب فوصل إليه وضمن له طاعة محمد بن واصل، فأرسل يعقوب إلى محمد كتبًا ورسلاً في المعنى فحبسهم ابن واصل، وسار يطلب يعقوب والرسل معه، وهو يريد بذلك أن يخفي خبر مسيره، وأن يصل بغتة فينال منه غرضه ويوقع به، فسار في يوم شديد الحرّ في أرض صعبة المسلك، وهو يظن أن خبره قد خفي عن يعقوب، فلما كان وقت الظهر تعبت دوابّهم، فمات من أصحاب ابن واصل أكثر الرجّالة جوعًا وعطشًا وتعبًا، وبلغ خبرهم يعقوب فجمع

(١) رامهرمز: (كما في معجم ياقوت): من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان.

أصحابه وأعلمهم الخبر، وقال لأبي بلال: إنّ ابن واصل قد غدر بنا وحسبنا الله ونعم الوكيل، وسار يعقوب إليه فلما قاربه ضعفت نفوس أصحاب ابن واصل عن مقاومته، فلما صار بينهما رميه سهم انهزم أصحاب ابن واصل من غير قتال، وتبعهم أصحاب يعقوب وأخذوا منهم جميع ما غنموه من عسكر عبد الرحمٰن، واستولى يعقوب على بلاد فارس ورتّب بها أصحابه وأصلح أحوالها، ومضى ابن واصل منهزمًا وأخذ أمواله من قلعته، وكانت أربعين ألف ألف درهم، وأوقع يعقوب بأهل زم(١) لأنهم أعانوا ابن واصل، وحدّث نفسه أنه يستولي على الأهواز وغيرها.

ذكر الحرب بين الموفق ويعقوب

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين في المحرم سار يعقوب من فارس إلى الأهواز، فلما بلغ المعتمد على الله إقباله، أرسل إليه إسماعيل بن إسحاق وبُغْراج، وأطلق من كان في حبسه من أصحاب يعقوب، وكان قد حبسهم لما أخذ يعقوب، محمد بن طاهر، وجاءت رسالة يعقوب إلى الخليفة فجلس أبو أحمد الموفّق وأحضر التجّار، وأخبرهم بتولية يعقوب طبرستان وخراسان وجرجان والريّ وفارس والشرطة ببغداد، وذلك بمحضر من درهم حاجب يعقوب؛ وكان قد أرسله يطلب هذه الولاية، فأعاده لموفّق إلى يعقوب ومعه عمر بن سيما بما أضاف إليه من الولايات، فعادت رسل يعقوب تقول: إنه لا يرضيه ذلك دون أن يصير إلى باب المعتمد، وارتحل يعقوب وسار إليه أبو الساج وصار معه، فأكرمه. وأحسن إليه ووصله، وسار يعقوب إلى واسط فدخلها لست بقين من جُمادى الآخرة سنة اثنتين وستين ومائتين، وارتحل المعتمد على الله من بغداد إلى الزعفرانيّة(٢) وقدّم أخاه الموفّق أمامه، وسار يعقوب من وسط إلى دير العاقول بالعساكر لمحاربته، فجعل الموفّق على ميمنته موسى بن بغا وعلى ميسرته مسرورًا البلخي وقام هو في القلب، والتقوا واقتتلوا فحملت ميسرة يعقوب على ميمنة الموفّق فهزمتها، وقتل جماعة من القوّاد ثم تراجع المنهزمون، وكشف الموفّق رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل وحمل معه سائر العسكر فثبت عسكر يعقوب، وتحاربوا حربًا شديدًا فقتل من أصحاب يعقوب جماعة، منهم

(١) زمّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل؛ نسب إليها نفر من أهل العلم... (معجم البلدان).

(٢) الزعفرانية: عدة مواضع تسمى بهذا الاسم، منها الزعفرانية قرية على مرحلة من همذان.. والزعفرانية: قرية قرب بغداد تحت كلواذى... (معجم البلدان).

حسن الدرهميّ وأصاب يعقوب ثلاثة أسهم، ولم تزل الحرب قائمة إلى وقت العصر فانهزم أصحاب يعقوب، وثبت هو في خاصّة أصحابه ثم مضوا وفارقوا موضع الحرب، وتبعهم أصحاب الموفّق وغنموا ما في عسكره، وكان فيه الدوابّ والبغال أكثر من عشرة آلاف، ومن الأموال ما لا يحصى كثرة، ومن جرب المسك عدّة كثيرة، وخلص محمد بن طاهر وكان مثقلاً بالحديد، فخلع عليه الموفّق وولاّه الشرطة ببغداد، وسار يعقوب من موضع الهزيمة إلى خوزستان ونزل جنديسابور، فراسله العلوي فقال لكاتبه اكتب إليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ...﴾ إلى آخرها وسيّر الكتاب إليه، وكانت هذه الوقعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رجب، وكتب المعتمد إلى محمد بن واصل بولاية فارس فعاد إليها.

ذكر استيلاء يعقوب على الأهواز وغيرها

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين أقبل يعقوب من فارس، فلمّا بلغ النُّوبنْدجان[١] انصرف أحمد بن الليث عن تُسْتر، فبلغ يعقوب جُنْديُسابور ونزلها، فارتحل عن تلك الناحية من كان بها من عسكر الخليفة، ووجّه يعقوب إلى الأهواز رجلاً من أصحابه يقال له الخِضْر بن العنبر، فلمّا قاربها خرج عنها علي بن أبان ومن معه من الزنج ونزل بها السِّدْرة، ودخل الخضر الأهواز وجعل أصحابه وأصحاب علي بن أبان يغير بعضهم على بعض وينال بعضهم من بعض، إلى أن استعدّ علي بن أبان وسار إلى الأهواز، فأوقع بالخضر ومن معه من أصحاب يعقوب وقعة عظيمة، قتل فيها من أصحاب الخضر خلقًا كثيرًا وهرب الخضر ومن معه، وأقام عليّ بالأهواز يستخرج ما كان فيها، ورجع إلى نهر السِّدْرة وسيّر طائفة إلى دوْرق[٢] فأوقعوا بمن كان هناك من أصحاب يعقوب، فأنفذ يعقوب إلى الخضر مددًا، وأمره بالكف عن قتال الزنج والاقتصار على المقام بالأهواز، فلم يُجب علي بن أبان إلى ذلك دون نقل طعام كان هناك، فأجابه يعقوب إلى ما طلب ونقل الطعام، وترك العلف بالأهواز وكف بعضهم عن بعض.

(١) النوبندجان: بالضم ثم السكون، وباء موحدة مفتوحة، ونون ساكنة، ودال مفتوحة، وجيم، وآخره نون: مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن والنزاهة، وبينها وبين أرجان ستة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) دورق: بفتح أوله وسكون ثانيه، وراء بعدها قاف: بلد بخوزستان، وهو قصبة كورة سرّق يقال لها دورق الفرس... (معجم ياقوت).

ذكر وفاة يعقوب بن الليث وولاية أخيه عمرو

كانت وفاته في تاسع عشر شوّال سنة خمس وستين ومائتين بجنديسابور من كور الأهواز، وكانت علّته القولنج[١] فأمره الأطباء بالاحتقان بالداء، فامتنع واختار الموت على ذلك، وكان المعتمد على الله قد أنفذ إليه رسولاً وكتابًا يستميله ويسترضيه، وقلده أعمال فارس، فوصل الرسول ويعقوب مريض فجلس له، وجعل عنده سيفًا ورغيفًا من الخبز الخشكار[٢] وبصلاً، وأحضر الرسول وسمع رسالته وقال له: قل للخليفة إنّني عليل، فإن مت فقد استرحتُ منك واسترحتَ مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتعقرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل وأعاد الرسول، فلم يلبث يعقوب أن مات.

وكان الحسن بن زيد العلوي ـ صاحب طبرستان ـ يسمّي يعقوب السندان لثباته، وكان يعقوب قد افتتح الرُّخج[٣] وقتل ملكها البتبر وكان هذا الملك يُحمل على سرير من ذهب يحمله اثنا عشر رجلاً، وابتنى بيتًا على جبل عال سمّاه مكة، وكان يدّعي الإلهيّة فقتله يعقوب، وافتتح الخلجية وزابُل وغير ذلك، وكان عاقلاً حازمًا وكان يقول: كل من عاشرته أربعين يومًا فلا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة.

ذكر ولاية عمرو بن الليث

كانت ولايته بعد وفاة أخيه يعقوب في تاسع شوّال سنة خمس وستين ومائتين، ولمّا ولّي كتب إلى الخليفة بطاعته، فولا الموفّق خراسان وأصفهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وأشهد عليه بذلك وسيّر إليه العهد والخلع، فاستخلف عمرو بن الليث، عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على الشرطة ببغداد وسامرّا في صفر سنة ست وستين، وخلع عليه الموفّق أيضًا، ولم يزل عمرو في هذه الولايات إلى أن عزله المعتمد في شهور سنة إحدى وسبعين ومائتين، وأدخل عليه حاج خراسان وأعلمهم أنه عزل عمرو بن الليث عمّا كان قلّده، ولعنه بحضرتهم وأعلمهم أنه قد قلّد خراسان لمحمد بن طاهر، وأمر يلعن عمرو على المنابر فلعن.

---

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

(٢) الخشكار: الخبز الأسمر غير النقي. . . (فارسي).

(٣) الرخّج: بتشديد ثانيه، وآخره جيم: كورة ومدينة من نواحي كابل.

وسار صاعد بن مخْلَد إلى فارس لحرب الصفّاريّة، واستخلف محمدُ بن طاهر على خراسان رافع بن هرثمة، ثم كانت الحرب بين عمرو بن الليث وعسكر الخليفة وعليهم أحمد بن عبد العزيز بن أبي دُلَف، ودامت الحرب بينهم من أوّل النهار إلى الظهر، فانهزم عمرو وأصحابه وكانوا خمسة عشر ألفًا، وجرح الدرهميّ مقدّم جيش عمرو، وقتل مائة رجل من جماتهم وأسر ثلاثة آلاف أسير وغنموا معسكر عمرو، وكان الذي غنموه من الدوابّ والبقر والحُمُر ثلاثين ألف رأس، وما سوى ذلك فلا يدخل تحت الإحصاء، وذلك في عاشر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين ومائتين.

وفي سنة أربع وسبعين سار الموفّق إلى فارس لحرب عمرو بن الليث في شهر ربيع الأوّل، فبلغ عمرو الخبر فسيّر عبّاس بن إسحاق في جمع كثير من العسكر إلى سِيراف، وأنفذ ابنه محمد بن عمرو إلى أرّجان[1]، وسيّر أبا طلحة شَرْكَب صاحب جيشه على مقدّمته، فاستأمن أبو طلحة إلى الموفّق، وسمع عمرو ذلك فتوقف عن قصد الموفّق، ثم عزم أبو طلحة على العود إلى عمرو فبلغ الموفّق خبره، فقبض عليه بقرب شيراز وجعل ماله لابنه المعتضد، وسار يطلب عمرًا فعاد عمرو إلى كرمان ثم إلى سجستان على المفازة فتوفي ابنه بالمفازة، وعاد الموفّق.

ذكر أسر عمرو بن الليث وقتله وانقراض الدولة الصفارية

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين في شهر ربيع الأوّل منها كانت الحرب بين عمرو بن الليث وإسماعيل بن أحمد الساماني، صاحب ما وراء النهر، فأجلت الحرب عن هزيمة أصحاب عمرو وأسره كما قدّمناه مبيّنًا في أخبار الدولة السامانية، وخيّره إسماعيل في المقام عنده أو إرساله إلى الخليفة المعتضد بالله، فاختار أن يتوجّه إلى المعتضد فسيّره إليه، فوصل إلى بغداد في سنة ثمان وثمانين، فلما وصل أدخل بغداد على جمل، ثم حبس إلى أن قتل في سنة تسع وثمانين ومائتين.

---

(١) أرجان: قال الإصطخري: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثيرة وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخًا. . . (معجم البلدان).

ذكر أخباره وشيء من سيرته

كان عمرو أعور شديد الشره عظيم السياسة، قد منع قوّاده وأصحابه أن يضرب أحد منهم غلامه إلا بأمره، وكان يشتري المماليك الصغار ويربّيهم ويهبهم إلى القوّاد، ويجري عليهم الجرايات السنيّة ليطالعوه بأخبار القوّاد، فلا ينكتم عنه شيء من أمرهم ولا يعلمون من ينقل إليه الأخبار، وكان كثير المصادرات لعمّاله وخواصه.

حكي عنه أنّ محمد بن بشير أكبر حجّابه ـ وكان يخلفه في جلائل الأمور والحروب المعضلة ـ فدخل عليه يومًا، فأخذ يعدّد عليه ذنوبه فحلف محمد بن بشير بالله وبالطلاق أنه لا يملك غير خمسين بدرة، وهو يحملها إلى الخزانة ولا يجعل له ذنبًا لم يعلمه، فقال له عمرو: ما أعقلك من رجل؟ احملها فحملها، ولا شيء أقبح من هذا الفعل، ومع ذلك فقد حكى القاضي عياض بن موسى[1] في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ عن الإمام أبي القاسم القشيري أنّ عمرًا رؤي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدت ذروة جبل يومًا فأشرفت على جنودي، فأعجبتني كثرتهم فتمنّيت أنّي حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته، فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وانقرضت هذه الدولة بأسر عمرو، وكانت مدتها خمسًا وثلاثين سنة، أيام يعقوب ثلاث عشرة سنة وأيام عمرو اثنتين وعشرين سنة.

ذكر أخبار
أحمد بن عبد الله الخجستاني

وهذه النسبة إلى خُجِسْتَان وهي من جبال هراة من أعمال باذغيس وكان أحمد بن عبد الله هذا من أصحاب محمد بن طاهر، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور ضمّ أحمد هذا إلى أخيه عليّ بن الليث وكان بنو شَرْكَب ثلاثة إخوة: إبراهيم

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي، السبتي، المالكي، ويعرف بالقاضي عياض (أبو الفضل) محدث، حافظ، مؤرخ، ناقد، مفسر، فقيه، أصولي، عالم بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، شاعر، خطيب. أصله من الأندلس، وتجول جده إلى فاس، ثم سكن مدينة سبتة... (معجم المؤلفين ـ كحالة ٨: ١٦).

وأبو حفص يعمر وأبو طلحة منصور بنو مسلم، وإبراهيم أسنّهم، وكان قد أبلى بين يدي يعقوب عند مواقعته للحسن بن زيد العلوي بجرجان بلاءً حسنًا، فقدّمه يعقوب فدخل عليه يومًا بنيسابور وكان اليوم شديد البرد، فخلع عليه يعقوب وبرسمّور[1] كان على كتفه، فحسده أحمد الخجستاني وجاء إليه وقال: إنّ يعقوب يريد الغدر بك، لأنّه لا يخلع على أحد من خاص ملبوسه إلا غدر به فقال إبراهيم: فكيف الخلاص؟ فقال: الحيلة أن نهرب جميعًا إلى أخيك يعمر، وكان يحاصر بلخ ومعه خمسة آلاف رجل، فاتّفقا على ذلك وتواعدا للخروج في تلك الليلة، فسبقه إبراهيم إلى الموعد وانتظره ساعة فلم يره، فسار نحو سرخس وذهب الخجستاني إلى يعقوب فأعلمه، فأرسل في أثر إبراهيم فأدركوه بسرخس فقتلوه، ومال يعقوب إلى أحمد، فلما أراد يعقوب العود إلى سجستان استخلف على نيسابور عزيز بن السريّ وولّى أخاه عمرو بن الليث هراة، فاستخلف عمرو وعليها طاهر بن حفص الباذغيسي، وسار يعقوب إلى سجستان في سنة إحدى وستين ومائتين، وأحبّ الخجستاني التخلّف لما كان يحدّث به نفسه، فقال لعلي بن الليث: إن أخويك قد اقتسما خراسان، وليس لك بها ما يقوم بشغلك، وأحبّ أن تردّني إليها لأقوم بأُمورك، فاستأْذن أخاه يعقوب في ذلك فأذن له، فلمّا حضر أحمد لوداع يعقوب أحسن إليه وخلع عليه، فلما ولّى عنه قال: أشهد أن قفاه قفا غادر مستعصٍ، وهذا آخر عهدنا بطاعته، فلما فارقهم جمع نحو مائة رجل فورد بهم بُست نيسابور، فحارب عاملها وأخرجه عنها وجباها ثم خرج إلى قُوس، فغلب على بِسْطام وقتل بها مقتلة عظيمة وذلك في سنة إحدى وستين وسار إلى نيسابور وبها عزيز بن السري فهرب منها، وأخذ أحمد أثقاله واستولى على نيسابور، ودعا للطاهريّة وذلك في أول سنة اثنتين وستين.

وكتب إلى رافع بن هرمثة يستقدمه فقدم عليه، فجعله قائد جيشه، وكتب إلى يعمر بن شركب - وهو يحاصر بلخ - يستقدمه ليتّفقا على تلك البلاد، فلم يثق إليه لما تقدّم له مع أخيه إبراهيم، وسار يعمر إلى هراة فحاربه طاهر بن حفص فقتله واستولى على أعماله فسار إليه أحمد وكان بينهما مناوشات، وكان أبو طلحة منصور بن شركب غلامًا من أحسن الغلمان، وكان عبد الله بن لال يميل إليه وهو أحد قوّاد يعمر،

(١) السمّور: حيوان ثديي ليلي من الفصيلة السمّورية من آكلات اللحوم، يتخذ من جلده فرو ثمين، ويقطن شمالي آسية.

فراسل ابن لال، الخجستانيَّ أن يعمل ضيافة ليعمر وأصحابه ويدعوهم إليه وأن يكبسهم أحمد وأنّه يساعده، واشترط عليه أنّه إذا ظفر يسلّم إليه أبا طلحة، فأجابه أحمد إلى ذلك وتواعدا على يوم، وعمل ابن لال ضيافة وحضرها يعمر، فكبسهم أحمد وقبض على يعمر وسيّره إلى نيسابور فقتله، واجتمع لأبي طلحة جماعة من أصحاب أخيه فقتلوا ابن للال، وساروا إلى نيسابور وبها الحسين بن طاهر أخو محمد، وقد وردها من أصفهان طمعًا أن أحمد يخطب لهم، كما كان يظهر من نفسه فلم يفعل، فخطب ابن طاهر بها لأبي طلحة وأقام معه، فسار الخجستاني من هراة في اثني عشر ألف عِنان، فأقام على ثلاث مراحل من نيسابور، ووجّه أخاه العبّاس إليها فخرج إليه أبو طلحة وقاتله، فقُتل العبّاس وانهزم أصحابه فعاد أحمد إلى هراة.

ثم كاتبه أهل نيسابور في الحضور إليهم، فسار إليهم وقدم البلد ليلاً، ففتحوا له الباب ودخلها، وسار عنها أبو طلحة إلى الحسن بن زيد، فأمدّه بالجنود فعاد إلى نيسابور فلم يظفر بشيء، فتوجّه إلى بلخ وذلك في سنة خمس وستين، ثم سار الخجستاني لمحاربة الحسن بن زيد لمساعدته لأبي طلحة، فاستعان الحسن بأهل جرجان فأعانوه، فهزمهم الخجستاني وجبى منهم أربعة آلاف ألف درهم وذلك في شهر رمضان من السنة. وتوفي يعقوب بن الليث في هذه السنة وولّى مكانه أخوه عمرو، فوافى الخجستاني نيسابور واقتتلا فهزمه الخجستاني، فرجع إلى هراة وأقام أحمد بنيسابور، ثم سار إلى هراة في سنة سبع وستين فحصر عمرًا ولم يظفر بشيء، ثم كان له حروب مع أبي العبّاس النوفلي وغيره، فظفر بالنوفلي وكان قد جاء لحربه من قبل محمد بن طاهر في خمسة آلاف رجل وقتله، ثم سار إلى أبِيوَرْد وجبى خراج مرو، ولم يزل كذلك إلى سنة ثمان وستين ومائتين، فقتله غلامه زامجور غيلة وكان قد سكر ونام ثم قتل الغلام، واجتمع أصحاب أحمد الخجستاني وانضمُّوا إلى رافع بن هرثمة.

وكان أحمد هذا كريمًا جوادًا شجاعًا حسن العشرة كثير البرّ لإخوانه الذين صحبوه قبل إمارته، ولم يتغيّر عليهم ما كان يعاملهم به من التواضع والأدب.

ذكر أخبار رافع بن هرثمة

كان رافع بن هرثمة من أصحاب محمد بن طاهر، فلما استولى يعقوب بن الليث على نيسابور وأزال الطاهريّة عنها التحق رافع به، فلما عاد يعقوب إلى سجستان صحبه رافع، وكان طويل اللحية كريه المنظر قليل الطلاقة، فدخل يومًا على يعقوب

فلما خرج من عنده قال: إنّا لا نميل إلى هذا الرجل فليلحق بما شاء من البلاد، فقيل له ذلك ففارقه وعاد إلى منزله بتامين، فأقام إلى أن استقدمه أحمد الخجستاني[١] كما ذكرنا وجعله صاحب جيشه، فلما قتل اجتمع الجيش عليه، وسار من هراة إلى نيسابور وكان أبو طلحة قد وردها من جرجان، فحصره فيها رافع وقطع الميرة عنها، فاشتدّ الغلاء ففارقها أبو طلحة إلى مرو، وخطب رافع لمحمد بن طاهر، ثم قلّد الموفّق محمد بن طاهر أعمال خراسان وكان ببغداد، فاستخلف رافع بن هرثمة على أعمال خراسان، وسار رافع إلى خوارزم في سنة اثنتين وسبعين ومائتين فجبى أموالها، ورجع إلى نيسابور.

وفي سنة خمس وسبعين استولى رافع على جرجان، وأزال عنها محمد بن زيد وسار محمد إلى أسْتراباد فحصره بها رافع نحو سنتين، فغلت الأسعار وعدمت الأقوات وبيع وزن درهم ملح بدرهمين فضة، ففارقها محمد ليلاً في نفر يسير فتبعه رافع إلى أرض الديلم حتى اتصل بحدود قزوين، وعاد إلى الريّ وأقام بها إلى أن توفي المعتمد على الله في سنة تسع وسبعين ومائتين.

وإنما ذكرنا أخبار أحمد ورافع في هذا الموضع لتعلقهما بالدولة الصفارية.

تمّ الجزء الخامس والعشرون،
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء السادس والعشرون،
وأوله: ذكر أخبار الدولة الديلمية الجيلية

---

(١) هو أحمد بن عبد الله الخجستاني الخارج بنيسابور، مات سنة ٢٦٤. والخجستاني: نسبة إلى خجستان من أعمال باذغيس... فإن أهلها شراة... (معجم البلدان).

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢٦ - ٢٧

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9782745138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أخبار الدولة الديلمية الجيلية

هذه الدولة كانت ببلاد طَبرِسْتان، والريّ، وجرجان، وقزوين. وزَنجان[١] وأبهر[٢]، وقم، وأصفهان، والكَرج[٣]، وغير ذلك من البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وملوك هذه الدولة مسلمون، وكان الذي دعاهم إلى الإسلام الحسن بن علي الأطروش العلوي، وهو من أصحاب محمد بن زيد، فلما قتل محمد بن زيد سار الحسن إلى الديلم، وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة، ودعاهم إلى الإسلام، واقتصر منهم على العشر، وبنى في بلادهم المساجد، فأجابه منهم طائفة، وخرج بهم إلى طبرستان، وملكها، وكان منهم ليلى بن النعمان، وكان أحد قواده، وتولى جرجان، وقتل حمّويه في سنة ثمان وثلاثمائة، ومنهم سرجاب، وهو مقدم جيش الحسن، مات في سنة عشرة وثلاثمائة، ومنهم ماكان بن كالي، وكان من قواده أيضًا، واستخلفه على استراباذ[٤]، فاجتمع عليه الديلم، وقدموه عليهم، فاستولى على جرجان،

(١) زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه، ثم جيم، وآخره نون: بلد كبير من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والحديث. . . (معجم البلدان).

(٢) أبهر: بالفتح ثم السكون وفتح الهاء، وراء: اسم جبل بالحجاز. . وأبهر أيضًا: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل. . . وأبهر أيضًا: بليدة من نواحي أصبهان ينسب إليها إبراهيم بن الحجاج الأبهري سمع أبا داود وغيره. . . (معجم البلدان).

(٣) كرج: بفتح أوله وثانيه، وآخره جيم: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق؛ وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة. . . والكرج أيضًا: أكبر بلدة في ناحية روذراور بالقرب من همذان من نواحي الجبال بين همذان ونهاوند، بين الكرج وبين كل واحدة منهما سبعة فراسخ. . . (معجم البلدان).

(٤) أستراباذ: بالفتح ثم السكون، وفتح التاء المثناة من فوق، وراء، وألف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: بلدة كبيرة مشهورة، أخرجت خلقًا من أهل العلم في كل فن وهي من أعمال طبرستان بين سارية وجرجان. . . (معجم البلدان).

وأخذها من بغرا نائب السعيد الساماني، ولم يكن لهؤلاء الذين ذكرناهم كبير مملكة، وإنما كانوا يستولون على بلد من البلاد، ويقيمون بها مدة، ثم يخرجون عنها ويستولون على غيرها.

أول من تقدم من الدَّيْلم، وكثرت أتباعه، وعلا اسمه؛ واتسعت مملكته:

أسفار بن شيرويه الدّيلمي

ونحن نذكر حاله من ابتداء أمره، وما آل إليه، ومن ملك بعده من الديلم والجيل[١] إلى حين انقراض دولتهم إن شاء الله تعالى، فتقول:

كان أسفار هذا من أصحاب «ماكان» بن كالي الدّيلمي، وكان سيىء الخلق والعشرة، فكرهه «ماكان»، وأخرجه من عسكره، فالتحق ببكر بن محمد بن اليسع بنيسابور، وأقام في خدمته إلى أن قتل ابنُ الأطروش الحسنَ بن كالي أخا ماكان بجرجان، واستقل ابن الأطروش بالأمر، وجعل مقدم جيشه علي بن خرشيد، فكتب إلى «أسفار» يستقدمه، فاستأْذن بكرًا بن محمد، وسار إلى جرجان، واتفق مع علي بن خرشيد، وضبطا تلك الأعمال لابن الأطروش، فسار إليهم ماكان بن كالي، وقاتلهم، فهزموه، وأخرجوه عن طبرستان، وملكوها، وأقاموا بها، ثم اتفقت وفاة ابن الأطروش، وعلي بن خرشيد، فاستقل أسفار بالأمر، وانفرد به، فجاءه ماكان بن كالي، وهزمه، وأخرجه عن البلاد، فرجع إلى بكر بن محمد بن اليسع بجرجان، فأقام بها إلى أن توفي بكر، فتولاها أسفار من قبل السعيد نصر بن أحمد الساماني في سنة خمس عشرة وثلاثمائة، وأرسل أسفار إلى مرداويج بن زيار الجيلي يستدعيه إليه، فجاءه وجعله أسفار أمير جيشه، وأحسن إليه، وقصدا طبرستان واستولوا عليها. وكان ماكان بن كالي مع الحسن بن القاسم الداعي العلوي بالريّ، وقد استولى عليها، وأخرج عنها نواب السعيد، واستولى على قزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، فسار نحو طبرستان، والتقى هو وأسفار عند سارية[٢]، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم معظم أصحاب الحسن؛ قصدًا للهزيمة لكراهتهم له، فإنه كان يمنعهم من المظالم، وشرب الخمر، وارتكاب المحارم، فكرهوه، وكان أيضًا قد قتل جماعة منهم، فخذلوه في

---

(١) الجيل: هم أهل جيلان؛ وجيلان: بالكسر: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان.

(٢) سارية: بعد الألف راء ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة: هي مدينة بطبرستان.. بها كان منزل العامل في أيام الطاهرية، وكان العامل قبل ذلك في آمل.. وبين سارية والبحر ثلاثة فراسخ، وبين سارية وآمل ثمانية عشر فرسخًا... (معجم البلدان).

هذه الحادثة، فقتل الداعي، واستولى أسفار على بلاد طبرستان، والريّ، وجرجان، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، والكرج، ودعا بها لصاحب خراسان نصر بن أحمد، واستعمل هارون سندان، وهو أحد رؤساء الجيل وخال مرداويج على آمل[١]، وكان هارون يحتاج أن يخطب فيها لأبي جعفر العلوي، وخاف أسفار ناحية أبي جعفر أن يجدد له فتنة وحربًا، فاستدعى هارون إليه، وأمره أن يتزوج من أعيان آمل، ويحضر عرسه أبو جعفر، وغيره من رؤساء العلويين، وأن يفعل ذلك في يوم ذكره له، ففعل، ثم سار أسفار من سارية مُجدًّا لموافاة العرس، فوصل آمل في يوم الموعد، وقد اجتمع العلويون عند هارون فهجم على الدار على حين غفلة، وقبض على أبي جعفر، وغيره من أعيان العلويين، وحملهم إلى بُخارى، فاعتقلوا بها. ولما فرغ أسفار من ذلك سار إلى الريّ وبها ماكان بن كالي، فأخذها منه، وسار ماكان إلى طبرستان، فأقام هناك. وأحب أسفار أن يستولي على «قلعة ألموت»، وهي قلعة على جبل عال شاهق في حدود الديلم، وكانت لسياه جشم، ومعناه: الأسود العين لأنه كان على إحدى عينيه نقطة سوداء، فراسله أسفار، ومنّاه، فقدم عليه، فسأله أن يجعل عياله في قلعة ألموت، وولاه قزوين، فأجابه إلى ذلك، ونقلهم إليها، ثم كان يرسل إليهم من يثق به من أصحابه، فلما حصل له بها مائة رجل استدعاه من قزوين[٢]، وقبض عليه وقتله، وعظمت جيوش أسفار، وطار اسمه، فتجبر وعصى على الأمير السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان وما وراء النهر، فسيّر الخليفة المقتدر هارون بن غريب إلى أسفار في عسكر، فالتقوا، واقتتلوا نحو قزوين، فانهزم هارون، وقتل من أصحابه خلق كثير بباب قزوين، وكان أهل قزوين قد ساعدوا هارون، فحقد عليهم أسفار، ثم سار الأمير نصر بن أحمد من بُخارى، وقصد حرب أسفار لخروجه عن طاعته وبلغ نيسابور، فجمع أسفار عسكره، فأشار عليه وزيره مطرف بن محمد بمراسلته، والدخول في طاعته، وبذل المال له، إن أجاب، وإلا فالحرب بعد ذلك، وكان في عسكره جماعة من الأتراك أصحاب صاحب خراسان، فخوفه الوزير منهم،

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل.. بين آمل وسارية ثمانية عشر فرسخًا، وبين آمل والرويان اثنا عشر فرسخًا، وبين آمل وسالوس، وهي من جهة الجيلان، عشرون فرسخًا... وآمل أيضًا: مدينة مشهورة في غربي جيحون على طريق القاصد إلى بخارا من مرو... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قزوين: بالفتح ثم السكون، وكسر الواو، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الريّ سبعة وعشرون فرسخًا وإلى أبهر اثنا عشر فرسخًا.. أول من استحدثها سابور ذو الأكتاف واستحدث أبهر أيضًا... (معجم البلدان).

فرجع إلى رأيه، وراسله، فقبل صاحب خراسان ذلك منه، وشرط عليه شروطًا منها: حمل الأموال، والطاعة، وغير ذلك، فشرع أسفار بعد تمام الصلح في بسط الأموال على الريّ وأعمالها، وجعل على كل رجل دينارًا إلا أهل البلد، والمحاربين، فحصّل من ذلك مالاً عظيمًا أرضى منه صاحب خراسان بالبعض ورجع عنه، وعظم أمر أسفار، وزاد تجبره، وقصد قزوين لما في نفسه من أهلها، فأوقع بهم، وأخذ أموالهم، وقتل كثيرًا منهم، وسلط الدّيلم عليهم، وسمع المؤذن يؤذن، فأمر بإلقائه من المنارة إلى الأرض، فاستغاث الناس من شره وظلمه. وخرج أهل قزوين إلى الصحراء: والرجال، والنساء، والولدان يتضرعون إلى الله تعالى، ويدعون عليه، ويسألون الله تعالى كشف ما بهم، فبلغه ذلك، فضحك وسبهم استهزاء بهم، فقابله الله تعالى في الغد من نهار الدعاء عليه بما سنذكره.

ذكر مقتل أسفار بن شيرويه

كان سبب قتله أن مرداويج كان أكبر قواده، وكان قد أرسله إلى سلار صاحب سمِيران[1] الطَّرْم يدعوه إلى طاعته، فلما وصل إليه مرداويج تشاكيا ما الناس فيه من الجهد والبلاء، فتعاقدا، وتحالفا على قصده، والتساعد على حربه، وكان أسفار قد وصل إلى قزوين، وهو ينتظر وصول مرداويج بكتابه، فكتب مرداويج إلى جماعة من القواد يثق بهم يعرفهم ما اتفق هو وسلار عليه، فأجابوه إلى ذلك، وكان الجند قد سئموا أسفار، وسوء سيرته، وظلمه، وجوره، وكان الوزير مطرف بن محمد، ممن أجاب مرداويج، ووافقه، فسار مرداويج نحو أسفار، فبلغه الخبر، وأحس بالشر وثار الجند به، فهرب في جماعة من خاصته، وذلك عقب حادثة أهل قزوين، ودعائهم عليه. فورد الريّ، وأراد أن يأْخذ من مال من كان بها، فمنعه نائبه المقيم بها، ولم يعطه غير خمسة آلاف دينار، فتركه، وانصرف إلى خراسان وأقام بناحية بيهق[2]. وأمّا مرداويج، فإنه وصل إلى قزوين، وسار منها إلى الريّ، وكتب إلى «ماكان بن كالي»، وهو بطبرستان يستدعيه ليتساعدا على أسفار، فسار «ماكان» إلى «أسفار»، فسار أسفار

(١) سميران: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وآخره نون، وبعد الميم ياء مثناة من تحت ثم راء مهملة: قلعة حصينة على نهر عظيم جار بين جبال في ولاية تارم، خربها صاحب ألموت... (معجم البلدان).

(٢) بيهق: بالفتح: ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية بين نيسابور وقومس وجوين، بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخًا... (معجم البلدان).

إلى بست[١]، وركب المفازة نحو الريّ ليقصد قلعة «ألموت» التي بها أهله وأمواله، فانقطع عنه بعض أصحابه، والتحق بمرداويج وأعلمه بخبره، فخرج مرداويج من ساعته في أثره وقدم بعض قواده بين يديه، فلحقه القائد، وقد نزل ليستريح، فسلم عليه بالإمرة، فقال له أسفار: لعلكم اتصل بكم خبري، وبعثت في طلبي قال: نعم، فضحك، ثم سأل القائد عن قواده الذين خذلوه، فأخبر أن مرداويج قتلهم، فتهلل وجهه، وقال كانت حياة هؤلاء غصة في حلقي، وقد طابت الآن نفسي، فامض لما أمرت به، وظن أنه أمر بقتله، فقال ما أمرت فيك بسوء، وحمله إلى مرداويج، فقتله، وانصرف إلى الريّ.

وقيل في قتله: إنه لما قصد ألموت نزل في دار هناك، واتفق أن مرداويج خرج إلى الصيد فرأى خيلاً يسيرة، فسيَّر من يكشف خبرها، فوجد رجل أسفار، فقبض عليه، وذبحه بيده، وقيل: بل دخل أسفار إلى رحا[٢]، وقد نال منه الجوع، فطلب من الطحّان ما يأكله، فقدم إليه خبزًا ولبنًا، فبينما هو يأكل وغلام له ليس معه غيره، إذ أقبل مرداويج إلى تلك الناحية في طلبه، فأشرف على الرحا فرأى أثر الخيل، فوصل إلى الرحا، وأخذه وقتله.

ذكر ملك مرداويج

وهو الثاني من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. كان ابتداء ملكه عند هرب أسفار، ولما قتله عاد إلى قزوين، وأحسن إلى أهلها، ووعدهم الجميل، وتمكن ملكه، وتنقل في البلاد، وملكها مدينة بعد أُخرى، وولاية بعد ولاية، فملك قزوين، والريّ، وهمذان، كِنْكَوِر[٣]، والدينور، وبروجرد[٤]، وقم، وقاجان، وأصفهان،

(١) بست: بالضم: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، ظنّها ياقوت الحموي من أعمال كامل.. وهي كبيرة، ويقال لناحيتها في زمن ياقوت كرم سير.

(٢) رحا: موضع بسجستان؛ ينسب إليه محمد بن أحمد بن إبراهيم الرحائي السجستاني، روى عن أبي بشر أحمد بن محمد المروزي... (معجم البلدان).

(٣) كنكور: بكسر الكافين، وسكون النون، وفتح الواو: بليدة بين همذان وقرميسين وفيها قصر عجيب يقال له قصر اللصوص... وكنكور أيضًا: قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر معدودة في قلاع ناحية الزوزان وهي لصاحب الموصل... (معجم البلدان).

(٤) بروجرد: بالفتح ثم الضم ثم الكسون، وكسر الجيم، وسكون الراء، ودال: بلدة بين همذان وبين الكرج، بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ.. وهي مدينة خصبة كثيرة الخيرات تحمل فواكهها إلى الكرج وغيرها... (معجم البلدان لياقوت).

وجَرباذْقان[١]، وغيرها، ثم أساء السيرة في أهل أصفهان خاصة، وأخذ الأموال، وهتك المحارم، وطغى وتجبر، وعمل سريرًا من ذهب يجلس عليه، وسررًا من فضة يجلس عليها أكابر القواد، وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفًا بالبعد منه، ولا يخاطبه أحد غير الحجاب الذين رتبهم لذلك، وخافه الناس خوفًا عظيمًا.

ذكر ملك طبرستان وجرجان

قد ذكرنا أن مرداويج كان قد كاتب ماكان، وطلبه منه المعاضدة على أسفار وموافقة ماكان له، فلما ملك مرداويج، وقوي أمره طمع في طبرستان، وجرجان، وكانتا مع ماكان، فجمع عساكره، وسار نحو طبرستان، فاستظهر على ماكان، واستولى على البلد، ورتب فيها أبا القاسم بن باحين، وهو إسفهسلار[٢] عسكره، وكن حازمًا شجاعًا جيد الرأي، ثم سار مرداويج نحو جرجان، وكان بها من قبل ما كان شيرزيل بن سلار، وياغلي بن ترلي، فهربا من مرداويج، فملكها، ورتب فيها سرجاب نائبًا عن أبي القاسم، فاجتمع لأبي القاسم جرجان، وطبرستان، وعاد مرداويج إلى أصفهان، وسار ماكان إلى الديلم، واستنجد بأبي الفضل الثائر بها، فأكرمه، وسار معه إلى طبرستان، فلقيهما نائب مرداويج، وتحاربوا، فانهزم ماكان والثائر، فعاد الثائر إلى الديلم، وقصد «ماكان» بنيسابور، ودخل في طاعة السعيد الساماني صاحب خراسان، واستنجد به، فأمدّه بأبي علي محمد بن المظفر، واستمد نائب جرجان مرداويج، فأمده بأكثر جيشه، فالتقوا، فانهزم أبو علي وماكان، وعاد إلى نيسابور، وعاد ماكان إلى الدامغان[٣] ليملكها، فمنعه نائب مرداويج بجرجان من ذلك، فعاد إلى خراسان. وهذه الوقائع كلها ساقها ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل في حوادث سنة ست عشرة وثلاثمائة، وما أظنها في هذه السنة خاصة، بل فيها وفيما بعدها، لكنه ـ والله أعلم ـ قصد أن يكون الخبر سياقة حتى لا ينقطع، وهذا كان دأبه في كثير من الوقائع، وهو حسن.

---

(١) جرباذقان: بالفتح: بلدة قريبة من همذان بينها وبين الكرج وأصبهان، كبيرة مشهورة... (معجم البلدان).

(٢) إسفهسلار: مركبة من كلمتين الأولى فارسية (اسفه) بمعنى المقدم، والأخرى تركية (سلار) بمعنى العسكر: مقدم العسكر.

(٣) الدامغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور، وهو قصبة قومس؛ قال مسعر بن مهلهل: الدامغان مدينة كثيرة الفواكه وفاكهتها نهاية، والرياح لا تنقطع بها ليلًا ولا نهارًا، وبها مقسم للماء كسرويّ عجيب يخرج ماؤه من مغارة في الجبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسمًا لمائة وعشرين رستاقًا لا يزيد قسم على صاحبه... (معجم البلدان).

ذكر الحرب بين مرداويج وبين هارون بن غريب

قال: ولما استتب لمرداويج الأمر أتاه الديلم من كل ناحية لبذله، وإحسانه إلى جنده، فعظمت جيوشه، وكثرت عساكره، وكثر الخرج عليه، فلم يكفه ما بيده، ففرق نوابه في النواحي المجاورة له، وبعث إلى همذان[١] ابن أخت له في جيش كثيف، وكان بها أبو عبد الله محمد بن خلف في عسكر للخليفة، فتحاربوا وأعان أهل همذان عسكر الخليفة، فظفروا بالديلم، وقتل ابن أخت مرداويج، فسار إلى همذان، فلما سمع أصحاب الخليفة بمسير مرداويج انهزموا، وفارقوا همذان، ونازلها مرداويج، فتحصن أهلها منه، فقاتلهم، وظفر بهم، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأحرق وسبى، ثم رفع السيف وأمر بنفيهم، فأنفذ المقتدر هارون بن غريب في عساكر كثيرة لمحاربته، فالتقوا بنواحي همذان، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم هارون، واستولى مرداويج على بلاد الجبل جميعها، وما وراء همذان، وسيّر قائدًا من قواده يعرف بابن عجلان القزويني إلى الدِّينَوَر، ففتحها بالسيف، وقتل كثيرًا من أهلها، وبلغت عساكره، إلى نواحي حلوان فغنمت، وقتلت، ونهبت، وسبت، وعادت إليه.

ذكر ملكه أصفهان

قال: ثم أنفذ مرداويج طائفة أخرى إلى أصفهان، فملكوها، واستولوا عليها، وبنوا له فيها مساكن أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف فسار مرداويج إليها، ونزلها، وهو في أربعين ألفًا، وقيل خمسين ألفًا، وأرسل جمعًا آخر إلى الأهواز، فاستولوا عليها وعلى خوزستان، وجبوا أموال تلك البلاد، والنواحي، فقسمها في أصحابه، وادخر منها ذخائر كثيرة، ثم أرسل إلى المقتدر رسولاً يقرر على نفسه مالاً على هذه البلاد، ونزل للمقتدر عن همذان، فأجابه إلى ذلك، وقرر عليه مائتي ألف دينار في كل سنة.

ذكر وصول وشمكير إلى أخيه مرداويج

قال: ولما استقرّ ملك مرداويج أرسل في طلب أخيه وشمكير، وهو ببلاد جيلان يستدعيه. قال الجعد: أرسلني إليه فجئته فإذا هو في جماعة يزرعون الأرز،

---

(١) همذان: بالتحريك، والذال معجمة، وآخره نون: كانت همذان أكبر مدينة بالجبال وكانت أربعة فراسخ في مثلها، طولها من الجبل إلى قرية يقال لها زينواباذ. . . (معجم ياقوت).

فلما رأوني قصدوني وهم عرايا حفاة عليهم سراويلات ملوّنة الخرق مرقعة، فسلمت على وشمكير، فأبلغته رسالة أخيه، وأعلمته ما هو فيه، وما حازه من الملك، فضرط بفيه في لحية أخيه، وقال: إنه لبس السواد، وخدم المسودة يعني الخلفاء، فما زلت أمنّيه وأطمعه حتى خرج معي، فلما بلغنا قزوين اجتهدت به حتى لبس السواد، ورأيت من جهله أشياء أستحيي أن أذكرها، ثم أعطته السعادة ما كان في الغيب، فجاء من أعرق الملوك بتدبير الممالك، وسياسة الرعايا، وكان وصوله إلى أخيه في سنة عشرين وثلاثمائة.

ذكر مقتل مرداويج

كان مقتله في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وسبب ذلك أنه كان كثير الإساءة إلى الأتراك، وكان يقول: إن روح سليمان بن داود حلت فيه، وإن الأتراك هم المردة والشياطين، فإن قهرهم، وإلا أفسدوا، فثقلت وطأته عليهم، فلما كان في ليلة الميلاد من هذه السنة، أمر بأن يجمع الحطب من الجبال والنواحي، وأن يجعل على جانبي الوادي المعروف بزندره، ويعمل مثله على الجبل المعروف «بكر ثم كُوه» المشرف على أصفهان من أسفله إلى أعلاه بحيث إذا اشتعلت النيران يصير الجبل كله نارًا، وعمل مثل ذلك بجميع الجبال والتلال التي هناك، وجمع النفط، ومن يلعب به، وجمع له أكثر من ألفي غراب وحدأة[1] ليجعل في أرجلها النفط، وترسل لتطير في الهواء، وأمر بعمل سماط عظيم كان فيه مائة فرس، ومائتا رأس من البقر مشوية صحاحًا، وثلاثة آلاف رأس من الغنم شواء، غير المطبوخ ومن الأوز والدجاج عشرة آلاف طائر، وما يناسب ذلك من الحلوى، وركب آخر النهار بغلمانه فطاف بالسماط، ونظر إليه، وإلى تلك الأحطاب، فاستحقر الجميع لسعة البرية، ولعن وغضب وعاد فدخل خركاه[2]، وقام، فلم يجسُر أحدٌ أن يكلِّمه، واجتمع الأُمراء والقواد وغيرهم، وكادت الفتنة تقوم لخوفهم منه، فأتاه وزيره العميد، وتلطف به، وعرَّفه ما الناسُ فيه، فخرج، وجلس على السِّماط، وأكل ثلاث لقم، ونهب الناس الباقي، ولم يجلس للشراب، وعاد إلى مكانه، وأقام ثلاثة أيام لا يظهر، فلما كان في اليوم الرابع أمر بإسراج الخيل ليعود إلى منزله، فاجتمع خلق كثير وشغبت الدواب مع الغلمان، وصهلت، ولعبت، فصار الغلمان يصيحون بها لتسكن، فاجتمع من ذلك أصوات

---

(١) الحدأة: طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.

(٢) الخركاه: الخيمة؛ أو القبة.

هائلة مختلفة منكرة، وكان مرداويج نائمًا، فاستيقظ، فسمع ذلك، وسأل عنه، فعرف صورة الحال، فازداد غضبًا، وقال ما كفى من إخراق الحرمة ما فعلوه من نهب السماط، وما أرجفوا به حتى انتهى أمر هؤلاء الطلاب إلى هذا، وسأل عن أصحاب الخيل، فقيل: إنها للأتراك، وقد نزلوا للخدمة، فأمر أن تحط السروج عن الدواب، وتوضع على ظهور أصحابها، ويأخذون بإرسال الدواب إلى الإصطبلات، ومن امتنع من ذلك ضربه الديلم، ففعلوا ذلك، فكانت صورة قبيحة أنفت منهم نفوسهم. ثم ركب مع خاصته، وهو يتوعد الأتراك حتى صار إلى داره بعد العشاء بعد أن ضرب جماعة من أكابر الأتراك، فاجتمعوا، وقالوا ما وجه صبرنا على هذا الشيطان، وتحالفوا على الفتك به، واتفق دخوله الحمام، وكان كورتكين يحرسه في حمامه وخلواته، فأمره في ذلك اليوم أن لا يتبعه، فتأخر مغضبًا، وكان هو الذي يجمع الحرس، فلم يأمر الحرس باتباعه. وكان له خادم أسود يتولى خدمته بالحمام، فاستمالوه، فمال إليهم، وهجم الأتراك على الحمام، فقام أستاذ داره(١)، وهو خادم، ليمنعهم، فضربه بعضهم بالسيف، فقطع يده، فصاح، فعلم مرداويج، فغلق باب الحمام، وتربسه(٢) بسرير كان يجلس عليه إذا غسل رأسه، فصعدوا السطح، وكسروا الجامات(٣)، ورموه بالنشاب، ثم كسروا باب الحمام، ودخلوا عليه، وقتلوه، وكان الذي جمع الناس على قتله توزون، وهو الذي صار أمير العساكر بالعراق، وياروق، ومحمد بن ينال الترجمان، وبجكم وهو الذي تولى إمرة العراق. قال: ولما قتلوه أعلموا أصحابهم، فنهبوا قصره، وهربوا. هذا ولم يعلم بهم الديلم، فلما علموا ركبوا في آثارهم، فلم يلحقوا منهم إلا نفرًا يسيرًا، فقتلوهم، وعادوا، واجتمع رؤساء الديلم والجيل، وتشاوروا على من يقوم مقامه، فاجتمعوا على طاعة أخيه وشمكير.

ذكر ملك وشمكير بن زيار

وهو الثالث من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. قال: ولما قتل مرداويج كان وشمكير بالريّ، فحملوا تابوت مرداويج، وساروا نحو الريّ، فخرج وشمكير، ومن عنده من أصحابه، وتلقوا التابوت مشاة حفاة على أربعة فراسخ، وكان يومًا مشهودًا. واجتمع على وشمكير عساكر أخيه. قال: وكان ركن الدولة بن بويه في جيش

---

(١) أستاذ داره: المراد بها الذي يتولى قبض مال السلطان وصرفه.

(٢) تربس الباب: أغلقه.

(٣) الجام: الجامة: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها. جمع جامات.

مرداويج رهينة عن أخيه عماد الدولة، فإنه كان قد بذل من نفسه الطاعة لمرداويج، ورهن عنده أخاه، فلما قتل مرداويج بذل للموكلين به مالاً، فأطلقوه، فهرب إلى أخيه عماد الدولة بفارس.

ذكر ما فعله الأتراك بعد قتل مرداويج

قال: ولما قتلوه تفرقوا على فرقتين، ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه بفارس، وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم، وهي أكثرها، فجبوا الأموال، وخراج الدّينور[١] وغيرها، وصاروا إلى النهروان، فكاتبوا الخليفة الراضي بالله في المسير إلى بغداد، فأذن لهم، فدخلوا، فظن الحُجريّة[٢] أن ذلك حيلة عليهم، فطلبوا رد الأتراك إلى بلد الجبل، فأمرهم ابن مقلة بذلك، وأطلق لهم مالاً، فلم يرضوا به، وغضبوا فكاتبهم ابن رائق، وهو بواسط، وله البصرة، فاستدعاهم فمضوا إليه، وقدم عليهم بجكم وأمره بمكاتبة الأتراك والديلم أصحاب مرداويج، فكاتبهم، فقدم منهم عدة، فأحسن إليهم، وأمره أن يكتب إلى الناس في كتبه بجكم الرائقي، وكان من أمر بجكم ما قدمناه في أخبار الدوْلة العباسية.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة أرسل وشمكير جيشًا كثيفًا من الريّ إلى أصفهان، وبها ركن الدولة بن بويه، فأزالوه عنها، وخطبوا لوشمكير، وسار وشمكير إلى قلعة «ألموت» واستولى عليها، ودامت أيام وشمكير إلى سنة سبع وخمسين.

ذكر وفاة وشمكير

كانت وفاته في المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وذلك أنه ركب للصيد، فعارضه خنزير قد رمي بحربة، وهي ثابتة فيه، فحمل الخنزير عليه، وهو غافل، فضرب الفرس الذي تحته فشبَّ به، فألقاه إلى الأرض، فخرج الدم من أنفه وأذنيه، فمات. وكانت مدة ملكه أربعًا وثلاثين سنة تقريبًا، ولما مات قام بالأمر بعده ابنه بهشيتون.

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل... (معجم البلدان).

(٢) الحجرية: قال ابن الأثير: يجوز أن تكون منسوبة إلى الحجْر قصبة اليمامة، أو إلى حجرة القوم وهي ناحيتهم... (اللسان مادة حجر).

ذكر ملك ظهير الدولة بهشيتون بن وشمكير

وهو الرابع من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. ملك ماكان في مملكة أبيه بعد وفاته، وذلك في المحرم سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، قال: ولما ملك صالح ركن الدولة بن بويه، فأمدَّه بالخيل، والمال، والرجال، وكان وشمكير قد قصد ركن الدولة، وأتته العساكر من قبل الأمير منصور بن نوح الساماني، وكتب إلى ركن الدولة يهدده ويسبه في كتابه، ويقول: والله إن ظفرت بك لأفعلن، ولأصنعن، فلم يجسر الكاتب أن يقرأه على ركن الدولة، فقرأه هو، وقال للكاتب اكتب إليه: أما تهددك، فوالله لئن ظفرت بك لأعاملنك بضد ما كتبت، ولأحسنن إليك، ولأُكرمنك، فلما مات استقر الصلح بين ظهير الدولة، وركن الدولة، ودامت أيام بهشيتون إلى سنة ست وستين وثلاثمائة، فتوفي بجرجان[(١)]، وكانت مدة ملكه تسع سنين وشهورًا، ولما مات ملك بعده أخوه.

ذكر ملك شمس المعالي قابوس بن وشمكير

وهو الخامس من ملوك الدولة الديلمية الجيلية. كان ملكه بعد وفاة أخيه بهشيتون في سنة ست وستين وثلاثمائة، وكان عند وفاته عند خاله بجبل شهريار، وخلف بهشيتون ابنًا صغيرًا بطبرستان مع جده لأمه، فطمع جده أن يأْخذ الملك، فبادر إلى جرجان، فرأى بها جماعة من القواد قد مالوا إلى قابوس، فقبض عليهم، وبلغ قابوس الخبر، فسار إلى جرجان، فلما قاربها خرج الجيش إليه، واجتمعوا عليه، وأطاعوه، وملكوه، فهرب من كان مع ابن بهشيتون، وتركوه، فأخذه عمه قابوس وكفله، وجعله أسوة أولاده، واستولى على جرجان، وطبرستان، ودام ملكه إلى أن خلع، وقتل، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر خلع قابوس بن وشمكير وقتله
وولاية ابنه ملك المعالي منوجهر

وفي سنة ثلاث وأربعمائة خُلع شمس المعالي قابوس بن وشمكير، فكانت مدة ملكه سبعًا وثلاثين سنة، وكان سبب خلعه أنه ـ مع ما كان فيه من الفضائل الجمّة،

---

(١) جرجان: بالضم، وآخره نون: مدينة عظيمة مشهورة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه، وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة... (معجم البلدان).

وحسن السياسة ـ كان شديد المؤاخذة، قليل العفو، يقتل على الذنب اليسير، فضجر أصحابه منه، واستطالوا أيّامه، وأجمعوا على خلعه، والقبض عليه، وكان حينئذ غائبًا عن جُرجانَ ببعض قلاعه، فلم يشعر إلا وقد أحاط العسكر به، وانتهبوا أمواله ودوابَّه، وقصدوا استِنْزاله، فمانع عن نفسه، فرجعوا إلى جرجان، واستولوا عليها وعصوا بها، وبعثوا إلى ابنه منوجهر وهو بطَبرِستان يعرِّفونه الحال، ويستدعونه ليولوه أمرهم، فسار عَجلاً خوفًا من خروج الأمر عنه، فالتقوا، واتفقوا على طاعته إن هو خلع أباه، فأجابهم على كُرهٍ منه، وكان شمسُ المعالي قد توجّه إلى بسطام[1]، فقصدوه، فلما وصل منوجهر إلى أبيه اجتمع به، وخلا معه، وعرفه ما هو فيه، وعرض عليه أن يقاتل معه منْ خرج عليه، ولو كان فيه ذهاب نفسه، فرأى قابوس خلاف ذلك، وسهل عليه الأمر حيث صار إلى ابنه، وسلم له خاتم الملك، وانتقل إلى قلعته: جنَاشْك[2] ليتفرغ للعبادة، وسار منوجهر إلى جرجان، وضبط الملك، وأخذ في مداراة الذين خرجوا على أبيه، فدخلوا عليه في بعض الأيام وحسَّنوا له قتل والده، وخوفوه، وصمموا على إعدامه، وهو لا يجيبهم بكلمة، ثم فارقوه وجاؤوا إلى أبيه، وقد دخل الطهارة، وهو متخفف، فأخذوا ما كان عليه من الكسوة، وكان فصل الشتاء، فصار يستغيث ويقول: أعطوني، ولو جلَّ دابة حتى مات من شدة البرد، وجلس ولده منوجهر للعزاء.

وكان قابوس غزير الأدب، وافر العلم، له رسائل، وشعر حسن. وكان عالمًا بالنجوم.

قال: ولما ملك منوجهر لقبه الخليفة القادر بالله ملك المعالي، ثم راسل يمين الدولة محمود بن سبكتكين، ودخل في طاعته، وخطب له على سائر منابر بلاده، وتزوج ابنته، فقوي عضده به، وشرع منوجهر في التدبير على قَتَلَةِ أبيه، فأبادهم بالقتل والتَّشريد.

واستمرّ في الملك إلى سنة عشرين وأربعمائة، فتوفي فيها، فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة.

ولما مات ملك بعده ابنه.

---

(١) بسطام: بالكسر ثم السكون: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين.

(٢) جناشك: بالفتح، والألف والشين المعجمة يلتقي عندهما ساكنان، وآخره كاف: من قلاع جرجان واستراباز مشهورة معروفة بالحصانة والعظمة... (معجم البلدان).

ذكر ملك أنو شروان دارا ابن ملك المعالي منوجهر ابن قابوس شمس المعالي

وهو السابع من ملوك الدولة الديلمية الجيلية ملك بعد وفاة أبيه منوجهر في سنة عشرين وأربعمائة، وقام بتدبير دولته أبو كاليجار القُوهي، وتقدم على جيشه، وتزوج بأُمه، ثم قبض عليه أنو شروان بعد ذلك بمساعدة أمه، فلما قبض عليه طمع فيه السلطان طغرلبك السلجقي، فسار إلى جرجان في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ومعه مرداويج بن بسو، ونازلها، فلم يمانعه أهلها، وفتح له أبوابها، وقرر على أهلها مائة ألف دينار صلحًا، وسلّمها إلى مرداويج، وقرّر عليه في كل سنة خمسين ألف دينار عن جميع الأعمال، ثم اصطلح أنو شروان ومرداويج، وتزوج بأم أنو شروان، وضمن له أنو شروان في كل سنة ثلاثين ألف دينار، وبقي أنو شروان يتصرف بأمر مرداويج لا يخالفه في شيءٍ، وأقيمت الخطبة لطغرلبك.

وانقرضت الدولة الديلمية الجيلية، وكانت مدة هذه الدولة منذ ملك أسفار بن شيرويه. في سنة ست عشرة وثلاثمائة، وإلى أن استولى طغرلبك على جرجان في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، مائة سنة وثمان عشرة سنة تقريبًا، وعدة من ملك منهم سبعة ملوك، وهم: أسفار بن شيرويه، ثم مرداويج بن زيار، ثم وشمكير بن زيار، ثم ظهير الدولة بهشيتون بن وشمكير، ثم شمس المعالي قابوس بن وشمكير، ثم ملك المعالي منوجهر قابوس، ثم ابنه أنو شروان دارا. وعليه انقرضت دولتهم. والله أعلم بالصواب.

ذكر أخبار الدولة الغزنوية

كان ابتداء هذه الدولة بغزنة[١] في سنة ست وستين وثلاثمائة، ثم استولت على خراسان، والغور[٢]، والهند، وغير ذلك، وأول من قام منهم سبكتكين، ونحن نذكر أخباره، وابتداء أمره إلى أن ملك بعده من أولاده، وأولادهم، إلى حين انقراض دولتهم.

---

(١) غزنة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، ثم نون: هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة إلا أن البرد فيها شديد جدًا. . . (معجم البلدان).

(٢) الغور: بضم أوله، وسكون ثانيه، وآخره راء: جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة مشهورة، وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه يسكن ملوكهم فيها. . . (معجم البلدان).

ذكر أخبار ناصر الدولة سبكتكين وابتداء أمره وما كان منه إلى أن ملك

كان سبكتكين من غلمان أبي إسحاق بن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية، وكان مقدمًا عنده، وعليه مدار أمره، وقدم إلى بُخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أبي إسحاق، فعرفه أربابُ تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأي، وعاد معه إلى غزنة، ثم لم يلبث أبو إسحاق أن توفي، ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم، فأجمع أصحابه رأيهم على سبكتكين، فقدموه عليهم، وولُّوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم، وساس أمورهم، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال، وكان يدخر من إقطاعه ما يعمل منه طعامًا لهم في كل أسبوع مرتين. فعظم شأنه، وارتفع قدره، وحسن ذكره، وتعلقت الأطماع بالاستعانة به.

ذكر ولايته قصدار وبست

كان سبب ذلك أن طغان خان صاحب بست خرج عليه أمير يعرف ببابي تور، فملك مدينة بست منه، وأجلاه عنها بعد حرب شديدة، فاستغاث بسبكتكين، والتزم بمال يحمله إليه في كل سنة، وطاعة يبذلها، فسار معه، ونزل على بست، وقاتل الخارج على طغان قتالاً شديدًا، وهزمه، وتسلم طغان البلد، فلما استقر فيه طالبه سبكتكين بما استقر عليه، فأخذ يماطله، فأغلظ له في القول لكثرة مطله، فحمل طغان الجهل على أن ضرب سبكتكين وحجز العسكر بينهما، وقامت الحرب بينهما على ساق، فانهزم طغان، واستولى سبكتكين على بست، وسار طغان إلى قصدار[1] ـ وكان يتولاها أيضًا ـ فعصى بها، واستعصم، وظن أن ذلك يمنعه من سبكتكين، فسار إليه جريدة[2]، فلم يشعر إلا والخيل معه، فأخذه من داره ثم منَّ عليه، وأطلقه، ورده إلى ولايته، وقرر عليه مالاً يحمله في كل سنة.

ذكر غزوة الهند، وما كان بينه وبينهم

قال: ولما فرغ سُبُكتكين من بُسْت وقُصْدار غزا الهند، فافتتح قلاعًا حصينة على شواهق الجبال، وعاد سالمًا ظافرًا، فلما رأى جيبال ملكُ الهند ما دهاه منه

(١) قصدار: بالضم ثم السكون، ودال بعدها ألف، وراء: ناحية مشهورة قرب غزنة، وهي من بلاد الهند.. وقصدار: قصبة ناحية يقال لها طوران وهي مدينة صغيرة لها رستاق ومدن... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

حشد، وجمع، واستكثر من الفِيَلَة، وسار حتى اتصل بولاية سُبُكتكين، فسار سبكتكين من غزنة بعساكره، وتبعه خلق كثير من المتطوعة، والتقوا واقتتلوا أيامًا كثيرة، وكانوا بالقرب من عقبة عورك، فلما طال الأمر على ملك الهند طلب الصلح، وقرر على نفسه مالاً يؤديه لسبكتكين وخمسين فيلاً وبلادًا يسلمها، فعجل المال والفيلة، وأعطى جماعة من أهله رهائن على البلاد، وسيَّر معه سبكتكين من يتسلَّمها. فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه من أصحاب سبكتكين، وجعلهم عنده عوضًا عن رهائنه، فلما اتصل ذلك بسبكتكين جمع العساكر وسار نحوه، وأخرب كل ما مرَّ عليه من بلاد الهند، وقصد لمغان(١)، وهي أحصن بلادهم، فافتتحها عنوة، وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، وسار عنها يفتح البلاد، ويقتل أهلها، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة، فجمع جيبال ملك الهند العساكر، وسار في مائة ألف مقاتل، ولقيه سبكتكين، وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود، ففعلوا ذلك حتى ضجر الهند من دوام القتال، وحملوا حملة واحدة، واشتد القتال، فانجلت الحرب عن هزيمة الهنود، وأخذهم بالسيف، وأُسر منهم خلق كثير، وغُنم من أموالهم، وأثقالهم، ودوابهم ما لا يحصى كثرة، فذلَّ الهنود بعد هذه الوقعة، وأطاع سبكتكين الأفغانية والخَلج ودخلوا تحت أمره وطاعته، فعظمت هيبته، واتسعت مملكته.

ذكر ملك محمود بن سُبكتكين خراسان

قال: وفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة كانت ولاية محمود بن سبكتكين خراسان من قِبلِ الأمير نوح بن منصور الساماني عوضًا عن أبي علي بن سيمجور، ولقَّبه الأمير نوح سيف الدولة، ولقَّب سُبكتكين ناصر الدولة، وأقام محمود بنيسابور، ثم كانت بينه وبين أبي علي بن سيمجور وقعة في سنة خمس وثمانين، فانهزم محمود، ثم جمع عساكره وعساكر أبيه، فأخرجا ابن سيمجور عنها في بقية السنة، واستقر ملك محمود بخراسان على ما قدمناه في أخبار الدولة السامانية.

ذكر وفاة ناصر الدولة سُبكتكين وولاية ولده إسماعيل

كانت وفاته رحمه الله في شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وكان إذ ذاك ببلخ(٢)، وقد جعلها مقر ملكه، وابتنى بها دورًا ومساكن، فمرض وطال مرضه، فارتاح

(١) لمغان: لامغان: من قرى غزنة.. وقيل: لامغان كورة تشتمل على عدة قرى في جبال غزنة وربما سميت لمغان؛ وقد نسب إليها جماعة من فقهاء الحنفية ببغداد... (معجم البلدان).

(٢) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.. بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخًا، ويقال لجيحون: نهر بلخ، بينهما نحو عشرة فراسخ... (معجم البلدان).

إلى هواء غزنة، فسار عن بلخ، فمات في طريقه، ونقل إلى غزنة، فدفن بها. وكانت مدة ملكه نحوًا من عشرين سنة، وكان عادلاً خيِّرًا، كثير الجهاد، حسنَ الاعتقاد، فاضلاً عارفًا، له نَظْم ونثر وخطَب في بعض الجُمَع، وكان يقول بعد الدعاء للخليفة: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

ولما حضرته الوفاة عهد إلى ولده إسماعيل بالملك، وكان أصغر من أخيه محمود، فبايعه الجند بعد وفاة أبيه، وحلفوا له، فأطلق لهم الأموال، ثم استصغروه، فاشتطّوا في الطلب حتى فنيت الخزائن التي خلفها سُبكتكين. ثم استولى محمود على الملك فكانت مدة ملك إسماعيل سبعة أشهر.

ذكر سلطنة يمين الدولة محمود بن سُبكتكين

وهو الثالث من ملوكهم. وهو أول من تلقب بالسلطان، ولم يتلقب بها أحد قبله.

قال: ولم بلغه خبر وفاة والده كان بنيسابور، فجلس للعزاء، ثم أرسل إلى أخيه إسماعيل يعزِّيه، ويعرفه أن أباه إنما عهد إليه بالملك لبُعده عنه، ويذكر له ما يتعيَّن من تقديم الكبير، وطلب منه الوفاق، وإنفاذ ما يخصه من ميراث أبيه، فلم يفعل. وتردَّدت الرسائل بينهما، فلم تستقر قاعدة، فسار محمود عن نيسابور إلى هراة(١) عازمًا على قصد غزنة، واجتمع بعمه بغراجق، فساعده على إسماعيل، وسار إلى بُست، وبها أخوه نصر، فتبعه، وأعانه، وسار إلى غزنة، وبلغ الخبر إسماعيل وهو ببلخ، فسار عنها مُجدًا فسبق أخاه محمودًا إلى غزنة، وكان الأمراء الذين مع إسماعيل قد كاتبوا أخاه محمودًا يستدعونه، ووعدوه الانحياز إليه، فجدّ في السير، والتقى هو وإسماعيل بظاهر غزنة، واقتتلا قتالاً شديدًا، فانهزم إسماعيل، واعتصم بقلعة غزنة، فحصره أخوه محمود، واستنزله منها بأمان، فلما نزل إليه أكرمه، وأحسن إليه، وشاركه في ملكه، وعاد إلى بلخ، واستقامت له الممالك، وعظم شأنه، وأطاعته العساكر.

---

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان.. فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان).

ذكر استيلاء يمين الدولة محمود على خراسان وانتزاعها من السامانية

كان سبب ذلك أن فائقًا وبكتوزون مدبري دولة الأمير منصور بن نوح قبضا عليه، وسملاه كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار السامانية، فسار السلطان محمود نحوهما، والتقوا بمرو[١] في جُمادى الأُولى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم السامانية، فلحق عبد الملك، وفائق ببُخارى، وقصد بكتوزون نيسابور، ثم قصد نواحي جُرجان، فأرسل محمود خلفه أرسلان الجاذب، فاتبعه حتى ألحقه بجرجان، وعاد، فاستخلفه محمود على طوس[٢]، وسار إلى هراة، فلما علم بكتوزون بمسير محمود عن نيسابور عاد إليها وملكها، فقصده محمود، فهرب منه إلى بُخارى بعد أن نهب مرو على طريقه، واستقر ملك محمود بخراسان، وزال ملك السامانية منها، وخطب بها للقادر بالله، وكان يخطب بها إلى هذا التاريخ للطائع بعد خلعه، وولى محمود قيادة جيوش خراسان أخاه نصرًا، وجعله بنيسابور، وسار هو إلى بلخ، وهي مستقر ملك أبيه، واتخذها دار مُلْك، واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته كآل قريغون أصحاب الجَوْزَجَان[٣]. وكالشار الساه صاحب غَرْشِسْتان[٤]، والشار: لقب لمن ملك غَرْشسْتان ككسرى الفرس، وقيصر الروم. وفي سنة تسعين وثلاثمائة قتل بغراجق عم يمين الدولة؛ قتله طاهر بن خلف بن أحمد صاحب سجستان في حرب بينهما، فسار يمين الدولة نحو خلف بن أحمد أبو طاهر، فتحصن منه بحصن أصهنه، فحاصره، وضيّق عليه، فبذل الأموال، فأجابه إلى ما طلب، وأخذ رهائنه على ما تقرر من المال. والله أعلم بالصواب.

---

(١) مرو: مرو الروذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغير بالنسبة إلى مرو الأخرى.. ومرو الشاهجان: أشهر مدن خراسان وقصبتها... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية... (معجم البلدان).

(٣) جوزجان: هو اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار... (معجم البلدان).

(٤) غرشستان: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة مكسورة، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل، هراة في غربيها والغور في شرقيها... (معجم ياقوت).

ذكر غزوة الهند

وفي المحرم سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة أحب يمين الدولة أن يغزو الهند ويجعل ذلك كفارةً لقتاله مع المسلمين، فسار ونزل على مدينة بُرشَوَرَ، والتقى هو وجيبال ملك الهند، واقتتلوا إلى نصف النهار، فانهزم الهند، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر ملكهم جيبال وجماعة كثيرة من أهله وعشيرته، وغنم المسلمون أموالهم وجواهرهم، وأخذ من عنق جيبال قلادة من الجوهر قومت بمائتي ألف دينار، وأخذ أمثالها من أعناق مقدميه الأسرى، وغنم المسلمون خمسمائة ألف من الرقيق، وفتح كثيرًا من بلاد الهند، ثم أحب أن يطلق جيبالاً ليراه الهنود في شعار الذل، فأطلقه على مال قرره عليه، فأدى جيبال المال، ومن عادة الهنود أنه من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيرًا لم يُعقد له بعدها رئاسة، فلما رأى جيبال حاله بعد خلاصه حلق رأسه، وألقى نفسه في النار، فاحترق.

ثم سار محمود نحو ويهند[١]، فحاصرها، وأخذها عنوة، ثم بلغه أن طائفة من الهند اجتمعوا في شعاب تلك الجبال، فجهز إليهم من عساكره من قتلهم، فلم يسلم منهم إلا الشريد، وعاد إلى غزنة مؤيدًا منصورًا سالمًا ظافرًا.

ذكر ملكه سجستان

وفي سنة تسعين وثلاثمائة ملك يمين الدولة سجستان[٢]، وانتزعها من خلف ابن أحمد؛ وكان سبب ذلك أن يمين الدولة لما رحل عن خلف بعد مصالحته على المال كما قدمناه عَهِدَ خلفٌ لولده طاهر، وسلم إليه مملكته، وانقطع للاشتغال بالعلم، وإنما فعل ذلك ليظهر ليمين الدولة تخلِّيه عن الملك لينقطع طمعهُ عن بلاده، فعقَّه ولدُه، واستقلَّ بالملك، فأخذ أبوه يلاطفه، وادعى المرض، فزاره ابنه طاهر، فقبض عليه، وسجنه إلى أن مات في سجنه، فتغير العسكر لذلك، وكاتبوا يمين الدولة في تسليم سجستان إليه، فجهّز من تسلمها، وقصد خلفًا، وهو في حصن الطاق[٣]، وهذا الحصن له سبعة أسوار محكمة يحيط بها خندق عريض لا يعبر إليها

(١) ويهند: قصبة القندهار على غرب نهر السند. . . (أبي الريحان البيروني - تحقيق ماكلهند من مقولة ١٦٥).

(٢) سجستان: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة. . بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملة سبخة. . . (معجم البلدان)..

(٣) حصن الطاق: حصن بطبرستان في جبل كان خزانة لملك الفرس.

إلا من جسر منه، فرفع الجسر وأمر يمين الدولة بطمّ الخندق بالأخشاب والتراب، فطموا منه ما يعبرون عليه إلى السور، وتقدم الفيل الكبير إلى باب السور واقتلعه بنابيه، وملك سورًا بعد سور، فطلب خلَف الأمانَ، فأمنه وحضر إليه، فأكرمه، وملك الحصن، وخيّر خلفًا في المقام حيث شاء، فاختار أرض الجوزجان، فسيّره إليها مكرمًا، فأقام نحو أربع سنين، ثم بلغ يمين الدولة أنه كاتب إيلك خان ملك ما وراء النهر يحثه على قصد يمين الدولة، فنقله إلى جردين[١]، فكان بها إلى أن مات في شهر رجب سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فسلم محمود جميع ما خلفه إلى ولده أبي حفص، وكان خلف هذا من العلماء، وله كتاب صنفه في تفسير القرآن العظيم من أكبر كتب التفاسير. قال: ولما ملك يمين الدولة سجستان استخلف عليها أميرًا كبيرًا من أمرائه يسمّى قنجي الحاجب، ثم أقطعها لأخيها نصر بن سُبكتكين مضافة إلى نيسابور. والله أعلم.

ذكر غزوة بهاطية، وملكها

وفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطيه من أعمال الهند، وهي وراء المولتان[٢]، وصاحبها بجراء. وهي مدينة حصينة عالية السور يحيطها خندق عميق، فامتنع صاحبها، ثم ظهر، فقاتل ثلاثة أيام، وانهزم في اليوم الرابع، وقصد المدينة، فسبقه المسلمون إلى بابها، وملكوها، فهرب بخاصته إلى رؤوس الجبال، فجهز إليه يمين الدولة من يقاتله، فلما رأى الغلبة قتل نفسه بخنجر، وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أحوالها، وعاد عنها بعد أن ترك بها من يثق به، ومن يُعَلِّم من أسلم شرائع الإسلام، ولقي في عوده شدة كثيرة من كثرة الأمطار، وزيادة الأنهار، وغرق من عسكره خلق كثير.

ذكر غزوة المولتان

وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة بلغ يمين الدولة أن أبا الفتوح والي المولتان خَبُث اعتقاده، ونُسب إلى الإلحاد، وأنه دعا أهلَ ولايته إلى ذلك، فأجابوه، فرأى أن

---

(١) جردان: (كما في معجم البلدان لياقوت): الدال مهملة، وآخره نون: بلد قرب كابلستان بين غزنة وكابل، به يصيف أهل ألبان.

(٢) المولتان: بضم أوله وسكون ثانيه: بلد في بلاد الهند على سمت غزنة، قال الإصطخري: وأما المولتان فهي مدينة نصف المنصورة ويسمى فرج بيت الذهب وبها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها. . . (معجم البلدان).

يغزوه، فسار نحوه، فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة لا سيما سيحون[١] فأرسل إلى آنندبال عظيم الهند يطلب إذنه في العبور ببلاده إلى المولتان، فلم يجب إلى ذلك، فابتدأ محمود به، وجاس خلال بلاده، وأكثر فيها النهب والقتل والإحراق، ففر آنندبال بين يديه، وتبعه إلى أن وصل إلى قشمير[٢]، فلما سمع أبو الفتوح بمقدم يمين الدولة علم العجز عنه، فنقل أمواله إلى سرنديب[٣]، وأخلى المولتان، فوصل يمين الدولة إليها، وملكها عنوة، وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم.

ذكر غزوة كواكير

قال: ثم سار إلى قلعة كواكير، وكان صاحبها يعرف ببيدا، وكان بها ستمائة صنم فاقتحمها، وحرق الأصنام، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة «بكالنجار»، فسار خلفه إليها، وهي حصن عظيم يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل، وعشرون ألف دابة، وفيه من الأقوات ما يكفي الجميع مدة، فلما صار منه على سبعة فراسخ رأى من الغياض[٤] ما يمنعه عن سلوك الطريق، فأمر بقطعها، فقطعت، ورأى في الطريق واديًا عظيم العمق بعيد القعر، فأمر أن يطم بالجلود المملوءة بالتراب فطموه، ووصلوا القلعة، فحاصرها ثلاثة وأربعين يومًا، فراسله صاحبها في الصلح، فامتنع عليه، ثم بلغه عن خراسان اختلاف بسبب قصد إيلك خان، فصالحه على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنّ[٥] من الفضة، ولبس خلعة يمين الدولة بعد أن استعفى من شد المنطقة[٦]، فلم يعفه، وشدها، وقطع خنصره، وأنفذها ليمين الدولة، توثقة فيما يعتقدونه على عادة الهنود، وعاد يمين الدولة إلى خراسان.

---

(١) سيحون: بفتح أوله وسكون ثانيه، وحاء مهملة، وآخره نون: نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل، وهو في حدود بلاد الترك... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قشمير: بالكسر ثم السكون، وكسر الميم، وياء مثناة من تحت ساكنة، وراء: مدينة متوسطة لبلاد الهند، قال: إنها مجاورة لقوم من الترك فاختلط نسلهم بهم فهم أحسن خلق الله خلقة يضرب بنسائهم المثل لهنّ قامات تامة وصورة سويّة وشعور على غاية السباطة والطول والغلظ... (معجم البلدان).

(٣) سرنديب: بفتح أوله وثانيه، وسكون النون، ودال مهملة مكسورة، وياء مثناة من تحت، وباء موحدة: هي جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند... (معجم ياقوت).

(٤) الغياض: واحدتها الغيضة، وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف؛ أو هي الأجمة.

(٥) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن. (٦) المنطقة: ما يشد به الوسط.

ذكر عبور عسكر إيلك خان إلى خراسان

كان يمين الدولة لما ملك خراسان من السامانية، وملك إيلك خان ما وراء النهر منهم تراسلا، وتوافقا، وتزوج يمين الدولة ابنة إيلك خان وانعقدت بينهما مصاهرة ومصالحة، فلم تزل السعاة حتى أفسدوا ذات بينهما، وكتم إيلك خان ما في نفسه، فلما سار يمينُ الدولة إلى المولتان اغتنم إيلك خان غيبته عن البلاد، فسَيَّر سباشي تكين صاحب جيشه إلى خراسان، وذلك في سنة ست وتسعين وثلاثمائة في معظم جنده، وجهز أخاه جعفر تكين إلى بلخ في عدة من الأُمراء، وكان يمين الدولة قد جعل بهراة أميرًا من أُمرائه يقال له أرسلان: الجاذب، وأمره إذا ظهر عليه مخالف ينحاز إلى غزنة، فلما عبر سباشي تكين إلى خراسان سار أرسلان إلى غزنة، وملك سباشي هراة، وأرسل إلى نيسابور من استولى عليها، فوصلت الأخبار يمين الدولة وهو بالهند، فعاد لا يلوي على شيء، فلما قارب غزنة فرق الأموال في عساكره، وقواهم، واستنفر الأتراك الخَلَجية، فجاءه منهم خلق كثير، فسار بهم إلى نحو بلخ، وبها جعفر تكين أخو إيلك خان، فعبر إلى ترمذ[(١)] ونزل نحو «مرو» ليعبر النهر، فقاتله التركمان، فهزمهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة. ثم سار نحو أَبِيوَرْد، فتبعه عسكر يمين الدولة، فوصل إلى جرجان، فأخرج عنها، ثم عاد إلى خراسان، فعاره يمين الدولة، فمنعه من قصده وأسر أخو سباشي تكين، وجماعة من قواده، ونجا هو في بعض أصحابه، فعبر النهر، وانهزم من كان ببلخ مع جعفر تكين، وتسلم يمين الدولة خراسان.

ذكر انهزام إيلك خان من يمين الدولة

قال: ولما أخرج يمين الدولة عساكر إيلك خان من خراسان راسل إيلك خان قدر خان بن بغراخان ملك الخُتَن[(٢)] لقرابة بينهما، واستعان به، فاستنفر الترك من أقاصي بلادها، وسار نحو خراسان، واجتمع هو وإيلك خان فعبروا النهر، واتصل خبرهم بيمين الدولة، وهو بطخارستان، فسبقهما إلى بلخ، واستعد للحرب، وجمع

---

(١) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون ما جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر... (معجم البلدان).

(٢) الختن: بضم أوله وفتح ثانيه، وآخره نون: بلد وولاية دون كاشغر ووراء يوزكند، وهي معدودة من بلاد تركستان، وهي في واد بين جبال في وسط بلاد الترك... (معجم البلدان).

الترك الغزية والخلج والهند والأفغانية والغزنوية، وخرج عن بلخ، فعسكر على فرسخين منها بمكان فسيح، وقدم إيلك خان، وقدر خان في عساكرهما، ونزلوا بإزائه، واقتتلوا يومهم ذلك إلى الليل، فلما كان الغد برز بعضهم لبعض، فاقتتلوا، فاعتزل يمين الدولة على نشز(١) مرتفع ينظر إلى الحرب، ونزل عن دابته، وعفَّر وجهه على الصعيد تواضعًا لله تعالى، وسأل النصر والظفر، ثم حمل بفيلته على قلب عسكر إيلك خان، فأزاله عن مكانه، ووقعت الهزيمة، وتبِعهم أصحاب يمين الدولة يقتلون، ويأسرون، ويغنمون، إلى أن عبروا النهر. وأكثر الشراء القول في تهنئة يمين الدولة بهذا الفتح، وذلك في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة.

ذكر غزوه الهند وعوده

قال: ولما فرغ يمين الدولة من حرب الترك بلغه أن بعض أولاد ملوك الهند واسمه نَواسد شاه، وكان قد أسلم على يد يمين الدولة، واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم ارتد عن الإسلام، وعاد إلى الكفر، فسار إليه مجدًا، فحين بلغ الهندي قربه(٢) فرَّ من بين يديه، واستعاد يمين الدولة البلاد، واستخلف عليها بعض أصحابه، وعاد إلى غزنة في السنة المذكورة.

ذكر غزوة بهيم نغز وما غنمه من الأموال وغيرها

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة استعد يمين الدولة لغزو الهند وسار في شهر ربيع الآخر من السنة، فانتهى إلى شاطىء نهر ويهند، فلاقاه هناك ابرهمن نال بن آنندپال في جيوش الهند، فاقتتلوا مليًا من النهار، وكادت الهند تظفر بالمسلمين، ثم كان الظفر للمسلمين، فانهزم الهند على أعقابهم، وأخذهم السيف، وتبع يمين الدولة الملك حتى بلغ بَهيم نغر، وهي على جبل عال كان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم، فينقلون إليها أنواع الذخائر قرنًا بعد قرن، وهم يرون ذلك تقربًا لآلهتهم وعبادة، فقاتلهم عليها، وحصرها، ووالى الحصار، فلما رأى الهنود كثرة جموعه، وشدة قتاله جبنوا، وطلبوا الأمان، وفتحوا باب الحصن، فملكه المسلمون، فصعد يمين الدولة إليه في خواص أصحابه وثقاته، فأخذ من الجواهر ما لا يحدّ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهب والفضة سبعمائة ألف

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٢) قربه: بالضم ثم الفتح، وباء موحدة: اسم واد، عن الجوهري... (معجم البلدان لياقوت).

وأربعمائة منّ. وكان في الحصن بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعًا وعرضه خمسة عشر ذراعًا، فأخذ جميع ما فيه إلى غير ذلك من الأمتعة، وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش الجواهر في صحن داره، وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك، فشاهدوا ما لم يسمعوا بمثله.

وفي سنة أربعمائة غزا يمين الدولة الهند وأحرقها، واستباحها، ونكس أصنامها، فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به راسله في الصلح والهدنة على مال يؤديه إليه وخمسين فيلاً، وأن يكون له في خدمة يمين الدولة ألفا فارس لا يزالون، فقبض ذلك منه، وصالحه، وعاد إلى غزنة.

ذكر غزوة بلاد الغور واستيلائه عليها

وبلاد الغور تجاور غزنة، وهي جبال منيعة، ومضايق، وكان أهلها قد كثر فسادهم، وتعديهم يقطعون الطريق ويخيفون السبيل، فأنف يمين الدولة من ذلك، فسار إليهم في سنة إحدى وأربعمائة، وقاتلهم أشد قتال، ثم سار إلى عظيم الغورية المعروف بابن سُورَى وهو بمدينة آهنكران، فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم إلى أن انتصف النهار، فأمر يمين الدولة أن ينهزم المسلمون، فانهزموا وتبعهم ابن سُورَى حتى أبعدوا عن المدينة، ثم عطف المسلمون على الغورية، ووضعوا فيهم السيف، وملك المدينة، وأسر ابن سُورَى، فشرب سمًّا كان معه، فمات، وأظهر يمين الدولة شعائر الإسلام في بلاد الغور، وجعل عندهم من يعلمهم شعائر الإسلام وشرائعهم. ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار، فقطع مفازة[1] رمل، ولحق عساكره عطش عظيم حتى كادوا يهلكون بسببه، فأرسل الله تعالى عليهم مطرًا سقاهم، وسهل عليهم سلوك الرمل، فوصلوا إلى الكفار ومعهم ستمائة فيل، فقاتلهم أشد قتال كان الظفر فيه للمسلمين، وانهزم الكفار، وأخذ غنائمهم وعاد سالمًا.

ذكر ملكه قصدار

وفي سنة اثنتين وأربعمائة ملك يمين الدولة قُصدار. وسببُ ذلك أن ملكها كان قد صالحه على قطيعة[2] في ل سنة يؤديها إلى يمين الدولة، ثم قطعها اغترارًا بحصانة بلده، وكثرة المضايق في الطريق إليه، واحتمى بإيلك خان، وكان يمينُ الدولة إذا

---

(١) المفازة: الصحراء.

(٢) القطيعة: الجزء من الأرض يملكه الحاكم لمن يريد من أتباعه منحة.

قصد المسير إليه رجع عن ذلك إبقاءً لمودة إيلك خان، فلما فسد ما بينهما سار إليها في جُمادى الأولى من السنة، فسبق خبره، فلم يشعر صاحبها إلا وعسكر يمين الدولة قد أحاط به ليلاً، فطلب الأمان، فأجابه إليه، وأخذ منه ما كان قد اجتمع عنده من المال، وأقره على ولايته وعاد. وفي سنة ثلاث وأربعمائة كانت وفاة إيلك خان، وولاية أخيه طغان خان، وكان قد تجهز للعود إلى خراسان لقتال يمين الدولة. فلما مات، راسل طغان خان يمين الدولة، وتصالحا، واتفقا أن كلاً منهما يستقل بغزو من يليه من الكفار، فكان يمين الدولة يقاتل الهند، وطغان خان يقاتل الكفار.

ذكر فتح ناردين

وفي سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة إلى الهند، فسار شهرين حتى قارب مقصده، فسمع عظيم الهند به فجمع، وبرز إلى جبل صعب المرتقى، فاحتمى به، وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود، فاجتمع إليه كل من حمل السلاح، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل والتقوا، واقتتلوا، واشتد القتال، فهزمهم المسلمون، وأكثروا فيهم القتل، وغنموا ما معهم من مال وفيلة وسلاح. ولما عاد إلى غزنة أرسل إلى القادر بالله يطلب منه منشورًا وعهدًا بولاية خراسان وما بيده من الممالك، فكتب له ولقب نظام الدين.

ذكر غزوة تانيشر

قال: وذُكِر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر(١) فيلة من جنس فيلة الصليمان الموصوفة في الحرب، وأن صاحبها غال في الكفر، فعزم على غزوه، فسار في سنة خمس وأربعمائة، فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك، وقفارًا فسيحة الأطراف قليلة المياه، فقاسى شدة، ومشقة عظيمة، فلما قارب المقصد لقي نهرًا شديد الجرية صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدِلُّ بها، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر، ففعلوا ذلك، وشغل الهنود بالقتال عن حفظ النهر، فما كان إلا وقد عبر سائر العسكر، وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهزم الهنود، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والفيلة، وعاد إلى غزنة.

---

(١) تانيشر: بلد تقع فيما بين النهرين... (تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني).

ذكر قتل خوارزم شاه وملك يمين الدولة خوارزم

وفي سنة سبع وأربعمائة قُتِل خوارزم شاه أبو العباس مأمون بن مأمون. وسبب ذلك أنه كان قد ملك خوارزم[١] الجرجانية، وحضر عند يمين الدولة، وتزوج أُخته، ثم بعث إليه يمين الدولة أن يخطب له على منابر بلاده، فأجابه إلى ذلك، واستشار أُمراءه، فغضبوا من ذلك، وامتنعوا منه، وتهددوه بالقتل إن فعل، فعاد الرسول إلى يمين الدولة، وأخبره بما شاهده، ثم خافه الأُمراء فقتلوه غيلة، ولم يعلم قاتله، وأجلسوا أحد أولاده مكانه، وتعاهدوا على قتال يمين الدولة إن قصدهم، واتصل الخبر به، فجمع العساكر، وسار نحوهم والتقوا، واشتدت الحرب، فثبت الخوارزمية إلى نصف النهار ثم انهزموا، فأخذهم السيف، ولم يبق منهم إلا القليل، وجمع من أسر منهم وسيرهم إلى أطراف بلاده بالهند، وملك يمين الدولة خوارزم، واستناب بها حاجبه التونتاش.

ذكر غزوة قشمير وقنوج وغيرهما من الهند

وفي سنة سبع وأربعمائة أيضًا بعد فراغ يمين الدولة من خوارزم سار إلى غزنة، ثم منها إلى الهند عازمًا على غزو قشمير، واجتمع له من المتطوعة[٢] من بلاد ما وراء النهر وغيره نحو عشرين ألف مقاتل، وسار من غزنة إليها سيرًا دائمًا في ثلاثة أشهر، وعبر نهر سيحون، وجَيْلم، وهما نهران عميقان شديدا الجرية، ووطىء أرض الهند، وأتته رسل ملوكها بالطاعة، وبذل الأتاوة، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده، وسار بين يديه إلى مقصده، فبلغ ماء جون في العشرين من شهر رجب، وفتح ما حولها من الحصون المنيعة، حتى بلغ حصن هوْدبْ، وهو أحد ملوك الهند فنظر «هودب» من أعلى حصنه، فرأى من العساكر ما هاله، فعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فنزل في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص، فأقبل عليه يمين الدولة وأكرمه وسار عنه إلى قلعة كُجندْ، وهو من أعيان الهند، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة، فسيّر كُلْجند عساكره وفيلته إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم، وسلك طريقًا مختصرًا إلى الحصن، فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم

---

(١) خوارزم: هو ليس اسمًا للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها، فأما القصبة العظمى، فقد يقال لها الجرجانية. . . (معجم ياقوت).

(٢) المتطوعة: جمع المتطوع: الذي يتطوع للجهاد ونحوه.

قتالاً شديدًا، فانهزموا وأخذهم السيف من ورائهم، ولقوا نهرًا عميقًا، فاقتحموه، فغرق أكثرهم، فكان القتلى والغرقى قريبًا من خمسين ألفًا. وعمد كُلجند إلى زوجته، فقتلها ثم قتل نفسه، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه. ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو «مهرَّة» بالهند، وهو من أحصن الأبنية على نهر، ولهم فيه كثير من الأصنام من جملتها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجوهر زنتها ستمائة ألف وسبعون ألف وثلاثمائة مثقال، وبه من الأصنام لمصوغة من الفضة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة جميع ذلك، وأحرق الباقي، وسار نحو قَنَوَّج[1] وصاحبها جيبال، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر النهر المعروف بنهر الكَنْك[2]، وهو نهر شريف معظم عندهم ـ وتقدّم خبره في باب الأنهار ـ فأخذها يمين الدولة وسائر قلاعها وأعمالها وهي على النهر المذكور، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون أنها عملت من مائتي ألف إلى ثلاثمائة ألف سنة كذبًا منهم. ولما افتتحها أباحها عسكره. ثم سار إلى قلعة البراهمة، فقاتلهم فثبتوا، واستسلموا للقتل، فقتلوا، ولم ينج منهم إلا القليل. ثم سار نحو قلعة آسي[3] وصاحبها جندياك، فلما قاربها هرب صاحبها، فأخذها يمين الدولة بما فيها، ثم سار إلى قلعة شرْوه وصاحبها جَنْداري، فلما قاربه نقل ماله وفيلته إلى جبال هناك منيعة، فنازل يمين الدولة حصنه وافتتحه، وغنم ما فيه وسار في طلب جنداري جريدة، فلحقه في آخر شعبان فقاتله، وقتل رجاله، وأسر كثيرًا منهم، وغنم ما معه من مال وفيلة، ونجا جنداري في نفر يسير من أصحابه. ثم عاد يمين الدولة إلى غزنة، فبنى بها الجامع الذي لم يسمع بمثله، وأنفق ما غنم في هذه الغزوة على بنائه. والله أعلم بالصواب.

ذكر أخبار الملوك الخانية بما وراء النهر والأتراك

وفي سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين، وسبب ذلك أن طغان خان مرض مرضًا شديدًا، وطال به المرض، فطمعوا في البلاد، وساروا من الصين في عدد يزيد على ثلاثمائة ألف خركاه من أجناس الترك منهم الخِطا الذين ملكوا ما وراء النهر، فساروا إلى أن قربوا من بلا ساغون[4]، وبقي بينهم وبينها ثمانية أيام واستولوا

---

(١) قنوج: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وآخره جيم: موضع في بلاد الهند؛ عن الأزهري، وقيل: إنها أجمة. . . (معجم البلدان).

(٢) كنك: اسم واد في بلاد الهند.

(٣) قلعة آسي: قلعة بجندال يهور.

(٤) بلا ساغون: السين مهملة، والغين معجمة: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر.

على أطراف البلاد، فسأل طغان خان الله تعالى أن يعافيه لينتقم منهم، ويحمي البلاد، ثم يفعل به ما يشاء، فعافاه الله تعالى، فجمع العساكر واستنفر جميع بلاد الإسلام، فاجتمع له من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألف مقاتل، فلما بلغ الترك ذلك رجعوا، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر، فأدركهم وهم آمنون، فكبسهم، وقتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل وأسر نحو مائة ألف، وغنم من الدواب، والخركاهات، والأواني الذهبية والفضية، ومعمول الصين ما لا عهد بمثله، وعاد إلى بلا ساغون، فعاوده المرض، فمات رحمه الله تعالى. وكان عادلاً خيّرًا ديّنًا يحب العلم وأهلة، ويميل لأهل الدين، ويصلهم ويقربهم.

ولما مات ملك بعده أخوه أبو المظفر أرسلان خان، ولقبه شرف الدولة، فحالف عليه قدر خان يوسف بن بغراخان هارون بن سليمان، وكان ينوب عن طغان خان بسمرقند، وكاتب يمين الدولة يستنجده على أرسلان، فعقد يمين الدولة على نهر جيحون[١] جسرًا من السفن، وضبطه بالسلاسل وعبر عليه، ولم تكن تعرف الجسور قبل ذلك هناك، فلما عبر النهر اتفق قدر خان وأرسلان خان وتعاقدا على قصد بلاد يمين الدولة واقتسامها، فعاد يمين الدولة إلى بلاده، وسار قدر خان وأرسلان خان إلى بلخ والتقوا بيمين الدولة واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظَفَر فيه ليمين الدولة عليهما، فعادا وعبرا جيحون، وكان من غرق منهم أكثر ممن نجا.

ذكر أخبار قدر خان وأولاده

كان قدر خان يوسف بن بغرا خان هارون بن سليمان عادلاً حسن السيرة كثير الجهاد، فمن فتوحه «خَتَن»، وهي بلاد بين الصين وتركستان، كثيرة العلماء والفضلاء واستمر إلى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، فتوفي. وكان يديم الصلاة في الجماعة. ولما توفي ملك أولاده بعده، واقتسموا البلاد، فملك أبو شجاع أرسلان خان، ولقبه شرف الدولة، كَاشْغَر[٢]، وخُتنَ، وبلاَ ساغُون. وخُطِب له على منابرها. قيل: ولم

(١) جيحون: قلا الإصطخري: فأما جيحون فإن عمود نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وخّاب من حدود بذخشان وينضم إليه أنهار في حدود الختل ووخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم... (معجم ياقوت).

(٢) كاشغر: بالتقاء الساكنين، والشين معجمة والغين أيضًا، وراء: وهي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون... (معجم البلدان لياقوت).

يشرب الخمر قط. وكان ديِّنًا مكرِمًا للعلماء، وأهل الدين يقصدونه من كل جهة، ويصلُهم ويحسن إليهم.

وملك بغراخان بن قدر خان طراز[1] وأسبيجاب فقصد أخاه أرسلان خان وحاربه، وأسره وحبسه إلى أن مات. وملك بلاده، ثم عهد بغرا خان بن قدر خان بالملك لولدِهِ الأكبر واسمه حسين جغرتكين. وكان لبغرا خان امرأة له منها ولدٌ صغير، فغاظها ذلك فسمّت بغرا خان، فمات هو وعدَّة من أهله، وخنقت أخاه أرسلان خان بن قدر خان، وذلك في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، وقتلت وجوه أصحابه، وملَّكت ابنَها واسمه إبراهيم، وسيّرته في جيش إلى مدينة بَرْسُخان[2]، وصاحبها ينالتكين، فظفر به ينالتكين وقتله، وانهزم عسكره إلى أمه. واختلف أولاد بغرا خان، فقصدهم طفغاج خان.

ذكر ملك طفغاج خان وولده

هو أبو المظفر إبراهيم بن نصر بن إيلك، ويلقب عماد الدولة، كان بِيدِهِ سمرقند وفرغانة، وكان أبوه زاهدًا متعبدًا، وهو الذي ملك سمرقند، وورثها طفغاجُ هذا منه، وكان طفغاج متديّنًا لا يأخذ مالاً حتى يسْتعنَّى العلماء، وورد عليه أبو شجاع العلَوي الواعظ. وكان من الزهّاد، فوعظه، وقال: إنك لا تصلح للملك، فأغلق طفغاج بابه، وعزم على ترك الملك، فاجتمع عليه أهل البلد، وقالوا: قد أخطأ الواعظ، والقيام بأمورنا متعيِّنٌ عليك، ففتح بابه، واستمر في الملك إلى سنة ستِّين وأربعمائة، ففلج، ثم مات. وكان في حياته قد جعل الملكَ في ولده شمس الملك نصر، فقصده أخوه طغان خان بن طفغاج، وحصره بسمرقند، فاجتمع أهلها إلى شمس الملك، وقالوا له: إن طغان خان قد خرب ضياعنا وأفسدها، ولو كان غيره ساعدناك عليه، ونحن لا ندخل بينكما، فوعدهم المناجزة[3]، وخرج من البلد نصف الليل في خمسمائة غلام، فكبس أخاه، وهو غير متحفِّظ فهزمه، وكان هذا وأبوهما باق، ثم قصده هارون بن بغرا خان بن قدر خان، وطغرل قرا خان. وكان طفغاج خان قد استولى على ممالكهما، فقصدا سمرقند فلم يظفرا بشيء، فصالحا شمس

(١) طراز: بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك وهو قريب من الذي قبله (طراز، بكسر الطاء) وقد نسب إليه قوم من العلماء.
(٢) برسخان: قرية من قرى بخارى.
(٣) يقال: ناجزه الحرب ونحوها: نازله وقاتله.

الملك، وعادا فصارت الأعمال المتاخمة لنهر جيحون لشمس الملك، وأعمال الخافقة في أيديهما، والحد بينهما خُجَنْدة[١]. ثم مات شمس الملك، فملك بعده أخوه خضر خان، ثم مات، فملك بعده ابنه أحمد خان، وهو الذي قبض عليه السلطان ملكشاه السلجقي، ثم أعاده إلى ولايته، وأحمد هذا هو ابن أخي تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه، وكان أحمد خان قبيح الصورة والفعل كثير المصادرات، فنفَّر الرعية منه، وكاتبوا السلطان ملكشاه السلجقي، واستغاثوا به، وسألوه أن يقدم عليهم ليملك بلادهم، فعبر ما وراء النهر في سنة اثنين وثمانين وأربعمائة، وملك بُخارى[٢]، وما جاورها، ثم سار إلى سمرقند، فملكها، وهرب أحمد خان، واختفى في بيوت بعض العامة، فغُمِز عليه، وحُمِل إلى السلطان، وفي عنقه حبل، فأكرمه السلطان، وأرسله إلى أصفهان، واستولى ملكشاه على سمرقند وبُخارى، واستعمل عليها من قبله على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة السلجقية. ثم ملك محمود خان، وكان جدّه من ملوكهم، وكان أصمّ، فقصده طغان خان صاحب طراز، فقتله، واستولى على الملك. واستناب بسمرقند أبا المعالي محمد بن محمد بن زيد العلوي البغدادي، فأقام ثلاث سنين وعصى على طغان خان، فحاصره، وقتله، وقتل معه خلقًا كثيرًا، ثم خرج طغان خان إلى ترمذ[٣] يريد خراسان، فلقيه السلطان سنجر السلجقي، فظفر به وقتله، وصار له أعمال ما وراء النهر، فاستناب بها محمد خان بن كمشتكين بن إبراهيم بن طفغاج خان، فأخذها منه عمر خان، وملك سمرقند ثم هرب من جنده، وقصد خوارزم، فظفر به لسلطان سنجر، وولّى محمد خان سمرقند، وولّى محمد تكين بن طغان تكين بُخارى. هؤلاء ملوك سمرقند وما والاها.

وأما كاشغر وهي مدينة تركستان، فإنها كانت لأرسلان خان بن يوسف قدر خان، ثم صارت بعده لمحمود بغرا خان صاحب طراز والشاش[٤] خمسة عشر

---

(١) خجندة: بضم أوله، وفتح ثانيه، ونون ثم دال مهملة: هي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقًا، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جار، والجبل متصل بها... (معجم البلدان).

(٢) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من آمل الشط وبينها وبين جيحون يومان.

(٣) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض.

(٤) الشاش: بالشين المعجمة: بالريّ قرية يقال لها شاش... والشاش: بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك... (معجم البلدان).

شهرًا، ثم مات، فولّى بعده طغرا خان بن يوسف واستولى على الملك، وملك بلاساغون، وكان ملكه ستة عشر سنة. ثم توفي، وملك ابنه طغرل تكين فأقام شهرين، ثم أتى هارون بغرا خان أخو يوسف طغرل خان بن طفغاج بغرا خان، وعبر كاشغر، وقبض على هارون، وأطاعه عسكره، وملك كاشغر وختن، وما يتصل بها إلى بلاساغون، وأقام في الملك عشرين سنة، وتوفي في سنة ست وتسعين وأربعمائة، فولّى بعده ابنه أحمد أرسلان خان، وراسل الخليفة المستظهر بالله يطلب منه الخلع والألقاب، فأرسل إليه ما طلب ولقبه نور الدولة، ثم صار ملك ما وراء النهر لملوك الخطا، وانقرضت الدولة الخانية، وإنما ذكرناها في هذا الموضع لاتحادها وقربها من الدولة الغزنوية، ولتكون أخبارهم متوالية.

نرجع إلى أخبار يمين الدولة محمود بن سُبكتكين.

ذكر غزوة الهند والأفغانية

وفي سنة تسع وأربعمائة جمع يمين الدولة من الجموع ما لم يجمع قبله مثله، وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنُّوج، وهرب صاحبها منها ويلقب براي قنوج، وراي لقب للملك ككسرى، وقيصر، فلما عاد إلى غزنة أرسل بيدا عظيم ملوك الهند وقسم مملكته كَجُوراهة[1] رسلًا إلى راي قنوج واسمه راجيبال يوبخه على هربه، وتسليم بلاده للمسلمين، وطال الكلام بينهما، فآل ذلك إلى الحرب بينهما، فقتِل راجيبال وأكثر جنوده، فازداد بيدا بذلك عظمة وعتوًا، وقصده بعض ملوك الهند الذين ملك يمين الدولة بلادهم، وخدموه، وصاروا في جُملة جنده، فوعدهم بإعادة ممالكهم إليهم، فاتصل ذلك بيمين الدولة، فتجهّز للغَزْو، وقصد بيدا، وسار من غَزْنة، وابتدأ بالأفغانية، وهم كُفَّار يسكنون الجبال ويفسِدون، ويقطعون الطريق، فخرّب بلادهم، وأكثر فيهم القتل والأسر، ثم استقلّ في السّير، وبلغ في الهند ما لم يبلغه غيره، وعبر نهر الكُنْك، فلما جاوزه وجد قافلةً تزيد على ألفِ جمل، فغنمها وسار، فأتاه خبرُ ملك من ملوك الهند، يقال له تروجنيال، أنه قد سار من بين يديه يريد بيدا ليحتمي به، فلحِقَه في رابع عشر شوال، فاقتتلوا عامّة نهارهم، فانهزم تروجنيال ومن معه، وكثر فيهم القتل والأسر، وغنم المسلمون أموالهم وأهليهم، وأخذوا منهم جواهرًا كثيرة، وما يزيد على مائتي فيل، وخرج ملكهم، وأرسل يطلب الأمان، فلم

---

(١) كجوراهة: قصبة مملكة ججاهوني، غربي كنك... (البيروني).

يؤمنه، ولم يقنع منه بغير الإسلام، فسار ثم قتله بعض الهنود، ولما بلغ ذلك ملوك الهند تابعوا رسلَهم إلى يمين الدولة يبذُلون الطاعة والإتاوة، وسار بعد الوقعة إلى باري[١] وهي من أحْصن البلاد، فرآها قد خلَت من سكانها، فأمر بهدمها، وعشرة قلاع معها، وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا، وسار يطلب «بيدا»، فلحقه، وقد نزل إلى جانب نهر، وأجرى الماء بين يديه، فصار وحلا، وترك عن يمينه وشماله طريقًا يبسًا يقاتل فيه إذا أراد القتال، وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وأربعين فيلاً، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال فأخرج إليهم «بيدا» مثلهم، ولم يزل كل عسكر يمُدُّ أصحابه حتى كثر الجمعان، واشتدت الحرب، ودام القتال حتى حجز بينهما الليل، فلما كان الغد بكر يمينُ الدولة للقتال، فرآهم قد فارقوا موضعهم، وانهزموا، وركب كل فرقة منهم طريقًا، ووجدوا خزائن الأموال والسلاح بحالها، فغنم المسلمون جميع ذلك، واقتفى آثار من انهزم، فأكثر فيهم القتل والأسر، ونجا «بيدا» وعاد يمينُ الدولة إلى غزنة.

ذكر فتح قلعة من بلاد الهند

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة أوْغَل يمينُ الدولة في بلاد الهند، فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة في رأس جبل منيع ليس يُصْعد إليه إلا من طريقٍ واحد، وفيها خمسمائة فيل، وغَلات كثيرة، ومياه، فحصرها يمين الدولة، وداوم الحصار، وضيَّق عليهم، وقتل منهم كثيرًا، فطلبوا الأمان، فأمَّنهم، وأقرّ مِلكها فيها على خراج يؤخذ منه، وأهدى له هدايا كثيرة، وقيل إن هذا الملك هو كابلي، وهو صاحبُ ألف فيل، وكان فيما أهداه فيلة حوامل ومراضع، وطائرٌ على هيئة القمري[٢] جلبابه أدكن[٣]، وعيناه ومنقاره حُمر، وجناحاه مخططان بسواد، ومن خاصيَّته أنه إذا حضَر على رأس الخوان، وكان في الطعام سمٌّ دمعت عيناه، وجرى منهما ماء، ويتحجر فإذا أخذ ذلك الحجر، وحُكَّ وطُلي به الجراحاتُ الواسعة ألحمها، وإن كان في البدن نصل تعسَّر إخراجه، قوبل به، فيجذبُه حتى يمكن إخراجُه، فقبل هديَّته، وأقرَّه على جِهته، وعاد إلى غَزْنة مؤيَّدًا منصورًا.

---

(١) باري: بكسر الراء: قرية من أعمال كلواذى من نواحي بغداد، (كما في معجم ياقوت). وباري: في شرق كنك... (كما في تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني).
(٢) القمري: ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت.
(٣) الأدكن: الذي اغبر لونه، أو الذي مال إلى السواد.

ذكر فتح سومنات

وفي سنة ست عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة عدة حصون ومدن من بلاد الهند، وأخذ الصنم المعروف بسُومنات[١]، وهو أعظم أصنام الهند، وكانوا يحجّون إليه كلَّ ليلة خسوف، فيجتمع عنده ما ينوف على ألف إنسان، وزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فينشئها إليه فيما ينشأ، وأن المدَّ والجزر إنما هو عادة للبحر ويحملون إليه كلّ عِلق نفيس، ويعطون سدنتَه[٢] الأموال الجليلة، وفيه من نفيس الجواهر ما لا تُحصى قيمتُه، وبينه وبين نهر الكنك الذي تعظِّمه الهنود نحو مائتي فرسخ يتحملون من ماء هذا النهر إلى سُومنات ماء يغسل به في كل يوم، وعنده من البراهمة ألف رجل لعبادته، وتقديم الورّاد إليه، وثلاثمائة رجل تحلق رؤوس زواره ولحاهم، وخمسمائة رجل، وخمسمائة امرأة يغنّون، ويرقصون على باب الصنم، ولكلٍّ منهم في كل يوم شيء معلوم، وكان لسُومنات من الضِّياع الموقوفة عليه ما يزيد على عشرة آلاف ضَيْعة. قال: وكان يمين الدولة كلما فتح فتحًا من بلاد الهند، وكسر أصنامًا، تقول الهنود: «إنا هذه الأصنام قد سخط عليها سُومنات، ولو أنه راضٍ عنها لأهلك من تقصدها بسوء»، فلما بلغ ذلك يمينَ الدولة عزم على غزوه، وإهلاكه لعل الهنود إذا فقدوه، ورأوا دعاواهم باطلة دخلوا في دين الإسلام؛ فاستخار الله تعالى، وسار من غزنة في عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة، وسلك طريق المُلتان فوصلَها في منتصف شهر رمضان، وفي طريقه إلى الهند قِفارٌ لا تُسلك، لا ماء فيها ولا ميرة، فحمل ما يحتاج إليه هو وعسكره، وزاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل، تحمل الماء والميرة، وقصد أنهِلْوارة، فلما قطع المفازة رأى في طريقها حصونًا مشحونة بالرجال فيسَّر الله فتحها عليه، وامتار[٣] منها، وسار إلى أنهلوارة، فوصلها في مستهل ذي القعدة، فهرب عنها صاحبُها المدعو نهيم، وقصد حصنًا له يحتمي به، فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار إلى سُومَنَات، فلقي في طريقه عدة حصون بها كثير من الأوثان تشبه الحجّاب والنقباء لسومنات، فقاتل من بها، وفتحها وخرّبها وكسر أصنامها، وسار منها إلى مفازة قفر قليلة المياه، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لا يدينون لملك،

---

(١) سومنات: مركبة من كلمتين: سوم ومعناها القمر، ونات ومعناها الصاحب.

(٢) السادن: خادم بيت الصنم. جمع سدنة.

(٣) امتار: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

فهزمهم، وغنم مالهم، وامتار من عندهم، وسار حتى بلغ دبو الواره[١]، وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها ظنّا منهم أن سومنات يمنعهم، ويدفع عنهم، فاستولى عليها، وقتل رجالها، وغنم أموالها، وسار عنها، فوصل إلى سومنات في يوم الخميس منتصف ذي القعدة، فرأى حصنًا حصينًا على ساحل البحر تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار ينظرون المسلمين، فلما كان الغد، وهو يوم الجمعة زحف، وقاتل حتى قارب السور، فصعده المسلمون. هذا والهنود تتقدم إلى سومنات، وتعفِّر وجوهها في الأرض وتسأله النصر، واستمر القتال إلى الليل، ثم بكر المسلمون إليهم، وقاتلوهم، فأكثروا في الهنود، وأزاحوهم عن المدينة، فالتجؤوا إلى بيت صنمهم، فقاتلوا على بابه أشد قتال، فكان الفريق منهم بعد الفريق يفرون إلى الصنم، فيستغيثون به، ويبكون، ويتضرعون إليه، ويخرجون، فيقاتلون إلى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم وبقي منهم شرذمة دخلوا البحر في مركبين لهم، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضَهم، وغرق بعضُهم.

وأما البيت الذي فيه سومنات، فإنه مبنيّ على ست وخمسين سارية من الساج[٢] المصفح بالرصاص، وسومنات حجر طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدوَّرة ظاهرة، وذراعان في البناء، وليس هو بصورة مصوّرة، فكسره يمين الدولة، وأحرق بعضه، وأخذ بعضه معه إلى غزنة، فجعله عتبة لباب الجامع، وكان بيت الصنم مظلمًا، وإنما كان الضوء فيه من قناديل الجوهر، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مَنٍّ كلما مضت طائفة من البراهمة من عبادتهم حركوا الجرس، فتأتي طائفة أخرى، وعنده خزانة فيها عدة كثيرة من الأصنام الذهب والفضة وعليها الستور المرصعة بالجوهر. كل منها منسوب إلى عظيم من عظماء الهند، وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف دينار، فأخذ الجميع وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل، ثم ورد الخبر على يمين الدولة أن نهيم صاحب أنهلوارة قصد قلعة تسمّى كندهة، في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخًا، فسار يمين الدولة من سومنات، فلما حاذى القلعة رأى صيادين، فسألهم عن خوض البحر هناك، فقالوا إنه ممكن، ولكن إذا تحرك الهواء غرق من فيه، فاستعان بالله تعالى، وخاض هو ومن معه، فسلموا، فرأوا نهيم قد فارق القلعة، وأخلاها، فعاد عنها، وقصد المنصورة، وكان صاحبها قد

---

(١) في معجم البلدان لياقوت: دبوره: بكسر أوله وسكون ثانيه، وبعد الواو راء: من نواحي نيسابور.

(٢) الساج: ضرب من الشجر يعظم جدًا ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير.

ارتدّ عن الإسلام، ففارقها واحتمى بغياض منيعة، فأحاط يمينُ الدّولة بتلك الغياض؛ فقتل أكثر من بها من الهند وغرق بعضهم ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار إلى بهاطية فأطاعه أهلها، فرحل إلى غزنة، فوصلها في عاشر صفر سنة سبع عشرة وأربعمائة، فكانت غيبته في هذه الغزوة ستة شهور.

ذكر ملكه الريّ وبلد الجبل

وفي سنة عشرين وأربعمائة سار يمين الدولة نحو الريّ، فانصرف منوجهر بن قابوس صاحب جرجان وطبرستان بين يديه، وحمل إليه أربعمائة ألف دينار، وكان مجد الدّولة بن فخر الدولة بن بُويه قد كاتب يمينَ الدولة يشكو إليه من جنده، وكان مُتشاغِلاً بالنساء، ومطالعة الكتب، ونسْخِها. وكانت أُمّه تدبّر المملكة، فلما ماتت طمع فيه الجند. قال: فلما وصلت كتبه إليه سيّر إليه جيشًا، وجعل المقدَّم علهيم حاجبه، وأمره بالقبض على مجد الدولة، فسار الحاجب بالعسكر، فلما وصل تلقاهم مجد الدولة، فقبض عليه الحاجب، وعلى ولده أبي دُلَف، فانتهى الخبر إلى يمين الدولة، فسار إلى الريّ، ودخلها في شهر ربيع الآخر، وأخذ من الأموال ألف ألف دينار، ومن الجواهر ما قيمته خمسُمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى قيمته، وأحضر مجد الدولة وسيَّره إلى خراسان. ثم ملك قزوين، وقلاعها، ومدينة ساوة[١]، وآوة[٢]، ويافت، وقبض على صاحبها، وسيره إلى خراسان. ولما ملك يمين الدولة الريّ، كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر أنه وجد لمجد الدولة من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأة ولدن له نيفًا وثلاثين ولدًا، وأنه لما سئل عن ذلك قال: «هذه عادة سلفي»، وصلب من أصحابه الباطنية خلقًا كثيرًا، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال، وأخذ ما سواها من الكتب، فكانت مائة حمل، وتحصّن منوجهر بن قابوس بن وشمكير بجبال حصينة، فلم يشعر إلا وقد أطلّ يمين الدولة عليه، فهرب إلى غياض ملتفَّة حصينة، وبذل له خمسمائة ألف دينار، فأجابه يمينُ الدولة إلى ما

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الريّ وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخًا، وبقربها مدينة يقال لها آوة، فساوة سنية شافعية، وآوة أهلها شيعة إمامية... (معجم البلدان).

(٢) آوة: بفتحتين: قرية بين زنجان وهمذان؛ منها الشيخ الصالح الزاهد أبو عليّ الحسن بن أحمد بن يوسف الأوقي.

طلب. وقبض المال وسار عنه إلى نيسابور. ثم توفِّي منوجهر عقيب ذلك، ووُلِّي بعده ابنه أنو شروان، فأقره محمود على ولايته، وقرَّر عليه خمسمائة ألف دينار أخرى، وخطب لمحمود في أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية. وخطب له بأصفهان، وعاد إلى خراسان، واستخلف بالريّ ابنه مسعود، فقصد أصفهان، وملكها من علاء الدولة. وعاد عنها واستخلف بها بعض أصحابه، فثار أهلها، فقتلوه، فعاد إليهم مسعود، فقتل منهم نحو خمسة آلاف قتيل. وسار إلى الريِّ فأقام بها. والله أعلم بالصواب.

ذكر ملك مسعود بن يمين الدولة محمود همذان

وفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة سيّر مسعود جيشًا إلى همذان، فملكها من نواب علاء الدولة بن بويه، وسار هو إلى أصفهان[١]، ففارقها علاء الدولة، فغنم مسعود ما كان له بها من دواب وسلاح وذخائر وغير ذلك، ثم عاد إلى بلاده.

ذكر غزوة للمسلمين بالهند

وفي هذه السنة غزا أحمد بن ينال تكين النائب عن محمود بن سُبكتكين ببلاد الهند مدينة برسى، وهي من أعظم مدن الهند، وكان معه نحو مائة ألف فارس وراجل، فشنّ الغارة على البلاد، ونهب وسبى، فلما وصل إلى المدينة، دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون يومًا كاملاً، ولم يفرغوا من سوق العطارين والجوهريين فحسب، وباقي أهل البلد لم يعلموا بذلك لأن طول البلد منزلة، وعرضه منزلة من منازل الهند، فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله، وبلغ من كثرة ما نهب المسلمون أنهم اقتسموا الذهب والفضة بالكيل، ولم يصل لهذه المدينة عسكر المسلمين قبله ولا بعده.

ذكر وفاة يمين الدولة محمود بن سُبكتكين وشيء من سيرته

كانت وفاته رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ومولده يوم عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة، فكان عمره إحدى وستين سنة وثلاثة أشهر

---

(١) أصفهان: هي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان: اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاً جيا ثم صارت اليهودية... (معجم البلدان لياقوت).

تقريبًا، ومدة سلطنته ثلاثًا وثلاثين سنة وشهرين، وكان مرضه سوء مزاج وإسهال، وبقي كذلك نحو سنتين، وكان قوي النفس لم يضع جنبه في مرضه بل كان يستند إلى مخدته، وكان يجلس للناس طرفي النهار؛ ولم يزل كذلك حتى توفِّي قاعدًا، وكان عاقلاً دَيِّنًا خيِّرًا عنده علم ومعرفة، وصُنِّف له كثير من الكتب في فنون العلوم، وقصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويصلهم، وكان عالي الهمة، قد ذكرنا من فتوحه وغزواته ما يستدل به على ذلك، ولم يكن فيه ما يعاب إلا طمعه في الأموال، فكان يتحيَّل على أخذها بكل طريق، وهو الذي جدّد المشهد بطوس[١] الذي فيه قبر علي بن موسى الرضا، والرشيد، وكان أبوه قد أخربه. قال: وكان يمين الدولة رُبْعة القامة، حسن الوجه، صغير العينين، أحمر الشعر.

ذكر سلطنة محمد بن محمود

وهو الرابع من ملوك الدولة الغزنوية. ملك بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة بوصية من أبيه. قال: وهو أصغر من أخيه مسعود، وكان عند وفاة أبيه ببلخ، فخطب له من أقاصي الهند إلى نيسابور، ولقِّب جلال الدولة، فأرسل إلى أعيان الدولة يستدعونه، ويحثونه على الوصول إليهم، ويخوفونه من أخيه مسعود، فسار إلى غزنة، فوصلها بعد وفاة أبيه بأربعين يومًا، واجتمعت العساكر على طاعته، ففرق فيهم الأموال.

ذكر خلع جلال الدولة محمد وملك أخيه مسعود بن محمود

كان سبب ذلك أن يمين الدولة لما توفي كان ابنه مسعود بأصفهان، فكتب إلى أخيه محمد يقول له: إنني راضٍ بما أوصى لي به أبي، وبما فتحته من بلاد طبرستان والجبال وأصفهان وغيرهما، وطلب منه الموافقة وأن يقدمه في الخطبة على نفسه، فأجابه بجواب غير مرضي، فسار مسعود إلى الريّ وأحسن إلى أهلها، ثم سار إلى نيسابور[٢] وفعل مثل ذلك. وأما محمد فإنه استخلف عساكره، وجعل عمه يوسف

---

(١) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية فتحت في أيام عثمان بن عفان... (معجم البلدان).

(٢) نيسابور: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ونبع العلماء لم يرَ ياقوت الحموي فيما طوف من البلدان مدينة كانت مثلها كما يقول في معجمه.

على مقدمة جيشه، وسار إلى مسعود. وكان بعض عسكر محمد يميل إلى مسعود لشجاعته، وبعضهم يخشى سطوته، فلما همّ محمد بالركوب من داره وقعت قلنسوته[١] من رأسه، فتطيّر الناس من ذلك، وسار إلى أن وصل إلى تكينا باد[٢] في مستهل شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين، وأقام بها إلى أن عيّد. فلما كان ليلة الثلاثاء ثالث شوال ثار به جنده، فأخذوه وحبسوه ونادوا بشعار مسعود، وكان الذي سعى في ذلك ورتَّبه خشَاوند الحاجب باتفاق ومساعدة من عمه يوسف، وأرسلوا إلى مسعود فحضر، والتقته العساكر إلى هراة[٣]. وسلّموا إليه الأمر، فكان أول ما بدأ به أن قبض على الحاجب وقتله، ثم قبض بعد ذلك على عمه يوسف، ثم على جماعة من أعيان القواد في أوقات متفرقة. وكان اجتماع الملك له، واتفاق الكلمة عليه في ذي القعدة من السنة، ووصل إلى غزنة في ثاني جُمادى الآخرة سنة اثنين وعشرين وأربعمائة، وأتته بها رسل الملك من سائر الأقطار، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند، وسجستان وكرمان، ومكران، والريّ، وأصفهان، وبلد الجبل، وغير ذلك، وعظم سلطانه، وخيف جانبه.

ذكر مسيره إلى الهند وما فتحه بها

وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة بلغ السلطان مسعود أنَّ أحمد نيالتكين النائب بالهند خرج عن طاعته واستولى على البلاد، فسار إلى الهند، وعاد النائب إلى الطاعة، وفتح في سفرته هذه قلعة سرستي وهي من أحصن القلاع، وكان تعذَّر فتحَها على أبيه، ففتحها في سنة خمس وعشرين. ثم سار إلى قلعة مقسى، فوصل إليها في عاشر صفر، وحصرها ووالى الحصار، فخرجت عجوز ساحرة، فتكلمت باللسان الهندي طويلاً، وأخذت مكنسة فبلتها بالماء، ورشت به إلى جهة العسكر، فمرض مسعود واشتد به المرض، فرحل عن البلد فصح وعاد إلى غزنة.

ذكر مخالفة نيالتكين النائب بالهند ومقتله

وفي سنة ست وعشرين وأربعمائة خالف أحمد نيالتكين النائبُ بالهند على السلطان مسعود، ونزع يده من الطاعة، وأظهر العِصيان، فسيّر إليه مسعود جيشًا كثيفًا فقاتلهم، وانهزم منهم، وقصد بعض ملوك الهند «ببهاطيه»، ومعه جمع كثير من

---

(١) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

(٢) تكينا باد: مدينة كانت بموضع قندهار الحالية بأفغانستان. . . (تاريخ البيهقي).

(٣) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. . . (معجم البلدان).

عساكره الذين سلِموا، وطلب منه سفنًا ليعبر بهم السند[١]، فأحضر إليه السفن، وأمرهم أن يلقوه في جزيرة في وسط النهر، فألقَوه بها وهو يظن أنها متّصلة بالبر، فأقام بها تسعة أيام إلى أن نفدت أزوادهم، وأكلوا دوابّهم، وعجزوا عن خوض الماء لعمقه، فعبر الهندي إليهم في السفن وقَتَل وأسر، فعندها قتل أحمدُ نفسه، واستوعب أصحابه القتل والأسر.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة. التقى الملك مسعود والسلجقية ببلاد خراسان، ووقع بينهم حروب كان الظفر فيها لمسعود، وفتح قلعة خراسان، وأخرج طغرلبك من بلاد خراسان إلى البرية، وكان آخر الحرب بينهم في سنة إحدى وثلاثين.

ذكر القبض على السلطان وقتله وشيء من سيرته

وفي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة في شهر ربيع الأول جهّز السلطان ولده مودودًا إلى خراسان في جيش كثيف، لردّ السلجوقية عنها، وسار مسعود بعد ذلك بسبعة أيام إلى بلاد الهند ليشتي بها على عادة والده، واستصحب معه أخاه محمدًا وكان قد سمله، فلما عبر سيحون، وعبر بعضُ الخزائن جمع أنوشتكين البلخي الخصي الغلمان الداريّة، ونهبوا ما تخلف من الخزائن، وأقاموا أخاه محمدًا، وقاتلوا مسعودًا، فانهزم وتصحّن في بعض الحصون، فحصره أخوه محمد، فقالت له أُمه: إن هذا المكان لا يعصمك، ولأن تخرج إليهم بعهد خير لك من أن يأْخذوك قهرًا، فخرج إليهم، فقال له أخوه: والله لا قاتلتك بفعلك، ولكن اختر لنفسك جهة تكون فيها بحريمك وأولادِك، فاختار قلعة كيدى، فأنفذه إليها، وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالاً ينفقه، فأعطاه خمسمائة درهم، فبكى وقال: بالأمس وحكمي على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن، واليوم لا أملك ألفَ درهم، فأعطاه الرسول ألف دينار فقبلها، ثم اتفق أحمد ابن السلطان محمد، وابن عمه يوسف، وابن علي خشاوند على قتل مسعود فدخلوا عليه، وقتلوه فأنكر محمد ذلك، وساءه، فكانت مدة سلطنةُ مسعود عشر سنين وخمسة شهور تقريبًا، وكان شجاعًا كريمًا ذا فضائل كثيرة، يحب العلماء ويحسن إليهم، ويتقرب إلى خواطرهم، وصنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلوم، وكان كثير الصدقة، تصدَّق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأكثر الإدْرَارات

(١) السند: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره دال مهملة: بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان.. وقصبة السند: مدينة يقال لها المنصورة، ومن مدنها ديبل، وهي على ضفة بحر الهند والتيز... (معجم البلدان).

والصَّلات، وعمّر كثيرًا من المساجد في ممالكه، وكان عفيفًا عن أموال الناس، كان يحب الشعر ويجيز الشعراء، أعطى شاعرًا ألف دينار، وأجاز آخر عن كل بيت ألف درهم.

ذكر سلطنة جلال الدولة محمد بن محمود السلطنة الثانية وقتله

ملك ثانيًا عند انهزام أخيه مسعود في ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وكان أخوه قد سمله، ولما طلب للولاية امتنع من قبولها، فتهدده القواد بالقتل فأجاب، وفوّض الأمر إلى ولده أحمد، وكان فيه هَوَج[1]، فقتل عمه مسعودًا، وقيل: إن مسعودًا لما حبس دخل عليه عبد الرحمٰن وعبد الرحيم أولاد محمد، فأخذ عبد الرحمٰن القلنسوة من على رأس عمه مسعود، فأخذها عبد الرحيم من يده، وأنكر عليه، وقبلها ووضعها على رأس عمه مسعود، وكان ذلك سبب سلامته.

قال: وكتب السلطان محمد إلى مودود ابن أخيه مسعود يقول له: إن والدك قتل قصاصًا، قتله أولاد أحمد نيالتكين بغير رضاي، فأجابه مودود من خراسان يقول: أطال الله بقاء الأمير، ورزق ولده المعتوه عقلًا يعيش به، فقد ركب أمرًا عظيمًا، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي الذي لَقبه أمير المؤمنين سيِّد الملوك والسلاطين، وستعلمون في أي حتف تورّطتم وأيّ شر تأبّطتم، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ثم كتب شعرًا: [من الطويل]

نُفَلِّقُ هامًا من كرامٍ أعزَّة   علينا وهم كانُوا أعقَّ وأظْلَما[2]

قال: وطمع الجند في محمد، ونقصت هيبة الملك، فمدوا أيديهم إلى أموال الرعايا ونهبوها، فخربت البلاد، فكان المملوك يباع في بعض المدن بدينار، والخمر تباع كل مَنٍّ بدينار. قال: وسار مودود بن مسعود من خراسان إلى غزنة، وعاد عمه

---

(١) الهوج: الحمق والطيش.

(٢) الهام: جمع هامة وهي الرأس.. والمراد: بدؤونا بالظلم على إعزازنا إياهم. وهذا البيت من شعر الحصين بن الحمام المري.. ويعد من أوفياء العرب، وكان سيد قومه، وكان يقال له «مانع الضيم».

محمد والتقيا، فانهزم محمد وعسكره وقبض عليه وعلى ولده أحمد، فقتلهما مودود في شعبان سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فكانت مدة سلطنة محمد الأولى سبعة أشهر، والثانية أربعة أشهر وأيامًا.

ذكر سلطنة مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين

وهو السادس من ملوك الدولة الغزنوية. كان ملكه بعد انهزام عمه جلال الدولة محمد. قال: ولما التقوا وانهزم محمد وعسكره، ثم قبض عليه وعلى أولاده وأنوشتكين البلخي الخصي وابن علي خشاوند، فقتلهم مودود، ولَمْ يترك منهم إلا عبد الرحيم ابن عمه بن محمد لإنكاره على أخيه، أخذ القلنسوة من رأس مسعود، وبنى مودود في موضع الوقعة قريةً ورباطًا وسمّاها «فتح أباد»، وقتل من كان له تسبب في القبض على أبيه، ودخل غزنة في الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، واستوزر أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد وزير أبيه، وأظهر العدل، وأحسن السيرة، وسلك سيرة جده محمود بن سبكتكين.

ذكر مخالفة محمود بن مسعود على أخيه مودود، ووفاة محمود

كان مسعود قد جهّز ابنه محمودًا إلى بلاد الهند في سنة ست وعشرين وأربعمائة، فبلغه خبر وفاة أبيه، وما آل الأمر إليه من سلطنة أخيه، وكان قد فتح لهاوور[١]، وملتان، فأخذ الأموال، وأظهر الخلاف على أخيه مودود، فاضطرب لذلك، وجهز جيشًا لمنعه، فعرض محمود العساكر، وأنفق فيهم الأموال ليأخذ البلاد من أخيه مودود وعيَّد عيد الأضحى، وأقام بعده ثلاثة أيام، وأصبح ميتًا بلهاوور، فما عرف ما كان سبب وفاته، فعند ذلك ثبت قدم مودود في الملك، وراسلته الملوك وخافته، وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ملك مودود عدة من حصون الهند، فراسله ملوكها وأذعنوا له بالطاعة.

ذكر وفاة مودود
وملك ولده، ثم أخيه علي بن مسعود، ثم عبد الرشيد

وفي العشرين من شهر رجب الفرد، سنة إحدى وأربعين وأربعمائة كانت وفاة مودود وعمره تسع وعشرون سنة، ومدة ملكه تسع سنين وأحد عشر شهرًا، وكانت

(١) لهاور (كما في معجم البلدان لياقوت): هي مدينة عظيمة مشهورة في بلاد الهند.

وفاته بغزنة، وعلَّته القُولَنج(١)، وملك بعده ولده، فبقي في الملك خمسة أيام، ثم عدل الناس عنه إلى عمّه علي بن مسعود، وكان مودود لما ملك قبض على عمِّه عبد الرشيد بن محمود، واعتقله بقلعة مندين بطريق بست، فلما توفي مودود كان وزيره قد قارب القلعة بعساكر جردها مودود معه لقتال السلجقية، فنزل عبد الرشيد من القلعة إلى العسكر، ودعاهم إلى طاعته، فأجابوه، وسار بهم إلى غزنة، فهرب عليّ بن مسعود، وملك عبد الرشيد، ولقب شمس الله سيف الدولة، وقيل جمال الدولة.

ذكر مقتل عبد الرشيد

كان مقتله في سنة أربع وأربعين وأربعمائة؛ وسبب ذلك: أن طغرل الحاجب كان مودود قد نَوّه بذكره، وقدّمه وزوّجه أُخته، فلما توفي مودود، وملك عبد الرشيد استمر به على ما كان عليه، وجعله حاجب حجّابه، فأشار طغرل على عبد الرشيد بقصد الغز، وإخراجهم من خراسان، فتوقف استبعادًا لذلك، فلم يزل به حتى جهز معه ألف فارس، فسار نحو سجستان(٢)، وبها أبو الفضل نائبًا عن بيغو، فحاصر قلعة طاق أربعين يومًا، فلم يتهيأ له أن يملكها، فسار نحو مدينة سجستان، فاتصل خبره ببيغو، فخرج في عساكره إليه، فلما رآه بيغو استقلَّ من معه، فسيَّر إليه طائفة من أصحابه، فلم يعرِّج طغرل عليهم، بل اقتحم هو ومن معه نهرًا هناك، وحمل على بيغو، وقاتله فهزمه، ثم عطف طغرل على تلك الطائفة التي كانت خرجت لقتاله، فهزمهم، وغنم ما معهم، وانهزم بيغو إلى هراة، ودخل طغرل الحاجب سجستان، وملكها، وكتب إلى عبد الرشيد يعلمه بذلك ويستمده ليسير إلى خراسان، فأمده بعدَّة كثيرة من العساكر، فاشتد أمره بهم، وحدث نفسه بالاستيلاء على غزنة، فأحسن إلى من معه، واستمالهم فمالوا إليه، فاستوثق منهم ورجع بهم إلى غزنة، فلما صار على خمسة فراسخ منها كتب إلى عبد الرشيد يعلمه أن العسكر خالفه، وطلبوا الزيادة في العطاء، وأنهم عادوا بقلوب متغيِّرة، فلما وقف على ذلك جمع أصحابه، واستشارهم، فحذَّروه من طغرل، وقالوا: إن الأمر قد أعجل عن الاستعداد، وليس

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون.

(٢) سجستان: بكسر أوله وثانيه، وسين أخرى مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ناحية كبيرة وولاية واسعة، بينها وبين هراة عشرة أيام، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملة سبخة. . . (معجم البلدان).

إلا الصّعود إلى القلعة، والتحصّن بها، فتحصن بقلعة غزنة، وعبر طغرل غزنة، واستولى عليها وجلس بدار الإمارة، وأرسل إلى من بالقلعة يتهددهم إن لم يسلموا إليه عبد الرشيد، فسلّموه له، فقتله، واستولى على القلعة، وتزوّج ابنة السلطان مسعود كرهًا، وكان في أعمال الهند أمين يسمّى خزخير بعساكر كثيرة، فأرسل إليه طغرل، واستدعاه للموافقة والمساعدة على إخراج الغز من الأعمال، ووعده وبذل له الرغائب، فلم يرض خزخير فعله، وأنكر عليه وأغلظ له في الجواب، وكتب إلى زوجة طغرل ابنة السلطان مسعود، وإلى وجوه القوّاد يقبّح عليهم موافقتهم، وصبرهم على قتل ملكهم، فعبروا على طغرل، وقتلوه.

ذكر ملك فرخ زاد بن مسعود بن محمود بن سُبكتكين

وهو العاشر من ملوك الدولة الغزنوية. مَلَك بعد مقتل طغرل الحاجب المستولي على مُلك عبد الرشيد، وكان سببُ ملكه أنه لما قتل طغرل وصل خزخير بعد مقتله بخمسة أيام إلى غزنة، وأظهر الحزنَ على عبد الرشيد، واستشار الأمراء فيمن يلي الأمر، فأشاروا بولاية فرّخ زاد، وكان معتقلاً في بعض القلاع فأحضروه، وأجلس بدار الإمارة ودبر خزخير الأمر بين يديه، وقتل من أعان على قتل عبد الرشيد. قال: ولما بلغ داود السلجقي أخا طغرلبك صاحب خراسان قتل عبد الرشيد جميع عساكره، سار إلى غزنة، فخرج إليه خزخير، وقاتله فانهزم داود، وغنم ما كان معه، وفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة ثار مماليك فرخ زاد به، وقصدوا قتله وهو في الحمام، فمانع عن نفسه بسيف كان معه، فأدركه أصحابه وخلصوه وقتلوا أولئك الغلمان، واستمر ملكه إلى سنة إحدى وخمسين، وكان بعد هذه الوقعة يُكثِر من ذكر الموت ويحتقر الدنيا ويزدريها، فلما كان في هذ السنة أصابه قُولَنج، فمات.

ذكر ملك إبراهيم بن مسعود بن محمود

وهو الحادي عشر من ملوكهم، ملك بعد وفاة أخيه فرّخ زاد في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة فأحسن السيرة، واستعد لجهاد الهند، واستقر الصلح بينه وبين جعري بك داود السلجقي صاحب خراسان على أن يكون لكل واحد منهما ما بيده، وترك منازعة الآخر في ملكه.

ذكر غزو إبراهيم بلاد الهند وما فتحه منها

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا بلاد الهند، ففتح قلعة أجود، وهي على مائة وعشرين فرسخًا من لهاوور، وهي حصينة تحوي عشرة آلاف مقاتل، فحصرها

وداوم الزحف، فملكها في الحادي والعشرين من صفر، وفتح غيرها من الحصون في هذه السنة. فمن ذلك قلعة رومال، وموضع يقال له: «دره نوره»، وكان به أقوام من الخراسانية جعل أجدادهم فيه فراسياب التركي، ولم يعترضهم أحد من الملوك، فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا عليه، وقاتلوه، فظفر بهم وأكثر فيهم القتل، وتفرق من سلم منهم في البلاد، وسبى من النساء والصبيان مائة ألف، وفي هذه القلعة حوض قطره نصف فرسخ[(١)] لا يدرك قعره، يشرب منه أهل القلعة ودوابهم، ولا يظهر فيه نقص وفتح «دَرَة»[(٢)] وهي بين جبلين والسبيل إليها متعذر، فوصلها في جُمادى الأولى، وأقام بها ثلاثة أشهر، وافتتحها وعاد إلى غزنة.

ذكر وفاة إبراهيم وشيء من سيرته

كانت وفاته في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وكانت مدة ملكه تزيد على ثلاثين سنة، وكان عادلاً كريمًا مجاهدًا، وكان ذا رأي سديد، فمِن رأيه أن السلطان ملكشاه السلجقي قصد غزنة بعساكره وجنوده، فلما علم إبراهيم عجزه عنه كتب إلى جماعة من أمرائه يشكرهم، ويعدهم الجميل على تحسينهم لصاحبهم، قصد بلاده ليتم له ما اتفقوا عليه من قبضه، وأمر القاصد أن يتعرض إلى ملكشاه، فتعرض له، فأنكره ملكشاه، وقبض عليه وقرره بالضرب، فأعطاه الكتُبَ بعد امتناع، فعاد من طريقه، وكتم ذلك عن أمرائه خوفًا من الخلاف عليه. وكان يكتب بخطّه في كل سنة مصحفًا، ويبعثه إلى مكة مع الصدقات والصِّلات، ولما مات ملك بعده ابنه.

ذكر ملك علاء الدولة
أبي سعد جلال الدين مسعود بن إبراهيم

وهو الثاني عشر من ملوك الدولة الغزنوية. ملك غزنة وما معها بعد وفاة إبراهيم أبيه في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وهو زوج ابنة السلطان ملكشاه السلجقي، واستمر ملكه إلى سنة ثمان وخمسمائة فتوفي في شوال منها بغزنة، ولم أظفر بشيء من أخباره فأورده، ولما مات ملك بعده ولده.

---

(١) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول، يقدر بثلاثة أميال.

(٢) درة: بلد بين هراة وسجستان، وهي آخر عمل هراة، ومن هراة إلى أسفزار ثلاث مراحل، ومن أسفزار إلى درة مرحلتان، ومن درة إلى سجستان سبعة أيام. . . (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ملك أرسلان شاه ابن علاء الدولة مسعود

وهو الثالث عشر من ملوك الدولة الغزنوية، وأمه سلجقية وهي أخت السلطان ألب أرسِلان ملك بعد وفاة أبيه في شوال سنة ثمان وخمسمائة ولما ملك قبض على إخوته وسجنهم، فهرب أخٌ له اسمه بهرام شاه إلى خراسان، فوصل إلى السلطان سنجر ابن ملك شاه، فأرسل إلى أرسلان شاه في معناه، فلم يجبه، فأعد السير وقصد غزنة، ومعه بهرام شاه والتقى هو وسنجر بن ملكشاه على فرسخ من غزنة بصحراء شهراباذ، وكان أرسلان شاه في ثلاثين ألفًا ومعه مائة وستون فيلاً، فكادت الهزيمة تكون على سنجر ثم كانت على أرسلان شاه، وتسلَّم السلطان سنجر قلعة البلد، وكان أرسلان شاه قد اعتقل أخاه طاهرًا بالقلعة الكبيرة التي بينها وبين غزنة تسعة فراسخ، وهي عظيمة لا يطمع فيها ولا طريق عليها، واعتقل بها أيضًا زوجة بهرام شاه، فلما انهزم أرسلان شاه استال أخوه بهرام شاه طاهرًا المتحفظ بها حتى سلّم القلعة للملك سنجر، وكان قد تقرر بين السلطان سنجر وبهرام شاه أن يجلس بهرام شاه على سرير جده محمود بن سُبكتكين وجده، وأن الخطبة بغزنة للخليفة، ثم للسلطان محمد بن ملكشاه، والملك سنجر، وبعدهم لبهرام شاه، فلما دخلوا غزنة كان سنجر راكبًا، وبهرام شاه راجلاً بين يديه حتى جاء إلى السرير، فصعد بهرام شاه إليه، وجلس ورجع سنجر، وكان يخطب له بالملك، ولبهرام شاه بالسلطان على عادة آبائه، وحصل لسنجر من الأموال ما لا يحد، وكان على حيطان دور ملوك غزنة ألواح الفضة، وسواقي المياه إلى البساتين من الفضة، فقلع أصحاب سنجر كثيرًا من ذلك، فمنعهم سنجر، وصلب جماعة منهم، وأقام بغزنة أربعين يومًا، وهو أول سلجقي خطب له بغزنة، وعاد إلى خراسان.

ذكر ملك بهرام شاه ابن مسعود بن إبراهيم

وهو الرابع عشر من ملوك الدولة الغزنوية. ملك غزنة عند انهزام أخيه أرسلان شاه لعشر بقين من شوال سنة عشر وخمسمائة، وأما أرسلان شاه فإنه لما انهزم قصد هند وخان، واجتمع معه أصحابه، فلما عاد الملك سنجر إلى خراسان توجه إلى غزنة، ففارقها بهرام شاه إلى بامِيان[1]، وأرسل إلى الملك سنجر يعلمه الحال، فأمده بجيش، وأقام أرسلان شاه بغزنة شهرًا، وسار في طلب بهرام شاه فبلغه وصول عسكر

(١) باميان: بكسر الجيم، وياء، وألف، ونون: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة؛ بها قلعة حصينة، والقصبة صغيرة، والمملكة واسعة؛ بينها وبين بلخ عشر مراحل... (معجم ياقوت).

سنجر، فانهزم بغير قتال، للخوف الذي وقع في قلوب أصحابه، ولحق بجبال أوغان، فسار بهرام شاه في طلبه بعسكر سنجر، وضايقوا البلاد التي هو فيها وأخربوها، وتهددوا أهلها، فسلموه إليهم، فخنقه أخوه بهرام شاه، ودفنه بغزنة بتربة أبيه، وكان قتله في جُمادى الآخرة سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وعمره سبعًا وعشرين سنة، استقر بهرام شاه في الملك، وكان بينه وبين الملوك الغورية من الوقائع ما نذكره في أخبارهم إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة بهرام شاه

كانت وفاته في شهر رجب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، فكانت ولايته ستًا وثلاثين سنة، وكان عادلاً حسن السيرة جميل الطريقة يحب العلماء ويكرمهم، ويبذل لهم الأموال الكثيرة، ولما مات ملك بعده ولده.

ذكر ملك نظام الدين خسرو شاه ابن بهرام شاه ابن مسعود

وهو الخمس عشر من ملوك الدولة الغزنوية، ملك غزنة بعد وفاة والده في شهر رجب سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في رعيته محبًا للخير وأهله يقرب العلماء، ويحسن إليهم ويرجع إلى أقوالهم ويقتدي بآرائهم، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وكانت مدة ملكه سبع سنين وقيل إنه عاش إلى سنة تسع وتسعين. وأن الدولة انقرضت باعتقاله، لما مات ملك بعده ولده.

ذكر ملك ملكشاه بن خسرو شاه ابن مسعود ابن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبكتكين

وهو السادس عشر من ملوك الدولة الغزنوية، وعليه انقرضت دولتهم. ملك غزنة بعد وفاة والده في شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ولما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور إلى غزنة، وكان له مع ملكشاه ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الغورية. وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة قصد الأتراك الغزية بلاد غزنة ونهبوا وخربوا، وقصدوا مدينة غزنة، ففارقها ملكشاه إلى لهاوور وملكها الغزية، وكان القيّم بأمرهم زنكي بن علي بن خليفة الشيباني، ثم جمع ملكشاه العساكر، وعاد إلى غزنة، ودخلها في جُمادى الآخرة سنة تسع وخمسين،

وتمكن في دار ملكه إلى أن ظهر أمر الملوك الغورية، فانقرضت الدولة الغزنوية على يد الملوك الغورية.

وذكر ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل أن دولتهم انقرضت في أيام خسرو شاه ابن بهرام شاه والد ملكشاه، وأن خسرو شاه لما ملك الغورية غزنة سار إلى لهاوور، فحاصره شهاب الدين الغوري بها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وشدّد الحصار عليه، وبذل له الأمان على أن لا يطأ بساطه، وأن شهاب الدين يجعل لخسرو شاه مهما اختار من الإقطاع، ويزوجه ابنته، فاستحلفه على ذلك ومكنه من لهاوور، واجتمع به، فأكرمه وعظّمه، وبقي كذلك مدة شهرين، فورد رسول غياث الدين الغوري إلى أخيه شهاب الدين وهو يستدعي خسرو شاه وولده إليه، فأعلمه بذلك، فامتنع، فمنّاه شهاب الدين، وطيّب خاطره، ثم جهّزه هو وابنه إلى غياث الدين، فسارا على كره، فلما وصلا إليه رفعهما إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد بهما. وانقرضت الدولة الغزنوية.

وكان ابتداؤها في سنة ست وستين وثلاثمائة، وانقرضت في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فتكون مدتها مائتي سنة وثلاثة عشر سنة تقريبًا، وعدة ملوك هذه الدولة ستة عشر ملكًا، وهم ناصر الدولة سُبكتكين، ثم ولده يمين الدولة محمود بن سُبكتكين، ثم ولده محمد ولي مرَّتين، ثم أخوه مسعود بن محمود، ثم مودود بن مسعود بعد عمه محمد في السلطنة الثانية، ثم ولّي ولدٌ لمودود خمسة أيام. ثم علي بن مسعود، ولم تطل مدته أيضًا، ثم عبد الرشيد بن محمود بن سُبكتكين، ثم فرّخ زاد، ثم أخوه إبراهيم بن مسعود، ثم ابنه علاء الدولة أبو سعد جلال الدين بن مسعود، ثم ابنه أرسلان شاه، ثم أخوه بهرام شاه، ثم ابنه خسرو شاه، ثم ابنه ملكشاه، وعليه انقرضت دولتهم، وكانت هذه الدولة من أحسن الدول وأكثرها جهادًا وفتوحًا، وقد ذكرنا من أخبار ملوكها ما يُستدَلّ به على بعد هممهم، وتمكن سلطانهم.

ذكر أخبار الدولة الغورية

كان ابتداء هذه الدولة ببلاد الغُور(١) في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم أزالت ملوك الدولة الغزنوية آل سُبكتكين عن غزنة، وملكوا بعض بلاد الهند، وأول

---

(١) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزنة، وهي بلاد واسعة موحشة.

من نبغ منهم وظهر اسمه الحسين بن الحسين بن الحسن. وكان قد ملك قبله بلاد الغور محمد بن الحسين، وكن قد صاهر بهرام شاه صاحب غزنة، فعظم شأنه بمصاهرته وعلت همته، فجمع جموعًا كثيرة، وسار إلى غزنة ليملكها، وأظهر الخدمة والزيارة لبهرام شاه وهو يريد المكر فعلم به بهرام شاه، فقبض عليه وسجنه ثم قتله، فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الأخذ بثأره لتمكن الدولة الغزنوية، ثم ملك بعد محمد أخوه سام بن الحسين، فمات بالجُدري، وملك بعده أخوه سورى بن الحسين بلاد الغور، وقوي أمره، وتمكن في مملكته، فجمع العساكر، وسار إلى غزنة طالبًا لثأر أخيه محمد، فلما وصل إليها وملكها في جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند، وجمع جموعًا كثيرة، وعاد إلى غزنة، وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى قلوبهم مع بهرام شاه، فلما التقوا انضم عسكر غزنة إلى بهرام، وسلَّموا إليه سورى وذلك في المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فصلبه بهرام شاه، وكان سورى هذا من الملوك الأجواد الكرام، حتى إنه كان يرمي الدراهم بالمقاليع ليتوصَّل بذلك إلى راحة الفقراء، ثم ملك بعده أخوه الحسين بن الحسين هذا بلاد الغور ومدينتها فِيرِوزكُوه[١]، فسار في سنة خمس وأربعين إلى مدينة هراة وحصرها، وكان أهلها قد كاتبوه، وطلبوه ليسلموها له هربًا من ظلم الأتراك، فلما حاصرها امتنع أهلها عليه ثلاثة أيام، ثم سلموها له، فدخلها، وأظهر طاعة السلطان سنجر بن ملكشاه السلجقي.

ذكر الحرب بينه وبين السلطان سنجر

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة كانت الحرب بين علاء الدين الحسين صاحب الغور وبين السلطان سنجر السلجقي؛ وسبب ذلك أن علاء الدين هذا قوي أمره، وكثرت أتباعه، وتلَفت وتعرّض إلى أعمال غزنة، وسار إلى بلخ، فملكها، فسار إليه السلطان سنجر فثبت له، واقتتلوا، فانهزمت الغُوريّة، وأسر علاء الدين، وقتل من أصحابه خلق كثير، وأحضر بين يدي السلطان، فقال له: يا حسين لو ظفرتَ بي ما كنت تصنع؟ فأخرج له قيدًا من الفضة، فقال له: كنتُ أقيِّدك بهذا، وأحملك إلى مدينة فيروزكوه. فخلع السلطان عليه، ورده إلى فيروزكوه.

---

(١) فيروزكوه: هذا معناه الجبل الأزرق: وهي قلعة عظيمة حصينة في جبال غورشستان بين هراة وغزنة وهي دار مملكة من يتملك تلك النواحي... وفيروزكوه: قلعة في بلاد طبرستان قرب دنباوند مشرفة على بلدة يقال لها ويمة... (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ملكه غزنة، وخروجه عنها، وقتل أخيه

قال: ولما أطلقه السلطان سنجر أقام بفيروزكوه مدة حتى اجتمع له أصحابه، وأصلح ما تشعّث من حال عسكره وقصد غزنة، وملكها يوم ذاك بهرام شاه، فلم يثبت له وفارقها إلى مدينة كرمان. وهي مدينة بين غزنة والهند، وليست كرمان المشهورة بل غيرها، وملك علاء الدين غزنة، وأحسن السيرة في أهلها، واستعمل عليهم أخاه سيف الدين، وأجلسه على تخت المملكة، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده، ثم عاد علاء الدين إلى بلد الغُور، وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خِلَعًا نفيسة، ويصِلَهم بصلاتٍ سنية، ففعل ذلك وأحسن إليهم، فلما جاء الشتاء ووقع الثلج، وعلم أهل غزنة أن الطريق قد انقطع بينهم، وبين الغُور كاتبوا بهرام شاه واستدعوه، فسار نحوهم في عسكره، فلما قارب البلد ثار أهلها على سيف الدين، فأخذوه بغير قتال، وانهزم من كان معه، فمنهم من نجا ومنهم من أخذ، ثم سوّدوا وجه سيف الدين، وأركبوه بقرة، وطافوا به البلد، ثم صلبوه، وهجوه بالأشعار، وغنى بها حتى النساء، ثم توفِّي بهرام شاه، وملك بعده ابنه خسرو شاه، فتجهز علاء الدين إلى غزنة في سنة خمسين وخمسمائة، فسار خسرو شاه إلى لهاوور وملك علاء الدين البلد، ونهبها ثلاثة أيام، وأخذ الذين أسروا أخاه، وهم من العلويين، فألقاهم من شواهق الجبال، وأخرب المحلّة التي صُلِب فيها أخوه، وأخذ النساء الذين تغنَّين بهجو أخيه، فأدخلهن حمامًا، ومنعهن الخروج حتى متن فيه، وأقم بغزنة حتى أصلحها، ثم عاد إلى فيروزكوه، ونقل معه من أهل غزنة خلقًا كثيرًا، وحملهم المخالي مملوءة ترابًا، فبنى قلعة فيروزكوه وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السجلقية.

ذكر خروج غياث الدين وشهاب الدين ابني أخي علاء الدين الحسين على عمهما وموافقته

قال: لما قوي أمر عمهما علاء الدين استعمل العمال والأمراء على البلاد، فكان ممن استعمل غياث الدين أبو الفتح محمد، وأخوه شهاب الدين أبو المظفَر محمد ابنا سام، على بلد من بلاد الغور، فأحسنا السيرة في أعمالها، واستمالا قلوب الناس، فانتشر ذكرهما، فسعى بهما إلى عمِّهما من حسدهما، وأوهمه أنهما يريدان الوثوب به، وقتلَه، والاستيلاءِ على مُلكه، فأرسل يستدعيهما فامتنعا، وكانا قد علما الخبر، فجهز إليهما عسكرًا مع قائد من قوّاده، فلما التقَوْا انهزم عسكر عمِّهما، وأسر القائد فأبقيا عليه، وأحسنا إليه، وأظهر العصيان على عمهما، وقطعا خطبه، فتوجه

إليهما وسارا إليه، والتَقوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم عسكر علاء الدين، وأخذ أسيرًا، فأجلساه على التخت، ووقفا في خدمته، ونادوا في عسكره بالأمان، فبكى عند ذلك، وقال: هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم أفعله، وأحضر القاضي، وزوج غياث الدين بنتًا له، وجعل ولي عهده بعده، وبقي كذلك إلى أن مات، وكان وفاته في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملك سيف الدين محمد بن علاء الدين الحسين بن الحسين

وهو الثاني من الملوك الغورية. ملك بعد وفاة أبيه، وأطاعه الناس، وراسل الملوك وهاداهم، واستمرَّ إلى أن قتل في شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وذلك أنه جمع عساكره وحشد فأكثر وسار من جبال الغور يريد الغُزَ، وهو ببلخ فاجتمعوا له وتقدّموا إليه، واتفق أنه خرج جريدة في جماعة من خاصته، فسمع به الغز فركبوا وأوقعوا به فقتل.

وكان ملكًا عادلاً حسن السيرة، فمن ذلك أنه لما ملك هراة أراد عسكره نهبها، فنزل على درب المدينة، وأحضر الأموال والثياب، وفرقها في عسكره، وقال: هذا خير لكم من نهب أموال الناس، فإن المَلِك يبقي على الكفر ولا يبقي على الظلم. رحمه الله تعالى.

ذكر ملك غياث الدين أبي الفتح محمد بن بسام ابن الحسين بن الحسن

وهو الثالث من الملوك الغورية. كان استقلاله بالمُلك بعد وفاة ابن عمه سيف الدين في شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وخطب له في الغور، وغزنة، ثم ملك الغز غزنة منه، وبقيت بأيديهم خمسة عشر سنة يصبون على أهلها العذاب، ويتابعون الظلم، هذا وغياث الدين يحسن السيرة في رعيته، والناس يشكون إليه حالهم، وهو يدبر ملكه إلى أن قوي أمره، وكثرت أتباعه، واشتد بأسه.

ذكر ملك غياث الدين غزنة

قال: ولما قوي أمر غياث الدين، وتمكن في ملكه، وزاد طغيان الغز، وأذاهم للناس، جهز جيشًا كثيفًا مع أخيه شهاب الدين إلى غزنة، وفيه أصناف الغورية، والخراسانية، والخُلج، فساروا إليها، فلقيهم الغز واقتتلوا، فانهزمت الغورية أولاً، ثم

كانت الدائرة على الغز، فقتل أكثرهم، ودخل شهاب الدين غزنة، وتسلمها وأحسن السيرة في أهلها، وأفاض العدل، وسار منها إلى كِرمان، وسوران[١]، فملكها، ثم تعدى بعد ذلك إلى السند، وقصد العبور، إلى بلد[٢]، وملك لهاوور، وملكها يومئذ خسرو شاه ابن بهرام شاه، فسار فيمن معه إلى ماء السند، فمنعه من العبور فرجع عنه، وقصد خرشابور، فملكها، وما يليها من جبال الهند، وأعمال الأفغان ورجع..

ذكر ملك شهاب الدين لهاوور وانقراض الدولة الغزنوية

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة سار شهاب الدين إلى لهاوور في جمع عظيم، وحشد كبير، فحصرها، وتهدد أهلها إن منعوه، وبذل لخسرو شاه الأمان على أن يطأ بساطه، ويخطب لأخيه فامتنع، فلما طال الحصار خذله أهل البلد، فطلب الأمان، فأمنه شهاب الدين، وحلف له، ودخل الغورية البلد، وبقي كذلك شهرين، ثم جهز خسرو شاه هو وولده إلى أخيه غياث الدين كما ذكرناه في أخبار الدولة الغزنوية.

قال: ولما كثرت جموع غياث الدين، واتسعت مملكته كتب لأخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له، وأن يذكر بالسلطنة، ويلقبه بألقاب السلاطين، وكان لقبه أولاً شمس الدين، ثم تلقب غياث الدين، ولقب الآن غياث الدنيا والدين معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين، ولقب أخاه عز الدين. قال: ولما استقر أمر «لهاوور»، سار شهاب الدين إلى أخيه غياث الدين، واتفقا على المسير إلى خراسان، فقصد مدينة هراة، فملكها واستناب بها، وملك عدة من بلاد خراسان، ورجع غياث الدين إلى مدينة فيروزكوه وشهاب الدين إلى غزنة.

ذكر مسير شهاب الدين إلى الهند

قال: وسار شهاب الدين إلى الهند، وحاصر بلدًا من بلادها، وملكها، وكان قد حصرها طويلاً فلم يظفر منها بطائل، فراسل زوجة الملك الهندي في أن يتزوجها، وكانت غالبة على أمر الملك، فأعادت عليه الجواب أنها لا تصلح لذلك، وأن لها

(١) سوران: مدينة كبيرة عليها حصون منيعة بعضها خلف بعض.

(٢) بلد: بالتحريك: هي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل، بينهما سبعة فراسخ وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخًا.. (معجم البلدان).

ابنة جميلة تزوجه بها، فأجابها إلى ذلك، فسقت زوجها سمّا، فمات، وسلمت إليه البلد، فأخذ الصبيَّة فأسلمت، وتزوجها، وحملها إلى غزنة، ووكل بها من علّمها القرآن، وتشاغل عنها، فتوفيت والدتها، ثم توفيت بعد عشرة سنين، ولم يرها، فبنى لها مشهدًا، ودفنها فيه، فأهل غزنة يزورون قبرها، ثم عاد إلى بلاد الهند، وملك كثيرًا منها.

ذكر ظفر الهنود بالمسلمين

قال: ولما اشتدّت نكاية[1] شهاب الدين في بلاد الهند تجمع ملوكهم من كل جهة، وتحالفوا على التعاضد، والتناصر على حربه، وجاؤوا من كل فج عميق، وركبوا الصعب والذلول[2]، وكان الحاكم على جميع الملوك امرأة من ملوكهم، فلما سمع شهاب الدين باتفاقهم وتعاضدهم؛ تقدم إليهم في عسكر عظيم، والتقوا، واقتتلوا، فانهزم المسلمون، وقتل منهم خلق كثير، وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده، وضربة على رأسه سقط منها إلى الأرض، وحجز الليل بين الفريقين، ثم حمل شهاب الدين إلى مدينة أخيه على رؤوس الرجال، فعمد إلى أمراء الغورية الذين انهزموا أن ملأ لهم مخالي خيلهم شعيرًا، وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم، فأكلوه.

ذكر ظفر المسلمين بالهنود

قال: واتصل الخبر بغياث الدين أخي شهاب الدين، فأمدّ المسلمين بالعساكر، فرجع شهاب الدين إلى الهنود، وجمع الهنود جموعًا عظيمة، وجددوا أسلحتهم، ووفروا جموعهم، وساروا بمَلِكَتهم في عددٍ كثير، فراسلها شهابُ الدين، وخدعها أن يتزوّجها، فلم تجبه إلى ذلك، وقالت: إما الحرب، وإما أن تسلِّم بلاد الهند، وتقتصر على ملك غزنة، فأجابها إلى العوْد إلى غزنة، وأن يرسل إلى أخيه في ذلك، وإنما فعل ذلك مكرًا، وكان بين العسكرين نهر، وقد حفظَ الهنود مخائِضَه، وأقاموا ينتظرون جواب غياث الدين، فجاء رجل من الهنود إلى شهاب الدين، وأعلمه بمخاضته، فاستوثق منه، وجهَّز جيشًا فعبروا المخاضة والهنود على غِرَّة، فلبسوهم،

---

(١) النكاية: القهر والغلبة.

(٢) يقال: ركبوا كل صعب وذلول في أمرهم: أي اتخذوا كل سبيل. والذلول من الدواب: السهل الانقياد.

وكان مقدَّم الجيش الحسين بن حرميل الغوري، وهو الذي صار بعد ذلك صاحب هراة، فوضع السيف في الهنود، فاشتَغلوا به، وأغفلوا المخائض، فعبر شهابُ الدين وبقيّة العسكر، ونادوا بشِعار الإسلام، وأكثروا في الهنود القتل، فما سلم منهم إلا القليل، وقتلت مِلكتهم، وتمكن شهاب الدين بعد ذلك من بلاد الهند، ودانت له ملوكها، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة «دهلي»، وهي كرسي الممالك التي فتحها من بلاد الهند، وأرسل عسكرًا مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبلهم، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق، ولعل ذلك كان في سنة ثلاث وثمانين. وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة كانت الحربُ بين غِياث الدين، وسلطان شاه أخي خوارزم شاه. وذلك أن سلطان شاه تعرض إلى بعض بلاد غياث الدين، وجمع عساكره، والتقوا، فانهزم سلطان شاه، واستعاد غياث الدين بلاده، وعاد إلى غزنة.

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارسي الهندي

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة كانت الحرب بين شهاب الدين، وبين ملك بنارسي؛ وسبب ذلك أن قطب الدين أيبك لما أقطعه شهاب الدين مدينة دِهلي أوغل في بلاد الهند، وقتل وسبى وعاد، فبلغ ذلك ملك بنارسي، وهو أكبر ملوك الهند، وولايته من حدود الصين إلى بلاد ملاو طولاً، ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضًا، فجمع جيوشه، وسار يطلب بلاد الإسلام، ومعه سبعمائة فيل، وقيل إن عسكره بلغ ألف ألف رجل، وسار شهاب الدين نحوه، فالتقى العسكران على جون، وهو نهر كبير يقارب دجلة، فاقتتلوا، فانتصر المسلمون على الهنود، وكثر القتل فيهم والأسر، وقتل ملكهم، وغنم المسلمون منهم تسعين فيلاً من جملتها فيل أبيض، وباقي الفيلة قتل بعضها، وانهزم بعضها، ودخل شهاب الدين بلاد بنارسي وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل، وعاد إلى غزنة. وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. سار شهاب الدين إلى الهند، وملك قلعة بهنكر، وهي قلعة عظيمة منيعة ملكها بالأمان، ثم سار منها إلى قلعة كواكير، وبينهما مسيرة خمسة أيام، فأقام عليها شهرًا، وصالحه أهلها على مال، فصالحهم على وسق[1] فيل ذهبًا، فقبض المال، ورحل عنها.

---

(١) الوسق: حمل البعير.

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة ملك شهاب الدين سام بن محمد بن مسعود مدينة بلخ، وسام هو ابن أُخت غياث الدين، وله بامِيان، وكان صاحب بلخ زاير يحمل الخراج إلى ملك الخطا بما وراء النهر، فتوفي في هذه السنة، فسار شهاب الدين سام إلى بلخ، وملكها، وخطب فيها لخاله غياث الدين، وفيها انهزم الخطا من الغورية.

ذكر ملك شهاب الدين وأخيه غياث الدين ما كان لخوارزم شاه بخراسان

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة ملكا ذلك. وسبب ذلك أن محمد بن حرميل نائب الغورية بالطالقان كان قد استولى على مرو الروذ، فكاتبه جقر التركي نائب خوارزم شاه بمرو أن يكون في جملة عسكر غياث الدين، ويفارق خدمة الخوارزمية، فلما وصل الخبر إلى غياث الدين علم أنه ما قصد الانتماء إليه إلا لضعف صاحبه، فطمع في البلاد، وجهز شهاب الدين من غزنة، وسار لذلك، فوصله كتاب جقر يستحثه على السير إليه، يسلم إليه مرو، فسار إليها، فقاتله أهلها مع العسكر الخوارزمي، ثم سألوا الأمان، فكفّ عنهم، وتسلّم البلد، ووعده جقر الجميل، ثم حضر غياث الدين إلى مرو، وسلمها إلى هندو خان بن ملكشاه بن خوارزم شاه، وكان قد هرب من عمه إليه كما نذكره في أخبار الخوارزمية، ثم سار غياث الدين إلى مدينة سَرَخْس[١]، فأخذها صلحًا، وسلمها للأمير زنكي بن مسعود، وهو من أولاد عمه، وأقطعه معها «نسا»[٢]، و«أبيورد»[٣]، ثم سار إلى طوس فامتنع عليه أميرها، وأغلق الأبواب دونه ثلاثة أيام، فغلت الأسعار، وبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار، فضجَّ أهلُ البلد، فطلب الأمان، فأمّنه، فخرج إليه فأكرمه، وخلع عليه، وسيره إلى هراة،

(١) سرخس: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الخاء المعجمة، وآخره سين مهملة: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق بينها وبين كل واحدة منهما ست مراحل... (معجم البلدان).

(٢) نسا: بفتح أوله، مقصور: وهي مدينة بخراسان، بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، وبين أبيورد يوم... (معجم البلدان).

(٣) أبيورد: بفتح أوله وكسر ثانيه، وياء ساكنة، وفتح الواو، وسكون الراء، ودال مهملة: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وبئة، رديئة الماء، يكثر فيها خروج العرق... (معجم ياقوت).

وملك البلد، ثم أرسل إلى علي شاه أخي خوارزم شاه، وهو ينوب عن أخيه بنيسابور يأمره بمفارقة البلد، ويحذره من المقام بها، فامتنع عليه، وحصَّنَ البلد، وخرب ما بظاهره من العمارة، فسار شهاب الدين إليها، فقدمها في أول شهر رجب من السنة، وقدم العسكر للحصار، فملك البلد عنوة، ونهبه عسكرُه ساعةً من نهار، فبلغ الخبر غياث الدين، فنادى من نَهب أو آذى فدمه حلال، فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره، وتحصن الخوارزميّون بالجامع، فأخرجهم أهل البلد، فنهب الغورية مالهم، وأُحضِر علي شاه ابن خوارزم شاه إلى غياث الدين راجلاً، فأنكر ذلك على محضرِه، وعظُم الأمر فيه، وحضرت داية كانت لعلي شاه، وقالت لغياث الدين: هكذا تفعل بأولاد الملوك، فقال: لا، بل هكذا، وأخذه بيده، وأقعده معه على السرير، وطيّب نفسه، وسيّر جماعة من الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار، وولى غياث الدين ابن عمه ضياء الدين محمد بن علي حرب خراسان، وضم إليه وجوه الغورية، ورحل إلى هراة، وسلم علي شاه لأخيه شهاب الدين، وأحسن إلى أهل نيسابور، وفرق فيهم مالاً كثيرًا.

قال: ثم سار شهاب الدين إلى ناحية قُهِستان[1]، فأخرب قرية للإسماعيلية، وقتل من بها من الرجال، ونهب الأموال، وسبى الذراري، ثم سار إلى كتابان، وهي من مدن الإسماعيلية، فحصرها، فطلب أهلها الأمان ليخرجوا منها، فأمنهم وأخرجهم، وملك المدينة، وسلمها إلى بعض الغورية، فأقام بها شعائر الإسلام، فكتب صاحب قهستان إلى غياث الدين يقول له: إن بيننا عهدًا، فما الذي أوجب محاصرة بلادي؟ فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالرحيل عنها، وقال له: ما لك ولرعيتي، فامتنع من الرحيل، فقال له الرسول: فإذًا أفعل ما أمرني به غياث الدين، وجبذ الرسول سيفه، وقطع أطناب سرادق شهاب الدين، فارتحل كارهًا، وتوجه إلى الهند، ولم يقم بغزنة غضبًا على أخيه.

ذكر ملك شهاب الدين أنهلوارة من الهند

قال: ولما سار شهاب الدين من بلاد الإسماعيلية إلى الهند، أرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى أنهِلْوارة، فوصلها في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، فقاتل عسكر الهند بها، فهزمهم، وملكها عنوة، وهرب ملكها، وجمع وحشد فعلم

(١) قوهستان (كما في معجم البلدان لياقوت): مدينة بكرمان قرب جيرفت بينها وبين جبال البلص والقفص وفيها نخل كثير.

شِهاب الدين أنه لا يستمر له ملكها إلا بمقامه بها لأنها من أعظم البلاد، فصالح على مال في العاجل والآجل، وسلمها لصاحبها ولما توجَّه شهاب الدين إلى الهند عاد خُوارزم شاه إلى البلاد، واسترجعها من أيدي غِياث الدين، وهرب هندو خان منه؛ وذلك في بقية سنة سبع وتسعين وخمسمائة وسنة ثمان وتسعين.

ذكر وفاة غياث الدين وشيء من سيرته

كانت وفاته في جُمادى الأُولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فأُخْفِيت وفاته، وكان أخوه شهاب الدين بطوس، وقد عزم على قصد خوارزم، فأتاه الخبر بوفاة أخيه، فعاد إلى هراة، وجلس للعزاء في شهر رجب، وخلف غياث الدين من الولد ابنه محمودًا، وكان غياث الدين مظفَّرًا منصورًا في حروبه لم تنهزم له راية، وكان قليل المباشرة للحروب، وإنما كان له ذكر ومكائد، وكان جوادًا، كريمًا، حسن الاعتقاد، كثير الصدقات، والأوقاف، بنى المساجد، والمدارس بخراسان للشافعية، وبنى الخانكاهات، وأسقط المكوس[1]، وكان عفيفًا من أموال الناس، ومن مات في بلاده ولا وارث له تصدّق بما يخلِّفه، ومن مات من التجار وله أهل بغير بلاده، سلَّم ما له لرفقته من التجار، فإن تعذر ذلك سلّمه للقاضي إلى أن يصِل مستحقَّه، وكان إذا وصل إلى بلد عمَّ أهله بإحسانه، سيما الفقهاء وأهل الفضل، فإنه يخلع عليهم، ويصلُهم، ويفرض لهم الأُعطِيات في كل سنة من خزائنه، وكان يراعي من يقصده من العلويين، ويجزل صِلاتهم وكان حسن الخط، ذا فضل وبلاغة، وكان ينسخ المصاحف بخطه، ويوقفها في المدارس التي أنشأها، ولم يظهر منه تعصب لمذهب على مذهب، وكان يميل إلى الشافعية ـ لأنه متمذهب بمذهب الشافعي ـ من غير أن يطمعهم في غيرهم، ولا يعطيهم ما ليس لهم. رحمه الله تعالى.

ذكر استقلال شهاب الدين بالملك وما فعله مع ورثة أخيه

استقل شهاب الدين الغوري بالملْك بعد وفاة أخيه غياث الدين في شهر رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وولَّى ابن أخيه محمودًا مدينة بُسْت، ولقبه بلقب أبيه، وجعله عن المُلْك بمعزل، ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه، ولا على غيره من أهله، فمن جملة ما فعله أن غياث الدين كان له زوجة مغنية، فلما مات أخذها

(١) المكوس: واحدتها: المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار. والماكس: الذي يقدر الضريبة ويجبيها.

شهاب الدين، وضربها ضربًا مبرّحًا، وضرب ولدها ربيب غياث الدين، وزوج أختها، وأخذ أموالهم، وسيّرهم إلى بلاد الهند على أقبح صورة، وكانت قد بنت مدرسة، ودفنت فيها أباها وأخاها، فهدمها شهاب الدين، ونبش قبور الأموات، ورمى عظامهم، وفعل ما يناسب هذه الأفعال الشنيعة، وتوجه إلى الهند.

ذكر حصره خوارزم، وانهزامه من الخطا

وفي شهر رمضان سنة ستمائة عاد شهاب الدين من بلاد الهند، وقصد خُراسان. وسبب ذلك أنه بلغه أن خوارزم شاه حصر مدينة هراة، فعاد من الهند حنقًا عليه، وقصد خوارزم، فأرسل إليه خوارزم شاه يقول له: إما أن ترجع، وإلا حاصرت هراة، ومنها إلى غزنة، وكان خوارزم شاه بمرو، فأجابه شهاب الدين: لعلك تنهزم على عادتك أول مرّة، وخوارزمُ تجمعنا.

فسار خوارزم شاه من مرو إلى خوارزم، فسبق شهاب الدين إليها، وحرَّق العلوفات التي في الطريق، وقطع الطرق بإجراء المياه، فتعذَّر على شهاب الدين سلوكها، فأقام أربعين يومًا حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم، فخرج إليه خوارزم شاه، والتقى العسكران بسوقرا، ومعناه: الماء الأسود، واقتتلوا، فأسر جماعة من الخوارزمية، وأمر شهاب الدين بقتلهم، وكان خوارزم شاه أرسل إلى ملك الخِطا يستنجد، فسار من بلاده بما وراء النهر لقصد شهاب الدين، فعاد عن خوارزم، ولقي أوائل عسكر الخطا في صحراء أيدي حوى في أول صفر سنة إحدى وستمائة، فقتل منهم وأسر، ثم دهمه الخِطا في اليوم الثاني، فانهزم عسكره منهم، وبقي شهاب الدين في نفر يسير، وقتل بيده أربعة من فيلته كانت قد عيت، وأخذ الخطا فيلين، ودخل شهاب الدين إلى أيدي حوى، فحصره الخطا بها، ثم صالحوه على فيل ثالث يعطيه لهم، ففعل، وخلص، وشاع الخبر في جميع بلاده أنه عَدِمَ، ثم وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد قتل أكثر عسكره، ونهبت خزائنه، فأخرج إليه الحسن بن حرميل صاحب الطالقان خيامًا، وجمع ما يحتاج إليه، وسار إلى غزنة، واستصحب معه الحسن بن حرميل لأنه بلغه أنه قصد الانضمام إلى خوارزم شاه، فجعله شهاب الدين أمير حاجب، قال: ولما وصل الخبر بقتله إلى غزنة، جمع تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، وهو أول مملوك اشتراه أصحابه، وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها، فمنعه مستحفظها، فعاد إلى داره، فلما وصل شهاب الدين إلى غزنة أمر بقتل الدز، فشفع فيه مماليك شهاب الدين، فأطلقه، وسار مملوك له اسمه أيبك كان قد سلم من المعركة، فلحق ببلاد الهند، ودخل المولتان، وقتل نائب السلطنة بها، وملك البلد،

وأخذ الأموال السلطانية، وأساء السيرة في الرعية، وأشاع قتل شهاب الدين، فلما اتصل خبره بشهاب الدين سار إلى الهند، وأرسل إليه عسكرًا، فأخذوه، وقتل شرّ قِتلة، وذلك في جُمادى الآخرة سنة إحدى وستمائة، وأمر شهاب الدين أن ينادى في جميع بلاده بغزو الخِطا.

ذكر قتل شهاب الدين بني كركر

كان سبب ذلك أنه لما شاع قتل شهاب الدين خرجوا في البلاد، وأفسدوا، وقطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، فراسلهم قطب الدين أيبك، فامتنعوا عليه، فسار شهاب الدين من غزنة، ووصل إليهم في يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستمائة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا من أول النهار إلى العصر، فبينما هو كذلك، إذ أقبل أيبك نائبه بالهند، فانهزم الكركرية[١]، ومن انضم إليهم، وقتلوا بكل مكان، وقصد من بقي منهم أجمةً هناك، وأضرموا نارًا، وكان أحدهم يقول لصاحبه: لا تَنْزِل للمسلمين يقتلوك، ثم يلقي نفسه في النار، فيلقي صاحبُه نفسه بعده، فعمّهم البلاء، وغنِم المسلمون أموالَهم وأهلِهم، وهرب ابن كركر بعد قتل إخوته وأهله، وكان معهم صاحبُ قلعة الجوديّ[٢]، ثم سار شهاب الدين نحو لهاوور، فأقام بها إلى سادس عشر شهر رجب من السنة، وعاد إلى غزنة.

ذكر مقتل شهاب الدين وشيء من سيرته

كان مقتله في أول ليلة من شعبان سنة اثنتين وستمائة، وذلك أنه لما عاد من لهاوور نزل بمنزلة يقال لها: دميل. بعد صلاة العشاء، وكان بعض الكركرية لزموا عسكره، وقد عزموا عل قتله لما فعله بهم من القتل والأسر، فلما كان في هذه الليلة تفرّق عنه أصحابه، وبقِي وحده في خِركاه، فثار أولئك النفر، فقتل أحدهم بعض الحرس بباب السرادق[٣]، فثار أصحابه ليبصروا ما به، فَخَلَتْ مواقِفُهم، وكثر

(١) قد تكون نسبة إلى كركر: بالفتح ثم السكون: مدينة بأران قرب بيلقان.. وكركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد.. وكركر أيضًا: ناحية من بغداد، منها القفص. وكركر أيضًا: حصن بين سميساط وحصن زياد، وهو قلعة وقد خربت... (معجم البلدان).

(٢) الجوديّ: ياؤه مشددة: هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل.

(٣) السرادق: الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما؛ أو هو كل شيء أحاط بشيء من حائط أو مضرب.

الزحام، فاغتنم الكركريَّة غفلتَهم عن التحفُّظ، فدخلوا على شهاب الدين، فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة، فمات، ودخل أصحابه عليه، فوجدوه قتيلاً على مصْلاه، وهو ساجد، فقتلوا أولئك النَفَر الكركريَّة، وقيل إن الذي قتله الإسماعيلية لخوفهم من خروجه إلى خراسان.

وكان رحمه الله شجاعًا مقدامًا، كثير الغزو إلى بلاد الهند، عادلاً في رعيّته، حسنَ السيرة فيهما، حاكمًا بينهم بإحكام الشرع الشريف. حكي عنه أنه لقي صبيًا من العلويين عمره خمس سنين، فدعا له الصبي، وقال: لي خمسة أيام ما أكلتُ شيئًا، فعاد من الركوب لوقته والصبيُّ معه، فنزل في داره، وأطعمه من أطيب الطعام بحضرته، وأعطاه مالاً، وسلَّمه إلى أبيه، وفرق في العلويين مالاً عظيمًا، وكان شافعي المذهب رحمه الله تعالى.

ذكر ما اتفق بعد وفاة شهاب الدين

قال: ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك ابن خواجا، فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك، وجعلوا شهاب الدين في مِحفَة(١)، وساروا به، فرتَّب الوزيرُ الأمور، وسكَّن الناس، وجعل الشمسيَّة على المِحِفَّة، وحفَّها بالحشم، وكان شهاب الدين قد جمع أموالاً عظيمة من بلاد الهند في سَفرته، فكانت الخِزانة التي معه ألفي حمل ومائتي حمل، وأعاد الوزير من كان معه من العسكر الهندي إلى خدمة قطب الدين، فإن شهاب الدين كان قد جمع العساكر لقصد الخِطَا، وفرق فيهم أموالاً كثيرة، وسار الوزير ومعه العسكر الغَزْنَوي، وكان الوزير والأتراك يميلون إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين، والأمراء الغُوريّة تميل إلى بهاء الدين سام صاحب بامِيان(٢)، فأرسلت كل طائفة إلى من تميل إليه يعرفونه قتل شهاب الدين، ثم سار الوزير والعسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان المدينة التي بين لَهاوُور وغزنة، وكان بها تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، فلما عاين المحفَّة ترجّل، وقبَّل الأرض على عادته، وتقدّم وكشف عن شهاب الدين، فلما رآه قتيلاً خرَّق ثيابه، وصاح، وبكى، وأبكى الناس، وكان من أكبر المماليك الشهابية، فطمع في ملك غزنة، فسأل الوزير عن الأموال والسلاح والدواب، فأخبره بما خرج من ذلك وما بقي، فأنكر عليه، وأساء جوابه، وقال: إن الغُورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب بامِيان ليملِّكوه

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له.

(٢) باميان: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة، بها قلعة حصينة.

غزنة، وقد كتب إليَّ غياث الدين، وهو مولاي وابن مولاي، يأمرني ألاَّ أترك أحدًا يقرب من غزنة، وقد جعلني نائبه فيها، وفي سائر الوِلاية المجاوِرة لها لاشتغاله بخُراسان، وقد أمرني أيضًا أن أتسلّم الخِزانة منك، فلم يقدر الوزير على الامتناع لميل الأتراك إلى الدز، فتسلمها، وسار بالمحفة إلى غزنة، فدفن شهاب الدين بمدرسته، وكان وصولهم إليها لثمان بقين من شعبان سنة اثنتين وستمائة.

ذكر مسير بهاء الدين سام صاحب باميان إلى غزنة ووفاته

وبهاء الدين سام هذا هو ابن أخت غياث الدين، وشهاب الدين، وكانا قد ملكاه بامِيان، فأحسن السيرة، وأحبّه الأمراء الغُورية، وكاتبوه للحضور إلى غزنة، فأعدا عليهم الجواب يأمرهم بحفظ البلد، وأنه واصل إليهم، وسار عن باميان مرحلتين، فوجد في رأسه صداعًا اشتدَّ عليه، فنزل وقد أيقن بالموت، وأحضر ولديه: علاء الدين وجلالَ الدين، وعهد بالملك إلى علاء الدين، وأوصاهما بالأمراء الغورية، ومات.

ذكر ملك علاء الدين بن سام مدينة غزنة، وأخذها منه

قال: ولما توفي بهاء الدين سام، وعهد إلى ابنه علاء الدين، سار إلى غزنة، ومعه أخوه جلال الدين، فتلقاهما الأمراءُ الغُورية، وخرج الأتراك معهم على كره، ونزلا دار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة اثنتين وستمائة، فأراد الأتراك منعهم، فنهاهم الوزير عن ذلك لقلّتهم، واشتغال غياث الدين بابن حرميل صاحب هراة، فاستقر علاء الدين، وجلال الدين بدار السلطنة بالقلعة، فراسلهما الأتراك أن يخرجا من الدار، وإلا قاتلوهما، ففرقا فيهم أموالاً كثيرة واستحلفاهم، فحلفوا، واستبوا غياث الدين محمود، فأنفذا خلعًا إلى تاج الدين الدز، ووعداه الجميل والحكم في دولتهما، فوصله الرسول، وقد سار عن كرمان لقصد غزنة، فردَّه أقبح رد، وقال: قل لهما يخرجان من غزنة، ويكتفيان بباميان، فإني لا أقدم أحدًا على ولد سيدي غياث الدين، ولم يقصد الدز بذلك حفظ البيت وإنما أراد التمهيد لنفسه، فعاد الرسول، وأبلغهما مقالته، ووصل الدز إلى غزنة، فخرج إليه الغورية، والتقوا في خامس شهر رمضان، فانحاز إليه الأتراك، وخدموه، فهزموا الغورية، ودخل العسكر المدينة، ونهبوا دور الأمراء الغورية، والباميانية، وحصر الدز القلعة، فخرج جلال الدين منها إلى باميان في نحو عشرين فارسًا ليجمع العساكر، وأوصى أخاه علاء الدين بحفظ الحصن، فشدد عليه الدز الحصار، وضيّق عليه، فأجاب إلى مفارقة الحصن، وحلف الدز أنه لا يؤذيه، وسار علاء الدين من غزنة، فلما رآه الأتراك نهبوا

ما كان معه، وألقوه عن فرسه، وأخذوا ثيابه، وتركوه عريانًا بسراويل، فبلغ الدز الخبر، فأنكر عليهم، وأرسل إليه بثياب ودواب ومال، واعتذر إليه، فأخذ ما لبسه، ورد الباقي، ولما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد، وركب حمارًا، فأخرجوا له المراكب الملوكية والملابس، فلم يلبس ولم يركب، وقال: أريد أن يراني الناس على هذه الحال، وما صنع بي أهل غزنة، حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبت أهلها لا يلومني أحد، ودخل دار الإمارة، وشرع في جمع العساكر.

ذكر ملك تاج الدين الدز غزنة

قال: ولما توجّه علاء الدين من غزنة، أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر بالخطبة له ولا لغيره، إنما: يخطب للخليفة، ويترحم على شهاب الدين فحسب، فلما كان في سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والقراء والمقدمين، وأحضر رسول الخليفة، وهو مجد الدين أبو علي بن أبي الربيع مدرس النِظَامية، وكان قد حضر برسالة من دار الخلافة إلى شهاب الدين، فوجده قد قتل، وركب الدز والناس في خدمته، وعليه ثياب الحزن، وجلس في دار السلطنة في غير المجلس الذي كان يجلس فيه مولاه شهاب الدين، فتغير الناس عليه، وتنكروا له، فإنهم إنما كانوا يطيعونه لإظهاره طاعة غياث الدين محمود، فلما استقل بالأمر خالفوه، ففرق فيهم الأموال والإقطاعات، واستعان على ذلك بالخزانة التي أخذها عند مقتل شهاب الدين، وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد الملوك الغورية، وغيرهم من الأكابر، فأنفوا من خدمته، واستأذنوه على اللحاق بغياث الدين، فأذن لهم، فلحق بعضهم به، وبعضهم بأصحاب باميان، وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره على ما فعل ويطالبه بالخطبة له، ونقش السكة باسمه، فلم يفعل، وغالط في الجواب، وطلب منه أن يخاطب بالملك، وأن يعتقه من الرق، وأن يزوج ابن غياث الدين، بابنة الدز، فلم يجبه إلى ذلك، قال: ولما ملك الدز غزنة أحضر مؤيد الملك الوزير، وألزمه الوزارة، فوزر على كره منه.

ذكر حال غياث الدين محمود بن غياث الدين بعد مقتل عمه شهاب الدين

قال: لما قتل شهاب الدين كان غياث الدين هذا «ببُست» في إقطاعه، فبلغه الخبر، وكان شهاب الدين قد ولّى الملكَ علاء الدين محمد بن أبي علي بلادَ الغُور، وغيرها مما يجاورها، فلما بلغه قتل شهاب الدين، سار إلى مدينة: «فيروزكوه»؛ خوفًا أن يسبقه غياث الدين إليها، فملكها، وكان حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية إلا أن

الناس كرهوا منه أنَّه كان كرامِيًّا، وكانوا يميلون إلى غياث الدين، فأنف الأمراء من خدمة علاء الدين مع وجود ابن سلطانهم، وكان علاء الدين هذا قد أحضر الناس، وحلفهم أنهم يساعدونه على قتل خوارزم شاه، وبهاء الدين صاحب بامِيان، ولم يذكر غياث الدين احتقارًا له، فحلفوا له ولولده من بعده، هذا وغياث الدين بمدينة بُسْت لم يتحرك انتظارًا لما يكون من صاحب بامِيان لأنَّهما كانا قد تعاهدا في أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين، وغزنة والهند لبهاء الدين صاحب بامِيان، بعد موت شهاب الدين، فلما بلغه ما اتفق من وفاة بهاء الدين وإخراج أولاده من غزنة جلس على التخت، وخطب لنفسه، وتلقب بألقاب والده، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي، وهو بفَيْروزكوه يستدعيه، ويستعطفه ليصدر عن رأيه، ويسلم مملكته إليه، وكتب إلى الحسن بن حرميل وإلى هراة مثل ذلك، فأما علاء الدين فأغلظ له في القول وتهدّد الأمراء الذين مع غياث الدين، فسار غياث الدين إلى «فيروزكوه»، فأرسل علاء الدين عسكرًا مع ابنه، وفرق فيهم أموالاً جمة ليمنعوا غياث الدين، فلقوه بالقرب من فيروزكوه، فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلَجي المغْفرُ عن رأسه، وقال: «الحمد لله إذ الأتراك الذين لم يعرفوا أباهم لم يضيعوا حق التربية»، وردّوا ابنَ ملك بامِيان، وأنتم مشايخ الغُورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان وربَّاكم، كفرتم إحسانه، وجئتم لقتال ولده أهذا فعل الأحرار، فقال محمد المرغني، وهو مقدم العسكر: لا والله وترجل عن فرسه، وألقى سلاحه، وقصد غياث الدين، وقبّل الأرض بين يديه، وبكى بصوت عال، وفعل سائر الغورية مثل فعله، فانهزم خواصّ علاء الدين مع ولده، فلما بلغه الخبر خرج عن فَيْروزكوه هاربًا نحو الغور، وهو يقول: أجاور بمكة، فأنفذ غياث الدين خَلْفَه من العسكر من أدركه، فأُخذ وحُبس، وملك غياث الدين فيروزكوه، وفرح به أهل البلد، وقبض على جماعة من الكرّاميّة[1] أصحاب علاء الدين، فقتل بعضهم، وسكن دار أبيه، وأعاد رسومه، وسلك سبيل العدل والإحسان، ثم لم تكن له همة إلا في أمر الحسن بن حرميل، وملاطفته، فتكررت المكاتبات منه إليه، وابن حرميل يغالطه في الجواب، ويطاوله، وكان ابن حرميل قد كتب إلى خوارزم شاه بالانحياز إليه، وبذل الطاعة، وأنه يسلم إليه هراة، فكان من أمره ما نذكره في أخبار الدولة الخوارزمية من انضمام ابن حرميل إلى خوارزم شاه، وملكه ما كان للغورية بخراسان، والله أعلم بالصواب.

(١) الكرامِيّة: أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام، ويعد من الصفاتية لأنه كان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه. ومحمد بن كرام كان من سجستان ثم خرج إلى نيسابور في أيام محمد بن طاهر بن عبد الله.. . (الملل والنحل للشهرستاني ١: ١٠٨).

ذكر عود علاء الدين وجلال الدين ابني بهاء الدين سام صاحب باميان إلى غزنة

قال: ولما فارق علاء الدين غزنة على الصِّفة التي ذكرناها، والتحق بباميان، شرع في الاستعداد وجمع العساكر لقصد غزنة، وأما الدَز، فإنه استولى على غزنة، وأحسن إلى الناس، وبسط العدل والإنصاف، ولم يخطب لنفسه ولا لغيره، وكان يعد الناس، ويقول: إن رسولي عند مولاي غياث الدين، فإذا عاد خطبت له، فتمسك الناس بقوله، وإنما كان يفعل ذلك مكرًا وخديعة بهم وبغياث الدين لأنه كان يضعف عن مقاومة صاحب بامِيان، وكانوا كذلك إلى خامس ذي القعدة سنة اثنتين وستمائة، فبينما الناس على ذلك إذ ورد عليهم الخبر أن صاحب باميان قد جمع الجيوش، وأقبل بها، وعزم على نهب غزنة، فجهز الدز جيشًا كثيفًا من عسكره، وسيّرهم إلى طريق صاحب بامِيان ليمنعوه من الوصول إلى غزنة، فلم يكن لهم قِبلٌ به، فلما التقوا قتل من الأتراك جماعة، وانهزم من سلم، وتبعهم علاء الدين يقتل ويأسر، فخرج الدز من غزنة هاربًا إلى كرمان، فنزل علاء الدين غزنة، واتبع الدز إلى كرمان، فملكها، وأمَّن أهلها، وعزم على العود إلى غزنة، ونهبها، فراسله رسول الخليفة، وشفع في أهلها، فشفَّعه فيهم بعد مراجعات، ثم وصل علاء الدين، وجلال الدين إلى غزنة، ومعهما ما بقي من الخزانة التي كان الدز قد أخذها من الوزير مؤيد الملك، فكانت تسعمائة حِمل، وفيها من الثياب المنسوجة بالذهب اثنا عشر ألف ثوب، وقصد علاء الدين أن يستوْزِر مؤيّد الملك، فسمع جلال الدين بذلك فأحضره، وخلع عليه، واستوزره، فغضب علاء الدين من ذلك، وقبض على مؤيد الملك، وقيده وحبسه، فتغيرت نيّات الناس، واختلف علاء الدين، وجلال الدين، واقتسما ما كان في الخزانة وجرى بينهما مُشَاحَّة(١) في القسمة لا تجري بين التجار، فعلم الناس أنه لا يتم لهما أمر، ولا يستقيم لهما دولة، وعاد جلال الدين ببعض العسكر إلى باميان، واستقر علاء الدين بغزنة، فأساء وزيره عماد الملك السيرة في الأجناد والرعية ونهب أموال الأتراك حتى باع أُمهات الأولاد.

ذكر عود تاج الدين الدز إلى غزنة

قال: ولما انفرد علاء الدين بغزنة، وأقام بها جمع الدز جمعًا كثيرًا من الأتراك، وعاد إلى كرمان، وبها عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له المؤيد، وكان المؤيد قد

(١) المشاحّة في القسمة: أي أن يشح بعضهم على بعض والمبادرة إلى أخذ ما هو له حذر فوته.

اشتغل باللهو واللعب، فلم يشعر إلا وعسكر الدز قد هجم على البلد، وقتل من فيه من العسكر عن آخرهم في المعركة صبرًا، وقتل المؤيد، فوصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذي الحجة من السنة، فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر، فتغيمت السماء وأمطرت حتى خرب بعض غزنة، ووقع بَرَدٌ كبار مثل بيض الدجاج، فضجّ الناس إلى علاء الدين، فأنزله آخر النهار، فانكشفت الظلمة، وكتب علاء الدين إلى أخيه جلال الدين يعلمه بالخبر، ويستنجده، ووصل الدز آخر ذي القعدة إلى غزنة، وحاصر القلعة، وكان بينه وبين علاء الدين قتال شديد، وجاء جلال الدين بأربعة آلاف من عسكر بامِيان، فلقيه الدز بقرية بَلْق[1] واقتتلوا، فانهزم عسكر جلال الدين، وأخذ هو أسيرًا، وأسر من البامانية ألف أسير، وعاد الدز إلى غزنة، فبعث إلى علاء الدين في تسليم القلعة أو قتل الأسرى، فامتنع من التسليم فقتل منهم أربعمائة بإزاء القلعة، فراسله عند ذلك في طلب الأمان، فأمنه، فلما خرج قبض عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما وقبض على وزيره عماد الملك، وكتب إلى غياث الدين بالفتح، وأرسل إليه الأعلام، وبعض الأسرى وذلك في صفر سنة ٦٠٣.

ذكر ما اتفق لغياث الدين محمود مع تاج الدين الدز وأيبك

قال: ولما عاد الدز إلى غزنة كتب إليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له، فأجابه جواب مدافع، وكان جوابه أشد مما تقدم، فأعاد عليه الجواب يقول: إما أن تخطب لنا، وإما أن تعرفنا ما في نفسك، فلما وصل إليه الرسول خطب لنفسه بغزنة بعد الترحم على شهاب الدين، فساء الناس ذلك منه، وتنكروا له، ولم يروه أهلًا أن يخدموه، ولما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول: بماذا تشتط على هذه الخزانة، نحن جمعناها بأسيافنا، وهذا الملك قد أخذته، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة، وأقطعتهم الإقطاعات، ووعدتني بأمور لم تفِ لي بشيء منها، فإن أنت عتقتني خطبت لك، وحضرت إلى عندك، فأجابه غياث الدين إلى العتق بعد الامتناع، وأشهد عليه بعتقه، وبعتق قطب الدين أيبك النائب ببلاد الهند، وأرسل إلى كل منهما ألف قباء، وألف قلنسوة، ومناطق الذهب، وسيوفًا كثيرة، وجِتْرَيْن، ومائة رأس من الخيل، فقبل الدز الخلع، وردّ الجتر، وقال: نحن عبيدك، والجتر له

(١) بلق: بالفتح ثم السكون وقاف: ناحية بغزنة من أرض زابلستان.

أصحاب، وسار رسول أيبك، وكان «بفَرشابور»[١]، وقد حفظ المملكة، وضبط البلاد، فلما قرب الرسول منه تلقاه، وترجل وقبل حافر الفرس، ولبس الخلعة، وقال: أما الجتر فلا يصلح للمماليك، وأما العتق فمقبول، وسوف أجازيه بعبودية الأبد. قال: وأرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا، وأنه يسير إليه العساكر إلى غزنة، فإذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثًا، ثلث له، وثلث لغياث الدين، وثلث للعسكر، فأجابه غياث الدين إلى ذلك، ولم يبقَ إلا الصلح، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب مازَنْدران، فسار عن هراة إلى مرو، وسمع الدز بالصلح، فجزع لذلك جزعًا عظيمًا، ظهر أثره عليه، وأرسل إلى غياث الدين يقول له: ما حملك على هذا فأجابه: حملني عليه عصيانك وخلافك، فسار الدز إلى تكينا باد فأخذها، وإلى بست وتلك الأعمال، وقطع خطبة غياث الدين عنها، وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين، وقطع خطبة خوارزم شاه، وأرسل إلى ابن حرميل صاحب هراة بمثل ذلك، وتهددهما بقصد بلادهما. ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره، وسيّر معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز لإعادته إلى ملك باميان، وكان قد ملكها عباس عم جلال الدين، وعلاء الدين لما أسرهما الدز، فاسترجعها من عمه.

قال: وبلغ قطب الدين أيبك ما فعله الدز، فكتب إليه يفتح ذلك عليه، وينكر فعله، ويقول: إن لم تخطب له بغزنة، وتعود إلى طاعته، وإلا قصدت بلادك، ثم بعث أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف، وأشار عليه بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلبه الآن، وأنه عند الفراغ من أمر غزنة يسهل أمر خوارزم شاه وغيرِه، قال: وخالف أَيدكز على الدز، فأقام بكابل[٢]، وكتب إلى أيبك يعرفه مخالفته له، وانتصاره لغياث الدين فصوّب رأيه، وأشار عليه بقصد غزنة في غيبة الدز، فإن حصلت له القلعة يقيم بها إلى أن يأتيه، وإن تعذرت عليه ينحاز إلى غياث الدين، أو يعود إلى كابل، فوصل أيدكز إلى غزنة في أول شهر رجب سنة ثلاث وستمائة، فمنعوه القلعة، فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع، فتوسط القاضي بينهم أن يسلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية، وأخذ له من التجار شيئًا آخر، وخطب أيدكز بغزنة لغياث الدين محمود، وقطع خطبة الدز، ففرح الناس لذلك، واتصل الخبر بالدز،

(١) فرشابور: مدينة وولاية واسعة من أعمال لهاور بينها وبين غزنة.

(٢) كابل: بضم الباء الموحدة، ولام: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... وبكابل عود ونارجيل وزعفران وإهليلج لأنها متاخمة للهند... (معجم البلدان).

ووصل إليه رسول أيبك، فخطب لغياث الدين في تكيناباد، وأسقط اسمه من الخطبة، ورحل إلى غزنة، فلما قاربها فارقها أيدكز إلى بلد الغور، وأقام في نمران[١]، وكتب إلى غياث الدين محمود، يخبره بحاله، وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة والتجار بغزنة، فأرسل إليه خلعًا سنية، وأعتقه، وخاطبه بملك الأمراء، وردّ عليه مال الخزانة، وقال له: أما مال الخزانة، فقد أعدناه إليك، وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلناها إلى أربابها لئلا تقبح دولتنا بالظلم، وقد عوضتك عنها ضعفيها، وأرسل أموال الناس إلى القاضي بغزنة، وأمره بردها على أربابها، ففعل ذلك، وكثر الدعاء له، وصار الدز بين الطاعة والخلاف لغياث الدين.

ذكر مقتل غياث الدين محمود، وانقراض الدولة الغورية

كان مقتله في سنة خمس وستمائة. وسبب ذلك أن خوارزم شاه سلم هراة إلى خاله أمين ملك، وأمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام، ويقبض عليه، وعلى علي شاه ابن خوارزم شاه، ويأخذ فيروزكوه، فسار أمين ملك إلى فيروزكوه، واتصل الخبر بغياث الدين، فبذل الطاعة، وطلب الأمان، فأمنه، فلما نزل إليه من فيروزكوه قبض عليه، وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه، فسألهما أن يحملهما إلى خوارزم شاه ليرى فيهما رأيه، فأرسل أمين ملك إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر، فأمره بقتلهما، فقتلا في يوم واحد، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه. وانقرضت الدولة الغورية بقتل غياث الدين هذا، وكانت من أحسن الدول، وأكثرها جهادًا، وكان غياث الدين هذا عادلاً كريمًا حليمًا، من أحسن الملوك سيرة، وأكرمهم أخلاقًا، وهو آخر ملوك الدولة الغورية، وكان ابتداء هذه الدولة من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وانقراضها في سنة خمس وستمائة، فتكون مدتها ثلاثًا وستين سنة تقريبًا، وربما ظهرت قبل هذا التاريخ، وإنما انتشرت واشتهرت وتمكنت في سنة ثلاث وأربعين. فلذلك جعلنا ابتداءها فيها. وعدة من ملك منهم عشرة ملوك، وهم محمد بن الحسين وهو ابن الحسن ملك ببلاد الغور قبل سنة ثلاث وأربعين، ولم أظفر بابتداء ملكه، فاذكره في سنته، ثم ملك بعده أخوه سامُ بن الحسين، ثم ملك بعده أخوه سُورى بن الحسين، ثم ملك بعده أخوه الحسين، وهو أول من علا ذكره، وطار اسمه، وتمكَّنت دولته، ثم ملك بعده ابنهُ سيف الدين محمد بن الحسين، ثم

(١) لم نعثر عليها فيما وصل إلينا من مظان، ولعلها نميزان: إحدى قرى هراة.

ملك بعده غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام بن الحسين، ثم ملك بعده شهاب الدين محمد بن سام، ثم اضطرب أمر الدولة الغورية بعده، فملك علاء الدين، وجلال الدين ابنا بهاء الدين سام صاحب باميان، ولم تطل مدّتهما. وإنما ذكرناهما في عدد الملوك الغورية؛ لأنهما استوليا على غَزْنة، وخطب لهما بها، وملك غياث الدين محمد، وكانت دولته في غاية الاضطراب كما ذكرنا.

ذكر أخبار تاج الدين الدز، وما كان من أمره بعد مقتل غياث الدين

استقلّ تاج الدين الدز بملك غَزْنة بعد مقتل غياث الدين محمود، وأحسن السيرة في الرعية، ودام ملكه بها إلى أن ملكها السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن رتكش في سنة ثنتي عشرة وستمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الخوارزمية، ولما ملكها خوارزم شاه هرب تاج الدين الدز من غزنة، وسار إلى مدينة «لهاوور»، واستولى عليها من صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من المماليك الشهابية بعد حرب كانت بينهما انتصر فيها الدز، ثم سار من مدينة لهاوور إلى الهند ليملك ما بيد المسلمين منها، فلقيه شهاب الدين الترمش مملوك قطب الدين أيبك، وكان قد ملك بعد وفاة مولاه، فاقتتلا قتالاً شديدًا، أجلت الحرب عن قتل تاج الدين الدز، وكان محمود السيرة في ولايته، كثير العدل والإحسان إلى رعيته، لا سيما التجار الغرباء، ومن محاسن أعماله ومكارم أخلاقه وحلمه أن كان له أولاد، ولهم مؤدِّب يعلمهم القرآن، فضرب أحدهم، فمات، فأحضره الدز، وقال له: يا مسكين ما حملك على ما فعلت، فقال: والله ما أردت إلا تأديبه، فمات. فقال له: صدقت، وأعطاه نفقة، وقال له: تغيّبْ، فإن أمّه لا تقدر على الصبر، وربما أهلكتك، ولا أقدر أمنعك، وهذا نهاية الحلم، ولم يشتهر الأحنف بن قيس[1] بالحلم بأكثر من هذا، وكان القاتل ابن أخيه، وهذا أجنبي رحمه الله تعالى.

---

(١) هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث. . . التميمي المعروف بالأحنف، وقيل اسمه صخر، وهو الذي يضرب به المثل في الحلم. كان من سادات التابعين رضي الله عنهم، أدرك عهد النبي ﷺ ولم يصحبه وشهد بعض الفتوحات منها قاسان والتيمرة. . . (وفيات الأعيان ٢:٤٩٩).

الباب العاشر

من القسم الخامس من الفن الخامس

في أخبار ملوك العراق، وما والاه وملوك الموصل والديار الجزيرية، والبكرية والبلاد الشامية، والحلبية، والدولة الحمدانية، والديلمية البويهية، والسلجوقية، والأتابكية

ذكر أخبار الدولة الحمدانية

وهذه الدولة كانت بالموصل، وديار ربيعة، وديار بكر، والثغور، وحلب، وجدّ ملكوها الذين ينسبون إليه هو مكابد المحل حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد بن رافع بن مسعود التغلبي العدوي، وإنما سمّي الأمير حمدان مكابد المحْل لأن الموصل أجدبت في بعض السنين حتى عدم القوت بها، فمات الناس أجمع سنتين إلى أن أُغيثوا، ففيه يقول الشاعر: [من الكامل]

ما زلتَ في قَيْظِ المعيشَةِ جاهدًا حتَّى دُعيتَ مُكابِدَ المَحْلِ[١]

وكان لحمدان أبناء كثيرون. منهم الأمير أبو الهيجاء عبد الله، والمملكة في أولاده.

ذكر ابتداء إمارة أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون بالموصل

كان ابتداء إمارته في سنة اثنتين وتسعين ومائتين. وذلك أن الخليفة المكتفي بالله استعمله على الموصل وأعمالها في هذه السنة، فسار إليها وقدمها في أول المحرم، فأقام بها يومًا واحدًا، وخرج من الغد بمن قدم معه وبمن فيها، فأتاه الصريخ[٢] من نِينَوى[٣] أن الأكراد الهذانية، ومقدمهم محمد بن بلال قد أغار على البلد، فسار من

---

(١) المحل: انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ.

(٢) الصريخ: الاستغاثة.

(٣) نينوى: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح النون والواو؛ هي قرية يونس بن متى، عليه السلام؛ بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه. . . (معجم البلدان).

وقته، وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، فلحق الأكراد بالعروبة على الخازِر(١)، فقاتلوه فقُتلَ رجلٌ من وجوه أصحابه اسمه سيما الحمداني، فعاد عنهم، وكتب إلى الخليفة يستمده، فأتته العساكر بعد شهور، فسار في شهر ربيع الأول سنة أربع وتسعين إليهم، وكانوا قد اجتمعوا في خمسة آلاف بيت، فلما عاين الأكرادُ الجيشَ قصدوا جبل السَّلَق(٢)، وامتنعوا به وهو جبلٌ عالٍ مشرفٌ على الزاب، وجاء مقدمهم إلى أن قرب من أبي الهيجاء، وراسله في الحضور عنده، وأن يرهن أولاده عنده، ويتركون القتال، فأجابه أبو الهيجاء إلى ذلك، ورجع محمد بن بلال ليأتي بالرهائن، فحثَّ أصحابه على المسير نحو أذربيجان، فبلغ ابن حمدان خبره، فأراه النجدة التي وصلت إليه من قِبل الخليفة على المسير معه، فتثبطوا عنه، فسار عبد الله بأصحابه يقفوا أثر الأكراد، فلحقهم وقد تعلقوا بالجبل المعروف بالقنديل، فقتل منهم جماعة، وانصرف عنهم، ولحق الأكراد بأذربيجان، ورجع عبد الله إلى الموصل، ثم خرج إلى الأكراد، وحاصرهم بجبل السَّلَق أشد حصار، فنجا محمد بن بلال بأهله وأولاده ومن لحق بهم، واستولى عبد الله على بيوتهم وسوادهم وأموالهم وأهليهم، فطلبوا الأمان فأمنهم، وأبقى عليهم وردهم إلى بلدهم، ورد عليهم أموالهم، وقتل منهم قاتل صاحبه سيما، وأمنت البلاد معه، وأحسن السيرة في أهلها، ثم حضر إليه محمد بن بلال بأمان، وأقام بالموصل، وتتابع الأكراد الحميدية وأهل جبل داسن(٣) إليه بالأمان، فأمنت البلاد، واستقامت، ولم تزل كذلك إلى سنة إحدى وثلاثمائة.

ذكر مخالفة عبد الله بن حمدان، ورجوعه إلى الطاعة

وفي سنة إحدى وثلاثمائة خالف الأمير أبو الهيجاء عبد الله على الخليفة المقتدر بالله، فثار به أهله، ونهبوا داره، فكتب إلى بني تغلب(٤)، فأتوه فدخل الموصل،

---

(١) الخازر: نهر بين إربل والموصل، ثم بين الزاب الأعلى والموصل. . . (مراصد الاطلاع لابن عبد الحق البغدادي).

(٢) السّلق: جبل عال مشرف على الزاب من أعمال الموصل متصل بأعمال شهرزور يعرف بسلق بني الحسن بن الصباح بن عباد الهمداني. . . (معجم البلدان).

(٣) داسن: بالنون: اسم جبل عظيم في شمالي الموصل من جانب دجلة الشرقي، فيه خلق كثير في طوائف الأكراد يقال لهم الداسنية. . . (معجم ياقوت).

(٤) بنو تغلب: بفتح التاء وكسر اللام: حيّ من وائل، من ربيعة، من العدنانية، ومن بني تغلب هؤلاء: عمر بن كلثوم الشاعر. . وبنو تغلب أيضًا: بطن من قضاعة، من القحطانية. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

وأوقع بأهلها وقتل منهم فأرسل إليه الخليفة مؤنسًا المظفر في جيش، فقصده أبو الهيجاء واستأمن له، وأظهر الطاعة، وقال: إنه ما فارقها، وسار معه إلى بغداد، فخلع المقتدر عليه، وولّى مكانه نحرير الصغير ولاه مؤنس المظفر.

ذكر القبض على بني حمدان، وإطلاقهم

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة قبض الخليفةُ المقتدر بالله على أبي الهيجاء بن حمدان، وجميع إخوته وحبسهم، وكان سببُ ذلك أنّ أخاه الحسينَ بن حمدان خرج عن الطاعة، وكان بالجزيرة[١]، فسيّر إليه الخليفةُ جيشًا، وكان بينهم حروب كان آخرها أن الحسين أسر وأحضر إلى بغداد، فقبض المقتدر على جميع إخوته وأهله، وحبسهم واستمروا في الحبس بدار الخليفة إلى سنة خمس وثلاثمائة فأطلقوا. وفي سنة ثمان وثلاثمائة خلع المقتدر بالله على أبي الهيجاء بن حمدان، وقَلّده طريق خراسان، والدِّينور، وخلع على أخويه أبي العلاء وأبي السرايا.

وفي سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة أسر القرامطة أبا الهيجاء بن حمدان، ثم أطلقوه، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار القرامطة. وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة ضمن أبو الهيجاء أعمالَ الخراج والضياع بالموصل وقرِدْي[٢] وبازَبْدي[٣]، وما مع ذلك مضافًا إلى ما بيده من ولاية طريق خراسان، وغيرها، وكان هو مقيمًا ببغداد وابنه ناصر الدولة يخلُفُه بالموصل، وأقام على ذلك إلى أن قُتِل في يوم الاثنين سابع عشر المحرّم سنة سبع عشرة وثلاثمائة عند خلع المقتدر بالله وبيعة القاهر على ما شرحناه مبينًا في خلافة المقتدر بالله.

وكان القاهر بالله لما بويع بالخلافة في النصف من المحرم اختص بأبي الهيجاء حمدان، فلما ثار الجند بعد يومين من بيعته كان أبو الهيجاء عنده، فبادر بالقيام ليخرج، فتعلق القاهر بأذْياله، واستجار به، فحملته الحمية العربية على الثبات، ودخل الأجناد على القاهر وهو وأبو الهيجاء يتخللان[٤] القاعات حتى حُصرا بقاعة، فدخل عليهم الجند من بابها، فجرد أبو الهيجاء سيفه، وأوقف القاهر وراءه، وصار يحمل

---

(١) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات. . . (معجم البلدان).

(٢) قردي: موضع في شرقي دجلة تقابل الجزيرة.

(٣) بازبدي: كورة من ناحية جزيرة ابن عمر غربي دجلة.

(٤) تخلل فلان بعد الأكل: أخرج ما بين أسنانه من بقية الطعام.

على الأجناد، فيردهم إلى الدهاليز، ثم يعود ويعودون، فصعد بعض الجند إلى أعلى القاعة، ورموه بالنشّاب إلى أن مات. هذا أحدُ ما قيل في صفة قتله. وكان شجاعًا فاتكًا كريمًا محبوبًا إلى الخلفاء الأمراء، وخلف من الأولاد: أبا محمد الحسن، وأبا الحسين علي، وأبا العطاف خير، وأبا زهير. والمملكة من هؤلاء في الحسن وعلي وعقبهما، واستبد ابنه الحسن بالأمر على ما نذكره بعد ذكرنا لأخبار عمه الحسين بن حمدان.

ذكر أخبار الحسين بن حمدان بن حمدون، وهو أخو أبي الهيجاء

كان الحسين هذا من أُمراء بني حمدان المشهورين ولّي قمّ[١] وأعمالها، والموصل، والجزيرة، وغير ذلك من الأعمال الجليلة، وكان شجاعًا سفّاكًا، ذا همّة عالية، اجتمع عنده نيّف وعشرون طوقًا من خِلع الخلفاء كلّ طوق منها لقتلِه خارجيًا، ولم يزل عند الخلفاء يُعدّ للمهمات إلى أن خالف على المقتدر بالله في سنة ثلاث وثلاثمائة. وكان إذ ذاك بالجزيرة، وجمع نحوًا من عشرة آلاف، فبعث المقتدر لحربه رائقًا الحجري في جيش كثيف، فانهزم الحسين، وقصد ابنَ أبي الساج بأذربيجان، ومرَّ على أرزن[٢] فخرج إليه واليها ليردَّه، فهزمه الحسين. وكان مؤنس المظفَّر بالقرب من أرزن، فبعث إليه من أدركه، وقبض عليه، وأدخل إلى بغداد، وهو مشهور على جمل في زي شنيع وابنه كذلك، وقبض عند ذلك على سائر إخوته، وهم أبو الهيجاء، وأبو العلاء سعيد، وأبو السرايا، وأبو الوليد، وحمدون، واعتُقِلوا في دار الخلافة، ولم يُتْرَكْ منهم إلا داود، وأقام الحسين في الحبس إلى أن عزَم الخليفةُ على إخراجه في سنة خمس وثلاثمائة وتوليته مقدمة الجيش لمحاربة يوسف بن أبي الساج، فلم يفعل، وامتنع، وقال: الساعة لما احتجتم لي، فغضب الخليفة لذلك، وأمر قاهرًا الخادم أن

---

(١) قم: بالضم وتشديد الميم: مدينة تذكر مع قاشان. . .، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها. . . ومنها إلى الريّ مفازة سبخة فيها رباطات ومناظر ومسالح. . . (معجم البلدان).

(٢) أرزن: هي مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. . . وأرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضًا. . . وأرزن أيضًا: موضع بأرض فارس قرب شيزار، قال ابن الفقيه: بين نصيبين وأرزن ذات اليمين للمغرب سبعة وثلاثون فرسخًا. . . (معجم البلدان).

يقتله، فقتله في الحبس، ورمى رأسه إليه ورميت جثّتهُ في دجلة، وأطلق عند ذلك سائر بني حمدان، وما منهم، إلا من له ذكر وتقدم، وإنما خصصْنا عبد الله والحسين بالذكر دون غيرهما من إخوتهما لاشتهارهما في الدولة العبّاسية، وتقدمهما، ولأنهما وليا جلائل الأعمال، وتقدما على الجيوش في الحروب. وقد تقدم من أخبارهما في الدولة العباسية ما يستدل به على تقدمهما وشجاعتهما، وذكرنا أيضًا في أخبار الخوارج بالموصل كيف كان ظفر الحسين بهارون الخارجي الذي كانت فتنته قد عمت، فلنذكر الطبقة الثانية منهم، وهم أولاد عبد الله بن حمدون.

ذكر أخبار ناصر الدولة

هو أبو محمد الحسن بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون. لما قتل والده كان يخلُفه بالموصل وأعمالها، فتقدم في خدمة الدولة العباسية، وتنقل في الولايات إلى أن تولّى الموصلَ في أيام الراضي بالله، وتغلب عليها في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة لما ضعفت الدولة العباسية، فندب ابن مقلة الوزير إليه عمه أبا العلاء سعيد بن حمدان، وولاه الموصل، وأمره بالقبض على ناصر الدولة، فلما قرب من الموصل، خرج ناصر الدولة لتلقيه، فخالفه سعيد، ودخل البلد ونزل داره، وقبض على خزائنه، فبلغه الخبر فرجع عجلاً، ودخل الدار، وقبض على عمه، وأمر بعض الغلمان بعصر مذاكيره، فعصرت حتى مات، وذلك في شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فاتصل الخبر بابن مقلة، فتجهز في العساكر الخليفية، وسار من بغداد إلى الموصل لخمس خلون من شعبان، وكان ناصر الدولة لدهائه ومكره لا يصافف[1] من يقصده، فلما بلغه خبر مسير ابن مقلة، رفع أمواله وخزائنه وحرمه إلى قلعة الموصل، وجعل فيها من خواص غلمانه من يدفع عنها، ثم خرج من الموصل في عسكره، وأخرج معه كل تاجر في البلد، ولم يترك بالموصل علوفة ولا قوتًا إلا رفعه إلى القلعة، فوصل الوزير ابن مقلة إلى الموصل، وهي بهذه الصفة، فأقام بحال سيئة، وبعث بالعساكر مع علي بن خلف بن طيّاب في طلب ناصر الدولة، فسار خلفه ودخل ناصر الدولة إلى أرمينية، فعاد ابن طياب ولم يتبعه، وطال المقام على ابن مقلة، ونفدت الأقوات، فقلد الموصل لعلي بن خلف، وقلد جزيرة ابن عمر لماكرد

(١) يصافف: أي يقاتل عدوه صفوفًا.

الدّيْلمي، وقلد عبد الله بن أبي العلاء المقتول والده نَصيبِين[١] وعاد إلى بغداد، وانتهى الخبر إلى ناصر الدولة، فخرج من أرمينية، وقد أطاعه سائر ملوكها وجبى خراجها، وقصد الجزيرة وبها ماكرد، فكاتب ماكرد من كان مع ناصر الدولة من الأمراء، ووعدهم عن الوزير ابن مقلة، فاستأمنوا إليه، وفارقوا ناصر الدولة، فانفصل عن الجزيرة كالمنهزم وراسل علي بن أبي جعفر الديلمي وهو مع علي بن خلف بالموصل، ووعده الجميل والإحسان إليه، فأفسد من مع ابن طياب، ووصل ناصر الدولة إلى الموصل ودخلها، فاستأمنوا إليه، وخرج ابن طياب هاربًا في ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، ثم جهز ناصر الدولة الجيوش مع علي بن أبي جعفر إلى الجزيرة لقتال ماكرد، وإخراجه منها، فلما قرب منها، فارقها ماكرد وسار إلى نصيبين، واستنجد بأبي ثابت العلاء بن المعمر، فجمع له العرب وأنجده، فكتب عليٌّ لناصر الدولة بالخبر بأخيه سيف الدولة علي بن عبد الله، وأمر علي بطاعته، ثم سار ناصر الدولة بنفسه تابعًا لأخيه وقاتل ماكرد وأبا ثابت، فقُتِلَ أبو ثابت، وهرب ماكرد إلى الرقة، وانهزمت بنو حبيب[٢] بعد مقتل أبي ثابت إلى بلاد الروم وتنصروا إلى الآن، واستقامت مملكة الموصل، وديار ربيعة، ومضر لناصر الدولة، وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة خرج الخليفة الراضي بالله، ومعه بجكم طالبًا الموصل، فأخرج ناصر الدولة جيشه مع ابن عمه الحارث بن سعيد، فلما التقى الجيشان، وقع في جيش ناصر الدولة أنه استأمن، فانهزموا إلى ناصر الدولة، فدخل الموصل في ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من المحرم، وصلّى الجمعة، ثم خرج من الموصل، ودخلها بجكم يوم السبت، وسار ناصر الدولة إلى الخالدية ثم رحل منها يريد برْقعيد[٣]، وبقي بها جماعة من أهله، ووافى بجكم

---

(١) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام. . . (معجم البلدان).

(٢) بنو حبيب: بطن من عبد شمس، من قريش من العدنانية؛ وبنو حبيب: بطن من بني عوف، من الأوس، من القحطانية. . وبنو حبيب: بطن من كنانة عذرة، من القحطانية. . وبنو حبيب أيضًا: بطن من خزاعة، من مزيقياء، من القحطانية. . . (نهاية الأرب للقلقشندي).

(٣) برقعيد: بالفتح وكسر العين وياء ساكنة، ودال: بليدة في طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين مقابل باشزى. . . وقال السرخسي: برقعيد بلدة كبيرة من أعمال الموصل من كورة البقعاء، وبها آبار كثيرة عذبة. . . (معجم البلدان لياقوت).

الخالدية، فأوقع بهم وخرج أبو وائل وتمادى الأمر على ذلك، ثم وقع الصلح على مال بذله الحسن، وعاد ناصر الدولة إلى الموصل لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر منها، واستمر إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة، والله أعلم بالصواب.

ذكر ولاية ناصر الدولة إمرة الأمراء بالعراق

كان سبب ذلك أن أبا الحسن بن البريدي لما ملك بغداد، وهرب المتقي لله إلى الموصل، ومعه أمير الأمراء أبو بكر بن رائق، واستنجد بناصر الدولة، فقتل ناصر الدولة ابن رائق في شهر رجب سنة ثلاثين وثلاثمائة كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة العباسية، فرد المتقي لله تدبير الدولة إلى ناصر الدولة وساروا جميعًا إلى بغداد ومع ناصر الدولة أخوه سيف الدولة، فانهزم البريديون من بين يديه، وتولّى ناصر الدولة إمرة الأمراء، ونعته المتقي بهذا النعت، ونعت أخاه: سيف الدولة، وخلع عليهما. وذلك في شوال سنة ثلاثين وثلاثمائة، وزوج المتقي لله ولده أبا منصور بابنة ناصر الدولة، وضرب ناصر الدولة السكة[1] عيادًا لم يضرب قبله مثله إلا السندي، وزاد على نقش السكة محمد رسول الله ﷺ وهو أول من فعل ذلك، وأقام ببغداد ثلاثة عشر شهرًا، ثم اجتمعت الأتراك، وقدَّموا عليهم توزون، وهو بواسط، وسيف الدولة في عسكره معهم، وبلغ ناصر الدولة قيام الأتراك، فسار إلى الموصل صحبة المتقي، وأمر أخاه سيف الدولة بمناصبة الأتراك، فكبسه توزون ليلًا، فانهزم إلى الموصل، ثم راسل توزون المتقي في الصلح فأجاب، ورجع فكان من أمره والقبض عليه وسمله ما قدمناه.

وأقام ناصر الدولة بالموصل لا يتعرض لبغداد إلى أن ملكها معز الدولة ابن بويه الديْلميّ، فتحرك إليها في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وحاصر معز الدولة ابن بويه حتى كاد يأخذه، ثم رجع عنها في صورة منهزم وامتنع من حمل المال، فتجهز معز الدولة إلى الموصل لقتاله، فرف أمواله إلى القلعة، ولم يترك في البلد قوتًا ولا علوفة البَتَّة وبقي في خيل جريده. فلما قرب معز الدولة إلى الموصل فارقها ناصر الدولة، وسار فكان تارة بنصيبين وتارة بآمد[2]، وتارة ببلد، ونزل معز الدولة قصر ناصر الدولة، وأقام بالموصل، فنفدت الأزواد فبعث بغالاً تُقِلُّه مع سراياه إلى القرى لتحصل الأقوات والعلوفات، ففرَّقَ عند ذلك ناصر الدولة بنيه، وهم

(١) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٢) آمد: بكسر الميم: هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا... وهو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشز دجلة... (معجم ياقوت).

ثمانية كل منهم تزيد مماليكه وغلمانه على خمسمائة رجل، فكانوا لا يجدون سرية إلا هزموها، ولا قافلة إلا نهبوها، فإذا خرج معز الدولة في طلبهم تكشفوا بين يديه، ويخلفه ناصر الدولة إلى الموصل، فيأخذ ما يجد بها من الأموال، ويرفعه إلى القلعة، وإن وجد أحدًا من قواده سجنه بها، فكان هذا دأبه إلى أن استقر الصلح بينه وبين معز الدولة في سنة خمس وثلاثين. وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة في شهر رجب ملك معز الدولة ابن بويه الموصل، وفارقها ناصر الدولة إلى نصيبين، فتبعه معز الدولة، ففارقها، وبعث أولاده إلى الموصل لقتال من فيها، فرجع إليهم معز الدولة، فانكشفوا بين يديه، فسار إلى بلد، واجتمع ناصر الدولة بأولاده، وسار إلى الموصل، فأسروا من أصحاب معز الدولة الذين تركهم بها نيفًا وسبعين قائدًا: فقيَّدهم ناصر الدولة، وحملهم إلى القلعة، ومعهم ستمائة من الجند، ووجد مائة وثلاثين بدرةً لمعزِّ الدولة، فأخذها، وخرج من الموصل ومضى إلى حلب، وأقام عند أخيه سيف الدولة، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن تم الصلح بين معزِّ الدولة ابن بويه وسيف الدولة، وأبي تغلب بن ناصر الدولة على إطلاق الأسرى وردِّ ثمانين بدرة، فأجاب إلى ذلك ناصر الدولة، ورجع معز الدولة إلى بغداد، وعاد ناصر الدولة إلى الموصل، ولم يزل بها مالكًا لها من غير منازع إلى أن قبض عليه ولده.

ذكر القبض على ناصر الدولة ووفاته

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة في ليلة الثلاثاء لست بقين من جُمادى الأُولى، قبض عدة الدولة أبو تغلب فضل الله على والده ناصر الدولة، وهو نائم بعد أن شاخ وكبر، فحمله على فراشه إلى قلعة الموصل، واعتقله بها، فكان بها إلى أن مات، وكانت وفاته في يوم الجمعة وقت العصر لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فكانت مدة تغلُّبه نحوًا من ثلاث وثلاثين سنة، سوى ولاية الموصل قبل ذلك.

وكان له من الأولاد عشرة وهم: عدة الدولة الغضنفر أبو تغلب فضل الله، وكان قد ولاّه الجزيرة، وأبو المظفر حمدان ولاه نَصِيبين، وأبو الفوارس محمّد ولاه الموصل، وأبو القاسم هبة الله ولاه بلد، وأبو طاهر إبراهيم ولاه سنجار[1]، وأبو المرجّى جابر، وأبو البركات لطف الله، وأبو المطاع ذو القرنين، وأبو عبد الله الحسين.

---

(١) سنجار: بكسر أوله، وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال... (معجم البلدان).

كُتَّابُه: دنجا بن إسحاق، كان كاتب المطيع لله، أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمٰن الشيرازي، وأبو الحسن الباهلي، وبهلون بن هاشم، وأبو القاسم بن مكرم.

ذكر أخبار سيف الدولة

هو أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون. كان في ابتداء أمره في خدمة أخيه ناصر الدولة إلى أن دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، فانفرد سيف الدولة بديار بكر، والسبب في ذلك أن علي بن أبي جعفر الديلمي لما استأمن إلى ناصر الدولة كما ذكرناه، وخرج على عليِّ بن خلف بن طياب سأله أن يولِّيه الجزيرة عند إخراج ماكرد منها، فاعتذر عنها، وكان أحمد بن نصر القنسَوري بديار بكر في عِدّة قليلة، فجهز ناصر الدولة مع علي بن أبي جعفر جيشًا، وأمره أن يسير إلى ديار بكر، فانصرف أحمد بن نصر عنها، ودخلها عليّ بن أبي جعفر، وسكن أرزن، وأقام الدعوة لناصر الدولة، وهو في خلال ذلك يحصِّن البلد، ويستكثر من الرجال والأجناد، فنمّي الخبرُ إلى ناصر الدولة، فلم يأمن شرَّه، وأمره بالقدوم عليه، فأبى ذلك، وأظهر العصيان، فندب ناصرُ الدولة عند ذلك أخاه سيف الدولة لحربه، وقال له: إن فتحتَ ديار بكر، وقبضتَ على عليّ الديلمي، ملَّكتُكَ بلادها وقلاعها من غير أن تَحمِلَ عنها شيئًا لخليفة، ولا لغيره، فسار سيفُ الدولة في ألف فارس، فتحصَّن منه في قلعة «أرزن» وهي المعروفة بحصن العيون، فنزل سيف الدولة تحتها على النهر المعروف بسربط[1]، وحصر عليًا بها، فبعث الديلميُّ حاجبه بدر الجستاني إلى ابن يرنيق ملك أرمينية، وإلى سائر بطارقتها يستنجد بهم على سيف الدولة، فاتَّصل خبر الحاجب بسيف الدولة، فرصده عند عوده، فقبض عليه، فسأله الديلمي الأمان على أن يمضي إلى بغداد، أو يبقى في خدمته، فأجابه إلى ذلك، وحلف له، ونزل إليه وسلَّم القلعة، فوفّى له سيف الدولة، وأقام عليّ في خدمته إلى أن استأمن إلى ابن رائق، وملك سيف الدولة بعد ذلك جميع بلاد أرمينية وما جاور بلاد بكر، ثم ملك حلب وانتزعها من يد الأخشيدية، ثم قُلِّد بعد ذلك الثغور الجزيرية، وهي طرسوس، وعين زَرْبة[2]، والمصيصة[3]، وما جاورهم من

(١) سربط: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة، والطاء: موضع في بلد أرمينية له نهر يعرف به ويصب في دجلة مأخذه من ظهر أبيات أرزن.

(٢) عين زربة: من الثغور قرب المصيصة.

(٣) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. . . (معجم البلدان).

الثغور، من غير أداء مال عن شيء مما بيده من الأعمال؛ لأنه كفى المسلمين أمر الروم نحوًا من أربعين وقعة له وعليه. وكان بعيد الهمة شجاعًا يلقى الأمور بنفسه.

وكان شاعره أبو الطيب المتنبي يمدحه في كل غزاة، ويذكر وقائعه، فكان الدمستق يقول: «بُلينا بشاعر كذَّاب، وأميرِ خفيفِ الركاب».

وكان لسيف الدولة خمسمائة غلام أقران لهم بأس شديد، إذا حمل بهم في جيش حزقه(١). وكان سنه عند ولايته خمس عشرة سنة، فظهرت شجاعته. وكان أديبًا فاضلًا وله شعر ذكره الثعالبي(٢) في يتيمة الدهر، ومن جملة غزواته أنه خرج غازيًا في ذي القعدة سنة ست وعشرين وثلاثمائة، فانتهى إلى حصن «دادم»(٣) وسار إلى حصن زياد(٤)، فشارف فتحه، وأقام عليه تسعة أيام، فوافاه الدمستق في مائتي ألف، فانكفأ راجعًا يريد شمشاط(٥)، وخيول الروم تسايره، فلما كان يوم النحر وصل إلى موضع بين حِصْني زياد، ودادم وسلام، فوقف، وأقبلت عساكر الروم، فناجزهم القتال، فهزم الله الروم، وأسر سيف الدولة منهم سبعين بطريقًا، ولم يزل القتل والأسر فيهم إلى الليل، وأخذ سرير الدمستق وكرسيه. ولسيف الدولة مع الروم وقائع كثيرة مشهورة ذكرها كثير من المؤرخين تركناها لاشتهارها.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة. ملك سيف الدولة مدينة حلب، وانتزعها من يد أحمد بن سعيد الكِلابيّ صاحبِ الإخشيد، واتفق خروج العدوّ إلى تلك النواحي، فسار إليهم، وأوقع بهم وقعة عظيمة، فاعتصموا منه بجبل منيع، فصعد إليهم، فكان منهم من ألقى نفسه من الجبل فمات، وغنم منهم غنيمة عظيمة.

ولما بلغ الإخشيد ذلك أنفذ عسكره مع كافور، فهزمهم سيف الدولة، ودخل حمص وأعمالها، فملكها وسار إلى دمشق، ودخلها، فكاتبه الإخشيد، وبذل له الموادعة بعد أن بذل له أن يحمل إليه من المال نظير ما كان يحمل لابن رائِق، فلم

---

(١) حزقه: ضيّق عليه.

(٢) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري... له من التواليف «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها.. وله أيضًا كتاب «فقه اللغة» و«سحر البلاغة وكسر إبداعه» وغيرها من المصنفات... (وفيات الأعيان ٣:١٧٨).

(٣) دادم: من ثغور الروم؛ غزاها سيف الدولة.

(٤) حصن زياد: بأرض أرمينية يعرف اليوم بخرتبرت، وهو بين آمد وملطية، وهو إلى ملطية أخرب... (معجم البلدان).

(٥) شمشاط: بكسر أوله وسكون ثانيه، وشين مثل الأولى، وآخره طاء مهملة: مدينة بالروم على شاطئ الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت، وهي الآن محسوبة من أعمال خرتبرت... (معجم البلدان لياقوت).

يجب إلى ذلك، وقال: جوابك إذا دخلت مصر إن شاء الله. ثم جرت بينهما أُمور، واتَّفقا على أن يكون لسيف الدولة حمصُ، وحلبُ، وما بينهما، وأفرج عن دمشق، وتزوج بابنة أخي الإخشيد: ثم مات الإخشيد عند رجوعه على ما نذكره في أخباره، وذلك في المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، فمضى سيف الدولة إلى دمشق، واستأمن إليه جماعة منهم: «يانس المونسي»، وأقام بها. ثم سار لحرب كافور الإخشيدي، فنزل اللَّجُون[١] والإخشيدية بقربه، والتقوا، فانهزم جيش سيف الدولة، ورجع هو إلى دمشق، فأخذ والدته وخاصَّته وأمواله، وسار إلى حلب، ثم وقع الصّلح بينهم في سنة ست وثلاثين على ما وقع بينه وبين الأخشيد أولاً.

وفي فتح سيف الدولة دمشق يقول الخالديان[٢]: [من المتقارب]

يا سيف دولة آل النبيِّ … حويتَ العلا دولةً وابتداء
ليهنكَ أنَّك داني الندا … ومجدُك فوق النجوم اعتلاء
وأنَّك لما ملكتَ الملوك … تكبَّرت أن تلبس الكبرياء
ولما حويتَ العراق انكفيت … إلى عرصاتِ الشام انكفاء[٣]
وجُزتَ دمشق فطهرتها … وأبدلتَها بالظلام الضياء
وما مصرُ عنك بممنوعةٍ … إذا ما استعنتَ عليها القضاء

وفي سنة ست وثلاثين ظفر سيف الدولة القَرْمطي الملقب بالهادي، واستنقذ أبا وائل.

وفي سنة إحدى وأربعين بنى سيف الدولة مرعش[٤]، فسار إليه الدمستق، فأوقع به سيف الدولة. وفي سنة اثنتين وأربعين فتح حصن العريمة[٥]، وأخرب مدينة ملَطْية[٦]،

---

(١) اللجون: بفتح أوله وضم ثانيه وتشديده، وسكون الواو، وآخره نون: هو بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً... (معجم البلدان).

(٢) الخالديان: هما أبو بكر (محمد بن هاشم) وأبو عثمان (سعيد بن هاشم).

(٣) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

(٤) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني... (معجم البلدان).

(٥) العريمة: موضع بين أجأ وسلمى، وهو رمل وبه ماء يعرف بالعيسية، وقيل: العريمة: رملة لبني سعد، وقيل: لبني فزارة، وقيل: بلد.

(٦) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام، وهي للمسلمين... (معجم البلدان).

وكان الدمستق قد أخرب الحَدَث في سنة سبع وثلاثين، فسار إليه سيف الدولة، ونزل به في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين، فحطّ الأساس، وحفر أوله بيده، وحفر الناس وأقام إلى أن بناه ووضع بيده آخر شرّافة[1] منه لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب من السنة. وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة. ورد على سيف الدولة من سائر الثغور طرسوس، وأذنة، والمصيصة رسل نوابه، ومعهم رسول ملك الروم في طلب الهدنة، فهادنهم، ولم يزل سيف الدولة في ملكه يومًا له ويومًا عليه إلى أن كبرت سنه. وضعف في آخر عمره واضطرب أمر دولته.

ذكر اختلال دولته واستيلاء الدمستق على حلب وما أخذه من أموال سيف الدولة

قال: ولما كبر سيف الدولة وضعفت قدرته لمرض لحقه في آخر عمره فلج منه نصفه، وتفرقت عنه البوادي وتقاعد عنه المسلمون، وفسد ما بينه وبين ابن الزيات أمير الثغور من قبَله، واشتغل عنه أخوه ناصر الدولة بحرب معز الدولة، فلم ينجده، فقويت الروم، واستولى الدمستق على الثغور، ثم قصد حلب في حشد عظيم من الروم والأرمن، فلم يشعر به سيف الدولة إلا وقد أطلَّ على البلد، فقاتله سيف الدولة، وحمل بنفسه وغلمانه وابن أخيه هبة الله بن ناصر الدولة حتى كاد أن يؤخذ، فانهزم، ومَلَكَ الرومُ دارَ بظاهر حلَب وكان ذرعُها ستة آلاف ذراع، وأخذ منها ما لا يحصى من الأموال، فكان من جملة ما أخذ مائةُ بَدرةٍ ذهبًا، ومائتا بدرة من الورق، وثلاثمائة حمل من البزّ الفاخر، وخمسون حملًا من الديباج، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة، ومن الخيل ثمانمائة فرس، ومن البغال خمسمائة، ومن السلاح، والمناطق، والتجافيف[2]، والسيوف مائة حمل، ومن الجمال ألفا جمل، ونقل سقوف الدار معه.

وكان نزوله على حلب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وفتح البلد في يوم الثلاثاء، وأقام فيه إلى يوم الثلاثاء الكائن بعده، وتحصن أهل حلب في القلعة بما أمكنهم من الأموال، واستولى

---

(١) الشّرافة: زوائد توضع في أطراف الشيء تحلية له.

(٢) التجافيف: جمع التجفاف: هو ما يلبسه المحارب كالدرع. أو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب.

الدمستق على البلد بما فيها، ثم فارقها، ورجع سيف الدولة إليها، وقد ذهب أكثر أمواله، فبعثت له أخته هدية من ميّافارقين[١] كان من جملتها مائة ألف دينار.

ذكر وفاة سيف الدولة

كانت وفاته رحمه الله في الضحى من نهار الجمعة لخمس بقين من صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وكان مولده في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثمائة، فكان عمره اثنين وخمسين سنة وشهرين وثمانية أيام. وكانت مدة ملكه نحوًا من ثلاثين سنة. وكان شجاعًا كريمًا معجبًا بآرائه محبًا في الفخار والبذخ مظفرًا في حروبه جائرًا على رعيته، اشتد بكاء الناس منه وعليه، وكان له من الأولاد خمسة. وهم: أبو الهيجاء عبد الله، توفي في حياة أبيه في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. وأبو البركات وهو أكبرهم، توفي في حياة أبيه في جُمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. وأبو المعالي شريف، وهو الذي ملك بعد أبيه. وأبو المكارم مات في حياته. وست الناس ابنته.

كتابه: أبو الحسن علي بن الحسين المغربي والد الوزير. وأبو محمد بن الفياض. وأبو إسحاق محمد أحمد القراريطي، وأبو الفرج محمد بن علي السرّمرّائيّ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان بن فهد الموصلّي وغيرهم.

حجابه: نجا غلامه، وقرعوية، وبقي.

فهذه الطبقة الثانية من آل حمدان. فلنذكر الطبقة الثالثة منهم.

ذكر أخبار عدة الدولة الغضنفر

وهو أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة أبي محمد الحسن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون.

ملك الوصل، وما كان بيد أبيه عند قبضه على والده ناصر الدولة في ليلة الثلاثاء لستٍّ بقين من جُمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وأطاعه سائر إخوته إلا أبو المظفر حمدان، وهو الذي يليه في العمر. وكان ناصر الدولة قد قلده الرحبة، ولما مات عمه سيف الدولة سار إلى الرقة ونصيبين، فملكها، وسوَّغه والده ارتفاع جميع تلك البلاد. فكتب أبو المظفر إلى أخيه أبي تغلب يأمره بإطلاق والدهما

(١) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر.

ناصر الدولة، وتوعَّده إن لم يفعل، فغضب لذلك، وفسد الحال بينهما، وجرت بينهما أُمور يطول شرحها، فجهز أبو تغلب جيشًا لقتال أخيه، وجعل عليه أخاه أبا البركات، فكان له معه حروب ووقائع، آخرها أن أبا المظفر حمدان ظفر بأخيه أبي البركات، وضربه على رأسه، فسقط إلى الأرض، فأخذه أسيرًا واستباح سواده، وانقسم عسكره بين مستأمن إلى حمدان، وأسير، وقتيل، ثم انكفأ حمدان إلى قَرْقيسياء ليعالج أخاه من ضربته، فمات أبو البركات بعد أيام فأنفذه حمدان في تابوت إلى الموصل، واستحكمت عند ذلك العداوة بين بني حمدان، وبين أخيهم أبي تغلب. واختلف باقي الإخوة، وكانوا متفرقين في أعمالهم فاحتال أبو تغلب على أخيه محمد، وكان واليًا على نصيبين حتى قبض عليه، وذلك في شعبان سنة ستين وثلاثمائة واعتقله في قلعة أرْدُمشْت[1]، فلم يزل بها حتى هرب أبو تغلب، وملكها عضد الدولة ابن بويه، فأطلقه وأكرمه، ورد عليه ضياعه ومنها قلعة: الشعباني، وقلعة أهرون، وغيرهما من القلاع. وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة سلّم أخو حمدان لأُمه لأبي تغلب الغضنفر قلعةَ ماردين[2]، فأخذ منها جميع أمواله وحرمه، وكان المحاصر له بجيش أبي تغلب أبو اليقظان عمار بن أبي السرايا نصر بن حمدان. في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة في آخر يوم من شهر رمضان أوقع أبو القاسم هبة الله بن ناصر الدولة بالدمستق ملك الروم الوقعة المشهورة، وكان الدمستق في نحو خمسين ألفًا فأسر أبو القاسم، وقتل أكثر الجيش وكانت الوقعة على بلد. قال: ثم أخذ أبو تغلب في استفساد إخوته واحدًا بعد واحد حتى صاروا بأجمعهم إليه إلا أبو طاهر إبراهيم، فإنه استأمن إلى بختيار، ومضى إلى بغداد. وسار أبو تغلب بجماعة إخوته إلى قرقيسياء، فنزل بها، وبعث أخاه، أبا القاسم هبة الله إلى الرحبة في جيش ليوقع بأخيه حمدان، فخرج حمدان هاربًا، واتبعه ابنه أبو السرايا وسلك طريق البرية، وكاد هبة الله أن يأخذه. وقيل: إنه قدر عليه وتركه، وسار حمدان إلى بغداد، فدخلها في ذي الحجة سنة ستين وثلاثمائة، واجتمع بأخيه إبراهيم، وأقاما عند بختيار مدة، ثم كوتب إبراهيم من الموصل بالعودة إلى طاعة أخيه فهرب، فأُغضب ذلك عز الدولة بختيار وسار إلى الموصل في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين، فدخلها، ورحل أبو تغلب إلى

---

(١) قلعة قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة.

(٢) ماردين: بكسر الراء والدال: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات. . . (معجم البلدان).

سنجار. ثم تقرر الصلح بينهما على أن يفرج أبو تغلب لأخيه حمدان عن ضياعه التي كان قبض عليها، فأجاب إلى ذلك، وأفرج له عنها، واستقر ملك الغضنفر بالموصل إلى أن ملك عضد الدولة ابن بويه بغداد، وأخرج ابن عمه عز الدولة بختيار إلى الشام وشرط عليه ألا يتعرض إلى بلاد عدة الدولة الغضنفر، فأجاب إلى ذلك، وسار وصحبته حمدان بن ناصر الدولة فلما وصل مبكرًا أفسد حمدان نيته، وحرضه على طلب بلاد أخيه أبي تغلب، فعزم على ذلك، وسار فنزل تكريت[1]، فوصل إليه علي بن عمر الكاتب بهدية من أبي تغلب، وصحبه في الطريق، فلما خلا به أفسد بينه وبين حمدان وعرفه أن مصالحة أبي تغلب بإفساد حمدان هي الرأي الصريح، وذكر أنه سلم حمدان إلى أبي تغلب عاضده على إخراج عضد الدولة من العراق وأعاد مملكته إليه، ولم يزل يغريه إلى أن بعث لأبي تغلب، وأخذ عليه العهود بذلك، وقبض عند ذلك على حمدان، وسار لأبي تغلب، وأُخته جميلة، فحبساه، ثم قتلاه صبرًا، وهرب ولده أبو السرايا إلى عضد الدولة ببغداد.

ذكر فساد حال عدة الدولة، وزوال ملك بني ناصر الدولة وما كان من أمر عدة الدولة إلى أن قتل

قال: ولما قتل أخاه جمع الجموع لنصرة عز الدولة بختيار وجمع بختيار أيضًا، وسارا إلى بغداد وخرج عضد الدولة، فنزل الحصن غربي سامرا، ونزلا تجاهه، وباركوا القتال في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من السنة، وبعث الجيوش في طلب أبي تغلب عدة الدولة، ومحمد ابن عمه معز الدولة، فتنقل أبو تغلب في البلاد من مدينة إلى أخرى، والجيوش تطلبه إلى أن سار إلى حصن زياد، كاتب ملك الروم قلاروس المنعوت بورد يستنجده، وكان ورد قد خرج عليه ملك آخر، وانقضت عنه جموع الروم، فبعث إلى أبي تغلب يسأله اللحاق به ليلقى الخارج عليه، فإنْ نُصِرَ عليه عاد معه لنصرته، فبعث إليه أبو تغلب قطعة من جيشه، ثم عاد فنزل بآمد وأقام بها قريبًا من شهرين، فاستولى عضد الدولة على ميافارقين والجزيرة، وسائر بلاد عدة الدولة، ففارق آمد عند ذلك، وسار إلى دمشق، وملك عضد الدولة آمد والرحبة، وسائر بلاد بني حمدان إلا ما كان في يد سعد الدولة ابن

(١) تكريت: بفتح التاء والعامة يكسرونها: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخًا، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. . . (معجم البلدان).

سيف الدولة، فإنه لم يتعرض إليه كحلب، وديار مضر، وربيعة، وما والاها من الحصون والبلاد لخدمة خدمه بها سعد الدولة، ثم ملك عضد الدولة بعد ذلك قلاع أبي تغلب التي فيها أمواله وذخائره وهي من جانب دجلة الشرقي على طريق الجزيرة.

قال: ولما وصل أبو تغلب إلى دمشق وجد قسام العيّار متغلبًا عليها، فنزل بظاهرها، وكتب إلى العزيز خليفة مصر يسأله أن يولّيه الشام، فخاف العزيز عاقبته، وكاتبه بأن يفعل ذلك، ويأخذها من قسّام، وكاتب قسّام ألاّ يسلِّم إليه البلد، فطال الأمر على أبي تغلب، وضجر من تردد الرسائل، واجتمع معه بنو عقيل، فسار وقصد الرملة، وذلك في المحرم سنة تسع وستين وثلاثمائة، فهرب دغفل بن الجراح منه، ثم حشد، وجمع، وقصد الرملة، والتقى مع أبي تغلب على باب الرملة في يوم الاثنين لليلة خلت من صفر سنة تسع وستين، فانهزم بنو عقيل، وسائر من مع عدة الدولة، ولم يبق معه إلا غلمانه، وهم نحو سبعمائة فارس، فانهزم بهم، وأدركته الخيل، فثنى وجهه لقتالهم، فقتل فرسه، وأسره سبع الطائي وهو ابن عم لد غفل بن الجرّاح، وسلمه إلى دغفل، فقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من صفر سنة تسع وستين وثلاثمائة؛ وكان مولده يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه إلى حين انفصاله عن آمد نحوًا من ثنتي عشرة سنة. وكان له من الأولاد: أبو الهيجاء أحمد، وأبو الفتح نصر الله.

كتابه: أبو موسى النصراني، وقرة بن ديما، وأبو الحسن علي بن عمر بن ميمون، وعلي بن عمر بن عمر.

فلنذكر أخبار أولاد سيف الدولة:

ذكر أخبار سعد الدولة

هو أبو المعالي شريف ابن سيف الدولة أبي الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون.

ملك حلب وديار بكر، وغير ذلك مما كان بِيَد والده سيف الدولة بعد وفاته في يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ولما توفي والده سيف الدولة بحلب كان سعد الدولة بديار بكر، فاجتمعت غلمان أبيه: فرعون، وبقي، وبشارة، وغيرهم على تقديمه ونصرته، وضبط قرعويه حلبًا نيابة عنه، وبعث بتابوت مولاه إلى ديار بكر مع بقي وبشارة الخادم في جُمادى الأولى من السنة وكان

بينَ بقي وبشارة منافرة، فأذاع بقي عن بشارة أنه قد كاتب حمدان بن ناصر الدولة، وكان قد غلب على الرقة ونصيبين عند وفاة عمه، وعزم على أخذ حلب وكتب بقَي إل قرعويه بذلك، فقبض على أسباب بشارة بحلب، ولما بلغ بشارة الخبر داخل بقي وآنسه، وأظهر له المودة فأنس به، وأخبره بما أضمره، وأنه يقصد الاستيلاء على ديار بكر، ويقبض على أبي المعالي ابن مولاه، ويملك هو التدبير، وضمن لبشارة أنه يسلم إليه ميافارقين، فأظهر بشارة القبول، والإقبال عليه، وسار بمسيره، فلما قربوا من ميافارقين، كتب بشارة إلى أبي المعالي يحذره من الخروج للقاء التابوت، ويعرفه ما عزم عليه بقي، فأظهر أبو المعالي علة، وامتنع من الركوب، وأخرج أهل البلد لتلقي التابوت، فلم يدخل بقي المدينة، ووكل بأبوابها خلقًا من الرجال الذين أعلمهم بالخبر، وقبض على قوم من الكتاب، وطالبهم بمال ينفقه في رجاله، فدخل بشارة المدينة، وطلع على السور، وأغلق الأبواب، وخاطب أصحاب بقي عن أبي المعالي بكل جميل، فمالوا إليه، وفارقوا صاحبهم فبطل ما دبره بقَي، وسار إلى منازكرِد[1]، وكتب إلى أبي المعالي يطلب منه الأمان، فأمنه، ولما حصل عنده قبض عليه، وسلمه لبشارة، فقتله، وسار أبو المعالي إلى حلب في شهر رجب من السنة.

ذكر مقتل أبي فراس الحارث واستيلاء أبي المعالي على حمص

قال المؤرخ: كان سيف الدولة قد أقطع أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، وهو خال أبي المعالي شريف حِمْصَ بعد خلاصه من أسر الروم، فأكثر الظلم والتعدي على أهلها. فلما توفي الأمير سيف الدولة اضطربت أُموره، ثم فسد ما بينه وبين ابن أُخته أبي المعالي، فسار أبو المعالي، ففارق حِمْص، وانحاز إلى ضيعة له في طريق البرية تعرف «بصدد»[2]، وجمع سعد الدولة أعراب بني كلاب وظالمًا العقيلي، وبعثهم على مقدمته مع قرعويه، فكبس أبا فراس «بصدد»، فناوشهم القتال، ثم قتله بعض غلمان قرعويه، وعاد سعد الدولة إلى حمص، فولاها لذكا غلام قرعويه.

---

(١) منازكرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يعد في أرمينية وأهله أرمن وروم.
(٢) صدد: موضع.

ذكر استيلاء قرعويه على حلب، وإخراج أبي المعالي عنها

قال: ثم فسد ما بين سعد الدولة وبين قرعويه، ووافقه أكثر الغلمان، وأهل البلد، فأخرج أبا المعالي منها، وقطع دعوته، وتغلَّب على البلد، فسار سعد الدولة إلى أرزن، وميَّافارِقين، فمرّ في مسيرة بحران[١]، فأغلق أهلها الأبواب في وجهه، ومنعوه من الدخول إليها إلا أنهم لم يقطعوا دعوته، فمضى إلى ميّافارقين، وكانت والدته بها، فبلغها أن غلمانه قد عزموا على القبض عليها، وحملها إلى القلعة، فأغلقت أبواب المدينة في وجه ابنها ثلاثة أيام إلى أن توثقت منه، وممن معه، ومن أجناده، ثم فتحت الأبواب وأطلقت أرزاق غلمانه، فصلحت أحوالهم، ثم جمع سعد الدولة واحتشد، وسار إلى حلب، فنزل عليها في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وحاصرها، وفي مدة غيبته نزل أبو البركات ابن ناصر الدولة بجيش على ميَّافارقين، فأغلقت والدة أبي المعالي الأبواب دونه، وضبطت البلد، وراسلته تتعرف منه سبب مقصده. فعرفها أنه يقصد العدو، وأنه يريد منها ما يتقوى به على قصده، فبذلت له مائتي ألف درهم، فلم يقنع بها، وطلب منها ضياعًا كانت لسيف الدولة بالقرب من نَصِيبِين، فأعملت التدبير إلى أن أفسدت عليه جماعة ممَّن معه، ثم ركبت، وكبسته في عسكره، وقتلت جماعةً من غلمانه، فانهزم أبو البركات، وراسلها، فردَّت عليه بعضَ ما نهبت منه، وأطلقت له مائة ألف درهم، وأطلقت حاجبه، وكانت قد أسرته، فرحل عنها. ولم يزل أبو المعالي على حصار حلب حتى فتح الرومُ أنطاكية في يوم النحر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، واستقرُّوا بها، وأنفذوا جيشًا لأخذ حلب، فارتحل أبو المعالي عنها، ونزلت الروم عليها، وملكوا المدينة، فصالحهم قرعويه على أن يؤدِّي لهم جالية[٢]، ويكون في ذمَّتهم إلى أن يموت، فإن مات ولّي مكانه غلامه بكجور، وكتب فيهم كتابًا، ونزل أبو المعالي معرة النعمان[٣]، ووالدته نائبة عنه بميّافارقين، فورد عليها الخبر أن ملك الروم تحرك لقصد ديار بكر، فخافت أنها لا تنهض بضبط ميّافارقين، فتبرأت من الأمر، ودبر البلد أهله، ثم راسلوا أبا تغلب ابن ناصر الدولة في وال، فبعث إليهم أبا الفوارس هزارمرد أحد مماليك سيف الدولة الكبار.

---

(١) حران: بتشديد الراء وآخره نون: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان.

(٢) دفع لهم جالية: أي دفع لهم مالاً نظير جلائهم.

(٣) معرة النعمان: النعمان هو النعمان بن بشير صحابي اجتاز بها فمات له بها ولد فدفنه وأقام عليه فسميت به: وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين.

ذكر الصلح بين سعد الدولة وقرعويه، والقبض على قرعويه، وقيام بكجور، وعود ملك «حلب» إلى سعد الدولة

وفي سنة تِسْع وخمسين وثلاثمائة تمّ الصلح بين أبي المعالي وقرعويه، ودعا له بحلب، وكان أبو المعالي ينزل بحماه، وكانت حمص قد أخربها الروم عند دخولهم إليها في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين، فنزل دقطاش غلام سيف الدولة بها وعمرها لأبي المعالي، فنزلها بعد ذلك، وكان قرعويه قد قدم غلامه بكجور على قرعويه، واعتقله، وملك حلب، وأقام بها نحوًا من خمس سنين، فلم يرض أهلها سيرته، وكاتبوا أبا المعالي، فسار إليها، ونزل معرة النعمان، ففتحها، ثم نزل على حلب في سنة ست وستين وثلاثمائة، وأقام عليها نحوًا من أربعة أشهر، وافتتحها بحيلة، وتحصن بكجور بالقلعة، ثم صالح على أن يوليه سعد الدولة حمص، وسلّم القلعة بما فيها، فتسلمها سعد الدولة، ووفى لبكجور، وعظمت مملكة أبي المعالي عند ذلك، وقويت حرمته، وتمكنت دولته.

ذكر تولية سعد الدولة من قبل الخليفة وتلقيبه

كان سبب ذلك أن عضد الدولة البويهي لما ملك العراق بعد ابن عمه عز الدولة بختيار كاتبه أبو المعالي يبذل له الطاعة والدعوة، فتنجز له من الخليفة الطائع لله الخلع واللَّقب بسعد الدولة، والولاية على ما بيده من الأعمال، وأرسل ذلك مع رسول، وخادم الخلافة. وكان جلوس الخليفة لذلك في شهر رجب سنة سبع وستين وثلاثمائة.

ذكر خلاف بكجور على الأمير سعد الدولة وما كان من أمره

قال: وأقام بكجور بحمص، وعمّرها أحسن عمارة، وأمَّن أهلها وطُرُقاتها إلى أن وقع بينه وبين سعد الدولة في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة. فسار بكجور إلى حلب وحاصرها، فبلغ ذلك ملك الروم، فسار لنصرة أبي المعالي ونزل أنطاكية، وكان معه مفرج بن دغفُل بن الجراح، وكان بين مفرج وبكجور مودة، فكتب إليه مفرج يخبره بقصد الروم، فرحل عن حلب، وسار إلى حمص وأخذ ما أمكنه من أمواله، وكان العزيز صاحب مصر استدعى بكجورًا ليوليه الشام ودمشق لما اشتهر من شهامته، فتولى دمشق بعد خطب عظيم جرى له، واضطراب حال، ودخلت الروم حمص الدخلة الثانية بإذن سعد الدولة لأنه خاف أن يملكها بكجور بالمغاربة، وكان دخولهم إليها في يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

وتسلم بكجور دمشق في يوم الأحد مستهل شهر رجب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة. ثم وقع بين بكجور، وبين يعقوب بن كِلِّس الوزير، فقبض بكجور على وكلاء الوزير بدمشق، فاستحكمت العداوة بينهما، وأفسد الوزير نفس نزار صاحب مصر على بكجور، فبعث منيرًا الخادم في سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة لقصد بكجور، وإخراجه من دمشق من غير إظهار ذلك بل أظهر أنه قصد بإرساله طرد مفرج بن دغفل من دمشق، وجرى من الأمور ما أوجب خروج بكجور بأمواله وحرمه من دمشق. وكان خروجه في يوم الثلاثاء منتصف شهر رجب سنة ثمان وسبعين. وسار بكجور إلى الرقة[1]، وكان قد بعث غلامه وصيفًا في سنة ست وسبعين وثلاثمائة إليها، فتسلمها من ديلمي، وكان بها من أصحاب عضد الدولة بعد وفاته، فلما دخلها بكجور راسل الطائع لله، فلم يجد عنده ما يؤثره، فأقام على الدعوة لنزار صاحب مصر، وبعث إليه نزار يقول: إني ما أردت إخراجك من دمشق، وإنما أردت طرد ابن الجراح منها، وأبقى عليه ضياعه، وأمواله بها، وقوي أمر بكجور بالرقة، واشتد طمعه في أخذ حلب من سعد الدولة وكاتب نزارًا بذلك، وطلب إنجاده، فكتب نزار إلى والي طرابلس بالمسير إلى بكجور متى استدعاه، وجمع بكجور العرب وكتب إلى نزار والي طرابلس أن يوافيه بحلب، وكان سعد الدولة قد كاتب بسيل ملك الروم يعلمه بذلك، ويطلب منه أن يأمر نائبه بأنطاكية، وسائر الثغور بإنجاده متى طلبهم، فكتب بسيل لهم بذلك، ثم أرسل سعد الدولة بكجور، وبذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص، فقال لرسوله: «قل له الجواب ما تراه دون ما تسمعه» ثم سار بكجور لحرب سعد الدولة، وتقدمت مقدماتها فتطاردا، فكان سعد الدولة يخلع على من أبلى من أصحابه، وينعم عليهم ويحملهم، وبكجور يكتب أسماء من أبلى من أصحابه لينظر في أمرهم، فتغيرت لذلك قلوبهم. ثم كاتب سعد الدولة أعراب بكجور، وأطمعهم فعصوا على بكجور ونهبوا سواده. ثم سار كل من العسكرين في يوم السبت لسبع خلون من صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة إلى الآخر، والتقوا، واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر لسعد الدولة وأصحابه على بكجور، فانهزم إلى حلب، واستولى القتل والأسر على غلمانه، واستخفى بكجور في بيت رحى بظاهر حلب، وتقلبت به الأحوال إلى أن استجار ببعض العرب، فحمله إلى سعد الدولة، فضرب عنقه، ثم سار سعد الدولة بعد أن أعاد الروم إلى بلادهم، وقصد الرقة، فنازلها وتحصن منه

---

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي... (معجم البلدان).

سلامة الرشيفي غلام بكجور بحصن الرافقة، ومعه حرم بكجور وأمواله، وابن المغرب يكاتبه، فكاتبه سعد الدولة في تسليم الحصن، فبعث سلام إليه يقول: أنا عبدك، ولكن لبكجور عندي صنائع تمنعني من تسليم الحصن إلا أن أستوثق لحرمه وأولاده، فإن أمنتهم على أن يكون لك السلاح من أموالهم دون غيره سلمت لك الحصن، فأجابه سعد الدولة إلى ذلك، وحلف له وتسلم الحصن. ولما نزل أولاد بكجور، وحملوا أموالهم قال ابن أبي حصين قاضي حضرة سعد الدولة: إن بكجورًا مملوكك لم تعتقه، وأولاده كذلك ولا مال لهم، ولا إثم عليك في أخذ أموالهم، فقبض عليهم عند ذلك، وأخذ الأموال، وهرب ابن المغربي إلى الكوفة، وكتب أولاد بكجور بذلك إلى العزيز نزار صاحب مصر، فكتب العزيز إلى سعد الدولة كتابًا يهدده فيه ويقول: إن لم تطلق آل بكجور وأموالهم بعثت الجيوش لحربك. وأنفذ الكتاب مع فائق الصقلبي، فوصل إليه، وقد عاد من الرقة، وهو نازل بظاهر حلب. فلما وقف سعد الدولة على الكتاب غضب، وأحضر الرسول، وصفعه، وألزمه أن يأكل الكتاب فتناوله، ومضغه حتى فرغ منه، وقال له: عد إلى صاحبك، وقل له لا حاجة لك في إرسال الجيوش، فأنا سائر إليك، والخبر يأتيك من الرملة[1]، وعزم سعد الدولة على قصد العزيز صاحب مصر، فعاجلته منيته.

ذكر وفاة سعد الدولة

كانت وفاته ليلة الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وسبب ذلك أنه لما أعاد رسول العزيز بالرسالة التي ذكرناها قدَّم بعض جيوشه إلى حمص. وأقام هو بظاهر حلب أيامًا ليرتب أحواله، فعرض له قُولنج أشفى منه، فأشار أطباؤه عليه بدخول حلب وملازمة الحمام، ففعل ذلك وانتفع وصح، فلما كان في اليوم الثالث من صحته زُين له البلد ليركب، فجاءته جارية في ليلة ذلك اليوم من جملة حظاياه، وكن أربعمائة حظية، وكان سعد الدولة يهواها، فلما رآها ما تمالك عند رؤيتها أن واقعها، فلما فرغ سقط عنها، وقد جف نصفه الأيمن، وفلج فدخل عليه النفيس الطبيب، والتمس أن يجس نبضه، فناوله اليد اليسرى فقال: يا مولاي اليمين، فقال: يا نفيس ما تركت لي اليمين شيئًا، أراد بذلك نقض اليمين التي حلفها لآل بكجور. وتوفي في هذه المرضة.

---

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، كانت رباطًا للمسلمين... والرملة أيضًا: قرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين.. والرملة: محلة بسرخس... (معجم ياقوت).

ومن العجب أن والده سعد الدولة فلج نصفه الأيسر قبل وفاته. وفلج نصف سعد الدولة الأيمن، فاجتمع منهما مفلوج، وكانت مدة ملكه خمسًا وعشرين سنة وتسعة أشهر. وكان له من الأولاد: أبو الفضائل وهو الأكبر، وأبو الهيجاء.

كتابه: أبو الحسن المغربي والمصيصي وغيرهما.

حاجبه: لؤلؤ الكبير الجراحي وغيره. والله أعلم.

ذكر أخبار أبي الفضائل بن سعد الدولة أبي المعالي شريف بن سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون

ولّي بعد وفاة أبيه في يوم الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وذلك أن والده سعد الدولة لما أدركته الوفاة عهد إليه، وأوصى لؤلؤًا الجراحي، وجعله مدبر جيشه، وأوصاهما بالسيدة ستّ النساء، وبولده أبي الهيجاء عبد الله الأصغر.

ذكر ما كان بين لؤلؤ الجراحي وبين العزيز نزار صاحب مصر

وفي سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وصلت جيوشُ العزيز نزار صاحب مصر لمحاصرة حلب، وسبب ذلك أن ابن المغربي لما انهزم من سعد الدولة إلى الكوفة عند القبض على آل بكْجور كاتب العزيز يستأذنه في الانضمام إليه، والانحياز إلى جهته، فأذن له، فسار إليه، ودخل القاهرة في يوم الخميس النصف من جُمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وبلغ عند العزيز مرتبة عظيمة حتى صار يستشيره في عظائم الأمور، ويأتمنه على الأسرار، فلما بلغه وفاة سعد الدولة حسَّنَ للعزيز أن يبعث جيشًا إلى حلب، وكان العزيز قد بعث بمنجوتكين التركي في جيش إلى دمشق في تاسع شهر رمضان سنة إحدى وثمانين، وأمره بحرب منير الذي كان قد تسلَّم دمشق من بكجور، ولأنه كان قد عصى على العزيز، فأمره أنه إذا أخذ دمشق يمضي إلى حلب، واستكتب العزيز بن المغربي، فسار إلى دمشق، وهزم منيرًا، واستولى على البلد للعزيز، وأقام بها إلى أن انسلخت سنة إحدى وثمانين، وسار إلى حلب، وكان لؤلؤ قد كتب إلى بسيلْ ملك الروم، وعقد بينه وبين أبي الفضائل بن سعد الدولة كما كان بينه وبين أبيه، فأمر بسيلٌ «البُرجْي» صاحب أنطاكية أن يكون ظهرًا لأبي الفضائل على كل من يقصده، وينجده متى طلبه. ولما نزل منجوتكين على حلب

قاتلها مدة شهرين فلم يظفر منها بشيء، فاستظهر عليه أبو الفضائل ولؤلؤ غاية الاستظهار، فعاد عنها في شهر رمضان وولّى حمص لمعضاد الحمداني. ثم سار إلى حلب في سنة ثلاث وثمانين، ثم عاد عنها وسار إليها في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وقد جمع واستعد، فنازلها وضايقها مدة شهرين، فبعث لؤلؤ إلى «البرجي» صاحب أنطاكية في الحضور إليه، فجمع الروم، وكان قد خرج إليه من بلاد الروم رئيس عظيم عندهم يقال له: أصابع الذهب، فجمع أيضًا مَنْ أمكنه، وسارا بمن معهما حتى نزلا على نهر المقلوب[1]، فأقاما هناك، ورجع منجوتكين عن حلب، ونزل بإزائهما، وكان عسكره أكثر من جمعهما، فاقتتلوا، فكانت الدائرة على الروم، وذلك في شعبان سنة أربع وثمانين، وعاد منجوتكين إلى محاصرة حلب، فحاصرها من شعبان إلى شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين، فاشتد الحصار على أهلها، وكانت الأخبار ترد على بسيل ملك الروم وهو ببلاد البلْغَر[2] وله بها سنين كثيرة، وقد استحوذ على أكثرها، فخاف على حلب فترك قتال البلغر، ورجع إلى القسطنطينية، وخرج في نحو أربعين ألفًا من خواص أصحابه يركبون البغال الرهاوين ويجْنبُون الخيل، وسار لا يلوي على متأخر ولا يقف لمنقطع فوصل إلى إعزاز[3] في سبعة عشر ألفًا، وعزم على أن يكبس منجوتكين، فنمّي الخبر إليه، فانهزم لوقته، وسار إلى دمشق.

ذكر الصلح بين أبي الفضائل والعزيز نزار صاحب مصر

قال: ولما رجع منجوتكين إلى دمشق توسط بدر الحمداني في الصلح بين العزيز وأبي الفضائل، فتم، وانعقد في بقية سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وورد كتاب الصلح على أبي الفضائل مع مختار الحمداني، وأقام الأمر على ذلك إلى أن توفي لؤلؤ الحمداني، وانقطع خبر أبي الفضائل ولم يسمع له ذكر إلا أن لؤلؤًا الجراحي كان يدبر أمر حلب إلى سنة أربع وأربعمائة، وكتب له سجل في شوال من السنة من قبل الحاكم صاحب مصر بملك حلب، ولقبه مرتضى الدولة.

---

(١) نهر المقلوب: هو نهر أنطاكية، ويسمى نهر العاصي.

(٢) بلغار (كما في معجم البلدان لياقوت): مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال، شديدة البرد، لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفًا ولا شتاءً وقلّ ما يرى أهلها أرضًا ناشفة.

(٣) إعزاز: ويقع في الشمال الغربي من حلب.

وانقرضت الدولة الحمدانية بعد أبي الفضائل، وكانت مدة هذه الدولة منذ ولّي أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون ولاية الموصل في سنة اثنتين وتسعين ومائتين إلى أن استقل لؤلؤ الجراحي بالملك بعد أبي الفضائل في سنة أربع وأربعمائة مائة سنة واثنتا عشرة سنة تقريبًا. وعدة من ملك منهم ستة ملوك، وهم: أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان. ثم ابنه ناصر الدولة أبو محمد الحسن، ثم أخوه سيف الدولة أبو الحسن علي. وعُدّة الدولة الغضنفر أبو تغلب بن ناصر الدولة، وسعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة. ثم أبو الفضائل بن سعد الدولة، وعليه انقرضت دولتهم من سائر البلاد، وكان ملك هذه الدولة بعد وفاة أبي الفضائل عبد الله في فخذين: الفخذ الأول منها: في ناصر الدولة أبي محمد الحسن وبنيه، وقاعدة ملكهم الموصل، وآمد، وديار ربيعة، وسنجار، وغير ذلك مما والاه وجاوره، وانقرضت دولتهم من الموصل، وما معها بخروج أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة من آمد كما ذكرنا، وافترق بعده أبناء ناصر الدولة، فبعضهم دخل في طاعة الأمير عضد الدولة، وبعضهم دخل في طاعة العزيز نزار صاحب مصر، وبعضهم التحق بابن عمهم أبي المعالي شريف بن سيف الدولة، فممن سار إلى الديار المصرية: أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة، وأخوه أبو المطاع ذو القرنين، وولد للحسين بمصر ولده الحسن وهو المنعوت ناصر الدولة. تمكن ناصر الدولة الحسن هذا من دولة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله صاحب ملك مصر تمكنًا عظيمًا، وقاد الجيوش، وعظم شأنه، ونفذت أوامره حتى لم يبق للمستنصر معه بالديار المصرية إلا مجرد اسم الخلافة. ثم لم يرض ناصر الدولة بذلك، ولا اقتصر عليه، ولا قنع به إلى أن حصر المستنصر في قصره، وجرى له معه وقائع، نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبار المستنصر بالله، ونذكر هناك أيضًا مقتل ناصر الدولة هذا. وكان مقتل في شهر رجب من شهور خمس وستين وأربعمائة بداره بمصر، وهي الدار المعروفة بمنازل العز التي هي الآن مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، ولم يذكر بعد ناصر الدولة هذا أحد من آل حمدان بولاية فنذكره. فهذا الفخذ الأول. والفخذ الثاني منها: في سيف الدولة أبي الحسن علي وبنيه، وقد تقدم ذكرهم رحمهم الله تعالى.

انتهت أخبار الدولة الحمدانية بعون الله تعالى. فلنذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية.

ذكر أخبار الدولة الديلمية البويهية وابتداء أمر بويه، ونسبه، وكيف تنقلت به وببنيه الحال إلى أن استولوا على الأقاليم والممالك وسياقة أخبارهم إلى أن انقضت دولتهم

ذكر ابتداء حال بويه، ونسبه، وما كان من أمره

هو أبو شجاع بويه بن فَنَّاخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الأصغر ابن شيركنده بن شبيرزيل الأكبر ابن شيران شاه ابن شيرويه بن سنان بن شيش فيروز بن شيروزيل بن شيسناد بن بهرام جور الملك ابن يزدجرد الملك ابن سابور بن سابور ذي الأكتاف فهم من الفرس، وإنما نُسِبوا إلى الدّيلم لطول مقامهم ببلادهم، ولذلك لم نذكرهم عند ذكرنا لأخبار الدولة الدّيلمية الجيلية.

وأما ابتداء حال بويه فقد نقل جماعة من المؤخرين أنه كان صيّادًا يعيش من صيد السمك، ثم تنقلت به الحال إلى أن خدم جنديًا، وخرج مع الناصر للحق الحسن بن علي العلوي، وكان يلحظه بعين التقدّم لشجاعته، وكان له خمسة أولاد المشهور منهم ثلاثة، وهم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد، فهؤلاء الذين ملكوا البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وكان له ابنان غير هؤلاء، وهما: محمد، وإبراهيم قتل أحدهما مع الناصر للحق، والآخر مع الحسن بن القاسم الداعي.

وحكى ابن الأثير في تاريخه «الكامل»:

أن زوجة بويه ماتت، وخلفت له ثلاثة بنين، فاشتد حزنه عليها، فحكى شهرياء رستم الديلمي قال: كنت صديقًا لأبي شجاع بويه، فدخلت إليه يومًا، فعذلته على كثرة حزنه، وقلت له: أنت رجل تحتمل الحزن، وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن، وسليته جهدي، وأخذته ففرحته، وأدخلته، ومعه أولاده إلى منزلي، فأكلوا طعامًا، وشغلته عن حزنه، فبينما هم كذلك إذ اجتاز بنا رجل يقول عن نفسه: إنه منجم، ومعزم[١]، ومعبر للمنامات، ويكتب الرُّقَى والطِلَّسمات[٢]، وغير ذلك، فأحضره أبو

---

(١) المعزم: الذي يقرأ العزائم، والعزائم: جمع عزيمة، وهي الرقيّة.

(٢) الطلّسم: خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجي... (المعجم الوسيط).

شجاع، وقال له: رأيت في منامي كأني أبول، فخرج من ذكري نار عظيمة استطالت، وعلت حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفرجت، فصارت ثلاثَ شُعب، وتولَّد من تلك الشعب عدة شِعب، فأضاءت الدنيا بتلك النيران، فرأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران، فقال المنجم: هذا منام عظيم لا أفسِّره إلا بخِلعة وفرس وركب، فقال أبو شجاع: والله ما أملك إلا الثياب التي على جسدي، فإن أخذتها بقيت عريانًا، قال المنجم: فعشرة دنانير قال: والله لا أملك دينارًا، فكيف عشرة، فأعطاه شيئًا، فقال المنجم: اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر ما رأيت من تلك الشعب، فقال أبو شجاع: أما تستحي؟ تسخر بنا؟ أنا رجل فقير، وهؤلاء أولادي فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكًا؟ فقال له المنجم: أخبرني عن وقت ميلادهم، فأخبره، فجعل يحسب ثم قبض على يد أبي الحسن علي فقبلها، وقال هذا والله الذي يملك البلاد، ثم هذا من بعده. ثم قبض على يد أخيه أبي علي الحسن، فاغتاظ منه أبو شجاع، وقال لأولاده: اصفعوا هذا الحكيم، فقد أفرط في السخرية بنا فصفعوه، وهو يستغيث، ونحن نضحك منه، ثم أمسكوه، فقال: اذكروا لي هذا إذا قصدتكم، وأنتم ملوك، فضحكنا منه وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم. ثم اتفق خروج جماعة من الديلم لملك البلاد. منهم: «ماكان» بن كالي، وليلي بن النعمان، وأسفار بن شيرويه، ومرداويج بن زياد، وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم، وخرج أولاد أبي شجاع في جملة من خرج مع ماكان بن كالي. فلما استولى مرداويج على ما كان بيد «ماكان» من طبرستان وجرجان، وضعف «ماكان»، وعجز، قال له عماد الدولة، وركن الدولة: نحن في جماعة، وقد صرنا ثقلاً عليك وعيالاً، وأنت مُضيَّق عليك، والأصلح لك أن نفارقك؛ لنخف عليك مؤونتنا، فإذا صلح أمرك عدنا إليك، فأذن لهما. فسارا إلى مرداويج، واقتدى بهما جماعة من قواد «ماكان»، وتبعوهما، فلما صاروا إليه قبلهم أحسن قبول، وخلع على ابني بويه، وأكرمهما، وقلد كلَّ قائد من قواد «ماكان» الواصلين إليه ناحية من نواحي الجبل، فقلد علي بن بويه الكرج[1].

ذكر أخبار عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه وابتداء الدولة البويهية

كان عماد الدولة قد خرج مع أبيه في جيش الناصر للحق، ثم تنقلت به أمور في خدمة الملوك، ودخل إلى خراسان كرَّتين، وصار من أصحاب «ماكان»، ثم فارقه

(١) الكرج: هي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب.

إلى مرداويج بن زيار، ومعه أخواه، فولاه مرداويج الكرج، وقلد جماعة القواد المستأمنة الأعمال، وكتب لهم العهود، وساروا إلى الريّ، وبها وشمكير بن زيار أخو مرداويج، ومعه الحسين بن محمد الملقب بالعميد، وهو والد أبي الفضل الذي وزر لركن الدولة ابن بويه، فلما وصل عماد الدولة إلى الريّ عرض بغلة للبيع، فبلغت ألفي وثمانمائة درهم فعرضت على العميد، فاستجادها، وقصد أن يبتاعها، فحلف عماد الدولة أنه لا يأخذ لها ثمنًا، وتابع بعد ذلك مواصلة العميد وبره، فبلغ عنده مبلغًا عظيمًا، وتمكن منه.

قال: وكان مرداويج قد تعقب رأيه في تولية عماد الدولة الكرج، وفي تولية القواد المستأمنة إليه لقرب عهدهم بصحبة «ماكان»، فكتب إلى أخيه، وإلى العميد: بأن يمنعا عماد الدولة من النفوذ إلى الكرج إلا أن يكون قد فات، وكان الرسم جاريًا أن يقرأ العميد الكتب، ثم يوقف وشمكير عليها بعد ذلك، فلما قرأها بعث إلى عماد الدولة يأمره أن يبادر بالخروج إلى عمله، فسارع إلى ذلك، ثم عرض العميدُ الكتب على وشمكير، فعزل من الولاة من لم يمض إلى عمله، وأبقى عماد الدولة. قال: وتسلم عماد الدولة الكرج، وأخذ في الإفضال على الرجال، وعلى عامل البلد، فكانت كتب العامل تمضي إلى الريّ يشكره، ثم فتح قلاعًا كانت باقية في أيدي الخرّمية، وأخذ منها أموالاً جمة، وغنائم كثيرة، وصرف أكثرها في جمع الرجال عليه واستجلابهم.

ذكر خروج عماد الدولة ابن بويه عن طاعة مرداويج، ومخالفته له، وملكه أصفهان

كان سبب ذلك أن عماد الدولة لما تحقق قدم مرداويج على ولايته احتاط لنفسه، وأخذ في جمع الرجال، والإنعام عليهم، وهو في ذلك يظهر طاعة مرداويج، واتفق أن مرداويج سبب لبعض قواده على الكرج بمال، فأنعم عماد الدولة على أولئك القواد، واستمالهم، فمالوا إليه، وباطنوه، فلما وثق منهم أعلن بخلع مرداويج، وبايعه القواد، فخرج بهم عماد الدولة من الكرج بعد أن استصفى أمواله، وقصد أصفهان، وعرض أصحابه، فكانوا ثلاثمائة رجل، لكنهم منتجبون مستظهرون في العدة، وسار إليها، وبها أبو الفتح المظفر بن ياقوت واليًا للحرب، وأبو علي رستم واليًا للخراج، وهما من قبل الخليفة، وكاتبهما عماد الدولة أن يدخل معهما في خدمة السلطان، فامتنعا من ذلك، واتفق في غضون ذلك، وفاة رستم، فنزل عماد الدولة

بجوزنجان[١]، وهي قرية على ثلاث فراسخ من أصفهان، وبرز إليه أبو الفتح بن ياقوت في ألوف من الرجال من جملتهم ستمائة ديلمي، فاستأمن إلى عماد الدولة منهم أربعمائة رجل، وانفصل المائتان الأخر لاحقين «بماكان»، وهو يومئذ بكرمان، وانهزم ابن ياقوت بعد حرب شديدة، ودخل عماد الدولة أصفهان في يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وكانت أصفهان أول شيء استولى عليه عماد الدولة ابن بويه. والله أعلم.

ذكر استيلائه على أرجان وغيرها، وملك مرداويج أصفهان

قال: ولما بلغ مرداويج خبر الوقعة خاف جانب عماد الدولة، وأهمّه أمره، فشرع في إعمال الحيلة، فراسله يعاتبه، ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته ليمده بالعساكر الكثيرة؛ ليفتح بها البلاد، ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولي عليها، ولما سير الرسل جهز أخاه وشمكير في عسكر ضخم ليكبس عماد الدولة، وهو مطمئن، فنمّي الخبر إلى عماد الدولة، فارتحل عن أصبهان بعد أن أقام بها نحوًا من شهر، وتوجه إلى أَرَّجَان[٢] وبها أبو بكر محمد بن ياقوت، فانهزم أبو بكر عنها إلى رامهرمز من غير حرب، ودخلها عماد الدولة، واستخرج منها أموالاً وأنفقها في جيشه، ثم وردت على ابن بويه كُتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه إلى شيراز مدينة بلاد فارس، ويهون عليه أمر أميرها ياقوت، وكان ياقوت في جيش كثير العدد من قبل الخليفة، فسار عماد الدولة إلى قرية تعرف بالخوان دان، فسار إليه ياقوت، ووردت مقدمته في ألفي رجل، فوافاهما عماد الدولة بالنُوبَنْدجان[٣]. وذلك في شهر ربيع الآخر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة، فلم يثبتوا له، وانهزموا إلى مكان يقال له: الكُرْكان[٤]، ووافاهم ياقوت بهذا الموضع، وأقام عماد الدولة أربعين يومًا

---

(١) جوزنجان: قد تكون جوزدان، وهي قرية كبيرة على باب أصفهان يقال لها الجوزدانية بالنسبة، وأهل أصبهان يقولون جوزدان، ينسب إليها جماعة من الرواة... (معجم البلدان).

(٢) أرجان: بفتح أوله وتشديد الراء، وجيم وألف ونون: مدينة كبيرة كثيرة الخير، بها نخيل كثيرة وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسبح بينها وبين البحر مرحلة... (معجم البلدان).

(٣) نوبندجان: مدينة من أرض فارس من كورة سابور قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن والنزاهة، بينها وبين أرجان ستة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) كركان: بالضم، وآخره نون: هي ثلاثة مواضع: أحدها المدينة المشهورة التي بين طبرستان وخراسان... وكركان: قرية بفارس، وكركان أيضًا: قرية بقرميسين... (معجم البلدان).

في ضيافة زيد بن علي النُوبَنْدجاني. وكان مبلغ ما خسر عليه في هذه المدة مائتي ألف دينار، ثم سار بعد ذلك إلى إصطخر(١)، وسار ياقوت وراءه يتبعه، حتى انتهى إلى قنطرة على طريق كرمان، فسبقه ياقوت إليها، ومنعه من عبورها واضطره إلى الحرب.

ذكر استيلائه على شيراز

قال: ولما سبقه ياقوت إلى القنطرة اضطر إلى محاربته، وابتدأت الحرب بينهما في يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جُمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، واستمرت إلى يوم الخميس، فأحضر عماد الدولة أصحابه، ووعدهم الجميل، وأنه يترجل معهم عند الحرب، وكان من سعادته أن جماعة من أصحابه استأمنوا إلى ياقوت، فضرب ياقوت أعناقهم، فأيقن من بقي مع عماد الدولة ابن بويه أنه لا أمان لهم عند ياقوت، فقاتلوا قتال من استقتل، ثم قدم ياقوت أمام أصحابه رجالة كثيرة يقاتلون بقوارير النفط؛ ليحرقوا أتراس الديلم، فلما رموا النار انقلبت الرحى، فصارت في وجوههم، واشتدت فعادت النار عليهم، وتعلقت في ثيابهم ووجوههم، فاختلطوا وركبهم أصحاب ابن بويه، فقتلا أكثر الرجّالة، وخالطوا الفرسان، فكانت الهزيمة على ياقوت وأصحابه. ولما انهزم أصحاب ياقوت صعد على نشز مرتفع، ونادى في أصحابه الرَّجعة الرَّجعة، فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس، فقال لهم اثبتوا فإن الديلم يشتغلون بالنهب، ويتفرقون، فنأخذهم، فثبتوا معه، فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب، وقصد ياقوت، فانهزم ياقوت منه، واتبعه أصحاب ابن بويه يقتلون، ويأسرون، ويغنمون، ثم رجعوا إلى السواد، فغنموه، ووجدوا فيه برانس لبود(٢) عليها أذيال الثعلب، ووجدوا قيودًا وأغلالاً فسألوا عنها، فقال أصحاب ياقوت: إن هذه كانت أُعدت لكم لتجعل عليكم، ويطاف بكم البلاد، فأشار أصحاب ابن بويه عليه: أن يفعل ذلك بأصحاب ياقوت، فامتنع عماد الدولة، وقال: إنه بغي ولؤم، وقد لقي ياقوت بغيه، ثم أحسن إلى الأسارى، وأطلقهم وقال: هذه نعمة والشكر عليها يقتضي المزيد، وخَيَّر الأسارى بين المقام عنده، واللحاق بياقوت، فاختاروا المقام عنده، فخلع عليهم، وأحسن إليهم، وسار

(١) إصطخر: بالكسر، وسكون الخاء المعجمة: هي من أقدم مدن فارس وأشهرها، وبها كان مسكن ملك فارس حتى تحول أردشير إلى جور.
(٢) اللبود: جمع اللبد، وهو ضرب من البسط: أو هو كل شعر أو صوف متلبد.

من موضع الوقعة، حتى أتى شيراز، ونادى في الناس بالأمان، وبث العدل، وأقام رشحنة[١] تمنع من الظلم، واستولى على تلك البلاد.

ذكر واقعة غريبة اتفقت لعماد الدولة كانت سبب ثبات ملكه وقيام دولته

قال: ولما دخل عماد الدولة شيراز طلب الجند أرزاقهم، فلم يكن عنده ما يعطيهم، وكاد أمره ينحلّ، فجلس في غرفة في دار الإمارة بشيراز، وهو يفكر في أمره فرأى حية خرجت من موضع في سقف تلك الغرفة، ودخلت في بخش[٢] هناك، فخف أن تسقط عليه، فدعا الفراشين، ففتحوا ذلك الموضع، فرأوا وراءه بابًا، فدخلوا منه إلى غرفة أخرى، فإذا فيها عشرة صناديق مملوءة مالاً ومصاغًا، فكان فيها ما قيمته خمسمائة ألف دينار، فأنفقها، وثبت ملكه بعد أن كان قد أشرف على الزوال.

وحكي أنه أراد أن يفصل ثيابًا، فدلوه على خياط كان لياقوت، فأحضره، فحضر خائفًا، وكان أصم، فقال له عماد الدولة لا تخف، فإنما أحضرتك لتفصل لنا ثيابًا، فلم يفهم الخياط ما قال، فابتدأ وحلف بالطلاق والبراءة من دين الإسلام أن الصناديق التي عنده لياقوت ما فتحها، ولا علم ما فيها، فعجب عماد الدولة من هذا الاتفاق، وأمره بإحضارها، فأحضر ثمانية صناديق فيها أموال وثياب، قيمة ما فيها ثلاثمائة ألف دينار، ثم ظهر له من ودائع ياقوت، وذخائر عمرو، ويعقوب ابني الليث جملة كبيرة، فامتلأت خزائنه، وثبت ملكه.

ذكر تولية عماد الدولة من قبل الخليفة

قال: ولما تمكّن عماد الدولة من شيراز[٣]، وثبت ملكه ببلاد فارس، كتب إلى الخليفة الراضي بالله، وإلى وزيره أبي علي بن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يُقَاطَع على ما بيده من البلاد، وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك، وتقدّمت إليه الخِلع، وشرطوا على الرسول ألاّ يسلم إليه الخلع إلا بعد قبض المال. فلما

---

(١) رشحنة البلد: من كان فيه الكفاية لضبطها من السلطان.

(٢) البخش: الثقب.

(٣) شيراز: بالكسر وآخره زاي: بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث... بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخًا.

وصل الرسول خرج عماد الدولة إلى لقائه، وطلب منه الخلع واللواء، فذكر له ما اشتُرِط عليه، فأخذها منه قهرًا، ولبسها، ونشر اللواء، ودخل البلد، وغالط الرسول بالمال، فمات الرسول عنده في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة. قال: ولما سمع مرداويج ما حصل لعماد الدولة ابن بويه قام لذلك وقعد، فسار إلى أصفهان للتدبير عليه، وعزم على الخروج إليه بنفسه، فبلغ عماد الدولة ذلك، فبادر بمكاتبته، وسأله إقراره على بلاد فارس على أن يقيم له الدعوة، ويضرب باسمه السِّكَّة، ويُنفِذ إليه أخاه ركنَ الدولة ابن بويه رهينة، فقبل ذلك منه، واعتقل ركنَ الدولة، فلما صار في اعتقاله لم يكن بأسرع أن اتفق قتل مرداويج على ما قدمنا ذلك في أخبار مرداويج، فهرب ركن الدول بمواطأة من سجانه، وخرج إلى الصحراء ليفك قيوده، فأقبلت بغالٌ عليها تبن، ومعها بعض أصحابه وغلمانه، فلما رأوه ألقوا التبن، فكسروا قيوده، وحملوه إلى أخيه عماد الدولة بفارس وفي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة تسمّى عماد الدولة شاهنشاه، ولبس تاجًا من الذهب مرصعًا بالجوهر، وجلس على السرير.

ذكر وفاة عماد الدولة ابن بويه
وملك ابن أخيه عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه

كانت وفاته في جُمادى الآخرة، وقيل توفي لأربع عشرة بقيت من جُمادى الأُولى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكانت علته قرحة في كُلاه طالت به، وتوالت عليه الأسقام والأمراض، ولما أحس بالموت أنفذ إلى أخيه ركن الدولة أن ينفذ إليه عضُد الدولة فناخسروا ولده ليجعله وليَّ عهده، ووارثَ ملكه بفارس؛ لأن عماد الدولة لم يكن له ولد ذكر، فأنفذه ركن الدولة، فوصل قبل وفاته بسنة، فخرج عماد الدولة إلى لقائه في جميع عساكره، وأجلسه على سرير، ووقف عماد الدولة بين يديه، وأمر الناس بطاعته، والانقياد إليه، وقبض على من كان يخاف منه من القواد ثم توفي عماد الدولة بعد ذلك بسنة، فكانت مدة مملكته لبلاد فارس سنة وعشرة أشهر وعشرين يومًا، وكان عمره ما بين ثمانية وخمسين سنة إلى تسع وخمسين، وقيل سبعة وخمسين ودفن بدار المملكة بشيراز، وكان شجاعًا عاقلاً كريمًا مجربًا حسن السياسة عظيم القدر، ووزر له في ابتداء أمره أبو سعيد إسرائيل بن موسى النصراني إلى أن قتل، ثم وزر له أبو العباس أحمد بن محمد إلى أن مات عماد الدولة.

وحجابه: خُطلخ إلى أن قتل، ثم سباسي حتى توفي، ثم بارس إلى أن توفي عماد الدولة، ولما مات عماد الدولة استقر عضد الدولة في الملك بعده ببلاد فارس،

ثم كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى في الطبقة الثانية من بني بويه، وكان عماد الدولة هو الأسنّ الأكبر من بني بويه. والمشار إليه بينهم، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أمير الأُمراء. وكان معز الدولة هو المستولي على العراق، وهو كالنائب عنهما.

ذكر أخبار ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه

كان ركن الدولة في خدمة أخيه عماد الدولة يندبه في مهماته وأشغاله، وجهزه وهو في حرب ياقوت في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة إلى كازرون(١)، وغيرها من أعمال فارس، فاستخرج منها أموالاً جليلة، فأنفذ ياقوت عسكرًا إليه لمنعه من ذلك، فقاتلهم وهزمهم، وهو في نفر يسير، وعاد إلى أخيه بالغنائم والأموال، ثم جهزه عماد الدولة رهينة عند مرداويج في سنة ثلاث وعشرين كما ذكرناه، فلم خلص بعد مقتل مرداويج، والتحق بأخيه عماد الدولة جهزه بالعساكر إلى أصفهان، فاستولى عليها، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبال نواب وشمكير، فأقبل وشمكير، وجهز العساكر نحوه، فبقيا يتنازعان ملك تلك البلاد، وهي أصفهان، وهمدان، وقم، وقاجان، وكرج، والريّ، وكنكور، وقزوين، وغيرها، ثم استولى ركن الدولة على أصفهان، وملكها في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وملك الريّ في سنة ثلاثين.

ذكر ملك ركن الدولة بن بويه طبرستان وجرجان

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة في شهر ربيع الأول اجتمع ركن الدولة، والحسن بن فيرزان، وقصدا بلاد وشمكير، فالتقيا به، فانهزم وشمكير، وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان، فملكها، واستأمن إليه من قواد وشمكير مائة وثلاثة عشر قائدًا، فأقام الحسن بن الفيرزان بجرجان، ومضى وشمكير إلى خراسان يستنجد بالسامانية، واتفقت وفاة الأمير عماد الدولة، فسار ركن الدولة لتقرير أمر ولده عضد الدولة بفارس، فسار منصور بن قراتكين صاحب جيش الأمير نوح بن نصر الساماني إلى الريّ، ودخلها، وأخرج نائب ركن الدولة منها، وورد سجل من الخليفة المطيع لله بتقليد ركن الدولة إمرة الأمراء موضع عماد الدولة،

---

(١) كازرون: بتقديم الزاي، وآخره نون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز. قال البشاري: كازرون بلدة عامرة كبيرة وهي دمياط الأعاجم وذلك أن ثياب الكتان التي على عمل القصب وشبه الشطوي وإن كان حطبًا تعمل بها وتباع بها إلا ما يعمل بتوز... (معجم البلدان).

فقبله، وانصرف إلى الريّ، ففارقها منصور بن قراتكين قبل وصول ركن الدولة إليها، وسار إلى أصفهان، ثم رحل منها، فنزل طرف مفازة بها على النهر المعروف بور بروديم، ثم رحل عنه، والتقى مع ركن الدولة على الروذبار[١]، والنهر يحجز بينهما؛ لكنه نهر يخاض، فأقامت الحرب بينهما سبعة أيام، ثم عبر منصور النهر بجيوشه، والتقوا من وقت العصر إلى صدر من الليل، ثم سار منصور في بقية من الليل إلى الريّ، وقدم ركن الدولة مقدمته نحو قاجان، فلما وصل إليها بلغه وفاة منصور بالريّ، فسار إليها، ودخلها بغير قتال وتجهز منها لحرب وشمكير لأنه الذي أغرى بينه، وبين صاحب خراسان، فالتقيا على باب الريّ بجبل طبرك[٢]، وتواصلوا أربعة أشهر حتى سقط الثلج، فرجع وشمكير، ثم اتفقت وفاته، وقيام ولده «بهسيتون» في الملك بعده، فدخل في طاعة ركن الدولة، فزال الخوف، وحصل الأمن واستقر الأمر على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

ذكر ما قرره ركن الدولة بين بنيه وما أفرده لكل منهم من الممالك

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة سار ركن الدولة من الريّ إلى أصفهان، واستدعى ولده عضد الدولة من بلاد فارس، وجمع سائر أولاده، وحواشيهم، فقسم ركن الدولة ممالكه على أولاده، فجعل لابنه عضد الدولة بلاد فارس، وجعله الملك على جماعة البيت بعد أن أوصاه على إخوته، وعلى ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة، فإن معز الدولة كان قد توفي، وملك ابنه بختيار بعده على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وسلم ركن الدولة إلى عضد الدولة أخاه الأصغر خسرو فيروز، وجعل لمؤيد الدولة، وهو شقيق عضد الدولة بلاد الريّ، وأصفهان، وقم، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وما والاها، وأفرد لفخر الدولة همذان، والدينور، والإيغارين[٣] وما

(١) الروذبار: بضم أوله، وسكون ثانيه، وذال معجمة، وباء موحدة، وآخره راء مهملة: هي ناحية من طسوج أصبهان.. وروذبار: قرية من قرى بغداد... الروذبار لفظة لعدة مواضع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرقة... وروذبار: محلة بهمذان... (معجم البلدان).

(٢) طبرك: بفتح أوله وثانيه والراء، وآخره كاف: قلعة على رأس جبل بقرب مدينة الريّ على يمين القاصد إلى خراسان وعن يساره جبل الريّ الأعظم... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) الايغاران: قيل لها الإيغاران أي إيغارا هذين الرجلين، وهما الكرج والبرج؛ والإيغار اسم لكل ما حمى نفسه من الضياع وغيرها ويمنع منه... (معجم ياقوت).

اتصل بهم، واستحلف الأخوين على طاعة عضد الدولة، واستخلف عضد الدولة على الوفاء لهما، وكتب الكتاب بينهم ذو الكفايتين أبو الفتح بن العميد، ومات ركن الدولة عقيب ذلك.

ذكر وفاة ركن الدولة ابن بويه وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته بالريّ في ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ست وستين وثلاثمائة، وقد زاد على سبعين سنة، وقيل أقل من ذلك، وكانت مدة إمارته أربعًا وأربعين سنة، وكان رحمه الله حليمًا كريمًا، كثير البذل للمال، حسن السياسة لرعيته وجنده، رؤوفًا بهم عادلاً في الحكم بينهم بعيد الهمة متحرجًا من المظالم مانعًا لأصحابه من الظلم عفيفًا من الدماء، وكان يجري الأرزاق على أهل البيوتات، ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة، وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام، وحُكي عنه: أنه سار في بعض أسفاره، ونزل في خركاة قد نصبت له قبل أصحابه، وقدم إليه الطعام، فقال لبعض أصحابه لأي شيء قيل في المثل: خير الأشياء في القرية الإمارة، فقال: لقعودك في الخركاة، ولهذا الطعام بين يديك، وأنا لا خركاة، ولا طعام، فضحك، وأعطاه الخركاة، والطعام.

ومن محاسن أفعاله ما فعله من نصرة بختيار ابن أخيه معز الدولة على ابنه عضد الدولة على ما نذكره في أخبار عز الدولة بختيار.

وكان له من الأولاد: عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو، وفخر الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أبو منصور بويه، وأبو العباس خسرو فيروز.

وزراؤه: أول من وزر له: الأُستاذ أبو الفضل أحمد بن العميد[1] إلى أن توفي في سنة تسع وخمسين، فاستوزر بعده ولده ذا الكفايتين[2] أبا الفتح محمد، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة إلى أن توفي ركن الدولة.

---

(١) تولى أبو الفضل الوزارة بعد وفاة الوزير أبي علي بن القمي، وذلك في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان متوسعًا في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترس فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني... (وفيات الأعيان ٥: ١٠٤).

(٢) كان جليلاً نبيلاً سريًا ذا فضائل وفواضل، وهو الذي كتب إليه المتنبي الأبيات الخمسة الدالية الموجودة في ديوانه في أثناء مدائح والده... (وفيات الأعيان ٥: ١١١).

ذكر أخبار معز الدولة ابن بويه

هو أبو الحسين أحمد بن بويه، معز الدولة أصغر إخوته سنًّا، وأكثرهم سعادة، وأوسعهم ملكًا. وكان في ابتداء أمره مع أخيه عماد الدولة، وحضر معه المصاف الذي كان بينه، وبين ياقوت في سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة، وهو صبي لم تنبت لحيته، وعمره تسع عشرة سنة، وكان في ذلك اليوم من أحسن الناس أثرًا في الحرب.

ذكر مسيره إلى كرمان، وزوال يده في الحرب، وما اتفق له

وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة سار معز الدولة إلى كرمان، وسبب ذلك أن أخويْه: عماد الدولة، وركن الدولة لما تمكنا من بلاد فارس، وبلاد الجبل، وبقي هو، وهو الأصغر بغير ولاية يستبد بها رأيا أن يُسيِّراه إلى كرمان، فسار إليها في عسكر ضخم، فلما بلغ السيرجان[1] استولى عليها، وجبى أموالها، وأنفقها في عسكره، وكانت عساكر نصر بن أحمد الساماني صاحب خراسان تحاصر محمد بن إلياس بن اليسع بقلعة هناك، فلما بلغهم إقبال معز الدولة، ساروا عن كرمان إلى خراسان، فتخلص محمد بن إلياس من القلعة، وسار إلى مدينة قم، وهي على أطراف المفازة بين كرمان، وسجستان، فسار إليه معز الدولة، فرحل عن مكانه إلى سجستان بغير قتال، فسار ابن بويه إلى جِيرفْت[2] وهي قصبة كرمان، واستخلف ثَمَّ بعضَ أصحابه، فلما قارب جيرفت أتاه رسول علي الديحي المعروف بعلي كلويه، وهو رئيس القُفْصَ البلوصُ[3]، وكان هو وأسلافه متغلبين على تلك الناحية إلا أنهم يجاملون كل سلطان يرد البلاد، ويطيعونه، ويحملون إليه مالاً معلومًا ولا يطئون بساطه، فبذل لابن بويه ذلك المال، فامتنع من قبوله إلا بعد دخول جيرفت، فتأخر علي كلويه نحو عشرة فراسخ، ونزل بمكان صعب المسلك، ودخل ابن بويه جيرفت، وصالح علي كلويه، وأخذ رهائنه، وخطب له، فلما استقر الصلح بينهما

---

(١) السيرجان: مدينة بين كرمان وفارس... وقال ابن الفقيه: السيرجان مدينة كرمان، بينها وبين شيراز أربعة وعشرون فرسخًا. وكانت تسمى القصرين... (معجم البلدان).

(٢) جيرفت: بالكسر ثم السكون، وفتح الراء، وسكون الفاء، وتاء فوقها نقطتان: مدينة بكرمان، وهي مدينة كبيرة جليلة من أعيان مدن كرمان وأنزهها وأوسعها.. فتحت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه... (معجم البلدان).

(٣) البلوص: جبل كالأكراد، ولهم بلاط واسعة بين فارس وكرمان تعرف بهم في سفح جبال القفص، وهم أولو بأس وقوة وعدد وكثرة، و... (معجم البلدان).

أشار بعض أصحاب ابن بويه عليه بقصد علي والغدر به، وهوّن عليه أمره، وأطمعه في أمواله، وقال له: إنه قد ترك الاحتراس، وسكن إلى الصلح، فأجابه إلى ذلك، وركب نحوه جريدة، وكان علي متحرزًا قد وضع العيون على ابن بويه، فعندما تحرك للمسير بلغه ذلك، فجمع أصحابه، وكمنهم بمضيق على الطريق، فلما اجتاز ابن بويه بهم ثاروا ليلاً من جوانبه، فقتلوا من أصحابه، وأسروا، ولم يفلت إلا اليسير، وجرح معز الدولة عدة جراحات، وأصابته ضربة في يده اليسرى، فقطعتها من نصف الذراع، وأصابت يده اليمنى ضربة أُخرى، فسقط بعض أصابعه، وسقط إلى الأرض، وقد أُثخن بالجراح، وبلغ الخبر إلى جيرفت، فهرب من بها من أصحابها، ولما أصبح علي كلويه تبع القتلى، فرأى الأمير أبا الحسين وقد أشرف على التلف، فحمله إلى جيرفت، وأحضر له الأطباء، وبالغ في علاجه، واعتذر إليه، وأنفذ رسله إلى عماد الدولة بالاعتذار، ويعرفه غدر أخيه، ويبذل من نفسه الطاعة، فأجابه عماد الدولة إلى ما بذله، واستقر بينهما الصلح، وأطلق كل من عنده من الأسرى، وأحسن إليهم، ووصل الخبر إلى محمد بن إلياس بما جرى على ابن بويه، فسار من سجستان إلى جنَّابة[1]، فتوجه إليه معز الدولة، وواقعه، ودامت الحرب بينهما عدة أيام، فانهزم ابن إلياس، وعاد ابن بويه بالظفر، وسار إلى علي كلويه لينتقم منه، فلما قاربه أسرى على أصحابه الرجّالة، فكبسوا عسكره ليلاً في ليلة شديدة المطر، فأسروا منهم، وقتلوا، ونهبوا وعادوا، فلما أصبح ابن بويه، سار نحوهم، فقتل منهم عددًا كثيرًا، وانهزم عليّ، وكتب معز الدولة إلى أخيه عماد الدولة بما جرى له معه، ومع ابن إلياس، فأمره أخوه بالوقوف مكانه، ولا يتجاوزه، وأنفذ إليه قائدًا من قواده يأمره بالعود إليه إلى فارس، ويلزمه بذلك، فعاد إلى أخيه، وأقام عنده باصطخر إلى أن قصدهم أبو عبد الله البريدي منهزمًا من ابن رائق وبجكم، وأطمع عماد الدولة في العراق، فسير مه معز الدولة كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة العباسية في أيام الراضي بالله.

ذكر استيلاء معز الدولة على الأهواز

كان مسير معز الدولة ابن بويه إلى الأهواز في سنة ست وعشرين وثلاثمائة للسبب الذي قدمناه، فسار إليه، ومعه أبو عبد الله البريدي، وكان بها بجكم الرائقي،

---

(١) جنابة: بلدة صغيرة من سواحل فارس... يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الملح يكون بين المدينة والبحر نحو ثلاثة أميال أو أقل، وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك، وفي شمالها من جهة البصرة مهروبان... (معجم البلدان).

فسار لحربهم، وقاتلهم بأرجان، فانهزم منهم إلى الأهواز، وأقام بها ثلاثة عشر يومًا، ثم انهزم إلى تُسْتَر[١]، وسار إلى واسط، واستولى معز الدولة والبريدي على الأهواز، وأقاما بها خمسة وثلاثين يومًا، ثم هرب البريدي خوفًا على نفسه من معز الدولة، فكاتبه يعيب عليه ذلك، ويعتبه، فاعتذر البريدي إليه أنه خاف على نفسه، وطلب من معز الدولة أن يفرج عن الأهواز؛ ليتمكن من ضمانه، فإنه كان قد ضمِن الأهوازَ، والبصرة من عماد الدولة في كل سنة بثمانية عشر ألف ألف درهم، فرحل عنها إلى عسكر مُكْرم[٢] خوفًا من أخيه لئلا يقول له: كسرتَ المال، ثم أنفذ إليه البريدي ثانيًا يذكر خوفه منه، ويطلب منه أن ينتقل إلى السوس[٣] ليبعد عنه، ويأْمن هو بالأهواز، فحذَره أصحابه، وخوفوه غدر البريديّ، فامتنع من إجابته إلى ذلك، وكتب إلى أخيه عماد الدولة، فأنفذ إليه جيشًا، فقَوِي بهم، واستولى على الأهواز، وهرب البريدي إلى البصرة، وأقام معز الدولة بالأهواز، وقصد البصرة وواسط، وعاد عنهما، ولم يزل كذلك إلى أن استولى على بغداد.

ذكر استيلائه على بغداد وتلقيبه وتلقيب إخوته من ديوان الخلافة

كان استيلاء معز الدولة على بغداد في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المستكفي بالله، وسبب ذلك أن ابن شيرزاد لما استولى على إمرة الأمراء ببغداد بعد وفاة توزون، على ما قدّمناه في أخبار الدولة العباسية في أيام المستكفي بالله، استعمل ينال كُوشه على واسط[٤]، فكاتب معز الدولة، وهو بالأهواز، ودخل في طاعته، واستقدمه، فسار إليه، وقصد بغداد، فلما فارقها استتر المستكفي بالله وابن شيرزاد، وخرج الأتراك من بغداد إلى الموصل، فلما أبعدوا ظهر المستكفي بالله، وقَدَّم معز الدولة أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي إلى بغداد، فاجتمع بالخليفة، فأظهر السرور بمقدم ابن بويه، وأعلمه أنه إنما استتر ليتفرق الأتراك، ويحصل الأمر

---

(١) تستر: أعظم مدينة بخوزستان... سميت بذلك لأن رجلًا من بني عجل يقال تستر بن نون افتتحها... (معجم ياقوت).

(٢) عسكر مكرم: بلدة من نواحي خوزستان.

(٣) السوس: بلدة بخوزستان.

(٤) واسط: في عدة مواضع.. واسط الحجاج: وهي أعظمها وأشهرها، سميت واسط لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ولأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا... (معجم البلدان).

لمعز الدولة بغير قتال، ووصل معز الدولة إلى بغداد في حادي عشر جُمادى الأولى من السنة، ونَزل بباب الشمّاسيّة، ودخل من الغد إلى الخليفة، وبايعه، وحلف له، ولقبه الخليفة بمعز الدولة، ولقب أخاه أبا الحسن عليًّا عماد الدولة، ولقب أبا علي الحسنَ ركن الدولة، وأمر بضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم، وخلع الخليفة على معز الدولة، وطوَّقه، وسوّره، وفوّض إليه ما وراء بابه، وعقد له لواء، وأمر بالخطبة له على المنابر، وسأل معز الدولة الخليفة أن يأذن لابن شيرزاد في الظهور، وأن يأذن له أن يستكتِبه، فأجابه إلى ذلك، فظهر ابن شيرزاد، ولقي معز الدولة، فولاه أمر الخراج، وجباية الأموال، ونزل معز الدولة بدار مؤنس، ونزل أصحابه في دور الناس، فلحق الناس لذلك شدة عظيمة، وصار رسمًا عليهم، وهو أول من فعله ببغداد، ولم يعرف بها قبله، وأخذ معز الدولة في مضايقة الخليفة، والحجر عليه، حتى في نفقته، ورتب له في كل يوم خمسة آلاف درهم، فكانت ربما تأخرت عنه، فأفرد له ضياعًا، وسلمت إليه فولاها من قبله، ولم يبق له حكم في غيرها، ثم خلعه معزُّ الدولة على ما ذكرناه لثمان بقين من جُمادى الآخرة. وبايع المطيع لله.

ذكر الحرب بين معز الدولة، وناصر الدولة ابن حمدان

وفي شهر رجب سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة سيَّر معز الدولة عسكرًا مقدمهم ينال كوشه وموسى قيادة على مقدمته نحو الموصل، فلما نزلوا عُكبرا[1] أوقع ينال كوشه بموسى، ومضى هو ومن معه إلى ناصر الدولة، وكان قد خرج من الموصل يريد العراق، فوصل إلى سامرّا[2] في شعبان، ووقعت الحرب بينه وبين أصحاب معزِّ الدولة بعُكبُرا، فسار معز الدولة هو والمطيع لله إلى عكبرا في شهر رمضان، فلما سار عن بغداد التحق ابن شيرزاد بناصر الدولة، وعاد إلى بغداد مع عساكر لناصر الدولة يحارب معزَّ الدولة، فلما كان في عاشر رمضان، سار ناصر الدولة من سامرًا إلى بغداد، وأقام بها، فسار معز الدولة إلى تكريت، وكانت لناصرِ الدولة، فنهبها، وعاد هو والخليفة إلى بغداد، ونزلا بالجانبِ الغربي، ونصارُ الدَّولة بالشرقي.

---

(١) عكبرا: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة، وقد يمد ويقصر: اسم بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، والنسبة إليها عكبري وعكبراوي. . . (معجم البلدان).

(٢) سامرا: بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء. . . (معجم ياقوت).

ثم وقعت الحرب بينهم ببغداد، وانتشرت أعراب ناصر الدولة بالجانب الغربي فمنعوا أصحاب معزٍ الدولة من الميرة والعلف، فقلّت الأسعار على الدَيْلم، وضاق الأمر على معزٍّ الدولة، حتى عزم على الرجوع إلى الأهواز، وقال: نعمل معهم حيلة، فإن أفادت، وإلا عدنا، فرتب ما معه من المعابر بناحية التمارين، وأمر وزيره أبا جعفر الصيمري(١)، واسفهدوست بالعبور، ثم أخذ معه بقية العسكر، وأظهر أنه يريد قطربّل(٢)، وسار ليلاً، ومعه المشاعل على شاطىء دجلة، فسار أكثر عسكر ناصر الدولة بإزائه ليمنعوه من العبور، فتمكن الصيمري ومن معه العبور، فعبروا فلما علم معز الدولة بعبور أصحابه عاد إلى مكانه: فعلموا بحيلته، فلقيهم ينال كوشه في جماعة من أصحاب ناصر الدولة، فهزموه واضطرب العسكر الحمداني، وانهزموا، وتبعهم ناصر الدولة، وملكَ الديلمُ الجانب الشرقيَّ، وعاد الخليفة إلى داره. وذلك في المحرم سنة خمس وثلاثين، ونهب الديلم أموال الناس ببغداد، وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار، وأمرهم معز الدولة برفع السيف، والكف عن النهب، وأمر الناس، فلم ينتهوا، فأمر وزيره الصيمري، فركب ببغداد، وقتل وصلب جماعة، وطاف بنفسه، فامتنعوا، واستقر معز الدولة ببغداد، وأقام ابن حمدان بعكبرا، فأرسل في الصلح بغير مشورة الأتراك التوزونية، فهمُّوا بقتله، في شهر المحرم سنة خمس وثلاثين.

ذكر إقطاع البلاد وتخريبها

وفي سنة أربع وثلاثين أيضًا شغب الجند على الأمير معز الدولة، وأسمعوه المكروه؛ بسبب أرزاقهم، فوعدهم إلى مدة، فاضطر إلى أخذ الأموال من غير وجهها، ثم أقطع القرى جميعها التي كانت للسلطان، وأصحاب الأملاك، فبطل لذلك أكثر الدواوين، وكانت البلاد قبل ذلك قد خربت من الاختلاف والغلاء، فأخذ القواد القرى العامرة، فازدادت عمارة لحمايتهم لها، وأما الأتباع فازداد ما أخذوا خرابًا، واختلت البلاد بسبب ذلك، وتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة للنوائب، وأقطع معز الدولة غلمانه على الأتراك، وزادهم على الديلم، فوقع بينهم بسبب ذلك الوحشة والمنافرة، والله أعلم بالصواب.

---

(١) نسبة إلى صيمرة، وهي بالبصرة على فم نهر معقل وفيها عدة قرى تسمى بهذا الاسم.

(٢) قطربل: بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة، ولام: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر... (معجم البلدان).

ذكر استيلائه على البصرة

كان معز الدولة قد ضمّ البصرة وأعمالها لأبي القاسم بن البريدي في سنة أربع وثلاثين، ووقع الاختلاف بينهما في سنة خمس وثلاثين، فأرسل إليه معز الدولة جيشًا، فالتقَوا واقتتلوا، فانهزم أصحاب ابن البريدي، ثم سار معز الدولة هو والخليفة المطيعُ لله إلى البصرة في سنة ستٍّ وثلاثين لاستعادتها من ابن البريدي، وسلكوا البرية إليها، فلما وصل الدرهمية[١] استأمن إليه عساكر ابن البريدي، وهرب أبو القاسم في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى هجر، والتجأ إلى القرامطة، وملك معز الدولة البصرة، وسار منها إلى الأهواز، وأقام الخليفة، والصيمري بالبصرة، والتقى معز الدولة بأخيه عماد الدولة بأرّجان في شعبان، فنزل معز الدولة، وقبّل الأرض بين يديه، وكان يقف قائمًا، فيأمره بالجلوس، فلا يفعل، ثم عاد إلى بغداد.

ذكر ملك معز الدولة الموصل وعوده منها بعد الصلح

وفي سنة سبع وثلاثين، سار معز الدولة إلى الموصل، ففارقها ناصر الدولة إلى نَصِيبين، وملك معز الدولة الموصل في شهر رمضان، وظلم أهلها، وعسفهم، وأخذ أموال الرعايا، فكثر الدعاء عليه، وقصد الاستيلاء على جميع بلاد ناصر الدولة، فأتاه الخبر من أخيه ركن الدولة أن عساكر خراسان قد قصدت جرجان، والريّ، واستمده، فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة، فترددت الرسائل بينهما، واستقرت الحال على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل، وديار الجزيرة كلها، والشام، في كل سنة ثمانيةَ آلاف ألف درهم ويخطب في جميع بلاده لبني بويه، وعاد معز الدولة إلى بغداد، فدخلها في ذي الحجة من السنة.

ذكر وفاة الوزير الصيمري، ووزارة المهلبي

في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة توفي أبو جعفر محمد بن أحمد الصيمري وزير معز الدولة بأعمال الجامدة[٢]، واستوزر معز الدولة بعده أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي في جُمادى الأُولى، وكان يخلف الصيمري بحضرة معز الدولة، فعرف أموال

---

(١) الدرهمة (كما في معجم ياقوت): أرض باليمامة؛ عن أبي حفصة.

(٢) الجامدة: بكسر الميم: قرية كبيرة جامعة من أعمال واسط بينها وبين البصرة.

الدولة والدواوين، وظهرت أمانته، وكفاءته، فاستوزره، ومكّنه من الوزارة، فأحسن السيرة، وأزال كثيرًا من المظالم، ثم ضربه معز الدولة بالمقارع[١] في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، مائة وخمسين مقرعة ووكل به في داره، ولم يعزله من وزارته بل ضربه لأمور نقمها عليه. وفي سنة خمس وأربعين في شهر رجب عصى على معز الدولة روزبهان بن انداخزشيد، وسار إلى الأهواز، وأطاعه أكثر الدَّيْلم فسار إليه معز الدولة، ولقيه بالأتراك فقط، وعدتهم ألف فارس. وذلك في يوم الاثنين سلخ شهر رمضان من السنة، فهزمه معز الدولة، وأسره.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة استولى معز الدولة على الموصل؛ وسبب ذلك أنه كان قد ضمنها له ناصر الدولة ابن حمدان في كل سنة بألفي ألف درهم. فلما كان في هذه السنة أخر حمْل المال، فسار معز الدولة إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى نصيبين، ودخلها معز الدولة. ثم سار منها إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة، وتوجه إلى أخيه سيف الدولة بحلب، فراسله سيف الدولة في الصلح، فامتنع من تضمين ناصر الدولة لخُلفه معه مرة بعد أُخرى، فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفي ألف وتسعمائة ألف درهم، فضمنه، وذلك في المحرم سنة ثمان وأربعين، وانحدر إلى بغداد، وفي سنة خمسين وثلاثمائة أمر معز الدولة ببناء داره ببغداد، فشرع في عمارتها، فكان مبلغ الخرج عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم، فاحتاج بسبب ذلك إلى مصادرة جماعة من أصحابه.

ذكر ما كتب على مساجد بغداد

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة في شهر ربيع الآخر منها كتب عامّة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد ما صورته: «لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غَصب فاطمةَ رضي الله عنها فَدكًا[٢]، ومن منع أن يدفن الحسين عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذرٍّ الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى». فلما كان الليل محاه بعض الناس، فأراد معز الدولة إعادته، فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محى: «لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ، ولا يذكر أحدًا في اللعن إلا معاوية، ففعل ذلك».

---

(١) المقارع: واحدتها المقرعة، وهي خشبة يضرب بها؛ أو هي جريدة معقوفة الرأس، وأكثر ما تكون في كتاب الصبيان.

(٢) فدك: قرية بخيبر فيها نخل، وعين أفاءها الله على نبيّه.

ذكر وفاة الوزير المهلبي

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة سار الوزير المهلبي في جُمادى الآخرة في جيش إلى عمان ليفتحها، فلما بلغ البحر اعتل، واشتدت علته، فأُعيد إلى بغداد، فمات في الطريق في شعبان وحمل تابوته إلى بغداد، فدفن بها، وقبض معز الدولة أمواله، وذخائره، وأخذ أهله، وأصحابه، وحواشيه، حتى ملاَّحه، ومن خَدمه يومًا واحدًا، فاستعظم الناس ذلك، واستقبحوه، فكانت مدة وزارته ثلاث عشر سنة، وثلاثة أشهر، وكان كريمًا فاضلاً ذا عقل ومروءة، فمات بموتة الكرم. ونظر في الأُمور بعده أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي. وأبو الفرج محمد بن العباس بن فساعن من غير تسمية لأحد منهما بوزارة.

وفيها في يوم عاشوراء أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النّياحة، ويلبسوا ثيابًا عملوها من المسوح[(١)]، وأن تخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن، ويدُرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ففعل الناس ذلك. ولم يكن للسنِّية قدرة على المنع، لكثرة الشيعة؛ ولأن السلطان منهم.

وفيها في ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة أيضًا بإظهار الزينة في البلد وإشعال النيران بمجلس الشرطة، وفتحت الأسواق ليلاً. فعل ذلك فرحًا بعيد الغدير[(٢)]، وكان يومًا مشهودًا.

ذكر وفاة معز الدولة ابن بويه

كانت وفاته في ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الآخرة، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بعِلَةِ الذَّرْب، وكان بواسط وقد جهّز الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين الخارج عليه فابتدأ به الإسهال وقوي عليه، فسار نحو بغداد، وخلف أصحابه، ووعدهم أن يعود إليهم. فلما وصل إلى بغداد اشتد مرضه، وصار لا يثبت في معدته شيء، فلما أحس بالموت عهد إلى ابنه بختيار، وأظهر التوبة، وتصدق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه ورد شيئًا كثيرًا على أصحابه وتوفي. ودفن بداره ثم نقل إلى مشهد بني له في مقابر قريش، فكانت إمارته إحدى وعشرين سنة

---

(١) المسح: الكساء من شعر، جمع المسوح.

(٢) الغدير: المراد غدير خم: وهو بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان.

وأحد عشر شهرًا ويومين. ومولده على ما حكاه أبو إسحاق الصابي في سنة ثلاث وثلاثمائة، فيكون عمره على هذا ثلاثًا وخمسين سنة تقريبًا. وكان ملكًا شجاعًا مقدامًا، قوي القلب، صليب العود، أبيّ النفس، إلا أنه كان في أخلاقه شراسة، وكانت إحدى يديه مقطوعة. وقد ذكرنا سبب قطعها مما تقدم، وقيل في قطعها غير ذلك. ومعز الدولة هذا هو الذي أحدث السُّعاة، ورتب لهم الجرايات الكثيرة لأنه أراد أن يصل خبره إلى أخيه ركن الدولة سريعًا، فنشأ في أيامه فضل، ومرعوش، وفاقا جميع السعاة، وكان الواحد منهما يسير في اليوم الواحد نيفًا وأربعين فرسخًا، وكان أحدهما ساعي السُّنِّية، والآخر ساعي الشيعة.

أولاده: عز الدولة أبو منصور بختيار مشيد الدولة أبو حرب حبشي. عمدة الدولة أبو إسحاق إبراهيم أبو طاهر محمد.

وزراؤه: أول من وَزَرَ له أبو الحسن أحمد بن محمد الرازي، وكان يخاطب بالأُستاذية إلى أن توفي بالأهواز في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة. فاستوزر أبا جعفر محمد بن أحمد بن يعلى الصيمريّ. وكان شجاعًا حسن الآثار إلى أن توفي في ليلة الاثنين لست خلون من جُمادى الأُولى سنة تسع وثلاثين، فاستوزر أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي[1] من ولد قبيصة بن المهلب، وخوطب بالأُستاذية مدة، ثم خوطب بالوزارة إلى أن توفي سنة اثنتين وخمسين، فلم يستوزر بعده أحدًا.

حجابه: مكلي التركي إلى أن قتل في وقعة ناصر الدولة، فاستحجب ينال كوشه التركي، ثم قبض عليه، واستحجب الحاجب الكبير سُبُكْتِكيز التركي، فطالت يده، وتجاوز حدَّ الحجَّاب إلى حد الأولاد، وقاد جميع جيوشه، ونعت بالاسفهسلارية، وكانت إقطاعاته في كل سنة عشرة آلاف ألف درهم، فأقام إلى أن توفي معز الدولة، فهذه الطبقة الأُولى من بني بويه قد ذكرناها.

فلنذكر الطبقة الثانية منهم.

ذكر أخبار عز الدولة بختيار

هو أبو منصور بختيار بن معز الدولة ابن بويه. كان والده معز الدولة قد عقد له الأمر من بعده في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر المحرم سنة أربع وأربعين

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن الملهب بن أبي صفرة الأزدي المهلبي الوزير؛ كان غاية في الأدب والمحبة لأهله: وكان قبل اتصاله بمعز الدولة في شدة عظيمة من الضرورة والضائقة. . . (وفيات الأعيان ٢: ١٢٤).

وثلاثمائة، وبايع له الأجناد، ولقبه المطيع في يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين. ثم جلس في السلطنة بعد وفاة أبيه في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة. والله أعلم بالصواب.

ذكر ما كان من الحوادث في أيام عز الدولة بختيار

كان أبوه قد أوصاه بطاعة عمِّه ركن الدولة، واستشارته في جميع ما يفعله، وأوصاه أيضًا بطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سنًا، وأقوم بالسياسة، ووصاه بتقرير كاتبيه أبي الفضل العباس بن الحسن، وأبي الفرج محمد بن العباس، وبالحاجب سُبُكتكين، فخالف جميع وصاياه، واشتغل باللعب واللهو، وعشرة النساء، والمساخر، والمغنِّين، وشرع في إيحاش كاتبيه، والحاجب، فاستَوحشوا، وانقطع الحاجب عنه، ولم يحضُر داره، ونفى أكابر الدَّيلم عن مملكته شرها في إقطاعاتهم وأموالهم، وأبعد المتصلين بهم، فاتفق أصاغرهم، وطلبوا الزيادات، فاضطر إلى مرضاتهم، واقتدى بهم الأتراك، وخرج الديلم إلى الصحراء، وطالبوا بختيار بإعادة من أسقطه منهم، فاضطر إلى إجابتهم لتغير الحاجب سُبكتكين عليه، وفعل الأتراك مثل فعلهم، واتصل خبر وفاة معز الدولة بكاتبه أبي الفرج محمد بن العباس، وهو يتولَّى أمر عمان، فسلمها لنواب عضد الدولة، وسار نحو بغداد، وإنما فعل ذلك لأن بختيار لما ملك بعد وفاة أبيه انفرد أبو الفضل بالنظر في الأُمور، فخاف أبو الفرج أن يستمر انفراده عنه، فسلم عمان إلى نواب عضد الدولة لئلا يؤمر بالقيام بها لحفظها وصلاحها، ولما وصل إلى بغداد لم يتمكن مما أراد، وانفرد أبو الفضل بالتدبير دونه.

ذكر خروج مشيد الدولة حبشي بن معز الدولة على أخيه عز الدولة

وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة عصى حبشي على أخيه، وكان بالبصرة، فسيّر إليه وزيره أبا الفضل العباس، وأمره بأخذه كيف أمكن، فسار الوزير، وأظهر أنه يريد الانحدار إلى الأهواز، فلما بلغ واسط أقام بها ليصلح أمرها، وكتب إلى حبشي يعده أن يسلم إليه البصرة سلمًا، ويصالحه عليها، وقال: «إنني قد لزمني مال على الوزارة، ولا بد من مساعدتي» فأنفذ إليه حبشي مائتي ألف درهم، وتيقن حصول البصرة له،

وأرسل الوزير إلى عسكر الأهواز يأمرهم بقصد «الأبلة»[١] في يوم ذكره لهم، فلم يتمكن حبشي من إصلاح شأنه، فظفروا به، وأخذوه أسيرًا، وحبسوه برامهرمز، فأرسل عمه ركن الدولة، فخلصه منها، فصار إلى عضد الدولة، فأقطعه إقطاعًا وافرًا، وأقام عنده إلى أن مات في آخر سنة تسع وستين وثلاثمائة، وأخذ الوزير أمواله بالبصرة، وكانت شيئًا كثيرًا، ومن جملة ما أخذ عشرة آلاف مجلّد سوى الأجزاء، وما ليس له جلد.

ذكر عزل أبي الفضل الوزير ووزارة ابن بقية

وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة عزل الوزير أبو الفضل العباس من وزارته في ذي الحجة، واستوزر محمد بن بقية، فعجب الناس من ذلك لأنه كان وضيعًا في نفسه وهو من أهل أوانا[٢]، وكان أبوه من الفلاحين لكنه كان قريبًا من بختيار، وكان يتولى مطبخه، ويقدم إليه الطعام، ومنديل الخوان على كتفه إلى أن استوزره، وحُبِس الوزير أبو الفضل، فمات عن قريب، واستقامت أُمور ابن بقية، ومشت الأحوال بين يديه بما أخذه من أموال أبي الفضل وأصحابه، فلما فَني ذلك ظلَم الرعية، فخربت، وزاد الاختلاف بين الأتراك، وبختيار، فشرع ابن بقية في إصلاح الحال بين بختيار، وسُبُكتكين، فاصطلحا، وركب سبكتكين إلى بختيار، ومعه الأتراك، ثم عاد الحال إلى ما كان عليه من الفساد. وسبب ذلك أن ديْلَمِيًا اجتاز بدار سُكتكين، وهو سكران، فرمى الروشن بزوبين[٣] في يده، فأثبته، فصاح سُبُكتكين بغلمانه، فأخذوه، وظن أنه وضع على قتله، فقرره، فلم يعترف، فأنفذه إلى بختيار، فأمر بقتله، فلما قتل قوي ظن سُبُكتكين أنه كان وضعه عليه، وأنه إنما قتله لئلا يذكر ذلك إذا قرره.

ذكر الفتنة بين بختيار وأصحابه

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ابتدأت الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز حتى عمّت العراق جميعه، واشتدت، وسبب ذلك أن عز الدولة قلّت الأموال عنده، وكثر

---

(١) الأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) أوانا: بالفتح والنون: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

(٣) الزوبين: الرمح القصير.

إدلال جنده عليه، واطراحهم لجانبه، وشغبوا عليه مرة بعد مرة، فتعذر عليه الفرار، ولم يجد وزيره جهة يحتال منها، فتوجَّه إلى الموصل في هذه السنة؛ ليستولي عليها من أبي تغلب بن حمدان، فلم يُفتح عليه بطائل، ولم يحصل له من المال ما يسد به الخَلة، فرجع، وقصد الأهواز ليتعرض إلى واليها بختكين أزاذرويه، ويعمل له حجة يأخذ منه مالاً ومن غيره، فسار بختيار، وتخلف عنه سُبكتكين ببغداد، فلما وصل إلى الأهواز خدم واليها بختيارًا، وبذل من نفسه الطاعة، وحمل إليه أموالاً جليلة، وبختيار مع هذا يفكر في طريق يأخذه بها، فاتفقت فتنة الأتراك والديلم، وكان سببها أن بعض الديلم نزل دارًا بالأهواز، ونزل بعض الأتراك بالقرب منه، وكان هناك لَبِن موضوع، فأراد غلام الديلمي، أن يبني به معلفًا للدواب، فمنعه غلام التركي، فتضاربا، وخرج كل من الدّيلمي والتركي لنصرة غلامه، فضعف التركي عنه، فركب، واستنصر بالأتراك، فركبوا، وركب الديلم، وأخذوا السلاح، فقتل بعض قواد الأتراك، فطلب الأتراك بثأر صاحبهم، وقتلوا من الديلم قائدًا، وخرجوا ظاهر البلد، واجتهد بختيار في تسكين الفتنة، فعجز عن ذلك، فجمع الديلم، واستشارهم فيما يفعله، وكان أُذنًا، فأشاروا عليه بقبض رؤساء الأتراك، فأحضر أزاذرويه، وكاتبه سهل بن بشر، وسباشي الخوارزمي، وبكتيجور، وكان حموًا لسُبكتكين، فقيدهم، وأطلق أيدي الديلم في الأتراك، فنهبوا أموالهم ودوابهم، وقتل بينهم قتلى، فهرب الأتراك، وأخذ بختيار أقطاع سُبكتكين، وأمر فنودي في البصرة بإباحة دم الأتراك. والله أعلم بالصواب.

ذكر حيلة لبختيار عادت إليه

كان بختيار قد واطأ والدته، وإخوته أنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك يظهرون أن بختيارًا قد مات، ويجلسون للعزاء، فإذا حضر سُبكتكين عندهم قبضوا عليه. فلما قبض على الأتراك كتب إليهم على أجنحة الطيور بذلك، فعندها أوقفوا الصراخ في داره، وأشاعوا موتَه ظنًّا منهم أن سُبُكتكين يحضر إلى عندهم ساعة يصل إليه الخبر، فلما سمع الصراخ أرسل يتعرف الخبر، فأعلموه، فأرسل يسأل عن الذي أخبرهم، وكيف أتاهم الخبر، فلم يجد نَقْلاً يثق القلب به، فارتاب لذلك، ثم وصلت رسل الأتراك بما جرى عليهم، فعلم أن ذلك مكِيدة، ودعاه الأتراك إلى أن يأْتمر عليهم فتوقف، وأرسل إلى أبي إسحاق إبراهيم بن معز الدولة يعلمه أن الحال قد فسد بينه، وبين أخيه، فلا يرجى صلاحه، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه، وإن أساؤوا إليه، ودعاه أن يعقد له الأمر، فعرض قوله على والدته، فمنعته منه، فركب سُبُكتكين في الأتراك، وحصر ديار بختيار يومين، ثم أحرقها ودخلها، وأخذ أبا

إسحاق وأبا طاهر محمد، ووالدتهما، ومن كان معهما، فسألوه أن يمكنهم من الانحدار إلى واسط، ففعل، وانحدروا في الماء، ومعهم المطيع لله، فأعاده سُبُكتكين، وذلك في تاسع ذي القعدة سنة ثلاث وستين، واستولى سُبُكتكين على جميع ما كان لبختيار ببغداد، ونزل الأتراك في دور الديلم، وتتبعوا أموالهم، وثارت العامّة من السُّنَّة لنصرة سُبُكتكين، فأحسن إليهم، وجعل لهم العرفاء، والقواد، فثاروا بالشيعة، وحاربوهم، وسفكت بينهم الدماء، وأحرق الكرخ، وظهرت السنة، ثم خلع سُبُكتكين المطيع، وبايع لابنه الطائع، على ما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية.

ذكر ما اتفق لبختيار بعد قبضه على الأتراك ووفاة سبكتكين وقيام الفتكين

قال: ولما قبض بختيار على الأتراك كما ذكرناه، ورأى ما فعله سُبُكتكين، وأن بعض الأتراك بواد الأهواز قد عصوا عليه، أتاه مشايخ الأتراك من البصرة فعاتبوه على ما فعل بأصحابهم، وقال له الديلم: إنا لا نستغني عن الأتراك في الحرب يدفعون عنا بالنُّشَّاب، فاضطرب رأيه، ثم أطلق أزاذرويه، وجعله صاحب الجيش مكان سُبُكتكين، وظن أن الأتراك يأنسون به، وأطلق المعتقلين منهم، وسار إلى واسط، وكتب إلى عمه ركن الدولة، وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن ينجداه، ويكشفا ما نزل به، وكتب إلى أبي تغلب بن حمدان يطلب منه أن يساعده بنفسه، وأنه يسقط عنه المال الذي عليه، وأرسل إلى عمران بن شاهين بالبطيحة خِلَعًا، وأسقط عنه باقي المال، وطلب منه أن يسير إليه بعسكر. فأما عمه ركن الدولة، فإنه جهز عسكرًا مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ابنه عضد الدولة بإنجاد ابن عمه، فوعد بالمسير إليه، وانتظر ببختيار الدوائر ليستولي على العراق. وأما عمران بن شاهين، فإنه أخذ الخلع، وقبل إسقاط المال، وأبى أن ينجده. وأما ابن حمدان، فإنه أجاب، وسارع بإرسال أخيه أبي عبد الله الحسينَ إلى تكريت في عسكر، وانتظر انحدار الأتراك من بغداد، فإن ظفروا ببختيار دخل بغداد مالكًا لها، فلما انحدروا عن بغداد سار أبو تغلب بن حمدان إليها، ودخلها ليوجب على بختيار الحجة في إسقاط المال الذي عليه، ووصل إلى بغداد، والناس في بلاء عظيم من العيّارين، فحمى البلد، وكفَّ أهل الفساد، وأما الأتراك، فإنهم انحدروا مع سُبُكتكين إلى واسط ومعهم الخليفة الطائع والمطيع، فتوفي المطيع بدير العاقول لما قدمناه، ومرض سُبُكتكين، فمات، فحملا إلى بغداد، وقدّم الأتراك عليهم الفتكين، وهو من أكابر قوادهم وموالي

معز الدولة، وظن بختيار أن نظام الأتراك قد انحل بموت سُبُكتكين، فلم يزدَدْ إلا قوّةً واشتدادًا، وسار الأتراك إليه، وهو بواسط، فقاتلوه، واتصلت الحرب بينهم خمسين يومًا، والظفر فيها للأتراك، وحصروه حتى اشتد عليه الحصار وأحْدَقُوا به، فتابع إنفاذ الرسل إلى عضد الدولة ابن عمه، وكتب إليه: [من الطويل]

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكلٍ وإلاّ فأدركني ولمّا أمزَّقِ

فلما رأى عضد الدولة ذلك، وأن الأمر قد بلغ ببختيار ما كان يرجوه، سار نحو العراق نجدة لبختيار في الظاهر، وطلبًا للاستيلاء في الباطن.

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق والقبض على بختيار

قال: وسار عضد الدولة في عساكر فارس، واجتمع بابن العميد وزير أبيه بالأهواز، وهو بعساكر الريّ، وساروا إلى واسط، فلما بلغ الفتكين خبر وصولهم رجع إلى بغداد، واجتمع بختيار بعضد الدولة، وسار عضد الدولة إلى بغداد في الجانب الشرقي، وأمر بختيارًا أن يسير في الجانب الغربي، ولما رجع الفتكين إلى بغداد فارقها ابن حمدان إلى الموصل، ووصل الفتكين بغداد، وصار محصورًا من جميع جهاته، وذلك أن بختيارًا كتب إلى ضبة بن محمود الأسدي بالإغارة على أطراف بغداد، وقطع الميرة عنها، وكتب بمثل ذلك إلى بني شيبان، وكان أبو تغلب بن حمدان من ناحية الموصل بمنع الميرة عنها، وينفذ سراياه، فغلت الأسعار ببغداد، وخرج الفتكين في الأتراك للقاء عضد الدولة، فلقيه بين ديالى[(١)] والمدائن، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم الأتراك، وقتل منهم خلق كثير، وذلك في رابع عشر جُمادى الأولى، وسار الأتراك إلى تكريت، وسار عضد الدولة إلى بغداد، وترك بدار المملكة، وأراد التغلب على العراق، واستضعف بختيارًا، وإنما خاف من أبيه ركن الدولة، فوضع جند بختيار على أن يثوروا به، ويشغبوا عليه، ويطالبوه بالأموال، والإحسان إليهم لأجل صبرهم معه، ففعلوا ذلك، وبالغوا، وكان بختيار لا يملك شيئًا، والبلاد خراب، فلا تصل يده إلى أخذ شيء منها، وأشار عضد الدولة على بختيار أن لا يلتفت إليهم، وأن يغلظ لهم في الجواب، ولا يعدهم بما لا يقدر عليه، وأن يعرفهم أنه لا يريد الإمارة عليهم والرئاسة، ووعده أنه إذا فعل ذلك توسط بينهم

(١) ديالى: بفتح أوله، وإمالة اللام: نهر كبير بقرب بغداد، وهو نهر بعقوبا الأعظم يجري في جنبها، وهو الحد بين طريق خراسان والخالص، وهو نهر تامرا بعينه. . . (معجم البلدان).

على ما يريده، فظن بختيار أنه ناصحٌ له، ففعل ذلك، واستَعْفى من الإمارة، وأغلق باب داره، وصرف كتَابه وحجّابه، وراسله عضد الدولة ظاهرًا بمحضَرٍ من مقدمي الجند يشير عليه بتطييب قلوبهم، وكان قد أوصاه سرًا أنه لا يقبل منه، فعمل بختيار بما أوصاه به، وقال: لست أميرهم، وقد برئت منهم وترددت الرسائل بينهم ثلاثةَ أيام، هذا، وعضد الدولة يغريهم به، والشغب يزيد كل يوم، فأرسل بختيار إلى عضد الدولة يطلب منه إنجازَ ما وعد به، ففرق الجند على عهدةٍ جميلة، واستدعى بختيارًا وإخوته، فقبض عليهم، ووكل بهم، وذلك لأربع بقين من جُمادى الآخرة، وجمع الناس، وأعلمهم استعفاء بختيار من الإمارة لعجزه عنها، ووعدهم الإحسان إليهم، والنظر في أُمورهم، فسكنوا إلى قوله. والله أعلم.

ذكر عودة بختيار إلى ملكه

قال: ولما قبض عضُدُ الدولة على بختيار كان ولده المرزبانُ بالبصرة متوليًا لها، فامتنع على عضُد الدولة، وكتب إلى رُكن الدولة يشكو ما جرى على أبيه وعمّيه من عضد الدولة، ومن أبي الفتح بن العميد، ويذكر الحيلة التي تمَّت عليه، فلما سمع ركنُ الدولة ذلك ألقى نفسه إلى الأرض، وتمرَّغ عليها، وامتنع من الأكل والشرب عدَّة أيام، ومرض، وكان محمد بن بقيَّة قد خدم عضد الدولة بعد بختيار، وضمن منه مدينة واسط وأعمالها، فلما صار إليها خَلَع طاعةِ عضد الدولة، وخالف عليه، وأظهر الامتعاض لقبض بختيار، وكاتَب عمران بن شاهين، وطلب مساعدته، فأجابه إلى ذلك، وكان عضد الدولة قد ضمن لسهل بن بشر وزير الفتكين بلد الأهواز، وأخرجه من حبس بختيار، فكاتبه عمه ابن بقية، واستماله فأجابه، وكاتب ركن الدولة من عصي على ابنه عضد الدولة، بالثبات والصبر، وأنه على المسير إلى العراق لإخراج عضد الدولة، وإعادة بختيار، فاضطربت النواحي على عضد الدولة، وتجاسر عليه الأعداء، وانقطعت عنه موارد فارس، ولم يبق بيده إلا قصبة بغداد، وطمع فيه العامة، فرأى إنفاذ أبي الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يعرفه ما جرى له، وما فرق من الأموال، وضَعْف بختيار عن حفظ البلاد، وأنه إن أُعيد خرجت المملكة وتدبير الخلافة عنهم، وكان في ذلك بوارُهم، وسأله ترك نصرة بختيار، وقال لأبي الفتح: فإن أجاب إلى ما تريد، وإلاَّ فقل له: إني أضمن منك أعمالَ العراق، وأحمل إليك في كل سنة ثلاثين ألف درهم، وأبعث بختيارًا وإخوته إليك، لنجعلهم بالخيار بين الإقامة عندك، أو بعض بلاد فارس، وإن أحببتَ أنت أن تحضُر إلى العراق لتَليَ تدبير الخلافة وتُنفذَ بختيار إلى الريّ، وأعود أنا إلى فارس، فالأمر إليك، وقال لابن

العميد: فإن أجاب إلى ذلك، وإلا فقل له: أيها السيدُ الوالد أنت مقبول الحكم والقول، ولكن لا سبيلَ إلى إطلاق هؤلاء القوم بعد مكاشفتهم، وإظهار العداوة، وسيقاتلونني بغاية ما يقدرون عليه، فتنتشر الكلمة، ويختلف أهل هذا البيت أبدًا، فإن قبلتَ ما ذكرتُه، فأنا العبد الطائع، وإن أبيتَ وحكمت بانصرافي، فإنني سأقتل بختيارًا وإخوته، وأقبضُ على كلِّ من اتهمه بالميل إليهم، وأخرجُ عن العراق، وأتركُ البلاد سايبةً ليدبِّرها من اتفقَت له، فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة، وأشار أن يسير غيرُه بها، ويسير هو بعده، ويكونَ كالمشير على ركن الدولة بإجابته إلى ما طلب، فأرسل عضدُ الدولة رسولاً غيره، وسير بعده ابن العميد على الجمّازات[1]، فلما حضر الرسول عند ركن الدولة، وذكر بعض الرسالة، ووثب إليه ليقتله، فهرب من بين يديه، ثم ردَّه بعد أن سكن غضبُه، وقال: قل لفلان - يعني عضُد الدولة - وسماه بغير اسمه، وشتمه: خرجتَ إلى نُصْرة ابن أخي، أو الطمع في ملكه؟ أما عرفتَ أني نصرتُ الحسنَ بن الفيرزان، وهو غريبٌ مني، مرارًا كثيرة أخاطِرُ فيها بمُلكي ونفسي، فإذا ظفرت أعدت له بلاده، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، كلُّ ذلك طَلَبًا لحسن الذكر، ومحافظة على الفتوة، تريد أن تَمُنَّ علي بدرهمين أنفقتَهما علي، وعلى أولاد أخي، ثم تطمع في ممالكهم، وتهددني بقتلهم؟ فعاد الرسول، ووصل ابنُ العميد، فحجبه ركنُ الدولة، وتهدَّده بالهلاك، وأنفذ إليه يقول: والله لا تركتك وذلك الفاعل - يعني عضد الدولة - تجتهدان جهدكما، ثم لا أخرج إليكما إلا في ثلاثمائة جمَّازة، وعليها الرجال، ثم أثبتوا إن شئتم، فوالله لا أقاتلكما إلا بأقرب الناس إليكما، وكان ركن الدولة يقول: إنني أرى أخي معزَّ الدولة في المنام كلَّ ليلة يعضّ على أنامِله، ويقول: يا أخي هكذا، أضمنت لي أن تخلفني في ولدي، ثم إن الناس سعوا لابن العميد، وتوسَّطوا له عند ركن الدولة، وقالوا إنما تُحمَّل ابن العميد هذه الرسالة ليجعلها طريقًا إلى الخلاص من عضد الدولة، والوصول إليك لتأمر بما تراه، فأذن له في الحضور عنده، واجتمع به وضمن إعادة بختيار عضد الدولة إلى فارس، وتقرير بختيار، فردّه إلى عضد الدولة فعرّفه جليَّةَ الحال، فأجاب عضد الدولة إلى العود إلى فارس، وأعاد بختيار، وخلع عليه، وشرط عليه أن يكون نائبًا عنه بالعراق، ويخطب له، وجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش، وردَّ عليهم جميع ما كان لهم، وسار إلى فارس في شوال من السنة، وأمر أبا الفتح بن العميد وزير أبيه أن يلحقه بعد ثلاثة أيام، فلما سار عضد الدولة أقام ابن العميد عند بختيار، وتشاغلا باللذات، واتفقا في

(١) الجماز: الجمل السريع الذي يحمل البريد، جمع الجمازات.

الباطن أنه إذا مات ركن الدولة سار إليه ووزر له، فاتصل ذلك بعضد الدولة، وكان سبب هلاك ابن العميد، واستقر بختيار ببغداد، ولم يفِ لعضد الدولة، ولما ثبت ملك بختيار أنفذ ابن بقية من خلفه له، وحضر عنده، وأكد الوحشة بينه وبين عضد الدولة، واستمال ابن بقية الأجناد إليه، وجبى كثيرًا من الأموال إلى خزائنه، وقوي أمره. هذا ما كان من أمر بختيار.

وأما ما كان من أمر الفتكين فإنه سار إلى التتار، واستولى على دمشق، وأخذها من ريان خادم المعزِّ لدين الله العلوي صاحبِ مصر، وخطب بها للطائع لله في شعبان، وأقطع البلاد، وكثر جمعهُ، وتوفَّرت أمواله، وكاتب المعزَّ بالانقياد إليه، فطلبه إلى الحضور عنده ليخلع عليه، فلم يجبه، فتجهَّز المعزُّ وقصده، فمات، وولي بعده العزيز، فطمع الفتكين، واستولى على بعض بلاد الساحل، فجهز إليه العزيز العساكر مع جوهر، فحصر دمشق، فاستنجد الفتكين بالحسن بن أحمد القرمطي، فأتاه، ففارق جوهرُ البلد بعد أن أقام عليها سبعة أشهر، فتبعه الفتكين والقرامطة، فأدركوه بظاهر الرملة، فاقتتلوا، ثم حصل اتفاقهم على تخلية سبيل جوهر، فسار إلى مصر، فخرج العزيز بجموعه، وقاتل الفتكين وأسره، وأحسن إليه، ونقله معه إلى مصر، وأنزله عند قصره، وحكمه في دولته، فتكبر على وزيره يعقوب بن كلس، فوضع عليه من سقاه سمًا، فمات. والله أعلم.

ذكر مقتل عز الدولة بختيار بن معز الدولة وشيء من أخباره

كان مقتله في ثامن عشر شوال سنة سبع وستين وثلاثمائة، وسبب ذلك أنه كان بينه وبين ابن عمِّه عضُد الدولة ابن ركن الدولة ما قدمناه، وقام عمه ركن الدولة في نُصرته حتى أعاده، فلما مات ركن الدولة في سنة ست وستين سار عضد الدولة إلى العراق وكان بينه وبين بختيار واقعة، واصطلحا بعد ذلك، ثم سار عضد الدولة في هذه السنة، واستولى على بغداد كما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره، وخرج بختيار من بغداد بما زوده به عضد الدولة، وقصد الشام، ومعه حمدان بن ناصر الدولة ابن حمدان، فلما صارا بعكبرا حسَّن له حمدان قصد الموصل، وأطمعه فيها، وقال: هي خيرُ من الشام وأسهل، فسارا نحو الموصل، وكان عضد الدولة قد حلّفه أنه لا يقصد ولاية أبي تغلب بن حمدان لمودة كانت بينهما، فنكث وقصدها، فلما صار إلى تكريت أتته رسل أبي تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان، ويُسْلِمه إليه، وإذا فعل ذلك سار معه بنفسه وعساكره إلى العراق، وقاتل عضد الدولة، وأعاده

إلى ملك بغداد، فقبض بختيار عند ذلك على حمدان، وسلمه لرسل أخيه، وسار بختيار إلى الحديثة[١]، واجتمع بأبي تغلب، وسارا جميعًا نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحوًا من عشرين ألف مقاتل، وبلغ ذلك عضد الدولة، فسار من بغداد نحوهما، والتقوا بقصر الجصّ بنواحي تكريت، فهزمهما عضد الدولة، وأسر بختيار، وجيء به إلى عضد الدولة، فلم يأْذن له بالدخول عليه، وأمر بقتله، واستقر ملك عضد الدولة.

وكان عمر بختيار ستًا وثلاثين سنة، ومدة ملكه أحد عشر سنة وستة شهور.

أولاده: إعزاز الدولة المرزبان أبو عبد الله الحسين، أبو العباس سلار، أبو القاسم، أبو نصر شاهفرون، أبو محمد سهلان.

وزراؤه: أول من وزر له: أبو الفضل العباس بن الحسين إلى أن قُبِض عليه في سنة تسع وخمسين، فاستوزر أبا الفرج محمد بن العباس، ثم قبض عليه في شهر رجب سنة ستين، واستوزر أبا طاهر محمد بن بقية، وأقام إلى أن قُبِضَ عليه بعد انهزامه من عضد الدولة في الكرَّة الثانية، وسمله، ثم صلبه عضد الدولة بعد أن رماه تحت أرجل الفِيلَة.

حجابه: إبراهيم بن إسماعيل قتل في الوقعة، وأما المرزبان بن عز الدولة، وعماه: عمدة الدولة إبراهيم، وأبو طاهر محمد، فإنهم وصلوا إلى دمشق والتجؤوا إلى غلامهم الفتكين، وشهدوا معه حرب القائد جوهر بعسقلان، ثم حضروا الواقعة الكائنة بين الفتكين والعزيز، فقتل محمد، وأسر المرزبان عمه إبراهيم، والفتكين، ومنَّ عليهم العزيز، واستخدمهم إلى أن توفي المرزبان بمصر في سنة ست وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم، وتوفي إبراهيم في أيامه أيضًا لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة أربعمائة بعد أن نعت بعزيز الدولة الحاكمية.

ذكر أخبار عضد الدولة

هو أبو شجاع فناخسرو عضد الدولة تاج الملة شاهنشاه بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه.

---

(١) الحديثة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء ساكنة، وثاء مثلثة: هي في عدة مواضع: حديثة الموصل: وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى... وحديثة الفرات: وتعرف بحديثة النورة: وهي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة... والحديثة أيضًا: من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش... (معجم البلدان لياقوت).

اجتمع له من الممالك ما تفرق لأبيه وعميه، وقد قدمنا أن عمه عماد الدولة ابن بويه جعله ولي عهده، وذلك لأربع عشرة بقيت من جُمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، فأول ما ظهر من أفعاله بعد وفاة عمه ببلاد فارس أنه استولى على حصن ابن عمارة المتوسطَ لمدينة هرو، وهي مدينة على ساحل البحر الهندي من أعمال فارس قد بنيت على مصبّ الماء تجمع المراكب المنكسرة، والبضائع الغارقة، فيستعين أهلها بذلك، وأهل هذا الحصن ينسبون إلى معد يكرب، ثم إلى الجلندي بن كركر يتوراثونه لم ينتزع منهم، ولم تفتح عنوة، ولا صلحًا قبلها. ذكر ابن جوقل في كتابه: أن صاحب هذا الحصن هو الملك المذكور وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]. ولم يباشر عضد الدولة الحصار بنفسه، وإنما بعث عليًا بن الحسين السيفي في جيش إلى الحصن، فحاصره برهة من الدهر حتى استعزل صاحبه، وهو أبو طالب بن رضوان بن جعفر بالأمان، وتسلم الحصن بما فيه، وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة بعث إلى عمان عسكرًا مع عسكر لعمه معز الدولة، ففتحها، ثم بعد ذلك «كرمان» في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأقطعها ولده أبا الفوارس، وأطاعه صاحب سجستان، ونقش السكة باسمه، وأقام له الخطبة. ثم ملك قلعة برَدْسير[١] وهي مثوى آل اليسع، ولما عاد من كرمان فتح جبال القُفص، وهذه البلاد لها جبل وسهل. فأهل السهل يعرفون: بالمنوجان وهو اسم البلاد، وأهل الجبل يعرفون: بالقُفص، والبُلُوص، وهم قبائل وشعوب، وبلادهم هذه في طرف كرمان مما يلي فارس، ثم جرت لجيشه معهم بعد ذلك وقائع كان الظفر فيها لأصحابه عضد الدولة، وفي أثناء حروب جيشه لهم حصل استيلاء عضد الدولة على هرموز[٢]، وبلاد التيز[٣]، ومُكْران في سنة ستين وثلاثمائة، ثم سألوا الأمان على إقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والاجتهاد في الطاعة، واجتناب إخافة السبيل فأمنهم. قال المؤرخ: ثم سار عسكره، ومقدمة كوركير إلى أمة من ورائهم يقال لهم الخُرَّميَّة، والحاسكية فهزمهم، وقتل منهم خلقًا، وأسر مقدميهم، وجماعة من رؤسائهم، وأنفذهم إلى شيراز، وتوطأت هذه البلاد مدة، ثم كان بينهم، وبين العسكر العضدي وقعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين

---

(١) بردسير: بكسر السين، وياء ساكنة، وراء: أعظم مدينة بكرمان مما يلي المفازة التي بين كرمان وخراسان.

(٢) هرمز: (لم يذكر ياقوت غيرها في معجمه بهذا اللفظ): مدينة في البحر إليها خور وهي على ضفة ذلك البحر وهي على برّ فارس.

(٣) التيز: بالكسر: بلدة على ساحل بحر مكران أو السند، وفي قبالتها من الغرب أرض عمان... (معجم البلدان).

وثلاثمائة، ودامت إلى غروب الشمس، فانجلى ذلك اليوم عن قتل أكثر مقاتليهم، والإحاطة بحريمهم، وذراريهم، ولم يبق منهم إلا اليسير، ثم كان بين عضد الدولة، وبين عز الدولة بختيار بن معز الدولة ما قدمناه في أخبار بختيار في سنة أربع وستين وثلاثمائة، فلا فائدة في إعادته، فلما مات والده ركن الدولة في سنة ست وستين وثلاثمائة قصد العراق في تلك السنة، فخرج عز الدولة لقتاله، والتقوا، واقتتلوا في ذي القعدة من السنة، فالتحق بعض أصحاب بختيار بعضد الدولة، فانهزم بختيار، واحتوى عضد الدولة على ماله، ومال وزيره ابن بقية، وسير عضد الدولة جيشًا إلى البصرة، فملكها.

ذكر القبض على أبي الفتح بن العميد

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة قبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه وسمل إحدى عينيه، وقطع أنفه، وكان سبب ذلك أنه لما فارق عضد الدولة بغداد كما ذكرناه في أيام بختيار، أمر ابن العميد أن يلحقه بعد ثلاث، فخالفه، ووافق عز الدولة، ووعده أن يلحق به إذا مات ركن الدولة، ثم صار يكاتبه بأشياء يكرهها عضد الدولة، وكان لابن العميد نائب يعرض كتبه على عز الدولة، وذلك النائب يكاتب عضد الدولة بما يكتبه ابن العميد بختيار ساعة بساعة، فلما ملك عضد الدولة بعد موت أبيه كتب إلى أخيه مؤيد الدولة بالريّ يأمره بالقبض على ابن العميد، وعلى أهله، وأصحابه، ففعل ذلك، وكان أبو الفتح ليلة قبضه قد أمسى مسرورًا، فأحضر ندماءه، والمغنين، وأظهر من آلات الذهب والفضة والزجاج، وأنواع الطيب ما ليس لأحد مثله، وشربوا وعمل شعرًا، وغني له به، وهو: [من المتقارب]

دعوتُ المنى ودعوْتُ العُلى ... فلمّا أجابا دعوتُ القَدح
وقلتُ لأيام شرخ الشباب: ... إليَّ فهذا أوانُ الفرح[1]
إذا بلغ المرءُ آمالَه ... فليس له بعدها مقترح

وشرب ليلته على هذا الشعر إلى أن سكر، وقام، وقال لغلمانه: اتركوا المجلس على ما هو عليه لنصطبح غدًا، وقال لندمائه بكروا غدًا لنصطبح، ولا تتأخروا، فانصرف الندماء، ودخل هو إلى بيت منامه، فلما كان وقت السحر استدعاه مؤيد الدولة، فقبض عليه، وأرسل إلى داره، فأخذ جميع ما فيها، ومن جملته ذلك المجلس بما فيه.

(١) شرخ الشّباب: أوّله وأفضله.

ذكر استيلاء عضد الدولة على العراق

كان استيلاؤه على بغداد في سنة سبع وستين، وذلك أنه سار إلى العراق، وأرسل إلى عزِّ الدولة ابن عمه يدعوه إلى طاعته، وأن يتوجَّه من العراق إلى أي جهة أحب، فأجاب إلى ذلك، وسار عن بغداد، وكان من خبره، ومقتله ما قدمناه، ولما قَدِم عضد الدولة إلى بغداد نزل بباب الشمّاسية في يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الآخر من السنة، وتلقاه الخليفة الطائع لله في البحر قبل ذلك بيومين، ثم دخل إلى دار الخلافة في يوم الأحد لتسع خلون من جُمادى الأولى منها، وقبّل الأرض بين يدي الخليفة الطائع لله، فخلع عليه، وتوجّه، وطوّقه، وسوَّره، وقلَّده ما وراء داره، وعقد له لواءين: أحدهما: على المشرق، والآخر: على المغرب، وأرخى إحدى ذؤابتيه منظومة بالجوهر، وزاد في لقبه تاج الملَّة: وكان وزنُ السوادين، والطوق: ألفين وخمسمائة مثقال. قال أبو إسحاق الصباني، وكان في غرة التاج وجوانبه من الجوهر، وأحجار الياقوت الأحمر ما يتجاوز إحصاؤها التثمين، أو يحدها التقويم، وطرح بين يديه من نشار الذهب والورِق شيء كثير على الأنطاع[1] حتى صار كالبيدر، وقرىء عهده بين الخليفة، ولم يجر بذلك عادة، وأخذ الخليفة الذؤابةَ للرُخاة، فعقدها بيده، وذلك بمسألة تقدمت من عضد الدولة، وقلَّده الخليفة سيفًا ثانيًا وركب من مراكب الخليفة برُكبُ الذهب، وبين يديه آخر مثله، والجيش بين يديه، وخلفه مشاة إلى أن خرج من باب الخاصة، فسار الجيش أمامه، واستقر مُلكه ببغداد، خُطِب له بها، ولم يخطب لملك قبله ببغداد، وضُرِب على بابه ثلاث نوب، ولم تجرِ بذلك عادة. قال: ولما دخل إلى بغداد أرسل إلى بختيار يطلب منه وزيره محمد بن بقية، فسمله بختيار، وأنفده إليه، فأمر عضُد الدّولة بإلقائه بين قوائم الفِيلة، فوطئته حتى مات، وصلب على رأس الجسر في شوال، فرثاه أبو الحسن الأنباري بقوله:

علوٌّ في الحياة وفي الممات   لحق أنت إحدى المعجزات

وقد ذكرنا الأبياتَ في باب المراثي، وبقي ابن بقية[2] مصلوبًا إلى أيام صمصام الدولة، فأنزل عن جذعه، ودفن، ولما استقر ملك عضد الدولة ببغداد، أتاه

---

(١) النطع: بساط من الجلد، كثيرًا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل. جمع أنطاع، ونطوع، وأنطع.

(٢) هو الوزير أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية بن علي، الملقب نصير الدولة، وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه، كان من جلّة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء... كان من أهل أوانا من أعمال بغداد... (وفيات الأعيان ٥:١١٨).

الخبر أن عزَّ الدولة بختيارًا قد نقض العهد، واجتمع هو وابن حمدان، واتفقا على حربه، فخرج إليهما، فكان من أمرهما ما قدمناه في أخبار بختيار، وأخبار الدولة الحمدانية.

ذكر استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان

قال: ولما انهزم أبو تغلب في الحرب التي قدمناها مع عز الدولة، سار إلى الموصل، فسار عضد الدولة نحوه، فملكها في ثاني عشر ذي القعدة سنة سبع وستين، وملك ما يتصل بها، فظن أبو تغلب أنه يفعل كما فعل غيرُه يقيم يسيرًا ثم يضطرّ إلى المصالحة، ويعود، فكان عضد الدولة أحزم من ذلك، وذلك أنه لما قصد الموصل حمل معه الميرة والعلوفات، وأقام بالموصل، وبثَّ سراياه في طلب أبي تغلب، فأرسل أبو تغلب يسأل أن يضمن البلاد منه، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: هذه البلاد أحبُّ إلي من العراق، فسار أبو تغلب إلى نصيبين، فسير عضد الدولة سَريّة استعمل عليها حاجبه طغان إلى «جزيرة ابن عمر»[١]، وسرية في طلب أبي تغلب، وعليها أبو طاهر محمد على طريق «سَنجار»، فسار أبو تغلب جدًا إلى ميَّافارقين، ثم منها إلى بدليس[٢]، واستولى عضد الدولة على مَيَّافارقين، وديار مضر، وغيرها من بلاد الجزيرة، وذلك في سنة ثمان وستين وثلاثمائة، ثم عاد إلى بغداد في سلخ ذي القعدة من السنة، واستخلف على أعمال أبي تغلب بن حمدان أبا الوفا طاهر محمد، وفي سنة تسع وستين في شهر رجب جهّز عضد الدولة جيشًا إلى بني شيبان، كانوا قد أكثروا الغارات، والفساد في البلاد، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا قد عقدوا بينهم وبين أكراد شَهْرزور[٣] مصاهرات، وكانت شَهْرزُور ممتنعة على الملوك، فأمر عضد الدولة عسكره بمنازلتها لتنقطع أطماع بني شيبان عن التحصن بها، فاستولى أصحابه عليها، وملكوها فهرب بنو شيبان، وسار العسكر في طلبهم، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قتل فيها من بني شيبان خلق كثير، ونهبت أموالهم، ونساؤهم، وأُسر منهم ثمانمائة أسير حملوا إلى بغداد.

---

(١) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، وله رستاق مخصب واسع الخيرات... (معجم البلدان).

(٢) بدليس: بالفتح ثم السكون، وكسر اللام، وياء ساكنة، وسين مهملة: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة، وتفاحها يضرب به المثل في الجودة والكثرة والرخص... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.

ذكر عمارة عضد الدولة بغداد، وما فعله من وجوه البر

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة شرع عضُد الدولة في عمارة بغداد وكانت قد خربت لتوالي الفتن فيها، وعمّر مساجدها، وأسواقها، وأدرَّ الأموال على الأئمة، والمؤذِّنين، والفقهاء، والغرباء، والضعفاء، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدَّد ما دثر من الأنهار، وأعاد حفرها، وتسويتها وأطلق مكوس الحُجّاج، وأصلح الطرق من العراق إلى مكة، وأطلق الصلات لأهل البيوتات، والشرف، والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة، وفعل مثل ذلك بمشهد عليّ، والحسين، وأجرى الجرايات على الفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين، والمفسرين، والنحاة، والشعراء والأطباء، والحسَّاب، والمهندسين، وأذن لوزيره نصر بن هارون، وكان نصرانيًا بعمارة البيع[1]، والديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم.

ذكر قصد عضد الدولة أخاه فخر الدولة، وأخذ بلاده

قال: وفي هذه السنة سار عضد الدولة إلى بلاد الجبل، فاحتوى عليها، وسبب ذلك أن عز الدولة بختيارًا كان يكاتب فخر الدولة بعد موت ركن الدولة يدعوه إلى الاتفاق معه على عضد الدولة، فأجابه إلى ذلك، واتفقا عليه، وعلم عضد الدولة بذلك، فكتمه إلى الآن، فلما خلا وجهه من أعدائه كاتبه يعاتبه على ما كان منه، ويستميله، فأجاب جواب المناظر المناوىء، وكان رسول عضد الدولة إليه خواشاده؛ وهو من أكابر أصحابه، فاستمال أصحاب فخر الدولة، وضمن لهم الإقطاعات، وأخذ عليم العهود، فلما عاد إلى عضد الدولة برز من بغداد، وقدم جيوشه يتلو بعضها بعضًا، فخرج إليه أصحاب فخر الدولة، وانضموا إلى عسكره، وخرج فخر الدولة من همذان هاربًا إلى جرجان، والتجأ إلى شمس المعالي قابوس بن وشمكير، فأمنه، وآواه، وحمل إليه فوق ما في نفسه، وشركه فيما تحت يده من ملك وغيره، وملك عضد الدولة ما كان بيد أخيه فخر الدولة: همذان، والريّ، وما بينهما من البلاد، وسلم ذلك لأخيه مؤيد الدولة وجعله نائبًا في تلك النواحي، ثم عرج عضد الدولة على ولاية حسنويه، فقصد نهاوند[2]، والدينور ففتحهما وعدة قلاع، وأخذ ما فيها من ذخائر حسنويه، وكانت جليلة المقدار، وأصاب عضد الدولة في هذه السفرة

---

(١) البيع: واحدتها البيعة، وهي معبد النصارى.

(٢) نهاوند: بفتح النون الأولى وتكسر، والواو مفتوحة، ونون ساكنة، ودال مهملة: هي مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام... (معجم البلدان لياقوت).

صرع، كان قد حدث به وهو بالموصل، فكتمه، وصار كثير النسيان لا يذكر الشيء إلا بعد جهد كبير، وبقي الصرع يعاوده إلى أن قتله على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك عضد الدولة بلد الهكارية

وفي هذه السنة سيّر عضد الدولة جيشًا إلى الأكراد الهكّارية[١] بأعمال الموصل، فأوقع بهم، وحصر قلاعهم، وطال مُقام الجند في حصْرها، وكان من بالحصون من الأكراد ينتظرون نزول الثلج ليرحل العسكر عنهم، فقدر الله تعالى أن الثلج تأخر نزوله في تلك السنة، فطلبوا الأمان، فأجيبوا إليه، وسلّموا القلاع ونزلوا إلى الموصل مع العسكر، فلم يفارقوا أعمالهم غير يوم واحد حتى نزل الثلج، ثم إن مقدم الجيش غدر بالهكّارية، وقتلهم على جانبي الطريق من معلثايا[٢] إلى الموصل نحو خمسة فراسخ. والله أعلم بالصواب.

ذكر وفاة عضد الدولة وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته ببغداد في ثامن شوال سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنه اشتد به ما كان يعتاده من الصرع، وضعفت قوته عن دفعه، فخنقه، فمات، ودفن بمشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجلس ابنُه صمْصام الدّولة للعزاء، وأتاه الخليفة الطائع لله، فعزّاه به، وكان عُمر الدولة سبعًا وأربعين سنة، مدة سلطنته بالعراق خمسُ سنين وستة شهور، وأما مدة ملكه ببلاد فارس منذ وفاة عمِّه عماد الدولة وإلى أن توفي هو: ثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرون يومًا. قال: ولما حضرته الوفاة لم ينطلق لسانه بغير قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، وكان عاقلاً حسن السياسة، شديد الهيبة، بعيد الهمة ثاقب الرأي محبًا للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء، مانعًا في أماكن الحزم، ناظرًا في عواقب الأمور، وكان له شعر حسن فمنه قوله ـ وقد أرسل إليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر من مساعدته لبختيار، ويطلب الأمان ـ فقال عضد الدولة: [من الكامل]

أأفاق حين وطئت ضيق خناقة ... يبغي الأمان وكان يبغي صارما
فلأركبنَّ عَزيمةً عَضُدِيَّةً ... تاجيةً تدع الأنوفَ رواغِما

---

(١) الهكارية: بالفتح، وتشديد الكاف، وراء، وياء نسبة: بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكاريّة... (معجم البلدان).

(٢) معلثايا: بليدة قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل... (المراصد... لابن عبد الحق البغدادي).

وقال أبياتًا، فمنها بيت لم يفلح بعده، وهي: [من الرّمل]

ليس شربُ الكأس إلاّ في المطر وغناءٍ من جوارٍ في السحر
غانياتٍ سالباتٍ للنهى ناعمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعِها ساقياتِ الراح من فَاقَ البشر(١)
عضد الدّولة باني ركنها ملكَ الأملاك غلاّب القدر

ومن أخباره أنه كان في قصره جماعة من الغلمان يحمل إليهم مشاهراتهم من الخزانة، فأمر أبا نصر خواشاذه أن يتقدم بصرف جوامكهم إلى نقيبهم في شهر، وقد بقي منه ثلاثة أيام، قال أبو نصر: فأنسيت ذلك أربعة أيام، سألني عضد الدولة عن ذلك، فاعتذرت بالنسيان، فأغلظ لي، فقلت: أمس استهل الشهر، والساعة يحمل المال، وما هذا مما يوجب شغل القلب، فقال: المصيبة بما لا نعلم من الغلط أكبر منها في التفريط، أما تعلم أنا إذا أطلقنا لهم ما لهم قبل محلِّه كان الفضل لنا عليهم، وإذا أخَّرنا عنهم ذلك حتى استهلَّ الشهر الآخر حضروا عند عارضهم(٢)، وطالبوه، فيعِدُهم، ثم يحضرون في اليوم الثاني، فيعدهم، ثم يحضرون في اليوم الثالث، ويبسطون ألسنتهم، فتضيع المنّة، وتحصل الجرأة، وتكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح، وكان لا يُعوِّلُ في الأمور إلا على الكفاءة، ولا نجعل للشفاعات طريقًا إلى معارضة ما ليس من جنس الشافع، ولا فيما يتعلق به.

حكي أن مقدم جيشه أسفار بن كَردَويْه شفع في بعض أبناء العدول ليتقدَّم عند القاضي بسماع البيِّنة بتزكيته، وتعديله، فقال له: «ليس هذا من أشغالك، إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد، ونقل رتبة جندي، وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها، فهي إلى القاضي وليس لنا، ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما تجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة»، وكان رحمه الله يخرج كل سنة أموالاً كثيرة للصدقة، والبر في سائر البلاد، ويأمره بتسليم ذلك إلى القضاة، ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقه، وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم، ويحاسبهم به إذا عملوا، وكان محبًا للعلوم وأهلها، مقرِّبًا لهم، محسنًا إليهم وكان يجلس معهم، ويعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب منها: الإيضاحُ في النحو، ومنها الحجَّة في القراآت، ومنها الملكي في الطلب،

---

(١) الراح: الخمر.

(٢) العارض: رئيس ديوان الجند، وإليه يوكل نفقات الجيش وأرزاق الجند.

والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك، وعمل المصالح العامة في سائر البلاد كالبمارستان والقناطر، فمن جملة ما عمره: المدينة التي سماها «كرد فناخسرو»، وهي على دون الفرسخ من شيراز، وساق إليها الماء من عين كانت على أربع فراسخ منها، وبدأ بالعمارة في يوم الأحد لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، قال الصابي: بلغت النفقة عليها عشرين ألف ألف درهم، ومن غريب عمائره: السكر الذي أنشأه على النهر المعروف بالكُرْ اصطخر، وحرمه على عشرة فراسخ من قصبة شيراز، وهو شاذَرْوان[1] عظيم، ينحط الماء من رؤوس الجبال ويجتمع عليه، وينحط إلى أغوار كانت قفارًا ومهامه[2]، فلما تم له ذلك بنى في تلك الأراضي ثلاثمائة قرية، ونقل إليها الفلاحين، وسماها رستاق فناخسرو، وصار في مقدار خراج بلاد فارس. قال الصابي: وانتهت النفقة عليه ألفي ألف دينار، واجتمع لعضد الدولة من الممالك سجستان، وكرمان، وجرجان، وطبرستان، والري، وأصفهان، وهمذان، وسائر بلاد أذربيجان، وبلاد فارس، وعمان، والعراق، والموصل، وديار مضر، وديار بكر، والجزيرة، وكان مع ما فعله من الخبر والبر أحدث في آخر أيامه رُسومًا جائرة في المساحة، والضرائب، وكان يتوصّل إلى أخذ المال بكل طريق، وكان يُرفع إليه من الأعمال في كل سنة بعد ما رتَّبه من الصِّلات، والإدرارات، وجهاتِ البر اثنان وثلاثون ألف ألف دينار.

أولاده: شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل، صمصام الدولة أبو كاليجار المرزيان، بهاء الدولة أبو نصر خسرو فيروز، وقيل فيروزشاه، تاج الدولة أبو الحسين أحمد، وهو أديب آل بويه، أبو طاهر فيروزشاه، أبو دلف سهلان توفي في حياته.

وزراؤه: الأستاذ الجليل أبو القاسم المطهر بن عبد الله إلى أن قتل نفسه في سنة تسع وستين، وهو يحاصر البطيحة، وبهاء الحسن بن عمران بن شاهين، فاستوزر الأستاذ أبا منصور نصر بن هارون النصراني الشيرازي المشهور بعلو الطبقة في الحساب.

حجابه: أبو علي التيمي، أبو حرب طغان، أبو الفتح المظفر بن محمود، أبو القاسم سعد بن محمد الشاسي وغيرهم. فلنذكر بقية من في طبقة عضد الدولة.

---

(١) الشاذروان: أساس يوثق حول القناطر ونحوها.

(٢) المهمه: المفازة البعيدة؛ أو البلد المقفر. جمع مهامه.

ذكر أخبار مؤيد الدولة أبي منصور بويه
ابن ركن الدولة ابن بويه

كان مؤيد الدولة شقيقًا لعضد الدولة، وأمهما جارية تركية، وكان نائبًا عن أبيه بأصفهان عند خروج عضد الدولة منها إلى بلاد فارس، فلما توفي والده مضى إلى الريّ، وتسلمها، وتسلم سائر البلاد المقررة له بوصية أبيه، وهي قزوين، وزنجان، وقم، وقاجان، وأبهر، وما والاها مضافًا إلى الريّ، وأصفهان، وكان لا يبرم أمرًا إلا برأي أخيه عضد الدولة، ولما وقع بين عضد الدولة وبين أخيه فخر الدولة ما ذكرناه، وأخذ بلاده من يده سلّمها لمؤيد الدولة نيابة عنه، وندبه إلى المسير إلى طبرستان، وجرجان لانتزاعهما من يد قابوس بن وشمكير، فسار إليهما، وانتزعهما منه، ثم اتفقت وفاة عضد الدولة، وأقام مؤيد الدولة بعده في البلاد إلى أن توفي بجرجان في شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، فكانت مدة ملكه بعد وفاة أبيه سبع سنين، وستة أشهر، وأيامًا.

ولده: أبو النصر.

وزراؤه: ذو الكفايتين أبو الفتح بن العميد إلى أن قبض عليه بأمر أخيه عضد الدولة كما ذكرناه، وقطع يده، وأنفه، ثم قتله بعد مصادرته، واستوزر بعده الصاحب الجليل أبا القاسم إسماعيل بن عباد، وكان يلبس القباء استخفافًا بالوزارة، وانتسابًا إلى الجندية، وإنما عرف ابن عباد بالصاحب لصحبته لابن العميد.

ذكر أخبار فخر الدولة وفلك الأمة
أبي الحسن علي ابن ركن الدولة ابن بويه

وفخر الدولة هذا هو أوسط أولاد ركن الدولة يلي عضد الدولة في السن، وأُمه ابنة الحسن بن الفيرزان أحد ملوك الديلم، فجمع المملكة من الطرفين، وكان والده ركن الدولة قد جعل له همذان، والدينور، والأيغارين، ونهاوند، وما والى ذلك من بلاد الجبل. ولما وقع بينه وبين أخيه عضد الدولة ما ذكرناه من ميله مع ابن عمه عز الدولة بختيار على أخيه عضد الدولة، أرسل عضد الدولة جيشًا مع أبي الفتح المظفر الحاجب، وتلاه بجيش آخر. ثم عززهما بجيش ثالث، ثم سار هو بنفسه، فالتحق به بعض أصحاب فخر الدولة، وكاتبه عبيد الله بن محمد حمدويه، فعلم فخر الدولة أنه لا قبل له بما دهمه، ففارق بلاده، وسار في خواص غلمانه

إلى «هوسم»[١] من بلاد الجبل، والتحق بعلي بن الحسين العلوي، ثم انتقل من «هوسم» إلى جرجان، والتجأ إلى قابوس بن وشمكير، وكان عنده مكرمًا إلى أن توفي عضد الدولة، ثم توفي مؤيد الدولة بجرجان، فضبطها الصاحب بن عباد بالعساكر، وجمع القواد واستشارهم، وقرر الأمر لفخر الدولة، ثم خاف افتراق الأجناد، فأجلس أبا العباس خسرو فيروز على سرير المملكة، وكاتب فخر الدولة سرًا يستدعيه، فسار عن نيسابور إلى جرجان، فدخل الصاحب على خسرو فيروز، وقال له: هذا أخوك، وأكبر منك قد وصل، وميلُ الأجناد إليه أكثر من ميلهِم لك، وحسَّ له الخروج للقائه، فخرج إليه، وتلقّاه، وتسلَّم فخر الدولة الملك، وبالغ في إكرام الصاحب، وعرف له حقَّ جميله، وحسنَ تدبيره، ونعته بكافي الكفاة، مضافًا إلى الصاحب الجليل، واحتوى فخر الدولة على ممالكه التي كانت بيده، وما كان بيد أخيه مؤيد الدولة، ومملكة قابوس بن وشمكير، ودخل أخوه خسرو فيروز في طاعته، ثم سأل فخرُ الدولة الخليفةَ الطائع لله أن يضيف إلى نعته نعتًا آخر، فنعته بفَلَكَ الأمّة، واستمر في الملك إلى أن توفي في شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فكانت مدة ملكه الأول منذ وفاة والده إلى أن انهزم من أخيه عضد الدولة ثلاث سنين وشهورًا، ومملكتهُ الثانية من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين إلى شعبان سنة سبع وثمانين أربعة عشر سنة تقريبًا، وكان شاعرًا بارعًا، فمن شعره ما ذكره الثعالبي: [من مجزوء الرّمل]

أدرِ الكأس علينا ... أيّها الساقي لنشرب
من شمولٍ مثل شمسٍ ... في فم الندمان تغرُب
شربت منها فحالت ... قمرًا يلثم كوكب
ورد خديها جنيٌّ ... لكنِ الناطور عقرب
فإذا ما لذعت ... إبريق درياقٍ مجرّب[٢]

وكان له من الأولاد: مجد الدولة أبو طالب رستم. شمس الدولة أبو طاهر صاحب همذان، عين الدولة أبو شجاع بويه، أبو منصور صاحب أصفهان.

---

(١) هوسم: بالفتح ثم السكون، والسين مهملة: من نواحي بلاد الجيل خلف طبرستان والديلم... (معجم البلدان).

(٢) الدرياق: الترياق؛ أو الخمر.

وزراؤه: أبو عمر سيد بن المرزبان إلى أن نكبه، واستوزر عبيد الله بن محمد بن حمدويه إلى أن استأمن إلى عضد الدولة، ثم استوزر الصاحب[١] الجليل كافي الكفاة أبا القاسم بن عباد إلى أن توفي في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، ولم يُرَ أحدٌ سعِد بعد وفاته كما كان في حياته غيره، وذلك أنه لما توفي غُلِّقت له مدينة الريّ، واجتمع الناس على باب قصره، وحضر فخر الدولة، وسائر القواد مُشاةً مغيّري الزيّ، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة، وقبّلوا كلهم الأرض، ومشى فخر الدولة فيها، وجلس العزاء أيامًا، واستوزر بعده أبا علي حموله.

هذه الطبقة الثانية من بني بويه، فلنذكر الطبقة الثالثة:

ذكر أخبار مجد الدولة، وكنف الأمة أبي طالب رستم ابن فخر الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه

لما توفي والده فخر الدولة اجتمع الأجناد على تولية ولده المذكور، ونعتَه القادرُ بالله بهذين النعتين، وكان عمرهُ عند وفاة أبيه أربع سنين، فدبّرت والدته ابنةُ المرزبان المعروف بالسلار الأمر، ثم بلغ مبلغ الرجال، فلم يكن له من اللذات غير التمتع بالنساء، والنظر في الدفاتر، والاشتغال بالعلوم، ثم توفيت أمه، فورد محمود بن سُبُكتكين، فقبض عليه، ثم استولى بعد ذلك ابنه أبو كالنجار على الريّ إلى أن أتته الغزّ في سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فاستولوا على الريّ وتحصن هو بقلعة طبرك، ثم استنزل منها، وأما شمس الدولة أبو طاهر ابن فخر الدولة، فإنه كان على أيام أخيه بهمذان، ثم استولى على الجبل، وتوفي في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وقام بعده ابنه سماء الدولة.

ولنرجع لأخبار عضد الدولة ونجعل التراجم لمن ملك العراق وخدم الخلفاء، ونورد في أخباره وقائع من سواه:

---

(١) هو أبو القاسم الصاحب بن عباد إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني وزير مؤيد الدولة، وفخر الدولة، وصحب أبا الفضل الوزير بن العميد... وصنف في اللغة كتابًا سماه المحيط في سبع مجلدات وكتاب الكافي في الرسائل وكتاب الأعياد وفضائل النيروز وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل عليّ رضي الله عنه ويثبت إمامته على من تقدمه لأنه كان شيعيًا... (شذرات الذهب ٣: ١١٤).

ذكر أخبار صمصام الدولة

وهو أبو كالنجار المرزبان ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه. لما توفي عضدُ الدولة اجتمع القوّاد والأمراء على ولده أبي كالنجار المرزبان، فبايعوه، وولّوه الأمارة، وركب الخليفة الطائع لله، وعزاه، ولقّبه، وقال له: «نضَر الله وجه الماضي، وجعلك الخلفَ الباقي، وصيّر التعزية بعده لك لا بك، والخَلَف عليك لا منك» قال: ولما رجع خلع على أخويه أبي الحسين أحمد، وأبي طاهر فيروز شاه وأقطعهما فارس، وأمرهما بالجد في المسير ليسبقا أخاهما شرف الدولة أبا الفوارس شيرذيل إلى شيراز، وكان عند وفاة أبيه بكرمان، فلما وصلا إلى أرّجان أتاهما الخبر بوصول شرف الدولة إلى شيراز، فعاد إلى الأهواز، وملك شرف الدولة بلاد فارس، وقبض على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه، وقتله لأنه كان يسيء صحبته أيام أبيه، وخطب شرف الدولة لنفسه، وتلقب بتاج الدولة، وقطع خُطبة أخيه صمصام الدولة، وأظهر مشافقته، وفرّق الأموال، وجمع الرجال، وملك البصرة، وأقطعها أخاه أبا الحسين، فلما اتّصل ذلك بصمصام الدولة سيَّر جيشًا، واستعمل عليهم الأمير أبا الحسن علي بن ونقش حاجب عضد الدولة، فجهز تاج الدولة عسكرًا، واستعمل عليهم أبا الأعز دبيس بن عفيف الأسدي، فالتقيا بظاهر «قُرْقُوب»(١)، واقتتلوا، فانهزم عسكر صمصام الدولة، وأسر ابن ونقش مقدم الجيش، فاستولى حينئذ أبو الحسين بن عضد الدولة على الأهواز، ورامهرمز وطمع في الملك، وكانت هذه الواقعة في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين، وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ملك شرف الدولة الأهواز من أخيه أبي الحسين، وملك البصرة من أخيه أبي طاهر، وقبض عليه، فراسله أخوه صمصام الدولة، فاستقر الأمر على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة، وفي خلال مسير الرسل وعودهم ملك شرف الدولة واسط، وغيرها، وكاتبه القواد، فرجع عن الصلح، وعزم على قصد بغداد. والله أعلم.

ذكر ملك شرف الدولة أبي الفوارس شيرذيل ابن عضد الدولة العراق، والقبض على صمصام الدولة

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة سار شرف الدولة من الأهواز إلى واسط، وملكها، فاستشار صمصام الدولة أصحابه في قصد أخيه شرف الدولة، فنهوه عن

---

(١) قرقوب: بالضم ثم السكون، وقاف أخرى، وبعد الواو الساكنة باء موحدة: بلدة متوسطة بين واسط والبصرة والأهواز وكانت تعد من أعمال كسكر... (معجم البلدان).

ذلك، وحذروه منه، فلم يرجع إليهم، وسار في طيار إليه، فلما وصل إليه لقيه شرف الدولة، وأكرمه، وطيّب قلبه، ثم قبض عليه بعد قيامه من عنده، وأرسل إلى بغداد من احتاط على دار المملكة، وسار فوصل إلى بغداد في شهر رمضان، ونزل بالشقيقي، ومعه صمصام الدولة، ثم سيّره إلى بلاد فارس، واعتقله بقلعة هناك، فكانت إمارة صمصام الدولة بالعراق ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا. وكان صمصام الدولة كريم النفس نديَّ الكف إلا أنه كثرت في أيامه الخوارج، وعمّ الغلاء، فاستنفذ ذلك أمواله، ولم يتعدَّ أمرُه العراق.

وزراؤه: أول من وزر له: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ثمانية عشر شهرًا، فاعتقله، ثم اشترك في الوزارة بين أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبي الحسن بن برمويه، وكان قد أخصاه بعد أولاده إلياس بن كرمان، فأقاما شهرين، ويومين بعد أن انفرد عبد العزيز بالوزارة ثلاثة أشهر، واتفقت فتنة، فانهزم عبد العزيز إلى الأهواز، وقتل ابن برمويه، وفيها يقول بشير بن هارون: [من السريع]

وزارةٌ قد أسخنتْ كلّ عينْ ... مقسومة الرتبة في ساقطين(١)
هذا بلا ذقن ولا عارضٍ ... وذا بلا رأي ولا خصيتين(٢)
ومن أعاجيب أحاديثنا ... ما ذكره قد شاع في الخافقين
أنا نرى الخصي بلا لحيةٍ ... والناقص المجبوب ذا لحيتين(٣)

ثم استوزر بعدهما الأستاذ أبا الريان أحمد بن محمد سبعة أشهر، وتسعة أيام، وقبض عليه، وقتله، ثم استوزر أبا عبد الله بن الهيثم، وأبا الفتح محمد بن فارس شركة، فأقاما بقية أيامه إلى أن ملك شرف الدولة، فقبض على أبي الفتح، وصادره، وأعاد ابن الهيثم إلى ديوان النفقات. والله أعلم بالصواب.

ذكر سمل صمصام الدولة

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة سُمل صمصام الدولة، وكان سببُ ذلك أن نِحريرًا الخادم، كان يشيرُ على أخيه شرف الدولة بقتله، وهو يُعرِض عن ذلك، فاتفق أنَّ شرف الدولة اعتلَّ، فقال له نحرير: إن الدّولة مع صمصام الدولة على خطر، وإذا لم تقتله، فاسمُله، فأرسل في ذلك محمدًا الشيرازي الفرّاش، فمات شرف الدولة قبل

(١) أسخنت كلّ عين: أبكتها.
(٢) العارض: جانب الوجه.
(٣) المجبوب: الذي استؤصل ذكرُه.

وصوله إلى صمصام الدولة، فلما وصل الفرّاش إلى القلعة لم يُقدِم على سمله فاستشار أبا القاسم العلاءَ بن الحسن الناظر هناك، فأشار بسمله، فسمله، فكان صمصامُ الدولة يقول: ما أعماني إلا العلاء، فإنه أمضى في حكمُ سلطان قد مات، ثم كان لصمصام الدولة دولة بعد دولة. سنذكرها إن شاء الله تعالى، ولم يمنعه العمى مما قدر له.

ذكر وفاة شرف الدولة وشيء من أخباره

كانت وفاته ببغداد في مستهل جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وقيل في ثانيه، وكانت علته الاستسقاء[١] وحمل إلى مشهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فدفن به، فكانت إمارته ست سنين، وسبعة أشهر ملك فيها بغداد سنتين، وثمانية أشهر، وكان عمره ثمانيًا وعشرين سنة، وخمسة أشهر، ونفذ أمره بين خراسان، والموصل، وديار بكر، والعراق، وخوزستان، وفارس، وكرمان، وسراة عُمان من غير إراقة دم، ولا إنفاق مال، وكان يحبُّ الخير، وينفر من الشر، وأزال عن الناس التأويلات، والمصادرات، وكان كريمًا سخيًا يحب الشعر ويثيبُ عليه، قال أبو إسحاق الصابي: وكانت جماله في سفره ثلاثة عشر ألف رأس، وكان له من المماليك الأتراك ألفان، ومائتا مملوك، وكان له من الخدم ستمائة، ولما اشتدَّت علّته أرسل ولده أبا علي إلى بلاد فارس، وأصحبه الخزائن، والعدد، وجماعة كثيرة من الأتراك. قال: ولما أيس أصحابُ شرف الدولة منه اجتمع عليه أعيانهُم، وسألوه أن يُسنِد الملك إلى من يراه، فقال: أنا في شغل عما تدعونني إليه، ثم مات.

ولده: الأمير أبو علي.

وزراؤه: أبو القاسم العلاء بن الحسن، ثم اعتقله مدة وأطلقه واستنابه ببلاد فارس. واستوزر أبا محمد عليَّ بن العباس، واستوزر بعده أبا منصور محمد بن الحسن بن صالحان إلى أن توفي رحمه الله.

ذكر ملك بهاء الدولة وضياء الملة

هو أبو نصر خسرو فيروز ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه ملك بعد وفاه أخيه شرف الدولة في ثاني جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وكان

(١) الاستسقاء: تجمع سائلي مصلي في التجويف البريتوني، لا يكاد يبرأ منه.

سبب ملكه أنه لما مرض شرفُ الدولة أُشير عليه أن يستنيبه إلى أن يشفى من مرضه، فاستنابه، فقبل النيابة بعد امتناع منه، فلما مات شرفُ الدولة جلس بهاءُ الدولة للعزاء، وركب الطائع إليه، وعزاه، وخلع عليه خلعُ السلطنة، وأقر أبا منصور الحسن بن صالحان على وزارته.

ذكر قيام صمصام الدولة ببلاد فارس

قد ذكرنا ما كان من أمره، والقبض عليه، وسمْله، فلما مات شرف الدولة اضطرب أمر الديلم، ووقع بينهم وبين الأتراك، فأنزلوا صمصام الدولة من قلعة شيراز، وحمله غلامه عادة على كتفه، وبايعه الديلم، وانقادوا لأمره، فعند ذلك بايع الأتراك أبا علي بن شرف الدولة، ولقبوه شمس الدولة، وقمر الملة.

ذكر مسير أبي علي بن شرف الدولة إلى بلاد فارس، وما كان بينه وبين عمه صمصام الدولة، وعودة إلى بهاء الدولة، وقتله

قد ذكرنا أن شرف الدولة لما اشتدت علته جهز ابنه أبا علي إلى فارس، ومعه والدته، وجواريه، وسيَّر معه الأموال، والجواهر، والسلاح، فلما بلغ البصرة أتاه الخبر بوفاة أبيه، فسيَّر ما معه في البحر إلى أرَّجان، وسار مجدًا حتى وصل إليها، واجتمع معه من بها من الأتراك، وسار مجدًّا نحو شيراز، وكاتبهم متولِّيها، وهو أبو القاسم العلاء بن الحسن بالوصول إليها ليسلمها إليهم، وكان صمصام الدولة، ومن معه قد ساروا إلى سيراف[1]، ووقعت الفتنة بها بين الأتراك، والديلم، فخرج الأمير أبو علي إلى معسكر الأتراك ونزل معهم، فاجتمع الديلم، وقصدوا داره ليأخذوه، ويسلموه إلى صمصام الدولة، فرأوه قد انتقل إلى الأتراك، فكشفوا القناع، وجرى بينهم قتال، ثم سار أبو علي والأتراك إلى فسا[2]، فاستولوا عليها وأخذوا ما بها من الأموال، وقتلوا من بها من الديلم، وسار أبو علي إلى أرّجان، وعاد الأتراك إلى شيراز، فقاتلوا من بها من الديلم الذين مع صمصام الدولة، ونهبوا البلد، وعادوا إلى

(١) سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديمًا فرض الهند، وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام. . . (معجم البلدان).

(٢) فسا: مدينة بفارس. . . بينها وبين شيراز أربع مراحل.

أبي علي بأرَّجان وأقاموا معه مديدة، ثُم وصل رسول من بهاء الدولة إلى أبي علي، وطيّب قلبه، وأرسل إلى الأتراك الذين معه سرًا واستمالهم إلى نفسه وأطمعهم، فحسنوا لأبي علي المسير إلى بهاء الدولة، فسار إليه، فلقيه بواسط في منتصف جُمادى الآخرة سنة ثمانين وثلاثمائة، فأكرمه، ثم قبض عليه بعد ذلك وقتله، وتجهز بهاء الدولة للمسير إلى الأهواز لقصد بلاد فارس.

ذكر مسير بهاء الدولة إلى الأهواز، والصلح بينه وبين صمصام الدولة

قال: وسار بهاءُ الدولة إلى خُوزستان، فأتاه نعي أخيه أبي طاهر، وكان مع صمصام الدولة، فجلس للعزاء، ورحل إلى أرَّجان، واستولى عليها، وأخذ ما فيها من الأموال التي جمعها صمصام الدولة بقلعتها، وكانت ألفَ ألفِ دينار قاشانية، وثمانية آلاف ألف درهم عدلية، ومن الجواهر، والثياب ما لا يحصى قيمته، ففرّق ذلك على الجند، ولم يبقَ منه إلا القليل، ثم سارت مقدمته، وعليها العلاء بن الفضل إلى النُوبَنْدَجَان، وبها عسكر صمصام الدولة، فهزمهم وبثّ أصحابه في نواحي فارس، فسيَّر صمصام الدولة عسكرًا، وعليهم فولاذ ابن مابدار، فواقعهم، فانهزم أصحاب بهاء الدولة، وعادوا إليه، ثم ترددت الرسائل بين صمصام الدولة، وبهاء الدولة في الصلح، فاستقر على أن يكون لصمصام الدولة فارس، وأرّجان، ولأخيه بهاء الدولة خوزستان، والعراق، وأن يكون لكل واحد منهما إقطاع في ملك الآخر، وحَلَفَا على ذلك، وعاد بهاءَ الدولة إلى الأهواز، ثم إلى بغداد، وفي سنة ثمانين وثلاثمائة أيضًا قبض بهاء الدولة على وزيره أبي منصور بن صالحان، واستوزر أبا نصر سابور بن أرْدشير، وكان المدبّر لدولة بهاء الدولة أبا الحسن بن المعلم، وأبيه الحكم، وفي سنة إحدى وثمانين قبض بهاءُ الدولة على الخليفة الطائع لله، وبايع القادر بالله كما ذكرناه في أخبار الدولة العبّاسية، وفيها قبض على وزيره أبي نصر سابور، واستَوْزَر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف وقبض على أبي نصر خواشاذه، وأبي عبد الله بن طاهر، وفي سنة اثنتين وثمانين قبض بهاءُ الدولة على أبي الحسن بن المعلم(١)، وكان قد استولى على الأمور كلها، وخدمه الناس كلُّهم حتى الوزراء، فأساء السيرة، فشغب الجند، وشكوا منه، وطلبوا تسليمه إليهم، فراجعهم بهاء الدولة،

(١) هو أبو الحسن بن المعلم الكوكبي.

ووعدهم أنه يكف يده، فلم يقبلوا ذلك، فقبض عليه، وعلى جميع أصحابه، فلم يرجع الجند، فسلَّمه إليهم، فسقوه السمَّ مرتين، فلم يؤذه، فخنقوه، ودفنوه، وقبض على وزيره أبي القاسم لأنه اتهم بمباطنة الجند في أمر ابن المعلم، واستوزر أبا نصر سابور، وأبا منصور بن صالح جميعًا، وفي سنة ثلاث وثمانين شغب الجند على بهاء الدولة، ونهبوا دار الوزير سابور، واختفى منهم، واستعفى ابن صالحان من الانفراد بالوزارة، فأعفي، واستوزر أبا القاسم علي بن أحمد، ثم هرب إلى البطيحة، وعاد سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم.

ذكر ظهور أولاد بختيار، واعتقالهم، وقتل بعضهم

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة ظهر أولاد عز الدولة بختيار بن معز الدولة من محبسهم، واستولوا على القلعة التي كانوا معتقلين بها، وكان سبب اعتقالهم أن شرف الدولة كان أحسن إليهم بعد وفاة والده عضُد الدولة، وأطلقهم، وأنزلهم بشيراز، وأقطعهم، فلما مات شرف الدولة حبسوا في قلعة ببلاد فارس، فاستمالوا مستحفظها، ومن معه من الديلم، فأفرجوا عنهم، فأنفذوا إلى أهل تلك النواحي، فاجتمعوا تحت القلعة، فبلغ ذلك صمصام الدولة، فسيّر إلى القلعة جيشًا، فتفرق ذلك الجمع، وحصر جيشه القلعة، وراسل مقدم الجيش وجوه الدَّيلم سرًّا، واستمالهم، ففتحوا القلعة، فملكها أصحابُ صمصام الدولة، وأخذوا أولاد بختيار، وكانوا ستة، فأمر صمصام الدولة بقتل اثنين، وحبس أربعة.

ذكر مقتل صمصام الدولة

كان مقتلهُ في ذي الحجة سنةَ ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة، وسبب ذلك أن جماعة كثيرةً من الدَّيلم استوحشوا منه لأنه أمر بعرضهم، وإسقاط من ليس بصحيح النسب، فأسقط منهم ألف رجل، واتفق أن أبا القاسم، وأبا نصر ابني عز الدولة بختيار ابن معز الدولة خَدعا الموكَّلين بالقلعة، فأفرجوا عنهما، فجمعا لفيفًا من الأكراد، واتّصل بهما الذين أسقطوا من الخدمة من رجال الديلم، وقصدوا أرَّجّان، فاجتمعت عليها العساكر، فتجهز صمصام الدولة ولم يكن عنده من يدبره، فأشار عليه أصحابه بالصّعود إلى القلعة التي على باب شيراز، والامتناع بها، فأراد الصّعود إليها، فمنعه مستحفظها، فأشار بعض أصحابه عليه بقصد الأكراد، والتقوا بهم، فخرج بخزائنه، وأمواله، فنهبه أصحابه، وأرادوا قتله، فهرب وسار إلى «الدودمان» على مرحلتين من شيراز، فقبض عليه رئيسها طاهر، وبلغ أبو نصر الخبر، فبادر إلى شيراز، ودخلها

وأخذ صمصام الدولة ابنُ طاهر، فقتله، وقال: هذه سنة سنها أبوك يعني ما كان من قتل عضد الدولة بختيار، وكان عمر صمصام الدولة يوم قتل خمسًا وثلاثين سنة، وسبعة أشهر، ومدة إمارتَه بفارس تسع سنين، وثمانية أشهر، وكان كريمًا حليمًا، وسلمت والدته لبعض قواد الديلم، فقتلها، وبنى عليها دكَّة في داره، فلما ملك بهاء الدولة فارس أخرجها، ودفنها في تُربة بني بويه.

وزراؤه في مملكته الثانية: العلاء بن الحسن، ثم قبض عليه، واستوزر أبا القاسم المعمر بن الحسين الزنجي نحوًا من سنة، ثم قبض عليه، واعتقله، وأعاد العلاء، ثم بعثه إلى الأهواز، فمات، فاستوزره أبا الطيّب الفرحان بن شيراز، وأنفذه إلى الأهواز، فأقام إلى أن قتل صمصام الدولة.

ذكر ملك بهاء الدولة فارس وخوذستان وكرمان

قال: ولما قتل صمصام الدولة، استولى ابنا بختيار على بلاد فارس وكاتبا أبا علي ابن أُستاذ هرمز وهو بالأهواز يأمرانه بأخذ البيعة لهما، واليمين، فخافهما أبو علي، ثم راسله بهاء الدولة يستميله، ويعدُ الدَّيلم الخير والإحسان، فأجابوه إلى الدخول في طاعته، وأنفذوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، واستوثقوا منه، وكتبوا إلى أصحابهم المقيمين بالسوس بصورة الحال رجاءَ أن يخرجوا إلى طاعته، فخرجوا بالسلاح، وقاتلوه قتالاً شديدًا، فضاق بذلك ذرعًا، فقيل له: إن عادةَ الدَّيلم أن يشتد قتالهم عند الصلح لئلا يظن بهم العجز، ثم كفوا عن القتال، وأرسلوا من يحلفه لهم، ونزلوا إلى خدمته، واختلط العسكران، وساروا إلى الأهواز، فقرر أبو علي بن إسماعيل أُمورها، وقسم الإقطاعات بين الأتراك والديلم، ثم ساروا إلى رامهرمز، فاستولوا عليها، وعلى أرّجان، وغيرها من بلاد خوزستان، وسار أبو علي إلى شيراز، فنزل بظاهرها، فحاربه ابنا بختيار، فلمَّا اشتدت الحرب مال بعض أصحابهما إليه، ودخل بعض أصحابه البلد، ونادوا بشعار بهاء الدولة فهرب ابنا بختيار، فأما أبو نصر فإنه لحِق ببلاد الدَّيلم، وأما أبو القاسم، فلحق ببدر بن حسنويه الكُرديّ(١)، ثم قصد البطيحة، ولما ملك أبو علي بشيراز كتب إلى بهاء الدولة بالفتح

---

(١) هو من أمراء الجبل لقبه القادر ناصر الدولة وعقد له لواء وكان يبر العلماء والزهّاد والأيتام.. ويصرف على الأساكفة والحذائين بين همذان وبغداد ليقيموا للمنقطعين من الحاج الأحذية ثلاثة آلاف دينار ويصرف إلى أكفان الموتى كل شهر عشرين ألف درهم... (شذرات الذهب ٣: ١٧٣).

فسار إليها، وأمر بنهب قرية الدودمان، وإحراقها، وقتل من كان بها من أهلها، وأخرج أخاه صمصام الدولة، وجدّد أكفانه ودفنه، ثم سَيَّر عسكرًا مع أبي الفتح أُستاذ هرمز إلى كرمان، ففتحها، وأقام نائبًا عن بهاء الدولة، وذلك في سنة تسع وثمانين.

ذكر وفاة عميد الجيوش، وولاية فخر الملك العراق

وفي سنة إحدى وأربعمائة توفي عميد الجيوش أبو علي أستاذ هرمز ببغداد، وكانت ولايته بها ثماني سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يومًا، وكان من حجاب عضد الدولة وجعله في خدمة ابن صمصام الدولة، فلما قُتل اتصل بخدمة بهاء الدولة، فجعله نائبه ببغداد، ولما مات استعمل بهاء الدولة مكانه فخر الملك أبا غالب، فوصل إلى بغداد في ذي الحجة من ذي السنة.

ذكر وفاة بهاء الدولة

كانت وفاته بأرَّجان في عاشر جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، وكان مرضه تتابع الصرع مثل مرض أبيه، وحمل إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ودفن عند قبر أبيه عضد الدولة، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وتسعة أشهر ونصف شهر، ومدة ملكه أربعًا وعشرين سنة، وأيامًا.

أولاده: سلطان الدولة أبو شجاع فنَّاخسروا، مشرق الدولة أبو علي، جلال الدولة أبو طاهر، قوام الدولة أبو الفوارس.

وزراؤه: أبو منصور بن صالحان أحد وزراء أخيه شرف الدولة، وزر له عشرة أشهر وأيامًا، ثم أبو نصر سابور بن أرْدشير أحد عشر شهر، ثم قبض عليه في سنة ثمانين، واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبا القاسم علي بن أحمد الأبرهوني، ثم قبضه، وأعاد سابور، ثم أشرك بينه وبين ابن صالحان، ثم استوزر أبا العباس عيسى ستة عشر يومًا. واستوزر الموفق عبد الملك أبا علي الحسن بن محمد بن إسماعيل سنتين وشهرين، وقلد بعده عميد الجيوش الصاحب، واستوزر بعده فخر الملك وزير الوزراء الكامل ذا الجلالين أبا الغالب محمد بن خلف، وهو أعظم من وزر للديلم على الإطلاق، بعد أبي الفضل بن العميد، وابن عباد.

ذكر ملك سلطان الدولة

هو أبو شجاع فناخسرو بن بهاء الدولة ابن عضد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه. كانت ولايته بعد وفاة أبيه، في عاشر جُمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة، ولما

ولي سار من أرّجان إلى شيراز، وولّى أخاه جلال الدولة البصرة، وأخاه أبا الفوارس كرمان، وكان القادر بالله قد ولاه العهد بسؤال أبيه، فلما مات والده قام مقامه، ودخل بغداد، وأعطى كلَّ غلام من أشرافها سبعين ديناراً ودست ثياب، فأكثروا عليه بالمطالبات، فضجر، وفارق بغداد، وتوجَّه إلى الأهواز.

ذكر قتل فخر الملك، ووزارة ابن سهلان

وفي سنة ست وأربعمائة قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب، وقتله في سلخ شهر ربيع الأول، فكانت نيابته بالعراق خمس سنين وأربعة أشهر واثني عشر يومًا، وكان حسن الولاية والآثار، ووجد له ألف ألف دينار عينًا، سوى ما نهب، وقيمة العروض، وكان القبض عليه بالأهواز.

حكى ابن علمكان، وكان من أكابر القواد قال: قتل إنسان ببغداد، فكانت زوجته تكتب إلى فخر الملك تتظلم وتتشكّى، وهو لا يلتفت إليها، فلقيته يومًا فقالت له: تلك الرقاع التي كنت أكتبها إليك صرت أكتبها إلى الله تعالى، فلم يمضِ على ذلك غير قليل حتى قبض هو وابن علمكان، فقال له فخر الملك: قد برز جواب رقاع تلك المرأة، ولما قبض على فخر الملك استوزر سلطان الدولة أبا محمد الحسن بن سهلان، ولقب عميد أصحاب الجيوش، وفي ثمان وأربعمائة ضعف أمر الديلم ببغداد، وطمع فيهم العامة، فانحدروا إلى واسط، فخرج عليهم عامّتها وأتراكها فقاتلوهم، فدفَع الديلم عن أنفسهم، وقتلوا من أتراك واسط، وعامّتها جماعة كثيرة، وعظم أمر العيَّارين ببغداد فأفسدوا، ونهبوا.

ذكر ولاية ابن سهلان العراق

وفي سنة تسع وأربعمائة استعمل سلطان الدولة أبا محمد الحسن بن سهلان على العراق في المحرم، فسار، وأوقع في طريقه بالعرب، ولما وصل واسط وجد الفتن بها قائمة، فأصلحها، وقتل جماعة من أهلها، وورد عليه الخبر باشتداد الفتَن ببغداد، فسار إليها، فدخلها في أواخر شهر ربيع الآخر، فهرب منه العيّارون ونفى جماعة من العبّاسيين وغيرهم، ونفى أبا عبد الله محمد بن[1] النعمان فقيه الشيعة،

(١) هو قاضي القضاة لصاحب مصر أبو عبد الله محمد بن النعمان بن محمد بن منصور الشيعي في الظاهر الباطني في الباطن ولد قاضي القوم وأخو قاضيهم... وقد ارتفعت رتبته حتى أن العزيز أجلس معه يوم الأضحى على المنبر وزادت عظمته في دولة الحاكم ثم تعلل وتنقرس ومات سنة ٣٨٩هـ... (شذرات الذهب ٣: ١٣٢).

وأنزل الديلم أطراف الكرخ وباب البصرة، ولم تكن له عادة بالنزول هناك، ففعلوا من الفساد ما لم يشاهد مثله، فمن ذلك أن رجلاً من المستورين أغلق بابه عليه خوفًا منهم، وانقطع بداره، فلما كان في أول يوم من شهور رمضان خرج لبعض شأنه وقد اطمأن لتعظيم الشهر، وكفِّ الناس فيه عن الفساد، فرآهم على حال عظيم من الفساد وشرب الخمور، فأراد الرجوع إلى داره، فمنعوه وأكرهوه على الدخول معهم إلى دار من دورهم، وألزموه بشرب الخمر، فامتنع، فصبوها في فيه قهرًا، وقالوا له: قم إلى هذه المرأة فافعل بها، فامتنع فألزموه، فدخل معها إلى بيت في الدار، وأعطاها دراهم، وقال لها: هذا أول يوم من شهر رمضان، والمعصية فيه تتضاعف، وأحبُّ أن تخبريهم أني فعلت، فقالت: لا، ولا كرامة، ولا عزازة، أنت تصون دينك عن الزنا في هذا الشهر، وأنا أريد أن أصون أمانتي ولساني عن الكذب فيه، فصارت هذه الحكاية سائرة في بغداد، ثم إن أبا محمد بن سهلان أفسد قلوب الأتراك والعامة، فانحدروا إلى واسط، فلقوا بها سلطان الدولة، فشكوه إليه فسكَّنهم، ووعدهم أن يتوجه إلى بغداد ويصلح الحال، وكتب إلى ابن سهلان يستقدمه، فخافه، فهرب إلى بني حقاجة، ثم إلى الموصل، ثم إلى الأنبار[1] ثم سار إلى البطيحة.

ذكر ملك مشرف الدولة أبي علي ابن بهاء الدولة ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه العراق

كان استيلاء مشرف الدولة على العراق في سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان سبب ذلك أن الجند شغَبوا على سلطان الدولة، ومنعوه من الحركة، وأرادوا ترتيب مشرف الدولة أخيه في الملك، فأُشير على سلطان الدولة بالقبض عليه، فلم يمكنه من ذلك، وأراد سلطان الدولة الانحدار إلى واسط، فقال له الجند: إما أن تجعل عندنا ولدك، أو أخاك مشرف الدولة. فراسل أخاه مشرف الدولة بذلك، فامتنع، ثم أجابه بعد معاودة، ثم اتفقا، واجتمعا ببغداد، واستقر بينهما أنهما لا يستخدمان ابن سهلان، وفارق سلطان الدولة بغداد، وقصد الأهواز، واستخلف أخاه مشرف الدولة بها، فلما انحدر سلطان الدولة ووصل تُسْتَر استوزر ابن سهلان، فاستوحش مشرف الدولة، فأنفذ سلطان الدولة ابن سهلان ليخرج أخاه مشرف الدولة من العراق، فجمع مشرف الدولة عسكرًا كثيرًا، منهم أتراكُ واسط، وأبو الأعز دبيس بن علي بن مزيد، ولقي ابنَ سهلان عند واسط، فانهزم ابنُ سهلان، وتحصَّن بواسط، فحصره مشرف الدولة وضيَّق عليه،

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب سلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها. . . (معجم البلدان).

حتى بيع كُرّ الحنطة بألف دينار قاشانية، وأكل الناس حتى الكلاب، فاستخلف ابن سهلان مشرف الدولة، وسلم إليه البلد، وخرج إليه، فخوطب حينئذ مشرفُ الدولة. وذلك في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وحضر إليه الديلم الذين كانوا بواسط، وصاروا معه، فحلف لهم وأقطعهم، فلما اتصل الخبر بسلطان الدولة سار عن الأهواز إلى أرجان، وقطعت خطبته من العراق، وخطب لمشرف الدولة ببغداد، في أول المحرم سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، وقبض على الوزير ابن سهلان، وكحله؛ فلما سمع سلطان الدولة بذلك ضعفت نفسه، وسار إلى الأهواز في أربعمائة فارس، فقلت عليهم الميرة؛ فنهبوا السواد في طريقهم، فاجتمع الأتراك الذين بالأهواز، وقاتلوا أصحاب سلطان الدولة، ونادوا بشعار مشرف الدولة.

قال: ولما خطب لمشرف الدولة طلبوا منه أن ينحدروا إلى بيوتهم بخوزستان، فأذن لهم، وأمر وزيره أبا غالب بالانحدار معهم، فقال له: إن فعلت خاطرتُ بنفسي، ولكن أبذلها في خدمتك، ثم انحدر بالعسكر، فلما وصل إلى الأهواز نادى الديلم بشعار سلطان الدولة، وهجموا على أبي غالب، فقتلوه، فسار الأتراك الذين كانوا معه إلى طراد بن دُبيس، ولما بلغ سلطان الدولة قتله اطمأن، وقويت نفسه، وأنفذ ابنه إلى الأهواز، فملكها.

ذكر الصلح بين سلطان الدولة وأخيه مشرف الدولة

وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة حصل الاتفاق والصلح بينهما، على أن يكون العراق جميعه لمشرف الدولة، وفارس وكرمان لسلطان الدولة، وحلف كل منهما لصاحبه.

ذكر الخلف بين مشرف الدولة والأتراك وعزل الوزير ابن المغربي

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة تأكدت الوحشة بين الأثير عنبر الخادم، ومعه الوزير ابن المغربي[1] وبين الأتراك؛ فاستأذن الأثير والوزير مشرف الدولة في الانتزاح

(١) هو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون بن بلاش بن جاماس بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور المعروف بالوزير المغربي.. وهو صاحب الديوان: الشعر والنثر، وله «مختصر إصلاح المنطق» وكتاب «الإيناس» وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة ويدل على كثرة اطلاعه... (وفيات الأعيان ٢: ١٧٢).

إلى بلد يأمنان فيه على أنفسهما، فقال: وأنا والله أسير معكما؛ فساروا جميعًا، ومعهم جماعة من مقدّمي الديلم إلى السَندية[١]، وبها قرواش، ثم ساروا إلى أوانًا، فعظم ذلك على الأتراك، فراسلوه، واعتذروا، فكتب إليهم الوزير يقول: إنني تأملت مالكم من الجامكيات. فإذا هي ستمائة ألف دينار، وعلمت دخل بغداد، فإذا هو أربعمائة ألف دينار، فإن أسقطتم مائة ألف تحملت الباقي، فقالوا: نحن نسقطها، فاستشعر منهم الوزير، فهرب إلى قرواش، فكانت وزارته عشرة أشهر وخمسة أيام، فلما أبعد خرج الأتراك، وسألوا مشرف الدولة، والأثير في الانحدار معهم، فأجابهم إلى ذلك.

ذكر وفاة سلطان الدولة

كانت وفاته بشيراز في شوال سنة خمسة عشرة وأربعمائة، وكان عمره اثنين وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وخمسة أيام، ومملكة بالحضرة، وإمارته ببلاد فارس، وخوزستان، وكرمان ثنتي عشرة سنة، وأربعة أشهر وثلاثة أيام.

وزراؤه: فخر الملك أبو غالب بن خلف إلى أن قتله بالأهواز، واستوزر أبا محمد الحسن بن الفضل بن سهلان، واستوزر ذا السعادتين أبا غالب الحسنَ بن منصور، ثم استوزر أبا الفتح عبد الحكيم بن إبراهيم بن الخصيب وقبض عليه واستوزر أبا محمد الحسن بن محمد بن بابشاد من أهل رامهرمز. ولما مات، ولّى بعده ابنه أبو كاليجار المرزيان، على ما نذكره، بعد عمه.

ذكر وفاة مشرف الدولة

كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة، وعمره ثلاث وعشرون سنة وثلاثة أشهر، وملكه خمس سنين، وخمسة وعشرون يومًا، وكان ملكًا عادلاً، كثير الخير، قليل الشر، حسن السيرة.

وزراؤه: ذو السعادتين أبو غالب الحسن بن منصور، ثم عزله، واستوزر مؤيد الملك زعيم الكفاة مجد المعالي أبا علي الحسن في سنة خمس عشرة وأربعمائة، ثم استوزر أبا قاسم بن المغربي.

(١) السندية: من قرى بغداد على نهر عيسى.

ذكر سلطنة جلال الدولة

هو أبو طاهر فيروز خسرو ابن بهاء الدولة خسرو فيروز ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه. ملك بعد وفاة أخيه مشرف الدولة، في شهر ربيع الأول سنة ستة عشر وأربعمائة، وكان عند وفاته بالبصرة، وكان أبوه قد رتبه بها في حياته، فلما مات مشرفُ الدولة خُطِب له ببغداد، وطُلب فلم يصعد إليها، وإنما بلغ واسط، وأقام بها، ثم عاد إلى البصرة، فقطعت خُطبته، وخُطِب لابن أخيه أبي كاليجار ابن سلطان الدولة في شوال، وهو حينئذ صاحب خوزستان، فلما اتَّصل ذلك بجلال الدولة أصعد إلى بغداد، فانحدر عسكرها ليرده عنها، وقاتلوه ونهبوا بعض خزائنه، فعاد إلى البصرة، وأرسلوا إلى الملك أبي كاليجار ليحضُر إلى بغداد، فوعدهم بذلك، ولم يمكنه. لأن الحرب كانت بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان، وانقطعت خطبة جلال الدولة إلى سنة ثمان عشرة وأربعمائة، ثم عاد إلى السلطنة، وكان سبب ذلك أن الأتراك كانوا قد طمعوا في الناس ببغداد، وصادروهم، وأخذوا أموالهم، وعظم الخطب، وزاد الشر، وأحرقت المنازل، والدروب، والأسواق، وطمع العيّارون، والعامة، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره، ووقعت الحربُ بين العامّة والجند، فظفر الجندُ بهم، ونهبوا الكرخ وغيره، وذلك في سنة سبع عشرة، فلما رأى القوّاد وعقلاء الجند أن الملك أبا كاليجار لا يصلُ إليهم، وأن البلاد قد خربت، وطمع فيهم المجاورون لهم من الأعراب والأكراد، وقصدوا دار الخلافة، وراسلوا الخليفة القادر بالله، واعتذروا من انفرادهم بالخطبة لجلال الدولة أوّلاً، وردِّهم له ثانيًا، وبالخطبة لأبي كاليجار، وقالوا: إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ونحن العبيد، وقد أخطأنا، ونسأل العفو، ولا يدُلّنا ممّن يجمع كلمتنا، وسألوا أن يرسل الخليفة إلى جلال الدولة ليصعد إلى بغداد، ويملكه ويجمع الكلمة، وأن يحلفه رسول الخليفة، فأجابهم الخليفة إلى ما سألوا، وراسله هو وقواد الجند في الإصعاد، واليمين للخليفة، ولهم، فحلف لهم، وأصعد إلى بغداد، وانحدر الأتراك إليه، فلقوه في الطريق، ووصل بغداد في ثالث شهر رمضان سنة ثماني عشرة وأربعمائة، ونزل بالنجمي، فركب الخليفة في الطيّار، وانحدر لتلقيه، فلما رآه جلال الدولة، قبّل الأرض بين يديه، ثم دخل جلال الدولة إلى دار المملكة، وأمر بضرب النُّوب الخمس على بابه في أوقات الصلوات، فراسله الخليفة في قطعها، فقطعها غضبًا، ثم أذن له الخليفة في إعادتها ففعل.

ذكر شغب الأتراك ببغداد على جلال الدولة

وفي سنة تسع عشرة وأربعمائة ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة، وطالبوا الوزير أبا علي بن ماكولا بما لهم من المعلوم، ونهبوا داره ودُور كُتّاب جلال الدولة، وحواشيه، حتى المغنِّين، والمخنثين، ونهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة، ليضربها دنانير ودراهم، ويغرقها فيهم، وحصروا جلال الدولة في داره، ومنعوه الطعام والماء حتى شرب أهله ماء البئر، وأكلوا ثمرة البستان، فسألهم أن يمكنوه من الانحدار، فتأخروا له ولأهله، فجعل بين الدار وبين السفن سُرادقًا لتجتاز حُرمه فيه، لئلا يراهم العامة والأجناد، فقصد بعض الأتراك السرادق، فظن جلال الدولة أنهم يريدون الحريم، فصاح بهم، وقال: بلغ من أمركم إلى الحريم؟ وتقدم إليهم وبيده طبر[1]، فصاح صغار الغلمان، والعامة: جلال الدولة يا منصور؛ ونزل أحدهم عن فرسه، وأركبه إياه، وقبّلوا الأرض بين يديه، فرجعوا إلى منازلهم، ولم تمضِ عشرة أيام حتى عادوا، وشَغَبوا؛ فباع جلال الدولة فرشه، وثيابه، وخيامه، وفرق أثمان ذلك فيهم، فسكنوا، وضعف حال جلال الدولة، وقلّت الأموال عنده، وطمع القوّاد فيه، حتى انتهى حاله في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة في شهر رجب أن أخرج دوابه من الإصطبل، وهي خمس عشرة دابة وسيّبها في الميدان، بغير سايس، ولا حافظ، ولا علف، فقيل: إنه فعل ذلك لأمرين: أحدهما: عدم العلف عنده، والثاني: أن الأتراك كانوا يلتمسون دوابه يطلبونها منه، فضجر من ذلك، فأخرجها، وقال: هذه دوابي، خمسة لمركوبي، والباقي لأصحابي، وفرق حواشيه، وفراشيه، وأتباعه، وأغلق باب داره لانقطاع جارية فثارت فتنة لذلك بين العامة والجند، وعظم الأمر، وظهر العيّارون ببغداد.

ذكر وثوب الجند به وإخراجه من بغداد وعوده إليها

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة في شهر ربيع الأول، تجددت الفتنة بين جلال الدولة وبين الأتراك، فأغلق بابه، فجاء الأتراك ونهبوا داره، وسلبوا الكتاب، وأرباب الديوان ثيابهم، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهيلي، فهرب، وخرج جلال الدولة إلى عكبْرا، في شهر ربيع الآخر، وخطب الأتراك ببغداد للملك أبي كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز، فمنعه العادل بن ماقية من الإصعاد إلى

(١) الطبر: الفأس.

أن يحضر بعض قوادهم، فلما رأوا امتناعه من الوصول إليهم، أعادوا خطبةَ جلال الدولة، وساروا إليه، وسألوه العود إلى بغداد، فعاد بعد ثلاثة وأربعين يومًا.

واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، ثم عزله، واستوزر بعده عميد الملك أبا سعيد عبد الرحيم، فوزر أيامًا ثم استتر، وسبب ذلك أن جلال الدولة تقدم إليه بالقبض على أبي المعمّر إبراهيم بن الحسين البسامي طمعًا في ما له عليه، وجعله في داره فقبض فثار الأتراك، وقصدوا دار الوزير، وضربوه، وأخرجوه من داره حافيًا، ومزقوا ثيابه وعمامته، وأخذوا خواتيمه فدميت إصبعه، وكان جلال الدولة في الحمام، فخرج فزعًا لينتظر ما الخبر، فوجد الوزير فقبّل الأرض، وذكر ما فعل به، فقال له جلال الدولة أنا ابن بهاء الدولة، وقد فعل فِيَّ أكثر من هذا، ثم أخذ من البسامي ألف دينار، وأطلقه، واختفى الوزير. وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة في شهر رمضان شغَب الجند على جلال الدولة، وقبضوا عليه، وأخرجوه من داره، ثم سألوه ليعود إليها فعاد، وسبب ذلك أنه استقدم الوزير أبا القاسم من غير أن يعلموا، فاستوحشوا من ذلك، واجتمعوا وهجموا عليه في داره، وأخرجوه إلى مسجد هناك، فوكلوا به فيه، وأسمعوه ما يكره، ونهبوا بعض ما في داره، فجاء بعض القواد في جماعة من الجند، وأعاده إلى داره، فنقل جلال الدولة حرمه، وما فضل في داره بعد النهب، إلاّ الجانب الغربي، ونزل بدار المرتضى، وعبر الوزير معه، ثم راسله الجند، وقالوا نريد أن تنحدر عنا إلى واسط، وأنت ملكنا، وتترك عندنا بعض أولادك الأصاغر، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل سرًا إلى الغلمان الأصاغر، واستمالهم، وإلى كل واحد من الأكابر واستماله، وقال: إنما وثوقي بك وسكوتي إليك، فمالوا إليه ودخلوا عليه، وقبّلوا الأرض بين يديه، وسألوه العود إلى داره، فعاد وحلف لهم على الإخلاص، والإحسان إليهم، وحلفوا له على المناصحة.

وفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة عاد الجند إلى الشغب وثاروا به وأرادوا إخراجه من بغداد، فاستمهلهم ثلاثة أيام، فلم يمهلوه، ورموه بالآجر، فأصابه بعضه، فاجتمع الغلمان، وردّهم عنه، فخرج من باب لطيف، وركب في سُماريَّة متنكِّرًا، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ، ثم سار إلى رافع بن الحسين بتكريت، وكسّر الأتراك باب داره، ودخلوها، ونهبوها، وخلعوا كثيرًا من ساجها وأبوابها، فأرسل الخليفة إليهم، وسكنهم، وأعاده إلى بغداد. والله أعلم.

ذكر الفتنة بين جلال الدولة، وبارسطغان، وقتل بارسطغان

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة كانت الفتنة بينهما، وكان بارسطغان من أكابر الأمراء، ويلقب حاجب الحجاب، وكان سبب الفتنة: أن جلال الدولة نسبه إلى فساد الأتراك، والأتراك نسبوه إلى أخذ الأموال؛ فخاف على نفسه، فالتجأ إلى دار الخلافة، وذلك في شهر رجب سنة سبع وعشرين، فمنع الخليفة منه، وأرسل بارسطغان إلى الملك أبي كاليجار يحثه على طلب ملك العراق، فأرسل أبو كاليجار جيشًا فوصلوا إلى واسط وأخرجوا منها الملك العزيز بن جلال الدولة، فأصعد إلى أبيه، فعند ذلك كشف بارسطغان القناع، وانضمّ إليه أصاغر المماليك، ونادوا بشعار أبي كاليجار، وأخرجوا جلال الدولة من بغداد، فسار إلى أوانا[(١)] ومعه البساسيري[(٢)]، وأرسل بارسطغان إلى الخليفة في الخطبة لأبي كاليجار، فامتنع واحتج بعهود جلال الدولة، فأكره الخطباء على الخطبة لأبي كاليجار، ففعلوا، وسار الأجنادُ الواسطيّون إلى باب بارسطغان، وكانوا معه، ثم عاد جلال الدولة إلى الجانب الغربي ببغداد، ومعه قرواش بن المقلَّد العقَيلي ودبيس بن علي بن مزيد الأسدي، وخطب له بالجانب الغربي، ولأبي كاليجار بالجانب الشرقي، ثم سار جلال الدولة إلى الأنبار، وسار قرواشُ إلى الموصل، ووصل الخبر إلى بارسطغان بعوْد أبي كاليجار إلى فارس، ففارقه الدَّيلم الذين كانوا نَجدةً له، فضعف أمره، فرفع ماله وحرمه إلى دار الخلافة، وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد، وأرسل البساسيري والمرشد وبني خفاجة في إثر بارسطغان، ومعهم جلال الدولة ودبيس، فلحقوه بالخيزرانية، فقاتلوه، فسقط عن فرسه، فأسر وجيء به إلى جلال الدولة، فقتله، وكان عمره نحوًا من سبعين سنة، فضعف أمر الأتراك، وطمع فيهم الأعراب، واستولوا على إقطاعهم.

ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وقع الصّلح بين جلال الدولة، وأبي كاليجار، والاتفاق، وزال الخلف بعد أن كان بين عساكرهما حرب قبل ذلك، فاتفقا الآن،

(١) أوانا: بليدة نزهة من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت.

(٢) هو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري الذكي مقدم الأتراك ببغداد، والبساسيري نسبة إلى بلدة فارس يقال لها بسا. . . (وفيات الأعيان ١:١٩٢).

وكان الرسل في الصلح أقضى القضاة أبا الحسن الماوردي[١]، وأبا عبد الله المردوستي، وغيرهما، وتزوَّج أبو منصور بن علي أبي كاليجار بابنة جلال الدولة، وكان الصداق خمسين ألف دينار قاشانية. والله أعلم.

ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة سأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر الله أن يُخاطَب بملك الملوك، فامتنع، ثم أجاب إذا أفتى الفقهاء بجوازه، فأفتى قاضي القضاة أبو الطيب الطبري[٢]، والقاضي أبو عبد الله الصيمري، والقاضي ابن البيضاوي، بجواز ذلك، ومنع منه أقضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات، فخُطب لجلال الدولة بملِك لملوك، وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وهو يتردَّد إلى دار الملك في كل يوم، فلما أفتى بالمنع انقطع، ولزم بيتَه من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر، استدعاه جلال الدولة، فحضر خائِفًا، فأُدخِل عليه وحده، فقال له: قد علم الناسُ أنكَ من أكثر الفقهاء مالاً وجاهًا وقُرْبًا منا، وقد خالفتَهم فيما وافق هواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة منك واتِّباع الحق، وقد بان لي موضعُك من الدين، ومكانُك من العلم، وجعلت جزاء ذلك إكرامك، بأن أدخلتك إليَّ وحدك، وجعلت إذْنَ الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحبّ، فشكره ودعا له، وأذن لكلٍّ من حضر للخدمة بالانصراف، والله أعلم.

ذكر وفاة جلال الدولة

كانت وفاته ببغداد سادس شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان مرضُه ورمًا في كبده، وكان مولده في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وكانت مدة عمره إحدى

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، الفقيه الشافعي؛ كان من وجوه الشافعية ومن كبارهم، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الاسفراييني ببغداد، وكان حافظًا للمذهب وله فيه كتاب «الحاوي» و«تفسير القرآن الكريم» و«النكت والعيون» و«أدب الدين والدنيا» وغيرها من المصنفات (وفيات الأعيان ٣: ٢٨٢).

(٢) توفي أبو الطيب الطبري عن مائة وسنتين ولم يختل عقله ولا تغير فهمه يفتي مع الفقهاء ويستدرك عليهم الخطأ ويقضي ويشهد ويحضر المواكب إلى أن مات. تفقه بآمل على الزجاجي صاحب ابن القاص وقرأ على أبي سعيد الإسماعيلي وأبي القاسم بن كج بجرجان... (شذرات الذهب ٣: ٢٨٤).

وخمسين سنة، ومدة ملكه ببغداد منذ خطب له ثانيًا، سبع عشرة سنة وشهرين، ومنذ وصل إليها ست عشرة سنة وأحد عشرة شهرًا، وكانت أيامه كثيرة الوهن والاضطراب، وضعفت المملكة في أيامه، وقد تقدم ما يدل على ذلك، وكان كثير الصدقة، وزيارةِ الصّالحين والمشاهد، وكان يمشي حافيًا قبل وصوله إلى كلِّ مشهد نحوًا من فرسخ.

أولاده: الملك العزيز أمير الأُمراء أبو منصور، توفي بديار بكر في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وزراؤه: أبو سعد عبد الواحد بن علي بن ماكولا، ثم نكبه، واستوزر أخاه أبا علي الحسن، ثم عزله، واستوزر أبا القاسم بن ماكولا، وهو أخوهما، ثم استوزر عميد الملك أبو سعيد عبد الرحيم، واستوزر غير هؤلاء، والله أعلم.

ذكر أخبار السلطان شاهنشاه

هو أبو كاليجار المرزبان ابن سلطان الدولة أبي شجاع فنَاخسرو ابن بهاء الدولة أبي نصر خسرو فيروز ابن عضُد الدولة ابن ركن الدولة ابن بويه، ملك بعد وفاة والده سلطان الدولة، كرمان، وفارس، وخوزستان، ثم ملك الحضرة ببغداد، بعد وفاة عمِّه جلال الدولة، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ابتداء ملكه

لما توفي والده سلطان الدولة في شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة بشيراز، كان هو بالأهواز، فطلبه الأوحد أبو محمَّد بن مكرم ليملك البلاد، وكان هواه معه، وهوى الأتراك مع عمه أبي الفوارس ابن بهاء الدولة صاحب كرمان، فكاتبوه أيضًا يطلبونه إليهم، فتأخر أبو كاليجار، وسبقه عمه أبو الفوارس إليها، فملكها، وكان أبو المكارم بن أبي محمد بن مكرم قد أشار عليه ابنه، لما رأى الاختلاف، أن يسير إلى مكان يأمن فيه على نفسه، فلم يقبل قوله، ففارقه، وقصد البصرة، فلما ملك أبو الفوارس طالبه الجند بحق البيعة، فأحالهم على ابن مكرم، وألزمه بإيصال المال إليهم، فتضجر من ذلك، فقبض أبو الفوارس عليه وقتئذ، فلما سمع ابنه بقتله صار مع الملك أبي كاليجار وأطاعه، وتجهز الملك أبو كاليجار، وقام بأمره أبو مزاحم صندل الخادم مربيه، وساروا بالعساكر إلى فارس، فبعث أبو الفوارس عسكرًا مع وزيره أبي منصور الحسن بن علي البشنوي لقتاله، فوصل أبو كاليجار والوزير فتهاون

به؛ لكثرة عساكره، فأتوه وهو نائم، وقد تفرق عسكره في البلد، لابتياع ما يحتاجون إليه، وكان جاهلاً بالحرب، فلما شاهد أعلام أبي كاليجار شرع الوزير يرتب العسكر، وقد داخلهم الرعب، فحمل عليهم أبو كاليجار، فانهزموا وغنم أموالهم، فلما انتهى خبر الهزيمة إلى أبي الفوارس سار إلى كرمان، ودخل أبو كاليجار شيراز، وملك فارس.

ذكر عودة أبي الفوارس إلى فارس وإخراجه

قال: ولما ملك أبو كاليجار البلاد، ودخل شيراز، وجرى على الدَّيلم الشيرازيَّةِ من عسكره ما أخرجهم عن طاعته، وتمنَّوا أنهم كانوا قُتِلوا مع عمه، ثم إن عسكر أبي كاليجار شَغَبوا عليه، وطالبوه بالمال فأظهر ديْلَمُ شيراز ما في نفوسهم من الحقد، فعجز عن المقام معهم، فسار عن شيراز إلى النونبدجان، ولقي شدَّة في طريقه، ثم فارقها لشدَّة حرِّها، ووخامة هوائها إلى شِعْب بوّان[1]، فأقام به، وهو أحد متنزهات الدنيا الأربع، ولما سار عن شيراز أرسل الدَّيلم الشيرازيّون إلى أبي الفوارس يحثونه على الوصول إليهم، فسار إليهم وتسلَّم شيراز، وقصد أبا كاليجار بشعب بوَّان، ثم استقر بينهما الصلح، على أن يكون لأبي الفوارس كِرمانُ وفارس، ولأبي كاليجار خوزستان، وعاد أبو الفوارس إلى شيراز، وسار أبو كاليجار إلى أرَّجان، ثم إن وزيره أبي الفوارس صادر الناس، وأفسد قلوبهم، واجتاز به مالٌ لأبي كاليجار ولمن معه من الديلم، فأخذه، فحينئذ حثَّ العادل بن ماقية صندلاً الخادم على العوْد إلى شيراز، فعادت الحالُ إلى أشدِّ ما كانت عليه، ثم خرج كل واحد، من أبي الفوارس وأبي كاليجار، والتقَوا، واقتتلوا، فانهزم أبو الفوارس إلى دارابْجِرد[2]، وملك أبو كاليجار فارس، وعاد أبو الفوارس فجمع الأكراد، فاجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل، والتقوا واقتتلوا نحو البيضاء، واصطخر، فانهزم أبو الفوارس ومن معه، وسار إلى كرمان، واستقر ملك أبي كاليجار بفارس، في سنة سبع عشرة وأربعمائة، وفي أثناء ذلك خُطِب لأبي كاليجار ببغداد، بعد وفاة مشرف الدولة، كما قدمناه في أخبار

(١) شعب بوان: بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان، وهو أحد منتزهات الدنيا. . وهو واد عميق، والأشجار والعيون التي فيه إنما هي من جهتيه، وأسفل الوادي مضايق تجتمع فيها تلك المياه وتجري. . . (معجم البلدان).

(٢) دارابجرد: ولاية بفارس. . ودارابجرد: قرية من كورة إصطخر. . . ودارابجرد أيضًا: موضع بنيسابور. . . (معجم البلدان).

جلال الدولة، وفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة استقر الصلح بين أبي كاليجار، وعمه أبي الفوارس صاحب كرمان، على أن تكون كرمان لأبي الفوارس وبلاد فارس لأبي كاليجار، ويحملَ لعمِّه في كلِّ سنة عشرين ألف دينار، وفوَّض أبو كاليجار أُمور دولته إلى العادل بن ماقية، فأجابه بعد امتناع، وشرط عليه ألا يعارض فيما يفعله، وفي سنة تسع عشرة وأربعمائة توفي أبو الفوارس صاحب كرمان، فاستولى أبو كاليجار على كرمان.

ذكر ملك أبي كاليجار العراق

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ملك العراق، وذلك بعد وفاة عمه جلال الدولة، وذلك أن جلال الدولة لما مات كان ولدُه الأكبرُ الملكُ العزيز بواسط، فكاتبه الأجنادُ بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيلَ ما جرت به العادة من حقِّ البيعة، فتردَّدت الرسائلُ بينهم في مقدار المال، فلم يكن عنده ما يعطيه لهم، وبلغ خبرُ موته الملكَ أبا كاليجار، فكاتب القوَّاد والأجناد ورغَّبهم في المال، وبكثرته وتعجيله، فمالوا إليه، وعدلوا عن الملك العزيز، وأرسل الأموال، وفرَّقها على الجند وأولادِهم ببغداد، وأرسل إلى الخليفة عشرة آلاف دينار، ومعها هدايا كثيرة، فخُطِب له ببغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، ولقَّبه الخليفة محيي الدين، وسار إلى بغداد في مائة فارس من أصحابه؛ لئلاً مخافة الأتراك، فلما وصل إلى النعمانية لقيه دبيس بن مزيد، ودخل إلى بغداد في شهر رمضان، ومعه وزيره ذو السعادتين أبو الفرج بن محمد بن جعفر بن محمد بن فسابخس وزينت بغداد لقدومه، وخَلع على أصحاب الجيوش، وهم البساسيري والنشاودي والهمام أبو البقاء، وجرى من ولاة العرض تقديم لبعض الجند وتأخير، فشغب بعضهم، وقتلوا واحدًا من وُلاة العرض بمرأى من الملك أبي كاليجار، واستمر ملكه إلى سنة أربعين وأربعمائة فتوفي بمدينة خنَاب[(١)] من كرمان، في رابع جُمادى الأُولى منها، وقد عزم على المسير إلى كرمان، وكان عمره أربعين سنة وشهورًا، ومدة ملكه، منذ ملك فارس بعد وفاة أبيه، أربعًا وعشرين سنة وسبعة أشهر، بما في ذلك من مدة الحرب بينه وبين عمه أبي الفوارس، ومنذ ملك العراق بعد عمه جلال الدولة أربع سنين وشهرين ونَيِّفًا وعشرين يومًا، ولما توفي نهب الأتراك الذين بالعسكر الخزائنَ والسلاح والدوابَّ، وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيَّم الوزير أبي منصور، وأراد الأتراك نهبها، فمنعهم الديلم، وعاد

(١) خنَاب: بالفتح وتشديد النون: ناحية بكرمان لها رستاق وقرى. . . (معجم البلدان لياقوت).

العسكر إلى شيراز، فملكها الأمير أبو منصور، وكان رحمه الله منصفًا للتجار في معاملاتهم، يربحون عليه الأرباح الكثيرة، مع بخله العظيم، وخلف بقلعة اصطخر تسعة وعشرين ألف بدرةٍ ورقًا، وأربعمائة بدرةٍ عينًا، سوى الجواهر والثياب.

أولاده: الملك الرحيم أبو نصر أبو منصور فلاستون. أبو طالب كامروا ـ أبو المظفر بهرام ـ أبو علي كيخسرو شاه، وثلاثة بنين أصاغر.

وزيره: العادل أبو منصور بهرام.

ذكر ملك الملك الرحيم أبي نصر

هو أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليجار المزربان ابن سلطان الدولة فناخسروا ابن بهاء الدولة أبي نصر خسرو فيروز ابن عضد الدولة ابن ركن الدولة، وهو آخر ملوك الدولة البويهية، وعليه انقرضت دولتهم، وكان ملكه ببغداد بعد وفاة أبيه كاليجار، وذلك أنه لما ورد الخبرُ بوفاته إلى بغداد، وبها ولَدهُ أبو نصر هذا أحضَر الجند واستحلفهم، وراسل الخليفة القائم بأمر الله، في الخُطبة لنفسه وتلقيبه بالملك الرحيم، تردَّدت الرسائل في ذلك إلى أن أجابه الخليفةُ إلى الخُطبة، ولم يجبه إلى اللَّب، وقال: لا يجوز أن يلقَّب أحد بأخص صفاتِ اللّهُ عزّ وجل، واستقر ملكه بالعِراق وخُوزِستان والبصرة، وكان بالبصرة أخوه أبو علي كيخسرو واستولى أبو منصور على شيراز، فسيّر إليه الملكُ الرحيم أخاه أبا سعيد في عسكر، فملكوا شيراز، وقبضوا على أبي منصور ووالدته، وذلك في شوال سنة أربعين وأربعمائة، وخُطب للملك الرَّحيم بشيراز، ثم خالفه أهلُها بعد ذلك، وصاروا مع أخيه أبي منصور، وكان بينهم حروب ووقائع يطول شرحها، ولم يزل الملك الرحيم في الملك إلى أن قطعت خُطْبته، عند وصول السّلطان طُغْرلبك السّلجقي إلى بغداد، فخطب له بها بعد الخليفة، ثم بعده للملك الرحيم، بشفاعة الخليفة إلى السلطان طغرلبك ـ ثم قبض طغرلبك على الملك الرحيم، وقُطِعت خطبته، لخمس بقين من شوال، وقيل في سلخ شهر رمضان سنة سبع وأربعين، وسيره السلطان إلى الريّ، واعتقله في قلعتها، فمات في سنة خمسين وأربعمائة وانقطعت الدولة البويهية من بغداد بزوال ملكه. وكان ملكه سبع سنين وشهورًا، وبلغ من العمر أربعًا وعشرين سنة وشهورًا.

وزراؤه: الوزير أبو السعادات، وأبو الفرج بن فسانجس، وابنه الوزير أبو الغنائم، والوزير أبو الحسن علي بن عبد الرحيم.

جامع أخبار ملوك بني بويه عدة من ملك منهم ستة عشر ملكًا

وهم عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه، ركن الدولة أبو علي الحسن معز الدولة أبو الحسن أحمد عز الدولة بختيار بن معز الدولة. عضُد الدولة أبو شجاع فناخسرو شاهنشاه. وفيه يقول المتنبي: [من المنسرح]

أبا شجاع بفارسٍ عضُدَ الدّو لة فناخُسْرُوًا شهنشاها[1]

مؤيّد الدولة أبو منصور بويه ركن الدولة، فخر الدولة وفلك الأُمة أبو الحسن علي بن ركن الدولة مجد الدولة، وكنف الأُمة أبو طالب رستم بن فخر الدولة، وهؤلاء الثلاثة لم يملكوا العراق ـ صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة ـ شرف الدولة أبو الفوارس شيرذيل ابن عضد الدولة بهاء الدولة وضياء الدولة أبو نصر خسرو فيروز ابن عضد الدولة سلطان الدولة أبو شجاع فناخسرو ابن بهاء الدولة مشرف الدولة ابن بهاء الدولة ـ جلال الدولة أبو طاهر فيروز خسرو ابن بهاء الدولة ـ الملك شاهنشاه أبو كاليجار المرزبان ابن سلطان الدولة، الملك الرحيم أبو نصر، وملك منهم أيضًا شمس الدولة أبو طاهر ابن فخر الدولة، ملك همذان ثم استولى على الجبل، وأبو الفوارس بن بهاء الدولة صاحب كرمان. ومدة ملكهم منذ استولى عمادُ الدولة على أصفهان لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وإلى أن انقطعت خطبة الملك الرحيم لخمس بقين من شوال سنة سبع وأربعين وأربعمائة، مائة سنة وخمس وعشرون سنة وأحد عشر شهرًا وأربعة عشر يومًا. ومنذ ملك معزُّ الدولة بغداد، ولقبه الخليفة المستكفي بالله العباسي، ولقب إخوته بالألقاب التي ذكرناها، ونقش أسماءهم على السكّة لإحدى عشرة ليلة خلت من جُمادى الأُولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وإلى هذا التاريخ، مائة سنة وثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا. وكان لهم في غالب الأوقات من الأقاليم: سجستان، وطبرستان، وجرجان، دعوة وخطابة، وسكة[2]، وكرمان، والريّ،

(١) شهنشاه: أي ملك الملوك، وهو لقب بني بويه. «راجع ديوان المتنبّي الجزء الثاني ص٤٤٧ شرح الشيخ ناصيف اليازجي ط دار صادر».

(٢) السكة: من معانيها: الطريقة المستوية المصطفة من النخل، وهي بهذا المعنى في عدة مواضع: سكة اصطفانوس: في البصرة... وسكة العقار: موضع في البادية... وسكة بني سمرة: بالبصرة... وسكة صدقة بمرو من محالها... (معجم البلدان لياقوت).

وأصفهان، وهمذان، وبلاد فارس، وخوزستان، والعراق، والموصل، وديار بكر، وما يليها، وجميع عُمان، وانقرضت دولتهم كأن لم تكن، فسبحان الدائم الذي لا يزول ملكه، ولا يفنى دوامه، سبحانه وتعالى.

وحيث ذكرنا الدولة البويهية، وأخبار ملوكها.

فلنذكر أخبار الدولة السلجقية.

ذكر أخبار الدولة السلجوقية وابتداء أمر ملوكها وكيف تنقلت بهم الحال، إلى أن استولوا على البلاد، وما حازوه من الأقاليم والممالك، وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداء ظهور هذه الدولة في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وملوكها هم الذين ينسب إليهم القبة والطير. يقال: إنهم اتخذوا ذلك تبركًا بالطائر الذي يقال إنه إذا وقع ظله على أحد من البشر سعد سعادة عظيمة، وقيل: إن ظله وقع على أبيهم سلجق، فكان من أمره ما نذكره، وقد اختلف في انتسابهم إلى أي قبيلة، فمن الناس من ذهب إلى أنهم من التركمان، ومنهم من يقول إنهم من الترك، وفي أخبارهم ما يدل على أنهم من الأتراك. وأول من نبغ من ملوك هذه الدولة وعلا قدره، وطار اسمه، واستولى على البلاد، وقاتل الملوك، وحاز الممالك ونعت بالسلطنة: طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجق بن يقاق.

وطُغْرُلْبك: بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وضم الراء، وسكون اللام، وفتح الباء الموحدة وبعدها كاف.

ولنبدأ بذكر آبائه، وابتداء أمرهم على سبيل التلخيص والاختصار، لتكون أخبارهم سياقة، يتلو بعضها بعضًا. فأما يقاق، وقيل فيه دقاق، ومعنى يُقاق: القوس الجديدة، فكان رجلاً تركيًا شهمًا، صاحب رأي وتدبير، وهو أول من دخل في دين الإسلام، وكان مقدم طائفته من الأتراك، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً، وكان ملك الترك في زمانه بيغو يتدبر برأيه، ويقتدي بمشورته، ويستصْحبه في حروبه، فيقال: إن بيغو جمع عساكره، وأرادوا المسير إلى بلاد الإسلام، فنهاه يقاقُ عن ذلك، وطال الخطاب بينهما، فأغلظ له ملك الأتراك في الكلام، فلطمه يقاق فشجَّ رأسه فثار به خدم بيغو، وأرادوا قتلَه، فمانع عن نفسه، واجتمع من أصحابِه من مانَع عنه، ثم صلح الأمر بينهما، فكان يقاق عند بيغو إلى أن مات. وخلف ولده سُلْجُق.

ذكر أخبار سلجق بن يقاق

«وسلجق» بتفخيم الجيم؛ لتكون بين السين والجيم، ورأيت جماعة من المؤرخين أثبتوا في اسمه واوًا، فقالوا: «سلجوق». قال ابن الأثير: وإثبات الواو في اسمه غلط، والصواب سلجق. قال: ولما توفي والدُه يقاق، ظهر على سُلجق مخايل النجابة، وأمارات التقدم، فقرَّبه ملكُ الترك، وفوَّض إليه تدبير العساكر، ولقَّبه سباشي، ومعناه: قائد الجيش، فكانت امرأةُ الملك تحذِّره منه، وتخوِّفه عاقبة أمره، لما رأت من انقياد أصحابه إليه، وطاعة الناس له، وأغْرته بقتله، فبلغَ سُلجق الخبر، فسار بجماعته ومن يطيعه، والتحق بملك الخانية: شهاب الدولة هارون بن إيلك خان، ملك ما وراء النهر، فأمدَّه شهاب الدولة بجيش كثيف، ليغزو بلاد كفّار الترك، فاستشهد في بعض حروب الكفار، وقيل: بل توفي بجنْد[(١)] ودفن بها، قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: إنه لما فارق بيغو أقام بنواحي جنْد، وأدام غَزْو كفار الترك، وكان ملكُ الترك يأْخذ الخراج من المسلمين في تلك الديار، فطرد سلْجُق عمّاله عنها، ثم استنجد به بعض ملوك السامانية على هارون بن إيلك خان الخان؛ لأنه كان قد استولى على بعض بلاده، فأرسل إليه سلْجق ابنه أرسلان، في جمع من أصحابه، فقوي بهم الساماني على هارون، واستعاد ما كان أخذه من بلاده، وعاد أرسلان إلى أبيه.

قال: ولما توفِّي سلْجُق كان له من العمر مائة وسبع سنين، وخلف من الأولاد: أرسلان، وميكائيل، وموسى، فغزا ميكائيل بعض بلاد كفار الترك، وباشر القتال بنفسه، فاستشهد في سبيل الله، وقيل بل مات في حبس السلطان محمود بن سُبُكتكين؛ لأنه طلبه أن يكون في جملَة أصحابه، فامتنع من ذلك، فقبض عليه، واعتقله، فمات في اعتقاله، والله تعالى أعلم.

وخلف ميكائيل من الأولاد طُغْرُلْبك محمد، وجغْرِي بن داود، وبيغو، فأطاعهم عشائرهم، وانقادوا لأمرهم، فنزلوا بالقُرب من بُخارى، على عشرين فرسخًا منها، فخافهم أميرها، فأساء جوارهم، وقصد الإيقاع بهم، فانتموا إلى بغرا خان ملك تركستان، واجتمعوا به، وأقاموا عنده، واستقرَّ الأمرُ بين طُغْرُلْبك وأخيه جغري بك

(١) جند: بالفتح ثم السكون، ودال مهملة: اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر قريب من نهر سيحون، وأهلها مسلمون ينتحلون مذهب أبي حنيفة. . . (معجم البلدان لياقوت).

داود، أنهما لا يجتمعان عند بغرا خان، وإنما يحضر أحدهما، ويقيم الآخر في أهله؛ خوفًا منه أن يقبض عليهما معًا، فاجتهد بغرا خان في اجتماعهما، فلم يتهيأ له، فقبض على طغرلبك، فسار داود في عشائره ومن معه، قصد بغراخان وقاتله وهزمه، وخلَّص أخاه وانصرفوا إلى «جنْد»، وهي بقرب بُخارى.

وأما أرسلان بن سلجُق أخو ميكائيل فإن إيلك خان لما ملك مملكة السامانية، بما وراء النهر، ومنها بُخارى، أعظم محلَّ أرسلان، وكان علي تكين في جيش أرسلان خان أخو إيلك خان، فهرب ولحق ببُخارى، واستولى عليها، واتفق مع أرسلان بن سلجق، وقوي أمرهما، فقصدهما إيلك خان أخو أرسلان خان، وقاتلهما، فهزماه، وبقيا ببُخارى، وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سُبُكتكين، فيما يجاوره من البلاد، ويقطع الطريق على رسله إلى ملوك الترك، فلما عبر محمود نهر جيحون هرب علي تكين من بُخارى، ودخل أرسلان بن سلجُق وجماعته إلى المفازة، فكاتبه محمود واستماله ورغَّبه، فأتاه، فقبض عليه لوقته، وسجنه ونهب خركاهاته، واستشار فيما يفعل بقومه وعشيرته، فأشار أرسلان الجاذب بقطع أباهيمهم حتى لا يرموا النشَاب، أو يغرقوا في نهر جيحون، فقال له: ما أنت إلا قاسي القلب، ثم أمر بهم، فعبروا نهر جيحون، وفرقهم في نواحي خراسان، ووضع عليهم الخُرُج[1]، فجار العمال عليهم، وامتدت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم، فانفصل منهم ألفا رجل، وساروا إلى كرمان، ومنها إلى أصفهان، وجرى بينهم وبين صاحبها علاء الدولة ابن كاكويه حرب، فساروا من أصفهان إلى أذربيجان.

هؤلاء جماعة أرسلان، وأما أولاد إخوته: فإن تكين صاحب بُخارى أعمل الحيلة في الظفر بهم؛ فراسل يوسف بن موسى بن سلجق وهو ابن عم طغرلبك، واستماله، وطلب منه الحضور عنده، فأتاه، ففوَّض إليه علي تكين التقدم على جميع الأتراك الذين في ولايته، وأقطعه إقطاعًا كبيرًا، ولقبه بالأمير اينانج بيغو وقصد بذلك أن يُعينه على أولاد عمه وأن يأخُذَ بعضهم ببعض، فعلم يوسُفُ مراده، فلم يطعه في ذلك، فلما رأى أن مكيدته لم تؤثِّر، ولا يبلغ بها غرضًا، أمر بقتله، فقتله ألب قرا، أحد أُمراء علي تكين، فعظم ذلك على طغرلبك، وداود وعشائره، فلبسوا ثياب الحداد، وجمعًا من الأتراك ما قدرا على جمعه؛ لطلب ثأْر ابن عمِّهم، وجمع علي تكين جيوشه، والتقوا، واقتتلوا، فانهزم عسكر علي تكين، وذلك في سنة عشرين

(١) الخُرُج: جمع خرج، وهو وعاءٌ من شعر أو غيره، ذو عدلين.

وأربعمائة، ثم قصدا ألب قرا قاتل يوسف ابن عمِّهما، فقتلاه في سنة إحدى وعشرين، وأوقعا بطائفة من عسكر علي تكين، فقتلا منهم نحو ألف رجل، فجمع علي تكين عساكره، ومن حمل السلاح من أصحابه، وتبعهم خلق كثير من أهل البلاد، وقصدوا السلجقية من كل جانب، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة، وسبوا كثيرًا من نسائهم، فألجأتهم الضرورة إلى العبور إلى خراسان، فلما عبروا جيحون، كتب إليهم خوارزم شاه هارون بن التونتاش، يستدعيهم إليه؛ ليكونوا يدًا واحدة، فساروا إليه، واجتمعوا بظاهر خوارزم، في سنة ست وعشرين وأربعمائة، واطمأنوا إليه فغدر بهم، وأكثر فيهم القتل والنهب، فساروا إلى مفازة نسا[1]، وقصدوا مروَ في هذه السنة، وذراريهم، ونساؤهم في الأسر.

ذكر ما اتفق بين طغرلبك وداود وبين السلطان مسعود بن محمود بن سُبكتكين

قال: ولما اتفق لهم مع خوارزم شاه هارون ما ذكرناه، راسلوا الملك مسعود - وهو بطبرستان - يطلبون منه الأمان، وأن يكونوا في خدمته، ويدفعوا الطائفة التي تفسد في بلاده، ويكونوا من أعظم أعوانه، فقبض على الرسل، وجهز عسكرًا جرّارًا مع حاجبه بكتغدي، وغيره من الأمراء، فالتقوا عند نسا في شعبان سنة ست وعشرين وأربعمائة، فانهزم السلجقية، وغنم العسكرُ المسعودي أموالهم وأثقالهم، فجرى بين العسكر منازعة على الغنائم أدت إلى القتال بينهم، فقال داود لأصحابه: إن العسكر الآن قد اطمأن، واستقر والرأي أن نقصدهم، لعلنا نبلغ منهم غرضًا، فعاد ووافق وصولهم إليهم، وهم فيما وقع بينهم من الاختلاف، وقتال بعضهم بعضًا، فأوقعوا لهم، وقتلوا منهم، وأسروا، فاستردُّوا ما أخذوه، وعاد المنهزمون من المعسكر المسعودي إلى نيسابور، فندم مسعود على ردِّه السلجقية، عند بذلهم الطاعة، وعلم أن هيبتهم قد تمكنت في قلوب عساكره، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم، فقال طغرلبك لإمام صلواته: أكتب إليه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ - إلى - ﴿ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولا تَزِدْ على ذلك، ففعل، فلما ورد الجواب على مسعود، كتب إليهم يعِدهم المواعيد الجميلة وسيّر إليهم الخلع، وأمرهم بالرحيل إلى آمُل الشط،

---

(١) نسا: مدينة بخراسان، بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، وبين أبيورد يوم.. وهي مدينة وبئة جدًا يكثر بها خروج العرق المدينيّ حتى إن الصيف قلّ أن ينجو منها... (معجم ياقوت).

وهي مدينة على نهر جيحون، وأقطع دهشان لداود، ونَسا لطغرلبك، وفراوَة[1] لبيغو، ولقب كلَّ واحد منهم بالدِّهْقان، فاستخفُّوا بالرسول والخلع، ثم قالوا له: لو علمنا أن السلطان يبقي علينا إذا قدر لأطعناه، وكلنا نعلم أنه متى قدر علينا أهلكنا، فنحن لا نطيعه، ثم أرسلوا إليه يخادعونه بإظهار الطاعة له، وسألوه إطلاق عمهم أرسلان بن سلجق، فأجابهم إلى ذلك، وأحضره عنده ببلخ، وأفرج عنه وأمره بمراسلة بني أخيه يأمرهم بالكفِّ عن الشر، والدخول في الطاعة، ففعل أرسلان، وأرسل إليهم مع الرسول أشفى، فلما جاء الرسول إليهم، وأدى الرسالة، وسلَّم إليهم الأشفى نفروا واستوحشوا، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الشر، فأعاد الملك مسعود عمهم أرسلان إلى الحبس، وسار إلى غزنة وقصد السلجقية بلخ، ونيسابور، وطوس، وجوزجان، وأقام داود بمدينة مرو، وانهزمت العساكر المسعودية من السلجقية مرة بعد أخرى، واستولى الرعب عليهم، هذا والملك مسعود يغزو الهند، والكتب تصل إليه بأخبار السلجقية وهو لا يجيب عنها، ولا يلوي على ما فيها لاشتغاله بما هو أهم عنده من ذلك، وهو غزو الهند، وفتح قلاعهم، على ما قدمناه في أخبار الدولة الغزنوية.

ذكر ابتداء الدولة السلجوقية وإقامة الخطبة لطغرلبك وداود

كان سبب ذلك أن وزراء السلطان مسعود، وأهل دولته، لما كرروا عليه القول وواصلوا الرسل إليه، يعرفونه ما آل إليه أمر السلجقية، ويحذرونه عاقبة توانيه فيهم، جهز جيشًا كثيفًا مع حاجبه سباشي، ومرداويج بن بسو، فأقام سباشي بهراة ونيسابور، ثم أغار على مرو وبها داود، فانهزم داود بين يديه، وتبعه العسكر المسعودي، فعطف داود عليه، وحمل على صاحب جوزجان، فقتله، فانهزم عسكر مسعود، وعاد داود إلى مرو، فأحسن إلى أهلها، وخطب لنفسه فيها في أول جمعة من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وهي أول خطبة أُقيمت لهم، ولقب في الخطبة بملك الملوك، وقويت نفوس السُلْجُقية وزاد طمعهم في البلاد، ثم التقى العسكر المسعود يبعد ذلك، والسلجقية، وباشر سباشي الحرب بنفسه، واقتتلوا على باب سرْخس، في شعبان سنة ثمان وعشرين، فانهزم سباشي أقبح هزيمة، وتبعه داود إلى طوس يأخذ أصحاب سباشي باليد، وكفوا عن القتل، وغنموا أموالهم، فكانت هذه الواقعة هي

---

(١) فراوة: بالفتح، وبعد الألف واو مفتوحة: هي بليدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم، خرج منها جماعة من أهل العلم، ويقال لها رباط فراوة... (معجم البلدان).

التي أوجبتْ ملْك السلجقية خراسان، ودخلوا قصبات البلاد، فدخل طغرلبك نيسابور، وسكن الشاذياخ[١]، وخطب له فيها في شعبان، ولقِّب بالسلطان المظفر وبثوا النواب في النواحي، وسار داود إلى هراة، وتوجه سباشي إلى غزنة، فاضطر مسعود إلى المسير إلى خراسان، وجمع من العساكر ما يضيق بها الفضا، وفرق فيهم الأموال، وسار من غزنة، ومعه من الفيلة عدد كثير، فوصل إلى بلخ، فقصده داود، ونزل قريبًا منها، ودخلها يومًا جريدة، على حين غفلة من العسكر، فأخذ الفيل الكبير الذي على باب الملك مسعود، وعدة جنائب[٢]، فعظم قدره في نفوس الناس وازدادت هيبته في قلوب العسكر، ثم سار مسعود من بلخ في مستهل شهر رمضان سنة تسع وعشرين، ومعه ألف فارس سوى الأتباع، وسار إلى جوزجان، فأخذ واليها الذي كان للسلجقية، فصلبه، وسار منها، فوصل إلى مرو الشاهجان، وسار داود إلى سَرخَس، واجتمع بأخويه طغرلبك وبيغو، فراسلهم مسعود في الصلح، فتوجه إليه بيغو بالجواب، فأكرمه مسعود وخلع عليه، وكان مضمون رسالته: «إنا لا نثق بمصالحتك بعدما فعلناه من هذه الأفعال، التي كل فعل منها موبق مهلك»، وآيسوه من الصلح، فسار مسعود من مرو إلى هراة، وقصد داود مرو، فامتنع أهلها من تسليمها. فحاصرهم سبعة أشهر، وملكها، فسقط في يد مسعود، وسار من هراة إلى نيسابور ثم إلى سرخس، وكلما اتبع السلجقية إلى مكان ساروا منه إلى غيره، ولم يزل كذلك حتى أدركه الشتاء، فأقام بنيسابور ينتظر الربيع، فلما جاء الربيع اشتغل مسعود بلهوه وشربه، حتى انقضى فصل الربيع، فلما جاء الصيف عاتبه أصحابه على إهماله أمر السلجقية، وعدم مناجزتهم الحرب، فسار من نيسابور في طلبهم، فدخلت السلجقية البرية وتبعهم مرحلتين، وقد ضجر عسكره من التعب والكلال، فنزل الملك مسعود منزلاً قليل الماء، فاقتتل عسكره على الماء، ونهب بعضهُم بعضًا، فعلم داود بما هم فيه، فرجع عليهم، فولُّوا منهزمين لا يرجع بعضهم على بعض، وثبت مسعود، ثم انهزم في نحو مائة فارس، حتى أتى غَرْشِسْتان[٣] وغنم السلجقية من

---

(١) الشاذياخ: بعد الذال المكسورة ياء مثناة من تحت، وآخره خاء معجمة: قرية من قرى بلخ.. والشاذياخ: مدينة نيسابور أم بلاد خراسان، وكانت قديمًا بستانًا لعبد الله بن طاهر بن الحسين ملاصق مدينة نيسابور.

(٢) الجنائب: واحدتها الجنيبة، وهي الناقة يعطيها الرجل غيره ليمتار له عليها، أو هي الدابة تقاد.

(٣) غرشستان: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة مكسورة، وسين مهملة، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: هي ولاية برأسها ليس لها سلطان ولا لسلطان عليها سبيل، هراة في غربيها والغور في شرقيها... (معجم البلدان).

المعسكر المسعودي ما لا يدخل تحت الإحصاء، فقسم داود ذلك على أصحابه، وآثرهم على نفسه، ونزل في سرادق مسعود، وجلس على كرسيه، ثم أطلق الأسرى، ووضع خراج سنة كاملة.

ذكر ملك داود وطغرلبك وبيغو نيسابور وبلخ وهراة

قال: وسار طغرلبك إلى نيسابور، فملكها في أواخر سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، فقيل إنه أكل لوزينجا[1]، فقال: هذا ططماج[2] طيب، إلا أنه لا ثوم فيه، ورأى أصحابه الكافور، فأكلوا منه، وقالوا: هذا ملح مُرّ، واستولى السلجقية حينئذ على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هراة، فدخلها، وسار داود إلى بلخ، وبها ألتونتاش الحاجب واليًا عليها لمسعود، فراسله داود في تسليم البلد إليه، وعرفه عجز صاحبه عن نصرته، فحبس ألتونتاش رسله، فنازله مسعود، وحصر المدينة، فأرسل ألتونتاش إلى مسعود وهو بغزنة يعرفه الحال، وما هو فيه من ضيق الحصار، فجهز مسعود العساكر الكثيرة، فجاءت طائفة منهم إلى الرُّخَّج[3]، وبها جمع من السلجقية، فقاتلوهم، فانهزمت السلجقية، وقتل منهم ثمانمائة رجل وأسر كثير، وخلا ذلك الصقع منهم، وسارت طائفة إلى هراة وبها بيغو، فقاتلوه، ودفعوا عنها، ثم جهز مسعود ولده مودودًا وسيَّره في عسكر كبير مددًا لهذا العسكر، فسار عن غزنة في سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فلما قاربوا بلخ سيَّر داود طائفة من عسكره، فأوقعوا بطلائع مودود، فانهزمت الطلائع، وتبعهم عسكر داود، فلما أحس بهم عسكر مودود رجعوا إلى ورائهم، فلما اتصل هذا الخبر بألتونتاش صاحب بلخ أطاع داود وسلم إليه البلد، ووطىء بساطه، ثم اتفق قتل السلطان مسعود في سنة اثنتين وثلاثين، وملك بعده أخوه محمد، ثم قتل مودود بن مسعود، فتمكن السلجقية.

ذكر ملك طغرلبك جرجان وطبرستان

وفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ملك طغرلبك جرجان وطبرستان، وسبب ذلك أن أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير صاحبها قبض على أبي كاليجار بن ويْهان القُوهي صاحب جيشه، وزوج أُمه، فعلم طغرلبك عند ذلك أنه لا

---

(١) اللوزينج: من الحلوى، شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز.

(٢) الططماج: خبز فطير وإصلاحه بالثوم ويؤكل معه النعناع.

(٣) الرخّج: كورة ومدينة من نواحي كابل.

مانع له، ولا دافع من البلاد، فسار إليها، وقصد جرجان، ومعه مرداويج بن بسّو، فلما نازلها فتح له مستحفظها أبوابها، فدخلها، وقرر على أصحابها مائة ألف دينار صلحًا، وسلم البلد لمرداويج، وقرر عليه في كل سنة خمسين ألف دينار، عن جميع الأعمال، وعاد إلى نيسابور، وقصد مرداويج بن بسو أنوشروان «بسارية»، فاصطلحا على أن ضمن له أنوشروان ثلاثين ألف دينار، وأُقيمت الخطبة لطُغْرُلْبك في سائر البلاد، وتزوج مرداويج بوالدة أنوشروان، وتمكن، وبقي أنوشروان يتصرف فبأمر مرداويج، لا يخالفه في شيء البتة، وملك خوارزم في سنة أربع وثلاثين من شاه ملك ابن علي، وكان في طاعة مودود صاحب غزنة.

ذكر مسير إبراهيم ينال إلى الريّ وهمذان

وإبراهيم ينال هو أخو طغرلبك لأمه. قال: ولما ملك إخوته خراسان سار هو إلى الريّ، فملكها في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ثم سار عنها إلى البلاد المجاورة لها، ثم انتقل إلى بروجرد[1]، فملكها، ثم قصد همذان، وكان بها أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدول، ففارقها إلى سابور خواست، ونزل إبراهيم عليها، وأراد دخولها، فقال له أهلها: إن كنت تريد منا الطاعة، وما يطلبه السلطان من الرعية، فنحن باذلوه، وداخلون تحته، فاطلب أولاً هذا المخالف عليك الذي كان عندنا، يعنون كُرشاسف، فإنا لا نأمن عوده إلينا؛ فإذا ظفرت به كُنّا لك، فكف عنهم، وسار إلى كرشاسف بعد أن أخذ من أهل البلد مالاً، فلما قارب سابور خواست تحصّن منه كرشاسف بالقلعة، وملك إبراهيم قهرًا ونهبه، ثم عاد إلى الريّ، وذلك في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ذكر خروج طغرلبك إلى الريّ وملكه بلد الجبل

قال: ولما فرغ طُغْرُلْبك من خوارزم، وجرجان، وطبرستان خرج من خراسان إلى الريّ، وغيرهما من بلاد الجبل، وسار أخوه إبراهيم يُنال إلى سجستان، وأخذ طغرلبك قلعة طبرك من مجد الدولة ابن بويه، وأقام عنده مكرّمًا، وأمر طغرلبك

---

(١) بروجرد: بالفتح ثم الضم ثم السكون، وكسر الجيم وسكون الراء، ودال: بلدة بين همذان وبين الكرج، بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا، وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ. . . (معجم البلدان).

بعمارة الريِّ، وكانت قد خربت، فوجد في دار الإمارة مراكب ذهب مجوهرة، وبرنيتين[١] من الصيني مملوءتين، وأموالاً كثيرة، وسار إلى قزوين، وحصرها، فوقع الصلح على ثمانين ألف دينار، ودخل صاحبها في طاعته، وأطاعه ملك الديلم، وحمل إليه مالاً وعروضًا، وأطاعه غيره من الملوك، وأرسل سرية إلى أصفهان، وبها أبو منصور فرامرز الدولة، فأغارت وعادت سالمة، وخرج طغرلبك من الريّ، وقصد أصفهان، فصالحه صاحبها، وصانعه بمال، وسار إلى همذان، فملكها من صاحبها كرشايف بن علاء الدولة، وسار معه إلى أبهر وزنجان، وطلب منه طغرلبك تسليم قلعة كنكور، فأرسل إلى من بها ليسلموها، فامتنعوا، فقال له طغرلبك: ما امتنعوا إلا بأمرك ورأيك، فاصعد إليهم، وأقم معهم، ولا تفارق موضعك حتى آذن لك»، واستناب بهمذان ناصر العلوي.

وفي سنة خمس وثلاثين وصل إلى طغرلبك رسول الخليفة القائم بأمر الله، وهو أقضى القضاة أبو الحسن علي الماوردي، فتلقاه طغرلبك على أربعة فراسخ، إجلالاً لرسالة الخليفة، وذكر طاعته للخليفة، ووقوفه عند أوامره.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة استوزر السلطان طغرلبك أبا القاسم علي بن عبد الله الجويني[٢]، وهو أول وزير وزر له.

وفي سنة سبع وثلاثين أمر السلطان طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بالخروج إلى بلاد الجبل، فسار من همذان، وقصد كرمان، وبها كرشاسف بن علاء الدولة، ففارقها خوفًا، ودخلها إبراهيم، وملكها، وسار إلى الدينور، فملكها، وملك قرميسين في شهر رجب بعد حصار وقتال، وملك الصيمرة[٣] في شهر شعبان ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لهما، ثم سار إلى حلوان، فنهبها، وأحرقها.

ذكر ملك ينال قلعة كنكور وغيرها

وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة سار إبراهيم إلى قلعة كِنْكِور، وبها عُكبر بن فارس، صاحب كرشاسف، فامتنع عكبر بها إلى أن فقدت ذخائره وفنيت الأقوات،

---

(١) البرنيّة: واحدة البرني: إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين.

(٢) نسبة إلى جوين: وهي كورة جليلة نزهة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور.

(٣) الصيمرة: هي في موضعين: أحدهما بالبصرة على فم نهر معقل وفيها عدة قرى تسمى بهذا الاسم. . والصيمرة: بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان، وهي مدينة بمهرجان قذق. . . (معجم البلدان).

فعند ذلك أعمل الحيلة، وعمد إلى بيوت الطَعام التي بالقلعة فملأها ترابًا وحجارة، وسدّ أبوابها، ونشر من داخل الأبواب شيئًا من الطعام، وعلى رأس التراب والحجارة مثل ذلك، وراسل إبراهيم في تسليم القلعة إليه، على أن يؤمنه على من بها من الرجال، وما بها من الأموال، فامتنع إبراهيم من ترك المال، فأخذ عكبر رسول إبراهيم، وطوَّفه على بيوت الطعام، فرآها مملوءة وظنها طعامًا، وقال له: قل لصاحبك إنني لم أرسل إليه خوفًا من المطاولة، ولا إشفاقًا من نفاد المِيرة، ولكني أحببت الدخول في طاعته، فإن بذل لي الأمان على ما طلبته لي، وللأمير كرشاسف وأمواله، ولمن بالقلعة، سلَمتها إليه، وكفيتُه مؤنة المقام. فلما عاد الرسول إلى إبراهيم، وأخبره بما رأى وسمع، أجابه إلى ما طلب، ونزل عكبر. فلما تسلَّم إبراهيم القلعة تبينت له مكيدته، وعاد إلى همذان، وسيَّر جيشًا عليهم نسيب له اسمه أحمد، وسلم إليه سرجاب بن أبي السؤل؛ ليفتح به قلاعه، وكان الأكراد الملاذية قد قبضوا عليه، وسلَّموه لإبراهيم ينال، قبل ذلك، فسار به أحمد إلى قلعة كلكان، فامتنعت عليه، فسار إلى قلعة دردبلوه، فحصرها، وامتدت طائفة ممن معه إلى تلك الأعمال، فنهبوها، ووصلوا إلى الدسكرة[١]، وباجسرى[٢]، والهارونية[٣]، وقصر سابور، وجميع تلك الأعمال، ونهبوها، فوصل الخبر إلى بغداد، فارتاع أهلها، ثم سار إبراهيم ينال إلى السيروان، فحصر القلعة، وضيَّق على من بها، وأرسل سريّة نهبت البلاد، وانتهت إلى عشرة فراسخ من تكريت، ثم تسلم السيروان من مستحفظها بعد أن أمنه، واستخلف عليها رجلاً من أصحابه، وانصرف إلى حلوان وعاد إلى همذان.

ذكر غزو إبراهيم ينال الروم

وفي سنة أربعين وأربعمائة غزا إبراهيم الروم، فظفر وغنم وأسر وسبى، وكان سبب ذلك أن خلقًا كثيرًا من الغز مما وراء النهر، قدموا عليه، فقال لهم: إن بلادي تضيق عن مقامكم، والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وتجاهدوا في سبيل الله تعالى، وتغنموا وأنا سائر في أثركم، فساروا بين يديه وتبعهم،

(١) الدسكرة: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح كافه: قرية كبيرة ذات منبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد.

(٢) باجسرى: بليدة في شرقي بغداد، بينها وبين حلوان، على عشرة فراسخ من بغداد.

(٣) الهارونية: مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام... (معجم البلدان لياقوت).

فوصلوا إلى ملازكرد، وأرزن الروم، وقاليقِلا[١]، وبلغوا طرابزون، وتلك النواحي كلها، ولقيهم عسكر عظيم للروم والأنجاز، يبلغون خمسين ألفًا، فاقتتلوا وكانت بينهم عدة وقائع، تارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء، ثم كان الظفر للمسلمين، فأكثروا القتل في الروم، وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم، وممن أُسر قاريط ملك الأنجاز، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار، وهدايا بمائة ألف دينار، فلم يجبه إلى ذلك، ولم يزل يجوس خلال تلك الديار وينهبها، إلى أن بقي بينه وبين القسطنطنية خمسة عشر يومًا، واستولى المسلمون على تلك النواحي، وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وأخذوا من الدواب، والبغال، والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء، قيل: إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة، وإنه كان في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع. والله أعلم.

ذكر الوحشة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال والاتفاق بينهما

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة استوحش إبراهيم من أخيه السلطان طغرلبك؛ وكان سبب ذلك أن: طغرلبك طلب من أخيه إبراهيم أن يسلم إليه مدينة همدان، والقلاع التي بيده في بلد الجبل، فامتنع من ذلك، واتهم وزيره أبا يعلى في السعي بينهما، فقبض عليه وضربه، وسمل إحدى عينيه، وقطع شفتيه، وجمع جمعًا، والتقى مع السلطان طغرلبك، وكان بينهما قتال، فانهزم إبراهيم، وسار طغرلبك في أثره، وملك جميع قلاعه وبلاده، وتحصَّن إبراهيم بقلعة سرْماج[٢]، فحصره طغرلبك بها، فملكها في أربعة أيام، وكانت من أحصن القلاع، واستذل ينال منها، وأرسل إلى نصر الدولة ابن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده، فأطاعه، وخطب له في سائر ديار بكر، وراسل ملك الروم السلطان طُغرلبك، وأرسل إليه هديّة عظيمة، وطلب منه المعاهدة، فأجابه إلى ذلك، وأرسل ملك الروم إلى ابن مروان يسعى في فداء ملك الأنجاز، فأرسل نصر الدولة إلى السلطان شيخ الإسلام أبا عبد الله بن بهران في معناه، فأطلعه بغير فداء، فعظم ذلك عنده، وعند ملك الروم، وأرسل إليه هدايا عظيمة، فقيل: إنه أرسل إليه ألفَ ثوبٍ من الديباج، وخمسمائة ثوب من

(١) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد من نواحي أرمينية الرابعة... (معجم البلدان).

(٢) سرماج: قلعة حصينة بين همذان وخوزستان في الجبال كانت لبدر بن حسنويه الكردي... (معجم البلدان).

أصناف الحرير، وخمسمائة رأس من الكراع[١]، إلى غير ذلك، وأنفذ إليه مائتي ألف دينار، ومائة لبنة من الفضة، وثلاثمائة مهرى، وثلاثمائة حمار مصرية، وألف عنز بيض الشعور، سود العيون والقرون، وأنفذ إلى البزمرون عشرة أمناء مسكًا، وعَمرَ مسجد القسطنطينية، الذي بناه مسلمة بن عبد الملك، وعمر منارته، وجعل فيها القناديل، وعلّق في محرابه قوسًا، ونشّابه، وأُقيمت فيه الصلاة والخطبة لطُغْرلبك، فدان له الناس حينئذ، وعظم شأنه، وتمكن ملكه، فكانت الدولة السُلجقية في زيادة، والبُويهية في نقص، قال: وأما إبراهيم ينال فإنه لما نزل إلى أخيه طغرلبك أكرمه، وأحسن إليه، وردّ عليه كثيرًا مما أخذ منه، وخيّره بين أن يقطعه بلادًا يسير إليها، وبين أن يقيم معه، فاختار الإقامة معه.

ذكر ملك طغرلبك أصفهان

كان قد حاصرها في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فلم يظفر منها بطائل، ثم اصطلح هو صاحبها أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، على مال يحمله إلى السلطان طغرلبك، ويخطب له بأصفهان، وأعمالها، ثم حصل بعد ذلك من صاحبها تلون، فكان يطيعه تارة ويعصيه تارة، ويطيع الملك الرحيم بن بويه، فجاء السلطان إليها في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، وحاصرها سنة، وتسلمها في سنة ثلاث وأربعين، واستطابها، وجعلها دار مقامه، ونقل ما كان له بالريّ من الذخائر والأموال والسلاح إليها، وخرب قطعة من سورها، وقال: إنما يحتاج إلى الأسوار من تضعف قدرته، وأما من حصنه عساكره وسيفه، فلا حاجة به إليها.

ذكر استيلاء ألب أرسلان على مدينة فسا

وفي سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة سار ألب أرسلان بن داود جغري بك من مدينة مرو بخراسان إلى بلاد فارس، وأخذ في مسيره على المفازة من غير علم عمه طغرلبك، فوصل إلى مدينة فسا[٢]، فانصرف النائب بها من بين يديه، ودخلها ألب أرسلان، وقتل من الديلم نحو ألف رجل، وعددًا كثيرًا من العامة، ونهبوا ما مقداره ألف ألف دينار، وأسر ثلاثة آلاف إنسان، وعاد إلى خراسان، ولم يلبث مع عمه طغرلبك. والله أعلم بالصواب.

---

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٢) فسا: بالفتح والقصر: مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل.

ذكر استيلاء طغرلبك على أذربيجان، وغزو الروم

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة سار السلطان طغرلبك إلى أذربيجان، فقصد تبريز[١]، وصاحبها الأمير أبو منصور وهشوذان بن محمد الراوي، فأطاعه، وخطب له، وحمل إليه ما أرضاه، وأعطاه ولده رهينة، وكذلك فعل معه سائر ملوك تلك النواحي، بذلوا له الطاعة والخطبة، وانقاد العساكر إليه، فأبقى بلادهم عليهم، وأخذ رهائنهم، وسار إلى أرمينية، وقصد «ملازكرد» من الروم، فحصرها، ونهب ما جاورها من البلاد، وخرّبها، وأثر في بلاد الروم أثارًا عظيمة، ونال منهم من النهب والأسر والقتل شيئًا كثيرًا، ثم عاد إلى أذربيجان عند دخول الشتاء، وعاد إلى الريّ، والله أعلم.

ذكر دخول السلطان طغرلبك إلى بغداد والخطبة له بها، وانقراض الدولة البويهية

كان دخوله إليها يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان سببُ ذلك أن المظفَّر أبا الحارث ألب أرسلان التركي، المعروف بالبساسيري، عظم أمره بالعراق، وطار اسمه في الآفاق، واستولى على البلاد، وعظمت هيبته في قلوب العباد، وخافه أُمراء العرب، وخطب له على منابر العراق، ولم يبق لبني بُويه معه إلا مجرَّد الاسم، ووقع بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله، من الوحشة ما قدمناه، في أخبار الدولة العباسية، حتى بلغ الخليفة أنه يريد القبض عليه، فعند ذلك كاتب الخليفة السلطان طُغرلبك، وهو بنواحي الريّ يستنصر به، ويحثه على المسير إلى بغداد، وكان طُغرلبك قد عاد إلى الريّ، بعد عوده من غزو الروم، فرتب أُمور الريّ، وعاد إلى همذان في المحرَّم من السنة، وأظهر أنه يريد الحجّ، وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة ملك المستنصر العُبيدي عنها، وسار إلى حُلوان، وانتشر أصحابه في طريق خراسان، فأجفل الناس إلى غربيِّ بغداد، وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهرها، وسمع الملكُ الرّحيم بقرب السلطان طُغرلبك من بغداد، فأصعد من واسط إليها، وفارقه البساسيري بمراسلة الخليفة في معناه، كما ذكرناه، ووصل الملك الرحيم إلى بغداد، وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية، وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان، فأنكروا ذلك

---

(١) تبريز: بكسر أوله وسكون ثانيه، وكسر الراء، وياء ساكنة، وزاي: هي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية.

ونفروا منه، وراسلوا الخليفة، وقالوا: إنا فعلنا بالبساسيري ما فعلناه، وهو كبيرنا ومقدمنا اتباعًا لأمر أمير المؤمنين، ووعدنا أمير المؤمنين برد هذا الخصم، ونراه قد قرب منا، ولم يُمنع من المجيء، وسألوا التقدم إليه في العود، فغُولطوا في الجواب، وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئه، ويختار انقراض الدولة البويهية، ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يظهر العبودية، وسأل تقرير قاعدته مع طغرلبك، وكذلك سأل من معه من الأمراء، فأجيبوا بأن المصلحة أن تدخل الأجناد خيامهم، من ظاهر بغداد، وينصبوها بالحريم، ويرسلوا رسُولاً إلى طُغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا إلى ذلك، وراسلوه، فأجابهم إلى ما سألوه، ووعدهم الإحسان إليهم، وتقدم الخليفة إلى الخطباء بجوامع بغداد بالخطبة للسلطان طغرلبك، فخطب له لثمان بقين من شهر رمضان من السنة، وأرسل طُغرلبك يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له، وخرج وزير الخليفة، ورؤساء بغداد وأعيانها، وأمر الملك الرحيم للقائه، واستحلفه الوزير للخليفة، وللملك الرحيم، ودخل بغداد في يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان، ونزل بباب الشماسية ومعه ثمانية عشر فيلاً، ودخل عسكره بغداد للامتيار[1]، وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم، فلما كان الغد، وهو يوم الثلاثاء، جاء بعض العسكر إلى باب الأزج، وأخذوا واحدًا من أهله، فطلبوا منه تبنًا، وهو لا يفهم عنهم ما يريدون، فاستغاث عليهم، وصاح العامة لهم، ورجموهم، وسمع الناس الصياح، فظنوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرلبك، فارتج البلد من أقطاره وأقبلوا من كل جهة، وقتل من الغز من وجد في محال بغداد إلا أهل الكرخ، فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز بأذية بل حموهم، وخرج عامّة بغداد، ومعهم جماعة من العسكر، يقصدون العسكر السلطاني، ولم يركب الملك الرحيم، ودخل أعيان أصحابه إلى دار الخليفة، وأقاموا بها نفيًا للتهمة عن أنفسهم، ظنًا منهم أن ذلك ينفعهم، وأما عسكر السلطان طغرلبك، فإنهم لما رأوا فعل العامّة وظهورهم من البلد قاتلوهم، ففل من الفريقين خلق كثير، وانهزمت العامة، ونهب الغز بعض الدروب، ونقل الناس أموالهم إلى باب النوبى، وأرسل طغرلبك من الغز إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأصحابه، ويقول: «إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور تيقَّنْتُ أن الذي جرى كان بوضعهم»، فتقدم الخليفة إلى الملك الرحيم وأصحابه يقصد

---

(١) الامتيار: جمع الميرة، وهي الطعام يجمع للسفر ونحوه.

السلطان، فركبوا إليه، وأرسل الخليفة معهم رسولاً يبرئهم عند السلطان، فلما وصلوا إلى جهة السلطان، أمر بالقبض على الملك الرحيم ومن معه، فقبضوا كلهم في آخر شهر رمضان، وحبسوا، ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان[1]، وأرسل الخليفة إلى السلطان ينكر ما جرى، من قبض الملك الرحيم وأصحابه ونهب بغداد، ويقول: «إنهم خرجوا إليك بأمري، وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أُفارق بغداد»، فأطلق بعضهم، وأخذ جميع إقطاعات عسكر الملك الرحيم، وأُمرهم بالسعي في أرزاق يحصّلونها لأنفسهم، فتوجَّه كثير منهم إلى البساسيري، ولزموه، فكثر جمعه، وكان من أمره ما قدمناه وأمر طُغْرلبك بأخذ أموال الأتراك البغداديين وانتشر الغز في سواد بغداد، فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل[2]، ومن الجانب الشرقي إلى النهروانات وأسافل الأعمال، فأسرفوا في النهب حتى بلغ ثمن الثور ببغداد خمسة قراريط إلى عشرة، والحمار بقيراطين إلى خمسة، وخرب السواد، وأجلي أهله عنه، وضمن السلطان طغرلبك البصرة، والأهواز من هزارسب بن تَنْكر بن عياض بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار، وأقطعه أرّجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز، دون الأعمال التي ضمنها، وأقطع الأمير أبا علي بن أبي كاليجار الملك قرميسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذّنوا في مساجدهم سحرًا للصبح: «الصلاة خير من النوم»، وأمر بعمارة دار الملك، فعمرت وزيد فيها، وانتقل إليها في شوال.

ذكر مسير السلطان إلى الموصل

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة سار السلطان طغرلبك إلى الموصل؛ وسبب ذلك، أنه لما أقام ببغداد عمّ الناس ضرر عسكره، وضاقت عليهم أرزاقهم ومنازلهم، فأرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله يذكر له ما الناس فيه من الجور والظلم، ويعظه، ويقول: إن أزلتَ ذلك وإلا فتُعين الخليفة على الانبراح من بغداد، فقال السلطان لوزيره الكندري: «بكِّرْ إلى الخليفة واعتذر له بكثرة العساكر والعجز عن تمهيدهم، وضبطهم، فلما كان تلك الليلة رأى السلطان في منامه رسول الله ﷺ وكأنه عند الكعبة وهو يسلّم على النبيّ ﷺ، والنبيّ معرض عنه، وقال: يُحكِّمُك الله في بلاده وعباده،

---

(١) سيروان: بكسر أوله وآخره نون: بلد بالجبل، وقيل: السيروان: كورة بالجبل وهي كورة ماسبذان.. وقيل: بل هي كورة برأسها ملاصقة لماسبذان.. والسيروان: من قرى نسف... وسيروان: موضع بفارس... (معجم البلدان).

(٢) النيل: بكسر أوله في مواضع: أحدها بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد.

فلا تراقبُه فيهم، ولا تستحيي من جلالة الله عزّ وجل، في سوء معاملتهم، وتغتر بإمهاله عند الجور عليهم، فاستيقظ فَزعا، وأحضر عميد الملك الوزير، وذكر له ما رآه، وأرسله إلى الخليفة يعرفه أنه مقابل ما رسم به بالسمع والطاعة، وأخرج الجند من دُور العامّة، وأمر أن يظهر من كان مُخْتفيًا، وأزال التوكيل عمَّن كان وكل به، وعزم على الرحيل، وأتاه خبر البساسيري، والوقعة التي كانت بينه وبين قريش بن بدران، صاحب الموصل، على ما قدمناه في أخبار القائم بأمر الله، فتجهز، وسار عن بغداد، في عاشر ذي الحجة من السنة، ومعه خزائن السلاح والمجانيق، وكان مقامُه ببغداد ثلاثة عشر شهرًا وأيامًا، لم يلقَ الخليفة فيها، وسار إلى البوازيج[1] وأقام بها حتى أتاه ياقوتي بالعساكر، في سنة سبع وأربعين، فسار بهم إلى الموصل، وسيّر هزارسب بألف فارس اختارهم من العسكر، فدخَل البرية، وأوقع بالعرب، وعاد إلى السلطان، فعندها أرسل نور الدولة دبيس بن مزيد، وقريش بن بدران صاحب الموصل، يسألان هزارسب أن يتوسط لهما عند السلطان طُغرلبك، فسعى في ذلك، فأجابه إليه في حقهما دون البساسيري، فتوجَّه البساسيري عند ذلك إلى الرَّحْبة[2]، وتبعه الأتراك البغداديون، ومقبل بن المقلد، وجماعة من عقيل، ثم سار السلطان إلى ديار بكر، التي هي لابن مروان، ووصل إلى جزيرة ابن عمر، فأرسل إليه ابن مروان يذكر ما هو بصدده من حفظ ثغور المسلمين، وما يعانيه من مجاهدة الكفار، وبذل ما يصلح، ثم وصل إبراهيم ينال إلى السلطان، فلما وصل أرسل هزارسب إلى نور الدولة بن مزيد، وقريش، يعرِّفهما وصوله، ويحذرهما منه، فسار من جبل سنجار إلى الرحبة، فلم يلتفت البساسيري إليهما، فانحدر نور الدولة إلى بلد العراق، وأقام قريش عند البساسيري بالرحبة، وشكى قتلمش ابن عم السلطان ما لقي من أهل سنجار في العام الماضي، عند انهزامه من البساسيري، وأنهم قتلوا رجاله، فسيَّر العساكر إليهما، فصعد أهل سنجار على السور، وسبّوا السلطان، وأخرجوا جماجم القتلى وقلانسهم، وجعلوها على القصب، ففتحها السلطان عنوة، وقتل أميرها عليَّ بن مرحا، وخلقًا كثيرًا من رجالها، وسبى نساءهم، وسأل إبراهيم ينال في الباقين، فتركهم السلطان، وسلَّمها هي والموصل إلى أخيه إبراهيم ينال. والله أعلم بالصواب.

---

(١) البوازيج: بلدة قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.

(٢) الرحبة: بضم أوله وسكون ثانيه، وباء موحدة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة. . . (معجم البلدان).

ذكر عودة السلطان إلى بغداد

قال: وكان عوْد السلطان إلى بغداد، في سنة تسع وأربعين، فخرج رئيس الرؤساء إلى لقائه، وأبلغه سلام الخليفة، واستيحاشَه، فقبّل الأرض، وقدم رئيس الرؤساء جامًا من ذهب فيه جواهر، وألبسه فرجية[1] جاءت معه من عند الخليفة، فلبسها، ووضع العمامة على مخدّته، فقبّل السلطان الأرض، ولم يمكن أصحابه من النزول في دور الناس، وطلب الاجتماع مع الخليفة فأذن له في ذلك، وجلس الخليفةُ يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة من السنة جلوسًا عامًا، وحضر وجوهُ عسكر السلطان، وأعيان بغداد، وحضر السلطان والخليفة جالس على سريرٍ عالٍ من الأرض، نحو سبعة أذرع، وعليه بُردة النبيّ ﷺ، وبيده القضيب الخيزران، فقبّل السلطان الأرضَ ويد الخليفة، وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامد لفعلك، مستأنِس بقربك، وقد ولاّك جميع ما ولاّه الله من بلاده، ورد إليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاّك، واعرِف نعمتَه عليك في ذلك، واجتَهد في نشر العدل، وكفْ الظلم، وإصلاح الرعية، فقبَّل الأرض، وأمر الخليفةُ بإفاضة الخِلَع عليه، فقام إلى موضع لَبسها فيه، وعاد فقبّل يد الخليفة، ووضعها على عينيه، وخاطبه الخليفة بملكِ المشرق والمغرب، وأعطى العهد، وخرج، فأرسل إلى الخليفة هدية كبيرة، منها خمسون ألف دينار، وخمسون مملوكًا أتراكًا، من أجود ما يكون بخيولهم وسلاحهم، وغير ذلك من الثياب، وغيرها.

ذكر مفارقة إبراهيم ينال الموصل
وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي سنة خمسين وأربعمائة فارق إبراهيم ينال الموصل، وتوجه نحو بلاد الجبل، فنَسب السلطان رحيله إلى العصيان وأرسل إليه يستدعيه، وبعث الفرجية التي خلعها عليه الخليفة، وكتب الخليفةُ أيضًا إليه كتابًا، فرجع إبراهيم إلى السلطان، وهو ببغداد، فخرج الوزير الكندري لاستقباله، وأرسل الخليفة إليه الخِلَع، ولما فارق إبراهيم الموصل استولى عليها البساسيري، كما قدمناه، فسيّر السلطان إليها جريدة في ألفي فارس، وكان قد فرق عساكره بسبب النوروز، فارقها البساسيري ومن معه، فسار

(١) الفرجيّة: ثوب واسع طويل الأكمام يتزيا به علماء الدين.

السلطان إلى نصيبين، ليتبع آثارهم، ويخرجهم من البلاد، ففارقه أخوه إبراهيم ينال، وسار نحو همذان، فوصل إليها، لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة، وقد قيل: إن المستنصر كاتبه، وكاتب البساسيري، وأطمعه في السلطنة والبلاد، ففعل ذلك، وسار السلطان في أثَره، وهو في قلَّة من العسكر، وكان إبراهيم قد اجتمع له كثير من الأتراك، وحلف لهم أنه لا يصالح أخاه طُغرلبك، ولا يكلِّفهم المسير إلى العراق، فلم يقو السلطان له، وأتى إلى إبراهيم محمد، وأحمد ابنا أخيه أرتاش في خلق كثير، فازداد بهم قوة، وازداد طغرلبك ضعفًا، فانزاح بين يديه إلى الريّ، وكاتب ألب أرسلان، وياقوتي وقاورد بك أولاد أخيه، وكان داود قد مات على ما نذكره، وملك بعده ابنه أرسلان خراسان، واستدعاهم، فقدموا إلى عمّهم طغرلبك بالعساكر الكثيرة، فلقي إبراهيم بالقرب من الريّ، فانهزم إبراهيم، ومن معه، وأُخذ أسيرًا هو، ومحمد، وأحمد ابنا أخيه، فأمر السلطان به، فخنق بوتر قوسه في تاسع جُمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين، وقتل ولدي أخيه، وفي أثناء هذه السنة عند اشتغال السلطان طغرلبك بحرب أخيه إبراهيم، استولى البساسيري على بغداد، وأخرج الخليفة منها، وكان ما قدمناه في أخبار القائم بالله، وكان إبراهيم ينال قد خرج على أخيه مرارًا، وهو يقدِرُ عليه، ويعفو عنه، وإنما قتله في هذه الواقعة لأنه علم أن الذي جرى على الخليفة كان بسببه، ولما فرغ طغرلبك من أمر أخيه، عاد إلى العراق، وأعاد الخليفة إلى بغداد، وكان ما قدمناه من مقتل البساسيري.

ذكر وفاة جغري بك داود صاحب خراسان، وملك ابنه ألب أرسلان

كانت وفاته في شهر رجب سنة إحدى وخمسين، وقيل في صفر سنة اثنين وخمسين وأربعمائة، وعمره نحو سبعين سنة، كان له خراسان، وكان حسن السيرة معترفًا بنعمة الله عليه، شاكرًا عليها؛ فمن ذلك أنه أرسل إلى طغرلبك مع عبد الصمد[1] قاضي سرخس، يقول: قد بلغني إخرابُك للبلاد التي فتحتها وملكتها، وجلاء أهلها عنها، وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر الله تعالى، في بلاده وعباده، وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة، وإيحاش الرعية، وقد علمت أننا لقينا أعداءنا،

(١) هو ابن المأمون أبو الغنائم عبد الصمد بن علي بن محمد الهاشمي العباسي البغدادي... كان ثقة نبيلًا مهيبًا تعلوه سكينة ووقار. توفي سنة ٤٦٥هـ وله تسع وثمانون سنة، سمع جده أبا الفضل بن المأمون والدارقطني وجماعة... (شذرات الذهب ٣:٣١٩).

ونحن في ثلاثين رجلًا، وهم في ثلاثمائة، فغلبناهم، ثم كنا في ثلاثمائة، وهم في ثلاثة آلاف، فغلبناهم، ثم كنا في ثلاثة آلاف، وهم في ثلاثين ألفًا، فدفعناهم، وقاتلنا بالأمس شاه ملك، وهو في أعداد كثيرة فقهرناه، وأخذنا مملكته بخوارزم، وهرب بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به، وأسرناه، وقتلناه، واستولينا على ممالك خراسان، وسجستان، وصرنا ملوكًا متبوعين، بعد أن كنا أصاغر تابعين، وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها بهذه المقابلة، فقال طُغرُلبك: قل له في الجواب: بأخي أنت ملكت خراسان، وهي بلاد عامرة، فخربتها، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتُها، وأنا وردتُ بلادًا أخربها من تقدمني، واجتاحها من كان قبلي، فما أتمكن من عمارتها، والأعداء حيطة بها، والضرورة تقود إلى طرْقها بالعساكر، فلا يمكن دفع مضرتهم عنها.

ولداود مناقب كثيرة، وكان له من الأولاد: ألب أرسلان، وياقوتي، وسليمان، وقاورد بك. ولما مات ملك بعده ابنه ألب أرسلان، وتزوج طغرلبك بزوجة أخيه داود، وهي والدة سليمان، ووصّى له بالملك بعده، وفي سنة اثنين وخمسين توفيت زوجة السلطان طغرلبك، فوجد[1] عليها وجدًا شديدًا، ونقل تابوتها إلى الريّ.

ذكر زواج السلطان طغرلبك بابنة الخليفة

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة عقَد السلطان طغرلبك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وكانت الخِطبة تقدَّمت في سنة ثلاث وخمسين، مع أبي سعيد قاضي الريّ، فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمد التميمي، وأمره أن يستعفي، فإن أعفي والاكم الأمر، على أن يحمل السلطان ثلاثمائة ألف دينار، ويسلم «واسط» وأعمالها، فلما وصل إلى السلطان ذَكَر لعميد الملك الكندري الوزير ما ورد فيه من الاستعفاء، فقال: لا يحسن أن يردَّ السلطان، وقد سأل وتضرَّع، ولا يجوز أيضًا مقابلتهُ بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما يطلب منه، فقال له التميمي: الأمر لك، ومهما فعلته فهو الصواب. فبُنِي الأمر على الإجابة، وطالع به السلطان، فسرّ به وجمع الناس، وعرفهم أن هِمَّته قد سمت إلى الاتصال بهذه الجهة النبوية، وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك، وتقدَّم إلى الوزير عميدِ الملك أن يسير، معه أرسلان خاتون ابنة أخيه داود، وهي زوجة الخليفة القائم بأمر الله، وأن يصحبها مائة ألف دينار برسم الجمل، وما شاكلها من الجواهر، وغيرها، ووجه معه فرامرز بن

(١) وجد عليها: حزن.

كاكويه، وغيره من وجوه الأمراء، وأعيان الريّ، فلما وصلوا امتنع الخليفة من الإجابة، وقال: إن أعفينا، وإلا خرجنا من بغداد، فقال عميد الملك: «كان الواجب الامتناع من غير اقتراح وعد الإجابة إلى ما طلب، فالامتناع سعي على دمي»، وأخرج خيامه إلى النهروان فاستوقفه قاضي القضاة، والشيخ أبو منصور بن يوسف فانهيا إلى الخليفة عاقبه انصرافه، فكتب الخليفة إلى عميد الملك يقول: نحن نرد الأمر إلى رأيك، ونعوّل على أمانتك ودينك، فحضر يومًا عند الخليفة، ومعه جماعة من الأمراء، والحجّاب، والقضاة والشهود، فتكلم، وقال للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين، التطوّل بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب ليعرفه الجماعة، فغالطه، وقال: قد سطر في المعنى ما فيه كفاية، فانصرف عميد الملك، ورحل في السادس والعشرين من جُمادى الآخرة، وأخذ المال معه إلى همذان، فكتب السلطان إلى قاضي القضاة، وإلى الشيخ أبي منصور بن يوسف يعتب، ويقول: هذا جزائي من الخليفة الذي قتلتُ أخي في خِدمته، وأنفقت مالي في نُصرته، وأهلكت خواصّي في محبته، وأطال العتاب، فعاد الجواب بالاعتذار، وطلب السلطان طغرلبك ابنة أخيه زوجة الخليفة؛ لتعاد إليه، وجرى ما كاد يقضي إلى الفساد الكلي، فلما رأى الخليفة شدّة الأمر أذن في ذلك، وكتب الوكالة باسم عميد الملك الوزير، وكان العقد في شعبان سنة أربع وخمسين بظاهر تبريز، وهذا ما لم يجْرِ مثله، فإن بني بويه مع تحكّمهم على الخلفاء ما طمعوا بمثل هذا، وحمل السلطان أموالاً كثيرة، وجواهر نفيسة للخليفة، ولولي العهد، وللجهة المطلوبة، ولوالدتها، وغيرهم.

ذكر وصول السلطان إلى بغداد ودخوله بابنة الخليفة

وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة في المحرم توجه السلطان طغرلبك من أرمينية إلى بغداد، وأراد الخليفة أن يستقبله، فاستعفى من ذلك، ووصل عميد الملك إلى الخدمة، وطالب بالجهة، فقيل له: خطك موجود بالشرط، وأن المقصود بهذه الوصلة التشريف لا الاجتماع، وإنه إن كانت مشاهدة، فتكون في دار الخلافة، فقال للخليفة: السلطان يفعل هذا، ولكن يفرد له من الدور والمسكن ما يكفيه، ومن خواصّه، وحجابه، ومماليكه، فإنه لا يمكنه مفارقتهم، فحينئذ نُقِلت إلى دار المملكة في منتصف صفر، وجلست على سرير ملبس بالذهب، ودخل السلطان إليها، وقبّل الأرض، وخدمها، ولم يكشف الخمار عن وجهها، ولا قامت هي له، وحمل لها أشياء كثيرة من الجواهر، وغيرها، وبقي يحضر في كل يوم، ويخدم، وينصرف، وعُمل السِّماط عدّةَ أيام، وخلع على عميد الملك، وجميع الأمراء.

ذكر وفاة السلطان طغرلبك وشيء من سيرته

كانت وفاته بالريّ في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وكان قد سار من بغداد في شهر ربيع الأول إلى بلد الجبل، ومعه أرسلان خاتون ابنة أخيه داود، وهي زوجة الخليفة لأنها شكت إليه اطِّراح الخليفة لها، واتفق مرضه، فمات، ونقل إلى مرو، ودفن عند قبر أخيه داود، وكان عمره سبعين سنة تقريبًا، ومدة ملكه منذ خطب له بنيسابور في شعبان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وإلى أن توفي سبعة وعشرين سنة، وأيامًا، ومنذ ملك بغداد سبع سنين، وأحد عشر شهرًا، واثنا عشر يومًا، وكان عاقلاً حليمًا من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتمانًا لسره، وكان يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنين، والخميس، وكان ملبسُه البياض إلا أنه كان فيه ظلم وقساوة، وكان أصحابه يغصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة في ذلك، فلا يمنعهم، وكان عقيمًا لم يولد له.

وزراؤه: أول من وزر له أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني في سنة ست وثلاثين وأربعمائة، ثم وزر بعده رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك أبو نصر الكندري[(١)]، وهو أشهر وزرائه، وإنما اشتهر دون غيره من وزرائه؛ لأن السلطان طغرلبك عظمت دولته في وزارته، وملك العراق، وخطب له بالسلطنة، وقد تقدم من أخبار هذا الوزير ما يدل على تمكنه، والله أعلم.

ذكر أخبار السلطان عضد الدولة

هو ألب أرسلان أبو شجاع محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجق، وهو الثاني من ملوك الدولة السلجقية، ومعنى اسمه رجل أسد، واللام والباء في ألب مفخمتان. ملك خراسان بعد وفاة أبيه داود في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وقيل في صفر سنة اثنتين وخمسين، وملك العراق وغيره بعد وفاة عمه السلطان طغرلبك في سنة خمس وخمسين، وكان طغرلبك قد نصَّ على تولية سليمان ابن أخيه داود أخي ألب أرسلان لأن أمه كانت عنده، فتبع هواها فيه، فلما مات السلطان طغرلبك نفَذ الوزير عميد الملك وصيته فيه، وأجلس سليمانَ في السلطنة،

---

(١) هو أبو نصر محمد بن منصور بن محمد، الملقب عميد الملك الكندري، كان من رجال الدهر جودًا وسخاءً وكتابة وشهامة. . . (وفيات الأعيان ٥: ١٣٨).

فاختلف الأمراء عليه، ومضى بعضهم إلى قزوين، وخطب لعضد الدولة، فلما رأى عميدُ الملك فساد الحال، وميلَ الناس إلى عضدُ الدولة، أمر بالخطبة له بالريِّ، ثم من بعده لسُليمان، وما اتصل بألب أرسلان الخبر بوفاة عمه جمع العساكر، وسار نحو الريّ، فلما قرب منها خرج إليه الوزير عميد الملك، وأظهر طاعته، واستقرت السلطنة له بمفرده.

ذكر القبض على عميد الملك الوزير وقتله

قال: ولما استقر ملك عضد الدولة، قبض على الوزير عميد الملك الكندري، وسبب ذلك أنه لما رأى ميل الناس إليه، وانقيادهم لأمره خافه، فأمر بالقبض عليه، وأنفذه إلى مرو الروذ، واعتقله بها سنة، ثم أمر بقتله، وكان هذا الوزير كثير البغض للشافعي وأصحابه، وكان خصيًا خصاه طغرلبك لأنه أرسله يخطب له امرأة، فتزوَّجها، وعصى عليه، فلما ظَفِر به خصاه، وأقره على خدمته، وقيل: بل أعداؤه أشاعوا عنه أنه تزوَّجها، فخصى نفسه ليبرأ مما قيل فيه. قال المؤرخ: ومن العجب أن ذكره دفن بخوارزم لما خصي، ودمه مسفوح بمرو، وجسده مدفون بِكُنْدر[١]، ورأسه ما عدا قحفه[٢] مدفون بنيسابور، ونقل قحفه إلى كرمان، ولما عرض على القتل، قال لقاتله: قل لنظام الملك بئسما عودت الأتراك قتل الوزراء، وأصحاب الديوان، قال: ولما قبض السلطانُ ألب أرسلان على الوزير عميد الملك أمر بعودة ابنة الخليفة إلى بغداد، وأعلمها أنه ما قبض عليه إلا لكونه نقلها من بغداد إلى الريّ بغير رضا الخليفة، وأمر الأمير أيتكين السليماني بالمسير في خدمتها والمقام شحنة ببغداد، وأنفذ أبا سهل محمد بن هبة المعروف بابن الموفق، وأمره بالسير في الصحبة، ومخاطبة الخليفة في الخطبة له، فمات بالجدري قبل وصوله، فأرسل العميد أبا الفتح بن المظفر بن الحسين، فمات أيضًا في الطريق، فأرسل رئيس العراقيين، فوصل إلى بغداد في نصف شهر ربيع الآخر، واقترح السلطان أن يخاطب: بالولد المؤيد، فأجيب إلى ذلك، ولقب ضياء الدين عضد الدولة، وجلس الخليفة جلوسًا عامًا في سابع جمادى الأولى، وشافه الرسل بسلطنة ألب أرسلان، وسلمت الخلع

---

(١) كندر: موضعان أحدهما قرية من نواحي نيسابور من أعمال طريثيث... وكندر أيضًا: قرية قريبة من قزوين.

(٢) القحف: أحد أقحاف ثمانية تكون علبة عظمية هي الجمجمة، وفيها الدماغ.

عليهم، وأرسل من الديوان لأخذ البيعة النقيب طرادًا الزينبي؛ فوصلوا إليه، وهو بنَقْجُوان[١] من أذربيجان، فلبس الخلع، وبايع الخليفة.

ذكر ملك عضد الدولة ختلان، وهراة، وصغانيان

كان أمير ختلان[٢] بعد وفاة السلطان طغرلبك عصى بالقلعة، ومنع الخراج، فقصده السلطان، فوجد الحصن منيعًا، فحاصره، ثم قتل صاحب الحصن بسهم جاءه، وهو على شرفة من شرفات السور، فهلك، وملك ألب أرسلان الحصن، وكان فخر الملك بيغو بن ميكائيل في هراة، فعصى أيضًا عليه، وطمع في الملك لنفسه، فسار إليه، وحصره، وضيّق عليه، وأدام القتال ليلًا ونهارًا، فسلم المدينة، وخرج إلى ابن أخيه، فأكرمه، وسار إلى صغانيان، وأميرها موسى، وكان قد عصى عليه، فلما وصل لم ينتصف النهار حتى ملك القلعة قهرًا، وأمر قتل موسى، فبذل في نفسه أموالاً كثيرة، ثم عاد السلطان إلى مرو، ثم منها إلى نيسابور.

ذكر الحرب بين السلطان وبين شهاب الدولة قتلمش وموته

كان شهاب الدولة قُتُلْمِش بن سلجق قد عصى على طُغرُلبك، فلما مات جمع عساكره، وقصد الريّ، واستولى عليها، فسار السلطان من نيسابور في أول المحرم سنة ست وخمسين، فوصل إلى دامغان، وأرسل قتلمش يتنكر عليه، وينهاه، فأجاب بجواب غير مرض، ونهب قرى الريّ، وأجرى الماء على وادي[٣] الملح، وهي سبخة، فتعذر على السلطان سلوكها، فجاء، وخاض في الماء بعسكره، ولقيه، واقتتلوا، فلم تثبت عسكر قتلمش، ومضى هو إلى قلعة كردكوه، وكانت من حصونه، واستولى القتل والأسر على عسكره، ثم عفا السلطان عنهم بشفاعة نظام الملك، فلما سكن الغبار، ونزل العسكر، وجد قلتمش ميتًا لم يُدْر كيف كان موته، فقيل إنه مات من الخوف، فبكى السلطان لموته، وجلس لعزائه، وعظم عليه فقده، وقتلمش هذا هو جد الملوك السلجقية ملوك الروم، وكان قتلمش يعلم علم النجوم، يعلمه أولاده من بعده، فزادوا فيه، فنالهم به غضاضة في دينهم.

---

(١) نقجوان: بلد بأقصى أذربيجان.

(٢) ختلان: بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند... (معجم البلدان).

(٣) الملح: بكسر أوله: على فراسخ يسيرة من خوار الريّ والعجم يسمونه ده نمك أي قرية الملح.

ذكر فتح مدينة آني، وغيرها من بلاد النصرانية

قال: وسار ألب أرسلان من الريّ إلى أذربيجان في أول شهر ربيع الأول، وقد عزم على جهاد الروم، وغزوهم، فأتاه أمير من الروم كان يكثر غزوهم اسمه طغركين، ومعه من عشِيرته خَلق كثير قد ألفوا الجهاد، وخبروا تلك البلاد، وحثه على قصد بلاد الروم، وضمن له سلوك الطريق المستقيم، فسار معه فوصل إلى نَقْجُوان، وأمر بعمل السّفن لعبور النهر، وجمع العساكر، وسار إلى بلاد الكرج، وجعل مكانَه في عسكره ولده ملكشاه، والوزير نظام الملك، فساروا إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم، فحاصروها، فملكها المسلمون، وقُتِل أميرُها، وساروا منها إلى قلعة سمارس. وهي قلعة فيها الأنهار الجارية، والبساتين، فملكوها، وفتحوا قلعة أُخرى بالقرب منها، وشحنوها بالرجال والذخائر والأموال، والسلاح وسلم هذه القلاع إلى أمير نقجوان، ثم سار إلى مدينة مريم ونسين، وفيها كثير من الرهبان والقسوس، وملوك النصارى، وعامتهم يتقربون لأهل هذه البلد، وهي مدينة حصينة، وسورها من الحجر المبني بالرصاص والحديد، وعندها نهر كبير؛ فأعدّ نظام الملك السفن لقتال من بها، وداوم القتال ليلاً ونهارًا إلى أن يسّر الله فتحها، وأحرقوا البيع، وقتلوا كثيرًا من أهلها، وأسلم كثير، فنجوا من القتل، ثم استدعى السلطان ابنه، والوزير، فسارا إليه، ففرح بما يسَّره الله من الفتح على يد ملِكشاه ابنه، وفتح عدة من الحصون في طريقه، وأسر من النصارى ما لا يُحصى كثرة، وساروا إلى سيبد سهر[1]، فجرى بين أهلها، وبين المسلمين حروب شديدة، ثم يسَّر الله فتحها، وملكها السلطان، وسار منها إلى مدينة أعال لال، وهي حصينة عالية الأسوار شاهقة، وهي من جانبيها الشرقي والغربي على جبل عال، وعليه عدَّة من الحصون، ومن الجانبين الآخرين نهر كبير لا يخاض، وكان ملكها من الكرج، فجرى عليها حروب عظيمة، ويسّر الله فتحها، واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فأحرقه السلطان بالنار، وغنم المسلمون من المدينة ما لا يحصى، وخرجوا إلى خيامهم، فلما جنّ الليل عصفت الريح، فاحترقت المدينة من نار البرج، وذلك في شهر رجب سنة ست وخمسين وأربعمائة، وملك السلطان قلعة

(١) سهر: قرية كبيرة ذات جامع مليح ومنارة من قرى أصبهان ثم من ناحية خانلنجان. . . (معجم البلدان).

حصينة كانت إلى جانب المدينة، وأخذ ما فيها، وسار منها إلى ناحية قرش[١]، مدينة آني[٢] وبالقرب منها بسل ورده. وجوده، فخرج أهلها مذعنين معلنين بالإسلام، وخربوا البيع، وبنوا المساجد، وسار منها إلى مدينة آني، فرآها حصينة لا تُرام. ثلاثة أرباعها على نهر أرس[٣]، والربع الآخر على نهر عميق شديد الجرية لو طرحت الحجارة فيه لحملها، والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصمّ، وهي مدينة عامرة آهلة، فحصرها، وضيَّق على من بها إلا أن المسلمين أيسوا من فتحها لما رأوا من حَصَانتها، فأتى من لطف الله تعالى ما لم يكن في حساب، وانهدم من السّور قطعة كبيرة لم يعلم سبب هدْمِها، فدخل المسلمون في المدينة، وقتلوا من أهلها ما لا يُحصى كثرة، وأسروا نحوًا مما قتلوا، وسارت البشائر بهذا الفتح في البلاد، وقرىء كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة، فبرز خط الخليفة بالثناء على ألب أرسلان، والدعاء له، فرتب السلطان بالمدينة أميرًا في عسكر جرار، وعاد عنها، وقد راسله ملك الكرج في الهدنة، وصالحه على أداء الجزية في كل سنة، وعاد السلطان إلى أصفهان، وكرمان، ثم إلى مرو، وزوّج ابنة مَلِكشاه بابنة خاقان ملك ما وراء النَهر، وزُفت إليه في هذه السنة، وزوّج ابنه أرسلان شاه بابنة صاحب غزنة، فاتحد البيت السلجقي والمحمودي، واتفقت الكلمة.

وفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة ابتدىء بعمارة المدرسة النظامية ببغداد، وكملت عمارتها في سنة تسع وخمسين، وتقرر التدريس بها للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، فلما اجتمع الناس لحضور الدروس طُلب، فلم يوجد، وكان سببُ تأخره أنه لقيه صبيّ، فقال: «كيف تدرس في مكان مغصوب؟»، فلم يحضر، فلما أيس الناس من حضوره درس بها أبو نصر الصبّاغ[٤] صاحب كتاب الشامل، ثم تلطف نظام الملك بالشيخ أبي إسحاق، حتى درَّس بها بعد عشرين يومًا.

---

(١) لعلها: قرص (كما في معجم ياقوت): مدينة بأرمينية من نواحي تفليس.

(٢) آني: بالنون المكسورة: قلعة حصينة ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة.

(٣) نهر أرس، أو نهر الرس، ويخرج من أقاصي بلاد الروم.

(٤) هو أبو نصر عبد السيد ابن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر، المعروف بابن الصباغ، الفقيه الشافعي... وكان تقيًا حجة صالحًا، ومن مصنفاته كتاب «الشامل» في الفقه، وهو من أجود كتب أصحابنا، وأصحها نقلًا وأثبتها أدلة. وله كتاب «تذكرة العالم والطريق السالم» و«العدة» في أصول الفقه... (وفيات الأعيان ٣:٢١٧).

ذكر تقرير ملكشاه في ولاية العهد بالسلطنة من بعد أبيه وتقرير البلاد باسم أولاد السلطان وإخوته

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة سار السلطان ألب أرسلان من مرو إلى أرزكان، ونزل بظاهِرِها، ومعه جماعة من أمراء دوْلته، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لولده ملكشاه بأنه السلطان من بعده، وركبه، ومشى بين يديه يحمل الغاشية[١]، وخَلع السلطان على جميع الأمراء، وأمر بالخطبة له في جميع بلاده، وأقطع البلاد: ومازندران للأمير أينانج بيغو، وبلخ لأخيه سليمان بن داود جغري بك، وخوارزم لأخيه أرسلان أرغو ومرو لابنه أرسلان شاه، وصغانيان وطخارسان لأخيه إلياس، وولاية بغْشُور[٢]، ونواحيها لمسعود بن أرتاش، وهو من أقارب السلطان.

ذكر عصيان ملك كرمان، وعوده إلى الطاعة، وطاعة حصون فارس

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة عصى قرا أرسلان ملك كرمان على السلطان، ونزع الطاعة، وسبب ذلك أن وزيره حسّن له هذا الفعل، فظن أنه يقدر على الاستبداد بالأمر، فسار السلطان ألب أرسلان إليه، والتقت مقدمته بمقدمته، فانهزم أصحاب قرا أرسلان بعد قتال، وسار لا يلوي على شيء، فوصل إلى قلعة، وامتنع بها، وراسل السلطان في طلب الأمان، وبذل الطاعة، فأمّنه، وحضر إليه، فأكرمه، وأعاده إلى مملكته، فقال قرا أرسلان للسلطان: إن لي بنات، وقد جعلت أمرهُنَّ إليك، وتجهيزهن، فأعطى السلطان إلى كل واحدة منهن مائة ألف دينار سوى الثياب، ثم سار السلطان منها إلى فارس، فوصل «إصطخر»[٣]، وفتح قلعتها، واستنزل واليها، فحمل إليه الوالي هدايا عظيمة جليلة المقدار من جملتها قدح فيروزج مكتوب عليه اسم جمشيد الملك، وأطاعه جميع حصون فارس، وبقيت قلعة هناك يقال لها: بهبزاذ، فسار نظام الملك إليها، وحصرها، ففتحها في اليوم السادس عشر من منازلتها، ووصل السلطان إليها بعد الفتح، فعظم محل نظام الملك عنده، وعلت منزلته، وزاد في تحكمه، والله أعلم بالصواب.

---

(١) الغاشية: كسية توضع على السرج لتغطيته حين يترجل الراكب، وكانت امتيازًا يمنح للعظماء.

(٢) بغشور: بضم الشين المعجمة، وسكون الواو، وراء: بليدة بين هراة ومرو الروذ... ويقال لها بغ أيضًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) إصطخر: هي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها... (معجم البلدان).

ذكر إقامة الخطبة بحلب

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة خطب تاج الملوك محمود بن نصر بن مرداس بحلب للخليفة القائم بأمر الله، وللسلطان ألب أرسلان، وسبب ذلك أنه لما رأى انتشار الدولة السلجقية، وقوتها، وإقبالها، جمع أهل حلب، وقال: هذه دولة جديدة، ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأْتي وقت لا ينفعنا فيه ذلك، فأجاب مشايخ البلد، ولبس المؤذنون السواد، وخطب لهما، فأخذت العامة حُصر الجامع، وقالوا: هذه حصر علي بن أبي طالب، فليأْت أبو بكر بحصر يصلّي عليها بالناس، وأرسل الخليفة: إلى محمود الخِلع مع نقيب النقباء طِراد بن محمد الزينبي، والله أعلم.

ذكر استيلاء السلطان على حلب

وفي سنة ثلاث وستين أيضًا سار السلطان إلى حلب، وجعل طريقه على ديار بكر، فخرج إليه صاحبُها نصر بن مروان، وخدمه بمائة ألف دينار، وحمل إليه إقامة بلغ السلطان أنه بسطها على البلاد فأمر بردِّها، ووصل إلى آمد، فرآها ثغرًا منيعًا، فتبرك به، وجعل يمر بيده على السور، ويمسح بها صدره، وصار إلى الرُّها، فحصرها، فلم يظفر منها بطائل، فسار إلى حلب، فسأل صاحبها محمود نقيب النقباء رسول الخليفة أن يخرج إليه، ويعلمه أنه لبس بخلع الخليفة واستعفاه من الحضور، فقال: لا بد من حضوره، وأن يبطل الأذان بحي على خير العمل، فامتنع محمود، واشتد الحصار على البلد، وغلت الأسعار، وزحف السلطان يومًا، فوقع حجر منجنيق على فرسه، فلما عظم الأمر على محمود صاحب حلب خرج ليلاً هو وأُمه، ودخلا على السلطان، وقالت له: هذا ولدي تفعل به ما تحب، فتلقاهما بالجميل، وأحسن إلى محمود، وخلع عليه، أعاده.

ذكر خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره

ولما عاد السلطان من حلب وصل إلى مدينة «خُويّ»[1] من أذربيجان، فبلغه خروج أرمانوس ملك الروم في مائتين ألوف من الروم، والفرنج والعرب المتغره،

---

(١) خويّ: بلد مشهور من أعمال أذربيجان حصن كثير الخير والفواكه، ينسب إليها الثياب الخوية. . . (معجم البلدان).

والكرج، والروس، وغيرهم من طوائف تلك البلاد، وأنه وصل إلى بلاد «خلاط»[١]، فلم يتمكن السلطان من جمع العساكر لبعدها، وقرب العدو، فسيّر أثقاله مع نظام الملك إلى همذان، وسار هو، فيمن معه من العسكر، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجدّ في السير، وجعل له مقدمة، فالتقت بمقدمة العدو، وهم عشرة آلاف فارس من الروس، فقاتلوهم، فانهزم الروس، وأسر مقدمهم، وحمل إلى السلطان، فجدع أنفه، وأرسل إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة، فأجاب: لا هدنة إلا «بالريّ»، فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة ركب السلطان، وقال لأصحابه: من أراد الانصراف، فلينصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهي، وبكى، وأبكى، ورمى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض، وتحنّط، وقال: إن قتلت، فهذا كفني، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وزحف إلى الروم، وزحفوا له، فلما قاربهم ترجّل، وعفر وجهه في التراب، وبكى، وأكثر من الدعاء، ثم ركب وحمل، فأعطى الله النصر للمسلمين، فقتلوا من العدو ما لا يحصى كثرة، وأسر ملك الروم، أسره بعض غلمان كوهراتين، ولم يعرفه، وأراد قتله، فقال له خدم معه: هذا الملك لا تقتله، وكان هذا الغلام قد عرض على عضد الدولة، فلم يجز عرضه استحقارًا له، فشكره كوهراتين، فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرًا، فكان كذلك، فلما أسره الغلام أحضره إلى مولاه كوهراتين، فأحضره إلى السلطان، فضربه السلطان ثلاث ضربات بالمقرعة، وقال: ألم أرسك إليك في الهدنة، فأبيت، فقال: دعني من التوبيخ، وافعل ما تريد، فقال السلطان: ما عزمت أن تغفل بي إن أسرتني؟ فقال: كنت أفعل كل قبيح، قال: فما تظن أني أفعل معك؟ فقال: إما أن تقتلني، وإما أن تشهرني في البلاد، والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبول الأموال، واصطناعي باتباعك، وقال: ما عزمت على غير هذا، ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وقطيعة في كل سنة ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار، وإطلاق كل أسير في بلاد الروم من المسلمين، وأن ينفذ إليه عساكر الروم متى طلبها، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله السلطان في خيمة، وأطلق له جماعة من أُسر من البطارقة، وخلع عليه من الغد، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وقام ملك الروم إلى جهة الخليفة، وكشف رأسه، وأومأ إلى الأرض بالخدمة، ثم جهز السلطان معه عسكرًا يوصله إلى مأمنه، وَشَيَّعه فرسخًا،

(١) خلاط: بكسر أوله، وآخره طاء مهملة: بلدة عامرة مشهورة... وهي قصبة أرمينية الوسطى.. بينها وبين غزنة مسافة أربعة أشهر... (معجم البلدان).

وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة، وملك البلاد، فلما وصل أرمانوس الملك إلى قلعة دوفنه، بلغه الخبر، فلبس الصوف، وأظهر الزهد، وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرر بينه وبين السلطان، فأجاب ميخائيل بإيثار ما استقر، وجمع أرمانوس ما عنده من المال، فكان مائة ألف دينار، وطَبق عليه جواهر بتسعين ألف دينار، فحمل ذلك إلى السلطان، وحلف أنه لا يقدر على غيره، ومضى أرمانوس بمن معه إلى بلاد الأرمن، فملكها، وقتل ملكها، وأرسل رأسه إلى بغداد، ودعا للسلطان بها.

ذكر ملك أتسز بيت المقدس والرملة ودمشق

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة قصد أتسز بن أوق الخوارزمي، وهو من أمراء السلطان ملكشاه، فجمع الأتراك، وسار إلى فلسطين، ففتح الرملة، وسار منها إلى بيت المقدس، وحصره، وفيه عساكر المصريين، ففتحه، وملك ما يجاورهما من البلاد ما عدا عسقلان[(١)]، وقصد دمشق، فحصرها، وتابع النهب لأعمالها حتى خرَبها، وقطع الميرة عنها، ولم يقدر عليها، ثم فتحها في سنة ثمان وستين وأربعمائة في سلطنة ملكشاه في خلافة المقتدي، وذلك أنه جعل يغير عليها في كل سنة، ويقصد أعمالها عند إدراك المُغَلُ، فيقوى هو وعسكره، ويضعف أهل دمشق وجندها، ثم حصر دمشق في شهر رمضان سنة سبع وستين، وأميرها يوم ذاك المعلّى بن حيْدرة من قبل المستنصر صاحب مصر، فعجز عن فتحها، فانصرف عنها في شوال، واتفق أن أميرها المعلّى أساء المسيرة مع الجند والرعية، فثار به العسكر، فهرب إلى «بانياس»، ثم منها إلى «صور»، ثم سار إلى مصر، فحبس بها حتى مات، ولما هرب من دمشق اجتمعت المصامدة، وولوا عليهم انتصار ابن يحيى المصمودي المعروف: بزوين الدولة، واتفق وقوع غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضًا، ووقع الخلف بين المصامدة، وبين أحداث البلد، فعاد أتسز إلى دمشق، ونازلها في شعبان سنة ثمان وستين، وحصرها حتى عدمت الأقوات، فتسلمها عند ذلك بالأمان، ودخلها بعسكره في ذي القعدة، وخطب بها للمقتدي لخمس بقين من الشهر، وعوض عنها انتصار بقلعة بانياس، ومدينة «يافا» من الساحل.

---

(١) عسقلان: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم قاف، وآخره نون: وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحرين بين غزة وبين جبرين ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضًا... (معجم البلدان).

ذكر تزويج ولي العهد بابنة السلطان

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة، أرسل الخليفة القائم بأمر الله عميد الدولة ابن جهير إلى السلطان بالخلع له، ولولده ملكشاه، وأمره أن يخطب سفرى خاتون ابنة السلطان لولي العهد المقتدي بأمر الله، ففعل ذلك، فأُجيب إليه، وعقد النكاح بظاهر نيسابور، وكان عميد الدولة الوكيل في قبول النكاح، ونظام الملك الوكيل من قبل السلطان وكان النثار[١] من الجوهر..

ذكر ملك السلطان قلعة فضلون

وفي هذه السنة سيّر السلطانُ الوزير نظام الملك في عسكر إلى بلاد فارس، وكان بها حصن من أمتع حصونها، وفيه صاحبه فضلون، وهو لا يعطي الطاعة، فنازله، وحاصره، فامتنع، وقاتل، فلم تطل المدة حتى نادى أهل الحصن بطلب الأمان بغير سبب ظاهر ولا قتال، وظهر أن سبب ذلك أن جميع آبار الحصن غارت مياهها في ليلة واحدة، فأمنهم نظامُ الملك، وتسلَّم الحصن، وهرب فضلون إلى القلعة، ثم قبض عليه وجيء به إلى السلطان، فأحسن إليه، وأمنه، وأطلقه.

ذكر مقتل السلطان عضد الدولة ألب أرسلان، وشيء من سيرته

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان ما وراء النهر، فعقد جسرًا على جيحون، وعبر عليه في نيف وعشرين يومًا، وكان عسكره يزيد على مائتي ألف فارس، وكان ببعض القلاع رجل خوارزمي اسمه يوسف قد عصى، وتحصَّن بالقلعة، فبعث إليه السلطان جماعة، فحاصروه، وأخذوه، وأتوا به إلى السلطان، فأمر أن تضرب له أربعة أوتد، وتُشدَّ أطرافُه إليها، فقال يوسف: يا مخنَّث، مثلي يقتل هذه القتلة؟ فغضب لذلك، وأخذ القوس والنَشاب، ورماه ثلاث مرَّات، وهو يخطىء، وكان لا يخطىء في رمْيه، فوثب يوسف، وضربه بسكّين في خاصرته، وأدركه الجند، فقتلوه، وسدّ جرح السلطان، وعاد إلى جيحون وقال: ما من وجهٍ قصدته، وعدوٌ أردته إلا استعنت بالله عليه، فلما كان بالأمس صعدت على تل؛ فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد علي، فعجزّني الله تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله، وأستقيله من هذا الخطأ، وأحضر الوزير نظام الملك، والجند، وأوصاهم بولده ملكشاه، واستحلفهم له.

---

(١) النثار: ما ينثر في حفلات السرور من حلوى أو نقود.

وتوفي في عاشر شهر ربيع الأول، وحمل إلى «مرو»، فدفن بها عند أبيه، وكان مولده في سنة أربع وعشرين، فكان عمره أربعين سنة وشهورًا، وكانت مدة ملكه منذ خطب له بالسلطنة تسع سنين، وستة أشهر، وأيامًا.

وكان كريمًا عادلاً عاقلاً لا يسمع السعايات، وكان رحيم القلب، رفيقًا بالفقراء، كثير الصدقة، تصدَّق في شهر رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق من الفقراء في جميع مملكته عليهم الإدرارات، والصلات، ولم يسمع عنه بمصادرة بل قنع بالخراج والغنائم، قيل: إن بعض السعاة كتب إليه سعاية في نظام الملك الوزير، وذكر ما له من الرسوم والأموال، وترك الرقعة على مصلاه، فقرأها، ثم سلمها إلى نظام الملك، وقال له: إن كانوا صدقوا في الذي ذكروا، فحسّن أخلاقك، وإن كانوا كذبوا فاغفر لهم زلتهم، وأشغلهم بِمُهمٍّ يشتغلون به عن السعاية بالناس، وناهيك بهذه مكرمة.

وكان له من الأولاد: ملكشاه، وتكش، وإيار، وتُتشُ، وأرسلان أرغو، وتوزي برش، وسادة، وعائشة، وبنت أخرى.

وزيره: نظام الملك.

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموته حبس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء في صحن دار السلام، وملك بعده ابنه.

ذكر أخبار السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد ابن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجق

وهو الثالث من ملوك الدولة السلجقية.

ملك بعد وفاة أبيه في عاشر ربيع الأول سنة خمس وستين وأربعمائة، وكان والده قد حلّف له العساكر كما قدمناه، وكان ملكشاه قد صحب والده في هذه السّفرة، ولم يصْحبه في سفرة غيرها، فأوصاه والده أن يعطي عمه قاورد بك بن داود أعمالَ فارس، وكِرمان، وشيئا عيّنه من المال، وأن يزوج زوجته، وكان قاورد بك بكرمان، وأوصى بأن يعطي ابنَه إياز ما كان لأبيه داود، وهو خمسمائة ألفَ دينار، وقال: من لم يرض بما أوصيتُ له به، فقاتلوه، واستعينوا على حربه بما جعلتُ له، وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر، وقد تولّى تدبير دولته الوزيرُ نظامُ الملك وزير

أبيه، فعبر النهر في ثلاثة أيام، وزاد الأجناد سبعمائة ألف دينار، وعاد إلى خراسان، وقصد نيسابور، ومنها إلى الريّ، وكتب إلى ملوك الأطراف بإقامة الخطبة له، فخطب له. والله أعلم.

ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وبين عمه قاورد بك

قال: ولما بلغ قاورد بك وفاة أخيه، وكان بكرمان قصد الريّ ليستولي على المملكة، فسبقه إليها ملكشاه ونظام الملك، وسارا منها، فالتقوا بالقرب من همذان في رابع شعبان، واقتتلوا، فانهزم قاورد بك وعسكره، ثم أُسر، وجيء به إلى السلطان، فأمر بخنقه، وأقرّ كرمانَ بيد أولاده، وسيَّر لهم الخلع، فملك سلطانُ شاه ابن قاورد بك كرمان، وفوض السلطانُ جميع أُمور دولته إلى نظام الملك الوزير، ولقبه ألقابًا من جملتها: أتابك، ومعناه: الأمير الوالد، وأقطعه إقطاعًا وافرًا زيادة على ما كان له، من جملته طوس، وأحسن السيرة، وظهر من عدله ما لا مزيد عليه، وفي سنة ست وستين وأربعمائة. في ثالث صفر. ورد كوهراتين إلى بغداد من قبل السلطان ملكشاه، فجلس الخليفة القائم بأمر الله له مجلسًا عامًا، وسلم إليه عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة واللواء، وعقده الخليفة بيده، وفيها استعاد السلطان ترمذ من خاقان تكين وكان قد غلب عليها لما مات ألب أرسلان، فلما استقامت الأمور لملكشاه حصرها، واستعادها، وأخذ منها أخ الخاقان، فأكرمه، وأطلقه، وقصد سمرقند، ففارقها صاحبها، فأرسل يطلب المصالحة، واعتذر من تعرضه إلى ترمذ، فوقع الصلح بينهما، وعاد السلطان، وأقطعه بلخ، وطخارستان لأخيه شهاب الدين تكش.

ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان

وفي شعبان سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة سار ملكشاه إلى الريّ، وعرض العسكر، وأسقط منهم سبعة آلاف رجل، فقال له الوزير نظام الملك: هؤلاء الجند لم يكن منهم كاتب، ولا تاجر، ولا خياط وليس لهم صنعة غير الجندية، ولا نأمن أن يقدموا منهم رجلًا، ويقولوا هذا السلطان، فيكون لنا منهم شغل، ويخرج عن أيدينا أضعاف مالهم من الجاري إلى أن تظفر بهم، فلم يقبل السلطان نصحه، وقطعهم، فمضوا إلى أخيه تكش، فقوي بهم، وأظهر العصيان على أخيه، واستولى على مرو الروذ، ومرو الشاهجان، وترمذ، وغيرها، وسار إلى نيسابور طمعًا في ملك خراسان، فسبقه السلطان إليها، فعاد تكش، وتحصن بترمذ، وأسر جماعة من أصحاب السلطان، فقصده السلطان، فأطلقهم، واستقر الصلح بينهما، ونزل تكش عن ترمذ، ثم عاد إلى العصيان في سنة سبع وسبعين، وأخذه السلطان وسمله.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة مات للسلطان ملكشاه ولد اسمه داود، فجزع عليه جزعًا شديدًا، ومنع من دفنه حتى تغيرت رائحته، وأراد أن يقتل نفسه، فمنعه خواصه.

ذكر قتل أبي المحاسن بن أبي الرضا

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة في شوال قتل سيد الرؤساء أبو المحاسن بن كمال الملك أبي الرضا، وكان قد قرب من السلطان ملكشاه قربًا عظيمًا، وكان أبوه يكتب الطغراء[١]، فقال أبو المحاسن للسلطان: سلّم إليّ نظام الملك وأصحابه، وأنا أحمل إليك منهم ألف ألف دينار، فإنهم يأكلون الأموال، ويقتطعونها، وعظَم عنده ذخائرهم، وأموالهم، فبلغ ذلك نظام الملك، فعمل سماطًا عظيمًا، وأقام عليه مماليكه، وهم أُلوف من الأتراك، وأقام خيلهم، وجعل سلاحهم على جمالهم، فلما حضر السلطان، قال له: إني قد خدمتك، وخدمت أباك وجدك، ولي حق خدمة، وقد بلغك أخذي لعشر أموالك، وقد صدق الناقل، هذا أنا آخذه وأصرفه إلى هؤلاء الغلمان الذين جمعتهم لك، وإلى الصدقات، والصلات، والوقوف التي عظم ذكرها، وشكرها، وأجرها لك، وأموالي وجميع ما أملكه بين يديك، وأنا أقنع بمرقعة وزاوية، فأمر السلطان بالقبض على أبي المحاسن، وأن تسمل عيناه، وأنفذه إلى قلعة نساوة، وسمع أبوه كمال الملك الخبر، فاستجار بدار نظام الملك، فسلم، وبذل مائتي ألف دينار، وعزل عن الطغراء، ورتب مكانه مؤيد الملك ابن نظام الملك المقدم ذكره.

ذكر ملك السلطان حلب وغيرها

كان سبب ذلك أن سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم فتح أنطاكية، وكان بينه وبين شرف الدولة مسلم[٢] صاحب حلب وقعة قتل فيها شرف الدولة، ثم قتل سليمان، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار ملوك الروم السلجقية،

---

(١) الطغراء: الطرّة تكتب في أعلى الكتب والرسائل فوق البسملة، تتضمن نعوت الحاكم وألقابه، وأصلها طورغاي، وهي كلمة تترية استعملها الروم والفرس ثم أخذها العرب عنهم.

(٢) هو مسلم بن قريش بن بدران شرف الدولة أمير بني عقيل، صاحب الموصل والجزيرة وحلب. . . وكان رافضيًا اتسعت ممالكه ودانت له العرب وطمع في الاستيلاء على بغداد. . . (شذرات الذهب ٣: ٣٦٢).

فلما وقع ذلك كتب ابن الحبيبي مقدم حلب إلى السلطان ملكشاه يعلمه ذلك، ويستدعيه ليتسلمها خوفًا من تتش صاحب دمشق، فسار من أصفهان في جُمادى الآخرة سنة ست وسبعين وأربعمائة، وجعل طريقه على الموصل، فوصل إليها في شهر رجب، وسار منها إلى حرّان، فسلمها إليه ابن الشاطر، فأقطعها السلطان محمد بن شرف الدولة، وسار إلى الرّها، وهي بيد الروم، فحصرها، وملكها وسار إلى قلعة جعبر، فحاصرها يومًا وليلة، وملكها، وأخذ صاحبها جعبر، وهو شيخ أعمى، وولديه، وكانت الأذية بهم عظيمة يقطعون الطريق، ويلجؤون إليها، ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب، فملك في طريقه مدينة منبج، فلما قارب حلب رحل عنها أخوه تتش، وكان قد ملك المدينة، وسلك البرية، ومعه الأمير أرتق، فأشار عليه بكبس عسكر السلطان، فامتنع، وقال لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظل بظله، فإنه يعود بالوهن عليّ، وسار إلى دمشق، ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة والقلعة بعد أن امتنع مالك بن سالم بها، ثم سلمها على أن يعوضه غيرها، فعوضه قلعة جعبر، فبقيت في يده، ويد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وأرسل الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر(١) إلى السلطان، وبذل الطاعة، وسلم إليه اللاذقية، وكفر طاب(٢)، وأفامية(٣)، فأجابه السلطان إلى المسالمة، وترك قصده، وأقر عليه شيزر، ولما ملك السلطان حلب سلمها إلى قسيم الدولة آق سنقر، وهو جد نور الدين الشهيد، وقبل تسلمها في سنة ثمانين.

ذكر دخول ملكشاه بغداد

كان دخوله إلى بغداد في ذي الحجة سنة سبع وسبعين وأربعمائة بعد رجوعه من حلب، وهو أوَّل دخوله إليها، ونزل بدار المملكة، وركب من الغد إلى الخليفة، ولعب بالأكرة، ومضى إلى الصيد هو ونظام الملك في البرِّية، فاصطاد شيئًا كثيرًا من الوحوش والغزلان، وغير ذلك، وأمر ببناء منارة بقرون الغزلان، وحوافر الحمر

---

(١) شيزر: بتقديم الزاي على الراء، وفتح أوله: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم، وفي وسطها نهر الأردن... (معجم البلدان).

(٢) كفرطاب: بالطاء المهملة، وبعد الألف باء موحدة: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار... (معجم البلدان لياقوت).

(٣) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص.

الوحشية التي صادها. قال ابن خلكان[١] في وفيات الأعيان: «والمنارة باقية إلى الآن، وتعرف بمنارة القرون»، وعاد إلى بغداد، ودخل الخليفة المقتدي، فخلع عليه الخلع السلطانية، وفوض إليه أمر البلاد، والعباد، وأمره بالعدل، وطلب السلطانُ بأن يقبِّل يد الخليفة، فلم يجبه، فسأل أن يقبل خاتمه، فأعطاه، فقبله، ووضعه على عينيه، وأمره الخليفة بالعود، فعاد، ولما خرج من عنده لم يزل الوزير نظام الملك قائمًا يقدم أميرًا أميرًا إلى الخليفة، وكلما قدم أمير يقول: هذا العبد فلان، وإقطاعه كذا وكذا، وعدة عسكره كذا، إلى أن أتى على آخر الأمراء، فخلع الخليفة على نظام الملك، ودخل نظام الملك إلى المدرسة النظامية، وسمع الناس عليه الحديث بالمدرسة، وأقام ببغداد إلى صفر سنة ثمانين وسار إلى أصفهان.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة جعل السلطان ولي عهده ولده أبا شجاع، ولقبه ملك الملوك عضد الدولة تاج الملة عدة أمير المؤمنين، وأرسل إلى الخليفة أن يخطب له ببغداد، ويلقبه بهذه الألقاب، فخطب له في شعبان، ونثر الذهب على الخطباء.

ذكر ملك ملكشاه ما وراء النهر

وفي سنة اثنين وثمانين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر، وسبب ذلك أن سمرقند كان قد ملكها أحمد بن خضر خان أخو شمس الملك الذي كان قبله، وهو ابن أخي تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه، وكان ظالمًا قبيح الصورة كثير المصادرات للرعية، فنفروا منه، واستغاثوا بالسلطان، فسار من أصفهان، وكان قد حضر إليه رسول صاحب الروم بالجزية المقرَّرة عليه، فأخذه نظام الملك معه إلى ما وراء النهر، وحضر فتح البلاد، وإنما فعل ذلك ليؤرخ عنهم أن ملك الروم حمل الجزية من بلاده إلى كاشغر، وليرى عظم ملك السلطان، وكثرة جيوشه، وسعة ممالكه، فسار السلطان من أصفهان إلى خراسان، وجمع من العساكر ما لا يحصرها ديوان، وقطع النهر، ووصل بُخارى، وملكها، وملك ما على طريقه إليها، وما جاورها، وقصد سمرقند، ونازلها، وحصرها، وملكها، واختفى أحمد خان صاحبها في بيت بعض العوامّ، فأُخِذ، وحُمل إلى السلطان، وفي عنقه حبل، فأكرمه السلطان، وبعثه إلى أصفهان، ورتب بسمرقند الأمير العميد أبا طاهر عميد خوارزم، وسار السلطان، وقصد كاشغر، فبلغ بيوزكند وأرسل رسلاً إلى ملك كاشغر، فأمره بإقامة الخطبة له، وضرب السكّة باسمه، وتوعَّده إن خالف، فأجاب إلى ذلك،

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باوك بن عبد الله بن شاكل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن يرمك... (وفيات الأعيان ـ المقدمة ج٧).

وفعله، وحضر إلى السلطان، فأكرمه، وتابع الإنعام عليه، وأعاده إلى بلده، وعاد السلطان إلى خراسان.

ذكر عصيان سمرقند وفتحها

قال: ولما أُبعِد السلطان عن سمرقند لم يتفق أهلها وعسكرها المعروفون بالجكلية مع العميد أبي طاهر نائب السلطان عندهم، فاحتال حتى خرج من عندهم، ومضى إلى خوارزم، وكاتب مقدم الجكلية، واسمه عزّ الدولة يعقوب تكين، وهو أخو ملك كاشغر يستدعيه، فحضر عنده بسمرقند، واتفقا، ثم إن يعقوب علم أن أمره لا يستقيم معه، فوضع عليه من الرعيّة من ادّعى عليه بدماء قوم كان قتلهم، فقتله يعقوب، واتصلت الأخبار بالسلطان، فعاد إلى سمرقند، فلما وصل إلى بُخارى هرب يعقوب المستولي على سمرقند ومضى إلى فرغانة[1]، ولحق بولايته، فملك السلطان سمرقند ورتب بها الأمير أتسز، وسار في أثر يعقوب حتى نزل بيوزكند وأرسل العساكر إلى ملك كاشغر يطلبه منه، وأنه إذا لم يرسله قصد بلاده، واتفق أن عسكر يعقوب شَغَبوا عليه، ونهبوا خزائنه، فاضطر إلى أن هرب إلى أخيه بكاشغر، واستجار به، وكان بينهما عداوة مستحكمة، فكاتبه السلطان في إرساله، وإنه إن لم يفعل كان هو العدو، فقبض عليه، وسيّره مع ولده، وجماعة من أصحابه، وأمرهم أنهم إذا صاروا بالقرب من السلطان سملوه، فإن رضي السلطان بذلك، وإلا سلّموه إليه، فلما قصدوا سمْلَهُ وأحموا الميل، جاءهم الخبر أن طغرل بن ينال كبس ملك كاشغر وأسره، فأخروا يعقوب، وأطلقوه، ثم أنفق هو والسلطان، وجعله السلطان يقابل طغرل، وعاد السلطان إلى خراسان.

ذكر وصول السلطان إلى بغداد

وفي شهر رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة وصل السلطان إلى بغداد، وهي المرة الثانية، ونزل بدار المملكة، ووصل إليه أخوه تاج الدولة تتش صاحب دمشق، وقسيم الدولة «آق سنقر» صاحب حلب وغيرهما من عمال الأطراف، وأمر السلطان بعمارة الجامع المعروف بجامع السلطان، وابتدىء بعمارته في المحرم سنة خمس وثمانين.

---

(١) بالفتح ثم السكون، وغين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك. . . (معجم البلدان لياقوت).

ذكر ملك السلطان اليمن

قال: ولما وصل السلطان إلى بغداد كان ممن حضر معه جُبق أمير التركمان، وكان صاحب قرميسين، وغيرها، فأمره السلطان أن يسير بجماعة من أُمراء التركمان إلى الحجاز، واليمن، ويكون أمرهم إلى سعد الدولة كوهراتين ليفتحوا البلاد، فاستعمل سعد الدولة أميرًا اسمه ترشك، فساروا واستولوا على اليمن، وملكوا عدن، وأساؤوا السيرة في أهلها، فظهر على ترشك الجُدري، فتوفي في سابع يوم وصوله إليها، فعاد أصحابه إلى بغداد.

ذكر مقتل الوزير نظام الملك

وفي ليلة السبت العاشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة قتل الوزير خواجا بزرك قوام الدين نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بالقرب من نهاوند، وكان هو والسلطان ملكشاه قد عادا من أصفهان إلى بغداد، فلما كان بهذا المكان بعد أن فرغ من إفطاره، وقام من خيمته إلى خيمة حرمه، أتاه صبيّ ديلمي من الباطنية في صورة مستميح، أو مستغيث، فوثب عليه، وضربه بسكين، فمات، وهرب الصبيّ، فَعثَر في أطناب الخيمة، فأدركوه وقتلوه، ولما قتل ركب السلطان إلى خيمته، وسكن عسكره وأصحابه، وقيل في سبب موته أنه كان قد ولّى عثمان ابن ابنه جمال الملك رئاسة مرو، فأرسل السلطان إليها شِحْنة من أكبر مماليكه، وأعظم أمرائه يقال له: قودن، فجرى بينه، وبين عثمان منازعة، فحملت عثمان حدة الشبيبة على قبضه، والإخراق به، ثم أطلقه، فجاء إلى السلطان مستغيثًا، وأخبره بما صنع به عثمان، فغضب السلطان، وأرسل إلى جده الوزير نظام الملك يقول: «إن كنت شريكي في الملك، ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم، وإن كنت نائبي، فيجب أن نلتزم حد البيعة، والنيابة. هؤلاء أولادك قد استولى كل منهم على كورة عظيمة، وولاية كبيرة، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة إلى أن فعلوا كيت وكيت. . .»، وأطال القول، وأرسل إليه بهذه الرسالة تاج الملك، ومجد الملك الباسلاني وغيرهما، من أرباب دولته، وأرسل معهم الأمير «باليرد»، وكان من ثقاته، وقال له: تعرفني ما يقول، فربما كتم هؤلاء شيئًا، فحضروا عند الوزير، وأدُّوا الرسالة، فقال: قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بيدي، ورأيي، أما يذكر حين قتل أبوه، فقمت بتدبير أمره، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم، وهو في ذلك الوقت يتمسك بي ويلازمني، ولا يخالفني، فلما رددت الأمور إليه، وجمعت الكلمة عليه، وجمعت له الأمصار القريبة والبعيدة سمع فيّ السعايات. قولوا له: «إن ثبات هذه

القلنسوة معذوق[١] بهذه الدواة، وأن إنفاقهما رباط كل رعية، وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك». في كلام كثير قاله، فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما قاله عن السلطان، ومضى كل منهم إلى خيمته وجاء باليرد إلى السلطان، فأخبره بما قاله الوزير على غرة، وجاء الجماعة بكرة النهار إلى السلطان، فأخبروه عنه بالعبودية، فقال لهم: إنه قال: كيت وكيت، فأشاروا عند ذلك بكتمانه رعاية لحق نظام الملك، ولعظم شأنه، فإن مماليكه كانوا قد أنافوا على عشرين ألفًا غير الجند والأتباع، فوقع التدبير عليه حتى قتل، وظن السلطان أن الدنيا قد صغت له بعد ذلك، فما عاش بعده إلى خمسة وثلاثين يومًا.

ذكر ابتداء حال نظام الملك وشيء من سيرته وأخباره

كان نظام الملك من أبناء الدهاقين[٢] بطوس، فزال ما كان لأبيه من مال وملك، وتوفِّيت والدة نظام الملك، وهو يرضع، فكان أبوه يطوف به على المراضع يرضعنه حِسبةَ حتى شبّ، وقرأ، وتعلّم العربية، وتفقه، وصار من الفضلاء، وسمع الحديث الكثير، وكان يطوف بلاد خراسان، ووصل إلى غزنة في صحبة بعض المتصوفين، ثم لزم أبا علي بن شادان متولّي الأمور ببلخ لداود والد السلطان أَلِب أرسلان، فحسُنت حاله معه، وظهرت كِفايته، وأمانته، وصار معروفًا عندهم بذلك، فلما حضرت أبا علي الوفاة أوصى ألب أرسلان به، فولاه شغله، ثم صار وزيرًا له إلى أن ولي السلطنة، وتنقّل في الوزارة، فكانت وزارته ثلاثين سنة. هذا أحد ما قيل في ابتداء أمره.

وأما سيرته: فإنه كان عالمًا أديبًا جوادًا كثير الحلم والصفح عن المذنبين، وكان مجلسه عامرًا بالفقهاء، والفقراء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار البلاد، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وأسقط المكوس والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من على المنابر، فإن الوزير عميد الملك الكندري كان قد حسّن للسلطان لعن الرافضة، وأضاف إليهم الأشعرية، وكان نظام الملك رحمه الله تعالى إذا سمع المؤذن أمسك عما هو فيه، ويجيبه، فإذا فرغ من الأذان لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وله من حسن الآثار ما هو موجود باق إلى وقتنا هذا رحمه الله تعالى.

---

(١) المراد بقوله: معذوق، أي مرتبط.

(٢) الدهقان: رئيس الإقليم، أو هو رئيس القرية.

ذكر وفاة السلطان ملكشاه وشيء من سيرته

كانت وفاته ببغداد في يوم الجمعة منتصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وذلك أنه لما قتل الوزير نظام الملك كما قدمناه، سار السلطان إلى بغداد، فدخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة، وخرج في أوائل شوال إلى ناحية دجيل[١] للصيد، فاصطاد وحشًا وأكل من لحمه، فابتدأت به العلة، فعاد إلى بغداد، فتوفي ولم تشهد جنازته، ولا صلّى عليه في الصورة الظاهرة، ولا هلب عليه ذنب فرس كعادة أمثاله من الملوك، ولا لطم عليه وجه، وحمل إلى أصفهان، ودفن بها في مدرسة له موقوفة على طائفة الشافعية، والحنفية.

قال: وكان مغرمًا بالعمارة، فحفر الكثير من الأنهار، وعمر الأسوار على كثير من البلاد، وصنع في طريق مكة مصانع، وكان كثير الصيد، وكانت السبل في أيامه آمنة ساكنة تسير القوافل مما وراء النهر إلى أقصى الشام، وليس معهما خفير، وحكى محمد بن عبد الملك الهمذاني[٢]: أن السلطان لما توجه لحرب أخيه تكش اجتاز بمشهد عليّ بن موسى الرضا بطوس، فدخل ومعه نظام الملك الوزير فصليا، وأطال الدعاء، ثم قال لنظام الملك: بأي شيء دعوت قال: أن ينصرك الله، ويظفرك بأخيك، فقال: أما أنا ولم أدع بهذا، وإنما قلت اللهم انصر نفعنا للمسلمين والرعية، وحُكي عنه حكايات تدل على محاسنه، وجودته، وخيره.

وكان قد قرر ملك البلاد لمماليكه، فجعل غلامه برسق يحارب الروم، فضايقهم حتى قرر عليهم ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف دينار جالية، ثم توجه إلى القسطنطينية وحاصرها، وقرر عليهم ألف ألف دينار، وبنى قونية[٣]، وقصرًا[٤]، وسيّر أخاه تاج الدولة تتش إلى دمشق، وقسيم الدولة آق سنقر بحلب، وغيرهم في كل جهة.

---

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامرا. . . ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك. . . (معجم البلدان).

(٢) هو محمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني، المقدسي (أبو الحسن) مؤرخ، فرضي. سكن بغداد وبها نشأ، وتوفي في شوال سنة ٥٢١هـ. . من آثاره: «عيون السير في محاسن البدو والحضر» وتكملة تاريخ الطبري، ذيل على تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه، وكتاب في أخبار الوزراء، ومصنف في طبقات الفقهاء. . . (معجم المؤلفين ـ عمر كحالة ١٠ :٢٥٤).

(٣) قونية: بالضم ثم السكون، ونون مكسورة، وياء مثناة من تحت خفيفة: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبأقصى سكنى ملوكها. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٤) لعلها أقصرى كما جاء في معجم البلدان عند الكلام على قونية.

وكانت مدة ملكه عشرين سنة، وسبعة أشهر، وستة أيام، وكان له من الأولاد أبو المظفر بركياروق، ومحمد طبر، وأبو الحارث سنجر شاه، ومحمود، وهو أصغرهم.

وزيره: نظام الملك، وقد تقدم ذكره.

ذكر أخبار السلطان بركياروق

هو أبو المظفر بركياروق ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجق، وهو الرابع من ملوك الدولة السلجقية.

وبركياروق بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء والكاف، وفتح الياء المثناة من تحت، وبعد الألف راء مضمومة، وبعد الواو الساكنة قاف.

قال المؤرخ: لما مات السلطان ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته، وأرسلت إلى الأمراء، وفرقت الأموال، واستخلفت لولدها محمود، وعمره أربع سنين وشهورًا، وأرسلت إلى الخليفة المقتدي بأمر الله في الخطبة له، فأجابها إلى ذلك على أن يكون الأمير أتْسِزْ مدبر الجيش، وتاج الملك يتولّى تدبير الأموال والدواوين، وخطب له، ولقب ناصر الدنيا والدين، وكانت الخطبة له في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال، وكان بركياروق إذ ذاك بأصفهان، فكتبت تركان خاتون بالقبض عليه، فقبض عليه، فلما ظهر موت السلطان ملكشاه، ثارت المماليك النظامية، وأخرجوه من الحبس، وملكوه، فسارت تركان خاتون من بغداد إلى أصفهان، فلما قاربتها تحول بركياروق إلى الريّ، ولقيهم أرعش النظامي في عساكره، وإنما حمل النظامية على نصرة بركياروق كراهتهم لتاج الملك، فإنه الذي دبر في قتل مولاهم. قال: وأرسلت تركان خاتون العساكر لقتال بركياروق، فلما التقى العسكران انحاز جماعة من الأمراء الذين في عسكرها إلى خدمة بركياروق منهم: الأمير باليرد، وكمشتكين الجاندار[١]، وغيرهما، فقوي بهم، وكانت الحرب بينهم في آخر ذي الحجة من السنة، فانهزم عسكر تركان خاتون، وعاد إلى أصفهان، وسار بركياروق في أثرهم، وحصرهم بها.

(١) الجاندار: الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان.

ذكر قتل تاج الملك

كان تاج الملك في عسكر تركان خاتون، فانهزم إلى نواحي بروجرد[١] فأُخِذ، وجيء به إلى عسكر بركياروق، وهو يحاصِر أصفهان، وكان يعرف كفايته، فأراد أن يستوزره، فشرع في إصلاح أكابر المماليك النظامية، وفرق فيهم مائتي ألف، فزال ما في نفوسهم منه، فوثب عثمان الذي كان نائب نظام الملك، ووضع الغلمان الأصاغر النظامية، واستغاثوا ألا تَقنعوا إلا بقتل قاتل مولاهم، ففعلوا ذلك، وهجموا عليه، وقطعوه عضوًا عضوًا، وذلك في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة، فاستوزر بركياروق عز الملك ابن نظام الملك، واستولى بركياروق على الريّ، وهمذان، وما بينهما، وقدم بغداد في أواخر سنة ست وثمانين، وخطب له بها في يوم الجمعة رابع المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وحملت إليه الخلع، فلبسها، وعلم الخليفة على عهده، ومات فجأة، وتولّى ابنه المستظهر بالله الخلافة، فأرسل الخلع والعهد إلى السلطان بركياروق، فأقام ببغداد إلى شهر ربيع الأول من السنة، وسار إلى الموصل، ثم إلى نصيبي، وكان بينه وبين عمه تتش من الحرب ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر انهزام بركياروق من عمه تتش ودخوله إلى أصفهان ووفاة أخيه محمود

قال: ولما اتصل بتتش وفاة أخيه ملكشاه سار من الشام، وملك حلب، وحران، والرها، والجزيرة جميعها، وديار بكر، وخلاط، وأذربيجان، وهمذان على ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى، فلما قارب البلاد سار السلطان بركياروق لدفعه عنها، ووصل إلى إربل[٢]، وقرب من جيش عمه، ولم يكن معه غير ألف فارس، وكان عمه في خمسين ألفًا، فجهز عمه من أُمرائه من كبس عسكره، فهرب بركياروق، ونهب سواد عسكره، ولم يبق معه إلا برسق، وكمشتكين الجاندار، وبركياروق، وهم من الأمراء الأكابر، وخطب لعمه عند هذه الحادثة ببغداد على ما

---

(١) بروجرد: بلدة بين همذان وبين الكرج، وبينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) إربل: بالكسر ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، ولام: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق، وهي في طرف من المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي على تل عال من التراب. . . (معجم البلدان).

نذكره، وسار هو إلى أصفهان، وكانت تركان خاتون والدة أخيه محمود قد ماتت، فخرج إليه أخوه الملك محمود، وتلقاه، وأدخله البلد، وكان ذلك خديعة ليقبض عليه، فلما دخل بركياروق قبض عليه محمود، وقصد سمله، فاتفق أن محمودًا حُم وجُدِر، فقال لهم أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب: «إن الملك قد جدر، وما أراه يسلم، والمصلحة إبقاء بركياروق، فإن مات صاحبكم ملكوه، ولا تعاجلوه بالإتلاف»، فتركوه، فمات محمود في سلخ شوال سنة سبع وثمانين وأربعمائة فكان هذا من الفرج بعد الشدة كما قيل:

«مصائب قوم عند قوم فوائد».

قال: ولما مات محمود حبس بركياروق للعزاء به، واستوزر مؤيد الملك ابن نظام الملك في ذي الحجة، فكاتب الوزير الأمراء العراقيين، والخراسانيين، واستمالهم، فعادوا كلهم إلى بركياروق، فعظم شأنه، وكثرت عساكره، والتقى هو وعمه تتش في سنة ثمان وثمانين، واقتتلوا بالقرب من الريّ، فانهزم عسكر «تتش»، وقتل على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره، واستقامت السلطنة لبركياروق، وفي سنة ثمان وثمانين، عزل بركياروق وزيره مؤيد الملك ابن نظام الملك، واستوزر أخاه فخر الملك.

ذكر مقتل أرسلان أرغو

وفي المحرم سنة تسعين وأربعمائة قتل أرسلان أرغو بن ألب أرسلان أخو ملكشاه بمرو، وكان ملك خراسان، وسبب قتله أنه كان شديدًا على غلمانه كثير الإهانة لهم والعقوبة، فطلب غلامًا منهم، فدخل عليه، وليس عنده أحد، فأنكر عليه تأخُّره عن الخدمة، فاعتذر، فلم يقبل عذره، وضربه، فأخرج الغلام سكينًا، فقتله بها، وأخذ الغلام، فقيل له: لمَ فعلت هذا؟ فقال: لأريح الناس منه. والله أعلم.

ذكر ملك بركياروق خراسان، وتسليمها لأخيه سنجر

قال: كان السلطان بركياروق قد جهز العساكر مع أخيه الملك سنجر إلى خراسان لقتال عمه أرسلان أرغو، وجعل الأمير قماج أتابكًا لسنجر، ورتب في وزارته أبا الفتح عليَّ بن الحسين الطوسي فلما وصلوا إلى الدامغان، بلغهم خبر قتله، فأقاموا هناك حتى لحقهم السلطان، وساروا إلى نيسابور، فوصلوها في خامس جُمادى الأولى من السنة، وملكها السلطان وسائر البلاد الخراسانية بغير قتال، وسار إلى بلخ، وكان

عسكر أرسلان أرغو قد ملكوا ابنًا صغيرًا عمره سبع سنين، فلما بلغهم قدوم السلطان أبعدا إلى جبال طخارستان، وطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان، وحضروا إليه في خمسة عشر ألف فارس، فأخذ ابن عمه، وأحسن إليه، وتسلمته والدة بركياروق تربية، وتَفرّق جيشه في خدمة الأمراء، وسار السلطان إلى ترمذ، فسلمت إليه، وأقام ببلخ سبعة أشهر، وأرسل إلى ما وراء النهر، فأقيمت له الخطبة بسمرقند، ودانت له البلاد.

ذكر خروج أمير أميران

وفي سنة تسعين وأربعمائة خالف أمير اسمه محمد بن سليمان، ويعرف بأمير أميران، وهو ابن عم ملكشاه، على السلطان بخراسان، وتوجه إلى بلخ، واستمد صاحب غزنة، فأمده بجيش كثير، وشرط عليه أن يخطب له في جميع ما يفتحه من البلاد الخراسانية، فقويت شوكته، فسار إلى الملك سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان أخو السلطان جريدة، وكبسه، وأسره، وكحله.

ذكر ظهور السلطان محمد طبر بن ملكشاه والملك سنجر وخروجهما على أخيهما السلطان بركياروق والخطبة لمحمد

وإنما ذكرنا أخبار السلطان محمد، وأخيه سنجر في دولة السلطان بركياروق لأنه في هذا التاريخ كان هو الملك المشار إليه، وهما كالخوارج عليه، وإن كان محمد في هذه المدة ملك البلاد، وخطب له ببغداد، وغيرها، إلا أنه لم يستقل بغير منازع؛ فلهذا أوردناه الآن في دولة بركياروق، وسنذكر سلطنته بعد وفاة السلطان بركياروق، ثم نذكر بعده سلطنة السلطان سنجر إن شاء الله تعالى. كان السلطان محمد طبر، وسنجر أخوين لأب وأم، وأمهما أم ولد، ولما مات والدهما السلطان ملكشاه كان محمد معه ببغداد، فسار مع أخيه محمود، ووالدته تركان خاتون إلى أصفهان، فلما حصر بركياروق أصفهان خرج إليه محمد، وسار معه إلى بغداد سنة ست وثمانين، وأقطعه بركياروق كَنجة[١]، وأعمالها، وجعل معه الأمير، فبلغ تيكن أتابكًا له، فلما

(١) كنجة: مدينة عظيمة قصبة بلاد أران. وأهل الأدب يسمونها جنزة، وكنجة: من نواحي كرستان بين خوزستان وأصبهان. . . (معجم البلدان).

قوي محمد قتله، واستولى على جميع أعمال «أرّان»[١] إلى «كنجة» من جملتها، وظهرت شهامته، واتفق أن السلطان عزل مؤيد الملك ابن نظام الملك من وزارته، فسار إلى الأمير أتسز، وحسن له العصيان على السلطان، فلما قتل أتسز سار مؤيد الملك إلى السلطان محمد، فأشار عليه بمخلافة أخيه، والسعي في طلب السلطنة، ففعل ذلك، وقطع خطبة السلطان بركياروق من بلاده، وخطب لنفسه بالسلطنة، واستوزر مؤيد الملك، وذلك في سنة اثنين وتسعين وأربعمائة، واتفق أن السلطان قتل وزيره «مجد الملك الباسلاني» في هذه السنة، وكان قد تمكن منه، فنفرت خواطر الأمراء من السلطان، ففارقه مع جماعة منهم، والتحقوا بمحمد، فقوي بهم، وسار نحو الريّ، فسبقه إليها السلطان بركياروق، وجمع العساكر، وسار إلى أصفهان فأغلق أهلها الأبواب دونه، فسار إلى خوزستان، وورد السلطان محمد إلى الريّ، واستولى عليها في ثاني ذي القعدة من السنة، ووجد بها زبيدة خاتون، والدة أخيه بركياروق، فسجنها مؤيد الملك بالقلعة ثم خنقها.

ذكر إقامة الخطبة لمحمد ببغداد

قال: ولما قوي أمر السلطان محمد سار إليه سعد الدولة كوهراتين من بغداد، وكان قد استوحش من السلطان بركياروق، فاجتمع هو وكربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الجزيرة، وسرجاب بن بدر صاحب كنكور، وغيرها، وساروا إلى السلطان محمد ولقوه «بقم»، فخلع عليه سعد الدولة، ورده إلى بغداد، وسار بقيتهم في خدمته إلى أصفهان، فلما وصل سعد الدولة إلى بغداد خاطب الخليفة في الخطبة إلى محمد، فأجاب إلى ذلك، وخطب له في يوم الجمعة سابع عشر في ذي الحجة سنة اثنين وتسعين وأربعمائة، ولقب غياث الدنيا والدين.

ذكر إعادة الخطبة ببغداد للسلطان بركياروق

قال: لما سار بركياروق إلى خوزستان عندما منع من دخول أصفهان كما ذكرناه جمع العساكر، وكان أمير جيشه حينئذ ينال بن أنوشتكين الحسامي، فتجهز،

(١) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة... وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس، كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال، فهو من أران، وما كان من جهة المشرق فهو من أذربيجان... (معجم البلدان لياقوت).

وسار إلى واسط، ثم منها إلى بغداد، فدخلها في سابع عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وخطب له بها في يوم الجمعة نصف صفر قبل وصوله إليها بيومين، وكان سعد الدولة كوهرائين «بالشفيعي»، ومعه إيلغازي بن أرتق، وغيره من الأمراء، فأرسل إلى مؤيد الملك، وإلى السلطان محمد يستحثهما على الوصول إليه، فأرسلا كريوقا صاحب الموصل، وجكرمش، فأما جكرمش، فاستأذن سعد الدولة في العود إلى بلده، فأذن له، فعاد إلى جزيرة ابن عمر، وبقي سعد الدولة في جماعة من الأمراء، فكتب أعيانهم إلى السلطان بركياروق أن يخرج إليهم، وأنهم لا يقاتلونه، فخرج إليهم، فلما عاينوه ترجلوا، وقبّلوا الأرض بين يديه، وعادوا في خدمته إلى بغداد، واستوزر السلطان الأعز أبا المحاسن بن عبد الجليل بن علي الدهشاني، وقبض على عميد الدولة ابن جهير وزير الخليفة، وطالبه بالأموال، فاستقر الأمر بينهما على مائة ألف وستين ألف دينار يحملها، وخلع الخليف على بركياروق، والله أعلم بالصواب.

ذكر الحرب بين السلطانين بركياروق ومحمد والخطبة لمحمد ببغداد

وفي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة سار السلطان بركياروق من بغداد، وجعل طريقه على شهرزور، وأقام بها ثلاثة أيام، والتحق به عالم كثير من التركمان، وغيرهم، وسار نحو أخيه محمد، فوقعت الحرب بينهم في رابع شهر رجب بإسبيدروز، ومعناه: النهر الأبيض، وهو على عدة فراسخ من همذان، وكان مع محمد نحو عشرين ألف مقاتل، فحمل كوهراتين من ميمنة بركياروق على ميسرة محمد، وبها مؤيد الملك والنظامية، فانهزموا، ودخل عسكر بركياروق في خيامهم، ونهبوا ما فيها، وعاد سعد الدولة، فكبا به فرسه، فقتله خراساني، وأخذ رأسه، وكان سعد الدولة خادمًا من خدام الملك أبي كاليجار ابن سلطان الدولة من بويه، ثم انتقل بعده إلى السلطان طغرلبك، وتنقل في خدمة الملوك السلجقية، فلما قتل تفرقت عساكر بركياروق، وبقي في خمسين فارسًا، وأسر وزيره الأعز، فأكرمه مؤيد الملك، وأحسن إليه، وأعاده إلى بغداد، وأمره بالمخاطبة في إعادة الخطبة للسلطان محمد، ففعل، وأُجيب إلى ذلك، وخطب له في يوم الجمعة رابع عشر رجب من السنة.

ذكر حال السلطان بعد الهزيمة
وانهزامه أيضًا من أخيه سنجر

قال: وانهزم السلطان بركياروق في خمسين فارسًا، فقصد الريّ، فاجتمع معه جمع صالح، فسار إلى «أسفرايين»[١]، ثم إلى نيسابور، واستدعى الأمير ذاد حبشي بن التوتيان، وكان بيده حينئذٍ أكثر خراسان، وطبرستان، وجرجان، فاعتذر أن الملك سنجر قصد بلاده في هذا الوقت بعساكر بلخ، وسأل السلطان أن يحضر إليه ليعينه على حرب الملك سنجر، فسار إليه في ألفي فارس، فعلم بقدومه الأمراء والأكابر من أصحاب سنجر دون الأصاغر، وكان مع الأمير ذاد عشرون ألف مقاتل منهم رجالة الباطنية خمسة آلاف ووقع المصاف بين بركياروق، وسنجر خارج البوُسنجان[٢]، فانهزم أصحاب سنجر أولاً، واشتغل أصحاب بركياروق بالنهب، وكانت الدائرة عليهم، فانهزموا، وأسر أكثر أعيان بركياروق وقتل أمير ذاد، وسار بركياروق إلى جرجان، ثم إلى دامغان، وسار في البرية، فرأى في بعض المواضع، ومعه سبعة عشر فارسًا، وجمّازة واحدة، ثم كثر جمعه، فصار في ثلاثين ألف فارس، وسار إلى أصفهان، فسبقه السلطان محمد إليها.

ذكر الحرب بين السلطانين بركياروق ومحمد ثانيًا،
وقتل مؤيد الملك

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة في ثالث جُمادى الآخرة كان المصاف الثاني بينهما، وكان مع كل واحد منهما خمسة عشر ألف فارس، فاستأمن كثير من أصحاب محمد إلى بركياروق، ودام القتال بين الفريقين إلى آخر النهار، فانهزم السلطان محمد، ومن معه، وأسر وزيره مؤيد الملك، فأمر السلطان بقتله، وأخذ ما كان له من الأموال والجواهر لبغداد، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان؛ واسمها القديم مهرجان. . . (معجم البلدان).

(٢) قد تكون: بوسنج (كما في معجم ياقوت): بالضم ثم السكون، والسين مهملة، والنون ساكنة، وجيم: من قرى ترمذ.

ذكر حال محمد بعد الهزيمة واجتماعه بأخيه سنجر

ولما انهزم السلطان محمد سار طالبًا خراسان إلى أخيه سنجر، فأقام بجرجان، وأرسل إلى أخيه يطلب منه مالاً وكسوة وغير ذلك، فسيّر إليه ما طلب، وترددت الرسائل بينهما، وتحالفا، واتفقا، ولم يكن قد بقي مع السلطان محمد غير أميرين في نحو ثلاثمائة فارس، فلما استقرت بينهما القواعد سار سنجر في عساكره إلى أخيه، فاجتمعا بجرجان، وسارا منها إلى دامغان، وسارا إلى الريّ، وانضم إليهما النظامية، فكثر جمعهم، وعظمت شوكتهم، والله أعلم.

ذكر ما فعله بركياروق، ودخوله إلى بغداد

قال: ولما انهزم السلطان محمد أقام بركياروق بالريّ، واجتمعت عليه العساكر، فسار معه نحو من مائة ألف فارس، فضاقت عليهم الميرة، فتفرقت العساكر عنه، فعاد دبيس بن صدقة إلى أبيه، وتوجه الأمير إياز إلى همذان، وتفرقت العساكر إلى أن بقي في قلّة من العسكر، فبلغه اجتماع أخويه، وأنهما حشدا، وكثرت جموعهما، فتوجه إلى بغداد، وضاقت عليه النفقات، فراسل الخليفة عدة مراسلات، فتقرر أن يحمل إليه خمسين ألف دينار، فحملهما الخليفة إليه، فلم تغن شيئًا، فأفضى الحال إلى أن مدّ يده إلى أموال الناس، وانتهبها، فركب من ذلك خطة شنيعة، وخالفه الأمير صدقة بن منصور بن دبيس صاحب الحلة، وقطع خطبته من بلاده، وخطب للسلطان محمد، وسبب ذلك أن الوزير أبا المحاسن وزير بركياروق سيّر يطالبه بألف ألف دينار وكسور، وقال: إنها قد تخيرت عليك، فإما أن ترسلها وإما أن تتجهز الجيوش إليك، فقطع الخطبة، وعصى عليه، والله أعلم بالصواب.

ذكر وصول السلطان محمد، وسنجر إلى بغداد، ورحيل بركياروق عنها

وفي السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وأربعمائة وصل السلطان محمد وسنجر الملك إلى بغداد، ولما وصلا حلوان سار إيلغازي بن أرتق في عسكره إلى السلطان محمد، وخدمه، وكان عسكر السلطان محمد يزيد على عشرة آلاف فارس سوى الأتباع، فلما وصلت الأخبار بذلك كان السلطان بركياروق على شدة من المرض، فخاف أصحابه، واضطربوا، وعبروا به في محفة إلى الجانب، وتيقن أصحابه موته، ثم تراجعت إليه روحه، ووصل السلطان محمد، والملك سنجر إلى

بغداد، فخرج توقيع الخليفة المستظهر بأمر الله يتضمن سوء سيرة بركياروق، والاستبشار بقدومهما، وخطب للسلطان محمد بالديوان العزيز، ونزل الملك سنجر دار كوهراتين، ثم كانت الحرب بين السلطانين في صفر سنة خمس وتسعين، وهو المصاف الثالث، ووقع بينهما الصلح على أن يكون بركياروق السلطان، ومحمد الملك، وتضرب له ثلاث نوب، ويكون له من البلاد جنزة[1] وأعمالها، وأذربيجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، وأن يمده السلطان بالعساكر يفتح بها ما تمنع عليه، وحلف كل واحد منهما للآخر، وانصرف الفريقان من المصاف في رابع شهر ربيع الأول، وتفرقت العساكر ثم انتقض ذلك، والتقوا في جُمادى الأولى من السنة، وكانت بينهما واقعة، وهو المصاف الرابع انهزم فيه السلطان محمد، وأصحابه بعد قتال، ولم يقتل في هذا المصاف غير رجل واحد قتل صبرًا، وسار محمد في نفر يسير إلى أصفهان، وحمل عليه بيده ليتبعه أصحابه، وأخذ السلطان بركياروق خزانته، ووصل محمد إلى أصفهان، فأصلح سورها، وحفر خندقها، واعتد للحصار، وجاء بركياروق، وحاصره بها حصارًا شديدًا حتى ضاقت الميرة، واستمر الحصار إلى عاشر ذي الحجة، واقترض محمد أموال الأعيان، ثم فارق البلد في مائة وخمسين فارسًا، ومعه الأمير ينال، فاستخلف على البلد جماعة من الأمراء الأكابر، وبعث السلطان في طلبه، فلم يُدركَ، وسار محمد، ووصل إلى «ساوة»، واجتمع عليه عسكره الذي كان بكنجة، وأعمالها، ورحل إلى همذان، وبلغ جمعه ستة آلاف فارس، وأقاموا إلى آخر الحرم سنة ست وتسعين وأربعمائة، وأتاهم الخبر بقصد بركياروق لهم، فاجتمع على محمد جماعة أُخرى، والتقوا على باب «خوى»، وهو المصاف الخامس، وكان الظفر فيه لمحمد، وانهزم بركياروق وأصحابه، وسار محمد إلى «خلاط»، ثم إلى تبريز، وأذربيجان.

ذكر الصلح بين السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة تم الصلح بين السلطان بركياروق، وبين أخيه محمد، وحلف كل منهما لصاحبه، واستقرت القواعد، ووضعت الحرب أوزارها، وتقرر بينهم أن السلطان بركياروق لا يعترض على أخيه محمد، ولا يذكر معه على منبر من منابر البلاد التي استقرت له، ولا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة من الوزير، ولا يعارض أحد منهما العسكر في قصد أيهما شاء، وأن يكون للسلطان

(١) جنزة: هي كنجة، وقد تقدم وصفها.

محمد من النهر المعروف بأسبيدروز، وباب الأبواب، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، والشام، وبلاد سيف الدولة صدقة، وانتظم الأمر على ذلك، ولما انتظم أمر بركياروق عاجلته المنية فلم تطل مدته بغير منازع، وشغله حرب عمه وإخوته عن حروب أعدائه، ولم يفعل شيئًا غير قتله للباطنية على ما نذكره في هذا الموضع، وإنما أخرناه عن موضعه حتى لا ينقطع خبره مع أخيه محمد.

ذكر أخبار الباطنية وابتداء أمرهم وما استولوا عليه من القلاع وسبب قتلهم

والباطنية هم الإسماعيلية، وهم طائفة من القرامطة الذين قدمنا ذكرهم.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: أول ما عرف من أحوال هؤلاء في هذه الدعوة الأخيرة التي اشتهرت بالباطنية والإسماعيلية أنه اجتمع منهم في أيام السلطان ملكشاه ثمانية عشر رجلًا، وصلوا صلاة العيد في ساوة[1]، فظفر بهم «الشحنة»، فسجنهم، ثم سئل فيهم، فأطلقهم، فهذا أول اجتماعهم، ثم دعوا مؤذنًا من أهل «ساوة» كان مقيمًا بأصفهان، فلم يجب دعوتهم، فخافوه أن ينمّ عليهم، فقتلوه، وهو أول قتيل لهم، وأول دم أراقوه، فاتصل خبر مقتله بالوزير نظام الملك، فأمر من يتّهم بقتله، فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر، فقتل، ومثّل به، وجرُّوا برجله في الأسواق، وهو أول قتيل منهم، ثم إن الباطنية قتلوا الوزير نظام الملك، وهي أول قتلة مشهورة كانت لهم، وناهيك بها قتلة، وقالوا: قتل منا نجارًا، فقتلناه به، وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند «قاين»[2] كان قائده على مذهبهم، فاجتمعوا عنده، وقووا به، فاجتازت لهم قافلة عظيمة من كرمان بقصد «قاين»، فخرجوا عليها هم، وقائد البلد وأصحابه، فقتل أهل القَفَل عن آخرهم لم ينج منهم غير رجل تركماني، فوصل إلى قاين، وأخبره بالقصّة، فسار أهلها مع القاضي الكرماني إلى جهادهم، فلم يقدروا عليهم، ثم مات السلطان ملكشاه، فعظم أمرهم، واشتدت شوكتهم، واشتغل السلطان بركياروق بحرب إخوته وأهله، فاجتمعوا، وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم، ويقتلونه، ففعلوا ذلك بخلق كثير، وزاد الأمر حتى إن الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله،

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الريّ وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والريّ ثلاثون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) قاين: بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان... (معجم ياقوت).

وقعدوا للعزاء به، فحذر الناس، وصار لا ينفرد أحد، وأخذوا في بعض الأيام مؤذنًا أخذه جار له باطني، فقام أهله للنياحة، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون عليه، ويبكون، وهو لا يقدر يتكلم خوفًا منهم، وذلك بأصفهان.

ذكر ما استولوا عليه من القلاع ببلاد العجم

قال: واستولَوا على عدَّة حصون منها قلعة أصفهان، وهي التي بناها السلطان ملكشاه، وسبب بنائها أنه ركب للصيد، ومعه مقدَّم من مقدمي الروم كان قد لجأ إليه، وأسلم، وصار معه، فهرب من ملكشاه كلب من كلاب الصيد، فأتبعه، فوجده في موضع القلعة، فقال الرومي: لو أن عندنا مثل هذ الجبل لجعلنا عليه حصنًا يشفع به، فأمر ملكشاه ببنائه، فلما انقضت أيام ملكشاه، وصارت أصفهان بيد تركان خاتون والدة السلطان محمود استولى الباطنية عليه، فكانوا يقولون: إن قلعة يدل عليها كلب، ويشير بها كافر لا تكون خاتمتها إلا بهذا الشر. ومنها «ألموت» وهي من نواحي قزوين. قيل: إن ملكًا من ملوك الديلم كان كثير الصيد، فأرسل عُقابًا، وتبعه، فرآه قد سقط على موضع القلعة، فوجده حصينًا، فأمر ببنائه، وسماها قلعة الألموت، ومعناها بالديلم: تعليم العقاب، ويقال لهذا الوضع وما جاوره: طالقان وفيها قلاع حصينة أشهرها: الألموت. ومنها قلعة طَبَس[١]، وقهستان، ومن جملتها جور، وجوسف، وزُوزَن[٢]، وقاين، وتون[٣] وتلك الأطراف المجاورة لها، ومنها قلعة وسنملوه وهي بقرب أبهر. ملكوها في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقتل من كان بها عن آخرهم، ومنها قلعة خالنجان وهي على خمسة فراسخ من أصفهان، ومنها كردكوه، وهي مشهورة، ومنها قلعة الباطن بخوزستان، وقلعة الطنبور، وبينها وبين أرجان فرسخان، وقلعة لأوجان، وهي بين فارس وخوزستان، فهذا ما ملكوه من القلاع في هذه المدة القريبة.

---

(١) طبس: مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان، وهما طبسان: طبس كيلكي وطبس مسينان. . . (معجم البلدان).

(٢) زوزن: كورة واسعة بين نيسابور وهراة، ويحسبونها من أعمال نيسابور، كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. . . (معجم البلدان).

(٣) تون: مدينة من ناحية قهستان قرب قائن.

ذكر قتل الباطنية وسببه

كان قتلهم في سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وسبب ذلك أنه لما اشتد أمرهم، وقويت شوكتهم، وكثر عددهم شرعوا في قتل الأمراء، والفتك بهم، وكان أكثر من قتلوا من هو في طاعة السلطان محمد مخالف للسلطان مثل شِحنة أصفهان وغيره، فلما ظفر السلطان بركياروق بأخيه محمد انبسط جماعة منهم في العسكر، واستغووا جماعة منهم، وأدخلوهم في مذهبهم، وزاد أمرهم حتى كادوا يظهرون بالكثرة والقوة، فصاروا يتهددون من لم يوافقهم بالفتك، وانتهى الحال إلى أن الأمراء ما بقي منهم من يجسر أن يمشي حاسرًا. إلا بدرع تحت ثيابه، حتى الوزير الأعز كان يلبس زردية[١] تحت ثيابه، فأشير على السلطان بالفتك بهم قبل أن يعجز عنهم، وأعلموه ميل الناس إلى مذهبهم، ودخولهم فيه حتى إن عسكر السلطان محمد كانوا يشنّعون ذلك عليه، ويكبرون في المصاف على أصحابه، ويقولون لهم: يا باطنية، فاجتمعت هذه البواعث كلها، فأذن السلطان في قتلهم، وركب هو والعسكر، وطلبوهم، وأخذوا جماعة ممن كان وافقهم، فلم يفلت منهم إلا من لم يعرف، ومن جملة من اتهم: مقدّمهم الأمير محمد بن علاء الدولة صاحب مدينة يزد[٢]، فهرب، وسار يومه وليلته، فلما كان في اليوم الثاني وجد في العسكر، وقد ضلّ عن الطريق، فقتل، ونهب خيامه، وممن قتل ولد كيقباد مستحفظ تكريت، وقتل منهم جاولي سقاوة في هذه ثلاثمائة رجل.

ذكر وفاة السلطان بركياروق ووصيته لولده ملكشاه بالملك

كانت وفاته في ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة بأصفهان بمرض السل، والبواسير، وسار منها في مِحفَّة يطلب بغداد، فلما وصل إلى بروجرد ضعف عن الحركة، فأقام بها أربعين يومًا، فاشتد مرضُه، فلما أيس من نفسه خلع على ولده ملكشاه، وعمره أربع سنين وثمانية أشهر، وجعل الأمير إياز أتابكة، وخلع على الأمراء، واستحلفهم له، وأمرهم بالطاعة لهما، فحلفوا على الوفاء، وأمرهم بالسير إلى بغداد، فساروا، فلما كانوا على اثني عشر فرسخًا من بروجرد، وصل إليهم

---

(١) المراد بالزردية: الدرع.

(٢) يزد: مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان معدودة في أعمال فارس ثم من كورة إصطخر. . . (معجم البلدان).

خبر وفاته، وحمل إلى أصفهان ودفن بها، وكان له من العمر خمسة وعشرون سنة، ومدّة ملكه اثنتا عشرة سنة، وأربعة أشهر، وقاسى من الحرب والاختلاف ما قدمناه، وكان حليمًا كريمًا صبورًا عاقلًا كثير المداراة حسن العفْو لا يبالغ في العقوبة، عفوه أكثر من عقوبته.

ذكر الخطبة لملكشاه ابن السلطان بركياروق ببغداد

قد ذكرنا وصيَّة والده له بالملك، واستخلافه الأمراء، وتقرير قواعده، وإنفاذه إلى بغداد. قال: ولما جاءه الخبر بوفاة أبيه، سار به أتابكه الأمير إياز، وإيلغازي شِحنة بغداد، ودخلا به إلى بغداد، وخُطِب له بجوامعها في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولقب بألقاب جدِّه جلال الدولة، ونشرت الدنانير على الخطباء، ثم قدم عمه السلطان محمد على ما نذكره.

ذكر أخبار السلطان محمد

هو غياث الدين أبو شجاع محمد طبر يمين أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجق، وهو الخامس من ملوك الدولة السلجقية.

قد قدمنا من أخبار هذا السلطان، ووقائعه مع أخيه السلطان بركياروق وحروبه، والخطبة له ببغداد مرة بعد أُخرى ما يستغنى عن إعادته، ونحن الآن نذكر أخباره في سلطنته بعد وفاة أخيه. قال: لما مات السلطان بركياروق، وخطب لولده ملكشاه ببغداد كما ذكرناه، كان السلطان محمد إذ ذاك يحاصر جكرمش، وسكمان القطبي، وغيرهما من الأمراء وكان سيف الدولة صدقة صاحب الحلة قد جمع خلقًا كثيرًا من العساكر بلغت عدتهم خمسة عشر ألف فارس، وعشرة آلاف راجل، وأرسل ولديه بدران، ودبيس إلى السلطان محمد يستحثه على الحضور إلى بغداد، فاستصحبهما معه، فلما سمع الأمير إياز بمسيره إليه خرج هو والعسكر الذي معه من الدور، ونصبوا الخيام بالزهراء خارج بغداد، وجمع الأمراء، واستشارهم فيما يفعله، فبذلوا الطاعة واليمين على قتال السلطان، ودفعه عن السلطنة، والاتفاق على طاعة ملكشاه بن بركياروق، وكان أشدهم «ينال، وصبارو، فلما تفرقوا، قال له وزيره الصفيّ أبو المحاسن: «اعلم أن حياتي مقرونة بثبات نعمتك ودولتك، وأنا أكثر التزامًا بك من هؤلاء، وليس الرأي ما أشاروا به، فإن كل واحد منهم يقصد أن يسلك طريقًا، ويقيم سوقًا لنفسه، وأكثرهم يناوئك في المنزلة، وإنما يقعد بهم عن منازعتك قلة العدد

والمال، والصواب مصالحة السلطان محمد، والدخول في طاعته، وهو يقرك على ما بيدك من الإقطاع، ويزيدك عليه ما أردت»، فتردّد رأي الأمير إياز في الصلح إلا أنه يظهر المباينة، وجمع السفن التي ببغداد، وضبط المشارع من متطرق إلى عسكره، أو إلى البلد، ووصل السلطان محمد إلى بغداد في يوم الجمعة لثمان بقين من جُمادى الأولى، سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ونزل بالجامع الغربي، وخطب له بالجامع، وأما جامع المنصور، فإن الخطيب قال: «اللهم أصلح سلطان العالم». لم يزد على ذلك، وركب إياز في عسكره، وهم عازمون على الحرب، وسار حتى أشرف على عسكر السلطان محمد، وعاد إلى مخيَّمه، فدعا الأمراء إلى اليمين مرة ثانية على المخالصة لملكشاه، فأجاب بعضهم، وتوقف البعض، وقالوا: قد حلفنا مرة، ولا فائدة في إعادة اليمين لأنا إن وفينا بالأولى، وفينا بالثانية، فأمر إياز حينئذٍ وزيره الصفي أبا المحاسن بالعبور إلى السلطان محمد، والمشي في الصلح، وتسليم السلطنة إليه، فعبر يوم السبت لسبع بقين من الشهر إلى عسكر محمد، واجتمع بوزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد، وعرّفه ما جاء فيه، فأحضره إلى السلطان، فأدى الرسالة، واعتذر عن صاحبه، فأجابه السلطان جوابًا لطيفًا، وطيّب نفسه، وأجاب إلى اليمين، فلما كان الغد حضر قاضي القضاة، والنقيبان، والصفي وزير إياز عند السلطان، فقال له وزيره سعد الملك: إن إياز يخاف لما تقدم منه، وهو يطلب العهد لنفسه، وللأمراء الذين معه. فقال السلطان: أما ملكشاه فلا فرق بينه وبين أخي، وأما إياز والأمراء الذين معه، فأحلف لهم إلا ينال الحسامي وصبارو، وحلف لهم، فلما كان الغد حضر الأمير إياز إلى السلطان، فلقيه الوزير، وكافة الناس، ووصل سيف الدولة صدقه في ذلك الوقت، ودخلا جميعًا إلى السلطان، فأكرمهما، وأحسن إليهما، وقيل: بل ركب السلطان، ولقيهما، وأقام السلطان ببغداد إلى شعبان، وسار إلى أصفهان على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر قتل الأمير إياز

كان سببُ ذلك أنه لما سلَّم السلطنة لمحمد، وصار في جملة أصحابه، عمل وليمة عظيمة في ثامن جُمادى الآخرة في داره، ودعا السلطان إليها، فجاء وقدّم له إياز شيئًا كثيرًا، من جملته حملَ بلخُش، كان إياز قد أخذه من تركة مؤيد الملك ابن نظام الملك، وحضر الوليمة سيف الدولة صدقة بن مزْيد، فاتفق أن إياز تقدم إلى غلمانه بلبس السلاح، ليعرضهم على السلطان، فدخل إليهم رجل من أبهر كانوا يضحكون منه، فألبسوه درعًا تحت قميصه، وتناولوه بأيديهم، وهو يسألهم أن يكفوا

عنه، فلم يفعلوا، فلشدَّة ما ناله هرب منهم، ودخل بين خواص السلطان، فرآه السلطان مذعورًا، فاستراب منه، وقال لغلام له أن يمسكه من غير أن يعلم به أحد ففعل، فرأى الدرع تحت ثيابه، فأعلم السلطان بذلك، فاستشعر السوءَ وقال: إذا كان أصحاب العمائم قد لبسوا الدروع، فما ظنك بغيرهم من الجند، ونهض وعاد إلى داره، فلما كان في ثالث عشر. استدعى الأمير صدقة وإياز، وجكرمش، وغيرهم من الأمراء، فلما حضروا أرسل إليهم: أنا بلغنا أن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، قصد ديار بكر ليملكها، ويسير منها إلى الجزيرة، وينبغي أن تجتمع آراؤكم على من يسير إليه ليمنعه، ويقاتله، فقال الجماعة: ليس هذا الأمير إلا للأمير إياز. فقال إياز: ينبغي أن أجتمع أنا وسيف الدولة صدقة على هذا الأمر، فقبل ذلك السلطان، فاستدعى إياز وصدقة والوزير سعد الملك، فقاموا ليدخلوا عليه، وكان قد أعدّ جماعة من خواصّه لقتل إياز إذا دخل عليه، فلما دخل ضرب أحدهم رأسه فأبانه، فغطى صدقة وجهه بكُمِّه، وأما الوزير فغشي عليه، وتفرق أصحاب إياز، وكان زوال نعمته العظيمة ودولته في مزحة مزحها غلمانه، ولما كان الغد كفَّنه قوم من المتطوعة ودفنوه.

وكان من جملة مماليك السلطان ملكشاه، وكان غزير المروءة، شجاعًا حسن الرأي في الحرب. ولما قتل اختفى وزيره الصفي، ثم أُخذ وحمل إلى الوزير سعد الملك، ثم قُتل في شهر رمضان، وسار السلطان إلى أصفهان، فوصل إليها في شهر رمضان وأمن أهلها.

ذكر خروج منكبرس على السلطان محمد والقبض عليه

وفي المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة أظهر منكبرس ابن الملك بوزي برس بن ألِب أرسلان، وهو ابن عم السلطان محمد العصيانَ، والخلافَ على السلطان، وسببُ ذلك أنّه كان بأصبهان، فلحقته ضائقة شديدة، وانقطعت عنه الموادّ، فسار إلى نهاوند، واجتمع عليه بها جماعة من العسكر، وظاهره على أمره جماعة من الأمراء، فتغلب على نهاوند، وخطب لنفسه بها، وكاتب الأمراء بني برسق يدعوهم إلى طاعته ونصرته، وكان السلطان محمد قد قبض على أخيهم زنكي بن برسق، فكاتب زنكي إخوته، وحذرهم من طاعته، وأمرهم بالتدبير في القبض عليه، فلما أتاهم كتاب أخيهم بذلك أرسلوا إلى منكبرس يبذلون له الطاعة والموافقة، فسار إليهم وساروا إليه، واجتمعوا به، وقبضوا عليه بالقرب من أعمالهم، وهي بلد «خوزستان»، وتفرق أصحابه وأترابه إلى أصفهان، فاعتقله السلطان مع بني عمه تكش، وأخرج

زنكي بن برسق، وأعاده إلى مرتبته، واستنزله وإخوته عن أقطاعهم وهي الأسر، ونيسابور، وغيرهما ما بين الأهواز وهمذان، وأقطعهم عوض ذلك الدور وغيرها وفيها ظهر بنهاوند أيضًا رجل من أهل السواد، ادعى النبوة، فأطاعه خلق كثير، واتبعوه، وباعوا أملاكهم، ودفعوا أثمانها إليه، وهو يخرج جميع ذلك، وسمّى أربعة من أصحابه أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعليًا، ثم قُتل بنهاوند، فكان أهلها يقولون: ظهر عندنا في مدة شهرين اثنان: أحدهما يدّعي النبوة، والآخر المملكة، فلم يتم لأحد منهما أمر، والله أعلم.

ذكر ملك السلطان محمد قلعة شاه دز من الباطنية وقتل ابن عطاش

وفي سنة خمسمائة ملك السلطان القلعة التي كانت الباطنية ملكوها بالقرب من أصفهان، واسمها «شاه دز»[1]، وقتل صاحبها أحمد بن عبد الملك بن عطاش وولده. وكانت هذه القلعة قد بناها السلطان ملكشاه، واستولى عليها بعده أحمد بن عبد الملك، وكان قد اتصل بِدْزِ دار القلعة، فلما مات استولى عليها، وكان الباطنية بأصفهان قد ألبسوه تاجًا، وجمعوا له أموالاً عظيمة، فاشتد بأسه، وكثر جمعه، واستفحل أمره بالقلعة، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا عليه، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وجعلوا لهم على القرى السلطانية، وأموال الناس، ضرائب يأْخذونها؛ ليكفوا عنها الأذى، فتعذر انتفاع السلطان بقراه، والناس بأملاكهم، ومشى لهم الأمر بما كان بين السلطان وأخيه من الاختلاف، فلما صفت السلطنة لمحمد، ولم يبق له منازع، لم يكن عنده أمر أهمّ من الباطنية، فخرج بنفسه، وحاصرهم، في سادس شعبان، وأحاط بجبل القلعة، فلما اشتد الحصار عليهم طلبوا أن ينزل بعضهم من القلعة، ويرسل السلطان معهم من يحميهم، إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بأرجان، وكانت لهم، وينزل بعضهم، ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس، وأن يقيم البقية منهم في ضرس[2] من القلعة، إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم، وينزلون حينئذ، ويرسل السلطان معهم من يوصلهم، إلى ابن

---

(١) شاه دز: قلعة حصينة على جبل أصبهان كانت لمعقل بن عطاش، وهو أحمد بن عبد الملك مقدّم الباطنية، لعنهم الله... وشاه دز أيضًا: قلعة بناها نصر بن الحسن بن فيروزان الديلمي في جبل شهريار... (معجم البلدان).

(٢) الضرس: الحجر تطوى به البئر ونحوها؛ لأنه يبرز في البناء. والضرس أيضًا: الأكمة الخشنة كأنها مضرسة.

الصباح بقلعة ألموت، فأجيبوا إلى ذلك، وتوجه معهم من أوصلهم إلى قلعتي الناظر، وطبس، وعاد منهم من أخبر ابن غطاس بوصولهم، فلم يُسلّم السن الذي بيده، ورأى السلطان منه العذر، فجدد الحصار، فجاء إلى السلطان من دلّه على عورة ذلك السن، فملكه، وقتل من فيه من الباطنية، واختلط بعضهم بمن دخل، فسلموا، وأسر ابن عطاش، فتركه السلطان أسبوعًا، ثم أمر به، فشهر في جميع البلاد، وسلخ جلده، فمات، وحشي تبنًا، وقتل ولده، وحملت رأساهما إلى بغداد، وألقت زوجته نفسها من القلعة، فهلكت. كانت مدة البلوى بابن عطاش ثنتا عشرة سنة.

ذكر القبض على الوزير وقتله، ووزارة أحمد بن نظام الملك

وفي سنة خمسمائة قبض السلطان محمد على وزيره سعد الملك أبي المحاسن، وأخذ ماله، وصلبه على باب أصفهان، وصلب معه أربعة نفر من أعيان أصحابه، فأما الوزير، فنسب إلى خيانة السلطان، وأما الأربعة، فنسبوا إلى اعتقاد مذهب الباطنية، ثم استشار السلطان فيمن يجعله وزيرًا، فذُكِر له جماعة، فقال: إن آبائي رأوا على نظام الملك البركة، وله عليهم الحق الكبير، وأولاده أغذياء بنعمتنا، ولا معدل عنهم، فاستوزر أبا نصر أحمد، ولقب ألقاب أبيه قوام الدين نظام الملك صدر الإسلام، وَحَكَّمهُ، ومَكّنهُ، وقوّى أمره.

ذكر قتل الأمير صدقة بن مزيد

كان مقتله في سنة إحدى وخمسمائة، وكان سبب ذلك أنه قد عظم أمره، واشتهر ذكره، واستجار به الأكابر من الخلفاء، فمن دونهم، وأجار على الخلفاء والملوك، وكان ممن أكد أسباب دولة السلطان محمد، وأقام في حقه، وعضده، وجاهر السلطان بركياروق بسببه، فلما استوثق الأمر للسلطان محمد، زاده على ما بيده من الإقطاع زيادة عظيمة، منها مدينة واسط، وأذن له في أخذ البصرة، ثم أفسد ما بينهما العميد أبو جعفر محمد بن الحسن البلخي، وقال للسلطان: إن صدقة عظم أمره، وكثر إدلاله، وهو يحمي كلَّ من يفر من السلطان، والتحق به، ونسبه إلى مذهب الباطنية، ولم يكن كذلك، وإنما تشيع، واتفق أن السلطان محمد سخط على أبي دلف سرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة، فهرب منه، وقصد صدقة، واستجار به فأجاره، فأرسل السلطان يطلبه من صدقة، وأمره بتسليمه إلى نوابه، فلم يفعل، وأجاب: إنني لأمكن منه بل أحامي عنه، أقول ما قاله أبو طالب لقريش لما طلبوا النبيّ ﷺ: [من الطويل]

ونسلمه حتى نصرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وظهر منه أمور أنكرها السلطان، فتوجه السلطان إلى العراق؛ ليتلافى هذا الأمر، فلما سمع صدقة به، استشار أصحابه فيما يفعله، فأشار عليه ابنه دبيس أن ينفذه إلى السلطان، ومعه الأموال والخيل والتحف ليستعطفه، وأشار سعيد بن حميد صاحب جيش صدقة بحربه، وجمع الجند، وتفريق المال فيهم، واستطال في القول، فمال صدقة إلى قوله ووافقه، وجمع العساكر، فاجتمع له عشرون ألف فارس، وثلاثون ألف راجل، وأرسل الخليفة المستظهر بالله إلى الأمير صدقة، يحذره عاقبة أمره، وينهاه عن الخروج عن طاعة السلطان، فأجاب: إنني على الطاعة، لكن لا آمن على نفسي في الاجتماع به، ثم أرسل السلطان إلى صدقة يطيّب قلبه، ويبسط ويزيل خوفه، ويأمره بانبساط على عادته، فأجاب: إن أصحاب السلطان قد أفسدوا قلبه ليّ، وغيَّروا حالي عنده، وزال ما كان عليه في حقي من الإنعام، وذكر سالف خدمته ومناصحته، وقال سعيد بن حميد صاحب جيشه: لم يبق لنا في صلح السلطان مطمع، وليرين خيولنا ببغداد، وامتنع صدقة من الاجتماع بالسلطان، وكان السلطان وصل إلى بغداد جريدة في خيل، لا تبلغ ألفي فارس، فأرسل إلى جيوشه، فأتته من كل جهة، وتكررت الرسائل من الخليفة إلى صدقة، وهو يجيب: إنني ما خالفتُ الطاعة، ولا قطعت الخطبة، وجهز ابنه دبيسًا، ليسير إلى السلطان، فبينما هو في ذلك إذ ورد الخبر أن طائفة من عسكر السلطان، قد وقعت الحرب بينهم وبين أصحاب صدقة، وأن عسكر السلطان انهزم، وأسر جماعة من أعيانهم، فأخر صدقة ابنه، ثم ترددت الرسائل من الخليفة إلى صدقة، يقول: إن إصلاح قلب السلطان موقوف على إطلاق الأسرى، ورد جميع ما أخذ من العسكر المنهزم، فأجاب أولاً بالخضوع والطاعة، ثم قال: لو قدرت على الرحيل من بين يدي السلطان لفعلت، ولكن ورائي من يثقل ظهري: ثلاثمائة امرأة لا يحملهن مكان، ولو علمت أنني إذا جئت للسلطان مستسلمًا قبلني، واستخدمني، لفعلت، ولكنني أخاف ألا يقبل عذري، ولا يعفو، وأما ما نهب فإن الخلق كثير، وعندي من لا أعرفه، وقد نهبوا ودخلوا البر، ولا طاقة لي بهم، لكن إن كان السلطان لا يعارضني فيما في يدي، ولا فيمن أجرته ويقر سرخاب على إقطاعه بساوة، ويتقدم بإعادة ما نهب من بلدي. ويحلفه وزير الخليفة بما أثق به من الأيمان، على المحافظة فيما بيني وبينه، فحينئذ أخدم بالمال، وأدوس بساطه بعد ذلك، فعادت الرسائل بذلك مع أبي منصور بن معروف، وأصر صدقة على قوله، فعند ذلك سار السلطان في ثامن شهر رجب إلى

الزعفرانية(١)، وسار صدقة في عسكره إلى قرية مطر(٢)، وأمر جنده بلبس السلاح، واستأمن نائبه سلطان ابن دبيس وهو ابن عم صدقة إلى السلطان، فأكرمه، وعبر السلطان إلى دجلة، ولم يعبر هو، فصاروا هم وصدقة في أرض واحدة، بينهما نهر، والتقوا في تاسع عشر شهر رجب، وكانت الريح في وجوه أصحاب السلطان، فلما التقوا صارت في وجوه أصحاب صدقة، ورمى الأتراك بالنشاب، فكان يخرج في كل رشقة سبعة عشر ألف فردة، لا تقع إلا في فارس أو فرس، فكان أصحاب صدقة إذا حملوا منعهم النهر، والنشاب يصل إليهم، وحمل صدقة على الأتراك، وجعل يقول: أنا صدقة، أنا ملك العرب فأصابه سهم في ظهره، وأدركه غلام اسمه برغش، فتعلق في صدقة وهو لا يعرفه، فسقطا جميعًا إلى الأرض، فعرفه صدقة، وقال: يا برغش أرفق، فضربه بالسيف، فقتله، وأخذ رأسه وحمله إلى البرسقي، فحمله إلى السلطان، فلما رآه عانقه، وأمر لبرغش بصلة، وبقي صدقة طريحًا، إلى أن سار السلطان، فدفنه إنسان من المدائن، وكان عمر صدقة تسعًا وخمسين سنة، وكانت إمرته إحدى وعشرين سنة، وحمل رأسه إلى بغداد، وقتل من أصحابه ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس، وأسر ابنه دبيس، وسرخاب بن كيخسرو الديلمي، فأحضر بين يدي السلطان، فطلب الأمان، فقال السلطان: أنا عاهدت الله أني لا أقتل أسيرًا، فإن ثبت عليك أنك باطني قتلتك. قال: ونهب من أموال صدقة ما لا يحد ولا يوصف.

وكان له من الكتب المنسوبة الخطوط ألوف مجلدات، وكان يقرأ ولا يكتب، وكان جوادًا حليمًا، صدوقًا، كثير البشر والخير والإحسان، يلقى لمن يقصده بالبشاشة والفضل، ويبسط آمال قاصديه، ويزورهم، وكان عاقلًا، عفيفًا، ديِّنًا، حاز الأوصاف الجميلة، رحمه الله تعالى.

قال: ولما قتل صدقة عاد السلطان إلى بغداد، ولم يصل الحلة، وأرسل أمانًا لزوجة صدقة، فأصعدت إلى بغداد، فأطلق السلطان ابنها دبيسًا، وأنفذ معه جماعة من الأمراء لتلقيها، فلما جاءت اعتذر السلطان إليها من قتل صدقة، وقال: وددت أنه حمل إلى حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس منه، لكن الأقدار غلبتني عليه، واستحلف ابنها دبيسًا أنه لا يسعى بفساد.

---

(١) الزعفرانية: عدة مواضع تسمى بهذا الاسم، منها: الزعفرانية قرية على مرحلة من همذان... والزعفرانية: قرية قرب بغداد تحت كلواذى.

(٢) مطر: من أعمال اليمن، كما جاء في معجم البلدان لياقوت، يقال لها بنو مطر.

وفي سنة إحدى وخمسمائة في شعبان أطلق السلطان الضرائب والمكوس، ودار البيع، والاجتيازات، وغير ذلك، مما يناسبه بالعراق، وفيها خرج السلطان إلى أصفهان، وكان مقامه ببغداد، في هذه الدفعة خمسة أشهر وسبعة عشر يومًا.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة استولى موروود، وعسكر السلطان على الموصل، وكان جاولي سقاوة قد تغلب عليها، فأخذت منه، بعد حرب وحصار، ثم عاد جاولي إلى خدمة السلطان.

وفي سنة ثلاث وخمسمائة سيَّر السلطان وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى قلعة ألموت، لقتال الحسن بن الصباح، ومن معه من الإسماعيلية، فحصرهم، وهجم الشتاء عليهم، فعادوا، وفيها في شهر ربيع الآخر توجه الوزير نظام الملك إلى الجامع، فوثب عليه الباطنية، وضربوه بالسكاكين، فجرح في رقبته، فمرض مدة وبرأ، وأُخذ الباطني، فسقي الخمر حتى سكر، وسئل عن أصحابه، فأقر على جماعة بمسجد المأمونية، فقتلوا، وفيها عزل الوزير نظام الملك، واستوزر بعده الخطير محمد بن الحسين.

وفي سنة خمس وخمسمائة بعث السلطان الجيوش لقتال الفرنج، وكانوا قد استولوا على البلاد، ففتحوا عدة حصون للفرنج، وقتلوا من بها منهم، وحصروا مدينة الرُّها، ثم رحلوا عنها.

وفي سنة تسع وخمسمائة أقطع السلطان محمد الموصل، وما كان بيد آق سنقر البرسقي للأمير جيوش بك، وسيّر معه ولده الملك مسعود بن محمد.

ذكر وفاة السلطان محمد وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان ابتداء مرضه في شعبان، فانقطع عن الركوب، وتزايد مرضه ودام، وأرجف بموته، فلما كان يوم عيد النحر، حضر الناس إلى دار السلطان، فأذن لهم في الدخول، وجلس السلطان وقد تكلف ذلك، حتى أكل الناس وانصرفوا، فلما انتصف الشهر أيس من نفسه، فأحضر ولده السلطان محمودًا وقبّله وبكيا، وأمره أن يخرج، ويجلس على تخت السلطنة، وينظر في أُمور الناس، وكان عمره إذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة، فقال لوالده: إنه يوم غير مبارك، يعني من طريق النجوم، فقال السلطان: صدقت يا بني ولكن على أبيك، وأما عليك فمبارك بالسلطنة، فخرج وجلس على تخت السلطنة وبالتاج والسوارين، وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر أُحضر الأمراء، وأُعلموا بوفاة السلطان، وخطب لمحمود بالسلطنة.

وكان مولد السلطان محمد في ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين ودُعي له بالسلطنة ببغداد، في الدفعة الأولى، في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقطعت، وأُعيدت عدة دفعات كما قدمناه في أخبار بركياروق. وكانت مدة اجتماع الناس عليه بغير منازع، منذ تسلم السلطنة من الأمير إياز أتابك ملكشاه بن بركياروق، ثنتا عشرة سنة وسبعة أشهر.

وأما سيرته فكان ملكًا عادلاً شجاعًا، حسن السيرة؛ فمن جملة ذلك أنه اشترى مماليك من بعض التجار، وأحالهم بالثمن على عامل خوزستان، فأعطاهم البعض، ومطلهم بما بقي، فحضروا مجلس الحكم، وأخذوا معهم غلمان القاضي إلى السلطان، ليحضر معهم إلى مجلس الحكم، فلما رآهم، قال لحاجبه: انظر حاجة هؤلاء فسألهم، فقالوا: لنا خصم يحضر معنا إلى مجلس الحكم، فقال: من هو؟ فقالوا: السلطان؛ وذكروا قصتهم. فأعلمه الحاجب ذلك، فأمر بإحضار العمل إليهم، وغرّمه غُرمًا ثقيلاً، ونكلَ به، ثم كان يقول بعد ذلك: ندمت ندامة عظيمة، حيث لم أحضر معهم إلى مجلس الحكم، فيقتدي بي غيري، ولا يمتنع أحد عن الحضور إليه، وأداء الحق. ومن عدله أنه كان له خازن يعرف بأبي أحمد القزويني، فقتله الباطنية، فلما قتل أمر بعرض الخزانة عليه، فعرضت، فإذا درج فيه جوهر نفيس، فقال: إن هذا الجوهر عرض عليَّ منذ أيام، وهو في ملك أصحابه، وسلمه إلى خادم له، وأمر بتسليمه إليهم، فسأل عنهم وكانوا غرباء ـ وقد تيقنوا ذهاب مالهم، وأيسوا منه، فلم يطلبوه، فأحضرهم وسلمه إليهم، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يعلم منه فعل قبيح، ولا عرف عنه، وعلم الأمراء سيرته، فلم يتجاسروا على الظلم، وكفوا عنه.

وكان له من الأولاد: محمود، وطغرل، ومسعود، وسليمان شاه، وسلجق. تولوا كلهم السلطنة إلا سلجق.

وزراؤه: مؤيد الملك ابن نظام الملك. ثم سعد الملك أبو المحاسن، إلى أن قتله، ثم أحمد بن نظام الملك، ثم خطير الملك، وكان في نهاية الجهل، فعزله بعد مدة، وصادره، وولي غيرُهم، وممن استوزره: ربيب الدولة أبو منصور بن أبي شجاع.

ولما توفي السلطان محمد انتقلت السلطنة من العراق إلى خراسان، وذلك أن سنجر شاه لم يبق في البيت أكبر منه، فكان هو السلطان المشار إليه، ولنذكر الآن أخباره؛ لأنه كان ملكًا في حياة أخيه، وعظم شأْنه، واستولى على عدة ممالك، فإذا انقضت دولته، عدنا إلى ذكر أولاد محمد، وغيرهم إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار السلطان سنجر

هو معز الدين عماد آل سلجوق أبو الحارث سِنْجر شَاه برهان أمير المؤمنين ابن السلطان جلال الدولة ملكشاه، وقد تقدم ذكر نسبه، وكان والده سماه أحمد، وإنما قيل له: سنجر؛ لأنه ولد بسنجار، فقيل له: سنجر باسم المدينة التي ولد بها، ونعت أيضًا بالسلطان الأعظم، قال المؤرخ: ولما مات السلطان محمد كان سنجر شاه مستقر الأمر بخراسان، وقد ذكرنا ذلك في أيام أخيه السلطان بركياروق، وكان قد سلمها له لما فتحها، في خامس جُمادى الأولى سنة تسعين وأربعمائة، وقد قدمنا من أخباره في أيام أخيه السلطان بركياروق، وحروبه معه، ما يستغنى الآن عن إعادته، فلما مات بركياروق استغل سنجرشاه بملك خراسان، وبقي العراق وما معه بيد أخيه السلطان محمد، على ما قدمنا، قال: واتفق وقعتان لسنجر شاه عظيمتان، في أيام أخويه بركياروق ومحمد نحن الآن نذكرهما.

فأما الأولى: فهي واقعته مع قدر خان صاحب سمرقند وما وراء النهر، وكانت في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وذلك أن قَدْر خان قصد خراسان، وطمع في ملكها لصغر سن سنجر، وجمع من العساكر ما طبق الأرض، قيل: كانوا مائة ألف مقاتل، وقيل: مائتي ألف عنان، مسلمون وكفار، وكان أمن أمراء سنجر أمير اسمه: كندغدي، قد كاتب قدر خان بالأخبار، وأعلمه بحال سنجر وضعفه، واختلاف الملوك السلجقية، وأشار عليه بالسرعة، فبادر قدر خان، وقصد البلاد، فسار سنجر نحوه ليقاتله، وكان معه كندغدي، وهو لا يتهمه في مناصحته، فوصل إلى بلخ في ستة آلاف فارس، وبقي بينه وبين قدر خان مسافة خمسة أيام، فهرب كندغدي، والتحق بقدر خان، فلما تدانى العسكران أرسل سنجر يذكر قدر خان العهود القديمة والمواثيق، فلم يصغ إلى ذلك، فأذكى سنجر عليه العيون، وبثّ الجواسيس، فكان لا يخفى عنه شيء من أخباره، فأتاه من أخبره أنه قد نزل بالقرب من بلخ، وأنه خرج يتصيّد في ثلاثمائة فارس، فندب السلطان سنجر الأمير برغش لقصده، فسار إليه، فلحقه وقاتله، فانهزم أصحاب قدر خان، وأُسر هو وكندغدي، وأحضرهما إلى السلطان سنجر، فأما قدر خان: فإنه قبّل الأرض واعتذر، فقال له سنجر: إنْ خَدمْتَنا أو لم تخدمنا فما جزاؤك إلا السيف، ثم أمر به، فقُتل، وأما كندغدي فإنه نزل في قناة ومشى فيها فرسخين تحت الأرض، على ما كان به من النقرس[1]، وقتل فيها

---

(١) النقرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك.

حيتين عظيمتين، وسبق أصحابه إلى مخرجها، وسار في ثلاثمائة فارس إلى غزنة، وقيل: بل جمع سنجر عساكره، والتقى هو وقدر خان، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحاب قدر خان، وأُسر هو وحمل إلى سنجر، فقتله، وحصر «ترمذ»، وبها كندغدي، فطلب الأمان، فأمنه سنجر، وتسلم «ترمذ»، فأمره سنجر بمفارقة بلاده، فسار إلى غزنة، فأكرمه صاحبها علاء الدولة، وقدمه وأحسن إليه، قال: ولما قتل قدر خان أحضر السلطان سنجر شاه محمدًا أرسلان بن سليمان بن داود بغرا خان من مرو، وملكه سمرقند، وهو من أولاد الملوك الخانية، وأمه ابنة السلطان ملكشاه، وكان قد دفع عن ملك آبائه، فقصد مرو، فأقام بها إلى الآن، فولاه سنجر أعمال قدر خان، وسيّر معه العسكر، فملك جميع البلاد، وعظم شأنه، وارتفع محله، ودام في ملك ما وراء النهر، وهو على الطاعة للسلطان سنجر، إلى سنة سبع وخمسمائة، فظهر منه ظلم للرعية، واستخف بأوامر السلطان سنجر، فتجهز بعساكره، وقصده، فخاف محمد، وأرسل إلى السلطان يستعطفه، واعترف بالخطأ، فأجابه السلطان إلى الصلح، على أن يحضر ويطأ بساطه، فأرسل يذكر خوفه لسوء صنيعه، وأنه يحضر إلى الخدمة، ويخدم السلطان وبينهما نهر جيجون، ثم يعاود بعد ذلك الحضور عنده، والدخول عليه، فأجاب السلطان إلى ذلك، وكان سنجر على شاطىء جيحون من الجانب الغربي، ومحمد من الجانب الشرقي، فترجل وقبّل الأرض وسنجر راكب، وعاد كل منهما إلى خيامه، وسكتت الفتنة، فهذه الوقعة الأولى.

وأما الثانية: فإنه لما مات علاء الدولة صاحب غزنة، في شوال سنة ثمان وخمسمائة، وملك ابنه أرسلان شاه، وأمه سلجقية، وهي أخت السلطان ألب أرسلان بن داود، فقبض على إخوته وسجنهم، وهرب أخ له اسمه بهرام شاه إلى خراسان، والتحق بالسلطان سنجر، فأرسل إلى أخيه في معناه، فلم يفعل، ولا أصغى إلى قوله، فتجهز سنجر شاه إلى المسير إلى غزنة، ومعه بهرام شاه، فلما بلغ بست اتصل به نصر بن خلف، صاحب سجستان، وسمع أرسلان شاه الخبر، فسيّر جيشًا كثيفًا، فهزمه سنجر، وعاد من سلم(١) إلى غزنة بأسوأ حال، فخضع حينئذ أرسلان شاه، وأرسل إلى الأمير أتسز، وكان على مقدمة سنجر، يضمن له الأموال الكثيرة، ليعود عنه، ويحسّن إلى سنجر العود، فلم يفعل، فأرسل أرسلان شاه امرأة عمه نصر، وهي أخت السلطان سنجر من والده بركياروق، وكان علاء الدولة قتل زوجها، ومنعها من الخروج عن غزنة، وسألها سؤال سنجر في الصفح، وأرسل معها

(١) سلم: بفتح أوله، وسكون ثانيه: محلة بأصبهان ويضاف أحد أبوابها إليها فيقال باب سلم. . . (معجم البلدان لياقوت).

الأموال والهدايا والتحف، وكان معها مائتا ألف دينار، وطلب من السلطان أن يسلم إليه أخاه بهرام شاه، فوصلت إليه، وكانت موغرة الصدر من أرسلان شاه، فهونت أمره عند السلطان سنجر، وأطمعته في البلاد، وهوّنت عليه الأمر، وذكرت له ما فعل بإخوته، وأنه قتل بعضهم، من غير أن يخرجوا عن الطاعة، فسار الملك سنجر، وأرسل خادمًا من خواصه برسالة إلى أرسلان شاه، فقبض عليه واعتقله، واستمر سنجر على سيره لقصد غزنة، فلما سمع بقربه أطلق الرسول، ووصل سنجر إلى غزنة، ووقع المصاف على فرسخ منها بصحراء شهراباذ، وكان أرسلان شاه في ثلاثين ألف فارس وخلق كثير من الرجالة، ومعه مائة ستون فيلاً عليهم المقاتلة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، كان الظفر لسنجر شاه ومن معه، ودخل غزنة، وملك قلعتها، ورتب بهرام شاه في الملك، وقرر أن يكون الدعاء بغزنة للخليفة، ثم للسلطان محمد، ثم للملك سنجر، وبعدهم لبهرام شاه، وحصل لأصحاب سنجر من الأموال ما لا يحد، وكان من دور ملوكها عدة دور، على حيطانها ألواح الفضة وسواقي البساتين من الفضة، فقُلع أكثر ذلك ونُهب، فمنع سنجر أصحابه، وصلب جماعة، حتى كفّ الناس، وكان من جملة ما حمل لسنجر خمسة تيجان قيمة أحدها يزيد على ألفي ألف دينار وألف وثلاثمائة قطعة مصاغة مرصعة، وسبعة عشر سريرًا من الذهب والفضة، وأقام سنجر بغزنة أربعين يومًا، حتى استقر بهرام شاه، وعاد إلى خراسان، ولم يخطب بغزنة لسلجقي قبله.

ذكر القبض على الوزير محمد

قال: ولما عاد السلطان سنجر من غزنة قبض على وزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر، ابن الوزير نظام الملك، وكان سبب ذلك أنه أوحش الأُمراء، واستخف بهم، فغضبوا من ذلك، وشكوا إلى السلطان وهو بغزنة، فاستمهلهم إلى أن يخرج من غزنة، ووافق ذلك تغير السلطان عليه، لأشياء نقمها منه، منها أنه أشار على السلطان بقصد غزنة، فلما قصدها، ووصل إلى بست، أرسل صاحبها أرسلان شاه إلى الوزير محمد، وضمن له خمسمائة ألف دينار إن هو أثنى عزم السلطان سنجر عن قصدها، ورده، فلما أتته الرسالة أشار على السلطان بمصالحة أرسلان شاه، والرجوع إلى خراسان، فلم يوافقه على ذلك، وفعل بمثل ذلك بما وراء النهر، ومنها أنه نقل إليه أنه أخذ من غزنة أموالاً عظيمة المقدار، وغير ذلك، فلما عاد إلى بلخ قبض عليه، وأخذ ماله وقتله، وكان له من الجواهر والأموال شيء كثير، ووجد له من العين ألف ألف دينار، ولما قتله استوزر بعده شهاب الإسلام

عبد الرازق ابن أخي نظام الملك، ويُعرف هذا الوزير بابن الفقيه، فلم يبلغ منزلة أبي جعفر في علو الهمة، ونفاذ الكلمة، ثم ندم السلطان سنجر على قتل أبي جعفر، رحمه الله تعالى.

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وبين ابن أخيه محمود بن محمد

كانت الحرب بينهما في جُمادى الأُولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وسبب ذلك أنه لما بلغ السلطان سنجر شاه وفاة أخيه السلطان محمد، وجلوس ابنه السلطان محمود، وهو زوج ابنة السلطان سنجر، حزن لوفاة أخيه حزنًا عظيمًا، وجزع، وتألم ألمًا شديدًا، وجلس للعزاء على الرماد، وأغلق البلد سبعة أيام، وتقدم إلى الخطباء يذكر أخيه السلطان محمد على المنابر بمحاسن أعماله، من قتال الباطنية، وإطلاق المكوس، وغير ذلك، وكان يلقب بناصر الدين، فتلقب بعد وفاة أخيه بمعز الدين، وهو لقب أخيه ملكشاه، وعزم على قصد بلد الجبال والعراق، وما هو بيد محمود بن أخيه، وندم عند ذلك على قتل وزيره أبي جعفر؛ لأنه كان يبلغ به من الأغراض ما لا يبلغه بكثرة العساكر، لميل الناس إليه ومحله عندهم. قال: ثم أرسل السلطان إلى عمه سنجر شرف الدين أنوشروان بن خالد، وفخر الدين طغايرك، ومعهما الهدايا والتحف، وبذل له النزول عن مازندران، وحمل إليه مائتي ألف دينار في كل سنة، فوصلا إليه وأبلغاه الرسالة، فقال: لا بد من القتال، وسار نحو الريّ والأمير أتسز في مقدمته، فلما بلغ السلطان محمود مسير عمه إليه، ووصول الأمير أتسز إلى جرجان، تقدم إلى الأمير علي بن عمر، وهو أمير حاجب أبيه بالمسير، وضم إليه جمعًا كثيرًا من الأمراء والعساكر، فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس، وساروا إلى أن قاربوا مقدمة السلطان سنجر، وعليها الأمير أتسز، راسله الأمير علي بن عمر يعرفه وصية السلطان محمد، بتعظيم السلطان سنجر، والرجوع إلى رأيه وأمره، والقبول منه، وأنه ظن أن السلطان سنجر يحفظ السلطنة على ولده محمد، وأنه أخذ علينا العهود بذلك، وليس لنا أن نخالفه، وأما حيث جئتم إلى بلادنا، فلا نحتمل ذلك ولا نعصي عليه، وقد علمت أن معك خمسة آلاف فارس، وأنا أرسل إليك أقل منهم لتعلم أنكم لا تقاوموننا ولا تقومون بنا، فلما سمع الأمير أتسز ذلك عاد عن جرجان، ولحقه بعض عسكر محمود، وأخذوا قطعة من سواده، وأسروا عدة من أصحابه، وعاد الأمير علي إلى السلطان حمود، وقد بلغ الريّ، وأقام بها، فشكره على ما كان منه، وأُشير على محمود بالمقام بالري، وقيل له إن عساكر خراسان إذا علموا بمقامك لا يفارقون حدودهم، ولا يتعدون ولايتهم، فلم يقبل ذلك، وضجر من مقامه، وسار ووصل إليه

الأمير منكبرش من العراق، في عشرة آلاف فارس، والأمير منصور بن صدقة أخو دبيس، والأُمراء البلخية، وغيرهم، وسار إلى همذان، فبلغه وصول عمه سنجر إلى الريّ، فسار نحوه، وقصد قتاله فالتقيا بالقرب من سادة، وكان السلطان سنجر في عشرين ألفًا، ومعه ثمانية عشر فيلاً، ومحمود في ثلاثين ألفًا، وهم أكابر الأُمراء، ومعه تسعمائة حمل من السلاح، فلما التقوا ضعفت نفوس الخراسانية، لما رأوا من عسكر محمود من الكثرة والقوة، فانهزمت ميمنة سنجر، واختلط أصحابه، وصاروا منهزمين لا يلوون على شيء، ونهب من أثقالهم شيء كثير، وقتل من أهل السواد خلق كثير، ووقف السلطان سنجر بين الفيلة في جمع من أصحابه، وبإزائه السلطان محمود، ومعه أتابكه «عز علي»، فلما تعاظم الأمر على سنجر ألجأته الضرورة أن يقدم الفيلة للحرب، وكان من بقي معه أشاروا عليه بالهزيمة، فقال: إما النصر وإما القتل، وإما الهزيمة فلا، فلما تقدمت الفيلة نفرت منها خيل أصحاب محمود، وتراجعت على أعقابها بأصحابها، فأشفق السلطان سنجر على محمود، وقال لأصحابه: لا تفزعوا الصبيّ بحملات الفيلة، فكفوها عنهم، وانهزم السلطان محمود ومن معه، وأسر أتابكة «عز علي»، وكان يكاتب السلطان، ويعده أنه يحمل إليه السلطان محمود، فعاتبه على تأخيره عن ذلك، فاعتذر بالعجز، فقتله، قال: وتم الظفر للسلطان سنجر وأرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه، ونزل في خيام السلطان محمود، وتراجع أصحابه إليه، ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيام، وأرسل الأمير دبيس بن صدقة في الخطبة للسلطان سنجر، فخطب له في السادس والعشرين من جُمادى الأولى من السنة، وقطعت خطبة محمود، وأما محمود فإنه سار من موضع الكسرة إلى أصفهان، وسار السلطان سنجر إلى همذان، فرأى قلة عسكره واجتماع العساكر على ابن أخيه محمود، فراسله في الصلح، وكانت والدة السلطان سنجر تشير عليه بذلك، وتقول له: إنك قد استوليت على غزنة وأعمالها، وما وراء النهر، وملكت البلاد، فتركت الجميع لأصحابه، فاجعل ولد أخيك كأحدهم، فأجاب إلى قولها، وراسل محمودًا في الصلح، وتحالفا، وسار السلطان محمود إلى عمه السلطان سنجر، فبالغ في إكرامه، وحمل إليه محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهرًا، وردها باطنًا، ولم يقبل منه سوى خمسة أفراس عربية، وكتب السلطان سنجر إلى سائر الأعمال التي بيده: خراسان، وغيرها، وغزنة، وما وراء النهر، بالخطبة للسلطان محمود بعده، وكتب إلى بغداد بمثل ذلك، وأعاد عليه جميع ما أخذ منه، سوى الريّ، وقصد بأخذها أن يكون له في هذه البلاد، لئلا يحدّث محمود نفسه بالخروج عن طاعته.

ذكر قدوم السلطان سنجر إلى الريّ

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة خرج السلطان سنجر من خراسان إلى الريّ في جيش كثير، وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة، والملك طغرل، كانا قد التحقا به، على ما نذكره في أخبار السلطان محمود، فلم يزل دبيس يطمع السلطان سنجر في العراق، ويسهل عليه الأمر، ويلقي إليه أن الخليفة المسترشد بالله، والسلطان محمود، قد اتفقا على الامتناع منه، حتى أجاب إلى المسير إلى العراق، فلما وصل الريّ كان السلطان محمود بهمذان، فأرسل السلطان سنجر يستدعيه، لينظر هل هو على الطاعة، أو تغير على ما زعم دبيس بن صدقة؟ فبادر إلى المسير إليه، فلما وصل العسكر بتلقّيه، وأجلسه معه على التخت، وبالغ في إكرامه، وأقام عنده إلى منتصف ذي الحجة من السنة، وعاد السلطان سنجر إلى خراسان.

ذكر ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند من محمد خان وملك محمود بن محمد

وفي شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند، وسبب ذلك أنه لما ملكها رتب فيها محمد خان بن أرسلان بن سليمان بن داود بغرا خان، كما ذكرناه، فأصابه فالج، فاستناب ابنًا له يعرف بنصر خان، وكان شجاعًا، وكان بسمرقند إنسان علوي فقيه مدرس، إليه الحل والعقد، والحكم في البلد، فاتفق هو ورئيس البلد على قتل نصر خان، فقتلاه ليلاً، وكان أبوه محمد خان غائبًا، فعظم ذلك عليه، وكان له أخ آخر ببلاد تركستان، فاستدعاه، فلما قرب من سمرقند خرج العلوي، والرئيس لاستقباله فقتل العلوي في الحال، وقبض على الرئيس، وكان والده أرسلان خان قد أرسل إلى السلطان سنجر يستدعيه، ظنًا منه أن ابنه لا يتم أمره مع الرئيس والعلوي، فتجهز سنجر، وسار يريد سمرقند، فلما ظفر ابنه بهما ندم على طلب السلطان، فأرسل إليه يعرفه أنه قد ظفر بهما، وأنه على الطاعة، ويسأله العود إلى خراسان، فغضب من ذلك، وبينما هو في الصيد إذ رأى اثني عشر رجلاً في السلاح التام، فقبض عليهم وعاقبهم، فأقروا أن محمدًا خان أرسلهم ليقتلوه، فقتلهم، ثم سار إلى سمرقند، فملكها عنوة، ونهب بعضها، ومنع من الباقي، وتحصن منه محمد خان ببعض الحصون، فاستنزله بأمان بعد مدة، فلما نزل إليه أكرمه وأرسله إلى ابنته، وهي زوجة السلطان سنجر، فبقي عندها إلى أن توفي، وأقام سنجر بسمرقند حتى أخذ الأموال، والأسلحة، والخزائن، وسلّم البلد

إلى الأمير حسن تكين، وعاد إلى خراسان، فمات حسن تكين بعد مسير السلطان، فملك بعده عليها محمود بن محمد خان.

وفي سنة خمس وعشرين مات السلطان محمود بن محمد، أخي السلطان سنجر، فسار السلطان سنجر إلى العراق، والتقى هو وابن أخيه السلطان مسعود بن محمد، فانهزمت جيوش مسعود، وحضر هو إليه، فأرسله إلى كنجة، بعد أن كان مسعود استقر في السلطنة، وأقام السلطان سنجر في السلطنة السلطان طغرل أخيه محمد، وكان من أمره وأمر أخيه مسعود، ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

ذكر مسير السلطان إلى غزنة وعوده

وفي ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، سار السلطان سنجر من خراسان إلى غزنة، وسبب ذلك أنه نُقل إليه عن صاحبها بهرام شاه أنه تغير عن طاعته، ومدّ يده إلى ظلم الرعية، واغتصاب أموالهم، وكان سنجر هو الذي ملكه غزنة، كما ذكرناه، فلما قارب السلطان غزنة أرسل إليه بهرام شاه رسلاً يبذل الطاعة، والتضرع، وسأل العفو عن ذنبه والصفح، فأرسل إليه سنجر المقرب جوهر الخادم، وهو أكبر أمير عنده، ومن جملة أقطعه الريّ في جواب رسالته يجيبه إلى العفو، إن حضر عنده، وعاد إلى طاعته، فلما وصل المقرب إلى بهرام شاه أجاب بالسمع والطاعة، وركب مع المقرب، وسار لتلقي السلطان، فلما قاربا بالسلطان ونظر بهرام شاه إلى عسكره، والخبر على رأسه، نكص على عقبيه عائدًا، فأمسك المقرب بعنان فرسه، وقبح عليه ذلك، وخوفه عاقبته، فلم يرجع، وولّى هاربًا، ولم يعرج على غزنة، فسار السلطان، ودخل غزنة، وملكها واحتوى على ما فيها، وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه يلومه على ما فعله، وحلف أنه ما أراد به سوءًا، ولا مطمع له في بلده، ولا هو ممن يكدر صنيعه، ويعقب حسنته معه بسيئة، وإنما قصده لإصلاحه، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر، ويتنصل ويقول: إن الخوف منعه من الحضور، ولا لوم على من خاف من السلطان، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده، وفارق غزنة، وعاد إلى خراسان، ورجع بهرام شاه إلى غزنة.

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه أتسز بن محمد؛ وذلك أنه بلغه أنه يحدث نفسه بالامتناع عليه، وترك خدمته، وجمع خوارزم شاه عسكره، والتقوا فانهزم أصحاب خوارزم شاه، ولم يثبتوا، وقتل ولد

خوارزم شاه، وملك السلطان «خوارزم»، وأقطعها غياث الدين سليمان شاه، ولد أخيه محمد، وعاد إلى مرو، في جُمادى الآخرة منها، وهذه الحرب هي التي أوجبت الفتن العظيمة، التي نذكرها إن شاء الله تعالى.

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا، وملكهم ما وراء النهر

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة، كانت الحرب بين السلطان سنجر وبين الخطا؛ وسبب ذلك أن خوارزم شاه لما قتل ابنه في حرب السلطان، كما ذكرناه، حمله الألم إلى أن راسل ملك الخطا يستدعيه، لقصد سنجر وملك بلاده، ويهون عليه أمره، فصار في ثلاثمائة ألف عنان، وسار سنجر إليه بجميع عساكره، والتقوا بما وراء النهر، واقتتلوا قتالاً شديدًا، وانجلت الحرب عن هزيمة سنجر، وقتل من أصحابه مائة ألف قتيل، فيهم اثنا عشر ألفًا كلهم أصحاب عمامة، وأربعة آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر، وهي تركان خاتون، ثم فُديت بخمسمائة ألف دينار، وانهزم سنجر إلى ترمذ، ولم ينهزم قبلها، ولما تمت هذه الهزيمة أرسل إلى ابن أخيه السلطان مسعود، وأذن له أن يتصرف في الريّ، وما معها، على قاعدة أبيه السلطان محمد، وأمره أن يكون مقيمًا بها بعساكره، بحيث إنه إذا احتاج إليه استدعاه، ففعل ذلك، وملك الخطا ما وراء النهر، وتغلب خوارزم شاه على البلاد، في هذا التاريخ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره، وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حاصر السلطان سنجر خوارزم شاه بخوارزم؛ فراسله، وبذل الطاعة والأموال، فقبل السلطان ذلك منه، وعاد عنه.

ذكر انهزام السلطان سنجر من الغز، وأسره، وذكر أحوال الغز

ولنبدأ بذكر حال هؤلاء الغز، ومبدأ أمرهم، وما كان منهم إلى أن أسروا السلطان، فنقول: إنهم طائفة من الترك مسلمون، كانوا بما وراء النهر، فلما ملك الخِطا أخرجوهم من بلاد ما وراء النهر، فقصدوا خراسان، وكانوا خلقًا كثيرًا، فأقاموا بنواحي بلخ، يرعون في مراعيها، وكان لهم أمراء، وهم: دينار، وبختيار، وطوطي، وأرسلان، وجغر، ومحمود، فأراد الأمير قماج، وهو مقطع بلخ إبعادهم، فصانعوه لشيء بذلوه له، فعاد منه، وأقاموا على عادة حسنة، لا يؤذون أحدًا، ويقيمون

الصلاة، ويؤتون الزكاة فعاودهم قماج، وأمرهم بالانتقال عن بلده، فامتنعوا، وانضم بعضهم إلى بعض، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك، فسار قماج إليهم، في عشرة آلاف فارس، فجاء إليه أمراء الغز، وبذلوا له عن كل بيت مائتي درهم، فلم يجبهم، وشدّد عليهم في الانشراح عن بلده، فعادوا عنه، واجتمعوا، وقاتلوه، فانهزم، ونهبوا عسكره، وأكثروا القتل في العساكر والرعايا، واسترقوا النساء والذراري، وعملوا كل عظيمة، وقتلوا الفقهاء، وخربوا المدارس، وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو، وبها السلطان سنجر، فأعلمه الحال، فراسلهم وتهددهم، وأمرهم بمفارقة البلاد، فاعتذروا وبذلوا مالاً كثيرًا؛ ليكف السلطان عنهم، ويتركهم في مراعيهم، فلم يجبهم إلى ذلك، وجمع عساكره من أطراف البلاد، فاجتمع له ما يزيد على مائة ألف فارس، وقصدهم، ووقع بينهم حرب شديدة، فانهزمت عساكر السلطان سنجر، وانهزم هو في أصحابه، وتبعهم الغز يقتلون منهم، ويأسرون، حتى صارت القتلى كالتلال، وقتل علاء الدين قماج، وأسر السلطان سنجر وجماعة من الأمراء، فضرب الغز أعناق الأمراء، وأما السلطان سنجر فإن أمراء الغز اجتمعوا، وقبّلوا الأرض بين يديه، وقالوا: نحن عبيدك، لا نخرج عن طاعتك، ومضى على ذلك ثلاثة أشهر، ودخلوا معه إلى مرو، وهي كرسي مملكة خراسان، فطلبها منه بختيار إقطاعًا، فقال له السلطان سنجر: هذه دار الملك، ولا يجوز أن تكون إقطاعًا لأحد، فضحكوا منه، وَحَبَقَ(١) له بختيار بفمه، فلما رأى ذلك من فعلهم نزل عن سرير الملك، ودخل خانقاه مرو، واستولى الغز على البلاد، وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله، وولوا على نيسابور واليًا فظلم الناس، وعسفهم وضربهم، وعلق في الأسواق ثلاث غرائر، وقال أريد ملء هؤلاء ذهبًا، فثار به العامة، فقتلوه، وقتلوا من معه، فدخل الغز نيسابور، ونهبوها وجعلوها قاعًا صفصفًا، وقتلوا من بها، ولم يرفعوا السيف عن كبير، ولا صغير، ولم يسلم من بلاد خراسان غير هراة ودهستان، لحصانتهما.

ذكر هرب السلطان سنجر شاه من أسر الغز

قال: كان هربه من الأسر في شهر رمضان، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

ولما هرب سار إلى قلعة ترمذ، هو وجماعة كانوا معه من الأُمراء، فاستظهر بها على الغز، وكان خوارزم شاه أتسز بن محمد، والخاقان محمود بن محمد، يقصدان الغز

(١) حبق: أخرج ريح الحدث.

ويقاتلانهم، وكانت الحرب بينهم سجالاً، وغلب كل منهم على ناحية من خراسان ثم سار السلطان من ترمذ إلى جيحون، يريد العبور إلى خراسان، واتفق أن علي بك مقدم القادغلية توفي، وكان أشد على السلطان من كل أحد، فأقبلت القادغلية، وغيرهم، من أقاصي البلاد وأدانيها إلى السلطان، وعاد إلى دار ملكه بمرو.

ذكر وفاة السلطان سنجر شاه، وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، أصابه قولنج بعد ذَرب[١]، فمات منه، ودفن بقبة بناها لنفسه، وسماها دار الآخرة، وكان مولده بسنجار في الخامس والعشرين من شهر رجب سن سبع وسبعين وأربعمائة، فكان عمره أربعًا وسبعين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه ـ منذ سلم له أخوه السلطان بركياروق خراسان، في خامس جُمادى الأولى سنة تسعين وأربعمائة، وإلى هذا التاريخ ـ إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وأيامًا، ومنذ استقل بالسلطنة، بعد وفاة أخيه محمد نحوًا من أربعين سنة، ولم يزل أمره عاليًا إلى أن أسره الغز، كما ذكرناه، وكان من أكابر الملوك، وعظمت مملكته، ملك من نهاوند، وغزنة، وسمرقند، إلى خراسان، وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وأصفهان، وهمذان، والريّ، وأذربيجان، وأرمينية، ودانية[٢]، والعراق، وبغداد، والموصل، وديار بكر، وربيعة، ومضر، والجزيرة، والشام، والحرمين، وخطب له على منابرها، وضربت السكة باسمه، في هذه الأقاليم وبلادها، ووطئت ملوكُها بساطه، وكان من أعظم الملوك همة، وأكثرها عطاء، ذُكر عنه أنه اصطبح خمسة أيام متواليات، ذهب في الجود بها كل مذهب، فبلغ ما أعطاه من العين سبعمائة ألف أحمر، غير ما وهب من الخيول، والخلع، وغيرها، وفرق في يوم واحد ألف ثوب أطلس، واجتمع في خزانته ما لم يسمع أنه اجتمع في غيره من الأكاسرة، قال الشيخ جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي المنصور بن ظافر بن حسين الأزدي[٣]، صاحب كتاب الدول المنقطعة: صح عند

---

(١) الذرب: داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ويفسد فيها ولا تمسكه.

(٢) دانية: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية كما جاء في معجم البلدان لياقوت، ولعلها دالية: وهي مدينة على شاطىء الفرات في غربيه بين عانة والرحبة صغيرة.

(٣) هو علي بن ظافر بن الحسين الأزدي، المصري، المالكي (جمال الدين، أبو الحسن) فقيه، أصولي، متكلم، مؤرخ، إخباري، أديب، ناظم، سياسي، وزر للملك الأشرف موسى بن الملك العادل، ثم ترك الوزارة وعاد إلى مصر، فتوفي بها سنة ٦١٣هـ. من آثاره: بدايع البداية فيمن قال شعرًا على البديهة، أساس السياسة، أخبار الشجعان، الدول المنقطعة في نحو أربعة مجلدات، غرائب التنبيهات، وله شعر. . . (معجم الأدباء لياقوت ١٣: ٢٦٤ ـ ٢٦٧).

جميع الناس أن الجوهر الذي اجتمع عنده كان وزنه ألفًا وثلاثين رجلًا، قال: وكان لسنجر مماليك اختصهم بالمحبة؛ فكان يشتري أحدهم بما قام في نفسه، ويهواه ويُسعده حتى إذا بقل[1] عذاره، سلاه وجفاه، وطرده، أو قتله؛ فمنهم سنقر الخاص، كان لصيرفي اشتراه السلطان بألف ومائتي دينار ركنية، وتشريف، فبلغ مبلغًا عظيمًا؛ حكى عنه عبد العزيز صاحب خزائنه عن غرامه بسنقر هذا، قال: استدعاني السلطان، وقال لي: أنت تعلم أن سنقر الخاص حدقتي، التي أنظر بها، وقلبي الذي أفهم به، وهذه خزائني تحت يدك، وحمول غزنة، وخوارزم قد وصلت، وأريد أن تصير له سرادقات كسرادقي، وخيلًا مثل خيلي، وتشتري له ألف مملوك يمشون في ركابه، وتحل إقطاع من تراه، وتضيفه إليه، وتعمل له خزانة كخزانتي، وأريده يكون صاحب عشرة آلاف فارس، وحثّني على ذلك، فشرعت في ترتيبه، وكلته في مقدار عشرين يومًا، فأنفقت عليه سبعمائة ألف دينار ركنية، سوى ما نقلته من الخزائن ومن الجواهر والثياب، وغير ذلك، وأخبرت السلطان به فسره، وشكرني عليه، وفوّض إلي أمر خزانته، مضافًا إلى الخزانة، ولم يمض سنيات حتى اخْضرّ عذاره فسلاه السلطان، وتمادى هو في بسطه، وأساءت علي أكابر الأُمراء، فتهدده، فلم يلتفت، فأمر الأمراء بقتله إذا دخل عليه، فقتلوه بالسيوف.

وممن بلغ عنده مبلغًا لم يبلغه أحد قبله، الأمير المغترب اختيار الدين جوهر التاجي الخادم، كان خادمًا لوالدة السلطان سنجر، فلما توفيت في شوال سنة عشر وخمسمائة انتقل إليه، فشغف به، وغلب حبه عليه، وارتفع إلى حد لم يرتفع إليه غيره، وبلغت عدة عسكره ثلاثين ألف فارس، وكان أمره لا يرد، وإذا ركب مشى الأُمراء في ركابه، وإذا جلس وقفوا، حتى يأْذن لهم، وأعطاه الريّ، ثم ملّه بعد ذلك، وكرهه، ودسّ عليه بعض الباطنية، فقتله غيلة.

قال: ولما مات السلطان سنجر انقطع استبداد السلجقية بمملكة خراسان، واستولى عليها خوارزم شاه أتسز بن محمد، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

وزراؤه: العميد أبو الفتح بن أبي الليث إلى أن قتل في يوم عاشوراء سنة خمسمائة، واستوزر بعده ولده صدر الدين محمد إلى أن قتل ببلخ، في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة. قتله قايماز مملوك السلطان، الذي كان يهواه، فقتله به، واستوزر أبا جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر بن

---

(١) بقل الشيء: ظهر؛ وبقل وجه الغلام: نبت شعره.

الوزير نظام الملك، ثم قتله كما قدمناه، واستوزر بعده الوزير شهاب الإسلام عبد الدوام بن إسحاق، أخي نظام الملك، إلى أن توفي بسرخس، في يوم الخميس سابع المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة، واستوزر بعده الوزير بغاي بك الكاشغري[١]، فأحسن التدبير، وكان أعور، فصرفه في نصف صفر سنة ثمان عشرة، واستوزر بعده معين الدين مختص القاشاني، فقتله الباطنية، في تاسع عشر صفر سنة إحدى وعشرين، فاستوزر نصير الدين أبا القاسم محمود بن أبي توبة المروزي، وكان من أفضل الوزراء، وأجملهم سيرة، وأحسنهم طريقة، وأغزرهم أدبًا وعلمًا، وكثر في أيامه أهل العلم والأدب، وصُرِف في سنة ست وعشرين، واستوزر الوزير القوام أبا القاسم الدزكزيني، واستمر في وزارته إلى أن توفي، في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

قال: ولما حضرت السلطان سنجر الوفاة استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بغرا خان، وهو ابن أُخت السلطان، ولم يكن من السلجقية، وإنما هو من أولاد الملوك الخانية، فأقام بها خائفًا من الغز، وبقيت خراسان على هذا الاختلاف، إلى سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ثم راسله الغز، وسألوه أن يملكوه عليهم، فالتحق بهم، ثم خُلع في جُمادى الآخرة سنة ست وخمسين، وسمل، وإنما أوردنا اسمه هاهنا، على سبيل الاستطراد؛ ولأن سنجر عهد إليه بالملك بعده.

انتهت أخبار الدولة السلجقية بخراسان وما يليها، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

كمل الجزء السادس والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري رحمه الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) نسبة إلى كاشغر، وهي مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء السابع والعشرون

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذكر أخبار السلطان مغيث الدين[١]

هو أبو القاسم محمود بن محمد طبر بن ملكشاه، جلس على تخت السلطنة في النصف من ذي الحجة، سنة إحدى عشرة وخمسمائة، كما قدمنا ذكر ذلك في أخبار أبيه السلطان محمد، ثم خطب له بالسلطنة ببغداد بعد وفاة أبيه على عادة الملوك السلجقية، في يوم الجمعة ثالث عشر[٢] المحرم سنة ثنتي عشرة وخمسمائة، في خلافة المستظهر بالله، ودبر دولته الوزير الربيب أبو منصور.

ولما ولي السلطان مغيث الدين عزل بهروز عن شحنكية[٣] بغداد، وولى آقسنقر البُرسقي[٤] - وكان بالرحبة[٥] - في إقطاعه، فسار إلى السلطان محمد قبل وفاته يسأله الزيادة في إقطاعه، فبلغه وفاته قبل وصوله إلى بغداد، وأرسل مجاهد الدين بهروز

---

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان ج٥، ص١٨٢ رقم: ٧١٤، والكامل لابن الأثير ج١٠، ص٥٢٥، ٥٣٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص٧٦، وتاريخ ابن خلدون ج٥، ص٤٥، والسلوك للمقريزي ج١، ص٣٤، والتاريخ الباهر لابن الأثير، ص٤٢، والمنتظم لابن الجوزي ج١٠، ص٣٤، وعبر الذهبي ج٤، ص٦٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص٢٤١.

(٢) الثالث والعشرين من المحرم في وفيات الأعيان لابن خلكان ج٥، ص١٨٢ رقم ٧١٤.

(٣) الشحنة: بكسر الشين والتشديد وسكون الحاء وفتح النون: في اللغة الجماعة من المحاربين يقيمون في البلد للدفاع عنها وحمايتها وأطلق هذا المصطلح على من يقوم برئاسة هؤلاء المحاربين. والشحنكية معناها محافظ المدينة أو الإقليم. القلقشندي: صبح الأعشى ج٥، ص٣٦٢.

(٤) انظر الصفحة التالية من هذا الجزء.

(٥) مدينة بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣، ص٣٢.

يمنعه من دخول بغداد، فسار إلى السلطان محمود فلقيه توقيع السلطان بولاية شحنكية بغداد وهو بحُلْوَان[١]، فلما ولي هرب بهروز إلى تكريت[٢] وكانت له.

ثم ولى السلطان شحنكية بغداد للأمير منكبرس[٣]، وهو من أكابر الأمراء، فسيّر إليها ربيبه الأمير حسين بن أرديل، أحد أمراء الأتراك لينوب عنه. فلما فارق باب همذان اتصل به جماعة من الأمراء البلخية، فلما بلغ البُرْسقي ذلك خاطب الخليفة المستظهر بالله أن يأمره بالتوقف عن العبور إلى بغداد إلى أن يكاتب السلطان، فأرسل إليه الخليفة في ذلك، فأجابه: إن رسم الخليفة بالعود عدت، وإلا فلا بد من الدخول إلى بغداد. فجمع البرسقي أصحابه وسار إليه والتقوا واقتتلوا، فقتل أخ للأمير حسين وانهزم هو ومن معه، وعادوا إلى عسكر السلطان، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة.

قال: وكان الأمير دُبَيْس بن صدقة[٤] عند السلطان محمد منذ قتل والده، فلما توفي السلطان خاطب السلطان محمود في العودة إلى بلدة الحَلَّة[٥]، فأذن له فعاد إليها، فاجتمع له خلق كثير من العرب والأكراد وغيرهم.

ذكر مسير الملك مسعود ابن السلطان محمد وجيوش بك وما كان بينهما وبين البُرسقيّ والأمير دُبَيْس بن صدقة

قال: وفي جمادى الأولى سنة ثنتي عشرة وخمسمائة برز اقسنقر البُرْسقي[٦]،

---

(١) حُلوان: بالضم ثم السكون، مدينة كبيرة بالعراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٢٩٠. والحميري: الروض المعطار، ص١٩٥.

(٢) تكريت: بفتح التاء والعامة يكسرونها، بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهي إلى بغداد أقرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٣٨.

(٣) «منكبرس» في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٥٥٦.

(٤) هو دُبَيْس بن سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد الأسدي توفي عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٦٣ - ٢٦٥، رقم ٢٢٦.
ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي ج٢، ص٣٣٦، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٩، والكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٦٨، ٦٧٩، وج١١، ص٣٠.

(٥) الحلة: مدينة كبيرة على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي. الحميري: الروض المعطار، ص١٩٧، انظر أيضًا ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٢٩٥.

(٦) هو أبو سعيد آق سُنقُر البُرسقيّ الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي. =

ونزل بأسفل الرَّقَّة[١] في عسكره، ومن انضاف إليه، وأظهر أنه على قصد الحَلَّة وإخراج الأمير دُبَيْس بن صدقة عنها، وجمع جموعًا كثيرة من العرب والأكراد وفرق الأموال الكثيرة والسلاح. وكان الملك مسعود ابن السلطان محمد بالموصل عند أتابكه[٢] الأمير جيوش بك كما ذكرناه في أخبار السلطان محمد، فأشار عليهما جماعة بقصد العراق، وقالوا لا مانع دونه، فسارا في جيوش كثيرة، ومع الملك مسعود وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة اقسنقر جد نور الدين الشهيد[٣] ومعهم صاحب سنجار، وصاحب إربل[٤]، وكرباوي بن خراسان التركماني صاحب البَوازِيج[٥].

فلما علم البُرسقي بقربهم خافهم، وتجهّز لقتالهم عندما قربوا من بغداد، فسار إليهم ليقاتلهم، فأرسل إليه الأمير كرباوي في الصلح، وأعلمه أنهم إنما جاؤوا نجدة له على دُبَيْس، فاصطلحوا وتعاهدوا. ووصل الملك مسعود إلى بغداد؛ ونزل بدار المملكة، فأتاهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكبرس المقدم ذكره في جيش كبير، فسار البُرسقيّ عن بغداد ليحاربه ويمنعه من دخولها، فلما علم منكبرس بذلك قصد النعمانية واجتمع هو والأمير دُبَيْس بن صدقة واتفقا على المعاضدة[٦] والتناصر وقوي كل منهما بصاحبه. فلما اجتمعا سار الملك مسعود والبُرسقيّ وجيوش بك ومن معهم إلى المدائن للقاء دُبَيْس ومنكبرس، فأتتهم الأخبار بكثرة جمعهما، فعاد البُرسقيّ

= ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج١، ص٢٤٢ - ٢٤٣ رقم ١٠٣، الكامل لابن الأثير، ج٩، ص٥٠١ - ٦٣٣، التاريخ الباهر لابن الأثير، ص٢٤ - ٣١، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص٢٢٣، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص٦٠.

(١) الرقّة: مدينة بالعراق مما يلي الجزيرة، وكل أرض إلى جانب وادٍ ينبسط عليها الماء عند المدّ فهي رقة، وبه سميت المدينة، الحميري: الروض المعطار ص٢٧٠.

(٢) أتابك: لفظ تركي معناه مربي الملك. ويعبر عنه بأتابك العساكر وأصله أطابك ومعناه الولد الأمير وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وقيل أطابك معناه أمير، أب وأبو الأمراء هو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وغاية رفعة المحل وعلو المقام. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص١٨.

(٣) هو نور الدين محمود بن زنكي.

(٤) إربل: بالكسر ثم السكون: مدينة كبيرة واسعة من أعمال الموصل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٣٨.

(٥) البوازيج: من أعمال الموصل. بلد قرب تكريت. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٠٣.

(٦) المعاضدة: المعاونة، ابن منظور: لسان العرب (عضد).

والملك مسعود وعبرا نهر صَرْصَر(١)، وحفظا المخائض عليه، ونهب الطائفتان السواد نهبًا فاحشًا، واستباحوا النساء، فأرسل الخليفة المسترشد بالله ـ وكان قد بويع له بعد وفاة أبيه ـ إلى الملك مسعود وإلى البُرسقيّ ينكر ذلك، ويأمرهم بحقن الدماء، وترك الفساد، والموادعة والمصالحة. فأنكر البُرسقيّ أن يكون ذلك قد وقع، وأجاب إلى العود إلى بغداد، وعاد، ووقع الصلح والاتفاق بينهما. وكان سبب الاتفاق أن جيوش بك كتب إلى السلطان محمود يطلب الزيادة للملك مسعود ولنفسه، فوصل كتاب الرسول يذكر أنه لقي من السلطان إحسانًا كثيرًا، وأنه أقطعهم أذربيجان(٢). فوقع الكتاب إلى منكبرس، فأرسله إلى جيوش بك، وضمن له إصلاح السلطان محمود له وللملك مسعود. وكان منكبرس متزوجًا بأم الملك مسعود واسمها سرجهان، فعند ذلك تفرق عن البُرسقيّ من كان معه، وبطل ما كان يحدث به نفسه من التغلب على العراق بغير أمر السلطان والتحق بخدمة الملك مسعود، واستقر منكبرس في شحنكية بغداد، وعاد الملك مسعود وجيوش بك إلى الموصل وعاد دُبَيْس إلى الحَلّة.

واستقر منكبرس ببغداد، وأخذ في الظلم والعسف والمصادرات، فاختفى أرباب الأموال، وانتقل جماعة إلى حريم الخلافة خوفًا منه، وكثر فساد أصحابه، حتى أن بعض أهل بغداد تزوج بامرأة فلما زُفّت إليه أتاه بعض أصحاب منكبرس وكسر بابه وجرح الزوج عدة جراحات، وابتنى بالمرأة. فكثر الدعاء على منكبرس وأصحابه واستغاث الناس وأغلقوا الأسواق. فبلغ السلطان ذلك فاستدعاه إليه وحثه على اللحاق به، وهو يغالط ويدافع. فلما بلغ أهل بغداد ذلك طمعوا فيه وهمُّوا به، ففارق بغداد، وسار إلى السلطان، وظهر من كان قد استتر من الناس.

ذكر عصيان الملك طغرل على أخيه السلطان محمود(٣)

كان الملك طغرل(٤) لما توفي والده بقلعة من سَرْجَهان(٥). وكان والده قد

---

(١) نهر صرصر: نهر يصب في دجلة تجري فيه السفن، وعليه مدينة بينها وبين بغداد سبعة أميال. الحميري: الروض المعطار ص٣٥٧.

(٢) أذربيجان: في الإقليم الخامس وهي مملكة جلال الدين منكبرتي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٢٨.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٤٧ ـ ٥٤٨.

(٤) أخباره: في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٤٧، وج١١، ص١٢ و١٩، المنتظم لابن الجوزي ج١٠، ص٥٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٦.

(٥) قلعة حصينة تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣، ص٢٠٧.

أقطعه ساوه[١] وآوه[٢] وزَنْجان في سنة أربع وخمسمائة، وعمره إذ ذاك سنة، فإن مولده كان في سنة ثلاث وخمسمائة. وجعل السلطان أتابكه الأمير شيركير، ففتح عدة من قلاع الإسماعيلية في سنة خمس وخمسمائة، منها قلعة كُلام[٣] وقلعة بَيْرَة[٤] وغيرهما. فازداد ملك طغرل بما فتحه أتابكه شيركير، فأرسل السلطان محمود الأمير كندغدي[٥] ليكون أتابكًا لأخيه الملك طغرل ومدبرًا لأمره، وأمره بحمله إليه. فلما وصل إليه حسن له مخالفة أخيه ونزع يده من طاعته، فوافقه على ذلك، فسمع السلطان الخبر، فأرسل شرف الدين أنو شروان بن خالد، ومعه خلع وتحف وثلاثون ألف دينار، ووعد أخاه بإقطاع كثير، زيادة على ما بيده إن هو قصده واجتمع به، فلم يجب إلى الاجتماع به، وقال كندغدي: «نحن في طاعة السلطان، وأي جهة أراد قصدناها، ومعنا من العساكر ما نقاوم بهم من أمرنا بقصده»[٦]. فبينما هم في ذلك إذ ركب السلطان محمود من باب همذان في عشرة آلاف فارس جريدة، وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وكتم مقصده، وعزم على أن يكبس أخاه طغرل والأمير كندغدي. فرأى أحد خواص السلطان تركيًا من أصحاب الملك طغرل، فأعلم السلطان به، فقبض عليه. وكان معه رفيق سلم، وسار عشرين فرسخًا في ليلة، ووصل إلى الأمير كندغدي وهو سكران، فأيقظه بعد جهد، وأعلمه بالخبر، فقام كندغدي لوقته وأخذ الملك طغرل وسار به مختفيًا، وقصدا قلعة سميران[٧]، فضلاً عن الطريق إلى قلعة سرجاهان[٨]، وكان ضلالهما سببًا لسلامتهما، فإن السلطان جعل

---

(١) ساوَه: مدينة بين الري وهمذان، وساوَه سنية شافعية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٧٩.

(٢) آوَه: قرية بين زنجان وهمذان، وهي شيعية إمامية، ياقوت الحموي المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٣.

(٣) كلام: قلعة قديمة في جبال طبرستان من أيام الأكاسرة، ملكها الملاحدة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٥.

(٤) بَيْرة: هي بُليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس، ولها مرسى ترسي فيه السفن. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١، ص٥٢٦.

(٥) «كنتغدي» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٤٧.

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٤٧.

(٧) سميران: بفتح أوله وكسر ثانيه، قلعة حصينة على نهر عظيم جار بين جبال في ولاية تارم، وهي من أمات القلاع في الديلم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٥٦.

(٨) «سرجهان» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٤٧، هي قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج٣، ص٢٠٧.

طريقه على قلعة سميران، فسلما منه بما ظناه عطبًا. ووصل السلطان إلى عسكر أخيه فكبسه ونهب ما فيه وأخذ من خزانة أخيه ثلاثمائة ألف دينار. وأقام السلطان بزنجان وتوجه منها إلى الري ونزل طغرل من قلعة سرجاهان، ولحق هو وكندغدي، بكنجة[(١)]، وقصده أصحابه فقويت شوكته، وتمكنت الوحشية بينهما.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

كانت الحرب بين السلطان سنجر شاه وبين السلطان محمود، وكان الظفر لعمه سنجر شاه عليه، وقطعت خطبته من بغداد، وخطب لسنجر شاه، ثم اتفقا وحضر السلطان محمود إلى خدمة عمه فأكرمه وأحسن إليه وجعله ولي عهده كما قدمناه في أخبار السلطان سنجر.

قال: وأقطعه عمه سنجر شاه من حد خراسان إلى الداروم[(٢)] بأقصى الشام، وهي من الممالك: همذان، وأصفهان، وبلد الجبال جميعها، وديار مضر[(٣)]، وبلاد فارس، وكرمان وخوزستان، والعراق، وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر[(٤)]، وبلاد الموصل، والجزيرة، وديار ربيعة[(٥)]، وما بين هذه من الممالك.

قال القاضي عماد الدين بن الأثير في تاريخه: ورأيت منشوره بذلك، وليس ابن الأثير هذا هو الجزري صاحب التاريخ المترجم بالكامل بل هو صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية وهو الذي عاصرناه.

ذكر مقتل الأمير منكبرس[(٦)]

ومنكبرس هو الذي كان شحنة بغداد الذي قدمنا ذكره، وكان مقتله في سنة

(١) كنجة: بالفتح ثم السكون، مدينة تعتبر قصبة بلاد أران وهي من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤، ص٤٨٢، والحميري: الروض المعطار، ص٤٩٦.

(٢) الداروم: قلعة بعد غزة بينها وبين البحر مقدار فرسخ. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج٢، ص٤٢٤.

(٣) ديار مضر: وهي الواقعة شرقي الفرات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٣٨.

(٤) ديار بكر: الأراضي الممتدة شرقي الفرات في الجزيرة الفراتية. القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص١١٨.

(٥) ديار ربيعة: الديار الواقعة بين الموصل، ورأس العين، وحوض نهر الخابور، القلقشندي: المصدر السابق، ج٤، ص٣١٥.

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٥٦.

ثلاث عشرة وخمسمائة. وكان سبب قتله أنه لما انهزم السلطان محمود من عمه، عاد إلى بغداد، فنهب عدة مواضع من طريق خراسان، وقصد دخول بغداد، فسير دُبَيْس بن صدقة من منعه، فعاد وقد استقر الصلح بين السلطان وعمه، فدخل إلى السلطان سنجر(١) ومعه سيف وكفن، فقال له: «أنا لا أؤاخذ أحدًا» وسلمه إلى السلطان محمود وقال له: «هذا مملوكك، اصنع به ما تريد» فأخذه، وكان في نفسه منه أشياء: منها أنه لما توفي السلطان محمد أخذ سريته والدة الملك مسعود قهرًا قبل انقضاء عدتها، ومنها استبداده بالأمور دونه، ومسيره إلى شحنكية العراق والسلطان كارهٌ لذلك، وما فعله ببغداد. فقتله السلطان محمود صبرًا وأراح الناس من شرهِ والله أعلم.

ذكر مقتل الأمير عليّ بن عُمَر

وفيها أيضًا قتل الأمير علي بن عمر، حاجب السلطان محمد، وكان قد صار أكبر الأُمراء، وانقادت له العساكر، فحسده الأُمراء وأفسدوا حاله مع السلطان محمود وحسنوا له قتله. فعلم بذلك فهرب إلى قلعة برجين - وهي بين بَروجِرْدَ(٢) وكَرَج - وكان بها أهله وماله، وسار منها في مائتي فارس إلى خوزستان، وكانت بيد أقبورى بن برسق وابني أخويه أُرغلي بن يَلْبَكي وهندُو بن زنكي. فأرسل إليهم وأخذ عهودهم بأمانه وحمايته. فلما سار إليهم أرسلوا عسكرًا منعوه من قصدهم، ولقُوه على ستة فراسخ من تُسْتَر(٣) فانهزم هو وأصحابه ووقف به فرسه، فانتقل إلى غيره، فنشب

(١) هو السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان واسمه أحمد، سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر وخُطب له بالعراقين وأذربيجان وأران وأرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين. ولد سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وتوفي سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م. ابن خلكان وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٢٧ ـ ٤٢٨.

أخباره في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٣٦٥، ٢٧٩، ٣٠٥ و٦٦١، ٦٥١، وج١١، ص٢٨، ٦٧، ١٧٦، ٢٢٢ وصفحات متفرقة من تاريخ الملوك السلجوقية لصدر الدين الحسيني، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٣١٢، وتاريخ الإسلامي للدكتور حسن إبراهيم حسن ج٤، ص٣٤. والمنتظم لابن الجوزي ج١٠، ص١٧٨ و٢١٦.

(٢) بَروجِرْد: بالفتح ثم الضم وكسر الجيم وسكون الراء ودال. بلدة بين الكرج وهمذان. بينها وبين همذان ثمانية عشر فرسخًا وبينها وبين الكرج عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٠٤.

(٣) تُستر: أعظم مدينة بخوزستان: ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩.

ذيله[١] بسرجه الأوّل فأزاله ثم عاود التعلق فأبطأ فأدركوه وأسروه وكاتبوا السلطان محمود في أمره، فأمرهم بقتله فقتلوه[٢].

ذكر عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود والحرب بينهما والصلح

وفي سنة أربعة عشرة وخمسمائة في شهر ربيع الأول كان المصافّ بين السلطان محمود وأخيه مسعود[٣]. وكان لمسعود الموصل وأذربيجان وكان سبب هذه الحرب أنّ دُبَيْس بن صدقة كان يكاتب جيوش بك أتابك الملك مسعود، ويحثّه على طلب السلطنة. وكان مقصده أن يقع الاختلاف بينهما، فينال من الجاه وعلوّ المنزلة ما ناله أبوه باختلاف السلطان محمد وبركياروق[٤] [ابنيْ ملكشاه][٥] وكان آقسنقر البُرسقيّ مع الملك مسعود منذ فارق شحنكية بغداد، وأقطعه الملك مسعود مَراغة[٦] مضافةً إلى

(١) «فتشبث ذيله» في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٥٥٧ ونشب معناه علق، ابن منظور: لسان العرب (نشب).

(٢) «فقتل وحمل رأسه إليه» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٥٧.

(٣) هو أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب السلجوقي الملقب غياث الدين، ولد يوم الجمعة لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م خُطب له ببغداد يوم الجمعة لاثنتي عشر ليلة خلت من صفر سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م توفي في حادي عشر جمادى الآخرة سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م وقيل يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من الشهر. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٠٠ ـ ٢٠٢.
أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٦٢، ٦٩٦، ٦٧٢، ٦٧٦، ٦٨٦، وج١١، ص٢٤، ١٣١، ١٦٠، وتاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٤٥، والسلوك للمقريزي، ج١، ص٣٤، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي ص٢١٤، والمنتظم لابن الجوزي، ج١٠، ص١٥١، وعبر الذهبي، ج٤، ص١٢٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص١٤٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٩١.

(٤) هو أبو المظفر بركياروق الملقب ركن الدين ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن دقاق. أحد الملوك السلجوقية. ولد ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م وتوفي ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، أقام في السلطنة ١٢ سنة وأشهرًا. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٢٦٨ ـ ٢٦٩.
أخباره في ابن خلدون ج٥، ص١٢ وما بعدها، الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٢٢٩، ٢٤٤، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٨٠.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٦٢.

(٦) مراغة: بالفتح، والغين المعجمة: بلدة مشهورة في بلاد أذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٩٣.

الرّحبة. وكان بينه وبين دُبَيْس عداوةٌ مستحكمة فكاتب دُبَيْس جيوش بك يشير عليه بالقبض على البُرسقيّ، فعلم البرسقيّ بذلك، ففارقهم إلى السلطان محمود، فأكرمه وأعلى[١] محله وزاده.

واتصل الأُستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني الطُّغرائي[٢] بالملك مسعود. فاستوزره مسعود بعد [أن] عزل [أبا علي][٣] بن عمّار [صاحب طرابلس] فحسّن له أيضًا مخالفة السلطان، والخروج عن طاعته. فبلغ السلطان محمود الخبر فكتب إليهم يحذرهم من مخالفته، ويعدهم الإحسان إن أقاموا على الطاعة، فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا أضمروه، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، وضربوا له النُّوَب الخمس[٤]، وكان ذلك على تفرق عساكر السلطان محمود، فقوي طمعهم وأسرعوا إليه ليلقوه وهو في قلة من العسكر. واجتمع إليه نحو خمسة عشر ألفَ فارس.

فسار السلطان إليهم فالتقوا عند عقَبة أستراباد[٥] نصف شهر ربيع الأول، واقتتلوا نهارًا كاملاً والبُرسقيّ في مقدّمة عسكر السلطان محمود وأبلى يومئذ بلاءً حسنًا. فانهزم عسكر الملك مسعود في آخر النهار، وأُسر جماعة كبيرة من أعيان أصحابه. وأُسر الوزير، فأمر السلطان بقتله وقال: «ثبت عندي فساد نيته» وكان حسن الكتابة والشعر، وله تصانيف في صنعة الكيميا ضيّعت للناس من الأموال ما لا يحصى كثرة.

قال: ولمّا انهزم أصحاب الملك مسعود وتفرّقوا، قصد جبلاً بينه وبين المصاف اثنا عشر فرسخًا، واختفى فيه بألفي فارس، وأرسل إلى أخيه يطلب منه الأمان، فرقّ

---

(١) في الأصل «أعلا» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هو العميد فخر الكتاب أبو إسماعيل الحسين بن علي الملقب مؤيد الدين الأصبهاني المنشىء المعروف بالطغرائي، قتل سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م وقيل إنه قتل ٥١٤هـ/ ١١٢٠م وقيل ٥١٨هـ/ ١١٢٤م ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٨٥ ـ ١٩٠، رقم ١٩٧.
ترجمته في: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١ ـ ٢٠) القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٦٣.

(٤) النوب: وهم الذين ينوبون في الحراسة في أوقات معروفة، وهذه الفرق من الجند وعددها خمسة. ابن منظور: لسان العرب (نوب).

(٥) هكذا في الأصل، وفي ابن الأثير «اساداباز» الكامل ج١٠، ص٥٦٤.
واستراباذ: بفتح الألف وسكون السين: بلدة من أعمال طبرستان: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٧٤ ـ ١٧٥ في الأصل «اثني» والتصحيح يقتضيه السياق.

له وأجابه إلى ما طلب، وأمر آقسنقر البخاري بالمسير إليه وإعلامه بعفو السلطان وبسط أمله.

ولما كتب إلى أخيه في طلب الأمان وصل إليه بعد ذلك بعض الأمراء، وحسن له المسير إلى الموصل، ومكاتبة دُبَيْس بن صدقة، والاتفاق معه، ومعاودة طلب السلطنة، فسار من ذلك الموضع ووصل آقسنقر البخاري فلم يجده فسار في أثره وجدّ السير، فأدركه على ثلاثين فرسخًا من مكانه ذلك، فاجتمع به وعرّفه عفو أخيه عنه، وضمن له ما أراد، وأعاده إلى العسكر، فأمر السلطان العسكر باستقباله وتعظيمه، ففعلوا ذلك. وأمر السلطان بإنزاله عند والدته وجلس له وأحضره، واعتنقا وبكيا، وانعطف عليه السلطان محمود، ووفى له، وخلطه بنفسه في جميع أحواله. فعدّ الناس ذلك من مكارم السلطان محمود. وكانت الخطبة لمسعود بالسلطنة بأذربيجان والجزيرة والموصل ثمانية وعشرين يومًا.

وأما أتابكه جيوش بك فإنه سار إلى عقبة أستراباد، وانتظر الملك مسعود فلم يره، فلما أيس منه سار إلى الموصل، ونزل بظاهرها وجمع الغلات من السواد إليها، واجتمع إليه عسكره فلما بلغه ما كان من أمر الملك مسعود وأخيه، سار إلى السلطان وهو بهمذان ودخل إليه فأمّنه.

وأما الأمير دُبَيْس بن صدقة، فإنه نهب البلاد وخرّبها وفعل الأفعال القبيحة، فأمّنه السلطان، والله أعلم.

ذكر طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود(١)

قال: كان دخول الملك طغرل في طاعة أخيه السلطان محمود في المحرّم سنة ست عشرة وخمسمائة، وكان قد قصد أذربيجان في سنة أربع عشرة. وكان أتابكه كندغدي يحسن له ويقوّيه عليه، فاتّفقتْ وفاته في شوال سنة خمس عشرة وكان الأمير آقسنقر صاحب مراغة عند السلطان ببغداد، فاستأذن السلطان في المضي إلى إقطاعه فأذن له، فلما سار عن السلطان ظنّ أنه يقوم مقام كندغدي عند الملك طغرل ويتنزل منزلته، فسار إليه واجتمع به، وأشار عليه بمكاشفة أخيه، وقال له: «إذا وصلتَ إلى مَراغة، اتّصل بك عشرة آلاف فارس وراجل» فسار طغرل معه، فلما وصلا إلى

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٥٩٧.

أرْدَبِيل[١]، أُغلقت أبوابها دونهما، فسارا عنها إلى قرية تِبريز، فأتاهما الخبر أنّ السلطان محمود سيّر الأمير جيوش بك إلى أذربيجَانَ، وأقطعه البلاد، وأنه نزل على مَراغة في عسكر كثيف، فعدلا إلى خويه[٢] وانتقض عليهما ما كانا فيه، وراسلا الأمير شيران[٣] الذي كان أتابك طغرل [أيّام أبيه][٤] يدعوانه إلى إنجادهما. وكان بإقطاعه أبْهر وزَنْجَان[٥]، فأجابهما واتّصل بهما، وساروا إلى أبْهَر فلم يتم لهم ما أرادوه فعند ذلك راسلوا السلطان بالطاعة وسألوا الأمان، فأجابهم إلى ذلك، واستقرّت القاعدة، وتمّ الصلح.

ذكر قتل الوزير السُّميرميّ[٦]

وفي سلخ صفر سنة ست عشرة وخمسمائة قتل الوزير كمال الدين أبو طالب السُّميرميّ وزير السلطان محمود. وكان قد برز مع السلطان ليسير إلى همَذان، فدخل إلى الحمّام وخرج وبين يديه الرجالة والخيالة، وهو في موكب عظيم، فاجتاز بمنفذ ضيق فيه [حظائر الشوك][٧] فتقدم أصحابه لضيق المكان، فوثب عليه باطنيٌّ، وضربه بسكّين فوقعت في بغلته، وهرب الضارب إلى دجلة، وتبعه الغلمان فخلا الموضع، فظهر رجل آخر فضربه بسكّين في خاصرته، وجذبه عن البغلة إلى الأرض، وضربه عدة ضربات. وعاد أصحاب الوزير فحمل عليهم رجلان باطنيّان، فانهزموا منهما ثم عادوا وقد ذُبحَ الوزير مثل الشاة، وبه نيفٍ وثلاثون، جراحة فقتلوا قتلته.

---

(١) أردبيل: بالفتح ثم السكون، من أشهر مدن أذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٤٥.

(٢) هكذا كتبها النويري. وفي معجم البلدان خُوَيّ: بضم الخاء وفتح الواو وتشديد الياء: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٨.

(٣) «شيركير» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٩٧.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٩٧.

(٥) أبهر: بالفتح ثم السكون: بلدة من نواحي أصبهان وكذلك زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٨٢.

(٦) هو علي بن أحمد بن حرب أبو طالب، كمال الدين: وزير السلطان محمود بن محمد السلجوقي. توفي سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م.
أخباره في: الأعلام للزركلي، ج٤، ص٢٥٥، والكامل لابن الأثير ج١٠، ص٦٠٢، والمنتظم لابن الجوزي، ج٩، ص٢٣٩.

(٧) «حضاير» في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٠١.

قال: ولما كان في الحمّام أخذ المنجمون له الطالع للخروج فقالوا: «هذا وقت جيّد، وإن تأخّرتَ يفوت طالع السعد» فأسرع وركب وأراد أن يأكل طعامًا فمنعوه لأجل الطالع، فقُتل ولم ينفعه ذلك. وكانت وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر، وانتُهب ماله، وأخذ السلطان خزانته. وكانت زوجته[١] قد خرجت في هذا اليوم في موكب كبير ومعها نحو مائة جارية وجَمْعٌ من الخدم، والجميع بمراكب الذهب.. فلمّا سمعن بقتله عُدْنَ حافيات حاسرات، وقد تبدلْنَ عن العز هوانًا، وعن المسرة أحزانًا.

وكان السُّميرميّ ظالمًا كثير المصادرات للناس، سيىء السيرة، فلمّا قُتل أطلق السلطان ما كان جدّده من المكوس، واستوزر بعده شمس الملك عثمان بن نظام الملك[٢].

ذكر قتل الأمير جيوش بك[٣]

كان مقتله في شهر رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة. وكان السلطان قدمه بعد عوده إليه، وأحسن إليه، وأقطعه أذربيجان، وجعله مقدم عسكره، فجرى بينه وبين الأُمراء منافرة ومنازعة، فوشوا به عند السلطان فقتله. وكان عادلاً، حسن السيرة.

وفيها أقطع السلطان محمود الأمير آقسنقر البُرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافة إلى ولاية الموصل وشحنكية العراق، فسيّر البُرسقي إلى واسط عماد الدين زنكي.

ذكر ظفر السلطان محمود بالكُرْج

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة اشتدت نكاية الكُرج[٤] في بلاد الإسلام، وعظُم الأمر على الناس، لا سيما أهل دَرْبَنْد شِروان[٥]، فسار منهم جماعة كثيرة من أعيانهم

(١) أي زوجة السميرمي.

(٢) قتل سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م. أخباره في المنتظم لابن الجوزي ج٩، ص٢٤٦، والكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٠٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٠٣.

(٤) الكُرج: بالضم ثم السكون وآخره جيم: وهم جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القَبْق، وبلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٦.

(٥) دَرْبند شروان: مدينة على بحر طبرستان أو الخزر، وهي ثغر هام وبناها أنوشروان لذلك نسب إليه وسميت بالباب أو باب الأبواب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٠٣.

إلى السلطان، وشكوا إليه ذلك، فسار إليهم وقد وصل الكُرْج إلى شَماخِي[١] فنزل السلطان ببستان هناك، وتقدم الكُرْج إليه، فخافهم العسكر خوفًا شديدًا، وأشار الوزير على السلطان بالعود. فلما سمع أهل شروان بذلك، قصدوا السلطان وقالوا: «نحن نقاتل ما دمت عندنا وإن تأخرت ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا» فأقام بمكانه، وبات العسكر على وجلٍ عظيم، فأتاهم الله بفرج من عنده، وألقى بين الكُرْج والقفجاق الاختلاف، فاقتتلوا تلك الليلة، ورحلوا شبه المنهزمين، وكفى الله المؤمنين القتال. وأقام السلطان بشِروان ثم عاد إلى همذان.

وفي سنة ثماني[٢] عشرة وخمسمائة عُزل آقسنقر البُرسقيّ عن شحنكية العراق ورسم له بالعود إلى الموصل، وأرسل السلطان محمود إليه ولدًا صغيرًا له مع أمه لكيون عنده. فلما وصل الصغير إلى العراق تلقته المواكب، وكان لدخوله يومًا مشهودًا. وتسلّم البُرسُقيّ الصغير وسار به وبأمه إلى الموصل. وولي شحنكية العراق سعد الدولة برنقش[٣]. وملك البُرسُقيّ في هذه السنة مدينة حلب وقلعتها.

ذكر وصول الملك ودُبَيْس بن صدقة إلى العراق وعودهما

كان الخليفة المسترشد بالله[٤] خرج لقتال دُبَيْس بن صدقة في سنة سبع عشرة وخمسمائة، وقاتله، فانهزم دُبَيْس كما ذكرناه في أخبار المسترشد، ثم التحق بعد هزيمته بالملك طغرل أخي السلطان محمود. فلما وصل إليه أكرمه وأحسن إليه، وجعله من أعيان خواصه وأمرائه. فحسّن له دُبَيْس قصد العراق، وهوّن الأمر عليه، وضمن له أن يملكه، فسار معه إلى العراق في سنة تسع عشرة وخمسمائة فوصلوا إلى

(١) شماخي: بفتح أوله وتخفيف ثانيه: مدينة عامرة وهي قصبة بلاد شروان، تعد من أعمال باب الأبواب أو دربند شروان. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٣، ص٣٦١.

(٢) «ثمانٍ» في الأصل والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) «برتقش الزكوي» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٢٢.

(٤) هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله العباسي. ولد سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م وقيل ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م و٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م توفي سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م بويع له بالخلافة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م.
ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص٨٦، المنتظم لابن الجوزي، ج٩، ص١٩٧، وج١٠، ص٥٣، الكامل لابن الأثير، ج١٠ ص٥٣٦، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٩.

دقوقاء[١] في عساكر كثيرة. فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت يخبر الخليفة بذلك، فخرج الخليفة في العساكر والرجال ونزل بصحراء الشَّمّاسيّة[٢]، وبرنقش أمامه.

فلما بلغ الملك طغرل الخبر، عدل إلى طريق خراسان، وتفرّق أصحابه للنهب وتوجه هو ودُبَيْس إلى الهارونيّة[٣]. وسار الخليفة حتى أتى الدَّسكرة[٤]، فاستقر الأمر بين طغرل ودُبَيْس أن يسيرا حتى يعبرا نهر دَيَالَى[٥] ويقطعا جسر النَّهروان، ويقيم دُبَيْس لحفظ المخايض[٦]، ويتقدم الملك طغرل إلى بغداد فيملكها وينهبها. فسارا على ذلك فحصل لطغرل حمى شديدة منعته من ذلك، وبلغ الخليفة الخبر، فعاد إلى بغداد. وانتقض على طغرل ودُبَيْس ما دبراه، فقصدا السلطان سنجر واجتازا في طريقهما بهمذان، فبسط على أهلها مالاً كثيرًا وأخذاه، فبلغ خبرهما السلطان محمود فجدّ السير في إثرهما، فانهزما منه إلى خراسان، واجتمعا بالسلطان سنجر، وشكيا من الخليفة، وبرنقش، وأقاما عند السلطان سنجر؛ ثم كان من أمرهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مقتل البُرسقيّ وملك ابنه عزّ الدين مسعود

وفي سنة عشرين وخمسمائة قتل آقسنقر البُرسقيّ صاحب الموصل بمدينة الموصل، قتله الباطنية في يوم الجمعة بالجامع. وكان من عادته أنه يصلي الجمعة في الجامع مع العوام. وكان قد رأى في منامه في تلك الليلة أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضهم ونال منه الباقي ما أذاه، فقصّ ذلك على أصحابه فأشاروا عليه بترك

---

(١) دقوقاء: بفتح أوله وضم ثانيه: مدينة بين إربل وبغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩.

(٢) الشماسية: بفتح أوله وتشديد ثانيه: وهي مجاورة لدار الروم في أعلى بغداد. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٣، ص٣٦١.

(٣) الهارونية: مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣٨٨.

(٤) الدسكرة: بفتح أوله وسكون ثانيه، قرية تقع غربي بغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٥٥.

(٥) ديالى: بفتح أوله: نهر كبير بقرب بغداد. وهو نهر بعقوبا الأعظم يجري في جنبها، وهو الحد بين طريق خراسان والخالص، وهو نهر تامرا بعينه. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩٥.

(٦) «المعابر» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٢٦.

الخروج من داره عدة أيام، فقال: «لا أترك الجمعة لشيء أبدًا» فغلبوه على رأيه ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، وأخذ المصحف ليقرأ فيه، فأول ما خرج له قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فركب إلى الجامع على عادته. وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفسًا، عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح [هو][١]، بيده ثلاثة منهم، وقُتل رحمه الله تعالى. وكان تركيًا خيّرًا، يحب أهل العلم والدين، كثير العدل يحافظ على الصلوات لأوقاتها، ويصلي بالليل تهجّدًا. ولما قتل كان ابنه مسعود بحلب يحفظها من الفرنج، فأرسل إليه أصحاب والده بالخبر فسار إلى الموصل، ودخلها في أول ذي الحجة، ثم توجه إلى السلطان محمود فأحسن إليه وأعاده.

وفي هذه السنة وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله.

وكان سببه برنقش، فسار السلطان إلى العراق، وكان بينه وبين الخليفة ما قدمناه في أخبر المسترشد بالله، ثم اتفقا على مال حمله الخليفة إليه.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة.

أسند السلطان شحنكية العراق إلى عماد الدين زنكي على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

وفيها في عاشر شهر ربيع الآخر سار السلطان محمود من بغداد وحمل إليه الخليفة الخلع والدّواب الكثيرة، فقبل جميع ذلك، ولما أبعد عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر النساباذي[٢] في شهر رجب لأنه اتهمه بممالأة المسترشد بالله، وأرسل إلى بغداد وأحضر شرف الدين أنوشروان بن خالد، فوصل إلى السلطان وهو بأصفهان، فخلع عليه الوزارة واستوزره، فاستمر عشرة أشهر وعزل نفسه، وعاد إلى بغداد في شعبان سنة اثنتين وعشرين، فأُعيد الوزير أبو القاسم.

وفي سنة إحدى وعشرين توفي عز الدين مسعود بن البُرسقيّ أمير الموصل فأقام السلطان مقامه عماد الدين زنكي.

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قدم السلطان سنجر عم السلطان محمود إلى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٣٤.

(٢) «الانساباذي» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٢، «والنساباذي» في الأصل.

الرَّيّ، واستدعى السلطان [محمود][١] فسار إليه فأكرمه وأجلسه معه على التخت، ولما عاد [سنجر][٢] إلى خُراسان سلّم دُبَيْس[٣] بن صدقة إلى السلطان محمود، وأوصاه بإكرامه وإعادته إلى بلده، فرجع محمود إلى همذان، ودُبَيْس في صحبته. ثم سار إلى العراق، وقدم بغداد في المحرم سنة ثلاث وعشرين، ودُبَيْس معه ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد بالله. فامتنع الخليفة من إجابة السلطان إلى ولاية دُبَيْس بن صدقة البتة، فلم يمكن السلطان إجباره وأقام ببغداد إلى رابع جمادى الآخرة من السنة، وعاد إلى همذان، وجعل بهروز على شحنكية بغداد، وسلم إليه الحِلَّة واستصحب دُبَيْس بن صدقة معه.

ذكر ما فعله دُبَيْس بن صدقة وما كان من أمره

قال: ولما سار السلطان محمود من بغداد إلى همذان ماتت زوجته ابنة عمه السلطان سنجر، وكانت تعتني بأمر دُبَيْس. فلما ماتت انحل نظامه. واتفق أن السلطان مرض مرضًا شديدًا، فأخذ دُبَيْس ابنًا له صغيرًا وقصد العراق، فلما بلغ المسترشد خبره، جنّد الأجناد وحشَّد وجمع. وكان بهروز بالحِلَّة ففارقها ودخلها دُبَيْس في شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة. فلما بلغ السلطان الخبر أحضر الأميرين نيزك[٤] والأحمديليّ وقال: «أنتما ضمنتما مني دُبَيْس بن صدقة وأريده منكما» فسار الأحمديلي إلى العراق فاتصل خبره بدُبَيْس، فكتب إلى الخليفة يستعطفه ويقول: «إن رضيتَ عنّي فأنا أردّ أضعاف ما أخذتُ، وأكون العبد المملوك»، وترددت الرسائل بينهما، ودُبَيْس في خلال ذلك يجمع الرجال والأموال[٥]، وكان معه ثلاثمائة فارس فصار في عشرة آلاف فارس. ووصل الأحمديلي بغداد في شوال، وسار إلى دُبَيْس، وسار السلطان بعد ذلك إلى العراق، فأرسل إليه دُبَيْس هدايا جليلة وبذل ثلاثمائة حصان منعولة بالذهب ومائتي ألف دينار ليرضى عنه السلطان والخليفة، فلم يجبه إلى ذلك. فسار إلى البصرة وأخذ منها أموالاً كثيرة، فسيّر الخليفة في إثره عشرة آلاف

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥١.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥١.

(٣) هو أبو الحسن مجاهد الدين، ولي إمرة العراق نيفًا وثلاثين سنة، توفي سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م. ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٦٨.

(٤) هكذا في الأصل، و«الأميرين قزل والأحمديلي» في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٦٥٥.

(٥) هكذا في الأصل. وفي الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥٥ «الأموال والرجال».

فارس ففارق البصرة ودخل البرية، ثم سار إلى الشام في سنة خمس وعشرين ليملك صَرْخَد[١]، وكان صاحبها قد توفي، واستولت جاريته على القلعة وما فيها، فاستدعت دُبَيْس بن صدقة ليتزوج بها، ويملك القلعة. فسار إليها فضلّ عن الطريق، فنزل بناس من كلب[٢] كانوا بنواحي الغوطة[٣] فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك[٤] صاحب دمشق، فحبسه عنده، فسمع أتابك زنكي خبره، فأرسل إليه يطلبه منه ويتهدده إن لم يرسله إليه، فأرسله إليه، فأحسن إليه زنكي إحسانًا لم يسمع بمثله، وكان قد ظن أنه يهلكه فأقام عنده وانحدر معه إلى العراق (والله أعلم).

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة خرج الملك مسعود بن محمد من خراسان وكان عند عمه السلطان سنجر ووصل إلى ساوه. فسار السلطان من بغداد إلى همذان، وفي ظنه أن مسعود يخالفه على عادته. فلما وصل إلى كرمان[٥] وصل إليه أخوه الملك مسعود وخدمه، فأقطعه كنجه وأعمالها.

ذكر وفاة السلطان محمود وشيء من أخباره وملك ابنه داود

كانت وفاته بهمذان في شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة وكان له من العمر نحو سبع[٦] وعشرين سنة، وكانت مدة سلطنته ثلاث عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يومًا وكان حليمًا كريمًا عاقلاً، يسمع ما يكره فلا يعاقب عليه مع القدرة، قليل الطمع في أموال الناس، عفيفًا عنها، كافًا لأصحابه عن الظلم والتطرق إلى أموال رعيته.

---

(١) صرخد: بالفتح ثم السكون: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة، وولاية حسنة واسعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٠١.

(٢) كلب: بنو كلب قبيلة من عرب الجنوب وهم الذين انضافوا إلى قبيلة آل فضل. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٢٠٥.

(٣) الغوطة: هي الكورة التي منها دمشق. وصفها ياقوت بأنها إحدى جنات الأرض. معجم البلدان، ج٤، ص٢١٩.

(٤) هو الملك تاج الملوك بُوري بن ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق. ولي أمر دمشق بعد موت أبيه الأتابك طغتكين في سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م توفي سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وشهورًا. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٤٣. أخباره في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٦٧٩، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٧٨.

(٥) كَرْمان: بالفتح ثم السكون: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤، ص٤٥٤.

(٦) «عمره ثمانٍ وعشرون سنة» في النجوم الزاهرة ج٥، ص٢٤١ ومدة سلطنته أربع عشرة سنة.

ونقل بعض المؤرخين أن الأموال ضاقت في آخر أيامه حتى عجزوا في بعض الأيام عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له بعض صناديق الخزانة فباعها وصرف ثمنها في حاجته. ولما توفي والد السلطان محمد خلف ثمانية آلاف ألف دينار، سوى المصوغات والجواهر وأصناف الثياب وغير ذلك، فآل الأمر في أيام محمود إلى هذه الغاية. قال: وطلب يومًا من سابور الخادم الخازن غالية[1]، فشكا إليه الإقلال واستمهله. ثم أحضر إليه بعد مدة ثلاثين مثقالاً، فقال له السلطان وكان خازن أبيه: «كم كان في خزانة السلطان والدي من الغالية؟» فقال: «كان في قلعة أصفهان منها في أواني الذهب والفضة والبلور المحكم والصيني ما يقارب مائة وثمانين رطلًا، ومعنا في خزانة الصحبة ما يقارب ثلاثين رطلًا» فجعل يتعجب من ذلك ويقول لمن حضر: اعجبوا من التفاوت بين هذه الأيام وتلك».

وكان له من الأولاد محمد شاه ولي السلطنة، وملكشاه وليها أيضًا، وجفري شاه، وداود ووزراؤه ربيب الدولة أبو منصور وزير والده. ثم نظام الدين كمال الملك أبو طالب علي بن أحمد السُّميرميّ، صفي أمير المؤمنين إلى أن قتل كما ذكرناه. واستوزره بعده شمس الدين عثمان بن نظام الملك إلى أن قتله في سنة سبع عشرة وخمسمائة. واستوزر الوزير القوام أبا القاسم علي بن الناصر النساباذي، وقبض عليه في شهر رجب سنة عشرين. واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد، ثم استعفى من الوزارة وأعيد الوزير أبو القاسم.

قال: ولما توفي السلطان محمود جلس ابنه داود في السلطنة باتفاق من الوزير أبي القاسم، وأتابكه اقسنقر الأحمديلي، وخطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان. ولما اطمأن الناس وسكنوا سار الوزير بأمواله إلى الري ليأمن بها حيث هي للسلطان سنجر. وكان سبب خوفه أنه قبل وفاة السلطان محمود خاف من جماعة من الأُمراء وأعيان الدولة منهم: عين الدولة أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي، والأمير أنوشتكين المعروف بشيركير. وولده عمر وهو أمير حاجب، فقبض عليهم. فأما عين الدولة فإنه أرسله إلى مجاهد الدين بهروز فحبسه بتكريت، ثم قتل بها، وأما شيركير وولده. فقتلهما في جمادى الآخرة.

---

(١) الغالية: الطيب. ابن منظور: لسان العرب (غلي).

ذكر أخبار السلطان غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن ملكشاه وما كان من أمره، وخروجه من السلطنة وسلطنة أخيه السلطان طغرل، وعوده إليها

وقد رأيت من قدم أخبار السلطان طغرل على أخبار أخيه السلطان مسعود ثم ذكر سلطنة مسعود بعدها، وليس كذلك لأن السلطان طغرل ما تسلطن إلا بعد حرب السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر، ومسعود لم يحارب عمه سنجر بعد أن خطب له بالسلطنة فتعين بهذا أن السلطان مسعود تقدمه في السلطنة وقد بدأت بأخبار السلطان مسعود وجعلت أخبار السلطان طغرل مندمجة في أخبار السلطان مسعود وبينتها بالتراجم الدالة عليها لأن السلطان مسعود تسلطن قبله وعاش بعده.

ذكر ما اتفق للسلطان مسعود مع أخيه الملك سلجق شاه وداود بن محمود[١] واستقرار السلطنة بالعراق لمسعود

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه المترجم بالكامل: لما توفي السلطان محمود بن محمد، وخطب لولده الملك داود ببلاد الجبل أذربيجان سار الملك داود من همذان في ذي القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمائة إلى زنكان[٢]؛ فأتاه الخبر بمسير عمه السلطان مسعود من جُرجان، وأنه وصل إلى تبريز[٣] واستولى عليها. فسار الملك داود إليه، وحصره بها وجرى بينهما قتال إلى سلخ المحرّم سنة ست وعشرين [وخمسمائة][٤]، ثم اصطلحا وتأخر الملك داود مرحلة، وخرج السلطان مسعود من تبريز، واجتمعت عليه العساكر وسار إلى همذان [وأرسل يطلب الخطبة ببغداد][٥] وكانت رسل الملك داود تقدّمت إلى بغداد في طلب الخطبة، فأجاب المسترشد بالله أنَّ الحكم في الخطبة للسلطان سنجر، فمن أراد خطب له. وأرسل

---

(١) أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٦٩، وج١١ ص٦٠.

(٢) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٧٤ «زنجان».

(٣) تبريز: بكسر أوله، وسكون ثانيه. أشهر مدن أذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٧٤.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٧٤.

الخليفة إلى السلطان سنجَر أن لا يأذن في الخطبة لأحد، وأنه ينبغي أن تكون الخطبة له وحده دون بني أخيه، فوقع ذلك منه موقعًا حسنًا. ثم إن السلطان مسعود كاتب عماد الدين أتابك زنكي صاحب الموصل وغيرها يستنجده ويطلب مساعدته فوعده بالنصر، فقويت نفسه بذلك على طلب السلطنة.

قال: ثم إن السلطان سلجق شاه[١] بن محمد سار به أتابكه قراجا الساقي صاحب بلاد فارس وخوزستان في عسكر كثير إلى بغداد، فوصل إليها قبل وصول أخيه السلطان مسعود، ونزل بدار السلطنة، فأكرمه الخليفة واستخلفه لنفسه. ثم وصل رسول السلطان [مسعود][٢] يطلب الخطبة لنفسه ويتهدد إن منعها، فلم يجبه المسترشد إلى ما طلب، فسار حتى نزل عباسية[٣] الخلاص. فبرز عسكر الخليفة وعسكر سلجق شاه وقراجا[٤] الساقي نحو مسعود، وقد عزموا على حربه، فأتاهم الخبر بوصول عماد الدين زنكي[٥] إلى المعشوق[٦]، فعبر قراجا الساقي في أكثر العساكر إلى الجانب الغربي وسار في يوم وليلة إلى المعشوق، والتقى هو وزنكي فهزمه الساقي وأسر جماعة من أصحابه، وانهزم زنكي إلى تكريت، وسار إلى الموصل.

قال: وسار السلطان مسعود من العباسية المالكية[٧]، وحصلت المناوشة بين عسكره وعسكر أخيه سلجق شاه ودامت يومين، فأرسل سلجق شاه إلى قراجا يستحثه في العود، فعاد مسرعًا. فلما علم مسعود بهزيمة زنكي رجع إلى ورائه، وأرسل إلى الخليفة يعرفه وصول السلطان سنجر إلى الري، وأنه عازم على قصد الخليفة وغيره، ويقول: «إن رأيتم أن نتفق على قتاله ودفعه عن العراق ويكون العراق لوكيل الخليفة فأنا موافق على ذلك». وترددت الرسائل بينهم، فوقع الاتفاق على أن يكون العراق

(١) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٧٤ «سلجوقشاه».

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٧٥.

(٣) في الأصل «عباسة» والتصحيح من معجم البلدان لياقوت الحموي، ج٤، ص٧٥.

(٤) وردت «قراجة» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٧٥.

(٥) هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب صاحب الموصل. توفي سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٢٧. أخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٠، وفي صفحات متفرقة من الكامل لابن الأثير ج١١، وفي كتاب الباهر لابن الأثير، وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص١٢٨.

(٦) المعشوق: اسم لقصر يقع غربي دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥، ص١٥٦.

(٧) المالكية: قرية على الفرات بالعراق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٣.

لوكيل الخليفة، والسلطنة لمسعود وسلجق شاه ولي عهده، وتحالفوا على ذلك. ودخل السلطان مسعود بغداد ونزل بدار السلطنة ونزل سلجق شاه بدار الشحنكية، وذلك في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وخمسمائة.

ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر شاه وهزيمة مسعود وسلطنة طغرل

قال: ولما وصل الخبر بوفاة السلطان محمود إلى عمه السلطان سنجر شاه، سار عن خراسان إلى بلاد الجبال[١] ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد، وكان قد لازمه، فوصلا إلى الري ثم إلى همذان، فاتصل الخبر المسترشد بالله والسلطان مسعود ومن معه، فاتفقوا على قتاله وأن يكون الخليفة معهم. فتجهز الخليفة وتقدم السلطان مسعود وسلجق شاه وقراجا الساقي، وساروا لقتال السلطان سنجر شاه، وتأخر الخليفة فأرسل إليه قراجا وألزمه بالخروج، وقال: «إن الذي تخافه من سنجر آجلاً أنا أفعله عاجلاً» فبرز حينئذ وسار حتى بلغ خانقين[٢] وأقام بها، وقطعت خطبة سنجر من العراق جميعه. ووصلت الأخبار بوصول عماد الدين زنكي ودُبَيْس بن صدقة إلى قرب بغداد. فأما دُبَيْس فذكر أن السلطان سنجر أقطعه الحلّة وأرسل إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضى عنه فامتنع عن إجابته. وأما زنكي فإنه ذكر أن سنجَر أعطاه شحنكية العراق. فعاد المسترشد إلى بغداد، وأمر أهلها بالاستعداد، وجند بها أجنادًا وسار إلى السلطان مسعود، فلقيتهم عساكر سنجر وهو في مائة ألف، منهم خُوارزم شاه إتسز بن محمد والتقوا عند الدِّينَوَر[٣]. وكان مسعود يدافع الحرب وينتظر وصول الخليفة، فلما نازله السلطان سنجر لم يجد بدًا من المصاف، فوقعت الحرب، وقامت على ساق، فحمل قراجا الساقي على القلب في عشرة آلاف فارس من شجعان العسكر، فجاء خوارزم شاه والملك طغرل وصاروا من وراء ظهر قراجا الساقي وصار هو في الوسط، فقاتل إلى أن جرح عدة جراحات، وقتل كثير من أصحابه وأسر هو فانهزم السلطان مسعود، وذلك في ثامن شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة.

---

(١) جمع جبل: اسم للبلاد الواقعة ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والري، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٩٩.

(٢) خانقين: بلدة من نواحي السواد على الطريق من بغداد إلى همذان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٠.

(٣) الدِّينور: مدينة قريبة من همذان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٤٥.

قال: ولما تمت الهزيمة على مسعود، نزل السلطان سنجر وأحضر قراجا الساقي وسبه ووبخه وقال له: «يا مفسد، أي شيء كنت ترجو بقتالي» قال: «كنت أرجو أن أقتلك وأقيم سلطانًا أحكم عليه» فقتله صبرًا، وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه، فحضر إليه فأكرمه، وعاتبه على عصيانه ومخالفته وأعاده إلى كنجه. وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد في السلطنة، وخطب له في جميع البلاد، واستوزر له الوزير: أبا القاسم النساباذي وزير السلطان محمود، وعاد إلى خراسان.

ذكر الحرب بين السلطان طغرل بن محمد وبين أخيه الملك داود بن محمود[(١)]

قال: لما توجه السلطان سنجر إلى خراسان عصى الملك داود بن محمود على عمه السلطان طغرل وجمع العساكر، وسار إلى همذان في مستهل شهر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة. فخرج إليه السلطان طغرل، وعبى كل منهما أصحابه، والتقوا فوقع الخلف في عسكر داود، فهرب أتابكه آقسنقر الأحمديلي، وتبعه الناس، وبقي الملك داود متحيرًا إلى أوائل ذي الحجة منها فقدم بغداد هو وأتابكه الأحمديلي.

ذكر عود السلطان مسعود بن محمد إلى السلطنة وانهزام طغرل[(٢)]

قال: لما سمع السلطان مسعود انهزام داود، وأنه قصد بغداد، سار هو أيضًا إلى بغداد في سنة سبع وعشرين وخمسمائة. فلمّا قاربها لقيه داود ودخل في خدمته إلى بغداد، ونزل بدار السلطنة في صفر، وخاطب في الخطبة، فأجيب إلى ذلك، وخطب له ولداود بعده. ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما وخلع على مسعود في يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الأول من السنة. وكانت الخلع سبع دراريع مختلفات الأجناس والألوان والسابعة سوداء، وتاجًا مرصعًا بالجوهر والياقوت، وطوق ذهب وسراويل، وقلده بسيفين وعقد له لواءين بيده، وسلم إليه داود ابن أخيه وأوصاه به مشافهة. ووقع الاتفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان، وأرسل الخليفة معهما عسكرًا فساروا.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٨١.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٨٦.

وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وهرب من بها من الأمراء مثل قراسنقر وغيره، وتحصن كثير منهم بمدينة أردبيل، فقصدهم مسعود وحصرهم بها وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزم الباقون. ثم سار بعد ذلك إلى همذان لمحاربة أخيه الملك طغرل فاستولى عليها في شعبان. ولما استقر بها قُتل آقسنقر الأحمديلي، قتله الباطنية. وسار طغرل حتى بلغ قم(١)، ثم عاد إلى أصفهان وأراد أن يتحصن بها، فسار إليه مسعود ليحاصره بها فرحل طغرل إلى بلاد فارس، واستولى مسعود على أصفهان، وفرح أهلها به، ثم سار منها نحو فارس، فوصل إلى موضع بقرب البيضا(٢)، فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه طغرل معه أربعمائة فارس، فأمنه فخاف طغرل من عسكره أن يلتحقوا بأخيه، فانهزم وقصد الريّ.

قال: ولما تمّ على طغرل ما تمّ من الهزيمة، قال لوزيره أبي القاسم النساباذي: «قد علمت أنه ما تم عليّ هذا الخذلان إلا لظلمك للعباد» فقال له: «لا تقلق، قد أمرت أهل الموت بقتل آقسنقر وسائر أعدائك وهم فاعلون» فأمر به فضرب وصلب، فانقطع به الحبل، فقطع إربًا إربًا، وطيف بأعضائه في كل بلد عضو، وكان قتله بأصفهان.

واستمر طغرل حتى أتى الري في ثلاثة آلاف فارس، وسار الملك مسعود في طلبه فلحقه بموضع يقال له ذكراور، فوقع بينهما مصاف هناك، فانهزم طغرل ووقع عسكره في أرض قد نضب عنها الماء، وهي وحل، فأسر منهم جماعة فأطلقهم مسعود، ولم يقتل في هذا المصاف إلا نفر يسير. وكان هذا المصاف في ثامن عشر شهر رجب سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ورجع الملك مسعود إلى همذان.

ذكر عود الملك طغرل إلى الجبل وانهزام السلطان مسعود(٣)

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة عاد الملك طغرل إلى بلاد الجبل فملكها؛ وسبب ذلك أن السلطان مسعود لما عاد من حربه، بلغه عصيان داود ابن أخيه بأذربيجان، فسار إليه وحصره بقلعة روندر(٤). واشتغل بحصره، فجمع الملك طغرل

(١) قم: بالضم وتشديد الميم. كلمة فارسية. وهي مدينة قريبة من قاشان ومستحدثة إسلامية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٧.

(٢) البيضاء: مدينة مشهورة بفارس قرب شيراز. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٢٩.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٦.

(٤) روندر: قلعة حصينة من أعمال أذربيجان قرب تبريز. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٠٥.

العساكر، واستمال بعض أمراء السلطان مسعود، وتقدم لفتح البلاد وفتحها أولاً فأولاً، وكثرت عساكره، فقصد مسعود. فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه، ولما تدانا العسكران انهزم السلطان مسعود وذلك في أواخر شعبان من السنة، فأرسل إلى الخليفة المسترشد بالله في القدوم إلى بغداد فأذن له. وكان نائبه بأصفهان النفيس[(١)] السلاحي ومعه الملك سلجق شاه، فلما سمعا بانهزام مسعود قصدا بغداد، فنزل سلجق شاه بدار السلطان فأكرمه الخليفة وأنفذ إليه عشرة آلاف دينار، ثم قدم مسعود إلى بغداد، وأكثر أصحابه على الجمال لعدم الخيل، فأرسل إليه الخليفة ما يحتاج إليه من الخيل والخيام والسلاح والثياب وغير ذلك، ونزل بدار السلطنة، وذلك في منتصف شوال من السنة. وأقام طغرل بهمذان فعاجلته المنية.

ذكر وفاة الملك طغرل وملك أخيه السلطان مسعود بلد الجبل[(٢)]

كانت وفاته بهمذان في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ومولده في المحرم سنة ثلاث وخمسمائة. وكان عاقلاً خيرًا عادلاً، محسنًا إلى الرعية قريبًا منهم. وكان قبل وفاته قد خرج يريد السفر لقتال أخيه مسعود، فدعا له الناس فقال: «ادعو لخيرنا للمسلمين» وكان له من الأولاد أرسلان شاه، ولي السلطنة، ومحمد ألب أرسلان لم يلها. ووزراؤه: الوزير قوام الدين النساباذي وزير السلطان محمود إلى أن قتله، ثم استوزر شرف الدين علي بن رجا. قال: ولما توفي وصل الخبر بموته أخيه السلطان مسعود، فسار من وقته نحو همذان، وأقبلت العساكر إليه ودخلت في طاعته، واستقل بالسلطنة بعده.

وفي هذه السنة وقع بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود، والتقوا واقتتلوا، فانهزمت عساكر الخليفة ثم قتل على ما قدمناه في أخبار الدولة العباسية.

ذكر قتل الأمير دُبَيْس بن صدقة[(٣)]

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل السلطان مسعود الأمير دُبَيْس بن صدقة

---

(١) هكذا في الأصل. وفي الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٢ «البقش السلاحي». وكان هذا أميرًا كبيرًا ناب عن السلطان في ممالك ثم توهم السلطان منه وقبض عليه وحبسه بقلعة تكريت ثم أمر بقتله، فغرق نفسه في دجلة فأخرج من الماء وقطع رأسه وحمل إلى السلطان وكان ذلك في سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٥٥.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٩.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص٢٤٩.

وهو على باب سرادقه بظاهر مدينة خويّ[١]. أمر غلامًا أرمنيًا بقتله، فقام على رأسه وهو ينكت[٢] الأرض بإصبعه فضرب عنقه وهو لا يشعر. وكان صدقة يعادي المسترشد كما ذكرناه، فلما قتل المسترشد ظن صدقة أن الدنيا قد صفت له، فما لبث بعده. وهذه عادة الدنيا يتبع صفاها كدرها، وجودها ضررها كما قيل: [من البسيط]

إن الليالي لم تُحسن إلى أحدٍ ... إلا أساءتْ إليه بعدَ إحسانِ

قال: ولما قُتل دُبَيْس كان ابنه صدقة بالحِلّة، فاجتمع إليه مماليك أبيه وأصحابه وكثر جمعه، وبقي بها إلى أن قدم السلطان بغداد في سنة إحدى وثلاثين، فقصده وأصلح حاله معه، ولزم بابه.

ذكر اجتماع الأطراف على حرب السلطان مسعود وخروجهم عن طاعته

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة اجتمع كثير من أصحاب الأطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود. فسار الملك داود ابن أخي السلطان في عسكر أذربيجان إلى بغداد، فوصل إليها في رابع صفر ونزل بدار السلطنة. ووصل بعده عماد الدين زنكي صاحب الموصل. ووصل الأمير برنقش بازدار صاحب قزوين وغيرها؛ والنفيس الكبير صاحب أصفهان وصدقة بن دُبَيْس صاحب الحلة وغيرهم. فجعل الملك داود في شحنكية بغداد برنقش بازدار، وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لداود، فسار السلطان مسعود إلى بغداد، فتفرقت تلك الجيوش وسار الخليفة وزنكي إلى الموصل وخلع الراشد[٣]، وبويع المُقتفي[٤] على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة العباسية.

---

(١) «وكان قتله بالمراغة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٩.

(٢) ينكت: يقرع الأرض بإصبعه. ابن منظور: لسان العرب (نكت).

(٣) هو منصور بن المسترشد الملقب بالراشد أمير المؤمنين، بويع بالخلافة سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، وولد سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م وتوفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥ ص٢٥٥.

ترجمته وأخباره في: المنتظم لابن الجوزي ج١٠، ص٥٠ ـ ٥٢، وص٧٦، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص١٠٠، والكامل لابن الأثير، ج١١، ص٢٧، ٣٥، ٦٢.

(٤) هو الخليفة المقتفي بالله أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد ابن الخليفة المستظهر بالله. بويع بالخلافة بعد قتل ابن أخيه الراشد بالله سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م. ولد سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م توفي سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م. ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣١٧.

ترجمته وأخباره في: الكامل لابن الأثير ج١١، ص٢٥٦، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص١٧٢، المنتظم لابن الجوزي، ج١٠، ص١٩٧.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة عزل السلطان وزيره شرف الدين أنو شروان بن خالد واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلمة الدركزيني وهو من خراسان.

وفيها أرسل السلطان قراسنقر بعساكر كثيرة في طلب الملك داود، فسار وأدركه عند مراغة، فالتقيا واقتتلا قتالاً شديدًا، فانهزم داود إلى خوزستان، فاجتمع عليه هناك كثير من التركمان وغيرهم، فبلغت عدتهم عشرة آلاف فارس، فقصد بهم تُسْتَر[١] وحاصرها. وكان عمه السلطان سلجق شاه ابن السلطان محمد بواسط، فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجده ويستمده، فأمده بالعساكر، فسار إلى داود وهو يحاصر تستر، فالتقوا فانهزم سلجق شاه.

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة أذن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد في العود إلى بلادهم، وذلك في المحرم منها. وسبب ذلك أنه بلغه أن الراشد بالله المخلوع فارق الموصل. قال: وزوج ابنته للأمير صدقة بن دُبَيْس بن صدقة، وتزوج الخليفة المقتفي بفاطمة أخت السلطان فاطمأن السلطان عند ذلك وفرق العساكر.

ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الأمراء[٢]

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة كانت الحرب بينهم، وسبب ذلك أن الراشد بالله المخلوع فارق الموصل وسار نحو أذربيجان فوصل إلى مراغة. وكان الملك داود بن محمود والأمير منكبرس صاحب فارس والأمير بوزابه نائبه بخوزستان، والأمير عبد الرحمٰن طغايرك على خوف ووجل من السلطان. فتجمعوا كلهم ووافقوا الراشد على الاجتماع معه ليكونوا يدًا واحدة ويردوه إلى الخلافة فأجابهم إلى ذلك، إلا أنه لم يجتمع معهم. ووصل الخبر إلى السلطان وهو ببغداد، فسار عنها في شعبان، والتقوا واقتتلوا، فانهزم الملك داود، وأسر الأمير منكبرس فقتل صبرًا بين يدي السلطان وتفرقت عساكر السلطان مسعود في النهب واتباع من انهزم، وكان بوزابه وعبد الرحمٰن طغايرك على نشز[٣] من الأرض، فرأيا السلطان وقد تفرقت عساكره،

---

(١) تُسْتَر: مدينة بخوزستان: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٩.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ج١١، ص٦٠.

(٣) نشز من الأرض: مكان مرتفع من الأرض: الفيروزآبادي: القاموس المحيط (نشز).

فحملا عليه، فلم يثبت لهما وانهزم، وقبض بوزابه على جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دُبَيْس صاحب الحلّة وأتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وعنتر بن أبي العساكر، وتركهم عنده. فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم جميعًا وصار العسكران مهزومين، وهذا من عجيب الاتفاق.

وقصد السلطان مسعود أذربيجان وقصد الملك داود همذان، ووصل إليها الراشد بعد الوقعة واختلفت آراء الجماعة، فمنهم من يقول: نقصد بغداد ونملكها، ومنهم من يقول: بل نتبع مسعود، فإذا فرغنا منه هان ما بعده. وكان بوزابة أكبر الجماعة، فرأى أن يتوجه إلى بلاد فارس ليملكها بعد صاحبها منكبرس، فسار إليها وملكها، وصارت بيده مع خوزستان. وسار سلجق شاه إلى بغداد ليملكها فمنعه من بها، وقاتله شحنتها. قال: ولما قتل الأمير صدقة أقر السلطان الحلّة على أخيه محمد بن دُبَيْس، وجعل معه مهلهل بن أبي العشاير، وهو أخو عنتر المقتول، ليدبر أمره.

ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة ابن الخازن وزير قراسنقر(١)

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة قبض السلطان مسعود على وزيره كمال الدين أبي البركات بن سلمة الدركزيني، وكان شهمًا شجاعًا عادلاً نافذ الحكم حسن السيرة، أزال المكوس ورفع المظالم. وكان يقيم مؤنة السلطان ووظائفه وجمع له خزانة وكشف أشياء من الخيانات كانت مستورة، فثقل أمره على المتصرفين وأرباب الأعمال، فأوقعوا بينه وبين الأمراء. وكان أشدهم عليه قراسنقر صاحب أذربيجان، فإنه فارق السلطان وأرسل إليه يقول: «إمّا(٢) أن تنفذ برأس الوزير إليّ وإلا خدمنا سلطانًا آخر» فأشار الأمراء بقتله، فقتله على كره منه، وأرسل برأسه إلى قراسنقر، فرضي. وكانت وزارته سبعة أشهر، واستوزر [السلطان مسعود] بعده أبا العز طاهر بن محمد البروجردي(٣) وزير قراسنقر، ولقب عز الملك. وضاقت الأمور على السلطان، فاستقطع البلاد على غير رضاه، ولم يبق له غير اسم السلطنة.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٦٤.

(٢) هكذا في الأصل والتصحيح يقتضيه السياق، ويتفق مع ما ورد في الكامل لابن الأثير ج١١، ص٦٤.

(٣) البروجردي نسبة إلى بروجرد. وهي مدينة خصبة تقع بين همذان والكرج. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١، ص٤٠٤.

وفيها توفيت زبيدة خاتون[١] زوجة السلطان مسعود، وهي ابنة السلطان بركياروق، فتزوج مسعود بعدها سفرى ابنة دُبَيْس بن صدقة في جمادى الأولى وتزوج أيضًا ابنة قاروت، وهو من البيت السلجقي.

وفيها أيضًا قتل السلطان مسعود ابن البقش السلاحي شحنة بغداد لظلمه وعسفه للناس، وجعل شحنة العراق مجاهد الدين بهروز[٢]، فأحسن السيرة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة قدم السلطان مسعود إلى بغداد في فصل الشتاء، وصار يشتو بالعراق ويصيف بالجبال. ولما قدمها أزال المكوس وكتب الألواح بإزالتها، ووضعت على أبواب الجوامع وفي الأسواق. وتقدم إلى الجند أن لا ينزل أحد منهم في دار عامي إلا من أُذن له، فكثر الدعاء له والثناء عليه.

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة قبض السلطان على وزيره البروجردي، واستوزر بعده المرزبان أبا عبد الله بن نصر الأصفهاني وسلّم إليه البروجردي، فاستخرج منه الأموال، ومات مقبوضًا عليه.

ذكر اتفاق بوزابة وعباس على الخروج عن طاعة السلطان مسعود[٣]

وفي سنة أربعين وخمسمائة سار بوزابة صاحب فارس وخُوزِستَّان في عساكره إلى قاشان[٤]، ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود، واتصل بهم الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، واجتمع بوزابه والأمير عباس صاحب الري، واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان وملكا كثيرًا من بلاده. فأتاه الخبر وهو ببغداد ومعه الأمير عبد الرحمٰن طغايرك ـ وهو الحاكم في دولته ـ وكان ميله إليهما. فسار السلطان عن بغداد في شهر رمضان. فلما تقابل العسكران ولم يبق إلا القتال، لحق سليمان شاه بأخيه السلطان مسعود، وشرع عبد الرحمٰن في تقرير الصلح على القاعدة التي

---

(١) توفيت بهمذان، المنتظم لابن الجوزي، ج١٠، ص٧٤.

(٢) توفي مجاهد الدين بهروز سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وكان قد أخذ كنيسة وبناها رباطًا على شاطىء دجلة وأوقف عليها أوقافًا. وبها دُفن. وبهروز (بكسر الباء الموحدة ثانية الحروف وهاء ساكنة وراء مهملة مضمومة وواو وزاي ساكنة) ومعناه باللغة العجمية يوم جيّد على التقديم والتأخير على عادة اللغة العجمية والتركية. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥، ص٢٦٨.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٠٤.

(٤) قاشان: مدينة قرب أصبهان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤، ص٢٩٦.

أرادوها. وأضيف إلى عبد الرحمٰن ولاية أذربيجان وأرّانية[١] على ما بيده، وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود [وهو وزير بوزابه][٢] وصار السلطان معهم تحت الحجر.

ذكر قتل عبد الرحمٰن طغايُرك وعَبَّاس[٣] صاحب الرَّيّ

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة قتل السلطان مسعود الأمير عبد الرحمٰن طغايُرك[٤] أمير حاجب دولته والحاكم عليها، وكان لم يبقَ للسلطان معه غير الاسم وكان سبب قتله أنه لما ضيق على السلطان وحجر عليه واستبد بالأمر دونه وأبعد خواصه عنه، فكان ممن أُبعد عنه بك أرسلان المعروف بخاص بك [بلنكري][٥]، وكان السلطان قد رباه وقربه فأبعده عنه وحجبه، وصار لا يراه. وكان في خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة، فاستقر بينه وبين السلطان قتل عبد الرحمٰن. فاستدعى خاص بك من يثق به وتحدث معهم، فكلهم خاف الإقدام عليه إلا رجل اسمه زنكي ـ وكان جاندارًا[٦] ـ فإنه بذل من نفسه أن يلقاه ويبدأ بالقتل، ووافق خاص بك على ذلك جماعة من الأمراء فبينما عبد الرحمٰن في موكبه بظاهر جَنزَه[٧]، إذ ضربه زنكي الجاندار على رأسه بمقرعة حديد كانت في يده، فسقط إلى الأرض وأجهز عليه خاص بك، وأعانه جماعة ممن كان واطأه من الأمراء.

---

(١) أرّانية: أرّان: بالفتح وتشديد الراء. اسم أعجمي لولاية واسعة منها جنزة وهي التي تسميها العامة كنجة بين أذربيجان وأرّان نهر يقال له الرش وأرّان من أصقاع أرمينية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٣٦.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٠٤.

(٣) كان أميرًا شجاعًا مقدامًا جوادًا يباشر الحروب بنفسه. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٧٠.

(٤) هو صاحب خلخال وبعض أذربيجان. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص١١٦. وخَلْخَال: مدينة وكورة في طرف أذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٨١.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١٦.

(٦) الجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس، وهذا المصطلح قد تطور مفهومه في الدولة الأيوبية والدولة المملوكية فأصبح يعني فئة من مماليك السلطان أو الأمير. ووظيفة أمير جاندار هو أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان ويقدم البريد مع كاتب السر. وصاحب هذه الوظيفة يدور أيضًا حول السلطان. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج٤، ص٢٠، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ص١١٧، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي، ص٨٢ وفيه «جان» بمعنى سلاح و«دار» بمعنى ممسك.

(٧) جنزه: بالفتح، مدينة بأرّان وهي بين شروان وأذربيجان، وهي التي تسميها العامة كنجة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٧١.

وبلغ السلطان الخبر وهو ببغداد، ومعه الأمير عباس صاحب الري وعسكره أكثر من عسكر السلطان، فأنكر الأمير عباس ذلك وتألم له، فداراه السلطان ولطف به، ثم استدعاه في بعض الأيام. فلما عبر إليه، منع أصحابه من الدخول وعدل به إلى حجرة، وقيل له: اخلع الزردية، وكان لا يزال يلبسها، فقال: إن لي مع السلطان أيمانًا وعهودًا، فلكموه وخرج عليه غلمان أعدوا له، فتشاهد وخلع الزردية وألقاها فضربوه بالسيوف، واحتزوا رأسه، وألقوه إلى أصحابه، ثم ألقوا جسده ونهبت خيامه. وكان مقتله في ذي القعدة. وكان من غلمان السلطان محمود حسن السيرة ودفن بالجانب الغربي ثم أرسلت ابنته وحملته إلى الرّي ودفنته هناك.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل[1]: ومن الاتفاق العجيب أن العبادي كان يعظ يومًا فحضره عبّاس فأسمع العبادي بعض من حضر المجلس، ورمى بنفسه نحو الأمير عبّاس، فضربه أصحابه خوفًا عليه، لأنه كان شديد الاحتراس من الباطنية، لا يفارق لبس الزردية ومعه الغلمان الأجلاد، فقال له العِبادي: «يا أمير كم ذا الاحتراز، والله لئن قضى عليك بأمر لتحلّنَّ أنتَ بيدك أزرار الزّردية، فينفذ القضاء فيك» فكان كما قال.

كان السلطان قد استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارهًا، فلما كان الآن استعفى وسأل العزل والعود إلى صاحبه فعزله وقرر معه أن يصلح له بوزابة ويزيل ما عنده من الاستشعار بسبب قتل عبد الرحمٰن وعباس.

وفيها حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت، والله أعلم.

ذكر قتل الأمير بوزابة[2]

قال: ولما اتصل بالأمير بوزابة قتل عباس جمع عساكر فارس وخوزستان وسار إلى أصفهان فحصرها وسيّر عسكرًا آخر إلى همذان، وعسكرًا ثالثًا إلى قلعة الباهلي[3] ثم سار هو عن أصفهان وراسل السلطان مسعود في الصلح فلم يجبه؛ وسار مجدًا

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١٧.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١٩.

(٣) «قلعة الماهكي» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١٩، وقلعة الماهكي من بلد اللحف صقع معروف من نواحي بغداد. سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٤.

فالتقيا بمرج قراتكين[١] واقتتل العسكران، فانهزمت ميمنة السلطان وميسرته واقتتل القلبان أشد قتال وأعظمه، وصبر الفريقان فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه. وقيل بل كبا به فرسه فأُخذ أسيرًا، وحُمل إلى السلطان فقُتل بين يديه، وانهزم أصحابه، وبلغت هزيمة ميمنة السلطان وميسرته إلى همذان. وقتل من الفريقين خلق كثير. وكانت هذه الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم. وكانت في سنة اثنتين وأربعين والله أعلم.

ذكر الخلف بين السلطان وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم[٢]

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فارق السلطان مسعود جماعة من الأمراء الأكابر وهم: ايلدكز المسعودي صاحب كنجة وأرانية، وتبر الحاجب، وطرنطاي[٣] المحمودي شحنة واسط، وابن طغايرك وغيرهم. وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى خاص بك، واطراحه لهم فخافوا أن يفعل بهم كما فعل بعبد الرحمٰن وعبّاس وبوزابة، ففارقوه وساروا نحو العراق. فلما بلغوا حُلوان خاف الناس ببغداد وأعمال العراق، وغلت الأسعار وأرسل الخليفة إليهم العبادي الواعظ فلم يرجعوا، ووصلوا إلى بغداد في شهر ربيع الآخر، ومعهم الملك محمد ابن السلطان محمود، فنزلوا بالجانب الشرقي.

ووقع القتال بين الأمراء وعامة بغداد ومن بها من العسكر عدة وقعات، فانهزم الأمراء من العامة في بعض الأيام خديعة ومكرًا، فلما تبعوهم عطفوا عليهم وقتلوهم، فأصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وتفرق العسكر بالمحال الغربية، وأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة ونهبوا بلد دُجَيْل[٤] وغيره، وأخذوا النساء والولدان ثم اجتمع الأمراء ونزلوا مقابل التاج[٥] وقبّلوا الأرض أمام الخليفة

(١) ذكرها ياقوت باسم: مرج قرابلين: وهي قريبة من همذان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٠١.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣٢.

(٣) «طرمطاي» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣٢.

(٤) دُجَيْل: نهر يخرج من دجلة من أعلى بغداد ويمكن أن يكون المقصود هنا بلد يقع بين بغداد وتكريت: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٤٤٣.

(٥) التاج: اسم لدار من دور الخلافة العباسية ببغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٣.

المقتفي، وترددت الرسائل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار، وعادوا إلى خيامهم ثم تفرقوا وفارقوا العراق.

هذا كله والسلطان ببلد الجبل، والرسل بينه وبين عمه سَنْجَر تتردد. وكان سنجر يلومه على تقدمه خاصبك [خاصّ بك] ويتهدده أن يزيله عن السلطنة إن لم يبعده، وهو يغالط ولا يفعل. فسار السلطان سنجر إلى الري، وسار السلطان مسعود إلى خدمته واسترضاه فسكن. وكان اجتماعهما في سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

ذكر وفاة السلطان مسعود(١)

كانت وفاته بهمذان في شهر رجب(٢) سنة سبع وأربعين وخمسمائة ومرض بحمى حادة نحو أسبوع ومات، ودفن بمدرسة جمال الدين إقبال الجمدار. وكان مولده في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسمائة، فيكون عمره أربعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، ومدة سلطنته منذ وقع اسم السلطنة عليه إحدى وعشرين سنة وشهورًا، بما في ذلك من أيام أخيه السلطان طغرل. وكان رحمه الله حسن الأخلاق والسيرة كريمًا عفيفًا عن أموال الرعية من أصلح الملوك سيرة، وألينهم عريكة. ولما مات زالت سعادة البيت السلجقي بموته، ولم يقم له بعده قائمة، فكأنه المعني بقول الشاعر: [من الطويل]

وما(٣) كان قيسٌ هُلْكهُ هُلْكَ واحدٍ ولـكِـنّـهُ بُـنـيـانُ قَـوْمٍ تَـهَـدّمـا

ذكر سلطنة ملكشاه بن محمود بن محمد طبر ابن ملكشاه(٤) والقبض عليه

قال المؤرخ: كان السلطان مسعود قبل موته قد استدناه وقربه وأقره عنده، وعهد إليه بالسلطنة بعده. فلما توفي السلطان خطب الأمر خاصبك بن بلنكري

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٦٠.

(٢) «ومات في سلخ جمادى الآخرة: في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٩١ و«يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة» في المنتظم لابن الجوزي، ج١٠، ص١٥١ «في أول رجب» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٦٠.

(٣) «فما» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٦٠.

(٤) توفي عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م بأصبهان. أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٦٠، ٢٣٧، ٢٦٣، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٩١، المنتظم لابن الجوزي، ج١٠، ص١٩٨، صبح الأعشى للقلقشندي ج٤، ص٤١٩.

لملكشاه بالسلطنة باتفاق الأمراء، ورتّب الأمور وقررها بين يديه، وأذعنتْ له جميع العساكر بالطاعة. وكان ملكشاه شريبًا خميرًا، لا يصحو ساعة واحدة، كثير الاشتغال باللهو، فاجتمع الأمراء على خلعه وتولية السلطنة محمد بن محمود فخلعوه وقبض عليه خاصبك واعتقله بمرج همذان فتراخى مستحفظوه فهرب، ولم يطلب ولا عُلم له خبر فكانت مدة سلطنته شهرين أو ثلاثة. وقال ابن الأثير الجزري في تاريخه: إنه توجه إلى أصفهان وكثرت جموعه، وكتب إلى بغداد في طلب الخطبة لنفسه، فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيًا كان خصيصًا به يقال له أغلبك الكوهزاتيني فمضى إلى بلاد العجم واشترى جارية من قاضي همذان بألف دينار، وباعها من ملكشاه ووضعها لتسمه، ووعدها بمواعيد كثيرة، فسمته في لحم مشوي. فمات في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وجاء الطبيب فأعلم أصحابه أنه مات بسم، فقررت الجارية فأقرت. ولما مات خرج أهل البلد أصحابه وخطبوا لسليمان شاه بن محمد والله أعلم.

ذكر سلطنة محمد بن محمود(١)

هو أبو شجاع محمد بن محمود ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان محمد جغري بيك داود بن ميكائيل بن سلجق. ومحمد هذا في طبقة محمود ومسعود ابني محمد طبر، وقيل هو محمد بن محمود بن محمد طبر أخو ملكشاه الذي ذكرناه آنفًا.

قال: ولما قبض خاصبك على ملكشاه أرسل إلى محمد وهو بخوزستان وكان عمه السلطان سنجر قد ملكه إياها، واستدعاه ليسلطنه، وسيّر إليه الأمير مشيد الدين وكاتبه الزنجاني، وكان قصد خاصبك أنه إذا حضر عنده قبض عليه وخطب لنفسه بالسلطنة. فلما اجتمعا بمحمد حسنا له قتل خاصبك(٢) إذا استقر في السلطنة، وقالا له إن أمرك لا يتم إلا بقتله. وعادا إلى خاصبك وأخبراه أن محمدًا قد حلف له، وسار محمد من خوزستان إلى همذان في عدة يسيرة، فتلقاه خاصبك وخدمه وأجلسه على تخت المملكة، وذلك في أوائل صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وخطب له بالسلطنة، وبالغ في خدمته، وحمل إليه هدايا عظيمة جليلة المقدار.

---

(١) طلب الخطبة والسلطنة فلم يجب إليهما فجاء إلى بغداد فحاصرها، ثم عاد وتوفي في ذي الحجة من سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م بباب همذان. ابن الجوزي: المنتظم، ج١٠، ص١٩١. انظر أيضًا النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٣١٥، والكامل لابن الأثير ج١١، ص٢٥٠.

(٢) «خاص بك التركماني: قدمه السلطان مسعود على جميع الأمراء وصار له من المال ما لا يحصى» ابن الجوزي: المنتظم ج١٠، ص١٥٣.

ولما كان في اليوم الثاني أو الثالث من جلوسه، استدعى خاصبك ليشاوره فجاء إليه ومعه زنكي الجاندار، وهما قتلة عبد الرحمٰن طغايرك فقتلهما جميعًا، وألقى رأسيهما إلى أصحابهما، فتفرقوا ولم ينتطح فيها عنزان. ووجد في خزانة خاصبك ألف وسبعمائة ثوب من الديباج لون العنابي خاصة، سوى أنواع الثياب الأطلس والمصور وغير ذلك. وطلب له كفن فلم يقدر عليه، حتى جبى له من سوق العسكر.

قال: وكان أيدغدي التركماني ـ المعروف بشملة ـ مع خاصبك لما استدعاه السلطان، فنهاه عن الدخول إليه فلم يرجع إلى قوله، فلما قتل خاصبك مضى هو إلى خوزستان.

قال: وكان خاصبك صبيًا تركمانيًا، اتصل بالسلطان مسعود تقدم عنده على سائر الأمراء.

قال: ولما قتل السلطان خاصبك أشار عليه وزيره جلال الدين ابن الوزير قوام الدين أن يبعث برأس خاصبك إلى الأميرين صاحبي أذربيجان، ففعل. فلما وصل الرأس إليهما أكبرا ذلك، وعزما على إخراج سليمان شاه عليه.

ذكر سلطنة سليمان شاه بن محمد طبر بن ملكشاه(١)

قال: لما أخرج سليمان شاه من محبسه بقزوين اتصل به الأمير مظفر الدين بن ألب أرغو أو أخرجه معه إلى زنجان واتصل به الأمير شمس الدين ايلدكز والأمير آق سنقر بعسكريهما، وأخذاه من زنجان ومضيا إلى همذان فأجفل منهما محمد إلى أصفهان. وجلس سليمان شاه على سرير السلطنة بهمذان، وأخذ في الشرب واللهو فكان لا يصحو، وكذلك وزيره فخر الدين أبو طاهر القاشاني فلما رأى أيلدكز ذلك عزم على الرجوع فعاد إلى بلاده، ورجع نصرة الدين آق سنقر إلى أعماله. ثم اجتمع الأمراء مع نصير الدين أرسلان وقرروا أن ينتقلوا إلى مرج قراتكين ويتركوه بهمذان، ويقبضوا على وزيره. وكان مع سليمان شاه تباتكين بن خوارزم شاه وأخوه يوسف وأختهما زوجته والغالبة على أمره، فجاءت إليه ليلًا وهو معرس على ابنة ملك الكرج، وأخبرته باجتماع الأمراء بالمرج، واتفاقهم على القبض عليه وعلى وزيره، فهرب بها وبأخويها ليلًا، وترك خاتون الكرجية؛ وأصبح الأمراء فما علموا أين راح ولا كيف ذهب.

---

(١) أخباره في: الكامل لابن الأثير ج١١، ص٢٥٤، ٢٦٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٣١٥، وصبح الأعشى للقلقشندي ج٤، ص٤١٩ ـ ٤٢١.

ذكر عود السلطان محمد من أصفهان إلى مقر ملكه

قال: لما فارق همذان وصل إلى أصفهان كاتبُ أمراء الأطراف فأتى إليه الأمير إينانج صاحب الري فقويت به يده، واتفق رجوع أيلدكز فسار السلطان محمد إلى همذان، فدخلها في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، واستقامت له المملكة.

وفي سنة تسع وأربعين عزم الخليفة المقتفي على قطع دعوة الترك من بغداد، وفعل ما قدمنا ذكره في أخبار المقتفي من إخراج الشحنة مسعود البلالي الخادم منها؛ وتقوية الخليفة لوزيره عون الدين بن هبيرة، وما أقطعه من الإقطاعات، وما حازه الخليفة من ملك العراق من أقصى الكوفة إلى حلوان ومن تكريت إلى عبادان.

قال: ولما عاد السلطان بعد هرب سليمان شاه، راسل الخليفة في الخطبة فامتنع، واجتمع عند السلطان الأمراء الذين انقطعت أرزاقهم من بغداد، وسألوه في الرحيل معهم إليها. وكان يرجع إلى عقل ودين، فاستمهلهم حتى يكاتب الخليفة كرة ثانية، فامتنعوا وقالوا: «نحن نكفيك أمره» فوافقهم فتأهبوا وخرجوا وعليهم مسعود البلالي الذي أخرجه الخليفة من بغداد، وأخذوا معهم لفيفًا من التركمان، وساقوا مواشيهم وأغنامهم ليقاتلوا عليها. وكانت تكريت قد بقيت بيد مسعود البلالي، وملكشاه بن سلجق معتقل بها وأرسلان شاه بن طغرل، فلما احتاج هذا الجمع إلى ملك يضم شملهم اجتمعوا على إخراج أرسلان شاه بن طغرل، فأخرجوه وركبوه ووصلوا به إلى نواحي العراق، وأرهبوا على الناس.

وخرج الخليفة بعسكره وجنوده متوشحًا بالبردة، وبيده القضيب، وعلى مقدمته وزيره عون الدين بن هبيرة. وخيم الخليفة على مرحلتين، من بغداد وتقابلا قريبًا من شهر والخليفة ينتظر البداية. فظنّ مسعود البلالي أنه إنما ترك البداية بالحرب خورًا فبدأه، وركب الجيشان والتقيا، وكانت وقعة عظيمة انهزم فيها الملك أرسلان بن طغرل ووصل إلى أرانية، واستقر عند شمس الدين أيلدكز زوج أمه. وغنم الخليفة وعسكره معسكرهم وأغنام التركمان وذراريهم والترك، وقتلوا في كل واد. وعاد الخليفة إلى بغداد في أواخر سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

قال: ولما رجع العسكر إلى السلطان محمد عاتبهم، وقال: لقد أتيتم بعثرات لا تقال، وأفسدتم هيبتنا عند الخليفة، وأخرجتم أرسلان بن طغرل وما حفظتموه، وقد صار عند أيلدكز، وصار الخليفة لنا خصمًا، ولم يستقم للملوك السلجقية بعدها ببغداد سلطنة.

ذكر وصول سليمان شاه بن محمد طبر إلى بغداد وخروجه بالعساكر وحربه هو والسلطان محمد وهزيمته وحصار السلطان محمد بغداد ورجوعه

وفي سنة خمسين وخمسمائة[١] وصل السلطان سليمان شاه إلى بغداد مستنجدًا بالخليفة المقتفي على السلطان محمد، فلم يلقه الوزير عون الدين بل لقيه ابنه عز الدين محمد. فلما أخبره ابن الوزير سلام أمير المؤمنين عليه ترجل وقبّل الأرض ودخل بغداد. فلما وصل إلى باب النوبى من القصر، أنزلوه ليقبّل العتبة، فقبّلها وما قبّلها قبله ملك سلجقي ولا ديلمي. وأنزله الخليفة بدار السلطنة وخطب له على المنابر، ولم ينعته بالسلطان ولا بالمعظم وجهز معه الخليفة جيشًا كثيفًا، واستوزر له شرف الدين الخراساني.

وسار سليمان شاه بالجيوش إلى أذربيجان ثم إلى أرانية ثقة أن يخرج معه شمس الدين ايلدكز. وتحرك السلطان محمد إليه من همذان، والتقوا؛ فانهزم سليمان وعاد إلى بغداد على طريق الدربند[٢]، فقبض عليه على كورجك، واعتقله بقلعة الموصل وذلك في شعبان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[٣]. وتجهز السلطان محمد بقصد بغداد، فوصل إليها في ذي القعدة من السنة، وقد جمع الجيوش العساكر وحاصرها، وكان الخليفة قد حصن بغداد بالمجانيق والرجال والسفن وغير ذلك، واستمر الحصار والحرب إلى سنة اثنتين وخمسين وجرت في خلال هذه المدة وقائع كثيرة يطول شرحها كان آخرها أنه وقع الاختلاف بين أصحاب السلطان فهزمتهم جيوش الخليفة ونهبوا أثقالهم، ولم تفلح السلجقية بعدها مع الخلفاء.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج١١، ص٢٠١.

(٢) الدَّرَبند: هو باب الأبواب ينسب إليه الحسن بن محمد أبو الوليد المعروف بالدربندي. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٤٤٩.

(٣) وردت رواية مختلفة في الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥٥١هـ. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٣٠٨. وفيه «في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة خلع الخليفة المقتفي بالله على سليمان شاه بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقي بعد عمه سنجر شاه خلعة السلطنة: التاج والطوق والسوار والمركب. والمراد بالمركب هنا السَّرج وما يتعلق به. وانظر عن خلع التقليد والولاية والتشريف والمنادمة، رسوم دار الخلافة لهلال بن المحسن الصابىء، تحقيق ميخائيل عوّاد، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٦م ص٩٣ ـ ٩٤.

ذكر وفاة السلطان محمد بن محمود وما اتفق بعد وفاته(١)

قال الشيخ جمال الدين أبو الحسن علي بن أبي المنصور ظافر بن حسين الأزدي في أخبار الدولة. أنه توفي في سنة خمس وخمسين(٢) وخمسمائة، وقال: ولم أعرف له عقبًا فأذكره وقرض الدولة السلجقية بوفاته. وقال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل أنه توفي سنة أربع وخمسين بباب همذان، وكان مولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وأنه لما حضرته الوفاة أحضر أمواله وجواهره وخصاياه ومماليكه ونظر إليها من طيارة وبكى، وقال: «هذه العساكر والأموال والمماليك وغيرها لم تغن عني مقدار ذرة ولا يزيدون في أجلي ذرة» وفرق من ذلك شيئًا كثيرًا وكان كريمًا عادلاً كثير التأني في أموره. وكان له ولد صغير فسلمه إلى اقسنقر الأحمديلي وقال له: «أنا أعلم أن العساكر لا تطيع هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به إلى بلادك» فرحل به إلى مراغة. فلما مات اختلف الأمراء فطائفة طلبوا ملكشاه وأخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه عمه وهم الأكثر، وطائفة طلبوا أسلان الذي مع ايلدكز فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركماني وغيرهما، فوصل إلى أصفهان فسلمها إليه ابن الخجندي وجمع له مالاً أنفقه عليه وأرسل إلى العساكر بهمذان يدعوهم إلى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق ولأن أكثرهم كان يريد سليمان شاه.

ذكر مسير سليمان شاه بن محمد طبر إلى همذان(٣)

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة سار سليمان شاه من الموصل إلى همذان وكان معتقلاً بها كما قدمناه؛ فلما مات السلطان محمد بن محمود أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في طلبه منه ليولوه السلطنة، فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه هو السلطان وقطب الدين ودود أتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزيره؛ وتحالفوا على ذلك وجهزه قطب الدين بما يحتاج إليه من الأموال والخيول وغير ذلك. فلما قارب بلاد الجبل

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٢٥٠، والمختصر لأبي الفداء ج٣، ص٣٤.

(٢) كانت وفاته في سنة ٥٥٤هـ في المنتظم لابن الجوزي ج١٠، ص١٩١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٣١٥. وتوفي ٥٥٥هـ في الأعلام للزركلي ج٧، ص٨٦.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٢٥٤، وصبح الأعشى للقلقشندي ج٤، ص٤١٩.

أقبلت العساكر إليه أرسالاً فاجتمع عسكر عظيم فخافهم قطب الدين مودود على نفسه؛ وعاد إلى الموصل. فلما فارقه قطب الدين لم ينتظم أمره وقبض العسكر على سليمان شاه بباب همذان في شوال سنة ست وخمسين وخمسمائة.

ذكر سلطنة أرسلان شاه ابن الملك طغرل ابن محمد طبر

قال: لما قبض الأمراء على سليمان شاه في شوال خطبوا لأرسلان شاه، وهو الذي كان قد تزوج أيلدكز بأمه، ثم خطب له في سنة ثمان وخمسين بقومس وبسطام ودامغان(١) وذلك أن المؤيد صاحب نيسابور فتح هذه الجهات وخطب بها لأرسلان شاه فأرسل إليه الخلع فلبسها المؤيد؛ ودام ملك أرسلان شاه إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، فتوفي ولم أقف من أخباره على شيء فأذكره. وذلك أن الدولة السلجقية كانت قد ضعفت وبقي ملوكها يقتصرون على حفظ ما بأيديهم دون التطلع إلى ما سواه. ولما مات أرسلان شاه خطب بعده لولده طغرل.

ذكر أخبار السلطان طغرل بن أرسلان شاه(٢) ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان

خطب له بالسلطنة ببلاد الجبل بعد وفاة أبيه أرسلان شاه في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، ونحن نذكر ما ظفرنا به من أخباره على سبيل التلخيص والاختصار.

ذكر الحرب بين طُغرل وجيوش الخليفة الناصر لدين الله(٣) وظفره بهم

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرًا كثيفًا؛ وجعل المقدم على الجيش وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، وسيرهم لمساعدة قزل على كف السلطان طغرل عن البلاد. فسار العسكر في ثالث صفر إلى أن قارب

---

(١) قومس بالضم ثم السكون وكسر الميم: كورة كبيرة تحتوي على مدن وقرى وهي واقعة في ذيل جبال طبرستان. وتشمل قومس بلدتان كبيرتان هما بسطام ودامغان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤، ص٤١٤.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ج١١، ص٤٤٢.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير ج١١، حوادث سنة ٥٨٤هـ.

همذان، وخرج طغرل إليهم، والتقوا واقتتلوا في ثامن شهر ربيع الأول عند همذان، فانهزمت عساكر بغداد ولم تثبت، وأخذ أصحابه ما كان مع الوزير من خزانة وغيرها وعاد إلى همذان.

ذكر اعتقال طغرل وخلاصه وما كان من أمره(١) إلى أن قتل، وانقراض الدولة السلجقية

قال: واتفق أن قزل أرسلان بن أيلدكز ظفر بالسلطان طغرل، واعتقله، ولم أظفر بتاريخ اعتقاله(٢) ولا كيفيته(٣) فأذكره، إلا أنه لم يزل في اعتقاله إلى أن مات قزل أرسلان في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، فخرج طغرل من حبسه بعد قزل واجتمع عليه جماعة والتقى هو وقتلغ اينانج(٤) بن البهلوان بن ايلدكز، فانهزم اينانج إلى الري، وملك طغرل همذان وغيرها؛ فأرسل قتلغ اينانج إلى علاء الدين خوارزم شاه تكش يستنجده، فسار إليه فلما تقاربا ندم قتلغ اينانج على استدعائه خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى بين يديه؛ وتحصن في قلعة له، فوصل خوارزم شاه إلى الري وملكها، وفتح قلعة طبرك(٥) فراسله طغرل واصطلحا.

ذكر مقتل السلطان طغرل وانقراض الدولة السلجقية(٦)

كان مقتله في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة؛ وسبب ذلك أنه قصد الري فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه تكش وفر منه

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٥٨.

(٢) ورد في راحة الصدور وآية السرور للراوندي، ص٥٠٠، حاشية (٣) إن هذا التاريخ هو رمضان سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م.

(٣) كان أسر السلطان طغرل في قلعة دزمار وقيل أيضًا في كهران: انظر الراوندي: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) في الأصل «قبلغ بن إيناتج» والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج١٢، ص١٠٦.

(٥) طبرك: بفتح أوله وثانيه والراء قلعة على رأس جبيل تقع بالقرب من مدينة الري. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤، ص١٦.

(٦) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ج٤، ص٥٨، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٣٠١، والكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٠٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص١٢١.

قتلغ اينانج بن البهلوان[١]، فراسل خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد. فسار خوارزم شاه لقتاله. فلما سمع طغرل بذلك كانت عساكره متفرقة فما أمهل حتى يجمعها، بل سار فيمن معه وكان يدل بشجاعته؛ فالتقى العسكران بالقرب من الري؛ فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه[٢]، وقتلوه وحملوا رأسه إلى خوارزم شاه، فأنفذ الرأس إلى بغداد فنصبها بباب النوبى. وملك خوارزم شاه جميع تلك البلاد وانقرضت الدولة السلجقية من العراق والجبال وخراسان، ولم يبق من البيت السلجقي إلا من هو ببلاد الروم، على ما نذكره بعد ذكر الملوك السلجقية بالشام إن شاء الله.

وكانت مدة هذه الدولة منذ خطب لداود في شهر رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة؛ مائة سنة وإحدى وستين سنة وثمانية أشهر وأيامًا. ومدتها بالعراق منذ خطب للسلطان طغرل بك ببغداد في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وإلى أن قطعت عند إخراج مسعود البلالي الشحنة من بغداد في شهور سنة تسع وأربعين وخمسمائة؛ مائة سنة وستين. فلنذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام.

ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحلب[٣]

وأول من ملك منهم السلطان تاج الدولة تُتُش[٤] بن ألب أرسلان محمد بن جغربيك داود بن ميكائيل بن سلجق وهو أخو ملكشاه وكان السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتحه من تلك النواحي في سنة سبعين وأربعمائة، فجاء إلى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة. وكان معه جماعة كثيرة من التركمان فأنفذ إليه

---

(١) البهلوان: هو محمد بن إلدكز شمس الدين صاحب بلاد الجبل والري وأصفهان وأذربيجان. ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٠٧.

(٢) «جاءته نشابة في عينه فضربه مملوك له بالسيف فقتله وقطع رأسه» ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤، ص٣٠١.

(٣) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٨٨.

(٤) ولد تتش سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م وقتل سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، ابن خلكان وفيات الأعيان، ج١، ص٢٩٥، رقم ١٢٢.
أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص١١١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص١٣٥، وص١٥٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٣، ص٣٨٤، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص١١٦، ١٢٠، ١٢٥ لصدر الدين الحسيني ص٧٥ ـ ٧٨.

الأقسيس[١] صاحب دمشق يستنجده على العساكر المصرية، لأنها كانت قد حاصرته بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي، فسار إلى نصرة الأقسيس. فلما سمع العسكر المصري بقربه فارقوا البلد وعادوا إلى مصر، وخرج الأقسيس يلتقيه عند سور دمشق، فاغتاظ منه تُتُش كونه لم يتقدم في تلقيه، وعاتبه، فاعتذر بأمور لم يقبلها منه، فقبض عليه تُتُش في الوقت وقتله، وملك دمشق وأحسن السيرة في أهلها، وعدل فيهم، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وقيل في سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة أربع وسبعين افتتح تاج الدولة تُتُش انطرطوس بعض الحصون الساحلية وعاد إلى دمشق. وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة كانت الحرب بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم وأنطاكية، فهزم عسكره وقتله على ما نذكره إن شاء الله في أخبار سليمان. وملك تُتُش مدينة حلب خلا القلعة. فكتب العتابي إلى السلطان ملكشاه يستدعيه، فوصل إليها وفارقها تُتُش كما قدمنا ذكره.

ذكر استيلائه على حمص وغيرها من ساحل الشام[٢]

كان تاج الدولة تتش قد توجه إلى أخيه السلطان ملكشاه إلى بغداد في سنة أربع وثمانين، وجاء إليه أيضًا زعماء الأطراف، فلما أذن لهم في العود أمر ملكشاه آقسنقر صاحب حلب، وتوران صاحب الرها، أن يسيرا في خدمة أخيه تتش بعساكرهما إلى أن يستولي على ما هو للمستنصر العلوي صاحب مصر بساحل الشام من البلاد؛ ويتوجها معه إلى مصر ليملكها.

فساروا في سنة خمس وثمانين، ونزل تتش على حمص وحصرها وبها صاحبها ملاعب[٣]، وكان الضرر به وبأولاده عظيمًا على المسلمين، فحصروا البلد وضيّقوا على من به وملكه تتش، وأخذ ملاعب[٤] وولديه. ثم سار إلى قلعة عرقة[٥]، وهي

(١) هو أحد القادة الأتراك من أتباع ألب أرسلان إتسز بن أبق. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٨٩ ـ ١١٢.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٠٢.

(٣) «ابن ملاعب» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٠٢ وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص١٣٠.

(٤) «ابن ملاعب» وهو حسين بن ملاعب قتل سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م انظر النجوم الزاهرة ج٥، ص١٦٧.

(٥) عِرقة: بكسر أوله. شرقي طرابلس. وهي آخر عمل دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤، ص١٠٩.

بالقرب من طرابلس فملكها وملك أفامية[١]، ثم نازل طرابلس وبها جلال الملك بن عمّار، فراسل [ابن عمّار] آقسنقر وحمل إليه ثلاثين ألف دينار وتحفا بمثلها وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته، والتحذير من محاربته فقال اقسنقر لتتش: «أنا لا أقاتل من هذه المناشير بيده» ورحل من الغد، فرحل تاج الدولة وعاد بوزان إلى بلاده، والله أعلم.

ذكر ما تقوله في طلب السلطنة

قال: لما بلغ تاج الدولة تتش قدوم أخيه السلطان ملك شاه إلى بغداد توجه من دمشق إلى خدمته، فلما وصل إلى هيت[٢] أتاه الخبر بموته، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق. فتجهز لطلب السلطنة، وجمع العساكر وأخرج الأموال وسار إلى حلب وبها قسيم الدولة اقسنقر، فصالحه قسيم الدولة وأتبعه لما علم من اختلاف أولاد صاحبه، وأرسل إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة، حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم.

وقصد تُتُش الرحبة فملكها في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمائة، ثم سار إلى نصيبين ففتحها عنوة وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا ونهب الأموال وفعل الأفعال القبيحة، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي. وسار يريد الموصل، وأتاه الكافي بن فخر الدولة بن جهير وكان بجزيرة ابن عُمَر[٣] فاستوزره، والتقى بإبراهيم بن قريش بن بدران أمير بني عُقَيل[٤] في شهر ربيع الأول. وكان إبراهيم في ثلاثين ألفًا وتُتُش في عشرة آلاف، فاقتتلوا فانهزم إبراهيم والعرب، ثم أُخذ أسيرًا وجماعة من العرب فقتلوا صبرًا، ونهبت أموالهم وما معهم من الخيل والإبل والأغنام وغيرها وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفًا من السبي والفضيحة، وملك تتش بلادهم الموصل وغيرها، واستناب بها علي بن شرف الدولة مسلم وهو ابن صفية عمة تتش.

---

(١) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٢٧.

(٢) هيت: سميت هيت لأنها في هوة من الأرض، هي مدينة على جانب الفرات الغربي. لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ص٩٠. انظر أيضًا معجم البلدان لياقوت الحموي، ج٥، ص٤٢٠.

(٣) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، محاطة بدجلة إلا من جهة واحدة وأنشىء خندق أجري فيه الماء ونُصبت عليه رحى فأحاط بها الماء من جميع الجهات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٨.

(٤) بنو عقيل: قبيلة من القبائل العربية سيطرت على الموصل سنة ٩٩٦. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٦٩.

ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام[١]

قال: ثم سار تاج الدولة تُتُش في شهر ربيع الآخر فملك ميافارقين[٢] وسائر ديار بكر من ابن مروان، وسار منها إلى أذربيجان. وانتهى خبره إلى ابن أخيه بركياروق وكان قد استولى على كثير من البلاد، فسار في عسكره ليتبع عمه، فلما تقارب العسكران اجتمع قسيم الدولة وبوزان وقالا: «نحن إنما أطعنا هذا حتى ننظر ما يكون من ابن صاحبنا وقد ظهر أمره» ففارقاه والتحقا ببركياروق فعاد تُتُش إلى الشام.

ذكر عود تتش إلى البلاد وملكه همذان وغيرها[٣]

قال: ولما عاد إلى الشام أخذ في جمع العساكر فكثرت جموعه وعظم جنده. فسار في سنة سبع وثمانين وأربعمائة عن دمشق نحو حلب لطلب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدولة بركياروق بالأمير كربوقا. فالتقوا بالقرب من تل السلطان[٤] قريب حلب واقتتلوا واشتد القتال فانهزموا، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيرًا وجيء به إلى تاج الدولة فقال له: «ما كنت تصنع بي لو ظفرت» قال: «كنت أقتلك» قال: «فأنا أحكم عليك بحكمك» فقتله صبرًا. وسار نحو حلب، ودخلها وأسر بوقا وبوزان وتسلم الرها وحران. وسار إلى بلاد الجزيرة فملكها جميعها، وملك ديار بكر وخلاط. وسار إلى أذربيجان فملك جميع بلادها، ثم منها إلى همذان فملكها، واستوزر فخر الملك بن نظام الملك[٥].

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٢٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص١٢٣ و١٣٥.

(٢) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه: أشهر مدينة بديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٣٢.

(٤) تل السلطان: موضع قريب من حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٢.

(٥) نظام الملك: هو الوزير الذي كان ساعد ملكشاه الأيمن ومستشاره الأمين. وكان هو وأولاده الاثني عشر يقبضون على زمام الأمور. توفي في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحوًا من ثلاثين سنة. أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٠٤، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٣٠ ـ ٣٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص١٣٣.

ذكر انهزام بركياروق منه(١)

قال: ولما سار تتش إلى أذربيجان كان بركياروق(٢) بنصيبين فبلغه الخبر. فسار إلى قتاله ولم يكن معه غير ألف رجل، وعمه في خمسين ألفًا. فجهز إليه عمه بعض الأمراء فكبسه وهزمه ونهب سواده، فسار إلى أصفهان على ما ذكرناه في أخباره وخطب للسلطان تاج الدولة ببغداد.

ذكر قتل تاج الدولة تُتُش(٣)

قال: ولما هزم بركياروق سار من موضع الوقعة إلى همذان، ثم سار إلى الري وكاتب الأمراء الذين بأصفهان يدعوهم إلى طاعته، ويبذل لهم الأموال الكثيرة. وكان بركياروق مريضًا بالجدري، فأجابوه يعدونه أنهم ينحازون إليه، وهم ينتظرون ما يكون من صاحبهم. فلما عوفي بركياروق أرسلوا إلى تُتُش أنه ليس لك عندنا إلا السيف، وخرجوا له والتقوا بموضع قريب من الري، وقد كثرت جموع بركياروق، فانهزم أصحاب تتش وثبت هو في القلب فقتله أصحاب قسيم الدولة بثأر صاحبهم، والله أعلم.

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق(٤) بعد قتل أبيهما تتش

قال: كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان. وكتب

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٩٦.

(٢) بركياروق: هو السلطان ركن الدولة بركياروق ابن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب بن داود بن سلجوق بن دقماق السلجوقي أبو المظفر. مات في شهر ربيع الأول من السنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م وهو ابن أربع وعشرين سنة ومدة سلطنته ١٢ سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥، ص١٨٨. انظر أيضًا الصفحة ٤٩١ ـ ٤٩٥ أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٢٩، ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٨٠، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٣٨ ـ ٤٣.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٢٩، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٣، ص٣٨٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج١، ص٢٩٥ ـ ٢٩٧.

(٤) ورد في أخبار الدولة السلجوقية لصدر الدين الحسيني ص١ ـ ٢ أن جد السلاجقة يقال له: بقاق، وتقاق، ودقاق، ودقاق بن تتش في معجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزمباور. يقول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج٥، ص١٨٦: «توفي دقماق بن تُتُش الأمير أبو نصر شمس الملوك السلجوقي صاحب دمشق سنة ٤٩٧هـ وسمّاه الذهبي وصاحب مرآة الزمان دقاقًا بلا ميم ولعل الذي قلناه هو الصواب، فإننا لم نسمع باسم قبل ذلك يقال له دقاق وأيضًا فإن جد السلجوقيين الأعلى اسمه دقماق».

إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذي قتل فيه يأمره بالمسير إلى بغداد، وأن يقيم بدار المملكة. فسار في عدد كثير منهم إيلغازي بن أرتق[١]، والأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس وغيرهما. فلما قارب هيت جاءه الخبر بقتل أبيه، فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها، وكان بها أبو القاسم بن علي الخوارزمي قد سلمها تتش إليه، وحكّمه فيها وفي القلعة. ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن إيتكين، وكان مع تتش فسلم من المعركة. وكان مع رضوان أيضًا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام فكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد؛ فاستمال جناح الدولة المغاربة، وكانوا أكثر أجناد القلعة. فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم، وأرسل إليه الملك رضوان يطيّب قلبه، فاعتذر فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، وكانت الخطبة[٢] قد دامت باسم أبيه بعد قتله نحو شهرين.

وسار جناح الدولة في تدبير الدولة أحسن سيرة، وخالف عليهم الأمير ياغي سيان[٣] بن محمد بن ألب التركماني صاحب أنطاكية ثم صالحهم، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها. فساروا جميعًا وقدم عليهم من بالأطراف الذين كان تتش قد رتبهم فيها، وقصد واسروج، فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق فأخذها ومنعهم منها، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا من عساكره وما يفسدونه من غلاتهم، ويسألونه الرحيل. فرحل عنهم إلى الرها، وكان بها رجل يقال له الفارقليط ـ كان يضمن البلد من بوزان ـ فقاتل قتالاً شديدًا ثم ملكها. وطلب ياغي سيان القلعة من رضوان فوهبها له، فتسلمها وحصنها، فهرب رجالها وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم البلد، فسمع ذلك قراجا فصلب ابن الفتى وغيره ممن اتهمهم وجاء الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة وياغي سيان وأضمر كل منهما لصاحبه الغدر، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها، واجتمع بزوجته أم الملك رضوان. وسار رضوان وياغي إلى حلب، فسمع بدخول جناح الدولة إليها، ففارق ياغي سيان الملك رضوان وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان حلب.

---

(١) هو نجم الدين ايلغازي بن أرتق. النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢١٨.

(٢) انظر ابن الأثير، الكامل، ج١٠ ص٢٣٢، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج٥، ص١٦٥.

(٣) «باغيسيان» في الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٤٨٨هـ.

هذا ما كان من أمر رضوان، وأما الملك دقاق بن تتش، فإنه كان قد حضر المصاف مع أبيه، فلما قتل أبوه أخذه إيتكين الحلبي - وهو من غلمان أبيه - وسار به إلى حلب، فأقام عند أخيه الملك رضوان. ثم راسله الأمير ساوتكين الخادم - متولي دمشق - سرًا يدعوه ليملكه دمشق؛ فهرب من حلب. فأرسل أخوه رضوان في طلبه عدة من الخدام فلم يدركوه، وسار حتى وصل إلى دمشق ففرح به ساوتكين الخادم وأظهر البشر لوروده. فلما صار بدمشق أرسل إليه ياغي سيان يشير عليه أن ينفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان. واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره وقد سلموا من الوقعة وكان طغتكين قد أسر ثم خلص فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب الدولة وبالغوا في تعظيمه وإكرامه. وكان طغتكين زوج والدة دقاق، فمال إليه لذلك ووثق به وحكمه في بلاده. ثم اتفقا على قتل ساوتكين الخادم فقتلاه. وسار إليه ياغي سيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فجعله وزيرًا لدقاق، وحكمه في دولته. فصارت دمشق لدقاق وحلب لرضوان.

ذكر الحرب بين الملكين رضوان(١) وأخيه دقاق

وفي سنة تسعين وأربعمائة سار الملك رضوان من حلب إلى دمشق يريد الاستيلاء عليها وانتزاعها من أخيه دقاق. فلما قاربها رأى حصانتها وامتناعها، فعلم عجزه عنها. فسار إلى نابلس وإلى القدس ليأخذه، فلم يمكنه ذلك وانقطعت العساكر عنه فعاد إلى حلب ومعه ياغي سيان صاحب أنطاكية وجناح الدولة وكانا قد التحقا به. ثم فارقه ياغي سيان وقصد دقاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب. فجمع دقاق عساكره وسار ومعه ياغي سيان، فأرسل رضوان إلى سقمان بن أرتق وهو بسَرُوج(٢) يستنجده، فأتاه في خلق كثير من التركمان. فسار بهم رضوان نحو دقاق والتقيا بقِنّسرين(٣)، واقتتلا فانهزم دُقاق وعسكره ونُهبت خيامهم وأموالهم وعاد رضوان إلى حلب. ثم اتفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل أخيه دقاق، وقيل كان ذلك في سنة تسع وثمانين.

---

(١) توفي رضوان ابن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص١٦.

(٢) سروج: بفتح أوله وهي بلدة قريبة من حرّان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣، ص٢١٦.

(٣) قنسرين: بكسر أوله وفتح ثانيه: مدينة قريبة من حلب. وكانت حمص وقنسرين شيئًا واحدًا، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٠٣.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان في أكثر ولايته للمستعلي بأمر الله صاحب مصر(١). وسبب ذلك أن جناح الدولة كان قد فارق رضوان لتغير رآه منه، وجاء إلى حمص وكانت له، فلما رأى ياغي سيان بعده عن رضوان صالحه، وجاء إلى حلب، ونزل بظاهرها وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أبو سعد يميل إليه، فقدمه بعد مسير جناح الدولة فحسن له مذهب العلويين. وأتته رسل المستعلي تدعوه إلى طاعته ويبذل له المال وإنفاذ الجيوش لأخذ دمشق، فخطب له بشيزر(٢) وجميع أعمال ولايته سوى أنطاكية، وقلعة حلب، والمعرّة(٣)، وكانت الخطبة أربع جمع. ثم حضر إليه سُقمان بن أُرتُق وياغي سيان فأنكرا ذلك واستعظماه فأعاد الخطبة العباسية. وسار ياغي سيان إلى أنطاكية فلم يقم بها غير ثلاثة أيام حتى وصل الفرنج إليها وحصروها وملكوها في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار المستعلي صاحب مصر.

ذكر ملك دقاق مدينة الرَّحبة(٤)

وفي شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة ملك الملك دقاق مدينة الرحبة؛ وكانت بيد قايماز أحد مماليك السلطان ألب أرسلان، استولى عليها لما قتل كربوقا، فسار دقاق وطغتكين أتابكه إليه وحصراه، ثم رحلا عنه. فاتفقت وفاته في صفر من هذه السنة، وقام مقامه غلام تركي اسمه حسن، وخطب لنفسه وخاف من الملك دقاق، فاستظهر لنفسه وأخذ جماعة من أعيان البلد وصادرهم وحبس آخرين، فسار دقاق إليه وحاصره، سلم العامة البلد واعتصم هو بالقلعة فأمنه دقاق وسلمها له فتسلمها وأقطعه إقطاعًا كثيرًا بالشام، وقرر الرحبة وجعل فيها من يحفظها وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه

كانت وفاته في شهر رمضان سبع وتسعين وأربعمائة. ولما توفي خطب أتابكه

(١) في سنة ٤٨٩هـ ورد كتاب صاحب مصر إلى رضوان بن تتش بالدخول في الطاعة، فأجاب وخطب للمستعلي في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص١٥٦.

(٢) شيزر: بفتح أوله، قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣، ص٣٨٣.

(٣) المعرة: هي معرّة النعمان، مدينة كبيرة قديمة، من أعمال حمص بين حلب وحماه. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥، ص١٥٦.

(٤) الرّحبة: قرية من قرى دمشق، ياقوت الحموي: المصدر نفسه ج٣، ص٣٣.

طغرتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لبلتاش[١] بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة وله من العمر اثنتا عشرة سنة. ثم أشار عليه طغرتكين بقصد الحربة فخرج إليها وملكها، وعاد فمنعه من دخول البلد، فمضى إلى حصون له. وأعاد طغرتكين خطبة الطفل ولد دقاق، وقيل إن والدة بلتاش خوّفته من طغرتكين وقالت له: إنه زوج أم دقاق، وهي لا تتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولد ابنها، فخاف. ثم حسن له من [كان][٢] يحسد طغرتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج، والعود إلى دمشق وأخذها من طغرتكين فخرج من دمشق سرًا في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة مع صغر سنه. ولحقه الأمير إيتكين الحلبي وهو صاحب بصرى، فعاثا في ناحية حوران ولحق بهما من كان يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الفرنج[٣] يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك. فسارا إليه واجتمعا به، وقررا معه القواعد، وأقاما عنده، فلم يريا منه إلا التحريض على الإفساد في أعمال دمشق وتخريبها. فلما يئسا من نصرته فارقاه وتوجها في البرية إلى الرحبة فملكها بلتاش وعاد عنها، واستقام أمر طغرتكين بدمشق، واستبد بالأمر وأحسن إلى الناس ونشر فيهم العدل.

هذا ما كان من أمر ملوك دمشق ثم انتقل ملكها إلى طغرتكين[٤] وأولاده من بعده على ما نذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا لملوك حلب السلجقية ومن ملكها بعدهم إلى أن ملكها أتابك زنكي بن أقسنقر.

ذكر أخبار ملوك حلب

قد قدمنا أن حلب كانت بيد الملك رضوان بن تتش، فلم تزل بيده إلى أن توفي في سنة سبع وخمسمائة. وكانت أموره غير مشكورة فإنه قتل أخويه أبا طالب وبهران وكان يستعين في كثير من أموره بالباطنية لقلة تدبيره. فلما مات ملك بعده ابنه تاج الملوك ألب أرسلان الأخرس، وعمره ست عشرة سنة. ولم يكن أخرس، وإنما كان في لسانه حبسة وتمتمة وأمه بنت ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية.

---

(١) «وخطب لبكتاش بن تُتُش» في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٣٧٦.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٣٧٥.

(٣) هو بلدوين وفي الأول.

(٤) هو تزوج والدة دقاق أو دُقماق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥، ص١٨٦.

قال: ولما ملك تاج الملوك سلك سنّة أبيه في قتل إخوته فقتل أخوين له وهما شقيقه ملكشاه، ومبارك لأبيه، واستولى على أمور دولته لؤلؤ الخادم، فلم يكن لتاج الملوك معه في السلطنة غير اسمها، ومعناها للؤلؤ. ولم تطل مدته في الملك، فإن غلمانه قتلوه في سنة ثمان وخمسمائة، وأقاموا بعده أخاه السلطان شاه بن رضوان، فكان مع لؤلؤ كعادة أخيه. فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ـ وقيل سنة عشر ـ قتل لؤلؤ المستولي على الأمر. وكان سبب قتله أنه أراد قتل سلطان شاه كما فعل بأخيه، ففطن غلمان سلطان شاه لذلك، فبادروه بالقتل. وولى أتابكة سلطان شاه بعد شمس الخواص يارقتاش، فبقي شهرًا وعزلوه، وولي بعده أبو المعالي بن الملحي الدمشقي ثم عزلوه وصادروه. فخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد إلى الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق وانقرضت الدولة السلجقية من حلب، والله أعلم.

ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة[1] السلجقية منها

ملكها الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق باتفاق أهلها في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فتسلمها. وكان له مع الفرنج وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها. واستناب بحلب ولده سليمان، فخالفه وعصى عليه. في سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان عمره إذ ذاك عشر سنين، فبلغ والده الخبر، فسار مجدًّا فلم يشعر إلا وقد هجم البلد وقبض على من كان حسّن لابنه العصيان، وقتلهم. وكان منهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان إيلغازي قد قدمه على أهل حلب وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك، فقطع يديه ورجليه وسمله فمات. وأراد قتل ولده فمنعته رقة الوالد، واستناب بحلب سليمان شاه ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين؛ فلم تزل حلب بيده، إلى أن توفي في سنة ست عشرة وخمسمائة بميافارقين. وبقي سليمان بحلب إلى أن استولى عليها، ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق؛ وبقيت بيد بلك إلى أن قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة وهو يحاصر منبج[2]، وكان قد قبض على صاحبها حسان البعلبكي، وملك المدينة وحاصر القلعة، فأتاه سهم فقتله وكان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي مع عمه بلك، فحمله مقتولاً إلى ظاهر حلب، فتسلمها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة،

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٣١.

(٢) منبج: بالفتح ثم السكون: مدينة كبيرة غربي الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥، ص٢٠٥.

واستولى عليها، وجعل فيها نائبًا يثق به، وعاد إلى ماردين. وكان يحب الدعة والرفاهية، فلما عاد إلى ماردين ملك حلب اقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمكاتبة من أهلها، لأن الفرنج كانوا حاصروهم وضيّقوا عليهم، فكتبوا إليه يستنجدونه، فحضر بعساكره، فرحل الفرنج عنها، وملكها في ذي الحجة سنة ثماني عشرة، فكانت بيده إلى أن قتل في سنة عشرين وخمسمائة على يد الباطنية.

وملك بعده ابنه عز الدين مسعود إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فبقيت بيد نائبه قومان، ثم استناب بعده بها قتلغ، فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فظهر منه بعد أيام جور عظيم وظلم شديد، ومدّ يده إلى أموال الناس. وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ـ الذي كان صاحبها قديمًا ـ فأطاعه أهلها، وقبضوا على أصحاب قتلغ الذين بالمدينة في شوال من السنة، وحاصروه في القلعة. فسمع الفرنج بذلك فتقدموا إلى المدينة، فصولحوا بمال حتى رحلوا عنها. وداموا على حصار قتلغ بالقلعة إلى منتصف ذي الحجة، ثم ملكها عماد الدين زنكي بن اقسنقر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية. هذا ما كان من أمر حلب، فلنذكر أخبار دمشق.

ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض السلجقية منها إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي

أول من ملكها معتمد الدولة ظهير الدين طغرتكين[1]، وقيل فيه طغركين وطغدكين. استولى على دمشق كما قدمناه في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، واستقل بالأمر منذ فارقها الملك بلتاش بن تتش وكان لطغرتكين مع الفرنج وقائع كثيرة في سنين عديدة يطول شرحها، أضربنا عن ذكرها لأنها لم تسفر عن فتح بلد ولا أسر ملك وملك طغرتكين بصرى في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكانت بيد إيتكين

---

(١) هو ظهير الدين أبو المنصور طغتكين بن عبد الله الأتابك صاحب الشام مملوك تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان السلجوقي كان طغتكين مقدمًا عند أستاذه تُتُش المذكور. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٢٧.

أخباره في: النجوم الزاهرة ج٥، ص١٧٩، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٩، ٢٠٣، ٥٠٨، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص٦٦، الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٣٩٩، تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٦٣.

الحلبي، فلما صار مع السلطان الملك بلتاش كما ذكرنا سلمها أهلها لطغرتكين، فتسلمها وأحسن إليهم؛ واستمر في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فتوفي في ثامن عشر صفر منها، وكان عاقلاً خيِّرًا، كثير الغزو والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثرًا للعدل فيهم. ولما توفي ملك بعده ابنه والله أعلم.

ذكر أخبار تاج الملوك بوري بن أتابك طغرتكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن عشر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة بوصية من أبيه له بالملك. وكان أكبر أولاده، فلما ملك أقر وزير والده ـ وهو أبو علي طاهر بن سعيد المزدغاني ـ على وزارته.

ذكر أخبار الإسماعيلية وقتل الوزير المزدغاني

كان بهرام مقدم الإسماعيلية قد هرب قديمًا من بغداد إلى الشام بعد قتل أخيه إبراهيم الإسدابادي، وملك قلعة بانياس، وجعل خليفته بها يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا؛ وملك عدة حصون منها القدموس وغيره، وهي الآن تعرف بقلاع الإسماعيلية، من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية.

وكان بوادي (التيم) من أعمال بعلبك أرباب مذاهب مختلفة منهم النصيرية الدرزية والمجوس وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحاك، فسار إليهم بهرام في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وقاتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة، وقتل بهرام فيمن قتل، وانهزم من بقي وأتوا بانياس على أقبح صورة. وكان بهرام قد استخلف على بانياس رجلاً من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من سلم من أصحابه، وبثّ دعاته في البلاد، وساعده الوزير المزدغاني وعاضده وأقام المزدغاني بدمشق عوض بهرام إنسانًا اسمه أبو الوفا، فقوي أمره على شأنه، وكثر أتباعه حتى صار هو المستولي على دمشق، وحكم أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إن المزدغاني راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر الميعاد في يوم جمعة عينوه، وقرر المزدغاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا على أبواب الجامع في ذلك اليوم، فلا يمكنوا أحدًا من الخروج منه، لتجيء الفرنج ويملكوا البلد. فاتصل الخبر بتاج الملوك. فاستدعى الوزير المزدغاني فحضر إليه فلما خلا به قتله وعلّق رأسه على

باب القلعة، ونادى في الناس[١] بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف؛ وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة فخاف إسماعيل متولي بانياس عند ذلك من الناس أن يثوروا به وبأصحابه، فسلّم بانياس إلى الفرنج، وانتقل إليهم هو ومن معه، فلقوا شدة عظيمة وهوانًا، ومات إسماعيل في أوائل سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ذكر حصار الفرنج دمشق وانهزامهم[٢]

قال: ولما بلغ الفرنج ما كان من قتل المزدغاني[٣] عظمت المصيبة عليهم، واجتمعوا بجملتهم، صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من ملوك الفرنج وقمامصتهم ومن وصل إليهم في البحر فكانوا في ألفي فارس، وأما الراجل فلا يحصى كثرة، وساروا إلى دمشق لمحاصرتها، فبلغ ذلك تاج الملوك، فجمع العرب والتركمان فاجتمع معه ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج إلى دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فنازلوها، وأرسلوا سراياهم إلى أعمالها لجمع الميرة والإغارة. فبلغ تاج الملوك أنهم ساروا إلى حوران، فسيّر أميرًا من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين، فلقوا الفرنج وقاتلوهم قتالاً شديدًا، كان الظفر للمسلمين وقتل الفرنج فلم يفلت منهم غير مقدمهم في أربعين رجلًا، وأخذوا أخذ المسلمون ما معهم وكان عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق بالظفر والغنيمة. فألقى الله الرعب في قلوب الفرنج فرحلوا شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وغيره، وتبعهم المسلمون يقتلون من تخلف منهم. وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة. وفي سنة أربع وعشرين استوزر تاج الملوك الرئيس أبا الدوّاد المفرج بن الحسن بن الصوفي.

---

(١) في الأصل «ونادى في البلد» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥٧.

(٣) «المزدقاني» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥٧ هو كمال الدين طاهر بن سعد، الصاحب الوزير أبو علي المزدقاني كان شجاعًا جوادًا، بنى المسجد على الشرق شمالي دمشق ويسمى مسجد الوزير، ويقال له شرف البعل وهو بالشام. وقيل جبل في طريق الحاج من الشام. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٢٨، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٤، ص٦٦.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة.

ثار الباطنية بتاج الملوك، فجرحوه جرحين فبرأ أحدهما وبقي الآخر، فاشتد عليه في شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة فأضعفه وأسقط قوته فمات[(١)]، في الحادي والعشرين من الشهر. وكانت مدة إمارته أربع سنين[(٢)] وخمسة أشهر وأيامًا، وكان كثير الجهاد مقدامًا فأقام في حروبه مقام أبيه وفاق عليه ولما مات قام بعده ولده إسماعيل بوصية منه.

ذكر أخبار شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك بوري بن طغرتكين[(٣)]

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة. وكان والده قد أوصى له بالملك ولولده الآخر شمس الدولة محمد بمدينة بعلبك وأعمالها. فنفذت وصيته وقام بتدبير الأمر بين يدي شمس الملوك الحاجب فيروز شحنة دمشق ـ وهو صاحب أبيه ـ واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم.

قال: وبلغ شمس الملوك أن أخاه شمس الدولة صاحب بعلبك استولى على حصني اللبوة والراس واستمال من بهما وتسلمهما، وجعل فيهما من الجند من يحفظهما. فراسله في ذلك وتلطف معه وقبح عليه فعله، وطلب إعادتهما إليه، فامتنع. فتجهز بعساكره في آخر ذي الحجة[(٤)] من السنة وقصد جهة الشمال، ثم عطف مغربًا، فلم يشعر من بحصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فراسلوه في طلب الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن من يومه. وسار إلى حصن الراس وفعل به كذلك، وتسلمه وجعل فيهما من يحفظهما. ثم رحل إلى بعلبك وحصرها وبها شمس الدولة وقد استعد، فوالى الزحف حتى ملك البلد بعد قتال شديد. وتحصن شمس الدولة فنازله فراسله في طلب الأمان وأن يقره على ما أوصى له به والده، فأجابه إلى ذلك وعاد إلى دمشق.

---

(١) «مات في شهر رجب بعد سنين» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٣.
«جرح وتعلل أشهرًا ومات في رجب» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٧٨.

(٢) «وكانت ولاية بوري على دمشق ثلاث سنين وشهورًا» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٣.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٨٠.

(٤) «آخر ذي القعدة» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٨١.

ذكر ملكه قلعة بانياس[(١)]

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك قلعة بانياس من الفرنج. وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه. وكانت قد تقررت بينهم هدنة، فقصدوا نقضها، ومدوا أيديهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت، فشكا التجار ذلك إلى شمس الملوك، فراسل الفرنج في إعادة ما أخذوه، فلم يردوا شيئًا. فجمع العساكر وتأهب ولم يعلم أحدًا بمقصده. ثم سار في آخر المحرم من السنة ونزل على بانياس في صفر[(٢)]، وزحف زحفًا متتابعًا. وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه، وتبعه الناس فوصلوا إلى السور ونقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان فيه من جند الفرنج إلى الحصن، فقتل كثير من الفرنج بالبلد وقاتل من بالقلعة قتالاً شديدًا، ثم ملك القلعة بالأمان في رابع صفر وعاد إلى دمشق [فوصلها سادسه][(٣)].

ذكر ملكه مدينة حماة[(٤)]

وفي شوال سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك مدنية حماة وهي لأتابك زنكي بن اقسنقر، وذلك أنه لما ملك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان، وسار إلى حماة في العشر الآخر منه. وكان قد بلغه أن الخليفة المسترشد بالله قد حضر إلى الموصل، فطمع في البلاد لتغير الخليفة على زنكي، فحصر حماة وقاتل من بها يوم العيد، وملك البلد في اليوم الثاني قهرًا، وطلب من به الأمان فأمنهم، وحصر القلعة، واستولى عليها وعلى ما بها من الذخائر، وسار منها إلى قلعة شيزر، وبها صاحبها ابن منقذ، فحصرها ونهب بلدها. فراسله صاحبها وسار معه بمال، فعاد إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

وفي تاسع شهر ربيع الآخر وثب على شمس الملوك بعض[(٥)] مماليك جده طغرتكين [يعرف بايلبا][(٦)]، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئًا، وتكاثر عليه مماليك شمس الدولة فمسكوه، فقرره ما الذي حمله على ما فعل، فقال: «أردت راحة

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٨٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٤٤.
(٢) «في أول صفر» في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٦٨٤.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٨٥.
(٤) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦.
(٥) «أحد» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص٢٤٦.
(٦) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٥، ص٢٤٦.

المسلمين من شرّك وظلمك» فلم يزل يضرب حتى أقر على جماعة أنهم وضعوه على ذلك، فقتلهم من غير تحقيق، وقتل أخاه سونج، فعظم ذلك على الناس، ونفروا عنه وأنفوه(١).

ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج(٢)

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة سار إلى شقيف تيرون(٣) وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا، وكان في يد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم قد تغلب عليه وامتنع به واحتمى على المسلمين والفرنج. فسار إليه شمس الملوك وملكه في المحرم من هذه السنة؛ فعظم أخذه على الفرنج، لأن الضحاك كان لا يتعرض إلى شيء من بلادهم المجاورة له، فجمع الفرنج جموعهم فساروا إلى بلد حوران يخربون أمهات الضياع. فسار إليهم [شمس الملوك] ونزل بإزائهم وجرت بينهم مناوشة عدة أيام، ثم نهض ببعض عسكره وجعل بقيتهم قبالة الفرنج. وسار وقصد بلاد طبرية والناصرة وعكا وما جاورها من البلاد، والفرنج لا يشعرون به، فقتل وخرب وأحرق وسبى وامتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، فبلغ الفرنج خبره، فرجعوا إلى بلادهم، وعاد هو على غير الطريق الذي سلكه، فوصل سالمًا وراسله الفرنج في تجديد الهدنة.

ذكر مقتل شمس الملوك وملك أخيه شهاب الدين محمود

وفي شهر ربيع الأول(٤) سنة تسع وعشرين وخمسمائة، قتل شمس الملوك إسماعيل(٥). وسبب ذلك أنه كان قد ركب طريقًا شنيعًا من الظلم ومصادرات العمال

---

(١) وردت هذه الحادثة في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي في سنة ٥٢٨هـ، ج٥، ص٢٤٦.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١.

(٣) حصن بالقرب من صور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٥٦.

(٤) «رابع عشر ربيع الآخر» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٢٠ «وزاد ظلمه من كتب أهل دمشق إلى زنكي بن آق سنقر بالمسير إليهم. فقيل: إنه مات قبل وصول زنكي إلى الشام، واستراح أهل دمشق منه» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٤٩.
انظر أيضًا شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٩٠، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٦٣.

(٥) عن قتله: «رتبت أمه زمرد خاتون من وثب عليه من قلعة دمشق فقتله» ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٩٠.

وغيرهم من أهل البلد وأعيانه، وبالغ في العقوبات، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس. ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي ليسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل ذلك إلى صرخد(١) وتابع الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول ويقول: إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج. فامتغص أصحاب أبيه وجده منه، وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر. ثم ارتقب غفلة غلمانه وأمرت غلمانها بقتله فقتلوه. وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه، فلما رأوه سرُّوا بمقتله. وأمه زمرد(٢) خاتون ابنة جاولي، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي الشقراء، ونهر بردى. هذا أحد ما قيل في قتله. وقيل كان سبب مقتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز، وكان متمكنًا منه حاكمًا في دولته ثم في دولة ولده هذا، فاتهم بأم شمس الملوك. وبلغه الخبر فهمّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك. وأراد [شمس الملوك] قتل أمه، فبلغها الخبر فقتلته خوفًا على نفسها، والله أعلم. وكان مولده في سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة، فتكون مدة حياته اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه سنتين وتسعة أشهر وأيامًا.

ذكر أخبار شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك بوري بن طغرتكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وحلف له الناس واستقر له الأمر ثم وصل أتابك زنكي إلى دمشق ونازلها في أول جمادى الأولى من السنة، فبينما هو يحاصر دمشق إذ ورد عليه رسول الخليفة المسترشد بالله بالخلع ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها، فصالحه، وخطب له بدمشق مع صاحبها، وفارق البلد لليلتين بقيتا من الشهر.

---

(١) صرخد: بالفتح ثم السكون: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٠١.

(٢) هي زمرد خاتون أخت الملك دقاق لأمه وزوجه تاج الملك بوري، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج٤، ص١٧٨.

ذكر ملكه مدينة حمص[١]

وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمسمائة، تسلم شهاب الدين محمود مدينة حمص وقلعتها. وذلك أن أصحابها أولاد الأمير خرخان بن قراجا[٢] الوالي عليها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على من بها، فراسلوا شهاب الدين في تسليمها، فأجابهم، وسار إليها وتسلمها، وسلم إليهم تدمر، وأقطع حمص لمملوك جده معين الدين أنر[٣] وجعل فيها نائبًا عنه ممن يثق به من أعيان أصحابه، وعاد إلى دمشق ثم ملكها أتابك زنكي في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتزوج زمرد خاتون والدة شهاب الدين لتحكمها بدمشق، وظن أنه تملك البلد باتصاله بها، فلم يتهيأ له ملكها.

قال: واستمر ملك شهاب الدين محمود إلى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فقتل[٤] على فراشه في شوال منها، قتله ثلاثة من خواصه كانوا يبيتون عنده فقتلوه ليلاً، وخرجوا من القلعة فنجا أحدهما وقتل الآخران.

ذكر ملك جمال الدين محمد ابن تاج الملوك بوري بن طغرتكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وذلك أن محمود لما قتل، كتب معين الدين أنر إلى جمال الدين صاحب بعلبك بالخبر، واستدعاه ليملكه البلد، فجاء مسرعًا وجلس لعزاء أخيه، وخلف الجند وفوّض أمر دولته إلى معين الدين أنر، وزاده في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك، وزوجه بأمه.

قال: ولما اتصل بزمرد خاتون قتل ابنها محمود كتبت إلى زوجها أتابك زنكي وهو بالجزيرة أن ينهض في طلب ثار ابنها، فسار مسرعًا وملك بعلبك عنوة في

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٣٨.

(٢) هو صمصام الدين خير خان بن قراجا. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) «أنز» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٣٨ وفي المراجع التاريخية المختلفة اتسز. ابن خلكان، وفيات الأعيان ج١، ص٩٦، والكامل لابن الأثير سنة ٥٣٤هـ.

(٤) «استوحش منه جماعة من أمرائه واتفقوا على قتله مع يوسف الخادم والبقش الأرمني. وكانا ينامان حول سريره وساعدهما عنبر الفرّاش الخركاوي على ذلك، فلما كان ليلة الجمعة ثالث عشرين شوّال ذبحوه على فراشه وخرجوا هاربين فظفروا بهم وأخذوا يوسف وعنبرًا فصُلبا، وهرب البُقش». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٥٧.

ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين، وحصر دمشق في سنة أربع وثلاثين، وبذل لمعين الدين حمص وبعلبك وغير ذلك على أن يسلم إليه دمشق فلم يوافق، فجدّ في الحصار. فبينما هو يحاصرها مرض جمال الدين محمد ومات في ثامن شعبان منها، فطمع زنكي حينئذ في البلد ووالى الزحف والقتال. قال: ولما مات جمال الدين ولي بعده ولده.

ذكر أخبار مجير الدين أبق[1] بن جمال الدين محمد بن بوري ابن طغرتكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وهي إذ ذاك محاصرة، فقام بتدبير دولته معين الدين مدبر دولة أبيه. وداوم زنكي الحصار وضيّق على أهل البلد، فعند ذلك راسل أنر الفرنج واستدعاهم لنصرته، وإعانته على حرب زنكي، وبذل لهم بذولاً من جملتها أن يحاصر بانياس ويسلمها إليهم. وخوفهم أن زنكي إن ملك دمشق قصدهم وغزاهم. فاجتمعوا وعزموا على المسير إلى دمشق، فاتصل ذلك بزنكي فتوجه إلى حوران وقصد غزو الفرنج وذلك في منتصف شهر رمضان. فبلغ خبره الفرنج فأقاموا ببلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ثم نزل بعذرا[2] في سادس شوال، وأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة، وعاد إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق في ميعاد أنر، بعد رحيل زنكي فسار معهم إلى بانياس وحصرها وأخذها وسلمها للفرنج. ولما فعل ذلك عاد زنكي لمحاصرة دمشق فقاتله أهلها، فرحل عنهم. ثم اتفق قتال عماد الدين زنكي في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار مجير الدين أبق إلى بعلبك وحصرها وبها نجم الدين أيوب، فخاف أن أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده في عاجل الحال، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعًا ومالاً، وملكه عدة قرى من بلد دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وسكنها، وأقام بها، واستمرت دمشق بيد مجير الدين إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي في سنة تسع وأربعين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

---

(١) هو مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين: و«بن محمد» زيادة عن زامباور. تُوفي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٦١، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٦٣.

(٢) عذراء: قرية بغوطة دمشق: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٩١.

ولما ملكها نور الدين تحصن مجير الدين بالقلعة، فراسله في تسليمها وبذل له إقطاعًا من جملته مدينة حمص، فأجاب إلى ذلك، وسلّم القلعة وتسلم الإقطاع، وسار إلى حمص. ثم راسل أهل دمشق بعد ذلك على أن يسلموها إليه. فعلم نور الدين به، وأخذ منه حمص وعوضه عنها بالِس[١] فلم يرضَ بها، وسار إلى بغداد وابتنى بها دارًا بالقرب من النظامية. وتوفي بها.

هذا ما كان من أخبار ملوك دمشق[٢] على سبيل الاختصار، وإنما أوردنا أخبارهم في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، ولئن تكون أخبارهم متتابعة. فلنرجع إلى أخبار الملوك السلجقية، ولنذكر ملوك الروم منهم.

ذكر أخبار الملوك السلجقية أصحاب قوينة[٣] وأقصرا وملطية ودقوقا من الروم

أول من ملك منهم شهاب الدولة قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق. وكان ابتداء أمره أنه عصى على السلطان طغرل بك في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وملك قلعة كرْدكوه وامتنع بها، وأخذ أموالاً كانت حملت من خوارزم إلى السلطان، فسيّر إليه طغرلبك جيشًا فهزمه مرة بعد أخرى. فلما مات طغرلبك[٤] أظهر شهاب الدين قتلمش[٥] العصيان على ألب أرسلان بن جغر بيك[٦] داود، وجمع

(١) بالِس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، وكانت على ضفة الفرات الغربية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٢٨.

(٢) استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمها إلى أسرة زنكي سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م باستيلاء نور الدين محمود بن زنكي عليها لتقوية جيوشه للوقوف في وجه الصليبيين ثم انتقل هذا النفوذ إلى الأيوبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي قلد أمورها إلى الأفضل ثم انتقل هذا الحكم إلى العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٦٣، والباهر لابن الأثير ص١٨٨ ـ ١٩١.

(٣) هي قونية كما وردت في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٣٦ وقونية: بالضم ثم السكون من أعظم مدن الإسلام وبها وبأقصرى سكنى ملوكها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤١٥. والأقصر: اسم مدينة على شاطىء شرقي النيل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٣٧.

(٤) توفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وكان عمره سبعون سنة تقريبًا وكان عقيمًا، لم ينجب ولدًا. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٧٤.

(٥) أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٣٦.

(٦) «جغري بك» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٩.

جموعًا كثيرة، وقصد الري ليستولي عليها عندما بلغه وفاة طغرلبك، فسار إليه السلطان ألب أرسلان والتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر قتلمش، وفرّ هو لقصد كردكوه، فوجد ميتًا غير مقتول، كما ذكرنا ذلك في أخبار ألب أرسلان في سنة ست وخمسين وأربعمائة، ولما مات ملك بعده ابنه سليمان.

ذكر أخبار الملك سليمان(١) ابن شهاب الدولة قُتلمش

وهو الثاني من الملوك السلجقية بالروم، ملك ما كان بيد أبيه بعد وفاته في سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ذكر فتح مدينة أنطاكية

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان من بلاده، وقصد الشام وملك مدينة أنطاكية، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وكان سبب ملكه إياها أن صاحبها الفزدرؤس الرومي(٢) كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتب في أنطاكية شحنة وكان الفزدرؤس كثير الإساءة إلى أهل البلد وإلى جنده، حتى أنه حبس ابنه، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان، فكاتبوه يستدعونه فركب في البحر ومعه ثلاثمائة فرس وكثير من الرجالة، وخرج منه وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها في وقت الموعد، فنصب السلاليم وصعد باتفاق من الشحنة وابن صاحبها، فملكها في شعبان من السنة. وقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى، وقتل كثيرًا منهم، ثم عفا عنهم، وتسلم القلعة وأخذ من الأموال ما لا يحصى كثرة، وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بالفتح فأظهر الفرح بذلك وهنأ الناس.

قال: ولما فتحها أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب حلب يطلب منه حمل ما كان صاحب أنطاكية يحمله إليه، ويخوفه معصية السلطان. فأجابه أن صاحب أنطاكية كان كافرًا يحمل الجزية عن رأسه وأصحابه، وأنا مسلم والخطبة والسكة في بلادي للسلطان، وهذا الفتح إنما فتحته بسعادته وكاتبته به. فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، ونهب سليمان بلد حلب، فلقيه أهل السواد، فشكوا إليه من نهب عسكره. فقال لهم: «أنا كنت أشد كراهة لما جرى، ولكن صاحبكم

---

(١) انظر أخباره في الكامل لابن الأثير ج١٠، ص١٣٨.

(٢) هكذا في الأصل. و«الفردوس الرومي» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص١٣٨.

أحوجني إلى ما فعلت، فلم تجرِ عادتي بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرمته الشريعة» وأمر أصحابه بإعادة ما نهب على أصحابه، فأعادوه. ثم جمع شرف الدولة الجموع وسار لقتال سليمان، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عسكر شرف الدولة وقتل هو؛ وذلك في يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ذكر قتل الملك سليمان قُتُلمِش[١]

قال: ولما قتل سليمان بن شرف الدولة، أرسل إلى مقدم حلب يطلب تسليمها له، فأنفذ إليه مالاً، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه. وأرسل المقدم إلى تُتُش صاحب دمشق يعده بتسليمها إليه، فسار تُتُش إلى حلب. فعلم سليمان بذلك، فسار نحوه والتقوا وقاتلوا، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب. فلما عاين الهلكة. قتل نفسه بسكين، وقيل بل قتل في المعركة[٢]، واستولى تُتُش على معسكره، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة مسلم في صفر سنة ثمان وسبعين على بغل، ملفوفة في إزار إلى حلب، وطلب من أهلها تسليمها إليه، فأرسل تُتُش جثة سليمان في صفر من السنة التي تليها على تلك الهيئة، وطلب منهم تسليمها. ولما قتل ملك بعده ببلاد الروم ولده والله أعلم.

ذكر أخبار قلج[٣] أرسلان بن سليمان وهو الثالث من الملوك السلجقية بالروم

ملك بعد قتل أبيه في صفر سنة تسع وسبعين وأربعمائة، واستمر في المملكة الرومية وملك الموصل في سنة خمسمائة. وذلك أن صاحبها جكرمش كان قد حاصره جاولي سقاووا[٤]، وأسره ومات في أسره. فكتب أصحاب جكرمش إلى الأمير

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص١٤٧.

(٢) ذكر ابن تغري بردي أن سليمان بن قُتُلْمِش قد جاءه سهم في وجهه فوقع عن فرسه ميتًا، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٢٢.

(٣) «قليج» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٥، ص٣٥٩، أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٠ ص٤٢٦.

(٤) «جاولي سقاوو»، في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥١٠ أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٠، صفحات متفرقة من ٤٢٨ إلى ٥٢١، حيث توفي سنة ٥١٠/ ١١١٦م انظر أيضًا المنتظم لابن الجوزي ج٩، ص١٨٥.

صدقة، وإلى قسيم الدولة اقسنقر البُرسقي، وإلى قلج أرسلان، يستدعون كل واحد منهم إليها، ليسلموا إليه الموصل، فامتنع صدقة، وسار قلج أرسلان. فلما وصل إلى نصيبين رحل جاولي عن الموصل، واتفق وصول البُرسقي وهو شحنة بغداد إلى الموصل، ونزل بالجانب الشرقي بعد رحيل جاولي وفي ظنه أنه يملك البلد، فلم يخرج إليه أحد من أهلها ولا راسلوه بكلمة واحدة، فعاد في بقية يومه. وأرسل أصحاب جكرمش وأهل الموصل إلى قلج أرسلان واستحلفوه لهم، فحلف، وحلفهم على الطاعة له والمناصحة، وسار إلى الموصل وملكها لخمس بقين من شهر رجب سنة خمسمائة، وأسقط خطبة السلطان وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر وخلع على ولد جكرمش وأخذ القلعة، من غُزغلي مملوك جكرمش وجعل عليها دزدارًا، ودفع الرسوم المحدثة في الظلم، ونشر العدل وتألف الناس، وقال: «من سعى إليّ بأحد قتلته فلم يسع إليه أحد بأحد».

ذكر قتل الملك قلج أرسلان(١) وملك ولده الملك مسعود

كان مقتله في العشرين من ذي القعدة من سنة خمسمائة. وذلك أنه لما فارق جاولي الموصل سار إلى الرحبة وملكها بعد حصار وقتال، فلما أحكم الملك قلج أمر الموصل، وسار عنها لقتال جاولي، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة بالموصل، وسنّه إحدى عشرة سنة، وجعل معه أميرًا يدبره وجماعة من العسكر. وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدد الكاملة والخيل الجيدة. فسمع عسكره بقوة جاولي وكثرة أتباعه وجنده، فاختلفوا، فكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمُد(٢)، وكان معه لما فتح الموصل. ففارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور(٣) إلى بلده ثم فارقه غيره. فعمل قلج في المطاولة لما بلغه من قوة جاولي وكثر جموعه، وأرسل في طلب عساكره من الروم. وكان في جملة عسكر جاولي الملك رضوان صاحب حلب، فاغتنم جاولي قلة أصحاب قلج فقاتله قبل وصول عسكره، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فحمل قلج بنفسه وانهزم أصحابه. فلما رأى قلج انهزام عسكره ألقى

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٤٢٨.

(٢) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرًا وأشهرها ذكرًا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٦.

(٣) الخابور: بلد من أعمال الموصل يقع شرقي دجلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٤.

نفسه في الخابور، وحمى نفسه بالنشاب، فانحدر به الفرس إلى ماء عميق، وغرق[١]، فظهر بعد أيام، فدفن بالسليمانية وهي قرية من قرى الخابور. وسار جاولي ودخل الموصل وأرسل ملكشاه بن قلج إلى السلطان محمد.

قال: وملك بعده ولده الملك مسعود بن قلج، وأقام في الملك إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، فتوفي فيها. ولم أقف من أخباره على شيء أورده له، وملك بعده ولده.

ذكر أخبار الملك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود

ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قُتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق وهو الخامس من الملوك السلجقية ببلاد الروم.

ملك بعد وفاة والده في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وكان ذا سياسة، وعدل وافر، وهيبة عظيمة، وله غزوات كثيرة إلى بلاد الروم. وكان له من بلاد الروم قونية وأعمالها وأقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك. وكان له عدة أولاد، فلما كبرت سنه فرق بلاده على أولاده في حياته، وملك نحو تسع وعشرين سنة[٢].

ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبني أخيه وما جعل لكل منهم

قال المؤرخ: لما ضعف الملك عز الدين قلج أرسلان هذا عن القيام بوظائف الملك لكبر سنه، أفرد البلاد لأولاده وأولاد أخيه وسلم لكل واحد منهم جهة، فسلم إلى ابنه ركن الدين سليمان دوقاط، وإلى ابنه غياث الدين كيخسرو قونية، ولولده محيي الدين أنقِرة ـ وتسمى أنكورية ـ ولولده معز الدين قيصر شاه ملطية، ولولده مغيث الدين طغرل شاه أبلستين، ولولده نور الدين محمود قيسارية، ولولده قطب الدين سيواس وأقصرا، ولولد أخيه نكسار، ولولد أخيه أماسيا. هذه أمهات البلاد، ويضاف إلى كل جهة ما تجاورها. ثم ندم على ذلك وأراد أن يجمع جميع المملكة لولده الأكبر قطب الدين، وخطب له ابنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب مصر ليتقوى به، فلما اتصل ذلك ببقية أولاده امتنعوا من طاعته، وأزالوا حكمه عنهم، فكان يتردد بينهم على سبيل الزيارة، ثم توجه إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب قونية. فخرج إليه وقبّل الأرض بين يديه واستبشر بقدومه، وأتمر بأمره، فقال له:

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٤٣٠، وشذرات الذهب لابن تغري بردي، ج٣، ص٤١٠.
(٢) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٨٩.

«أريد أن أسير إلى ولدي محمود صاحب قيسارية، وآخذها منه» فسار هو وولده كيخسرو، وحصرا محمود، فمرض قلج أرسلان، وتوفي في منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة فعاد كيخسرو إلى بلده، واستقر كل واحد منهم على ما بيده من البلاد.

ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قَيسارية[١] ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة

قال: كان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا توجه من أحدهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، ويجتمع بأخيه نور الدين محمود صاحبها، ويظهر له المودة. فاطمأن له محمود. وكان الأمير اختيار الدين حسن أحد أمراء والده يحذره عاقبة طمأنينته لأخيه، فنزل قطب الدين في بعض الأحيان بظاهر قيسارية وجاء نور الدين إليه فقتله، ورمى برأسه إلى أصحابه، وتسلم البلد بعد أن امتنع من بها عليه، ثم قتل الأمير اختيار الدين حسن وكان من أكابر الأمراء الديانين، وألقاه في الطريق، فجاء كلب ليأكل من لحمه، فثار الناس وقالوا: «لا سمعًا ولا طاعة هذا أمير كبير في الإسلام، وبنى مدرسة للعلم، وله صدقات دارة، ولا نتركه تأكله الكلاب» فأمر عند ذلك بدفنه، فدفن في مدرسته. ثم مرض قطب الدين ومات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، وهي تجاوره، فملكها ثم ملك قيسارية أقصرا. ثم سار بعد ذلك إلى قونية، وبها أخوه غياث الدين فحصره بها. وملكها، ففارقها غياث الدين إلى الشام. ثم عاد إلى الروم وسار إلى القسطنطينية، ثم ملك البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسار ركن الدين بعد ذلك إلى نكسار وأماسيا فملكها من ابني عمه، وملك ملطية في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وفارقها أخوه معز الدين قيصر شاه، وسار إلى الملك العادل أبي بكر، وكان زوّجه ابنته. فاجتمع لركن الدين سليمان ملك جميع البلاد التي كانت بيد إخوته وأولاد عمه إلا أنقره، فإنها امتنعت عليه لحصانتها، فجعل عليها من عسكره من يحصرها، فحوصرت ثلاث سنين كوامل

---

(١) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام وهي مدينة كبيرة في بلاد الروم، وهي كرسي ملك بني سلجوق، ملوك الروم، أولاد قليج أرسلان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٢٠.

وتسلمها في سنة ستمائة، وعوض أخاه محيي الدين عنها قلعة في أطراف بلاده، وحلف له عليها، فسار محيي الدين إليها فجهز في إثره من قتله.

ذكر وفاة ركن الدين سليمان(١) وملك ولده قلج أرسلان

قال: ولما غدر بأخيه محيي الدين صاحب أنكورية [وتُسمى أيضًا أنقِرة](٢) وقتله، لم يمهله الله عزّ وجل، فمرض بالقولنج، بعد قتله لخمسة أيام، ومات في سبعة أيام، وكانت وفاته في سادس ذي القعدة سنة ستمائة.

وكان قيمًا بأمر الملك، شديدًا على الأعداء، إلا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد في اعتقاده، وأنه يقول بقول الفلاسفة. وكان كل من رمى بهذا المذهب يأوي إليه، لكنه كان يستر ذلك عن الناس، ولا يتظاهر به.

قال: ولما مات اجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان، وملكوه عليهم وكان صغير السن، فبقي إلى بعض سنة إحدى وستمائة.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق، بلاد الروم من ابن أخيه، وهو الثاني من ملوك السلجقية بالروم(٣)

ملك المملكة الرومية في شهر رجب، سنة إحدى وستمائة. وذلك أن ركن الدين سليمان لما أخذ منه قونية، كما قدمناه، قصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولاً، فسار من عنده وتنقل في البلاد إلى أن سار إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأكرمه وأقطعه إقطاعًا، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الأكابر. وكان للبطريق قلعة من قلاع القسطنطينية،

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٩٥.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٩٦ وأنقِره: بالفتح ثم السكون وكسر القاف، اسم للمدينة المسماة أنكورية كان المعتصم قد فتحها في طريقه إلى عمورية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٧١.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٠٠.

فلما ملك الفرنج قسطنطينية، هرب غياث الدين إلى حميه، بالقلعة، فنزل عنده وقاسمه فيما هو فيه وقنعا بها فلما مات أخوه في سنة ستمائة كما ذكرناه، وملك ولده قلج أرسلان، فخالف عليه بعض الأمراء الأكابر وكان من الترك، فأنف أن يملك صغيرًا، فراسل غياث الدين فحضر إليه في جمادى الأولى، واجتمع معه بعض العسكر وتوجه إلى قونية وبها قلج أرسلان ابن أخيه، فخرج له بعض عسكرها فهزموه وبقي حيران ولا يدري ما يصنع، ولا أين يتوجه. فقصد بلدة صغيرة من بلاد قونية يقال لها أوكرم، فقدر الله أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على واليها، فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين. فلما وصل الخبر أهل قونية قال أهلها: «نحن أولى بذلك منهم، لأنه كان حسن السيرة فينا» فنادوا باسمه، وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فملك المدينة وقبض على ابن أخيه، وملك البلاد أجمع في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه. وحضر إليه أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية، فلم يجد عنده قبولاً، فأعطاه شيئًا وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها، واستتب الملك لكيخسرو وأعظم شأنه. والله أعلم.

ذكر ملكه مدينة أنطاكية(١)

وفي ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة ملك الملك غياث الدين كيخسرو، [صاحب قونية وبلد الروم](٢)، مدينة أنطاكية بالأمان، وكانت للروم [على ساحل البحر](٣) وكان قد حصرها قبل هذا التاريخ وهدم عدة أبرجة من سورها، وأشرف على فتحها عنوة، فاستنجد من بها من الروم بفرنج جزيرة قبرص، فوصل إليها جماعة منهم فيئس منها وفارقها وترك طائفة من أصحابه بالقرب منها في الجبال التي بينها وبين بلاده، وأمرهم بقطع الميرة عنها. فضاق أهلها فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنوا أنهم يريدون إخراجهم من المدينة. فوقع الخلف بينهم، فاقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين يطلبونهم ليتسلموا البلد، فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج، فانهزم الفرنج منهم واعتصموا بالحصن. فأرسل المسلمون يطلبون كيخسرو، فجاء من قونية وحصر الفرنج وتسلم الحصن. واستمر غياث الدين كيخسرو في الملك إلى أن توفي سنة سبع وستمائة وملك بعده ولده

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٥٢.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٥٢.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٥٢.

الملك الغالب عز الدين كيكاوش[١] بن كيخسرو، وملك كيكاوش هذا بعض بلاد حلب، وانتزعت منه، واستمر في المملكة الرومية إلى سنة ست عشرة وستمائة، فتوفي ولم يكن له ولد فملك بعده أخوه.

ذكر ملك علاء الدين كَيْقُباذ[٢] بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ابن سليمان بن قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق وهو العاشر من ملوك السلجقية بالروم

ملك بعد وفاة أخيه في سنة ست عشرة وستمائة، وكان أخوه كيكاوش قد اعتقله لما ملك، وأشار عليه أصحابه بقتله فلم يفعل. فلما مات كيكاوش أخرج الجند كيقباذ وملكوه عليهم. وقيل إنه لما اشتدت علة كيكاوش أخرجه من الاعتقال، وحلف له العساكر.

قال: ولما ملك كيقباذ خالف عمه مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم؛ ومغيث الدين هذا هو الذي أمر ولده أن ينتصر وزوجه ملكة الكرج، وأقام معها مدة، فهويت غيره من مماليكها فرآه معها، فأنكر ذلك عليها، فاعتقلته. ومات مغيث الدين هذا في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وملك بعده ابنه.

قال: ولما ملك كيقباذ خاف من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف صاحب دمشق وصالحه، وتعاهد على المصافاة والتعاضد، والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة في شعبان سار كيقباذ إلى بلاد الملك

---

(١) هكذا في الأصل و«كيكاوس» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣١٤، وزامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٢١٥، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج٥، ص٣٦٠. أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣١٤، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥٤.

(٢) أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٥٤، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٥، ٤٧٨ - ٤٨٩، ٤٩١، ٤٩٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٦٣٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص١٦٨، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج٥، ص٨٣، ٣٣٢.

المسعود صاحب آمِد، وملك عدة من حصونه. وكان صاحب آمد قد اتفق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه على مخالفة الأشرف صاحب دمشق، فأرسل الأشرف إلى كيقباذ بقصد آمِد، فسار وفتح حصن منصور[١] وحصن سمسنكاذا وغيرهما. فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الملك الأشرف، وعاد إلى موافقته. فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يعرفه الصلح وأن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه، فامتنع وقال: «ما أنا نائب الأشرف يأمرني وينهاني» فأمر الأشرف عساكره بمساعدة صاحب آمِد إن أصر ملك الروم على قصد محاصرته[٢]. فاجتمع العسكر الأشرفي مع صاحب آمد وساروا إلى كيقباذ وهو يحاصر قلعة الكختا، فالتقوا في شوال فانهزم صاحب آمِد ومن معه هزيمة عظيمة، وأسر كثير من أصحابه، وجرح، وملك كيقباذ قلعة الكختا.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ملك كيقباذ أرزنكان[٣] وكان صاحبها بهرام شاه قد طال ملكه بها، وجاوز ستين سنة، ولم يزل في طاعة السلجقية ملوك الروم. فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباذ يطلبه بعسكره يسير معه إلى مدينة: أرزن[٤] الروم ليحاصرها. فحضر إليه فقبض عليه وأخذ مدينته، ثم ملك حصن كماخ[٥]، وكان من أمنع الحصون. وقصد أرزن الروم ليأخذها من ابن عمه طغرل شاه، فاستنجد صاحبها بالأمير حسام الدين على نائب الأشرف بخلاط، وأظهر طاعة الأشرف، فسار إليه بمن عنده من العسكر خوفًا أن كيقباذ إذا ملك أرزن الروم قصد خلاط وغيرها، فعاد ولم يقدم على قصدها، وتوجه إلى مدينة أنطاكية ليشتو بها والله أعلم.

---

(١) حصن منصور: من أعمال ديار مُضر، لكنه في غربي الفرات بالقرب من سميساط.
«حصن شمكازاد» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٨٩، «حصن قريب من حصن منصور» ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص٢٦٥.

(٢) «إن أصر ملك الروم على قصده» في الأصل.

(٣) أرزنكان أو أرزنجان: بالفتح ثم السكون وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف، وهي بلدة طيبة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٥٠.

(٤) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١، ص١٥٠.

(٥) «كماج» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٩٨.

ذكر اجتماع كيقباذ والأشرف على حرب جلال الدين[(١)] خوارزم شاه وانهزامه منهما

كان سبب ذلك أن جلال الدين خوارزم شاه لما حاصر خلاط حضر إليه صاحب أرزن الروم، وهو طغرل شاه السلجقي ابن عم كيقباذ، وأطاعه وأعانه على الحصار. وكان بينه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة فخاف كيقباذ أن السلطان جلال الدين يتوصل إلى ملك بلاده، فراسل الملك الكامل صاحب مصر[(٢)] وهو إذ ذاك بحران، وسأله أن يستدعي الملك الأشرف من دمشق، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف[(٣)] واجتمع هو وكيقباذ، واتفقا على حرب جلال الدين. وكان عسكر كيقباذ عشرين ألف فارس وعسكر الأشرف خمسة آلاف فارس، إلا أنهم كانوا من الشجعان الذين لا يقوم أحد بحربهم. فسار جلال الدين لقتالهم والتقوا يوم السبت الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة بمكان من أعمال أرزنجان، فانهزم جلال الدين وعاد إلى خلاط، فأخذ من كان بها من أصحابه وفارقها، وأسر في هذه الوقعة جماعة من أصحاب السلطان. فأمر كيقباذ بضرب أعناقهم، وأسر ابن عمه صاحب أرزن الروم، وقصد به بلده، فتسلم أرزن الروم وما معها من القلاع، وما بها من الخزائن وغيرها. فكان طغرل شاه كما قيل: «خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»؛ وكان هذا قد عاهد جلال الدين على أنه يملكه

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٥٥.

(٢) الملك الكامل هو: أبو المعالي محمد ابن الملك العادل الملقب ناصر الدين. توفي يوم الأربعاء ودفن بالقلعة بمدينة دمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٠٠.

أخباره في: الكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٦١٥هـ إلى سنة ٦٢٨هـ، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج٥، ص٧٩، والسلوك للمقريزي، ج١، ص٢٣٠، والخطط المقريزية ج٢، ص٢٣٥، وذيل الروضتين لأبي شامة، ص١٦٦، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص١٧٢، بدائع الزهور لابن إياس، ج١، ص٢٥٨، شفاء القلوب لابن إبراهيم الحنبلي ص٢٩٩، الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج٢، ص٢١٣، مفرج الكروب لابن واصل، ج٣، ص٢٧٤.

(٣) الملك الأشرف: هو مظفر الدين موسى بن العادل توفي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م في المحرم وله تسع وخمسون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦، ص٢٦٨، أخباره في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج١، ص٢٨٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٥، ص١٧٢ ـ ١٧٣.

بعض بلاد كيقباذ، فأخذ ما بيده. واستمر كيقباذ في الملك إلى أن توفي، وكانت وفاته في سنة أربع وثلاثين وستمائة[١]، وملك بعده ولده.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو[٢] ابن الملك علاء الدين كيقباذ غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجق، وهو الحادي عشر من الملوك السلجقية، بالروم

ملك المملكة الرومية بعد وفاة أبيه الملك كيقباذ في سنة أربع وثلاثين وستمائة. وجلس على تخت السلطنة بمدينة قونية وراسله الملوك في الموافقة، وهي السنة التي وصل التتار فيها إلى الروم. وفي سنة خمس وثلاثين أرسل غياث الدين إلى والدة الملك العزيز يخطب بنت ابنها العزيز لنفسه، وأن يتزوج الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان غياث الدين. فاستقر بينهما الأمر، وعقد السلطان على غازية خاتون ابنة الملك العزيز على خمسين ألف دينار. ووصل الصاحب كمال الدين بن العديم من حلب إلى السلطان. فزوج أخته من الملك الناصر على نظير هذا الصداق. فحصل الاتفاق بينهما، ثم أرسل السلطان غياث الدين إلى حلب يطلب أن تقام له الخطبة بها وتضرب السكة باسمه. فتوقفت الصاحبة والدة العزيز في ذلك، فأشير عليها بالموافقة فأجابت إلى ذلك، وخطب له بحلب. وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة، دخل بيجو مقدم التتار إلى بلاد الروم، والتقى هو والسلطان غياث الدين فكسرهم كيخسرو، ثم عاودوا القتال فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه، والتجأ إلى بعض المعاقل؛ ثم حصلت المهادنة على أتاوة يؤديها غياث الدين للتتار في كل سنة.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وصل التتار إلى بلاد الروم صحبة جرماغون وبيجو من قبل منكوفان الملك، فخرج السلطان غياث الدين لقتالهم بجميع عساكره، واستصحب حريمه ليقاتل قتال الحريم. واستشار أصحابه فيما يفعل، فكان منهم من هوّل عليه أمر التتار. وكان غياث الدين قد زوّجه والده بكرجي خاتون ابنة ملك

---

(١) توفي في سابع شوال سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص١٦٨.

(٢) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٨٩.

الكرج. فلما أفضت السلطنة إليه جعل أخاها مقدمًا على الجيش، وكان نصرانيًا، لم ينتقل عن ملته، فكرهه الأمراء وكرهوا السلطان بسببه. فلما كان في هذا الوقت قال للسلطان غياث الدين: «ضم إلى من في عسكرك من الكرج والفرنج، وأنا ألقى التتار بهم». فغاظ الأمراء كلامه، وتقدم أحد أعيانهم فحلف أنه لا بد أن يلقى التتار بنفسه، ومن صحبه، وركب في نحو عشرين ألف فارس، وتقدم إلى التتار وهم بصحراء اقشهر زنجان، وكان غياث الدين على الجبل الأقرع[1] واسمه كوسا داغ، وهو مشرف على الوطأة التي نزل بها التتار. وسار الأمير فيمن معه، وتبعه السلطان ببقية الجيش فوجد المقدم أمامه وادٍ قطعه السيل، فلم يستطع قطعه إلى جهة التتار، فسار مع لحف الجبل، يطلب طريقًا يمكنه التوصل منه إلى التتار. فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وراسلوه بالسهام، فأهلكوا أكثر الخيل التي معه، فكان السهم لا يقع إلا في فرس أو فارس، فتفرقوا عند ذلك، وطلبوا النجاة لأنفسهم. وعاد السلطان غياث الدين إلى المخيم، وجهز حريمه إلى قونية، وهي دار المملكة، ومسافتها من المكان الذي هو فيه نحو شهر، فسرن صحبة أمير، ولم يحملن معهن إلا ما خف، ورجع السلطان وترك الوطاق والدهاليز والخيام منصوبة، وبها الأثقال والخزائن والذخائر. وأقام التتار ثلاثة أيام لم يقدموا على دخول الوطاق ظنًا منهم أنها مكيدة، ثم عبروا الوطاق واستولوا على ما فيه، ورجعوا.

وتوفي غياث الدين في هذه السنة، وخلف ثلاثة أولاد: عز الدين كيكاوش، وركن الدين قلج أرسلان وعلاء الدين كيقباذ.

ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم

قال: لما توفي غياث الدين استقر أولاده الثلاثة في السلطنة، ولم ينفرد بها أحد عن الآخر، وضربت السكة باسمهم جميعًا، وخطب لهم وكان والدهم قد جعل ولاية عهده لولده علاء الدين كيقباذ بن كرجى خاتون، فاتفقوا على أن يتوجه إلى منكوقان يطلب منه الصلح والهدنة، ويقرر له أتاوة. هذا بعد أن استولى بيجو على قيسارية وأعمالها وما حولها، وصار بيده من المملكة الرومية مسافة شهر.

---

(١) الأقرع: جبل بين مكة والمدينة بالقرب منه جبل يقال له الأشقر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٣٦.

قال: فتوجه علاء الدين كيقباذ إلى منكوقان ملك التتار ومعه الهدايا والتحف، وذلك في سنة خمس وخمسين وستمائة[١]. وقصد الأرد[٢] ومعه الأمير سيف الدين طرنطاي، وهو من أكابر الأمراء وشجاع الدين ملك السواحل. وأقام أخواه بقونية فاختلفت آراؤهما وآل أمرهما إلى القتال. فانتصر عز الدين كيكاوش واستقر بقونية بمفرده، واعتقل ركن الدين قلج أرسلان، كل ذلك وبيجو بالروم.

قال: ولما اعتقل قلج أرسلان، ضاق أصحابه ومنهم الصاحب شمس الدين الطغراي والأمير سيف الدين جاليش وغيرهم، ففكروا فيما يفعلون فزوّروا كتابًا عن السلطان عز الدين كيكاوش إلى سيف الدين طرنطاي ورفيقه، أن يسلما إليهم السلطان علاء الدين كيقباذ، وما معهما من الهدايا والتحف، ليتوجه الصاحب بذلك إلى منكوقان، ويعود طرنطاي ورفيقه إلى قونية. وساروا بهذه الكتب الموضوعة في إثر السلطان كيقباذ، فلحقوه وقد وصل إلى أردوباطو. فدخلوا على باطو وقالوا: «إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجه إلى القان وأرسل معه هذين - يعنون طرنطاي ورفيقه - ثم اتضح له أنهما قد أضمرا السوء، وأن طرنطاي ضربته صاعقة فيما مضى من الزمان، فلا يصلح أن يدخل بين يدي القان[٣]. ورفيقه شجاع الدين طبيب ساحر، وقد أخذ صحبته شيئًا من السم القاتل ليغتال به منكوقان. فأرسلنا عوضًا عنهما وأمر بردهما» فلما سمع باطو ما قاله الصاحب، أمر بإحضار طرنطاي ورفيقه وفتش ما معهما من القماش والأصناف، فكان فيه براني أشربة وعقاقير، من جملتها السقمونيا، فأمره أن يأكل من ذلك فأكل وامتنع من السقمونيا. فظنها باطوسمّا، واستدعى الأطباء فقالوا إنها من الأدوية وآخر الأمر أن باطو خيّر الصاحب ورفقته بين أن يستصحبوا الهدايا إلى القان، ويكون السلطان صحبة طرنطاي ورفيقه أو العكس. فاختار الصاحب أن يكون السلطان معه والهدايا مع طرنطاي، وافترقا على ذلك. وتوجه السلطان كيقباذ والصاحب إلى القان وتوجه طرنطاي ورفيقه بالهدايا إليه، وافترقوا في الطريق، فكل قصد جهة. واتفقت وفاة السلطان في طريقه، وجرت لهم

---

(١) انظر عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني، ج١، ص١٤٤.

(٢) الأرد: هي من قرى فارس: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١، ص١٤٥.

(٣) لقب خان: أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءًا من الأمبراطورية المغولية. ولفظ خاقان لقب أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم. ومعناه رئيس الرؤساء أو أعظم الحكام. وقد استعمل المغول لقب «خان» أيضًا بمعنى «خاقان». محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١١٥.

خطوب يطول شرحها، آخرها أنهم وصلوا إلى القان بالأردو وتنافسوا الرياسة في مجلسه، ثم اتفق الحال أن تكون مملكة الروم مقسومة بين الأخوين، فجعل لعز الدين كيكاوش من نهر سيواس إلى حد بلاد أشكري(١)، ولركن الدين قلج أرسلان من نهر سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشمالية المتصلة ببلاد التتار. واستقر عليهما إتاوة يحملونها إلى الأرد وعاد الصاحب شمس الدين وطرنطاي ورفقتهما من عنده، فما وصلوا إلى الروم حتى دخله التتار، وكان بينهم وبين السلطان عز الدين ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار.

قال: ووصل الصاحب ورفقته إلى الروم

في سنة سبع وخمسين وستمائة، واستقرت القسمة بين الأخوين على ما قرره منكوقان، وانفرد كل منهما بما استقر له، وانضم إليه جماعة من الأمراء. ثم قدم هولاكو وملك بغداد، فاستدعاهما فسار إليه، وحضرا معه أخذ حلب، ثم عادا إلى بلادهما على القسمة التي قسمها منكوقان. فلما كان في سنة ستين وستمائة بعث هولاكو يستدعي شمس الدين يوتاش نائب السلطان عز الدين، فأرسله إليه فوصل إلى أرزنكان صحبة رسل هولاكو. فوافق وصولهم إليها عند غطاس النصارى، فخرجوا إلى الفرات بجمع كثير، ومعهم الجاثليق وقد رفعوا الصلبان على الرماح، وأعلنوا بالنواقيس والصياح، فأنكر عليهم شمس الدين، وقصد منعهم، فمنعه رسل هولاكو، وقالوا: «هذه بلاد السلطان ركن الدين فلا يحدث فيها» وسألوا الجاثليق: «كيف كان عادتكم في أيام السلطان غياث الدين؟» فقال: «كنا نحمل له ثلاثة آلاف درهم، ونعمل ما نختار» فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهم ومكنوه من عمل العيد كما أراد. فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هولاكو وشمس الدين، عاد مغضبًا ورجع إلى السلطان عز الدين، وحمله على المخالفة والعصيان، فوافقه على ذلك واستولى على أكثر بلاد أخيه ركن الدين. فتوجه ركن الدين إلى هولاكو واستنصر به، فبعث معه تومانا(٢) من

---

(١) أطلق المسلمون لقب أشكري على أمبراطور الروم. والمقصود هنا الأمبراطورية البيزنطية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨ ص٤٥.

(٢) التومان: الفرقة من الجيش التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٤٢٤.

Quatrimère: Hist des Sultans Mamlouks, II,2, P.152.

التتار، فكسرهم عز الدين. ثم استمدوا هولاكو، فأمدهم بتومان آخر فهرب عز الدين وفارق البلاد ودخل إلى الأشكري بالقسطنطينية، وصحبته أخواله، وهما على دين النصرانية، وثلاثة نفر من أمرائه. واستولى ركن الدين على جميع البلاد واستقل بملكها.

وأما عز الدين فإنه لما وصل إلى الأشكري أكرمه وأحسن إليه، فأقام عنده إلى سنة اثنتين وستين وستمائة، فقصد الأمراء الذين كانوا معه وهم عز الدين أمير آخر، وعلي بهادر، وأمير مجلس، أن يثبوا على الأشكري فيقتلوه، وأعلموا صاحبهم عز الدين بذلك. وقالوا له: «اكتمه عن خاليك» فلم يكتمه عنهما، وأعلمهما به، وأمرهما أن يعرفا الأشكري بذلك، وأنه لا يركب في اليوم الذي قصد الأمراء الفتك به فيه. فعرفاه، فقبض على الأمراء وكحلهم، وقبض على السلطان عز الدين واعتقله بقلعة من القلاع الغربية، فأقام بها إلى سنة ثمان وستين وستمائة. وجمع الأشكري أصحاب الأمراء وأتباعهم، وعرض عليهم الدخول في دينه. فمن وافق تركه، ومن أبى كحله. فمنهم من وافق وتنصّر، ومنهم من امتنع فكحل، وعرض على رجل منهم أن يتنصر فصاح وقال: «الجنة معدة للإسلام، والنار معدة لكم» فقال: هذا رجل ثابت على دينه وأطلقه، وكتب له ورقة للطريق.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة خلص السلطان عز الدين وأهله من الاعتقال، وسبب ذلك أن منكوتمر بن طغان جهز عسكر إلى أسطنبول، فأغاروا عليها، وأخذوا عز الدين من القلعة التي كان بها، وأحضروه إلى منكوتمر، فأكرمه وأحسن إليه وأقام ببلاده قرم، وتزوج بها، واستمر إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين وستمائة.

ذكر قتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو

وفي سنة ست وستين وستمائة دبر البرواناه على السلطان ركن الدين، واتفق مع التتار الذين عنده على قتله ليتمكن من البلاد. فعمل وليمة واجتمع فيها التتار، واستدعوا السلطان فحضر إليهم وأكل وشرب، فقاموا إليه وخنقوه بوتر، فمات، واستقر في الملك بعده ولده السلطان غياث الدين كيخسرو، وله من العمر أربع سنين، واستولى البرواناه على الحكم في المملكة الرومية، والله أعلم.

ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان[١] وأصله وتنقله

أما أصله فمن الديلم[٢]. وكان والده مهذب الدين علي. حضر وهو شاب في أيام السلطان علاء الدين كيقباذ إلى سعد الدين المستوفي بالروم، وهو إذ ذاك نافذ الحكم، فسأله أن يجري عليه جاريًا في بعض المدارس، يكون درهمًا في اليوم، يقتات به. وكان شابًا جميلاً وسيمًا من طلبة العلم، فمال إليه المستوفي فقال: «أريد أن أتخذك ولدًا» وأخذه وقرّبه وأدناه وأحسن إليه، وزوّجه بابنته. ثم اتفقت وفاة المستوفي، فوصف مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالكفاية والمعرفة والفضيلة، فقرّبه منه، وترشح للوزارة واستوزره وألقى إليه مقاليد الدولة، ورزق مهذب الدين ولده معين الدين سليمان المسمى بالبرواناه.

وتقدم معين الدين في الدولة السلجقية إلى أن استولى على الحل والعقد. ولم يكن للسلطان غياث الدين كيخسرو هذا معه في السلطنة غير الاسم. ومعين الدين هذا هو والد الأمير علاء الدين علي بن البرواناه، أحد أمراء الدولة الناصرية. وولي القاهرة، ثم ولي نيابة دار العدل الشريف، وتقدم على الجيوش. قال: واستمر غياث الدين كيخسرو في اسم السلطنة بالروم إلى أيام السلطان أحمد[٣] في سنة إحدى

(١) هو سليمان بن علي الصاحب معين الدين، البرواناه كان أبوه مهذب الدين علي بن محمد أعجميًا سكن الروم. قتل سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج٢، ص٧١. أخباره في: السلوك للمقريزي ج١، ص٦٢١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٥، ص٣١٢، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج٥، ص٣٦١.

(٢) الديلم: جيل سموا باسم أرضهم، والديلم في الإقليم الرابع: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٤٤.

(٣) هو تكودار بن هولاكوخان. تولى عرش المغول في إيران سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م أعلن إسلامه بعد اتصاله بالمسلمين وكان مسيحيًا. ولقب بالسلطان أحمد بعد إسلامه فكان بذلك أول ايلخاني المغول الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في إيران وقد ترتب على إسلام تكوداران خلا الديوان المغولي من المسيحيين واليهود وحولت المعابد البوذية والكنائس إلى مساجد، وأجبر كثير من المسيحيين على اعتناق الإسلام. وقام جماعة من المتمسكين بدينهم المسيحي وناصبوه العداء وجهروا بالثورة عليه ومنهم أرغون.

ونشبت الحرب بينهم وبين السلطان وانتهت بهزيمة تكودار وقتله في ليلة الخميس ٢٦ من جمادى الأولى سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وبموته عادت قوانين جنكزخان وتقاليد المغول لتحل محل الشريعة الإسلامية. رشيد الدين الهمذاني: مؤرخ المغول ص٦٠ ـ ٦١.

وثمانين وستمائة، فاستدعاه إلى الأرد، وعزله عن السلطنة، ورسم له بالإقامة بأرزنكان، فأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين وستمائة. فدسّ عليه أرغون بن أبغا من خنقه بوتر فمات.

ولما عزل غياث الدين فوّض السلطان أحمد السلطنة في الروم إلى السلطان مسعود ابن السلطان غياث الدين كيكاوش ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباذ ابن السلطان غياث الدين كيخسرو ابن السلطان عز الدين قلج أرسلان ابن الملك مسعود ابن الملك قلج أرسلان ابن الملك سليمان ابن الملك شهاب الدولة قتلمش بن رسلان بيغو بن سلجق ملك المملكة الرومية، بعد عزل غياث الدين كيخسرو ابن ركن الدين قلج أرسلان في أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستمر وليس له من الأمر شيء إلا اسم السلطنة خاصة، والحكم في المملكة الرومية للتتار وشحانهم (جمع شحنة).

هذا آخر ما اتصل إلينا من أخبارهم إلى حين وضعنا هذا التأليف في سنة أربع عشرة وسبعمائة. فلنذكر أخبار الدولة الأتابكية، لأنها من فروع الدولة السلجقية، وبتمامها يتم هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الدولة الأتابكية(١)

وهذه الدولة من فروع الدولة السلجقية كان ابتداؤها أولاً بحلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انقطعت بقتل أقسنقر مدة ثم قامت بالموصل وحلب والشام وبمصر خطبة. وقاعدة هذه الدولة وعمادها المشار إليه من ملوكها نور الدين محمود بن زنكي. ونحن نذكر أصل هذا البيت الأتابكي ونقله إلى أن ملك نور الدين الشهيد وما انتهى إليه حال هذه الدولة إلى حين انقراضها، فنقول أصل البيت الأتابكي أقسنقر التركي.

---

(١) وتسمى هذه الأتابكية أيضًا: دولة بني زنكي، وحكم الأسرة الأتابكية بدأ في سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م لأن عماد الدين زنكي تقلد في هذه السنة حكم بعض البلاد ومنها الموصل والجزيرة ونصيبين واعتبر زامباور (ص٢٢٦) سنة ٥١٦هـ بداية حكم هذه الأسرة حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينة واسط. الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام ج٤، ص٦٦.

ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركي[(١)]

كان تركيًا من أصحاب السلطان ركن الدولة ملكشاه[(٢)] السلجقي، وتربى معه من صغره وهو من أترابه، واستمر في صحبته حتى أفضت إليه السلطنة، فكان من أعيان أمرائه، واعتمد عليه في مهماته وزاد في علو مرتبته، فصار الوزير نظام الملك مع عظم شأنه وجلالة قدره، يتقيه ويداريه. ومما يدل على مكانته وعلو شأنه كونه لقب قسيم الدولة مع صون الألقاب والمشاححة فيها في ذلك الوقت.

ولما ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب كما ذكرناه في أخباره سلمها لقسيم الدولة في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة ثمانين، فعمرها وأحسن السيرة فيها فمال الناس إليه وأحبوه، ثم تسلم من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر، اللاذقية وأفامية[(٣)] وكفر طاب[(٤)]، فأشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه أن يسلم ذلك إلى قسيم الدولة مع حماه ومنبج، فأقطعه السلطان جميع ذلك، فعظمت هيبته، وظهرت كفايته، وقمع أهل الفساد والبغي. ثم استدعاه السلطان إلى العراق فقدم متجملاً بعسكر عظيم، فاستحسن ذلك منه وعظمه وأعاده إلى أعماله. وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة قصد أقسنقر شيزر ونهبها وعاد إلى

(١) هو أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب، وهو والد عماد الدين زنكي. وهو جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤١، رقم ١٠٢.
أخباره في: التاريخ الباهر لابن الأثير، ص٤ ـ ١٥، والكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٣٢، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٦٧، وزبدة الحلب لابن العديم، ج٢، ص١٠٣.
في زبدة الحلب، ج٢، ص١٠٣ اسم أبيه النعمان، وفي الحاشية رقم (٤) آل ترعان وأنه من قبيلة ساب يو. في ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤١، كان مملوكًا للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان. في ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١١، إن قسيم الدولة كان مملوكًا للسلطان ألب أرسلان السلجوقي فربي مع ولده السلطان ملكشاه.

(٢) لم يلقب أحد من المؤرخين السلطان ملكشاه بلقب ركن الدين سوى ابن الأثير وإنما لقبه جلال الدين، والسلطان السلجوقي الملقب بركن الدين هو بركياروق بن ملكشاه. انظر تاريخ دولة آل سلجوق لزامباور ص٥٢ ـ ٧٤، والتاريخ الباهر لابن الأثير ص٦.

(٣) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص ويسميها البعض فامية بغير همزة وقيل: اللاذقية وسلوقية وأفامية وبارّوا وهي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٢٧.

(٤) كفرطاب: بلدة بين المعرّة ومدينة حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٠.

حلب. وفي سنة ثلاث وثمانين حاصر مدينة حمص وملكها، فسار صاحبها ملاعب إلى الديار المصرية.

وفي سنة أربع وثمانين ملك حصن أفامية والرحبة. واستمر قسيم الدولة كذلك إلى أن مات السلطان ملكشاه في سنة خمس وثمانين، فجهز عند ذلك جيشًا إلى تكريت فملكها. واتفق أن تاج الدولة تتش صاحب دمشق طمع بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه في السلطنة، فسار من دمشق إلى حلب، فلم يمكن قسيم الدولة إلا موافقته والدخول في طاعته. وكان من أمر تتش ما قدمناه في أخباره، وفارقه قسيم الدولة والتحق بالسلطان بركياروق ولد صاحبه السلطان ملك شاه كما قدمنا ذكر ذلك مبينًا.

ذكر قتل قسيم الدولة[(١)]

قال: ولما فارق قسيم الدولة تتش واستمر في خدمة السلطان بركياروق وعاد تتش إلى الشام، أمر بركياروق قسيم الدولة وبوزان[(٢)] صاحب حوران بالعود إلى بلادهما ليمنعا تتش من التغلب عليها، فعادا، وجمع تتش العساكر وسار نحو حلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدهما السلطان بركياروق بالأمير كربوقا[(٣)] صاحب الموصل. فالتقوا مع تُتُش بالقرب من تل السلطان على ستة فراسخ من مدينة حلب. فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرًا، فقتله تُتُش صبرًا، ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاج الدولة تتش وفتحها وأخذهما، فقتل بوزان واعتقل كربوقا، فلم يزل إلى أن خلص في أيام الملك رضوان بعد قتل تتش. وكان مقتل قسيم الدولة في[(٤)] سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وكان رحمه الله حسن السيرة والسياسة كثير الإحسان إلى رعيته فكانوا في أيامه بين عدل غامر ورخص شامل وأمن واسع، رحمه الله تعالى.

---

(١) «دفنه ولده أتابك زنكي بالمدرسة الزجاجية داخل حلب» ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، ص٣٨٠ «توفي الأمير آق سنقر ولم يكن له ولد غير زنكي» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص١٣٨.

(٢) صلة قسيم الدولة ببوزان صلة قديمة، فقد كان كل منهما من مماليك السلطان ملكشاه، ابن خلكان، ج١، ص٢٤١. ولقب بوزان عند ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١٩، مجاهد الدولة.

(٣) كربوقا: جاء رسمه كربوغا في التاريخ الباهر لابن الأثير ص١٥، والرسمان كربوقا وكربوغا مستعملان عند المؤرخين القدامى.

(٤) «في جمادى الأولى» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج١، ص٢٤١.

ذكر أخبار عماد الدين[١] أتابك زنكي ابن قسيم الدولة أقسنقر[٢]

قال المؤرخون: لما قتل قسيم الدولة كان عُمْر ولده زنكي نحو عشر سنين، ولم يخلف من الذرية غيره، فاجتمع مماليك والده عليه وأصحابه. فلما خلص قوام الدين كربوقا من السجن، بعد قتل تتش في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وملك حران ونصيبين والموصل[٣] وماردين، وعظم شأنه وهو في طاعة السلطان بركياروق، أحضر مماليك قسيم الدولة، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي، وقال: «هو ابن أخي، وأنا أولى الناس بتربيته» فأحضروه إليه، وأقطعهم كربوقا الإقطاعات السنية واستعان بهم في حروبه، وسار بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، والتقوا فهزمهم كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده. ولم يزل عند كربوقا إلى أن توفي كربوقا[٤] في سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملك بعده موسى التركماني[٥]، فقتل ولم تطل مدته. ثم ملك الموصل شمس الدولة جكرمش[٦]، وهو من مماليك السلطان ملكشاه، فاتخذ عماد الدين زنكي كالولد، فكان عنده إلى أن قتل في سنة خمسمائة. ثم ملك الموصل بعده جاولي سقاور[٧]، فاتصل به عماد الدين، وقد كبر وظهرت شهامته. ولم يزل معه حتى عصى على السلطان غياث الدين

---

(١) بالأصل «ذكر حال ولده عماد الدين» وقد حذف المحقق اللفظ «ولده» لعدم ضرورته في العنوان. ابن الأثير: الباهر، ص١٥.

(٢) أخبار عماد الدين زنكي في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج٢، ص٣٢٧ رقم ٢٤٥، والكامل لابن الأثير، ج١٠ (صفحات متفرقة) ٦٤٩، ٦٥٨، ٦٦٢، ٦٦٤، ٦٧٨، ١١٠، تاريخ الإسلام: د. حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٦٨ ـ ٧٦، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ١٥ ـ ٤٩، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٠، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٥٠.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٥٨ أن كربوقا ملكها في ذي القعدة سنة ٤٨٩هـ.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٣٤١ أن كربوقا توفي في ذي القعدة سنة ٤٩٥هـ.

(٥) كان موسى التركماني نائبًا عن كربوقا بحصن كيفا، فلما مات كربوقا كاتبه أعيان الموصل ليسلموا البلد، فسار إليها وقتل سنقرجة الذي عهد إليه كربوقا عند وفاته، وتسلم البلد. وقد قُتل موسى في السنة نفسها أي ٤٩٥هـ. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٤١.

(٦) بالأصل الجكرمش. انظر الباهر لابن الأثير ص١٦.
كان جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر فقاتل موسى التركماني وهزمه واستولى على الموصل بعد أن قتل موسى بيد بعض الغلمان القوامية. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٤٢.

(٧) ملك جاولي الموصل من سنة ٥٠٠ إلى ٥٠٢هـ. ابن الأثير التاريخ الباهر، ص١٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٠، والأعلام للزركلي، ج٣، ص٥٠.

محمد بن ملكشاه، فأرسل السلطان الأمير مودود إلى الموصل، في سنة اثنتين وخمسمائة، وأقطعه إياها، ففارقه عماد الدين وغيره من الأمراء، والتحقوا بمودود، فأكرم زنكي وشهد حروبه. ثم سار مودود إلى الشام ففتح في طريقه قلاعًا كانت للفرنج، ثم حضر عند أتابك طغرلتكين [طغتكين][١] صاحب دمشق وسار إلى طبرية وحاصرها، وقاتلوا قتالاً شديدًا، فظهر من عماد الدين زنكي شجاعة عظيمة، منها أنه كان في نفر وخرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه فهزمهم، واستمر في حملته وهو يظن أن أصحابه يتبعونه، فتخلفوا عنه وتقدم وحده إلى أن وصل إلى باب المدينة، وأثر رمحه فيه. وقاتل الفرنج عليه وحمى نفسه، وعاد سالمًا، فعجب الناس من إقدامه وسلامته. ثم عاد إلى دمشق صحبة الأمير مودود، فخرج مودود لصلاة الجمعة، فلما صلّى وانصرف، فبينما هو في صحن الجامع ويده بيد طغرلتكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين، فحمل إلى بيت طغرلتكين فمات في بقية يومه[٢]، وكان صائمًا ولم يفطر، وقتل قاتله. قال: ولما قتل كتب ملك الفرنج إلى طغرلتكين يقول:

«إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، حقيق على الله أن يبيدها» ثم أقطع السلطان الموصل وغيرها بعد قتل مودود للأمير جيوش بك، وسيّر معه ولده الملك مسعود، كما ذكرناه. ثم جهز السلطان أقسنقر البرسقي في العساكر لقتال الفرنج، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي. وكان يعرف في عساكر العجم زنكي الشامي[٣]، فسار أقسنقر إلى الرها[٤] وإلى سُمَيْساط[٥] وبلد سَرُوج، وقاتل الفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف بلاءً حسنًا. فعادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي وأقام زنكي بالموصل مع

(١) هو ظهير الدين طغدكين كان من أمراء تاج الدين تُتُش السلجوقي صاحب دمشق وزوّجهُ تتش بأم ولده دقاق ثم صار أتابكًا لدقاق ولما مرض دقاق أوصى بولاية طغدكين على دمشق وحضانة ابنه الصغير تتش الثاني، وتوفي طغدكين سنة ٥٢٢هـ. انظر مرآة الزمان لابن الجوزي ج٨، ص١١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص٦٥، ويرسم ابن الأثير طغتكين، الكامل ج١٠، ص٣٩٩، والرسم طغدكين مستعمل أيضًا في الباهر، ص١٧.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٤٩٧.

(٣) عرف عماد الدين زنكي بذلك تمييزًا له عن زنكي بن برسق صاحب همذان. انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٥٠١.

(٤) فسار آقسنقر إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس فحصرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن فرحل إلى سُمَيْساط. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٥٠١، وابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص١٩.

(٥) سُمَيْساط: بضم أوله وفتح ثانيه: مدينة على الشاطىء الغربي للفرات في طرف بلاد الروم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٥٨.

الملك مسعود، والأمير جيوش بك، إلى أن أظهر العصيان على السلطان في سنة أربع عشرة وخمسمائة، ثم استأمن الملك مسعود لأخيه السلطان على ما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة السلجقية.

ذكر ابتداء حال عماد الدين زنكي وترقِّيه وتنقله في الولايات

كان ابتداء ولايته في سنة ست عشرة وخمسمائة، وذلك أن السلطان محمود أقطع الأمير أقسنقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافًا إلى ما بيده من ولاية الموصل وشحنكية العراق وغير ذلك. فسيّر البرسقي إليها عماد الدين زنكي وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان وقام بحمايتها أحسن قيام، وحضر مع الخليفة المسترشد بالله قتال دُبَيْس بن صدقة أمير الحلة. وكان لعماد الدين في ذلك آثار حسنة، وأقام إلى أن عزل أقسنقر البرسقي عن شحنكية العراق ورجع إلى الموصل في سنة ثماني عشرة وخمسمائة. وكان عماد الدين إذ ذاك بالبصرة قد سيّره البرسقي لحمايتها، فلما توجه البرسقي إلى الموصل أرسل إليه يأمره باللحاق به، فقال لأصحابه: «قد ضجرنا مما نحن فيه بالموصل، في كل يوم أمير جديد، ونحتاج نخدمه، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان محمود فأكون معه»؛ فأشاروا عليه بذلك. فسار إلى السلطان محمود فقدم عليه وهو بأصفهان، فأكرمه. وكان يقف عن يمين تخت السلطان إلى جانبه لا يتقدم عليه غيره، وهي منزلة والده من قبله.

ثم بلغ السلطان محمود أن العرب تجمعت ونهبت البصرة، فأقطعها لعماد الدين زنكي، وأعاده إليها، وهذه الولاية هي أول ولاياته من قبل السلطان، فضبط عماد الدين زنكي البصرة وأعمالها وقام فيها أحسن قيام، وكفّ الأيدي عنها.

فلما وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله، وحضر السلطان إلى بغداد وحصرها كما قدمنا ذكر ذلك، أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسط يأمره بالحضور بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب. ففعل عماد الدين زنكي ذلك وجاء في موكب عظيم في البر والبحر، فركب السلطان للقائه، ورأى الناس من ذلك ما هالهم، وعظم عماد الدين في أعينهم. ثم حصل الاتفاق بعد ذلك بين السلطان والخليفة كما ذكرنا.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي شحنكية العراق[١]

وفي شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة أسند السلطان محمود شحنكية العراق إلى الأمير عماد الدين زنكي. وسبب ذلك أن السلطان لما عزم على المسير عن بغداد إلى همذان، نظر فيمن يصلح لشحنكية العراق ممن يأمن جانبه مع الخليفة. واعتبر أعيان دولته، فلم يرَ فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر مقامه، فاستشار أصحابه في ذلك فكل أشار عليه به [عماد الدين] وقالوا: «لا يقدر على سد هذا الخرق، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولا يقوى نفس حد على ركوب هذا الخطر، غير عماد الدين زنكي، ففوض إليه ولايتها، مضافًا إلى ما بيده من الإقطاع. وكانت شحنكية العراق من أعظم الولايات. وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن من جهة العراق. ولم يطل مقام زنكي ببغداد حتى انتقل إلى ولاية الموصل.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها[٢]

كانت ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. وسبب ذلك أن أقسنقر البرسقي لما قتل على ما ذكرناه، وولي بعده ابنه مسعود في ثامن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، فمات مسعود في سنة إحدى وعشرين وهو يحاصر الرحبة. فلما مات قام بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد جاولي مملوك أبيه، ودبر أمر الصبي وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير أعمال الموصل على الصغير ولد أقسنقر البرسقي، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك. وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد [الياغيسياني][٣] أمير حاجب البُرسقي، فسارا حتى حضرا دركاة السلطان ليخاطباه في ذلك. كانا يكرهان جاولي ويخافانه، ولا يرضيان بطاعته، فاجتمع صلاح الدين مع نصير الدين جغر[٤] الذي صار ينوب عن عماد الدين. فذكر له صلاح الدين ما ورد فيه، وكان بينهما صهارة. فخوّفه نصير الدين من جاولي، وقبّح عنده طاعته، وقرر في نفسه أن جاولي إنما أبقاه لحاجته إليه وأنه متى أجيب إلى مطلوبه لا يبقى على

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤١.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٣.
(٣) «الياغيثاني» في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج١٠، ص٦٥٠.
(٤) هكذا في الأصل: وفي الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٣، وعن مقتل جفر، انظر دولة آل سلجوق للبنداري ص١٨٧.

أحد منهم، وحسّن له المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي، وضمن له الولايات والإقطاعات الكبيرة وكذلك للقاضي بهاء الدين، فقاما وركبا إلى دار الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد، واجتمعا به وقالا له: «قد علمتَ وعلم السلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكّن الفرنج منهما، وقويت شوكتهم بها، واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية للمسلمين. وكان البرسقي بشجاعته وانقياد العساكر إليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، وقد زاد طمعهم منذ قتل، وولده هذا طفل صغير[١]، ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة، يذبّ عنها، ويحمي حوزتها. وقد أنهينا الحال لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا ويقال: لمَ لا أنهيتم إلينا جلية الحال»، فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فاستحسنه وشكرهما عليه، وأحضرهُما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه تقربًا إلى خزانة السلطان مالاً جليلاً، فأجاب السلطان إلى ولايته، فأحضره وولاه جميع تلك البلاد[٢]، وكتب منشورة[٣] بها، وسار عماد الدين زنكي إليها فبدأ بالبوازيج[٤] ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره، لأنه خاف من جاولي أنه ربما يصده عن البلاد. ثم سار عن البوازيج إلى الموصل، فلما سمع جاولي بقربه خرج إلى لقائه ومعه سائر العسكر، وترجل عند مقابلته، وقبّل الأرض بين يديه[٥]، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في شهر رمضان من السنة. وأقطع جاولي الرحبة وسيّره إليها، وولى نصير الدين دزداريّة قلعة الموصل وجعل إليه سائر دزدارية القلاع[٦]، وجعل صلاح الدين محمد أمير حاجب، وبهاء الدين علي الشهرزوري قاضي القضاة بجميع بلاده، وزاده إقطاعًا وأملاكًا، وكان لا يصدر إلا عن رأيه.

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمرو[٧] بها مماليك

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق للقلانسي ص٢٣٠ ـ ٢٣٣.

(٢) في ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص٣٣ أن السلطان محمدًا عهد إلى عماد الدين بتربية ابنه الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي فأخذه عماد الدين معه إلى الموصل ولقد أشار ابن الأثير في الكامل إلى ذلك في خبر مقتل نصير الدين جفر سنة ٥٣٩هـ.

(٣) انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ج٢، ص٣٢٧. ترجمة عماد الدين زنكي والمنشور كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا يحتاج إلى ختم: أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٨٤.

(٤) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١، ص٥٠٣.

(٥) الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٥. (٦) انظر الباهر لابن الأثير ص٣٥.

(٧) في الأصل جزيرة عمر بن الخطاب، الباهر ص٣٦.

البرسقي، فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة على التسليم، فلم يجيبوه إلى ذلك فجدّ في قتالهم[١] وكان بينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس بإلقاء أنفسهم في الماء، ففعلوا وعبروا سباحة وعبر بعضهم في السفن والأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة. وكانوا قد خرجوا إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تعرف بالزلاقة، ليمنعوا عسكر عماد الدين، فلما رأوه قد عبر دجلة انهزموا ودخلوا البلد، وأرسلوا في طلب الأمان، فأمنهم ودخل البلد بعسكره[٢]. ثم زادت دجلة في تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد، وصارت الزلاقة مملوءة بالماء، فلو أقام بها عماد الدين تلك الليلة هلك هو وعسكره ولم يسلم منهم أحد، فأيقن الناس بسعادته.

ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين، وكانت لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا[٣] فاستنجده على أتابك زنكي، فوعده النجدة بنفسه وجميع عسكره. وعاد تمرتاش إلى ماردين، وأرسل رقعة على جناح طائر إلى نصيبين، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه واصلانِ إليهم بالعسكر الكثير لدفع زنكي عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام. فبينما أتابك زنكي في خيمته وإذا بطائر سقط على الخيمة وهو ينظر إليه، فأمر بمسكه فمسك، فرأى فيه الرقعة فقرأها، وأمر بكتب غيرها يقول: «إنني مضيت إلى ركن الدولة وقد وعدني النصرة بجميع العساكر وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يومًا» وأمرهم بحفظ البلد هذه المدة، إلى أن يصلوا وجعلها على الطائر، وأرسله. فوصل إلى نصيبين فلما قرأ من بها الرقعة، سقط في أيديهم، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى زنكي وصالحوه وسلّموا إليه البلد، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزما عليه [وهذا من غريب ما يُسمع][٤].

ولما ملك نصيبين سار عنها إلى سنجار، فامتنع من بها عليه ثم صالحوه وسلموها إليه، وسيّر منها الشحن إلى الخابور فملكه جميعه. ثم سار إلى حران وهي

(١) في الأصل «فلم يجيبوا إلى ذلك جد في قتالهم» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٥.

(٢) انظر تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ص١٨٧.

(٣) كيفا في ياقوت ويقال كيبا وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. معجم البلدان ج٢ ص٢٦٥. انظر الباهر لابن الأثير ص٣٥.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٦.

للمسلمين. وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حران معهم في ضر عظيم، وضيق شديد، لخلو تلك البلاد من حامٍ يذب عنها [وسلطان يمنعها](١) فلما قاربها خرج أهل البلد إلى لقائه، وسلموها إليه، فأرسل إلى خوستكين(٢) صاحب الرها، وتلك البلاد وهادنه مدة يسيرة، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد، ويحشد، ويملك حلب والشام، ثم يقاتل الفرنج.

ذكر ملك عماد الدين حلب(٣)

وفي [أول](٤) المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ملك عماد الدين زنكي حلب(٥) وقلعتها. وسبب ذلك أنها كانت بيد قرمان(٦) نيابة عن عز الدين مسعود بن أقسنقر البرسقي. ثم استناب بعده قتلغ فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها. ثم ثار به أهل المدينة وسلموها إلى سليمان بن عبد الجبار. فسيّر عماد الدين إليها الأمير سنقردار والأمير حسن قراقوش في عسكر قوي، ومعهما التوقيع من السلطان لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام. فوصلا إلى حلب وسيرا قتلغ وابن عبد الجبار إلى عماد الدين بالموصل، فسار إليه وأقام حسن قراقوش بحلب واليًا عليها. فلما وصل بدر الدولة [سليمان] بن عبد الجبار وقتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردهما إلى حلب، وسيّر حاجبه صلاح الدين محمد الياغيسياني في عسكر إلى حلب، فصعد إلى قلعتها ورتب الأمور، وجعل فيها واليًا. وسار عماد الدين إلى الشام في جيوشه، فملك في طريقه مدينة منبج(٧) وبزاعة(٨)، ووصل إلى حلب، فتلقاه أهلها، فدخلها ورتب أحوالها، وجعل رئاستها لأبي الحسن علي بن عبد الرزاق.

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٧.
(٢) هو «جوسلين» ابن الأثير: الكامل ج١٠، ص٦٤٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٦٤٩.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٩.
(٥) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٧٠.
(٦) في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٤٩ «قومان».
(٧) «منبج» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥٠.
(٨) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بُطنان بين منبج وحلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٠٩.

ذكر ملكه مدينة حماه[١]

وفي سنة ثلاث وعشرين ملك عماد الدين زنكي مدينة حماة. وسبب ذلك أنه أظهر أنه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إليه تاج الملوك بوري بن أتابك طغرتكين صاحب دمشق يستنجده، ويطلب منه معونته على جهاد الفرنج، وكانوا قد حصروا دمشق. فأجاب إلى ذلك وجرّد تاج الملوك عسكرًا من دمشق، وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماه يأمره بالنزول إلى العسكر والمسير به إلى زنكي. ففعل وساروا جميعهم فوصلوا إليه، فأكرمهم وأحسن لقاءهم، وتركهم أيامًا، ثم قبض على سونج بن تاج الملوك، وعلى جماعة من الأمراء والمقدمين، ونهب خيامهم وما فيها واعتقلهم بحلب. وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند فاستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص. وكان صاحبها خيرخان بن قراجا في عسكر عماد الدين، وهو الذي أشار عليه بالقبض على تاج الملوك، فقبض عليه أيضًا. ونزل على حمص، وطلب منه أن يأمر أصحابه وولده بحمص بتسليمها، فأرسل إليهم فلم يفعلوا، فحصرها مدة طويلة، ثم رحل عنها وعاد إلى الموصل.

ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج[٢]

قال: ولما فرغ عماد الدين من أمر البلاد الشامية [حلب وأعمالها][٣] رجع إلى الموصل فأراح واستراح، وأمر أصحابه بالاستعداد فاستعدوا. ورجع إلى حلب وعزم على قصد حصن الأثارب وهو فيما بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان من به من الفرنج يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى على رحى لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. فلما علم الفرنج بقصده جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وساروا نحوه، فتقدم إليهم والتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وأسر كثير من فرسانهم، وقتل كثير، وتقدم إلى الحصن فنازله وفتحه عنوة، وعمّ من فيه بالقتل والأسر وأخربه، وجعله دكًا. ثم سار إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكية فحصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين وصار قصار الفرنج حفظ ما بأيديهم، وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٥٨، والباهر لابن الأثير، ص٣٨.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٦٢.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٦٦٢.

ولما عاد إلى ديار الجزيرة ملك سرجا[١] ودارا[٢] وهما من أعمال ركن الدولة صاحب حصن كيفا[٣].

وفي سنة ست وعشرين سار عماد الدين بالعساكر من الموصل إلى العراق لنصرة السلطان مسعود بعد وفاة السلطان محمود. وكان مسعود قد كاتبه واستنجد به، فسار إليه ومعه الأمير دُبَيْس بن صدقة فسار حتى نزل إلى البادية. وخرج الخليفة المسترشد بالله[٤] لحربه ـ وذلك في سابع عشرين شهر رجب من السنة ـ والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فهزمها، فحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم دُبَيْس، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم، وقتل من العسكر جماعة.

ثم سار المسترشد وحاصر الموصل كما ذكرناه في أخباره. وأن سبب ذلك أن الخليفة أرسل الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الإسفرايني الواعظ إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة، زادها الشيخ [أبو الفتوح] زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين وأهانه ولقبه بما يكره. فسار الخليفة في النصف من شعبان سنة سبع وعشرين ونازل الموصل، ففارقها زنكي ببعض العسكر، وترك بعضه مع نائبه نصير الدين جقز دزدار القلعة. ووصل عماد الدين إلى سنجار وقطع الميرة عن عسكر الخليفة وتخطف من ظفر به من العسكر. وقام الحصار ثلاثة أشهر، ثم رحل الخليفة عنها ولم يظفر منها بشيء.

وفي مدة الحصار ملك شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة.

ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور[٥]

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع عماد الدين أتابك زنكي

---

(١) سرجة: حصن قرب دارا. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣، ص٢٠.

(٢) دارا: هي بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردي. ياقوت الحموي: المصدر السابق ج٢، ص٤١٨.

(٣) كيفا: هي بلدة مشرفة على دجلة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٥.

(٤) هو الفضل المسترشد بالله بن أحمد المستظهر بالله بن المقتدي عبد الله بن محمد الهاشمي العباسي أبو منصور من خلفاء الدولة العباسية. توفي سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٥٠.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣، والباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص٤٨.

وتمرتاش صاحب ماردين، وحصرا مدينة آمد. فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمِد ليرْحَلَهُما عنها، فالتقوا على بابها، واقتتلوا في جمادى الآخرة. فانهزم داود وقتل جماعة من عسكره. ولم يبلغ عماد الدين من آمد غرضًا، فقصد قلعة الصور[١] من ديار بكر، وحصرها وضايقها، فملكها في شهر رجب[٢] واتصل به ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي[٣] فاستوزره، وكان حسن السيرة عظيم الرياسة والكفاية، والله أعلم.

ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية[٤]

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة أيضًا استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش[٥] وغيرهما. وكان لما ملك الموصل أقرّ صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها، فلما حضر المسترشد الموصل حضر عيسى إليه وجميع الأكراد معه. فلما رحل المسترشد أمر عماد الدين بحصر قلاع الأكراد فحصرت مدة طويلة، وقوتل من بها إلى أن ملكت في هذه السنة، فاطمأن حينئذ أهل السواد المجاورين لهذه القلاع، لأنهم كانوا مع الأكراد في ضيق عظيم من نهب أموالهم.

وفيها صلح أمر زنكي مع الخليفة.

---

(١) الصور: بفتح الصاد وسكون الواو، قلعة حصينة على رأس جبل قرب ماردين. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣، ص٤٣٤.

(٢) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣، إن حصار آمد كان في جمادى الآخرة من السنة. وفي الباهر لابن الأثير: «ولما عجز عماد الدين عنها استولى على قلعة صور» ص٤٨.

(٣) نسبة إلى كفرتوثا، وهي في ياقوت قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ. معجم البلدان، ج٤، ص٤٦٨.

(٤) انظر التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص٤٨.

(٥) العقر: بفتح العين وسكون القاف، قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد، وهي في شرقي الموصل وتعرف بعقر الحميدية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٣٦.

الشوش: قلعة عظيمة عالية جدًا قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قيل هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها في القدر دونها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٢.

ذكر حصره مدينة دمشق[(١)]

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة نازل عماد الدين أتابك زنكي مدينة دمشق[(٢)]، وحصرها في جمادى الأولى. وكان سبب ذلك أن صاحبها شمس الملوك[(٣)] كان قد كتب إليه يستدعيه ليسلم إليه البلد، فسار إليها، فقتل شمس الملوك قبل وصوله وملك أخوه شهاب الدين محمود كما ذكرناه. فاستمر في مسيره فحاصرها. فأتاه وهو في الحصار رسول الخليفة بالخلع، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق والرحيل عنها فصالحهم، وخطب له بدمشق ورحل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة استنصر الخليفة الراشد بالله بعماد الدين على السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية فجاء إليه هو وأصحاب الأطراف إلى بغداد. وكان بين الخليفة والسلطان ما ذكرناه من غلبة السلطان مسعود ومسير الخليفة إلى الموصل مع عماد الدين، وقد شرحنا ذلك مبينًا في أخبار الدولة العباسية، فلا فائدة في إعادته، وإنما نبهنا عليه في هذا الموضع جريًا على القاعدة.

ولما خلع الراشد وبويع للمقتفي[(٤)] لأمر الله، أرسل إليه عماد الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، فحضر إلى الديوان، فأمر الخليفة أن يعطي أتابك زنكي صريفين[(٥)] ودرب هارون وجَرّى ملكًا، وهي من خاص الخليفة، وزاد في ألقابه

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٢١.

(٢) في المنتظم ج١٠، ص٤٣، إنه لما حاصر عماد الدين دمشق بعث أصحابها إلى الخليفة حملاً كثيرًا وخطا بخمسين ألف دينار وقالوا: ادفع عنا زنكي ونحن نحمل هذا في كل عام، فبعث إليه: تنحّ عنهم واخطب للصبي (أي للملك ألب أرسلان الذي يشرف عماد الدين على تربيته) وتعال معه إلى العراق حتى أخطب له ونتساعد على مسعود، فقال: السمع والطاعة، وخطب للصبي. ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص٤٨.

(٣) «توفي شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك بوري ابن الأتابك ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق. كانت ساءت سيرته وصادر الناس وأخذ أموالهم وسفك الدماء وظهر منه شح زائد». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٤٩. انظر أيضًا شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٤، ص٩٠.

(٤) في الأصل «للمتقي لأمر الله» والصواب المقتفي لأمر الله. زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص٤.

(٥) صريفون أو صريفين: بفتح أوله وكسر ثانيه: اسم لأكثر من قرية بالعراق أشهرها على ضفة نهر دجيل قرب عكبراء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٠٢.

وقال: «هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب من خاص الخليفة» فعظم بذلك شأنه، وبايع للمقتفي لأمر الله وخطب له بالموصل.

ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج(١)

وفي شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة جهز عماد الدين أتابك زنكي عساكره مع الأمير أسوار نائبه بحلب، فقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا نحو جهة اللاذقية، فنهبوا منها شيئًا كثيرًا، وقتلوا وأسروا سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، وغنموا مائة ألف رأس من الدواب، ما بين فرس وحمار وبقر وغنم، وغنموا غير ذلك من الأقمشة والعين والحلي ما لا يدخل تحت الإحصاء وخربوا بلاد اللاذقية وما جاورها، ورجعوا بالظفر والغنيمة، والله أعلم.

ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة حصر عماد الدين زنكي حمص، وهي لصاحب دمشق، فلم ينل منها غرضًا. فرحل عنها إلى بعرين(٢) وهي للفرنج، فحاصرها في شوال، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، وزحف عليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا بملوكهم وقمامصتهم وكنودهم(٣) ليرحلوه عنها. فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه، فحصرهم. فدخل القسوس والرهبان إلى بلاد الفرنج والروم وما ولاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين، وقالوا: «إن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس» فاجتمعت ملوك النصرانية وصاروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام، وجدّ عماد الدين في الحصار، فقلّت الأقوات عندهم، فسألوا الأمان على أن يتركهم يتوجهوا إلى بلادهم. فلم يجب إلى ذلك، إلى أن بلغه أن ملك الروم قد أقبل بجموع الفرنج والنصرانية، فآمنهم على تسليم الحصن وخمسين ألف دينار. ففعلوا ذلك. فلما فارقوا الحصن

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٠.

(٢) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٥١ وابن القلانسي ص٢٥٩ أن استيلاء عماد الدين على بعرين كان سنة ٥٣١هـ. وبعرين في ياقوت الحموي: بليد بين حمص والساحل هكذا تتلفظ به العامة، وهو خطأ وإنما هو بارين. معجم البلدان، ج١، ص٤٥٢.

(٣) كنود: جمع كوند وهو الكونت أي أمير. انظر ابن منظور لسان العرب، مادة كند ج٣، ص٣٨٢.

بلغهم اجتماع الروم والفرنج بسببهم، فندموا على تسليمه وفتح عماد الدين في مقامه المعرة وكفرطاب من الفرنج.

ولما فتح المعرة حضر إليه أهلها أرباب الأملاك، وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فاعتذروا أنها عدمت عندما ملكها الفرنج، فأمر بإحضار دفاتر الديوان بحلب، وكشف منها فمن وجد باسمه خراج فيها عن ملك سلمه إليه أو لعقبه إن كان قد مات. وأعاد الأملاك بهذه الطريق. وهذه غاية في الإحسان وفي تسهيل البر والخير ونهاية في العدل.

وفيها سار [عماد الدين] إلى دقوقا وملكها بعد قتال شديد.

ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق(١)

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل زنكي إلى حماة، وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل(٢) وسار إلى حمص وحصرها وملكها وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وكان لصاحب دمشق، وبعث إلى شهاب الدين محمود صاحب دمشق يخطب أمه زمرد خاتون ابنة جاولي، فتزوجها وحملت إليه.

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بُزاعة(٣) وما فعله بالمسلمين(٤)

كان ملك الروم صاحب القسطنطينية قد دخل إلى البلاد في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وخرج على أنطاكية وسار إلى أذنة والمصيصة(٥)، وهما بيد ابن لاون

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٥.

(٢) المقصود هنا مجدليابة، وهي قرية الرملة فيها حصن محكم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٥٧.

(٣) بُزاعة: بين منبج وحلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٠٨.

(٤) في ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٥٦ «وصل ملك الروم إلى الشام وخافه الناس خوفًا عظيمًا».

(٥) أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٣٣.
والمصيصة: بالفتح ثم الكسر، مدينة على شاطىء جيحان بين أنطاكية وبلاد الروم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٤٤.

الأرمني[١] صاحب الدروب[٢] فحصرها وملكها ورحل إلى عين زَربة[٣] فملكها عنوة، وملك تل حمدون وحمل أهله إلى جزيرة قبرص، وعمر ميناء إسكندرونة ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة فصالحه صاحبها ريمند الفرنجي[٤]، فرحل عنها إلى بَغْراس[٥] ودخل ابن ليون في طاعته.

ثم سار إلى الشام في سنة اثنتين وثلاثين وقصد بزاعة فحصرها وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب، فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى فتنصر قاضيها وجماعة من أهلها وأعيانها نحو من أربعمائة نفس. وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى، ودخنوا على من دخل المغاير، فهلكوا. ثم رحل [ملك الروم] إلى حلب ونزل على قُوَيق[٦] ومعه الفرنج الذين بساحل الشام، وكان عماد الدين يحاصر حمص فلما بلغه خبرهم، سيّر طائفة من العسكر ليحفظوا حلب منهم، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم أحداث البلد وقاتلوهم قتالاً شديدًا، فقتل كثير من الروم وجرح كثير، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم. فأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى قلعة الأثارِب[٧]، فخاف من بها من المسلمين فهربوا عنها في تاسع شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى، ومعهم جمع كثير من الروم يحفظونهم، وساروا. فلما سمع الأمير سوار نائب عماد الدين بحلب بذلك، سار بمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بالروم وقتلهم وخلّص الأسرى وعاد إلى حلب.

---

(١) المقصود الأمبراطور حنا الثاني كومين أمبراطور الدولة البيزنطية. واسم ابن لاون لقب اعتاد المؤرخون المسلمون إطلاقه على أمراء أرمينيا الصغرى وملوكها. والمراد الأمير ليون الأول الأرمني. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ص٥٨٣.

(٢) الدروب: جمع الدرب. وهو الطريق الذي يسلك. وهنا الموضع الواقع في جنوب شرقي آسيا الصغرى وبه ممرات ومسالك تؤدي إلى بلاد الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٤٧.

(٣) عين زربى أو زربة: بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة، وهو بلد من نواحي المصيصة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٧٧.

(٤) هو ريموند دي بواتيه. انظر الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور ص٥٨٣.

(٥) مدينة قريبة من أنطاكية تبعد عنها مسافة أربعة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٦٧.

(٦) قُويق: بضم أوله وفتح ثانيه، نهر مدينة حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤١٧.

(٧) الأثارب: وهي قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٨٩.

وأما عماد الدين فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية[١] فنزلها، وعبر ثقله الفرات إلى الرقة، وأقام جريدة. وقصد الروم شيزر، وهي من أمنع الحصون وكانت للأمير أبي المعالي سلطان بن علي بن منقذ الكناني، فنازلوها وحاصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقًا فأرسل صاحبها إلى عماد الدين يستنجده، فسار إليه ونزل على نهر العاصي بينها وبين حماه، فكان يركب بعسكره إلى شيزر ويقفون حيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم. ثم أرسل إلى ملك الروم يقول: «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها». ولم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بقتاله وهوّنوا عليه أمره، فلم يفعل، وقال: «أتظنون أن ليس لهم من العسكر إلا ما ترون، إنما هو يريد أن تلقوه فيأتيه من نجدات المسلمين ما لا يحد»[٢] وكان عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يقول إن فرنج الشام خائفون منه، ولو فارق مكانه لتخلفوا عنه. ويرسل إلى الفرنج فيقول: «إن ملَكَ ملِك الروم من الشام حصنًا واحدًا ملك بلادكم جميعها»[٣]. فاستشعرت كل طائفة من الأخرى. فرحل ملك الروم من شيزر في شهر رمضان وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يومًا وترك المجانيق وآلات الحصار كما هي، فسار عماد الدين يتبع ساقة العسكر، فظفر بكثير منهم ممن تخلف.

ذكر ملك عماد الدين بعلبك[٤]

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين زنكي مدينة بعلبك وهي لصاحب دمشق. وسبب ذلك أن شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله غلمانه في هذه السنة كما ذكرنا، وملك بعده أخوه جمال الدين محمد. وكانت والدة محمود زوجة عماد الدين بحلب، فوجدت لذلك وجدًا عظيمًا وحزنت حزنًا شديدًا وكتبت إلى أتابك زنكي وهو بالجزيرة تعرفه بالحادثة وتطلب أن يقصد دمشق ويطلب ثأر ولدها. فبادر إلى ذلك ولم يتوقف وعبر الفرات عزمًا على قصد دمشق. فبلغ ذلك صاحبها فاحتاط واستعد، وسار عماد الدين إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه وسكون الميم: بليدة من أعمال حماه، كانت تعد من أعمال حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٤٠.
(٢) الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٥٧.
(٣) انظر تفاصيل ذلك في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٥٨.
(٤) الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٦٨.

من ذي القعدة، وضيّق على أهلها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقًا ترمي ليلاً ونهارًا. فأشرف أهلها على الهلاك، فطلبوا الأمان فأمّنهم وتسلّم المدينة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فلما أيسوا من نصرة معين الدين أتابك صاحب دمشق ـ وكانت بعلبك له ـ فطلبوا الأمان، فأمّنهم وتسلم القلعة منهم. ثم غدر بهم وصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل. فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وحذروه ونفروا منه.

قال: ولما فتح بعلبك كان لمعين الدين بها جارية وكان يهواها، فأخذها زنكي وسيّرها إلى حلب، فلم تزل بها إلى أن قتل زنكي، فسيّرها نور الدين إلى معين الدين، فكانت أعظم أسباب المودة بينهما. قال:

ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ونزل على داريا[1]، فقاتله أهل دمشق فكسرهم وتقدم إلى المصلى[2] فقاتلوه مرة بعد أخرى. كل ذلك والظفر له عليهم. وأرسل إلى صاحب دمشق يبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختاره من البلاد، فمال إلى تسليمها، فحذره أصحابه وخوّفوه عاقبة غدره، فامتنع من الإجابة فعاد عماد الدين القتال والزحف. واتفقت وفاة جمال الدين صاحب دمشق في ثامن شعبان، وولي بعده ابنه مجير الدين أبق، فاشتد طمع عماد الدين وزحف زحفًا شديدًا، فلما رأى أتابك أنر أن عماد الدين لا يندفع عنهم، راسل الفرنج واستنصر بهم، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير لدفعه عن دمشق، فعلم عماد الدين بذلك فتوجه إلى حوران في خامس[3] عشر رمضان عازمًا على لقاء الفرنج قبل أن يجتمعوا مع الدماشقة. فلما بلغ الفرنج خبره لم يتحركوا من بلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ونزل بعذرا[4] شماليها في سادس شوال، وأحرق عدة من قرى المرج والغوطة، ورحل إلى بلاده.

ثم وصل الفرنج إلى دمشق، وكان معين الدين قد بذل لهم أنه يحاصر بانياس ويسلمها إليهم، وكانت في طاعة زنكي. ففعل معين الدين ذلك وسلمها للفرنج. فلما

(١) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٣١.
في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٧٣ «فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الأول».

(٢) ربما كان المقصود من المصلى: موضع للصلاة.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٧٤ «سار إلى حوران خامس رمضان».

(٤) عذراء: بالفتح ثم السكون قرية بغوطة دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٩١.

بلغ عماد الدين ذلك رجع إلى بعلبك وفرق عساكره للإغارة على بلد حوران وأعمال دمشق. وسار جريدة، فنزل على دمشق بخواصه في آخر الليل، ولم يعلم به أحد من أهلها. فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ارتج البلد، واجتمع العسكر والعامة على السور، وخرجوا إليه فقاتلوه، فلم يمكنه الإقدام على القتال لتفرق عساكره، فأحجم عنهم وعاد إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عود عسكره، فعادوا إليه وقد ملأُوا أيديهم من الغنائم فلما اجتمعوا رحلوا إلى بلاده.

ذكر مُلكه شهرزور وأعمالها[١]

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ملك [عماد الدين زنكي] شَهْرَزُور[٢] وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني. وكان حكمه نافذًا على سائر التركمان، قاصيهم ودانيهم، وكلمته لا تخالف، يرون طاعته فرضًا؛ وتحاماه الملوك، وأتاه التركمان من كل فج عميق. فلما كان في هذه السنة سيّر أتابك عماد الدين عسكرًا، فجمع قفجاق أصحابه ولقيهم، واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش الأتابكي في أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع وبذلوا الأمان لقفجاق فسار إليهم، وانخرط في سلك العسكر وسار في الخدمة هو وابنه من بعده.

وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة كان بين أتابك زنكي وبين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة انهزم فيها داود، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمود[٣]، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل.

---

(١) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٧٥ أن استيلاء عماد الدين على شهرزور كان بعد حصاره دمشق.

لم يذكر ابن الأثير في الكامل سببًا واضحًا لقصد عماد الدين صاحب شهرزور وإنما ذكر أن قفجاق عظم شأنه وازداد جمعه وأتاه التركمان من كل فج عميق. ولعل عماد الدين خاف من عظم شأن قفجاق وهو مجاور له بالموصل فعاجله بالحرب قبل أن يستفحل أمره. انظر الباهر لابن الأثير، ص٥٧.

(٢) شهرزور: بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة بعدها زاي وواو ساكنة، وراء، كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، وأهل هذه النواحي كلهم أكراد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٥.

(٣) «قلعة بهمرد» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٧٩، وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج١، ص٨٩. «نهمرد» في الأصل.

وفيها خطب له بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقًا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي سار معه.

وفيها أغار العسكر الأتابكي من حلب على بلد الفرنج، فأخربوا ونهبوا وظفروا بسرية للفرنج، فقتلوا منهم وكان عدة من قتل سبعمائة رجل.

توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي وزير عماد الدين أتابك زنكي، وكان رحمه الله حسن السيرة كريمًا رئيسًا.

ذكر مُلك عماد الدين زنكي قلعة آشب وغيرها من بلاد الهكارية[١]

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة أرسل عماد الدين جيشًا إلى قلعة آشب[٢]، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها، وبها أموالهم وأهلوهم[٣]. فحصرها الجيش الأتابكي وضيّق على من بها وملكها، فأمر عماد الدين بهدمها، وبنى القلعة العمادية[٤] وكانت العمادية حصنًا عظيمًا من حصونهم فخرّبوه لكبره، لأنه كبير جدًا، فعجزوا عن حفظه فخربت الآن آشب وعمرت العمادية. والعمادية نسبة إلى عماد الدين زنكي. وكان نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

---

(١) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٦، أن استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الهكارية ومنها الشعباني كان سنة ٥٢٨هـ ويصرح ابن الأثير بأنه يروي هذا الخبر عن بعض العلماء الأكراد وأنه لا يعلم بالضبط تاريخ فتح هذه القلاع.
والهكارية عشيرة من أكبر عشائر الأكراد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٤٠٨.

(٢) هناك اختلاف عند ابن الأثير في اسم القلعة التي أقام عماد الدين على أنقاضها قلعة العمادية. فهو في التاريخ الباهر ص٦٤ يذكر أن القلعة هي قلعة الشعباني، بينما في الكامل ج١١ ص١٦ هي آشب.

(٣) في الأصل «وأهليهم».

(٤) وذكر ابن الأثير خبر استيلاء عماد الدين على آشب وأنه أخربها وأقام على أنقاضها قلعة العمادية وعلى هذا الخبر اعتمد ياقوت في وصفه لقلعة العمادية فقال عنها إنها قلعة حصينة في شمالي الموصل ومن أعمالها، عمرها عماد الدين زنكي بن آقسنقر سنة ٥٣٧هـ وكان قبلها حصنًا للأكراد فأكبره وخربوه، فأعاده زنكي وسماه باسمه نسبة إليه. انظر التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص٦٤.

ذكر صلحه والسلطان مسعود[١]

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته، وجمع العساكر وتجهز لقصد بلاد زنكي، وكان قد حقد عليه واتهمه أنه أفسد عليه أصحاب الأطراف وحرضهم على الخروج على السلطان. فلما بلغ زنكي ذلك أرسل إلى السلطان يستعطفه ويستميله، وأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار، يحملها عماد الدين إلى السلطان ليعود عنه، فحمل منها عشرين ألف دينار أكثرها عروضًا. ثم تنقلت الأحوال بالسلطان حتى احتاج إلى مدارة زنكي، فأطلق له ما بقي. ومن جيد الرأي ما فعله عماد الدين زنكي في هذه الحادثة، فإن ولده الأكبر سيف الدين غازي كان لا يزال عند السلطان - سفرًا وحضرًا - بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل أن يمنع ابنه المذكور من الدخول. فلما هرب غازي أرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولاً إلى السلطان يقول: «إنّ ولدي هرب خوفًا لما رأى تغير السلطان علي، وقد أعدته، ولم أجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك» فوقع ذلك من السلطان بموقع عظيم، ومال إلى زنكي.

ذكر مُلكه بعض ديار بكر[٢]

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة سار عماد الدين زنكي إلى ديار بكر، فملك بها عدة حصون منها مدينة طنزة[٣] ومدينة أسعرد[٤] ومدينة المعدن[٥] التي يعمل بها

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٩٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٩٤.

(٣) طنزة: بفتح أوله وسكون ثانيه، بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٣.

(٤) أسعرد: لم يذكرها ياقوت وفي تاريخ الفارقي ص٥٩ حاشية ٥ نقلاً عن تقويم البلدان: بكسر الهمزة والسين وكسر العين، وسكون الراء المهملات ثم دال يقال لها «سعرت» على جبيل بالقرب من شط دجلة وهي عن ميافارقين على مسيرة يوم ونصف في حين ذكرها ياقوت. أسعرت: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣١.

(٥) المعدن في ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٥٤ بكسر الدال وآخره نون: قرية من قرى زوزن من نواحي نيسابور، وفي السلوك للمقريزي، ج١، ص٦٩٠ حاشية ٤ بلدة بأرمينية قرب منبع نهر دجلة، وسميت بهذا الاسم لوجود مناجم لمعدني النحاس والحديد بقربها.

النحاس، ومدينة حِيزان[١] وحصن الرونق[٢]، وحصن قطليس[٣]، وحصن باناسا[٤]، وحصن ذي القرنين وغير ذلك. وأخذ من بلاد ماردين مما هو بيد الفرنج حملين والموزر[٥] وتل موزر[٦] وغيرها من حصون شبختان[٧]، ورتب أمور الجميع وجعل فيها من يحفظها. وقصد مدينة آمد وحاني[٨] فحصرهما وأقام بتلك الناحية. وفيها سيّر عسكرًا إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها.

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما هو بيد الفرنج[٩]

وفي سادس جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فتح عماد الدين أتابك زنكي مدينة الرها من حصون الفرنج الجزيرية. وكان ضررهم قد عمّ بلاد الجزيرة، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين ورأس عين والرقة وكانت مملكة الفرنج بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة[١٠] وسن بن عُطَير[١١] وحملين والموزر والقراديّ[١٢] وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال

---

(١) حيزان: في ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣١ بكسر أوله وسكون ثانيه وزاي وألف ونون بلد فيه شجر وبساتين كثيرة ومياه غزرة، قرب إسعرت من ديار بكر.

(٢) «الروق» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٩٤. وفي الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير «الزوق» ص٦٦.

(٣) «فطليس» في الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص٦٦.

(٤) «باتاسا» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٩٤، والباهر ص٦٦.

(٥) موزر: بضم الميم وتشديد الزاي. كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٢١.

(٦) «تل موزن» في مفرج الكروب لابن واصل، ج١، ص٩٢.

(٧) «من حصون جوسلين» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٩٤.

(٨) حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٨.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٩٨.

(١٠) البيرة: بلد قرب سميساط. ابن الأثير، الباهر، ص٦٦.

(١١) سن بن عطير: لم يرد لها تعريف في ياقوت، وفي الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٩٨: قلعة ابن عطير وتقع عند الرها.

(١٢) القراديّ: لم يرد لها تعريف في معجم البلدان لياقوت الحموي، وردت في مفرج الكروب لابن واصل، ج٣، ص١٤٠ أنها ضيعة من أعمال شبختان. وفي ص١٩٥ من المصدر نفسه أنها ضيعة من عمل ماردين.

وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين الفرنجي، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم، لما فيه من الشجاعة والمكر. وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج بها من يمنعها ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم. فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية. فبلغ أتابك زنكي ذلك فنادى في العسكر بالرحيل إلى الرها وجمع الأمراء عنده وقدم الطعام وقال: «لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غدًا في باب الرها» فلم يتقدم غير أمير واحد وصبي لا يُعرف، لما يعلمون من إقدام زنكي وشجاعته، وأن أحدًا لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: «ما أنت في هذا المقام» فقال أتابك زنكي: «دعه فوالله إني أرى وجهه لا يتخلف عني».

وسار والعسكر معه فوصل إلى الرها، فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج والصبي معه، وحمل فارس من الفرنج على زنكي عرضًا فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم زنكي. ونازل البلد وقاتل عليه ثمانية وعشرين يومًا وملكه عنوة، وملك القلعة، ونهب الناس الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء.

فلما رأى عماد الدين البلد أعجبه ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فنودي بالعسكر بردّ ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، ورد ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا ذلك وعاد البلد إلى حالته الأولى، وجعل فيه عسكرًا يحفظه وتسلم مدينة سَروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة لحصانتها.

وحكى ابن الأثير رحمه الله في تاريخه الكامل قال: «حكى لي بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، قال: كان صاحب صقلية قد أرسل سريّة إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا. وكان عند صاحب صقلية رجل مسلم كان يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان، حتى كان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب. ففي بعض الأيام كان جالسًا في منظرة يشرف على البحر، وإذا بموكب لطيف قد أقبل وأخبر من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام وظفروا وغنموا وقتلوا. وكان المسلم إلى جانبه، وقد أغفى فقال له الملك: «يا فلان ألا تسمع إلى ما يقولون» قال: «لا» قال: «إنهم يخبرون بكذا وكذا، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها» قال: «كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرها، فقد فتحها المسلمون الآن» فضحك من هناك من الفرنج فقال الملك: «لا تضحكوا فما

يقول والله إلا الحق» فوصل بعد أيام الخبر من فرنج الشام بفتحها. قال ابن الأثير: وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانًا صالحًا رأى الشهيد زنكي في منامه فقال له: «ما فعل الله بك» قال: «غفر لي بفتح الرها».

ذكر مقتل نصير الدين جقر، وولاية زين الدين علي كورجك[(١)]

كان مقتله في ذي القعدة تسع وثلاثين وخمسمائة. وسبب[(٢)] ذلك أنه كان ينوب عن عماد الدين أتابك زنكي بالموصل وسائر الأعمال التي شرقي الفرات. وكان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي[(٣)] ولد السلطان محمود عند زنكي. وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك. وكان ألب أرسلان في هذه السنة بالموصل، ونصير الدين يحضر إلى خدمته في كل يوم، فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقالوا له: «إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد» فمال إلى ذلك. فلما دخل نصير الدين إليه وثب إليه من عنده فقتلوه[(٤)]، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنًّا منهم أنهم يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلاد، فلما رأى أصحابه الرأس قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير، فدخل القاضي تاج الدين يحيى بن الشهرزوري إلى الملك ألب أرسلان وخدعه، وكان فيما قاله حين رآه منزعجًا: «يا

---

(١) «علي كوجك» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٠٠.

(٢) عن سبب قتله ورد في تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري أن نصير الدين جقر كان سيىء السيرة، وأن عماد الدين لم يكن راضيًا عنه وأن هذا الأخير قد استصفى أمواله بعد قتله واستخرج ذخائره، واستنظف أوله وآخره وصادر أهله وأقاربه وأهل نوابه، وسلبهم القوة والقوت، ونوع عليهم جوره الممقوت ص١٨٧ ـ ١٨٨.

(٣) يختلف صاحب تاريخ دولة آل سلجوق عن النويري وابن الأثير في لقب الملك أرسلان، أنه ليس هو المعروف بالخفاجي، وإنما المعروف بهذا اللقب هو أخوه فرخشاه فقال في مقتل نصير الدين والملك الذي قتله: «وكان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه، ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلمًا إلى الأمير دُبَيْس بن صدقة، فانتزعه منه زكي في حرب».
البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص١٨٧.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٠٠ إن الذين قتلوا نصير الدين هم من كان عند الملك من أجناد عماد الدين ومماليكه.

مولانا لَمَ تحرد من هذا الكلب؟ هو وأستاذه[١] مماليكك، الحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يديك» ثم قال له: «وما الذي يقعدك في هذه الدار؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون البلاد بعد الموصل مانع» فقام معه وركب وأصعده إلى القلعة، فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدم إليهم القاضي تاج الدين فقال: «افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا ما أردتم» ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضي إلى القلعة ومعهما من أعان على قتل نصير الدين. فلما صاروا بالقلعة سجنوا كلهم إلا القاضي.

وبلغ الخبر عماد الدين وهو يحاصر قلعة البيرة، وقد أشرف على فتحها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين، ففارق البيرة وأرسل زين الدين علي بن بُكتكين[٢] إلى قلعة الموصل واليًا على ما كان نصير الدين يتولاه. وسار عماد الدين عن البيرة، فخاف من بها من الفرنج أن يعود إليهم، فسلموها[٣] لصاحب ماردين. وملكها المسلمون. فإن لم يكن عماد الدين زنكي فتحها فهو سبب فتحها.

ذكر مقتل عماد الدين زنكي

كان مقتله رحمه الله لخمس مضين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة[٤]. وذلك أنه كان يحاصر قلعة جعبر[٥]، وكانت بيد سالم بن مالك العقيلي منذ سلمها السلطان ملكشاه إلى أبيه، عوضًا عن قلعة حلب كما تقدم في أخبار السلجقية. فحاصرها عماد الدين الآن وأقام عليها إلى هذا التاريخ، فدخل عليه

---

(١) في الأصل «هذا وأستاذه مماليكك» والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج١، ص٩٥.

(٢) في الأصل «بكتن». وفي الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٠٢، ومفرج الكروب لابن واصل، ج١، ص٩٦ «بكتكين» وفي تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ص١٨٨ «زين الدين علي بن بكتكين المعروف بعلي كوجك».

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٠٢، أن أهل البيرة هم الذين استدعوا نجم الدين صاحب ماردين ليسلموا إليه البلد خوفًا من أن يعود إليهم عماد الدين.

(٤) عن مقتله انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١١، ص١١٠ والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص٧٤، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي، ج٤، ص١٢٨، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٠.

(٥) قلعة جعبر: هي قلعة على الفرات في سوريا بين بالس والرقة قرب صفين وكانت قديمًا تسمى دوسر وكان يملكها رجل أعمى يقال له جعبر بن مالك فسميت به. مراصد الاطلاع للبغدادي ٣/١١١٨، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، ج٢، ص١٤١.

نفر من مماليكه فقتلوه غيلة[١]، وهربوا إلى القلعة ولم يشعر أصحابه. فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها بالعسكر، وأعلموهم بقتل صاحبهم، فبادر أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق. ثم مات رحمه الله تعالى وكان عمره نحوًا من أربع وستين سنة، ومدة ملكه منذ ولي الموصل وإلى أن قتل عشرين سنة.

وكان حسن الصورة أسمر اللون، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته[٢]، عظيم السياسة لا يقدر القوي معه على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت بأهلها وغير أهلها. وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: «مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى أملاك؟ فإن خرجت عن أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم، والإقطاعات تغني أصحاب السلطان عنها»[٣].

وخلف من الأولاد سيف الدين غازي وهو أكبر أولاده ونور الدين محمود وهو الملك العادل، وقطب الدين مودود، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصير الدين أمير أميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور الدين من الذكور، وبقي في عقب قطب الدين على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ولما قتل أتابك زنكي كان ولده نور الدين محمود معه، فأخذ خاتمه من يده وسار إلى حلب فملكها. وسنذكر أخباره مفصلة بعد سيف الدين غازي، والله أعلم.

ذكر ملك سيف الدين غازي ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكي[٤]

قال: لما قتل أتابك زنكي كان الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود معه،

---

(١) في تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري، ص١٨٩، أن سبب قتله أنه نام يومًا وهو مخمور وكان بعض مماليكه يلعبون ويضربون فهددهم فقتلوه خوفًا منه.

(٢) عن سيرة الملك الشهيد وأصدقائه. انظر التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص٧٦ ـ ٨٤.

(٣) في ابن واصل «مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى الأملاك! فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها» مفرج الكروب ج١، ص١٠١.

(٤) ولد سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م وتوفي سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١١٢.
ترجمته وأخباره في: اللمعات البرقية في النكت التاريخية لابن طولون ص١٢، ومفرج الكروب لابن واصل ج١، ص١١٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٦، ومرآة الزمان لابن الجوزي، ج٨، ص٢٠٣ وفيه ولد سنة ٤٩٠ وقيل سنة ٥٠٠هـ، والكامل لابن الأثير ج١١، ص١١٣ وما بعدها، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص٨٧ ـ ٩٤.

فاجتمعت العساكر عليه وكان الحاكم على دولة زنكي والمدبر لها من أرباب الأقلام جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني شبه الوزير، ومعه الحاجب صلاح الدين محمد بن أيوب الباغسياني[١] فاتفقا على حفظ الملك لأولاد صاحبهم عماد الدين وتحالفا على ذلك، وركبا إلى خدمة الملك ألب أرسلان، وخدماه، وضمنا له فتح البلاد، وقالا له: «إن أتابك زنكي إنما كان الناس يطيعونه لأنه كان نائبك» فقبل منهما ذلك وظن صدقهما ومناصحتهما وقربهما، وأرسلا إلى زين الدين علي بن مظفر الدين صاحب إربل بالموصل يعرفانه[٢] بوفاة الشهيد ويأمرانه[٣] أن يرسل إلى ابنه سيف الدين غازي ليحضر إلى الموصل، وكان بشهرزور وهي إقطاعه من قبل أبيه، ففعل ذلك ووصل إلى الموصل. وأشار جمال الدين على الملك بإرسال الحاجب صلاح الدين إلى حلب ليدبر أمر نور الدين فأمره بالمسير إليها فسار، وكانت حماه إقطاعه، وانفرد جمال الدين بالملك ألب أرسلان فقصد به الرقة، واشتغل بالشرب واللهو واستمال جمال الدين العسكر، وحلفهم لسيف الدين غازي، وصار يأمر من تخلف بالمسير إلى الموصل هاربًا من الملك، وبقي جمال الدين يسير بالملك من الرقة إلى سنجار، ويخذله ويطعمه، وما زال حتى انتهى به إلى الموصل. وأرسل الأمير عز الدين الدبيسي إلى الملك في عسكر، والملك في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. فاستقر أمر سيف الدين بالموصل واستوزر جمال الدين وأرسل إلى السلطان مسعود في إمرة الموصل فأمّره على البلاد، وأرسل له الخلع. وكان سيف الدين قد تقدمت له خدمة على السلطان مسعود ولازمه سفرًا وحضرًا في أيام زنكي.

قال: ولما استتب الأمر لسيف الدين غازي بالموصل عبر إلى الشام لينظر في أمور البلاد، ويقرر قاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، ولما عبر الفرات لم يحضر نور الدين إليه وخافه فراسله واستماله بحسن سياسته، فاستقرت الحال بينهما أن يجتمعا خارج العسكر السيفي، وكل منهما في خمسمائة فارس. فسار نور الدين يوم الميعاد من حلب بهذه العدة، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلما

(١) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١٣ «الباغيسياني».
(٢) في الأصل: «يعرفاه» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) في الأصل: «يأمراه» والتصحيح يقتضيه السياق.

رآه نور الدين ترجل وقبّل الأرض، وأعاد أصحابه فاجتمعا[١] وتحالفا واتفقا أحسن اتفاق، واستقر نور الدين بحلب وما معها، وسيف الدولة[٢] بالموصل وما معها.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعله سيف الدين غازي[٣]

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل ملك الألمان[٤] في جمع كثير من الفرنج وعزم على ملك الشام، وظن أنه يملكه لا محالة لكثرة أصحابه، واجتمع عليه من بالشام والسواحل من الفرنج. ووصل إلى دمشق وحاصرها، ونزل الميدان الأخضر، فأيقن أهلها بخروجها عن الإسلام. وكان ملكها يوم ذاك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري[٥] بن طغرتكين، وليس له من الأمر شيء والحكم في البلد لأتابكه معين الدين [أنر] مملوك جد أبيه، فأرسل إلى سيف الدين غازي يستنجده، فجمع عساكره والعساكر الحلبية، وسار إلى دمشق، فخافه الفرنج. ثم راسل فرنج الساحل وأوعدهم بحصر بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان وقالوا له: «إن هذا ملك بلاد المشرق قد قدم» وخوّفوه عاقبة أمره، فرحل ملك الألمان إلى بلاده، وتسلم الفرنج بانياس، كما وقع الاتفاق عليه، وعاد سيف الدين إلى الموصل.

ذكر وفاة سيف الدين غازي ابن عماد الدين زنكي

كانت وفاته في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالموصل

---

(١) لم يذكر النويري خبر الاجتماع بين الأخوين ولا ابن الأثير في الكامل ولا سبب الخلاف بينهما. وإنما ورد في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص٨٧ حاشية ٥ أن سبب الخلاف يعود إلى أن نور الدين خرق التقاليد القبلية والزنكيون من القبائل التركية التي تنص على أن تكون زعامة البيت للأرشد من أبنائه، فنافس نور الدين أخاه الأكبر في الملك، فاستولى على حلب والرها الأمر الذي أزعج سيف الدين فأخذ يعمل على التوفيق بينه وبين أخيه.

(٢) «سيف الدين» حسب السياق.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص١٢٩.

(٤) هو «كونراد الثالث» أمبراطور ألمانيا، وقد اشترك معه في قيادة هذه الحملة (وهي الحملة الصليبية الثانية) لويس السابع ملك فرنسا. ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١١٢، حاشية ٣.

(٥) في الأصل «نوري» والتصحيح من الباهر لابن الأثير ص٨٨.

لمرض حاد[١]، ودفن بمدرسته التي بناها بالموصل. فكانت ولايته ثلاث سنين وشهرًا وعشرين يومًا، وعمره نحوًا من أربع[٢] وأربعين سنة. وخلف ولدًا ذكرًا رباه عمه نور الدين محمود أحسن تربية، وزوّجه بابنة عمه قطب الدين، ولم تطل مدته، ومات في عنفوان شبابه، وانقرض عقب غازي بوفاته.

قال: وكان سيف الدين غازي يمد لعسكره في كل يوم سماطًا كبيرًا، طرفي النهار يكون في سماطه للغذاء مائة رأس من الغنم، وأمر الأجناد أن يركبوا بالسيوف والدبابيس، فاقتدى به أصحاب الأطواف وهو أول من حمل على رأسه السنجق[٣] من عمال الأطراف، وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل، ووقفها على طائفتي الشافعية والحنفية، وبنى رباط الصوفية بالموصل. ولم تطل أيامه حتى يفعل ما في نفسه من وجوه البر، رحمه الله. وسنذكر إن شاء الله تعالى من ملك الموصل بعده إذا انقضت أخبار الشهيد نور الدين وولده.

ذكر أخبار الملك العادل نور الدين[٤] أبي القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبي سعيد زنكي بن أقسنقر

قد ذكرنا أنه لما مات والده رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، توجه بخاتمه إلى حلب وملكها، وذكرنا أيضًا ما كان بينه وبين أخيه سيف الدين غازي رحمه الله، وما اتفقا عليه، فلنذكر من أخباره خلاف ذلك. ولنبدأ بغزواته وفتوحاته؛ ثم نذكر ما استولى عليه من الممالك وغير ذلك.

---

(١) «كان مرضه حمة حادة» في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص٩٢.

(٢) في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص٩٢ «وكان عمره نحو أربعين سنة».

(٣) «السنجق» لفظ تركي معناه الرمح. والمراد هنا العلم الذي هو الراية، إلا أنه كانت الراية تجعل في أعلى الرمح، عبر بالرمح نفسه عنها. والسنجقدار هو حامل السنجق. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج٥، ص٤٥٨.

(٤) ترجمته وأخباره في: «كتاب الروضتين لأبي شامة، ج١، ص٢٢٧ - ٢٢٩، والكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٥١، وابن خلدون ج٥، ص٢٥٣، وابن خلكان ج٢، ص٨٧، ومرآة الزمان لابن الجوزي ج٨، ص٣٠٥، مفرج الكروب لابن واصل ج١، ص١٠٩، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٦، ص٦٥، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص٩٥ - ١١١ و١١٦ - ١١٧ و١١٩ - ١٢٦، والكامل لابن الأثير، ج١١، ص١١٢، ١٢٢، والأعلام للزركلي ج٧، ص١٧٠.

ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدي الفرنج

ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الفتح الثاني ونهبها

قال: لما قتل أتابك زنكي كان جوسكين الفرنجي صاحب الرها في ولايته وهي تل باشر، فراسل عامة أهل الرها من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين، فأجابوه إلى ذلك. فسار في عساكره إلى الرها وملك البلد، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها. فسار نور الدين، وجدّ السير إليها، فلما قاربها هرب جوسكين عنها، وعاد إلى بلده، ودخل نور الدين البلد، ونهب المدينة، وسبى أهلها، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل، وذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فتح نور الدين مدينة أرتاح[1] بالسيف، ونهبها وحصر مايوله[2] وبصرفوث[3] وكفرلاثا[4]، وكان الفرنج بعد قتل أتابك زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذ منهم فخاب ظنهم.

ذكر فتح حصن العريمة[5]

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح حصن العريمة، وهو من أعمال طرابلس. وكان ملك الألمان لما سار عن دمشق وجّه إلى العريمة ولد ألفتش[6] صاحب طليطة، وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج. وكان جده هو الذي فتح طرابلس، فملك العريمة، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدين، وإلى معين الدين صاحب دمشق أن يقصدا حصن العريمة ويملكاه. فسار نور الدين من حلب ومعين الدين من دمشق واستمدا سيف الدين غازي، فأمدهما بعسكر كثيف مع الأمير عز الدين الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر، فنازلوا الحصن، وحصروه وبه ولد ألفتش، فاستسلم من به بعد امتناع، وملكه المسلمون،

---

(١) أرتاح: بالفتح ثم السكون اسم حصن منيع كان من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٤٠.

(٢) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج١١، ١٢٢.

(٣) بسرفوث أو بصرفوث: حصن من أعمال حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٢٠.

(٤) كفرلاثا: بلدة من نواحي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٣١.

(٦) في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣١ «ألفُنش».

وأخذوا كل من فيه من فارس وراجل وصبي وامرأة. وكان ولد ألفتش ممن أسر وأخربوا الحصن ثم عادوا.

ذكر انهزام الفرنج بيغرا[(١)]

وفي سنة ثلاث وأربعين أيضًا، اجتمع الفرنج لقصد حلب، فسار إليهم الملك العادل نور الدين بعسكره، فالتقوا بيغرى، واقتتلوا قتالاً شديدًا، أجلت الحروب عن ظفر الملك العادل، وانهزام الفرنج وأسر جماعة من مقدميهم. ولم ينج من ذلك الجمع إلا اليسير. وأرسل نور الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم. وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسرانيّ من قصيدة أولها: [من السريع]

يـا لَـيـتَ أنّ الـصّـدّ مـصْـدُودُ ... أوْ لا، فـلَـيـتَ الـنّـوْمُ مَـرْدُودُ

جاء منها:

وكيفَ لا يثنى[(٢)] على عَيشِنا المحمـ ... ـودِ والسّلطانُ مَحمودُ

وصَارِمُ الإسلام لا يَنْثَني ... إلاّ وَشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدُودُ

مَكارِمُ لم تَكُ[(٣)] موْجودَةً ... إلا ونُورُ الدّينِ مَوْجودُ

وكَمْ لَهُ من وقعةٍ يوْمُها ... عندَ ملوكِ[(٤)] الكُفر[(٥)] مَشْهُودُ

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية[(٦)]

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، غزا نور الدين بلاد الفرنج، من ناحية أنطاكية وقصد حصن حارم[(٧)] وهو للفرنج، وحصره وخرب ربضه، ونهب سواده ثم

---

(١) رسمه ابن الأثير في الكامل ج١١، ص١٣٤ «يغري» بالياء، وهي بلدة من دربساك في أرض الشام.

(٢) «وكيف لا نُثني» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣٤، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٥.

(٣) في الأصل «لم تكن» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣٤.

(٤) «الملوك» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣٤.

(٥) «الشِّرك» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٢٧٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٤٤.

(٧) حارم بكسر الراء وحصن حصين من أعمال حلب تجاه أنطاكية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٥.

رحل إلى حصن إنب[1] فحصره، فاجتمعت الفرنج لقتاله مع البرنس، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم الفرنج وقتل البرنس[2] وجماعة كثيرة من أصحابه، وأسر خلق كثير. وكان البرنس من عتاة الفرنج. ولما قتل ملك بعده أنطاكية ابنه بيمند[3]، ثم غزاهم نور الدين غزوة ثانية[4]، فقتل وأسر، وكان ممن أسر[5] البرنس الثاني زوج أم بيمند صاحب أنطاكية. وكان قتل البرنس [ريموند] عظيمًا عند الطائفتين وأكثر الشعراء مدح نور الدين بهذا الظفر[6]، فكان ممن قال فيه ابن القيسراني الكاتب قصيدته المشهورة وهي: [من البسيط]

هـذي الـعـزائِـمُ لا مـا تَـدّعـي الـقُـضُـبُ ... وذي الـمـكـارمُ لا مـا قـالَـتِ الـكُـتُـبُ
وهَـذه الـهِـمَـمُ الـلائـي مـتـى خُـطـبَـتْ ... تَـعَـثَّـرتْ خلفَـهـا الأشـعـارُ والـخُـطَـبُ
صَـافَـحـتَ يـا بـنَ عـمـادِ الـديـن ذِرْوَتـهـا ... بـراحـةٍ لـلـمـسـاعـي دونَـهـا تَـعَـبُ
مـا زال جَـدُّكَ يَـبـنـي كُـلَّ شـاهِـقـةٍ ... حـتـى بـنـى قُـبّـةً أوتـادُهـا الـشُّـهُـبُ
أغْـرَت سـيـوفُـكَ بـالإفـرَنـجِ[7] راجـفـةً ... فـؤادُ رُومـيّـةَ الـكُـبـرَى لـهـا يَـجِـبُ
ضـربـتَ كـبـشَـهُـم مـنـهـا بـقـاصِـمـةٍ ... أودَى بها[8] الصلبُ وانحطتْ لها الصُّلُبُ
طـهّـرتَ أرضَ الأعـادي مـن دمـائـهـم ... طـهـارةً كـلُّ سـيـفٍ عـنـدهـا جُـنُـبُ

ذكر فتح حصن أفامية[9]

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين حصن أفامية من الفرنج، وهو مجاور شيزر وحماة، وهو من أحصن القلاع وأمنعها، فاجتمع

---

(١) إنب: بكسرتين وتشديد النون والباء الموحدة حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٥٨.

(٢) المقصود بالبرنس ريموند دي بواتيه.

(٣) بوهيموند الثالث وكان قاصرًا عند مقتل أبيه ريموند.

(٤) كان نور الدين في نحو الخامسة والثلاثين من عمره فقد كان مولده سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص٩٩ حاشية ٤.

(٥) في التاريخ الباهر لابن الأثير ص٩٩ «وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية».

(٦) في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص٣٠٥، حاشية ٥ إن الموقعة كانت يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر من السنة.

(٧) هكذا في الأصل، وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج١، ص١٢١ «في الإفرنج».

(٨) هكذا في الأصل، وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج١، ص١٢١ «لها».

(٩) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٤٩.

الفرنج من الساحل وساروا نحوه ليرحلوه، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملأه من الذخائر والسلاح وشحنه بالرجال. وسار عنه في طلب الفرنج، فعدلوا عن طريقه وسألوه الهدنة، وعاد مظفرًا منصورًا.

ذكر أسر جوستكين وفتح بلاده

كان نور الدين قد جمع عساكره في سنة ست وأربعين وخمسمائة وسار إلى بلاد جوستكين[١] الفرنجي وهي شمالي حلب، وعزم على محاصرتها. وكان جوستكين فارس الفرنج وطاغيتهم، صاحب رأي وشجاعة، فجمع وأكثر، وسار نحو نور الدين والتقوا واقتتلوا، فكانت الهزيمة على المسلمين، وقتل كثير منهم. وأسر سلحدار[٢] نور الدين فيمن أسر، فأخذ جوستكين سلاحه، وأرسله إلى الملك مسعود قلج صاحب الروم، وقال: «هذا سلاح زوج ابنتك وسآتيك بعده بما هو أعظم منه» فأهم نور الدين ذلك وعظم عليه، وعلم أنه لا يتمكن من جوستكين في حرب، لأنه إما أن يحارب أو يحتمي بحصونه. فجعل عليه العيون من التركمان، ووعدهم إن أسروه وأتوا به أو برأسه بمواعيد كثيرة. فرصدوه إلى أن خرج إلى الصيد، وأسروه فصالحهم على مال يؤديه إليهم، فسيّر في إحضار المال إليهم فجاء بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب، وأخبره بالقضية. فسيّر عسكرًا مع من حضر إليه بالخبر، وكبس التركمان وأخذوا جوستكين أسيرًا. وكان من أعظم الفتوحات، وأصيبت النصرانية كافة بأسرها.

ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البادة وكفر سو، وكفر لاثا، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. واجتمع الفرنج في سنة سبع وأربعين، وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو بدلوك، فلما قربوا منه رجع إليهم واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر له وقتل وأسر منهم. وعاد

---

(١) في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٠١ «جوسلين» وهذه القلاع الواقعة شمالي حلب تشمل تل باشر وعين ناب وعزاز.

(٢) «السلاح دار» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٥٤. والسلاح دار: هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته ومن وظيفته أيضًا الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك ولفظ السلاح دار مركب من كلمتين أولاهما عربية ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية ومعناها ممسك، ويكون المعنى ممسك السلاح. المقريزي: السلوك ج١، ص٦٥ حاشية ٣.

إلى دلوك فملكها. وكان نور الدين إذا فتح حصنًا من هذه الحصون شحنه بما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والذخائر وغيرها.

ذكر حصر قلعة حارم وفتحها[١]

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[٢] حصر نور الدين قلعة حارم وشدد الحصار، فصالحه الفرنج على نصف أعمال حارم، وصالحهم ورحل عنهم ثم فتحها في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملكه بانياس وما قرره على طبرية وأعمالها[٣]

وفي سنة تسع وخمسين ملك حصن بانياس[٤]، وكان بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمنا. فنازله، فجمع الفرنج لقصده، فلم يكمل جمعه إلا وقد ملك الحصن وشحنه بالرجال والذخائر، ثم شاطر الفرنج على أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها في كل سنة ما لا يحملونه إليه، والله أعلم.

ذكر فتح المنيطرة[٥]

والمنيطرة فيما بين طرابلس وبعلبك وهي الآن من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية. فلما كان في سنة إحدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إليها جريدة، وملكها وأعجل الفرنج عن الاجتماع لرده، وسبى وغنم، فجاء الفرنج بعد أن ملكها فأيسوا منها، ورجعوا عنها، والله أعلم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٢٠٨.

(٢) في التاريخ الباهر لابن الأثير، ص١١٦، «حصر نور الدين قلعة حارم سنة ٥٥٧هـ» انظر تفاصيل حرب حارم في الباهر لابن الأثير ص١٢٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٣٠٤.

(٤) «في سنة ستين وخمسمائة فتح نور الدين قلعة بانياس» في التاريخ الباهر لابن الأثير ص١٣٠. «في ذي الحجة من هذه السنة (أي سنة ٥٥٩هـ) فتح نور الدين محمود قلعة بانياس» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٣٠٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٢٢.

ذكر فتح صافيثا وعريمة[١]

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة جمع نور الدين العساكر وسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل واجتمعا على حمص، فدخل بالعساكر إلى بلاد الفرنج بالساحل واجتاز على حصن الأكراد[٢]، فأغاروا ونهبوا وسبوا. وقصدوا عَرْقَة[٣] فنازلوها وحصروها، وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها. وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينًا وشمالاً تغير وتخرب، وفتحوا العريمة، وصافيثا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان، وكان الفرنج في سنة ثمان وأربعين قد كبسوا عسكر نور الدين بالبقيعة على حين غفلة من العسكر، فنالوا من المسلمين منالاً عظيمًا، فجعل نور الدين في مقابلة ذلك فتح حارم وبانياس والمنيطرة وصافيثا وعريمة وتخريب بلادهم، وأدرك ثأره عن غير بعد.

ثم سار بعد شهر رمضان إلى بانياس، وقصد العبور إلى بيروت، فجرى بين العسكر اختلاف أوجب رجوعه. وأعطى قطب الدين في هذه السنة الرقة، وأعادهُ إلى بلده. هذا ما فتحه رحمه الله من بلاد الفرنج، فلنذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية.

ذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية[٤]

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، استولى الملك العادل نور الدين على سنجار، وكانت بيد أخيه قطب الدين، ملكها بعد وفاة سيف الدين غازي، ثم حصل الاتفاق بينهما على أن يكون نور الدين صاحب حلب وحمص والرّحبة والشام؛ وقطب الدين بالموصل وديار الجزيرة، وسلم سنجار لأخيه قطب الدين، وأخذ نور الدين ما كان من الذخائر بسِنجار، وكانت كثيرة جدًا، وعاد إلى حلب وقد حصل الاتفاق بينه وبين أخيه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٢٧.

(٢) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب وكان هذا الحصن مركزًا مهمًا لهيئة فرسان الاستبارية على عصر الحروب الصليبية. القلقشندي صبح الأعشى ج٤، ص٧٤، ٨٥، ١٤٤.

(٣) عرقة: بكسر أوله وسكون ثانيه بلدة في شرقي طرابلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١١٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٣٩.

ذكر ملكه مدينة دمشق[(١)]

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ملك دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغرلتكين. وسبب قصده لها أن الفرنج ملكوا في السنة التي قبل هذه السنة مدينة عسقلان[(٢)]، واستولوا على تلك النواحي، فلم يتمكن نور الدين من غزوهم ودفعهم، لأن دمشق تحول بينه وبينهم. ولم تمكنه مفاجأة صاحبها لعلمه أنه إن سار إليها راسل صاحب دمشق الفرنج واستنجد بهم. وكان قد استقر لهم ضريبة على دمشق تحمل إليهم في كل سنة، ويحضر رسلهم لقبضها، فزاد استيلاؤهم إلى أن أخذوا كل من فيها من الغلمان والجواري، بحيث إنهم يطلبون الغلام أو الجارية ويخيروه، فإن اختار الرجوع إليهم أخذوه، اختار مولاه أو امتنع؛ وإن اختار المقام عند مواليه تركوه. فأهم ذلك نور الدين، وخاف أن الفرنج متى استولت على دمشق ملكوا الشام أجمع، فأخذ في إعمال الحيلة وراسل مجير الدين صاحبها وهاداه وداهنه واستماله. وبقي يوقع بينه وبين أمرائه، فكتب إليه يقول: «إن فلانًا الأمير قد كاتبني في تسليم دمشق» فقبض عليه مجير الدين حتى اختل أمر عسكره وضعف. ثم راسل نور الدين الأحداث من الأمراء بدمشق، ووعدهم الجميل فمالوا إليه ووعدوه بتسليمها له، فسار إليها. فلما نازلها كاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم بعلبك ليمنعوا نور الدين عنه، فحشدوا فارسهم وراجلهم، فلم يتكامل جمعهم إلا وقد ملك نور الدين دمشق، سلمها له الأمراء، ودخلها من الباب الشرقي. وتحصن صاحبها بالقلعة، فبذل له نور الدين حمص، فرضي وسلّم القلعة وسار إلى حمص، ثم عوّضه عن حمص مدينة بالس فامتنع، وتوجه إلى بغداد ومات بها.

وفي سنة اثنتين وخمسين، ملك نور الدين حصن شيْزر من آل منقذ وكانت الزلزلة قد هدمت أسواره فعمرها والله أعلم.

ذكر ملكه بعلبك[(٣)]

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ملك بعلبك وقلعتها. وكانت بيد إنسان

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٩٧.

(٢) عسقلان: بفتح أوله وسكون ثانيه، ثم قاف وآخره نون، هي مدينة في الشام على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضًا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٢٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٢٢٧.

يقال له ضحّاك البقاعي، منسوب إلى البقاع البعلبكي، كان صاحب دمشق قد ولاه إياها، فلما ملك نور الدين دمشق لم تمكنه مشاححته لقربه من الفرنج، فطاوله إلى الآن وملكها منه.

ذكر ملكه قلعة جَعْبَر(١)

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك [نور الدين] قلعة جَعْبَر من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده وبيد آبائه كما تقدم. وكان السبب في ملكه لها أن صاحبها سار إلى الصيد، فأسره بنو كلاب(٢) وجاؤوا به إلى نور الدين في شهر رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله نور الدين وأكرمه في اعتقاله. وأخذ في طلبها باللين، فلم يوافق على إعطائها ثم أخذه بالشدة فلم يوافق، فسيّر الجيوش لحصرها، فحوصرت مدة فلم يظفر منها بطائل، فعاود صاحبها بالملاطفة، وعوضه عنها سروج وأعمالها والملاحة التي من بلد حلب وباب بزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة. فقبل العوض وسلّم القلعة. وهذه القلعة في عصرنا هذا إلى سنة أربع عشرة وسبعمائة خرابًا لا باب عليها والله أعلم.

ذكر ملكه الديار المصرية(٣)

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية بجيوش الملك العادل نور الدين، وهي السفرة الثالثة له إليها من قبل نور الدين ونذكر ذلك مفصلاً في أخبار الدولة الأيوبية، ودامت الخطبة بها للملك العادل مدة حياته، وصدرًا من أيام ولده الملك الصالح إسماعيل.

ذكر ملكه الموصل(٤)

وفي سنة ست وستين وخمسمائة ملك الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين، وأقر عليها سيف الدين غازي بن قطب الدين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣٤.

(٢) بنو كلاب: قبيلة من عرب الشمال أو القيسيين سيطرت في ذلك الوقت على جهات من شمال الشام والجزيرة. القلقشندي: صبح الأعشى ج١، ص٣٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٤٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٦٢.

أخبار غازي. وأطلق نور الدين سائر المكوس بالموصل وبسائر البلاد. وجاءته الخلع من الخليفة المستنصر بالله، فلبسها، ثم خلعها على سيف الدين غازي ابن أخيه. وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبنى وأقام بالموصل عشرين يومًا وعاد إلى الشام.

ذكر وفاته رحمه الله وشيء من أخباره وسيرته[١]

كانت وفاة الملك[٢] العادل نور الدين محمود في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، بعلة الخوانيق، ولقب بعد موته بالشهيد. ومولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فيكون عمره نحوًا من ثمانٍ[٣] وخمسين سنة، وتكون مدة ملكه منذ وفاة أبيه ثمانيًا وعشرين سنة وستة أشهر وستة أيام. ومن العجب أنه ركب إلى الميدان الأخضر بدمشق في ثاني شوال، ونصب فيه قبقًا[٤]، فسايره الأمير همّام الدين مودود، وقال له: «أترى هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟» فقال له نور الدين: «لا تقل هكذا، قل هل نكون ههنا بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة» ورجع إلى القلعة، وختن ابنه وأصابته العلة، فمات بعد عشرة أيام. ومات الأمير همام الدين قبل استكمال الحول. ودفن نور الدين بقلعة دمشق، ثم نقل إلى مدرسته التي بناها بجوار سوق الخواصين بدمشق وقبره هناك مشهور.

وأما سيرته وأفعاله رحمه الله تعالى فإنه أفرغ وسعه في الجهاد، واستنقذ من أيدي الفرنج ما ذكرناه. وكان ثابتًا في حروبه، وبنى المدارس والمساجد والربط والبيمارستان[٥] والخانات والطرق والجسور، وجدد القنا وأصلحها، وأوقف الوقوف على معلمي الخط لتعليم الأيتام، وعلى سكان الحرمين الشريفين، وأقطع أمراء العرب

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٠٢.

(٢) عن وفاته انظر الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٠٢ وفي التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير كما في الكامل أنه توفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال من السنة ٥٦٩هـ. ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخوّاصين، تاريخ الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٦١.

(٣) في الأصل ثمانية، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) القبق: لعبة رياضية، توضع خشبة عالية في باحة اللعب وفي أعلاها دائرة ترمى بالسهام للوصول إلى الهدف. وهذه الدائرة اسمها بالتركية القبق. المقريزي: السلوك ج١، ص٥١٨، حاشية ٦.

(٥) البيمارستان: المستشفى، انظر كتاب الدولة المملوكية لأنطوان ضومط، ص٣٨٣.

الإقطاعات حتى كفوا عن التعرض إلى الحاج. وبنى أسوار المدن والحصون التي هدمتها الزلزلة التي ذكرناها في أخبار الدولة العباسية. وكان رحمه الله مواظبًا على الصلاة في الجماعة، حريصًا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق والمطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في سخطه وعاقب على شرب الخمر.

قال الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير رحمه الله: «قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكًا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه» قال: وكان رحمه الله لا يفعل فعلاً إلا بنيّة حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصالحين العباد، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله فيرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يُدْمِنُ اللعب بالأكرة[1] فكتب إليه يقول: «ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة» فكتب إليه نور الدين بخطه يقول: «والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلاً ونهارًا شتاءً وصيفًا. إذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت حمامًا لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب حمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة».

قال: وحكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، فبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها. فقيل له إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له. فقال: «أعطوها له، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة» فسلمت إليه. قيل والذي أعطيها شيخ الصوفية عماد الدين بن حمويه، فبعثها إلى همذان، فبيعت بألف دينار.

---

(١) لعب الكرة أو الأكرة أو الجوكان. وهي اللعبة المعروفة باسم بولو، يركب اللاعبون الخيل ويحاولون اجتذاب الكرة بعصا طويلة. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٤٤ حاشية ١.

قالوا: وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث وأسمعه، وكان يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها، فمن ذلك أنه كان يلعب بالكرة عند دمشق، فرأى إنسانًا يحدث آخر ويومىء إليه بيده، فأرسل يسأله عن حاله، فقال: «لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني» فلما قيل ذلك له ألقى الجوكات من يده وخرج من الميدان وتوجه إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري وأرسل إليه يقول: «إني قد جئت في محاكمة فاسلك معي ما تسلكه مع غيري» فلما حضرا، ساوى خصمه وحاكمه، فلم يثبت قبله حق، وثبت الحق لنور الدين. فعند ذلك أشهد على نفسه أنه وهب الملك للذي حاكمه، وقال: «كنت أعلم أن لا حق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يظن بي أني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي، وهبته له».

قال: وهو أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل. وكان يجلس فيها في الأسبوع يومين، وعنده القاضي والفقهاء لفصل الحكومات بين القوي والضعيف. وكان شجاعًا حسن الرأي والمكيدة في الحرب، عارفًا بأمور الأجناد. وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين. وتركشين[1]، وباشر القتال بنفسه. وكان يقول: «طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها».

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده. كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدًا، أقر الإقطاع عليه. فإن كان كبيرًا استبد بتدبير نفسه، وإن كان صغيرًا رتب معه رجلًا عاقلًا يثق إليه يتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سببًا عظيمًا للنصر في المشاهد والحروب. قال: وبنى أسوار مدن الشام وقلاعها، فمنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وأخرج عليها الأموال الكثيرة التي لا تسمح النفوس بمثلها. وبنى المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها. وبنى الجوامع في كثير من البلاد، فمنها جامعه بالموصل، إليه النهاية في الحسن والإتقان وفوض عمارته والخرج عليه للشيخ عمر الملا، وكان من الصالحين. فقيل له إنه لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: «إذا وليت بعض أصحابي من الأجناد والكتاب، اعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، فلا يقي عمارة الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا

(١) التركاش أو التركش، الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص٣٠٩ وانظر Dozy.

وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإن ظلم كان الإثم عليه لا علي» وبنى أيضًا بمدينة حماه جامعًا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم بسبب زلزلة وغيرها. وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها وأشهرها البيمارستان الذي بناه بدمشق، وقفه على كافة المسلمين من غني وفقير، وبنى الربط والخانقاهات[١] للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة.

قال: وكان قد ضبط ناموس الملك إلى غاية لا مزيد عليها، فكان يلزم الأجناد بوظائف الخدمة، ولا يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره، فإنهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس. وكان مع ذلك إذا دخل عليه الفقير والصوفي والفقيه يقوم له ويجلسه إلى جانبه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئًا يقول إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنّة علينا.

ولم يزل الناس معه في غاية الأمن والخير والبركة والنمو والإحسان والعدل والبر وإظهار السنة وقمع البدعة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى.

ذكر أخبار الملك الصالح[٢] إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكي بن أقسنقر

ملك بعد وفاة والده في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة. وحلف له الأمراء وأطاعه الناس في سائر البلاد وخطب له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية. ولم يكن الملك الصالح إذ ذاك قد بلغ الحلم[٣]. وتولى تربيته

(١) الخانقاهات: الخانقاه: فارسية معناها بيت وأصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك. البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١١٥.

(٢) ترجمته وأخباره في: تاريخ ابن خلدون ج٥، ص٢٥٣ ـ ٢٥٨ ومرآة الزمان لابن الجوزي، ج٨، ص٣٦٦، الأعلام للزركلي، ج١، ص٣٢٦ ـ ٣٢٧، الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٠٥، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٦٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٨٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٢٥٨.

(٣) «كان عمره إحدى عشرة سنة» في الباهر لابن الأثير ص١٦٢، والكامل لابن الأثير ج١١، ص٤٠٥.

الأمير شمس الدين محمد بن المقدم. قال العماد الأصفهاني الكاتب: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيًا للملك الصالح وفي آخره:

«وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم، وأيسر لوازمه. أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة وهو اليوم الذي أُقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، وفيما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام عالمًا أن الجماعة رحمة».

قال: ولما بلغ سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود وفاة عمه، استبشر لذلك، ونادى بالموصل بالفسحة في الشرب واللهو. وكان الخبر قد أتاه وهو سائر إلى خدمة عمه نور الدين، فإنه كان قد استدعاه بالجيوش، فعاد وهرب سعد الدين كمشتكين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سيف الدين غازي مبينًا. قال: ولما اتفق ذلك منه لم يكتب الجماعة الذين في خدمة الملك الصالح إلى صلاح الدين يوسف بالخبر، خوفًا أنه إذا بلغه ذلك أقصدهم، واستولى على الملك الصالح وأبعدهم، فشقّ ذلك عليه وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأقام الملك الصالح بدمشق وجماعة الأمراء عنده لم يمكنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية، ويختص بخدمته، فإنه كان من أكبر الأمراء النورية. ولما وصل كمشتكين من الموصل إلى حلب أحسن إليه الأمير شمس الدين بن الداية، وأكرمه، وجهزه إلى دمشق لإحضار الملك الصالح منها إلى حلب، وجهز معه العساكر. فلما قارب دمشق سيّر الأمير شمس الدين محمد بن المقدم عسكرًا إليه، فهزموه. ونهبوا ما معه، فعاد إلى حلب منهزمًا، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم نظر أمراء دمشق المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أجود من مقامه بدمشق. فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح، فجهزه إليهم، فسار إلى دمشق في المحرم سنة سبعين وخمسمائة، فأخذ الملك الصالح وعاد به إلى حلب. فلما وصل إليها، قبض سعد الدين على ابن الداية وإخوته، وعلى الرئيس ابن الخشاب رئيس حلب، ومقدم الأحداث بها.

واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء بدمشق أن سعد الدين يسير إليهم ويفعل بهم كما فعل بابن الداية، فراسل سيف الدين

غازي بن مودود في الحضور من الموصل ليتسلم دمشق فخشي غازي أن تكون مكيدة فلم يحضر، فراسله سعد الدين، واتفق الحال على أن يستقر بيده ما استولى عليه من الأعمال الجزيرية. فقال أمراء دمشق: حيث صالح سيف الدين، لم يبق له مانع من المسير إلى دمشق. فراسلوا الملك الناصر صلاح الدين في الحضور من مصر ليتسلمها. فوصل إليها، وتسلمها، وملك حمص وحماه وبعلبك. ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وأظهر أنه إنما حضر لخدمته، واسترجاع ما استولى عليه سيف الدين غازي وغيره من الأعمال الجزيرية. ثم كان بينه وبين العسكر الحلبي من الحروب ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية، إلى أن أحوجوه إلى الاستقلال بالأمر والخطبة لنفسه وملك البلاد.

ذكر مقتل سعد الدين كُمُشتِكِين وحصر الفرنج حَارِم[١]

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة قبض الملك الصالح على سعد الدين[٢]، وهو المتولي على أمر دولته، والحاكم فيها. وسبب ذلك أن أبا صالح بن العجمي كان من أكابر حلب، وكان مقدمًا عند نور الدين، وتقدم عند ولده[٣] وأطاعه الناس، وكثرت أتباعه، فوثبت عليه بعض الباطنية بالجامع فقتله[٤]، فنسب ذلك لسعد الدين فوشوا به عند الملك الصالح، فقبض عليه. وكانت حارم إقطاعه، فامتنع من بها من تسليمها فسيّره الملك الصالح تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها؛ فأمرهم فلم يرجعوا إلى قوله، وعذب وهم ينظرون إليه إلى أن مات تحت العقوبة. فبلغ الفرنج ذلك، فنازلوا قلعة حارم ونصبوا عليها المجانيق، فصالحهم الملك الصالح على مال ففارقوها، وتسلمها بعد حصار ثان، ورتب فيها من المماليك النورية من يحفظها.

---

(١) حارم: بكسر الراء حصن حصين وكورة قرب أنطاكية من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٥.

(٢) سعد الدين كُمُشتكين خادم السلطان نور الدين الشهيد وكان من أكابر خدامه، وكان ولاه الموصل نيابة عنه فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، ثم جاء إلى الملك الصالح فأعطاه حارم ثم غضب عليه وطلب منه قلعة حارم.

(٣) «الملك الصالح» ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٤٤٥.

(٤) «علّقه الملك الصالح منكّسًا، ودخّن تحت أنفه حتى مات» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٤.

ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل[(١)]

كانت وفاته لخمس بقين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة. وابتدأت علته في تاسع الشهر، وكان مرضه القولنج ومات وله من العمر تسع عشرة سنة. وقيل في سبب وفاته إن علم الدين سليمان بن جندر سقاه في عنقود عنب وهو في الصيد؛ وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، فعظم موته على سائر الناس، وحزنوا لفقده حزنًا شديدًا.

قال ابن الأثير: ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فاستفتى الفقيه علاء الدين الكاشاني وأفتاه بجواز شربها، فقال: «إن كان الله قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر» فقال: لا والله فقال: «والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي» ومات رحمه الله ولم يشربها[(٢)].

ولما أيس من نفسه أحضر الأمراء والأجناد في الثالث والعشرين من شهر رجب وأوصاهم بتسليم البلد لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، واستحلفهم على ذلك. فقال بعض أصحابه إن عز الدين ملك الموصل وله ما يكفيه، ولو أوصيت بها لابن عمك عماد الدين زنكي فإنه تربية والدك، وزوج أختك، وليس له غير سنجار. فقال: «إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تمكن وتغلب على عامة البلاد الشامية، ومتى كانت حلب لعماد الدين عجز عن حفظها وعز الدين يحفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام فاستحسن الناس ذلك منه، وعجبوا من جودة رأيه مع صغر سنه، وأن مرضه لم يشغله عن حسن اختياره. ثم مات رحمه الله.

وكان عفيف اليد والفرج واللسان، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب، حسن السيرة، عادلاً في رعيته. وبوفاته انقرض عقب نور الدين المذكور.

ولنرجع إلى ذكر ملوك الموصل الذين ملكوا بعد وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي.

---

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٨١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٧٣.

ذكر أخبار قطب الدين مودود[١] بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه لما مات سيف الدين غازي اجتمعت كلمة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين على أمير الجيش على تولية قطب الدين طلبًا للسلامة، فاستحلفوه وحلفوا له وركبوه إلى دار السلطان، وأطاعه سائر البلاد التي كانت تحت يد أخيه. وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين. وكان سيف الدين غازي قد تزوجها ولم يدخل بها، فتزوجها قطب الدين وهي أم أولاده الملوك.

قال: ولما ملك قطب الدين كان نور الدين بحلب، وهو أكبر منه، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه، فسار إليهم، وقصد انتزاع الملك من أخيه قطب الدين، ثم اتفقا وعاد نور الدين إلى حلب، وشهد قطب الدين بعض الحروب مع أخيه نور الدين؛ كما ذكرناه في أخبار نور الدين.

ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن علي ابن منصور الأصفهاني ووفاته وشيء من أخباره وسيرته[٢]

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة قبض قطب الدين على الوزير جمال الدين واعتقله، فتوفي في اعتقاله في شعبان سنة تسع وخمسين ولعمري ما كان يستحق أن يعتقل، وهو الذي عمل على إثبات الملك في البيت الأتابكي بعد قتل الشهيد أتابك زنكي، على ما قدمنا في أخبار سيف الدين غازي.

قال ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل: حكى لي إنسانٌ صوفيّ يقال له أبو القاسم؛ كان مختصًا بخدمته في الحبس، قال: «لم يزل مشغولاً في محبسه بأمر آخرته، وكان يقول: كنت أخشى أن أُنقل من الدست إلى القبر، فلمّا

(١) ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي، ج٧، ص٣١٨ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص٣٦٣، ومفرج الكروب لابن واصل ج١، ص١١٧، ١٨٨ - ١٩٠، والكامل لابن الأثير، ج١١، ص١٣٨، ٣٣١، ٣٥٥، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج٥، ص٣٠٢، رقم ٧٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٠٦.

مرض قال لي في بعض الأيام: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرّفني» قال: «فقلت في نفسي قد اختلط عقله» فلما كان الغد أكثر السؤال عنه، وإذ طائر أبيض لم أرَ مثله قد سقط، فقلت: «قد جاء الطائر» فاستبشر ثمّ قال: «جاء الحقّ» وأقبل على الشهادة، وذكر الله تعالى إلى أن توفّي. فلمّا توفي طار ذاك الطائر، فعلمتُ أنّه رأى شيئًا في معناه».

ودُفن بالموصل عند فتح الكرامي رحمة الله عليهما نحو سنة، ثم نقل إلى المدينة، فدفن بالقرب من حرم النبي ﷺ في رباط بناه لنفسه. وقال لأبي القاسم: «بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله إلى المدينة فدفنه بها في التربة التي عملها، فإذا أنا مِت فامض إليه وذكره». فلما توفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال له شيركوه: «كم تريد» فقال «أريد أجرة جمل يحمله، وجمل يحملني وزادي» فانتهره وقال: «مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة» وأعطاه مالاً صالحًا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين، وجماعة يقرؤون بين يدي تابوته إذا حمل وإذا أنزل عن الجمل. فإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القرّاؤون ينادون للصلاة عليه، فيصلى عليه في كل بلد يجتاز بها، وأعطاه أيضًا مالاً للصدقة فصلّى عليه في تكريت وبغداد والحلة فَيْد[1] ومكة والمدينة، وكان يجتمع له في كل بلد من الخلق ما لا يحصى، ولما أراد الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلى صوته: [من الطويل]

سرى نعشه[2] فوق الرقابِ وطالما ... سرى جودُه فوق الركابِ ونائِله
يمر على الوادي فتنثني[3] رمالُه ... عليه وبالنادي فتثني[4] أرامله

فلم يرَ باكيًا أكثر من ذلك اليوم، وطافوا به حول الكعبة، وصلّوا عليه بالحرم الشريف، وبين قبره وقبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعًا.

وأما سيرته رحمه الله فكان [الوزير جمال الدين محمد بن علي] أسخى الناس وأكثرهم بذلاً للمال، رحيمًا بالخلق متعطفًا عليهم عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه

---

(١) فيد: بالفتح ثم السكون: بلد في منتصف الطريق بين مكة والكوفة يمر بها الحجاج، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٨٢.
(٢) «سرى نعشه على الرقاب» في البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨، ج١٢، ص٢٤٩.
(٣) «فتثني» في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٢٧.
(٤) «فتبكي» في الروضتين لأبي شامة، ج١، ص١٣٧.

جدد بناء مسجد الخيف[١] بمنى وغرم عليه أموالاً كثيرة، وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام. ولما أراد ذلك أرسل إلى المتقي لأمر الله هدية جليلة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كبيرة، وخلعا ثنية، منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار، حتى مكنه من ذلك. وعمر أيضًا المسجد الذي على جبل عرفات، والدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم. وعمل بعرفات أيضًا مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعمان[٢] في طرق معمولة تحت الأرض[٣]. وأخرج على ذلك مالاً كثيرًا وكان يجري الماء في المصانع في كل سنة أيام الحج. وبنى سورًا على مدينة النبي ﷺ. وعلى فيْد.

وكان يخرج على باب داره في كل يوم للصعالك والفقراء مائة دينار أميري؛ هذا سوى الإدرارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت. ومن أبنيته العجيبة التي لم يرَ الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلز[٤] فقبض قبل أن تكمل عمارته وبنى أيضًا جسرًا كذلك على النهر المعروف بالأرفاد[٥]، وبنى الربط [بالموصل، وسنجار، ونصيبين][٦]. وقصده الناس من أقطار الأرض. وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن، وكان يشتري الأسرى في كل سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب، سوى ما يشتري من الكرج.

وقال ابن الأثير: أيضًا حكى لي والدي عنه قال: «كثيرًا ما كنت أرى جمال الدين إذا قُدّم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه. فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده عليّ. فاتّفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين، وكنت أتولى ديوانها، وحمل جاريته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام، فبقيت في الدار أيّامًا. فبينما أنا عنده في الخيام، وقد أكل الطعام

(١) «بنى مسجد الخيف ودرجه وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سورًا» في البداية والنهاية لابن كثير، ج١٢، ص٢٤٨. الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه مسجد الخيف من منى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤١٢.

(٢) نعمان: بالفتح ثم السكون وآخره نون: وادٍ بين مكة والطائف، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٩٣.

(٣) «تحت الجبل مبنية بالكلس» في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٢٨.

(٤) «الكلس» في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٢٩.

(٥) «نهر الأربار عند الجزيرة» في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٢٩.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٢٩.

فعل كما كان يفعل. ثم تفرّق الناس فقمتُ فقال: «اقعد» فقعدتُ. فلما خلا المكان قال لي: «قد آثرتك اليوم على نفسي، فإنني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله. خذ هذا الخبر واحمله أنت في كمّك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسك، وعد إلى بيتك، فإذا رأيت في طريقك فقيرًا يقع في نفسك أنه مستحقّ، فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام» قال: ففعلت ذلك، وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك، وبقيت في غلماني، فرأيتُ في موضع إنسانًا أعمى وعنده أولاد له وزوجته، وهم من الفقر على حال شديد، فنزلت عن دابتي إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه. وقلت للرجل تجيء غدًا بكرة إلى دار فلان، أعني داري ـ ولم أعرفه نفسي ـ فإنني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئًا. ثم ركبت إليه العصر، فلما رآني قال: «ما الذي فعلت في الذي قلت لك» فأخذت أذكر له شيئًا يتعلق بدولتهم فقال: «ليس عن هذا أسألك، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمته إليك» فذكرت له الحال ففرح، ثم قال: «بقي أنك قلت للرجل يجيءُ إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير» قال: فقلت له: «قد قلت للرجل يجيء إلي» فازداد فرحًا وفعل للرجل ما قال. ولم يزل يصل إليه رسمه حتى قبض. وقال: وله من هذا كثير. فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذرت فيها الأقوات.

ولما وقفت على ترجمته لهجت بالترحم عليه، وقرأت ختمة شريفة في شهر رمضان سنة أربع عشرة وسبعمائة وسألت الله تعالى أن يسطر ثوابها في صحيفة حسناته، وقررت ذلك على نفسي في كل سنة في شهر رمضان وأرجو أن لا أقطعها ما لم أنسَ ذلك، رحمه الله تعالى(١).

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين(٢)

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين خدمته، وسار إلى إربل. وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده، ومنها إربل وبها أهله وأولاده وخزانته، وشهرزور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلاد الهكارية وبلد الحمدية، وتكريت وسنجار، وحران، وقلعة الموصل هو بها. وكان قد أصابه طرش ثم عمي، فما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل، سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وبقي معه إربل خاصة. وكان شجاعًا

---

(١) عن سيرته وأخباره انظر التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٢٨ ـ ١٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٣١.

عاقلاً حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة، وما انهزم من حرب قط. وكان كريمًا كثير العطاء للجند وغيرهم، فمن عطاياه أن الحيص بيص الشاعر قد امتدحه بقصيدة، فلما أراد إنشادها قال له: «أنا لا أعرف ما تقول ولكني أعلم ما تريد» وأمر له بخمسمائة دينار وخلعة وفرس فكان مجموع ذلك بألف دينار. ولم يزل بأربل إلى أن مات بها في هذه السنة(١).

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد، فعمر القلعة وكانت خرابًا لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة. وسار عبد المسيح سيرة شديدة وسياسة عظيمة وكان خصيًا أبيض من مماليك أتابك زنكي.

ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازي(٢)

كانت وفاة قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيل في شوال منها(٣). وكان مرضه حمى حادة فكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهورًا(٤). وكان من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال الرعية، كثير الإنعام والإحسان إليهم، محبوبًا إلى كبيرهم، وصغيرهم عطوفًا على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق. ولما مات رحمه الله تعالى ملك بعده ولده سيف الدين غازي.

ذكر أخبار سيف الدين غازي(٥) بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

ملك الموصل وما كان بيد والده قطب الدين بعد وفاته في ذي الحجة أو شوال

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص١٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٣٥٥، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢١٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٦٣.

(٣) في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٢١٦.

(٤) «توفي عن نيف وأربعين سنة وكانت دولته اثنتين وعشرين سنة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٤، ص٢١٦ «وكان عمره نحوًا من أربعين سنة ومدة ملكه الموصل إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر» في كنز الدرر للدواداري ج٧، ص٤٤ ـ ٤٥.

(٥) ترجمته وأخباره في: ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٧٥ ـ ١٧٦، الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١١٣.

سنة خمس وستين وخمسمائة؛ بوصية من أبيه. وكان والده قد أوصى بالملك بعده لولده الأكبر عماد الدين زنكي، فعرف عبد المسيح رأيه عنه. فلما كان في اليوم الثاني استخلف سيف الدين غازي، فاستقر في الملك بعد وفاة أبيه، واستولى عبد المسيح على المملكة. ولم يكن لغازي معه غير الاسم، فاتصل ذلك بنور الدين محمود، فأزعجه وأنف منه وكبر لديه، فسار إلى الموصل سنة ست وستين ودخلها من غير قتال. وكان الجند والعوام قد كاتبوه في تسليم البلد إليه. فلما علم بذلك عبد المسيح كاتبه أيضًا وسأله الأمان، فأمنه وقال: «لا سبيل أن يكون بالموصل»؛ ونقله إلى الشام ودخل نور الدين الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولي القلعة خادمًا يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارًا ثم عاد إلى الشام رحمه الله.

ذكر مُلك سيف الدين غازي البلاد الجزيرية[١]

كان سبب ذلك أن عمه الملك العادل نور الدين قد استدعاه بعساكر الموصل وديار الجزيرة وغيرها لقصد الغزاة. فسار سيف الدين غازي وجعل على مقدمته سعد الدين كمشتكين[٢]. فلما كانوا ببعض الطريق، وافاهم الخبر بوفاة نور الدين، فهرب سعد الدين جريدة، واستولى غازي على بركه وثقله وموجوده. وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، واستولى عليه وأقطعه. وسار إلى حرّان فحصرها عدة أيام، وبها قايماز الحرّاني مملوك نور الدين، فأطاعه بعد امتناع على أن تكون حران له. فلما نزل إليه، قبض عليه سيف الدين غازي [وأخذ حرّان منه][٣]، وسار إلى الرها فحصرها وملكها، وبها خادم خصي أسود لنور الدين، فسلّمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأُعطيها ثمّ أخذت منه، ثمّ انتهى حاله إلى أن استعطى ما يقوم به.

وسيّر سيف الدين إلى الرّقّة، فملكها وملك سروج وجميع بلاد الجزيرة، إلا قلعة جَعْبر لحصانتها، ورأس عين لأنها كانت لقطب الدين[٤] صاحب ماردين. وعاد عبد المسيح إلى خدمة سيف الدين من سيواس، وحسن لسيف الدين العبور إلى الشام

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٠٦.
(٢) «سعد الدين كمشتكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين» ابن الأثير: الكامل ج١١، ص٤٠٦.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٠٧.
(٤) «وهو ابن خال سيف الدين» في ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٤٠٧.

ليملكه، فأشار عليه عز الدين محمود ـ وهو من أكابر الأمراء ـ أن يقتصر على ما بيده، فرجع إليه وعاد إلى الموصل، وذلك في سنة تسع وستين وخمسمائة.

ذكر حصره أخاه زنكي بسنجار(١)

وفي سنة سبعين وخمسمائة في شهر رمضان حصر سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بسنجار. وكان سبب ذلك أن الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين [غازي](٢) يستحثه على الوصول إليه ليدفع الملك الناصر صلاح الدين يوسف عن حلب، فجمع سيف الدين غازي العساكر، وكاتب أخاه عماد الدين في اللحاق به. وكان صلاح الدين قد كاتبه وأطمعه في الملك، فامتنع عماد الدين بسبب ذلك. فجهز سيف الدين العساكر مع أخيه عز الدين مسعود إلى الشام. وتوجه هو سيف الدين لحصار أخيه بسنجار، فحصرها، وبينما هو كذلك، إذ أتاه الخبر بانهزام أخيه مسعود من صلاح الدين، فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل. ثم كان بين سيف الدين وبين الملك الناصر صلاح الدين ما نذكره في أخبار الملك الناصر من هزيمة غازي في سنة إحدى وسبعين.

ورجع سيف الدين إلى الموصل. وعزل عز الدين زلفندار(٣) واستعمل مكانه في إمارة الجيش مجاهد الدين قايماز.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة عصى شهاب الدين محمد بن مروان(٤) صاحب شهرزور على سيف الدين غازي وكان قبل ذلك في طاعته، فراسله في معاودة الطاعة. فعاد وحضر إلى الخدمة.

ذكر وفاة سيف الدين غازي(٥)

كانت وفاته في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة وكان مرضه السل،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٢٠.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٢٠.
(٣) «اسمه عز الدين محمود» ويلقب أيضًا زلفندار، في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٢٠.
(٤) «شهاب الدين محمد بن بزان» في مفرج الكروب لابن واصل، ج٢، ص٥٨.
(٥) الدواداري: كنز الدرر، ج٧، ص٦٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٤٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٨٠، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٥٦.

فطال به، ثم أدركه سرنيام[١] فمات، وعمره نحوًا من ثلاثين سنة، وكانت مدة ولايته عشر سنين وشهورًا وكان حسن الصورة تام القامة أبيض اللون. وكان عاقلاً وقورًا قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس ولم يذكر عنه في نفسه ما ينافي العفاف. وكان شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدام الصغار فإذا كبر أحدهم منعه. وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال على شحه وجبنه.

ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة[٢] سنة، فخاف على الدولة من ذلك، لتمكن صلاح الدين يوسف بالشام، وامتنع عز الدين مسعود من الموافقة والأيمان. فأشار الأمراء أن يكون الملك بعده لعز الدين مسعود أخيه. ففعل، وجعل لولده سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها، وجعل قلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك[٣].

ذكر ملك عز الدين[٤] مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايماز. وفي سنة سبع وسبعين كانت وفاة الملك الصالح إسماعيل، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود كما ذكرناه في أخباره. فكاتبه الأمراء بذلك واستدعوه لتسليمها. فسار إليها ومعه مجاهد الدين قايماز، فدخلها في العشرين من شعبان منها وأقام بحلب عدة شهور ثم سار إلى الرقّة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين زنكي وأخذ سنجار عوضًا عنها

قال: ولما فارق عز الدين مسعود حلب ووصل إلى الرقة، جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم إليه مدينة حلب ويأخذ سنجار،

---

(١) «ثم أدركه في آخره سرسام ومات» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٦٢.
(٢) في الأصل «اثني عشر».
(٣) في الأصل «كتبك» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٦٣.
(٤) أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٧٢، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٨١.

فلم يجب إلى ذلك، فراسله مرة أخرى وألحّ في طلبها، وقال متى لم تسلم إلى حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار الأمراء بتسليمها إليه فسلمها له، وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل.

ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز(١)

وفي جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وخمسمائة قبض عز الدين مسعود على نائبه مجاهد الدين قايماز. ولما قصد القبض عليه لم يقدم عليه مفاجأة لقوة مجاهد الدين، فأظهر المرض وانقطع عن الركوب فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيصًا به لا يمنع من الدخول على النساء. فقبض عليه وركب لوقته إلى القلعة. واحتوى على أموال قايماز وخزائنه، وولى زلفندار(٢) قلعة الموصل وجعل شرف الدين(٣) أحمد بن أبي الخير ـ وهو ابن أمير حاجب العراق ـ أمير حاجب، وحكمه في دولته. وكانت إربل(٤) وأعمالها تحت حكم مجاهد الدين، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير. وتحت حكمه أيضًا جزيرة ابن عمر وهي لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي، وهو صبي أيضًا؛ وبيده شهرزور وأعمالها ونوابه بها، ودقوقا(٥)، وقلعة عُقر الحميدية ونائبه بها. ولم يكن مع عز الدين إلا الموصل خاصة وقلعتها لمجاهد الدين(٦). فلما قبض امتنع صاحب إربل عن الطاعة، واستبد صاحب الجزيرة وأرسل الخليفة من حصر دقوقا وأخذها، ولم يحصل لعز الدين غير شهرزور والعُقر، وصارت إربل والجزيرة أضر شيء عليه وأرسل صاحب إربل إلى الملك الناصر صلاح الدين بالطاعة له، وقوي طمع الملك الناصر في الموصل لما قبض على مجاهد الدين، فلما رأى عز الدين ما حصل من

(١) أخباره في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٤٩٩، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٨٣.

(٢) هو عز الدين محمود زلفدار، ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٨٣.

(٣) «الذي كان أبوه صاحب بلد الغرّاف، وهما أي (زلفدار وشرف الدين) من أكابر الأمراء» ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٨٣.

(٤) إربل: بالكسر ثم الكسون وباء موحدة مكسورة ولام، هي قلعة حصينة ومدينة كبيرة شبيهة بقلعة حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٣٨.

(٥) دقوقاء: بفتح أوله، وضم ثانيه، وبعد الواو قاف أخرى، وألف ممدودة ومقصورة، مدينة بين إربل وبغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩.

(٦) «وقلعتها بيد مجاهد الدين، وهو على الحقيقة الملك واسمه عز الدين» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٥٠٠.

الضرر والفساد بسبب قبض مجاهد الدين، قبض على شرف الدين أحمد الحاجب وزلفندار، عقوبة لهما كونهما حسنا له القبض على قايماز.

ذكر إطلاق مجاهد الدين قايماز وما كان من العجم وانهزامهم(١)

قال: وفي المحرم سنة ثمانين وخمسمائة أطلق عز الدين مسعود مجاهد الدين قايماز، وذلك بشفاعة شمس الدين بن البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل. ولما أطلقه سيّره إلى ابن البهلوان(٢) وإلى أخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين. فبدأ في مسيره بقزل وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى شمس الدين، وقال: «مهما يختار أنا أفعله» وجهز معه ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها. فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها، وسبوا وأخذوا النساء قهرًا، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم. وسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره، فلقيهم وهم قد تفرّقوا للنهب، فانتهز الفرصة وقاتل من لقي منهم، فهزمهم وتمّت الهزيمة على العجم، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، وكان يقول: «ما زلنا ننتظر العقوبة من الله عزّ وجل على سوء فعل العجم»(٣).

ذكر وفاة عز الدين مسعود(٤)

كانت وفاته في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة. ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل مقابل دار المملكة وبقي في مرضه ما يزيد على عشرة أيام لا ينطق إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن والاستغفار. وكانت مدة ملكه ثلاثًا وعشرين سنة وسبعة(٥) أشهر إلا أيامًا. وكان خيّر الطبع كثير الخير والإحسان وزيارة الصلحاء وبرهم. وكان حليمًا قليل المعاقبة كثير الحياء لا يكلم جلساءه إلا وهو مطرق. وما

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص٥٠٤.

(٢) «سيره إلى البهلوان» في الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٥٠٤.

(٣) تتمة ما قاله مجاهد الدين: «فإنني رأيت منهم ما لم أكن أظنه يفعله مسلم بمسلم، وكنت أنهاهم فلا يسمعون، حتى كان من الهزيمة ما كان» ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٥٠٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٠١.

(٥) «وستة أشهر» في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٨٦.

قال في شيء سُئِله «لا» ولبس خرقة التصوف بمكة، وكان يلبسها في كل ليلة، ويخرج إلى مسجد بناه في داره فيصلي فيه نحو ثلث الليل، رحمه الله(١).

وملك بعده ولده نور الدين(٢) أرسلان شاه بن مسعود، وقام بتدبير دولته في ابتدائها مجاهد الدين قايماز مدبر دولة والده، واستمر نور الدين أرسلان شاه في الملك إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في أوائل شهر ربيع منها، ودفن في مدرسته التي أنشأها مقابل داره بالموصل. وكانت علته قد طالت، وكانت مدة ملكه سبع عشرة(٣) سنة وأحد عشر شهرًا. وكان بينه وبين الملك العادل بن أيوب مخالفة، ثم اتفاق ومصاهرة. وكان شهمًا شجاعًا ذا سياسة للرعايا شديدًا على أصحابه مانعًا من تعدي بعضهم على بعض.

ولما مات ملك بعدَه ولدُه الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي(٤). وكان والده قد حلّف له العساكر وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية(٥) وقلعة سوس(٦) وأمر أن يتولى تدبير دولة القاهر فتاه بدر الدين لؤلؤ، فقام بتدبير الدولة والنظر في مصالحهما. واستمر الملك القاهر في الملك إلى سنة خمس عشرة وستمائة، فتوفي في ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول منها، فكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر. وكان كريمًا قليل الطمع في أموال رعيته مقبلاً على أمرائه. وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ملك الموصل، بوصية من أبيه. وكان عمره يوم ذاك عشر سنين. وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ فقام أحسن قيام وراسل الملوك أصحاب الأطراف المجاورين له، وطلب منهم تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت اتفقت بينهم وبين أبيه، فوافقوه. وكتب إلى الديوان العزيز، فجاءته الخلع والتقليد من الخليفة بولاية نور الدين. ونظر بدر الدين في أمور الدولة فلم يلبث نور الدين إلى أن توفي في هذه السنة.

---

(١) عن سيرته وأخباره انظر التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٨٥.
(٢) أخباره: في التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص١٨٩ ـ ١٩٠.
(٣) في الأصل «سبعة عشر».
(٤) «هو أبو الفتح» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٦١٥.
(٥) عقر الحميدية: أو العقر: قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٣٦.
(٦) قلعة سوس: بضم أوله وسكون ثانيه، وبلدة السوس واقعة ما وراء النهر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٨٠.

ولما مات استخلف بدر الدين لؤلؤ العساكر لأخيه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه، وله من العمر ثلاث سنين. واستمر بدر الدين لؤلؤ في تدبير الدولة، فتجدد طمع عز الدين زنكي بن مسعود ومظفر الدين عمّيه في ملك الموصل لصغر سنه، فجمعا الرجال وتجهزا للحركة، وقصدا أطراف الموصل بالنهب والفساد، فخرج إليهم بدر الدين لؤلؤ بعساكر الموصل، والتقوا، فكانت الهزيمة على العسكر البدري، وعاد إلى الموصل وتبعه مظفر الدين، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك واستقر كل واحد على ما بيده. ثم ملك عماد الدين قلعة كواشي[(١)] وهي من أحسن قلاع الموصل.

ثم مات ناصر الدين محمود بعد مدة يسيرة، واستقر بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتلقب بالملك الرحيم ودامت أيامه إلى أن توفي في سنة سبع وخمسين وستمائة، فكانت مدة ملكه نحو أربعين سنة، وملك بعده أولاده، فكان الذي استقل بملك الموصل من أولاده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل، قتله التتار في سنة تسع وخمسين وستمائة، وملك ولده الملك المجاهد سيف الدين إسحاق بلاد الجزيرة؛ وملك الملك المظفر علاء الدين على سنجار. ولما استولى التتار على هذه الممالك وصل هؤلاء إلى الديار المصرية المحروسة في أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وجهزهم صحبة الخليفة المستنصر بالله؛ فكان من أمره وأمرهم ما ذكرناه ونذكره إن شاء الله تعالى؛ فلنرجع إلى ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن مودود.

ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر

استقر ملكه بسنجار بعد وفاة أبيه واستقلال أخويه سيف الدين غازي ثم عز الدين مسعود بملك الموصل، ثم تعوض عماد الدين بحلب عن سنجار كما قدمنا ذكره في أخبار عز الدين مسعود. ثم أخذ الملك الناصر يوسف[(٢)] منه حلب، وعوضه عنها بسنجار وربض الخابور والرقة، على ما نبينه إن شاء الله في أخبار الملك الناصر فاستقر ملكه أخيرًا بسنجار وما معها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة ولم يزل بها إلى

---

(١) قلعة كواشي: بالفتح: قلعة حصينة في الجبال الواقعة شرقي الموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٨٦.

(٢) ترجمته وأخباره في: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١١ و١٢ في صفحات متفرقة حسب تسلسل الأحداث. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٣ - ١٠٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج٧، ص١٣٩، رقم ٨٤٦.

أن توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة وكان عادلاً حسن السيرة في رعيته عفيفًا عن أموالهم، كثير التواضع، يحب أهل العلم والدين، ويجلس معهم، ويرجع إلى آرائهم إلا أنه كان شديد البخل.

ولما مات ملك بعده ولده قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي. وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برنقش مملوك أبيه، وكان ديِّنًا خيِّرًا عادلاً حسن السيرة(١). واستمر ملك قطب الدين بسنجار إلى سنة ست عشرة وستمائة، فتوفي في ثامن صفر منها. وكان كريمًا حسن السيرة في رعيته كثير الإحسان إليهم. وكان قد سلّم الأمور إلى نوابه.

ولما مات ملك بعده ابنه عماد الدين شاهان شاه بن محمد. ولما ملك سار بعد شهور إلى تلعفر(٢)، وهي في مملكته فدخل عليه أخوه عمر بن محمد في جماعة فقتلوه.

وملك عمر بن محمد ـ وهو فروخ شاه ـ فبقي بسنجار إلى أن أخذها الملك الأشرف في سنة سبع عشرة وستمائة، وعوضه عنها الرقة. وهو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكي، فكانت مدة ملكهم لها أربعًا وتسعين سنة. وتوفي بعد أخذها منه بقليل. فلنذكر أخبار أولاد غازي.

ذكر أخبار معز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي(٣)

ملك جزيرة ابن عمر بعد وفاة والده في صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة. وكان كثير الأذى لعمه عز الدين مسعود، فحاصر مسعود في سنة سبع وثمانين أربعة أشهر(٤)، واستقرت القاعدة بينهما(٥) على أن يكون لكل منهما نصف أعمال الجزيرة، وتكون الجزيرة بيد سنجر شاه في جملة النصف. ودام ملكه بالجزيرة إلى أن قتل.

---

(١) عن حسن سيرته انظر التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، ص١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) هكذا في الأصل. و«تل أعفر» في الكامل لابن الأثير، ج١٢ ص٣٥٥.
تل أعفر: هو اسم قلعة حصينة بين سنجار والموصل، العامة تقول تل أعفر، أما الخاصة فتقول تل يعفر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٦٠ ـ ٦٢.

(٤) «أربعة أشهر وأيامًا آخرها شعبان» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٦٢.

(٥) أي «بين عز الدين وسنجر شاه على يد رسول صلاح الدين» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٦٢.

ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود(١)

كان قتله في سنة خمس وستمائة على يد ولده غازي(٢). وسبب ذلك أن سنجر شاه كان سيىء السيرة في رعيته وأولاده وجنده وغيرهم، فكان من جملة ما اعتمده مع أولاده أنه بعث ابنيه(٣) محمودًا ومودودًا إلى قلعة فرح(٤) من بلد الزَّوَزان(٥) وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة أسكنه بها ووكل به من يمنعه من التصرف وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليها من البستان الحيات والعقارب وغير ذلك من الحشرات، فاصطاد غازي حية وسيّرها إلى أبيه لعله يرقّ له ويعطف عليه، فلم يزده إلا تماديًا وإصرارًا. فعندها أيس من خيره وأعمل الحيلة حتى نزل من الدار، ووضع إنسانًا كان يخدمه أظهر أنه غازي، وخرج من بلاد الجزيرة وقصد الموصل. فشاع الخبر أن غازي قد توجه إلى الموصل وهو مختلف بالجزيرة ما خرج منها، ثم أعمل الحيلة وتسلق فنزل إلى دار أبيه، فستر عليه سراري والده لبغضهم في أبيه. ثم اتفق أن والده شرب في بعض الأيام وسكر ودخل الخلاء، فضربه ابنه غازي هذا بسكين فقتله(٦)، ثم ذبحه وتركه ملقى وقعد يلعب مع الجواري. فخرج بعض الخدم الصغار إلى باب الدار وأعلم أستاذ الدار بالخبر فأحضر أعيان الدولة، وعرّفهم الأمر وأغلق الأبواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه ودخل على غازي فمانع عن نفسه ثم قتلوه ورمي على باب الدار، وأكلت الكلاب بعضه ودفن باقيه.

ووصل محمود إلى البلد وملكه ولُقّب معزّ الدين لقب أبيه. وغرّق الجواري(٧) اللواتي اتفقن مع غازي على قتل أبيه في دجلة. ثم قتل محمود أخاه مودودًا بعد مدة يسيرة.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٧٩.

(٢) «ولقد سلك ابنه في قتله طريقًا عجيبًا يدل على مكر ودهاء» ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٨٠.

(٣) في الأصل «ابناه».

(٤) لم ترد في معجم البلدان لياقوت الحموي. وإنما ورد: قلعة برخ ضمن قلاع كورة زوزان.

(٥) زوزان: بفتح أوله وثانيه: كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان، وديار بكر والموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٥٨.

(٦) «فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٨١.

(٧) قال ابن الأثير: «ولقد حدّثني صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع جواري مغرّقات، منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار، فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدّثتني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه أن محمودًا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها في النار، فإذا احترقت ألقاها في دجلة، وباع من لم يغرّقه منهنّ» الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٨١.

ثم استقرت هذه الممالك الجزيرية وغيرها في يد بدر الدين لؤلؤ وهو الملقب بالملك الرحيم، وملك أولاده من بعده إلى أن استولى عليها التتار في سنة سبع وخمسين وستمائة. هذا ملخص ما وصل إلينا من أخبار هذه الدولة فلنذكر ما عداها.

الباب الحادي عشر
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار الدولة الخوارزمية
والدولة الجنكزخانية

الدولة الخوارزمية هي من أعظم الدول الإسلامية والدولة الجنكزخانية هي دولة التتار وإنما جمعناهما في باب واحد لتعلق كل دولة منهما بالأخرى، ولأن الدولة الخوارزمية انقرضت عند قيام الجنكزخانية، وغلبة جنكزخان التمرجي على البلاد على ما نشرح ذلك إن شاء الله تعالى في مواضعه.

ذكر أخبار الدولة الخوارزمية وابتداء أمر ملوكها وظهورهم وما استولوا عليه من البلاد والأقاليم وما كان بينهم وبين الملوك من الحروب والوقائع

وهذه الدولة هي من جملة فروع الدولة السلجقية[1] لأن أصل البيت الخوارزمي من مماليك أحد أمراء الدولة السلجقية، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى. ولنبدأ بذكر ابتداء أمر ملوكها. وأول من نبغ منهم وترشح للولايات وما وليه وكيف تنقلت بهم الحال إلى أن ملكوا أقاصي البلاد وأدانيها وما آل إليه أمرهم إلى حين انقراض دولتهم، فنقول:

أول من نبغ منهم خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين[2] ولي خوارزم من قبل أمير

---

(١) انظر معجم الأنساب لزمباور، ج٢، ص٣١٦، والسلاجقة في التاريخ والحضارة للدكتور أحمد كمال الدين حلمي، ص١١٣.

(٢) «نوشتكين» في كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٤ و«أنوشتكين غرشحة» في الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١٠، ص٢٦٧، «أتستكين» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٣، ص٣٩٤.

داذ[١] حبشي متولي خراسان في شهر رجب سنة تسعين وأربعمائة وأبوه أنوشتكين مملوك الأمير تلكاتك[٢] أحد أمراء السلجقية، اشتراه من رجل من غَرْشِستان[٣] وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف فكبر وعلا محله، ولد له محمد هذا، فانتشأ أحسن نشأة، وتعلّم وتدرّب، وتقدم بنفسه كما قيل: نفس عصام سودت عصامًا. ولحظته العناية الأزلية لظهور ما هو كامن في الغيب.

وكان سبب ولايته خُوارِزم أنه لما ولي أمير داذ حبشي خراسان كان خوارزم شاه البلخي قد قُتل[٤] فنظر الأمير حبشي فيمن يوليه خوارزم، فوقع اختياره على محمد[٥] هذا، فولاه خوارزم، ولقبه خوارزم شاه[٦] على عادة ولاة خوارزم فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها، وقرب أهل العلم والدين، فازداد ذكره حسنًا وظهر اسمه، وعلا محله فلما ملك السلطان سَنْجر شاه السلجقي خراسان أقر محمد على ولاية خُوارِزم وظهرت كفايته فعظم محله عند السلطان سَنْجر، واصطلى حرب الأتراك بنفسه، وهزمهم ودام في ولاية خُوارِزم إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وولي بعده ولده إتسز[٧] بن محمد.

---

(١) في الأصل «دار» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٦٧.
(٢) اسمه «بلكباك» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٦٧.
(٣) غرشستان: بالفتح ثم السكون: ولاية تقع هراة في غربيها والغور في شرقيها ومرو في شمالها. غزنة في جنوبها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٩٣.
(٤) «خوارزم شاه أكنجي» في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٦٧.
(٥) بدأ أبوه أنوشتكين ملكه سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م وتوفي تاركًا تسعة أولاد وأحفاد حكموا مدة ١٣٨ عامًا. انظر السلاجقة في التاريخ والحضارة للدكتور أحمد كمال الدين حلمي ص١١٤ حاشية ١، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٩٥، وفيه أن أنوشتكين كان يشغل وظيفة «الساقي» في بلاط ملكشاه السلجوقي. وكانت هذه الوظيفة من أهم وظائف البلاط. فهو الذي يشرف على الأسمطة التي تقام في الأعياد والمواسم وعند استقبال سفراء الملوك كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده. وانظر في هذا «صبح الأعشى للقلقشندي» ج٥، ص٤٦٩.
(٦) محمد بن نوشتكين هو المؤسس الحقيقي للدولة الخوارزمية وليس نوشتكين. انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ أحمد حمدي، ص١٩، حاشية ٥.
(٧) يرسمه ابن الأثير إتسز، الكامل، ج١٠، ص٢٦٨ أخبار إتسز في الكامل لابن الأثير، ج١٠، ص٢٦٧، ج١١، ص٨٧ تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ص٢٥٧، الدولة الخوارزمية والمغول الحافظ حمدي ص٢٠.

ذكر أخبار خُوارِزم شاه إتسِز بن محمد

ولي خُوارِزم من قبل السلطان سَنجر بعد وفاة أبيه. وكان قد انتشأ في حياة أبيه، وقاد الجيوش، وقصد بلاد الأعداء وقاتلهم وملك مدينة منقشلاغ[١]. فلما مات أبوه ولاه السلطان بعده، فأفاض العدل، وأمن البلاد، فأحبه السلطان سَنْجر وقربه وأدناه وعظمه واعتضد به، واستصحبه معه في أسفاره وحروبه؛ فظهرت كفايته فزاده تقدمًا وتقريبًا. ولم يزل عنده في هذه المنزلة إلى أن فسد ما بينهما واقتتلوا على ما نذكره.

ذكر الحرب[٢] بين خوارزم شاه إتسِز والسلطان سنجر السلجقي. واستيلاء سنجر على خوارزم، وما كان من أمر إتسِز إلى أن استقر الصلح بينه وبين السلطان سَنْجر

وكانت الحرب بينهما في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. وسبب ذلك أن السلطان بلغه أن خُوارِزم شاه إتسِز قد عزم على الخروج من طاعته والامتناع عليه، فقصد خُوارزم بعساكره فلما قاربها جمع أتسز عساكره وخرج لقتاله. والتقوا، فلم يكن له قبل بعساكر سنجر لكثرتها، فانهزم هو ومن معه وقتل من أصحابه خلق كثير، وقتل له ولد، فوجد إتسز عليه وجدًا عظيمًا.

ولما انهزم السلطان إتسز ملك سنجر خوارزم وأقطعها لابن أخيه سليمان شاه بن محمد على ما قدمناه في أخبار الدولة السلجقية، ثم عاد السلطان إلى مرو فجمع خوارزم شاه أصحابه ورجع إلى خوارزم فأعانه أهلها على ملكها، ففارقها سليمان شاه ومن معه، ورجع إلى عمه السلطان سنجر، واستحكمت العداوة بين السلطان سنجر وأتسز، وعلم أتسز أنه لا قبل له به، فكاتب ملك الخطا[٣] بما وراء النهر، وحثه على

(١) مدينة منقشلاغ: بالفتح ثم السكون ثم فتح القاف «قلعة حصينة في آخر حدود خوارزم» ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢١٥.

(٢) لم يقتصر تراشق هاتين القوتين على السهام والنبال بل تعداها إلى ميدان الشعر والأدب، فكان لكل فريق شاعره الخاص اختص بمديح صاحبه وهجو عدة فكان شاعر إتسز رشيد الدين وطواط. والأنوري شاعر السلطان سنجر. حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ٢١.

(٣) الخطا: قبائل من الأتراك استقروا غرب إقليم التركستان حيث كوّنوا دولة هي مملكة الخطا وذلك في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وأطلق عليهم المغول اسم القرا خطائين. وقره لفظ تركي معناه أسود. المغول في التاريخ: فؤاد عبد المعطي الصياد القاهرة ١٩٦٠، ص٢٩.

المسير لقتال السلطان سنجر وأطمعه في ملك بلاده. فسار ملك الخطا في ثلاثمائة ألف فارس، وكان من انهزام سنجر، ومُلك الخطا ما وراء النهر ما قدمنا ذكره في أخبار سنجر[١]، وذلك في سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

ولما تمت الهزيمة على سنجر استولى خوارزم شاه أتسز على البلاد وقصد خراسان فوصل إلى سرخس[٢] في شهر ربيع الأول من السنة ورحل منها إلى مرو الشاهجان[٣]، فنزل بظاهر البلد واستدعى الفقهاء والأعيان، فثار عامة مرو، وقتلوا بعض أصحاب خوارزم شاه وأخرجوهم من البلد، وأغلقوا أبوابه واستعدوا للامتناع، فقاتلهم، ودخل البلد في سابع عشر الشهر، وقتل جماعة كثيرة من أعيان البلد، وعامتهم واستصحب جماعة من فقهائها معه، وسار في شوال إلى نيسابور فخرج إليه جماعة من العلماء والفقهاء والزهّاد، وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو. فأجابهم إلى ذلك، وأخذ أموال أصحاب السلطان جميعها، وقطع خطبة سنجر وخطب لنفسه، وسيّر جيشًا إلى أعمال بيهق[٤] فقاتلوا أهلها خمسة أيام ثم ساروا ينهبون البلاد.

واستمرت حال خوارزم شاه أتسز إلى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة فجمع السلطان عساكره وسار إلى خوارزم، فتحصن إتسز بها، وجمع عساكره ولم يخرج من المدينة. وكان القتال[٥] يقع بينهما من وراء السور. ثم راسل السلطان فعفا عنه وبذل له الأموال فأجابه إلى ذلك على قاعدة استقرت بينهما وعاد سنجر إلى مرو[٦].

واستقر خوارزم شاه بخوارزم، إلى أن مات وكانت وفاته في تاسع جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[٧]. وكان قد أصابه فالج فعالجه الأطباء منه فلم يبرأ فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير رأي الأطباء، فاشتد مرضه وضعفت قوته

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٨١.

(٢) سرخس: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم فتح الخاء، مدينة قديمة من نواحي خراسان بين نيسابور ومرو. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨.

(٣) مرو الشاهجان: مرو العظمى، أشهر مدن خراسان، ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٥، ص١١٢.

(٤) بيهق: بالفتح، ناحية كبيرة كثيرة البلدان، من نواحي نيسابور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٣٧.

(٥) عن القتال بين سنجر وأتسز انظر: الدولة السلجوقية والمغول لحافظ حمدي ص٢٠ ـ ٢٣، وتاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ص٢٥٧.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٩٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٢٠٩.

فمات. ولهج عند موته بقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] وكان حسن السيرة، كافًا عن أموال رعيته، محبوبًا إليهم.

ولما توفي ملك بعده أحد أولاده[١]، فقتل نفرًا من أعمامه وسمل أخًا له، فمات بعد ثلاثة أيام، وقيل بل قتل نفسه. وملك بعده أيل[٢] أرسلان بن أتسز بن محمد، وأرسل إلى السلطان سنجر، وبذل له الطاعة والانقياد لأمره. فكتب له منشورًا بولاية خوارزم، وسيّر إليه الخلع في شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وذلك بعد هرب سنجر من أسر الغزو، وعوده إلى مرو واستقرار ملكه. فأمن أيل أرسلان بهذه الولاية واستمر إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة فتوفي بعد عوده من قتال الخطا[٣]. ولما مات ملك بعده ولده السلطان شاه.

ذكر ملك سلطان شاه محمود بن أيل أرسلان ابن إتسز بن محمد، وإخراجه من الملك، وملك أخيه علاء الدين تكش

لما مات أيل أرسلان ملك بعده ولده سلطان شاه محمود، ودبرت والدته المملكة والعساكر. وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيمًا بجند[٤] وكان والده أقطعها له، فأنف من تولية أخيه الصغير وتقديمه عليه، وقصد ملك الخطا بما وراء النهر، واستمده على أخيه، وأطمعه في الأموال والذخائر، فجهز معه جيشًا كثيفًا. فلما قارب خوارزم، خرج منها سلطان شاه وأمه، وسارا إلى المؤيد صاحب نيسابور واستنجداه. ودخل علاء الدين تكش خوارزم وملكها بغير قتال.

ولما اجتمع السلطان شاه وأمه بالمؤيد أهديا له هدايا جليلة، وأطمعاه في الذخائر والأموال، فجمع جيوشه وسار حتى بقي من خوارزم على عشرين فرسخًا، فتقدم إليهم تكش بعساكره، فانهزم المؤيد، ثم أخذ أسيرًا وجيء به إلى خوارزم شاه

(١) «ابنه أرسلان» ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١١، ص٢٠٩.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٣٧٧. أيل أرسلان بن أتسز بن محمد: يعتبره بعض المؤرخين أولى سلاطين الخوارزميين المستقلين، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٢.
(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١١، ص٣٧٧.
(٤) جند: اسم مدينة في بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٦٨.

تكش، فقتل بين يديه صبرًا. وهرب سلطان شاه إلى دهستان[(١)]. فقصده تكش، وافتتح المدينة عنوة، وهرب سلطان شاه منها، وأخذت أمه فقتلها تكش، وعاد إلى خوارزم وتوجه سلطان شاه إلى غياث الدين ملك الغز فأكرمه وعظّمه.

قال: ولما ثبت قدم علاء الدين في الملك ترادفت عليه رسل ملك الخطا بالتحكم في بلاده، وطلب الأموال والمقترحات، لأنهم رأوا أنهم هم الذين ملكوه، فأنفت نفسه من ذلك، وداخلته حمية الإسلام والملك، فقتل أحد أقارب ملك الخطا، وأمر وجوه أهل خوارزم أن يقتل كل رجل منهم واحدًا من الخطا ففعلوا. ونبذ عهد ملك الخطا فبلغ ذلك سلطان شاه، فسار إلى ملك الخطا، واستنجده على أخيه[(٢)] وزعم أن أهل خوارزم معه، وأنه إذا وصل إليهم سلموا إليه البلد، فجهز معه جيشًا كثيفًا من الخطا، فسار بهم وحصر خوارزم، فأمر تكش بإجراء ماء جيحون عليهم، فكادوا يغرقون، فرحلوا عن البلد ولم يبلغوا منها غرضًا، وندموا على قصدهم خوارزم.

ولم يزل سلطان شاه مشردًا في البلاد، تارة عند الخطا، وتارة عند غياث الدين، وكرة ينار بالخطا على مرو وسرخس إلى أن مات في شهر رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة[(٣)].

ذكر ملك تكش مدينة بخارى من ملك الخطا[(٤)]

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة جهز ملك الخطا جيشًا كثيفًا لحصر خوارزم، فحصروها: فكان خوارزم شاه يخرج إليهم في كل ليلة ويقتل منهم خلقًا كثيرًا، حتى أتى على أكثرهم، فدخل من بقي منهم إلى بلادهم. ورحل تكش في آثارهم، وقصد مدينة بخارى فنازلها، فقاتله أهلها مع الخطا. وانتهى حالهم في نكايته أنهم أخذوا كلبًا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه وكان تكش أعور - وطافوا بالكلب على السور، ثم رموه بالمنجنيق، وقالوا للعسكر هذا ملككم. ثم ملك تكش البلد عنوة بعد أيام يسيرة وعفا عن أهله، وأحسن إليهم وفرق فيهم مالاً كثيرًا. وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم.

---

(١) دهستان: بكسر أوله وثانيه، بلد مشهور قرب خوارزم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٢.

(٢) «علاء الدين أتكش» ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٣٧٨.

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١٢، ص١٠٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص١٣٧.

وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة وصلت الخلع من جهة الخليفة إلى خوارزم شاه تكش ولولده قطب الدين محمد وتقليد بما بيده من البلاد، فلبسا الخلع، واشتغل تكش بقتال الملاحدة(١) فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان كشاي وانتقل إلى حصار الموت. ثم عاد إلى خوارزم، وأمر ولده قطب الدين بحصار قلعة ترشيش(٢) من حصون الملاحدة فحصرها فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار ففارقها، وأجابهم إلى الصلح لما بلغه من مرض أبيه. ورحل عنها وعاد إلى خوارزم فمات والده قبل وصوله إليه.

ذكر وفاة خوارزم شاه تكش(٣)

كانت وفاته في العشرين من شهر رمضان سنة ست وتسعين وخمسمائة بشهرستانة(٤) بين نيسابور وخوارزم. وكان قد سار من خوارزم لقصد خراسان وبه مرض الخوانيق، فاشتد مرضه ومات. ولما اشتد به المرض أرسل من معه إلى ولده قطب الدين يستدعونه، فوصل بعد وفاة أبيه، وتولى الملك، ولقب بلقب أبيه علاء الدين خوارزم شاه، وأمر بحمل أبيه إلى خوارزم، فحمل إليها ودفن في تربة كان قد عملها في المدرسة التي بناها، وكان عادلاً حسن السيرة وله معرفة وعلم. وكان حنفي المذهب ويعرف الأصول رحمه الله تعالى.

ذكر أخبار السلطان علاء الدين أبي الفتح محمد ابن علاء الدين تكش بن ألب أرسلان بن أتسز ابن محمد بن أنوشتكين(٥)

وهو الذي عظم من ملوك هذه الدولة شأنه، وكثرت جيوشه وأعوانه، وشاع بين

---

(١) هم الإسماعيلية الباطنية سموا بالباطنية لأنهم يظهرون غير ما يبطنون. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٣٠٩.

(٢) في الأصل برشيش. وترشيش: بضم التاء، وسكون الراء، ناحية من أعمال نيسابور وتكتب أيضًا ترثيث. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢.

(٣) انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج١٢، ص١٥٧.

(٥) هو خوارزمشاه علاء الدين محمد تولى الحكم من ٥٩٦ إلى ٦١٧هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢٢٠م، ملك من حد العراق إلى تركستان. انظر ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٧١، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص٩٨ ـ ٩٩.

الملوك ذكره، وعمّ الممالك نهيه وأمره، واجتمع في ملكه ما افترق لغيره من الممالك، وتسهل لديه ما شسع على من سواه من المسالك، ودان لطاعته ملوك الأقطار، فتساوى عنده الآمر والمأمور، والمملوك والمالك.

قال شهاب الدين محمد بن أحمد بن علي المنشي النسوي(١) في تاريخه، أنه ضم إلى ما ورثه من أبيه من ملك خراسان وخوارزم والعراق ومازندران(٢)؛ وضم إلى هذه الواسطة كرمان ومكران وكيش وسجستان وبلاد الغور وغزنة وباميان(٣) إلى ما يليها من الهند بأغوارها وأنجادها، والسيوف مهملة في أغمادها، والعواتق معطلة في نجادها، ملكها بالهيبة عفوًا صفوًا، وملك عن الخطاية(٤) وغيرهم من ملوك الترك، وقروم(٥) ما وراء النهر ما يقارب أربعمائة مدينة. وخطب له على منابر فارس وأران(٦) وأذربيجان إلى ما يلي دربند شروان.

قال: واشتملت جريد ديوان الجيش على ما يقارب أربعمائة ألف فارس، فلما عظم شأنه وتمكن سلطانه تطاول إلى طلب ملك آل سلجوق والحكم ببغداد، وتكررت مراسلاته إلى الخليفة فلم يجب إلى ذلك، فاحتفل بهذا الأمر، فكان من جملة ذلك أن بطل النوب الخمس التي كانت تضرب على أبواب الملوك في أوقات الصلوات الخمس على عادة من تقدمه(٧)، وجعلها إلى أولاد السلاطين يضربونها في الأقاليم التي سماها لهم على أبواب دور السلطنة واختص هو بضرب نوبة الإسكندر ذي القرنين - وهي عند طلوع الشمس وعند غروبها - واستعمل بهذه النوبة سبعًا

---

(١) هو محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي النسوي صاحب كتاب سيرة جلال الدين منكبرتي.

(٢) مازندران: بفتح الميم والزاي وسكون النون اسم لولاية طبرستان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤١.

(٣) باميان: بلدة بين بلخ وغزنة وبها قلعة حصينة ومنها أبو بكر محمد بن علي بن أحمد البامياني المشهور من أهل العلم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٩.

(٤) كتبها النسوي الخطابية. انظر سيرة جلال الدين منكبرتي ص٣.

(٥) قروم: جمع قرم وهو السيد العظيم في قومه. ابن منظور: لسان العرب (قرم).

(٦) أران: بالفتح وتشديد الراء ولاية كبيرة بينها وبين أذربيجان نهر الرس. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، ج١، ص١٣٦.

(٧) تقوم فرقة موسيقية للسلطان بدق نوبات من الطبول في أوقات معينة على أبواب السلاطين وتدق الطبلخانة (وهي عبارة عن طبول متعددة معها أبواق وزمر) في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب. أما نوبة ذي القرنين فتدق في وقتي الشروق والغروب. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٨ و٩.

وعشرين دبدبة من الذهب ورصعها بأنواع الجواهر؛ وكذلك جمع ما يحتاج إليه من الآلات ونص في أول يوم اختاره لضربها على سبعة وعشرين ملكًا من أكابر الملوك وأولاد السلاطين ليسمع بذلك. وكان منهم ابن طغرل السلجقي. وأولاد غياث الدين صاحب الغور وغزنة والهند والملك علاء الدين صاحب باميان والملك تاج الدين صاحب بلخ[(١)]، وولده الملك الأعظم صاحب ترمذ[(٢)]، والملك سنجر صاحب بخارى وأشباه هؤلاء وأعوزه لتمام سبعة وعشرين ملكًا فكملهم بابن أخيه أذبزخان[(٣)] ووزير الدولة نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح، فهؤلاء الذين ضربوها في اليوم الذي اختير لضربها فشغله عن ملك بغداد حادثة التتار، وهي الداهية العظمى؛ على ذكره إن شاء الله تعالى. وها نحن نذكر سياقة أخباره وابتداء سلطنته فنقول:

كان ابتداء ملكه بعد وفاة أبيه[(٤)] في العشر الآخر من شهر رمضان سنة ست وتسعين وخمسمائة. ولما ملك استدعى أخاه علي شاه بن تكش بن أصفهان، فسار إليه فنهب أهل أصفهان خزانته. فلما وصل إلى أخيه ولاه حرب خراسان وتقدم على جندها وسلم إليه نيسابور. قال: وكان هندوخان ابن أخيه ملكشاه بن تكش، فخاف عمه محمد فهرب منه بعد أن نهب كثيرًا من خزائن جده تكش عند وفاته، فإنه كان معه وسار إلى مرو وجمع جموعًا كثيرة، فسيّر إليه عمه جيشًا مقدمه جقر التركي، فهرب هندوخان عن خراسان، وسار إلى غياث الدين ملك غزنة يستنجده على عمه. فأكرمه وأحسن إليه وأقطعه أقطاعًا، وأوعده النصرة، ودخل جقر مدينة مرو وبها والده هندوخان وأولاده، فأرسلهم إلى خوارزم مكرمين، ثم راسل جقر غياث الدين صاحب غزنة في الانضمام إليه ومفارقة الخوارزمية، فأطمعه ذلك في البلاد، وجهز أخاه شهاب الدين لقصد خراسان، والاستيلاء على ما بها من بلاد خوارزم شاه. فسار في جمادى الأولى سنة سبع وتسعين، وملك مرو وسلمها غياث الدين إلى هندوخان بن ملكشاه، وملك سرخس، وملك طوس، وملك نيسابور وبها على شاه أخوه السلطان خوارزم شاه، فسلمه إلى أخيه شهاب الدين على ما قدمناه في أخبار الدولة الغورية.

---

(١) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٧٩.

(٢) ترمذ: بفتح التاء وكسر الميم مدينة مشهورة على الجانب الشرقي لنهر جيحون. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٦.

(٣) ادبزخان: هكذا في الأصل، يرسمها النسوي أربزخان. انظر سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٦٦.

(٤) ملك دولة واسعة تضم خوارزم وبعض البلاد الخراسانية والري وغيرها من بلاد العراق العجمي. انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٥ اتخذ لنفسه لقب أبيه وتسمى علاء الدين محمد. ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥، ص٩٦.

ذكر ملك خوارزم شاه
وما كان الغورية قد ملكوه من بلاده[١]

كان سبب ذلك أن شهاب الدين الغوري[٢] بعد أن ملك ما ملك من بلاد خوارزم شاه، توجه إلى الهند، بعد أن رتب في كل بلد من نوابه من يحفظه ويقوم بمصالحه. فلما توجه إلى الهند راسل خوارزم شاه غياث الدين وعاتبه، وقال في جملة رسالته: إنني كنت أظن أنك تنصرني على من يقصد التطرق إلى بلادي من ملوك الخطا وغيرهم، فحيث لم تفعل فلا أقل أن لا تؤذيني في ملكي. وطلب منه إعادة ما أخذه من بلاده. وقال: ومتى لم تفعل انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك، إن عجزت عن استرجاع بلادي[٣]، إلى غير ذلك من الكلام فأخذ غياث الدين يغالطه في الجواب ويكرر الرسائل، وهو ينتظر خروج شهاب الدين من الهند، فإن غياث الدين كان يعجز عن ملاقاته لما به من النقرس، فجمع علاء الدين العساكر وسار في منتصف ذي الحجة سنة سبع وتسعين وتوجه إلى مرو، فلما قاربها هرب منها ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه وتوجه إلى غياث الدين، وملكها خوارزم شاه، وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين محمد الغوري صهر غياث الدين، وهو الذي كان يلقب ضياء الدين، فقاتله قتالاً شديدًا. وطال مقام خوارزم شاه، فراسله غير مرة في تسليم البلد وهو لا يجيب، رجاء أن يصله المدد من غياث الدين فلما طال عليه الحصار وأيس من وصول الإمداد إليه، راسل في طلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية، فأجابه إلى ذلك وتسلم البلد، وأحسن إلى علاء الدين ومن معه.

ثم سار خوارزم شاه إلى سَرَخس[٤] وبها الأمير زنكي فحصره أربعين يومًا، فضاقت الميرة على أهل البلد، فراسله زنكي أن يتأخر عن باب البلد ليفارقها هو ومن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص١٧٣.

(٢) هو أبو المظفر محمد بن سام الغوري توفي عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٧٠ وانظر «ذكر قتل شهاب الدين الغوري» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢١٢.

(٣) وهذه تتمة الرسالة: «إن عجزت عن أخذ بلادي فإنني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي، وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان، وغيرها» ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص١٧٣.

(٤) سَرَخَس: بفتح أوله وسكون ثانيه، مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨.

معه، واعتذر أنه لا يمكنه الاجتماع به لقرب نسبه من غياث الدين، فتأخر خوارزم شاه عن المدينة وأبعد. فخرج زنكي، وأخذ من الغلات والأقوات والأحطاب التي كانت في العسكر ما يحتاج إليه، وعاد إلى البلد وأخرج منه من كان ضاق به الأمر، فقدم خوارزم شاه على موافقته، ورحل عن البلد، وترك عليه جماعة من أمرائه يحاصرونه. فلما سار خوارزم شاه عن سرخس قصد نائب الغورية بالطالقان(١) أن يكبس العسكر الخوارزمي المحاصر لسرخس. وكتب بذلك إلى زنكي؛ فشعر الخوارزميون بذلك ففارقوا سرخس، فأدركهم نائب الطالقان، وأوقع بهم، وقتل أمير علمهم، وكسر كوساتهم(٢)، فانقطع صوتها عن العسكر، ولم يروا الأعلام، فانهزموا، ونال الغورية منهم منالاً عظيمًا قتلاً وأسرًا.

فلما اتصل هذا الخبر بخوارزم شاه، عاد إلى خوارزم، وكتب إلى غياث الدين وراسله في الصلح، فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له الحسن بن محمد المرغني، ومرغن من قرى الغور(٣)، فقبض عليه خوارزم شاه، وكان أخوه عمر بن محمد المرغني نائب الغورية بهراة. وسار خوارزم شاه إلى هراة بمكاتبة بعض أمرائها، فنما خبر من كاتبه إلى المرغني، فأمسكهم، وأقام خوارزم شاه يحاصر المدينة أربعين يومًا، ثم رجع عنها لما بلغه عود شهاب الدين الغوري من الهند وذلك بعد مصالحة أميرها المرغني على مال حمله إليه.

ولما عاد شهاب الدين من الهند بلغه ما فعله خوارزم شاه في غيبته، وما ملكه من بلاد خراسان، فسار إلى خراسان، فانتهى إلى بلخ ثم إلى باميان وإلى مرو، عازمًا على حربه. فالتقت أوائل عسكريهما، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وتوجه خوارزم شاه شبه المنهزم، وتوجه شهاب الدين إلى طوس فشتا(٤) بها وهو على عزم المسير لمحاصرة خوارزم، فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين، فعاد إلى هراة وجلس للعزاء.

---

(١) الطالقان: اسم لبلدتين كبيرتين. إحداهما بخراسان بين مرو وبلخ، والثانية بلدة بين قزوين وأبهر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٦.

(٢) الكوسة: وجمعها كوسات. هي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير ويدق بأحدهما على الآخر، وكان الضرب بالكوسات من شعائر الملك في العصور الوسطى. القلقشندي، صبح الأعشى ج٤، ص٩، ١٣.

(٣) غور: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره راء جبال وولاية بين هراة وغزنة، وهي بلاد واسعة موحشة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه يسكن الملوك فيها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢١٨.

(٤) في الأصل: فشتى.

واستخلف بطوس محمد بن جريك[١]، فجهز خوارزم شاه من عساكره من حصر طوس[٢] فجرى بينهم وبين النائب بها حروب كثيرة، آخرها أن النائب بها سأل الأمان لنفسه فأمنه منغور[٣] التركي - وهو مقدم العسكر الخوارزمي - فلما خرج إلى العسكر قتلوه، وأخذوا ما معه، وملكوا طوس. واتصل هذا الخبر بشهاب الدين الغوري فعظم عليه، وترددت الرسائل بينه وبين خوارزم شاه، فلم يحصل بينهما اتفاق.

ثم قصد شهاب الدين غزو الهند على عادته، فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازي، وقلد الملك علاء الدين محمد بن علي الغوري بمدينة فيروزكوه[٤] وبلد الغور، وولاه حرب خراسان. وتوجه إلى الهند، فقصد خوارزم شاه مدينة هراة وحاصرها، وذلك في شهر رجب سنة ستمائة. واستمر إلى سلخ شعبان، وكثرت القتلى بين العسكرين، فراسل خوارزم شاه ألب غازي أن يخرج إليه ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه، فلم يجبه إلى ذلك ثم اتفق مرض ألب غازي، واشتد به فخاف أن يشتغل بمرضه، فيملك البلد فأجاب إلى ذلك، واستحلفه على الصلح، وأهدى له هدية جليلة، وخرج من البلد ليخدمه، فسقط إلى الأرض، فمات ولم يشعر به أحد. وارتحل خوارزم شاه إلى سرخس فأقام بها.

قال: ولما اتصل الخبر بشهاب الدين عاد من الهند، وقصد خوارزم، فراسله خوارزم شاه في العود، وتهدده إن لم يعد بحرب هراة، ومنها إلى غزنة، فعاد عليه جوابه أن خوارزم تجمعنا. وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس إلى مرو، ونزل بظاهرها، فلما أتاه جواب شهاب الدين فرق عساكره وأحرق جميع ما معه من العلوفات ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم فسبقه إليها، وقطع الطريق التي تسلكها الغورية بإجراء المياه فيها، فتعذر على شهاب الدين سلوكها، وأقام في إصلاحها أربعين يومًا حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم. والتقى العسكران بسوقرا،

---

(١) في ابن الأثير: ابن جربك. الكامل في التاريخ. حوادث سنة ٥٩٨هـ جزء ١٢ ص١٨٠.

(٢) طوس: هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٩.

(٣) «برفور التركي» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص١٨٠.

(٤) فيروزكوه: هي قاعدة الغور في البلاد الخراسانية، كان تملكها خوارزم شاه وقتل غياث الدين بن غياث الدين بن سام صاحبها ثم تملك الباميان وقتل صاحبها علي بن سام. الحميري الروض المعطار ص٤٤٤.

ومعناه الماء الأسود، وجرى بينهم قتال شديد، كثرت فيه القتلى من الطائفتين، فأرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم على الغورية، وهم حينئذ ملوك ما وراء النهر، فاستعدوا وساروا إلى بلاد الغورية، فبلغ شهاب الدين خبر مسيرهم، فعاد عن خوارزم.

وكان من أمره مع الخطا وقتالهم وهزيمته منهم ما قدمناه في أخباره وذلك في صفر سنة إحدى وستمائة، فلا فائدة في إعادته في هذا الموضع. ولم تطل مدة شهاب الدين بعد ذلك فإنه قتل في أوائل شعبان سنة اثنتين وستمائة، فاستولى خوارزم شاه حينئذ على ما نذكره بخراسان وغيرها.

ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان(١)

كان سبب ذلك أن شهاب الدين الغوري لما قتل كما ذكرنا استقر الملك بعده لغياث الدين بن غياث الدين أخيه ووقع من الاختلاف بين الغورية وافتراقهم ما ذكرناه في أخبارهم، واتفق أن الحسين بن خرميل(٢) والي هراة كاتب خوارزم شاه في الانتماء إليه والخروج عن طاعة الغورية. وشرع يغالط في الخطبة بهراة لغياث الدين وهو ينتظر وصول العسكر الخوارزمي إليه، فراسله غياث الدين في الخطبة له، وجهز إليه الخلع فلبسها ابن خرميل وأصحابه ووعد بالخطبة له في يوم الجمعة. فلما كان في يوم الجمعة قرب العسكر الخوارزمي من هراة فطالبه رسل غياث الدين بالخطبة، فقال نحن في أشغل من ذلك بقرب هذا العدو.

ولما وصل العسكر الخوارزمي تلقاهم ابن خرميل وأنزلهم بظاهر هراة، وجهز إليهم الإقامات، فقالوا قد رسم لنا خوارزم شاه أن نطيعك ولا نخالف أمرك، فشكرهم على ذلك. ثم بلغه أن خوارزم شاه نزل على بلخ وحاصرها، وأن صاحبها قاتله بظاهر البلد، وأنه نزل على أربعة فراسخ منها، فاستدل ابن خرميل بذلك على عجزه، وندم على مراسلته، وقال للعسكر إن خوارزم شاه قد صالح غياث الدين والمصلحة أن ترجعوا، فرجعوا. واتفق أن غياث الدين بلغه ما فعله ابن خرميل، فاحتاط على اقطاعه وقبض على من يلوذ به، فوصل الخبر إليه بذلك فأعاد العسكر الخوارزمي بعد رحيله بيومين وسلم لهم البلد، وأخرج من كان بها من الغورية، ومن

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٢٢٦.

(٢) في الأصل: «الحسين بن جرميل» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٢٦.

يميل إليهم، ثم ملك خوارزم شاه مدينة بلخ في سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة صلحًا، بعد حروب كثيرة بينه وبين عماد الدين. وخلع خوارزم شاه عليه، وأقره بالبلد ثم سار عنها إلى جرزبان(١)، وبها علي بن أبي علي، فراسله وآيسه من نجدة غياث الدين، فنزل عنها وسلمها له، وتوجه إلى غياث الدين وسلّم خوارزم شاه جرزبان إلى ابن خرميل فإنها كانت إقطاعه، ثم قبض على عماد الدين صاحب بلخ وسيّره إلى خوارزم، واستناب ببلخ جقر التركي.

ذكر مُلكه ترمذ وتسليمها للخطا(٢)

قال: ثم سار خوارزم شاه(٣) من مدينة بلخ إلى ترمذ مجدًا، وبها ولد عماد الدين صاحب بلخ، فراسله في تسليمها، ووعده الخير، واعتذر من إرسال أبيه إلى خوارزم أنه أنكر منه حاله، وأنه سيّره مكرمًا، فرأى ابن عماد الدين أن خوارزم شاه قد حاصره من جانب والخطا حاصروه من جانب، فضعفت نفسه وسلم البلد، بعد أن استحلف خوارزم شاه على الوفاء له. ولما تسلم خوارم شاه البلد، سلمها للخطا خديعة منه ليتمكن من ملك خراسان.

وفي سنة اثنتين وستمائة، سار من عسكر خوارزم شاه عشرة آلاف فارس إلى بلد الجبل، فوصلوا أرزنكان، وكان صاحبها أيتغمش قد اشتغل بحرب صاحب أربل ومراغة، فاغتنموا خلو البلاد وأفسدوا وقتلوا ونهبوا، ثم عاد أيتغمش فأوقع بهم، فانهزم الخوارزميون، وأخذهم السيف من كل جانب.

ذكر ملكه الطالقان

قال: ولما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا سار إلى اندخوي(٤) وكان النائب بها عن غياث الدين سونج أمير شكار، فاستماله خوارزم شاه، فأبى إلا القتال، وبرز لقتاله فالتقوا بالقرب من الطالقان. فلما تقابل العسكران حمل سونج بمفرده حتى

---

(١) جرزبان: بضم الجيم وسكون الراء وضم الزاي بلدة في الجبل قرب الطالقان، جبلها متصل بجبل الغور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٣١.

(٣) أرسل خوارزم شاه محمد بن علي بن بشير إلى ابن عماد الدين يقول له: «إن أباك قد صار من أخص أصحابي وأكابر أمراء دولتي وقد سلم إلي بلخ وإنما ظهر لي منه ما أنكرته، فسيرته إلى خوارزم مكرمًا محترمًا وأمّا أنت فتكون عندي أخًا» ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٢٣١.

(٤) في الأصل اندجوى، والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١٢.

قارب عسكر خوارزم شاه، وألقى نفسه إلى الأرض، ورمى سلاحه، وقبّل الأرض، وسأل العفو عنه. فذمه خوارزم شاه وسبّه، وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب، وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول، وأراد بذلك التقرب إليه وملاطفته. واستناب بالطالقان بعض أصحابه، ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا.

قال: وتوجه ابن خرميل نائب خوارزم شاه بهراة إلى أسفِزار(١) في صفر سنة ثلاث وستمائة. وكان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين فحصرها وتسلمها في شهر ربيع الأول من السنة بالأمان. ولما أخذها أرسل إلى صاحب سجستان يدعوه إلى طاعة خوارزم شاه، والخطبة له ببلاده، فأجابه إلى ذلك وخطب له.

ذكر أسر خوارزم شاه وخلاصه

وفي سنة أربع وستمائة عبر السلطان علاء الدين خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا. وسبب ذلك أنهم كانت قد طالت مدتهم ببلاد تركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم على الناس. وكان لهم في كل مدينة نائب يجبي لهم الأموال وهم يسكنون الخركاهات(٢) على عادتهم قبل الملك. وكان مقامهم بنواحي أوزكند(٣) وبلاساغون(٤) وكاشغر(٥) فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارى ويلقب قان قانان ومعناه سلطان السلاطين، وهو من أولاد الملوك الخانية عريق في الإسلام والملك، أنف من تحكم الكفار الخطا على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يحثه على قصد الخطا وقتالهم، وأنه يكون معه عليهم، ويحمل إليه ما يحمله إليهم، ويخطب له ببلاده،

(١) أسفزار: بفتح الهمزة وسكون السين، والفاء تضم أو تكسر: مدينة من نواحي سجستان من جهة هراة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٧٨.

(٢) الخركاه: الجمع خركاوات: وهي كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة تُغشى بالجوخ ونحوه، وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٨ محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١١٧.

(٣) أوزكند: بضم أوله، بلد بما وراء النهر من نواحي فرغانة، ويقال له أوزجند، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٨٠.

(٤) بلاساغون: بلد عظيم وراء نهر سيحون قريب من كاشغر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٧٧.

(٥) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق وسط بلاد الترك، ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٣٠.

ويضرب السكة باسمه، وحلف له على ذلك، وسيّر إليه أكابر بخارى وسمرقند. فاستوثق خوارزم شاه منه وأخذ في إصلاح بلاده وتقرير النواب بها، وصالح غياث الدين محمود الغوري على ما بيده ثم جمع العساكر وسار إلى خوارزم، وتجهز منها وعبر جيحون. واجتمع بسلطان سمرقند، فاجتمع الخطا، وجاء إليه. وكان بينهم حروب كثيرة تارة له وتارة عليه، ودامت على ذلك مدة، فاقتتلوا في بعض الأيام فانهزم عسكره، وقتل منهم وأسر جماعة، فكان من أسر خوارزم شاه، أسر هو وابن شهاب الدين مسعود وهو من أكابر أمرائه، أسرهما رجل واحد. ووصلت العساكر الخوارزمية إلى خوارزم وقد فقدوا السلطان فاتصل الخبر بكزلك[١] خان والي نيسابور وكان إذ ذاك يحاصر هراة بعد قتل ابن خرميل على ما نذكره، ففارق هراة وتوجه إلى نيسابور وكان خوارزم شاه لما ملكها من الغورية خرب سورها فشرع في إصلاحه وشحنها بالجند واستكثر من الميرة وعزم على الاستيلاء على خراسان، إن صح له فقد السلطان. واتصل خبر خوارزم شاه بأخيه علي شاه وهو بطبرستان فدعا لنفسه وقطع خطبة أخيه واستعد لطلب السلطنة.

هذا ما كان من أولئك، وأما خوارزم شاه فإنه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود: «المصلحة أن تصير خادمًا لي في هذه المدة لأتحيل في خلاصك» فصار خوارزم شاه يخدمه، ويقف بين يديه، ويلبسه قماشه، ويطويه إذا قلعه، ويقدم له الطعام، ويعامله معاملة الغلمان. فقال الذي أسرهما لابن مسعود: «أرى هذا يخدمك» فقال: «هو غلامي» قال: «فمن أنت» قال: «أنا فلان» فأكرمه الخطاي وعظمه وقال له: «لولا أن القوم قد عرفوا بمكانك عندي أطلقتك» فشكره ابن مسعود وأعقله أيامًا وقال له: «إني أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يراني أهلي معهم، فيظنون أنني قتلت، فيقتسمون مالي فأهلك، وأحب أن تقرر عليَّ ما تريد من المال، أحمله إليك، فقرر عليه مالاً وقال: «أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً من أصحابك يذهب بكتابي إلى أهلي، ويخبرهم بعافيتي، ويحضر معه المال» ثم قال: إن أصحابك لا يعرفون أهلنا، وهذا غلامي أنا أثق به، ويصدقه أهلي بسلامتي. فأذن الخطاي في إرساله، فجهزه وأرسل معه عدة من الفرسان يحمونه، فسار حتى قارب خوارزم، وعاد الفرسان ووصل خوارزم شاه إلى خراسان، فاستبشروا به وضربت البشائر وبلغه ما فعله أخوه بطبرستان وكذلك خان بنيسابور. فأما كزلك خان فإنه لما بلغه وصوله أخذ أمواله وأهله

(١) كزلك خان: هكذا في الأصل وفي الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٦٠ وهو من أقارب أم خوارزمشاه وأعيان دولته.

وأصحابه وهرب صوب العراق؛ وأما علي شاه فهرب إلى غياث الدين الغوري فأكرمه. ودخل خوارزم شاه إلى نيسابور، وأصلح أمرها، وجعل فيها نائبًا. وأما ابن مسعود فإن الخطاي قال له: «قد عدم خوارزم شاه فهل عندك شيء من خبره» قال: «هو أسيرك» قال: «فلمَ لا أعلمتني به حتى كنت أبالغ في خدمته وأسير بين يديه إلى ملكه؟» قال: خفت عليه منك. فسار الخطاي وابن مسعود إلى خوارزم شاه فأكرمهما إكرامًا كثيرًا وبالغ في الإحسان إليهما.

ذكر قتل الحسين بن خرميل(١) وحصر هراة(٢) وملك فيروزكوه والغور

كان سبب ذلك أن خوارزم شاه لما سار إلى بلاد الخطا ساءت سيرة من بهراة من العسكر الخوارزمي، وتعدوا على الرعية. فقبض ابن خرميل النائب بهراة عليهم وحبسهم، وكتب بذلك إلى خوارزم شاه، فعظم ذلك عليه، وما أمكنه الإنكار عليه لبعده عن البلاد، فكتب إليه يستصوب رأيه فيهم، ويأمره بإنقاذه، إليه لاحتياجه إلى الجند. وقال: «قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل أن يكون عندك لعقله وحسن سيرته، وأرسل إلى جلدك أن يحتال وفي القبض على ابن خرميل» فسار جلدك في ألفي فارس إلى هراة، فخرج إليه ابن خرميل، فنهاه الوزير المعروف بخواجا الصاحب، كان قد حنكته التجارب، وقال: «أخشى عليك أن تكون مكيدة» فخالفه وخرج للقاء جلدك، فلما التقيا ترجلا للسلام؛ فحال جلدك بين ابن خرميل وأصحابه وأمسكه، فانهزم أصحابه ودخلوا مدينة هراة، وأعلموا الصاحب بذلك، فأغلق الأبواب وامتنع على جلدك، فقدم ابن خرميل إلى السور، وخاطب الوزير في فتح الباب، فامتنع وأظهر شعار غياث الدين الغوري، فعندها قتل جلدك ابن خرميل، وكتب إلى خوارزم شاه يعلمه بذلك، فأنفذ خوارزم شاه إلى كزلك خان والي نيسابور، وإلى أمير الدين صاحب زوزن(٣) يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها، فسارا في عشرة آلاف فارس، فعجزا عنها وقال الوزير: «ما أسلمها إلا لخوارزم شاه،

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٦٠.

(٢) هراة: بلد في خراسان. الحميري: الروض المعطار ص٥٩٤.

(٣) زوزن: بضم أوله وقد يفتح، كورة واسعة بين نيسابور وهراة. كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة العلماء والفضلاء الموجودين فيها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٥٨.

إذ أعاد هذا كله قبل أسر خوارزم شاه». فلما أسر وشاع عدمه فارقها كزلك خان إلى نيسابور كما ذكرنا، واستمر من سواه على حصارها فلما عاد خوارزم شاه ودخل إلى نيسابور كما ذكرنا، سار منها إلى هراة، وأحسن إلى العسكر الذي استمر على حصارها وشكرهم، وطلب تسليمها فامتنع الوزير وقال: لا أسلمها إلا إلى غياث الدين. ثم اتفقت فتنة بهراة بين الوزير والجند، فكتب إلى خوارزم شاه من البلد، فزحف عليها وهدم برجين من أبراجها، وأهلها قد اشتغلوا بالفتنة الكائنة بين الوزير والجند، فملكها خوارزم شاه وقبض على الوزير وقتله وذلك في سنة خمس وستمائة. وأصلح حال البلد وسلمه إلى خاله أمير ملك، وهو من أعيان أمرائه، وأمره بالمسير إلى غياث الدين محمود الغوري بفيروزكوه، وأن يقبض عليه وعلى أخيه علي شاه بن تكش، ويأخذ فيروزكوه. فسار إلى فيروزكوه، فاتصل الخبر بصاحبها غياث الدين محمود، فبذل الطاعة وسأل الأمان، فأمنه ونزل غياث الدين إليه، فقبض أمير ملك عليه وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه، وكتب إلى خوارزم شاه بذلك، فأمره بقتلهما فقتلا في يوم واحد، وذلك في سنة خمس وستمائة. وانقرضت الدولة الغورية بقتل غياث الدين هذا واستقامت خراسان لخوارزم شاه.

ذكر عوده إلى بلاد الخطا وظفره بهم وأسر مقدمهم وملكه ما وراء النهر[(١)]

قال: ولما استقر ملك خراسان للسلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد، جمع العساكر وعبر نهر جيحون، وجمع الخطا جمعًا عظيمًا، وكان المقدم عليهم طاينكوه، وهو شيخ دولتهم والقائم مقام الملك فيهم، وكان عمره قد تجاوز مائة سنة، وله خبرة بالحروب. فاجتمع خوارزم شاه ـ هو وصاحب سمرقند ـ والتقوا هم والخطا، وذلك في سنة ست وستمائة. فجرى بينهم حروب كان الظفر فيها لخوارزم شاه وانهزم الخطا وقتل منهم وأسر خلقًا كثيرًا. فكان ممن أسر مقدمهم طاينكوه، فأكرمه خوارزم شاه وأجلسه معه، ثم جهزه إلى خوارزم. وقصد خوارزم شاه بلاد ما وراء النهر، فملكها مدينة بعد أخرى حتى بلغ أوزكند[(٢)]، فجعل نوابه فيها على عادة الخطا

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٦٧.

(٢) أوزكند: بالضم بلد بما وراء النهر ويقال له أيضًا أوزجند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٨٠.

وعاد إلى خوارزم، ومعه سلطان سمرقند. وكان من أحسن الناس صورة، فكان أهل خوارزم يتجمعون حتى ينظروا[١] إليه، فزوجه خوارزم شاه ابنته، ورده إلى سمرقند، وبعث معه شحنة يكون بها على عادة الخطا.

ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين[٢]

قال: ولما عاد صاحب سمرقند إليها ومعه الشحنة، أقام معه سنة، فرأى صاحب سمرقند من سوء سيرة الخوارزميين ما ندم بسببه على مفارقة الخطا، فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه، ويعود إلى طاعته، وأمر بقتل كل من بسمرقند من الخوارزمية، ممن كان بها قديمًا وحديثًا، وأخذ أصحاب خوارزم شاه، فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الأسواق كما يعلق القصاب اللحم. ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ـ ابنة خوارزم شاه ـ فأغلقت الأبواب، ووقفت بجواريها، ومانعت عن نفسها، وأرسلت إليه تقول: «أنا امرأة وقتل مثلي قبيح عليك، وما فعلت معك من الإساءة ما استوجب ذلك منك، ولعل تركي أحمدُ عاقبة، فاتق الله» فتركها ووكل بها من يمنعها من التصرف في نفسها.

ووصل الخبر إلى خوارزم شاه، فعظم عليه، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء، فمنعته أمه من ذلك، وقالت: «هذا بلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل» فأمر بقتل أهل سمرقند فمنعته من ذلك أيضًا، فتركهم. وأمر عساكره بالتجهز إلى ما وراء النهر، وسيرهم أرسالاً، فعبروا جيحون، وعبر هو في آخرهم، وسار حتى نزل على سمرقند. وأنفذ إلى صاحبها يقول: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، واستحللت من دماء المسلمين ما لم يقدم عليه غيرك من مسلم ولا كافر، والآن عفا الله عما سلف، فاخرج من البلاد وامض إلى حيث شئت. فامتنع من ذلك، فأمر خوارزم شاه بالزحف على سمرقند، فلم يكن بأسرع من أن فتح البلد، وأمر أن لا يتطرق إلى الغرباء بسوء، وأذن لأصحابه في نهب البلد، وقتل أهله، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فيقال إنهم قتلوا من أهل سمرقند مائتي ألف إنسان، وسلم الدرب الذي فيه الغرباء، فلم يُعدم منهم أحد، ثم أمر بالكف عن النهب والقتل. ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة ورعبًا، فطلب الأمان فلم يجبه خوارزم شاه إلى ذلك، وزحف على القلعة وملكها، وقتل صاحبها صبرًا. وقتل

(١) في الأصل: ينظرون.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٢٦٨.

معه جماعة من أقاربه، ولم يترك أحدًا ممن ينسب إلى الخانية. ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه ولم يبق لغيره بها حكم.

ذكر الواقعة التي أفنت الخطا[1]

وهذه الواقعة قد اختلف في إيرادها ابن الأثير الجزري[2] في تاريخه المترجم بالكامل، وشهاب الدين محمد المنشي في التاريخ الجلالي، ونحن الآن نذكر في هذا الموضع ما نقله ابن الأثير، ونذكر في أخبار الدولة الجنكزخانية ما نقله المنشي. وإنما نبهنا على ذلك في هذا الموضع لئلا يقف عليه مُتَأمل فيرى في النقل الاختلاف فيظن أن ذلك عن سهو أو غلط أو التباس.

فأما ما حكاه ابن الأثير فإنه قال: لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما فعل ـ يعني من هزيمتهم وأسر مقدمهم طاينكوه ـ مضى من سلم منهم إلى ملكهم، فإنه لم يكن قد شهد الحرب، فاجتمعوا عنده. وكانت طائفة عظيمة من التتار قد خرجوا من بلادهم حدود الصين ونزلوا وراء بلاد تركستان، وكان بينهم وبين الخطا حروب كثيرة وعداوة. فلما بلغهم ما فعله خوارزم شاه بعساكر الخطا قصدوهم مع ملكهم كشليخان[3] فأرسل ملك الخطا إلى خوارزم شاه يقول: «أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فمعفو عنه، وقد أتانا من هذا العدو ما لا قبل لنا به، فإن انتصروا علينا وملكوا البلاد، فلا دافع لهم عنك، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض لما بيدك من البلاد، ونقنع بما في أيدينا» وأرسل إليه كشليخان يقول: «إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداؤنا، فساعدنا عليهم، ونحلف لك أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك، ونقنع بالمواضع التي ينزلونها، والمراعي التي يرعونها» فأجاب كل منهما: «إنني معك على خصمك» وسار بعساكره إلى أن نزل قريبًا من الموضع الذي يتصافون[4] فيه ولم يخالطهم مخالطة يعلمون بها أنه مع أحد منهم على الآخر، فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها.

---

(١) الخطا: بكسر الخاء وفتح الطاء: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨، حاشية ٢ وص٤٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٦٩.

(٣) «كشلي خان» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٢٧١.

(٤) في الأصل يتصافوا.

والتقى التتار والخطا فانهزم الخطا منهم هزيمة عظيمة، فعند ذلك مال خوارزم شاه على الخطا، وجعل يقتل منهم ويأسر وينهب، فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم، في موضع من نواحي بلاد الترك، تحيط بها جبال يتعذر الوصول إليها إلا من جهة واحدة، فتحصنوا بها، وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة. وصاروا في عسكره فأنفذ خوارزم شاه إلى كشليخان ملك التتار يمت عليه[١] بأنه ساعده، ولولا ذلك ما تمكن من الخطا. فاعترف له بذلك مدة، ثم أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا. وقال: «كما أن نحن اتفقنا على إبادتهم ينبغي أن نقتسم بلادهم» فقال: «ليس لك عندي إلا السيف، ولستم بأقوى منه شوكة، ولا أعز ملكًا، فإن رضيت بالمسالمة وإلا سرت إليك وفعلت بك شرًا مما فعلت بهم» وتجهز كشليخان ونزل بالقرب من خوارزم شاه، فعلم خوارزم شاه أنه لا طاقة له به، فكان يراوغه. فإذا سار إلى موضع قصد خوارزم شاه أهله وأثقالهم، فينهبها، وإذا سارت طائفة منهم عن مكانهم سار فأوقع بهم. فأرسل إليه كشليخان يقول: «ليس هذا فعل الملوك وإنما هو فعل اللصوص، فإن كنت سلطانًا كما تقول فيجب أن نلتقي، فإما تهزمني وتملك البلاد التي بيدي، أو أفعل أنا بك ذلك. فكان خوارزم شاه يغالطه في الجواب، ولا يصمم على حربه، ولكنه أمر أهل الشاش[٢] وفرغانة وأسفيجاب[٣] وكاشان، وما حول ذلك من المدن التي لم يكن في الدنيا أنزه منها ولا أحسن عمارة، بالجلاء منها واللحاق ببلاد الإسلام، ثم خربها جميعًا خوفًا من التتار أن يملكوها.

ثم اتفق خروج جنكزخان التمرجي[٤] ملك التتار على كشليخان، فاشتغل بقتاله عن قتال خوارزم شاه، فخلا وجهه، وعاد من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان.

---

(١) يمت عليهم: يتوسل: ابن منظور: لسان العرب (متت).

(٢) الشاش: بلدة بما وراء النهر وما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٠٨.

(٣) أسفيجاب: بالفتح ثم السكون، بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج١، ص١٧٩.

(٤) اسمه في الأصل تمرجين ولما عظم شأنه سُمي جنكزخان، والصواب في النطق به جنكص خان بالصاد بدل الزاي. انظر صبح الأعشى للقلقشندي «في التعريف باسم جنكزخان» ج٤، ص٣٠٥ كتب ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧هـ عن ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام ما يأتي:

=

ذكر ملك خوارزم شاه كرمان ومكران[١] من السند

قال: كان من جملة نواب خوارزم شاه تاج الدين أبو بكر نائبه بمدينة زوزن. وكان تاج الدين هذا في ابتداء أمره جمّالاً، يكري الجمال للأسفار، ثم صار على جمال خوارزم شاه، فرأى منه جلدًا وأمانة، فقدمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره، ثم ولاه مدينة زوزن. وكان ذا عقل وسياسة، فقال يومًا لخوارزم شاه: «إن بلاد كرمان مجاورة لبلدي، فلو أضاف السلطان إليّ عسكرًا لملكتها في أسرع وقت»[٢] فسيّر معه عسكرًا فمضى إلى كرمان، فقاتل صاحبها [حرب][٣] بن محمد بن أبي الفضل، وملكها في أسرع وقت، وسار منها إلى نواحي مكران، فملكها إلى السند من حدود كابل، وسار إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران، فأطاعه صاحبها وخطب بها لخوارزم شاه، وخطب له بقلهات[٤] وبعض عمان، وذلك في سنة إحدى عشرة وستمائة[٥] أو ما يقاربها.

ذكر ملكه غزنة[٦] وأعمالها

قال: ولما استولى خوارزم شاه على عامة بلاد خراسان، وملك باميان[٧]

= «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها. فأنا أقدم إليه رجلًا وأؤخّر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا...» الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٥٨.

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وكرمان في الإقليم الرابع، وهي ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان، وخراسان، فشرقيها مكران وغربيها أرض فارس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٠٣.

(٣) في الأصل «حرز» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٠٣.

(٤) قلهات: بالكسر ثم السكون، مدينة بعمان على ساحل البحر، إليها ترفأ أكثر سفن الهند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٣.

(٥) لم يستطع ابن الأثير أن يحدد السنة التي استولى فيها علاء الدين على هذه البلاد والراجح أن ذلك استغرق الفترة بين سنتي ٦١٠ و٦١٢هـ أي ١٢١٣ ـ ١٢١٥م. انظر الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٠٣.

(٦) غزنة: مدينة من مدن خوارزم، منها أبو الفضل محمد بن أبي يزيد طيفور السجاوندي الغزنوي، مصنف كتاب «عين المعاني في تفسير القرآن العظيم» الحميري، الروض المعطار ص٤٢٨.

(٧) باميان: بكسر الميم، بلدة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة، وبها قلعة حصينة. الحميري: الروض المعطار، ص٧٤.

وغيرها، أرسل إلى تاج الدين الدز صاحب غزنة، وهو الذي ملكها من الغورية، وهو من مماليكهم، أن يخطب له، ويضرب السكة باسمه، ويسير إليه قبلًا، ليصالحه ويقر بيده غزنة. واستشار تاج الدين أمراءه في ذلك فأشاروا به، وكان الحاكم على دولته والمتصرف فيها خوشداشه قتلغ تكين وهو النائب عنه بغزنة، فكان ممن أشار بذلك، فخطب لخوارزم شاه بغزنة، وضرب السكة باسمه، واستقر ذلك، ثم مضى تاج الدين الدز إلى الصيد، فأرسل قتلغ تكين إلى خوارزم شاه يستدعيه ليسلم إليه غزنة، فسار مجدًا، وسبق خبره، وتسلم غزنة والقلعة من قتلغ تكين، وقتل من بها من عسكر الغورية، فوصل الخبر إلى صاحبها تاج الدين الدز فهرب هو ومن معه إلى لهاوور[١].

وأقام خوارزم شاه بغزنة، فلما تمكن أحضر قتلغ تكين، وسأله كيف كانت حاله مع الدز، فأخبره أنه كان الحاكم على دولته، والمتصرف في الحكم وغيره، وكان يعرف ذلك، وإنما أراد إقامة الحجة عليه. فلما انتهى حديثه قال خوارزم شاه له: «إذا كنت ما رعيت الحق لمن أنت وهو من بيت واحد، وقد حكمك في ملكه وصرفك فيه، فكيف تفعل مع ابني إذا تركته عندك؟» وأمر بالقبض عليه، وأخذ منه أموالاً جمة حملها على ثلاثين دابة وأربعمائة مملوك، ثم قتله. وترك ولده جلال الدين غزنة في جماعة من عساكره وأمرائه وكان ملكه لها في سنة ثنتي عشرة وستمائة، وقيل سنة ثلاث عشرة[٢].

ذكر عزمه على المسير إلى العراق وقصد بغداد، ومراسلته في طلب آل سلجق ببغداد وما أجيب به

قال شهاب الدين محمد المنشي في تاريخه[٣]: لما عظم أمر السلطان خوارزم شاه وتجلت له الدنيا في أرفع ملابسها وأشرقت شمس دولته من أكرم مطالعها، واستملأت جريدة ديوان الجيش على ما يقارب أربعمائة ألف فارس، سمت همته إلى طلب ما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد، وترددت الرسل في ذلك مرارًا فلم يجبه الخليفة إلى مراده لعلمه بما بين يديه من الشواغل عما وراء النهر وبلاد الترك. قال: وحكى القاضي فخر الدين عمر بن سعد الخوارزمي ـ وكان عند

---

(١) لهاوور، ولهاور، ولوهور، أسماء لمدينة واحدة في الهند وهي مدينة مشهورة لعلها لاهور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٦.

(٢) «وكان ملكه لها ثلاث عشرة» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣١٠.

(٣) المنشي النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص١١.

السلطان من ذوي الحظوة والاختصاص ـ وقد أرسله إلى بغداد مرارًا، قال: كان آخر رسالاتي إليها مطالبة الديوان بما ذكرناه، فأبوا ذلك وأنكروه كل الإنكار، وقالوا: إن اختلاف الدول، وتقلب الدهر، وتغلب الخارجي على بغداد، وتسحب الإمام القائم بأمر الله منها إلى مدينة عانة، وانتصاره بطغرلبك(١) بن ميكائيل هو الذي اقتضى تحكم بني سلجوق في بغداد(٢)، وإلا فليس يحسن أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة محتكم يأمر فيها كيف شاء بما سر وساء، وليس فيما أنعم الله عليه به من الممالك الواسعة والأقاليم المتباعدة المتشاسعة غنية عن الطمع في ملك أمير المؤمنين، ومشاهد آبائه الراشدين، قال: وأصحب في عودة الشيخ شهاب الدين السُهروردي(٣) رحمه الله مدافعًا، وواعظًا وازعًا، عما كان السلطان يلتمسه.

وتراجعت المراسلات في المعنى وتكررت، فكانت غير مجدية، وانضاف إلى ذلك كثرة استهانتهم بالسبيل الذي كان للسلطان في طريق مكة، حتى بلغه تقديمهم سبيل صاحب الإسماعيلية جلال الدين الحسن على سبيله.

قال المنشي: وسمعت القاضي فخر الدين المذكور يقول: إن الشيخ شهاب الدين لما دخل على السلطان، وعنده من حسن الاعتقاد برفيع منزلته، وعالي قدره، وتقدمه فضلاً على مشايخ عصره، ما أوجب تخصيصه بمزيد الإكرام عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان، فوقف قائمًا في صحن الدار ثم أذن له في الدخول، فلما استقر المجلس بالشيخ قال: إن من سنة الداعي للدولة القاهرة أن يقدم على أداء الرسالة حديثًا من أحاديث النبي ﷺ تيمنًا وتبركًا، فأذن له السلطان في ذلك، وجثا على

---

(١) هو السلطان أبو طالب ركن الدين محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، أول ملوك السلاجقة استهل حكمه سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م ودخل بغداد في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بناءً على طلب الخليفة القائم بأمر الله فنصره على البساسيري وأعاد للبلاد عزها. توفي عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وعمره سبعون عامًا. انظر الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي، دار صادر بيروت ص٢٩٢ ـ ٢٩٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج٥، ص٦٣ ـ ٦٨.

(٢) عندما دخل طغرلبك السلجوقي بغداد سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ج٥، ص٥٩.

(٣) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه. واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين السهروردي. ولد بسهرورد في أواخر رجب أو أوائل شعبان سنة ٥٣٩هـ/ وتوفي في مستهل المحرم سنة ٦٣٢هـ/ ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣، ص٤٤٦، رقم ٤٩٦. ومدينة سُهرورد: بلدة بين زنجان وهمذان. الحميري: الروض المعطار ص٣٢٨. البكري: معجم ما استعجم، ج٣، ص٧٦٧.

ركبتيه أدبًا عند سماع الحديث. فذكر الشيخ حديثًا معناه التحذير من أذية بني العباس، فلما فرغ من رواية الحديث قال السلطان: «أنا وإن كنت رجلاً تركيًا قليل المعرفة باللغة العربية، لكني فهمت معنى ما ذكرته من الحديث، غير أنني ما أذيت أحدًا من ولد العباس، ولا قصدتهم بسوء، وقد بلغني أن في محابس أمير المؤمنين منهم خلقًا مخلدين[١]، يتناسلون بها، ويتوالدون، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع وأجدى وأنجع» فقال الشيخ: إن الخليفة إذا بويع في مبدأ خلافته على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاده، فإن أفضى اجتهاده إلى حبس شرذمة لإصلاح أمة، لا يقدح[٢] ذلك في طريقته المثلى. وطال الكلام[٣]، وعاد الشيخ والوحشة قائمة على ساقها. واتفق بعد ذلك قتل الإسماعيلية أغلمش الأتابكي، وكان ينوب عن السلطان بالعراق، فركب يلتقي الحاج عند منصرفهم من الحج. قفز عليه باطني في زيّ حاج فقتله، وانقطعت حينئذ خطبة السلطان بالعراق فحركه ذلك إلى المسير لإعادتها.

ذكر مسيره إلى العراق وما اتفق له

قال: ولما قتل أغلمش، كان يقيم رسمي الخطبة والطاعة للسلطان بالعراق، طمع الأتابك أزبك[٤] بن محمد صاحب أران وأذربيجان، وسعد بن زنكي[٥] صاحب فارس فيه فنهضا إليه لعلمهما ببعد السلطان، وأنه في أعماق بلاد الترك. فرحل أزبك ودخل أصفهان بمواطأة من أهلها، وملك سعد الري وقزوين وسمنان[٦] وما تاخم ذلك وداناه. فانتهى الخبر إلى السلطان وهو بسمرقند، فاختار من العساكر مائة ألف، وترك معظم عساكره مع أمرائه بما وراء النهر وثغور الترك. فلما وصل إلى قومس اختار ممن استصحبه معه اختيارًا ثانيًا، ونهض في اثني عشر ألف فارس وسار مجدًا

(١) في الأصل مخلدون.

(٢) لا يقدح: لا يصيب: ابن منظور لسان العرب (قدح).

(٣) أرسل الشيخ شهاب الدين السُهروردي رسالة إلى الملك علاء الدين خوارزم (محمد) أهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانبه ولم يأذن له بالقعود. ووصف ابن تغري بردي المقابلة التي تمت بينهما في النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) انظر الدولة الخوارزمية لحافظ حمدي ص٤٤.

(٥) في الكامل لابن الأثير، ج١٢ ص٣٠٩ «سعد بن دكلا».

(٦) سِمنان: بكسر أوله، بلدة بين الري ودامغاد قرب قومس وتوجد بلدة بنفس الاسم أيضًا في العراق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٥١.

فسبق خبره إلى جبل برزك وهي كورة من كور الري، وسعد بظاهرها. فلما رأى سعد أوائل الخيل قد أقبلت، ظن أنهم من الأزبكية[١] المنازعين له في ملك العراق، فركب بنفسه وعسكره وصدق القتال. فلما شاهد السلطان جده أمر بنشر الجتر[٢]. وكان ملفوفًا فنشر، فحين تحقق أصحاب سعد أن الجيش جيش السلطان ولوا الأدبار ونزل سعد فقبّل الأرض، فأُخذ وكُتف وأُحضر بين يدي السلطان فأمر بالاحتياط عليه، وحمله على بغل حتى وصل إلى همذان، وقضى وطره من أزبك على ما سنذكره.

وأما الأتابك أزبك صاحب أران وأذربيجان فإنه لما سمع ما حلّ بسعد من الأسر والإهانة[٣]، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يبقَ له هوى العود إلى ملكه، وقنع من الغنيمة بالإياب. فركب وأعد السير إلى أن قارب همذان، وهو يظن أن السلطان بالري. فلما بقي على مرحلة من همذان، بلغه أن السلطان بها، فسقط في يده، وتحير لا يعرف طريق الري. فاستشار أصحابه، فأشار بعضهم بعوده إلى أصفهان، وأشار بعضهم بالمبادرة إلى أذربيجان جريدة، وترك أثقاله. وأشار عليه وزيره ربيب الدين أبو القاسم بن علي بالتحصن بقلعة قزوين، وكانت قريبة منه، وهي من أمهات قلاع الأرض، ومشاهير حصونها، فلم يوافقه. واجتمع رأيه أن وجه أثقاله وخزائنه ومعظم حاشيته مع الملك نصرة الدين محمد بن تتشتكين[٤] صوب تبريز، واستصحب من خواصه زهاء مائتي فارس، وأخذ بهم نحو أذربيجان في المسالك الوعرة والجبال الصعبة. ووجه الوزير ربيب الدين إلى السلطان برسالة، يعتذر إليه، فوقع الأمير دكجك السلحدار على أثقاله ومن معها، فهزمهم وتبعهم إلى ميانج[٥] وهي كورة من كور أذربيجان على حافة النهر الأبيض، وأسر الملك نصرة الدين ومعظم من معه، وانتهبت الخزائن والأثقال، ووجد الوزير ربيب الدين في الطريق فساقه في جملة الأسرى إلى المخيم، فلم يصدق في رسالته، واعتقد أنه زورها عند

(١) نسبة إلى أوزبك بن البهلوان أتابك أذربيجان. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٦ ص١٨٨ حاشية ١ والكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٧٤.

(٢) الجتر: بجيم مكسورة قد تبدل شينًا معجمة وتاء مثناة فوق: هي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في الأعياد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٧ ـ ٨.

(٣) في الأصل «الاهنة».

(٤) هكذا في الأصل. وفي سيرة جلال الدين للمنشي النسوي ص١٦ «بيشتكين».

(٥) ميانج: وردت في مادة أذربيجان في معجم البلدان لياقوت الحموي، ج١، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

أسره. قال: وبقي في كل يوم يسوق الأتابك سعد ونصرة الدين والوزير ربيب الدين إلى الميدان بهمذان فيهانون والسلطان يلعب بالأكرة إذلالاً لهم، ولم يزالوا كذلك إلى أن عاد نصير الدين دولتيار وهو متولي منصب الطغرا[١] للسلطان، وهو من المناصب الجليلة. غير أنه دون كتابة الإنشاء في بيت الخوارزمشاهية وفوقها عند السلاجقة وكان السلطان قد بعثه رسولاً إلى الأتابك أزبك، بعد هربه يأمره بإقامة رسمي الخطبة والسكة باسمه في عامة مملكته، وأن يحمل في كل سنة إلى الخزانة السلطانية أتاوة معلومة، فجعل بالسكة والخطبة، وخطب للسلطان على منابر أذربيجان وأران، إلى ما يلي دربند شروان وسيّر إلى السلطان من الهدايا والتحف والألطاف جملة طائلة، وسلم قلعة قزوين إلى نواب السلطان، واعتذر في أمر الأتاوة أن الكرج استضعفوا جانبه، واستولوا على أطراف بلاده، وهذه حاله والبلاد بما تثمر من الأموال، فكيف إذا انقسمت، وحمل منها أتاوة؟ فقبل السلطان عذره في ذلك، ورضي منه بالسكة والخطبة، وبعث إلى الكرج رسولاً من جهته يقول: إن بلاد الأتابك أزبك صارت من جملة بلادنا، وهي كأحد ممالكنا، وحذرهم من الوصول إليها وقصدها، فعاد رسول السلطان من الكرج، ومعه رسولهم مصحوبًا بالتقادم. هذا ما كان من أمر أزبك.

وأما الملك نصرة الدين فإنه كان يحضر إلى الميدان في كل يوم كما ذكرنا. فنظر السلطان إليه في بعض الأيام فإذا بأذنيه حلقتان كبيرتان مجوفتان في غلظ السوار، فسأله عن ذلك فقال: إن السلطان ألب أرسلان السلجقي لما غزا الكرج ونصره الله عليهم وأسر أمراءهم منَّ عليهم، وأطلقهم، وأمر أن يشنقوا كل واحد منهم بحلقتين، يكتب عليهما اسمه، فلما تطاولت المدة ووهت قواعد الدولة السلجقية خلع أولئك ربقة الطاعة، ما خلا جدي فإنه أسلم وسلمت بلاده وأعقابه، ببركتي الإسلام والوفاء فرقّ له السلطان، وأمر بإطلاقه، وخلع عليه، وغيّر الحلقتين، وكتب عليهما اسمه، وأمر له بتوقيع بما كان تحت يده من البلاد التي ورثها أبًا عن جد مثل مدينتي

(١) الطغرا: الطغراة: عبارة عن وصل كان يوضع في عصر المماليك البحرية في مناشير الإقطاعات بين وصل الطرة والبسملة، ورتد فيه ألقاب السلطان. وكان لها رجل مفرد بعملها وتحصيلها بالديون. فإذا كتب الكاتب منشورًا أخذ من تلك الطغراوات واحدة وألصقها فيما كتب به. والطغرى كلمة أعجمية استعملها العرب. ومتولي هذه الوظيفة هو المكلف بوضع هذه العبارات ويسمى الطغرائي. انظر صبح الأعشى «القلقشندي» ج١٣، ص١٦٢، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص٢٣٣.

أبهر[١] وفراوى[٢] بقلاعهما وأعمالهما وأضاف إليه مدينة سراة وهي أقرب المدن إليه مما يملكه أزبك، وخلع عليه خلعة ملوكية.

وأما الأتابك سعد الدين زنكي صاحب فارس فإن السلطان أطلقه وتسلم قلعتي إصطخر[٣] واسكناباد وسلمها السلطان إلى المؤيد الحاجب، وزوّج الأتابك سعد بامرأة من بيت والدته، وشرط عليه أن يحمل في كل سنة إلى الخزانة ثلث الخراج من بلاده، وأعاده بالخلع والتشاريف، وكان ولده نصرة الدين أبو بكر لما بلغه أسر والده انتصب مكانه واستمال قلوب الأمراء وبذلك الأموال فأطاعوه. فلما أطلق الأتابك سعد، ووصل إلى شيراز - وهي كرسي مملكته - امتنع ولده من تسليم الملك. فبينما نصرة الدين ذات يوم في داره لم يرعه إلا وقد فتح عليه الباب، ودخل حسام الدين تكين باش[٤] - وهو أكبر مماليك الأتابك والمقدم في دولته - والأتابك وراه وبيده سيف مجرد، فضرب به وجه ابنه ضربة أثرت في وجهه، وحجز بينهما اختلاط الفريقين، فأمر الأتابك بالقبض على ابنه، فقبض عليه واعتقله مدة ثم أطلقه وعظم حال حسام الدين عنده ورقاه إلى درجة الملوكية، هذا ما كان من أمره.

ذكر قصد السلطان بغداد وما رتبه من أحوال مملكته وعوده بعد مسيره

قال شهاب الدين محمد المنشي: ثم عزم السلطان على قصد بغداد، ورتب أحوال مملكته، وأظهر الناموس. فمن ذلك أنه ضرب نوبة الإسكندر على ما قدمناه، ومنها أنه سيّر الملك تاج الملك بلكان خان[٥] صاحب أترار إلى مدينة نسا[٦] ليقيم

---

(١) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل. والعجم يسمونها أوهر. وقال بعض العجم: معنى أبهر مركب من آب وهو الماء. وهر: وهي الرحا. كأنه ماء الرحا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٨٢.

(٢) هي فراوة كما قال عنها ياقوت بأنها بلدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٤٥.

(٣) اصطخر: بالكسر وسكون الخاء بلدة في فارس من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢١١.

(٤) «تكش باش» النسوي: سيرة جلال الدين، ص١٩.

(٥) يرسمها النسوي بلكاخان، سيرة جلال الدين، ص٦٦، ٨٦ نشر حافظ حمدي.

(٦) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين مرو خمسة أيام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٨٢.

بها، وسيّر إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخاري المعروف بصدر جيهان، رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها. قال: ولعله يعد من الملوك والأكابر، وكان تحت يده ستة آلاف فقيه. ومنها أنه قسم الملك بين أولاده، وعيّن لكل واحد منهم بلادًا، ففوض خوارزم وخراسان ومازندران إلى ولي عهده قطب الدين أزلاغ شاه، واختار لتواقيعه طرة من غير تلقيب، وهي السلطان أبو المظفر ازلاغ شاه ابن السلطان محمد ناصر أمير المؤمنين. وإنما خصصه بولاية العهد دون جلال الدين اتباعًا لرأي أمه تركان خاتون. وفوّض ملك غزنة وباميان والغور وبُست[(١)] وتكياباذ وزمين[(٢)] وما يليها من الهند إلى ولده الملك جلال الدين منكبرتي، واستوزر له الصدر شمس الملك شهاب الدين الهروي، واستناب عنه كريره ملك، واستصحب جلال الدين معه، وفوّض ملك كرمان وكيش ومكران لولده غياث الدين بيرشاه[(٣)] واستوزر له الصدر تاج الدين ابن كريم الشرق النيسابوري، وسلم ملك العراق إلى ولده ركن الدين غور شايجي واستوزر له عماد الملك محمد بن الشديد الساوي واختار لتواقيعه من الطرة السلطان المعظم ركن الدنيا والدين أبو الحارث غور شايجي ابن السلطان الأعظم محمد قسيم أمير المؤمنين.

قال: ولما رتب هذه القواعد وقرر هذا النظام عزم على قصد بغداد وسيّر أمامه من العساكر ما غصت به البيداء فضاقت برحبها، وسار وراءهم إلى أن علا عقبة سراباد. وكان قد قسم نواحي بغداد وهو بهمذان أقطاعًا وعملاً، وكتب بها توقيعات، فسقط عليه بالعقبة ثلج عظيم، فأهلك خلقًا كثيرًا من الجيش وتلفت الأثقال، فرجع السلطان منها، وتطير من قصد بغداد، وكان ذلك في سنة أربع عشرة وستمائة. قال: ولما رجع السلطان إلى نيسابور أتاه الخبر بوفاة مؤيد الملك قوام الدين والي كرمان ونائبه بها، فملّك السلطان ولده غياث الدين بيرشاه كرمان وكيش ومكران فسار إليها واستقام أمره بها.

ذكر عود السلطان إلى بلاد ما وراء النهر ووصول رسل التتار إليه وما اتفق من الحوادث

قال: ثم عاد السلطان عند منصرفه من العراق إلى ما وراء النهر ووصل إلى

(١) بست: مدينة بين سجستان وغزنة وهراة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤١٤.

(٢) زمين داور أو زمنداور: ولاية واسعة ذات بلدان وقرى قريبة من الغور. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٤.

(٣) في الأصل «تيزشاه».

سمرقند، فوافته بعد ذلك رسل جنكزخان ملك التتار وهم محمود الخوارزمي وعلي خواجه البخاري ويوسف بن كنكا الأتراري[١] مصحوبين بمجلوبات الترك من نقر المعادن ونصب الختو ونوافج المسك وأحجار اليشب والثياب التي تسمى طرقوا وتتخذ من وبر الجمال البيض يباع الثوب منها بخمسين دينارًا وأكثر. وكانت الرسالة تشتمل على طلب المسالمة والموادعة، وقالوا له: إن الخان الكبير يسلم عليك ويقول: ليس يخفى عليَّ عظم شأنك وسعة سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك ونفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجب، وأنت عندي مثل أعز أولادي وغير خاف عنك أيضًا أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لي قبائلهم وأنت أخبر الناس أن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة وأن فيها لغنية عن طلب عيرها فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد.

قال المنشي: فلما سمع السلطان الرسالة صرف الرسل، ثم استدعى محمود الخوارزمي ليلاً بمفرده، وقال له: أنت رجل خوارزمي، ولا بد لك من موالاة فينا وسبيل إلينا، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله عنه، وأعطاه جوهرة نفيسة من معضدته علامة للوفاء بما وعده. وشرط عليه أن يكون عينًا له على جنكزخان. فأجابه إلى ذلك رغبة أو رهبة ثم قال: «أصدقني فيما يقول جنكزخان أنه ملك الصين واستولى على مدين طوغاج[٢] أصادق فيما يقول أم كاذب؟» قال: «بل صادق ومثل هذا الأمر لا يخفى». ثم قال له: «أنت تعرف ممالكي وبسطتها وعساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد؟ وما مقدار ما معه من العساكر؟» فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ على وجه السلطان أعرض عن النصح، وقال: ليس عسكره بالنسبة إلى عسكرك إلا كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل.

ثم أجاب السلطان إلى المهادنة واستقر الحال على المسالمة إلى أن وصل من بلاد التتار تجار إلى أترار وهم عمر خواجه الأتراري، والجمال المراغي[٣]،

(١) في الأصل «يوسف بن كنكا» والنسوي يرسمه «يوسف كنكا الأتراري» سيرة جلال الدين نشر حافظ حمدي ص٨٣.

(٢) رسمها النسوي «طمغاج» سيرة جلال الدين منكبرتي ص٣٣.

(٣) انظر سيرة جلال الدين للمنشي النسوي، ص٣٤.

وفخر الدين البخاري[١] وأمين الدين الهروي وكان ينال خان[٢] ابن خال السلطان ينوب عن السلطان بأترار فشرهت نفسه في أموال أولئك التجار[٣]، فكاتب السلطان يقول: إن هؤلاء القوم قد جاؤوا إلى أترار في زي التجار وليسوا بتجار، وإنما هم أصحاب أخبار، وإنهم إذا خلوا بأحد من العوام يهددونه، ويقولون إنكم لفي غفلة عما وراءكم، وسيأتيكم ما لا قبل لكم به فأذن له السلطان في الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه، فقبض ينال خان عليهم، وانقطع خبرهم، وأخذ ما كان معهم من الأموال والأمتعة ثم وردت رسل جنكزخان بن كفرج بغرا كان أبوه من أمراء السلطان تكش ومعه رجلان يقولون للسلطان: «إنك قد كتبت خطك وأمانك للتجار أن لا تتعرض إليهم، وقد غدرت ونكثت، والغدر قبيح على الملوك، فإن زعمت أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمرك فسلمه إليّ لأجازيه على فعله، وإلا فأذن بالحرب» فلم يرسل ينال خان، وظن أنه إن لاطف جنكزخان، أطمعه، وأمر بقتل رسله، فقتلوا. فيا لها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل قطرة سيلاً من الدم الحرام. فعند ذلك تجهز جنكزخان لقصده.

ذكر ما اعتمده السلطان من سوء التدبير لما قصده التتار

كان أول ما اعتمده من سوء التدبير لنفاذ حكم العلي القدير أنه لما بلغه خبر التتار وقصدهم البلاد، عزم أن يبتني سورًا على مدينة سمرقند على كبرها ودورها، على ما قيل اثني عشر فرسخًا، ثم يشحنها بالرجال، لتكون سدًا بينه وبين الترك. ففرق عماله في سائر أقاليم مملكته، وأمرهم أن يستسلفوا خراج سنة خمس عشر وستمائة برسم عمارة السور، فجبى خراجًا كاملاً وأعجله التتار فلم يتمكن من عمارته، ثم بعث الحياة مرة ثانية إلى سائر الممالك، وأمرهم بجباية خراج ثالث في سنتهم، وهي سنة أربع عشرة وستمائة، وأن يُستخدم بذلك رجالة ورماة، يستخدم من كل بلد بقدر ما يتحصل من المال. ثم فرق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الترك

---

(١) «فخر الدين الدتزكي البخاري» النسوي: سيرة جلال الدين، ص٣٤.

(٢) «حاكم أترار كان خال السلطان» في تاريخ الخلفاء، للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٢.

(٣) هؤلاء التجار قدموا من بلاد المغول ومعهم قافلة تحمل ثروة كبيرة من الذهب والأقمشة وغيرها. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٤٠٠ ـ ٤٠١.

فترك ينال خان بأترار في عشرين ألف فارس وقتلغ خان في جماعة أخرى في عشرة آلاف فارس بشهر كنت[١]، والأمير اختيار الدين كشكي أمير آخور، واغل حاجب الملقب باينانج خان في ثلاثين ألف فارس ببخارى، وطغاينجان[٢] خاله وأمراء الغور في أربعين ألف فارس بسمرقند وفخر الدين حبش النسوي وعسكر سجستان بترمذ، وبلخمورخان بوخش[٣] وأبا محمد خال أبيه ببلخ. ولم يترك بلدًا مما وراء النهر خاليًا من عسكر كبير فكان ذلك من أعظم الأسباب التي استولى بها جنكزخان على البلاد الإسلامية، ولو جمع عساكره ولقي التتار لهزمهم.

ولما شارف جنكزخان[٤] تخوم البلاد الإسلامية تباشر صوب أترار، واستولى عليها بعد قتال، وأحضر ينال خان بين يديه، وأمر بسبك الفضة، وقلبها في أذنيه وعينيه فمات. ثم استولى جنكزخان على البلاد وتحيل حتى أوقع بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وبين أمه وأخواله.

ذكر ما وقع بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وأمه وأخواله من الاختلاف بحيلة تمت بجنكزخان عليهم وما فعلته والدته من القتل ومفارقة خوارزم وما آل إليه أمرها

كان سبب ذلك أن جنكزخان لما ملك أترار، أحضر نائب الوزارة بها، وهو بدر الدين العميد، واتفق معه على أن زوّر كتبًا على لسان الأمراء أقارب والدة السلطان إلى جنكزخان، يبذلون له الدخول في طاعته، ويقولون: «إنا تسحبنا من بلاد الترك بعشائرنا ومن يلوذ بنا إلى السلطان، رغبة في خدمة والدته، فما نصرناه على كافة ملوك الأرض، وذلت له الجبابرة وخضعت له الرقاب فها هو الآن تغيرت نيته في حق والدته، عتوًا منه وعقوقًا، وهي تأمرنا بخذلانه، فنحن على انتظار وصولك واتباع

(١) «شهركند» في ياقوت الحموي: بفتح أولها وسكون ثانيها وهي مدينة في طرف تركستان قريبة من خوارزم. معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٨.

(٢) «طغانخان» في سيرة السلطان منكبرتي للنسوي ص٣٦.

(٣) وخش: مدينة في نواحي بلخ على نهر جيحون. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٨، ص٤٠٤.

(٤) انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٩٥ ـ ٩٦، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٠٥.

أمرك» وكان هذا تدبير نائب الوزارة المذكور[١]. وسلم جنكزخان الكتب إلى بعض خواصه، وأمره أن يتوجه بها إلى السلطان، ويظهر له أنه قد هرب من صاحبه إليه، ففعل ذلك. فلما وصل إلى السلطان ووقف على الكتب لم يشك في صحة ذلك، ونفر من هؤلاء الأمراء، ونأى عنهم وبدّد شملهم.

فلما فعل ذلك بأقارب والدته تركان خاتون غضبت لذلك، وكتب جنكزخان إليها على يد دانشمند الحاجب - وهو من خواصه - وهي إذ ذاك بخوارزم، يقول: «قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق، وقد قصدته بمواطأة من أمرائه، ولست بمعترض إلى ما تحت يدك من البلاد، وأسلم لك خوارزم وخراسان وما يتاخمهما من قاطع جيحون. فكان جوابها عن هذه الرسالة أن خرجت عن خوارزم، واستصحبت ما أمكنها من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه، وأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك المعتقلين وأبناء الملوك وأكابر الصدور، فقتلت زهاء اثنين وعشرين[٢] نفسًا منهم ابنا السلطان غياث الدين الغوري وابن طغرل السلجقي وعماد الدين صاحب بلخ وابنه بهرام شاه صاحب ترمذ وعلاء الدين صاحب باميان، وجمال الدين عمر صاحب وخش وابنا صاحب سقتاق من بلاد الترك، وبرهان الدين محمد وصدر جهان وأخوه افتخار جهان وابناه ملك الإسلام وعزيز الإسلام واستصحبت معها عمر خان صاحب يازر[٣] فصحبها إلى بلاده، وخدمها أتم خدمة، حتى إذا قاربت تخوم يازر خافت أن يفارقها، فأمرت بضرب عنقه فقتل صبرًا.

وسارت بمن معها إلى قلعة إيلال من قلاع مازندران، فأقامت بها وذلك في سنة خمس عشرة وستمائة؛ وأمرت بتحصين القلعة، فحصنت؛ ثم حوصرت أربعة أشهر فكان من الاتفاق العجيب أن القلعة نفذ ماؤها، وكانت العادة أن تلك القلعة دائمة الأنواء، فقدر الله عزّ وجل أن صحت السماء في زمن الحصار حتى نفذ الماء، فألجأها ذلك إلى طلب الأمان، فأجيبت إليه، ونزلت من القلعة ومعها الوزير محمد بن صالح. وذكر أنها لما نزلت من القلعة فاضت الصهاريج في هذا اليوم، حتى نزل السيل من باب القلعة وحملت تركان خاتون أسيرة إلى جنكزخان. قيل إنه انتهى حالها

---

(١) كان نائب الوزارة يحقد على السلطان لقتله أباه وعمه وجماعة من أقاربه لذلك أشار على جنكيزخان بهذه الحيلة. انظر سيرة جلال الدين منكبرتي، النسوي، ص٩٢ نشر حافظ حمدي.

(٢) في سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٣٩ «زهاء اثني عشر نفسًا».

(٣) انظر سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للمنشي النسوي ص٣٩. وفيه «عمرخان ابن صاحب يازر».

إلى أن كانت تحضر سماط جنكزخان وتحمل منه في كل وقت ما يقوتها مدة بعد أن حكمت في أكثر البلاد على ما نذكره.

وأما صغار أولاد ابنها الذين كانوا معها فقتلوا عن آخرهم إلا أصغرهم فإنه ترك عند جدته مدة ثم قتل بعد ذلك خنقًا. هذا ما كان من الذكور. وأما الإناث فزوجوا بالمرتدة إلا سلطان خان[١] - التي كانت امرأة صاحب سمرقند - أخذها دوشي خان واصطفاها لنفسه. هذا ما كان من أمرها وأمر من معها بعد وفاة ابنها، فلنذكر شيئًا من أخبارها وما كان لها من الحكم في دولة ابنها.

كانت تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد من قبيلة بياووت وهي فرع من فروع يمك، وهي بنت خان جنكش، ملك من ملوك الترك وتزوج بها السلطان تكش. ولما انتقل الملك إلى ابنها أتته قبائل يمك ومن يجاورها من الترك فكثر بهم، واستظهر بمكانهم وتحكمت هي بهذا السبب في الممالك، فلم يملك السلطان إقليمًا إلا وأفرد لخاصتها منه ناحية جليلة. ولقبت عند ارتفاع شأنها بخداوند جهان، معناه صاحبة العالم. وكانت ذات[٢] مهابة ورأي، وإذا رفعت الظلامات إليها حكمت فيها على قانون العدل والإنصاف، غير أنها كانت جسورًا[٣] على سفك الدماء، وكان لها خيرات وسبلات في البلاد. قال المنشي: وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الفضلاء وسادات الأكابر وإذا ورد عنها وعن السلطان توقيعان مختلفان في قضية واحدة لم ينظر إلا في التاريخ فيعمل بالآخر منهما في سائر الأقاليم. وكان طغرا تواقيعها عصمة الدنيا والدين ألغ تركان ملكة نساء العالمين، وعلامتها اعتصمت بالله وحده، وكانت تكتبها بقلم غليظ، وتجود الكتابة فيها بحيث يعسر أن يزوَّر عنها، فلنرجع إلى أخبار السلطان.

ذكر ما اتفق للسلطان بعد أن ملك التتار البلاد إلى أن توفي

قال: لما ملك جنكزخان أترار، ملك بعدها بخارى ثم سمرقند[٤]، فاتصل الخبر بالسلطان وهو مقيم بحدود كتلف وأندخوذ[٥] ينتظر وصول الجموع المتفرقة إليه

---

(١) «خان سلطان» في سيرة السلطان جلال الدين للنسوي ص٤١.
(٢) في الأصل «ذا». (٣) في الأصل «جسورة».
(٤) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٢٢٠.
(٥) أندخوذ: بالفتح ثم السكون بلدة بين ملخ ومرو، ج١، ص٢٦٠.

من الجهات. فلما اتصل خبر ملك جنكزخان بخارى بالسلطان، عبر جيحون وقد أيس من بلاد ما وراء النهر، وفارقه إلى التتار من الأتراك عشيرة أخواله زهاء سبعة آلاف من الخطابية، واتصل علاء الدين صاحب قندز وغيره بجنكزخان وأخذ الناس في التخاذل والتسلل، فلما اتصلت هذه الجموع بجنكزخان عرفوه بمكان السلطان وبما هو عليه من الوجل، وبما داخله من الخوف فعند ذلك جرّد يمنويّة وسبطى بهادر في ثلاثين ألف فارس فعبروا النهر صوب خراسان ورحل السلطان من حافة جيحون إلى نيسابور، وتسلل عنه الناس فلم يقم بنيسابور إلا ساعة من نهار، ثم سار حتى أتى العراق فنزل بمرج دولت أباد، وهي من أعمال همذان وأقام أيامًا يسيرة ومعه زهاء عشرين ألف فارس فلم يرعه إلا صيحة الغارة وإحداق خيول التتار به، فغايتهم بنفسه، وشمل القتل جل أصحابه، ونجا السلطان في نفر يسير من خواصه إلى بلد الجبل ثم منها إلى الاستنداد[(١)] وهي أمنع ناحية من نواحي مازندران ذات دربندات ومضايق ثم منها إلى حافة البحر وأقام عند الغرضة بقرية من قراها، يحضر إلى المسجد فيصلي به إمام القرية الصلوات الخمس ويُقرأ له القرآن، وهو يبكي وينذر النذور ويعاهد الله تعالى بإقامة العدل. ولم يزل كذلك إلى أن كبسه التتار فحين هجموا الضيعة ركب السلطان المركب وخاضت خلفه طائفة منهم فلم يدركوه.

قال شهاب الدين المنشي: حدثني غير واحد ممن كان مع السلطان في المركب قال: كنا نسوق المركب بالسلطان وبه من علة ذات الجنب ما آيسه من الحياة وهو يظهر الاكتئاب، ويقول لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين. فلما وصل الجزيرة سُرَّ بذلك سرورًا تامًا وأقام بها فريدًا طريدًا والمرض يزداد به. وكان في أهل مازندران ناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب وما يشبهه، فقال في بعض الأيام: أشتهي أن يكون عندي فرس يرعى حول خيمتي هذه ـ وقد ضربت له خيمة صغيرة ـ فلما سمع تاج الدين حسن وكان من جملة سرهنكيته[(٢)] أهدى إليه فرسًا أصفر قال: وكانت جشارات خيله تنيف على ثلاثين ألف جشار[(٣)] متفرقة في ممالكه

---

(١) هكذا في الأصل ولعله استراباد: إحدى مدن جرجان قرب حدود مازيزران. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية. ص٤١٩.

(٢) سرهنك: لقب أطلقه السلاجقة على الموظف الذي ينظم الاجتماعات الرسمية السلطانية. واستعمله العثمانيون بعد ذلك وأطلقوه على شاويشية الديوان السلطاني.
Dozy supp. Dict Ar.

(٣) جشار: جشارات (الجمع) مكان ترعى به الماشية من الغنم والخيل وغيرها. ابن منظور: لسان العرب، (جشر).

ويدل على ذلك ما قاله الأمير اختيار الدين أكبر أمير أخورية السلطان؛ وكان قد ضم إليه ثلاثين ألف فارس، فكان يقول: إن المرتب معي ثلاثون ألف فارس ولو شئت جعلتها ستين ألفًا من غير أن أتكلف صرف دينار أو درهم، وذلك أنني أستدعي من كل جشار من جشارات خيل السلطان جوبانًا واحدًا فينيفوا على ثلاثين ألفًا، فانظر إلى ما بين الحالتين في الكثرة والقلة والعزة والذلة.

قال: وكان من حمل إليه شيئًا من المأكولات وغيره في تلك الأيام كتب له توقيعًا بمنصب جليل وإقطاع طائل فربما كان الرجل يتولى كتابة التوقيع لنفسه لعدم من يكتب عند السلطان. وكانت هذه التواقيع تسمى التواقيع الجزيرية، وكلها برسالة جلال الدين. فلما ظهر أمر جلال الدين أحضرت إليه التواقيع فأمضاها بكمالها ومن كان معه منديل أو سكين علامة من السلطان بإقطاع أو غيره قبلها جلال الدين وأمضى حكمها.

ذكر وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش

كانت وفاته بالجزيرة في سنة سبع عشرة وستمائة[(١)]. وذلك أنه لما استقر بها اشتدت به علة ذات الجنب فمات وغسله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش ومقرب الدين مهتر مهتران[(٢)] مقدم الفراشين، ولم يكن عنده ما يكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه، ودفن بالجزيرة فكانت مدة سلطنته إحدى

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٧٢ وقد وصف ابن الأثير مصير علاء الدين محمد في هذه العبارة فقال «ومن أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه محمدًا قد عُدم لا يُعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عند همذان وأُخفي موته، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك. وأُخفي موته لئلا يقصدها التتر في أثره، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر، فتوفي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عُدم ثم صح موته ببحر طبرستان (أي بحر قزوين أو بحر الخزر) الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٧٦.

(٢) المهتر، يقال الفراش خاناه: ومعناها بيت الفراش وتشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام ولها مهتار يعرف بمهتار الفراش خاناه وتحت يده جماعة من الغلمان مستكثرة مرصدون للخدمة فيها في السفر يعبر عنهم بالفراشين. انظر صبح الأعشى: القلقشندي ج٤، ص١١.
والمهتار: هو لقب واقع على كبير كل طائفة من غلمان البيوت كمهتار الشراب خاناه ومهتار الطست خاناه، ومهتار الركاب خاناه، ومِه بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير وتار بمعنى أفعل التفضيل فيكون المعنى المهتار الأكبر. القلقشندي. صبح الأعشى، ج٥، ص٤٧٠.

وعشرين سنة، وكان له من الأولاد خمسة وهم: جلال الدين منكبرتي، وقطب الدين أزلاغ شاه، وآق شاه، وركن الدين غور شايجي - وكان بالعراق - وغياث الدين بير شاه وفيه يقول المنشي: [من المتقارب]

أذل[1] المـلـوكَ وصـادَ الـقـرومَ ... وصـيَّـرَ كـلَّ عـزيـزٍ ذلـيـلا
وحـفّ الـمـلـوكُ بـه خـاضـعـيـنَ ... وزفّـوا إلـيـه رعـيـلاً رعـيـلا
فـلـمّـا تـمـكّـنَ مـن أمـرِهِ ... وصـارتْ لـه الأرضُ إلا قـلـيـلا
وأوهَـمَـهُ الـعـزُّ أنّ الـزمـانَ ... إذا رامَـهُ ارتـدَّ عـنـه كـلـيـلا
أتـتْـهُ الـمـنـيـةُ مـغـتـاظـةً ... وسلّـتْ عـلـيـه حُـسـامًـا صـقـيـلا
فـلـم تـغـنِ عـنـه حُـمـاةُ الـرجـالِ ... ولـم يـجـد قـيـلٌ عـلـيـه فـتـيـلا[2]
كـذا يـفـعـل الـلّـهُ بـالـشـامـتـيـن ... ويُـفـنـيـهـم الـدهـرُ جـيـلاً فـجـيـلا

هذا ما اتفق للسلطان؛ وأما التتار الذين ساقوا خلفه فإنهم خربوا البلاد وسفكوا الدماء واستولوا على الممالك وساووا في القتل بين المملوك والممالك، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم. فلنذكر الآن أخبار أولاد السلطان علاء الدين محمد وما كان من أمرهم بعد وفاة أبيهم ونورد أخبارهم في جملة أخبار أخيهم السلطان جلال الدين فإنه الملك المشار إليه منهم.

ذكر أخبار السلطان جلال الدين منكبرتي[3]

وقيل فيه منكوبرتي ابن السلطان علاء الدين أبي الفتح محمد بن تكش بن ألب أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين. ملك بعد وفاة أبيه في سنة سبع عشرة وستمائة، وذلك أن والده السلطان لما اشتد مرضه بالجزيرة خلع قطب الدين أزلاغ شاه من ولاية العهد وفوضها للسلطان جلال الدين بحضور أخويه أزلاغ شاه وآق شاه. وقال: إن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت، وهذا

---

(1) في الأصل «أزال».
(2) «قفيلاً» في سيرة السلطان جلال الدين للنسوي ص48.
(3) ترجمته وأخباره في: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للنسوي. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج6 ص246، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج5، ص130، والدولة الخوارزمية والمغول، لحافظ حمدي ص167 وما بعدها. تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج4، ص103. والكامل لابن الأثير، ج12، حوادث سنة 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628.

العدو قد تأكدت أسبابه وتشبثت بالممالك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ بثأري منه إلا ولدي منكوبرتي وها أنا موليه ولاية العهد فعليكما بطاعته والانخراط في سلك تباعته. وشدّ سيفه بيده في وسط جلال الدين ثم مات بعد ثلاثة أيام.

قال: ولما دفن السلطان بالجزيرة ركب جلال الدين البحر ومعه أخواه ومعهم زهاء سبعين نفسًا لقصد خوارزم، فلما قاربوها التقوهم منها بالدواب والأسلحة والأعلام، وتباشر الناس بمقدمهم واجتمع عنده من العساكر ممن أضمرته البوادي ونقضتهم المجالس والنوادي زهاء سبعة آلاف فارس، أكثرهم البياووتية ومقدمهم توخي بهلوان الملقب بقتلغ خان، فمالوا إلى أزلاغ شاه للقرابة التي بينهم، وعزموا على القبض على جلال الدين وقتله أو سمله. فعلم إينانج خان بما دبروه، فأعلم بذلك جلال الدين وأشار عليه بالرحيل فرحل صوب خراسان في ثلاثمائة فارس، مقدمهم دَمَر ملك[١] وقطع المفازة الحاجزة بين خوارزم وخراسان وهي ست عشرة[٢] مرحلة في أيام قلائل، وتخلص منها إلى بلد نسا[٣]. وكان جنكزخان لما بلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم وجه إليها عسكرًا كثيفًا وتقدم إلى من بخراسان من عساكره بالتفرق على حافات تلك البرية مترصدين فضربوا على البرية المذكورة حلقة من تخوم مرو إلى حدود شهرستان، حتى إذا همّ أولاد السلطان بالمسير إلى خراسان عند إزعاجهم من خوارزم يقبضون عليهم. وكان بحافة برية نسا منهم سبعمائة فارس فلما خرج جلال الدين من البرية صادفهم أمامه، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر فيه لجلال الدين[٤] عليهم، فعمهم بالقتل وغنم ما معهم، ولم يفلت منهم إلا الشارد. وهذا أول مصاف كان بين جلال الدين وبينهم فتقوى بما غنمه منهم ووصل إلى نيسابور.

وأما أخواه[٥] فإنهما أقاما بعده بخوارزم ثلاثة أيام؛ وأتاهم الخبر بحركة التتار

---

(١) المقصود به تيمور ملك الحاكم السابق لمدينة جند. ابن الأثير، الكامل حوادث سنة ٦١٧.

(٢) في الأصل «ستة عشر».

(٣) نسا: مدينة في خراسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٨٢.

(٤) يقول حافظ حمدي: «حاول جلال الدين أن يكسب لنفسه ولدولته بالقوة ما لم يستطع أبوه أن يكسبه بالسياسة والقوة معًا. لذلك عادى جلال الدين كل جيرانه من مسلمين ومسيحيين بلا استثناء، وكان من أثر ذلك أنه لم يجد في النهاية من يقف إلى جانبه عندما عاد المغول فغزوا الدولة الخوارزمية من جديد. الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٦٧.

(٥) في الأصل «أخويه».

فخرجا بمن معهما مجفلين إلى صوب خراسان. فلما انتهوا إلى مرج سابغ[١] ونزلوا به، وافتهم الأخبار أن طائفة من التتار أقبلت في طلبهم، فركب أزلاغ شاه ومن معه ورحل والتتار في طلبه إلى استوى[٢] بلد خيوشان[٣] فأدركه التتار بقرية تسمى فرست[٤]، فوقف لهم واقتتلوا قتالاً شديدًا كان الظفر لأزلاغ شاه عليهم، فسروا بذلك وظنوا أنه لم يكن من التتار بتلك الناحية غير هذه الطائفة التي انهزمت، واستقروا بتلك المنزلة، فلم يرعهم إلا وخيول التتار قد أحدقت بهم إحداق الأطواق بالأعناق فثوى اليسر عسرًا وترادف النصر كسرًا، فكانوا إن شاء الله كما قيل: [من الطويل]

تردى ثياب الموتِ حمرًا فما أتى   لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خضر

فاستشهد أزلاغ شاه وآق شاه ومن معهما وعاد التتار برأسيهما وقد نصبوهما على الرماح.

ذكر مسير جلال الدين من نيسابور إلى غزنة

قال: وأقام جلال الدين بنيسابور شهرًا يتابع الرسل إلى الجهات في الاحتشاد والاستمداد، إلى أن علم التتارية فأسرعوا نحوه وأعجلوه عن مراده، فخرج من نيسابور في من انضوى إليه من الخوارزمية، إلى أن وصل إلى القلعة القاهرة وهي التي بناها مؤيد الملك صاحب كرمان بزوزن، فهمّ أن يتحصن بها فبعث إليه عين الملك ختن مؤيد الملك ـ وهو مستحفظها ـ يحذره ذلك، ويقول: إن ملكًا[٥] لا يحسن به أن يتحصن بقلعة ولو بنيت على قرن الفرقد أو هامة الجوزاء بل أعلا وأبعد، وحصون الملوك متون الحصن، وما للضراغم وللمدن ولو تحصنت بالقلعة لأفنت التتار أعمارهم إلى أن ينالوا الغرض. فأمر جلال الدين بإحضار ما في القلعة من الذهب فأحضر، وفرق أكياسه على من صحبه من خواصه، وفارق القاهرة، وجدّ

(١) هكذا في الأصل. ويرسمها النسوي «سائغ ومرج» وهو من المروج المشهورة بقرب قلعة خرندز، إحدى قلاع خراسان الحصينة. انظر سيرة جلال الدين، ص٧٩، نشر حافظ حمدي.

(٢) تكتب أيضًا أستوا: بالضم ثم السكون، هي كورة من نواحي نيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٧٥.

(٣) هكذا في الأصل، ويكتبها النسوي «خوشان» سيرة جلال الدين ص١٣٠ (نشر حافظ حمدي).

(٤) هكذا في الأصل، ويرسمها النسوي «وشت» سيرة جلال الدين ص١٣٠ (نشر حافظ حمدي).

(٥) في الأصل «ملك».

السير إلى تخوم بست، فأعلم أن جنكزخان مقيم بالطّالقان[1] بجيوش عظيمة، فتحير في أمره لا يدري ما يصنع. ثم خاطر بنفسه واستمر في السير، فبلغه أن أمين ملك وهو ابن خالة متولي هراة ومقطعها بالقرب منه، وقد أخلى هراة ومعه زهاء عشرة آلاف فارس، والأتراك الذين سلموا من النكبة، فبعث جلال الدين إليه يعلمه بقربه ويحثه على سرعة الوصول إليه، فاجتمعوا واتفقا على كبس التتار المحاصرين قلعة قُنْدُهار[2] فنهضا إليهم وأوقعا بهم فلم يسلم من التتار إلا من وصل بخبرهم إلى جنكزخان وهم نفر يسير، فأخبروه بما تم على عسكره، فغضب لذلك. وساق جلال الدين حتى أتى غزنة وكان بها كربر ملك ينوب عنه منذ جعلها والده له كما قدمناه، وقد ضبطها. فوصل إليها جلال الدين في سنة ثماني عشرة وستمائة، فسُرَّ الناس بوصوله واتصل به سيف الدين بغراق[3] الخلجي وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية والحسن قزلق وهم في زهاء ثلاثين ألف فارس ومعه عسكره وعسكر أمين ملك مثلها.

ذكر الحرب بين جلال الدين وتولي خان بن جنكزخان وانهزام التتار وقتل تولي خان

قال المنشي: ولما بلغ جنكزخان ما حلّ بعسكره بقندهار، جرد ابنه تولي خان في عسكر كثيف، فاستقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية وهمة في الإسلام أبية. فلما تراءى الجمعان حمل بنفسه على قلب تولي خان، فبدد نظامه ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه في الانهزام وإسلام المقام، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام وقتل تولي خان[4] فيمن قتل، وكثر الأسر في التتار حتى كان الفراشون يحضرون أساراهم إلى بين يديه فيدقون الأوتاد في آذانهم تشفيًا بهم، وكانت شرذمة من التتار قد حاصرت قلعة ولخ وضايقتها فلما بلغهم ما حلّ بأولئك رجعوا عنها.

---

(١) الطالقان: بلدة بخراسان بين مرو الروز وبلخ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٦.

(٢) قندهار: بضم القاف وسكون النون وضم الدال، مدينة في الإقليم الثالث وهي من بلاد السند أو الهند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٠٢.

(٣) هي موضع قرب غزنة من نواحي زابلستان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٨١.

(٤) «توفي وفاة طبيعية» في جامع التواريخ لرشيد الدين ج١٠، ص٥٥٩.

ذكر الحرب بين جلال الدين وجنكزخان وانهزام جلال الدين

قال: ولما عاد من سلم من المعركة إلى جنكزخان قام بنفسه وعساكره لقصد حرب جلال الدين. واتفق أن العساكر الخلجية فارقوا جلال الدين في ذلك الوقت صحبة سيف الدين بغراق وأعظم ملك ومظفر ملك. وسبب ذلك أنهم لما كسروا التتار زاحمهم الأتراك فيما أفاء الله عليهم من الغنائم، فاتفق أن بعض الأتراك الأرمينية نازع أعظم ملك في فرس من خيل التتار. وطال بينهما التنازع فضربه التركي بمقرعة، فاشمأزت لذلك نفوسهم ونفرت قلوبهم وفارقوا جلال الدين، واجتهد على ردهم فأبوا ذلك. ولما بلغه أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه علم أنه لا طاقة له بملاقاته بعد مفارقة هذه الجيوش له، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند ثم يستأنف مكاتبة من فارقه، فإن رجعوا إليه لقي جنكزخان بهم وبمن معه من الأتراك. فعاجله جنكزخان عن إمضاء ما دبره؛ وكان جلال الدين قد أصابه قولنج شديد عند خروجه من غزنة ولم يرَ مع ذلك الجلوس في المحفة، وركب الفرس تجلدًا، فمنّ الله عليه بالعافية، فورد عليه الخبر أن مقدمة جنكزخان نزلت بجردين فركب ليلاً وكبس المقدمة فقتلهم ولم يفته إلا من نجا به فرسه. فلما بلغ هذا الخبر هاله، وجلاء جلال الدين إلى حافَّة ماء السند، وضاق عليه الوقت عما كان يثق به من جمع المراكب واسترجاع الكتائب، ووصل مركب واحد فأمر بتعبير والدته وحرمه ومن ضمته الدور وحجبته الستور، فانكسر المركب قبل عبورهم[١]. ووصل جنكزخان فلقيه جلال الدين واقتتلوا قتالاً شديدًا فحمل جلال الدين بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه، وانهزم جنكزخان وكادت الدائرة تكون عليهم، لولا أن جنكزخان كان قد كمن كمينًا فيه عشرة آلاف فارس فخرجوا على ميمنة جلال الدين ـ وفيها أمين ملك ـ فكسروها وطرحوها على القلب، فتبدد نظامه، وتزعزعت عن الثبات أقدامه، وانجلت المعركة عن قتلى مصرعين في الدماء، وغرقى غاطسين في الماء، فكان الرجل يأتي إلى الماء يهوي بنفسه في تياره وهو يعلم أنه غريق لا محالة. وأسر ولد جلال الدين وهو ابن سبع أو ثماني سنين فقتل بين يدي جنكزخان.

---

(١) ورد في كتاب تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٠٣ ما يلي: «وفي هذه الأيام الحالكة التي وقعت فيها غزوة المغول نجد أن جلال الدين خوارزم شاه بما حباه الله من شخصية لامعة يسطع حظه كالشهاب الثاقب والبرق الخاطف ثم تخمد ناره وتنطفىء أنواره دون أن ينتج أو يجدي نفعًا. ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله امتاز بجرأته وإقدامه».

قال: ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كثيرًا رأى والدته أم ولده وجماعة من حرمه يصحن بأعلى أصواتهن: بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن[١]. فهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا. وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين من عصم الجبال والحصون، وقتله أجمعين.

ذكر حال جلال الدين بعد عبوره ماء السند

قال: ولما وصل جلال الدين إلى حافة ماء السند اقتحم بفرسه ذلك الماء العظيم، فخلص إلى البر، وخلص معه أربعة آلاف رجل من عسكره حفاة عراة، وفيهم ثلاثمائة فارس كانوا قد تقدموا جلال الدين ومعهم من خواصه ثلاثة نفر وهم قلبرس بهادر وقابقح وسعد الدين على الشربْدار[٢]، ورمى بهم الماء إلى جهة بعيدة عن القوم ولم يعلموا ما كان منه، فاتصل بهم في اليوم الثاني.

قال: وكان في الزردخانا[٣] الجلالية[٤] شخص يعرف بجمال الزراد، وقد انْتَبَذ قبل الوقعة بما كان له من المال إلى بعض الجهات، فوصل إذ ذاك بمركب فيه ملبوس ومأكول، فوقع ذلك عند جلال الدين موقعًا عظيمًا وولاه أستاذ داريته[٥]، ولقبه اختيار الدين.

---

(١) ورأى جلال استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن. انظر: تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٠٣ حاشية ١.

(٢) الشربدار: هذه الأسماء دُقق بها: في سيرة جلال الدين منكبرتي للنسوي طبعة باريس ١٨٩١م ص٨٥.

(٣) الزردخاناه: دار السلاح، وهي كلمة فارسية مركبة، وهي تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك من الأخبار وسائر أنواع السلاح، وتعني أيضًا السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١١.

Dozy supp. Dict. Ar.

والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص١٦٩.

(٤) نسبة إلى جلال الدين منكبرتي.

(٥) الاستدارية: وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها في المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠.

قال: ولما علم زانه شنزه صاحب جبل الجودي بما كان من أمر جلال الدين وانهزامه، وأنه في قلة من أصحابه، ركب في ألف فارس وخمسة آلاف راجل. فقصد جلال الدين عبور الماء إلى جهة التتار ويختفي بمن يسلم معه في الغياض ويعيشون(١) بالغارات، لعلمه أن الجنود إن ظفروا به قتلوه وقتلوا من معه. فحين تواتروا على ذلك توجهت الرجالة لهذا القصد، وتأخر عنهم جلال الدين بمن معه من أصحاب الخيل على رسم الترك، فجاء زانه شنزه، ومعه أعيان أصحابه وخيالته. فلما رأى جلال الدين حمل عليه بمن معه، فلما قاربه رماه جلال الدين بسهم في صدره فقتله وانهزم عسكره وتحمل جلال الدين فيما غنمه من خيله وعدته، وما أفاء الله عليه من أمواله وأسلحته.

قال: ولما سمع قمر الدين نائب قباجة بدبدبة وساقون، تقرب إلى جلال الدين بهدايا جليلة وألطاف، وفي جملتها الدهلين، فوقع ذلك من جلال الدين موقعًا عظيمًا(٢).

ذكر ما كان بين جلال الدين وقباجة من وفاق وخلاف

قال: ثم بلغ جلال الدين أن بنت أمين ملك سلمت من الغرق إلى أوجاهى من مدن قباجة، فراسله جلال الدين يذكر أنها تمت له بقرابة، وأن نساءه غرقن وطلبها، فتقدم قباجة بتجهيزها إليه وجهز معها هدايا تليق بجلال الدين. فقبل جلال الدين ذلك منه وانتظم بينهما الصلح وأمنت البلاد إلى أن قضت الفرقة وتأكدت أسباب الوحشة.

وسبب ذلك أن شمس الملك شهاب الدين ألب، كان السلطان علاء الدين قد استوزره لجلال الدين، فرمته الوقعة إلى قباجة، فأمنه وآواه وأحسن إليه. واعتقد قباجة أن جلال الدين قتل، فاسترسل مع شمس الملك في أمور كان الحزم يقضي إخفاءها عنه، فلما تحقق سلامة جلال الدين استوحش من شمس الملك وندم على ما كان قد أبداه له، ولما بلغ جلال الدين أن شمس الملك عنده استدعاه، فحمل قباجة التوهم منه على قتله فقتله، لما كان قد أودعه من أسرار خشي إذاعتها. ومن ذلك أن قرن خان بن أمين ملك كانت الوقعة طرحته إلى مدينة كلور من مدن قباجة، فشرهت

(١) في الأصل «ويعيشوا».
(٢) في الأصل «موقعًا حسنًا».

نفوس عامتها إلى سلبه، فقتل وحمل إلى قباجة من سلبه درة كانت في أذنه فأخذها، فحقد جلال الدين ذلك عليه وأسره في نفسه إلى أن اتصل بخدمته جماعة من الأمراء المفارقين لخدمة أخيه غياث الدين بمن معهم من العسكر، فقويت نفسه بهم وقصد مدينة كلور فحاصرها وداوم القتال والزحف بنفسه فأصابته نشابة في يده، ولم يفتر في القتال ليلًا ولا نهارًا حتى ملكها وملك مقاتلتها ثم رحل منها إلى قلعة برنوزج فحاصرها وباشر القتال بنفسه وأصابته هناك نشابة أخرى، فألحق برنوزج بأختها وتأكدت الوحشة بهذه الأسباب بينه وبين قباجة. ولما رأى قباجة أن بلاده تطوى شيئًا فشيئًا فزع إلى الاحتشاد، فركب في زهاء عشرة آلاف فارس، وأنجده شمس الدين ايلتتمش[1] ببعض عساكره، فعلم جلال الدين بخبره ونيته ليلًا، وأحاط بعسكره فأعجلهم عن الركوب، فانهزم قباجة بنفسه ومن نجا به فرسه، وترك العسكر شاغرًا بما فيه من الخيام والخزائن والعدد المتوفرة، فاحتوى جلال الدين على ذلك.

ذكر الحوادث بعد كسر جلال الدين قباجة وما جرى بينه وبين شمس الدين ايلتتمش

قال: لما كسر جلال الدين قباجة نزل على نهاوور[2] وكان بها ابن لقباجة[3] وقد عصى على والده وتغلب عليها، فأقرها جلال الدين عليه على مال يحمله في كل سنة ومال يعجله. ورحل صوب سيستان وبها فخر الدين السلاري واليًا عليها من جهة قباجة، فتلقاه بالطاعة، وسلم إليه مفاتيحها، فجبى المال ثم رحل عنها صوب أوجا فحاصرها أيامًا، وقاتله أهلها فقتل من الفريقين خلق كثير، ثم صالحوه على مال حمل إليه. ورحل صوب خانسر[4] وكان ملكها من أتباع شمس الدين فخرج طائعًا للخدمة الجلالية. فألقى بها عصى القرار ليريح من معه، فأتاه الخبر أن إيلتتمش قاصده في ثلاثين ألف فارس ومائة ألف راجل وثلاثمائة فيل، فخرج جلال الدين نحوه مجدًا،

(١) كان شمس الدين ألتمش أحد أرقاء الترك في الدولة الغورية وقد سار إلى بلاد الهند بعد سقوط هذه الدولة وتمكن من تأسيس إمارة في الجزء الشمالي من هذه البلاد. حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٧٠.

(٢) المقصود هنا مدينة لاهور.

(٣) في الأصل «أينا».

(٤) اعتمد المحقق في تصحيح أسماء المدن الواردة في هذا الجزء على سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي للمنشي النسوي طبعة باريس ١٨٩١ ص٩٠، وذلك لأن معظمها لم يرد في معجم البلدان لياقوت الحموي.

وقدم أمامه جهان بهلوان أزبك باين ـ وهو من حماة الأبطال ـ فساق، وخالفه يزك شمس الدين، فتوسط أزبك عسكر شمس الدين فهجم على جماعة منهم، فقتل منهم وحضر إلى جلال الدين من أخبره بذلك الجمع الكثير ثم ورد عليه برسول إيلتتمش في طلب الموادعة ويقول: «ليس بخفي على ما وراءك من عدو الدين، وأنت سلطان المسلمين وابن سلطانهم، ولست أستحل أن أكون عليك عونًا، ولا يليق بمثلي أن يجرد السيف في وجه مثلك، إلا لضرورة الدفع، وإن رأيت أن أزوجك ابنتي لتزول الوحشة وتتأكد الثقة بيني وبينك فافعل».

فمال جلال الدين إلى ذلك وأصحب رسوله باثنين من أصحابه، يزيدك بهلوان وسنقرجق طايسي، فمضيا إليه وأقاما لديه وترادفت الأخبار على جلال الدين أن ايلتتمش وقباجة وسائر ملوك الهند قد تآمروا على أن يمسكوا على جلال الدين حافة ماء خجنير، فعظمت إذ ذاك بليته وفترت في وجوه العزائم نيته، ورأى أن الزمان حزّب عليه أحزابًا ومتى سدّ للحوادث بجهده بابًا فتح عليه أبوابًا، فاستشار نصحاءه في ذلك، فأشار عليه الذين وردوا من العراق وهم الذين انفصلوا من أخيه غياث الدين أن يقصد العراق وينتزعه من يد أخيه، وأشار عليه جهان بهلوان أزبك باين بلزوم بلاد الهند خشية من جنكزخان واستضعافًا لملوك الهند، فحمله شغفه بحب الممالك الموروثة والحكم فيها على قصد العراق، فاستناب جهان بهلوان على ما كان يملكه من بلاد الهند، والحسن قزلق على ما قد نجا من بلاد الغور وغزنة من صدمات التتار، فاستمر جهان بهلوان فيما ولاه إلى سنة سبع وعشرين وستمائة، ثم طرد عنها ووصل إلى العراق على ما نذكره في موضعه؛ واستمر قزلق إلى حين وفاته.

ذكر طلوع جلال الدين من الهند ووصوله إلى كرمان وما جرى له من الحوادث إلى أن ملك العراق

كان عوده من الهند في سنة إحدى وعشرين وستمائة. قال شهاب الدين محمد المنشي. قاسى جلال الدين ومن معه من رذايا الأرواح المتخلصة من مشتجر الرياح في البوادي، القاطعة بين كرمان والهند، شدائد نستهم سائر الكرب، وأوردتهم بأجمعهم سواقي العطب. وقد أوعزتهم في تلك القفار علالات الشفاه[1]، وبلالات

(١) في الأصل «الشفاء».

الأفواه، فضلاً عن الأقوات، فكان الرجل يتنفس عند هبوب السموم كتنفس المحموم. قال: فتخلص إلى كرمان[١] في أربعة آلاف، فيهم ركّاب أبقار وحمر. وكان بها براق الحاجب ينوب عن أخيه غياث الدين بير شاه. وبراق هذا كان حاجبًا لكورخان ملك الخطابية، ورد رسولاً على السلطان مبدأ المكاشفة بينهما، فمنعه أن يعود إلى مرسله رغبة فيه، ثم اتصل بخدمة غياث الدين.

فلما وصل جلال الدين أقام بكراشير[٢] - وهي دار المملكة - شهرًا ثم أحس أن براقًا قد أضمر الغدر به، فقصد جلال الدين القبض عليه واستشار في ذلك، فأشار أورخان بالقبض عليه، وأن يواليه مملكة كرمان ويستظهر بها على غيرها من الممالك. وخالفه في هذا الرأي شمس الملك علي بن أبي القاسم المعروف بخواجه جهان، وقال: هذا أول من بذل الطاعة من نواب الأطراف، وولاة البلاد، وليس كل أحد يتحقق غدره ومكيدته، فمتى عوجل نفرت القلوب واشمأزت النفوس وتبدلت الأهواء، وتغيرت النيات والآراء.

فرحل جلال الدين إلى صوب شيراز، وورد عليه الأتابك علاء الدولة صاحب يزد، مذعنًا بالطاعة[٣]، وقدم له تقادم كثيرة فكتب له توقيعًا بتقرير بلاده عليه. وكان الأتابك سعد صاحب فارس قد استوحش من أخيه غياث الدين لإساءة سبقت، فرغب جلال الدين في إصلاحه لنفسه، وسيّر الوزير شرف الملك إليه خاطبًا ابنته، فأسرع إلى الإجابة والانقياد وزوّجه ابنته وحملها إليه فاستظهر جلال الدين بمصاهرته ثم تقدم من شيراز إلى أصفهان، فخرج إليه القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد بأحسن اللقاء، قال: ولما بلغ غياث الدين توسط جلال الدين في بلاده، ركب إليه في جموعه في زهاء ثلاثين ألف فارس، فرجع جلال الدين حين سمع بقربه وقد أيس مما طمحت إليه نفسه، وسيّر إلى غياث الدين أدك أمير أخور؛ وكان من دهاة خواصه، يقول: «إن الذي قاسيته بعد السلطان من الشدائد الفَادحة، لو عرضت على الجبال لأشفقن منها واستثقلتها فأبين أن يقبلنها، وحين ضاقت على الأرض بما رحبت، وانتفضت يدي عما ورثت وكسبت، وكنت قصدتك لأستريح عندك أيامًا وحيث علمت أن ليس عندك للضيف إلا ظبى السيف، ورجعت بظمأ من الشوق عن المناهل» وسيّر إليه سلب تولي خان بن جنكزخان وفرسه وسيفه. فلما سمع غياث الدين الرسالة انصرف إلى الري، وتفرقت عساكره في المصايف.

---

(١) انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص١٧١.

(٢) كواشر: في سيرة جلال الدين للنسوي، ص١٧٥ نشر حافظ حمدي.

(٣) انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص١٧١.

قال: وكان جلال الدين سيّر صحبة رسوله عدة خواتيم، وأمره بإيصالها إلى جماعة من الأمراء علامات منه، يستميلهم ويمنيهم الإحسان، فمنهم من تناول الخاتم وسكت وأجاب إلى الانقطاع إليه أو التقاعد عن نصرة غياث الدين، ومنهم من سارع إلى غياث الدين فناوله الخاتم، فعند ذلك أمر بالقبض على الرسول المذكور والاحتياط عليه. وبادر إلى خدمة جلال الدين، أبو بكر ملك - وهو من بني أخواله - وذكر له أن القلوب مجتمعة على محبته، فركب جلال الدين في ثلاثة آلاف ضعاف، وجدّ السير حتى وافى غياث الدين وأعجله عن التدبير. فلما أتاه النذير ركب فرس النوبة إلى قلعة سلوقان، ودخل جلال الدين خيمته وبها بكلواي والدة[1] غياث الدين، فاستوفى لها أدب الخدمة، وشرط التعظيم والحرمة وأنكر انزعاج غياث الدين وإخلاءه[2] مكانه، وذكر لها إشفاقه عليه[3]. فسيرت إليه من سكن روعته، فعاد إلى خدمة أخيه جلال الدين ونزل جلال الدين في منزلة السلطان، وأتته الأمراء واستعفوا مما كان منهم، فأقبل عليهم وعاملهم بالإحسان. ثم جاءه من كان بخراسان والعراق ومازندران من المتغلبين. فمنهم من حسنت سيرته في أيام الفتنة، فأقره وأعاده إلى مكانه، ومنهم من ساءت طريقته فأذيق وبال طغيانه، وتفرقت الوزراء والعمال في الأطراف فضبطوها بتواقيع جلال الدين.

ذكر مسيره صوب خوزستان

ولما تمكن السلطان جلال الدين من أخيه غياث الدين، وصار معه كأحد أمرائه[4]، توجه نحو خوزستان[5]، وشتى بها، ووجه من هناك ضياء الملك علاء الدين

---

(١) من الأسباب التي ساعدت على اضطراب الحالة السياسية في هذه البلاد تحكم أم غياث الدين في أمره حتى أنها تلقبت بلقب «خداوند جهان» أسوة بهذه الألقاب التي تلقبت بها تركان خاتون أم علاء الدين خوارزم شاه. وقد استمر الحال على ذلك في هذه الأقاليم من الدولة الخوارزمية حتى عاد جلال الدين منكبرتي من الهند واستطاع أن يسيطر على الأملاك التي بيد أخيه. انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص١٧٠.

(٢) في الأصل «إخلاؤه».

(٣) «أكد جلال الدين لوالدة غياث الدين الذي فرّ أنه لا يضمر الشر لأخيه، بل إنه يحل من نفسه كما يحل أقرب المقربين إليه» حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٧٣.

(٤) «وأصبح أميرًا كسائر الأمراء التابعين له» انظر الدولة الخوارزمية لحافظ حمدي، ص١٧٣.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٢٥ والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص١٧٥.

محمد بن مودود العارض النسوي رسولاً إلى الديوان العزيز. وكان من قبل ذلك قد جرد جهان بهلوان إيلجي برسم اليزك، فصادف المذكور عسكرًا من عساكر الديوان وعربان خفاجة، فأوقع بهم وأخرق الهيبة، وهتك الحرمة، فعادوا إلى بغداد على وجه غير مرضي، وأحضرت طائفة منهم إلى المخيم الجلالي، فأطلقوا. ووصل ضياء الملك بعد الحادثة إلى بغداد فطال مقامه، وأرجف الناس به إلى أن ملك السلطان مراغة، فأذن له في العود بوفور الحظ من الإنعام.

قال: ولما انجلى الشتاء رحل السلطان نحو أذربيجان، فلما أشرف على دقوقا صعد أهلها السور وشتموه، لما بلغهم من شنه الغارات على بلاد الديوان، فغاظه ذلك وأمر بالزحف عليها، فلم تكن إلا حملة واحدة حتى ملكوا البلد ووضعوا السيف في أهلها. ثم سار نحو أذربيجان. فلما حاذى جبال همذان أتاه إيغان طايسي[١] من أذربيجان، وانتظم في الخدمة.

ذكر ملكه أذربيجان[٢] ومراغة

قال: ولما انتظم أيغان طايسي في الخدمة رحل السلطان صوب أذربيجان، فلما قاربها ورد على شرف الملك كتب من أهل مراغة، حاثين عزائم السلطان بالمسير إليها لضعف الأتابك صاحبها عن دفع الكرج. فساق إليها ودخلها من غير مدافع، وأقام بها أيامًا. ووجه من هناك القاضي مجير الدين عمر بن أسعد الخوارزمي رسولاً إلى ملك الروم وملك الشام ومصر بكتب تتضمن تملكه بلاد أذربيجان وقلعه ما تشبثت بها من أنياب الكرج، وإعلامهم أنه نوى أن يغزو الكرج. ثم رحل من مراغة صوب أذربيجان، وهي أرض معشبة ذات مياه جارية، وقد خرب التتار مدينتها، فأقام بها أيامًا والناس يمتارون من تبريز وبها بنت طغرل[٣] بن أرسلان زوجة الأتابك

---

(١) «يغان طايسي» في الأصل.

(٢) كانت الحالة الداخلية في أذربيجان من العوامل التي ساعدت السيطرة على هذا الإقليم، وكان الأتابك أوزبك بن البهلوان حاكم هذا الإقليم رجلاً مسنًا منصرفًا إلى مجالس اللهو والعبث، لا يهتم بمصالح بلاده، بل إنه ترك مقاليد الأمور لزوجته التي أقامت في حاضرتها تبريز على قدر استطاعتها. وهكذا كان إقليم أذربيجان في حالة شديدة من الفوضى مما ساعد جلال الدين على تحقيق ما يريد. أما أوزبك فإنه رحل إلى مدينة كنجة في أقصى شمالي أذربيجان غير مبالٍ لما يمليه عليه الواجب. حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٧٦.

(٣) آخر سلاطين السلاجقة في العراق وقد قتل في سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦، ص١٢٢.

أزبك، فلم يمنعوهم. وجاءه من أهل تبريز من أطمعه في ملكها، فسار نحوها، وأحاط بها من كل جانب، فخرج إليه الرئيس نظام الدين ابن أخي شمس الدين الطغرائي، وكان متحكمًا فيها، يملك رقاب أهلها موالاة له ولأسلافه. وتقدم إلى الأمراء بترتيب آلات الحصار من المجانيق والدبّابات والسلاليم، فأخذوا في ترتيب ذلك. فلما كان بعد سبعة أيام[١] خرج إليه رسول من جهة بنت السلطان طغرل في طلب الأمان لها ولجواريها وخدمها، على أموالهم ودمائهم، وعلى أن تكون مدينة خوى مفردة باسمها. فأجاب إلى ذلك، وتسلم تبريز[٢]، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وسير معها خادميه تاج الدين قليج وبدر الدين هلال، فأوصلاها إليها بمن معها من أتباعها. وولى السلطان رياسة تبريز للرئيس نظام الدين.

ذكر كسر السلطان الكرج

قال: ولما ملك السلطان أذربيجان اجتمع الكرج بموضع يعرف بكربى - من حدود دوين[٣] - في ستين ألفًا، وقد قلقوا لمجاورته، وقصدوا باجتماعهم أعلامه بما هم عليه من الكثرة والقوة، لعله يرغب في مهادنتهم. فلما بلغ السلطان اجتماعهم توجه نحوهم فيمن حضر من عساكره، وقد كان أكثرهم تفرقوا إلى إقطاعاتهم بالعراق وغيره. فحين وصل إلى شاطىء نهر أَرُسّ[٤]، وجد هناك أمراء الترك ومقدمهم جهان بهلوان ايلجي، فأعلموه بأن العدو بالقرب منهم، وأن فيهم كثرة، فكان جوابه عن ذلك عبوره إلى المخاضة بفرسه، وتبعته العساكر. فلما انتهى إلى كربى رأى الكرج وقد نزلوا على نشز عال، فلم يتقدموا إليه، وبات ليلته وعليه الحرس حتى الصباح، وقال لأصحابه: إن هؤلاء قصدهم المطاولة. وأمر بالحملة عليهم من كل جهة[٥]، فحملوا عليهم صاعدين إليهم، فبادرت ميسرة السلطان بالصعود، وفيهم غياث الدين

(١) شدد جلال الدين الحصار على تبريز حاضرة أذربيجان فسلمت له بعد خمسة أيام. حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٧٧.

(٢) «تسلم تبريز في السابع عشر من رجب» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٣٣.

(٣) «زون» في سيرة جلال الدين للنسوي، وفي الأصل «دوين» ودوين في ياقوت الحموي: بلدة من نواحي أران آخر حدود أذربيجان قرب تفليس. معجم البلدان، ج٢، ص٤٩١.

(٤) أرس: بالفتح ثم الضم والسين المهملة مشددة، يقال له نهر الرس. ويصب في بحر قزوين بعد أن يلتقي بنهر الكر. انظر معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج١، ص١٥١، وصبح الأعشى ج٤، ص٤٠٢، وبلدان الخلافة الشرقية: لسترنج، الترجمة العربية، ص٢١١، ٢١٣، ٣١٣.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٣٥.

أخوه وأورخان وأيغان طايسي[(١)] وغيرهم، فحمل عليهم شلوة ـ وكان من فرسان الكرج المشهورين ـ والتقى الفريقان برأس الجبل، فولت الكرج، وقتل منهم زهاء أربعة آلاف[(٢)]، ووقف السلطان على التل، والكرج تساق إليه، وتبع المسلمون من انهزم من الكرج. قال المنشي: حكى شمس الدين القمي، وكان من حجاب الأتابك أزبك ـ قال: «أرسلني صاحبي إلى الكرج أيام استيلائهم، فخاشنني شلوة[(٣)] في الكلام، حتى قال وددت أن يكون علي ـ يعني ابن أبي طالب رضي الله عنه[(٤)] باقيًا في زماني، لأريه من سطوتي ما ينسى يومي بدر وحنين» فلما كان في هذه الوقعة نزل إلى الأرض ولطخ وجهه بالدم، ونام بين القتلى. فحدث ابن داية غياث الدين وهو صبي به، فأخرجه وأحضره إلى السلطان مكتوفًا فأمنه. قال: ووجه السلطان ملك الخواص تاج الدين قليج إلى تبريز بجماعة من أمرائهم الأسرى ورؤوس القتلى. وساق من المعركة إلى مدينة دوين فزحف عليها وافتتحها في الوقت.

ذكر عوده من دوين إلى تبريز[(٥)] وتركه الميمنة ببلاد الكرج

قال: لما حصل للسلطان ما ذكرناه من النصر والظفر والفتوح، بثّ غيارته إلى أخريات بلاد أبخاز وفي نفسه قصد تِفليس، فورد عليه كتاب من شرف الملك بتبريز يذكر فيه أن شمس الدين الطغرائي وابن أخيه الرئيس نظام الدين قد تآمرا[(٦)] على الفتك به والعصيان على السلطان، وكان ذلك إفكًا وزورًا وكذبًا، افتراه من كان يلوذ بشرف الملك من نوابه وخواصه. وذلك أن الطغرائي كان دينًا، منصفًا، حسن السيرة، ذابًا عن الرعية، لا يمكن من الحيف عليهم، تارة بالشفاعة، وطورًا بالتوبيخ والتشنيع؛ ونواب شرف الملك يكرهون ذلك. فلما وقف على الكتاب عزم على العود إلى تبريز، وأحضر أمراء الميمنة بباب سرادقه، وخرج إليهم بعض الحجاب، وقال: السلطان يقول لكم: «إنا قد تحققنا تقصيركم في المصاف، واتفاقكم على أن تولوا

(١) «إيغان طائيسي» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٣٥.

(٢) «فالذي تحققناه أنه قتل منهم عشرون ألفًا وقيل أكثر من ذلك» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٣٥.

(٣) «قيل: الكرج جميعهم قتلوا، وافترقوا، وأسر كثير من أعيانهم من جملتهم شلوة» ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤٣٥.

(٤) في الأصل (عليه السلام).

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٣٦.

(٦) في الأصل «قد تؤامروا».

وجوهكم إن حمل الكرج عليكم، وحيث وهب الله لنا النصر والظفر، فقد عفونا عنكم ما تحققناه، على أن تقيموا ببلادها فتقلبوها بغاراتكم ظهرًا لبطن إلى أن تعود إليكم». فضمنوا له ذلك، وأقاموا ثلاثة أشهر يشنون عليها الغارات إلى أن أخلوها قتلًا وسبيًا، ورخصت المماليك الكرجية، حتى أن المملوك منها يباع بدينارين أو ثلاثة.

قال: ورجع السلطان إلى تبريز، وكان رجوعه في شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وأحضر شرف الملك إلى بين يديه من الأوباش من شهد على الطغرائي وابن أخيه بما كان أنهاه عنهما. فأمر بالقبض عليهما. فأما الرئيس فقتل في الوقت وترك بالشارع طريحًا، وأما الطغرائي فحبس وصودر على ما ينيف على مائة ألف دينار كان الذي وصل معها إلى الخزانة السلطانية دون الثلاثين ألفًا، ثم حمل من تبريز إلى مراغة محتاطًا عليه. هذا وشرف الملك يعمل الحيلة على قتله حتى أخذ خاتم السلطان بذلك، وأراد الله تعالى إبقاءه[١] فضنّ النائب بمراغة بقتله، فأعانه بالخيل وهربا جميعًا وسارا إلى أربل ومنها إلى بغداد. وحجّ في سنة خمس وعشرين فلما ازدحم الناس حول الكعبة وقف تحت الميزاب وعلى رأسه مصحف، والحاج من الأقاليم وقوفًا، والذي كان يتولى ركب السلطان فيهم، وقال: «أيها الناس، قد أجمع المسلمون كافة أن ليس لِلّهِ في أرضه مقام[٢] أشرف من هذا المقام، ولا يوم[٣] أجل من هذا اليوم، ولا كتاب[٤] أعظم من هذا الكتاب، وأنا حالف بهذه الثلاثة أن الذي نسبني إليه شرف الملك ما كان إلا إفكًا مفترى». وغلظ بما تغلظ به أيمان البيعة في البراءة، وتفرق الناس إلى بلادهم وتحدث بذلك كل طائفة. وتواترت به الأخبار على السلطان، فعلم عند ذلك براءته، وندم على فعله، وأمنه وأعاده إلى تبريز، ورد عليه أملاكه هذا ما كان من أمره.

قال: وأقام السلطان بتبريز، فصام بها شهر رمضان، وأمر بمنبر فوضع بدار السلطنة، ونص على ثلاثين من علماء الأطراف وفضلائها، وقد حضروا لحاجاتهم، فوعظ كل واحد منهم يومًا والسلطان لجانب المنبر، فشكر منهم من وعظ وقال حقًا، وذم من بالغ في الإطراء.

---

(١) في الأصل «أبقاه».
(٢) في الأصل «مقامًا».
(٣) في الأصل «يومًا».
(٤) في الأصل «كتابًا».

ذكر ملك السلطان كنجة وسائر بلاد أران(١)

قال: ولما استقر السلطان بتبريز بعد انصرافه من الكرج، وجه أورخان في رجالة إلى كنجة، فتسلمها وما يضاف إليها من الكور، مثل بيلقان(٢) وبرذعة(٣) وسكور(٤) وشيز(٥) فتمكن أورخان بكنجة.

ذكر نكاح السلطان بنت طغرل بن أرسلان

قال: وورد على السلطان نساء من قبل بنت طغرل بن أرسلان وهو بتبريز، يعلمن السلطان برغبتها في أن يملكها، ويعلن أنها أثبتت بالشهود أنها مطلقة من زوجها الأتابك أزبك، فأجابها إلى ذلك وشهد لها أن زوجها حلف بطلاقها أن لا يغدر بفلان وغدر به، وحكم بذلك قاضي تبريز عز الدين القزويني فتزوج بها السلطان جلال الدين وسار بعد عقد النكاح إلى خوى ودخل بها، وزادها على خوى مدينتي سَلْمَاس وأرمية(٦) بأعمالهما. قال: وكان الأتابك بقلعة ألنجة من أعمال نَخْجُوان(٧) يسمع باستيلاء السلطان على بلاده، فلم يزد على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾(٨) [الأعراف: ١٢٨]؛ فلما بلغه أمر النكاح وأنه برغبة الملكة، حُمَّ لوقته ومات بعد أيام.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤٣٦.

(٢) بيلقان: إحدى مدن أرمينية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٠.

(٣) برذعة: بلد في أقصى حدود أذربيجان، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٦١.

(٤) لعلها شمكور: وهي قلعة في نواحي آران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٩٥ «وبها منارة مرتفعة جدًا» انظر صبح الأعشى: القلقشندي ج٤، ص٣٦٣.

(٥) في الأصل «سيبر» والتصحيح من سيرة جلال الدين للنسوي ص٢٠٥. وشيز ناحية من نواحي أذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٥.

(٦) في الأصل «سلمان» و«أرمينية» والتصحيح من النسوي. وسلماس: بفتح أوله وثانيه، مدينة مشهورة بأذربيجان بينها وبين أرمية يومان، وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام، وأرمية: مدينة قديمة بأذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٣٩.
ولأرمية قلعة على جبل اسمها قلعة تلا في غاية الحصانة، كان هولاكو قد جعل أمواله فيها لحصانتها والنسبة إلى أرمية أرموي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٥٩.

(٧) في الأصل «نخوجان» والتصحيح من النسوي. ونخجوان: بالفتح ثم السكون وجيم مضمومة وآخره نون وبعضهم يقولون نقجوان على غير أصلها بلد بأقصى أذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٧٦.

(٨) الآية الكريمة: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ذكر عوده إلى بلد الكُرج وفتحه تفليس[(١)]

قال: ثم سار السلطان بعد عيد الفطر من سنة اثنتين وعشرين وستمائة إلى غزو الكرج فلما وصل إلى نهر أرُسّ مرض مرضًا شديدًا تعذرت بسببه حركته، فشتا[(٢)] هنالك، وقاسى من معه من شدة الثلوج أمرًا عظيمًا. فلما انكشف الشتاء، تقدم السلطان إلى مروج تِفليس، وجرّ العساكر إليها متجردة عن أثقالها، فوجدها منيعة حصينة، قد بنى معظم سورها على الجبال والشقفان. فخرج عامة أهلها فتأخر الجيش حتى أبعدهم عن المدينة، وحملوا عليهم حملة كان فيها بوارهم، وسبقهم إلى الباب غياث الدين، فملكت المدينة، وتحكمت السيوف في أهلها، وقتل من بها من الكرج والأرمن، وتحصن أجناد الكرج بالقلعة ـ وبينها وبين المدينة نهر عظيم لا يخاض ـ وكان بينهما جسران[(٣)] من الخشب فأحرقا، فلم يبت السلطان حتى عبر النهر إلى صوب القلعة، وأمر بنصب آلات الحصار، فخرج رسول الكرج في طلب الأمان، فأجاب [السلطان][(٤)] إلى ذلك، وتسلمها بما فيها.

ذكر المصاف الكائن بينه وبين التتار بظاهر أصفهان

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة وردت الأخبار من خراسان بحركة التتار، وأنهم على عزم العبور، فجمع السلطان عساكره وتوجه إلى أصفهان، وجرد أربعة آلاف فارس صوب الري ودَامَغان[(٥)] لليزك، فكانت الأخبار ترد من جهتهم يومًا فيومًا؛ والتتار يتقدمون واليزك يتأخر، إلى أن عادوا إلى السلطان. ونزل التتار شرقي أصفهان على مسيرة يوم بقرية تسمى السين[(٦)] وفيهم تاجن نوين[(٧)] وباناك نوين وباقو نوين وأسن طغان نوين وياتماس نوين وباشاور نوين وغيرهم. وكان المنجمون أشاروا على السلطان بمصابرتهم ثلاثة أيام والتقائهم في اليوم الرابع، فتأخر عن الملتقى وظن التتار

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٦٩.

(٢) في الأصل «فشتى».

(٣) في الأصل «جسرين».

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة جلال الدين منكبرتي للنسوي نشر حافظ حمدي ص٢١٢.

(٥) دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٣٣.

(٦) السين: قرية بينها وبين أصفهان أربعة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٠٣.

(٧) نوين: لقب في زمن المغول، لقب به الأمراء. ورد في القلقشندي لصبح الأعشى ج٤، ص٤٢٣ أن عند الأمراء أربع طبقات أعلاها النوين وهو أمير عشرة آلاف ويعبر عنه بأمير تومان إذ التومان عندهم عبارة عن عشرة آلاف.

أن ذلك فشلاً منه ووهنًا، فجردوا ألفي فارس إلى جبال بلاد اللؤلؤ للإغارة. فاختار السلطان من عسكره ثلاثة آلاف، فأخذوا عليهم المضايق وأوقعوا بهم، وأحضروا منهم إلى السلطان زهاء أربعمائة أسير، فأمر بضرب أعناقهم. ثم خرج للقاء التتار فلما تراءى الجمعان خذله غياث الدين وفارقه بعسكره وطائفة من عسكر السلطان مقدمهم جهان بهلوان إيلجي، فلم يعبأ السلطان بمفارقتهم، وصمم على لقاء التتار، فالتقوا واقتتلوا[١]، وحملت ميمنة السلطان على ميسرة التتار فانهزموا وركبهم السيف إلى تخوم قاشان[٢]، وهم يظنون أن الميسرة فعلت بالميمنة كذلك.

وكان للتتار كمين[٣]، فخرج وقد جنحت الشمس للغروب على ميسرة السلطان، فضربها على القلب، فثبت الأمراء والخانات أصحاب السلطان حتى قتلوا، ولم يسلم منهم إلا ثلاثة وهم كوج تكين بهلوان والحاجب الخاص خان بردى وأودك أمير أخور. وأسر علاء الدولة أبا خان صاحب يزد، أخذه رجل من المرتدة، فأعطاه ما كان معه من المال، فأطلقه فوقع بالليل في بئر فمات. ووقف السلطان في القلب وقد أحاطت به التتار من كل جانب، ولم يبقَ معه إلا أربعة عشر من خواص مماليكه، فالتفت فإذا هو بحامل سنجقه[٤] قد ولى منهزمًا، فلحقه وطعنه فقتله، وحمل على التتار، فأفرجوا له ولخواصه، فخرج. قال: ثم تفرق القلب والميسرة وطرحتهم الجفلة إلى كرمان وأذربيجان، ومنهم من دخل إلى أصفهان. وعادت الميمنة بعد يومين من جهة قاشان، وظنوا أن السلطان بأصفهان، فلَمَّا تحققوا الحال تسحبوا.

قال: وخفي أمر السلطان ثمانية أيام، وكان المصاف في الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة. وكان الأتابك إيغان طايسي لم يخرج من أصفهان يوم المصاف لمرضه، فاتفق القاضي ومن تخلف بها من أرباب الدولة على أنهم إن صلُّوا العيد ولم يظهر السلطان أجلسوه على سرير الملك، فلما خرج الناس لصلاة العيد حضر السلطان إلى الصلاة، فسُرَّ الناس به وأقام بها عدة أيام إلى أن تجمع ما تشتت من عساكره المتفرقة.

---

(١) «وكانت ملحمة لم يسمع بمثلها في الملاحم في انهزام كلا الفريقين وذلك في رمضان» ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص١١٣.

(٢) قاشان: مدينة قرب أصبهان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٩٦.

(٣) في الأصل «كمينا».

(٤) في الأصل «صنجقة» والتصحيح من سيرة جلال الدين منكبرتي ص٢٣٧ (نشر حافظ حمدي).

وأما التتار فإن السيوف نالت منهم منالاً عظيمًا، ولم يخلص منهم مع انتصارهم إلى ما وراء جيحون إلا قليل[١]؛ فإن السلطان لما تجمعت عساكره سار[٢] في آثارهم إلى الري. وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل أن ابن جنكزخان أرسل إلى السلطان إثر هذه الوقعة يقول: إن هؤلاء ليسوا منا[٣].

ذكر ما آل إليه أمر غيّاث الدين

قال: وأما غياث الدين، فإنه لما فارق السلطان عند لقاء التتار، سار إلى خوزستان، وأرسل وزيره كريم الشرق إلى الديوان العزيز معلمًا بمفارقته لأخيه، ويذكر أنه قد جاور الممالك الديوانية زمانًا بالعراق فأحسن الجوار، إلى أن حضر أخوه من الهند فشنّ الغارات عليها وقلبها بطنًا لظهر وسأل أن يُعان على استرجاع ما غصبه جلال الدين من ملكه، ويكون من جملة غلمان الديوان، فأعيد رسوله بوعد جميل، وأنعم عليه بثلاثين ألف دينار. ثم تسحب غياث الدين إلى ألموت لما بلغه ظهور السلطان.

قال: ولما وصل السلطان إلى الري مقتفيًا آثار التتار بعد الوقعة، ففرّق عساكره بتخوم ألموت من حدود الري إلى أَبْخَاز[٤] فصار علاء الدين صاحب ألموت كالمجنون، فراسل السلطان يلتمس الأمان لأخيه غياث الدين ليعود إلى الخدمة، فأجابه إلى ذلك وحلف له؛ وأصحب رسوله رسولين من عنده إلى غياث الدين وهما تاج الملك نجيب الدين يعقوب الخوارزمي وجمال الدين فرج الطشتدار. فلما وصلا إلى غياث الدين ندم على طلبه الأمان، وسأل صاحب ألموت أن يعينه بما يحمله هو ومن معه، فأعانه بثلاثمائة فرس أو أربعمائة، فخرج ووقعت عليه طائفة من العساكر المركزة حول ألموت فلحقوه بحدود همذان وكادوا يمسكونه، ثم خلص منهم ونجا إلى كرمان ـ وبها الحاجب براق نائبه ـ فسار إليه طمعًا في وفائه. فأول ما اعتمده معه أنه تزوج بوالدته على كره منها ومنه. ثم ذكر بعد ذلك أنها قصدت أن تسقيه سمًا

(١) في الأصل «قليلًا». (٢) في الأصل «ثار».

(٣) يقول ابن الأثير في الكامل، ج١٢، ص٤٧٧: «إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا، إنما نحن أبعدناهم عنّا».

(٤) أبخاز: بالفتح ثم السكون: ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب يسكنها أمة من النصارى يقال لهم الكرج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٦٤. وكانت غيبة السلطان جلال الدين ببلاد أبخاز عشرة أيام. الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٦٠.

فقتلها وقتل معها الوزير كريم الشرق وجهان بهلوان إيلجي، وحبس غياث الدين ببعض القلاع، واختلفت الأقاويل في عاقبة أمره، فقيل إن براقًا قتله بعد حين وقيل إنه تخلص من الحبس إلى أصفهان وقتل فيها بأمر السلطان والله أعلم.

ذكر مسير السلطان إلى خلاط ومحاصرتها(١)

قال: وسار السلطان إلى خلاط وكان قدم العساكر والأثقال كلها، وتوجه هو جريدة في ألف فارس صوب نخجوان وحثّ السير إلى ناحية بجنى(٢) وكمن بها ليلاً حتى إذا أصبحت رعية الكرج، وسرحوا بمواشيهم على عادتهم، ضرب عليها وساقها إلى نخجوان، فكان الثور الجيد يباع بدينار. وكان سبب مسيره إلى نخجوان رغبة صاحبتها في الاتصال به، فتزوجها وأقام بها أيامًا، ثم سار حتى أتى خلاط، وقد سبقته العساكر إلى تخومها، وأقامت على مسيرة يوم منها. فلما وصل إليهم ورد عليه رسول من عز الدين أيبك ناب السلطان الملك الأشرف موسى بها، يذكر أن السلطان استنابه، وقبض على الحاجب لإساءته وتطرقه إلى بلاد السلطان جلال الدين وأنه من جملة نوابه، وبالغ في الملاطفة. فأجابه السلطان عن ذلك بجواب مغالط، وقال: إن كنت تقصد رضاي فابعث إلي بالحاجب علي. فلما عاد الرسول بهذا الجواب قتل الحاجب علي، ورحل السلطان، ونزل على خلاط وحاصرها ونصب عليها اثني عشر منجنيقًا كانت العمّالة منها ثمانية.

ذكر الحوادث في مدة حصار خِلاط(٣)

كان من ذلك وصول ركن الدين جهان شاه صاحب أرزن الروم، فتلقاه السلطان أحسن لقاء. وقدم المذكور إلى السلطان ما قيمته عشرة آلاف دينار، وخلع السلطان عليه وعلى أصحابه وأعاده إلى بلده. وأمره أن يجهز إليه ما يمكنه من آلات الحصار، فسيّر منجنيقًا كبيرًا وأتراسًا ونشابًا وغير ذلك.

ومنها أن خان سلطان أخت السلطان(٤) التي كانت أسرت مع تركان خاتون،

---

(١) ابن الأثير: الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) بجنى: قلعة من قلاع أراك بن إيواني الكرجي. النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي (نشر حافظ حمدي) ص٢٩٢.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٦٢.

(٤) في سيرة السلطان جلال الدين للنسوي ص١٨٣ «إن خان سلطان أكبر بنات السلطان محمد».

واستخصها دوشي خاتون بن جنكزخان لنفسه على ما قدمناه، وصل رسولها إلى السلطان بخاتم كان لابنها أمارة، وهي تذكر أن الخاقان قد أمر بتعليم أولادها القرآن، «وقد بلغه أخبار شوكتك وعزم على مصاهرتك والمهادنة معك، على أن تشاطره الملك على نهر جيحون، فيكون لك ما دونه وله ما وراءه، فإن كنت تجد من قوتك ما تقاومهم وتنتقم منهم فشأنك وما أردت، وإلا فاغتنم السلامة والمسالمة حال رغبتهم فيها» فتشاغل عنها بخلاط ولم يعد عليها جوابًا يقتضي الصلح.

ومنها ورود سعد الدين الحاجب رسولاً من الديوان العزيز إلى السلطان يلتمس أشياء، منها أنه يستصحب معه رسولاً من أجلاء أصحاب السلطان وخواص حضرته ليعود بالخلع؛ ومنها أن السلطان لا يحكم على بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل وشهاب الدين سليمان شاه ملك الأبواب وعماد الدين بهلوان بن هزارسف ملك الجبال، بل يعدهم في جملة أولياء الديوان وأتباعه وخدمه وأشياعه.

ومن جملتها أن السلطان علاء الدين لما رجع من جبال همذان ولم يتم له ما نواه من قصد بغداد، أسقط خطبة الخليفة بعامة ممالكه، واستمر الحال على ذلك. فلما خاطبه رسول الديوان في ذلك أصدر تواقيعه إلى عامة بلاده بالخطبة لأمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر.

ذكر مسير رسول السلطان إلى الديوان العزيز واجتماعه بالخليفة وما اتفق له وعوده بالخلع والتشاريف

قال شهاب الدين محمد المنشي وهو كاتب السلطان جلال الدين: لما انقضت أشغال رسول الخليفة سعد الدين بن الحاجب أعاده السلطان وأصحبه الحاجب الخاص بدر الدين طولق. وكتب السلطان إلى أمير المؤمنين يسأله أن يحضر بين يدي المواقف الشريفة، تميزًا له على سائر الملوك بمزيد الإكرام، فأجيب إلى ذلك. قال المنشي: حدثني الحاجب الخاص قال: كان السلطان أمرني أني إذا حضرت إلى الديوان لا أقبّل يد الوزير بدر الدين القمي[1]، ولا أوفيه حق التعظيم لأمور كان

(١) في الأصل «القمني» والتصحيح من سيرة جلال الدين منكبرتي للنسوي ص٣٠٥ «نشر حافظ حمدي» ولد مؤيد الدين القمي في مدينة قم إحدى مدن العراق العجمي. ونشأ في بغداد وتوفي بها. تولى الوزارة في عهد الناصر والظاهر والمستنصر. توفي سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م في عهد الخليفة المستنصر. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ص٢٨٥ ـ ٢٨٧.

ينقمها عليه، ففعلت ذلك امتثالاً لما أمر. فلما مضت أيام فإذا بحراقة في بعض العشيات وصلت إلى منزلي بحافة دجلة، ودخل على سعد الدين الحاجب، وقال: استعد لخدمة أمير المؤمنين. فركبت الحراقة وركبها سعد الدين معي، فتكلم الملاح بكلمات غريبة لم أفهمها؛ فقفز سعد الدين من الحراقة إلى أخرى بجنبها وتركني منفردًا فيها، فسألته عن ذلك، فقال: ما كنت أعرف أن تلك من المراكب الخاصة، وقد سيّروها لك تشريفًا، فقمت وخدمته وشكرت ودعوت، وسقنا إلى أن وصلنا إلى باب كبير، فدخلت وتأخر سعد الدين ولم يتغير من هناك. فقالت: «لِمَ لا تدخل؟» فقال: «وما منا إلا له مقام معلوم، ليس لي أن أتعدى هذا المقام». وكان خلف الباب خادم، فأوصلني إلى باب آخر وطرق الباب، ففتح فدخلت وإذا بخادم شيخ جالس على دكة وبين يديه مصحف وشمعة، فأجلسني ورحب بي إلى أن جاء خادم آخر أبيض حسن الصورة فصافحني ولاطفني بالعجمي وأخذ بيدي وأوصاني بتعظيم المواقف الشريفة، وحسن الأدب وتقبيل الأرض حيث يشير إلي. فذكر ما اتفق له إلى أن انتهى إلى الستر والوزير قائم فأمر بالوقوف بالقرب من الوزير، ثم قال له أمير المؤمنين: كيف الجناب العالي الشاهنشاهي - وهكذا كان يخاطب في الكتب - ثم وعده بمواعيد جميلة في حق السلطان، وأنه يقدمه على سائر ملوك زمانه، وخلع عليه وأعيد؛ وأصحب بالأمير فلك الدين بن سنقر الطويل وسعد الدين بن الحاجب، معهما خلعة للسلطنة؛ فوصلوا إلى خلاط في فصل الشتاء، والسلطان يحاصرها.

قال: وكان الذي استصحبوه من الأنعام والخلع خلعتين للسلطان إحداهما جبة وعمامة وسيف هندي مرصع النجاد والثانية قباء وكمة وفرجية[١] وسيف قلاجوري محلى بالذهب معرقه الحياصة بالدنانير، وقلادة مرصعة يمنية، وفرسان بالساحات والسرفسارات والطوق أثقل ما يكون وأبهى، وثمان تطبيقات طبقت حوافرها عند التسليم وزن كل تطبيقة منها مائة دينار، وترس ذهب مرصع بنفائس الجواهر، وثلاثون فرسًا من الخيل العربية مجللة بالأطلس الرومي مبطنة الجلال بالأطلس البغدادي وعلى رأس كل جنيب مقود من الحرير وقد ضرب عليه ستون دينارًا خليفتية؛ وثلاثون أو عشرون مملوكًا بالعدة والمركوب، وعشرة فهود بجلال الأطلس وقلائد الذهب، وعشرة صقور مكللة الكمام بصغار الحب، ومائة وخمسون بقجة في كل واحدة عشرة ثياب وخمسة أكر من العنبر الأشهب مضلعة بالذهب، وشجرة عود طولها خمسة أذرع

---

(١) القباء والكمة والفرجية، ثياب متشابهة أشبه بالقفطان.
Dozy. Dict. Vet. Ar.

أو ستة تحمل بين يدي رجلين، وأربع عشرة خلعة برسم الخانات كلها بالخيل والساجات والكرفسارات والطوق وحوائص الذهب والكنابيش؛ وثلاثمائة خلعة برسم الأمراء، كل خلعة قباء وكمة فحسب. وكانت خلعة شرف الملك الوزير عمامة سوداء وقباء وفرجية وسيفًا[١] هنديًا[٢] وأكرتين[٣] من العنبر وخمسين[٤] ثوبًا وبغلة. وعشرون خلعة برسم أصحاب الديوان كل خلعة منها جبة وعمامة. قال المنشي: «وخصصت من سائر أرباب الديوان ببغلة شهباء جيدة وعشرين[٥] ثوبًا أكثرها أطلسي رومي وبغدادي».

قال: فلبس السلطان الخلع خلعة بعد أخرى في نهار واحد ولبس الناس بعده. ثم خاطب رسولا الخليفة السلطان في الشفاعة في أمر خلاط وترك الحصار فلم يرد عليهما جواب شفاعتهما. ثم بعث إليهما بعد عودهما إلى منازلهما معاتبًا، وقال: قد بلغتماني عن أمير المؤمنين أنه يريد إعلاء أمري وتعظيم شأني وتحكيمي على ملوك الزمان ثم تشيران علي بإزالة الحصار بعد أن آن الفتح؟ وهذا ينافي ما ذكرتما، فاعتذرا، وقالا: «إنما قلنا ذلك شفقة، وخشينا أن يطول الحصار، ولا تتمكن منها فترجع عنها، فيكون ذلك بوساطتنا أسلم من مطاعن المستعجزين» فقبل عذرهما، واستمر الحصار. وكان أهل خلاط قد كفُّوا عن الشتم في أيام حضور رسل الخلافة فلما تحققوا أنهم ما شفعوا عادوا إلى عادتهم في السب والشتم. ثم وردت عليه رسل الملوك، كالملك المسعود صاحب آمد والملك المنصور صاحب ماردين يبذلان الطاعة، فكتب إليهما بالخطبة له في بلادهما.

ومما اتفق له أن امرأة عجوزًا أتته وهي من دهاة الأرض تتكلم بثلاث لغات: الفارسية والتركية والأرمينية، وكان مضمون رسالتها أن ركن الدين العجمي وهو من ذوي الحظ عند الملك الأشرف استدعى من السلطان خمسة آلاف دينار يفرقها في الأجناد بخلاط فتجلب أهواءهم وتسلم للسلطان خلاط. فدفع السلطان لها ألف دينار وقال: إذا ثبت صدقك وعدت برسالة ثانية كملت لك المال، وكانت الرسالة غير صحيحة، فشاع الخبر في العسكر حتى بلغ عز الدين أيبك فقتل ركن الدين، ثم ظفر السلطان بالعجوز بعد فتح خلاط واستعاد الذهب منها وقد صرفت منه ثلاثمائة دينار، وأمر بقتلها فقتلت.

(١) في الأصل «وسيف».
(٢) في الأصل «هندي».
(٣) في الأصل «واكرتاه».
(٤) في الأصل «وخمسون».
(٥) في الأصل «وعشرون».

ذكر ملكه مدينة خِلاط

قال: وملك السلطان جلال الدين خلاط في أواخر سنة ست وعشرين وستمائة وقيل إنه حاصرها في أوائل سنة ست وعشرين وملكها يوم الأحد لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين[١] قال: ولما طالت مدة الحصار وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والسنانير، أدلى الأمير إسماعيل الإيواني بعض أصحابه ليلاً من السور؛ فحضر إلى السلطان وأعلمه أن إسماعيل يلتمس من السلطان أن يعين له إقطاعًا بأذربيجان ليسلم المدينة، فأقطعه السلطان سلماس وعدة ضياع بأذربيجان، وحلف له على تقريرها بيده ولبس الناس لامة حربهم وأدلى إسماعيل الحبال ليلاً، فطلعت أعلام السلطان مع رجاله، واستعد الناس للزحف. فلما أصبحوا زحفوا على الثلمة فقاتل من بخلاط من بقايا الأجناد القيمرية[٢] قتالاً شديدًا، ثم نظروا إلى الأبراج وإذا أكثرها قد مليت بالرجال والأعلام السلطانية فزحف عليهم من بالأبراج فولوا منهزمين، وأسرت الأمراء القيمرية والأسد بن عبد الله وغيرهم، وتحصن عز الدين أيبك ومجير الدين وتقي الدين ابن الملك العادل بن أبي بكر بن أيوب بالقلعة. وأراد السلطان أن يحمي خلاط من النهب فغلبوا على رأيه فيها، فأباحها ثلاثة أيام، ومات جماعة كثيرة من أهلها بالعقوبات في طلب الأموال. ثم نزل تقي الدين وناصر الدين القيمري وطلبا الأمان لعز الدين أيبك، فأمنه، ونزل إليه هو ومجير الدين ثم قبض السلطان بعد ذلك على عز الدين وحبسه وترددت رسل الملك الأشرف في الصلح فأمر السلطان بقتل عز الدين أيبك في محبسه فقتل. قال: ولما ملك السلطان خلاط أمر بعمارة ما هدمته المجانيق منها فعمر وأقطع كورها للخانات والأمراء، ثم وردت رسل الديوان بالشفاعة في تقي الدين ومجير الدين، فسلم السلطان تقي الدين خاصَّة.

---

(١) «في سنة سبع وعشرين وستمائة أخذ السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه مدينة خِلاط بعد حصار طويل أقام عليها عشرة أشهر، ولما بلغ صاحبها الملك الأشرف ذلك استنجد بملك الروم وغيره من الملوك وواقع جلال الدين الخوارزمي المذكور وكسره بعد أمور، وقتل معظم عسكره، وامتلأت الجبال والأودية منهم وشبعت الوحوش والطيور من رممهم وعظُم الملك الأشرف في النفوس» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٤٣.

«في الثامن والعشرين من جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين» في الدولة الخوارزمية لحافظ حمدي، ص١٨٢.

(٢) الأجناد القيمرية نسبة إلى قيمر بفتح القاف وياء ساكنة وضم الميم وراء، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، كان معظم أهلها من الأكراد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٢٤.

ذكر مسيره إلى بلد الروم وانهزامه[١] من عسكري الشام والروم

قال: ولما ملك السلطان خِلاط سار منها إلى منازجرد[٢] ليرتب الحصار، فوصل إليه ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم نائبًا، وأعلم السلطان باتفاق ملوك الشام والروم عليه وقال: «إن الرأي أن تبادرهم قبل أن يجتمعوا» فصوّب السلطان رأيه، وعرف نصيحته، فاتفقا على أن يقيما بخرتبرت[٣] وينظرا حركة العساكر، فأيهما تحرك أولاً ساقا إليه قبل اتصاله بصاحبه.

فلما وصل السلطان إلى خرت برت مرض مرضًا شديدًا يئس منه من الحياة، وتواترت كتب ركن الدين صاحب أرزن الروم يحرضه على الحركة، ويعلمه بحركة العسكر، والسلطان في شغل بنفسه عن قراءتها. فحين خفّ عنه المرض ركب بعد اجتماعهما، وكان قد أذن لبعض العساكر الأرانية والأذربيجانية والعراقية والمازدندانية في العود إلى أوطانهم، ولم يستحضرهم وسار، وجرد أمامه أوترخان في ألفي فارس برسم اليزك. ثم التقى الجمعان بعد ذلك واقتتلوا قتالاً شديدًا، فكانت الهزيمة على أصحاب السلطان، وأسر ألغ خان وأطلس ملك وعدة من المفاردة[٤]؛ فأمر صاحب الروم بضرب أعناقهم. وأسر ركن الدين صاحب أرزن الروم على ما ذكرناه في أخبار السلجقية ملوك الروم.

قال: وسار السلطان جلال الدين إلى أن وصل إلى منازجرد، فوجد وزيره شرف الملك قد ضايقها ونصب عليها عدة من المجانيق وأشرف على فتحها، فاستصحبه معه إلى خلاط، فلما وافاها حمل ما أمكنه من الخزائن، وأحرق البقية لقلة الظهر وضيق الوقت وفارقها إلى أذربيجان. فلما وصل إلى سكماناباذ، خلف

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٢) منازجرد، أو منازكرد، أو فزيكرت: وتقع بين خِلاط وبلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٨، ص١٦٤.

(٣) خرتبرت: بالفتح ثم السكون: وهو الحصن المعروف في أخبار بني حمدان باسم حصن زياد. وهو حصن معروف في أقصى ديار بكر بينه وبين ملطية مسيرة يومين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٥.

(٤) المفاردة: مفردها مفردي. وهم العساكر التابعين مباشرة للسلطان، وفي زمن المماليك في مصر كان لهم ديوان اسمه ديوان المفرد. المقريزي: السلوك ج١، ص٤٨٠.

شرف الملك ومن كان معه من العراقيين هناك برسم اليزك، وأقام بخُوَيّ[١]. وأما أصحاب السلطان الذين كانوا بزكا، فإن الهزيمة استمرت بهم إلى مُوقان[٢]. قال: ولما بلغ الملك الأشرف أن شرف الملك هو المقيم بسكماناباذ راسله في طلب الصلح، وقال: إن سلطانك هو سلطان الإسلام والمسلمين وسيدهم، والحجاب دونهم ودون التتار؛ وغير خاف علينا ما تم على حوزة الإسلام وبيضة الدين بموت والده، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام. وطلب منه أن يرغبه في الألفة وضمن له من علاء الدين كيقباذ والملك الكامل أخيه، والقيام بما يزيل عارض الوحشة؛ فركن السلطان إلى ذلك، وترددت الرسائل إلى أن تم الصلح[٣].

ذكر وصول مقدمة التتار إلى تخوم أذربيجان ورحيل السلطان من تبريز إلى موقان

قال: كان السلطان قد جرد يرغو أحد بهلوانيته[٤] ليكشف بالعراق أخبار التتار فلما وصل إلى مرج شروان[٥] بين زَنْجَان[٦] وأبهر صادق[٧] يزك التتار، وكان معه من أصحابه أربعة عشر نفسًا فلم ينج منهم غيره، فرجع إلى تبريز بالخبر المزعج. فرحل السلطان من تبريز إلى موقان، إذ كانت عساكره بها متفرقة في مشاتيها، فأعجلته الحادثة قبل أن ينظر في أمر حرمه فيسيرها إلى قلعة حصينة من حصونه، فخلفها

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٩١.

(٢) موقان: وتسمى أيضًا موغان وهي عجمية، ولاية بأذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٢٥.

(٣) لما عاد الأشرف إلى خِلاط، ومضى جلال الدين منهزمًا إلى خُوَيّ ترددت الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما بيده، واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وجرت الأيمان عاد الأشرف إلى سنجار وسار منها إلى دمشق فأقام جلال الدين ببلاده من أذربيجان إلى أن خرج عليه التتر.

(٤) البهلوان: لفظ فارسي معناه: البطل في الرماية.

Dozy. Dict. Ar.

(٥) في الأصل «مرج شروبان» والتصحيح من سيرة السلطان جلال الدين للنسوي، ص٢٢٠.

(٦) زنجان: بفتح أوله وسكون ثانيه، بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين والعجم يقولون زنكان بالكاف. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٥٢.

(٧) أبهر: بفتح أوله بلد يقع قريبًا من زنجان وقزوين. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج١، ص٨٢.

بتبريز، وسار فيمن معه من خواصه متوجهًا إلى موقان، حاثًا في السير ليجمع بها متفرق عساكره. فوصلها فوجد عساكره متفرقة، منهم من أقام بها ومنهم من توجه ليشتي بشروان، ومنهم من امتد إلى المكتور[١]. فوجه إليهم البهلوانية بقداح كانت علامات الاستقرار والاستحضار وقد هجم التتار عليهم قبل اجتماعهم وانتقض هذا النظام.

ذكر كبسة التتار السلطان وهو بحد (شيركبوت)

قال: لما انفصلت البهلوانية لجمع العساكر اشتغل السلطان بالصيد وهو في قلّ من العدد زهاء ألف فارس من خواصه، فترك ليلة بقرب شيركبوت، وهي قلعة مبنية على تل بموقان، يحيط بها خندق بعيد القعر، متصل متسع العرض، ينبع الماء منه فيفيض فيسقي البلد. فبينما هو بتلك المنزلة كبسه التتار ليلاً فانهزم وساقوا في أثره. فلما وصل إلى نهر آرس أوهم التتار أن قطع النهر صوب كنجة وعطف إلى أذربيجان، فأقام بماهان[٢]، وهي فضاء كثيرة الصيد فشتا[٣] بها. وكان عز الدين صاحب قلعة شاهق يبعث إلى السلطان ما يحتاج إليه من المأكل وغيره في المراكب. وقد كان قبل ذلك يجاهره بالعداوة، فرضي عنه السلطان كل الرضى، وكان عز الدين يعلم بأخبار التتار فلما انقضى الشتاء أخبره أن التتار قد ركبوا من أوجان[٤] لقصده، وأنهم تحققوا مكانه؛ وأشار إليه بالعود إلى أران فرحل صوبها.

ذكر القبض على شرف الملك وزير السلطان وقتله

قال المنشي: لما نبت الجفلة بالسلطان شرع شرف الملك في تمهيد القواعد لنفسه، وكاتب الملك الأشرف وغيره من الملوك، وذكر رجوعه عن السلطان، ونعت جلال الدين بالمخذول، وكتب إلى نواب الأطراف في ذلك وذكره في كتبه إليهم بالظالم المخذول؛ وصدر منه من الأفعال ما يناسب ذلك، فظفر السلطان بشيء من

(١) «المكتور» في سيرة السلطان جلال الدين للنسوي ص٢٢١.

(٢) ماهان: مدينة تقع جنوب شرقي كرمان. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية ص٢٤٥.

(٣) «فشتى» في الأصل.

(٤) أوجان: مدينة في إقليم أذربيجان بظاهر تبريز وهو مكان متسع ذو مروج وبه قصور لأكابر الأمراء. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٢٧.

هذه الكتب وكتمها؛ لكنه كان يكتب إلى نواب الأطراف يحذرهم منه ومن امتثال أمره، ويغض منه في كتبه. وكان شرف الملك قد استقر بقلعة حيزان[1] وعمرها وصادر أصحاب السلطان، وجاهر بالعداوة، فلما رجع السلطان من ماهان وقارب حيزان، راسله في النزول إليها وتغافل عن جميع ما صدر منه، وأوهمه أنه باق على ما عهده. ونزل شرف الملك إليه فأكرمه بما لم يكن يعامله به قبل ذلك، فإنه أحضره في مجلس شرابه وشرب معه، ولم تكن هذه عادتهم مع وزرائهم، فسُرَّ شرف الملك بذلك وظن أنه زاده تقريبًا وتعظيمًا.

قال: وسار السلطان حتى قارب قلعة جاريبرد - وهي من مضافات أران - وعزم على أن يحبس شرف الملك بها، فركب إليها وصعد لكشفها، وصعد شرف الملك معه، فأمر السلطان واليها سرًا - واسمه سملان سلك بك وهو شيخ تركي ظالم شرير - أنه إذا نزل يمنع شرف الملك من النزول ويحبسه بالقلعة ويقيده. وكان يخشى منه أنه يفارقه إلى بعض الجهات فيثير فتنة، وعزم على حبسه إلى أن تخمد فتنة التتار، ثم يخرجه ويعيده إلى الوزارة من غير تقرير عشر البلاد، بل يقرر باسمه في كل شهر ألف دينار أسوة بوزير الخليفة، ولا يطلق يده في الإطلاقات. فحبس شرف الملك بالقلعة، ونزل إلى متولي القلعة بعد حبسه بأيام وقد جلس السلطان للمظالم، فكثرت الشكوى في متولي القلعة والسلطان لا يجيب في أمره بشيء تألفًا له. فخاف المتولي أن السلطان يعزله، فاتفق مع شرف الملك. وكان السلطان لما اعتقل شرف الملك ضم مماليكه الذين أمّرهم إلى أوترخان وكان كبيرهم ناصر الدين قشتمر، فدخل يومًا على أوترخان بخاتم شرف الملك وقال إن متولي القلعة سيّره إليه يقول: إنني قد واطأت صاحبك على إطلاقه، وإننا نصالح الكرج، فمن رغب منكم في خدمته فليأت القلعة. فلما سمع السلطان بذلك سقط في يده وفتَّ في عضده. وكان ابن المتولي في جملة بهلوانية السلطان وجماقداريته، فبعثه إلى أبيه يقبح عليه فعله ويذكره بإحسانه إليه وأنه ليس لجنايته موجب. فرجع الغلام وأخبر السلطان عن أبيه. أنه على الطاعة إن وثق من السلطان أنه لا يعزله. فقال السلطان مصداق هذا القول إنه يبعث إليه برأس شرف الملك. ووجه صحبة ابن المتولي خمسة من السلحدارية. قال: فلما دخلوا عليه وعلم مقصدهم استمهلهم ريثما يتوضأ ويصلي ركعتين. فلما فرغ من صلاته أذن لهم في الدخول. فقالوا له: ماذا تختار: الخنق أم السيف؟ فاختار السيف فقالوا: إن الملوك لا

---

(١) حيزان: بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الزاي المعجمة وألف ونون. وهي مدينة من ديار بكر من الجزيرة، وهي كثيرة الأشجار خصوصًا شجر البندق وهي بين جبال. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٣١٩ - ٣٢٠.

تقتل بالسيف، والخنق أهون عليك، فقال: شأنكم وما تريدون. فخنقوه وخرجوا من عنده حتى يبرد ثم يدخلوا عليه فيقطعوا رأسه. فلما دخلوا عليه وجدوه قد أفاق وجلس، فضربوا عنقه. هذا ما نقله شهاب الدين المنشي في سبب قتله.

وقال غيره من المؤرخين[1]: إن سبب خلاف شرف الملك على السلطان وانضمام الناس إليه أن جلال الدين ظهر منه في هذه السنة ـ وهي سنة ثمان وعشرين وستمائة ـ نقائص وأمور دلت على نقص عقله، وأوجبت انحراف وزيره وعساكره عنه. فمنها أنه كان له خادم خصي يسمى قلج، وكان جلال الدين يحبه، فمات فأظهر عليه من الهلع والجزع ما لم يسمع بمثله، ولا نقل عن مجنون ليلى ولا غيره من جهّال العرب، الذين ضرب بهم المثل، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجّالة. وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس كما أمرهم، ومشى هو بعض الطريق راجلاً، فألزمه وزيره وأمراؤه بالركوب، وأرسل إلى أهل تبريز أن يتلقوا الجنازة فتلقوها، فأنكر عليهم لتأخرهم وكونهم ما تقدموا الموضع الذي لقوها فيه، وكونهم لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما أظهروا، وقصد معاقبتهم على ذلك، فشفع فيهم الأمراء فتركهم ولم يدفن الخادم، وكان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكي، وامتنع من الأكل والشرب. وكان إذا أقدم له طعام يقول: احملوا من هذا إلى قلج، فيحملونه ويعودون فيقولون: هو يقبّل الأرض ويقول: إنني الآن أصلح مما كنت، ولا يتجاسر أحد[2] يقول: إنه مات، فإنه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل. فحصل لأمرائه من الغيظ والأنفة ما حملهم على الخروج عن طاعته والانحياز عنه والانضمام إلى وزيره[3]؛ فكان ذلك سبب خروجه.

ذكر رحيل السلطان صوب كنجة وتملكها ثانيًا

قال: كان أوباش كنجة[4] قد قتلوا من بها من الخوارزمية وتجاهروا بالفساد، وملك زمام أمرهم رجل يعرف ببندار وأطاعه الأوباش فبسط يده في المصادرات،

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤٩٦.

(٢) «ولا يتجاسر أحد أن يقول» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٩٦.

(٣) ورد في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٩٧ أن جلال الدين بقي حيران لا يدري ما يصنع عندها دفن الغلام الخصي، وراسل الوزير فعاد إليه فلما وصل إليه قتله جلال الدين. ويقول ابن الأثير «وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها».

(٤) كنجة: هي أكبر مدن الران وإليها تنسب الثياب الكنجية. الحميري: الروض المعطار، ص٤٩٦، ويقول ياقوت: «وأهل المدن يسمونها جنزة» معجم البلدان، ج٤، ص٤٨٢.

واقتصرت أذيته على من لم يدخل معه في العتو[١]. فوجه السلطان إليه يدعوه إلى الطاعة، ويحذره ويحذرهما من المخالفة، فلم يجيبوا إلى ذلك. فسار السلطان إليها، ونزل ببعض بساتينها، وترددت الرسائل في بذل الأمان والوعد بالعفو، فلم يجيبوا إلى ذلك، وخرجوا للحرب، ورموا خيمة السلطان بالسهام ووصلوا إلى حائط البستان. فركب فيمن حضر من خواصه، وأوقع بهم، وسار حتى دخل المدينة. وأقام بكنجة سبعة عشر يومًا ينتظر ما يسوغه[٢] التدبير، ثم أجمع على الاستنجاد بالملك الأشرف موسى على التتار، وكان جماعة من الجبناء يسيرون عليه بذلك وهو يخالفهم باطنًا ويوافقهم ظاهرًا. فسار إلى خلاط من طريق كيلكون، والغارات تتقلب بلاد الكرج بطنًا لظهر، والسلطان يتابع رسله إلى الملك الأشرف يستنجد به. ولما بلغ الملك الأشرف توجه الرسل إليه يستمدونه، توجه إلى مصر واجتمع رسل السلطان بدمشق، والكتب ترد عليهم من الملك الأشرف بأننا واصلون من مصر لإنجاد السلطان.

مواعيدٌ كما لاحَ سرابُ المهمه القفر فمن يومٍ إلى يومٍ ومن شهرٍ إلى شهرِ

ثم وردت عليه كتب رسله يؤيسونه من إنجاد الملك الأشرف، فبعث إلى الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر يستصرخه بنفسه، ومن عنده ومن حوله من الملوك، مثل صاحب آمد وماردين. فأجاب الملك المظفر أنه غير مستقل بالأمر وإنما هو ينوب عن إخوته. وأما صاحب آمِد وماردين فلم يسمعا الرسالة.

ذكر نزول السلطان بلد آمد[٣]
وكبس التتار له وما كان من أمره

قال: لما آيس السلطان جلال الدين من إنجاد الملوك أحضر أمراءه واتفقوا على أن يتركوا أثقالهم بديار بكر، ويتجردوا خفافًا بمن يعز عليهم من نسائهم وأولادهم إلى أصفهان. فورد علم الدين سنجر ـ المعروف بقصب السكر ـ رسول الملك المسعود صاحب آمد رسالة تشتمل على الطاعة والخدمة، ويزين للسلطان قصد الروم، وأطمعه في الاستيلاء عليها وعدَم من ينازعه، ووعد السلطان أن يخرج بنفسه

---

(١) العُتوّ: التجبر والتكبر، ابن منظور: لسان العرب (عتا).

(٢) يسوغه: يسهل له أمره. ابن منظور: لسان العرب (سوغ).

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤٩٩.

وأربعة آلاف فارس ولا يفارق خدمته. وكان سبب ذلك أن صاحب الروم قد أوغر صدر الملك المسعود صاحب آمد، واستولى على عدة من قلاعه. فمال السلطان إلى كلامه، وعدل عما كان قد عزم عليه من المسير إلى أصفهان، وعطف صوب بلد آمد، ونزل الجسر بقربها. قال: وشرب تلك الليلة حتى سكر، فأتاه وهنا من الليل شخص تركماني وقال: «إنني رأيت في منزلتك التي كنت بها أمس عسكرًا قد نزلها غير ذي عسكرك بخيل أكثرها شهب» فكذبوه، وقالوا: هذه حيلة. فلما كان قبيل الفجر، أحاط التتار به وبمن معه، فكانوا كما قيل:

فمسّاهم وبسطهم حرير وصَبَّحهم وبسطهم تُراب
ومن في كَفِّهِ منهم قناةٌ كمن في كَفِّهِ منهم خضاب

قال: وأحاط التتار بخركاة[1] السلطان وهو نائم في سكره، وإذا بأورخان قد وصل بأصحابه، وحمل على التتار حتى كشفهم عن الخركاة، ودخل بعض الخواص فأخذ بيد السلطان وأخرجه من الخركاة وعليه طاقية بيضاء. فركب فرسه ولم يذكر في ذلك الوقت إلا الملكة ابنة الأتابك سعد، فجهز في خدمتها من يسوق بها إلى حيث ترميهم الجفلة، وساق وأطلاب التتار تتبعه مجدة في السير خلفه فلما رأى ذلك، أمر أورخان أن يفارقه بمن معه من العسكر ليتبع التتار سواده، ويخلص هو بمفرده، ففعل ذلك.

قال المنشي: ولقد أخطأ، فإن أورخان لما فارقه انضوى إليه خلق كثير، ووصل إلى إربل ومعه أربعة آلاف فارس، وساق إلى أصفهان وملكها زمنًا إلى أن قصدها التتار. وأما السلطان فساق بعد فراقه لأورخان إلى أن وصل إلى باشورة آمد، فرموه بالحجارة ومنعوه الدخول، فتياسر عنها، وانضم إليه تقدير مائة فارس، فرمته الجفلة بهم إلى حدود جزيرة، وبها الدربندات المنيعة، فمنعوه من العبور، فأشار عليه أوترخان بالعود، وقال: إن أسلم الطُّرقِ اليوم طريق سلكه التتار، فرجع ووصل إلى قرية من قرى ميافارقين ونزل ببيدرها وسيّب الخيل لتستوفي شبعها، ثم ركب أوترخان وفارقه في ذلك الوقت جبنًا منه وخورًا، ووثوقًا بما كان بينه وبين الملك المظفر شهاب الدين غازي من المكاتبات، وأقام السلطان بالبيدر طول ليلته، فلما أصبح طلع عليه طائفة من التتار فركب وعوجل أكثر من معه عن الركوب فقتل بعضهم وأسر بعضهم (والله أعلم).

---

(١) الخركاة: وهي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٨.

ذكر مقتل السلطان جلال الدين وانقراض الدولة الخوارزمية

كان مقتله رحمه الله في النصف من شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة[١] وذلك أنه لما كبسه التتار بالبيدر وركب، أخبرهم من أسر من رافقه أن الذي انهزم هو السلطان، فجدُّوا في طلبه وساق خلفه منهم خمسة عشر فارسًا، فلحقه منهم فارسان فقتلهما، ويئس الباقون من الظفر به فرجعوا، ثم صعد جلال الدين إلى جبل. وكان الأكراد يحفظون الطرق لما يتخطفونه[٢] فأخذوه وسلبوه على عادتهم بمن يظفرون[٣] به، وأرادوا قتله فقال لكبيرهم سِرًا: «إنني أنا السلطان فلا تعجل بقتلي، ولك الخيار في أن تحضرني عند الملك المظفر شهاب الدين فيغنيك أو إيصالي إلى بعض بلادي فتصير مَلكًا» فرغب الرجل في إيصاله إلى بلده، ومشى به إلى عشيرته، وتركه عند امرأته ومضى بنفسه إلى الخيل لإحضار ما يحمله عليه. فلما توجه الكردي جاء شخص من سفلة الأكراد وأراذلها وبيده حربة، فقال للمرأة: ما هذا الخوارزمي؟ ولِمَ لا تقتلونه؟» فقالت: «قد آمنه زوجي وهو السلطان» فقال الكردي: «كيف تصدقون أنه السلطان وقد قتل لي بخلاط أخ خير منه» وضربه بالحربة ضربة فمات منها. فكانت مدة ملكه منذ وفاة أبيه اثنتي عشرة سنة تقريبًا.

قال: وكان أسمر قصيرًا، تركي العبارة. وكان يتكلم بالفارسية، وكان حليمًا عفيف اللسان لا يكاد يضحك إلا تبسمًا، وكان يحب العدل[٤]. قال المنشي: وكان

---

(١) ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٢٤٦ ما يلي: «ولما قتل السلطان جلال الدين دخل جماعة على الملك الأشرف موسى فهنؤوه بموته، فقال: تهنّوني به وتفرحون! سوف ترون غِبّة! (أي ما سيأتي) والله لتكوننّ هذه الكسرة سببًا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، قتل السلطان جلال الدين سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص١٣٠ «قتله أحد الفلاحين سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م» في تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٠٣.
ولا يعلم ابن الأثير شيئًا عن مقتله إذ يقول: «وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة لم يظهر له خبر وكذلك إلى سلخ سنة تسع لم نقف له على حال والله المستعان» الكامل في التاريخ ج١٢، ص٥٠٤.

(٢) في الأصل «يتخطفوه». (٣) في الأصل «ظفروا».

(٤) اختلف المؤرخون في تصوير شخصية جلال الدين منكبرتي وتباينت آراؤهم فيه.
يصفه ابن الأثير بقوله: «وكلان جلال الدين سيىء السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحدًا من الملوك المجاورين له إلا عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته» الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤٩٥. =

يكتب إلى الخليفة في مبدأ خروجه من الهند والوحشة قائمة، حذوًا على منوال أبيه خادمه المطواع منكوبرتي ابن السلطان سنجر. ولما أتته الخلع الخليفتية بالسلطنة كتب إليه «عبده» والخطاب: «سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين وإمام المسلمين، خليفة رسول رب العالمين، إمام المشارق والمغارب المنيف على الذروة العلياء من لؤي بن غالب» وكان يكتب إلى علاء الدين كيقباذ وملوك مصر والشام أجمع اسمه واسم أبيه منعوتًا بالسلطان، ولا يزيدهم على ذلك. وكانت علامته على تواقيعه «النصرة من الله وحده». وكان يكاتب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأشباهه بهذه العلامة وخوطب من الخليفة في مبدأ طلوعه من الهند: الجناب الرفيع الخاقاني ولم يزل يقترح عليهم أن يخاطب بالسلطان، فلم تحصل الإجابة لذلك إذ لم تجرِ به عادة، فلما كثر إلحاحه خوطب بالجناب العالي الشاهنشاهي.

وانقرضت الدولة الخوارزمية بقتل السلطان جلال الدين، وكانت مدة قيام هذه الدولة منذ ولي خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين خوارزم من قبل أمير داذ حبشي متولي خراسان في شهر رجب سنة تسعين وأربعمائة، وإلى أن قتل السلطان جلال الدين هذا، مائة سنة وثمان وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وأيامًا. وعدة من ولي منهم سبعة وهم خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين(١)، ثم ابنه أتسز بن محمد(٢)، ثم ابنه إيل أرسلان بن أتسز(٣)، ثم ابنه سلطان شاه محمود بن إيل أرسلان(٤)، ولم تطل

= ويقول عنه ابن العماد الحنبلي: «أحد من يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام» وافتتح غير مدينة وسفك الدماء وظلم وعسف وغدر ومع ذلك كان صحيح الإسلام.. وكان سدًا بين المسلمين والكفار فلما مات انفتح السد» شذرات الذهب، ج٥، ص١٣٠ ـ ١٣١.

وقال دوسون D'osson مصورًا إياه في صورة الجندي لا في صورة الحاكم السياسي: كان يميل إلى الأبهة، شديد الولع بالخمر والموسيقى، حتى في أشد ساعاته حرجًا، وكانت جيوشه التي لا يدفع أرزاقها تعيش على السلب والنهب.

D'osson: Histoire des Mongols, Tome iii p.03.

(١) كان يلقب بقطب الدين. ولي الحكم سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م الدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص٩٧.

(٢) ولي الحكم سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م. د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٩٧.

(٣) في الأصل ألب. ولي الحكم سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ولي الحكم سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أيامه[١]، ثم أخوه علاء الدين تكش[٢]، ثم ابنه علاء الدين محمد بن تكش[٣]، ثم ابنه جلال الدين منكوبرتي[٤].

ذكر أخبار الدولة الجنكزخانية وابتداء أمرها وما تفرع عنها

والدولة الجنكزخانية هي دولة التتار وقيل فيهم التاتار، وهذه النسبة إلى جنكزخان التمرجي[٥]. ونحن نذكر ملخص أخباره وابتداء ظهوره وما كان من أمره إلى أن ملك البلاد، ونشرح من ذلك ما لخصناه مما طالعناه ونورد ما تلقفناه من أفواه الرجال وسمعناه. ولما اتسعت ممالك هذه الدولة وبعدت، وكانت بين المؤرخين الضالة التي ما نشدت، تعذر علينا أن نتحقق أحوالها، ونجوس خلالها ونستوعب أخبارها، ونستقصي آثارها. ولم يمكن أن نخلّ بها وقد اشتهرت، ونطوي أخبارها وقد انتشرت، فأوردنا من أخبار ملوكها طرفًا على غير مساق، ونبذة على غير اتساق، مما أورده المنشي في تاريخه الجلالي، وعز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الكامل. وأما غيرهما ممن لعله أرّخ لهم فلم يصل ما أرخه إلينا، ولا ورد ما دونه من أخبارهم علينا، فنقلنا ما نورده مما لم يتضمن تاريخيهما، وما بعدهما مما نقل إلينا عن رسلهم الذين وردوا إلى أبواب ملوكنا من جهتهم، ومن غيرهم ممن ورد من تلك البلاد على ما سنقف عليه إن شاء الله. ولنبدأ بذكر أخبار جنكزخان.

---

(١) توفي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م. د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج٤، ص٩٧.

(٢) ولي الحكم سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م. د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج٤، ص٩٧.

(٣) ولي الحكم سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م. د. حسن إبراهيم حسن المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ولي الحكم سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م. د. حسن إبراهيم حسن، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) اسمه في الأصل تمرجين، ولما عظم شأنه سمي جنكزخان وقد ذكر بعضهم أن الصواب في النطق به جنكص خان بالصاد بدل الزاي. انظر صبح الأعشى: القلقشندي ج٤، ص٣٠٥.

ترجمته وأخباره في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٦١ وفيه يعرف بتموجين. وصفحات متفرقة من الكامل حسب تسلسل الحوادث في الجزء ١٢. وفي صبح الأعشى للقلقشندي ج٤، ص٣٠٥ ـ ٣١١ و٣٥٦، والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص١٩١ وما بعدها. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٢٣٨. وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٣٦ وما بعدها. وفيات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج١، ص٣٠١ ـ ٣٠٣ رقم ١٠٩.

ذكر أخبار جنكزخان التمرجي
وابتداء أمره وسبب ظهور ملكه

وجنكزخان التمرجي هو أصل هذه الدولة، والقائم بأمرها، والناشر لذكرها. وإليه يرجع سائر ملوكها الذين استولوا على أقاصي البلاد وأدانيها، ورقاب العباد ونواصيها من الصين إلى الفرات وما دانا ذلك وتخلله وجاوره من الممالك والمدن والحصون والقلاع والأقطار. وقد اختلف في نسبة جنكزخان إلى التمرجي فقال قوم إنه كان حدادًا والتمرجي بلغتهم هو الحداد، وقال قوم بل هي نسبة إلى قبيلة تعرف بالتمرجي، وأنهم سكان البراري ببلاد الصين وجين الصين. وتسمى هذه البلاد بلغتهم جين وماجين بين الجيم والشين[1]. ومسيرة أقطارها ستة أشهر، وبها جبال منيعة تحيط بها كالسور، بها الأنهار العذبة المتسعة، وقيل إنه يحوي ملك الصين سور واحد لا ينقطع إلا عند الجبال المنيعة والأنهار الوسيعة وكان ملك الصين ينقسم قديمًا إلى ستة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر يتولى أمره خان، والخان بلغتهم الملك، يحكم ذلك الخان على القوم القاطنين بذلك السقع، ومرجع هؤلاء الخانات الستة[2] إلى خان واحد هو ملكهم الأكبر، ومقامه بطوغاج بوسط أرض الصين، وله مصايف ومشاتي يصيّف في هذه ويشتي في الأخرى...

وأما مبدأ أمر جنكزخان وسبب ملكه فقيل إنه تزهّد مدة طويلة وانقطع بالجبال. وكان سبب زهده أنه سأل بعض اليهود فقال له: «بِمَ أعطى موسى وعيسى ومحمد هذه المنزلة العظيمة، وشاع لهم هذا الذكر»، فقال له اليهودي: «لأنهم أحبُّوا الله وانقطعوا إليه فأعطاهم»، فقال جنكزخان: «وأنا إذا أحببت الله وانقطعت إليه يعطيني؟» قال: «نعم، وأزيدك أن في كتبنا أن لكم دولة ستظهر» فترك جنكزخان ما كان فيه من عمل الحديد أو غيره وتزهد، وفارق قومه وعشيرته، التحق بالجبال وكان يأكل من المباحات، فشاع ذكره فكانت الطائفة من قبيلته تأتيه للزيارة فلا يكلمهم، ويشير إليهم أن يصفقوا بأكفهم، ويقولوا: يا الله يا الله يخشى در، فيفعلون ذلك ويوقعون له وهو يرقص، فكان هذا دأبه وطريقته مع من يقصده للزيارة، وهو مع ذلك لا يدين

(١) تكتب بالجيم المثلثة (چ) وهو الحرف الفارسي الذي ينطق تشي أو مثل ch في اللغة الإنكليزية.

(٢) «أما مصير الملك إليه فقد اختلف فيه على مذهبين» انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

لديانة[(١)] ولا يرجع إلى ملة بل مجرد محبة الله بزعمه، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث فهذه كانت بدايته.

وأما سبب ملكه فحكى شهاب الدين محمد المنشي وغيره في سبب ملك جنكزخان أنه كان من جملة الستة خانات الذين يحكمون على مملكة الصين خان يسمى دوشي خان. وكان الخان الكبير الذي مرجع الستة إليه في زمن ظهور جنكزخان التمرجي ملك اسمه الطون خان فاتفقت وفاة دوشي خان أحد الخانات الستة ولم يخلف ولدًا، وله زوجة هي عمة جنكزخان التمرجي، فاختارت أن ترتبه مكان زوجها دوشي خان. وكان الخان الأكبر غائبًا عن مدينة طوغاج[(٢)] فلما قصدت ذلك أرسلت إلى اثنين من الخانات الستة يسمى أحدهما كشلوخان والآخر جنكزخان وهما متوليان على ما يتاخم ولاية زوجها دوشي خان، فأعلمتهما بوفاة زوجها، وأنه لم يخلف ولدًا، وأنها تقصد ترتيب ابن أخيها مكانه. وسألتهما الإعانة والمساعدة على ذلك. فأجاباها إليه وأشارا أن تقيمه مقام زوجها، وضمنا لها أمر التون خان الأكبر. فأقامته ولقبته جنكزخان، وانضم إليه أقوام من عشيرته. فلما عاد التون خان إلى طوغاج حضر الخانات إلى خدمته وجاء كل منهم بما جرت به العادة من التقادم، وعرض عليه الحجاب الأمور التي اتفقت في غيبته، وقدموا بين يديه التقادم إلى أن وصلوا إلى تقدمة جنكزخان التمرجي بحضور الخانين اللذين أشارا على عمته بتقدمته. فعجب التون خان من توليته في غيبته، وكونه ترشح لما لا يستحقه، فغضب من ذلك وخرج وأمر أن تقطع أذناب خيله وترد مطرودة. ففعل ذلك وشتمه الحجاب وشتموا صاحبيه كشلوخان وجنكزخان، وبالغوا في وعيده ووعيدهما. فلما خرجوا من بين يديه نزعوا أيديهم من الطاعة وانفردوا عن الخان الكبير التون خان[(٣)]، وخالفوه وانضم إليه خلق كثير، فكثرت جموعهم وأهم التون خان أمرهم، فكاتبهم يعدهم تارة

---

(١) من عادة بني جنكزخان أن كل من انتحل منهم مذهبًا لم ينكره الآخر عليه، ثم الذي كان عليه جنكزخان في التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجري على منهاج ياسة التي قررها وهي قوانين خمنها من عقله وقرّرها من ذهنه رتب فيها أحكامًا وحدد فيها حدودًا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية. وأكثرها مخالف لذلك سماها الياسة الكبرى. وأمر أن تجعل في خزانته تُتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته منها أن من زنى قتل ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل، ومن وجد أسيرًا أو هاربًا أو عبدًا ولم يردّه قتل الخ... انظر تفاصيل ذلك في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) يرسمها القلقشندي «طمغاج» وهي قاعدة الصين، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٧.

(٣) «الطرخان» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٠٧.

ويتهددهم أخرى، على أن يرجعوا إلى الطاعة، فأبوا إلا الخلاف. فلما أيس التون خان من رجوعهم إلى الطاعة جمع جموعه وخرج فالتقوا واقتتلوا فكسروه، وقتلوا من قبائل الترك الذين معه مقتلة عظيمة، وهرب التون خان بنفسه إلى وراء كنك[١] وأخلى البلاد، فتمكنوا منها وملكوها، وضعف أمر التون خان ووهى حتى راسلهم يطلب المهادنة وقنع بالسقع الذي انتهى هربه إليه، فأجابوه إلى ذلك.

واستمر الأمر بين الثلاثة: كشلوخان وجنكزخان الأكبر، وجنكزخان الأصغر تمرجي، هذا على المشاركة، فكانوا كذلك إلى أن مات جنكزخان الأكبر، وبقي كشلوخان، وجنكزخان تمرجي مشتركين في الأمر، وامتدت أيديهما في البلاد، وسارا إلى بلاساغون[٢] فملكاها وما يتاخمها ويدانيها من البلاد. فاتفقت وفاة كشلوخان فقام ولده مقامه، ولقب كشلوخان بلقب أبيه، فلم ينصفه جنكزخان واستضعف جانبه لحداثة سنه، ولم يعامله بما كان يعامل به أباه من الاشتراك في الأمر والنهي والتناصف في قسمة الممالك. فجرى بينهما مراسلات ومعاتبات أفضت إلى مفارقة كشلوخان بن كشلوخان إلى قيالق والمالق[٣]، فصالحه صاحبها ممدوخان بن أرسلان واتفقا وتعاضدا.

واتفق أن كورخان خان الخانية ملك الخطا كان بينه وبين السلطان علاء الدين محمد بن تكش من الحروب ما ذكرناه في أخباره، وكان السلطان علاء الدين لما هزم كورخان التجأ إلى حدود كاشغر فقصده كشلوخان وممدوخان وأرادا أنهما يجلسانه على تخت الملك لينضاف إليهما بسببه قبائل الترك، فنهضا إليه من قيالق وكبسا عليه وهو بحدود كاشغر وأخذاه وأجلساه على سرير الملك. وكان كشلوخان يقف بين يديه عند الإذن العام موقف الحجاب، فيشاوره في سائر الأمور ولا يعمل منها إلا بما يختاره، فكانت واقعتهم هذه شبيهة بواقعة السلطان سنجر شاه السلجقي مع الغز لما أسروه، قال: واستوليا على خزانته وأمواله وذخائره، فبلغ السلطان علاء الدين محمد بن تكش ذلك، فأرسل إلى كشلوخان يطالبه بإرساله إليه ويتهدده إن أخره عنه، ويقول: إنه كان هادنه على أن يزوجه ابنته طوغاج خاتون ويزفها إليه بما في خزانته من الجواهر النفيسة والأعلاق الثمينة، على أن يتركه في أخريات بلاده؛ فما أجاب إلى ذلك، ودافعه عنه بالملاطفة والممالطة.

---

(١) كنك: بالكسر ثم السكون اسم واد في بلاد الهند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٨٤.

(٢) «بلاد ساغون» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٤٢٩ وهي في مملكة توران.

(٣) المالق: إحدى مدن تركستان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٤٢.

وفي أثناء ذلك بلغ جنكزخان تمرجي أن كشلوخان استولى على كاشغر[١] وبلاساغون وأن ملك الخطا قد وقع بين يديه، فبعث إليه ولده دوشي خان[٢] في زهاء عشرين ألف فارس فأوقع بهم دوشي خان بن جنكزخان، وغنم ما معهم وذلك في سنة ثنتي عشرة وستمائة وكان السلطان علاء الدين قد عبر النهر لقصد كشلوخان وقتاله، فبلغه أن دوشي خان بن جنكزخان أوقع به، وجاءته رسالة دوشي خان مع مَن يقول له: إنه يقبّل الأرض ويعتذر من عبوره إلى البلاد، ويقول: إنه إنما عبر لطلب كشلوخان وينازله في رسالته وقال: إن الغنائم بين يديه إن شاء أن ينعم على من باشر القتال بشيء منها، وإلا فالأمر إليه وإلا يرسل من يتسلمها ويسوقها إلى عنده، وذكر له أن أبا جنكزخان أوصاه بسلوك الأدب في خدمة السلطان علاء الدين إن صادفه أو صادف بعض عساكره. فلم يصغ علاء الدين إلى كلامه وقال: إن كان جنكزخان أمرك أن تقاتلني فالله أمرني بقتالك. وتقدم إليه والتقيا، فكسر دوشي خان ميسرة السلطان علاء الدين ومزقها، وكادت تكون الهزيمة حتى عطفت الميمنة على ميسرة دوشي خان ثم حجز بينهما الليل فأججوا نيرانًا كثيرة. وركبوا وساقوا في تلك الليلة مسيرة يومين، وتمكن الرعب في قلب السلطان محمد وعاد إلى سمرقند[٣]. ثم راسل جنكزخان السلطان علاء الدين خوارزم شاه وهاداه، وطلب منه أن يفسح للتجار أن تتواصل من بلادهما واتفقا على ذلك على ما قدمناه في أخبار خوارزم شاه.

ذكر خروج التتار إلى البلاد الإسلامية

كان سبب ذلك أن جنكزخان لما راسل السلطان محمد وهاداه، وانتظم بينهما الصلح، وفسحا للتجار في الوصول إلى بلاد الإسلام وبلاد الصين، فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن وصل إلى أترار[٤] - وهي من ممالك السلطان علاء الدين محمد - عدة من تجار جنكزخان. وكان بها ينال خان ينوب عن السلطان، فقتلهم وأخذ

(١) كاشغر: هي مدينة قريبة من سمرقند، وهي في وسط بلاد الترك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٣٠.

(٢) يكتب أيضًا توشي خان. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٣٠٨.

(٣) سمرقند: بفتح أوله وثانيه ويقال لها بالعربية سُمْران بلد معروف مشهور قيل إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٤٦.

(٤) أطرار: بالضم وراءين مهملتين: اسم مدينة حصينة وولاية واسعة في أول حدود الترك بما وراء النهر على نهر سيحون قرب قاراب، وبعضهم يقول: أترار. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢١٨. وفي الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٦٢ وردت «أوترار».

أموالهم. فاتصل ذلك بجنكزخان، فراسل السلطان يلومه على ذلك، ويقول: إنك كتبت خطك وأمانك للتجار، وقد غدرت ونكثت[١]، فإن زعمت أن الذي ارتكبه ينال خان كان عن غير أمرك فسلمه إلي لأجازيه على فعله، وإلا فأْذن بالحرب. فقتل رسله كما قدمنا ذلك في أخبار خوارزم شاه، فعند ذلك تجهز جنكزخان لقصد البلاد الإسلامية. وكان من سوء تدبير علاء الدين خوارزم شاه وتفرقة عساكره في كل مدينة من مدن ما وراء النهر ما ذكرناه، فتجهز جنكزخان بجموع التتار، ولما شارف البلاد الإسلامية تياسر صوب أترار واستولى عليها بعد قتال شديد، وأحضر ينال خان بين يديه وأمر بسبك الفضة وقلبها في أذنيه وعينيه، فمات.

ذكر استيلاء جنكزخان على بخارى

قال: ولما استولى جنكزخان على أترار وقتل النائب بها، ورتب الحيلة التي أوقع بها بين السلطان علاء الدين خوارزم شاه وبين أمه وأخواله على ما قدمناه في أخبار الدولة الخوارزمية، تقدم إلى بخارى، وقصد بذلك أن يقطع بين السلطان وبين عساكره المتفرقة، حتى أنه لو أراد جمعهم لعجز عن ذلك فلما انتهى إليها حاصرها، وقدم بين يديه رجال أترار، وداوم الحصار والقتال ليلاً ونهارًا وكان بها الأمير اختيار الدين كشلي أمير آخور[٢] وأغلى حاجب الملقب بإينانج خان في ثلاثين ألف فارس، فلما رأوا أنها قد أشرفت على الأخذ تخاذلوا، وأجمعوا على الهزيمة، فخرجوا وحملوا على التتار حملة رجل واحد، فأفرجوا لهم وانهزموا أمامهم حتى كادت الهزيمة تكون على جنكزخان، وظن أنهم يعودون للقتال. فلما علم جنكزخان أن مقصدهم الهرب أرسل في آثارهم من أكابر التتار من يتبعهم ويتخطفهم إلى أن وصلوا إلى حافة نهر جيحون، فلم ينج منهم إلا إينانج خان في شرذمة يسيرة، وشمل القتل معظم ذلك الجيش وغنم التتار ما معهم.

(١) نكث: نقض العهد. ابن منظور: لسان العرب (نكث).

(٢) أميرآخور: وهو الذي يتحدث على إصطبل السلطان أو الأمير ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل حكم الإصطبلات. وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير، والثاني فارسي وهو آخور بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المعلف، والمعنى أمير المعلف. لأنه المتولِّي لأمر الدواب وأهم أمورها المعلف. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦١.

قال: ولما فارق العسكر الخوارزمي بخارى طلب أهلها الأمان فآمنهم[١] وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة، وفتحت أبواب المدينة بالأمان، وذلك في يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة سنة ست عشرة وستمائة[٢]. فدخل التتار بخارى ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم: أخرجوا إلينا جميع ما هو متعلق بالسلطان من الذخائر وغيرها، وساعدونا على قتال من بالقلعة، وأظهروا لهم العدل وحسن السيرة. ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في البلدان أن لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل. فحضروا بأجمعهم وأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتى كان التتار يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق. ثم تابعوا الزحف على القلعة وبها أربعمائة فارس من المسلمين، فبذلوا جهدهم ومانعوا[٣] اثني عشر يومًا يقاتلون جميع الكفار وأهل البلد، فما زالوا كذلك إلى أن وصل النقابون إلى القلعة[٤]. واشتد الأمر ورمى المسلمون بجميع ما عندهم من حجارة وسهام ونار ثم قاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وملك جنكزخان القلعة، فلما فرغ من أمر القلعة أمر بجمع رؤساء البلد، فجمعوا وعرضوا عليه فقال لهم: «أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزم شاه فإنها لي وأخذت من أصحابي» فأحضر كل من كان عنده شيء منها ما عنده، ثم أمرهم بالخروج من البلد مجردين فخرجوا ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه. ونهب التتار البلد وقتلوا من تخلف فيه. وأحاطوا بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتسموهم ففعلوا ذلك وأصبحت بخارى خاوية على عروشها، وارتكب التتار من الفساد العظيم[٥] والناس ينظرون إليهم ولا

---

(١) يقول ابن الأثير: «أما الكفار فإنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه، وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالاً شديدًا متتابعًا. فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة، ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان، فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم، فأرسلوا القاضي، وهو بدر الدين قاضي خان، ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الأمان. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٦٥.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٢٢٠، والكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٦٥، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٤٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٧٨.

(٣) «ومنعوا القلعة اثني عشر يومًا» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٦٦.

(٤) «ووصل النقابون إلى سور القلعة فنقبوه» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٦٦.

(٥) يقول «دوسن» إن تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ووحشيتهم لا تترك إلا صورًا بغيضة. وإن حكمهم كان انتصارًا للفساد والفوضى.

D'Hosson Histoire des Mongols. Amesterdam. 1834. Tome 1, P.7-8.

يستطيعون ردهم. فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت وقاتل حتى قتل، ومنهم من استسلم وأسر. وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب الأموال ثم ساروا إلى سمرقند.

ذكر استيلائه على سمرقند

قال: ولما فرغ جنكزخان من أمر بخارى سار إلى سمرقند وقد تحقق عجز السلطان علاء الدين عن قتاله، وهو بمكانه بين ترمِذ وبلخ، وأمر جنكزخان أن يتوجه من سلم من أهل بخارى فخرجوا مشاة على أقبح حال، فمن أعياه التعب وعجز عن المشي قتل. فلما قاربوا سمرقند، ورموا الخيالة، وتركوا الأثقال والأسارى والرجالة وراءهم، وتقدموا شيئًا فشيئًا ليكون ذلك أرعب لقلوب المسلمين، فاستعظم أهل البلد سوادهم فلما كان في اليوم الثاني وصلت الأسارى والرجال والأثقال ومع كل عشرة من الأسارى علم، فظنه أهل البلد أن الجميع مقاتلة وأحاطوا بالبلد، وكان طغانخان خال السلطان وأمراء الغور في أربعين ألف فارس وقيل في خمسين ألف فارس، وعامة البلد لا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلاد رجال، ولم يخرج معهم أحد من العسكر الخوارزمي لما في قلوبهم من الجزع فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتار يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم، حتى بعدوا عن البلد، وكان التتار قد كمنوا كمينًا، فلما جاوزه المسلمون خرج الكمين من ورائهم وحال بينهم وبين البلد وعطف عليهم التتار فصاروا في وسط القوم وآخرهم السيف، قتلوا عن آخرهم، وكانوا سبعين ألفًا. فضعفت نفوس الجند ومن بقي من العامة وأيقنوا بالهلاك؛ فقال الجند - وكانوا أتراكًا - نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا[1]، فطلبوا الأمان فأجابوهم له، ففتحوا أبواب البلد وخرج الجند إليهم بأهاليهم وأموالهم فقال لهم التتار: «ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم» ففعلوا ذلك ثم وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا نساءهم فلما كان في اليوم الرابع نودي في البلد أن يخرج أهله بأجمعهم ومن تأخر قتل، فخرج جميع من به من الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند كفعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد، ونهبوا ما في البلد، ثم أحرقوا الجامع وتركوا البلد على حاله، وذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة. هذا وخوارزم شاه مقيم

(١) في الأصل «يقتلونا».

بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سمرقند فيرجعون ولا يقدمون عليهم. نعوذ بالله من الخذلان[١].

قال: ولما ملك جنكزخان بخارى وسمرقند فرق عساكره للاستيلاء على الممالك، فجهز طائفة خلف خوارزم شاه وهي المغربة، وطائفة إلى خراسان وطائفة إلى خوارزم وطائفة إلى بلاد فرغانة وطائفة إلى ترمذ[٢] وطائفة إلى كلاية، فاستولت كل طائفة على ما توجهت إليه وفعلت من القتل والنهب والأسر والسبي والتخريب وأنواع الفساد ما فعله أصحابهم. فأول طائفة جهزها من أصحابه الطائفة المغربة وفعلت ما نذكره.

ذكر ما فعلته الطائفة المغربة من التتار

قال ابن الأثير: لما ملك جنكزخان سمرقند جهز خمسة وعشرين[٣] ألف فارس من أصحابه في طلب خوارزم شاه حيث كان. وهذه الطائفة تسميها التتار المغربة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم لأنهم الذين أوغلوا في البلاد وكان المقدم على هذه الطائفة سبطي بهادر ويمنويه فساروا وقصدوا موضعًا يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه، فلم يجدوا سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر ووضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم. وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا أذنابها وشدوا تلك الحياض إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض، فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه في أرض واحدة. وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبًا وخوفًا وحصل بينهم اختلاف، فكان ثباتهم بسبب أن نهر جيحون فاصل بينهم وبين التتار. فلما عبروه كان من أمر السلطان علاء الدين وانهزامه ووفاته ما قدمناه في أخباره.

ذكر استيلائهم على مازندران[٤] ووصولهم إلى الري وهمذان

قال ابن الأثير: لما أيس التتار المغربة من إدراك خوارزم شاه قصدوا بلاد

---

(١) يقول ابن الأثير إن خوارزم شاه قد سيّر مرة عشرة آلاف فارس فعادوا كالمنهزمين من غير قتال، وسيّر عشرين ألفًا فعادوا أيضًا. الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٦٨.

(٢) ترمذ: مدينة مشهورة على نهر جيحون من جانبه الشرقي ج٢، ص٢٦.

(٣) «سير عشرين ألف فارس» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٦٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٧٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص٢٢٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٧٢.

مازندران فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها، فقتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد وألحقوها بغيرها ثم سلكوا نحو الري، ووصلوا إليه في سنة سبع عشر وستمائة أيضًا. وكان مسيرهم إلى الري في طلب خوارزم شاه، لأنهم بلغهم أنه توجه نحو الري، فجدُّوا السير في أثره وانضاف إليهم كثير من العساكر المسلمين والكفار والمفسدين، فوصلوا الري على حين غفلة من أهلها فملكوها، ونهبوا وسبوا الحريم، وأسرفوا في القتل ومضوا مسرعين في طلب خوارزم شاه، ونهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها، ووضعوا السيف في الرجال والنساء والأطفال، ولم يبقوا على شيء. وانتهوا إلى همذان، فلما قاربوها خرج رئيسها إليهم ومعه الجُمل من الأموال والأقمشة والخيل وغير ذلك، وطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم ثم فارقوها. وساروا إلى زنجان ففعلوا أضعاف ما فعلوه بالري، ووصلوا إلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدُّوا في قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف واقتتلوا هم وأهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين وقتل من الفريقين ما لا يحصى، فزادت القتلى من أهل قزوين على أربعين ألف قتيل ثم فارقوا قزوين.

ذكر مسيرهم إلى أذربيجان(١) وقتالهم مع الكُرج

قال: لما هجم الشتاء على التتار بهمذان وبلد الجبل وترادفت الثلوج ساروا إلى أذربيجان، وعاثوا في طريقهم ونهبوا وخربوا ما مروا عليه من المدن الصغار والقرى على عادتهم، ووصلوا إلى تبريز وبها أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان، فلم يخرج إليهم ولا قاتلهم لاشتغاله باللهو والشرب، وصالحهم على مال وثياب ودواب، وحمل ذلك إليهم، فتوجهوا من عنده يريدون ساحل البحر لقلة رده وكثرة مراعيه. فوصلوا إلى موقان(٢) وتطرقوا في مسيرهم إلى بلاد الكُرج فجاء إليهم من الكُرج نحو عشرة آلاف، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت الكُرج، وقتل أكثرهم وأرسل الكُرج إلى أزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح، والاتفاق على دفع التتار، فاتفقا على أنه إذا انحسر الشتاء لقوهم. وراسلوا الملك الأشرف بن العادل صاحب خلاط، وديار الجزيرة في ذلك، وظنوا جميعهم أن التتار لا يتحركون إلى انقضاء فصل الشتاء، فما

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٧٤.

(٢) موقان: بالضم ثم السكون، ولاية بأذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٢٥.

صبروا (التتار) وتحركوا وتوجهوا نحو بلاد الكُرج، وانضاف إليهم (إلى التتار) مملوك تركي من مماليك أزبك اسمه أقوش، وجمع أهل بلد الجبل والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع إليه جماعة منهم، فمال التتار إليه للجنسية فسار في مقدمتهم إلى الكُرج فملكوا حصنًا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وقتلوا ووصلوا إلى قرب تِفليس، فاجتمعت الكُرج، فلقيهم أقوش بمن معه فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم أدركهم التتار فلم يثبت الكُرج وانهزموا أقبح هزيمة، وأخذهم السيف من كل جانب وقتل منهم ما لا يحصى كثرة - وذلك في ذي القعدة[١] - ونهبوا من البلاد ما كان قد سلم منهم[٢].

ذكر ملكهم مدينة مَراغة

قال: ولما فعلوا بالكُرج ما فعلوه، ودخلت سنة ثماني عشر وستمائة ساروا من بلاد الكُرج ومروا على تبريز، فصانعهم صاحبها أيضًا بمال وثياب ودواب، فساروا عنه إلى مدينة مراغة فحصروها، وليس بها من يمنعها لأن صاحبتها كانت امرأة وكانت مقيمة بقلعة رويندز، فقاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق واستعانوا بأسرى المسلمين. وكانت عادتهم (التتار) إذا فتحوا مدينة استعانوا بأسراها على فتح غيرها، ويجعلون الأسرى أمامهم عند القتال، فيقع القتل فيهم. فإذا فتحوا البلد قتلوهم بعد ذلك وتعوضوهم بمن أسروه من البلد الآخر. فأقاموا عليها عدة أيام وملكوها عنوة، وذلك في رابع صفر من السنة، ووضعوا السيف في أهلها، ونهبوا ما صلح لهم وحرقوا ما سواه. قال: واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب أن التتار قد رحلوا فينادون فيسمعهم من اختفى فيظهر فيقتلونه.

قال ابن الأثير: ولقد بلغني أن امرأة من التتار دخلت دارًا وقتلت جماعة من أهلها، وهم يظنون أنها من الرجال، فلما وضعت السلاح، رأوها امرأة، فقتلها رجل كانت أخذته أسيرًا. قال: وسمعت من بعض أهلها أن رجلاً من التتار دخل دربًا فيه

(١) «في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ» انظر الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٧٥.

(٢) وفي ذلك يقول ابن الأثير: «ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يُسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية همذان، وتالله إن من يجيء بعدنا، إذ بعُد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة يُنكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها...» انظر الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٧٦.

ما يزيد على مائة رجل فقتلهم واحدًا واحدًا، حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه. ووقعت الذلة على الناس، نعوذ بالله من الخذلان[١].

قال: ثم رحلوا نحو مدينة إربل[٢]، فكتب مظفر الدين صاحبها إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر، فسيّر إليه جماعة، وكتب الخليفة إلى صاحبي الموصل وإربل يأمرهما بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا[٣] لمنع التتار، لما بلغه أنهم عدلوا عن إربل لصعوبتها وقصدوا العراق. فسار مظفر الدين ومن معه من العسكر الموصلي في صفر. وكتب الخليفة إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره لتجمع العساكر ويقصدون التتار فمنعه من ذلك مسيره إلى الديار المصرية لنصرة الملك العادل بن أيوب على الفرنج، واستعادة دمياط من أيديهم. فلما اجتمع مظفر الدين هو والعسكر الموصلي بدقوقا، سيّر إليهم الخليفة مملوكه قشتمر ـ وهو أكبر أمير بالعراق ـ ومعه عشرة من الأمراء في نحو ثماني مائة فارس، فاجتمعوا ليتصل بهم عساكر الخليفة، والمقدم عليهم مظفر الدين صاحب إربل، فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على التتار. ولما سمع التتار باجتماع العسكر رجعوا القهقرى، ظنًا منهم أن العسكر يتبعهم، فلما لم يتبعهم أقاموا وأقام العسكر بدقوقا، ثم تفرق المسلمون وعادوا إلى بلادهم.

ذكر ملكهم همذان وقتل أهلها[٤]

قال: لما تفرق العسكر الإسلامي عاد التتار إلى همذان، فنزلوا بالقرب منها، وكان لهم شحنة يحكم فيها، فأرسلوا إليه أن يطلب لهم من أهلها مالاً وثيابًا وكان رئيس همذان من الأشراف ذا رئاسة قديمة بها وهو الذي سعى في أمر أهل البلد مع التتار، وتوصل إليهم بما جمع من الأموال فلما طلب المال ثانيًا من أهل همذان لم يجدوا ما يحملونه لهم، فاجتمعوا إلى الشريف ومعهم إنسان فقيه قام في اجتماع الكلمة على التتار، فشكوا إلى الشريف حالهم، وما نالهم من الهوان، وطلب ما لا

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٧٨.

(٢) رسمها ابن الأثير إربل بالكسر، المصدر نفسه والصفحة نفسها. وياقوت الحموي في معجم البلدان ج١، ص١٣٧ يقول «إربل» بالكسر ثم السكون ولا يجوز فتح الهمزة لأنه ليس في أوزانهم أي (العرب) مثل أفعِل.

(٣) دقوقاء: بفتح أوله وضم ثانيه، مدينة بين إربل وبغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٨١.

يقدرون عليه. فقال: إذا كنا نعجز عن دفعهم فليس إلا مصانعتهم بالأموال، فثاروا عليه، وأغلظوا له في القول، فوافقهم على مرادهم. فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتار فوثب العامة على الشحنة فقتلوه، وامتنعوا. فتقدم إليهم التتار وحصروهم، فقاتلهم أهل البلد قتالاً شديدًا، والرئيس والفقيه في أوائلهم، فقتل من التتار خلق كثير، وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا. ثم اقتتلوا من الغد أشد مما مضى بالأمس. وأرادوا الخروج في اليوم الثالث، فلم يطق الفقيه الركوب ولم يوجد الرئيس، وهرب من سرب كان قد صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله، واستعصم بقلعة هناك على جبل عال. فحار الناس ثم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا، وكان التتار قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم، فلما تقاصر أهل البلد عن الخروج إليهم طمعوا واستدلوا على ضعفهم، فقصدوهم وقاتلوهم، ودخلوا المدينة بالسيف، وذلك في شهر رجب سنة ثماني عشرة [وستمائة][١]. وقاتلهم الناس في الدروب بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصى، ثم قوي التتار على المسلمين فأفنوهم وما سلم منهم إلا من كان عمل له نفقًا في الأرض، واختفى فيه، ثم أحرقوا البلد ورحلوا عنه.

ذكر مسيرهم إلى أذربيجان وملكهم أردويل[٢] وغيرها

قال[٣]: لما فرغوا من همذان ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى أردويل فملكوها، وقتلوا وخربوا أكثرها وساروا إلى تبريز، ففارقها صاحبها أزبك بن البهلوان وتوجه إلى نقجوان وكان كثير التخلف والشرب واللهو، فقام بأمر تبريز شمس الدين الطغرائي، وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني، وحصن البلد. فبلغ التتار ذلك فراسلوه يطلبون منه مالاً وثيابًا فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو[٤] فنهبوها وقتلوا جميع من فيها. ورحلوا عنها

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٢) أردويل أو أردبيل: إحدى مدن أذربيجان بالقرب من تبريز. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٨٣. يقول القلقشندي: إنها كثيرة الخصب وعلى فرسخين منها جبل عظيم الارتفاع وأهلها غليظو الطبع وشرسو الأخلاق. صبح الأعشى ج٤، ص٣٥٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٨٢.
(٤) سراو: بفتح أوله وآخره، مدينة بأذربيجان بين أردبيل وتبريز. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٤.

إلى بيلقان من بلاد أرّان[١] فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وقتلوا من ظفروا به وحصروا بيلقان[٢]، فاستدعى أهلها منهم رسولاً ليقرر الصلح فأرسلوا إليهم رسولاً من أكابرهم ومقدميهم، فقتلوه، فزحف التتار إليهم وقاتلوهم وملكوا البلد عنوة، وذلك في شهر رمضان من السنة، ووضعوا السيف فلم يبقوا على أحد من الرجال والنساء والأطفال حتى شقوا بطون النسوان الحوامل وقتلوا الأجنة. وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها. ثم ساروا إلى مدينة كنجة ـ وهي أم بلاد أرّان ـ فعلموا بكثرة من فيها وشجاعتهم لدربتهم بقتال الكرج، فلم يقدموا عليهم لذلك ولحصانة البلد. فراسلوا أهلها في طلب المال والثياب، فحمل إليهم ما طلبوا وساروا عنها.

ذكر وصولهم إلى بلاد الكُرج[٣]

قال: لما فرغوا من البلاد الإسلامية أذربيجان وأران بعضها بالملك وبعضها بالصلح، ساروا إلى بلاد الكُرج من هذه الأعمال أيضًا. وكان الكُرج قد استعدوا لهم، وسيّروا جيشًا كثيفًا إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتار عنها، فالتقوا، فلم يثبت الكُرج وولوا منهزمين فأخذتهم سيوف التتار، فلم يسلم منهم إلا الشديد. فكانت القتلى منهم نحو ثلاثين ألفًا، ونهبوا ما وصلوا إليه من بلادهم وخربوها، كعادتهم. ووصل من سلم من الكُرج إلى مدينة تفليس ـ وبها ملكهم ـ فجمع جموعًا أخرى، وسيرهم ليمنعوا التتار من توسط بلادهم فرأوهم قد دخلوا البلاد ولم يمنعهم وعر ولا مضيق، فعادوا إلى تفليس ونهب التتار ما مروا عليه من بلادهم، ورأوا البلاد كثيرة المضايق والدربندات فما أوغلوا فيها، وداخل الكُرج منهم خوف عظيم.

قال ابن الأثير: سمعت عن بعض أكابر الكُرج أنه قال: من حدثكم أن التتار انهزموا وأُسروا فلا تصدقوه، وإذا حُدثتم أنهم قتلوا فصدقوا، فإنهم قوم لا يفرون أبدًا، ولقد أخذنا أسيرًا منهم فألقى نفسه عن الدابة وضرب رأسه بالحجر حتى مات، ولم يسلم نفسه للأسر.

---

(١) أرّان: بالفتح والتشديد، اسم لولاية واسعة من صقاع أرمينية أهم مدنها كنجة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٣٦.

(٢) بيلقان: بالفتح ثم السكون مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب تعد في أرمينية الكبرى، قرب شِروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٣٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٨٢.

ذكر وصولهم إلى دَرْبَنْد شَرْوان[(١)] وما فعلوه فيه

قال: لما عادوا من بلاد الكُرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شَماخي[(٢)] وقاتلوا أهلها، فصبروا على الحصار وقاتلوا أشد قتال، وعلموا أن الموت لا بد منه، فقالوا نموت كرامًا وصبروا إلى أن كلُّوا وتعبوا. وتوالى الزحف، فملك التتار البلد، وأكثروا القتل ونهبوا الأموال. ثم أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك، فأرسلوا رسولاً إلى شروان ملك الدربند، وطلبوا منه أن يرسل إليهم رسولاً يسعى بينهم في الصلح، فأرسل عشرة من أعيان أصحابه، فقتلوا أحدهم وقالوا لمن بقي: دلونا على طريق نعبر فيه ولكم الأمان، وإلا قتلناكم. فقالوا: ليس فيه طريق البتة، وإنما فيه موضع هو أسهل ما فيه، فساروا بهم إلى ذلك الطريق فعبروا فيه.

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق[(٣)]

قال: لما عبر التتار دربند شروان، ساروا في تلك البلاد والأعمال - وفيها أمم كبيرة من اللان واللكز[(٤)] وطوائف من الترك - فنهبوا وقتلوا كثيرًا من اللكز - وهم مسلمون وكفار - ووصلوا إلى اللان وهي أمم كثيرة، فبلغهم الخبر فجدُّوا وجمعوا جمعًا من قفجاق[(٥)]، فقاتلوهم فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتار إلى قفجاق فقالوا: نحن وأنتم جنس واحد واللان ليسوا منكم، ولا دينكم كدينهم حتى تنصروهم، ونحن نعاهدكم أننا لا نتعرض إليكم، ونحمل لكم من الأموال والثياب ما

(١) شروان: مدينة من نواحي باب الأبواب، بناها أنو شروان فسميت باسمه، ويطلق الفرس على باب الأبواب اسم الدربند ويذكر ياقوت أن باب الأبواب هو الدربند، دربند شروان وهي مدينة على بحر ممتد من الجبل، ولا مسلك على جبلها إلى بلاد المسلمين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٣٩.

(٢) شماخي: بفتح أوله، مدينة عامرة في طرف أران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٦١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٨٥.

(٤) اللكز: مدينة لَكْز: بفتح اللام وسكون الكاف وفي آخرها زاي معجمة، وهي مدينة يسكنها جنس من الترك يقال لهم اللكزى، وهم في الجبل الفاصل بين تتر مملكة بركة وتتر مملكة هولاكو. انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٤٦٧.

(٥) رسمها القلقشندي قبجاق: وهي طائفة في بلاد الخفجاج شمالي توران. صبح الأعشى، ج٤، ص٤٢٩.

شئتم، وتتركوننا وإياهم. فاستقر الأمر بينهم على ما حملوه لهم من مال وثياب وغير ذلك ففارقهم قفجاق فأوقع التتار عند ذلك باللان، فقتلوا منهم وسبوا وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون، لما استقر بينهم من الصلح فطرقوا بلادهم وأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوه إليهم. وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر، ففروا من غير قتال، واعتصم بعضهم بالغياض وبعضهم بالجبال ولحق بعضهم ببلاد الروس. وأقام التتار ببلاد قفجاق، وهي أرض كثيرة المرعى صيفًا وشتاءً وفيها أماكن باردة في الصيف وأماكن حارة في الشتاء، وغياض، وهي على ساحل البحر، ووصلوا إلى مدينة سوداق ـ وهي مدينة قفجاق ـ فملكوها، وفارقها أهلها، فبعضهم صعد إلى الجبال بأهله وماله، وبعضهم ركب في البحر وساروا إلى بلاد الروم التي بيد الملوك السلجقية.

ذكر ما فعلوه بقفجاق والروس(١)

قال: لما استولى التتار على قفجاق وتفرقوا، والتحقت طائفة كثيرة منهم ببلاد الروس ـ وهي بلاد كبيرة طويلة عريضة تجاور القفجاق وأهلها يدينون بدين النصرانية ـ فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم، واتفقوا على قتال التتار إن قصدوهم. فسار التتار إلى بلاد الروس في سنة عشرين وستمائة، فسار قفجاق والروس إلى طريق التتار ليلقوهم قبل وصولهم إلى بلادهم ويمنعوهم عنها، فبلغ التتار مسيرهم، فرجعوا على أعقابهم. فطمعت القفجاق والروس فيهم، وظنوا أنهم عادوا خوفًا منهم، وعجزوا عن قتالهم، فأتبعوهم وساقوا في إثرهم اثني عشر يومًا، فعطف التتار عليهم وهم على غرة، لأنهم كانوا قد آمنوا ووثقوا بالقدرة عليهم: فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتار منهم مبلغًا عظيمًا.

فصبر الطائفتان صبرًا لم يسمع بمثله. ودام القتال عدة أيام، فاستظهر التتار عليهم، فانهزمت قفجاق والروس هزيمة فاضحة، وكثر القتل في المنهزمين، فلم يسلم منهم إلا القليل. ووصل من سلم منهم على أقبح حال، والتتار تتبعهم يقتلون وينهبون ويخربون فاجتمع كثير من أغنياء تجار الروس وأعيانهم، وحملوا ما يعز عليهم، وتوجهوا في البحر في عدة مراكب إلى بلاد الإسلام، فلما قاربوا المرسى الذي يقصدونه انكسر منهم مركب فغرق ونجا من فيه [وكانت العادة جارية أن

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٨٧.

السلطان له كل مركب ينكسر فأخذ من ذلك شيئًا كثيرًا][١] وسلم باقي المراكب [وأخبر من بها بهذه الحال][٢].

ذكر عود التتار إلى ملكهم[٣]

قال: ولما فعل التتار بالروس ما ذكرناه عادوا عنها وقصدوا بلغار في أواخر سنة عشرين وستمائة. فلما سمع بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع، وخرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم إلى أن جاوزوا مواضع الكمناء، فخرجوا من وراء ظهورهم. وبقي التتار في وسطهم، وأخذهم السيف من كل ناحية، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل نحو أربعة آلاف رجل، فساروا إلى سَقْسين وعادوا إلى ملكهم جنكزخان. وكانت الطرق منقطعة تتخللهم في البلاد. فلما خلت البلاد منهم اتصلت الطرق وحمل التجار الأمتعة على عادتهم.

هذا ما فعله التتار المغربة منذ مفارقتهم جنكزخان وإلى أن عادوا إليه في مدة أربع سنين فلنذكر أخبار غير هذه الطائفة ممن سيرهم جنكزخان.

قال: ولما جهز جنكزخان هذه الطائفة المغربة جهز طائفة إلى بلاد فرغانة وطائفة إلى ترمز وطائفة إلى كلانة[٤] وهي قلعة حصينة إلى جانب جيحون، فسارت كل طائفة إلى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها، واستولت عليها، وفعلت من القتل والنهب والأسر والسبي والتخريب وأنواع الفساد كما فعل أصحابهم. فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان، وهو مقيم بسمرقند، فجهز جيشًا إلى خوارزم مع أحد أولاده وجهز جيشًا آخر فعبروا نهر جيحون إلى خراسان.

ذكر ملك التتار خراسان[٥]

قال أبو الحسن بن الأثير: لما سار الجيش الذي جهزه جنكزخان إلى خراسان عبروا جيحون، وقصدوا مدينة بلخ، وطلب أهلها الأمان فأمنوهم، فسلم البلد ولم

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٨٨.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٣٨٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٣٨٨.

(٤) كلانة: قلعة وصفها ابن الأثير بأنها حصينة من أحسن القلاع وأمنع الحصون. الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٨٩.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٣٩٠.

يتعرضوا إليه بنهب ولا قتل، بل جعلوا فيه شحنة. وقصدوا الزَّوَزان[١] وميمند واندي خوي[٢] وفارياب[٣] فملكوا الجميع، وجعلوا فيه ولاة، ولم يتعرضوا إلى أهلها بسوء، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم، وذلك في سنة سبع عشرة وستمائة. ثم قصدوا الطالقان، وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة يقال لها (منصور كوه) لا ترام علوًا وارتفاعًا وبها رجال شجعان يقاتلون فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلاً ونهارًا، ولم يظفروا منها بشيء فكاتبوا جنكزخان، وأعلموه بالعجز عنها لحصانتها وكثرة من بها من المقاتلة. فسار بنفسه وبجموعه، وحصرها ومعه خلق كثير من الأسرى والمسلمين، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم، فقاتلوا، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى، فقتل من التتار خلق كثير. فلما رأى جنكزخان ذلك أمر أن يجمع له الأحطاب والأخشاب فجمعت، وصار يعمل صفًا من خشب وحطب وفوقه من التراب ما يغطيه، حتى صار تلاً عاليًا يوازي القلعة، فعند ذلك اجتمع من بالقلعة وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا الجبال والشعاب، وقتل الرجالة، ودخل التتار القلعة وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأمتعة.

قال: ثم جمع جنكزخان أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها، وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو، فوصلوا إليها وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل، وهم معسكرون بظاهر مرو، وقد عزموا على لقاء التتار؛ فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا. ولما رأى المسلمون إقدام التتار وصبرهم، ولوا منهزمين، فقتل منهم وأسر خلق كثير، ولم يسلم منهم إلا القليل، ونهبت أموالهم. وأرسل ابن جنكزخان إلى ما حوله من البلاد، وأمرهم بجمع الرجال لحصار مرو، فاجتمعوا وتقدموا للحصار ولازموا القتال. هذا وأهل البلد قد ضعفت نفوسهم بانهزام تلك الطائفة الكبيرة. فلما كان في اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتار إلى أمير البلد يقولون له: «لا تهلك نفسك ومن

---

(١) الزوزان: بفتح أوله وثانيه: كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٥٨.

(٢) رسمها ياقوت أندخوز: وهي إحدى مدن خراسان بين بلخ ومرو. معجم البلدان، ج١، ص٢٦٠.

(٣) فارياب: بكسر الراء: مدينة مشهورة بخراسان قرب بلخ غربي جيحون. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٢٩.

معك، واخرج إلينا ولك الأمان، ونحن نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنك!». فطلب الأمان لنفسه وأهل البلد فأمنوهم؛ فخرج إليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له: «اعرض عليّ أصحابك حتى أستخدم منهم من يصلح لخدمتنا وأعطيه إقطاعًا ويكون معي» فجمعهم له، فلما تمكن منهم أمر بالقبض عليهم وعلى أميرهم ثم قال: «اكتبوا لنا تجار البلد ورؤساء أرباب الأموال في جريدة واكتبوا أرباب الصناعات والحرف في أخرى واعرضوا ذلك علينا» ففعلوا، فأمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم وأموالهم فخرجوا بأجمعهم، فجلس على كرسي من الذهب، وأحضر أولئك الجند الذين قبض عليهم، وأمر بضرب أعناقهم فقتلوا صبرًا، والناس ينظرون إليهم ويبكون عليهم، وأما العامة فتقاسمهم التتار فكان يومًا مشهودًا، وأخذوا أرباب الأموال، فاستصفوا أموالهم وعذبوهم على طلب المال؛ ثم أحرقوا البلد وتربة السلطان سنجر، ونبشوا القبر طلبًا للمال. ودأبوا على ذلك ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع، أمر بقتل أهل البلد كافة؛ وقال: هؤلاء عصوا علينا؛ فقتلوا أجمعين، وأمر بإحصاء القتلى فكانوا سبعمائة ألف قتيل.

ثم ساروا إلى نيسابور، فحوصرت خمسة أيام، وبها جمع صالح من العسكر الإسلامي، فلم تكن لهم بالتتار قوة، فملك التتار المدينة، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم، وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بالمال، كما فعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يومًا يخربون ويفتشون المنازل، وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سلم كثير منهم ولحقوا ببلاد الإسلام، فأمروا أن تقطع رؤوس أهل نيسابور حتى لا يسلم منهم أحد. فلما فرغوا من ذلك سيّروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كذلك، وخربوها، وأحرقوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضا والرشيد. ثم ساروا إلى هراة وهي من أحصن البلاد، فحصروها عشرة أيام فملكوها وآمنوا وقتلوا بعضهم وجعلوا فيها شحنة.

ذكر ملكهم مدينة غزنة وبلاد الغور(١)

قال ابن الأثير: لما فرغ التتار من خراسان وعادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان، جهز جيشًا كثيفًا وسيّره إلى غزنة وبها السلطان جلال الدين منكبرتي ابن السلطان جلال الدين خوارزم شاه وكان قد وصل إليها بعد مفارقته خوارزم كما

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٩٥.

قدمناه، وقد اجتمع عنده من الجيوش نحوًا من ستين ألفًا. وكان الجيش الذي سار إليه من عسكر التتار نحو اثني[1] عشر ألفًا، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع السلطان جلال الدين إلى موضع يقال له بلق[2] فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديدًا، ودامت الحروب بينهم ثلاثة أيام، فانتصر المسلمون وانهزم التتار، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان.

قال: فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا على الوالي الذي عندهم من قبل التتار فقتلوه، فسيّر إليهم جنكزخان عسكرًا فملكوا البلد وخربوه وقتلوا من فيه وسبوا الحريم، ونهبوا السواد أجمع وأحرقوا المدينة.

وهذه الحرب والواقعة لم يذكرها شهاب الدين المنشي في تاريخه، وإنما قال: إن جلال الدين لما سار إلى غزنة اجتمع في طريقه بابن خاله أمين ملك، وهو الذي كان يتولى هراة وهي إقطاعة، وكان قد فارقها ومعه زهاء عشرة آلاف فارس، فاتفقا على كبس التتار المحاصرين قلعة قندهار، فنهضا إليها وأوقعا بمن عليها من التتار، فلم يسلم منهم إلا من وصل بخبرهم إلى جنكزخان فغضب لذلك وجهز ابنه تولي خان، وقد ذكرنا ذلك في أخبار جلال الدين فلنذكر ما ساقه ابن الأثير.

قال: ولما انهزم التتار أرسل جلال الدين إلى جنكزخان رسولاً يقول له في أي موضع يختار أن تكون الحرب حتى يأتي إليه، فجهز جنكزخان عسكرًا كثيرًا مع ابنه تولي خان[3] فوصل إلى كابل. فتوجه إليهم جلال الدين بالعساكر الإسلامية، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم جيش التتار، وقتل تولي خان بن جنكزخان وغنم المسلمون ما معهم واستنقذوا ما في أيديهم من الأسارى، ولم يذكر ابن الأثير قتل تولي خان، وإنما ذكره المنشي وهو الصحيح[4]. فلما بلغ جنكزخان انهزام عساكره وقتل ولده غضب لذلك، وتجهز بنفسه وبجيوشه، وسار إلى صوب غزنة لحرب

---

(١) في الأصل «اثنا».

(٢) بلق: بالفتح ثم السكون مكان بغزنة من أرض زابلستان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٨٩.

(٣) يكتب أيضًا تولي كما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٠٨، وتولوي كما ورد في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٦.

(٤) لم يذكر ابن الأثير مقتل ولده ولا اسمه. بل قال: «فجهز جنكزخان عسكرًا كثيرًا أكثر من الأول مع بعض أولاده» الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٣٩٦.
بينما يذكر القلقشندي أن جوجي وهو أكبر أولاده قد قتل في حياة أبيه وخلف أولادًا. انظر صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٨.

جلال الدين وطلب ثأر ابنه. واتفق اختلاف المسلمين، ومفارقة العساكر الخلجية صحبة سيف الدين بغراق وأعظم ملك ومظفر ملك للسلطان جلال الدين بسبب ما وقع منهم عند قسم الغنيمة على ما بيناه في أخبار جلال الدين. واجتهد جلال الدين في ردهم فعجز، ودهمه وصول جنكزخان، ففارق غزنة وتوجه صوب السند، فأدركه جنكزخان قبل عبوره ماء السند فاضطر جلال الدين إلى القتال فكان من أمره وانهزامه وعبوره إلى بلاد الهند ما قدمناه في أخباره. ولما فارق جلال الدين البلاد رجع جنكزخان إلى غزنة فملكها من غير مدافع ولا ممانع لخلوها من العساكر فقتل التتار أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وألحقوها بخراسان.

ذكر ملكهم مدينة خوارزم

قال شهاب الدين المنشي: كان حصار خوارزم في ذي القعدة سنة عشرين وستمائة، واستيلاؤهم عليها في صفر. قال: لما انفصل جلال الدين وإخوته عن خوارزم كما ذكرناه في أخباره، وافى التتار تخومها، وأقاموا بالبعد منها حتى تكاملت عدتهم وآلات الحصار، ثم تقدموا إليها. فأول من وصل إليها منهم باجي ملك[1] في عسكر كثيف ثم بعده أوكتاي[2] بن جنكزخان وهو الذي انتهت إليه القانية[3] فيما بعد ثم سيّر جنكزخان بعدهم حلقته الخاصة ومقدمها بقرجن نوين وأردفهم بابنه جغطاي ومعه طولن نوين[4] واستون نوين وقاضان نوين في مائة ألف فارس. وطفقوا يستعدون للحصار ويستعملون آلاته من المجانيق والدبابات وغير ذلك. ولمّا رأوا خوارزم وبلدها خالية من حجارة المنجنيق وجدوا هناك من أصول التوت الغلاظ ما استعملوه بدلاً من الحجارة، فكانوا يقطعونها وينقعونها في الماء فتصير كالحجارة ثقلاً وصلابة، فتعوضوا بها عن الحجارة.

ثم وصل دوشي خان بن جنكزخان إلى بلاد ما وراء النهر فراسلهم في الأمان وقال: إن جنكزخان قد أنعم عليه بها وأنه لا يؤثر تخريبها ويضن به ويحرص على عماراتها. قال: ومما يدل على ذلك أن العساكر مدة مقامهم بالقرب منها ما تعرضوا إلى الغارات على رساتيقها فمال ذوو النباهة من أهلها إلى المسالمة، فغلب عليهم السفلة وامتنعوا، فعند ذلك ساق إليها دوشي خان، وأخذ يطويها محلة محلة، فكلما

(١) «باجي بك» في سيرة السلطان جلال الدين للنسوي ص٩٢.
(٢) «أوكطاي» في سيرة السلطان جلال الدين للنسوي، ص٩٢.
(٣) القانية من القان. أو الخان. انظر ص٧٤ هامش ٣ من هذا الجزء.
(٤) رسمه النسوي «طولن جربي» سيرة جلال الدين، ص٩٣.

أخذ واحدة منها التجأ الناس إلى أخرى، وهم يحاربون أشد حرب إلى أن أعضل الأمر، ولم يبق معهم إلا ثلاث محال تراكمت الناس فيها متزاحمين، فأرسلوا إلى دوشي خان الفقيه علاء الدين الخياطي[١] محتسب خوارزم - وكان من أهل العلم والعمل - مستعطفًا له؛ فأمر دوشي خان باحترامه، وأن تنصب له خيمة. ثم أحضره فأدى رسالته فقال في جملة ما قال: إننا قد شاهدنا هيبة الخان وقد آن أن نشاهد مرحمته. فاستشاط غضبًا وقال: «ماذا رأوا من هيبتي وقد أفنوا رجالي؟ فأما أنا فشاهدت هيبتهم وها أنا أريهم هيبتي» وأمر بإخراج الناس ونودي فيهم بانفراد أرباب الصنائع وانعزالهم على حدة، فمنهم من فعل ونجا، ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف تساق إلى بلادهم وغيرهم يترك في وطنه فلم ينفرد. ثم وضع السيف فيهم فقتلوا جميعًا وحكى ابن الأثير في تاريخه الكامل أن التتار بعد ذلك فتحوا السكر[٢] الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق جميعه وتهدمت الأبنية ولم يسلم من أهله أحد البتة، فإن الذين اختفوا من التتار غرقهم الماء وقتلهم الهدم. وهذا ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان ولا حديثه. ثم عاد التتار إلى جنكزخان وهو بالطالقان.

ذكر عود طائفة من التتار إلى همذان وغيرها وهم غير التتار المغرّبة الذين قدمنا ذكرهم

قال ابن الأثير: وفي سنة إحدى وعشرين[٣] وستمائة وصلت طائفة من التتار من جهة جنكزخان إلى الري؛ وكان من سلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها، فوضع التتار فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا، ونهبوا البلد وخربوه، وتوجهوا إلى ساوَة[٤] ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاجان[٥] وكانتا قد سلمتا من التتار والمغربة. ثم عاثوا في البلاد يخربون ويقتلون ثم قصدوا همذان، وقد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها، فأبادوهم قتلاً وأسرًا ونهبًا.

---

(١) رسمه النسوي: «عالي الدين الخياطي» سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٩٤.
(٢) السكر: السد الذي يحجز ماء النهر. ابن منظور: لسان العرب. (سكر).
(٣) «أول سنة إحدى وعشرين وستمائة» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٤١٩.
(٤) ساوَة: مدينة بين الري وهمذان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٧٩.
(٥) مدينة إسلامية تذكر مع قاشان أو قاجان وهما قرب أصبهان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٩٦.

قال: وكانوا لما وصلوا إلى الري رأوا بها عسكرًا كثيرًا من الخوارزمية فقتل بعضهم وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلا والتتار قد كبسوهم، ووضعوا فيهم السيف، فانهزموا فوصلت طائفة منهم إلى تِبريز، وتفرق الباقون ووصل التتار إلى قرب تبريز فراسلوا صاحبها أزبك بن البهلوان في طلب من التحق به من الخوارزمية، فعمد إلى من عنده منهم فقتل بعضهم وأسر البعض، وساق الأسرى وحمل الرؤوس إلى التتار، وأنفذ إليهم من الأموال والثياب والدواب شيئًا كثيرًا فعادوا عن بلاده نحو خراسان.

قال: ولم تكن هذه الطائفة أكثر من ثلاثة آلاف، وكانت الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس؛ وعسكر أزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يمتنعوا عنهم ولا حدّثوا نفوسهم بحربهم هذا كله وجلال الدين خوارزم شاه ببلاد الهند. ثم اتفق خروجه منها في سنة إحدى وعشرين وستمائة؛ واستولى على ملك العراق، وانتزعه من يد أخيه غياث الدين ببرشاه وملك أذربيجان ومراغة وغيرها، وقاتل الكُرج على ما قدمناه في أخباره. ولم يهجه التتار ولا قاتلوه إلى سنة خمس وعشرين وستمائة بعد وفاة جنكزخان وقيام ولده أوكداي(١) مقامه.

هذا ما انتهى إلينا من وقائع التتار وحروبهم وما استولوا عليه في أيام ملكهم جنكزخان التمرجي؛ وهو على سبيل الاختصار لعدم من تحقق من أخبارهم ودوّن آثارهم. ثم كان بعد وفاة جنكزخان وقيام من قام بعده من أولاده حروب ووقائع، نذكرها إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا وفاة جنكزخان.

ذكر وفاة جنكزخان التمرجي وأسماء أولاده وإخوته وما قرره لأولاده من الوظائف والبقاع وغير ذلك

كانت وفاة جنكزخان في سنة أربع وعشرين وستمائة(٢)، وقيل في سنة خمس

(١) «فلما مات جنكزخان استقل أوكداي بتخت أبيه» القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٩.

(٢) مات في رابع شهر رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة. فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج١، ص٣٠٢. «وفيها في رمضان قبل المصاف بأيام اتفق موت جنكزخان سنة أربع وعشرين وستمائة» ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص١١٣. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٩، في سنة ٦٢٤هـ مات جنكزخان وكان في الستين من عمره. في تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٤٧.

وعشرين في فصل الشتاء. قال: ولما حضرته الوفاة طلب إخوته وهم أوتكين وبلكوتي ونوين والحاي نوين ووكوب ووكابي[(١)] وحضر من أولاده جغطاي[(٢)] وأوكتاي وكتب لهم وصية وقال امتثلوها بعدي، وإذا أنا مت وجاء وقت الربيع تجمّعوا كلكم وتعمل وليمة عظيمة ثم تقرأ هذه الوصية بحضوركم، وينصب في الملك من عينته فيها وامتثلوا أمره، ثم فرقهم في مشاتيهم التي قررها لهم ففعلوا ذلك وامتثلوا أمره على ما نذكره، ومات هو. وكان له من الأولاد تسعة عشر ولدًا من امرأة واحدة وهي تسوجي خاتون[(٣)]؛ [منهم تلي خان وهو طلوخان وهو الذي قتل في سنة ثماني عشرة وستمائة] في الحرب التي كانت بينه وبين السلطان جلال الدين منكوبرتي على ما قدمنا ذكر ذلك. وكان لتلي خان من الأولاد منكوقان وهو الذي استقر في القانية بعد على ما نذكره إن شاء الله تعالى؛ وهولاكو وأريق بوكا وقبلاي، وهو الذي جلس على تخت القانية بعد منكوقان واستقرت القانية فيه وفي بنيه من بعده إلى آخر وقت، وسنذكر لك ذلك إن شاء الله تعالى. وكان جنكزخان قد فوض لابنه تلي خان هذا ترتيب العساكر والجيوش وتدبيره في المقام في مشتاه ومصيفه وجعل له من البلاد خراسان والعراقين وما يليها، فقتل قبل تمام الفتوح. ومنهم دوشي خان بن جنكزخان وهو الذي فتح خوارزم في حياة أبيه كما تقدم، وفتح أيضًا بعد وفاة أبيه بلاد الشمال، واستولى على ملكها، وأباد من بها من طوائف الأتراك وقبائل القفجاق وغيرهم من القبائل: كاللان، والآص[(٤)]، والأولاق[(٥)]، و[الجركس][(٦)] والروس وغيرهم من سكان البلاد الشمالية. واستقر ملك هذه البلاد بيده، ثم بيده باطوخان بن دوشي خان ثم في (صرطق بن دوشي خان)، ثم في أولاد باطوخان وإخوته على ما نذكره بعد.

---

(١) ذكر رشيد الدين الهمذاني أربعة إخوة لجنكزخان وهم: أوتكين وبلكوتي وجوجي قار وقاجيون. انظر جامع التواريخ، ج١، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٢) ورد اسم جغطاي وأوكداي في صبح الأعشى للقلقشندي ج٤، ص٣٠٨.

(٣) كان له زوجات كثيرات ويفضل عليهن سونجين بيكي وهي التي سماها النويري تسوجي خاتون. انظر المغول في التاريخ لفؤاد عبد المعطي الصياد ص١٠٩.

(٤) تكتب أيضًا الآس. انظر جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، الترجمة العربية، ص٢١٢، حاشية ١.

(٥) بضم الهمزة وسكون الواو ولام ألف بعدها قاف، ويقال لهم البرغال بضم الباء الموحدة، وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام، وهم جنس معروف. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦٤.

(٦) الجركس: بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الكاف وسين مهملة في الآخر. وهم في شظف من العيش وقد غلب عليهم دين النصرانية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦٢.

ومن أولاد دوشي خان بن جنكزخان أرديوا وهو صاحب غزنة وباميان. وقد قيل إن أرديوا بن جنكزخان، وكان جنكزخان قد جعل وظيفة دوشي خان ترتيب الصيد، وهي عندهم أكبر المراتب، وعين له من البلاد والمياه لمشتاه ومصيفه حدود قيالق وبلاد خوارزم إلى أطراف سقسين وبلغار إلى حيث تنتهي حوافر خيلهم من الفتوح.

ومنهم أوكتاي خان بن جنكزخان وهو أوكتاي، وهو الذي جلس على تخت القانية بعد وفاة أبيه جنكزخان، وكان جنكزخان قد جعله مشيره وصاحب الرأي وعين له من البلاد آمل[1] وقوتاق وجعله ولي عهده من بعده، وعهد إليه أنه إذا انتهى الملك إليه أن يعطي ما بيده من البلاد لولده كيوك خان ثم يتحول إلى مستقر الملك من بلاد الخطا والأيغور بقرا قورم وغيرها.

ومنهم جغطاي بن جنكزخان كان أبوه قد فوض إليه مهمات السياسة والحكومة للياسا[2] واليرغو، وجعل له من البلاد للمراعي والمشاتي والمصيف من حدود بقاع الأيغور وسمرقند وبخارى وما يتاخم ذلك من البلاد. وكان مقامه قبل ذلك بقرب المالق وما يليها.

فهؤلاء الأربعة هم المشار إليهم من أولاد جنكزخان وله غير هؤلاء منهم أورخان، وكلكان، والغوانوين، وجورجاي، وأولطاي خان، وأرديوا، وقد تقدم الخلاف فيه هل هو ابن جنكزخان أو ابن دوشي خان. ومن أولاده مغل بن جنكزخان وهو جد نوغية، ولنوغية هذا أخبار تذكر بعد إن شاء الله تعالى. وقد قيل إن مغل بن دوشي خان.

وأما بقية أولاد جنكزخان فلم تنقل إلينا أسماؤهم بحكم أنه لم يكن لهم ملك وإنما كانوا في خدمة إخوتهم. وعيّن جنكزخان أيضًا لإخوته وأقاربه أماكن من ملكه، فاستقرت حالهم على ما قرره لهم، وكان قد خالف جنكزخان من قبائل التتار أويرات

---

(١) مدينة بطبرستان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨٥.

(٢) قال ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٣٨، إن صاحب «التورا» و«اليسق» هو جنكزخان، «والتورا باللغة التركية هو المذهب، واليسق هو الترتيب، وأصل كلمة اليسق: سي يسا، وهو لفظ مركب من أعجمي، وتركي، ومعناه: التراتيب الثلاث، لأن «سي» بالعجمي في العدد ثلاثة، و«يسا» بالتركي: الترتيب، وعلى هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا، وانتشر ذلك في سائر الممالك حتى ممالك مصر والشام، وصاروا يقولون: «سي يسا» فثقُلت عليهم، فقالوا: «سياسة» على تحاريف أولاد العرب في اللغات الأجنبية».

وقنورت[١] فلم يزل جنكزخان يلاطفهم ويسوسهم إلى أن قرر على نفسه أن يزوجوهم ما لهم من البنات ولذريتهم. واستقرت هذه القاعدة فيهم إلى وقتنا هذا.

هذا ملخص ما انتهى إلينا من أخبار أولاد جنكزخان وما قرره لهم؛ فلنذكر أخبار من انتصب في القانية بعد وفاة جنكزخان من أولاده وأولادهم.

ذكر ملك أوكتاي بن جنكزخان[٢]

قد ذكرنا أن جنكزخان كان قد كتب وصية قبل وفاته بمحضر إخوته وبعض بنيه، وقرر معهم أن يعملوا بها بعده، وأمرهم أنه إذا دخل فصل الربيع يجتمع إخوته وأولاده، والخواتين[٣] والأمراء وأن يذبحوا الذبائح ويعملوا الأفراح أربعين يومًا من حين اجتماعهم؛ ثم تقرأ وصيته ويعمل بمقتضاها. فلما دخل فصل الربيع وذلك في سنة خمس وعشرين وستمائة، سُير حلف الأعمام والإخوة والخواتين وأمراء التمانات[٤]؛ فكان أول من حضر منهم جغطاي بن جنكزخان ثم أخوه أوكتاي ثم حضر نقيبهم ولم يتخلف منهم أحد. ثم ذبحوا الذبائح وأحضروا الخمور وألبان الخيل، وهي القمز[٥]. وعملوا الأفراح إلى أن مضت المدة التي عيّنها لهم، ثم

---

(١) ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٠٦ أنه كان «من أعظم القبائل المجيبة لدعوة جنكزخان قبيلتان إحداهما تدعى إديرات والأخرى فيقورات».

(٢) أخباره في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨، ٢٧٦، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٠ ـ ١٥١ وفيهما رُسم «أجتاي».
ومما هو جدير بالذكر هنا أن علاء الدين الجويني كان سكرتيرًا خاصًا لهولاكو عندما سار لغزو الإسماعيلية في «ألموت» والخلافة العباسية في بغداد، وفي هذه الفترة استطاع أن يكتب كتاب «جهان كُشاي» أي تاريخ قاهر العالم ويروي هذا الكتاب حوادث السنوات العشر الأخيرة من حكم جنكزخان، . فيتناول الكلام عن الحوادث التي انتهت باستيلاء المغول على بلاد ما وراء النهر وفارس، ثم يتكلم عن حكم أقباي وكيوك ومانجوخان، وينتهي من كتابه إلى حوادث عام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، وتوفي علاء الدين سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م ثم أتم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة فتكلم عن تاريخ المغول من سنة ٦٥٥هـ إلى سنة ٧٢٨هـ، ١٢٥٧ ـ ١٣٢٧م. حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٢٨، حاشية رقم ١.

(٣) الخواتين: جمع خاتون. وهي كلمة عربية محرفة عن الكلمة المغولية «قادرين» وذلك دون لقب «الملكة» الذي كان في عهد الفاطميين وكانت تلقب به الزوجة أو الأم أو الأخت. وكان لهن مشاركة في الحكم في بلاد الروس. محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١١٥.

(٤) التمانات: انظر صفحة ٧٥ من هذا الجزء حاشية رقم ٢.

(٥) القمز: تكتب أيضًا القمبز: لفظ تتري يقصد به نوع من الخمور يصنع من لبن الخيل. المقريزي. السلوك للدكتور محمد مصطفى زيادة، ص٦٠٧ حاشية ٢.

اجتمعوا وأخرجوا كتاب الوصية الذي اكتتبه جنكزخان، فقرىء بمشهد منهم، فإذا لوصية فيه بالملك لأوكديه خان. فلما سمع أوكديه خان ذلك قال: كيف أجلس على كرسي الملك وفي إخوتي وأعمامي من هو أكبر مني وأصلح، فلا أجلس. فلم يرجعوا إلى قوله، وأقام أخوه جغطاي وأخذ بيده اليمنى وأخذ عمه أوتكين بيده اليسرى فأقاماه وأجلساه على كرسي الملك. ثم ملأ أخوه الأصغر وهو ألغو نوين هنابًا[1] من المشروب فناوله إياه، فعند ذلك قام جميع من حضر من أعمامه وإخوته وأمراء التمانات فضربوا جوك ـ وهو الخدمة عندهم ـ؛ وكيفيته أن يبرك الرجل منهم على أحد ركبتيه ويسير بمرفقه إلى الأرض؛ وهذه الخدمة عندهم غاية التعظيم. وشرب أوكديه خان ذلك الهناب، وأمر بإجلاس الناس على مراتبهم، ونزّلهم منازلهم، فأجلس الأعمام والإخوة عن يمينه وأجلس الخواتين عن يساره. فقام الإخوة وجلسوا بين يديه وقالوا: قد امتثلنا ياسا أبينا جنكزخان، ونشد أوساطنا في الخدمة والإخلاص، ونبذل أنفسنا في الطاعة، فشكرهم أوكديه وفتح الخزائن، وفرق الأموال والخلع، وأنعم حتى على الغلمان والرعاة، وفرق الناس في مصايفهم ومنازلهم واستقر هو بقرا قروم وجهز أخاه دوشي خان إلى بلاد الشمال ففتحها في سنة سبع وعشرين وستمائة وملكها وأقام بها على ما نذكر ذلك في أخبارهم.

فلنذكر الحروب الكائنة بين عساكر أوكديه خان وبين السلطان جلال الدين وغيره من المسلمين.

ذكر الحروب الكائنة بين التتار والسلطان جلال الدين، وما كان من أمرهم إلى أن ملكوا ما كان بيده[2]

كانت أول حرب وقعت بين السلطان جلال الدين منكوبرتي وبين التتار بعد خروجه من الهند في سنة خمس وعشرين وستمائة بظاهر أصفهان، فهزموه ثم هزمهم، وأذاهم بالقتل ولم يسلم منهم إلا قليلاً. وحكي أن هذه الطائفة من التتار كان جنكزخان قد نقم على مقدمها وأبعده عنه، وأخرجه من بلاده، فقصد خراسان فرآها خرابًا، فقصد الري لتغلبه على تلك النواحي. ثم تقدم إلى قرب أصفهان فالتقى هو وجلال الدين، ولما هزمه جلال الدين، أرسل إليه أوكديه بن

---

(١) الهناب: قدح للشراب.
Dosy: Supp. Dict. Ar.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٤٧٦، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص١٢٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٤٥.

جنكزخان يقول إن هذه الطائفة ليست منا، فأمن عند ذلك جانب أوكتاي، ثم انقطعوا عنه ثلاث سنين.

وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة في أوائلها، وصلت طائفة من التتار من بلاد ما وراء النهر إلى تخوم أذربيجان. وكان سبب ذلك أن مقدم الإسماعيلية كاتبهم وعرّفهم أن جلال الدين قد ضعف وانهزم من كيقباذ صاحب الروم ومن الأشرف، وأنه وقع بينه وبين من يجاوره من الملوك، ووصلت إساءته إلى كل منهم وأنهم لا ينصرونه وضمن لهم الظفر به(١). فبادرت طائفة منهم من التتار ودخلوا البلاد، واستولوا على الري وهمذان وما بينهما من البلاد، ثم قصدوا أذربيجان وقتلوا من ظفروا به من أهلها، ولم يقدم جلال الدين على قتالهم لتفرق عساكره ومخالفة وزيره شرف الملك عليه. وكان من كبسهم للسلطان جلال الدين، وانهزامه منهم، وتنقله من مكان إلى آخر ما قدمناه في أخباره. ثم كبسه التتار وهو بالقرب من آمد فهرب منهم. وكان من خبر مقتله ما قدمناه، فتمكن التتار بعد مقتله من البلاد وملكوها من غير ممانع عنها ولا مدافع.

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتار(٢)

قال ابن الأثير الجزري: وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة أطاع أهل أذربيجان التتار. وسبب ذلك أن جلال الدين لما كبسه التتار بآمِد وانهزم منهم، وانقطع خبره، سقط في أيدي الناس وأذعنوا بطاعة التتار وحملوا إليهم الأموال والثياب وغير ذلك. فممن دخل في طاعتهم أهل مدينة تِبريز - وهي توريز - وهي أصل أذربيجان ومرجع الجميع إليها. وكان مقدم جيش التتار نزل بعساكره بالقرب منها ودعا أهلها إلى طاعته، وتهددهم إن امتنعوا عليه، فأرسلوا إليه الأموال والتحف ومن كل شيء حتى الخمر، وبذلوا الطاعة. فشكرهم على ذلك، وطلب حضور أكابر أهلها إليه، فتوجه إليه قاضي البلد ورئيسه وجماعة من الأعيان، وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائي وكان مرجع الجميع إليه، إلا أنه لا يظهر ذلك. فلما حضروا عنده سألهم عن سبب

(١) سجل النسوي صاحب سيرة جلال الدين منكبرتي في الصفحة ٣٣٤ أن جلال الدين استشار مختلف القوى المجاورة له في الشرق الأوسط بعد عودته من الهند سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م كما أنه حارب أخاه غياث الدين الذي خانه، وحارب حاكم كرمان كما حارب الخليفة في بغداد. وحارب الإسماعيلية الباطنية سنة ٦٢٤هـ. كما انتزع خلاط سنة ٦٢٧هـ من صاحبها الأشرف موسى ابن الملك العادل الأيوبي وهذا ما جعله ضعيفًا غير قادر على كسب حليف يمكن أن يساعده إذا تعرض لخطر المغول.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٠٢.

امتناع الطغرائي من الحضور، فاعتذروا بانقطاعه وعدم تعلقه بالملوك وأنهم الأصل، فسكت. ثم طلب صناع الثياب الخطاي[١] وغيرها فحضروا إليه، فأمرهم أن يستعملوا للقان ثيابًا، وقرر ثمنها على أهل تبريز، وطلب منهم خركاة للقان أيضًا فعملوا خركاة عظيمة غشوا ظاهرها بالأطلس وباطنها بالسمور[٢] والقندر، وقرر عليهم في كل سنة من المال والثياب شيئًا معلومًا.

ذكر دخول التتار ديار الجزيرة[٣]

قال: لما انهزم جلال الدين من التتار على آمِد نهب التتار سواد آمد وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد[٤] فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتار الأمان، فسلموا لهم البلد، فعند ذلك بذلوا فيهم السيف حتى كادوا يأتون عليهم، فما سلم منهم إلا من اختفى، وقليل ما هم. قيل إن القتلى بلغت تقدير خمسة عشر ألفًا، وكانت مدة الحصار خمسة أيام، ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة[٥] ففعلوا فيها كذلك، وساروا منها إلى واد بالقرب منها يقال له وادي القريشية، فيه طائفة من الأكراد القريشية، وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة، والطريق إليه ضيق، فمنعهم القريشية منه وقتلوا كثيرًا منهم، فعاد التتار ولم يبلغوا منهم غرضًا، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما مروا عليه من بلدها واحتمى صاحبها وأهل دنيسر بقلعة ماردين. ثم وصلوا إلى نصيبين الجزيرة فأقاموا عليها بعض يوم ونهبوا سوادها، وقتلوا من ظفروا به، وغلقت أبوابها فعادوا عنها؛ وتوجهوا إلى بلد سنجار، فوصلوا إلى البلاد من أعمالها، فنهبوا ودخلوا الخابور فوصلوا إلى عربان[٦]، فنهبوا وقتلوا وعادوا وتوجهت طائفة منهم على

---

(١) «الخطائي» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٥٠٣.

(٢) السمّور: وهو حيوان جريء، وقيل السمور: طير، ومنه يتخذ نفيس الفراء التي لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان ممن يداني الملوك لحسنها ودفائها، وأحسنه ما كان منه شديد النعومة مائلًا إلى السواد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٤٨ ـ ٤٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٩٩.

(٤) هكذا وردت في الأصل وفي الكامل لابن الأثير ج١٢، ص٤٩٩ وأسعرد وهي سعرت: مدينة من ديار ربيعة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص٢٧٦.

(٥) طنزة: بفتح أوله وسكون ثانيه: بلد بجزيرة ابن عمر بديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٤.

(٦) عَرَبان: بفتح أوله وثانيه: بلدة من أرض الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٩٦.
وردت في الأصل عربان وكذلك في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٥٠٠.

طريق الموصل، فوصلوا إلى قرية تسمى المؤنسة، وهي على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل، فنهبوا واحتمى أهلها وغيرهم بخان فيها، فقتلوا كل من فيه ومضت طائفة منهم إلى نصيبين الروم وهي على الفرات من أعمال آمد، فنهبوا وقتلوا منها ثم عادوا إلى آمد ثم إلى بلد بَدْلِيس(١) فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال، فقتلوا فيها يسيرًا، وأحرقوا المدينة، ثم ساروا من بدليس إلى خلاط فحصروا مدينة من أعمالها يقال لها باكري [وهي](٢) من أحصن البلاد، فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها، وقصدوا مدينة أرجيش(٣) من أعمال خلاط، وهي مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك، وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وستمائة.

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: لقد حكي لي عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقاه الله تعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الواحد منهم كان يعبر(٤) القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فيقتلهم واحدًا بعد واحد ولا يجسر أحد يمد يده إليه. قال: ولقد بلغني أن إنسانًا منهم أخذ رجلاً ولم يكن معه ما يقتله به فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح. فوضع رأسه على الأرض ومضى التتاري وأتى بسيف فقتله به. قال: وحكي لي كثير من ذلك أعفيت عنه رغبة في الاختصار.

قال: وفي ذي الحجة سنة ثمانٍ وعشرين وصلت طائفة من التتار من أذربيجان إلى أعمال إربل، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوائية والأكراد وغيرهم إلى أن دخلوا إلى بلد إربل، فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به، ثم وصلوا إلى بلد دقوقا وغيرها وعادوا، ولم يرعهم أحد ولا وقف في وجوههم فارس.

هذا آخر ما أورده ابن الأثير والمنشي في تاريخيهما من أخبار التتار لم يتجاوزا سنة ثمان وعشرين وستمائة، وبعض ما أوردناه لم يورداه في تاريخيهما كوفاة جنكزخان وقيام ولده، فإنه ما وصل إليهما. والله أعلم.

---

(١) بَدْلِيس: بالفتح ثم السكون وكسر اللام، بلدة من نواحي أرمينية قرب خِلاط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٥٨.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٥٠٠.

(٣) أرجيش: بالفتح ثم السكون: مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط، أكثر أهلها أرمن نصارى، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٤٤.

(٤) «يدخل القرية» في الكامل لابن الأثير، ج١٢، ص٥٠٠.

ذكر وفاة أوكتاي خان وقيام ولده كيوك خان بعده وقتله

كانت وفاة أوكتاي خان بن جنكزخان في «سنة إحدى وثلاثين وستمائة»[١] ولما دنت وفاته استدعى أعمامه والأمراء وأمرهم بإجلاس ولده كيوك خان على كرسي المملكة، وأمر أن يكون جلوسه بحضور الأعمام والإخوة والأمراء. فلما مات اجتمعوا كلهم، إلا دوشي خان[٢] فإنه كان قد أوغل في بلاد الشمال واستولى عليها وعلى ما يدانيها من القفجاق وغيرها، فلم يمكنه الحضور لبُعد المسافة، فأرسل أخاه مغل بن جنكزخان، ومغل هذا هو جد نوغيه فسار مغل وأوصى على أولاده لعلمه ببُعد المسافة. فلما وصل إلى قرا قروم اجتمع أهل البيت الجنكزخاني والخواتين فأنكروا عليه وقالوا له: ولِمَ لم يأت دوشي خان، فاعتذر عنه بأعذار، فلم يقبلوها وأشاروا أن يسقوه سمًا فيقتلوه، فناولوه قدحًا فشربه. فلما علم أن فيه السم أيس من الحياة وأخرج سكينًا كان في خفه ووثب على كيوك فقتله[٣]، وخرج جماعة من أكابر الناس عليه فقتلوه.

ذكر جلوس منكوقان[٤] بن تلي خان بن جنكزخان على تخت القانية

ومنكوقان هو الملك الرابع من الملوك الذين جلسوا على تخت القانية. قال:

---

(١) توفي أوكتاي سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م في تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٠، وفي الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٣٠، ٢٧٦.

(٢) هذه الواقعة غير صحيحة لأن دوشي خان (جوجي خان) قد توفي في حياة أبيه كما ذكرنا في الصفحة ٢٢٥ حاشية ٣ من هذا الجزء.

(٣) لم يقتل كيوك بل توفي وفاة طبيعية، وذكر حافظ حمدي أن أجتاي مات سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م ومرّت فترة طويلة من الوقت قبل أن ينتخب الخاقان الجديد. وأخيرًا انتخب كيوك سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ولكنه لم يستمر في الحكم كثيرًا إذ توفي بعد سنتين» انظر الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٣٠. وعن أخبار كيوك وأخلاقه وحكمه انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٢.

(٤) رسمه حافظ حمدي مانجو خان، انتخب سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م توفي سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م انظر الدولة الخوارزمية والمغول، ص٢٧٦.
وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٣٢٧، وفيه وصية منكوخان إلى أخيه هولاكو لما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب (غربي الصين) أخبار مانجوخان بن تولوي في تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٣. والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٣٧. وتاريخ جهانشكاي للجويني ج١ ص٢٠٥ وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني ج١، ص٥٧١.

ولما قتل كيوك خان من غير وصية اجتمع أولاد الخانات وأمراء التمانات، واتفقت آراؤهم على إقامة منكوقان، فإنهم لم يجدوا في البيت أرجح منه ولا أرشح للملك، فأجلسوه على كرسي القانية. ولما استقر جرد أخاه قبلاي إلى بلاد الخطائية[١] فعاد منهزمًا منهم، فأعاد وجهز معه أرنيكا[٢]، فتوجها إليهم بعساكرهما فكسروهم وغنموا غنائم كثيرة، فوقع بين الأخوين التنازع في الغنائم، حتى كان بينهما قتال، فهزم أرنيكا قبلاي ثم اصطلحا واستقر الأمر بينهما[٣] وكانت سائر ملوك التتار داخلة تحت طاعة من ينتصب على تخت القانية يأتمرون بأمره. وإنما استقل كل منهم بنفسه وانفرد بمملكته بعد وفاة منكوقان. ولما ملك منكوقان انقطع التتار عن الوصول إلى العراق والروم وغيرهما مما يكون داخلاً في طاعة الخلفاء العباسيين مدة سنين، وأرى ذلك إنما كان لاشتغالهم بقتال من يليهم، ثم رجعوا إلى هذه الممالك ففتحوها مملكة بعد أخرى[٤].

ذكر دخول التتار إلى بلاد الروم وما استولوا عليه من البلاد

كان أول دخول التتار إلى البلاد الرومية في سنة أربع وثلاثين وستمائة، في أواخر أيام السلطان علاء الدين كيقباذ وابتداء سلطنة ولده غياث الدين كيخسرو. ثم وردت طائفة منهم إلى الروم في سنة إحدى وأربعين وستمائة، في أيام السلطان غياث الدين كيخسرو. وكانت هذه الطائفة من قبل باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان، ملك البلاد الشمالية؛ فجمع كيخسرو العساكر وخرج إليهم والتقوا

---

(١) بلاد الخطائية: تشتمل هذه البلاد الأقاليم الجنوبية في بلاد الصين.

Dosy, Supp. Dict. Ar.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) عين مانجوخان أخاه كوبيلاي خان حاكمًا عامًا على بلاد الصين. (مانجوخان أو منكوقان) وقبلاي هو كوبيلاي. انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٤.

(٤) بذل الغرب الأوربي المسيحي محاولات للاتصال بالمغول في عهد كيوك ومنكوخان. وحاولوا نشر المسيحية من ناحية واستشارتهم ضد المسلمين في الشرق الأدنى من ناحية أخرى. انظر الحركة الصليبية لسعيد عبد الفتاح عاشور ج٢، ص١٠٩٨.

لم يعتنق كيوك الديانة المسيحية ولكنه ترك أمور دولته لوزيريه المسيحيين كما ملأ بلاطه بكثير من الرهبان ورجال الدين من المسيحيين، وكان من أثر ذلك أن لقي المسلمون في عهده صنوفًا مختلفة من العذاب. حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٤٨ حاشية رقم ٢.

واقتتلوا. فكانت الهزيمة أولاً على التتار ثم تراجعوا، فهزموا صاحب الروم هزيمة عظيمة، وقتلوا وأسروا خلقًا كثيرًا من المسلمين، ونهبوا من الأموال ما لا يحصى كثرة. وهرب غياث الدين إلى بعض المعاقل، وتحكمت التتار في البلاد، ثم استولوا على بلاد خلاط وآمد، ودخل غياث الدين بعد ذلك في طاعة التتار على مال يحمله إليهم.

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة، قصد التتار بغداد ونهبوا ما مروا عليه في طريقهم، ووصلوا إلى ظاهرها، واستعدت عساكر الخليفة للقائهم. فلما جاء الليل أوقد التتار نارًا عظيمة ورجعوا تحت الليل. ثم انقطعت أخبار التتار إلى أن جردهم منكوقان في سنة أربع وخمسين وستمائة على ما نذكره.

ذكر تجريد منكوقان العساكر إلى بلاد الروم وما استولوا عليه منها

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة جرد منكوقان جرماغون وبيجو[1] وجماعة من عساكره إلى بلاد الروم؛ وهي يومئذ في يد السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ السلجقي، فساروا إليها ونزلوا على أرزن الروم[2]، وبها يومئذ سنان الدين ياقوت العلائي أحد مماليك السلطان علاء الدين كيقباذ. فحاصروها مدة شهرين ونصبوا عليها اثني عشر منجنيقًا، فهدموا أسوارها، ودخلوها عنوة، وأخذوا سنان الدين ياقوت، وملكوا القلعة في اليوم الثاني، وقتلوا الجند واستبقوا أرباب الصنائع وذوي المهن، وقتلوا ياقوت؛ وغنموا وسبوا، وعادوا، ومات جرماغون.

ثم عاد بيجو إلى الروم مرة ثانية في هذه السنة، فوصل إلى آقشهر زنجان، ونزل بالصحراء التي هناك. فجمع غياث الدين كيخسرو عساكره وسار للقائهم، فانهزم من غير لقاء، كما ذكرناه في أخباره، وغنم التتار خيامه وخزائنه وأثقاله إلا ما حمله مما خف منها. وفرّ غياث الدين إلى قونية وتوفي في هذه السنة.

وعاد بيجو ثم رجع إلى بلاد الروم في سنة خمس وخمسين وستمائة فدخلها وشن الغارات وسبى، وكان المحرك لعوده أن بيجار الرومي حضر إلى باب السلطان

---

(١) كتب «باجو» انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٧.

(٢) أرزن الروم: مدينة مشهورة من مدن أرمينية بالقرب من خلاط. انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٥٤.

غياث الدين ليحضر السماط، ولم تكن له صورة بعسكر الروم، فمنعه البردداية[١] وضربه بعضهم بعصاه على رأسه، فسقط طرطوره إلى الأرض فشق ذلك عليه، وقال: أنتم رميتم طرطوري في هذا الباب، لا بد أن أرمي عوضه رؤوسًا كثيرة. وخرج من فوره وتوجه إلى بيجو وحثه على قصد الروم، فقصده وأغار وخرج بعد الإغارة.

ثم عاد إلى الروم في هذه السنة، وقد استقل عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بالسلطنة. فلما بلغه عود التتار، جهز جيشه وقدم عليهم أميرًا من أكابر أمرائه اسمه أرسلان دغمش، فتوجه بعساكر الروم وكان بيجو قد نزل بصحراء قونية. فلما كان بعد توجه أرسلان بأيام شرب كيكاوس مسكرًا وتوجه إلى بيت أرسلان دغمش وهو على حالة من السكر ليهجم على حريمه؛ فبلغه ذلك فغضب له وقال: أكون قد بذلت نفسي في دفع عدوه ويخلفني في حريمي بهذا. وأجمع على الخلاف، وأرسل إلى بيجو ووعده أنه يتخاذل عند اللقاء وينحاز إليه.

فلما التقوا، عمل أرسلان إلى سناجق[٢] صاحبه فكسرها وانهزم بالعسكر ثم توجه إلى بيجو فأكرمه وتلقاه وحضر معه إلى قونية. ولما اتصل خبر الكسرة بالسلطان عز الدين فرّ من قونية إلى العلايا[٣] وأغلق أهل قونية أبواب المدينة. فلما كان يوم الجمعة أخذ الخطيب ما يملكه من ماله وحلي نسائه وأحضره معه إلى الجامع، ورقي المنبر وقال: «يا معشر المسلمين، إننا قد ابتلينا بهذا العدو وليس لنا من يعصمنا منه، وقد بذلت مالي، فابذلوا أموالكم واشتروا نفوسكم بنفائسكم، واسمحوا بما عندكم لنجمع من بيننا ما نفدي به نفوسنا وحريمنا وأولادنا». ثم بكى وأبكى الناس وسمح كل أحد بما أمكنه.

وجهز الخطيب المذكور الإقامات وخرج إلى مخيم بيجو فلم يصادفه، لأنه كان قد توجه إلى الصيد، فقدم ما كان معه إلى الخاتون زوجة بيجو، فقبلته منه وأقبلت عليه وأكل من المأكول فأكلت وقدم المشروب فأخذ منه شيئًا على سبيل الشاشني[٤]،

(١) البردداد: وهو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان متحدثًا على أعوانه والمتصرفين فيه، كما في مقدم الدولة، وأصله «فردادار» وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما فردًا، ومعناه الستارة، والثاني دار، ومعناه ممسك والمراد ممسك الستارة وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة ثم نقل إلى الديوان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٨.

(٢) في الأصل صناجق.

(٣) العلايا: مدينة أسسها السلطان علاء الدين السلجوقي وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر ولها قلعة منيعة بناها أيضًا السلطان علاء الدين. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص١٨٣.

(٤) كلمة فارسية معناها الذوق، في الطعام والشراب. وتكتب أيضًا جاشني.

Dozy, Supp. Dict. Ar.

وناوله لصغير. فقالت له: لمَ لا تشرب أنت منه؟ فقال: هذا محرم علينا. قالت: مَن حرمه؟ قال: الله حرمه في كتابه. قالت: فكيف لم يحرمه علينا؟ فقال: أنتم كفار ونحن مسلمون. فقالت له: أنتم خير عند الله أم نحن؟ قال: بل نحن. قالت: فإذا كنتم خيرًا منا عنده، فكيف نصرنا عليكم؟ فقال: هذا الثوب الذي عليك وكان ثوبًا نفيسًا يمنيًا مرصعًا بالدراتب[1] تعطيه لمن يكون خاصًا بك أو بعيدًا عنك؟ قالت: بل أخص به من يختص بي. قال: فإذا أضاعه وفرط فيه ودنّسه، ما كنت تصنعين به؟ قالت: كنت أنكل به وأقتله. فقال لها: دين الإسلام بمثابة هذا الجوهر، والله أكرمنا به فما رعيناه حق رعايته، فغضب علينا وضربنا بسيوفكم واقتص منا بأيديكم. فبكت زوجة بيجو وقالت للخطيب: من الآن تكون أبي وأكون ابنك. فقال: ما يمكن حتى تسلمي. فأسلمت على يديه، وأجلسته إلى جانبها على السرير، فحضر بيجو من الصيد، فهمّ الخطيب أن يقوم له، فمنعته وقالت: «أنت قد صرت حماه[2] وهو يريد أن يجيء إليك ويخدمك» فلما دخل بيجو إلى الخيمة قالت له: هذا قد صار أبي. فجاس بيجو دونه وأكرمه وقال لزوجته: أنا عاهدت الله أنني إذا فتحت قونية وهبتها لك. فقالت: وأنا وهبتها لأبي. ثم أمر بفتح قونية، وأمن أهلها ورتب على كل باب شحنة من التتار ورسم أن لا يدخلها من التتار إلا من له حاجة، وأن يكونوا خمسين خمسين، لا يزيدون على ذلك. فلم يتعرضوا لأهلها بسوء. ثم اتفق بعد هذه الواقعة توجُه رسل صاحب الروم إلى منكوقان، ومصالحتهم وبذلهم ما بذلوه وقسمه البلاد بين ولدي كيخسرو على ما قدمناه في أخبارهم.

ذكر مهلك منكوقان وما حصل بين إخوته من التنازع في القانية

كانت وفاة منكوقان بمقام نهر ألطاي من بلاد أيغور، سنة ثمان وخمسين وستمائة[3]. وكان قد قصد غزو الخطا. وكان منكوقان يدين بدين النصرانية[4]، وكان

(١) هكذا في الأصل. (٢) في الأصل «حموه».

(٣) توفي مانجوقان أو منكوقان سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م انظر جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، ج٢، ص٦٠٣ والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٦، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٣.

(٤) لا يوجد في المراجع ما يثبت أن منكوقان كان يدين بالنصرانية ولكنه كان متسامحًا مع جميع رعاياه وقصره كان فيه قاعة وسطى تماثل الكنيسة. وكان يزوره وليام روبرك وغيره من الرهبان المسيحيين. انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٣.

أخوه[١] أرنيكا[٢] ينوب عنه في كرسي المملكة بقراقروم. فلما مات منكوقان، أراد [أرنيكا] الاستيلاء على المملكة، وكان أخوه قبلاي مجردًا ببلاد الخطا من جهة منكوقان، فجلس في دست القانية. فأرسل بركة بن باطوخان صاحب البلاد الشمالية إلى أرنيكا يقول: أنت أحق بالقانية، لأن منكوقان رتبك فيها في حياته، وانضم إليه بنو عمه قجي[٣] بن أوكتاي وإخوته. ثم عاد قبلاي من بلاد الخطا، فسار أرنيكا لحربه، والتقوا واقتتلوا فكانت الكسرة على قبلاي، وانتصر أرنيكا، واحتوى على الغنائم والسبايا واختص بها، ولم يسهم منها لأحد من بني عمه شيئًا. فوجدوا عليه وتفرقوا عنه ومالوا إلى قبلاي، فعاود القتال، فاستظهر قبلاي عليه وأخذ أرنيكا أسيرًا.

ذكر ملك قبلاي بن تولي خان بن جنكزخان القانية وهو الخامس من ملوكهم

قال: ولما انهزم جيش أرنيكا وأسر هو، استقر قبلاي في القانية بقراقروم، وسقى أرنيكا سمًا فمات. وبلغ ذلك هولاكو، فسار في طلب القانية لنفسه، فما وصل إلى البلاد إلا وقد استقر أخوه[٤] قبلاي في القانية فاستقر له ما افتتحه من الأقاليم.

وفي سنة سبع وثمانين وستمائة كانت الحرب بين جيوش قبلاي القان وبين قيدو[٥] بن قيجي بن طلوخان بن جنكزخان صاحب ما وراء النهر. وكان سببها أنه - قبلاي - غضب على أمير من أمرائه اسمه طردغا، فأحس أن قبلاي قد عزم على الإيقاع به، فهرب ولحق بقيدو وحسّن له قصد قبلاي وحربه، وأطمعه في القانية. وقال: إن قبلاي قد كبر سنه وما بقي ينهض بتدبير مملكته وإنما أولاده هم الذين يتولون الأمور وهم صبيان، فسار قيدو بجيوشه وطردغا صحبته، وبلغ قبلاي الخبر فجهز جيوشه صحبة ولده نمغان[٦]. فلما صار قيدوا بالقرب من القوم بلغه ما هم عليه من الكثرة، فهمّ بالرجعة فقال له طردغا: «يعطيني الملك تمانا[٧] من نقاوة

(١) في الأصل «أخاه».
(٢) هكذا في الأصل.
(٣) هكذا في الأصل وتكتب أيضًا قاش.
(٤) في الأصل «أخاه».
(٥) هكذا في الأصل. ويرسم أيضًا قايدو وهو ابن قاش بن أوكتاي. رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، ص٤٤٧ - ٤٤٨.
(٦) هكذا في الأصل ورشيد الدين يكتبه نوموغان. جامع التواريخ ج١، ص٦١٣.
(٧) أي عشرة آلاف جندي. انظر صفحة ٧٥ من هذا الجزء حاشية رقم ٢.

العسكر، وأنا أدبر الحيلة وأهزمهم» فقال له قيدوا: «وكيف تصنع؟» فقال: «إن الطريق أمامنا فيه واد بين جبلين، فأتوجه أنا بالتمان وأكمن في الوادي، ويتقدم الملك إلى القوم، فإذا التقى الجمعان يرجع الملك فهم لا بد يتبعونه، فإذا تبعوه نستدرجهم إلى أن يصيروا بينه وبين الوادي، فأخرج أنا إليهم ويعطف الملك عليهم بمن معه» ففعل قيدو ذلك وفرّ أمامهم حتى تجاوزوا الكمين. فخرج عليهم طردغا وعطف قيدو بمن معه فانكسر نمغان وعساكره وقتل منهم خلق كثير. وسار قيدو ومن معه في آثارهم حتى أشرفوا على منازلهم، ونهبوا من النساء والصبيان شيئًا كثيرًا. وجلبت المماليك التتار إلى الديار المصرية إثر هذه الوقعة. قال: ولما وصل نمغان إلى أبيه غضب عليه، وأرسله إلى بلاد الخطا فأقام حتى مات.

ودامت أيام قبلاي وطالت إلى سنة ثمان وثمانين وستمائة[١]، فكانت مدة ملكه نحوًا من ثلاثين سنة[٢]. ولما مات جلس بعده ابنه شرمون بن قبلاي بن تلي خان بن جنكزخان وهو السادس من ملوكهم.

كان جلوسه على تخت القانية بعد وفاة أبيه في شهور سنة ثمان وثمانين وستمائة وكان لقبلاي ثلاثة أولاد وهم نمغان وشرمون[٣] وكملك. فأما نمغان فإنه كان ببلاد الخطا كما ذكرنا، فمات بها. وكان شرمون هو الأكبر، فجلس في الملك ودامت أيامه إلى سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وتوفي فيها أو فيما يقاربها. ولما مات سار طقطا بن منكوتمر صاحب البلاد الشمالية في طلب القانية، فمات أيضًا ولم يلها. وجلس على كرسي القانية أحد أولاده ولم يصل إلينا جلية الخبر فنذكره.

فلنذكر ملوك البلاد الشمالية من البيت الجنكزخاني.

---

(١) هكذا في الأصل ولكن رشيد الدين يذكر أن وفاته كانت سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م انظر جامع التواريخ، ج١، ص٦٦١ كذلك في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٦، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٤.

(٢) مدة حكمه ٣٥ سنة. انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٦.

(٣) هكذا في الأصل. ويكتب أيضًا شيرامون وسيرامون وشيرامون هو ابن كوجو بن أوكتاي وكوجو هو الابن الثالث لأوكتاي وولي عهده. انظر جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، ج١، ص٤٤٦.

ذكر أخبار ملوك البلاد الشمالية
من أولاد جنكزخان التمرجي

هذه المملكة ببلاد الشمال ونواحي الترك والقفجاق وكرسيها مدينة حراي(١). وأول من ملك هذه المملكة من أولاد جنكزخان. دوشي خان(٢) وهو الذي فتحها لما جهزه أخوه أوكديه خان عند انتصابه في القانية بعد مهلك جنكزخان، وذلك في سنة سبع وعشرين وستمائة، وهلك في سنة إحدى وأربعين وستمائة.

وملك بعده ابنه باطوخان بن دوشي خان، وهو الملقب صاين قان، واستمر في الملك من سنة إحدى وأربعين وستمائة إلى أن توفي في سنة خمسين وستمائة. وكانت مدة ملكه عشر سنين وهو الثاني من ملوك هذه المملكة.

ولما مات صاين قان خلف من الأولاد ثلاثة، وهم طغان وبركة وبركجار(٣). فنازعهم عمهم صرطق(٤) بن دوشي خان بن جنكزخان الملك، واستبد به دونهم، فملك في سنة خمسين وستمائة وهو الثالث من ملوك هذا البيت واستمر في الملك إلى أن هلك في سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فكانت مدة ملكه سنة وشهورًا. ولم يكن له ولد.

وكانت براق شين(٥) زوجة طغان ابن أخيه باطوخان قد أرادت أن تولي ولدها تدان منكوا السلطنة بالبلاد الشمالية بعد وفاة صرطق، وكان لها بسطة وتحكم، فلم يوافقها الخانات أولاد باطوخان عمومة ابنها، وأمراء التمانات على ذلك. فلما رأت ذلك من إقناعهم راسلت هولاكو بن تلي خان وأرسلت إليه نشابة بغير ريش، وقباءً بغير بنود؛ وأرسلت إليه تقول له: «قد تفرغ الكاشن من النشاب وخلا القرنان من القوس، فتحضر لتتسلم الملك» ثم سارت في إثر الرسول، وقصدت اللحاق بهولاكو أو إحضاره إلى بلاد الشمال. فلما بلغ القوم ما دبرته أرسلوا في إثرها وأعادوها، على كره منها وقتلوها.

---

(١) حراي: وتكتب أيضًا السراي، وهي مدينة عظيمة على شط نهر الأثل غربي بحر الخزر بناها بركة بن طوجي بن جنكزخان. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، ص٤٥٧.

(٢) انظر صفحة ٢٢٥ من هذا الجزء حاشية ٤.

(٣) بركة وبركجار من أولاد دوشي (جوجي) وليسا من أبناء باطو (باتو). انظر جامع التواريخ، ج١، ص٥٠٦.

(٤) يكتب أيضًا سرتاق. وكتبه المقريزي «صرطق خان ابن دوشي خان» السلوك ج١، ص٣٩٤ في معجم الأنساب والأسرات لزامباور ص٣٦٣ أن سرتاق بن باطو أو باتو بن دوشي.

(٥) ترسم أيضًا برقجين خاتون. زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ص٣٦٣.

هذا ما انتهى علمه إلينا من أخبار هؤلاء الملوك الثلاثة، ولم نطلع على ما كان لكل منهم من الأخبار والحروب والوقائع والفتوحات فنذكره، وإنما أوردنا ما أوردناه وما نورده مما تلقفناه من أفواه الرجال.

ذكر ملك بركة بن باطوخان بن دوشي خان ابن جنكزخان وهو الرابع من ملوك هذه المملكة الشمالية

كان جلوسه على تخت المملكة الشمالية في سنة اثنتين وخمسين وستمائة بعد وفاة عمه صرتق، وأسلم بركة هذا وحسن إسلامه، وأقام منار الدين، وأشهر شعائر الإسلام وأكرم الفقهاء وأدناهم منه، وقربهم لديه ووصلهم، وابتنى المساجد والمدارس بنواحي مملكته، وهو أول من دخل في دين الإسلام من عقب جنكزخان. لم ينقل إلينا أن أحدًا منهم أسلم قبله[١]. ولما أسلم أسلم أكثر قومه وأسلمت زوجته ججك خاتون، واتخذت لها مسجدًا من الخيام تسافر به.

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة كانت الحرب بين بركة وهولاكو ملك خراسان والعراقين وما مع ذلك. وذلك أن هولاكو لما انتهت إليه رسالة براق شين زوجة طغان كما ذكرناه، أطمعه ذلك في ملك هذه المملكة ليضمها إلى ما بيده من الممالك. فتجهز وسار بجيوشه إليها، فكان وصوله بعد قتل براق شين وجلوس بركة على سرير الملك وانتظام الأمر له.

ولما اتصل ببركة خبر هولاكو وقربه من البلاد سار بجيوشه للقائه وكان بينهما نهر يسمى نهر ترك وقد جمد ماؤه لشدة البرد، فعبر عليه هولاكو بعساكره إلى بلاد بركة. فلما التقوا واقتتلوا كانت الهزيمة على هولاكو. فلما وصل إلى ذلك النهر تكردس أصحابه عليه، فانخسف بهم، ففرق منهم خلق كثير[٢]، ورجع هولاكو بمن بقي معه من أصحابه إلى بلاده. ونشأت الحرب بينهم من هذه السنة، وكان فيمن شهد هذه الوقعة مع بركة ابن عمه نوغيه. ابن ططر بن مغل بن جنكزخان فأصابته طعنة رمح في عينه فغارت. ولنوغيه هذا أخبار نذكرها بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج٤، ص٣٠٩ أن أول من أسلم من بيت جنكزخان هو بركة بن جوجي بن جنكزخان. ولقد أسلم على يد الشيخ شمس الدين الباخرزي.

(٢) عن هذه الحادثة انظر جامع التواريخ لرشيد الدين ج١، ص٣٣٤.

وراسل بركة[١] هذا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ملك الديار المصرية والممالك الشامية في سنة إحدى وستين وستمائة يخبره بما منّ الله تعالى به عليه من الإسلام فأجابه السلطان يهنيه بهذه النعمة، وجهز له هدايا جليلة، من جملتها ختمة شريفة ذكر أنها من المصاحف العثمانية، وسجادات للصلاة وأكسية لواتية، وعدة من النطوع المصرطقة والأديم وسيوف قلاجورية مسقطة، ودبابيس مذهبة، وخوذ وطوارق، وفوانيس وشمعدانات، ومشاعل جفناوات وقواعد برسمها مكفتة، وسروج خوارزمية؛ ولجم؛ كل ذلك بسقط الذهب والفضة، وقسي حلق وقسي بنيدق وحروج وأسنة ونشاب بصناديقه وقدور برام، وقناديل مذهبة، وخدام سود، وجواري طباخات، وخيول عربية سبق، وهجن نوبية، وحمير فرة، ونسانيس ويغانغ وغير ذلك. وأعاد السلطان الملك الظاهر رسله في شهر رمضان من السنة المذكورة، وكتب إليه يغريه بهولاكو ويحضه على حربه.

وفي سنة ثلاث وستين وستمائة كانت الحرب بين عساكر بركة وعساكر أبغا بن هولاكو، وذلك أن هولاكو لما توفي في هذه السنة[٢] وجلس ابنه أبغا بعده، جهز جيشًا لقتال بركة، فلما بلغه الخبر جهز جيشًا وقدم عليه ييسوا نوغا[٣] بن ططر بن مغل، فصار في المقدمة ثم أردفه بمقدم آخر اسمه بستاي في خمسين ألف فارس، فسبق نوغا بمن معه وتقدم إلى عسكر أبغا وبستاي على إثره. فلما أشرفت عساكر أبغا على بستاي وهو مقبل في سواده العظيم تكردسوا وتجمعوا للهزيمة، فظن بستاي أنهم أحاطوا بنوغا ومن معه فانهزم راجعًا من غير لقاء. وأما نوغا فإنه تبع عساكر أبغا وواقعهم وهزمهم، وقتل منهم جماعة وعاد إلى بركة؛ فعظم قدره عنده وارتفع محله، وقدمه على عدة تمانات. وعظم ذنب بستاي عند بركة.

ودامت أيام بركة هذا بهذه المملكة إلى أن توفي في سنة خمس وستين وستمائة وهو على دين الإسلام، رحمه الله تعالى. ولم يكن لبركة ولد يرث الملك من بعده فاستقر الملك من بعده لابن أخيه منكوتمر[٤].

---

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٣٠٥، وفيه أن الحرب قد نشبت في سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م بين بركة وابن عمه هولاكو وانهزم هولاكو وقتل خلق من رجاله وغرق خلق.

(٢) توفي هولاكو سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٧٧ وهذا يتفق مع النويري. أما في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص١٩٢ فإنه توفي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، كذلك في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٣١٦.

(٣) ويرسم «نوقاي» أو «نوغاي» انظر جامع التواريخ، ج٢، ص١٤.

(٤) ويكتب أيضًا منكوتيمور. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص١٩٣، حاشية ٨.

ذكر ملك منكوتمر بن طوغان بن باطوخان ابن دوشي خان بن جنكزخان وهو الخامس من ملوكهم بهذه المملكة.

ملك هذه المملكة وجلس على كرسي الملك بصراي[١]، وصار إليه ملك بلاد الشام والترك والقفجاق وباب الحديد وما يليه؛ وذلك في سنة خمس وستين وستمائة. ولما ملك كاتبه السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي من الديار المصرية بالتهنئة والتعزية بعمه، وأغراه بأبغا بن هولاكو وحرضه عليه كما كان قد فعل لما كاتب بركة، وذلك في سنة ست وستين وستمائة.

ذكر مسير عساكر منكوتمر إلى بلاد القسطنطينية

وفي سنة ثمان وستين وستمائة جهز منكوتمر جيشًا إلى إستنبول. وكان رسول السلطان الملك الظاهر ركن الدين يومذاك عند الأشكري[٢]، وهو فارس الدين المسعودي. فخرج المذكور إلى عسكر منكوتمر وقال: أنتم تعلمون أن صاحب إستنبول صلُح مع صاحب مصر وأنا رسول الملك الظاهر، وبين أستاذي وبين الملك منكوتمر مراسلة ومصالحة واتفاق. وإستنبول مصر ومصر إستنبول. فرجعوا عنها ونهبوا بلادها وشعثوا. فلما وصل الفارس المسعودي في الرسلية إلى الملك منكوتمر من جهة السلطان، أنكر عليه كونه صد جيوشه عن أخذ إستنبول. وكان المسعودي قد فعل ذلك من قبل نفسه وبرأيه، لا برأي السلطان الملك الظاهر وأمره. فلما عاد المسعودي إلى السلطان الملك الظاهر نقم عليه وضربه واعتقله.

ولما كان جيش منكوتمر بإستنبول ورجعوا، مروا بالقلعة التي فيها عز الدين كيكاوس صاحب الروم معتقلاً فأخذوه منها، وأحضروه إلى الملك منكوتمر، فأكرمه وأحسن إليه وأقام عنده إلى أن مات.

ودامت أيام منكوتمر إلى سنة تسع وسبعين وستمائة وتوفي، ووردت الأخبار بوفاته إلى الديار المصرية في سنة إحدى وثمانين وستمائة. وكان سبب وفاته أنه طلع له دمل في حلقه فبطه فمات منه في شهر ربيع الأول من السنة. فكانت مدة ملكه نحو أربع عشرة[٣] سنة.

---

(١) وتكتب أيضًا «سراي» انظر صبح الأعشى، القلقشندي ج٤، ص٤٥٧.
(٢) الأشكري: لقب أطلق على ملوك القسطنطينية، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ص٤٥.
(٣) في الأصل أربعة عشر.

وخلف منكوتمر من الأولاد تسعة[(١)]، وهم ألغي[(٢)] وأمه ججك خاتون[(٣)] وكان لها حرمة وبسطة لأنها من الذرية القانية، وبرلك[(٤)]، وصراي بغا[(٥)]، وطغرلجا[(٦)]، وتلغان[(٧)]، وتدان[(٨)]، وطقطا[(٩)] وهو الذي ملك البلاد فيما بعد، وقدان، وقطغان[(١٠)]. وكان له (منكوتمر) من الإخوة لأبيه تدان منكوا[(١١)]، وأدكجى[(١٢)]؛ وتدان منكوا أكبرهم. فدفع تدان منكوا أولاد أخيه عن الملك واستقر هو في الملك بعد أخيه منكوتمر.

ذكر ملك تدان منكوا[(١٣)] بن طغان بن باطوخان ابن دوشي خان بن جنكزخان

ملك البلاد الشمالية بعد وفاة أخيه في شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة[(١٤)]. وقيل إنه جلس في جمادى الآخرة سنة ثمانين. وهو السادس من ملوك هذه المملكة. وكان السلطان الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية قد أرسل رسلاً إلى منكوتمر وهما شمس الدين سنقر الغتمي، وسيف الدين تلبان الخاص تركي؛ وسيّر معهما ستة عشر تعبية من القماش النفيس لمن يذكر: الملك منكوتمر، وأدكجي، وتدان منكو، وتلا بغا[(١٥)]، ونوغاي؛ وكان قد تقدم عنده. وما هو للخواتين من الأقمشة وهن: ججك خاتون وإلجي خاتون وتوتكين

---

(١) يذكر رشيد الدين أنه كان لمنكوتمر عشرة أولاد ويزيد على ما ذكره النويري اسم «مولاقاي» انظر جامع التواريخ ج١ ص٥١٤ طبع طهران.

(٢) يرسمه رشيد الدين «ألغوي» انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) يذكر رشيد الدين أولجاي خاتون هي والدة ألغوي المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ويكتب أيضًا بورلوك.

(٥) ويكتب أيضًا سراي بوقا.

(٦) ويكتب أيضًا طغريلجه.

(٧) في مقابل هذا الاسم أباجي.

(٨) يكتب أيضًا توداكان.

(٩) يكتب أيضًا توكتاي.

(١٠) يكتب أيضًا قود دوقاي. انظر جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني ج١، ص٥١٤ طبع طهران. وصبح الأعشى: القلقشندي، ج٤، ص٤٧٣.

(١١) يرسم أيضًا تودامنكو، زامباور معجم الأنساب والأسرات ص٣٦٣.

(١٢) يكتبه رشيد الدين أولاقجي. جامع التواريخ، ج١، ص٥١٤.

(١٣) يرسمه رشيد الدين تودا مونكا. جامع التواريخ ج١، ص٥٢٧ طبع طهران.

(١٤) وفاته سنة ٦٨١هـ رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، ص٥٢٧.

(١٥) يكتبه رشيد الدين تولابوقا وهو ابن تارتو بن توقو قان بن باتو بن جوجي خان. جامع التواريخ، ج١، ص٥١٤.

خاتون، وبدارن خاتون وسلطان خاتون وخطلوا خاتون. وما هو للأمراء وهم: الأمير مادوا أمير الميسرة، والأمير طبرا أمير الميمنة. وما هو لقيالق زوجة إيلجي. وما هو للسلطان غياث الدين صاحب الروم. وكانت هدية جليلة من الأقمشة والتحف والقسي والجواشن والخوذ. فلما وصلا وجدا منكوتمر قد مات، وجلس تدان منكوا في الملك، فقدموا له الهدية فقبلها.

واستمر تدان منكوا في الملك إلى سنة ست وثمانين وستمائة، فأظهر الزهد والتخلي عن النظر في أمور المملكة وصحب الفقراء والمشايخ وقنع بالقوت، فقيل له: إن المملكة لا بد لها من ملك يسوس أمورها، فنزل عن الملك لتلابغا[١].

ذكر ملك تلابغا بن طربوا بن دوشي خان ابن جنكزخان

ملك البلاد الشمالية بعد تزهد تدان منكوا في سنة ست وثمانين وستمائة، وهو السابع من ملوك هذه المملكة. فلما ملك تجهز بعساكره لغزو الكُرك واستدعى نوغيه بن ططر بن مغل بن دوشي خان، وهو الذي قلعت عينه في حرب هولاكو كما ذكرناه. وأمره بالمسير بمن معه من التمانات، فسار إليه وتوافيا في المقصد، وشنوا الغارة على بلد كرك ونهبوا وقتلوا وعادوا وقد اشتد البرد وكثرت الثلوج، ففارقهم نوغيه بمن معه وسار إلى مشاتيه، فوصل سالمًا. وسار تلابغا، فضلّ عن الطريق فهلك جماعة ممن معه واضطره الحال إلى أن أكل أصحابه دوابهم وكلاب الصيد ولحوم من مات منهم لشدة ما نالهم من الجوع. فتوهم أن نوغيه قصد له المكيدة فأضمر له السوء، وكان ذلك سبب قتله.

ذكر مقتل تلابغا

كان مقتله في سنة تسعين وستمائة وذلك أنه لما عاد من غزو الكرك اجتمع على الإيقاع بنوغيه، ووافقه على ذلك من انتمى إليه من أولاد منكوتمر. وكان نوغيه شيخًا مجربًا له معرفة وممارسة بالمكائد، فنما الخبر إليه فكتمه، ثم أرسل تلابغا يستدعي نوغيه وأظهر له احتياجه إلى مشورته وأخذ رأيه، فراسل نوغيه والدة تلابغا وقال لها:

---

(١) عزل تودا مونكا من منصبه بحجة أنه مجنون، رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، ج١، ص٥٢٧، طبع طهران.

إن ابنك شات وإنني أحب أن أبذل له النصيحة وأعرفه بما يعود عليه نفعه من مصالح ملكه، ولا يمكن أن أبديها له إلا في خلوة يجب ألا يطلع عليها سواه، وأختار أن ألقاه في نفر يسير. فمالت المرأة إلى مقالته وأشارت على ابنها بموافقته والاجتماع به وسماع ما يقول. ففرق تلابغا عساكره التي كان جمعها وأرسل إلى نوغيه ليحضر عنده، فتجهز بجميع من عنده من العساكر وأرسل إلى أولاد منكوتمر الذين كانوا يميلون إليه، وهم طقطا برلك وصراي بغا وتدان باللحاق معهم. ثم سار مجدًا فلما صار بالقرب من مقام تلابغا الذي تواعدا أن يجتمعا فيه ترك العسكر الذي معه وأولاد منكوتمر طقطا وإخوته كمينًا واستصحب معه نفرًا يسيرًا، وتوجه نحو تلابغا، فصار تلابغا لتلقيه ومعه من أولاد منكوتمر أولغي وطغرلجا وتلغان وقدان وقتغان، وهم الذين انحازوا إليه. فلما اجتمع تلابغا ونوغيه وأخذا في الحديث لم يشعر تلابغا إلا وخيول أصحاب نوغيه قد أقبلت، فتحير في أمره وتقدم العسكر، فأمرهم نوغيه بإنزال تلابغا ومن معه من أولاد منكوتمر عن خيولهم فأنزلوهم، ثم أمر بربطهم فربطوا وقال لطقطا: هذا تغلب على ملك أبيك وهؤلاء بنو أبيك وافقوه على أخذك وقتلك. وقد سلمتهم إليك، فاقتلهم أنت كما تشاء، فقتلهم جميعًا.

ذكر ملك طقطا بن منكوتمر بن طوغان ابن باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان وهو الثامن من ملوك هذه المملكة

ملك البلاد الشمالية في سنة تسعين وستمائة. وذلك أنه لما قتل تلابغا وإخوته الخمسة أولاد منكوتمر أجلسه نوغيه على كرسي الملك، ورتب أمور دولته، وسلم إليه من بقي من إخوته الذين اتفقوا معه. وقال: «هؤلاء إخوتك يكونون في خدمتك فاستوص بهم». وعاد نوغيه إلى مقامه، وبقي في نفسه من الأمراء الذين اجتمعوا مع تلابغا عليه عندما أرسل إليه يستدعيه.

ذكر إيقاع طقطا بجماعة من أمرائه

وفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة، جهز نوغيه زوجته ييلق خاتون إلى الملك طقطا برسالة. فلما وصلت إلى الأردو تلقاها بالإكرام واحتفل بها غاية الاحتفال، ثم سألها عن موجب حضورها، فقالت له: أبوك يسلم عليك ويقول لك: قد بقي في

طريقك قليل شوك فنصفه. قال: وما هو؟ فسمت له الأمراء وهم: «كلكتاي[١] ويوقق وقرا كيوك وما جار وتاين[٢] طقطا وكبى وبركوا[٣] وطراتمر والتمر ونكا وبيطرا وبيملك تمر وبيطقتمر وبيقور الطاجي[٤] وتادوة[٥] وملخكا وبرلغي[٦] وكنجك وشردق وقراحين وجاجري وابشقا بيننجي. وهؤلاء هم الذين اتفقوا مع تلابغا على نوغيه». فلما أبلغته هذه الرسالة، وسمت له هؤلاء الأمراء، طلبهم وقتلهم جميعًا، وعادت ييلق خاتون إلى نوغيه فاطمأن خاطره؛ وتحكم أولاد نوغيه وأولاد أولاده. وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة[٧] وهم جكا وتكا وطراي وابنة تسمى طغلجا وابن بنت يسمى أقطاجي. وكانت ابنته متزوجة لشخص يسمى طاز بن منجك، فقويت شوكتهم، ثم وقع الخلف بين طقطا ونوغيه.

ذكر ابتداء الخلف بين طقطا ونوغيه

وفي سنة سبع وتسعين وستمائة ابتدأ الخلف بين طقطا ونوغيه، وكان لذلك أسباب منها أن ييلق خاتون زوجة نوغيه نفرت من ولديه جكا وبكا وأظهرا لها الإساءة والامتهان، فأغرت طقطا بهما وأرسلت إليه تحرضه عليهما. منها أن بعض أمراء طقطا أوجسوا منه خيفة ففارقوه وانحازوا إلى نوغيه؛ فقبلهم وأحسن إليهم، وأنزلهم في حوزته، وزوج أحدهم وهو طاز بن منجك بابنته، فطلبهم طقطا منه فمنعهم عنه فأغضبه ذلك، وأرسل إليه رسولاً وصحبته محراث وسهم نشاب وقبضة تراب. فجمع أكابر عشيرته وقال: «ما عندكم فيما أرسله طقطا؟» فقال كل منهم قولاً، فقال: «ما أصبتم وأنا أخبركم بمراده. أما المحراث فهو يقول: إن نزلتم إلى أسافل الأرض أطلعتكم بهذا المحراث؛ وأما النشابة فيقول: إن طلعتم إلى الجو أنزلتكم بهذا السهم، وأما التراب فيقول: اختاروا لكم أرضًا تكونون فيها للملتقى» فقال نوغيه لرسوله: «قل لطقطا إن خيلنا قد عطشت ونريد نسقيها من ماء تن - وهو نهر على مقام صراي وفيه منازل طقطا - وجمع جنوده وسار للقائه.

(١) في الأصل «كل كيايي».
(٢) في الأصل «وياي».
(٣) في الأصل «يركو».
(٤) في الأصل «بيقور أقطاجي».
(٥) في الأصل «بارق».
(٦) في الأصل «برليفي».
(٧) ورد في جامع التواريخ لرشيد الدين ج١، ص٥١٧ أن هؤلاء الأولاد هم جوكه وبوكه وبوري.

ذكر الوقعة الأولى بين طقطا ونوغيه

وفي سنة سبع وتسعين وستمائة سار طقطا للقاء نوغيه، فجمع عساكره ومن انضاف إليه، وكانوا يزيدون على مائتي ألف فارس. وسار كل منهما لقصد صاحبه، فالتقوا على نهر يقصى بين مقام طقطا ومقام نوغيه. فكانت الهزيمة على طقطا وعساكره، وانتهت بهم الهزيمة إلى نهر تن، فمنهم من عبر وسلم ومنهم من هوى به فرسه فغرق. وأمر نوغيه عساكره أن لا يتبعوا منهزمًا ولا يجهزوا على جريح، وأخذ الغنائم والسبايا والأسلاب وعاد إلى مكانه.

ذكر الوقعة الثانية وقتل نوغيه

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة، عزم طقطا على حرب نوغيه، واتفق أن جماعة من أمراء نوغيه الذين كان يعتمد عليهم فارقوه وانحازوا إلى طقطا. فقويت به شوكتهم، وكانوا في ثلاثين ألف فارس. ولما تجهز طقطا اتصل خبره بنوغيه، فتجهز أيضًا لحربه وخرج كل منهما للقاء الآخر. فلما صار بينهما مسافة يوم، أرسل نوغيه شخصًا ومعه مائة فارس للكشف، فظفر بهم طقطا وقتلهم ونجا مقدمهم بمفرده. فأخبر نوغيه أن العسكر قد دهمه، فركب فيمن معه والتقوا على كوكان لك واقتتلوا، فكانت الكسرة على نوغيه في وقت المغرب، فانهزم أولاده وعشائره وثبت هو على ظهر فرسه، وكان قد كبر وطعن في السن، وتغطت عيناه بشعر حواجبه، فوافاه رجل روسي من عسكر طقطا وقصد قتله، فعرفه بنفسه وقال: «أنا نوغيه فاحملني إلى طقطا فلي معه حديث» فلم يصغ الروسي لمقالته وقتله. وحمل رأسه إلى طقطا وقال: «هذا رأس نوغيه» فقال له: «ومن الذي أعلمك أنه نوغيه؟» فقصّ عليه القصة. فآلمه ذلك، وأمر بقتل قاتله، وقال: «إن من السياسة قتله حتى لا يجترىء أمثاله على قتل مثل هذا الرجل الكبير» ثم عاد طقطا إلى مقامه.

ذكر أخبار أولاد نوغيه

ولما انهزم عسكر نوغيه وقتل، استقر أولاده بمقامه فلم تطل بهم الأيام حتى وقع الخلف بينهم. وقتل جكا بن نوغيه أخاه بكا، واستبد جكا بملك أبيه وأقام له نائبًا يسمى طنغر؛ فنفر عنه أصحابه وعلموا أنه لا يبقى عليهم بعد أن قتل أخاه. واتفق نائبه طنغر مع طاز بن منجك - وهو صهر نوغيه، زوج ابنته طغلجا - على الإغارة على بلاد أولاق والروس. فسارا وتذاكرا سوء سيرة جكا فيهم، واتفقا على أن يقبضا عليه عند عودهما، وعادا لذلك. فبلغه الخبر ففر منهما في مائة وخمسين فارسًا، ودخل بلاد آص وكان بها مقدم وطمأن من عسكره فأقام بينهم. ووصل طنغر ثانية وطاز بن منجك صهره إلى بيوته فنهبوها واستولوا عليها.

ولما أقام جكا ببلاد آص تسلل إليه كثير من عسكره، فكثرت بهم عدته، وسار لحرب طنغر وطاز بن منجك، والتقوا واقتتلوا فاستظهر جكا عليهما وأسروا بيوتهما به. وكانت أخته طقلجا تقاتله بنفسها في هذه الوقعة. فلما انكسر زوجها ومن معه، كاتبوا طقطا يستمدونه، فأمدهم بجيش صحبة أخيه برلك بن منكوتمر.. فلما جاءهم المدد والتقوا للقتال لم يكن لكيجا[1] بهم قبل، فهرب إلى بلاد[2] أولاق، وكان ملكها والحاكم عليها صروجا أحد أقارب جكا فآوى إليه، فاجتمع أصحابه وقالوا: هذا عدو طقطا، ولا نأمن أنه إذا بلغه أنه انحاز إلينا يقصدنا بجيوشه ولا قبل لنا به. فأمسكه دعوقه في قلعته واسمها تزنوا وطالع طقطا بأمره فأمره بقتله، فقتله في هذه السنة وهي سنة سبعمائة، ودخلت مملكة الملك طقطا ممن يساويه، واستقر يزلك[3] بن منكوتمر في مقام نوغيه من قبل أخيه طقطا. ولم يبق من أولاد نوغيه إلا أصغرهم وهو طراي. ورتب طقطا بيجى بن قرمسى يرصع أباجي أخاه. وجهز ولديه يكل بغا وأربصا إلى بلاد نوغيه، فاستقر يكل بغا في صنعجى ونهر طنا[4] وتايل باب الحديد، وهي منازل نوغيه. وأقام ايربصا، بنق ورتب أيضًا أخاه صراي بغا.

ذكر ما اتفق طراي بن نوغيه وصراي بغا بن منكوتمر من الخروج عن طاعة الملك طقطا وقتلهما

وفي سنة إحدى وسبعمائة تحرك طراي بن نوغيه في طلب ثأر أبيه وأخيه من طقطا، ولم يكن له قوة بنفسه، فجاء إلى صراي بغا بن منكوتمر. وكان أخوه[5] طقطا قد رتبه في مقام نوغيه فتوصل طراي إليه ولازمه، ولم يزل يلاطفه حتى حسّن له الخروج على أخيه طقطا وأن يستقل بالملك، فوافقه صراي بغا ومال إليه وركب بتمانه وعبر نهر اتل، وترك العسكر، وتوجه جريدة، اجتمع بأخيه برلك، وعرفه ما عزم عليه وطلب منه الموافقة فأجابه إلى ما طلب. ثم بادر برلك[6] بالاجتماع بأخيه طقطا، وعرفه الصورة وما همّ به صراي بغا وطراي بن نوغيه. فركب طقطا لوقته في خواصه وجهز إليهما من أحضرهما، فقتلا بين يديه، ورتب ولده في المكان الذي كان قد رتب فيه صراي بغا. ولما قتل طقطا طراي هرب قرا كشك بن جكا بن نوغيه، وهرب معه اثنان من أقاربه وهما جركتمر ويلتطلوا ـ وكان بزلك قد أرسل في طلبه ـ

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) في الأصل «أحر».

(٣) هكذا في الأصل والصواب برلك.

(٤) في الأصل «نهر طونه ور».

(٥) في الأصل «وكان أخاه».

(٦) في الأصل «زين لك» والصواب برلك.

فانهزم هو وهذان إلى بلاد ششتمن(١) إلى مكان يسمى يدرك بالقرب من كدك ومعهم نحو ثلاثة آلاف فارس، فآواهم ششتمن وأصحابه وقاموا عنده يعبرون على الأطراف ويأكلون من كسبهم إلى آخر أيام طقطا.

وفي سنة سبع وسبعمائة وردت الأخبار إلى الديار المصرية أن طقطا نقم على الفرنج الجنوبية الذين بقرم وكفار البلاد الشمالية لأمور نقلت إليه عنهم، منها استيلاؤهم على أولاد التتار وبيعهم بالبلاد الإسلامية، فأرسل جيشًا إلى مدينة كفا وهي مسقط رؤوسهم. فشعر الفرنج بهم فركبوا في مراكبهم وتوجهوا في البحر فلم يظفر الجيش منهم بأحد. فنهب طقطا أموال من كان منهم بمدينة صراي وما يليها.

وفي سنة تسع وسبعمائة كانت وفاة ايرصا(٢) بن طقطا حتف أنفه. وكان مرشحًا عند أبيه للتقدمة على العساكر. وتوفي أيضًا أخوه برلك بن منكوتمر ودامت أيام طقطا إلى أن توفي في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وملك بعده.

أزبك بن طغولجا بن منكوتمر بن طغان ابن باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان وهو التاسع من ملوك هذه المملكة

ووصلت رسله إلى أبواب مولانا السلطان الملك الناصر(٣) سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وغيرها من الممالك الإسلامية وكان وصولهم في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، وصحبهم من التقادم لمولانا السلطان ما لم تجر بمثله عادة. وكان من جملة رسالته أنه هنأ مولانا السلطان الملك الناصر بإيصال الإسلام من الصين إلى أقصى بلاد الغرب؛ وقال إنه كان قد بقي في مملكته طائفة على غير دين الإسلام فلما ملك خيّرهم بين الدخول في دين الإسلام أو الحرب؛ فامتنعوا وقاتلوا، فأوقع بهم وهزمهم واستأصل شأفتهم بالقتل والأسر. وجهز إلى مولانا السلطان عدة

---

(١) في الأصل «سيشمين».

(٢) يقول رشيد الدين إن توقتاي (طقطا) كان له ابن اسمه فانوس. انظر جامع التواريخ، ج١، ص٥١٤، طبع طهران.

(٣) يقصد المؤلف السلطان الناصر محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي أبو الفتح من كبار ملوك الدولة القلاوونية ولي سلطنة مصر والشام سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م. توفي بالقاهرة سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م.
ترجمته وأخباره في الأعلام للزركلي ج٧، ص١١، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج٢، ص٢٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٨، ص٤١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٨، ص٣٠٠.

من سباياهم، فأعاد مولانا السلطان رسله صحبة رسل منه وأنعم عليهم وأرسل معهم الهدايا الوافرة. هذا ما نقل إلينا من أخبار ملوك هذه المملكة الشمالية إلى حين وضعنا لهذا التأليف. ومهما اتصل بنا من أخبارهم بعد ذلك نورده إن شاء الله في جملة أخبار الدولة الناصرية بالديار المصرية المحروسة.

وأما ملوك ما وراء النهر من ذرية جنكزخان

فلم يصل إلينا من أخبارهم ما ندونه لبُعد بلادهم وانقطاع رسلهم عن ملوكنا؛ إلا أن ملك ما وراء النهر انتهى إلى قيدوا بن قيجي بن طلوا بن جنكزخان، وطلوا هو تلي خان. ورأيت في شجرة وضعها الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري أن قيدوا بن قيجي بن أوكديه بن جنكزخان. وطالت أيام قيدوا واستمر الملك إلى أن توفي في تسع وسبعمائة. وكرسي مملكته. كاشغر وقلا صاق، وله تركستان وقيالق والمالق وبخارى وغير ذلك. ولما مات ملك بعده ابنه جابار واستمر إلى أن مات في سنة سبع عشرة وسبعمائة(١). وملك بعد أخوه ألوين بغا بن قيدوا. ولقيدوا غير هؤلاء من الأولاد تانجار(٢) وأروس(٣). وهذه الطائفة يقابلون القان الكبير الجالس على تخت القانية بقراقروم وغيره.

وأما ملوك غزنة وباميان وهم أولاد أرديوا بن دوشي خان بن جنكزخان وهم أقرب إلى ملوك البلاد الشمالية من غيرهم من البيوت لأن أرديوا بن دوشي خان هو أخو باطوخان بن دوشي خان. فدوشي خان بن جنكزخان يجمعهم وأخبارهم أيضًا منقطعة عن بلادنا لبعد بلادهم، لأن بيت هولاكو بيننا وبينهم. والذي وصل إلينا من أخبارهم أن ملك غزنة وباميان انتهى إلى قيجي(٤) بن أرديوا بن دوشي خان. ودامت أيامه إلى أن توفي في سنة إحدى وسبعمائة، فاختلف أولاده وبنو عمه في الملك بعد وفاته وتنازعوه بينهم وافترق بعضهم عن بعض، وكان له من الأولاد: نيان، وكبلك(٥)، وطقتمر، وبغاتمر، ومنغطاي، وصاحي. وكان كبلك قد استقر في الملك بعد وفاة أبيه فسار أخوه نيان إلى الملك طقطا واستنجد به، واستمده على أخيه، فأمده بأخيه برلك وسار كبلك إلى قيدوا واستعان به فأمده بجيش. وعادا من جهة

(١) انظر زامباور: معجم الأنساب والأسرات ص٣٦١ وفيه عزل جابار سنة ٧٠٦هـ.
(٢) في الأصل «بابنجار». (٣) في الأصل «أدوين».
(٤) «هو قوينجي» يذكره رشيد الدين بأنه ضخم الجثة إلى درجة مفرطة. انظر جامع التواريخ، ج١، ص٥٠٧.
(٥) يكتب كوبلك. ويذكر رشيد الدين أنه ابن عم نايان وليس أخاه. المصدر نفسه ج١، ص٥٠٨.

طقطا وقيدوا، والتقوا واقتتلوا فكُسر كبلك ثم مات واستقر أخوه نيان في المملكة الغزنوية؛ واستمر إلى سنة ثمان وسبعمائة، فوقع الحلف بينه وبين أخيه منغطاي بن قيجي[(١)]. وتنازعا الملك، وانحاز إلى كل واحد منهما فئة، فاستظهر منغطاي على أخيه نيان بكثرة من انحاز إليه، فانهزم نيان واستقر منغطاي في الملك. وأقام نيان ببلاد بكمرش وهي على أطراف حدودهم. ثم توجه قرشياي بن كبلك إلى قيدوا في سنة تسع وسبعمائة، واستنجده على عمه نيان، فأنجده عليه، وجرد معه جيشًا. فقصد نيان واقتتلا فانهزم نيان وتوجه إلى عند الملك طقطا، لأنه كان قد أمده أولاً وأعانه. وتمكن قرشتاي من بلاد نيان واستقر بها، واستمر منغطاي في ملك المملكة الغزنويَّة إلى وقتنا هذا.

وانقطعت أخبارهم عنا من سنة عشر وسبعمائة فلم يصل إلينا منها ما نشرحه. وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار هذين البيتين لتكون دالة على وجودهم ومنبهة عن ممالكهم، وإلا فأخبارهم كثيرة لم نظفر بها. فلنذكر الآن نبذة من أخبار هولاكو بن تولي خان بن جنكزخان، وأخبار أولاده، وما ملكه وملكوه بعده من الأقاليم. والممالك.

ذكر أخبار هولاكو[(٢)] بن تولي خان بن جنكزخان وابتداء أمره وما استولى عليه من الممالك والأقاليم ومن ملك من ذريته

وهذا البيت من التتار وهو أقرب البيوت إلى القان[(٣)] الكبير، لأن القانية استقرت في إخوة هولاكو، ثم في بني أخيه قبلاي بن تولي خان، كما قدمناه في أخبارهم.

---

(١) «قوينجي» انظر ما سبق.

(٢) أخباره في: الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٣٠ ـ ٢٤٠ و٢٧٧ وفيه ولي الحكم من ٦٥٤ إلى ٦٦٣هـ/ ١٢٥٦ ـ ١٢٦٥م، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج٤، ص٢٤٠، والبداية والنهاية لابن كثير ج١٣، ص٢٤٨، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٤ ـ ١٦٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٧، ص٤٢ ـ ٥٢.

(٣) القان: لقب أطلق على رؤساء الترك في القرن السابع الميلادي ومعناه رئيس الرؤساء وقد استعمل الترك المتقدمون لقب قان أو خان أيضًا بمعنى قاغان، وربما كان اختصارًا له واستعمل هذا اللقب حتى أيام ملوك المغول وأصبحت كلمة قان أو قاغان تطلق على ملك المغول الأعظم وقصر لفظ خان على الملوك الذين يتولون جزءًا من الأمبراطورية المغولية. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ص٢١.

وكان ابتداء أمر هولاكو أن أخاه منكوقان وهو الجالس في أيامه على تخت القانية بقراقروم بعثه لفتح العراق في سنة خمسين وستمائة، فسار فيمن معه من الجيوش إلى بلاد الإسماعيلية، ويسمون ببلاد العجم الملاحدة، فاستولى عليها وأباد أهلها قتلاً وأسرًا وسبيًا ونهبًا. ثم كان بينه وبين بركة من الحرب ما شرحناه في أخبار بركة. وكانت الهزيمة على هولاكو وقتل كثير من أصحابه وغرق كثير منهم. وعاد هولاكو إلى العراق بمن بقي معه. وتمكنت العداوة بين هذين البيتين ونشأت الحرب بينهم من هذه السنة وهي سنة ثلاث وخمسين.

ذكر استيلائه على بغداد وقتله الخليفة المستعصم بالله(١)

وفي سنة ست وخمسين وستمائة سار هولاكو بعساكر التتار إلى مدينة بغداد ونازلها. وكان قد أرسل إلى بيجو(٢) يستدعيه من بلاد الروم، فكره بيجو اللحاق به. وما أمكنه مفاجأته بذلك؛ فاعتذر إليه أن جمعًا كثيرًا من القرى تليه والأكراد والياروقية قد تجمعوا في الطرقات، ومقدمهم شرف الدين بن بلاش، وأنهم أخذوا عليه وعلى من معه المضيق، ولا سبيل لهم إلى الخروج من حدود ديار بكر. وقصد بيجو بذلك المدافعة. فجهز هولاكو ثمانين من التوامين(٣) التي معه، مقدم أحدهما قدغان ومقدم الآخر كتبغا(٤) نوين لفتح الطريق. وفي أثناء ذلك أوقع(٥) بالأكراد والقراتلية وقعة

(١) هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله ولد سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٩م وقتل على يد هولاكو المغولي سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. كانت مدة خلافته ١٥ سنة و٨ أشهر وأيامًا. أهمل أمر هولاكو حتى كان في ذلك هلاكه.
أخباره في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٢٧٠، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج١، ص٢٣٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٧، ص٦٠ انظر حاشية رقم ١، وفيها خبر عن مقتله.

(٢) ويكتب أيضًا بايجو نوين. وهو من قواد المغول المشهورين عاون هولاكو في فتح بغداد. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٤٦.

(٣) التوامين جمع تمان. وهي فرقة من الجيش عددها عشرة آلاف جندي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٢١.

(٤) كتبغا أو كيتو بوقا. «ونوين» لفظ فارسي يقرن بأسماء قواد التتار، ومن ألقاب كفال الممالك القانية كنائب السلطنة وأمراء الألوس ونحوهم، وهو يعني أمير عشرة آلاف. ويقال له أيضًا أمير تومان. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص٧٢، حاشية رقم ٣.

(٥) في الأصل «أنفع».

عظيمة وجعل منهم أهل أرزنجان وتحصنوا بجبل يسمى أرن سور، فلما وصل التتار إلى أرزنجان تسلموها وحاصروا كماج، وهزموا الأكراد وقتلوا منهم وسبوا، وأقام قدغان وكتبغا حتى وصل إليهما بيجو.

وأخبرني الأتمر البدري رحمه الله وهو من ذرية بيجو كما زعم، وكان له معرفة بأخبارهم، أن منكوقان لما جهز بيجو لفتح الروم، أوصاه أنه لا يتعرض إلى بغداد، وأنه لما جهز هولاكو أوصاه أن لا يخالف بيجو وأنه لا يصل إلى بغداد، وكتب معه إلى بيجو بذلك. فغير هولاكو الكتب وجعل معناه أن بيجو لا يخالف أمر هولاكو، وكانت كراهية منكوقان لفتح بغداد أنهم رأوا فيما عندهم أنها إذا فتحت لا تطول مدة القان.

ثم توجه بيجو ومن عنده إلى هولاكو ونزلوا بالجانب الغربي من بغداد، ونزل هولاكو بالجانب الشرقي منها، وحاصروها واشتد الحصار، فخرج إليهم عسكر الخليفة صحبة مجاهد الدين أيبك الدوادار الكبير[(١)] ـ وكان مقدمًا على عشرة آلاف فارس ـ فالتقى مع التتار وهزمهم، فولوا عامة ذلك النهار، وقتل كثيرًا منهم إلى أن حجز بينهم الليل، واستبشر المسلمون بالنصر. فلما أصبحوا تراجع التتار إليهم، فانكسر الدوادار ومن معه. وكان أكثر أصحابه لما أيقنوا بالظفر دخلوا بغداد في تلك الليلة، فلما انهزم مجاهد الدين بمن بقي معه قصد التحصن ببغداد، فحال بينه وبينها ـ للقضاء المقدر ـ شق انبثق من دجلة، وساحت منه مياه عظيمة، فصار الماء أمامه والتتار وراءه، فأدركوه هو ومن معه، وأخذهم السيف، ومرق جماعة منهم. وقتل مجاهد الدين أيبك وولده أسد الدين ـ وكان مقدم خمسة آلاف فارس ـ «وسليمان شاه ترجم[(٢)]». أمير علم الخليفة، وجماعة من الأمراء، وأسروا خلقًا. وحملت رؤوس هؤلاء الثلاثة إلى الموصل، وحملت على باب المدينة ترهيبًا لأهلها.

ورمى أهل بغداد بالداهية الكبرى والمصيبة العظمى، وارتاع الخليفة وأغلقت أبواب المدينة، وأحاط بها التتار وضايقوها وفتحوها عنوة، ودخلوها في العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة[(٣)]؛ ووضعوا السيف فيها سبعة أيام، لم يرفعوه

---

(١) الصواب الدوادار الصغير، وليس الكبير كما يذكر النويري وهو الأمير مجاهد الدين أيبك بن عبد الله المعروف بالدويدار الصغير قتل على يد التتار سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٤٣ حاشية ١.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) لمزيد من التفصيل عن دخول التتار بغداد انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٥٩ ـ ١٦٠ و١٦١.

عن شيخ كبير ولا طفل صغير. وجيء بالخليفة إلى هولاكو[١] فأمر أن يجعل في جولق ويداس بأرجل الخيل، ففعل به ذلك حتى مات، كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية. ومن عادة التتار أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر غالبًا.

وسبى التتار من بالقصر، وأخذوا ذخائر الخلافة، واستدعى هولاكو الوزير ابن العلقمي[٢]، وكان قد كاتبه وحثه على قصد بغداد وأضعف جيوش الإسلام. فلما مثل بين يدي هولاكو سبه ووبخه على عدم موافاته لمن هو غذى نعمته، وأمر بقتله فقتل. وقيل لم يقتله بل استبقاه. ثم عزم هولاكو على إحراق مدينة بغداد[٣]، فمنعه كتبغا نوين، وقال هذه أم الأقاليم ويتحصل منها الأموال العظيمة، والمصلحة إبقاؤها، فأبقاها ورتب فيها شحنة، ثم سار عنها بعد انقضاء الشتاء إلى الشام، وجرد إلى ميّافارقين، والله أعلم.

ذكر استيلاء التتار على ميافارقين

وفي سنة ست وخمسين أيضًا أرسل هولاكو طائفة من عساكره إلى ميافارقين صحبة صرطق[٤] نوين وقطغان نوين. وكان بها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب، فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق من كل ناحية، فقاتله أهلها، وامتنعوا وصبروا على شدة الحصار، وقلّت الأقوات عندهم حتى أكلوا الكلاب والسنانير والميتة. ففتحها التتار بعد سنتين، بعد أن فني الجند من كثرة

---

(١) ذكر ابن كثير أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه ثم أشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة. البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٠١.

(٢) هو وزير الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين بن العلقمي وكان رافضيًا خبيثًا حريصًا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين. يدبر ذلك في الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٣.
عن الدور الذي قام به مؤيد الدين بن العلقمي في تسليم بغداد فهناك آراء وأقوال مختلفة. انظر ذلك في تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن، ج٤، ص١٦١ - ١٦٢ وانظر أيضًا النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٧، ص٤٤ حاشية ١ وفيه طرح ابن تغري بردي مسألة موقف الوزير ابن العلقمي بتفصيل.

(٣) عن إحراق بغداد انظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ج٤، ص١٦١، والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٤٠ - ٢٤١، والنجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٨.

(٤) يرسمه رشيد الدين سونتاي. انظر جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص٣١٩. الترجمة العربية.

القتال، وأسر من بقي، وأخذ الملك الكامل صاحبها وتسعة نفر من مماليكه، وأحضروا بين يدي هولاكو فقتلوا، إلا مملوكًا واحدًا يسمى قراسنقر سأله عن وظيفته، فذكر أنه أمير شكار[١]، فأبقاه وسلم إليه طيوره. وجاء قراسنقر هذا بعد موت هولاكو إلى الديار المصرية في الأيام الظاهرية، فجعله السلطان من مقدمي الحلقة المنصورة. وكان استيلاء التتار على ميافارقين في سنة ثمان وخمسين وستمائة.

ولما قتل الملك الكامل هذا حمل التتار رأسه على رمح وطيف به البلاد ومروا به على حلب وحماه ووصلوا به إلى دمشق في سابع عشرين جمادى الأولى من السنة، وطافوا به في دمشق بالمغاني والطبول، وعلق رأسه بباب الفراديس[٢] فلم يزل إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس.

ذكر وفاة بيجو مقدم التتار

وفي سنة ست وخمسين أيضًا نقم هولاكو على بيجو لما بلغه عنه من إضمار الخلاف[٣] وما قصده من التأخير عنه لما طلبه وأنه قصد الانفراد ببلاد الروم. فلما فرغ من فتح بغداد والعراق سقاه سمًا[٤] فمات. وقيل إنه كان قد أسلم قبل موته، ولما حضرته الوفاة أوصى بأن يغسل ويدفن على عادة المسلمين. وكان له من الأولاد أفاك، وسوكناي. وأفاك هذا هو أبو سلامش وقطقطو اللذين وفدا إلى الديار المصرية في الأيام المنصورية.

ولما فتح هولاكو العراق جاءه ملوك الأطراف، فكان ممن جاءه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بهدايا جليلة وتحف. ولما قصد السفر من الموصل جاءه أهلها وقالوا: «إنا نخشى عليك من سطوة هذا الملك الجبار» فقال: «أرجو أن أتمكن منه وأعرك أذنيه» فلما جاءه وقدم ما معه أعجب هولاكو وأقبل عليه. فلما فرغ من تقدمته قال: «قد بقي معي شيء خاص بالقان» وأخرج له حلقتي أذن من الذهب،

---

(١) أمير شكار مكون من كلمة أمير عربية وشكار فارسية بمعنى صيد: أو هو موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها. وكذلك كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢، ج٥، ص٤٦١.

(٢) باب الفراديس: وهو أحد الأبواب التي بنيت بدمشق، وعليه اسم أحد الكواكب، وهو عطارد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٩٢.

(٣) «بلغه عنه من الوزير ابن العلقمي أنه كاتب الخليفة المستعصم لما كان بالجانب الغربي» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٧.

(٤) ضرب هولاكو عنق مقدم جيشه بايجو. في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٤٧.

فيهما دُرّتان[١] كبيرتان، فأعجباه فقال: «أشتهي القان يشرفني بأن أجعلهما بيدي في أذنيه ليعظم قدري بذلك عند الملوك وأهل بلادي وأعلم رضاه عني» فأصغى إليه بأذنيه فمسكهما ووضع الحلقتين فيهما، ونظر إلى من معه من أهل الموصل يعني: «إنني قد قلت قولاً وقد حققته».

وأرسل إليه الملك الناصر[٢] صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب الشام ولده العزيز بهدايا وتحف اقتداء بصاحب الموصل، فقبل تقدمته وسأله عن تأخير أبيه، فاعتذر بأنه لا يمكنه مفارقة البلاد خوفًا عليها من عدو الإسلام الفرنج، فقبل عذره وأعاده إلى أبيه. وجاءه عز الدين كيكاوس، وركن الدين قلج أرسلان ملك الروم فقسم البلاد بينهما على ما قرره منكوقان.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة وجه هولاكو أرغون ـ وهو من أكابر المقدمين ـ في جيش إلى كرجستان، فغزا تفليس وأعمالها، فأغار ونهب وعاد إليه وهو بالعراق.

وفيها أيضًا قدم هولاكو إلى شرقي الفرات ونازل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزيرية، وذلك بعد وفاة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

وأرسل هولاكو أحد أولاده إلى حلب فوصل إليها في العشر الآخر من ذي الحجة من السنة. وكان الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بحلب ينوب عن ابن أخيه الملك الناصر، فخرج بالعسكر الحلبي لقتال التتار، فأكمن التتار كمينًا عند الباب المعروف بباب الله قريب من مدينة حلب من شمائلها، والتقوا واقتتلوا عند بانقوسا[٣]، فاندفع التتار بين يدي العسكر الحلبي وتبعهم العسكر حتى خرجوا عن البلد، ثم عطفوا عليهم، فطلب المسلمون المدينة والتتار يقتلون فيهم. وهلك في الأبواب جماعة من المنهزمين.

ثم رحل التتار إلى إعزاز وتسلموها بالأمان، ثم تقدم هولاكو بجيوشه فبدأ بالبيرة فملكها، ووجد بها الملك السعيد ابن الملك العزيز أخا الملك الناصر معتقلاً فأطلقه، وسأله عما كان بيده فقال: الصبيبة وبانياس، فكتب له بذلك فرمانًا، ثم تقدم هولاكو إلى حلب.

---

(١) الدرة: اللؤلؤة. ابن منظور: لسان العرب (درر) الفيروزابادي القاموس المحيط (درر).

(٢) وفي سنة خمس وخمسين وستمائة، أرسل الملك الناصر «يوسف صاحب الشام ولده الملك العزيز بهدية إلى هولاكو ملك التتار» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٧، ص٥٣. وهذا يخالف ما ذكره النويري هنا. في أنه أرسل ابنه في سنة ٦٥٦هـ.

(٣) بانقوسا: جبل في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٣١.

ذكر منازلة هولاكو مدينة حلب واستيلائه عليها وعلى بلاد الشام

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة[١] عبر هولاكو الفرات بجموعه، ونازل حلب، وأرسل إلى الملك المعظم توران شاه[٢] ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف يقول: «إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر، فاجعلوا عندكم شحنة وبالقلعة شحنة ونتوجه نحن إلى العسكر فإن كانت الكسرة عليهم كانت البلاد لنا وتكونون[٣] قد حقنتم دماء المسلمين. وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين إن شئتم القتل أو الإطلاق فقال له الملك المعظم: «ليس له عندي إلا السيف». وكان الرسول إليه من جهة هولاكو صاحب أرذن الروم، فعجب من جوابه، وتألم لما علم من ضعف المسلمين عن ملاقاة التتار.

وأحاط التتار بحلب في ثاني صفر[٤] وهجموا على البواشير في الثالث من الشهر؛ فقتل من المسلمين جماعة، منهم أسد الدين ابن الملك الزاهر صلاح الدين. واشتدت مضايقة التتار لحلب، وهجموه من عند حمام حمدان وذلك في يوم الأحد تاسع صفر، وصعد إلى القلعة خلق كثير. وبذل التتار السيف والنهب في أهل حلب إلى يوم الجمعة رابع عشر الشهر، فأمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان، فقتل منها في هذه المدة ما لا يحصى كثرة، وكان قد تجمع بها من أهل القرى خلق كثير. وسبى من النساء والذراري زهاء مائة ألف، بيعوا في جزائر الفرنج وبلاد الأرمن، ولم يسلم ممن كان بحلب إلا من التجأ إلى أماكن كان مع أهلها فرمانات من هولاكو

---

(١) «في المحرم من سنة ثمان وخمسين وستمائة قطع هولاكو الفرات» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٢٩٠.

(٢) يكتبه ابن العماد الحنبلي «بوران شاه» شذرات الذهب ج٥، ص٢٩٠.

(٣) في الأصل «وتكونوا».

(٤) نزل هولاكو على حلب في ثاني صفر فلم يصبح على الآمنين الصباح إلا وقد حفر التتار عليهم خندقًا بعمق قامة وعرض أربعة أذرع وبنوا حائطًا ارتفاع خمسة أذرع ونصبوا عشرين منجنيقًا وألحوا بالرمي، وشرعوا في نقب السور، وفي تاسع صفر ركبوا للأسوار ووضعوا السيف يومهم ومن الغد واحتمى في حلب أماكن فيها نحو خمسين ألفًا واستتر خلق وقتل أمم لا يحصون وبقي القتل والسبي خمسة أيام ثم نودي برفع السيف وأذّن المؤذن يوم الجمعة بالجامع وأقيمت الجمعة بأناس ثم أحاطوا بالقلعة وحاصروها ووصل الخبر يوم السبت إلى دمشق فهرب الناصر، إلى نحو غزة» ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٩٠.

منها: دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين أخي مزدكين، ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلي، والخانقاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود. فقيل: إن الذين سلموا في هذه الأماكن يزيدون على خمسين ألف إنسان.

واستمر الحصار على القلعة والمضايقة لها نحو شهر، فوثب جماعة ممن بالقلعة على صفي الدين بن طرزة رئيس حلب وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما لأنهم توهموا أنهما باطنا التتار. ثم سأل من بالقلعة الأمان، فأمنوا، وتسلمها التتار في يوم الاثنين حادي عشر ربيع الأول من السنة. وأمر هولاكو من كان بالقلعة أن يعود كل منهم إلى داره وملكه وأن لا يعارض. ونزل العوام والغرباء إلى الأماكن التي أحميت بالفرمانات. وكان بقلعة حلب في الاعتقال جماعة من البحرية الصالحية الذين حبسهم الملك الناصر، منهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وسكز، وترامق، وغيرهم؛ فأخذهم وأضافهم إلى مقدم يسمى سلطان جق من أكابر القفجاق. وكان سلطان جق هذا قد هرب من التتار لما استولوا على بلاد القفجاق وقدم إلى حلب، فأكرمه الملك الناصر وأحسن إليه وأقام عنده، فلم توافقه البلاد فالتحق بهولاكو فأكرمه؛ هذا ما كان من أمر حلب.

وأما حماه[١] فإن صاحبها الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب كان قد فارقها وتوجه إلى دمشق، ترك بها الطواشي مرشد. فلما بلغه أخذ حلب فارق حماه، وتوجه إلى الملك المنصور بدمشق، فتوجه أكابر حماه بمفاتيحها إلى هولاكو. وسألوه الأمان لأهل البلد، وطلبوا منه شحنة يكون عندهم؛ فأمنهم وأرسل معهم شحنة من العجم اسمه خسرو شاه، كان يدعي أنه من ولد خالد بن الوليد، فقدم حماه وأقام بها وآمن أهلها. وكان بقلعة حماه مجاهد الدين قايماز أمير جاندار فسلم القلعة إليه. ودخل في طاعة التتار.

ووصل إلى هولاكو وهو على حلب جماعة منهم الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه وهو صاحب حمص، فأكرمه هولاكو وأعاد عليه حمص. وكان الملك الناصر قد أخذها منه في سنة ست وأربعين وعوضه عنها تل باشر[٢]، فأعادها

(١) يذكر الدواداري أن أهل حماه قد اختشوا لما ملك هلاوون (هولاكو) حلب، فسيّروا مفاتيح البلاد لهلاوون. انظر كنز الدرر رج٨، ص٤٦.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب وأهلها نصارى أرمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠.

هولاكو عليه الآن. ووصل إليه أيضًا من دمشق القاضي محيي الدين بن الزكمي فأقبل عليه هولاكو وخلع عليه وولاه قضاء الشام. ولما عاد ابن الزكي إلى دمشق لبس خلعة هولاكو، فكانت مذهبة، وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو.

ثم رحل هولاكو إلى حارم بعد أن ولى على حلب عماد الدين القزويني. فلما وصل إليها طلب تسليمها، فامتنع من بها أن يسلموها إلا إلى فخر الدين متولي قلعة حلب. فأحضره هولاكو فتسلمها، فغضب هولاكو وأمر بقتل من بها فقتلوا عن آخرهم وسبى النساء.

ذكر استيلاء التتار على دمشق

قال: وجرد هولاكو إلى دمشق مقدمًا يسمى السبان وصحبته علاء الدين الكازي وزين الدين الحافظي وزير الملك الناصر بحلب؛ وكان قد خدم هولاكو. وكان الملك الناصر قد فارق دمشق في منتصف صفر فوصل التتار إلى دمشق، وملكوا المدينة بالأمان، ولم يتعرضوا إلى قتل ولا إلى نهب. وعصيت القلعة عليهم فحاصرها التتار، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، وضايقوا القلعة ونصبوا عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى من السنة. ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها فتسلموها وخربوا قلعتها.

وجرد هولاكو إلى الشام كتبغا نوين في اثني عشر ألف فارس وأمره أن يقيم بالشام، فوصل إلى دمشق وهو الذي حاصر قلعتها وفتحها وقتل واليها بدر الدين بن قزمجاه[1]. ونقيبها. ونزل كتبغا بالمرج، وحضر إليه رسل الفرنج بالساحل، وأحضروا معهم التقادم، وحضر إليه أيضًا الملك الظاهر أخو الملك الناصر، وكان بصرخد فأقره على حاله.

ثم توجه كتبغا إلى عجلون فامتنعت عليه قلعتها، فحاصرها وأحضر إليه الملك الناصر وهو في حصار عجلون، فأمر من بالقلعة أن يسلموها إلى التتار فسلموها. وجهز كتبغا الملك الناصر إلى هولاكو فوصل إليه وهو بحلب فسأله عن عساكر الديار المصرية، فقال: «عساكر ضعيفة، وهم نفر قليل» وصغرهم عنده. وقال: «يكفيهم القليل من الجيش». فاقتصر هولاكو عند ذلك على كتبغا نوين ومن معه ولم يردفه بغيره.

---

(١) في الأصل: علاء الدين بن قزل. والتصحيح من المقريزي السلوك، ج١، ص٤٢٦.

وعاد هولاكو من حلب إلى بلاد قراقروم لطلب القانية لنفسه، فوجدها قد استقرت لأخيه قبلاي، كما قدمنا ذكر ذلك. ولما فارق حلب أمر عماد الدين القزويني في المسير إلى بغداد، ورتب مكانه رجلاً أعجميًا. وأمر هولاكو أن يخرب أسار قلعة حلب، وأسوار المدينة، فخربت عن آخرها. وأمر الملك الأشرف موسى صاحب حمص أن يتوجه إلى حماه ويخرب أسوارها وأسوار قلعتها، فوصل إلى حماه ونزل بدار المبارز وشرع في تخريب سور القلعة، فخربت أسوارها وأحرقت زردخاناتها، وبيعت الكتب التي بدار السلطنة بأبخس الأثمان، وسلمت أسوار المدينة، لأن حماه كان بها رجل يقال له إبراهيم بن الفرنجية كان ضامن الجهة المفردة، فبذل لخسرو شاه جملة كثيرة من المال وقال: إن الفرنج بالقرب منا، في حصن الأكراد، ومتى ضربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام بها. فأخذ منه المال وأبقى أسوار المدينة. ولم يزل خسرو شاه بمدينة حماه إلى أن انهزم التتار على عين جالوت[1] ففارقها وعاد إلى هولاكو.

وأما كتبغا نوين فإنه أرسل إلى الملك المظفر قطز صاحب الديار المصرية يطالبه ببذل الطاعة أو تعبية الضيافة، فقتل قطز رسله إلا صبيًا واحدًا فإنه استبقاه وأضافه إلى مماليكه. وتجهز وسار إلى لقاء التتار، فتجهز كتبغا لقتاله والتقوا بعين جالوت، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم التتار وأخذهم السيف والأسار، وقتل كتبغا نوين، وفرّ من بقي من أصحابه إلى هولاكو. ولما استقرت القانية لقبلاي، استقر لهولاكو ما نذكره.

ذكر الأقاليم التي استقرت في ملك هولاكو بعد وفاة منكوقان

منها:

إقليم خراسان: وكرسيه نيسابور ومن مدنه المشهورة طوس وهراة وترمذ ولحج ومرو. ويضاف إليه همذان ونسا وكنجة ونهاوند.

عراق العجم: وكرسيه أصفهان. ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وسجستان وطبرستان وكيلان وبلاد الإسماعيلية وغيرها.

عراق العرب: وكرسيه بغداد ومن مدنه واسط والكوفة والبصرة والدينور وغير ذلك.

---

(١) قتل يوم عين جالوت الملك كتبغا نوين رأس التتار، قتله آقوش الشمسي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٥.

أذربيجان: وكرسيها تبريز وهي توريز؛ ومن مدنها الأهواز وغيرها.

بلاد فارس: ومدينتها شيراز؛ ومن أعمالها كتشن وكرمان وكازرون والبحرين.

ديار بكر: وكرسيها الموصل ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار وأسغرد[١] ورأس العين ودنيسر وحران والرها وجزيرة ابن عمر وخرتبرت وملطية وسمياط وغيرها.

بلاد الروم: وكرسيها قونية وتشتمل البلاد الرومية على عدة أعمال منها: أرمينية الكبرى، ومن ملكها سمي شاه أرمن. ومن مدنها خلاط وأعمالها وان وسطان وأرجيس وما معها.

أرزن الروم وأعمالها: ومن مدنها شهر وبانوب وقجمار وتسمى دار الجلال.

مدينة أُلتى[٢] وأعمالها، وهي متصلة ببلاد الكرج وتخومها وهي ذات قلعة حصينة.

أرزنجان وأعمالها، ومن مدنها أقشهر ودرخان وكماج وقلعة كغونية وما مع ذلك.

سيواس وبلاد دانشمند وتسمى دار العلاء، ومن مدنها أماسيه وتوقات وقمنات وبلاد كنكر وبلاد أنكورية ومدينة سامسون وكستمونية وطرخلوا وبرلوا وهذه متصلة بسواحل البحر المحيط، وطنغزلوا وأعمالها وقرا حصار ودمرلوا وأقصرا وأنطاليا والعلايا.

ذكر مهلك هولاكو ونبذة من أخباره

كانت وفاته في تاسع عشر[٣] شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وستمائة[٤]

(١) أسغرد: هكذا في الأصل. وردت اسعرد وسعرت. في صبح الأعشى: القلقشندي، ج٧، ص٢٧٦.

(٢) أُلتى: بضم الهمزة: قلعة حصينة، ومدينة قرب تِفليس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٤٥.

(٣) ذكر الدواداري أن هلاوون (هولاكو) قد هلك في سابع ربيع الآخر بمرض الصرع، وكان يعتريه في كل يوم مرتين. كنز الدرر، ج٨، ص١١٤.

(٤) يقول ابن شاكر الكتبي إن هولاكو قد توفي بعلة الصرع وأخفوا موته، وصبّروه، وجعلوه في تابوت، وهلك هولاكو وله ستون سنة أو نحوها في سنة أربع وستين وستمائة. فوات الوفيات، ج٤، ص٢٤١ كذلك في النجوم الزاهرة ج٧، ص١٩٢ يقول ابن تغري بردي إنه توفي في سنة أربع وستين وستمائة.

بالقرب من كورة مراغة. وقيل إنه حمل إلى قلعة تلا[١] ودفن بها. وكانت مدة ملكه منذ فتح بغداد سبع سنين وشهورًا ومنذ وفاة أخيه منكوقان واستقلاله بالملك خمس سنين.

وكان لهولاكو أحكام غريبة منها ما حكي عنه أن قومًا أتوه واستغاثوا أن بعض صناع المبارد قتل قرابة لهم، وسألوه أن يمكنهم منه ليقتلوه بصاحبهم فسأل عن صناع المبارد وكم عدتهم، فذكر له عدة يسيرة فأطرق ساعة ورفع رأسه إلى أولياء المقتول، وأمرهم أن يقتلوا بصاحبهم بعض صناع البرادع والرحال، فقالوا: إن الذي قتل صاحبنا مباردي ولا يقتل به غيره. فسأله بعض خواصه عن ذلك فقال: إن صناع المبارد عندنا قليل ومتى قتلناه احتجنا إليه، ولا يقوم غيره مقامه، وصناع البرادع والرحال كثير، ومن قتلناه منهم استغنينا عنه. فلما امتنع أولياء المقتول من ذلك أطلق لهم بقرة وقال: خذوا هذه بدلاً من صاحبكم.

ومنها أن بعض الصناع الزراكشة تخاصم مع رجل فضربه ضربة أصابت إحدى عينيه فزالت، فجاء إلى هولاكو واستغاث على الزركشي أنه قلع عينه، فأمره أن يقلع عين أحد صناع النشاب. فقيل له عن ذلك فقال: إن الزركشي يحتاج إلى عينيه ومتى قلعت إحداهما تضرر، والنشابي لا يحتاج إلا إلى عين واحدة فإنه إذا قوم السهم غلق إحدى عينيه ونظر بالأخرى، وما أشبه هذه الأحكام. ولهولاكو وقائع من هذا الجنس أضربنا عن ذكرها.

وكان له من الأولاد الذكور خمسة عشر[٢] وهم جمغار وهو أكبرهم سنًا، وأباقا وهو أبغا[٣] وهو الذي ملك بعده. ويصمت[٤]، وتشتشين[٥] وبكشى[٦] وتكدار[٧]

---

(١) جدد هولاكو قلعة شاها، سميت بقلعة تلا في بحيرة أورمية، وفيها أمواله ومما نهبه من بغداد وأقاليم الخلافة. وأصبحت هذه القلعة مدفنًا له. وتعرف بالفارسية باسم كور قلعة (القبر). لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص١٩٥.

(٢) «وخلف من الأولاد الذكور سبعة عشر ولدًا» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص١٩٣.

(٣) ويرد أباغا ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص١٩٣ حاشية ٣.

(٤) ويرد أشموط ويشموت: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص١٩٣.

(٥) يرد تشين وتوسين، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص١٩٣.

(٦) يرد تكش وبيكين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٣.

(٧) يكتبه ابن تغري بردي أحمد نكودار. في النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٣، حاشية رقم ١٠.

ـ وهو أحمد وملك بعد أبغا ـ وأجاي، وألاجو[١]، وسبوجي[٢]، ويشودار[٣]، ومنكوتمر[٤]، وقنغرطاي[٥]، وطرغاي و«طغاي تمر»[٦] وهو أصغرهم. ولما مات هولاكو ملك بعده أبغا.

ذكر ملك أبغا بن هولاكو بن تولي خان ابن جنكزخان

وهو الثاني من ملوك هذا البيت جلس على كرسي المملكة بعد وفاة أبيه هولاكو في تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وستمائة. فأول ما بدأ به أن جهز جيشًا لحرب عساكر بركة ملك البلاد الشمالية، فتوجه العسكر والتقى مع عساكر بركة، فكانت الهزيمة على أصحاب أبغا كما شرحنا ذلك في أخبار بركة، وهي الوقعة الثانية بين عسكريهما.

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقع بين أبغا وبين ابن عمه تكدار[٧] بن موجي بن جغطاي بن جنكزخان. وكان تكدار مقدمًا على ثلاثين ألفًا، وهو مقيم ببلاد كرجستان، فكاتب قيدو وقصد الاتفاق معه على أبغا، فوقعت الكتب في يد أبغا فطلب عساكره المتفرقة من الروم وغيرها وقصد تكدار، فانهزم والتجأ إلى بلاد الكرج بمن معه، فمنعه صاحبها الملك كركيس من دخولها، فأوى إلى جبل من جبالها هو ومن معه، فأكلت خيولهم من عشبه وكان فيه حشيشة مضرة بالدواب، فنفقت خيولهم، فطلبوا الأمان من أبغا فأمنهم فنزلوا إليه، ففرّق أصحاب تكدار في جيوشه، ورسم لتكدار أن لا يركب فرسًا قارحًا ولا جذعًا[٨] إلا مهرًا صغيرًا، وأن لا يمس

(١) يكتب هولاجو. انظر جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول ص٢٢٦.

(٢) يكتبه رشيد الدين سياوجي أو شيبا دجى. انظر جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، الترجمة العربية، ص٢٢٩.

(٣) يرسمه رشيد الدين بيسودار، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) ويرد منكوتيمور، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٣ حاشية رقم ٨.

(٥) يكتبه رشيد الدين قو نقرتاي. انظر جامع التواريخ، الملجد الثاني الجزء الأول. الترجمة العربية ص٢٢٩.

(٦) ويرد طغاي تيمور. وتغاي تمر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٣ حاشية ٩.

(٧) ويكتب نكودار أو نكودار. انظر جامع التواريخ رشيد الدين الهمذاني الملجد ٢ ج١، ص٢٠٧.

(٨) الفرس القارح: الناقة أول ما تحمل وقيل: إذا تم حملها فهي قارح، ابن منظور: لسان العرب، (قرح) أما الجذع: الصغير السن، وأما الجذع في الخيل: إذا استتم الفرس سنتين ودخل في الثالثة، فهو جذع، ابن منظور: لسان العرب (جذع).

بيده قوسًا. فبقي كذلك حتى مات، حتى أن ولدًا له صغيرًا أحضر إليه قوسه ليوتره له، فامتنع وقال: ما أقدر أمس القوس بيدي لأجل مرسوم أبغا.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة وقع المصاف الكائن بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس[١] وبين المغل أصحاب أبغا، ومعهم العسكر الرومي بالبلستين[٢] من بلاد الروم. فكانت الهزيمة على المغل وعساكر الروم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار دولة الترك في أيام الملك الظاهر. وقتل وأسر من المغل في هذا المصاف خلق كثير، وقيل أيضًا وأسر من عسكر الروم. فلما اتصلت هذه الوقعة بأبغا جاء إلى موضع المصاف وشاهد القتلى، فاستعظم قتْل المغل وأسْرهم؛ وجاءه أيبك الشيخ أحد أمراء الملك الظاهر ـ وكان قد هرب ـ أطلعه على أن البرواناه ـ وهو المتحكم في الروم نيابة عن الملوك السلجقية ـ كاتب الملك الظاهر، وحثه على قصد الروم، فنقم أبغا على البرواناه وأكد ذلك عنده أنه وجد القتلى من المغل وليس من الروم إلا القليل، فأمر عند ذلك بنهب بلاد الروم، وقتل من بها من المسلمين، فتفرقت عساكره تقتل وتنهب المسلمين خاصة سبعة أيام، ووكل أبغا بالبرواناه من يحفظه من حيث لم يشعر بذلك.

ثم سار إلى أرزنكان[٣] فاشتراها؛ واعتد ثمنها من الإتاوة التي على بلاد الروم، وأخذ في استرجاع قلاع الروم. فلما وصل إلى قلعة بابرت[٤]، خرج إليه شيخ منها، وقال له: «أريد أمان القان لأتكلم بين يديه» فقال: «قل ولك الأمان» فقال: «إن عدوك حضر إلى بلادك ولم يتعرض إلى رعيتك، ولا أسأل لهم محجمة دم، وأنت قصدت العدو وجئت في طلبه، فلما فاتك قتلت رعيتك ونهبت بلادهم وخربتها. فمن هو من الخانات الذين تقدموك من أسلافك فعل مثل هذا الفعل وسن هذه السنة؟» فأنكر أبغا عند ذلك على الأمراء الذين أشاروا عليه بذلكٰ وأمر بإطلاق الأسرى المسلمين، فأطلقوا، وكانوا أربعمائة ألف أسير، وعاد إلى الأردو.

---

(١) هو السلطان الملك القاهر، الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس. ولد سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م. وتوفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م.
ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٨٦ ـ ٦٧٠. معجم زامباور ص١٦٢، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٥، ص٣٥٠.

(٢) أبُلُستين: بالفتح ثم الضم، ولام مضمومة أيضًا، هي مدينة مشهورة ببلاد الروم بآسيا الصغرى، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٧٥.

(٣) أرزنجان: بالفتح ثم السكون، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف، بلدة طيبة كثيرة الخيرات من بلاد أرمينية قريبة من أرزن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٥٠.

(٤) بابرت: بكسر الباء الثانية: قرية كبيرة ومدينة حسنة من نواحي أرزن الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٠٧.

ذكر قتل سليمان البرواناه[(١)]

قال: ولما وصل أبغا إلى الأردو استشار في أمر البرواناه، فطائفة أشارت بقتله، وطائفة أشارت بإبقائه، فهمّ بإعادته إلى الروم. فتجمع نساء من قتل من المغل ونحن وبكين، فسمعهن أبغا وسأل عن شأنهن، فقيل إنهن بلغهن أن القان يريد إطلاق البرواناه، فهن يبكين على أهلهن وأزواجهن. فعند ذلك أمر أبغا كوكجي بهادر - وهو من أمرائه - أن يأخذ البرواناه ويتوجه به إلى موضع عيّنه له فيقتله. فاستدعى البرواناه وقال: إن أبغا يريد أن يركب، ورسم أن تركب أنت وأصحابك معه، فركب في اثنين وثلاثين نفرًا من مماليكه وألزامه، وتوجه مع كوكجي، فأخذ به نحو البر ومعه مائتا[(٢)] فارس. فلما انتهوا إلى المكان المعين أحاط به فسأل المهلة أن يصلي ركعتين، فأمهله. فلما قضى صلاته قتله وقتل من معه. ولما بلغ من بقي من مماليك البرواناه قتل صاحبهم تجمعوا وفيهم سنجر البرواني، وبكتوت أمير أخور، وأوْتروا قسيّهم ونكثوا نشابهم، وقالوا: نموت كرامًا. فطولع أبغا بخبرهم فشكرهم على ذلك وأعادهم إلى الروم. وكان مقتل البرواناه في آخر صفر[(٣)] سنة ست وسبعين وستمائة.

وفي سنة ثمانين وستمائة في رابع عشر شهر رجب انهزم التتار أصحاب أبغا الذين حضروا مع جهته إلى الشام والتقوا مع السلطان الملك المنصور قلاوون، وكانوا صحبة منكوتمر بن هولاكو. وكان أبغا قد نازل الرحبة ثم جرد هؤلاء وعاد إلى الأردو، ووصل منكوتمر بمن معه إلى حمص، والتقوا هم والعساكر الإسلامية. فاستظهر التتار في مبادىء الوقعة فانهزمت ميسرة الملك المنصور، وما شك التتار في الظفر، ونزلوا وأكلوا الطعام. ثم كانت الدائرة عليهم فانهزموا أقبح هزيمة على ما نبينه في أخبار السلطان الملك المنصور. وأما منكوتمر بن هولاكو فإن الهزيمة استمرت به إلى جزيرة ابن عمر، فلما وصل إليها مات. وقيل إن علاء الدين الجويني صاحب

---

(١) هو معين الدين سليمان بن علي الملقب بالبرواناه، وزر أبوه لصاحب الروم علاء الدين كيقباذ ولولده فلما مات ولي الوزارة بعد معين الدين هذا سنة بضع وأربعين وستمائة، فلما غلبت التتار على الروم ساس الأمور وصانع التتار وتمكن من الممالك بقوى إقدامه وقوة دهائه إلى أن دخل المسلمون وحكموا على مملكة الروم ونسب إلى البرواناه مكاتيبهم. ابن تغري بردي: شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٢.

(٢) في الأصل «مائتي».

(٣) «قتله أيضًا في المحرم من سنة ٦٧٦هـ» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٥٢.

الديوان كان قد عزم على اغتياله واغتيال أبغا ونقْل الملك عنه، فكتب إلى مؤمن أغَا شحنة الجزيرة يأمره أن يتحيل على منكوتمر ويقتله، فسقاه مؤمن سمًا فمات. ولما مات هرب مؤمن الشحنة من الجزيرة، وعلم أصحاب منكوتمر بأمره فطلبوه فلم يدركوه، فقتلوا نساءه وأولاده. وتوجه مؤمن إلى الديار المصرية ومعه ولداه فأعطوا بها أقطاعًا، وحمل منكوتمر إلى قلعة تلا فدفن بها.

وفي سنة ثمانين وستمائة أيضًا كانت وفاة علاء الدين الجويني[١] صاحب الديوان. وكان قد تمكن في دولة التتار تمكنًا عظيمًا بسبب أخيه الصاحب شمس الدين، فإنه كان المشار إليه. ثم نقم عليه أبغا لما توهم أنه واطأ المسلمين، واستصفى أمواله. ثم مات بعراق العجم وولي بعده ولد أخيه هارون بن الصاحب شمس الدين.

ذكر وفاة أبغا بن هولاكو

كانت وفاته في أوائل المحرم سنة إحدى وثمانين وستمائة[٢]. وكان سبب موته أن الصاحب شمس الدين محمد الجويني صاحب الديوان كان إليه التصرف في الأموال، وكانت تحمل إليه من سائر بلاد التتار، وتصرف بقلمه، فخاف غائلة أبغا، فتحيّل في قتله، ودس إليه من سقاه سمًّا، فمات. وقيل إنه منذ انكسرت جيوشه على حمص أخذ حاله في النقص، ثم أتاه الخبر أن الخزائن التي جمعها هولاكو وكانت ببرج بقلعة في وسط البحر فسقط البرج بجميع ما فيه من الأموال والذخائر والجواهر في البحر. ثم دخل الحمام وخرج فسمع أصوات الغربان، فقال لمن حوله: إنني أسمع هذه الغربان تقول: «أبغا مات»، وركب فعوت كلاب الصيد في وجهه، فتشاءم بذلك. ولم يلبث أن مات في التاريخ، وقيل في نصف ذي الحجة سنة ثمانين وستمائة.

وخلف من الأولاد أرغون، وكيختو[٣]. ومات أخوه أجاي بعده بيومين.

---

(١) توفي علاء الدين الجويني سنة ٦٨١هـ في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج٢، ص٤٥٢، وسنة ٦٨٣هـ في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج٥، ص٣٨٢.

(٢) كانت وفاته سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م. في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٧٧. كذلك في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٢٩٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٣٦٦.

(٣) يرسمه حافظ حمدي «جيخاتو» الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٧٧.

ذكر ملك توكدار بن هولاكو
وهو المسمى أحمد سلطان، وهو الثالث من ملوك هذا البيت

كان جلوسه على كرسي المملكة بعد وفاة أخيه أبغا في المحرم سنة إحدى وثمانين وستمائة[١]. وذلك أن أبغا لما مات كان ولده الأكبر أرغون بخراسان. وكان كيختو عنده بالأردو فاجتمع الأمراء ليقع اتفاقهم على من يجلس مكان أبغا. وكان بعض المغل يختار توكدار[٢] لأنه كان قد استمالهم إليه، فاجتمع رأيهم عليه. فجلس على كرسي المملكة، وأرسل أخاه قنغرطاي يقول لأرغون ابن أخيه أبغا: «إن الشرط في الياسا أنه إذا مات ملك لا يجلس عوضه إلا الأكبر من أهل بيته، وهذا عمك أحمد هو الأكبر، وقد أجلسناه، ومن خالف يموت» فأطاعوه.

ولما جلس كان أول ما بدأ به أنه أظهر دين الإسلام وأشاعه، وكتب إلى بغداد كتابًا، نسخته بعد البسملة: «إنا جلسنا على كرسي الملك، ونحن مسلمون، فتبلغون أهل بغداد هذه البشرى، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البر ما كان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين، ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية. وأنتم يا أهل بغداد مسلمون، وسمعنا عن النبي ﷺ أنه قال: لا تزال هذه العصابة الإسلامية مستظهرة ظافرة إلى يوم القيامة. وقد عرفنا أن هذا خبر صحيح ورسول صحيح. رب واحد. أحد. فرد. صمد. فتطيبون قلوبكم وتكتبون إلى جميع البلاد» وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاوون[٣] يعلمه بإسلامه.

واستولى على السلطان أحمد وعلى دولته الشيخ عبد الرحمٰن، وأصله من الموصل، وكان مملوكًا؛ ويقال له عبد الرحمٰن النجار، وأظهر للمغل المخاريق والخيل، وأخذ في إفساد ما بين السلطان أحمد وبين أهله، وقصد بذلك الاستبداد،

(١) «سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م» في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٧.

(٢) اسمه تكودار أحمد، أسلم وهو صبي مات وله بضع وعشرون سنة وكان قليل الشر مائلًا إلى الخير. توفي سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٣٨١. انظر أيضًا الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٧.

(٣) هو قلاوون الألفي (٦٢٠هـ - ٦٨٩هـ)، (١٢٢٣م - ١٢٩٠م) أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك. مدة ملكه ١١ سنة و٣ أشهر. أخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٢٩٢، وفيات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج٢، ص١٣٣، والأعلام للزركلي ج٥، ص٢٠٣.

وعظم أمره، وتحدث في سائر الأوقاف، ومال إليه أبناء المغل. وانتهى من أمره أن أحمد سلطان كان يقف في خدمته، ويقتدي بما يقول، وركب بالخبز والسلاح دارية. وحضر عبد الرحمٰن هذا في رسلية إلى السلطان الملك المنصور (قلاوون)، فقتل أحمد في غيبته، فأقام هو بالشام، ومات به، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار الملك المنصور.

ذكر ما اتفق بين توكدار وبين أرغون ابن أخيه أبغا

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة سار أرغون بن أبغا من خراسان لقتال عمه توكدار، فجرد إليه عمه جيوشًا صحبة الناق نائبه، فكبسهم أرغون وهم على غير استعداد، فقتل منهم جماعة. فركب أحمد سلطان في أربعين ألف فارس وسار لقصد أرغون، وأسره من غير حرب، وعاد إلى تبريز. فجاءت زوجة أرغون وخواتين كثيرة من النساء اللواتي لهن الدخول على أحمد، وسألته العفو عن أرغون وإطلاق سبيله والاقتصار به على خراسان. فلما أجاب إلى ذلك ـ وكان أحمد قد أمسك من أكابر أمراء المغل اثني عشر أميرًا وقيدهم وأهانهم ـ فتغيرت خواطر الأمراء عليه وعزموا على قتله.

ذكر مقتل توكدار بن هولاكو

كان مقتله في سنة اثنتين وثمانين وستمائة[1]. وذلك أنه لما أسر أرغون ابن أخيه أبغا، وكل به يحفظه. واتفق تشويش خواطر المغل عليه من أسباب: منها إساءته إلى أكابرهم؛ ومنها ما ألزمهم به من الدخول في دين الإسلام طوعًا أو كرهًا؛ ومنها وثوبه على أخيه قنغرطاي وإحضاره من الروم وقتله؛ وغير ذلك مما نقل عنه في ميله إلى أبناء المغل والخلوة بهم، وهو أمر لم يألفوه قبله. فأجمعوا على قتله، وإقامة أرغون. وكان من جملة الأمراء ثلاثة وهم بغا وأروق ـ وهما أخوان ـ وقرمشي بن هندغون، فتوجهوا إلى ججكب وشكوا إليه ما يلقون من أحمد، وعرفوه ما عزموا عليه، فوافقهم ججكب، واتفقوا جميعًا. وجاؤوا إلى المكان الذي فيه أرغون تحت التوكيل، فأطلقوه وكبسوا الناق نائب أحمد فقتلوه؛ وقصدوا الأردو، فأحسّ بهم أحمد فركب فرسًا وانهزم فأدركوه وقتلوه وأقاموا أرغون.

---

(١) كان مقتله في سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٧٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٥، ص٣٨١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص٣٠٦.

ذكر ملك أرغون بن أبغا بن هولاكو ابن تولي خان بن جنكزخان، وهو الرابع من ملوك هذا البيت

كان جلوسه على كرسي المملكة في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين[١] وذلك أن الأمراء لما أطلقوه من توكيل عمه توكدار وفرّ توكدار، أجلسوه على كرسي السلطنة. وساق المغل خلفه وكان قد هرب هو وصاحب الديوان شمس الدين، فأدركوا توكدار وقبضوا عليه، وأحضروه إلى أرغون فقتل بين يديه. وأما شمس الدين صاحب الديوان، فإن أرغون اتهمه أنه دبر على أبيه[٢] أبغا وعمه منكوتمر حتى ماتا، وأخرج الملك منه إلى عمه أحمد، فطلبه ففر منه ولجأ إلى بعض القلاع، فأُخذ وجيء به إليه، فقتله صبرًا، وأرسل كل قطعة منه إلى مكان من بلاده، واستناب أرغون (الأمير) أبغا ـ أحد الأمراء الثلاثة الذين اتفقوا على إقامته ـ ثم أوقع به بعد مدة يسيرة وبالأميرين الآخرين، واستناب طاجار[٣]، ودس على ججكب جوشكاب من سقاه سمًا فمات. وقتل غياث الدين كيخسرو صاحب الروم لتوهمه أنه واطأ[٤] عمه أحمد على قتل عمه قنغرطاي، وكان قنغرطاي قد أقام ببلاد الروم من أيام أبغا، وقرر أرغون أن بيدو يحكم على إقليم بغداد، وأولاجو يحكم على إقليم الروم، وترك ولديه غازان وخربندا بخراسان، ووكل أمرهما إلى نيروز[٥]، وجعله أتابكهما، واستوزر سعد الدولة اليهودي، وأصله من أبهر من كور عراق العجم. وكان سعد الدولة في أول أمره يشتغل بالطب، فتميز وانتقل إلى أن ترشح للوزارة.

وأحسن أرغون إلى والدة عمه أحمد وهي قوتوي خاتون[٦]، وأبقى عليها بلادها التي كانت لها في زمن ابنها وهي طوبان، وميّافارقين. ودامت أيامه إلى سنة تسعين[٧] وستمائة فمات حتف أنفه في شهر ربيع الأول منها على شاطىء نهر الكُر[٨] من بلاد

---

(١) يذكر حافظ حمدي أن جلوسه على كرسي المملكة كان في سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م. الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٧٧. انظر أيضًا جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص١٢٦ وفيه أن جلوسه كان في ٢٧ جمادى الأولى سنة ٦٨٣هـ.

(٢) في الأصل «أخيه» والصواب أبيه.

(٣) ورد في جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني المجلد الثاني الجزء الثاني، ص١٤٢ «طغاجار».

(٤) في الأصل «واطىء».

(٥) وتكتب أيضًا نوروز.

(٦) في الأصل «قتوخان».

(٧) في الأصل «سبعين» والصواب تسعين. انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٧٧.

(٨) نهر الكُر: بضم الكاف وتشديد الراء. نهر بين أرمينية وأران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥١.

أران. وقيل إنه مات مغتالاً بسم. وقيل إنه كان يدين بدين البخشيّة وهي الطائفة المشهورة بعبادة الأصنام. وكان يجلس في السنة أربعين يومًا في خلوة، ويتجنب أكل لحوم الحيوان. فوفد عليه رجل من الهند يزعم أنه يعلم علم الأديان والأبدان، وأوحى إليه أنه يتخذ له معجونًا، من داوم مناولته طالت حياته، وركب له. فتناول منه فأوجب له انحرافًا وصرعًا، فمات وملك بعده أخوه كيخاتو.

ذكر ملك كيخاتو[١] بن أبغا بن هولاكو وهو الخامس من ملوك هذا البيت

جلس على كرسي المملكة بعد وفاة أخيه أرغون في شهر ربيع الأول سنة تسعين وستمائة. وذلك أن أرغون لما مات كان له من الأولاد غازان وخربندا؛ وكانا بخراسان، فاجتمع الأمراء وأرباب الرأي على إقامة كيخاتو فأقاموه في المملكة.

فلما استقر حكمه ونفذ أمره أساء السيرة، وخرج عن الياسا المقررة، وأفحش في الفسق، وتعرض إلى نسوان المغل وأولادهم الذكور. وتمادى على ذلك فاجتمعوا وشكوا ذلك إلى بيدو ابن عمه، فوثب به بيدو بن طرغاي[٢] وبشتاي وصنجك، فعلم بهم فهرب من الأردو إلى نحو كرخستان[٣]، فقتل بمقام سلاسوار من أعمال موغان، في شهر ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وستمائة[٤].

ذكر ملك بيدو بن طرغاي بن هولاكو بن تولي خان ابن جنكزخان، وهو السادس من ملوك هذا البيت

جلس على كرسي المملكة في جمادى الأولى سنة أربع وتسعين وستمائة بعد

(١) ملك في الفترة ما بين سنة ٦٩٠ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٥م حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ص٢٧٧.

(٢) في الأصل بيدو وطرغاي. والتصحيح من جامع التواريخ المجلد الثاني، الجزء الأول، الترجمة العربية، ص٢٢٦.

(٣) هكذا في الأصل، وهي محرفة عن كرجستان أي جورجيا وتفليس قصبتها وتقع في أعالي نهر الكر. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية ٢١٦.

(٤) قتل في يوم الخميس ٦ من جمادى الأولى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م انظر جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٢٢٦.

مقتل كيخاتو. ولما ملك كان غازان بن أرغون بخراسان وصحبته أتابكه نيروز، فحسن له قصد بيدو وانتزاع المملكة منه. فجمعا وحشدا وحضرا من خراسان، وسار بيدو بعساكره إليهما. فلما تراءى الجمعان تبين لغازان أن جمعه لا يقوم بمن مع بيدو، فراسله واتفقا على الصلح وعاد غازان إلى خراسان. وأقام نيروز عند بيدو، فإنه منعه من الرجوع مع غازان لئلا يتفقا على حربه مرة ثانية.

فأعمل نيروز الفكرة واغتنم الفرصة في مدة إقامته عند بيدو. واستمال جماعة من الأمراء لغازان واستوثق منهم أنه متى دنا منهم انحازوا إليه وفارقوا بيدو. فلما استوثق منه أعلم غازان بأمرهم فتجهز للمسير من خراسان وبلغ بيدو خبره فأوجس منه خيفة، وذكر ذلك لنيروز، فقال: «أنا أكفيك أمره وأدفعه عن قصدك، ومتى توجهت إليه ثنيت عزمه، وأرسلته إليك مربوطًا» فاستحلفه بيدو أنه لا يخون ثم جهزه. فسار إلى غازان وأخبره بما اتفق عليه الأمراء وتعاضدا وخرجا معه لقصد بيدو، وأرسل إليه نيروز قِدرًا مربوطًا في عدل، وقال: «قد وفيت بما قلت لك وأرسلت قازان إليك» ومعنى قازان في لغتهم القدر، فغضب بيدو لهذه الرسالة وتحقق أنه خدعه ومكر به، وسار بيدو للقائهما. فلما التقى الجمعان بنواحي همذان، انحاز الأمراء الذين وافقوا نيروز إلى جهة غازان، فقوي بهم وضعف بيدو وهرب، فأدركوه بنواحي همذان، وقتلوه في ذي الحجة من السنة، فكانت مدة ملكه نحو سبعة أشهر.

ذكر ملك غازان(١) بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ابن تولي خان بن جنكزخان وهو السابع من ملوك هذا البيت

جلس على كرسي المملكة بعد مقتل بيدو ابن عم أبيه في ذي الحجة سنة أربع

(١) ويرد أيضًا قازان وقيل القان إيل خان معز الدين قازان.

ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٨، ص٩٤ ـ ٩٦. والدولة الخوارزمية لحافظ حمدي ص٢٧٧. والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص١٤٢ ـ ١٤٣.

وكان أول عمل قام به بعد إسلامه هو أنه أعلن الإسلام دينًا رسميًا للدولة المغولية في إيران، كما غيّر المغول زيّهم ولبسوا العمامة كشارة ملموسة لهذا الانقلاب. ثم أصدر غازان أمره بتدمير الكنائس المسيحية واليهودية وحطمت كذلك الهياكل والأصنام البوذية وأجبر البوذيون على الدخول في الإسلام. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨، ص٦٠ حاشية ١. والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم ص١٣١ ـ ١٣٢. ومؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني لفؤاد عبد المعطي الصياد ص١٣١ ـ ١٣٢.

وتسعين وستمائة. وترك أخاه خربندا بخراسان واستقر نيروز أتابك العسكر ومدبر المملكة.

وفي سنة خمس وتسعين وستمائة فارقت الطائفة الأويراتية بلاد التتار، وحضروا إلى الديار المصرية والشام، والتجأوا إلى الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، وكانوا زهاء ثمانية عشر ألف بيتًا ومقدمهم طرغاي، وسنذكر أخبارهم في دولة الترك في الأيام العادلية، وكان سبب هربه أن مقدمهم طرغاي كان ممن وافق بيدو على قتل كيخاتو، فلما صار الملك إلى غازان خافه طرغاي على نفسه، فهرب هو ومن انضاف إليه.

وفي سنة سبع وتسعين وستمائة حضر إلى غازان جماعة من النواب بالممالك الإسلامية والأمراء، وهم: الأمير سيف الدين قفجاق[١] نائب الشام، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار المعروف بالسلاحدار، والأمير فارس الدين البكي الساقي نائب المملكة الصفدية، والأمير سيف الدين بوزلار، والأمير سيف الدين عزاز الصالحي، والتحقا به للسبب الذي نذكره إن شاء الله في أخبار الملك المنصور لاجين المنصوري.

وفيها قتل غازان أتابكه نيروز وسبب ذلك أن نيروز أحس بما أضمر له غازان من قتله، فكاتب الملك المنصور لاجين، والتمس منه أن يجرد عسكرًا ليساعده على الحضور إلى أبوابه، فوقعت الأجوبة في يد غازان، فأحضره وقتله. وقتل أخويه فيما بعد، وقتل الذي وصل إليه بالأجوبة من الديار المصرية. ورتب قطلوشا في نيابته عوضًا عن نيروز.

وفيها أيضًا فارق سلامش[٢] بن أفاك بن بيجو وأخوه قطقطو بلاد التتار إلى الديار المصرية وكان سلامش معدمًا على التمان ببلاد الروم. فلما وصل إلى الديار المصرية خيره الملك المنصور لاجين في المقام بمصر أو الشام، فسأله أن يجرد معه عسكرًا ليخلص أهله من الروم، فجرد معه طائفة من العسكر بحلب. فلما قاربوا بلاد الروم ظفر بهم التتار وأخذوا عليهم المضايق ففر سلامش، والتجأ إلى قلعة من قلاع الروم، ثم أحضر إلى غازان فقتله، واستقر قطقطو بمصر.

---

(١) تكتب أيضًا قبجق. وهو الذي شجع غازان على الاستمرار في المعركة وقيل إن هدف قبجق من ذلك هو أن يدفع غازان إلى الهزيمة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٨، ص٩٨ حاشية ١.

(٢) يكتب أيضًا سلامش بن أباجو. كان سلامش يرى أنه أحق بالملك من غازان لأنه أقرب في النسب إلى جنكزخان وعلى هذا كوّن جيشًا بلغ عدده عشرة آلاف جندي وطلب من المنصور لاجين قبل وفاته يطلب نجدته ومساعدته على قتال غازان. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨، ص٩٥.

ذكر مسير غازان إلى الشام ووقعة مجمع المروج واستيلائه على البلاد الشامية وعوده عنها

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة توجه غازان بعساكره وجموعه ومن انضم إليه من الكرج والأرمن وصحبته الأمراء والنواب الذين التحقوا به من الديار المصرية والشام، وسار بهم حتى قطع الفرات وانتهى إلى حلب، وتقدم إلى مجمع المروج بالقرب من حمص. وجاء السلطان الملك الناصر[١] بعساكره والتقوا في يوم الأربعاء ثامن وعشرين شهر ربيع الأول من هذه السنة، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت ميمنة التتار هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير، فاعتزل غازان في نحو ثلاثين فارسًا واعتد للهزيمة. ثم ركب من التتار من لم يشهد الوقعة، وحملوا على ميسرة الملك الناصر، فانهزمت وكانت الكسرة. وعاد الملك الناصر إلى الديار المصرية. وكانت القتلى من جيش غازان أضعاف من قتل من العساكر الإسلامية، والنصر لهم.

ولما عاين غازان من قتل من عساكره ورأى الهزيمة ظنها مكيدة فتوقف عن اتباع من انهزم. ثم سار إلى حمص وبها الخزائن السلطانية فسلمها إليه والي حمص من غير ممانعة، وأخرج إليه مفاتيح البلد فتسلمها، وأمن أهلها. ورحل منها إلى دمشق ونزل بالغوطة وهي أحد مستنزهات الدنيا الأربعة، وخرج إليه أكابر دمشق بالتقادم والتحف والهدايا. وتعرض من في عسكره من الأرمن إلى المدارس والمساجد والجامع بجبل الصالحية وخربوه وحرقوه. ورتب الأمير سيف الدين قفجاق لتحصيل الأموال من الدماشقة، فأخذ في جبايتها فجبى من الأموال ما لا يحصى كثرة. ورسم بمحاصرة القلعة فحوصرت وبها الأمير علم الدين سنجر أرجواش المنصوري فحفظها فلم يتمكن غازان منها ولما اشتد الحصار خشي أرجواش أن يتمكن التتار من القلعة بما حولها من البنيان، فهدمه جميعه، فكان من جملة ما هدم دار السعادة وهي الدار التي يسكنها نواب السلطنة؛ ودار الحديث الأشرفية، والمدرسة العادلية، ودار تعرف بالزين الحافظي، وطواحين باب الفرج، وغير ذلك مما جاور القلعة. وجاء رجل

---

(١) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان المماليك.

ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨، ص٣٥، و٩٣، وفوات الوفيات، ج٤، ص٣٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج٦، ص١٣٤، وخطط المقريزي ج٢، ص٢٣٩.

منجنيقي فالتزم لغازان بأخذ القلعة، وقرر أن ينصب المجانيق عليها في جامع دمشق، فأجمع أرجواش رأيه أنه متى نصبت المجانيق بالجامع رمى عليها بمجانيق القلعة. وكان ذلك يؤدي إلى هدم الجامع، فانتُدب رجال من أهل القلعة بعد أن تهيأت أعواد المجانيق ولم يبق إلا رميها وخرجوا بحمية الإيمان، وهجموا الجامع ومعهم المياسير، فأفندوا ما رتبه التتار وهيؤوه من أعواد المجانيق، ثم جددوا غيرها واحترزوا عليها. فانتدب رجل من أهل القلعة، وبذل نفسه والتزم بقتل المنجنيقي، وخرج إلى الجامع والمنجنيقي بين المغل، فتقدم إليه وضربه بسكين فقتله، وهجم رجال القلعة فنفرت الناس عن القاتل وحماه أصحابه فجاء إلى القلعة وبطل ما دبروه من عمل المجانيق ونصبها على القلعة.

وكتب غازان إلى سائر نواب القلاع والحصون الشامية والساحلية في تسليمها فما أجابه أحد إلى تسليم ما بيده، وتربصوا ثقة بالله تعالى ثم بالعساكر الإسلامية أنها لا تتأخر عن دفع غازان. وتقدم بكتابة الفرمانات(١)، وابتدأها بقوله بعد البسملة: بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية، وأظهر فيها شعائر الإسلام واتباع السنة. هذا وأفعاله تناقض أفعاله لأنه رضي بما فعله الأرمن من الفساد. ثم رتب الأمير سيف الدين قفجاق قبجق في النيابة عنه بالشام، ورتب الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار في النيابة بالممالك الحلبية والحموية وحمص، ورتب الأمير فارس الدين البكي الساقي في النيابة بالممالك الطرابلسية والصفدية والفتوحات والساحل، وجعل الأمير يحيى بن جلال الدين على جباية الأموال، ومرجع نواب الممالك إليه، وجرد من عسكره عشرين ألف فارس صحبة بولاي وانشقا وججك وهولاجو، فنزلوا الأغوار، وشنوا الغارات، فانتهت غاراتهم إلى القدس وبلد الجبل ونابلس ووصلوا إلى غزة، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفرًا.

ورحل غازان عائدًا إلى الشرق في منتصف جمادى الأولى، وترك نائبه قطلوشاه يحاصر قلعة دمشق، فحصرها أيامًا فلم يتمكن منها، فجبى له قفجاق من أهل المدينة مالاً فأخذه وتوجه إلى غازان. ثم لم يلبث بولاي ومن معه من التتار إلا قليلاً، وتوجهوا إلى بعلبك والبقاع فأغاروا عليها ورجعوا إلى الشرق في ثامن شهر رجب من هذه السنة، لما بلغهم أن السلطان الملك الناصر تجهز بجيوشه لدفعهم.

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨ (الملاحق) وفيه نص فرمان غازان لتأمين أهل دمشق.

وأما السلطان الملك الناصر، فإنه لما دخل إلى الديار المصرية شرع في الاهتمام والاحتفال بالعساكر، وأنفق فيهم الأموال، وعاد إلى الشام فبلغه توجه غازان، فجرد نائبه الأمير سيف الدين سلار وأستاذ داره الأمير ركن الدين بيبرس، ثم انحاز إليه الأمراء: سيف الدين قفجاق، وسيف الدين بكتمر، وفارس الدين البكي، على ما نذكر ذلك في أخبار الدولة الناصرية.

وفي سنة سبعمائة عاد غازان لقصد الشام، وانتهى إلى حلب وتقدم ونزل فيما بينها وبين حماه. ثم خرج السلطان الناصر بعساكره إلى الشام، وأقام بمنزله بدعرش بالقرب من غزة، وجرد من العساكر طائفة. ثم عاد غازان إلى الشرق والملك الناصر إلى مصر من غير قتال.

ذكر مسير غازان إلى الشام وعوده وتجريد عساكره وانهزامها بمرج الصفر

وفي سنة اثنتين وسبعمائة سار غازان من الأردو ونازل الرحبة وحاصرها، فخرج إليه نائبها بلبان[1] الغتمي بالإقامات ولاطفه، وقال: «أنت أيها الملك متوجه إلى الشام فإذا أخذت البلاد فهذه القلعة لا تمتنع عليك» فوافقه غازان، وأخذ ابنه ومملوكه رهينة، ثم رحل عنها وعاد إليها. وجرد قطلوشاه وصحبته اثنا عشر تمانًا لقصد الشام وعاد غازان إلى العراق في أوائل شعبان من السنة.

وهجم عساكره على أطراف البلاد الحلبية فتأخر العسكر إلى حماة وغارت كل طائفة منهم على القريتين[2] ونهبوا من هناك من التركمان وسبوا نساءهم وذراريهم، وتوجهوا منها في البرية إلى صوب عُرض[3]، وهم زهاء عشرة آلاف فخرج إليهم طائفة من العساكر الإسلامية مقدمهم الأمير سيف الدين اسندمر كرجي نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية، وعدتها على التحرير ألف وخمسمائة فارس، فالتقوا هم والتتار على عرض، واقتتلوا أشد قتال، فكانت الكسرة على التتار، وقتل منهم خلق كثير.

---

(١) هكذا في الأصل. وورد الاسم «علم الدين سنجر الغتمي» في السلوك للمقريزي، ج١، ص٩٣٠.

(٢) القريتان: قرية كبيرة من أعمال حمص، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٣٦.

(٣) عرض: بضم أوله وسكون ثانيه: بليد في برية الشام من أعمال حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٠٣.

ثم اتفق بعد ذلك اجتماعهم ووصولهم إلى الشام والعساكر تتأخر عنهم منزلة بعد أخرى، إلى أن قاربوا دمشق ونزلوا على مرج الصفر، واجتمع به سائر نواب السلطنة بالشام، والعساكر المجردة من الديار المصرية. ووصل السلطان بعساكره إلى المرج في مستهل شهر رمضان، وفي الساعة التي انتهى السلطان فيها إلى هذه المنزلة كان وصول التتار، وكنت ممن شهد هذا المصاف في جملة العساكر الإسلامية. فالتقى الجمعان يوم السبت مستهل شهر رمضان من بعد الزوال إلى عشية النهار، فهزمت ميسرة التتار ميمنة المسلمين، فأردفها القلب، وألجأوا التتار إلى جبل هناك، فارتقوا ذروته وأحاطت العساكر الإسلامية بهم وهرب في هذا اليوم بولاي في نحو عشرين ألف فارس. وكان مقابل الميسرة الإسلامية فلما رأى كثرة جموعها فرّ من غير قتال طائل. وبات التتار على الجبل في تلك الليلة، وأصبحوا يوم الأحد إلى وقت الزوال ففرج لهم الأمير سيف الدين اسندمر كرجي نائب الفتوحات فرجة من طرف الميسرة، فانهزموا منها على فرقتين فرقة تتلوها أخرى، وأخذهم السيف من كل مكان. وسنذكر إن شاء الله هذه الوقعة في أخبار الدولة الناصرية ونزيدها بيانًا وتفصيلاً.

ذكر وفاة غازان

كانت وفاته في الثالث عشر من شوال سنة ثلاث وسبعمائة بمقام جبل من نواحي الري، فكانت مدة ملكه ثماني سنين وعشرة شهور. ولما مات ملك بعده أخوه خربندا ويقال فيه خدابندا.

ذكر ملك خدابندا(١) بن أرغون بن أبغا ابن هولاكو بن تولي خان

وهو الثامن من ملوك هذا البيت جلس على تخت المملكة بعد وفاة أخيه غازان

---

(١) ورد اسمه «أولجايتو» في الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٧. وورد اسمه خربندا بن أرغون في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨، ص١٣٤.
هو أولجايتو بن أرغون، وقد عرف أولاً باسم «خربنوه» ثم «أولجايتو محمد خدابنده» وأولجايتو: كلمة مغولية تعني المحظوظ. وخربنده: كلمة مركبة من «خر» بمعنى حمار و«بنده» بمعنى عبد، والمقصود عبد الله.
اختلف في سبب تسميته بهذين اللقبين خربنده وخدابنده، وذهب المؤرخون في ذلك مذاهب شتى: فابن بطوطة يروي أن علة تسميته خربنده ترجع إلى أن التتر كانوا يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته. فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل المكاري، والتتر =

في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وسبعمائة، وتلقب بأولجاتو سلطان، وذلك بمقام أوجان. ولما جلس[١] أطلق رسولي الملك الناصر، وكان غازان قد عوقهما؛ وهما الأمير حسام الدين ازدمر المجيري، والقاضي عماد الدين بن السكري، وجهزهما إلى الديار المصرية، وأصحبهما رسولاً من جهته. فوصلوا في سنة أربع وسبعمائة كان مضمون رسالته التماس الصلح والاتفاق.

ذكر قتل قطلو شاه نائب خربندا وتولية جوبان النيابة

وفي سنة خمس وسبعمائة جرد خربندا نائبه قطلوشاه[٢] وهو الذي كان ينوب عن غازان، وأقره خربندا إلى جبال كيلان لقتال الأكراد فسار إليهم والتقوا واقتتلوا فهزمه الأكراد وقتلوه؛ ورتب خربندا بعده في النيابة جوبان.

وفي سنة سبع وسبعمائة سار خربندا إلى جبال كيلان، وأوقع بالأكراد وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وسبى نساءهم وأولادهم، وأمر ببيعهم بمدينة تبريز، فبيعوا بها.

وفي سنة تسع وسبعمائة ابتنى خربندا بابنة الملك المنصور نجم الدين غازي بن المظفر قرا أرسلان صاحب ماردين، وحملت إليه إلى الأردو، وحمل جهازها على ما نقل إلينا على ألف جمل.

وفيها توفي ولد خربندا واسمه أبو يزيد.

وفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وصل إلى خربندا من نواب السلطنة بالشام والأمراء جماعة وهم الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب المملكة الحلبية، والأمير جمال الدين أقش الأفرم نائب المملكة الطرابلسية، والأمير عز الدين أزدمر الزردكاش، والأمير سيف الدين بلبان الدمشقي، وبدر الدين بيسرا الحسامي؛ والتحقوا به وأقاموا عنده.

= يسمونه خربنده. ويزعم البعض أنه عندما وُلي غازان السلطة هرب منه أولجايتو، وكان يطوف مع المكارين في نواحي كرمان وهرمز فأطلقوا عليه اسم خربنده. وقد قيل إنه سمي في أول عمره «تمودر» بمعنى الجهنمي. حكم أولجايتو بين سنتي ٧٠٣هـ ـ ٧١٦هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣١٦م. انظر مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني ص٨٤، ٨٥، ١٤٠، والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي ص٢٧٧.

(١) «وجلس خربندا على تخت الملك في ثالث عشر ذي الحجة وتلقب غياث الدين محمدًا» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨، ص١٣٤.

(٢) أخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٨، ص١٢٦ ـ ١٢٧، ١٢٨ ـ ١٢٩.

وكان سبب ذلك أن السلطان الملك الناصر قبض على جماعة من الأمراء ممن اتهمهم ونقم عليهم. فخاف هؤلاء على أنفسهم ففارقوا البلاد، ولجأوا إليه، فقبلهم وأكرمهم وتجهز بعساكره وقصد الشام ونازل الرحبة والأمراء معه. وقيل إن خربندا لم يصل إلى الرحبة، وإنما وصلت جيوشه إليها، وحاصروها وأقام هو شرقي الفرات. ثم رجعت عساكره عنها في السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ولم يعلم سبب رجوعهم، وعادوا إلى بلادهم.

ذكر خبر مدينة قنغر لام(١) وتسمى السلطانية

هذه المدينة كان غازان قد شرع في إنشائها واهتم بأمرها، فهلك قبل تكملتها، فأمر خدابندا بالاهتمام بعمارتها. وهي مدينة بالقرب من قلعة كَردكوه على عشرة مراحل من مدينة تبريز. ووصلت إلينا الأخبار في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة أنها كملت وسكنت وأن خدابندا نقل إليها من مدينة تبريز جماعة كثيرة من التجار والمتعيشين والحاكة والصناع وغيرهم، وألزمهم سكناها والإقامة بها، فسكنوها على كره منهم. ثم وصلت الأخبار إلينا أن أكثر الحاكة والصنّاع انسحبوا منها وعادوا إلى تبريز وغيرها من البلاد التي نقلوا منها.

ذكر وفاة خدابندا وملك ابنه أبي سعيد(٢) بن خدابندا

وفي سنة ست عشرة وسبعمائة وردت الأخبار بوفاة خدابندا وأن وفاته كانت في سابع شوال من السنة. وكان قد أظهر الرفض وتمذهب به، وقرب الروافض، وأبعد أهل السنة وأطرحهم وأهانهم، ونقل إلينا أنه قبل وفاته أمر بإشهار النداء بنواحي

---

(١) وتكتب قُنْغُر لان: بضم القاف وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الراء المهملة ولام ألف ونون، وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة. بناها خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو على القرب من جبال كيلان. وجعلها كرسي مملكته. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٥٨.

(٢) هو بهادر بن أولجايتو (خربند) أبو سعيد أو بوسعيد تاسع سلاطين المغول الإيلخانيين في فارس وآخرهم. حكم من عام ٧١٦ إلى ٧٣٦هـ/ ١٣١٦ ـ ١٣٣٥م. وبهادر (بالدال المضمومة) كلمة تركية مغولية الأصل مأخوذة من «بخاتُر» والمعنى الأصلي لبهادر هو الشجاع أو المقدام ثم أصبحت لقبًا يطلق للتشريف في بلاد المغول. دائرة المعارف الإسلامية: ج١، ص٤٩٠، وج٧، ص٤٣٣، وج٨، ص٢١٩.

مملكته أنه من تلفظ بذكر أبي بكر وعمر مات؛ فأهلكه الله تعالى بعد سبعة أيام من حين أمر بذلك. ولما هلك اختلفت آراء الأمراء وأرباب دولته، فيمن يجلس على تخت السلطنة، فذكر لنا أن منهم من مال إلى ابن قازان، ومنهم من مال إلى غيره من أهل هذا البيت الجنكزخاني ثم اجتمعت كلمتهم على أن أقاموا أبا سعيد بن خدابندا وعمره أحد عشر[١] سنة فنصبوه في الملك، وقام بتدبير دولته جوبان نائب أبيه، ووصلت رسله وهداياه إلى السلطان الملك الناصر بالديار المصرية. وتكرر ذلك منه، وانتظم الصلح، وحصل الاتفاق. هذا ما انتهى إلينا من خبر التتار إلى حين وضعنا لهذا التأليف، ومهما ورد علينا من أخبارهم بعد هذا أوردناه في أخبار الدولة الناصرية بالديار المصرية آخر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

كمل الجزء السابع والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب يتلوه إن شاء الله تعالى في أول الجزء الثامن والعشرين الباب الثاني عشر من القسم الخامس من الفن الخامس في أخبار ملوك الديار المصرية والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) تولى أبو سعيد عرش المغول في سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م وتوفي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م. انظر الدولة الخوارزمية والمغول لحافظ حمدي، ص٢٧٧.

المصادر والمراجع العربية

١ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ط١ ـ ١٩٩٢.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير (عماد الدين إسماعيل الدمشقي) ١٤ جزءًا، القاهرة ١٩٣٢.

٣ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ـ الجزء الأول، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢.

٤ ـ بلدان الخلافة الشرقية، لسترانج، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٥٤).

٥ ـ تاريخ الإسلام تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٧.

٦ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير الجزري (علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني) تحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣.

٧ ـ تاريخ الملوك السلجوقية وأخبار الدولة السلجوقية، لصدر الدين أبي الحسن علي الحسيني، تحقيق الأستاذ محمد إقبال لاهور ١٩٣٣.

٨ ـ تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري الأصفهاني. مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٩٠٠م.

٩ ـ تاريخ الفارقي لأحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي، تحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض، القاهرة ١٩٥٩م.

١٠ ـ تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، بيروت ١٩٥٨م.

١١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٢م.

١٢ ـ تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. سبعة أجزاء. أولها المقدمة طبع بمصر ١٢٨٤هـ، وأعيد طبع الجزأين الأول والثاني بمصر ١٣٥٥هـ.

١٣ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العام ١٩٨٤م.
١٤ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، نقله من الفارسية إلى العربية صادق نشأت ومحمود موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة ١٩٦٠ «وطبع طهران».
١٥ ـ الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور، جزءان، القاهرة ١٩٦٣م.
١٦ ـ الخطط المقريزية، المواعظ والاعتبار للمقريزي، دار صادر، بيروت، والقاهرة ١٨٥٣م.
١٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
١٨ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠م.
١٩ ـ الدولة المملوكية تأليف الدكتور أنطوان خليل ضومط، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
٢٠ ـ الدولة الخوارزمية والمغول تأليف حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر ١٩٤٩م.
٢١ ـ ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى حمزة بن القلانسي، بيروت، ١٩٠٨م.
٢٢ ـ ذيل الروضتين لأبي شامة، القاهرة ١٩٤٧م.
٢٣ ـ راحة الصدور وآية السرور للراوندي نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبد المعطي الصياد، القاهرة ١٩٦٠م.
٢٤ ـ رسوم دار الخلافة لهلال بن المحسن الصابىء، تحقيق ميخائيل عوّاد، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٦م.
٢٥ ـ الروض المعطار، الحميري، مكتبة لبنان، تحقيق د. إحسان عباس ١٩٨٤م.
٢٦ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة. جزآن، طبع بمصر ١٢٨٧هـ.
٢٧ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ١ ـ ٢ تحقيق الدكتور سامي الدهان، دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤م.
٢٨ ـ السلاجقة في التاريخ والحضارة للدكتور أحمد كمال الدين حلمي، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٥م.
٢٩ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق الأستاذ محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢.
٣٠ ـ سيرة جلال الدين منكبرتي للمنشي النسوي (محمد أحمد بن علي بن محمد)، تحقيق حافظ حمدي، القاهرة ١٩٥٣م.

٣١ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

٣٢ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨م.

٣٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣م.

٣٤ ـ العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي (١ ـ ٥) تحقيق الأستاذين صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦.

٣٥ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العيني، تحقيق د. محمد أحمد أمين، القاهرة ١٩٨٧م.

٣٦ ـ العلاقات السياسية، بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

٣٧ ـ الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي، القاهرة ١٩٣٨م.

٣٨ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (محمد) تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

٣٩ ـ الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

٤٠ ـ كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، تحقيق الأستاذ أولرخ هارمن، القاهرة ١٩٧١ ـ ١٩٧٢م.

٤١ ـ اللمعات البرقية في النكت التاريخية لمحمد بن علي بن طولون رسالة طبعت في دمشق ١٣٤٨هـ.

٤٢ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي (المجلد الثامن ١ ـ ٢) حيدر أباد الدكن، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

٤٣ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع للبغدادي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤م.

٤٤ ـ المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء للملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء صاحب حماه، أربع أجزاء، طبع بمصر ١٣٢٥هـ.

٤٥ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (دولة المماليك الأولى) تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٦م.

٤٦ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.

٤٧ ـ معجم لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
٤٨ ـ معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٥م.
٤٩ ـ معجم القاموس المحيط للفيروزابادي، القاهرة ١٩٥٢م.
٥٠ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي زامباور، نقله إلى العربية الدكتور زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م.
٥١ ـ معجم ما استعجم للبكري (١ ـ ٤) تحقيق مصطفى السقّا، القاهرة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩م.
٥٢ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي (١ ـ ٣) تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠م والجزء الرابع تحقيق محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٥م.
٥٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، ١٠ أجزاء، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٣٥٨هـ.
٥٤ ـ مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تأليف فؤاد عبد المعطي الصياد، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.
٥٥ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦ جزءًا، ١٩٩٢م.
٥٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لشمس الدين أبي العباس بن خلكان. تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٨م.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Dozy (R)

1 - Dict. des noms des vetments chez les Arabes (Cambridge 1957).

2 - Supplement Aux Dictionnaires Arabes.

- D'Hoson. M. le Baron

Histoire des Mongols depuis tchinguiz- khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, Paris 1824.

- Quatrèmere (E)

Hist. des Sultans Mamlouks de l'Egypte, Paris, 1845.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣هـ

٢٨-٢٩

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
9782745138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثاني عشر من القسم الخامس من الفن الخامس

أخبار ملوك الديار المصرية [الدولة الطولونية][1]

[توفي أماجور مُقْطع دمشق، وولي ابنه مكانه][2] فتجهز أحمد للمسير إلى الشام[3]، وسار في شوال سنة أربعٍ وستِّين لقَصْده[4]، واستخلف على مصر ابْنَهُ العبَّاس، وعضّده[5] بأحمد بن محَمّد الواسطي. وكتب إلى عَليّ بن أمَاجُور وإلى أصحاب أبِيهِ الَّذين أقامُوه يذكُر أنَّ الخليفة[6] أقطعه الشام والثُّغور مضافاً إلى ما بيده. فأجابُوه بالسّمع والطَّاعة، وتلقّاه ابن أمَاجُور بالرّملة، فأقرَّه عليها. وسار إلى دمشق فملكَها وأقرَّ قوَّاد أماجور على إقطاعاتهم. وسار إلى حمص [فملكها][7] فتلقَّاه عيسى الكرخِيّ، وكان يتقلَّدُها، فشكاهُ أهلُها فعزله عنهم [وولاَّها يُمن التركي][8]. وملك حَماة وحلب.

وأرْسل إلى سيما الطَّويل بأنطاكية يدعُوه إلى طاعته ليُقَرَّ على ولايته، فامتنع،

(١) ما بين حاصرتين إضافة تناسب موضوع أخبار الدولة الطولونية.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣١٦.
(٣) هو أحمد بن طولون؛ سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٩١.
(٤) المقصود هنا علي بن أماجور. ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٣١٦.
(٥) عضده: ساعده، وآزره. ابن منظور: لسان العرب (عضد).
(٦) هو الخليفة العباسي أحمد المعتمد على الله، ولي الخلافة في الفترة من ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ = تاريخ الدول الإسلامية لسليمان ص ١٢.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣١٦.
(٨) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة ابن طولون للبلوي ليستقيم المعنى، ص ٩١.

فَعَاوَدَه، فلم يُطعه، فَسَار إليه، ودَلّوه على عَوْرة أنطاكية فنصب عليها المجانيق، وملك البلد عنوة، وقاتله سيما الطويل حتى قتل، فساء أحمد قتله لأنّه كان نصيحه قديماً[(١)]؛ وكان ذلك في المحرّم سنة خمس وستين ومائتين.

ورحل عن أنطاكيّة إلى طرسُوس[(٢)]، فدخلها في جَمْع عظيم، وعزم على المُقام بها ومُلازمة الغَزْو، فَغَلا السّعر وضاقَت بعَساكره، فركب أهلُها إليه بالمخيَّم وقالوا له: لقد ضيَّقت علينا بلَدنا وأغْلَيت أسعارنا، فإما أقَمْت في عَدَدٍ يَسير وإمّا رحلت عنا، وأغلظُوا له في القول وشغَبُوا عليه[(٣)]، فقال لأصْحَابه أن ينهزموا عن الطرسوسيّين ويرتحلُوا عن البلد، ليَظْهر للعدُوّ أنّ ابنَ طولون على كثرة عساكره لم يَقْوَ لأهل طرسوس، وأنّه انْهزَمَ عنهم، لِتَقَع مهابتهم في قلوب العدوّ.

وعاد إلى الشام، فأتاهُ خبرُ ولدِهِ العبّاس أنّه عصى عليه بمصر وأخذ الأموال وسار إلى برقة، فلم يكترث أحمد لذلك، وقضى أشْغَاله، وحفظ أطرافَ بلادِه. وبعث إلى حَرّان[(٤)] أحمد بن جِيغَـوَيْه في جيشٍ كثيف، ونزل غلامُه لؤلؤ بالرَّقَّة[(٥)] في جيشٍ كثيف، وكانت حرّان لمحمّد بن أتامش، فأخرجه أحمد بن جيغويْه عنها، وهزمه هزيمةً قبيحة، فاتصل خبرُه بأخيه موسى بن أتامش، وكان شجاعاً بطلاً، فجمع عسكراً كثيراً، وسار بهم إلى نحو حَرّان. فاتَّصل ذلك بابن طولون، فأهمّه وأقلقه وأزعجه، فنظر إليه رجلٌ من الأعراب يقال له أبو الأغرّ، فقال له: أيها الأمير أراكَ مفكّراً منذ أتاك خبرُ ابن أتامش، وما هذا محلُّه، فإنه طائش قَلِق، ولو شاء الأمير أتيته به أسيراً. فغاظه قولُه[(٦)]، وقال: لقد شئت أن تأتيني به أسيراً [فقال الأعرابي][(٧)] فاضمُم إليَّ عشرين أختارُهم. قال: افعل. فانتقاهُم أبو الأغرّ، وسار بهم.

---

(١) كان أحمد بن طولون قد أوصى رجاله ألا يقتلوه، وألا يرموه، ولكن أهل أنطاكية رموه بالطوب والحجارة من منازلهم فقتل ولم يعلم أحد إلا بعد انتهائها. سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٩٦. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٣١٧.

(٢) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) الشغب: تهييج الشر. ابن منظور: لسان العرب (شغب).

(٤) حرّان: هي قصبة ديار مُضر، وهي على طريق الموصل والشام والروم. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٥) الرّقة: بلدة على الفرات اتخذها بعض الخلفاء العباسيين مصطافاً لهم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٦) يذكر البلوي أن الأمير الذي أغاظه هذا القول هو ابن جيغويه وليس أحمد بن طولون كما ورد في نهاية الأرب للنويري، والكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣١٨. وسيرة ابن طولون، ص ١٠٤.

(٧) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة ابن طولون للبلوي، ص ١٠٤.

فلمَّا قاربَ عسكرَ مُوسى، كَمَّن بعضهم، وجعل بينَه وبينهُم إشارةً إذا سمعُوها ظَهَرُوا.

ثم دَخَل العسكر فيمن بقِي معه على زِيّ الأعراب، وأصحابُ موسى على غرّة[(١)]، وقد تفَرّق بعضهم في حوائجهم، فانْزَعَج العسكرُ وركِبُوا، فركب مُوسى، فانهزم أبو الأغر بين يَدَيْه، فاتَّبعه حتى أخْرَجَهُ من العسكر، واستَمرَّ حتّى جاوز الكمين، فنادى أبو الأغرّ بالإشارة التي بيْنَه وبينهم، فثاروا، وعطف أبو الأغرّ على مُوسى فأسره، وأخذُوه حتّى وصلُوا به إلى ابن جِيغَوَيْه وإلى ابن طولون فاعتقلاه، ورُفع إلى مصر. وكان وصُولُه إليها في سَنَةِ ستٍّ وستِّين[(٢)]..

ذكر عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه وما كان من أمره

وفي سنة خمسٍ وستّين ومائتين عصى العَبَّاس بن أحمد على أبيه، وسبب ذلك أنّ أباه لمّا استخلَفَه بمصر، كما ذكرناه، وخرج إلى الشّام، حسَّن للعبَّاس جماعةٌ كانوا عنده أخْذَ الأموال والانْسِرَاح إلى برقة، ففعل ذلك، وحمل معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب أبيه، وأيمن الأسود مقيَّدَيْن.

فلمَّا رجع أحمد إلى مصر وجَدَهُ قد أخَذَ ألفي ألف دينار، واسْتَلَف من التُّجار ثلاثمائة ألف دينار، وأمرَ صاحب الخراج أنْ يضْمَنَها لهم، ففعل. فراسَلَ أحمد ابنه واسْتَعطفه، فَلَم يرجع، فخاف مَن معه وأشارُوا عليه بقَصْد إفريقية، فسار إليها، وكاتَب وُجُوه البربر، فأتاهُ بعضُهم وامتنع بعضُهم. وكَتَب إلى إبراهيم بن الأغلب[(٣)] يقولُ: إن أمير المؤمنين قلَّدَني إفريقية وأعمالَها، ورحل حتَّى أتى حصن لِبْدَة[(٤)]، ففتحه أهله له، فقابلهم أسوأ مقابلة، ونهبهم، فمضى أهلُ الحصن إلى إلياس بن منصور النَّفُوسِي، رئيس الإباضيّة هناك، فاستغاثُوا به، فغضب لذلك، وسار إلى العباس ليقابله.

وكان إبراهيم بن الأغلب قد أرسل إلى عامل طرابلس جيشاً[(٥)] وأمره بقتال

(١) غرّة: غفلة. ابن منظور: لسان العرب (غرر).

(٢) في ابن الأثير: الكامل. «سنة خمس وستين ومائتين» ج ٧، ص ٣١٨.

(٣) هو إبراهيم الثاني ابن أحمد بن محمد بن الأغلب، كان على رأس دولة الأغالبة التي استقلت بتونس عن الدولة العباسية، بقي في الحكم مدة تتراوح بين ٢٦١ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٧٥ ـ ٩٠٢ م. تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٤٦.

(٤) كَبْدَة: مدينة بين برقة وإفريقية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠.

(٥) «وكان الأغلب قد أنفذ إلى محمد بن قرهب عامل طرابلس بخادم له يعرف ببلاغ في جمع من أهل =

العبّاس، فالتَقَوْا واقتتلوا قتالاً شديداً [قاتل العباس فيه بيده][١] حتى حجز بينهما اللّيل. فلمّا كان الغد وافَاهُم إلياس بن منصور الإباضي في اثني عشر ألفاً من الإباضيّة، فأجمع هو وعامل طرابلس على قتال العبّاس، فاقتتلوا، فقُتِلَ من أصحابه خلقٌ كثير، وانهزم أقْبَح هزيمة، وكاد أن يُؤْسر، فخَلَّصَه مولًى من مواليه، ونهبُوا سَوادَه، وأكثر ما حمله من مصر. فعاد إلى برقة أقْبَح عَوْد.

[وشاع بمصر أن العباس قد انهزم][٢] فاغتمّ أبُوه لذلك غمًّا شديداً، وسيَّر إليه العساكر، فقاتَلهم وقاتلوه، فانهزم، وكثُر القتل في أصحابه، وأُخِذَ أسيراً، وحُمِلَ إلى أبيه، فحبسه في حجرةٍ في الدَّار إلى أنْ قدم العسكر ببقيَّة الأسرى من أصحابه. فلمَّا قَدِموا أحضَرهم أحمد عنده، والعبّاس معهم، وأمره أن يقطع أيدي أعْيَانِهم وأرْجُلَهم، ففعل ذلك. فلمّا فرغ منهم وبَّخَه أبُوه وذنَّبَه. وقال له: هكذا يكونُ الرَّئيس والمقدّم! كان الأحسنَ أنّك ألْقَيت نفسك بين يديَّ وسألت الصَّفح عنك وعنهم، فكان ذلك أعْلَى لَمحلِّك. وكنت قضيت حقوقهم [وفارقوا أوطانهم لأجلك][٣]. ثم أمَرَ به فضربَه مائَة مِقْرَعة[٤]، ودُمُوع أحمد تجري على خدِّه رِقَّةً على ولده، ثم رَدَّه إلى الحجرة واعتقله، وذلك في سنة ثمانٍ وستِّين ومائتين.

ذكر خلاف لؤلؤ على أحمد

كان سببُ ذلك أنّ الحُسَين بن مُهَاجر[٥] غلَب على أحمد بن طُولون، وحسَّن له جَمْع الأموال ومَنَع من سماحته وجَرْيه على عوائده الجميلة، فنَفَرت القلوبُ عن أحمد، وتغيَّرت الخواطرُ عليه، فتنكَّر له غلامُه لؤلؤ، وكان عمدته عليه، وكان في يده حَلب وحمص وقِنّسرين وديار مُضَر. وكان أحمد إذا أنكر على لؤلؤ شيئاً أوْقَع بكاتبه محمّد بن سليمان، ويقولُ له. هذا منْكَ ليس منه، فحمل محمّدَ بن سليمان الخوفُ من أحمد على أنْ حسَّن لؤلؤ حَمْل جُملةٍ من المال إلى الموفّق[٦]، فحمَل ذلك إليه، وكتب إليه عن

= القيروان كثير» سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٢٥٤.

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٢٥٥، والكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٣٢٥.

(٤) مقرعة: خشبة تضرب بها البغال والحمير. ابن منظور: لسان العرب (قرع).

(٥) في سيرة ابن طولون، ص ٢٧١. «الحسن بن مهاجر».

(٦) هو الموفق أبو أحمد طلحة، ويقال محمد بن المتوكل، ولي عهد أخيه المعتمد وله تسع وأربعون سنة، توفي سنة ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص ١٧٢.

لؤلؤ كتاباً يعرِّفه رغبتَه في المصير إليه، والتّصرُّف تحت أمره ونهْيه، والدُّخول في طاعته، فسُرَّ الموفَّق لذلك واستبشر، لِمَا في نَفْسه من أحمد، ورأى أنَّ ذلك من الفُرص الَّتي يتعيَّن انتهازُها، فأجابه بأحْسَن جواب، وأنْفَذَ إليه خِلعاً[1].

وكانت مع لؤلؤ طائفةٌ من خواصِّ أحمد، فلمَّا أنْكرُوا حالَه، واطَّلعوا على ما فعله، فارقُوه، والتحقُوا بأحمد، وأطْلَعوه على ما كان من أمْرِ لؤلؤ. فتألَّم لذلك، وأخَذَ في إِعمال الحيلة والمخَادَعة لِلُؤلؤ والتلطُّف به، ومكاتبة محمّد بن سليمان، فلم يُفِدْ ذلك عنْدَه. فكتب أحمد إلى المعتمد على الله كتاباً يقولُ فيه: إنّي خائفٌ على أمير المؤمنين من سُوءٍ يلحقُه، وقد اجتمع عندي مائة ألف عِنانٍ أنْجاد، وأنا أرى لسيِّدي أميرِ المؤمنين الانْجذاب إلى مصر، فإنّ أمْرَه يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العزّ، ولا يتهَيَّأ لأخيه الموفق شيْءٌ ممَّا يخافه عليه. وجهَّز له قرين ذلك، سفاتج[2] بمائة ألف دينار، وذلك في سنة ثمانٍ وستين ومائتين. وأظهر أحمد الخروج لهذا الأمر. فلمَّا وصل كتابُه إلى الخليفة، تجهَّز لقَصْده مصر، فكان من خُروجه ورُجُوعه إلى بغداد ما ذكرناه في أخباره.

وأمّا أحمد فإنَّه تجهّز إلى الشام، وأخَذَ معه ابْنَه العبّاس مقيّداً، واستخلف ابنَه خمارويه على مصر. فسَار، فوصَلَ إلى دمشق وهو يُظْهِر الانتصارَ للمعتمد، ويَقْصد لؤلؤاً غلامَه، فعِنْد ذلك الْتَحق لؤلؤ بالموفَّق، وكان لحاقُه به في سنة تسعٍ وستين.

وانتهى إلى أحمد عَوْدُ المعتمد، وأنَّه ضُيِّق عليه، فأحضر أحمد قضاةَ أعماله وفيهم بَكَّارُ بن قُتَيبة[3] والعُمري وأبو حازم، وغيرهم، وخلع الموفَّق، فكلُّهم وافقه على ذلك إلا بكَّار. وأسقط أحمدُ دعْوَة الموفَّق، وقلع اسمه من الطُّرُز. فلمّا بلغ الموفَّق ذلك أمَرَ بلَعْن أحمد بن طولون في المنابر في سائر الأمصار. ثم رجع الموفَّق عن ذلك، وأمر كاتبَه صاعدَ بن مخلَّد وجماعةً من خاصَّته بمكاتبة أحمد بن طُولُون وتوبيخه على ما فعله، فكتبوا إليه واستمالُوه، فعَلم أنّ ذلك عنْ رأي الموفَّق وإذْنِه لهم، فأجابهُم بأحْسَن جواب. فعرضُوا كُتُبه على الموفَّق، فسرَّهُ ما تَضَمَّنَتْه، وعلم أنَّ ابن طولون إنّما

---

(١) خِلعة من الثياب: ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه. ابن منظور: لسان العرب (خلع).

(٢) السُّفتجة: أن يعطي مالاً لآخر أي حوالة مالية. الفيروزابادي: القاموس المحيط (سفج). السلوك للمقريزي، ج ٢، ص ٤٢٠.

(٣) هو بكار بن قتيبة بن أسد، أبو بكرة من بني الحارث، ولي القضاء بمصر للمتوكل العباسي سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م. وُلد عام ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م وتوفي عام ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤ م. ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٩١، والزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٦٠ ـ ٦١، الولاة والقضاة للكندي، ص ٤٧٦.

فعل ذلك لمغالاته في المناصحة لهم. وكان الموفَّق كامل العقل، فسَكَّن ذلك منه ما كان في نفسه على أحمد، ومال قلبُه إليه، وكتب الموفَّق إلى أخيه المعتمد يُعْلمه برجوعِه عن أمْرِ أحمد ونَدَمِه على ما كان منه في حقِّه، وسأله أنْ يكتب إليه، فسُرَّ المعتمد بذلك، وكتب إلى أحمد كتاباً بخطّه، وأمَرَه بالرجوع عمَّا هو عليه من أمْر الموفَّق، وبعث إليه كتاب الموفَّق برجوعه عن لَعْنه. وأَنْفَذ الكتاب مع الحسن ابن عطَّاف. فلمَّا بلغ الرَّقَّة بلغه وفاةُ أحمد بن طولُون(١)، فرجعَ إلى الحضرة.

وأما لؤلؤ فإنّه بلغـهُ أنّ مولاه أحمد باع أولاده وخدمه بسُوق الرَّقيق بمصر، وقبَض على أملاكه، فبلغ ذلك منه كلَّ مبلغ، وتقدَّم إلى الموفَّق وبكى، وسأله إنْفَاذ الجيوش معه، وضمِنَ له أخْذَ البلد من مولاه، وبسَطَ لسانه في سيرته، فخلع الموفَّق عليه، وحَمَله على دابّة، ووعَدَه، وأمر بتجريد الجيوش معه، كلُّ ذلك وهو يسخرُ به ويماطلُه إلى أن يعودَ جوابُ أحمد مع الحسَن بن عطَّاف، فقبض حينئذٍ على لؤلؤ وردَّه إلى مولاه، واستقبح ما فعله لؤلؤ في حقِّ سيدهِ، فلمَّا اتفق وفاةُ أحمد، أقامَ لؤلؤ في خدْمَة الموفَّق إلى سنة ثلاثٍ وسبعين، فقبض الموفَّق عليه، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار، وكان لؤلؤ يقول: ليس لي ذنب إلاَّ كثرة مالي.

ولم تزل أمور لؤلؤ في إدْبار إلى أن افتقر، ولم يبْقَ له شيء، فعاد إلى مصر في آخر أيام هارون بن خُمارَويه(٢) بغلام واحد. وهكذا تكون ثمرةُ الغَدر وكفر الإحسان.

ذكر وفاة أحمد بن طولون وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في نصف اللَّيل من ليلة الأحد لعشر ليالٍ خلوْن من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين.

قيل: وكان سببُ وفاته أن نائبَهُ بطرسوس(٣) وثب عليه يا زمان(٤) الخادم وقبض

(١) توفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٧٣، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٥٧. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٨.

(٢) هو الأمير أبو موسى هارون بن خُمَارَويه بن أحمد بن طُولون التركي الأصل المصري المولد. ولي مصر بعد قتل أخيه جيش بن خُمارويه في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٨٣، وسليمان في تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢٨.

(٣) كان نائب أحمد بن طولون بطرسوس أخوه موسى. البلوي: سيرة ابن طولون، ص ٣١٠.

(٤) في ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩ «بازمار». وفي ابن تغري بردي، يا زمان النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٧٨.

عليه، وأظهر الخلاف على أحمد. فجمَعَ أحمدُ العساكر، وسار إليه. فلمّا وصل إلى أذَنَة[١] كاتَبَه وراسَلَه واستماله، فلم يلتفت يا زمان الخادم إلى رِسالته. فسار أحمدُ إليه وحَصَره، فخرق يا زمان نهر البلد[٢] على مَنْزلة العسكر، فكاد النَّاس يهلكون. فرحَل أحمد حَنِقاً، وكان الزمان شتَاء، وكتب إلى يا زمان: إنني لم أحل إلا خوفاً أن تنْخَرق حرمةُ هذا الثَّغر، ويطمع العدو فيه. وعاد إلى أنطاكيَّة، فأكل من لبن الجواميس وأكْثَر منه، فأصابته هيضة[٣] واتّصلت به حتى صار منها ذَرَب[٤]. وكان الأطبّاءُ يعالجونه، وهو يأكلُ سرًّا غير ما يصفونه، فلم ينجع الدّواء فيه. فمات رحمه الله.

هكذا ذكر ابنُ الأثير الجزري في تاريخه الكامل في سبب وفاته[٥].

وأما صاحبُ الدّول المنقطعة[٦] فإنه قال: إنَّه رجع إلى مصر واعتلَّ بزلق للمعدة. واشتدّت به العلّة وطالت، فعهد إلى ابنه أبي الجيش خُمارَويه، وأطلَقَ ابنَه العباس من قيده، وذلك في القَعْدة سنةَ سبعين ومائتين، وخلع عليه وقلَّده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشَّامات والثُّغور، وأوصاه بتَقْوى الله وطاعة أخيه. ثم تُوفِّي رحمه الله وسِنُّه يومئذٍ خمسون سَنة وشهرٌ وثمانية وعشرون يوماً، ومدّة إمرته على مصر ستّ عشرة سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يوماً[٧].

وأما سيرته، فإنّه، رحمه الله، كان عادلاً شُجاعاً، كريماً متواضعاً، حَسَن السِّيرة، يُباشر الأمور بنفسه ويتفقَّد رعاياه، ويحبُّ أهل العلم، ويُدْني مجالسهم. وكان كثير الصَّدقات. وهو الذي بنى قلعة يافا، وكانت المدينة بغير قلعة.

أولاده ثلاثة وثلاثون[٨]. منهم[٩]: أبُو الفضل العبّاس، أبو الجيش خُمارَويه، أبو العشائر مُضَر، أبو الكرم ربيعة، أبو المقانب شيبان، أبو ناهض عياض، أبو معدّ عدنان، أبو الكراديس خزرج. أبو حبشون عديّ، أبو شجاع كندة، أبو منصور أغلب، أبو بهجة

(١) أذنة: مدينة بالشام بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلاً بناها هارون الرشيد. الحميري، الروض المعطار، ص ٢٠.

(٢) كانت تسميته «نهر البردان» ويعرف بنهر «قره صوره» أي النهر الأسود. البلوي: سيرة ابن طولون،ص ٣١٠.

(٣) فأصابته هيضة: إذا لم يوافقه شيء يأكله وتغيّر طبعه عليه. ابن منظور: لسان العرب (هيض).

(٤) ذرب: فساد المعدة. ابن منظور: لسان العرب (ذرب).

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩.

(٦) هو علي بن ظافر، جمال الدين المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١ م. انظر أخبار الدول المنقطعة نشر أندريه فريد. القاهرة ١٩٧٢.

(٧) أخبار مرضه ووفاته في سيرة ابن طولون، ص ٣١٢، الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٣١.

(٨) «ذكر البلوي أن أولاده، فهم سبعة عشر ذكراً، وست عشرة أنثى. سيرة ابن طولون، ص ٣٤٩.

(٩) أوردهم النويري حسب رواية البلوي في سيرة ابن طولون ص ٣٤٩.

ميسرة، أبو البقاء هدى، أبو المفوض غسَّان، أبو الفرج مبارك، أبو عبد الله محمد، أبو الفتح مظفر.

والبنات ستّ عشرة: وهُنَّ: فاطمة، ولميس، وتعلب[١]، وصفية، وغالية[٢]، وخديجة، وميمونة، ومريم، وعائشة، وأم القرى[٣]، ومؤمنة، وعزيزة، وزينب، وسمانة، وسارة، وغريرة.

وخلّف من الأموال والعين والورق كثيراً، ومن الغلمان أربعةً وعشرين ألف غلام، ومن الموالي سبعة آلاف رجل، ومن الخيل سبعة آلاف وثلاثمائة وخمسين رأساً، منها: لركابه ثلاثمائة وخمسون، ومن الجمال ثلاثة آلاف جمل، وألف بغل، ومن المراكب الحربيّة الكبار مائتي مركب بآلتها، ومن الأمتعة والفُرُش والآلات والأواني ما لا يُحصى كثرة ولا يُعدّ اتّساعاً، وأنفق على الجامع مائة ألف وعشرين ألف دينار، وعلى البيمَارِسْتان ستّين ألف دينار، وعلى العينِ الّتي بالمعافِر مائة ألفٍ وأربعين ألفَ دينار، وعلى حِصْن الجزيرة مائة ألف دينار، وأَنفق في بناء الميدان مائةَ ألفٍ وخمسين ألف دينار، وعلى مرمّات الثّغور وحِصْن يافا مائتي ألف دينار.

وكانت صدقاتُه في كلِّ شهر ألف دينار سِوى المرتّبات، وكانت له وظائفُ من خُبز ولحمٍ تجري على قومٍ مستورين، في كلِّ شهر ألفا دينار وكان يصنع في كلِّ جمعة من أصنافِ الأطعمة والحلو أشياء كثيرة يحضُرها النّاس من فقير، ومستُور، ومتجمِّل، ومحتاج، وكان إذا عاين ذلك وهو بمشترف عالٍ يسجدُ لله تعالى شكراً تارةً، ويصلّي تارةً، ويدْعو تارةً، ويبكي تارةً. فكانت سيرتُه رحمه الله أجمل سيرة، وفراسَتُه أعظم فراسة، بحيث إنّه كان ينظُر إلى الرّجُل فيدرك بفراسته غرضه، ولمّا مات ملك بعده ولده.

ذكر ولاية أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثاني من ملوك الطولونية

مَلَك بعد وفاة أبيه في يَوْم الأحد لعشرِ خلَوْن من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وهو ابن عشرين سنة وشهور، في خلافة المعتمد على الله. وذلك أنّه لمّا تُوفّي والده اجتمع الأجنادُ وقتلوا وَلَده العباس الأكبر وولّوْا خمارويه، فاستقلَّ بالأمر.

(١) تعلب: في الأصل وفي سيرة ابن طولون للبلوي ص ٣٤٩. يمكن أن تكون محرفة عن تغلب.
(٢) لم تذكر غالية في سيرة ابن طولون.
(٣) في سيرة ابن طولون للبلوي، ص ٣٤٩ ورد الاسم: «أم الهدى».

ذكر مسير إسحاق بن كنداجق[(١)] ومحمد بن أبي الساج إلى الشام

قال المؤرِّخ[(٢)]: لمّا توفي أحمدُ بن طولون كان إسحاق بن كنداجق على المَوْصل والجزيرة، وابن أبي السَّاج[(٣)] على أرمينية والجبال، فطمعا في الشّام، واستصغَرَا أولاد أحمد بن طولون، فكاتبا الموفَّق واستمدَّاه، فأمَرَهُما بقصد الشام، ووعَدَهما إنْفَاذ الجيوش، فجمَعَا وقصدَا ما يجاورُهما من البلاد فاستوليَا عليها، وأعانَهُما نائبُ دمشق الّذي كان من قِبَل أحمد بن طولون ووعدَهُما الانْحِياز إليهما، [فتراجع من بالشام من نوّاب أحمد][(٤)] وأظْهَرَ العِصْيان، واستولى إسحاق على حَلَب وحمص وأنطاكيّة ودمشق.

فلمَّا انتهى الخبر إلى أبي الجيش خُمارويه ندب العساكر المصريَّة إلى الشام، فملكُوا دمشق، وهرب نائبها. وسار عسْكَر خُمارويه من دمشق إلى شَيْزَر[(٥)] لقتال إسحاق وابن أبي السّاج، فطاولهم إسحاق ينتظر المدَدَ من العراق. وهجم الشّتاء على الطَّائفتين، وأضرَّ بأصحاب خُمارويه، فتفرَّقوا في المنازل بشَيْزَر. ووصَل العسكر العراقي إلى ابن كنداجق وعليهم أبو العبّاس أحمد بن الموفَّق، وهو المعتضد بالله. فلمَّا وصلَ سار مجِدًّا إلى عسْكَر خُمارَويه بشيزر، فكبسهم في المساكن ووضع فيهم السَّيف، فقَتَلَ منهم مقتلَةً عظيمة، وسارَ مَنْ سَلِم منهم إلى دمشق على أقبح صُورة. فسار المعتضدُ إليهم، ففَارقُوا دمشق وتوجَّهوا إلى الرّملة، وأقامُوا بها. ودخلَ أبو العبّاس المعتضد إلى دمشق في شعبان سنةَ إحدى وسبعين ومائتين. وكتَبَ عسكرُ مصر إلى خُمَارَويه، فخرج من مصر بعساكره.

ذكر وقعة الطواحين

وفي سنة إحدى وسَبْعين ومائتين كانت وقعة الطّواحين[(٦)] بين أبي العبّاس

(١) «بن كنداجيق» في ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩. «بن كُنداج» في الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٣٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٣. (طبعة دار الكتب العلمية).

(٢) أي ابن الأثير: انظر الكامل، ج ٧، ص ٤٠٩.

(٣) هو محمد بن ديوداد أبي الساج، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٣٥.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٤١٠.

(٥) شَيْزَر: بفتح أوله، قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٣.

(٦) الطواحين: موضع قرب الرملة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥. وابن الأثير: الكامل =

أحمد بن الموفَّق، وهو المعتضد، وبين أبي الجيش خمارويه بن أحمد.

وكان سببُ هذه الوقعة أنَّ المعتضد لَمَّا ملك دمشق سار بعَسَاكره إلى الرَّملة لقَصْد عسكر خُمارَويه، فأتاه الخبر بوُصُول خمارويه إلى عسكره وكَثْرَةِ مَنْ معه من الجموع، فهمَّ المعتضد بالعَوْد، فلم يُمَكِّنه مَنْ معه من أصحاب ابن طولون الَّذين صارُوا معه. وكان المعتضِدُ قد أوْحَشَ ابن كنداجق وابن أبي السّاج ونسبها إلى الجبن، حيث انتظراه حتّى وصل إليهما ولم يناجِزَا عسكر خمارويه الحرب، ففَسَدَتْ نياتُهما.

قال: ورَحَل خُمارويه ونزل على الماء الّذي عليه الطواحين [عند الرملة][1] وملكه، فنسبت الوقعة إليه. ووَصَلَ المعتضد وقد عَبّأ أصحابه، وفعل خمارويه كذلك، وجعل كميناً عليهم سعد الأيسر، فحملت ميسرةُ المعتضد على مَيْمنة خُمارَويه فانهزمت. فلمَّا رأى خُمارَويه ذلك، ولم يكن رأى مصافًّا قبله، ولّى منهزماً في طائفة من الأحداث الّذين لا عِلْمَ لهم بالحرب، ولم يقف دون مصر.

ونزل المعتضدُ إلى خيام خُمارَويه وهو لا يَشكُّ في تمام النَّصر، فخرج سعد الأيسر بالْكَمين وانضاف إليه مَنْ بقي من الجيش، ونادَوْا بشعارهم وحملُوا على عسكر المعتضد وقد اشتَغَلُوا بنَهْب السّواد، فوضع المصريُّون السَّيف فيهم. فظنَّ المعتضدُ أنّ خُمارويه قد عاد، فركِبَ وانهزم لا يَلْوي على شيء، ووصَل إلى دمشق فلم يفتح له أهلها، فمضى مُنْهزماً حتّى وصل طرسوس. واقْتَتَل العسكَران وليس لواحدٍ منهما أمير، وطلب سعد الأيسر خُمارَويه فلم يجده، فأقام أخاه أبا العشائر مُقامه. وتمّت الهزيمة على العراقيِّين، وقتل منهم خلق كثيرٌ، وأسر خلق كثير.

[وقال سعيد للعساكر: إن هذا أخو صاحبكم، وهذه الأموال تُنفق فيكم، ووضع العطاء، فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال][2].

وجاءت البشائر بالنَّصر إلى مصر، فسُرّ خمارويه بالظّفر، وخَجِل من الهزيمة، وأكثر الصَّدقة، وفعل مع الأسْرى ما لم يُسْبق إليه، وقال لأصحابه: هؤلاء أضيافُكم، فأكرموهم. ثم أحضرهم بعد ذلك وقال: من اختار المُقام عنْدَنا فله الإكرام والمواساة، ومَن أراد الرُّجوع جهَّزْناه وسيَّرناه، فمِنهم من أقام، ومنهم من عاد مكرَّماً. وسارَت عساكرُ خُمارَويه إلى الشَّام ففتحه أجمع، واستقر ملك خُمارَويه[3].

= في التاريخ، ج ٧، ص ٤١٤. «هذا الموضع على نهرِ أبي فطرس»، الكندي الولاة والقضاة، ص ٢٣٥، في ابن تغري بردي: هذا النهر معروف بالطواحين النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٢، إضافة من ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤١٤.

(١) و(٢) ما بين حاصرتين إضافة في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٤١٥.

(٣) انظر ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين زُلْزِلت مصر في جُمادى الآخرة زلزلَةً شديدة أخْرَبَت الدُّور والمسجد الجامع، وأحْصي بها في يومٍ واحدٍ ألف جنازة.

ذكر اختلاف محمد بن أبي الساج وإسحاق بن كنداجق والخطبة لخمارويه بالجزيرة

وفي سنة ثلاثٍ وسبعين ومائتين فسَدت الحالُ بين محمد بن أبي الساج وإسحاق ابن كنداجق، وكانا قبل ذلك متّفقين بالجزيرة.

وسببُ ذلك أنَّ ابن أبي السّاج نافَسَ إسحاق في الأعمال وأراد التقَدُّم، فامتنع إسحاق عليه، فكاتَب محمَّدُ بن أبي الساج خُمارَويه وانضمَّ إليه، وخطب له بأعماله، وهي قِنَّسرين، وسير ولده دِيَوذَاد إلى خمارويه رهينةً، فأرسل خُمارَويه إلى الشّام، واجتمع هو وابن السّاج ببالِس[1] وعبر ابنُ أبي السّاج الفرات إلى الرَّقَّة[2] فلقيه إسحاق، وكان بينهما حرب انجلت عن انهزام إسحاق، واستولى ابنُ أبي الساج على ما كان معه. وعبر خُمارَويه الفرات ونزل الرَّافِقَة[3]، وانهزم إسحاق إلى قلعة مَارِدِين[4]، فحصره ابنُ أبي السّاج بها، وسار عنها إلى سنجار[5]، وأوْقَع بطائفةٍ من الأعراب. وسار إسحاق إلى الموصل فلَقِيَه ابنُ أبي الساج ببَرْقَعِيد[6]، وكَمَّن له، واقتتلُوا، فخرج الكمينُ على إسحاق، فانهزمَ وعاد إلى مَارِدِين. فقَوي ابنُ أبي السّاج وظهر أمره، واستولى على الجزيرة والموْصِل، وخطب لخمارويه فيها، ثمّ لنفسه بعده.

وفيها أيضاً ثار السُّودان بمصر، وحصَرُوا صاحبَ الشّرطة[7]، فركِب خُمارَويه بنفسه، وبيده سيفٌ مسلول، وقصد دَارَ صاحبِ الشُّرطة، فقتَل مَنْ لَقِيَه من السُّودان، فهُزِموا، وكثر القتل فيهم، وسكنت مصر.

---

(١) بالِس: بلد بالشام بين حلب والرقة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٢) الرَّقة: مدينة بالعراق مما يلي الجزيرة. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٧٠.
(٣) الرافقة: بلدة متصلة البناء بالرقة على الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥ ـ ١٦.
(٤) ماردين: قلعة على قمة جبل بإقليم الجزيرة. ومنازلها متدرجة على سفح الجبل. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٩.
(٥) سُنجار: بلدة في لحف جبل عال، قرب الموصل، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
(٦) برقعيد: بلدة من أعمال الموصل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.
(٧) هو موسى بن طونيق الذي صرف في سنة ٢٧٤ هـ/ ٨٨٧ م. الكندي، الولاة والقضاة ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

ذكر الاختلاف بين خمارويه ومحمد بن أبي السّاج والحرب بينهما

وفي سنة أربع وسبعين ومائتين خالف محمّد بن أبي الساج على خُمارَويه، فسار خمارويه إلى الشّام، فقَدِمَها في آخر السّنة، وسار ابن أبي السّاج إليه، فالتَقَوْا عند ثنيّة العقاب[(١)]، على مرحلةٍ من دمشق إلى جهة حمص. واقتتلوا في المحرّم سنة خمسٍ وسبعين، فانهزمت ميمَنةُ خُمارَويه، وأحاط عسكَرُ خُمارويه بابن أبي السّاج، فانهزم، واستُبِيحَ عسكرُه.

وكان قد خلَّف بحمص أموالاً كثيرة، فندب خُمارَويه إليها قائداً من قوّاده في جيشٍ جريدةٍ[(٢)] فسبقوا ابنَ أبي السّاج إليها ومنعُوه من الدّخول والاعتصام بها، واستولوا على أمواله الّتي بها. فمضى إلى حلب، ومنها إلى الرَّقَّة، فتبعه خُمارَويه، ففارقَها. وعبر خمارويه الفرات وسار في أثرِه، فوصل إلى مدينة بَلَد[(٣)]، وسبقه ابنُ أبي السّاج إلى الموصل، ثمّ فارقها إلى الحديثة[(٤)]، وأقام خمارويه ببَلَد، وعُمِلَ له سريراً طويلَ الأرجُل، وكان يجلس عليه في دجلة.

ذكر الدعاء لخمارويه بطرسوس

وفي سنة سبعٍ ومائتين دعا يا زمان بطرسوس لخُمارَويه، وسببُ ذلك أنَّ خمارويه أنْفَذَ إليه ثلاثين ألفَ دينار، وخمسمائة ثوب، وخمسمائة مطرف، وسلاحاً كثيراً، فلمَّا وصل ذلك إليه، دَعَا له، ثمّ وجَّه إليه خمسين ألف دينار.

ثم توفي يا زمان في جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وسبعين، فخلفه ابنُ عجيف، وكتب إلى خُمارَويه بوفاة يا زمان، فأقرَّهُ على ولاية طرسوس، وأمدَّه بالخيل والسّلاح والذخائر، ثمّ عزله، واستعمل عليها ابنَ عمِّه محمَّد بن موسى بن طولون.

ذكر الفتنة بطرسوس

وفي سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين ثار النَّاسُ بطرسوس بالأمير محَمد بن موسى، فقبضوا عليه. وسببُ ذلك أنَّ الموفق كان له خادم من خواصه يقال له رَاغِب؛ فلمَّا

(١) ثنية العقاب: بالضم، تشرف على غوطة دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٥.
(٢) الجريدة: الجماعة من العسكر الفرسان، ابن منظور: لسان العرب (جرد).
(٣) بَلَد: المقصود هنا بليدة من نواحي دجيل قرب الحظيرة من أعمال بغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.
(٤) الحدثية: كورة من كور الموصل، مدينة على شاطىء دجلة. الحميري: الروض المعطار، ص ١٩٠.

مات الموفَّق اختارَ راغب الجهاد، فسار إلى طرسوس على عَزْم المقام بها، فلمَّا وصل إلى الشّام سيَّر ما مَعه من دَوابٍّ وآلات وخيام وغير ذلك إلى طرسوس، وسار هو جريدة إلى خُمارَويه ليزُورَه ويعرِّفَه ما عزم عليه، فلَقِيَ خُمارَويه بدمشق، فأكرمه خمارويه وأنِس به وأحبَّه، فاستحْيَا راغب أن يَطْلُب منه المسير إلى طرسوس، فطال مُقامُه عنده. فظنَّ أصحابه أنَّه قَبَض عليه، وأذاعوا ذلك، فاستعْظَمه الناس، وقالوا: يَعْمَد إلى رجلٍ قصد الجهاد في سبيل الله فيقبض عليه، فشغَبُوا على أميرهم، وقبضوا عليه، وقالوا: لا تزالُ في الحبس حتى يُطْلِق ابنُ عمِّك خمارويه راغباً، ونهبوا دارَه، وهتكُوا حرمه.

وبلغ الخبر خُمارَويه فأطْلَع راغباً عليه، وأذِن له في المسير إلى طرسوس. فلمَّا دخلها أطلق أهلُها أميرهم محَمد بن موسى، فسار عنها إلى البيت المقدّس. ولمَّا سار عنها وَلِيَها أحمد العجيفي، وكان يليها قبل ذلك[١].

ذكر زواج المعتضد بالله بابنة خمارويه بن أحمد بن طولون

قال: ولمَّا توفي المعتمد على الله[٢] وتولَّى المعتضد بالله[٣] بادَرَ خُمارَويه إليه بالهدايا الجليلة على يد الحسَين[٤] بن عبد الله بن منصور بن الجَصَّاص الجوهري، فأقرَّه المعتضد بالله على ما بيده من الأعمال. وسأل خُمارَويه المعتضد أن يزوّج ابنته قطر الندى[٥] للمكتفي بالله وليّ العهد، فقال المعتضد بل أنا أتزوجها [وكان ذلك][٦]

(١) انظر ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٥٠.

(٢) «وفي رجب سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. توفي المعتمد على الله أحمد بن المتوكل على الله جعفر العباسي، وله خمسون سنة وكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة ويومين. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٢، ص ١٧٣. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٥٥.

(٣) المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل. ولي الخلافة العباسية في بغداد في الفترة بين ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م. تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٢. كانت وفاته سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. مدة خلافته ٩ سنوات و٩ أشهر و١٣ يوماً. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ١٤٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٣، ص ١٤٠، ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٩٩.

(٤) وهو الحسين بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن الجصاص، التاجر الجوهري توفي يوم الخميس، ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٦ = ٩٠٨ م، تاريخ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٧٧، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٥) قَطر الندى: واسمها أسماء، توفيت سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م. وابن خلكان: وفيات الأعيان:، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

في سنة ثمانين، وحُمِلَت إليه في سنة إحدى وثمانين ومائتين، وأصْدَقها ألف ألف درهم.

وقيل: إنّ المعتضد بالله إنَّما قَصَد بزواجها إفقارَ الطُّولُونيَّة، وكذلك كان، فإنَّ خمارويه جهَّزَها بجهاز لم يسمع بمثله[١]، حتى قيل إنَّه كان لها ألف هاون من ذهب، وشرط المعتضد على خُمارَويه أنْ يحمل في كلِّ سنة مائتي ألف دينار، بعد القيام بجميع وظائف مصر وأرزاق الجند، فأجاب إلى ذلك.

ذكر مقتل أبي الجيش خمارويه

كان مقتلُه في ليلة الأحد لثلاثٍ بَقينَ من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وقيل[٢] في ذي الحجة منها بدمشق.

وكان سببُ قتله أنَّه قيل له إنَّ جواري داره قد اتَّخَذَت كلُّ واحدةٍ منهنّ خَصِيًّا وجعلته لها كالزّوج، وقال له النّاقل إنْ شئت [أن][٣] تعلم صحَّة ذلك فقَرِّرْ بعضَ الجواري بالضّرب، فكتب مِن وَقْتِهِ إلى نائبه بمصر يأمرُه أنْ يسيِّر إليه الجواري، فاجتمع جماعةٌ من خَدَم الخاصّة وتواعدوا على قتله، فذبحوه على فراشه ليلاً. فلما قُتِل من خَدمه الّذين اتُّهِموا بقَتله نيِّفٌ وعشرون نفساً.

وحُمل خُمارَويه إلى مصر فدفن بجبل المقطّم. وكانت مدّة ملكه ثنتي عشرة سنة وأياماً.

ذكر ولاية أبي العشائر جيش ابن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الثالث من الملوك الطولونية

ملك بعد وفاة أبيه في يوم الأحد لثلاثٍ بقين من ذي القَعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين. وذلك أنّ خُمارَويه لمّا قُتل اجتمع القوّادُ على ابنه أبي العشائر وبايعوه، وكان مع أبيه بدمشق، وهو أكبر ولده، ففرّق فيهم الأموال، ورجع إلى مصر، وكان صبيًّا غِرًّا.

ذكر عصيان دمشق على جيش وخلاف جنده وقتله

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين خرج جماعةٌ من قوّاد جيش بن خمارويه

---

(١) ذكر جهازها في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣١٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١، ص ٤٠٤، ج ٢، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٧٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٧٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة تتفق وسياق الكلام في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٤٧٥.

وجاهرُوه بالخلاف، وقالوا: لا نرضى بك أميراً، فاعْتَزَلْنا حتى نولّي الإمارة[١] عمّك.

وكان سببُ ذلك أنه لمّا وَلِي قَرَّبَ الأحداث والسَّفل[٢]، وأخلد إلى سماع أقوالهم فغيّروا نِيّته على قواده وأصحابه، فصار يقَعُ فيهم ويذمُّهم، ويُظهر العزمَ عَلى الاستبْدَالِ بهم، وأخْذِ نعمهم وأموالهم، فاتَّفقوا على قَتْله وإقامة عَمّه. فبلَغَهُ ذلك فلم يَنْتَهِ، وأطلق لسانه فيهم، ففارقه بعضُهم، وخلعه طُغْج بن جُفّ[٣] أمير دمشق.

وسار القوّادُ الذين فارقوه إلى بغداد، وهم: محمّد بن إسحاق بن كنداجق، وخاقان المفلحي، وبدر بن جُفّ أخو طغج، وغيرهم من قوّاد مضر[٤]. فسلكوا البرِّيَّة وتركوا أموالَهم وأهليهم، فتاهوا أيّاماً، ومات جماعةٌ منهم من العطش، وخرجوا فوق الكوفة بمرحلتين، وقَدِمُوا على المعتضد، فخَلَعَ عليهم، وأحسن إليهم. وبقي سائرُ الجند بمصر على خلافِهم، فسألهم كاتبُه علي بن أحمد الماذرائِي أن ينصرفوا يومهم ذلك، فرجعوا، فقتل جيش عمَّيْن من عمومته[٥]، فثار الجند إليه، فرمَى لهم بالرّأسَيْن، فهجم الجند عليه وقَتلُوه، ونهبوا داره، ونهبُوا مصر وأحرقوها[٦]. وكانت ولايتُه تسعة أشهر، وقيل ثمانية، والله أعلم.

ذكر ولاية أبي موسى هارون بن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وهو الرابع من ملوك الدولة الطولونية

ملك بعد مقتل أخيه في سنة ثلاثٍ وثمانين ومائتين، وهو ابن عشر سنين، فاختلَّت الأحوال، واختلف القوّاد وطمعوا، فانحلّ النظام، وتفرَّقت الكلمة، ثم اتَّفقوا على أن جعلوا أبا جعفر بن أبي التُّركي مدبّر الدولة، وكان مقدَّماً عند أبيه وجدّه. فأصلح الأحوال جَهْد طاقَتِه. وجَهز جيشاً إلى دمشق عليه بدر الحمامي والحسَن بن

(١) «فتنحَّ عنّا حتى نُولّي عمَّك نصر بن أحمد بن طولون، فخرج إليه كاتبه علي بن أحمد الماذرائي وسألهم أن ينصرفوا عنه يومهم فانصرفوا»، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٦، أو في ابن الأثير الكامل ج ٧، ص ٤٧٨، «فاعتزلنا حتى نُولّي عمك الإمارة».

(٢) السَّفل: الأرْذال من الناس. ابن منظور: لسان العرب (سفِل).

(٣) قلّده أبو الجيش خمارويه دمشق وطبرية. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٥٧.

(٤) انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٣٧٤. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٨.

(٥) «قبض جيش على عمّيه وشَيْبَان ابني أحمد بن طولون». انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٧.

(٦) انظر: تاريخ الطبري ج ٨، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٤٢. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٠٨.

أحمد الماذرائي، فأصلحا حالَهَا، وقرَّرَا أمور الشّام، واستعملا على دمشق طُغج بن جُفّ الفَرْغاني، وهو والدُ الإخشيد، ورجَعَا إلى مصر، وفي الأمور اختلالٌ، والقوّاد قد تغلَّبُوا، وضمّ كلٌّ منهم إلى نفسه طائفةً من الجند، ولم يزل الأمر على ذلك إلى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

ذكر انقراض الدولة الطولونية

كان انقراضها في يوم الخميس لِلَيْلَتَين بقيتا من صفر، سنةَ اثنتَيْن وتسعينَ ومائتين.

وسببُ ذلك أن الخليفة المكتفي بالله[1] ندب محمّد بن سُليمان كاتب الجيش في سنة إحدى وتسعين ومائتين، وخلع عليه وعلى جماعةٍ من القوّاد، وأمرَهُم بالمسير إلى الشّام ومصر وانتزاعهما من هارون بن خُمارَويه، لِمَا ظهر من عَجْزه واختلاف أصحابه عليه.

فسار عن بغداد في شهر رجب، هو وعشرة آلاف، ووصل إلى حُدود مصر في المحرَّم سنة اثنتين وتِسْعين ومائتين، ووجَّه المكتفي أيضاً دميانة الرّومي غلام يَا زمان بالمراكب، فوصل إلى تنّيس[2] ودخل نهر النّيل، فوجه إليه هارون جماعةً من القوّاد، فالتَقَوْا، فهزمهُم دميانة، وزحف محمّد بن سليمان بالجيوش في البرّ حتى دَنَا من مصر، وكاتب مَنْ بها من القوّاد، فكان أوّل مَنْ خرج إليه والتحق به بدر الحمامي، وهو رئيس القوّاد ففتّ ذلك في أعضاد المصريّين. وتَتَابَع القوّاد إليه. فلمّا رأى هارون ذلك خرج بِمَن بقي معهُ من القوّاد لقتال محمّد بن سليمان، فكانت بينهم حُروبٌ، ثمّ وقع بين أصحابِ هارون في بعض الأيّام، فاقتتلُوا، فخرج هارون ليسكّنَهم، فرماهُ بعضُ المغاربة بمِزْرَاقٍ[3] فقتله، وقيل بل فَعَل ذلك عمُّه شيبان، وذلك لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من صفر، سنةَ اثنتين وتسْعِين ومائتين.

وكانت مدة ولايته نحواً من تسع سنين تقريباً.

فبايع الأجناد عمّه أبا المقانب شيبان بن أحمد بن طولون، وهو الخامس من ملوك الدَّولة الطُّولُونية، وعليه انقرضت.

(١) هو علي (المكتفي بالله) بن أحمد المعتضد ابن الموفق ابن المتوكل، أبو محمد ٢٦٣ ـ ٢٩٥ هـ/ ٨٧٦ ـ ٩٠٨ م. ولي الخلافة العباسية ببغداد من ٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م، ترجمته وأخباره في: سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢، الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٢) تنّيس: في المدن المصرية القديمة، ما بين الفرما ودمياط، وهي جزيرة ببحيرة المنزلة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي. القسم الأول، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) المِزرَاق: رمحٌ قصير. ابن منظور: لسان العرب (زرق).

قال: ولمّا بويع بذل الأموال للجند فأطاعوه[١]، وقاتلوا معه قتالاً شديداً، ثم لم يلبثوا أن وافتهم كُتُب بدر الحمامي يدعوهم إلى الأمان فأجابوه إلى ذلك. وسار محمّد ابن سليمان إلى مصر، فدخلها في يوم الخميس لِلَيْلَتَين بقِيَتَا من صفر، سنة اثنتين وتسعين ومائتين، فأرسل إليه شيْبَانُ يطلب منه الأمان، فأمّنه، فخرج إليه ولم يعلم به أحدٌ من جنده، فلمّا أصبحوا قصدُوا دَار الإمارة[٢] فلم يجدوه، فبقُوا حَيَارى.

واستولى محمّد بن سليمان على مصر، وعلى منازل آل طولون وأموالهم وقبض عليهم كلِّهم، وهم عشرون رجلاً، فقيدهم وحبسهم، واستصفى أموالهم. وكتب بالفتح إلى الخليفة[٣] فأمره بإشخاص آل طولون وأشياءهم[٤] من مصر والشام إلى بغداد، فحملهم وأتباعهم وأَنْقَاض قصورهم، وعاد إلى بغداد، وولّى معونة[٥] مصر عيسى النوشري[٦].

وانقرضت الدّولة الطُّولونيّة، وكانت مدّتُها من لَدُنْ ولاية أحمد بن طولون وإلى آخر أيام أبي المقانب سبعاً وثلاثين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وملك منهم خمسة نفر.

---

(١) «فأطلقوه» ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٢) «قصدوا داره» ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٣) يقصد المكتفي بالله. ابن الأثير: الكامل، ص ٥٣٦.

(٤) «وأسباهم» في الأصل: «وأسبابهم»، في تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٢٣٤. وابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٥) معاوية في الأصل والتصحيح من ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٦) انظرالولاة والقضاة للكندي، ص ٢٥٨. وهو عيسى بن محمد، الأمير أبو موسى النّوشري، ولاّه الخليفة المكتفي من بغداد على مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٦٢.

ذكر أخبار من ولي مصر بعد انقراض الدّولة الطولونية وإلى قيام الدّولة الإخشيديّة من الأعمال وملخّص ما وقع في أيامهم من الحوادث

لمّا انقرضت الدولة الطولونية كما ذكرنا، كان أول من ولي مصر عيسى النوشري، رتّبه في ولاية معونتها محمّد بن سليمان الكاتب، فلما سار محمد إلى العراق ظهر بمصر رجل يسمى إبراهيم الخليجي وتغلب عليها.

ذكر إبراهيم الخليجي[1] وما كان من أمره

كان إبراهيم هذا من القوّاد الطُّولونية، وكان قد تخلّف عن محمّد بن سليمان[2]، فاستمال جماعة وخالف على السُّلطان وكثر جمعه. وعجز النوشريّ عنه، فسار إلى الإسكندرية، ودخل الخليجي مصر. وكتب النوشريّ إلى المكتفي بالخبر، فندب إليه الجنود مع فاتك مولى المعتضد، وبدر الحمّامي، فساروا في شوّال سنة اثنتين وتسعين ومائتين، ووصلوا إلى نواحي مصر في سنة ثلاث، فتقدم أحمد بن كيغلغ[3] في جماعة من القوّاد، فلقيهم الخليجي بالقرب من العريش، فهزمهم أقبح هزيمة، فندب من بغداد جماعة من القوّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ[4] فخرجوا في شهر ربيع الأول، واتّصلت الأخبار بقوة الخليجي حتى برز المكتفي بالله إلى باب الشماسيّة على عَزْم المسير إلى

---

(١) ورد اسمه «إبراهيم الخليجي» في تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٢٣٤. «وابن الخليج» في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٥٩، و«محمد بن علي الخلنجي» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٧٠. و«محمد بن علي الخليج» في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٧. و«الخلنجي» في الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٥٣٦.

(٢) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٧١. وتاريخ اللأمم والملوك للطبري، ج ٨، ص ١٣٤.

(٣) ترجمته في، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٤٠. ذكر ابن عساكر أن أحمد كان أديباً شاعراً. ولي حكم مصر مرتين سنة ٣١١ هـ = ٩٢٣ م، ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م، الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٧٩ و٢٨٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٤) ذكر ابن خلكان أن وفاته كانت في مستهل ذي القعدة سنة ٣٠٣ هـ. وفيات الأعيان ج ٥، ص ٦٣.

مصر، ثم التقى القوّاد بالخليجي، واقتتلوا قتالاً شديداً عدة دفعات، كان آخرها أن انهزم الخليجي ودخل فسطاط مصر، واستتر عند رجل من أهلها، ودخل عسكر الخليفة فظفروا به وأخذوه هو والذي استتر عنده[١] وحبسوهما، وكتبوا بذلك إلى الخليفة، ووجه فاتك إبراهيم الخليجي إلى بغداد، فدخلها هو ومن معه في شهر رمضان، فحبسهم المكتفي.

واستقر عيسى النوشري بمصر إلى سنة سبع وتسعين ومائتين، فتوفي في شعبان منها، وحمل إلى البيت المقدس فدفن به.

واستعمل المقتدر[٢] على مصر تكين الخاصّة[٣] في منتصف شهر رمضان من السّنة.

وفي سنة ثلاثمائة ندب تكين عسكراً وجعل مقدمه أبا النمر[٤] أحمد بن صالح، فمضى إلى برقة والتقى مع عسكر حُباسَة قائد المهْدِي، وأبلى بلاء حسناً، ثم صرفه تكين وولي حر المنصوري فمضى إلى برقة فوجد أبا النمر موافقاً لحباسة، فلمّا علم أبو النمر بعزله تخاذل حنقاً على تكين، فاغتنم حباسة الفرصة وحاربهما، فكسرهما، وعادَا إلى مصر.

ذكر استيلاء حُباسَة على الإسكندريّة

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة سار حباسة[٥] قائد المهدي من برقة ودخل الإسكندرية وملكها، فوصل من بغداد أحمد بن كيغلغ، وأبو قابوس محمود بن حمد، والقاسم بن سيما، في جمع من القوّاد والعساكر، وكان وصولهم في العشرين من صفر، فخرج بهم تكين إلى الجيزة في يوم الاثنين لسبعٍ خلَوْن من جمادى الأولى فعسكر بها، وسار حباسة من الإسكندرية بعسكر مستوفى، ونودي في فسطاط مصر بالنّفير في

---

(١) كان ذلك في سنة ٢٩٣ هـ. الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٦٢.

(٢) هو جعفر بن أحمد بن طلحة، أبو الفضل، المقتدر بالله، ولي الخلافة العباسية في بغداد في سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠ هـ. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

(٣) «ولي مصر ثلاث مرات، وتوفي بها في المرة الثالثة يوم السبت لست عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة» ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٦٢.

(٤) هو «أبو النمر» في كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٦٨، و«أبو اليمن» في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٧، و«أبو اليمن» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٩٢.

(٥) أخباره في: تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٢٥٦. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٩٢ (الحاشية) و٢٠٤.

العشرين من الشهر، فخرج الناس إلى الجيزة، ولم يتخلف أحد من الخاصّة والعامّة، وتقدم حباسة في جيوشه والتقى الفريقان وكثرت القتلى بينهم، فقُتِل أكثرُ رجال حباسة، وانهزم بمن بقي معه.

ثم قدم مؤنس الخادم من العراق في منتصف شهر رمضان من السّنة، ومعه جمع من الأمراء، وأمر أحمد بن كيغلغ بالمسير إلى الشام، وصرف تكين الخاصّة عن ولاية مصر لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة. فكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة قدم أبو الحسن ذكا الأعور الرومي أميراً على مصر، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر، وخرج مؤنس بجيوشه إلى العراق لثمان خلون من شهر ربيع الأول، وخرج ذكا إلى الإسكندرية لإصلاحها، وجعل فيها ولده مظفراً وتتبَّع من كان يُذكر بمكاتبة المهدي، فحبس جماعةً منهم، وقطع أيْديَ جماعةٍ وأرجلَهم.

ذكر وصول أبي القاسم بن المهدي[1] إلى الدّيار المصريّة واستيلائه على الإسكندرية والفيّوم[2] والأشمونين[3]

وفي سنة سبع وثلاثمائة، في الثاني من صفر، وصل أبو القاسم بن المهدي بجيوش المغرب إلى الإسكندرية وملكها. وهي الدّفعة الثّانية، فإنه كان قد قدم في سنة إحدى وثلاثمائة وملكها أيضاً، ثم عاد إلى إفريقية.

ووافق وصوله الآن والجند مخالفون لِذكَا أمير مصر، فتقاعدوا عن الخروج معه للقاء عسكر المهدي، فخرج إلى الجيزة في عسكر قليل في النّصف من صفر، وابتنى حصناً بالجيزة، واحتفر خندقاً على عسكره، ثم صُرِف ذُكا، وتُوفّي للَيلةٍ خلت من شهر ربيع الأول من السنة، وكانت مدة إمارته أربع سنين وأياماً.

وقدم أبو قابوس محمود بن حمد أمير الشام بعساكره نُصْرةً لعساكر مصر، فكان قدومُه لثمان خلون من شهر ربيع الأول، ونزل الجيزة، ثمّ قدم إبراهيم بن كيغلغ لسبع بقين من شهر ربيع الآخر. ودخل تكين الخاصّة متولّياً لإحدى عشرة ليلةً خلت من

(١) هو محمد بن عبيد الله، أبو القاسم القائم ابن المهدي العبيدي الفاطمي. ويسمى نزاراً. وهو ثاني ملوك الدولة الفاطمية العبيدية ٢٧٨ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٩١ ـ ٩٤١ م. الزركلي، الأعلام، ج ٦، ص ٢٥٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢١٩.

(٢) الفيوم: في البلاد المصرية، وهو نظر كبير فيه قرى كثيرة. الحميري: الروض المعطار، ص ٤٤٥.

(٣) الأشمونين: مدينة قديمة بالبر الغربي من النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٠٠.

شعبان سنة سبع وثلاثمائة، ونزل الجيزة، وحفر خندقاً ثانياً، وأَقبلت مراكب المهدي صاحب إفريقيّة، وهي مائة مركب حربيّة(١)، وعليها سليمان الحاكم(٢)، فبعث تكين إلى بَمَال الخادم أمير طَرَسُوس أن ينجده، فحضر إليه في مراكبه(٣)، وانتهى إلى ثغر رشيد، والتقت مراكبه بمركب المهديّ لعشرٍ بقين من شوال من السنة، وكان بينهم حرب شديدة، وهبّت ريح على مراكب المهديّ فألقتها إلى البر، وتكسّر أكثرُها وأُسر مَن فيها، وقتل منهم خلق كثير، ودخل من بقي منهم إلى الفسطاط، وهم سبعمائة نفر، فقُتلوا عن آخرهم.

وقدم مؤنس الخادم من بغداد في الخامس من المحرم سنة ثمان وثلاثمائة(٤)، وتولّى إمرة مصر من بغداد هلال بن بدر، ودخلها في السّادس من ربيع الآخر سنة تسع وثلاثمائة، وأقام إلى سنة(٥) عشرة، فشغب(٦) عليه الجند، وكثر النهب والقتل والفساد بمصر فصُرف هلال عن مصر في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. فكانت مدة ولايته نحو سنتين.

وتولى مصر أحمد بن كيغلغ(٧) فقدمها في شهر رجب من السنة، فأقام بمنية الأصبغ(٨)، وأحضر الجند، ووضع العطاء فيهم، وأسقط كثيراً من الرَّجالة، فسعت الرجال عليه، وخرجوا لقتاله، فانتقل إلى فاقوس وأقام بها إلى أن قدم رسول تكين الخاصّة بولاية مصر، وذلك في ذي القعدة من السّنة.

وقدم تكين من العراق لعشر مضين من المحرم سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة، فكان

---

(١) ذكر المقريزي: «وهي ثمانون مركباً» في أتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٧١.

(٢) هكذا بالأصل، أما في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧١، فقد ورد «عليها سليمان الخادم ويعقوب الكنافي»، وانظر أيضاً:الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٧٦.

(٣) «أمر الخليفة المقتدر إرسال مراكب طرسوس. انظر: اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧١.

(٤) «وصرف تكين عن مصر يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة، وولي مؤنس عليها أبا قابوس محمد بن حمك، فأقام عليها أياماً، ثم رد تكين عليها يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الأول فأقام أربعة أيام». الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٧٨.

(٥) في الأصل: «وأقام إلى ست عشرة». وجاء التصحيح من الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٧٩.

(٦) ورد في الأصل: «فشعت» وما أثبتناه عن الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٧٩.

(٧) هو أحمد بن إبراهيم بن كيغلغ أبو العباس: من أمراء العصر العباسي، تركي الأصل، الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٨٥، وانظر ترجمته وأخباره في ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٢، والكندي: الولاة والقضاة ص ٢٧٩ ـ ٢٨٦.

(٨) منية الأصبغ: هي اليوم قرية الدمرداشي شرقي القاهرة خارج باب الفتوح. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٢. وانظر أيضاً محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ١ ـ ص ٤٢٨، حيث يقول: «وعرفت في العصر الفاطمي بقرية الخندق».

بها إلى أن توفي في السادس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وحمل إلى بيت المقدس فدفن هناك، فكانت مدة ولايته هذه تسع سنين وأربعة أشهر إلا أربعة أيام، واستخلف ابنه محمد، وكان الوزير بمصر والمتولّي لخراجها يومئذٍ محمد بن علي الماذرائي(١) فوقع بينه وبين محمد بن تكين فتنة لأربع بقين من الشهر، وانتشرت حتى قامت الحرب بينهما، وقتل فيها جماعة من الفريقين وأحرق دور الماذرائي الوزير وجماعة من أصحابه.

وخرج محمد بن تكين هارباً من مصر، ودُعي بمصر لمحمَّد بن طُغج بن جُفّ الإخشيدي في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السَّنة، ثم دُعِي لأحمد بن كيغلغ(٢) في شوال من السنة، ثم رجع محمد بن تكين إلى مصر في يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وأقام بالجيزة أياماً، ودخل دار الإمارة بمصر، واستقر بها لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، ودُعِي له بالإمارة ثمّ وقع بينه وبين عرب المغاربة حرب انجلت(٣) عن انهزامهم إلى الصَّعيد، وأقام محمد بن تكين ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ثم هرب مع جماعة من أصحابه لخمس خلون من شهر رجب. ودخل أحمد بن كيغلغ في يوم السّبت السّادس من الشهر، ثم رجع محمد بن تكين لقتاله لثلاث بقين منه، وكان بينهما حرب انجلت(٤) عن انهزام محمد بن تكين، ثم نفي بعد ذلك إلى الصعيد، فلم يزل هناك إلى أن جاء محمّد بن طُغج.

---

(١) في الأصل، وعقد الجمان للعيني «المارداني»، وفي المواعظ والاعتبار للمقريزي «المادراني» و«الماذرائي» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٢٣٢. وأيضاً: في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٤٤.

(٢) في الأصل: محمد بن كيغلغ، وما أثبتناه عن الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٨٢، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٢.

(٣) و(٤) في الأصل: «أجلت» والتصحيح يقتضيه سياق الكلام، وما ورد في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٨٢.

ذكر أخبار الدولة الإخشيدية وابتداء أمر من قام بها وكيف كان سبب ملكه وقيامه ومن ملك بعده إلى أن انقرضت أيامهم

كانت هذه الدَّولة بمصر والشام، وهي من الدُّول المشهورة، وأول من ولي من ملوكها الإخشيد أبو بكر محمد بن طغج. واسم طغج عبد الرحمٰن بن جُفّ بن يَلْتَكين ابن فُوري[1] بن خاقان الملك، وهو من فرغانة، وكان طغج من القواد الطّولونيّة، وتولّى لخمارويه بن أحمد بن طولون[2] دمشق والشام. ولما مات طُغج ترك من الأولاد أبا بكر محمداً الإخشيد، وأبا القاسم عليًّا، وأبا المظفر الحسين، وأبا الحسن عبيد الله، وكان أبو بكر أكبرهم فتولّى الولايات وتنقل في المراتب إلى أن ملك مصر والشام.

وكان ابتداء ولايته الدّيار المصرية والدعاء له بها في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، كما قدمناه، ولم تثبت ولايته هذه. ثم دُعي لأحمد بن كيغلغ، وكان ما ذكرناه، ثم وَلِيَ مصر في سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة في خلافة الرّاضي بالله[3].

وكانت هذه الولاية مفتعلة في ابتدائها، وذلك أن التقليد من دار الخلافة ببغداد خرج باسم محمد بن تكين الخاصّة، وكان ابن طغْج بالسّاحل فقبض على الرّسول الواصل من دار الخلافة وأخذ منه التقليد وكشط[4] «تكين» وكتب «طغج» وأنفذ التقليد إلى مصر فورد في يوم السبت لثلاث عشرة ليلةً خلت من شعبان، فاعتزل أحمد بن

---

(١) «ابن قروي» في الأصل، وما أثبتناه من وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٥٦، رقم ٦٨٩. ترجمته وأخباره في: ابن الأثير، الكامل في التاريخ (صفحات متفرقة من ج ٨) وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٣٧، والكندي: الولاة والقضاة: ٢٨١، ٢٨٦، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٢) فرغانة: في خُراسان، بينها وبين سمرقند ثلاثة وخمسون فرسخاً. الحميري: الروض المعطار، ص ٤٤٠.

(٣) هو أحمد بن جعفر المقتدر بالله، أبو العباس الراضي بالله، ولي الخلافة العباسية في بغداد في الفترة من ٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ = ٩٣٤ ـ ٩٤٠ م، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

(٤) كشط: نزع. ابن منظور: لسان العرب (كشط).

كيغلغ النّظر، وامتنع محمد بن علي الماذرائي الوزير من التسليم له، وكان غالباً على أمر أحمد [بن كيغلغ][١]، وعزم على قتال محمد بن طغج، فبلغه ذلك، فبعث صاعد بن كلملم بمراكب كثيرة من ساحل الشام، وسار هو في البرّ، فقدمت عساكره مصرَ برًّا وبحراً، ووصل صاعد إلى الجيزة في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان، وأقام خمسة أيام، وأحرق الجسر، ووصل الإخشيد إلى مصر فلقيه محمد بن علي الماذرائي الوزير وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن عيسى النوشري وبرزوا لقتاله. فلما تصافُّوا للقتال انحاز أحمد بن كيغلغ وانضم إلى الإخشيد، وقاتل الماذرائي وابنُ النوشري قتالاً شديداً، ثم انهزما إلى الفيوم.

ودخل الإخشيد مصر بعد القتال في يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان من السنة، فندب صاعداً لقتال الماذرائي وابن النوشري، فوقع بينهما حرب انجلت[٢] عن قتل صاعد وهرب النوشري إلى برقة، وراسل القائِم[٣] صاحب إفريقية يطلب نجدة، فسير إليه عسكراً عليه أبو تازرت[٤] فدخلوا الإسكندرية وملكوها، فخرج إليهم أبو المظفر الحسين بن طغج ومعه صالح بن نافع، ووقع بينهم القتال، فانهزم النوشري وعسكر المغاربة، وقتلوا أبو تازرت، وأسر عامر المجنون، وجماعة منهم. وأما محمد بن علي الماذرائي الوزير فإنه استتر، ودام استتاره إلى أن دخل الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وتلقاه الإخشيد، وزينت له مصر، فأخرجه. ثم وصل التقليد من دار الخلافة لمحمد بن طغج في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة نعت الخليفة الراضي بالله محمَّد بنَ طُغج بالإخشيد بسؤالٍ منه في ذلك. ومعنى الإخشيد ملك الملوك.

وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام، واجتمع بالخليفة المتقي[٥] بالله بالرَّقة، وخدمه، ومشى بين يديه، وسأله المسير معه إلى مصر وخوَّفه من توزون التّركي، فلم يقبل منه، فضمَّ إليه الإخشيد عسكراً وقائداً من قُوّاده ورجع الإخشيد إلى الشام، ثم إلى مصر. وولاَّه المتقي مصر والشام والحرمين، وعقد لولديه

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) هو الخليفة الفاطمي الثاني بالمغرب وهو القائم بالله أبو القاسم محمد، ولي الخلافة بالمغرب في الفترة في ٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٥. سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٣٣.

(٣) في الأصل: «أبو بارزت» وما أثبتناه عن الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٨٨.

(٤) في الأصل الملتقي بالله، وهو تحريف.

(٥) المتقي بالله: هو أبو إسحاق إبراهيم المتقي بالله، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

من بعده، أَنُوجُور[١] وعلي، على أن يكفلهما[٢] كافور الخصيّ. وكان عوْدُ الإخشيد إلى مصر في يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى، وأخذ البيعة على الناس لولده أبي القاسم أنوجور لليلتين بقيتا من ذي القعدة منها.

ذكر مسير الإخشيد إلى الشام ووفاته وشيء من أخباره وسيرته

وفي خامس شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خرج الإخشيد إلى الشام والتقى بأصحاب ابن حمدان[٣] عَلَى لدّ[٤]، وهزَمَهم. ثم سار إلى حمص وقاتل سيف الدولة ابن حمدان، ومضى إلى حلب. ثمّ وقع الصلح بينهما، وتسلم الإخشيد من سيف الدّولة حلب وحمص وأنطاكيّة[٥]، وتزوج سيف الدولة بنت عبيد الله بن طغج أخي الإخشيد، ثم عاد الإخشيد إلى دمشق فتوفّي[٦] بها في يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجّة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان عمره ستّاً وستين سنة وخمسة أشهرُ وسبعة أيّام، وكانت مدة ولايته الثانية[٧] من لدُن دخوله إلى مصر وإلى حين وفاته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر إلاّ يوماً واحداً.

قال التنوخي[٨]: وكان الإخشيد حازماً شديداً، يتيقّظ في حروبه، حسنَ التَّدبير، مكرماً للأجْناد، أيّداً[٩] في نفسه، لا يكاد يجرّ قوسه الأفذاذ من النّاس لقوته، حسن

---

(١) «هو أنو جور بن الإخشيد محمد بن جُفّ، الأمير أبو القاسم الفرغاني التركي. وأنوجور اسم أعجمي، ومعناه باللغة العربية محمود. وفي هذا الاسم اختلاف في رسمه إذ يقال: أنو جور، وأونوجور، وأنجور، وما أثبتناه عن عقد الجمان الذي ضبطه بالعبارة: بفتح الهمزة وضم النون والجيم بعدها وقبلها واو ساكنة وفي آخره راء ساكنة»، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٢) في الأصل يكلفهما، وهو تحريف.

(٣) هو علي بن عبد الله بن حمدان، سيف الدولة، أبو الحسن حكم حلب في الفترة بين ٣٣٣ ـ ٣٥٦ هـ = ٩٤٤ ـ ٩٦٧ م، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٤٤.

(٤) لُدّ: بالضم والتشديد. من مدن فلسطين بالشام. الحميري: الروض المعطار، ص ٥١٠.

(٥) عن ذكر ملك سيف الدولة مدينة حلب وحمص وصراعه مع الإخشيد، انظر: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٤٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩، والولاة والقضاة للكندي، ص ٢٩٢ ومصر في عصر الإخشيديين لسيدة إسماعيل كاشف، ص ٣٦٧ ـ ٣٧٢.

(٦) «فتولى بها» في الأصل، وهو تحريف، وما أثبتناه عن الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٩٣.

(٧) في الأصل: «الأولى» وما أثبتناه يقتضيه سير الأحداث.

(٨) هو القاضي أبو علي التنوخي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود ابن إبراهيم بن تميم التّنوخي، ولد سنة ٣٢٧ هـ. وتوفي ٣٨٤ هـ. له كتاب «الفرج بعد الشدة»، وكتاب المستجاد من فَعلات الأجواد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٩ ـ ١٦٠، رقم ٥٥٧.

(٩) أيّداً: أيد: اشتد وقوي وصلب، الفيروزابادي: القاموس المحيط.

السيرة في رعيّته، وكان جيشه يحتوي على أربعة آلاف رجل، وله ثمانية آلاف مملوك، يحرسه في كل ليلة منهم[١] ألفا مملوك. وكان إذا سافر يتنقّل في الخيام عند النّوم حتى كان ينام في خيمة الفرّاشين. قال وترك الإخشيد سبع بيوت مال، في كل بيت مال منها ألف ألف دينار من سكّةٍ واحدة.

أولاده: أبو القاسم أُنوجُور، أبو الحسن علي.

كُتّابه: أبو جعفر بن المنفق، وابن قوماقس، وابن الروذباري.

ولما مات ملك بعده ابنه أنوجور.

ذكر ولاية أبي القاسم أَنُوجُور

ومعنى أنوجور محمود، ابن أبي بكر محمد بن طغج، وهو الثاني من ملوك الدّولة الإخشيديّة.

كانت ولايته بالشام بعد وفاة أبيه لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وبويع له بمصر عند ورود الخبر بوفاة الإخشيد في اليوم الثاني من المحرّم سنة خمس وثلاثين، وعمره يومئذٍ اثنتا عشرة سنة. وقام ببيعته الوزير أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل[٢]. وكان أبو المظفّر الحسن بن طغج بمصر فقبض على الوزير محمد بن علي المذكور في ثالث المحرّم، وعزله، وولّى الوزارة[٣] محمد بن علي الماذرائي، وحبس ابن مقاتل، فلم يزل في الاعتقال إلى أن قدم كافور بالعسكر من الشام فأفرج عنه. وكان قدوم كافور بالعسكر في يوم الثلاثاء لثمان مضين من صفر سنة خمس وثلاثين.

ثم خرج كافور بالعسكر إلى الشام ومُقَدّمه أبو المظفّر بن طغج، أخو الإخشيد، وذلك لسبع بقين من شهر ربيع الأوّل. وكان سبب خروجه أن سيف الدّولة بن حمدان طمع في ملك الشام لمّا تُوُفّي الإخشيد، فسار إلى دمشق وملكها، ثم سار إلى الرّملة فلقيه كافور بها وقاتله، وكانت الهزيمة على ابن حمدان. واستعاد الإخشيديّة ما كان سيفُ الدولة استولى عليه، وأقام كافور بالشّام.

---

(١) في الأصل: «منها»، والتصحيح يتفق والسياق لأن الضمير عائد على ثمانية آلاف مملوك.

(٢) هو صاحب خراج مصر. الكندي: الولاة والقضاة، ص ٢٩٤. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٣) في ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة «وولي مكانه على الخراج»، ج ٣، ص ٣٣٤. وفي الكندي: الولاة والقضاة، «وجعل مكانه»، ص ٢٩٤.

ذكر قيام أبي نصر غَلْبُون بن سعيد المغربي وما كان من أمره

كان قيامه في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وكان يتولى عمل أسيوط وأخميم من صعيد مصر، فعزله كافور عنهما وهو بالشام، فامتنع، وطمع لخُلوّ البلاد من الأستاذ كافور، فندب إليه عسكراً فهزمهم غَلْبُون[١] وهزم عسكراً ثانياً، وتقوّى بما أخذه منهم. ثم سار إلى الشّرقيّة في أواخر السّنة ثم سار منها ونزل على بركة الحبش[٢] فخرج إليه جماعةٌ من الإخشيديّة فهزمهم. فرحل عند ذلك أبو القاسم أنوجور وأخوه وأهلهما[٣]، والوزير إلى الشام، وأخليت دارُ الإمارة، فدخل غَلْبون مصر وسَيَّر عسكراً إلى أبي القاسم فتبعه إلى مسجد تبر[٤]، ومُسِك الوزير محمّد بن الماذرائي وجيء به إلى غلبون، فلما رآه أطلقه.

وسار أبو القاسم نحو الشّام، فلقيه مرتاح الشّرابي في أثناء الطَّريق، وقدْ قدم مِنْ قِبَل كافور في جماعة من الإخشيديّة، فردّه. وعاد أبو القاسم إلى مصر بالعسكر فوجدُوا غلْبون وقد تفرّق عنه أصحابُه في البلد، فحاربهم في نفرٍ يسير، فانهزم. ودخلوا دار الإمارة، فوجدوا الوزير ابن الماذرائي، فهمُّوا بقتله، فأخذه القائد منجح وخبأه عنده، ونُهبت دُورُه وأحرق بعضُها.

ووصل الخبر إلى كافور بالشّام فقبض على ولده، واستوزر عوضاً عنه أبا الفضل جعفرَ[٥] بن الفرات المعروف بابن حنزابة، ثم قدِم الأستاذ كافور من الشّام في شهر رمضان، سنة ست وثلاثين، فأطلق الوزير ابن الماذرائي وأكرمه، وردَّ عليه ضِياعَه وأملاكه، واستوزر محمد بن علي بن مقاتل.

---

(١) هو متولي الريف: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٣٥.

(٢) بركة الحبش: من أجل متنزهات مدينة الفسطاط، وكانت تعرف ببركة المغافر والحمير، وتعرف بإصطبل قامش، وكانت في عهد أبي بكر محمد بن علي الماذرائي. المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) في الأصل: «وأهليهم» وما أثبتناه يقتضيه سياق الكلام.

(٤) مسجد تبر: خارج القاهرة، وعرف قديماً بالبئر والجميزة. وتبر أحد الأمراء الأكابر في أيام كافور. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج ٢، ص ٤١٣.

(٥) هو جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، المعروف بابن حنزابة. توفي سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٤٦، رقم ١٣٣. انظر ترجمته في: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٥، ص ٢٧٥، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ج ٧، ص ١٦٣. والمغرب (قسم مصر) ص ٢٥١. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٠٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ١٣٥.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة لِستٍّ خلون من صَفر زُلْزِلَتْ مصر، وتتابعت الزّلازلُ بها، فتهدَّمَ أكثرُ دُورها، وسقط من الجامع العتيق بمصر قطعة، وتوالت الزّلازل في سنة أربعين أيضاً ثلاثة أيامٍ متوالية، وخُسفَ بعضُ القرى وهلك من كان بها.

فقال محمد بن عاصم[١] من قصيدة مدح بها كافور جاء منها: [من البسيط]

ما زُلْزِلَت مِصرُ منْ سُوءٍ يُرادُ بها وإنَّما رَقَصتْ مِنْ عدْلِه فَرحَا

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة انْقضَّت نارٌ من السَّمَاء فأحرقت أكثرَ دُور مصر.

ذكر وفاة الوزير أبي بكر محمد بن الماذرائي وشيء من أخباره ومآثره

وفي شوال من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة مات الوزير أبو بكر محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم الماذرائي، وزر لخمارويه[٢] بن أحمد ولغيره من أمراء مصر، ومولدُه بالعراق سنة سبعٍ وخمسين ومائتين، وكان له ضِياعٌ وأملاكٌ، قيل إن مقدار ارتفاعها[٣] في كل سنة أربعمائة ألف دينار. وواصل الحجَّ من سنة إحدى وثلاثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين، وكان ينفق في كل حجة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وكان يحمل معه أحواضاً من الخشب على الجمال، مزروعٌ فيها الخضراوات، وكان لا ينصرف عن الحجاز إلا وقد استغْنَى فقراؤه. ثم واصل الحج من سنة نيّفٍ وعشرين إلى سنة أربعين. وقام أربعين سنةً يصوم.

وقال المسبّحي في تاريخه[٤]: حَبَس هذا الوزير على مكة والمدينة ضياعاً ارتفاعها نحو مائة ألف دينار في كل سنة، منها كورة سيوط، ومنها نوير، ومنها بركة الحبش، وحبس أيضاً عليهما بالشام. وقال في كُتُب وقفه: منْ بدلها فرسُولُ الله ﷺ خصمه. رحمه الله تعالى.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة خالف شبيب العقيلي، وكان والياً على الرّملة والساحل، وسار إلى دمشق وفتحها، ودخل إليها من باب الجابية، فوقع عن فرسه ميّتاً،

(١) هو محمد بن عاصم الموقفي ويقال له ابن عاصم، من شعراء اليتيمة، مصري توفي عام ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م. الزركلي: الأعلام، ج ٦، ص ١٨١.

(٢) «وزير» في الأصل، وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٣) ارتفاعها: إيرادها.

(٤) هو محمد بن عبيد الله بن أحمد، الأمير المختار عز الملك المسبحي، المتوفى سنة ٤٢٠ هـ = ١٢٠٩ م. صاحب كتاب أخبار مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٧٣.

واخْتُلِفَ في موته، فقيل إن امرأةً أرْخَتْ عليه حجرَ طاحون، وقيل بل مات حَتْف أنفه، واتَّصل الخبرُ بالأُستاذ كافور فسكن بعد قلق عظيم. والله أعلم.

ذكر وفاة أبي القاسم أنوجور
وولاية أخيه أبي الحسن علي بن الإخشيد

كانت وفاتُه لِسبعٍ[١] خلَوْن من ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وكانت مدّة وقوع اسم الملك عليه أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وأيّاماً. وكان كافور هو الغالب على أمره والحاكم في دولته، وليس لأبي القاسم معه إلا مجرّد الاسم.

ولما مات عُقِدت البيعة بعده لأخيه أبي الحسن عليّ في يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من ذي القعدة، فجرى الأستاذ كافور معه على قاعدته مع أخيه، وزاد على ذلك بأنْ حجبَه ومَنَعهُ من الظُّهور إلى النّاس إلاّ معه.

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أنْ تُوُفِّي لإحْدَى عشْرَةَ ليلةً خلت من المحرّم سنةَ خمسٍ وخمسين[٢] وثلاثمائة، وكانت مدة ملكه خمس سنين وشهرين وأيّاماً، وقيل: إنّ وفاته كانت في هذا التاريخ من سنة أربعٍ وخمسين، وكان مولده لأربع بقين من صفر سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة، وخلّف ولداً واحداً وهو أبو الفوارس أحمد.

ذكر ولاية أبي المسك كافور الخصيّ الإخشيدي
واستقلاله بملك مصر دون شريك ولا منازع

كانت ولايته بعد وفاة أبي الحسن علي، ابن سَيده، لإحدى عشرة ليلةً خلَتْ من المحرّم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وقيل في هذا التاريخ من سنة أربعٍ وخمسين.

قال الفرغاني المؤرخ: لمّا توفي عليّ بن الإخشيد استدعاني كافور وقال لي: ما ترى أن أصنع؟ فقلت له: أيها الأستاذ إنّ للمرحوم عندك صنائعَ وآثاراً تقتضي أن يُنْظَر لعقبه؛ والرأيُ عندي أن تنصب أحمد ابن الأمير عليّ مكان[٣] أبيه، وتدبر أنت الدولة كما كنت. فاعتذر بصغره، فقلت: قد عُقد لأبيه ولم يبلغ سِنَّهُ، وأجاز ذلك ثلاثة أئمّة:

---

(١) لثمانٍ في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٩٦.
(٢) هذا التاريخ مذكور في الولاة والقضاة للكندي، ص ٢٩٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٤.
(٣) في الأصل ورد: «ما كان» والتصحيح يقتضيه السياق.

المتّقي والمستكفي[١] والمطيع[٢]. فقال: ننظر في ذلك. وانصرفت. فبلغني أنّه قال بعدي: أبو محمد لا يُشَكّ في ولائه[٣] لكنه يميل إلى الفَرْغَانِيَّة، ثم لم يقبل ما أشار به الفرغاني، بل وثب على الأَمر وأنزل اسم مواليه عن المنابر، وأقام كذلك إلى أن تُوُفِّي في يوم الثلاثاء لعشرين بَقِينَ من جُمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة.

وكان سبب وفاته أنه سُمَّ في لوزينج[٤] قدمته له إحدى جواريه وقد أتى من الميدان وهو جائع، فأكله ومات، وقُتِلت الجاريةُ بعده، وكانت قد وُضعت لذلك. ومات وله من العمر خمس وستون سنة على التَّقدير، فإنه جُلِب في سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة وعمره أربع عشرة سنة، وبيع باثْنَي عشر ديناراً[٥].

قال المؤرخ: وكان لكافور معروف في كل سنة للحاج أكثر ما[٦] يُنْفِذُ معهم مالاً وكُسوة وطعاماً، ويبعث معهم صندوقين من كُسوة بَدَنِهِ تُفرّق على الأشراف. وكان له الغلمان الأتراك ألف وسبعون غلاماً يغلق عليهم باب داره، وتمام الألفي غلام روم، سِوَى الْمُوَلَّدين والسُّودان، يكون عدّةُ غلمانه أربعة آلاف غلام. وكان راتبه في مطبخه في كل يوم ألف وسبعمائة رطل لحماً سوى الدّجاج والفراريج والخراف المشويّة والحلوى وغير ذلك. وخُطب له بالحرمين الشريفين، ونَفَذَ حكمه في الشّام والحجاز وطَرَسُوس. وكانت له خزانة شراب يُفرَّق منها في كل يوم خمسون قرابة[٧] من سائر الأشربة في الحاشية. ولما مات كافور خلّف في خزائنه عيناً وجوهراً وثياباً وسلاحاً

(١) هو أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن علي المكتفي بن المعتضد، من خلفاء الدولة العباسية في العراق بويع له بعد خلع المتقي لله سنة ٣٣٣ هـ. ولقّب نفسه «إمام الحق»، ولد سنة ٢٩٢ هـ، وتوفي سنة ٣٣٨ هـ. وكان خلعه سنة ٣٣٤ هـ. الزركلي: الأعلام ج ٤، ص ١٠٤، ترجمته وأخباره في: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ١٣٧ ـ ١٤٨، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ١٠، ص ١٠. وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٢.

(٢) هو أبو القاسم الفضل المطيع لله، ابن جعفر (المقتدر بالله) ابن المعتضد العباسي من خلفاء الدولة العباسية بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي بالله سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م ولد سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م. وتوفي سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ١٤٧، ترجمته وأخباره في: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ١٤٨ ـ ٢١٠ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ٢، ص ١٢٥، وتاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢.

(٣) في الأصل: «في ولايته» والتصحيح يتفق والسياق.

(٤) لوزينج: نوع من الحلوى.

(٥) اشتراه الإخشيد من بعض رؤساء مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٤ و٦.

(٦) «في كل سنة لحاج أكثر»، في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٧) قرابة: من الآنية: ما قارب الامتلاء. راوية الماء التي تصنع من جلد الحيوان وتستعمل لنقل الماء، ابن منظور: لسان العرب (قرب).

بمبلغ ألف ألف دينار.

وحكي عنه أنه كان في ابتداء أمره قبل اتصاله بالإخشيد لحقه جرب حتّى كان لا يقاتِل فطرده سيِّدُه، وكان يمشي في سوق بني جاسة، وفيه طبّاخ يبيع الطبيخ، فطلب كافور منه أن يطعمه، فضربه بالمغرفة على يده، وهي حارَّة، فسقط مغشيًّا عليه؛ فأخذه رجل من المصريّين وداواه حتى وجد العافية فأَتى إلى سيده فقال له سيِّدهُ: خُذ أجرة ما فعلت. فأبى؛ وقال: أجْرِي على الله. وكان كافور كلما عزَّتْ نفسُه يذكِّرها بضرب الطّباخ بالمغرفة، وربما يركب ويأتي ذلك الخُطّ وينزل ويسجد شكراً لله عز وجل.

وحكى أيضاً أنه اجتاز يوماً بالنحَّاسِين وهو في موكبه فوقف على حانوت هرَّاس[١]، وكان إلى جانبه الوزير ابن الفرات فبكى كافور بكاءاً شديداً، وكان يقول في بكائه: فاز الجمال فاز الجمّال، وساق وهو على تلك الحال، فلمّا استقرّ بمكانه وسكن، سأله الوزير عن سبب بكائه، فقال: لمّا طلعتُ من المركب من بحر الحجاز، وكان يومئذٍ سيدي الذي جلبني إبراهيم البلوقي، فركب الجمل وقصدنا قُوص ونزلنا في بعض الأيام وجلستُ مع الجمّال ورجلٍ آخر كان معنا قد وصل من الحجّ، فقال الرجل: أشتهي على الله قِدْر هريسةٍ قدّامي. فقلتُ: أنا أشتهي على الله ملك مصر، فقال الجمّال اشتهيتُ على الله الجنّة. وغاب عني هذا الحديث. فاتّفقَ أنّ سيّدي إبراهيم باعني لمحمد بن هاشم، ثمّ باعني لأبي أحمد بن عيّاش، فوهبني لجاريةٍ له، ثمّ وهب أبو أحمد الجاريةَ بعد مدّةٍ الإخشيدَ، فطلبني تكين الخاصّة من الإخشيد، فأهداني إليه، فلم أزل إلى أن ملكت مصر. وصاحبُ الحانوت الذي وقفتُ عنده هو الذي أشتهى الْقِدْر الهريسَة؛ فعرفت أنّ ذلك الوقت وهب الله لكلٍّ منّا ما اشتهى، ففاز الجمّال بالجنة.

وحكى أبو جعفر المنطقي قال: دعاني كافور يوماً وقال لي: أتعرف مُنَجّماً، كان يجلس عند دار فلان؟ فقلت: نعم. قال: ما صنع؟ قلت: مات منذ سنين كثيرة. فقال: مررتُ عليه يوماً فدعاني وقال: أَنْظُر لك؟ قلت: افعل. فنظر، ثمّ قال: سَتَمْلك هذه المدينة وتأمر فيها وتنهى. وكان معي درْهمين فدفعْتُهما إليه، وقلت: ما معي غيرهما. وقال: وأزيدُك؛ سَتَمْلك هذه المدينة وغيرَها وتبلغ مبلغاً عظيماً، فاذكرني. فانصرفت. فلمّا نمتُ البارحَة رأيتُه في منامي وهو يقول لي: ما على هذا فارقتني. وأريد أن تمضي وتسأل عن حاله، هل له ورثة؟ فسألتُ عنه فقيل: له ابنتان إحداهُما بكر والأخرى متزوّجة، وأعلمته؛ فاشترى لهما داراً بأربعمائة دينار، ودفع للبكر مائتي دينار تتجهز بها.

وقال الحسن بن زولاق المصري المؤرخ: كان الشريف عبد الله بن أحمد

(١) هراس: أي بائع الهريسة. وهي نوع من الحلوى. ابن منظور: لسان العرب (هرس).

الحسيني، وهو ابن طباطبا، يرسل إلى كافور في كل يوم جامين[١] حلوى[٢] ورغيفاً في منديل مختوم، فخُوطِب كافور في الرّغيف وقيل له الحلوى حَسَنٌ فما تصنع بالرغيف؟ فأرسل إليه وقال: يُجْرِيني الشريفُ في الحلوى على العادة، ويعفيني من الرغيف، فركب الشّريف إليه وقال: أيّدكَ الله، أنا ما أُنفذ الرغيف تطاوُلاً، ولا تعاظُماً وإنّما هي صبيّة حَسَنِيّة تعجنُه بيدها وتخبزه، فأرسله[٣] على سبيل التبرّك؛ فإذا كرهتَه قطعناه. فقال: لا والله، ولا يكون قُوتِي سِواه.

وقيل: إنه ركب يوماً في موكبه والشّريف أبو جعفر[٤] نقيب الطالبين يسايره، فوقعت مقرعته، فنزل الشريف فناوله إياها، فتذمّم كافور من ذلك وتأوّه وبلغ منه مبلغاً عظيماً. فلمّا نزل إلى داره أرسل إلى الشّريف جميع ما كان يملكُه في موكبه من مماليك ودوابّ وآلة واعتذر منه. قال التنوخي في نشوار المحاضرة: وكان قيمة ما سيّره إليه خمسة عشر ألف دينار[٥].

وفي سنة سِتٍّ وأربعين وثلاثمائة قدم عليه أبو الطيب المتنبي[٦] فأكرمه وخلع عليه، وأنزله بدار، وحمل إليه ألوفاً من المال، فقال أبو الطيب قصيدته التي أولها: [من الطويل]

كَفَى بكَ داءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ[٧] المَنَايَا أَنْ تَكون[٨] أمانِيا
تَمَنَّيْتُهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ أَرَى[٩] صَدِيقاً، فَأَعْيَا أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا[١٠]

وجاء منها في مدح كافور:

فَجَاءَتْ به[١١] إنسانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا ومَآقِيَا

---

(١) الجام: إناء من فضة. الفيروزابادي: القاموس المحيط (لجم).
(٢) في الأصل: حلوا.
(٣) في الأصل: «فيرسله» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) هو مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي النسابة، أبو جعفر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٥.
(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٥ ـ ٦.
(٦) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي الكوفي، أبو الطيب المتنبي، الشاعر، المشهور، توفي سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٠ رقم ٥٠.
(٧) في الأصل: «وحب» والتصحيح في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨١.
(٨) في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨١، (إن تكُنَّ).
(٩) في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨٢ (أن ترى).
(١٠) المتنبي، ديوانه، ج ٤، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(١١) «فجاءت نبا» في ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٨٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٩.

فحَسُن موقعُه عند كافور، ثمّ هرب منه وهَجَاهُ بما هو مسْطُورٌ في ديوانه(١).

ولما مات كافور قام بالأمر بعده أبو الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ، كانت ولايته بعد الأستاذ كافور لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة. وذلك أن القواد والغلمان الإخشيديّة اجتمعوا وتحالفوا ألاّ يختلفوا، وعقدوا الرئاسة له، وهو ابن إحدى عشرة سنة، وجعلوا الخليفة عنه الحسن(٢) بن عبد الله بن طغج، وهو ابن عم أبيه؛ وردُّوا تدبير العساكر والرجال إلى شمول(٣) الإخشيدي، وتدبير الأموال إلى جعفر بن حنزابة(٤) الوزير؛ وذلك كلّه قبل دفن كافور؟

وأقام الأمرُ على ذلك ثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً، واشترك معه ابنُ عمّ أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان يخطب لهما جميعاً بمصر والشّام والحرمين، يُبْدأ في الخطبة بأبي الفوارس ويُثنّى بأبي محمد الحسن.

ثم سار الحسن إلى الشام لقتال القرامطة، وصادر الوزير جماعةً من المصريين، وقبض على يعقوب بن كلّس وصادره على أربعة آلاف وخمسمائة دينار؛ وقبض على إبراهيم بن مروان النّصراني، كاتب أنوجور وعلى ابني الإخشيد وصادره على عشرة آلاف دينار. ولم يقدر الوزير على رضا الإخشيديّة والكافوريّة لتباين أغراضهم؛ فاضطرب التدبير على الوزير، واستَتَرَ مرّتين، ونُهبت داره ودُورُ أصحابه، فكتب جماعة من وُجوه البلد إلى المعز(٥) بإفريقية يستدعون منه إنفاذ العساكر.

---

(١) قال المتنبي في يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمائة قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التي هجا كافوراً فيها. ومطلعها: [من البسيط]

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ

ومنها:

من علّم الأسود المَخصيّ مَكْرُمةً ... أقومُه البيض أم آباؤه الصِّيدُ

أم أذنه في النخاس دامية ... أم قدرُه وهو بالفَلْسَين مردودٌ

انظر ديوان المتنبي، ج ٢، ص ٣٩، وص ٤٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٠.

(٢) في الأصل: «حسين» و«حسن» في ابن خلكان، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٣٦٢، وج ٥، ص (٦٠ - ٦٢)، ذكره ابن خلكان باسم الحسن في (ترجمة الحسن بن عبيد الله) وباسم الحسين في ترجمتي جعفر بن حنزابة، ج ١، ص ٣٤٧ رقم ١٣٣، وجوهر الصقلي، ج ١، ص ٣٧٦، رقم الترجمة ١٤٥. وذكره ابن تغري بردي: باسم الحسن بن عبيد الله في النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١١. وانظر أيضاً ترجمته في الزركلي الأعلام، ج ٢، ص ١٩٨، حيث توفي سنة ٣٧١ ـ ٩٨٢ م.

(٣) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١، «سمول».

(٤) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١.

(٥) هو أبو تميم معد، الملقب المعز لدين الله، ابن المنصور القائم بن المهدي عبيد الله، ولد سنة ٣١٩ وتوفي ٣٦٥ هـ. انظر ترجمته في ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٢٤، رقم ٧٢٧.

وكان بمصر في هذه السّنة غلاء شديد وفناء عظيم، فإن النيل انتهت زيادته في سنة ست وخمسين وثلاثمائة إلى اثني عشر ذراعاً وتسعة عشر أصبعاً، ولم يوف في السنة التي قبلها، فاشتد الغلاء، وكثر الوباء.

نقل بعضُ المؤرخين أنه أحصى من كُفِّن ودُفن خارجاً، عدا من رُمِي في البحر، ستمائة ألف إنسان.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قدم الحسن بن عُبيد الله من الشّام منهزماً من القرامطة، ودخل مصر، وقبض على جعفر بن الفرات الوزير، واستوزر الحسن بن جابر الرياحي، ثم أطْلق الوزير بن الفرات، بوسَاطة أبي جعفر مسلم الحسيني الشريف، وفَوّض إليه الوزارة، ثم سار الحسن بن عُبيد الله إلى الشّام في مستهل شهر ربيع الآخر، وخرج جماعة من الأولياء والكتاب والأشراف إلى الشام، وخرج يعقوب[١] بن كلِّس إلى الغرب مستتراً، ثمّ صار منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثمّ تواترت الأخبار في جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة أن المعزّ صاحب إفريقية قد جهّز عساكره مع غلامه جوهر إلى مصر، فجمع الوزيرُ القوّاد ووقع رأيهم على تقديم نحرير سويران فاستدعوه من الأشْمُونين وعقدُوا له الرئاسة عليهم.

ووصل الخبر بوصول جوهر إلى برقة، فاجتمع رأي الجماعة على أن بعثوا الشريف أبا جعفر مسلماً الحسَني وأبا إسماعيل بن أحمد الزينبي وأبا الطيب العباس بن أحمد العباسي والقاضي أبا طاهر، وغيرهم، لتقرير الصلح بينهم وبين جوهر على تسليم البلاد له، فساروا في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة فلقوه على تَرُوجَة[٢]، فأكرمهم وأجابهم إلى ما طلبوه ثم بعد انفصالهم اجتمع القواد على إبطال المصالحة وتجهّزوا للحرب، ورجع أولئك النّفر بكتاب الأمان، فلم يقبل القواد ذلك، وخرجوا إلى الجيزة بأجمعهم.

ووصل جوهر وابتدأ القتال يوم الخميس الحادي عشر من شعبان من السّنة، ثمّ

---

(١) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلّس وزير العزيز نزار بن المعز العبيدي صاحب مصر. توفي يعقوب سنة ٣٨٠ = ٩٩٠ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٧ رقم ٨٣١. انظر أيضاً ترجمته في: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢. وابن منجب، الإشارة إلى من نال الوزارة ص ١٩، وابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ج ٦، ص ٢٢٦، وما بعدها. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٦٠.

(٢) تروجة: من القرى المصرية القديمة من أعمال البحيرة، مكانها اليوم كوم تروجة بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ١، ص ١٩٠.

سار جوهر بعد ذلك إلى منية شَلَقَان[(١)] وملك المخايض، فبعث المصريون مزاحِم بن أرتق لحفظها فلم يحفظها، وخامر عليهم، وعدى[(٢)] جوهر، وانهزم الإخشيديون، ودخل جوهر مصر بعد العصر من يوم الثلاثاء لثلاثَ عشرة ليلةً بقيت من شعبان منها، وندب القائد جوهر المعزّيُّ بعد ذلك جعفرَ بن فلاح إلى الشام. والتقى هو والحسن بن عبيد الله على الرملة في شهر رجب سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، واقتتلا[(٣)] فانهزم الحسن وأُسر، وملك جعفر الشّام أجمع.

وانقرضت الدّولة الإخشيدية، وكانت مدتُها خمساً وثلاثين سنة، وتسعة أشهر، وأيّاماً.

(١) منية شلقان: من القرى المصرية القديمة، من أعمال القليوبية، وحالياً تبع مركز قليوب، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٥٦.

(٢) في الأصل: «عدا».

(٣) في الأصل: «واقتتلوا».

ذكر أخبار الدولة الْعُبَيديّة التي انتسب ملوكها إلى الشرف وألحقوا نسبهم بالحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

هذه الدّولة من الدُّول التي امتدَّت أيامُها واتّسعت ممالكُها، واستولت مُلوكُها على كثيرٍ من الممالك المشهورة شرقاً وغرباً، ببلاد المغرب، والدّيار المصرية، والبلاد الشاميّة، والثُّغور والعَواصم، وغير ذلك.

وكان ابتداءُ ظهور هذه الدّولة ببلاد المغرب، وإنّما أوردناها في أخبار ملوك الدّيار المصرية، وألحقنا ملوكها بملوك هذا الوادي لأن الدِّيار المصرية قاعدةُ ملكهم وبها قام أكثر ملوكهم.

ولنبدأ بذكر أخبار ملوك هذه الدّولة وابتداء أمرهم، وما قيل في نسبهم وإلى من ينسبون، وكيف تنقَّلَتْ[1] بهم الحال إلى أن ملكوا البلاد واستولوا على الأقاليم. ولهذه الدّولة أسبابٌ ولوازمُ وشِيعة، هم الذين مهّدوا لهم البلاد، ووطّنوا الممالك. وهزموا الجيوش، وفتحوا الأقاليم، وأبادُوا الأبطال، حتّى استقر المُلك لملوك هذه الدّولة وتسلّمُوه عَفْواً صفْواً.

لا بُد لنا أن نبتدىء بذكر أخبارهم، وما فتحُوه واستولوا عليه قبل ظُهُور المهْديّ الّذي هو أوّل ملوك هذه الدّولة، ثم نذكر عاقبة أمر مَن قرر لهم الملك معهم، ونذكر مَنْ ملك مِنْ ملوك هذه الدولة واحداً بعد واحد إلى أن انقرضت دولتهم وبادت أيّامُهم.

فنقول وبالله التوفيق:

أوّلُ من ملك منهم عُبَيْد الله المنعوت بالمهديّ، ونسب نفسَهُ أنه: عبيد الله بن الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وأهل العلم بالأنساب من المحقّقين يُنكرون ذلك وينْفُونَه عن[2]

---

(١) في الأصل: «تنقلب».

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: ذكر ما قيل في أنساب خلفاء الفاطميين، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٢ وما بعدها.

الشّرف، ويقولون: اسم عبيد الله سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله القدّاح[١] بن أبي شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان، صاحب كتاب «الميدان في نصر الزّندقة»، وهو من أهل رَامَهُرْمُر[٢]، كورة من كور الأهواز، وكان من خُرَّمِيَّة المجوس[٣]، ومن المؤرخين من زعم أن الحسين بن أحمد زوج أم سعيد وأن أبا سعيد يهودي.

وقال القاضي أبو بكر بن الطيّب[٤] في كتابه المسمّى بكشف الأسرار وهتك الأستار: إنّ سعيداً هذا كان قد رباه عمّه محمد بن أحمد المكنى بأبي الشلغلغ وكانُوا دُعاةً لمحمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق، يأكلون البلاد باسمه ويدَّعون أنّه حيٌّ يُرزق إلى زمانهم، وفيه عمل ابن المُنَجِّم قصيدته التي يقول فيها: [من الطويل]

فإنّك في دعواك أنّك منهم ... كمن يدَّعِي أنَّ النُّحاس من الذّهب

متى كان مولى الباهليّين ملحَقاً ... بِآل رسُول الله يوماً إذا انْتُسب

ولما ملك بهاءُ الدّولة أبو نصْر بن[٥] عضد الدّولة فناخسروا بن بُويه، بغْدادَ جمع الطالبيّين من آفاق العراق، وسألهم عنهُم، فكلُّهم أنكرهُم ونفاهم، وتبرّأ منهم؛ فأخذ خُطُوطَهم بذلك. وكان ممن شهد الشّريفان الرّضِيّ[٦] والمرتضى[٧] وأبو حامد

---

(١) في الأصل: «القراح».

(٢) رامهرمر: في الروض المعطار رامهرمز: من كور الأهواز، وبالقرب من واسط وهي خوزستان. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٦٦. انظر أيضاً معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٣) الخرمية: نسبة إلى بابك الخرميّ، حركة دينية تعتقد بتناسخ الأرواح، وتعود إلى الأصل المجوسي. ابن الأثير: الكامل، ج ٦، ص ٣٢٨.

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني البصري صاحب التصانيف في علم الكلام. توفي عام ٤٠٣ هـ/ ٩٨٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٣٤. انظر أيضاً: ترجمته في العبر للذهبي ج ٣، ص ٨٦.

(٥) «بن» إضافة تتفق والسياق. هو بهاء الدولة أبو النصر فيروز بن عضد الدولة، أبو شجاع فناخسرو. توفي عام ٣٧٢ هـ ببغداد. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٩٠، وانظر ترجمته في ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٥٠، رقم ٥٣٢، أخباره في: تاريخ ابن الأثير، ج ٨، ص ٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٤٦. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٧٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢١.

(٦) هو محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم، الشريف الرضي أبو الحسن، توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤١٤، رقم ٦٦٧.

(٧) هو علي بن الحسين بن موسى، أخو السابق، توفي ببغداد سنة ٤٣٦ هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣١٣، رقم ٤٤٣.

الأسفرايني[١]، وأبو الحسين القُدُوري[٢]، وغيرهم[٣]، وذلك في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة[٤] بأمر القادر بالله[٥] العباسيّ.

هذا مع ما ينسب إلى بني بويه من التشيُّع. فلنذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم.

ذكر ابتداء أمرهم وأول من قام منهم

قال أبو محمد عبد العزيز بن شدّاد ابن الأمير تميم بن المعزّ بن باديس في كتابه المترجم بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان: أوّل من قام منهم أبو شاكر ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان، وكان مِمّن صحبَ أبا الخطّاب محمّد بن أبي زينب[٦] مولى بني أسد، فألقَوْا إلى كلّ من اختصُّوا به أنّ لكل شيءٍ من العبادات باطناً، وأنّ الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صَوْماً ولا حجًّا؛ ولا حرّم عليهم شيئاً من المحرمات؛ وأباح لهم نكاح البنات والأخوات. وإنما هذه العباداتُ عذابٌ على الأمّة وأهل الظّاهر، وهي ساقطةٌ عن الخاصّة. يقولون ذلك لِمَنْ يثقون به ويسْكنُون إليه. ويقولُون في آدمَ وجميع الأنبياء: كذّابُونَ محتالُونَ طلابٌ للرّئاسة.

فاشتدّت شوكَةُ هؤلاء في الدّولة العبّاسيّة، وتفرقوا في البلاد شرقاً وغرباً، يُظهرون التقشُّف، والزّهد، والتصَوّف، وكثرَة الصّلاة والصِّيام، يُعرِّفون الناس بذلك وهم على خلافه، ويذكرون أبا الخطاب إلى أنْ قامت البيِّنة بالكوفة أنّ أبا الخطاب أسْقَطَ العبادات وأحلّ المحارم، فأخذه عيسى[٧] بن موسى الهاشمي، مع سبعين من أصحابه، فضَرَبَ

---

(١) هو أحمد بن محمد الإسفرايني الشيخ أبو حامد، الفقيه الشافعي، توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٧٢، رقم ٢٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد، أبو الحسين القدوري، الفقيه الحنفي. توفي ببغداد سنة ٤٢٨ هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٧٧، رقم ٣٠.

(٣) الأسماء الذين وقعوا على المحضر الذي كتب ببغداد هم كثيرون انظرهم في الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٢٣٦. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي السنة التي كتب فيها المحضر كانت سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م.

(٥) هو أبو العباس أحمد القادر بالله، ولي الخلافة العباسية ببغداد في الفترة من ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ = ٩٩١ ـ ١٠٣١ م سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢.

(٦) هو محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مولى بني أسد الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، حتى ١٧٩.

(٧) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي، ولي عهد السفاح بعد أخيه المنصور. توفي سنة ١٦٨ هـ = ٧٨٤ م. الذهبي: العبر، ج ١، ص ٢٥٣.

أعناقَهم، فتفرّقَ بقيَّةُ أصحابه في البلاد، فصار قومٌ مِمَّن كان على مذهبه إلى نواحي خراسان، وقومٌ إلى الهند، وصار أبو شاكر ميمون بن سعيد إلى بيت المقدس مع جماعةٍ من أصحابه، وأخذوا في تعلم الشعبذة[١] والنارنجيات[٢] والْحِيَل ومعرفة الرّزق من صنعة النّجوم والكيمياء، ويحتالون على كلّ قوم بما يتّفق عندهم، وعلى العامَّة بإظهار الزُّهد والورع، ونشأ لأبي شاكر ابنٌ يقال له عبد الله القدّاح، علّمه الحِيَل وأطْلعه على أسرار هذه النِّحلة، فتحذَّق وتقدّم، وكانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت ويزيدون أكاذيب اخترعوها يخدعون بها ضعفاء العقول.

وكان من كبار الشّعوبيّة[٣] رجل يسمى محمد بن الحسين بن جهار نجار الملقب دندان[٤] وهو بنواحي الْكَرَج[٥] وأصفهان له حالٌ واسعة وضِياع عظيمة، وهو المتولّي على تلك المواضع، وكان يبغض العرب ويذمُّهم، ويجمع معايبهم، وكان كلُّ من طَمِع في نوالِه تقرَّب إليه بذمٍ العرب، فسمع به عبدُ الله بن ميمون القدّاح وما ينتحله من بُغْض العرب وصَنْعة النّجوم، فسار إليه، وكان عبد الله يتعاطى الطّب وعلاج العين، ويقدَحُ الماء النّازل فيها، ويُظهر أنه إنما يفعل ذلك حِسْبةً وتقرّباً إلى الله عز وجلّ، فطار له هذا الاسمُ بنواحي أصفهان والجبل، فأحضره دندان وفاتحه الحديث، فوجده كما يحبّ ويَهْوَى، وأظهر له عبد الله من مساوىء العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده، فاشتدّ إعجابُه به، وقال له: مثلُك لا ينبغي أن يطبّ، وإنّ قدرَك يرتفع ويحلّ عن ذلك، فقال: إنّما جعلت هذا ذريعةً لما وراءه ممّا أُلقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على رفقٍ ومَهَل، من الطَّعن على الإسلام، وأنا أشير عليك ألاّ تُظهر ما في نفسك إلى العرب، ومَن يتعصّبُ لهذا الدّين، فإنَّ هذا الدّين قد غلب على الأديان كلِّها فما يطيقُه ملوك الرّوم، ولا الترك، والفرس، والهند، مع بأسهم ونجدتهم، وقد علمت شدَّة بابَك صاحب الْخُرَّمية[٦] وكسرةَ عساكره، وأنّه لما أظهر ما في نفسه من بُغْض الإسلام وتَرك

---

(١) الشعبذة والشعوذة: خفة في اليد وأخذ كالسحر يُرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين. والشعوذة: السرعة. وقيل: هي الخفة في كل أمر. ابن منظور: لسان العرب (شعذ).

(٢) النارنجيات: أخذ تشبه السحر. ابن منظور: لسان العرب (نرج). أخبار أصحاب الحيل والنارنجيات في الفهرست لابن النديم ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥.

(٣) في الأصل: «الشعتية».

(٤) اختلفت المصادر في رسم الاسم، والتعريف به. انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٣٩، هامش ٥.

(٥) الكرج: مدينة بين أصفهان وهمذان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٦.

(٦) بابك الخرمي: هو قائد حركة تعتقد بمذهب التناسخ، وهي قائمة على المجوسية بدأت سنة ٢٠١ هـ = ٨١٦ م، وانتهت سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٣٧ م. انظر أخباره في الكامل لابن الأثير، ج ٦، ص ٣٢٨، وص ٤٧٧.

التستُّر بالتشيّع[(١)] كما يقول أوّلاً قُلِع أصله، فاللَّهَ اللَّهَ أن تُظهر ما في نفسك، والزم التشيُّع والبكاء على أهل البيت، فإنّك تجدُ مَنْ يساعدُك على ذلك من المسلمين، ويقول: هذا هو الإسلام [وسُبَّ أبا بكر وعمر][(٢)] وادَّع عليهما عَدَاوَةَ الرّسول وتغيير القرآن وتبديلَ الأحكام، فإنك إذا سَبَبْتهما سبَبْتَ صاحبهما[(٣)]؛ فإذا استوى لكَ الطّعنُ عليهما فقد اشتفيتَ من محمّد، ثم تُعْمِلُ الحيلة بعد ذلك في استئصال دينه. ومَنْ ساعدَك على هذا فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر، ويتم لك الأمر[(٤)] كما تريد، فقال دنْدان[(٥)]: هذا هو الرأي.

ثم قال له عبد الله القدّاح: إن ليَ أصْحاباً وأتباعاً أبثُّهم في البلاد فيُظهرونَ التقشُّف والتصوّف والتشيع، ويدعُون إلى ما تريده بَعْد إحكامِ الأمر. فاستصْوبَ دنْدان وسُرَّ بِه، وبذل لعبد الله القدّاح ألفي ألف دينار. فقبل المال وفرّقه في كُور الأَهواز والبصرة وسواد الكوفة، وبطالقان، وخراسان[(٦)]، وسَلمْيَة من أرض حمص.

ثم مات دنْدان فخرج عبد الله القدّاح إلى البصرة وسواد الكوفة، وبثّ الدعاة، وتقوى بالمال، ودبّر الأمر.

وحكى الشّريف أبو الحسين محمّدُ بن علي الحسَين المعروف بأخي محسن[(٧)] في كتابه أن عبد الله بن ميمونٍ هذا كان قد نزل عسكر مُكْرَم[(٨)] فسكن بساباط أبي نوح، وكان يتستَّر بالتشيُّع والعلم، فلمّا ظهر عنه ما كان يضمرُه ويُسِرُّه من التّعطيل والإباحة، والمكر والخديعة، ثار النّاس عليه، فأول من جاءه[(٩)] الشيعة، ثم المعتزلة وسائر الناس، وكبسوا دارَه، فهرب إلى البصرة ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الأهوازي، فنزل بِبَاهلة على موالٍ لآل عقيل بن أبي طالب، وقال لهم: أنا من ولد عقيل، وداع[(١٠)]

---

(١) في الأصل: «ترك السير بالتشيع». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

(٣) يقصد الرسول ﷺ.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٥) في الأصل: «ديدان» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٣٩.

(٦) في الأصل: «بطالقان خراسان». والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٤٠. وطالقان: مدينة بخراسان بين مرو وبلخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٦ ـ ٨.

(٧) هو علوي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. صاحب مجلد يحتوي على أنساب الخلفاء الفاطميين. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٢.

(٨) مُكرم: من نواحي خوزستان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٠.

(٩) ورد في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٩. «فأول من ثار عليه».

(١٠) في الأصل: ورد «داعي» والتصحيح من كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٩.

إلى محمّد بن إسماعيل بن جعفر، فلمّا أقام وانتشر خبرُه طلبه العسكريُّون فهرب وأخذ طريق الشام ومعه الحسين الأهوازي، فلما توسطا الشام عَدَلا إلى سَلَمْية[١] لِيَخْفَى أمرهُما فأقام بها عبد الله وخفي أمره.

نرجع إلى قول ابن شداد. قال: ثم مات عَبد الله، وكان له جماعة من الولد فخلفه منهم ابنه[٢] أحمد، فقام مُقام أبيه، وجرى على قاعدته، وبثّ الدُّعاة، واستدعى رجلاً من أهل الكوفة يقال له أبو الحسين رستم بن الكرخيين بن حوشب بن زادان النجار؛ وكان هذا الرجل من الإماميّة الذين يقولون بإمامة موسى[٣] بن جعفر، فنقله إلى القول بإمامة إسماعيل[٤] بن جعفر. وكانوا يرْصُدون مَن يَرِدُ من المشاهد وينظرون إليهم، فمن كان فيه مطْمَعٌ وجهالة استدعَوْه، ولا يستدعُون إلا الجُهَّال ومَنْ له بأسٌ وجلَد، وعشيرة ومال، وعزّ ومنعة، ويتجنّبون الفقهاء والعُلماء، والأدباء والعقلاء.

وكانوا يطلبون أطراف البلاد، فقال لهم بعض من ورد عليهم: إن بجَيْشان[٥] والمدحرة والْجَنَد[٦] من أرض اليمن رجلاً جَلْداً كثير المال والعشيرة، يتشيّع، وبهذه الناحية شاعرٌ يقال له ابن خيران يسبُّ في شعره أبا بكر وعمر، والمهاجرين والأنصار، على مثل سبيل الحميري الشاعر، فورَدَ ذلك الرّجل المذكور، وهو أبو الخير محمد بن الفضل من أهل جَيْشَان من اليمن، ودخل إلى الحيرة، فرأوه يَبْكي على الْحُسَيْن بن علي، فلما فرغ من زيارته أخذ الدّاعي يدَه وقال له: إنّي رأيت ما كان منك من البكاء والقلق على صاحب هذا القبر، فلو أدْركتَه ما كنتَ تصنع. قال: كنت أجاهد بين يديه، وأجعل خدّي أرضاً يطأ عليها، وأبذل مالي ودمي دونه. فقال له: أتظنّ أنْ ما بقي لله حجّة بعد صاحب هذا القبر؟ قال: بلى، ولكن لا أعرفُه بعينه، قال: فتريده؟ قال: إي

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه وسكون الميم: بليدة من أعمال حماه، وكانت من أعمال حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) في الأصل «أبيه»، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦.

(٣) هو أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. أحد الأئمة الاثني عشر. توفي سنة ١٨٣ هـ = ٧٩٩ م. ترجمته: في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٠٨، رقم ٧٤٦، والملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ١٦٨. والأئمة الاثنا عشر لابن طولون، ص ٨٧، وعبر الذهبي، ج ١، ص ٢٨٧.

(٤) هو إسماعيل بن جعفر الصادق، وتنسب إليه الفرقة الإسماعيلية. الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٦٧.

(٥) جيشان: بالفتح ثم السكون. نواحي باليمن: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٠.

(٦) الجند: بالفتح ثم السكون: أحد أقسام اليمن الثلاثة في العصر الإسلامي الأول وهو أعظمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

والله. فسكت عنه الدّاعي. فقال له محمد بن الفضل: ما قلتَ لي هذا القول إلا وأنت عارفٌ به. فسكت الداعي، فقوِيَ ظنّ ابن الفضل أن هذا الرجل يعرف الإمام والحجّة، فألحّ عليه وقال له: اللَّهَ اللَّهَ في أمري، اجْمع بيني وبينه، فإني خرجت إلى الحجّ وجئت إلى هذه الزيارة أريدُ الله تعالى، فسكت الدَّاعي، وازدادت رغبةُ ابن الفضل، فصار يتضرع إليه، ويسأله، ويُقبّل يده. فقال له الدّاعي: اصبر، ولا تَعْجَل، وأَقِمْ، فهذا الأمر لا يتمُّ بسرعة، ولا بدَّ له من صبر ومهلة. فقال ابن الفضل لأصحابه ومَنْ كان معه من جيْشان: انصرفوا فلِي بالكوفة شغل، فانصرفوا، وأقام هو واجتمع بالدّاعي، فقال له: ما عملْتَ في حاجتي؟ فقال: انتظرني حتى أعود إليك، فانصرف عنه ومضى إلى أحمد بن القدّاح وعرّفه حال ابن الفضل وحرْصَه على لقاء الحجَّة وإمام الزمان، وبقي الدّاعي يَرْقُبُه ويراه لا يكاد يبرح من المسجد من غير أن يعلم ابن الفضل به، فلمّا كان بعد أربعين يوماً أتاه إلى المسجد وهو جالس، فقال له: أنتَ بَعْدُها هنا؟ فقال: نعمْ؛ ولولا تحثّني لأقمت في هذا المسجد إلى أن أموت. فعلم الدّاعي أنه قد قصده، فأخذه وجمع بينه وبين أحمد بن عبد الله بن ميمون.

وحكى الشريف أبو الحسين محمد بن علي بن الحسيني في كتابه الّذي صرّح فيه فنفى هؤلاء عن النّسب إلى الحسين بن عليّ، رضي الله عنهما، واستدلّ على ذلك بأدلة يطول شرحها ـ أنّ أحمد بْنَ عبد الله بن ميمون لمّا قام بالأمر بعد أبيه عبد الله بعث الحسين الأهوازي(١) من سَلَمْيَة داعيةً إل العراق، فلمّا انتهى إلى سواد الكوفة لقي حَمْدَانَ بن الأشعث، وهو قَرْمَط الذي يُنْسَب إلى القرامطة، فصحبه، واتبعه قرمط، وتابعه كثير من النّاس. فلما مات الأهوازي أسند الأمر من بعده إلى حمدان بن الأشعث، قرمط، وقد ذكرنا هذه القصّة في أخبار القرامطة.

نرجع إلى قول ابن شداد. قال: وكان أحمد يقول للحسن بن حَوْشب الكوفي النّجار: يا أبا القاسم هل لك في غُرْبَةٍ في الله؟ فيقول: الأمر إليك يا مولاي، فلمّا اجتمع بابن الفضل قال له: قد جاء ما كنتَ تريدُ يا أبا القاسم، هذا رجلٌ من أهل اليمن، وهو عظيم الشأن، كثير المال، ومن الشيعة، قد أمكنك ما تريد، وثَمَّ خَلْقٌ من الشيعة، فاخرج وعَرِّفهم أنك رسُول المهديّ، وأنه في هذا الزّمان يظهر في اليمن. واجمعْ المال والرّجال، والزَم الصوم والصّلاة والتقشف، واعمل بالظاهر ولا تظهر الباطن، وقل لِكلِّ شيءٍ باطنٌ، وإنْ ورد عليك شيء لا تعلمُه فقل لهذا مَنْ يعلمه، وليس هذا وقت ذكره. وجَمَع بينه وبين ابن الفضل، وخرجا جميعاً إلى أرض اليمن.

---

(١) في الأصل: «إلى هواري» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦.

ونزل ابن حَوشب بعدن، وكان فيها قومٌ من الشيعة يعرفون ببني موسى، وخَبَرُهم عند ابن ميمون، فنزل ابن حَوشب بالقُربِ منهم، وأخذ في بيع ما معه من القماش، ولزم الزّهد والتقشف. فقصده بنو موسى وقالوا له: فيما جئت؟ قال: للتجارة. قالوا: لستَ بتاجر، وإنما أنت رسول المهديّ، وقد بلغنا خبرك. وعرّفوه بأنفسهم، فأظهر أمره عليهم، وسار إلى عدن لاَعَة[١]. وسار ابن الفضل إلى بلده. ولما وصل ابن حَوشب إلى عدن لاَعَة قوَّى عزائمهم وقرَّب أمرَ المهديِّ عليهم، وأنه من عندهم يخرج، وأمرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح.

ولم يزل أمرُ ابن حَوشب يقْوَى وأخبارُه ترد على مَنْ بالكوفة من الإمامية وطبقات الشيعة، فيُبادرون إليه، ويقول بعضهم لبعض: دارَ الهجرة، فكبر عددُهم واشتدَّ بأسُهم، وأغار على من جاوره ونهب وسبى، وجبى الأموال، وأنفذَ إلى مَنْ بالكوفة من ولد عبد الله القدّاح أموالاً عظيمة، وهدايا وطُرَفاً، وكذلك لابن الفضل.

وكانوا نفذوا إلى المغرب رجلين، أحدهما يعرف بالحلواني والآخر بأبي سفيان[٢]، وتقدّموا إليهما بالوصول إلى أقاصي المغرب، والبعد عن المدن والمنابر، وقالوا لهما: ينْزلُ كلُّ واحدٍ منكما بعيداً من الآخر، وقُولاَ: لكلِّ شيء باطن، ونحن فقد قيل لنا اذهبا فالمغرب أرض بُور فاحْرُثاها واكْرُباها حتى يأتيَ صاحب البذر، فنزل أحدهما بأرض كُتامة[٣] بمدينة مرمجنة[٤] والآخر سوق[٥] حمار، فمالت قلوب أهل تلك النّواحي إليهما، وصار يحملان التّحف التي تُحمل إليهما إلى ابن القدّاح، ثم ماتا على قُرْبٍ بينهما بعد أن أقاما سنين كثيرة.

فقال ابن حَوشب لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعي، وكان قد هاجر إليه، يا أبا عبد الله أرض كتامة من المغرب قَدْ حرثها الحلواني وأبُو سفيان وقد ماتا، وليس لها غيرُك، فبادر إليها فإنها موطأة ممهدة لك، فخرج أبو عبد الله وأخرج ابنُ حَوشب معه عبدَ الله بن أبي ملاحف، وأمدّه بمال، وأوصاه بما يعمل وكيف يحتال.

---

(١) عدن لاعة: قرية قرب مدينة لاعة في جبل صبر باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٧.

(٢) هما أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد وأخوه العباس محمد بن أحمد بن محمد. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦.

(٣) في الأصل: «كنانة» والتصحيح في ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٣ وكُتامة بلاد بالمغرب.

(٤) مرمجنة: مرماجنّة: بالفتح ثم السكون: قرية بإفريقية (تونس) لقبيلة هوارة من البربر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠٩.

(٥) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٣١. وسوق حماد في اتعاظ الحنفا: «سوجمار» وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٩.

وكان أبو[1] عبد الله قد شاهد أفعال ابن حَوشب وعرف تدبيره، فسار إلى مكة، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأما أحمد بنُ عبد الله بن ميمون فإنه لما قوي أمره، وكثرت أمواله، ادّعى أنه من ولد عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يستُرون أمرهم، ويُخفون أشخاصهم، ويُغيِّرون أسماءهم وأسماءَ دُعاتهم، ويتنقلون في الأماكن. ثم مات أحمد فخلفه محمّد. وكان لمحمد ولدَان، أحمد والحسين، فمات أحمد وصار الحسين إلى سلمية وله بها أموال من ودائع جدّه عبد الله القدَّاح، ووكلاء، وأتباع، وغلمان. وبقي ببغداد من أولاد القدّاح أو الشلغلغ[2]، وهو محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان، وهو مؤدب بآداب الملوك.

وكان الذي بسلمية يدّعي أنه الوصيّ وصاحب الأمر دون بني القدّاح، ويكاتب الدّعاة، ويراسلونه من اليمن، والمغرب، والكوفة. واتفق أنه جرى بحضرته بسلمية حديث النّساء فوصفوا امرأةَ رجلٍ يهودي حداد مات عنها زوجها، وأنها في غاية الجمال، فقال لبعضٍ وكلائه: زوِّجني بها، فقال إنها فقيرة ولها ولد، فقال: ما علينا من الفقر، زوّجني بها فأَرْغِبْها وأبذل لها ما شاءت، فتزوَّجها وأحبّها، وحَسُن موقعُها عنده، وكان ابنُها يماثلها في الجمال، فأحبّه وأدبه وعلّمه، وأقام له الخدم والأصحاب فتعلّم الغلام، وصارت له نفس كبيرة وهمّة عظيمة.

فمن العلماء من أهل الدّعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية من ولد القدّاح مات ولم يكن له وَلَد، فعَهِد إلى ابن اليهودي الحدّاد، وهو عبيد الله الذي نُعِت بالمهديّ، وأنه عرَّفه أسرار الدّعوة من قولٍ وفعلٍ؛ وأعطاه الأموال، وتقدّم إلى أصحابه ووكلائه بطاعته، وخدمته ومعونته، وعرّفهم أنه الإمام والوصيّ، وزوجه ابنة عمّه أبي الشلغلغ.

هذا قول ابن القاسم الأبيض العلوي وغيره من العلماء بهذه الدعوة.

وبعضُ الناس، وهم قليل، يقولون إن عبيد الله هذا، المنعوت بالمهديّ، من وَلَد القدّاح.

ومنهم من يقول فيه قولاً آخر، نذكر إن شاء الله عزّ وجلّ.

فهذا ما حكي في ابتداء أمرهم، فلنذكر أخبار الشيعيّ ببلاد المغرب، والله أعلم.

---

(١) في الأصل: «بن عبد الله».

(٢) «الشلعلع»: في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦.

ذكر أخبار أبي عبد الله الشّيعي[١] داعي المغـرب وما كان من أمره وكيف ظهر وما فتحه من بلاد المغـرب

قال أبو إسحاق إبراهيم[٢] بن القاسم الكاتب المعروف بابن الرّقيق، في تاريخ إفريقية، وغيرُ ابن الرّقيق ممَّن ذكر أخبار هذه الدّولة[٣]: كان أبو عبد الله الشيعي من أهل الكوفة، وقيل من أهل صنعاء، واسمه الحسين بن أحمد بن محمّد بن زكريّا، فاتصل بالذي يدّعي أنه الإمام، وهو ابن القدح الّذي ذكرناه المختلف في نسبه، فأرسله إلى أبي القاسم الحسن بن حَوشب[٤] الكوفي النجار، وهو المعروف بالصَّناديقي، داعيتهم باليمن وكتب إليه أن ينصره ويرشده، وقال لأبي عبد الله: امتثل سيرته، وانظر[٥] إلى مخارج أفعاله فاعمل بها، ثم اذهب إلى المغرب، فخرج حتى انتهى إلى أبي القاسم، فأنزله وأكرمه، وأقام عنده من وقت انصراف الحَاجِّ من مكة إلى اليمن إلى وقت خروجهم في العام المقبل، فخرج أبو عبد الله مع الحاجّ إلى مكة.

فلما قضى الناس حجّهم واستقرُّوا بمِنًى جعل الشّيعي يمشي بمِنًى وينظر إلى الناس، فمرّ بجماعة من كتامة وهم في رحالهم، وكانوا من الشّيعة الّذين تشيّعوا بسبب الحلواني وفيهم حُرَيْث الجِيملِي وموسى بن وجاد[٦] فسمعهما الشيعي يذكرَانِ لأصحابهما فضائل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فجلس إليهما وذكر من ذلك شيئاً، وأقبل على القوم وحدَّثهم طويلاً، ثم نهض ليقوم فقاموا معه، ومشَوْا بمشيه، وعرفوا مكانه. ثم أتَوْا من الغد فأوسَعَ لهم في الحديث، فزادهم ذلك فيه رغبةً، وعليه إقبالاً. ثم صحبهم في طُول الطريق بعد انصرافهم من الحج إلى أنْ وصلوا إلى مصر، وهم يُبالغون في خدمته، ويرحلون برحيله، وينزلون بنُزوله، وهو يسألُهُم عن بلادهم في خلال ذلك، وعن طاعتهم لملوكهم، فيقولون ما علينا طاعةٌ لهم، وهو لا يُعَرّض لهم

(١) «الشعبي» في الأصل. انظر ترجمة الشيعي في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القروي الكاتب القيرواني الملقب بابني الرقيق. توفي سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٢ م. وله تاريخ القيروان. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، ج ١، ص ٧.

(٣) اعتمد النويري في هذا الجزء على كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ولكنه لجأ إلى الاختصار أحياناً، وأحياناً إلى نقل صفحات متتالية. وكتاب افتتاح الدعوة نشر في بيروت سنة ١٩٧٠ تحقيق وداد القاضي وبعنوان رسالة افتتاح الدعوة، ثم نشر في تونس سنة ١٩٧٥.

(٤) «إلى أبي القاسم رستم بن الحسن»: في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٥٥.

(٥) في الأصل: «وانتظر» والتصحيح وارد من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٠.

(٦) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان: «وموسى بن مكارم» ص ٣٤.

بقَصْده ولا رغبته في بلادهم. فلما أتَوْا مصر أظهر أنه يُريد الإقامة بها، فتألَّموا لفراقه، وقالوا: ما الذي تقصد بمُقامِك مصر؟ قال: التعليم. فسألوه أن يصحبهم إلى بلادهم وأنهم يوجِبُون له على أنفسهم أجرةً في كلّ سنة، وما أَوْجَب. ولم يُجبهم إجابةً كلِّية، ورغبتُهم كلَّ يوم تزيد فيه، فأجابهم إلى الخروج معهم، ففرحوا بذلك واستبشروا، وجعلوا يزيدون في بِرِّه، ويقولون له: عندنا كثيرٌ من إخوانك ومَنْ يذهبُ إلى مذهبك، ولو رأوْكَ ما رضُوك إلاّ إلى شيوخهم، فضلاً عن صبيانهم؛ ولسنا نخلِّيك للتعليم بل نُعدُّك لما هو أعظم منه.

فلما عزم على المسير معهم جمعُوا له دنانير وأتوْه بها، فامتنع مِنْ قبولها، وقال: لم يكن مني ما يوجب ذلك، فعظُم في أنفسهم، وزادت هيبته في صدورهم، وخرجُوا به من مصر، وساروا حتى إذا كان بسوجمار[١] من أرض سماتة، تلقاهم رجالٌ من الشيعة، فأخبروهم بخبر الشّيعي، ونظروا إلى تعظيم الكتاميين له؛ فرغب كلُّ واحدٍ منهم أن يكون نزولهُ عنده، حتى رَموْا عليه السهام، فخرج سهم أبي عبد الله الأندلسيّ فنزل عنده، ونزل كل واحد على صاحبه. وأصاب أبو عبد الله عندهم من علم الشيعة أصلاً قويًّا، فزادَ في الكلام معهم، فأجَلُّوه.

ثم سار القوم فدخلوا كتامة يوم الخميس النّصف من شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين، ومعهم أبو عبد الله الأندلسي وأبو القاسم الوَرْفَجُومي، فأراد كلُّ واحد من الكتاميين نزول الشِّيعِيّ عنده، وتنازعوا في ذلك حتى خيّروه في النزول، فقال: أيّ موضع عندكم فجّ الأخيار؟ فقالوا: عند بني سكتان فقال: فإيّاهُ نقصد، ثُم نأتي كلَّ قومٍ منكم في موضعهم. ونزورهم في بيوتهم، ولا نجعل لأَحدٍ منكم حظًّا من نفسي دون أحد إن شاء الله تعالى، فأرضاهم كلَّهم بذلك، وسار كلُّ قوم إلى جهتهم، وسار الشّيعي مع موسى بن حريث وأبي القاسم الورفجومي وأبي عبد الله الأندلسي إلى إيكجان[٢] موضع موسى من بني سكتان. قال: ولما نزل عبد الله بإيكان ومضى كل معه من الحجيج إلى مرافقهم أخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بخبَرْ، ووصفوه لهم مع النّاس، فتسامع النّاس به، وأقبلوا إليه من كل ناحية؛ فكان يجلس لهم ويحدثهم [بظاهر][٣] فضائل علي رضي الله عنه.

---

(١) ذكرت من قبل على أنها سوق حمار. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٤٠.

(٢) إيكجان: انكجان: بالياء أو النون من بلاد كتامة بالمغرب سماها أبو عبد الله الشيعي دار الهجرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٣. في الكامل لابن الأثير: «وسار إلى جبل يقال له إنكجان وفيه فج الأخيار»، ج ٨، ص ٣٣.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من افتتاح الدعوة، ص ٤٩ ليستقيم المعنى.

قال: فاتصل خبر الشيعي بإبراهيم[١] بن أحمد صاحب إفريقية، فكتب إلى مُوسى ابن عَيّاش[٢] يسأل عن خبره فضعَّف موسى أمره فكتب إليه ثانياً وأرسل ابن المعتصم المنجم؛ وأمر إبراهيم بنُ أحمد موسى بْن عيّاش أن يتلطَّف في اتصاله إلى أبي عبد الله، وأن يختبر أحواله، ويأتيَه بصحيح خبره، وأوصاه بوصايًا أمره أن يذكرها له.

فلمّا وصل إلى موسى أرسل إلى بني سكتان يخبرهم أن إبراهيم قد بعث برجل إلى أبي عبد الله ليجتمع به. فرُفع ذلك إلى أبي عبد الله، فأذن له. فلمّا انتهى إليه قرّبه وأقبل عليه، فقال له ابن المعتصم: إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجّهني إليك برسالة، فإن أذِنْتَ لي أدَّيتُها. فقال له: أدِّ رسالتك قال: وأنا آمن؟ قال: نعم. فقال: يقول لك الأمير: ما حَمَلَكَ على التعرُّض لسخطي، والوثوب في ملكي، وإفساد رعيّتي، والخروج عَلَيَّ؛ فإن كنت تبتغي عَرَضاً من أعراض الدنيا فإنّك تجدُه عندي، وإن أنت تلافَيْت أمرك، ورجعت عن غيّك، فَصِرْ إليَّ وأنت آمن؛ فإن أردتَ المقام ببلدنا أقمت، وإن أحببت الانصرافَ انصرفت. وإن كان قصدُك قصْدَ من سَوّلت له نفسُه الخلاف على الأئمة، واستفْسَادَ جَهَلَةَ الأمة، فلقد عرفتَ عواقب من تُمنِّيه نفسُه أُمنيتك، وسوّلت له ما سوّلت لك، من الهلاكِ العاجل، قبل سوء المصير في الآجل. ولا يَغُرَّنَّكَ ما رأيتَ من إقبال هؤلاء الأوباش عليك، واتّباعهم إياك، فإني لو صرفت وجهي إليك لأَسْلَمُوك، وتبرّؤوا منك. واعلم أني إنّما أردت الإعذار إليك، لاستظهار الحجّة عليك، وهذا أوّل كلامي[٣] وآخره، لا أقبل لك بعد هذا توبة، ولا أقيلُك عثرة، ولا أجعل جواب ما يمكن منك إلا النُّهوض إليك بنفسي، وجميع أبطالِ رجالي، وأنصار دولتي، وجملة أهل[٤] مملكتي فعند [ذلك][٥] تندم حين لا ينفعُك النّدم، ولا تقبلُ منك التّوبة. فانظر في يومك لغدك، وقد أعذر إليك من[٦] أنذر.

فقال له أبو عبد الله الشيعي: قد قُلت فاسْمَعْ، وبلّغْت فابْلَغ: ما أنا ممّن يُروَّع بالإيعاد، ولا ممّن يَهُوله الإبراق والإرعاد. فأما تحويفُك إيايّ برجال مملكتك، وأنصار

---

(١) هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب: من أمراء الأغالبة أصحاب إفريقيا (٢٣٧ ـ ٢٨٩ هـ/ ٨٥٢ ـ ٩٠٢ م). الزركلي: الأعلام، / ١، ص ٢٨. وانظر أيضاً: تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٤٦.

(٢) «موسى بن العباس»: في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٤.

(٣) في الأصل: «كلامك» والتصحيح في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ص ٥٧.

(٤) في الأصل: «أهل علي»، وما أثبتناه في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٧.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٧.

(٦) انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٦ ـ ٥٧ حيث نقل النص بتصرف.

دولتك، أبناءِ حطامِ الدّنيا، الّذين يقتادون لكل سائق، ويجيبون كلّ داعٍ وناعق، فإني في أنصار الدّين، وحُماة المؤمنين، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الباطل[١]، مع قول الله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فأمّا ما أطْمَعَ به من دُنياه وعَرَضَه من زَبَدِها وحُطامها، فلستُ من أهل الطّمع فأميل إليه، ولا ممن يرغب فيما عنده فيأتيه. وإنما بعثت[٢] رسولاً لأمرٍ قد حمّ وقرب، فإن سوّلت له نفسه ما وعد به، ودعته[٣] إليه، فسوف يعلم أنّ الله عز وجل من ورائه ولن تغني عنه فئةٌ شيئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِين[٤] فهذا جوابُ ما جئت به، فبلّغه إن شاء الله.

قال[٥]: ولما اشتهر أمرُ الشّيعي ببلد كتامة، ونظر رؤساء القبائل وولاة البلدان فلم يَرَوْا في إبراهيم بن أحمد نهضة في أمر، وخافوا على زوال الرئاسة من أيديهم، وتقديم مَنْ يُسارع إلى أمرِه عليهم، ممَّن كانوا يَرَوْنه دُونهم، كتب بعضُهم إلى بعض في ذلك، فاجتمعوا وتعاقدوا. وكان ممن سعى في ذلك موسى بن عياش صاحب مِيلَة[٦]، وعلي بن عسلوجة صاحب سَطِيف[٧] وحي بن تميم صاحب بلزمة[٨] وكلُّ هؤلاء أمراء هذه المدن، وعندهم العِدّة والعُدّة والأموال الكثيرة والنّجدة، والقوّة، ومن مُقَدَّمي كتامة وكبارِهم ووُلاةِ أمورهم: فتح بن يحيى المشالي[٩]، وكان يقال له الأمير، ومهدي بن كنارة[١٠]، رئيس لهيصة، وقرح بن خيران[١١] رئيس أجّاته، وثميل بن فحل[١٢] رئيس لطاية، واستعملوا آراءهم في أخذ الشّيعي فعلموا، أنهم لا يقدرون عليه عنوةً من أيدي

---

(١) «أنصار الظالمين»: في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٧.
(٢) «يبعث»: في الأصل، والتصحيح من افتتاح الدعوة اللقاضي النعمان ص ٥٨.
(٣) في الأصل: «وعدته» وما أثبتناه من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٥٨.
(٤) الجملة مقتبسة من الآية ١٩ من سورة الأنفال: ﴿...وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.
(٥) المَقصود هو القاضي النعمان مؤلف كتاب افتتاح الدعوة الذي يأخذ عنه النويري.
(٦) ميلة: مدينة صغيرة بأقصى إقليم إفريقيا (تونس) بالقرب من قسطنطينية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٤٤.
(٧) سطيف: مدينة صغيرة في كتامة بين تاهرت والقيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٢٠.
(٨) بلزمة: مدينة صغيرة قرب بحيرة بادغوس البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٥٠.
(٩) «المسالتي» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.
(١٠) «كناوة» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.
(١١) «بن جيران» في افتتاح الدعوة، ص ٨٠.
(١٢) «وتميم بن فحل» في افتتاح الدعوة، ص ٨٠.

بني سكتان لأنّهم يمنعونه، ويجتمع عليهم جيملة وغيرها من قبائل كتامة، فتفرّق ذات البين، ويكون ذلك داعيةً إلى أن يجعلوا له أنصاراً، وتصير كتامة فريقين، ولم يأمنوا سوء العواقب، فقصدوا بنان[1] بن صقلان، وهو من وُجوه بني سكتان، ولم يكُن له يومئذٍ دخْلٌ في أمر الشيعيّ، وأرسلوا جماعةً منهم إليه، وبعثوا له أربعة أفراسٍ وأغْنُماً، وهديّة، وقالوا له: إن هذا الرجل قد بدّل الدّين، وفرّق الجماعة، وشتّتَ الكلمة، وأدخل الاختلاف بين الأقارب وقد قصدناك في أمْرِه، وأمْلَكناك في قطع هذا المكرُوه بأنْ تقبِضَ على الشيعيّ وتخرجه من بلدنا، وتنفيَه عنّا إنْ كرهت قتله، ونجعل لك بعد ذلك التَّقْدمة على جميع كتامة والعرب، فيكون لك شرف الدنيا وفخرها، ثواب الآخرة وأجرها، وتزيل عن أهل بيتك مكروهاً، وتقطع عنهم شرًّا. وأخذوا معه في ذلك وحذّروه عواقب السلطنة.

فقال لهم بنان: هذا رجلٌ صار بين أظْهُرنا، وهو ضيفٌ عندنا، كيف ينبغي أن نفعل فيه مثل هذا الفعل، فتنازعُوا في ذلك طويلاً، وكان آخر خطاب بنان لهم أنْ قال: الرأي أن نَجمع العلماء إليه فيناظرهم، فإن كان على حقٍّ فما أولانَا وإيّاكُم بنُصرته واتّباعه، وإن كان على باطلٍ عرَّفْنا من اتّبعه أنْ يرجعوا عنه.

فانصرفوا إلى أصحابهم وأخبروهم بما كان من بنان، فخافوا أن تقوم حُجّته، ويستحكم أمره، فتزول رئاستُهم بسببه. فأجمعوا على أن يَمضوا في جماعة ويُظهروا أنهم أتَوْا بالعلماء، فإذا خرج إليهم قتلوه، وانصرفوا على حميّة.

فاجتمعوا في عددٍ عظيم الخيل والرَّجْل؛ فلمّا رآهم بنو سكتان ركبوا خيولهم؛ والتقى الجمعان. فقالوا لبنان إنما أتَيْنَاك لِمَا كان بيْننا وبينك. فقال: إنّما كان بيننا أن تأتُوا بالعلماء، وقد أتيتم بالزّحف والعُدَّة، وعَلاَ الكلامُ بينهمْ، فالتحم القتال، وتداعت جيْمَلَة من كلّ مكان؛ فانهزم القوم، وانصرف عنهم بنو سكتان. وكان الشيعيّ قدْ سُيِّر في مبادىء هذا الأمر، وخاف عليه أصحابه.

ثم راسل الجماعة بناناً مرّةً ثانية، وقالوا: قد كُنّا أخطأنا فيما أتَيْنا به من الجمع، ولم يكن ذلك عن قصد، ولكن تسامَعَ النّاسُ بنا فتبعونا. وقد رجَوْناك لإصلاح جَماعتنا، وقدَّمناك، واخترناك لأنفسنا، لتحْقِنَ دِماءنا، وتجمع ما تبدَّد من شملنا، فقد عَادَى من أجل هذا الرَّجُل الأخُ أخَاه، والابنُ أباه، والقريبُ قريبه؛ وهذه فتنةٌ قد بَدَتْ، ورِدَّةٌ قد ظهرت. وهذا الرجل من أهل المشرق، وهُمْ كما علمت شياطين، وعُلماؤُنا

(١) «بيان بن صقلان» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.

بَرْبر، وقومٌ ليست لهم تلك الأذهان؛ فإنهم [إنْ][(١)] ناظرُوه يظهر عليهم ولم يجدُوا حجّة. يحتجون بها عليه. وقالوا له: أتُرى نحن وآباؤُنا والنَّاسُ كلُّهم في ضَلاَلَة، وهذا وحدَه على الحقّ والهُدَى. وكرَّرُوا عليه ما وعدُوه به من التَّقْدِمة عليهم؛ فأصغى إليهم وَوَعَدَهم أن يتلطَّفَ في إخراجه. فجعل يتكلم في ذلك ويحجّ على أهل بيته، ويخوّفهم العواقب؛ فاتصل كلام بنان بالشيعيّ فانتقل عنهم.

ذكر انتقال أبي عبد الله الشّيعي عنْ بني سكتان إلى بني عصمة بتازرارت[(٢)]

قال: واتّصل هذا الخبرُ بالحسن بن هارون العصمي[(٣)]، وكان قد دخل في هذا الأمر، وهو معروفٌ بالأدب وكثرة النّعمة، وهو مطاع في قومه، فأتى الشّيعي ورغب إليه في الانتقال إلى مكانه، وَوَعَده بالذَّبِّ[(٤)] عنه، والمدافعة بنفسه وأهله وماله؛ وذكر ذلك لأصحابه فأشاروا عليه به، وعظم ذلك على بني سكتان وكرهوه، وقالوا له: نحن ندافع عنك بأنفسنا حتى نُقتَل كلُّنا دونك. فشكر قولهم، وانتقل إلى الحسن ابن هارون إلى تازرارت فتلقاه مَنْ بها من أصحابه وغيرهم. وقام[(٥)] العصميون[(٦)] بما احتاج إليه الشيعيُّ وأصحابُه، وقاسموه أموالهم. وأقبل أصحابُ الشيعي من كلّ ناحيةٍ، وكلٌّ منهم يأتي بما يملكه، ويبذُلُه بين يديه. فاجتمع أمره، وامتنع جانبُه، واجتمعت عصمان على نُصْرَته، وخلقٌ كثيرٌ من قبائل كتامة، وندم بنان بن صقلان على ما كان منه في حقه، وعَظُم شأنُ الحسن بن هارون بفعله.

وكان للحسن أخ هو أسَنُّ منه، اسمه محمود، فوَجَد في نفسه من ذلك، وكان قبلَ ذلك مُقْدِماً على أخيه لسِنّه، وكان أيضاً مُطاعاً في أهل بيته، فتَكَلَ، بذلك، وفشا[(٧)] عنه

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة تتفق والسياق. «وإن ناظروه ظهر عليهم». في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٠.

(٢) «تازررت» في الأصل، والتصحيح من المغرب في ذكر بلاد إفريقيا للبكري ص ١٦١. وتازرارت تقع قرب جبل درن الذي يعترض الصحراء متصلاً بجبل نفوسة وجبل أوراس. البكري: المغرب، ص ١٦٠ ـ ١٦١، وهي تازروت في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٧.

(٣) في افتتاح الدعوة «العشمي». القاضي النعمان، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) الذَّب: الدفاع. ابن منظور: لسان العرب (ذبّ).

(٥) في الأصل: «أقام» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) «وقام الغشمانيون» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٧) «فشق ذلك عليه، وتكلم به، وفشا عنه» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٨٩ ـ ٩٠.

هذا والحسن يُدَاريه ويستَعطِفْه، خوفاً من أن يفترق جماعةُ عصمان.

فلمّا صار أمر الشيعيّ، بتازرارت إلى ما صار إليه وانتهى ذلك إلى القوم الّذين كانوا تعاقدوا عليه أولاً، فسقط في أيديهم، وعظم أمره عليهم، فرجوا أن يصلوا من محمود بن هارون إلى ما يريدونه من أمر الشّيعي. فاجتمعوا إلى مهدي بن أبي كتامة اللهيمي[١]، فذكروا له ما بلغهم عن محمود، وقالوا له: هذا جارُك وصديقُكَ، فلعلّك أن تستميله فتُفَرِّقَ به جماعةَ عصمان، فيمكننا ما تريد.

فركب مهدي إلى محمود، وذكر له اجتماعُ وجوه كتامةَ وأنهم أرسلوه إليه وقالوا إنّه قد أجحف أخوك بنفسه وأهلِ بيته وجاء إلى عصمان بِبَلِيَّة قد تَعَافَى منها بنو سكتان، وتخلّصوا من شَرِّها وجعل يخوفه من سوء العواقب، ووعده عنهم[٢] بالتَّقْدِمة على أنفسهم. فاستمالَهُ بذلك مع ما داخله[٣] من الحسد لأخيه والغَيْرَة منه.

فقال: القولُ في ذلك ما قُلتَ، ولكنَّه قد تمكَّن وقَوِي وَكَثُرت أتباعُه، وليس هو الآن كما كان في بني سكتان، وقد أجابته عصمان وكثيرٌ من عامَّة كتامة، فهم يقاتلُون دونه؛ فمتى دعوتُ من يطيعني من عصمان إلى أخْذِه صرنا فريقين، وأهلَكَ بعضُنا بعضاً، وما أرى في أمره إلاّ ما رأى لي بنان[٤]: أنْ يأتي بالعلماء إليه فيناظروه، فإن قامت حجّتُهم عليه وجدنا السّبيل إليه، وإن كانت الأخرى دبَّرنا رأياً آخر إن شاء الله تعالى.

وانصرف مهدي إلى القوم فأخبرهم. فقالوا: من الذي يُناظرُه من عُلمائنا وأنت تَرى الواحدَ من جُهَّالنا إذا دخل في أمره ناظرهم فقطعهم، فكيْفَ به فقال: قد رأيتُ من محمود شهوةً في قتله ومال إلى ما وعدناهُ به من التّقدِمة، مع ما داخَله من الحسد لأخيه؛ ولم أجد عنده غيرَ ما فارقتُه عليه. وما علينا أن نَأتِيَ بالعلماء فإذا هُم أخرجُوه وقعنا[٥] عليه أسْيَافنا فقتلناه، ويكون بعدُ ما عساه أن يكون. فأرسَلُوا في طلب العلماء من كلِّ ناحيةٍ، وقالوا لا نأتيه في احتفال كما فعلنا ببني سكتان.

واتصل الخبر بالحسن بن هارون، وبالشّيعيّ، فقال لهم لِيَجْتمِعْ جماعةُ عصمان إلى محمود فيلاطفوه ويذكرُوا له ما اتصل بهم، ويُحَذِّرُوه الْعَارَ، والنَّقص، وسُوءَ

---

(١) «مهدي بن كناوة اللهيصي» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩٠.

(٢) «ووعدهم عنه»: في الأصل، والتصحيح يقتضيه سياق الكلام وجاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩١، و«يعده عنهم».

(٣) «ما دخله»: في الأصل، والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩١.

(٤) «إلا ما رآه بيان» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩١.

(٥) في الأصل «وضعنا» أما في التصحيح فجاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩٠.

العواقب، ويقدِّمُوه على أنفسهم، ويعظّموه، ويرفعُوا من شأنه. ففعلوا ذلك؛ ووافاه أخوه الحسن وجماعةُ عصمان، وقالوا: نحن أهلُ بيتك وعشيرتك وأنت أميرُنا ومقدَّمنا، وهذا الرّجُل ضيفُك وضيفُنا، وقد رأيتَ ما لحق ببني سكتان من النَّقْض في إخراجه، وأنّهم نَدِمُوا عليه، وأن بنانا حاول رَدّهُ إليه ليصلح ما أفسده على نفسه، فلم يجبه إلى ذلك. فلا تجعَلْ علينا عاراً ولا نقصاً. وحلَفُوا له وقدَّموه على أنفسهم فمال إليهم.

فلما علم محمود أن أولئك القوم قَرُبوا من تازرارت ركب في جماعةٍ وأركب الشّيعيُّ أصحابَه معه وقال لهم: إن قَدَرْتم أن تلحموا الحرب[1] فافعلوا. فلمّا التَقوْا قالوا لمحمود: هؤلاء العلماءُ قد جئنا بهم؛ وعزلوهم ناحية: فقال لَهُم محمود: انصرفُوا ودعُوهمْ عندنا حتى نجمعَ بينهم وبين الرّجل، مع عشرة رجالٍ مِن وُجُوهِكم وخياركم، في مجلسٍ، فننظر ما يكون بينهم، فانحَلَّ ما عقَدُوه. فقالوا: وما عليكم أن تُخرِجُوه إلى ها هنا ونشهد ما يكونُ منه ومن العلماء، فيكون ذلك أشهرَ وأقْطَعَ للأمر: فقال لهم محمود قد بَلَغنا عنكم أنّكُم عقدتُم أمراً وطمِعتم أن تنزعوا ضيفَنا مِنْ أيدينا بالتَّغلُّب.

فردُّوا عليهم، فحمل عليهم هو وأصحابه، والتحم القتال، وقاتل محمود قتالاً شديداً فجرِح، ثم افترقوا، فمات محمود من جِرَاحه، فسُرّ أَخُوه والشِّيعيُّ بموته، وأظهرُوا الطّلب بِدَمِهِ، واجتمعت عصمان أَلْباً واحداً وصَحَّت الرئاسةُ للحسن بن هارون وولاّه الشِّيعي أعنّة الخيل، وقوّدَه وعَوَّدَه على جميع أصحابه.

واشتعلت الحرب بين عصمان ولهيصة بسبب قتل محمود. واجتمع أمراء بلزمه وأكثر القبائل للشِّيعيّ وأظهر نفسه، وكان يشهدُ الحرب ويباشرها. وطالت الحرب بينهم، ثمّ اصطلَحَت لهيصة وعصمان بعد أن قتل مهدي، وانضمُّوا كلهم إلى الشِّيعيّ، واشتدَّ أمرُه، وحاربوا مَنْ بينهم من القبائل، وشنُّوا الغارات على مَن بَعُدَ منهم. وبعث الشيعيّ خيلاً مُغيرةً إلى مزاتة ورئيس مزاتة[2] يومئذٍ يوسف القنطاسي، وكان قدم على إبراهيم بن أحمد فوصله وحيّاه، وكساه، وأعطاه جاريةً؛ فكبستْهُ خيل الشّيعي، وأخذوا جميعَ ما كان له، وسَبَوْا الجارية، وقتلُوا مَنْ قدروا عليه من أصحابه، واختفى هو فنجا، ووصلوا إلى الشِّيعيِّ بالغنيمة فاصطفى الجارِيةَ لنفسه وهي أمّ ولده.

فلما رأت القبائل ظُهور الشّيعي واجتماع لهيصة له، وقتل مهدي، مشى بعضهم إلى بعض، وأرسلوا إلى مزاتة، فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا إليه بعِيالاَتِهم ويُحيطوا به من كلّ جانب، فتُسْلِمَه عصمان ولهيصة ومَنْ مَعَهُم ويستأصلوهم. فانتهى الأمر إلى

(١) جاء في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٩٣، «أن تلقحوا الحرب».
(٢) تسكن في نواحي قفصة وقسطيلية. البكري: المغرب، ص ١٤.

الشيعيّ، فجمع أصحابه كلَّهم بتازرارت، وجاءت كتامة من أطرافها وأحاطوا به، فخندق على نفسه، وأشار عليه وُجُوه أصحابه أن يعتزل الحرب وهم يقاتلون. فشكرهم على ذلك، وأبى أن يقبَلَه، ووعدهم النّصر، وحثّهم على القتال، فأخرج كلُّ واحدٍ ما عنده من مالٍ وسلاحٍ وكراعٍ، وتشاوروا فيه، وكمَّلوا عِدّتهم وعُدّتهم، فبلغوا سبعمائة فارس، لا يزيدون ولا ينقصون، وألْفَى راجل. والتَقَوْا بعد مراسلةٍ لم تُجْدِ شيئاً واقْتَتَلُوا قتالاً شديداً، ودامَ القتال بينهم ثلاثةَ أيّام، ودام في اليوم الثّالث إلى العصر، وكان الظَّفرُ لأَصحاب الشيعي، وانهزم أولئك، وتبعوهم وقد امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم والأموال؛ وتفرّق ذلك الجمع. قال: فبيع الجِمَالُ كُلُّ عشرة بدينارٍ والحمارُ بعشر بصلات، وغنموا من الخيل مَا لا يُحصى[1].

وانصرف الشيعيّ إلى تازرارت وابتنى بها قصراً يسكنه، واتخذها دار مُقامه؛ وأقطَعَ أصحابَه دُوراً حَوْل قصره، وارتحل إليه أصحابُه من كلِّ ناحية، وابتَنَوْا وسكنُوا، وقَوِي أمرُهم. واستَأْمَنَ إليه كثيرٌ من القبائل؛ وشنّ الغارات، وداوم الحرب، فأقبل النّاس إليه من كل جهة.

ولحق فتح بن يحيى بإفريقية[2] فقدم على أبي العبّاس بن[3] إبراهيم بن أحمد، وهو يومئذٍ بتونس بعد خروج أبيه إبراهيم إلى صقلّية، فوصله وأدناه، وأكرمه، وسأله عن الشّيعيّ، فضَعَّفَ أمره، فقال: أليس قد اجتمعتُم عليه في عساكر عظيمةٍ فلم تَقدروا عليه؛ فقال: ليس أمرُنا من أمرِك في شيء، إنّما نحنُ مُقاتلةٌ بغير رأس، ونقاتل مَنْ يعرفنا من أهل بلدنا، ولو جاءه عسكرٌ من قِبَلك لكانت هيْبَتُه في صدور النّاس. فأطمعه أبو العباس، ثم أمسك عنه.

قال: واستولى الشيعي على جميع بلد كتامة، وظهرت دُعاتُه في كلّ ناحية منها، وغلب عليها؛ وكانت وقائع كثيرة ببلد كتامة.

وأقام بعد انهزام الجمع نحو سنتين وهو يشنّ الغارات، ويَغْنم الأموال، حتّى أجابُوه، وسلّموا الأمر إليه. ولم يبق إلاّ المدينة الحصينة ومَنْ فيها من أمَرائها ومَنْ انضَمّ إليها من القبائل.

---

(١) انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٠٣ ـ ١٠٩.
(٢) لمزيد من التفصيل انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٠٣ ـ ١٠٩.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١١٤، وهو أبو العباس عبد الله (الثاني) بن إبراهيم (الثاني) الذي ترأس دولة الأغالبة سنة ٢٨٩ هـ. تاريخ الدولة الإسلامية لسليمان، ص ٤٦.

ذكر تغلُّبِ أبي عبد الله الشيعي على مدينة مِيلَة[1]

قال ابن الرقيق: كان سبب ذلك أن قيس بن أبي جرير[2] من وُجوه أهل مِيلَة، وهم [من][3] ربيعة وكان رئيسُهم يومئذٍ حسن بن أحمد، فوصل إلى الشيعيّ سراً وأطْلعه على أمْر المدينة، فتقدَّم الشيعيّ إليها وقاتلَ مَنْ بها، وغَلَب على جميع أرضها، فدخل جميعُ مَنْ كان بها إلى الحصن، ثم سألوا الأمان، فأمّنهم مَا لَم يُحدثوا حدثاً، ففتحوا أبواب المدينة ودخلها أصحابُ الشيعي، وخرج إبراهيم بن موسى بن عيّاش مع جماعةٍ منهم في الليل، فهَربُوا إلى إفريقية، إلى أبي العبّاس بن إبراهيم، فأخبرُوه بالخبر، وضعَّفُوا عنده أمر الشيعيّ، وسألوه في إخراجِ عسكر إليه، وضَمِنوا أمره. فأمر بالحشد، وجَمَع وجوه رجاله، وأمّر عليهم ابنه محمّداً المعروف بأبي حوال[4] فاجتمع لهُ عساكر عظيمة انتقى منْها اثني عشَر ألف فارس. واتَّصل الخبر بالشّيعيّ فاستعدَّ للِّقاء.

ذكر الحرب بَين أبي عبد الله الشّيعيّ وبَين أبي حوال محمد بن أبي العباس

قال[5]: وخرج أبو حوال بالعَسكر الّذي اختاره مِن مَدِينة تونس، في سَنة تسْعٍ وثمانين ومائتين، وكلّ مَنْ مرّ عليه من القبائل، بدأهمْ بالعَطاء وخلع على وجُوههم، وقصد إلى سَطِيف[6]، فلم يصلْ إليها حتّى زاد في عسكره مثله. وتلقّاهم بنو عُسْلوجة أصحابُ سطيف[7]، وبنو تميم أصحابُ بلزمه، ومنْ حولَهم ممّن لم يدْخل في طاعة الشيعيّ، فقتل من وجوههم قتلاً ذريعاً، وانتهب أموالهم، وسَبَى نساءهم وذرارِيهم، وقصَد الشيعي بتازرارت، واتصل به الخبر، فبرز إليه بِمَن معه، والتَقَوْا ببلد بلزمة.

---

(١) ميلة مدينة على أربع مراحل من قلعة حماد. الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦٨.

(٢) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٣٥، «وكان بنو خنزير من وجوه أهل ميلة» وفي الأصل: «أن قيس بن أبي جرير من وجوه أهل ميلة».

(٣) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٣٥.

(٤) في الأصل: «أبي جوال»، والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٣٥. في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٣٤. وفيه إشارة إلى أن هذا هو ابن إبراهيم بن أحمد. وهذا تحريف لأن القائد أبو حوال أو الأحول هو حفيد إبراهيم بن أحمد وليس ابنه.

(٥) المقصود القاضي النعمان صاحب كتاب افتتاح الدعوة.

(٦) سطيف: مدينة أو حصن بينها وبين ميلة مرحلة، وهي قديمة أزلية. الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٨.

(٧) انظر ذكر تغلب أبي عبد الله الشيعي على مدينة سطيف.

واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الشّيعيّ وأصحابه، واتّبعهم أبو حوال إلى الليل، ثم أصبح فلقُوه واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الشيعيّ ثانيةً إلى تازرارت وجاءهُم ثلج عظيم، فحال بينهم.

ولم ير الشيعيّ أن تازرارت تحصّنهم، فأخذوا ما قَدَرُوا عليه، وانضموا إلى إيكجان. فلمّا ارتفع الثلج تقدَّم أبو حوال إلى تازرارت فأَخْرَبَها وهدَم قصر الشيعي وسار إلى مِيلَة، ثم التقى هو والشّيعيّ واقتتلوا إلى الليل، فانهزم أبو حوال إلى تونس، ورجع الكتاميّون إلى مِيلَة، واعتلَّ الحسنُ بن هارون فمات بإيكجان، وسكنها الشيعيّ وابْتَنَى بها قَصْراً.

وجاء الخبر إلى الشيعيّ بوفاة إبراهيم بن أحمد وأنَّ ابنة أبا العباس ولِيَ الأمرَ بعْدَه[1]، وجلَس في المسجد وردَّ على الناس ظُلامَاتهم، وأنّه يجلسُ على حصير وبين يديه الدِّرَّة، فاغتمَّ لذلك لأن العوامَّ مالت إليه، ثم أتاهُ الخبرُ بقتل أبي العبّاس، وأنّ ابنَه زيادَة الله[2] قتله ووَلِيَ مكانه، وأنه شرب الخمور وارْتَكَبَ المحارم، وعكف عَلى الملاهي، فسرَّه ذلك، وقال لهم: قَدْ زال عنكُمْ ما كنتم تخافونه، وهذا آخرُ ما تُحاربون، وسيصير الأمر إليكم.

قال: ثم خرج أبو حوال بالعساكر ثانيةً قبل وفاة أبيه، فهزمه الشيعيّ واستولى على مِيلَة، وعاد أبو حوال إلى بلاده وقد ملَك زيادةُ الله، فقتله زيادة الله وقتل إخوته، والله أعلم.

ذكر تَغلُّب أبي عبد الله الشيعيّ على مدينة سَطِيف

كانت مدينة سَطِيف لعليّ بن حفْص، المعرُوف بابن عسلوجة، وكان قد زحف مع أبي حوال لقتال الشّيعيّ. فلمّا استقام أمرُ الشيعيّ وأخذ مِيلَة ذهب بجُموعه إلى سَطيف وأقام عليها أربعين يوماً وهو يقاتله، ثمّ انصرف إلى إيكجان فأقام بها شهراً، وجَمَعَ[3] مَنْ قَدر عليه، وعَاد إلى مدينَة سَطيف فأحاط بها، وقاتلهُ عليّ بن عسلوجة، فهزمهُ الشيعيّ فتحصَّنَ بالمدِينَة. وأقام أيّاماً يُحاصرُه، فمات علي بن عسلوجة، هو وأخوه أبو

(١) توفي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. انظر ترجمته في الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٨. وولي بعده ابنه عبد الله أبو العباس أمير تونس والقيروان. وهو الحادي عشر من أمراء الدولة الأغلبية. توفي عام ٣٩٠ هـ/ ٩٠٣ م. الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٦٣.

(٢) هو عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، أبو مضر، زيادة الله الثالث، توفي عام ٢٩٦ هـ. انظر أخباره في: الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٢٠، ٢١، و٢٢ وص ٣٥.

(٣) في الأصل: «وجميع» والتصحيح يقتضيه السياق.

حبيب. في أيَّامِ قلائل فاستَوْلى الشيعيّ عليها[١].

ذكر خروج إبراهيم بن حنبش إلى بلد كتامة

قال[٢]: لمّا اتصل بالأمير زيادة الله أخبارُ الشيعيّ، وظهورُه على بلد كتامة، وافتتاحُه مِيلَة، ووصل إلى زيادة الله مِنْ كتامَة من خاف على نفسه، وعرّفوه أنّه إنْ لم يُعاجِل الشيعيّ زاد أمرُهُ، أخذ زيادة الله عند ذلك في الاحتشاد وَزَادَ في العطاء. فاجتمعت له عسَاكر عظيمة، فقدَّم عليها إبراهيم بن حنبش[٣]، فبلغت عدّة مَنْ خرج معه أربعينَ ألفاً، مِنْ فارسٍ وراجلٍ. وأخْرَج معه أموالاً جليلة وسلاحاً كثيراً، وعُدَداً عظيمة، وأمر ببَذل الأموال، وأخرج معه وُجُوه رجاله ومَنْ وصل إليهم من كتامة.

فسار إبراهيم بن حنبش حتى أتى قسطنطينية[٤]، وبينها وبين أيكجان الّتي بها الشيعيّ نحو مَرْحلتين، وأردفه زيادة الله بسديد بن أبي شدّاد[٥]، فاجتمع معه نحو مائة ألف. وأقام بقسطنطينية ستّةَ أشهر لا يتقدّم إليه الشيعي، فلمّا رأى ذلك زحف بعساكره كلِّها، فندب الشيعيّ خيلاً اختارها من كتامة ليختبرُوا بُرُوز حنبش، فأتوه. فلمّا رأى الخيْلَ قصدها بنفسه. هذا والأثقال على الدوابّ؛ فانتشَبَت الحرب، واقتتلوا قتالاً شديداً. واتّصلَ الخبر بأبي عبْد الله الشيعيّ، فزحَفَ بِمَن معه، فوقَعَت الهزيمَة على ابن حنبش وأصحابه، وأسْلموا الأثْقال، وتبعهم أصحابُ الشيعيّ يومَهُم ذلك إلى الليل، ومن الغَد، يقتلُون ويغنَمُون. فقتَلُوا منهم كثيراً وغنمُوا من الأمْوال والأمتعَة والسّلاح والكراع ما لا يُحصى كثرة.

ووصل ابن حنبش إلى باغاية[٦] وكتب كتاباً بخطّه إلى زيادة الله يخبرُه بالخبر. ثم قدِم إلى إفريقية، فاضطربت وماجت بأهلها، وعظُم أمرُ الشيعيّ ثم غلب على مدينة

(١) لمزيد من التفصيل راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٦٥ وما بعدها.

(٢) يقصد القاضي النعمان صاحب كتاب افتتاح الدعوة. انظر صفحة ١٦٨ وما بعدها.

(٣) هكذا في الأصل، اختلف رسم اسمه في المصادر. في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٠، رسم اسمه «خُنَيْش». وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٦٨ هو «حبشي»، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٦٢.

(٤) هكذا في الأصل، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٠. وافتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٦٨. أما في العبر للذهبي وديوان المبتدأ لابن خلدون، ج ٤، ص ٣٥ فهي «قُسَنْطِيْنَة» وما زالت تعرف بالاسم الأخير حتى الآن. وهي مدينة على هضبة صخرية مرتفعة يحيط بها الوادي من جميع الجهات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٩.

(٥) هكذا في الأصل «وشيب بن أبي الشداد» في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٧٠.

(٦) في الأصل: «بالآية» والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٧٢.

طُبْنَة(١) ثم على مدينة بلزمة، ثم مدينة تَيْجَس(٢)، ثم مدينة بَاغَاية(٣)، ثم قَفْصَة(٤)، وقَصْطِيلِيَة(٥)، ثم مدينة الأُرْبُس(٦). وكان له في خلال هذه الفتوحات وقائعُ كثيرة كان آخرُها مع إبراهيم بن أبي الأغلب لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة، سنة ستّ وتسْعين ومائتين، فانهزَم إبراهيم إلى جِهَة القيْروان، واتّبعهُم أصحابُ الشيعيّ يقتُلُون ويغنَمون ويأسرون(٧).

ذكر هرب زيادة الله إلى المشرق

قال(٨): ولمّا وَصل خبر هذه الهزيمةَ إلى زيادة الله وهو برَقَّادَة(٩)، وكان قد علم أنّه لا يقومُ له أمر إذَا انْهزم إبراهيم، لأنّه آخر ما جمع من الجيوش واستنْفَذَ فيه الوُسْع والطّاقة، فلمّا جاءه خبر الهزيمة أظهر أنّه جاءه الفتحُ، وأرسل إلى السُّجون فأحضرَ رجالاً منها فضرب أعناقهم، وأمر أن يُطافَ برُؤوسهم في القيروان، وأخذ في تجهيز أثقاله، وحَملها وحَمل أموالَه، وأنْذر خاصّته وأهلَ بيته بالخُروج معه، وعرَّفهُمْ بالخبر؛ فأشارَ عليه ابنُ الصّائغ(١٠) بالمُقام، فأبى ذلك، وخرج إلى مصر، كما ذكرنَاه(١١) وأقبل النَّاس في صبيحة يوم هربِ زيادة الله وانتَهبُوا رقَّادَة. والله أعلم.

---

(١) طُنْبَة: مدينة كبيرة من أعظم بلاد الزاب. الحميري: الروض المعطار، ص ٣٨٧. وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١.

(٢) تيجس: مدينة على الطريق من القيروان إلى قسنطينية، مكان عليها سور صخر رومي، البكري: المغرب ص ٦٣.

(٣) باغاية: مدينة بن مجانة وقسنطينة، قرب جبل أوراس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٥. البكري: المغرب ص ٥٠.

(٤) قَفْصة: بالفتح ثم السكون: بلدة صغيرة من عمل الزاب الكبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٥) قصطيلية: قسطيلية: بالفتح ثم السكون وكسر الطاء، مدينة كبيرة من أرض الزاب الكبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٨.

(٦) للتفصيل انظر افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٧٣ ـ ٢٤٠.

(٧) يقصد النويري القاضي النعمان. انظر افتتاح الدعوة ص ٢٤٣.

(٨) رقّادة: مدينة بإفريقية. ويقال: إن إبراهيم بن أحمد الأغلبي هو الذي بناها. ثم خربت وانتقل عنها الناس، ولم يبق لها أثر. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٧١، انظر أيضاً ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٩) هو عبد الله بن الصائغ الذي ولي الوزارة والبريد لزيادة الله. نهاية الأرب للنويري، ج ٢٤، ص ١٤٥.

(١٠) انظر ما ورد في الحديث عن دولة الأغالبة في نهاية الأرب، ج ٢٤.

(١١) «سبتة» في الأصل، وهو تحريف. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٤٣. والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٦.

ذكر رجوع أبي عبد الله الشَّيعيّ إلى إفريقية

قال: ولـمّا وافاهُ الخبر بهرب زِيادَة الله أمير إفريقية، وهو بناحية سَبِيبة[١]، رَحَلَ لِوَقته، وخرج إليه شُيوخ القَيْروان، وتلقَّوْه، فأكرمهم ودخل أبو عبد الله الشيعيّ رَقّادة في يوم السّبت غرّة شهر رجب، سنة ست وتسعينَ ومائتين، ونزل ببعض قُصورها، وفرَّق دُورَها على كتامة، ولم يكن قد بقي بها أحدٌ من أهلها، وأمر مُنَاديه فنَادى في القَيْروان بالأمان، فرجع النّاس إلى أوطانهم، وغيَّر المنكَرات، ووَلّى قضاءَ القيروان محمّد[٢] بن عمر المرْوَزيّ، وأمره، ورتّب الخطباء وأمرهم أن يصلُّوا على: رسول الله ﷺ، وعليّ، والحسن والحسَيْن وفاطمة، وأمر بضَرب السّكّة، وأن يُنْقش على الوجه الواحد «بلغت[٣] حجّة الله». وعلى الوجه الآخر «تفرّق أعداءُ الله»، ونقش على السلاح «عُدَّة لسَبيل[٤] الله»، ونقش على خاتمه الّذي يَطْبع به الكتب: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٥] ورسم في جلال الخيل[٦] «الملْك لله».

ذكر خروج أبي عبْد الله الشّيعيّ إلى سجلماسة[٧]

قال[٨]: ولـمّا استقرّ أبو عبد الله الشيعي برَقّادة، أتاه أخوه أبو العبّاس محمد بن

---

(١) سبيبة: بفتح أوله وكسر ثانيه، ناحية من أعمال القيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٦. أما سبتة: فهي في أقصى بلاد المغرب في مواجهة جزيرة الأندلس، وهي بعيدة عن الأحداث المذكورة في هذا الجزء من نهاية الأرب للنويري.

(٢) هو محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزي. أصله من خراسان، وتوفي سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م. القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٢٤٧. انظر أخبار وفاة المهدي حيث ورد شيء من أخباره. في الصفحات القادمة من هذا الجزء (نهاية الأرب).

(٣) في الأصل: «بلقب» والصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٥٠، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧.

(٤) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٥٠، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧ ورد «عُدّة في سبيل الله».

(٥) سورة الأنعام: من الآية ١١٥ وتتمتها: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٦) جُلّ الدابة وجلُّها: الذي تُلبَسه لتُصاب به والجمع جِلال وأجلال. ابن منظور: لسان العرب (جلل). ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٥١، «ووسم الخيل الملك لله». وورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٦٤، «ووسم الخيل على أفخاذها».

(٧) سِجِلْماسة: بكسر أوله وثانيه وسكون اللام. وبعد الألف سين مهملة: مدينة عظيمة، محدثة بنيت سنة أربعين ومائة. أسسها مدرار بن عبد الله. وهو رجل من أهل الحديث. الحميري: الروض المعطار، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧. وانظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٢.

(٨) يقصد المؤلف القاضي النعمان صاحب افتتاح الدعوة، انظر ٢٦٩.

أحمد، فَسُرَّ بمقدَمه، وكان أَسَنَّ من أبي عبد الله وَأَحَدَّ ذِهناً، وكان الشيعيّ يعظّمه، فإذا دخل قام إليه. وإذا دخل هُو على أبي العبّاس قبَّل يده ووقف حتى يأمرَهُ بالجلوس فيجلس.

ولما وصل أبو العباس أراد أن يَنْفِيَ من القيْروان من خالف مذهبه، فقال له أبو عبد الله إن دَوْلتنا دولَةُ حجّة وبيانٍ، وليْسَت دولةَ قهرٍ واستطالة، فاترك النّاس على مذَاهبهم فَتركهُم.

وأخذ أبو عبد الله في الخروج إلى سِجِلْمَاسَةَ، فرحلَ إليها في النّصف من شهْر رمضانَ من السّنة، في جيوشٍ عظيمة، واستخلف على إفريقية أبا زاكي تمام بن معارك وأخاه[١] أبا العباس.

قال: ولمّا خرج اهْتَزّ الغربُ لخروجه وزَالَت زنَاتَة[٢] والقبائلُ عن طريقه، وأوْقَع بقبائلَ عرضتْ له في الطّريق حتّى إذا قرُب من سِجِلْمَاسة رَاسَل أميرها الْيَسَع بن مدْرَار[٣]، وكان مِنْ أمره مَعَهُ ما نذكره بعْدُ في أخبار المهْدي عُبيد الله إن شاءَ الله.

فهذه أسبَابُ ظهورِ هذه الدّولة وقيامها وخبرُ شيعتها. فلنذكُر أخبارَ المهديّ وما كانَ مِنْ أمره، وخروجَه من بلاد الشام، وما اتفق لهُ في مَسيره إلى أن تسلم المُلك من أبي عبيد الله الشيعيّ، بعْد أن مهّدَ له القواعد وفتح البلاد. ثم نذكر في أخبار عبيْد الله، المنعوت بالمهديّ، تتمَّة أخبار أبي عبد الله الشيعيّ إلى أن قُتِل هو وأخُوه أبو العبّاس محمد بن أحمد. فنقول وبالله التوفيق.

ذكر ابتداء الدّولة العُبَيْديّة وأخبار المهدي عبيْد الله[٤] وما كان من أمره منذ خرجَ من الشّام إلى أن ملك البلاد وتَسلم الأمر منْ أبي عَبد الله الشيعيّ

كان ابتداء ظهور هذه الدولة وقيامها ببلاَد المغرب في سنة ستّ وتسعينَ ومائتين،

---

(١) هكذا في الأصل، وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٧، وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٢٧٥، أما في اتعاظ الحنفا فلم يذكر المقريزي، أبا زاكي تمام. بل ذكر أخاه أبا العباس، ص ٦٥.

(٢) زناتة: قبيلة كبيرة من البربر، ينتسبون إلى زنا بن يحيى بن ضري بن زجيك بن مادغس. العبر وديوان المبتدأ: لابن خلدون ج ٦، ص ٩١.

(٣) قُتل على يد عبد الله المهدي سنة ٢٩٧ هـ/ ٩٠٩ م، وكان قد ولي سجلماسة في سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م. انظر أخباره في هذا الجزء من نهاية الأرب في ذكر رحيل عبيد الله من الشام ووصوله إلى سجلماسة.

(٤) ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٩٧. حيث عرّفه بالمهدي الفاطمي. عبيد الله بن =

عند ظُهور عبيْد الله بن الحسَن المنعُوت بالمهديّ، وخَلاَصِه من سِجْنِ سِجِلْمَاسَة وقَتْله الحسن بن مِدْرَار. ومنهم من يَجعل ابتداءَها عند وُصول عبيْد الله إلى رَقَّادة في يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبْع وتسعينَ ومائتين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ولنبدأ بأخبار المهْديّ في رحْلته إلى المغرب.

ذكر رحيل عبيْد الله من الشام ووصوله إلى سجلماسة

وكان سببُ ذلك أن المعتضدَ بالله أبا العبّاس العباسيّ طلب عبيْد الله هذا طلباً شديداً، فخافَ على نفْسه إنْ هو أقام بالموضع الذي هُو فيه مِنْ أرْض الشام، فخرج بنَفْسِه وبولَده أبي القاسم محمّد، وهو يَوْمئذٍ غلام حَدَث وعُبيدُ الله شابّ، وخرج معه خاصّته ومَوَاليه، يريدُون المغرب، وذلكَ في خلافة المكتفي بالله العباسي، وأمير إفريقية يومئذٍ زيادةُ الله بن أبي العبّاس بن إبراهيم بن أحمد.

فلما انتهى عبيد الله إلى مصر أرادَ أن يقصد اليمن، وكان بها أبو القاسم الحسن ابن حوشب الكُوفي الدّاعي كما ذكرْنا، وقد استَقَامَ له الأمْر ومَلك أكثر البلاد، ثم بعث بعدَه عليّ بن الفضل فاستحلّ المحارِمَ ودعا الناس إلى الإباحات، فلما اتّصل ذلك به كَرِهَ دُخول اليمن على هذه الحال، وبلَغهُ ما فعل الشيعيّ بالمغرب، وما فُتح على يَدَيْه فأقام بمصر مستتِراً في زيّ التُّجار، وعامل مِصرَ يومئذٍ عيسى النُّوشَري بعد انقراض الدَّولة الطُّولونيّة؛ فأتَتْه الكُتب بصفته، وأُمِرَ بالقَبْض عليه.

وكان بعض خاصّة النُّوشَري يتشيع، قيل إنّه ابْن المدبّر، فبادَرَ إلى عبيْد الله وأخبره، وأشار عليه بالمسير؛ فخَرَج منْ مِصْر بمن صحِبَه، ففرّق النُّوشَري الرّسُل وذكر لهُمْ صفَته، ثم خرج بنفسه فأدركه وقدْ رحل من تَروجة، وهي على مَرحلةٍ من الإسكندرية، فمشَى النُّوشَري في القافِلَة التي عُبيد الله فيها، وجعلَ ينظر إلى وُجُوه القوْم، حتّى رأى عبيْد الله على هيئته التي وُصفت له، فقبض عليه وعلى منْ كانَ مَعَهُ، وأطلق الرِّفقة وعاد به إلي بِبُسْتَانٍ فنزل به، وأنزل عُبيد الله ومَنْ معه بمُفْرَدهم ووَكل بهم. ثم خَلاَ بهِ وقال له: أصْدقني عن أمْرك فإني ألطف في خلاصك، فقد جاءت صفتُك مِن قِبَل أمير المؤمنين وأمر بطلبك، وذكر أنّك تَرُومُ الخلافة. فقال عبيد الله[1]

= محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم الفاطمي العلوي من ولد جعفر الصادق مؤسس دولة العلويين في المغرب. ولد عام ٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م. وتوفي عام ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م. وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٩٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٧، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٢٧٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ١٨٧.

(١) في الأصل: «أبو عبد الله» والتصحيح يقتضيه السياق.

إنما أنا رجُلٌ تاجر، ولست أعلم شيئاً ممّا تقول، وأنت غنيٌّ عن تقلُّد إثمي، فما زال يلاطِفُه يَوْمَه وليْلَته حتّى أطلقه وقال: امْضِ إلى سبيلك وأنا أبعثُ معَك خيلاً تشيِّعك. فشكره وقال: أنا أستغني بنفْسي وبمن مَعِي، وانصرف. فرجع أصحابُ النُّوشَري عليه بالملامَة، وقالوا له: مَاذَا صنعته بنفسك! عمدت إلى بُغْيَة أمير المؤمنين وطلبته فأطلقته. فنَدِم على إطلاقه وهمّ أن يبْعَث إليه خيلاً تردُّه.

فلمَّا سار عبيْدُ الله أميالاً افتقد أبو القاسم ابنُه كلبةَ صيدٍ كانت له، فبكى عليها فعرّفه عبيدة[1] أنهُم تركُوها بالبُسْتَان، فرجع عبيدُ الله في طلبها، فرآهم النُّوشَري، فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقال بعْض أصحابه: الرّجل قَدْ رجع. فبعَث غِلمَانه فسألوا أصحاب عبيْد الله عن سَببِ رجوعه، فقالوا: افْتقد وَلَدُ سيدنا كلبةً، وهو عزيز على أبيه، فعادَ معه في طَلَبها بعد أن قطع أمْيالاً كثيرة. فقال النُّوشَرى لأصحابه، قبّحكم الله! أردْتم أن تحملوني على رجلٍ حالُه مثلُ هذه الحال اعْتقِلهُ بشُبْهَةٍ. لو كان مرتاباً لطَوَى المراحل وما عَادَ إلينا مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ في طلب كلبةِ صيْدٍ.

ورجع النُّوشَري مِنْ وقته إلى مِصر، وعاد المهديّ ولحق برفقته. فلمّا انتهى إلى مدينة طرابلس، فارق مَنْ كان معَهُ من التُّجّار، وقدَّم أبا العبَّاس محمّدَ بن أحمد بن محمّد بن زكريا، أخا أبي عبْد الله الشيعيّ إلى القَيْروان ببعض ما كان معه، وأمره أن يلحق بكتامة. فلما وصل أبو العبّاس إلى القَيْروان وجدَ الكتُب قدْ سبقت إلى زيادة الله في أمر عبيْد الله فأحضر الرّفقة وسألهم عنه، فأخبروه أنه تَخلَّفَ بطرابلس وذكرُوا أنّ أبا العبّاس من أصحابه؛ فأُخِذ وقُرِّرَ، فأنكر، فحُبس.

واتصل الخبر بعبيْد الله بطرابلس فصادف رِفْقَةً خارجةً إلى قَصْطيلية، فخرج معهم، وأتى كتابُ زيادةَ الله إلى طربلس بصفته وطَلَبه، فكتب إليه عاملُها أنه خرج مِنْ عَمله، وسار عُبيد الله حتى وَصل إلى قصْطِيلِيَة، ثم منها إلى سِجِلْمَاسة، وصاحب سجلماسة يومئذٍ اليَسَعُ بن مدرار، فهَادَاه عبيْد الله، فأكرمه الْيَسَع وعظّمه. فلم يزل كذلك إلى أن أتاه كتابَ زيادةَ الله يخبرُه أنه هو الّذي يدعُو إليه الشّيعيّ، فتغير الْيسَع عند ذلك عليه إلاَّ أنه لم يكن منْه في حقه ما يكره.

ثم كان من تغلُّب الشيعيّ ما قَدّمناه، وعَلِمَ بمكان عبيْد الله، وكان يُكاتبه في السِّرِّ. فلمّا هَزَم الشيعيُّ جيشَ إبراهيم بن حنبش كتب إلى عبيد الله يخبرُه بالفتح، فأرسل إليه مالاً مع رجالٍ من قِبَلِه من كتامة، وكان ذلك أول فتح ورد على عبيْد الله،

(١) في الأصل: «أبوه» وما أثبتناه من الكامل لابن الأثير ج ٨، ص ٣٨.

فسُرّ به. ثم استولى الشيعيّ على ما ذكرناه، وهرب منهُ زيادة الله، وملك رقّادَة والقيروان، وسار إلى سجلماسة فلما انتهى خبرُه إلى الْيسَع بن مدرار وقرب من سجلماسة سأله فحلف أنه ما اجتمع بالشيعيّ ولا رآه قطّ ولا عرفه، وقال: إنما أنا رجل تاجر فأغلظ له في القول فلم [يغير][1] كلامَه الأوّل ولم يخرج عنه، فجعله في دارٍ وجعل عليه حرساً، وجعل ابنه أبا القَاسم في دارٍ أخرى، وفرَّق بينهما، واختبر كلَّ واحدٍ منهما فلم يجِد بينهما خلافاً، وامتَحَن رجالاً كانوا معهُما بالعذاب ليُقرُّوا فلم يعترفوا بشيء.

واتصل الخبر بالشّيعيّ فعظُم عليه، وأرسل إلى الْيَسَع بن مدرار يؤمِّنُه جانِبَه ويذكر أنّه إنّما قصد سِجِلْمَاسَة لحاجَةٍ ويعِدهُ الجميلَ والبِرَّ والإكْرام، وأكد ذلك وبالغ فيه فلما وصلت رسل اليسع رَمَى بالكتب وقتل الرُّسل، واتّصل ذلك بالشيعيّ فعاوَدَه ولاَطَفَه؛ كُلُّ ذلك خوفاً منه أن يكون منه في حقِّ عبيد الله ما يكرهه؛ فقتل الرُّسُل أيضاً فلمّا رأى الشيعيّ إصرارَه عبّأ عساكرُه ودنا منَ المدينة فخرج إليه اليسعُ بمن مَعه، فناوشهم القتال. فقُتل من أصحابه جماعة وكانَ ذلك في آخر النّهار، فحجز بينهما اللّيل.

فلما جَنّ اللّيل هرب اليسعُ بنُ مدرار مع أهل بَيْته، وبات الشيعيّ ومَنْ معه في غمٍّ عظيمٍ تلك الليلة، لا يعلم ما صُنِع بعبيد الله وابنه، ولم يُمَكِّنْه دخولُ المدينة، وما علم بهرب اليسع، حتى أصبح، فخرج إلى الشيعي وُجُوه أهلِ المدينة وأعلموه بهرب الْيَسَع، فدخل إلى المكان الذي فيه عُبيد الله فأخرجه وأخرج ولده أبا القاسم، وقرَّبَ لهما فرسين وحَفّت بهما العساكر، وسار الشّيعيُّ والدُّعاة بين يدَي عبيْد الله وهُو يقول: هذا مَولاي ومَوْلاكُم، حتى انتهى عُبيد الله إلى فُسطاطٍ ضُرب لهُ، فدخله، وهو إذا ذاك شابٌّ لم ينبذه الشّيب، وابنه حر طَرّ شَارِبُهُ.

هذا ما حكاهُ إبراهيم بين الرّقيق في تاريخه.

وقال غيره إن اليسع بن مدرار لمّا أراد الخروجَ من سِجِلْمَاسَة، أحضر الشخص الذي اعتقله وقتله قبل هروبه، وأن الشيعي لمّا دخل وعَلِم بقتل عُبيد الله خاف من كتامَة لأنه كان يَعدُهم بخُروج المهديّ وملِكه الأرض على زعمه، وخَشِي أن يفتضح فيهلِك ويزُول ما حصَل في يده، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشّخص المقتول، وقال هذا إمَامُكم وإمامُ الإسماعيلية، وأركبه ومشى في رِكابه وانْسَلَخ له من الأمر، وهذا فيه بُعْدٌ، وأرَاهُ من التَّغالي في نَفْيهم عن النّسَب؛ والذي حكاهُ ابنُ الرّقيق أشبه. فلنرجع إلى ما حكاه إبراهيمُ بن الرّقيق.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

قال: ولما اسْتَقرّ عبيدُ الله بالفسطاط أمر بطلب الْيَسع بن مِدْرَار حيث كان، فخرجَت الخيلُ في طلبه، فأدركوه ومن معهُ مِن أهل بيته، فأخَذوهم وأتَوْا بهم إلى عبيد الله، فأمرَ بضَرْب الْيَسع بالسياط، فضرب وطيف به في بلاد سجلْمَاسَة؛ ثم أمر بقَتْلِه فقُتل هو وكلٌ من هرب معه من أهل بيته وغيرهم. وأمَّن الناسَ بعد ذلك وسكّنهم، واسْتَعملَ عليهم عاملاً، وأتَتْه القبائل من كلِّ ناحية فأكرمهم، ووعدهم بكل جميل.

وأقام بسجلْمَاسَة أربعين يوماً، ثم سارَ يُريد إفريقية. فلما حازى بلاد كتامَة مال إليها، ووصل إلى إيكجان، وأمر بإحضار الأموال التي كانت مع الشيعيّ والشيوخ، فأحضرها وشدّها أحمالاً وقدِم بها. وكان وُصُوله إلى رَقَّادَة في يوم الخميس لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين.

وفي هذه السنة زال ملْكُ بني الأغلب وكان له بإفريقية مائة سنة واثنتا عشرة سنة. وزال بزواله ملْكُ بني مِدْرار وكان له بسِجلمَاسَة وما حَوْلها مائةُ سنة وستون سنة. وزال ملكُ بني رُسْتَم من تاهرت[١] وما حولَها، وله مائة سنة وثلاثون سنة[٢].

قال: ولما قارب عبيْد الله القيروان تلقَّاه شُيوخها ومشَوْا بين يديه، فجزاهم خيراً ونزل عبيْد الله بقصْرٍ من القُصور برَقَّادَة، وأنزل العساكر بدُورِها ودُعي له بالخلافة في يَوم الجمعة لتِسْعٍ بقينَ من شهْر رَبيع الآخر من السّنة برَقَّادَة والقَيْروان والقصر القديم[٣]، وأنْفَذَ رسُله ردُعاتِه وأتَتْه وفود البلدان.

قال: ثمّ عرض عليه الشيعيّ جَوَارِيَ زيادة الله فاصطفى منْهنّ لنفسه وأعطى ولدَه، وفرّقَ أكثرهُنّ على وُجُوه كتامةَ؛ وقسّم عليهم أعمال إفريقية، واستعْمَلَ وُجُوهَهم على مُدنها، وأمرهم بالتجمُّل وحُسْن اللّباس، فلبِسوا الثّياب الفاخرة وركِبوا بالسُّروج المحلاَّة. ورتَّبَ الدّواوين وأنعم على النّاس، فرفع إليه صاحبُ بيت المال ما أخرجه من الصِّلاتِ في شهر رمضان، فبلغ مائة ألف دينار واستكْثَره صاحبُ بيْت المال فقال عبيْد الله: لو بلغتُ ما أؤمِّلُه ما رضيتُ بمثلِ هذا المال لرجلٍ واحد من أوليائي[٤].

---

(١) في الأصل: «تهرت» والتصحيح من معجم البلدان، ج ٢، ص ٧ ـ ٩.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر نهاية الأرب للنويري ج ٢٤. ما يتعلق بمدة حكم هذه الدول.

(٣) القصر القديم = قصر قيروان. مدينة عظيمة أسسها إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م. وجعلها عاصمة لدولته. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى، من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٠٤.

ذكر أخبار أبي عبيد الله الشيعيّ وأخيه أبي العبَّاس وما كان من أمرهما بعْدَ قيام عُبيْد الله المهْديّ إلى أن قتلهما

قال: لمّا استقامت الأمور لعبيْد الله المهديّ داخل أبا العبّاس محمداً أخا الشيعيّ فساد دينه[١].

وسبب ذلك أنّ أخاه أبا عبْد الله كان يعظّمه ويقومُ له عَنْ مجلسه ويقبّل يده كما قدّمْناه، وكان لأبي عبْد الله من الرئاسةَ وَنُفُوذ الكلمة والغَلَبة على الأمر كلّه ما ذكرناه[٢]. فلمّا صار الأمر لعبيْد الله المهديّ زالتْ تلك الرئاسةُ عن أبي عبد الله وأخيه، فداخَلَه الحسَد، فجعل يُزْرِي على عُبيد الله عند أخيه وأبو عبد الله ينكر ذلك على أخيه، وأبو العبّاس لا يَرْعَوِي، ويؤكّد أسبابَ النّفاق. ثم قال أبو العبّاس لأخيه: لقد ملكتَ أمراً عظيماً وانطاع لك النّاس، فجِئتَ بمَن أزَالكَ عنه وأخرجَك مِنْه، وكان الواجبُ عليه ألاّ يهتَضِمَك هذا الاهْتِضَام. ولم يَزَلْ يُغْريه بمثلِ ذلك إلى أنْ أثّر ذلك فيه، وَحَمله على مُشَافَهَة عُبيد الله المهديّ ببُغضه، وأشارَ عَلَيْه بتفويض الأمُور إليه والانقطاع في قصْره والاحتِجاب عَن الناس، وقال هذا أَهيَبُ لك وأشدُّ لأمرك، فردَّ عليه ذلك ردًّا لطيفاً. وكان قد بلغ المهديّ ما هُو عليه، فحقَّقه ولم يُرِه أنّه اطّلع على شيءٍ من ذلك. وعَمَدَ أبو العبّاس إلى الدُّعاة، وكانوا يعظّمونه لِما يَروْن من تَعظيم أخيه أبي عبيد الله له، فجعل يرمز لهم، ثم صرَّح، وطعن في عبيْد الله، وأدخل فيه الشُّبهة، وكلُّ ذلك يبلُغ عبيدَ الله فيُعْرِض عنه ويُغضي عليه، هذا والشيعيُّ في ذلك مُدَارٍ لم يبلُغ حد النِّفاق إلى أن فشا أنّ حال أبي العبّاس قد أنْهيت إلى عُبيد الله.

وما زال أبو العبّاس يتخيّل إلى أنْ قال للدُّعاة إنّ الإمام هو الّذي يأتي بالآيات والمعجزات ويُختم بخاتمه في البلاط، فأمّا هذا فقد شككْنَا فيه، فعند ذلك أرْسَل هارونُ بن يونس[٣] أحد المشايخ إلى عبيْد الله يقولُ: قد شككنا في أمرك فأْتِنَا بآيةٍ إن كنتَ المهديّ كما قلت. فتعاظَم ذلك وقال: ويْحَكُم إنكم كنتُم قد أيْقَنْتُم والشكُّ لا يُزيلِ اليقين، فأبيتم ألاّ الإصْرار! ثمّ أمر مَنْ قلته. فلمّا علم أبو العبّاس والقومُ الذين اسْتزلَّهم[٤] بقتله جعلوا ذلك سبباً لِمُبايَنةِ عبيد الله وأجمعوا على النَّقض والإبْرَام في دَار

---

(١) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٠ «داخل أبا العباس الحسد»، وكذلك في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٦٧.

(٢) أي ما ذُكر في الأصل.

(٣) «بن يوسف» في الأصل. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١١١، و٣١٠.

(٤) استزلهم: أي حملهم على الخطأ والذنب. أي الذين أغواهم. ابن منظور: لسان العرب (زلل).

أبي زاكي بن مُعارك، وعزموا على الفتْك بعُبيد الله. واجتمع كتامَة إلاّ قليلاً منهم؛ وكان عزوية[١] بنُ يوسف يأتي بأخبَارِهمْ لعُبيد الله، فجمع عبيْد الله إليه مَنْ سَلِم من النِّفاق والعَبيد واستعدَّ لَهُم، على كثرتهم وقلَّة المبايعين له، فجمعوا له الجُموع وأحاطوا بقصْره ليُوقِعُوا به، وهو في ذلك جالسٌ منتصبٌ غير مكترث، فقذف الله في قلوبهم الرُّعبَ على كثرتهم وقلَّة مَنْ معه، حتّى كانوا يَعبُرون وقد عزموا على الفَتْك به، فإذا قابَلُوه مَلأت الهيبَةُ قلوبَهم فإذا انصَرفوا ندِموا على تَركه ﴿...لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا...﴾[٢].

فنظر عُبيْد الله في بعض الأيام إلى أبي عُبيد الله الشيعيّ وقد لَبس ثوبَه مقْلُوباً، ودخل عَليه ثلاثَةَ أيّام وهُو على تلك الحال، فقال له في اليَوم الثَّالث: يا أبا عبْد الله؛ ما هذَا الأمرُ الّذي شَغَلَك وأذْهَلَك عن أمر نفسك؟ فقال: وما هُو يا مولاي؟ قال: إنّ ثوبك مقلوبٌ عليك منذ ثلاثة أيّام ما اهتَديْت له، وما أحْسِبُك نزَعْته. فنظر إليه وقال: والله يا مَوْلاَيَ ما علمتُ به. فقالَ: إنّ هذا لشُغُل عظيم؛ فأين تَبِيت مُنْذ كذا من اللّيالي؟ فسكَت. فقال: ألَستَ تبيتُ في دَار أبي زاكي، قال له: بلى. قال: وما أخْرجَك مِنْ دَارِك التي أنزَلْتُكَ بها؟ قالَ: يا مولايَ خِفت. قال: وما يخافُ المرءُ إلاّ من عدُوِّه، والمؤمن لا يخافُ وليَّه[٣]. فسكت أبو عبْد الله وأيقن أنّ عورتَه قد بَدَت لعبيْد الله، ووجَبت حُجَّتُه عليه، وحلَّ له قتلُه. فانصرف وأعْلَمَ القومَ بما جَرى بينهُما، فأمسكُوا عن الدّخول إلى عبيْد الله وخافُوا على أنْفُسهم مِنه. ثم جاؤوه بعدَ ذلك وأظهرُوا البراءةَ مما قِيل فيهم، واعتَذَرُوا؛ فردَّ عليهم ردًّا جميلاً، وأخرج جماعةً منهُم إلى البُلدان، فتفرَّقت جماعتُهم. وأخرج فيمن أخرج أبا زاكي بنَ مُعَارك[٤] إلى طرابلس، وكان غزوية بن يوسف والياً عليها[٥]، فلمّا وصل إليه كتب إليه عبيد الله، فقتَلَه وبعث برأسه إليه، وقُتل جماعةٌ منهم كذلك في البلدان بصنوفٍ من القتل.

وخرج أبو عبْد الله في بَعْض الأيام هو وأخوه أبو العبّاس يُريدان قصْر عبيْد الله على العَادة، فحمل غزوية بن يوسُف[٦] على أبي عبيْد الله، وحمل خير بن

(١) في الأصل: «عروبة» أيضاً في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٢، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٩، والتصحيح هنا من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٢.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٤٤ وتتمتها: ﴿...وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

(٣) في الأصل: «عدوه» وما أثبت من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٤.

(٤) في الأصل: «بن معادل» والتصحيح مما سبق ذكره.

(٥) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٥ وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٠، «وكان عمه أبو يوسف عاملاً عليها».

(٦) في الأصل: «فحمل ابن غزويه بن أبي يوسف» والتصحيح مما سبق ذكره. وافتتاح الدعوة للقاضي النعمان ص ٣١٦.

ماشيت[١] على أبي العبّاس. فقال أبو عبد الله لابن غزوية: يا بُنيّ لا تفعلْ. فقال: الّذي أمَرْتنا بطاعته أمَرنا بقتلك، وقَتلاهما فيما بين القَصْرَين؛ وذلك في يوم الاثنين، النّصف من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتِسعين ومائتين؛ وأمر عبيْد الله بدَفْنهما.

قال: وهذا اليَوْم هو الْيومُ الّذي قُتل فيه أبو زاكي بطرابلس.

قال: ولما قتل أبو عبْد الله وأبو العبّاس ثار جماعةٌ من بني الأَغْلَب وأصرُّوا على النِّفاق، وكانوا بالقصر القديم، فأخرجُوا منه الكتاميّين وقتلُوا جماعةً منهُم، فأحاط به مَنْ حوله من كتامة، فقاتلهم بنُو الأغلب، وقُتل من الطَّائفتين قتلى كثير. فبلغ ذلك عبيْد الله فردَّ كتامة وأنكر عليهم، فتفرَّق بنو الأغلَب وانصرفوا إلى دورهم، فتركهم عبيْد الله ثم قبض عليهم فقُتلوا على باب رقَّادَة؛ ثم تتَبّع مَنْ بقي منهم فقتلهم. ولمّا استقامت الأمور لعُبَيْد الله عَهِد إلى ولده أبي القاسم، وخرجَتْ كتبُه: مِنْ وَلِيّ عهد المسلمين محمد بن عبيد الله.

ذكر أخبار مَن خالف على عُبَيْد الله وما كان من أمرهم

قال: وبقيت[٢] بقيّة من المنافقين علَيه، فسارُوا[٣] إلى بلد كتامة، فأقامُوا غلاماً حَدَثاً من جبل أُورَاس من جهة أورسَّة[٤]، وزعموا أنه المهديّ، ثم نحلُوه النُّبوَّة، وزعموا أنّ الوحي يأتيه، وقالوا: أبو عبد الله حيٌّ لم يمت؛ وأباحُوا الزّناء، وأحلُّوا المحارم. وزحفوا إلى مِيلَة فأخذوها. فبلغ ذَلك عبيدَ الله[٥] فأخرج إليهم وليَّ العهد في عسكرٍ فحاصَرها مدَّة، ثم قاتلُوه فهزمَهُم حتى انْتهى بهم إلى البحر، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأخذ الغُلامَ الّذي نصَبُوه فأتَى به إلى أبيه، فأمَر بقتله، فقُتل.

وخَالَف علَيه أهلُ طرابلس، فأخرج إليهم عسكراً مع أبي يوسف، فحاصرها، ثمّ انْصَرف عنها ولم يفتحها، فخرج إليها بعْد ذلك أَبُو القاسم، وقد قدّموا على أنفسهم ابنَ إسحاق القُرشي، فكان خُروجُه يومَ الأحد لِلَيْلَتَيْن خَلَتا من جُمادى الأولى سنة ثلاثمائة. فحاصَرها وضَيَّق على مَنْ بها حتى أكلوا الجِيَف، ففتحُوا في آخر شهر رجب من السّنة، فعفا عنهم، لكنّه غرّمهم جميع ما أنفَق من مالٍ وغيرِه، وكانت جملته ثلاثمائة ألف

(١) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣١٦ «حبر بن تماشت» وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٠ «حبر بن القسم».

(٢) ورد في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٢٤. «وتغيب».

(٣) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٢٤: «فصاروا».

(٤) أو سنة: في الأصل. والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ١٠٧، ص ٣٢٤.

(٥) في الأصل: «أبو عبيد الله»، والتصحيح يقتضيه السياق.

وأربعين ألف دينار، وحمل وُجُوه رجالِهم معه إلى رَقَّادَة رهائن، واستخْلَفَ عليها، وانصرف.

ذكر بناء مدينة المهديّة

وفي سنة ثلاثمائة[١] خرج عبيْد الله إلى تونس وقرطاجنة وغيرها، يرتاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يبتني به مدينة، فاخْتار مَوْضِع المهديّة، فأمرَ ببنائِها وتَحصينها بالسُّور وأبواب الحديد المحْكم، فجُعل في كلِّ مصراعٍ من الحديد مائةُ قنطار. وكان ابتداءُ الشُّروع في بنائها في يوم السّبت لخمْسٍ خَلَوْنَ من ذي القَعدة[٢] من السنة. وانتقل إليها في سنة ثمانٍ وثلاثمائة، قال: ولمّا عزم على الانتقال إليها ثَقُلَ ذلك على جنده، فقال: نحن ننْتَقِل إليها ونَدعُكُم بمكَانِكم، وعمّا قليلٍ ستنتقلون، ففعَلُوا ذلك، فما كان إلاَّ أَنْ أرسل الله عليهم أمطاراً غزيرة، فهَدَمَت مساكنَهم، فسألوه النُّقلة إليها فأذن لهم.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة خرج وليّ العهد أبو القاسم إلى الدّيار المصريّة. وكان خروجه من رَقَّادة لستٍّ بَقِينَ من جُمادى الآخرة منها؛ وكان من أمره وأمر حباسة بن يوسف ووصولهما إلى الإسكندرية ما قدّمناه في الحوادث فيما كان بين الدّولة الطُّولُونيّة والدّولة الإخشيدية.

ولما وصل حباسة إلى عبيد الله أمر بقَتله على ما كان من انهزامه.

ثم خرج أبو القاسم بابنه إلى الديار المصرية، وكان خروجُه يوم الاثنين غُرّة ذي القَعدة، سنة ستٍّ وثلاثمائة. ووَصلَ إلى الإسكنْدَرية في شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وثلاثمائة[٣]، فخرجَ عنها عامل المقتدر، وملكها أبو القاسم. ثمّ ملَك الفَيّوم والأشمونين، وغير ذلك. وأقام نحو سنتين. ثمّ وقع الفَنَاء في عسكره، وماتت خيلُهم؛ وجاء مؤنس من بَغداد واجتمعت عليه العساكر كما ذكرنا، فعجز عن قتالهم، فرجع إلى إفريقية. وكان وصوله إلى المهديّة لعشر ليالٍ مضيْنَ من شهر رمضان سنة تسع وثلاثمائة.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١١. أما في المصادر الأخرى فهي سنة ٣٠٣ هـ. وذلك في الأعلام للزركلي ج ٤، ص ١٩٧ حيث ورد: «وعاد إلى المغرب فاختط مدينة «المهدية» سنة ٣٠٣ هـ. واتخذها قاعدة لملكه» وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٩٤، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧٠.

(٢) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١١، «يوم الخميس».

(٣) ورد هذا الحدث في الكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٣٠٦ هـ، ج ٨، ص ١١٣. ذكر إرسال المهدي العلوي العساكر إلى مصر.

ذكر خروج أبي القاسم إلى بلاد المغرب وبنائه مدينة المسيلة

قال: وفي سَنة خمْس عشرة وثلاثمائة خرج أبو القاسم، وليّ العَهد، إلى بلاد المغرب في عسكرٍ عظيم وكان خروجه من المهديّة في يوم الخميس لسَبع مضَيْن من صَفر منها، ففتح مزاته، وهوارة، ومطماطة، ولماية، وكل من خالطهم من الصُّفْريّة[١] والإبَاضِيّة[٢] وبلغ إلى ما وَرَاءَ تاهرت[٣]. ولمّا انصرف من سفرته اختط مدينة الْمَسِيلة[٤] برمحه، وأمر عليّ بن حمدُون الأويسي ببنَائها، واسْتعمله عَلَى المحمدية فبناها وحصَّنها، وكان خطّةً لبني كملان فأخرجهم منها، وأمرهم أن يرتفعوا إلى فَحْص[٥] القيروان، وانتقل الناس إليها وعظم أمرها.

ذكر وفاة عُبيْد الله المهْديّ وشيء من أخبَاره

كانت وفاتُه ليلة الثّلاثاء، النّصف من شهْر ربيع الأول[٦]، سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة؛ وهو ابنُ ثلاثٍ وستّينَ سنة. وكانت إمارتُه منذُ وصل إلى رَقّادَة إلى يوم وفاتِه أربعاً وعشرين سَنة وعشرة أشهر[٧] وعشرين يوماً.

قال: ولمّا مات كَتَمَ ابنُه أبو القاسم موتَه سنَةً حتى دبَّر أمره.

أولاده: أبو القاسم عبد الرحمٰن، وليُّ عهده وتسمَّى بالمغرب محمداً.

أبو عليّ أحمد، مات بمصر للنِّصف من ذي القعدة سة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ودفن بالقصر.

أبو طالب موسى، مات بمصر في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة ودفن بالقصر.

---

(١) الصفرية: أصحاب زياد بني الأصفر. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) الأباضية: جماعة عبد الله بن أباض. الملل والنحل للشهرستاني، ج ١، ص ١٣٤.

(٣) في الأصل تهرت. والصواب تاهرت.

(٤) المسيلة: بالفتح ثم الكسر، مدينة بالمغرب وتسمى «المحمدية» ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣٠.

(٥) الفَحْص: ما استوى من الأرض، والجمع فحوص، ابن منظور: لسان العرب (فحص).

(٦) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٤ «في هذه السنة (أي ٣٢٢ هـ) في شهر ربيع الأول، توفي المهدي، وأخفى ولده أبو القاسم موته سنة لتدبير كان له». ولعل هذا هو السبب في الاختلاف على تاريخ وفاة المهدي، وفي افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٢٩، ضُبطت الوفاة في شهر جمادى الآخر بدلاً من رَبيع الأول.

(٧) يذكر القاضي النعمان في افتتاح الدعوة ص ٣٣٠ «شهراً واحداً» وفي الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٢٨٤، و«شهراً» انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج، ص ٧٣.

أبو الحسين عيسى، تُوفِّي برَقّادة في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة.

أبو عبد الله الحسين، تُوفّي بالمغرب في أيّام القائم.

أبو سليمان داود، تُوفّي بالمغرب في أيام القائم.

وكان له سبعُ بنات، ومن السَّراري أمّهات الأولاد ستّة.

قضاته: أبو جعفر محمّد بن عمر[١] المروروزي، مات بعد أن عُزل في سنة ثلاثٍ وثلاثمائة، ثم إسحاق بن المنهال، ثمّ محمّد بن محفوظ المصمودي، مات في المحرم سنة سبعٍ وثلاثمائة، ثم محمدّ بن عمران النفطي، مات في سنة عشرٍ وثلاثمائة، ثم إسحاق بنَ المنهال ثانياً.

حاجب جعفر بن علي.

حامل مظلّته: مسعود الصقلبي، ثم غرس الصقلبي[٢].

ذكرُ بيْعة القائم بأمْر الله[٣]

هو أبو القاسم محمّد، وقيل أبو العبّاس، ويدعى نزاراً، وكان اسمُه بالمشرف عبد الرحمٰن فتَسمى محمّد بن عبيد الله المهديّ، وهو الثّاني من مُلوك الدّولة العُبَيْدِيَّة؛ بايعَ لَهُ أبوه بولاية العهد كما تقدَّم، ثم جُدِّدت لهُ البَيْعَةُ بعدَ وفاة أبيه بسنة، فإنَّه كتَم وفاتَه سنةً كاملةً، حتّى مَهَّد قواعدَ دَولته، ثم أظهرَها. واستقلَّ بالأمر وهو ابنُ سبعٍ وأربعين سنة، فقام مقَام أبيه، واقتفى آثارَه، وأظْهَرَ عليه من الحزن ما لم يُسْمَع بمثله ووَاصَلَ الْحُزْنَ لفَقْده، ولم يَرْقَ[٤] سريراً، ولا ركب دابةً منذ أفْضى إليه الأمر إلى أن ماتَ إلاّ مَرّتين، مرَّةً صلّى على جنازة، ومرَّةً صلّى بالنّاس العيد، وافتُتِحَت في أيَّامه مدائنُ كثيرةٌ من مُدُن الروم، وثارَ عليه عدَّة ثُوَّار فتمكّن منهُم؛ فكان مِمّن ثار عليه ابنُ طالوت القُرَشيّ، فسارَ إلى ناحية طرابلس وزعَمَ للبربر أنّه المهديّ فقامُوا معَه واتبعُوه، فزحَفَ

---

(١) في الأصل «عمار» والتصحيح من الأحداث السابقة.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٣ والمظلة: قد يعبر عنها بالجز (بجيم مكسورة قد تبدل شيناً معجمة، وتاء مثناة فوق) وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأسه في العيدين. وهي من بقايا الدولة الفاطمية. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٧ و٨.

(٣) ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي، ج ٦، ص ٢٥٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٣٣٠. وأخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لمحمد بن علي بن حمادة، ص ١٢ حيث أشار إلى الاختلاف في اسمه. ورجح أن صحة الاسم محمد.

(٤) في افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٣١ «لم يرقد سريراً».

بهم على مدينة طرابلس في عددٍ عظيم، ثم تبيَّن للبربر أمره فقتلُوه، وأَتَوْا برأسه إلى أبي القاسم.

قال: وأوّلُ ما بدأ به أنه أمر باتّخاذ أنواع السّلاح في سائر البلاد، وأخرج ميسور[١] الصقلبي في عددٍ عظيمٍ إلى المغْرب، فانتهى إلى مدينةِ فَاس، وهزَم ابن أبي العافية، وأخذ ابْنَه الثوري أسيراً، وأخرج بعدَ ذلك يعْقُوب بن إسحَاق على أُسْطُولٍ عظيم إلى بلد الرُّوم، فافتتح بلد جنوة.

وكان مِمّن خرج عليه أبُو زيد مُخَلَّد بن كَيْداد[٢]، في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وهو رَجُلٌ إباضيّ، يُظهر الزُّهد، وأنَّه إنما قام عليهم غضَباً لله. وكان لا يَركَب غير حِمار، ولا يلْبَس إلاَّ الصُّوف. وكان بَيْنَهُما وقائعُ كثيرة، فملك أبو زيد جميع مُدُن القَيْروان، ولم يَبْق للقائم غير المهديّة، فحاصرها أبو زيد إلى أن هلك القائم. وكان بيْنَه وبين ابنه المنصور ما نذكُره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة القائم بأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاته بالمهديّة في يوم الأحد الثّالث عشرَ من شوّال سنة أرْبعٍ وثلاثين وثلاثمائة. ومولده بسَلَمِيّة التي بالقُرب من مدينة حماه من الشّام في المحرّم سَنَةَ ثمانين ومائتين[٣]. وكان عُمره أربعاً وخمسين سنة وتسعة أشهر، ومدة ملكه ثنتي عشرة سنةً وستّة شهور وأيّاماً.

أولادُه: كان لهُ من الأولاد الذّكور سبعة، وهم: أبو الطاهر إسماعيل قام بالأمر بعده؛ وأبو عبد الله جعفر، تُوفّي في أيّام المعزّ؛ وحمزة، وعدنان. وأبو كتامة قَضَوْا بالمغرب؛ ويوسف، مات ببَرقة سنة اثنتين وستّين وستّمائة، وأبو القَرَان عبد الجبار، تُوفّي بمصر في سنة سبعٍ وستّين وثلاثمائة، وأربعُ بنات وسبْع سَرَارٍ.

قضاته: إسحاق بن أبي المنهال إلى أن تُوفّي؛ ثم أحمد بن بحر إلى أنْ قتله أبو زيد[٤] لمّا فتح إفريقية في صفر سنة ثلاثين؛ ثم أحمد بن الوليد، ولَّتْه الرَّعِيَّةُ فأقره.

حاجبُه: جعفر بن علي حاجب أبيه.

---

(١) في الأصل: «منشوراً الصقلبي، والتصحيح من افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، ص ٣٣٢.

(٢) هو من قبيلة زناتة من مدينة توزر، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٧٥ وفيه «أبو يزيد مخلد».

(٣) في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١١٠ «ولد بسلمية سنة سبع وسبعين ومائتين، وقيل: ولد في المحرم سنة ثمان وسبعين».

(٤) «أبو يزيد» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٧.

ذكر بيعة المنصور بنصر الله[١]

هو أبو الظّاهر إسماعيل بن القاسم بأمر الله بن عبيْد الله المهديّ، وهو الثالث من ملوكهم. بايع له أبُوه القاسم بأمْر الله في حياته، وولاَّهُ حرْبَ أبي[٢] زيد؛ وهَلك أبُوه القائم بأمر الله، فأخْفى إسمَاعيل موته، وناصب أبا زيد حتّى رجَع إلى المهْديّة؛ وتوجَّه أبو زَيد إلى سُوسَة فحاصرَها، فأدركه المنصورُ إسماعيل فطرده عنها؛ ووَالَى عليه الهزائم إلى أن أسَرَه في يوم الأحد لخمَسٍ بَقِين من المحرَّم سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة؛ فماتَ بَعْد أسره بأربعة أيّام من جراحةٍ كانت به. فأمَر المنصُور بسَلْخِه، وحَشَى جِلْدَه قُطناً وصَلبَه، وبنى مدينَته المسمَّاة بالمنصوريّة في موضع الْوَقْعةِ، واستوطنها في سنة سبعٍ وثلاثين وثلاثمائة.

وكان المنصُور شجاعاً بليغاً يرتجِلُ الخطب. حكى الْمرورُوذيّ قال: خرجت مع المنصورُ يومَ هُزم أبو زيد، فسَايرَتُه وبيده رمحان[٣] فسقط أحدهما مراراً وأنا أمسحُه وأناوِلُه إيّاه وتفاءلْت له بذلك. فأنشدت:

فألْقَت عصاها واستَقَرَّ بها النّوى ... كما قَرَّ عيناً بالإياب المسَافِر

فقال: ألاَ قلتَ ما هُو خيرٌ من هذا وأصدق: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩].

ذكر وفاة المنصُور بنصْر الله وشيء من أخباره

كان وفاتُه في يوم الجمُعة آخرَ شوّال سنةَ إحدى وأربَعين وثلاثمائة. وكان سببُ وفاتِه أنّه خرج في شهْر رمضانَ من السَّنة إلى جَلُولاء[٤] ومعه جاريتُه قضيب، وكان يحبُّها، فجاءَ مطرٌ عظيم وَريحٌ شَديدةٌ بجلولاء واشْتدّ البردُ بها؛ فخرجَ منها على فرسٍ وقَضِيبُ في غمازيه وهو يريد المنصُورِيّة، ودَامَ عليه المَطَر والبرْد.

---

(١) انظر ترجمته وأخباره في: الأعلام للزركلي ج ١، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣. ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٢٣٤ رقم ٩٨. والعبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، ج ٤، ص ٤٣. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٣٥١.

(٢) «ابن» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) في الأصل: «ريحان» والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٩. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٨٨.

(٤) جلولاء: مدينة بإفريقية وردت أيضاً جلولا: الحميري: الروض المعطار، ص ١٦٨، انظر أيضاً: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

قال أبو الرِّقِيق: أخبرني مَنْ كان معَهُ، قال: كنَّا ننظُر إلى العبيد السُّودَان على الطريق قُعوداً فتأمّلُهم فنجدُهم موتَى، وقد جَفُّوا من البرد. ووصل المنصور إلى قَصره آخرَ النّهار، فدخل الحمّام، فاعتَلَّ لِوَقْتِهِ. وصلّى العَيدَ بالنَّاس في مَبَادِىء علّته، ثم اشْتَدّت به، فماتَ في التّاريخ [المذكور][1]، وأوصى ابنه أنْ يمنع من النَّوْح علَيه.

وكان مولدُه بالقَيْروان، في سنة اثنَتين وثلاثمائة، وكان عمرُه أربعين سنة.

وقال ابنُ الرّقيق: إنّه وُلد برَقَّادَة في سنة إحْدَى وثلاثمائة، وكان عمرُه أربعين سنة تقريباً. ومدَّة ملكه سَبْعُ سِنين وأيّام[2].

أولاده الذكور خمسة، وهم: أبو تميم معدّ، وهاشم، وحيدرة، ماتَ بمصر سنة اثنَتَين وثمانين وثلاثمائة، وأبو عبد الله الحسين، وأبو جعفر طاهر. وكان له خمسُ بنات، وثلاثُ أمّهات أولاد.

قضاته: أحمد بن محمد بن الوليد، ثم محمد بن أبي المسطور، ثم عبد الله بن هاشم، ثم علي بن أبي شعيب، عَلَى المنصُوريّة، ثُم أبو محمد زُرارة بن أحمد، ثم أبو حَنيفَة النّعمان[3] بن محمّد التّيْمي.

حاجبه: جعفر بن علي، حاجب أبيه وجدّه.

ذكر بيعة المعزّ لدين الله[4]

هو أبو تميم معدّ بن المنصُور بن القائم بن المهديّ، وهو الرّابع من مُلوك الدّولة العُبَيْدِيّة، وأول من مَلَك مصر والشّام منهم.

صار الأمرُ إليه ببلاد المغرب بعد وفاة أبيه المنصور، في آخر شوال سنة إحدَى وأربعين وثلاثمائة، فدبَّر الأُمور وأحكمَها إلى يوم الأحد السّابع مِنْ ذي الحجة من السنة، فجلَس على سرير الملك، ودل عليه الخاصّة وكثيرٌ من العامَّة فسلّموا عليه

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٢) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٩.
(٣) هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون صاحب كتاب افتتاح الدعوة. وابن خلكان: فيات الأعيان:، ج ٥، ص ٤١٥.
(٤) انظر ترجمته وأخباره في: ووفيات الأعيان لابن خلكان:، ج ٥، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨، رقم ٧٢٧. والمنتظم لابن الجوزي، ج ٧، ص ٨٢. والدرة المضية لابن بكر بن أيبك الدواداري، ص ١١٩، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، ج ٤، ص ٤٦. والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١٣. وعبر الذهبي، ج ٢، ص ٣٣٩، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٥٢.

بالخَلافَة، وتلقَّب بِالمعزّ لدين الله. ولم يُظْهر على أبيهِ حُزْناً؛ وكان عمرُه يوم وَلِيَ أرْبَعاً وعشرين سنة. وأرسل إلى جميع مَنْ بالمهديَّة من عُمُومَتِه وعُمُومة أبيه، فأتَوْه وسلَّموا عليه بالإمارة، فأخذ عليهم البيعة، ومشَوْا بين يديه رجَّالَةً، وأرضاهم بالمصلاّة. واستقام له الأمر. وصلّى بالنّاس عيد الأضحى، ثم صرفَهُم إلى المهديّة.

ودخل في طاعته مِنَ العُصاةَ مَنْ عَصى على غيره ممّن كان بجبل أوراس من بني كملان ومليلة، وهما من قبائل هَوّارة.

ثمّ بعث القائدَ جوهراً في يوم الخميس لِسبعٍ خلَوْن من صَفر سنة سبعٍ وأربعين وثلاثمائة. في جيش عظيم إلى المغرب، فسار حتّى بَلَغ البحر المحيط، فأمر أن يُصَاد من سَمَكِه، وجعلَهُ في قُلَّةٍ وجعل فيها الماء، وحملَها إلى المعزّ صُحْبَة البريد؛ وجعل في باطن كتابه من ضريع البحر. وعاد وفَتَح فاس يوم الخميس لعشرٍ بَقِينَ من شهر رمضان سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة؛ واستخْلَف عليها وعلى سجِلْمَاسة وتاهرت وعاد جوهرٌ من المغرب إلى رَقَّادَة يوم الجمعة لاثنَتَيْ عشرة [ليلة][1] بقيت من شعبان.

وفي سنة خمسين[2] وثلاثمائة، في النّصف من المحرّم، غلبت الرّوم على جزيرة إقريطش[3]، ففتحوا المدينَة وقتلوا مِنْ أهلها مائتي ألف رجل وسَبَوْا من النساء والصِّبيان مثل ذلك، وحرَّقوا المصَاحف والمساجد؛ وكانُوا قد أتَوْا في سبعمائة مركب.

وفي سنة إحدى وخَمْسين وثلاثمائة بعثَ المعزّ لدين الله عُمّاله من بَرْقة إلى سِجلْمَاسَة، إلى جزيرة صقلّية، وأمرهم أن يكتُبوا جميعَ الأطفال الذين في أعمالِهِمْ من الخاصَّة والعامّة ليُخْتَنوا مع أوْلاده، فبلغُوا عدَّةً لا تُحصى. فلمّا كان في أولَ يَومٍ منْ شهر ربيع الأول من هذه السنة ابتدأَ بطُهور أولاده وأهْل بيته وأولاده خاصَّته من الكُتَّاب ورِجال الدّولة وغيرهم، وأعطاهم الصِّلات والكساوي. قال: وازْدَحَم النّاس في يوم الاثنَين لإحدَى عشرةَ [ليلةً][4] خلت من شهْر ربيع الأول فمات من الرّجال مائة وخمسون نفساً.

وفي سنة خمسٍ وثلاثمائة أمر المعزّ لدِين الله بحَفْر الآبار في طريقِ مِصْر وأن

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة ليستقيم المعنى. ولمزيد من التفصيلات حول فتوحات جوهر بالمغرب. انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢١ ـ ٢٣، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٢) في الأصل خمس، والتصحيح يقتضيه سير الأحداث.

(٣) إقريطش: بفتح الهمزة وتكسر. جزيرة في بحر المغرب. وهي حالياً جزيرة كريت بالبحر المتوسط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٦.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

يُبنى لَهُ في كلِّ موضع يُقيم به قُصور، فأخذُوا في عمل ذلكَ، حتّى تمّ، وفي يوم الجمُعة لِلَيْلَةٍ بقِيَت من جُمادى الآخرة، سنةَ سبعٍ وخمسين، وردت النُّجُبُ من مِصْر بوفاة كافور الإخشيدي، وكانت وفاتُه لعشرٍ بقينَ من جُمادى الأولى. كما تقدم.

ذكر خبر إرسال القائد جوهر الكاتب بالعساكر إلى الدّيار المصرية

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة قَدِم القائدُ جوهر من المغرب بعَسْكرٍ عظيم من كتامَة والجند والبربر؛ فأمرهُ المعزُّ بالاستعداد والخُروج إلى مصر. فأقام بقصر الماء بالقُرب من المنصُوريَّة ليجتمع إليه الحشود؛ وفتح المعز بيْتَ المالَ ووَضَع العطاء. وحَشَدَ من إفريقية من الكتاميين والزويليين والجند والبربر، وأعطى من مائة دينار إلى عشرين ديناراً حتى عمّهم بالعطاء، وتصرفوا في القيروان وصبره في ابتياع ما يحتاجُون إليه، ثم أمر المعزُّ بالرَّحيل، فرحل في يوم السّبت لأرْبَع عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأول منها. وفارقه خمسمائة فارس من البربر، فجرَّد خلفَهُم عدّةً من الوُجوه فلم يَرْجعوا؛ فقال المعز: الله أكرَمُ أن ينصرَنا بالبَرْبَر، ثم سار جوهر بجميع مَنْ معه من العساكر، ومعه ألف حمل من المال، ومن السلاح والعُدَد والكراع ما لا يوصف، وأَغَذَّ السير حتى أقبل على الدّيار المصرية.

ذِكر خبر وصُول جَوْهر القائد بالعسَاكر إلى الدّيار المصرية وما كان بينه وبين الإخشيدية والكافورية من المراسلة في طلب الأمان وتقريره الصّلح ونكثهم وقتاله إياهم إلى أن ملك الدّيار المصرية واختط القاهرة

قال ابن جلب[١] راغب في تاريخ مصر: وفي جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة وردَت الأخبار إلى مصر بقدوم القائد جوهر، فاضطرب المصريون لذلك اضطراباً شديداً، ووقع اتّفاقُ أرباب الدّولة بحَضْرة الوزير جَعفر بن الفَضل على مُراسَلَته في الصُّلح وطلب الأمان، وأقْرارِ ضِيَاعهم وأعمالِهم في أيديهم. فراسَلُوه في ذلك. واشْتَرط نحرير سويران[٢] ألاَّ يجتمع مع القائِد جَوْهر، وأن يكون له الأشْمونين إقطاعاً،

---

(١) هو محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن ميسر، توفي ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م. له كتاب أخبار مصر. الزركلي: الأعلام ج ٦، ص ٢٨٢. وكتابه أخبار مصر نشر حديثاً بالقاهرة بتحقيق أيمن فؤاد سيد، وصدر عن المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٨١ بعنوان «المنتقى من أخبار مصر».

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٣٧٨: «نحرير الشوبزاني»، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٣١: «الشوبزاني».

وتَقَلَّدَ مكة والمدينة، ويَتَوَجَّهُ فيقيم بالحجاز، وسألوا الشّريف أبا جعفر مُسلم الحسَني في المسيرِ برِسَالَتِهم إلى جَوْهر، فأجابهم، وشَرَط أن يكون معَهُ جماعةٌ من الأَعْيَان، فجهَّزوا معه أبا إسماعيل إبْراهِيمَ بن أحمد الزّينبي، وأبَا الطيّب العباس بن أحمد العبّاسي والقاضي أبا طَاهر، وغيرهم. وكتبَ الوزير كتاباً بما يُريد.

وسار أبو جعفر بمَنْ مَعهُ في يوم الاثْنَين لاثْنَتَيْ عشرة لَيلَةً بَقِيَتْ مِن شهْر رجب من السَّنة، وقيل لِلَيْلَةٍ بقيت منه، فلَقِي القائدَ جوهراً قد نزل بتَرُوجَة فاجتَمَعُوا به فبالغ القائدُ في إكرام الشّريف، وأدى الشّريف إليْه الرسَالة وأعطاه كُتب الجماعة، وعرَّفَه ما التمسوه، فأجابَهُم إلى ذلك، وكتب كتاباً بالأمان نُسختُهُ.

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيم، هذا كتابٌ من جوهر الكاتب، عبد أمير المؤمنين المعزّ لِدِين الله صَلَوات الله عليه، لجماعة أهل مصرَ منَ السّاكنين بها وبغَيْرِها[1].

إنّه قد وَرَد منْ سألتمُوه الترسُّل إليَّ والاجتماع مَعي، وهم[2]: أبو جعفر الشّريف أطال الله بقاءه، وأبو طاهر إسماعيل الرئيس[3] أيّده الله، وأبو الطيب الهاشميّ، أيّده الله، والقاضي أبو طاهر[4] أعزه الله، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله.

فذكرُوا عنكم أنّكم التمستُم كتاباً يشتملُ على أمانِكمْ في أنفُسِكم وأموالكم، وبِلادِكم ونَعَمِكُم[5] وجميع أحوالكم؛ فعرَّفتهُم ما تقدَّم به أمْرُ مولانا وسيّدنا أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليه، مِن نَصْرِه لكم[6].

لتَحْمَدوا الله[7] تعالى على ما أوْلاَكم وتحمدُوهُ على ما حباكم[8]، ولْتَدْأَبُوا[9] فيما يلزمكم، وتُسَارِعُوا للطّاعة[10] العَاصِمة لكم، العائدة بالسَّعادة عليكم، المقْضِيَة بالسلامة لكم[11]، وهو أنّه صلواتُ الله عليه، لمْ يكُنْ إخراجُه هذه العَساكر[12]

---

(١) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «أهل مصر الساكنين بها، من أهلها، ومن غيرهم».
(٢) في الأصل: «وهو» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣.
(٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣، «الرسّي».
(٤) لم يرد «أبو طاهر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣.
(٥) لم ترد لفظة «نعمكم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣.
(٦) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «وحسن نظره لكم».
(٧) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «فلتحمدوا الله».
(٨) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «وتشكروه على ما حماكم».
(٩) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «وتدأبوا».
(١٠) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «إلى طاعته».
(١١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٣ «العائدة بالسلامة لكم، وبالسعادة عليكم».
(١٢) في اتعاظ الحنفا «للعساكر» ص ١٠٤.

المنصُورة، والجيوش المظفّرة، إلا لِمَا فيه إعزازُكم وحِمايتُكم، والجهادُ عنكم؛ إذْ قد تخطفتكم[١] الأيدي، واستطال عليكم الْمُشرك[٢]، وأطمعَتْه نفسُه بالاقتدار على بلادكم[٣] [في هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه][٤] والاحتواء[٥] على نَعَمِكم وأمْوالِكُم، حسب ما فعله في غَيْركم مِنْ أهلِ بلدان المَشْرق، وتأكّدَ عزمُه واشتدَّ كلبه، فعاجَله مَوْلانا وسيّدُنا أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليه، بإخراج العساكر المنصورة وبادَرَه بإنفاذ الجيوش المظفَّرة لتقاتله[٦] دُونكم، وتجاهدَهُ[٧] عَنكم وعن كافّة المسلمين بِبَلَد المشرق، الّذين عمَّهم الخزْي، وعَلتْهم[٨] الذِّلَّة، واكْتَنَفَتْهُمْ المصائب، وتتابعت لَدَيْهم[٩] الرَّزايا، واتَّصلَ عندهُم الخوف، وكثُرت اسْتغاثتهم، وعظم ضجيجهم، وعَلاَ صياحهم[١٠] ولم يُغِثْهم[١١] إلاَّ مَنْ أَرْمَضَهُ[١٢] حالُهم، وأبكى عَنه ما نَالَهُم، وأسْهَره[١٣] ما حلّ بهم، وهو مولانا وسيِّدُنا [فَرَجا بفضل الله، وإحسانه لديه، وما عوّده وأجراه عليه، استنقاذ من أصبح منهم في ذلٍّ مقيم وعذاب أليم][١٤]. أميرُ المؤمنين، صلوات الله عليه، وأن يُؤمِّن من استولى عليه المهل[١٥] ويفرخ رَوْعَ مَنْ لم يزل في خَوْفٍ ووَجل. وآثر إقامَة الحجّ الذّي تعطَّل، وأهمَل العبادُ فروضَه وحقوقه، لِلْخوفِ[١٦] المستولي عليهم، و[إذ][١٧] لا يأمنون على أنفسِهم ولا على أموالِهم،

---

(١) في الأصل: «تخطفكم» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٢) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «المستذل».
(٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «بلدكم».
(٤) ما بين المعكوفين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٥) في الأصل: «والأحتما» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٦) لم ترد لفظة «لتقاتله» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(٧) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «ومجاهدته».
(٨) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «وشملتهم».
(٩) لم ترد لفظة «لديهم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(١٠) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «صراخهم».
(١١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «فلم يغثهم».
(١٢) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤، إلا من أرمضه أمرهم، ومضه حالهم».
(١٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «وأسهرها».
(١٤) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.
(١٥) هكذا في الأصل، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «الوهل» التي هي بمعنى الفزع، ابن منظور: لسان العرب (وهل).
(١٦) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «الخوف».
(١٧) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.

و[١] إذ قَدْ وقعَ[٢] بهم مرّةً بعد أخرى، فسُفكت دِماؤُهم.

وأطال جوهر في كتابه[٣]، وحضّهم على الطّاعة، وأشْهد عليه الشُّهُود فيه، وخَلَعَ على الجماعة، وحملهم.

قال: ولما توجّه الشريف وَمَنْ معه إلى القَائد جوهر، اضطرب بعْدَه البلدُ اضطراباً شديداً، وأَخذت الإخشيدية والكافوريّة في إخراج مضارِبهم، وقام رجل من أهلِ بَغْداد، يعرف بابن شعبان، يومَ الجمعة في المسجد قبْل الصّلاة فقال: أيّها النّاس قد أظلّكُمْ من أخْرَب فَارس وسَبَى أهلها، وذكر ما حلَّ بأهل بلاد المغرب منه، وقال: القوا الرّجل القليلَ المعرفة، يعني الوزيرَ ابن حنزابة، فإنّه قد شَرَعَ في إتلاَف بَلَدِكم وسَفْك دمائكم بمراسلة هذا الرّجل، يعني القائدَ جوهراً، فسمع النّاس كلامَه، ورجعوا عما سألُوه من الأمان، وبلغ الشّريفَ ومَنْ معه انتقاضُ الإخشيديّة والكافورِيَّة، وعزمُهم على القتال، فكتموه عن القائد جوهر خوفاً أن يعتقلهم، وبادَرُوا بالعَوْد وساروا، فبلغَ القائدَ ذلك بعد رحِيلهم، فردَّهم، وقال: قد بلغني أنّ القوْم قد نقضُوا ورجعوا، فردُّوا عليَّ خطِّي فرفقوا به ودارَوْه، وقالوا: إذاً يُظْفِرُك الله وينصرُك. فقالَ لِلقَاضِي: ما تقولُ فيمن أراد [أن][٤] يشقّ مدينةَ مصر فيجعلها طريقاً لجهاد المشركين والحج إلى بيت الله الحرام؟ فمنعُوه، من الجواز له أن يقابلهم. فقال: نعم، اكتب خطّك بذلك[٥].

ثم سار الشريف ومَنْ معَه إلى مِصر فوصلوها لسبعٍ خلَوْن مِن شعبان، فركب الوزيرُ والنّاس إليهم، واجتمع الإخشيديّة والكافوريّة وغيرهم، فقرأ عليهم السّجل الذي كتبه القائد، وأوصل إلى كلٍ واحدٍ جوابَ كتابه بما أرادَ من الأمان والولاية والإقطاع. فلما قرؤوا الكتب خاطبوا الشّريف بخطابٍ طويل؛ فقال نحرير ما بيننا وبينه إلاّ السيف فقدَّمُوا عليهم نحرير سويرَان، وعبؤوا عساكرهم، وعدّوا إلى الجيزة والجزيرة، وحفِظُوا الجسور.

ووصل جَوْهَر، وابتدأ القتال بيْنَهم في حادي عشر شعبانَ. ثمّ مضى القائدُ جوهر بعدَ ذَلك إلى مُنْيَة الصّيادين[٦]، وأخذ المخاضة بمُنْية شلقان واسْتَأْمَن إليه جماعةٌ من

(١) ما بين حاصرتين إضافة أثبتت من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤.

(٢) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ «أوقع».

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها سياق الكلام.

(٥) فقال: ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضي إلى الجهاد لقتال الروم فمنع، أليس له قتالهم؟ فقال له القاضي: نعم، فقال: وحلال قتالهم؟ قال: نعم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٠٨.

(٦) منية الصيادين: من القرى القديمة في مصر. محمد رمزي القاموس الجغرافي، ج ٢، ق ٢، ص ٦٥.

أهل مصر وغلمانهم في مراكب، ووَقَع القتال، وزحف جَعْفر بن فَلاح[١] بالرجال، وقاتل عساكِرَ مصر، ووقَعَ القتلُ في الإخشيدية والكافوريّة فانهَزَمُوا ليلاً، ودخلوا مِصْر وأخذوا مَا في دُورِهم وسارُوا إلى الشّام.

قال: ولما انْهزَم ركِبَ الناس إلى دار الشّريف أبي[٢] جعفر مسلم وسألوه كِتاباً إلى القائد جَوْهر بإعَادَةِ الأمان عليهم، فكتب كتاباً إليه يهنئُه بالفتح، وسأله إعَادَة الأمان للمصريّين؛ فكتب القائدُ أماناً وبعثه إلى الشّريف، فقرأه على النّاس، وهو:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. وصل كتاب الشّريف، أطال اللَّهُ بقاءَه وأدَامَ عِزَّهُ وتأييدَه وتمكينَه[٣]، يهنّىءُ بما هيأَهُ الله[٤] من الفتح المبارك[٥]، «وهو، أيّده الله، المهنأ بذلك لأنها دَوْلتُه ودولة أهله، وهو المخصُوص بذلك»[٦] وأمّا ما سأل من الأمان وإعادَةِ الأمان الأول، فقد أُعيدَ إليه ما طلب، وجعلت إليه عن مولانا وسيدِنا أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليه، أن يُؤمّن النّاس كيف شاء بما شاء. وقد كتبتُ إلى الوزير، أيّده الله، بالاحتياط على بيوت الهاربين إلى أنْ يدخلوا في الطّاعَة، وما دَخَلت فيه الجماعة، ويعمل الشّريف أيّده الله، على لقائي في يوم الأحد لأربعَ عشرةَ ليلةً تخلو من شعبان بجماعة الأشراف والعُلماء والثناء، وأهل البلدان إن شاء الله تعالى».

فقرأ الشريف الكتاب على الناس وسكَّنَهم وهدّأهم، ففتحوا البلد، وأخذ النّاس في التجهُّز إلى لقاء القائد جوهر، وقتل نحرير وميسر وبلال ويمن الطويل، وجيءَ برُؤُوسهم إلى القائد.

قال: وخرج النّاسُ إلى الجيزة والْتَقَوْا القائد، فنادى منادٍ ينزل النَّاسُ كلُّهم إلا الشَّريف والوزير، ففعلُوا ذلك، وسلَّموا عليه واحداً واحداً، وأبو جعفر أحمد بنُ نَصر يعرِّفُه بالنّاس، والشَّريف أبو جعفر مسلم عن يمينه، وأبو الفضل الوزير عن يساره.

---

(١) هو أبو علي جعفر بن فلاح الكُتامي، كان أحد قواد المعز بن تميم معد بن المنصور العُبيدي صاحب إفريقية. قتله الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم سنة ٣٦٠ هـ. وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ١، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢، رقم ١٣٨. ترجمته في: عدة مواضع من اتعاظ الحنفا للمقريزي، وصفحات متفرقة من الدرة المضية ج ٦، والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٣٠ ـ ٣٢. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٦٢.

(٢) في الأصل: «ابن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠ «وعلوه».

(٤) «وهو المهنأ بما هنأ به» اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠.

(٥) «الفتح الميمون»، هكذا في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠.

(٦) ما بين المزدوجتين ساقط من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٠.

فلمَّا فرغ السّلام انصرف النّاس، وابتدأ العسكرُ في الدُّخول منذُ زوال الشّمس، فعبرُوا الجسْر بالدُّرُوع والجواشن[(١)]، ودخل القائدُ جوهر إلى المدينة بعد العصر من يوم الثلاثاء لاثنتي عشرةَ ليلةً بقيت من شعبان، سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة، والبنود[(٢)] والطّبول بين يديه، ونزلَ الموضعَ الذي اختطّ فيه القاهرة واختط القصر.

وأصبح المصريُّون حضَرُوا إليه للهناء، فوجدوه قد حفر أساس القصر في تلك اللّيلة. قال: ولم يكن في المكان عمارة ألْبَتَّة إلاَّ بستان كافور. ولم يزل هذا البستان على حالتِه إلى سنة خمسٍ وأربعين وستمائة فعمر مكانه مساكنُ وهو الخطّ الذي يُعْرف الآن بالكافوريّ[(٣)].

قال صاحب كتاب خطط[(٤)] مصر: لمَّا دخل جوهر القائد واختطّ القاهرةَ قرّر كلَّ جانب منها على أميرٍ من أمراء عَسْكره وأرصدَهُ لبناء تلك[(٥)] الحارة حَسْبما أمره المعزّ لدين الله فسميت كلُّ حارةٍ باسم مُقَدَّمها أو الطّائفة التي نَزَلَت بها. وابتدأ بالعَمارَة في شهر رَمَضَان من السنة.

قال المؤرخ: ودخل القائدُ جوهر مِصْر، وبين يديه ألفٌ ومائتا صندوق مالاً[(٦)] وأقام عسكرُه يَدْخُل سبعةَ أيّام. وبعث إلى مولاه المعزّ لدين الله بيشِّرهُ بالفتح.

قال: ولما دخل القائدُ مِصر كان الغلاءُ بِها، فنادَى مُنادِيه: مَنْ عِنْدَه قمح فَلْيُخرجْه. وفرَّق الصّدقات على النّاس، وأقرّ أبَا الفضل على الوزارة، وجهَّز جعفر[(٧)] ابن فَلاحٍ إلى الشّام.

---

(١) الجواشن. جمع جوشن: وهو اسم الحديد الذي يُلبَس من السلاح، ابن منظور: لسان العرب (جشن). وهو مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون في حلقة واحدة فقط، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك. القلقشندي، صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٧٣.

(٢) البنود: جمع بند، العلم الكبير، فارسي معرّب، من أعلام الروم يكون للقائد، يكون تحت كل علم عشرة آلاف رجل أو أقل أو أكثر. ابن منظور: لسان العرب (بند). القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ٥٩. ويذكر ابن خلكان أن هذا البند كان أبيض اللون، وفيات الأعيان ج ١، ص ٣٧٩.

(٣) بستان الكافوري: أنشأه الأمير محمد بن طغج الإخشيد. وعرف ببستان كافور. المقريزي المواعظ والاعتبار ج ٢، ص ٢٥.

(٤) هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية أصله من بعلبك، توفي سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م. من تآليفه كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ويعرف بخطط المقريزي، والسلوك في معرفة دول الملوك». الزركلي: الأعلام ج ١، ص ١٧٧.

(٥) في الأصل: «ذلك» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) يذكر المقريزي «أن المال كان في ألف وخمسمائة صندوق» اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١١١.

(٧) انظر أحداث سنة ٣٥٨ في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٩١.

ذكر إقامة الخُطبة، وضرب السكة بمصر، للمعزّ لدين الله وما قيل في الدعاء له على المنبر، وما نقش على السِّكة

وفي يوم الجمُعة لعشر بَقِينَ من شعبان من السّنة ركب القائدُ جوهر إلى المسجد الجامع العتيق[١] لصَلاة الجمعة، ولإقامة الدعوة، في عسْكرٍ كثير. وخطب هبةُ الله بن أحمد خليفةَ عبد السميع بن عُمير العبّاسي، لغيبة عبد السميع، فخطب وعليه البياض، ودعا للمعزّ لدِين الله، وقال في دُعائه في الخطبة الثّانية:

اللّهم صلِّ على عَبْدك ووَليّك، ثمرة النُّبوَّة، وسليل[٢] العِتْرة[٣] الهادِيَةِ المهديَّة، عبد الله الإمام مَعدّ أبي تميم المعزّ لدين الله، أمير المؤمنين، كما صلَّيت على آبائِهِ الطاهرين وأسلافه المُنْتَجَبين[٤]، الأئِمَّة الراشدين. اللهم ارفع دَرَجته، وأَعْلِ كلمته، وأوضِحْ حُجَّتَه، واجْمَع الأمَّة على طاعته، والقلوبَ على مُوالاَتِه [وصحبته][٥]، واجعَل الرَّشاد في مُوافقته، ووَرِّثْه مشارقَ الأرضِ ومغارِبها، وأَحْمِدْهُ مبادىءَ الأُمور وعواقِبَها، فإنك تقولُ وقولُك الحق: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فلقد امْتَعَضَ لِدينكَ، ولما انْتُهك من حرمتك[٦]، ودَرَسَ من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحجِّ إلى بَيْتك، وزيارةِ قبرِ رسُولِك صلى الله عليه [وسلم][٧] وأعدَّ للجهاد عُدَّته، وأخذ لكل خطْبٍ أُهْبَتَه فسيَّر الجيوشَ لِنَصرك[٨]، وأنفق الأموال في طَاعَتِك، وبَذَلَ المجهود في رضاك، فارْتَدَع الجاهل، وقَصرُ المُتَطَاول، وظَهَرَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ، فانصُر اللَّهم جُيُوشه التي سيَّرها، وسراياه التي انْتَدَبها لقتال المشركين [وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرم][٩] وإزالَةِ الظُّلْم والتُّهَم، وبَسْطِ العَدل في الأمم. اللّهم اجْعَل رَاياتِه عاليةً منشُورة[١٠] وعساكرَه مُؤَيَّدةً منصُورة، وأَصْلِح به وعلى يَديه، واجعل لنا منه واقيةً عليه.

(١) الجامع العتيق: هو جامع عمرو بن العاص بالفسطاط. المقريزي المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٤٦.
(٢) سليل: الولد. ابن منظور: لسان العرب (سلل).
(٣) العِترة: أهل البيت. الأسرة. ابن منظور: لسان العرب (عتر).
(٤) لم ترد لفظة «المنتخبين» في اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١١٤.
(٥) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٦) في الأصل: «حريمك» والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٨) «لنصرتك» من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٥.
(٩) ما بين حاصرتين إضافة أثبتناها من اتعاظ الحنفا ج ١، ص ١١٥.
(١٠) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، الصفحة نفسها «مشهورة».

وضُربت السّكة على الدّنانير، وكان على الوجه الواحد لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله، عليٌّ خيرُ الوصيِّين، ووزيرُ خَيْرِ المرسَلِين، محمد رسول الله أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِه الْمُشْرِكُون، وعلى الوجه الآخر دعاء الإمام معدّ، لتوحيد الإله الصَّمد، المعزّ لدين الله، أمير المؤمنين. ضرب بمصر في سنة ثمانٍ وخمسين [وثلاثمائة][1].

قال: وأشْرَكَ القائدُ جوهر في الدَّوَاوين المصريِّين والمَغَارِبة، فجعل في كلِّ مكانَ مصريًّا ومغربيًّا.

وفي ذي الحجّة من السنة تكامل بمصر من الإخشيدية وقوّادهم خمسةُ آلاف فارس استأمنوا للقائد جوهر، فيهم أربعة عشر رئيساً فأمَّنهم، ثم قبض عليهم واعتقلهم، ثم سَيَّرهم إلى المعزّ بإفريقية.

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، في يوم الجمعة لثمانٍ خلَون من شهر ربيع الآخر[2]، صلّى القائدُ جوهر في جامع ابن طولون وأذَّن «حيّ على خَيْر العمل»، وهو أوّل ما أُذِّنَ به بمصر. ثم أُذِّنَ بذلك بالجامع العتيق بمصر في الجمعة الثانية.

ذكر خروج تبر الإخشيدي والقبض عليه

وفي شعبان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ثار تبر الإخشيدي[3] بناحية أسْفل الأرض، ودعا للخليفة المطيع لله، وكتب اسمه على البنود، فراسَلَه جوهر، فلم يَقْبل؛ وكان معه أبو القاسم العلوي الأقطيني. فأنفذ القائد جوهرٌ العساكر لقتاله برًّا وبحراً، وكان قد كَبَس صَهْرَجت[4] ونهبها، فأَمَرَ القائد بِنَهْبِ دُورِه بمصر. وقَبَضَ على صهرِهِ فأغار تبر، ونهب ضياعاً، فوافَتْهُ العساكر بصَهْرجت، فانهزم إلى تَنِّيس، وركب البحر الملح يُريد الشام، ثم إلى الروم، فأنْفَذَ القائدُ جوهرٌ أسطولاً خلفه، فلما بلغ صُور[5]

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١١٦.

(٢) في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٥٩٠، ورد «هـ في جمادى الأولى» كذلك في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٢٠، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٢٥. وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٤١٣.

(٤) صهرجت: قرية قديمة تابعة لمحافظة الدقهلية بالقرب من ميت غمر. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٢، ق ٢، ص ١٧٣، ص ٢٥٧.

(٥) صُور: بضم أوله وسكون ثانيه، مدينة مشهورة، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وتقع حالياً جنوب لبنان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

دخل بها الحمّام، فقُبض عليه وجماعةٌ من أتباعه وغلمانه، وذلك في شهر رمضان منها، وحُمِل إلى مصر، فقدِمَها لأربع عشرة ليلةً خلت من شوال، فأدخل على فيل وبين يديه رجلٌ وخَلْفه رجلٌ، وغلامه عجيبٌ على جملٍ خلفه، ومعه قرد وخلفه غلامُه سرور على جمل، وجماعةٌ على جملٍ منكسِي الرؤوس، ثم اعتُقِلوا واستَصْفَى القائدُ أمواله وودائعه، وطُولب بالأموال، فلما اشتد عليه الطلب جرح نفسه فماتَ بعد أيّامٍ فسُلخ جَلْدُه وحُشي تِبناً وصُلبَ جلده، وضُرِب شلوه[١].

ذكر فتوح الشام

قد ذكرنا أن القائد جوهراً جهَّز جعفر بن فلاح إلى الشام بالعساكر في سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة، فسارَ جعفر ولَقِي الحسن بن عبد الله بن طُغج بالرَّملة، وهو يومئذٍ صاحب الشام، فهزمه جعفر بن فَلاح وأسره، وبعث به إلى مصر، ثمّ سار إلى دمشق فملكها في سنة تَسع وخمسين بعد حَرْب شديدةٍ. فكتب إلى القائد جوهر بالفَتْح، واستأذنه في المسير إلى غزو أنطاكية[٢]، فأذن له القائد فسار نحوها في نحو عشرين ألف فارس، فأقام مدةً وكثُرت جُموعُه وعساكره وانبسطت يدُه، ودانت له البلاد فحاصر أنطاكية مدة إلى أن اتَّصل به مسير مَدَدِ الرُّوم إليها، فعاد عنها إلى دمشق[٣].

ذكر مقتل جعفر بن فلاح واستيلاء القرامطة على دمشق

وفي سَنة ستين وثلاثمائة[٤] وصَل الحسنُ الأعصم القَرْمطيّ إلى دمشق. وقيل: إنه إنّما قدم بأمر الخليفة المطيع فخرج إليه جَعْفر بن فَلاَح وقاتله، وكان عليلاً فقُتل وانهزم أصحابه ونُصب رأسُه على دمشق.

وملك القَرمطيُّ[٥] دمشق والشام، وسار إلى الرَّملة فانحاز عنه سعادة بن حَيان[٦]

(١) شلو: عضو. الفيروزابادي: القاموس المحيط (شلو).

(٢) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٠٣، أن الروم قد ملكوا مدينة أنطالية في سنة ٣٥٩ هـ.

(٣) يذكر المقريزي أن جعفر بن فلاح لم يسر بنفسه إلى أنطاكية. اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٢٦. انظر أيضاً كنز الدرر للدواداري ج ١، ص ١٣٣.

(٤) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦١٤، أن جعفر بن فلاح قد قُتل في ذي القعدة من سنة ستين وثلاثمائة.

(٥) هو الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٦١. وابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦١٥. وردت لفظة الأعظم بصور مختلفة في عدة مواضع. مثل: الأعسم، الأغشم، انظر أيضاً المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٣٠.

(٦) كان والياً على الرملة منذ شوال ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٢٨. وابن =

إلى يافا وتحصن بها، فسارَ إليه وحاربه، ثم سار يُريد مصر، فتأهب القائدُ جوهر لذلك، وحَفَر خندقاً[١]، وبنى عليه باباً كبيراً، وركّب عليه الباب الحديد الذي كان على الميدان الإخشيدي، وبنى عليه بابين آخرين، وبنى القنطرة على الخليج، وجعَلَها ممرًّا لِمَن يريد المقس[٢].

وكاد القَرمطي يأخذ القاهرة، ثمَّ رجَع عنها بغير سبب عُلِم[٣] وكبس الفرما، ثم قاطَع أهْلَها على مالٍ فحملوه إليه، وأخذ عاملَها عبد الله بن يوسف، وقيل إنّه كان مَعَهُ خمسة عشرة ألف بغل تحمل صناديق الأموال وأَوَانِيَ الذَّهب والفضَّة والسّلاح، سوى ما تحمل المضارب والخيام والأثقال[٤].

وفي سنة ستّين وثلاثمائة أيضاً بنى جوهرٌ سوراً على القُصُور التي بناها في سنة ثمانٍ وخمسين وجعلها بلداً وسماها المنصورية، ولما استقرَّ المعزّ سمّاها القاهرة.

وفي سنة إحدَى وستّين وستمائة، في المحرَّم، كبس يارُوق الفرما وأخرج منها ابن العُمر القَرمطيّ، وأرسل إلى مصر رؤوساً وأعلاماً وغيرَ ذلك. وفي هذا الشّهر عصى أهل تنيس وغَيّروا الدَّعوة، ودَعَوْا للمُطِيع والقرامطة، وحاربوا ياروق. وفي صَفَر وصل ياروق مُنْهَزِماً من الْقَرامِطة وهم في إثره، وأقبلت عساكر القرامطة حتى بلغوا عين شمس واستعدَّ القائد [جوهر][٥] لِلِقَائِهِم، وأغلق الأبواب التي بناها.

وفي مُسْتَهَلِّ ربيع الأول جاءت مقدِّمة القرامطة ووقفوا على الخندق، فقاتلهم القائدُ، واشتدَّ القتال، وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة، وأصبح النّاس متكافئين للقتال، وسار الأعصم القَرمطيّ بجميع عسكره، ووقَعَ القتالُ على الخندق والباب مُغْلق، وعمل القائد جوهر الحيلَة فانْهَزَم عن القَرمطيّ، ودام القتال إلى الزَّوال، ثم فتح القائد البَاب وانْتَصَبَ للقتال، وخرجت العبيدُ والمغَاربة إلى القرامطة، واشتدَّ القتالُ واضْطَرَبَ النّاسُ في المدينة وكثُرَت القتلى من الفَريقين. وانهزم الأعصم القرمطي، وأراد المغاربةُ اتّباعه

= أيبك الدواداري، كنز الدرر ج ٦، ص ١٣٥.

(١) سماه المقريزي «خندق السري بن الحكم» المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) المقس: قرية قديمة على شاطىء النيل. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢١ ـ ١٢٢. والمقس، والمكس، والمقسم، وأم دنين: كلها أسماء مترادفة لقرية كانت واقعة على شاطىء النيل. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٥٦.

(٣) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٠ أن القتال خارج الخندق دام ثلاثة أيام بينما ابن أيبك الدواداري يذكر أن القتال استمر ثلاثة أشهر. كنز الدرر، ج ٦، ص ١٤٣.

(٤) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٥.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة ليستقيم المعنى.

فمنعهم[١] القائدُ جوهر لِدُخول اللَّيل، وخشيةً من مَكيدةٍ أو كَمِين. ونُهِبَت صناديق القَرمطيّ ودفاتِره، وفارقَ القرمطيَّ من كان معه من الإخشيدية والعرب. وقيل: وهذه أوّلُ هزيمةٍ كانت للقرامطة.

ثم وصل بعد الكسرة بيومين أبو محمد الحسنُ بن عمّار بمَدَدٍ معه من جهة المعزّ، وهرب القرمطيُّ الذي كانَ بتَنّيس وعادت الدّعْوة المعزّيةُ بها.

وفي شهر ربيع الآخر قبض القائدُ على أربعمائةٍ وأربعين رجلاً من الإخشيديّة والكافوريّة وقَيّدهم وحبَسهم.

وفي شعبان منها وَرَدَ على القائد جوهرٍ رسولٌ من ملك الرّوم برسالته وهديته.

وفي شهر رمضان لسبعٍ خَلَوْن منه كَمُل بناءُ الجامع بالقاهرة، وجُمِعَت فيه الجمعة.

وفي شوّال منها ابتدأ القائد جوهرٌ بحفرِ الخَنْدَق الذي كان عبد الرحمٰن بن جحدم[٢]، خليفة عبد الله بن الزبير[٣] حفره قبليّ مصر، ثم شَقَّ الخندق حتى بلغ قبر الإمام الشّافعي رحمه الله، فعَدَل به عنه، ثم شقَّه مُشَرِّقاً إلى الجبل على المقابر، أراد بذلك أن يحفظ طريق الحج من ناحية القلزم.

وفي ذي القَعدة منها خرج أبو محمد الحَسن بن عمّار إلى تنّيس، فسار إليه أسطولُ القرامطة فواقعهُ وأسَرَ منه سَبْعَ مراكب، وسيَّرها إلى مصر ومعها خمسمائة رجل منهم[٤].

ذكر خروج المعز لدين الله من بلاد الغرب إلى الديار المصرية وما رتَّبه ببلاد المغرب قبل مسيره

وفي يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شَوَّال سنة إحْدى وستِّين وثلاثمائة، رحَل المعزّ

---

(١) في الأصل فمنعه. والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل «بن محدر» والتصحيح من الولاة والقضاة للكندي ص ٤١. وهو عبد الرحمٰن بن عتبة بن جحدم ولي مصر من قبل عبد الله بن الزبير فدخلها في شعبان سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م، وذلك لمدة تسعة أشهر.الولاة والقضاة للكندي، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٣) هو أبو حبيب عبد الله بن الزبير بن العوام بويع له بمكة سنة أربع وستين وبايعه أهل العراق. وبنى أبي الزبير الكعبة وأدخل فيها الحجر. انظر ترجمته في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤٤٥. والعقد الثمين لتقي الدين مكي، ج ٥، ص ١٤١، وغاية النهاية لابن الجزري، ج ١، ص ٤١٩.

(٤) «فواقعهم وأسر منهم سبع مراكب وسيرهم إلى مصر ومعهم خمسمائة رجل منهم» في الأصل. وتصحيح الضمائر يقتضيه السياق.

لِدِين الله من المنصورية إلى سِرْدَانية[١] ومعه يُوسُف بن زَيْرى[٢] بن مناد فسلَّمَ إليه إفريقية، وأعمَالَها وسائر أعمال المغْرب، وذلك في يوم الأربعاء لسبع بَقين من ذي الحجة منها، وأمر الناس بالسَّمع والطَّاعَة لَه، وفوّض إليه أمُور البَلاد كلِّها إلاّ بلاد جزيرة صقِلِّيَّة وطرابلس. وأقام المعز بسردانية أربعة أشهر، ورَحل منها لخمس خَلَوْنَ من صفر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وسار حتى أتى قابس، ثم وصل إلى طربلس فأقام بها أيَّاماً، ورحل منها في يوم السّبت لثلاثَ عشرةَ ليلة بَقِيتْ من شهر ربيع الآخر منها، وسار فوصل إلى الإسكندرية في يوم الجمعة لستٍّ خَلْون من[٣] شعبان، ونزل تحت المنار، وأنزل النَّاسَ حولها، وأتاه أهلُها فسلَّمُوا عليه، ووافى يوم الأحد أبو طاهر[٤] قاضي مصر، ومعه العُدُول وقدم أبو عبد الرحمٰن بنُ أبي الأعز في بني عَمِّه وغيرهم من العرب، فركب لهُم المعزّ فسلّموا عليه وانصرفوا.

ثم رحل من الإسكندرية يوم الاثنين لثلاثٍ بقين من شعبان. فلما كان يومُ السّبت لليلتين خَلَتَا من شهر رمضان نزل المنية بساحل مصر، وهي بُولاق، فأقام بها إلى يوم الاثنين؛ وخرج إليه الشريف أبو جعفر مُسلم الحَسني قبل وُصُوله في جَمَاعَة الأشراف وَوُجُوه البلد، فرأى المعزّ وهو سائرٌ والمظلَّة على رأسه، فنادى منادٍ: يتقدَّمُ الشّريف أوّل الناس، فتقدّم وسلّم على المعز. ثم تقدّم النّاسُ كلّهم وسلّموا عليه واحداً بعد واحد حتى فرغوا، وهو واقف على دَابَّتِه؛ ثم سارَ والشريف يحادثه.

قال: وأخذ الناس في التَّعْدِية بِعِيَالاَتِهم وأَثْقَالهم في هذه الأيام إلى ساحل مصر، وتفرّق النّاسُ في الدُّور بمصرَ والقاهرة، وأكثرهم في المضارب فيما[٥] بين القاهرة ومصر.

---

(١) سردانية: جزيرة على طرف في البحر الشامي. وهي كبيرة كثيرة الجبال قليلة المياه. الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٤. وانظر أيضاً البكري: المغرب ص ٣٢.

(٢) هو أبو الفتوح بُلُكّني بن زيري بن مناد الحميري، الصنهاجي، ويسمى أيضاً يوسف وهو الذي استخلفه المعز بن المنصور العبيدي على إفريقية سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧٢ م. توفي سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٤ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٨٦، رقم ١١٩. وانظر أخباره في: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢٨ وفي سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) «لست بقين من شعبان» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٢٧.

(٤) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن نجير، أبو الطاهر الذهلي، ولي قضاء مصر منذ عهد كافور، سنة ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م. وحتى سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م. توفي في سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م، ذيل كتاب الولاة والقضاة ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤، ٥٨١.

(٥) في الأصل: «فيمان».

ثم عبر المعزُّ لدين الله إلى القاهرة يوم الثلاثاء لخمس خَلَوْن[١] من شهر رمضان، سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، ولم يدخل إلى مِصْر ودخل إلى قصره.

فلما انتهى إلى الإيوان الكبير خرَّ ساجِداً للَّهِ تعالى، وجلس على سرير الجَوْهر[٢] الذي صنعه لهُ القائدُ جوهر، وقَبِلَ الهناء، ومدحه الشعراء.

قال: وكان تَلَقَّى القائد جوهر له عند جَوَازه من الجسر الثَّاني، فكانت مُدة تدبير جوهر الديار المصرية إلى أن قدم المعز، أربع سنين وعشرين يوماً.

وحكى بعض المؤرخين أنَّه لما وصل المعزُّ وخرج الأشرف للقائه، قال له أبو [محمد][٣] عبد الله بن أحمد بن طَبَاطَبَا الحسيني، من بينهم يا مَوْلانَا، إلى مَنْ تنتسب؟ فقال المعزُّ: سنقعُدُ لكم ونجمعُكم ونسرد عليكم نسبَنا. فلما استقرَّ في قصره جمعَ النّاس في مجلسٍ عامٍّ وقال: هل بَقِي من جَمَاعَتِكم أحد؟ فقالوا: لم يبق مِنَّا مُعْتَبر فجرَّدَ عِنْد ذلك سيفه إلى نصفه وقال هذا نَسَبِي وفرَّق المال وقال: هذا حَسَبِي. فقالوا: سمعنا وأطعنا. وكان الخليقَ بما قيل:

جَـلَـوْا صـارمـاً وَتَـلَـوْا بـاطـلاً   وقـالُـوا: صَـدَقْـنـا؟ فـقـلـنـا: نَـعَـمْ!

وقال ابن جلب راغب في تاريخه: إنّ المعزّ لمّا قدِم صَعِد المنبر وخطبَ خُطبة بليغة، وذكر نسبه إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، فكتب إليه بعض المصريين ورقةً ولصقها بالمنبر فيها: [من السريع]

إنّـا سـمـعْـنَـا نـسـبـاً مُـنـكـرا   يُـتْـلَـى عـلـى الـمِـنْـبَـرِ فـي الـجَـامـع
إنْ كْـنـتَ فـيـمـا تَـدَّعـي[٤] صـادقـاً   فـاذكـر أبـاً بـعـد الأبِ الـرّابـع
أو فَـدَع[٥] الأنْـسَـاب مـسـتُـورَةً   وادْخُـل بـنـا فـي الـنَّـسـب الـواسـع
أو كُـنـتَ فـيـمـا تـدّعـي صـادقـاً   فـانْـسُـبَ لـنـا نـفْـسَـك كـالـطّـائـع[٦]

(١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٤. «لسبع خلون» وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٢٧ «لخمس خلون من شهر رمضان».

(٢) «سرير الذهب» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٣٦. ويقصد به العرش.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسن بن إبراهيم طَباطَبا، الحجازي الأصل. ولد سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م، وتوفي سنة ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩ م، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٨١ ـ ٨٣. رقم ٣٤٢.

(٤) «فيما قلته» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٧.

(٥) «اولا دع» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧٣. وفي أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢٧.

(٦) يقصد هنا الخليفة العباس الطائع لله، أبو بكر عبد الكريم الذي ولي الخلافة العباسية في الفترة من =

قال: وكان يتظَاهَرُ بذكر الْماجَرَيَات قبل وقُوعها لاطلاعه على علم النَّجامة ولِكَتْب كاتب عنده يَسْتَدلُّ، فكتَب إليه بعضُ المصريين ورقةً وطرحَها في مجلسه، فيها: [من البسيط]

بالظلم والجَوْرِ قد رضينا وليس بالكُفْر والحَماقَةِ

إنْ كُنتَ أُوتِيتَ [١] عِلْمَ غيبٍ فقُلْ لنا كاتبَ البطاقة

وقال بعض المؤرخين: لمّا قدم المعزُّ إلى مصر أحضر معه توابيت آبائه. وكان معه خمسة عشر ألف رجل تحمل صناديق الأموال والسّلاح وغير ذلك، وكان معه مائة جمل تحمل شِبْه الطّواحين من الذهب، وثلاثة آلاف جمل على كل جمل صُنْدوقان وألف وثمانمائة بختي محملة، وثلاثمائة جمل تحمل الخركاهات وجملان يحملان[٢] الإكسير الذي يصنع به الكيمياء وثلاثة آلاف شيني وغراب[٣] في البحر تحمل الموجود. ومن الرجل المقاتلة منْ قَبِيلة كتامة مائةُ ألف، ومن البربر أربعون ألفاً، ومن الرموح ستون ألفاً، وغير هؤلاء من قبائل العرب والمغاربة، وهو مع ذلك شديدُ الخوف من القرمطيّ.

قال ابن زولاق[٤] في تاريخ مصر: ولما انقضى شهرُ رمضَان ركب المعزّ لصلاة الصيد وصلّى بالناس، وكان القاضي ابنُ النعمان[٥] يبلِّغ عنه في التكبير، وقرأ في الأولى بَعْد الفاتحة: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية: ١]، وفي الثانية بعد الفاتحة بسورة الضُّحَى، ثم صعد المنبرَ وخَطَبَ بعد أن سلَّم على الناس يميناً وشِمالاً، وذلك

= ٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١ م. سليمان تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٢. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧١، رقم ٧٥٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٢٠، حيث ذكر كل منهما هذه الأبيات في ترجمة العزيز بالله.

(١) «إن كنت أعطيت» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧٤.

(٢) في الأصل: «تحمل» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) شيني أو شاني، أو شينية، أو شونة: والجمع شواني: سفينة حربية كبيرة، ومن أسمائها غراب: وجمعها أغربة. درويش النخيلي، معجم السفن الإسلامية ص ٨٣، ص ١٠٤.

(٤) هو أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن زولاق الليثي كان فاضلاً في التاريخ، وله فيه مصنف جيد وله كتاب في خطط مصر، و«كتاب أخبار قضاة مصر» توفي عام ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٩١، رقم ١٦٧.

(٥) هو علي بن النعمان، أشرك المعز الخليفة الفاطمي بينه وبين أبي طاهر محمد بن أحمد ابن أسامة الذهلي، قاضي مصر في الحكم. ولم يزالا مشتركين فيه إلى أن توفي المعز. توفي القاضي علي بن النعمان سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٤ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤١٧.

بالمصلى الذي بناه القائد جوهر[(١)].

قال: وأقام المعزُّ بعد مَقْدَمِه أيّاماً وعزل القائد جوهراً من جميع ما كان إليه من النَّظَر على الدَّواوين وجباية الأموال، وتدبير الأمور، وغير ذلك، والله أعلم[(٢)].

ذكر مكاتبةِ المعزِّ لدين الله القَرمطيَّ وجواب القرمطيّ له

قال بعض المؤرخين: لما استقر المعز بالقاهرة أهمه أمر الأعصم القرمطيّ فرأى أن يكتب إليه كتاباً يُعْلِمُه فيه أن المذهب واحد، وأن القَرامِطَة [منهم][(٣)] استمدُّوا وهم سادتُهم في هذا الأمر، وبهم وصَلُوا إلى هذه الرتبة، فكتَب إليه المعز كتاباً مشحوناً بالمواعظ وضمَّنه من أنواع الكفر ما لا يصْدُر إلا عن مارقٍ من الدين.

كان عنوان الكتاب:

«من عَبْد الله ووَليِّه، وخِيرته وصفيِّه، معَدّ أبي تميم بن إسْمَاعِيل، المعزّ لدينِ الله أمير المؤمنين، وسُلاَلَة خَيْر النَّبيين، ونَجل [علي][(٤)] أفضل الوصيّين إلى الحسن بن أحمد».

وأول الكتاب:

«رُسُومُ النطقاء، ومذاهبُ الأئمة والأولياء[(٥)]، ومسالكُ الرُّسل والأنبياء[(٦)]، والسّالف منهم والآنف، صلى الله[(٧)] علينا وعلى آبائنا أُولِي الأيْدي والأبْصَار، في متقدِّم الدهور والأكوار، وسالف الزمان والأعصار، عند قيامهم بأحكام الله وانتصابهم لأمر الله، الابتداءُ بالإعذار، والانتهاء الى الإنذار[(٨)]، قبل نفاذ الإنذار[(٩)] في أهل الشقاق والإصرار[(١٠)]، ولتكون الحجَّة على مَنْ خالف وعَصَى والعقوبة على من بَايَنَ وغوى، حَسْبَما قال الله تعالى[(١١)]: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ

(١) يسمى الجامع الأزهر، وجامع القاهرة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٧٣.
(٢) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٦٣.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة زيادة في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٤٨.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٤٩. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٨٩.
(٥) في كنز الدرر، وفي اتعاظ الحنفا «والأنبياء».
(٦) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، «الأوصياء». وفي كنز الدرر لابن أيبك الدواداري «والأصفياء».
(٧) في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، «صلوات الله».
(٨) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «بالانذار».
(٩) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «قبل إنفاذ الأقدار».
(١٠) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «والآصار».
(١١) في كنز الدرر للدواداري، وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي «قال الله عز وجل».

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد ذكرنا في أخبار القَرامطة جُملةً من مواعظ هذا الكتاب على ما نقف عليه هناك. ومن جملة ما لم نذكره هناك.

أَمَا عَلِمت أنّي[١] ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝﴾ [الهمزة: ٦ - ٧] أعْلم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝﴾ [غافر: ١٩].

وحشاه بأنواع من الكفر وحَضّه[٢] على اقتِفاءِ آثار آبائه وعُمومته ومُوَالاتهم، فقال: إن آباءك كانوا أتباع آبائي. ثم قال فيه بعد الإطالة: وكتابُنا هذا من فُسطاطِ مصر، وقد جئناها على قَدَر مقدُور، ووقتٍ مذكور، لا نرفَعُ قدماً ولا نضع قدماً، إلا بعلم مصنُوع، وعلم مجموعٍ، وأَجَلٍ معلُوم. ثم قال فيه: «وأما أنت أيّها الغادر [الخائن][٣] النَّاكثُ المُبَايِنْ[٤] عن هدى[٥] آبائه وأجداده، المنسلخ من دين أسْلافه وأنداده، المُوقِدُ لنار الفتنة، الخارجُ عن الجماعة والسُّنَّة، لم أُغْفِل أمرك، ولا خَفِيَ عليَّ خبرك، وأنّك منّي بمنظر وبمسمع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝﴾ [مريم: ٢٨]. فعرِّفْنا على أيِّ رأيٍ ضللت[٦] وأيّ طريقٍ سلَكْت.

وقال في فصل منه: «إنّا لسنا مُهْمِليك ولا مُمْهِليكَ إلاّ رَيْثَما يَرِدُ به كتابُك والوقوف على مجرى جوابك، فانظرْ لنفسك ما يبقى ليومك ومعادك، قبل انْغِلاقِ باب التّوبة، وطول وقت النَّوْبة. حينئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[٧]. ثم ختمه بأن قال: «فما أنت وقومُك إلاّ كمناخ نَعَم، أو مَراحِ غنم» ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[٨] [يونس: ٤٦]، ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢]. هكذا رأيت والتِّلاوة في سُورة يونس[٩] ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[١٠]. فعِنْدها تخسر ﴿ٱلدُّنْيَا

(١) في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري «وانا»، ج ٦، ص ١٥٢.
(٢) «وحظه» في الأصل. والتصحيح يقتضيه السياق. ومن أخبار الدول المنقطعة لسليمان ص ٢٦.
(٣) ما بين حاصرتين من كنز الدرر لدواداري، ج ٦، ص ١٥٢.
(٤) في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٢ «البائن».
(٥) في الأصل: «عن هوى»، والتصحيح من كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٢.
(٦) في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٣ «على أي رأي أنت».
(٧) سورة الأنعام، من الآية ١٥٨، وتتمتها: ﴿...قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.
(٨) سورة يونس، من الآية ٤٦، وتتمتها: ﴿...فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.
(٩) في الأصل: «القصص»، والتصحيح من القرآن الكريم.
(١٠) سورة يونس من الآية ٤٦ وتتمتها: ﴿...ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾. وهو يكمل ما جاء في الحاشية رقم ٨.

وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. وأنذرتهم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فليتدبَّر من كان ذَا نذير، وليتفكَّر من كان ذَا تفكير؛ وليَحْذَرْ يوم القيامة، يوم الحسرة والنّدامة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[١] [الزمر: ٥٦]. و﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾[٢] [الأنعام: ٣١]. ويا لَيْتَنَا ﴿نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾[٣] [الأعراف: ٥٣]، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]. وسَلم من عواقب الرّدى. وهو حَسْبُنَا ونعم الوكيل.

قال: فلما وقف الحسن[٤] بن أحمد القرمطي [على][٥] هذا الكتاب المطوّل[٦] كتب جوابه بعد البَسْملة: «وصل كتابك الّذي كثُر تَفصيلُه وقلَّ تحصيلُه؛ ونحن سائرون [إليك][٧] على إثره. والسَّلام»[٨].

وقيل: إنّه كتب: «والجوابُ ما تراه دون ما تسمعه»[٩].

وقيل إنّه كتب إليه: [من البسيط]

ظنّت رجالُ الغَربِ أنّ سُهولتي ... بمحالها، أخو المِحَال ذليلُ

إنْ لم أروِّ النيلِ مِن دَمِهم، فلا ... نلت المُرادَ، ولا سقاني النيل

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، في شعبان، بلغت تقدمةُ القرامطة إلى أرياف مصر وأطراف المحلة[١٠]، فنهبوا، واستخرجوا الخراج، واشتهر الأعصَم القرمطيّ ببلبيس فتأهَّب المعزُّ لِلقائه، وعرض العساكر، وفرّق فيهم الأموال والسّلاح.

وسَيَّرَ جيشاً قدَّم عليه ولدَه الأمير عبْد الله[١١]، فالتقى معَ الأعصَم، فانهزم

(١) سورة الزمر، من الآية ٥٦ وتتمتها: ﴿...وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.
(٢) سورة الأنعام، من الآية ٣١، وتتمتها: ﴿...فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.
(٣) سورة الأعراف من الآية ٥٣. وتتمتها: ﴿...قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.
(٤) في الأصل: «الحسين»، وهو تحريف، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٥) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.
(٦) انظر تفاصيل هذا الخطاب في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٨٩ ـ ٢٠١، وكنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٤٩ ـ ١٥٦.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٧، ص ٦٣٨.
(٨) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٠٢، كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٥٦.
(٩) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٢٦.
(١٠) المحلة: في المحافظة الغربية. ابن ميسر. المنتقى من أخبار مصر، ص ١٦٥.
(١١) توفي الأمير عبد الله سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م. اختلف في يوم وفاته في ٢٣ من جمادى الأولى في =

القرمطيّ وأسر جماعةً من رجاله، وجهّز جيشاً آخر قدّم عليه ريان الصقلبي في أربعة آلاف فارس، فأزال القرامطة عن المحلة ونواحيها.

وفي هذا الوقت ورد الخبرُ من الصّعيد الأَعْلَى أن عُبَيْد الله(١) أخَا الشريف مسلم أوغل في الصّعيد واستخرج الأموال، وقتل ألفاً من المغاربة.

وفي هذه السنة، في المحرّم منها، انْبَسَطت المغاربة في نَواحي القَرافة، ونزلوا في الدُّيُور، وأخرجوا النَّاس من أمَاكنهم، وشرعُوا في السّكن في المدينة، وكان المعزّ أمَرهم أن يسكنوا أطراف المدينة، فاستغاث النّاس إلى المعزّ فأمرَ أنْ يسكُنوا نَواحِيَ عين شمس، وركب بنفسه وشاهد المكان، وأخبرهم بالبناء فيه، وهو الموضع المعروف الآن بالخندق(٢)، وجعل لهم والياً وقاضياً، ثم سكن أكثرُهم بالمدينة مخالطين للناس.

ذكر فتوح طرابلس الشام

كان فتوحها في سلخ ربيع الآخر سنة أربع وستّين وثلاثمائة، على يد ريَّان الخادم غُلام المعز، وهرب ابن الزَّيَّات بعد أن كان نصب عليها الصّلبان وجعلها للرُّوم.

وفي جُمادى الأولى منها سار نصير الخادم غلام المعزّ في عسكر كثير، ودخل إلى بيروت، وتواقع مع الرّوم على طَرَابلس وهزمهم، وكانت الوقعة في نصف شعبان.

وفي هذا الشّهر وصل الخبر إلى المعز بوصول أفتكين التركي من بغداد إلى دِمَشْق بقَصْد مصر. فشرع المعزّ في تجهيز العساكر.

وفي شهر رمضان منها كثرت الأراجيف بمسير الرُّوم إلى الشام لأن أفتكين التُّركي كاتب ابن السنهسكي(٣) فسار بالرّوم إلى بَيْروت، فلقيهم نصير غلام المعزّ فهزموه وأسَرُوه، وتوجَّهوا إلى صيدا فخرج إليهم أفتكين التُّركي وقبَّل الأرض لابن السنهسكي وهادَنَه على دمشق؛ وسار ابن السنهسكي إلى طرابلس، فخرج إليْه رَيّان الخادم بعساكر المعزّ فقاتله وهزَمه، وقتل مقْتَلة عظيمة مِن عامّة عسكره. وانصرف ابن السنهسكي مغْلُولاً، فسُرّ المعزّ بذلك، وهنأه الناس بهذا الفتح، ومدحه الشّعراء.

= المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٦٦. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢١٧. وفي التاسع من جمادى الأولى في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٢٦.

(١) ورد اسم «عبد الله بن عبيد الله» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) ورد «خندق العبيد» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ١٤٥. والخندق: خارج باب الفتوح واشتهر بالخندق لمرور الخندق الذي حفره جوهر بالمنطقة التي تسمى منية الأصبغ. انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي ج ٢، ص ١٣٦. والقاموس الجغرافي لمحمد رمزي، ج ١، ق ١، ص ٥٦.

(٣) ورد اسم «السمسيق» في اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٣٠.

ذكر وفاة المعز لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاتُه بالقاهرة لسبعِ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ وقيل في يوم الجمعة لاثنَتَيْ عشرةَ ليلةً بقِيَت من الشهر[١]. وكانت مدة حياته خمساً وأربعين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، ومدّة مقامه بمصر سنتين وسبعة أشهر وأيّاماً.

وكان نقش خاتمه: بِنَصر العزيز العَليم ينْتصر الإمام أبو تميم. وقيل: كان لتوحيد الإلٰه الصّمد دعاء الإمام[٢] معَدّ. وقيل: لتوحيد الإلٰه العظيم دعاء الإمام[٣] أبو تميم.

أولاده: أبو المنصور نزار تميم الظّاهر، وبه كني، توفّي بمصر في ذي القعدة سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة؛ الأمير عقيل، توفّي في شعبان من السنة؛ وسبع بنات.

قضاته: قاضيه الواصل معه من المغرب أبو حنيفة النعمان بن محمّد الدّاعِي، مات بمصر في سلِخ جُمادى الآخرة سنة خمس وستّين وثلاثمائة، ولم يَلِ القضاء بها؛ واستَقْضَى بالمغرب أبا طالب أحمد بن القائم بن محمد بن المنهال؛ ولمّا وصل إلى مصْرَ وجد القائد جوهراً قد استخلف على القضاء أبا طاهر محمّد بن أحمد بن عبد الله الذهلي البغدادي، وهو القاضي على أيام كافور، فأقرَّه، وكان أبو سَعيد عبْد الله بن محمّد بن أبي ثوبان حكم بمصر بين المغاربة الجند والتجار إلى أن مات في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين؛ فتولّى القضاء أبو الحسَن عليّ بن النعمان على قاعدته إلى أنْ مات أبو طاهر، فقضى أبو الحسَن على الجميع.

كتّابه: كان جوهر قد فوض تدبير الأموال في أيامه إلى عليّ بن العرمرم وأبي محمد الروذباري، ورجاء بن صولات، وعبد الله بن عطاء الله، وأبي الحسن الكرجي؛ وردَّ تدبير هؤلاء الكتاب إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات. واستقرّ الأمر بعد وُصُول المعزّ على عسلوج، ويعقوب بن يوسف.

---

(١) اختلفت المصادر في تحديد يوم وفاة المعز لدين الله. في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٨١ «توفي يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وثلاثمائة. ويرى الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما «المعز لدين الله» أنه لا ينتمي إلى بيت عبيد الله المهدي وإنما ينتسب إلى جده القائم وأبيه المنصور، وهما من سلالة أئمة الاستقرار عند الإسماعيلية. انظر حاشية الصفحة نفسها رقم ٣. وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٢٨ «توفي يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر. وقيل الثالث عشر، وقيل لسبع خلون من سنة خمس وستين وثلاثمائة بالقاهرة».

(٢) و(٣) في الأصل: «الإله» والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٣٠.

ومِمّن وزر للمعزّ يعقوب بن كلِّس، وهو أول وزراء دَوْلتهم بمصر، وهو من جملة كتاب الدّوْلة الإخشيدية، وسنذكر خبره إن شاء الله مُستَوفًى في أخبار العزيز.

حاجبه: جعفر بن عليّ إلى أن تُوفّي، فوَلِيَ عمّار بن جعفر، والله أعلم بالصواب.

ذكر بيعة العزيز بالله

وهو أبو المنصور(١) نزار(٢) بن المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهديّ، وهو الخامس من ملوك الدولة العُبَيْدِيّة، والثاني من ملوك مصر والشام منهم.

كان قد وَلِيَ الْعَهد منْ أبيه في حياته، ثم بَايَعه النّاس في يوم وفاة أبيه، لِسَبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الآخر سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة.

حكى الرئيس ابن القلانِسي في تاريخ الشام في سبب بيعة العزيز الأولى أن أباه المعزّ كان مُغرماً بعلم النُّجوم والنّظر فيما تقتضيه أحكام مولده، فحكم له بقطع، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه، فأشار عليه أن يعمل له سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه مدّة إلى حين زوال ذلك القطع. فصنع ذلك وأحضر وُجوه دولته، وقال لهم: إنّ بيني وبين الله عهداً وَعَدْنِيه قد قرب أوانه، وقد جعلت عليكم ولدي نزاراً، ولقّبته بالعزيز بالله، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أحوالكم مدّة غيبتي، فالزمُوا الطّاعة والمناصَحَة له. فقالوا: نحنُ عبيدُك وخدمُك. فأخذ البَيْعة له ووَصّاه بما أراد، وجعل القائد جوهراً مدبِّراً لأموره، ونزل السِّرداب الّذي اتخذه وأقام به سنة. فكانت المغاربة إذا رَأَوْا سحاباً ترجَّلوا على الأرض وأوْمَوْا بالسّلام عليه. [فغاب سنة](٣) ثمّ خرج بعد ذلك، وجلس النّاس، فدخلوا على طبقاتهم وسلَّموا عليه؛ ولم يلبث بعد ذلك إلاّ مدّةً يسيرة، واعتلّ فمات.

ذكر الحرب بين أفتكين التركي وعساكر العزيز بالله

ولنذكر ابتداء أمر أفتكين(٤) لتأتي أخبارُه بسياقه.

---

(١) في الأصل: «ابن منصور»، والتصحيح من كتاب التراجم التالية:

(٢) انظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٧١، رقم ٧٥٩، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٣١ ـ ٣٢، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٦٨ ـ ١٦٩، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ١٧٤ ـ ١٧٥. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١١٦ ـ ١١٧، الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٦٤.

(٤) «هفتكين» من كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ١٧٥. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٣١، =

هو أبو المنصور أفتكين المعزّي، أحد مماليك معزّ الدولة بن بويه[١] وكان سبب وصوله إلى الشام أنه لما وقعت الفتنة بين الترك والديلم ببغداد وخلع المطيع[٢] كما ذكرناه، وتوالت تلك الفتن، انفصل أفتكين عن بغداد في سنَة ثلاثٍ وستّين وثلاثمائة في ثلاثمائة غلام، وسار حتّى قَدِم حمص فأقام أياماً يسيرة، وسار منها إلى دِمَشْق، فوجد أحْدَاث البلد قد تحكّموا فيها والفتن بين أهلها وبين عسكر المغاربة. فخرج إليه شيوخ دمشق وأظهروا السُّرور به، وسألُوه أن يتَولّى عليهم، ويكفّ أيْدي المفسدين، وتَوثَّقوا منه وتَوثَّق منهم بالأيْمان، ودخل البلد وأصلح أمره، وأحسن السّيرة، وكفَّ المفسدين، فاستقام له الأمر وثبت قدمُه. فاضطر إلى مكاتبة المعزّ لدين الله بمصر فكاتبه وخادعه، وغالطه، وأظهر الانقياد إليه والطاعة لأمره. فأجابه المعزّ يستدعيه إلى حَضْرته ليشاهدَه، ويصطَفِيَه لنفسه، ويُعيدَه إلى ولايته؛ فلم يثق إلى ذلك وامتنع من الإجابة. ووافق ذلك علّةَ المعزّ ووفاتَه.

وكتب أفتكين في أثناء هذه القضيّة إلى مولاه ببغداد يقول إنّ الشام قد صفا في يدي، فإن سيَّرت إليَّ عسكراً ومالاً وسلاحاً فتحتُ ديار مِصْر، فبعث إليه الجواب: غرك عزك فصارَ قُصار ذلك ذُلَّك فَاخْشَ فاحِشَ فِعْلك، فَعَلَّك تهدأ بهذا. فلما أَيِس أفتكين من إنفاذ العساكر إليه من بغداد اضْطُرّ عند ذلك إلى مُكَاتبة القرامطة، فقصدوه ووافوه في سنة خمسٍ وستّين وثلاثمائة؛ وكان الذي أتاه منهم إسحاق، وكسرى، وجعفر؛ فنزلوا بظاهر دمشق، ووافاه معهم كثيرٌ من العجم. فأكرمهم أفتكين وحمل إليهم الميرة، فأقاموا أيّاماً وتوجّهوا إلى الرّملة، فخرجت إليهم عساكر السّاحل، واقتتلوا، فهزمهم أفتكين، وقتل منهم مقتلةً عظيمة[٣]. وكان على السّاحل ظالم بن موهوب العقيلي، فانهزم إلى صُور. وأحصيت القتلى فجاؤُوا أربعة آلاف فارس. فكاتب العزيزُ بن المعزّ أفتكين واستماله ووعَدَه إنْ وَطِيءَ بساطَه أنْ يرفع منزلته. فأبى إلاَّ مخَالفَته، وأغلظ له في الجواب. فاستشار العزيزُ وزيره يعقُوب بن كلّس فيما يفعله فأشار عليه بإخراج جوهر القائد إليه بالعساكر؛ فشرع العزيز في ذلك وجهّز جوهر، فلما سمع أفتكين ذلك عاد

= «الفتكين» في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٥٦، «وأفتكين» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٨.

(١) هو معز الدولة أبو الحسين أحمد، حكم العراق، سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م. سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٩٠.

(٢) خُلع المطيع لله في سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٤ م، في منتصف ذي القعدة. وكان به مرض الفالج، وقد ثقل لسانه وتعذّرت الحركة عليه. انظر الكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٣٧.

(٣) «وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦٥٧.

إلى دمشق واستشار أهلها، وقصد التَّوَجُّه لبلاد الرّوم؛ وكان أهل دمشق يَكرهُون المغاربة لمخالفتهمْ لهُم في الاعتقاد، فطمأنُوه، وثبّتُوه لِلقاء عساكر مصر. وخرج جوهر في العساكر العظيمة بعد أن استَصْحب أماناً من العزيز لأفتكين.

فلما وصل جوهر إلى الرّملة كانت أفتكين ولاَطَفَه، وعرَّفه ما مَعَهُ له من الأمان؛ فلاطفه أيضاً أفتكين في الجواب واعتذر إليه بأهل دِمَشق، فعلم جوهر أنّه لا بدّ من الحرب. فسار إليه ونزل بالشماسية[1] فبرز إليه أفتكين، ونشبت الحرب بين الفريقين مُدّة شهرين، وقتل من الطائفتين عدد كثير. وظهر من شجاعة أفتكين ما عظُم به قدره في النّفوس، فأشار عليه أهل دمشق بمكاتبة أبي محمد الحسن بن محمد القرمطيّ واستدعائه لدفع عساكر مصر، فكاتبه فأتاه القرمطيّ، فعلم جوهر أنه إنْ أقام اسْتظهر أفتكين عليه، فرجَعَ إلى طبريّة وتبعه أفتكين والقرمطيّ فقاتلاه؛ فانهزمَ إلى عسقلان فتبعه أفتكين وحَصَره بها حتى أشرف جوهر على الهلاك، فصالحه، ووقع الصُّلح بينهما على أن يخرج جوهر وأصحابه حُفاة عُراةً لا شيء يسترُ عوراتِهم[2].

وكان العزيز قد خرج من الدّيار المصريّة لإغَاثةِ جوهر، فلقيه في الطريق على تلك الحال، فأخبره جوهر أن كتامة خذلوه. فقبض عليهم، ثم أظهر الغضب على جوهر وعزله عن الوزارة.

ذكر حرب أفتكين وأسره

وفي سنة ثمانٍ وستّين وثلاثمائة في المحرّم منها، وصل العزيز بالله إلى الرّملةِ، وأفتكين وعسكره بالطَّوَاحين، ووقع المصَافّ بينهُما، ونشبت الحرب في يوم الخميس سابع الشهر. فانهزم أصحاب أفتكين وقتل عامتهم وشوهد العزيزَ في هذا اليوم وقد انفرد عن عسكره وصلى على الأرض وهو يقول: اللّهم ارحمني وارحم مَنْ وَرَائِي من هذه القبلة، وانصرني، فما أَسْتَمِدُّ النّصر إلاّ منك، وهو يعَفّر وجهه على التراب ويبكي، ثمّ ركب وقد انتصر عسكَرُه، وجِيءَ إليه بأفتكين أسيراً، أسره مفرج بن دغفل بن الجرّاح الطائي أمير طيىء، فجاء به وفي عنقه حبل، فأحْسن إليه العزيز لِمَا رأى من شجاعته، ومَنّ عليه، ورجع به إلى مصر؛ فأقام بها إلى أن مات في سنة سبعين وثلاثمائة، والحجَّاب، والأكابر يركبون إلى داره.

---

(١) الشماسية: محلة بدمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢) انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٧، والكامل لابن الأثير، ج ٨، ص ٦٥٩، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٤١، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٣١.

ولما رجع العزيز هنأه الناس بهذا الفتح، ومدحه الشعراء، فمنهم الحسين بن عبد الرحيم الزلالي بقصيدته التي أولها: [من الخفيف]

لاَحَ لِلحقِّ شهابٌ فوقَدْ فرأى قاصدُه أيْن قصد
بالعَزيز بنِ المعزّ اعْتَضَدت دولَةُ الحقّ، وبالله أعتضد
يا أميرَ المؤمنين المرتَضَى وعمادَ الدّين، والرّكن الأسدّ
بنزار بنِ معدٍّ، وهما خير أبناء نزارِ بن معد

ومنها: [من الخفيف]

أصْلح الشّامَ بما دبَّره وتَلافَاه، وقدْ كانَ فَسَد
أطفأ الفتْنةَ فيه، بعدما أبْرق التركيُّ فيها ورَعد

وكان عَوْد العزيز إلى مصر ووصولُه إليها في يومَ الاثنين لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وستين وثلاثمائة.

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة، في ثامن عشر شهر ربيع الأول، تزوّج العزيز بابنة[1] عمه، وأمْهَرَهَا مائتي ألف دينار عيناً.

ذكر فتوح اللاذقية

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، في حادي عشر شهر ربيع الأول، ورد كتاب نزال[2] يذكر فيه أنه وَاقَع الرُّوم بساحل الشّام، وكَسَرَهُم. وأخذ اللاذقية. ثم ورد نزال من الشّام في العاشر من جُمادى الآخرة، ومعه نحو خمسمائة نفر من الرّوم أسرى في السّلاسل.

وفي هذه السّنة وصل من تنّيس[3] رجل وامرأة بمولودة لها رأسان ووجهان وأربع أيدٍ كاملة الخلق في جسد واحد، وسنها دون العشرين.

وفيها كان النّوْرُوز لِسبعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول وأكل الناس الرُّطب[4] قبل

(١) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، «وعقد العزيز على امرأة» ج ١، ص ٢٥٢.
(٢) نزال والي طرابلس من قبل الخليفة الفاطمي، تكملة تاريخ ابن البطريق ليحيى بن سعيد الإنطاكي، ص ١٦١.
(٣) تنّيس: من مدن مصر وهي مدينة كبيرة فيها آثار كثيرة، وأهلها ذوو يسار وثروة، الحميري: الروض المعطار، ص ١٣٧.
(٤) الرُّطب: نضيج البُسر قبل أن يُتمر. واحدته رُطبة. والرُّطب من التمر معروف. نقول وتمر رطيب. ابن منظور: لسان العرب (رطب).

النَّوْروز على عادتهم، وأصرمت النَّخل[١]، ولم يَبْقَ عليها شيء ألبتّة، ثم حمل النخل ثانياً، فأكل الناس البلح والبُسْر مرةً ثانية؛ ولم يتّفق مثل ذلك في زمنٍ من الأزمنة.

ذكر فتح قِنّسرين وحمص

وفي سنة ثلاثٍ وسبعين وثلاثمائة، في شهر ربيع الأول منها، دخلت عساكر العزيز إلى قنّسْرين وحمص، وأقاموا الدعوة لهُ بها.

وفيها في ثامن شوّال صرَف العزيزُ وزيرَه يعقوبَ بن كلّس واعتقله وحمل من مالِه خمسمائة ألف دينار؛ ثم أفرج عنه بعد ذلك، وأعاده إلى الوزارة، في سنة أربع وسبعين، ووهب له العزيز مالاً كثيراً وألفاً وخمسمائة غلام تكون في خدمته، وإليهم تنسب حارة الوزيرية[٢] بالقاهرة.

وفي هذه السّنة اشتد الغلاء بمصر وبلغت حملة الدّقيق الجُشكار[٣] أحد عشر ديناراً والعلامة اثني عشر ديناراً والحملة ثلاثمائة رطل بالمصري.

وفيها في العشرين من ذي القَعدة ورد الخبر أنّ ابن حَمْدان[٤] خطب للعزيز بحلب والجزيرة كلّها.

وفي سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة خُطب للعزيز بمعرّة النّعمان.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وثلاثمائة استجدّ العزيز في جامع مصر[٥] العين الفوّارة، ودامت إلى أيّام العاضد، فخربت في الحريق في سنة أربعٍ وستين وخمسمائة؛ ثمّ جدَّدَها الملكُ العادلُ أبو بكر بن أيوب وفيها لاَعَنَ القاضي محمّد بن النُّعمان بين رجل من لدن عقيل وامرأته.

وفي سنة ثمانين وثلاثمائة اختطَّ العزيز الجامعَ بالقاهرة، وهو الجامعُ المعروف بالحاكم[٦] بباب الفتوح.

---

(١) أصرم النخل: حان له أن يصرم أي يقطع، الفيروزابادي: القاموس المحيط (صرم).

(٢) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٥.

(٣) الجشكار: أردأ أنواع الدقيق، والعلامة أجود أنواعه، وهذان الاصطلاحان متداولان في الريف المصري.

(٤) هو سعد الله أبو المعالي شريف بن سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الأمير صاحب حلب. توفي سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٦٣. انظر أيضاً تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٢٤٤.

(٥) وهو جامع عمرو بن العاص. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٥١.

(٦) أكمل الحاكم بالله بناء هذا الجامع فعرف باسمه. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٧٧.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة خرج منير والي دمشق على العزيز بالله[(١)]، وقتلَ ابن أبي العَواد[(٢)] الكاتب، ولحقه بشارة الإخشيدي، فسار نزال والي الرَّملة إلى دمشق، فحاربه منير، فهزمه نزال. وكانت الوقعة بمرج عذراء[(٣)] في تاسع شهر رمضان وهرب منير يريد حلب، فأخذه العرب وأحضروه إلى دمشق لنزال، فوجدُوا منجوتكين[(٤)] قد وصل إليها فأخذ منيراً وحرسه على جمل وإلى جانبه قرد وعليه طرطور.

وأقام منجوتكين بدمشق بقية سنة إحدى وثمانين. وأمده العزيز في سنة اثنتين [وثمانين][(٥)] بخمسمائة فارسٍ وخزانة وسلاح صحبة صالح بن علي وجيلين التركي، فاشتمل عسكر منجوتكين على ثلاثة عشر ألف فارس فطمع في ملك حلب بحكم وفاة صاحبها سعيد الدولة[(٦)] بن حمدان فحشد وخرج إليها في ثلاثين ألف فارس ونازلها، وفتحها في شهر ربيع الآخر. وبقيت القلعة بيد أبي الفضل بن سعيد الدولة بن حمدان ولؤلؤ، فكاتبا بسيل[(٧)] ملك الروم، فكتب لصاحب أنطاكية، وهو من قِبَله، بأنْ يجمع العساكر ويتوجَّه إلى حلب لنُصْرة صاحبها، ودَفْعِ المغاربة عنها، فسار إليها في خمسين ألف رجل.

وقال المسبّحي[(٨)]: كان عسكر الرّوم سبعين ألفاً وعسكر منجوتكين خمسة وثلاثين ألفاً.

فنزل الرّوم على جسر الحدِيد بين أنْطاكية وحلب، فأشار أصحاب منجوتكين عليه

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٦٩.

(٢) كان على الخراج بدمشق، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦٩.

(٣) مرج عذراء: بالشام بالقرب من دمشق بينهما اثنا عشر ميلاً. الحميري: الروض المعطار، ص ٥٣٦. ونسبة إلى قرية عذراء بغوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠١.

(٤) منجوتكين: كان أحد الغلامين اللذين اصطفهما العزيز بالله من الأتراك. أما الغلام الآخر فهو بازتكين. وكانا أمردين. أخبارهُ في ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢١. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٦٩.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٦) في الأصل: سيف. وهو تحريف. هو سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد الذي حكم حلب في الفترة من ٣٨١ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٩١ ـ ١١٠٢ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ص ٢٤٤.

(٧) هو الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الذي ولي عرش الامبراطورية البيزنطية في الفترة من ٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م. أوروبا في العصور الوسطى لعاشور.

(٨) هو المختار المُسبِّحي صاحب التاريخ المشهور «أخبار مصر»، انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢٧.

بقَصْد الرّوم، فتوجه نحوهم[١] وانضم إليه جماعة من بني كلاب، فالتَقَوْا فانكسرت عساكر الرُّوم، وغَنِم منجوتكين ومن معه الغنائم الجزيلة، وجمع من رؤوس الرُّوم مقدار عشرة آلاف رأس، فسيَّرها إلى مصر.

وتبع منجوتكين الرّوم إلى أنطاكية، وأحرق ضياعاً، ونهب رساتيقها[٢]، ورجع إلى حلب. فعمل لؤلؤ مقدم حلب على رجوع منجوتكين عن بلده، فكاتب أبا الحسن ابن المغربي وزير منجوتكين وخواصَّه أن يحسّنُوا[٣] له الرجوع إلى دمشق والعَوْد إلى حلب في العام المقبل، وَعَدَهم على ذلك بالأموال الجزيلة. فذكروا ذلك لمنجوتكين فصادف هذا الرأي منه موقعاً لسَوْقه إلى دمشق، فرجع عن حلب.

ولمّا بلغ العزيز رجوعُه عنها انزعج لذلك وعلم أنه بتدبير وزيره ابن المغربي، فعزله عن وزارة منجوتكين، وولى صالح بن علي الرّوذباري.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائة ظهر من الجراد والكمأة[٤] على جبل المقطم بمصر ما لم يعهد مثله، فخرج النّاس إليه وجعلوا يدخُلون القاهرة ومصر في كلِّ يوم، فبيع الجراد أربعة أرطال بدرهم، والكمأة سبعة أرطال بدرهم.

وفيها في يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة احترقت صناعة الإنشاء[٥] بمصر بما فيها من المراكب الحربية وآلات السلاح وغير ذلك. فاتُّهم الأمراءُ بذلك، فقتل منهم مائة وسبعة نفر، ثم أحضر عيسى بن نسطورس مَنْ بقي من الرُّوم فاعترفوا بذلك، فأمر العزيز: بالله أن تُنْهَب كنيسة الرّوم، فنهبت وأخذ منها ما ينيف عن تسعين ألف درهم.

ذكر وفاة العزيز بالله وشيء من أخباره وأخبار وزيره يعقوب بن كلّس ومَنْ وَلِي بعده

كانت وفاةُ العزيز بالله بعد الظهر من يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَيْن بقيتا من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس في مسلخ الحمام بعلتي القولنج والحصاة[٦].

---

(١) في ا لأصل: «نحوهم إليهم».

(٢) رستاق، رسداق، رساتيق، ومنها رزداق، ورزداقات: القرى وما يحيط بها من الأراضي، فارس معرب. الفيروزابادي: القاموس المحيط (رستق).

(٣) في الأصل: «إن يسحنا له» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) الكمأة: واحدها كمٌّ: نبات ينقّض الأرض فيخرج كما يخرج الفُطر. والجمع أكمؤ. ابن منظور: لسان العرب (كمأ).

(٥) صناعة الإنشاء: أي صناعة السفن، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٩٠.

(٦) في الأصل: الحصى، والتصحيح يقتضيه السياق.

وكان مولده بالمهديّة في يوم الخميس لأربعَ عشرةَ ليلةً خلت من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين وثلاثمائة.

وكانت مدّة حياته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً، ومدّة ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً[١].

وكان أسمر، طويلاً، بديناً، أشْهَل[٢]، أَعْيَن، أصْهَب الشّعر[٣]، عريض المنكبين. وكان لا يُؤْثر سفك الدماء.

قال المؤرخ: وجُدّد في أيام العزيز من الأبنية قصر الذّهب[٤]، وجامع القرافة[٥] والفوَّارة وبستان السردوس[٦]، وقصور عين شمس، والمصلى الجديد بالقاهرة. وهو أوّل من بنى دار الفطرة[٧]، وقرر الرَّواتب، وسنَّ إعطاء الضَّحايا للأولياء. وكان قريباً من الناس، بصيراً بالخيل والجوارح والصّيد.

ولده: أبو علي المنصور، وهو الحاكم بأمر الله.

ذكر أخبار الوزير يعقوب بن كلسّ[٨]

وكُنيتُهُ أبو الفرج؛ وهو أوّل من خوطب بالوزارة في دولتهم، وكان يهوديًّا من أهل بغداد، فهاجر منها إلى الشام ونزل الرّملة، فجلس وكيلاً للتُّجّار بها، فاجتمع عنده مالٌ فاكتَنَزَه، وسافر إلى مصر، واتَّصل بخدمة كافور، فتاجر في متاعٍ كان يُحيله بِثَمَنِه على

(١) في الأصل: «وعشر» والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ١٧٥. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٩٢. وفي كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٢٣٨، «وعشرة أيام».

(٢) أشهل: الشهلة في العين أن يشوب سوادها زرقة، رجل أشهل العين. ابن منظور: لسان العرب (شهل).

(٣) أصهب الشعر: أشقر. ابن منظور: لسان العرب (صهب).

(٤) قصر الذهب: قاعة الذهب، وكان يقال لها قصر الذهب، أحد قاعات القصر الكبير الذي هو قصر المعز لدين الله. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٣٨٥.

(٥) جامع القرافة: كان موضعه يعرف عند فتح مصر بخطة المغافر. أنشأته والدة العزيز بالله السيدة تغريد. في سنة ٣٦٦ هـ (في شهر رمضان) المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣١٨.

(٦) السردوس: قرية قديمة، واسمها اليوم باسوس. وهي بمحافظة القليوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ص ٦٩.

(٧) دار الفطرة: هي مخزن لجمع أنواع الحلوى التي تفرق في شهر رمضان. أنشأها العزيز بالله خارج قصره. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٢٥.

(٨) ترجمته وأخباره في: المنتظم لابن الجوزي، ج ٧، ص ١٥٥. والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٩٧. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٦٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٢٧ ـ ٣٥.

الضياع، فكان إذا احتيل على عملٍ بمالٍ لا يخرُج منه حتى يعلم مستخرجه ونفقته وارتفاعه، فعلم أحوال ديار مصر، فأُخبر كافور به، فقال: لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً. فبلغه ذلك، فأسلم على يَدَي كافور، في يوم الجمعة في الجامع العتيق، في سنة خمسين وثلاثمائة.

ثم تعلّقت به مُطَالبات ديوانيّة في الدولة الإخشيدية فهرب بسببها من مصر، فلقي العسكر المغربيّ قاصداً مصر فعاد في صحبته، فلمّا ملك القائد جوهر مصر تصرَّف ابن كلِّس في الأمور الدِّيوانيَّة مدّة أيام المعز. ثم انتقل إلى خدمة ولده العزيز، فاختصّ به وتمكّن منه، وأفتى الأموال، فاستوزره في يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان سنة ثمانٍ وستين[(١)] وثلاثمائة؛ وأقطعه بمصر والشام في كلِّ سنة ثمانية ألاف دينار ـ وبسطَ يدَه في الأموال، وكتب اسمه على الطُّرُز[(٢)]، وابتدأ بنفسه في المكاتبات والعُنْوانات. من يعقوب ابن يوسف وزير أمير المؤمنين.

وتمكن من الدولة حتى أسْقَطَ المغاربة، واستخدم المشارقة، في سنة سبعين وثلاثمائة، من التُّرك والإخشيدية. وأذل جوهراً الرُّومي غلامَ المعزّ وجعله على المرّمة، وكان [جوهر][(٣)] يقول: قبح الله طُول هذا العمر الذي أحْوج لمثل هذا.

ثم نكبه العزيز النكبة التي ذكرناها في سنة ثلاث وسبعين، ثمّ أطلقه وأعاده إلى الوزارة، وقال له: عُزِلتَ بالإغراء، ورُدِدْت بصمم الآراء. ووهب له ألفاً وخمسمائة غلام كما ذكرنا[(٤)].

ولم يزل ابن كلس على ذلك إلى أن توفي لِسِتٍّ خلَوْنَ من ذي الحجة، سَنَة ثمانين وثلاثمائة.

ولمَّا مرض مَرْضته التي مات فيها ركب العزيز إليه، وعَادَهُ، وقال له: وَدَدْتُ أنّك تباع فأبتاعك بملكي «وولدي»[(٥)] [أو تفدى فأفديك فهل من حاجة توصي بها][(٦)].

(١) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٦٠. «سنة خمس وستين» وأيضاً في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٢. وكنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٢٢٧.

(٢) الطرز: البزّ: أو الرداء لفظ فارسي، وأصله ترز والطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان: فارسي أيضاً. ابن منظور: لسان العرب (طرز). انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ٤٠٩.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح.

(٤) انظر ما سبق. ذكر فتح قنسرين وحمص.

(٥) «وولدي» كلمة ساقطة من الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧ وفي المنتظم لابن الجوزي، ج ٧، ص ١٥٥.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من المنتظم في تاريخ الملوك، والأمم لابن الجوزي، ج ٧، ص ١٥٥.

=

ولمّا مات أمر العزيز أن يُدفن في داره في قُبة كان بنَاها لنفسه؛ وحضر جنازته وصلَّى عليه، وألحده في قبره.

وبلغ قيمة الكفن الذي أنْفَذَه العزيزُ له، وهو خمسون ثوباً مثقلة سبعة آلاف دينار، وانْصَرَف من دفنه، وأظهر الحُزن وأغلق الدّواوين ثمانية عشر يوماً، وعطّل الأعمال أياماً، واشتملت تركته على مال عظيم.

ولم يستوزر [العزيز][١] بعده أحداً بل ضمن أموال الدّولة بجماعةٍ من المستخدمين وجعل الغالبَ عليهم عيسى بن نسطورس النّصراني، فمال إلى النَّصارى وقلدهم الأعمال. واستناب بالشام منشا بن إبراهيم اليهوديّ فقدَّم اليهود ومال إليهم، واطَّرَح المسلمين، فوقَفَت للعزيز امرأة بيدها قصّة ـ مكتوبٌ فيها: يا أمير المؤمنين بالّذي أعزّ النّصارى بابن نسطورس وأعزّ اليهود بمنشّا بن إبراهيم وأذّل المسلمين بك إلا ما نظرت في أمْري وكشفت ظُلاَمتي[٢]! فقبض العزيز على عيسى، وكتب بالقبض على منشّا بالشام، ثم شفعت ستّ الملوك ابنة العزيز في عيسى فردّه إلى ما كان عليه، وحمل إلى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار، وشرط عليه استخدام المسلمين في دولته وأعماله.

قضاته: أبو طالب محمد بن أحمد البغدادي إلى أن استعفى، ثم علي بن النعمان إلى أن تُوُفِّي في شهر رجب سنة أربع وسبعين، فردّ القضاء إلى أخيه أبي عبد الله محمّد ابن النّعمان.

حُجَّابه: الأمير منجوتكين، القائد باروخ.

ولمّا مات العزيز قام بالأمر بعده ولده أبو علي المنصور.

ذكر بيعة الحاكم بأمر الله[٣]

وهو أبو علي المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معدّ، بن

= ويذكر ابن الجوزي في المصدر نفسه، والصفحة نفسها «قال يعقوب: أما فيما يخصني فلا... ولكن فيما يتعلق بدولتك (أي دولة العزيز) فلا تبق على المفرج ابن دغفل الجراح، متى أمكنت فيه الفرصة..».

(١) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح.

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٧٧، ١١٦. وفيه أورد ابن الأثير: «وكتب أهل مصر قصة جعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز».

(٣) ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٧٧ ـ ١٩٨ والمنتظم لابن الجوزي، ج ٩، ص ٢٩٧، والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ١١٨ ـ ١٢٣.

المنصُور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. وهو السادس من ملوك الدَّولة العُبيدية، والثالث من ملوك مصر والشام منهم.

بايع له أبوه العزيز قبل وفاته ببلبيس، وكان ولَّى قبله ابنَه محمداً فهلك في حياة أبيه العزيز، ثم جُدّدت البيعة للحاكم بأمر الله صبيحة وفاة أبيه في يوم الأربعاء لليلةٍ بقيت من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ولبس أثواب الخلافة، وتعمَّم بعمامةٍ عليها الجوهر، وعمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وستة أشهر[1]. وتولَّى كِفَالته برجوان[2] الخادم، وقام بأمر الجيوش وتدبير الدَّولة أبو محمد محسن بن عمّار بن أبي الحسن، وتلقب بأمين الدّولة، وهو أول من لقب في دولتهم بمصر، وكان ذلك بوصية من العزيز.

قال: وكان الكتاميون قد أضعفهم الوزير ابن كلّس، فأظهرهم ابن عمّار وردَّهم إلى ما كانوا عليه.

ذكر القبض على الوزير عيسى بن نسطورس النصراني وقتله

كان القبض عليه في تاسع شوال سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة: وذلك أن ابن عمار اتّهمه بالإغراء عليه ومباطنة منجوتكين، فبَسَطَ عليه العذاب، واستخرج منه سبعمائة ألف دينار، ثم أخرجه لثلاثٍ بقين من المحرم سنة سبع وثمانين على حمار، إلى المقس، وضرب عنقه هناك. رحم الله ابن عمار الآمر بقتله، فلقد حُكي عنه مِنْ جَوْره على المسلمين واطِّراحِه لهم ما لاَ مَزِيد عليه.

حكى الأثير بن بيان المصري أنّ بعض رؤساء المصريّين كتب ورقةً يعاتب فيها عيسى على قُبْح فعله مع المسلمين وبالغ فيها، فأجابه عيسى عنها يقول: «إن شريعتنا متقدِّمة، والدّولةُ كانت لنا ثم صارت إليكم. فَجُرْتم علينا بالجزية والذِّلَّة، فمتى كان منكم إلينا إحسَانٌ حتى تطالبونا بمثله! إن مانَعْنَاكم قاتلْتمُونا، وإن سَالَمْنَاكم أهنتمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقَّعُون أن نصنع بكم». ثم تمثل في آخرها ببيتين: [من الرمل]

بِنْتُ كَرمٍ غصبوها أمّها ثم داسُوهَا، هواناً، بالقدم
ثم عادوا حكَّمُوها فيهمُ وأناهيك بخِصْمٍ قد حكم!

---

(١) ولد بالقاهرة في ٢٣ ربيع أول سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٧٦. وذكر ابن ظافر أنه ولد في ربيع الآخر. أخبار الدول المنقطعة، ص ٦٠.

(٢) هو الأستاذ أبو الفتوح بَرْجوان الذي ينسب إليه حارة بَرْجوان بالقاهرة. كان من خدام العزيز بالله صاحب مصر ومدبّري دولته. قتل سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩ م في القصر بالقاهرة بأمر الحاكم. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧٠، رقم ١١٢.

ذكر مخالفة منجوتكين بدمشق وحربه وأسره وسبب ذلك

كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتاميين وبالغ في الإحسان إليهم، وخوَّلهم في الأموال وبسط أيديهم، وفرَّق فيهم ما خلَّفَه العزيز.

قال بعض المؤرخين: إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرسٍ وبغل، وجمل وحمار، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء؛ ففرَّق ابن عمار ذلك فيمن أراد اصطناعه، فلما كان في سنة سبع وثمانين ومائتين انبسطت يد كُتامة وجاروا على النَّاس بديار مصر، وامتدُّوا لأَخْذِ أموالهم، ثم اجتمع مشايخهم وحسَّنوا للحسَن بن عمار قتل الحاكم. فعلم برجوان بذلك، فبالغ في حفظ الحاكم وضم إليه شكر العضُدي من غلمان عضُد الدَّولة بن بويه. وكاتبا منجوتكين أمير دمشق يُعرِّفانه ما عزم عليه ابن عمّار، وأنه بَسَط يد كتامة في الأموال ومكنهم من الجَوْر وأنهم حَصَرُوا الحاكم بقصره، وأشارَا عليه أن يقصد مصر ليكون عوضاً عن الحسن بن عمّار.

فلما قرأ منجوتكين الكتاب جمع القُوَّاد والأجناد وغيرهم بجامع دمشق، وعرَّفهم ما جرى من كتامة، وبكى، وخرّق ثيابه؛ فأطاعه النّاس وحلفوا له على طاعة الحاكم وقتال ابن عمار. فأنفق فيهم الأموال ووثَّق منهم؛ وبرز من دمشق في ستة آلاف فارس.

فلما اتّصل ذلك بابن عمار عَظُم عليه وجمع وُجُوه كتامة وعرَّفهم الحال، فقالوا: تعرّف الناس أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وخالف عليه، وخرج عنه، ليبالغوا في قتاله؛ ففعل ذلك وأطهره، وفرَّق الأموال في وُجُوه الدَّولة. ثم أحضر برجوان وشكر العضدي وقال لهما: أنا شيخٌ كبير وقد كثُر الكلام عليَّ والقول فيّ، وليس لي غرضٌ إلاّ في حفظ الإمام الحاكم. وسألهما أن يحلفا له على المساعدة فما وسعهما إلا في أن حلفا[1] له. وندب من وقته أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح وقدّمه على العسكر، وأمره بالمسير إلى الشام، فخرج في ستة عشر ألف فارس وراجل. فسار سليمان في ثاني صفر، ورحل منجوتكين إلى الرّملة فملكها ومعه مفرّج ابن دغفل بن جراح؛ وسار سليمان حتى نزل بظاهر عسقلان.

وتقابل الجيشان بعد ثلاثة أيّام، وكان المصافّ في يوم الجمعة لأربعٍ بقينَ من جمادى الأولى سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة، فاستأمنت العرب من أصحابِ دغفل وغيرهم إلى سليمان، فاستظهر، وقتل من أصحاب منجوتكين أربعة قوّاد. وانهزم منجوتكين وأحصيت القتلى من أصحابه فجاءت ألفي فارس، وامتلأت أيدي أصحاب

(١) في الأصل: «حلفوا» التصحيح يقتضيه السياق.

سليمان. وبذل سليمان لمن يُحضر منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائتي ثوب، فأسره علي بن الجرَّاح وحمله إلى سليمان، فسيَّره إلى مصر. فاصطنع الحسنُ بنُ عمّار منجوتكين، وسار سليمان ونزل طبريّة.

فلما بلغ أهل دمشق ما اتفق لمنجوتكين نهبُوا دارَه. وبعث سليمان أخاه إلى دمشق في خمسة آلاف فارس، فلمّا وصلها أغلقُوا دونه الأبواب، فكتب إلى أخيه بذلك، فسار إلى دمشق وتلطَّف بأهلها، وطيّب قلوبهم، ففتحوا له الأبواب. ودخل البلد واستقر أمره، وثبت قدمه، واستتبَّ له الأمر، فنظر في أمر السّاحل واستبدل بولاية الجابرين، وعزل [الأمير][1] جيش بن الصَّمصامة من طرابلس الشام، واستعمل عليها أخاه، فحضر جيش إلى مصر ولم يجتمع به.

ذكر الفتنة بين المشارقة والمغاربة وهرب ابن عمار وما كان من أمره

كان سبب ذلك أنّ سليمان بن جعفر لما عَزَل جيْشَ بنَ الصّمْصامة عن طرابلس حضر [جيش][2] إلى مصر واجتمع بشكر الخادم وبرجوان سرًّا وعرَّفَهما بُغْض أهل الشّام في المغاربة؛ وكان جيش أيضاً من كتَامة وبيْنه وبين سُليمان عداوةٌ متمكنة، فحسَّن لهما الفتك بالحسَن بن عمّار، فوَقَع هذا الكلام من برجوان بالمَوْقِع العظيم مع ما تقدّم بينهما من الوحشة. وعلم برجوان أن القاهرةَ قَدْ خَلَتَا من المغاربة ولم يبق فيهما إلاّ العدد القليل، وأمكنته الفرصة فانتهزها، ورَاسَلَ الأتراك والمشارقة في القَبْض على الحسن بن عمّار.

وأحسَّ ابن عمار بذلك فقصد الْمُبَادرة بالإيقاع ببرجوان وشُكر، ورتَّب جماعةً في دهليز داره، وقرر معهم الفتك بهما إذا دخلاَ إليه. وكان لبرجوان عيونٌ كثيرة فاطّلعوا على ما دبّره ابن عمار عليه. واتفق أنّ الحسن استدعاه [ومعه شكر][3]. فركبا إلى داره، وكانت في آخر القاهرة مما يلي الجبل، ومعهما جماعة من الغلمان. فلمّا وصلا إلى باب الدّار وظهرت لهما عين القضيّة فعادَ إلى القصر بسرعةٍ وجرّدَ الغلمانُ سيوفهم، فَدَخَلاَ قصر الحاكم. فثارت الفتنة واجتمع الأتراك والدَّيلم والمشارقةُ وغيرهم على باب القصرِ، وبرجوان يبكي، وهم يبكون لبكائه، وهو يحرّضهم على القيام بواجب خدمة الحاكم.

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

وركب الحسَن بن عمّار في كتامة إلى الجبل، وتبعه وجوه الدّولة، فصار في عددٍ كثير. وفتح برجَوان خزائن السّلاح وفرَّقها على الغلمان وغيرهم، وأحدقوا بالقصر، فبرز منجوتكين وفارحتكين وينال الطويل في خمسمائة فارسٍ من الأتراك. ووقعت الحربُ بينهم وبين الحسن بن عمّار إلى وقت الظهر من يوم الخميس سلخ شعبان سنة سبعٍ وثمانين وثلاثمائة، فانهزم ابن عَمّار، ورجعت العامّة إلى داره فنهبوها ونهبوا خزائنه؛ واستتر عند بعض العوامّ وتفرَّقَت عنه جموعه[١].

وفتح برجوان باب القصر، وأجلس الحاكم، وأوصل إليه النّاس، وجدَّدَ له البيعة على الجند، فلم يختلف عليه أحد؛ وكتب الأمانات لوجُوه كتامة وقُوَّاد الدَّيْلم وراسَلَهم بما يُطَيِّب قلوبهم فأتوه. واستقام أمرُ برجَوان وكتب إلى أهل دمشق يُطيِّب قلوبهم ويأمرهم بالقيام على سليمان والإيقاع به؛ فثار أحداث[٢] دمشق وقصدوا دار أميرها سليمان، فوجدُوه وقد الْتَهى بالشُّرب وانهمك على لذّاته، فهرب على ظهر فرسه ونُهِبت خزائنه وأمواله. وجعل برجوان الحسينَ بنَ القائد جوهر قائدَ القُوَّاد، وبعث جيش ابن محمد بن الصَّمصامة إلى دمشق، وتلطَّف في إخراج الحسن ابن عمّار من استتاره، فخرج فأعاد برجوان عليه ما كان بيده من الإقطاعات وحلَّفه ألاّ يخرج من داره.

وفي سنة ثمانٍ وثمانين وثلاثمائة عصى أهل صُور على الحاكم بسبب فتنة برجوان وابن عمار وقتلوا جماعةً من جند المصريّين، وثار بعضُ الملاحين من أهلها، ويعرف بالعلاقة، فمَلك البلد.

وثار مفرج بن دغفل الجراحي بالرّملة ونهبها.

فندب برجوان إلى الشام أبا الحسن عبد الصّمَد بن أبي يَعْلَى، وضمّ إليه عسكراً، فسار من القاهرة لأربع عشرةَ ليلةً خلت من ذي القعدة، سنة ثمانٍ وثمانين[٣]. فلمّا وصل إلى الرّملة حضر إليه من جند السّاحل خمسة آلاف فارسٍ، ووجد سليمان بن

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٨ ـ ٤٩، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢.

(٢) أحداث: جمع حدث. رجال أحداث السن، أي صغار، ابن منظور: لسان العرب (حدث). وكان الأحداث يكونون نوعاً من رجال الشرطة أو الحرس. وهناك فرق بين الأحداث والشرطة في طريقة التجنيد المحلي غير الرسمي. انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٩. وقد وردت نصوص كثيرة تشير إلى «الأحداث» في: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، وزبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم تحقيق سامي الدهان، والكامل لابن الأثير، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي. وانظر مادة حدث في دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) في الأصل: «وثلاثين» والتصحيح يقتضيه سير الأحداث. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٨ ـ ١٩.

جعفر [بن][1] فلاح بها فقبض عليه وسيَّره إلى مصر. وسيّر إلى صور أبا عبد الله الحسن ابن ناصر الدّولة وياقوتاً الخادم ومَنْ معه مِنْ عبيد الشّراء، فوقعت الحرب بينهم وبين أهل صور؛ ثم طلبوا الأمان فأمِّنوا. وأسر العلاقة الثائر، وكان قد استنصر بالروم، فسُلخ وهو حيّ، وحُشِي جلده تبناً وصلب. وكان قد ضرب على الدينار بصور «عزّ بعد فاقة، وشطارة بلباقة، للأمير العلاقة».

وفيها في شعبان ورد الخبر بفتح أنطاكية على يد [الأمير][2] جيش بن محمد بن الصّمصامة[3].

ذكر قتل برجوان الخصيّ

كان مقتله في ثالث عشر[4] شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة.

وسبب ذلك أنه كان لِفرْط إشفاقه على الحاكم منَعه من الرّكوب خوفاً عليه، ومنعه من العَطاء لغيرِ مستحقّ، فثُقل على الحاكم، ولم يَبْقَ للحاكم في الأمر غير الاسم، واستبَدَّ برجوانُ بالأمر. وكان عند الحاكم خادمٌ اسمه ريدان الصقلبي قد اختصّ به وأنس إليه، فشرع في إغراء الحاكم على برجوان. وكان من جملة ما قال له: إن هذا يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الإخشيدي مع أولاد سيّده،فبَاطَن الحاكم الحُسَين بنَ جوهر قائدَ القواد على قتل برجوان، ووعده أن يفوّض إليه تدبير الأمر بعده. ثم ركب الحاكم وبرجوان في بعض الأيام إلى بستان اللؤلؤة[5] على عادته، فمال عليه ريدان بسكين فضربه بها في ظهره وأخرجها من صدره. فقال برجوان للحاكم: غُدِرت. فزعق على الخدَّام فاحتزُّوا رأسه، فانزعج الناس لذلك ولبسوا السلاح، فسبق الحاكم ودخل القصر وحضر شكر الخادم والجند وأحاطوا بالقصر ظنًّا منهم أن الحسن بن عمار تمَّم على الحاكم حيلة. فلما رأى الحاكم ذلك تراءَى للنّاس فترجلوا وقبَّلوا الأرض، وسكنت الفتنة.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) هو أبو الفتوح، القائد المغربي ابن أخت أبي محمود الكُتامي أمير أمراء جيوش المغرب ومصر والشام وتولى نيابة دمشق ثلاث مرات أيام الفاطميين، وكان ظالماً سفاكاً للدماء. توفي عام ٣٩١ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٤) وقُتل عشية يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر وقيل بل قتل يوم الخميس منتصف جمادى الأولى. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٧٠، «في سادس عشر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٥.

(٥) بستان اللؤلؤة في قصر الحاكم. وكان يعرف بدويرة التين والعناب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤. والمقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٥.

ثم فتح الحاكم القصر واستدعى أكابر النّاس وقال لهم: أنكرت على برجوان حاله وقتلته، واستدعى الحسين بن جوهر وأمره بصرف الناس إلى منازلهم، فصرفهم.

وركب مسعود الحاكمي إلى دار برجوان فأحاط على ما فيها، وكان من جملة ما وجد له ألف سروال[١] دبيقي بألف تكّة حرير، وناهيك بموجود يكون هذا من جملته.

وإلى برجوان هذا تنسب حارة برجوان[٢] التي بالقاهرة.

واستقرّ الحسين بن جوهر في تدبير الدّولة إلى ثالث جُمادى الأولى من السنة.

وقتل في أثناء هذه الفتنة الحسن بن عمّار الكتامي، وتوفِّي جيش بن محمد بن الصّمصامة أمير الشام بدمشق في ثالث عشر ربيع الأول منها، وندب الحاكم لولايتها القائد تميم بن إسماعيل المعزّي الملقب بفحل.

ذكر ما فعله الحاكم بأمر الله وأمَر به من الأمور الدالَّة على اضطراب عقله بعد أن استقل بالأمر بمفرده

كان أول ذلك أنه نهى في سادس شهر رجب سنة تسعين وثلاثمائة أن يخاطِب الناس بعضهم بعضاً بسيدنا ومولانا، وألاّ يخاطَب بذلك غيره. وفي سنة إحدى وتسعين، في شهر المحرم، أمر أن تُزيَّن مصر ويفتح الناس دكاكينهم ليلاً؛ ولازَم الركوب بالليل، وكثر ازدحام النَّاس، وصار البيع باللّيل أكثر من النهار، وأكثر الناس الوفود. غلب النساء على أزواجهم على الخروج، فأمر في رابع عشر الشّهر ألاّ تخرج امرأة من العشاء لهذا السبب، فلم يخرجْنَ بعد أمره[٣].

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين حصل للحاكم مرض المانخوليا، فأخذ في قتل أرباب الدّولة وذوي المناصب وغيرهم، وصدر عنه من الأفعال ما نذكره إن شاء الله تعالى بتواريخه على حكم السّنين.

ذكر بناء الجامع المعروف بجامع راشده

كان ابتداء عمارته في سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. وكان سبب إنشائه أن أبا المنصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع وبنى للنَّصارى فيه كنيسة فرفع أمرُه للحاكم، فأمر بهدم الكنيسة وأن يُجعَلَ موضعُها مسجداً، ثم أمر

(١) في الأصل: «سراويل» والتصحيح يتفق والسياق.

(٢) انظر صفحة ١٠٥ من هذا الجزء حاشية رقم (٢). والمواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣.

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٨.

بالتوسعة فيه، فخربت مقابر اليهود والنّصارى، وجمع فيه الجمعة لليلتين بقيتا من الشهر، وبُني فيه منبر من الطّين، وصَلّى فيه ابن عصفورة القارىء. ثم ظهر بعد ذلك أن المحراب وُضع على غير صحّة فهُدِم ما كان ارتفع من البناء، ثم بنى عليه ما هو عليه الآن(١).

ذكر بناء الجامع المعروف بالحاكم الذي هو بين باب النصر و[باب](٢) الفتوح بالقاهرة

قد ذكرنا أن العزيز بالله كان قد اختطّه في سنة ثمانين وثلاثمائة، ومات العزيز بالله ولم تكمل عمارته(٣).

فلما كان في سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة، لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، أَمَر الحاكمُ بالله بإتمامه. وقيل إن الوزير يعقوب بن كلّس، وزير العزيز، هو الذي كان بدأ بعمارته وقدّر له أربعين ألف دينار، فأخرج له خمسة آلاف دينار ومات ولم يكمل، فابتُدِىء بعمارته في هذا التاريخ.

وفي هذه السنة قتل الحاكم مقدار بن حسن كاتب جوهر، ضُرِبَ عنقُه وأحرق بالنار، وفيها لليلتين خَلَتَا من ذي الحجة قتل ريدان الصقلبي الخادم، وكان خصيصاً به مكيناً عنده، وإليه ينسب الريدانية التي هي بظاهر القاهرة خارج باب النصر. وفيها قتل منجمه العكبري صاحب الرّصد الحاكمي وكان شديد الاختصاص به. ونادى مُنَاديه بإباحة دم المنَجِّمين وأنهم كفار، فهربوا ولم يبق بالديار المصرية منجم.

وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة اشتدت السّوداء على الحاكم، فصار يركب في الهاجرة حمارة بلقاء والسّياف بين يديه، فيقتل من يخطر بخاطره قتله. فقتل خلقاً كثيراً وغرَّق وأحرق، حتى قتل الركابية(٤) وأصحاب السّتر، والوزراء والقضاة؛ واستمرّ به هذا الحال.

---

(١) المراد أن جامع راشدة قد زال الآن. وكان هذا الجامع واقعاً بين مدينة الفسطاط ودير الطين، وعرف بهذا الاسم لأنه بني في خطة راشدة بن أدب بن جديلة من لخم، ومحله اليوم مساكن قائمة بالجهة الغربية من عزبة اصطبل عنتر قبلي الطريق الموصلة بين هذه العزبة وبين جسر النيل في الزاوية التي تتقابل فيها هذه الطريق بالجسر الفاصل بين العزبة وبين الأراضي الزراعية، وهذا الموضع يعرف بمقام الست راشدة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٧٨، حاشية ٣.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) ويقال له أيضاً الجامع الأنور، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٧٨، حاشية رقم ٣ وبخصوص هذا الجامع قال المقريزي: «صلى العزيز بالله في جامعه صلاة الجمعة وخطب» وذلك في ٤ رمضان ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م. قبل أن يكتمل بناؤه. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٤) الركابية: هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه في المواكب، وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم أيضاً بصبيان الركاب الخاص. وهم الذين يعبر عنهم بالسلاح دارية والطبردارية. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٨٠.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، في رابع عِشْرِي المحرم قُرِىء سجل من الحاكم يمنع الملوخيا[١] والمتوكلية[٢]، والترمس المعفن والدَّلِيَس[٣] وعمل الفقاع[٤]، وعن ذبح البقر وألا يدخل أحد الحمّام إلاّ بمِئزر، ولا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة، وألا يباع من السّمك ما ليس له قشر[٥].

وفي رابع صفر منها كتب على المساجد بسب الصحابة رضي الله عنهم، وعلى حيطان الشوارع والقياسر[٦]. ثم نهي عن ذلك في سنة سبع وتسعين. وأمر اليهود والنصارى إلا الجَبَابرة بلبس السّواد[٧]، وأن يحمل النَّصَارى الصُّلبان على أعناقهم، وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته عشرة أرطال، وعلى أعناق اليهود قوامي الخشب والجلاجل، وألا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاّة، وأن يكون ركبهم من الخشب وألا يستخدموا أحداً من المسلمين ولا يركبوا حماراً لمكّار مسلم.

وفي سابع عِشْرِي صفر منها نودي بالقاهرة ألا يخرج أحد بعد عشاء المغرب إلى الطريق ولا يظهر بها.

وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر منها أمر بقتل الكلاب فقتلت عن آخرها[٨].

وفي تاسع عشر جمادى الآخرة فتحت دار بالقاهرة وسميت دار الحكمة[٩]، وجلس فيها الفقهاء وحُملت إليها الكتب من خَزائن القصور، ونسخ النّاس من الكتب ما اختاروه؛ وجلس فيها القُرّاء والفقهاء والنّحاة واللّغويون، والأطباء والمنجّمون، بعد أن فُرشَت وزُخرفت السّتور على جميع أبوابها وممرَّاتها، وجعل لها قُوّام وخُدَّام. وحصل في هذه الدّار من الكتب والخطوط المنسُوبة ما لم يُرَ مثله، وأجريت بها الأرزاق.

وفي هذا الشهر مُنِع الناس من العبور إلى القاهرة ركّاباً مع المكّارية، ومُنع من

---

(١) علل تحريم الملوخيا بميل معاوية إليها. انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٤٤.
(٢) «لنسبتها إلى المتوكل» الخليفة العباسي. المصدر نفسه ص ٤٤.
(٣) نوع من السمك الصغير ليس له قشور.
(٤) شراب كالرمان يصنع من الشعير. الفيروزابادي: القاموس المحيط (فقع).
(٥) هذه القوانين البوليسية الصارمة والغريبة الشاذة عرض لها وحللها وأعطانا صورة طبيعية لشخصية الحاكم بأمر الله محمد عبد الله عنان في كتابه: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ص ١٥١ - ١٧٤.
(٦) في الأصل: «القياسير». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٥٣، و«شعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين».
(٨) «فقتلوا عن آخرهم» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٩) وتعرف أيضاً بدار العلم. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٥٨.

الجلوس على باب الزُّهومة[١] إلى أقصى الباب [المعروف][٢] بباب الزمرد.

وفي سنة ستٍّ وتسعين وثلاثمائة ركب الحاكم في مَوْكبه ومعه أرباب دولته فمرّ على الموضع الذي يُباع فيه الحطَبُ وقد تراكمت الأحطابُ فيه بعضُها على بعض، فوقف وأمر أن تؤجَّج النّار في بعضها، ثم أمَر بقاضي القضاة بمصر، وهو الحسين بن علي بن النعمان، فأنزل عن دابَّته ورُمِي به في تلك النّار حتى هلك[٣]، ولم يتقدَّم له مقدّمة توجب ذلك[٤]. ثم مرَّ كأن لم يصنع شيئاً.

ذكر أبي ركوة وظهوره وما كان من أمره إلى أن قتل

كان ظهوره في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وادّعى أنه الوليد بن هشام[٥] بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الأموي، وتلقَّب بالثائر بأمر الله والمنتقم من أعداء الله. ونحن الآن نذكر أخباره وابتداء أمره، وكيف تنقّلت به الحال إلى أن كان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

كان مولده بالأندلس ونشأ بها ثم خرج منها بحالٍ سيّئة يجوبُ البلاد إلى أن وصل إلى القيروان، ففتح بها مكتباً يعلّم الصبيان فيه القرآن، ثم توجه منها إلى لإسكندرية ومنها إلى مصر فأقام بها وبأرْيَافِها يعلم الصبيان، ثم توجه إلى الفيّوم وعلّم بها الصبيان أيضاً، وعاد إلى مصر، وخرج إلى سبك الضحك[٦] فنزل به على رجل يعرف بأبي اليمن، ثم نزل يقَرَنْفيل[٧] وسار منها إلى البحيرة فنزل على بني قرة. وكان

---

(١) باب الزهومة: هو من أبواب القصر الفاطمي الكبير الشرقي. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) باب الزمرد: من أبواب القصر الفاطمي الكبير الشرقي. وكان يتوصل منه إلى قصر الزمرد لذلك عرف به. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥.

(٤) ضربت رقبته ثم أحرق. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٥٩.

(٥) لقب بأبي ركوة لأنه كان يحمل دائماً ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية، وتعتبر ثورته من أهم حوادث العصر، فقد كاد هذه الداعية القوي أن يزعزع أسس الدولة الفاطمية وأن يقضي على ملك الحاكم وأسرته. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢١٦، حاشية رقم ٢. وانظر الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ١٩٧.

(٦) سبك الضحاك: من أعمال المنوفية، من القرى القديمة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٢١٧.

(٧) قرنفيل: من القرى القديمة من أعمال القليوبية. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٥٧.

الحاكم قبل ذلك في سنة خمسٍ وتسعين قدْ بعث إليهم جيشاً مقدَّمه أبو الفتيان التّركي وقتل الحاكم بعضهم وحرّقهم بالنّار، فوجدهم قد أجمعوا على أن يلتَقُوه بجموعهم ويحاربُوه، ولم يَعْلموا من يُقدّمونه عليهم. فعرّفهم أبو ركوة أنَّه من بيت الخلافة، فانقادوا إليه وبايعوه بالخلافة، ونُعِت[1] بأمير المؤمنين، وانضاف إليهم من لوانة ومزاتة وزناتة جمع كثير، وجاؤوا إلى مكانٍ بالقرب من برقة. فلمَّا بلغ الحاكمَ أمرُه جهر العساكر لقَصْده؛ فأول من خرج بها ينال الطَّويل التركي في منتصف شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، فالْتَقَوْا واقتتلوا، فقُتل يَنال وعامّة مَنْ معه من العساكر، وغنموا ما معهم وسار أبو ركوة إلى برقة وأخذها بعد حصارٍ، فاستفحل أمره.

وشرع الحاكم في تجريد العساكر إليه، فجهّزها في شهر ربيع الأول سنَة ستٍّ وتسعين وعليها ابن الأرمنية، فسار إلى المكان المعروف بالحمام[2]، فلقيه بنو قرّة في جماعتهم فهزموه وقتلوه وانتهبوا ما كان معه.

فندب الحاكم عسكراً وقدّم عليه أبا الحسن بن فلاح وجلين وإبراهيم بن الأفرنجية؛ ثم ندب القائد أبا الفتوح فضلَ بن صالح لقتاله، فخرج إلى أرض الجيزة في رابع شوال وأنفق في العساكر، وكوتب علي بن الجرّاح بالوُصول إلى الحضرة، فوَرَد من الشام في سابع عشر شوّال. ووردَ الخبر بنهب الفيوم، فبعث الحاكم سريّة لحفظه، وسار الفضل بن صالح عن مكانه إلى ذات الكوم[3] في رابع ذي القعدة، وكَسر أبو ركوة عسكرَ ابن فلاح ونهب سواده والخزائن التي معه، وقَتَلَ من أَصحابه جماعةً؛ فاضطرب النّاس واشتد خوفهم، وباتوا في الدكاكين والشوارع، وتوجّه القائد فضل للقاء أبي ركوة، فالتقيا بموضعٍ يُعرف برأس البركة، على نصف مرحلة من مدينة الفيوم، لثلاثٍ خلَوْن من ذي الحجّة. واقتتل العسكران قتالاً شديداً وانجلت الحرب عن قتل عامّة عسكر أبي ركوة. وانهزم أبو ركوة إلى بلاد النّوبة وتبعه الفضل إلى الأعمال القوصية.

وذكر بعض المؤرخين أن الحاكم لمَّا أعياهُ أمرُه دَسّ إليه جماعةً من أولياء دولته وأمرهم بطاعته، وأن يَذْكُروا انحرافهم عن الحاكم بسبب قتله لهم؛ ففعلوا ذلك، فاغترّ به، ووصل معهم إلى أوسيم على ثلاثة فراسخ من القاهرة، فالتقى هو والفضل كما

---

(١) في الأصل: «بعث» والتصحيح يتفق مع ما جاء في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٦٠.

(٢) الحمام: من القرى القديمة غربي الإسكندرية، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٤، ص ٢٤٩.

(٣) ذات الكدم: من القرى القديمة، من أعمال الجيزة. محمد رمزي، المصدر نفسه، ج ٣، ق ٢، ص ٦١.

ذكرنا، واتّبعه، فبلغه أنه وصل إلى بلاد النوبة فكتب إلى متملكها يقول إن عدُوّ أمير المؤمنين الحاكم في بلادك، وكتب إلى صاحب الجبل وهو نائب صاحب دنقلة ومقره ببلد الدّو(١) فيما بين دنقلة وأسوان. وندب الفضل من العسكر من توجّه لقبضه، وكان المساعد على مَسْكه الشيخ أبو المكارم هبة الله، شيخ بني ربيعة وقيل إنه وجد في دير يعرف بدير أبي شنودة في أطراف النوبة، فمسك. وكان الطعن به في شهر ربيع الآخر سنة سبعٍ وتسعين وثلاثمائة.

وعاد القائد فضل إلى القاهرة فوصل إلى بركة الحبش في يوم الجمعة، النّصف من جمادى الآخرة منها، وتلقّاه أكابرُ الدّولة الحاكميّة؛ وركب في سابع عشر الشّهر وأبو ركوة على جمل وعلى رأسه طرطور، وطيف به على هذه الصفة وخلفه قِرد يصفعُه(٢)، ثم صلب وضُربت عنقه وجُهّزت رأسه إلى البلاد.

ونقل بعض المؤرخين أنه اعتُبرت الأكياس التي خرجت مع القائد فضل لمّا خرج للقاء أبي ركوة، وكان زنتها فوارغ خمسة وعشرين قنطاراً. وقيل: إنّ جملة ما أنفق ألف ألف دينار والله أعلم.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بقتل أصحاب الأخبار حيثما وجِدوا؛ وذلك أن كان قد قتل خلقاً كثيراً لسعايتهم، ثم اطّلع على خيانتهم وأنهم صيَّروا ذلكَ معيشةً، فقتلهم عن آخرهم.

وفيها أمر بهدم كنيسة قمامة بالبيت المقدس، فكتب ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في ذلك: «خرج أمر الإمامة بهدم كنيسة قمامة(٣) فلْيُصَيَّر طولها عرضاً، وسقفُها أرضاً».

---

(١) الدو: وتسمى أيضاً الدر، بلدة قديمة من بلاد النوبة. وينسب إليها مركز الدر بمحافظة أسوان. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ١، ص ٥٨.

(٢) أمر الحاكم أن يشهر أبو ركوة على جمل ويُطاف به. وكان بالقاهرة شيخ يقال له الأبزازي، إذا خرج خارجي صنع له طرطوراً وعمل فيه ألوان الخرق المصبوغة، وأخذ قرداً ويجعل في يده درّة ويعلمه أن يضرب بها الخارجي من ورائه، فلما قطع أبو ركوة الجيزة أمر به الحاكم، فأركب جملاً بسنامين وأُلبس الطّرطُور وأُركب الأبزازي خلفه، والقرد بيده الدّرة، وهو يضربه والعساكر حوله. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) قمامة: بالضم: أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس. وفيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨٥. وتقول رواية كنسية معاصرة إن السجل الشهير بهدم كنيسة القيامة، صيغ بهذه العبارة الموجزة: «خرج أمر الإمامة إليك بهدم القيامة» وأن الذي كتبه كاتب نصراني يسمى ابن شترين وأنه توفي بعد كتابته بأيام قلائل ندماً وحزناً. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٨٠.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين أيضاً، في سابع عشري[1] شعبان، عزل القائد حسين بن جوهر عن جميع ما كان يتولاَّه، وكُتب سجل بتوليته صالح بن علي بن صالح الروزباري فانصرف الحسين إلى داره وأُمِر بلُزومها، ثم خُلِع عليه وركب في رابع عشر جمادى الآخر سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة[2].

وفي سنة تسعٍ وتسعين وثلاثمائة، في يوم الجمعة التاسع من شهر رمضان، حضر النّاس إلى القصر وقُرِىءَ سجل لصالح بن عليّ لقب فيه بثقة الثقات للسّيف والقلم، وخلع عليه، وقُيِّد بين يديه بغلات وخيل.

وفيها مرض الحاكم فداواه ابن معشر، فأعطاه عشرة آلاف دينار.

وفيها سخط الحاكم على وزيره ابن المغربي وقتله، وقتل أخاه وابنَه، وهرب ابنُه الآخر إلى الشام.

وفيها في تاسع عشر ذي الحجّة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق المقس وكنائس حارة الرّوم، فهُدم جميع ذلك.

وفي سنة أربعمائة، في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان، جمع الأولياء. وأصحاب الدواوين في صحن الإيوان بالقصر، وخلع على أبي نصر بن عبدون، وقرىء سجله، ولقّب بالكافي، وولي مكان صالح بن علي بن صالح الروزباري. وكانت مدّة ولاية صالح سنتين وأربعةَ عشر يوماً.

ذكر خروج آل الجرّاح على الحاكم ومتابعتهم لأبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني وما كان من أمرهم

كان سبب ذلك أنّ نصر بن عبدون كان بينه وبين بني المغربي عداوة متمكنة، فسعى بهم عند الحاكم وأغراه، إلى أن أمر بضرب أعناقهم، وذلك في ثالث ذي القعدة سنة أربعمائة؛ فقتل أخَوَي الوزير وولدَه وثلاثةً من أهل بيته، واستتر الوزير أبو القاسم ابن المغربي وهرب إلى الشام، في تاسع ذي القعدة منها، والتجأ إلى حسّان بن المفرج ابن دغفل بن الجرّاح، واستجار به فأجاره؛ وأنشده عند دخوله عليه: [من الخفيف]

أمّا وقدْ خيّمتُ وسْط الغابِ فلْيقسُوَنَّ على الزّمانِ عتابي
يترنَّم الفُولاذُ دُون مُخيَّمي وتَزَعْزَعُ الخرْصان دون قِبابي
وإذا بَنيْتُ على الثَّنِيَّة خيمةً شُدَّت إلى كسر القنا أطنابي

(١) «في يوم الجمعة سابع شعبان» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٧٢.
(٢) «في تاسع عشر ذي القعدة سنة ٣٩٨ هـ. في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٧٤.

وهي قصيدةٌ مطولة مدح بها آل الجرّاح. فلما سمعها حسّان هشّ لها وجدّد من القول ما طاب به قلبُ الوزير وسَكَنَ جأشه.

ثم حسّن ابن المغربي لبني الجراح أن يخرجوا عن طاعةِ الحاكم، فوافقوه على ذلك، وقتلوا نارتكين أحد الأمراء الحاكميّة المقيم بالرَّملة؛ ثم حسَّن لهم أن يُقيموا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني خليفةً، وهو أمير الحرمين يومئذٍ[١]، وأن يُحضروه من مكّة؛ فأجابوه إلى ذلك، وأرسلوا إلى مكّة وأحضروه إليهم. فلمّا قرُب أبو الفتوح من ديار بني الجرّاح خرجُوا إليه وتلقَّوه، وقبّلوا الأرض بين يديه، وبايعوه بالخلافة ولقبوه الرّاشد بالله. فحينئذٍ صعد أبو القاسم بن المغربي المنبر وخطب خطبة يحرّض النّاسَ فيها على الخُروج على الحاكم، فأشار إلى مصر وقرأ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا [مِنْهُم][٢] مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾. [القصص: ١ - ٦].

فلمّا سمع الحاكم ذلك أزعجه، فندب الجُيوش لقتالهم، مع ياروخ تكين العزيزي، فاعترضه حسّان بين رفح والدَّارُوم[٣] والتَقَوْا واقتتلُوا، فانهزمت أصحاب ياروخ تكين، وأسر هو ونقل إلى الرَّمْلة، وسمع غناء جواريه وحَظَاياه بحضُوره وهو مقيّدٌ معه في المجلس، وارتكب معَه الفواحش العظيمة، ثم قتله صبراً بين يديه.

وبقي الشّام لبَني الجرّاح. فشرع الحاكم يأخذهم بالملاطَفة، ورَاسلَهم، وبذل لهم الرَّغائب والأموال، والأقمشة والجواري، وقرَّر لكلِّ واحدٍ منهم خمسين ألف دينار عيناً، واستمالهم عن أبي الفتوح، فاتصل ذلك بأبي الفتوح، فقال لهم: إن أخي قد خرج بمكة، وأخاف أن يستأصل مُلكي بها، فأعادوه إلى مكّة في شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة. وكان الحاكم قد أرسل إلى الوزير أبي القاسم بن المغربي وكتب له أماناً واستماله، وبنى على أهله تُرباً في القرافة وهِي[٤] ستّ ترب، وتعرف بالسبع قباب إلى هذا الوقت.

---

(١) انظر أخبار الدولة المنقطعة لابن ظافر، ص ٤٩، والمواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ١٥٧.

(٢) ما بين حاصرتين ساقطة من الأصل وأضيفت لاستكمال الآية.

(٣) الداروم: قلعة بعد غزة على ساحل البحر. خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م، ويقال لها الدارون أيضاً. وينسب إليها على هذا اللفظ أبو بكر الداروني. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٤) في الأصل: «وهم» والتصحيح يقتضيه السياق.

ولما ورد أمان الحاكم على أبي القاسم وهو مقيمٌ عند بني الجراح أجابهُ برسالةٍ وضمَّن أولها بيتين: [من الطويل]

وأنت، وحَسْبِي أنت، تعلم أنّ لي لساناً أمام المجد يَبْني ويَهدمُ[١]

وليس كريماً[٢] من تُباسُ يمينُه فيرضى، ولكن منْ يُعَضُّ فَيَحْلُم

فسأل آل الجرّاح أن يجهّزوه إلى العراق فجهّزوا معه من أخرجه من بلاد المغاربة؛ وعاد بنو الجرّاح إلى طاعة الحاكم. وأقام ابن المغربي بالعراق إلى أن توفي بميَّافَارِقِين[٣] في سنة ثمان عشرة وأربعمائة؛ وحمل إلى الكوفة فدفن بها. ولمّا فارق آل الجراح قدم بغداد وتقلد الوزارة لمشرف الدولة بن بويه كما ذكرنا ذلك في أخبار الدّولة البويْهيّة.

ذكر تفويض السّفارة والوساطة لأحمد بن محمد القشوري وقتله

وفي سنة إحدى وأربعمائة في يوم الخميس رابع المحرّم استدعى الحاكم النّاس على طبقاتهم إلى القصر فركبوا[٤] معه إلى خارج باب الفتوح، ثمّ عاد إلى قصره وأمَرَ من مكان بالموكب بالنُّزول إلى القصر، فنزلُوا وحضروا في الإيوان. فخرج مِنْ عند الحاكم خادمٌ فأخذ بيد أحمد بن محمد المعروف بالقشوري[٥] الكاتب وأخرجه من بين القوم، ثم عاد القشوري وقد خُلِع عليه وبيده سجلّ، فأخذه أبو علي العبّاسي الخطيب وقرأه على النّاس، فإذا هو يتضمَّن تقليده السِّفارة والوَساطة بين النَّاس وبين الحاكم، وتفويضَ الأمور إليه، وصرْفَ ابن عبدون. وأقام [القشوري][٦] إلى الثالث عشر من الشّهر، فقُبض عليه وقتَ الظّهر وهو في مجلس ولايته، وضَربت رقبتُه، ولُفَّ في حصير ورمي، فكانت ولايته عشرة أيام. وكان سبب ذلك إكرامه للقائد حسين بن جوهر وتعظيمه له وكثرة سُؤَاله الحاكم في معناه.

وفوضت هذه الوظيفة في يوم الأحد رابع عشر الشّهر لأبي الخير زُرعة[٧] بن

---

(١) في الأصل: «نبني ونهدم».

(٢) في الأصل: «وليس كريمٌ».

(٣) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء وبعد الألف راء، وقاف مكسورة، وياء ونون، أشهر مدينة بديار بكر في إقليم الجزيرة شمال العراق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨.

(٤) في الأصل: «فركب».

(٥) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٧) لقبه الشافي. توفي سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠٦٢ م. ابن الصيرفي الإشارة، ص ٢٨.

عيسى بن نسطورس النصراني الكاتب، على عادة من تقدَّمه، ولم يخلع عليه إذ ذاك، ثم خلع عليه في سابع عشر شهر ربيع الآخر منها.

وفي السادس والعشرين منه قُرِئَ بجامع مصر سجلّ يتضمّن النّهي عن معارضة الحاكم فيما يفعَلُه، وترك الخَوْض فيما لا يعنى، وإعادة حَيَّ على خيْر العَمَل في الأذان، وإسقاط الصّلاة خيرٌ من النّوم، والنّهي عن صلاة التراويح والضّحى.

وفي ثاني عشر شهر جمادى الآخرة دخل قائد القواد الحسين بن جوهر، والقاضي عبد العزيز بن النعمان إلى القصر، وكان قد خلع عليهما في ثاني صفر، فلمَّا أرَاد الانصراف بعث إليهما زُرعة بن نسطورس يقول إن الخليفة يريدكما لأمر يختارُه. فجلسا حتى انْصرف الناس، فقُتلا وقُتِل معهما أبو علي أخو الفضل بن صالح، ووقعت الحوطة على دارهم.

وفي سنة إحدى وأربعمائة قامت دعوة الحاكم بالمدائن، وهي على نصف مرْحلة من بغداد، وخُطب له بمدينة الأنبار وقصر ابن هبيرة[١]، من العراق بدخول مالك بن عقيل بن قِراوش بن المقلد[٢] في طاعته وإظهار تَشيُّعه، وذلك في أيام الخليفة القادر العباسي[٣]. ثم بلغ قراوشَ بن المقلّد اختلالُ أمر الحاكم وقتلُه أربابَ دولته وأن المانخوليا غلبت عليه، فأعاد الخُطبة العبّاسيّة.

وفيها قام بدعوة الحاكم بمدينة الجامعين وهي الحلة[٤] وما جاورها من العراق الأمير علي[٥] بن مزيد الأسدي، وكان قد هَزَم خفاجة واستولى على بلادهم وخطب فيها للحاكم.

وفي سنة اثنتين وأربعمائة تاب الحاكم ونهى عن شرب الخمر وعن كلِّ ما يُعمل

---

(١) قصر ابن هبيرة بالكوفة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ٣٨٩.

(٢) من الأسرة العقيلية التي كانت في الموصل. وبنو عقيل قبيلة عربية كبيرة. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) هو أبو العباس أحمد القادر بالله ولي الخلافة العباسية في بغداد سنة ٣٨١ هـ، توفي سنة ٤٢٢ هـ، وعمره ٨٦ سنة و١٠ أشهر، وخلافته ٤١ سنة و٣ أشهر، انظر ترجمته في الكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٤٢٢ هـ، ج ٩، ص ٤١٤، وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٢.

(٤) الحِلة: بالكسر ثم التشديد: تعرف بحلة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبيس بن علي بن مزيد الأسدي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٥) هو علي بن مزيد الأسدي أبو الحسن توفي في ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م، وقام بعده ابنه نور الدولة أبو الأغر دُبيس، ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٣٠٤.

منه، كالزبيب والعسل، ونفى المغاني، وحرّم الملوخيا، ومنع أن تُقبَّل الأرضُ بين يديه، وأن تُقبَّل يدُه، وأن يخاطَبَ بمولانا؛ واقتُصِر على قولهم السّلام على أمير المؤمنين.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة قطعت كروم العنب بأسْرها ورُميت إلى الأرض ودُرست بالبقر، وجُمع ما كان من الخمر بالمخازن وأهريق في البحر. وفيها كسرت جرار العسل؛ وأمِر اليهودُ والنّصارى بلبس العمائم السّود إلا الجبابرة، ومُنعوا أن يستخدموا المسلمين؛ وأن يركبوا مع المكّارية؛ وإذا دخل النَّصراني الحمّام يكونُ الصليب في عنقه، واليهودي الجلجل؛ ثم أفردَ بعد ذلك حمّاماتٌ للنّصارى وحمامات لليهود؛ وأسلم جماعة من النصارى في شهر ربيع الأول.

وفيها في شهر ربيع الآخر شدَّد الحاكم على النَّصارى واليهود في حَمل الصُّلبان، وأن يكون الصّليب في طول ذراع وزنتُه خمسة أرطال[١]، فلما أضرّ ذلكَ بهم دخلُوا في دِين الإسْلام.

وفيها في شهر رمضان أمر الحاكم ببناء مُصلّى العيد[٢] بسفْح الْمُقطّم وأحسن بناءه، وكان قبل ذلك ضيِّقاً صغيراً، فهدمه الحاكم وبناه على ما هو عليه الآن.

ذكر هدم كنائس الدّيار المصرية

وفي العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وأربعمائة أمر الحاكم بهَدْم جميع الكنائس بالديار المصرية فسأل جماعةٌ من النّصارى أن يتولَّوْا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنُوها مساجد؛ فوهب الحاكم جميع الكنائس بجميع ما فيها من أواني الذّهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل، وما لَها من رِباعٍ وأملاك لجماعة من الصّقالبة والفرّاشين والسعدية، ولم يَرُدَّ من سأله شيئاً منها، وكُوتِب كلُّ متصرِّفٍ في عملٍ من الأعمال بهَدم ما في عمله من الكنائس، فهُدمت من جميع أعمال الديار المصرية.

وفي ثالث شهر رجب منها قرىء سجل بتَحْبِيس ضياعٍ ومواضعَ عن الفقراء والفُقهاء، والمؤَذِّنين بالجوامع.

وفي رابع عشر جمادى الآخرة منها أمر الحاكم بعمل رصد[٣] بالقرافة، فنزل القاضي مالك بن سعد وأشرف على الرّصد وابتدأ بعمله ولم يتم.

---

(١) ذكر النويري في حوادث سنة ٣٩٧ هـ أن زنة الصليب عشرة أرطال.

(٢) وهو شرقي القصر الكبير. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٥١.

(٣) الرصد: المكان المرتفع يرصد منه الكواكب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

ذكر البيعة بولاية العهد لأبي القاسم عبد الرحيم

وفي ثالث شهر ربيع الأوّل، سنة أربعٍ وأربعمائة[١] عهد الحاكم بولاية العهد بعده لابن عمّه أبي القاسم عبد الرّحيم بن إلياس بن أحمد بن المهْدي[٢]، فبُويع بولاية العهد، وكُتب اسمه على السّكة، ودُعِيَ له على المنابر.

وفيها منع الحاكم النِّساء من الخروج مطلقاً ليلاً أو نهاراً، من دُخول الحمَّامات، وطلوع الأسطحة، ومَنَع الأساكِفَة من عمل الخِفَاف لهنّ، وشدّد في ذلك، فشكى إليه التُّجار من ذلك، فأمرهم أن يحملوا ما يبيعونه في الأسواق ويطوفوا به في الدّروب ويبيعوا النساء، وأن يكون للمرأة شيء مثل المِغْرَفَة بساعدٍ طويل تَتَناول به ما تبتاعُه من الرّجل. ثمَّ أمر بإطلاق العجائز والإماء في يوم الخميس تاسع شهر رمضان منها، فخرج بعض النّساء إلى القصر داعياتٍ للحاكم، فعلم بهنّ فأعاد المنع والتشديد في يومه، ولم يسمح إلا للنّساء المتظلمات للشّرع، والخارجات للحجّ، والإماء للبيع، والأرامل، وغواسل الأموات، والأرامل اللّواتي يبعن الغزل.

ذكر إحراق مصر وقتال أهلها

كان سبب ذلك أن الحاكم ركب في ذي القَعدة سنة عشر وأربعمائة فوجد صورة امرأة متردّية عُملت من قراطيس، وفي يدها جريدة عليها ورقة فيها سَبٌّ للحاكم وأسلافه وذكرهُ بقبيح الفعال. فلمَّا وقف عليها أمر بنَهْبِ مصر وحرْقِ بَعْض دُورِها، وفرّق السلاح على السّودَان والعبيد، فتبادَرُوا إليها وفعلوا ما أمرهم به. فقام أهلُها وقاتلوا قتالاً شديداً ثلاثَة أيّام، ثم أرسلوا إلى الحاكم يستقيلون فلم يُقِلهم، فعاوَدُوا القتال؛ وأحرق من مصر جانب جيد، فلما رأى الحاكم أن الأمر يؤول إلى التّلاف كفَّ عنهم بعد أن تلف من العقار ما لا تُحصى قيمته، وسيَّر عياداً الصقلبي إليها في جماعة من الجند لتسكين الفتنة، فشاهد أمراً عظيماً، فعاد إلى الحاكم وذكر له قُبْح النّازلة

---

(١) في الأصل «وسبعمائة».

(٢) هو ابن عم الحاكم بأمر الله. وقد جمع الناس على اختلافهم بالقصر، وقرىء عليهم سجل التعيين، وجاء فيه أن عبد الرحيم بن الياس قد جعله الحاكم بأمر الله «ولي عهد المسلمين في حياته، والخليفة بعد وفاته» وخلع عليه، وأمر الناس بالسلام عليه، وأن يقولوا في سلامهم: «السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين». وقرىء السجل على منابر الجوامع وبالإسكندرية، وبعث الحاكم بذلك سجلاً إلى إفريقية حيث قرىء بجامع القيروان وغيره. محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله، ص ١٨٤، ١٨٥. وانظر تاريخ يحيى الأنطاكي، ص ٢٣٥. هو عبد الرحيم بن الياس، وقيل: عبد الرحمٰن بن أحمد. ويلقب بالمهدي. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٣٥.

وعِظَم الفادحة وقال: لو أن بسيل ملك الروم دخل مصر لما استحسن أن يفعل فيها هذا الفِعل. فغضبت الحاكم من كلامه وأمر بقَتلِه، فقُتل.

وفي سنة عشرٍ وأربعمائة أمر الحاكم ووليَّ العهد، عبد الرّحيم بن إلياس، بالخروج إلى دمشق والياً عليها، ثم عزله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وفي شهر رجب منها اشتدّ عضب الحاكم على أهل مصر فأحرق السّاحل، ووقع النّهب في الأسواق والقياسر[١].

وسنذكرُ إن شاء الله السّبب الذي أوجب خروج الحاكم على أهل مصر إلى أن فعل بهم ما فعل.

ذكر غيبة الحاكم بأمر الله وعدمه والسّبب الذي نقل في إعدامه وشيء من أخباره وسيرته غير ما تقدم

قال المؤرخ: لمّا كان في آخر ليلة الاثنين السّابع والعشرين من شَوَّال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ركب الحاكمُ حمارَه وخرج على جاري عادته، فأصبح عند قبر الفقاعيّ[٢] بقرافة مصر ورَدَّ مَنْ كان معه، ففُقِدَ من ذلك الوقت، ولم يزل الناس يخرجُون ويلتمسون رُجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر؛ ثم خرج مظفّر حامل المظلّة في يوم الأحد الثّالث من ذي القَعدة ومعه جماعةُ الأمراء والكتاميين إلى حلوان[٣]، وأمعنوا في الكشف. فبينما هُم كذلك إذْ بَصُروا بالحمار الّذي كان الحاكم قدْ خرجَ عليه وهو على قرنة الجبل، وقد ضربت يداه بالسيف فأثر فيهما، فتُتُبِّع الأثر فإذا أثر الحاكم وأثر آخر خلفه وآخر أمامه، فقَصُّوه حتى انتَهَوْا إلى بركة القصب شرقيّ حلوان، فأنزلوا رجلاً من الرَّجالة فوجد ثياب الحاكم في البركة، وهي سبع جباب[٤] مزرّرة لم تُحلّ أزرارها، وفيها آثارُ السكاكين، فعادوا إلى القصر ولم يشكّوا في قتله.

وأما السبب الذي نُقِل في إعدامه فقالوا: كان السّبب في ذلك أنّ سِتّ لملك أختَ الحاكم وقع بينها وبينه، فتنكّر لها وهمَّ بقتلها. وكرهت أموراً صدرت منهُ منها أنه رأى بعض قهَارِمَتِها داخلةً إلى القصر، فقال لها: قد سمعت أنّكم تجمعون الجموع

(١) في الأصل: «القياسير».

(٢) في الأصل: «القضاعي» والتصحيح في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٩٢، ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥، ص ٢٩٧، وكنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٢٩٩.

(٣) «دير القصير» المعروف بحلوان: في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٩٣.

(٤) في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٣٠٠ «أربع جباب».

وتدخل إليكم الرّجال، وَالله لأقتلنكم أَجمعين[١]. وتكرر هذا القول منه، فأعملت ستّ المُلك الحيلة في إعدامه، وخرجت ليلاً إلى دار الأمير سَيْف الدّين حسين بن دوَّاس[٢]، فدخلت عليه واختلت به وعرّفته بنفسها أنها ابنةُ العزيز بالله أخت الحاكم؛ فعظّمها، وبالغ في إكرامها، فقالت له: إنّك قد علمتَ ما فعل أخي وما صَدَر منه من سَفْك الدّماء وقتل الأولياء وَوُجُوه الدّولة بغير سبب، وقد عَزمَ على قَتْلِكَ وقَتْلي. فقال لها: فكيف الحيلة في أمره، فأشارت: أن تُجَهِّزَ إليه رجالاً يقتلونه إذا خرج إلى حُلوان فإنه ينفرد بنفسه هناك، ووعَدَتْه أن يكون هو المدبّر لِدَولة ولده والوزير لها. فاتّفقا على ذلك وتحالفا عليه، ورَجعَت هي إلى قصرها.

فلمّا ركب الحاكم وانْفرد عند وُصُوله إلى المُقَطّم على عادته، كان ابنُ دوّاس قد أحضر عشرةً من العبيد، وأعطى كلَّ واحدٍ منهم خمسمائة دينار، وحلّفهم، وعرَّفَهم كيف يقتلونه. فسبقُوه إلى الجبل في تلك اللّيلة؛ فلمّا انفرد خرجُوا عليه وقتلوه بالمكان الّذي ذكرناه، وخرج الموكب لتلَقِّيه على العادة، فطال انتظارُهم له فلم يرجع، فعادُوا؛ ثمّ خرجوا ثانياً وقَصُّوا الأثر، فوجدوا حمارَه وثيابَه، كما ذكرناه، فعادوا إلى القصر وطَلَبوه من أخته ستّ الملك وقالوا: إن مولانا ما جَرَتْ عادتُه بهذا، فقالت لهم: إن رُقعته قد وصلت إلينا أنه يأتي بُكرة الغد. فتفرَّقوا. فبعثت الأموال إلى وجوه الدّولة والقوّاد على يد ابن دوّاس، وبقي الأَمر مستمرّاً والحال متماسكاً إلى عاشر ذي الحجة من السنة، فجرى بين العساكر وبين ستّ الملك كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجت إليهم ولده أبا الحسن عليًا في يوم الأضحى فبايعه الناس، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره. هذا ما حكي في سبب إعدامه[٣].

وأما سيرته وأفعاله وأخباره، فقد قدّمنا منها على حكم السنين ما قدمنا، فلنذكر خلاف ذلك.

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٧ ـ ٥٨. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٩٣.

(٢) هو زعيم كتامة وكانت كتامة من بين القبائل المغربية التي شدّت بأزر الدولة الفاطمية، أقواها وأوفرها بأساً وعصبية. غير أنها فقدت في ظل الحاكم بأمر الله كثيراً مما كانت تتمتع به من النفوذ. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٨٨، حاشية ٢.

(٣) بشأن مقتل الحاكم بأمر الله أورد ابن تغري بردي الروايات التي تتفق على اتهام ست الملك في تدبير الجريمة وقيادتها حتى النهاية. كما أسند الروايات إلى أصحابها. وذكر من المؤرخين لهذه الروايات القضاعي وابن الصابىء، توفي القضاعي سنة ٤٥٤ هـ وابن الصابىء سنة ٤٤٨ هـ. النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٩٤.

قال المؤرخ: كان الحاكم سيىء الاعتقاد، كثير التنقُّل من حال إلى حال. كان في ابتداء أمره يلبس الثّياب الفاخرة والمذهّبة، والعمائم المنظومة بالجوهر النّفيس، ويركب في السُّروج المُحلاّة، ثم ترك ذلك على تدريج أن ينتقل منه إلى لباس المُعْلم غير المذهب، ثم لباس الساذج؛ ثم زاد به الأمر حتى لبس الصُّوف والشواشي وركب الحمير، وأظهَر الزُّهد، وكثر استطلاعه على أخبار النّاس، فلم يَخْفَ عليه خبرُ رجلٍ ولا امرأةٍ من حَواشيه ورعيَّته وكان يأخذ بيسير الذُّنوب، ولا يملك نفسه عند غضبه؛ أفْنى خلقاً كثيراً، وأقام هيبة عظيمة. وكان مع طُغيانه المستمرّ وفَتْكه، وسفكه للدّماء وظلمه، يركب وحده تارةً وفي الموكب أخرى، وفي المدينة طوراً وفي البرِّيَّة آونة، والنّاس كافةً على غاية الهيبة له والخوف منه، وهو بينهم كالأسد الضاري.

ثم عَنَّ له أن يدّعي الإلٰهية، ويصرّح بالحُلول والتَّناسخ؛ ويحملَ النّاس عليه، وألزم النّاس أن يسجدُوا له مدة إذا ذُكر، فلم يُذكر في محفل أو غيره إلاّ سجدَ منْ سمع بذكره، وقبّل الأرض إجلالاً له، ثم لم يُرْضه ذلك[١].

فلمّا كان في شهر رجب سنة تسعٍ وأربعمائة ظهر رجلٌ يقال له حسن بن حَيدرة الفَرغاني الأَخرم يرى حُلُول الإلٰه في الحاكم ويدعو إلى ذلك، ويتكلّم في إبطال النُّبوَّة[٢]، ويتأوَّل جميع ما وردت به الشريعة[٣]. فاستدعاهُ الحاكم [وقد كثر تبعه][٤] وخَلَع عليه خلعاً سنيَّة، وحملهُ على فرسٍ بسرجه ولجامه، وركّبه في موكبه [وذلك][٥] في ثاني شهر رمضان منها.

فبينما هو يسير في الموكب في بعض الأيام تقدّم إليه رجلٌ من الكرخ [وهو على جسر طريق المقس][٦] فألقاه عن فرسه، ووَالَى الضَّرب عليه حتى قتله [وارتج الموكب][٧]، وأُمْسك الكرخي فأمر الحاكم بقتله، فقتل لوقته ونهب الناس دار الأخرم في القاهرة. وكان بين الْخَلْع عليه وقتله ثمانية أيام[٨]. ثم ظهر رجل من دعاته في سنة عشر وأربعمائة يقال له حمزة اللباد، أعجمي من الزُّوزن، ولازم الجُلوسَ في المسجد الذي عند سقاية ريدان خارج باب النصر، وأظهر الدعاء إلى عبادة الحاكم وأنّ الإلٰه حَلَّ فيه. واجتمع إليه جماعةٌ من غُلاة الإسماعيليّة، وتلقّب بهَادي المُسْتجيبين. وكان الحاكم إذا ركب إلى تلك الجهة خرج إليه من المسجد وانفرد به وحادثه، وتمادَى على

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) في أخبار الدول المنقطعة ص ٥١ «النبوات».

(٣) في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥١ «ما ورد في الشريعة».

(٤) و(٥) و(٦) و(٧) ما بين حاصرتين إضافة من أخبار الدول المنقطعة، ص ٥١.

(٨) تابع هذا الخبر من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥١ ـ ٥٢.

ذلك وارتفع شأنه؛ واتّخذ لنفسه خواصّ لقّبهم بألقاب، منهم رجل لقّبه بسَفير القُدرة وجعله رسولاً له، وكان يُرسله لأخذ البيعة على الرؤساء على اعتقاده في الحاكم، فلم يمكنهم مخالفتُه خوفاً على نفوسهم من بطشه[١].

ثم نبغ شابٌّ من مولّدي الأتراك اسمه أنوشتكين النجاري[٢]، ويعرف بالدّرزي، فسلك طريق الزُّوزني وكثُرت أتباعه. وكان الحاكم أيضاً يقفُ معه ويخلو به؛ وسمّي نفسه سَنَدَ الهادي[٣] وحيَاة المستجيبين. واستمر الأمر على ذلك إلى الثّاني عشر من صفر، سنة إحدى عشرة[٤] وأربعمائة، فاجتمع جماعةٌ من أصحاب حمزة الزُّوزني على خيول وبغال، ودخَلوا الجامع العتيق رُكباناً وهم يعلنون بمذهبهم، وجاء ثلاثةٌ منهم إلى الموضع الذي يجلس فيه قاضي القضاة، والمتحاكمُون جُلُوس، ينتظرونه، فتكلّموا بكلامٍ أنكره الناس وضجُّوا بالتكبير والتهليل والثناء على الله عزَّ وجلَّ، واجتمع أهل مِصْرَ بالجامع من كلِّ جهةٍ، ومضى بعضُ الناسِ لِلقاء القاضي فلقوه وعرَّفوه ما جرى، فجاء إلى المجلس، فتقدَّم إليه أحد الثلاثة فناوله رُقعةً من الزُّوزني[٥] في أولها: «بسم الحاكم الله الرّحمٰن الرَّحيم» يأمرُه فيها بالاعتراف بإلٰهية الحاكم. فلم يُجبه القاضِي بشيءٍ سوى أن قال حتى أدخل إلى حضرة مولانا. فطاوَلَه الكلام، فقتله العوامّ وقتلُوا رفيقيه والجماعة الّذين بالجامع أبْرَحَ قَتل. ووَثَبَ العوامُّ على قومٍ كانوا يَعْرِفونهم بهذا المُعتقد فقتلوا مَنْ وجدُوه منهم وحرَّقوهم[٦].

فلمّا اتَّصل ذلك بالحاكم أمر بعزل أصحاب الشُّرَط وولّى غيرَهم، وأمَرَهم بطلب من اعْتَدَى على أصحاب الزُّوزني. فقبضوا على جماعةٍ منهم يناهزون الأربعين، فقُتِلُوا في أوقاتٍ متعدّدة. واجتمع الأتراكُ وقصدُوا دَار الزُّوزني فغلّقها عليه وعلى مَنْ عنده، وقاتلهم من أعْلاها، فهدَمُوها ونهبُوا ما فيها، وقتلوا نحواً من الأربعين رجلاً مِمَّن كان معه فيها، وفرَّ الزُّوزني فلم يُقْدَر عليه، ودخل إلى القصر، فأخفاه الحاكم فيه. فاجتمع الأتراك ولبسُوا سلاحَهُم وطَلَبُوه من الحاكم، فوعدهم بتسليمه لهم، فانصرفوا، ثمَّ ركبُوا في اليوم الثّاني وطلبوه منه، فخرج جوابُه لهم أنّه قُتل؛ فرجعوا إلى ريدان في طلب

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٢.
(٢) «البخاري» في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٣) «الهادين» في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٤) «أربع عشرة» في أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٥) «الروزة» في الأصل والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.
(٦) انظر أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٣.

الزُّوزني فلم يجدوه. وأظهر الحاكم الْغَضَبَ على كافَّة الجند طول شهر ربيع الأول، ثم رضي عنهم في الرَّابع من شهر ربيع الآخر.

وتحقق [الحاكم](١) أنّ أوّل من جَرَّأَ عليه العسْكر وحملهم على قتل دُعاته أهلُ مصر، فأمْهَلَهُم حتّى دخل جُمادى الآخر، ثم ابْتدأ في التّدبير عليهم.

فأوّل ما عمل أنْ سلَّط عليهم الرَّجَّالة ومُقدَّمي السُّودان وغيرهم، وقرَّر معهم أن ينزلوا إلى مصر على هيئة المناسر(٢). فيكسبون الحمّامات ومنازل أهل مصر؛ فكانوا يفعلون ذلك نهاراً. وتكرّر ذلك منهم، فاجتمع النّاسُ ووقَفُوا لِلحاكم وسألُوه أن يكفَّ عنهم أيديَهم، فما أجابهم بجواب، فتَزايد بهم الضَّرر إلى أنْ بقيت الرّجّالة تكبسُ مساكنهم ويأخُذُون ما فيها، ويُعَرُّونهم في الطُّرقات، ويفتحون دكاكين البزَّازين وغيرهم، وينهبون ما فيها ويحرقون أبوابها بعد ذلك، والنّاس يستغيثون فلا يُغاثون. ثم نزل بعد ذلك جمع كثير بعد أن غُلِّقَت الدّرُوب، وكانت بقيت تغلق قبل الغروب، وتخلّلوا البلدان، وفتحوا ما وراء الجامع من النّحاسين والأبزاريين(٣) والسُّكَّريّين ودار الشّمع، وغير ذلك مما يقرب من هذه الأسواق، وأخذوا ما أرادوا منها، وأفسدوا بقيّة ما فيها؛ فكانوا يخلطون العقاقير والأصناف بعْضَها ببعْض، والمياه المختلفةَ بالزّيت، ويُفسدون ما لا يُمكنهم حمله، وطرحُوا النّار في أبواب القياسر(٤) المجاورة للجامع بعد ذلك، فأخذ النّاس في الانتقال إلى القاهرة، وضجُّوا بِالابْتهال إلى الله تعالى في كشف ما بِهم من(٥) البلاء.

قال: وكان الحاكم قبل ذلك قد ضيَّق على النَّصارى واليهود كما قدمناه، وأمرهُم بالتّظَاهر بالإسلام، فأسلم بعضُهم وهرب بعضهم إلى بلاد الروم، وهدم جميع الكنائس. فلمَّا كان في شهر جمادى الآخرة، سنة إحدى عشرة وأربعمائة، أذِن لهم بالرُّجوع إلى دينهم، فارتَدُّوا، وأذن لهم ببناء الكنائس فأعادُوها. فاشتدَّ غضبُ العسكر وحَنقُهم، فاجتمع الأتراك والكتاميّون وتحالفُوا على قتل الرَّجَّالة الّذين فعلوا بالمصريين ما فعلوا، فوقع القتال بينهم، فقُتِل الرَّجَّالة أبْرَح قَتْل، ورأى أهلُ مصر فيهم وفي حرمهم ومنازلهم

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من أخبار الدول المنقطعة، ص ٥٤.

(٢) المَنْسِر: مثال المجلس، والمَنْسِر من الخيل ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو المائة إلى المائتين. ابن منظور: لسان العرب (نسر).

(٣) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٦ «البزازني» والبزَّاز: بائع الثياب، ابن منظور: لسان العرب (بزز).

(٤) «القياسير» في الأصل.

(٥) انظر أخبار الدول المنقطعة ص ٥٥ ـ ٥٦.

ما أسلاهم[١] عما جرى عليهم.

وتمادَى الحال على ذلك والحربُ قائمةٌ بينهما، والحاكم على حَالِه في ركوبه وهيبته، فإذا بلغةُ ركوبُهم للحرب تركَهُم تارةً وجاء أخرى، فإذا رأَوْه تفرَّقوا لهيبته، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن فُقد الحاكم في التّاريخ الّذي ذكرناه.

ذكر مولد الحاكم ومدَّة عمره وملكه وأولاده وكتّابه ووسائطه وقضاته ونقش خاتمه

كان مولدُه بالقاهرة في يوم الخميس لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر[٢]، سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. فكانت مدَّةُ عمره ستًّا وثلاثين سنة وستة أشهر ويومين، ومدَّة ولايته خمساً وعشرين سنة وشهراً واحداً إلا ثلاثة أيام إلى يوم ركوبه الذي عدم فيه.

أولاده: أبو الحسن علي، وهو الظاهر أبو الأشبال الحارث؛ مات في حياته لعشرٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة.

كتّابه ووسائطه: أمين الدّولة أبو محمد الحسن بن عمّار[٣]، ثم الأستاذ برجوان[٤] الخصيّ إلى أن قُتل؛ ثم استقل الحاكم بالأمر ووَلَّى من ذكرناهم وغيرهم. وكتب له أبو العلاء فهد بن إبراهيم النّصرانيّ.

قضاته: أبو عبد الله محمّد[٥] بن النّعمان إلى أن توفّي في سنة تسعٍ وثمانين وثلاثمائة؛ وأقام النّاس بغير قاض تسعة عشر يوماً؛ ثم ولّي أبا عبد الله الحسن[٦] بن عليّ بن النّعمان إلى أن صرفه في شهر رمضان سنة أربع وتسعين؛ وولّى أبا القاسم عبد العزيز[٧] بن محمّد بن النّعمان ثم صرفه في شهر رجب سنة ثمانٍ وتسعين؛ وولّى مالك[٨] بن سعيد إلى

(١) أسلاهم: أنساهم. ابن منظور: لسان العرب (سلا). في الأصل بإسلامهم، والتصحيح من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٥٦.

(٢) هناك خلاف في يوم ميلاده: في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ١٧٧. «مولده يوم الخميس لأربع ليالٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بالقاهرة. وقيل في الثالث والعشرين منه».

(٣) انظر الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٢٧.

(٥) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٥٩٢.

(٦) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٥٩٦.

(٧) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٥٩٩.

(٨) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٦٠٣.

أن قتله في سنة خمس وأربعمائة لأربعٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر. وأقام النّاس بغير قاضٍ إلى أنْ ولّى أبا العبّاس أحمد[١] بن محمّد بن عبد الله ابن أبي العوام في يوم الأحد لإحدَى عشرة ليلةً خلت من جُمادى الآخرة منها إلى آخر وقت.

نقش خاتمه: بنَصْر العليّ الوليّ ينتصر الإمام أبو عليّ[٢].

ذكر بيعة الظّاهر لإعزاز دين الله[٣]

هو أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، عليّ بن الحاكم؛ وهو السّابع من ملوك الدولة العُبيديّة. بويع له بعد أن تحقَّق الناس عدم الحاكم بأمر الله في يوم الأضحى من سنة إحدى عشرة وأربعمائة، [وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر][٤]. وأقام النّاسُ منذ فُقد الحاكم في سابع عشر شوّال منها إلَى هذا التّاريخ بغير خليفة، وستّ الملك، ابنة العزيز وأختُ الحاكم، تدبّر أحوال الدّولة، وتَسَكّن الجيوش، وتفرّقَ الأموال على يد الأمير سيْف الدّين الحسين بن دوَّاس. ثمّ جرى بينهما وبين العساكر كلامٌ كثير أوجب أنها أخرجَت إليهم أبا هاشم هذا وقت الظُّهر من يوم الأضحى، فبايَعه النّاس وازدحموا عليه، فركب تحتَ الأرض في السّرداب إلى قصر الذّهب، وخرج من بابه إلى باب العبد، فأجلسته وقالَت: هذا خليفَتُكم. فلما رآه ابن دوّاس قبّل الأرض، وسلّم عليه بالخلافة، فبايعه الأمراء والأجناد، ولُقِّب الظّاهر لإعزاز دين الله[٥].

وكُتبت الكتب لسائر الأعمال بأخذ البيعة؛ وجَمعت ستّ الملك الأجناد وأحسنت إليهم، ورتّبت الأمور أحسن ترتيب، وعَدَلت عن وليّ العهد إلياس[٦] بن داود بن المهديّ وَجيء به فبايع والسّيف على رأسه، وحُبس، وكان آخر العهد به. وكان يشار بالخلافة إلى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهديّ، فأدخل عليه الشُّهود وهو يتشحَّط[٧] في دمه فأشهدهم أنه فعل ذلك بنفسه، ثم قضى نحبه. وقام ابن دوَّاس بتدبير الدّولة هو والعزيز

(١) انظر ذيل كتاب الولاة والقضاة للكندي، ص ٦١٠.

(٢) في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ٨٠، ورد: «بنصر الإله العلي ينتصر الإمام أبو علي».

(٣) ترجمته في: اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٤. والدرة المضية لابن أيبك الدواداري، ص ٣١٦ - ٣٤٠، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٢٥٤، والمنتظم، ج ٨، ص ٩٠، وعبر الذهبي، ج ٣، ص ١٦٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٢٣١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٤٧.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٤.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٣١٩، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٥.

(٦) في ا لأصل: «العباس» والتصحيح في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، «وأما ولي العهد... فاسمه الياس» ج ٤، ص ١٩٦.

(٧) شحط: تضرج بالدم. الفيروزابادي: القاموس المحيط (شحط).

عمار بن محمد؛ وكانا لا يُصدران إلاّ عن رأي ستّ الملك عمة الظاهر.

ذكر مقتل الحُسين بن دوَّاس

قال: لمَّا استقرّ أمر الظّاهر لإعزاز دين الله وسَكنت الأحوال خرج من القصر خصيٌّ وبيده سيف مجرّد، واستَدعى وُجوه الدّولة، والوزيرُ في دسته والحسَين بن دوّاس قائد القوّاد إلى جانبه، فقال الخصيّ أمر مولانا أن يُقتل بهذا السّيف قاتلُ مولانا الحاكم، فنادَوْا السّمع والطاعة فصبّه على ابن دوّاس فقتله، لم يختلف اثنان[١].

وقيل: إنه إنما قُتل في شهر رجب سنة ثلاثَ عشرة وأربعمائة. والله أعلم.

وباشرت السّيدة ستّ الملك للأمور بنفسها وقامت هيبتها عند الناس.

وفي ثالث عشر ذي الحجّة من السّنة، في اليوم الرابع من بَيْعة الظّاهر، قُرِىء سجلٌّ لأصحاب الأخبار أنّهم لا يرفعون ما لا فائدة فيه مِمّا كان يُنْهى إلى الحاكم.

وفي يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجّة منها ركب القاضي عبْد العَزيز بن النّعمان ومعه جَمَاعة وتوجّهوا نحو الجبل لافْتِقَاد الحاكم وعادُوا.

وفي يوم الخميس لعشرين منه أُقيمت المآتم في القصر وسُمع الصُّراخ واتّصل، وارتجَّ البلد في تلك الليلة بالصّراخ إلى أن مضى وقتٌ كثير من اللّيل، وأصبح النّاس على وجلٍ، وأغلقت أبواب القاهرة.

وفي المحرّم سنة ثنتي عشرة وأربعمائة سومح بمكس الفقاع. وكان مبلغه في الشهر سبعمائة دينار.

وفي حادي عشر ذي القَعدة، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، تُوفيت ستّ الملك ابنة العزيز؛ وكان مولدها في ذي القَعدة سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ببلاد المغرب، وكانت من الدُّهاة.

وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة ظهر ببلاد الفيوم بركة ينْصبّ إليها الماء، فاستخرج منها سمك بلطيّ، ومقدارها أربعة آلاف فدان.

وفي شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد الخبر بإقامة الدّعوة الظاهرية بالموصل والبصرة والكوفة وأعمال المشرق.

وفيها وردت الأخبار أن سنان بن صَمْصَام الدّولة وصالح[٢] بنَ مرداس جمعا

---

(١) انظر التفاصيل في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) هو صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي، أبو علي: أمير بادية الشام، وأول الأمراء المرداسيين =

العساكر وحشدا[١] العُربان لحصار دمشق، وأنّهم حاصرُوها وقَطعُوا أشجارها، وقتلوا فلاّحي الضّياع. وتقرّر الحال أن يقاتل العوام يوماً وعسكر السُّلطان يوماً؛ واتّصلت الحرب بينهم وقُتل جمع عظيم. وحاصر صالح بن مرداس حلب؛ واضطربت أحوال الشّام بأسره، وتغلّبت الحرب عليه. وطلب سنان من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار ويرتحلُ عنهم، فأجابه أهل البلد لذلك، فمنعهم الشريف ابن الحسن وأشار بنفقتها في عيّاري البلد، فأنفقوها[٢] وقاتلوا قتالاً شديداً، فقُتل من العرب جمع كثيرٌ. وطلب العرب الصُّلح فأجيبوا إليه، ثم عادوا إليها في الوقت برأي ابن الجرَّاح...

ووصل الخبر من جهة بني قرة، عرب البحيرة، أنهم أقاموا عليهم إنساناً ببرقة ولقّبوه بأمير المؤمنين.

وفي الحادي والعشرينَ من ذي الحجّة سنة خمس عشرة وأربعمائة اجتمع من العبيد ألف عبد عند سفح المقطّم وقصدوا نهب مصر، فأركب الظّاهرُ لإعزاز دين الله مَنْ حفظها، وأمر أهل مصر بقَتْل مَنْ ظفروا به منهم، ونهبوا في اليوم الثاني أطراف مصر، فقاتَلَهم النّاس فانهزموا.

وفي سنة سبع عشرة وأربعمائة جرَّد الظّاهر أمير الجيوش أَنُوشْتكين الدَّزبري[٣] من مصر بعساكر كثيرة لِدَفع العرب[٤] عن الشّام، وخرج الظّاهر لتوديعه. وسارَ في سبعة آلاف فارسٍ غير العرب، وعيَّد عِيد الأضحى في الرَّملة، وجمع العساكر. فلما بلغ حسّانَ بن مفرّج خروجُه بعث إلى صالح بن مرداس، فأتاه من حلب في بني كلاب. ووقعت الحرب بينهم بالأُقْحُوانة[٥] من عمل طبريّة يوم الأربعاء لخمسٍ بقينَ من شهر

= بحلب، كان مقامه في أطرف حلب، وثار الرحبة فاستولى عليها، وكاتبه الحاكم بأمر الله بلقب «أسد الدولة» امتلك حلب سنة ٤١٧ هـ/ ١٠٦٢ م وامتد ملكه منها إلى عانة. حاربه الظاهر الفاطمي (صاحب مصر) إلى أن قتل في مكان يعرف بالأقحوانة، على الأردن سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٧٢ و٧٨، ابن خلدون: ج ٤، ص ٢٧١، زبدة الحلب، ج ١، ص ٢٧٧. ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٨٧ رقم ٣٠٠.

(١) في الأصل: «جمعوا العساكر وحشدوا» والتصحيح يتفق وسياق الكلام.

(٢) في الأصل: «فنفقوها».

(٣) في الأصل: «الزربري» والدزبري بكسر الدال المهملة، والباء الموحدة وبينهما زاي وفي الآخر راء، هذه النسبة إلى دزبر بن أوتيم الديلمي، وهو بالدال والتاء أيضاً: وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٤٨٧.

(٤) المراد جيوش صالح بن مرداس.

(٥) الأقحوانة: موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطىء بحيرة طبرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٤.

ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة. فطُعن صالح بن مرداس، فسقط عن فرسه، فقُتل، وحُمل رأسه إلى أمير الجيوش. فعندها انْهَزَم حسّان. وقُتل من أصحابهم مقتلةٌ عظيمة، وهرب أصحاب صالح إلى بعلبك وحمص وصيدا وحصن عَكّار[١]. واستولى نَصر بن صالح وأخوه ثَمال على حلب وأعمالها وبالس[٢]، ومَنْبج[٣]. وسار الدّزبري حتى أتى دمشق، ثم إلى حلب، فظفر بشبل الدّولة[٤] نصر ابن صالح فقتله. ثم عاد إلى دمشق فأقام بها وعَلَت منزلتُه.

ذكر وفاة الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الأحد النّصف من شعبان المكرّم من شهور سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة ببستان الدكة بالمقس[٥]، فركب الوزير صفيّ الدين أبو القاسم علي الجرجرائي[٦] إلى البستان، وحمل الظّاهر منه إلى القصر.

وكان مولدُ الظّاهر في يوم الأربعاء لعشرٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان المعظّم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. وكانت مدّةُ عمره إحدى وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيّام، ومدة ملكه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وستّة أيام. وكان أجمل النّاس صورةً، وتولّى غسله قاضي القضاة عبد الحاكم، ومعه ظاهر بن عبد الخالق بن أحمد

---

(١) حصن عكار: حصن منيع، بُني منذ الفتح الإسلامي، ويقع شمال طرابلس. لي سترانج: فلسطين، في العهد الإسلامي، ص ٤٢٤.

(٢) في الأصل: «ونابلس» والتصحيح في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٧٦، وبالِس: بلدة بالشام بين حلب والرَّقة. وكانت على ضفة الفرات الغربية، فلم يزل الفرات ينحسر عنها شيئاً فشيئاً حتى صار بينهما مسافة أربعة أميال. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) منبج: مدينة من إقليم العواصم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ. وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٤) في الأصل: «سند الدولة» وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٧٦. «ونصر الملقب بشبل الدولة».

(٥) بستان الدكة بالمقس، الدكة، كان مكانها بستاناً من أعظم بساتين القاهرة، فيما بين أراضي اللوق والمقس، وبه مُنظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على النيل الأعظم، ولا يحول بينها وبين الجيزة شيء. وقد زالت بزوال الدولة الفاطمية، وبنى الناس في موضع هذا البستان. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٤١، حاشية ٢.

(٦) هو من أهل جرجرايا. تولى الوزارة سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م. ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٣٥ ـ ٣٦.

ابن المهدي شيخ القرافة؛ وصلّى عليه قاضي القضاة وأخذ سَلَبه. قال: واستمرَّت النّوائح تَنُحْنَ عليه مدّة شهر. وكان كريماً مشتغلاً بلذّاته معوّلاً على وزيره.

وله أبو تميم معدّ المستنصر بالله، وهو الّذي وَلِيَ الأمْر من بعده على ما نذكره.

وزراؤه ووسائطه: أبو الحسين عمّار[١] بن محمد، أحد وسائط أبيه الحاكم بأمر الله، إلى أنْ زال أمرُه في ذي القعدة سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، ثم قتل، وتولّى الوساطة أبو الفتوح موسى[٢] بن الحسين، وذلك في المحرّم سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، إلى أن قُبض عليه في العشرين من شوّال وقيل صبيحته؛ وتولى الوساطة أبو الفتح مسعود[٣] بن ظاهر الوزّان إلى أن عزل؛ وتولّى الوزارة عميد الدّولة أبو محمد[٤] الحسن بن صالح الروذباري، أحد وسائط الحاكم بأمر الله؛ ثم عُزل في سنة ثماني عشرة وأربعمائة بالوزير أبي القاسم علي[٥] بن أحمد الجرجرائي إلى آخر المدّة، ولقب بالوزير الأجلّ الأوحد صفيّ الدّين؛ وكان أقطع اليدين؛ وتمكّن من الظاهر تمكُّناً عظيماً. حُكي من تمكُّنه أنّه كان بينه وبين خَليل الدولة بن العدَّاس عداوة، فاتّفق أن خليل الدّولة سأل الظّاهر لإعزاز دين الله أن يشرِّفه بزيارته ببركة الْحَبَش فأجابه الظّاهر إلى ذلك وحضر عنده، فاغتنم ابنُ العدّاس الفرصة وجعل يذكر للظاهر مثالِبَ الوزير. فسدَّ الظّاهر مسامعه وقال لابن العداس: إنّي وإن رَعَيْت حقَّ تشريفي إياكَ بزيارتي، فما أترك حقّ من أرتَضيه لوزارتي، ولا بدَّ أذكرُ له طرفاً من ذلك، فاذكُرْ خيراً لأحكيَه له. فرجع عن ذكر مثالبه وأثْنى عليه، فذكر الظّاهر للوزير عنه خيراً، فكان ذلك سببَ الصُّلح بينهما. وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبارَ الوزير الجرجرائي مستوفاةً عند ذكر وفاته في سنة ستٍّ وثلاثين في أخبار المستنصر.

ذكر بيعة المستنصر بالله

هو أبو تميم معدّ[٦]؛ بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم عليّ بن الحاكم بأمر

---

(١) تولى أمر البيعة الظاهرية في سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م. وكانت مدة وزارته سبعة أشهر وأيام، قتل في الفج. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) كانت مدة وساطته تسعة أشهر، ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٤.

(٣) كان نظر واسطة في خلافة الإمام الحاكم بأمر الله. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٤.

(٤) «ابن محمد» في الأصل، والتصحيح من الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٤.

(٥) أخباره في: الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٥ ـ ٣٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٤٨، حاشية ٤.

(٦) ترجمته في: أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٦٧ ـ ٦٨، ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٨٣ ـ ٨٤، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٤ ـ ١٨٥، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص =

الله أبي عليّ المنصور، بن العزيز بالله أبي المنصور نزار، بن المعزّ لدين الله أبي تميم معدّ، بن المنصور بنَصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمّد، ابن المهديّ عبيد الله.

وهو الثّامن من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة وهو الخامس من ملوك مصر والشّام منهم.

بُويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلةً بقيَتْ من شعبان[١] سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وذلك أنّ الوزير الجرجرائي أحضر وجوه القبائل من الكتاميين، وغيرهم من الأتراك، فلمّا اجتمعوا قال لهم: مولانا ضعيفٌ والآجال بيد الله سبحانه، فإن قضى الله بانتقاله ما تقُولون في ولده الأمير معدّ؟ قالوا: الذي يقولُه الوزير نحن بن راضُون، وله سامعون. فلمّا رتّب هذا لأمر اسْتُدعيَ الوزير، فنهض قائماً ودخل إلى قاعة من قاعات القصر، ثم أحضر الجماعة، فوجدُوا الأمير معدًّا على سرير الملك وعليه التاج؛ فقال: هذا مولاكم، سلِّموا عليه بالخلافة. فسلَّموا عليه وانصرفوا؛ ولُقّب المستنصر بالله، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين [وسبعة وعشرين يوماً][٢].

فلمّا كان في صبيحة يَوْمِ مبايعته، وهو يوم الخميس، وقف الكتاميّون وعبيدُ الشّراء[٣] وغيرُهم بباب القصر، وأغلظوا في الكلام وطلبوا أرزاقَهم واستحقاقاتِهم من الوزير، فقال: أنا كنت وزير الظّاهر لإعزازِ دينِ الله وقد توفّي، وأنا أحملُ إليكم جميع ما في داري. وأصبح حَملَ جميع ما في دَاره إلى القصر، فغضِبَ له الأتراكُ، وأعادوا ما أحضره إلى مكانه. وتقرّر اجتماعُه يوم السّبت، فاجتمع الأترك والدّيلم وعليهم السّلاح، وجاء الكتاميّون، فلما اجتمعُوا بباب القصر خرج إليهم [أحد][٤] الخَدَم وقال: ليدخل مِنْ كلّ طائفةٍ عشرة أنفس، فدخل جماعةٌ، فقال لهم الوزير: مولانا يُقرئكُم السّلام ويقول لكم: إذا كان مُستهلّ شهر رَمضان أمر بالنفقة فيكم. فانصرفُوا، وجلس قاضي القضاة عَبْد الحاكم يحلّف النّاس للمستنصر بالله. فلمّا استهل شهر رمضان أنفق في الأشراف والكتاميّين والعرب والدّيلم وغيرهم لكلِّ واحدٍ منهم ثُلثَ رزقه، فلم يرضَوْا بذلك.

= ٢٢٩ تحت رقم ٧٢٨، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ٣ ـ ٤، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣ ـ ٤، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣. وكتاب «الإمام المستنصر بالله الفاطمي» للدكتور عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٦١.

(١) «بويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٤.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣.

(٣) «الشرى» في الأصل.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيه السياق.

ودامت النّفقة إلى العشر الأوسط من شوّال فتحالف الكتاميون والأتراك أن يكونُوا عُصْبَةً واحدة في طلب واجباتهم. واجتمعوا باب القصر، فخرج إليهم الأمير أن احضروا بكرةَ الغد، فحضروا وركب المستنصر إلى أن بلغ بَابَ البحر[1]، فرمَوْه بالحجارة وصاحُوا عليه، ورماه أحدُ العبيد بحربةٍ فلم يُصبه، فرمى نفسه عن دابّته ودخل من باب البحر إلى القصر. وانصرف النّاس، وعادُوا بكرةَ نهارِ الغد، فدخل مِنْ كلِّ طائفةٍ مائة نفر، ووَقع كلامٌ كثير، وتقرّر في آخر الأمر أن يحضروا البغاة منهم، وخرجوا على مثل ذلك؛ ثم عادُوا بعد ذلك وتنصّلوا من ذنُوبهم. وسكَّن الوزير جميع الطّوائف، واختلف بنو قرّة مع كتامة بالجيزة، فأخرج الوزير عسكراً فأصلح بينهم، واستقرّت الأمور.

وركب المستنصر في مستهلِّ المحرّم سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة من باب العيد[2] إلى باب الذّهب[3]؛ ومشى النّاس كافّةً بين يديه، والوزير راكبٌ خلفه، وتفرّق النّاس، ودخل الوزير إلى مكانه، فدخل عليه جماعة من الأتراك الصّغار وطلبوا أرزاقهم وأغلظوا له في القول، وقصدوا قَتْله؛ فدخل بعضُ الأمراء الكبار فخلّصه منهم.

ذكر عود حلب إلى مِلْك مَلِك الدّيار المصرية

وفي سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائة ملكت حلب على يد أمير الجيوش أنوشتكين الدّزبري أمير الشام، وذلك بعد أن التقى هو ونصر بن صالح بن مرداس، صاحب حلب، يوم الجمعة لسبعٍ بَقينَ من جُمادى الآخرة فانهزم عسكر ابن صالح، ثمّ كانت وقعةٌ ثانية، فانهزم ثَمال بنَ صالح وأخوه نصْر، فبادر ثَمال بدخول البلد، وأخَذَ مِن قلعة حلب أموالاً وتُحفاً، واستخلف بها عمّه مقلّد بن كامل بن مِرداس، وسار يستنجد بأخواله بني خفاجة[4]، فثار العوامّ ونهبُوا حلب. ووافى طغان، أحد الأمراء الّذين مع أمير الجيوش، فدخل حلب بموافقةٍ من أهلها، ثمّ وصل أنوشتكين الدّزبري إليها في يوم

---

(١) باب البحر: من إنشاء الحاكم بأمر الله أبي علي منصور، هو أحد أبواب القصر الفاطمي الشرقي الكبير، يخرج منه الخليفة إلى شاطىء النيل، ويعرف بباب قصر بشتاق قبالة المدرسة الكاملية، ولقد هدم في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البقد قداري. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) باب العيد: قيل لهذا الباب باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر، فيخطب بعد أن يصلي بالناس صلاة العيد. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥.

(٣) باب الذهب: هو باب القصر الذي تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة في يومي الاثنين والخميس، ويصل منه الخليفة إلى قاعة الذهب. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٢.

(٤) «بأخواله من صاحبه» في الأصل. والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٧.

الثّلاثاء لثمانٍ خلَوْن من شهر رمضان، وأقام بها إلى آخر السّنة، [وأُخرج منها إلى درباس واستولى على بالس ومنبج][1] ورجعَ إلى دمشق في تاسع عشري[2] الحجّة منها.

ذكر الوحشة الواقعة بين الوزير أبي القاسم الجرجرائي وأمير الجيوش أنوشتكين الدّزبري

قال المؤرخ: كان ابتداءُ الوحشة بينهما في سنةِ ثلاثين وأربعمائة، وسببُ ذلك أن شبيب بن وثّاب النّميري صاحب الجزيرة توفّي، فقصد أميرُ الجيوش أنوشكتين أنْ يزوّج ابنته لولد أبي نصر أحمد بن مروان ليكون له عوناً على بني نُمير أصحاب الجزيرة؛ وكتب أمير الجيوش إلى مصر يستدعي ابنته، فلم يُطْلِقها الوزير ولا رأى إتمام الزَّواج لانضمام ابن مروان إلى الدّولة العبّاسية وتَظاهُرِه بموَالاتها. وكتَب لوُلاة الشام ألاّ يمتثلوا أمْر أمير الجيوش. فوقعت الوحشةُ بينهما، وأطلق أميرُ الجيوش لسانه في الوزير، وسبَّه.

ودامت الوحشة إلى سنة ثلاثٍ وأربعمائة، فصرفه الوزيرُ عن دمشق، واستعمل عليها ناصر الدّولة الحسن بن الحُسين بن حمدان. فلمَّا علم بذلك أهل دمشق تنكَّروا على أميرهم، وحاصروه بقصره ظاهِرَ دمشق، في سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين، فهرب إلى حلب، وقاسى مشقّةً عظيمة في طريقه، ونُهبت أمواله. فلمّا دخل حلب أقام بها ثلاثة أيّام ومرض، فتُوفّي يوم الأحد النّصفَ من جمادى الأولى، ووصل سجلٌّ إلى ثَمال بن صالح بن مرداس بولاية حلب، وذلك قبل وفاة أنوشتكين أمير الجيوش.

ذكر ظهور سكين المشبه بالحاكم وقتله

وفي شهر رجب سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ظهر بالقاهرة رجل يسمى سكين[3] يشبه الحاكم وكان بمصر أقوامٌ يعتقدونَ أنّ الحاكم حيٌّ وأنّه غاب لرأي رآه. وهذه الطائفة باقية إلى وقتنا هذا، ويحلفون فيما بينهم فيقولون: وحقِّ غيبة الحاكم، إلاّ أنّهم لا يتظاهرون بذلك لكلِّ حد. قال: فلمّا كان في هذه السّنة ظهر هذا الرّجل، فاجتمع عَليه القائلون بغَيْبة الحاكم وزفُّوه إلى القصر، وأدخلوه إيّاهُ، وقد دُهش الناس، فأدّى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٧.

(٢) «تاسع عشر» في اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ١٨٧.

(٣) هكذا في الأصل: وفي الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٥١٣. «واسمه سليمان» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٩.

الأمر إلى أنْ حَارَبهم أولياء الدَّولة، وركب الوزير، فأُخِذوا جميعاً وصُلبوا أحياء، ورُشقوا بالسّهام حتى هلكوا. [ومن جملتهم محمد بن عاني الكتامي أحد دعاته][1].

ذكر وفاة الوزير صفيّ الدين أبي القاسم أحمد بن علي الجرجرائي وشيءٍ من أخباره

كانت وفاته لثلاثٍ[2] بقِينَ من شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، وأوصى أن يُدفن في داره في المكان الّذي كان يجلس فيه، فأُخرج وصلّى عليه المستنصر في الإيوان، وأُعيد إلى داره فدُفن بها، ثمّ نُقل إلى تُرْبَته بالقرافة.

وكان وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوماً.

وهذه النسبة إلى جرجرايا، قريةٌ من قرى العراق.

قدم إلى مصر هو وأخوه أبو عبد الله محمد، فتنقلت به الحال إلى أن خدم في الصّعيد، فكثُرت فيه المرافعات في أيام الحاكم، فاعتقله في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة، ثـم أمرَ بقَطع يدِه، فأخرج اليسار عِوضاً عن اليمين فقطعت؛ فقيل ذلك للحاكم فقال: إنّما أنا أمرت بقَطع يمينه؛ وأمر بقطع اليمين، فقُطعت على باب القصْر المعروف بباب البحر، وهو الباب الّذي مقابل دار الحديث الكاملية[3] في وقتنا هذا. وكان قطْعُهما في ثامن عشر شهر ربيع الآخر منها.

قال: ولما قطع الحاكم يديه مَضَى مِن وقته وجلَس في ديوانه، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ أمير المؤمنين أدّبني وما صرفني. فبلغ الحاكم ذلك، فأمر باستمراره، ثمّ صرَفه وولاّه ديوان النفقات[4] في سنة ستٍّ وأربعمائة، ثـم رتّب أن يكون واسطةً في نظر الدّواوين مع أبي عبيد الله محمد بن العدَّاس، في سنة ثنتي عشرة وأربعمائة. ثم وَزَرَ للظّاهر لإعزاز دين الله في سنة ثماني عشرة وأربعمائة، فاستكتب أبا الفرج البابلي وأبا عليّ الرّئيس. وكان القاضي أبو عبد الله القُضَاعي صاحب كتاب الشّهاب يكتبُ عنه

(١) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) كانت وفاته يوم الأربعاء السادس من رمضان سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٣) دار الحديث الكاملية أو المدرسة الكاملية: هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدار الحديث الكاملية، وأنشأها السلطان بالملك الكامل ناصر الدين الأيوبي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م، وهي ثاني دار عملت للحديث النبوي، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٧٥.

(٤) ديوان الرواتب: ويشتمل على اسم كل مرتزق في الدولة، وفيه كاتب أصيل. انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٤٨٩ ـ ٤٩١. والمواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٠١.

العلامة[(١)] وهي: «الحمد لله شكراً لنعمه». وكانت أيامه تُسمى الأعراس لطيها. وضَبط الأمور أحسن ضبط واستعمل الأمانة التامة، وتمكن في الدّولة الظّاهرية، على ما قدّمناه.

قال: وهجاه جماعةٌ من الشعراء. فمن ذلك قولُ أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفكيك ويعرف بجاسوس الفلك: [من الرجز المشطور]

يــا جــرجــرائــي اتــئــد وارفــق ودَعْ عــنــك الــتَّــحــامُــق
أزعــمــتَ أنــك فــي الــثِّــقــا ة، فــهَــبْك فــيــمــا قُــلــت صــادق
أَعَــلــى الأمــانــة والــتُّــقــى قُــطِــعــت يَــداك مــن الــمَــرَافِــق

قال: ولمّا مات أوصى أن تُفوّض الوزارةُ بعده لأبي نَصْر صدقة[(٢)] بن أبي الفضل يُوسف بن علي الفلاحيّ، فخلع عليه خلع الوزارة. وكان يهودياً، ولُقِّب بالوزير الأجلّ تاج الرئاسة فخر المُلك مُصْطَفَى أميرِ المؤمنين، ثمّ أسلم بعد الوزارةِ.

ذكر مقتل أبي سعيد التُّسْتَري
وعزل الوزير وقتله ووزارة ابن الجرجرائي

وفي سنة تسعٍ وثلاثين وأربعمائة قتل أبو سعيد[(٣)] التُّسْتَري اليهوديّ، وكان يتولّى ديوان والده المستنصِر. وذلك أنها كانت جاريته، فأخذَها منه الظّاهر واستَوْلَدَها فولدت المستنصر بالله، فلمَّا أفضت الخلافة إلى وَلَدها فوَّضت إليه أمْرَ ديوانها، فعظُم أمره وانبسطت كلمتُه بعد وفاة الجرجرائي الوزير حتّى لم يبق للوزير الفلاحيّ معه إلا اسم الوزارة، فدبَّر الفلاحي في قتله فقُتل.

وقيل: بل كان السَّبب في قتله أنّ عزيز الدّولة ريحان الخادم كان قد خرج في هذه السنة إلى بني قُرّة، عرب البحيرة، لِمَا أفسدُوا في البلاد، فظفِر بهم وقَتَلَ منهم. وعادَ إلى القاهرة وقد عظُم قَدرُه وزاد إدْلاله، فثقُل أمره على أبي سعيد.

واستمال المغاربةَ وزاد في أرزاقهم ونقص من أرزاق الأتراك ومَنْ ينضافُ إليهم، فجرى بين الطّائفتين حربٌ بباب زويلة.

---

(١) والعلامة: أي العبارة تكون تحت البسملة، ويختارها القاضي لتدون في بداية الوثيقة التي تصدر عنه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣١٤. والمقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١١.

(٢) هو «أبو منصور» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤. والإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٧، قُبض عليه في سنة ٤٣٩ هـ/١٤٠٧ م. واعتقل وقتل. انظر ترجمته في الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) «أبو سعد» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤ اسمه إبراهيم بن سهل بن هارون التستري، أبو سعد، انظر المواعظ والاعتبار لابن ميسر، ج ١، ص ٣٥٥، ص ٤٢٤.

ومرض إثر ذلك عزيز الدّولة ومات فاتُّهم أبو سعيد أنّه سَمَّه. فلما كان في يوم الأحد لثلاثٍ خلَوْن من جمادى الأول ركب أبو سعيد من داره في مَوكبٍ وتوجَّه إلى القصر على عادته، فاعترضه ثلاثةٌ من الغلمان الأتراك واختلطوا في الموكب وقتلوه. فاجتمعت الطّوائف إلى المُستنصر بالله وقالوا: نحن قتلناه، وقُطِّع لحمه. فاشترى أهلُه ما وصلوا إليه من أعضائه، وأحرق ما بقي، وضَمَّ أهلُه ما اشتَروْه منه في تابوت وغطّوه بستر، وأوقدوا أمام التابوت الشموع ووضعوه في بيت مُفرد، وزَرّوا البيت بالسُّتور، فوصل لهب النَّار إلى بعض السُّتور فاحترق، وقَوِيت النّار فأحرقت التّابوت بما فيه.

قال: وكان التُّسْتَري قد زادَ أذاه في حقّ المسلمين حتى كانوا يَحْلفون: وحقِّ النّعمة على بني إسرائيل.

ولما قُتِل وَلي مكانه في نَظَر ديوان والدة المستنصر بالله أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمٰن اليازُوري.

وحقدت والدة المستنصر بالله على الوزير الفلاحيّ وتحقَّقَت أنه تسبَّب في قتله، فقبضت عليه وصَرَفَتْه عن الوزارة في هذه السّنة، واعتقلته بخزانة البنود[١]؛ ثم قتل بعد ذلك «أبو منصور صدقة»[٢]، ودُفن بخزانة البنود، وذلك في سنة أربعين وأربعمائة.

ووالدُ هذا الوزير هو أبو الفضل يوسف بن علي الذي هجاه الواساني[٣] بقصيدته المشهورة التي أولها:

يا أهل جيرون هل لِسَامركم إذا استقلّت كواكب الحمل

وقد أوْردنا أكثر هذه القصيدة في الباب الثاني من القِسم الثّالث من الفَنّ الثاني.

ولمّا قبض عليه وَلِيَ الوزارة أبو البركات الحسين[٤] بن محمد بن أحمد

---

(١) خزانة البنود: البنود: هي الرايات والأعلام. وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير فيما بين قصر الشوك وباب العيد، بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم علي بن الحاكم بأمر الله. وكان فيها جميع المتاع والآلات الحربية، وغيرها من القضب، والفضة والذهب والبنود. ثم أصبحت سجناً، واتخذها ملوك بني أيوب سجناً يعتقل فيه الأمراء والمماليك. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٢٣ وما بعدها.

(٢) «بيبرس» في الأصل. والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر بن ميسّر، ص ٨. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ١٩٦.

(٣) هو الحسين بن الحسن بن واسانة بن محمد، أبو القاسم، المتوفى سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣ م. انظر بقية القصيدة في نحو ١٤٠ بيت في يتيمة الدهر للثعالبي، ج ١، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٤) هو ابن عماد الدولة محمد أخي الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي. ولي في سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م. انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٣٨ ـ ٣٩.

الجرجرائي، ابن أخي الوزير صفيّ الدّين.

وفي سنة أربعين وأربعمائة صرف ناصر الدّولة الحسن[١] بن حمدان عن ولاية دمشق، وأُحْضِر تحت الحُوطَة ووَلِيَ مكانه القائدُ طارق، ثم أُطلق ابن حمدان في سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة إحدى وأربعين صرف أبو البركات الحسين بن الجرجرائي عن الوزارة ونُفي إلى صور واعتقل بها، ثم أُطلق، فسار إلى دمشق. ونظر في الدّواوين بعده عميد الدّولة أبو الفضل[٢] صاعد بن مسعود، ثم فُوضت الوزارة لأبي محمد الحسين[٣] بن علي بن عبد الرحمٰن اليازوري.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين أظهر المعزّ[٤] بن باديس الصِّنهاجي، صاحب إفريقية، الخلاف على المستنصر بالله؛ وقد ذكرنا سبب ذلك في أخبار ملوك إفريقية. دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وكتب المعزّ إلى بغداد، فأجيب عنْ رسالته على لسان رسولٍ من بغداد، يُعرف بأبي غالب الشِّيرازي، وسيّر إليه صحبته عهداً بالولاية ولوءً أسود وخلعة فاجتاز أبو غالب ببلاد الرُّوم فقبض عليه صاحب القسطنطينية وبعثه إلى المستنصر بالله؛ فقَدِم الرّسول إلى مصر وهو مُجَرّسٌ[٥] على جمل، وحفر بين القصرين حُفَيرة، وحُرق فيها العَهْد والخلَع واللّواء.

وفيها في ذي القعدة عصى بنو قُرّة، عرب البحيرة، على المستنصر بالله. وكان سبب ذلك أنّ الوزير اليازوري قدَّم عليهم رجلاً يُقال له المقرّب، فنَفَروا منه واستَعْفَوا

(١) «الحسين» في الأصل، هو الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبي، ناصر الدولة، آخر من كانت له أمارة من آل حمدان، ملوك حلب وغيرها. قتل سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٤، ٩٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٦٥ هـ، ص ٨٠.

(٢) هو من شيوخ الكتاب، وأكابر أصحاب الدواوين، وكان يتولى ديوان الشام، وجعل واسطة لا وزيراً سنة ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م، ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٣٩.

(٣) هو في قرية من قرى الرملة اسمها يازور. أخباره في الإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٤) هو المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري مناد الحميري الصنهاجي. صاحب إفريقيا وما والاها من بلاد المغرب. ولد بالمنصورية من أعمال إفريقيا سنة ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٧ م. وملك بعد أبيه باديس، توفي ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م. أخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٣٣، رقم ٧٣٠، وتاريخ ابن خلدون، ج ٦، ص ١٥٨، والكامل لابن الأثير، ج ١٠ حوادث سنة ٤٥٤ هـ. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٢٩٤. وعبر الذهبي، ج ٣، ص ٢٣٣، وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٤٨، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢١٢، هامش ٣.

(٥) التجريس: التشهير. الفيروزابادي: القاموس المحيط (جرس).

منه، فلم يُجب الوزير سُؤالهم؛ ثم دخلوا على الوزير وطالبوه بواجباتهم، وأَغلظوا له في القول؛ فتوعَّدَهم باستئصال شأفتهم، ففارقُوه وأظهروا العصيان، واجتمعوا بالجيزة في جمعٍ كثير؛ فندب الوزيرُ عسكراً لقتالهم فكسرُوه، فندب عسكراً ثانياً فهزمهم وقَتَل منهم قَتْلَى كثيرة. وحمَل إلى الخِزانة المسْتنصرية من أموالهم جمْلَة عظيمة، فهَرَبُوا إلى برقة.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين بعث المستنصرُ بالله ووزيرُه اليازوري خزائن الأموال إلى أبي الحارث[1] أَرْسَلان البَسَاسيري ليُقيم الدّعوة المستنْصِريّة ببغداد واستنفد ما كان بالقصر من الأموال. وكان مِنْ أمْر البساسيري وقيامِه والخُطبة للمستنصر هذَا ببغداد، ما قدّمناه في أخبار الدّولة العباسية، ولمّا خُطب للمستنصر ببغداد فِي سنة خمسين وأربعمائة، وَرَد الخبر إلى مصر بذلك فزُيّنت القَاهرة.

وكان عند المستنصر مُغَنِّية تغني بالطّبل[2]، فدخلت عليه وغنَّته في ذلك اليوم: [من الرمل المجزوء]

يــا بــنــي الــعَــبّاس رُدّوا[3]   مَــلَــكَ الأمْــرَ مــعَــدُّ
مــلــكُــكُــم مــلــكٌ مُــعَــارُ[4]   والــعــواري تُــســتــردُّ

فقال لها: تمنّي. فقالت: أتمنى الأرض المجاورَةَ للمقسم، فقال: هي لكِ، فعُرفت الأرض بأرض الطبّالة[5] إلى وقتنا هذا.

---

(١) «أبي الحارث» في الأصل. هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي، كان يلقب بالمظفر، توفي عام ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م، أخباره في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٣٢، ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ٨٥، الكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٥، ٦، ٦٤٠. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٦٦. المنتظم لابن الجوزي، ج ٨، ص ٢٠١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٢٨٧، المنتقى في أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤، ص ٢٠، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩٢ رقم ٨١.

(٢) «وجاء نسب فغنت الطبل بين يدي المستنصر» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٩. ونسب امرأة مترجلة كانت تقف تحت القصر في المواسم والأعياد، وتسير أيام المواكب وحولها طائفة وهي تضرب بالطبل. المنتقى من أخبار مصر، ص ١٩.

(٣) «صدوا» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤.

(٤) «ملككم كان معاراً» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤.

(٥) كانت بجوار خط المقس على جانب الخليج العربي، وهي من أحسن متنزهات مصر. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢٥.

ذكر القبض على الوزير أبو محمد الحسن[١] بن علي بن عبد الرّحمٰن اليازوري وقتله وشيء من أخباره

وفي[٢] المحرّم سنة خمسين وأرْبعمائة سُعِي بالوزير المذكور عند المسْتنصر بالله أنّه كاتب السُّلطان طغرلبك السّلجوقي وحَسَّنَ له قصْد الدّيار المصريّة، فقَبض عليه وجهَّزه إلى تِنّيس، ثم أمر بقتله، فقُتل في الثاني والعشرين من صفَر منها. وكان من أكابر وُزراء ملوُك هذه الدّولة.

قال المؤرخ: كان والدُ اليازوري قاضي يازور، هي قرية من أعمال الرّملة، فلمّا تُوفّي خلفه ولدُه الحسين المذكور، ثم عُزل عنها، فقدم مصر وسعى في إعادته لحُكم يازور، فرأى من قَاضي مصر اطِّراحاً لجانبه، فصحب رفق المستنصريّ - وكان خصيصاً بوالدة المستنصر، فكلّم القاضي في أن يسمع قوله بمصر ففعل. فلمّا قتل أبو سعيد التّسْتَري أشار رفق على وَالدَة المستنصر أن يكون اليازُوري وزيرَها، فرتَّبْه في وزارتها، فخافه الوزير أبو البركات الجرجرائي أن يلي الوزارة، فسعى له في الحكم ليشغله عن الوزارة، فامتنع اليازوري من ذلك، فأشارت عليه والدة المستنصر بقَبول الولاية فقبل: ولم تمض إلاّ مدَّة يسيرة حتى صُرِف ابن الجرجرائي عن الوزارة وفُوّضت الوزارة إلى اليازوري[٣] مُضَافَةً لما بِيده من قضاء القضاة وديوان والدة المستنصر بالله.

قال القاضي أبو الحسين أحمد الأسواني في تاريخه: حدّثني القاضي إبراهيم ابن مسلم الفوّي، قال: شهدت خطير الملك، ولد[٤] اليازوري الوزير، كان قد ناب عن والده في قضاء القضاة والوزارة وغير ذلك، وسار إلى الشام بعساكر عظيمة فأصلح أمره. ورأيتُه بعد ذلك بمسجد فوّة[٥] وهو يخيط للنّاس بالأجرة وهو في حال شديدةٍ من الفقر والحاجة، فرأيته ذات يوم وهو يطالب رجلاً بأجرة خياطةٍ خاطها له، والرّجل

---

(١) «الحسن» في الأصل. والتصحيح من الإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٠.

(٢) «في أول المحرم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٣٦. ويوافق أوله منها الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٠٥٨ م. أخباره في: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٣٦. في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٦.

(٣) يذكر ابن ميسر «واجتمع ناصر الدولة بن حمدان باليازوري، وأشار عليه بالوزارة مضافاً لأشغاله، وتحدث له مع المستنصر فأجاب وولاه». المنتقى من أخبار مصر، ص ١٦.

(٤) «غيطر الملك والد اليازوري» في الأصل. والتصحيح من المنتقى من تاريخ مصر لابن ميسّر، ص ١٧.

(٥) فُوّه: بالضم ثم التشديد: بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٠.

يدافعُه ويُماطله، وهو يلحُّ في الطلب. فلمّا ألح عليه قال له الرجل: يا سيّدنا، اجعَلْ هذا القدر اليسير من جُملة ما ذهب منك في السَّفْرة الشامية. فقال: دَعْ ذكر ما مضى. فسألتُه عن ذلك فلم يحدِّثني بشيء، وسألتُ غير فقال: الذي ذهب منه في سَفْرته في نفقات سِمَاطه ستّة عشر ألف دينار.

قال المؤرخ: وكان اليازوري سيىء التّدبير، أوجب سوءُ تدبيره خُروجَ إفريقية وحلب عن المستنصر بالله.

قال: ولما قبض على اليازوري وَلِيَ الوزارة بعدَه صاحبُه أبو الفرج عبد الله[١] ابن محمد البابلي، وكان خصيصاً به، فلما ولي الوزارة بعده سعى في قَتْله كلَّ السَّعي، ويقال إنّه جهّز إليه من قتَله بغير أمر المستنصر، فلما اطلع على ذلك عظُم عليه، وعُزِلَ البابلي في شهر ربيع الأوّل منها. واستوزر أبا الفرج محمد[٢] بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربي، ثم صرَفه في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأعيد البابلي.

وفي سنة خمسين وأربعمائة استعمل ناصر الدّولة بن حمدان على ولاية دمشق.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسين، في المحرّم، صُرِف البابليّ عن الوزارة ووَلِيَها عبد الله[٣] بن يحيى بن المدبّر، ثم صُرف في بقية السنة ووَلِيَ أبو محمد عبدُ الكريم[٤] ابن عَبد الحاكم بن سعيد الفارقيّ في شهر رمضان من السنة؛ فقال أبو الحسن علي بن يسر الرحمٰن بن بشر الصقلي يخاطب ابن المدبر: [من الكامل]

لا تـجزعـنَّ عـن الأُمـور إذا الْتَـوت ... وَابـشـر بـلُـطـف مـسبِّبِ الأسـباب
مـا كـنْـتَ إلاَّ الـسَّيـف، جُرِّدَ مـاضيـاً ... وأُقِـرَّ مـذْخـوراً لِـيـوْمِ ضِـراب
لـلَّـهِ سيـرتُـك الّـتي مـا سِرْتَـهـا ... إلا بـأقْـومِ سـنَّـةٍ وكِـتـاب
شـيَّـدْتَ لـلـوزراء يـا ابـنَ مـدبِّـر ... شـرفـاً لـهـم يَـبْقَـى عـلـى الأَعْـقـاب

---

(١) انظر ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٧١، والإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٦.

(٢) هو من أصحاب سيف الدولة علي بن حمدان، ولي ديوان الجيش في مصر، وكانت والدة المستنصر بالله تعنى به، ولما ولي بالبابلي قبض عليه من جملة أصحاب اليازوري، واعتقل توفي سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٤٧.

(٣) ولي الوزارة دفعتين. وتوفي في وزارته في جمادى الأولى من السنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م.

(٤) والده عبد الحاكم بن سعيد الفارقي قاضي طرابلس ثم انتقل إلى القضاء بمصر وولده أبو محمد أول من ولي الوزارة في بيته. ابن الصيرفي: الإشارة، ص ٨، ٤٩.

وجمعْتَ بين طهارةِ الأعراق، والْـ ـأخْـلاق، والأفْـعَـال، والأثْـواب
جـعـلَ الإلٰـه لـكـلِّ قـوْمٍ سـادَةً وبـنُـو الـمـدبّـر سـادَةُ الـكُـتَّـاب

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة[١] في المحرم تُوفّي الوزير أبو محمد عبد الكريم، فرُدّت الوزارة إلى أخيه أبي علي أحمد[٢] بن عبد الحاكم، وكان يلي قضاء القُضاة: وصُرِف عن الحُكْم في صفر، ثم صُرف عن الوزارة، وقيل إنه صرف عنها بعد سبعة عشرَ يوماً من ولايته، وأعيد البابلي مرة ثالثةً في شهر ربيع الأول من السنة، واستعفى بعد خمسة أشهر، فاستوزر المستنصر سديد الدّولة أبا عبد الله الحسين[٣] بن علي الماسكي، وكان يلي نظر الدّواوين بدمشق، ثم صُرف في شوال وأعيد البابليّ.

ذكر الفتنة الواقعة التي أوجبت خراب الديار المصرية

كان ابتداء هذه الفتنة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وسببُها أنّ المستنصر بالله كان في كلِّ سنة يركب على النُّجُب ومعه النّساء والخمر[٤] إلى المكان المعروف بجُبّ عميرة[٥]، وهو موضع نزهة، ويَذكُر أنّه خرجَ يريد الحجَّ، على سبيلِ الاستهزاءِ والتهكّم، ومعه الخمر في الرَّوَايا بدلاً من الماء، يَسقيه للنَّاس كما يُسقى الماءُ في طَريق مكَّة، شرّفها الله تعالى، فلمَّا كان في هذه السَّنة خرج على عَادَته في جُمادى الآخرة؛ فاتَّفق أن بعض الأتراك جرَّد سيفاً على سُكْرٍ مِنْه على بَعْض عَبيد الشّراء، فاجتمع عليه طائفةٌ من العبيد وقتلُوه، فجاء الأتراك إلى المستنصر وقالوا: إنْ كانَ هذا عن رِضاك فالسّمع والطاعة، وإنْ كان عن غير رِضاك فلا تَصبرُ عليه. فأنكر المستنصر ذلك؛ فاجتمع جماعةٌ من الأتراك وقتلوا جماعةً من العَبيد بعد قتالٍ شديد على كوم شريك[٦].

---

(١) تقلب الوزراء على الوزارة في أيام المستنصر في هذه السنة، وكثير منها كان لأيام مدودات. انظر الوزارة في العصر الفاطمي لمحمد حمدي المناوي. ص ٣٠٨ ـ ٣١١.

(٢) انظر الإشارة: لابن الصيرفي، ص ٤٩، وهو «سديد الدولة ذو الكفايتين» ولي الوزارة سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢. توفي عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م.

(٣) انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٤٩.

(٤) «والحشم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٦٥. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر.

(٥) جب عميرة: محلة اليوم القرية التي تعرف باسم البركة من قرى مركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية، في الشمال الشرقي من القاهرة. عرفت قديماً باسم بركة الحجاج أو بركة الجب نسبة إلى عميرة بن تميم التجيبي صاحب الجب المعروف باسمه في الموضع الذي يبرز إليه الحجاج عند خروجهم من مصر إلى مكة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٦٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢١، حاشية. المسبحي: أخبار مصر، ص ٦٩، حاشية ١.

(٦) كوم شريك: إحدى قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة، عرف هذا الكوم باسم ابن سمي بن عبد =

وكانت والدةُ المستنصر تُعين العبيدَ بالأموال والسّلاح، فاطّلع بعضُ الأتراك على ذلك، فجَمَعَ طائفةً كثيرةً من الأتراك ودخل على المستنصر بهم، وأغلظُوا له في الكلام؛ فحَلف أنّه لم يكن عندَهُ عِلْمٌ من ذلك. ودَخَلَ على والدتِه وأنكرَ عليها؛ وصارَ السَّيفُ بين الطَّائفتين. ثم سَعَى أبو الفرج بن المغربي، الّذي كان يلي الوزارة، وجماعةٌ معه، في الصُّلح بين الطائفتين، فاصطلحوا؛ ولم تصْفُ طائفةٌ منهم للأخرى.

ثمّ اجتمع العبيد وخرجُوا إلى شَبرا دَمنهور(١) في جمع كثير.

وكان سبب كسرتهم أنّ والدة المستنصر لمّا قُتل سيدها ووزيرُها أبو سعيد التُّسْتَري اليهوديّ غضِبت لقتله، وشرعت في شراء العبيد السُّودان واستكثرت منهم، وجعلتهُم طائفةً لها؛ فاشتَدّ أمرُهم إلى أنْ صارَ العبدُ مِنهم يحكمُ حكمَ الوُلاة، فلمَّا وَلِيَ أبو البركات بن الجرجرائي أَمَرَتْه أن يُغرِيَ العبيدَ بالأتراك، فخاف العاقبةَ فلم يفعل؛ فصَرَفَتْه وولَّت وزيرها اليازُوري وأمرته بذلك، فلم يَقبَلْ منها، ودبّر الأمرَ وساسه إلى أن قُتِل. ووَزَرَ البابليّ فأمرته بذلك، ففعل، ووَقَعَ بين الطائفتين.

قال: فلمَّا خرج العبيد إلى شَبرَا دمنهور قَوِيت شوكةُ الأتراك وطلبوا الزِّيادات في أرزاقهم إلى أن خَلَت الخزائن من الأموال وضعُفت الدّولة، والعبيد على حالٍ من الضرورة وهُمْ يتزايدُون عِدّة، فتكامل منهم ما بَيْن فارس وراجل خمسُون ألفاً.

فبعَثت والدةُ المُسْتنصر لقُوّاد العَبيدِ، في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وأغْرَتهم بالأتراك؛ فاجتمعُوا وَوَصلُوا إلى الجيزة، فخرج الأتراك لقتالهم، والمقدَّم عليهم ناصرُ الدّولة الحسن(٢) بن حمدان، فَلقِيَهم فكُسرهُ العبيد ونهبوا عسكره، واشتَغلُوا بالنَّهب، فعطَف عليهم ابنُ حمدان وهَزَمهم إلى الصَّعيد، وعادَ إلى القاهرة وقد قَوِيَت شوكتُه.

ثمّ تجمَّع العبيدُ في الصّعيد في خمسة عشر ألف فارس وراجل، فقلِقَ الأتراك

= يغوث بن جزمرادي أحد صحابة رسول الله ﷺ، كان على مقدمة جيش عمرو بن العاص عند فتح الإسكندرية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٨٣. الكامل، ج ١، ص ٨٢، الذهبي: العبر، ج ٣، ص ٢٥٧، هذه الوقعة كانت على كوم ريش.

(١) شبرا دمنهور: هي القرية التي تعرف باسم شبرا الخيمة بمحافظة القليوبية، تقع على فم الترعة الإسماعيلية في الشمال الغربي للقاهرة على النيل، كانت تسمى قديماً شبرا دمنهور حيث تجاورها في الشمال قرية دمنهور شبرا التي تنسب إليها. وهذه اليوم أيضاً من ضواحي القاهرة. وشبرا الخيمة تعرف عند سكان القاهرة باسم شبرا البلد تمييزاً لها من قسم شبرا أحد أقسام مدينة القاهرة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق، ص ١٢ ـ ١٣. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢، حاشية ١.

(٢) «الحسين» في الأصل، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٢٧٣.

لذلك قلقاً شديداً، وحضرَ المقدَّمون إلى المستنصر لِيشكُّوا ذلك إليه، فأمرت والدته مَنْ عندَها من العبيد والخَدم بالهُجوم عليهم[١] وقتْل الأتراك، ففعلوا ذلك. وسَمع ناصرُ الدَّولة بنُ حمدان بالخبر، فَركب إلى ظَاهر القاهرةِ واجتمع إليه مَنْ بقي من الأتراك ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد المقيمين بمصر والقاهرة، ودامَتْ بين الفريقين أيّاماً، فانتصر ناصر الدّولة والأتراكُ على العبيد، وقتلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة، ولم يبْقَ منهم بالقاهرة ومِصْر إلاّ القليل.

وبقي العبيدُ المقيمون بالصَّعيد على حالهم. وكان بالإسكندريَّة منهم جماعةٌ، فسار ناصر الدّولة إليهم، فسألوا الأمان، فأمَّنهم؛ ورتَّب بالإسكندرية من يثق به. وانقضت سنة تسع وخمسين في حربهم.

وقويَت شوكةُ الأتراك في سنة ستين وأربعمائة، وطمِعوا في المستنصر بالله، وقلَّ ناموسُه عندهم. وكان مقرّرهم في كلِّ شهر ثمانيةً وعشرين ألف دينار، فصار في كلِّ شهر أربعمائة ألف دينار، وطالبوا المسْتنصِر بالأموال، فاعتذر أنّه لم يبْقَ عنده شيء منها؛ فطالبوه بذخائره فأخرجها إليهم، وقُوِّمت بأبخس الأثمان.

وخرج ناصرُ الدّولة بن حمدان في جماعةٍ من الأتراك إلى الصَّعيد لقتال مَنْ فيه من العبيد، وكانَ قد كثُر فسادهم، فالتَقَوْا واقتتلُوا، فكانت الهزيمة على ناصر الدولة والأتراك، فعادوا إلى الجيزة. فاجتمع على ناصر الدّولة مَنْ سَلِم مِنْ عسكره، وشَغبُوا على المستنصر بالله، واتّهموه أنه يُمِدّ العبيد بالنَّفقات سرًّا، فحلفَ لهم على ذلك.

ثمّ خرج الأتراك إلى العبيد وقاتلوهم، فقُتل منهم مقتلةٌ عظيمة ولم ينج منهم إلاّ القليل. وزَالت دولةُ العبيد، وعظُم أمْرُ ناصر الدّولة بن حمدان.

ذكر الوحشة الواقعة بين ناصر الدّولة والأتراك

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة ابتدأت الوحشة بين ناصر الدّولة ابن حمدان وبين الأتراك. وسبب ذلك أنّ ناصر الدَّوْلة قوِي واشتدَّت شوكتُه، وانفرد بالأمر دُون قوَّاد الأتراك، فعظُم ذلك عليهم وفسدت نياتهم، وشكوا ذلك إلى الوزير الخطير[٢]، وقالوا: كلَّما خرج من الخزانة مالٌ أخذ ناصرُ الدَّولة أكثره وفرّقه في حاشيته، ولا يصِلُ إلينا منه إلاّ القليل. فقال: ما[٣] وصل إلى هذا الأمر وغيره إلا بكم، ولو فارقتُموه لم

---

(١) «عليه» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هو محمد بن الحسن بن علي اليازوري «خطر الملك» استقر في القضاء، والوزارة في ١٣ صفر ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م. وصرف عنها في شوال من السنة نفسها. ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٥.

(٣) في الأصل: «إنما» والتصحيح يقتضيه السياق.

يتمَّ له أمر. فاتَّفق أمرهم على محاربته وإخراجه من ديار مصر، فاجتمعوا وذكرُوا ذلك للمستنصر، وسألوه أن يُخْرِجَه عنهم؛ فأرسل إليه يأمره بالخروج ويتهدَّدُه إنْ لم يفعل. ففارَقَ ناصر الدَّولة القاهرة وغدا إلى الجيزة، ونُهبت دُورُه ودور حواشيه وأصحابه.

فلمَّا جاء الليلُ دخل ناصرُ الدّولة، واجتمع بالقائد تاج الملوك شادي، وقبّل رجليه، وسأله أن يُعينه على إلْدِكِز[(١)] والوزير الخطير. قال: وكيفَ الحيلةُ في ذلك؟ قال: تركبُ أنت وأصحابُك وتسيرُ بين القصرين، فإذا أمكَنَتْك الفرصة فاقتلهما. فأجابه إلى ذلك.

وركب شادي من بُكرة الغد للتسيير فعلم إلْدِكِز بمراده، فهرب إلى القصر واستجار بالمستنصر فَسَلِمَ. وأقبل الوزيرُ في موكبِه فقتله شادي، وسيَّر إلى ناصر الدَّولة يأمره بالحضور؛ فعدَّى من الجيزة إلى القاهرة. فأشار إلْدِكِز على المستنصر بالرّكوب، وقال: متى لم تركب هلكت وهلكنا معك. فلبس سلاحه وركب، وتبعَهُ خلقٌ من عامَّة النّاسِ والجند، واصطَفّوا للقتال، فحملت الأتراك على ناصر الدّولة فانهزم، وقُتِل من أصْحابِه جماعةٌ كثيرة، ومضى لا يُلْوي على شيء وتبعَه بعضُ أصْحابه، فالتحق ببني سِنْبِس بالبحيرة فأقام عندهم وصاهرهم، وتقوَّى بهم[(٢)].

ولما تحقّق ناصر الدّولة ميْلَ المستنصر عنه قصدَ إبطالَ دعْوته، وكتب إلى السّلطان ألب أرسلان السلجوقي[(٣)] ملك خراسان والعراق يسأله أن يسيِّر إليه عسكراً يفتح له مصر ويُقيم الدّعوة العبّاسية بها. فتجهز ألب أرسلان من خراسان بعساكره، وكتب إلى صاحب حلب[(٤)] يأمره بقَطْع دعوة المستنصر وإقامة الدّعوة العباسية، ففعل ذلك، وانقطعت دعوة المستنصر[(٥)] من حلب؛ ثمّ ملكها ألب[(٥)] أرسلان[(٦)]؛ كما ذكرناه

(١) لقبه أسد الدولة، وهو شيخ الأتراك، كان قد تزوج ابنه ناصر الدولة بن حمدان ولكنه غدر بوالد زوجته وقتله ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٩٢.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٨٤. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٨٤.

(٣) «السلجقي» في الأصل، وهو ألب أرسلان محمد بن داود بن جفري بك بن ميكائيل بن سلجوق. ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٧٤.

(٤) هو محمود بن ثمال بن صالح بن مرداس، رشيد الدولة، الذي ولي حكم حلب مرتين في الفترة من ٤٥٢ ـ ٤٥٣ هـ/ ١٠٦٠ ـ ١٠٦١ م. والفترة من ٤٥٤ ـ ٤٦٨ هـ/ ١٠٦٢ ـ ١٠٧٥ م. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٠٢، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٤٦.

(٥) بدلاً من كلمة «ألب» وكلمة «المستنصر» بياض في الأصل. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر. ص ٣٥.

(٦) في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وحاصرها شهراً. ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٥.

في أخبار الدّولة السلجوقية[١]؛ ثم ملكت عساكره دمشق[٢].

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة والأتراك

قال: ولما اتَّصل بالمستنصر ما فعله ناصرُ الدّولة من مكاتبة ألب[٣] أرسلان جرَّد عسكَراً لِقتاله من الأتراك، فساروا ثلاث فِرَق. فأراد أحدُ المقدَّمين أن يلْقاهُ ليكونَ الظَّفُر لهُ دون رفيقَيه، فتقدَّم والتقى بناصر الدّولة، فهزمه ناصرُ الدّولة وقتل جماعةً من أصحابه وأَسَره. ثمّ الْتقى العسكرُ الثّاني ولم يعلمُوا بما جرى على الأوّل، فهزمهم أقبح هزيمة؛ وهرب العسكرُ الثّالث. وقَوِيَ ناصرُ الدّولة بهذا الظّفر، وقطَع الميرَة عن القاهرة ومصر، ونهَب أكثر الوجه البحري، وقطَع خُطبة المستنصر من الإسكندرية ودمياط والوجه البحري، وخطب للقائم بأمْر الله[٤] العبّاسي. وعُدمَت الأقواتُ بالقاهرة ومصر، واشتدَّ الغلاء، وكثُر الوباء، وامتدَّت أيدي الجند إلى نَهْب العوامّ.

ذكر الصُّلح بيْن ناصر الدَّولة والأتراك

وفي المحرّم سنة ثلاثٍ وستين وأربعمائة وقع الصُّلح بين ناصر الدّولة بن حمدان والأتراك. وسببُ ذلك أنّ المستَنْصر بالله والأتراك اشتدَّت بهم الضَّائِقةُ لقَطْع الميرَة، فاضْطَرُّوا إلى مُصَالحته، فصالحوه على أن يكُونَ مقيماً بمكانه ويُحْمَل إليه مال قرَّره المستنصِر، ويكون تاجُ الملوك شادي نائباً عنه، فرضي بذلك وسيَّر الغِلال إلى مصْر. ثمّ وقع الخلافُ بينهم بعْدَ شهور[٥]، فجاء ناصرُ الدّولة من البحيرة، وعساكرَ كثيرةً، وحاصر مصر في ذي القَعدة من السّنة، ودخل أصحابه فنهبوا شطراً منها، وأحرقوا دور السّاحل؛ ثمّ عادُوا إلى البحيرة. والله أعلم[٦].

(١) «السلجقيّة» في الأصل.

(٢) كان ذلك سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ م على يد القائد التركي أحد أمراء السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان، ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٢.

(٣) بدلاً من كلمة «ألب» بياض في الأصل.

(٤) هو الخليفة العباسي أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله، الذي ولي الخلافة العباسية في بغداد في الفترة من ٤٢٢ ـ ٤٧٦ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م. سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية، ص ١٢ ـ ١٣. ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٤١٦.

(٥) «بعد شهر وقع الخلاف بين الأتراك وبينه» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٦) انظر اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣٠٥، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر، ص ٣٧.

ذكر الحرب بين ناصر الدّولة وتاج الملوك شادي وما كان من أمر ناصر الدّولة إلى أن قتل

وفي سنة أربع وستّين وأربعمائة جمع ناصر الدّولة جُموعه من العُربان وجاء إلى الجيزة، واستدْعى إلَيه تاجَ الملوك شادي وبعض المقدَّمين، فخرجُوا للقائه، فقبضَ عليهم ونهب مصر وأحرقها.

وكان سببُ ذلك أنّ شادي كان قدْ قَطَع عن ناصر الدّولة ما كان قد تقرَّر حمْلُه إليه من المال، ولم يُوصِّل إليه إلاّ اليسير منه. فلمَّا قَبض عليهم سيَّر المستنصرُ إليه عسكراً كثيفاً، فهزموه، فهرب إلى البحيرة وجمع جموعه من العُربان وغيرهم، وقطع خطبةَ المستنْصر وأبطل ذكرَه. ثم قدِم ناصر الدّولة في شعبان من السنة ودخل إلى مصر وحكم بها، وأرسل إلى المسْتَنصر يطلُب منه المال؛ فرآة الرَّسولُ وهو جالسٌ على حصيرٍ وحوله ثلاث خدم، ولم ير شيئاً آخر من آثار المملكة. فلمَّا ذكر الرّسول رسالته للمستَنْصر قال: ما يكفي ناصرَ الدّولة أنْ أجلسَ في مثلِ هذا البيت عَلَى هذه الحال! فبكى الرَّسولُ، وعاد إلى ناصر الدّولة وذكر له الحال؛ فأطلق ناصرُ الدّولة للمستنصر بالله في كلِّ شهر مائةَ دينار، وحَكَم في القاهرة، وبالغ في إهانةِ المستنصر، وقبض على والدته وعاقَبها، وأخذ منها الأموال، وتفرَّق عن المستَنْصر جميعُ أقاربه وأولاده، ومضوْا إلى بلاد المغْرب والعراق[١].

وعمِل ناصرُ الدّولة على إقامة الدَّولة العبّاسية. فنهض إلْدِكِز أحد الأمراء، ويلدكوز، واجتمعا بِمَن بقي من الأتراك، واتَّفقُوا كلّهم على قَتْل ناصر الدّولة، وكان قد أَمِن وترك الاحتراس لقوّته وسَطوته، وظنَّ أنّ الدّنيا صَفَت له. فتواعَدَ الأتراكُ وركبُوا إلى داره، في شهر رجب سنة خمس وستين وأربعمائة، وهو إذْ ذاك بمصر بمنازل العزّ[٢]، فدخلوا عليه من غير اسْتِئْذان إلى أن بلغوا صحن الدَّار، فخرج إليهم في رداءٍ، فقتلوه وأخذوا رأسه. وكان الّذي تولى قَتْله إلْدِكز، وقتل أخوه فخر العرب وأخوهما تاج المعالي وجماعة من أهل بيته. وانقطع ذكرُ آل حمدان، ولم يبْقَ بمصر لهم ذكر[٣].

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٨٤ ـ ٨٦. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٤ ـ ٢٦. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) منازل العز: دار بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز، وكانت مطلة على النيل، وكانت معدة لنزهة الخلفاء، ثم أصبحت مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة إلى الملك المظفر تقي الدين عمرو بن شاهنشاه ابن نجم الدين أيوب بن شادي. وسكنها ناصر الدولة بن حمدان إلى أن قتل المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٤، وج٢، ص ٣٦٤.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٩٢ ـ ٩٣.

وناصر الدّولة هذا هو الحسَن بن الحسين بن ناصر الدّولة الحسَن بن عبد الله بن أبي الهيجاء حمدان بن حمدون.

نرجع إلى حوادث الدّولة المستنصريّة:

وفي سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة نُدب أمير الجيوش بدر الجمالي لوِلاية دمشق على حربها[١]، وفُوّض إليه في سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة ولايةُ الشّام بأسرها[٢].

ذكر الغلاء الكائن بالدّيار المصريّة

كان ابتداؤُه في سنةِ سبعٍ وخمسين وأربعمائة واشتدَّ من سنة إحدَى وستّين. وقلَّت الأَقواتُ في الأعمال حتّى أكلَ النّاس الميْتَة، وتَزايَدَ في سنة اثنتَين وستّين. وكثُر الوباء بالقاهرة ومصر حتّى إنّ الواحدَ كان يموت في البيْت فيموتُ في بقيّة اليوْم أو اللّيلة كلّ مَنْ بقي فيه. وخَرج من القاهرة ومصْر جماعةٌ كثيرة إلى الشّام والعراق؛ وأكل بعضُ النّاس بعضاً. ودامَ ذلك إلى سنة أربعٍ وستّين. وشبِّهت هذه السّنين بسني يوسُف عليه السلام.

قال ابن الهمذاني في تاريخه[٣]. وفي سنة اثنتين وستّين وأربعمائة ورد إلى بغدادَ من مصر الرّجال والنساءُ هرباً من الجوع والفتنة، وأخبروا أنَّ بعضهم أكل بعضاً. ووردَ التّجار ومعهُم ثيابُ صاحبِ مصر وآلاتُه وذخائره؛ وكان معهم أشياء كثيرة نُهبت عند القبض على الطّائع، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة؛ وما نُهب في وقعة البساسيري[٤].

قال: وخرج من خزانة المستنصر بالله أشياء عظيمة، من جملتها ثلاثون ألف قطعة بلور كبار، وخمسة وسبعون ألف ثوب ديباج خسرواني[٥]، وأحد عشر ألف درع، وعشرون ألف سيف محلاة، وغير ذلك.

قال المؤرخ: ومِنْ جملة ما بلغ من أمْر الغلاء أنَّ امرأةً كان لها حلي باعت ما

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٩، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٣٠. ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٢٨.

(٢) «في جمادى الأولى ولي المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالي الشام بأسره، فخرج وقدم دمشق سادس شعبان» ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٣٠.

(٣) هو محمد بن عبد الملك الهمذاني، صاحب تكملة تاريخ الطبري.

(٤) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٣. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٣٦، أخبار الدولة المنقطعة لابن ظافر، ص ٧٥.

(٥) نسبه إلى خسرو شاه من أكاسرة الفرس.

يُساوي ألف دينار بثلاثمائة دينار واشترت به حِنْطة، فنُهبت منها في الطّريق، فنَهَبت مع مَنْ نَهب، فحصَّل لها ما جَاء رغيفاً واحداً[١].

وحكي أنّ بعض أهل اليسار وَقف بباب القصر وصاح واستصرخ إلى أن أُحْضِر بين يدي المُسْتنصر، فقال له: يا مولانا، هذه سَبعون قمحةً وقفت عليّ بسبعين ديناراً، كلّ قمحة بدينار، في أيامك؛ وهو أني اشتريت أردبّ قمحٍ بسبعين دينارٍ، فنُهب منّي فنَهَبْت مع مَنْ نهب، فوقع في يدي هذه؛ فكلّ قمحة بدينار، فقال المستنصر الآن فرَّج الله عن النّاس فإنّ أيّامي حُكم لها أنّ القمحة تُباع بدينار[٢].

قالوا: ولم يكنْ هذا الغلاءُ عن نَقص النّيل، وإنما كان لاختلاف الكلمة وحروب الأجناد، [وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأجناس، فتغلب لَوَاتة والمغاربة على الوجه البحري، وتغلب العبيد السودان على أرض الصعيد، وتغلب الملثمة والأتراك بمصر والقاهرة][٣]، وتغلَّب المتغلّبين على الأعمال، وكان النّيل يزيد ويهبط في كلّ سنة، ولم يجِدْ من يزرع الأراضي؛ وانْقَطعت الطُّرقات برًّا وبحراً إلاّ بالخِفَارة الكثيرة، وأبيع الرّغيف الخبز بأربعة عشر ديناراً أو درهماً. قال الحواني: وأبيع الأردبّ القمح بمائتي دينار.

ذكر قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر واستيلائه على الدولة

كان تقدّمه في سنة ستٍ وستّين وأربعمائة. وسبب ذلك أنّ المستنصر تواترت[٤] عليه الرّزَايا وحصَره ابنُ حمدان كما ذكرنا فلمّا قتل ابن حمدان استطال إلْدِكز والأتراك والوزير ابن أبي كدينة[٥]، فضاق المستنصر ذَرعاً وكاتب أمير الجيوش بدر الجمالي[٦]

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠، ص ٨٥.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠٠. أما لواتة والمغاربة فقد جاؤوا مع جيوش الفتح وفي ركاب المعز لدين الله، وتزايد السودان بالشراء، وتكاثر عددهم أيام المستنصر، إذ كانت والدته جارية لأبي سعيد التستري ـ اليهودي ـ فلما تولى ابنها المستنصر الخلافة تحكمت في الدولة واستكثرت من بني جنسها. أما الأتراك فكان العزيز بالله أول من استقدمهم، واستعان بهم، فتزايد عددهم حتى أصبحوا كغيرهم حظراً على الدولة. المقريزي: اتعاظ الحنفا ج ٢، ص ٣٠٠ حاشية ١.

(٤) في الأصل «لما تواترت» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) هو الحسن بن مجلي بن أسد بن أبي كدينة. ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٠.

(٦) كان بدر الجمالي أرمني الجنس، اشتراه جمال الدولة بن عمار وتربى عنده وكان يلقب «أمير =

وحسَّن له أن يكون المتولِّي لأمر دولته، فأعاد الجواب واشترط أنْ يستخدم معه عسكراً، وألاّ يُبقي على أحدٍ من عسكر مصر. فأجابه إلى ذلك. فاستخدم العساكر وركب في البحر الملح، وكان إذْ ذاك بعكّا، وسار في مائة مركب في أوّل كانون، وهو وقتٌ لم تجْرِ العادةُ بركوب البحر في مثله، فوصل دمياط، وركب منها. وسار إلى أن نزل بظَاهِر قليوب. وأرسل إلى المستنصر بالله أن يقبض على إلْدِكِز[١]، فقبض عليه، ودخل أمير الجيوش إلى القاهرة في شهر ربيع الآخر منها، وقيل في جمادى الأولى. فما لبث أن بعث كل أمير من أمرائه إلى قائدٍ من قوّاد الدّولة ليلاً وأمره أن يأتيه برأسه؛ فأصبح وقد أُحْضر إليه من رؤوس قُوّاد الدّولة شيء كثير. وقَبَض على الأتراك وقوِيت شوكته، وقَمَعَ كلَّ مفسد، حتى لم يبق أحد منهم بمصر والقاهرة. وخلع المستنصر بالله علي بدر الجمالي بالطّيلسان، وصار أمر المستخدَمين في حُكمه، والدّعاة والقضاةُ نوّابه.

قال: ولمَّا قدم مصر حضر إليه المتصدِّرون بالجامع، فقرأ ابن العجمي: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وسكت عن تمام الآية، فقال له بدر: والله لقد جاءت في مكانها، وسكوتُك عن تمام الآية أحسن[٢]؛ وأحْسَنَ إليه. وقيل: بل قال له: لِمَ لا قرأت ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقَتَل أمير الجيوش من أماثل المصريين ووزرائهم وحكَّامهم جماعةً، وشرع في إصلاح الأعمال وقَتْل المفسدين.

وفي سنة ثمانٍ وستّين وأربعمائة خُطب للمستنصر بمكَّة والمدينة، وكانت الخطبة بهما قد انقطعت منذ خمس[٣] سنين.

وفيها حاصر أتسيز[٤] دمشق وملكها، على ما ذكرناه في الباب العاشر من القسم الخامس من هذا الفنّ في أخبار الدّولة السلجقية. وانقطعت خُطبة المستنصر من الشّام.

= الجيوش» توفي عام ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م. ترجمته في: الإشارة لابن الصيرفي ص ٥٥ ـ ٥٦. ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٤٨، الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفدي، ج ١٠، ص ٩٥، رقم ٤٥٤٥.

(١) «بلدكوز» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٠، و«يلدكوش» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣١٢. الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفدي، ج ١٠، ص ٩٥، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٣٩.

(٢) وتتمتها ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ورد في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، «لو أتم الآية أمرت بضرب عنقه» ج ٦، ص ٣٩٩.

(٣) سورة الزخرف، رقم ٤٣ من الآية ٥٩ وتتمتها: ﴿...وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٤) اتسيز أو أتسز أو أطسز، ويكتب أحياناً أقسيس، أحد أمراء السلطان السلجوقي ملك شاه. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٩٩ ـ ١٠٠، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٢٤٢.

ذكر هلاك عرب الصعيد وقتل كنز الدولة

وفي سنة تسعٍ وستين وأربعمائة اجتمع جماعةٌ كثيرة من عرب جهينة والجعافرة والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ[١] العليا من صعيد مصر، واتّفقوا على قِتال أمير الجيوش، فخرج إليهم. فلمّا قارَبَهم هجم عليهم في نِصْف اللّيل، فهزمهم وأبادهم بالقتل، وغرق خلقٌ كثيرٌ منهم، وغنِم أموالَهم وحُمِلت إلى المستنصر.

وكان كنز الدّولة[٢] محمّد قد تغلَّب على ثغر أسوان ونواحيها وعظُم شأنه وكثُرت أتباعه؛ فقاتله أمير الجيوش وقَتَله، وبنى في المكان مسجداً سمّاه مسجد النّصر. وكانت هذه الوَقْعَة آخرَ إصلاح حالِ مصر وعُربانها. وقيل كان قَتْل كنز الدّولة في سنة خمسٍ وسبعين والله أعلم.

وفي غيبة أمير الجيوش [هجم][٣] أتسيز على الدّيار المصريّة، وكان ابن يلدكوز قد التَحقَ به وأهدى له تُحفاً جليلة المقدار، منها ستّون حبّة لؤلؤ مدحرج[٤] تزيد كلُّ حبة على مثقال، وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالاً، وغير ذلك، وأطمعه في ملك الدّيار المصريّة، وملك ما وصل إليه، فجمع أمير الجيوش عساكرَه وخرج إليه، وقاتله وهزَمَه، وقتل خلقاً كثيراً من أصحابه بعد أن أقام بأرياف مصر جُمَادَيَيْن وبعض شهر رجب.

وفيها خرج على أمير الجيوش عربُ قيس وسليم وفزارة، فخرج إليهم وقاتلهم، وهزمهم، وطرَدهم إلى برقة[٥].

وفي سنة سبعين وأربعمائة فوّض لأمير الجيوش بدر الجمالي قضاءُ القضاة، ونُعِت بكافل قُضاة المسلمين، وهادى دُعاة المؤمنين.

وفي سنةِ سبعٍ وسبعين وأربعمائة خالف الأوحد بن أمير الجيوش على والده، واجتمع معَه جماعةٌ من العُربان وغيرهم، واستولى على الإسكنْدريّة. فسار إليه والدُه وحاصره بها، وفتحها، وقبض على ولده. وبنى أميرُ الجيوش الجامع المعروف بجامع العطّارين بالإسكندرية[٦] من أموالٍ أخذها من أهل البلد؛ وكانت عمارتُه في شهر ربيع

---

(١) طوخ: قرية في صعيد مصر الأعلى على غربي النيل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦.
(٢) انظر تاريخ دولة الكنوز الإسلامية لعطية القوصي، القاهرة ١٩٧٦ (بنو كنز).
(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق، انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ١٠٣.
(٤) «حرجرج» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٤.
(٥) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص ٧٦، ابن ميسّر المنتقى من أخبار مصر، ص ٤٤.
(٦) جامع العطارين: من أقدم مساجد الإسكندرية، وكان قائماً في سوق العطارين، فعرف به، ومكانه اليوم بشارع جامع العطارين. ولم يبن الدين الجمالي هذا الجامع، وإنما جدده، وأشار إلى ذلك في =

الأول سنة تسعٍ وسبعين. وقامت الخطبة بهذا الجامع إلى آخر أيّام العاضد.

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ندبَ أميرُ الجيوش بدر الجمالي عسكراً إلى السَّاحل ففتح صُور وصَيدا، وصارَا بِيَد نوّابه. ثم سار بعد ذلك وفتح جُبيل وعكّا. وكان ذلك في يد تاج الدولة تُتُش(١) صاحب دمشق.

ذكر بناء باب زويلة بالقاهرة

وفي سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة أمرَ أمير الجيوش بدر الجمالي ببناء باب زويلة الكبير، الذي هو الآنَ باقٍ، وعلّى أرضَه [ولم يعمل له باشورة](٢) وأراد أن يجعل له عطفةً على عادة أبواب الحصُون حتّى لا تهجم عليه العساكر في أوقات الحصار، ويتعذّر دخولها جُملة؛ فأشار عليه بعضُ المهندسين أن يعمل في بابه زَلاَّقَةً من حجارة الصَّوَّان، فعمله على هذا الحكم. ولم يزَلْ كذلك إلى أن دخَل منه السّلطان الملك الكامل(٣) ابنُ الملك العادل، فزَلق فرسه، فرسَم أنْ يُخفَّف من حجارَته، فخُفّف منها، ولم يبق إلاّ القليل على ما هو عليه الآن(٤).

= لوحة تاريخية مثبتة في قاعدة المنارة على يسار الداخل من الباب البحري الشرقي. انظر نصها في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٦، هامش ١٨٩. وانظر أيضاً المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٦، هامش ١٨٩.

(١) «تسر» في الأصل، والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ١٧٦ ـ ١٧٧. النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٦.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥١. والباشورة بناء ذو منعطفات أمام كل باب أو خلفه، يقصد به تعويق هجوم العساكر على الباب وقت الحصار، وتعويق دخول الخيل إلى المدينة في مجموعة كبيرة دفعة واحدة، وقريب من هذا المعنى ما ذكره دوزي من أن الباشورة هي الحائط الظاهر للحصن يختفي وراءه الجند للقتال. Dozy, Supp. Dict. Ar. انظر الخطط للمقريزي، ج ١، ص ٣٧٧ ـ ٣٨٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٢٧ ـ ٣٨٠. حاشية ٣.

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الملك الكامل، ولي حكم الدولة الأيوبية سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م. ولد سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م. توفي عام ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٧ م ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٧٩، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٣٠. الخطط المقريزية ج ٢، ص ٢٣٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ١٧٢، شفاء القلوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص ٢٩٩، والكامل لابن الأثير، حوادث سنة ٦١٥ هـ إلى سنة ٦٢٨، حيث ينتهي كتاب الكامل لابن الأثير. والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ٢، ص ٢١٣. ومفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٧٤.

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥١. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٢٧.

وفي سنة ستٍّ وثمانين وأربعمائة ملك ناجُ الدّولة تُتُش ثغر صور بمواطأة من نائب بَدْرٍ بها.

ذكر وفاة أمير الجيوش بدر الجمالي وولاية ولده الأفضل

كانت وفاتُه في شهر ربيع الأول[1]، وقيل في جُمادى الأول، سنة سبعٍ وثمانين[2] وأربعمائة. وكان حكمه بديار مصر حكم المُلوك ولم يَبْق للمستنصر بالله أمر، بل سلَّم الأمور إليه فضبَطَها أحسن ضبط. وكان شديدَ الْهَيْبَة، سريعَ البطْش؛ قتلَ خلقاً كثيراً من أكابر المصريّين وقُوَّادهم وكُتّابهم؛ وعلى يديه صلحت الدّيار المصريّة بعد أن خربت. وكان له نحو الثّمانين سنة.

وكان أرمنيّ الجنس مملوكاً لجماليّ الدّولة بن عمار وإليه يُنسب وتولّى إمرة الشّام والسّاحل.

ولما كان يلي دمشق جرت فتنةٌ من عسكره وأحداث البلد خَرِب بسببها قصرُ الإمارة والجامع الأموي.

ذكر وفاة المستنصر بالله وشيء من أخباره

قال المؤرخ: ولمّا وَلِيَ مصر أطلق الخراج للمزارعين ثلاثَ سنين إلى أن تمّت أحوالهم واتّسعت أموالهم. وكانت إمارته بمصر إحدى وعشرين سنة.

ولمّا توفي وَلِيَ بعده الوزارة ولده الأفضل، ونعت بنعوت أبيه، وقبض على جماعةٍ من الأمراء كانوا قد ثاروا عليه.

كانت وفاته في ليلة الخمس الثامن عشر من ذي الحجّة سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة، ومولدُه في يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة. فكانت مدّة حياته سبعاً وستين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ومدة ولايته ستّين سنة وأربعة أشهر.

ولقي في ولايته أهْوالاً عظيمة وشدائد كثيرة وفاقةً متمكنةً حتى جلس على نُخٍّ[3]

---

(١) «ربيع الآخر» في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٣٨١، و«في ذي القعدة» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٣٥.

(٢) «سنة ست وثمانين» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٣٩. و«سنة ثمان وثمانين» في العبر للذهبي، ج ٣، ص ٣٢٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٣٨٣، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٣) نُخ: بساط طوله أكثر من عرضه. ابن منظور: لسان العرب (نخخ).

وكانت أيامه ما بين غلاءٍ ووباء وفتن، على ما نذكره. وكان قد عَنا وتجبَّر واشتهر، وذلك أنه اشتُهر عنه أنه نصب خركاة في القُصور التي بعين شمس وبنى فسقِيَّةً عظيمة وحمل إليها الخمر في الرَّوَايا وأخرج جميع مَنْ في قصره من الملاهي والقيان إلى الخركاة وهم يغنون بأصوات مرتفعة ويستَقُون من فسقيَّة الخمر، ويطوفون بالخركاة، يُضاهون بذلك البيتَ المعظَّم وزَمْزَم، ويقول: هذا أطيب من زيارة حجارة، وسماعِ صوتٍ كريه، وشرب ماء آسن[1]. فأخذه الله تعالى وعجّل العقوبة، وأراه الذُّلّ مع قيام سُلطانه، وسلَّط عليه أنصار دولته حتّى نهبوا أمواله واستولوا على قصره، ولم يَبْقَ له إلاّ بِساطٌ فجذبوه من تحته. وصار إذا رَكب لا يجدُ ما يركبه حاملُ مظلّته إلاّ أنْ يُستعار له بغلة ابن هبة، صاحب ديوان الإنشاء، وكلُّ خواصّه مشاة ليس لهم دواب يركبونها؛ وكانوا إذا مشوْا يتساقطُون في الطّرقات من الجوع. وكانت ابنة بابشاذ تبعثُ إليه برغيفين في كلِّ يوم. وهذه عاقبةُ الطغيان والاستهتار.

وكان له أولاد منهم: أبو القاسم أحمد، وأبو المنصور نزار، وأبو القاسم محمد، وأبو الحسين جعفر، وغيرهم.

ووَزَر له جماعة[2] وهم: أبو القاسم الجرجرائي الأقطع، وزير والده، إلى أن توفّي، فاستوزر من ذكرناهم إلى آخر سنة أربع وخمسين. وتكرَّر بعضُهم في الوزارة مراراً واستوزر أبا غالب عبد الظّاهر بن فضل العجمي غير مرّة، دفعةً في جُمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصُرف بعد ثلاثة أشهر، ودفعةً في شهر ربيع الآخر سنة ستٍّ وخمسين وصُرف بعد ثلاثة وأربعين يوماً، ثم وليها ثالثةً في أيام الفتنة ولُقِّب تاج الملوك شادي، وقتل في سنة خمسٍ وستين، ووَلِيَ له الحسن بن ثقة الدولة ابن أبي كدينة القضاء والوزارة، كلَّ منصبٍ منها خمس دفعات، ويقال إنه من ولد عبد الرحمٰن ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولمّا وصل أمير الجيوش بدر الجمالي أرسله إلى دمياط وأمر بضرب عنقه، فدخل عليه السَّياف بسيفٍ كليل[3] فضربه عدَّة ضربات حتى أبان رأسه، وكان عدّة ما ضَربه عدَّة ولاياته الحُكم والوزارة. وولي أبو المكارم أسعد ثم قتله أمير الجيوش، ووَزرَ بعده أبو علي الحسن بن أبي سعد إبراهيم بن سهل التّسْتَري عشرة أيام ثم اسْتَعْفَى، وكان يهودياً فأسلم، ووَلِيَ أبو القاسم

---

(١) ماء آسن: ماء نتن. ابن منظور: لسان العرب (أسن).

(٢) «ووزر له أربعة وعشرون وزيراً» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥٥. وفي اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٣) لكيل: السيف الذي لا حدّ له. ابن منظور: لسان العرب (كلل).

هبة الله محمد الرعباني دفعتين كلّ دفعة عشرة أيام. وَوَزَرَ الأثير أبو الحسن بن الأنباري أياماً وصُرف، وَوَز أبو علي الحسين بن سديد الدولة الماسَكي مرة ثانية أيّاماً ثم صرف، ووزر أبو شجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملك، وفخر الملك هو الذي وزر لبهاء الدولة ابن بويه، فصُرف وسار إلى الشّام فقتله أمير الجيوش في مسيره. واستوزر أبا الحسن طاهر ابن الوزير الطرابلسي من طرابلس الشّام، ثم صَرَفه، وكان أحد الكتّاب بديوان الإنشاء، واستوزر أبا عبد الله محمد بن أبي حامد السيسي يوماً واحداً ثم قُتل، فاستوزر أبا سعد منصور بن أبي اليمن سورس بن مكرواه ابن زنبور، وكان نصرانيّاً ثم أسلم، والنصارى يُنكرون إسلامه. واستوزر أبا العلاء عبد الغني بن نصر بن سعد وصُرف وبقي أيّاماً وقتله أمير الجيوش[١]. ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا ووَزر للسَّيف والقَلَم والحُكم إلى أن مات، ثم ولدُه الأفضل بعده.

قضاته: كان منهم جماعةٌ من الوزراء قد ذكرناهم، ومَنْ لم يَلِ الوزارة عبد الحاكم ابن سعيد الفارقي في أوَّل خلافته، ثم القاسم بن عبد العزيز بن النعمان. وفي ولاية أمير الجيوش أبو يعلى العرقي إلى أن مات، فولي أبو الفضل القضاعي. ثم جلالُ الدَّولة أبو القاسم علي بن أحمد بن عمار، ثم صرفه وولّى أبا الفضل بن عتيق، ثم أبا الحسن علي بن يوسف الكحال النابلسي؛ ثم فخر الأحكام محمد بن عبد الحاكم[٢].

وكان نقش خاتم المستنصر بالله «بنصر السَّميع العليم ينتصر الإمام أبو تميم»[٣].

ذكر بيعة المستعلي بالله[٤]

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معدًّ، وهو التّاسع من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة، والسادس من ملوك مصر منهم. بُويع له في بُكرة نهار الخميس لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

وذلك أن المستنصر بالله لما تُوفّي بادر الأفضل أمير الجيوش بدُخول القصر

(١) بشأن تقلب الوزارة انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٧١، حاشية رقم ٣.

(٢) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٣٤. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨١، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥٧.

(٣) «ينتصر المستنصر أبو تميم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٤) ترجمته وأخباره في: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٢٨، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٢ ـ ٨٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٧٨ ـ ١٨٠، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٤٢ ـ ٤٦٠، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١، وأخبار مصر لابن ميسّر ص ٥٩ ـ ٧٠، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، ج ٢، ص ١٩. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٠.

وأجلسه على تخت المملكة، وسيَّر إلى إخوته نزارٍ وعبد الله وإسماعيل، وأعْلَمَهم بوفاة أبيهم، وأمرهم بسُرعة الحضور. فلمّا حضروا شاهدُوا أخاهم الصّغير وقد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدَّموا وقبّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبايِعوه، فهو الذي نصَّ عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده. فقال نزار: لو قُطِّعت ما بايعتُ مَن هو أصغر منّي سنًّا، وخطُّ والدي عندي بولاية العهد، وأنا أُحضره. وخرج مُسرعاً ليُحضر الخطَّ فمضى إلى الإسكندريّة، فسيّر الأفضل خَلْفَه من يُحضره، فلم يعلم أحدٌ أين توجَّه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل[1] لذلك.

وقيل: إنَّه لمّا تُوفّي المستنصر بالله جلس بعدَه ولدُه أبو منصور نزار، وهو وليُّ العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش منْ ذلك لكراهته فيه[2] واجتمع بجماعة الأمراء والخواصّ وقال لهم: إن هذا كبير السّن ولا نأمنهُ على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد. فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكي[3]، فإن نزاراً كان قد وعده بالوزارة والتّقدِمة على الجيوش مكان الأفضل. فلمَّا علم ابن مصال الحال أطلعَ نزاراً عليه.

وبادر الأفضَلُ وبايع أحمدَ الخلافة، ونعته بالمستعلي بالله وأجلسه على سرير الملك، وجلس الأفضل على دكَّة الوزارة. وحضر قاضي القضاة نصر الإمام علي بن الكحال ومعه الشّهود، وأخذ البيعة على مقدَّمي الدَّولة ورؤسائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمَّت لمولانا المستعلي بالله، وهو يُقرِئُكُما السّلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة؛ إن الله اختاره علينا. وبايعاه، وكتب بذلك سجلّ قرأه على الأمراء الشّريف سناء الملك محمد بن محمد الحسني الكاتب بديوان الإنشاء. وبادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية، وعليها ناصر الدّولة أفتكين التّركي، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي، فعرَّفوه الحال ووعدُوه بالوزارة، فبايعه، وبايعه أهل الثّغر،ولُقِّب بالمصطفى لدين الله.

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١١، ـ المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) بشأن سبب الكراهية: انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤١، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢.

(٣) في الأصل «المالكي»، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٦٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢. نسبة إلى قرية يقال لها لُك برقة. اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٢.

ذكر ما اتّفق لنزار ومَنْ معه

قال: وفي المحرّم سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال. فلمَّا قرُب منها خرجوا إليه، والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الهزيمةُ على الأفضل ومَنْ معه، فرجع إلى مصر ونهبَ نزار ومَنْ معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ثم خرج الأفضل ثانياً وحاصر الإسكندرية، واشتدَّ الحصار إلى ذي القعدة، فلمَّا اشتد الحال رأى ابنُ مصال مناماً، فلمَّا أصبح أحضر رجلاً أعجمياً وقال له: رأيتُ كأنّي راكبٌ فرساً وكأنَّ الأفضل يمشي في ركابي. فقال له العجميّ: الماشي على الأرض أمْلَك لها. فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لُكّ قرية من قرى برقة. فعند ذلك ضعُفت قوَّة نزار وأفتكين، فاضطرَّ إلى مسَالمة الأفضل [وبعثا](١) يطلبان الأمان، فأمَّنهما وفُتحت البلد.

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيَّرهما إلى مصر، وكان آخرَ العهدِ بنزار. قيل: إنَّه جعلَهُ بين حائطين إلى أن مات. وكان مولدُه في عاشر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. وأمَّا أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس. وأمَّا محمود بن مصال فكاتَبَه الأفضل ورغَّبه في العَوْد، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان(٢) صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جُمَع(٣)، ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه(٤) في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم.

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدَّس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل على البيت المقدس، وهو في يد الأمير سُقْمَان وإيلْغَازي، ابني

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى، المقريزي، ج ٣، ص ١٤.

(٢) هو رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي الملقب بفخر الملك. استقل بمملكة حلب، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م. ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٦. رقم ١٢٢. انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ج ٣، ص ١٩، ابن الأثير: الكامل ج ١٠، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٦٤. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٠٢.

(٣) «أربعة أشهر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٩.

(٤) انظر نهاية الأرب للنويري، ج ٢٧، ص ٧٢ ـ ٧٣.

أُرْتُق[١]، وجماعة من أقاربهما وخلق كثير من الأتراك فراسلَهُما يلتمسُ منهما تسليم البيت المقدّس من غير حرب ولا سَفْك، فلم يجيباه لذلك. فنصب المجانيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطرًّا لتسليمه فسلّماهُ له، فخلع عليهما وأطلقهما. وعاد الأفضل إلى مصر[٢].

ونَقَل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لمَّا رجع من بيت المقدس مرَّ بعسقلان، وكان في مكانٍ دارسٍ بها رأس الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فأخرجه وعطَّره وطيَّبه، وحُمل في سفَط إلى أجَلِّ دارٍ بها، وعمرَ المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صَدره وسعى ماشياً إلى أن ردَّه إلى مقره، ثم نُقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله. وقيل إن المشهد [بعسقلان][٣] ابتدأ بعمارته بدر الجمالي وكمَّله الأفضل[٤].

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميعُ ما استَوْلَوْا عليه مما نذكره داخلاً في ملك الدولة العُبَيديّة بل كان منه ما هو في أيدي نُوّاب المستعلي وما هو بيد الملوك الذين تغلَّبوا على الأطراف، ولم يكن أيضاً في أيام المُسْتعلي خاصَّة. وإنما وردناه بجُملته في هذا الوضع لتكون الأخبارُ متتابعةً ولا تنقطعُ بالسنين والدول. وقد نبّهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية[٥].

والذي نذكُره الآن في هذا الموضع هو ما استَوْلَوْا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

وكان ابتداء ظهورهم وامتدادِهم وتطرُّقِهِم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وذلك أن بلاد الأندلس[٦] لما تقسَّم ملوكها بعد بني أُمية وصارت كلُّ جهةٍ بيد ملك، وأنِفَت نفسُ كل واحدٍ أن ينقاد إلى الآخر، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفُرس، وعجز كلُّ واحدٍ عن مقاومة مَنْ يليه أو يقصدُه

(١) انظر تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٣٥٠.
(٢) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٢، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٤٢٧.
(٤) لمزيد من التفصيل انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٦٦.
(٥) انظر نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٢.

من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسْلاَمية، فأول ما استَوْلَوْا عليه مدينة طُلَيطِلة من الأندلس، على ما ذكرناه[١] في سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقليّة في سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة، وتَطَرَّقوا إلى أطْراف إفريقية فملكوا منها شيئاً ثم اسْتُرجع منهم، على ما قدَّمْناه[٢].

ذكر ملكهم مدينة أنطاكيَّة

كان استيلاءُ الفرنج خَذَلَهم الله تعالى، على مدينة أنطاكيَّة في جُمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد مُلوك الرُّوم من سنةِ ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملكُ سُليمان[٣] بن شهاب الدين قُتْلُمش السلجقي، صاحب أقصرا وقونية[٤] وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السّلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل، وتداولتها أيدي المتغلّبين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد يَاغِي سِيَان وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تُتُش صاحب حلب، ولأخيه الملك دُقاقُ صاحب دمشق.

فلمّا كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين[٥] ملك الفرنج جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان تسيب رُجَارْ الفرنجي صاحب صِقليّة، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا واصل إليك وسائرٌ مِنْ عندك إلى إفريقية أفتَحُها وأكون مجاوراً لك.

فجمع رُجارْ أصحابه واستشارهم فقالوا كلُّهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد كلُّها للنصرانية. فلمَّا سمع رُجارْ كلامَهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجله وحَبَقَ حبقةً قوية، وقال: وحقِّ ديني هذه خيرٌ من كلامكم. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إذا وصلوا إليَّ احْتَجْتُ إلى كلفةٍ كثيرة، ومراكب تحملُهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي معهم، فإن

---

(١) انظر نهاية الأرب، ج ٢٣، ص ٤٤٢.

(٢) للتفصيل، انظر نهاية الأرب، ج ٢٧٤، ص ٩٠ ـ ٩١.

(٣) هو سليمان بن قتلمش بن أرسلان بن بيغو بن سلجوق، وهو ابن عمة السلطان ملكشاه السلجوقي، مؤسس دولة سلاجقة الروم أو سلاجقة الأناضول. وحكم سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م. قتل عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٢.

(٤) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها وبأقصى سُكنى ملوكها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٥.

(٥) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٢: «... وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج وكان نسيب رُجار الفرنجي.

فتحوا البلاد وكانت لهم وصارت مؤونتهم من صِقليّة وينقطع عني ما يصل إليَّ من المال من ثمن الغلاَّت في كل سنة، وإن لم يفتحُوها رجعوا إلى بلادي وتأذَّيْتُ بهم، ويقول تميم[١]، صاحب إفريقية غدَرْت بي ونقَضْت عهدي، وتنقطعُ الوُصلة والأسفارُ بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقيَةٌ مَتَى وجدْنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسُوله وقال له إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتْحَ بيت المقدس وخلِّصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأمّا إفريقية فبيني وبين أهلها أيمْان وعُهود، فاخرجوا إلى الشام.

وقيل: إنَّ المستنصر، أو المستعلي، لمّا رأى قوة الدولة السلجقية وتمكُّنَها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام [إلى][٢] غزَّة، ولم يبْقَ بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم [ودخول أقسيس إلى مصر وحصرها فخاف][٣]، وَرَاسَل الفرنجَ يدعُوهم إلى الخروج إلى الشّام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين. والله تعالى أعلم.

قال فلمَّا عزم الفرنج على قصد الشّام ساروا إلى قسطنطينية ليعبُروا المجاز إلى بلادِ الإسلام ويسيروا في البرِّ فيكونِ أسهل عليهم. فمنعهم ملكُ الروم منْ ذلك، ولم يمكِّنهم أن يمرُّوا ببلاده، وقال: لا أُمَكِّنكم من العبور إلاَّ أنْ تحلفوا أنكم تسلمون إليّ أنطاكية. وكان قصدُه أن يحثَّهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنًّا منه أن الترك لا يُبْقُون منهم أحداً لما أرى من صرامتهم وملكهم[٤] البلاد.

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة. ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان[٥] بن سُليمان بن قُتْلُمش، فلقِيَهم في جُموعه ومنَعَهم فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب منها. ومَرُّوا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحصروها[٦].

---

(١) هو تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب، امتدت أيامه، وكان من أصل ملوك المغرب. أقام هو وأبوه المعز نحواً من مائة سنة وأكثر. توفي سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م بالمهدية. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٩٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩٨، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٢٩٨.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٣.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٣.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٣.

(٥) ولي الحكم في سلطنة سلاجقة الروم عام ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م وتوفي سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧ م. وورد في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٤١٠ ما يلي: «غرق قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب قونية ووجد قد انتفخ».

(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٤.

قال المؤرِّخ[١]: فلمَّا سمع صاحبها يَاغِي سِيَان بتوجُّهِهِم إليها خاف من النَّصارى الذين بها، فأخرج مَنْ بها من المسلمين بمفردهم في أول يومٍ وأمرهُم أن يحفروا الخندق، ثم أخرج النصارى من الغد لذلك. فعملوا فيه إلى العَصْر، فلمَّا أرادوا دخول البلد منعهم، وقال لهم: أنطاكية لكُم فهَبُوها لي حتى أنظرَ ما يكونُ بيننا وبين الفرنج، فقالوا: مَنْ يحفظ أولادَنا ونساءَنا؟ فقال: أنا أَخْلُفكم فيهم[٢] فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحُصرت أنطاكية تسعةَ أشهر، وظهر من حَزْم يَاغِي سِيَان واحتياطه وجَوْدة رأيه ما لم يُشاهد مثله، وهلك أكثر الفرنج موتاً وقتلاً، وحفظ يَاغِي سِيَان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكفَّ الأيدي عنهم.

فلمَّا طال مُقام الفرنج عليها رَاسَلُوا أحد المسْتَحفظين للأبراج، وهو ذراد، ويعرف بروزبة[٣]، وبذلوا له مالاً وإقطاعاً، وكان يتولى حِفظ بُرج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي.

فلمّا تقرَّر الأمر بينهم وبينه، جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السَّحَر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ يَاغِي سِيَان وسأل عن الحال فقيل له: هذ البوق من القلعة، ولا شك أنها قد أُخِذت. ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج. فَدَاخَله الرُّعْب؛ ففتح باب البلد وهَرب في ثلاثين غلاماً، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقيل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هارباً. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا مَنْ فيه من المسلمين. وأما ياغي سِيَان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقله وكان كالوَلْهَان[٤]. فرأى نفسه وقد قطع عدَّةَ فراسخ؛ فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية. فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يُزيلهم عن البلد أوْ يُقتل.

وجعل يتلهّف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع؛ فسقَط عن فرسه

---

(١) المراد ابن الأثير.

(٢) في الأصل: «أخلفكم فيه» والتصحيح يقتضيه السياق، وفي الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٤.

(٣) «نيروز» في زبدة الحلب لابن العديم، ج ٢، ص ١٢٢، وفي المراجع الحديثة يعرف باسم «فيروز الأرمني». انظر الشرق الأوسط والحروب الصليبية للعريني، ص ٢٤٥، وتاريخ الحروب الصليبية لرنسمان، ج ١، ص ٣٢٨.

(٤) كالولهان: كالشيطان. ابن منظور: لسان العرب (وله).

لشدة ما ناله، وغُشِي عليه. فأراد أصحابه أن يُرْكِبوه فلم يكن فيه مُسْكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه، فاجْتَاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله. وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكيّة[١].

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال[٢]: ولما اتصل خبر أنطاكيّة بالأمير قوام الدّين[٣] كربوقا صاحب الموصل جَمَع العساكر وسار لحربهم [وأقام بمرج دابق][٤] واجتمع معه[٥] الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار. فلمّا بلغ الفرنج اجتماعُهم عظُمت عليهم المصيبة وداخَلَهم الخوف؛ لِمَا هُم فيه من الوهن وقلّة الأقوات. وسار المسلمون حتى نَازَلُوا أنطاكيّة، فأساء كربوقا السِّيرة فيمَنْ معه من المسلمين، فأغْضب الأُمراء وتكبَّر عليهم، ظنًّا منه أنّهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا في أنْفسهم الغَدْر به إذا كانَ قتالٌ، وعزموا على إسْلامه عند الصَّدمة[٦].

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة[٧] عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه، فتقَوَّتَ الأقوياء بدوابّهم والضّعفاء بالميتة وورَق الشّجر، فلمّا انتهت حالهم إلى ذلك أَرسلوا إلى كربُوقا يطلبون منه الأمان ليخرجُوا من البلد، فلم يُعْطهم، وقال: لا تخرجُون منه إلاّ بالسّيف.

وكان معهم من الملوك يغدوين وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرُّها وبيمند صاحب أنطاكيّة وهو مقدَّم العسكر. وكان معهم راهبٌ مُطاعٌ فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السَّلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الّذي بأنطاكيّة، وهو بناء عظيم، فإن وجدتمُوها فإنّكم تظفَرون، وإن لم تجدوها فالهلاكُ متحقّق.

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفَّى أثَرها، وأمرَهم بالصّوم ثلاثة أيّام والتَّوْبة؛

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٥.

(٢) المراد ابن الأثير.

(٣) في الكامل لابن الأثير: «قوام الدولة»، ج ١٠، ص ٢٧٦.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦.

(٥) اجتمع معه الملكُ دُقاق بن تُتُش وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق، وغيرهم من الأمراء». ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٧٦.

(٦) «المصدوقة» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦. ومعناها التخلي عنه عند احتدام القتال.

(٧) «اثني عشر» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٦.

ففعلوا ذلك. فلمّا كان في اليوم الرابع أدخَلَهم جميعَهم وجميعَ عامَّتِهم والصُّنَّاع، وحفروا عليها في ذلك المكان فوجدوها كما ذكر، فقال له: أبشِرُوا بالظَّفر. فخرجُوا في اليوم الخامس من الباب منْ خمسة وستّة ونحو ذلك؛ فقال المسلمون لكربُوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتلَ كلَّ من يخرج فإنّ أمْرَهم الآن سهل. فقال: أمهلوهم حتى يتكامَلُوا؛ ولم يُمكّن من مُعَاجَلتهم؛ فقتل قومٌ من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليه بنفسه ومنعهم.

فلمّا تكامَلَ خروج الفرنج ولم يَبْقَ منهم أحدُ بأنطاكية ضربوا مصَافًّا عظيماً، فانهزم العسكر الإسلامي لِمَا عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمَّت الهزيمة عليهم، ولم يَضْرِب أحدٌ منهم بسيف ولا طَعَن برُمح، ولا رَمَى بسهم، وآخر مَنْ انهزَم سُقمان بن أُرْتُق وجناح الدولة، لأنهما كانا في الكمين؛ وانهزم كربُوقا معهم. فلمّا رأى خروج الفرنج ذلك ظنّوه مكيدةً، فخافوا أن يتبعوهم؛ وثبت جماعةٌ من المجاهدين وقاتلوا حِسْبَةً ورغبة في الشَّهادة فقتل الفرنج منهم أُلوفاً، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والآلات والدّوابّ، وغير ذلك؛ فصلحت حالُهم وعادت إليهم قُوّتهم.

ذكر ملكهم معرة النعمان

قال المؤرِّخ[١]: ثم سار الفرنج إلى معرة النُّعمان[٢]، فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، فرأى الفرنج منهم شدَّةً ونِكايةً عظيمة. فعمِل الفرنج عند ذلك بُرْجاً من خشب يوازي سور المدينة، ووَقع القتالُ عليه، فصبر المسلمون على القتال إلى اللَّيل. ثمَّ خاف قوم منهم وفشِلوا، وظنُّوا أنهم إذا تحصَّنوا ببعض الدُّور الكبار امتنعُوا بها. فنزلوا عن السُّور وأخلَوْا مكانَهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثلَ ذلك.

ولم تزل كلُّ طائفة منهم تَتْبع الأخرى حتّى خلا السُّور، فصعد الفرنج إليه على السَّلاليم. فلمّا عَلَوْه تحيّر المسلمون ودخلوا دُورهم، ووضع الفرنج فيهم السَّيف ثلاثة أيّام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبَوْا السّبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوماً وسارُوا إلى عَرْقة[٣]، فحصروها أربعةَ أشهر، ونَقَبوا

---

(١) أي قال ابن الأثير: في الكامل، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٢) معرة النعمان: هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٦.

(٣) عرقة: بكسر العين، وسكون الراء، بلدة شرقي طرابلس وهي آخر عَمل دمشق، وهي في سفح جبل، وعلى جبلها قلعة لها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٩.

سُورَها عدَّةَ نقوب ولم يقدروا عليها، وراسَلَهم ابنُ منذر[(١)] صاحبُ شَيْزَر، وصالحهم عليها. ثم سارُوا إلى حمص وحَصرُوها، فصالحهم صاحبُها جناحُ الدّولة. وخرجوا على طريق النَّواقِير[(٢)] إلى عكا فلم يقدروا عليها[(٣)]؛ فساروا إلى البيت المُقَدَّس.

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاءُ الفرنج، خذَلهم الله تعالى، على البَيْت المقدَّس في يوم الجمعة، ضُحًى، لسبع بقِينَ من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذْ ذاك بيد افتخار الدّولة نيابةً علَى المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدّولة تُتش السّلجقي صاحب الشّام، وأَقْطَعه للأمير سُقمان بن أُرْتُق التُّركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بِيَد نوّابه إلى الآن.

فقَصَدَه الفرنج عند عَجْزهم عن فتح عكَّا، وحصروه نَيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا عليه بُرْجين، أحدهما من ناحية صِهْيَوْن[(٤)] فأحرقه المسلمون وقتلوا جَميع مَنْ فيه من الفرنج.

فلمَّا فرغُوا من ذلك أتاهم الصَّارخ أن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشَّمالي، وركب النَّاسَ السيفُ ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذلَ لهم الفرنج الأمان، فسلَّموه إليهم؛ فوفَوْا لهم [الفرنج][(٥)]؛ وخرجوا ليلاً إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج[(٦)] بالمسجد الأقصى ما يزيدُ على سبعين ألفاً، منهم جماعةٌ كثيرةٌ من

---

(١) «وراسلهم منقذ صاحب شيزر» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٢) النواقير: هي فرجة في جبل بين عكا وصور على ساحل بحر الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٦.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٤) ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٧. «وعملوا بُرجين مُطِلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب الأسباط، وهو برج الزاوية، فزحفوا به (أي الأخير) حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد».

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٣.

(٦) يذكر المؤرخ الفرنسي فوشيه دي شارتر، الذي كان مرافقاً للحملة الأولى على بيت المقدس أنه «كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين» ويعلق المؤرخ اللاتيني وليم الصوري على ذلك فيقول: «لم يكن بالإمكان التطلع إلى هذا العدد الهائل من القتلى دون أن تصاب بفزع شديد. فكل الأرض كانت ملطخة بدماء القتلى». الموسوعة الفلسطينية؛ ج ٣، ص ٤٤٤. انظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٨. حاشية (١).

أئِمّة المسلمين وعُلمائهم، وعُبَّادهم وزُهَّادهم، مِمَّن فارق أهله، ووَطَنِه وجَاوَرَ بذلك الموضع الشّريف، وأخذوا مِنْ عند الصّخرةِ نَيِّفاً وأربعين قنديلاً من الفضّة، زنة كلّ قنديل [ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه][(١)] أربعون رطلاً بالرّطل الشامي[(٢)]؛ وأخذُوا من القناديل الصِّغار مائةً وخمسين قنديلاً من الفضَّة؛ ومن الذهب نيِّفاً وعشرين قنديلاً. وغَنِموا ما لا يقعُ عليه الإحصاء.

وورد إلى بغداد القاضي سعيد القروي[(٣)] في شهر رمضان، ومعه جماعة، يَسْتَنْفرون النّاس، وأوردوا في الدِّيوان كلاماً أبكى العيون، وصدَع[(٤)] القلوب واستغاثوا بالجامِع يوم الجمعة، وبكَوْا، [وأبكوا][(٥)] وذكروا ما نَزَلَ بالمسلمين من البلاء، وما حَلَّ بهم من المُصيبة. فأمر الخليفة أنْ يسير القاضي أبو محمد الدّامغاني، وأبو بكر الشّاشي، [وغيرهما][(٦)]، إلى السّلطان[(٧)] بسبب ذلك فاتّفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين المُلوك السّلجقية؛ فتمكّن الفرنج من البلاد.

قال: ولمّا اتَّصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جَمَعَ العساكر وخَرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السّنة. ثمّ كَسبَهُ الفرنج هو ومَنْ معه، وهم على غير تَعْبِئة، فهزموهم وقتلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة. وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة آلاف دينار[(٨)] وقيل عشرين ألف دينار، فعادُوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدَّس من الفرنج كندفري.

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ[(٩)]: وفي ذي القَعدة سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة لقي كُمُشْتكين بن الدانِشْمند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤.
(٢) الرطل يساوي ٧٢٠ درهماً، والرطل يساوي ١٢ وقية، والوقية تساوي ٦٠ درهماً، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦٨.
(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤ «صحبه القاضي ابن سعد الهروي».
(٤) صدع: أوجع القلوب. ابن منظور: لسان العرب (صدع).
(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤.
(٦) «وأبو بكر الشاسي، وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفا بن عقيل، وأبو مسعد الحلواني، وأبو الحسين ابن سماك» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٤.
(٧) ابن السلطان بركياروق، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٧.
(٨) «اثني عشر ألف دينار» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٢٨٦.
(٩) المقصود ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٠.

صاحبُها قد كاتبه واستَقْدمه عليه، فورَدَ عليه في خمسة آلاف؛ فلقيهم ابن الدّانِشْمند، وقاتلهم، فهُزِم بيمُند وأُسِر.

ثم وصل من البحر سبعةُ قمامصة من الفرنج، فأرادُوا خَلاَص بيمُند، فأتَوْا إلى قلعة أنكورية[١] فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين؛ وسارُوا إلى قلعة أخرى فحصَرُوها وفيها إسماعيل بن الدّانشمنْد، فجمع الدّانِشْمند جمعاً كثيراً، ولقي الفرنج، وجعل له كميناً؛ فقاتَلهم وخرج عليهم الكمينُ فقتلهم. وكانوا ثلاثمائة ألف لم يُفلت منهم غيرُ ثلاثة آلاف هربُوا [وأفلتوا مجروحين][٢].

وسار ابن الدّانِشْمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثير الجزري: وكانت هذه الوقائع في شهورٍ قريبة.

قال: ولم يزل بيمُند في أسْرِه إلى سنة خمسٍ وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه.

ذكر قتل كندفِري وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه الفرنج من البلاد وهي: حيفا. وأرسوف. وقيسارية. والرها. وسروج

وفي سنة أربعٍ وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البَيب المقدَّس إلى عكَّا، فحاصَرها، فأصابه سهمٌ فقتله[٣]. وكان قد عمَّر مدينة يافا وسلّمها إلى قمص من الفرنج اسمه طَنْكري. فلما قُتِل كندفِري سار أخوه بغدوين[٤] إلى البيْت المقدَّس في خمسمائة فارس وراجلٍ، فبلغ ذلك الملكَ شمس المُلوك دُقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عَسْكَره ومعه الأمير جنح الدَّولة في جموعه فقاتله، فنصر على[٥] الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حَيْفا عنوةً وهي على ساحل البحر بالقرب من عكّا، وملكوا أرسوف بأمانٍ وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيساريّة بالسيف وقتلوا أهلها. وفيها ملك الفرنج مدينة سَرُوج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرّها

(١) أنكورية: في وسط شبه جزيرة آسيا الصغرى، وهي مدينة أنقرة الحالية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٠٠.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٤) هو بلدوين صاحب الرها. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٢٤.

(٥) انتهت المعركة بهزيمة الدماشقة ونجاة بلدوين. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٧٥، العريني: الشرق الأوسط، ج ١، ص ٢٩٢.

بمكاتبة من أهلها لأن أكثر أهلها أرمن. فلمّا كان الآن جَمَعَ الأميرُ سُقْمان بن أُرْتُق جمعاً عظيماً من التّركمان وزحف بهم إليهم، فلَقُوه وقاتلوه؛ فهزمُوه في شهر ربيع الأوّل، فلمّا تمَّت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سَرُوج فتسلَّموها، وقتَلُوا كثيراً من أهلها وسَبوْا حَرِيمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يَسْلَم منهم إلاّ من انهزم.

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في حروبه وحصار طرابلس وألْطُوبَان وملك أنطرسوس

وفي سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قِلِج أرسلان صاحب قُونْية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقِلِج في عددٍ يسير، واقتتلوا؛ فانْهزم الفرنج وأُسِر كثير منهم[١]، وفاز قِلِج بالظَّفر والغنيمة. ومضى صنجيل مهزوماً في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمَّار[٢] صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدّولة[٣] بحمْص وإلى الملك دُقاق بدمشق يقول: من الصَّواب معاجَلَةُ صنجيل إذْ هو في العدد اليسير. فخرج إليه جُناح الدّولة بنفسه[٤] وسيَّر دُقاق ألفَيْ مقاتل، وأتَتْهُم الأمداد من طرابلس. وصافُّوا صنجيل فأَخرج مائةً من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقي هو [في][٥] خمسين.

فأما عسكر حمص فانْهزمُوا عند المشاهدة وتَبِعَهُم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قَتَلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين والباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونَازَلَ طرابلس وحَصَرها.

وأتاه أهلُ الجبل فأعانوه على حَصْرها، هم وأهل السّواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتَل مَنْ بها أشدّ قتال، فقُتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادَنَهم ابنُ عمّار على مالٍ وخيل،

(١) المقصود هنا الفرنج من الجموع الصليبية اللمباردية التي هزمت في ذي القعدة ٤٩٥ هـ/ أغسطس ١١٠١ م. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٣٣٨.

(٢) هو القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، الذي ولي حكم طرابلس في الفترة من ٤٩٣ ـ ٥٠٢ هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١٠٨ م. معجم الأسر الحاكمة لزنباور.

(٣) «إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤. وجناح الدولة هو حسين بن ملاعب صاحب حمص، دخل جامع حمص يوم الجمعة، فصلى الجمعة فوثب عليه ثلاثة من الباطنية، فقتلوه وذلك في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٦٧.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤، «فخرج الأمير ياخز».

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤.

فرحَل صنجيل عنهم إلى مدينة أَنْطَرْسوس[١]، وهي من أعمال طرابلس، فحصَرَها وفتحها، وقَتل مَنْ بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن أَلْطُوبان[٢]، ومقدَّمُه ابن العريض، فقاتَلَهم فنُصر عليهم، وأَسَر فارساً من أكابر فرسانهم، فبذَل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك.

ثمّ سار صنجيل إلى حصن الأكْراد[٣] فحصره، فجمع الأمير جناح الدّولة عسكره ليسير إليه ويكبِسَه، فقتله باطِنيٌّ بالمسجد الجامع، فلما قُتل صَبَّح صنجيل حمص من الغد ونَازَلها ومَلَك أعمالها.

ذكر ملك الفرنج جبيل وعكا

وفي سنة سبْعٍ وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذِقِيَّة، فيها التُّجّار والمُقاتلة والحَجَّاج وغيرهم؛ فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس فحاصرُوها معه وضايقُوها، فلم يرَوْا فيها مطمعاً، فرحلوا عنها إلى مدينة جُبَيل[٤] فحصروها وقاتلُوا عليها قتالاً شديداً. فلمّا رأى أهلها عجْزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلَّم البلد منهم فلم يَفِ لهم. وأخذ الأفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب. ثم سارُوا إلى عكّا نجدة لبغدوين، صاحب القدس، على حصارها؛ فنازَلُوها وحصروها في البر والبحر، وعليها زهرُ الدّولة[٥] الجيوشي، فقاتَلَهم أشدَّ قتال، فلمَّا عجز عن حِفْظِ البلد فارقه؛ وملك الفرنج عكّا بالسَّيْف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وسارُوا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أَفَامِية وسَرْمِين من أعمال حلب.

---

(١) انطرسوس وهي انطرسوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. مطلة على البحر شرقي عرقة ولها برجان حصينان كالقلعتين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) حصن من أعمال حمص أو حماه، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦.

(٣) حصن الأكراد: هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة العرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين قلعة بعلبك وحمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٤) جبيل: شمالي شرقي بيروت. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٥) قارن بما ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٧٣. وزهر الدولة الجيوشي، هو الوالي بنا. لقب بزهر الدولة الجيوشي نسبة إلى ملك الجيوش الأفضل. انظر أيضاً: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٨٥.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة فتح السرداني عرقة، وذلك أنّها كانت بيد غلام فخر الملك بن عمَّار وقد عَصَى على مولاه، فضاق به القُوت وانْقَطَعَت عنه الميرة، فكاتب طُغُزْتكين[١] صاحب دمشق أن يُرسل إليه مَنْ يَتسلّم الحصن لعجزه عن حفظه. فبعث إليه طغزطكين صاحباً له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلّم الحصن. فلمَّا نزل غلام ابن عمّار رماه إسرائيل بسَهْم فقتله في الاختلاط[٢] طمعاً في المال الذي بعَرقة لئلا يطَّلع طُغُزْتكين عليه.

قال: وأراد طُغُزْتكين أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار [والثلج][٣] مدَّة شهرين، فعجز عن ذلك. فلمَّا انْقَطَع المطر ركب أربعة آلاف فارس وجاؤُوا إلى عَرقة، فتوجّه إليه السّرْداني وهو يُحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طُغُزْتكين عندما أشرَفَت الخيل من غيرِ قتالٍ، فأخذ السّرداني أثقالهم تسلّم الحصن بأمان، وقبض على إسرائيل، وقال لا أُطْلقه إلا بفُلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيراً. ففُودي به.

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت

كان صنجيل لمّا مَلَك مدينة جُبيل، كما ذكرنا، حصَر طرابلس، فلمَّا لم يتمكَّن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حِصْناً وجعل تحته رَبَضاً، وأقام يرصُدُها ينتظر فرصة، فخرج فخر المُلك أبو علي بنُ عمّار، صاحب طرابلس، فأَحْرَق ربضه، فوق صنجيل على سقُوفه المحترقة، ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيّام، ومات، وحُمل إلى القدْس فدفن هناك. وذلك في سنة تسعٍ وتسعين وأربعمائة[٤].

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين. فسار فخر الملك ابنُ عمّار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسُّلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبيلة[٥] فدخلها وأطاعه أهلُها.

---

(١) «طغتكين» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٨.

(٢) «في الأخلاط» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٨، ومعناها: ازدحام الناس.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٦٨.

(٤) ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م. ٢٨ فبراير ١١٠٥. العريني: الشرق الأوسط، ج ١، ص ٤٣٦، رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٠٠.

(٥) جبيلة أو جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٥.

وأما طرابلس فإن ابنَ عمّار لمّا فارقها رَاسَل أهلُها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه والياً يكونُ عندهم ومعَهُ الميرة في البحر، فسيّر إليهم الأفضلُ شرفَ الدّولة ابن أبي الطَّيِّب والياً، ومعه الغلال وغيرها. فلمَّا صار إليها قبض على جماعةٍ من أهل ابن عمّار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره[١].

فلمّا كان في شعبان سنة ثلاثٍ وخمسمائة وصل أسْطُول كبير من بلد الفرنج، مقدَّمه قمص كبير اسمه ريمُند بن صنجيل[٢]، ومراكبه مشحونة بالرّجال والسلاح والميرة وليس ريمُند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره. فنزل على طرابلس وكان السّرداني وهو ابن أخت صنجيل محاصراً لها قبله، فجرت بينهما فتنةٌ أدَّت إلى الشرِّ والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكيّة إليها إعَانةً للسّردانِي، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدّس في عسكره، فأصْلح بينهم[٣] ونزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألْصَقُوا أبراجهم بسُورها، فلمَّا شاهد الجند وأهلُ البلد ذلك سُقِط في أيديهم. وذلَّت نفُوسهم، وزادهم ضعفاً. فتأخر الأسطولُ المصريّ عنهم بالميرة والنّجدة، ودَاومَ الفرنج القتال والزَّحف، إلى أنْ ملكوا البلد عَنْوة؛ وذلك في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذي الحجّة، سنة ثلاثٍ وخمسمائة[٤]. ونَهَبُوا ما فيها، وأسَرُوا الرجال، وسبَوْا النّساء والذّرّية، وغنموا من أهلها من الأَموال والأَمتعة وكُتُب العلم الموقوفة ما لا يُحد ولا يُوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد وأهْلُها من أكثر الناس أموالاً.

وسلِم الوالي الذي كان بها وجماعةٌ من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق؛ وعاقب الفرنج أهلَ طرابلس بأنواع العقوبات، وأُخذت دفائِنُهُم وذخائِرهم[٥].

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعْدَ أنْ مُلِكت بثمانية أيام؛ ففُرِّق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صُور وصَيْدا وبيروت.

---

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص ١٦١، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٤٢.

(٢) «ريمند بن صنجيل» في الأصل، والكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٥.

(٣) اتفق على تقسيم إرث ريموند كونت تولوز بينهما. فتكون انطرطوس لوليم جوردان، وما فتحه من البلاد مثل عرقة. وأما برترام فيملك جبيل وطرابلس. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١١٢.

(٤) دخل الصليبيون طرابلس في ١٢ يوليه ١١٠٩ م. أي ما يوافق سنة ٥٠٣ هـ. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١١٣.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

ذكر ملك الفرنج جبلة وبُلُنْيَاس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكيّة إلى بُلُنْيَاس(١) فافتتحها وأَمَّنَ أهلها؛ ونزل على مدينة جبلة(٢) وبها فخر الملك ابن عَمّار، وكان القُوتُ قدْ قلَّ بها، فقاتل مَنْ بها إلى أنْ ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابنُ عمّار وقصد شَيْزَر، فأكرمه صاحبُها الأمير سُلطان ابن عليّ ابن مُنقذ الكناني. ثمّ سارَ إلى دمشق فأكرمه طُغُزتكين صاحبها، وأجزل له في العطيّة وأقطعه أعمال الزَّبَداني؛ وذلك في المحرم سنة أربعٍ وخمسمائة(٣).

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جُمادى الأولى(٤) سنة أربعٍ وخمسمائة ملك الفرنج مدينة صَيْدا، [من ساحل الشام](٥) وكانت من جُملة ما هو بيدِ طُغُزتكين صاحب دمشق. وذلك أنّه وصل في البحر ستُّون مركباً للفرنج مشحونة بالرّجال والذَّخائر مع بعض ملوكهم(٦)، لِيحُجَّ إلى القدس ويغزو(٧) المسلمين بِزَعْمه؛ فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرّر معه الغَزْو فنَزلُوا(٨) على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البرّ والبحر، ومنَعوا الأُسطول المصريّ من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صُور، فعمل الفرنج بُرْجاً من الخشب وأحكموه، وجعلُوا عليه ما يمنع النّار والحجارة عنه، وزحفوا به. فلمّا عَايَن أهلُ صيدا ذلك ضعُفَت نفُوسهم وأشفقوا أنْ يُصيبَهم مثلُ ما أَصاب أهلَ بيروت؛ فأرسلوا قاضيها ومعه جَماعةٌ من شُيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمَّنَهُم على

(١) بُلنياس: بضمتين وسكون النون، وياء وألف وسين مهملة: كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر، ولعلها سميت باسم الحكيم بُلنياس صاحب الطلسمات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩٠. ووردت «بانياس» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٦.

(٢) «ونزل مدينة جبيل» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٦.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٧، «وهو عمل كبير من أعمال دمشق وكان ذلك في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة» وهذا لا يتفق مع سير الأحداث.

(٤) في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩، ورد «في ربيع الآخر».

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩.

(٦) هو سيجورد ملك النرويج، اشترك في حصار صيدا في أكتوبر ١١١٠ م. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٥٠.

(٧) في الأصل: «ويقرو» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩.

(٨) في الأصل: «فنزلا» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٧٩.

نفوسهم وأمْوالهم والعسكر الّذي عندَهم، ومَنْ أراد المُقام [بها][١] عندهم أمَّنوه، ومَنْ أراد المسيرَ عنهم لا يمنعونه؛ وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعةٌ كثيرة معه تحت الأمان؛ وكانت مدَّة الحصار سبعة وأربعينَ يوماً.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثمّ عاد إليها بعد مدَّة يسيرة يُقرِّر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاسْتَغْرَقَ أموالَهُم وأفقرَهم.

ذكر استيلائهم على حصن[٢] الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسمائة جمع صاحبُ أنطاكيّة الفارسَ والرّاجل، وسار إلى حصن الأثارِب، وهو على ثلاثِ فراسخ من حلب، فحصره ومَنَع الميرة عَمَّن فيه؛ فضاق الأمر عليهم. فَنَقب المسلمون من القلْعَة نَقْباً وقصدُوا أنْ يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكيّة فيقتلُوه، فلمَّا فعلوا ذلك استأْمَن إليه صبيٌّ أرمنيّ فعرّفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز؛ وجَدَّ في قتالهم حتى ملك الحصن عَنوة، وقتل مِنْ أهله ألفي رجل وسبى [وأسر الباقين][٣].

ثم سار إلى حصن زردنا[٤]، فحصره وفتحه، وفعل بأهله مثل ذلك. فلمّا سمع بذلك أهلُ مَنْبِج فارقُوها خوفاً من الفرنج، وكذلك أهْلُ بَالِس[٥]، فطلب أهل الشّام الهدنة فامتنع الفرنج ثمّ أجابوا. فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنتين وثلاثين ألف دينار، وخيولٍ وثيابٍ، وصالحهم ابنُ منقذ صاحبُ شَيْزَر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم عليّ الكردي صاحب حماه على ألفي دينار. وكانت عِدَةُ الهُدنة إلى إدراك الْمُغَلّ وحصاده[٦]. ثمّ جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضاً.

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاءُ الفرنج، خذلهم الله تعالى، على مدينةُ صور في الثالث والعشرين من جُمادى الأولى سنة ثماني عشرة وخمسمائة. وكان ابتداءُ الحصار في سنة خمسٍ وخمسمائة؛ وذلك أن الفرنج في هذه السّنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القُدْس على

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٨٠.
(٢) «حصين» في الأصل.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٨١.
(٤) زردنا: بليدة صغيرة غرب حلب: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٦.
(٥) بالس: بين حلب والرقة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٨٢.

حصارها، وكانت إذ ذاك بيد نُوّاب الآمر بأحكام الله[١] وبها مِنْ قِبَلِه عزّ الملك الأعز، فحصرُوها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السّنة، وعمِلوا ثلاَثة أبراج من الخشب عُلُوُّ البُرْج سبعون ذراعاً في كلّ بُرج ألفُ رجل؛ ونصبُوا عليها المجانيق. وألْصقُوا أحدَ الأبْراج بسُور صور، فجمَعَ عزّ الملك أهْلَ البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شرَّ الأبراج. فقام شيخٌ من أهل طرابلس وضمِن إحراقها، وأخذ ألفَ رجلٍ بالسّلاح التام، ومع كلّ رجل حُزمة حطب؛ فقاتلوا الفرنج حتَّى وصلوا إلى البُرج الملتصق بالسُّور وألقَوْا الخطب من جهاته، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأَبراج بإطفاء النّار، فرماهم بِجِرارٍ مملوءة بالعُذْرة كان قد أعدَّها لهم فلمّا سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهُم من الرّائحة الكرهة، فتمكّنت النار من البُرج، وأحرق المسلمون البرجين [الآخرين][٢] أيضاً.

وكاتب عزّ الملك طُغْزْتكين، صاحبَ دمشق، فأنْجَده بالرّجال، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج، فرجعوا مِنْ حصار مدينة صُور في شوّال من السّنة.

ثم عادُوا في سنة ستٍّ وخمسمائة إلى الحصار، وضايقوا البلد فأرسل أهلُ صور إلى طُغْزتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته مَنْ يَتولَّى أمرهم ويحميهم، وتكون البلد له. فسيّر إليهم عسكراً، وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهماً شجاعاً عَارفاً بالحرب ومكايدها، وأمدّه بالعساكر والميرة؛ فطالب قُلوب أهل البلد. ولم يَقْطع خطبة الآمر بأحكام الله ولا غَيَّر سِكَّته؛ وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يُعَرِّفُه ما عمِل ويقول: متى وصل مَنْ يتولاّها ويذُبّ عنها سلّمتها إليه؛ وطلب منهم ألاّ ينقطع الأُسطول عنها بالرّجال والميرة. فأجابه الأفضل إلى ذلك، وشكره على ما فعل، وجهّز أسْطولاً إليها، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كذلك إلى سنة ستّ عشرة وخمسمائة، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش، وذلك أن المأمون بن البطائحي لمّا وَلِيَ إمرة الجيوش بعد قَتْل الأفضل سيَّر إلى مدينة صور أسطولاً على العادة، وأمَرَ المقدَّم عليه أن يُعْمِل الحيلة على الأمير مسعود، الوالي من قبل طُغُزتكين، ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه. وكان سبب ذلك أنّ أهلِ صور شكَوْا منه إلى الآمر بأحكام الله. فلمّا وصل الأُسطول وجاء الأمير مسعودٌ ليُسلّم على المقدَّم قبض المقدَّمُ عليه واعتقله، وحمله إلى الآمر؛ فأكرمه وأعاده إلى صاحبه بدمشق،

---

(١) الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور. انظر ما يلي، وتاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٣٣.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

واستولى مقدَّم الأُسطول على مدينة صور، ورَاسَل الأمير طُغُزتكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره[(١)]، ووعده المساعدة.

فلمَّا سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قَوِيَ طمعُهم فيها، وشرعوا في الجَمْع؛ واتَّصل خبرُهم بواليها، فعلم أنّه لا قُوّة له ولا طاقة بهم، لقِلَّةِ مَنْ بها من الجند والميرة، وأرسل إلى الآمر بذلك؛ فرأى أن يُردَّ ولاية صور إلى طُغُزتكين، فأرسل إليه بذلك، فملكها ورتَّب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنج إلى صور، ونازلُوها في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة، وضيَّقوا عليها ولازموا القتال؛ فقلَّت الأَقوات، وسَئِمَ مَنْ بها القتال، وضعفت نفوسُهم، وسار طُغُزتكين إلى بانياس ليقرُب منهم ويذُبَّ عن البلد، وأرسل إلى الآمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلُها على الهلاك. فحينئذٍ رَاسَل طُغُزْتكين الفرنج على أن يسلِّم إليهم البلد ويمَكِّنوا مَنْ بها من الجند والرَّعية من الخروج بما قَدَرُوا عليه من أموالهم وغيرها فاستقرَّت القاعدةُ على ذلك، وفُتحت أبوابُ البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطَاقوا وتفرّقُوا في البلاد، ولم يتعرّضِ الفرنج إليهم. وملك الفرنج البلد في التّاريخ الذي قدّمناه، ولم يَبْق بصور إلاّ ضعيفٌ عاجز عن الحركة[(٢)].

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس[(٣)] من المسلمين، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي ورَغبتِه في ذلك، وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدَّمنا ذكره، في أخبار تاج الملوك طُغُزْتكين صاحب دمشق.

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية. فلْنَرجع إلى أخبار الدّولة العُبَيْدِيّة.

ذكر وفاة المستعلي بالله

كانت وفاتُه في يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ بقيتْ من صفر[(٤)] سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

---

(١) في الأصل: «فاعتذر إليه وقبل عذره» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٢٠.

(٣) القدموس: من حصون الإسماعيلية، انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٥٩.

(٤) هناك خلاف في تاريخ وفاته، ٢٧ صفر في كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٤٥٣. ٩ صفر في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٥١، ١٣ صفر في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٨٥. و١٧ صفر في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٢٩. «ومات في صفر وله تسع وعشرون سنة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ٤٠٢.

ومولدُه لعشرٍ بقينَ من المحرّم سنة سبعٍ وستين[(١)] وأربعمائة؛ وكان عمرُه ثمانياً وعشرين سنة[(٢)] وثمانيةً وعشرين يوماً.

ومدّةُ ولايته سبعَ سنين وشهراً واحداً وثمانيةً وعشرين يوماً.

ولمن تكن له سيرة تُذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكُن للمستعلي مَعَه من الأمر إلاّ الاسمُ، والرَّسم للأفضل.

وكان للمستعلي من الأولاد أبو علي المنصُور، وجعفر، وعبد الصّمد وزيرُه الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحّال النابلسي؛ ثم أعَادَ بن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ذكر بيعة الآمر بأحكام الله[(٣)]

هو أبو علي المنصور بنُ المستعلي بالله؛ وهو العاشر من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة والسّابع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم.

قال المؤرخ: لمَّا مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولدَه أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثّلاثاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقيت من صفر سنة خمسٍ وتسعين وأربعمائة؛ وبايع له النّاس ولقّبه بالآمر بأحكام الله وله من العمر خمسُ سنين وشهرٌ واحدٌ وأيام.

قال[(٤)]: ودبَّر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

---

(١) اختلف أيضاً في تحديد تاريخ ميلاده. في ١٨ محرم، ٤٦٨ هـ في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٧. ١٠ محرم ٤٦٨ هـ، في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، وسنة ٤٦٩ هـ في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٠.
ورد في أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٤٨ حاشية ١٩٤ ما يأتي: «وجاء تحديد ميلاد المستعلي بالله في يوم الأحد الرابع عشر من صفر سنة ٤٥٢ هـ في أحد السجلات التي بعث بها المستنصر إلى الداعي علي الصليحي».

(٢) اختلف في تحديد عمره تبعاً للاختلاف الحاصل في تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته.

(٣) ترجمته وأخباره في: أخبار الدول المقطعة لابن ظافر، ص ٨٧ ـ ٩٣. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٦٨ ـ ١٦٩. خطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧، وج٢، ص ٢٩٠، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٢، مجموعة الوثائق الفاطمية لجمال الدين الشيال، ص ٤١ ـ ٩٧، ١٩٣ ـ ٢٣٠، أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٠ ـ ١١٢، حسن المحاضرة في أخبار مصر للسيوطي، ج ٢، ص ١٩، أخبار مصر لابن المأمون ص ٣.

(٤) ـ المقصود ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة ص ٨٧.

وفي سنة خمسمائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدّار المعروفة بدار الملك[١] على شاطىء النيل بمصر، وكمُلت عمارتُها في سنة إحدى وخمسمائة وسكنها.

ومدحه الشُّعراء. فمن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء فيها: [من البسيط]

دارٌ هي الفلك الأعلى، وأنت بها شمس الضُّحى، وبَنُوكَ الأنجمُ الزّهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن[٢]؛ وكانَ موضعَها أخصاص موقوفةٌ على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرّياع السّلطانية.

ذكر إنشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسمائة جدّد الأفضل ديواناً وسمّاه ديوان التحقيق[٣]، واستخدم فيه أبا البركات يوحَنّا بن أبي الليث النّصراني، وبقي فيه إلى أن قُتل في سنة ثمانٍ وعشرين[٤]. واستمرّ هذا الديوان إلى أن انقرضت الدّولة العبيديّة وانقطع، ثم أعاده السّلطان الملك الكاملُ بن الملك العادل في سنة أربعٍ وعشرين، واستخدم فيه أبو كُوجك[٥] اليهودي. ثمّ أبطل في سنة ستٍّ وعشرين وستمائة فلم يعُدْ. واستُخدِم في أيام السلطانِ الملكِ المعِزّ أيبك صفيُّ الدّين عبد الله بن علي المغربي في استيفاء مقابلة الدواوين، وهو نوع منه[٦].

ذكر حل الإقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسمائة كثُرت شكاوَى الأجناد وطوائف العساكر المصريّة

---

(١) دار الملك: بناها الأفضل بن أمير الجيوش سنة إحدى وخمسمائة، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها، واتخذ بها مجلساً سماه مجلس العطايا، فلما قتل الأفضل أصبحت هذه الدار من جملة متنزهات الخلفاء، ثم جعلها الملك الكامل محمد بن العادل دار متجر، وبعد ذلك عملت في أيام الظاهر ركن الدين بيبرس دار وكالة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٣.

(٢) انظر الهامش السابق.

(٣) ديوان التحقيق: والعمل فيه هو المقابلة على الدواوين. وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٩.

(٤) «ثماني عشرة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٩، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠.

(٥) «ابن كوجك» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٧.

(٦) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٧ ـ ٧٨.

بسبب إقطاعاتهم، وأنّها خرِبت وقَلَّ ارتفاعُها، وأنّها لا تقوم ببَعْض كُلَفهم، وأن الإقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع. فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائِحي[١]، وهو وزيرُه وأستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك؛ فأشار عليه بحلِّ جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطّوائف للمزايدة فيها. فاتّفق الرأي على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدّث معهم في ذلك؛ فقال الأمراء: لما في إقطاعاتنا أملاكٌ وبساتين ومعاصر وغيرها. فقال الأفضل: الأملاك لمُلاَّكها على حالها يتصرّفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حلَّ الإقطاعات ووقعت الزّيادة فيها، وتميّز لكلٍّ منهم أقطاعٌ وكتبت المناشير بذلك. ثم شكى إليه كثرة عبرة البلاد[٢] وأنّ متحصِّلَها لا يَفِي بالعبرة.

وحَصَل للديوان ضياعٌ مفردة[٣] عبرتُها خمسون ألف دينار في كلٍّ سنة.

ونُقلت السّنة الشمسية الخَراجِيّة إلى الهلاليّة؛ وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبعٍ وتسعين وأربعمائة الخراجيّة فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة[٤].

ذكر أخذ الفرما وهلاك بغدوين الفرنجي صاحب القدس

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة[٥] أغار بغدوين ملك الفرنج عى الفرما[٦] وقَتَل جميع مَنْ بها، وأحرق جامعَها ومساجدَها، وذلك بعد أن حاصرها أياماً والفرما

---

(١) انظر الإشارة لابن الصيرفي، ص ٦٢ ـ ٦٤، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨. الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٤، ص ٣١٣، أخبار مصر لابن المأمون، ص ٣، هامش ٢.

(٢) العبرة: مقدار الضرائب (الخراج والأموال) المقررة على كل إقطاع. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٨١ ـ ٨٢.

(٣) «وحصل لديوان السلطان ضياع مفرده» في الأصل، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٤٠. وانظر أيضاً نصوص من أخبار مصر، ص ٩ ـ ١٠.

(٤) في التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية المعبر عنه بتحويل السنين، انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٥٤ ـ ٦٠. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٥.

(٥) ذكر ابن الأثير أنه في ذي الحجة من سنة أحدى عشرة وخمسمائة توفي بغدوين ملك القدس. الكامل، ج ١٠، ص ٥٤٣.

(٦) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهي قديمة بين العريش والفسطاط شرقي تنيس على ساحل البحر، وهي على بعد ٢٣ كلم شرقي محطة الطينة الواقعة على السكة الحديد بين بور سعيد والإسماعيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ١، ص ٩٢.

كانت بلدة بين القصير والغرابي من منازل الرّمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مِصْر فرحل عن الفرما. ورجع إلى البيت المقدّس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش. فشقَّ الفرنج بطنه وألْقَوْا مصارينه هناك، فهي تُرْجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رُتِّب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة وظلم وعسف؛ وهو الّذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذّخيرة[١]، ومسجد «لا بالله»، وسببُ تسميته بذلك أنّه كانَ يَقْبض النّاس من الطّريق ويَعْسِفهم، فيقولون له: لا بالله، فيقيّدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة. ولم يعمل فيه صانعٌ إلاّ وهو مكره مقيد، فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة، ولمّا مات تجنّب النّاس الصلاة عليه وتشييعه.

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة ثنتي عشرة وخمسمائة عمّر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم[٢]، أمير مكة، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيَّرهم إلى عيذاب[٣]، فنهبوا مراكب التّجار وقتلوا جماعةً منهم، فحضر من سَلِم من التجار إلى باب الأفضل وشكَوْا ما حلّ بهم فأمر بعمارة حَرَارِيق[٤] يجهِّزَها، ومنع الناس أن يحجّوا في سنة أربع عشرة، وقطَع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار. وكان الأفضل قدْ كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر، والتزم بردِّ المال إلى أربابه، ومن قُتِل من التّجار فماله لورثته. وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة[٥].

(١) مسجد الذخيرة: كان تحت قلعة الجبل بخارج القاهرة بأول الرميلة، تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون التي تلي بابها الكبير الذي سده الملك الظافر برقوق أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولّي الشرطة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، طبعة سنة ١٣٢٥ هـ. ج ٤، ص ٢٦٧.

(٢) هو قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم، المتوفى سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م أو سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م. المكي: العقد الثمين، ج ٧، ص ٢٨. رقم ٢٣٢٤، ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٦٣.

(٣) عَيْذَاب: بالفتح ثم السكون وذال معجمة، وآخره ياء موحدة، بليدة على ضفة بحر القلزم، هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧١.

(٤) حرّاقة: حراريق: حراقات: سفن فيها مرامي نيران. والحراقة: بالفتح والتشديد، ضرب من السفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدو في البحر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (حرق)، انظر أيضاً: معجم السفن الإسلامية للنخيلي، ص ٣٢.

(٥) انظر العقد الثمين للمكي، ج ٧، ص ٢٩.

ذكر مقتل الأفضل[١] شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من دار المُلك بمصر فقُتِلَ عند كرسي الجسر[٢]، بتلة الباطنية. قيل بمواطأة من الآمر لأنه كان قد ضاق منه لتحكمِه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إنّ هذا الأمر فيه من قُبح الأُحدوثة سوء الشّناعة ما لا تحمد عاقبتُه، لأنّ هذا الرجل ما عُرف له ولا لأبيه إلاّ المودّة في خدمة هذا البيت والذّب عنه، وإن قتلناه غيلَةً لا غُنْيَة أن نولّي منصبه لغيره، فيكون المتولّي بعده على رجلٍ واحتراس. وإنّما الرأي أنْ ندبّر عليه، فدبّر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضُرب ثماني ضربات، فمات لوقته، وحُمِل على أيدي مقدَّمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكّنون أحداً من الدُّنوِّ منه، وهم يبشرون النّاس بسلامته حتى وضعوه على سريره وغُطّي. ونفّذ المأمون أخاه حَيْدرة إلى الآمر يقول له: أدْركني وتسلّم ملكك لئلا أُغلبَ عليه أنا وأنت؛ وأوصاه أن يُهنّىء من وَجَده بسلامة الأفضل. ففعل حيدرةُ ذلك، وهنّأ حَرَم الأفضل وغيرهم. فعزم أولادُه على إثارة فتْنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي؛ فأمر الآمر بحمْل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البُنود، فحُملوا إليها، وبات الأمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السّنة، جميل السّيرة مؤثراً للعَدل، صائب الرأي والتّدبير، حَسَن الهمّة، كريم النّفس، صادق الحديث.

ونال النّاس بعد قَتْل الأفضل من الظُّلم والجَور والعسف مَا لاَ يُعبَّر عنه. فجاء النّاسُ إلى باب الآمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبُّوه سبّ؛ فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يُسلِّم عليكم ويقول لكم: ما السّبب في سبِّ الأفضل وقد كان قد أحْسَن إليكم وعَدَل فيكم؟ فقالوا: إنّه عَدَل وتصدَّق وحَسُنت آثارُه، ففارقْنا بلادَنا حُبًّا لأيّامه، وأَقمنا في بلده، فحصل بعده هذا الجورُ؛ فهوُ السّببُ في خروجنا عن أوْطاننا واستقرارنا ببلده.

---

(١) اشترك الأفضل في الوزارة مع أبيه في تدبير الأمور منذ السابع من المحرم سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م. محمد حمدي المناوي: الوزارة في العصر الفاطمي، ص ٢٧١.

(٢) كرسي الجسر: بالفسطاط، في الطريق إلى رحبة الملاحين التي تقع أمام فندق تقي الدين المعروف بسكن الكارم. ابن دقماق: الانتصار، ق ٤، ص ٣٥.

قال المؤرخ: لما قُتل الأفضل أحضر الآمر وزيرَه الشيخ أبا الحسن علي الحلبي والقائدَ أبا عبد الله محمداً وسألهما عن الأموال، فقال القائد: أمّا السّر فأعلمه وأمّا الظاهر فالوزير يعلمه؛ وأخْبراهُ بذخائر وأمواله. وأقام الآمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوماً، والكُتّاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور؛ فَوُجِد لهُ من الذخائر النفيسة ما لا يحصى[١].

وذكر أن الذي وُجِدَ له من الأموال ستّة آلاف ألف دينار عيناً؛ وفي بيت الخاصّة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البرّاني ثلاثة آلاف [ألف][٢] ومائتان وخمسون ديناراً[٣]، وخمسون أردباً[٤] دراهم [ورق][٥] وثلاثون راحلةً من الذّهب العراقي المغزول برَسْم الرّقم؛ وعشرة بيوت في كلٍّ بيت منها عشرة مسامير من الذهب[٦]، زنة كلِّ مسمار مائتا مثقال، عليها العمائم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الدّيباج الملوَّن، وخُمسمائة صُندوق من دقّ دمياط وتنيس برَسْم كسوة جسده، ولعبة من العنبر على قدر جسده برَسْم ثيابه توضع ثيابُه عليها لتكتسب رائحتها. وتَرَكَ من الطِّيب والآلات والنُّحاس ما لا يحصى. وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدَّوَاة التي يكتب منها مرصَّعةً بالجواهر، فقُوِّم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار. وخلّف من الكتب خمسمائة ألف مجلد[٧].

وحكى القاضي زكيّ الدين أبو زكريّا يحيى بن علي الدّمشقي في تاريخه عما خلّفه الأفضل فقال: خلّف جملةً لم يُسمع أنّ أحداً من الملوك والخُلفاء في هذا الزّمان

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٧٩.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٣) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠ ما يأتي: «وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار».

(٤) «مائتان وخمسون أردباً دراهم» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٦) كانت هذه المسامير تستخدم كمشاجب تعلق عليها العمائم.

(٧) عن تركة الأفضل انظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٧٠ ـ ٧١، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٠، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ٩١ ـ ٩٢؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٥١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

جمع مثله ولا ادّخر مثل بعضه: وأن الآمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دُورِه إلى القصر، فحُمل على عدَّةٍ كثيرةٍ من الجمال والبغال، ونُقل في شهرين وأيّام.

قال: وحكى الدينبلي التاجر الآمدي أن مُتولِّي الخزانة بالقصور ذكر له جُمَلاً ممّا حمَل من موجوده في الدّار، منها سِتّة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، ومن الورِق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق[1]، ومن الآلات مثل أتوار[2] وأسطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي[3] وقدور وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لا يحصى كثيرةً؛ وبراني[4] صيني كبار، وعيبات مملوءة جواهر، ومن أصناف الدّيباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديقَ كلُّها من الدّبيقي[5] والشرب استعمال تنيس ودمياط، وخزانة الطّيب مملوءة أسفاطاً، وعود، وبراني مسك ونوافج[6] وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لا يحصى كثرة[7].

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صُوَرُ ثماني جواري متقابلات، أربع منهُنَّ بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وأحسن الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نَكَّسَ رُؤوسَهنّ خدمةً له، فإذا جَلَس في صدر المجلس استَوَيْنَ قائماتٍ. ووُجِد له من المقاطع والسُّتور، والدّيباج والدّبيقي الحريري، والذهب والفرش والمخادّ والمساند على اختلاف أجناسها، كلُّ حجرة مملوءة من ذلك، وعدّة صناديق مملوءة حقاقَ ذهبٍ عراقيّ بِرَسْم الاستعمال. ووُجد له ثمانمائة جارية منهن حَظَايا خمسٌ وستون، لكلِّ جارية حجرة وخِزانة مملوءةٌ من الكَساوى والآلات الدّيباج والذّهب والفضة. ومن كل صنف[8].

قال الخازن: هذا ما حَضَرني حِفظُه ممّا في داره. وأما ما كان في مخازنه وتحت يدِ عُمّاله وجُباته وضُمَّانِ النّواحي فما لا يحصى كثرة، من الأَموال والغلال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والأخشاب وغير ذلك. وكلُّ نوع منه ما يجاوز الحدّ

(١) «طوق» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠.

(٢) تور: من الأواني: هو إناء من الحجارة وقد يتوضأ منه، ابن منظور: لسان العرب (تور).

(٣) جمع زبدية، وهي وعاء يشرب به. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٠، حاشية ٣.

(٤) براني ـ برنية: إناء من الخزف اللامع أو من الصيني. ابن منظور: لسان العرب (برن).

(٥) الدَّبيقي: من دقّ ثياب مصر معروفة تنسب إلى دَبيق. ابن منظور: لسان العرب (دبق) وهو نوع من الحرير خاص.

(٦) نوافج، جمع نفج. وهو وعاء المسك. ابن منظور: لسان العرب (نفج).

(٧) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٧٠ ـ ٧١.

(٨) المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧١، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٢.

والإحصاء، ولا يمكن تحرير حسابه إلاَّ في المدة الطويلة[١].

وأمّا العُدد والخيول والسلاح والبقر والغنم والخيام، فقال الخازن لم تتحرّر لكثرتها. وقال حُمِل من داره أربعة آلاف بساط، وستّون حمل[٢] طنافس، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة مُحكم، وألف عِدْل من متاع اليمن والإسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب[٣] من أصنافها.

وأمّا ما عمّره من المساجد فمنها: جامع الفيلة[٤]، وقيل إنّه لم يكمله. وحكى الشريف محمّد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة، وأنّ الأفضل مات ولم يكمِّله فكمَّله المأمون في وزارته، ووَلَّى خطابته الشّريف أمين الدّولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النّسابة، وأمَر أنْ يَحْضُر جميع وُجوه الدّولة والرؤساء في أوّل جمعة، فحضروا، فلمَّا رَقِيَ الشّريف المنبر قال: «الحمد لله»، وأُرتِج عليه ودهش، فلم يَزَل يكرّرها إلى أن أضْجَر النّاس، ونزل وقد هُمَّ، ومضى إلى داره، فاعتلَّ ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة. ومنها المسجد الذي على جبل المقطّم. وبنى في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية[٥] والمئذنة المستجدة [به أيضاً][٦] وجامع الجيزة[٧]. وغير ذلك. وهو الّذي أنشأ التّاج والخمسة وجوه.

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٧١، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٣.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) «وتسعة آلاف سرج» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧١، و«سبعة آلاف مركب يعني سرج» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٣.

(٤) جامع الفيلة: كان يطل على بركة الحبش. بناه الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش بدر الجمالي في شعبان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وإنما قيل له جامع الفيلة لأن في قبيلته تسع قباب في أعلاه ذات قناصر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة، كالتي كانت تعمل في المواكب أيام الأعياد، وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٥) «السعيدة» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٥. والسعيدة أيضاً في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٣٣٩.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٥، وورد في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٣، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩، شرح وافٍ عن مآذن عمرو بن العاص. «المئذنة الكبيرة وهي في الركن القبلي للجامع مما يلي الشرقي. وهي في المنارة الكبرى. والمستجدة وهي في الركن البحري مما يلي الغربي مقابل باب السطوح».

(٧) جامع الجيزة: بني سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م، زمن علي بن عبد الله بن الإخشيد ولا ذكر لدور الأفضل فيه. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٢٠.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خَيمةً سماها خيمة الفَرج[١]، ثم سُمِّيت بالقَاتُول[٢] لأنها كانت إذا نُصبت يموتُ تحتها من الفرّاشين رجلٌ أو رجلان. اشتملت على ألف ألف ذراع [وأربعمائة ألف ذراع][٣] وكان ارتفاعها خمسين ذراعاً بذراع العمل[٤]، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار.

ومدحه جماعة من الشعراء وذكرُوا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد بن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها: [من البسيط]

ضَربْت خيمة عزٍّ في مقرٍّ عُلاً ... أوْفَت على عَذَبات الطَّوْدِ ذي القُنَن[٥]

جاءت مَدَى الطَّرف، حتى خِلْت ذروتَهَا ... تأوي من[٦] الفَلَك الأعلى على سَكَن

أَقطارُها مُلِئت مِنْ منظرٍ عجبٍ ... يُهدِي[٧] إليك ذَكَاء الصَّانِع الفَطِن

فمِنْ رياضٍ سقاها الْقطرُ صيِّبَه ... فما بها ظمأٌ يوماً إلى الْمُزن

وجَامح في عنانٍ لا يُجاذبُه ... وطائرٍ غير صدَّاحٍ على فَنَن

وأرْقم لا يمجُّ السّم رِيقته ... وَضَيْغم ليس بالْعَادِي ولا الوَهِن

ومَائِلين صُفوفاً في جَوانبها ... لو يستطيعُون خَرّ الجمْعُ للذَّقن

زِينَت بأرْوَع، لا تُحصَى فَضائلُه ... ماضٍ مِن المَجْدِ والعلياءِ في سَنَن

وأطْلعَ الدَّستُ فيها شَمس مملكةٍ ... يرى[٨] التَّأمُّل فضْلَ العين والأُذُن

وَعْدٌ على السّعدِ أنّ النّصر يَضْرِبُها ... بالصِّين، بعدَ فُتوح الهِنْدِ واليمن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات، يصفها ويمدح الأفضل: [من البسيط]

---

(١) خيمة الفرح: في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٥.

(٢) سميت بالقاتول لأن فراشاً سقط من أعلاها فمات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨، ج ٣، ص ٤٧١. نظر أيضاً المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٢.

(٤) ذراع العمل: طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل، ويستخدم في العمائر والمباني، ولعله الذراع الذي يقاس به أرض السواد بالعراق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٥) «أوفت على عذبات الطور ذي الفتن»، في نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٢.

(٦) «من» ساقط من نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٢.

(٧) «يبدي» في نصوص من أخبار مصر لابن مأمون، ص ١٠٢.

(٨) «ترى» في نصوص من أخبار مصر لابن مأمون، ص ١٠٣.

مهلاً، فقدْ قَصرت عن شأوِك الأُمم وأبْدَت العجزَ منها هذه الهِمَمُ
أخَيْمةٌ ما نصبت اليوم، أمْ فلكٌ ويقْظةٌ ما نراهُ منك، أم حُلُم؟
ما كانَ يخْطُر في الأفكارِ قبلك أن تَسمُو عُلوًّا على أفْقِ النُّهى الخِيَم
حتى أتيت بها شمَّاءَ شاهقةً في مَارِن الدَّهر من تِيهٍ بها شَمَمُ
إنّ الدّليل على تكوينها فَلَكاً أن احْتَوتك، وأنت النَّاس كلُّهم

ومنها: [من البسيط]

لَدَيْكَ جيشٌ وجَيْشٌ في جوانِبها مُصوَّرٌ، وكلا الجيْشَين مزْدَحِم
إذَا الصَّبا حرَّكتها ماج موكبُها فمُقْدِمٌ منهُم فيها ومُنْهزِم
أَخَيْلُها خَيلُك اللّاتي تُغِيرُ بها فَليْس تُنْزع[1] عنها الحُزْم واللُّجُم
علَّمْت أبطالَها أن يُقْدِموا أبداً فكلُّهم لغُبار الحرْبِ مُقْتحم
أمَّنتَهم أن يَخافوا سطوةً لِردًى فقدْ تَسالَمت الأسياف والقِمَم[2]
كأنّها جنَّةٌ، والقاطِنُون بها لا يستطِيلُ على أَعْمَارِهم هَرَم
عَلَتْ،فخِلْنَا لها سَرًّا تحدِّثُه للفَرْقَديْن وفي سَمْعَيْهما صَمَم
إنْ أَنبَتَت أرْضُها زهراً، فلا عجبٌ وقد هَمَت فوْقَها مِن كفِّك الدِّيَم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي: [من الخفيف]

أقضيبٌ يمِيسُ، أمْ هو قدّ أنْ شقيقٌ يلُوح، أمْ هو خدّ
أنا مِثلُ الهلال سُقماً عليه[3] وهْوَ كالبَدْر حين وَافَاه سَعْدُ[4]

وكانت ولاية لأفضل سبعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ذكر تفويض أمور الدّولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائِحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة فوّض الآمر بأحكام الله أمورَ الدّولة وإمرة الجيوش للقائد أبي عبد الله محمّد ابن الأمير ثقة

(١) «وينزع» في نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٣.
(٢) «اللمم» في نصوص من أخبار مصر لابن المأمون، ص ١٠٣.
(٣) «خوفاً عليه» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٣.
(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٣.

الدّولة أبي شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدّولة أبي الحسن مختار المستنصريّ المعروف بابن البطائحي[١]، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره[٢]. واستقرَّت نُعوته في سجله المقروء على كافة الأمراء والأجناد بالأجلّ المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصّنائع، ذخر أمير المؤمنين. ثُمّ نعِت بعد ذلك بالأجلّ المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدّين والدعاة، ثُمَّ نُعِت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهي: السَّيِّد الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين[٣].

قال ناظم سيرة المأمون: ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة من السّنة، وهو يومُ الهناء بعيد النَّحر، جلس المأمونُ في داره وقْتَ أذان الفجر، وجَاء النّاس لخدمَته للهناء على طبقاتهم في أرباب البيوت والأقلام، ثم الشّعراء، وركب إلى القُصور، فأتى باب الذَّهب، فوجد المرتبة المختَصَّة بالوَزارة قد هيِّئت له في موضعها الجاري به العادة، وأُغْلِقَ الباب الّذي عندها على الرَّسم المعتاد لوزير السّيف والقَلم، وهذا البابُ يُعرف باب السّرداب، فلما شاهد المرْتبَةَ توقَّف عن الجلوس عليها لأنّه لم يُذْكَر له ذلك قبل حُضوره، ثم أَلْجَأته الضَّرورة، لأجل حُضور الأمراء إلى الجلوس عليها فجلس وأولاده الثّلاثة عن يمينه، وأخَوَاه عن يساره، والأمراء المطوَّقُون[٤] خاصَّةً قائمون بين يديه، ومَنْ عداهُم لا يصل إلى هذا الموضع. فما كان بأسْرَع من أن فُتِح الباب وخرج عِدَّة من الأُستَاذين المحنكين[٥] وخرج إليه الأميرُ الثقة مُتولّي الرّسالة

---

(١) ترجمته في الإشارة لابن الصيرفي، ص ٦٢ ـ ٦٤، والدرة المضية لابن أيبك الدواداري، ص ٤٨٨. وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٢٩٩. الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٤، ص ٣١٣ ـ ٣١٤. والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٧، هامش ٣١٣.

(٢) «استاذ دولته» هي وظيفة الاستادار نفسها. في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٨. واستادارا: كلمة فارسية مركبة، وتطلق على متولي الوظيفة الاستادارية، ويقوم صاحبها بالإشراف على شؤون مسكن السطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٧.

(٣) «وهادي دعاة المؤمنين أبو عبد الله محمد الآمري». المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٤٦٣. انظر أيضاً: المنتقى من أخبار مصر لابن ظافر، ص ٨٨. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٧٥. كنز الدرر، ج ٦، ص ٤٨٨، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨.

(٤) الأمراء المطوقون: وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم وكأنهم بمثابة الأمراء مقدمي الألوف: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٦.

(٥) «مطوقين» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٩، والاستاذون: وهم المعروفون بالخدام والطواشية، وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة، وهم أقرب أرباب الوظائف الخاصة إلى الخليفة وأحضهم به، وكانت عدتهم تزيد على ألف. وكان من طريقتهم أنه من ترشح أستاذاً منهم للحنك وحنّك، حمل إليه كل أستاذ من المحنكين =

وزمان القصور[١]، فوقف أمام المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرُدّ على السَّيِّد الأجلِّ المأمون السّلام. فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض، وجَلَس في موضعه، وتأخر الأمير الثّقة حتى نزل من علي المصطبة التي عليها المرتبة وقبَّلَ الأرض ويَدَ المأمون، ودخل من فَوْره من الباب، وأُغْلِق الباب، على [حالة على][٢] ما كان عليه الأفضل.

قال: وكان الأفضل يقول: ما أزالْ أعُدّ نفسي سلطاناً حتى أجلسَ على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي والدّخان في أنفي؛ لأنَّ الحمَّام كانت خَلْف الباب في السّرداب.

قال: ثم فُتح الباب وعاد الثّقة وأشار بالدُّخول إلى القصر؛ فدخل المأمُون إلى المكان الذي هُيِّيء له، ودُعِي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدّهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئُون. واستُدعي المأمون فحضر بين يديه وسلّم عليه أولادُه وإخوته[٣]؛ ثم دخل الأُمراء وسلَّموا على طبقاتِهم، ثمّ الأشراف وديوان المكاتبات[٤] والإنشاء، ثمَّ قاضي القضاة، والشّهود، والداعي، ثم مقدَّموا الرّكاب ومتولّي ديوان المملكة. ثُمَّ دخل الأجناد من باب البحر[٥]، وهو البابُ الذي يقابل المدرسة الكامليّة الآن، ثمّ دَخَل والي القاهرة ووَالي مصر وسلَّما بِبَياض أهل الْبَلدين، ثم البَطْرك والنَّصارى والكُتَّاب منهم، وكذلك رَئيس اليهود. ودَخل الشُّعراء على طبقاتهم، وأنْشَد

= بدلة كاملة من ثيابه وسيفاً وفرساً فيصبح لاحقاً بهم وفي يده مثل ما في أيديهم. وكان يختار منهم شد التاج وصاحب المجلس، وصاحب الرسالة، وأزمة القصور وصاحب بيت المال، وصاحب الدفتر، وحامل الدواة، وأزمة الأقارب ومن يتولى طعام الخليفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٧ ـ ٤٨١، وابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٨٩.

(١) زمام القصر: وهو الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٠.

(٣) «وأخواه» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٠.

(٤) «ثم دخل ديوان المكاتبات، سلّم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله. ونُعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف. توفي سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م. ثم ديوان الإنشاء سلّم بهم الشريف ابن أنس الدولة. ثم تغيب الطالبين بالأشراف»، ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، ص ٩٠.

(٥) باب البحر من أبواب القصر الغربية. أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله، وسمي بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه عندما يقصد التوجه إلى شاطىء المقس، وهو باب القصر الذي يواجه دار الحديث الكاملية، هدم في أيام الملك الظاهر بيبرس، وكان موضعه زمن المقريزي، يعرف بباب قصر بشتاك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٤٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٣٦، حاشية ٧، المقريزي الخطط، ج ١، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ و٣٨٥.

كلّ منهم ما سمحت به قريحته. وكانت هذه عادَة السّلام على مُلوك هذه الدّولة، وإنما أوْردنا ذلك ليُعْلم منه كيف كانت عادتهم[١].

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة ورد إلى الدّيار المصريّة طائفةٌ كثيرة من عَرب لَواته من جهة المغرب، وانتَهَوْ إلى الإسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فساداً متحكِّماً. فندب المأمون إليهم أخاه نظامَ الملك[٢] حَيْدرة، الملقَّب بالمؤتَمن، فقاتلهم وهزمهم، وغنم أموالهم. وتوجَّه إلى الإسكندرية ودخلها، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسرُوا، فخرج إليهم، وحاربهم وهَزَمهم، فعادوا[٣].

ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم[٤] السّبت لأربعٍ خلَوْن من شهر رمضان قبض الآمر بأحكام الله على وزيرة المأمون أبي عبد الله محمّد [ابن البطائحي][٥] وعلى إخوته [الخمسة][٦] وثلاثين نفراً من خواصّه وأهله، واعتقله، ولم يَزَل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين، فَصَلَبه مع أخوته.

وقيل في سبب ذلك إنَّ المأمون[٧] رَاسَل الأمير جعفراً، أخا الآمر، وأغراه بقتل أخيه وأنّه يقيمهُ مكانه في الخلافة، واسْتَقرّت القاعدة بينهما على ذلك، واتَّصل ذلك

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٨٩ ـ ٩١.

(٢) «نظام الدين أبا تراب» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٣، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٩٥.

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٩٨. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ٩٣، الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦١٧.

(٤) «في ليلة السبت» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٣.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة للتوضيح.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٣ «وعلى أخيه المؤتمن واستولى على أموالهما وذخائرهما ثم قتلهما». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٣.

(٧) يذكر ابن ميسّر في المنتقى من أخبار مصر، ص ١٠٤، أن الوزير المأمون البطائحي قد كتب إلى ابن نجيب الدولة أبي الحسن (وهو الأمير المنتخب عن الخلافة الفاطمية فخر الدولة الموفق في الدين داعي أمير المؤمنين علي بن إبراهيم) كتاباً بالتفويض له في الجزيرة اليمنية، وشد أزره، وأموره بجمع الأرمن والسودان. وكان المأمون البطائحي، قد ولي الوزارة للآمر سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٣. حاشية (١). وفي سبب قتله أقوال مختلفة. انظر الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي للمناوي، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥. وبعد قتل المأمون بقي الأمر بدون وزراء من رمضان سنة ٥١٩ هـ إلى ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٢٣، حاشية (١).

بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولِّي ديوان المكاتبات، وكان خصيصاً بالآمر قريباً منه، وناله من المأمون أذى كثير، فأعلم الآمر بالحال. وكان المأمون كثيرَ التطَلُّع لأخبار النّاس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيّامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداءُ حال المأمون أن والدَه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلِّف شيئاً، فتزوّجت أمُّه وتركته فقيراً فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسُّوق الكبير. فدخل مع الحمَّالين إلى دار الأفضل مرَّةً بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً، حسن الحركة، حُلو الكلام والحجّة؛ فسأل عنه؛ فقيل هو ابن فلان؛ فاستخدمه مع الفرَّاشين. ثم تقدّم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، إلى أن انتهى إلى ما ذكرنا[١]. قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب[٢] في تاريخ مصر: إن ابن الأثير وَهِم في وفاة والد المأمون، وأن والدَه مات في سنة ثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبِّر دولة الأفضل[٣]. وأكثر النّاس يذكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البُستان في حوادث الزّمان: إن المأمون كان يرُشّ بين القصرين، وجدّه من غلمان المستنصر بالله. والله أعلم[٤].

ذكر أخبار أبي نجاح بن قنا النصراني الراهب وقتله

كان هذا الرّاهب من أهل أُشْمُوم طَنَّاح[٥]. وكان قد خدَمَ وَلِيَّ الدّولة يُحَنَّا بن أبي الليث، ثم اتّصل بالخليفة الآمر بعد القبض على المأمون. وبذل في مُصَادرة قومٍ من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم. وتسلسل الأمر إلى أن عمّ البلاءُ منه جميعَ رؤساء الدّيار المصريّة وقُضاتها وكُتّابها وغيرهم. ولم يَبْقَ أحدٌ إلا ناله منه مكروه من الضَّرب والنهب وأَخْذ المال. وارتفع شأنُه عند الآمر حتى كان يعمل له[٦] ملابس مخصوصة به بدمياط وتنّيس من الصُّوف الأبيض المنسوج بالذّهب، فكان يلبسها ويلبس من فوقها الغفافير الدّيباج[٧]. وكان يتطيب في كلِّ يوم بعدة مثاقيل من المسك. وكان

(١) «حتى صار وزيراً» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٢٩. وانظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٤.

(٢) المعروف بابن ميسّر.

(٣) المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٤.

(٤) انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٤٩٣.

(٥) أشموم طناح: أشمون الرمان: مدينة قديمة، قرب دمياط، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٩.

(٦) «إلى أن كان يستعمل له» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٨.

(٧) «عفارة ديباج» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٨.

يركب الحمير بالسُّروج المحلاَّة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويَسْتدعي النّاس للمصادرة[(١)]. فاستَدْعى في بعض الأيام رجُلاً يُعرف بابن الفرس، وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والدّيانة، والناس يعظمونه ويبجّلونه ـ وأوقع به الإهانة والإخراق؛ فخرج من عنده ووقف في الجامع يومَ الجمعة وقال: يا أهل مصر، انْظُروا عَدْل مَوْلانا الآمر في تمْكِينه هذا النّصراني من المسلمين! فارتَجَّ الناس لكلامه وكادت تكون فتنة؛ فدخل جماعةٌ على الآمر، وخوَّفُوه العاقبة، وعرّفوه ما حلَّ بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجلٌ من الأشراف[(٢)]، فأنشد الآمر أبياتاً منها: [من السريع]

إن الّـذي شُـرِّفَـت مـن أجْـلـه   يـزعـمُ هــذا أنّــه كــاذب

فقال له الآمر: ما تقول يا راهب؟ فمسكت. فأمَرَ به فقُتل. وكان الّذي تولّى قتله الأمير مقداد والي[(٣)] مصر، وصَلَبه على الجسر، ثم أُنْزِل ورُبط على خشبةٍ ورُمِي في بحر النيل وخرجت الكتب إلى الأعمال البحريّة أنّه إذا ألقاه الماءُ إلى جهةٍ أخرجُوه عنها حتى ينتهي إلى البحر المالح.

ولما قُتِل هذا الرّاهب وجدُوا له مقطعاً فيه ثلاثمائة طُرَّاحة[(٤)] سامان محشوةً، جُدداً لم تُستعمل. هذا مِنْ هذا النّوع، خَلاَ ما وُجد من الذّهب والفضة والأقمشة والديباج[(٥)].

ذكر مقتل الآمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَين خَلَتا[(٦)] من ذي القَعدة سنة أربع وعشرين

(١) بشأن المصادر. انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨، ٨٩.

(٢) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي الزاهد، المعروف بابن ابن رندقة. ولد سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م، وتوفي ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٦٤. ترجمته في: عبر الذهبي، ج ٤، ص ٤٨. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٦٢. ونفح الطيب للمقري التلمساني، ج ٢، ص ٨٥.

(٣) «ولي» في الأصل، والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢٦.

(٤) طراحة: الفراش الذي يجلس عليه ويرتاح. الفيروزابادي: القاموس المحيط (طرح).

(٥) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٨٨ ـ ٨٩، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٠٧ ـ ١٠٩، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٦) «الرابع من ذي القعدة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٠. و«ثالث ذي القعدة» في وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٠١. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٧١. و«ثاني ذي القعدة» في الكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٦٦٤.

وخمسمائة، بجزيرة مصر[١] بالقرب من المقياس. وثبَ عليه عشرة نفر من النِّزارية وقتلُوه، فحمل في جل[٢] إلى الجامع، ونقل في مركب عشاري[٣]، وأُحْدِر إلى اللؤلؤة في الخليج، ثم حُمل إلى القصر؛ فتوفِّي ببقية يومه. وقُتِل القومُ الذين قتلوه.

وكان مولدُه في يوم الثلاثاء لليلةٍ خلت من المحرّم[٤] سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم[٥] منها، فكان عمره أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وولايته تسعة وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر. وكان محكُوماً عليه إلى أن قُتل الأفضل وتولَّى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرَّف [ويركب][٦] في يوم الجمعة ويوم السّبت ويوم الثلاثاء وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يَستَوْزِر بعد المأمون وزيراً للسّيف والقلم، بل استبَدَّ بأموره وباشرها بنفسه.

وكان قبيح السّيرة في رعيّته، يظلمُهم ويأخذُ أموالهم ويغتصب أملاكهم؛ وسفك دماءَهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح. ويكفي من سُوء سيرته تمكينُه الرّاهبَ من المسلمين، وقد تقدم خبرُه[٧].

ووُلد للآمر في هذه السنة ولدٌ سمي أبا القاسم الطيِّب وجعله وليَّ عهده[٨]،

---

(١) «جيزة مصر» في الأصل. والتصحيح من اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٠، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٧٢، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٠٤، وأخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٩١. والجزيرة: المراد بها جزيرة الروضة. وهذه الجزيرة واقعة في مجرى النيل بين مصر القديمة ومنطقة القصر العالي من الجهة الشرقية للنيل وبين بندر الجيزة وشاطىء النيل الغربي من الجهة العربية. عرفت باسم الجزيرة، وجزيرة المقياس، وعرفت أيضاً باسم جزيرة الحصن، ثم باسم جزيرة الروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأه في نهايتها البحرية الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م، وسماه «الروضة» ومن الك الوقت إلى اليوم صارت الجزيرة تعرف باسم جزيرة الروضة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧٠. حاشية رقم (٣).

(٢) الجل للدابة: كساء أو غطاء يقيها من البرد. ابن منظور: لسان العرب (جلل). في شليل من أشلة الخيل. في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩١.

(٣) عشاري: عشاريات: مركب صغير يستخدم عشرين مجدافاً ويكثر استعماله في نهر النيل. النخيلي: معجم السفن الإسلامية، ص ٩٥.

(٤) «ولد يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩١، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٠، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣١.

(٥) هذا يخالف ما ذكره النويري في أول الفقرة.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١١.

(٧) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١١.

(٨) في الكامل لابن الأثير: «ولما قتل لم يكن له ولد بعده، فولي بعده ابن عمه الميمون عبد المجيد ابن =

فأخْفَاه الحافظ. وزراؤه: الأفضل؛ ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رَفَعَ إبراهيم حمزة الشاهد إلى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث في مجلس الحكم فعزله؛ ووَلّى أبا الفضل نعمة بن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال؛ فولّى الرشيد أبا عبد الله محمد بن قاسم الصقلي إلى أن توفي؛ فأعاد الجليس ثم صرفه؛ وولّى أبا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه ولمّا أخْطأ في قراءته؛ وولّى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن تُوفّي في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة؛ فولّى الآمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسِّر القيسرانِي، فاستمر إلى أن قُتل الآمر بأحكام الله(١).

ذكر بيعة الحافظ لدين الله(٢)

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الدّولة العُبَيْدِيّة والثّامن من ملوك الدّيار المصريّة منهم. بُويع لهُ بَعْد مقتل ابن عمّه الآمر، في يوم الثلاثاء لِلَيْلَتَيْن خَلَتَا من ذي القَعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بولاية العهد إلى أنْ يستبرىءَ نساءُ الآمر وهل فيهنَّ مَنْ هي مشتملةٌ على حَمْل أمْ لا.

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قُتل

قال المؤرّخ: لما بُويع الحافظُ لدِين الله ثار الجُنْد الأفْضليّة وأخرجوا ابنَ مولاهم، أبا عليّ أحمد بن الأفضل الملقّب بكتيفات، وولّوه إمْرة الجيوش؛ وذلك في يوم الخميس السّادس(٣) من ذي القَعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظَ صبيحة يوم بيْعته، ودعا لِلإمام المُنتظر؛ وقَوِي أمرُ ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتّب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة قضاة:

= الأمير أبي القاسم بن المستنصر بالله» ابن الأثير: الكامل، ص ٦٦٥. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: «قتل الآمر ولم يخلف ولداً ذكراً»، ج ٥، ص ٢٣١.

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩٢، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٢، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) أخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٣ ـ ١٤١. وحسن المحاضرة للسيوطي، ج ٢، ص ٢٢. والكامل لابن الأثير، ج ٩، ص ٣٦١، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٣٧ ـ ١٤٠. شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٣٨. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣١ ـ ٢٧٧.

(٣) «سادس عشر» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٣.

الشّافعية والمالكية والإسماعيلية والإمامية، يحكم كلُّ قاضٍ بمقتضى مذهبه ويُورِّث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعيّة الفقيه سلطان(١)، وقاضي المالكية اللُّبني(٢)، وقاضي الإسماعيلية أبو الفضل(٣) ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل(٤).

وسار أحمد بن الأفضل سيرةً جميلة بالنِّسبة إلى أيّام الآمر، وردَّ على الناس بعضَ مُصادراتهم، وأظْهَر مذهبَ الإمامية الاثني عشرية، وأسقط من الأذان قولهم «حيَّ على خيْر العمل» وأمر بالدّعاء لنفسه على المنابر بدعاءٍ اخترعه لنفسه وهوَ: «السّيد الأجلّ الأفضل، مالك أصحاب الدُّول، والمحامي عن حَوْزة الدّين، وناشر جَناح العدل على المسلمين، الأَقْرَبين والأَبْعدين، ناصرُ إمام الحقّ في حالَتَي غيبته وحُضوره، والقاسم بنُصرته بماضي سيفِه، وصائب رأيه وتدبيره، أمينُ الله على عباده، وهادي القُضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشدُ دُعاة المؤمنين بواضِحِ بيانه وإرشاده، مُولي النعم، ورافعُ الجَوْر عن الأمم، مالكُ فضيلَتَي السَّيف والقلم؛ أبو علي أحمد بن السيد الأجلّ الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش»(٥).

واستمر أمرُه إلى يوم الثّلاثاء سادس عشر المحرّم(٦) سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة. فاتّفق ركُوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبُستان الكبير(٧) ظاهرَ القاهرة، لِلَّعب بالأكرة(٨) على جاري عادته، فوثَبَ عليه مملوكٌ روميٌّ، وقيل بَلْ من صِبيان الخاصّة(٩)، فطعنه طعنةً ألقاه بها عن فرسه، ونزل واحتزَّ رأسه، ومضى به إلى القصر؛

(١) هو سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي، لقب بابن رشا. توفي سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠ م. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٧٥. الذهبي: العبر، ج ٤، ص ٤٢، ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٣.

(٢) هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي. المقريزي:اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٤٢.

(٣) هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد، أبو الفضائل، عرف بابن الأزرق. المقريزي:اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٤٢.

(٤) هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٣، ص ١٤٢.

(٥) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٦. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٦) «في العشرين من المحرم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٤٣.

(٧) «البستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٣. وكان يمتد من زقاق الكحل خارج باب الفتوح إلى المطرية. المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٧.

(٨) الأكرة: لعب بالكرة. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٤. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٣، والمنتقى من أخبار مصر، ص ١١٥.

(٩) صبيان الخاص: وهم جماعة من أخصاء الخليفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٧.

وذلك بمُوافقَةِ من الأجناد، فكانت مُدَّة تغلُّبه على الآمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوماً؛ ودُفن بتربة أبيه خارج باب النصر(١).

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قُتل أحمد بن الأفضل بويع الحافظ بالخلافة بيعةً عامَّة، وظهر الحمْلُ المنتظر بنْتاً، فانتقلت الخلافة إليه، وأمر أن يُدْعى له على المنابر: «اللّهم صلِّ على الذي شَيَّدْت به الدّين بعد أن رامَ الأعداءُ دُثورَه، وأقرَرْت الإسلام بأنْ جعلت طُلُوعه على الأمَّة وظهورَه، وجعلْتَه آية لِمَنْ يدبِّر الحقائق بِبَاطِنِ البصيرة، مولانا وسيِّدنا وإمامِ عصْرنا وزمانِنا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاةً دائمة إلى يوم الدين(٢)».

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس(٣)، وهو روميّ من مماليك الأفضل، ولقبه بأمير الجيوش؛ فقتل الطّائفة المعروفة بصبيان الخاصّ، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل. وكان عظيم الهيبة، بعيدَ الغَوْرَ، فخافه وتخيَّل منه، وتخيَّلَ يانس أيضاً من الحافظ، فدبّر كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه، فَسَبَقَ تدبيرُ الحافظ فيه فسَمَّه في إبريقٍ استعمل الماء منه عند الطَّهَارة، فعولج وكادَ أن يبرأ، فكلّم الحافظُ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأي مولانا أميرُ المؤمنين أن يمْضي إليه ويزورَه ويهَنِّئَه بالعافية فإنّه لا بُدَّ أنْ ينهض ويمشي، فإذا مشى لا يكاد يعيش أبداً. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقَّاه، فمات في ليلته؛ وذلك في السّادس والعشرين من ذي الحجة(٤)، فكانت مدةُ وزارته تسعة أشهر.

ذكر الخُلف بين ابنَيْ الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: «وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حَيْدرة وحَسَن، ولدَيْ الحافظ، حربٌ شديدة، وافترقت العساكر على فرقتين، وهما الرَّيحانية والجيوشية، وكان بينهما وقعةً في خامس شهرِ رَمضان ووقع الحرب بينهما بين القَصْرين؛ وقُتل من الطَّائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ

---

(١) تربة أمير الجيوش بدر الجمالي، هي أول تربة أنشئت بمقابر باب النصر. المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٦٣.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٥. وفيها «أمير الجيوش صاحب حارة اليانسية».

(٤) «لليلتين خلتا من ذي القعدة» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩٨. كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٥٠٦.

جعَل ولَدَه حَيْدرة وليَّ عهده من بعده، فلم يرْضَ حسن بذلك، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستَظْهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعلهُ وليّ عهده من بعده. وتمكّن حَسن من الدَّولة والتصرُّف فيها بحَسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم»(١).

ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتلُه في يوم الثّلاثاء الثّالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة وذلك أنّه لمّا استقرّ في ولاية العهْد والوزارة والتَّدبير واستبدَّ بالأمر، قبض على جماعةٍ من الأمراء وقتلَهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيرهم؛ فخَافَهُ مَنْ بقي من الأمراء العُتُق، وأجمعوا على خَلْعِ أبيه من الخلافة وولَدِه حسن من الوزارة فاجتمعوا بين القصرين، ورَاسَلُوا الحافظ وأعلَموه بما أجمعوا عليه، فاستَعْطَفَهم الحافظ واعتذر إليهم؛ وهرب حسَن إلى أبيه، فقَبض عليه وقيَّده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لا بُدّ من قَتْله، فسقاهُ أبُوه سمًّا فمات، وجعله على سرير، وأمر الأُمراء بمشاهَدَتِه، فدخلُوا عليه ورأَوْه فسكتوا(٢). وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ(٣).

ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإِحدى عشرةَ ليلةً خلَتْ منه، استوزر الحافظُ بهرامَ الأرمني النّصراني، ونعته بسيف الإِسلام تاج المُلوك(٤). وكان

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١١٩ ـ ١٢٠، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) يقول المقريزي في اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٥٥ ما يأتي: «وندبوا منهم أميراً يعرف بالجرأة يقال له المعظّم جلال الدولة محمد، ويعرف بجلب راغب الآمدي، فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ، فإذا هو مسجى بثوب ملاءة فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكيناً وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت. وانصرف إلى أصحابه وأخبرهم فتفرقوا» ويقول ابن الأثير: «فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته» الكامل، ج ١١، ص ٢٣. ويقول ابن تغري بردي: «وأخرج من وسطه بارشيناً فعزه بها في مواضع خطرة من جسده حتى تحقق موته، وعاد إلى القوم فأخبرهم فوثقوا منه وتفرقوا». النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٣٧.

(٣) انظر تفصيل ذلك في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٢١ ـ ١٢٣. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٥٣ ـ ١٥٥. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٢ ـ ٢٣. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٩٠.

(٤) «تاج الخلافة» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٥٦. «تاج الدولة» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٤. «تاج الملوك» في المنتقى لابن ميسّر، ص ١٢٢.

بهرامُ المذكور قد وصل إلى الدّيار المصريّة واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلاً وافراً وإقداماً في الحرب وحُسْن تدبير(١).

وكان سببُ وصوله من بلاده أنّ القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحقَّ بمكانه من غيره فَعَدَل الأرمنُ عنه وولَّوْا غيره، فغضب لذلك وخرج من تلّ باشر(٢) وقدم مصر؛ فعيَّنه الحافظ للوزارة. واستشار بعضَ أهله وأكابر دَوْلته فيه، فكلُّهم كرِه ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنَّه نصراني لا يَرْضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أنّ الوزير يَرْقَى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزرّ عليه المزرة الحاجزَة بينه وبين الناس؛ وأنّ القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش، بدر الجمالي، ويُذْكَرون في النّيابة عنهُم في الكتب الحُكْمية النّافذة عنهم إلى الآفاق وكُتُب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضِيناهُ نحن فَمَنْ يخالِفُنا، وهُو وزير السيف؟ وأمّا صُعُود المنبر فيَسْتنيب عنه فيه قاضي القُضاة، وأمّا ذكرُه في الكتب الحكميّة فلا حاجة إلى ذلك. واسْتُوزِر والنّاس يُنكرون ذلك عليه(٣).

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان واليَ الغربيّة يومئذٍ وإنّه سارَ منها مجدًّا إلى أن وصل إلى القاهرة وحاصَرها يوماً واحداً ودخلها. فلمّا ولي الوزارة وثبتّتْ بها قدمُه سأل الحافظ أن يَسْمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسلَ إليهم وأحضرهم من تَلِّ باشر، فتواصَلُوا حتى كَمُل منهم ومِنْ غيرهم من الأرْمَن تقديرُ ثلاثين ألف إنسان؛ فاستَطالوا على المسلمين. وبُنِيَت في أيّامه كنائسُ كثيرة ودِيَرَة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة؛ وخاف أهلُ مصر منهم أن يغيِّروا الملَّة الإسلامية. وكثُرت الشّكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تُنسب المنية(٤) التي بالقرب من إطفيح(٥)، قد وَلِي الأعمال القوصيّة فجار فيها جوْراً عظيماً واستباح الأموال، فعظم ذلكَ على النّاس.

---

(١) ورد في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٢٢: «وجاءت ألقابه في منشورين صادرين إلى رهبان جبل سيناء بتاريخ سنتي ٥٢٩ هـ/ ٥٣٠ هـ السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام غياث الأنام أبو المظفر بهرام الحافظي». وجاءت ألقابه أيضاً في أحد السجلات. الأمير المقدم المؤيد المنصور عز الخلافة وشمسها وتاج المملكة ونظامها فخر الأمراء شيخ الدولة وعمادها ذو المجدين مصطفى أمير المؤمنين بهرام الحافظي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٣٢٥، ج ٨، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) تل باشر: حصن وكورة شمالي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٠.

(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٢٣، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٥٦.

(٤) منية الباساك: قرية قديمة، وتعرف حالياً باسم المنيا، وهي تابعة لمحافظة الجيزة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٣، ق ٢، ص ٣١.

(٥) أطفيح: من المدن المصرية من أعمال الجيزة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٢٦.

ذكر خروج بهرام[١] من الوزارة ووزارة رضوان بن الولخشي

قال: ولما ثقُلت وطأة بهرام على النّاس اجتمع الأُمراء وكاتبُوا رضوانَ بن الولخشي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يوْمئذٍ متولي الغربيّة ولاه بهرام إيّاها إبعاداً له، فلمّا أتته كُتب الأمراء نهضَ في طَلَب الوزارة، ورَقي المنبَر، وخطب خطبةً بليغةً حرّض النّاس فيها على الجهاد. فأجابوه. وحشد العُربان وقدِم إلى القاهرة. وكان الأمراء قد كاتبُوه وقالوا: إذا وَقع الوجْهُ في الوجْهِ ارْفَعْ المصاحف على الرِّماح فإنّا ننْحازُ إليك: ففعَل ذلك. وخرج بَهرام إليه لمّا قرُب من القاهرة: فلمّا عاين الأمراء والجُند المصاحفَ التحقوا جميعُهم برضوان، وبقي بَهرام في الأرمن خاصّة. فراسَل الحافظ وقال: أنا ألقاهُم بمَنْ معي. فخاف الحافظ عاقبةَ ذلك، فأمره أن يتوجّه إلى قوص ويُقيم عند أخيه الباساك إلى حين يدبّر أمراً. فعادَ بهرام إلى القاهرة، وأخذ ما خفَّ حمله، وخرج من باب البرقيّة في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجَّه إلى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصل عن القاهرة أتت العوامّ منازل الأرمن، وكانوا قد نزَلوا الحُسَيْنيّة[٢] وعمروها دوراً. ولمّا اتصل بأهل قوص انهزامُ بهرام ثارُوا بأخيه الباساك وقَتلُوه ومثَّلُوا به، وربَطُوا في رجله كلباً ميّتاً، ورَمَوه على مزبلة. فَقَدِمَ بهرامُ بعدَ ذلك بيومين، ومعه طائفةٌ من أقاربه، فرأى الباساك على هذه الحال، فقَتَل جماعةً من أهل قوص بالسّيف ونهبَها وسار إلى أسوان. ثمّ رجع ونزَل بالدِّيَرَة البيض[٣]، وهي من أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قال: ولمّا فارق بَهرام القاهرة دَخَلها رضوان ووقَف بين القصرين، واستأذَنَ الحافظ فيما يفعلُه؛ فأمره بالنّزول بِدارِ الوزارة، فنزلها، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة، ونعته بالأفضل. ونَدَبَ رضوان جماعةً من العسكر مع أخيه ناصر الدّين، فتوجَّهوا إلى بَهرام، فاستقرّ الأمر بينهم أن يقيم بالدِّيَرَة البيض؛ وعاد الجُند الّذين مع بَهرام إلى مصر. ودَبر رضوان الأمْرَ أحسن تدبير، وصادرَ جماعةً من أصحاب بهرام وشدّد عليهم الطّلب، وقتلهم بالسيف.

(١) «رضوان» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٠. «نزلوا الحُسَيْنِيَّة ونهبوا كنيسة الزهري، ونبشوا قبر أخيه البطرك وعمروها دوراً» والحسينية: خارج باب الفتوح.

(٣) «فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة في غربي إخميم» ابن ميسّر، المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٥.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة أحضرت[١] من تنّيس امرأة بغير يَدَيْن، وموضع يديها مثل الحلَمَتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدَيْ رضوان، فعرَّفته أنّها تعمَلُ برجلَيْها ما يعملُه الناس باليدين من خطٍّ ورَقْم وغير ذلك. فأحضر لها دواةً، فتناولت الأقلام برجْلها اليسرى وتأمّلَتْها قلماً قلماً فلم تَرْض شيئاً منها؛ فأخذت السّكين وبَرَتْ لنفسها قلماً وشقَّته وقَطَّته، واستدعت ورقةً فأَمْسكتها برجلها اليُمنى، وكتبت باليُسرى بأحسن خطٍّ ما تكتُبُ النِّساء بأيدِيهنَّ مثله، وحمدت الله في آخر الرُّقعة، وناوَلتْها للوزير. فتناوَلَها فوجدها قد سألتْهُ الزّيادة في رَاتِبها؛ فزَادَها، وأعادها إلى بلدها[٢].

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالإسكندرية[٣]، واستدعى الفقيه أبا طاهر بْنَ عوف[٤] إلى حضرته وأسْند إليه تدْرِيسَها.

ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بَهرام الأرمني من الصَّعيد، وأسكنه في القُصور وأكرمه، فعظُم ذلك على الأفضل رضوان، فشغَب الحافظُ عليه الجند، فقام بعضُهم عليه، وجرت بينهم حربٌ بالقاهرة. وطلب رضوان أنْ يسكُن مع الحافظ في القُصور، فلم يمكِّنه. فتزايَد الحالُ على الأفضل وضعُفَت قدرته عَنْ لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كُمشْتكين والي صَرْخَد[٥]، فأقام عنده

---

(١) «أحضر» في الأصل، والتصحيح من المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٩. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٦٧.

(٢) ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٦٧.

(٣) وهي أول مدرسة أنشأت في مدينة الإسكندرية بل في مصر كلها، وتعرف بالمدرسة الحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ الذي أنشئت في عهده. أنشأها رضوان بن ولخشي للفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوض، جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، ص ٤٨، المقريزي: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٣٠، ذكر القلقشندي نص السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي بتعيين ابن عوف مدرساً لهذه المدرسة وذكر اسمها وموقعها والوزير الذي أشار إلى إنشائها والأسباب الداعية إلى ذلك. صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٤) هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزُّهري. ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل عبد الرحمٰن بن عوف وكان شيخ المالكية في مدينة الإسكندرية طوال القرن السادس الهجري، فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م. وتوفي سنة ٥٨١. عن ست وتسعين سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٦٨.

(٥) صرخد: ملاصقة لبلدة حوران من أعمال دمشق، وكانت من القلاع الحصينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١.

فأكرمه[١]. ثم عاد إلى مصر في سَلْخِ المحرَّم سنةَ أربعٍ وثلاثين وقد جمع جمعاً صالحاً من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربُوه عند باب الفُتوحِ، فمضى ونزل عند الرَّصد، ثم مَضَى إلى الصَّعيد. فندب إليه الحافظُ الأمير سيفَ الدّولةَ أبا الفضل[٢] بن مَصَال بأمان؛ فسار إليه وتلطَّف به، إلى أن أحضره إلى القَصْر، في رابع شهر ربيع الآخر من السّنة، فاعتقله في بعض قاعات القصور. فأقام في الاعتقال إلى سنة اثنتين وأربعين[٣]، فخرج من نَقْبٍ نقبه في القصر، وذلك في ليلة الثلاثاء لسبعٍ بقَينَ من ذي القعدة[٤] منها. وركب وحَوْله جماعةٌ ممن كان يكاتبه، وتوجَّه إلى الجيزةِ، ولقِيَ عسْكر الحافظ وقاتَلَهم عند جامع ابن طُولُون، فهزمهم. ودَخَلَ القاهرة، ونزَل بالجامع الأقمر[٥]، وأغلق الحافظُ باب القصر في وَجْهه؛ فاستحضَر رَضوان أربابَ الدّولة والدّواوين، وأمَرَ ديوانَ الجيش بِعَرض الجُند، فعرضهم، وأخذ أموالاً كثيرة خارجةً عن القصر كانت في الدواوين، وأنفق؛ وأرسل إلى الحافظ في طَلَب المال، فأرسل إليه عشرين ألف دينار. وأَمَر الحافظُ مقدَّمي السُّودان بالهُجوم على رضوان وقتله، فهجمُوا عليه، فهمَّ بالركوب، فأَعْجلُوه عن ذلك، وضربه بعضُهم بسيفٍ فقتله وقُتِل معه أخوه، وأحضرت رأسَاهُما إلى الحافظ. وسكنت الفتنة[٦]، وأَرْسَل الحافظ الرأس لزوجة رضوان فلمّا وقع في حِجْرها قالت: هكذا تكُون الرجال. فلم يكن في وقت رضوان أسمع منه.

وكان مولده في سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائة[٧]. وأوّل ولايةٍ وَلِيَها الأعمال

(١) للتوضيح انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ٩٩، ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي، ص ٢٧٠، الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) هو نجم الدين أبو الفتح سليم (وقيل سليمان) محمد بن مصال اللكي المغربي، نسبته إلى «لك» بضم اللام وتشديد الكاف، وهي بلدة عند برقة من أعمالها ابن خلكان: ج ٣، ص ٤١٦، وكان اعتباراً من سنة ٥٣٩ هـ ناظراً في الأمور (المصالح)، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥٢١ ـ ٥٤٠. وانظر أيضاً خطط المقريزي، ج ٢، ص ٣٠.

(٣) «إلى سنة ثلاث وأربعين» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩.

(٤) «في ٢٣ ذي القعدة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٢، حاشية رقم (١).

(٥) الجامع الأقمر: بناه الخليفة الآمر بأحكام الله سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقام على إنشائه وزيره المأمون البطائحي. وذُكر أن اسم الآمر والمأمون عليه، وتجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٩٠. ولا يزال هذا الجامع قائم الشعائر إلى اليوم. سنة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م بشارع النحاسين بقسم الجمالية بالقاهرة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧١.

(٦) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ٩٩. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٢.

(٧) «كان مولده في غدير خُمّ في سنة تسع وثمانين وأربعمائة» المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٣٨. الاعتبار لأسامة بن منقذ، ص ٣٢.

القوصيّة والأعمال الإِخميمية في سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة[١].

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كانت وفاته لستٍّ بقين من شهر ربيع الآخِر سنةَ خمسٍ وثلاثين وخمسمائة بالقُصور، وكان الحافظُ قد أسكنه بدَارٍ بها لم يمكِّنْه من التصرف، وكان يشاوره في تدْبير الدَّولة والأمور ويصدر عن رأيه. فلمَّا هلك حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بغَلْق الدَّواوين ثلاثةَ أيام.

وأحضر الحافظ بطرك الملكية بمصر، وأمره بتجهيزه، فجهَّزه. وأُخرج وقتَ صلاة الظُّهر في تابوت عليه الدِّيباج، وحولَه جماعةٌ من النّصارى يُبَخِّرون باللّبان والسَّندرُوس والعُود؛ وخرج النّاس كلُّهم مُشاة ولم يتخلّف عن جنازته أحد من الأعيان. ثمّ خرج الحافظُ على بغلةٍ خلف التّابوت وعليه عمامةٌ خضراء وثوبٌ أخضر بغير طَيْلسان. ولم تزل النّاس مُشاةً والقَسُوس يُعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دَيْر الخندق[٢] بظاهر القاهرة؛ وقيل بَلْ في بُستان الزّهري في الكنيسة المستجدة[٣]. ونزل الحافظُ عن بَغْلته، وجلس على شَفِير القبر، وبكى بكاء[٤] كثيراً.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة طلع النّيل حتى بلغ تسعةَ عشر ذراعاً وأربع أصابع[٥]، ووصل الماءُ إلى الباب الجديد[٦] أوّل الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار النّاس

---

(١) تولى رضوان بن الولخشي الوزارة للحافظ من ١١ جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٦ م. حتى ١٤ شوال سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٢. حاشية رقم (١). المناوي: الوزارة في العصر الفاطمي، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) دير الخندق: ظاهر القاهرة من بحريها، عمّره جوهر الصقلي عوضاً عن دير هدمه بالقاهرة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٥٠٧.

(٣) كنيسة الزّهري: موقعها غربي اللوق، وكانت في بر الخليج الغربي، وكانت البركة الناصرية في هذا الموضع. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٥١٢.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر المنتقى من أخبار مصر للمقريزي، ص ١٣٣. اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٧٥.

(٥) ورد في النجوم الزاهرة أمر النيل في سنة ٥٤٣ هـ «الماء القديم سبع أذرع وثماني أصابع مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٤. ويذكر ابن مماتي أن النيل إذا وصل إلى زيادة وقدرها ستة عشر ذراعاً فقد وجب الخراج. وهذه الزيادة تبشر بمحصول جيد.ولكن إذا وصلت ثمانية عشرة ذراعاً فهذا قد يؤدي إلى فساد المحصول. قوانين الدواوين ص ٧٦.

(٦) الباب الجديد: أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله، على يُسرة الخارج من باب زويلة على شاطىء بركة الفيل، عند رأس حارة المنتجبية فيما بينها وبين حارة الهلالية. وكان يعرف بباب القوس، وكان هذا =

يتوجَّهُون من القاهرة إلى مِصر مِنْ جهة المقابر. ولمّا وصل الماءُ إلى الباب أظْهر الحافظُ الحُزن والانقطاع، فدخل عليه بعض خواصّه وسأله عن السَّبب، فأخرج له كتاباً وقال له: انظُر هذا ا لسّطر؛ فقرأه: فإذا فيه إذا وصل الماءُ إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي تُعْلَم منه أحوالُنا وأحوال الدّولة وما يأتي بعدها(١).

ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخَمس خلَوْن من جُمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولدُه في المحرّم سنة أربعٍ وستّين وأربعمائة، وقيل في المحرّم سنة ثمانٍ وستين(٢). فكانت مدّة عمره ستًّا وسبعين سنة وشهوراً، ومدّة ولايته منذ بويع البَيْعة العامّة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثماني عشرة سنةً وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً(٣).

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصُوفاً بالبطش والتيقُّظ؛ وكان شديد المناقشة. وهو الذي عمل طبل القُولَنْج الذي كسَره الملكُ النّاصر صلاحُ الدّين يوسف؛ وكان هذا الطبل قد عُمِل من سبعةِ مَعَادن والكواكبُ السبعةُ في إشراقها. وكان خاصّتُه أنه كلّما ضُرب به ضَربة خرج الرّيحُ من مَخْرج الضَّارب(٤).

قال بعض المؤرخين: إنّ الحافظ خطَر بباله أن ينقلَ رسولَ الله ﷺ من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينةُ إذ ذاك يُخطَب بها لبَنِي العبّاس، لظُهور مُلُوك الدّولة

= الباب واقعاً في عرض الطريق المعروف اليوم بالمغربلين تجاه شارع الداودية. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٠٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧، حاشية رقم (١).

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٣٩ ـ ١٤٠. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٨٧.

(٢) اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده: في المحرم من سنة ٤٦٧ هـ بعسقلان» ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٣٦، رقم ٤٠٧. ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٤١. «في ٤٦٧ هـ أو ٤٦٨ هـ» ابن ميسّر: المنتقى من أخبار مصر، ص ١٤٠، ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ٩٨. «في سنة ٤٦٦ هـ» ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٦، ص ٥٠٦.

(٣) «وكانت ولاية الحافظ على مصر تسع عشرة سنة، وسبعة أشهر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٤٠. «وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤١.

(٤) ورد في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٢٣٧ ما يأتي: «وهذا الحافظ كان كثير المرض بعلة القولنج، فعمل له شيرماه الديلمي، وقيل موسى النصراني. طبل القولنج الذي كان في خزائنهم لما ملك السلطان صلاح الدين». انظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٣٢.

السَّلجقية؛ فأرسل نحواً من أربعين رجلاً من أهل النّجدة والقُدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدّة، وتحيّلوا بأن حَفرُوا سَرَباً من مكان بعيد، وعملوا حساب الخُروج في المكان المقصود، فعصَم الله تعالى نبيَّه ﷺ من أن يُنقل من المكان الذي اختارَه له؛ فيُقال إن السَّرَبَ انهار عليهم فهلكوا؛ وقيل بل سُعِي بهم فأُهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو عليّ حسن؛ هلك كما ذكرنَا؛ وعبدُ الله، هلك في حياته أيضاً؛ وأبو المنصور إسماعيل؛ وأبو الأمانة جبريل؛ ويوسف.

ووزارؤه: تقدَّم ذكْرهم. ولمّا قتل رضوان بن الولخشي لم يستَوْزر بعده أحداً، وإنما كانوا كتّاباً. فمِنْ أشهر كُتابه أبو علي حسن الأنصاري كان [القاضي][1] الفاضل يقول: لم يَسْمح الزّمان بمثله.

ومِن أشهر شُعرائه الشّريف أبو الحسن الأخفش المغربي، في جملة شعره في قصيدة: [من الرمل]

ذكــر الــدّوْح وشَــاطــي بَــرَدَى   وحَــبَابــاً فــيــه يَــحْـكِـي بَــرَدا
والــصّــبا يَــمْــرَحُ فــي أرجــائــه   وتَــحُــوك الــرّيــحُ مــنــه زَرَدا
يَــنْــشُــر الــدُّرُّ عــلــيــه فــضّــةً   وتُــذيــب الــشّمْسُ فيه عَسْجدا
ورشــأ لَــوْ لــمْ تــكُــن ريــقَــتُــه   خــمــرةً صــافــيــةً مــاعَــزْ بــدا

قضاته: لمّا غلب أحمد بن الأفضل على الآمر، أبقى محمدَ بن هبة الله بن ميسّر القَيْسَراني على القضاء، ثم صَرَفه الحافظ واستَقْضَى أبا الفخر صالح بنَ عبد الله بن أبي رجاء؛ ثم قبَض عليه الوزيرُ يانس الرُّومي وقتَله، فولّى سراج الدّين أبو الثُّريَّا نجمَ من جعفر، مضافاً إلى الدّعوة، إلى أن قُتل في ذي القَعدة سنة ثمانٍ وعشرين؛ فأعيد سناء الملك بن ميسّر، فأقا إلى أن قبض عليه في يوم الأحد لسبع خَلَوْن من المحرم سنة إحدى وثلاثين، وسيِّر إلى تنّيس فقتل بها. ووَلِيَ بعده القاضي الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرّحمٰن بن محمد بن أبي عقيل، إلى أن تُوفي في شعبان سنة ثلاثٍ وثلاثين. وأقام الناس بغير قاضٍ ثلاثة أشهر، ثم ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلةً خلت من ذي القعدة منها. ثمّ جرت مفاوضةٌ بينه وبين «النبيه»[2] أبي الحسن علي بن «إسماعيل»[3]، قيل أدّت إلى مصافَعَةٍ خرج في

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. وهو عبد الرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني القاضي الفاضل، الملقب مجير الدين، وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين. توفي ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. بالقاهرة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٥٨ ـ ١٦٣، رقم ٣٧٤.

(٢) و(٣) ما بين مزدوجتين بياض في الأصل. والتكملة من أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠١. =

أثنائها القاضي إلى القَصْر وهو مخرَّق الأثواب وقد تحلَّقَت عمامته في حَلْقِه، فعظُم على الحافظ خروجُه على هذه الهيئة وغرَّمه مائتي دينار؛ واستناب أبا طاهر إسماعيل ابن سلامة الأنصاري، فأقام في النّيابة إلى مُسْتَهَلّ المحرّم سنة خمسٍ وثلاثين، فوفَّر جَارِي القضاء، وهو أربعون ديناراً في كل شهر، وخدم لجاري التَّقْدِمة في الدّعوة، وهو ثلاثون ديناراً، في الوظيفتين؛ فأُجيب إلى ذلك وأقام إلى أن صُرف لسبعٍ خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدَّعْوة. ووَلِي القضاءَ أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي إلى آخر المدّة[١].

ذكر بيعة الظّافر بأعداء الله[٢]

هو أبو المنصور إسماعيل بن [عبد المجيد][٣] بن الحافظ لدين الله[٤]، وهو الثّاني عشر من مُلوك الدّولة العُبَيْديّة والتّاسع من مُلوك الدّيار المصريّة منهم. بُويع له بعد وفَاةِ أبيه لخَمْسٍ خَلَوْن من جمادى الآخرة سنة أربعٍ وأربعين وخمسمائة. واستَوْزَر الأمير نجم الدّين أباَ الفتح سليم بن محمّد بن مصال[٥]، ونَعَتَه بالسّيد الأجل المفضّل أمير الجيوش؛ وكان إذْ ذاك من أكابر أمراء الدّولة.

وفي الرابع من شعبان من السَّنة اجتمع السودان وجماعةٌ من المفسدين بالبَهْنَسَانية[٦]، فخرج إليه الوزير فحاربهم وهزمهم.

= سبب الخلاف هو أن النبيه أبو الحسن علي بن إسماعيل قد عزل عن دار العلم التي أضيفت إلى هبة الله بن عبد الوارث القضاء ثم أعيدت إليه. وجرت بين النبيه والقاضي المذكور مفاوضات أدت إلى المصافعة. ابن ظافر أخبار الدول المنقطعة، ص ١٠١.

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) ترجمته في فوات الوفيات لابن خلكان، ج ١، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٢ ـ ١٠٧، الوافي بالوفيات للصفدي، ج ٩، ص ١٥١ ـ ١٥٣، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٨ ـ ٢٩٢. خطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ص ٢٨٦، الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤١، ١٩١. حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢، ص ٢٢. المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤١ ـ ١٤٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤٢.

(٤) انظر نص سجل بيعة الظاهر عند الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٤. وعند القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٩، ص ٢٨٦ ـ ٢٩١.

(٥) ترجمته في فوات الوفيات لابن خلكان، ج ٣، ص ٤١٦ ـ ٤١٧. وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٢١ ـ ٥٤٠. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٠. تولى الوزارة في سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥٤٤ هـ: الوزارة في العصر الفاطمي للمناوي ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

(٦) البهنسانية: البهنسا: مدينة بالصعيد غربي النيل، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ص ٢، ج ٣، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

ذكر قيام العادل بن السّلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هذه السنة ثار الأمير المظفّر أبو الحسن علي[١] بن السّلار والي الإسكندرية وخرج وحشد وتقدَّم بِمَنْ معه، ودخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان، وَوَقَفَ على باب القصر. وراسَل الظافر والمدبِّر له من النساء؛ فراجَعَت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيبَ إلى ما سأله. وفُتح بابُ القصر، وخُلع على المظفَّر خُلع الوزارة ولُقّب بالعادل، فلمّا اتصلَ ذلك بابن مصال جمع عُربان البلاد، ووافقه بَدْر بنُ رافع مقدّم العربان بتلك البلاد؛ وقصد ابن السّلار فندب إليه ربيبَه عَبّاس بن يحيى بن تميم ابن المعزّ باديس بعسكر معه. فعسكر ببركة الحبش. فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجَدّ في السّير وكبس عسكر عباس، فأثخنهم جراحاً وقتلاً؛ فانهزَم عباس.

وأجمع ابن مصال رأيه على قَصْد بلاد الصّعيد، فعاجَله ابن السّلار وأمَدّ ربيبه بالعساكر وأمرَهُ بمُعاجلته قبل الجمع، فأدركه بالقُرب من دَلاَص[٢] والتَقَوْا بينها وبين مهد، وهي قرية هناك، واقتتلُوا؛ فانْجَلت الحرب عن قَتْل ابن مصال وبَدْر بن رافع. وكانت هذه الوقعة في يوم الأحد تاسع عشر شوال. وحُملَ رأس ابن مصال إلى القاهرة، وطيف له، وخُلع على العَادل في ذلك[٣] اليوم.

وفي السّادس والعشرين من شهر رمضان أَغلق العادلُ أبوابَ القاهرة والقُصور، وقَبَضَ على صِبيان الخاصّ وقتلهم، وكانوا جمعاً كثيراً وهُم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدّولة فكان الرجل إذا تُوفّي وخلَّف أولاداً حُملوا إلى حضرة الخلافة وأودِعوا في أماكن مُفْردةٍ لهم. ويؤخذ في تعليمهم الفروسية وغير ذلك؛ وتسمَّوْا صِبيان الخاص. وكان سبب إيقاع العادل بهم أنه بلغه أنهم تعاقَدُوا على قَتْله، فبادر بهم، وقَبَض عليهم، وقَتَلَ أكثرهم، وجعل مَنْ بقي منهم في المراكز بالثغور[٤].

وفي يوم الجمعة لأربعٍ خَلَوْن من شوّال من السّنة قَتَل العادل أبا المكرّم الموفّق

---

(١) ترجمته في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٤١٦، رقم ٤٨٥. العبر للذهبي، ج ٤، ص ١٣١، المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٢ ـ ١٤٣. أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٣، اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٧. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٥٢ ـ ٥٥٣.

(٢) دلاصي: بفتح أوله، كورة بصعيد مصر على غربي النيل أخذت في البر، تشتمل على قرى وولاية واسعة. ودلاص مدينتها معدودة في كورة البهنسا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٥٩.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٤١ ـ ١٤٢. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ١٩٦.

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٣.

محمّد بن معصوم التنيسي ناظر الدّواوين، وكان سبب ذلك أن العادل في مبدأ أمره كان من صِبيان الحُجَر وكان يتكرر [دخوله][١] إلى الموفق برسائل ويكلّمه بكلامٍ غليظ، فكرهه الموفّق، ثم كُتِب بعد ذَلك لابن السّلار منشورٌ بإقطاع، فدخل به إليه، فتَغافَل عنه وأهمل أمره؛ فقال له ابن السّلار: ما تسمع؟ فقال: كلامُك ما يدخل في أُذُني أصْلاً، فأخذ ابن السّلار منشورَه وخرج مِنْ حيث أتى. فلمّا ولِيَ أمر الدّولة دخل عليه الموفّق وسلّم عليه، فقال له: ما أظنّ كلامي يدْخل في أذنك. فتلجلج بين يديه وقال له: عفو السّلطان. فقال: قد استعملتُ للعفْو مِنْ حين خروجي مِن عندك، ما أتيتك به، وأشار لبَعض خدمه فأحضر مسماراً من حَديد عظيم الهيئة[٢]، وقال: هذا والله أَعْدَدْته لك مِنْ ذلك الوقت. وضَرب المسمار في أُذنِه حتى نفذ من الأخرى، وحُمل إلى باب زويلة الأوسط ودُقّ المسمار في خشبةٍ، وعُلّق عليها وقد مات.

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهّزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنة خمسٍ وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبُوها وأحرقوها[٣] وعادوا إلى بلادهم. فجهَّز العادلُ المراكب الحربيّة وشحَنَها بالرّجال وسَفَّرَها في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وأربعين، فمضت إلى يافا وقاتلوا مَنْ بها في المراكب، واستَوْلَوْا على عِدَّةٍ كثيرةٍ من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجِزُوا عن أَخْذِه، وقتلُوا خلقاً كثيراً. ثم امتدُّوا إلى ثغر عكّا وفعلوا فيه كَفِعْلِهم بيافا. وكذلك فعلُوا بصَيْدا وبَيْروت وطَرابلس. وأنكَوْا في الفرنج نِكَايةً عظيمة. ووجدُوا طائفةً كثيرة من حجّاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم. وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار.

وفي سنة ستّ وأربعين قُطِعت جميعُ الكساوي المرتّبة لِلأُمراء والدّواوين عن أربابها، وتوفَّرت.

ذكر مقتل العَادل بن السّلار وسَلطنة ربيبه عبّاس

كان مقتلُه في السّادس من المحرّم سنة ثمانٍ وأربعينٍ وخمسمائة. وكان سببُ ذلك أن العادة كانت جاريةً بتجريد عسكر من مصر في كلِّ سنة لحِفْظ عَسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصرُوها في سنة سبعٍ وأربعين. فلمّا كان في هذه السنة وقعت القُرْعة في البَدَل على عبّاس رَبِيبِ العادل، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. من المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٣.
(٢) «عظيم الخلقة» في المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٣.
(٣) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٤.

باديس، فجرّده العادل بالعساكر، وقال له: هَذَا الثّغر قد نَازله الفرنج ولا غُنْيَة أن تتوجّه بالعساكر إليه لتدفَعَهم عنه. فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعةٌ من أكابر الأمراء، منهم أسَامَةُ بن منقذ[١]، وكان خصيصاً بعبّاس فلمّا وصلُوا إلى بلبيس تَذَاكَر عبّاس وأسامة القاهرةَ وطِيب المُقام بها وما خرجا إليه، وما يلْقَيَانِه من الشّدائد ولِقَاء العدوّ؛ فتأوَّه عبّاس لذلك ولام عمّه كونه جرَّدَه، فقال له أسامة: لو أردت أنتَ كُنتَ سلطان مصر. قالَ: وكيف الحيلةُ في ذلك؟ فقال: هذا ولدُك نَصر[٢]، بينَه وبيْن الظَّافر مودَّةٌ عظيمة، فأَرْسِله إليه وخاطِبْه على لِسَانه أنْ تكونَ أنت السُّلطان مكان عمّك. فهو يختارُك ويكره العادل. فإن أجابك لذَلك فاقتُل عمّك.

فجهّز عبّاس ابنَه وعرّفه ما تقرّر مع أسامة. فدَخَل إلى القاهرة على حينِ غفلةَ من العادل؛ واجتمع بالظّافر وأعلمه الحال؛ فأجاب لما طلب.

ثمّ مضى نصرٍ إلى عِند جدَّته، زوجةِ العادل[٣]، وأعلم العادل أنّ والدَه أعادهُ شفقة عليه من السَّفر. ومضى العادلُ إلى مصر وجهّز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عبّاساً، وأقام طُول نهاره في العَرْض والنَّفقة على رجالها، وعادَ إلى دارِه بالقاهرة وهُو على غايةٍ من التَّعب. فلمّا نام على فراشه احتزّ نصْر بنُ عبّاس رأسه، ومضى به إلى القصر، ودخل إلى الظَّافر، وجهّز إلى أبيه، فركب لوقته؛ ودخل القاهرة صبيحةَ نهارِ الأحد الثّاني عشر من المحرّم، فوجدَ جماعةً من الأتراك، كان العادلُ قد اصْطَنَعَهم لنفسه، قد ثارُوا لذَلك، فلاطَفَهم وطمَّنهم؛ فلم يَطمئنوا. ومضَوْا إلى دمشق.

وكانت وزارةُ العادل ثلاث سنينَ ونصفَ سنة تقريباً؛ وكان من الأكراد الزرزارية، ولمّا قُتل طِيف برأسه في القاهرة جميعاً، ونَصب الظّافر عبّاساً في السّلطنة[٤].

ذكر مقتل الظّافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتلُه في ليلة الخميس سلخ المحرّم ستة تسعٍ وأربعين وخمسمائة[٥]. وذلك

---

(١) هو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري الأمير المتوفى سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. وهو صاحب قلعة شيزر قلب حلب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٩، حاشية رقم (١).

(٢) «ناصر الدين» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٠٤، وفي الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٩١.

(٣) هي السيدة بلاّرة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس. ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٤٢.

(٤) انظر المنتقى من أخبار مصر للمقريزي، ص ١٤٧.

(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٨٦. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٩١.

أنه خرج ليلاً متنكراً ومعه خادمان وجاءَ إلى دار نَصْر بن عبّاس، وهي الدّار المعروف قديماً بدار جبر بن القاسم ثم عُرفت بسكن المأمون بن البطائحي، وهي المدرسةُ المعروفة بالسُّيُوفيّة(١) في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة. بخُط سُوق السُّيُوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفيّة. فلمّا جاء الظّافر إليه قتله نصْرُ بن عبّاس، وحَفَر له تحت لوحِ رخامٍ ودفته(٢)، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سببُ ذلك أنّ الأمراء استوحشوا من أُسَامة بن منقذ لمّا حَسَّن لعبّاسٍ قتل عمّه العادل، وقَصَدُوا قَتْل أسامة. فلمّا علم بذلك اجتمع بعبّاسٍ وقال له: كيف تَصبرُ على ما يقولُه النّاس في ولدك واتِّهامِهم أنّ الخليفة الظّافر يفعل به ما يفعلُه مع النساء! فعظُم ذلك على عبّاس. وقيل بل كان الظّافر قد أَنْعم على نصْر بنِ عبّاس بقليوب، فجاء نَصرٌ إلى والدِه وأعلمه بذلك، فقال له أُسَامَة: ما هي بمهرك غالية. فقال عبّاس لأُسَامَة: كيف تكونُ الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إنّ الخليفةَ في كلّ وقتٍ يأتي لولدك في هذه الدّار خِفْية، فإذا أتاه فأْمُرْه بقَتْله. فأوصى عبّاسٌ ابنه بذلك؛ فلما جاءَه قتله نصر(٣).

قال: ولمّا كان صبيحةَ يومِ قَتْله ركِب عبَّاسٌ وولدُه على العادة وأتى إلى القصر؛ فقال لِبَعض الخدم: أَعْلِم مولانا لِيَجْلس للاجتماع معه. فدخل وأعْلَم أهل القصر بما التمسهُ عبّاس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنَّه خرج البارِحَة لم يَعُدْ. فجاء الخادمُ إليه وأعلَمه الخبرَ؛ فشدَّدَ عبَّاسٌ في طَلَب الظّافر، ودخل إلى القاعات ومعه أكابرُ الخدم، وقال: لا بُدَّ من مولانا. فقيل له عند ذلك: أنْت أعلمُ بحاله، فأحضر أخويْه

(١) المدرسة السيوفية: يقول ابن تغري بردي نقلاً عن المقريزي: إن المدرسة السيوفية بالقاهرة محلها من جملة دار الوزير المأمون محمد بن فاتك البطائحي، وقفها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الحنفية سنة ٥٧٢ هـ. وهي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر وعرفت بالمدرسة السيوفية لأن سوق السوفيين كان في ذلك الوقت على بابها. وهذه المدرسة هي التي تعرف اليوم باسم جامع الشيخ مظهر الذي بأول شارع الخزرجية على يسار الداخل إليه من جهة شارع السكة الجديدة. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٧٩ حاشية رقم (٤). انظر أيضاً المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٢) «ودفنه في الباذهنج بدار المأموني بالسيوفيين» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٦٤. «ورمى الكل في جب عنده وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء، فصارت من جملة رخام المجلس». ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ١٠٥.

(٣) يورد ابن تغري بردي عن لسان ابن القلانسي عن مقتل الظافر ما يأتي: «إن الظافر إنما قتله أخواه يوسف وجبريل، وابن عمهما صالح بن الحسن» وفي رأيه (أي صاحب النجوم الزاهرة) أن هذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من أن عباساً قتل أخوي الظافر وابن عمه صبراً. غير أن جمهور المؤرخين اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس. النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٨٠.

يوسف وجبريل وقال لهما: أنتما قتلتُما مَولانا. فأنكرَ ذلك وحَلَفا عليه الأيْمان المغلَّظة. وأَحْضرَ القاضي وجماعةٌ من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدّعاة وقال: قد صحَّ عندي أنّ أخَوَيْ الظّافر قتلاه. فأَفْتَوه بقتلهما؛ فقُتِلا بين يديه وقيل إنَّه قَتَل معهما أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدّولة، مُصْلِح، زمام القصر(١).

قال: وكان الظّافرُ مِن أحسن خَلْق الله وجهاً. وكان مولدُه يوم الأحد، النّصف من شهر ربيع الآخر(٢) سنة سبعٍ وعشرين وخمسمائة؛ فكانت مدَّة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عَشر يوماً؛ ومدّة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام(٣).

ولده: أبو القاسم عيسى.

وزراؤه: تقدّم ذكرهم.

قضاته: أبو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بن السّلار في سنة سبع وأربعين؛ ووَلَّى أبا المعالي مجلى(٤) بن نجا المخزومي، فأقام إلى آخر الدّولة.

ذكر بيعة الفائز بنصر الله(٥)

هو أبو القاسم عيسى بن الظَّافر بأعداء الله؛ وهو الثالث عشر من ملوك الدّولة العُبَيْديّة والعاشر من ملوك الدّيار المصرية منهم. بُويع له بعْدَ مقتل والده في يوم الخميس سلخ المحرّم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وعمرُه خمس سنين، وذلك أنّه لم

---

(١) انظر المنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٨، أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر ص ١٠٦.

(٢) «في المحرم» كنز الدرر للدواداري، ج ٦، ص ٥٥٧.

(٣) «كانت مدة عمره اثنتين وعشرين سنة ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أيام» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٨٦.

(٤) هو أبو المعالي مجلي بن جُمَيع بن نجا، القرشي المخزومي الأرسوفي الأصل، المصري الدار والوفاة، الفقيه الشافعي، صنف في الفقه كتاب «الذخائر» تولى القضاء بمصر سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ بتفويض من العادل أبي الحسن علي بن السلار. توفي سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٤، رقم ٥٥٦. ترجمته وأخباره في: حسن المحاضرة للسيوطي، ج ١، ص ١٧٠، وعبر الذهبي، ج ٤، ص ١٤١. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٥٧.

(٥) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٤٩١، رقم ٥١٤. وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧، وتاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٧، والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٩١، ٢٥٥، والدرة المضية لابن أيبك الدواداري، ص ٥٦٦، وعبر الذهبي ج ٤، ص ١٥٦، ١٥٧ ـ ١٥٨، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٧٤. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٢٩٤ ـ ٣١٨.

قُتل الظّافر استدعى عبَّاسٌ ابنَه أبا القاسم عِيسى هذا وحَمَله على كَتِفه، ووقف في القاعة، وأمر أنْ تدخُل الأمراء، فدخلوا؛ فقال: هذا ولدُ مولاكم وقد قتل أبُوه وعَمّاهُ كما تَرَوْن، والواجبُ الطّاعَةُ لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا؛ وصاحوا صيحةً عظيمة زَلّ منها عقلُ الصّبي واختل. ثمّ سيَّره إلى أمّه ولُقِّب بالفائز: فأقام يُصْرع في كلّ يوم[١].

وانفرد عبّاسٌ بالوزارة وبتدبير الأمور، ولم يَبْقَ على يدِهِ يَد، وظنَّ أن الأمر استقام له.

ذكر خروج عبّاس من الوزارة وما آل إليه أمره

قال المؤرخ: لما قُتل الظّافرُ بأعداء الله أكثرَ أهلُ القصر النُّوَاح عليه، وشرعوا في أعمال الحيلة على عبّاس، ووافَقَ ذلك نُفور الأمراءِ منه لإقْدامِهِ على القَتْل: فاختلفَت الكلمةُ عليه، وهاجَت العَساكر. وتفرّقت الفرق، ولبسُوا السِّلاح، فخرجَ إليهم عبَّاس في يوم الاثنين عاشر شهر رَبيع الأول من السنة، فقاتلهُم وهزمَهم، وقتل جماعةً منهم. فأرْسَلت عمّةُ الفائز أخت الظّافر شعورَ أهل القصر طَيَّ الكتُب إلى الأمير طلائع ابن رُزّيك، وهو إذ ذاك متولّي الأعمال السُّيوطيّة، وقيل كان متولِّي مُنية بني خَصيب[٢]، وسألوهُ الانْتصَار لمَوْلاه فجمع العُربان والأجناد ومُقْطعي البلاد، وسار إلى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عَشر شهْر ربيع الأول من السَّنة، وخرج النَّاسُ للقائه.

فاستشار عبّاس أسامةَ بن مُنقذ فأشار عليه باللّحاق بالشَّام. فدخل إلى القَصر وأخذ في [جَمْع][٣] تحفة وحَمْل أمواله، وسار هُو وأسَامَة بنُ منقذ إلى الشّام على طريق أيلة[٤]. فأرسلت عمَّة الفائز إلى الفرنج بعَسْقلان رُسُلاً على البريد تُعْلِمُهم الحال وتَبذل لهم الأموال في الخُروج علَى عبّاس وأَخْذِ ما معه. فخرجُوا إليه وقاتَلُوه، فتخاذَل عنه أصحابُه، ونهبُوا ما معه فأسره الفرنج وحملُوه إلى عسقلان؛ ونَجَا أسامة إلى دمشق[٥].

وقيل إن الفرنج قتلوا عبَّاساً وأسرُوا ابنَه نصراً ففدَاه الصّالح بنُ رزّيك، وأحضرَهُ إلى القاهرة وضرب عُنُقَه.

---

(١) «كان والياً على الأشمونين والبهنسا» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢١٥.

(٢) منية بن خصيب، أو منية ابن خصيب: تقع على الشاطىء الغربي للنيل، وتسميتها نسبة إلى الخصيب ابن عبد الحميد خراج مصر في عهد هارون الرشيد. وتعرف «بالمنية» وتسمى اليوم «المنيا»، وهي اليوم قاعدة مديرية المنيا في مصر. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) أيلة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القُلْزُم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٢.

(٥) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٩.

ذكر وزارة الصّالح أبي الغارات طلائع بن رُزيك[(١)]

قال المؤرخ: لمّا توجّه عبّاس نحو الشّام وافق ذلك قدومَ طلائع بن رزيك، فخرج الأمراء والعساكر إليه، فمن الأُمراء مَنْ شَهر سلاحَهُ وقاتَله، ومنهُمْ من التَحق به؛ ثم انْجَلى الأمرُ بعد ساعةٍ عن دُخُول طلائع إلى القاهرة والعساكرُ بين يَدَيه. وشقَّ القاهرة وهو لابسُ السَّواد، وأعلامُه سُودٌ كذلك حُزْناً على الظَّافر، وشعورُ نساء القصر التي سُيِّرت إليه على الرِّماح[(٢)].

ونَزَل طلائع دَارَ المأمُون الّتي كان بها نَصْر بن عبّاس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظَّافر، لمّا قُتل وأعلمهم بمكانه، فأُخرج وغُسِّل وكُفِّن، وحُمل في تابُوت على أعناق الأمراء والأستاذين، وابنُ رزّيك يمشي أمام التّابوت. وأَتَوْا به إلى القَصْر فصَلَّى عليه ابنُه الفائز ودُفِن في تُربَتهم بالقَصر وجَلَس الفائز في بقيَّة النَّهار، وخَلَعَ على ابن رُزّيك بالموشّح والعِقد، وعلى ولَده وإخوتِه وحاشيته، وقُرىء سجلُّه[(٣)] بالوزارة ونُعِت بالملك الصَّالح. وقَبَض على جماعةٍ من الأمراء وقَتَلهم، في ثالث عِشْري شَهر ربيع الأول من السنة.

وفي سنة خمسين وخَمسمائة خرج الأمير تميم[(٤)]، متولِّي إخميم[(٥)] وأسيوط[(٦)]،

---

(١) هو أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك الملقب الملك الصالح وزير مصر، كان والياً بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر. وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م. توفي يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦٠ م. وكانت ولادته في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م. وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع الذي على باب زويلة بظاهر القاهرة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٩، رقم ٣١١.

(٢) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١٠٩، والمنتقى من أخبار مصر لابن ميسّر، ص ١٤٩ ـ ١٥٠. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) ومما قيل في هذا السجل. «واختصّك أمير المؤمنين بطيلسان غدا للسيف توأماً، ليكون كل ما أسند إليه من أمور الدولة معلماً. ولم يُسمع بذلك إلا ما أكرم به الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أمير الجيوش أبا النجم بدراً وولده أبا القاسم شاهنشاه. وأنت أيها السيد الأجل الملك الصالح، وأين سعيُهما من سعيك، ورعيهما الذِّمام من رعيك، لأنك كشفت الغُمة، وانتصرت للأئمة، وبيّضت غياهب الظلمة، وشفيت قلوب الأمة». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٢٩٨. وانظر نص هذا السجل في حسن المحاضرة للسيوطي، ج ٢، ص ٢٠٥ ـ ٢١٤. طبعة القاهرة ١٩٦٧. وج٢ ص ١٥٦ ـ ١٦٢، طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ. ومجموعة الوثائق الفاطمية للشيال، ص ٣٣٧ ـ ٣٥٠.

(٤) «الأوحد بن تميم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٠٠.

(٥) إخميم: من البلاد المصرية القديمة الواقعة على الشاطىء الشرقي للنيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٤.

(٦) أسيوط: بلدة مصرية قديمة واقعة على الشاطىء الغربي للنيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩٣.

على الصّالح، وجمَع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصّالح عسكراً، فالتقَوْا واقتتلوا، فقُتل تميم في سَابع عشر رَجب.

وفي سنة اثنتين وخَمْسين وخِمسمائة انفَسَخَت الهُدنة بين الصَّالح بن رُزّيك والفرنج، فجهَّزَ الصَّالح الجيوش والسَّرايا إلى بلاد الفرنج. فوصَلَت سريَّة إلى عسقلان وغَنَمت وعادت سالمة. وجهَّز المراكب في البَحر إلى نحو بيروت، فأوْقَعَت بمراكب الفرنج. وجهَّز سريَّةً إلى جهة الشَّوْبَك[١] فَعاثُوا في تلك النواحي، وعادُوا سالمين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجَّة سنة اثنتين وخمسين قبض الصّالح ابن رُزّيك على الأمير ناصر الدَّوْلة ياقوت وأولاده واعتقلهم؛ وسبَبُ ذلك أنّه بلغه أنّه كاتَب أختَ الظّافر وقصَد القيام على الصّالح، وكان والياً عامِلاً على الأعمال القُوصيّة، وهُو بالقاهرة. ولم يَزَل في حبْسه إلى أنْ توفي في شهْر رجب سَنَة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثارَ على الصَّالح طَرْخانُ بن سَليط بن ظَريف، متولّي الإسكندرية، وجمَع جمُوعاً من العُربان وغيرها؛ وتَقدَّم بها لحربه، فنَدَب الصّالح إليه الأمير عزّ الدّين حُسَام بن فضّة بعسكر. فالتَقَوْا واقتتلوا، فهَزَم حُسام جُيوشَه وظفِرَ به، فاعتقَلَه الصّالح.

فلمّا كان في المحرَّم سنة خمس وخمسين ثارَ أخوه إسماعيل طلباً لثأره، وتلقَّب بالْمَلك الهادي؛ فنَدَب الصَّالح إليه الجُيوش. فلمّا هجمت عليه هرب وأتَى الجيزة، واستَتَر عنْدَ بَعْضِ العُربان. فلمّا كان في يَوْم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طَرْخَان من الاعتقال هُو والمُوَكلُ بِه، فقُبض عليه في السّادس من الشهر وصُلِب على باب زَويلة، ورُمِي بالنُّشّاب[٢]، ثم مُسِك أخوه إسماعيل وصُلِب إلى جانبه بعد ضَرْب عنقه[٣].

وفي سنة أربعٍ وخمسين بنَى الصَّالح حِصْناً من اللبن على مدينة بلبيس[٤].

ذكر وفاة الفائز بنَصْر الله

كانت وفاتُه في لَيْلة الجُمعَة السّابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين

(١) الشوبك: قلعة حصينة واقعة جنوب البحر الميت، بين مصر والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢) النُّشَّاب: السهام. ابن منظور: لسان العرب (نشب).

(٣) انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

(٤) بلبيس: بكسر الباءين وسكون اللام وياء وسين مهملة: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

وخمسمائة؛ وقيل لِلَيْلَةٍ بقيت منه؛ وكان مولدُه في يوم الجمعة لِتسعٍ بقِينَ من المحرّم سنة أربعٍ وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنةً[(١)] وستّةَ أشهر وأيّاماً، ومدّة ولايتِه ستّ سنين وخَمسة أشهر وسبعة عشر يوماً[(٢)].

وزراؤه: الأفضل عبّاس بن يحيى بن تميم؛ ثم الصّالح طلائع بن رُزّيك.

قضاته: أبو المعَالي مجلّى بن نجا القرشي المخزوميّ؛ ثمّ صُرِف في أوّل وزارة الصّالح، وأعيد أبو الفضائل يونُس؛ ثم صُرِف بالقاضي المفضَّل أبي القاسم هبة الله ابن كامل.

ذكر بيعة العاضد لدين الله[(٣)]

هو أبو محمد عبد الله بن يُوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، بن المستنصر بالله أبي تميم معدّ، بن الظّاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور [بن العزيز بالله][(٤)] نزار، بن المعزّ لدين الله أبي تميم معدّ، ابن المنصُور بنصْر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهديّ عُبَيد الله. وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العُبَيديّة، والحادي عشر من مُلوك الديار المصرية منهم؛ وعليه انقرضت دولتُهم، بُويعَ له بعد وَفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصّالح طلائع قَصَد أن يُبايع لِشخصٍ من أقاربِ العاضد، فقال له بعض أصحابه لا يكنْ عبّاس أحزَم منك حيثُ اختار صغيراً وتَرك من هو أسَنّ منه، واستَبَدَّ هو بالأمر. فعَدل الصّالح إلى العاضد، وبَايَعَ له وهُوَ مراهق البلوغ؛ فكانت الخلافةُ للعاضِد اسماً وللصّالح رسماً[(٥)].

ويوسُف أبو العاضد هو أحد الأخوين[(٦)] اللذين قَتَلهما عبّاس بعد قتل الظافر.

---

(١) «عشر سنين أو نحوها» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٠٤.

(٢) «ست سنين وستة أشهر وسبعة عشر يوماً» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٦، ص ٥٦٦.

(٣) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ١١٠ ـ ١١٢، وخطط المقريزي، ج ١، ص ٣٥٧. وحسن المحاضرة للسيوطي، ج ٢، ص ٢٢، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٣٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٢٢. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٥٥.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) «للعاضد رسماً ولطلائع حسماً» في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١١. «وكانت خلافته اسماً له، وجسماً ورسماً للصالح بن رزيك» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٣.

(٦) «الابوني» في الأصل، والتصحيح يقتضيه سير الأحداث.

وفي سنة ستٍّ وخمسين تزوَّج العاضدُ لِدين الله بابنة الملك الصّالح بن رُزِّيك؛ وكان العاضِدُ توقَّف عن زواجها، فجَبَره الصّالح على ذلك واعتقله إلى أن تزوَّجها؛ وقَصَد بذلك أن يُرْزَق العاضدُ منها ولداً فتحصُلَ الخلافةُ والْمُلْك لبني رُزِّيك، فجاء بخلاف ما قصد[1].

ذكر مقتل الملك الصّالح طلائع بن رُزّيك وقيام ولده الملك العادل رُزّيك

كان مقتلُه في السّابع عشَر من شهر رَمَضان سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة. وذلك أنّه ركب في هذا اليوم مِنْ دار الوِزارة إلى القصر، وجَلَس على مرتَبَته على عَادته، فلمّا انقضى المجلس خَرَج، فبَينما هو في دهاليز القَصْر وثب عليه جماعةٌ فضربُوه بالسّكاكين عِدَّة ضربات مهلكة. وكان سببُ ذلك أنّه تحكَّم في الدَّولة لخُلوّها من الأمراء وصغر سِنّ العاضد، وكان قد فرَّق الأمراءَ وقَتَل بعضُهم؛ فبعَثت ستُّ القُصور عمَّة العاضد الأموالَ إلى بَعض الأمراء وأغْرَتهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولمَّا ضُرب بالسّكاكين ألقى ابن الزُّبد نفسه عليه وقاتل دُونَه، ودخَل بقيَّةُ الأمراء فخَلَّصوه فركِبَ وبه بَعْض رَمق، فلمّا رأتْه ستُّ القُصور وقَدْ ركب أيْقَنَت بالهلاك. قال: ولمَّا استقَرّ في منزله أرْسل إلى العَاضِد يعاتبُه على مَا كانَ مِنْه، فخَلَف وأنكر أن يكون اطَّلع[2] على هذا الأمر قبْل وُقوعه فأرسل إليه أن يَبْعَث إليه عمَّته ستّ القُصور، فتوقَّفَ العاضِدُ عن ذلك، فأرسَل الصّالح إلى [ست][3] القصور وأخرجها؛ فلَما جاءت إلى منزله أمر بخَنْقها، فخُنِقَت بين يديه حتّى ماتت. ومات الصّالح في بقِيّة لَيْلته.

قال: وكان الصّالح شديد التَّشيُّع مُتغَالياً في مذهب الإمَاميّة؛ وكانَ يكره أهْلَ السُّنّة. وقيل إنَّه كان يَسبُّ الصّحابة، رضي الله عنهم، وغضب على مَن يتنقَّصُهم. وكان فيه بُخْلٌ وحَسَد. ومَنَع في أيّامِه من بَيْع الغلال حتى غَلَت الأسعار. وكان كثيرَ التَّطَلُّع إلى ما في أيدي النّاس، وصادَرَ جماعةً ليس لهم تعلُّقٌ بالدَّولة وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاً، وهو أوَّلُ من خُوطِب بالْمَلك في الدِّيار المصْريّة[4].

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٥٥. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٢) «أن يكون الخلع على هذا» في الأصل. والتصحيح يقتضيه السياق. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٧٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٧٤.

(٤) يذكر المقريزي أن «أول من لقب بالملك منهم مضافاً إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشي. عندما وزر للحافظ لدين الله» المقريزي المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٤٠، وذكر أيضاً في موضع آخر =

وقال ابن الحباب في سيرته: إنّه من وَلَدِ جَبَلة بن الأيهم الغسَّاني الذي ارْتَدَّ عن الإسْلام في خِلافة عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه. قال المؤرخ: وكان والدُ الصَّالح يُسمى أسَد رُزّيك، قَدِم مع أمير الجُيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصَّالح مع ذلك حازِماً ضابطاً لأُمور دَوْلته شاعراً أديباً. قال القاضي الأرشد عُمرة اليمني[1]: دخَلْتُ على الصَّالح قبل وفاته بليلتين فَنَاوَلَنِي رُقْعَةً وَقَال: قدْ عَمِلت هذين البيْتين في هذه السّاعة؛ فإذا فيها: [من الخفيف]

نـحْـنُ فـي غَـفْـلَـةٍ ونَـوم ٍولـلْـمَـو ... تِ عُـيُـون يَـقْـظَـانَـةٌ لا تَـنَـام
قَـدْ رَحَـلْـنَـا[2] إلـى الْـحِـمَـام سنِيناً ... لَيْتَ شِعْري! متى يكونُ الحِمَام

فقلت: هما صَالِحان، وقُمت، فكان آخر عهدي به[3].

قال المؤرخ: وكان الصَّالح يقطَعُ اللَّيل أثلاثاً: فالثُّلْث الأوّل مع أمراء دَوْلته ووجُوهِها؛ والثُّلث الثّاني مع جُلسائه ونُدَمائه وشعرائه؛ والثُّلث الثالث مع خواصٍّ نسائه. فكان يُسَمّى: أبو العمرين قالوا: وكذلك كان أمير الجيوش بدر الجمالي:

ومن شعر الصّالح قوله: [من الرمل]

يـا مـريـضَ الـقَـلْـب بـالـذّنْـ ... ـبِ، مـتـى بـالـعَـفْـو تَـبْرَا
كـلَّـمـا جَـدَّدْت يـومـاً ... تَـوْبَـةً ضـيَّـعْـت أُخْـرى
تـشْـتـهـي الأجْـرَ ولاَ تـفْـ ... ـعلُ مـا يُـكـسـبُ أجْـرا
أتـرى بَـعْـد ذَهـاب الْـ ... ـعُـمـر تَـشْـتـأنـفُ عُـمْـرا

وقوله:

يَـا مـاشِـيـاً فـوق الـثَّـرى ... رِفْـقـاً، فَـسَـوْفَ تـصـيـرُ تَـحْـتَـه
إنْ قُـلْـتَ إنّـي أعْـرِفُ الْـ ... ـمَـوْلَـى الْـقَـدِيـر، فَـمَـا عَـرَفْـتَـه
إنْ كُـنْـت تَـعْـبُد لِـلْـمـخَـا ... فـةِ والـرَّجـاء، فَـمَـا عَـبَدْتَـه

= أول من خوطب بالملك في ديار مصر ونعت به الصالح طلائع بن رزّيك». اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢١٨، ٢٥١. وفي صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٨، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٦، لم يرد في السجل الخاص برضوان بن ولخشي لقب الملك.

(١) هو أبو الحسن نجم الدين عمارة اليمني توفي سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م.

(٢) «قد دخلنا الحمَّام عاماً ودهراً» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٤٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٧٦. اليمني: النكث المصرية، ص ٤٨ ـ ٤٩.

والصَّالح هُو الذي بنى الجامع[١] خارِجَ بابِ زَويلة المعروف به. وكانَ يقول: نَدِمْتُ على ثلاثةٍ: أحدُها أنني بنيت الجامع بظَاهر القاهرة وجَعَلتُه عوناً على بابِ زَويلة فيضرّها وقت الحصار؛ والأخرى تَوْلِيَتي شاوَر أعمال الصَّعيد، والله لا كَانَ خرابُ دَوْلة بني رُزّيك إلا على يديه؛ والثّالثة أنّني أنفَقْت في العساكر مائتي ألْف دينار لأجْل فتْح بيت المقدس فتأخَّرت عن ذلك.

قال: ولمّا توفي دُفِن بدَار الوزارة ثمَّ نُقل إلى تربته[٢] الّتي بقَرافَة مصر.

قال: ولمّا حضرته الوفاة أحْضَرَ ولدَه رُزّيك وأوْصاه بوَصايا كثيرة، من جُمْلتها أنّه لا يَعْزل شاوَر[٣] ولا يغيّر عليه مُغيِّراً.

قال: ورثَاه الشُّعراء بقصائِدَ كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليمني: [من الطويل]

أفي أَهْـل ذَا النَّـادي عـليـمٌ أُسَـائِـلُـه ... فإنّي لِما بي، ذاهبُ العَقْل ذَاهِلُه[٤]

سـمـعْـتُ حـديثاً أحْسُـد الـصَّـمّ عِـنده ... ويُـذْهَـل وَاعِـيـهِ، ويَـخـرس قـائِـلُـه

ومنها: [من الطويل]

وقَد رَابَني[٥] مِنْ شَاهِد الْحَال أنّني ... أَرى الدَّسْت منصوباً ومَا فيه كافِلُه

وأنّـي أرَى فـوْقَ الـوُجُـوهِ كـآيَـةً ... تَـدُلُّ عـلـى أنَّ الـنّـفـوس ثـوَاكِـلُـه[٦]

دَعُـونـي. فـمـا هَـذَا أَوَان بُـكـائـه[٧] ... سـيـأتِـيـكُـمْ طَـلّ الـبُـكَـاءِ وَوَابِـلُـه[٨]

---

(١) مسجد الصالح بناه الصالح طلائع رزّيك وزير مصر وكان بخط جامع القرافة الذي عرف باسم جامع الأولياء. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٢، وانظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) تربة الصالح: تقع بجوار حوش أبي علي من الجهة الغربية. والقرافة هي مقبرة أهل مصر. فما كان منها في سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، وما كان منها في شرقي مصر يقال له القرافة الكبرى. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٤٢.

(٣) في الأصل: «شاور بن محمد». هو أبو شجاع شاور بن مجير ويرتقى نسبه إلى أبي ذؤيب عبد الله والد حليمة مرضع رسول الله ﷺ. تولى الوزارة في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م إلى رمضان من السنة نفسها. المناوي: الوزارة في العصر الفاطمي، ص ٢٨٨.

(٤) «ذاهب اللب ذاهلة» في الروضتين لابن شامة، ج ١، ص ٣١٣. النكت المصرية لليمني، ص ٥٠، كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٨.

(٥) رابني: شككت بالأمر. ابن منظور: لسان العرب (ريب).

(٦) الثكل: فقدان الحبيب.

(٧) في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٥٢ «مما هذا وقت بكائه».

(٨) وابله: شدته، غزارته. ابن منظور: لسان العرب (وبل).

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب.

قال: ولمّا مَاتَ الصَّالحُ خرجَت الخِلَع من القصر لوَلَدِه، وتلَقَّب بالملك العَادل مجد الإِسلام[١].

ذكر ظهور حُسَين بن نزار وقتله

وفي شهر رَمضان سنةَ سبعٍ وخمسين وخمسمائة وَرَد حُسين بن نزار، بن المستنصر بالله ابن الظَّاهر لإعزاز دين الله مِن بلاد المغرب، وقد جَمَع جمعاً عظيماً، وتلقب بالْمُنْتَصر بالله؛ فخرج إليه الأمير عزّ الدين حُسام بن فضّة بن رُزّيك على صورة الانضمام إليه واللّحاق به. فلمّا صار عنده في خَيمَته غَدَر به وقَتَله، وحَمَل رأسه إلى العَاضِد لدين الله.

وفيها بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام[٢] البُرج المعروف به بثَغْر الإِسكندرية.

ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصَّالح بن رُزّيك، والدَ العادل، لمَّا حَضَرتْه الوفَاة أوصى ابنَه العادل بوصَايا كثيرةً منها أنَّه لا يعزلُ شاوَر من عمله ولا يحرّكه؛ وحذَّرَه من ذلك فلمّا كان في سنة سبعٍ وخمسين اجتمع أَقَاربُ العادل وحسَّنُوا له عَزْل شاوَر عن ولاية الصَّعيد، فذكَّرهم بوصيَّة أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدّهم في ذلك الأمير عزّ الدّين حُسام بن فَضّة، فألزم العادل إلى أن كتب كتاباً يسْتَدعي فيه شاوَر ويأمرُه بالحضور إلى القاهرة فكتب إليه شاوَر يستعطِفُه ويُظْهر الطّاعة والإِدْلال لِسَابق الخِدْمة لأبيه ومُنَاصَحته في القيام بأمُور الدّولة، ثمّ قال فيه إنْ كان القصدُ أن يليَ الأعمال أحدُكم فلْيُرسل السّلطان من يتسلّمها غير عزّ الدين حسام؛ وإن كان غيرُكم من الأمراء فأنا أحق به مِنْ سواكم؛ وقد سمعتم وصيَّة أبيكم الصّالح في حقّي وما كرَّره عليكم في أمْري وإقْرار أعمال الصّعيد في يدي. وأرسل الكتاب إلى العَادل، فوقَفَ عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله. فقالُوا: إنْ أبْقَيته طَمع في البلاد ولا يحملُ إليك مالاً. فقال العادل لهم: المصلحةُ تركُه. فصمَّموا على عزله.

فأحضر العادلُ نصير الدّين شيخ الدّولة، وهو من أقاربه، وخَلَع عليه وولاَّه

---

(١) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ص ١١٢.

(٢) في الأصل «ضرغام بن ثعلبة، وهو ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي، أبو الأشبال، تولى الوزارة من رمضان سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢ م حتى آخر سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٣٠، حاشية رقم (١).

الأعمال القوصيَّة، وكتب على يده إلى شاوِر بتسليم الأعمال إليه ووُصوله إلى القاهرة. وتوجَّه نصير الدّين. فلمّا وصل إلى إخميم أقام بها وأرسل الكتاب إلى شاوَر طَيَّ كتابه؛ فلمّا وقف شاوَر على الكتاب أرْسل إلى نصير الدّين رسولاً من جهته بِرسالة يقولُ لَه: إنّ بيني وبينك صُحْبة ولا تغتَرّ بقول حُسام، وراجع من حيث أتَيت فهو خير لك، فرجعَ نصيرُ الدّين إلى القاهرة ولم يُعاوِدْه.

وأظهر شاوَر العصيان على الدّولة، وأحضر جماعةً من العُربان من بني شيْبان وغيرهم، وتوجَّه من الأعمال القوصية، وجَعَل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجة[1]، وحشد العُربان وأنفق فيهم الأموال؛ فوافقُوه وانْطاعُوا له؛ فسار بهم نحو القاهرة. فنَدَب العادلُ لحَرْبِه سيف الدّين حُسَيناً، صهره، ومعه جماعةٌ من الأمراء. فَرَاسَلَهم شاور واستمالَهم، وبذل لهم الأموالَ الجمّة، فمالُوا له فلمّا التقوْا انحازُوا إلى جماعَتِه وفارقوا مُقدَّمهم، فانْهزَمَ حُسَين واستجار بظَرِيف بن مَكنُون أمير جذام فأجَارَه، وحَملَه في البحر؛ فمضى إلى مدينة الرَّسُول ﷺ فمات هُناك فنَدب إليه العَادل عزّ الدّين حُساماً، فانْهزَم منه أيضاً.

فعِنْدَ ذلك خرج العَادِلُ من القَاهرة وتوجّه إلى إطْفِيح[2]، واستصحب أهله وذخائرهُ. واستجار بسُلَيْمان بن الفَيض اللّخمي، وكان من أصحاب أبيه الصَّالح، فأنزله عنده؛ ومضى مِنْ وقته إلى شاوَر وأخبره بخَبر العادل، فنَدَب إليه جماعةً فأخذُوه أسيراً هو ومن معه، ونَهب أصحابُ ابن الفيض ما كان مَعَه. وحُمِل إلى شاوَر فوصل إليه في ليلة الجُمعة لِثلاثٍ بقينَ من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة فأمَر شاوَر باعتقاله؛ وقال لسليمان بن الفيض: لقَدْ خَبأك الصّالح ذخيرةً لِوَلَدِه حين استجارَ بك فأسْلَمته لي، وأنا أُخَبِئُك ذَخيرةً لولدي، ثمَّ أمَر به فشُنق. وسُمّيت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم. فكانت أيام العادل سنةً واحدة وثلاثةَ أشْهر وأيّاماً. وجَميعُ دَوْلَة بني رُزّيك تِسعُ سنين تقريباً[3].

ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارتُه في يوم الأحَد لثمانٍ بقَينَ من المحرَّم سنةَ ثمانٍ وخمسين وخمسمائة. وذلك أنّه لما انهزَمَت جُيوش العَادل بن رُزّيك وهرب هُوَ إلى إطْفِيح خَلَت

(١) تروجة: بالفتح ثم الضم وسكون الواو، وجيم؛ قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧.

(٢) إطفيح: بالكسر في أوله، بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل في شرقيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢١٨.

(٣) «تسع سنين وشهراً وأيّاماً» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٩٠.

القاهرة منهم؛ فَدَخَلها شاوَر، وحضَر بين يَدَيْ الخليفة العَاضد لِدين الله، فخلع عليه خلَع الوزارة، وسَلْطَنَه، ولقَّبه بأمير الجُيوش، وأطلقَ شاور لأهل القُصور الإِطْلاقاتِ الكثيرة، وزادَهُم على مقرَّراتهم في أيّام بني رُزِّيك واستدعى أَمْوَال بني رُزِّيك وودائِعَهُم. وبَسَط العَدْل أيَاماً، ثم شرع في ظُلْم النّاس؛ وبَسَط يدَه ويدَ أوْلاده في الدَّولة؛ وقَطَع أرزاق الأمراء والجُند واستخفَّ بهم وبالعَاضِد. وعَتَا ولدُه الكَامل وتجبَّر، ولَبِس رداء الكِبْر، وبذخ في الأموال، وصَرَفها في غير وجُوه مصارفها.

وسَاءَتْ سيرتُه في الأمراء فأجمعوا على إخراج العَادل من الاعْتقَال ونَصْبه في الوزارة. فاتَّصل ذلك بالكَامل بن شاور؛ فأشارَ على أبيه بقَتْل العادل. فامْتَنع مِن ذلك وقَال: إنّه أوْلاني خيراً فلا أقتلُه، فَقَتَله الكاملُ من غير إذْنِ أبيه، فعظُم ذَلك على شَاوَر وعلى الأُمَراء، وغَضب الأمراءُ لقَتْل العادِل، وخَرَجُوا عن شاوَر، وافترقوا على فرقتين: فكان الضّرغام وإخوتُه وأهْلُه فرقة، والظَّهير عزّ الدين مرتفع وعين الزّمان وابن الزّبْد فرقة.

وَكان الضّرغام ومَنْ معهُ أظهرَ الفرقتين. فخرج على شاوَر وحَارَبه، فجمع شاوَر أموالَه وذَخائِر وغِلْمانَه، وخرجَ ليلاً من القاهرة، فَرَكِبَ الضّرغامُ في إثْرِه فلَحِقَه عند باب النصر؛ فقَاتَله طيٌّ بن شاوَر، فقُتِل طيّ، وأسر أخوه الكَامِل؛ ومضَى شاوَر إلى الشّام. وذلك في صبيحة يوم الجُمعَة، لثَلاثٍ بقِينَ من شَهر رمضان من السّنة. فكانت وزارته ثمانيةَ أشهر وخمسة أيّام[١]. والله أعلم.

ذكر وزارة الضّرغام بن سوار

قال: ولمَّا توجَّه شاوَر إلى الشَّام عاد الضّرغام إلى القَصر وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى دَارِه بقيَّة ليلَتِه. وجاء إلى القُصور من بُكرة النَّهار، فاستَدْعاه العاضدُ لدِين الله وولاَّه الوزارة، ولقَّبه بالملك المنصُور، واستحلف له الأمراء.

وأرسل علم الْمُلك بن النحاس إلى الملك العَادل نُور الدّين محمود بن زَنكي، صاحب الشَّام، يقبض على شاور. فأظهر نور الدّين الإجابةَ لذلك، وباطِنُه بخلاف ظاهِره[٢].

قال: ولمَّا ولي الضّرغام الوزارة خرجَ عليه الأَمير علي بن الخوّاص، فظَفِر به الضّرغام، فأشهره بالقاهرة، وصلبه. وأحْضر جماعةً من الأمراء إلى دَارِه لدَعوةٍ عملها،

(١) «فكانت وزارته تسعة أشهر» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٦١.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٦٣.

فلما حَضرُوا إليه قَبَض عليهم وقتلهم[١].

ذكر قُدوم شاوَر مِنَ الشَّام وعوْدُه إلى الوزارة ثانياً وقَتْل الضّرغام

كان قدُومه في جُمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

وذلك أنّه لمَّا توجه إلى دمشق اجْتَمَع بالملِك العادل نُور الدّين محمود بن زنكي، وحسَّن له أن يُجهّز معه جيشاً يفتح به مصر؛ وَوصَفَها له ورغَّبهُ فيها، والتزم أنَّهُ يحمل خزائنَها[٢] إليه يستعينُ بها على قِتَال الفرنج. فمال إلَيه. وجهَّزَ معه أسدَ الدّين شِيركُوه[٣] بعَساكر. فلمّا قاربُوا مصر ندب إليهم الضّرغام عسْكراً وقدّم عليه أخاه ناصر المسلمين، فلقيَهم على بلبيس، فانْهَزَم العسكر المِصريّ وعاد إلى القاهرة.

وسار شاوَر والعساكر الشّاميّة، فنَزل بظَاهر القَاهِرة في آخر الشّهر، واجتَمَعَ معَهُ خلقٌ كثيرٌ من العُربان. فعلم الضّرغامُ أنَّه لا قِبَل لهُ بما دَهَمَه؛ فركب إلى القصر، وطاف به، وجَعَل يُنادي العَاضد، وهُو يخاف أنْ ينزل إليه، فأرسَل إليه العاضدُ يقول: أنْجُ بنفسك، فخَرَجَ من القاهرة يُريد مِصْر، ودَخَل شاوَر وشيركُوه إلى القاهرة، ونَدَب جماعةً في إثر الضرغامُ فأدركُوه عند مشهد السّيدة نَفيسة، فقتلُوه هناكَ في يوم الجُمعة، لِلَيْلَتَيْنِ بقيتا من جُمادى الآخرة. وطِيفَ برأسه القاهرة على رُمْح، وبقيَتْ جُثّتُه مُلقاةً بين الآكام ثلاثةَ أيّام حتى أكلتها الكلاب. ودُفن ما بقيَ منه عند بِرْكَةِ الفيل، وعُمِل عليه قُبَّة، فكانت مدّة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكان فارساً بطلاً، كريماً، عاقلاً، أديباً، يحبّ العلمَاء ويقرِّبُهم؛ وله مجلسٌ يجتمع فيه أهلُ العلم والأدب دون غيرهم. وكان حسن الخطّ. يُقال إنّه كَانَ يُحاكي ابنَ البوّاب[٤] في خَطِّه.

---

(١) المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٢) انظر الروضتين لابن شامة، ج ١، ص ٣٣٢.

(٣) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين. تولى الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م. وأقام بها شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠، رقم ٢٩٨. ترجمة شيركوه وأخباره في صفحات متفرقة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥.

(٤) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور، توفي سنة ثلاث وعشرين وقيل ثلاث عشرة أربعمائة ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص:٣٤٢ رقم ٤٥٧. في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٧١، «ويكتب كتابة ابن مقلة». وابن مقلة: هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور توفي سنة ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١١٣، رقم ٦٩٨.

قال: ودخل شاوَر إلى العَاضد لدين الله في مُسْتَهلِّ شهر رجَب، فعاتبه على مَا كَانَ منْهُ في إحْضَار العسْكَر الشّاميّ، وحذَّره عاقبَةَ ذلك؛ فوعده أنّه يَصْرفهم إلى بلادهم، فقَبِل ذلك منه، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة.

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انْتَصب شاوَر في الوزارة وتَمَّ له ما أَرَاد، أخذ في التَّدبير على العَسْكر الشّامي، وحلَّف الأمراء، وتخاذل عن شيركوه؛ وصارَ يخْرجُ إليه بوجْهٍ عليه آثار الغضب. ففَهم أسدُ الدّين شيركوه عَنه، وعَلِم شاوَر أنّه لا قِبَل له بشيركوه، فاستعان بالفرنج[١] واستَدْعاهم من السّاحل لنُصْرَته، ووَعَدهم بالأموال. واتّصل ذلك بأسَد الدِّين فحاصرَ القاهرة.

واتَّصل خبرُ شاوَر بالملك العادل نُور الدِّين، فكتب إلى أسَد الدين وأعلمه بما بَلَغه من مُبَاطَنة الفرنج، وأمَرَه بالخُروج عن الدِّيار المصريَّة. فأبَى ذَلك وتوجَّه إلى بلبيس، واحْتَوَى على بلاد الحوف، وجَعَل مدينةَ بلبيس ظَهْره، فاجْتمعَت العساكرُ المصريّة ومَنْ أتاهُم من الفرنج، ونَازَلُوا أسَدَ الدّين، وحصرُوه ببلبيس ثلاثة أشهر، وهو مُمْتنع بها لم يبرز إليهم، فبينما هُمْ كذلك إذْ وَرَدَ الخبر علَى الفرنج أنّ نورَ الدّين مَلَك حَارِم[٢] وسار إلى بَانْياس، فَرَاسَلُوا شيركوه يسْألُونه الصُّلح؛ فأجابَهُم إلى ذلك؛ وخرجَ من مدينة بلبيس[٣]، فلمّا صَار بظَاهِرها أشَار شاوَر على تلك الفرنج بمُهَاجَمَتِه وقَبْضِه فامْتَنَع مُرّي[٤]، ملك الفرنج، وأبى إلاّ الوَفَاءَ بيَمينه لشيركوه.

وسار أسَدُ الدِّين إلى الشّام، وعادَ شاوَر إلى القَاهرة، ومعَهُ طائفةٌ من الفرنج يتقوَّى بهم. وكانَ قد بَذَل لهم على نُصْرته أربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمسَ سنين.

وكان دُخول شاوَر إلى القاهرة لسِتٍّ مضَيْن من ذي الحجة من السَّنة؛ واستمرَّ بمصر مِنْ غير مُنازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة.

---

(١) المراد بالملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية. عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٨٤.

(٢) حارم: بكسر الراء: حصن حصين وكورة تجاه أنطاكية. وهي من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٣) خرج من مدينة بلبيس في أول ذي الحجة. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧٧.

(٤) ملك الإفرنج بالشام: ويعرف باسم آموري، تولى مملكة القدس سنة ٥٥٧ هـ. توفي ٥٦٩ هـ. الروضتين أبي شامة، ج ١، ص ٢٩٣.

ذكر عَوْد أسد الدّين شيركوه إلى الدّيار المصرية بالعَسَاكر الشاميَّة وانفصاله

قال المؤرخ: لمَّا انْفَصل أسدُ الدّين شيركوه عن الدِّيار المصريّة في سنَة تسع وخمسين، بقِيَ عندَه منها أمْرٌ عظيم. وكان إذا خلاَ بنُور الدّين الشَّهيد يرغِّبه فيها، فجهَّزَهُ بالعساكر والحُشُود، فسارَ من الشّام في شهر ربيع الأوّل سنَة اثنين وستين وخمسمائة، فاتْصل ذلك بشاوَر، فراسَلَ الفرنج وانْتَصَر بهم، فخرجَ الفرنج ووقفوا على الطَّريق الّتي يسلُكها شيركوه إلى الدّيار المصريّة، فعَدَل شيركوه عن تِلْك الطّريق وجَعَلها عن يمينه، وسَار حتى نزل إطفيح، في سادِس شهر رَبيع الآخر. وعَبَر النّيل إلى الجَانب الغَربيّ، ونزل الجيزة، وأقام عليها إلى العشرين من جُمادى الأولى، واسْتَولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى الفرنج يَستَحثُّهم، فأتَوْه على الصَّعب والذَّلُول، وقد طَمِعوا في ملك الدّيار المصريّة[1].

فلما تكامَلُوا بالقاهرة توجَّه أسد الدّين شيركوه نحو الصَّعيد، وسارَ شاوَر وَالفرنج في آثارهم. فجمع أسدُ الدّين الأُمراء واستشَارَهُم [في][2] العُبور إلى الجانب الشّرقي والعَوْد إلى الشّام. فوافَقُوه على ذلك؛ فنهض شرف الدّين بُزغش، أحد الأمراء المَماليك النُّوريّة، وكان شُجاعاً مِقْدَاماً. وأنكر ذلك كلَّ الإنْكار، وامتنع من الموافقة، وقال: مَنْ خاف من الأسر أو القَتْل فلا يخدُم الْمُلُوك[3] ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لا نَزال نُقَاتل إلى أنْ نُقتل عن آخرنا أو نَنْتَصر. فوافَقَه أسدُ الدّين، وجمَعَ عسكره ورتَّبهم، وجَعَل أثْقالَه في القَلْب ليكثُر بها السَّواد ولِئَلاً ينهبَهَا أهلُ البلاد.

فبينما هُم في التَّعبئة إذَا بشاوَر والفرنج قد أَقْبَلُوا، ورتَّبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمةُ على شاوَر والفرنج[4] وتَوَالَت عليهم الحملاتُ من العَسْكر الشّامي، فتمادَتْ بهم الهزيمة إلى الجيزة، وشِيركوه في آثارهم. وقُتِل منهم خَلْقٌ وغَرِق كثيرٌ منهم. وأسر أسدُ الدّين صاحبَ قيسارية.

ودخل شاوَر والفرنج إلى القَاهرة. ومَلَك أسدُ الدّين البرَّ الغَربي بكَماله؛ وقَصَد الإِسكندريَّة ليُحاصرها. فلمّا قرُب منْهَا خرج إليه أهلُها وسلَّمُوها إليه من غير مُمَانعة؛

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٢٤. والروضتين لأبي شامة، ج١، ص ٣٦٤.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٣) «الكرك» في الأصل والتصحيح من الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٣٦٥.

(٤) كانت الهزيمة في موضع معروف بالبابين بالقرب من الأشمونين. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٨٤.

وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدّين بن مصال. فدخل شيركُوه البلدَ، وأقامَ بها أيّاماً قلائل، واستناب بها صَلاحَ الدّين يوسف ابن أخيه نجم الدّين أيوب، وتركه بها ومعه ألفُ فارس. وتوجَّه هو إلى الصَّعيد، فاسْتَولى عليه، واستخرج أمواله؛ وصام شهرَ رمضان بمدينة قوص.

هذا وشَاوَر يتجهَّز للخُروج ويرتِّب أحْوالَه وأحوال الفرنج ويرمّ ما تلف لَهُم. فلمّا تكامَل ما يحتاجُ إليه قصد الإسكندريّة، فأخْرج أهْلُها الأموالَ وأنْفقُوها، واستَعدُّوا للحصَار؛ فكان في جُملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زُنْبُورك وما يناسبُ ذلك من الآلات.

وسارَ شاوَر ومُرّي ملك الفرنج، فنازلوا الإسكندريَّة. فلما رأوْا شدّةَ أهلِها واجتماعَهم على الحصار، تقدَّم شاوَر إليهم وقال: سلِّموا إليّ صلاحَ الدّين ومَن معه وأضَعُ عنكم المَكُوس، وأعطيكم الأَخْماسَ. فامتنعوا وقالوا: معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسْمَاعِيلِيَّة، فعنْد ذلك وقَع الحصار واشْتَدّ على أهل الإسكندريّة إلى أن قلَّت الأقوات.

وبلغ ذلك أسدَ الدّين فسار من الصّعيد وجدَّ في السّير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفْسَد التّركمان الذين مع أسد الدين فصَارُوا معه؛ واجتمع لشيركوه طائفةٌ كبيرةٌ من العُربان، فلمّا علم شاور بقُربه خافَه ورَاسلَه في طلب الصُّلْح، وبَذَلَ له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذهُ من خراج البلاد، على أنْ يُفارق الدّيار المصريّة. فأجاب أسدُ الدّين إلى ذلك(١)، وشرط عليهم أن يرجعَ هو إلى الشّام ويرجع الفرنج إلى بلادهم، فاستَقرّت هذه القاعدة، وحلف الفرنج عليها.

ففُتِحت الإسكندريَّة عند ذلك، وخرج صلاحُ الدّين يوسُف إلى مرّي ملك الفرنج وجلس إلى جانبه. فدَخَل شاوَر عليهما، فقال المرّي: سَلِّمْهُ إلي وأعطيك في كلِّ سنةٍ خمسين ألف دينار. فقال مُرّي: نحن إذا حلفنا لا نغْدِر؛ ووَبَّخَه. وكان أسد الدّين قد شَرط على شاوَر أنّ الفرنج يرحَلون ولا يلتمسُون من البلاد دِرْهماً ولا ضيعةً ولا غير ذلك.

قال: وارْتجل أسدُ الدّين، ودَخَل مصر برِضَاء أهْلِها، وسارَ إلى بلبيس، وأرسْلَ

---

(١) ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٨٥. «وأرسل شيركوه إلى صلاح الدين يأمره بتقرير الصلح، ورحل عن مصر إلى الشام». وذكر ابن ظافر في أخبار الدول المنقطعة، ص ١١٥ ما يأتي: «فصالحوا الملك الناصر على أن يسلم إليهم أسد الدين صاحب قيسارية». ونتيجة ذلك أن الصلح قد تم أولاً مع صلاح الدين في الاسكندرية.

إلى ابْن أخيه يوسُف أن يتوجَّه في المراكب إلى عكّا، هُو ومَنْ مَعه من العسكر، وما مَعهُ من الأثقال؛ ففعَل ذلك، وركب منْ عكّا إلى دمشق.

هكذا حكى ابنُ جلب راغب في تاريخه. قال: وارْتحل أسدُ الدّين من بلبيس في نِصْف شوّال، ودخل شاوَر إلى الإسكندريّة، ثمّ خرجَ منها وعاد إلى القاهرة، فدَخَلَها في مُستهلّ ذي القعدة، وتلقّاه العاضد لدين الله.

وأمّا الفرنج، فاستقرَّ بينهم وبيْن شاوَر أنْ يكونَ لهم شِحْنةٌ[١] بالقاهرة وتكونَ أبوابُها بيد فرسانِهم، ويكون لهم في كلّ سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاثٍ وستِّين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاوَر وطَلَب الوزارة؛ فندَبَ شاوَر عسكراً لحَرْبه، فانهزمَ ومَضى إلى بلاد الفرنج[٢].

ذكر وُصُول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة عَادَ الفرنجَ إلى القاهرة. وذلك أنهم لمّا توجَّهوا في سنة اثنتين وستّين رتَّبوا في القاهرة جماعةً من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحمُوها من عَسكر يأتي إليها من الشّام؛ فلما رأوْا خُلُوّ مصر من الأجناد راسَلُوا ملِكَهم مرّي واستَدعَوْه، وكان من الشَجَاعة والمكر على أمر عظيم. فامْتنع وقَال: الرّأيُ ألا نقصدها فإنّها طُعمةٌ لنا، وأموالُها تُحمل إلينا نتقوّى بها على قتَال نُور الدّين؛ وإنْ قصَدْناها حَمَل أصحابَها الخوفُ على تَسْلِيمها لنُور الدّين، وإن أخَذَها وجَعَلَ فيها مِثْل أسد الدّين شيركوه فهُو هلاكُ الفرنج وخروجُهم من الشام. فلمْ يقبلوا رأيه، وقالُوا: ما يَصِلُ عسكرُ نور الدّين إلينا إلا وقدْ ملكناها. وغَلبُوا على رأيه[٣].

فتجهّز الفرنج وسارُوا حتّى وصلوا إلى مدينة بلبيس ونازلُوها؛ فوقع الإرْجَافُ بمصْر؛ وشرعَ شاوَر في إنشاء حصن على مِصر واستعمل فيه النّاس، فلم يبْقَ أحدٌ إلا وعمل فيه؛ وحفر خَنْدقاً. وملك الفرنج بلبيس عَنْوةً[٤] [مستهل صفر][٥] وقتلُوا خلقاً

(١) شِحنة: من فيهم الكفاية لضبط البلد وحمايتها، من رجال السلطان ورجال الأمن. ابن منظور: لسان العرب (شحن). والفيروزابادي: القاموس المحيط (شحن). والمقصود هنا عدد من الفرسان مهمتهم السهر على حسن تطبيق معاهدة الصلح (التحالف) التي كانت قد عقدت بين مري والعاضد وكان عرّابها شاور. ووظيفة هؤلاء الفرسان مراقبة أبواب المدينة وحماية الموظفين الذين يحصلون الجراية السنوية التي وعد شاور بدفعها إلى مملكة القدس. أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص ٢١٣.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٣٣.

(٣) «وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السلامة» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٦.

(٤) عَنْوة: قهراً، ابن منظور: لسان العرب (عنا).

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٦.

كثيراً[١]. وكان معهم بعضُ الأمراء المصريِّين مِمّن هرَب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثمّ سارُوا إلى القاهرة وأحاطوا بها، وذَلِك في العاشر من صَفر، فخاف أهلُها إن أهْملوا القتال أن يحلّ بهم ما حَلّ بأهل بلبيس فجدُّوا في القتال والاحتراز.

قال: ولمّا قرُب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهْب مصر وإحْراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت؛ وأُمِر أهلُها بالانتقال إلى القاهرة[٢]، فانتقَل بعضُهم وتحصَّن البعض بالجزيرة، وتوجَّه آخرُون في المراكب إلى ثَغْري الإسكندريّة ودمياط، وطائفةٌ إلى الوَجْه القبلي؛ وتفرَّقوا وذهبت أموالهم. كلُّ ذلك قبل نُزول الفرنج على القاهرة بيوم.

قال: وبَقيت النّار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً؛ إلى حَادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولمَّا علم العاضدُ لدين الله عَجْز أهل القاهرة عن مُقَاوَمة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكي يستغيثُ به، وسيّر إليه شعورَ نسائه في طيِّ الكتب[٣].

وقيل: إن شاوَراً أرسل إلى نور الدّين أيضاً.

وأرسل شاوَر إلى مرّي ملك الفرنج يُذَكّره بسابق الصحبة والعُهُود القديمة، وقرّر أنْ يحمل إليه ألفَ ألف دينار؛ فأجاب مرّي إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخُذ المال ونتقوَّى به ونَمْضي ثمّ نرجع فَلا نُبالي بعْدَ ذلك بنُور الدّين. فاستَوْثَقَ شاوَر منه بالأيمان وعجَّل له مائة ألف دينار، وماطَلَه بالبقِيَّة؛ وشرع يجمعُ له من أهل القاهرة المال، فلم يحصُل له من جِهَتهم غير خمسة آلاف دينار لِضَعْفهم.

هذا والرُّسُل تَتتابعُ إلى الملك العادل ويَسْتَغِيثُون به. وقرّر له ثلث الدّيار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إلى طَلَب أسَد الدّين شيركُوه من حِمْص، فسارَ منها إلى

(١) ارتكب الفرنج في بلبيس مجزرة فظيعة، فقد ذبحوا الرجال والنساء، والأطفال وقتلوا خلقاً من مسلمين ومسيحيين. ولعل سلوكهم هذا هو الذي شجع شاور على إحراق القاهرة القديمة حتى لا يدخلها الفرنج. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٣٣. ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، ١١٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٢) المراد بها القاهرة الفاطمية التي كانت تحتوي على القصور، والإدارات والثكنات وجامعة الأزهر الدينية. أمين معلوف: الحروب الصليبية، ص ٢١٤.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٧.

حَلَب في ليلةٍ واحدة، فجهّزه نُورُ الدّين وأعطاهُ مائتي ألف دينار سوَى الثّياب والسّلاح وغير ذلك. فاختَار أسدُ الدّينِ من العَسكر ألفَي فارس من الأقوياء، وستّةَ آلاف مِن بقيّة العسكر. وأنْفق نورُ الدّين لكلّ فارس عشرين ديناراً. ثمّ سار شيركوه، فكان خروجُه من دمشق في مُنتصف شهر ربيع الأول؛ وأرْدَفه نُور الدين بجماعةٍ من الأمراء، منهم مملوكُه عز الدين جُرْدَيك، وشرف الدين بزغش وَعَين الدّولة اليارُوقي، وناصح الدّين خُمارتكين، وقطب الدين يَنَال بن حسّان المنبجي، وغيرهم[١]. والله أعلم.

ذكر قدوم أسد الدّين شيركوه
إلى الدّيار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقدِم أسد الدّين شيركُوه بالعَساكر، فكان وصُوله إلى مصر في يوم الثُّلاثاء لليلَةٍ بقيت من شهر ربيع الأول[٢] سنة أربع وستّين وخمسمائة. ولمّا بلغ الفرنج قربُه عادُوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رُجوعهم في يوم السَّبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس. ودخل أسدُ الدّين القاهرة في سَابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضدُ لدين الله وتلقّاه. وحَضَر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإِيوان وجَلَس إلى جانب العَاضد، وخلَع عَليه؛ وفرح النّاس بقُدومه. وعادَ أهلُ مصر إليها، وشرعُوا في إطفاء النّيران وإصْلاح ما تشعَّث. وكانت سُقُوفُ جامِع عمْرو ابن العَاص بمصر قد احْتَرقت فجدَّدَهُ الملك النّاصرُ صلاح الدّين يوسُف.

قال: وأمَر العاضدُ أسدَ الدّين بالنُّزول على شاطىء النّيل بالمقس، ورتّب له شاوَر ولِمن معه الإِقامات الوافرة، وأظهرَ لهُ ودًّا كثيراً، وصار يتردَّد إليه في كلّ يوم. فطلب أسدُ الدّين من شاور ما لا يُنْفقه في عسكره، فمطَلَه فسيّر إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكّاري[٣] يطالبُهُ بالنَّفقة ويقولُ له: إن العَسْكَر قدْ طال مُقامُهم وطالبُوا بالنّفقة وتغيّرت قلوبهم عَليْك، وإنّي أخشى عليك منهم. فلَمْ يكترِث شاور بذلك، وشرع في المُماطَلة فيما كان قرّره لنور الدّين.

وعزم شاور على أن يصْنَع دعوةً ويُحضر أسدَ الدّين وجماعةَ الأمراء الذين معه إلى دارِه، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجُند فيمتنع بهم من الفرنج. فنهاهُ عَن

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٨. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٢) «منتصف ربيع الأول» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٣٨.

(٣) هو الفقيه أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري. أحد الأمراء بالدول الصلاحية، كان يشتغل بالفقه بمدينة حلب، ثم أصبح في صحبة الأمير أسد الدين شيركوه في الديار المصرية. توفي سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م. وبن خلكان: وفيات الأعيان:، ج ٣، ص ٤٩٧، رقم ٥١٦.

ذلك ولدُه الكَامل. وحلفَ أنَّه إنْ صمَّم على هذا الأمر عرَّف به شيركوه، فقالَ له أبوه: والله لئِن لم تَفعل هذا قُتِلنا عن آخرِنا. فقال الكاملُ لأبيه: صدَقْتَ، ولأَنْ نُقتل ونحنُ مسلمون خيرٌ من أنْ نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنّه ليس بيْنَك وبين [عود][١] الفرنج إلا أنْ يسمعوا أنّ أسد الدّين قد قُبض عليه، وحينئذٍ لَوْ مشى العاضدُ إلى نور الدّين ما أغاثه، ويملُكون البلاد، فترَك ما عَزَم عليه، واتّصَل ذلك بالعاضد فأَعْلم شيركوه.

ذكر مقتل شاور

كان مقتلُه في يوم السّبت لثَلاثَ عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيعُ الآخر من السنة.

وذلك أنّ الأُمراء النُّوريّة لمّا رأوْا مُماطَلَته بالنّفقة وبَلَغهم أنّه قد عمل على القبض عليهم اتَّفق صلاحُ الدّين يوسُف وعزّ الدّين جُرْدَيك، وغيرهما، على قَتلِه وأعلمُوا أسدَ الدّين بذلك؛ فنهاهم عنه. واتّفق أنّ شيركوه خَرج لزِيارة قبر الإمام الشّافعي هذَا اليوم، وحضر شاوَر لَهُ على عادته، فَقيل: إنّه توجَّه للزّيارة؛ فقال: نتوجّه إليه، فتوجَّه ومعَهُ يوسُف وجُرْدَيك، وهما يُسايرانه، فأنْزَلاه عن فرسه، وكتَّفاه، فهرب عنه أصحابُه، فجَعَلاَه في خَيْمَةٍ، وأحاط بها جماعةٌ ولم يُمْكِنْهم قتلُه بغير أمر أسد الدّين[٢]. فحضر من القصر جماعةٌ من قِبَل العاضد، يستحثّ على قَتله، وحضر أسدُ الدّين إلى المخيَّم ورُسُل العاضد تتَواتَر لأسد الدّين يأمره بقتله. فقُتل، وأُرسل رأسُه إلى العاضد على رُمْح [في السابع عشر من ربيع الآخر][٣].

ومَضى أولادُه إلى القصور واستجارُوا بالعاضد، فقُتِلوا بعد العقوبة الشّديدة، في يوم الاثنين لأربعٍ خلَوْن من جمادى الأولى منها. وهم: الكامل؛ والمعظّم، وركن الإسلام. وتأسّف شيركوه بَعْد ذلك على الكامِل لأنه بلغَهُ ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قُتل شاوَر استَدْعَى العاضدُ أسدَ الدّين شيركُوه، فَدخلَ إلى القاهرة في السّاعة الّتي قُتل فيها شاوَر، فرأى العَوامّ وقد اجتمعُوا، فهالَهُ ذلك، فقال لهم: إنّ موْلانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمرُكم أن تنْهَبوا دُورَ شاور. فتفرَّق النَّاس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر. فتلقّاه العاضد، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة، ولقّبه الملك المنصُور أمير الجيوش[٤]. ولم تطُلْ مدّته في الوزارة حتى تُوُفي إلى رحمة الله تعالى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج١١، ص ٣٣٩. واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٠.

(٢) «نور الدين» في الأصل، والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤٠.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤٠.

(٤) بعث العاضد منشوراً بالوزارة لأسد الدين بخط القاضي الفاضل وعليه خط العاضد. وهذا نص =

بعْدَ خمسةٍ وستّين يوماً؛ وقام بالأمر بعدَه الملك النّاصر صلاحُ الدّين يوسف، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدّولة الأيُّوبيّة.

ذكر انقراض الدّولة العُبَيْديّة والخطبة للمستضيء بنُور الله العبّاسي

كان انقراضُ هذه الدّولة عند خَلْع العاضِد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لَسَبع مضَيْن من المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة.

وكان سببُ ذلك أنّ صلاحَ الدّين يوسف لمّا ثبتتْ قدمُه في ملك الدّيار المصريّة واسْتمال النّاس بالأموال قَتَل مؤتَمن الخلافة جوهراً، زمام القصور، ونصب مكانه قَراقوش الأسديّ الخصيّ خادم عمه، ثمّ كانت وقعةُ السّودان فأفناهم بالقَتل، على ما نذكرُه إن شاء الله مستوفًى في أخباره. ثمّ أسْقط من الأذَان قولَهم: «حيَّ على خَيْر العملِ»؛ وأبْطَلَ مجلس الدّعوة؛ وضعُف أمْرُ العَاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملكُ العادلُ نور الدّين إلى الملك النّاصر صلاح الدّين يأمرُه بالقبض على العاضد وأقاربه، والخُطْبة للخليفة المستضيء بنور الله(1)، وكان المستضيء قد رَاسَله في ذلك. فامْتنع صلاحُ الدّين، وكَره إزالَةَ هذه الدّولة. فكتب إلى الملك العادل يعتَذِرُ، وقال: إنْ فعلنا هذَا الأمْر لا نَأمَن من قيام أهلِ مصر علينا لميلهم إلى هذه الدّولة. وكان قَصْد صلاح الدّين أن يتقوَّى بالعاضد على نور الدّين إن هو أرادَ الدُّخول إلى الديار المصريّة(2).

فلما وَرَدَ جوابُه على نُور الدّين بالاعتذار انْزَعَج لذلك، ورَادَف رُسُلَه إليه يأمرُه بخَلْع العاضد والقَبْض عليه(3).

= المنشور: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى نبوّة النبوّة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١] القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٩، ص ٤٠٦، وأبو شامة في الروضتين، ج ١، ص ٤٠٢، وابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٦٥، وابن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب، ص ٣٥. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٣٦.

(١) هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي البغدادي المستضيء بأمر الله. توفي ببغداد في ثاني ذي القعدة عن ست وثلاثين سنة وكانت خلافته تسع سنين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٧٨. في تاريخ الخلفاء للسيوطي، والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير. كانت ولادته سنة ٥٣٦ هـ فيكون عمره حين وفاته تسعاً وثلاثين سنة. انظر: تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ١٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٦٨.

(٣) انظر الروضتين لابي شامة، ج١، ص ٤٩٣.

فاسْتَدعى الملك الناصر الأمراءَ واستشارهم في ذلك، فمِنهُم مَن حذَّره، ومنهم مَنْ هَوَّنه عليه. فأحضر الفقيه اليَسع بن يحيى بن اليسع، وعرَّفه الحال. فلمّا كان في هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامعِ مصر قبل طُلوع الخطيب، ودَعَا للمستضيء بنُور الله؛ فلم يُنْكر عليه أحدٌ. فلمّا كان في الجمُعة الثّانية أمر الملكُ النّاصر الخطباءَ بمصر والقاهرة أن يخطبُوا للمستضيء بنُور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله العباسي؛ فخطبوا له.

ثمّ تُوفي العاضدُ لدين الله إثْر هذا الخَلْع، في يوم عاشوراء من السّنة، بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ مِن خَلعه. وكانَ ضعيفاً لما قُطِعت خطبته، فقال صلاحُ الدّين: لا تُعْلِموه، فإنْ عُوفي أعلَمنَاه، وإن تُوفي فلا نفجعُه بهذه الحادثة.

وقال بعض المؤرخين: إنّ صلاح الدين لمّا قطع خُطبته دَخَل عليه وقَبض عليه واعتقله، فلمّا رأى ذلك كان في ذخائِره فصٌّ في خاتم، فمصَّه، فمات لِوَقته. فكان صلاح الدّين يقول: ندمت على كَوْني دخلتُ علَى العاضد وفَعلتُ به ما فعَلْت، وكان أجَلُه قدْ قُرب.

ولمّا ماتَ جلسَ الملكُ النّاصر للعَزاء به. فكانت مدَّة ولايته إحْدى عشرةَ سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً، ومولدُه في يوم الثلاثاء لعشر بقِينَ من المحرّم سنةَ ستٍّ وأربعين وخمسائة؛ فعمرُه على هذا إحدى وعشرون سنة إلاّ أحد عشر يوماً.

وكان له من الأولاد ثلاثة عشر وهم عليّ؛ وموسى؛ وعبد الكريم؛ وأبو الحجّاج يوسف، وأبو الفتوح؛ وإبراهيم؛ وجعفر؛ ويحيى؛ وعبد القوي؛ وعبد الصمد؛ وأبو البشر؛ وعيسى. فاعْتقلهم الملكُ النّاصر بأجمعهم، واستمرُّوا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستّمائة، فكان من أمرهم ما نذكرُه في أخبار الدّولة الأيّوبية.

ووَزَرَ له مَن ذكرنا أخبارهم، وهم: الصّالح أبو الغارات طلائِع بن رُزّيك؛ ثم ولدُه العادل رُزّيك، ثمّ شاوَر؛ ثمّ الضرغام؛ ثم عاد شاور؛ ثمّ أسد الدّين شيركوه؛ ثمّ الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف.

قضاته: أبو القاسم هبة الله بن كامل؛ وأبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي؛ ثمّ الأعز أبو محمّد الحسن بن علي بن سلامة؛ ثم أعيد عبد الجبّار؛ ثم أعيد ابن كامل، ثمّ صرف على أيام الملك النّاصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس[(١)].

وكان العاضد شديدَ التشيُّع متغالياً في سبّ الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين. إذَا رأى سُنّياً استحلّ دمه.

---

(١) انظر أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١٦ ـ ١١٧.

جامع أخبار الدّولة العُبَيديّة ومدّتها ومَنْ ملك من ملوكها

كانت مدّة تغلُّب ملوك هذه الدّولَة على البلاد منذ أَخْرَجَ أبو عبد الله الشيعيّ عُبيدَ الله، المنعوت بالمهْديّ، من سجِلْمَاسَة، من سجن الْيَسَع بن مدرار إلى أن مات العاضد هذا مائتي سنَة وسبعين سنةَ وشهوراً[(١)]. منها ببلاد الغرب، منذُ دخل عُبيد الله المهدي رَقَّاده إلى أنْ وصل المعزّ لدِين الله إلى القاهرة أربعُ وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرُون يوماً[(٢)]. وباقي هذه المدّة بمصر والشّام إلى أن انقطعت دعوتُهم بخروج عسقلان عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها، في جُمادى الآخرة سنةَ ثمانٍ وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عبّاس بن يَحيى بن تميم.

وعدّة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تَسَمُّوا كلُّهم بالخلافة؛ وهم: عبد الله المنعوت بالمهديّ؛ ثم ابنُه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد؛ ثمّ ابنُه المنصور بنَصر الله أبو الظاهر إسماعيل؛ ثم ابنه المعزّ لدِين الله أبو تميم معدّ، وهو أوّل من ملك الدّيار المصريّة والبلاد الشامية منهم، وإليه تُنْسَب القاهرة المعزّية؛ ثم ابنُه العزيزُ بالله أبو المنصُور نِزار؛ ثمّ ابنه الحاكم بأمْر الله أبو علي المنصور؛ ثمّ ابنُه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، عليّ؛ ثم ابنُه المستنصر بالله أبو تميم معدّ؛ ثم ابنه المستَعْلي بالله أبو القاسم أحمد؛ ثم ابنُه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصُور؛ ثم ابن عمِّه الحافظُ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر بالله؛ ثم ابنهُ الظّافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ؛ ثم ابنُه الفائز بنَصر الله أبو القاسم عيسَى ابن الظافر؛ ثم ابنُ عمِّه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبد الله بن يُوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر؛ وعليه انقرضت دولُتهم، وانتهت أيّامُهم، وباد مُلكهم، فلم يَعُد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خُلع العاضدُ ومات واعتَقَلَ الملكُ النّاصر صلاح الدّين يوسف أولادَه بالقُصور مرّ القاضي الأرشد عُمارة اليمني الشّاعر بالقصور، وهي مغَلَّقَة الأبواب، مهجورة الجناب، خاويةٌ على عروشها، خاليةٌ من أنِيسها؛ فأنشأ قصيدته المشهورة التي رَثَى بها القُصور وأهلها، وهي من عيون المراثي[(٣)] وأوّلها: [من البسيط]

---

(١) في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١٧، ورد: مائتين وتسعة وستين سنة وثمانية أشهر وأحد وعشرين يوماً».

(٢) ورد في أخبار الدول المنقطعة لابن ظافر، ص ١١٧، «خمسة وستون سنة وأربعة أشهر ونصف».

(٣) وردت هذه القصيدة في: صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧٠ ـ ٥٧١، ومفرج الكروب لابن شامة، ج١، ص ٢١٢ ـ ٢١٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

رميتَ يا دهرُ كفَّ المجد بالشَّلَلِ وجِيدَهُ بَعْد حُسْنِ الحَلْي[١] بالعَطَلِ
سَعَيْتَ في مَنْهَج الرّأي العثُورِ، فإن قَدَرْتَ من عَثَرَاتِ الدَّهرِ[٢] فاستَقِلِ
هَدَمْتَ قَاعدَةَ المَعْرُوف[٣] عَن عجلٍ سُقِيتَ مُهْلاً أَمَا تمشي على مَهَلِ
لَهْفِي ولَهْف بنى الآمالِ قاطبَةً على فجيعَتِنَا[٤] في أكرَمِ الدُّوَل
قدِمتُ مِصرَ فأَوْلَتْني خَلائِفُها من المكَارِمِ ما أَرْبَى على الأمل[٥]
قَومٌ عرفتُ بهم[٦] كَسْبَ الأُلُوفِ ومِنْ جمالها[٧] أنّها جاءَتْ ولَمْ أَسَلِ

منها: [من البسيط]

يا عاذلي في هوَى أبناءِ فاطمةٍ لك الملامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذلي
بالله زُرْ سَاحَة القَصْرَيْنِ، وابْكِ مَعِي عَلَيْهما، لا عَلى صِفِّينَ والجَمل
وقُل لأَهْلِهما: واللَّهِ ما الْتَحَمَتْ فيكُم جِرَاحي[٨]، ولا قرْحِي بمُنْدَمِلِ[٩]
ماذَا تُرى[١٠] كانت الإفْرَنجُ فاعِلةً في نَسْلِ آلِ أَمِيرَ المؤمنينَ عَلي
هَلْ كان في الأمْر شيءٌ غيرَ قسْمَةِ ما ملَّكْتُمُ بين حُكم السَّبْي والنَّفلِ
وقد حَصَلتُم عليها واسمُ جَدِّكُمُ محمَّدُ، وأبيكم[١١] غيرُ مُنْتَقل
مرَرْتُ بالقَصْر، والأبوابُ[١٢] خاليةٌ من الوُفُودِ، وكانَتْ قِبْلَة القُبَلِ

---

(١) «بعد حلي الحسن» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١.
(٢) «من عثرات البغي» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١.
(٣) «قواعد المعروف» في الأصل. والتصحيح من الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١، وفي صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٤) «شقيتَ، مَهْلاً» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٥) «فجيعتها» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٢١٦، وفي صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٦.
(٦) «على أملي» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢١٦.
(٧) «عرفتُ لهم» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢١٦.
(٨) «كمالها» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢١٦.
(٩) «جروحي ولا جرحي بمندمِل» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ٥٢٦. وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٢١٦. «فيكم جروحي ولا جرحي مندمل» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٧١.
(١٠) «ماذا عسى» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٣٤.
(١١) «وأبوكم» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.
(١٢) «والأركان خالية» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.

فَمِلتُ عنها بوَجْهي[1] خوفَ مُنتقدٍ من الأعادي، ووَجْهُ الوُدّ لَمْ يَملِ
أسَلْتُ من أسَفِي[2] دمعي غَداةَ خلَتْ رحابُكم، وغدَتْ مهجُورَةَ السُّبل
أبْكي علَى مَأْثُراتٍ[3] من مَكارِمُكم حَالَ الزّمانُ علَيها، وهْيَ لم تَحُلِ

وهي قصيدة مشهورة مطوّلة.

ولمَّا انقرضت هذه الدّولة قامت الدّولةُ الأيوبيةُ على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار ملوكها والله أعلم.

(١) «بوجهِ» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.
(٢) «اسلبت من أسفي» في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.
(٣) «أبكي على ما بدا لي» في الأصل، والتصحيح من صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٥٢٧.

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهي دولَة السّلطان المَلك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب وأولاده، ودولةُ أخيه الملك العادل سيف الدّين أبو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.

ولْنَبدأ بذكر نَسَب نجم الدين أيّوب والد مُلُوك الدّولة الأيُّوبيّة وابتداءِ حالِه وحالِ أخيه أسد الدّين، وكيف تنَقّلتْ بهم الحال إلى أن ملك أسدُ الدّين شيركوه الدّيارَ المصريّة، وكيف انتقل المُلك مِن بعده إلى ابن أخيه الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف. ثمّ نذكر أخبار مَنْ ملك مِن أولاده وأخيه الملِك العادل وأولاده في حَرْبِهِم وسَلْمهم إلى حين انْقراض دولتهم. وبالله التوفيق.

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدّين

هو [أبو][1] سعيد أيوب بن شادي بن مروان. هذا هو المقطوعُ به الذي لا نزاعَ فيه، ولا خلاف بين أحد من المؤرخين ونَقَلة أخبارهم.

وقال الملكُ الأمجد مجدُ الدّين أبو محمد الحَسن، ابن السلطان الملك النّاصر صلاح الدين أبي المفاخر داوُد، ابن السلطان الملك المعظّم شرف الدّين أبي المظفر عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدّين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الدّين أبي سعيد أيوب، رحمُهم الله تعالى، في كتابه المتَرْجَم بالفوائد الجليّة في الفَرائد النّاصرية: سمعتُ مَن يقول: مروان بن محمد؛ وقال بعضُ النّاس محمد بن يعقوب.

وقال شهابُ الدّين أبو شامة عبد الرحمٰن في كتابه المترجَم بالرّوضَتَين في أخبار الدّولتين سمعتُ مَن يقولُ: مروان بن يعقوب[2].

وقال الملك الأمجد: وقد اختُلِف في نَسبهم على ثلاثةِ أقوال:

القول الأول: ما قاله عزّ الدّين علي بن الأثير الجَزري المؤرخ أنّ نجم الدين

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح. وانظر ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ٢٥٥، رقم ١٠٧ حيث ورد «أبو الشكر». وانظر أيضاً الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٣ - ٥٣٥.

(٢) انظر الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٤.

أيوب من بلد دَوِين[١] من أذرْبِيجَان، وأصله من الأكراد الرِّوَاديّة[٢]؛ وهذا القَبِيل هم أشرَف الأكراد[٣].

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيءٌ يجري من ألسنة كثير من النّاس، ولمْ أرَ أحداً ممّن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النَّسب، لكنّهم لا يُنكرون أنَ نجم الدّين كان بِدَوين.

قال: والمشهور عند بَيْتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوَّج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غيرُ. ويدلّ على ذلك أن السّلطان الملك النّاصر صلاحَ الدّين يوسف لمّا ملك البلاد تقدّم في دَوْلته جماعةٌ من الأكراد، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا جاء بنُو عمّه وأقاربُه، حتى صار في عُصْبةٍ من أهله؛ والسّلطان رحمه الله لم يأتِ إليه من يمُتّ بقَرابة إلا من جهة النّساء فقط، ولو كان من الرِّوَادِيّة لكان جمعُ القبيلة أولادَ عمه وإن لم يكُنْ له ابنُ عمّ قريب فيكون ابنَ عمٍّ بعيد قطعاً لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد. ولا شكّ أنّ الدّواعي تتوفّر على الانتماء إلى الملك ما لا تتوفّر على الانتماء إلى الأمراء.

القول الثاني: إنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال الملكُ الأمجد: وهذا شيء ادَّعَاه الملك المعزّ فتحُ الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين، ابن أيوب، باليمن، لما ملكه بعد أبيه، وتلقّب بالإمام الهادي ينور الله المعزّ لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميد بن أبي طيّ: قد نقَّبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لا يعرفون جداً فوق شادي[٤].

القول الثالث: ما ذكره حسن بن عمران الجرشي فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرةً لنسب بني أيوب، فوصله بعليّ بن أحمد المرّي[٥] ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه: [من الخفيف]

شرق الجوُّ بالغُبار إذا سا ... ر علي بن أحمد القمقام

---

(١) بلد دوين: بفتح أوله وكسر ثانيه، وياء مثناة من تحت ساكنة، وآخره نون: بلدة من نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس منها ملوك الشام بنو أيوب وينسب إليها أبو الفتوح نصر الله بن منصور بن سهل الدَّوين الجيزي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩١.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٢٤١.

(٤) انظر الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.

(٥) «علي بن محمد» في الأصل، والتصحيح من كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٧.

وقال أيضاً في مدحه: [من الخفيف]

إنما بن عوف بن سعد جمرات لا تشتهيها النعام

ولم يُنْكر الملكُ المعظّم عليه ذلك بل قَبِل منه.

قال: وهذا سَردُ النّسب الذي عَمِله الجرشيّ، وهو أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي.

قال الملك الأمجد: قلت: ويُحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره ـ وأبو علي كنية له ـ ابن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحارث بن سفيان بن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مُرَّة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خزيمة بن مدرسة بن إلياس بن مضر، وبقية النسب معروف. هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدّين شيركوه من بلد دوِين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله[(١)]، وخدما مجاهد الدين بهروز[(٢)] شحنة بغداد. فرأى من نجم الدّين عقلاً ورأياً وحُسن سيرة، وكان أسَنَّ من أخيه أسد الدّين، فجعله مجاهدُ الدين دُزْداراً[(٣)] بقلعة تَكْرِيت[(٤)]، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدّين.

وقيل بل كان نجمُ الدّين قد خدم السّلطان محمد بن ملكشاه السّلجقي[(٥)]، فرأى منه أمانةً وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولّاه قلعة تَكرِيت، فقام بها أحسن قيام. فلمّا وَلي

---

(١) هو أبو منصور الفضل أبي الخليفة المستظهر بالله أحمد الملقب بالخليفة أمير المؤمنين المسترشد بالله. بويع بالخلافة في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م. ولد سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، توفي سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٥٠.

(٢) كان رئيس الشرطة، أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣، حاشية (٣).

(٣) دزدار: كلمة فارسية بمعنى حاكم حصن. «فجعله مستحفظاناً» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٤١.

(٤) تكريت: بفتح التاء: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، ولها قلعة حصينة غربي دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨.

(٥) توفي سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ م وعمره ٣٧ سنة ومدة ملكه بعد وفاة أخيه بركياروق ١٢ سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٠٩. انظر أيضاً: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٣٠، والكامل لابن الأثير، ج ١٠، ص ٥٢٥.

السّلطان مسعود[١] أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدّين بهروز، فأقرّ نجمَ الدّين في الولاية. وكان أتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر، والد السّلطان الشّهيد نور الدّين لما انهزم من قراجا السّاقي في سنة ست وعشرين وخمسمائة، كما ذكرناه، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام نجم الدّين بخدمته أتمّ قيام، وأقام له السّفن إلى أنْ عَبَر دجلة، فكان ذلك سبب وُصلته بالبَيت الأتابكي وتقدّمه.

قال: ثمّ اتفق بين أسد الدّين وبين قوارص النّصراني، كاتب بهروز، مشاجرةٌ في بعض الأيام، فكلّمه النّصراني بكلمةٍ أمضَّته[٢]، فضربَ عُنُقَه بيده، ورماه برجله[٣]، فلمّا اتصل الخبر ببهروز وحضر عنده مَنْ حذّره من جُرأة شيركوه وتمكين نجم الدّين واستِحْوازه على قُلوب الرّعايا خافَ عاقبةَ ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ما كان من أخيه، وعَزَله. فسار نجمُ الدّين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل، فلمّا وصلاَ إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة، وشهدَا معهُ حُروب الكفار وقتال الفرنج.

فلمّا ملَك زنكي قلعة بَعلبك، في سنة ثلاثٍ وخمسمائة جعل نجم الدّين دُزدَاراً بها؛ فأقام بها إلى أن قُتل عماد الدين زنكي، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وحَاصَر معينُ الدّين أنر، صاحب دمشق قلعةَ بعلبك، حتى ضاقَ الأمر على نجم الدّين، فاضْطُر إلى تَسليمها إليه، وتعوَّض عنها إقطاعاً وأملاكاً؛ وكان عندَهُ من الأكابر الأمراء. واتّصل أسد الدين شيركوه بخدمَةِ الملك العادل نُور الدّين محمود بن زنكي، فجعله مقدَّماً على عسكره، وجعل له حمص والرَّحبة وغيرهما.

فلما تعلقت همّة نور الدّين بمُلك دمشق أمر أسَد الدين بمكاتبة أخيه نجم الدّين أيوب في ذلك، فرَاسَله، فأعان نورَ الدّين على فتح دمشق؛ فعظُم محلُهُما عند نور الدّين. فكان نجم الدين إذَا دخل عليه جلس من غير أن يُؤذن له في الجلُوس، ولم تكن هذه الرُّتبةُ لغيره من سَائر الأمراء. فلمّا كان من أمر شاوَر ما قدّمناه وقصَد نورَ الدّين

---

(١) هو أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه الملقب غياث الدين. ولد سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨م. وتوفي سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ رقم ٧٢٠. ترجمته وأخباره في: تاريخ الدولة السلجوقية للحسيني. والكامل لابن الأثير، ج ١٠، ١١. وابن خلدون ج ٥، ص ٤٥، والسلوك، ج ١، ص ٣٤. والمنتظم لابن الجوزي، ج ١٠، ص ١٥١، وعبر الذهبي، ج ٤، ص ١٢٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٤٥. ونهاية الأرب للنويري، ج ٢٧.

(٢) أمضته: آلمته، أوجعته، ابن منظور: لسان العرب (مضض).

(٣) «فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني... وأخذ النصراني برجله فألقي من القلعة» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٣٧.

محمود أو استغاث به، أرسل معهُ أسد الدّين بالعساكر؛ وكان من أمره في المرّة الأولى، في سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة، والمرّة الثانية، في سنة اثنتين وستّين، والمرّة الثالثة في سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة على ما قدّمنا ذكره في أخبار الدّولة العُبَيْديّة في أيّام العاضدِ لدين الله.

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدّين شيركوه بالدّيار المصريّة ووفاته

كانت وزارتُه للعاضِد لدين الله في يوم السّبت لثلاثَ عشْرةَ ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة.

وذلم أنّه لما كان من أمر شاور ومقْتَلِه ما ذكرناه آنفاً استَدْعى العاضدُ لدين الله أسدَ الدّين شيركوه، فدخل إلى القَاهِرة في السّاعة التي قُتِل فيها شاوِر، فرأى من اجتماع العوام ما هَالَهُ، فخاف على نفسه، فقال لهم: أميرُ المؤمنين يأمُركُم بنَهب دارِ شاور. فقصدَها النّاس ونهبُوها وتفرّقوا عنه. ولمّا نزل أسدَ الدّين بدَارِ شاوَر، وهي دارُ الوزارة، لم يجد فيها ما يجلس عليه[1].

قال: ولمَّا تفرق الناس للنهب دخل أسد الدّين على العاضد لدين الله، فتلقَّاه وخَلَع عليه خِلَع الوزارة، ولقَّبه بالملك المنصُور أمير الجيوش، وكتب له تقليدَ الوزارة، وكتب عليه العاضد بخطه عهداً: (عهدٌ لم يُعهد لوزير بمثله، وتقليدُ أمرٍ رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مَرَاشِد سُبُله. فخُذْ كتاب أميرِ المؤمنين بقُوّة، واسحب ذَيْل الفخار بأن اعْتزِزت بخدمتك من النّبوّة[2]؛ واتّخذ الفوزَ سبيلاً: ﴿...وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[3] [النحل: ٩١].

وخرجَ من عند العَاضد وركب إلى دار الوزارة وسكنها، واستقلّ بالأمر. واستعمل على الأعْمال من يثقُ به كُفاةِ أصحابه، وأقْطَع البلاد لعساكره. وأرْسَلَ إلى ديوان الإِنشاء بالقصر يطلُبْ منْ يكتُب بين يديه، فأَرْسل إليه متولي الديوان القاضيَ

(١) انظر ذكر مقتل شاور في هذا الجزء من نهاية الأرب.

(٢) «اتخذت خدمتك إلى بنوة البنوة» في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٤٠٢. اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٢.

(٣) قارن هذا النص بما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٩، ص ٤٠٦، واتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٢، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٤٠٢، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ١٦٥. وتاريخ ابن الفرات لابن الفرات. المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ٣٤ ـ ٤٤.

الفاضلَ عبدَ الرَّحيم البَيْسَاني؛ وظَن رؤساء ديوان المكاتبات أنّ هذا الأمر لا يتمّ، وأن[١] أسَد الدّين يُقْتَل عن قريب كما قُتِل غيره، فأرْسَلُوا إليه القاضي الفاضل وقالوا لعلّه يُقتل معه. فكان من أمره ما كان.

ولم تطُلْ مدّة أسد الدّين في الوزارة بل انقَضَتْ أيامُه، وفاجأه حمامه، فتوفّي في يوم السّبت لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة من السّنة.

واخْتُلِفَ في سبب وفاته، فقِيل إنَّه مات فجأةً، وقيل بعلّة الخوانيق، وقيل: بل سُمَّ. فكانت مدّةُ وزارته خمساً وستّين يوماً[٢]؛ وعُمل عزاؤه ثلاثةَ أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام؛ ودُفن هناك برباط الوزير جمال الدّين وزير الموصل[٣].

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ في الوزارة بعْدَه الملك النّاصر صلاح الدّين يُوسف بن أيّوب.

ذكر أخبار الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف[٤] ابن الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب ووزارته بالدّيَار المصريّة

كانت وزارته بالدّيار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدّين شيركوه وقد تطاول[٥] جماعةٌ من الأمراء النُّورية للوزارة؛ منهم عين الدولة اليَارُوقي، وقطب الدّين قايمازْ، وسيف الدّين المشطوب الهكّاري، وشهاب الدّين محمُود الحَارِمي، وهو خال صلاح الدّين؛ وخطبها كلٌّ منهم لنفسه. فأشار جماعةٌ من المصريّين وخواصِّ

(١) «فان» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) «ثلاثة وستين يوماً» في اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣٠٤.

(٣) هو محمد بن علي بن أبي منصور الوزير أبو جعفر جمال الدين الأصبهاني وزير الأتابك زنكي وسيف الدين غازي وقطب الدين مودود. توفي ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م. أخباره: في المنتظم، ج ١، ص ٢٠٩، وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ٥، ص ١٤٣ ـ ١٤٥، رقم ٧٠٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ١٨٥. التاريخ الباهر لابن الأثير. والكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٠٦ ـ ٣١٠، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٣٤٣ ـ ٣٥٦.

(٤) مصادر أخبار صلاح الدين كثرة نذكر منها: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ١٣٩ ـ ٢١٨. تاريخ ابن خلدون، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، دائرة المعارف الإسلامية. كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، الروضتين لأبي شامة. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لابن شداد. الكامل في التاريخ لابن الأثير، الحروب الصليبية لأمين معلوف. وغيرها من المصادر العربية.

(٥) «تطاوله» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

العاضِد لدين الله على العاضد أنْ يَولِّيَ صلاحَ الدّين، وقالُوا: إنه أصغر الجماعة سنًّا ولا يخرُج من تَحْتِ أمرِ أمير المؤمنين. فإذا استقرَّ وضَعْنا على العساكر مَن يَسْتَميلُهُم[1] إلينا، فيبقى عندنَا من الجُند مَنْ نتقوى به، ثم نأخذ يوسُف بعد ذَلك أو نُخرجُه فإنّ أمرَه أسهل من غيره، فاستدعَاهُ العاضدُ لدين الله، وخَلَع عليه خِلَع الوزارة. ولقّبه بالملك النّاصر[2]، فلم يُطِعْه أحدٌ من الأمراء الذين كانوا تطاوَلُوا للوزارة ولا خَدَمُوه.

وكان الفقيه عيسَى الهكَّاري[3] معه، فسعَى مع الأمير سيف الدّين علي بن أحمد المشطوب حتى استماله إليه، وقال له: إنّ هذا الأمرَ لا يصلُ إليك مع اليارُوقي الحارِمي وغيرهما. ثمّ اجتمع بالحَارِمي وقال له مثلَ ذلك، وقال له: إن صلاحَ الدّين ولدُ أختك، وعزُّه وملكُه لك، وقد استقامَ لهُ الأمر، فلا تكُنْ أوّل من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء واستمالَهُم. فأطاعهُ بعضُهم وعصى بعضهم.

فأما الياروقي فإنه قال: لا أخدُم يوسف أبداً، وعاد إلى الملك العادل نور الدّين هو وجماعة من الأمراء. وصار صلاحُ الدّين نائباً عن الملكِ العادلِ نور الدّين، والخطبة لنور الدّين ولا يكاتبه إلا: «بالأمير الاستفهسلار[4] صلاح الدّين وكافة الأمراء بالدّيار المصرية. يفعَلُون كذَا وكَذَا». ويفعل علامته في الكُتُب، عظمةً أن يكْتُبَ اسمه.

ولـمّا وزَر صلاح الدين ثبتَ قدمُه، واستمالَ قُلوبَ الناس بالأموال فمالُوا إليه فقوِي أمره، وضعف أمرُ العاضد.

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي وحرب السّودان

كان مقتلُ مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمسٍ بقِينَ من ذي القعدة، من سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة.

---

(١) «تسليمهم» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠، ص ٩١ ـ ٩٨. وفيه نص منشور تعيينه صلاح الدين وزيراً، وانظر أيضاً شفاء القلوب للحنبلي، ص ٦٨.

(٣) هو عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري توفي ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م، ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٩٧ رقم ٥١٦.

(٤) الاسفهسلار: كلمة بمعنى مقدم العسكر أو قائد الجيش، وفيها لفظان فارسي، وتركي «أسفه» بالفارسية بمعنى «المقدم» و«سلار» بالتركية بمعنى العسكر، صاحب الوظيفة زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٩. وانظر أيضاً الألقاب الإسلامية لحسن باشا ص ١٥٦.

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض[(١)] إقطاع المصريين فاتفق هذا الخادمُ مع جماعةٍ من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والاعْتِضَاد[(٢)] بهم على صلاح الدين ومَنْ معه؛ وأرْسَل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعلٍ ولبسه، وسار على أنه فقير رثُّ الهيئة. فلما وصل إلى البَيْضَاء[(٣)] وجده تُركُماني، فأنكر حاله إذ هو رثُّ الهيئة جديدُ المَدَاس[(٤)]. فأخذ مَدَاسَه وفَتَقَه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك النّاصر، فوقف عليها، وكتم الأمر، وقرَّر الرجل بالعُقوبة، فأقَرّ أنّ الكتب بخط رجُل يهودي، فاستحضره، فأقرّ بها. ثم قتل صلاح الدّين القاصد. واستشعر مؤتَمَنُ الخلافة من الملك النّاصر، فلزم القصُور واحترَزَ على نفسه، فكان لا يخرج منها. فلمّا طال ذلك عليه خرَج في هذا اليوم لِقصر[(٥)] له بالخرقانيّة، فأرسل إليه الملكُ النّاصر جماعةً فقتلُوه، وأتَوْه برأسِه، فرتَّب حينئذٍ على أزمَّة القُصور قراقوش الخصيّ، وكان من مماليك عمِّه أسد الدين ليطالِعه بما يتجدَّد بالقصور.

قال: ولما قُتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأَخَذتهم الحميّة، وعظُم عليهم قتلُه، لأنَّه كان رأسهم ورئيسهم، فحشَدُوا واجتمعوا فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد؛ وكانوا أشد على الوزراء من العسكر. فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدّم على العسكر أبا الهيجاء السّمين، فالتَقوْا بين القَصْرَيْن واقتتلوا، فقُتِل من الفريقين جمع كثير. فلمّا رأى الملكُ النّاصر قوّتَهم وشدّة بأسِهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة[(٦)]، خارج باب زويلة فأحرقها: فاتّصل ذلك بهم، فضعُفَت نفُوسُهم، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدُوا النّيران تُضْرَم فيها، واتّبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها[(٧)]. ودام [القتال][(٨)] بينهم أربعة أيّام، نهاراً وليلاً، إلى يوم السّبت الثامن والعشرين من ذي القعدة؛ فخرجُوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقَنُوا بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك النّاصر فقتَلهم، ولم يَنْجُ منهم إلا اليسير. وكتب الملك الناصر إلى وُلاة البلاد بقَتْلِ من يجدونه منهم، فقُتلوا من عند آخرهم.

---

(١) في الأصل «بعض» والتصحيح من الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٤٥٠.

(٢) الاعتضاد: الاستعانة. ابن منظور: لسان العرب (عضد).

(٣) البيضاء: مدينة قرب بلبيس وبين القاهرة وغزة. انظر اتعاظ الحنفا للمقريزي، ج ٣، ص ٣١٢.

(٤) المداس: الحذاء، ابن منظور: لسان العرب (دوس).

(٥) بستان بناحية الخرقانية بالقرب من قليوب. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٢.

(٦) المنصورة: الحارة المنصورية، وفيها مساكن السودانيين وهي واسعة. جعلها الأمير خطاب بن موسى بأمر صلاح الدين بستاناً كبيراً. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٧) في الأصل «الطعن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٨) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

وبقي الملك النّاصر يخشى من أهل القصرِ لِمَا فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر هذا سببَ زوالِ مُلك الدولة العُبَيْديّة وجوهر القائد سببَ مُلك المعزّ للبلاد؛ فَشتّانَ بين الجوهرين.

ذكر الحوادث في الأيام النّاصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدِّم هذه الحوادث التي نذكُرها الآن على الغزوات والفتوحات إلا أنها سابقةٌ على ذلك في التّاريخ، ولأنّا أردنا أنْ نُفردَ غزواتِه وفتوحاتِه ليأْتي الكلامُ عليها سياقةً يتلُو بعضُه بعضاً، ولا ينقَطع بغيره، فكان ممّا نذكره:

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدّين أيّوب والد الملك النّاصر إلى الديار المصريّة

كان الملك النّاصر قد كتب في طلب والده، رحمهما الله تعالى، فوصل بأولاَده وأهله إلى القاهرة في السّابع والعشرين من شهر رجب سنة خمسٍ وستين وخمسمائة؛ ولمّا وصل تلقَّاه الخليفةُ العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج[1]، ولم تجر بمثل ذلك عادة، فكان يوماً مشهوداً. وخَلَعَ العاضدُ عليه، ولقَّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنواع التحف والألطاف شيئاً كثيراً؛ وأقطعه الإسكندريّة ودمياط والبحيرة، وأقطع ولده شمس الدولة، أخا النّاصر، قُوص[2] وأسوان[3] وعيذاب[4]، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستّةً وستّين ألف دينار[5].

ذكر أبطال الأذان بحيّ على خير العمل

قال المؤرخ: ولِعَشْرٍ مَضَيْنَ من ذي الحجّة سنة خمس وستّين وخمسمائة أمر

(١) صحراء الإهليلج: تقع شرقي الخندق في الرمل، وكان بها شجر الإهليلج الهندي فسميت باسمه. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٣٨.

(٢) قُوص: بالضم ثم السكون، وصاد مهملة، وهي قبطية، مدينة كبيرة واسعة قصبة صعيد مصر. وهي شرقي النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٣.

(٣) أسوان: بالضم ثم السكون. وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩١.

(٤) عَيْذاب: بالفتح ثم السكون، بليدة على ضفة بحر القلزم، وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧١.

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٧، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٤٦٥. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٤ ـ ٣٥.

الملك النّاصر أنْ يسقط من الأذان قولُهم «حيّ على خير العمل، محمّد وعليّ خير البشر». وكانت أوّل وصْمةٍ دخلت على الشّيعة والدّولة العُبيديّة؛ ويئسوا بعْدها من خير يصلُ إليهم من الملك النّاصر. ثم أمر أنْ يُذكر في الخطبة بكلام مُجْمَلٍ، ليُلْبِس على الشّيعة والعامّة: اللّهم أصلِحْ العاضدَ لدينك(١).

ذكر ما أنشأه الملك النّاصر صلاح الدّين بالقاهرة ومصر من المدارس والخوانق

قال المؤرخ: وفي أوّل سنة ستٍّ وستين وخمسمائة أمر الملك النّاصر بهَدْم دارِ المعونة(٢) المجاورة للجامع العتيق بمصر. ودارُ المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه النّاس. وأمر ببنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجّار(٣). وإنّما عُرفت به لأنه درس بها.

ثم عمر دار الغزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكختة مدرسةً للطائفة المالكيّة(٤) ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيها اشترى تقيّ الدّين عُمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدّين، الدّار المعروفة بمنازل العزّ(٥) بمصر، وبناها مدرسةً للطائفة الشافعيّة.

وكانت هذه الدّار يسكنها الأمير ناصر الدولة بن حمدان في الأيّام المستنصرية؛ وقد تقدَّم ذكر ذلك.

ثم أمر الملك النّاصر ببناء مدرسةِ الشافعيّ والبيمارستان، وعمّر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على ما يأتي ذكر ذلك.

وفي [هذه](٦) السّنة أيضاً أبطل الملك النّاصر مجلس الدّعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من سُنَّة الدّولة العُبَيْديّة أن يقيموا لهم دُعاةً كالخطباء والله أعلم.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) دار المعونة: وهو سجن المعونة بالفسطاط. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٨٧.

(٣) مدرسة ابن زين التجار: وهي المدرسة الناصرية وتسمى أيضاً المدرسة الشريفية. وهي أول مدرسة أنشئت بالفسطاط. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤. وابن زين التجار هو أحمد بن المظفر بن الحسين أحد أحيان الشافعية، الذي توفي سنة ٥١٩ هـ/ ١١٩٤ م. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٤) المدرسة القمحية بالفسطاط: قرب الجامع العتيق. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٥) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة تتفق والسياق.

ذكر تفويض القضاء بالدّيار المصريّة للقاضي صدر الدّين بن درباس

وفي سنة ستٍّ وستّين وخمسمائة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوّض السّلطان الملك النّاصر القضاء بالدّيار المصريّة إلى القاضي صدْر الدّين أبي القاسم عبد الملك ابن عيسى بن درباس المَارِدَاني، فاستمرّ إلى آخر الأيّام النّاصرية.

وفي سنة سبعٍ وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله، ومات في يوم عاشوراء كما قدّمناه.

وفيها في الثّالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حاصلُ الخزائن بالقصور، فوُجد فيها ما يزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النّفيسَة ما لا مزيد عليه.

وفيها في صفر أمَرَ الملكُ النّاصر بإبطال المكُوس بالقاهرة والأعمال عن التّجار المتردِّدين إليها وإلى ساحل المقسم صادراً وواردا، فكان مبلغُ ذلك مائةَ ألف دينار عيناً.

وفيها رُسم بتحويل سنة خمسٍ وستّين الخراجية إلى سنة سبعٍ وستين الهلاليّة، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السّابع والعشرين[١] من ذي الحجة سنة ثمانٍ وستّين وخمسمائة. وذلك أنّه ركب من داره، فلمّا انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شبَّ به فرسُه فسقط عنه، فحُمل إلى منزله، فعاش ثمانية أيّام ومات فدُفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدّين في الدّار السّلطانية، ثم نُقلا إلى المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصّلاة والسّلام، وقُبِرَا في تُربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنة تسع وستّين وخمسمائة أمر الملك النّاصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر[٢]، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فأبيعت بأخَسِّ الأثمان.

ذكر عمارة قلعة الجبل والسّور

وفي سنة تسعٍ وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك النّاصر بعمارة قلعة الجَبَل

(١) في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٥٠، «ثامن عشر ذي الحجة». وفي الروضتين لأبي شامة، ج، ص ٥٣٣ «وقع نجم الدين من على فرسه في ١٨ ذي الحجة، وتوفي في ٢٧ منه».

(٢) انظر الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٠٧، ومفرج الكروب لابن واصل، ج، ص ٢٠٣.

والسّور الدائر على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطىء النّيل إلى شاطئه. فكان دَوْرُ السّور على القاهرة ومصر والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين. من ذلك ما بين قلعة المقسم والبرج بالكُوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعاً؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائرُ قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولّى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يُتَوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتةٍ من الجبل؛ وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته[1].

وفيها أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشّافعي رحمه الله، وتولاها الفقيهُ الزاهد نجم الدين الخبُوشاني.

وأمر باتّخاذ دارٍ في القصر بيمارستاناً للمرضى، ووقَفَ على ذلك وقوفاً. وهذا البيمارستان[2] يُسمَّى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.

وفيها أسقط مكوس مكّة، شرَّفها الله تعالى، المقررة على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إلى ساحل جدة. وعَيَّنَ لذلك ضِياعاً بالدّيار المصريّة وقرّر أيضاً حَمْل غلاّتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء؛ فقال الشيخ أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي[3] في ذلك من قصيدة يمدح بها الملك الناصر: [من المتقارب]

رفَعْت مكارم مَكْسِ الحجازِ ... بإنْعامِك الشّامِل الغَامر
وأمَّنْتَ أكنافَ تلكَ البلادِ ... فهان السَّبيلُ عَلى العَابر
وسُمت أياديك فيَّاضَةً ... على وَارِدٍ وعَلى صَادِر
فكَمْ لكَ بالشّرق من حَامدٍ ... وكمْ لكَ بالغَرْب من شاكر

(١) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٠٣.
(٢) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٧، وصبح الأعشى للقلقشندي ج ٣، ص ٣٦٥، حيث جاء فيه أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين أي المكان المعروف الآن بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، ثم لما ملك السلطان صلاح الدين كان في القصر قاعة فجعلها بيمارستاناً.
(٣) هو ابن جبير الكناني البلنسي ولد سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م، توفي بالإسكندرية في شعبان سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م، وله أربع وسبعون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٥، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٦٠ ـ ٦٥.

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفي سنة تسعٍ وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صُلب جماعة مِمَّن أرادَ الوُثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العُبيديّين. وسببُ ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة اليمني الشاعر، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعزّ سلامة المعروف بالعوريس[1]، والقاضي ضياء الدّين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة،وغيرهم من جند العُبَيديين ورجال السّودان وحاشية القَصْر ومَنْ وافقهم من الأمراء الصّلاَحية والجند ـ اتَّفق رأيُهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقليَّة ومن سواحل الشّام إلى الدّيار المصريّة على شيء بذلُوه لهم من المال والبلاد، وقرّروا أنّ الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار هؤلاء بالقاهرة ومِصر وأعادُوا الدولة العُبَيْديّة، العلوية بزعمهم، ويعود مَنْ معه من العساكر الذين وافقُوهم عنْهُ فلا يَبْقَى له مُقام بالبلاد. وإنْ أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثارُوا به فأخذُوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبْعَدتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسدَّ مسدّه، وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسلوا إلى الفرنج وتقرّرت هذه القاعدة بينهم.

قال: وكان ممن أدخلُوا معهم في هذا الأمْر زَين الدّين عليّ[2] بنُ نجا الواعظ، وهو القاضي ابنُ نجيّة. ثم اختلفُوا في وزارة الخليفة؛ فقال بنو رُزّيك: يكون الوزير منّا. والقاضي؛ وقال بنو شاور: بل يكُون الوزير منّا فحضر ابنُ نجا إلى الملك النّاصر وأعْلَمه بصُورة الحال، فأمره بمُباطَنتهم وموافقتهم، ومطالعته بأحوالهم. ففعل ذلك.

ثم وصل رسولٌ من مَلِك الفرنج إلى الملك النّاصر بهدَايا، وهو في الظّاهر لهُ وفي الباطن لهؤلاء، فوضع الملكُ النّاصر عليه من النَّصارى من داخله وباطنه؛ فذكر له الحال على جليّته، فأعلم به الملك النّاصر، فلما تحقَّقه قبض على هؤلاء وصَلَبهم، فكان ممن صُلِب عمارة اليمني، وعبد الصّمد الكاتب، والقاضي الأعز العوريس، وغيرهم[3].

---

(١) في الكامل لابن الأثير ج ١١، ص ٣٩٨ ورد اسمه «العُوَيرِس».

(٢) هو علي بن إبراهيم بن نجا بن غنايم الأنصاري الدمشقي الفقيه الحنبلي الواعظ المفسر المعروف بابن نجية نزيل مصر، ولد بدمشق سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م، وقال ابن الحنبلي ستة عشرة وخمسمائة. توفي في شهر رمضان سنة ٥٩٩ هـ/ ١١٦٣ م. وله إحدى وستون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٦٤، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) انظر تفاصيل سبب صلب عُمارة الشاعر اليمني وغيره في الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٥٦٠ ـ ٥٧٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٧، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٢، ص ٢٨٧، والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ ومفرج الكروب لابن واصل، ج ١، ص ٢٤٣ ـ ٢٥٩.

وجاء عمارة إلى باب القاضي الفاضل لمَّا مُسك، فاحتجب عنه، فقال عمارة: [من مجزوء الكامل]

عَبدُ الرَّحيم قد احتَجبْ إن الخَلاصَ من العَجبْ[١]

ونُودي في أجناد المصريين بالرّحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصّعيد، واحتاط الملكُ النّاصر على مَنْ بالقصر من سُلالة العَاضِد وأهله. وأمَّا مَن كان قد وَافَقهم من أصحابه فلم يُخاطبهم في ذلك ولا أوْهمهم أنَّه عَلِم به. وبَلَغ ذلك فرنج السّاحل فلم يتحركُوا من أماكنهم، وأما فرنج صقليّة فإنهم قصدُوا ثغر الإسكندريّة على ما نذكره.

وفي سنة سبعين وخمسمائة، في أوائلها، خالف الكنزُ[٢]، أمير العرب، على الملك النّاصر بصعيد مصر، واجتمع معه جماعةٌ كبيرة من رعَايا البلاد والعُربان والسّودان وغيرهم، وقَتَل أخا الأمير أبي الهيجاء السّمين، وكان قد توجّه لإقطاعه بالصّعيد. فعظُم قتلُه على أخيه، وكان من أكابر الأمراء النّاصريّة، فَسَارَ إلى قتال الكنز. ونَدَب معه الملك الناصر جماعةً من الأمراء والعسكر، فوصلُوا إلى مدينة طُود، وهي على مسافةِ يوم من مدينة قوص إلى جهة الصّعيد، فامْتنَع مَنْ بها عليهم، فقاتلُوهم وظفرُوا بهم وقتلُوا كثيراً منهم، وأخْرَبوا بالبلد، فهي إلى وقتّنا هذا تُعرف بطُود الخَراب، وغيطانُها[٣] عامرة، ثمّ سار العسكر منها إلى الكنز، فقاتلُوه، فقُتِل هو ومَن مَعَه من الأعراب، وأمِنَت البلاد واستقرّ أهلها[٤].

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة ظهر بالدّيار المصرية فأرٌ كثيرٌ جدًّا. قال القاضي الفاضل عبدُ الرَّحيم: حدّثني مَنْ شاهد هذا الفأر وهو يرحَلُ من بقعة إلى أخرى فيُغطي الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شيءٌ ألبتّة وأنه شاهده يمرُّ بأماكن فلا يُلِمُّ بها ولا يخرجُ عليها والزُّروع بها محصورة، ويمرّ بأُخرى فلا يلبثُ أن يُفسِد جميعَ ما فيها ولا يرتحلُ عنها وبها شيءٌ من الزّرع ولا المقات بالجملة.

---

(١) «هو العجب» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٠٠ وفي الروضتين لابن شامة، ج ١، ص ٥٧٧.

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ١٦٥. ورد ما يأتي: «وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له «الكنز» جمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة المصرية. وقتله سنة ٥٧٠ وذلك في السابع من صفر».

(٣) الغيطان: جمع. والغائط: المتسع من الأرض جمعها أغواط وغيطان. ابن منظور: لسان العرب (غوط).

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٦ ـ ١٧، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٦٠٠ ـ ٦٠١.

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة ظهر بأبي صير السدر[(١)] من أعمال الجيزة بيت أشاع النّاس أنّه بيت هرمس، ففُتح بحضُور القاضي نظام الدّين بن الشَّهْرزوري وأُخْرِجَ منه أشياء، من جملتها صُور كِبَاشٍ وضفادع بأَزهرُ، وقوارير دهنج[(٢)]، وفلوس من فضّة ونحاس، وأصنام نحاس وياقوت، وغير ذلك من الذّهب والفضّة والتّحف القديمة ووُجِد فيه خلقٌ كثير من الأموات.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة في يوم الاثنين مستهلُّ المحرمُ دُرِّس في المدرسَة الفاضلية[(٣)] الّتي أنشأها القاضي الفاضل عبدُ الرّحيم بالقاهرة بدرب مُلوخيّا؛ ورُتِّب فيها لإقراء كتاب الله تعالى الشيخ الإمام العالمُ الزّكي أبو [محمد][(٤)] القاسم بن فيره الرُّعَيْني الشّاطبي؛ وفي التدريس على مذهبي الشّافعي ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإسكندري، رحمهما الله تعالى.

وحيث ذكرنا هذه النّبْذَة من الحوادث الّتي اتّفقت في خلال دولته، فلنَذْكر ما استولى عليه من البلاد الإسلاميّة.

ذكر ما استَوْلى عليه الملكُ الناصر من البلاد الإسلامية بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التي خُطب بها للملك النّاصر صلاح الدّين يوسف طرابلس الغرب وبعض بلاد إفريقية، منها مدينة قَابِس[(٥)].

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوكُ تقيّ الدين عمر[(٦)]، ابن أخي الملك

(١) أبو صير السدر: قرية قديمة تابعة لمركز الجيزة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٣.

(٢) الدَّهَنَج: جوهر كالزمرد، ابن منظور: لسان العرب (دهمج).

(٣) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لتصحيح الاسم. هو القاسم بن فِيُّره أبو محمد الشاطبي الضرير المقرىء صاحب القصيدة التي سماها «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات ولد سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م. توفي سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٧١ ـ ٧٣، رقم ٥٣٧. ترجمته في معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ١٦، ص ٢٩٣. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٣٠١، وعبر الذهبي، ج ٤، ص ٢٧٣. وبغية الوعاة للسيوطي، ص ٣٧٩. طبقات السبكي، ج ٤، ص ٢٩٧.

(٥) قابس: بكسر الباء الموحدة. مدينة بين طرابلس وسفاقس. ثم المهدية على ساحل البحر غربي طرابلس الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٩.

(٦) هو الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة الشاهنشاه بن أيوب صاحب حماه. له =

الناصر، توجَّه في سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة في طائفةٍ من الأتراك إلى جبال نَفُوسَة[(١)]، واجتمع به مسعُود بن زِمام المعروف بالبَلاط، وهو من أعيان أُمراء تلك النّاحية، وكان خارجاً عن طاعة[ابن][(٢)] عبد المؤمن. فاتّفقا وكثُر جمعهما، ونزَلاَ على طرابُلس الغرب، فحاصراهَا مدَّةً وضيَّقا على أهلها، ثمَّ فتحاها، فاستوْلَى قراقوش عليها، وأسْكَنَ أهلَه بقصرها. ثمّ ملك كثيراً من بلاد إفريقية إلا المهديّة وسَفَاقُس وقَفْصَة وتُونس وما والاها مِن القُرى والمواضع. وكَثُر جمع قراقوش، فحكم على تلك البلاد، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قَابِس، وقَوِيت نفسُه، وطمع أنّه يستولي على جميع أفريقيّة لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بجهاد الفرنج. ثم جاء نورابه مملوك تقيّ الدين أيضاً، بطائفة من التُّرك فزَاد بهم قوَّةً إلى قوّته. ثم اجتمع الأتراك وعليّ بن إسحاق الملَثّم [المعروف بابن غانية][(٣)] وملكوا بِجَاية[(٤)] في سنة ثمانين، وانقَادُوا إلى المَلثّم واستعانوا به، لأنّه من بيت المملكة والرئاسة القديمة، ولقّبوه بأمير المسلمين، وقصدُوا بلاد إفريقية فملكوها شرقاً وغرباً إلا تونس والمهديّة فإنّ الموحّدين حفظوها.

ولمَّا حصل استيلاؤهم على بلاد إفريقية قُطِعت خطبة أولاد عبد المؤمن وخُطب للنّاصر لدين الله العبّاسي؛ وقصدُوا مدينة قَفْصة[(٥)] فتسلّموها في سنة اثنتين وثمانين، وأقام بها طائفةٌ من الملثمين والأتراك.

فلمّا اتّصلت هذه الأخبار بالأمير يَعقوب بن يُوسف بن عبد المؤمن[(٦)] اختار مِن

= مدرسة منازل العز بمصر. توفي يوم الجمعة ١٩ من شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٠٣، وعبر الذهبي: ج ٤، ص ٢٦٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٨٩.

(١) جبال نفوسة: بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة، جبال في المغرب بين مدينتي طرابلس والقيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم.
وهو صاحب المغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. توفي سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٩٠.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٠٧ انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٤.

(٤) بجاية: بالكسر، وتخفيف الجيم، مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٣٩.

(٥) قفْصة: بالفتح ثم السكون وصاد مهملة. بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٢.

(٦) بويع سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢١. وانظر أيضاً تاريخ الدول الإسلامية لسليمان، ص ٥٤.

عسكره عشرين ألفَ فارس من الموحِّدين، وسار بهم في صفر سنةَ ثلاثٍ وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس. وأرسل ستَّة آلاف مع ابن أخيه فسارُوا إلى الملثم والأتراك بقَفْصة، فهزمهم الملثَم ومَنْ معه في شهر ربيع الأول من السّنة. فجاء يعقوبُ بن يوسف بِمَن معه في نصف شهر رجب منها، والتَقَوْا على مدينة قَابِس، فانهزم الأتراك والملثم، وقُتل كثير منهم. وفتح يعقوب قَابِس، وأخذ أموال قَراقوش وأهله وحَملهم عَلَى مراكش. وحَصَرَ مدينة قَفْصة ثلاثَة أشهر وبها التُّرك، فطلبوا الأمانَ لهم ولأهلِ البلد. فأمّنَهم وسيّر الأتراكَ إلى الثُّغور لِمَا رأى من شجاعتهم.

هذا ما اتَّفق لهذه الطائفة، وإن كانت هذه الفتُوحاتُ لا تختَصّ كلّها بالدّولة الأيوبية، إلا أنهم كانوا سبباً، وهم الّذين استولَوْا على البلاد كما ذكرنا فأوردنَاها في أخبارهم.

ذكر استيلائه على اليمن

وفي سنة تسع وستّين وخمسمائة جهَّز الملك النّاصرُ أخاه الملك المعظّم شمس الدّولة تُورَانْشاه[(١)] إلى اليمن، فسار في مستهلّ شهر رجب. وكان عُمارة اليمني الشّاعر يذكُر له البلاد ويحسّنُها له ويحثه على قصدها، ويعظّم مملكتها. فسار ووصل إلى مكة شرّفها الله تعالَى، ومنها إلى زَبيد[(٢)] وبها صاحبها عبد النبيّ المتغلب عليها[(٣)]. فلمّا قرُب منها ورأى أهلها انهزموا، فوصل المصريون إلى سُور زَبِيد فلم يَجدُوا عليه مَنْ يمانع عنه، فنصبوا السَّلالِيم وصعدُوا عليها إلى السّور فملكوا البلد عَنْوةً ونهبُوه، وأسِر المتغلب عليها عبد النّبيّ وزوجتُه المدعوة بالخيرة، وكانت امرأةً صالحةً كثيرة الصدقة. وسلّم شمسُ الدّولة عبدَ النبيّ إلى سَيف الدّولة مبارك بن كامل بن منقذ، وهو من أمرائه، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهر دفائن كانت له. ودَلّتهم الخيّرة على ودائعَ لها كثيرة. ثم أصلح أمر زَبيد وخطب بها النّاصر لدين الله[(٤)].

---

(١) كان أكبر من أخيه السلطان صلاح الدين، وكان يرى في نفسه أنه أحق بالملك من أخيه. توفي سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٨٠، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٥. وابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٠٦ رقم ١٢٧.

(٢) زبيد: بفتح أوله وكسر ثانيه، مدينة مشهورة باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٣) هو عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين توفي سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٦٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٣.

(٤) هو الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن الخليفة المستضيء بالله. ولد يوم الاثنين عاشر شهر رجب سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م وبويع بالخلافة بعد موت أبيه في أول ذي القعدة =

ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فُرْضَة[(١)] الهند والزّنج والحبشة وعُمَان وكِرمان وكشّ وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البرّ من أمنع البلاد وأحْصَنها. وصاحبُها يومئذ رجل اسمه يَاسر[(٢)]، فخرج إليه وقاتَلَه فانهزم هُو ومَنْ معه؛ فسَبقَه بعضُ عسكر الدّولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه، وأُسِر صاحبه. وقَصَد العسكرُ نَهْبَ البلدِ، فمنعهم شمسُ الدّولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمّرها وننتفع بها، ثمّ عاد إلى زبيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تَعِزّ واسمها الدّمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب اليمن. ومَلَك غيرها من الحصون والمعاقل، واستناب بثغر عدن عزّ الدين عثمان الزّنجيلي، ويزيد سيف الدّين مبارك بن كامل بن منقذ. وجعل في كلّ حصنٍ نائباً من أصحابه.

وأحْسَن شمسُ الدّولة إلى أهل البلاد؛ وعادت زبِيدُ إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن. ثمّ عاد شمس الدولة من اليمن، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، فوصل إليها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ: لمّا توفي الملك العادلُ نور الدّين الشهيد محمُود[(٣)] بن زنكي رحمه الله، كما قدّمناه في أخباره، ووَلِيَ بعدَه ولدُه الملك الصّالح إسماعيل أقرّ الملكُ النّاصر الخطبةَ باسمه بعد أبيه، ولم يخطُبْ لنفسه. ثم اتّفق ما ذكرناه من نُقْلَة الملك الصّالح من دمشق إلى حلب، ولم يُستأذن الملكَ النّاصر في ذلك ولا كتَب لهُ فيه؛ فسارَ [الملك الناصر][(٤)] من الدّيار المصريّة إلى الشام في شهر ربيع الأول سنةَ سبعين وخمسمائة، ووَصَل إلى دمشق في يوم الاثنين سلخ الشهر ـ وقال ابن شدّاد في سلخ شهر ربيع الآخر[(٥)] ـ وتسلّم دمشق من الأمير شمس الدّين بن المقدّم ونزل بدار العَقيقي، وكانت

= سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م. وتوفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣١.

(١) فُرْضة: طريق، ابن منظور: لسان العرب (فرض).

(٢) في عهد محمد بن عمران الذي تولى حكم عدن سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م. فتحكم في البلد ياسر بن بلال. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٠٤.

(٣) عن ترجمة نور الدين محمود بن زنكي انظر: الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٠٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٦٥. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٢٨.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) «في سلخ ربيع الأول» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤١٥. انظر أيضاً النوادر السلطانية لابن شداد، ص ٥٠، والروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٦٠٢.

سكن أبيه، وأَحْسَن إلى الأُمَراء وأَكْرمَهم، وأظهر أنّه إنّما حضر إلى الشّام نُصرةً للملك الصّالح، ولِيُعيد عليه ما أخذه ابنُ عمه سيف الدّين غازي[(١)] من بلاده، وأقرّ خُطبته ولم يَقْطعها ولا خَطَب لنفسه.

ذكر ملكه مدينة حمص وحماه

قال المؤرخ: ولمّا ملك دمشق استَخْلف بها أخاه سيف الإسلام[(٢)] طغزطكين بن أيوب، وتوجّه إلى مدينة حمص في مستهلّ جمادى الأُولى، فنازَلَها، فملك المدينة ولم يشتغِلْ بالقَلعة؛ وتَرَكَ بالمدينة من يحفَظُها ويمنعُ مَنْ [في][(٣)] القلعة من التصرّف.

وسار منْها فوصل إلى مَدِينة حماه في مستهلِّ جُمادى الآخرة، وكان بقَلْعَتها الأمير عزّ الدّين جُرْدَيك، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع مِنْ تسليمها. فأرْسَل إليه يعرّفه ما هُو عليه من الطّاعة للملك الصّالح، فاستحْلَفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة ليحْفَظَها. وتوجّه عزّ الدّين جُرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين كُمُشْتَكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها.

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

قال: ولمّا بلغ الملكَ النّاصر خبرُ عزّ الدين جُرْدَيك والقَبْض عليه، توجّه إلى حلب وحَصَرها في جُمادى الآخرة من السّنة، فقاتله أهلُها، وركب الملكُ الصّالح وهو صبيّ وعمره اثنتا عشرة سنة وجَمَع أهلِ حلب، وذكّرَهم بإحسان والده إليهم، واستَنْصَر بِهم في دَفْع صلاح الدّين، فبكَوْا وحَلَفُوا له على بَذْل النُّفوس والأموال، وقاتلوا أشدّ قتال. وأرسل سَعد الدّين كُمُشْتَكين إلى سنان، مقدّم الإسماعيلية، مالاً كثيراً على قَتْل الملك النّاصر؛ فسيَّر إليه جماعةً، فظفر صلاحُ الدّين بهم وقتلهم. ورَحَل عن حلب في مستهلّ شهر رجب من السنة.

وكان سبب رحيله أنّ كُمُشْتكين أرسل إلى القومض رِيمُنْد[(٤)] الصّنجيلي، صاحب

---

(١) هو سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل، وابن أخي السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. تولى الحكم سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م. وتوفي سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٨٠.

(٢) «سيف الدين» في الأصل والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٤) هو ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي. عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٤٤. ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.

طرابلس، أن يجهّز إلى بلاد صلاح الدّين من الفرنج مَن يمنَعُه من الوُصول إليها. فلمّا بلغهُ ذلك فارقَ حلب وعاد إلى حماه في ثامن الشهر، بعدَ نُزول الفرنج على حمص بيوم. فلمّا سمع الفرنج بقُرْبه رحَلوا عن حمص، ووَصَل صلاح الدّين إلى حمص، ومَلَك القلعة بعد حصار. وكان ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السّنة.

ثمّ سار منها إلى بعلبك، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيّام نور الدّين، فحصرَها الملكُ النّاصر، فطلب يمن الأمَان، فأمّنه وتسلَّم القلعة في رابع شهر رمضان.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازي من الملك الناصر وحصره حلب ثانياً

قال المؤرخ: كان الملك الصّالح كتب إلى عمه سيْف الدّين غازي يستنجدُه على قتال صلاحِ الدّين ودَفْعِه فجهَّز العسْكر صُحبةَ أخيه عزّ الدين مسعود، وتأخّر هو لِمَا وقع بينه وبين أخيه عماد الدّين من الاختلاف الذي قدمناه في أخبارِ الدولة الأتابكية فسارت العساكرُ السَّيفيّة، واجتَمَعَ معَها العسكرُ الحلبيّ، وسارُوا كلُّهم لقتال الملك النّاصر فأرسل إلى سيْف الدّين يبذل لهُ تَسْليم حمص وحماه وأن يُقِرّ بيده مدينةَ دمشق نيابةً عن الملك الصالح؛ فلم يُجِب إلى ذلك وقال: لا بُدَّ من تَسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر.

فلما امتنع سيفُ الدّين من إجابته تجهّزَ عند ذلك للقاء عزّ الدّين مسعُود ومَنْ معه وقتالهم، فالتَقَوْا في تَاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماه[1]، فلم تثبُتْ عساكر سيْف الدّين وانهزموا لا يَلْوِي بعضُهم على بعض. وتبعهم الملكُ النّاصر وغَنِم مُعَسكرهم، ووصل إلى حلب وحاصَرها، وقَطَع خُطبة الملك الصالح، وأزَال اسمْه.

فلمّا طال الحصار على مَنْ بحلب راسَلُوه في الصلح على أن يكون له ما بِيده من بلاد الشّام ولهُمْ ما بأيْديهم منها؛ فأجابهم إلى ذلك، وانتظَمَ الصّلح. فَرحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووَصَلَ إلى حماه، ووصَلَتْ إليه بها رُسل الخليفة المستضيء بنُور الله، ومعهم الخِلَع والأعلام السُّود وتوقيعٌ من الدّيوان العزيز بالسّلطنة ببلاد مصر والشام.

وفيها ملك قَلْعَة بَعْرِين[2] في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين

---

(١) قرون حماة: منطقة جبلية تشرف على مدينة حماه، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) بعرين: بارين: مدينة وقلعة بين حماه وحلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

مسعود بن الزّعفراني، وكان من أكابر الأمَرء النُّورية، فجاء إلى خدْمَة الملك النّاصر، وظن أنَّه يكرّمه ويقرّبه، فلمْ يَرَ من ذلك شيئاً، ففارَقَه وعاد إلى قلعته. فلما استقرّ الصُّلح بين المَلِكين النّاصر والصّالح نَازَل [الناصر](١) بعرين ونَصَب عليها المَجَانِيق ومَلَكها.

ذكر الحرب بين الملك النّاصر وسيف الدين غازي وانهزام غازي

قد قدَّمنا انهزامَ عزّ الدين مسعُود بالعسكر السّيفي من الملك النّاصر في سنَة سبعين وخمسمائة، فلمّا كان في سنة إحدى وسبعين جَمع سيْف الدّين غازي جميعَ عساكره وفرّق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كَيْفا(٢) وصاحب مَارِدِين(٣) وغيرهما، وسار إلى حلب، واستَصْحَب سعدَ الدّين كُمُشْتَكين مدبّر دوْلةِ الملك الصّالح والعسكرَ الحلبيّ.

وكان صلاح الدّين في قِلَّةٍ من العسكر لأنّه جهَّز أكثر عساكره إلى الدّيار المصريّة فلمّا بلغه ذلك أرْسَل يستَدْعي عساكرَه، فلم تَلْحَقْه؛ وأعْجَلَتْهُ الحركةُ، فسَار من دمشق إلى حلب للقاء غازي ومَنْ معه، فالتقى العسكران بتَلّ السّلْطان بالقُرب من حَلب، في عاشر شوال من السّنة.

وكان عزّ الدّين زلفندار مقدّم العسكر الموصلي قليلَ المعْرِفة بالحُروب، فجعل أعْلام صاحِبه في وَهدَةٍ(٤) من الأرض لا يراها إلا مَن هو بالقُرب منها فلما لم يَرَها النّاس ظنُّوا أن سَيف الدّين غازي قد انْهَزم، وانهزموا لا يَلْوي الأخُ على أخيه. ولم يُقْتل من العسكر على كَثرته غيرُ رجل واحدٍ. وانهزم سيف الدّولة إلى المَوْصِل وترك أخاه عزّ الدّين [مسعوداً](٥) بحلب(٦).

قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدّين غازي كان في عشرين ألف فارس؛ وخطَّأه ابنُ الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجدَ الدّين أبا السّعادات المبارَك كان يتولّى كتابة الجيش، وأنه وقَف على جريدة العَرْض فكانت ستّة آلاف(٧).

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.
(٢) حصن كيفا: بلدة وقلعة مشرفة على دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٦٥.
(٣) ماردين: بكسر الراء، والدال، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩.
(٤) وهدة: هوة في الأرض. ابن منظور: لسان العرب (وهد).
(٥) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٢٩.
(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٧) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٢٩.

وإنْ جَمعنا بين قوليْهما فنقول: إنّ الجريدة الّني وقف عليها ابنُ الأثير كانت للجيش المختصّ بسَيْف الدّين غازي خاصّةً، والّذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ما صَحِبه من سائر الجيوش الحلبيّة وَالحِصْفِية، والمَارِدِينيّة، والله أعلم.

ذكر ما ملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح بعد هذه الوقعة

قال المؤرّخ: لمّا استولى الملكُ النّاصر على أثْقَال العسكر الموصِليّ وغنمها، واتّسع هو وعسكره بها، سارَ إلى بُزَاعَة[١] فحصَرها وملكَها[٢] بعْد قتالِ مَنْ بقَلْعَتها، وجعل بها من يحفَظُها. ثمّ سار إلى مَنْبج[٣] فحصرها في آخر شوّال، وبها صاحبُها قطب الدّين يَنال بن حسّان المنْبِجِي، وكانَ شديدَ الْعَدَاوَةِ للملك النّاصر والتَّحْرِيض عليه؛ فمَلَك المدينة وحاصَر القلعة وملكَها عنوةً، وأسر صاحبَها يَنال، ثم أطلقه، فسارَ إلى الموصل، فأقطعه سيْف الدّين غازي مدينة الرّقة.

ثم سار إلى قلعة عَزَاز[٤] فنازلها في ثالث ذي القَعدَة ونصب عليها المجانيق، ولازم الحصَار ثمانيةً وثلاثين يوماً وتسلَّمها في حادي عشَر ذي الحجّة من السّنة[٥].

ووثب عليه في مدّة الحصار باطنيٌّ[٦] فضربه بسكّين في رأسه[٧]، فرَدَّ عنه المِغْفَرُ[٨]، وضربَه عدَّةَ ضربات وقعت في زيق كزاغنده[٩].

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال: ثمّ رحل الملكُ النّاصر عن أعْزَاز ونَازل حلب في نصْفِ ذي الحجة،

(١) بزاعة: بلدة من أعمال حلب بين منبج وحلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٠٩.

(٢) «وذلك في الثاني والعشرين من شوال»، أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٦٥٥.

(٣) منبج: بالفتح ثم السكون، بلد قديم قريبة من حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٤) عزاز: اعزاز: قلعة شمالي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٨.

(٥) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٣٠.

(٦) هو من إسماعيلية الشام المعروفين بالحشاشين. أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٦٥٨.

(٧) «فضربه بسكين في رأسه فجرحه» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٣٠.

(٨) المغفر: زرد ينسج من الدروع يلبس تحت القلنسوة في الحرب لحماية الرأس. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٤، حاشية (٣). ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ٤٣٠. «فلولا أن المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله».

(٩) كزاغندة: لفظ فارسي معناه المعطف القصير، ويلبس فوق الزردية، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤٤، حاشية (٥).

وحَصَرها إلى العشرين من المحرَّم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وتردَّدَت الرّسائل بينهم في الصّلح، فاستقرّت القاعدةُ بينَ الملك النّاصر وسَيْف الدّين غازي والملِك الصّالح وصاحب مَارِدين وصاحب حِصْن كَيْفَا، وتحالفوا أن يكونُوا كلُّهم عوناً على النّاكِث منهم. فتمّ الصّلح، وأعاد الملكُ النّاصر إليهم قلعة أعْزاز، ورجع عن حلب.

ذكر نهبه بلاد الإسماعيلية

قال: لمَّا عاد الملك النّاصرُ من حلب قصَد بلاد الإسماعيليّة في شهر المحرَّم سنة اثنتين وسبعين لقتالهم، لأنّهم أرادُوا قَتله؛ فنهَب بلادَهم وخرَّبها؛ ونازل قلعة مَصْيَاف[١]. فأرسل سنانٌ مقدّم الإسماعيليّة إلى الأمير شهاب الدّين الحارمي صاحب حماه، وهو خال الملك النّاصر، يطلبُ منه الدّخول بينهما في الصّلح والشّفاعة، وتَهَدَّده بالقتل إن لم يفعل. ففعَل ذَلك، وتمّ الصلح. وتوجَّه الملكُ النَّاصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربعٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول، ووصل إلى القاهرة لأربعٍ بقين منه.

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفي سنة ثمانٍ وسبعين[٢] وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتَتْه كتب مظفَّر الدّين كوكبري بن زين الدّين علي بن تكين[٣] مُقْطَع حرَّان يطلبه إلى البلاد ويَعِده المساعدة. فسارَ وعَبَر الفرات، وكاتَب ملوكَ الأطراف ووعَدَهم، وبذَل لهم البُذول على نَصْرتِه، فأجابه نُور الدّين مُحمد صاحب حصن كيفا. فسار الملكُ النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصَرها في جُمادى الأولى، ودَاوَم الحصار، فطلب صاحبُها فخر الدّين مسعُود الزّعفراني الأمان، فأمّنه وتسلّم البلد، وصار صاحبُها في خدمته؛ وتسلّم القَلْعة. فلما ملكها سلّمها لمظَفّر الدّين صاحب حرّان. ثم سار عَنْها إلى الرّقّة وكان بها مُقْطَعها قطبُ الدّين يَنال بن حسان المنْبجي، فملكها، وسار صاحبُها إلى عزّ الدّين أتابك. وسار إلى الخابُور فملكَه. بكَمَاله. ثمّ سار إلى نَصيبين، فملك المدينة لِوَقْتِه، وحصَر الْقَلْعَة عدَّة أيّام، فملكها؛ وأقطَعها للأمير أبي الهيجاء السّمين، وهو من أكَابر الأمراء، وسارَ عنها، ومعه نورُ الدّين صاحب الحصن، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة مَنْ بها.

---

(١) مصياف: مصياب: مصيات: حصن للإسماعيلية بساحل الشام قرب طرابلس، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٢) «ثمانين وسبعين» في الأصل، والتصحيح في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨٢.

(٣) ورد في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١١٦، «علي كوجك» وورد في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨٢ «علي بن بُكْتُكين».

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال: ثم سار الملك النَّاصر من الموصل إلى سِنْجار، فسيّر مجاهدُ الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر، فمنعهُم الملك النّاصر الوصول إليها، وأوْقَع بهم وأخذَ سلاحَهم ودَوابَّهُم، وسار إليها ونَازلها وبها شرفُ الدّين أمير أميران أخو عزّ الدّين صاحب الموصل، فملكها بأمانٍ بعْدَ حصارٍ عظيم. وسار شرفُ الدّين ومَنْ معه إلى الموصل.

واستقرَّ للْملِك النّاصر جميعُ ما ملَكه في هذه الوقعة بملك سنجار واسْتَنَابَ بها سعد الدّين بن معين الدّين أنر، وهو من أكابِر الأمراء، وأحْسنِهم صورةً ومعنًى. وعاد إلى نصيبين، فلقِيَه أهْلُها وشكَوْا إليه من أبي الهيجاء السّمين فأنكر عليه وعزَلَه.

وسار إلى حرّان فوصلَ إليها في أوائِل ذي القَعدة، فكاتب عزُّ الدّين صاحبُ الموصل صاحبَ خلاط، وهو شاه أرمن[١]، واستنجد به على حَرْب الملك النّاصر. فلمّا بلغهُ اجتماعُهما سار إلى بَحْرزَم[٢] بالقرب من مارِدِين.

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال: ثم سار من هذه الجهة إلى آمد فوصل إليها في سابع عشر ذي الحجة[٣] فنازَلَها وحاصَرَها، ونصب عليها المجانيق، وهي من أحْصَن البلاد، يُضرب المثل بحَصَانتها، وكان صاحبها ابن نيسان في غاية الشحّ يبخل ببذل المال، فملَّه أصحابُه وتخاذَلُوا عنه. فأخرج نساءً إلى القاضي الفاضل[٤] وسأله أن يأخذ له الأمان ولِأهله، وأنْ يُؤخِّر ثلاثة أيام حتى ينقل ما لَهُ بالبلد من الأموال والذّخائر.

فأجابه الملكُ النّاصر إلى ذلك، وتسلَّم البلد في العشر الأول من المحرّم سنة تسعٍ وسبعين وخمسمائة. وانْقَضَت الأيّام الثّلاثةُ قبل فراغه من نَقْل أمواله، فمُنِع ممَا بقيَ. وسلّم الملكُ النّاصر البلَدَ بما فيه إلى نُور الدّين صاحب الحصن، وكان فيه من الذخائر ما تزيد قيمته على ألف ألف دينار[٥].

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال: ثمّ سار الملك النّاصر إلى تلّ خالد من أعمال حلب فحصرها ورمَاها

---

(١) في الأصل «شاهر من» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٨٩.

(٢) بحرزم: بلدة في وادٍ من أعمال الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٤٣.

(٣) «لثلاث بقين من ذي الحجة» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٣٤.

(٤) في الأصل: «الأفضل» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٤.

(٥) في الأصل «ألف دينار» والتصحيح من الكامل لابنَ الأثير، ج ١١، ص ٤٩٤.

بالمجانيق، فطلب أهلُها الأمان، فأمَّنهم، وتسلَّمها في المحرّم أيضاً.

وسار منها إلى عَيْن تاب، وبها ناصرُ الدّين محمد [بن خمارتكين][١] من أيّام نور الدّين الشّهيد، فحصرَها، فَراسَلَهُ في طلبِ الأمان على أن يكون الحصنُ بِيَدِه ويكون في خِدْمته. فأجابُه إلى ذلكَ وحلفَ لهُ عليه، فنزل إليه واتصَلَ بخدمته[٢].

ذكر ملكه حلب

قال: ثمّ سار من عَيْن تاب إلى حَلَب في المحرّم أيضاً ونزل بالمَيْدان [الأخضر][٣] [وأقام به عدة أيام][٤]، وعدّة أيّام ثم انتقل إلى جبل جَوْشَن[٥]؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن][٦] يبنيَ مساكِنَ لنفْسِه ولأصْحابه وعَسَاكره، وأقام أيّاماً والقتالُ بين العَسكَرَيْن في كلّ يوم.

وكان صاحبُها عماد الدّين زَنكي بن مَوْدُود بن زنكي مجدًّا في القتال، فطالبه بعضُ الجند بأرْزَاقِهِم، فاعتذر بقلّة المال عنده؛ وكان قد شحص بإخْراجه، فقال له مَنْ يريدُ حِفْظ حَلَب يُخرج الأموال وَلَوْ باع حليَّ نسائه، فجَنحَ إلى تسليمها، فراسَلَ الملكَ النّاصر في طَلَب العِوَض عنها: سنجار ونصيبين والخابور والرَّقّة وسَرُوج. فَسَلَّمَ[٧] مثل حلب وأعمالها وتعوَّض عنها قرًى ومزارِعَ، وجرت الأيمان على ذلك، وتسلَّمها الملكُ النّاصر في ثامن عشر صفر.

فسبَّ النّاس عمَاد الدّين زنكي وأسمعُوه المكرُوه على فعْله.

واستقرّت الحالُ بينهما أنّ عمادَ الدّين يحضُر إلى خدمة الملك النّاصِر متى استدعاه بِنَفسه وعسكره ولا يحتجّ بحجة.

قال: ولما تسلّم الملك النّاصِر حلب امتدحه الْقَاضِي محيي الدين بن الزّكي، قاضي دمشق بقصيدةٍ جاء منها:

وفتحُكُمْ[٨] حَلباً بالسّيف في صفر مبشّر بفُتُوح القُدْس في رجب[٩]

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الروضتين لأبي شامة، ج ٢، ص ٤٢.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٥.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٦.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٦.

(٥) جبل جوشن: يطل على غربي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٦.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٧) في الأصل: «فتسلم» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٧.

(٨) «وفتحُه حلبا بالسيف في صفر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٨٧.

(٩) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٧.

فكان كذلك.

ونقل الملكُ النّاصر أخاه الملكَ العادل من نيابة الدِّيار المصرية إلى حَلَب، في سنة تسع وسبعين، وأعطاه حَلب وقَلْعتها وأعمالها ومَنْبِج وما يتعلَّق بها؛ وسيّره في شهر رمضان.

ذكر فتح الملك النّاصر حارم

قال: ولـمَّا فتح الـملكُ النّاصر حلب كان بقَلْعة حَارِم[١] سرخك، وهو من المماليك النُّورية، فامتنع من تَسْليمها، فرَاسَلَه في ذلك وخيّره فيما يُريد من القلاع، ووعَدَه الإحسان؛ فاشْتطَّ في الطّلب، فتردَّدَت الرّسائل بينهم، فراسل سَرْخَك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك مَنْ معه من الأجناد فخافُوا أن يسلّمها للفرنج، فقبضُوا عليه واعتقلوه، ورَاسَلُوا الملكَ النّاصر في طلب الأمان، فأجابهم وتسلّم الحِصْن ورتَّب فيه دُزْدَاراً من بعض خوَاصّه[٢]، وأقام الملك النّاصر بحلَب إلى أن قرّر قواعدَها وأقْطع أعمالَها.

ذكر حصار الموصل

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حاصر الملكُ النّاصر الموصل. وذلك أنَّه سار من دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقَصْد حصَارها فلمّا وصلَ إلى مدينة بلد[٣] سيّر إليه عز الدّين صاحب الموصل والدته وابنة عمه[٤] الملك العادل نور الدّين الشهيد وغيرهما من النّساء في جماعةٍ من أعيان الدولة يسألُونه المصالحة، وبذلُوا موافقَته وإنْجَاده بالعساكر مَتَى طَلَبها، ليعُود عن قَصْد الموصل. وإنّما أرسلهنَّ ظنًّا منه أنّه لو سيّر ابْنَة نُور الدّين إلى الملك النّاصر في طلب الشّام أعطاه لأنّها ابنةُ مخدومه. فتلقَّاهُنَّ بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابَه في ذلك، فكلٌّ أشارَ عليه بمُوافَقَتِهِنّ.

فقال له الفقيه عيسى الهكّاري وعليّ المشطوب: مثل الموصلِ لا تترك لامرأة، وإنّ عزّ الدّين ما أرسلهُنّ إلاّ وقَدْ عجز عن الحرب. فوافَقَ ذلك هواه فردّهن خائباتٍ،

---

(١) حارِم: بكسر الراء. حصن وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي من أعمال حلب: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٢) انظر المختصر لأبي الفدا، ج ٣، ص ٦٧. والكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

(٣) بلد: مدينة على نهر دجلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.

(٤) في الأصل «والده وابن عمه» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٢. والنويري يتفق مع ابن الأثير فيما أورداه.

واعْتَذَر بأعذارٍ غير مقبولة، وقَصَد الموصل وحاصَرها، وكان بينهم مناوشاتٌ فلم يتمكّن منها، فندم حيثُ لم يحْبِس النّساء. ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحبُ خلاط، فأشار عليه أصحابه بمُفَارَقَةِ الموصل وقَصْد خِلاط، ففارقها.

ذكر ملكه ميّافارِقين

قال: ولمَّا سار الملكُ النّاصر إلى خِلاَط جعل طريقه مَيَّافَارِقِين[١]، وكان صاحبُها قطب الدّين صاحب مَارِدِين قد توفي[٢] وملك بعده ابنه وهو طفل، وكان حكمُها إلى شاه أرمن وعسكرُه بها؛ فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمِع في أخذها ونَازَلها. فرآها مشحونةً بالرّجال، وفيها زوجة قطب الدّين المتوفّي وبناته، والمقدّم على جيشها أسد الدّين بُرتُقش[٣]، وكان فيه شجاعةٌ وشهامة. فحصَرَها الملكُ النّاصر من أوّل جُمادى الأولى، ونصب عليها المجانيق والعَرّادات؛ واشتدّ القتالُ فلم يظفَرْ منها بشيء؛ فرجع عن القوّة إلى أعْمال الحيلة. فراسل امرأةَ قطب الدّين المقيمة بالبلد يقول أن أسد الدّين قدْ مَال إلينا في تَسْليم البلد، ونحن نَرْعى حقّ أخيك نور الدّين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لكِ نصيبٌ، وأنا أزوِّج بناتك بأولادي، وتكون مَيَّافَارِقين وغيرُها لكِ وبِحُكْمِك، ووضع من أرْسل إلى أسد الدّين يعرّفه أنّ الخاتون قد مَالَتْ للانقياد إلى تَسْليمها، وأنّ مَنْ بخلاط قد كاتَبُوه ليسلّموها إليه. فسُقَط في يده، وضعُفَت نفسُه، وأرسل إلى الملك النّاصر يقترحُ إقطاعاً ومالاً، فأجيب إلى ذلك، وسلّم البلد في سلْخ جُمادى الأولى، وعقَد نِكاح بَعْض أولادِه على بَعْض البنات.

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال: ولمَّا تسلَّم الملكُ الناصر مَيّافَارِقِين وفرغ من أمرها وتدبير أحوالها، عاد إلى الموصل لحصارها. فتردَّدت الرَّسائل بينه وبين عزّ الدين صاحبها،ووقع الاتّفاق على أن يسلِّم للملك النّاصر شَهْرَزُور وأعمالها، وولاية القرابلي، وجميع ما وراء الزّاب، وأن يَخطُب له على منابر بلاده، ويَضرب السِّكَّة باسمه؛ وتحالفا على ذلك. فتسلَّم الملكُ النّاصر البلادَ، وسكنت الدَّهماء[٤].

---

(١) ميافارقين: أهم مدن ديار بكر بإقليم الجزيرة: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٥ - ٢٣٨.

(٢) هو قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش إيلغازي بن أرتق. صاحب ماردين توفي في جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٦٨.

(٣) «يرنقش» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٥.

(٤) الدهماء: جماعة من الناس، ابن منظور: لسان العرب (دهم).

ورحل إلى حرّان فمرض بها وطال مرضه حتى أُيِسَ منه؛ ثمّ عُوفي. وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

قال: ولمّا كان الملكُ النّاصر مريضاً بحرّان كان عنده ابنُ عمه ناصرُ الدّين محمد [بن][١] شيركوه، وله من الإقطاع حمص والرّحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحَلب، وأحضر جماعة من أَحْدَاثِها، ووعَدَهم، وأعطاهُم مالاً؛ ثمّ وصل إلى حمص ورَاسَل جماعةً من الدَّماشِقَة على تسليم البلد إذا مات الملكُ النّاصر. وأقام ينْتَظر مَوْتَه؛ فتُوفّي ناصرُ الدّين ليلة عيد الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصرُ.

[وكان الملك الناصر][٢] لما بلَغَهُ ما اعتمده ناصرُ الدّين بحلب ومُراسَلتُه للدَّماشِقة، وضَع عليه النَّاصح بن العميد سقاهُ سُمًّا فمات، وطُلب ابنُ العميد من الغد فلم يُوجد؛ وسَارَ من ليلته إلى الملك النّاصر؛ فقَوِيت الظِّنَّة[٣] بذلك.

ولمَّا تُوفي أَعْطى الملكُ النّاصر إقطاعَه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة. وخَلَّف ناصرُ الدّين من الأموال والخيول والآلات شيئاً كثيراً، فحضر الملك النّاصر إلى حمص وعرض تركته، وأخذ أكثرَها واستعان به على الجهاد، ولم يتْرك إلا ما لا خير فيه.

وحضر شيركُوه عند الملك النّاصر [بعد موت أبيه بسنة][٤]، فأجلسه في حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن، فقال إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠]، فاضطرب الملكُ النّاصر لذلك وظنّ أنّه عرّض بِفعله[٥] وطَلَب مُؤَدّبَه ولَوْحه فوجده كذلك.

فعوّضه عمّا أخذه من مال أبيه الضّياعَ الخرابَ بالشّام في ذلك الوقت، وهو الذي يُعرف إلى زَمَانِنا هذا بالخراب الأسديّ: وورثَتُه إلى هذا التّاريخ يبيعُون خرابَ ضياع الشّام والسّواد والبَلْقَاء وغير ذلك. واستولَوْا من الخراب على ما لَيس في كِتابِهم، وأباعُوا ما لاَ هُوَ لَهُمْ، فإنَّه قيل إن الذي اشتمل عليه كتابُ المبايعة أربعمائة ضيعة، وهي الّتي كانَتْ قد استَوْلَى عليها الخرابُ في ذلك الوقت، فأباع ورثَتُه جميعَ ما خَرِب بعد ذلك مِمَّا لم يتضمّنه كتابُهم وأعانهم على ذلك أنّهم يبيعُونه لأرباب الجاهات

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٧٤.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.
(٣) «فكان هذا مما قوّى الظن» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٨.
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٨.
(٥) «فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥١٨.

بأحسن الأثمان. وأعرف بلداً يسمّى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرّقيم والجادية وسنجاب[١] اشتراها الملك المنْصُور حسام الدين لاجين المنصوري[٢] لمَّا كانَ ينُوب عن السَّلطنة بالشام، من الورثة الأسديّة بسبعمائة درهم؛ فلما مات وانتقل بعضُ ميراثه إلى السلطان الملك النّاصر[٣] بالولاء الشَّرعي. وكنت أباشر ديوانه بالشام، حَصَّلْتُ من مُغَلّ هذه البلدة في سنة إحدى وسبعمائة ما أُبيع بنيّف وعشرين ألف درهم. فانظُر إلى هذا التَّفاوُت العظيم.

ذكر غزوات الملك النّاصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أنْ أُفْرِد غَزَوات الملك النّاصر وفتوحاتِهِ ونِكَايَاته في الفرنج، ولا أضمّ ذلك إلى غيْره من أخباره، لأنّ فيه ما يدُلّ على قوّة الإسلام، وأنّ الله تعالى لمْ يزل يؤيّد هذا الدّين مِنْ عباده بمَنْ يُناضل عنه، ويَحْمِي حَوْزته، ويذُبّ عن أهله، ويستأصل شأْفَةَ[٤] عدوهم.

ونذكر ذلك على التّرتيب.

فكان أول ذلك وصولُ الفرنج إلى ثَغْر دمياط ورُجُوعهم عنه.

وكان وصُول الفرنج، خذلهم الله تعالى، إلى ثغر دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسمائة، فحاصرُوا الثّغر. وكان سببُ ذلك أنّ أسدَ الدّين شيركوه لمَّا وَلِيَ الوزارة للخَليفة العَاضد لدِين الله خافَهُ فرنج السّاحل، فكاتبوا أهْلَ صقِليّة والأندلس من الفرنج يستمدُّونهم ويخبرُونهم أن أسدَ الدّين قد مَلَك الدّيار المصرية، وأنهم لا يأمنونه على البيت المقدّس. فأمدُّوهم بالمال والرّجال والسّلاح، فنازلوا دمياط وضيّقوا على أهلها. فأرسل الملك النّاصر إليهم العساكر برًّا وبحراً، وكتب إلى الملك العادل نُور

---

(١) قرى شرقي نهر الأردن بالقرب من عمان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) هو السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري سلطان الديار المصرية، ولي السلطة سنة ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٧ م. قتل سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩ م ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٧٠ ـ ٩٢. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٠. وخطط المقريزي، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٣) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولد بالقاهرة في سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م. ولي عرض السلطة المملوكية ثلاث مرات. وتوفي سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م. ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي، ج ١/ ٣/ ص ٧٩٣، وخطط المقريزي، ج ٢ ص ٢٣٩. وفوات الوفيات للكتبي، ج ٤، ص ٣٥. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٦، ص ١٣٤.

(٤) الشأفة: ورم يكوى ويذهب. والشأفة العداوة. وهنا الأصل. ابن منظور: لسان العرب (شأف).

الدّين الشّهيد بذلك، ويعرّفه أنّه لا يمكِنُه الخروج من القاهرة لأنه لا يأمَنُ أمر الشّيعة وأنّهم يثورون بعده، فيبقى الفرنج أمامه والمصريُّون خلفه، فأمدّه نُور الدّين بعسكر، وخرج نورُ الدّين بنفسه إلى بلاد الفرنج للإغارة عليها؛ فاسْتَبَاحَ أمْوَالها لخلُوّ البلاد السّاحلية منهم فلمّا بلَغَهم ذلك رجعُوا إلى بلادهم بسَاحل الشام بعد مُقامهم على دمياط نيّفاً وخمسين يوماً، ولم يظفَرُوا منها بشيءٍ. وأخرج العاضدُ للملك النّاصر في هذه الغَزَاة ألف ألف دينار مصريّة، سوى الثّياب والأَسْلحة.

ذكر غزوة بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي سنَة ستّ وستّين وخمسمائة سار الملكُ النّاصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والرّملة، وهجم على رَبَض غزّة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلَّةٍ من العسكر ليردَّه، فهزمهُ الملك النّاصر بعد أنْ أشرف على أسْرِه، وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكبَ مفصَّلةً ونقلها على الجمال إلى البحر، فجمع قِطَعها وشدَّها، وألقاها في الماء. وحصر أيلة برًّا وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها؛ وعاد إلى الدّيار المصريّة[١].

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع[٢] وستين توجَّه الملكُ النّاصر إلى حصن الشَّوْبَك ونازله، وحَصَره، وضيّق على مَنْ به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستَمهلُوه إلى عشرة أيّام فأجابهم إلى ذلك. ثمّ بلغه أنّ الملك العادل نورَ الدّين جاء من دمشق إلى الشوبك من الجَانب الآخر، فخاف أنّ نور الدّين مَتَى ملك الشوبك قَبَضَ عليه، فعاد إلى الدّيار المصريّة، وكتب إلى نور الدّين يعتذرُ بمرض أبيه بمصر، فقبل عُذره ظاهراً، ووقعت الوحشة بينهما باطناً.

ذكر وصول [أسطول][٣] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهزامه

كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكُن للملك النّاصر بها غزاةٌ بنفسه ولا مباشرةٌ للحرب. وكان سببُ وصول هذا الأسطول إلى الثّغر ما قدَّمناه من

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٦٥.

(٢) في الأصل: «ست» والتصحيح يقتضيه سير الأحداث، وجاء من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٣٧١.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤١٢.

مُكاتبة المصريِّين الذين صلبهم صلاحُ الدين الفرنجَ. فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال، وستّ وثلاثون طريدةً[1] تحمل الخيل، وستّ مراكبَ تحمل آلة الحرب، وأربعُون مركباً تحمل الأزواد. وفي المراكب من الرجال: خمسُون ألفاً ومن الفُرسان ألف فارس وخمسمائة فارس. وكان المقدَّمُ عليهم ابنُ عمّ صاحب صِقليّة. فوصلُوا إلى الثّغر في السّادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستّين على حين غفلة، فخرَج إليهم أهْلُ الثّغر بعُدَدهم وأسلحتهم، فمنعهم المتَولّي عليهم، وأمرهُم أنْ يقاتِلُوا مِنْ وراء السّور. وطلع الفرنج إلى البرّ نَصَبُوا الدَّبابات[2] وقارَبُوا السّور؛ وقاتَلَهم أهلُ البلد قتالاً شديداً. وجاء إلى الإسكندريّة مَنْ كان إقطاعُه بالقُرب منها.

وكتب إلى الملك النّاصِر بذلك؛ فتجهّزَ بنَفْسه؛ وقدَّم من يُعْلِم أهل الثّغْر بوُصوله، وكان أهل الثّغر قد أنْكَوْا في الفرنج، وقتلُوا وجَرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدّبّابات.

ولمَّا علم الفرنج بمَقْدَم الملِك النّاصر جنَحوا إلى الهرب، وأخذتهم سُيوف أهل الثّغر، وحرَقُوا بعضَ مراكبهم، ونهبُوا خيامَهم، وأخذوا سلاحهم؛ وكثُر القتلُ فيهم، وهرَب مَنْ بَقِيَ واحتَمى ثلاثمائة من الفرسان على تلٍّ، فقاتَلَهم المسلمُون طوال الليل إلى ضُحى الغد، فأُخِذُوا بين أسيرٍ وقتيل.

ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفي سَنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائَة خرَج الملكُ النّاصر إلى غزّة وعسقلان.

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاةَ الجُمعة لثلاثِ ليالٍ خلَوْن من جُمادى الأولى من السنة، فوصَل إلى عَسْقَلان في يوم الأَرْبعاء للَيْلَةٍ بقيت من الشهر[3]، فسَبَى وسَلب، وضرب أعناقَ الأسرى؛ وتفرَّق عسكرُه للإِغَارَةِ على الأعمال.

ثمَّ سار إلى الرَّملة في يوم الجُمعة مستهلَّ جُمادى الآخرة، فاعترضَه الفرنج وقد جمعُوا جُموعاً كثيرة؛ فكانَ بينهما وقعَةٌ عظيمة استُشْهِد فيها أحمد ولدُ الملك المظفّر تقي الدين [عمر بن محمد][4]، وأسر ولدُه الثّاني شاهنشاه، وأقام في الأسر سبع سنين حتى افْتكّه السّلطان بمال كثير. وأُسر الفقيه عيسى الهكّاري.

ثم كانت على المسلمين. وذلك أنّ العساكر كانَت قد تعبّت للحَرْب، فلما قارَبَهم

---

(١) طريدة: سفينة حربية تحمل الخيول، النخيلي: معجم السفن الإسلامية.

(٢) الدبابات: تستخدم لمهاجمة الحصون. انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ١٤.

(٣) «الرابع والعشرين من الشهر» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٤٢.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٤٢.

العدُوّ أراد بعضُ الأمراء أن ينقل المَيْمَنة إلى الميسَرة والمَيْسرة إلى القَلب، فلمّا اشتغلوا بهذه التَّعبئة هجَم عليهم الفرنج، فانكسروا وطلبُوا الدّيار المصرية، وضلُّوا في الطّريق. وعادَ السّلطان[١] ومَنْ معهُ إلى القاهرة في يوم الخميس منْتَصَف الشهر.

ذكر وقعة مرج عيون وانهزام الفرنج وأسر ملوكهم

كانت هذه الوقعةُ في يوم الأحد لثمانٍ خلَوْن من شهر المحرّم سنة خمسٍ وسَبعين وخمسمائة؛ وكان الفرنج من عشرة آلاف مقاتل. فلمّا التَقَوْا مع المسلمين انهزم ملكُهم[٢] مجروحاً عند اللقاء وأُسِر منهم جماعةٌ، منهم: مقدَّم الدَّاوِية[٣]. ومقدَّم الأسْبِتَارية[٤]، وصاحب طبريَّة[٥] وأخو صاحب جبيل، وابن القومصيّة[٦]، وابن بارزان[٧] صاحب الرّملة، وصاحب جِينِين، وقَسْطلان يافا، وابن صاحب مَرقيّة وعدّة من خيّالة القدس وعكّا، وغيرهم من المقدَّمين الأكابر زادت عدّتُهم على مائتَين وسَبْعين، سوى غيرهم، فنقلهم السّلطان إلى دمشق.

فأمّا ابنُ بارزان فإنَّه بذَل في نفسه مائةَ ألف دينار وخمسين ألف دينار صوريّة، وإطلاق ألف أسير من المسْلمين، والْتَزم بفكاك الفقيه عيسى الهكّاري. وأما ابنُ القومصية فافتكَّتْه أمُّه بخمسة وخمسين ألف دينار صوريَّة. وأما مقدّم الداوِيّة فإنّه هلَك، فطُلِبت جُثتُه بإطلاق ألف أسير من مقدَّمي المسلمين[٨].

---

(١) ذكر ابن الأثير: «أن السلطان صلاح الدين قد افتدى الفقيه بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى» الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٤٣.

(٢) هو ملك مملكة بيت المقدس الصليبية واسمه بلدوين الرابع، عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٦٠.

(٣) هو أودو سانت أماند، رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٧٨. والداوية أو فرسان المسيح الفقراء أو فرسان الهيكل Les templiers وسماهم العرب الداوية أو الديوية. واشتهروا بتعصبهم وشراستهم في الحرب، وهذه المؤسسة غنية بسبب تدفق الأموال عليها من الغرب. رئيسها الأعلى جاك دي مولاي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠، حاشية ٦.

(٤) الاستبارية أو الاسبتارية: هو تعريب لكلمة Les Hospitaliers الفرنسية وكان فيها ثلاث منظمات رهبانية عسكرية هو فيها إيواء، ومداواة المرضى، والجرحى من الجنود والحجاج المسيحيين، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠، حاشية (٦).

(٥) «ابن صاحب طبرية» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩. ولعله ابن ريمند بن ريمند الصنجيلي.

(٦) المراد ابن كونتيسة طرابلس «هيو» رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢، ص ٦٧٨.

(٧) «هو بلدوين «بلين» رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٦٧٨.

(٨) انظر مضمار الحقائق لابن شاهنشاه الأيوبي ص ١٦ ـ ١٨. وتاريخ الحروب الصليبية لرنسمان ج ٢، ص ٦٧٦.

قال: وفي هذا اليوم ظَفِر الأسطول المِصري ببَطْشَةٍ[١] كبيرة للفرنج، فاستَوْلى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الثغر بألف أسير. والله أعلم.

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدّة مُقام الملك النّاصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبنَوْه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صَفَد وطبريّة نصفُ يوم.

وكان في بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين، فبذَل لهُم الملك النّاصر في هَدْمه مائة ألف دينار، فأَبَوْا ذلك. فجهَّزَ إليه الجيش، فوصل إلى المخاضةَ يومَ السّبت لإحدى عشرةَ ليلةَ بقِيَت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسَبْعين، والحِصْنُ مبنيٌّ دُونَها من الغرب، فنَصَبُوا عليه المجانِيق بعْدَ العصر من يَوْم الأحد. فما جَاءَ اللّيل إلاَّ وقد استَوْلَوْا على البَاشُورة[٢]. ثم أدار حَوله النُّقُوب، فاستمرَّت إلى يوم الخميس، لِسِت بقين من الشهر، فهُدِم الجدار، ودَخَل العسكر الحِصْن وغَنِمُوا ما فيه؛ فكان ما غنِمُوه من أنواع السّلاح الجديدة مائَةَ ألف قطعة؛ وأسروا سبعمائة أسير، ومن أَسْرَى المسلمين مائة. ثم هُدِم الحصن إلى الأسَاس، وكان سمكُه عشرة أذرع[٣].

قال: ولمَّا عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدّمَشقي:

هَـلاكُ الـفَـرَنـجِ أَتَـى عـاجِـلاً وَقَـد آنَ تـكـسـيـرُ صُـلْـبانِـهـا
وَلَـوْ لـم يَـكُـنْ قـدْ دَنَـا حَـتـفُـهـا لـمـا عَـمَّـرتْ بـيـتَ أَحْـزَانـهـا[٤]

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

وفي سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، توجَّه الملكُ النّاصر إلى بلاد الأرمن. وذلك أن ابن لاوون[٥] ملك الأرمن كان قد اسْتَمَال قوماً من التُّركمان، فلمّا أتوه وهم آمنون أَسَرهم. فدخل الملكُ النَّاصر إلى بلاده استَوْلَى على قلعةٍ تُعرف بالمانقير[٦]. وهَدَمها

---

(١) بطشة أو بطسة: مركب يستعمل في الحرب. النخيلي: معجم السفن الإسلامية (بطش).
(٢) الباشورة: الحائط الخارجي للحصن. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٨١، حاشية (١).
(٣) «تسعة أذرع» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٥٧.
(٤) «النشو بن نفاذه» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٥٧.
(٥) «ابن ليون» في الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٦٦. هو روبين الثالث. انظر الشرق الأوسط: الحروب الصليبية لباز العريني، ص ٧٧٨.
(٦) «المناقير» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٨٩٩.

إلى الأساس، وأخذ ما فيها من الآلات. ووجَدَ المسلمون في أرْضها صهريجاً مملوءاً من الآلات الذّهب والفضّة والنّحاس. فبذل ابنُ لاوون جُملة من المال، وأنّه يُطلق الأسرى، ويشتري خَمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم. فأجابه السّلطان إلى ذلك، وأخذ رهينةً عليه. ثمّ عاد إلى الدّيار المصريّة، وأقام بها إلى سنةِ ثمانٍ وسبعين وخمسمائة[1].

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفي سنة ثمانٍ وسَبعين وخمسمائة توجّه السّلطان الملكُ النّاصر لقَصد الشام عند وفاة الملك الصّالح ابن الملك العَادل نور الدّين. فأغار على طبريّة وبَيْسان في العشر الأوْسَط من شهر ربيع الأوّل. فانتصرَ بَعْدَ قتال.

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عَيْذَاب. وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك[2] عملَ أسْطُولاً بالكرك، ونَقَل قِطَعه إلى بحر أيْلة، وجمعها وألْقَاها في البحر، وشَحَنها بالمُقاتلة، فسارُوا في البحر وافْتَرقُوا فرقَتَين: فرقة حصلت أيلة، وفرقة توجَّهت إلى عيذاب. وأفْسَدوا السّواحل، ونهبوا، وأخذوا أيلة ما وجَدُوه من المراكب الإسْلامية ومَنْ فيها من التّجار. وجاؤُوا على حِين غَفْلة، فرأى النّاس ما لم يعهدُوه، فإنّ هذا البحر لم يَرَ النّاسُ فيه فرنجيًّا قط، لا تاجراً ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.

وكان الملكُ العَادِل ينوب عن أخيه الملك النّاصر بالدّيار المصريّة، فعمر أسطولاً وجَهّز فيه جماعَةً من المسْلمين، ومقدَّمهُم حُسَام الدّين لؤلؤ الخاص، فسار في طلبهم. وابْتَدأ بالمركب التي على أيلة، فظفر بهَا، وقَتَل بعْضَ من فيها وأسرَ بعضهم. وتوجّه لوقته بعد ظَفَره بهم إلى الذين توجّهوا إلى عيذاب، وكانوا قد عَزَموا على الدّخول إلى الحجَاز وأَخْذِ الحاج، والدُّخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجَدَهم قد نهبوا ما وجدُوه بها وتوجَّهوا، فسارَ في أثرهم، فبلغ رَابغ والحوراء فأدركهم بها، وأوقع بهم. فلمّا تحقّقوا العَطَب خرجُوا إلى البرّ واعتَصمُوا ببَعْض تلك الشّعاب، فنزَل من مراكبه وقاتَلهم في البرّ أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها،

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٦٦، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٩٨ ـ ٩٩، والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٥٤.

(٢) يعرف باسم أرناط في المصادر العربية وباسم ريجنالد شاتيون في المصادر والمراجع الأوروبية. الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٧٨٠.

وقاتلهم، فظَفِر بهم وقَتَل أكثرهم؛ وأسَر مَنْ بقي، وأرسل بَعْضهم إلى مِنًى لِيُنْحَرُوا بها عُقوبةً لهم على قَصْدِهم البَيْتَ الحرام. وعاد إلى مصر ببقية الأسرى، فقُتلوا[١].

ذكر الإغارة على الغور

قال: ولمّا ملك الملكُ النّاصر حلب وعاد إلى دِمَشق ثم رحل منْها في ثامن جُمادى الآخرة، سنةَ تسعٍ وسبعين وخمسمائة نزل على بَيْسان فوجد أَهْلَها قد ارتَحلُوا عنها، فنهبهَا العسكر النّاصري وتقوَّوْا بما فيها، وحرقوا ما لم يمكنهم أخذُه. وسار بهم حتى أتى الْجَالوت، وهي قريةٌ عامِرةٌ وعندها عينٌ جارية، فعبّأ أصحابَه عندها للقتال، ورحَل إلى الفُولة[٢]، ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وَكان الظَّفر له، ثمّ عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الخميس الرّابع والعشرين من جُمادى الآخرة من السّنة.

وتوجّه إلى الكرك في هذه السَّنة، وعاد.

ثمّ جمع العساكر المصرِيّة والحلبيّة وغيرها وقَصد الكرك في سنةَ ثمانين وخمسمائة، وهي الدّفعة الثانية؛ فجمع الفرنجُ فارِسَهم وراجِلَهم للذَّبِّ عنها، ففارقَها السّلطان، وجهَّز طائفةً إلى نابلس فنهبوها وعادوا إليه[٣].

ذكر غزوة الكرك والشوبك وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العمادُ الأصفهاني[٤] في البرْقِ الشامي: وفي سنةِ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة بَرَز الملك النّاصر من دمشْق في أوّل المحرّم، في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنّة لجهَاد أهلِ جهنم. فلمّا وصل إلى رأس الماء[٥] أمَر ولدَه الأفضل بالمُقَام عندَها ليَجْتَمع عندَه الأُمراء الواصلون من الجهات. وسار السّلطان إلى بُصْرى، ثمّ منها إلى الكرك ورَعَى الزُّروع وقَطَع الأشجار. ثمّ سار إلى الشّوبك وفَعَل مثلَ ذلك. ووصل إليه العسكر المصرِيّ ففرَّقه على قلْعَتَي الكرك والشّوبك. وأقام إلى أن انْقَضَى من السّنة شهران. والملكُ الأفضل مقيمٌ برأس الماء، وقد اجتمعت عنده العساكر، فتقدّم إلى

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١.

(٢) الفولة: بلدة بالقرب من عين جالوت، وهي بفلسطين من نواحي الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٠.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٠٢.

(٤) هو محمد بن محمد بن حامد المعروف بالإمام العلامة عماد الدين الأصفهاني. يقال له «العماد الكاتب» توفي سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٨.

(٥) رأس الماء: موضع في حوران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٤.

سريّة منهم بالغارة على أعمال طبريّة، فانتهوْا إلى صَفّوريّة[١] فخرج إليهم الفرنج فقاتلُوهم، فكان الظّفر للمسلمين، وهلك مقدّم الأسْبتار؛ وعادُوا إليه فكانت مقدّمة النّصر المبين.

وانتهت البشائر إلى الملك النّاصر وهو بنَواحِي الكرك والشّوبك، فسار بمن معَه في يوم الجُمعة سابع عشَر ربيع الأوّل، وعَرَضهم في اثْني عشر ألف فارس. وعَزم على دُخول السّاحل، فانْتهى إلى ثغْر الأُقْحُوانَة[٢] فاجتمعت الفرنج في زُهاء خمسين ألفاً، ونزلُوا على مَرْج صَفُّوريّة بأرض عكّا، فلم يتقدّموا عنها. فتقدّم السُّلطان إلى الأمراءِ أن يُقيموا في مُقَابلتهم، ونزل هو بمَنْ معَه من خوَاصّه على طبريّة وشرع في نَقْب سُورها، فهدَمُوه في ساعةٍ من نهار، وامْتنعت القلعةَ بمَن فيها.

فلمّا اتّصل بالفرنج فتحُ طبريّة تقدّمُوا، وذلك في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر، فتركَ السّلطان على طبَريّة من يحفظُ قلعتَها، وتقدّم بالعسكَر، فالْتَقَيا على سَطْح جَبل طبريّة الغربيّ منها. وحالَ بينهُما اللّيل، فباتَا إلى صبيحةَ يوم الجُمعة، فتصادَمَا بأرض قرية اللّوبيا؛ واستمرّت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحُروب. ثمّ باتا إلى صبيحَة يوْم السّبت، فالْتَقَيا.

فلمّا عاين القومص[٣] أنّ الدائرة تكونُ على طائفتِه هربَ في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار نحو صُور، فتبعَهُ جماعةٌ من المسلمين، فنجا بمفرده. ثمّ انهزَمت طائفةٌ أخرى فتبعها أبطالُ المسلمين، فلم ينجُ منها واحد. واعتصَمت الطّائفة الأخرى بِتل حطّين[٤]، فضايقهم المسلمون وأشْعَلُوا حولَهم النّيران، فقَتَلهم العطش، فأُسِر مقدَّمُهم[٥]، وقتل الباقون وأسِروا، وألقى الله عليهم الخِذلان.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لقَد حكى لي مَن أثِق به أنّه لقي بحَوْرَان شخصاً واحداً، ومعه طُنُبُ خيمة فيه نَيّفٌ وثلاثون أسيراً[٦].

وأمّا القومص الذي هرب فإنّه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب، فأهلكه الله.

---

(١) صفورية: قرب طبرية. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤١٤.

(٢) ثغر الأقحوانة: على شاطىء بحيرة طبرية، ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٤.

(٣) القومص: Comes: هو ريمند صاحب طرابلس. أمين المعلوف: الحروب الصليبية كما رآها المعرب: ص ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٩.

(٤) وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩.

(٥) «مقدموهم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩.

(٦) انظر النوادر السلطانية لابن شداد، ص ٧٧.

قال: وبَات السُّلطان بالمنزلة، ونَزل يوم الأحد على طبريّة وتسلّم قلعتَها في بقيّة يوْمه، وأقام بها إلى يوم الثّلاثاء.

قال: ولمّا يسر الله هذا الفتح كتب السّلطان إلى أخيه الملك العادل سيْف الدّين بمصر يُبشّره به، وأمَره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جِهَة مصر بمَنْ بقيَ عنده من العساكر، ومحاصَرَةِ ما يليه منها؛ فسارع إلى ذلك، وسار ونازل حِصْن مجدليابة[١] وفتحه، وغنم ما فيه، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً، وقتل وسبى، وأَسَر وغنم..

ذكر فتح عكا ونابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والنّاصرة ومعليا والفولة والطور والشَّقيف وغير ذلك

قال ابن شدّاد: ثمّ رحل السّلطان طالباً عكّا. وكان نزولُه عليها في يوم الأربعاء سَلْخ شهر ربيع الآخر سنة ثلاثٍ وثمانين، وقاتلها بُكرةَ الخميس مستهلّ جُمادى الأولى، فأخذها، واستَنْقَذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف؛ واستوْلَى على ما فيها من الأموال والذّخائر.

ثم تفرّقت العساكر في بلاد السّاحل فأخذُوا نابلس، وحَيفا، وقيْسارِيّة، وصفُّوريّة، والنَّاصِرة، ومَعْلَيَا، والفُولة، والطُّور، والشّقيف وقلاعاً تَلي هذه كثيرة؛ وكان ذلك لخلُوّها من الرّجال فإنّهم عمّهم القتل والأسر[٢].

ذكر فتح تبنين وصيدا وصرفند وبيروت وجبيل

قال: ثم أرسل السلطان ابن[٣] أخيه تقي الدين إلى تِبْنين، فضايقها، وكتب إلى السلطان أنْ يأتيَه بنفسه، فوصَل إليها ونازَلها يوم الأحد الحادي عشر من جُمادى الأولى، فسأل مَنْ بها الأمَان واستُمْهلوا خَمسة أيام لينزلوا بأموالهم[٤]، وأطلقوا الأسارى، فخرجوا إليه، فسُرَّ بهم وكَساهُم. وخلص في تلك السنة من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسْره من الكفار مائة ألف.

قال: ثم رحل السّلطان من تبنين[٥] إلى صَيْدا، فاجتاز في طَريقه بصَرَفَنْد فأخذَها بَعْد قتال.

---

(١) في الأصل «يافا» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٠.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠.
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤١.
(٤) «أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى من السنة» انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢.
(٥) تبنين: من بلدات جبل عامل في لبنان الجنوبي، وهي قائمة على تلة مرتفعة، وفيها قلعة من بناء =

ثم سار إلى صَيْدا، ففارقَها صاحبُها وتركَها خالية، فتسلَّمها ساعة وصُوله إليها لتِسْعٍ بقينَ من جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وثمانين.

وسارَ من يَوْمه نحو بيروت فقاتل أهلُها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَروا على حفظه، فدخلها المسلمون من الجانب الآخر، فسألوا الأمان فأمَّنهم على أنفُسهم وأمْوالهم، وتسلَّمها في التاسع والعشرين من الشهر.

وأمّا جُبَيْل فكان صاحبُها في جملة الأسرى الذين نُقِلوا إلى دمشق، فسأل إطلاقه وتَسْليمها، فأحضره مقيَّداً، فسلَّم البلد وأطلق أسرى المسلمين، وأطلقه السّلطان.

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

قال: وسَار السّلطان إلى عَسْقلان والرملة وغزة والدّارُوم وغير ذلك.

فنزَلَ على عَسْقلان في يوم الأحد سادسَ عشر جُمادى الآخرة، ونصبَ عليها المجانيق، فسلَّمُوها على خروجهم بأموالهم سالمين؛ وذلك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة[(١)].

ثم تسلَّم حصُون الدَّاوِيّة وهي غزّة، والدّارُوم، والرّملة، وتُبْنَى، وبيت لحم، ومشهد الخليل، ولدّ، وبيت جبريل[(٢)].

قال: وكان بين فَتْح عسقلان وأخذ الفرنج لَها من المسلمين خمسٌ وثلاثون سنة، فإنّ العدُوّ استولى عليها في السّابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة.

قال العماد: وفوّض السّلطان القضَاء والحُكم والخَطابة وجميعَ المناصب الدينيّة بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدّين عبْد الله بن عمر الدّمشّقي، وهو المعروف بقاضي اليمن.

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ: لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمْر عسْقلان وما يجاورُها سَار

= الصليبيين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦. وانظر أيضاً: معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ٢، ص ١٤.

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦. ومفرج الكروب: لابن واصل، ج ٢، ص ٢٠٩. والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٨٠.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦.

إلى البيت المقدّس[١]، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنةَ ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة[٢]. وكان به البَطْرك المعظّم عندَهم، وهو أعظم شأناً من مَلِكهم، وبه أيضاً باليان بن بارزان صاحب الرّملة ومَنْ خلص من فرسان الفرنج من حطّين، واجتمع به أهلُ عَسْقلان وغيرها، كلُّهم يَرى الموْت عليه أهون من أن يُملك البيتُ المقدّس.

فنزل السّلطان بالجانب الغربي وأقام خمسة أيّام يطُوف حوْلَ البلد لينظُر مِن أين يقاتلُه. ثمّ انتقل إلى الجانب الشّماليّ يوم الجمعة، العشرين من الشهر، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستّين ألفاً غير النّساء والصّبيان فنصَب السّلطان المجانيق في تلك اللّيلة، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضاً، وقاتلُوا أشد قتالٍ رآهٌ النّاس لأنّ كلًّا من الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لا يُحتاج فيه إلى سُلطان. وكانت خيّالة الفرنج يخرجُون في كلّ يوم إلى ظاهِر البلد فيقاتلون ويُبارزون. وتوالَى الزّحف، ونقب المسلمون السّور مما يلي وادي جهَنَّم.

فلما رأى الفرنج ذلك أخلَدُوا إلى طلَب الأمان، وبعثوا جماعةً من أكابرهم في ذلك؛ فامْتَنَع الملكُ النّاصر من ذلك وقال: لا أفعلُ بكم إلاّ كما فعلتُم بأهله حينَ ملكتُموه في سنة إحدَى وسبعون وأربعمائة من القَتْل والسّبي. فلما رجع الرّسُل إليهم، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضُر إلى الملك النّاصر، فأمّنه، فحضر إليه وسَأَله الأمان، فلم يُجِبْه، واستعطَفَه فلم يتعطَّف، واسترْحَمه فلم يرحمه. فلمّا أيسَ منه قال لهُ ما معناه: أيها السّلطان، اعْلَم أنّنا في هذه المدينة في خَلْقٍ كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى، وإنما يفتُرون عن القتال رجاءَ الأمان، وهم يكرهون الموت ويرغبُون في الحياة؛ فإذا رأينا أنّ الموت لا بُدّ منه والله لنقتُلَنَّ أبناءنا ونِساءنا، ونُحرق أمْوالنَا وأمتِعَتَنا، فلا نترككم تغنَمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تَسْبون ولا تأسِرُون رجلاً ولا امرأة. فإذا فرَغْنا من ذلك أخْرَبْنا الصّخرة والمسجد الأقصى؛ وغير ذلك من المواضع الشّريفة؛ ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف، ولا نترك لنا دابَّةً ولا حيواناً إلا قتلناه. ثمّ نخرج إليكم، كلُّنا، فنقاتلكم قتالَ مَنْ يريد يحمِي دمَه ونفسَهُ، فلا يُقْتَل الرّجُل منا حتى يَقْتُل؛ فإمّا أن نموتَ أعزاء أو نظْفَر كراماً.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦.

(٢) ذكر ابن تغري بردي: في النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٣، أن وصول السلطان إلى بيت المقدس كان: «في السادس والعشرين» في الأصل. وما أثبته أي «في الخامس عشر من شهر رجب» هو عن خلكان والسيرة والروضتين.

فلمّا سمع الملكُ النّاصر كلامه استشار عنْد ذلك أصحابه، فأشاروا عليه بمُوَافَقَتهم.

ووقع الصّلح على أن يسلّموا أسْرَى المسلمين، ويبْذُلُوا عن كلِّ رجلٍ من الفرنج عشرة دنانير، وعن كل امْرأة خمسة، وعن كلّ طفلٍ وطفلةً دينارين، يستوي في ذلك الغنيّ والفقير. وبذَل ابن بارزان في الفُقَراء ثلاثين ألْف دينار من مَاله، وعلى أنْ تكون المدّة أربعين يوماً؛ فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص ومن تأخّر استُرِقّ.

وتسلّم السّلطانُ المدينةَ في يوم الجُمعة السّابع والعشرين من شهر رجب. وكان يوماً مشهوداً، ورُفعت الأعلام الإسْلامية على الأسوار[١]، ورتّب السّلطان على أبواب البلد أُمناء من الأمراء يأخذون من أهله ما استقرّ عليهم، فخانُوا، ولو أدَّوْا الأمانة لامتلأت الخزائن.

قال: وصلّى الملكُ النّاصر الجمعة الثّانية في رَابع شعْبان في قبّة الصّخرة، وكان الخطيبُ والإِمَامُ القاضي محيي الدّين ابن الزّكي قاضي دمشق[٢].

ثم رتَّب له خطيباً وإماماً ونقل إليه المِنْبر الذي كان عَمِله الملكُ العادل نورُ الدّين بحلب برَسم البيْت المقدّس إذا فتحه. وكان بين عَمَله وفَتْح البيت المقدّس ما يزيدُ على عشرينَ سنة.

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ومَحْوِ ما كان الفرنج صنعُوه من الصُّوَر على عادتهم، ونقل إليه المصَاحِف، وطهّره من أدْنَاس الكُفر، رحمه الله تعالى، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمَدارس، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشافعيّة[٣].

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرّخ: وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة، ثمّ سار لقَصْد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج. وقدِم إليها المَرْكِيس[٤] في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادتُه أن يحضر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقُها، فلمّا حضر في هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٤٦.

(٢) هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد محيي الدين بن زكي الدين توفي سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م. وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥ م. بدمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٢٩، رقم ٥٩٤.

(٣) انظر مفرج الكروب: لابن واصل، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٤) هو كنراد ابن ماركيز مونتيغرات. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢، ص ٧٦٢ ـ ٧٦٣.

عن أيدي الفرنج سار إلى صُور فملكها، وأنْفَقَ ما مَعهُ على مَنْ بها، فقَوِي أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائِر البلاد. فأنفق على سور صُور وخَنَادقها، وعمَّقها، فصَارت كالجزيرة في البحر لا يُمْكنُ الوصول إليها.

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا في مستهل شهر رمضان، فأصْلَح من شأنها، ثم رحل عنها ونَازَل صور في تاسع شهر رمضان ونزل على نهر بالقرب من البلد؛ ثمّ نزل على تلٍّ يقارِبُ صور في الثّاني والعشرين من الشّهر، وقسّم القتال على العَسْكَر لكلِّ جَمْع منهم وقتٌ معلوم. واستدعى الأسطول المِصريّ، وكان بعكّا، فجاءته عشر شوانٍ[١]، وكان للفرنج في البحر مراكب فيها رماة الجروخ[٢] والزنبوركات[٣] يرمُون مَنْ دنا من البحر. فاسْتَطال الأسطول عليها، وأحاط بهم المسلمون وقاتلُوا برًّا وبحراً؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشواني خمسةً وأسرُوا مقدَّمها[٤].

ثمّ كانت حروبٌ ووقائع.

ثمّ رحل السّلطان عنها في آخر شوّال، وهو أول كانون [الأول][٥]، وسار إلى عكّا، وأذِن للعساكر بالعَوْد إلى أوطانهم للرّاحة في الشتاء والعَوْد في الربيع، فعادت عساكرُ الشّرق والمَوْصِل، والشّام ومِصر، وبقي السّلطان في عكّا في حَلْقَته وخاصّته، وردّ أمرها إلى الأمير عزّ الدّين جُرْدَيك[٦].

ذكر فتح هُونِين

قال المؤرخ: كان السّلطان لمّا فتَح تِبْنِين امتنع مَنْ بهُونِين من تسليمها، وهي من أحْصَن القلاع وأمْنَعَها، فرتّب عليها من يَحْصُرها؛ فطَلب مَنْ بها الأمان لمّا كان السُّلطان يحاصر صُور، فأمَّنَهم، ونزلُوا منها وتسلّمها[٧].

واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية[٨]، مع كثرتها،

---

(١) شوانٍ: جماعة يكثرون من الغارات. ابن منظور: لسان العرب (شنن).
(٢) الجرخ: الجروخ: أنواع من السهام: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٤٢، حاشية (٤).
(٣) الزنبورك: نوع من السهام. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٤٤.
(٤) هو عبد السلام المغربي الموصوف بشجاعته والحذق بصناعته، ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٥٥٤.
(٥) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الشهر من الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٥٦.
(٦) «هو من أكابر المماليك النوريّة، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة». ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٥٥٧.
(٧) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٥٥٧.
(٨) المدن والحصون هي:

=

كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين، فيسر الله فتحها في أيسر مدة.

ذكر فتح حصن برزية

قال: ولما رحل السلطان من قلعة الثغر سار إلى قلعة برزية[1]، وبحصانتها يضرب المثل، وهي تقابل حصن أفامية[2] وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي، ومن عيون تنفجر من جبل برزية وغيره.

وكان أهلها أضر شيء على المسلمين يقطعون الطّريق ويبلُغُون في الأذى.

فنزَل السّلطان شرقيَّها في رابع عِشْرِي الشّهر[3]، وركب من الغَد وطاف عليها لينظُر موضعاً يقاتِلُها منه، فلم يجده إلا من جهة الغرب. وهذه القلعة لا يمكن أنْ تُقاتَل من جهتي الجنوب والشّمال ألبتَّة، فإنّ جبلَها لا يُصعد إليه من هاتين الجهتين؛ وأمّا الجانب الشرقيّ فيمكن الصُّعود منه لغَيرِ مقاتِلٍ لصُعوبته وارتفاعه؛ وأما جهةُ الغرب فإنّ

- ذكر فتح جبلة. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٧.
- ذكر فتح بكسرائيل. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٨.
- ذكر فتح اللاذقية. الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٩.
- ذكر فتح صهيون: الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ١٠، والنجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣٧، وصهيون حصن منيع من أعمال سواحل بحر الشام. من أعمال حمص. قال ياقوت: كانت بيد الفرنج ثم استرجعها الملك الناصر سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٦.
- ذكر فتح الشغر وبكاس: الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٧.

  الشغر وبكاس: قلعتان قريبتان يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر ولذلك يقترن اسماهما عادة ببعضهما البعض. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٧، حاشية (٥). وانظر أيضاً: الدر المنتخب لابن الشحنة، ص ١٧٥.
- ذكر فتح سرمانية، الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٣. ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٦٤.

(١) برزية: قلعة صغيرة. مستطيلة منيعة في ذيل الجبل الذي يعرف بالخيط من شرقيه، مطلة على بحيرات فامية. أثبته ياقوت الحموي باسم برزويه. ويفضل الكتاب المحدثون اسم بورزي، ويطلق عليه الأهالي قلعة مرزة. ولا تزال أطلال هذه القلعة قائمة على المنحدر الشرقي لجبل العلويين وتشرف على منخفض القاب المتبطح (دائرة المعارف الإسلامية).

(٢) أفامية: حصن على سواحل حمص في مواجهة برزية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.

(٣) هو شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٤.

الوادي المُطِيف بجَبَلها قد ارْتَفَع هناك ارتفاعاً كثيراً حتّى قاربَ القلعة بحيث يصلُ منه حجر المنجنيق والسّهام. فنَزَله المسلمُون ونصبُوا المجانيق، ونصبَ أهلُ القلعة منجنيقاً، فرأى السُّلطان المجانيق لا تُفيدُ، فتركها وعزم على الزَّحف ومُكاثَرتِها بالرّجال؛ فقسَّم العسكر ثلاثةَ أقسام، يزحفون بالنَّوبة، فطالَ ذلك على أهْلِها وعجزُوا عن مُقَاتلتهم فملَكها المسلمون عنْوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا، وأخذوا صاحبها وأهْلَه، وأمْسَتْ خالية خاوية. وألقى المسلمُون النّار في بعْض البيُوت فاحترقت[١].

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك[٢]

قال: ثمّ رحَل السّلطان بعد فُتوح برزيّة من الغَد فأتى جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنْطاكيّة، فأقام هناك حتّى وافاهُ من تخلَّف عنْه من عسكره ثمّ سار إلى قلعة دَرْبَسَاك، فنَزَل عليها في ثامن شهر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وهي من أحْصَن معاقل الدّاوِيّة وقلاعهم التي يدَّخرُونها عند نُزول الشدائد بهم. فنصَب عليها المجانيق، وتابَعَ الرّمْيَ بالحجارة، فهدم قطعةً يسيرة من سُورِها؛ ثمّ أمَرَ بالزّحْف عليها ومُهَاجمتها؛ فتوالى الزّحفُ والقتال، وتقدَّم النَّقّابون فنقبوا منها بُرْجاً وعلقوه فسقَط، وطلبَ أهله الأمان فأمَّنهم على ألا يخرجُوا منها بغير ثيابهم خاصّةً، فخرجوا كذلك، وتوجهوا إلى أنطاكيّة، وتسلّمه في تاسع عشر شهر رجب[٣].

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال: ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصَرَها بعد أن اختلف أصحابُه في حَصْرها، فمنهم مَن أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال هُو حِصْنٌ حصينٌ، وقلعةٌ منيعةٌ، وهو بالقرب من أنطاكية. فسار إليها وجَعَل أكثر عَسْكره مُقابل أنطاكية يُغيرون على ضِيَاعِها، وبقي هو في بَعْض أصحابه على القَلْعَة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثّر فيها، فغلَب على الظُّنون تعذّر فَتْحها. فبينما هُم في ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسُولٍ، فأعْطِيَه، وجاء رسولٌ يطلب الأمان لأهلها، وسلّموها على قاعدة دربساك، فأجَابهم إلى ما طلبوا. وعاد الرّسُول ومعه الأعلام السُّلطانيّة فرُفِعَت على رأس

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٤ ـ ١٧.

(٢) «دربساك» في الأصل. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٨، حاشية (٢). «ودرب سال» في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٧.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٧ ـ ١٨. ومفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨، والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٩٣.

القلعة، وتسلّمها السّلطان وأمَرَ بتخريبها فخربت[(١)].

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال: ولمَّا فتح السُّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانيةَ أشهر بحيث يُطْلِق جميع مَن عنده من أسْرى المسلمين. فاستشار السّلطان أصحابه، فأشار أكْثرهُم بذلك ليستريحَ العسكرُ ويجدِّدوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك ووُقّعت الهدنة ثمانيةَ أشهر أولها تشرين الأول وآخرها: آخر أيار[(٢)].

وتوجَّه السّلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرَّق العساكر الشّرقية: عمادَ الدّين زنكي بن مودُود صاحب سنجار، وعَسْكَر الموصل، وغيرهما، ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها في أول شهر رمضان من السّنة.

ذكر فتح الكرك والشوبك وما يجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قد جَعَل على الكرك من يحصُره، وهو سعدُ الدّين كمشبه، في أوّل سنةِ أربعٍ وثمانين؛ فلازَمَ الحصار هذه المدَّة الطويلة حتى نفذَت ذَخائرُ الفرنج، وأكلوا دوابَّهم، فَراسَلوا الملكَ العادلَ أخا السّلطان، وكان السّلطان قد جعله بتلك النّواحي في جَمْعٍ من العسكر، وسألُوه الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سَعْد الدّين مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمَّنَهم.

وتسلّم أيضاً ما قَارَب هذا الحصن من الحُصُون وهو الشوبك، وهرمز، والوعيرة، والسلع فأمِنت القُلوبُ من تلك الجهة.

ذكر فتح قلعة صفد

قال: ولمَّا وصل السّلطان إلى دمشق أُشير عليه أن يفرّق العساكر، فقال: إنّ العمر قصير والأجل غير مأمون، وقدْ بقِيَ بيد الفرنج هذه الحصون: صفد والكوكب، ولا بدّ من الفَرَاغ من ذلك فإنّهما في وَسَط بلاد الإسلام. وأقامَ بدمشق إلى منْتَصَف شهر رمضان من السّنة، وسار إلى قلعة صفد، فحصَرها ونصب عليها المجانيق، وداوَمَ الرَّمْيَ ليلاً ونهاراً، فَسألوا الأمان، فأمّنهم وتسلّمها[(٣)]، وخرج أهلها إلى صور.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٨ ـ ١٩.

(٢) شهر أكتوبر ١١٨٨ م، شعبان ٥٨٤ هـ وما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٣) «وتسلمها بالأمان في رابع عشر شوال». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٩.

ذكر فتح كوكب

قد قدّمنا أنّ السلطان كان قد جعل على كوكب الأمير قايماز النّجْمي[(١)]، فلمّا حصر السّلطان صَفَد أرسل منْ بصُور مِنْ الفرنج نجدةً من جِهاتهم إلى كوكب، وهم مائتا رجُل من الشُّجعان، فظَفِر بهم قَايماز فقتلهم عن آخرهم، وأرْسل إلى السلطان المقدَّمَيْن عليهم، وهما رجلان من فرسان الأسْبتار، فأمر بقتلهما، فقال أَحَدُهما ما أطن أنّنا ينالُنا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهَك الصّبيح. فعفَا عنهُما واعتقلهما.

ولما مَلك صَفَد سار عنها إلى كوكب وشدّد الحصار ووَالَى الزّحف، وأشْرف على أخذها، فسأل الفرنجُ الأمان فأمّنهم وأطلقهم، وتسلّم الحِصْن في منتصف ذي القعدة سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة.

فالْتَحَق مَنْ كان به بصُور فقويَت شوكتهم وكثرُوا، لأنّه اجتمع عندَهُم شُجعان الفرنج وكُمَاتُهم، وتَابعُوا الرّسل إلى مُلوك الفرنج بالأندلُس وصِقِلّيّة والجزائر يستغيثُون بهم ويسألون الأمداد، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقدَّس فعيَّد فيه عِيدَ الأضحى. ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة[(٢)].

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثارَ بالقاهرة اثنا عشَر رجلاً من الشّيعة، ونادوا بشعار العلويّين، وصاحوا: يا لَعَلِيّ[(٣)] وسلكوا الدُّرُوب يُنادون، ظنًّا منهم أن أهل البلد يُلبُّون دعوتهم ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العُبَيْديّة ويملكون البلد ويُخْرِجون مَن بالقصر من العلويين؛ فلم يُجبهم أحد من الناس.

فلمّا خاب سعيُهم تفرّقُوا فأُخِذوا. وكُتب بذلك إلى السّلطان فأهمّه وأزعجه.

فقال له القاضي الفاضل عبْد الرّحيم: ينبغي أن يَفْرح السّلطان بذلك ولا يحزن، حيث عَلِم مِن بَوَاطن رعيّته المحبَّةَ له والنَّصِيحة، وتَرْكَ المَيْل إلى عدُوّه. ولو وَضَع السُّلطان جماعةً يفعلُون مثلَ هذه الحالة ليَعْلَم بوَاطن أصحابه ورعيّته وخَسر الأموال[(٤)]

(١) هو قايماز بن عبد الله النجمي، صارم الدين، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٣. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٢ ـ ٢٣، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦، والنوادر السلطانية لابن شداد ص ٩٦.

(٣) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٤ «يال علي».

(٤) في الأصل «وخبر الأموال» والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٤.

الجلية لكانَ قليلاً فسُرِّيَ عنه[١].

ذكر فتح شقيف أرنوم

وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة سارَ السُّلطان إلى شقيف أرنوم[٢]، وهو من أمْنَع الحصون ليحصره، ونزل بمرج عُيون فنزل صاحبُ الشّقيف، وهو أرناط[٣] صاحب صَيْدا، إلى السّلطان؛ وكان من أكثر النّاس دَهاء ومكراً فقال: أنَا محبٌّ لك ولدَوْلتك، ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يطَّلِع المركيس على ما بَيْني وبَيْنَك فينال أوْلادي وأهلي منْه أذًى، فإنّهم عندُه بصُور؛ وأحبّ أنْ تمهلَني حتى أتوصّل إلى تخليصهم من عنده، وحينئذٍ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلّم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا من الإقطاع. فأجابه السلطان إلى ذلك وظنّ صدقه، واستقرّ الأمر بينهما أن يسلّمَ الشّقيف في جمادى الآخرة.

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينه وبين صَاحب أنطاكية فأمر تقيّ الدّين ابن أخيه أن يسير فيمن مَعَهُ من عساكره ومَنْ يأتيه من بلاد الشّرق ويكون مقابل أنطاكيّة لئلا يُغِير صاحِبها على ما يجاورُه من بلاد الإسْلام عنْد انقضاءِ الأجل.

وكان السّلطان أيضاً منزعِجَ الخاطر لِمَا بلَغه من اجْتماع الفرنج بصُور وَمَا يصلُ إليهم من الأمداد، وأنّهم اجتمعوا في خلْقٍ كثيرٍ وخرجُوا من مدينة صُور إلى ظاهِرها؛ فخاف أنْ يترُك الشَّقيفَ وراء ظَهره. وكان أرْنَاط في هذه المدّة يشتري الأقوات من سُوق العسكر، والسّلاح، وغيرَ ذلك مما يحصّن به شقيفه، فيبلُغ السّلطان فلا يُنكره بحُسن ظنّه. وكان قصْدُ أرناط المطَاوَلة إلى أن يظهر الفرنج من صور.

فلما قاربَ الأجل تقدّم السلطان إلى الشَّقيف، واستدعى أرناط وقد بقي من الأجل ثلاثة أيّامٍ، فجاءه، فتحدّث معه في تَسْليم الحصن، فاعتذر بأولاده وأهله وأنّ المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه، وطلَب المهلة مدّةً أخرى. فحينئذٍ تحقق السّلطان مَكْرَه وخداعه، فأخذَه وحَبَسه، وأمره بتَسْليم الشّقيف فَطَلب قسّيساً وحمَّله رسالةً سرًّا، وأظهر أنّه أمره بتَسْليمه؛ فامْتنع مَنْ بالحصن من تَسْليمه: فسيَّر أرناط إلى دمشق وسَجَنه،

---

(١) سرِّي عنه: أي كشف: ابن منظور: لسان العرب (سرا).

(٢) شقيف أرنون: قرب بلدة النبطية بجنوب لبنان، ويعرف الحصن بقلعة الشقيف ويعرف أيضاً باسم قلعة بوفور أطلقه الفرنج في أيامهم. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٩، حاشية (٣). وفي ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٦ «قلعة حصينة بين بانياس والساحل.

(٣) ويعرف بريجنالد صاحب صيدا. الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٨٧٠.

وتقدّم إلى الشّقيف وضَيَّق على مَنْ به، وتَرَك عليه من يحفظُه ويمنعُ مِن الوصول إليه. فتسلّمه في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين، وأطلق صاحبه[١].

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وما كان عليها من الوقائع

قال: وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً[٢] في مقَابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذي لصُور، وعزَمُوا على حصار صَيْدا. فسار جريدةً في شجعان أصحابه، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَكْ.

وذلك أنّ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور، فلقيَهم اليزكُ على مضيقٍ وقاتلُوهم ومنعُوهم، وكانت حرباً شديداً، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين، وقُتل من المسلمين جماعةٌ، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا فعادوا إلى صُور والله أعلم[٣].

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة.

وذلك أنّ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك في خَيْمةٍ صغيرة ينتظرُ عودة الفرنج للخُروج؛ فرَكِب في بعض الأيام في عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل، فظَنَّ مَنْ هناك من المتطوّعة أنَّه قصد الغَزَاة، فسارُوا مجدِّين وأَوْغَلُوا في أرض العدوّ وبَعُدُوا عن العسكر، وخلَّفوا السّلطان وراءَ ظُهورهم؛ فبَعَث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا. وظنّ الفرنج أنّ وراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلمّا علمُوا بانفرَادِهم حملُوا عليهم حمْلةَ رَجلٍ واحد، فقُتل منْهُم جماعةٌ من المعروفين؛ فشقَّ ذلك على السُّلطان والمسلمين. وكانت هذه الوقعة في تاسع جُمادى الأولى.

فلمَّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر، فرمَوْا بأنفسهم في الماء، فغَرِق منهم مائة دَارِع سوى مَنْ قُتِل. وعادُوا إلى مدينة صُور، فعادا السّلطان إلى تِبْنِين ثم إلى عكا.

ثم كانت وقعةٌ ثالثة في يومَ الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان[٤].

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٧ ـ ٢٨، وقارن ذلك مع مفرج الكروب ج ٢، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤، والنوادر السلطانية لابن شداد، ص ٩٧.

(٢) اليزك: وردت في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠، ص ١١٠، وفي طلائع الجيش أو الجند.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٢٩. «فعادوا إلى مكانهم».

(٤) انظر ما جرى في هذه الوقعة في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٠ ـ ٣١.

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرَتها

قال المؤرخ: لما كثُر جمع الفرنج بصُور، على ما ذكرناه مِنْ أنّ السّلطان كان كلما فتح حصناً أو مدينة بالأمان، سار أهلُها إلى صُور بأموالهم وأهليهم، اجتمع بها منهم عالَمٌ كثير لا يُحْصَوْن، وأموالٌ كثيرة، ثمّ إنّ الرّهبان والقُسُوس لبِسوا السواد وأظهرُوا الحزن على خروج البَيت المقدّس عنهم، وتابَعَهم جماعةٌ من المشهورين. فأخذهم البطرك[١] ودخَل بهم إلى بلاد الفرنج يطُوفُها بهم ويستَنْجِدُون أهْلَها ويستجِيرُون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس.

وصوَّرُوا صُورةَ المسيح عليه السّلام وصُورة رجل أعرابي والعَربيّ يضربُه بين جَماعةٍ، وقالوا: هذا المسيحُ يضربُه محمّد نبي المسلمين، وقد جَرَحَه وقتَلَه[٢].

فعظُم ذلك على الفرنج وحشدُوا، حتّى النساء، فإنّهم كانَ معهم على عكّا عدّةٌ من النسَاء يبارِزْن الأقران. ومَنْ لم يستطع أن يَخرج استأجَر عنه أو يعطيهم مالاً. فاجتمع لهم من الرّجال والأموال ما لا يُحصى كثرة.

واجتمعوا بصُور والبَحْر يُمِدُّهم بالأموال والأقوات والعُدد والذّخائر، فضاقت عليهم مدينة صُور، باطنُها وظاهرها؛ فأرادُوا قَصْد صَيْدا، فكان من ردِّهم ما ذكرناه.

فاتَّفقوا على قَصْدِ عكّا ومُحَاصَرَتها؛ فسارُوا إليها بفَارِسهم ورَاجِلهم، ولزِمُوا البحْر في مسيرهم، لا يفارقونه، في السَّهل والوعر، ومراكبُهم تُسايِرُهم وفيها السّلاح والذّخائر. فكان رحيلُهم من مدينة صُور في ثاني شهر رجب سنةَ خمس وثمانين وخمسمائة، ونُزُولهم على عكّا في مُنْتَصَف الشّهر، فتخطَّف المسلمون مِنْهم في مسيرهم وأخذوا مَن انفرد.

وجاء الخبر إلى السُّلطان برحِيلهم، فَسار حتى قارَبَهم. ثمّ نزلوا على عكّا قبل وُصُوله إليها، ونَازَلُوها من سَائر جهاتِها برًّا وبحراً، فلم يَبْق للمسلمين إليها طريق. ونَزَلَ السُّلطان عليهم وضرب خَيْمته على تلِّ كيسان[٣]، وامتدّت ميمنتُه إلى تلّ العياضِيّة

---

(١) «البرك» في الأصل. والتصحيح من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٢. والمراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسيوس. الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ص ٨٨٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٢، والروضتين لأبي شامة، ج ٢، ص ١٤١، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) تل كيسان: بفتح الكاف وياء ساكنة، موضع من سواحل الشام في مرج عكا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣.

وميسرَتُه إلى النّهر الجاري، ونزلت الأثقال بصَفُّوريّة[١]. وسيَّر الكتب إلى الأطراف يستَدْعِي العساكر، فأتاه عسكر المَوْصل، ودِيار بكر، وسِنْجار، وغيرها من بلاد الجزيرة. وأتاه تقيّ الدّين ابنُ أخيه، ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرَّان والرّها. فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البرّ وتأتي الفرنج في البحر.

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة.

نحن نذكر المشهورَ منها على سبيل الاختصار؛ وأمّا الحرُوب التي تكون بَيْن بعْض هؤلاء وبعْض هؤلاء، والمناوشات، فلو شَرَحْنَاها لطَالَ بها الكتَاب لأن مُدّة هذا الحصار، كانَتْ ثلاث سنين وشهراً.

وكان ابتداءُ القتال في مُسْتَهلّ شعبان من السّنة، فقاتَلَهم السّلطان في ذلك اليوم ولم يَبْلُغ منهم غرضاً؛ ثم باكَرَهم القتالَ واسْتَدَارَ عليهم من سائر جهاتهم إلى أنْ انتَصَف النّهار، وصَبَر الفريقان أعظم صبر. فحَمل تقيّ الدّين من الميمنة على مَنْ يَلِيه مِنهم وأزاحهُم عن مَوَاقفهم، فركِبَ بعضُهم بعضاً لا يُلوي الأخ على أخيه، والتجؤُوا إلى مَنْ يَليهم من أصحابهم. وانْكَشَف نصفُ البَلَد، وملَك تقيّ الدّين مكانهم، ودَخَل المسلمُون البلد وخرجُوا منه، واتصَلت الطريق وزال الحصار. وأدخل السّلطان إلى البلد مَنْ أراد من الرّجال، وما أرادَ من الذَّخائر، والأموال، والسّلاح؛ فكان من جُمْلة من أمره السلطان بالدُّخول إليها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السّمين. وقُتِل من الفرنج في هَذا اليَوْم خلقٌ كثير.

ثم كانت بينهم وقعات في ثامن شعبان، وتَاسِعِه، وعَاشِرِه، وحادي عَشَره، ثمّ كانت وَقْعَةٌ في تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّا والعدُوّ فَقُتِل مَن في الطَّائفتين وجُرح.

ثم كانت الوقعة الكبرى في الحَادي والعشرين من شعبانَ وذلك أن الفرنج اجتمعُوا وتشاوَروا، وقالوا إن العسكر المصريّ إلى الآن ما قَدِم وهذا فِعْلُ السّلطان، فكَيْفَ إذَا قدِمت عساكِرُه فأجْمعُوا رأيَهم على مُناجَزَة الحرب. وكانت عساكِرُ السّلطان متفرِّقَةً: منها طائفةٌ من مُقَابلَة أنطاكية تمنعُ صاحبَها من الإغارة على الأعمال الحلبيّة؛ وطائفةٌ على حمص في مُقَابلَة طرابلس؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقي بصُور؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحماية ثَغْرَي الإسكندريّة ودمياط، ومَنْ بقِيَ من العسكر المصري إلى الآن لم يَصل؛ وهذا ممّا أطمَع الفرنج في الظّهور.

قال: وأصبح المسلمونَ في هذا اليوم على عادتِهم، منهُم من يتقدَّم إلى القتال

---

(١) صفورية: بفتح أوله وتشديد ثانيه، وواو وراء مهملة، ثم ياء مخففة. كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤١٤.

ومنهم مَنْ هو في خَيْمته، ومنهم من قَدْ توجه في حاجته. فخرج الفرنج مِنْ معَسْكرهم كالجراد المنْتَشِر قد ملؤوا الأرض، فكانت وقعةٌ عظيمة ابتدؤوها على المسلمين، ثم أنزل الله نصره علَيهم، فهزَموا الفرنج أقْبحَ هزيمة، وقُتل منهم من رؤسائِهم عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في هَذِه الموقعَة من الغِلْمان ومَنْ لم يعرف مائةٌ وخمسون، ومن المعْروفين الأمير مجلى بن مروان، والظّهير أخو الفقيه عيسى [الهكاري][1]، وكانَ وَالي البيت المقدّس، جَمَعَ العِلْم والدّين والشجاعة، والحاجب خليل الهكّاري، وجمال الدّين بن رَوَاحة الحمويّ، ولم يكن بالمصافّ، وأسِر منَ الفرنج مقدّم الدَّاوِيّة وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدَّم وأطلقه، فقتله الآن.

قال: وأمر السّلطان بجَمْع القَتلى وإلْقَائِهم في النّهر الذي يشرَب منه الفرنج.

قال العمادُ الأصفهاني رحمه الله: ومن العَجب أنّ الذين ثَبتُوا في هذه الوقعة لم يبلغوا ألفاً، ردُّوا مائَة ألف، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف.

قال ابنِ الأثير: وأُخِذ في جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل، فلما أُسِرن وأُلقِي عنهنّ السلاح عُرِفن [أنهنّ نساء][2].

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه في رابع شهْر رمضان من السّنة، وسَبب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتَلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيُّر الهواء، وحدث للأمزجة فسادٌ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج، وكان يَعْتَريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا قدْ ضيقنا عليهم؛ والرأي أنْ يَنْتقل عن هذه المنْزِلة، فإن رحَلوا فقد كُفِينا شرَّهم، وإن أقاموا عُدْنا إلى القتال، فوافَقَهم. وكان بئْس الرّأي.

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرّوبَة[3]، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمُهم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها.

قال: ولما رَحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانْبَسَطُوا وانْبَثُّوا، وعادُوا إلى حصار عكّا في البرّ والبحر، وشرعوا في حَفْر خندقٍ عليهم يكونُ بينهم

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) الخروبة: حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٦٢.

وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلُوا سُوراً من تُراب، وجاؤوا بما لم يكن في الحُسْبان. هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الخَنْدق وعمل السّور من ترابه.

ذكر وصول العسكر المصريّ في البر والأسطول في البحر

قال: وفي مُنْتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العَساكر المصرية ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين. فلما وصلت قويت قلوبُ النَّاس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً. ثم وصل بعْدَه الأسطول المصري في خَمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ، وكان شَهْماً شجاعاً، مِقْداماً ميمونَ النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتةً، فوقع على بَطْشَةٍ[١] كبيرة للفرنج، فغَنِمها وأخذَ ما فيها من الأموال الكثيرة والمِيرة، وعَبَر بذلك إلى عكّا؛ فسكنت نفُوس النّاس بذلك. وقال العماد: إنه ظفر ببطشتين[٢].

ذكر خبر ملك الألمان وما كان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني؛ ونُمِي الخبر بوُصول ملك الألمان[٣] إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام. فاستَنْفَر الملكُ الناصر الجيوشَ والعساكر من كلّ جهة، وجهَّز القاضي بهاءَ الدّين شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد[٤] وأن يمُرَّ على صاحب سنجار[٥]، وصاحب الموصل[٦]، وصاحب إربل[٧]، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكِرهم.

قال ابن شدّاد: فَسرتُ في حَادي عشر شهر رمضان سنةَ خمس وثمانين

(١) بطشة: سطوة. ابن منظور: لسان العرب (بطش).

(٢) انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج٢، ص ٣٠٥.

(٣) هو الامبراطور فردريك بربروسا، الباز العريني: الشرق الأوسط، والحروب الصليبية، ص ٨٨٦.

(٤) كان الناصر لدين الله أبو العباس المتوفى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ هو الخليفة في تلك الأيام. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٣.

(٥) هو عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود ابن أتابك زنكي تملك حلب بعد ابن عمه الصالح إسماعيل فسار السلطان صلاح الدين فنازله ثم أخذ منه حلب وعوضه بسنجار، توفي سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣١٦.

(٦) هو السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن أتابك زنكي بن أقسنقر، توفي عام ٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٩٧.

(٧) هو زين الدين يوسف بن علي الذي حكم إربل في الفترة من ٥٦٣ ـ ٥٨٦ هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٩٠ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٣٤٩.

وخمسمائة، وأبلغت الرّسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعُدْت في خامس شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر[١].

ثم وصلت العساكر عند انقضاءَ الشتاء في شهر ربيع الأول وأمده الخليفة بحِمْل من النَّفْط الطَّيَّار وحِمْلين من القنا، وتَوْقِيعٍ بعشرين ألف دينار يُقْبَض على الدّيوان العزيز من التجار، وخمسةٍ من الزَّرَّاقين.

وكان العدُوُّ قد اصْطَنَع ثلاثة أبرجَة من الخَشَب والحديد كالجبال وألبَسَها الجلود المسْقَاة بالخل، فيسّر الله تعالى على المسلمين إحْراقها، وذلك في الثَّامن والعشرين من شهر ربيع الأول.

قال: وكان السّلطان قد كَتب إلى مصْر بعمارة الأسطول وإحْضاره إلى عكّا، فوصل في يوم الخميس ثامن الشهر، فكانت الحرْبُ في هذا اليوم في ثلاثة مواضع في البحر، والحصار في البر، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين.

هذا ما كان من أمْر السّلطان لَمَّا بلغه خبرُ ملك الألمان.

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير في تاريخه الكامل:

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عدَداً وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيْت المقدّس، فجمعَ عسَاكِره وسارَ بهم، وطريقُه في مسيره على القسطَنْطِينِيّة. فأرْسل ملكُ الرّوم[٢] بخبره إلى السّلطان، ووعده أنّه لا يمكّنُه من العبُور إلى بلاده. فلمّا وصل ملك الألمان إلى القسْطَنْطَينيّة عَجَزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جُموعه، لكنّه مَنَع عنهم المِيرة، فقلَّت أزْوادُه؛ وسارُوا حَتّى عبروا خليج القسطنطينيّة، وصارُوا على أرض بلاد الإِسلام، وهي مملكةُ الملك قِلِج أرسلان بن مَسْعُود السلجقي[٣]. فلمّا وصلُوا إلى أوائلها ثارَ عليهم التُّرْكمان [فما زالوا][٤] يسايِرُونَهم، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ما قَدَروا عليه؛ فنالهم لذلك مشقّةٌ عظيمة، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثّلوج.

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونْيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين ملكشَاه بن قِلِج أرسلان

---

(١) انظر النوادر السلطانية لسليمان، ص ١١٥.

(٢) هو إسحاق الثاني أنجليوس تولى عرش الدولة البيرنطية سنة ١١٨٥ م وبقي إلى سنة ١١٩٥ م. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٨٥١.

(٣) هو قليج أرسلان بن مسعود عز الدين، توفي سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م، سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٣٢١.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٨.

[ليمنعهم][(١)] فعَجَز عن ذلك، فعاد إلى قُونيةَ، فأسرعُوا السّير في أثرِه فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعية في بَيْع الأقوات عليهم، فأذِن في ذلك.

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيَّته بالكَفِّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةً من أمرائه رهائنَ، فخافهم، وسلّم إليهم نيِّفاً وعشرين أميراً كان يكرهُهم. فسارُوا بهم مَعَهُم، ولم يَمتنع اللّصُوص وغيرُهم من أذَاهم؛ فقبَضَ ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدهم، فمنهم مَنْ مات في أسره ومنهم من فَدَى نفسه[(٢)].

قال ابنُ شدّاد: وأعْوَزَهم الزّاد وعَراهم جُوعٌ عظيم، وعَجِزوا عن حمل أقْمِشَتهم، فجمعوا عُدَداً كثيرةً وسِلاحاً وجعَلُوا ذلك بَيْدَراً[(٣)] وأضْرمُوا فيه النّار، لعجزهم عن حَمْله، ولئَلاّ ينتفع به غيرهم.

قال: وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من حديد[(٤)].

قال ابن الأثير: ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون[(٥)] ابن اصطفانة بن ليون الأرمني، فأمدّهم بالأقوات والعُلُوفات، وحَكَّمهُم في بلاده، وأظْهر الطّاعة لهم. ثمّ سار إلى أنطاكيّة، وكان في طَريقهم نهرٌ فنزلوا عندَهُ، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه، فغرق في مكان لا يَبْلُغ الماءُ وسطَ الرّجل فيه. وكفَى الله شرّه[(٦)].

وقال ابنُ شدّاد: إنّه لمّا وصل إلى طرسوس سَبَح في النّهر فمرِض من شدَّة بَرْد الماء فمات؛ ولمَّا مات سَلَقُوه في خلٍّ وجمَعُوا عِظامَه في كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به[(٧)].

قال ابن الأثير: وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابُه عليه؛ وأحبَّ بعضُهم العَوْد إلى بلادهه فتخلّف عنه، ومال بعضُهم إلى تمليك أخٍ له فعاد أيضاً. وسارَ هُو فيمَنْ بَقِيَ معَهُ، فعرَضهُم، وكانوا نيِّفاً وأربعين ألفاً وقع فيهم الوبَاء والموت، فوصَلُوا إلى أنطاكية وكأنّهم قد نُبِشُوا من القبور فتبرَّم بهم صاحبُها وحسَّن لهم المسير إلى عكّا. فسارُوا على اللاذقيّة وجَبَلة وغيرهما من البلاد التي ملكها

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٨.
(٢) التفصيل في الكامل لابن الأثير، ج ١٢ ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) البيدر: الجرن. ابن منظور: لسان العرب (بدر).
(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٣.
(٥) هو ليو الثاني بن سديفاني بن ليو الأول، رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٦) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٩.
(٧) انظر: النوادر السلطانية لابن شداد، ص ١١٣ ـ ١٢٤.

المسلمون؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأَسَرُوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر مِمّن أسر[١].

قال: وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أيّاماً فكثُر فيهم الموتُ، فلم يَبْقَ منهم إلاّ نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا.

ولـمَّا وصلُوا ورَأَوْا ما نالهم في طرِيقِهم وما هُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم، فغَرِقت بهم المرَاكب، فلم ينْجُ منهم أحد[٢].

وقال ابن شدّاد: إنّهم لمَّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابنُ ملِكهم من صاحِبها قَلْعتها لينقل إليها أموالَه وخزائنه وأثقاله، فسلّمها إليه طمعاً في ماله، وكان كذلك؛ فإنّه لم يعُدْ إليه واستولَى الإبرنس على ما فيها[٣].

قال: وجاءت فرقةٌ منهم إلى حصن بغراس وظنُّوا أنَّه للفرنج، ففتح لهم وَالِي الحِصْن الباب وتسلّم منهم الأموال، وأَسَرَ جماعةً منهم وقتل. وخرج إليهم العسْكر الحلبيّ فقَتَلَ منهم وأسر. ثمّ أخَذَ مَنْ بقي منهم على طرِيق طرابلس فخرج عليهم مَنْ باللاذقية وجبلة، فقتلوا منهم وأسروا.

ثم ركب ملك الألمان في البحر من طرابلس بمَنْ بقي معه لِقَصْد عكّا، في أواخر شعبان، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاثَ مراكب، ووصل الباقون إلى صُور ثمّ إلى عكا في سادس شهر رمضان سنة ستٍّ وثمانين؛ وكان لِقُدومهم وقْعٌ عظيم[٤].

وسيأتي ذكرُ ما تجدّد بعد وصولهم إلى عكّا إن شاء الله تعالى. فلنذكر ما كان قبل وُصُولهم من الوقائِع.

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانت هذه الوقعة في يَوْم الأربعاء العشرين من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وثمانين.

قال ابن شدّاد: لمَّا بلغ السّلطان وُصُول ملك الألمان إلى بلاد الأرْمنِ جهَّز بعض العساكر إلى البلاد المُتَاخمة لطريق عَسْكَر العدوّ، وتقدَّم أمْرُه بهَدْم سور طبريّة وهدْم يَافا وأرْسُوف وقيْساريّة، وهَدْم سور صَيْدا وجُبَيْلِ ونَقْل أهلها إلى بيروت. فلمّا علِم الفرنج أنّ العساكر قد تفرَّقت نهضُوا لِلْقتال بغتَةً وهجموا على المَيْمَنة وفيها مخيَّم

(١) انظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٤٩.
(٢) انظر التفاصيل في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٥٠.
(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٦.
(٤) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

الملك العادل، فلما بَصُرَ بهم ركب فيمن معه، وتلاحَقَت به العَساكر، واقْتَتلوا، فكانت من أعْظم الوقَائِع، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج.

قال: ولقد خُضْت في الدّماء بدابّتي واجتهدت أن أعدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْرتهم وتفرُّقهم؛ وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين. وكانت هذه الوَقْعَة فيما بين الظّهر والعصر في الميمنة وبَعْضِ القلب، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة غير معروفين[١].

قال: ولمَّا أخبر من بعكّا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيَّم العدوّ من البلد، وجَرَى بينهم مقتَلَةٌ عظيمة انتصرَ فيها المسلمون، ونهبّوا ما كان بخيام الفرنج من الأقمشة وغيرها، حتى الطّعام الذي في القُدُور، وسَبوا النّساء.

قال: واختلف النّاس في عَدَد من قُتِل من الفرنج في هذه الوَقْعة، فقيل ثمانية آلاف، وقيل سبعة آلاف، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسة آلاف[٢].

ذكر وصول الكندهري إلى عكّا نجدة للفرنج وما جدّده من آلة الحصار

قال: ثمّ وصل الكندهري[٣] في البحر نجدةً للفرنج في عَددٍ كثير أضعاف ما نقص منهم، ففرّق الأموال واستخدم؛ ونَصب المجانيق على عكا فحرَقها المسلمون؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا في أوّل شعبان، وكان قد أُنفِق عليهما ألفُ دينار وخَمسمائة دينار، وأُسِر من الفرنج سبعون في هذا اليوم ومن جُمْلَتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون.

ثمّ جهّز الفرنج بُطَشاً لمحاصرة بُرْج الذبان[٤]، وهو برج في وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا، فعمدُوا إلى بَطْشة من البُطش وعملوا بُرْجاً على صَارِيها وملؤوه حطَباً ونَفطاً على أنهم يُلْحقون البطشة ببُرج الذّبان، ثمّ يُحرقون البرج الذي على الصّاري. وجعلوا في البطشة وَقُوداً كثيراً حتّى يُلْقُوه في البرج إذا اشتَعلت فيه النّيران. وعبؤوا

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٩.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٣) هو ابن أخي ملك فرنسا، هنري تروي كونت شامبانيا. الباز العريني الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص ٩١٢.

(٤) برج الذبان: في وسط البحر على صخر، على باب مينا عكا لحراسة المينا من الأعداء. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٣٥.

بطشةً ثانيةً وملؤوها حطباً على أنّها تدخل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هي والبطش الإسلاميّة وجعلوا في بطشةٍ ثالثة جماعةً من المُقَاتلة. وقدّموا البطشة نحو البرج، وكان الهواء مُسْعداً لهم، فلمّا أحرقوا البطشة والبُرج الذّي قصدوا بهما إحراق بُطش المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البَطْشتان، وانتقلت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة. والله أعلم(١).

ذكر ما كان من أمر الفرنج بعد وُصُول ابن ملك الألمان إلى عكّا وما اتّخذوه من آلات الحصار

قال: ولمَّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائم في الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصُوله إليها في سادس شهر رَمضان سنةَ ستّ وثمانين وخمسمائة. فكان أول من بدأ به أنَّه خرج إلى يَزَكِيَّةِ السّلطان، وقاتَلهم، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير، وانكَسَروا ورَجَعُوا إلى المخيَّم غروبَ الشّمس من ذلك اليوم؛ وقُتل من المسلمين اثنان وجُرح جماعة. فلمّا عايَنَ ذلك رجع إلى قتال مَنْ في البلد، واتَّخذ من آلات الحصار ما لم يُرَ قبل ذلك مثله، فكان ممَّا أحدثه آلة عظيمة تسمّى دبّابة يَدْخُل من تحتها المقاتِلَة، وهي من الخشب الملبَّس بصفائِح الحديد، ولها مِنْ تحتها عجلٌ يحرَّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكْرَار نَطْحها، وآلة آخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحَبُه وفيه كَبْشٌ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكَّة المحراث، ورأس الكبش مدَوَّر، هذا يهدِم بثِقَلِه، وتِلك تهدم بحدَّتها وثِقَلها، وهي تسمَّى سفوداً، وأعد السّتائِر(٢) والسّلاليم وغير ذلك؛ وأعدّ في البحر بَطشةً عظيمةً وصنع فيها بُرْجاً بخُرطوم إذا أرَادُوا قلبه على السّور بحرَكَةٍ انقلب بحِركات ويُبْقي طريقاً إلى المكان الذي ينقلبُ عليه تَمْشِي عليها المُقَاتَلة، ونصب المجانيق وحكّمها على السّور، وتوالت حِجارَتُها حتى أثّرت فيها أثراً بَيّناً فأخذ المسلمون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجُروحْ وأحْرَقُوا نِصَالهما حتَّى بقيَا كالشُّعلة من النّار ثم رُمِيا في منجنيق الفرنج فاحترق، واتّصل لهبُه بالآخر فأحْرَقه.

ثمّ زحف العدوّ على البلد في شهر رَمَضان في خلْق كثير، فأمهلهم أهل البلد حتى سحبوا آلتهم المذكُورَة وقارَبُوا أنْ يُلصقُوها بالسّور ويَحصُل منهم في الخَندق جماعةٌ كثيرة، فأطلقوا عليهم الجُروخ والمجانيق والسِّهام والنيران، وفتحوا الأبواب

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٢) ستارة: وهي من الجلود واللباد. وتحمي السفن قذائف النفط. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٠٣، حاشية (٥).

وهجموا على العدوّ من كل مكان، وكبسُوهم في الخَنْدق، فانْهزَموا؛ ووَقَع السّيف فيمَن بَقِي في الخَنْدق منهُم. ثم ألْقَوْا النّار في كَبْشِهم، فاحترقَ، وسَرَت نارُه إلى السّفود فاحترق أيضاً، وعلَّق المسلمُون في الكَبْش الكَلاَلِيب الحديد فسحبُوه وهو يَشْتَعِل، فحصل عندهم، فأطفؤوه بالماء، ووُزِن ما كان عليه من الحديد فكان مائةَ قنطار بالشّامي فكان هذا اليومُ من أحْسَن أيام الإسلام.

قال: واستأنَفَ الفرنج عَمَل دبابة أخرى وفي رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له الكَبْش، وله قَرْنَان في طُول الرُّمح كالعُمُد الغلاظ، وسقُوفها هي والكبش بأعمدة الحديد، ولَبَّسُوا رأس الكَبْش بعد الحَدِيد بالنّحاس، فلم يَبْق للنار عليها سبيل؛ وشحنُوها بالرّجال. فنصَب المسلمون عليها المجَانيق ورمَوْها بالحجارة، فأبعدت الرّجال من حولها، ثمَّ رمَوْها بحُزَم الحَطب فأحرَقوا ما بين القرْنَين، وخَسَفَها المنجنيق، وخرج أهل عكّا فقطعُوا رأس الكبشين.

قال: وفي العشر الأوسَط من شهر رَمَضان ألقَتْ الرّيح بَطْشَتين فيهمَا رجَالٌ ونساءٌ وصبيانٌ، وميرَةٌ عظيمة وأغنام، فغنِمهما المسْلمون[1].

وكان في إحداهما امرأةٌ محتَشِمةٌ كثيرةُ الأموال؛ واجْتَهَد الفرنج في اسْتِنْقَاذها فلم يُجَابُوا لِذلك.

وكان بينهُم في بقيَّة السّنة عدّةُ وقائع يطول شرحها.

وفي سابع ذي الحجَّة هُدِمَت قطعةٌ عظيمةٌ من سُور عكَّا فسدَّها المسلمون وقاتلُوا عليها قتالاً شديداً حتى أحْكَموا بناءَها.

وفي ثاني ذي الحجّة هلك ابنُ ملك الألمان وكند كبيرٌ، ومرض الكندهري، ووقع فيهم فناءٌ عظيم. والله أعلم.

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه في ثاني عشر شهر ربيع الأوّل سنةَ سبع وثمانين وخمسمائة في ستّ بُطَش عظام مشحُونة بالمقاتلة؛ وكان مَلِكاً مُطَاعاً فيهم، وَوَعَدهم بالأمداد خلفه، وكان معه بَاز عظيمُ الخَلق أبيضُ اللّون، فطَار مِنْ يَدِه وسَقَط على سُور عكّا، فأخذَه المسلمون وأنْفَذُوه إلى السّلطان؛ فبَذَل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجَابوا لذلك.

قال: وزخف الفرنج على عكّا في يوم الخميس الرّابع من جُمادى الأولى سنةَ

(١) ما زال النويري يأخذ عن ابن شداد في النوادر السلطانية، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

سبع وثمانين، ونصبُوا عليها سبْعَةَ مجانيق. وبلغ من مُضَايقتهم لها أنّهم كانوا يُلْقُون في خنْدَقِها ما يموت من دوابّهم وما يُؤْيَس منه ممّن أثخنَتْه الجراح. وانْقسَم أهلُ البلد أقساماً: قسم يَنْزلون إلى الخَندق ويقطعُون الدّواب ليسهُل نقلُها، وقسمٌ ينقلون ذلك إلى البحر، وقسم يذبُّون عنهم، وقسمٌ من المنجنيقّات وحراسَة الأسوار.

قال: وكانوا قد صنَعوا دبَّابَةً عظيمةً أربع طبقات، الأولى من الخَشب، والثّانية من الرّصاص، والثّالثة من الحديد، والرّابعة من النّحاس؛ فكانت تعلُو على السُّور وتركَبُ فيها المقاتلَةُ؛ وقرَّبُوها من السّور فكَادَ أهلُ البلد يطلبُون الأمان؛ فأعَانَ الله على حرْقها.

وكان في جُمادى الأولى عدَّة وقَعَات.

قال: ولمَّا حُرِقت دبَّابات الفرنج وكِبَاشُهم وأبرجَتهم الخشب وستائرُهم أقامُوا أمَام خيامهم ممّا يلِي عكَّا تلاً مُستيطلاً عالياً من التُّراب، فكانُوا يقفون وراءَه ويحوّلونه ليقرّبُوه من السّور؛ إلى أنّ صارَ بينه وبين السُّور مقدارُ نصف غلْوَة سهم. فلَمْ تعْمَل فيه النّار.

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصولُه إلى عكّا في ثالث عشَر جمادى الأولى من السّنّة[١] بعد أن ملك في مسيره قبرص عنوةً؛ ووَصَل في أربعين قطعة. ولمَّا قدِم توالَى الزّحفُ والقتال. ثمّ مَرِضَ مرضاً شديداً وجُرح الإفرنسيس، وهم مع ذلك لا يَدَعُون القتالَ. هذا واللُّصُوصُ يَدخلون عليهم في خِيامهم ويَسْرقون أقمشتهم ويخطَفونهم، فكانُوا يَدْخلون على الرَّجُل من الفرنج وهو نائم فيُوقظونه، ويُشيرون إليه بالسِّلاح: إنْ تكلّمت ذبحناك، ويحملُونه ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين. فعلُوا ذلك مراراً كثيرةً.

قال: ثمّ تردَّدت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير؛ ثم استأذن في إهْدَاءِ جوارح، وقال إنّها قد ضعُفَت وتغيَّرت من البحر، وطلب أن يُسيَّر لها دجاجٌ وطيْرٌ تأكله لتَقْوَى به ثمّ يهدى للسّلطان. ففَهِم السُّلطان أنّه يحتاجُ ذلك لنَفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمَرض، فسيّرَ إليه ذلك. ثمّ أرسل في طَلَب فاكهةٍ وثَلْج، فأُرسل إليه. وهم مع ذَلك يُحَاصرون البَلَد أشدّ حصار[٢].

(١) وصل الملك رتشارد قلب الأسد في ٧ يونيه ١١٩١ م. الباز العريني الشرق الأوسط، والحروب الصليبية، ص ٩٢٢.

(٢) انظر مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٥٥.

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال: ثمّ اشتدّ الحصارُ في سابع جُمادى الآخرة، فركب السّلطان بالعَسْكَر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم؛ ولمَّا حَالَ بينهُما اللّيل عادَ إلى خيامه. ثمّ بَاكَرَ القِتال، فوصَلت مُطالَعَةٌ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلَغ بهم الغاية، وأنّهم في الغد مَتَى لم يُعْمَل ما يمنعُ العدوَّ طلبُوا الأمان وسلّموا البلد. فرأى السّلطان مهاجمة العدُوّ، فلم يساعِدْهُ العسكر. فضعُفَت نفوسُ أهل البلد، وتمكّن العدوُّ من الخنادق فملكوها، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه، فوقعت بدَنَةٌ من البَاشورة، ودخلَ العدوّ إليها، فقتل منها زهاء مائةٍ وخمسين نفساً؛ وكان منهمُ ستّة من أكابرهم، فقال أحدُهم: لا تقتُلوني حتى أرحِّل الفرنج عنكم فقُتل رجلٌ من الأكراد، وقُتل الخمسة، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفَظُوا السّتَّة فإنّا نطلقُكم كلُّكم بهم. فقالوا: قدْ قتلناهم. فقَوي عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لا يُطلِقون مَنْ في البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحِليّة.

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مَجَاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنين، وصليب الصَّلَبُوت؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونِسائهم وذَرَاريهم، ومَا مَعَهم من أموالهم وأقمشتهم.

فكتبوا في ذلك إلى السُّلطان، فأنكر هذا الأمْر واستَعْظَمه؛ وعزم على أنْ يكتُب بالإنكَار عَلى مَنْ بعكّا، وجمع أمراءه وأصحاب المشُورة، فما شعَر المسلمون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفر وصُلْبانُه على أسوار البلد؛ وذلك ظُهر نهار الجمعة السّابع عشر من جُمادى الآخرة، سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة.

فعظُمت المصيبةُ على المسلمين وتحيَّز المسلمون إلى بعض أطراف البلد. ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقرير القاعدة في خَلاصِ مَنْ بعكّا من المسلمين، فاستقَرَّت الحالُ على مائة ألف دينار وستّمائة أسير وصَليب الصّلبوت. وأنْفذُوا ثقاتِهم وعايَنُوا الصّليب في ثامن عشر شهر رجَب؛ ثم طلبوا أن يسلَّم ذلك إليهم فإذا صار عنْدَهم أطلقوا الأسرى؛ فامتنع السّلطانُ من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى.

فلمّا رأوه قد امتنع منهُ أخرجُوا خيامَهم إلى ظاهر الخنَادق في الحادي والعشرين منَ الشّهرِ؛ ثمّ ركِبُوا في وَقت العَصْر في اليوم[1] السّابع والعشرين من شهر رجَب سنةَ

(١) «الثلاثاء السابع والعشرين من شهر رجب» في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٦٨.

سبع وثمانين، وجمعُوا الأسْرى، وحملُوا عليهم حَمْلة الرّجل الواحد، فقتلُوهم صبراً، ولعناً بالرّمح وضرباً بالسّيف، رحمة الله عليهم؛ ولم يُبْقوا من المسلمين إلاّ أكابرهم. فلمّا اتّصل الخبر بالسّلطان حَمل المسلمُون عليهم. وجَرَت بينهم حربٌ عظيمةٌ دام القتالُ فيها طول النّهار. وتصرّف السّلطان فيما كان قد حصّله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، وردّ صَليب الصَّلبُوت إلى مكانه(١).

ذكر ما كان بعد أخْذِهم عكّا

قال: ثمّ سار الفرنج إلى صَوْب عسقلان في مستهل شعبان، وسار السّلطان في عراضهم، والمسلمون يتخطّفُونهم ويقتلون منهم ويأسرون؛ وكلّ أسير جيءَ به إلى السّلطان أمر بقتله. ثمّ كانت وقعةٌ عظيمة في تاسع شعبان عند رَحيلهم من قَيْسَاريّة، انتصر فيها المسلمون. ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف. وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالمَلك العَادل خلوةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلح. وكان حاصلُ كلامه أنّه قد طال بيننا القتال ونحن في نُصرة فرنج السّاحل، ورأيي الصّلح ويرجعُ كلٌّ منا إلى مكانه. فقال له الملك العادل: على ماذا يكون الصُّلح؟ قال: على أن تسلّموا لأهل السّاحل ما أُخذ منهم من البلاد. فأبى الملكُ العادل(٢).

ثم كانت وقعة أرْسُوف في يوم السّبت رابع عشر شعبان؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج(٣).

ذكر هدم عسقلان

قال: ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف في تاسع عشر شعبان، ونزل بالرّملة، واستشار أصحابه في أمْر عسقلان، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستوليَ العدوُّ عليها وهي عامرة، فتكونَ سبَباً لأخْذ البَيْت المقدّس وقَطْعِ طريق مصر. فعَلِم السّلطان عجْزَ المُسْلِمين عن حِفْظها لِقُرب عهدِهِم بقتال عكّا؛ فسارَ حتى أتى عَسْقلان، وأمر بتخريبها، وكان هُوَ وَوَلَدُه الملك الأفضل يستعملان النّاس في الخَراب خشية من حُضور العدُوّ فيتعذّر هدمُها، ثمَّ حَرَقها بالنّار؛ والأخبار تَتواتَرُ من جهة العدوّ بِعمارة يَافا، واستمرَّ الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان(٤).

---

(١) «إلى دمشق» في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٦٨.

(٢) انظر النوادر السلطانية لابن شداد، ص ١٨٢.

(٣) انظر تفاصيل ذلك في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٣٦٧.

(٤) عن الخراب الذي حصل في عسقلان انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٤٢ ـ ٤٣.

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثّلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرَّملة يوم الأربعاء، وأمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ. وركَب جريدةً إلى القُدس الشريف، فوصل إليه في يَوْم الخميس.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رَمضان من السّنة كانت بينَهُم وقعةٌ انتصر فيها المسلمُون.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى الرّملة في سابع شوّال وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعاتٌ: منها وَقْعَةٌ في ثامن شوّال، وفي سادس عشره، والدّائرة فيها على العدو.

وفي ثامن عشر شوّال اجتَمع الملكُ العادل والإنكلتير على طعامٍ وانْفَصَلا[1] على توادُد، وسأله الاجتماعَ بالسّلطان فامْتَنَعَ السّلطان من ذلك.

ثمّ رحل الفرنج في ثالث ذي القَعدة إلى الرَّملة، وأظهرُوا قَصْد بيت المقْدِس والحربُ مستمرَّةٌ بين المسلمين وبينهم، ورَحَل السّلطان إلى القُدس في الثّالث والعشرين من ذي القَعدة بنيّة المقام به، وشرع في تحصينه.

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّة بين المسلمين والفرنج

قال: ولم تزل الحربُ قائمةً والمراسلاتُ متّصلةً بينهُم على طلب الصُّلح، والسّلطان لا يرضى بما يختارُونه، وهم لا يُوافِقون على ما يُريدُه السّلطان، إلى الحَادي والعشرين من شَعبان سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، فوُقِّعَت هدنةٌ عامّة في البرّ والبحر، وجُعِل لهم من يَافَا إلى قَيْسَارِية إلى عكّا إلى صُور، وأدخَلوا في الصُّلح طرابلس وأنطاكية. وأُخْرِج من عمل يافا الرَّملة ومَجْدَل يَابَا[2] من عَمل عكَّا الناصرة وصفُّورِيّة واشْتُرِط خرابُ عسقلان. ووقعت المصالحة مدَّةَ ثلاثِ سنين وثلاثةِ أشهر[3]، أوّلها مُبتدأ أيلُول الموافق لهذا التّاريخ، وذَلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رَسَائله.

قال: ثمّ أمر السُّلطان أنْ يُنادَى في الطُّرقات والأَسْواق: ألاَ إنّ الصّلح قد انتظَم[4]،

(١) «وانفصلوا» في الأصل والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) مجدليابة: بعد اللام ياء مثناة من تحتها، وبعد الألف باء موحدة، قرية قرب الرملة فيها حصن محكم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٥٧.

(٣) في الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٨٥ «وثمانية أشهر». وكانت مدة الهدنة ثلاثة سنوات، وقيل ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وقيل ثلاث سنوات وثمانية أشهر وقيل خمس سنوات. انظر شفاء القلوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص ١٧٧. والحروب الصليبية كما رآها العرب لأمين المعلوف ص ٢٩٨.

(٤) تتضمن الصلح أن تكون البلاد الجبلية للمسلمين والساحلية للفرنجة فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل =

فمَن شاء مِنْ بلادنا يدخُل بلادَهم ومَن شاء من بلادِهم يدخل بلادَنا فليفعل.

وَوَقع له عزمُ الحجّ في ذلك المجلس.

ثمّ أمرَ بإرْسَال مائة نقّاب لتخريب سُور عسْقَلان وإخْرَاج الفرنج منها، فخرّبت. وكان يومُ الصّلح يوماً مشهوداً واختلطَ العسكران.

ثمّ اشتَدّ المرضُ بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعْبَان وسار معه الكندهري إلى جهَة عكّا، ولم يبْق بيافا إلا مريضٌ أو عاجز. ثم أُذِن السّلطان للنّاس في الرُّجوع إلى أوطانهم، فسار عسكرُ إرْبِل والموْصِل وسِنجَار؛ وقوي عزمُه على الحج.

ثم عاد السّلطان إلى القُدْس ورتّب أحواله وعَيَّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارسْتان ونقل إليه العقاقير والأدوية؛ وأدار سُور القدس. وأقام بالقُدس إلى يَوم الأربعاء رابعِ شوال، وخرجَ في يوم الخميس خامس الشهر قاصداً دمشق. فلمّا انتهى إلى طبريَّة وصَل إليه بهاءُ الدين قراقوش الأسدي[١] وقَدْ خلص من الأسْر، فاستَصْحَبه معه وكَشَف القلاعَ والحصُون، ودخل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر من شوَّال سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة؛ وجَلَس النّاس يوم الخميس؛ وأنشده الشّعراء؛ وكان مجلساً عامًّا، وعمّ النَّاس فيه بعَدْله. ولم يَزَلْ كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بعدَ صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة[٢].

وكان مولدُه بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمرُه سبعاً وخمسين سنةً تقريباً. ومدّةُ ملكه منذ وَلِيَ وزَارة العاضد لدِين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وخمسمائة وإلى هذا التّاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانيةَ أشهر وخمسة أيام؛ ومنذُ خُلع العاضِدُ في سابع المحرّم سنة سبعٍ وستّين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

= وأصبحت عكا قاعدة مملكة أورشليم. وبقيت المقدس في أيدي المسلمين. وانتهت مدة الهدنة بين المسلمين والفرنجة عام ١١٩٥ م. انظر الحروب الصليبية لسيد علي الحريري ص ١٧١ ـ ١٩٦.

(١) هو الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي الخادم الخصي المنسوب إليه حارة بهاء الدين بالقاهرة داخل باب الفتوح، والذي بنى قلعة الجبل بالقاهرة، والسور على مصر والقاهرة. توفي سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م.

(٢) انظر قصة وفاته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٤٨.

وكان ابتداءُ مرضه يومَ السّبت سادس عشر صفر؛ ونالَ المسلمون لوفاته من الألم ما لا يُعبَّر عنه. ولمَّا مات دُفن بقَلْعة دمشق في منزله؛ وما زال ابنهُ الأفضل يتروَّى في مَوضع ينقلُه إليه، فشرع في بِناء تربته عند مسجد الْقَدَم[١] وبنى عنْدَها مدرسَةً للشّافعيّة. وأمر ببناء التّربَة في سنةِ تسعين وخمسمائة؛ فاتّفَقَ وصُولُ ابنه العزيز تلك السّنة من الدِّيار المصريّة للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء. ثمّ أمر بعمارة القبّة في حَدّ جامِع دمشق، فعمرت ونُقل إليها يومَ عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته وأخرج مِنْ باب القلعة على دَار الحدِيث إلى بَاب البَريد[٢]، وأدخل منه إلى الجامع، وصُلِّي عليه قُدّام باب السر، صلّى عليه القاضي محيي الدّين محمّد بن علي بإذن الأفضل. ثم حمل إلى لَحْدِه، وألحدَه الأفضلُ وجلَس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملكُ النّاصر رحمهُ الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيّامه في الجهاد في سَبيل الله تعالى.

قال ابن شدّاد: لمَّا مات السُّلطان لم يُخَلِّف في خزائنه من الذّهب والفضّة إلا سبعةً وأربعين درهماً ناصريّة وجراماً[٣] واحداً ذهباً صوريًّا، ولم يخلّف ملكاً في سائر أنواع الأملاك. وحُسِب ما وَهَبه من الخيل في مُدَّة مُقامه على عكّا فكان تقديرُه اثني عشر ألف رأس؛ ولم يكُنْ لهُ فرسٌ يركبه إلا وهو مَوْهُوب أو موعودٌ به، وصاحبُه يلازمُه في طلبه؛ وما حضَر اللقاء إلا اسْتَعَار فرساً فركبه. وكان لا يلْبسُ إلا ما يحلّ كالكِتان والقُطن والصّوف. وكان له ركعاتٌ يصلِّيها من الليل[٤].

وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العماد الأصفهاني وغيرُه سبعةَ عشر ولداً[٥]: الملك الأفضل نورُ الدّين أبو الحسن علي[٦]، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز

---

(١) مسجد القدم: جنوبي الحصباء بدمشق، وهو من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطتها، ويقال: إن هناك قبر موسى بن عمران ومسجد الباب الشرقي. انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٤، حاشية (٣).

(٢) باب البريد: أحد أبواب دمشق. يقال إن جيرون وبريدا كانا أخوين وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد. وهما اللذان بنيا دمشق وبهما يعرف باب جيرون وباب بريد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٢.

(٣) «جرماً واجداً» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٢، ص ٤٢٦. انظر أيضاً الفتح القسي في الفتح المقدسي للأصفهاني، ص ٦٢٩ حيث ذكر «ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٧.

(٥) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٥٧: كانوا ستة عشر ذكراً وابنة واحدة. في الروضتين لأبي شامة «سبعة عشر ذكراً وبنتاً»، وفي شفاء القلوب للحنبلي «ثمانية عشر وبنتاً».

(٦) ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ يوم عيد الفطر وهو أكبر الأولاد. النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٧.

عمادُ الدّين أَبُو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غيّاث الدّين، وقيل شهاب الدّين، أبو منصور غازي؛ والملك الظَّافر مظفّر الدّين أبو العباس خضر؛ والملك المعز فتح الدّين أبو يعقوب يوسف؛ والملك الأعزّ شرف الدّين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيّد نجم الدين أبو الفتح مسعُود؛ والملك الزّاهر مجير الدين أبو سليمان داود؛ والملك الفضّل قطب الدّين أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عزّ الدّين محمد؛ والملك المحسن شهاب الدّين أبو العباس أحمد؛ والملك الجواد ركن الدّين أبو سعيد أيوب؛ والملك المظفّر فخر الدّين أبو منصور تُورَانشاه؛ والملك العادل نور الدّين أبو المظفّر ملكشاه؛ والملك المنصور نُصرة الدّين مروان؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل؛ وعماد الدين شادي، ويسمى عمر[١]؛ وابنة صغيرة[٢].

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استَقَرّ ملكُ دمشق وما معَها للملك الأفضل نور الدّين أبي الحسن علي، وهو أكبر أولاده ووليّ عهده، وعنده أخواه شقيقاه الملك الظّافر خضر والملكُ المفضّل مُوسى.

واستقرّ ملكُ الدّيار المصريّة للملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان.

واستقرّ ملكُ حلب وما يَليها للملك الظّاهر غياث الدّين غَازي، وعنده أخوه الملك الزاهر داود، فجعله من قِبَله على البيرة.

واستقرّ ملك حمص والرّحبة وتدمر للملك المجاهد أسَد الدّين شيركُوه بن محمّد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السلطان الملك النّاصر.

واستقر ملك حماه وسَلْميّة والمعرّة ومَنْبِج للملك المَنْصُور ناصر الدّين محمّد ابن تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيّوب.

واستقرّ ملك حرّان والرُّها ومَيَّافَارِقِين والرّقة وقلعة جعبر والكرك والشّوبك للملك العادل سيف الدّين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو السّلطان.

---

(١) عن تاريخ ميلاد كل واحد من أولاد السلطان صلاح الدين. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٥٧.

(٢) البنت هي مؤنسة خاتون تزوجها ابن عمها الملك الكامل ابن الملك العادل. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٧.

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأمجد [بَهْرَامشاه][(١)] بن فَرُّخْشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقر ببعْرين وأفامية وكَفَرْطَاب عزّ الدّين [إبراهيم][(٢)] بن شمس الدّين بن المقدّم.

واستقرّ بصهْيُون ناصر الدّين منكورس بن [خمارتكين][(٣)] غلام أبي قبيس.

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقرّ بعَيْنْتاب ناصر الدّين شحنة حلب.

هذه الممالك التي كانت جاريةٌ في ملك السّلطان الملك النّاصر رحمه الله.

فلنذكر الآن أخبار الدّيار المصريّة ومَنْ ملكها بعْدَ وَفاة السّلطان الملك النّاصر، ونجعل ما يقع لهؤلاء المُلوك، أوْ في ممالكهم، من الحَوادث في ضِمْن أخبار مُلوك الدّيار المصريّة؛ وننبّه عليها بالتراجم، على ما نقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدّين أبي الفتْح عثمان[(٤)] ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصريّة ملك الدِّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوَفاة والدة السّلطان الملك النّاصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ما كان يُؤخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسْم الزّكاة. وجهّز إلى البيْت المقدّس عشرة آلاف دينار لتُصْرَفَ في مَصَالحه؛ وأكرمَ أصحابَ أبيه وعامَلَهُم الأفضَل أخوه صاحبُ دمشق بخلاَف ذلك، فمالَت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل، فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه، وعَزَم على القَبْض عليهم؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه، واتَّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة في بقيّة السّنة، فأكرمهم وقرَّبهم، وكان منه ما نذكُره إن شاءَ الله تعالى.

---

(١) و(٢) و(٣) مما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٤.

(٤) أخباره في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٥١، ومفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٨٢، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٨، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ١، ص ٣٧٨ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٣١٩، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٥٠. وخطط المقريزي، ج ٢، ص ٢٣٥. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١١٤.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل في مستهَلّ صَفَر سنةَ تِسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممَّنْ كان فيه. وذلك أنّ الحصن كانَ عدَّةُ مَن فيه خمسةَ عشَر رجلاً، فندب متولّي البلد منهُم عشرةً لجباية الجزْيَة، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمْسَة الذين تأخروا بالحِصْن معه، وبقي به أربعةٌ من الأكراد، فأغلقُوا بابَ الحصْن. وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن، وكان به حدَّادٌ نَصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن. فلمّا عادَ الوالي منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحِجَارة، فكَسَرُوا يده، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقَوْمَص. وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جُبَيل وتحدَّثُوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطَوا نِصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابُلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلّموا الحصْنَ، فرَتَّب الفرنج فيه من الجَرْخيّة[1] ألفاً وخمسين جرخياً[2].

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه، وأخرَجَ خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبَيل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولاً إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

في سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقينَ من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوّضَ القَضاء بالدّيار المصرية للقاضي زين الدّين أبي الحسن علي بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقي؛ فوَلِيَ سنةً وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدّين. وقيل بل وَلِي القاضي محيي الدّين محمّد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. وأعيد القاضي زين الدّين الدّمشقي فولي سنَةً، ثم عزل، وأعيد القاضي صدر الدّين إلى أن توفي في سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصّلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجَّه الملكُ العزيز

---

(١) المقصود رماة السلاح.

(٢) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٠، ص ١٧٧.

إلى الشام وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش وصيرهم، وجَهّز ثلاثة عشَر لواءً إلى ثَغْرَي الإسكنْدَريّة ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس. واستصْحَبَ معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميراً عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحَلْقة ألف فارس. فلمّا اتصل بالأفضل خروجُه استَعَدّ وأنفق النّفقات الوافرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولمّا وصَل الملكُ العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصِّ الأفضل به، وشَرَع في إقْطاع أعمال الشام. وجهّز من أمرائه: قايْماز، وعشرين أميراً، منهم جَهَارَكس، وميمون القَصْري، وسُنْقُر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجُرْدَيك. فتقدَّمُوا ووقعُوا على أطراف العسْكَر الشّامي، فرجعَ الأفضل إلى دِمَشْق، وغُلِّقت أبوابُ البلد لـمّا قربَ العسكر المصريّ منها.

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكُسْوة[١]؛ فاستَنْجَد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق، وحضَر الظّاهر من حَلب، وناصرُ الدّين صاحبُ حماه، وأسد الدّين صاحب حمص، وعسكرُ الموصل وغيره. فلمّا رأى العزيز اجتماعهم علم أنّ لا قُدْرَةَ له بهذا الجمع، وكَتب إلى عمّه العادل يقُول: أنا ما خرَجْتُ من الدّيار المصريّة إلا لاسْتنْقَاذ جُبَيل من الفرنج، فبلغنِي أنّ الملكَ الأفضل حالف الفرنج عليَّ، واستنْصَر بهم، ووعَدَهم أن يُعيد البلاد إليهم، فاقْتَضَى ذلك سَوْقَنَا إليه. وبَلَغَنَا أنك تدخل بيْنَنَا وبيْنَه، وحُوشِيتَ من ذلك، وأنَا خيرٌ لكَ مِنْ غيري. وإنْ أرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذَلك.

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من [حكام][٢] الممالك وتردّدت الرّسائل بيْنهم.

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البيْتَ المقدّس وما جاوَرَه من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يُعْطي الأفضلُ لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة؛ وأن يكون للملك العادل بالدِّيار المصريّة إقطاعُه الأوّل، وأنْ يُخْطَب للملك العزيز ببلاده وتُنْقَش السِّكّة باسمه؛ وأنّ الملك العزيز يمُدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خِلاط.

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيز، وتزوَّج العزيزُ ابْنَته، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز، وتقرَّرَت قواعد الصلح.

---

(١) الكُسْوَة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

وتأخّر الملكُ العزيز إلى الكُسْوة ثم إلى مَرْج الصُّفَّر[1]، ومرض به ثم أفاق.

ولمَّا عزم على العَوْد إلى الدّيار المصريّة خرج لوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَرُوا لنُصْرة الأفضل، ثم خرج إليه الأفضلُ في سابع شعبان وأدركه بنيق، وهي أعلى الغور، فأكرمه الملك العزيز، وبالَغَ في احْترامه وسأله الأفضل أن يرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيه، فأجاب إلى ذلك؛ ثم أشارَ عليه أصحابُه ألاَّ يفعل، فامتنع. وعاد الأفضل، وسار العَزيزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهلّ جماد سنة تسعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عاصفةٌ بالقاهرة مِنْ وَقْت العَصْر، وسقَطَ في ثالث الشهر بَرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيض وأصغَرُه قدر النّبق، وصار على جبل المقطم منه شيء كثيرٌ كالجبل الثّاني، ونقَل النّاس منه مدّةَ أربعة أيام؛ ثم سَالَ حتّى ملأه الخندق، ودخل الماءُ من المرامي الّتي في السّور إلى القاهرة، وعَلاَ، حتّى خِيف على البلد.

ذكر خروج الملك العَزيز لقَصْد الشّام ثانياً ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وما تقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قَلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابن الأثير الجزَري وحكّمه في البلاد، فقَصَد الأُمراء بالأذى والاطِّراح، وتشَاغَل الأفضَلُ عنهم. ففَارَقَ خدمة الأفضل فارس الدين ميمون القصري وشمس الدين وسنقر الكبير وعز الدّين سامة، وغيرهم. وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْريّة وانضموا إلى الملك العَزيز، وقالوا له: إن الأفضل مسلُوب الاختيار؛ وحَرَّضُوه على قَصْد دمشق؛ فخَرج إليها في سَنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة.

فلمّا اتَّصل خبرُ خُروجِه بالأفضل ركبَ من دمَشق في رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جَعْبَر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب، واستنجَد به أيضاً، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ في السّير إلى دمشق خوْفاً أنْ يسبقَه العزيز إليها، وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبة العزيز، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة الفَوَّار على مرحلتين مِنْ دِمَشق، واستمالَهُم وحذّرَهم من العزيز، فمالُوا إليه، واستمالوا أبا الهَيْجَاء السّمين، وفارقُوا العزيز وقَصَدُوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين رابع شوال من السّنة.

(١) مرج الصُّفَّر: من نواحي دمشق إلى الجنوب الغربي منها، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠١.

فلمّا وَصلُوا إلى دمَشق اتّفق العادلُ والأفضل، وتحالَفَا على قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه، على أن يكونَ ثُلُثُ الدّيار المصريّة للمَلِك العادل إقطاعاً والثُّلُثان للملك الأفضل. وسارُوا في طلب الْعَزيز، فَرجَع إلى الدّيار المصريّة وجَدّ في السّيْر ودخلَ القاهرة[١].

قال: ولمّا وَصلَ العادل والأفضلُ إلى القُدس سلّماه وأعمالَه وما يجاورُه من أعْمَال السّاحل لأبي الهيجاء السّمين، فرتّب فيه نُوّابه، وسار معهُما إلى الدّيار المصريّة. فنَزَل الملكُ العادل على بلبيس، وكان السعر ماشياً[٢] فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر وإنما خَشِي على الملك العزيز من الأمراء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُوا على الدّيار المصريّة، فقصدها لهذا السبب.

ولمّا ضاقَت الميرَةُ على العسكر الشّامي وقلّت أزوادُهم ندِمُوا على وصُولهم إلى الدّيار المصريّة؛ فأرْسَل الملك العادل إلى القَاضي الفاضل عبْد الرَّحيم في الاجتماع به، فأذِنَ له العزيزُ في ذلك، فخرج إليه فاسْتَبْشَر النّاس بخُروجه رَجَاء وقُوع الصّلح. ورَكِب العادلُ وتلقّاه على فَرَاسِخ[٣]، فاجتمعا، واستقرّت القواعدُ على أن يكون إقْطاعُ العادل بمصر على عَادَتِه، وأن تكون إقامتُه عِنْد الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفُو [العزيز][٤] عن الأسَدِيّة والأكراد.

واجتَمَعَ العادلُ بالأفضل وأمَرهُ بالرُّجوع إلى دمشق، ثمّ اجتمع الأفضَلُ بالعزيز، واستقرّ الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايَا جليلَة المقدار. ورَجَعَ الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهَيْجَاء السّمين، فدَخَلَها في المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ولم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل ما استوغَرَ خاطرَه، فعنْد ذلك قرَّر، مَعَ الملك العزيز، أن يُجهّز العساكر لتمهّد قواعدَ المُلك بالشّام وسائر البلاد، واتّفَقَا على أن يكون العزيزُ بدمشق والعادل ينوبُ عنه بالدّيَارِ المصريّة.

ذكر ملك الملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولمّا اتفقَ الملكُ العادل والملكُ العزيز على ما قرَّراه تجهَّز [الملك العادل][٥]

---

(١) انظر تفصيل ذلك في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) «وكانت أيام زيادة النيل، والأسعار غالية، والعلف متعذر» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٢٦.

(٣) سار عدة أميال لاستقباله.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

للمسير إلى دمشق وبرز بخيَامه من القاهرة في يوم السّبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [في][١] ثلاثة آلاف فارس. ثمّ بَرَز الملكُ العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خُروجه وداعُه لعمّه الملك العادل، وحث العساكر المجرَّدَة على الخروج. وأقام ببركة الجُبّ

فلمّا كان في العشرين من الشّهر اتّصَل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتَب الأسَدِيّة، وأنّه قبض على أموالٍ كانَتْ للعادِل بدمَشق، وأطلَقَ رهائن كانت عند نُوّابه، وأنّه وافق الظاهرَ صاحبَ حلب؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجَّهَا جميعاً ويأخُذَا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر، فاتَّفَقَا على ذلك وعَقَدا بينهُما يميناً.

وشرع الملكُ العزيزُ في تَجهيز رِجَال الحلقة والأعيان، ورَحَل هو وعمَّه الملك العادل من البركة في يَوم الثلاثاء ثامن جُمادى الأولى، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ في هذا النّهار مَنعهُ عن الحركة. وكان وُصُولهما إلى بلبيس في سَابع عشَر الشَّهر، وكمُلَت صحّة العَادل في العشرين من الشهر، وسَارَ إلى الشام علَى مَهَلٍ ورِفق.

فلمّا تحقَّق الملكُ الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشَار شيوخ دولته، فأشارُوا عليه أنْ يستقْبل أخاه وعمه ويسلِّم لهُما الأمر؛ وأشار وزيرُه ضياءُ الدّين ابن الأثير الجَزري بالتَّصميم والمخَالَفَة، فرَجع إلى رأيه، وحصَّنَ البلد، وفرّق الأمراء على الأسوار. فلمّا رأى شيُوخ الدولة وأكابرُها أنَّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلُوا الملكَ العزيز والملكَ العادل في انْتهاز الفُرصة؛ فركبَا بعساكرهما وتأهّبَا في يوم الأربعاء السادِس والعشرين من شهر رجب وخَرَج أهلُ دمشق لِقتالهم؛ والْتَقَوْا في السّابع والعشرين من الشهر. فلم يكُن بأسْرع من انهزام العَسْكر الشامي، وتبِعَهم العزيز والعادل حتى ألْجأوهم إلى سُور البلد، ودخلوا دمشق[٢]، وتبعَهم العسكر، فمُلكت البلد.

فعِندما ركبَ الملكُ الأفضل إلى خَيمة أخيه الملك العَزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قالَ: ودخل الملكُ العادل ومَنْ معه باب تُوما والباب الشّرقي، ونَزَل بالدّار الأسدية، ودَخَلَ الملكُ العزيز من باب الفَرج وباب في دار عمّته الحساميّة[٣]. ومَلَك العزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبَة في يوم الجمعة الثَّامن والعشرين من الشهر.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) في الأصل «من دمشق» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) اسمها ست الشام وهي معروفة بالحسامية. وهي والدة حسام الدين بن لامين. وتنسب إليها مدرسة ست الشام بدمشق. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٦٣.

قال: ولـمَّا ملك الملكُ العزيز دِمَشق ندم على ما كان قرر من إقامَته بالشام وتَمْكين عمه الملك العادل من الدّيار المصريّة واعْتَذَر إلى أخيه الملك الأفضل في السّر. فأظْهَرَ الأفْضَل سِرَّهُ لمن مَعه فظَنُّوا أن هذه خديعَة. فأرسل إلى العَادل وأعْلَمه بمُرسَلة العزيز، فعتَبَه العادل، فأنكر الحال. وخَرَجَ الأفضل إلى صَرْخد[١] وقُرِّر لَهُ في كلّ سنة مائتي ألف درهم من صرخد وغيرها، وهو كارهٌ لذلك. وسألَ أن يكون بمكّة؛ وينقَطع إلى الله تعالى، وينزل عن المُلك، فلم يُجِبْه العزيز.

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صَرْخد يوم الاثنين، ثاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكانت مدّة ملكه لدمشق[٢]، منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاثَ سنين وخمسة أشهر.

ودَخَلَ الملكُ العزيز قلعَةَ دمشق واستقر بها في يوم الأربعاء رابع شَعْبان من السّنة المذكورة، وجَلَس يوم الجمعة بدَارِ العَدْل وأسقط مِن المكُوس بدمشق ما هو مقَرّرٌ على سُوق الرّقيق وسُوق الدّواب ودَارِ البطّيخ، والملاهي، والعصير، والفَحْم، والحديد، وسَبْكَى الفولاذ والزّجاج.

قال: وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره.

ونُودي في دمشق أن يلْبَس أهل الذِّمَّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمَّا جَلَس بدَار العَدْل دخلَ عليه رجلٌ له هيئَةٌ حسنة، فما شكّ العزيز أنّه من الأشْراف، فلمّا عَلم أنّه ذمّيٌّ أمر بذلك.

قال: ولاطَفَ الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النّيابة، فأجاب إلى ذلك بَعْد امتناع. وسلّم ديوان دمشق لصفيّ الدّين بن شُكر[٣] كاتب العادل.

وفارقَ الملكُ العزيزُ دمشق في العَشْر الأوسط من شعبان، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استَخْلَف الملك العادل وسلّم إليه دمشق وما هو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال؛ والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً في رابع شهر رمضان؛ وفَوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمير فخر الدّين إيَاز جهارَكس؛ وضمّن الخُمور في كلّ سنة بسبعَة

---

(١) صرخد: قلعة حصينة من أعمال دمشق بجوار بلاد حوران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠١.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٤.

(٣) هو عبد الله بن علي صفي الدين بن شكر، وزير الملك العادل الأيوبي، ثم وزير الكامل الأيوبي، كانت وفاته سنة ٦٢١ هـ/ ١٢٢٥ م. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٢٠.

عشر ألف دينار، فتجاهَر النّاسُ بها وظهر الفَساد وفشا في النّاس؛ واجتمع الرّجال والنّساء في شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار، سيّما في الخَليج وساحِل مصر؛ ورتّب ضمان الخمر في النّفَقَة على طعام السّلطان؛ وهذه من البَلايا التي لم يُسْمع بمثلها، فإنّ عادَة الملوك والأكابر [أن][١] يجتهدوا أن يكون مأكَلُهم من أجَلّ الجهات كالجَوالي[٢] وما يُنَاسِبُها. وبسبب إطلاق الخُمور كثُر القتل بالقاهرة والجراحات، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغَلَت الأسعار في هذه السّنة بالدّيَار المصريّة، واشتَدَّ الأمرُ على النّاس، وكثُر الوباء، وبلغ القمح كلَّ أردبّ بدينارَين، وأظنُّ الدّينار ثلاثةَ عشر درهماً وثُلُث درهم، وهذا كان نهايَة الغَلاء في ذلك العَصر.

ولقد وصف[٣] الفَاضل من عظم ما حَلَّ بالنّاس غلوّ السّعر أمراً عظيماً فكيف لو أدرَك الفاضل الديار المصريَّة في سنَة خمسٍ وتسعين وستّمائة، وقد أبيع القَمح سعر الأردب ثلاثةَ عشر ديناراً ونصفَ دينار وأبيعَ الفرُّوج بخمسين درهماً، ورطل البطّيخ الأخضر بأربعة دراهم، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهماً.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الرّحيم[٤]، قدّس الله رُوحه ونوَّر ضريحه، بقنا من أعمال قُوص ودُفن بجبّانتها، وضريحُه معروفٌ هناك من أعظم مزارات أهل الصَّلاح بالدُّنيا.

وممَّا نُقِل من كلامه، قدّس الله روحه، وقَدْ سمِع المؤذِّن يقول: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فقال الشيخ شهدنا بمَا شَاهَدْنا. ومِن كلامه: لا يستطيع العارِفُ أنْ يوصِّل إلى مَنْ لا يعرفُ حقيقةَ ما عَرف، كما لا يستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَهِ[٥] حقيقة الألوان. وعُرض هذا الكلامُ على الشّيخ عزّ الدّين عَبْد العزيز[٦] بن عبد السّلام، رحمه الله ونفع به، فقالَ هَذَا كَلامُ مَنْ غرِق في الحقيقة.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة تتفق والسياق.

(٢) الجوالي: بمعنى الجزية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩١.

(٣) «وصل» في الأصل، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي. توفي سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م. الأدفوي: الطالع السعيد ص ٢٩٧، رقم ٢٣٠.

(٥) الأكمه: الأعمى. ابن منظور: لسان العرب (كمه).

(٦) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القسم بن الحسن، سلطان العلماء السلمي الدمشقي ثم المصري الشافعي ولد سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م أو ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. توفي ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٠١. والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨، ص ٢٠٩، رقم ١١٨٣.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحجّة سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة مَلَك الفرنج مدينةَ بيروت من المسلمين وسببُ ذلك أنَّ فرنج السّاحل راسَلُوا مَلِك الألمان[١] في سنة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة، وكان قد مَلَك جزيرة صقلية، وعرَّفُوه أنّ المسلمين قد اشْتَغَلُوا بحرب بعضهم بعضاً؛ فأقبل في مراكبه[٢] إلى عكّا. وصادَفَ ذلك سقُوط الكُنْدهري[٣] ملك عكا من شُبَّاك فهَلك، فملَك مِلكُ قبرص[٤] عكّا، وخرج إلى بيرُوت فملَكها من المسلمين، وكان بها عزّ الدين أسَامة. فعمّرها الفرنج ولَمْ تَزل بأيْديهم إلى أنْ فتحها الملك الأشْرفُ[٥] في سنة تسعين وستّمائة، على ما نذكرهُ إن شاء الله تعالى في أخبار دولة التُّرك.

وفيها خَرَجَت المراكبُ الحربية لقَصْد بلاد الفرنج. فوجَدُوا بُطَشاً للفرنج فملكوها، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة.

وفيها أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهارَكس النّاصري القيْسَاريّة المعروفة به بالقَاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية[٦].

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيّوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفي يوم الأربعاء الثالث من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيّوب، أخو السّلطان الملك النّاصر [صلاح الدين][٧] بالمنصُورة التي أنشأها باليمن. وكان قد طَرَد ولدَه شمس الملُوك [إسماعيل][٨] إلى

(١) هو الامبراطور هنري السادس، رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٦٩.
(٢) انظر رنسمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ١٦٩.
(٣) هو هنري كونت ـ شامبانيا ـ قتل سنة ١١٩٧ م. رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٧٢.
(٤) «ملك الألمان» في الأصل، والتصحيح من تاريخ الحروب الصليبية لرنسمان ج ٣، ص ١٧٤.
(٥) هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي. تولى الحكم سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م. وكانت مدة ولايته على مصر ٣ سنوات وشهرين وخمسة أيام. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٢.
(٦) انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٨٧.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم.
(٨) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح الاسم. ورد في مفرج الكروب، لابن واصل أن أباه أبعده إلى الشام، ج ٣، ص ٧٣.

الحجاز. فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليَمن وملَكَ بعْدَه.

وإلى سيْف الإسلام هذا يُنْسَب البستان[١] الذي كان بظَاهر القاهِرة، وهو الآن عمائر تُعْرفُ أرضها بحِكر سَيْف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في ليلة الأحد العشرينَ[٢] من المحرّم سنة خمس وتسْعين وخَمسمائة بداره بالقاهرة.

وكانَ قد خرجَ إلى الفيُّوم لقَصْد الصّيد إلى ذات الصّفا، فحُمَّ، فعاد إلى القاهرة، واشتدّ مرضُه، فمات. وقيل إنّه ساق خَلْف الصّيد فكَبا به فرسُه مرّةً بعد أخرى، فماتَ بعد ثلاثٍ، ودُفن بداره بالقاهرة [وكان مولده بالقاهرة][٣] في ثامن جُمادى الأولى سنةَ سبع وستّين، وقال الفَاضِل في جُمادى الآخرة. فكانت مدّة عمره سبْعاً وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثني عشر يوماً؛ ومدّة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَوْماً.

وكان رحمهُ الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه شجاعاً حسَن الأخلاق.

وخَلَّفَ من الأولاد أحد عشر ولداً، وهم الملكُ المنصُور محّمد، القائمُ بعْده؛ وعلي، وعمر، وإبراهيم؛ وعيسى؛ ومحمود؛ ورعاه؛ ويوسف؛ ويونس؛ وولدان صغيران. ولم يخلِّف في خزانته ذهباً ولا دراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل.

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد ابن الملك العزيز[٤] ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيّوبية بالديار المصريّة

ملَك الدّيار المصريّة بعدَ وفاة أبيه في يَوم الأحد العشرين من المحرّم سنَةَ خمس وتسعين وخمسمائة بوصية منه. ولمَّا مَات الملكُ العزيز كان عَمُّه الملك العادل يُحاصِر

(١) بستان سيف الإسلام: واقع شرقي بركة الفيل، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٣٣. وابن دقماق: الانتصار، ق ٥، ص ٤٥.

(٢) «توفي في الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من المحرم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٦. و«السابع والعشرين» في مفرج الكروب لابن شامة، ج ٣، ص ٨٣. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٤٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) أخباره وترجمته في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٨٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٧٦. وخطط المقريزي، ج ٢، ص ٢٣٥، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٠، والكامل لابن الأثير، أخبار سنتي ٥٩٥ و٥٩٦ هـ. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٣١.

مَارِدِين فاجتمعت الأمراء الصَّلاحية وعَقَدُوا الأمر لولدِه ولقَّبُوه بالملك المنصور، وكانَ قبل ذلك يُلقَّب بالنَّاصر وإنما تركُوا النّاصر لموافَقَته لَقَب الخليفة[1] وركبَ في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم، وشقّ القاهرة من باب زَويلة إلى باب النّصر، والأمراء في خِدمته. وكتب الأمراء إلى الملك العَادل يعزُّونه في ابْن أخِيه الملك العزيز، ويذكُرون اتفاقهم على تنصيب[2] ولَده في السَّلطنة بعْده، وأنهم على طَاعة الملك العادل.

ثم اجتمع الأُمراء الأسَدية والصَّلاحية بظَاهِر القَاهرة وقالوا: إن الذي فعَلنَاه من حِفظ الملك العَزيز في وَلَدِه هو نِعْم الرأي، وإنما هُو صَغير السِّن لا يفهم ما يُقال له، ولا يقُوم بأعباء المُلك، ولا بد لنا من كبير مِنْ هَذا البيت يُربِّيه ويكْفُلُهُ ويدبّر أحوال الدَّولة، ولَيْس لها مثلُ الملك العادل، وهو الآن مشغول ببلاد الشّرق وقصَدُوا أن يكتُبوا إليه ويَستدعوه فكره بعضُهم شِدّة أخلاقه ومُمَاقَتَتَهُ[3] للجند فعَدلوا عنه واتفقوا على استِدْعاء الملك الأفضل من صَرخد.

وأن يتولَّى أتابكيَّة الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله، أخوه الملكُ الظافر خِضْر، فاستَقرّ ذلك.

وكتبوا إلى الأفضل وذَلك في يوم الخميس سَادس عشَر صفَر من السّنة ونزل الملك الظّافر بدَارِ السّلطَنَة في القاعة العزيزيّة، وقام بنيابة السلطنة.

قال: ولمَّا وصل كِتابُ الأمراء إلى الأفضل خرجَ من صَرْخَد في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصولُه إلى القاهرة في يوم الخميس السّابع من شَهر ربيع الأول سنةَ خمسٍ وتسعين وخمسمائة؛ فبرزَ الناس لِلِقائه، وزُيِّنَت المدينةُ لقُدومه. ولمَّا دخل أقرَّ الخُطبةَ باسم الملك المنصُور ابنِ أخيه، ونَقَش السّكّة باسمه، وكان الأفضل يُذكر بعده. وكَتَب إلى عمّه الملك العادِل يبذُل له الطَّاعة والانْقِياد إلى أمره.

(١) هو العباس أحمد الناصر لدين الله. تولى الخلافة من سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م إلى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٣.
(٢) في الأصل: «نصب» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) المماقتة: البغض، ابن منظور: لسان العرب (مقت).

قال: ولمَّا وصَل الملكُ الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدّين إيازجهارَكس وزين الدين قراجا على أنهما يلتقيَانه، فتوجها إلى الملك العادل. ثم خرج في يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّين[١] سراسُنْقر بمماليكه وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل، وسَار إليه، إلى مَارِدِين.

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الدّيار المصريّة

قال: ولمّا استَقَرَّ الأفضل في تدْبير الدّولة بالدِّيار المصريَّة، ولم يَبْقَ للملك المنصُور معه إلا الشّركة في الخُطْبَة، حملَه أصحابُه على قَصد دمشق وحَصْرها، وقالوا: هي لك بوصِيّة أبيك الملك النَّاصر. فعزَم على المسير إليها، وأمر العَسَاكر بالاسْتعداد لذلك. وبَرَزَ إلى المخيّم ببركة الجُبِّ، هو وابن أخيه الملك المنصُور، في يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستحثَّ العسكر على الخروج.

ووصل إليه في يوم الأربعاء، السّادس من جُمادى الآخرة، رسولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَاحب حَلب وهو يَلُومُهُ على إنْفَاذ الرُّسل بالطَّاعة للعادل، ويقول: إن أكثر الناس كانوا منْصَرِفين عنه فانصَرفوا إليه، وحثّه على سُرعة قَصْد دِمشق؛ ويقول: اغْتَنم الفُرصة ما دام العَادِل في حصَار مارِدِين؛ ووَعَدَه بالوُصول إليه فأَكَّدَ ذلك ما عنده، وأقام ببركة الجُبّ وهو يحثُّ العسْكر على سُرعة الحركة، إلى ثاني شهر رَجب، فرحل عنها.

وفي مدّة مقامه ببركة الجُبّ أحضر قاضي القضاة والشُّهود، وأشهدهم على نفسه أنه وقف المطريَّة[٢] ومُنْية الباسل[٣] والرّباع المسوّغة والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة.

قال: ولمَّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ما كان بِاسْم العَادل وإلْزَامه بالدّيار المصريّة؛ وأقْطَعَه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّده وأعاده إلى القاهرة، فاعتُقل بالقَلْعة. وتَمادَى الملك الأفضل في سَيْره إلى دمشق. هذا ما كان منه.

وإمَّا الملك العادل فإن سراسُنقر النَّاصري وصَل إليه بمارِدِين واستحثّه على العَوْد

---

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٤٧، وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٩٢ ورد «أسد الدين».

(٢) المَطَرِيّة: من قرى مصر، عندها الموضع الذي به شجر البلسان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٩.

(٣) منية الباسل أو منية الباسك أو منيا: تابعة لمحافظة الجيزة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق ٢، ج ٣، ص ٣١.

إلى دمشق، فأوصَى ولدَه الملكَ الكامل بمُحاصَرتها. وفارقَها العادلُ لخمسٍ بقينَ من شهر رجب. ووصل إلى دمَشْق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحْصين البلد. ووصلت العساكرُ المصرية في يوم الخميس، ورتَّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصُور بنُ الملك العزيز في الْقَلْب وزحَفَ على الْبَلد فأخَذ قصْر حجَّاج والشَّاغور. وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحراق قصْر حجّاج، فأُحرق، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال. وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّلامة، وانتهَوْا إلى السُّوق الكبير، وخرجُوا من باب الفرَاديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر[١] ثمّ تأخّر إلى مَيدان الحصى؛ واستقر بهذه المنْزِلة أكثر من ستَّة أشْهُر.

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص، وعسكر حماه دُون سُلطانها، وحسام الدّين بشارة صاحب حمص بانياس، كان من أكابر الدّولة، فأشار بالصلح.

قال ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق وَمَنَعَ مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتدَّ الأمر على أهلِ دمشق، واستغاثَت الرَّعايا على العادل، وتسلَّطوا عليه، وحملوه على تَسْليم البلَد. وانْتَقَل أكثر مَنْ في البلد إلى العَسْكر، ونصبوا به أخْصَاصاً ومساكن؛ وأُقيمت الأسواقُ به.

فلمَّا اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستَمِيله وقال: أنا أسلّم البلَد إليكَ دونَ غيرك، فنُمِي الخبرُ إلى الأفضل، فاضطرَبَ رأيُهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر فأجَابَاهُ إلى ذلك. وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ الظّاهر قد صَالَحني، وإلى الظّاهر بمثل ذلك.

واتّفقَ في فَسَادِ حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعاتٌ بالدّيار المصريَّة جليلَةُ المقدار، فحَسدَهم آخرون عليها، فكانوا يأتُون إلى الملك الأفضل ويقولُون: إنَّ فلاناً قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل

(١) في الأصل: «وسير الأفضل بالديوان الأخضر» والتصحيح من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٩٥.

فَيَرى في وجْهِه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه، فلا يشكّ ذلك الأميرُ في صِدْق النَّاقل فالْتَحَق به جماعةٌ من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل ابن المِلك العَادل من الشَّرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتُّركمان فاشْتَدّ به عضُد أبيه. وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العَقَبة، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر في يوم الاثنين ثاني عشري صفر؛ وعَادَ الظّاهر والمجاهد[1].

واشتدّ البرْد في العَسْكر المِصري فعاد الأفضلُ إلى الدّيار المصريّة، وسَاقَ العَادل بعسَاكره في أثره. فكان وُصُول الأفضل إلى بلبيس في حَادي عشري شهر ربيع الأول فأشار عليه أصحابه بالإقامة بها.

قال: ولَمَّا وصَلَ المَلكُ العادِل إلى تلّ العُجول، أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه، ورَاسَل الأفضل، فعاد جوابه أنه لا يصالحُه حتى يفارق الأمراء الصلاحية.

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا وعزموا على المسير إليه.

هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك [العادل][2].

[ومضى الملك العادل يطوي المراحل إلى أن دخل الرمل وبلغ الملك الأفضل ذلك، فرام جمع عساكره، فتعذر ذلك عليه لتفرقهم في أخبارهم، وتشتتهم في الأماكن التي يربعون فيها خيلهم، فخرج في جمع قليل، ونزل السانح.

ووصل الملك العادل، وضرب معه مصافاً، فانكسر عسكر الملك الأفضل، وولوا منهزمين لا يلوون على شيء.

ثم سار الملك العادل بالعساكر، ونزل بركة الجب، وسير إلى الملك الأفضل يقول له: «أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة، لأنها أعظم معاقل الإسلام، ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك».

فاستشار الملك الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلاً، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوضه عن الديار المصرية بالشام، فامتنع من ذلك، فطلب أن يعوضه حران والرها

(١) هو المنصور محمد بن تقي الدين عمر. تولى الحكم على حماه في سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م وبقي إلى سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م. سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ١٤٧.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

فامتنع، فطلب منه جافي وجبل جور وميافارقين وسميساط، فأجابه إلى ذلك، وتسلم القاهرة منه][١].

[انتهى الجزء الثامن والعشرون من كتاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع والعشرون، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل][٢].

(١) ما بين حاصرتين إضافة لربط أحداث نهاية هذا الجزء بالأحداث القادمة. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) ما بين حاصرتين خاتمة للجزء.

فهرس المصادر والمراجع

- أولاً: القرآن الكريم.

١ ـ الأئمة الاثنا عشر لابن طولون، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٥٨.

٢ ـ اتعاظ الحنفا: المقريزي. أحمد بن علي. (٣ أجزاء) تحقيق جمال الدين الشيال... محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣.

٣ ـ أخبار الدول المنقطعة: ابن ظافر (جمال الدين بن علي) تحقيق أندريه فريه المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، ١٩٧٢.

٤ ـ أخبار مصر: المسبحي (محمد بن عبيد الله بن أحمد) تحقيق أيمن فؤاد سيد دنياري بيانكي، المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٧٨.

٥ ـ أخبار مصر لابن المأمون، تحقيق أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣.

٦ ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تأليف محمد بن علي بن حمادة، تحقيق م ڤوند هايدن، باريس، الجزائر، ١٩٢٧.

٧ ـ الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي، تحقيق عبد الله مخلص، مصر ١٩٢٤.

٨ ـ الاعتبار لأسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد)، نشره فيليب حتي برنستون ١٩٣٠.

٩ ـ أعلام الإسكندرية: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٧.

١٠ ـ افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (النعمان بن محمد بن منصور بن حيون) تحقيق فرحات الدشراوي، تونس ١٩٧٥.

١١ ـ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار لحسن باشا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.

١٢ ـ القاموس المحيط للفيروزابادي دمشق.

١٣ ـ الانتصار: ابن دقماق (إبراهيم بن محمد) نشر فولرز، بولاق ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩٣ م.

١٤ ـ الإمام المستنصر بالله الفاطمي: الدكتور عبد المنعم ماجد القاهرة، ١٩٦١.

١٥ ـ البداية والنهاية: ابن كثير (إسماعيل بن عمر) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.

١٦ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.

١٧ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي (الحافظ جلال الدين) الطبعة الأولى ١٩٢٦.

١٨ ـ البيان المضرب لابن عذاري المراكشي (١ ـ ٢) تحقيق الأستاذين كولان وليڤي بروڤنسال (ليدن ـ ١٩٤٨).

١٩ ـ تاريخ الحروب الصليبية. رنسمان ترجمة السيد الباز العريني، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩.

٢٠ ـ تاريخ الدول الإسلامية: سليمان (أحمد السعيد) جزءان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩.

٢١ ـ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية: عطية القوص، القاهرة، ١٩٧٦.

٢٢ ـ تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم المصري، تاريخ الدول والملوك، المجلد الرابع: البصرة، ١٩٦٧ والمجلد ٧ ـ ٩ بيروت، ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢.

٢٣ ـ تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٧.

٢٤ ـ تاريخ ووصف قلعة القاهرة، كازانوفا. ترجمة أحمد دراج، القاهرة، ١٩٧٤.

٢٥ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٩.

٢٦ ـ تاريخ الدولة السلجوقية لصدر الدين أبي الحسن علي الحسيني، تحقيق محمد إقبال (لاهور، ١٩٣٣).

٢٧ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لعز الدين ابن الأثير، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣.

٢٨ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر (١ ـ ٢) تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤.

٢٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٠ ـ تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (١ ـ ٧) بولاق ١٢٨٤.

٣١ ـ تاريخ يحيى الأنطاكي، نشره لويس شيخو، بيروت، ١٩٠٩.
٣٢ ـ تكملة تاريخ ابن البطريق: يحيى بن سعيد الأنطاكي. نشر كراتشكوفسكي، ١٩٢٤.
٣٣ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران، دمشق ١٣٥١ هـ.
٣٤ ـ الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية: محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٣٧.
٣٥ ـ الحركة الصليبية: سعيد عبد الفتاح عاشور (١ ـ ٢)، القاهرة، ١٩٦٢.
٣٦ ـ الحروب الصليبية كما رآها العرب لأمين معلوف ـ تعريف الدكتور عفيف دمشقية، دار الفارابي للنشر، بيروت، ١٩٨٩.
٣٧ ـ الحروب الصليبية لسيد علي الحريري، تحقيق عصام محمد شبارو، دار التضامن، ومؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٨.
٣٨ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي، مطبعة إدارة الوطن القاهرة، ١٢٩٩ هـ.
٣٩ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، عبد القادر بن محمد (١ ـ ٢)، القاهرة، ١٩٨٨، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.
٤٠ ـ الدرة المضية في أخبار الدول الفاطمية، للدواداري (أبي بكر بن عبد الله بن أيبك) تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١.
٤١ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤.
٤٢ ـ ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا، ط ٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٦ (١ ـ ٤).
٤٣ ـ ذيل تاريخ دمشق: ابن القلانسي، نشر أمدروز، بيروت، ١٩٠٨.
٤٤ ـ رحلة ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير، بيروت، ١٩٦٤ م.
٤٥ ـ الروضتين، أبو شامة، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢.
٤٦ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري (محمد بن عبد المنعم)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، ١٩٧٥ ـ ١٩٨٤.
٤٧ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم (١ ـ ٢) تحقيق الدكتور سامي الدهان، دمشق، ١٩٥١ ـ ١٩٥٤.
٤٨ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي (أحمد بن علي) (١ ـ ٢)، تحقيق د.

مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨.

٤٩ ـ سيرة ابن طولون: البلوي (عبد الله بن محمد بن عمير)، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٨ هـ.

٥٠ ـ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد)، ٨ أجزاء، بيروت.

٥١ ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية: السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٦٣.

٥٢ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨.

٥٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: القلقشندي (أحمد بن علي)، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٩ ـ ١٩٢٢.

٥٤ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد: الأدفوي (جعفر بن ثعلب)، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦.

٥٥ ـ طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (عبد الوهاب بن علي) ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٧٦.

٥٦ ـ العبر في خبر من غبر: الذهبي (محمد بن أحمد)، نشر صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، ٥ أجزاء، الكويت، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦.

٥٧ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين المكي، تحقيق الأستاذين فؤاد سيد ومحمد طاهر الطناجي، القاهرة، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٩.

٥٨ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: العيني (محمد بن أحمد، بدر الدين).

٥٩ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١ ـ ٣) تحقيق برحشتراسر، القاهرة، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣.

٦٠ ـ الفتح القسي في الفتح المقدسي للأصفهاني (عماد الدين بن محمد) وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٥.

٦١ ـ فلسطين في العهد الإسلامي: لي سترانج، وزارة الثقافة والإعلام، الأردن، ١٩٧٠.

٦٢ ـ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: محمد رمزي. قسمان في ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣.

٦٣ ـ القاموس المحيط: الفيروزابادي (محمد بن يعقوب الشيرازي)، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٢.

٦٤ ـ قوانين الدواوين: ابن مماتي (الأسعد شرف الدين أبو المكارم).

٦٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (علي بن أبي الكرم)، ١٣ جزء، بيروت، ١٩٨٣.

٦٦ ـ كنز الدرر وجامع الغرر: ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله)، تحقيق صلاح الدين المنجد (الجزء السادس) وتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (الجزء السابع)، القاهرة، ١٩٧٢.

٦٧ ـ الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة: ابن الزيات (محمد الأنصاري) بولاق، ١٣٢٥ هـ.

٦٨ ـ لسان العرب: ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)، ١٥ جزء، دار صادر بيروت.

٦٩ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية لجمال الدين الشيال، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٨.

٧٠ ـ المختصر في أخبار البشر: أبو الفدا (إسماعيل بن علي) ٤ أجزاء، استانبول، ١٩٣٨.

٧١ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، المجلد الثامن (١ ـ ٢)، حيدر أباد الدكن، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

٧٢ ـ المسلمون والبيزنطيون في شرقي البحر المتوسط. أحمد عبد الكريم سليمان، القاهرة، ١٩٨٢.

٧٣ ـ مصر في عصر الإخشيديين، سيدة إسماعيل كاشف، القاهرة، ١٩٧٠.

٧٤ ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق: محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٨.

٧٥ ـ معجم الأباء لياقوت الحموي (١ ـ ٢٠)، القاهرة، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

٧٦ ـ معجم الأسر الحاكمة لزنبارو.

٧٧ ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي، ٥ مجلدات، بيروت.

٧٨ ـ معجم البلدان الليبية: الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس، ١٩٦٨.

٧٩ ـ معجم السفن الإسلامية: درويش النخيلي، القاهرة، ١٩٧٩.

٨٠ ـ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري. نشر دي سلان، الجزائر، ١٨٥٧.

٨١ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) (١ ـ ٣) نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠.

٨٢ ـ الملل والنحل: الشهرستاني (محمد عبد الكريم) تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل (٣ أجزاء) القاهرة، ١٩٦٨.

٨٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٥ ـ ١٠)، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨ هـ.

٨٤ ـ المنتقى من أخبار مصر: ابن ميسّر، تحقيق أيمن فؤاد سيد. المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، ١٩٨١.

٨٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي (أحمد بن علي)، (١ ـ ٢)، بولاق، ١٢٧٠/ ١٨٥٤.

٨٦ ـ الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤.

٨٧ ـ النجوم الزاهرة: ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، ١٦ جزء. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م.

٨٨ ـ نصوص من أخبار مصر: ابن المأمون (موسى بن المأمون البطائحي)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي، بالقاهرة، ١٩٨٣.

٨٩ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني (١ ـ ٨)، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨.

٩٠ ـ النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: عمارة اليمني (أبو الحسن نجم الدين)، باريس ١٨٩٧ م.

٩١ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ٢٧ جزء، القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٨٥.

٩٢ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ابن شداد (يوسف بن رافع بهاء الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤.

٩٣ ـ الوافي بالوفيات للصفدي (١ ـ ٩) مطبوعات دار صادر، بيروت، ١٩٦١.

٩٤ ـ الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي: محمد حمدي المناوي، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

٩٥ ـ وصف قلعة الجبل: كريزويل، ترجمة جمال محمد محرز، القاهرة، ١٩٧٤.

٩٦ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان (أحمد بن محمد)، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢.

٩٧ ـ الولاة والقضاة: الكندي (محمد بن يوسف) صححه، رفن كست، بيروت، ١٩٠٨.

٩٨ ـ هدية العارفين: إسماعيل باشا البغدادي، استنبول، ١٩٥١، (١ ـ ٢) في مجلد واحد.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء التاسع والعشرون

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكر أخبار السُّلْطان الملك العادل[1] سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وسلطنته

كان دخول السلطان الملك العادل إلى القاهرة في يوم السبت، لاثنتيْ عشرة ليلةَ بَقِيتْ من شهر ربيع الآخر[2]، سنة سِتٍّ وتسعين وخَمسمائة - في يوم خروج الملك الأفضل[3] منها.

فاستبقى رضاءَ الأمراء النَّاصِرية[4]، بإبقاء الخُطبة للملك المنصور ابن الملك العزيز. وأعاد قاضيَ القضاة: صدرَ الدين عبد الملك بن عيسى بن دَرْباس[5]، إلى

---

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٧٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٤٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٦٥، والكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ١٥٥، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ٢، ص ٢٠٢، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٥٣، وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ص ٢٠٠.

(٢) «لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٤٦،. «دخل القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ١٠٨.

(٣) هوالأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب.
جرت معركة بين الفضل والعادل انتهت بانكسار الأفضل وهزيمته ثم دخل سيف الدين أزكش بينهما، وتم الاتفاق على أن يعطي العادل ميافارقين وجور وديار بكر للأفضل ويأخذ منه مصر، ورحل الأفضل من مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٣٥.

(٤) هم الأمراء الصلاحية، أتباع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وكانوا يؤيدون العادل في تحركاته ومعاركه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٣٥.
«وسار الملك الأفضل إلى مصر، فوصل بلبيس فأقام بها ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصرية، وقد حلفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك، إلى أن يكبر فساروا على هذا. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ١٥٥.

(٥) هو صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الكردي الشافعي، فوض إليه السلطان صلاح الدين =

القضاء ـ وكان الأفضل قد عزله واستَقْضَى زينَ الدِّين عليَّ بن يوسف[١].

واستدعى الملكُ العادل ابنَه الملك الكامل من حَرَّان[٢] إلى الديار المصرية، لِيَسْتَنِيبَه بها. فسلَّم تلك الولاية لأخيه المالك الفائز، ووصل إلى دمشق، في سادس عشر شعبان من السنة ـ ومعه شمس الدين، المعروف بقاضي دَارَا، وهو وزيرُه. وخرج من دمشق في الثالث والعشرين من الشهر، ووصل إلى القاهرة لثمان بقين من شهر رمضان. فالْتَقَاهُ والدهُ وأنزله بالقصر. ثم ركب إليه بعد يومين، واستصحبه معه إلى الدار ـ وكان قد زَوَّجَه بابنة عمه الملك الناصر، فدخل بها.

قال: وركب الملك العادل ـ في يوم الاثنين ـ بالصَّنْجَق[٣] السُّلْطاني. وأمر الخطَباءَ بالخُطْبة له ولولده: الملك الكامل بولاية العهد من بعده ـ بعد الخليفة[٤] ـ فخُطب لهما في الحادي والعشرين من شوال، سنة ست وتسعين وخمسمائة. وانقطعت خُطبة المنصور ابن الملك العزيز، وأولاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فلم تَعُدْ إلى الآن. وانتقل مُلْك الديار المصرية إلى البيت العادِلي، فكان فيهم إلى أن انقرضت الدولةُ الأيُّوبيَّة.

قال المُؤَرِّخ: ولم يقطع الملكُ العادل خُطبةَ الملك المنصور إلا بعد أن أحضرَ الفقهاءَ والقضاةَ، واستفْتاهم: هل تجوز ولاية الصغير والنيابةُ عنه؟ فقالوا: إن الولاية غيرُ

= الأيوبي القضاء بالديار المصرية سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م فجعل صدر الدين القضاة في سائر الديار المصرية شافعية، فاشتهر مذهب الشافعية. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٩٨. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٣.

(١) هو زين الدين علي بن يوسف عبد الله بن بُندار الدمشقي، ولي قضاء الديار المصرية سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ثم عزل ثم أعيد ثم صرف سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ثم أعيد وذلك لما انتزع الملك الأفضل علي ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب مملكة مصر من ابن أخيه المنصور محمد العزيز عثمان. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٥٤ ـ ١٥٣.

(٢) حرّان: بتشديد الراء وآخره نون: مدينة عظيمة مشهورة في جزيرة أقور وهي قصبة ديار مُضر، وهي على طريق الموصل والشام والروم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧١.

(٣) الصنجق: لفظ تركي معناه الرمح، والمقصود هنا الراية، والرايات أنواع منها راية عظيمة من حرير أصفر، مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه وتُسمى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨.

(٤) هو الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة في أول ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩م، وله ثلاث وعشرون سنة، وتوفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٩٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣١، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤٨.

صحيحة، ولا تصح النيابة ـ لا سيما في السلطنة ـ فإنه لا حَقَّ فيها للصغير. فأحضر الأمراء وخاطبهم في اليمين له، فأجابوه إلى ذلك، وحَلَفُوا له. قال: وركب الملك الكامل في يوم السبت بالصَّنْجَق السلطاني ـ على عادة الملوك.

قال: ولما وصل الملكُ العادل، كان الصاحبُ: صفي الدين عبد الله بن علي بن شُكْر[(١)] في صُحْبَتِه، فاسْتَوْزَرَه، وكان ـ على ما حُكي ـ قد استَحْلَف الملكَ العادلَ بالبيت المقدس، أنه متى حصل له مُلْكُ الديار المصرية يُمكِّنَه من المصريّين، فحَلَفَ له على ذلك. فلما ولي السلطنة استوزره، ومَكَّنَه.

ذِكْر الغلاء الكائن بالدّيار المصرية في الدولة العادلية وهو الغلاء المشهور

قال المؤرخ: كان ابتداءُ هذا الغلاء من استقبال شوال ـ وقيل: ذي القعدة ـ سنة ست وتسعين وخمسمائة، إلى ذي القعدة سنة تسع وتسعين، فكانت مدته ثلاث سنين وشهراً.

وذلك أن قَرار النيل في سنة ست وتسعين كان مقداره ذراعان[(٢)]. وبلغ غايته إلى اثني عشر ذراعاً[(٣)] وإحدى وعشرين إصبعاً. فصام الناس ثلاثةَ أيام، قبل يوم التَّرْوِيَة[(٤)]، واسْتَسْقَوْا ثلاثة أيام، آخرها يوم العيد، ثم أخذ الماءُ في النقص، فاشتد الغلاء[(٥)] وامتد

(١) هو الصاحب صفي الدين أبو محمد عبد الله بن المخلص أبي الحسن علي بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن المنصور الشيبي القرشي المالكي، المعروف بابن شكر. ومولده بالدميرة، بلدة بالديار المصرية سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م، توفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج ٢، ص ١٩٣، رقم ٢٢٤.

(٢) في الأصل: «كان ذراعان» أضيفت كلمة «مقداره» تفادياً للخطأ النحوي في العبارة. وتوضيحاً للمعنى.

(٣) ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٣، ص ٢٩٦، أنه إذا تمّ النيل خمس عشرة ذراعاً ودخل في ست عشرة كان فيه صلاح لبعض الناس وإذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان وأخصب الناس وفيه ظمأ ربع البلد وهو ضار للبهائم لعدم المرعى.

(٤) يوم التروية: وهو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة سمي كذلك لأن الحجاج يتزودون فيه من الماء للقيام بشعائر الحج. ابن منظور: لسان العرب (روي).

(٥) عن الغلاء الذي انتشر بديار مصر في سة ٥٩٦ هـ. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٣٢٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٣٦.
قال ابن الأثير: «في سنة ٥٩٧ هـ اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة، وأكل بعضهم بعضاً، ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس» الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ١٧٠.

البلاء، وهَلَكَ القويّ، فكيف الضَّعيف!. قال العماد الأصفهاني: وبلغ سعر القمح عن كل إردب الكيل المصري خمسة دنانير. واستقر القاعُ في سنة سبع وتسعين على ذراعين، وبلغ غايته خمسة عشر ذراعاً ونصف ذراع. فعَدِمَ الناسُ القوت، وأكل بعضُهم بعضاً، وأكلوا أولادهم والـمَيْتَةَ. وخرج خلقٌ كثير من الديار المصرية إلى الشام والسواحل.

وحكى ابن جَلَب راغب[١] في تاريخ مصر: أنه نودي على دجاجة، تُزُويدَ فيها إلى أن بلغت ألف درهم وَرِقاً. وبِيعَت بطيخة بفرس. قال: وكانت الدجاجة تباع بالأوقية. وحكي ـ أيضاً ـ أن بعض الناس سمع صياح امرأة، تفتر ثم تعاود الأنين والصراخ! فتتبع الصوت، حتى انتهى به إلى منزل وفيه امرأة سمينة ملقاة، وشاب يقطع من لحم فخذها. فلما رأتهم قالت: لا تُعَارِضُوه فإنه ابْنِي، وأنا قلت له يقطع من لحمي، ويأكل ويطعمني، مما آلمنا من الجوع! ولم يُسْمَعْ بمثل هذا.

ذكر وفاة القاضي الفاضل وشيء من أخباره

هو القاضي الفاضل الأسعد محيي الدين، أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي الحسين علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفَرَج[٢] بن أحمد، اللَّخْمي ـ الكاتب[٣]. كانت وفاته فجأة في ليلة الأربعاء، السابع من شهر ربيع الآخر، سنة ست وتسعين وخمسمائة. ومولده بعسقلان[٤] في خامس عشر جمادى الآخرة، سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

وكان أبوه قاضي عَسْقَلان، وصاحب ديوانها. ونسبته إلى بَيْسان[٥] نسبة انتقال.

---

(١) «هو تاج الدين محمد بن علي بن يوسف ويعرف بابن ميسر» صاحب «تاريخ مصر» وهو ينسب إلى أحد أجداده. وهو جلب راغب» وكانت وفاته سنة ٦٧٧ هـ. وأجداده من الأمراء في عهد الدولة الفاطمية أي نسبة إلى الخليفة الفاطمي الآمر: محمد بن جلب راغب الآمدي. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٧٢.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) كان يحب الكتابة وقصد مصر ليشتغل بالأدب، فاشتغل به وحفظ القرآن وقال الشعر وخدم الأكابر. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢٤.

(٤) عسقلان: هي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٧.

(٥) «كانوا ثلاثة إخوة أصلهم من بيسان وكان أحدهم بالإسكندرية وبها مات وخلف من الخواتم صناديق ومن الحصر والقدور والخزف بيوتاً مملوءة. والثاني كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده مائتا ألف كتاب وأما الثالث فالقاضي الفاضل كتب ما لم يكتبه أحد. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٣٢٥.

وذلك أن قاضي عسقلان كان قاضيَ البلاد الشمالية من ساحل الشام، وبَيْسَان[١] في ولايته. وكان إذا خرج إليها قاضٍ لحقه من الوَخَم ما يوجب مرضه، ومنهم من يموت. فقرر قاضي عسقلان على الشهود أن يخرج كلٌّ واحد منهم إلى بيسان ثلاثة أشهر، ويعود، ويخرج غيره. فجاءت النَّوْبَةُ لحد القاضي الفاضل[٢]، فمضى إليها وصح بها جسمه. فاختار الإقامة بها. فأجيب إلى ذلك وعمر بها أملاكاً، فعُرِف بالبَيْسَاني.

ثم تقلبت بوالد القاضي الأحوال إلى أن ولي القضاء بعسقلان، والنظر في أموالها. وبقي إلى زمن الظافر[٣]، فدخل إلى مصر لمُحَاقَقَة واليها[٤] بسبب كُنْدٍ كبيرٍ[٥]، من الفرنج كان الوالي دَاجَى عليه وأطلقه. فانتصر بعض الأمراء للوالي ونصروه، فخانق الأسعد[٦]. وصودر، ووقع التحامل عليه، إلى أن لم يبق له شيء.

وخرج ولدُه الفاضل إلى ثغر الإسكندرية، واجتمع بابن حديد ـ القاضي والناظر بها ـ وعَرَّفه بوالده فعرفه بالسُّمْعَة، فاستكتبه ابن حديد، وأطلق له مَعْلُوماً. وبقيت كتبه ترد إلى مجلس الخلافة بخط الفاضل وهي مشحونةٌ بالبلاغة. فكشف عن ذلك ابنُ الخَلَّال والجَلِيسُ بن الحَبَّاب ـ وكانا في ديوان المكاتبات ـ فحسداه على فضيلته، وعلما أنه يتقدم، فقالا للظافر عنه: إنه قَصَّرَ في المكاتبة.

وكان صاحب ديوان المجلس ـ الأَثير بن بَنَان ـ يحكي أنه دخل على الظافر، فأمره أن يكتب لابن حديد بقطع يد كاتبه، بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر، وهذا سوء أدب، فقال الأثير للظافر: يا أمير المؤمنين، تأمر بإحضار الكتب، فأُحْضِرَتْ فلما قرأها الأثير عَلِمَ فضلَ الفاضل، فقال له: هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب، وإنما حُسِدَ على بلاغته، فعُمِل على أذاه. فقال: اكتبْ لابن حديد يُسَيِّرُه

(١) بَيْسان: بالفتح ثم السكون وسين مهملة ونون: مدينة بالأردن بالغور الشامي ويقال هي لسان الأرض. وهي بين حوران وفلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٢٤.

(٢) في الأصل: لجد بالجيم المعجمة.

(٣) هو الخليفة الفاطمي «الظافر بالله» أبو منصور إسماعيل ابن الحافظ لدين الله ابن الميمون عبد المجيد ابن الأمير محمد ابن الخليفة المستنصر بويع بالخلافة سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م. وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ومولده سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٧٨.

(٤) المقصود والي عسقلان.

(٥) أي «كونت» ومعروف أن لفظة كوند هي تعريب «كونت» وهي لقب لبعض أمراء الفرنجة، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٢١ حاشية رقم (٥).

(٦) هكذا في الأصل، والصواب الأشرف. وهو والد الفاضل. انظر النزاع بين والي عسقلان والقاضي الأشرف في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٢٢٠.

إلينا، لنستخدمَه. فصار من كتاب الدَّرْج[١]، في أواخر الدولة العُبَيْدِيَّة[٢].

وأما اتصاله بملوك الدولة الأيوبية فحُكي عن الأثير بن بنان أنه قال: لما ولي أسد الدين شيركوه[٣] اختص به ابن الصقيل البلنسي[٤]. وكنت بالقصر أنا والفاضل، فدخل علينا ابن الصقيل، وقال: كنت البارحة عند السلطان، وذكركما وتَوَعَّدكما بالقتل. ثم خرج من عندنا. فلم يكن بأسرع من أن طَلَبَنَا أسدُ الدين من العاضد، فأرسَلَنا إليه.

قال الأثير: فلما دخلنا عليه وجدْنا الأمراء عنده، فسلمت سلاماً سمعه من حضر، فلم يرد علينا! فقلت له: ولم لا ترد السلام؟ فالتفت إليَّ، وقال: لستما عندي من أهل السلام! لأن النبي ﷺ يقول: «السلام تحيةٌ لِمِلَّتنا، وأمانٌ لذِمَّتنا. ولا تحية لكما عندي»! فوقفنا، فقلت: لا قدرة لي على القيام. فقال: اجْثُ، فجَثَوْت. ثم قلت ولم لا أتربع؟ ففسح لي في ذلك. قلت: وصاحبي. قال: وصاحبك.

ثم التفت إليه دوني، وقال له: تكتب للفرنج على لسان شاور، وتقول في حقنا ما قلت، وتحثهم على قتالنا! والله لأقتلنك شرّ قِتْلة، ولأسُلَّن لسانَك، ولأقطعنَّ يدك ورجلك، من خلاف!! فقلت: أدام الله سلطان مولانا. هذا القاضي إذا عُدِم، لا يوجد مثلهُ في جميع البلاد. فالتفت إليّ، وقال: نُجَرِّب قولك. وقال له: اكتب كتابين: أحدهما للمولى نور الدين بن زَنْكي، يُقرأ على منبر دمشق يهنّيه بالفتوح، وكتاب يُقرأ على منبر

---

(١) وكتاب الديوان في مصر على طبقتين:
الطبقة الأولى: كتاب الدَّست وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواكب. ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر. وسموا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه بجلوسهم للكتابة بين يديه. والطبقة الثانية: كتاب الدَّرْج: وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير، وسموا كتّاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق، والمراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) أي الدولة الفاطمية وأول خلفائها عبيد الله المهدي. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٣، ص ١٤٤.

(٣) هو الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٥، ص ٣٦٧، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٤٧٩، والسلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٠. وتاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٦، ص ٣٥٨. وتاريخ ابن خلدون ج ٥، ص ٢٨٢.

(٤) هكذا في الأصل. «والصقيل البلنسي» لم يرد ذكره بين كتاب الدولة. ومن المرجح أنه ابن الخلال الموفق لأنه كان صاحب ديوان الإنشاء. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

القاهرة. واشتغل في الحديث. فسارع الفاضل في نَجَازِ[١] الكتابين، وجعل أسد الدين يُسَارِقُه النظر. والفاضل يكتب كأنه يكتب من حفظه. وفرغ منهما إلى أسرع وقت. فقال أسد الدين: اقرأهما، فقرأهما. قال الأثير: والله لو حَسُنَ الرقصُ في ذلك المكان لرَقَصْت!.

فعند ذلك التفت إليَّ أسدُ الدين، وقال: يا قاضي، جزاك الله خيراً في حقه. عندنا كَتَبَةٌ بالشام نأمرهم بالشيء، فيمضون ويقيمون اليوم واليومين، ولا يأتون به على الغرض. وهذا قلنا له كلمتين، كتب هذه الكتب التي لا نظير لها. وأقمنا عنده إلى صلاة المغرب، فقام للصلاة. فقال لي: تقدمْ. فقلت: هذا أفضل مني، لأني توليت المُكُوس[٢]، وهذا لم يَلِ شيئاً منها. فتقدم الفاضل وصلَّى. واتصل به. هذا ما نُقِل عن الأثير بن بنان.

وقيل: إنه لما اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين، وأن الأثير كان يكتبُ بين يديه قبله، فاشتكى من بُطْئِه في المكاتبات، فقيل له: إن الأسعد البَيْساني لم يكن في الكتاب أرشقَ منه. فاستدعاه وأمره بكتاب، فكتب بين يديه وبالغ فيه، وأسرع في نَجَازِه وقرأه عليه. فعظم عند الملك الناصر، ونعته بالقاضي الفاضل، وكان له شعر حسن.

وقيل: إن أول اتصال الفاضل بالدولة العُبَيْدِيَّة في أيام العادل بن الصالح بن رُزِّيك[٣]. وأنه استخدم في ديوان الجيوش، فأقام فيه مدة. فلما كانت دولة شاور الثانية، نقله إلى ديوان المكاتبات شريكاً للمُوَفَّق بن الخَلَّال. فلم يزل إلى أيام أسد الدين، فاتفق له ما ذكرناه.

---

(١) هكذا في الأصل. ونجز حاجته: قضاها كأنجزها. الفيروزابادي: القاموس المحيط (نجز).

(٢) المكوس: مفردها «مكس» ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة في المواني، وكانت المكوس في عهد المماليك مقرراً على البيوت والحوانيت والخانات والحمامات والأفران والطواحين، والبساتين والمراعي ومصائد الأسماك والمعاصر والحجاج والمسافرين والمراكب والأغنام والجاموس والبقر والأفراح وغير ذلك. وكان الماكس ومعه المستوفون والكتاب والجنود يتخذون ساحل مصر القديمة، وبولاق لجبايتها، كما كان يجبيها عرفاء الأسواق من الأسواق، أو يتكفل بتحصيلها الضّمان أو حتى الضامنات. والواقع أن هذه الضريبة كانت جائرة غير شرعية لأنه لم يرد في كتب الشريعة نصوص بشأنها ولذلك ألغاها بعض سلاطين المماليك. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي، ص ٣٢٥، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٨، السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٦٧، حاشية (٤).

(٣) هو ابن الوزير «طلائع بن رزّيك» الذي أقام في الوزارة إلى أن قتل في رمضان سنة ٥٥٦ هـ في خلافة العاضد، وكان العاضد والفائز كلاهما تحت حجره. فأقيم بعده في الوزارة ابنه رزّيك ولقب العادل فأقام فيها سنة وأياماً. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢١٥.

ولما استقرّ الملك الناصر في المُلْك، علت منزلته عنده، واختص به وقرب منه، وتمكن في دولته. قال: ومن سعادة الفاضل أنه مات قبل مُلْك العادل، لأنه كان بينهما شَحْنَاء باطنة. ولما مات، صلّى عليه الملك الأفضل. ودُفن بسفح المقطم ـ رحمه الله. وقد ذكرنا من كلامه في باب كتابة الإنشاء ما يدل على تمكنه وفضله.

واستهلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر الخلف الواقع بين الأمراء الصّلاحِيّة[١] والسلطان الملك العادل

قال المؤرخ: كان ابتداء فساد الحال بينهم في سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وسبب ذلك أن الملك العادل لما ملك الدّيار المصرية أقطع الإقطاعات المحلولة عن الأمراء المنصرفين عن الخدمة، وحاسب المستمرين حساباً شديداً، فساءت ظنونهم وتغيرت قلوبهم، وفسدت نياتهم.

وكان فارس الدين ميمون القَصْرِي[٢] مقيماً بنابلس، فلما بلغه إسقاط خطبة الملك المنصور بن العزيز، واستقلال الملك العادل بالملك ـ عظم ذلك عليه ونفر منه. وكتب إلى الملك العادل يقول: «إنا إنما دخلنا في طاعتك، ونصرناك على موالينا: أولاد الملك الناصر، مراعاةً للملك العزيز، وخوفاً أن يتطرق إلى ولده ضرر ويزول عنه ملكه، ولا بد أن تعيده إلى حاله. وإن لم تَرجعْ عما فعلت، كان ذلك سبب فساد قلوب الجند، ودخول الوَهَن على الدولة». فغالطه العادل في الجواب.

فراسله ميمون ثانياً يقول إنا كنا حَلَفْنا على قاعدة، فإن كانت تغيرت فلا يسعنا المُقَام بعد ذلك بهذه الدار، وأنا أَسألُ أن أُعطَى دُسْتوراً[٣] ليقوم عند الله وعند الناس عُذْري، فأرسل إليك الملك العادل، يقول: لم أدخل في هذا الأمر إلا بعد أن رضي به الجماعة. فإن كرهت مجاورتي فصر إلى أَرْزَن الروم[٤]، وتزوج بصاحبتها مَامَا[٥] خاتون، فإنها أرسلت إليَّ وطلبت مني من أُنْفِذُه إليها.

وكان «ميمون» قد كاتب الأمراء الصَّلَاحِيَّة، فأجابوه: «إنا قد افتُضِحْنا بين الناس بأننا نقيم في كل يوم مَلِكاً، ونعزل آخر. ثم إلى من نسلم هذا الأمر؟ أما الملك الأفضل

(١) هم الأمراء الناصرية أتباع صلاح الدين الأيوبي. انظر صفحة ٣ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٢) زعيم من زعماء الأمراء الصلاحية.

(٣) أي إذناً.

(٤) بلدة من بلاد أرمينية، أهلها أرمن، وهي ولاية ونواحٍ واسعة كثيرة الخيرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٨١.

(٥) هكذا في الأصل.

فغير أهل، وغيره من إخوته فغير عظيم في الأنفس. والملك الظاهر بعيد عنا، ولا يمكنه أن يترك بلاده ويصير إلينا».

قال: واتفق ورود رُسُل الملك الظاهر ـ صاحب حلب ـ إلى عمه العادل، في شهر ربيع الآخر من السنة، وهما: نظام الدين كاتبه، وعَلَم الدين قَيْصَر الصَّلَاحي. فلما وصلا إلى بِلْبِيس[(١)]، أرسل العادل إليهما أن لا يدخلا القاهرة. وأن يذكرا رسالتهما لقاضي بلبيس يبلغها عنهما، وإن لم يفعلا فيرجعا إلى صاحبهما.

فعاد إلى الملك الظاهر، واجتمعا بمَيْمُون القَصْرِي في عودهما، ورغباه في الخدمة الظاهرية. فمضى إلى صَرْخَد[(٢)] وبها الملك الظافر أخو الأفضل. ولحق بميمون جماعة من الصلاحية.

واعتزل عنه فخر الدين جَهَارَكْس[(٣)] في قلاعه ـ وكان معه بانْيَاس[(٤)] وتِبْنِين[(٥)] وشَقِيف أَرْنُون[(٦)] ووافقه على الاعتزال زين الدين قَرَاجا، وأظهر الاعتزال عن الفريقين. وباطنهما مع الملك العادل.

قال: ولما وصل ميمون إلى صَرْخَد، كاتب الأفضل والظاهر ودعاهما إليه. وأنفذ إلى الملك الظاهر فخر الدين الطُّنبا الجحاف[(٧)] فلما وصل إليه، قوي عزم الملك الظاهر على الخروج. فراسل ميمون، وأخذ عليه وعلى من معه من الأمراء العهود والأَيْمان.

---

(١) بلبيس: بكسر الباءين: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. فتحت على يد عمرو بن العاص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦٧.

(٢) صرخد: بالفتح ثم السكون والخاء معجمة والدال مهملة: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٥٥.

(٣) هو أبو منصور جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحي، الملقب فخر الدين، كان من كبراء أمراء الدولة الصلاحية، وكان كريماً نبيل القدر، عالي الهمة، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه. وجهاركس: بكسر الجيم وفتح الهاء وبعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة. ومعناه بالعربي أربعة أنفس، وهو لفظ عجمي معربة «أستار» ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٨١.

(٤) بانياس: مدينة من جند دمشق واقعة في الإقليم الثالث، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب، وهي لحف جبل الثلج وبها قلعة الصّبيبة، وهي من أجل القلاع، وأمنعها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٤.

(٥) تبنين: بكسر أوله وتسكين ثانيه، وكسر النون، وياء ساكنة، ونون أخرى، بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦.

(٦) شقيف أرنون: بفتح أوله وكسر ثانيه: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٧) هكذا في الأصل. لم نعثر في المراجع على تعريف له. ويمكن أن يكون تحريف لكلمة الهيجاوي نسبة إلى أبي الهيجاء الذي كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية.

ثم قَدِم عليه أخوه الأفضل في تاسع جمادى الأولى، وسارا إلى أَفاميه[١]، وبها قَرَاقُوش ـ مملوك شمس الدين بن المُقَدَّم[٢] ـ فأغلق الأبوابَ دونهما، وامتنع من تسليمها. فضرب الظاهرُ ابنَ المُقَدَّم[٣] تحت القلعة ضرباً مُوجعاً، بحيث يراه مملوكه قَرَاقُوش، فلم يكترث لذلك. وراسله ابن المُقَدَّم في تسليمها، فامتنع كل الامتناعِ. فلما أيس الظاهر منه أرسلَ ابنَ المقدم إلى حَلَب، وأمر باعتقاله بها.

وسارا بعد ذلك إلى بعلبك لقصد دمشق، وسار إليهما ميمون القَصْري ومن معه والملك الظافر، واجتمعوا بمكان يعرف بالزُّرَّاعة[٤]. وتشاوروا على قصد دمشق، وبها يومئذ الملك المعظم عيسى بن العادل وهو صغير، والقَيِّم بأمره فلكُ الدين سليمان بن شروة بن جلدك ـ وهو أخو العادل لأمه ـ ومن الأمراء الأكابر عز الدين أسامة[٥]. فساروا بأجمعهم إلى دمشق، وحاصروها في رابع عشر ذي القعدة، سنة سبع وتسعين، واشتد الحصار.

قال: ولما اتصل بالملك العادل خروج الظاهر[٦] من حلب، خرج من القاهرة في شهر رمضان من السنة. وجَدَّ السيْرَ إلى أن نزل على نابلس، وجعل يُعْمِل الحيل والمكايد بين الظاهر والأفضل، وإفساد قلوب الأمراء الذين مع الظاهر. وأرغب الملك الظاهر أنه إن فارق أخاه الأفضل يملكه قطعة من بلاد المشرق، التي بيد العادل.

وكاتب الظاهر فخر الدين جَهَارَكْس، وزين الدين قَراجَا، وأرغبهما في الانضمام إليه. فوقع الاتفاق معهما ـ بعد مُراجعة ـ أن الأفضل يسلم لزين الدين قَراجَا صَرْخَد وعشرة آلاف دينار، وللأمير فخر الدين جَهَارَكْس عشرين ألف دينار. واستقرت القاعدة على ذلك. فلما تسلما ذلك وصلا إلى الخدمة الظاهرية، واجتمعا بالأفضل والظاهر.

---

(١) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كُوَر حمص، ويسميها بعضهم فامية بغير همزة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٦٩.

(٢) كان من كبار الصلاحية. هو شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم. تولى تربية الملك الصالح إسماعيل الذي كان عمره إحدى عشرة سنة عندما توفي أبوه نور الدين. وقُتل شمس الدين بعرفات سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م. انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٠٥ و٥٥٩.

(٣) هو ابن الأمير شمس الدين في المقدم.

(٤) الزراعة: عدة مواضع بالشام في فلسطين والأردن منها زراعة الضحاك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٢.

(٥) في الأصل: سامه. وورد في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٢٩ وهو عز الدين أسامة.

(٦) هو الملك الظاهر غياث الدين غازي صلاح الدين يوسف صاحب حلب. توفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م. انظر ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي ص ٩١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٥٥.

ثم شرعا يستوقفان الأمراء عن حصار دمشق. فاتصل ذلك بالملكين فهرب جَهَارَكْس وقَراجَا وصار إلى بانْيَاس، فراسلهما الظاهر وقَبَّحَ فِعْلَهما. فأعادا الجواب. إنا قد استشعرنا الخوف بسبب ما نُسب إلينا. ونحن على الطاعة ومتى فُتحت دمشق كنا في خدمتكما. وجَدَّ الظاهرُ في حصار دمشق إلى أن نزل وقاتل بنفسه، وجرح في رجله بسهم. ثم هرب الطُّنْبَا الهَيْجَاوي من عسكر الظاهر وتلاه علاء الدين شقير، ودخلا دمشق. ودخل معهما جماعة من المفاردة[١] فانحَلَّ لذلك عزم الظاهر، ورجع عن دمشق إلى بلاده وصحبه الملك الأفضل.

وقيل: بل كان سبب الرجوع عن دمشق أن الاتفاق كان قد حصل بين الأخويْن: الأفضل والظاهر، على أنه إذا فتحت دمشق كانت للأفضل. فإذا استقر بها، سار هو والظاهر إلى مصر، وقاتلا العادل، فإذا حصلت مصر لهما تكون حينئذٍ للأفضل، ودمشق للظاهر. فلما قوي الحصار على دمشق ولم يبق إلا فتحها. حسد الظاهر أخاه الأفضل عليها، وقال: آخذها لنفسي. فلاطفه الأفضل وسأل أن ينعم بها عليه، فامتنع، وقال: إن فتحت تكون لي دونك. فلما أَيِسَ منه الأفضل، خرج من ساعته واجتمع بالأمراء، وقال: إن كنتم خرجتم إلي فقد أذنت لكم في الرجوع إلى العادل، وإن كنتم خرجتم إلى أخي الظاهر فشأنكم وإياه. وكتب في الوقت إلى عمه الملك العادل، وهو يطلب منه سُمَيْسَاطَ[٢] وسَرُوج[٣] ورأس العَيْن[٤]، فأعطاه ذلك، وحلف عليه. فلما اتصل ذلك

(١) المفاردة: بالفاء: فئة من الجيش، وهم المماليك الخواص للسلطان أو الملك. يأخذون مرتباتهم من الديوان المفرد لذلك سموا المفاردة، وهو ديوان خاص كان موجوداً منذ عهد الفاطميين. وهم يقابلون الفئة الأخرى من الجيش أي الجنود النظاميين الذين يتناولون مرتباتهم من ديوان الجيش، والذين كانوا يسمون «الحلقة»، وكانت الجيوش النظامية في مصر منذ الأيوبيين مكونة من ثلاث فئات من الغرباء والأجانب، وأول تلك الفئات المماليك السلطانية، والفئة الثانية من الجيوش النظامية هي أجناد الحلقة، وهي مكونة من محترفي الجندية ومن مماليك السلاطين السابقين وأولادهم. والفئة الثالثة من مماليك الأمراء. انظر السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٢٢، حاشية (٢).

(٢) سميساط: بضم أوله وفتح ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وسين أخرى ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٣. انظر أيضاً الحميري: الروض المعطار ص ٣٢٣.

(٣) سروج: هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٤) رأس العين: أو رأس عين: «وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودُنيسر وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥.

بالظاهر كتب أيضاً إلى عمه العادل، يطلب منه مَنْبِج[١] وأَفَامْية وكَفْرطَاب[٢]، فأعطاه ذلك. وارتحلا عن دمشق.

فبقي الأفضل بسُمَيْسَاط، إلى أن مات.

وعاد الظاهر إلى حلب، وصحبه ميمون القَصْرِي[٣]. فأقطعه الظاهر إقطاعات عظيمة. وهي: أعْزَاز[٤]، وقلعتها والخُوار[٥] وبلدها، ونهر الجَوْز[٦]، وبلده وجِسر[٧] الحديد وبلدها، وأماكن متفرقة، وأكرمه إكراماً تاماً. وبقي في خدمته، إلى أن مات في سنة عشر وستمائة. وسار معه أيضاً سَرَاسُنْقُر والفارس البَكّي، وجماعة الصَّلاحِيَّة، وأقطعهم الإقطاعات الحسنة.

وكان رحيلهم عن دمشق في ذي الحجة، سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وسار الملك العادل ودخل دمشق. واصطلح مع الملك المنصور صاحب حماه. وتزوج العادل ابنته.

ذكر اتفاق الملوك الأيّوبيّة وما استقر لكل منهم من الممالك

قال المؤرخ: ثم استقرت القاعدة بين الملوك، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة على أن يكون للملك العادل الديار المصرية، ودمشق والسواحل وبيت المقدس، وجميع ما هو في يده ويد أولاده ببلاد الشرق.

---

(١) منبج: هي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض. بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٨.

(٢) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٣٤، انظر أيضاً الروض المعطار للحميري ص ٥٠٠.

(٣) هو فارس الدين ميمون القصري: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٥٤.

(٤) اعزاز: عزاز: بفتح أوله وتكرير الزاي. وربما قيلت بالألف في أولها والعزاز: الأرض الصلبة، وهي بليدة فيها قلعة شمالي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٢.

(٥) الخوار: بضم الخاء المعجمة وتخفيف الواو، وسكون الألف وراء مهملة في الآخر. مدينة من نواحي الري تخترقها القوافل. ويقال خُوار الري. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧٢.

(٦) نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التي على الفرات، وهي من عمل البيرة وأهل قراها كلهم أرمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٣.

(٧) بلدة على نهر حماه أو العاصي يمر بها النهر في مجراه من حماه إلى شيزر ثم إلى بحيرة أفامية فدركوش فجسر الحديد، ومنها إلى أنطاكية. السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٦٠.

وأن يكون للملك الظاهر حلب وما معها. وأن يكون للملك المنصور ـ ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ حَمَاه وأعمالها، والمَعَرَّة وَسَلَمِيّة[١] وَبارِين[٢].

وأن يكون للملك المجاهد أسد الدين شَيركوه بن محمد بن شيركوه حِمْص، والرَّحْبَة[٣]، وتَدْمُر[٤]. وأن يكون للملك الأمجد بن فَرُّخشاه بن شاهِنْشاه بن أيوب، بعلبك وأعمالها.

وأن يكون للملك الأفضل، ابن الملك الناصر سُمَيْسَاط وبلادها، لا غير.

وأن يقْطَع الملكُ الظاهر خُبْزَ[٥] عماد الدين المَشْطُوب[٦] ولا يستخدِمُه. فقَطَع خُبْزَه، فصار إلى الملك العادل فلم يستخدمْه، وقال له: تخدم بعض أولادي. فقصد الملك الأوحد، فلم يستخدمه، فاستخدمه الملك الأشرف، وندبه لحصار مارِدِين، وحلف له على أربعمَائة فارس، إذا فتحت. فسار ابن المشطوب إليها وحاصرها، فأرسل صاحبها إلى الملك الأشرف خمسة آلاف دينار، فتركها.

نعود إلى أخبار الملك العادل، في أثناء هذه المدة التي قدمنا ذكرها والحوادث التي وقعت في خلالها.

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، في ذي القعدة، اعتقل الملك العادل، الملك المؤيد والملك العزيز وهما: ابنا أخيه صلاح الدين يوسف[٧] رحمه الله تعالى.

---

(١) سلمية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الميم، وياء مثناة من تحت خفيفة وهي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٢.

(٢) بارين: والعامة تقول بعرين: مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨١.

(٣) الرَّحبة: وهي رحبة مالك بن طوق. بينها وبين دمشق ثمانية أيام ومن حلب خمسة أيام وإلى بغداد مائة فرسخ. وهي بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسيا. ولم يكن لها أثر قديم إنما أحدثها مالك بن طوق بن عتّاب التغلبي في خلافة المأمون، ياقوت الحِموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨.

(٤) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام بينها وبين حلب خمسة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠.

(٥) كان يطلق على الإقطاع الذي يعطى للجند. لأن الجندي كان يعيش عليه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٠، حاشية (٢).

(٦) هو عماد الدين ابن الأمير سيف الدين الهكاري الكردي الذي لقب بابن المشطوب والمشطوب لقب والده، وإنما قيل له ذلك لشطبة كانت بوجهه، وكان من أمراء الدولة الصلاحية. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ١٥٣، وج ١، ص ١٨٠.

(٧) سجنهما في دار بهاء الدين قراقوش بالقاهرة. المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٥٤.

ذكر خبر الزلزلة الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وغيرها

وفي هذه السنة في شعبان، جاءت زلزلةٌ من الصعيد فعمت الدنيا في ساعة واحدة. وهدمت أماكن كثيرة بالديار المصرية، ومات تحت الهدم خلقٌ كثير.

وامتدت إلى الشام والساحل، فهدمت مدينة نابُلُس، فلم يبق بها جدارٌ قائم إلا حارة السامِرة[١]، ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً. وهُدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل. وامتدت إلى دمشق، فرمت بعض المنارة بالجامع، وأكثر الكَلاَّسَة والبِيمارسْتان النُّورِي، وعامة دور دمشق إلا القليل. وهرب الناس إلى الميادين. وسقط من الجامع ستة عشر شُرْفة[٢]، وتشققت قُبَّةُ النَّسْر[٣].

وتهدمت بَانْيَاس وهُونين[٤] وتِبْنِين. وخرج قوم من بعلبك يجمعون الرِّيبَاس[٥] من جبل لُبْنان، فالتقى عليهم الجَبَلَان، فماتوا بأسرهم. وتهدمت قلعة بعلبك ـ مع عظم حجارتها. وامتدت إلى حِمْص، وحَمَاه، وحَلَب، والعواصم.

وقطعت البحر إلى قبرص، وانفرق البحر فصار أطواداً، وقذف بالمراكب إلى الساحل، فتكسرت. ثم امتدت إلى خِلاَط وأَرْمِينية وأَذْرَبيجَان والجَزِيرة.

وأُحصي من هلك في هذه السنة، بسبب هذه الزلزلة، فكانوا ألف ألف إنسان، ومائة ألف. وكانت قوة الزّلزلة، في مبدأ الأمر، بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف. ثم دامت بعد ذلك أياماً.

حكى ذلك أبو المظفر يوسف سِبْط بن الجَوْزِي[٦] في تاريخه: «مرآة الزمان». وقد ذُكِرَتْ زلزلة أيضاً في شعبان، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وذُكِرَ مما حدث بسببها نحو هذا. فالله أعلم: هل هي هذه، أو هما اثنتان؟.

---

(١) السامرة: طائفة من اليهود. واليهود ثلاث طوائف: الربانيون، والقراؤون والسامرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣٨٥.

(٢) في الأصل شرافة. واللفظ الصحيح شرفة.

(٣) واقعة قبلي جامع دمشق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٧.

(٤) هونين: بهاء مضمومة وواو ساكنة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ساكنة ونون في الآخر. بين صور وبانياس بجبل عاملة. وقلعة هونين من عمل الشقيف، وبانياس وهونين وتبنين من أشهر الحصون في أيام الحروب الصليبية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥٢.

(٥) في الأصل الرساس: وهذا خطأ. والريباس بالكسر، نبت ينفع الحصبة والجدري والطاعون وعصارته تحد النظر: الفيروزابادي: القاموس المحيط (ربس).

(٦) مؤرخ كبير لقبه «أبو المظفر» وكتابه «مرآة الزمان» مرجع مهم.

وفي هذه السنة توفي الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش الأسَدِي، الزِّمَام[١]، في مستهل شهر رجب بالقاهرة، وله من العمر ثمان وثمانون سنة.

وهو الذي عَمَّر سور القاهرة، وقلعة الجَبَل[٢]، وَقَنَاطِر نَهْيَا[٣] من الجِيزة. وعمر بالمَقْس[٤] رِباطاً، وبظاهر القاهرة ـ خارج باب الفتوح ـ سبيل. والناس ينسبون إليه في ولايته أحكاماً غريبة، حتى وضع الأسعد بن مَمَّاتِي[٥] خَبَراً لطيفاً، سماه «الفاشوش في أحكام قَرَاقُوش»، ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها من مثله[٦]، فإن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مع حسن تدبيره وسداد رأيه، كان يعتمد عليه في المهمات الجليلة والمناصب العالية، وثوقاً بمعرفته وكفايته، والله علم. ولما مات، أقطع الملك العادل إقطاعه لابنه الملك الكامل.

وفيها، في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان، توفي بدمشق القاضي عماد الدين

---

(١) هو الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي الخادم الخصي المنسوب إليه حارة بهاء الدين بالقاهرة، داخل باب الفتوح وهو الذي بنى قلعة الجبل بالقاهرة والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الأهرام وغير ذلك، وكان من أكابر الخدام من خدام القصر، وقيل إنه من خدام أسد الدين شيركوه، وكان السلطان صلاح الدين يثق به ويتكل عليه في مهماته. ولما افتتح عكا من الفرنج سلمها إليه ولما أُخذ أسيراً فداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار وقيل بستين ألف دينار. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) قلعة الجبل: وهي القلعة التي أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م، وكان يقيم بها أحياناً ولا تزال موجودة إلى اليوم على مكان مرتفع منفصل عن جبل المقطم شرقي القاهرة تشرف على ميدان صلاح الدين بل على القاهرة كلها. ولما تولى الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سلطنة مصر أتم بناء هذه القلعة في سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م. وأنشأ بها الدور السلطانية. وقد أنشأ محمد علي باشا الكبير والي مصر في هذه القلعة أبنية كثيرة في مقدمتها جامعه الفخم الذي يشرف على المدينة وضواحيها. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٤٩ ـ ٥٠، حاشية رقم (٤). انظر أيضاً القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

(٣) نهيا: بالفتح ثم السكون ثم ياء وألف مقصورة: بلدة من نواحي الجيزة من مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٧٨.

(٤) المقس: بالفتح ثم السكون وسين مهملة: يقال مقسته في الماء مقساً إذا غططته فيه، والمقس كان في القديم يقعد عندها العامل على المكس فقُلب وسمي المقس. وهو بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يسمى أم دُنين، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط، ولقد حاصرها عمرو بن العاص في سنة ٢٠ للهجرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٤.

(٥) هو الأسعد بن مهذب بن مينا. المعروف بابن مماتي وزير أديب كان ناظر الدواوين في الديار المصرية توفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م. ولعل أهم كتبه كتاب قوانين الدواوين. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٣٠٢.

(٦) «والظاهر أنها موضوعة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٩ (عن ابن خلكان).

محمد بن محمد بن حامد، الأصفهاني، الكاتب، صاحب الخريدة، والرسائل المشهورة[١]. ومولده في يوم الاثنين، ثاني جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة وخمسمائة.

وفيها كانت وفاة الشيخ جمال الدين أبو الفرج: عبد الرحمٰن بن علي، بن عبيد الله بن حماد بن أحمد بن جعفر الجَوْزي الواعظ، البَكْري التَّيْمي ببغداد، في الليلة المُسْفِرَة عن يوم الجمعة، ثالث عشر رمضان. ودفن يوم الجمعة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة
ذكر عمارة المسجد الجامع بقاسيون

في هذه السنة، شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدَامة المَقْدسي الحَنْبَلي شيخ المَقَادسة ـ رحمه الله تعالى ـ في بيناء المسجد الجامع، بجبل قاسيون[٢]. وكان بالجبل رجل فامِي[٣]، يقال له أبو داود، فوضع أساسه وبلغ قامة، وأنفق عليه ما كان يملكه. وبَلغ مُظَفَّرَ الدين بن زين الدين صاحبِ إِرْبِل ذلك. فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالاً يملكه، ووقف عليه وَقْفاً. ثم أرسل ألف دينار، وأراد أن يسوق إليه الماء من بَرْزَه[٤]، فقال الملك المعظم عيسى: طريقُ الماء كلها مقابر، فكيف يجوز أن تنبش أموات المسلمين! وأشار أن يُشْتَرى بغل يدور بدولاب، ويُشترى ببقية المال مكان يوقف عليه. ففعلوا ذلك.

ذكر وفاة الملك المعز صاحب اليمن
وقيام أخيه نجم الدين أيوب

كانت وفاة الملك المعز: فتح الدين أبي الفدا إسماعيل، ابن الملك العزيز، ظهير

---

(١) هو الكاتب المشهور المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني المنشىء. ولد بأصبهان وقدم بغداد مع أبيه وبها تفقه واشتغل بالأدب وبرع بالإنشاء وخدم الوزير يحيى بن محمد بن هُبيرة. وكان أحد كتابه، ثم قدم دمشق أيام نور الدين الشهيد واتصل به وخدمه، وكان فاضلاً حافظاً لدواوين العرب وله عدة مصنفات منها: «خريدة القصر في شعراء العصر»، وكانت وفاته بدمشق في يوم الاثنين من شهر رمضان سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) قاسيون: هو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور وفيه آثار الأنبياء وكهوف. وهو جبل معظم مقدس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣٥.

(٣) فامي: نسبة إلى فامية، ويقال لها أفامية: مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦٤.

(٤) برزة: قرية في غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٤٥٥.

الدين أبي الفوارس: سيف الإسلام طُغْتِكِين[١] بن أيوب، ملك اليمن بالقَرْوِ[٢] من أعمال زَبِيد، في شهر رجب سنة ثمان وتسعين وخمسمائة[٣].

وكان قد ادعى أنه من بني أمية، وتلقب بألقاب الخلفاء، وهو الإمام الهادي بنور الله، المعز لدين الله، أمير المؤمنين. وغيَّرَ زِيَّه، فلبس القميصَ الواسع والعمامة والطَّيْلُسَان. وكتب إليه عمه العادل ينكر عليه ذلك، فلم يُجِبْه. وكان سبب ذلك أن الشعراء باليمن سموه في مدائحهم بالخليفة، وفضلوه على من سواه. ومنهم من امتدحه بقوله:

بـنـي الـعـبـاس هـاتـوا نـاظـرونـا ... ...

وهي أبيات لم يقع لي منها غير هذا.

ولما مات، قام بعده بملك اليمن أخوه: نجم الدين أيوب، وتلقب بالناصر. وكان دون البالغ، فقام بأمره سيف الدين: مملوك أبيه.

وفيها توفي الرئيس مُؤَيِّد الدين، أبو المعالي: أسعد بن عز الدين أبي يَعْلَى حمزة بن القَلَانِسِي التَّمِيمي[٤] بدمشق، فجأة في رابع عشرين شهر ربيع الأول. ومولده في سابع عشر شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة.

وكان رئيسَ دمشق وكبيرها وصدرَها. وسائرُ أهل البلد تحت حكمه، وهو المقدم عليهم. وكان الدماشقة في الزمن الأول لكل طائفة منهم مقدم، يركبون[٥] مع الملوك ويجاهدون[٦] الفرنج، ولكل طائفة قطعة من السور يحفظونها. بغير إقطاع لهم على ذلك ولا جَامِكِيَّة[٧]. وما بَرِح الحال على ذلك إلى زمن الملك المعظم عيسى ابن

---

(١) أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين. وطُغْتَكين: ضبطه ابن خلكان فقال: بضم الطاء المهملة وسكون العين المعجمة، وكسر التاء المثناة من فوق والكاف، وهو اسم تركي. تولى طغتكين سلطنة اليمن سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٥، والعقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٢٩، وشفاء القلوب، ص ٥٤، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٥، ص ١٢١، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٥٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص،٣٣٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٦٢.

(٢) في الأصل القرز: والقرو: هو حصن باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٠.

(٣) في سنة تسع وتسعين وخمسمائة في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٥٦.

(٤) هو حمزة بن أسد التميمي الملقب أبو يعلى والمشهور بابن القلانسي صاحب كتاب ذيل تاريخ دمشق. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص،٣٣٤. وانظر كتاب «ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي طبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨.

(٥) و(٦) في الأصل: يركبوا ويجاهدوا.

(٧) جامكية: والجمع جوامك وهي الرواتب عامة،. ونص القلقشندي أن نفقة مماليك السلطان كانت =

الملك العادل. فأبطل ذلك وقال: لا تقاتل بالعوام، وإنما فعل ذلك خوفاً على نفسه منهم، فإنهم كانوا إذا طلبهم ملك قتلوه. ولما ولي الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل دمشق، شرع في مصادرة أكابر دمشق واستئصال أموالهم، فاشتغلوا بالظلم عما كانوا بصدده، من ركوب الخيل وجمع السلاح، وغير ذلك.

وكان مُؤَيِّد الدين هذا رئيسَ دمشق في زمانه، ومقدم الجماعة. بحيث إنه لا يباع من أملاك دمشق مِلْك، حتى يأتيه جماعة ويشهدون عنده أنه ملك البائع، انتقل إليه بالميراث أو الابتياع. فإذا ثبت ذلك عنده كتب بخطه في ذيل الكتاب ليشهد فيه بالتبايع، فيشهد الشهود بعد ذلك. وخطه موجود في الكتب القديمة بذلك. وكان رحمه الله تعالى من أرباب المروءات لمن قصده ولجأ إليه.

وله نَظْمٌ حسن، فمن نظمه: [من البسيط]

يا رب جُدْ لي إذا ما ضَمَّني جَدَثي ... بِرَحْمَةٍ منك تُنْجِينِي من النار

أَحْسِنْ إليَّ إذا أصبحتُ جَارَك في ... لَحْدي، فإنكَ قد أَوْصَيْتَ بالجار

وتوفي والدهُ عز الدين[1] حمزة يوم الجمعة، سابع شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ودفن بقاسيون. وكان فاضلاً حسن الخط والنظم. وجمع تاريخاً لحوادث سنة أربعمائة إلى حين وفاته ـ رحمهما الله تعالى.

وفي يوم عيد النحر من هذه السنة، ورد إلى فُوَّه[2] مراكب الروم فنهبوها نهباً شديداً.

واستهلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة أخرج[3] الملك العادل الملكَ المنصورَ، بن العزيز، من الديار

= عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك. صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٣.

(١) انظر ص ١٩ من هذا الجزء حاشية رقم (٤).

(٢) فُوَّة: بالضم ثم التشديد، بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة وهي ذات أسواق ونخل كثير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣١٨.

(٣) في سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة. أخرج الملك العادل الملك المنصور لما خيف من الأمراء الصلاحية وذلك في الخامس والعشرين من ربيع الآخر ومعه والدته وإخوته وسيروا إلى الرها ثم انتقلوا فأقاموا عند الملك الظاهر وأحسن إليهم في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٥٣.

المصرية إلى الرُّها[١].

وفيها ملك الفرنج القسطنطينية من الروم.

وخرج الفرنج منها لقصد الساحل. فجمع الملكُ العادل عساكره وخرج إليهم. فاستقر الصلح بينه[٢] وبينهم على أن يكون لهم من بلاد المُنَاصَفَات[٣] أشياء، مثل الرَّمْلَة والناصِرة.

وفيها بعث الخليفة الناصرُ لدين الله الخلَع إلى الملك العادل وأولاده، وسَرَاويلات الفُتُوَّة[٤]، فلبسوها في شهر رمضان.

ذكر حصار ماردين[٥] وما حصل من الاتفاق

وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة، جمع السلطان الملك العادل عساكره، وفرق فيهم السلاح والأموال، وقدم عليهم ولده: الملك «الأشرف موسى»[٦]، وأمره بالمسيرِ إلى ماردِين. فسار إليها وحاصرها، وشدد الحصار.

فدخل الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، في الصلح بين عمه وصاحب ماردين. فأجاب الملكُ العادل إلى الصلح ـ على أن يخطب له صاحب ماردِين في

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٢٠.

(٢) سنة ستمائة تقرر الصلح بين العادل والفرنج. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٦٢.

(٣) أي البلاد التي اتفق عليها أثناء الصلح مناصفة.

(٤) الفُتوّة: وفي أيام الناصر لدين الله ظهرت الفتوة ببغداد فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سراويل الفتوة.ولبسها أيضاً شهاب الدين صاحب غزنة والهند. والفتوة، لعبة اقتبسها العرب في أواخر أيام الخليفة عثمان بن عفان. وذكر جرجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ١٨٠ ـ ١٨١. نبذة عن الفتوة والبندق وسراويل الفتوة في باب: ألعاب الخلفاء وملاهيهم. كانوا يلبسون السراويل الخاصة. وكان الناصر لدين الله الخليفة العباسي يلبس سراويل الفتوة ويجعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة، ويلبسون سراويلها على أن يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية وجعل الخليفة نفسه رئيس هذه الطائفة. ويرى البعض أن هذا النظام الذي ابتدعه الخليفة الناصر أصل هيئات وجمعيات الفروسية الأوروبية في القرون الوسطى. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٢، ص ٢٦٨، و٢٥٩ ـ ٢٧٤. وانظر أيضاً حسن التوسل إلى صناعة الترسل للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ص ٣٧٩ ـ ٣٨٢ السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٧٢.

(٥) ماردين: بكسر الراء والدال: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة. مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وقدامها ربض عظيم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٦.

(٦) هو صاحب حران وخلاط وديار بكر ثم دمشق توفي سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٧٥.

جميع بلاده، ويضرب السِّكَّة باسمه، ويحمل إليه مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويكون عسكر ماردِين في خدمته، متى طلبه. فأجاب صاحب ماردين إلى ذلك.

فرحل الملك الأشرف عنها، وحمل صاحب ماردين إلى الملك الظاهر عشرين ألف دينار، لتوسطه في الصلح.

وحُكي أن السبب في حصار ماردِين أن شاعراً، يقال له الكَمَال قال: [من الطويل]

متى تُقْبِلِ الراياتُ من أرض جِلَّق[1] وتُنْتَزَعُ الشهباء من كَفِّ أُرْتُقِ[2]!

فبلغ هذا البيت أُرْتُق صاحب ماردين، فاعتقل هذا الشاعر. فاتصل خبره بالملك العادل، فندب هذا الجيش إليها، والله أعلم.

وفي هذه السنة ـ في أواخرها ـ حصل الشروع في عمارة سور قلعة دمشق. فابتدىء ببرج الزاوية القبلي منها، المجاور لباب النصر.

وفيها ماجت النجوم شرقاً وغرباً، وتطايرت كالجراد المنتشر، يميناً وشمالاً. ولم يُنْقَلْ ذلك إلا في مبعث النبي ﷺ، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. ويقال إن هذه السنة كانت أكثر انتشاراً. والله أعلم.

واستهلت سنة ستمائة

في هذه السنة وصلت مراكب الفَرنْج من ساحل عكا إلى فُوَّه، [يوم عيد الفطر][3] فنهبوها وغنموا كثيراً من أطرافها. وقاموا عليها خمسة أيام[4]. وخرج بعض عساكر مصر فقاتلتهم.

وفيها كانت وفاة الحافظ: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي[5] بن سرور بن رافع ابن حسن بن جعفر، المَقْدِسي الحنبلي، الجَمَّاعِيلي، ولد بجَمَّاعِيل[6] ـ وهي قرية من أعمال نابلس، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

---

(١) جلّق: بكسرتين وتشديد اللام وقاف هي لفظة أعجمية. وهو اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل بل هي دمشق نفسها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢) هو الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن إيل غازي بن أرتق بن أرسلان بن إيل غازي بن ألبي. مدة حكمه (٥٩٧ ـ ٦٣٧ هـ)، (١٢٠٠ ـ ١٢٣٩ م). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٥٥.

(٤) «وأقاموا يومين» في كنز الدرر، ج ٧، ص ١٥٥. «وخمسة أيام» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٦٣.

(٥) كان مفتي الأمة شيخ الإسلام سيد العلماء الأعلام في عصره توفي سنة ٦٢٠ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٦٥ حاشية (٣).

(٦) جماعيل: بالفتح وتشديد الميم وألف وعين مهملة مكسورة، وياء ساكنة ولام قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٥.

وفيها، في العاشر من جمادى الأولى، كانت وفاة القاضي السعيد أبو القاسم: هبة الله بن أبي الرَّدَّاد[١] ـ متولي المِقْياس بجزيرة مصر ـ وكان خطيبَ الجامع.

واستهلت سنة إحدى وستمائة

في هذه السنة رخصت أسعار الديار المصرية. وبلغ سعر القمح ستة أرادب بدينار.

وفيها قدم الملك العادل من الشام في ثالث جمادى الآخرة وتوجه إلى الإسكندرية، وحَصَّلَ منها أموالاً جَمَّة.

وفيها، أخرج الملك الكامل أولاد الخليفة العاضد لدين الله[٢]، وهم: داود والمظفّر، إلى الإيوان بالقصر، وقيدهم، وأخذ جميع ما كان عندهم من الأقمشة والأواني وغير ذلك.

وفيها ابتدأ الصاحب صفي الدين بن شكر بمصادرة أصحاب الدواوين، ومستخدمي الدولة والمتعينين، وأهانهم، لما كان في باطنه منهم.

وفيها توفي القاضي كمال الدين أبو السعادات: أحمد ابن القاضي جلال الدين أبي المعالي شُكْر بن محمود بن يعقوب اللَّخْمي. وكان ناظر الدواوين في الأيام الناصرية والعزيزية. وكانت وفاته بثغر الإسكندرية. وهو الذي نوَّه بذكر الصاحب صفي الدين ورباه، وصفيُّ الدين رَبِيبُه. كان جلال الدين شكر والمخلص أبو الحسن ـ والد الصاحب صفي الدين ـ إخوةً لأم.

واستهلت سنة اثنتين وستمائة

في هذه السنة هُدمت قنطرة الباب الشرقي بدمشق، وبلط بحجارتها صحن الجامع، وفُرغ منها في شهر رمضان سنة أربع وستمائة، وفيها في شوال غير قُبَّة النَّسْر بجامع دمشق، عدة أضلاع من شماليها. والله أعلم.

---

(١) هذا لقب جده الأعلى. وهو أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الردّاد المؤذن البصري صاحب المقياس بمصر، وتولى مقياس النيل الجديد بجزيرة مصر وجمع إليه جميع النظر في أمره وما يتعلق به في سنة ست وأربعين ومائتين واستمرت الولاية في ولده إلى الآن كما يقول ابن خلكان وتوفي في سنة تسع وسبعين ومائتين وقيل سنة ست وستين ومائتين. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ١١٢، رقم ٣٥٥.

(٢) هو آخر الخلفاء الفاطميين، انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٣، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

واستهلت سنة ثلاث وستمائة

ذكر قصد العادل بلاد الفرنج

في هذه السنة في جمادى الأولى، وقيل: في شعبان، خرج الملك العادل بعساكره وقصد عكا، فصالحه أهلها، فعاد إلى دمشق.

وخرج الفرنج من طرابلس، وأغاروا على حمص، فخرج الملك العادل من دمشق، ونزل على بحيرة قدَس[١] بظاهر حمص، وحضرت إليه عساكر البلاد، فأقام إلى آخر شهر رمضان[٢]. وتوجه يوم العيد إلى حصن الأكراد[٣]، وقاتل أشد قتال، وفتح بُرْجاً بالقرب من الحصن، وأخذ منه خمسمائة رجلٍ وسلاحاً. ثم سار إلى القُلَيْعات[٤]، فأخذها بعد حصار. وتقدم إلى طرابلس، وقاتل قتالاً شديداً، وأقطع ثمارها، ثم أنس من عسكره فشلاً، فعاد إلى حمص، فأنفذ إليه صاحب طرابلس وطلب الصلح، وأرسل مالاً وأسرى.

وفيها توفي الطواشي جمال الدين إقبال، الخادم الصَّلاَحِي، من خدام الملك الناصر صلاح الدين يوسف. وكانت وفاته بالبيت المقدس، بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين: إحداهما على الطائفة الشافعية، والأخرى على طائفة الحنفية، ووقف عليها أوقافاً: جعل ثلثيها للشافعية وثلثها للحنفية، وذلك في رابع عشر ذي القعدة.

واستهلت سنة أربع وستمائة

ذكر انتقال السلطنة من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل

وأول من سكن قلعة الجبل من الملوك الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل. وذلك في سنة أربع وستمائة ـ وهو إذ ذاك ينوب عن والده بالديار المصرية.

---

(١) قدس: بفتح القاف والدال المهملة وسين مهملة بحيرة قرب حمص وهي بين حمص وجبل لبنان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٩.

(٢) وصل الملك العادل إلى حمص فنزل على بحيرة قدس واستدعى الملك من أهل بيته والعساكر فجاؤوا من كل ناحية، وورد إلى خدمته الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد صاحب حمص، ونجده ابن أخيه الملك الظاهر ووصل إليه الملك الأمجد صاحب بعلبك وعسكر سنجار والموصل والجزيرة وآمد، وولداه الملك المعظم والملك الأشرف، فاجتمع عنده نحو عشرة آلاف فارس وعسكروا معه على البحيرة. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣، ص ١٧٢.

(٣) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل المقابل لحمص من جهة الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٤) قلعة حصينة بالقرب من طرابلس، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤٥.

وأول من بدأ بعمارتها الملك الناصر صلاح الدين يوسف. فعمر بها برجاً، وهو المطل على مشهد السيدة نفيسة. ثم كملت في أيام الملك العادل. ونقل أولاد العاضد من القصر إلى قلعة الجبل، وبنى لهم بها مكان اعتقلوا فيه. فكانوا فيه إلى سنة إحدى وسبعين وستمائة. وتوفي الأمير داود في هذه السنة.

ذكر ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخلَع للملك العادل وأولاده(١) ووزيره

كان السلطان الملك العادل قد جهز القاضي نجم الدين خليل الحنفي ـ قاضي عسكر الشام ـ رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله، فوصل إلى بغداد في هذه السنة فجهز الخليفة إلى السلطان رسولين، وهما: الشيخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي(٢) ونور الدين سُنْقُر الرُّكْنِي الخَلِيفَتِي(٣). وأصحبهما الخلع للسلطان، ولولديه: الأشرف والمعظم، ولوزيره صفي الدين بن شكر، ولأستاذ داره شمس الدين إِلْدُكْز العادِلي.

وكانت خلعة السلطان جبة أطلس وسيعة الكم، بطراز ذهب، وعمامة سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب مجوهر، وسيف جميع قرابه ملبس بالذهب، وحصان أشهب بمركب ذهب، وقصبة ذهب عليها علم أسود، مكتوب عليه بالبياض [ألقاب الخليفة](٤).

فتلقاها السلطان الملك العادل إلى الغَسُولة(٥) بجميع عساكره، وعاد. ولبسوا الخلع من القصر إلى القلعة بدمشق. وحمل الأمير بدر الدين دُلْدُرُم التقليدَ على رأسه بين يدي السلطان، ودخلوا جميعهم من باب الحديد وقت أذان الظهر. وقرأ الوزير

---

(١) «كان له ثلاثة عشر ولداً ذكوراً» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٦١. ويقول الدواداري في الصفحة نفسها: «وكان منهم الملك الأوحد نجم الدين، وكان قصيراً دميماً حقيراً في العين، فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد، فأرسل السلطان بازاً على طائر فخط الباز على رأس الملك الأوحد فضحك السلطان وقال: «قد اصطاد بازنا اليوم بومة» وهذه الواقعة تعد من النكت الغريبة».

(٢) نسبة إلى سهرورد، وهو بلد بأرض الجبال جنوبي السلطانية على الطريق بين همذان وزنجان، وقد خرج من هذا البلد جماعة من العلماء والصالحين منهم أبو حفص عمر وكنيته أبو نصر وهو صوفي شافعي المذهب وكان إمام وقته لساناً وحالاً، وقد تقدم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله حتى جعله مقدماً على شيوخ بغداد، وأرسله في الرسائل العظيمة. وقد صنف السهروردي هذا كتاباً سماه «عوارف المعارف»: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٦٧.

(٣) «اصطلح عامة المؤرخين على هذه النسبة رغم خطئها» المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٦٧، حاشية (٤).

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ١٨٠.

(٥) الغسولة: من قرى دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٢.

التقليد قائماً، بمحضر من القضاة وبياض البلد، بإيوان القلعة، والسلطان وأولاده وسائر من حضر قياماً إلى أن تكاملت قراءته.

وتضمن التقليدُ تفويض البلاد إلى السلطان، وهي ديار مصر والساحل ودمشق، وبلاد الشرق وخِلاَط. وحضرت رسل الملوك: الظاهر صاحب حلب، والمنصور صاحب حَماه، وصاحب حمص، ومع كل منهم ألف دينار، ينثرها على السلطان، فرسم السلطان بتوفير ذلك لرسول الخليفة.

وسار الشيخ شهاب الدين ورفيقه إلى القاهرة، بخلعة الملك الكامل. فتلقاهما الملك الكامل، وزينت القاهرة ومصر لدخول الرسل. ولبس الكامل الخلعة الخليفيّة.

ثم عاد الشيخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي ورفيقه إلى بغداد. وأصحبهما السلطان أستاذ داره شمس الدين، وصحبته التحف والألطاف. فوصل إلى بغداد في سنة خمس وستمائة. فتلقى بالموكب. ونقم الخليفة على الشيخ شهاب الدين السهروردي كونه مد يده إلى الأموال وقبلها، وحضر دعوات الأمراء بالشام، منهم الأمير عز الدين سامه وغيره. وكان قبل ذلك قد اشتهر بالزهد. فاعتذر أنه إنما قبل الأموال ليفرقها في الفقراء فلم يقبل عذره. ومنع من الوعظ، وأخذ منه الرُّبُط التي كانت بيده. وفرّق الشيخ ما كان قد حصل له من الأموال ـ وكانت جملة طائلة ـ فاغتنى بها جماعة من الفقراء وقبل الخليفة ما كان مع شمس الدين إلْدُكز من الهدايا، وشَرَّفَه وأعاده إلى مرسله.

ذكر استيلاء الملك الأوحد ابن السلطان الملك العادل على خِلاَط[1]

وفي سنة أربع وستمائة، واستولى الملك الأوحد: نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على مدينة خِلاَط، بِمُكَاتبَةِ أهلها.

وكان سبب ذلك أن الهَزَار دِينَاري قتل صاحبها ابن بكْتُمَر ـ وكان شاباً لم يبلغ عشرين سنة ـ وقيل إنه غَرَّقه في بحر خِلاَط. وكانت أخته بنت بَكْتُمَر زوجة صاحب أرْزَن الروم، فقالت: لا أرضى إلا بقتل قاتل أخي. فسار صاحب أرزن إلى خلاط فخرج إليه الهزار ديناري وتبارزا، فقتله صاحب أرزن الروم، وعاد إلى أرزن. وبقيت خلاط بغير ملك.

وكان الملك الأوحد ـ صاحب مَيَّافَارِقين[2] ـ يكاتبه أعيان خِلاَط. فجاء إليهم

(١) خِلاط: بكسر أوله وآخره طاء مهملة، البلدة العامرة المشهورة ذات الخَيرات الواسعة والثمار اليانعة. وهي قصبة أرمينية الوسطى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣٥.

(٢) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٣.

واستولى على المدينة(١). واشترط عليه مقدموها شروطاً، وكانوا جبابرة، فقبل الشروط. ثم أبادهم ـ قتلاً وتغريقاً ـ وبدد شملهم.

ومن عجيب ما اتفق أن الملك العادل، سيف الدين، كان له عدة أولاد، ليس فيهم أقبح صورة من الملك الأوحد هذا، فإنه كان قصيراً ألثغ زَرِيَّ المنظر.

فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد. فأرسل والده بَازِيّاً على طائر، فسقط البازي على رأس الأوحد، فضحك السلطان والده، وقال: قد صاد بازِيُنا اليوم بومة! فانكسر خاطر الأوحد لذلك، وتألم وأسرّها في نفسه. فلما قدر الله تعالى له بفتح خلاط، وخطب له بشاه أرمن على قاعدة ملوك خلاط، كتب إلى أبيه الملك العادل، يبشره بالفتح، ويقول له: إن البومة ـ التي صادها بازي مولانا السلطان في اليوم الفلاني ـ قد اصطادت مدينة خلاط، وصارت شاه أرمن! وكان بين الواقعتين عشر سنين.

وفي هذه السنة، في شهر رجب، وضعت الساعات بالمئذنة الشمالية بجامع دمشق. وفيها حصل الشروع في عمارة البرج الذي يقابل المدرسة القَيْمازِيَّة(٢) من قلعة دمشق. وفيها حدثت زلازل ورياح شديدة ببلاد خِلاَط، وخسف بمكان الملك الأوحد ابن الملك العادل قد نزل به ثم رحل عنه، قبل الخسف بليلة.

وفيها كانت وفاة الأمير داود، ابن الخليفة العاضد لدين الله، في محبسه بقلعة الجبل. وكان دُعَاةُ الإسماعيلية، يقولون: إن العاضد نَصَّ عليه بالإمامة، وأنه صاحب الأمر بعده، وكان عظيماً عند العامَّة. فلما توفي انقطعت دعوة الإسماعيلية(٣) وزال أمرُهم.

وأشهَرَ العادلُ وفاتَه، فعظُمَ موتُه على من هو يتوالى فيهم. فاستأذن الناس الملكَ

---

(١) في رواية ابن الأثير أن صاحب خلاط في ذلك الوقت كان «بلبان» مملوك شاه أرمن ابن سكمان، وكان قد استولى عليها بعد عزل ابن بكتمر. واستنجد صاحبها بلبان بمغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم، واجتمعا على نجم الدين. ولما سار هذا الأخير وقارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته، فطمع وأوغل في القرب فأخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه، ولم يفلت من أصحابه إلا القليل وهم جرحى وعاد إلى ميافارقين. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٥٥.

(٢) المدرسة القايمازية: من مدارس الحنفية بدمشق أنشأها صارم الدين قايماز النجمي، كان بمثابة استادار للسلطان صلاح الدين الأيوبي وكان موقعها داخل بابي النصر والفرج. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٤٣٩.

(٣) المذهب الشيعي الذي كانت عليه الدولة الفاطمية، والدعوة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويرون أنه هو الإمام المستقر يستطيع أن يورث الإمامة لأبنائه فهو والحالة هذه كالحسين بن علي بن أبي طالب. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ج ٣، ص ١٩٤.

الكامل في النياحة عليه ونَدْبِه. فأَذِنَ لهم. فبرز النساءُ حاسِرات، والرجال في ثياب الصوف والشعر، وأخذوا في ندبه والبكاء عليه. واشتهر من كان مستتراً من الإسماعيلية. فلما اجتمعوا وكملوا، أرسل الملك الكامل جماعة من عسكره، فنهبوا ذلك الجمع، وقبض على المعروفين منهم، وملأ بهم الحُبُوس، واستصفى أموال ذوي اليسار منهم، وهرب جماعة آخرون. وزال أمر الإسماعيلية من الديار المصرية. ولم يتجاهر بعد ذلك أَحَدٌ بمذهبهم.

واستهلت سنة خمسة وستمائة

في هذه السنة في يوم الجمعة، خامس شهر رمضان، ولي قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمٰن، بن عبد العلي بن علي، السُّكَّرِي ـ القضاء بالديار المصرية.

وذلك أن الملك العادل كان قد خرج إلى الشام في شعبان، فلما وصل إلى العَبَّاسَة[١]، بلغه وفاة قاضي القضاة: صدر الدين عبد الملك بن دَرْباس. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء، الخامس من شهر رجب، من هذه السنة. ومولده في أواخر سنة ستَ عشرة، أو أوائل سنة سبع عشرة وخمسمائة. ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

ولما اتصلت وفاته بالسلطان استدعى الفقيه عماد الدين، فسار إلى العَبَّاسَة. فولاه الحكم، وعاد[٢] إلى القاهرة. فدخلها في يوم الاثنين، ثامن الشهر. ولما وصل إلى مسجد التِّبْن، دخل إليه ـ ومسجد التبن بظاهر القاهرة ـ ولبس الطَّرْحة وألقى الطَّيْلُسَان[٣]. وكانت العادة جارية أن لا يتطرح إلا من عُلِمَ فضله واشتهر.

وفيها كانت وفاة الملك الأمجد: مجد الدين حسن، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد، بالقدس ـ وهو شقيق الملك المعظم والملك العزيز ـ رحمهم الله تعالى.

واستهلت سنة ست وستمائة

في هذه السنة ـ وقيل في سنة سبع ـ نزلت الكُرْجُ[٤] على خِلَاط، وبها الملك

---

(١) العباسة: قرية بين بلبيس والصالحية: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) المقصود عماد الدين الفقيه.

(٣) يصف القلقشندي زي كبار القضاة والعلماء فيقول: «يتميز قضاة القضاء الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعي. صبح الأعشى ج ٤، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٤) الكرج: أمة من المسيحيين، مساكنها بجبال القوقاز (القبق) المجاورة لتفليس، وكانت جهة أبخاز =

الأوحد، ابن الملك العادل. وملك الكُرْج اسمه إيَرانِي[١].

واتفق في أمر هذا الحصار واقعة غريبة، ذكرها الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الجَزَرِي في تاريخه: «حوادث الزمان» عمَّن حكى لوالده، قال:

كنت في خِلاَط، وقد أشرف الكُرْجُ على فتحها، ولم يبق إلا دخولهم إليها. فبلغ الملك الأوحد أن منجم إيراني قد حكم لصاحبه أنه متى زحف يوم السبت أول النهار، دخل خِلاَط، وجلس على تَخْت الملك، ولا يبيت ليلة الأحد إلا في قلعتها. فأحضر الملك الأوحد منجمه، وذكر له ما بلغه، فقال له: لا تخف، فإن خلاط لا تخرج عن ملكك، وأنت مستظهر على الكرج.

واتفق أن إيراني شرب الخمر، وركب في جيوشه وقصد باب أَرْجِيش[٢]، وحمل ليدخل البلد قبل أخيه، فكبا به فرسه في حفيرة، فسقط إلى الأرض. واتفق خروج جماعة من القَيْمَرِيَّة[٣] من ذلك الباب، ليدفعوا الكُرْج من البلد، فرأوا إيراني قد سقط، فحملوا على أصحابه وكشفوهم عنه، وأسروه. ودخلوا باب المدينة. وقد تجهز الملك الأوحد للهزيمة، فجلس في القلعة أمام تخت المملكة على كرسي، وكان بقلعة خلاط تخت عظيم، لا يجلس عليه الملك إلا في يوم ملكه، ثم لا يعود يجلس عليه. فلما أحضر ملك الكرج إليه، تلقاه وأكرمه وأجلسه على تخت الملك وجلس بين يديه على كرسي، وقال له: البلاد لك. فكتب إيراني إلى أخيه، وإلى الكرج، بالانصراف عن البلد، فرحلوا.

وتحالف الملك الأوحد وملك الكرج على الموافقة والمعاضدة. وتزوج الملك الأوحد ابنة إيراني، وجهزه إلى مدينته تفليس، بعد أن استأذن والده على ذلك، فأذن له. ويقال: كان إطلاقه في ثاني عشر جمادى الأولى، سنة سبع وستمائة. والله أعلم. وزُفَّت

= معقلهم ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ. ولم يزالوا متملكين على تفليس وأبخاز معقلهم حتى أغار عليهم خوارزم شاه جلال الدين سنة ٦٢١ هـ، فاستولى على تفليس منهم. المقريزي: السلوك ج ١، ص ١٦٩. وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠٦.

(١) «ابواني» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٩. و«إيواني» في الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤١٧.

(٢) أرجيش: بالفتح ثم السكون مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط وأكثر أهلها أرمن نصارى: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٣.

(٣) نسبة إلى قيمر: وهي قلعة في الجبال تقع بين الموصل وخلاط وفيها جماعة من أعيان الأمراء، وهم أكراد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨١.

البنت إلى الملك الأوحد بعد ذلك، وهي على دينها، وبني لها بيعة بقلعة خلاط. وأطلق الكرج القلاع التي كانت أخذت ـ وهي إحدى وعشرون قلعة ـ ومائة ألف دينار. ووافق قول كل من المنجمين: جلس الكرجي على تخت الملك، وباب القلعة، وانتصر الأوحد.

وفيها جهز الملك العادل جمال الدين المصري[١] رسولاً إلى الخليفة. فأدى، وأعيد. وصحبه من الديوان العزيز بن الضحاك[٢] وأَقْبَاش[٣] الناصري. فاجتمعوا بالسلطان الملك العادل على رأس العَيْن.

ذكر حصار الملك العادل سِنْجَار ورجوعه عنها وأخذ نَصِيبين والخابُور

وفي سنة ست وستمائة، سار الملك العادل إلى سِنْجَار[٤] ـ وصاحبها، يوم ذلك، قطب الدين بن عماد الدين زَنْكِي.

فلما خيم بظاهرها، أخرج صاحبها نساءه وخدمه، يسألن العادل إبقاء المدينة عليها. فلما حصلن عنده، أمر باعتقالهن[٥]. وأرسل إلى قطب الدين، يقول: إنه لا يطلقهن إلا بعد تسليم البلد. فاضطر إلى موافقته. وتقررت الحال بينهما: أن يعوض قطب الدين الرَّقَّة وسَرُوج وضياع في بلاد حَرَّان.

فأطلق العادل النسوة، وأرسل أعلامه إلى البلد، فلما دخلن البلد، ودخلت الأعلام العادلية، أمر قطب الدين بغلق الأبواب وتكسير الأعلام، وأرسل إلى العادل،

---

(١) هو يونس بن بدران بن فيروز المعروف بالجمال المصري. ولد بمصر في حدود سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م. وسمع من السلفي وغيره. وكان يشارك في علوم كثيرة. واختصر الأم للشافعي وألف في الفرائض، ودرس التفسير بالعادلية بدمشق وولي قضاء الشام. مات في ربيع الآخر سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١١، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١١٢.

(٢) هو هبة الله بن المبارك بن الضحاك. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧١، وهو استدار الخلافة المعظمة. الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ١٦٧.

(٣) هو الأمير آق باش أحد خواص مماليك الخليفة الناصر لدين الله الذي رافق ابن ابن المبارك. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧١، حاشية (١). وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٢٨٧.

(٤) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة واقعة في لحف جبل عالٍ بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام أيضاً، وهي مدينة طيبة في وسطها نهر جارٍ، وعامرة جداً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٥) انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ١٩٣.

يقول: غَدْرَةٌ بِغَدْرَة، والبادي أظلم.

فحاصرها العادل، وقطع أشجارَها وهدم جَوَاسِقَها. فانتصر صاحب الموصل لصاحب سِنْجَار، خوفاً على بلاده. وراسل مظفر الدين صاحب إِرْبِل، وكان بينهما وحشة. وكان من جملة رسالة صاحب الموصل له: أن الأحقاد تذهبها الشدائد. فراسل مظفر الدين العادل، يشفع عنده في صاحب سنجار. فرد رسوله أقبح رد. فمضى إلى صاحب الموصل، واتفق معه، وراسلا صاحب الجزيرة.

وأرسل مظفر الدين إلى صاحب سنجار، يشير عليه بمراسلة الخليفة. فأرسل إليه، فمضى الرسول إلى بغداد، فأرسل الخليفة إلى العادل، يشفع عنده في صاحب سنجار. فلم يجب العادل لذلك. فغضب رسول الخليفة، وعاد إلى الموصل، وقال لمن بها من الملوك: قد أذن لكم أمير المؤمنين في قتل العادل.

فكتبوا إلى الملك الظاهر صاحب حلب، وأغروه بعمه، فأرسل أخاه الملك المؤيد: نجم الدين مسعود إلى عمه، يشفع في صاحب سِنْجَار. فرده أقبح رد. فبرز الظاهر من حلب، في ثامن شعبان، لقصد العادل. فتفرقت عساكره، والتحق بعضها بالعادل.

ثم رأى أَهل سِنْجَار أن من خرج منهم غضبه عسكر العادل، وفسقوا بمن خرج من النساء، فقاتلوا قتال الحريم، فاضطر العادل إلى الصلح مع صاحب سنجار. فتقرر أن يسلموا إلى العادل: نَصِيبين والخابور، ويحملوا إليه مالاً، ففعل، وفارق سنجار.

وفيها كانت وفاة الملك المُؤَيَّد: نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، برأس عَيْن، عند منصرَفه من عند عمه الملك العادل، برسالة أخيه بسبب سنجار. وكان قد نام في بيت مع ثلاثة نفر، وعندهم منقل فيه نار، والبيت بغير منفذ، فانعكس البخار فأخذ على أنفاسهم، فماتوا جميعاً[١] فحمل المؤيد في محفة إلى حلب، فدفن بها[٢].

وفيها توفي الشيخ الإمام العلامة: فخر الدين أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن علي بن محمد، التَّيْمي البَكْري الطَّبِرِسْتَاني الأصل، الرَّازِي ـ المعروف بابن

(١) «فاختنق الملك المؤيد ومن كان معه ولم يسلم إلا اثنان، وجد فيهما حياة ضعيفة، وتحدث الناس بأنه سُقي سُمّاً في الزمان الذي تناوله هو وبعض غلمانه. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٩٨.

(٢) دفن في التربة الظاهرية في الثامن والعشرين من شعبان من السنة، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٩٨.

خطيب الرَّيّ، الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة[١]. وكانت وفاته بهَرَاه[٢] في يوم الاثنين ـ وهو يوم عيد الفطر ـ سنة ست وستمائة. ومولده في خامس عشر شهر رمضان، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[٣].

وفيها كانت وفاة القاضي الأسعد: أبي المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد، مُهَذَّب بن مِينَا بن زكريا بن أبي قُدَامة بن أبي مَلِيح مَمَّاتِي، المِصْري الكاتب الشاعر.

كان يتولى نظر الدّواوين بالديار المصرية. وكان نصرانياً فأسلم في ابتداء الدولة الناصرية الصلاحية، هو وجماعته. وله مصنفات عديدة: نظم سِيَرة الملك الناصر صلاح الدين، ونظم كتاب كَلِيلَة ودِمْنَة. وله ديوان شعر. وباشر ديوان الجيش الصَّلَاحي، ثم ولي نظر الدواوين. وخاف الصاحبَ صفي الدين بن شكر فهرب إلى حلب، والتحق بالملك الظاهر صاحبها.

وكانت وفاته بحلب في سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة، وعمره اثنتان وستون سنة. ودفن بالمقبرة المعروفة بالمقام، على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ الهَرَوِي، ومَمَّاتِي لقب أبي المليح جده الأعلى. وسبب تلقيبه بهذا اللقب أنه وقع بمصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام، خصوصاً لأطفال المسلمين، وكان الأطفال إذا رأوه نادوه: مَمَّاتي، فغلب عليه. حكى ذلك ابن خِلِّكَان عن الحافظ زَكِيّ الدين عبد العظيم ـ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع وستمائة

في هذه السنة ـ في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شعبان ـ قدم الملك العادل إلى القاهرة، وصحبته الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر. ثم توجه إلى الطُّور[٤] لعمارته.

---

(١) هو الإمام فخر الدين الرازي، صاحب التصانيف المشهورة ومنها: التفسير الكبير سماه: مفاتيح الغيب، وكتاب المحَصل والمنتخب وتأسيس التقديس، والعالم في أصول الدين، والمعالم في أصول الفقه وكتاب الملل والنحل وغيرها. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢١ ـ ٢٢. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٧٦.

(٢) هراة: كانت من مدن خراسان الكبرى قديماً. وهي الآن في مملكة أفغانستان: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٥٦.

(٣) «سنة أربع وأربعين وخمسمائة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢١، وثلاث وأربعين وخمسمائة في الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٢٨٨.

(٤) جبل مطل على طبرية الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٢. وهو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢١٥.

وفي هذه السنة، في سابع شوال، حصل الشروع في عمارة مُصَلَّى ظاهر دمشق، وهي المجاورة لمسجد النارنج، فعمرت لصلاة العيدَيْن، ثم عمل بالمصلى رواقات في سنة ثلاث عشرة وستمائة، وعملت حيطانه ورتب فيه خطيب لإقامة صلاة الجمعة في سابع عشر من شهر رمضان. وفيها: في حادي عشر من شهر شوال جددت أبواب جامع دمشق من جهة باب البريد، وعملت بالنحاس الأصفر وركبت. وفي سادس عشر من شوال حصل الشروع في إصلاح الفوارة بجَيْرُون[١]. وعمل الشَّاذَرْوَان والبِرْكَة بساحتها، واتخذ فيها مسجد بإمام راتب. وأول من رتب فيه ـ بأمر الصاحب صفي الدين بن شكر ـ الشيخ نفيس الدين المِصْري، كان يلقب بُوقَ الجامع لقوة صوته، وكان حسن الصوت.

وفيها في سابع عشر من ذي القعدة، وصلت مراكب الفرنج إلى ثغر دمياط، على غِرَّةٍ من أهله. فنهبوا أطراف الثغر، وأسروا جماعة من المسلمين.

واستهلت سنة ثمان وستمائة

والسلطان الملك العادل، وابنه الملك المعظم، نازلان بالمُخَيَّم على الطور[٢]، ومعهما العساكر، لعمارة حصنه[٣]. وهما مجتهدان في إدارته حوشاً.

ذكر بناء القبة على ضريح الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وعمارة السوق

كان ابتداء عمارة هذه القُبَّة في سنة ثمان وستمائة وكانت أرض هذا المكان مقبرة عَتِيقة. فاتفق أنَّ الملك الناصر صلاح الدين يوسف أنشأ المدرسة المجاورة للضريح. فلما كان في هذه السنة، في خامس عشر من صفر، توفيت والدة الملك الكامل، وكان الملك الكامل، قبل وفاتها بأيام، رَكِبَ وطوَّفَ القَرَافة على مكان يبنيه عليها، ويجعل فيه سوقاً. فوقع الاختيار على دفنها بالضريح. فلما توفيت، دفنها وعمر عليها هذه القبة الموجودة الآن. وغرم عليها أموالاً جليلة المقدرا، أجري إليها الماء الحلو من بِرْكَة

---

(١) بجيرون: عند باب دمشق، وهي سقيفة مستطيلة وحولها مدينة وبه سمي باب جيرون والمعروف أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو بابه الشرقي، يقال له: باب جيرون. وقيل إن جيرون هي دمشق نفسها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣١.

(٢) هو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢١٥.

(٣) «في سنة تسع وستمائة» نزل العادل بعساكره حول قلعة الطور وأحضر الصناع في كل بلد واستعمل جميع أمراء العساكر في البناء ونقل الحجارة فكان في البناء خمسمائة بنّاء، وما زال مقيماً حتى كملت. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٦. وابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢١٦.

الحَبَش[١] وانتقل البناء من القرافة الكبرى إلى هذا الموضع. ثم تغالى الناس بعد ذلك في العمائر بالقرافة وزخرفوها، حتى صارت على ما هي عليه الآن.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير فخر الدين أبي المنصور، أَيَاز جَهَارَكْس، الناصري الصلاحي، بدمشق في صفر، ودفن بقاسِيون.

وكان الملك العادل قد أقطعه بَانْيَاس وتِبْنِين والشَّقِيف وهُونِين وتلك البلاد، لأجل انحرافه عن الملك الأفضل، ابن أخيه الملك الناصر. ولما مات جَهَارَكْس، أقر السلطان ما كان بيده على ابنيه. وقام بالأمر والتدبير الأمير صارم الدين خَطْلَبَا التِّبْنِينِي أحسن قيام، وسد تلك الثغور. واشترى صارم الدين ضيعة بوادي بَرَدَى[٢] تسمى الكَفْر، ووقفها على تربة جَهَارَكْس، وعمر له قبة.

وفيها توفي الأمير صارم الدين بُرْغُش العادلي، بدمشق، في ثالث وعشرين صفر، ودفن بقاسِيون غربي بالجامع المُظَفَّرِي.

واستهلت سنة تسع وستمائة

ذكر عزل الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وولاية الصاحب الأعز بن شكر

وفي يوم الاثنين، لسبع مضين من شهر ربيع الأول، سنة تسع وستمائة، صُرِف الصاحب صفي الدين من الوِزارة وأُلْزِم دارَه.

ونحن الآن نذكر في هذا الموضع سبب اتصاله بخدمة السلطان العادل، وموجب انفصاله.

---

(١) بركة الحبش: كانت هذه البركة تعرف أولاً ببركة المغافر وببركة حمير، وعرفت أيضاً باصطبل قره، وهي من أشهر برك مصر في القرون الوسطى، وموقعها بظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل، وكانت أرضها مواتاً فزرعها قرة بن شرمك العبسي أمير مصر (٩١ ـ ٩٦ هـ) من قبل الأمويين وأحياها، وغرسها قصباً، ولهذا عرفت باصطبل قره، كما غرفت باصطبل قامش أيضاً، ثم تغيّرت عليها الأسماء حتى صارت تعرف ببركة الحبش، وجعلت وقفاً على الطالبين بني علي بن أبي طالب. واشتهرت ببركة الأشراف، وكانت بركة الحبش من أكبر منتزهات مصر، يهرع إليها الناس في أعياد النوروز، والغطاس، والميلاد، والمهرجان وعيد الشعانين، وقد بنى عندها الخليفة الآمر الفاطمي منظرة سميت بمنظرة بركة الحبش، وكان ماء النيل يدخل إلى هذه البركة من خليج بني وائل فيما يلي باب مصر من الجهة القبلية وهو الذي عرف أيام المقريزي بباب القنطرة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٤، حاشية (٣).

(٢) أكبر أنهار دمشق يمر بالغوطة ثم بمدينة دمشق، حتى يصب شرقيها في بحيرة المرج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٠.

كان قد اتصل بالخدمة العادلية في أواخر الأيام الناصرية. فلما مات ابن النَّحّال النصراني - كاتب الملكِ العادل - تقدم صفي الدين، فرآه شهماً مقداماً فقدمه، وتمكن من دولته. فلما كانت حادثة الأفضل، ورجوعه عن دمشق بعد حصارها، وخرج العادل في طلبه اجتاز بالبيت المقدس، ومعه صفي الدين، فتحلف معه أنه إن قَدَّر الله تعالى له بملك الديار المصرية، يمكنه من المصريين، وحلفه على ذلك فحلف له.

فلما ملك العادل الديار المصرية، لم يتمكن صفي الدين من مصادرات المصريين، لأمرين: أحدهما ما حل بالناس من الغلاء المشهور، والثاني ملازمة العادل ببلاد الشام. فلم يزل كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة عند قدوم العادل من الشام، فأمسك الصاحب جماعة من رؤساء المصريين، وأصحاب الدواوين والمستخدمين وغيرهم، وعاقبهم أشد عقوبة ونَكَّل بهم، وفعل بهم ما أوجب حِقْدَ الناس عليه. وكثُر بطشه بالناس، وأقام لنفسه حُرْمةً عظيمة زادت على حرمة السلطان وعَظُمَ أمره، حتى كان أولاد الملك العادل يأتون إلى داره فيجلسون على بابه، حتى يؤذن لهم، فثَقُلَ ذلك على أمراء الدولة وخاطبوا السلطان في أمره، وهو لا يَسْمَعُ فيه كلامَ متكلِّم.

فلما كان في سنة ست وستمائة - والسلطان على سِنْجَار - اتفق أن الصاحب تَحَدَّثَ معه في شيء، لم يوافق رأي السلطان، فتوقف عن إجابته. فقام الصاحب من مجلس السلطان، وقد غضب، وجرح جرحاً مُفْرِطاً في المجلس، حتى خجل العادل ممن حضره، ووجدوا للكلام مجالاً فتكلموا فيه. وكان العادل من أَثْبَتِ الناس، وأَحْلَمِهم وأقلهم بطشاً، وصفيُّ الدين بخلاف ذلك. فبقيت هذه الحادثة في نفس السلطان كامنة. وكان القاضي الأعز بن شكر في هذه السفرة نائب الوزارة بالديار المصرية، وهو ناظر الدواوين بها في خدمة الملك الكامل، فحصل بينهما مودة. فحسده من كان ينوب عن الصاحب في الوزارة قبله. وكانوا يكاتبون[١] الصاحب ويقولون له إنّ الأعز قد توثب عليك، واتصل بالكامل وتمكن منه.

فلما كان في ذي الحجة، سنة سبع وستمائة، اجتمع بنو شكر عند الصاحب على طعامه، فأشار أن توضع زِبْدِيَّة[٢] طعام مخصوص بين يدي الموفق - وهو أحد من كان ينوب عن الوزارة - فقال أحد الحاضرين: يدُه طويلة! - يريد أنها تطول لمكان الزبدية. فقال آخر: طَوَّلَها الذي صرفه من نيابة الوزارة - يعرض به أنه كان يتبرطل! فضحك الأعز ضحكاً مفرطاً بمعنى أنه أمين، ليس فيه ما يقال كما قيل في غيره! فغضب

(١) في الأصل: وكانوا يكاتبوا.
(٢) وعاء للطعام: ابن منظور: لسان العرب (زبد).

الصاحب لذلك وانتهره، لإساءته في مجلسه بالضحك.

فأسرع الأعز في القيام إلى داره، فلما قام، قال بعض من حضر للصاحب: لا تأمَنْه من سوء يكيدك به. وأغروه فأمر بإحضاره. فلما جاءه الرسول، علم أنه إن وقع في يده لا يأمنه على نفسه. فَتَسَوَّرَ من مكان في داره، وطلع إلى القلعة، واحتمى بالكامل. فلما سمع الصاحب بذلك طلبه من الكامل، فدافعه به فغضب واجتمع بالملك العادل، وقال: إن الأعز لزمه حساب، وقد أحماه الكامل علينا. وكرر عليه القول. فتحدث العادل مع ابنه الكامل في ذلك، فقال: يُصْلَح بينهما. وقصد الكامل بذلك مدافعة الأيام، ليقع سفر العادل إلى الشام معه، فيسكن ما عند الصاحب منه، فلم يزده ذلك إلا حنقاً.

فلما كان في آخر ذي الحجة ـ سنة ثمان وستمائة ـ ركب الكاملُ إلى دار الوزارة، وحضر مجلس الوزير، والأعز معه، وأصلح بينهما. فاصطلحا ظاهراً، والبواطن بخلاف ذلك. وقصد الصاحب أن الأعز إذا انصرف إلى داره، قبض عليه، فلم يفارق الأعز الخدمة الكاملية بالقلعة. فازداد الصاحب حنقاً عليه، وتحدث مع العادل أن يعزله عن نظر الدواوين. فتوقف السلطان في ذلك.

وتمادى الأمر، إلى آخر صفر. فامتنع الصاحب من الكتابة على المَنَاشِير والتَّوَاقِيع، وحلف أنه لا يباشر والأَعَزُّ يكتبُ معه أبداً، فتعطلت أحوال الناس، وشكوا ذلك إلى السلطان. فأرسل إلى الصاحب بروضه، ويقول: لا بد أن أُمَكِّنَكَ من الأعز، وهو لا يزداد إلا غضباً وإساءة في الجواب. فإذا عاد رسول السلطان إليه، لا يمكنه مخاطبته بما قاله الصاحب، ويغالط في الجواب. فأرسل السلطان بعض الأمراء إلى الصاحب برسالة، ومعه أحد مماليكه، وقال له احفظ ما يقوله الصاحب، وأَعِدْه عليّ. فكان من جملة قول الصاحب: والله لا كتبتُ والأعزُّ يكتب معي أبداً. فعند ذلك، خرج السلطان على ابنه الكامل وانتهره، وأغلظ في القول، وقال: يُسَلَّم الأعز إلى الصاحب في هذه الساعة!.

فلما عاد الكامل إلى القلعة، تلقاه الأعز على عادته. فقال: قد أمر السلطان بتسليمك للصاحب، وخرج عليَّ بسببك، وعجزت عن حمايتك. فقال له الأعز: يا مولانا، والله عداوتي للصاحب بسببك! وهو أنه كاتبني في حقك أنه لا بد أن يعمل على صرفك من مملكة الديار المصرية، وأن يجعل عوضاً عنك الأشرف موسى. وهذه كُتُبُه إليّ. فلما وقف الكامل على الكتب كان من جملة ما تضمنته: «وأما هذا المجنون ـ يشير إلى الكامل ـ فلا بد من صرفه، وإحضار الأشرف إلى الدّيار المصرية». وتضمنت من سبه وشتمه كثيراً.

فعاد الكامل للعادل، والكتب معه، وجاء في غير الوقت المعتاد. فقال له العادل:

ما جاء بك الآن؟ فقال: هذا الصاحب يريد أن يوقع بين السلطان وأولاده، وبين الإخوة. هذه كتبه للأعز، وعداوته بسببها. فلما وقف العادل عليها، عظم عليه سبه لابنه ـ وكان العادل يداري جميع أولاده، خوفاً أن يقوم أحدهم عليه، فتَنْخَرِق حُرْمَتُه ـ فقال: نَعْزِلُه، ولا يُسَلِّم إليه الأعز. ويكتب الأعز وحده.

فخرج الكامل لوقته، واستدعى الأعز فخر الدين أبا الفوارس مقدام ابن القاضي جمال الدين أحمد بن شكر. وأمر أميرَ جانداره[١] بجمع الدواوين وتسليمهم للأعز. فسلمهم إليه. وجلس الصاحب الأعز، وتحدث في الوزارة لوقته. وقام الصاحب صفي الدين من مجلس الوزارة ولازم داره. ثم كان من خبر مصادرته، وإخراجه من الديار المصرية ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

ذكر حادثة الأمير عز الدين أسامة واعتقاله والاستيلاء على قلاعه

كان الأمير عز الدين أسامة الجَبَلي[٢] من أكابر الأمراء، وصهر الملك العادل، وهو الذي بنى الجسر الذي على نهر الأردن، المعروف بجسر أسامة. وقيل: إنه هو الذي بنى قلعة عَجْلُون[٣]. وكانت داره بدمشق، التي هي الآن المدرسة البَادَرَائِيَّة[٤] بدمشق.

---

(١) أمير جانداره: «إمرة جاندار» وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، ويقدم البريد مع كاتب السر، وصاحبها كالمتسلم للباب. وإذا أراد أحد أن يقتل أحدهم كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠. وهذه الكلمة مكونة من جان بالفارسية تعني روح. ودار تعني صاحب. وهذه الوظيفة تشبه وظيفة الحاجب أو الأمين الأول.

(٢) «في سنة ثمان وستمائة» قبض الملك العادل على الأمير عز الدين أسامة الصلاحي نائب كوكب وعجلون واعتقله. وأخذ جميع ماله وسيّره إلى الكرك، فاعتقل فيها هو وولده، وتسلم الملك المعظم قلعة كوكب وعجلون وهدم قلعة كوكب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٧٤. «ولم يزل أسامة معتقلاً في الكرك إلى أن مات» في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢١٠. «سنة تسع وستمائة هرب عز الدين أسامة ولحقه الملك المعظم بنفسه وقبض عليه واعتقله بالكرك» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ١٧٢.

(٣) قلعة من جند إقليم الأردن، مبنية على جبل يعرف بجبل عوف تشرف على الغور، وهي محدثة البناء بناها أسامة بن منقذ من أمراء السلطان صلاح الدين في سنة ٥٨٠ وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون فسميت به. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٥ ـ ١٠٦. وما ذكره القلقشندي يخالف ما ورد هنا في المتن من أن أسامة الجبلي هو الذي بنى قلعة عجلون.

(٤) نسبة إلى نجم الدين البادرائي رسول الخليفة إلى الشام ومصر. هو الذي بناها بدمشق. وهو منسوب إلى «بادرايا» وهي بليدة بقرب باكسايا بين البندنيجين ونواحي واسط. فيها التمر الجيد: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٧٦.

فاتهمه السلطان بمباطنة الملك الظاهر صاحب حلب، واستوحش هو أيضاً من السلطان الملك العادل وأولاده، فقصد الانحياز إلى قلاعه ـ وكان له عَجْلُون وقلعة كَوْكَب[١]، واتفق أن السلطان توجه في هذه السنة إلى ثغر دمياط، وصحبته أولاده الملك الكامل والملك المعظم والملك الفائز، فاغتنم عز الدين أسامة غيبتهم، وركب من القاهرة في يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة، وخرج وأظهر أنه يريد الصيد.

فلما مر ببِلْبِيس، بَطَقَ[٢] متوليها إلى السلطان يخبره. فقال الملك العادل: من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه، فانتدب الملك المعظم لذلك. وركب من ثغر دمياط ليلة الثلاثاء، غرة شهر رجب. وساق في ثمانية ممن يعتمد عليهم، وعلى يده حصان جَنِيب[٣] فوصل إلى غزة صبح الجمعة، وسبق أسامة إليها، وأمسك عليه الطرق. وأما أسامة فإنه تقطعت عنه مماليكه ومن كان معه، وبقي وحده، وبه مرض النِّقْرِس. ووصل إلى الدَّارُوم[٤] فعرفه بعض الصيادين، فأعطاه أسامة ألف دينار، وقال: خُذْ هذه وأوصلني إلى الشام. فأخذه وجاء إلى رفاقه فعرفوه، وتوجهوا به على طريق الخليل، ليتوجهوا به إلى عَجْلون. فوصلوا به إلى القدس، في يوم الأحد سادس من شهر رجب. ونزل بصِهْيُوْن ـ وهي ضيعة بالقدس.

وعلم به الملك المعظم، فأرسل إليه بثياب وطعام، ولاطفه، وقال له: أنت شيخ كبير ما يصلح لك الحصون، فسَلِّمْ إليَّ كوكب وعجلون. وقال: أنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك، وتعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع من ذلك، وسب المعظم أقبح سب. فلما يئس منه، بعث به إلى الكَرَك[٥]، واعتقله بها واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره. فكان قيمة ما أخذ له ألف ألف دينار.

وأما السلطان الملك العادل فإنه كان توجه في العشرين من جمادى الأولى إلى ثغر دمياط، وتوجه منه إلى ثغر الإسكندرية، ثم عاد وتوجه إلى الشام، في ثاني شوال

---

(١) قلعة كوكب: قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خُرِّبت: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٦١.

(٢) بطق: أرسل بطاقة كتب فيها ما يريد. ابن منظور: لسان العرب (بطق).

(٣) حصان يؤخذ إضافة إلى الفرس الأول ويُبادل الركوب عليه. ابن منظور: لسان العرب (جنب).

(٤) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ خربها صلاح الدين لما ملك الساحل في سنة ٥٨٤. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨٣.

(٥) الكرك: بفتح أوله وثانيه. كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلْزُم وبيت المقدس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٤.

من هذه السنة. وحاصر كوكب أشد حصار، واستولى عليها. وأخذ منها أموالاً عظيمة وهدمها وعَفَّى أثرها. وذلك في العشر الأوسط من ذي القعدة.

ذكر وفاة الملك الأوحد صاحب خلاط واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها(١)

وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب، ابن السلطان الملك العادل، وهو صاحب خِلاَط، وكانت وفاته بمَلاَزْكِرْد(٢) في ثامن شهر ربيع الأول، ودُفن بها.

وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف من حَرَّان، فأقام عنده أياماً، واشتد مرضه، فقصد الأشرف الرجوع إلى حَرَّان لئلا يَتَخَيَّلَ(٣) منه الأَوْحد. فقال له الأوحد: يا أخي كم تلح؟ والله، إني ميت، وأنت تأخذ البلاد! ثم مات. فدفنه الملك الأشرف. وجاء إلى خِلاط، واستولى عليها، وعلى ما بها من الأموال.

فتوجه الملك العادل إليه، وقد غضب لكونه(٤) فعل بغير أمره. فلما وصل إليها، اعتذر الملك الأشرف أنه إنما فعل ذلك خوفاً أن يسبقه غيره من ملوك الأطراف إليها، فقبل عذره، واستمر به فيها(٥). وأنعم السلطان على ولده الملك المظفر شهاب الدين غازي بمَيَّافَارِقِين وأعمالها.

واستهلت سنة عشر وستمائة

ذكر قيام أهل مصر على الملك الكامل، ورجمه

وفي جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، شَغَبَ العوامُّ بمصر على الملك الكامل ورجموه، وسبب ذلك أن أبا شاكر النصراني الطبيب كان الملك الكامل يميل إليه، وكان

---

(١) انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ١٧٥ وفيه توفي الملك الأوحد سنة ٦١٠ هـ. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ١٨٣، وفيه تملك الملك الأوحد خلاط أقل من خمس سنين، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٣٧، وفيه تملك خلاط خمس سنين. وانظر أيضاً ذيل الروضتين لأبي شامة ص ٨٢.

(٢) من بلاد أرمينية. كانت عندها الموقعة التاريخية الشهيرة التي هزم فيها السلطان ألب أرسلان الامبراطور البيزنطي وجيشه. دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، ص ٦٤٧.

(٣) يتوهم أنه يدبر له أمراً. ابن منظور: لسان العرب (خيل).

(٤) في الأصل: كونه.

(٥) أي استمر والياً عليها.

إلى جانب الكنيسة المُعَلَّقَة بمصر مسجد قد عفي أثره، فقصد العوام تجديده. فامتنع الكامل من إجابتهم إلى ذلك، بسبب أبي شاكر. فثار العوام، وقالوا لا بد من عمارته. فركب الملك الكامل من القلعة، وجاء إلى الكنيسة المُعَلَّقة(١)، وكشف المكان بنفسه. فلما شاهده، قال: ما كان هذا مسجداً قط. فاستغاث العوام، وشغبوا ورموه بالحجارة، فهرب منهم إلى القلعة.

وفيها توجه الملك الظافر الخِضْر ابن السلطان الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب، من حلب لقصد الحج. فنزل بالقَابُون(٢) في يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القَدَم(٣) في خامس الشهر. وكان الملك المعظم بحَوْرَان، فوصل إلى دمشق، وأدخله إليها وعمل له ضيافة. ثم توجه إلى الحجاز، صحبة الركب الشامي، فلما وصل إلى المدينة زار رسول الله ﷺ. وأحرم بالحج من ذي الحُلَيْفَة(٤)، فلما انتهى إلى بَدْر وجد عسكر الملك الكامل قد سبقه من مصر إلى بدر، خوفاً منه أن يتوجه إلى اليمن. فقالوا له: ترجع. فعلم مرادهم. فقال: إنه قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة، وإني قد أحرمت. ووالله ما قصدي اليمن ولا أقصد غير الحج، فقيدوني، واحتاطوا بي، حتى أقضي المناسك وأعود. فلم يوافقوه على ذلك، وأعادوه إلى الشام فصنع(٥) كما صنع النَّبي ﷺ حين صده المشركون عن البيت: قصَّر وذَبَح ما تيسر، وعاد إلى الشام.

وفيها توفي الأمير فارس الدين ميمون القَصْرى(٦) بحلب في رابع عشر من شهر

---

(١) الكنيسة المعلقة: بمدينة مصر. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٥، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩.

(٣) مسجد القدم: من الآثار التي في مدينة دمشق وغوطتها مما يرجى فيه إجابة الدعاء يقال إن هناك قبر موسى بن عمران ومسجد الباب الشرقي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٤، حاشية (٣).

(٤) ذو الحُليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة، وذو الحُليفة: كان منزل رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لحج، أو عمرة، فكان ينزل تحت شجرة في موضع المسجد، الذي بذي الحُليفة اليوم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٤٠. وانظر أيضاً معجم ما استعجم للبكري ص ٤٦٤.

(٥) ذكر أبو شامة أنه صنع كما صنع النبي ﷺ عام الحديبية حين صدّه الكفار عن البيت فقص من شعره، وذبح ما تيسر ولبس ثيابه وودع الناس ورجع وعيون الناس باكية ولهم ضجيج وعويل، ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر الدين، وهو ابن مثل صلاح الدين رحمه الله. الذيل على الروضتين ص ٨٣.

(٦) هو آخر من بقي من كبار الأمراء الصلاحية كانت وفاته بحلب وعتق في الليلة التي مات فيها ثمانين مملوكاً وزوجهم بثمانين جارية أيضاً، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٢٠.

رمضان. وكان من أكابر الأمراء الناصرية. وكانت أَعْزَاز إقطاعه[١]. وخلف أموالاً جَمَّة. وهذه النسبة إلى القَصْر الذي بالقاهرة، كان تَرَبَّى فيه ـ رحمه الله.

واستهلت سنة إحدى عشرة وستمائة

ذكر استيلاء الملك المسعود ابن الملك الكامل على اليمن

وفي هذه السنة جهز الملك الكامل ابنه الملك المسعود، صلاح الدين أتْسِزْ ـ وهو أَقْسِيس[٢] ـ إلى الحجاز، ويتوجه من هناك إلى اليمن.

وكان سبب إرساله إلى اليمن أن الناصر أيوب بن سيف الإسلام بن أيوب، قد توفي، واستولى على اليمن سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ باتفاق من أجنادها ـ وتزوج بأم الناصر. ووصل الخبر إلى الملك الكامل بذلك، فجهز ابنه الملك المسعود، فرحل من بِرْكَةِ الجُبِّ[٣] في يوم الاثنين، سابع عشر من شهر رمضان، ومعه ألف فارس، ومن الجَانْدَارِيَّة[٤] والرُّماةَ خمسمائة وكان ذلك بعد أن سيره إلى خدمة السلطان الملك العادل بدمشق، ولقبه بالملك المسعود، وأعاده إلى القاهرة.

فتوجه إلى مكة ـ شرفها الله تعالى، فلما قضى مناسك الحج توجه إلى بلاد اليمن. فكان وصوله إلى زَبِيد في يوم السبت مستهل المحرم، سنة ثنتي عشرة وستمائة. فملكها من غير قتال، وتسلم ثمانية حصون من تِهَامة. وندب قطعة من العسكر لحصار تَعِزّ[٥]

(١) بلدة وقلعة شمالي حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٢.

(٢) هو ابن محمد الكامل بن العادل الملقب بأقسيس أو أخسيس ملك اليمن ومات سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م. ترجمته وأخباره في: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٢٠، وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي، ص ٧٩، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٣٤. وذيل الروضتين لأبي شامة ص ٨٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٤٢.

(٣) بركة الجُبّ: هي بظاهر القاهرة من بحريها وتسميها العامة قديماً بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة ونزولهم عند العود بها ومنها يدخلون إلى القاهرة، وهي أرض جب عميرة، وكانت منتزهاً للخلفاء والملوك من بني أيوب. وكان السلطان صلاح الدين يبرز إليها للصيد ويقيم فيها الأيام وفعل ذلك الملوك من بعده. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٨٣.

(٤) الجاندار والجاندارية: وهم فئة من المماليك السلطانية أو الأمير ومثلها الخاصكية. وهم من خواص السلطان. انظر صفحة ٣٧ من هذا الجزء حاشية (١) وفيها شرح لوظيفة الجاندار. والقلقشندي ج ٤، ص ٢.

(٥) تعز: بالفتح ثم الكسر والزاي مشددة: قلعة حصينة من قلاع اليمن المشهورات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٠.

ـ وكان سليمان قد تحصن بها ـ ففتح الحصن في ثالث صفر، ودخله العسكر المسعودي، ومُسِك سليمان واعتُقِل. ثم جهزه إلى الديار المصرية هو وزوجته.

وكانت صنعاء في يد عبد الله بن حمزة ـ المدعي الخلافة ـ فجرد الملك المسعود إليه عسكراً، فوصل العسكر إلى صنعاء في مستهل جمادى الأولى. فهرب عبد الله لما سمع بقرب العسكر، وجعل لا يخرج من مدينة إلا بعد تخريب أسوارها، وتعفية ما يستطيع من أثرها، وهدم منار المساجد، ولحق بالجبال وتعلق بها. وملك الملك المسعود البلاد. وكان جَبَّاراً فاتكاً، فيقال إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقاً كثيراً من الأكابر(١).

وفيها استولى الملك المُعَظَّم(٢) ـ شرف الدين عيسى ـ على قلعة صَرْخَد(٣)، وأخذها من ابن قَرَاجا، وعوضه عنها مالاً وإقطاعاً، وأعطاها لمملوكه، أستاذ داره عز الدين أَيْبَك المعظمي. فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الملك الصالح نجم الدين أيوب، في سنة أربع وأربعين وستمائة.

وفيها أُحدثت المعاملة بالقَرَاطِيس السُّود العادِلية بدمشق، كما يتعامل الناس بالورق بالديار المصرية. فبقيت زماناً. ثم بطل ضَرْبُها وتناقَصَتْ من أيدي الناس، إلى أن توفي الملك العادل.

وفيها توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل من دمشق إلى الحجاز. وجدد في الطريق البِرَك والمَصَانع والمناهل، وأحسن إلى الناس، وتصدق، وحَجَّ قارِناً ـ وكان حَنَفِيَّ المذهب ـ وعاد إلى الشَّام.

وفيها اهتم السلطان ـ الملك العادل ـ بعمل الميدان الذي بسوق الخيل، بظاهر القاهرة، والفساقي المجاورة لها.

وفيها، في ثالث شهر ربيع الأول، فوض تدريس الحنفية، بالمدرسة النُّورِية

---

(١) كان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقاً وأقلهم حياء وديناً قد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب. ابن كثير البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٧٤.

(٢) توفي سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م. انظر أمراء دمشق للصفدي ص ٦٢. والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١، ص ٥٧٩، تحقيق جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١١٥. وذيل الروضتين ص ١٥٢، العطار ط القاهرة ١٩٤٧. وترويح القلوب للزبيدي ص ٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٧.

(٣) صرخد: انظر صفحة ١١ من هذا الجزء حاشية رقم (٢).

بدمشق، للشيخ جمال الدين محمد بن الحَصِيري[١] العَجَمي. وحضر الملك المعظم درسه مع الفقهاء.

واستهلت سنة ثنتي عشرة وستمائة

في هذه السنة، وصل الملك المعظم شرف الدين عيسى من الحجاز، وصحبته الأمير السيد الشريف: سالِم بن قاسِم[٢]، أمِير المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. وكان قد شكى من قَتَادَة: أمير مكة، فوعده بالمساعدة عليه. فلما وصل الآن معه، اجتمع بالسلطان الملك العادل ـ وكان بخَرِبَةِ اللُّصُوص[٣] ـ وقَدَّمَ الشريف إلى السلطان ما أحضره ـ على سبيل الهدية ـ من تُحف الحجاز، وعشرين فرساً من خيل الحجاز، فأكرمه السلطان. واستخدم معه جماعة من أمراء التركمان والرجال، فتوجه بهم في ثالث عشر شعبان.

واتفقت وفاته قبل وصوله إلى المدينة، فقام ولد أخيه الأمير جَمَّاز بن شِيحَه بالأمر بعد عمه، واجتمع أهله على طاعته. فمضى من كان مع عمه لقصد قَتَادة أمير مكة. فجمع قتادة[٤] عسكره وأصحابه والتقوا بوادي الصَّفْراء[٥]. وكان الظفر لجَمَّاز ومن معه، واستولوا على عسكر قَتَادة، قتلاً ونهباً وأسراً. وانهزم قتادة إلى اليَنْبُع[٦] وتحصن بقلعته، فتبعوه وحصروه.

---

(١) هو شيخ الحنفية ومدرس النورية أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى تفقه بها وسمع الحديث الكثير وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية بها. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١٦٣.

(٢) هو سالم بن قاسم الحسيني، وكان قتادة قد حصره في المدينة، ولما قدم الملك المعظم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم وسلم إليه مفاتيحها وخدمه خدمة تامة. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٤٥ و٧٣.

(٣) خربة اللصوص: تقع على الطريق بين بيسان ودمشق. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٨١.

(٤) هو قتادة بن إدريس أبو عزيز الحسيني المكي أمير مكة. كان شيخاً عارفاً منصفاً نقمة على عبيد مكة المفسدين، وكان يؤذن في الحرم بـ «حي على خير العمل» على قاعدة الرافضة. عاش أكثر من ثمانين سنة، وتوفي سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٧٦. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٤٥، ٦٨، ٧٣، ٧٥، ٩٩.

(٥) وادٍ من ناحية المدينة، كثير النخل والزرع والخير، في طريق الحاج وبينه وبين بدر مرحلة، والصفراء قرية كثيرة النخل والزرع وماؤها عيون كلها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٨.

(٦) الينبع: هي عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر على سبع مراحل من المدينة وهي قرية غناء. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٥١٣.

ثم عاد من كان مع الأمير سالم من التركمان وغيرهم، صحبة الناهِض بن الجَرْخِي، وفي صحبتهم كثير مما غنموه، من أموال قتادة ومن النساء والصبيان. وظهر منهم جماعة من الأشراف، فسلموا إلى أكابر أشراف دمشق، ليكفلوهم ويشركوهم في وقف الأشراف.

وفي هذه السنة حصل الشروع في عمارة المدرسة العادِلية[١] بدمشق وحضر السلطان الملك العادل لترتيب وضعها.

وفيها في سابع من شهر ربيع الأوَل، عزل قاضي القضاة: زكي الدين أبو العباس الطاهر بن محيي الدين، عن الحكم بدمشق وأعمالها. وولي من الغد الشيخ جمال الدين الحَرَسْتَانِي[٢]، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وشهور.

وفيها أبطل السلطان الملك العادل ضمان الخمر والقِيان بدمشق، في رابع عشرين جمادى الآخرة. وبقي الأمر على ذلك، إلى أن توفي الملك العادل في سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيها وصل رسول الخليفة من بغداد، وهو الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي[٣] ونزل بجَوْسَق[٤] العادل. وتوجه إلى السلطان فلحقه بالقُدْس الشريف، فأدى الرسالة وعاد، في خامس عشر شوال.

---

(١) المدرسة العادلية: وهي المدرسة التي شرع ببنائها السلطان العادل سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م. ودفن بالقلعة ثم نقل إليها ودفن بالتربة التي بها. وهي التربة العادلية الجوانية بالمدرسة العادلية الكبرى وتقع داخل دمشق. انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١، ص ١٧ (دار الكتب العلمية) والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٧٥.

(٢) هو القاضي الذي فوض إليه السلطان العادل الحكم وهو ابن ثمانين أو تسعين كما ذكر ابن كثير. فحكم بالعدل وقضى بالحق ويقال إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريباً من النورية عند باب القواسين. اسمه: عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل أبو القاسم الأنصاري ابن الحرستاني ولد سنة عشرين وخمسمائة وكان أبوه من أهل حرستان توفي سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م. وله من العمر ٩٥ سنة. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٧٥، ٨٥. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٩٥.

(٣) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين السهروردي. وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ، وكان فقيهاً شافعي المذهب وله كتاب «عوارف المعارف» وله شعر. ولد بسهرورد في أواخر رجب أو أوائل شعبان في سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م. وتوفي في مستهل المحرم سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٤٦ رقم ٤٩٦.

(٤) الجوسق: العصر: الفيروزابادي: القاموس المحيط (الجوسق).

وفيها ـ في منتصف شعبان، توفي الشيخ الصالح العارف: أبو الحسن علي بن حُمَيْد، المعروف بابن الصَّبَّاغ قدس الله روحه. وكانت وفاته بِقِنَا[١] ـ من الأعمال القُوصِيَّة من الصعيد الأعلى. ودفن بجانبها عند قبر شيخه: الشيخ السيد القطب عبد الرحيم[٢]. وضريحهما من المزارات المشهورة ـ نفع الله تعالى بهما.

واستهلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

في هذه السنة كانت الحادثة بين أهل الشَّاغُور[٣] والعُقَيْبَة[٤] بدمشق. وحملت كل طائفة منهم السلاح، واقتتلوا. فركب العسكر للفَصْل بينهم[٥]. وحضر الملك المعظم من جَوْسَق الرئيس لتسكين الفتنة ـ وكان مقيماً به. وقبض على جماعة من مقدمي الحارات[٦] واعتقلوا[٧]، بسبب ذلك.

ذكر القبض على الصاحب الأعز

وفي يوم الاثنين، سابع عشر جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة وستمائة. قبض الملك العادل على وزيره الصاحب فخر الدين الأعز، وضربه وقيده، وحمله إلى قلعة بُصْرَى[٨] فاعتقله بها.

---

(١) صحب الشيخ عبد الرحيم وتخرج به. توفي ببلدة قنا سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م وهي مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى واقعة على الشاطىء الشرقي للنيل، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٠، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٥٢.

(٢) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي الشريف الحسني السيد الكبير الإمام الشهير أصله من سبتة، وقدم من المغرب فأقام بمكة سبع سنين، وكان أحد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين، وكان مالكي المذهب، توفي في تاسع صفر سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٥ م. السيوطي: حسن المحاضرة، الطبعة الأولى ١٩٦٧، ج ١، ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

(٣) الشاغور: محلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٢.

(٤) العُقيبة: هي قرية في البلاد الشامية من ضواحي دمشق: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٨.

(٥) وفي الأصل: «بسببهم» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) منهم ريس الشاغور: انظر ذيل الروضتين لأبي شامة ص ٩٢.

(٧) واعتقلوا في السادس والعشرين من ربيع الأول: أبو شامة، ذيل الروضتين ص ٩٢.

(٨) بُصرى: بالضم: من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٢. في الروض المعطار للحميري، ص ١٠٩، هي مدينة حوران وفي شرقي هذه المدينة بحيرة تجتمع فيها دمشق وتسير منها في صحراء ورمال مقدار خمسة عشر فرسخاً فتدخل دمشق.

وكان لذلك أسباب: منها أنه صرف ما غرم على القبة بالشافعي من مال الديوان - وكان وتقرر صرفه من مال الديوان الكاملي. ومنها أنه كشف على الأموال التي أنفقت في تجهيز الملك المسعود إلى اليمن، وكانت جملة عظيمة، فأنكر عليه ذلك، وفعل به ما فعل.

وعرضت الوزارة على القاضي الأشرف: أحمد ابن القاضي الفاضل عبد الرحيم، فتوقف عنها. ثم خوطب فقال: كان والدي في الأيام الناصرية لا يكتب في الدولة. فأجيب إلى ذلك، واستقرت القاعدة أنه يتحدث في الأموال بلسانه، دون قلمه. ورتب القاضي عماد الدين بن جبريل صاحب ديوان الدولة، ورتب شمس الدين أبو القاسم بن التبني وزير الصُّحْبة.

وفيها في شهر المحرم، صرف قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمٰن، ابن عبد العلي بن علي السُّكَّرِي[١] - عن القضاء بالديار المصرية.

وكان سبب ذلك أن السلطان عقد مجلساً بحضوره بسبب وقف المدرسة - التي أوقفها إبراهيم بن شروه[٢]، وولي القطب، قاضي قُوص، النظر عليها - فلم يمض القاضي عماد الدين الوقف. فقال السلطان: هذه القضية أنا أعرفها وأشهد بها. فامتنع من إثباتها. فغضب السلطان، وأشهد على نفسه بعزله في المجلس. ثم صرف عن الخطابة بالجامع الحاكمي، وولاها الشيخ بهاء الدين بن الجُمَّيْزِي[٣] لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من السنة.

ولما عزله السلطان عن القضاء، استشار شيخ الشيوخ: صدر الدين أبا الحسن بن حَمّويه[٤]، فيمن يوليه القضاء. فأشار أن يقسم العمل شطرين: قِبلْيّاً وبحرياً، وأن يولي

---

(١) هو من كبار فقهاء الشافعية ولد بمصر سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م. وتفقه على الشهاب الطوسي، ولي قضاء الديار المصرية وله مصنف في الدور وحواشٍ على الوسيط، نقل عنه ابن الرفعة في المطلب، ومات في شوال سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١١.

(٢) أخو سليمان (فلك الدين) بن شروة، وهو أخو العادل لأمه. انظر الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٢٣، وص ٨٢.

(٣) هو بهاء الدين علي بن هبة الله بن سلامة الجُمّيزيّ، كان إماماً فاضلاً عارفاً بمذهب الشافعي ديناً، وكان يخالط الملوك، ولما حج قبل هدية صاحب اليمن فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب لذلك. وكانت وفاته في ذي الحجة بمصر سنة ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م. ودفن بالقرافة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢١.

(٤) في الأصل: «صدر الدين حسن بن حمويه» والصواب: «هو أبو حسن» والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ١٦٥. وفيه: «توفي صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه الجويني سنة ٦٤٩ هـ وهو شيخ الشيوخ بمصر والشام، وكان موته بالموصل وردها رسولاً، وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً من =

ابن عين الدولة القاهرة والوجه البحري، وابن الخَرَّاط مصر والوجه القبلي. فعمل برأيه.

وفوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي شرف الدين بن عين الدولة، في يوم السبت ثاني صفر منها ـ وقيل في المحرم ـ وفوض قضاء مصر والوجه القبلي للقاضي تاج الدين: أبي محمد عبد السلام بن علي بن الخراط ـ وكان قاضي دمياط ـ وذلك في يوم الاثنين سابع عشر صفر ـ وقيل في يوم الاثنين ثالث عشر المحرم.

هذا هو السبب الظاهر للناس في عزل القاضي عماد الدين بن السكري، وأما السبب الباطن ـ وهو مما أخبرني به والدي رحمه الله تعالى عن جده زكي الدين عبد الدايم. وغيره ـ أن الفقيه الشيخ الصالح الشهيد الناطق: رضي الدين: عبد الرحمٰن العقيلي، المعروف بالنُّوَيْرِي (وهي نسبة انتقال، وإنما هو قدم من بلاد المغرب مع أبيه وسكنا النُّوَيْرَة، واستوطنها الشيخ عبد الرحمٰن وخدمه أهلها، وكانوا يفتخرون بالانتساب إلى خدمته، واختص بخدمته جد والدي زكي الدين عبد الدايم، فكان أخص الناس به، وأعلام منزلة عنده) ـ كان مع ما هو عليه من العبادة والصلاح المشهور، ينوب عن القاضي عماد الدين في الحكم بالنُّوَيْرة، وما معها. فاتفق أن رجلين[1] تَدَاعَيَا في بقرة، فكتب أحدهما محضراً أن البقرة ملكه وشهد فيه جماعة من الشهود، وأدوا شهادتهم بذلك عند الفقيه، ولم يبق إلا تسليمها لصاحب المحضر.

فتأمل الفقيه البقرة، ونظر إليها. وسأله الذي شهد له الحكم بما ثبت عنده، وتسليمها إليه. فقال: كيف أسلمها إليك، وهيَ تقول إنها لخصمك، وتخبرني أن المحضر زُور ـ أو ما هذا معناه؟!. وسلمها لخصمه. فاعترف الخصم الذي أَثْبَت بصحة ما أخبر به الشيخ الفقيه رضي الدين عن البقرة، وأظهر التوْبة والإنابة. فلما اتصلت هذه الواقعة بالقاضي عماد الدين، كتب إلى الشيخ رضي الدين يقول: كان ينبغي أن تعمل في هذه القضية بظاهر الشرع، وتسلم البقرة لمن أَثْبَتَ. وعزله عن نيابته.

فلما اتصل العزل به، قال لمن حضر عنده: اشهدوا عليّ أني قد عزلته، وعزلت ذريته من بعده، فعُزل في تلك الساعة. ولم يعد إلى القضاء بعدها، ولا ولي القضاء بعده أحد من ذريته. وأعرف أن القاضي عماد الدين، ولدُ ولده فُوه له بالقضاء غير مرة،

= بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل». وفي حسن المحاضرة للسيوطي ج ١، ص ٤٠٩ ورد ما يأتي: ولي السلطان صلاح الدين صدر الدين بن حمويه التدريس بالمدرسة الصلاحية التي كانت تاج المدارس بعد وفاة الشيخ نجم الدين الخبوشاني في عام ٥٨٧ هـ. وكان ولاه قبل ذلك مشيخة «خانقاه سعيد السعداء» وهي أول خانقاه (أي دار للصوفية) عملت بديار مصر».

(١) في الأصل: «أن رجلان» والتصحيح يقتضيه السياق.

وعُيِّن وربما فُصِّلت له خِلْعةُ الولاية، ورُسم بكتابة تقليده، ثم يُعدَل عنه إلى غيره، ولا يتم أمره. ومات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يل القضاء. ولم يبق من ذريته في وقتنا هذا من فيه أهلية لذلك. وهذه الحكاية التي ذكرتها لا أشك فيها ولا أرتاب، وهي مشهورة يعرفها كثير من الناس.

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة ـ في العشرين[١] من جمادى الآخرة ـ توفي[٢] الملك الظاهر[٣]: غياث الدين غازي، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب حلب ـ رحمه الله تعالى بحلب.

وكان مولده بالقاهرة، في منتصف شهر رمضان، سنة ثمان وستين وخمسمائة. وملك بعده ولده: الملك العزيز غياث الدين محمد. وكان صغير السن، يقال كان عمره ثلاث سنين[٤]، فقامت ضَيْفَة[٥] خَاتُون ـ ابنة الملك العادل ـ بتدبير الدولة. ونصبت شهاب الدين طُغْرل الخادم في أَتَابِكِيَّة[٦] الدولة.

---

(١) «ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة» في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢٣٧.

(٢) توفي وعمره أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام ومدة ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر وأيام. ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد لأنه من بنت عمه العادل وطلب بذلك أن يستمر الأمر لأجل جده العادل وأخواله وأولاده لأنهم ملوك البلاد يومئذٍ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر أحمد ثم من بعده للمنصور، ومحمد ابن أخيه العزيز عثمان صلاح الدين الذي كان أبوه قد أوصى له بالملك، فلم يتم العادل له ذلك، وكان العادل قد زوّجه ابنته وفوّض ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بشهاب طغريل كان قد وصل إلى خدمته في بلاد الروم، وكان مشهوراً بالزهد فصار له عنده مكانة. أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٦٤.

(٣) انظر سيرته في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢٣٧، وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي، ص ٩١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٩٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٥٥. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٧٧.

(٤) كان عمره سنتين وأشهر، في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٨٥.

(٥) هي صاحبة حلب، تزوجها الظاهر غازي بعد أختها غازية سنة ٦٠٩ هـ. توفيت سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢م بقلعة حلب، الزبيدي ترويح القلوب، ص ١٠٨.

(٦) يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين وهما أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير، وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان ٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ. كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيته شبه أبوية ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً وكان يسمى أتابك العساكر. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨.

ذكر مصادرة الصاحب صفي الدين بن شكر ونفيه من الديار المصرية

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل، لما قدم من الشام، ظن الصاحب صفي الدين أنه يعيده إلى الوزارة. فصار يركب في المواكب، ويستعرض للقاء السلطان. ثم فتح بابَه وصار الناس يدخلون إليه، والأعز وغيره يذكرون ذلك للملك الكامل. فاتفق أن الملك الكامل مَرَّ بدار الصاحب فوجد الخيل على بابه، فقال لمن معه من الأمراء: ما هذا إلا أحمق! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويمد السِّماط، والسلطان غير راضٍ عنه. فبلغ العادل ما قاله الكامل. فقال في مجلسه: ما يكفي ابنَ شكر أنه أخذ مالي، حتى اطَّرَح جانبي بفتح بابه.

فاتصل ذلك بالصاحب، فركب إلى القلعة، وأراد الاجتماع بالملك الكامل ـ وكان الملك الكامل على الشراب. فسير إليه، وقال ما حاجتك؟ فإن لنا الآن شغلاً! فقال: القصد أن يستخدمني السلطان، أو يتركني أخرج من بلاده. وسأل أن يكون الكامل سفيره عند أبيه الملك العادل. فَعَزّ كلامه عليه، وقال للرسول قل له: هذا ما لا أدخل فيه.

فعاد خَجِلاً، ومضى إلى دار والدة الملك المعز مجير الدّين يعقوب ابن السلطان الملك العادل، وتعلق بذيل ستر الباب. ووافق أن العادل كان عندها في ذلك الوقت. فعظم ذلك عليه. لكونه قصد زوجته، وأراد قتله، ثم سكن، وأرسل إلى الملك الكامل يقول: إن ابن شكر أخذ مني وأنا على سِنْجَار ستمائة ألف دينار، فطالبه بها.

فأحضره الملك الكامل في مجلس شرابه، ووبخه، وأمر بأخذ أملاكه وحسبها له، بستمائة ألف دينار. ثم حضر جماعة بعد ذلك إلى الملك الكامل، فقالوا: هذا كان في ابتداء أمره قَطَّاناً، فمن أين له هذا المال؟ فقال ابن التبني: أنا صانعته عن نفسي بمائتي ألف دينار، وصانعه شهاب الدين بن الفاضل بثلاثمائة ألف دينار. فنقل المجلس إلى الملك العادل، وذكر له من أخذ منه المصانعات، فأمر بنفيه.

فاستمهل إلى أن يبيع موجوده، فأذن له. فشرع في بيع موجوده إلى أن كمل ثم أرسل إليه السلطان يقول: أخرج من بلادي إلى بلد، لا تقام لي فيه خطبة. فخرج من القاهرة في يوم الخميس، لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة. فلما وصل إلى بلبيس أمر السلطان الملك العادل بتعويقه، وأخذ منه مالاً ووكل به أياماً ببلبيس ثم أطلقه فتوجه إلى آمِد[١].

(١) آمد: أعظم مدن ديار بكر (الجزيرة) على نهر دجلة: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٧٦ ـ ٧٧.

وفيها صادر السلطان الملك العادل حسامَ الدين يونس، مُتولّي الإسكندرية، على ثلاثمائة ألف دينار.

وفيها في سابع شوال، توجه العادل إلى ثغر الإسكندرية. وذلك أنه اجتمع بها من تجار الفرنج نحو ثلاثة آلاف رجل، فخاف أهلُ الثغر جانبَهم. فخرج السلطان بعساكره إلى الثَّغْر، وبه مَلِكَان[١] من ملوك الفرنج. فأحضرهما، فذَكَرَا أن التجار صمموا على الوثوب بأهل الثغر وقتلهم، وأخذه، فَقَبَضَ حينئذٍ على تجار الفرنج واستصفى أموالهم، واعتقلهم واعتقل المِلِكَيْن. وعاد إلى القاهرة، في سابع ذي الحجة من السنة.

واستهلت سنة أربع عشرة وستمائة

ذكر مسير السلطان إلى الشام

وفي يوم الأحد، التاسع من شهر ربيع الآخر، من هذه السنة ـ توجه السلطان الملك العادل إلى الشام، لما بلغه قصد الفرنج بلاد الشام.

وكان رحيله من البِرْكَة[٢] يوم السبت لثمان بقين من الشهر، وتوجه إلى البيت المقدس. وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، في كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» أنه توجه إلى قلعة الكَرَك بذخائره وأمواله وأقام بها مدة، وترك الأموال والذخائر بها.

وقال غيره: إنه بقي بالقدس إلى أن وصلت أمداد الفرنج في البحر، من رومية الكبرى ومن الغرب الشمالي ـ وكان المقدم عليهم صاحب روميه ـ فنزلوا على عكا. وسار الملك العادل على أنه يسبقهم إلى الماء بخَرَبَة اللُّصُوص[٣]، فسبقوه إليها. فلما قاربَهم، حَيَّد عنهم إلى جهة دمشق. فأغاروا على بَيْسَان فنهبوها وما حولها، وعادوا إلى مَرْج عَكًّا بالسبي والغنائم.

وجهزوا آلات الحصار، وقصدوا الطُّور[٤] ـ وكان العادل قد بناه في سنة تسع وستمائة ـ فحاصروه سبعة عشر يوماً، فقُتِل بعض ملوكهم[٥] بسهْم، ففارقوا الحصن.

---

(١) في الأصل: «وبه ملكين» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هي بركة الجب المعروفة ببركة الحاج، وهي أرض جب عميرة. انظر صفحة ٤١ من هذا الجزء حاشية رقم (٣).

(٣) هي على الطريق بين بيسان ودمشق. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٨١.

(٤) هو جبل على مقربة من طبرية. انظر صفحة ٣٣ من هذا الجزء حاشية رقم (٢).

(٥) لم يرد اسمه في المراجع وغاية ما هناك أنه كند كبير أي grand Comte. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٨٧.

واستُشْهِد على حصار الطور من أبطال المسلمين: الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم، وسيف الدين بن المَرْزُبَان ـ وكان من الصالحين الأجواد.

وكتب الملك المعظم إلى الخليفة كتاباً أوله: [من البسيط]

قل للخليفةِ ـ لا زالت عَزَائِمُه لها على الكُفْرِ إِبْرَاقٌ وإِرْعادُ
إن الفرنج بأرض القُدْسِ قد نزلت لا تَغْفَلَنَّ، فأرضُ القدس بَغدادُ

وفي نسخة: [من البسيط]

إن الفِرَنْجَ بحصنِ الطُّورِ قد نزلوا لا تَغْفِلَنَّ، فحِصنُ الطُّور بغدادُ

ذكر قصد الفرنج جِزين وقتلهم

قال: ولما انفصلَ الفرنجُ، قصد ابنُ أخت الهُنْكُر[(١)] جبل صَيْدا وقال: لا بُدَّ لي من أهل هذا الجَبَل. فنهاه صاحب صِيدَا، وقال إن أهله رُماة، وبلده وَعْر. فلم يقبل قولَه. وصَعَد في خمسمائة من أبطال الفرنج إلى مَدْيَن ـ وهي ضيعة المَيَادِنَة[(٢)] بالقرب من مَشْغَرا[(٣)] ـ فأخلاها أهلُها. ونزلها الفرنج وترجّلوا عن خيولهم للراحة فتحدرت عليهم الميادنة من الجبال، فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم. وأسروا ابن أخت الهُنْكُر. وهرب من بقي منهم نحو صيدا.

وكان معهم رجلٌ يقال له الجاموس، كانوا أسروه من المسلمين، فقال لهم: أنا أعرف إلى صَيْدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها. فقالوا: إن فعلت أغنيناك. فسلك بهم أودية وعرة، والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس قصد ذلك، فقتلوه. ولم يُفْلِت منهم إلى صيدا غير ثلاثة، وكانوا خَمسمائة. وجاؤوا بالأسرى إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وفي هذه السنة، احترق مسجد الحسين بالقاهرة.

وفيها، توفي قاضي القضاة جمال الدين أبو القاسم: عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل، الأَنصاري الحَرَسْتَاني[(٤)] وكانت وفاته بدمشق في رابع ذي الحجة، ودفن

(١) كان قائد الصليبيين في تلك الواقعة ملك الهنكر وهو André II, Roi de Hongrie وقد انصرف بعساكره». المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٨٧.

(٢) هم سكان مدين. وهي ضيعة بالقرب من مشغرا، وقيل بين وادي القرى والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٢.

(٣) قرية من قرى دمشق من ناحية البقاع في: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٦. وهي قرية على سفح جبل لبنان. ضبطت كما ذكرها ياقوت. أما الأصل فوردت «مسعرا أو مسغرا».

(٤) هو قاضي قضاة الشام أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد =

بقاسِيون. ومولده في سنة عشرين وخمسمائة. وأعيد القاضي زكيّ الدين إلى القضاء، بعد وفاته.

واستهلت سنة خمس عشرة وستمائة
ذكر تخريب حصن الطّور[١]

في هذه السنة استدعى السلطان الملك العادل ولدَه الملك المعظم، وقال له: إنك قد بَنَيْتَ هذا الطُّور، وهو يكون سبب خراب الشام، وقد سلَّم الله تعالى من كان فيه من أبطال المسلمين، والسلاح والذخائر، وأرى من المصلحة خرابَه، ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك عنه. وكانت دمياط قد حُوصرت ـ على ما نذكره. فتوقف الملك المعظم، وبقي أياماً لا يدخل على أبيه العادل. فبعث إليه وأرضاه بمال، ووعده ببلاد بالديار المصرية، فأجاب، وبعث فنقل ما كان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجْلون والكَرك، ودمشق، وهدمه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر: محمد بن أيوب وشيء من أخباره

كانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ في يوم الجمعة[٢] سابع جمادى الآخرة، سنة خمس عشرة وستمائة، بعَالِقِين[٣].

وذلك أنه لما عرج عن الفرنج وقصد دمشق، أقام بظاهرها مدة وهو مريض. فلما بلغه أخذ بُرْج السِّلْسِلَة بثغر دمياط، ضرب بيده على صدره، وانزعج، وحصل له من الغم ما أفضى به إلى الوفاة ـ رحمه الله تعالى. ومات، وله ست وسبعون سنة تقريباً. وذلك أنه سئل عن مولده، فقال: ولدت سنة فتوح الرُّها. وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[٤].

= الأنصاري الخزرجي العبادي السعدي الدمشقي الشافعي جمال الدين بن الحرستاني. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٨٨. ترجمته في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٠٦. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٨٥.

(١) انظر صفحة ٣٢ من هذا الجزء حاشية (٤).

(٢) «في يوم الخميس» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٩٠. «سابع أو ثامن جمادى الآخرة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٤.

(٣) قرية بظاهر دمشق. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٠.

(٤) «كان مولده في سنة أربعين وخمسمائة» في مفرج الكروب لابن واصل، ص ٣، ص ٢٧٠. ومولده في «المحرم سنة أربعين، وقيل سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة بدمشق» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٩١.

وقيل كان مولده ببعلبك، لما كان والده في خدمة الملك العادل: نور الدين الشهيد.

ومدة ملكه تسع عشرة سنة[١]، وأربعين يوماً. ولما مات لم يشعر بوفاته غير كريم الدين الخِلاَطي. وكان ولده الملك المعظم عيسى بنابُلُس. وكان قد التقى مع الفرنج على القَيْمُون[٢] في هذا الشهر، فانتصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الدَّاويَّة[٣] مائة فارس، وأدخلهم القدس مُنَكَّسَةً أعلامهم. وأقام بنابلس. فكتب إليه على جناح طائر يعلمه بالخبر، فجاء يوم السبت إلى عالِقِين. فاحتاط على الخزائن، وصبّر أباه العادل وكتم موته، وجعله في مِحَفَّة[٤]، وعنده خادم يروح عليه، ورفع طرف سِجَاف المِحَفَّة وأظهر أنه مريض. ودخلوا به إلى دمشق في يوم الأحد، والناس يشيرون إلى من بالمِحَفَّة بالخدمة والسلام، والخادم يومىء إلى جهة السلطان، كأنه يخبره بمن يسلم عليه، ودخلوا به إلى قلعة دمشق.

قال الشيخ شهابُ الدين أبو شامة، وشمس الدين أبو المظفر سِبْط ابن الجَوْزِي، في تاريخها: ومن العجائب أنهم طلبوا له كَفَناً فلم يقدروا عليه، فأخذوا عمامة النَّجِيب الفقيه ابن فارس، فكفنوه بها، وأخرجوا قُطْناً من مَخَدَّة فلفوه به، ولم يقدروا على ما يحفرون به، فسرق كريمُ فَأْساً من الخَنْدَق فحفروا له به. ودفن بقلعة دمشق، إلى أن بُنِي له القبة المجاورة لمدرسته، فنقل إليها في سنة تسع عشرة وستمائة. وحصل لابنه الملك المعظم وَهْمٌ، فلما دفن السّلطان قام قائماً، وشقّ ثيابه ولطم على رأسه ووجهه.

واشتهرت وفاته بعد دفنه، وعُمل عزاؤه ثلاثة أيام، وصُلي عليه في غالب مدن الإسلام. ونودي ببغداد: من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي، المجاهد في سبيل الله، فليحضر إلى جامع القصر. فحضر الناس وصلُّوا عليه صلاة الغائب. ولم يتأخر غير الخليفة. وتقدموا إلى خطباء الجوامع بأَسْرِهم، فصلوا عليه بعد صلاة الجمعة.

---

(١) في الأصل: «تسعة عشر سنة» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨١.

(٣) هذه هي التسمية العربية لطائفة الفرسان الهسبتاليين وهو تحريف ظاهر للفظ الإنجليزي Hospitallers أو الفرنسي Hospitalliers، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين. وقد أسس هذه الطائفة Blessed Gerard سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكانت الدار التي يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) في كثير طائفة فرسان المعبد Templiers التي عرفها العرب باسم الداوية. وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً في الحروب الصليبية. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٨٨، حاشية (٢). ولمزيد من التفاصيل انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٩ حاشية (٦)، والموسوعة الفلسطينية ج ١، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ وج٢، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(٤) المحفة: بالكسر: مركب للنساء كالهودج إلا أنها ليست لها قبة. ابن منظور: لسان العرب (حفّ).

وكان ـ رحمه الله ـ قد امتد ملكه واتسعت ممالكه. وكان ثَبْتاً حازماً، حسن التدبير صفوحاً، يدبّر الملك والممالك على الوجه المرضي، متمسكاً بأوامر الشرع الشريف ونواهيه، منفذاً للأحكام الشرعية، عادلاً مجاهداً عفيفاً، كثير الصّدَقَة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طَهَّرَ جميع ممالكه من الخمور والفواحش بأسرها، وأسقط كثيراً من المُكُوس والمظالم. وكان الذي يُتَحَصَّل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار. فأبطل ذلك. وشدّدَ في أمر الخمر، ومنع من دخوله إلى دمشق ـ رحمه الله تعالى.

ذكر تسمية أولاد السلطان الملك العادل وما استقر لهم من الممالك والإقطاع

كان له رحمه الله تعالى من الأولاد الذكور سبعة عشر(١)، وهم:

الملك الكامل، ناصر الدين محمد، ملك الديار المصرية. والملك المعظم: شرف الدين عيسى، صاحب دمشق والبيت المقدس، والكَرَك(٢) والشَّوْبَك(٣)، والسواحل. والملك الأشرف: مظفر الدين موسى، صاحب خِلاَط وما والاها وحَرَّان والرُّها، وما مع ذلك.

والملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب مَيَّافَارِقِين وما والاها والملك المُظَفَّر شهاب الدين الحافظ أَرْسَلاَن صاحب قلعة جَعْبَر(٤) وأعمالها. والملك العزيز: عثمان له بانْياس وتِبْنين وأعمال ذلك، وعدة أماكن من بلد دمشق، مثل نَوَى(٥) وغيرها.

---

(١) «تسعة عشر ذكراً سوى البنات» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ١٩١.
«خمسة عشر ولداً وقيل سبعة عشر ذكراً خارجاً عن البنات» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ١٩٧.
«ستة عشر ولداً سوى البنات» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٢) الكرك: بفتح أوله وثانيه كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلزُم وبيت المقدس وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٤.

(٣) الشوبك: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقُلزم قرب الكرك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٢٠.

(٤) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الوقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً بدوسير، فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٣.

(٥) نوى: بُليدة من أعمال حوران، وقيل: هي قصبتها، تقع بالقرب من دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٥٣.

والملك الصالح: عماد الدين إسماعيل، له قلعة بُصْرَى وأعمالها، والسواد جميعه - وهو والعزيز في خدمة أخيهما الملك المعظم.

والملك الفائز: إبراهيم، كان السلطان قد أقطعه الأعمال القُوصِية والملك المفضل: قطب الدين أقطعه السلطان أيضاً الأعمال الفَيُّومية، فأقر الملك الكامل ذلك بأيديهما. والملك المعز: مُجير الدين يعقوب. والملك الأمجد: تقي الدين أبو الفضائل عباس[١] - عند أخيهما الملك الأشرف صاحب خِلاَط. وله أيضاً غير هؤلاء: الملك القاهر: إسحاق، وخليل - وهو أصغرهم.

ومات وله من الأولاد - في حياته - أربعة، وهم: شمس الدين مودود، والد الملك الجواد يونس. والملك الأوحد: نجم الدين أيوب، الذي افتتح خِلاَط، كما تقدم. والملك المغيث: محمود. والملك الأمجد حسن - وهو شقيق الملك المعظم، والملك العزيز.

وكان له عدة بنات، أجلهن ضَيْفَة[٢] خَاتُون، والدة الملك العزيز، ابن الملك الظاهر صاحب حلب.

ولما مات السلطان الملك العادل، أقر ولدُه - الملك المعظم - أحوالَ دمشق، على ما هي عليه في أيام والده، بقية جمادى الآخرة. فلما استهل شهر رجب، أعاد المُكوس وأطلق الخمور والمنكرات، وما كان والده السلطان قد أبطله. فقيل له في ذلك، فاعتذر بقلة الأموال وقتال الفرنج.

ثم سار إلى بانياس، وراسل الأمير صارم الدين التِّبْنِينِي في تسليم الحصون التي بيده، فأجاب إلى ذلك، وسلمها، فأخرب الملك المعظم بانياس وتِبْنِين. وأعطى ما كان بيد أولاد الأمير فخر الدين جَهَارَكْس لأخيه الملك العزيز عثمان، وزَوَّجه ابنةَ[٣] جَهَارَكْس. ونزل الأمير صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون، فأكرمهم الملك

---

(١) هو آخر من بقي من أولاد العادل وقد سمع الحديث من الكندي، وابن الحرستاني، توفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧٥ وانظر أيضاً: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٥، حاشية (١٥).

(٢) اسمها «صفية خاتون» في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٨٦ و٨٧ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١٥٥. وفي ترويج القلوب للزبيدي اسمها «ضيفة» ص ١٠٨. وروى أبو الفدا أنها سميت بهذا الاسم لأنه «كان عند أبيها الملك العادل يوم مولدها بحلب ضيف فأسماها «ضيفة» وكان العادل والياً على حلب إذ ذاك. المختصر في أخبار البشر ص ١٢١.

(٣) في الأصل: «زوجة أبيه» والتصحيح يقتضيه السياق.

المعظم وأحسن إليهم، وأظهر أنه ما أخرب بانْياس وتِبْنِين، إلا خوفاً من استيلاء الفرنج عليها.

ذكر أخبار السلطان الملك الكامل[١] ناصر الدين ابن السلطان الملك العادل سيف الدين، أبي بكر محمد بن أيوب

وهو السادس من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية.

ملك الديار المصرية بعد وفاة والدة الملك العادل، في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة. وكان قبل ذلك ينوب عن والده بها كما تقدم.

ونحن نذكر أخبار الملك الكامل، وما اتفق من الحوادث والوقائع في أيامه، بالديار المصرية. في كل سنة نبدأ بذلك. ثم نذكر في بقية السنة أخبار ملوك الشام من إخوته وغيرهم، ومن توفي فيها من المشهورين، ونأتي بالسنة التي بعدها على ما تقف عليه ـ إن شاء الله.

ذكر نزول الفرنج على ثَغر دمياط

كان نزول الفرنج على ثَغْر دِمياط في يوم الثلاثاء، لثلاث خَلَوْن من شهر ربيع الأول، سنة خمس عشرة وستمائة ـ وذلك قبل وفاة الملك العادل، وهو إذْ ذاك بمَرْج الصُّفَّر[٢].

ونزلوا بالبر الغربي[٣]. فخرج إليهم الملك الكامل بعساكره، وكتب إلى السلطان بالخبر. فأرسل إليه عساكر الديار المصرية التي كانت في صحبته. وأقام الملك الكامل بثغر دمياط بظاهرها، واتصل القتال بين الفريقين.

فلما كان في جمادى الأولى، ملك الفرنج بُرْجَ السِّلْسِلَة[٤] ـ وهو بين دِمياط والبر

---

(١) أبو المعالي محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب». المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٤.

(٢) مرج الصُّفَّر: بالضم ثم الفتح، والتشديد والراء. موضع بين دمشق والجولان صحراء كانت بها وقعة مشهورة في أيام بني مروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٩.

(٣) المقصود هنا جيزة دمياط، والجيزة في اللغة الناحية، وجيزة دمياط هي برها الغربي، ولعلها سميت لذلك لأنه يجاز إليها من دمياط، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٤) وهو برج منيع وفيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح إلى الديار المصرية، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٨. وانظر أيضاً السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٢٣، وذكر أبو شامة في الروضتين ص ١٦٧ ـ ١٦٨ «هو قفل الديار المصرية وهو برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حفة النيل من غربه ومن ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما =

الغربي، في وسط بحر النيل ـ وذلك أنهم عملوا برجاً من الخشب على بَطْسَةٍ[١] كبيرة، وأسندوه إلى البُرج. وحصل القتال بين المسلمين المقيمين به وبين الفرنج، إلى أن ملكوه في يوم السبت، ثامن الشهر.

ثم كانت وَقْعَةٌ كبيرة بين المسلمين والفرنج. فلما كان في شهر رمضان، عمل الفرنج مَرَمَّةً عظيمة[٢]، وزحفوا بها في بَطْسة، وقصدوا سور دمياط. فأحرقها المسلمون. وغرق للفرنج في هذا الشهر مراكبُ كثيرة، في البحر الملح.

ذكر حوادث وقعت في مدة حصار ثغر دمياط

كان مما اتفق في مدة الحصار جباية التبرع من التجار، من أرباب الأموال وذلك في ذي القعدة، سنة خمس عشرة.

وفي يوم الثلاثاء، سابع عشر من الشهر، رحل السلطان الملك الكامل عن ثغر دمياط، وتأخر إلى أُشْمُوم[٣].

وسبب ذلك أن الملك الفائز[٤] كان عند أخيه الملك الكامل بثغر دمياط، وكان الأمير عماد الدين بن المَشْطُوب يكره الملك الكامل، فأراد القبض عليه، وإقامة الملك الفائز. فاتصل ذلك بالكامل، فارتحل عن دمياط ليلاً، وترك خيامه وخزائنه. فشعر المسلمون برحيله، فارتحلوا بأجمعهم، وتركوا أثقالهم وأموالهم. وأصبح الفرنج فلم يروا أحداً في البر الشرقي. فظنوا أن ذلك مكيدة. فارتابوا. ثم حققوا الأمر، فلما اتضح

= على النيل إلى دمياط والأخرى على النيل إلى البحيرة فإذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور». وانظر الكامل لابن الأثير، ج ١٢، ص ٣٢٣. يقول ابن الأثير في وصف حصار الفرنج لدمياط: «ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها.

(١) بطسة: نوع من السفن «مركب للحرب أو التجارة» قال صاحب محيط المحيط إنها معربة عن الإسبانية، ج بطس، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٧.

(٢) المرمة: جمعها مرمات: نوع من السفن الحربية الكبيرة في العصور الوسطى. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٦٠. قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ ص ٣٢٣: «وعملوا (أي الفرنج) آلات، ومرمات، وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه».

(٣) أُشموم: المقصود بها مدينة أشموم طناح، كانت عاصمة الدقهلية والمرتاحية وتقع شرقي المنصورة وجنوبي دكرنس الحالية، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٦، حاشية (١)، وياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٧.

(٤) هو إبراهيم بن العادل مات قبل أن يتولى مصر. الزبيدي: ترويح القلوب ص ١٣٤.

لهم عَدُّوا بجملتهم، وكبسوا المَنْزَلَة[١] ونهبوا ما كان بها، واحتاطوا بدمياط براً وبحراً.

وكان السلطان قصد أن يتوجه إلى مصر، لخوفه من ابن المشطوب. فأشار عليه بعض الأمراء بالإقامة على المنصورة، فاستقر بها. وثارت الفتن بالديار من العُرْبَان، فكانوا على المسلمين أشد من الفرنج.

ذكر وصول الملك المعظم عيسى ـ صاحب دمشق وإخراج عماد الدين بن المشطوب وما اتفق له بعد خروجه

كان وصول الملك المُعَظَّم شرف الدين عيسى[٢] إلى المنصورة في يوم الخميس، لليلة بقيت من ذي القعدة، من السنة. فاشتد به عَضُدُ أخيه الملك الكامل.

ولما وصل، شكى له ما يحذره من أمر عماد الدين بن المشطوب[٣]. فركب الملك المعظم وجاء إلى خيمة عماد الدين. فلما أُخبر بذلك، قال لغلمانه قولوا له: هو نائم! فذكروا ذلك للملك المعظم، فقال: ننتظره إلى أن يستيقظ، وثنى رجله إلى عنق فرسه. فلما طال ذلك على عماد الدين، خشي عاقبة هذا الأمر. فخرج إليه وهو بغير خُفّ، وقَبَّلَ يده. فقال له المعظم: ليركب الأمير، حتى يحصل الاتفاق معه على نَصْب المَجَانِيق على أطراف البحر.

فلما ركب، سايره الملك المعظم وشغله بالحديث حتى أحاط به عسكر المعظم. ثم نظر إليه نظرة مُغْضَب، وقال له: لما مات السلطان الملك العادل كان من أولاده من اسمه: عماد الدين بن المشطوب؟! قال: الله الله، يا مولانا! فأمر بإنزاله عن فرسه فأُنزل. وحمل على بغلة إلى أُشْموم.

---

(١) المنزلة: أي المحلة أو المكان الذي نزل به السلطان الكامل قرب دمياط، وهي التي سميت المنزلة العادلية، نسبة إلى العادل، وهي على مسافة من دمياط، فليست هي المنزلة المعروفة اليوم المنسوبة إليها بحيرة المنزلة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٩٥.

(٢) ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٧، البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ (صفحات متفرقة) وج ١٤ ص ١٥٧، والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٦٣، ٤٧١، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١١٥.

(٣) هو الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن أحمد الهكاري المعروف بابن المشطوب، وكان من أجل الأمراء الأكابر وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه ويطيعونه. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣١. أما والد سيف الدين توفي عام ٥٨٨ هـ، وكان أميراً شجاعاً صابراً في الحروب، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في مراته الثلاث ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشامية أقام بها إلى أن مات في آخر شوال وقيل مات بالقدس وصلي عليه بالجامع الأقصى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

ولما أمر الملك المعظم بسفره، اعتذر أن لا نفقة معه، وسأل الرجوع إلى خيمته ليلبس خُفَّه، ويأخذ نفقة. فأعطاه الملك المعظم خمسمائة دينار، وقال له: جميع ما تُخَلِّف من أموالك وأثقالك ودوابك يصل إليك. ثم رجع المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، فجهز إليه خيله وأثقاله وغلمانه، وجميع ما يتعلق به، فلحقوه إلى الشام.

ووصل ابن المشطوب إلى دمشق، ثم إلى حَماه وأقام بها. فبعث إليه الملك الأشرف منشوراً، بأَرْجِيش[١] ببلاد خِلاط، وزيادة. وبعث إليه بالخلع. فتوجه إلى خدمته، فأكرمه وأحسن إليه. فصار يركب بالشَّبَّابة[٢]، ويمشي مشي الملوك.

ثم خرج عن طاعة الملك الأشرف[٣]، في سنة سبع عشرة. وعاث في أرض سِنْجار، وساعده صاحب مارِدِين. فسار إليه الملك الأشرف، ونزل على دُنَيْسِر[٤]. وجاء الملك الصالح، فأصلح بين الأشرف صاحب ماردين. ودخل ابن المشطوب إلى تل أعْفَر[٥]. فسار إليه فارس الدين بن صِيَره من نَصِيبِين، وبدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصراه بها. فاستنزله الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الملك الأشرف. فاعتقله بالجُب فمات بالجوع والقمل. وكانت وفاته في سنة تسع عشرة وستمائة. على ما نذكره.

ذكر وصول الصاحب صفي الدين بن شكر ووزارته

وفي مستهل ذي الحجة، سنة خمس عشرة وستمائة، قدم الصاحب صفي الدين

---

(١) أرجيش: مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٧٣.

(٢) الشَّبَّابة: بفتح الشين: هي الآلة المتخذة من القصب المجوف، ويقال لها اليراع أيضاً تسمية لها باسم ما اتخذت منه وهو اليراع يعني القصب وربما عبّر عنها بالمزمار العراقي، وهي آلة كالبوق ينفخ فيها أمام السلطان أو الأمير في المواكب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) هو الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى شاه أرمن ابن السلطان الملك العادل أبي بكر أخو الملك الكامل محمد، ولد سنة ٥٧٨ هـ/ قبل أخيه المعظم عيسى بليلة واحدة. توفي بدمشق سنة ٦٣٥ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٦. أخباره في البداية والنهاية لابن كثير ج ٦، ص ٨، وج١٣ (صفحات متفرقة). والكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٨٣. ترويح القلوب للزبيدي ص ٦٣.

(٤) دُنَيْسِر: مدينة قرب ماردين كان يقال لها قوج حصار، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٧١، حاشية (١).

(٥) تل أعفر: هكذا تقول عامة الناس، وأما خواصهم فيقولون تل يعفر: وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ من نهر جارٍ وهي على جبل منفرد حصينة محكمة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦.

ابن شكر من آمد، وكان السلطان قد استدعاه. فلما قدم، ركب إليه وتلقاه وأكرمه وذكر له السلطان ما يحتاج إليه من الأموال والكُلَف، فالتزم له بتحصيل ذلك. وشرع في مصادرات أرباب الأموال والتجار والأكابر. وقرر التبرع على الأملاك، وأحدث حوادث كثيرة. وجبى الأموال، حتى من الساسة والصوانع والمغاني ومعلمي المكاتب، وغيرهم.

واستهلت سنة ست عشرة وستمائة

في مستهل المحرم منها، أمر السلطان بخروج أهل مصر والقاهرة،لقتال الفرنج. فخرج الناس. وأقام الصاحب بالقاهرة إلى سابع عشرين من شهر رمضان، سنة ست عشرة. فاستدعاه السلطان واستوزره. وصرفه. واحتجب الملك الكامل من الناس بعد ذلك. وكان قبل ذلك يركب بنفسه، ويستحث العوام على جهاد الفرنج.

ذكر خراب القدس(١)

كان ابتداء الخراب بالقدس في بكرة يوم الأحد سابع المحرم، سنة ست عشرة وستمائة.

وسبب ذلك أن الملك المعظم لما توجه إلى أخيه الملك العادل، بلغه أن طائفة من الفرنج قد عزموا على قصد القدس، فاتفق مع جماعة من الأمراء على إخرابه. وقال: قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذه الفرنج حكموا على دمشق وبلاد الشام. فأمر بإخرابه. وكان بالقدس الملك العزيز عثمان وعز الدين أَيْبَك استاذا الدار.

ووقع في البلد ضجة عظيمة [مثل يوم القيامة](٢). وخرج الناس أجمع، حتى البنات المُخَدَّرَات والعجائز والشيوخ وغيرهم، إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم. وخرجوا على وجوههم وتركوا أموالهم. وامتلأت بهم الطرقات، فمنهم من توجه إلى الديار المصرية، ومنهم من توجه إلى الكَرَك، وبعضهم إلى دمشق. وصار البنات المخدرات يمزقن ثيابهن، ويلففنها على أرجلهن، من الحَفَا. ومات خلق كثير من الجوع والعطش. ونهب ما كان لهم بالقدس، حتى بيع القنطار الزيت بالقدس بعشرة دراهم، ورطل النحاس بنصف درهم.

وأكثر الشعراءُ القولَ في ذلك، فقال بعض أهل العلم - يشير إلى الملك المعظم - من أبيات: [من مخلّع البسيط]

فـي رَجَـبٍ حَـلَّـلَ الـحُـمَـيَّـا وأَخْـرَبَ الـقُـدْسَ فـي الـمُـحَـرَّم!

(١) انظر كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٢٠٤. وفيه تفاصيل أحداث خراب القدس.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١١٥.

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

كان استيلاء الفرنج على ثَغْر دِمياط في يوم الثلاثاء، لخمس بقين من شعبان سنة ست عشرة ـ وقيل لثلاث بقين منه[١].

وذلك أنهم كانوا قد أحاطوا بها براً وبحراً، ومنعوا المِيرَة عن أهلها، حتى هلكوا من الجوع، ومات أكثرهم، وعُدمت الأقوات، وغلت الأسعار حتى بيع السكر بِزِنَتِه ذهباً، والدجاجة بثلاثين ديناراً، والبيضة بدينار، وبيعت بقرة بألف وستمائة دينار، واشترط البائع أن يكون له بطنها ورأسها، فباع ذلك بمائة دينار وأربعة عشر ديناراً مصرية ـ على ما حكاه ابن جلب راغب في تاريخه.

قال: فلما اشتد بهم ذلك، بذل لهم الفرنج الأمان على أنهم يخرجون منها ويتسلمها الفرنج، فأجابوه إلى ذلك، وخرج الناس منها. وبقي من عجز عن الحركة، فأسرهم الفرنج، وحملوا في المراكب إلى عكا. فكانت مدة الحصار على ثغر دمياط ستة عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً. وكان السلطان إذا أراد أن يرسل إلى دمياط أرسل العوامين، فيحملون الكتب ويغطسون في الماء، ويطلعون من تحت سور دمياط. فلما أحس الفرنج بذلك، عملوا شِبَاكاً وخطَاطِيف من دمياط إلى البر الغربي، وثبتوا ذلك في المراكب. فصار العوَّام إذا غطس في الماء وقع في الشباك أو الخطاطيف، فيأخذونه فلا يكاد يفوتهم عَوَّام، ويقتلون من يجدونه. فامتنع الدخول إليها.

ولما استولى الفرنج على ثغر دمياط، أشار السلطان الملك الكامل على أخيه الملك المعظم بالعود إلى الشام، وغزو الفرنج من تلك الجهة، واستجلاب العساكر من بلاد الشرق[٢].

ذكر عود الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده

قال الشيخ أبو المظفر: يوسف، سِبط ابن الجَوْزي في تاريخه:

لما استولى الفرنج على ثغر دمياط، كتب إليَّ الملك المعظم كتاباً بخطه، يخبرني بما جرى على أهل دمياط من الكُفْر، ويقول: إني كشفتُ ضياع الشام فوجدتها ألفي ضَيْعة: ألف وستمائة أملاك لأهلها، وأربعمائة سلطانية[٣]. وكم مقدار ما تقوم هذه

(١) انظر الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١١٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١١٧.

(٣) أي من أملاك السلطان.

الأربعمائة من العساكر؟ وأريد أن يخرج الدماشقة، ليذبوا عن أملاكهم - الأصاغر منهم والأكابر - ويكون لقاؤنا وهم في صحبتك إلى نابلس، في وقت سَمَّاه.

قال: فجلستُ في جامع دمشق، وقرأتُ كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع والطاعة فلما حَلَّ رِكابُه بالساحل وقع التقاعد من الأَمَاثِل، فأَوْجَبَ ذلك أَخْذَ الثُّمْن والخُمْس من أموالهم، مؤاخذةً لهم. قال: وخرجتُ أنا إليه بالساحل وهو نازل على قَيْسَارِيَّة[1]. فأقام بها حتى فتحها عَنْوَةً، وفتح غيرها، وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة ست الشام ابنة أيوب وإيقافها أملاكها، وتفرقة أموالها، وما فعله الملك المعظم مع قاضي الشام، بسبب ذلك

وفي هذه السنة في ذي القعدة[2]، كانت وفاة ست الشام بنت أيوب: أخت السلطان الملك الناصر صلاح الدين، والملك العادل. وهي شقيقة الملك المعظم: شمس الدولة تُورَانْشَاه[3]، وسيف الإسلام[4]: ابني أيوب.

وكانت سيدةَ الخَوَاتِين. وهي التي يُنسب إليها المدرستان، بدمشق وظاهرها، إحداهما قِبليّ البيمارستان النُّوري، والأخرى ظاهر دمشق بالعُوَيْنة. وتعرف أيضاً بالحُسامية، نسبة إلى ابنها حُسام الدين بن لاجِين[5] - وكانت دفنته بها، ودُفنت هي معه في قبره. وهو القبر الذي يلي الباب القَبْو من القبور الثلاثة. والقِبْلِيّ قبرُ تورانشاه بن أيوب، والأوسط قبرُ ابن عمها: ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي - وكان قد تزوجها بعد لاجين.

وكانت - رحمها الله - كثيرة الصدقة والبر. وكانت تصنع الأشربة والأدوية

---

(١) قَيْسارية: بلدة على ساحل بحر الشام تُعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٨.

(٢) «وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذي القعدة في دارها التي جعلتها مدرسة» ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص ٩٢. انظر أيضاً: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢١٧.

(٣) هو ابن نجم الدين أيوب تورانشاه صاحب اليمن أخو صلاح الدين. أخباره في البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٧٧، ٢٩٠.

(٤) أي طغتكين. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٢، ص ٣٠٨، ٣٣٠ وج ١٣، ص ٣، ٧. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٨٣، ١٠١.

(٥) هو محمد بن عمر بن لاجين حسام الدين وهو ابن أخت صلاح الدين توفي سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م. أخباره في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢، ص ٣٤١ - ٣٤٣ وص ٣٦٩.

والمعاجين والعقاقير، في كل سنة بألوف دنانير، وتفرقها على الناس، وكانت ست الشام، وأختها ربيعة خاتون، مَحْرَماً على نيف وثلاثين ملكاً وسلطاناً.

وكان الملك المعظم يتهمها أن عندها من الجواهر ما لا يحصى قيمتُه. وأن ذلك اتصل إليها مما كان بالقصور بالقاهرة. وكان كثير الإحسان إليها والبر بها، ويمنعها من الخروج من دمشق، ويظهر أن ذلك برأيها، ويرجو وفاتها عنده، ليستولي على أموالها وأملاكها، فاتفقت وفاتها وهو بالصيد.

ولما مرضت، جاء وكيلها ابن الشيرجي إلى قاضي القضاة: زكي الدين، وطلبه إليها بدارها، فأخذ معه أربعين عَدْلاً من أعيان دمشق، فشهدوا عليها أنها أوقفت أملاكها على مدرستها، ووجوه البر وأنواع القُرُبَات، وجعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفاً، وأبرأت جواريها وخدمها ووكلاءها. وماتت بعد ذلك. وأسندت وصيتها إلى القاضي. فعاد السلطان من الصيد، فوجد الأمر قد مضى على ذلك. فتألم لوقوعه، وأنكر على القاضي، وقال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني، ويسمع كلامها، هو والشهود!.

ثم اتفق بعد ذلك أن القاضي طلب جابي أوقاف المدرسة العَزِيزِيَّة[1] ـ وهو سالم بن عبد الرزاق، خطب عَقْرَبا[2] ـ أخو المؤيد العَقْرَبَانِي ـ وطلب منه حسابها، فأغلظ له في القول. فأمر القاضي بضربه، فضُرب بين يديه، كما تفعل الولاة.

فوجد الملك المعظم سبيلاً إلى إظهار ما عنده، فأرسل إلى القاضي بُقْجَة، وهو في مجلس حكمه، وفي مجلسه الجَمَال المِصْري وكيل بيت المال، وجماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين، فجاءه الرسول، وقال للقاضي: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة ـ سلم الله عليه ـ إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابيسه، ونحن نسلُكُ طريقَه! وقد أرسل إليك من ملابيسه، وأمر أن تلبسها في مجلسك هذا، وأنت تحكم بين الناس. وكان الملك المعظم أكثر ما يلبس قَبَاءً[3] أبيض، وكَلُوتَة صفراء[4]. وفتح الرسول البُقْجة. فلما نظر القاضي إلى ما فيها وَجِم!.

---

(١) المدرسة العزيزية: أول من أسسها الملك الأفضل، ثم أتمها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٢٩٠.

(٢) عقرباء: اسم مدينة الجولان وهي كورة من كور دمشق كان ينزلها ملوك غسان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٥٢.

(٣) قباء: ثوب يلبس فوق الثياب أو المعطف. ابن منظور: لسان العرب (قبا).

(٤) الكلوتة الصفراء: لفظة فارسية وهي غطاء للرأس مثل الطاقية من الصوف المضرب بالقطن أو من الجوخ، وكان السلطان والجند يلبسون الكلوتة الصفراء بغير عمامة إلى أن ولي السلطان الملك =

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: فأخبرني الرسول الذي أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك، قال: وكان السلطان قد أمرني أن ألبسه إياها بيدي، إن امتنع أو توقف. فأشرت عليها بلبسها، وأعدت عليه الرسالة. فأخذ القَبَاء ووضعه على كتفه، ووضع عمامته بالأرض ولبس الكَلُّوتة الصفراء على رأسه، ثم قام ودخل بيته إثر هذه الحادثة، ورمى كبده ومات. ويقال إن ذلك كان في يوم الأربعاء، سابع عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمائة.

وفَوَّضَ السلطان قضاء الشام بعده للجمال المصري(١) وكيل بيت المال، وذلك في شهر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركةً قبيحة وواقعة شنيعة، لم يجر في الإسلام أقبحُ منها. وكانت من غلطات الملِك المعظم. قال: ولقد قلت له: ما فعلتَ إلا بصاحب الشرع، ولقد وَجَبَتْ عليك ديَةُ القاضي. فقال: هو أحْوَجَنِي إلى هذا. ولقد نَدِمْت.

واتفق أن الملك المعظم بعث إلى شرف الدين بن عُنَيْن الشاعر(٢) ـ حين تَزَهَّدَ ـ خَمْراً ونَرْداً، وقال: سَبِّحْ بهذا ـ إشارةً إلى أن زهده ليس حقيقة! فكَتَبَ إليه ابن عُنَيْن:

يا أيها الملك المعظم، سُنَّةً أحْدَثْتَها، تَبْقَى على الآباد
تَجْرِي الملوكُ على طريقِك بعدها خلْعَ القضاة وتُحْفَةَ الزُّهَّاد

وفي هذه السنة، توفي الشيخ جلال الدين أبو محمد: عبد الله بن نجْم بن شَاس بن نِزَار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شَاس، الجُذَامِي السَّعْدِي: الفقيه المالكي. وكان عالِمَ مذهب مالك في زمانه. وصَنَّف في مذهب مالك كتاباً نفيساً، سماه: «الجواهر الثمينة في علم صاحب المدينة». فانتفع به المالكية انتفاعاً كثيراً. وكان مُدَرِّساً بمدرسة

= الأشرف خليل ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، فأحدث الشاش عليها فجاءت في نهاية من الحسن، وصاروا يلبسونها فوق الشعر إلى أن أصبح السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة فحلق رأسه وحلق الناس رؤوسهم. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٥، ٦ والمقريزي: السلوك: ج ٢، ص ٤٩٣.

(١) انظر صفحة ٣٠ من هذا الجزء حاشية (١).

(٢) هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنَين الأنصاري الملقب شرف الدين، الكوفي الأصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور له قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق وسماها «مقراض الأعراض» وكان السلطان صلاح الدين قد نفاه من دمشق، وكان فيها رسولاً عن الملك المعظم شرف الدين عيسى، ولد سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م. وتوفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٤ ـ ١٩ رقم ٦٨٤.

المالِكية بمصر المجاورة للجامع. ثم توجه إلى ثغر دمياط بنِيَّة الجهاد، فتوفي هناك في جمادى الآخرة، أو رجب، سنة ست عشرة وستمائة ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي بالقاهرة القاضي: جمال الدين أبو الحسن علي ابن القاضي شرف الدين أبو المعالي شُكْر ابن القاضي كمال الدين أبو السَّعَادَات: أحمد بن شُكْر، الشافعي ـ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع عشرة وستمائة

في هذه السنة، كانت وقعة البَرَلُّس[١]: بين السلطان الملك الكامل والفرنج. وكانت من الوقعات العظيمة، المشهورة. قتل من الفرنج فيها عشرة آلاف. وغنم المسلمون خيولَهم وسلاحَهم. فرجعوا إلى دِمياط [مهزومين][٢].

وفيها أخذ ابن حَسُّون ـ مُقَدَّم الشَّوَانِي[٣] الإسلامية ـ للفرنج إحدى عشرة حَرَّاقَة[٤].

وفيها يوم الاثنين، السابع عشر من جمادى الآخرة، احترق بمدينة قُوص، بظاهرها ـ خانُ الأمير مجد الدين مكرم بن اللمطي. وعُدِم للتجار فيه ما يقارب قيمته خَمسمائة ألف دينار.

وكان متولي الأعمال القُوصية، يومَئذٍ، الأمير سيف الدين: سُنْقُر الدَّوَادَار العادِلِي.

(١) البَرَلُّس: بفتحتين وضم اللام المشددة، بُليدة على شاطىء نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٨. وكانت البرلُّس من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطىء البحر المتوسط بين دمياط ورشيد، وتنسب إليها بحيرة البرلس التي تقع شمال مديرية الغربية،وعرفت قرية البرلس باسم البرج لأن الأيوبيين أنشأوا فيها قلعة اشتهرت بين الأهالي باسم البرج. القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٣٠٦.

(٣) جمع «شيني» أو «شينية» وهي نوع من السفن الحربية في مصر، يقابلها في اللغة الفرنسية لفظ: galère Dozy. Supp. Dict. Ar. ويظهر أن الشواني كانت أكبر السفن الحربية في مصر وأكثر استعمالاً. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٠٦، حاشية (٢).

(٤) حراقة، نوع من السفن الحربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو، وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية، ومعظم الحراريق كانت لتلك الأغراض المحلية من ذلك لما شرع السلطان الظاهر بيبرس في أحياء البحرية المصرية بعد إهمالها في عهد سلفه من المماليك، وكان الأمراء قد استعملوها في الحراريق وغيرها. واستدعى بشواني الثغور إلى مصر فبلغت زيادة على أربعين قطعة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٠٦، حاشية رقم (٣)، وابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٣٣١ حاشية (١).

فكتب الأديبُ الفاضل: نجم الدين عبد الرحمٰن بن وَهِيب القُوصِي[١]، عن المتولي، كتاباً إلى السلطان الملك الكامل، يخبره بهذه الحادثة، وهو:

«المملوكُ يُقَبِّلُ الأرضَ بالمقام العالي، المَوْلَوِيّ السلطاني، المَلَكِي الكامِلي الناصِري: غياثِ الإسلام، سلطانِ الأنام، وليِّ النعمة، كاشفِ غَيَاهِب الغُمَّة، جامع فضِيلَتَيْ السيف والقلَم، ورافع زِينَتَي العِلْم والعَلَم ـ لا زالت آيات مُلْكِه باهرة، ونجوم خُرْصَانِه[٢] في سماء العَجَاج[٣] زاهرة، ووجوه أوليائه ناضرة، إلى ربها ناظرة ووجوه أعدائه ساهية ساهرة، تَظُنُّ أن يُفْعَل بها فَاقِرة[٤]».

ويُنْهى وقوعَ الكائنةِ التي عظُمَ مصابُها وأصاب عظيمُها، وآلم موجِعُها وأوجع أَلِيمُها، وسَقِمَ بها من القلوب صحيحُها، وصَحَّ بها من الخطوب سقيمُها. وأحالت الأفكارَ في ميدان الفِكْرَة، وأطلق من الألسن والأعين عِنَان العَبْرَةِ والعِبْرة. وهي حلولَ النار بالخانِ، الذي أنشأه الأمير مجدُ الدين مكرم بن اللَّمَطي بظاهر مدينة قُوص.

وهذا الخانُ المذكور، قد كان محطاً للرفيق ومجتَمَعاً للسُّفَّار، يأتون إليه من كل فَجٍّ وطريق، خصوصاً الكَارِمَ[٥] الإسكندري ـ عَوَّضَهم الله أموالَهم، وبلَّغهم آمالهم ـ فلا ينزلون بغيره منزِلاً، ولا يختارون سواه حِصْناً، ومَوْئِلاً. وإذا حل به أحدُهم فكأنه ما فارق وطنَه. يتخَيَّرُون منازله وغُرَفه، ويُهْرَعُونَ إليه، كما يُهْرَعُون ليوم عَرَفَة.

فاتفق لقضاء الله السابق وقَدَره اللاحِق، إظهار ما كان من مُغَيَّبِه مستوراً، وتلاوتهم كان ذلك في الكتاب مسطُوراً ـ فاتفق يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الآخرة، أن خَطَبَتْ على أعالِيه ألسنُ النِّيران، واسْوَدَّ الفضاءُ المُشْرِق لتتابُع الدُّخان. وعايَنَ أهلُه الهلاك، وجاءهم الموتُ من كل مكان. فلم يلبثوا إلا ساعةً من نهار، وقد أحْدَقَتْ بهم

---

(١) توفي بحماه سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٣ م. كان فاضلاً له اليد الطولى في الأدب والترسل. انظر حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة من هذا الجزء من نهاية الأرب للنويري.

(٢) خرصان: جمع خرص، بضم الخاء وهي القناة والسنان، ابن منظور: لسان العرب (خرص).

(٣) العجاج: الغبار والدخان. الفيروزابادي: القاموس المحيط (عجج).

(٤) الفاترة: الداهية. الفيروزابادي: القاموس المحيط (فتر).

(٥) تجار الكارم من الاسكندرية. ذكر القلقشندي في الوظائف الديوانية: انظر البهار والكارمي وكان منهم طائفة مقيمة بمصر يتاجرون في البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن، وموضوع هذه الوظيفة التحدث على أصل التجار الكارمية من اليمن من أصناف البهار وأنواع المتجر، وهي وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها، وتارة تضاف إلى الخاص وتجعل تبعاً لها، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٣٢.

النار إحْداقَ الأَجْفان بالأَحْداق واستدار عليهم اللهبُ استدارةَ الأَطْواق بالأَعْناق. وتلا لهم لسانُ القدر: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عند الله باق.

وزَحَفَت الخطوبُ إليه زَحْفاً، وصار للوقت دَكًّا دكًّا. والناسُ حوله صفاً صفاً. وهذا، ولسانُ النار يقول: هل من مَزِيد؟ ومدامعُ الخلق تَهْمي وتَزِيد، فَعَلَت الأصواتُ عند ذلك بالدعاء، وكاد اللهبُ يخمَد من جَرَيان ماءِ البُكَاءِ، وشَهِدَ الناسُ منه اليومَ المَشْهُود. وهبَّت الأرياحُ فلم تُخْمِدْ للأرواح ضِراماً، وخَالَفَتْ هذه النارُ نارَ الخَلِيل[١]. فلم تُعْقِبْ بَرْداً وسَلَاماً!.

فكلُّ مَالِكٍ لموضع صار فيه «مالِكاً»[٢]. وكلُّ ذي حال حسنة حالُه حالِكا. فمِنْ فائزٍ بنفسه دون نفائسِه، ومن راغبٍ في هَرَبِه لشدة رَهَبِه، ومن آبِقٍ[٣] بمُرْدِه[٤] دون أهله وولده. قد لزم كل منهم ما يَعْنِيه، وعمل بقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره طائعون. لا صادف لمُصَادِف قضائه، ولا صَارِفَ لصَرْفِ بَلَائِه.

ولم يبْقَ هذا المصابُ لهؤلاء القوم جلَداً، ولم يؤخِّرْ عنه حُزْناً ولا كَمَداً. وكلُّ أحد منهم ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾[٥] [البلد: ٦]، فكم من كريم كان يُجْزِلُ الهِبَات فصار جديراً بأن يُتَصَدَّقَ بها عليه. وكم من مُمَوِّلٍ كان يؤدي الزكاة فصار مستَحِقًّا بأن تُصْرَفَ إليه. كانوا أَعِزَّاءَ في الغُرْبَةِ بأموالهم، فصاروا أذِلَّاءَ في المواطن لإقْلَالِهِم. لم يَخْلُص لهم إلا النَّزْرُ اليسير، والشيءُ الحقير، والقليلُ من الكثير مقدارَ أَزْوَادِهم إلى مواطِنهم، وكَفَافِهم إلى وصول مَسَاكِنهم.

هذا، ولم يُعْلَمِ السببُ في وقوع النار. فقال قوم: صاعقةٌ سمائية، وقال قوم: آفةٌ أرضية. وتزاحمت في ذلك الظنون، وعند الله من علمه السِّرُّ المكنون، إلا أن المملوك أرسل عليه من الماء طُوفَاناً، وأجرى إليه بحاراً ـ ولا أقول غُدْرَاناً ـ إلى أن عاد غريقاً بعد ما كان حَرِيقاً، وصار مَوْرِداً بعد ما كان مَوْقِداً، وأصبح ماء ثَجّاجاً[٦] بعد ما كان سِرَاجاً وهَّاجاً، وعلموا أن المدفوع من بلاء الله أعظم، وقرأوا: «ولكن اللَّهَ سَلَّمْ».

---

(١) إبراهيم عليه السلام. (٢) يقصد «مالكاً» خازن النار.

(٣) آبق: هارب انظر القاموس المحيط للفيروزابادي (ابق).

(٤) غلمانه. القاموس المحيط للفيروزابادي (مرد.

(٥) مالاً لبداً أي كثيراً. القاموس المحيط (لبد).

(٦) ثج الماء: سال. والثجيج: السيل. ثجاجاً سيّالاً، منهمراً. ابن منظور: لسان العرب (ثجج).

أَنْهَى المملوكَ ذلك، ليُطَالِحَ بخَفِيِّ الأحوال وجَلِيِّها، حتى لا يخفى عن عِلْمِهِ السامي خافِيَة ـ لا زالت أنوارُ المملوك بذلك المقام مُتَوَالِيَة مُتَلالِيَة ـ إن شاء الله تعالى.

وفيها، في العشر الآخر من شعبان، صُرِفَ قاضي القضاة تاج الدين بن الخَرَّاط[١] عن القضاء، بمصر والوجه القبلي.

وسبب ذلك أن إحدى بنات مَرْزُوق العَلَائِي تزوجت بإنسان عَلَّاف اسمه داود، وهو غير كُفْءٍ لها. فاستدعاه السلطان إلى المنصورة، وعقد له مجلساً وسلم المرأة لزوجها. وصَرَفَ القاضيَ عن الحكم، وصك الشهود. وأضاف قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي القضاة: شرف الدين بن عَيْنِ الدولة الصَّفْرَاوِي[٢].

ثم ولي القاضي تاجُ الدين المذكور، بعد ذلك، قضاءَ دمياط وكان بها، إلى أن مات ـ رحمه الله.

وفيها خُرِّبَتْ صَفَد[٣]. ثم عَمَّرَها الفِرِنْجُ بعد ذلك، عندما تسلموها من الملك الصالح إسماعيل ـ في سنة ثمان وثلاثين.

وفيها قَتَل صاحبُ سِنْجَار[٤] أَخَاه. فسار الملك الأشرف إليها، فأخذها وعوض صاحب سِنجار الرَّقَّة[٥].

وفيها قصد مُظَفَّرُ الدين بن زين الدين ـ صاحب إِرْبِل[٦] ـ الموصل. فخرج إليه بدرُ الدين لؤلؤ، فهزمه زين الدين، فأفلت لؤلؤ وحده. فانتصر الملك الأشرف له، ونازل

---

(١) هو عبد السلام بن علي بن منصور الدمياطي المعروف بابن الخراط، كان مولده في دمياط ثم رحل عنها إلى بغداد ليتفقه بها، وتميز في الفقه والخلاف. عاد إلى بلده فأقام بها قاضياً ومدرساً. ولي قضاء مصر والوجه القبلي. ولد سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م، وتوفي سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٠ وج٢، ص ١٦٠.

(٢) له ترجمة في حوادث سنة ٦٣٩، في هذا الجزء من نهاية الأرب.

(٣) صفد: بالتحريك: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي في جبال لبنان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٦٨.

(٤) سنجار: بكسر أوله، وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة، من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. وهي في لحف جبل عالٍ وقيل إن سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان بن سلجوق ولد بها فسمي باسمها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٥) الرَّقَّة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٧.

(٦) إربل: بالكسر ثم السكون: قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق. وهي في طرف من المدينة وهذه القلعة شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع رقعة. تعد من أعمال الموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٧.

إِرْبِل. فبعث الخليفة إليه، فَردَّه عنها، وأصلح بين الملوك.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك الفائز[١]: إبراهيم، ابن الملك العادل.

وكان قد وافق الأميرَ عمادَ الدين بن المَشْطُوب، وحَلَفَ له جماعةٌ من الأمراء بالديار المصرية على الملك الكامل، وكاد أمرهُ يَتِم. فاتفق من إخراج ابن المشطوب ما قَدَّمْنَاه. وبقي الملك الكاملُ في ضِيقٍ منه.

فيقال إنه استشار الصاحبَ ـ صفي الدين بن شُكْر الوزير ـ في أمره، فأشار بإرساله إلى الملوك ببلاد الشَّرْق، يَسْتَحِثُّهُم على الحضور. فلما كانت واقعة البَرَلُّس، قال السلطان الملك الكامل للملك الفائز: إن الملك المُعَظَّم قد أبْطأَ علينا والملكُ الأشرف، وليس لهذا المُهِم سؤال، فتَوجَّهْ إلى أخيك الملكِ الأشرف، وعَرِّفْه ما نحن فيه من الضائقةِ. فتوجه.

وكان الملك الأشرف على الموصل. فمَرِض الفائزُ بين سِنْجَار والموصل. فمات ـ وقيل إنه سُمّ ـ فَرَدَّهُ من معه إلى سِنْجار. فدُفِن عند تربة عماد الدين زَنْكِي ـ رحمهما الله تعالى.

وحكى ابن جَلَب راغب، في وفاته، أن السلطان جَهَّزَه إلى الملك الأشرف، باتفاق مع الملك المعظم، وبرأي الصاحب صفي الدين، وأنه: جهز معه شيخَ الشيوخ، فسقاه سُمًّا في طريقه. فلما شعر الفائز به، قال له: يا شيخَ السُّوء فَعَلْتَها بي! كُلْ من هذا الذي أحْضَرْتَه، فأكَلَ منه، فماتَا جميعاً.

وحكى غير ابن جَلَب راغب ـ وهو أَقْعَدُ منه بهذه الحادثة ـ في وفاة شيخ الشيوخ، فقال ما معناه: كانت وفاة شيخ الشيوخ: صدر الدين[٢] أبي الحسن محمد، ابن الإمام شيخ الشيوخ عماد الدين أبي الفتوح عمر[٣]، ابن الفقيه أصيلِ خُراسان أبي

---

(١) هو غياث الدين إبراهيم بن العادل، كان قد انتظم له الأمر في الملك بعد أبيه عى الديار المصرية على يدي الأمير عماد الدين بن المشطوب، ولكنه مات قبل أن يصل إلى الحكم. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٩٩، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٠.

(٢) كان في بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب، وكان صدر الدين هذا فقيهاً فاضلاً، درس بتربة الشافعي بمصر، وبمشهد الحسين، وولي مشيخة سعيد السعداء والنظر فيها وكانت له حرمة وافرة عند الملوك، دفن عند قضيب البان في الموصل، عن ثلاث وسبعين سنة: ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص ١٠٠. «مات وله أربع وسبعون سنة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٢، انظر أيضاً: حسن المحاضرة ج ١، ص ٤٠٩. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٧٧.

(٣) هو والد صدر الدين. قدم إلى الشام في الأيام النورية، وفوض إليه الشهيد نور الدين مشيخة الصوفية. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٥٧.

الحسن علي، ابن الإمام الزاهد: أبي عبد الله محمد بن حَمُّويه[١]، الحَمُّوي الخُراسَاني النَّيْسَابُورِي الجُوَيْنِي، البُحَيْرَابَاذِي[٢] الشافعي ـ في منتصف جمادى الآخرة ـ وقيل في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر بالموصل، بعلة الذَّرَب[٣]. وكان الملك الكامل قد أرسله إلى الخليفة، يستنجده على الفرنج، فمرض بين حرَّان والموصل، فوصل إلى الموصل ومات بها. وقيل كانت وفاته في جمادى الأولى.

ومولده بجُوَيْن في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وجُوَيْن هذه، التي نُسِب إليها، ناحية كبيرة من نواحي نَيْسَابُور، وإليها يُنْسَب إمام الحَرَمَيْن أبو المعالي: عبد الملك الجُوَيْنِي. وأما أبو المعالي الجُوَيْنِي: محمد بن الحسن بن عبد الله ـ فهو منسوب إلى جُوَيْن: قريةٍ من قرى سَرَخْس، وهو إمام فاضل. وأما وَقَّاد بن قَيْس الجُوَيْنِي الشاعر فمنسوب إلى جُوَيْن: بطنٍ من سِنْبِس[٤].

وفي هذه السنة كانت وفاة السيد الشريف: قَتَادة بن إدريس، الزَّيْدِي الحَسَني[٥] العَلَوي، أمير مكة. وكنيته أبو عَزيز. كان رحمه الله ـ عادِلاً مُنْصِفاً. واطمأَنَّ الحاجُّ في أيامه. وما وَطِىءَ بساطَ خليفةٍ قَطْ. وكان يُحَمَّلُ إليهْ في كل سنة من بغداد الخلَعُ والذهب. وكان يقول: أنا أَحَقُّ بالخلافة من غيري.

وبعث إليه الخليفةُ الناصرُ يستدعيه، ويقول له: أنت ابنُ العم والصاحب، وقد بلغني شهامتُك وحفظك للحاج، وعدلُك وشرَفُ نفسك، وقد أحببتُ أن أراك وأشاهدَك وأحسن إليك. فكتب إليه: [من الطويل]

ولـي كَـفُّ ضِـرْغَـام أَذِلُّ بِـبَسْطِـهـا   وأَشْـرِي بـهـا بـيـن الـورى وأَبِـيـعُ
تَـظَـلُّ مـلـوكُ الأرض تَـلْـثـمُ ظـهـرَهـا   وفـي وَسْـطـهـا لـلـمُـجْـدِبـيـن[٦] رَبـيـعُ

---

(١) هو من روى الحديث وكان صدوقاً مشهوراً بالعلم والزهد وله كرامات توفي عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٢٦.

(٢) نسبة إلى بُحَيراباذ: بالضم ثم الفتح، وهي من قرى جوين من نواحي نيسابور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤١٦.

(٣) بفتحتين ـ مرض يصيب الأمعاء: الإسهال. الفيروزابادي: القاموس المحيط (ذرب).

(٤) إحدى قبائل العرب. وذكر القلقشندي «إن سنبس بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة في الآخر: هم بنو سُنْبس بن معاوية بن جرول بن ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيىء وذكر الحمداني أن منهم طائفة بثغر دمياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميين، صبح الأعشى: ج ١، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٥) هو مؤسس أسرة قتادة من أمراء مكة منذ سنة ٥٩٩ هـ. وكان شيخاً عارفاً منصفاً نقمة على عبيد مكة المفسدين. وكان يؤذن في الحرم بـ «حي على خير العمل» على قاعدة الرافضة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٢١.

(٦) المجدبين: الذين أصابهم الجدب، وهو ضد الخصب، ابن منظور: لسان العرب (جدب).

أأجعلُها تحت الرَّجَا، ثم أَبْتَغِي خَلَاصاً لها، إني إذاً لَوَضِيع
وما أنا إلا المِسْكُ في كل بِقْعَة يَضُوعُ[١]، وأما عِندكم فَيَضِيعُ

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ إحدى الجُمادَيَيْن، بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ وله سبعون سنة[٢].

وملك بعده ابنه الحسن ـ وقيل إن ابنه الحسن سَمَّه ـ وكان له ولد آخر اسمه: راجِح. وكان قَتَادَة قد اتسعت ولايتُه من حدود اليمن إلى المدينة: وله قلعة يَنْبُع واستكثر من المماليك. وذكر ابن الأثير وفاته في سنة ثمان عشرة. والله أعلم.

وفيها، كانت وفاة الملك المنصور: محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ صاحب حمَاه.

وكان شجاعاً مُحِباً للعلماء. وصنف كتاباً سماه: «المِضْمَارَ» جمع فيه جُملةً من التواريخ، وأسماء من ورد عليه وأقام عنده، في عشرة مجلدات. وكان كثير الصدَقَة، حَافِظاً لرعيته. وكانت وفاته بحَماه في شوال، ودفن عند أبيه.

وقام بعده بمُلك حمَاه ولدُه الأكبر: الملك الناصر قِلِيج أَرْسَلان.

ثم أخذ منه الملك الكامل حمَاه، وأعطاها لأخيه الملك المُظَفَّر، واعتقل قِلِيج أَرْسَلان في الجُبِّ بقلْعة الجَبَل، بظاهر القاهرة المُعِزِّيَّة.

وفيها كانت وفاة الملك الصالح[٣]. نجم الدين محمود بن محمد بن قَرَا أَرْسَلان بن أُرْتُق، صاحب آمِد. وكان شجاعاً عاقلاً جواداً، مُحِبًّا للعلماء. وكان الملك الأشرف يُحِبُّه، وحضر إلى خدمة الأشرف غير مرة إلى دُنَيْسِر، وغيرها. ومات بآمِد في صفر.

وقام بعده ولدُه الملك المسعود. وكان ضد اسمه: بخيلاً فاسِقاً. حَضَره الملكُ الكامل بعد ذلك في آمِد، ووجد في قصره خَمسمائة امرأة من الحرائر يَفْتَرِسُهُنَّ، من بَنات الناس. فأخذه الكامل إلى مصر، وأحسن إليه. وكاتب الرومَ وسعى في هلاك الكامل. فقَبَض عليه واعْتَقَلَه في الجُبِّ. ثم أَطْلَقه، فتوجه إلى التتار، وكان معه جواهر كثيرة، وأخت جميلة، فقتله التتار، وأخذوا ما معه.

وفيها، في العشر الأول من ذي الحجة، توفي الشيخ القدوة العارف: أَسَد الشام

---

(١) يضوع: يفوح شذاه: ابن منظور: لسان العرب (ضوع).

(٢) «عاش أكثر من ثمانين سنة» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٧٦.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٠٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٢٢.

عبد الله اليُونَانِي[١] صاحب الكرامات المشهورة والرِّيَاضَات والمُجَاهَدَات. وكان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ لا يقومُ لأحدٍ من الملوك ولا لغيرهم، تعظيماً لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيامُ لغير الله تعالى. وكان لا يَمَسُّ بيده دِرْهماً ولا دِيناراً، ولا يلبس غير الثوب الخام، وقَلَنْسُوَة من جِلد الماعز. ويبعث إليه بعضُ أصحابه في الشتاء بفَرْوة قَرَظ[٢] يلبسها، ثم يُؤْثِرُ بها إذا اشتد البرد. وكان إذا لبس ثوباً قال: هذا لفلان وهذا لفلانة، يُوعِد به ويُعطيه إذا أتاه غيره.

وكان من خَبَر وفاته أنه دخل الحمام في يوم الجمعة واغتسل، ولبس ثَوْبَيْه، وكان قد سَمَّاها لامرأتين، وصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح. وجاءه داود المُؤَذِّن، وكان يغسل الموتى، فقال له: وَيْحَك يا داود، انظر كيف تكون غداً! فلم يفهمْ. ثم صعد الشيخ المَغَارة، وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا الصخرة التي عند اللَّوْزَة، التي كان ينام تحتها ويجلس عندها، وعندها قبره فنُجِّزَتْ في نهار الجمعة، وبقي منها مقدار نصف ذراع. فقال لهم: لا تطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها.

وبات في ليلة السبت، وهو يذكر أصحابه ومعارفَه، ويدعو لهم حتى طلع الفجر. فصلى بهم الصبح، وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها، فجلس وبيده سُبْحة. وقام الفقراء ليكملوا حفر الصخرة، فطلعت الشمس وقد فرغوا منها، والشيخ قاعد وبيده السُّبْحة. وجاء خادم من القلعة إليه في شغل، فرآه نائماً، فما تجاسر أن يوقظه. فجلس ساعة، فلما طال مجلسه قال لخادم الشيخ: يا عبدَ الصمد، ما أستطيع أن أقعد أكثر من هذا. قال عبدُ الصمد: فتقدمتُ إليه، وناديته: سَيِّدي سيِّدي! فما تكلم. فحركته، فإذا هو ميت! فارتفع الصياح.

وكان الملك الأمجد ـ صاحب بعلبك ـ في الصيد، فأرسلوا إليه، فجاء، فرآه على تلك الحال: لم يقع: ولا وقعت السُّبحَة من يده، وهو كأنه نائم! فقال: نبني عليه بنياناً وهو على حاله، ليكون أُعجوبة! فقال أتباع الشيخ: السُّنَّةُ أَوْلى. وغسله داود، ودفع الثوبين للمرأتين. ولما أَلْحَدُوه، قال له الحَفَّار: يا شيخ عبد الله، اذكر ما فارَقْتَنَا، أو اذْكُرنا عند ربك. قال: ففتح عينيه، ونظر إليَّ شَزْراً[٣]. ودُفن رحمه الله في يوم السبت، وقد جاوز ثمانين سنة. والأخبار عنه في الكرامات كثيرة، قد اقتصرنا على هذه النبذة.

---

(١) نسبة إلى «يونان» قرية من قرى بعلبك، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٥١٧.

(٢) «القرظ» محركة: أديم مقروظ دُبغ. فروة من جلد مدبوغ، أو فروة من كبش. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قرظ).

(٣) شذراً: انظر بمؤخر العين. الفيروزابادي: القاموس المحيط (شزر).

واستهلت سنة ثماني عشرة وستمائة

ذكر وصول ملوك الشرق إلى السلطان الملك الكامل وانهزام الفرنج واستعادة ثغر دمياط، وتقرير الهدنة

في هذه السنة، توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن السلطان الملك العادل، إلى أخيه الملك الأشرف، واجتمعا على حَرَّان[(١)].

وكان الملك المعظم من أحرص الناس على إعَانةِ أخيه الملك الكامل، على استعادة ثَغْر دمياط من الفرنج. وكان الملك الأشرف قد بَايَنَ الملكَ الكامل، وتقاعد عنه في هذه الحادثة: فتلطف الملك المعظم بالملك الأشرف، ولم يزل به حتى قطع الفُراتَ بالعساكر، والمعظم يَقْدمُهُ، إلى أن نزل الملك المعظم على حِمص، والأشرف على سَلَمْيَة[(٢)].

قال أبو المُظَفَّر يوسف، في تاريخه: وكنتُ قد توجهتُ إلى حمص لطلب الغَزَاة، وكان العزْمُ قد وقع على دخول العساكر إلى طَرَابُلُس. فاجتمعتُ بالملك المعظم على حِمص في شهر ربيع الآخر. فقال لي: قد سَحَبْتُ الأشرفَ إلى ههنا بأسناني وهو كارِه، وكل يوم أعتِبه في تأخره وهو يُكَاشر[(٣)]، وأخاف من الفرنج أن يستووا على مصر. وهو صديقُك، فَتَوَجَّهْ إليه، فإنه قد سألني عنك مراراً.

قال: ثم كتب كتاباً إلى أخيه بِخَطِّه نحو ثمانين سَطراً، فأخذتهُ وتوجهتُ إليه إلى سَلَمِيَّة؟ فتلقاني وأكرمني، فقلت له: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديارَ المصرية، ملكوا حضرموت وعفوا آثار مكة، وأنت تلعب؟ قم الساعة وارحل. فأمر برمي الخيام والدِّهْلِيز[(٤)] لوقته. وقمت فركبت، وسبقته إلى حِمص. فركب المعظم والْتقى بي، وقال: والله ما نِمتُ البارحة، ولا أكلتُ في يومي هذا! فأخبرته أن الملك

---

(١) حرّان: هي مدينة عظيمة، مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مُضر. بينها وبين الرها يوم وهي على طريق الموصل والشام والروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) سلمية: بليدة من أعمال حمص أو حماه من ناحية البرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣، ص ٢٧٢.

(٣) يكاشر: يبدي أسنانه. وهنا يكشر عن أسنانه أي يعارض. ابن منظور: لسان العرب (كشر).

(٤) الدهليز: السرادق أو الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب. وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٣٨.

الأشرف يصل إليه بُكْرَةَ الغَد. فسُرَّ بذلك، ودعا لي. وأقبلت الأَطلاب[١] من الغَد. وجاء الأشرف فما رأيت أجمل من طُلْبِه[٢]، ولا أحسن رجالاً ولا أكمل عدة.

قال: وبات الأخوان الملكان في تلك الليلة يتشاوران. فاتفقا على الدخول في السحر إلى طرابُلس، وكانوا على أحسن حال. فأنطقَ الله الملكَ الأشرف ـ من غير قصْد ـ وقال المعظم: يا خُونْد[٣]، مَ عِوَض دخولنا إلى الساحل ونُضْعِفُ عساكرنا وخيلنا، ونُضيع الزمان، ما نتوجه إلى دمياط ونَستريح! فحلَّفَه المعظم بقَوْلِ رُمَاة البُنْدُق[٤] فحَلَف، وقَبَّلَ المعظم قدمَه.

ونام الأشرف، فخرج المعظم من الخَيْمة ونادى في الناس: الرحيلَ إلى دمياط، وما كان يَظُنُّ أن الأشرف يسمحُ بذلك. وساق المعظم إلى دِمشق، وتبِعَتْه العساكر. ونام الأشرف في خيمته إلى وقت الظهر، وانتبه فدخل الحَمَّام فلم يَرَ حول خيمته خَيْمةً! فسأل عن العساكر، فَأُخْبِر بالخبر. فسكت وركب إلى دمشق. ونزل القصر في رابع عشر جمادى الأولى، فأقام بها إلى سَلْخِ الشهر.

وعَرَض العساكر، وتوجه إلى مصر، هو والملك المعظم ـ في غرة جمادى الآخرة. ووصلوا إلى المنصورة، في ثالث شهر رجب من السنة. ووصل أيضاً الملك المظفر ابن الملك المنصور، صاحب حمَاه، وغيرُه من الملوك. هذا ما كان من خَبَر هؤلاء.

وأما الملك الكامل، فإنه في هذه السنة اجتهد في قتال الفرنج. واستمر القتال بينهم وبينه في البر والبحر. وطلع النيلُ وعم البلاد، وجرى في بحر المَحَلَّة، فرَتَّبَ السلطانُ مراكب الأسطول في بحرِ المَحَلَّة، ومنع المِيرَةَ[٥] عن الفرنج. فاشتد ضررهم لذلك، وعَدِموا القُوت. وعزموا على الرجوع إلى دمياط، فأحرقوا أَثْقَالهم وهربوا ليلاً. فأمر السلطان بقطع جِسر البَرَمُون[٦]، وغيره من الجسور، فقُطعت. فأحاط بهم النيل من

---

(١) الأطلاب: فرق الجيش وكتائبه. وهذا لفظ كردي ورد في أيام صلاح الدين الأيوبي. واستعمل في دولتي الأيوبيين والمماليك والطلب في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين، انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٣٦، والسلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٤٨.

(٢) طلبه: أي من جنده.

(٣) الخوند: لفظ فارسي بمعنى السيد العظيم والأمير، واستعملت في العربية بمعنى السيد والسيدة. أصل هذا اللفظ خداوند. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٢٤.

(٤) رماة البندق: هم أهل الفتوة. انظر صفحة ٢١ من هذا الجزء حاشية (٤).

(٥) الميرة: المؤن والأقوات الطعام. ابن منظور: لسان العرب (مير).

(٦) البرمون: بلد في محافظة الدقهلية، بالقرب من المنصورة، شمالي بحر تنيس بين المنصورة وشربين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٠٨.

كل جانب. وكان فيهم مائة كُنْد(١)، وثمانمائة من الخَيَّالة المعروفين، ومَلِك عكا(٢)، والدُّوك(٣) واللُّوكان(٤) نائب البَاب(٥)، ومن الرَّجَّالَة ما لا يُحصى كَثْرة(٦).

فلما عايَنُوا الهلاك، راسلوا السلطان، وبذلوا له أن ينزلوا على ثَغْر دمياط، ويُؤَمِّنَهُم على أنفسهم وأموالهم. فأجابهم إلى ذلك. ووصل المَلِكان: الأشرف والمُعَظَّم في هذه الأيامُ. وتقررت الهدنة(٧) ثمانيَ سنين، وأنه يُطْلَق جميعُ الأسرى(٨) من الجهتين.

---

(١) الكُنْد: هو الكونت أو القومس. وهي تعريب الكلمة الأجنبية Comte وقد ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى العماد الكاتب الأصبهاني في كتابه البرق الشامي، ج ٣، ص ٥٢، «وقد وصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له افلند، من أكبر طواغيث الكفر».

(٢) ملك عكا في تلك السنة كان حنا برني Jean de Brienne. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩٨ حاشية (١). كان يوحنا صاحب عكا قائد هذه الحملة الصليبية في أولها، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٠٨.

(٣) أي الدوق.

(٤) في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٤، ص ٩٨ حاشية (٢). المقصود به الكاردينال بلاجيوس Cardinal Pélage

(٥) «نائب البابا صاحب رومية الكبرى» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٤، ص ٩٨ ونائب البابا هو Cardinal Pélage في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٨، حاشية (٣).

(٦) «كان عدة رهائن الفرنج أربعة عشر ملكاً وهم: كرموك بن الباب يعني خليفتهم، وكر مريك صاحب صقلية، وبندارك ملك النوباردية، وسربار ملك الجزيرة الورانية، والريدكور صاحب المساوي، وهو إقليم كبير بالمغرب، وكندفور صاحب جزيرة النمسون، وطرباط صاحب البندقية، وابن الانبرون، وفرنسيس وادورد، والملك أخوزنتون، والمللة صاحبة عكا بنفسها، ورومان ابن صاحب رميه الكبرى، وهو المعروف بالكاف، وكندريس الكبير، وهؤلاء أعظم ملوك دين الصليب» ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ج ٧، ص ٢١١.

(٧) كان من شروط الصلح أن تكون هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثماني سنين لا يستثنى منها سوى أصحاب التيجان من ملوك أوروبا، فإن لهم أن ينقضونها إذا شاؤوا، ولقد كانت الحملة التي وصلت دمياط بعد إمضاء شروط الصلح من عند فريدريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وكان يحق لقائدها أن يكسر الهدنة، دون أن يخلّ بشروط الصلح، غير أن وجود الرهائن لدى الكامل أخاف الصليبيين من عواقب ذلك فسلموا دمياط حسب الشروط. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٠٩، حاشية (١).

(٨) كانت رهائن الفرنج ملك عكا، واللكاف نائب البابا صاحب رومية الكبرى، وكندريس وغير هؤلاء من الملوك تتمة عشرين ملكاً. وكان رهائن السلطان الملك الكامل ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب (كما يشير النويري هنا) وجماعة من خواصه، وكان عمر الملك الصالح يومئذٍ خمس عشرة سنة لأن مولده سنة ثلاث وستمائة. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩٨ وابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٢١١.

وجلس[١] الملكُ الكامل مَجْلِساً عظيماً. ووقف الملكُ الأشرف والملكُ المعظم وسائر الملوك في خِدمته. ولم يجلس معه إلا الملك المعظم محمد بن سَنْجَرشَاه بن أتابك، صاحب جزيرة ابن[٢] عمر - وكان قد وصل إلى الملك الكامل في أوائل هذه السنة، قبل وصول الأشرف والمعظم - وعَظَّمَه الملكُ الكامل تعظيماً كثيراً. وكان في مدة مقامه عنده، إذا حضر رسلُ الفرنج يقول لهم الملك الكامل: إنه الآن لا حُكْمَ لي، وحديثُكم مع مِلك الشَّرْق، والأَمْرُ له. وحضر رسولُ الفرنج مرة، فوقف الملك الكامل بين يدي الملك المُعَظَّم هذا، وكذلك من كان بحضرته من الملوك الأيوبية. وكان الملك المعظم محمد شَكْلاً مهيباً، جَهُورِيَّ الصوْت، هَيُولَ الخِلْقَة ففَرِقَ رسلُ الفرنج منه. ولما جلس السلطان في هذا اليوم، أراد الملك المعظم الوقوف بين يديه مع الملوك الأيوبية، فلم يُمَكِّنْه من ذلك، وأجلسه إلى جانبه.

وحضر الملك يوحنا - صاحب عكا - إلى السلطان بظاهر البَرَمُون، بعد أن أعطاه السلطان رهاين: ولَدَه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأخاه الملك المفضل قطب الدين، وجماعة من أولاد الأمراء. فحلف يوحنا للسلطان، ولأخَوَيْه: الأشرف والمعظم، وحلفوا له. وذلك في يوم الأربعاء، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب، من السنة.

وتسلم ثغر دمياط في تاسع عشر شعبان[٣] من السنة. فكانت مدة استيلاء الفرنج على الثغر سنتين[٤]، إلا ستة أيام. ومدة مقامهم بالديار المصرية ثلاث سنين، وأربعة أشهر، وستة عشر يوماً. وتوجه الفرنج إلى عكا: بعضهم في البر، وبعضهم في البحر.

وعاد الملك المعظم، صاحب الجزيرة، والملك المعظم، صاحب دمشق، إلى ممالكهما. وتأخر الملك الأشرف عند السلطان الملك الكامل، وتصافَيَا، وزال ما عند كلٍّ منهما من الآخر. واتفقا على الملك المعظم صاحب الشام.

---

(١) «وعندما قدم ملوك الفرنج جلس الملك الكامل مجلساً عظيماً» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٨.

(٢) هي بلدة فوق الموصل، تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه هلال، ثم عمل خندق أجرى فيه الماء فصارت جزيرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٠.

(٣) «تاسع عشر رجب» في مفرج الكروب لابن واصل ج ٤، ص ٩٩. «يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٩. «الخميس تاسع عشر من شهر رجب وقيل تاسع الشهر» في كنز الدرر للدواداري، ج ٧، ص ٢١٢.

(٤) «سنة واحدة وعشرة أشهر، وأربعة وعشرين يوماً»، في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٩.

ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة وإخراج الأمراء إلى الشام

قال: ولما تسلم السلطان ثغر دمياط، وعاد الفرنج إلى بلادهم، رجع السلطان إلى القاهرة. واستقر بقلعة الجبل [في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان](١).

ثم ركب في ذي القعدة، وجاء إلى مَنْظَرة الصاحب صفي الدين بن شُكْر، لزيارته. فزاره، واستشاره في أمر الأمراء، الذين كانوا مع عماد الدين بن المشطوب، لما قصد إقامة الفائز. فأشار بإخراجهم من البلاد. وكانوا في الجزيرة، مقابل ثغر دمياط، لعمارتها. فكتب السلطان إليهم بالانصراف، إلى حيث اختاروا. فتوجهوا إلى الشام. ولم يتعرض لشيء من موجودهم، وأقطع أَخْبَازَهُم(٢) لمماليكه.

في هذه السنة ـ أعني سنة ثماني عشرة وستمائة ـ كانت وفاة أمين الدين أبو الدرّ: ياقوت بن عبد الله المَوْصِلي، الكاتب المعروف بالمالكي ـ نسبة إلى السلطان مَلِكْشَاه السَّلْجُقِي. إليه انتهى حسنُ الخَطِّ وجَوْدة الكتابة في زمانه، وما أَدَّى أحدٌ طريقَة ابن البَوَّابِ(٣) في زمانه مثله. وكتب كثيراً من الكتب. وانتشر خطه. وكان مُغْرًى بنقل صِحاح الجوهري، كتب منها نسخاً كثيرة: كل نسخة في مجلدة واحدة. قال ابن خِلِّكَان: ورأيت منها نسخاً عدة، وكل نسخة تباع بمائة دينار. وكتب عليه خلقٌ كثير، وانتفعوا به. وقصده الناس من البلاد إلى الموصل. وبها مات، وقد أَسَنَّ وتغير خَطُّه ـ رحمه الله.

واستهلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنة ـ في أولها ـ وصل الملك الأشرف إلى القاهرة إلى أخيه الملك الكامل، وأمر بعمارة تربة(٤) لوالدته بالقرافة. وعاد في شعبان من السنة.

وفيها ظهر بالشام جرادٌ كثير، لم يعهد مثله. فأكل الزَّرْعَ والشجر فأظهر الملك المعظم أن ببلاد العجم طائراً، يقال له: السَّمَرْمَر يأكلُ الجراد. فأرسل الصدْرَ البَكْرِي

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٠٩.

(٢) أي إقطاعاتهم في الأراضي. جمع خبز، انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٨٧.

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور، توفي ٤٢٣ هـ/ ١٠٣١ م وقيل ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٤٢. ترجمته في المنتظم لابن الجوزي ج ٨، ص ١٠ وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ. وصبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ١٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٣، ص ١٩٩، وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٤، ص ٢٥٧، وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٢، ص ١٦ وفيه توفي سنة ٤١٣ هـ.

(٤) المعروفة بتربة أم الأشرف، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٤٣.

مُحْتَسِبَ[١] دمشق، ورَتَّبَ معه صُوفِيَّة، وقال: تمضي إلى العجم. فهناك عينٌ يجتمع فيها السَّمَرْمَر، فتأخذ من مائها قوارير، وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلّما رآه السمرمر يَتْبَعُك!

وكان قصدُ الملك المعظم في أرسال البَكْرِيّ أن يتوجه إلى السلطان: جلال الدين خُوَارِزْم شَاه ويتفق معه، لما بلغه اتفاق الملك الكامل والأشرف عليه. فتوجه البكري، واجتمع بالسلطان جلال الدين، وقرر معه الأمور، وجعله سَنَداً للملك المعظم، وكان الجراد قد قَلَّ، فلما عاد البكري كثر وولاه الملك المعظم مَشْيَخَة الشيوخ[٢] مضافة إلى الحِسْبَة[٣].

وفيها نُقِل الملك العادل في تابوته من قلعة دمشق إلى مدرسته[٤]، التي أنشأها عند دار العَقِيقِي[٥]. وأُخرجت جنازته من القلعة، وعليها مرقعته، وأرباب الدولة حوله. ودخلوا من باب البريد إلى الجامع، ووضع في صحن الجامع، قبالة حائط النَّسْر. وصلى عليه الخطيب الدَّوْلَعِي[٦]. ثم حملوا جنازته وخرجوا من باب البَطَّاقِين، خوفاً من ازدحام الناس في الطريق. فلم يصل إلى تربته إلا بعد جهد، لضيق المسلك. وتَرَدَّدَ القراءُ والفقهاء مُدةً إلى التربة، غُدْوة وَعشِية. ولم تكن كملت عمارتها.

ثم درس فيها قاضي القضاة جمال الدين المِصْري، قبل كمال عمارتها وحضر السلطان الملك المُعَظَّم، وتكلم في الدرس مع الجماعة.

---

(١) المحتسب: من وجوه العدول وأعيانهم. وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرىء سجله بمصر والقاهرة على المنبر، ويده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحسبة دينية، وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٠٢.

(٢) مشيخة الشيوخ: والمراد بها مشيخة الخانقاه التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس من ضواحي القاهرة. ويراد بها الإشراف على دور الصوفية (الخانقاهات) فقد صار متوليها يلقب بشيخ الشيوخ. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٩٢، ٩٤.

(٣) سبق تعريفها انظر الحاشية رقم (١) من هذه الصفحة من هذا الجزء.

(٤) انظر صفحة ٤٤ من هذا الجزء حاشية رقم (١).

(٥) هو أحمد بن الحسن العقيقي بن ضعقن بن عبد الله بن الحسين العقيقي، كان من وجوه الأشراف بدمشق تنسب إليه الدار والحمام بمحلة باب البريد. وقد اشترى الملك الظاهر بيبرس داره وبناها مدرسة ودار حديث وتربة وبها قبره. وذلك في سنة ٦٧٠ هـ. أما العقيقي فتوفي سنة ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣١٢.

(٦) نسبة إلى الدولعية. قرية كبيرة بينها وبين الموصل يوم واحد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٣.

وكان الاجتماع بالإيوان الشمالي بالمدرسة. وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه ـ الشيخ جمال الدين الحَصِيري شيخ الحَنَفية، ويليه شيخ الشافعية: الشيخ فخر الدين بن عَسَاكِر، ثم القاضي شمس الدين الشِّيرَازِي، ثم القاضي محيي الدين بن الزَّكي. وجلس عن يسار السلطان، إلى جانبه، مُدَرِّس المدرسة قاضي القضاة[(١)]، وإلى جانبه سيف الدين علي الآمدي، ثم القاضي شمس الدين يحيى بن سَنِيِّ الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر. ودارت حَلْقَةٌ صغيرة، والناس وراءهم متصلون مِلْءَ الإيوان. وكان في تلك الحلقة أعيانُ المدرسين والفقهاء. وقُبالَةَ السلطان الشيخ تَقِيِّ الدين بن الصَّلاَح وغيره. وكان مجلساً جليلاً، لم يقع مثلُه إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

ذكر توجه الملك المسعود ابن الملك الكامل من اليمن إلى الحجاز، وما اعتمده

في هذه السنة، حج الملكُ المَسْعُودُ ابن السلطان الملك الكامل بالناس من اليمن، في عسكر عظيم.

وجاء إلى الجبل وقد لَبِسَ هو وأصحابه السلاح، ومنَع عَلَمَ الخليفة[(٢)]. أن يصعد إلى الجبل، وأَصْعَدَ عَلَمَ أبيه: الملك الكامل، وعَلَمَه. وقال لأصحابه: إن طلع البَغَادِدَة بعَلَم الخليفة فاكسروه، وانهبوهم. ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس، يضربون الكُوسَات[(٣)] ويتعرضون إلى الحَاجِّ العراقي، وينادون: يا ثَارَاتِ ابنِ المُقَدَّم[(٤)].

---

(١) أي جمال الدين المصري يونس بن بدران بن فيروز ولد بمصر ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م. توفي سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م، السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١١.

(٢) هو الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبو العباس ابن الخليفة المستضيء بالله، ولد سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م. وبويع بالخلافة بعد موت أبيه المستضيء سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣١، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٥٥.

(٣) الكوسات: صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر ويسمع منها إيقاع مخصوص، وفي كل ليلة يدق بها مرتين وإذا كان السلطان في السفر فتدور حول خيامه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩.

(٤) هو شمس الدين محمد بن عبد الله بن المقدم، كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين ثم صلاح الدين بن أيوب،وله المواقف المشهورة وقع حادث له سنة ٥٨٣ هـ بمكة بعرفات أودى بحياته. انظر تفاصيل هذا الحادث في الكامل لابن الأثير ج ١١، ص ٥٥٩، وفيه «عبد الملك» وأيضاً في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٢٧٦. وانظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٩٦.

فأرسل إليه حسامُ الدين بن أبي فِراس ـ أميرُ الحاج العراقي ـ أباه، وكان شيخاً كبيراً، فعرَّفه ما يجب من طاعة الخَليفة، وما يلزمه من ذلك من الشَّنَاعَة. فيقال: إنه أذنَ في صعود العلَم قبيل الغروب. وقيل: لم يأْذَنْ.

وبدا من الملك المسعود أَقْسيس[1] في هذه الواقعة جنونٌ عظيم، وأفعالٌ شنيعة. قال أبو المُظَفَّر[2]: حَكَى لي شيخُنا جمال الدين الحَصِيري[3]، قال: رأيتُ أَقْسِيسَ قد صعد على قُبَّة زَمْزَم، وهو يرمي حَمام مكة بالبُنْدُق! قال: ورأيتُ غِلمانه في المَسْعَى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السلطان نائمٌ سَكْرانُ في دار السلطنة التي بالمَسْعَى. والدَّمُ يجري من ساقاتِ الناس!.

وفيها، في العشرين من شعبان، ظهر كوكبٌ كبير في الشرق، له ذُؤابةٌ طويلة غليظة. وكان طلوعه وقت السَّحَر، فبقي كذلك عشرة أيام. ثم ظهر أول الليل في المغرب مما يلي الشمال. فبقي كذلك إلى آخر شهر رمضان.

وفي هذه السنة، توفي الملك المُفَضَّل قُطْبُ الدين أحمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، بالفيوم. ونُقل إلى القاهرة فدفن بالقَرافة الصغرى.

وإلى قُطْبِ الدين هذا، تُنْسَب الدارُ القُطْبِيَّة التي بين القَصْرَيْن بالقاهرة المُعِزِّيَّة، التي هي الآن البِيمارسْتان المَنْصُوري. وكان قد جمع أخواته بنات الملك العادل، بعد وفاة أبيه، وسكنها، وهُنَّ تحت كَنَفِه، فسُمِّيَت الدار القطبية به ـ رحمه الله تعالى.

وفيها تُوفي الأمير عماد الدين: أبو العباس أحمد، ابن الأمير الكبير سَيْف الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي الهَيْجَا بن عبد الله بن أبي الخليل بن مورتان الهَكَّاري[4]، المعروف بابن المَشْطُوب[5]. والمشطوب لقب والده، لُقِّبَ به لَشَطْبَةٍ كانت بوجهه.

وكان أميراً كبيراً، وافر الحُرْمة عند الملوك، يَعُدُّونَه بينهم كواحد منهم. وكان عاليَ الهمة غزير الجود، واسع الكرم، شجاعاً أَبِيَّ النفس. وكان من أمراء الدولة

---

(١) انظر صفحة ٤١ من هذا الجزء حاشية رقم (٢).

(٢) أي سبط ابن الجزري المؤرخ. انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢، ص ٢٦٤.

(٣) هو محمود بن أحمد العلامة شيخ الحنفية بدمشق ومدرس النورية أصله من قرية يقال لها حصير من معاملة بخارى، تفقه بها وسمع الحديث الكثير، وصار إلى دمشق فانتهت إليه رياسة الحنفية، ولا سيما في أيام المعظم توفي سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ ص ١٦٣.

(٤) نسبة إلى «الهكارية» وهي بلدة وقرى فوق الموصل في جزيرة ابن عمر وفيها أكراد يقال لهم الهكارية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٧٠.

(٥) انظر صفحة ٥٨ من هذا الجزء حاشية رقم ٣.

الصَّلَاحِيَّة. فإن والده لما توفي[١]، كانت نابُلُس إقطاعاً له، أَرْصَدَ منها السلطانُ الملك الناصر صلاح الدين الثُّلُثَ لمصالح بيت المقدس، وأقطع ولده عماد الدين هذا بَقِيَّتَها. ولم يزل قائم الجاه والحُرْمة نافذ الكلمة، إلى أن صدر منه على ثَغْرِ دمياط ما قدمنا ذِكْره. وكان من خَبَرِهِ واعتقاله ما قدمناه. ثم كانت وفاته بحَرَّان[٢]. وبَنَتْ له ابنتُه قُبَّةً على باب مدينة رأس عين[٣]، ونقلته من حَرَّان إليها، ودفنته بها.

وأما والدهُ ـ رحمه الله تعالى ـ فكان من أكابر الأمراء الصَّلَاحِيَّة. وكان الملك الناصر[٤]، قد رَتَّبَه بعكا، هو وبهاء الدين قَرَاقُوش الأَسَدِي. ولما خلص منها، وصل إلى السلطان وهو بالقدس. قال ابن شَدَّاد: إنه دخل عليه بَغْتَةً، وعنده الملك العادل، فنهض إليه واعتنقه، وسُر به سروراً عظيماً، وأخلى له المكان، وتحدث معه طويلاً.

ولم يكن في الدولة الناصرية من يُضاهيه في الرُّتبة وعلو المنزلة. وكانوا يسمونه: الأميرَ الكبير. وكان ذلك عَلَماً عليه عندهم، لا يشاركه فيه غيرُه. وكان إقطاعه ـ نابُلُس وغيرها ـ بعد خلاصه من الأسر ـ ثلاثمائةَ ألف دينار. وكانت وفاته ـ أعني والدَه ـ بالقدس في يوم الخميس سادس عشر شوال، سنة ثمان وثمانين[٥] وخمسمائة، بعد خَلَاصه من الأسر بعكا بمائة يوم. ودُفن بداره، بعد أن صُلِّي عليه في المسجد الأقصى ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي جلال الدين أبو بكر، ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات: أحمد ابن شُكْر.

واستهلت سنة عشرين وستمائة:

ذكر مُلْكِ الملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل مكة ـ شرفها الله تعالى

وفي هذه السنة، ملك الملك المسعود أَقْسِيس ابن السلطان الملك الكامل ـ صاحب اليمن ـ مكة ـ شرفها الله تعالى. وكان صاحبها يومئذٍ: الأمير حسن بن قَتَادة[٦]، وكان قد أساء السيرة. فسار إليه الملك المسعود وقاتله بالمَسْعَى بِبَطْنِ مكة،

(١) سنة ٥٨٨ هـ.
(٢) «في ربيع الآخر» المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢١٤.
(٣) انظر صفحة ١٣ من هذا الجزء حاشية رقم (٤).
(٤) المقصود السلطان صلاح الدين الأيوبي.
(٥) في الأصل: «ثمان وخمسين وخمسمائة».
(٦) هو الأمير حسن بن قتادة بن إدريس الحسني. انظر صفحة ٧٠ من هذا الجزء حاشية (٥).

في رابع شهر ربيع الآخر[١]. فتغير الخليفة الناصر لدين الله على الملك الكامل، بسبب ذلك.

ذكر عصيان الملك المُظَفَّر شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف وقتاله، وانتصار الملك الأشرف

وفي هذه السنة، عاد الملك الأشرف موسى من الديار المصرية، من عند أخيه الملك الكامل. فلما وصل إلى دمشق، تلقاه أخوه الملك المعظم عيسى، وعرض عليه النزول بالقلعة. فامتنع، ونزل بجَوْسَق أبيه. وبدت الوحشة بين الإخوة: الكامل والمعظم والأشرف.

وركب الأشرف من الجَوْسَق في وقت السحَر، فسار ونزل ضُمَيْر[٢]. ولم يعلم المعظم برحيله. وسار يَطْوِي البلاد إلى حَرَّان. وكان الأشرف قد استناب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب مَيَّافَارِقِين، بخِلاَط، لما توجه إلى مصر، وجعله وَلِيَّ عَهده، ومَكَّنَه في جميع بلاده. فسَوَّلَتْ له نفسُه العِصيان، وحَسَّنَه له أخوه الملك المعظم، وغيره، ووعدوه المساعدة والإِنْجَادَ على أخيه الأشرف.

فسار الأشرف من حَرَّان إلى سِنْجَار. وكتب إلى أخيه غازي أن يحضر إليه، فامتنع. فكتب إليه ثانياً، يُحَذِّرُه عاقبةَ العصيان، ويلاطفُه ويقول له: أنت وليُّ عهدي، والبلاد والخزائن بِحُكْمِك، فلا تُخَرِّب بيدك وتسمع كلامَ أعدائك. فأَصَرَّ على العصيان.

فجمع الأشرف عساكرَ الشرق وحلَب، وتجهز وسار إليه. وجمع غازي جَمْعاً، وخرج إليه. والتقوا، واقتتلوا، في سنة إحدى وعشرين وستمائة. وقاتل غازي قتالاً شديداً. وكان أهل خِلاط يحبون الملك الأشرف. فبينما غازي يقاتل من باب فتح أهل خِلاط باباً آخر. وأصعدوا صَنَاجِقَ الأشرف منه، ونادوا بشعاره. فهرب غازي إلى القلعة، وتحصن بها يومين.

ثم نزل إلى أخيه الملك الأشرف، واعتذر. فَقَبِلَ عُذرَه، وأعاده إلى مَيَّافَارِقِين وديارَ بكْر. فتوجه إلى مَيَّافَارِقِين، مريضاً من جراحات أَصَابَتْه. وأقام الملك الأشرف

---

(١) «كان قد تولى أمر مكة حسن بن الشريف قتادة فأساء السيرة، فسار الملك المسعود وملكها رابع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وهو الصحيح والله أعلم» في كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٦٥. «رابع شهر ربيع الأول من سنة عشر وستمائة» في مفرج الكروب لابن واصل ج ٤، ص ١٢٥.

(٢) ضُميْر: موضع قرب دمشق، وهو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٢٦.

بخِلاط ثلاثة أيام، وسَلَّمها لمملوكه أَيْبَك والحاجب عَلِيّ، ورجع إلى رأس عَيْن.

وكان الملك المعظم قد خرج من دِمشق، ونزل بالقَطَنَة[(١)]، لإنجاد أخيه غازي على أخيه الأشرف. وبعث إليه عيسى الدُّبَاهِي سِرًّا، فوصل، وقد فات الأمرُ. ورجع المعظم إلى دمشق، وذلك في سنة إحدى وعشرين وستمائة.

وفيها كانت وفاة مُبارز الدين سُنْقُر الحلَبي ـ الصَّلاَحِي ـ والد الظَّهِير.

وكان قبل ذلك مقيماً بحلب، ثم انتقل إلى ماردين فخاف الملك الأشرف عاقبة قرْبِه، فبعث إلى أخيه الملك المعظم يقول: ما دام المبارز في الشرق لا آمن على نفسي! فبعث إليه الملك المعظم ولدَه الظَّهِير غازي، ويلتمس منه وصوله إليه، ويُعَرِّفُه رغبتَه فيه، ووعده أن يُقْطِعَه نابلسُ، وما اختار من بلاد الشام.

فتوجه إليه ولدُه الظَّهِير، وأبلغه رسالة الملك المعظم إليه، وعرفه رغبته فيه. فأشار عليه صاحبُ ماردِين أن يقيم، ولا يتوجه، وقال: هذه خَدِيعة. ومَكَّنَه من مملكته وخزائنه. فأبى إلاّ الانحياز إلى الملك المعظم. وتوجه إلى الشام، في سنة ثماني عشرة[(٢)] وستمائة.

فخرج المعظم إليه وتلقاه، ولم يُنْصِفْه. ونزل بدار شبل الدولة الحُسَامي[(٣)] بقاسِيون. وأعرض المعظم عنه، إلى أن تفرق عنه مَنْ كان حوله، وأنفق ما كان في حاصِله، واحتاج إلى بيع دوابه وقماشه. ولم يزل كذلك إلى أن مات غَمًّا، في هذه السنة. وكان قد وصل إلى الشام، ودائرته بمائة ألف دينار، فمات وليس له ما يُكَفَّن فيه! فقام بتجهيزه شبل الدولة كافور الحُسامي، وابتاع له تُرْبَةً بألف درهم، ودفنه بها.

وكانت للمُبَارِزِ المواقفُ المشهودَة، حتى يقال إنه لم يكن في زمانه أشجع ولا أكرم منه. ويقال إنه كان مملوك شمس الدولة تورانشاه بن أيوب[(٤)] ـ رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى وعشرين وستمائة
ذكر وصول الملك المسعود من اليمن

وفي هذه السنة، قدم الملك المسعود أَقْسِيس ابن الملك الكامل من اليمن إلى

(١) من قرى دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٥.
(٢) في الأصل: «في سنة ثمانية عشر».
(٣) نسبة إلى حسام الدين لاجين ابن أخت صلاح الدين، انظر صفحة ٦٢ من هذا الجزء حاشية رقم (٥).
(٤) أي أخي صلاح الدين.

القاهرة، من جهة الحجاز. وإنما جاء طَمَعاً في أخذ دمشق والشام [من عمه المعظّم][١].

وكان معه من الهدايا والتحف أشياء كثيرة: من جملة ذلك ثلاثة أفيلة، الكبير منها يدعى بالملِك، وعليه مِحَفَّة بَدَرابِزِين، يجلس فيها على ظهره عشرة أنفس، وفَيَّالُه[٢] راكبٌ على رقبته، وبيده كُلاَّب يضربه به، ويسوقه كيف أراد! وركب السلطان الملك الكامل للقائه. فلما دنت الفِيَلَةُ منه، وضعت رؤوسها إلى الأرض، خدمة للسلطان! وكان في جملة الهدية مائتا[٣]، خادم، وأحمال من العود والمسك والعنبر، وتُحَفِ اليمن.

وقيل إن قَدْمَتَه هذه كانت في سنة ثلاث وعشرين. والله أعلم.

وفيها، أنشأ الملكُ الكاملُ دارَ الحَدِيث الكَامِلِيَّة[٤] التي بالقاهرة المُعِزِّيَّة بين القَصْرَيْن وهي تقابل باب القَصْر، المعروف بباب البحر.

وفي سنة إحدى وعشرين أيضاً ـ في سَلْخِ شعبان ـ توفي الوزير الأعز فخر الدين أبو الفوارس مِقْدَام ابن القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شُكْر ومولده في سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وتوفي[٥] الصاحب صفي الدين أبو محمد عبد الله بن المخلص أبي الحسن علي بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور ـ الشَّيْبي القُرَشِي المالِكي، المعروف بابن شُكْر. ولم يكن من بني شُكْر، إنما هو ابن عم كمال الدين أحمد بن شكر لأُمِّه، فعُرِفَ به.

ومولده بالدَّمِيرَة: بلدةٌ من الأعمال الغَرْبِيَّة بالديار المصرية ـ في تاسع صفَر، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[٦]. وقد تقدم ذكر وزارته وعزله وإعادته، وغير ذلك من أحواله. وكانت وفاته في يوم الجمعة ثامن شعبان، ودفن بِرباطه الذي أنشأه بالقاهرة،

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٤٢.

(٢) «وقبالة» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٤٢.

(٣) في الأصل: «مائتي» وهذا خطأ.

(٤) وهي دار الحديث، وليس دار حديث غيرها، وغير دار الحديث بالشيخونية، ويقول المقريزي: هي ثاني دار عملت للحديث وأول من بنى دار حديث هو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار. وأنجزت عمارتها في سنة إحدى وعشرين وستمائة. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٥) «في سنة ٦٣٠ هـ توفي الوزير صفي الدين» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤٨. «في سنة ٦٢٢ هـ توفي الوزير صفي الدين» في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٠٠، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١١٨.

(٦) «سنة أربعين وخمسمائة» في البداية والنهاية ج ١٣، ص ١١٨.

بالقرب من مدرسته[١].

وكان شديدَ البَطْش، عظيم الهَيْبة سريع البادِرة، جَسُوراً مِقداماً. وقاسى الناس منه شدائد كبيرة. وانتزح جماعةٌ من الأكابر عن أوطانهم بسببه، وكان كريماً، إلا أنه لم يُسْمَعْ بوزير من المُتَعَمِّمِين[٢] كان أظْلَمَ منه.

ولما مات، استوزر السلطان الملك الكامل بعده ولدَه: الصاحب تاج الدين يوسف، نحو شهرين. ثم قبض عليه واعتقله. وانتصب السلطانُ الملكُ الكامل للأمور بنفسه، وقَرَّرَ مصالحَ دولته، ونظر في وجوه الأموال ومصارفها، واستصفى أموال الصاحب صفي الدين، وذخائره وأملاكه.

وفيها، في سلخ شوال، توفي القاضي الأسعد: أبو البركات عبد القوي ابن القاضي الجَلِيس: مَكِين الدولة أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله بن الحَبَّاب ـ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة

ذكر ابتداء المعاملة بالفلوس بالديار المصرية

في هذه السنة في ذي القعدة، ضربت الفُلُوس[٣] بالقاهرة ومصر، وصارت من جُمْلَةِ النقود. وتقررت القِيمةُ عن كل درهمٍ وَرِق[٤]، من معاملة الديار المصرية، ستة

(١) هي المدرسة التي أنشأها الوزير صفي الدين بالقرب من داره بالقاهرة عرفت باسم المدرسة الصاحبية نسبة إلى الصاحب بن شكر، بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ١٩٣ رقم ٢٢٤. ويشغل مكان هذه المدرسة اليوم منزلان باسم السلطان الصاحب، وهذا الشارع كان يعرف باسم سويقة الصاحب، وكان فيه باب المدرسة، والقبلي منهما هو منزل ورثة محمد أفندي علي حلاوة، رقم ٤ بزقاق سعادة بعطفة الست بيرم بشارع سعادة. وفي داخل هذا المنزل توجد بقايا قبة المدرسة المذكورة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٩، حاشية رقم (٣).

(٢) المتعممين: أي من الفقهاء أو العلماء. ابن منظور: لسان العرب (عمم).

(٣) كانت الفلوس في مصر على نوعين: أحدهما المطبوع بالسكة، وثانيهما غير المطبوع، وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر، ويعبر عنها بالعتق، ولم تكن عربية الأصل، مفردها فلس، بل هي لفظ يوناني معرب، وقد أخذته اليونانية قبلاً من اللاتينية ومعناه، كيس النقود. وكذلك يقال عن الدراهم فقد أخذها العرب من الفارسية Diram وهو يوناني الأصل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠. ومحمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٦٣.

(٤) الدرهم الورق: هو الدرهم الخالص أي من الفضة إلا بنسبة قليلة مما يخلط به. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٧.

عشر فَلْساً. ثم أُبْطِلَت المعاملة بها، في سنة ثلاثين وستمائة. ثم عادت.

وفيها ضُربت دراهم مستديرة، وأمر السلطان أن لا يُتعامل بالدراهم المصرية العُتُق[١]، وحصل للناس ضررٌ عظيم بسبب ذلك[٢]، وصار كل ما يُتَحَصَّل منها يُسْبَك ويضرب من الجَدِيد، وبلغ ضرب العَتِيق ستين درهماً بدينار.

وفيها، في يوم الأربعاء سابع عشر شعبان، استخدم السلطانُ الملكُ الكامل القاضيَ سديدَ الدين: أبا عبد الله محمد بن سليم، صاحب ديوان الجيوش، ثم صُرف بعد ذلك بمدة يسيرة. وهو والد الصاحب بهاء الدين علي، المعروف بابن حِنا: وزير الدولة الظاهرية الرُّكْنِيَّة[٣] ـ وسيأتي ذكره ـ إن شاء الله تعالى.

وفيها، صَلَب الملكُ المعظم عيسى رجلاً، يُقال له: ابن الكَعْكِي، ورفيقاً له.

وكان ابن الكعكي رأسَ حرب[٤]، وله جماعةٌ أَتْبَاع وكانوا ينزلون على الناس في البساتين، ويقتلون وينهبون. والمعظم يوم ذاك بالكَرَك، وبلغه أن ابن الكعكي قال لأخيه الملك الصالح إسماعيل: أنا آخذ لك دمشق، وكان إسماعيل بِبُصْرَى. فكتب الملك المعظم إلى مُتَوَلِّي دمشق أن يصلب ابنَ الكَعْكِي، ورفيقَه، مُنَكَّسَيْن. فَصُلِبَا، في العشر الآخر من شهر رمضان. فأقاما أياماً لا يجسر أحد أن يطعمهما ولا يسقيهما، فماتا. وقدم الملك المعظم دمشق بعد وفاتهما، فمرض مرضاً أَشْفَى منه، ثم أَبَلَّ، ولم يزل يَنْتَقِضُ عليه، حتى مات. وكان رفيقُ ابن الكعكي خَيَّاطاً، شهد له أهل دمشق بالصلاح، والبراءة مما رُمِي به.

وفيها كانت وفاة الملك الأفضل، نور الدين علي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فجأة ـ في صفر[٥]، سنة ثنتين وعشرين وستمائة، بِسُميسَاط. ونُقِل إلى حَلَب، فدُفن بها بظاهرها بتربته.

وكان مولده بالقاهرة في سنة خمس وستين وخَمسمائة[٦]، يوم عيد الفطر. وكان فاضلاً شاعراً حسن الخَط قليل الحظّ، تقلّبت به الأحوال. وقد تقدم ذكر ملكه دمشق

---

(١) الدراهم العتق: أي القديمة، وكانت قد تلفت، وأبطل التعامل بها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٩.

(٢) حصل للناس ضرر لأنه أبطل التعامل بها ولما عملت الفلوس الجدد استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٠.

(٣) أي دولة الظاهر ركن الدين بيبرس.

(٤) أي رأس عصابة مسلحة.

(٥) «في ربيع الأول» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٤٥.

(٦) «سنة ٥٦٥، وقيل ٥٦٦ هـ» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢١٦.

ومصر، وغير ذلك. ثم استقر آخراً بسُمَيسَاط.

ومما يُعْزَى إليه من الشعر أنه كتب إلى الخليفة الناصر ـ لما أُخْرِج من دمشق[١]، واتفق عليه أخوه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العادل أبو بكر: [من البسيط]

مـولايَ، إن أبـا بـكـر، وصـاحـبه[٢] عثمان[٣]، قد غصبا بالسيف حقَّ عَلِي[٤]

فانظرْ إلى حَظ هذا الاسم، كيف لَقِيَ مـن الأواخر، ما لاقى مـن الأُوَّلِ[٥]

فأتاه الجواب من الإمام الناصر، وفي أول الكتاب: [من البسيط]

وَافَى كتابُك يا ابن يوسفَ مُعلِناً بـالـوُد، يُـخْـبِرُ أن أصـلـكَ طـاهـرُ

غَـصَـبُوا عـلـيًّا حـقَّـهُ إذ لـم يـكـن بـعـد الـنبي لـه بـيَـثْـرِبَ نـاصـرُ

فـأبْـشِـرْ فـإنَّ غَـدا عـلـيه حسـابُـهـم واصـبِرْ، فـنـاصِـرُك الإمـامُ الـنـاصِـر

وقيل إن الخليفة جَرَّدَ لنُصرته سبعين ألف فارس، فبلغه فَوَاتُ الأمر فأعاد العسكر إلى بغداد.

وفيها، في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة ـ وقيل سابع عشر ذي القعدة ـ توفي الإمام فخر الدين أبو عبد الله: محمد بن إبراهيم بن أحمد بن طاهرِ بن أبي الفوارس الخَبْرِي الفارسي الشِّيرازي الفَيْرُوزَبَادِي، الشافعي الصوفي، من أجَلِّ مشايخ الطريقة، كبير الشأن. وكانت وفاته بمعبده: معبد ذي النُّون بالقرافة الصغرى، على شَفير الخندق من غرِبيِّه. ودفن بتربته، وقبره من المزارات المباركة المشهورة. وكان من علماء مشايخ وقته، شديد الهيْبة في قلوب الناس. وله تصانيف كثيرة في الطريق، وشعر.

قدم دمشق في شهر رجب، سنة ست وستين وخمسمائة، ودخل مصر في نصف شعبان من السنة: ورحل إلى الإسكندرية، وسمع بها من الحافظ السِّلَفِي[٦]، وحَدَّثَ

---

(١) اتفق العادل مع ابن أخيه العزيز على التوجه إلى الشام، ولما كان يوم الأربعاء سادس عشر شهر رجب سنة ٥٩١ هـ. نزل العزيز دار عمته ست الشام ونزل العادل دار القبقي ونزل الأفضل إليهما، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صرخد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٤.

(٢) و(٣) و(٤) يقصد بأبي بكر: العادل عمه، وبعثمان: العزيز: أخاه وعلي، هو نفسه: الأفضل.

(٥) وأورد ابن كثير بين هذين البيتين بيتين آخرين هما:

«وهـو الـذي كـان قـد ولاّه والـده عـلـيـهـمـا فـاسـتـقـام الأمرُ حـيـن ولـي

فـخـالـفـاهُ وحـلا عـقـدَ بـيـعـتِـه والأمـر بـيـنـهـمـا والـنصُّ فـيـهِ جـلـي»

انظر البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١١٧.

(٦) هو الحافظ أحمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني من الحرواني أبو طاهر السلفي. وحروان محلة بأصبهان وسلفة بكسر المهملة لقب جده أحمد ومعناه غليظ الشفة. عمل معجماً =

بالكثير عنه. وتوفي، وله من العمر ثلاثٌ وتسعون سنة. وجَاوَرَ بمكة، وحَدَّث بها. وقال: نحن من خَبْر سَرُوشِين، وهو إقليم من عمل شِيراز، مشرَبُهم من جبَل الدينار. ولهم خَبْر آخر يقال له: خَبْر سَمْكان، من عمل شِيراز أيضاً. وخَبْر ثالث، يقال له: خَبْرُ فَيْرُوز أَبَاد - خَبْر بإسكان الباء المُوَحَّدَة.

واستهلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل، وطلب الصلح بينهم والاتفاق

في هذه السنة، قدم الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوْزِي(١)، رسولاً من الخليفة الظاهر بأمر الله(٢) - إلى السلطان الملك الكامل وإخوته، وصُحْبَتُه الخلَعُ للملك الكامل، والتقليد بالولاية. والخلَعُ لولَدَيْه: الملك المسعود، والملك الصالح. وخِلْعة لوزيره الصاحب صفي الدين - وكان قد مات - فأمر السلطان الفخرَ سليمان، كاتب الإنشاء، أن يلبس خلعة الصاحب، فلبسها.

ولبس السلطان وولداه الخلَع، وعبروا من باب النصر، وخرجوا من باب زُوَيْلَة(٣) بالقاهرة، وطلعوا إلى القلعة، وكان يوماً مشهوداً.

= لشيوخ بغداد ثم حج، وتفقه مذهب الشافعي وبرع في الأدب وجود القرآن بالروايات. واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة. وقد جاوز المائة. ومات يوم الجمعة خامس ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م. وبنى له العادل علي بن إسحاق بن السلار أمير مصر مدرسة بالإسكندرية. وكان ثقةً ورعاً متقناً ناقداً. وكان أوحد زمانه في علم الحديث. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٥٤ - ٢٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٨، وفيه توفي وعمره ٩٨ سنة.

(١) في البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٢١، أن الذي قدم إلى السلطان الكامل وإخوته هو محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين بن الجوزي. وكذلك في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٤. وفيه أن محيي الدين هذا هو استادار المستعصم بالله. وتوفي سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. وفي مفرج الكروب لابن واصل، ج ٤، ص ١٧٥. وفيه قدم الصاحب محيي الدين أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي إلى السلطان الكامل.

(٢) هو الخليفة الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد الهاشمي البغدادي. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه في سنة ٦٢٢ هـ فلم تطل مدته فيها، وتوفي سنة ٦٢٣ هـ. وكان مولده في سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م. وكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً وعمره اثنتان وخمسون سنة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١٢١.

(٣) نسبة إلى زُوَيْلَة: قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر من المغرب، وهو الباب الجنوبي لمدينة القاهرة القديمة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٤٩.

ووصل أيضاً ـ صُحْبَتَه ـ الخلَع للملك المعظم شرف الدين عيسى، وللملك الأشرف: مظفر الدين موسى.

وتضمنت رسالتُه إلى الملك المعظم رجوعَه عن السلطان جلال الدين خُوَارِزْم شاه[١]، والصلحَ مع إخوته: الملك الكامل والملك الأشرف. وكان الملك المعظم قد راسل السلطان جلالَ الدين ـ كما تقدم. ثم بعث إليه مملوكَه الركين. فرَحَّلَه من تَفْلِيس، وأنزله على خِلاط، والأشرف يومئذٍ بحَرَّان.

فقال الملك المعظم للشيخ جمال الدين: الرسول: «إذا رجعتُ عن السلطان جلال الدين، وقَصَدَني إخوتي ينجدونني؟ قال: نعم، فقال: ليس لكم عادة تنجدون أحداً! هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دِمياط، ونحن نكتب إليه نستصرخ به، ونقول: انجدونا. فيجيء الجواب: إنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم يفعلوا. ثم ضرب له مثلاً وحكى عليه حكاية. وقال: إن إخوتي قد اتفقوا عليّ، وقد أنزلتُ السلطان جلال الدين خوارزم شاه على خِلاط. فإن قصدني الأشرف مَنَعَه، وإن قصدني الكامل قَدَرْتُ على ملاقاته ودَفْعِهِ».

وفي هذه السنة، عاد الملك المسعود إلى اليمن. وكان عَوْدُه في ذي القَعدة. وقد تقدم ذكر وصوله إلى خدمة أبيه بالهدايا، في سنة إحدى وعشرين وستمائة. وذكر ابن جلب راغب: أن قدومه وعَوْده كان في هذه السنة. والله أعلم.

وفيها، وصل الملك الأشرف إلى أخيه الملك المعظم بدمشق، وأعطاه رسالة، وتضرع إليه واعترف له بسابق فضله وسالف إحسانه، وسأله أن يرسل إلى السلطان جلال الدين خُوارِزْم شاه يُرَحِّلُه عن خِلاط. فبعث إليه فرَحَّله عنها، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً. وسقط عليه وعلى أصحابه بها ثَلْجٌ عظيم.

وأقام الملك الأشرف عند أخيه الملك المعظم بدمشق. وكان المعظم يلبس خِلْعَة خُوَارِزْم شاه، ويركب فرسُه، وإذا جلسوا على الشراب يحلف برأس خُوارِزْم شاه، والأشرف يتألم لذلك أَشَدَّ الألم، ولا يستطيع أن يتكلم. ثم توجه الملك الأشرف إلى ضيافة أخيه الملك الكامل بالديار المصرية.

وفيها عَقَدَ السلطان الملك الكاملُ نِكاح ابنته على ابن صاحب الروم[٢].

---

(١) لأنه كان هناك خلاف بين الخلفاء العباسيين وشاهات الدولة الخوارزمية انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٣٨ و١٢١.

(٢) أي صاحب دولة الروم السلجوقية وكان السلطان علاء الدين كيقباذ في ذلك الوقت. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٣٦، ١٥٦.

وفيها توفي شِبْلُ الدولة: كافور بن عبد الله الحُسَامي[١]، خادمُ ست الشام.

وكان عاقلاً أديباً فاضلاً، له حُرْمة وافرة في الدولة، ومنزلة عالية عند الملوك.

وبنى مدرسة[٢] على نهر ثَوْرَا[٣] وتُربة، ووقف عليها الأوقاف، ونقل إليها الكتب الكثيرة. وبنى الخَانْقَاه للصوفية، إلى جانب مدرسته. وفتح طريقاً للناس من الجبل إلى دمشق، قريبة عند القِفَارات، على طريق عين الكرش، وبنى المَصْنَع الذي على رأس الزُّقَاق، ومصنعاً آخر عند المدرسة. وكان كثير الإحسان إلى الفقراء، وصدقاتُه دَارَّةٌ إلى الآن. وسمع الحديث ورواه. وكانت وفاته في شهر رجب الفرد، ودفن بتربته إلى جانب مدرسته[٤] ـ رحمه الله تعالى.

وفيها في نصف شهر رجب، توفي قاضي القضاة جمالُ الدين: أبو محمد وأبو الفضل وأبو الوليد وأبو الفرج: يُونسُ بن بَدْرَان بن فَيْرُوز بن صَاعِد بن علي بن محمد بن علي، القُرَشِي الشَّيْبِي، الحِجَازِي الأصل، المَلِيجي المَوْلِد[٥] المِصْرِي الدار، الدِّمَشْقِي الوفاة، المعروف بالمِصْرِي. مولده تقريباً سنة خمسين وخَمسمائة. وبلده التي ولد بها مَلِيج: من الأعمال المُنُوفية، بالديار المصرية. تفقه بمصر، وسمع بالإسكندرية والقاهرة. وتَرَسَّلَ لبغداد. وتولى وِكالة بيتِ المال بدمشق، ثم ولي القضاء بها ـ كما تقدم ـ في سنة ثمان عشرة وستمائة. رحمه الله تعالى.

وفيها كانت وفاة الشريف حَسَن بن قَتَادة[٦]، بن إدْرِيس الحَسَنِي: أمير مكة ـ شرفها الله تعالى.

وكان قد ولِيَ الإمارة بعد أبيه كما تقدم، مُغَالَبَةً ـ وكان سيىء السِّيرة، ظلوماً مِقداماً. وقتل أَقْبَاش[٧] أميرَ الحاج العراقي، في سنة سبع عشرة. وأحدث بمكة أموراً

---

(١) نسبة إلى حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن ست الشام أي ابن أخت صلاح الدين الأيوبي. كان عاقلاً ديناً صالحاً. وكانت وفاته بدمشق في شهر رجب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣٥.

(٢) وهي المدرسة الشبلية البرانية بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثوري. انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، ج ١، ص ٤٠٧.

(٣) نهر ثورا: من أنهار دمشق، يتصل بنهر بردى من الشمال. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٠.

(٤) عرفت بالمدرسة الحسامية نسبة إليه.

(٥) هو الجمال المصري: انظر صفحة ٣٠ من هذا الجزء حاشية رقم (١).

(٦) انظر البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٩٩ والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٠١.

(٧) هو الأمير أقباش بن عبد الله الناصري، اشتراه الخليفة (يعني الناصر لدين الله) وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار. ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه ثم قربه إليه ولم يكن يفارقه فلما ترعرع =

مُنْكَرَة. ولما وصل الملك المسعود إلى مكة، وأخذها منه، هَرَبَ. فتوجه إلى بغداد مريضاً، فمات بالجانب الغربي على دِكة. فلما عُلِمَ به، غُسّل وكُفّن وصُلّي عليه وحُمل إلى مشهد موسى، ودُفن هناك.

واستهلت سنة أربع وعشرين وستمائة

في هذه السنة، عاد الملك الأشرف موسى إلى بلاده.

وفيها قدم رسول الأَنْبَرُور[(١)] إلى الملك الكامل، يطلب الفُتُوح[(٢)]. وتوجه إلى الملك المعظم بدمشق، فأَغْلَظَ له. وقال: قُلْ لِصاحِبك ما أنا مثلُ الغَيْر، ليس عندي إلا السيف!

وفيها كان خِتان الملك العادل ابن الملك الكامل، وعُمِل سِماط[(٣)] عظيم بالمَيْدان الأسود، تحت قَلْعَة الجبل.

ذكر هدم مدينة تِنِّيس[(٤)]

وفي شوال، سنة أربع وعشرين وستمائة، أمر السلطان الملك الكامل بهدم مدينة تِنِّيس. وسَيَّرَ إليها النَّقَّابين والحَجَّارين، فهُدِّمت بكمالها في هذا الشهر، وأُخْلِيَتْ ولم يبق بها ساكن. وكانت من المدن الجليلة: كدمياط والإسكندرية.

ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه المعظم

وفي هذه السنة، تأكدت الوحشة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك المعظم: صاحب دمشق. فكتب الملك الكامل إلى الأَنْبَرُور ـ ملك الأَلْمان[(٥)] ـ أن

= ولاه إمرة الحاج والحرمين، وكان متواضعاً محبوباً إلى القلوب قتل بمكة المشرفة في واقعة بين أشراف مكة. خرج ليصلح بينهم فقتل وكان قتله في سادس عشر ذي الحجة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١. وذكر ابن الأثير أن سبب مقتله أنه تدخل في نزاع بين حسن ابن قتادة أمير مكة وأخيه راجح فقتله جند حسن: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.

(١) الأنبرور: ملك الفرنج البحرية. أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٥١.

(٢) أي البلاد التي فتحها صلاح الدين الأيوبي. أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ١٥٢.

(٣) المائدة الملكية. والسماط. جماعة كثيرة والصف. ابن منظور: لسان العرب (سمط).

(٤) تنيس: ضبطها القلقشندي (بكسر التاء المثناة فوق والنون المشددة المكسورة ثم ياء مثناة وسين مهملة في الآخر. وهي بحيرة متصلة بالبحر الرومي أيضاً بآخر عمل الدقهلية والمرتاحية. وفيها مصب بحر أشموم. وقال صاحب الروض المعطار ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب بحيرة دمياط وهما كالبحيرة الواحدة. صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٣٠٤.

(٥) هو فردريك الثاني دو هنستوفن ملك ألمانيا وصقلية وأقوى ملوك الغرب في ذاك الوقت، وقد جاء =

يحضر إلى الشام والساحل، ويعطيه البيت المقدس، وجميع الفتوحات الصَّلاَحِيَّة بالساحل.

وكتب الملك المعظم إلى السلطان: جلال الدين خُوَارِزْم شاه، يسأله أن يُنْجِدَه ويُعِينه على أخيه الملك الكامل. ويكون من جُملة المنتمين إليه، ويَخْطُبُ له على منابر بلاده، ويضرب باسمه الدينار والدرهم، فأجابه إلى ذلك. وسَيَّرَ إليه خِلْعَةً فَلَبِسها، وشَقَّ بها مدينة دِمشق، وغَرِم على رُسُلِ السلطان جلال الدين، في مدة تسعة أشهر، تسعمائة ألف درهم. وقطع خُطبةَ الملك الكامل.

فتجهز الملك الكامل وخرج لقصد دمشق. فكتب إليه الملك المعظم يقول: إنني قد نَذَرْتُ الله تعالى أن كل مَرْحَلَة رَحَلْتَ منها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي وكتبهُم عندي، وأنا آخذك بعسكرك. هذا ما كتب له في الباطن. وكتب إليه في الظاهر يقول: أنا مملوكك، وما خرجت عن محبتك وطاعتك، وأنا أول من حضر لخدمتك قبل ملوك جميع الشام والشرق. فأظهر السلطان هذا الكتاب للأمراء، وعاد إلى القاهرة، وقبض على جماعة من الأمراء الذين تَوَهَّمَ فيهم أنهم كاتبوا الملك المعظم: من جملتهم الأمير فخر الدين الطُّنْبَا الحُبَيْشي، وفخر الدين الطُّنْبَا الفَيُّومِي أمير جَانْدَار، وعشرة من الأمراء البحرية العادِلية، وأخذ جميع أموالهم.

وفيها، في يوم الأربعاء، سابع عشر شهر ربيع الأول، توفي القاضي ناصر الدولة أبو الحجاج يوسف، ابن الأمير فخر الدين شاهان شاه، ابن الأمير عز الدين أبي الفضل غَسَّان ابن الأمير العظم جلال الدين أبي عبد الله: محمد بن جَلَب راغِب الآمِري[(١)]، وقد تجاوز سبعين سنة.

وهو من أولاد الأمراء المصريين، لم يزالوا أمراء من الدولة الآمِرِيَّة إلى أيام شاوَر الوزير، فأبادهم وقتل بعضهم. ولما جاء أسدُ الدين شِيركوه إلى الديار المصرية تَزَيَّا القاضي ناصر الدولة بزِيِّ القُضاه، وخَدَمَ في الخِدَم الديوانية، وعند الأمراء. وناصرُ الدولة هذا هو جد تاج الدين محمد بن علي، المعروف بابن مُيَسِّر[(٢)]، صاحب التاريخ - رحمه الله تعالى.

= على رأس الحملة الصليبية السادسة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤١ حاشية (٣).

(١) نسبة إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن المستعلي بالله. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٤، ص ٧٢.

(٢) هو المؤرخ الكبير صاحب التاريخ والذي اعتمد عليه المؤلف النويري وأشار إليه باسم ابن جلب راغب.

وفيها في يوم الأحد تاسع عشر شوال، كانت وفاة قاضي القضاة: عماد الدين عبد الرحمٰن، بن عفيف الدين أبي محمد عبد العلي بن علي، السُّكَّرِي. تَفَقَّه على الفقيه شهاب الدين الطُّوسِي[(١)]، وعلى الفقيه أبو المنصور ظَافِر بن الحسين[(٢)]. وسَمِعَ الحَدِيثَ وحَدَّث به. ووَلي القضاء ـ كما تقدم. وولي الخَطابة بالجامع الحاكمي بالقاهرة، والتدريس بمدرسة منازل العِزّ[(٣)] بمصر. ثم صُرف عن القضاء والخَطَابة كما تقدم. وكان هَيُّوباً. وصَحِب جماعةً من المشايخ، وله معهم أحوال ومكاشَفات. ومولده بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك المعظم عيسى وشيء من أخباره وسيرته، وقيام ولده الملك الناصر داود

وفي هذه السنة، في يوم الجمعة مستهلّ ذي الحجة، كانت وفاة الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي ـ صاحب دمشق، وكانت مدة ملكه، بعد وفاة والده الملك العادل، تسع سنين وستة أشهر، إلا ثمانية أيام[(٤)]. ومولده بالقاهرة في سنة ست وسبعين وخمسمائة.

وكان ـ رحمه الله ـ قد جَهَّزَ العساكر إلى نابُلُس، خوفاً من اتفاق أخيه الملك الكامل مع الأَنْبَرُور، فمرض في منتصف شوال واشتد به مرضه، وأصابه ذَرَبٌ مُفْرِط حتى رَمَى قطعةً من كبده. وقيل إنه سُمَّ، ومات وغسّله كريم الدين الخِلاطي، والنَّجْمُ يصب عليه الماء. وكان قد أوصى أن لا يُدْفن بقلعة دمشق، وأن يُخْرَج إلى الميدان فيُصَلَّى عليه ويحمل إلى قاسِيون، فيدفن على تربة والدته تحت الشجرة. فلم تُنَفَّذْ وصيته، ودفن بالقلعة. ثم أخرِج منها بعد مدة، لما ملك الملك الأشرف، على حالةٍ غيرِ مناسبة لمثله، وبين يديه نصفُ شَمْعَة ومعه العزيز خليل، ودُفن مع والدته في القُبَّة ـ وفيها أخوه الملك المغيث.

---

(١) أحد مشايخ الشافعية بديار مصر، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقي الدين شاهنشاه بن أيوب التي يقال لها منازل العز. وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر توفي سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧.

(٢) هو ظافر بن الحسين أبو منصور الأزدي المصري شيخ المالكية كان منتصباً للإفادة والفتيا وانتفع به بشر كثير، وتوفي بمصر في جمادى الآخرة سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م.

(٣) بنتها السيدة «تغريد» أم العزيز بالله الخليفة الفاطمي، واشتراها الملك المظفر تقي الدين عمر سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م. وجعلها مدرسة للشافعية. ابن واصل: مفرج الكروب ج ١، ص ١٩٩.

(٤) «عشر سنين، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً» في الكامل لابن الأثير ج ١٢، ص ٤٧٢.

وكان الملك المعظم ـ رحمه الله تعالى ـ فقيهاً فاضلاً، نَحَوِيًّا، قرأ القرآن وتفقه على مذهب أبي حنيفة على الشيخ فخر الدين الرَّازي، وحَفِظَ المَسْعُودِي، واعتنى بالجامع الكبير. واشتغل بالأدب على تاج الدين الكِنْدِي[١]، فأخذ عنه كتاب سِيبَوَيْه، وشَرْحَه للسِّيرَافِي، والحُجَّة في القِراءات لأبي علي الفارسِي، والحَمَاسَة. وقرأ الإيضاح لأبي علي، حِفْظاً. وسَمِعَ مُسْنَد أحمد بن حنبل بدمشق على ابن طَبَرْزَد[٢]، وأشياءَ من مسموعاته. وسمع السِّيرَة لابن هشام، وغير ذلك. وله ديوان شعر. وصنَّفَ في العروض، وكان مع ذلك لا يقيم وزنَ الشعر في بعض الأوقات.

وكان شُجاعاً مِقْداماً كثير الحَيَا متواضِعاً، حَسَن الصَّوْت ضَحُوكاً، غَيُّوراً، جواداً حسن العِشْرة، محافظاً على الصُّحْبَة والمودة وكان إذا خرج إلى الغَزَاة لا ينام، إلا على حبل طرح، وزَرْدِيَّتُه مَخَدَّتُه. ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وسيبويه. وكان يركب في كل يوم غالباً، فإذا نزل مَدَّ السِّماط، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر.

وكان في أيام الفَتْح مع الفرنج يرتب النيرانَ على الجبال، من باب نابُلُس إلى عكّا. وله جماعةٌ على جبل الكَرْمَل ـ المقابل لعكا ـ عليه المُنَوِرُون، وبينهم وبين الجواسيس علامات. وله في عكا أصحاب أخبار ـ وأكثرهم نساء الخَيَّالَة ـ وكانت طَاقات بيوتهم مقابلة الكَرْمَل ـ فإذا عَزَم الفرنج على الإغارة فَتَحَت المرأةُ طاقَتَها. فإن كان يخرج مائةُ فارس، أَوْقَدَتْ شَمعةً واحدة. وإن كانوا مائتين، أوقدت شمعتين. وتُشير بالنار إلى الجهة التي يقصد الفرنج الإغارة عليها. وكان الفرنج لا يقصدون جهة، إلا يجدون عسكر المعظم قد سبقهم إليها. وكان يُعْطي النساءَ الجواسيس في كل فتح جُملةً كثيرة.

---

(١) هو أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي الملقب تاج الدين البغدادي المولد، والمنشأ الدمشقي الدار والوفاة المقرىء النحوي الأديب، كان أوحد عصره في فنون الآداب وعلو السماع. كان مولده في سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م، وتوفي سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م بدمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٢.

(٢) هو أبو حفص عمر بن أبي بكر محمد بن معمر بن أحمد بن يحيى بن حسان المؤدب، المعروف بابن طبرزد، المحدث المشهور البغدادي، الملقب موفق الدين، من أهل الجانب الغربي ببغداد. وكان عالي الإسناد في سماع الحديث، طاف البلاد وأفاد أهلها وألحق الأصاغر بالأكابر وطبق الأرض بالسماعات والإجازات، وامتدت له الحياة فخلا له العصر، وكان فيه صلاح وخير. ومولده في ذي الحجة سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م، وتوفي سنة ٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م ببغداد. ويذكر ابن خلكان أن طبرزد: بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الزاي وبعدها ذال معجمة، وهو اسم لنوع من السكر. وفيات الأعيان ج ٣، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

قال الشيخ أبو المظفر، يوسف سبط ابن الجوزي: قلت للملك المعظم في بعض الأيام: هذا إسراف في بيوت الأموال. فقال: أنا أستفتيك:

لما أن عزم الأَنْبَرُور على الخروج إلى الشام، أراد أن يخرج من عكا بَغْتَة، ويسير إلى باب دمشق، فَبَعَثَ فارساً عظيماً، وقال له: أَخْفِ أمْرَنا ومجيئَنا إلى البلاد لنُغِير بَغْتَة. وكان بعكا امرأة مستحسنة، فكتبت إليَّ تخبرني الخبر. فَبَعَثْتُ إليها ثياباً مُلَوَّنَة، ومَقَانِعَ[١] وعنبراً، فَلَبِسَتْ ذلك، واجتمعت بذلك الفارس. فدُهِش، وقال: من أين لك هذا؟ فقالت: من عند صديقٍ لي من المسلمين. فقال: من هو؟ فقالت: الكَرِيدي. فَصَلَّبَ[٢] على وجهه، وقام فخرج من عندها. فما زالت تلك المرأة تتلطف به، حتى تَسْحَبَ المودةَ بيني وبينه. فصِرْتُ أُهادِيه، حتى كان يبعث إليَّ كُتُبَ الأَنْبَرُور التي يبعثها إليه، مَخْتُومَة. وأُرْسِلُ إليه، فيكتب ما أقول. فأنا أُدارِي عن المسلمين بهذا القَدْرِ اليسير، وَأَفْدِي به الخَطير، فإن الأَنْبَرُورُ لو جاء بَغْتَةً أَسَرَ من أهل الشام، وساق من مواشيهم وأموالهم ما لا يُحصى قيمتُه.

وكان الملك المعظم ـ رحمه الله ـ قد أمر الفقهاءَ أن يُجَرِّدُوا[٣] له مَذْهَبَ أبي حنيفة، دون صاحِبَيْه. فَجَرَّدُوا له المذهب في عشر مُجَلَّدَات، وسماه التَّذْكِرَة. فكان لا يفارقه سَفَراً ولا حَضَراً، ويُديم مطالعتَه. ويكتب على كل مُجَلَّد: أَنْهَاهُ ـ حِفْظاً ـ عيسى ابن أبي بكر بن أيوب. قال أبو المظفر: فقلت له: ربما تُؤْخَذُ عليك، لأن أكبرَ مدرس في الشام يَحْفَظُ القَدُورِي[٤] مع تَفَرُّغِهِ، وأنت مشغـول بتدبير المُلك. فقال: ليس الاعتبارُ بالألفاظ، وإنما الاعتبار بالمعاني. باسم الله، سَلُونِي عن جميع مسائلها.

وكان رحمه الله تعالى ـ حسنَ التدبير للمُلْك. وكان وزيره شرف الدين بن عُنَيْن، الشاعر الهَجَّاء المشهور. واسْتَعْفَى من الوزارة، وكتب إلى الملك المعظم: [من الطويل]

أَقِلْنِي عِثَارِي، واتَّخِذْها وَسِيلَةً ... تَكُون بِرُحْماها إلى الله راقِيا
كَفَى حَزَني أن لسْتَ تَرضى، ولا أرى ... فتًى راضياً عني، ولا اللَّهَ راضيا
أَخوضُ الأفاعي طولَ دهرِيَ دائِباً ... وكم يُتَوَفَّى من يخوضُ الأَفَاعِيا

فأعفاه. ولابن عُنَيْن أخبار نذكُرُها، إن شاء الله تعالى ـ عند وفاته.

ولما مات الملك المعظم، ملك بعده دمشق ولدُه: الملك الناصر صلاح الدين

---

(١) مقانع: جمع مِقنع: والمِقنع والمِقنعة: ما تُقَنِّع به المرأة رأسها. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قنع).
(٢) أي رسم على وجهه إشارة الصليب.
(٣) أي يجردوا آراء أبي حنيفة دون آراء محمد وأبي يوسف.
(٤) اسم كتاب مشهور من موجزات الفقه على المذهب الحنفي.

داود[١]. فأساءَ السِّيرة، واشتغل عن مصالح دولته بالشرب واللهو والطرب. فاقتضى ذلك ما نذكره، من إخراجه من دِمشق.

واستهلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنة، وصل إلى دمشق الأمير عماد الدين ابن الشيخ[٢]، من جهة السلطان الملك الكامل، إلى ابنِ أخيه الملك الناصر، ومعه جَلْدَك[٣] بالخلَع والتغيير للملك الناصر. وأقام عمادُ الدين بدمشق.

وفيها عزم الملك الكامل على المسير إلى الشام. وبَرَزَ بخيامه ظاهرَ القاهرة. ولما عزم على ذلك سَلْطَنَ[٤] ولدَه نجم الدين أيوب. ونَعَتَهُ بالملك الصالح، وركب بشِعارِ السَّلْطَنَة[٥] في سَلْخ شعبان، ووالده الملك الكامل مُبَرِّز بظاهر القاهرة.

ورَتَّب السلطانُ مع الملك الصالح ـ في النيابة ـ الأميرَ فخر الدين: يوسف ابن الشيخ[٦]، فأساء الملك الصالح السيرة بعد توجه والده، واشترى بُستان الخَشَّاب[٧]،

---

(١) هو الملك الناصر أبو المظفر وقيل أبو المفاخر داود صاحب الكرك. مولده في جُمادى الآخرة سنة ٦٠٣ هـ/ ١٢٠٦ م، ووقع له أمور، وحوادث ومحن. توفي في جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٨. ترجمته وأخباره في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٢٢٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٧٥.

(٢) هو أحد أبناء صدر الدين شيخ الشيوخ وصدر الدين بن حمويه توفي بالموصل سنة ٦١٧ هـ، وترك من الأولاد أربعة عرف كل منهم بابن الشيخ وهم: فخر الدين، وعماد الدين وكمال الدين، ومعين الدين. وذكرهم المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٦١ وترجم لهم وقال إن أمهم وهي ابنة القاضي شهاب الدين بن عصرون أرضعت الملك الكامل. فهم إخوته من الرضاعة. السلوك: ج ١، ص ٢٢١ حاشية (١).

(٣) هو الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفَّري التَّقوي توفي سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٢٤. وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٧.

(٤) أي أعلنه سلطاناً.

(٥) ويقصد بها رسوم الملك وآلاته ومظاهره. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٦ ـ ٧.

(٦) ينتمي أولاد الشيخ (بنو حمويه) إلى أسرة فارسية متصوفة، وكانوا فقهاء شافعية، هاجر فرع من هذه الأسرة إلى الشام وتمتعوا بنفوذ كبير زمن بني أيوب الأواخر خاصة السلطان الكامل وأولاده. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٩١، حاشية (٣). والأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعثه السلطان الكامل في الرسالة عنه إلى ملك الفرنج. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٢، حاشية (٢).

(٧) كان موقع هذا البستان في المنطقة التي يحدها اليوم شارع المبتديان من الشمال وقصر العيني من الجنوب ونهر النيل من الغرب. انظر ملحق النجوم الزاهرة، ج ٧.

وعَمَّر فيه مناظر. ففارقه الأمير فخر الدين ابن الشيخ، في العشرين من شوال، ولحق بالسلطان الملك الكامل.

وفيها في سادس عشر شعبان، أفرج السلطان الملك الكامل عن تاج الدين: يوسف ابن الصاحب صَفِيّ الدين بن شُكْر ـ وكان قد اسْتَوْزَرَه بعد وفاة والده، ثم اعتقله بعد شهرين ـ كما تقدم. فأفرج عنه الآن. وأنعم عليه بمائة وخمسين ديناراً، واستخْدَمَه مُوَقِّعاً(١).

وفيها كانت الوَقْعَةُ على صُور(٢). وذلك أن الملك العزيز عثمان، وصارم الدين التِّبْنِيني، كَمَنَا للفرنج قريباً من صُور. فلما تَعَالَى النّهار، خرج أهل صور(٣): فارسُهم وراجلُهم بمواشيهم، فَخَرَجَا عليهم فيمن معهما من الكَمِين، فقتلوا وأسروا سبعين فارساً، واسْتَاقُوا الأغنام والجواميس. ولم يسلم ممن خرج من الفرنج، غير ثلاثة.

وفيها توفي شرف الدين أبو المعالي: شُكْر ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات، أحمد بن شكر. وهو أخو الوزير الأعز فخر الدّين مقدام. وكان قد ولي نظر ثغر الإسكندرية وغيرها ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي أبو الفتح: نَصْر بن صَغِير بن دَاغِر، أبو خالد القَيْسَرَانِي الحلَبي كان شيخاً أدِيباً، له نظم حسن. رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ست وعشرين وستمائة

ذكر تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج

كان تسليمُ البيت المُقَدَّس وما جاوره للفرنج في العشر الآخر، من شهر ربيع الأول، من هذه السنة.

وسببُ ذلك أن السلطان الملك الكامل، لما اتصلت به أفعال ابن أخيه الملك الناصر داود، خرج من القاهرة في الثالث والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين،

---

(١) يقال للموقعين كتاب الدست: وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل في المواكب، ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم، ويوقعون على القصص وسمّوا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان لجلوسهم للكتابة بين يديه وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) و(٣) مدينة كبيرة مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها، افتتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب. ثم نزل عليها الإفرنج وحاصروها سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٩٢.

واستناب ولدَه الملك الصالح كما تقدم، وبقي إلى العشر الأوسط من شهر رمضان، وسار إلى البيت المقدس. ثم عاد ونزل بِتَلّ العُجُول[١]. فأرسل الملك الناصر داود الفخْرَ بن بُصَاقَة[٢] إلى عمه الملك الأشرف ليستنجدَه، ويعرفه قصد الملك الكامل بلاده. فجاء الأشرف إلى دمشق، ونزل ببستانه بالنَّيْرَب[٣]، ولما شاهد حركات ابن أخيه المذمومة، أطمعته نفسه في أخذ دمشق لنفسه.

ووصل الملك الكامل إلى نابُلُس، ورَتَّبَ الوُلاة والنُّوَّاب في البلاد الساحلية. فبلغه أن الأَنْبَرُورُ فَرْدِيك[٤] قد وصل إلى يافا في ميعاده. فعاد إلى تل العجول، وتردّدت الرسائل بينه وبين الأَنْبَرُور. وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، والصَّلَاح الإِرْبِلِيّ. فتقرر الصلح على: أن السلطان يعطي الأَنْبَرُور البيت المقدس، والقَرَايا التي على طريقه من يافا إلى القدس، ومدينة لُدّ[٥] وتِبْنِين[٦] وأعمالها، وَوُقِّعَت الهُدْنة[٧] مدةَ عشر سنين[٨]. وتسلم الأَنْبَرُور[٩] البيت المقدس، وهذه الأماكن. فحضر الأئمة والمؤذنون، الذين كانوا بالصخرة والمسجد الأقصى، إلى باب الدِّهليز الكامِلي، وأَذَّنوا في غير وقت الأذان. فأمر الملك الكامل أن يُؤْخَذَ منهم ما معهم من السُّتُور والقناديل والآلات، وأن يتوجهوا إلى حال سبيلهم.

---

(١) تل العجول: موضع بالقرب من غزة، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٣، ص ٧٤.

(٢) هو نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري، كاتب الإنشاء فخر القضاة له ديوان شعر، وولد بقوص سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م. وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٦٧.

(٣) قرية مشهورة بدمشق في وسط البساتين وهي أنزه موقع في الشام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٨٠.

(٤) أي الامبراطور فردريك الثاني دوهو هنستوفن ملك ألمانيا وصقلية. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤١، حاشية (٣)، وفيها شرح مفصل لما حصل هنا.

(٥) قرية صغيرة معروفة قرب بيت المقدس: Dozy. Dict. Ar.

(٦) تبنين: بلدة مشهورة مطلة على بانياس بين دمشق وصور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦.

(٧) وقعت الهدنة شرط أن يكون في المسجد الأقصى الخطيب، والإمام، والمؤذن، ويقام فيه الجمعة والصلوات الخمس في كل يوم. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٢٩٢.

(٨) كانت مدة الهدنة عشر سنين، وخمسة أشهر وأربعين يوماً أولها ثامن عشر شهر ربيع الأول من السنة، في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٣٠.

(٩) واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ما كلّف السلطان شيئاً من ذلك. وحاله عرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣٠.

قال: ولما وصلت الأخبارُ بتسليم بيت المقدس للفرنج، عُمِلَت الأَعْزِيَة في جميع بلاد الإسلام، بسبب ذلك. وأشار الملك الناصر داود ـ صاحب دمشق ـ إلى الشيخ شمس الدين[١] أبي المُظَفَّر: يوسف سِبْط ابن الجَوْزِي، أن يَذْكرَ ما جرى في القُدْس في مجلس وعظه بجامع دمشق، ليكون ذلك زيادةً في الشناعة على عمه الملك الكامل.

فجلس ووعَظ، وقال: انْقَطَعَتْ عن بيت المَقْدِس وفودُ الزائرين! يا وحشة للمجاوِرين! كم كانت لهم في تلك الأماكن رَكْعَة! كم جرت لهم في تلك المساكن من دَمْعَة. بالله لو صارت عيونهم عُيوناً لما وَفَتْ، ولو انقطعت قلوبهم أَسَفاً لما اشْتَفَتْ. أَحْسَنَ اللَّهُ عَزاءَ المسلمين. يا مَجِلَّةَ مُلوك المسلمين. لهذه الحادثةِ تُسكَب العَبَرات. ولمثلِها تَنْقَطِعُ القلوبُ من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات.

ثم أنشدَ قولَه: [من الطويل]

أَعَيْنَيَّ لاَ تَرْقَى[٢] مِنَ العَبَرَاتِ صِلِي بالبُكا الآصالَ بالبُكُرَاتِ

وهي أبيات ذكر فيها البيت المُقَدَّس وفضله. وزوّاره، وما حل به من هذه الحادثة ـ تركنا ذكرها اختصاراً.

وكان الملك الأشرف قد قال للملك الناصر داود: أَنَا أَتَوَجَّهُ إلى عمك الملك الكامل، وأُصْلِحُ حالَكَ معه. وتوجه إلى السلطان فوجده قد سَلَّمَ البيت المقدس للفرنج، فشق ذلك عليه ولامَه. فقال الملك الكامل: ما أَحْوَجَنِي إلى هذا إلا المُعَظَّم ـ يُشير إلى أن المعظم أعطى الأَنْبَرُور من الأُرْدُنِّ إلى البحر، وأعطاه الضِّياعَ التي من باب القدس إلى يافا، وغيرها.

ولما اجتمع الملك الأشرف بالملك الكامل اتفقا على حصار دمشق. وقَبَض الملك الناصر على فخر الدين بن بُصَاقة[٣]، وابن عمه المُكَرَّم، واعتقلهما في الجُبّ[٤]، واستأصل أموالهما. وكان قد اتهم الفخر أنه حَسَّنَ للأشرف الاستيلاء على دِمشق.

وفي هذه السنة في آخر صفر، فَوَّض الملكُ الناصر داود القضاءَ بدمشق للقاضي: محيي الدين أبي الفضائل، يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى، القُرَشي: المعروف بابن الزَّكي ـ شريكاً لقاضي القضاة: شمس الدين أحمد الخُوَيِّي[٥]. وعَزَل

---

(١) «شمس الدين قاضي نابلس. كان جليلاً في الدولة متقدماً عند ملوك بني أيوب» ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٤.

(٢) رقأ الدمع: جفَّ، الفيروزابادي: القاموس المحيط. لا ترقى أي لا تجف من الدموع.

(٣) انظر ص ٩٨ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٤) أي في القلعة.

(٥) نسبة إلى خُوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٧.

القاضي نجم الدين: أحمد بن محمد بن خلف المَقْدِسي ـ وكان ينوب عن القاضي شمس الدين الخُوَيِّي في القضاء. وصار الخُوَيِّي وابن الزَّكي في القضاء جميعاً.

ذكر توجه السلطان إلى دمشق وحصارها، وأخذها من ابن أخيه: الملك الناصر داود، واستقرار الملك الناصر بالكَرَك وما معها

قال: لما سلم السلطان الملك الكامل البيت المقدس وما جاوره إلى الأَنْبَرُور، سار إلى دمشق، وصحبه الملك الأشرف. ووصل إليه الملك العزيز عثمان، صاحب بانْيَاس، ومعه ولده الملك الظاهر، فأعطاه خمسين ألف دينار، وأعطى ولده عشرة آلاف، وأنعم عليهما بقماش وخلَع، وذلك بِمَنْزِلَة سَكَّاء[(١)].

ثم قَدِم عليه الأمير عز الدين أَيْدَمُر المُعَظَّمي ـ وكان الملك الناصر ابن سيده قد أساء إليه ـ فأنعم عليه السلطان بعشرين ألف دينار من الخزانة، وكتب له توقيعاً بعشرين أردب غلة، على الأعمال القُوصِيَّة، وأعطاه أملاك الصاحب صفي الدين بن شُكْر. وكان قد عزم على العود إلى الديار المصرية، فلما جاءه الأمير عز الدين قال: قد جاءني مِفتاح الشام، وسار إلى أن وصل إلى دمشق وحاصرها. وكان نزوله عليها في شهر ربيع الآخر.

وشدد الحصار، وضَيَّقَ على مَنْ بالبلد. فخرج إليه الملك الناصر داود سِرًّا، ووقف على باب الدِّهْلِيز[(٢)] وأرسل مملوكَه خلف أحد الحُجَّاب، فلما جاء إليه الحاجب، قال له: قُلْ لمولانا السلطان: مملوكُكَ داود ابن أخيك بالباب، فأعلم الحاجبُ السلطانَ فخرج إليه وتلقاه واعتنقه. فقَبَّلَ الناصرُ رِجْلَه وقال: يا عم قد جئتُكَ بذُنُوبي وهؤلاء حَرَمُ أخيك. فبكَى الملكُ الكامل، وقال: والله يا وَلَدي، لو كان وصولك إليَّ قبل استنجادك بعمك الأشرف، وحضوره من بلاده ـ أبقيت دمشق عليك. ولكن إذْ جاء الملك الأشرف إلى عندي، أنا أعطيك الكَرَك[(٣)] والشَّوْبَك[(٤)] والساحِل[(٥)] والغَوْر[(٦)]. وإذا سَيَّرتُ إليك فلا توافق حتى يكمل لك ألف وخَمسمائة فارس. عُدْ إلى مكانك. فعاد الناصر، وهو طيب النفس.

---

(١) قرية بينها وبين دمشق أربعة أيام في الغوطة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٥٩.

(٢) خيمة الملك أو السلطان. تختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه ليس بجانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم، محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٣٨.

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) سبق التعريف بها. فالغور: وادي بالأردن والكرك والشوبك قلعتان. والساحل ساحل فلسطين انظر ص ٥٤ من هذا الجزء. حاشية رقم (٢) وحاشية رقم (٣).

وبلغ الملك الأشرف خروج الملك الناصر إلى السلطان، فركب وأسرع ليدركه ويقبض عليه، فلم يدركه. فوبخ الأشرفُ الكاملَ على إطلاقه وتمكينه من دمشق. فقال له الملك الكامل: إنه جاءَني وَبَكَى، وقال هؤلاء حَرَم أخيك. ثم قال الملك الكامل: هؤلاء أولادُنا، لا بد لهم من مكان يأوون إليه. فقال الأشرف: يكون لهم الشَّوْبَك. فقال الكامل: ما يكفيهم إلا أن تكون الكَرَك معها. فسَيَّرَ إلى الناصر في إعطائه الكَرَك والشَّوْبَك، فلم يَرْضَ بذلك. ولم يَزَلْ إلى أن يُقَرِّرَ له الكَرَك والشَّوْبَك والغَوْرَيْن والبَلْقَاء، فأجاب إلى ذلك.

وخرج الناصر عن دمشق، وتسلمها الملك الكامل في غرة شعبان. فكان مدة المقام عليها أربعة أشهر. ومضى إلى الكَرَك، وتسلم ما أُقْطِعَ باسمه. وقيل إن السلطان لم يعطه الشَّوْبَك، وسأله إياها، فقال له: يا ابن أخي أنا ليس لي حِصْنٌ يحمي رأسي، وافرض أن هذا الحصن لك وقد وهبتني إياه. وإنه أعطاه الكَرَك، وعَجْلُون ونَابُلُس وبلاد القُدْس. والله أعلم.

ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف

قال: لما تسلم الملك الكامل دمشق، سأله أخوه: الملك الأشرف موسى، أن يَهَبَه دمشق، ويُعَوِّضَه عنها حَرَّان وأعمالَها، والرُّهَا وسَرُوج، ورأس عَيْن والرَّقَّة، وجُمْلِين. فَرَضِيَ كلٌّ منهما بذلك. وتسلم الملك الأشرف دِمشق. ووجه الملك الكامل الأميرَ فخر الدين ابن الشيخ، فتسلم ذلك. وتسلم الملك الأشرف دمشق. وتوجه الملك الكامل إلى هذه الجهات، فَرَتَّبَ أَحْوَالَها.

قال: ولما أقام الملك الأشرف بدمشق، دخل عليه شرف الدين بن عُنَيْن الشاعر، فلم يَرَ منه ما كان يَعْهَدُه من الملك المعظم، من الانبساط، وما كان يقع في مجلسه من سماع أَهَاجِي ابن عُنَيْن، فيما كان يفعله. فنهاه الملك الأشرف، وقال: ليس مجلسي كما عَهِدْتَ. يكفيني ما أنا فيه، حتى أضيف إليه ثَلْبَ المسلمين. فخرج من عنده. وقال: [من الطويل]

وكنا نُرَجِّي بعد عيسى[(١)] محمداً[(٢)] لِيُنْقِذَنا من شِدَّة الضُّر والبَلْوَى
فأَوْقَعَنَا في تِيهِ موسى[(٣)] كما تَرَى حَيَارَى، بلا مَنٍّ لديه ولا سَلْوَى

---

(١) يقصد بعيسى: الملك المعظم صاحب دمشق الذي توفي سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م.
(٢) محمداً: يقصد به الملك الكامل.
(٣) موسى: يقصد به الملك موسى الأشرف.

فبلغ الأشرفَ ذلك، فأمر بقطع لسانه. فدخل على جماعة من الأكابر، وحلف أن الشعر ليس له. ثم هرب إلى بلاده بزُرَع[١] وحَوْرَان. فكف الملك الأشرف عن طلبه.

ذكر أخذ مدينة حمَاه وتسليمها للملك المظفر

قال: لما توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق، اجتاز بمدينة حماه، فأخذها من صاحبها: قِلِيج أَرْسَلان ابن الملك المنصور[٢] ـ وكان قد استولى عليها لما قدم الملك المظفر[٣] إلى الملك الكامل بالمنصورة. فلما استقر الملك الكامل بمصر، أرسل إلى قِلِيج أَرْسَلاَن يُقَبِّحُ عليهِ فعله، ويلتمس منه الخروج عن حمَاه، وإعادتها إلى أخيه. فلم يُجِبْ إلى ذلك. فأقطع الملك الكامل المظفر إقطاعاً بمصر.

فلما اجتاز الملك الكامل الآن بحمَاه، خرج إلى قِلِيج أَرْسَلاَن فَقَبَضَ عليه، وسَلَّم حَماه للملك المظفر، وهو أخو قِليج أرسلان، فتسلمها.

وفي هذه السنة في شهر رجب، وصل القاضي بهاء الدين بن شَدَّاد، قاضي حلب، في خِطبة ابنة السلطان الملك الكامل للملك العزيز ابن الملك الظاهر، صاحب حلب، فزوجه السلطان بابنته.

وفيها قبض السلطان الملك الكامل على ورثة ولد القاضي الفاضل، وسائر أملاكه. وأخذت الكتب من داره وحُمِلت إلى القلعة، فكانت عِدَّتُها أحد عشر ألف مُجَلَّداً.

ذكر وفاة الملك المسعود، صاحب اليمن

كانت وفاة الملك المسعود صلاح الدين[٤] أَقْسيس ابن السلطان الملك الكامل،

---

(١) زُرع: بضم الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة وعين مهملة في الآخر. وهي بلدة من بلاد حوران لها عمل مستقل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٨.

(٢) زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ج ١، ص ١٥٣.

(٣) هو المظفر ابن الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر. زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ج ١، ص ١٥٣.

(٤) عن سيرة الملك المسعود بن الكامل انظر مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٦٠. مات عن ست وعشرين سنة منها مدة ملكه باليمن، أربع عشرة سنة وكره الملك المسعود المقام باليمن لما أصابه من المرض بها وكان قد تولاها منذ سنة ٦١٢ هـ أي في عهد جده العادل ثم استدعاه أبوه الملك الكامل إليه سنة ٦٢٦ هـ ليوليه دمشق. وذلك بعد وفاة الملك المعظم عيسى. وهو آخر ملوك اليمن من الأيوبيين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣٧، حاشية رقم (١). وخلف الملك المسعود ولداً صغيراً سماه الملك الكامل يوسف باسم أبيه، ولقبه بلقبه صلاح الدين وكان في كفالة جده الملك الكامل إلى أن

صاحب الحجاز واليمن ـ في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة. ومولده في شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وكان بلغه وفاة عمه الملك المعظم بدمشق، فطمع في الشام. وتجهز جِهازاً لم يسبقه أحد من الملوك إليه. وذلك أنه نادى في التجار ببلاد اليمن: من أراد السفر صُحْبَةَ السلطان إلى الديار المصرية والشام فليتجهز.

فتجهز معه سائرُ التجار الذين وصلوا من الهند، بالأموال والأقمشة والجواهر. فلما تكاملت المراكب، قال: اكتبوا لي ما معكم من البضائع، لأحْمِيها من الزكاة. فكتبوها له. فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله على بعض بلاد اليمن، واستولى على البضائع. فاجتمعوا واستغاثوا، فلم يَسْمَعْ شكواهم. فيقال إن نقله كان في خَمسمائة مركب، ومعه ألف خادم، ومائة قنطار من العنبر والعود والمسك، ومائة ألف ثوب، ومائة صندوق فيها الأموال والجواهر.

وركب إلى مكة، فمرض في طريقه. فما دخل مكة إلا وقد فُلِجَ ويَبِسَتْ يداه ورجلاه، ورأى في نفسه العِبَر. فلما احتُضِرَ بعث إلى رجل مغربي بمكة وقال: والله ما أرضى لنفسي، من جميع ما معي، كَفَناً أُكَفَّنُ فيه، فَتَصَدَّقْ علي بكَفَن! فبعث إليه نِصف ثوب بَغْدَادِي، ومائتي درهم، فكفنوه بهما. ودفن بالمُعَلَّى. ويقال: إن الهواء ضرب المراكب فرجعت إلى زَبِيد، فأخذها أصحابها.

وحُكي أن الملك الكامل ـ والده ـ سُرَّ بوفاته. ولما جاء خَزِنْدَارُه[1] إليه، لم يسأله كيف مات، بل قال: كم معك من المال والتحف.

وكان الملك المسعود قد استنابَ باليمن أُسْتَاذَ داره[2]: عمرَ بن علي ابن رَسُول.

= توفي الملك الكامل، ثم توفي صلاح الدين يوسف هذا في أيام عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وخلف ولداً صغيراً اسمه موسى ولقبه الملك الأشرف مظفر الدين. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٦٣.

(١) هو الذي يتولى الشؤون المالية ويسمى صاحب الخزنة. وكلمة دار لفظ فارسي معناه صاحب أو مشرف. والخازندارية موضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١.

(٢) وظيفة الاستدارية: من الوظائف الرئيسة للسلطان أو نوابه أو الأمراء وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان، وهو الذي يسير حسب طلب السلطان، ويحكم في غلمانه، وباب داره. وله مطلق الحرية في التصرف وفي استدعاء ما يحتاجه بيت السلطان من النفقات والكساوي، وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم. وهو المتولي شؤون دار السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠.

فتزوج زوجتَه: ابنةَ صاحب جَوْزا[١] ومَلَكَ البلاد. وكتب إلى السلطان الملك الكامل، وجَهَّزَ إليه الأموال والتحف. واستقر على حكم النيابة.

ثم استَقَلَّ بعد ذلك بمُلْكِ اليمن. وتلقب بالملك المنصور. وأرسل رسولاً إلى الديوان العزيز في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فوصل في سابع عشر صفر منها، فتلقاه بعضُ الأمراء ودخل، وقَبَّلَ العَتَبَة بالباب النُّوبِي. وحضر في اليوم الثالث من وصوله إلى دار الوزير وأدَّى رسالتَه، وأنهى إلى الديوان العزيز استيلاء مُرْسِلِه على جميع بلاد اليمن، وأنه مُخْلِصٌ في طاعة الديوان. وهو يسأل قَبُولَ ما سَيَّرَه من التحف والهدايا. حكاه ابن الساعي في تاريخه.

واستمر المُلْك بالديار اليمانية فيه وفي أولاده من بعده، إلى وقتنا هذا.

وفيها في جمادى الأولى، توفي ناصر الدين مَنْكُورِس بن بدر الدين خُمَارِتْكِين عتيق مجاهد الدين بُزَان صاحب صَرْخد. وكان ناصر الدين المذكور صاحب صَهْيُون[٢]. وتولى مملكة صَهْيُون بعده ولدُه مُظَفَّرُ الدين عثمان.

واستهلت سنة سبع وعشرين وستمائة

في هذه السنة، في ثاني عشر شهر رجب منها، قدم السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

وكان سبب عَوْدِهِ أنه بلغه أن ابنَه الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب ـ قد ترتب على المُلْكِ بالديار المصرية، وأنه اشترى ألفَ مملوك، فعاد. وأخرج ابنه الملك الصالح إلى بلاد الشرق، ولم يُعْطِهِ شيئاً.

ولما وصل الملك الكامل إلى قَلْعَة الجَبَل، عَمِلَ له صلاحُ الدين[٣] الإرْبِلي دَعوةً

---

(١) لم يرد هذا الاسم في معجم البلدان ولكن ورد اسم جوزان: وهو قرية من مخلاف بعدان باليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١١.

(٢) صهيون: هي الروم، وقيل: البيت المقدس، ومحلة فيها كنيسة صهيون. وصهيون أيضاً: حصن من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص، لكنه ليس بمشرف على البحر. وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل خنادقها أودية واسعة هائلة عميقة ليس لها خندق محفور إلا من جهة واحدة. وكانت بيد الافرنج حتى استرجعها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب من يد الإفرنج سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٩٦. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٥.

(٣) هو صلاح الدين أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان الإربلي توفي سنة ٦٣١ هـ/ ١٢٣٢ م. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٦، ص ٢٥٤.

في داره، فحضرها السلطان. فأنشده الصلاح: [دوبيت]

لو تعلمُ دارُنا بمن قد جُمِعَتْ مالت طَرَباً وصَفَّقَتْ واستَمَعَتْ

والخمرةُ لو تعلم من يَشْرَبُها كانت شَكَرَتْ لعاصريها، ودَعَتْ

وفيها قَصَّرَ النيل فلم يُوفِ، وانتهى إلى ثلاثةَ عشر ذِراعاً وثلاثة وعشرين[1] أصبعاً، وقيل إنه انتهى إلى أربعة عشر ذراعاً، وأصابع، وقيل بل بلغ ستة عشر ذراعاً وعشرة أصابع. فارتفع سعرُ الغَلَّة. فسَعَّرَ الملكُ الكامل القمحَ بعشرين درهماً وَرِقاً[2] الإِرْدَبّ. وأَمَرَ مستخدمي[3] الأَهْرَاء السلطانية ببيع القمح بخمسة وعشرين درهماً وَرِقاً. ومنع الناس من شراء الكثير منه، إلا المَؤُونَة. واستمر السعر كذلك بقية السنة.

ثم أَطْلَقَ السلطانُ سِعْر الغَلَّة، في ثالث المحرم سنة ثمان وعشرين، وأمر أن يباع بالسعر الواقع. فأبيع القمحُ في هذا الوقت بخمسين درهماً ورِقاً الإردب، والخبزُ أربعةَ أرطال بدِرهم وَرِق. فنال الناسَ من ذلك شِدَّةٌ عظيمة.

هكذا نقل مؤرخو[4] ذلك العصر. فكيف لو شاهدوا ما شاهدناه في سنة خمس وتسعين وستمائة، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة، بعث الملك الأشرف ـ صاحب دمشق ـ أخاه الملك الصالح إسماعيل إلى بَعْلَبَكّ. فحَصَرَها ونصب عليها المَجَانِيق[5]، ورماها بأحجارها.

ثم توجه إليها الملك الأشرف. ودخل الصاحب صفي الدين ـ إبراهيم بن مَرْزُوق ـ بين الملك الأشرف، والملك الأمجد[6] صاحب بعلبك، وحصل الاتفاق. فتسلمها

---

(١) يتفق النويري مع ما ورد في كنز الدرر للدواداري، حوادث سنة ٦٢٧ هـ. أما في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٤٠. فقد ورد: «ثلاثة عشر ذراعاً وثلاثة عشر أصبعاً لا غير».

(٢) الورق: الدرهم الفضة. والمقصود به هنا الدرهم الأصلي المطبوع وفيه نسبة الفضة عالية. قبل أن يظهر الدرهم النقرة الذي زادت فيه نسبة النحاس. انظر صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٣، ص ٤٣٧، وانظر أيضاً صفحة ٨٥ من هذا الجزء حاشية (٤).

(٣) في الأصل: «وأمر مستخدمين».

(٤) في الأصل: «هكذا نقل مؤرخي ذلك العصر».

(٥) جمع منجنيق: وقيل فيه منجنوق وهو اسم أعجمي فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية، هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٤٤.

(٦) هو جلال الدين منكرتي بن محمد بن تكش، وكان آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، مدة حكمه هي =

الملك الأشرف، وانتقل الأمجدُ منها إلى دمشق. وأقام بداره بها، وهي الدار المعروفة بدار السعادة، التي ينزلها نُوَّابُ السلطنة في وقتنا هذا. ولم تَطُلْ مدةُ حياته، فإنه قُتل في سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة.

وفيها استولى السلطان: جلال الدين خُوَارَزْمْ شَاه[١] على مدينة خِلاَط، بعد أن حاصرها مدةَ عشرة أشهر. وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار جلال الدين. ولما ملكها، أخذ منها مُجِيرَ الدين يعقوب وتَقِيَّ الدين عباس: ابنيْ[٢] الملك العادل، وأخذ الكُرْجِيَّةَ: زوجة الملك الأشرف، ودخل بها من ليلته، وقَتَل عز الدين أَيْبَك الأشْرَفِي.

وبلغ الملكَ الأشرفَ ذلك، وهو بدمشق، والملك الكامل بالرَّقَّة[٣] فتوجه من دمشق إلى الرقة. وأتته رسل السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ ـ صاحب الروم[٤] ـ في الاجتماع على حرب جلال الدين. فاستشار الملكُ الأشرف أخاه الملكَ الكاملَ في ذلك، فأشار به. وقطع الملكُ الكاملُ الفُرَاتَ في سبعة آلاف فارس، وتوجه إلى الديار المصرية ـ للسبب الذي ذكرناه.

وسار الملك الأشرفُ إلى حَرَّان في سَبعمائة فارس، وأقام بها. وكتب إلى حَلب والمَوْصِل والجَزِيرة فجاءته العساكر، وتوجه إلى صاحب الروم واجتمعوا. والتقوا بالسلطان جلال الدين خُوارِزْم شاه، فكَسَرُوه.

وقد ذكرنا خبر استيلاء جلال الدين على خِلاَط، في أخباره. وذكرنا خبر هذه الكَسْرَة في أخبار السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ صاحب الروم، في أخبار الدولة السَّلْجُقِيَّة. فلْنذْكرِ الآن ما يتعلق بالملك الأشرف.

ولما انهزم جلال الدين، قال الملك الأشرف للسلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ: لا بُدَّ

= ٦١٧ ـ ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٠ ـ ١٢٣٠ م توفي السلطان جلال الدين بعد ما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين قتله بعض الأكراد، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٤١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٥.

(١) هو بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب الملك الأمجد ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤٥. والبداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٤٠ ـ ١٤١. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٢٦.

(٢) في الأصل «ابنا» الملك العادل.

(٣) الرقة: هي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٧.

(٤) هو علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان توفي سنة ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ م، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٤.

لي من خِلاط. فأعطاه علاء الدين وأنعم على أصحابه: من الأموال والخلَع والثياب والتُّحف والخيول، ما قيمته ألفا ألف دينار.

وتوجه كَيْقُبَاذ إلى بلاده، وجَرَّدَ في خدمة الملك الأشرف جماعة، فتوجه بهم إلى خِلاط. فوجد جلال الدين قد أخذ مُجِيرَ الدين وتَقِيَّ الدين والكُرْجِيَّةَ معه. فساق الأشرفُ خَلْفَه. ثم تراسلا، واصطلحا. فأطلق جلالُ الدين مُجِيرَ الدين وتَقِيَّ الدين، وبعث بهما إلى الخليفة ببغداد. فأنعم الخليفةُ على كل منهما بخمسة آلاف دينار. وعاد الملك الأشرف إلى دمشق، في سنة ثمان وعشرين وستمائة. فأقام بها شهراً، وتوجه إلى أخيه الملك الكامل بالديار المصرية.

وفي هذه السنة، استخدم الملك المُظَفَّر: شهابُ الدين غَازِي ـ صاحب مَيَّافَارِقِين ـ العِزَّ بن الجَامُوس على ديوانه. وأَمَّرَه وأعطاه الكُوسَات[١] والأعْلام، وَقَدَّمَه على جماعة وَمَكَّنَه. ودُعي بالصاحب الأمير عز الدين. فظلم الناس وعَسَفَهُم، وأخذ أموالهم. فلم تُمْهِلْهُ المقَادِير، ومات في بقية سنة سبع وعشرين بِمَيَّافَارِقِين. واستولى الملك المظفر على تَرِكَتِه، وظهر له سوءُ فعله، فصار يُصَرِّحُ بلَعْنِه. وجاء عمه من دمشق يطلب ميراثه، فسبه المظفر، ثم أعطاه ألف درهم وعاد إلى دمشق.

وفيها، في ثامن جُمَادى الآخرة، توفي بمصر الفقيه الإمام: شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي حفص عمر، ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمرو بن جعفر، الأَزْدِيِّ الغَسَّانِي، المالِكي ـ المعروف بابن اللّهِيب. ومولده في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. وتولى التدريسَ بالمدرسة الصَّاحِبِيَّة[٢] بالقاهرة، إلى حين وفاته. وهو في بيت الخير والصلاح والفِقْه.

واستهلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

في يوم الاثنين، عاشر جمادى الآخرة، قَدِمَ الملك الأشرف إلى القاهرة، لخِدمة السلطان الملك الكامل ـ ومعه صاحبُ الجَزِيرة.

وفيها، في منتصف شعبان، ابتدأ السلطان الملك الكامل بحفْر البَحر[٣] من دار

(١) الكوسات: وهي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩.

(٢) نسبة إلى الصاحب «صفي الدين بن شكر» وزير العادل والكامل. انظر ص ٨٥ من هذا الجزء حاشية رقم (١).

(٣) استمر العمل فيه من مستهل شعبان إلى آخر شوال مدة ثلاثة أشهر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٤١.

الوِكالة إلى صناعة التَّمْر الفاضِلِية. واستعمل فيه الملوكَ والأمراء، وعَمِلَ بنفسه.

وكان هذا البحرُ في أوان احتراق النيل يكون طريقاً سالكاً إلى المقياس. وتمر المراكب ما بين الروضة والجيزة. ثم صار على العكس من ذلك في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة[١]، فصار في احتراق النيل ليس بين الروضة وبين بر الجيزة غير ماء قليل يُخَاض، فلا يُغَطِّي أكثرَ من خلخال. ثم أخذ في الزيادة بعد ذلك، إلى أن صار، في سنة عشرين وسبعمائة[٢] وما بعدها تسافر فيه المراكب صيفاً وشتاءً. والبَحْرَان الآن على ذلك. ولكن البحر فيما بين الروضة ومصر أكثر، وهو البحرُ الذي تسافر فيه السفن في الاحتراق.

نَعُودُ إلى سياقةِ أخبار سنة ثمان وعشرين وستمائة. وفيها بنى أسد الدين شيركوه ـ صاحب حِمْص والرَّحْبَة ـ قلعة بالقرب من سَلَمِيَّة[٣] وسماها شُمَيْمِس، وهي على تَلٍّ عال.

وفيها كان مَقْتَلُ الملك الأمجد: بَهْرَام شاه، بن فَرُّخْشَاه، بن شَاهِنْشَاه بن أيوب ـ صاحب بَعْلَبَكّ. كان وكانت بعلبك بيده، منذ أعطاه إياها السلطان الملك الناصر صلاح الدين عند وفاة أبيه، في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. فلم تزل بيده، إلى أن انتزعها الملك الأشرف منه ـ كما تقدم ـ في السنة التي قبلها. وأعانه على ذلك صاحب حِمص: أسدُ الدين شيركوه.

وكان سبب مقتله أن بعض مماليكه سرق له حِيَاصَة[٤] ودَوَاة ـ قيمةُ ذلك مِائَتَا دينار ـ وخَبَّأَهُمَا عند مملوك آخر، فلما ظهر له ذلك حَبَسَ السارقَ في خِزانة داره ـ والخزانة خلف المكان الذي يجلس فيه الملك الأمجد ـ وَتَوَعَّدَ ذلك المملوكَ ـ بقطع اليد. فلما كانت ليلة الأربعاء، ثاني عشر شوال، جلس على عادته أمام الخزانة ـ وعنده عباس ابن أخي الشريف البهاء وهما يلعبان بالنَّرْد، وعنده فُهَيْد المُنَجِّم وبيده الاسْطِرْلاَب ليأخذ له طَالِعَ الوقت.

فقال له فُهَيْد: يا مولانا انظر إليّ، فهذه ساعةٌ سعيدة، لو أردْتَ أخذ دمشق لأَخَذْتَها. فقال له: لا تكلِّمْني، فقد تَعَيَّن لي الغَلَب! وكان مع المملوك الذي في الخزانة

(١) و(٢) هكذا في الأصل.

(٣) سَلَمية: سبق ذكرها في الصفحة ٧٣ من هذا الجزء حاشية (٢)، وشميمس اسم تل بجوارها.

(٤) هي المنطقة أو الحزام، كانت تشد فوق القباء، وهو الكساء الخارجي. وكانت الحياصة تصنع في الغالب من الفضة المطلية بالذهب، وربما جعلت من الذهب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٠.

سِكِّين، فعالج رَزَّةَ الخِزانة بِرِفْقٍ فَقَلَعَها، وفتح الباب. فهجم على الملك الأمجد، وأخذ سيفه فجذبه وضربه به. فصاح، فَحلَّت الضَّرْبَةُ كَتِفَه، ونزل السيفُ إلى ثَدْيِه. ثم ضربه أخرى، فقطع يدَه وَقَطَعَتْهُ في خاصِرَتِه. وهرب يصعد إلى السطح، فتبعوه. فألقى نفسه إلى الدار. فماتا جميعاً. وجُهِّزَ الملك الأمجد، ودُفن في تربة أبيه، التي على الميدان على الشَّرَف الشَّمالِي.

وكان فاضلاً شاعِراً، وله ديوان شعر[١] بأيدي الناس ـ رحمه الله تعالى. قال أبو المظفر: ورآه بعض أصحابه في المنام بعد موتِه، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: [دوبيت]

كُنتُ من ذَنْبِي على وَجَلٍ ... زال عني ذلك الوجَلُ[٢]
أَمِنَتْ نَفْسِي بَوَائِقَها[٣] ... عِشْتُ لما مِتُّ يا رَجُلُ

قال أبو المظفر: وكان الأمجد قد قتل أبْناً له جميلاً، كان وَاطأ عليه الملكَ العزيزَ عثمان[٤]، وكتب إليه يقول: قد يَسَّرْتُ باب السِّر[٥] فسِرْ إلينا وقت السَّحَر. وكان الملك العزيز بالصُّبَيْبَة، فسار منها في أول الليل ـ والمسافة بعيدة ـ فوصل إلى بعلبك وقد طلعت الشمس ففاته الغَرَض. واطلع الأمجدُ على ما فعله ابنُه فقتله. وقيل: بَنَى عليه بَيْتاً، فمات.

وفيها، تُوفي المُهَذَّب الدَّخْوار، الطبيب[٦]: رئيس الأطباء بدمشق، وكان طبيباً

---

(١) ومن شعره «دوبيت» وهو لفظ مركب من كلمتين أولاهما «دو» فارسية بمعنى اثنين وثانيتهما: عربية تعني الوحدة الشعرية ويسميه العرب: الرباعي لأن وزن شطر البيت فيه أربعة أفاعيل مختلفة. وهو ضرب من الشعر استحدثه العرب المولدون على وزن الشعر الفارسي المسمى: «دوبيت» على وزن (فعلن، متفاعلن، فعولن، فعلن)، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٤٥، حاشية رقم (٢).

(٢) الوجل: الخوف. ابن منظور: لسان العرب (وجل).

(٣) البوائق: الآثام: ابن منظور: لسان العرب (بوق).

(٤) كان هو صاحب قلعة بانياس، وهو ابن الملك العادل. زامباور: معجم الأنساب والأسرات ج ١، ص ١٥٣.

(٥) باب السّر: في القلعة أو القصر. وهو الباب الذي يختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما. يتوصل إليه في الصورة وهي بقية النشز الذي بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة بتصريح يمشي فيه، مع جانب جدارها البحري حتى ينتهي إليه بحيث يكون مدخله منه، مقابل الديوان الكبير الذي يجلس فيه السلطان أيام المواكب، وهذا الباب يكون عادة مغلقاً حتى ينتهي إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٦) هو عبد الرحيم بن علي الدَّخوار بن حامد. وكان مولده سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م. تقدم على جميع =

حاذِقاً، وما كان يُرى أن في الدنيا مثلُه. كان يُقْرَأ عليه الطِّب. وكانت له دار بدمشق وبستان، فوقف الدار مدرسةً يُقْرَأُ فيها الطب. وَوَقَفَ بُستانُه عليها. والمدرسة باقيةٌ بدمشق، تعرف بالدَّخْوَارِية، رأيتها في سنة ثلاث وسبعمائة.

وفيها، في ثامن عشر شعبان، توفي الأمير شجاع الدين أبو المنصور: جَلْدَك ابن عبد الله المُظَفَّرِي التَّقَوِي[(١)]، بالقاهرة. سَمِعَ من الحافظ السِّلَفي. وكان مُكَرِّماً لأهل العلم والفضلاء، مساعداً لهم بماله وجاهه. وحضر مواقف كثيرة في قتال العدو بالساحل. وتولى ثَغْرَ دمياط والإسكندرية، وقوص، وشَدَّ الدواوين[(٢)]، وغير ذلك. وكان يكتب في كل بلد يتولاه خَتْمَه، فحُكِي عنه أنه قال: كتبتُ بخطي أربعاً وعشرين خَتْمَة. وكان قد قارب ثمانين سنة ـ وقيل مات في عَشْرِ التسعين. والله أعلم.

واستهلت سنة تسع وعشرين وستمائة

في هذه السنة توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق، بسبب فتح آمِد وسنذكر ذلك.

وفيها، في جمادى ـ عُزِل قاضي القضاة: شمس الدين بن سَنِيّ الدولة الخُوَيِّي، وقاضي القضاة شمس الدين بن سَنِيِّ الدولة ـ جميعاً ـ عن قضاء القضاة بدمشق، وفُوِّض ذلك إلى قاضي القضاة: عماد الدين عبد الكريم ابن قاضي القضاة جمال الدين الحَرَسْتَانِي.

وفيها توفي الأمير فخر الدين عثمان بن قَزِل الكامِلي بحَرَّان، في الثامن والعشرين من ذي الحجة، ودفن بظاهرها. ومولده بحلب في سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وكان أحد الأمراء الأكابر في الدولة الكامِلِية. وكان راغباً في فعل الخير، مبسوط اليد بالصدقة والإسعاف. يتَفَقَّدُ أربابَ البيوت وغيرهم. وأنشأ المدرسة المعروفة بالقاهرة المُعِزِّيَّة، والمسجَد المقابل لها، وكُتَّابَ السبِيل والرِّباط بالقرافة بسفح المُقَطَّم. وأوصى بِوَصِيَّةٍ ذكر فيها كثيراً من أنواع البر ـ رحمه الله تعالى.

= أطباء زمانه، ومع ذلك مات بستة أمراض مختلفة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٧، وابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣، ص ١٣٩.

(١) انظر صفحة ٩٦ من هذا الجزء حاشية رقم (٣).

(٢) ذكر القلقشندي في أرباب الوظائف من أرباب السيوف، ومن هو بحضرة السلطان هذه الوظيفة وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثاً في استخلاص الأموال، وفي معنى ذلك. صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢.

واستهلت سنة ثلاثين وستمائة

ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمِد وحصن كَيْفا[١]

كان الاستيلاء على ذلك في سنة ثلاثين وستمائة. وكان السلطان قد تَوَجَّهَ في سنة تسع وعشرين وستمائة، واستَقَلَّ رِكَابه من مَقَرِّ مُلكه، بقلْعة الجَبَل المحروسة بظاهر القاهرة المُعِزِّيَّة، في ثامن جمادى الآخرة، واستصحب عساكرَ الديار المصرية، ووصل إلى دمشق واستصحب أخاه الملك الأشرف، وولدَه الملكَ الصالح نجم الدين أيوب.

وكان سبب قصده هذه الجهة أن أخاه الملك الأشرف، بما حضر إلى الديار المصرية، عَرَّفَ السلطانَ أن الملك المسعود مودود ابن الملك الصالح بن أُرْتُق، صاحب آمِد وبلادها وحصن كَيْفا ـ قد اشتغل عن مملكته باللهو والشرب والطرب، وأنها خاليةٌ من العساكر. فتَجَهَّزَ إليها.

ولما بلغ الملكَ المسعودَ أن السلطان قصد بلادَه، بادر بإرسال وزيره شرف العُلا إلى السلطان يستعطِفه، ويسأل مَرَاحِمَه في إبقاء ما بيده والكفِّ عن طلبه. فوصل إلى السلطان، وكان إلْباً[٢] على صاحبه، وعَرَّفَ السلطانَ إقْبالَه على اللهو والطرب، وأن مملكته خالية من العساكر، فأطمعه في أخذ البلاد.

فسار إليها، ونازلها في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي الحاجة ونَصَبَ عليها المَجَانِيق. وأنذر صاحبها الملك المسعود ووعده بالإقطاعات الكبيرة، فلم يُصْغِ إلى ذلك. ثم شاهد الغَلَبَة. فخرج إلى السلطان وفي عنقه مِنديل. فَوُكِّل به، وتَسَلَّم آمِد في مستهل المحرم، سنة ثلاثين وستمائة. واستولى على أمواله وذخائره، وطلب منه تسليم القلاع فسلَّمها بجُملتها.

ودخل الملك الكامل إلى آمِد. فَتَرَجَّلَ في خدمته جميعُ الملوك الأيوبية، وسائر ملوك الشرق ـ إلا صاحب الروم السلطان: علاء الدين كِيْقُبَاذ السَّلْجُقي، وصاحب الجَزيرة[٣] الملك المُعَظَّم: محمد بن سَنْجَر شاه، فإنهما أرادا أن يَتَرَجَّلا فلم يُمَكِّنْهما الملكُ الكامل من ذلك، ودخلا راكِبَيْن لركوب السلطان، ونزلوا جميعاً في القَلْعَة.

---

(١) حصن كيفا: ويقال لها كَيبا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر وهي كانت ذات جانبين وعلى دجلتها قنطرة. وهي لصاحب آمد من ولد داود بن سُقمان بن أرتق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) إلباً: أي محرضاً عليه العدو. ابن منظور: لسان العرب (ألب).

(٣) أي جزيرة ابن عمر. وهي بلدة فوق الموصل قريبة منها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥٧.

وبقي حصن كَيْفا بيد نائبه، لم يُسَلِّمْه. فكتب الملك المسعودُ إلى نائبه أن يسلمه، فامتنع من ذلك. فبعث السلطان الملك الكاملُ أخاه الملك الأشرف إلى الحصن، ومعه الملك المسعود فتوجه به وعاقَبَه تحت الحصن، وكان يَبْغَضُه، فأصر النائبُ على الامتناع من تسلِيمِه. وكان بينهما إشارة، فلما آلمته العُقُوبة جاء إلى تحت الحصن، وقَبَضَ على شعَر نفسه وقَطَعه بمِقَصّ، فعند ذلك سَلَّمَ النائبُ الحصنَ ـ وكانت هذه إشارةً بينهما. وكان تسليمُ الحصن في صفَر من السنة.

وكان الملك المسعود، لما حاصر السلطان آمِد، قد كتب إلى نائبه بحصن كَيْفا يقول له: من مَرَّ عليك من أهل الجَزِيرة فاعْتَقِلْه، لأن صاحب الجزيرة كان قد توجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل. وكان المتولي يَرْصُدُ القُفُول إذا مَرَّت بالحصن، فمن كان منهم من أهل الجزيرة قبض عليه واعْتَقَلَه. واجتمع في حبسه خَلْقٌ كثير منهم. فلما فُتِحَ الحصن أَفْرَجَ السلطانُ عنهم.

وأنعم الملك الكامل على ولده، الملك الصالح نجم الدين أيوب، بحصن كَيْفا وأعماله ـ وكان، منذ أخرجه من الديار المصرية، بغير ولاية، وجَعَلَ شهابَ الدين غازي ـ ابنَ شمس الملوك ـ نائبَ السلطنة بآمِد. ومُعِينَ الدين ابن الشيخ الوزير، والطَّوَاشِي شمس الدين صَوَاب العادِلي متولي تدبير تلك الممالك. قال أبو المظفر: قال لي الملك الأشرف: وَجَدْنا في قصر الملك المسعود خَمسمائة حُرَّة من بنات الناس للفراش.

وعاد السلطان إلى الديار المصرية في سنة ثلاثين وستمائة، واستصحب أكابر أهلِ آمِد وأعيانَها، صُحْبَتَه، إلى الديار المصرية ـ وكان منهم بدر الدين، وموفق الدين، وابن أخيهما شمس الدين، وجماعة كبيرة. فأما هؤلاء الثلاثة فإنهم باشروا وترقوا في المناصب بالديار المصرية، والشام. ومن عداهم من أهل آمِد نالتهم فاقَةٌ شديدة وضَرُورة، حتى استَعْطَوْا بالأَورَاق. وأما الملك المسعود فإن السلطان أنعم عليه بالإقطاعات بالديار المصرية.

ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل إلى بغداد، وعَوْدِه هو ورسول الخليفة بالتقليد(١)

في هذه السنة تَوَجَّهَ القاضي الأشرف: بهاء الدين أبو العباس، أحمد ابن القاضي

(١) هذا التقليد الذي سيورده المؤلف نشره محقق «مفرج الكروب لابن واصل بين ملاحق الكتاب. ج ٣، ص ٣٦١، رقم (٢٨). وقال إنه العهد المكتوب به في ديوان الخلافة ببغداد إلى السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وصحبته كما تدل عليه نصوص الوثيقة هو العهد للسلطان الكامل ابن السلطان العادل.

محيي الدين عبد الرحيم البَيْسَاني ـ رسولاً من جهة السلطان الملك الكامل إلى الدِّيوان العَزيز. فعاد في صحبة رسول الخليفة(١)، وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجَوْزِي، ومعهما جماعةٌ من الأَجْنَاد. وأُعْطي ابنُ الجَوزِي مِحَفَّة تَمييزاً له.

ونُفِّذَ معهما تقليدٌ، من إنشاء الوزير أبي الأزهر: أحمد بن النَّاقِد(٢)، بِخَطِّ العَدْل ناصر بن رشيد الحَرْبَوِي(٣). وفي أعلاه بخط الوزير ما مثاله: للآراء المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالاً وتعظيماً ـ مزيد في شرفها في تتويجه. والعلامة المُسْتَنْصِرِيَّة عليه، تحت البَسْمَلَة: «اللَّهُ القاهرُ فوق عباده».

ونُسخةُ التقليد

بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله الذي اطْمَأَنَّت القلوبُ بذِكْرِه، وَوَجَبَ على الخلائق جَزِيلُ حمدِه وشكره، وَوَسِعَتْ كُلَّ شيء رَحمتُه، وظهرت في كلِّ أَمْر حِكْمَتُه. ودَلَّ على وَحْدانيته بعجائب ما أَحْكَمَهُ صُنْعاً وتَدْبِيراً، وخلق كُلَّ شيءٍ فَقَدَّره تَقْدِيراً ـ مُمِدَّ الشاكرين بِنَعْمَائِهِ التي لا تُحْصَى عَدَداً، وعَالِمَ الغَيْبِ الذي لا يُظْهِرُ على غَيْبِه أَحَداً. لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ في الإِبرام والنَّقْض، ولا يَؤُودُه حِفْظُ السمواتِ والأرض. تعالى أن يُحيطَ به الضَّمير، وجلَّ أن يَبْلُغَ وصفَه البيانُ والتفسير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وأَحْمَد اللَّهَ الذي أرسل محمداً ﷺ ـ بالحق، بَشِيراً ونَذِيراً. وداعياً إلى الله بإِذْنِهِ، وسِرَاجاً مُنِيراً، وابْتَعَثَهُ هادِياً للخَلْقِ، وأَوْضَحَ به مَنَاهِجَ الرُّشْدِ وسُبُلَ الحق. واصْطَفَاه من أشرف الأَنْسابِ وأَعَزِّ القبائل. واجْتَبَاه لإِيضاح البراهين والدلائل، وجعله لَدَيْهِ أعظمَ الشُّفعاء، وأقربَ الوسائل. فَقَذَف ﷺ بالحقِّ على الباطل. وحَمَلَ الناسَ بشريعتِه الهادِية على المَحَجَّةِ(٤) البيضاء والسَّنَنِ العادِل، حتى استقام اعوجاجُ كل زائغ، ورجع إلى الحق كلُّ حائِدٍ عنه ومائِل. وسَجَدَ لِلَّهِ كلُّ شيء يَتَفَيَّأُ ظلالُه عن اليمين والشمائل، صلى الله عليه وعلى آله وصحبِه الكرام الأفاضل، صلاةً مستمِرَّةً بالغُدُوَات والأَصائِل ـ

---

(١) الخليفة المقصود هو «المستنصر بالله» أي الخليفة الظاهر. مدة خلافته من ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٠٦.

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الناقد وزير الخليفة المستنصر ولقب مؤيد الدين وحسنت سيرته. وسار في وزارته أحسن سيرة، توفي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٠.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) المحجة: الطريق الممهد، الفيروزابادي: القاموس المحيط (حجج).

خُصوصاً على عَمِّه وصِنْوِ[١] أبيه: العباسِ بن عبد المطلب، الذي اشتهرت مناقبُه في المجامِع والمحافِل، ودَرَّت ببركة الاسْتِسْقَاءِ به أَخْلافُ[٢] السُّحُب الهواطِل، وفاز من تَنْصِيصِ الرسول ﷺ على عَقِبه، في الخلافة المُعَظَّمَة، بما لم يَفُزْ بِهِ أحدٌ من الأوائل.

والحمد لله الذي حازَ شريفَ مواريثِ النبوة والإمامة، وَوَفَّرَ جَزِيلَ الأقسام من الفضل والكرامة، لعبدِهِ وخليفتِه، ووارث نبيه ومُحْيِي شريعتِه: الذي أَحَلَّهُ الله عز وجلّ من مَعَارِجِ[٣] الشرف والجلال في أرفع ذِرْوة، وأَعْلَقَه من حُسْن التوفيق الإلٰهي بأمتن عِصْمة وأوثق عُرْوَة، واستَخْرَجَه من أشرف نجار[٤] وعُنصر، واختصه بأزكى مِنحة وأعظم مَفْخَر. ونَصَبَه للمؤمنين علَماً، واختاره للمسلمين إماماً وحَكَماً، وناط به أمرَ دينِه الحَنِيف، وجعله قائماً بالعدل والإنصاف بين القَوِيّ والضعيف: إمامِ المسلمين، وخليفةِ رب العالمين: أبي جعفر المنصور، المُسْتَنْصِر بالله، أمير المؤمنين، ابن الإمام السعيد التقيّ أبي نصر محمد: الظاهر بأمر الله ابن الإمام السعيدِ الوفِيّ أبي العباس أحمد: الناصِر لدين الله، ابن الإمام السعيدِ الزكي: أبي محمد الحسن المُسْتَضِيء بأمر الله، أمير المؤمنين - صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى آبائه الطاهرين، الأئمة المَهْدِيِّين، الذين قَضَوْا بالحق وبه كانوا يَعْدِلون. ولَقُوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ، وهم عنه راضُون.

وبعد: فَبِحَسْبِ ما أفاضَه اللَّهُ تعالى على أميرِ المؤمنين - صلواتُ الله عليه وسلامه - من خلافَتِه في الأرض، وفَوَّضَه إلى نظره المُقَدَّسِ في الأمور من الإبرام والنقْض، واستخْلَصه له من حِياطَة بلاده وعبادِه، وَوَكَلَهُ إلى شَرِيف نظره ومُقَدَّسِ اجتهاده - لا يزال صلوات الله عليه - يَكْلأُ العبادَ[٥] بعين الرِّعاية، ويسلُك بهم في المصالح العامة والخاصة مذاهبَ الرُّشْد وسُبُلَ الهداية، وينشر عليهم جناحَيْ عدْلِه وإحسانِه، ويُنْعِمُ لهم النظرَ في ارْتِيَادِ[٦] الأُمَنَاءِ الصُّلَحَاء، من خُلَصَاء أَكْفَائِهِ وأعوانه - مُتَخَيِّراً للاسْتِرْعَاء من استحْمَدَ إليه بمشْكُورِ المَسَاعِي وتَعَرَّفَ إليه في سياسة الرعايا بجميل الأسباب والدّواعي، وسَلَكَ في مَفروض الطاعة الواجبة على الخلائق قَصْدَ السبيل. وعلم منه حُسْنَ الاضطلاع في مصالح المسلمين بالعِبْءِ الثقيل، واللَّهُ عز وجل يُؤَيِّدُ آراءَ أمير

---

(١) الصنو: بالكسر: الأخ الشقيق. وهما صنوان: ابن منظور: لسان العرب (صنو).

(٢) أخلاف: جمع خلف: بالكسر: الضَّرع هو للناقة كالضرع للشاة. ابن منظور: لسان العرب (خلف).

(٣) عرج: ارتقَى والمعراج والمعرج: السُّلم والمصعد. ابن منظور: لسان العرب (عرج).

(٤) النِّجار: الأصل. ابن منظور: لسان العرب (نجر).

(٥) كلأه: حرسه. وكلأ بصره في الشيء: ردَّده. ابن منظور: لسان العرب (كلأ).

(٦) الرَّود: الطلب. والارتياد: الذهاب والمجيء. والرائد: المرسل في طلب الكلأ. ابن منظور: لسان العرب (كلأ).

المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ بالتأييد والتسديد. ويُمِدُّه أبداً من أقْسام التوفيق الإلٰهي بالموفور والمزيد، ويَقْرِن عزائمَه الشريفة باليُمْن والنجاح ويُسَنِّي له فيما يأتي ويَذَرُ أسبابَ الخير والصلاح. وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله ـ عليه يَتَوَكَّلُ وإليه يُنِيب.

وَلَما وَفَّقَ اللَّهُ تعالى نَصِيرَ الدين: محمد[١]، بن سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ من الطاعة المشهورة، والخِدَم المشكورة، والخُطْوَةِ في جهادِ أعداء الدين بالمساعي الصالِحة، والفوز من المَرَاضِي الشريفة الإمامية ـ أجلّها الله تعالى ـ بالمغانم الجزيلة والصَّفْقَةِ الرابحة ـ لِمَا وَصَلَ فيه سالِفَ شريفِ الاخْتِصَاصِ بآنِفِه. وشَفَعَ تالِدُه[٢] في تحصيل مأثور الاستخلاص بطارِفِه[٣]، واستوجب بسلوكه في الطاعة المفروضة مَزِيدَ الإكرام والتفضيل، وضَرَعَ في الإنعام عليه بمَنْشُور شريفٍ إمامي يَسْلُك في اتِّباعِه هُدَاه. والعمل بمراشده سَوَاءَ الصراطِ وقَصْدَ السبيل ـ اقتضت الآراء الشريفة المقدسة ـ زادها الله تعالى جلالاً مُتَألِّقَ الأنوار، وقُدْساً يتساوى في تعظيمه من هو مُسْتَخفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنهار ـ الإيعازَ بإجابتِه إلى ما وَجَّهَ أمَلَه إلى الإنافَةِ[٤] فيه به إليه. والجَذْبِ بضَبْعِه[٥] إلى ذِرْوَة الاجْتِبَاء الذي تظهرُ أشِعَّةُ أنواره الباهرة عليه.

فَقَلَّدَهُ ـ على خيرَةِ الله تعالى ـ الزَّعَامَةَ والصَّلاة، وأعمالَ الحرْبُ، والمَعَاوِنَ[٦] والأَحْدَاثَ[٧]، والخَراجِ والضِّياع، والصَّدَقَات والجَوَالِي[٨]، وسائرَ وجوه الجِبَايات،

---

(١) نصير الدين محمد هو الملك الكامل، زامباور: معجم الأنساب والأسرات ج ١، ص ١٥٣.

(٢) و(٣) التالد: القديم. والطارف: الجديد. ابن منظور: لسان العرب (تلد) و(طرف).

(٤) ناف: أشرف. وأناف عليه: زاد. ابن منظور: لسان العرب (نيف).

(٥) الضبع: العضد: ابن منظور: لسان العرب (ضبع).

(٦) المعاون: أموال تجبى من المدن. وعبارة القلقشندي: «وأمره بأن يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام ومعونتهم بما يقضي بلم شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والانتظام. ويفهم من هذه العبارة أن أصحاب المعاون كرجال الشرطة لأنهم يعاونون القضاة والحكام في إحضار الخصوم وأصحاب الدعاوي ويقومون بتنفيذ الأحكام بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٣٤.

(٧) الغرامات التي تؤخذ من مرتكبي الأحداث ورجل حدث أي شاب فإن ذكرت السن قلت: حديث السن. وهؤلاء غلمان حدثان أي أحداث يعني الشرطة غير الرسمية وكانت تستعمل في الشام خاصة، وعبارة القلقشندي: فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والأعشار، والضياع والجهبذة، والصدقات والجوالي وسائر وجوه الجبايات. وقال في موضع آخر: «وأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف». التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٦.

(٨) ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة. والجوالي جمع جالية، وتطلق على أهل الذمة، وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب. ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة، وإن لم يجلوا من أوطانهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ ومحيط المحيط لبطرس البستاني.

والفَرْضَ والعَطاء[١] والنفقة في الأولياء، والمَظَالم والحِسبة[٢] في بلاده، وما يفتتحه ويستولي عليه من بلاد الفرنج المَلاعِين، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقَصْده، من المارقين عن الإجماع المنعقد بين المسلمين، ومن يَتَعَدَّى حُدُودَ الله تعالى، بمخالفة من جُعِلَت الأعمالُ الصالحات بولائِه المفروض على الخلائق مَقْبُولة، وطاعتُه ـ ضاعف الله جلالَه ـ بطاعتِه وطاعةِ رسول الله ﷺ مَوْصُولَة، حيث قال: عَزَّ مِنْ قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ...﴾[٣].

واعْتَمَدَ ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ في ذلك على حُسْنِ نَظَره، ومَدَدِ رِعايته. وألقى مقاليدَ التفويض فيه إلى وُفور اجْتِهاده، وكمال سياسته. وخَصَّهُ من هذا الإنْعام الجزيل بما يَبْقَى له تعاقب الدهر واستمراره، ويُخَلِّدُ له على مَمَرِّ الزمان حُسْنَ ذكره وجزيلَ فَخاره. وحَبَاهُ بتقليدِ يُوَطِّدُ له قواعد الممالك، ويَفْتَحُ بإقْليده[٤] رِتَاجَ[٥] الأبواب والمسالك، ويُفِيدُ قاعدتَه في بلادِه زيادةَ تقريرٍ وتمْهيد، ويَطِيرُ به صيتُه في كل قريب وبعيد.

ووَسَمَه بالملك الأجلّ: السيدِ الكامِل، المجاهد المرابِط، نصيرِ الدين، ركن الإسلام، جمالِ الأنام، جلالِ الدولة فخْر الملة. عِزِّ الأمة. سنَد الخلافة. تاجِ الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، إلْب غَازِي بِكْ، محمد بن أبي بكر بن أيوب، معين أمير المؤمنين ـ رِعايةً لسوابق خِدَمه، وخِدَم آبائه وأسلافه، وإبانَةً عن وُفور احْتِبَائِهِ[٦]، وكَمال ازْدِلافِه[٧]. وإنافَةً به[٨] من ذِرْوَة القُرْب إلى مَحَلٍّ كريم، واختصاصاً له بالإحسان الذي لا تَلْقَاهُ إلا مَنْ هو ـ كما قال الله تعالى ـ ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت: ٣٥] ـ وُثُوقاً بصحة ديانته التي يسلك فيها سَواءَ سبيله، واستنامةً إلى أمانته في الخِدْمة التي يَنْصَحُ فيها لله تعالى ولرسوله. وركوناً إلى كون الإنعام عليه

(١) الفرض: تقرير الرواتب، والعطاء. صرف الرواتب المقررة.
(٢) الحِسبة: من تقاليدها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وظيفة دينية مهمة. وهي الإشراف على تنفيذ قوانين الشرح. ولما له علاقة بمصالح الناس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٢.
(٣) سورة النساء من الآية ٥٩. وتتمتها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.
(٤) إقليد: المفتاح. ابن منظور: لسان العرب (قلد).
(٥) الرتاج: الباب العظيم. والباب المغلق. ابن منظور: لسان العرب (رتج).
(٦) احتباء: اصطفاء. ابن منظور: لسان العرب (حبا).
(٧) ازدلاف: قربة وتقدمة. ابن منظور: لسان العرب (زلف).
(٨) إنافة: إعلاء له ورفعاً. ابن منظور: لسان العرب (نوف).

موضوعاً بحمد الله تعالى في أحسن مَوْضِع، وَاقِعاً به لَدَيْهِ في خير مُسْتَقرّ ومُسْتَوْدَع.

وأميرُ المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ لا زالت الخِيرَةُ موصولةً بآرائه، والتأييدُ الإلٰهي مقروناً بإنفاذِه وإمضائِه ـ يستمِدّ من الله عز وجل حُسْنَ الإعانةِ في اصطفائِه، الذي اقتضاه نظره الشريف واعتمادُه، وأدى إليه ارتيادُه المُقَدَّسُ الإمامي واجتهادُه. وحَسْبُ أمير المؤمنين اللَّهُ ونِعْمَ الوكيل.

أَمَرَهُ بتقْوَى اللَّهِ تعالى، التي هي الجُنَّةُ الواقية، والنِّعْمَة الباقية، والمَلْجأُ المَنِيع والعمادُ الرفيع، والذَّخِيرَةُ النافعةُ في السِّرِّ والنَّجْوَى، والجَذْوَةُ المُقْتَبَسَةُ من قوله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وأَنْ يَدَّرِعَ شِعَارَها في جميع الأقوال والأفعال، ويهتديَ بأنوارها في مُشْكِلاتِ الأمور والأحوال. وأَنْ يَعْمَل بها سرًّا وجهراً، ويَشْرَحَ للقيام بحدودها الواجهة صَدْراً. قال الله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[1].

وأَمَرَهُ بتلاوةِ كتاب الله مُتَدَبِّراً غوامِضَ عجائبه، سالِكاً سَبِيلَ الرَّشادِ والهِدَايةِ في العَمَل به. وأن يجعله مِثَالاً يتَّبِعُه ويَقْتَفِيه، ودَلِيلاً يهْتَدِي بمراشده الواضحة في أوامره ونواهِيه. فإنه الثُّقْلُ الأعظم، وسَبَبُ الله المُحْكَم، والدليلُ الذي يَهْدِي لِلَّتِي هي أَقْوَمُ. ضَرَبَ اللَّهُ تعالى فيه لعباده جوامع الأمثال، وبَيَّنَ لهم بهُداه الرُّشْدَ والضلال. وفَرَّقَ بدلائله الواضحةِ وبراهِينِه الصادِعة بين الحَرَام والحلال. فقال ـ عَزَّ مِنْ قائل: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وقال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩].

وأَمَرَهُ بالمحافظة على مفروض الصَّلَوات، والدخول فيها على أكمل هَيْئَة من قوانين الخُشوع والإِخْبَات. وأن يكون نظرُه في موضع نَجْواه من الأرض، وأن يُمَثِّلَ لنفسه في ذلك مَوْقِفَه بين يَدَيْ الله تعالى يوم العَرْض. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢﴾. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾. وأن لا يشتغلَ بشاغل عن أداء فُروضها الواجبة، ولا يلهوَ بسببٍ عن إقامة سُنَنِها الراتبة، فإنها عمادُ الدِّين الذي سَمَتْ أعاليه، ومِهَادُ الشَّرْع الذي رَسَتْ قواعدُه ومبانيه. قال الله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2].

(١) سورة الطلاق، من الآية ٥، وأولها: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ...﴾.
(٢) سورة العنكبوت من الآية ٤٥. والآية هي: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾.

وأَمَرَهُ أن يَسْعَى إلى صلوات الجُمَعِ والأَعْيادِ. ويقومَ في ذلك بما فَرَض الله تعالى عليه وعلى العباد. وأن يتوجهَ إلى المساجِدِ والجوامِع متواضِعاً، ويبرز إلى المُصَلَّياتِ الضاحِية في الأعياد خاشِعاً. وأن يحافِظَ في تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمَنْدُوب. ويُعَظِّمَ باعْتِمَادِ ذلك شعائرَ اللّهِ التي هي من تَقْوَى القُلُوب. وأن يَشْمَل بوافِر اهتمامه واعتنائِه، وكمالِ نظره وإرْعَائِه، بُيُوتَ الله التي هي مَحَالُّ البَرَكَات ومواطن العبادات، والمساجدَ التي تَأَكَّدَ في تعظيمها وإجلالها حُكْمُه والبُيُوتَ التي أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُه. وأن يُرَتِّبَ لها من الخَدَم من يَتَبَتَّلُ[١] لإزالة أَدْناسِها. وَيَتَصَدَّى لإِذْكاءِ مصابيحها في الظلام وإيناسِها. ويقومُ لها بما يحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات. ويُحْضرُ إليها ما يليق من الفرش والكُسُوَات.

وأَمَرَهُ باتِّباع سُنَّة النبي ﷺ التي أوضح جَدَدَها[٢] وَثَقَّفَ ـ عليه السلام ـ أَوَدَها[٣]. وأن يعتمدَ فيها على الأسانيد التي نقلها الثِّقَات. والأحاديثِ التي صَحَّتْ بالطُّرُق السليمة والروايات. وأن يَقْتَدِيَ بما جاءت به من مكارِم الأخلاق، التي ندب ﷺ إلى التمسك بِسَبَبِها، ورَغَّبَ أُمته في الأَخْذِ بها والعمل بأَدَبِها. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٥].

وأَمَرَهُ بمُجالسةِ أَهْل العلم والدين، وأُولِي الإخلاص في طاعة الله تعالى واليَقِين. والاستشارة بهم في عوارِض الشك والالْتِبَاس. والعمل بآرائهم في التَمْثِيل والقِياس. فإن في الاستشارة بهم عَيْنَ الهِداية، وأَمْناً من الضَّلال والغِواية. وبها يُلْقَح عُقْمُ الأَفْهام والأَلْبَاب، ويُقْتَدَح زِنادُ الرُّشد والصواب. قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها، والأمر في التمسك بحَبْلها: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

وأَمَرَهُ بمراعاة أحوال الجُنْد والعسكر في ثُغُوره، وأن يشملَهم بحُسْن نظره وجميل تدبيره. مستصلحاً نِيَّاتِهم بإدامة التلطف والتعهد، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التَّفَحُّص عنها والتَّفَقُّد. وأن يَسُوسَهم سياسةً تبعثُهم على سلوك المَنْهَجِ السليم. وتَهْدِيهم في انتظامها واتِّسَاقِها إلى الصراط المستقيم. وتَحمِلُهم على القيام بشرائط الخِدَم.

---

(١) يتبتل: أي من ينقطع ويخصص نفسه لخدمتها. ابن منظور: لسان العرب (بتل).

(٢) جددها: أي طريقها. ابن منظور: لسان العرب (جدد).

(٣) أودها: العوج. أي يسر الصعاب. ابن منظور: لسان العرب (أود).

(٤) سورة الحشر، من الآية ٧ وتتمتها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

(٥) سورة النساء، من الآية ٨٠ وتتمتها: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

والتَّلَزُّمِ بها بِأَقْوَى الأسباب وأَمْتَنِ العِصَم. ويدعوهم إلى مَصْلَحَةِ التواصل والائتلاف. ويصدهم عن مُوجِبات التخاذُلِ والاختلاف. وأن يَعْتَمِدَ فيهم شرائط الحَزْم في الإعطاءِ والمَنْع. وما تقتضيه مصلحَةُ أحوالهم من أسباب الخَفْضِ والرَّفْع. وأن يُثيبَ المُحْسِنَ منهم على إحسانه، ويُسْبِلَ على المُسِيء - ما وَسِعَهُ العَفْو واحْتَمَلَ الأَمْر - صَفحه وامتنانه. وأن يأخذ برأي ذوي التجارب منهم والحُنْكة، ويَجْتَني بمشاورتهم في الأمر ثَمَرَ الشِّرْكة. إذ في ذلك أَمْنٌ من خطأ الإفراد وتَزَحْزُحٌ عن مَقَامِ الزَّيْغِ والاسْتِبْدَادِ.

وأَمَرَهُ بالتَّبَتُّلِ[١] لما يليه من البلاد ويَتَّصِلُ بنواحيهِ من ثُغُور أولي الشرك والعناد. وأن يَصرف مَجَامِعِ الالتفات إليها. ويخُصَّها بوفور الاهتمام بها والتطلع عليها. وأن يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقِلِ بالإحكام والإتقان. وينتهي في أسباب مصالحها في غاية الوُسْعِ ونهاية الإمكان، وأن يَشْحَنَها بالمِيرَة[٢] الكثيرة والذخائر، ويمدها من الأسلحَة والآلات بالعَدَدِ المستصلح الوافر، وأن يتخير لحراستها من يختاره من الأمناء الثُّقَاة، ويسدها بمن ينتخبه من الشجعان الكُماة[٣]. وأن يتأكد عليهم في أسباب الحَيْطة والاستظهار، ويوقظهم للاحتراس من غَوائل الغَفْلةِ والاغترار. وأن يكون المُشَار إليهم ممن تَرَبَّوا في ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد وتدربوا في نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمَرَاصد، وأن يعتمد هذا القَبِيل بمواصلة المَدَد وكثرة العدد، والتوسعة في النفقة والعطاء، والعمل معهم بما يقتضيه حالُهم وتفاوتُهم في التقصير والغَنَاء. إذ في ذلك حَسْمٌ لمادَّةِ الأَطْماع في بلاد الإسلام، وردٌ لكيد المعاندين من عَبَدَةِ الأصنام.

فمعلومٌ أن هذا الغَرَض أوْلى ما وُجِّهَتْ إليه العنايات وصُرِفَتْ، وأحقُّ ما قُصِرَت عليه الهمم ووُقِفَتْ. فإن الله تعالى جعله من أهل الفُروض التي أَلْزَمَ فيها القيامَ بحقه، وأكبر الواجباتِ التي كَتَبَ العملَ بها على خَلْقِه. فقال سبحانه وتعالى - هادياً في ذلك إلى سبيل الرشاد، ومُحَرِّضاً لعباده على قيامهم له بفروض الجهاد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ[٤] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

(١) التبتل: الانقطاع. ابن منظور: لسان العرب (بتل).
(٢) الميرة: المؤن والأقوات. ابن منظور: لسان العرب (مير).
(٣) الكماة: مفردها: كمي. وهو الشجاع. ابن منظور: لسان العرب.
(٤) مخمصة: مجاعة. ابن منظور: لسان العرب (مخص).

مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾. وقال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[1]. وقال النبي ﷺ: «مَنْ نَزَلَ منزِلاً يُخِيف فيه المشركين ويُخيفونه، كان له كأَجْرِ ساجد لا يَرْفَعُ رأسَه إلى يومِ القيامة، وأَجْر قائم لا يَقْعُدُ إلى يوم القيامة، وأجْرِ صائم لا يُفْطِر».وقال عليه السلام: «غُدْوَةٌ في سبيلِ الله أو رَوْحةٌ خَيرٌ مما طَلَعَتْ عليه الشمس». هذا قوله ﷺ في حق من سَمِعَ هذه المَقالَة فوقف لَدَيْها. فكيف بمن كان كما قال عليه السلام: «أَلَا أُخْبِرُكُم بِخَيْرِ الناس: مُمْسِكٌ بعِنَانِ فَرَسِه في سبيل الله، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً[2] طارَ إليها».

وأَمَرَهُ باقتفاءِ أوامر الله تعالى في رعاياه، والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان بمراشده الواضحة وَوَصاياه، وأن يَسْلُكَ في السياسة بهم سُبُلَ الصلاح، ويشملهم بلين الكَنَف وخَفْضِ الجَناح. ويَمُدَّ ظِلَّ رِعايته على مُسْلِمِهِم ومُعَاهِدِهِمْ، ويُزَحْزِحَ الأَقْذاءَ والشَّوَائِب عن مَناهِلِهِم في العَدْل ومَوَارِدِهم. وينظر في مَصالِحِهم نَظَراً يُسَاوِي بين الضعيف والقوي، ويَقومَ بأَوَدِهم قِياماً يَهْتَدِي به ويَهْدِيهم فيه إلى الصِّراط السَّوِيّ. قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

وأَمَرَهُ باعتماد أسباب الاسْتِظْهَارِ والأَمَنَة، واستقصاء الطاقةِ المُسْتَطَاعةِ والقُدْرَة المُمْكِنَة، في المساعدة على قضاء تَفَثِ[3] حُجَّاجِ بيت الله الحَرام وزُوَّار نَبِيِّه - عليه أفضل الصلاة والسلام. وأن يُمِدَّهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المَرَام، ويَحرُسَهم من التّخطُّفِ والأذى في حالتي الظَّعْنِ والمُقَام. فإن الحَجَّ أحد أركان الدين المُشَيَّدَة وفروضه الواجبة المُؤَكَّدة. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾[4].

وأَمَرَهُ بتَقْوِيَةِ أيدي العاملين بحُكْمِ الشرع في الرَّعايا، وتنفيذ ما يَصْدُرُ عنهم من الأَحكام والقضايا، والعمل بأقوالِهم فيما يَثْبُتُ لذوي الاستحقاق، والشَّدِّ على أيديهم فيما يَرَوْنَه من المَنْع والإطلاق. وأنه متى تأخر أحدُ الخَصْمَيْنِ عن إجابة داعي الحُكْم، أو تَقاعَس في ذلك لما يلزم من الأداء والغُرْم - جَذَبَه بعِنان القَسْر إلى مجلس الشَّرْع،

(١) حيث وجدتموهم. ابن منظور: لسان العرب (ثقف).
(٢) هيعة: صوت يعبر عن الخوف. ابن منظور: لسان العرب (هيع).
(٣) تفث: أي مناسك الحج. ابن منظور: لسان العرب (تفث).
(٤) سورة آل عمران من الآية ٩٧ وتتمتها: ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾.

واضطره بقُوة الإنصافِ إلى الأداء بعد المَنْع. وأن يَتَوَخَّى عُمَّال الوُقُوفِ التي تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبون بها، واستمسكوا في ظل ثوابِ الله بمتِينِ سَبَبِها، وأن يمدهم بجميلِ المعاونة والمساعدة وحُسْنِ المُوَازَرَة والمُعَاضَدَة، في الأسباب التي تُؤْذِنُ بالعَمَار والاسْتِنْماءِ، وتعود عليها بالمَصلحة والاستخلاص والاستِيفاء، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ...﴾[1].

وأَمَرَهُ أن يَتَخَيَّرَ من أولي الكِفاية والنزاهة من يَسْتَخْلِصُه للخِدَم والأعمال، والقيام بالواجب من أداء الأمانة والحِراسة والتَّثْمِيرِ، لبيت المال، وأن يكونوا من ذوي الاضطلاع بشرايط الخِدَم المُعَيَّنَةِ وأمورها، والمُهْتَدِين إلى مسَالِكِ صَلاحِها وتَدْبِيرِها. وأن يَتَقَدَّمَ إليهم بأخْذِ الحقوق من وجوهها المُتيَقِّنة، وجبايتها في أوقاتها المُعَيَّنَة، إذْ ذاك من لوازم مَصَالِح الجُنْد ووُفُور الاسْتِظْهار، وموجبات قُوَّةِ الشَّوْكَةِ بكثير الأعوان والأنصار، وأسباب الحَيْطَةِ التي يُحْمَى بها البلاد والأمصار. ويأمرهم بالجَرْيِ في الطُّسُوق[2] والشُّروط على النَّمطِ المُعْتَاد، والقيامِ في مَصَالح الأعمال أقدام الجِدِّ والاجتهاد. وإلى العاملين على الصَّدَقَات بأخذ الزَّكَوَات على مشروع السَّنن المَهِيع[3]، وقَصْدِ الصِّراط المُتَّبَع، من غير عُدُولٍ في ذلك عن المِنهاج الشرعي، أو تساهُلٍ في تبديل حُكْمِها المفروض وقانونها المَرعي فإذا أُخِذَتْ من أربابها الذين يَطْهُرُون ويزكُّونَ بها سَعَى في العمل في صَرْفِها إلى مستحِقِّيها بحُكْمِ الشريعة النبوية ومُوجِبها. وإلى جُباة الجِزْيَةِ من أهلِ الذِّمَّة بالمطالبة بأدائها في أول السَّنَة، واستيفائها منهم على حَسَبِ أحوالهم بحُكْم العادة في الثَّرْوَة والمَسْكَنَة. إجْراءً في ذلك على حُكْمِ الاستمرار والانتظام، ومُحَافَظَةً على عظيمِ شَعائرِ الإسلام.

وأَمَرَهُ أن يَتطَلَّعَ على أحوال كل من يستَعْمِلُه في أَمْرٍ من الأُمور، ويُصَرِّفُه في مَصْلَحَةٍ من مَصالح الجُمْهُور، تَطَلُّعاً يقتضي الوُقوف على حقائق أَماناتهم، ويُوجِبُ تَهْذِيبَهم في حَرَكَاتهم وسَكَنَاتِهم، ذَهاباً مع النُّصْح لله تعالى في بَرِيَّتِه، وعَمَلاً بقول النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِه».

وَأَمَرَهُ أن يَسْتَصْلِحَ من ذَوي الاضطِلاع والغَنَاء، مَن يُرَتِّبُ للفَرْضِ والعَطاء، والنَّفَقَةِ في الأَوْلِياءِ، وأن يَكونوا من المَشهورين بالحَزْم والبَصِيرَة، والمَوْسُومِين في

(١) سورة المائدة من الآية ٢ وتتمتها: ﴿...وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.
(٢) الطسوق: ج طسق: وهو شبه الخراج له مقدار معلوم. ابن منظور: لسان العرب (طسق). القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٦٤.
(٣) الطريق الظاهر: البيّن. ابن منظور: لسان العرب (هيع).

المُنَاصَحَة بإخلاص الطَّوِيَّة وإصفاء السَّرِيرة، حَالينَ من الأمانة والصَّوْنِ بما يَزِين. نَاكِبِينَ عَنْ مَظَانِّ الشُّبَه والطمع الذي يَصمُ ويَشِين. وأن يأمُرَهم باتِّباع عادات أَمْثالهم في ضَبْطِ أسماء الرجال، وتَحْلِيَةِ الأشخاص والأشكال واعتبار شِيَاتِ[1] الخُيول وإثبات أعدادها، وتحريض الجُنْد على تَخَيُّرِها واقتناء جِيادِها. وبَذْلِ الجهد في قيامهم من الكُرَاع[2] والبَرْكِ[3] والسِّلاح بما يَلْزَمُهم، والعمل بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[4] فإذا نَطَقَتْ جَرَائِدُ[5] الجُنْدِ المذكورين بما أُثْبِتَ لَدَيْهِم، وحَقَّقَ الاعتبارُ والعَيانُ قِيامَهم بما وَجَبَ عليهم، أُطْلِقَتْ لهم المَعَايِش والأَرْزَاقَ بحسب إقْرَارَاتِهم، وأُوْصِلَتْ إليهم بمُقْتَضَى واجباتِهم واستحْقَاقَاتِهم. فإن هذه الحال أصل حِراسَةِ البلاد والعباد، وقِوَامُ الأَمْرِ فيما أوجبه الله تعالى من أمر الاستعداد بفَرْضِ الجِهاد. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأَمَرَهُ بتفويض أمر الحِسْبَة إلى من يكون بأمرها مضطَلِعاً، وللسنة النبوية في إقامة حدودها مُتَّبِعاً. فيَعْتَمِدُ في الكَشْفِ عن أحوال العَامَّةِ في تصرفاتها الواجِبُ. ويَسْلُكُ في التطلع على مُعَاملاتهم السَّبِيلَ الواضح والسُّنَن اللاحِب[6]، ويَأْتِيهم في الأَسواق لاعتبار المكاييل والمَوَازين، ويَعْتَمِدُ في مؤاخَذَة المُطَفِّفِين[7] وتأديبهم بما تقتضيه شَرِيعَةُ الدين، ويُحَذِّرُهم في تَعَدِّي حُدود الإنصاف شِدَّة نَكَالِهِ، ويُقَابِلُ المستَحِقَّ للمؤاخذَة بما يَرْتَدِع به الجمعُ الكثيرُ من أمثاله. قال الله تعالى: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣]. وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

---

(١) شيات: علامات. ابن منظور: لسان العرب (شية).

(٢) الكراع: الخيل.

(٣) البرك: الحاجات. ابن منظور: لسان العرب (برك).

(٤) سورة الأنفال، جزء من الآية ٦٠ وتتمتها: ﴿...وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

(٥) الجريدة: الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها. وأوردها القلقشندي: «وإن كان ناظر جيش وصي بالاحتياط في أمر ديوانه، والوقوف على معالم هذه المباشرة، وجرائد الجند والإقطاعات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٣. ومحيط المحيط لبطرس البستاني.

(٦) اللاحب: الطريق الواضح. ابن منظور: لسان العرب (لحب).

(٧) طفَّف: زاد أو نقص المكيال عن القدر الحلال. ابن منظور: لسان العرب (طفف).

فَلْيَتَوَلَّ الملكُ الأَجَلُّ، السيدُ الكامِلِ المُجاهِد المُرَابِط، نصيرُ الدين رُكْنُ الإسلام أَثِيرُ الإمام، جَمال الأنام، جلال الدولة، فَخْر المِلة عِزُّ الأُمة، سَنَدُ الخِلافة، تاجُ الملوك والسلاطين، قامعُ الكَفَرة والمُشْركين، قاهِرُ الخَوَارج والمتمردين، أميرُ المجاهدين: أَلْب غَازِي بِكْ معينُ أمير المؤمنين - ما قَلَّدَه عبدُ الله وخليفتُه في أَرْضه، القائمُ له بحقِّه الواجب وفَرْضه: أبو جعفر المنصور «المُسْتَنْصِر بالله» أمير المؤمنين - بقلب مطمئن بالإيمان، ونُصْحِ لله تعالى ولخليفته - صلوات الله عليه - في السر والإعلان ولْيَشْرَحْ بما فَوَّضَ إليه من هذه الأمور صَدْراً، ولْيَقُمْ بالواجبِ عليه من شُكْرِ هذا الإنعام الجَزِيل سرًّا وجَهْراً. ولْيَعْمَلْ بهذه الوَصايا الشريفة الإمامية، ولْيَقْتَفِ آثار مَرَاشِدِها المُقَدَّسة النَبوية. ولْيُظْهِرْ من أثر الجدِّ في هذا الأمْرِ والاجتهاد، وتحقيقِ الظن الجميل فيه والإرشاد - ما يكونُ دَليلاً على تأيد الرأي الأشرف المقدس - أَجَلَّه الله تعالى - في اصطناعه واستِكْفَائِهِ، وإصابة مواقع النُّجْحِ والرُّشْدِ في التفويض إلى حسن قيامِه وكَمال غنَائِه ولْيَقْدِرِ النِّعْمة عليه في هذه الحال حَقَّ قَدْرِها، ولْيَمْتَرِ[1] - بأداء الواجب عليه من جَزيل الشكر - غَزِيرَ دَرِّهَا، ولْيطَالِعْ مع الأوقات بما يُشْكِلُ عليه من الأمور الغَوَامِض. ولْيُنْهِ إلى العُلُوم الشريفة المقدسة - أَجَلَّها الله تعالى - ما يَلْتَبِسُ عليه من الشكوك والعَوَارِض. لِيَرِدَ عليه من الأَمْثلة ما يُوَضِّحُ له وَجْهَ الصَّواب في الأمور، ويُمَدَّ من المَرَاشِد الشريفة التي هي شِفاء لما في الصدور، بما يكون ورودُه عليه، وتتابعُه إليه، نُوراً على نُور - إن شاء الله تعالى.

وكُتِب في شهر رجب من سنة ثلاثين وسِتمائة. والحمدُ لله رب العالمين. وصلواتُه على سيدنا محمدٍ النبي الأُمِّي، وآلِه الطاهرين.

وفي هذه السنة، فُتِحَت دارُ الحديث الأَشْرَفِيَّة[2] المجاورة لقلعة دمشق المَحروسة، ليلة النصف من شعبان، وأَمْلَى بها الشيخُ الإمام العلامة: تَقِي الدين بن الصَّلاح الشافِعي[3]. وَوَقَفَ عليها الملكُ الأشرف أوقافاً جليلة.

---

(١) وليمتر: أي جلب لهم الطعام. ابن منظور: لسان العرب (امتار).

(٢) دار الحديث الأشرفية: بناها الملك الأشرف موسى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٩.

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن موسى أبي نصر، الإمام المفتي تقي الدين أبو عمرو ابن الإمام البارع صلاح الدين النصري الكردي الشهرزوري الشافعي المعروف بابن الصلاح. كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه درّس بالمدرسة الناصرية بالقدس ولما بنى الملك الأشرف دار الحديث بدمشق، فوّض تدريسها إليه. ولد سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م وتوفي سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٣ - ٢٤٥. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٣.

ذكر ركوب الملك العادل[١] بِشِعَار السَّلْطَنَة

وفي الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء، ثامن عشر شهر رمضان، من هذه السنة - سَلْطَنَ السلطانُ الملكُ الكامل وَلَدَه الملكَ العادلَ سيفَ الدين أبا بكر، وركَّبَهُ في هذه الساعة بشِعارِ السَّلْطَنَةِ. وشَقَّ القاهرة، وفي خدمته جميعُ الأمراء والقضاة وأصحاب الدواوين والأماثِل وغيرهم.

وفيها - في صفر - تسلم رَاجِح بن قَتادة مكة - شرَّفها الله تعالى - وكان قد قَصَدَها في سنة تسع وعشرين، وصحبتُه عسكر صاحبِ اليمن: الملك المنصور عُمَر بن عليّ بن رَسُول. وكان الأمير فخر الدين ابن الشيخ بمكة، ففارقها.

وفيها كانت وفاة الملك العزيز: فخر الدين عثمان ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وهو شَقِيقُ الملك المعظم. وكان صاحب بانْياس وتِبْنِين وهُونِين والحُصُون. وهو الذي بنى قلعة الصُّبَيْبَة.

وكان عاقلاً قليل الكلام، مُطيعاً لأخيه الملك المعظم، وإنما أخرجه عن موالاة ولدِه - الملكِ الناصر داود - أنه كان قَصَدَ بعلبك في سنة خمس وعشرين وستمائة، بمواطَئَةٍ من ابن الملك الأَمْجد صاحبها - كما تقدم - فلما فاته وقتُ الميعاد، الذي اتفقا عليه، نزل على بعلبك، وأخذ في حِصارها. فأرسل الملك الأمجدُ إلى الملك الناصر يقول له: أنت تعلم ما كان بيني وبين والدك الملك المعظم من المودة، وأنني كنت صديقَ من صادَقَه وعدُوَّ من عاداه، فَرَحِّلْ عني الملك العزيز.

فأنفذ الملكُ الناصرُ داود الغَرْس خَلِيلاً إلى المِلك العزيز، وأَمَرَه بالرحيل. وقال له: متى لَمْ يَرْحَلْ، ارْمِ خَيْمَتَه على رأسِه! فرحل العزيزُ إلى بانْياس وأَوْجَبَت هذه الحادثةُ غضبَه، إلى أن التحق بالملك الكامل، وجاء معه إلى دِمشق - كما تقدم.

وكانت وفاة الملك العزيز في يوم الاثنين، عاشر شهر رمضان، سنة ثلاثين وستمائة، ببستانه في النَّاعِمَة، ببَيْتِ لِهْيَا[٢] من غُوطَةِ دمشق. ودفن بقاسِيون في تربة الملك المُعَظَّم، عند والدته - رحمه الله تعالى.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي ج ١/ ٢، ص ٢٦٧، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣٦٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٣٦، وشفاء القلوب للحنبلي، ص ٣٦٥، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٨٤. وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٦٨، ومفرج الكروب، ج ٣، ص ٣١٤.

(٢) لهيا: ضبطها ياقوت الحموي بالفتح ثم السكون: موضع على باب دمشق يقال له بيت لَهْيَا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣.

وفيها، في يوم الاثنين، سابع عشر شهر ربيع الأول، تُوفي بالقاهرة الشيخ جلال الدين أبو العَزَائِم: هَمَّام بن رَاجِي الله سَرَايا بن أبي الفتوح ناصر بن داود الشافعي: إمام جامع الصالح، بظاهر باب زُوَيْلَة(١).

رَحَلَ إلى بغداد واشتغل بها مدة، وسَمِعَ الحديث، واشتغل بالأدب بمصر على ابن بَرِّي(٢) ولقي جماعةً من الأدباء، وصنّف كتباً كثيرة في الأُصول والفروع والخِلاف، مُخْتَصَرة ومُطَولة. وله شِعر. ومولده بُونَا من صَعِيد مصر، في ذي القَعدة أو ذي الحِجَّة سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة رحمه الله. ولما مات، وَلِيَ الإمامةَ بالجامع الصالِحي بعده ولدُه: نور الدين علي.

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبي حفص: عمر بن محمد بن عبد الله السُّهْرَوَرْدِي(٣) وهو ينتسب إلى أبِي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فيما قيل. وذكر ابن خِلِّكَان أن وفاتَه كانت في مُسْتَهَلِّ ذي الحِجة، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. ومولده بِسُهْرَوَرْد، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. وقد تقدم ذكرُ تردّده في الرِّسالة، من جهة الخليفة إلى الملك العادل، وغيره، وكان رجلاً صالحاً عابداً، زاهداً وَرِعاً. وصَنَّفَ كِتاباً للصوفية، سماه عَوَارِف المَعَارِف.

وحُكِيَ أنه جلس يوماً ببغداد على مِنْبَر وعظه، فذكر أحوال القَوْمِ، وأَنْشَدَ: [من البسيط]

ما في الصِّحاب أَخُو وَجْدٍ نُطَارِحُه حَدِيثَ نَجْدٍ، ولا صَبٌّ نُجَارِيه

وجعل يُرَدِّدُ البيتَ ويَطْرَب! فصاح به شابٌ من طَرَف المجلِس ـ عليه قَبَاءٌ وكلُّوتَة(٤) ـ وقال: يا شيخُ، كم تَشْطَحُ وَتَنْتَقِصُ القَوْمَ! والله إن فيهم من لا يرضى أن يُجَارِيَك، ولا يصل فهمُك إلى ما تقول! هلا أَنْشَدْتَ: [من البسيط]

---

(١) هو الباب الجنوبي لمدينة القاهرة. سبق شرحه. انظر ص ٨٨ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بَرِّي (بفتح الباء) بن عبد الجبار بن بري المقدسي الأصل المصري، الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية وله على كتاب «الصحاح» للجوهري حواشٍ فائقة أتى منها بالغرائب واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه، وكان يتصفح في ديوان الإنشاء، لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلا بعد أن يتصفحه ويصحح ما فيه من خلل خفي. ولد سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥م. وتوفي سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ رقم ٣٥٣.

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٧، ص ٣٢٣. وانظر أيضاً صفحة ٤٤ من هذا الجزء (سبق شرحه) حاشية رقم (٣).

(٤) غطاء للرأس تشبه الطاقية. سبق شرحه: انظر ص ٦٣ من هذا الجزء، حاشية رقم (٣) و(٤).

ما في الصحاب، وقد سارت حُمُولُهُمُ ... إلا مُحِبٌّ له في الركب مَحْبُوبُ
كأنما يُوسفٌ في كل رَاحِلَةٍ ... والحَيُّ في كل بَيْتٍ منه يَعْقُوبُ

فصاح الشيخ، ونزل عن المِنبر وقصد الشاب، ليَعْتَذِرَ إليه. فلم يَجدْه. ووجد في موضعه حُفْرَةً فيها دم. مما فَحَصَ برجْلِه عند إنشاد الشيخ البيت!.

وفيها توفي الشيخُ الفاضل: عز الدين أبو الحسن علي، بن أبي الكَرَم محمد بن محمد بن عبد الكريم، بن عبد الواحد الشَّيْبَانِي ـ المعروف بابن الأَثِيرِ الجَزَرِي(١). وكانت وفاته في هذه السنة من شعبان. ومولده في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، بجزيرة ابن عُمَر(٢).

وكان رجلاً فاضِلاً، صنَّفَ في التاريخ كتاب «الكامِل» من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة. وهو من أَجْوَدِ التواريخ التي رأَيْناها. واختصر كتاب «الأَنْساب» لأبي سعيد عبد الكريم بن السَّمْعَانِي، واسْتَدْرَكَ عليه في مواضع، ونَبَّهَ على أَغالِيطَ، وزاد أشياء. وهو كتابُ مفِيدٌ في ثلاث مُجَلَّدَات وأصلهُ في ثمانية، وهو عزيزُ الوجود. وفضائلُه وآدابه مشهورة ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، [في شهر ربيع الأول](٣) كانت وفاة شرف الدين أبي المحاسن: محمد بن نَصْر بن مَكَارِم بن الحسن بن علي بن محمد بن غالب الأَنْصَارِي، المعروف بابن عُنَيْن(٤) ـ الكُوفي الأصل، الدِّمَشْقِي المولِد. وقيل بل هو من زُرَع من إقليم حَوْرَان.

نشأ في دمشق، وسافر عنها، وطَوَّفَ البلاد شرقاً وغرباً. ودخل بلاد الجَزِيرة والروم والعراق وبغداد وخُراسان وما وراء النهر، وبلاد الهند واليمن والحجاز ومصر. ومدح ملوك هذه الأماكن وأَعْيَانَها.

وكان ظريفاً حسن الأخلاق جميل العِشرة. غزير المادّةِ في الشِّعر، مُولَعاً في الهِجَاء وثَلْبِ أَعْرَاضِ الناس ـ خصوصاً الأكابر. وله قصيدة طويلة جمع فيها خَلْقاً كثيراً من رؤساء الشام وأهل دمشق، سماها: «مِقْراض الأَعْرَاض»، يقال إنها خمسمائة بيت.

---

(١) هو المؤرخ المشهور: ابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ. ترجمته وأخباره في ذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٦٢. وفيات الأعيان لابن خلكان، والأعلام للزركلي ط ٢، مصر، ج ٥، ص ١٥٣. وعبر الذهبي ج ٥، ص ١٢٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٣٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٠.

(٢) ورد ذكرها سابقاً، انظر صفحة ١١١ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٥٠.

(٤) ترجمته وأخباره في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ١٤ ـ ١٥، رقم (٦٨٤). والنجوم الزاهرة ج ٦، ص ٢٥٠. انظر مقدمة ديوان ابن عنين.

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد نَفَاه من دمشق، بسبب وُقوعِه في الناس، ولما نُفِي كَتَب من الهند إلى دمشق: [من الكامل المرفل]

فعَلامَ أَبعَدْتُمْ أخا ثِقَةٍ ... لم يَجْتَرِمْ[1] ذَنْباً ولا سَرَفَا
انْفُوا المُؤَذِّنَ من بِلادكم ... إنْ كانَ يُنْفَى كُلُّ من صَدَقَا[2]

ولما مات الملك الناصر صلاح الدين، ومَلَك الملكُ العادل دمشق سار متوجهاً إلى الشام. وكتب إلى الملك العادل قَصِيدَتَه الرَّائِيَّة. واستأْذَنَهُ في الدخول إلى دمشق. ووصفها وصف ما قاسى في الغُرْبَة. ولما فرغ من وصف دمشق وأنهارها وبساتِينها ومُستَنْزَهَاتِها، قال في قصيدته: [من الكامل]

فارَقْتُها لا عن رِضًى، وهَجَرْتُها ... لا عن قِلًى، ورَحَلْتُ لا مُتَحَيِّرا
أَسْعَى لرِزْقٍ في البلاد مُشَتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مُقَتَّرا
وأَصونُ وجْهَ مدائحي مُتَقَنِّعاً ... وأَكُفُّ ذَيلَ مطامعي مُتَسَتِّرا

جاء منها في شَكْوَى الغُرْبَة، وما قاساه منها: [من الكامل]

أشكو إليك نَوًى تَمادَى عُمُرها ... حتى حسِبت اليومَ منها أَشْهُرا
لا عِيشتي تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى ... يَعْفُو، ولا جَفْنِي يُصافِحُه الكَرَى
أُضْحي عن الأَحْوَى المَريع مُحَلأً[3] ... وأَبِيتُ عن وِرْدِ النَّمِيرِ[4] مُنَفَّرَا
ومن العجائب أَنْ تَفَيَّأ[5] ظلَّكُمْ ... كُلُّ الوَرَى، ونُبِذْتُ وَحْدِي بالعَرَا

فلما وقف العادلُ على هذه القصيدة، أَذِنَ له في الدخول إلى دمشق، فدخلها.
وقال: [من المتقارب]

هَجَوْتُ الأكابرَ في جِلَّقٍ[6] ... ورُعْتُ الوَضِيعَ بسَبٍّ[7] الرَّفِيع
وأُخْرِجتُ منها، ولكنني ... رَجَعْتُ على رَغْمِ أَنْفِ الجَمِيع

---

(١) لم يجترم: أي لم يقترف. ابن منظور: لسان العرب (جرم).
(٢) انظر ديوان ابن عُنين ص ٩٤.
(٣) حلأه عن الماء: طرده ومنعه. الفيروزابادي: القاموس المحيط (حلا). والأحوى: الأرض المخضرة أو المرعى: أي أن يضحي عن المرعى الخصيب مطروداً.
(٤) النّمير: الغدير الصافي. الفيروزابادي: القاموس المحيط (نمر).
(٥) «يَقَيِّل» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ١٧، عن ديوان ابن عنين.
(٦) هي دمشق: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٩.
(٧) «يَهْجُو» في ديوان ابن عنين ص ٩٤.

وكانت وفاته في عشية يوم الاثنين، العشرين من شهر ربيع الأول، سنة ثلاثين وستمائة. ومولده في يوم الاثنين، تاسع شعبان، سنة تسع وأربعين وخمسمائة ـ حكاه ابن خِلِّكَان وابنُ السَّاعِي.

وقال أبو المظَفَّر في مِرآة الزمان: إن وفاته كانت في سنة ثلاث وثلاثين.

قال: وكان خَبِيثَ اللسان هَجَّاءً، فاسِقاً مُتَهَتِّكاً. قال: ولما عاد إلى دمشق، اسْتَوْزَرَه الملك المعظم. وكانت مجالسُه معمُورةً بقَبَائِحِه.

قال: وحضر مجلسَ الإمام فخر الدين الرَّازِي بن خطيب الرَّيّ(١)، وهو يَعِظ، فجاءت حَمامةٌ وخَلْفها جَارِحٌ، فألقت نفسها على الإمام فخر الدين، فغَطَّاها بكُمِّه. فقال ابن عُنَيْن، بَدِيهاً: [من الكامل]

يا ابن الكِرام، المُطْعِمِين إذا شَتَوْا ... في كل مَسْغَبَةٍ(٢) وثَلْجٍ خَاسِفٍ(٣)
العاصمين إذا النفوس تَطَايَرَتْ ... بين المَخَارِمِ والوَتِينِ(٤) الرَّاعِفِ
مَنْ أَنْبَا(٥) الوَرْقَاءَ(٦) أَنَّ بِحِلِّكُمْ(٧) ... حَرَماً(٨)، وأَنَّكَ مَلْجَأٌ للخَائِفِ
وَفَدَتْ عَلَيْكَ، وقَدْ تَدَانَى حَتْفُها ... فَحَبَوْتَها بِبَقَائِها المُسْتَأْنَفِ
ولو أَنَّها تُحْبَى(٩) بمالٍ، لانْثَنَتْ ... من رَاحَتَيْكَ بنَائِلٍ مُتَضَاعِفِ
جاءت سُلَيْمانَ الزَّمانِ بِشُكْرِهَا(١٠) ... والموتُ يَلْمَعُ من جَنَاحَيْ خَاطِفِ

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي المولد، الملقب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي. له تصانيف كثيرة في علم الكلام والمعقولات وعلم الدلائل. ومنها تفسير القرآن الكريم وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح أسماء الله الحسنى وغيرها. ولد سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م وقيل ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م، بالري: توفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م، بمدينة هراة. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢ رقم الترجمة ٦٠٠.

(٢) في الأصل: «مسبغة» وهو خطأ. «في كل مَخْمَصةٍ» في ديوان ابن عنين ص ٩٥، والمخمصة: الجوع، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً. ابن منظور: لسان العرب (خمص).

(٣) «خاشف» في ديوان ابن عنين، ص ٩٥، ويقال: خشف الثلج فهو خاشف أي جامد. ابن منظور: لسان العرب (خشف).

(٤) «الوشيج» في ديوان ابن عنين، ص ٩٥، وهو العرق: ابن منظور: لسان العرب (وشج).

(٥) «نبّأ»: في الديوان، ص ٩٥.

(٦) «الورقاء»: الحمامة. ابن منظور: لسان العرب (ورق).

(٧) «أن محلّكم» في ديوان ابن عنين ص ٩٥.

(٨) «وحرمٌ» في ديوانه، ص ٩٥.

(٩) «تحبى» في ديوانه، ص ٩٥.

(١٠) «بشكوها» في ديوانه ص ٩٥.

قَـرْمٌ[1] لَـوَاهُ الـقُـوتُ حـتـى ظِـلُّـه   بـإزائِـه يَـجْـرِي بـقَـلْـبِ خَـائِـف[2]

قال: فرمى عليه الإمامُ فخرُ الدين جميعَ ما كان عليه، وفعل الحاضرون كذلك. فبلغ قيمةُ ذلك أربعة آلاف دينار! وكتب معه كتاباً إلى الملك الناصر، وكتاباً إلى الملك العادل، يَشْفَعُ فيه. فقبل الملك شفاعته.

ولما عاد هجا العادل، فقال: [من الخفيف]

إن سـلـطـانَـنَـا الـذي نَـرْتَـجِـيـه   واسـعُ الـمـال ضَـيِّـقُ الإنْـفَـاق

هـو سَـيْـفٌ كـمـا يُـقَـال، ولـكـن   قَـاطِـعٌ لـلـرُّسُـومِ والأَرْزَاقِ

وهجا أيضاً أولادَ شيخ الشيوخ الأربعة، فقال:

أولادُ شـيـخ الـشـيـوخ قـالـوا   أَلْـقَـابُـنَـا كُـلُّـهـا مُـحَـالُ

لا فَـخْـرَ فـيـنـا ولا عِـمَـادٌ   ولا مُـعِـيـنٌ، ولا كَـمَـالُ

وأهاجيه في الأكابر والأعيان كثيرة ـ سامحه الله تعالى وإيانا.

واستهلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى بلاد الروم

وفي هذه السنة، وصل الملك الأشرف، صاحب دمشق، إلى السلطان بالديار المصرية، وحَرَّضَه على قصد بلاد الروم. فخرج بالعساكر من القاهرة في ليلة السبت، لخمس خلون من شعبان، واستناب بالديار المصرية وَلَده الملكَ العادل: سيفَ الدين أبا بكر.

وسار حتى وصل إلى دمشق، وجمع سائر الملوك. وسار من دمشق، فنزل بظاهر البِيرَة[3]. واجتمعت الملوك، فكانوا ثلاثةَ عشر ملَكاً: كلهم من بني أيوب. وَعَرَضَ العساكر أَطْلَاباً، فكَبرت نفسه وتعاظم. ثم دخل بهم الدَّرْبَنْدَات[4]، وأشرف على أرض

(١) قرم: الفحل، السيد، ابن منظور: لسان العرب (قرم).

(٢) «واجف» في ديوانه، ص ٩٥، وواجف: أي خائف. ابن منظور: لسان العرب (وجف).

(٣) البيرة: عدة مواضع منها: بلد قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٢٤.

(٤) جمع دربند: لفظ فارسي، ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة. ومن معانيه أيضاً سنبلة من حديد يقفل بها باب الدكان. وقد تحول الاسم تحت التأثير التركي إلى «الباب الحديدي». انظر محيط المحيط لبطرس البستاني والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٤. ودائرة المعارف الإسلامية ج ٥، ص ٥١٢ السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٤٨.

الروم، وما شَكَّ في أَخْذِها.

فاجتمع الملوكُ إلى الملك الأشرف، قالوا: متى فتح الملكُ الكامل بلادَ الروم، استولى على ممالكنا، وعَوَّضَنَا عنها من بلاد الروم. فاتفقوا على خِذلانه، ومكاتبة صاحب الروم: علاء الدين كَيْقُبَاذ، بن كَيْخَسْرُو السَّلْجُقي، فكاتبوه. فوقعت الكتبُ إلى الملك الكامل، فرَحَل عن الدَّرْبَنْدَات لوقته، وعاد إلى السُّوَيْدَاء[1] وخَيَّمَ بها.

وكان عند نزوله على الدَّرْبَنْدات، أرسل الملك المُظَفَّرَ صاحب حَماه، والطَّواشيَ شمس الدين صَواب، وجماعة من الأمراء، إلى خَرْت بِرْت[2]. وكان بها عسكرٌ كَثِيف من عساكر الروم، فكَسَرُوهُم، وأسروا بعض الأمراء الكامِلية، وطلع الملكُ المظفر، والطواشي صَواب، والبانْياسِي وجماعةٌ مِن الأمراء، إلى القلعة، فأقاموا بها سبعةَ عشر يوماً، وطلبوا الأمان من صاحب الروم، فأَمَّنَهُمْ على تسليم القلعة، ولا يأخذوا منها شيئاً.

ففعلوا ذلك، ونزلوا إليه. فخلع عليهم وأعادهم إلى الملك الكامل. ولم يَسْلَمْ من خيلهم في هذه الوَقْعَةِ إلاّ سبعةٌ أو ثمانية: كلُّ أمير على فرس. فسَيَّرَ السلطان الملك الكامل إليهم الخيول، فركبوها ووصلوا إلى السلطان إلى السُّوَيْداء، فأحسن إليهم. ثم عادَ إلى الديار المصرية، وقد حصلت الوَحْشة بينه وبين سائر الملوك. وكان وصوله في جمادى الأولى، سنة اثنتين وثلاثين.

ولما رجع، جَهَّزَ صاحبُ الروم جيشاً كثيفاً إلى حَرَّان والرُّها وآمِد، والسُّوَيْدَا وقَطِينَا[3]، فاستولى على ذلك، ورَتَّبَ فيهم من يحفظهم. وكانت هذه الجهات تحت يد شهاب الدين غازي ـ أخي السلطان ـ والملك الصالح نجم الدين أيوب: ولدِه.

فلما اتصل ذلك بالملك الكامل، تجهز بعساكره وخرج من القاهرة في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة: وكان قد أَوْصَى ولَدَه الملك الصالح نجم الدين وأخاه شهاب الدين غازي ـ أن صاحب الروم إذا قصد البلاد يتركونها، ويحضرون، وقال له: إذا أَخَذَ البلادَ استعدتُّها منه، وإذا أَخَذَكُمْ لا أقدِرُ على استعادتكم منه. فلما وصل عسكر صاحب الروم إلى البلاد، تركاها، وسارا بعسكرهما إلى سَلَمِيَّة.

---

(١) السويداء: بلد في ديار مضر قرب حرّان، بينها وبين بلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٢٥.

(٢) وترسم خرت برت وخربرت: مدينة في وسط تركيا إلى الشرق. وهو اسم أرمني. وسماها العرب حصن زياد. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٩.

(٣) قطينا: بلدة على نهر الزاب الأعلى شمالي الموصل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٨.

ولما قَدِم السلطان إلى دِمشق، كان بها ولدا[١] ولدِه الملك الصالح، وهما: جلال الدين، وتُورانْشاه، فخرجا يُسَلِّمان على جَدِّهما، فانْتَهَرَهُمَا، فخرجا من عنده، واتصل ذلك بأبيهما، فعلم أن الغضب إنما هو عليه، لا على وَلَدَيْه. فأرسل إليهما وأخذهما من دمشق، ولم يُشْعِرْ بذلك جَدَّهما.

وسار عن سَلَمِيَّة، ومعه شهاب الدين غازي، فوصل إلى حِصن كَيْفا، ووصل شهاب الدين إلى مَيَّافَارِقين. فعظُم ذلك على السلطان، وذكر ما فعله الصالح لبعض الأمراء، فتلطف في الاعتذار عنه، وقال: الملك الصالح معذور، لا السلطان سَلَّمَ له البلاد وجعله تحت الحَجْر. ثم فعل السلطانُ بأولاده ما فعل. فأرسل إليه وطَيَّبَ قلبَه، وأمره أن يمضي هو وشهاب الدين غازي لمحاصَرة السُّوَيْدَاء، فَتَوَجَّهَا إليهما.

ووصل السلطان إليها أيضاً، ثم مضى إلى آمِد، فهرب العسكرُ الرُّومِيُّ منها. ووصل السلطان إلى حَرَّان، وفَتَحَهَا عَنْوَةً في ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين. وفتح قلعةَ الرُّهَا عَنوَةً، وتَسَلَّمَ السُّوَيْدَاء عَنْوَةً، في جمادى الآخرة. وهدم قلعة الرُّهَا. وأَسَرَ من كان في هذه القلاع من الروم. وأَخَذَ قَطِينًا في شهر رجب عنوة، ونزل على دُنَيْسِر[٢] فأَخْرَبَها، إلا الجامِع.

وسَيَّرَ جميع الأمراء إلى الديار المصرية في الجوالق، وكانوا أكثرَ من ثلاثة آلاف. ورتب ولدَه الملك الصالح بآمِد. وأضاف إليه حَرَّان والرُّها ونَصِيبين، والخَابُور[٣] ورَأْسَ عين والرَّقَّة، وجعله سلطاناً مستقلاً. وعاد إلى الديار المصرية. فوصل إلى القاهرة في شعبان، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

نعود إلى تتمة حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

فيها وَلِيَ الأمير جمال الدين يَغْمُور شَاد الدواوين بالديار المصرية.

وفيها عَمَّرَ الملكُ الأشرفُ مسجد جَرَّاح خارجَ باب الصَّغِير بدمشق، ورَتَّبَ فيه خُطبة للجمعة، يصلي فيه سكان الشَّاغُور وغيرهم.

وفيها قدم رسولُ الأَنْبَرُور ملكُ الفِرِنْج بالهدايا والتُّحف، وفي جملة ذلك دُبٌّ أبيض، شَعره مثل شعر السَّبْعُ، ينزِل إلى البحر فيصيد السمك ويأكله، وطاووس أبيض، وغير ذلك.

---

(١) في الأصل: «كان بها ولدي ولده».

(٢) ذكرناها سابقاً، وهي بلدة مشهورة في نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٤٤.

(٣) الخابور: هو اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. ثم أطلق الاسم على ولاية واسعة وبلدان جمة، غلب عليها اسمه فنسب إليه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢.

وفيها عُزِل قاضي القضاة عمادُ الدين بن الحَرَسْتَانِي عن قضاء الشام، وولِيه قاضي القضاة شمسُ الدين بن سَنيِّ الدَّوْلَة.

وفيها، تُوفي الأَتَابِك: شهاب الدين طُغْرِل الخادم، عَتِيقُ السلطان الملك الظاهِر، صاحب حَلَب ـ وكان أَرْمَنِيَّ الجنس، حَسَنَ السِّيرة محمود الطريقة، صالحاً عفيفاً، زاهداً كثير الصدقة والإحسان، يُقَسِّمُ الليل أَثْلاثَاً: فالثُّلُثُ الأول يُجْرِي حكاياتِ الصالحين وأحوالَ الناس ومحاسنَهم، وينام الثلثَ الأوسط، ويحيي الثُّلُثَ الآخِرِ قِراءةً وصلاةً وبُكاءً. وكان حَسَنَ الوَساطة عند الملك الظاهر.

ولما تُوفِّي الظاهر، قام بأمر ولدِه العزيز أحسن قيام. واستمال الملكَ الأشرف، حتى حَفِظَ على الملك العزيز البلاد ـ ولما استعاد الملك الأشرف تَلَّ بَاشِر[1]، دفعها لهذا الخادِم، وقال هذه تكون لصدقاتِك وما يلزمُك، فإنك تَكْرَهُ أن تتصرف في أموال الصغير، فنقل إليها من الأموال والذخائر كلَّ نفيس. وكان قد طَهَّرَ حلب من الفِسق والفُجور والمُكُوس. وكان الملك الأشرف يقول: إن كان لِلَّهِ تعالى في الأرض وَليٌّ، فهو هذا الخادم، الذي فعل ما عجز عنه الفُحُول.

فلما تَرَعْرَعَ الملكُ العزيز ابن الملك الظاهر، في سنة تسع وعشرين وستمائة ـ قال له بعض خَوَاصِّه. وقد رَضِيتَ لنفسك أن تكون تحت حَجْرِ هذا الخادم! فأخذ منه تَلَّ بَاشِر. وَنَزَعَ يدَه منه. وبقي الأَتَابِك لا ينَفِّذُ له أَمْرٌ ثم مَرِض وتوفي بحلب، في ليلة الحادي عشر من المحرم، من هذه السنة. ودُفن بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين ـ رحمه الله تعالى.

وفيها تُوفي الشيخ أبو عبد الله: الحسين بن محمد بن يحيى بن مُسْلِم الزَّبِيدِي. سَمِعَ أبا الوَقْتِ عبدَ الأوّل[2] بن عيسى، وغيره.

وهو من ساكني باب البصرة، وحضر إلى الشام وَحَدَّثَ بدمشق بصَحيح البُخاري عن أبي الوقْتِ غيرَ مَرَّة. وهو شيخُ شيوخنا. ولما وصل إلى دمشق، أكرمه الملك الأشْرَف، وحَصَلَ له دُنْيَا صالِحة بعد فقر وضَرُورة. ثم عاد إلى بغداد، فمرض قبل وصوله إليها، وتوفي بعد أن دخلها بأيام.

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسوات، وهي عامرة آهلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧.

(٢) هو ابن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق أبو الوقت السجزي الصوفي الهروي، راوي البخاري ومسند الدارمي والمنتخب من مسند عبد بن حميد قدم بغداد فسمع عليه الناس هذه الكتب، وكان من خيار المشايخ وأحسنهم سمتاً وأصبرهم على قراءة الحديث. توفي سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٥٦.

كانت وفاتُه يوم الاثنين، الثالث أو الرابع والعشرين من صفر، سنة إحدى وثلاثين وستمائة. وسئل عن مولده، فقال: سنة ست، أو سبع، وأربعين وخمسمائة ـ الشَّكُّ منه ـ ودُفن بمقبرة جامع المنصور.

وفيها تُوفي رُكنُ الدين مَنْكُرِس الفَلَكي: مملوك فَلَك الدين ـ أخي الملك العادل لأُمِّه ـ كان من أكابر الأمراء. ولاَّه العادل مصرَ والشام نِيابةً عنه. وكان صالحاً دَيِّناً، عفيفاً عادلاً، كثير الصدقات. وله بقاسِيون مدرسة وتُربة أوقف عليها أشياءَ كثيرة. وكانت وفاته. بجَرُود[١]: قَرْيةٌ من قرى دِمشق، وحُمِلَ منها فدُفن بتربته بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الأمير كريم الدين الخِلاطي. وكان كثير المروءة حسن المُلْتَقَى، يَتَعَصَّبُ في الخَيْر. خدم الملكَ الكامل والمعظم والأشرف. وتَقَدَّمَ في زمن الملك العادل. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسِيون [عند مغارة الجوع][٢] ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي صلاح الدين أبو العباس[٣]: أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد بن جابر بن قحطان الإِرْبِلي ـ وهو من بيت كبير بإِرْبِل. وكان حاجِباً عند الملك المعظم: مظفر الدين بن زين الدين صاحب إرْبِل. فتغير عليه واعتقله مدة. فلما أُفْرِجَ عنه، خرج منها إلى الشام [صحبة الملك القاهر بهاء الدين أيوب ابن الملك العادل][٤]، واتصل بخدمة الملك المغيث: محمود بن العادل ـ وكان قد عَرَفَه من إرْبِل ـ فَحَسُنَتْ حالهُ عنده.

فلما توفي الملك المغيث، انتقل الصَّلاَح إلى الديار المصرية، وخدم الملك الكاملَ فعظُمت منزلته عنده، ووصل منه إلى ما لم يَصِلْ إليه غيرُه، واخْتَصَّ به في خَلَوَاته، وجعله أميراً.

وكان الصلاحُ ذا فضيلةٍ تامة، ومُشاركة حَسَنَة. وله نظمٌ حسن، ودُوبَيْت[٥]. ثم تَغَيَّر عليه الملك الكامل، واعتقله، في المحرم سنة ثماني عشرة وستمائة، والسلطان

(١) جرود: بالفتح، من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥١.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٤.

(٣) ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٤ ـ ١٨٧، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ص ٦٩٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٤٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٤.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٤.

(٥) نوع من الشعر له وزن خاص، انظر ص ١٠٩ حاشية رقم (١).

بالمنصورة [في قبالة الفرنج][١]. فاستمر في الاعتقال بقلعة الجبل، مُضَيَّقاً عليه، إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين.

فعمل الصلاح دُوبَيت، وأملاه على بعض المطرِبين، فغنَّى به عند الملك الكامل. وهو:

ما أَمْرُ تَجَنِّيكَ عَلَى الصَّبِّ خَفِي   أَفْنَيْتُ زمانِي بالبُكا[٢] والأَسَفِ
ماذا غضب بقَدْر ذَنْبي، ولقد   بالَغْتَ وما قصدُك[٣]، إلا تَلَفِيَ

فاستحسنه الملك الكامل، وسأل لمن هو؟ فقيل: للصلاح الإِرْبِلِي. فأمر بالإفراج عنه. وقيل إن الشعر غير هذا، وهو: [من دوبيت]

اصنَعْ ما شِئْتَ، أنت أنت المحبوب   ما لي ذَنْبٌ، بَلى ـ كما قلَّت ـ ذُنُوب
هل يسمح[٤] بالوصال في لَيْلَتِنَا   يَجْلُو[٥] صَدَا القلْبِ ويعفو[٦]، وأتوب

ولما أفرج عنه، عادت مكانته عنده إلى أحسن ما كانت عليه.

ولما توجه الملك الكامل إلى بلاد الروم كان في خدمته، فمرِض بالعسكر بالقرب من السُّوَيْدا [من بلاد آمد][٧]، فحُمِل إلى الرُّها فمات قبل وصوله إليها، في خامس عشرين ذي الحجة[٨]، سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وكان مولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة[٩].

ولما مات وُجد بداره بدمشق خمسة عشر ألف دينار، وبداره بالقاهرة خمسة آلاف دينار. ولما عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية، أقطع ولدَه صَنَافِيْر[١٠]

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥.
(٢) «بالأسى» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥، عن الديوان.
(٣) «وما أردت» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥. انظر أيضاً الديوان (دوبيت). ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ١٦٥.
(٤) و(٥) و(٦) «تسمح» و«تجلو» و«تعفو» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٥. انظر أيضاً مفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ١٦٥.
(٧) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٦٦.
(٨) «في منتصف ذي الحجة سنة ٦٣١ هـ» في: مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٦٦. وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة، وقيل مات يوم السبت العشرين من ذي الحجة» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٧.
(٩) «ومولدُه سنة ٥٧٢ هـ بإربل» في مفرج الكروب ج ٥، ص ١٦٦. وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١، ص ١٨٧.
(١٠) هي بمركز قليوب (بمصر) غربي ناحية بهادة وشمالي كفر الحارث، وإليها ينتسب الشيخ يحيى بن =

بالقَلْيُوبِيَّة خاصاً له، وجعل معه أقارب والده ومماليكه ـ وعدتهم سبعة عشر نفراً ـ وذلك في سنة اثنتين وثلاثين.

وتوفي الأديب الفاضل: نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمٰن بن أبي محمد عبد الوهاب بن الحسن بن علي، المعروف بابن وهيب القُوصي، بحَمَاه.

وكان قد تَوَجَّهَ في خدمة الملك المظفر ـ صاحب حَماه ـ وَوَزَرَ له. وكانت بينهما مودة ورعاية. ثم نَقِمَ عليه أمراً، فقتله ـ رحمه الله تعالى. وكان فاضلاً، له اليدُ الطُّولى في الأدب والتَّرَسُّل، والشِّعر الرائق. وقد تقدم من كلامه ما كَتَب به عن مُتَوَلِّي الأعمال القُوصية، في معنى حريقِ خان المكرم، ظاهر مدينة قوص.

واستهلّت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

في هذه السنة، توجه الأمير أسد الدين جَغْريل[1]، أحد مماليك السلطان الملك الكامل ـ إلى مكة، شرفها الله تعالى، وصُحْبَتُه سبعمائة فارس فتسلمها في شهر رمضان. وهرب منها الأمير: راجِح بن قَتَادة، ومن كان بها من عسكر اليمن.

ذكر إنشاء جامع التَّوْبَة بالعُقَيْبَة[2] بدمشق

في هذه السنة، شرع السلطان الملك الأشرف في هدم خان الزَّنْجَبِيلي[3]، الذي كان بالعُقَيْبَة بظاهر دمشق، وكان قد جمع أنواعَ الفساد من الخُمور والفسق فقيل للسلطان إن مثل هذا لا يصلح أن يكون في بلاد الإسلام، فهدمه وعَمَره جامعاً، غرم عليه جُملةً كثيرة، وسماه الناس جامع التَّوبة[4].

قال القاضي شمس الدين بن خِلِّكان في وَفَيات الأعْيان: «وجرت فيه نُكْتَةٌ لطيفة أحببت ذِكْرَها، وهي أنه كان بمدرسة سِتِّ الشام التي خارج البلد إمام، فَعُرِف بالجَمَال السِّتِّي[5] ـ أَعْرِفُه شيخاً حسناً، ويقال إنه كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي، وهي

= علي الصنافيري المتوفى سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م. وبالقاهرة الحالية طريق اسمه شارع الصنافيري. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٥٠.

(١) «جبريل» في القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٣.

(٢) العقيبة: سبق التعريف بها، وهي ضاحية في دمشق. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٣٤

(٣) «ابن الزنجاري»: في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣١٣، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٤٥٩، طبعة شيكاغو. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٤٨.

(٤) لما كان يجري في هذا الخان من الأمور القباح من ارتكاب المحرّمات والفسق والفجور، انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣١٣.

(٥) «الجمال السبتي»: في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٤.

التي تسمى الجَعَانة[١]. ولما أَسَنَّ حَسُنَتْ طريقتَهُ، وعاشر العلماءَ وأهل الصلاح، حتى عُدَّ في الأَخْيَار. فولاه الملك الأشرف خَطابة الجامع، لثناء الناس عليه. فلما تُوفي، ولي بعده العمادُ الواسِطي الواعظ، وكان يُتَّهَمُ بالشَّراب».

وكان صاحبُ دمشق يومئذٍ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكَتَبَ إليه الجمالُ عبد الرحيم: المعروف بابن زُوَيْنَة[٢] الرَّحَبِي: [من مجزوء الرمل]

* يا مَلِيكاً أَوْضَحَ الحقَّ لَدَيْنا وأَبَانَه *
* جامِعُ التَّوْبَةِ قد قلَّدَنِي منه أَمانَه *

قال: قل للملِك الصالِح ـ أعلى اللَّهُ شأنَه:

* يا عمادَ الدين، يا من حَمَدَ الناسُ زمانَه *
* كمْ إلى كمْ أنا في ضُرٍّ وبُؤسٍ وإهَانَه *
* لِي خطيبٌ واسِطيٌّ يَعْشَقُ الشُّرْبَ دِيانَه *
* والذي قد كان من قبلُ يُغَنِّي بالجَعَانَه *
* فكَمَا نحنُ، وما زِلْنَا ـ ولا أَبْرَحُ[٣] ـ حَانَه *
* رُدَّنِي للنَّمَطِ الأَوَّلِ، واسْتَبْقِ ضَمَانَه *

وفي هذه السنة، في تاسع صفر، كانت وفاة الملك الزاهد: مجير الدين أبو سليمان، داود ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ صاحب قلعة البِيرَة[٤].

وكان يحب العلماءَ وأهل الأدب، ويقصدونه من البلاد. وكان فاضلاً أديباً شاعراً، جَوَاداً سَمْحاً. ومولدُه بالقاهرة لسبع بقين من ذي القعدة ـ وقيل ذي الحجة ـ سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

ولما مات، توجه الملك العزيز، ابن أخيه الملك الظاهر، إلى قلعة البِيرَة، فمَلَكَها.

---

(١) «الجعانة»: في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٤. والجعانة في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ١٤٨.

(٢) «المعروف بابن زويتينة» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٥. وشذرات الذهب ج ٥، ص ٣٣٥.

(٣) «وما نبرح» في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٣٣٥.

(٤) انظر صفحة ١٢٩، حاشية (٣) وهي للملك الزاهر مجير الدين أبي سليمان داود ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب أقطعه إياها أخوه الملك الظاهر غازي واستمرت بيده حتى وفاته. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦٢٥.

وفيها توفي الأمير الأجل الطواشي: شمس الدين صَوَاب، مُقَدَّم عسكر الملك العادل.

وكانت وفاته بحَرَّان، في العشر الآخِر من شهر رمضان. وكان السلطان الملك الكامل قد جعله بها، وبغيرها، من تلك البلاد ـ كما تقدم. وكان أميراً كبيراً في الدَّوْلَتَيْن: العادِلية والكاملية. وكان خادماً عاقلاً، دَيِّناً شجاعاً جواداً. وكان العادل والكامل يعتمدان عليه. [وكان حاكماً على الشرق كله من قبل الكامل][1].

وكان له مائةُ خادم، تَعَيَّنَ جماعةٌ منهم وتَأَمَّرُوا بعد وفاته: منهم بدر الدين الصَّوَابي، وشِبْلُ الدولة: كافور الخَزِنْدَار بدمشق، وشمس الدين صَوَاب السُّهَيْلِي بالكَرَك، وغيرهم. وكان شمسُ الدين صَوَاب العادِلي ـ هذا ـ إذا حَمَل في الأعداء يقول: أين أصحاب الحَصَى[2]. وكان له بِرٌّ وصدقة، وفيه إنصاف ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الصاحب تاج الدين: أبو إسحاق يوسف بن الصاحب الوزير: صفي الدين أبي محمد عبد الله، ابن القاضي المخلص أبي الحسن علي، الشَّيْبِي المالِكي بمدينة حَرَّان، في الحادي عشر من شهر رجب. ودفن بها ومولده بمصر في شوال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وكان فقيهاً مالكياً، دَرَّس بمدرسة أبيه بالقاهرة. وناب عن والده في الوزارة بالديار المصرية. ووَلِيَ الوزارةَ بعد والده نحو شهرين. ثم صُرِف واستُخْدِم في التَّوْقِيع. ثم ولي نظر الدواوين بالديار المصرية.

ثم عُزِل واعتُقِلَ، ثم أفرج عنه في سادس عشر شعبان، سنة خمس وعشرين وستمائة. ثم وَلِيَ الجَزِيرَة وديار بَكْر وحَرَّان في الدولة الكاملية ومات هناك ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي شرف الدين، أبو حفص وأبو القاسم: عمر بن علي بن المرشد بن علي، الحَمَوِيْ الأصل، المِصري الدار والمولِد والوفاة: المعروف بابن الفارِض، الشاعر.

له ديوان شعر مشهور. وكانت وفاته بالجامع الأزهر بالقاهرة المُعِزِّيَّة، في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى، ودُفن من الغد بسفح المقطم. ومولده بالقاهرة في الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة ست وسبعين وخمسمائة.

(١) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٥٥.

(٢) ميدان الحصى بدمشق: يقصد هنا أهل دمشق.

واستهلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

في هذه السنة، حصل بمصر وَباءٌ عظيم، مات فيه خَلْقٌ كثير [بلغت عدتهم زيادة على اثني عشر ألفاً سوى من مات بالريف][١]. واستمر ثلاثة أشهر.

وفيها، في المحرم، وصل الملك الناصر داود، صاحب الكَرَك، إلى بغداد. واجتاز في طريقه بالحِلَّة[٢]، وبها الأمير شرف الدين ابن الأمير جمال الدين قُشْتُمَر، زعيم الحِلَّة ومُقَدَّم الجيوش، فتلقاه وأكرمه، وأقام له الإقامات الوافِرة. وعَمِلَ له دَعْوَةً عظيمة اشتملت على أنواع من المآكل قال ابن الساعي في تاريخه: بَلَغَت النفقةُ على تلك الدعوة اثني عشر[٣] ألف دينار.

ثم قصد بغدادَ، فوصل إليها في يوم الاثنين سادس عشر المحرم. فبَرَزَ لتَلَقِّيه الموكبُ، وفيه جميعُ الحجاب والدعاة، وفي صدره قطب الدين: أبو عبد الله بن الأَقْسَاسِي، نَقِيب الطالِبِيِّين - وعن يمينه وشماله خادمان من خَدَم الديوان العَزيز[٤]. وحين وافى بَابَ النُّوبِي[٥] نزل وقَبَّل العَتَبة. وحضر دارَ الوزارة، فأُكْرِم وخُلِع عليه قِبَاء[٦] أطلس، وشُرْبُوش[٧]، وأُعْطِيَ فرساً بمركب ذهب، وأُسْكِنَ مَحِلَّةَ المُقْتَدِي، بالدار المنسوبة إلى أبي تميم المُوسَوِي، وأُقِيمت له الإقامات الوافرة من المَخْزَن المعمور[٨] في كل يوم.

وأَنْهَى للديوان العزيز ما اعْتَمَدَهُ معه عَمَّاه من إخراجه من دمشق - وهي مملكة

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٥٠.

(٢) الحِلَّة: بالكسر ثم التشديد: علم لعدة مواضع وأشهرها حِلة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، كانت تسمى الجامعين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٣) في الأصل: «اثنا عشر».

(٤) من ألقاب ديوان الخلافة، وما في معناه من متعلقاتها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣٢.

(٥) الباب الذي كان ينزل عنده القادمون على الخليفة، ويقومون بشعائر الولاء. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٣١.

(٦) الثوب أو الكساء الخارجي.

(٧) قلنسوة طويلة أعجمية وتلبس بدل العمامة، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة، والكتاب وغيرهم. وكان الشربوش يلبس عادة مع الخلع السلطانية، ويقول المقريزي: «وأما الخلع فإن السلطان كان إذا أمر أحداً من الأترك ألبسه الشربوش وهو شيء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة وقد ألغي استعمال الشربوش بمصر زمن المماليك البرجية. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٩٨.

(٨) أي خزانة ديوان الخلافة.

أبيه - ونَقْلِه إلى الكَرَك.

وأقام ببغداد إلى خامس عشرين شعبان. ثم أُحضر إلى دار الوزارة، وخُلِعَ عليه قَبَاء أطلس أسود، وفَرَجِيَّة[١] مُمَوَّج، وعِمامة قَصَب كُحْلِية مُذَهَّبَة. وأُنعم عليه بفَرَس عربي بمركب ذهب، وكُنْبُوش[٢] ومِشَدَّة إِبْرِيسَم[٣]. وأُعطي العلَم والجَفْتَاوَات[٤] والكُراع[٥] والخِيام والمفارش والآلات، وخمسة وعشرين ألف دينار، وعِدَّة من الخيل وجوز من الثياب الفاخرة. وشُرِّفَ من معه من أصحابه وأتباعه ومماليكه.

وأُذن له في التوجه إلى بلده - وذلك بعد الصلح بينه وبين عميه: الكامل والأشرف. وخَرَجَ من بغداد في ثالث شهر رمضان - وصحبتُه الأمير: سعد الدين حسن ابن علي - إلى الملك الكامل، يَأْمُرُه عن الديوان العزيز بإجابة سؤاله. ذَكَرَ ذلك ابن الساعي في تاريخه.

وفيها، تُوفي الحافظ: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن محمد بن دِحْيَة الأندلُسي البَلَنْسِي[٦]، المعروف بذي النَّسَبَيْن.

طَلَب الحديثَ في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية، ولقي علماءَها ومشايخها. ثم رحل إلى بر العَدْوَة[٧] ودخل مَرَاكُش واجتمع بفضلائها. ثم ارتحل إلى إفريقية، ومنها إلى الديار المصرية، ثم إلى الشام والشرق والعراق. ودخل إلى عِراق العَجَم وخُراسان، وما والاها، ومازَنْدَرَان[٨]، في طلب الحديث والاهتمام بأئمته، والأخذ عنهم. وهو في ذلك يُؤْخَذُ عنه، ويستفاد منه.

وقدم مدينة إِرْبِل، في سنة أربع وستمائة، عند توجهه إلى خُراسان. واجتمع

(١) كساء واسع يلبس فوق الثياب يصنع من الجوخ. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) الكنفوش وهي البرذعة، تجعل تحت سرج الفرس. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٢٨٩. ومحيط المحيط لبطرس البستاني وDozy. Supp. Dict. Ar.

(٣) حرير.

(٤) الجفتاه: فرسان أشهبان قريبا الشبه برقبتين من زركش وعدة تضاعي عدة مركوب السلطان كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان يعلوهما مملوكان من المماليك السلطانية قريبي الشبه أيضاً على رأس كل منهما قبعة من زركش مشابه للآخر. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٦.

(٥) الخيل: ابن منظور: لسان العرب (كرع).

(٦) نسبة إلى بلنسية: وهي مدينة وكورة مشهورة بالأندلس، شرقي قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٨١.

(٧) بر العدوة: أي البر المقابل للأندلس، في المغرب الأقصى. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٥٤.

(٨) مازندران: اسم لولاية طبرستان: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٨.

بصاحبها: الملك المعظم بن زين الدين. وكان المعظم عظيمَ الاحتفال بمولد النبي ﷺ، فألف له كتاباً سماه: التَّنْوِير في مولد السِّراج المُنير، وقرأه عليه فأعطاه ألف دينار. وله عدة تصانيف.

ولما عاد إلى الديار المصرية، وَلاَّه الملك الكامل دارَ الحَدِيث الكامِلية[١] بالقاهرة. ثم عَزَلَه منها قبل وفاته، وولي أخاه محيي الدين أبا عمرو.

وتوفي أبو عمرو بالقاهرة، في يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكان حافِظاً للغة العرب. وكانت وفاة أبي الخطاب بالقاهرة في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. ودُفن بسفح المقطم. ومولده في مستهل ذي القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة.

وفيها، في سَلْخ شهر ربيع الآخر - توفي الأمير أبو التُّقَى صالح ابن الأمير المكرم أبي الطاهر إسماعيل بن أحمد بن الحسن بن اللَّمَطي، بمُنْيَة بني خَصِيب[٢] من صَعِيد مصر. وصُلِّي عليه على ساحل البحر، وحُمِلَ في مركب وأُحْدِرَ إلى مصر، فوصل بعد صلاة العصر مستهل جمادى الأولى، ودفن بسفح المقطم، بتربة كان أنشأها لنفسه قبل وفاته بيسير - وقد قارب الستين. سمع ببغداد جماعة كبيرة وبِنَيْسَابُور وبمَرْو وهَرَاة وهَمَذَان ودُنَيْسِر ودِمَشق. وجال في البلاد كثيراً، ودخل ما وراء النهر. ولم يُحَصِّلْ من مسموعاته إلا اليَسِير - رحمه الله تعالى.

وفيها في شهر ربيع الأول، توفي الأمير فخر الدين أَيَاز البَانْياسِي بخَرْتَبِرْت من ديار الجزيرة. وحمل إلى القاهرة، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى، وأنشأ بجانبها حوض سبيل. وكان قد وَلِيَ مصر مدة، وله غزوات وتَقَدُّمٌ في الدولتين العادِلية والكامِلية. وكان مشهوراً في شبيبته بالقوة. وكان محباً لأهل الخير متفقداً لهم - رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي خطيب مصر الشيخ الفقيه: أبو الطاهر محمد بن الحسين بن عبد الرحمٰن الجابري - من ولد جابِر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه. وهو المشهور بالمَحَلِّي، وهو من أصحاب الشيْخَيْن: الشاطِبي والقُرَشِي.

---

(١) دار الحديث الكاملية: سبق التعريف بها، انظر صفحة ٨٤، حاشية رقم (٤).

(٢) منية أبي الخصيب: وهي مدينة كبيرة على شاطىء النيل: أنشأ فيها أبو اللمطي جامعاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٣. و«منية بني خصيب أو منية ابن خصيب: تقع على الشاطىء الغربي للنيل وتسميتها نسبة إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد هارون الرشيد. وقيل لها اختصاراً «المنية» وتسمى اليوم «المنيا» وهي اليوم قاعدة مديرية المنيا في مصر. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٩٦.

واستهلَّت سنة أربع وثلاثين وستمائة

ذكر وقوع الوَحْشة[١] بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف

كان وقوع الوَحْشَة بين الملكين الأخوين في هذه السنة.

وسببُ ذلك أن الملك الأشرف طلب من أخيه الملك الكامل الرَّقَّة. وقال إن الشَّرْقَ قد صار للسلطان، وأنا في كل يوم في خدمتِه، فتكون هذه برَسْمِ عَلِيق دَوَابِّي. وجعل الفَلَك المَسِيري واسطةً بينه وبين السلطان. فكتب الفَلَكُ إلى الملك الكامل بذلك، فأجابه الملك الكامل بكتاب أَغْلَظَ له فيه.

وكان الملك الكامل، لما عاد من بلاد الشرق في سنة ثلاث وثلاثين، بلغه اتفاق الملوك عليه، فعَجَّلَ السيْرَ إلى الديار المصرية.

فكتب إليه الملكُ الأشرف يقول: إنك أخذتَ مني الشرق. وقد افتقرتُ لهذه البواكير، ودمشق بُستانٌ ليس لي فيها شيء. فبعث إليه عشرةَ آلاف دينار، فردَّها عليه، وقال: أنا أدفع هذه لأمِيرَيْن.

فغضب الملك الكامل، وقال: الملك الأشرف يكفيه عن المُلْكِ عِشْرَتُه للمَغَانِي وتَعَلُّمُه لصناعتهم! فاتصل ذلك بالملك الأشرف، فتَنَمَّرَ له وقال: والله لأُعَرِّفَنَّه قَدْرَه. ورَاسَل الملوكَ: بحلَب وحَماه وبلاد الشرق، وصاحب الروم، وقال: قد عَرَفْتُم بُخْلَ الكامِل وطَمَعَه في البلاد.

فحلفوا كلهم واتفقوا، وسيروا رسلهم إلى الملك الكامل يقولون: إنهم معه صُلْحاً، ما أقام بالديار المصرية ولم يَخْرُجْ إلى الشام لفتح شيء من البلاد.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر

وفي[٢] سنة أربع وثلاثين وستمائة، كانت وفاة الملك العَزِيزِ غياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ صاحب حلب، بها. ومولده في ذي الحجة سنة تسع أو عشر وستمائة[٣]، ومَلِكَ بعده ولدُه

(١) عن تفاصيل الوحشة بين الأخوين ومواقف الإخوة الآخرين. انظر شفاء القلوب لابن شداد ص ٣١٦.

(٢) «وفي شهر ربيع الأول» في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٦.

(٣) «وكان مولده في سنة عشر وستمائة» في مفرج الكروب، ج ٥، ص ١١٦.

الملك الناصر صلاح الدين [أبو المظفر][١]. وكان عمره يوم ذاك ست سنين[٢]. فقام بتدبير المملكة والدةُ أبيه. [الصاحبة ضيفة خاتون][٣]، وهي ابنةُ الملك العادل. وجَعَلَتْ الأميرَ شمس الدين لؤلؤ أَتَابِكَه. ثم زَوَّجَهُ السلطان الملك الكامل ابنتَه عاشورا شقيقةَ الملك العادل، في تاسع عشر ذي الحجة من السنة.

واستهلّت سنة خمس وثلاثين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأشرف وشيء من أخباره وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل وإخراجه من الملك

في يوم الخميس رابع المحرم، سنة خمس وثلاثين وستمائة، توفي الملك الأشرف: مظفر الدين موسى، ابن الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب - صاحب دمشق - بها. ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى تربته بالكَلاَّسَة[٤]، بجوار الجامع الأُموي[٥].

ومولده بالقاهرة - وقيل بقلعة الكَرَك - في سنة ست وسبعين[٦] وخمسمائة. وقيل إنه قبل أخيه الملك المعظم بليلة واحدة. وكان - رحمه الله تعالى - عفيفاً عن المحارم، ما خلا بامرأة قط إلا أن تكون زوجتَه أو جاريتَه.

وحَكَى أبو المظفر يوسف بن قَزُوغْلي سِبْطُ ابن الجَوْزِي عنه، في كتابه: «مِرآةَ الزمان»، من الأوصاف الجميلة، والمروءة الغَزِيرة، والكفِّ عن المحارم، والعِفة عنها مع التمكن منها، ما يُرْجَى له به الخير عند الله تعالى.

وكان مما حكاه عنه قال: جَلَسْتُ يوماً عنده في مَنْظَرة بقلعة خِلاط، يَعْتِب على أخيه الملك المعظم في قضية بَلَغَتْهُ عنه، ثم قال: واللهِ ما مَدَدْتُ عيني إلى حريم أحد: لا ذكر ولا أنثى.

ولقد كنتُ يوماً قاعداً في هذه الطَّيَّارَة. فدخل الخادِم فقال: على الباب امْرأةٌ

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٨.

(٢) وكان عمر الملك الناصر ابن الملك العزيز لما ولي الملك بعد أبيه نحو سبع سنين في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٩.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١١٩.

(٤) الكلاسة: تقع شمالي جامع دمشق: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٢٠٦.

(٥) «نقل إلى تربته بالكاملية: في جمادى الأولى» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٦) «ثمان وسبعين وخمسمائة» في مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٤٥.

عجوز، تذكر أنها من عند بنت شَاهْ أَرْمَن[١] ـ صاحب خِلاط. فَأَذِنْتُ لها، فَدَخَلَتْ، ومعها ورقة من عند بنت صاحب خِلاط، تذكر أن الحاجب «عليّ»[٢] قد أخذ ضَيْعَتَهَا وقصَدَ هلاكها، ومَا تَتَجَاسَر أن تظهر، خوفاً منه. فكَتَبْتُ على الورقة بإطلاق القَرْيَة، ونَهَيْتُ الحاجبَ عنها.

فقالت العجوز: هي تسأل الحضور بين يديك، فعندها سِرٌّ ما يمكن ذكره إلا للسلطان، فأَذِنْتُ لها. فتوجَّهَتْ وعادت بعد ساعة، ومعها امرأة ما رأيت في الدنيا أحسنَ من قَدِّها، ولا أظرفَ من شكْلِها، كأن الشمس تحت نقَابها! فَخَدَمَتْ وَوَقَفَتْ. فقُمْتُ لها وقلت: وأنتِ في هذا البلد، وما علمتُ بك؟! فَسَفَرَتْ عن وجهها فأضاءت منه المنظرة! فقلت: غَطِّ وجهَك، وأخبريني بحالك.

فقالت: أنا بنتُ شاه أَرْمَنْ، صاحب هذه البلاد. مات أبي، واستولى بُكْتُمَر على الممالك، وتغيرت الدُّوَل، وكانت لي ضيعة أعيش منها، أخذها الحاجِب «عليّ» وما أعيش إلا من عمل النَّقْش، وأنا ساكنةٌ في دار بالأُجْرَة! قال: فبكيتُ، وأمرتُ الخادم أن يكتب لها توقيعاً [مؤبداً][٣] بالضَّيْعَة وبالوَصِيَّة، وأمرت لها بقُماش من الخزانة، وأمرت لها بدار تصلح لسكنها، وقلت باسم الله، امضِ في حفظ الله ودَعَتِه.

فقالت العجوز: يا خُونْدْ[٤]، ما جاءَت إلى خِدْمَتِكـه إلا حتى تَحْظَى بك الليلة! قال: فلما سَمِعْتُ كلامَها، وَقَّعَ اللَّهُ في قلبي تَغَيُّر الزمان، وأن يَملكَ خِلاط غيري، وتحتاج بنتي إلى أن تقعد مثل هذه القعدة بين يديه. فقلت: يا عجوز، مَعَاذَ الله! والله ما هو من شِيمتي، ولا خَلَوْتُ بغير مَحَارِمي، فخذيها وانصرفي، وهي العَزيزةُ الكَرِيمَة! ومهما كان لها من الحوائج تُنَفِّذْ إلى هذا الخادم. فقامت، وهي تبكي، وتقول ـ بالأَرْمَنِيَّة: صان الله عَاقِبَتَك، كما صُنْتَنِي. قال: فلما خَرَجَتْ، أَفْتَتْنِي نفسي، وقالت: ففي الحلال مَنْدُوحَةٌ عن الحَرام، تَزَوَّجْها. فقلت: يا نفساً خبيثة، فأين الحَيَا والكرم والمروءة! والله لا فَعَلْتُه أبداً.

ومما حكاه أبو المظفر ـ أيضاً ـ قال: كنت عنده بخِلاط، فقدم النَّظَّام بن أبي الحَدِيد، ومعه نَعْلُ النبي ﷺ، فأخبرته بقدومه، فأذن بحضوره. فلما جاء، ومعه النعل، قام ونزل من الإيوان، وأخذ النعل فقبَّله، ووضعه على عينيه، وبكى! وخلع على النَّظَّام

---

(١) لقب أطلق على حكام خلاط، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢١.

(٢) هو الحاجب علي بن حماد الموصلي، الملقب بالأمير حسام الدين. وكان نائب الملك الأشرف بخلاط. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٣٤.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٢.

(٤) خوند: بمعنى يا سيد، أو يا أمير. لقب للسلاطين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٧٧.

وأعطاه نفقة، وأجرى عليه جِراية، وقال يكون في الصُّحبة نتبرك به.

ثم عزل على أخذ قطعة من النعل تكون عنده. قال بعد ذلك: فلما عزمت على ذلك بِتُّ مفكراً، وقلت: إن فعلت هذا فعل غيري مثله، فيتسلسل الحال ويؤدي إلى استئصاله. فرجعتُ عن هذا الخاطر. وتركته لله، وقلت: من ترك شيئاً للّٰهِ عَوَّضَه اللّٰهُ خيراً منه. ثم أقام النَّظَّام عندي شهوراً ومرض، وأوصى لي بالنعل، ومات وأخذته بأسره.

ولما اشترى دارِ قايماز النَّجْمِي، وجعلها دارَ حديث، ترك النعلَ فيها، ونقل إليها الكتب الثمينة، وأوقف عليها الأوقاف، وعَمَر غيرها من الأماكن الشريفة: منها مسجد أبي الدَّرْدَاء بقلعة دمشق - بناه وزخرفه - وكان غالب إقامته به. والمسجد الذي عند باب النصر، وجامع العُقَيْبَة ومسجداً خارج باب الصغير ومسجد القصب خارج باب السلامة، وجامع بيت الآبار. ووقف على ذلك الأوقاف الكثيرة. وزاد وقف دار الحديث النُّوريَّة.

هذا وتُربته بالكلاَّسَة بدمشق، وتربة والدته بالقَرافة بمصر. وبنى أيضاً ببلاد الشرق وخِلاَط خانات السبيل.

وكان رحمه الله تعالى - حسن الظن بالفقراء، يحسن إليهم ويزورهم ويتفقدهم بالمال والأطعمة. وكان في ليالي شهر رمضان لا يغلق باب قلعة دمشق، ويرسل في الليلِ جِفانَ الحُلْوِ إلى الجامع والزوايا والرُّبُط، ما قرب منه وما بعد.

وكان ابتداء مرضه في شهر رجب، سنة أربع وثلاثين وستمائة، مرضين مختلفين في الأعالي والأسافل. وكان الجرائحي يخرج العظام من رأسه، وهو يُسَبِّح الله ويحمده ثم اشتد به الذَّرَب، فلما يئس من نفسه قال لوزيره - جمال الدين بن جرير -: في أي شيء تكفنني؟ فقال: حاشاك! فقال: دَعْني من هذا، فما بقي فيّ قُوَّةٌ تحمِلُني أكثر من نهار غد، وتواروني. فقال في الخزانة تَصَافِي. فقال: حاشَ لِلّٰهِ أن أُكفن من هذه الخزانة.

وقال لعماد الدين بن مُوسَك: أَحْضِرْ لي الوَدِيعَة. فقام، وعاد وعلى رأسه مِئْزَر صوف أبيض تلوح منه الأنوار[(١)]، ففتحه وإذا فيه خِرَق الفقراء وطواقي الأولياء[(٢)]، وفيه إزار عَتِيق ما يساوي خمسة قَراطيس[(٣)]. فقال: يكون هذا على جسدي أتقي به حَرَّ

---

(١) أي تلوح منه نور الرضى، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٢) مثل الشيخ يونس البيطار، والشيخ مسعود الرهاوي، والشيخ علي الفاسي وجماعة من الأولياء الكبار. الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٣) أي ما يساوي خمسة دراهم، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٣.

الوَطِيس، فإن صاحبه كان من الأبدَال وكان حَبَشِيًّا، أقام بجبل الرُّها يزرع قطعة زَعْفَرَان يتقوت بها، وكنت أصعد إليه وأزوره، وأعرض عليه المالَ فلا يقبله، فسألته شيئاً من أثره أجعله في كَفَنِي، فأعطاني هذا الإزار، وقال: قد أَحْرَمْتُ فيه عشرين حَجَّة. وكان آخر كلامه: لا إلٰه إلا الله. ثم مات في التاريخ المذكور.

قال أبو المظفر: ولما أحسَّ بوفاته في آخر سنة أربع وثلاثين، قلت له: استعد للقاء الله فما يضيرك، قال: لا والله بل ينفعني. ففَرَّق البلاد، وأعتق مائتي مملوك وجارية. ووقف دار فَرُّخْشَاه، التي يقال لها دار السعادة، وبستان النَّيْرَب[1] على ابنته. وأوصى لها بجميع الجواهر.

قال أبو المظفر: وحكى لي الفقيه محمد اليوناني [ببعلبك في سنة خمس وأربعين وستمائة][2]، قال: حكى لي فَقِير صالح من جبل لُبنان، قال: لما مات الأشرف رأيتُه في المنام وعليه ثياب خُضْر، وهو يطير بين السماء والأرض، مع جماعة من الأولياء، فقلت له: يا موسى، إيشْ تعمل مع هؤلاء، وأنت كنت تفعل في الدنيا وتصنع؟ فالْتَفَتَ إلي وتبسم، وقال: الجَسَد الذي كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم، والروح التي كانت تحت هؤلاء قد صارت معهم ـ رحمه الله تعالى.

ذكر مُلْكِ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ـ ابن الملك العادل ـ دمشق، ووصول الملك الكامل إليها وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها

لما مات الملك الأشرف: مظفر الدين موسى ـ رحمه الله تعالى ـ ملك دمشق بعده ـ بوصية منه ـ أخوه الملك الصالح: عماد الدين إسماعيل، الملقب بأبي الخيش! وإنما لُقِّب بذلِك، لأنه ـ فيما حُكِيَ عنه ـ كان يملأ خيشة تِبْناً ويُبَيِّتُها في الماء، ثم يطعنها برُمحه فيرفعها عليه. فلقب بذلك.

ولما انْفَصَلَتْ أيامُ عزاء الملك الأشرف، ركب الملك الصالح إسماعيل بشِعار السلطنة، وتَرَجَّلَ الناس في ركابه، وأسدُ الدين شيركوه صاحب حمص إلى جانبه، وحمل الأميرُ عز الدين أَيْبَك ـ صاحب صَرْخَد ـ الغَاشِيَة[3] بين يديه. ثم عاد كل منهما

(١) انظر صفحة ٩٨ في هذا الجزء حاشية رقم (٣).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٣.

(٣) هي من رسوم الملك، أصل الغاشية سرج من أديم مخزوزة بالذهب، تبدو كأنها مصنوعة كلها من الذهب. هي من شعار السلطنة. وكان سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم يخرجون في المواكب =

إلى مملكته، واستقر هو بدمشق.

وصادر جماعةً من أهلها، اتهمهم بمكاتبة الملك الكامل: منهم العَلَم تَعَاسِيف[(١)] وأولاد مزهر وابن عريف البَدْرِي، واستصفى أموالهم. وأفرج عن الشيخ علي الحَرِيري من الاعتقال بقلعة عزّتا ـ وكان الملك الأشرف قد اعتقله بها في سنة ثمان وعشرين وستمائة ـ فأفرج عنه الآن، ومنعه من الدخول إلى دمشق.

وأما الملك الكامل فإنه لما بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف، سُر بذلك سروراً عظيماً، لِما كان قد وقع بينهما من الوحشة التي تأكدت أسبابها ـ وقد تقدم ذكرها. فتجهز بعساكر الديار المصرية وتوجه من قلعة الجبل، لقصد دمشق، في ثالث عشرين صفر. ولما اتصل خبره بالملك الصالح حَصَّنَ دمشق، وقسم الأبراج على الأمراء، وغَلَّقَ أبواب المدينة. وجاء الأمير عز الدين أَيْبَك من صَرْخَد، وأمر بفتح الأبواب ففُتحت.

ووصل الملك الكامل بعساكره، ونزل عند مسجد القَدَم. ونزل الملك الناصر داود بالمِزَّة[(٢)]، ونزل مُجير الدين وتقِيُّ الدين ابنا الملك العادل بالقَابُون[(٣)]، وهم في طاعة الملك الكامل. وأَحْدَقَت العساكر بدمشق، وقطع الملك الكامل عنها المياه. ورَدَّ ماء بَرَدَى[(٤)] إلى ثَوْرا[(٥)]. وشدد الحصار، فغلت الأسعار. وسد الصالح أبواب دمشق، إلا بَابَيْ الفَرَج والنصر. وتقدم الملك الناصر داود إلى باب تُوما، وعُمِل النُّقُوب فيه. ولم يبق إلا فتح البلد.

فأرسل الملك الكامل إليه فخر الدين ابن الشيخ، فرده عنها، ورَحَّلَه إلى أرض بَرْزَه[(٦)]. وأحرق الصالح إسماعيل قصر حَجَّاج والشَّاغُور، وأخرب ظاهر دمشق خَراباً لم يُعْهَدْ مثله. واحترق جماعة من سكان هذه الجهات في دورهم، ومن سلم منهم لم

=
وبين أيديهم غاشية تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب يحملها الركابدار رافعاً لها على يديه يلفتها يميناً وشمالاً. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٧٧.

(١) ستأتي ترجمته في حوادث سنة ٦٤٩ وهي في سنة وفاته.

(٢) قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٣) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩.

(٤) و(٥) قال ياقوت: «بردى أعظم أنهار دمشق، يخرج من قرية قنوا ويمر بالغوطة، ثم بمدينة دمشق، فيشق بينها وبين العقبة حتى يصب في بحيرة المرج شرقي دمشق، ويساوقه من الجهة الشمالية نهر «ثورا» ويتصل به في بعض أجزائه. وفي شمال ثورا نهر يزيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

(٦) قرية في غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٥.

يبق له ما يَرْجع إليه إلا الكُدْيَة وسؤال الناس. وحُكِي أن الصالح ـ أو ابنه ـ وقف على العُقَيْبَة[١]، وقال للزَّرَّاقِين[٢] أحرقوها، فضربوها بالناس. وكان لرجل من سكانها عشر بنات، فقال لهن: أخرجْن، فقلن لا والله، النار ولا العار، ما نفتضح بين الناس! فاحترقت الدار وهم وفيها. فاحترقوا. وجرى من الخراب بظاهر دمشق ما لم يجر مثله قبل ذلك.

ثم راسل الملك الصالح أخاه الملك الكامل يقول: بلغني أنك تعطي دمشق للملك الناصر داود وأنت أحق بها، وإن أنت لم تعطني ما أريد، وإلا ضربْتُ قواريرَ النِّفْط في أربع جوانب دمشق وأحرقتها، وأحرقت قلعتها، وأُخَرِّبُها خَرَاباً لا تَعْمُرُ بعده أبداً. فعلم الملك الكامل من جُرْأته أنه يفعل، فأعطاه ما طلب.

ودخل بينهما الشيخ محيي الدين بن الجَوْزِي ـ رسول الخليفة ـ وكان بدمشق ـ فوقع الاتفاق والصلح على أن الملك الكامل أَقَرَّ بيدِ أخيه الملك الصالح بُصْرَى[٣] والسَّوَاد[٤]، وأعطاه بعَلبك وأعمالها. ولو طلب أكبر من ذلك أعطاه، خوفاً من أن يحرق دمشق.

وتسلم الملك الكامل دمشق، ودخلها في عاشر جمادى الأولى ـ وقيل في أواخر الشهر المذكور. وأفرج عن الفَلَك المَسِيري، وكان الملك الأشرف قد اعتقله في حَبْس الحَيَّات. ولما دخل الملك الكامل إلى دار رضوان بقلعة دمشق، رأى قبر أخيه الأشرف فرفَسَه برجله وسَبَّه، وقال انقلوه الساعة فنقلوه إلى الكَلاَّسَة.

ولما ملك الملك الكامل دمشق، عزم على قصد حِمص، لاتفاق صاحبها الملك المجاهد شِيركوه، فيما مضى، مع الأشرف. فصالحه الملك المجاهد على أن يحمل إلى خزانته ألف درهم، ودخل عليه بالنساء، فأجاب الملك إلى ذلك. ومات الكامل قبل حمل المال.

ذكر وفاة السلطان الملك الكامل

كانت وفاته في يوم الأربعاء، وقيل ليلة الأربعاء ـ الحادي والعشرين من شهر

(١) انظر ص ١٣٥، حاشية (٢). وعن حريق العقيبة وخرابها انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٥١. و السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٥٧، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٢) الذين يرمون بالنفط، والزرّاقة: (أنبوبة يزرق أي يقذف) بها النفط في الحرب. ابن منظور: لسان العرب (زرق).

(٣) بصرى: هي من أعمال دمشق: قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٢.

(٤) السواد: الأرض الزراعية أو القرى.

رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة، بقلعة دمشق بقاعة الفِضَّة[١]. ومولده بالقاهرة في ذي الحجة، سنة خمس وسبعين وخمسمائة[٢].

وكان أَسَنَّ أولاد الملك العادل. وكانت مدة عمره تسعاً وخمسين سنة وسبعة أشهر، تقريباً. ومدة ملكه ـ بعد وفاة والده الملك العادل عشرين سنة، وشهرين وستة عشر يوماً. وملك دمشق واحِداً[٣] وسبعين يوماً. ومنذ خُطب له بولاية العهد، ثمانياً وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وستة عشر يوماً.

ودُفن بالقلعة. ثم نقل إلى تربته بجوار الجامع الأموي بدمشق. وكان مدة مرضه نيفاً وعشرين يوماً، بالإسهال والسُّعال ونَزْلةٍ في حَلْقِهِ، ونِقْرس في رجله. وأظهروا موته يوم الجمعة. ولم يظهروا الحزن عليه بدمشق. حُكي عن خادمه الذي كان يُعَلِّلُه في مرضه، قال: طلب مني الملك الكامل الطَّشْت[٤] لسُقْيا، فأحضرته له. وكان الناصر داود على الباب يطلب الإذن. فقلت له: داود على الباب. فقال: ينتظر موتي! وانزعج. فخرجت إليه، وقلت له: ليس هذا وقتَ عبورك، فإن السلطان منزعج. فتوجه إلى دار أسامة[٥] ـ وكان قد نزل بها. ودخلت إلى السلطان، فوجدته قد قَضَى، والطَّشْت بين يديه، وهو مكبوب على المخدة.

وكان ملكاً حازماً، ضابطاً لأموره، متطلعاً لجمع المال، يباشر الحُمُول التي تصل إليه بنفسه ويكتبها بخطه في دفترٍ له، ويحاقِقُ المستخدمين فيما يطلع عليه. وجمع مالاً عظيماً، حتى يقال إنه خلف ألفَ ألفِ إردب ذهب. وهذا ما لم يُسمَعْ بمثله. وأراه ـ والله أعلم ـ من التغَالي.

وكان يجلس في مجلس خاص في كل ليلة جمعة، يجتمع فيه الفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم. وله في بقية الجمعة ليال، يختلي فيها مع نُدَمائه على الشراب وسماع

(١) ذكر ابن واصل أن بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر. ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥، ص ١٥٥.

(٢) «كان مولده في سنة ٥٧٣ هـ» في كنز الدرر، ج ٧، ص ٣٢٦.

(٣) ورد في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٥٥. «وكانت مدة ملك الكامل لدمشق شهرين إلا يومين».
وفي الأصل: «إحدى».

(٤) استعمل هذا اللفظ بالشين المعجمة أو صوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء وأصله طس بسين مشددة وجمعه طساس وطسوس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠.

(٥) دار أسامة هي دار الملك المعظم. وأسامة أو سامة الجبلي كان من الأمراء الصلاحية. انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٢٧، حاشية (٤).

القِيان[١]. وكان حسن الاعتقاد في السُّنَّة. وكان جَهُورِيَّ الصوت، وله هيبة عظيمة في قلوب الرّعايا والخَواصّ. وعَمَّر قاعة بقلعة الجبل، يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين في شهر رمضان، سماها قاعة رمضان. وهي الآن من جملة الخزائن السلطانية.

ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان الملك الكامل في هذه السنة

لما توفي الملك الكامل اجتمع الأمراء، وهم: سيف الدين علي بن قِلِيج[٢]، وعز الدين أَيْبَك، وركن الدين الهَيْجَاوي، وعماد الدين، وفخر الدين: ابنا شَيْخ الشُّيُوخ[٣]، وتشاوروا في أمر دمشق، وانفصلوا عن غير شيء. وكان الملك الناصر داود بدار أسامة، فأتاه الرُّكْن الهَيْجَاوي ليلاً، وبَيَّن له وجه الصواب. وأرسل إليه أَيْبَك المُعَظَّمي يقول له: أَخْرِج المال وفَرِّقْهُ في مماليك أبيك والعَوَامّ، فهم معك، وتملك البلد، ويبقى هؤلاء بالقلعة محصورين. فلم يَتَّفِقْ ذلك.

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء بالقلعة في يوم الجمعة، وذكروا الملك الناصر داود، والملك الجواد مظفر الدين: يونس بن مودود ابن الملك العادل. وكان فخر الدين ابن الشيخ يميل إلى الملك الناصر، وعماد الدين يكرهه فأشار عماد الدين بالملك الجواد، ووافقه الأمراء، وقالوا لفخر الدين ابن الشيخ: ما تقول فيه؟ فقد اتفق الأمراء عليه، فقال: المصلحة أن نُوَلِّي بعض الخدام نائباً عن الملك العادل: ابن أستاذنا الملك الكامل، فمتى شاء عزله وإن رضي أبقاه، ولا تولوا من بيت المُلْك فيتعذر عَزْلُه ويستقل بالملك.

وبلغ ذلك الملكَ الجواد فجاء إليه، وتحدث معه، وذكر له سالفَ صُحبة ومودة، وترفق له ووعده أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارساً، وعشرة آلاف دينار. فقال: والله لا وافقتُ إلا على ما فيه مصلحة لابن أستاذي، فلما يئس منه، فَرَّق ضِياع الشام على الأمراء وخَلَع عليهم، وأعطاهم ما في الخزائن ـ وكان بها تسعمائة ألف دينار. وتوجه فخر الدين ابن الشيخ إلى الديار المصرية، ومعه جماعة من الأمراء، بعد أن تَرَدَّدَ إلى الملك الناصر مِراراً، وهو بالقَابُون.

واستقر أمرُ الملك الجواد في يوم الجمعة، وأرسل الأمراء الأمير ركن الدين الهَيْجَاوي إلى الملك الناصر داود ـ وهو في دار أسامة ـ فأمره بالخروج إلى مملكته بالكَرَك. فقام وركب، وقد اجتمع الناس من باب داره إلى القلعة، وهم لا يَشُكُّون أنه

(١) القيان: الجواري، المغنيات. ابن منظور: لسان العرب (قين).
(٢) رسم أيضاً قلج: في مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ١٧١.
(٣) هو صدر الدين بن حمويه الملقب بشيخ الشيوخ. راجع صفحة ٩٦، حاشية رقم (٦).

يطلُع إلى القلعة. فتوجه. وخرج من باب الفرج، وصاحت العامّة واستغاثوا، محبة له ورغبة فيه. وتوجه إلى القابُون.

وأما الملك الجواد فإنه فرَّق الأموالَ وخلع الخلَع. فيقال إنه خلع خمسة آلاف خِلعة، غير الأموال. وأبطل الخمور والمُكُوس، ونفى الخَوَاطِي[١]. وأقام الملك الناصر بالقابون أياماً، وعزموا على القبض عليه، فرحل، وبات بقصر عَفْرا، وركب خلفه أَيْبَك الأَشْرَفِي ليُمْسِكَه، فبعث إليه عماد الدين بن مُوسَك في السِّر فعرفه، فسار في الليل إلى عَجْلُون[٢] وعاد أَيْبَك إلى دمشق.

ذكر ما وقع بين الملكين: الناصر والجواد وهرب الناصر إلى الكَرَك

قال: ولما توجه الملك الناصر إلى عَجْلُون، سار منها إلى غَزَّة، واستولى على الساحل بموافقة عسكره. ومقدمهم. الأمير مجد الدين عمر ـ أخو الفقيه عيسى الهَكَّارِي[٣] ـ ووصلت غاراته إلى الوَرَّادَة[٤] وخَرَّب بُرْجَ الحَمَام بها. فخرج إليه الملك الجواد في عسكر مصر والشام، وأمر الأمراء الأَشْرَفِيَّة بمكاتبةِ الناصر وإطْمَاعِه في الملك، ففعلوا ذلك، فاغتر بكتبهم واطمأن إليهم، وركب من غزة سبعمائة فارس، وقصد نابلس بأثقاله وخزائنه وأمواله ـ وكانت على سبعمائة جمل ـ وضرب دِهْلِيزَه على سَبَسْطِيَة[٥]، وترك عساكره مُقَطَّعَةً خلفه.

---

(١) الخواطي: البغايا.

(٢) عجلون: قلعة من جند الأردن، تشرف على الغور. بناها عز الدين أسامة بن منقذ أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٠ هـ. وكان مكانها دير به راهب اسمه عجلون فسميت به. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٥، وص ٢٠٠. انظر ص ٥٩ حاشية (٣).

(٣) هو الفقيه أبو محمد عيسى الهكاري الملقب ضياء الدين كان من كبار رجال دولة صلاح الدين الأيوبي توفي سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م. أخوه هو مجد الدين عمر أبو حفص. سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م وتوفي سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ رقم الترجمة ٥١٦.

(٤) الورّادة: منزل في طريق مصر من الشام في وسط الرمل والماء الملح من أعمال الحفار فيها سوق ومسجد ومنازل ومرجة الحمام يكتب ويعلق على أجنحتها ويرسل إلى مصر بالوارد والصادر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٢٥. مكانها يعرف باسم «المزار» بقرب محطة المزار الواقعة على بعد ١١٠ كلم شرقي القنطرة الشرقية في الطريق الحديدي بينها وبين العريش بقسم سينا الشمالي. محمد رمزي: القاموس الجغرافي.

(٥) سبسطية: بلدة في نواحي فلسطين بينها وبين بيت المقدس يومان، وبها قبر زكرياء، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وجماعة من الأنبياء والصديقين. وهي من أعمال نابلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٨.

والملك الجواد على جِينِين[1] فركب بعسكره وأحاط به، فركب الناصر في نفَر يسير. وساق نحو نابُلُس، واستمرت به الهزيمة إلى قلعة الكَرَك لا يَلْوِي على شيء. واستولى الملك الجواد على خزائنه وذخائره، وخيوله وخيامه وأثقاله ـ وكان فيها ما لا يُحصَى قيمته. وكانت هذه الواقعة في رابع عشرين ذي الحجة من السنة.

قال أبو المظفر: وبلغني أن عماد الدين ابن الشيخ وقع بسِفْطٍ صغير، فيه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر، وفصوص ليس لها قيمة، فدخل على الجواد وطلبه منه، فأعطاه إياه، قال: وهذه الأموال ـ التي كانت على جِمال الملك الناصر ـ هي التي جَهَّزَ بها الملك المعظم ابنته دار مرشد، لما زوجها بالسلطان: جلال الدين خُوَارِزْم شاه ـ أخذها الناصر منها ظناً منه أنه يعوضها إذا فتح البلاد، فكان الأمر بخلاف ما ظَنَّ.

وكان نصحاؤه أشاروا عليه ـ وهو بغَزَّة أنه يبعث بالأموال والأثقال إلى الكَرَك، على عَقَبَةِ الزُّوَيْرَة[2]، ويجمع عسكره ويتوجه إليهم جَرِيدَةً[3]، فاغتر بمكاتبة الأَشْرَفِيَّة. وجهز الملك الجواد الطلعات والصَّنَاجِق[4] إلى الديار المصرية، فوصلت في سادس وعشرين الشهر. وعاد إلى دمشق بالظفر والغنيمة.

هذا ما كان بدمشق، فلنذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب، ببلاد الشرق.

ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين[5] أيوب ببلاد الشرق في هذه السنة

كان الملك الصالح نجم الدين قد استخدم الخُوَارِزْمِيَّة، الذين سَلِمُوا من أصحاب

---

(١) جينين: بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن، بها عيون ومياه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٥. وورد في الموسوعة الفلسطينية ج ٢، ص ٨٣: «جينين هي مدينة جنين في فلسطين تقع عند النهاية الشمالية لمرتفعات نابلس فوق أقدام الجبال المطلة على سهل مرج ابن عامر».

(٢) الزُّويرة: لم يرد هذا الاسم في معجم البلدان. ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي طبعة مصر، ج ٧، ص ١٢، حاشية رقم (٣)، أن هناك جهة تعرف اليوم باسم عقرة الزول. وهي على بعد عشرة كليو مترات غربي العريش. ويمكن أن تكون تحريفاً لعقبة الزُّوَيْرة.

(٣) سبق التعريف بها، انظر ص ١٢٢، حاشية (٥).

(٤) انظر صفحة ٤ حاشية رقم (٣).

(٥) ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٦٣٧ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٣٧، وشفاء القلوب للحنبلي ص ٣٦٧، وذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٨٣، أمراء دمشق للصفدي ص ١٥، معجم الأنساب والأسرات لزامباور ج ١، ص ١٥١ مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٢٠٢، السلوك للمقريزي ج ١/ ٢، ص ٢٩٦.

السلطان جلال الدين خُوَارِزْم شاه[١]، في سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكانوا ـ قبل ذلك ـ خدموا صاحب الروم السلطان: علاء الدين كَيْقُبَاذ، ففارقوه، واستخْدَمَهُم الملك الصالح، واستعان بهم، فخَالَفُوا عليه في سنة خمس وثلاثين. وأرادوا القبض عليه ـ وكان على الفُرات ـ فهرب إلى سنجار، وكان قد ملكها واستولى عليها بعد وفاة عمه الملك الأشرف. وترك خزانته وأثقاله، فنهبوا ذلك بجُمْلَتِهِ. ولما صار بسِنْجَار، وعلم الملك الرحيم: بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ـ مخالفة الخُوَارِزْمِيَّة، قصده وحصره بسِنْجَار، في ذي القعدة. فأرسل الملك الصالح إليه يسأله الصلح، فقال: لا بد من حمله إلى بغداد في قَفَص! وكان بدر الدين لؤلؤ وملوك الشرق يكرهون مجاورة الملك الصالح، وينسبونه إلى الكِبْر والظلم.

فبعث الملك الصالح القاضي بدر الدين ـ أبا المحاسن يوسف ـ قاضي سِنْجار إلى الخُوَارِزْمِيَّة، فتخَيَّلَ في الخروج من سِنْجار، بأن حَلَقَ لِحْيَتَه وتَدَلَّى من السُّور بحبل، وتوجه إليهم. وشرط لهم كل ما أرادوا. فساقوا جَرَايِدَ[٢] من حَرَّان، وكبسوا بدر الدين لؤلؤ وعسكر الموصل بسِنْجَار. فهرب منهم على فَرَس، وترك خزائنه وأثقاله وخيوله. فنهب الخوارزمية جميع ذلك، واقتسموه، فصلحت به أحوالهم واستغنوا.

هذا ما كان من أخبار دمشق والشام، وأخبار الملك الصالح بالشرك بعد وفاة والده: الملك الكامل، في سنة خمس وثلاثين. فلنذكر أخبار الملك العادل.

ذكر أخبار السلطان الملك العادل [الصغير][٣]

هو سيف الدين: أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل: ناصر الدين أبي المعالي محمد بن السلطان الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد، ابن أيوب[٤]. وهو السابع من ملوك الدولة الأيوبية، بالديار المصرية.

---

(١) سبق التعريف به، انظر صفحة ١٠٦، حاشية رقم (١).

(٢) مفردها جريدة: فرقة من الجيش سريعة. انظر ص ١٢٢ حاشية (٥).

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٦٩. وذلك تميزاً له عن جده العادل أبي بكر بن أيوب.
ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٦٩، والسلوك للمقريزي ج ١/ ٢، ص ٢٦٧، ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ١٧٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٣٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٥، ص ٨٤، وشفاء القلوب للحنبلي ص ٣٦٥، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٦٣.

(٤) أي الأمير نجم الدين أيوب.

استقر في الملك بعد وفاة والده: السلطان الملك الكامل. وذلك أنه لما مات والده بدمشق، كان هو ينوب عنه بالديار المصرية. فاجتمع الأمراء الذين كانوا بدمشق، في خدمة السلطان الملك الكامل، الأمير سيف الدين علي بن قِلِيج، والأمير عماد الدين، وفخر الدين: ابنا الشيخ، وغيرهم من أكابر الأمراء. في قاعة المَسَرَّة بقلْعة دِمشق، وحَلَفُوا للملك العادل هذا، واستحلفوا له جميع العساكر المصرية والشامية، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ورَتَّبُوا الملكَ الجَوَاد: مظفر الدين يونس بن مودود[1] - ابن عمه - في نِيابة السلطنة بدمشق، كما تقدم. وطالعوا السلطان الملك العادل بالخبر. فخُطِب للملك العادل بالديار المصرية، في سابع[2] شعبان من السنة، وأعلن بوفاة الملك الكامل. فقال القاضي برهان الدين بن الفقيه نصر: [من البسيط]

قل للذي خاف من مصر، وقد أَمِنَتْ ماذا تـألَّـمُـه مـنـهـا وخِـيـفـتُـه
إن كان قد مات عن مصر مُحَمَّدُها فـقـد أقـيـم أبـو بـكـر خَـلِـيـفَـتُـه[3]

قال: ولما استقر في المُلْك، وَضَعَ المُكُوسَ[4]، وزاد الأَجْنَادَ[5]، ووَسَّعَ على الناس في أرزاقهم. ورضي ما قرره الأمراء من استنابة الملك الجواد بدمشق، وأرسل إليه الخلع والصَّنْجَق. فركب بذلك في يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان من السنة.

ووصلت العساكر المصرية التي كانت مع الملك الكامل بالشام - وكان ابتداء وصولهم في ثاني عشر شعبان، وكملوا في مستهل شهر رمضان من السنة - وتأخر منهم من جُرِّد مع الملك الجَوَاد، فأكرمهم الملك العادل وخلع عليهم، وزاد في أرزاقهم. ثم عاد من تأخر منهم إلى الديار المصرية، بعد هرب الملك الناصر داود من سَبَسْطِيَّة - كما تقدم. وكان وصولهم في ثامن المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة.

وفي سابع عشرين شوال، من سنة خمس وثلاثين، وصل الشيخ محيي الدين يوسف بن أبي الفرج الجَوْزِي، برسالة الخليفة بالتَّعْزِيَة للملك العادل بأبيه، والتهنئة له بالملك. واستَحْلَفَه للخليفة، في ثاني ذي القعدة منها.

---

(١) هو ابن الملك العادل. توفي سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢١٢، وشفاء القلوب للحنبلي ص ١٠٥، وأمراء دمشق للصفدي، ص ١٠٣، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٤٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٠٨.

(٢) «في رابع شعبان» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٦٧.

(٣) في الأصل: «فقد قام أبو خليفته».

(٤) الضرائب غير الشرعية: انظر صفحة ٩، حاشية (٢).

(٥) أي زادهم في مرتباتهم.

ذكر ما وقع في هذه السنة من الحوادث ـ خلاف ما تقدم ـ

في هذه السنة، في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة، أمر السلطانُ الملك الكامل أن لا يُصَلَّى بالمسجد الجامع بدمشق صَلاَة المغرب إلا خلف إمام واحد: وهو خطيبُ الجامع الشافعي. وأبطل من عداه من الأئمة المالكية والحَنَفِية والحنابِلة، في صلاة المغرب خاصة، لانحصارها في وقت واحد واشتباه الحال على المَأْمُومِين.

وفيها قصد الملك المنصور: عمر بن علي بن رسول ـ متملك اليمن ـ مكة. فلما بلغ الأمير أسد الدين جَغْرِيل الخبر، خرج من مكة بمن معه من العسكر إلى الديار المصرية، في سابع شهر رجب، ووصلوا إلى القاهرة متفرقين في العشر الأوسط من شعبان. ودخل صاحبُ اليمن مكة في تاسع شهر رجب.

وفيها ولي الشريف: شمس الدين الأُرمَوِي[١] الشافعي ـ قاضي العسكر ـ نِقابة الأشراف بالديار المصرية ـ وذلك في يوم الأربعاء سلخ ذي القعدة. وقرىء تقليدُه بجامع مصر، وحضر قراءتَه الأمير جمال الدين بن يَغْمُور، وفلك الدين المَسِيري، وابن النجيلي.

وفيها في شعبان، ولي الشيخ كمال الدين: عمر بن أحمد بن عبد الله بن طَلْحَة النَّصِيبي[٢] ـ الخَطابة، بعد وفاة عمه الدَّوْلَعِي[٣] ـ وكانت وفاته في رابع عشر جمادى الأولى، ودفن بالمدرسة[٤] التي أنشأها بجَيْرُون. وكان له أخ جاهل فولي الخطابة، ثم عزل، فوليها الشيخ كمال الدين.

---

(١) النسبة إلى أُرمية أُرموي وأُرْمي. اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان بينها وبين بحيرة تلا نحو ثلاثة أميال، وهي فيما يزعمون مدينة زرادشت نبي المجوس. وهي قريبة من تبريز وإربل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) نسبة إلى نصيبين، وهي من بلاد الجزيرة على طريق القوافل بين الموصل والشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٣.

(٣) هو خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل الدولعي. توفي وله ثمانون سنة. والدولعي نسبة إلى الدولعية وهي قرية من قرى الموصل وكان مدرساً بالغزالية مع الخطابة وقد منعه المعظم في وقت عن الإفتاء فعاتبه السبط في ذلك فاعتذر بأن شيوخ بلده هم الذين أشاروا عليه بذلك لكثرة خطئه في فتاويه وقد كان شديد المواظبة على الوظيفة حتى كاد أن لا يفارق بيت الخطابة ولم يحج قط مع أنه كانت له أموال جزيلة.
ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٧.

(٤) هي المدرسة الدولعية. انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، دار الكتب العلمية، ج ١، ص ١٨٢.

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة: شمس الدين أبو البركات[١] - يحيى بن هبة الله بن الحسن، المعروف بابن سَنِيّ الدولة، في يوم الأحد سادس ذي القعدة، ودفن بقاسِيون. وكان فقيهاً إماماً فاضلاً عفيفاً - رحمه الله تعالى. وولي القضاء بعده قاضي القضاة: شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيِّي في ذي القعدة، استِقلالاً وعَدَّلَ جماعةً كبيرة من أهل دمشق وهو أول قاضٍ رَتَّبَ مراكز الشهود بدمشق، وكان قبل ذلك مورقون يورقون المَكْتُوب، ويتوجه أربابه إلى بيوت العُدُول فيُشَهِّدُونهم.

وفيها توفي الأمير صارم الدين خَطْلَبَا التِّبْنِيني، في يوم الاثنين ثالث شعبان، ودفن[٢] بتربته التي أنشأها بقاسِيون. وكان دَيِّناً صالحاً عاقلاً. أقام في الثُّغور مدة سنين، يجاهد العدُوّ. وكان كثير الصدقة دائم المعروف، طاهر اللسان، رحمه الله تعالى.

واستهلَّت سنة ست وثلاثين وستمائة

ذكر القبض على الصاحب صفي الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله

في هذه السنة - في أولها - قبض الملك الجواد على الصاحب صفي الدين بن مرزوق، وصادره، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار، [وسجنه بقلعة حمص، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء][٣].

وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين الملك المجاهد - أسد الدين صاحب حِمص - عداوة مستحكمة، لما استوزره الملك الأشرف. وكان الملك الجواد لا يخرج عن رأي الملك المجاهِد، فحَسَّنَ الملكُ المجاهدُ للملك الجواد القبض عليه. وكان ابن مرزوق قد استشعر ذلك، فعمد إلى تابوت وضع فيه جواهر ولآليء، وأظهر أن إحدى سَرَارِيه قد ماتت، وهي عَزِيزَةٌ عنده. وأنه يريد دفنها في داره المجاورة للمدرسة النُّورِيَّة، بالقرب من الخَوَّاصِين - وهي التي تعرف الآن بالنَّجِيبِيَّة الشافِعية - وعمل في القُبَّةِ أَزَجاً، ثم أخرج التابوت على أعناق غلمانه وخُدامه إلى الجامع، وحضر الناس للصلاة على المَيِّتَةِ بزَعْمِهم، وعُمِلَ العَزاء وتَرَدَّدَ القُرَّاءُ إلى التربة أياماً.

ثم قُبض على مرزوق بعد أيام قلائل، وأُخذ جميع موجوده، وحُبس بقلعة دمشق،

---

(١) توفي وله ثلاث وثمانون سنة، وكان الملك الأشرف موسى يحبه ويثني عليه. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٦٧.

(٢) ودفن مع استاذه بقباب شركس، وهو الذي بناها بعد أستاذه، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٢.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٧٤. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٦٣.

فاتفق أن خادمه الكبير ضرب خادماً صغيراً، فجاء الخادم، وسأل الاجتماع بالملك الجواد. واجتمع به وأخبره بالواقعة. فأرسل القاضي والشهود وأميرَ جَانْدَار وأستاذ الدار، فتوجهوا وفتحوا التربة، وأحضروا التابوت بحاله. وكُشف بين يدي الجواد وصاحب حمص، فوُجِد فيه من الجواهر ما قُوِّم بمائتي ألف دينار وستين ألف دِينار. وكانوا ـ قبل ذلك بأيام ـ قد طولب ابن مرزوق بمال يَحْمِلُه، فحلف برأس الملك الجواد أنه لا يملك شيئاً، فلما وجد هذا التابوت. سَلَّمَه الجواد للملك المجاهد. فاعتقله بقلعةِ حمص. فأقام سنين لا يرى الضَّوْء، وقيل إنه حُبِس اثنتي عشرة سنة. وأظهر أسد الدين مَوْتَه، وكتب بينه وبينه مُبَارَأَة[١].

ذكر خروج دمشق عن الملك العادل وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب

كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل ـ لما حضر الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ من الشام إلى الديار المصرية ـ أنكر عليه، ولامه وتهدده لكونه[٢] سلم دمشق للملك الجواد. فقال: أنا أتوجه إلى دمشق وأنزل بالقلعة، وأبعث الملك الجواد إلى السلطان، وإن امتنع، أَقَمْت نائباً عن السلطان عِوَضَه.

وتوجه من القاهرة في شهر ربيع الأول، وقرر أن يُقْطِعَ الملك الجواد ثغر الإسكندرية. ولما عزم على المسير، أشار عليه أخوه فخر الدين أن لا يتوجه إلى دمشق، وقال أخاف عليك من ابن مَمْدُود ـ يعني الجَوَاد.

فقال: أنا مَلَّكْتُهُ دمشق، ولا يخالفُني فقال: أنت فارقته وهو أمير، وتعود إليه وقد صار سُلطاناً، فتطلب منه تسليم دِمشق، وتعوضه الإسكندرية، ويقيم عندكم، فكيف يطيب له هذا؟ أو تسمح نفسه بمفارقة المُلْك؟ فأما إذا أَبَيْتَ إلا التوجه، فانزل على طَبَرِيَّة وكاتِبْه. فإن أجاب، وإلا تُقيم مكانَك وتكتب إلى الملك العادل.

فلم يَرْجع إلى رأيه، وتوجه إلى دمشق، وخرج الجواد إليه، وتلقاه بالمُصَلَّى، وأنزله بالقلعة في قاعة المَسَرَّة. وأرسل إليه الملك الجواد الخلَع والأموال والأقمشة والخيل، ففرق عمادُ الدين الخلعَ على أصحاب. وجاء الملك المجاهد أسد الدين ـ صاحب حمص ـ إلى دمشق.

قال: ولما قال الأمير عماد الدين للملك الجواد أن يتوجه إلى الديار المصرية،

---

(١) مبارأة: مخالصة. ابن منظور: لسان العرب (برأ).

(٢) في الأصل: «كونه».

ويأخذ ثغر الإسكندرية - غضب، ورَسَمَ عليه في الدار[١]، ومنعه من الركوب.

ثم جاء إليه وقال: إذا أخذتم دمشق مني، وأعطيتموني الإسكندرية، لا بد لك من نائب بدمشق، فاجعلوني ذلك النائب. ومتى لم تفعلوا هذا، فقد كاتبْتُ الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأُسَلِّم إليه دمشق، وأتعوض عنها سِنْجَار. فقال له ابن الشيخ: إذا فَعَلْتَ هذا، اصطلح السلطان الملك العادل والملك الصالح، ولا تحصل أنت على شيء أَلْبَتَّة.

ففارقه الجواد وخرج مُغْضباً، وحكى ما جرى بينه وبين ابن الشيخ للملك المجاهد. فقال: والله إن اتَّفَقَ الصالح والعادل لا تَرَكَا بيدِ أحدٍ منا شيئاً. وسَلَبَانا مُلْكَنا وما بأيدينا، حتى نحتاج إلى الكُدْيَةِ[٢] في المَخَالِي. ثم جاء صاحب حِمص إلى ابن الشيخ، وقال له: المصلحةُ أن تكتب إلى الملك العادل، تشير عليه بالرجوع عن هذا الرأي: يعني إخراج الملك بالرجوع عن هذا الرأي. يعني إخراج الملك الجواد من دمشق. فقال: حتى أتوجه إلى بَرْزَة[٣] وأُصَلِّي صلاة الاستِخَارة. فقال له أسد الدين: كأنك تريد أن تتوجه إلى بَرْزَة، وتهرب منها إلى بَعْلَبَك. فغضب عماد الدين وانفصلا على هذه الحال.

واتفق الجواد وصاحب حمص على قَتْلِ عماد الدين [عمر][٤]. وتوجه أسد الدين إلى حِمْص. وكان عماد الدين قد مرِض، وأَبَلَّ[٥].

فما كان في يوم الثلاثاء، السادس والعشرين من جمادى الأولى، بعث الجواد إلى الأمير عماد الدين يقول له: إن شئتَ أن تركب وتتنزه فاركب إلى ظاهرِ البلد. فظن أن ذلك بوادِر الرضا. ولبس فَرَجِيَّةً كان الجواد قد بعث بها إليه، وقدموا له حِصاناً كان سيَّره إليه أيضاً، فلما خرج من باب الدار إذا هو بنَصْراني من نَصارى قَارَا[٦] قد وقف وبيده قَصَبَةٌ وهو يستغيث، فأراد الحاجبُ أن يأخذ القصبة منه، فقال: لي مع الصاحب شُغْلٌ. فقال عماد الدين: دعوه.

---

(١) هذا التعبير معناه: «حددت إقامته».

(٢) الكدية: الشحاذة، ابن منظور: لسان العرب (كدا) وفيه: والكُدية كل ما جمع من الطعام.

(٣) برزة: قرية من غوطة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٥.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٨.

(٥) وأبلَّ: شفي: ابن منظور: لسان العرب (أبل).

(٦) قارا: قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وأهلها كلهم نصارى. والاسم الأصلي قارة. والقارة أصغر من الجبل. ثم قيل قارا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣٤.

فتقدم إليه، وناوله القَصَبَة. فلما تناولها، ضربه النصراني بِسِكِّين في خاصِرَتِه! وجاء آخر وضربه بسكين على ظهره، فمات[١] وأُعيد إلى الدار مَيِّتاً واحتاط الجوادُ على جميع مَوْجُودِه، وكتب مَحْضَراً أنه ما مالأ على قتله. وقصد استخدام مماليكه، فامتنعوا وقالوا له: أنت تَدَّعِي أنك ما قتلته، وهذا له إخوة ووَرَثَة، فبأي طريق تأخذ ماله؟ فاعتقلهم. وجُهِّزَ عماد الدين، ودفن بقاسِيون في زاوية الشيخ سعد الدين. وكان مولده في يوم الاثنين سادس عشر شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى.

ولما قُتل عماد الدين، علم الجواد أنه إن دخل الديار المصرية وسَلِمَ من القتل، صار ضَمِيمَة[٢]. واتفق وصول رسول الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك الجواد، وهو يبذل له أن يكون له سِنْجَار والخَابُور ونَصِيبِين والرَّقَّة، ويُسَلِّم دمشق للملك الصالح، فأَذْعَنَ إلى ذلك، لعلمه أن دمشق لا تبقى له. وقيل إن الملك الجواد هو الذي كتب إلى الملك الصالح، والتمس منه ذلك، فأجاب الملك الصالح إليه.

ورتَّبَ ولَدَه: الملك المعظم غياث الدين تُورَانْشاه في بلاد الشرق، وجعل مُقَامَه بحصن كَيْفا. ورتب النوَّاب بآمِد، وأَقْطَعَ الخُوَارِزْمِيَّة حَرَّان والرُّهَا والرَّقَّة وبِلادَ الجزيرة وسار إلى دمشق، فوصل إليها يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة، سنة ست وثلاثين وستمائة.

وحَمَلَ الجَوَادُ الغَاشِيَةَ[٣] بين يَدَيْه من تحت القلعة، وحملها الملك المظفر صاحب حَماه ـ من باب الحديد[٤]. وتسلم الملك الصالح القلعة، وخرج الجواد منها في تاسع الشهر، وترك دار فَرُّخْشَاه. واستوزر الملك الصالح جمالَ الدين بن جَرِير[٥]، ثم توجه الملك الصالح في شهر رمضان إلى نابُلُس، وكان ما نذكره.

ذكر أخبار الملك الجواد، وما كان من أمره بعد تسليم دمشق

قال المُؤَرِّخ: لما قَدِم الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق، رَتَّبَ له الملك الجواد الضِّيَافَات كل يوم، في قاعة من قاعات دمشق، ورَتَّبَ في كل قاعة ما تحتاج إليه من الفرش والآلات وأواني الفضة، وغير ذلك. وكان إذا حضر إلى قاعة سلمها إليه بجميع ما فيها، ثم ينتقل إلى قاعة أخرى، وكان آخر الضيافة في قاعة المَسَرَّة. ثم خرج

---

(١) مات وله ست وخمسون سنة، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٨.

(٢) أي رهينة كالأسير. ابن منظور: لسان العرب (ضمم).

(٣) راجع صفحة ١٤٥، حاشية (٣).

(٤) هو باب قلعة دمشق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٢، حاشية (١).

(٥) كان وزير الأشرف ثم الصالح إسماعيل توفي سنة ٦٣٦ هـ. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٢ حاشية رقم (٢).

الملك الجواد، وركب والعسكر في خدمته، فقال لهم: سُلطانُكم الملك الصالح. فحَلَّف الصالحُ العساكرَ في تلك الساعة، إلا الأمير سيف الدين علي بن قِلِيج، فإن الصالح قبض عليه.

فعظم ذلك على النُّوَّاب، ولامه أصحابه على ما فعل من تسليم السلطنة للملك الصالح، فأراد نقضَ ما أبرمه، والقبض على الملك الصالح. فاستدعى المُقَدِّمين والجند واستحلفهم، وجمع الصالح أصحابه عنده في القلعة، وأراد أن يحرق دار فَرُّخْشَاه. فدخل جمال الدين بن جرير بينهما، وأصلح الأمر.

وخرج الجَوَاد إلى النَّيْرَب[1]، واجتمع الناس على باب القصر[2] يدعون عليه ويَسُبُّونه في وجهه ـ وكان قد أساء السِّيرة فيهم، وسلط عليهم خادماً لبنت كُرْجِي يقال له الناصح، فأخذ أموالهم وصادرهم، وعلقهم وضربهم، فيقال إنه أخذ منهم ستمائة ألف درهم، وأرسل الملك الصالح إلى الجواد يأمره أن يعطي الناس أموالهم، فلم يصغ إلى قوله، ولا أجابه عن ذلك بجواب. وتوجه إلى بلاد الشرق.

فلما وصل إلى ضُمَيْر[3] رأى بَدَوياً فاستراب منه، فقبض عليه، فوجد معه كتباً من الملك الصالح إلى الخُوَارِزْمِيَّة ـ وكانوا على حِمص ـ يُحَسِّنُ القَبْضَ على الملك الجواد، وأخْذ ما معه، وأن يُسَيِّرُوه إليه. فعند ذلك أخذ على طريق السَّمَاوَة[4] وعرج عن حمص، وسار إلى عانَة[5]، فدخلها وأقام بها.

فبلغه أن صاحب الموصل يحاصر سِنْجَار ـ وبها أَيْدُمَر مملوك الجواد ـ فسار إليه في مائتي فارس. ولما قرب منها رَسَمَ أن يُضْرَب في كل ناحية طَبلُ باز. وفَرَّق من معه فِرَقاً، وجعل كل فِرقة طَبْلَخَانَاه[6] ومشاعل، وأمرهم أن يضربوا طَبْلَخَاناتِهم جُمْلَةً

(١) قرية مشهورة بدمشق انظر صفحة ٩٨ حاشية رقم (٣).

(٢) ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٢، حاشية (٣). أن الخلق قد اجتمعوا عند باب النصر وهو من أبواب دمشق بين باب الجابية والفراديس.

(٣) سبق التعريف بها. انظر صفحة ٨٢، حاشية (٢).

(٤) السماوة: بفتح أوله، وبعد الألف واو. سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها. وبادية السماوة: هي التي بين الكوفة والشام قفرى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٥) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد من أعمال الجزيرة، وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة وبها قلعة حصينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨١.

(٦) طبلخانة: وهي طُبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تَدقُّ في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب، وهي من الآلات العامة لجميع الملوك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨.

واحدة وسار إلى سِنْجَار لَيْلاً على هذه الصِّفَة، فظن صاحب الموصل أن معه عَسْكَراً، فارتحل عن سِنْجَار في ليلته، ودخلها الملك الجَوَاد بُكْرَة النهار، وأقام بها سنة.

وحاصره الخُوَارِزْمِيَّة، وعادوا عنه، وترددت الرسائل بينه وبين صاحب الموصل في المصاهرة بينهما. وقصد الجواد أن يتصل بابنه صاحب الموصل، ليكون عَضُداً له. فعقد عقد النكاح بالموصل، وكان وكيل الجواد زُرَيْق مملوكه.

ثم سأله صاحب الموصل الاجتماع، وسير ولده رهِينة. فوافق الجواد على ذلك وتوجه إلى عَانَة. هذا، وصاحبُ الموصل قد أفسد أهل سِنْجار. ولما سار الجواد من سنجار، جاء صاحب الموصل إليها فدخلها من غير مُمَانِع - وذلك في سنة سبع وثلاثين وستمائة.

فسار الجواد إلى بغداد، واستنصر بالخليفة. وأقام ببغداد ستة أشهر. فوصله الخليفة بأربعة آلاف دينار. وأمره بالخروج عن بغداد. فسار إلى عَانَة وأقام بها، ثم اشتراها الخليفة منه بمائة وعشرين ألف درهم. فقبض الجواد المال وسَلَّمَها - وهي جزيرة في وسط الفرات. وسار الجواد بعد تسليمها إلى حَرَّان، وهي بيد الخوارزمية. فأقام عندهم سنة. وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها، ثم عاد معهم إلى حَرَّان.

فاستدعاه الملك الصالح نجم الدين - بعد أن ملك الديار المصرية - فسار ومر على قَرْقِيسْيَا(١)، واجتاز بالرَّحْبَةَ بالبَرِيَّة، وأقام عند ابن صَدَقَة(٢) أياماً. وسار في البَرِّيَّة إلى الشَّوْبَك، وسير مملوكه زُرَيْق إلى الصالح في البرية. فعظُم ذلك على الصالح، وأنكر كونه حضر من البرية. ووصل الجواد إلى العَبَّاسة(٣)، فأرسل إليه الملك الصالح الطَّواشِي دِيناراً وأمره برده، وأن يعود إلى الشَّوْبَك(٤)، ولا يدخل مصر. فسار على طريق الرَّمْل يريد الساحل، ووصل إلى رَفَح.

فندب الملك الصالح كمالَ الدين بن الشيخ للقبض عليه. فعلم بذلك فتوجه إلى الملك الناصر داود - وكان إذ ذاك بالقدس - وتحالفا على قتال الصالح، وذلك في سنة تسع وثلاثين وستمائة. فاستبشر الناصر بقدومه، وجَرَّدَ العساكر مَعه. وجاء كمال الدين بن

---

(١) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق وعندها مصب الخابور في الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٣.

(٢) من رؤساء العرب سيرد اسمه في صفحة ١٦٩.

(٣) العباسة: وهي أول منزلة من مصر للقادم من الشام على الطريق إلى بلبيس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٤.

(٤) قلعة في جنوب الكرك شمالي أيلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٢٠.

الشيخ، والتقوا على مكان يقال له بيت قوريك ـ وهي قرية من قرى نابُلُس ـ بالقرب منها، فيما بينها وبين الغَوْر من جهة أَرِيحَا، فكسره الجواد وأسره. وأحضره إلى عند الملك الناصر داود، فوبخ الناصر كمال الدين.

وأقام الجواد عند الناصر فتَخَيَّلَ منه وقبض عليه بعد أيام، وأراد قتله، لما كان بينهما من الذُّحُولِ[1] القديمة. ثم سَيَّرَه إلى بغداد في البَرِّية تحت الاحتياط، فنزل قريباً من الأَزْرَق، فعرفه جماعة من العرب فأطلقوه.

فتوجه إلى عمه الملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ فلم يُمَكِّنْه من الدخول إليها، وبعث إليه بالنَّفَقات. وجَرَّدَ معه خمسمائة فارس، وكتب إليه بالمسير إلى الساحل والاجتماع بملوك الفرنج ومُقَدِّم الدَّيْوِيَّة[2]. فتوجه إليهم واجتمع بهم بقَيْسَارِيَّة[3] ـ وكانت أمه فرنجية ـ فمالوا إليه.

فبلغ ذلك الملك الصالح نجم الدين، فكتب إليه يَعِدُه بمواعيد جميلة. وطلب منه أن يستميل الفرنج إلى طاعته، ويَعِدُهم عنه بجميع ما يختارونه، ففعل الجواد ذلك، واستمالهم، وكتب إليه أن يسير رسوله إليهم.

ففعل الملك الصالح ذلك، وأرسل رسوله إلى الفرنج، واستحلف الملك الجواد ومُقَدِّم الدَّيْوِيَّة وأكابر الفرنج. فلما وثق الصالح بذلك، سير الأمير ركن الدين الهَيْجَاوي إلى غَزَّة بعسكر، وكتب إلى الجَوَاد أن يرحل وينزل عند الهَيْجَاوي، ويتفق معه على الصلح. ففعل الجواد ذلك.

ثم كتب الملك الصالح إلى الهَيْجَاوي يأمره بالقبض على الملك الجواد، وإرساله إليه. فأخبره الهَيْجَاوِي بذلك. فاتفقا على مفارقة الملك الصالح أيوب. فتوجه الجواد إلى عَكّا، والتجأ إلى الفرنج. وتوجه الركن الهَيْجَاوي إلى دمشق، والتحق بصاحبها الملك الصالح إسماعيل وأقام عنده. ولم يخدمه، بل كان يتردد إليه فيكرمه ويستشيره في أموره.

ثم كتب الملك الصالح إسماعيل إلى الملك الجَوَاد يُعَنِّفُه على لحاقه بالفرنج وطَلَبَهُ إليه. ثم أرسل إلى الفرنج وطلب منهم المعاضدة على صاحب مصر، ووعدهم أنه إذا ملك مصر أعطاهم البلاد الساحلية، وجميع فُتُوح الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فاستشاروا الجواد في ذلك، فكتب إليهم يحذرهم من الملك الصالح إسماعيل،

(١) الذحول: الذحل: الثأر وجمعها ذحول. ابن منظور: لسان العرب (ذحل).
(٢) انظر صفحة ٥٣، حاشية رقم (٣).
(٣) بلدة على ساحل الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٨.

وينهاهم عن موافقته. فوقع بخطه للملك الصالح إسماعيل، فقبض عليه بمنزلة العَوْجَاء[١]، وسيَّره إلى دمشق، واعتقله بعربا. فمات في شوال سنة إحدى وأربعين وستمائة. وطلبه الفرنج وشددوا في طلبه، فأظهر أنه مات. وأهله يقولون إنه خنقه، والله أعلم. ولما مات دفن بقاسِيون في تُربة الملك المعظم ـ رحمهما الله تعالى.

هذا ما كان من أمر الملك الجواد. فلنرجع إلى بقية أخبار الملك العادل صاحب مصر.

ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة، ندب السلطان الملك العادل العساكر إلى الساحل، وقدَّم عليهم الأمير ركن الدين الهَيْجَاوِي، وأنفق فيه الأموال ـ وذلك في جمادى الآخرة. فأقاموا ببلبيس إلى العشرين من شهر رمضان.

وأظهر جماعةٌ من الأتراكِ والمُضَافِين إليهم الخروجَ عن طاعة الملك العادل، وشَيَّعُوا أنه يقصد القبض عليهم، وعزموا على قصد الملك الصالح أيوب. فأرسل الملك العادل إليهم الأميرَ فخر الدين بن الشيخ، وبهاء الدين بن مِلَكْشُو، وطَيَّبَ قلوبهم واستمالهم، فلم يُجيبوا.

ولما كان في الحادي والعشرين من شهر رمضان، خرج جماعة من الحَلْقَة[٢] من القاهرة، من باب النصر وغيره، تقدير ألف فارس من الأتراك ـ وأظهروا أن السلطان عزم على القبض عليهم. وقصدوا اللحاق بمن كان على بلبيس من الأمراء فبَطَقَ[٣] الملكُ العادل إلى الأمراء الأكراد ببلبيس، بمناجزة الأتراك وقتالهم، فقاتلهم الأكراد قبل وصول الحَلْقة إليهم. فانهزم الأتراك إلى جهة الشام وانضم أكثرهم إلى الأكراد. ولما انهزموا تَبِعَهم الأكراد، ثم رجعوا خوفاً على أثقالهم من الحَلْقة، فوجدوا الحَلْقَة قد

(١) العوجاء: عدة أماكن وهي نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين من السواحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٨.

(٢) كانت الأجناد على طبقتين (في زمن الدولة الأيوبية والمماليك). الطبقة الأولى: المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً، وأوفرهم إقطاعاً. ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة. الطبقة الثانية: أجناد الحَلْقة: وهم عدد كبير وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين، وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥ و١٦، وانظر أيضاً: السلوك للمقريزي ج ٦، ص ١٢٢، حاشية رقم (٢).

(٣) أي أرسل بطاقة: ابن منظور: لسان العرب (بطق).

وصلوا إلى بلبيس، فلم تتعرض إحدى الطائفتين إلى الأخرى بقتال، لدخول الليل. وتوجه الأتراك لِلَّحَاقِ بأصحابهم الذين انهزموا، وساروا إلى دمشق واتصلوا بخدمة الملك الصالح أيوب.

ذكر وصول الملك الناصر داود ـ صاحب الكَرَك ـ إلى السلطان الملك العادل

وفي خامس شوال، سنة ست وثلاثين وستمائة، وصل نَجَّابٌ(١) من الملك الناصر داود ـ صاحب الكَرَك ـ إلى السلطان، يخبره بوصوله. فخرج السلطان للقائه في سابع الشهر. وزُيِّنَت القاهرة ومصر زِينة لم يشاهَد مِثلُها، وعاد السلطان والملك الناصر معه في ثامن الشهر، واستبشر بقدومه وحَلَفَ كلٌّ منهما لصاحبه.

وفي العشرين من شوال، وردت الأخبار بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر ـ إلى جِينِين، فجمع الملك العادل والناصر الأمراء، وتحالفوا على قتاله. وخرج الملك الناصر داود في يوم الأحد تاسع ذي القعدة، لقصد الشام. وندب الملكُ العادلُ جماعة من الأمراء في خدمته، لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب. وجَهَّزَ صُحْبَتَه خزانة مال وسِلاح خَانَاه، وخرج لوداعه إلى بِرْكة الجُبِّ، وعاد إلى القلعة. ثم خرج الملك العادل في يوم الثلاثاء ـ سَلْخ ذي الحجة ـ لقصد الشام، لقتال أخيه الملك الصالح، فنزل على بلبيس.

وفي هذه السنة، في يوم الأحد ثامن صفر، كانت وفاة الشيخ الإمام جمال الدين أبي المحامد، محمود بن أحمد الحَصِيري الحَنَفي(٢)، بدمشق وأصله من بُخَارى، من قرية لها حَصِيرة(٣). تفقه في بلده، وسَمِعَ الحديثَ الكثير. وقَدِمِ الشام، ودَرَّس بالنُّورِيَّة(٤). وانتهت إليه رياسةُ أصحاب أبي حنيفة. وقرأ عليه الملك المعظم الجامِعَ الكبير(٥)، وغيره. وصَنَّفَ الكتب الحسان، وشَرَحَ الجامِعَ الكبير. وكان كثير الصدقة

---

(١) نجاب: أي رسول على ظهر فرس نجيب: سريع. ابن منظور: لسان العرب (نجب).

(٢) «توفي وله تسعون سنة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٨.

(٣) والحصيري: نسبة إلى محلة ببخارى يعمل بها الحصير. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧٧، حاشية (١).

(٤) كان أول درسه بالنورية في سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م. بعد الشرف داود الذي تولاها بعد البرهان مسعود، وأول مدرسيها الأمير عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حمويه. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٣.

(٥) الجامع الكبير في فقه الحنفية للإمام المجتهد أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٣٧، حاشية (٢).

غزير الدَّمْعَةِ نزهاً عفيفاً. وكان إذا أتى قلعة دمشق لا ينزل عن حماره إلا على الإيوان السلطاني، والملوك تُعَظِّمُه وتُجِلُّه. ودُفن بمقابر الصوفية عند المُنَيْبع، على الجَادَّة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الوزير جمال الدين بن جَرِير، وزير الملك الأشرف. ثم وَزَرَ للملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق دون الشهر، ومات. وأصله من الرَّقَّة. وكانت وفاته في يوم الجمعة ـ السابع والعشرين من جمادى الآخرة ـ بعِلة الخَوَانِيق. ودفن بمقابر الصُّوفية عند المُنَيْبع ـ رحمه الله تعالى.

وفيها في شعبان، توفي الأمير علاء الدين أبو الحسن علي، ابن الأمير شجاع الدين أبو المنصور جَلْدَك بن عبد الله المُظَفَّرِي التَّقَوِي، بثَغْر دمياط ـ وكان والياً به ـ رحمه الله تعالى.

ذكر عود السلطان الملك العادل من بلبيس إلى قلعة الجبل

قد ذكرنا أن السلطان كان قد خرج من قلعة الجبل في سَلْخ ذي الحجة سنة ست وثلاثين، لقصد الشام. ونزل على بلبيس وأقام بها، إلى سادس عشر المحرم من هذه السنة، ثم رجع.

وكان سببُ رجوعه أن الأمراء قصدوا القبضَ عليه، وتحَيَّلوا على ذلك، فسألوه أن يَعْمَلَ كلٌّ منهم دَعوةً ويُحَضِّرها للسلطان، ففَسَحَ لهم في ذلك. وحضرَ عند بعضهم فأكَل، ثم قُدِّم الشرابُ فشرب، ورأى ما أنكره فقام، ودخل إلى خَرْبَشْت[1] لقضاء الحاجة، فخرج من ظهر خَرْبَشْت، وركب فرساً وساق إلى القَلْعة. فلما طال على الأمراء انتظارُه، دخلوا فلم يجدوه فتفرقوا، وعلموا أنه شعر بما أرادوه من اغتياله.

فسيَّروا إليه يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل إلى القاهرة إلا ليُخَلِّقَ[2] المِقْيَاس ويَكْسِرَ الخَلِيج[3]، ويعودَ إليهم. ثم ألجأته الضرورة إلى الخروج، فخرج إلى العَبَّاسة في يوم

---

(١) لفظ فارسي، معناه الخيمة. انظر السلوك، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢) تخليف المقياس كان احتفالاً عظيماً يقام في كل عام، احتفاء بوفاء النيل. قال القلقشندي: «عندما يصل السلطان إلى المقياس يؤتى بالزعفران والمسك، فيمزجه في إناء بيده بآلة معه، ثم يتناوله صاحب بيت المال فيعطيه ليتولى المقياس، فيلقي هذا نفسه في الفسقية بثيابه. فيتعلق في عمود المقياس برجليه ويده اليسرى، ويخلّقه (أي يضمّخه بالعطر) بيده اليمنى، فمن ثمَّ سُمِّي هذا الحفل بالتخليق». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٣) هو خليج القاهرة، كان يُكسر سده عند بدء الفيضان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤١.

الخميس الربع والعشرين من الشهر. وقبَض على الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وزين الدين غازي، وفتح الدين بن الرُّكْن، ووصل بهم إلى قلعة الجبل بُكرة نهار الأحد السابع والعشرين من الشهر. وفي خامس عشرين صفر، توجه الملك الناصر داود من العَبَّاسَة إلى الكَرَك، وصُحبَتُهُ ابن قِلِيج وجماعةٌ من أمراء مصر.

وفي يوم الخميس، الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، عَمِلَتْ والدةُ الملك العادل وَلِيمَةً عظيمة في الميدان تحت قلعة الجبل، لجميع الناس: الخواصّ والعوامّ، ذبحت فيها ألفَ رأس من الغنَم، وجُمْلَةً من الخيل والبقر والجاموس والإبل، وحلت ما يزيد على مائة قنطار من السُّكّر، في ثلاث فَساقِي كانت على جانب الميدان مما يلي القلعة، وتفرق الناس ذلك بالأواني. وكان ذلك فَرَحاً باعتقال الملك الصالح أيوب، فإنه كان قد اعتُقِل بالكَرَك ـ على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى في أخباره.

ذكر قتال الفرنج وفتح القدس

وفي يوم الخميس ـ ثامن عشر ربيع الأول، من السنة ـ وردت الأخبار، إلى السلطان الملك العادل، أن الفرنج قصدوا الأمير ركن الدين الهَيْجَاوِي ومن معه من العسكر، والتقوا واقتتلوا، في يوم الأحد رابع عشر الشهر، عند سطر الجُمَّيْز بالقرب من غَزَّة.

وكانت الهزيمةُ على الفِرِنْج. وأُسِرَ مَلِكُهم، وثلاثةٌ من جُنودهم، وما يزيد على ثمانين فارساً، ومائتين وخمسين راجِلاً. وقُتل منهم ألف وثمانمائة إنسان. ولم يُقْتَلْ من المسلمين في هذه الوَقْعَةِ إلّا دون العشرة، منهم: الأمير سيف الدين محمد ابن الأمير أبي عمر، وعثمان ابن الأمير عَلْكان بن أبي علي الكُرْدِي الهَيْجَاوي ـ وكان شاباً صالحاً ـ وعمره ثلاثون سنة ـ رحمه الله تعالى. فخَذَلَتْ هذه الكَسْرَةُ الفِرَنْجَ.

ثم فتح الملك الناصرُ داود صاحبُ الكَرَك ـ ومن معه من العسكر المِصْرِي ـ البيتَ المُقَدَّس، في يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى. فقال جمالُ الدين بن مَطْرُوح[1]: [من السريع]

المسجدُ الأقْصَى له عادةٌ ... سارَتْ، فصارت مَثَلاً سائِرا
إذا غدا للشِّرْكِ[2] مُسْتَوطَناً ... أن يَبْعَثَ اللّهُ له ناصِرا

(١) كان من كبار المعممين، ثم استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق، فلبس لبس الجند، توفي سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٩٤، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤.

(٢) «بالكفر» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٢٩٢.

فـنـاصِـرٌ[1] طَـهَّـرَهُ أَوَّلاً ونَـاصِـرٌ[2] طَـهَّـرَهُ آخِـرا

قال: ولما فُتِح البَيْتُ المُقَدَّس، تحصن جماعةٌ من الخَيَّالَة والرَّجَّالَة، ببُرْجِ داود والأبراج والبَدَنَات، فَنَصَبَ عليها المَجَانِيق وهَدَمها. فسألوا الأمانَ على أنفسهم خاصة، فأَمَّنَهم.

ذكر وفاة الملك المجاهِد صاحب حمص

وفي ثامن عشر شهر رجب، من السنة ـ وقيل في يوم الثلاثاء العشرين منه ـ توفي الملك المجاهدُ أَسد الدين شِيركوه بن ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شِيركوه، ابن شادِي ـ صاحب حِمص ـ بها، ودُفن بها.

وكانت حِمص بيده، منذ أعطاها إياه السلطانُ الملك الناصر: صلاحُ الدين يوسف بن أيوب ـ عم أبيه ـ بعد وفاة والده، في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. فكانت مدة ملكه بحِمص سبعاً وخمسين سنة، تقريباً.

وكان شُجَاعاً شَهْماً، مِقْدَاماً، يُبَاشِرُ الحروبَ بنفسه. وحَفِظَ بلادَه من الفِرِنْج والعرب. وبنى الأَبْرَاجَ على مَخَائِضِ العَاصِي[3] ورَتَّبَ فيها الرجالَ والطيور. وكان الفرنج إذا خَرَجوا أطلق الرجالُ الطيور، فيركب بنفسه وعساكره، فيسبق الفرنج وَيردُّهم. وكذلك كان يقصد العرب من جهة البَرِّيَّة. وكان قد منع النساء أن يَخْرُجْنَ من باب حِمص، مدة ولايته. وكان إذا اعتقل إنساناً أطال حَبْسَه، وملك بعده حمص ولدُه الملك المنصور إبراهيم.

ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العادل بالتَّشارِيف

وفي ثامن عشر شهر رمضان ـ سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ وصل الشيخ محيي الدين بن الجَوْزِي ـ رسول الخليفة ـ وفَلَك الدين المَسِيري، بخلَع الخليفة إلى السلطان الملك العادل، ولِوَلَدِه. ولُقِّبَ ولدُه ـ الملك المغيثُ ـ من الدِّيوان العَزِيز بألقاب الملك

«للكفر» في البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٩٤. وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٤٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤. عن الديوان.

(١) يقصد: السلطان صلاح الدين.

(٢) يقصد: الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى.

(٣) وهو اسم نهر حماه وحمص، ويعرف بالميماس، فخرجه من بحيرة قوس، ومصبه في البحر قرب أنطاكية الأرند، وقيل إنما سمي بالعاصي لأن أكثر الأنهر تتوجه ذات الجنوب، وهو يأخذ ذات الشمال، وليس هذا بمطرد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٦.

الكامل جدِّه، وسُمِّي باسمه، ثم انْتَقَضَ ذلك. وأعيد إلى ألقابه الأُوَل، وهي الملكُ المغيث فتحُ الدين عمر.

ووصلت الخلَعُ أيضاً لجماعةٍ من الأمراء، وخِلْعَة للوزير ـ ولم يكن للسلطان الملك العادل وزير ـ فرُسِم بنقل خلعة الوزير إلى الخِزانة العادلية. وكانت جملة الخلَع ثماني عشرة خِلْعَة. وسُيِّرَ للسلطان مع خِلعته فرس له سَرْجٌ مشغول بالذهب، وعَلَمان، وسيفان، تقلد بهما عن اليمين والشمال. فَلَبِسَ السلطانُ الخِلْعَة بظاهر القاهرة، وشَقَّ البلد.

ثم اتصل بالملك العادل أن الملك الصالح قد أُطْلِقَ من حَبْسه بالكَرَك، وأنه قصد نابُلُس، وخُطِبَ له بها. فخرج من القاهرة في يوم السبت الخامس من شوال، ونزل على بلبيس، فأقام بها، إلى أن قبض الأمراء عليه.

ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخَلْعِه

وفي يوم الجمعة، لثمان مَضَيْنَ من ذي القعدة[(١)]، سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ وقيل لسبع بقين من شوال، منها ـ قَبَضَ الأمراءُ على السلطان الملك العادل، وخَلَعُوه.

وذلك أن الأمير عز الدين أَيْبَك الأسمر ـ مُقَدَّم الأشْرَفِيَّة ـ ومُقَدَّمِي الحَلْقَة، وهم: الطَّواشي مسرور الكامِلي، وكافور الفائِزي، وجوهر النُّوبِي، وجماعةٌ من الحَلْقَة ـ اتفقوا على خَلْعِه، والقبضِ عليه، واستدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب. فخلَعوه وقبضوا عليه. فكانت مدة سلطنته سنتين، وثلاثة أشهر[(٢)]، وثمانية عشر يوماً. [أولها يوم الخميس وآخرها يوم الخميس][(٣)].

ولما قُبِض على الملك العادل، رَكِبَ جماعةٌ من الأتراك وقصدوا أمراء الأكراد، لما كان بينهم من الذُّحُولِ[(٤)] التي أثَّرَتْها وقعةُ بلبيس. وكان الأكراد على غير أُهْبَة، فنهبهم الأتراك، ووافقهم ممالك الأكراد على أُستاذِيهم[(٥)]، ومالوا للأتراك للجِنْسِيَّة، فاستولى الأتراكُ على خيامهم وأثقالهم وخيولهم. وانهزم الأكراد، كلٌّ منهم على فرس، ودخلوا القاهرة. وقبض الأمراء على خواصِّ الملك العادل وحُرَفَائِه.

---

(١) تاسع شوّال. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٩٥.

(٢) «وشهرين» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٩٥.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٩٦.

(٤) الثأر: الثارات. ابن منظور: لسان العرب (ذحل).

(٥) أي رؤسائهم. جمع أستاذ.

وكان الملك العادل قد اشتغل باللهو والهَزْل واللعِب. وكان لا يُؤْثِرُ قِيامَ ناموس المملكة. ووَثِقَ بكَرمه وبذْله الأموال، وظن أن ذلك يُغْنِيه عن التحفظ. وكان من أكرم الناس وأكثرهم عَطاء، ودليل ذلك أنه فَرَّق في مدة سلطنته ما يزيد على ستة آلاف (ألف)[١] دينار، وعشرين ألف ألف درهم، من الأموال التي خَلَّفَها والدُه: السلطان الملك الكامل.

ذكر أخبار السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ـ وما كان من أمره بعد وفاة أبيه إلى أن مَلَك الديار المصرية

كان السلطان الملك الصالح، لما تُوُفِّيَ والدهُ السلطان الملك الكامل، مُقِيماً بسِنْجَار[٢] ـ وله آمِد وحَرَّان والرُّهَا، ونَصِيبين والخَابُور، ورَأْس عَيْن والرَّقَّة ـ من سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة. وتوفي السلطان الملك الكامل والده، والأمرُ على ذلك.

ثم كان من أخباره مع الخُوَارِزْمِيَّة، ومُفَارَقَتِهم له، ومحاصرة الملك الرحيم بدر الدين لُؤْلُؤ[٣] له بسِنْجَار، واستنصاره بالخوارزمية وعَوْدِهم إلى خدمته، وهرب بدر الدين لؤلؤ ـ ما قَدَّمنَاه.

ومَلَك بعد ذلك دمشقَ من الملك الجَوَاد ـ كما تقدم. ولما ملك دمشق، راسل عَمَّه الملكَ الصالح عماد الدين إسماعيل ـ صاحبَ بعلبك ـ والتمس منه مساعدتَه على قصد الديار المصرية، وانتزاعها من أخيه الملك العادل. وشَرَطَ له أنه إذا فَتَح الديارَ المصرية تكون له، وتكون دِمشق للصالح إسماعيل. فأجابه إلى ذلك، وشرع في الاستعداد والاستخدام والاحتِشَاد.

فاتصل ذلك بالملك العادل ووالدتِه، فكتبا إلى الملك الصالح إسماعيل، وكتب

(١) هكذا في الأصل.

(٢) مدينة كبيرة من نواحي الجزيرة، بينها وبين كل من الموصل ونصيبين ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧.

(٣) صاحب الموصل، توفي في شعبان سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. عن مائة سنة وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم، وأزال الدولة الأتابكية عن الموصل. ولما انفصل هولاكو خان عن بغداد بعد الوقعة العظيمة سار إلى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف، فأكرمه واحترمه، ورجع من عنده، فمكث بالموصل أياماً يسيرة، ثم مات. ودفن بمدرسته البدرية، وقام بالملك بعده ولده الصالح إسماعيل، وكان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنياً اشتراه رجل خياط. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٢٧.

إليه بعض الأمراء المصريين، وهم يَصْرِفُون رأْيَه عن مساعدة الملك الصالح أيوب، وحَسَّنُوا له أخذ دمشق. فاتفق الصالح إسماعيل، وصاحبُ حمص على مُخالفةِ الملك الصالح نجم الدين.

وخرج الملك الصالح أيوب من دمشق في شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستمائة، وقَصَدَ نابُلُس ـ وهي في جُملة مملكة الملك الناصر داود، صاحب الكَرَك ـ فاستولى عليها وعلى بلادها ـ وذلك في شوال من السنة وتوجه الملك الناصر داود إلى الديار المصرية ـ كما تقدم.

أقام الملك الصالح نجم الدين بنابُلُس، ينتظر وصولَ عمه الملك الصالح إليه بعَسْكَرِه، ليتوجها إلى الديار المصرية. وكان بقلعة دمشق الأمير ناصر الدين القَيْمُرِي، ينوب عن الملك الصالح، فاتصل به خبر الملك الصالح إسماعيل وما عَزَمَ عليه. فكتب إلى الملك الصالح أيوب، يُعْلِمُه أن عمه الصالح إسماعيل قد عزم على مخالفته، واستَخْدَم الرجال لذلك، وحَذَّرَه منه مَرَّةً بعد أخرى. ووَالَى كُتُبَه إليه، وهو لا يكترثُ بقوله. فلما كرر كُتُبَه بذلك، أجابه: إن مِقْرَعَتِي إذا وقعت في فَلاَةٍ لا يقدر أحدٌ أن يَمَسَّها بيده، ولا يتجاسر عليها! فلما وقف على جوابه كَفَّ عنه.

وكان الملك المسعود ابن الملك الصالح إسماعيل في خدمة الملك الصالح أيوب ـ هو والأمير ناصر الدين بن يَغْمُور ـ فتواترت كتبُ الملك الصالح إلى عمه الصالح يستحثه على اللحاق به. وهو يتقاعدُ عنه، ويُجيبه أنني لا يمكنني إخلاء قلعة بعلبك بغير حافظ، والقصد إرسال ولدي إليَّ لأجعله بها، وأحضر إليك. فعند ذلك جَهَّزَ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب الحكيمَ سعدَ الدين بن صَدَقَة المَعَرِّي، إلى عمه الملك الصالح، برسالةٍ، ظاهِرُها استحثاثه على سرعة الوصول إليه، وأَمَرَهُ أن يطالعه بما يظهر له من أحوال عمه، وهل هو على الطاعة أو العصيان.

فلما وصل الحكيمُ إلى بعلبك، اطلع على ما اتفق عليه الصالح إسماعيل وصاحب حمص: من قصد دمشق، وانحرافها عن الملك الصالح، فكان يكتب إليه بذلك، ويدفع البَطَايِقَ إلى البَرَّاج ليرسلها على الحَمَام، فيَرْصُدُه الصالح إسماعيل ويأخذها منه، ويُغَيِّرُها بخط أمين الدولة السامِري، بما معناه أن الملك الصالح إسماعيل مُحِبٌّ في السلطان، وقد اسْتَخْدَم واحْتَفَلَ، وهو على عَزْم القدوم إلى السلطان. فتصل هذه البَطايِق المُزَوَّرَة إلى الملك الصالح أيوب، فلا يشك أنها صحيحة. فعند ذلك أرسل الملكَ المسعودَ إلى أبيه ببعلبك، وقد طابت نفسه ووثِقَ أن عمه معه.

فلما حَصَلَ ولَدُه عنده، سار من بعلبك، وسار صاحبُ حمص من حمص، وتوافوا بجبل قاسِيون. وكان جملة من استَخْدَمَ الملكُ الصالح إسماعيل ألفَ فارس

وأحد عشر ألف راجل. واستخدم صاحب حمص أربعة آلاف راجل. وتقرر بينهما أن يكون ثلثا دمشق وأعمالها للملك الصالح إسماعيل، والثلث لصاحب حمص، وكان الصالح إسماعيل قد أفسد بعض أمراء الصالح أيوب. كان ذلك والأميرُ ناصر الدين القَيْمَرِي يَطَّلِعُ عليه، ويُطَالِع به الملكَ الصالح أيوب، وهو لا يلتفت إليه، ولا يرجع إلى نصحه.

ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ـ على دمشق

قال: ولما تكامل للملك الصالح ما أراد من الاستِخْدَام والاحْتِشَاد، ووافقه صاحبُ حِمص ـ الملِكُ المجاهد أسدُ الدين شِيرِكوه ـ راسَلَ الأميرَ ناصر الدين القَيْمُري النائبَ بقلعة دمشق، وبذل له عشرة آلاف دينار على تسليم القلعة. فوافقه على ذلك، ووقع منه بموقِع، لأنه كان قد كَرَّرَ نصائِحه لمخدومه الملك الصالح ـ نجم الدين أيوب ـ وحذَّره، فما رَجَعَ إليه، وأجابه بما تقدم ذكرُه، فحَمَلَه ذلك على موافقةِ الملك الصالح عماد الدين، وتقرَّرَ بينهما أن الصالحُ يحاصِرُ قلعةَ دمشق ثلاثة أيام، ويُسَلِّمُها إليه، ففعل ذلك. ودخل إلى دمشق في يوم الثلاثاء، سادس أو سابع عشرين صفر، سنة سبع وثلاثين وستمائة.

وكان دخوله من باب الفَرَادِيس، من غير مُمَانَعَة، فإنه لم يكن عليه مَن يَدْفَعُ عنه، ولا عن البلد. ونزل الصالح بداره بدرب الشَّعَّارِين. ونزل صاحب حِمص في داره. وزحفوا في يوم الأربعاء ثامن عشرين الشهر على القلعة، ونَقَبُوها من ناحية باب الفَرَج، وقاتل عليها ثلاثة أيام، وتَسَلَّمَها من القَيْمُري ـ كما تقرر بينهما وكان بها الملكُ المُغِيثُ[١]. جلال الدين عمر ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاعتقله الملك الصالح إسماعيل عم أبيه في بُرْج بالقلعة.

واتصل الخبرُ بالملك الصالح أيوب، وهو بمُخَيَّمِهِ بظاهر نابُلس، وقيل له: إن القلعة ما أُخِذَتْ فاستَحْلَفَ عسكرَه، وخَلَع على عَمَّيْه: مجيرِ الدين وتقيِّ الدين، والرُّكْن والنُّمَيْس وغيرهم، وأعطاهم الأموالَ واستشارهم. فقالوا: نتوجه إلى دمشق قبل أخذ القلعة. فركب بهم من نابُلس، فلما انتهوا إلى القُصَيْر[٢] المُعِيني بالغَوْرِ[٣] أَنْفَقَ في

---

(١) توفي سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م ودفن عند جده الكامل في تربته شمالي الجامع. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٧٦.

(٢) في عدة مواضع، منها قُصيْر معين الدين، وهو بالغور، من أعمال الأردن يكثر فيه قصب السكر.

(٣) هو المنخفض من الأرض، والمقصود به جغرافياً غور الأردن بالشام. بين البيت المقدس ودمشق، =

عسكره، وجَدَّد عليهم الأَيْمَانَ وقت صلاة المغرب. وبلغهم أن قلعة دمشق قد استولى عليها الصالح إسماعيل.

فلما كان في نصف الليل، رحلوا عنه بأجمعِهم، وتركوه وليس معه إلا دون المائةِ من مماليكه. وتفرق عنه بقيةُ مماليكه وخواصِّه. فرجع يقصد نابُلُس، ومعه جاريتُه أُمُّ ولدِهِ خَليل: المدعوة شَجَر الدُّر. وطمعَ فيه حتى الغَوَارِنَة[1] والعُشْران[2] وكان مُقَدَّمهم رجل شيخ جاهل، يقال له تبل[3] من أهل بَيْسَان، قد سَفَكَ الدماء ورَكِبَت الجيوشُ بسببه مِراراً، فتَبِعَه بمن معه. وقد توجه الملك الصالح على طريق جِينِين يريد نابُلُس، والغَوَارِنَة والعُشْرَان يتبعونه، وهو يرجع إليهم ويحمل عليهم بمماليكه فيُفَرِّق جماعتَهم وأخذ بعضَ خيولهم، واستولوا هم أيضاً على بعض ثقله.

ووصل إلى سَبَسْطِيّة. وكان الوَزِيريُّ - نائبُ الملك الناصر داود - عاد إلى نابُلُس، بعد خروج الملك الصالح منها. فأرسل إليه الملكُ الصالحُ أيوب يقول: إنه قد مَضَى ما مضى، وما زال أن الملوكَ على هذه الحال. وقد جئتُ الآن مستجِيراً بابن عمي الملك الناصر. ونزل في الدار بنابُلس. وكان الملك الناصر داود قد عاد من الديار المصرية على غير رضا. ووصل إلى الكَرَك. فكتب إليه الوَزِيريُّ يخبره بخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب.

ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكَرَك

قال: ولما وصل كتاب الوَزِيريِّ إلى الملك الناصر بالكَرَك، ندب الأميرَ عماد الدين بن مُوَسك، والظَّهِير بن سنْقُر الحلَبي، في ثلاثمائة فارس إلى نابُلُس. فركب الملك الصالح أيوب وتلقاهم. فخدموه وقالا له: طيِّبْ قلبَك، إنما جِئْتَ إلى بيتِك. فقال: لا ينظر ابنُ عمي إلى ما فعلتُ. فما زال الملوك على هذا، وقد جئتُ إليه، أستجيرُ به، فقالا له: قد أجارَك، ولا بأس عليك. وأقاموا أياماً حول الدار.

= وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور. طول مسيره ثلاثة أيام وعرضه يوم. فيه نهر الأردن وبلاد قرى كثيرة. وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية، ومن قراه أريحا، وعلى طرفه (في الشمال) بحيرة طبرية، وعلى طرفه (الجنوبي) البحيرة المنتنة (البحر الميت). ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٥.

(١) الغوارنة: أي أهل الغور.

(٢) بدد البرية القريبة من غزة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٩.

(٣) «مسبل» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٣.

فلما كان في بعض الليالي، ضُرِبَ بُوق النَّفِير، وقيل جاء الفرنج إلى الظَّهْر. فركب الناس وركب مماليكُ الملك الصالح ووصلوا إلى سَبَسْطِيّة. فجاء عماد الدين والظَّهِير والعسكر إلى الدار التي بها الملك الصالح. ودخل الظَّهِير عليه، وقال له: نَتَوَجَّه إلى الكَرَك، فإن ابنَ عمك له بك اجتماع. وأخَذ سيفَه. وكانت جاريتُه حامِلاً، فأسْقَطَتْ. وأخذوه وأركبوه بغلة، بغير مِهْمَازٍ في رجله، ولا مِقْرَعَة في يده ـ وذلك في ليلة السبت، لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول ـ وتوجهوا به حتى وصلوا إلى الرَّيَّة[١].

قال أبو المظفر: إن الملك الصالح أخبره، قال: إلى الرَّيَّة في ثلاثة أيام، واللَّهِ ما كَلَّمْتُ أحداً منهم كَلِمة، ولا أكلْتُ لهم طعاماً، حتى جاء خطيبُ الرَّيَّة ومعه بُرْدَة وعليها دَجاجَة. فأكَلْتُ منها ـ وقال: وأقاموا بالرَّيَّة يومين، وما عَلِمْتُ المقصودَ بي ما هو؟ وإذا هم يريدون أن يأخذوا طالِعاً نَحْساً، يقتضي أن لا أخرج من الكَرَك. ثم أدخلوني الكَرَك ليلاً، على الطالع الذي كان سبب سعادتي. ووَكَّلَ بي الناصرُ مملوكاً له فظاً غليظاً، يقال له زُرَيْق وكان أضَرَّ عليَّ من كلٍّ ما جَرَى.

قال: فأقمتُ عندهم إلى شهر رمضان، سبعة أشهر ـ يعني من سنة سبع وثلاثين. وحَكَى الملكُ الصالح له ما ناله من الضائِقة والشِّدة والإهانة شيئاً كثيراً.

ولما توجهوا به إلى الكَرَك، جهز الوَزِيريُّ خِزانته ونساءه، وخيله وأسبابه، إلى الصَّلْتِ[٢]. وعاد مماليك الملك الصالح فلم يجدوه، فتفرقوا وأما عسكره الذي فارقه من منزلة القُصَيْر[٣] ـ فإنهم توجهوا إلى دمشق. فمنعهم الصالح من الدخول إليها، وقال: هذه بلدُ الملك العادل فلا تدخلوها إلا بإذنه. ثم استَخْدَم بعد ذلك جماعةً منهم، وطَرَدَ طائِفةً واعْتَقَلَ طائفة.

وزُيِّنَت مِصرُ والقاهرة للقبض على الملِك الصالح شهراً، وعملت والدةُ الملك العادل الوليمةَ التي ذكرناها. وأرسلت القاضيَ الشريف شرف الدين موسى، والعلاءَ بن النابلسي، إلى الملك الناصر، بقَفَص حديد، لِيَجْعَل فيه الملكَ الصالح، ويُرْسِلُه معهما إلى الديار المصرية! وبَذَلَتْ فيه للملك الناصر مِائَةَ ألفِ دينار. وكاتبه الصالحُ إسماعيل وصاحبُ حِمص، في إرساله إلى دمشق، وبَذَلَ الصالح إسماعيل فيه للناصر رُبْع دمشق.

(١) هكذا في الأصل. وورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٧٣ اسم «الموتة». وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وهي على مرحلة من الكرك، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٤.

(٢) الصلت: بلدة في الأردن جنوبي عجلون، آهلة ذات بساتين وفواكهة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) القُصير المُعين: انظر صفحة ١٧٠ حاشية رقم (٢).

فما أجاب الناصرُ إلى ذلك.

وقيل: كان السبب في امتناع الملك الناصر من تسليمه، لمن بذل فيه ما بَذَل، أن الصالح أيوب كان قد أرسل جمالَ الدين بن مطروح ـ الكاتب ـ إلى الخُوَارِزْمِيَّة في الحضور إليه، لمحاصرة دمشق، فتَوَجَّه لذلك فلما قُبِض على الصالح، أرسل ابنُ مطروح رسولاً على النُّجُب إلى الملك الناصر، يقول له: إن فَرَطَ في الملك الصالح أَمْرٌ، فاعْلَمْ أن الخوارزمية لا يُبْقُون لك في البلاد قَعْرَ قَصَبة، فقد حَلَفوا على ذلك.

وقيل إن والدة الملك الناصر اهتمَّتْ بأَمر الملك الصالح، وخَدَمَتْه أتم خِدمة، وتولت ذلك بنفسها، وكانت تطبخ له بيدها. وحَلَفَتْ على وَلَدِها أنه إن فَعَلَ به ما يكره، لا أقامت عنده، وقالت له: ما مَلَّكَنا البلادَ، وجَعَلَنَا في هذا الحصن إلا والدُه ـ تعني: الملكَ الكامل، فتوقف عن إرسالِه. والله أعلم.

ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك، وما كان من أمره إلى أن مَلَكَ الديار المصرية

قال: ولما كان في أواخر شهر رمضان، استشار الملكُ الناصر داود الأميرَ عماد الدين بن مُوسَك، وابن قِلِيج، والظَّهِير، في أمر الملك الصالح. فوقع الاتفاق على تحليفه وإخراجِه. فاجتمع الناصرُ والصالحُ وتحالفا، وأفرج عنه، وذلك في أواخر شهر رمضان، سنة سبع وثلاثين وستمائة. ولما أخرجه الناصرُ من اعتقالِه، رَكَّبَه بالكَرَك بشِعار السَّلْطَنَة، وحَمَلَ الغَاشِيَةَ بين يديه، وأظهر الناصرُ الخلافَ على الملك العادل.

وحَكَى عمادُ الدين بن شَدَّاد ـ في سبب خلاص الملك الصالح ـ أن الملك العادل كان قد حَلَّفَ الناصرَ، وحَلَفَ له على الاتفاق واجتماع الكلمة على قتال الملك الصالح، وأن تكون دمشق إذا فُتحت للملك الناصر. فلما اتفق هجوم الملك الصالح إسماعيل على دمشق، وأَخَذَها، أرسل إليه الملك العادل يُصَوِّبُ رأيه، ويَشْكُر فِعْلَه. فعَظُمَ ذلك على الملك الناصِر، وكان سببَ خلاص الملك الصالح.

وحكى أبو المظفر يوسف سِبط ابن الجَوْزِي، في كتابه: «مِرْآة الزمان» أن الملكَ الصالح نجم الدين أيوب أخبره ـ بعد أن مَلَك الديار المصرية ـ قال: حَلَّفَني الناصرُ على أشياء[(١)]، ما يَقْدِر عليها ملوكُ الأرض، وهو أن آخذ له دِمشق، وحِمْص، وحَماه، وحلَب، والجَزيرة والمَوْصِل وديارَ بكر، وغيرَها، وأن يكون له نِصفُ الديار المصرية،

---

(١) تحالفا واتفقا أي الناصر والصالح وذلك في آخر شهر رمضان من سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٢٧٥.

وِنصفُ ما في الخزائن: من الأموال والجواهر والخيول والثياب وغيرها. فحَلَفْتُ من تحت القَهْرِ والسيف.

وقد شاهَدْتُ أنا بعض نسخةِ اليَمين عند المَوْلَى الملكِ العَزِيزِ: فخر الدين عثمان ابن الملك المُغِيث فتح الدين عُمر ـ صاحب الكَرَك ـ كان بالقاهرة ـ وفيها أشياء كثيرة من هذا النَّوْع، وإلْزَامَات، يَعْلَمُ المُسْتَحْلِف العاقل أن الحالِفَ لا يَفِي بها، لكثرتها وخروجها عن حد القُدْرَة البشرية، وأن النفوس لا تسمح بها لوالد مُشْفِق، ولا وَلَدٍ بَارّ، فكيف لابن عَمٍّ عَدُوّ.

قال المُؤَرِّخ: ولما أطلقه الملكُ الناصر، رَكِبَ المَلِك الصالح من يومه، وسار إلى نابُلُس. فوصل إليها في يوم السبت، تاسع عشرين الشهر، وخُطِبَ له بها يومَ عيد. ونَثَرَ ابن مُوسَك على الخطيب والناس الذهب. وخرج الرُّكْنُ الهَيْجَاوِي إلى الديار المصرية، فأرسل إليه الملك العادل يأمره بالإقامة على بلبيس، إلى أن تصل إليه العساكر. ثم خرج الملكُ العادلُ بعساكره ـ في خامس شوال ـ لقتال أخيه الصالح، فَقَبَضَ الأمراء عليه ـ كما قَدَّمْنَا.

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وهو السلطان الثامن من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية

قال المُؤَرِّخ: لما قَبَضَ الأمراءُ الذين قدمنا ذكرهم على الملك العادل، كتبوا إلى الملك الصالح يستدعونه، فسار لوقته.

وكان وصوله ـ والملك الناصر داود ـ إلى بِرْكَة الجُبِّ(١)، في يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة، سنة سبع وثلاثين وستمائة. فنزل في خَيْمَة الملك العادل ـ والملك العادلُ معتقل في خَرْكَاه(٢).

واستدعى الملك الصالح مُعينَ الدين ابن شيخ الشيوخ، واستَوْزَرَهُ، ورد إليه النظرَ في الدواوين. وأقام بِبِرْكَة الجُبِّ إلى يوم الأحد، لستٍّ بقين من الشهر، فركب وصعد إلى القلعة في الثالثة من النهار ـ وذلك باتفاق المُنَجِّمِين.

واعتقَلَ أخاه الملك العادل في بعض آدُر القلعة. وبقي ابنُه الملك المُغيث ـ فتح الدين عمر ـ في خدمة عمه السلطان الملك الصالح مدة، ثم رأى منه نَجابةً فحَجَبَه في

---

(١) انظر الصفحة ٤١ من هذا الجزء، حاشية رقم (٣).

(٢) لفظ فارسي معناه خيمة أو مظلة من نوع خاص. ابن تَغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٩٤، حاشية (٣).

الدار القُطْبِيَّة، عند عمته ابنة السلطان الملك العادل، أختِ الملك الكامل. فلم يزل الملك المغيث بها، إلى أن مات عمه الملك الصالح ومَلَك ابنه الملكُ المعظم، فنقله إلى الشَّوْبَك واعتقله بها. وكان من أمره ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة، من السنة ـ تقدم أمرُ السلطان بتجريدِ جماعةٍ من الأمراء والعساكر إلى الأعمال القُوصِيَّة، لإصلاح العُرْبَان بالوجه القبلي. وجَعَلَ المُقَدَّم عليهم الأمير زين الدين بن أبي زكري.

ذكر عَوْد الملك الناصر داود إلى الكَرَك

كان عَوْدُه إلى الكَرَك في ذي الحجة، من السنة.

وسببُ ذلك أنه اجتمع هو والسلطانُ الملك الصالح، بقلعة الجبل على شراب، فلما جَنَّهُم الليلُ وأخذ منهم الشرابُ، قال الملك الناصر للسلطان: أَفْرِج عن أخيك الملك العادل في هذه الساعة. فلاطَفَه الملكُ الصالح، وهو يكرر عليه القول! وكان آخر كلام الملك الناصر أن قال للسلطان: لو غسلتَ رِجْلَيَّ وشَرِبْتَ ماءهما، ما أَدَّيْتَ حَقِّي! فأمر السلطان مماليكَه بإخراجِه.

فأخرجوه وركَّبوه إلى الوزارة. فلما أصبح، سأل عما كان منه، فأُخْبِرَ به. فقال: ما بقي لنا مُقَام في هذه الديار. وأحضر النُّجُبَ، وعمل عليها الأَخْرَاج ـ وفيها ما كان معه من الأموال ـ وهَمَّ أن يركبَها. فبينما هو يتهيأ للركوب، إذْ حضر إليه الأمير عز الدين أَيْدُمَر الجَمَدَار[1] الصالِحي، ومعه عشرة آلاف دينار، وعشرة أفراس وخلَع، وقال له: يقول لك السلطان: هذه ضِيافَة، خُذْهَا وامضِ إلى بلادك، فأَخَذَهَا، وركب من وقته، وسَلَكَ طريقَ البَرِّيَّة. ثم ندِم السلطان على إطلاقه، وكونِه ما قَبَض عليه ليأمن شره.

وقيل: إن سببَ عَوْدِه أن الملك الصالح إسماعيل راسل الفِرَنْج، في قصد بلاد الناصر. فتوجهوا إلى نابُلُس، فقاتلهم أهلها وهزموهم، فرجعوا إلى بلادهم. فعاد بسبب ذلك. هذا ما حكاه ابن جلب راغب، في تاريخه، في سبب عَوْد الملك الناصر.

وحَكَى أبو المظفر يوسف، في «مرآة الزمان»، عما أخبره به الملك الصالح نجم الدين ـ من لفظه ـ عندما حضر إليه في سنة تسع وثلاثين وستمائة، عن وقائع اتفقت له،

---

(١) الجمدار: وهو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه وأصله جامادار، فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالاً وقيل جمدار، وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين، أحدهما جاما، ومعناه الثوب، والثاني دار، ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك الثوب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.

بين خروجه من اعتقال الملك الناصر إلى أن مَلَك ورجَعَ الناصر.

منها أنه قال: واللَّهِ لم أُحْضِر الملكَ الناصر معي إلى الديار المصرية، إلا خَشْيَةَ أن يكون قد عَمِلَ عَلَيَّ. ومنذ فَارَقْنَا غَزَّة، تَغَيَّرَ عليّ ولا شك أن بعض أعدائي أطمعه في المُلْك. فَذَكَرَ لي جماعةٌ من مماليكي أنه تحدث معهم في قَتْلِي. قال: ومنها أنه لما أخرجني نَدِم، وعَزَمَ على حَبْسِي، فرمَيْتُ روحي على ابن قِلِيج، فقال: ما كان قصدُه إلا أن نتوجه إلى دمشق أولاً، فإذا أخذناها عُدْنَا إلى مصر.

ومنها أنه لما وصلنا إلى بلبيس، شرِب وشَطَح إلى العادل، فخرجِ العادل من الخَرْكَاه[1] وقَبَّلَ الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيتَ ما أشرتُ به عليكَ، ولم تَقْبَلْ مِنِّي؟! فقال: يا خُونْد[2]، التَّوْبَة. فقال: طَيِّبْ قلبَك، الساعة أُطْلِقُكِ. قال الصالح: وجاء فدخل علينا الخَيْمَة، ووقف. فقلت له: باسم الله اجْلِس. فقال: ما أجلسُ حتى تُطْلِقَ العادل. فقلت: اجْلِسْ ـ وهو يكرر هذا القول. ثم سكت. ولو أطلقْتُه ضُرِبَتْ رِقَابُنَا كُلُّها.

ثم نام وما صَدَّقْتُ بنومه. وقمتُ في بقية الليل، وأخذت العادل في مَحِفَّة، ودخلتُ به إلى القاهرة. قال: ولما دخلنا القاهرة، بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادَتْ لي مع مماليكي. ومنها أنه قال في بعض الأوقات: قَبِّلْ قَدَمَيَّ ورِجْلَيَّ ـ إلى غير ذلك، مما لا تصبِر عليه النُّفُوس.

ذكر عدة حوادث وقعت في سنة سبع وثلاثين وستمائة ـ خلاف ما قدَّمناه

في هذه السنة ـ في شهر ربيع الأول ـ أُخرِجَ الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق، إلى تربته شماليّ حائط الجامع الأموي، وفُتِح في الحائط ثلاث شبابِيك إلى الجامع: أحدها باب يُتَوَصَّلُ منه إلى الجامع.

وفيها فَوَّضَ السلطان الملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ الخَطَابَة بالجامع الأموي لشيخ الإسلام: عِزِّ الدين عبد العزيز بن عبدِ السلام[3] ـ وذلك في شهر ربيع الآخر.

وفيها أَمَرَ الملكُ الصالح ـ المذكور ـ الخطباءَ بدمشق والشام، بالخُطبة لصاحب الروم.

---

(١) خركاه: خيمة راجع ص ١٧٤ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) خوند: معناه سيد أو أمير. انظر صفحة ٧٤، حاشية (٣).

(٣) انظر الصفحة القادمة ١٩١ من هذا الجزء، حاشية رقم (١).

وفيها فَوَّضَ الصالحُ ـ أيضاً ـ قضاء الشام للقاضي: رفيع الدين أبي حامد، عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجِيلي[١] الشافعي ـ وكان قبل ذلك قاضي بعلبك. وظهر منه من سوء السِّيرة والعَسْف والظلم، ومُصَادَرات أرباب الأموال، ما لا يَصْدُرُ مثلُه من ظَلَمَةِ الوُلاة. وكانت عاقبة ذلك ما نذكُره ـ إن شاء الله تعالى ـ من قَتْلِه.

وفيها، في ليلة الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة، سقط كوكَبٌ عظيم قبل طلوع الفجر بمنزلة، وكان مستديراً على هَيْئَةٍ ومِقْدَار، فأضاءت منه الدنيا، وصارت الأرض أشدَّ نوراً من ليلة التَّمَام. وشاهده من كان ببلبيس عابِراً عليها آخذاً من المشرق إلى نحو القِبلة، وشاهده من كان بظاهر القاهرة، عابِراً من جهة باب النَّصْر إلى صَوْب قلعة الجبل، ثم قَطَعَ البحرَ إلى ناحية الجَزِيرَة، وكانت له ذُؤابَة طويلة خضراء، مبتورةٌ قَدْرَ رُمْحَيْن. واعْتَقَبَهُ رَعْدٌ شديد، وتَقَطَّعَ منه قِطَع. وأقام، من حين إدراك النَّظَر له حين انطفائه، بقدر ما يقرأ الإنسانُ سورة الإخلاص ثلاثين مرة ـ هكذا قَدَّرَهُ من شاهَدَه ـ على ما نُقِلَ إلينا.

وفيها في شعبان ـ كانت وفاة قاضي القضاء، شمس الدين أحمد، بن الخَليل بن سَعَادة بن جعفر بن عيسى، الخُوَيِّ[٢] الشافعي، بالمدرسة العادِلية، بدمشق، ودفن بقاسِيون. ومولده في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ حسن الأخلاق، لطيفاً كثير الإنصاف، عالماً فاضلاً في علوم متعددة، عفيفاً متواضعاً ـ رحمه الله تعالى.

وكان ورُودُه إلى دمشق، في أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحُكي أنه لما ورد إلى دمشق، كان مع فَضِيلته وعلومه يلعبُ بالقانون، ويُغَنِّي عليه، وقد أتقنَ صِناعَتَه، فأُنْهِيَ إلى الملك المعظم أمرُه، فاستحضره إلى مجلس أُنْسِه، ولَعِبَ بين يديه بالقانون، وغَنَّى عليه، ونادَمه فأعجبه. وأمره بملازمته في أوقات خلَواته ومجالس شرابه. هذا سبب اجتماعه بالملك المعظم.

وأما سببُ ولايته القضاءَ بدمشق، فإنه كان قد بلغ الملكَ المعظمَ عن القاضي جمال الدين المِصري ـ قاضي قضاةِ دمشق ـ أنه يتعَاطى الشراب. فأراد تحقيقَ ذلك

(١) نسبة إلى بلاد الجيل، وهي على الساحل الجنوبي الغربي لبحر قزوين بجوار بلاد الديلم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢.

(٢) توفي وله أربع وخمسون سنة في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٨٠. ونسبه إلى خوي: وهي بلدة قديمة بأذربيجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٧.

عَيَاناً، فاستدعاه. وهو في مجلس الشراب، فحضر إليه. فلما رآه قام إليه، وناله هَنَّاباً[١] مملوءاً خَمْراً. فولى القاضي جمال الدين المصري ورجع، فغاب هُنَيْهَةً، ثم عاد وقد خَلَعَ ثِياب القضاء: الطَّرْحَة[٢] والبَقْيَار[٣] والفَوْقَانِيَّةِ[٤]، ولبس قَبَاءً[٥]، وتَعَمَّمَ بتخفِيفه، وحَمَل مِنْديلاً، ودخل على الملك المعظم في زي النُّدَمَاء. وقَبَّلَ الأرضَ، وتناول الهَنَّاب من يده وشرِب ما فيه. ونادم المعظمَ فأحسن مُنَادَمَته فأعجبه. واعتذر من قراره أنه ما كان يمكنه تعاطي ذلك، وهو في زِيِّ القُضاة. فاغْتَبَط الملك المعظم به.

ولما انقضى مجلسُ الشراب، ورجع المعظم إلى حِسِّه، علم أنه لا يجوز له أن يُقرَّه على ولاية القضاء ـ وقد شاهَدَ من أمره ما شاهَد. فَفَوَّضَ القَضاء للقاضي شمس الدين الخُوَيِّ، وخَلَعَ عليه. وجلس للحكم بين الناس، وأحسنَ السِّيرة. وانقطع عن مجلس الملك المعظم وحضوره، إلا في أوقات المواكب، على عادة القضاة.

واستمر على ذلك مدة. ثم ذكره الملك المعظم واشتاق إلى مُنادَمَتِه، وسماع قانونه، فاستدعاه وتحدث معه، واسْتَوْحَشَ منه. ثم كلمه في الحضور إلى مجلس الأُنْسِ معه، في بعضِ الأوقات، وأنه لا يُخْلِيهِ منه جُمْلَةً، وتلطف به في ذلك، فأجابه عن ذلك. بأن قال: إذا أَمَرَ السلطان ـ أَعزَّه الله بهذا ـ امتثلْتُ أمرَه، وَفَعَلْت. ولكن يكون هذا بعد عَزْلِي عن منصب القَضاء والحكم بين الناس، وتوليةِ قاضٍ غيري. فإنني لا أجمع بين منصِب القضاء وما يُضَادُّه أبداً، لما يترتب على ذلك من فساد عقود أنكحة المسلمين، ويتعلق ذلك بِذمة السلطان. فإِنْ أَحَبَّ السلطانُ ذلك، فَلْيُوَلِّ قاضٍ غيري.

فأعجب الملكَ المعظم ذلك منه، وسُرَّ بِه، وقال: بل نُرَجِّحُ مصلحة المسلمين على غرضنا. واستقر على القضاء. وما سُمِع عنه بعد ولائه القضاء ما يَشِينه في دينه ولا يَغُضُّ من منصِبه ـ رحمه الله تعالى.

---

(١) الهنّاب: قدح للشراب. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٧، حاشية (٣).

(٢) الطرحة: قال القلقشندي: «ويتميز قضاة القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره، وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعي. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٣) البقيار: «عمامة كبيرة، القضاة والعلماء يلبسون منهم العمائم من الشاشات الكبار للغاية» القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٤) الفوقانية: كان الفوقاني من ملبوسهم أي القضاة في فصل الشتاء من الصوف الأبيض الملطي ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم. وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات، ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢.

(٥) قباء: لبس ثياب الجند أو غير رجال الدين.

واستهلّت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر، رَتَّبَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب دارَ العدل. وجَعَلَ افتخارَ الدين ياقوت الجمالي نائباً عنه بها. ونُصِبَ معه شاهدان من العُدُول، وجماعةٌ من الفقهاء، منهم: الشريف شمس الدين الأُرْمَوِي[١] نقيب الأشراف، والقاضي فخر الدين بن السُّكَّرِي، والفقيه عز الدين. فصار الناس يأتون إليها، ويتظلمون وتُكْشَف ظُلامَاتهم. وإنما فَعَلَ السلطان ذلك، لأنه كان غليظَ الحِجَاب، فاستغنى بذلك عن مواجهة الناس.

وفيها، في رابع المحرم، حَصَلَ الشروع في بناء القنطرة على الخليج الحاكِمي ـ وهي المعروفة في وقتنا هذا بقنطرة السَّدّ.

وفيها في تاسع شهر ربيع الأول، رَسَمَ السلطانُ بتجهيز زَرَدْخَانَاه[٢] وشَوَانِي[٣] وحَرَارِيق[٤] إلى القُلْزُم[٥] لقصد اليمن وجَرَّدَ جماعةً من الأمراء والجند بسبب ذلك، في سادس عشر الشهر.

ثم عاد العسكرُ في خامس شهر رمضان، بسبب حادثة الأَشْرَفِيَّة التي نذكرها. لأنهم بلغهم أن الأشرفية ومن شايَعَهم عزموا على نَهْب العسكرَ المذكور ـ وكان بِبِرْكَة الجُبِّ. وبَطَلَ التَّجْرِيدُ[٦] إلى اليمن.

ثم توجه من جملة العسكر ثلاثمائة إلى مكة، في أواخر شهر رمضان. فدخلوا مكة سَلْماً[٧]، في ذي القعدة، وهرب من كان بها من العسكر اليمني.

وفي شهر ربيع الأول من السنة، قَبَضَ السلطان على الأمير عز الدين أَيْبَك

---

(١) راجع صفحة ١٥٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) زردخاناه: ومعناه بيت السلاح: السلاح خاناه. ومعناها أيضاً بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية، والنُّشَّاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد الماتع والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١.

(٣) جمع شيني وهي سفينة حربية كبيرة راجع صفحة ٦٥ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٤) جمع حرّاقة: نوع من السفن تستخدم لحمل السلاح. راجع صفحة ٦٥ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٥) القلزم: هو البحر الأحمر، وهذا اسمه القديم نسبة إلى مدينة القلزم التي كانت تقع على رأس خليج السويس، قرب السويس الحالية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٠.

(٦) أي إرسال جرائد أي فرق خفيفة من الجند إلى اليمن. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٣، وج١١، ص ٩٣.

(٧) سلماً: بدون قتال، ابن منظور: لسان العرب (سلم).

الأسمَر، والخُدام الذين وافقوه على القبض على أخيه الملك العادل، وهم: جوهر النُّوبي، وشمس الخواص سرور، وكافور الفايِزي، وعلى جماعة من الأتراك والحَلْقَة[١]، ونفى جماعةً من الأتراك وسَيَّرَهم مُخَشَّبين في المراكب نحو الصعيد وبلاد المغرِب، وأخذ أموالهم وقتل بعضهم. وانهزم بعض الأشرفية، واختفى بعضهم، وأمَّرَ السلطانُ مماليكَه، وأعطاهم الإقطاعات.

وفيها في يوم السبت ـ تاسع شهر ربيع الآخر ـ وقيل في خامس عشرة ـ وُلِدَ للسلطان الملك الصالح وَلَدٌ ذَكَر، من سُرِّيَّتِه: شَجَرِ الدُّرّ، وسَمَّاه خَلِيلاً، ثم مات بعد مدةٍ يسيرة.

وفيها، في تاسع شهر ربيع الأول، صُرِفَ الأمير سيف الدين بن عِدْلان، عن ولاية الصناعة بمصر. ووليها أسد الدين ابن الأمير شجاع الدين جَلْدَك.

وفيها، في سابع عشرين شهر ربيع الآخر، نُقِل الأمير بدر الدين بَاخِل من ولاية مِصر إلى ولاية ثَغْر الإسكندرية. وفيها، في سابع شهر ربيع الآخر، صُرِفَ عن شَدِّ[٢] الدواوين عَلَمُ الدين كُرْجي، ووِلِّي الأمير حسام الدين لُؤْلُؤ.

وفي يوم الاثنين[٣] خامس شعبان، أمر السلطانُ بالشروع في عمارة قَلْعَة البَحْر، التي بالروضة[٤] [قبالة مصر الفسطاط][٥]. فابتدىء في حفر أساسها في هذا اليوم، وبُنِي

---

(١) وهم الجنود الذين يتقاضون مرتباتهم من الجيش. راجع صفحة ١٦٢، حاشية (٢).

(٢) عمل هذه الوظيفة مراقبة حسابات الدواوين. راجع صفحة ١١٠ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٣) «وفي يوم الأربعاء خامس شعبان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠١.

(٤) ابتنى الملك الصالح أيوب قلعة جزيرة الروضة لتكون مركزاً لمماليكه وأمرائه وأن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنين، وقد أفاض المقريزي في المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٧٧ ـ ١٨٥ في وصف هذه الجزيرة وأبنيتها من أول الإسلام إلى زمنه، وخلاصته أن اسم الروضة كان يطلق في زمنه على الجزيرة التي بين مصر ومدينة الجيزة، وقد عرفت في أول الإسلام بالجزيرة، وبجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الحصن، بعدما بنى بها أحمد بن طولون حصناً سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٦ م ثم أقيمت به دار الصناعة التي تنشأ فيها المراكب الحربية، ثم تولى محمد بن طغج الإخشيد مصر ٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٥ م. فنقل دار الصناعة إلى ساحل النيل بمصر، وجعل موضعها بالجزيرة بستاناً سماه المختار وكان ذلك سنة ٣٢٥ هـ ثم أنشأ الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي بساحل الجزيرة البحري مكاناً سماه الروضة، ومن ذلك الحين صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة ثم أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وبقلعة الروضة، وبقلعة الجزيرة، وبالقلعة الصالحية، وقلعة الجيزة، وسميت أيضاً قلعة جزيرة الفسطاط. المقريزي: السلوك، ج ١/ ٢، ص ٣٠١، حاشية (١).

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١/ ٢، ص ٣٠١ حاشية رقم (١).

فيها في آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة، سادس عشر الشهر. وهُدِمَت الدُّور التي كانت بالجزيرة [في عاشر ذي القعدة][١] وتَحَوَّلَ النَّاسُ إلى مصر.

ذكر مَسِير المالك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، منها لقصد الديار المصرية، وقتاله الملك الناصر صاحب الكَرَك، وعَوْدِهِ إلى دمشق

قال المؤرخ: لما اتصل بالملك الصالح إسماعيل ـ صاحب دمشق ـ ما وقع بِمِصر من الفِتَن، والقبض على الأمراء الأشرفية والخُدَّام وغيرهم، عَزَمَ على قصد الديار المصرية، وأطمعته آماله في الاستيلاء عليها. فتجهز بعساكره، ومعه الملك المنصور صاحب حِمص، ونَجْدَةٌ من حلب، وقصد الديار المصرية.

فبلغه أن الملك الناصر صاحب الكَرَك على حُسْبَان[٢] من بلد البَلْقَاء، فقصده بِمن معه. والتقوا واقتتلوا، فانكسر صاحب الكَرَك، واستولى الصالح إسماعيل على أَثْقَالِه، وأسر جماعة من أصحابه، ثم رحل ونزل على نهر العَوْجا[٣]، وطلب الملك الجواد ـ وكان عند الفرنج ـ فحضر إليه. واستنصر بالفرنج، فكتب الجواد إليهم يحذرهم منه. فوقع كتابه للصالح، فقبض عليه واعتقله ـ كما ذكرنا ـ وعاد إلى دمشق، وتفرقت العساكر التي كان قد جمعها.

ذكر تسليم صَفَد وغيرها للفرنج وما فعله الشيخ عز الدين بن عبد السلام ـ بسبب ذلك ـ وما اتفق له مع الملك الصالح

وفي هذه السنة، خاف الملكُ الصالح عماد الدين إسماعيل على نفسه من الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكَاتَبَ الفِرنْج واستَنْصَر بهم، واتفق معهم على مُعاضَدَته، وأعطاهم قلعة صَفَد وبلادَها، وقلعة الشَّقِيف[٤]، وبلادَها، ومناصفة صَيْدَا، وطَبَرية وأعمالها، وجبل عامِلَة[٥]، وجميعَ بلاد الساحل. ومَكَّنَهم من دخول دمشق لابْتِيَاع السلاح.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠١.

(٢) هي مدينة البلقاء بالشام، وهي بلدة صغيرة ولها وادٍ وأشجار وبساتين وزروع. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) نهر العوجا: نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين، من السواحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٨.

(٤) هي قلعة «شقيف أرنون» وهي قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٣.

(٥) جبل عاملة: يطلق هذا الاسم على جهة جبلية قرب الساحل في إقليم صفد، ويوجد بها حصن الشقيف. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٠٣. حاشية (٤).

فَشَقَّ ذلك على المسلمين. واستفتى المُتَدَيِّنُون، ممن يَبيع السلاح، الشَّيْخَ عِزَّ الدين: عبدَ العزيز بن عبد السلام، في مُبَايَعَة الفرنج السلاح. فأفتاهم أنه يَحْرُمُ عليهم بيْعُه للفرنج. وتَوَقَّفَ عن الدعاء للملك الصالح إسماعيل على مِنبر الجامع بدمشق، وجَدَّدَ دُعاءً يدعو به على المنبر، بعد الخطبة الثانية قبل نزوله، وهو: «اللَّهم أَبْرِمْ لهذه الأمة أمراً رشِيداً، يَعزُّ فيه وَلِيُّك وَيذلُّ فيه عَدُوُّك، ويُعْمَلُ فيه بطاعتِك، ويُنْهَى فيه مَعْصِيَتك». والناس يصيحون بالتَّأْمِين، والدعاء للمسلمين.

فكُوتِبَ الصالح إسماعيل بذلك، فَوَرَدَ كِتابه بعزْلِه واعتقاله. واعتُقِلَ الشيخ أبو عمرو بن الحاجِب أيضاً، لموافقته الشيخَ على الإنكار، ثم وصل الصالح بعد ذلك إلى دمشق، فأَفْرَجَ عنهما، واشْتَرَطَ على الشيخ عز الدين أنه لا يُفْتِي، ويَلْزَم بيتَه، ولا يجتمع بأحد. فسأله الشيخ أن يُفْسَحَ له في صلاة الجمعة، والاجتماع بطبيب أو مُزَيِّن، إن دعت حاجتُه إليهما، وفي دخول الحَمَّام، فأَذِنَ له في ذلك. ثم انْتَزَحَ الشيخان: عز الدين وأبو عمرو، عن دمشق إلى الديار المصرية ـ على ما نَذْكُرُه، إن شاء الله تعالى.

وفيها كانت الوَقْعَةُ بين عسكر حَلَب والخُوَارِزْمِيَّة[١]. وكان الملك الجَوَاد والملك المنصور ـ صاحب حِمص ـ مع الخُوَارِزْمِيَّة. فقصدوا حلباً، ونزلوا على باب بُزَاعَة[٢] في خمسةِ آلاف فارس. وخرج إليهم عسكر حلب في ألف وخمسمائة، فكسروهم، وأسروا من أمرائهم ونهبوا من أثقالهم. فتوجه الخوارزمية حَيْلان[٣] وقطعوا الماءَ عن حلَب، وضايقوهم. ثم عادوا إلى مَنْبِج[٤]، فنهبوها، وقتلوا أهلها وفضحوا النساء، ثم عادوا إلى حَرَّان[٥]. وكان الملك المنصور إبراهيم ـ صاحب حِمص ـ قد نزل على شَيْزَر[٦]، فاستدعاه الحلبيون، فجاء إلى حلب، ونزل بظاهرها ـ ومعه عسكر حمص.

---

(١) وهم الجنود الذين سلموا من جيش الدولة الخوارزمية، بعد أن قضى عليها التتار في سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م. وجاؤوا إلى الشام حيث استخدمهم بعض الملوك. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٣.

(٢) بزاعة. وأصلها بزاعا. وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان: بين منبج وحلب وبينها وبين كل منهما مرحلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٦.

(٣) حيلان: بالفتح، من قرى حلب تخرج منها عين فوّارة كثيرة الماء تسيح إلى حلب وتدخل إليها في قناة، وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨١.

(٤) هي بلدة من جند قنسرين، شرقي حلب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٢٧.

(٥) حرّان وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرقة يومان، وبينها وبين الرها يوم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٦) شيزر: قلعة وكورة قديمة بالشام قرب المعرة. بينها وبين حماه يوم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٤.

وفيها سَلَّمَ الملكُ الحافظ قلعةَ جَعْبَر[١] إلى صاحب حلب، وعوضه عنها أَعْزَاز. وكان سبب ذلك أنه حصل له فالِج، فتوجه ولده إلى الخُوَارِزْمِيَّة يستنجدهم على أبيه، وطلب منهم عسكراً لمُحَاصَرَتِه، فخَشِي من ذلك، فسَلَّمَها لصاحب حلب.

وفيها تسلم عسكرُ صاحب الروم آمِد، بعد حصار شديد. ويقال إنهم اشتروها بثلاثين ألف دينار.

وفيها، في ليلة الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر، تُوفي الشيخ محيي الدين: أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد، المغربِي الحاتَمي الطائي، المعروف بابن العَرَبِي[٢]، وهو من أهل الأَنْدَلُس. ومولده في ليلة الاثنين، سابع عشر شهر رمضان، سنة ستين وخمسمائة، بمُرْسِيَة من بلاد الأَنْدَلُس. ونشأ بها، وانتقل إلى إِشْبِيلِيَّة[٣]، في سنة ثمان وتسعين. ثم رحل إلى بلاد الشرق، ودخل بلاد الروم. وطاف البلاد وحج. وصحب الصوفية، وصنف كتباً كثيرة في علوم القَوْم. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسِيون.

واستهلَّت سنة تسع وثلاثين وستمائة

وفي هذه السنة، حصل الشروعُ في عمارة المَدْرَسَتَيْن الصَّالِحِيَّتَيْن، بالقاهرة المُعِزِّيَّة، بين القَصْرَيْن ـ والمكانُ التي عُمِّرَتا فيه من جملة القَصْر. وكان الشروع في الهدم والإنشاء في ذي الحجة. ولما كَمُلَتَا، أَوْقَفَهُمَا على طوائف الفقهاء: الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة. وأوقف عليهم الأوقاف. ويقال: إنه لما فَرَغَ من عمارتها نَدِمَ، لكَوْنِه لم يَبْنِ مكانهما جامِعاً، ويُرَتِّب فيه الدروسَ التي رتبها فيهما.

ذكر صرف قاضي القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة عن القضاء بمصر والوجه القبلي، وتفويض ذلك لقاضي القضاة بدر الدين السِّنْجَارِي

وفي يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الآخر، من هذه السنة، كتب السلطانُ الملك

---

(١) قلعة جعبر: قلعة على الفرات مقابل صفين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٣.

(٢) هو صاحب الفصوص أي الكتاب المسمى بفصوص الحكم. وله كتاب العبادلة وديوان شعر رائق. طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلداً، وكان فاضلاً في علم التصوف، وله تصانيف كثيرة. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٦٧.

(٣) إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، ولام، وياء خفيفة، مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس أعظم منها تسمى حمص أيضاً، وكانت مقر دولة بني عباد. على شاطىء نهر كبير يقال له وادي الكبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٢.

الصالح إلى قاضي القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة كتاباً، من جملته: أن القاهرة المَحْرُوسَة لما كانت دارَ المملكة، وأمراءُ الدولة وأجنادُها مقيمون بها، وحاكِمُها مختص بحضور دار العَدْل ـ تَقَدَّمْنَا أن يَتَوَفَّرَ القاضي على القاهرة وعملِها، لا غير. وفَوَّضَ السلطانُ قضاء القضاة، بمصر والوجه القبلي، للقاضي بدر الدين أبي المحاسن: يوسف السِّنْجَاري قاضي سِنْجَار. ثم مَرِضَ القاضي شرف الدين المذكور، إثْرَ ذلك، ومات في هذه السنة.

ذكر وفاة قاضي القضاة شرف الدين بن عَيْنِ الدولة، وشيء من أخباره

وفي ليلة الخميس، التاسع عشر من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثين وستمائة ـ كانت وفاة قاضي القضاة شرف الدين أبو المكارم: محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي، بن عَيْنِ الدولة: أبي القاسم صَدَقَة بن حَفْص الصَّفْرَاوِي الإسكندراني.

وكان قد وَلِي القضاءَ في أيام السلطان الملك العادل: سيف الدين ـ جَدِّ السلطان ـ كما تَقَدَّمَ، واستمَرَّ بعده.

ولما مات ـ رحمه الله ـ صُلِّيَ عليه بمُصَلَّى بنِي أُمَيَّةَ، وشَهِدَ جنازته خلقٌ كثير، ودُفن بعد صلاة الظهر بالقَرَافة، وأَمَّ الناسَ عليه ولدُه محيي الدين: أبو الصلاح عبد الله. ومولدُه ـ رحمه الله تعالى ـ بثغر الإسكندرية في يوم السبت. مستَهَل جُمادى الآخرة، سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وكانت مدة عمره ثمانياً وثمانين سنة، وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً. ومدة ولاية القضاء ـ استِقْلالاً ـ ستاً وعشرين سنة، وتسعة أشهر، وسبعة عشر يوماً. وناب عن القضاء قبل ذلك ثمانياً وعشرين سنة. وشهرين وأياماً.

وكان رحمه الله تعالى ـ ذا رِياسة قَديمة، ووالده وجده من كبراء أهل الثَّغْر. وَجدُّ أبيه ـ القاضي الجليل ـ من رؤسائه. وبلغ من مَحَلِّهِ في الدولة العُبَيْدِيَّة[1] أن لُقِّبَ بعَيْنِ الدولة، ولُقِّبَ ولده بثِقَةِ الدولة، وَوَلَدُ ولَدِه بعَيْنِ الدولة. فسأل تخصيصاً مانِعاً، لاشْتِبَاهِ الوَلَد بالجَدّ، فمُيِّزَ الوَلَد[2] بعين الدولة ومَكِينِها، ووالده بثِقَةِ الدولة وأمينِها ـ بتقليد من الخلفاء العُبَيْدِيِّين. وعُمِّرَ القاضي الجليل مائةَ سنة وأربع سنين. ومات عن عدة أولاد ذكور، ما منهم إلا من عُدِّلَ[3] بالديار المصرية، وتولى الأحكامَ الشرعية.

وكان القاضي شرف الدين ـ رحمه الله تعالى ـ مالِكيَّ المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعي.

وسبب ذلك أنه قَدِم من ثغر الإسكندرية إلى مصر وسكن بها، في شهر ربيع

---

(١) أي الدولة الفاطمية. (٢) الحفيد. (٣) أي شهد له بالعدالة.

الآخر سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. واتصل بالقاضي المُرْتَضَى ابن القَسْطَلانِي، ثم اتصل بقاضي القُضاة: صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن دَرْبَاس الهَذَبَاني[١]، فعَدَّلَهُ واستَكْتَبَه، في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. فلما عُزِلَ ابن الجاموس[٢] من خَطابة الجامع بالقاهرة، أَمَرَهُ القاضي صدر الدين أن يَخْطُب، فخطب وأجاد وأبلغ في المَوْعِظَة، ونزل فَصلَّى وجَهَرَ بالبَسْمَلَة.

فلما فَرَغَ من الصلاة، وجلس بين يدي القاضي صَدْرِ الدين، شَكَرَه وأَثْنَى عليه ـ والمجلس غَاصٌّ بالفقهاء والصُّدور وأرباب المناصب ـ فقال بعض الأكابر: يا شرفَ الدين جَهَرْتَ بالبَسْمَلَة، وخَالَفْتَ مَذْهَبَك، فأَنْشَدَ قولَ المُتَنَبِّي في كافور: [من الطويل]

فِـراقٌ، ومـن فـارقـت غـيـرُ مُـذَمَّـمِ وأُمٌّ، ومـن يَـمَّـمْـتُ خَـيْـرُ مُـيَـمَّـمِ

فاستحْسَنَ ذلك القاضي والجماعة، وصار شافِعِيّاً من ذلك اليوم واشْتَغَلَ بمذهب الشافعي على القاضي: ضياء الدين أبي عمرو عثمان بن دَرباس[٣]، مُصَنِّف الاسْتِقْصَاء، وعلى الفقيه: أبي إسحاق إبراهيم بن منصور العِراقي[٤].

واستنابه القاضي صدرُ الدين عنه في الحُكْمِ بمصر، في يوم الاثنين والخميس، في العشر الأوسط من ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة. فحضر إليه يَسْتَعْفِي من ذلك. وكان جَمَالُ الدولة: أبو طالب شَرَاتِكِين ـ سَلَفُ القاضي صدرِ الدين ـ حاضراً، هو من الأَجْناد ـ فأَسَرَّ إليه، وقال له: لا تَسْتَعْفِي، فأنتَ، واللَّهِ، بعد اثنتين وثلاثين سنة، قاضي القضاة. فأَرَّخَها فلم تَزِدْ ولم تَنْقُصْ.

---

(١) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الكردي الموصلي قاضي القضاة بالديار المصرية، ولد سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م. وتفقه بحلب، مات بمصر في رجب سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٠٨.

(٢) هو شهاب الدين محمد بن إبراهيم الحموي، كان من كبار الشافعية تفقه بحماه. وقدم الديار المصرية، فولي خطابة الجامع العتيق (جامع عمرو)، وتدريس المشهد الحسيني. مات في ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٠.

(٣) هو أخو صدر الدين بن درباس قاضي القضاة، المتقدم ذكره في الحاشية رقم (١) من هذه الصفحة صاحب الاستقصاء في شرح المهذب، كان من أعلم الفقهاء في وقته بالمذهب الشافعي، وناب عن أخيه في الحكم بالقاهرة. توفي سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م، وقد قارب التسعين. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٠٨.

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن منصور بن المسلم المصري. وإنما قيل له العراقي لأنه سافر إلى بغداد، وأقام بها مدة يشتغل بها. ولد بمصر سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م، ثم سافر إلى بغداد لطلب العلم، ثم عاد إلى مصر، وتولى خطابة الجامع العتيق بها. وشرح «المهذب» شرحاً حسناً، مات يوم الخميس حادي عشر جمادى الأولى سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤٠٧.

ووَقَّعَ للقاضي زينِ الدين علي بن يوسف الدِّمَشْقِي[١]، أيامَ ولايته، ثم عاد القاضي صدرُ الدين إلى الحكم، فعاد إليه. ووُلِّيَ القاضي مُحيي الدين: أبو حامد محمد ابن القاضي شرف الدين بن أبي عَصْرون، فوَقَّعَ له. ثم عاد صدرُ الدين، فعاد إليه، ولم يَزَلْ كاتِبَه إلى أن تُوفي. وكان كثيرَ الرُّكُون إليه، والاعتماد عليه. حتى إن شرف الدين مرِض، فسأل عنه القاضي صدرُ الدين، فأُخْبِرَ بشدة مرضه، فقال: واللّه لئن قُضِيَ عليه بمحتوم، لأَعْزِلَنَّ نفسي، لأنني لا أجد من أَثِقُ به سواه.

ولما وُلِّيَ القاضي عمادُ الدين: عبد الرحمٰن بن عبد العَلِيّ السُّكَّري القضاء، كَتَبَ له، إلى أن عُزِل القاضي عماد الدين في شهر المحرم، سنة ثلاث عشرة وستمائة، فَقَسَّمَ السلطانُ الملك العادل القضاءَ شطْرَيْن: فوَلَّى القاضيَ شَرفَ الدينِ هذا القاهرة والوجه البحري، في الشهر المذكور ـ وقيل في يوم السبت ثاني صفر ـ ووَلَّى القاضيَ تاجَ الدين ابن الخَرَّاط مِصر والوجه القبلي، كما تقدم. ثم أضاف السلطان الملكُ الكاملُ إليه قضاءَ مصر والوجه القبلي، في العشر الآخر من شعبان ـ أو في شهر رمضان ـ سنة سبع عشرة وستمائة، كما تقدم ذكر ذلك.

وكان السلطانُ الملك الكامل كثيرَ التَّنْويهِ بذِكْرِه، والافتخار بولايته، والابتهاج بما يراه من أَحكامه، وما يَبْلُغُه من سِيرته، وما يتحققه من حسن طَوِيَّتِه، وجَميل سَرِيرَتِه. وكان إذا نَظَرَ إليه يقول: والله لنَتْعَبَنَّ بعد هذا، إذا فقدناه، ولا نجد بعده من يَقُومُ مَقَامه.

وكان إذا كتب إلى السلطان، يَستأْذِنُه في عَزْلِ نائب من نُوابه بالأَعْمَال، أو في أمرٍ يَقْصِدُ فِعْلَه، يُجيبه عن كتابه بخَطِّه على ظَهر كتابه، أو بين سطوره، وكان يقترح ذلك على السلطان، في بعض الأحيان. وكان الرَّسْمُ في المكاتبات والأجوبة جارِياً[٢] على غير ما هو عليه، في عصرنا هذا.

وقد رأينا أن نُثْبِتَ من مُكاتبات قاضي القضاة إلى السلطان، وأجوبته له، في هذا الموضع، ما يُعْلَمُ منه كيف كان الرَّسْمُ جارِياً[٣]. فمن ذلك ما كَتَبَ به إلى السلطان الملك الكامل:

«اللهم إني أسأَلُكَ حُسْنَ الفاتِحة، والخاتِمة في عافِية. المملوكُ يَخْدُم المَقَام المَوْلَوِيّ السُّلْطَاني المَالِكِيّ، الكامِلي ـ بَلَّغَه اللَّهُ تعالى كلَّ مُراد وأمَل، ووفَّقَه لطاعة ربه في كل قوْلٍ وعمَل ـ ويُنْهِي: أن النائبَ في الحكم بإِطْفِيح[٤] قد كَثُرَ من القول فيه ما

(١) راجع صفحة ٤ من هذا الجزء حاشية (١).

(٢) و(٣) في الأصل وكان الرسم جارِ.

(٤) مدينة بمصر جنوبي الفسطاط تقع في الضفة الشرقية للنيل وعملها بين المقطم والنيل. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٩٧.

تَقْتَضِي المصلحةُ الاستبدالَ به وهو ابنُ أخت الأجَلِّ مجد الدين، أخي الفقيه الأجل عيسى[١] - وقد كان المتظلمون، من مدة، حضروا شاكِين لأمره، وطَالَعَ المملوكُ مولانا بحالِه، وكان مولانا في بعض متوجِّهَاته المَيْمُونَة. فورد الجواب، بأن مولانا يَنْظُرُ في ذلك. وقد كَثُرَ القول. والمملوكُ يستأذِنُ على ما يَفْعَلُه في أمره، من صَرْفٍ أو إبْقَاء».

المملوكُ يَخْدُم، ويُنْهِي أن النائبَ في الحكم بالمَحَلَّة قد ظهر من أحواله، وتحايُفِه على من يحقِد عليه، ويقصد مُضَادَّته لما في نفسِه - ما يقتضي كَفَّ يدِه، وهو يستند إلى مُتَوَلِّي الحرب بالمِحَلَّة، ويُعَوِّل على ثنائه عليه ومَيْلِه إليه - على ما ذُكِر للمملوك. وهو يستأذِن على أمره.

المملوكُ يسأل الإجراءَ - على عادةِ الفضْل والكرم - في أنه، إن حَسُنَ التشريفُ عن هذين الفَضْلَيْن بالجواب، أن يكون تشريفُ الخَطِّ الكريم - لا زال عَالِياً - ليكون سَبَباً لسَتْر القضية، إلى أن يُعْتَمَدَ فيها ما يُرْسَم من تَوَقُّفٍ أو إمْضَاء واللَّهُ تعالى يَمُنُّ على المملوك بدوام جميلِ آراء مولانا وعَضُدِه له، وتقويةِ يدِه في نيابته عن مولانا فيما فَوَّضَه إليه.

المملوك يُنْهِي أن من اعْتُمِد في أمره من الشهود والنُّوَّاب - الأمرُ الذي أَرْشَدَ مولانا المملوكَ فيه إلى الصواب - لِكُلٍّ منهم جِهَة[٢] ربما شَقَّ عليها ما جَرَى، وحصل منها في حَقِّ المملوك ما يَقْضِي بتغيير خاطر وتقسيم فِكْر. والله ما يبالي المملوك - بعد رضى الله تعالى - إلا برضى مولانا بمن أحب أو أبغض، أو أعان أو تعصب: [من الطويل]

ولو كان كلُّ الناسِ عني بجانب لما ضَرَّنِي، إذْ كنتُ منكَ بجانِبِ

المملوكُ يُنْهِي أن مولانا، لما شَرَّفَ المملوكَ في الخِدْمَة، كان في التقليد أنه لا يَستنِبُ إلا من كان على مذهب الإمام الشافعي - قَدَّسَ الله رُوحَه ولما كَانَ بعد ذلك، وَرَدَ مكتوبٌ من مولانا في زمن إقامة رِكابه بالمنصورة، يتضمَّن أن أَمْرَ الاستنابة إلى المَمْلُوك. وفي النواب اليوم شخصان على مذهب مالك - رحمه الله تعالى. فيُحِيط

(١) هو الفقيه الأمير ضياء الدين عيسى الهكاري، كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر، وحظي عنده، ثم كان ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى مات في ركابه بمنزلة الخروبة قريباً من عكا سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م. فنقل إلى القدس فدفن به. كان ممن تفقه على الشيخ ابن القاسم بن البزري الجزري، وكان من الفضلاء والأمراء الكبار. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٥٦. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ١٠٠.

(٢) وراء كل منهم جهة أي شخصية يُعتمد عليها، وقد تغضب لما يحصل فتتقدم بإيذاء الخطيب ابن القاضي.

العُلُومَ أنه ما خَالَفَ إلا بعد ما ورد ما ذَكَرَه. وكان مِمَّن تَقَدَّمَ المملوكَ في الحُكْمِ من استناب الشافعية والحنفيةَ والمالكية بمصر نفسها، وبالأعمال. أُنهِيَ ذلك، والرأي أَعْلَى في التشريف بالجواب ـ إن شاء الله ربُّ العالَمين.

فأجابه على ظَهْرِ كِتابه ـ بخَطِّه ـ ما مِثالُه: «اختَرْتُكَ دون غيرك، لبَرَاءَةِ ذِمَّتِنَا وذِمَّتِك. افْعَلْ ما يُخَلِّصُك عند الله، من خَيْرٍ معنا تَفْعَلُه، ومَعَ نفسِك ـ إن شاء الله تعالى وختَمَه. وكَتَبَ على الخَتْم القاضي شرف الدين قاضي القُضاة».

وأضاف السلطانُ إليه الحكمَ في اليَنْبُع، في بعض شهور سنة ست وعشرين وستمائة، فاستنابَ فيه، ثم أضاف إليه الحُكْمَ بغَزَّة والخَليل والأُرْدُنّ وطَبَرِيَّة وبَانْيَاس، في سنة إحدى وثلاثين، فاستناب عنه فيها نُوَّاباً. ثم تقدم إليه أن يستنيب عنه خَطيباً وحاكِماً بثغر دمياط، في شعبان سنة أربع وثلاثين وستمائة، فاستناب في ذلك.

وكتب إلى السلطان ـ قبل أن يستنيب ـ يستأذنُه في النيابة، ويستوضح عن أمر البلاد الشامية، فأجابه:

«وَرَدَ كتاب الحَضْرَة ـ أعاد الله علينا من بركاتِها، ونَفَعَنا بمُتَقَبَّل دَعَوَاتِها، وأَسْعَدَ آراءَها، ووَفَّقَ قُصودَها وأَنْحاءَها، ولا زالت تصرفاتُها في الشريعة أبداً مَيْمُونَة، وأحكامُها بإصابة الحق مقرونَة، وفَضَضْنا خَتْمَها ووَقَفْنَا عليها، وأحاط عِلْمُنا بما اشْتَمَلَتْ عليه، وما أَوْمَأَتْ الحَضرةُ إليه وشَكَرْنَا اجتِهَادَها المُفَوَّف البُرُود، وتَحَرُّزها في الأُمور الشرعية الجليلة العُقُود. وأتينا على دِيانتها التي رَقَّتْها عندنا إلى المَقَام المحمود».

فأما إشارتها إلى أنها تَستنيب في غَزَّة وما معها، عنا أو عن نفسها، فنحن أَضَفْنَا ذلك إليها، وهي تَستَنِيبُ عن نفسها من يكون أهلاً لذلك. وأما استفهامُها أن المواضع المذكورة: هل لها جَامِكيَّات[(١)] مُقَرَّرَة أم لا؟ نعم لها جَامِكِيَّات مقررة، والديوانُ شاهدٌ بها. وأما استيضاحُها: هل لهذه المواضع أَصْلٌ، حتى يقالَ: الموضعُ الفلاني وعملُه، فَيُوَلِّي فيه شخصاً واحداً، أو كلُّ مَوْضِع، وإن قَلَّ، مُفْتَقِرٌ إلى نائبٍ مُفْرَد ـ فلْتَعْلَم الحَضْرةُ أن مُرَادَنا أن نَستَنِيبَ شخْصين: أحدَهما لغَزَّة وطَبَرِيَّة والأُرْدُنّ وجَبَلِ الخَليل، والآخر لبَانْيَاس وعملِها.

ثم ذكر غير ذلك في جوابه، وقال: وكُتب لسبعٍ خلوْن من شوال سنة إحدى وثلاثين وستمائة، بمنزِلةٍ تقابل البيرة بشاطىء الفُرات، من بَرّ الشام المحروس ـ شِفَاهاً.

وكتب إلى السلطان أيضاً يستأذنُه في صَرْفِ بعض النُّوَّاب، فأجابه:

(١) جامكية: الجمع جوامك، وهي الرواتب عامة ونص القلقشندي: «إن نفقة مماليك السطان كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧.

«وردت مكاتبةُ الحَضْرة - أَيَّدَها اللَّهُ بتوفِيقِه في جميع حالاتِها، ولا أخلى من صالح دَعَواتها في شريفِ أَوْقاتها، وأجْراها من السَّدَاد والتَّحَرُّزِ على مُخْتَار عاداتِها - وَوَقَفْنَا عليها جميعاً، وأحاطت علومُنا بما أشارت إليه، وما نَبَّهَتْ فيها عليه».

فأما إشاراتُها إلى صَرْفِ قاضي الفَيُّومِ والاستبدال به بخَطيب البلَد وصَرْفِ قاضي قُوص، وتعريضها بأنها لا يجوز لها إعادتُه، وعَزْمِها على صَرْفِ قاضي إخْمِيم، وما عَرَّضَتْ به من انتمائِه إلى كَريم الدين الخِلاَطِي، وإصْرَارِها على صَرْفِ قاضي مِنْيَة زِفْتَى، وتصريحها بأنه ذَاكِرٌ أَنَّا نَعْرِفُه، وقد خَلَعْنَا عليه - فجوابُنا عن جميع ذلك: أنا قَلَّدْنَاها هذا الأمرَ العظيم. وذَمَّمْنَاها هذا الخطبَ الجَسِيم، ونَهَجْنَا بها السُّلوكَ في طريقِه المستقيم، وفَوَّضْنَا ذلك إليها، وَجَعَلْنَا أَزِمَّةَ نَقْضِه وإِبْرَامِه بيدَيْهَا، وصَيَّرْنَا ركائبَ آمالِ طالِبِي التَّوْلِيَةِ مُنَاخَةً لدَيْها - نَرْجُو بذلك بَرَاءَةَ الذِّمَّةِ عند الله تعالى، وأن لا تقوم الحُجَّةُ علينا ولا عَلَيْها.

فمن استصْلَحَهُ وَرَضِيَتْهُ من النُّوَّاب، فَلْتُقِرَّه على حالِه. ومن ظهرَ لها اعوجاجُه وسَخْطَتُه، فلْتَصْرِفْه، ولا تُعَرِّجْ على أساطيرِ أقواله. فالإرْهاباتُ والتَّمْويهَاتُ لا مَدْخَلَ لها في أمور الدين، والشَّرْعُ الشريف مُنَزَّهٌ عن شَفاعة الشافِعين. فلْتَعْلَم الحَضْرَةُ ذلك، ولْتُواصِل بالمُتَجَدِّدَاتِ(١)، مُوَفَّقَةً في ذلك - إن شاء اللَّهُ تعالى، سُطِّرَتْ لإحدى عشرة ليلةً بَقِيَتْ من ذي الحجة، سنة إحدى وثلاثين وستمائة، بظاهر السُّوَيْدَا - مُشَافَهَةً.

هذا كان الرَّسْمَ في المُكاتَبَاتِ والأَجْوِبَة. وفيه دليلٌ على أن قاضي القضاة بالديار المصرية، في ذلك الوقت، كان لا يَسْتَقِلُّ بعَزْلِ نائب من نُوَّابه بالأَعْمَال - وإن صَغُرَتْ جِهة ولايته - إلا بعد مُراجَعَةِ السلطان، واستئذانِه. وما زال الأمر جارياً على ذلك، إلى أن مَلكَ السلطانُ الملكُ الصالح نجم الدين، فغلُظَ حِجَابُه وتَعَذَّرَ خِطابُه وجَوابُه، وتَعَاظَم أن يُشاورَ في الجُزْئِيَّات، وأن يُشَافَه إلا في الأمور المُعْضِلاَت. فاسْتَقَلَّ حينئذٍ القُضاةُ وغيرُهم، واستبدُّوا بالولايات والعَزْل.

ولْنَرْجع إلى أحوال قاضِي القُضاة: شرف الدين، وسِيرَتِه.

وكان - رحمه الله تعالى - جَواداً كريماً، زاهِداً لا يَدَّخِرُ شيئاً: ولا يَمْلِكُ إلا سِجَّادَةً خَضْراءَ من الصوف، وسَجَّادَةً من أَدَمٍ ومُشْطاً وسُبْحة، ومِقْراضاً، وعُوداً من أَرَاك(٢). وليس له إلا بَدْلَةٌ واحدة، فإذا تَغَيَّرَتْ، غُسِلَت له ليلاً. وبَغْلة واحدة، فإذا كان زمنُ الربيع، استأجَرَ بغلةً في كل يوم بثلاثة دراهم، ويقوم بعَلَفِها من عنده. ما مَلَك عَقاراً،

(١) الأحداث التي تُستجد.

(٢) الأراك: شجر معروف وهو شجر السِّواك، واحدته أراكة. ابن منظور: لسان العرب (أرك).

ولا وَجَبَتْ عليه زَكَاةٌ في عُمره.

وكان مَضْبُوطَ المَجْلِس، لا يُسَارُ أحَداً في مجلِسه ولا يَضْحَكُ فيه. وكان كثيرَ العبادة، يَسْرُدُ الصَّوْمَ، ولا يُفْطِر إلا الأيامَ التي لا يجوز صومُها، كثيرَ التلاوة للقرآن، والذِّكر والأَدْعِيَةِ. وكان لا يُكَلِّفُ أحداً قضاءَ حاجة، إلا ويُعطيه فوق أُجْرَتِهِ. حتى كان يدفع ملْءِ إبريقٍ ماءً حارًّا في الشتاء من الحَمَّام، عند كل صَلاة، نِصف دِرْهم للحَمَّامِي، وربُع درهم لحامل ذلك إليه. وكان يَدْفَعُ لباري أقلامه أُجْرَة، من دِرْهَمَيْن إلى ثلاثة.

وكان له شِعْرٌ حسن، قد وَقَفْتُ منه على قصائد، يمدح بها السلطان الملكَ الكامل ـ تركنا إيرادَها اختصاراً. فمن شعره، بَدِيهَةً: [من المتقارب]

وَلِيتُ القَضاء، ولَيْتَ القضا ءَ لم يكُ شيئاً تَوَلَّيْتُه

وقد قادَني للقضاء القَضَا وما كنتُ قِدْماً تَمَنَّيْتُه

وكان حسنَ النَّثر. وكانت علامتُه: الحمدُ لله مُتَوَلِّي السرائر. ويكتب تحت خط الشهود. أقامَ شهادتَه عندي بذلك، وشَخَص المذكور، والله على كل شيء شَهِيدٌ. وأخبارهُ ـ رحمه الله تعالى ـ وأوصافُه الحسنة كثيرة، وقد أتينا منها بما فيه الكِفاية.

ولما مات قاضي القضاة شرفُ الدين في التاريخ المذكور، خرج الأمر السلطاني بالإذْن للعُقَّاد والنواب عنه بالقاهرة ـ في يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة من السنة ـ بالاستمرار، إلى أن يقع الاختيار على قاضٍ، ولم يُؤْذَن لنائِبه: القاضي محيي الدين عثمان بن يوسف القَلْيُوبي ـ بشيء ـ وهو الذي كان خليفةَ القاضي شرف الدين ابن عَيْنِ الدولة في الحُكْم ـ إلى أن مات. واستمر ذلك إلى يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من الشهر.

ففوَّضَ السلطانُ قضاءَ القاهرة والوجه البحري لقاضي القضاة: بَدْر الدين السِّنْجَارِي ـ وصُرِفَ عن الحُكْم بمصر والوجه القبلِي. وكان قد استناب بمصر ابنَ عمه: القاضيَ شمسَ الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلِّكَان[1]، وفَوَّضَ إليه عُقود الأنكِحة وقضاء الجِيزَة. واستناب شمس الدين عنه في قضاءِ الجيزة أخاه: بهاءَ الدين محمد بن محمد، فلما وَلِيَ القاضي بدر الدين القاهرة، استناب القاضي شمس الدين ـ المذكور ـ بها. فَجلَس في يوم الخميس ـ السادس والعشرين من ذي القعدة ـ بجامع

(١) هو المؤرخ المشهور صاحب كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان الملقب أبو العباس. ولد سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م. وتوفي ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣١٨. وانظر أيضاً النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ٢٩٩. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٧١.

الأَزْهَر، وأمر الشهود بالانتقال إلى حَرَم الجامع. ثم شَرَكَ بينه وبين القاضي محيي الدين، في النيابة بالقاهرة، ووُلِّيَ قضاءَ مصر الشيخُ عِزُّ الدين بنُ عبد السلام.

ذكر وصول شيخ الإسلام(١) عبد العزيز بن عبد السلام ـ إلى الديار المصرية، وما اتفق له بعد خروجه من الشام إلى أن وصل، وتفويض القضاء بمصر والخَطَابة بها ـ وغير ذلك ـ إليه، وما فعله وعَزْلِه نفسَه

كان وصولُه إلى الديار المصرية في سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وذلك أنه لما وَقَع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق ما وَقَع. وعَزَلَه وأَلْزَمَهُ دارَه ـ كما تقدم ـ فارَقَ دمشق، وقَصَدَ البيتَ المقدس.

فوافاه الملكُ الناصر داود صاحب الكَرَك بالغَوْر(٢)، فأكرمه ونقله إلى الكَرَك. وقال له: تُقِيمُ عندي بهذا الحِصن وأنا لا أَخْرُجُ عن أَمْرِك. فأقام عنده مُدة يسيرة. ثم استأذَنه في الخروج، فسأله عن مُوجِب خروجه وكراهة مُقامِه. فقيل إنه قال له: هذا بَلَدٌ صغير، وأنا أُحِبُّ الانتقال إلى بلدٍ أَنْشُرُ به ما عندِي من العِلْم.

فأَذِنَ له، وتوجه الشيخُ إلى القُدْس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القُدْس ـ وصُحْبَتُه الفِرِنْج ـ فأرسل إلى الشيخ بعضَ خَوَاصِّه بمِنْدِيلِه، وقال له: ادْفعْ إليه مِنْدِيلي وتَلَطَّفْ به واستَنْزِلْه، وعِدْه بعَوْدِه إلى مناصِبِه، فإن أجاب، فائتِنِي به، وإن خاشَنَكَ فاعتقِلْهُ في خَيْمَةٍ إلى جانب خَيْمَتِي.

فأتاه الرسولُ ولاطَفَه، ثم قال له: بَيْنَك وبَيْنَ أَنْ تعودَ إلى مناصبك، وتعودَ إلى ما كُنْتَ عليه وزيادة، أن تُقَبِّلَ يدَ السلطان. فقال له: «واللَّهِ ما أرضاه أن يُقَبِّلَ يدِي، فَضْلاً أن أُقَبِّلَ يدَه»!! فقال: إنه قد رَسَمَ أن أَعْتَقِلَكَ، إذا لم تُوافِق. فقال: افعلوا ما بَدَا لكم! فاعْتَقَلَهُ في خَيْمَةٍ إلى جانب خيمة السلطان.

وكان يقرأ القرآنَ والسلطانُ يَسْمَعُه. فقال يوماً لملوكِ الفرنج: تَسمعون هذا الذي

---

(١) هو عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السلمي، شيخ الإسلام سلطان العلماء، ولد سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م أو ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. وتفقه على الفخر بن عساكر، وأخذ الأصول عن السيف الآمدي. وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وغيره، وبرع في الفقه والأصول العربية. وألقى التفسير بمصر وألف كتباً عديدة. منها تفسير القرآن ومجاز الفرسان ومختصر النهاية الخ. وله كرامات كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي. وكانت وفاته سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) أي غور الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٥.

يَقرأ؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر قُسُوسِ المسلمين. وقد حَبَسْتُه لإنكاره عليَّ تسلِيمي لكم حصُونَ المسلمين، وعَزَلْتُه من الخطابة بدمشق وعن مناصبه. ثم أَخْرَجْتُه عن دمشق فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقالَه لأَجْلِكُمْ. فقالوا له: لو كان هذا قِسِّيسَنَا، لغَسَلْنَا رِجْلَيْه، وشَرِبْنَا مَرَقَتَها! ثم فارَق الصالحُ القدس.

وقَدِم الشيخُ إلى الديار المصرية. فأقبل عليه السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأَكْرَمَه، وفَوَّضَ إليه الخَطَابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر، في يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة، عِوَضاً عن أبي المجد الإخْمِيمي ـ وكان أبو المجدِ قد ولي الخطابة بعد وفاة أبي طاهرِ المَحَلِّي، وكان ينوب عنه في حال حياته. وخَطَبَ الشيخُ عز الدين في هذا اليوم. وأَذَّنَ الأَذانَ الثاني على الدِّكَّة يومئذ، مؤذِّنٌ واحد ـ خلافَ العادة.

ثم فُوِّضَ إليه القضاءُ بمصر والوجه القِبلي ـ في يوم الثلاثاء التاسع من ذي الحجة، من السنة ـ بعد انتقال قاضي القضاة بدر الدين السِّنجَاري منها إلى القاهرة والوجهِ البَحْرِي، وشَغَرَتْ[١] مصرُ عن حاكِم، فيما بين نَقْل القاضي بدر الدين وتولية الشيخ، أربعةَ عشر يوماً ووَلِيَها الشيخُ مُضَافَةً إلى الخَطَابَة.

وجلس في هذا اليوم، وحَكَمَ بين الناس، واستناب الشيخُ عنه، في الحُكْم، القاضي صَدْرِ الدين مَوهوب: قاضي جزيرة ابنِ عمر. وفي يوم جلوس الشيخ للحكم، أَسْقَطَ عَدْلَيْن من العُدول المُتَقَدِّمَة.

وسببُ ذلك أنه وَجَدَ مَسْطُوراً[٢]، فيه شهادَتُهما، وهو غير مُؤَرَّخ، وفي خَطِّ كلّ منهما: كَتَبَه فُلان في تاريخه. وسأل أحدَهما عن فرائضِ الصلاة، فلم يُجِبْهُ جَواباً مُرْضِياً. ثم أَسْقَطَ، بعد ذلك بأيام، القاضيَ فخرَ الدين ابن قاضي القضاة عمادِ الدين بن السُّكَّرِي ـ مُدَرِّسَ مَنَازِلَ العِزّ ـ لأنه وَجَدَ شَرْطَ الواقِف بالمدرسة أن يكون المُدَرِّس بها عارِفاً بالأُصُولَيْن[٣]، وهو عارٍ عن معرفتهما. فأَسْقَطَهُ لذلك.

وأسقط أيضاً جماعة من عُدُول[٤] القاضي شرف الدين بن عَيْن الدولة، ثم أسقط

---

(١) شغرت الأرض: لم يبق به أحد. وبلد شاغر إذا كان بعيداً من الناصر والسلطان. ابن منظور: لسان العرب (شغر).

(٢) مسطوراً: أي مكتوباً. ابن منظور: لسان العرب (سطر).

(٣) الأصولان: أصول الدين وأصول الفقه.

(٤) العدول: جمع عدل وهو الرجل الصحيح الرواية، وهم جماعة الشهود الذين يختارهم القاضي لمعاونته في أعماله فيجلسون حوله يمنة ويسرة بمجلس الحكم على ترتيب الأقدمية في تعديله لهم، ومنهم من تولى الوظائف الكبرى كالحسبة، ووكالة بيت المال والنيابة أيام الدولة الفاطمية، وكانوا =

ولدَه محيي الدين أبا الصلاح. وطَلَبه فخرج مستخفياً إلى ثَغْر الإسكندرية. واستند في إسْقَاطِ كلٍ منهم إلى موجِب ظاهر. ثم عَزَل نَفْسَه. فتلطف السلطانُ في إعادته، فعاد.

ثم أَسْقَطَ الصاحبَ مُعينَ الدين ابن شيخ الشيوخ: وزيرَ السلطان الملك الصالح ونائبه، ومُقَدَّمَ جيوشه. وعَزَلَ نفسَه عن القضاء ثانياً.

وسببُ ذلك: أن الصاحبَ مُعينَ الدين كان قد بنى فِراشْخَانَاه[1] على ظهر مسجِد، بجوار داره. وكان السلطان قد فَوَّض إلى الشيخ أيضاً النظرَ في عِمارة المساجد، بمصر والقاهرة. فأرسل إليه يأمره بهدم ما استجَدَّه على ظهر المسجد وإزالته، وإعادة المسجد إلى ما كان عليه، فلم يُجِبْ إلى ذلك. ثم عاوده فلم يَفْعَلْ.

فلما طال ذلك على الشيخ، أمر الفُقَهاء طَلَبَتَه أن يأتوه في غدٍ ـ ومع كل واحد منهم مِعْوَل ـ ففعلوا ذلك. فلما رآهم العَوَامُّ اجتمع منهم خلقٌ كثير بالمَسَاحي، ورَكِبَ الشيخُ إلى دار الصاحب مُعِين الدين، وهو في خدمة السلطان، وأمر بإخراج ما في ذلك المكان، فأُخْرِج، ثم أمر بهَدْمِه فهُدِم.

فتألم الصاحبُ مُعين الدين لذلك، ولم يُمْكِنْه أن يُحْدِثَ فيه شيئاً. فلما كان بعد مُدة يسيرة، جلس الشيخُ بجامع مصر لتَعْدِيل من شُهِدَ بعَدَالَتِه، منهم: فخرُ الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد. واجتمع لذلك جمعٌ كثير من العلماء والفقهاء والأكابر والقُرَّاء ـ وكانت العادةُ كذلك في إنشاء العَدَالة. فاتصل الخبَرُ بالصاحب مُعين الدين، فأمر واليَ مصر أن يَدْخُلَ إلى المجلس، ويُفَرِّقَ ذلك الجَمْع، ويقولُ للشيخ عز الدين: يقول لك الصاحبُ: بلَدُ السلطان لا يجتمع فيه الجُمُوع. ففعل الوالي ذلك.

فَصَرَخَ الشيخُ في المجلس بإسْقاطِ عَدَالَةِ الصاحب مُعِين الدين! ثم عَزَلَ نَفْسَه عُقَيْبَ ذلك. وكَثُرَ اللَّغَط، وارتفعت الأصوات. ولما اتصل خبرُ هذا الإسْقاطِ بالسلطان، مَنَعَ الصاحبَ مُعِينَ الدين من الدخول إليه ثلاثة أيام، حتى لَفَّقَ صِيغَةً شِهدَتْ أن الشيخ إنما أَسْقَطَه بعد أن عَزَلَ نفسَه، وأن إسقَاطَه لم يصادِفْ مَحَلاً، وأنه باقٍ على عَدَالَتِه.

= يتزيون بزي خاص بطبقتهم كالمناديل تحت الحلوق، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٦. انظر أيضاً التعريف بصبح الأعشى لمحمد البقلي، ص ٢٤٢.

(١) فراشخاناه: خزانة الفرش وهي التي بها الخيم والبسط، والأسمطة والقناديل وما أشبه ذلك، وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك، وكان الخليفة يحضر إليها من غير جلوس، ويطوف فيها ويسأل عن أحوالها، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات، وحملها إليها، ولها مهتار وعدة فراشين عملهم الكنس، وترش البسط والخدمة ومد الأسمطة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧٣. وانظر أيضاً التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

وأَثَّرَ هذا الإسقاطُ في الصاحب مُعين الدين أَثَراً مُؤْلِماً، وهو أنه حُكي أن السلطان أرسل رسولاً إلى الدِّيوان العزيز[١] ببغداد، وكان المُشَافِهُ للرسول عن السلطان الصاحبَ معين الدين. فلما أَبْلَغَ الرسالةَ قال له الوزير: أيوب شَافَهَكَ بهذه الرسالة؟ قال: لا، إنما شافَهَنِي بها عنه الصاحبُ معين الدين. فقال له الوزير: مُعينُ الدين أَسْقَطَ الشيخُ عِزُّ الدين عدالَتَه، فلا يُرْجَع إلى مُشَافَهَتِهِ.

ولما عَزَلَ الشيخُ نفسَه، أراده السلطانُ على العَوْدِ إلى القضاء، فامتنع من ذلك. فَفَوَّضَ السلطانُ الملكُ الصالح القضاءَ بعده، بمصر والوجه القبلي، إلى نائبه القاضي صدر الدين أبي منصور موهوب، بن عمر بن موهوب بن إبراهيم الجَزَرِي[٢] الشافعي ـ وذلك في سنة أربعين وستمائة. فأعاد بعض من أسقطهم الشيخُ عز الدين إلى العَدَالَة، ولم تَطُلْ ولايته، فإنه استمر في القضاء نحو سنة. وعُزِل، ولم يَلِ القضاءَ بعدها.

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة ـ أيضاً ـ توجه السلطان الملك المنصور ـ صاحب حِمص ـ وعسكرُ حلب، إلى حَرَّان، والتقوا مع الخُوَارِزْمِيَّة، ومزَّقوهم كُلَّ مُمَزَّقٍ، فكَسَروا الخُوَارِزْمِيَّة.

واستهلَّت سنة أربعين وستمائة

في هذه السنة، عَزَمَ السلطانُ الملك الصالح نجم الدين على التوجه إلى الشام، فبلغه أن العساكر مختلفة، والبلاد مُخْتَلَّةٌ، فأقام.

وفيها، كانت وَقْعةٌ عظيمة بين عسكر حلَب والخُوارِزْمِيَّة. وكان الملك المُظَفَّر شهاب الدين غَازِي ـ صاحب مَيَّافَارِقِين[٣] ـ مع الخُوَارِزْمِيَّة، وكانوا قد حَلَفُوا له وحَلَفَ لهم. وأخربوا بلاد الموصل ومارِدِين، فاضطر صاحبُ مارِدِين إلى موافقتهم. وجمع غازي الخَانَات الخُوارزْمِيَّة، وأشار عليهم بقصد بلاد الموصِل فقالوا: لا بد من لقاء العسكر الحلبي، فألجأته الضرورة إلى موافقتهم.

وركبوا في ثامن عشرين المحرم، من جبل مارِدِين إلى الخَابور[٤]، وساقوا إلى

(١) أي ديوان الخليفة.

(٢) هو صدر الدين موهوب الجزري، أخذ عن العلم السخاوي والشيخ عز الدين بن عبد السلام وتفقه وبرع في المذهب والأصول والنحو. ولي القضاء بمصر. ولد بالجزيرة في جمادى الآخرة سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٣ م. ومات فجأة في تاسع رجب سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٤١٥.

(٣) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٣.

(٤) الخابور: اسم موضع أو بلدة بالقرب من قرقيسياء بأرض الجزيرة، على نهر الخابور الذي يصب في الفرات. نسبت هذه البلدة إليه (النهر) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢.

المِجْدَل[١]. ووقف الخاناتُ ميمنةً وميسرة، ووقف الملك المظفر غازي في القلْب، والتقوا. فصدمهم العسكر الحلبي صدمةَ رجل واحد.

فانهزموا لا يَلْوون على شيء، ومعهم الحلبيون يقتُلون ويأسرون. وأخذوا أثقال غازي وأغنام التركمان، وخيلهم ونساءَهم، وكانوا خَلْقاً كثيراً. فبيع الفرس بخمسة دراهم، ورأس الغنم بدرهم، ونُهِبَتْ نَصِيبين، وسُبِيَ نساؤها ـ وكانت قد نُهِبَت مراراً في سنة تسع وثلاثين ـ يقال: نُهبت سبع عشرة مرة، من المواصِلة والخُوَارِزْمية وعسكر مَيَّافَارِقين ومارِدِين ـ وعاد الملك المظفر غازي إلى مَيَّافَارِقِين.

وتفرقت الخوارزمية، ثم اجتمعوا على نَصِيبين، ثم رحلوا فنزلوا رأسَ عَيْن، فقتلوا أهلَها، ونهبوا الأموالَ وسبوا النساء، وفعلوا بالخابور كذلك، ونهبوا أغنام التُّرْكُمَان.

وفيها وصل إلى الملك المُظَفَّر ـ شهاب الدين غازي ـ منشورٌ بخِلاَط وأعمالِها، مع شمس الدين النائب بالروم، فتسلَّمها وما فيها.

وفيها توفيت ضَيْفَة خَاتُون[٢]، ابنة الملك العادل: سيف الدين أبي بكر بن أيوب[٣].

وهي والدةُ الملكِ العزيز: ابن الملك الظاهر صاحب حلب ـ والد الملك الناصر. وكانت هي التي دبَّرَت الدولة، وحُفِظَ المُلْكُ بسببها على ابنها وابنه[٤]، بعد وفاة الملك الظاهر. ولما توفيت، قام بتدبير الدولة الحلبية الأمير الأتَابِك: شمس الدين لؤلؤ، أتابك الملك الناصر صاحب حلب.

ذكر الاتفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين: نجم الدين أيوب صاحب مصر، وعماد الدين إسماعيل صاحب دمشق

في هذه السنة[٥] ترددت الرُّسُل بين الملكين الصالِحَيْن: نجم الدين أيوب صاحب

---

(١) المجدل: بكسر الميم، وسكون الجيم، وفتح الدال، واللام: اسم بلد بالخابور وإلى جانبه تل عليه قصر، وفيه أسواق كثيرة، وبازار قائم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٦٨.

(٢) ترجمة ضيفة خاتون في: السلوك للمقريزي، ج ٣، ص ٢١٢، وج ٤، ص ٣١٣. ومفرج الكروب، ج ٥، ص ٣١٢.

(٣) «كانت وفاة ضيفة خاتون ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١١.

(٤) أي الناصر يوسف بن الظاهر غازي بمملكة حلب. هذه رواية المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١١. أما رواية أبي الفدا في المختصر في أخبار البشر ص ١٢١، فتقول إن الملك العزيز هو أبو الملك الناصر يوسف وليس الظاهر غازي.

(٥) هي سنة إحدى وأربعين وستمائة. لم يذكرها النويري هنا. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١٤، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣٥٢، ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ٣٢٧.

الديار المصرية، وعمِّه عماد الدين إسماعيل صاحب الشام، وتوجه شرف الدين بن التِّبْنِي والأَصِيل الإسْعِرْدِي[١] الخطيب، إلى دمشق. فأطلق الملك الصالح إسماعيل الملكَ المغيثَ جلال الدين - ولدَ السلطان الملك الصالح نجم الدين - من الاعتقال. ورَكِبَ وخَطَبَ لابن أخيه الملك الصالح أيوب بدمشق. ورَضِيَ الملك الصالح أيوب بإقرار دمشق بيد عمِّه الصالح إسماعيل، بعد أن يُسَلِّمَ إليه ولَده.

وحصل الاتفاقُ على ذلك، ولم يبق إلا أن يتوجه الملك المغيثُ إلى أبيه. فصرف أمينُ الدولة السَّامِري - وزيرُ الملك الصالح إسماعيل - رأيَه عن ذلك وقال: هذا خاتَم سليمان، لا تخرجْه من يدك يُعْدَمِ المُلكُ. فتوقَّفَ، ولم ينتظمْ الحال. وقطع خُطبَة ابن أخيه، وأعاد الملك المغيثَ إلى الاعتقال بالبُرْج، واستمر به إلى أن مات. وكانت وفاته يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وأربعين وستمائة. وحُمِل إلى تربة جده الملك الكامل فدفن بها. وكان عاقلاً، ما حُفِظَتْ عنه كلمةُ فُحْش - رحمه الله تعالى.

ولما رجع الصالح إسماعيل عن الصلح، كتب الملك الصالح أيوب إلى الخُوارزمية في الحضور إلى الشام. فعبروا إلى الفُرات وانقسموا قسمين: قسم جاؤوا على البِقَاع البَعْلَبَكِّي، وقسم على غُوطَةِ دمشق. ونهبوا وسَبوا وقتلوا. وسد الصالح إسماعيل أبوابَ دمشق، وتوجه الخوارزمية إلى غَزَّة. وكان من خَبرهم ما نذكره - إن شاء الله تعالى.

وفيها عُزل قاضي القضاة: صدرُ الدين مَوْهُوب الجَزَرِي[٢] عن القضاء بمصر والوجه القِبلي، وفَوَّضَ السلطانُ الملك الصالح ذلك إلى القاضي: أَفْضَل الدين أبي عبد الله، محمد بن نَامَادِر، بن عبد الملك بن زِنْجِلِين، الخُونَجِي[٣]، وكانت ولايته في يوم عيد النَّحْر من هذه السنة. واستمر في القضاء إلى أن مات.

وفيها في يوم الجمعة بعد الصلاة، ثاني العيد الأضحى، أمر الملك الصالح إسماعيل بالقبض على أعوان القاضي رفيع الدين الجِيلي[٤] - وكانوا ظَلَمة آذوا الناس.

---

(١) أصيل الدين الإسعردي إمام السلطان. نسبة إلى «إسعرد: بلد بين دجلة وميافارقين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٤.

(٢) عزله الملك الصالح نجم الدين في يوم عيد النحر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٥.

(٣) نسبة إلى «خونج» وهي بلد من أعمال أذربيجان، بين مراغة وزنجان في طريق الري، وسميت في زمن ياقوت كاغد كنان أي بلد صناع الكاغد. ويقال لها أيضاً خونا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤) هو عبد العزيز عبد الواحد بن إسماعيل، أبو حامد الملقب بالرفيع، قاضي القضاة بدمشق، وكان =

وكان كبيرهم الموفق حسين بن عمر بن عبد الجَبَّار ـ المعروف بابن الواسِطي. ثم قُبِض على القاضي الرفيع بعد أيام. وأُمِرَ بمصادرتهم فصودروا، وعوقبوا وعذبوا بأنواع العذاب ـ وكانوا لذلك أَهْلاً. ثم قُتِلَ الرفيع في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، ببعلبك: جَهَّزَه أمينُ الدولة السَّامِري إليها، فقُتل هناك[1].

وكان القاضي الرفيع هذا قد صَادَرَ أهلَ دمشق، وفعل ما لا يفعله ظَلَمةُ الوُلاة. وكتب إلى السلطان يقول: إنني قد حملت إلى خزانتك أَلفَ ألف دينار، من أموال الناس. فقال السامِري: ولا ألفَ ألف درهم. وكان السامِريّ قد تمكن من الملك الصالح تَمَكُّناً عظيماً، لا يخالفه في شيء أَلْبَتَّة. فقال الملك الصالح: أنا أُحَاقِقُه، فإنه قد أَكَلَ الأموال، وأقام علينا الشَّناعة، والمصلحةُ تقتضي عزلَه ومؤاخذَتَه، ليعلم الناس أنك لم تأمرْه بأذاهم، فعَزَلَه عن القضاء، ثم تسبب في قَتْلِه.

ولما عُزِل، فُوِّضِ القضاءُ بعده لقاضي القضاة محيي الدين يحيى، ابن قاضي القضاة محيي الدين محمد، بن علي بن محمد بن يحيى القُرَشِي. وقرىء تقليده بالجامِع بدمشق، في خامس عشرين ذي الحجة، وحَكَم بإِسْقَاطِ عَدَالَةِ أصحاب الرَّفِيع، وهم: المُعِزّ بن القَطَّان، والزَّيْن الحَمَوِي، والجَمَال بن سِيدَه، والمُوَفَّق الواسِطي، وسالم المَقْدِسِي، وابنه محمد ـ لِمَا فعلوه بالمسلمين من أنواع الأذى، وقَطْعِ المُصَانَعَات.

واستهلَّت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

ذكر الواقعة الكائنة بين عسكر مصر ـ ومن معه من الخوَارِزْمية ـ وبين عسكر الشام ـ ومن شايعهم من الفِرِنْج، وانهزام الفِرِنْج وعسكر الشام، على غَزَّة

قد ذكرنا وصولَ الخوارزمية إلى الشام، ونزولَهم على غَزَّة.

ولما استقروا بها، أرسل إليهم السلطانُ الملك الصالح النفقاتِ والخِلَعَ والكَسَاوِي، وطائِفةٌ من العسكر المصري. فاتفق الملك الصالحُ إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور صاحب حِمص، والملك الناصر داود صاحب الكَرَك، وراسلوا الفِرِنْج. وكان الصالح إسماعيل قد سَلَّمَ إليهم من الحصون[2] ما تقدم ذِكْرُه،

= فاسد العقيدة دهرياً مستهتراً بأمور الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، وكذلك كان يجلس في مجلس الحكم، وكانت داره مثل الحانات. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦، ص ٣١٠.

(١) عن مقتله، انظر رواية ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣١١.

(٢) تمكن الفرنج من الصخرة بالقدس. وجلسوا فوقها بالخمر وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٥.

وَوَعَدَهم الآن أنه متى ملكَ الديار المصرية، أعطاهم الأعمالَ الساحِلِيَّة بأَسْرِها. واستقر ذلك بينهم وبين الملوك الثلاثة المذكورين.

وخرج الملكُ المنصور ـ صاحبُ حمص ـ بعسكره وعساكر دمشق. وأقام الصالح بدمشق. وجَهَّزَ الملكُ الناصر داود عسكره من نابُلُس ـ صُحْبَةَ الظهير سُنْقُر الحلبي والوَزِيرِيّ، وأقام هو بالكَرَك. واجتَمَعَتْ هذه العساكر، وعساكرُ الفِرِنْج: الدَّيِويَّة والإسْبَتَار(١) والكُنُود(٢)، على يافا. والعسكرُ المصري والخُوارزمية على غَزَّة.

قال أبو المُظَفَّر: وساق صاحبُ حمص وعسكر دمشق، تحت أعلام الفِرِنْج ـ وعلى رؤوسهم الصُّلْبَان، والأَقْسَاءُ(٣) في الأَطْلاَبِ(٤) يُصَلِّبُون(٥) على المسلمين ويُقَسِّسُون عليهم، وبأيديهم كؤوسُ الخمر والهَنَّابَات(٦) يَسْقونهم. وساق العسكرُ المصري والخُوَارزمية. والتقوا بمكانٍ يقال له أَرْبِيَا(٧) ـ بين غَزَّة وعَسْقَلانَ.

وكان الفِرِنْج في المَيْمنة، وعسكر الناصر داود في المَيْسَرَة، وصاحب حمص في القلْب. وكان يوماً عظيماً، لم يَجْرِ في الإسلام بالشام مثلُه، واقتتلوا. فانكسرت الميْسرة، وهرب الوَزِيريّ، وأُسِرَ الظَّهِير سُنْقُر الحلَبي وجُرِح في عينه. ثم انهزم صاحبُ حمص. وكان العسكر المصري قد انهزم، ووصل إلى قرب العَريش، وثَبَتَ الخُوارزمية والفرنج، واقتتلوا، فمَالَت الخُوارزميّة عليهم بالسيوف. يُقَتِّلُونَهم كيف شاؤوا(٨).

قال أبو المُظَفَّر: وكنتُ يوم ذاك بالقُدْس، فتوجَّهتُ في اليوم الثاني من الكَسْرَةِ إلى غزة، فوجَدْتُ الناسَ يعُدُّون القتلى بالقَصَب، فقالوا: إنهم يَزِيدون على ثلاثين ألفاً(٩).

---

(١) راجع صفحة ٥٣ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) جمع كند: وهو تعريب: كونت Comte، أو قومس Comes، قُمص، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٣٢٤.

(٣) هكذا في الأصل. وهي جمع قس. والقس بالفتح: رئيس النصارى في العلم. كالقسيس. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قس).

(٤) راجع صفحة ٧٤ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٥) أي يباركون بإشارة الصليب.

(٦) جمع هنّاب: قدح الشراب. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٧.

(٧) هذه موقعة مشهورة تاريخياً في الحروب الصليبية.

(٨) «وكان عدة من أسر من الفرنج ثمانمائة رجل». المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٧.

(٩) لم يذكر هنا النويري أقصى ما أحدث الخوارزمية في تلك الحرب وهو أنهم هجموا على القدس، وبذلوا السيف فيما كان فيه من النصارى، ولم يبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام. ابن واصل: مفرج الكروب ج ٥، ص ٣٣٧.

وبَعَث الخُوارزمية بالأُسارى والرؤوس إلى الديار المصرية. وفي جملة الأسرى الظَّهير سُنْقُر وجماعةٌ من المسلمين. وكان يومُ وصولهم إلى القاهرة[١] يوماً مَشْهُوداً وعُلِّقَتْ رؤوس القتلى على الأسوار، وامتلأت الحُبُوس بالأَسْرَى. ووصل صاحب حمص إلى دمشق في نفَر يسير، ونُهِبَتْ خزائنُه وخيله وسلاحه، وقُتِلَ أكثرُ أصحابه. فكان يقول: والله لقد علمتُ، حيث سُقْنَا تحت أعلام الفِرنْج ـ أننا لا نُفْلِح!

وفي هذه السنة، توفي شيخ الشيوخ: تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حَمَّويه بن محمد بن محمد بن أبي نصر بن أحمد بن حَمَّويه بن علي. وكانت وفاته بدمشق، في سادس صفر. وصُلِّي عليه بجامعها. ودُفن بمقابر الصُّوفية. ومولدُه يوم الأحد، رابع عشر شوال، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.

وهو عَمُّ الأمراء: فخر الدين، وعمادِ الدين، ومُعينِ الدين، وكمالِ الدين: أولاد صَدْرِ الدين شيخ الشيوخ. وكان شيخاً حَسَناً متواضِعاً، عالِماً فاضلاً، نَزِهاً عفيفاً أدِيباً، صحيحَ الاعتقاد، شريف النفس عاليَ الهِمة، قليل الطمَع، لا يلتفت إلى أحدٍ من أبناء الدنيا، لا إلى أهله ولا إلى غيرهم، بسبب دُنْياهم، وصنف التاريخَ وغيره ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، تُوفي الأمير عمر: ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وكان يُلَقَّب: بالملك السعيد. وكان شاباً حسنَ الأخلاق، جميل الصورة، جَواداً شجاعاً.

وكان التَّتَار قد استولوا على ديارَ بكْر، وأخذوا خِلاَط، فخرج الملك المظفر غازي من مَيَّافَارِقِين، لِيستَنْجِدَ عليهم الخليفةَ والملوك. وخرج معه ولده عمر هذا، وأمير حسن ابن تاج الملوك أخي غازي. فوصلوا إلى الهِرْمَاس[٢]، لوَداع الملك المظفر: فقال المظفر لولده عمر: المصلحةُ تقتضي أن ترجع إلى مَيَّافَارِقِين، وتحفظ المسلمين من التتار، وأنا أتوجهُ إلى بغداد وإلى مصر أستنجدُ الملوك.

فقال: والله لا أفارقُك. وجاء حسنُ ابن تاج الملوك وجلس إلى جنبه، وأخرج

---

(١) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١٧، أنه قد قدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك في خامس عشر جمادى الأولى. فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتي الجبل والروضة فبالغ الناس في الزينة، وضربت البشائر عدة أيام. وقدمت أسرى الفرنج ورؤوس القتلى ومعهم الظهير بن سنقر وعدد من الأمراء والأعيان.

(٢) الهِرماس: بالكسر، وآخره سين مهملة. هو نهر نصيبين مخرجه من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ مسدودة بالحجارة والرصاص. وإنما يخرج منها إلى نصيبين من الماء القليل ويسير إلى الخابور. ثم إلى دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٥٩.

سِكّيناً وضرب عمرَ في خاصِرَته. وهرب ليَرْمِيَ نفسه في ماء العَيْن فيغرق. فصاح الملك المظفر: امسكوه، فقد قتل عمرَ ولدي! وأقام غازي ليقتله، فقصد حسن الملك المظفر ليقتله. فرمى عمرُ نفسَه على أبيه، وقال لحسن: يا عدوَّ الله، قتلتَني وتَقتل والدي! فضربه حسنُ بالسيف، فَقَطَعَ خاصِرته فسقط إلى الأرض، وأمر غازي بحَسَن فقُطِّع قِطَعاً، وحُمِلَ عمر إلى الحصن فدُفن به ـ رحمه الله.

ذكر وفاة الملك المظفر تَقِيّ الدين محمود(١) صاحب حمَاه ومُلْكِ ولده المنصور

وفي هذه السنة، في يوم السبت ثامن جمادى الأولى، توفي الملك المظفر تقي الدين محمود، ابن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن الأمير نور الدولة شاهِنْشَاه بن أيوب ـ صاحب حَماه.

ومولدُه في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان، ستة تسع وتسعين وخمسمائة. وملك حَماه في سنة ست وعشرين وستمائة، كما تقدم. ولما مات ملك بعده ولدُه الملك المنصور: ناصر الدين محمد.

وفيها كانت وفاة السلطان نور الدين أَرْسَلاَن شاه بن عماد الدين زَنْكِي، بن نور الدين أَرْسَلان شاه، بن عز الدين مسعود، بن قطب الدين مَوْدُود بن عماد الدين زَنْكِي(٢)، بن قَسِيم الدَّوْلة: آقَسُنْقُر(٣). كان والدُه ـ رحمه الله تعالى ـ لما ملك شَهْرَزُور،

---

(١) الملك المظفر هذا هو جد المؤرخ أبي الفدا إسماعيل صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر، وقد ترجم له أبو الفدا في كتابه هذا. وما حصل في حماه بعد المظفر تقي الدين. فلما توفي هذا الأخير ملك الملك المنصور محمد. وعمره حينئذٍ عشر سنين وشهر. وكانت مدة مملكة المظفر بحماه خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام. وكان شهماً شجاعاً فطناً ذكياً، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم واستخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف، وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية فبنى للملك المظفر المذكور أبراجاً بحماه وطاحوناً على النهر العاصي وعمل كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماه. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٨، حاشية (٤) انظر أيضاً مفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ٣٤٢، وكنز الدرر للدواداري ج ٧، ص ٣٥٧.

(٢) هو عماد الدين صاحب الموصل، والد السلطان نور الدين. اعتبر زامباور في معجم الأنساب والأسرات (ص ٢٢٦) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم أسرة أتابكية الموصل حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينة واسط. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ٦٦ و٦٨.

(٣) هو جد الأسرة الأتابكية، وكان آقسنقر الحاجب مملوكاً تركياً من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد تربى معه منذ صغره حتى قيل إنه «لصيقُه» ورافقه في طفولته وصباه، ولما علت منزلته عنده لقبه قسيم الدولة «والحاجب». انظر التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية لابن الأثير، ص ٤.

وحَضَرَتْهُ الوفاة ـ أخذ العهودَ على الأمراء والأجْناد والأعيان، فاستقرَّ بها. وقاتل التتار مِرَاراً عَدِيدة. ثم مات ـ رحمه الله تعالى. وكانت وفاته في يوم الأحد، رابع عشر شعبان.

وفيها في يوم الأربعاء، العشرين من ذي القعدة، كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبو طالب: محمد بن أبي الحسن بن علي بن علي بن الفضل بن التامغاز، المعروف بابن الخَيْمِي. كان إماماً في اللغة، راوِيةً للشعر والأدب. وكان مولده في الثامن والعشرين من شوال، سنة تسع وأربعين وخمسمائة، بالحِلَّةِ المَزْيَدِيَّة[1]. وله نَظْم حسن: رحمه الله تعالى.

واستهلَّت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

ذكر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق، وأخذها من عمه الملك الصالح إسماعيل، وعَوْدِ الصالح إسماعيل إلى بعلبك وما معها

لما اتَّفَقَت الوَقْعَةُ ـ التي ذكرناها ـ بين عساكر السلطان الملك الصالح نجم الدين ومن انضم إليها من الخُوارزمية، وبين عسكر الملك الصالح إسماعيل والفِرِنْج وحصلت المُكَاشَفَة ـ جَهَّزَ الملك الصالح نجم الدين جيشاً كثيفاً إلى دمشق، في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وقَدَّمَ عليه الصاحب مُعِين[2] الدين ابن شيخ الشيوخ. وأقامه مُقَام نفسه، وأمره أن يجلس في رأس السِّمَاط[3] على عادة الملوك، ويقف الطواشي شِهاب الدين رشيد ـ أستاذ الدار ـ في خدمته، وأميرُ جَانْدَار، والحُجَّاب.

فسار إلى دمشق، ومعه الخُوارزمية، فحاصروها أشد حصار. فلما كان في يوم

---

(١) الحِلّة: عدة مواضع أشهرها دجلة بني مزيدَ. مدينة بين الكوفة وبغداد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٨.

(٢) هو معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) السماط: المائدة السلطانية أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين. محيط المحيط: بطرس البستاني (سمط). وكانت العادة أن يمد بالقصر في طرفي النهار في كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء. فأولاً يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان، ثم ثانٍ بعده يسمى الخاص قد يأكل منه، وقد لا يأكل. ثم ثالث بعده ويسمى الطارىء. ومنه مأكول السلطان. وأما في آخر النهار فيمتد سماطان: الأول والثاني، ويسمى بالخاص، وفي كل هذه الأسمطة يؤكل ما عليها، ويفرق نوالات، وبلغ مصروف السماط في يوم من أعياد عيد الفطر في كل سنة خمسين ألف درهم منها نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣١٩ حاشية (١).

الاثنين ثامن المحرم - سنة ثلاث وأربعين، بعث الملك الصالح إسماعيل إلى الأمير الصاحب - معين الدين ابن الشيخ - سجَّادةً وإبريقاً وعُكَّازاً، وقال: اشتغالُك بهذا أَوْلَى من اشتغالك بقتالِ المُلوك! فبعث إليه الصاحبُ معينُ الدين جَنْكاً[1] وزَمْراً، وغُلالَة حرير أصفر وأحمر، وقال: أما ما أرْسَلْتَ به إليَّ فهو يَصْلُحُ لي، وقد أَرْسَلْتُ بما يَصْلُحُ لك!

ثم أصبح معينُ الدين وركِب في العسكر، وزحفوا على دمشق من كل ناحية، ورُمِيَتْ بالمَجَانِيق. وكان يوماً عظيماً.

وبعث الملكُ الصالح إسماعيل الزَّرَّاقين[2]، في يوم الثلاثاء تاسع الشهر، فأحرقوا الجَوْسَقَ[3] العادِلي، ومنه إلى زُقاق الرُّمَّان والعُقَيْبَة بأسْرها، ونُهِبَتْ أموالُ الناس. وفَعَلَ فيها كما فَعَلَ عند حِصَار الملك الكامل دمشق، وأَشَدَّ منه، واستمر الحالُ على ذلك. ثم خرج الملك المنصور صاحب حمص في شهر ربيع الأول إلى الخوارزمية، واجتمع ببركة خَان[4] وعاد إلى دمشق. وجرت وقائعُ في خلال هذا الحصار.

ثم أرسل السامِريُّ وزير الملك الصالح إلى الأميرُ مُعين الدين، يطلب منه شيئاً من مَلبوسه. فأرسل إليه فَرَجِيّة وعِمامة وقَميصاً ومِنْديلاً، فلبس ذلك وخرج إليه بعد العَشاء الآخر، وتحدث معه وعاد إلى دمشق.

ثم خرج إليه مرة أخرى، فوقع الاتفاق على تسليم دمشق - على أن يكون للملك الصالح إسماعيل ما كان له أوّلاً، وهو بَعْلَبَكّ وأعمالها وبُصْرَى وبلادها، والسَّواد. وأن يكون للملك المنصور حِمص وبلادها، وتَدْمُر والرَّحْبَة.

فأجاب الأميرُ معين الدين إلى ذلك. وتَسَلَّمَ دمشق. ودخلها في يوم الاثنين - العاشر من جُمادى الأولى، سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وتوجه الملك الصالح إلى بعلبك. وصاحب حِمص إلى بلده.

ونزل الأميرُ الصاحب معين الدين - بدار أُسَامة، والطواشي شهاب الدين رَشيد بالقلعة. ووَلَّى الأميرُ معينُ الدين ابن الشيخ الجمالَ هارون المدينة. وعَزَلَ قاضيَ القضاة

(١) الجنك: من آلات الطرب. وأصل اللفظ فارسي معرب. انظر محيط المحيط لبطرس البستاني (جنك). وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٧٥.

(٢) راجع صفحة ١٤٧، حاشية رقم (٢).

(٣) الجوسق: القصر والحصن. وقيل هو شبيه بالحصن. معرب وأصله كوشك بالفارسية. ابن منظور: لسان العرب (جسق).

(٤) هو مقدم الخوارزمية أو رئيسهم. انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٥٨.

محيي الدين، وفوَّضَ القضاءَ لقاضي القضاة: صدر الدين بن سَنِيّ الدولة. ووصل الأمير سيف الدين بن قِلِيج من عَجْلُون، منفصلاً من خدمة الملك الناصر داود، وأوصى بعَجْلون وما له بها من الأموال للملك الصالح، ونزل بدمشق بدار فُلوس.

وجَهَّزَ الأميرُ ـ معينُ الدين ابن الشيخ ـ الأمير نَاصر الدين بن يَغْمُور إلى الديار المصرية ـ وكان الملك الصالح إسماعيل قد اعتقله بقلعة دمشق، في سنة إحدى وأربعين وستمائة، لموافقته الملكَ الجَواد، فاستمر في الاعتقال إلى الآن ـ فجَهَّزَه وجهَّز أيضاً أمينَ الدولة السامِري إلى الديار المصرية، تحت الاحتياط. فاعتُقِلا مدة، ثم شَنَقَهما الملك الصالح نجم الدين على قَلْعةِ الجَبَل.

وكان أمينُ الدولة يُطبُّ في ابتداء أمره. ثم تمكن من الملك الصالح إسماعيل، ووَزَرَ له. وارتفع مَحَلُّه عنده، بحيث إنه ما كان يَخْرُجُ عن إشارته. وكان يتَسَتَّر بالإسلام ولا يتمسك بدين. وقيل إنه مات في سنة ثمان وأربعين وستمائة.

قال أبو المظفر: وظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت، والتُّحَف والذخائر ما لا يوجد في خزائن الخلفاء والسلاطين. وأقاموا يَنْقُلُونَه مدة. قال: وبلغني أن قيمةَ ما ظهر له ثلاثة آلاف ألف دينار ـ غيرَ الودائع التي كانت له عند ثِقَاتِه والتجار. ووُجِدَ له عشرة آلاف مجلد، من الكتب النفيسة والخطوط المَنْسُوبة.

وأما الخُوارزمية فإنهم ما عملوا بالصلح إلا بعد وقوعه. فرحلوا إلى دَارَيّا[١]، فنهبوها. وقيل إن مُعين الدين منعهم من الدخول إلى دمشق، وأقطعهم أكثرَ بلاد الشام والسواحل بَمَنَاشِيره، ودَبَّرَ الأمرَ أحسن تدبير.

قال: ولما بلغ السلطانَ خروج عمه الملك الصالح إلى بعلبك، كتب بالإنْكار على الطَّوَاشِي شهاب الدين رَشيد والأمراء، لكونهم[٢] مكنوه من المسير إلى بعلبك. وقال الأمير مُعين الدين حَلَف، وأنتم ما حَلَفْتُمْ. فلم يُفِدْ إنكارُه شيئاً، بل أَثَّرَ ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة الأمير الصاحب معين الدين

وفي ليلة الأحد ـ ثاني عشر شهر رمضان، من السنة ـ كانت وفاة الأمير الصاحب معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حَمُّويه ـ بدمشق، وهو يومئذٍ نائبُ السلطنة بها.

(١) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩١.

ومات وله ست وخمسون سنة. ودفن إلى جانب أخيه عماد الدين [بقاسيون][(١)] وكان جواداً كريماً دَيِّناً صالحاً ـ رحمه الله تعالى. ولما مات، كتب السلطان إلى الطَّوَاشِي شهاب الدين رشيد أن يتولى نيابة السلطنة، بدمشق.

ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك دمشق، وما حصل بها من الغلاء بسبب الحصار

قال المؤرخ: لَمَّا بلغ الملكَ الصالح عمادَ الدين ـ صاحبَ بعلبك ـ إنكارُ الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ ابن أخيه ـ على الأمراء، لكونهم[(٢)] مَكَّنُوه من التوجه إلى بعلبك ـ خاف على نفسه، وعلِم سُوءَ رأْيِ السلطان فيه، وأنه متى ظفِرَ به لا يُبْقِي عليه، فكاتبَ الأميرَ عزَّ الدين أَيْبَك المُعَظَّمِي صاحبَ صَرْخَد وأكابرَ الخُوارزمية، واتفقوا ونازلوا دمشق، في ثالث عشرين ذي القعدة من السنة. وحاصروها، ونهبوا بلادَها وعَاثُوا فيها، وقطعوا المِيرَة[(٣)] عنها.

فَغَلَت الأسعار، وعُدِمَت الأقوات. وبلغ سعرُ القمح ـ عن كل غرَارة ـ ألف درهم وثمانمائة درهم ناصِرية. فمات أكثرُ أهلُ البلد جوعاً واستمر ذلك مدة ثلاثة شهور.

وفي هذه السنة، وصل رسولُ الخليفة المُسْتَعْصِم بالله[(٤)] ـ وهو الشيخ جمالُ الدين[(٥)] عبد الرحمٰن، ابن الشيخُ محيي الدين يوسف بن الجَوْزِي ـ إلى السلطان الملك الصالح نَجْم الدين أيوب، بالخلَعِ والتقليد.

وكانت خِلْعَة السلطان عِمامة سوداء، وفَرَجِيّة مُذَهَّبَة، وثوبيْن مُذَهَّبَة، وسيفين مُحَلاَّة، وقلَمَيْن، وطوق ذهب، وحصان بسَرْج ولجام، وعدة خِلَع لأصحاب السلطان. وقرأ الشيخُ جمال الدين ـ رسولُ الخليفة ـ التقليدَ على مِنبر والسلطانُ قائم على قدميه. وقد لبس خِلْعة الخليفة، حتى انتهت قراءة التقليد.

وكان من جُمْلَة الخِلَع الواصلة من الخليفة خِلْعة سوداء للوزير مُعِين الدين ـ

(١) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٦، ص ٣١٢.
(٢) في الأصل «كونهم».
(٣) الميرة: الطعام. القوت. ابن منظور: لسان العرب (مير).
(٤) هو آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وهو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله مولده سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م. بويع له بالخلافة سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م. وكان مقتله في سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢١٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٧٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص٥٩.
(٥) راجع صفحة ١١٣ من هذا الجزء.

وكان قد تُوفي ـ فرَسَم السلطان أن يُلْبِسَها أخاه الأميرَ فخر الدين ابن الشيخ، فَلَبِسَها ـ وكان السلطان قد أَفْرَجَ عنه من الاعتقال في هذه السنة، بعد أن لاقى شدائد كثيرة ـ وكان له في الاعتقال ثلاث سنين.

وفي هذه السنة، بعث الملكُ الصالح نجمُ الدين الأميرَ حُسام الدين بن بَهْرَام إلى حصن كَيْفا، لإحضار ولده الملك المعظم تُورَانْشَاه إلى الديار المصرية. وكَتَب إليه: الولد يُقَدِّمُ خِيرَة الله، ويصلُ إلى بَالِس[1]، ويُعَدِّي عندها، فقد اتفقنا مع الحَلَبِيِّين، وذكروا أنهم يُجَرِّدُون ألفَ فارس في خِدمتك. واعْبُرْ ببلد مارِدِين ليْلاً، فما نحن متفقين. فلما قرأ الكتاب كَرِه ذلك، وما كان يُؤْثِرُ الخروجَ من الحِصن. وقال لابن بِهْرَام: يكون الإنسان مالكَ رأسه يصبح مملوكاً محكوماً عليه! ولم يُجِبْه.

ولما اتصل خبرُ طلَبه بالملكِ الرحيم بدر الدين لؤلؤ ـ صاحب الموصل أرسل إليه المماليكَ والخيل والخيام. وكذلك فَعَلَ شهابُ الدين غازي. قال أبو المُظَفَّر: حَكَى لي الأميرُ حسام الدين بن أبي علي أن الملك الصالح كان يَكْرَهُ مجيء ابنِه المعظم إليه. وكنا إذا قلنا له: أحضِرْه، يَنْفُضُ يديه ويَغضب، ويقول: أجيبه أَقْتُلُه؟! وكَأَنَّ القضاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِق!

وفيها وصلت الكُرْجِيَّة بنت إيواني ملك الكُرْج. وهي التي كانت زوجةَ الملك الأوحد ابن الملك العادل، وتزوجها بعده أخوه الملك الأشرف موسى، ثم أخذها جلالُ الدين خُوَارِزْم شاه، عندما استولى على خِلاَط. فوصلت الآن إلى خِلاَط، ومعها فَرَمان الْقَان ـ ملكِ التَّتَار ـ بخِلاَط وأعمالِها.

فراسَلَت الملكَ المظفر شهابَ الدين غازي ابن الملك العادل تقول: أَنَا كنتُ زوجةَ أخيك. والقَانُ قد أقطعني خِلاَط، فإن تزوجتَ بي فالبلادُ لك. فما أجابها إلى ذلك. فأقامَت بخِلاَط. وكانت غارات عساكرها تصل إلى مَيَّافَارِقِين.

وفي هذه السنة، تُوفِّيَ فَلَك الدين المَسِيرِي، وزيرُ العادِل وابنه الكامل. وكانت وفاته في يوم الجمعة تاسع شهر رجب. وكان عاليَ المنزلةِ في الدولة الأيوبية.

وفيها توفيت رَبِيعَة خاتون بنت[2] أيوب، أخت الملك الناصر[3] والملك العادل،

---

(١) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، وهي أول مدن الشام من العراق وكانت على ضفة الفرات الغربية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٩٠.

(٢) هي صاحبة الأوقاف، ماتت بدمشق ودفنت بقاسيون. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٣. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ١٨٢. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢١٨.

(٣) هو صلاح الدين الأيوبي. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣.

وأخت ست الشام، وكانت وفاتها بدمشق بدار العَقِيقي ـ وقد قارَبَتْ ثمانين سنة.

وكانت زوجة سعدِ الدين مسعود بن مُعين الدين أَتْسِز، ثم مات عنها. فزوجها الملكُ الناصر ـ أخوها ـ من مظفر الدين بن زينِ الدين ـ صاحب إرْبِل ـ فأقامت بإِرْبِل، ثم قَدِمَتْ دِمشقَ فأقامت بها، وخَدَمَتْهَا أَمَة اللطيف العالِمة ـ بنت الناصِح بن الحَنْبَلِي ـ وحصل لها من جهتها الأموال الكثيرة.

فلما ماتت رَبيعةُ خاتون، لقيت أَمَةُ اللطيف شدائد كثيرة، وصُودرت وطُولبت بالأموال، واعتقِلت بقلعة دمشق ثلاثين سنين، ثم أُطلقت من الحَبْس وتزوجت بالملك الأشرف ـ ابن صاحب حمص ـ وتوجه بها إلى الرَّحْبَة. فتوفيت في سنة ثلاث وخمسين وستمائة. وظهر لها من الأموال والذخائر ما قيمته ستمائة ألف درهم ـ غير الأملاك والأوقاف.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام: تَقِيّ الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن الصَّلاح ـ المُحَدِّث[١] المُفْتِي المشهور. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الأربعاء، الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر. ومولده في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، بشَهْرَزُور.

وفيها، في ثاني عشر المحَرَّم، توفي بالقاهرة الأمير شجاع الدين بن أبي زكري كان من أعيان الأمراء.

وفيها توفي القاضي الأشرف: بهاء الدين أبو العباس أحمد، ابن القاضي الفاضل: محيي الدين عبد الرحيم البَيْسَاني، في سابع جمادى الآخرة بمصر. ومولده في المحرم سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. وكان الملك الكامل قد عَرَضَ عليه الوزارة فأَبَاها، وتوفر على التَّرَسُّلِيَّة إلى الدِّيوان العَزيز، والمشورة. وكان صالحاً نَزِهاً عفيفاً. سَمِعَ الحديثَ وأسمعه.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام المقرىء المفتي: عَلَم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد، المِصري السَّخَاوِي[٢]. قرأ القرآن على الشاطِبِي، وشرح قصيدتَه.

(١) تفقه على والده الصلاح بشهرزور وغيره. وبرع في الفقه والحديث والعربية، وشارك في فنون، ولما مات دفن بمقابر الصوفية. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣١٣. انظر أيضاً البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٧٩.

(٢) كان إماماً علامة مقرئاً محققاً مجوداً بصيراً بالقراءات، ماهراً في النحو واللغة إماماً في التفسير، مات بدمشق ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٨١، وحسن المحاضرة للسيوطي، ج ١، ص ٤١٢ ـ ٤١٣.

وكانت وفاته بدمشق، في ليلة الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة. ودفن بقاسِيون. سَمِعَ الحافظَ السِّلَفِي وأبا القاسم البُوصِيرِي، وغيرَهما.

واستهلَّت سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر وقعة الخوارزمية وقتل مقدمهم [حسام الدين بركة خان][1] واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعمالها، وصرخد

وفي سنة أربع وأربعين، كانت الوَقْعَةُ[2] بين الخُوَارزمية ـ ومن انضم إليهم ـ وبين العساكر الحَلَبية والشامية والحِمْصِية.

وذلك أن السلطان الملكَ الصالح نجم الدين كان قد استمال الملكَ المنصور ـ صاحب حِمص ـ إليه. فوافقه ومال إليه، وانحرف عن الملك الصالح إسماعيل. ثم كتب إلى الحلبيين يقول: إن هؤلاء الخوارزمية قد كثر فسادُهم، وأخربوا البلاد، والمصلحةُ أن نتفق عليهم، فأجابوه.

وخرج الأتابك شمس الدين لؤلؤ بالعساكر الحَلَبية. وجمع صاحبُ حِمص أصحابه، ومن انضم إليه من العُرْبان والتُّرْكُمَان. وخرج إليهِم عسكرُ دمشق. واجتمعت هذه العساكر كلها على حِمص.

واتفق الملك الصالح إسماعيل والخُوارزمية، والملك الناصر داود صاحب الكَرَك، وعز الدين أيبك المُعَظَّمي صاحب صَرْخَد، واجتمعوا على مَرْجِ الصُّفَّرِ[3] ولم ينزل الملك الناصر من الكَرَك، بل سَيَّرَ عسكَره وأقام.

وبلغهم أن صاحب حمص يريد قَصْدَهم. فقال بركة خان: إن دمشق لا تَفُوتُنا، المصلحة أن نتوجه إلى هذا الجيش ونبدأ بهم. فساروا والتقوا على بحرة حمص، في يوم الجمعة ـ سابع أو ثامن المحرم ـ من هذه السنة. وكانت الدائرة على الخُوارِزمية، وقُتِلَ مقدمهم بركة خان في المعركة. وهرب الملك الصالح إسماعيل، وعز الدين أَيْبَك المعظمي، ومن سَلِم من العسكر، كلٌّ منهم على فرس ونُهبت أموالهم، ووصلوا إلى حَوْرَان.

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٥٨.

(٢) عن وقعة الخوارزمية انظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٥٠٤. السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٤. ومفرج الكروب لابن واصل ج ٥، ص ٣٥٨.

(٣) مرج الصُّفر: بالضم وتشديد الفاء: بدمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٨.

وتوجه صاحبُ حمص والعسكر الحلبي إلى بلعبك، واستولى على الرَّبَض[١]، وسَلَّمَه للأمير ناصر الدين القَيْمُرَي، وجمال الدين هارون. وعاد إلى حمص، وودع الحلبيين، وتوجهوا إلى حلب. وجاء الملك المنصور إلى دمشق، خدمة للملك الصالح، فنزل ببستان أسامة.

ومضت طائفة من الخوارزمية إلى البَلْقَاء[٢]، فنزل إليهم الملك الناصر صاحب الكَرَك وصاهرهم واستخدمهم، وأسكن عيالهم بالصَّلْت[٣]. وفعل الأمير عز الدين المعظمي كذلك. وساروا فنزلوا نابُلُس، واستولوا عليها، وعاثوا في الساحِل.

فندب السلطان الملك الصالح نجم الدين الأميرَ فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر إلى الشام. فلما وصل إلى غَزَّة، عاد من كان بنابُلُس من الخوارزمية إلى الصَّلْت. فتوجه إليهم، وقاتلهم على حُسْبَان[٤] وكَسَرَهُمْ وبَدَّدَ شَمْلَهم. وكان الملك الناصر معهم، فسار إلى الكَرَك وتحصَّن بها. وتبعه الخُوارزمية، فلم يُمَكِّنْهُمْ من دخول الكَرَك. وأحرق ابنُ الشيخ الصَّلْت. وكان الأمير عز الدين أيبك المعظمي مع الناصر، فعاد إلى صَرْخَد وتَحَيَّزَ بها.

وكانت كَسْرَةُ الخوارزمية هذه في سابع عشر شهر ربيع الآخر.

ونزل الأمير فخر الدين ابن الشيخ على الكَرَك، في الوادِي. وكتب إلى الملك الناصر يطلب مَنْ عنده من الخوارزمية.

وكان عنده صبي مُسْتَحْسَن من الخوارزمية، اسمه طاش بورك بُرْخَان، فطلبه ابن الشيخ، فقال الناصر: هذا طَيِّب الصوْت، وقد أخذتُه ليقرأ عندي القرآن. فكتب إليه ابن الشيخ كتاباً غليظاً، وذكره غدره بأَيْمانه وخُبثه. وقال: لا بُدَّ من الصبي، وأنا أبعث إليك عِوَضَه أعمى يقرأ أطيبَ منه. فبعثه إليه، وتسلم أعيَان الخوارزمية. ورحل عن الكَرَك. وأحسن الأمير فخر الدين إلى الخوارزمية وخلع عليهم، واستصحبهم معه.

(١) ربض المدينة: ما حولها، ابن منظور: لسان العرب (ربض).

(٢) البلقاء: كورة شرقي أريحا على مرحلة منها. وهي تقع شرقي الأردن ومدينتها حسبان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) مدينة الصلت من جند الأردن في جبل الغور الشرقي في جنوب عجلون وقد بنى حصن الصلت الموجود فيها الملك المعظم عيسى. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

(٤) حسبان: هي مدينة البلقاء. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٦.

ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك، وخروج الملك الصالح إسماعيل منها

وفي هذه السنة[١] - أيضاً - توجه الأميرُ حسام الدين بن أبي علي من دمشق إلى بعلبك، وتسلم قلعَتها - باتفاق من السَّامَاني، مملوك الملك الصالح إسماعيل، وكان حاكِماً عليها. وبعث أولاد الصالح إسماعيل وعياله إلى مصر، وتسلم نُوَّابُ الملك الصالح نجم الدين بُصْرَى - وكان بها الشهاب غازي والياً، فأُعطي حَرَسْتَا[٢] القَنْطَرَة.

وفيها، في شهر ربيع الآخر، توجه الملك الصالح إسماعيل في طائفة من الخوارزمية، هاربين إلى حلب. ولم يبق للصالح إسماعيل بالشام مكانٌ يأوي إليه، فتَلَقَّاهم الملك الناصر يوسف - صاحب حلب - وأنزل الصالحَ إسماعيل في دار جمال الدولة الخادم. وقبض على كَشْلُوخَان والخُوَارزمية، وملأ بهم الحُبُوس.

ذكر وفاة الملك المنصور[٣] صاحب حمص، وقيام ولده الملك الأشرف

وفي هذه السنة - في العاشر من صفر - وقيل في يوم الأحد حادي عشرة - كانت وفاة الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شِيركوه بن شادي، ببُسْتان الملك الأشرف بالنَّيْرَب، بظاهر دمشق.

وكان مدة مُلْكِه حمص ست سنين، وسبعة أشهر، وكان شجاعاً مقداماً. وملك بعده الملك الأشرف: مظفر الدين موسى[٤].

وفيها بعث السلطان الملك الصالحُ نجم الدين الصاحِبَ جمال الدين يحيى بن مَطْرُوح إلى دمشق، وَزِيراً. وأنعم عليه بإقطاع، وعِدَّة سبعين فارساً، فوصل إلى دمشق وباشر ما رَسَم له به. ثم كان من أمره وعَوْدِه ما نذكره - إن شاء الله تعالى.

---

(١) «في رجب» المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٢٤.

(٢) حَرَسْتا: قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ، وحرستا القنطرة، من قرى دمشق أيضاً بالغوطة في شرقيها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٣) عن سيرة الملك المنصور، انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٧٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٥. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٨٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج ٥، ص ٢٢٩.

(٤) «وكانت مدة ملكه سنتين وشهوراً» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٥.

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام، وما استولى عليه في هذه السفرة، وما قرره، وعوده

في هذه السنة، توجه السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى الشام.

فوصل إلى دمشق في تاسع عشر ذي القَعدة، وأحسن إلى أهلها وفَرِحَ الناس به وزُيِّنَت البلدُ لمَقْدِمِه، وكان يوماً مشهوداً. وأقام خمسة عشر يوماً وتوجه إلى بعلبك وكَشَفَها.

ثم رجع، وتوجه نحو صَرْخَد. وسعى الأميرُ ناصر الدين القَيْمُرِي والصاحب جمال الدين بن مَطْرُوح، في الصلح بين السلطان والأمير عز الدين أيبك المعظمي صاحب صَرْخَد. وتوجه السلطان من دمشق إلى بُصْرَى. ونزل إليه الأمير عز الدين أيبك. وتَسَلَّمَ صَرْخَد، وصَعَد إليها ـ وذلك في ذي الحجة منها. وقدم عز الدين أيبك إلى دمشق، ونزل بالنَّيْرَب[(١)] وكُتِبَ له منشور بِقَرْقِيسيا[(٢)] والمِجْدَل[(٣)] وضياعٍ في الخابور، فلم يَحْصُلْ له منها شيء. ثم كان من خبره ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في سنة خمس وأربعين وستمائة.

ولما تسلم الملك الصالح صَرْخَد، عاد إلى الديار المصرية ودخل إلى القُدْس. وتصدق فيه بألْفَي دينار عَيْناً. وأمر بعمارة سور القدس فذُرِع، فكان ستة آلاف ذراع بالهَاشِمي[(٤)]، فرَسَم أن يُصْرَفَ مُغَلُّ بلاد القدس عليه، وإن احتاج إلى زيادة جُهِّزَتْ من الديار المصرية، قال أبو المُظَفَّر: وكنتُ لما أطلقه الملكُ الناصر من اعتقاله، وجاء إلى القُدْس، أَخَذْتُ يدَه على ذلك.

وفي هذه السنة، تسلم السلطان ـ أيضاً ـ حسن الصُّبَيْبَة[(٥)] من الملك السعيد: مجد الدين حسن، ابن الملك العزيز ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، في سابع

---

(١) راجع صفحة ٩٨ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) راجع صفحة ١٩٤ من هذا الجزء، حاشية (٤).

(٣) راجع صفحة ١٩٥ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٤) الذراع الهاشمي: هو الذراع الرسمي الذي كان يقاس به أرض السواد في العراق. ثم صار يقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٦.

(٥) حصن الصُّبيبة: قلعة منيعة في بانياس من عمل دمشق. وهي من أجل القلاع وأمنعها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٤.

عشرين ذي الحجة، وتسلم الصَّلْتَ(١) من ابن عمه الملك الناصر داود [صاحب الكرك](٢).

وفيها قَبض الملكُ الناصر داود على عماد الدين، ابن الأمير عز الدين بن مُوسَك في الكَرَك، واحتاط على مَوْجُودِه. ثم شَفَعَ فيه الأميرُ فخر الدين ابن الشيخ فأفرج عنه. وخرج من الاعتقال، وفي حَلْقه خُرَّاج كبير فبُطَّ، وحُشي من الدواء الحارق، فمات بالكَرَك، ودُفن بمشهد جعفر الطَّيَّار. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ من الأَجْوَاد.

وفيها توفي الأمير رُكن الدين الهَيْجَاوي، في معتقله بالديار المصرية.

وكان سبب اعتقاله أنه فارق خِدمة السلطان الملك الصالح، والتحق بدمشق. وكان قدومه على العساكر، فقبض عليه، واعتقله. فمات في اعتقاله ـ رحمه الله تعالى. وكان خَيِّراً جواداً، عفيفاً نَزِهاً، كثير الإحسان إلى جِيرانِه، يَبُرُّ غَنِيَّهم وفقيرَهم.

واستهلَّت سنة خمس وأربعين وستمائة

في هذه السنة، جهز السلطانُ الملك الصالح نجم الدين أيوب جيشاً، وقدم عليه الأميرَ فخرَ الدين ابن الشيخ، وبعثه إلى بلاد الفرنج.

ففتح عَسْقَلان ـ في ثامن عشرين جمادى الآخرة ـ وأَخْرَبَها. ورحل عنها إلى طَبَرِيَّة، ففَعل بها كذلك. ثم كتب إليه أن يتوجه إلى دمشق، ويقيم بها بمن معه من العساكر، لأَمْرٍ بلغه عن الملك الناصر ـ صاحب حلب.

وفيها تسلم نُوَّاب السلطان الملكِ الصالحِ نجم الدين قلعة شُمَيْمِس(٣)، من الملك الأشرف صاحب حِمص. فأمر السلطان بتحصينها، وبعث إليها الخزائن.

وفيها جهز السلطان تاجَ الدين بن مهاجر، والمُبارز نسيبه، إلى دمشق، ومعهما تَذْكِرَة فيها أسماء جماعة من الدماشقة، رَسَم بانتقالهم إلى الديار المصرية، وهم: القاضي محيي الدين بن الزَّكِي، وابن الحَصِيري، وابن العماد الكاتب، وبنو صَصُرَّى الأربعة، وشرف الدين بن العَمِيد، وابن الخَطيب العَقْرَبَاني، والتاج الإسكندراني ـ الملقب بالشَّحْرُور، وأبو الشامَات، مملوك الملك الصالح إسماعيل، وغازي ـ والي بُصْرَى ـ والحَكِيمي، وابن الهادي المُحْتَسِب.

---

(١) راجع صفحة ٢٠٨ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣١٥.

(٣) شميمس: وهي قلعة بالقرب من سلمية، وهي على تل عالٍ. إحدى بلاد كورة حمص، رسمها المقريزي شميمش. انظر السلوك، ج ١، ص ٤٤٦.

فتوجهوا إلى الديار المصرية، وأُمِروا بالمقام بها، ولم يُحْجَر عليهم، وخُلِع على بعضهم. وأقاموا بالديار المصرية، إلى أن توفي الملك الصالح أيوب، فعادوا إلى دمشق، وكان سبب طلبهم أن السلطان بلغه أنهم خَوَاصُّ الملك الصالح إسماعيل.

وفيها في شهر ربيع، فُوِّضَت الخَطابة بدمشق للقاضي عماد الدين بن الحَرَسْتَانِي، ورُسِمَ بإخراج العِماد خطيب بيت الآبار[١]، الخطيب بالجامع[٢]، إلى بيت الآبار.

ذكر القبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمي، ووفاته

وفي هذه السنة ـ في ثالث عشر ذي القَعدة ـ اعتُقِل الأمير عز الدين أيبك المُعَظَّمي صاحب صَرْخَد ـ كان ـ في دار فَرُّخْشَاه. وذلك بترتيب الصاحبِ جمال الدين بن مَطْرُوح وغيره، ووضعوا مُتَرْجِماً أنه جاءه من حلب، من جهة الملك الصالح إسماعيل. وكتبوا بذلك إلى السلطان الملك الصالح فأَمَر أن يُحْمَل إلى القاهرة تحت الاحتياط، فحُمل واعتقِل في دار صَوَاب. ووافَعَهُ ولدُه إبراهيم، وقال للسلطان: إن أموال أبي قد بعث بها إلى الحَلَبيين وأنه لما خرج من صَرْخَد كانت أمواله في ثمانين خُرْجاً، أودعها عند ابن الجَوْزِي.

ولما وصل إلى الديار المصرية مرض، ولم يُسمع منه كلمة حتى مات. ودفن بمقابر باب النصر. ثم نقل إلى دمشق، ودفن بتربته. وكان خَيِّراً دَيِّناً، كثير الصدقة والإحسان إلى خَلْقِ الله تعالى. اشتراه الملك المعظم، في سنة سبع وستمائة، لما كان على الطُّور، وجعله أستاذَ داره، وأعطاه صَرْخَد. وكان عنده في منزلة الوَلَد. رحمهم الله تعالى.

وطُلِبَ جماعةٌ اتهموا بأمواله، بسعاية ولده إبراهيم، وهم: البُرْهان كاتبه، وابن المَوْصِلي صاحب ديوانه، والبدر الخادم، وسُرور، وغيرهم، وحُمِلوا إلى الديار المصرية، فمات البُرْهان بظاهر دمشق، عند مسجد النَّارِنْج، لِمَا ناله من الفَزَع. وأما بَقِيَّتُهم فإنهم عُوقبوا على أمواله، فلم يظهر عندهم الدِّرهم الواحد.

وفيها كانت وفاة الشيخ الصالح المُحَقِّق علي الحريري، المقيم بقرية بُسْر، المجاورة لزُرَع[٣] من بلاد حَوْرَان. وبهذه القرية قبر الْيَسَع ـ عليه السلام. وهذا الشيخ هو شيخُ الطائفة الحَرِيرِيَّة.

---

(١) بيت الآبار: جمع بئر. قرية يضاف إليها كورة من غوطة دمشق فيها عدة قرى، خرج منها غير واحد من رواة العلم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦١٥.

(٢) الجامع: أي جامع دمشق. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦.

(٣) زُرع: من بلاد حوران، ضبطها ياقوت بالضم ثم بالسكون زُرْع. وقال إنها زرّا التي تدعى زُرع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥١.

واستهلّتْ سنة ست وأربعين وستمائة

في هذه السنة، استولى الملك الناصرُ ـ صاحب حلب ـ حمص، وانتزعها من الملك الأشرف موسى صاحبِها، وعَوَّضَه عنها تَلَّ بَاشِر.

ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق، وما اعْتَمَدَه

في هذه السنة، توجه السلطان من الديار المصرية إلى دمشق، وعَزَلَ الطواشيَ شهابَ الدين رشيد الدين عن النيابة، والصاحب جمال الدين بن مطروح عن الوزارة. وفَوَّضَ نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور.

وجَهَّزَ العساكر مع الأمير فخر الدين ابن الشيخ إلى حِمص. وسَخَّرَ الفلاحين لحمل المَجَانِيق إلى حمص، فنالهم لذلك مشقةٌ عظيمة، وكان يَغْرَم على العود الذي يساوي دِرهماً ألف درهم، فخَرَبَ الشام لذلك. ونَصَبَ المجانيقَ على حمص. وكان الشيخ نجم الدين البادَرَائِي بالشام، فدخل بين الطائِفتين، ورَدَّ الحلبيين إلى حلب، والعسكَر الصالحي إلى دمشق.

وفيها احترقَ المَشْهَد الحُسَيْنِيّ بالقاهرة، وذَكَرَ مَنْ تَتَبَّعَ التواريخ أنه ما احتَرَقَ مكان شريف إلا وأعقبه غَلاء، أو جلاءٌ من العدو. وكان كذلك: أُخِذَتْ دمياط، على ما نذكره.

ذكر وفاة الملك المظفر شهاب الدين غازي وقيام ولده الملك الكامل

في هذه السنة، توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ـ صاحب مَيَّافَارِقِين. وقام بأمر مملكته بعده ولدُه الملك الكامل، ناصر الدين محمد.

وفيها، تُوفي الملك العادل[١]: سيفُ الدين أبو بكر، ابن الملك الكامل، ابن الملك العادل ـ أخو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكان السلطان قد رَسَمَ أن يتوجه إلى الشَّوْبَك، بنسائه وولده وعياله، في خامس شوال، على ما حكاه سعد الدين مسعود ابن شيخ الشيوخ تاج الدين. وبعث إليه الطواشي مُحْسِنَ الخادم، فأخبره بما رَسَمَ به السلطان من توجهه. فامتنع، وقال: إن أراد قتلي في

(١) عن سيرته انظر مفرج الكروب لابن واصل، ج ٥، ص ٣٨١، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٢٧.

الشَّوْبَك فههنا أَوْلَى، ولا أتوجَّهُ أبداً. فعَذَلَه مُحْسِن الخادم، فرماه بَدَوَاةٍ كانت عنده.

فعاد إلى السلطان وأخبره. فقال له: دَبِّرَ أمرَه. فأخذ ثلاثة مماليك - وقيل أربعة - ودخلوا عليه، في ليلة الاثنين ثاني عشر شوال، فخنقوه بشاش عَلَمِه - وقيل بوَتَر - وعَلَّقوه بعِمامته، وأظهروا أنه شَنَقَ نفسه. وخرجت جنازتُه كجنازة الغُرَبَاء، ودفن بتربة شمس الدولة. ولم يتمتع الملك الصالح بعده بالدنيا. فإنه مات بعد ذلك بعشرة أشهر.

وفيها، في خامس شهر رمضان، كانت وفاة قاضي القضاة: أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن نامادِ بن عبد الملك بن زِنْجِلين، الخُونَجِي[١] - قاضي مصر والوجه القِبلي. ودفن بالقَرافة، بالقرب من تربة الإمام الشافعي. ومولده في جمادى الأولى، سنة تسعين وخمسمائة، وكان قد تَفَرَّدَ في زمانه بعلم المنطِق، حكِيماً أُصولياً، فاضلاً، مُشَارِكاً فيما عدا ذلك.

ولما مات - رحمه الله تعالى - أُقِرَّ نائبُه - القاضي جمال الدين يحيى - على القضاء، إلى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين، ثم فُوِّضَ القضاءُ بمصر والوجه القِبلي للقاضي عماد الدين أبي القاسم إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نَبْهَان، بن محمد الحَمَوِي المعروف بابن المُقَنْشع[٢] - في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام العلاّمة: جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدَّوِيني[٣] ثم المِصري، الفقيه المالِكي - المعروف بابن الحاجب.

كان والده حاجِبَ الأمير عز الدين مُوسَك الصَّلاَحِي - مُتَوَلِّي الأعمال القُوصِية - ومولده بإسْنَا - مدينة مشهورة من عمل قُوص - في سنة سبعين وخمسمائة. وانتقل إلى القاهرة في صِغره، فقرأ القرآنَ، واشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالِك، فتفقه. واشتغل بالعربية، فبرع وأَكَبَّ على الاشتغال حتى صار يُشَار إليه، انتقل إلى دمشق، ودرس بجامِعها. وكان من أَحَدِّ الناس ذِهْناً، وغَلَبَ عليه عِلْمُ العربية. وقيل إنه قَدِم إلى دمشق مراراً، آخرها سنة سبع عشرة وستمائة. وصحب شيخَ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واختص به ولازمه.

---

(١) راجع صفحة ١٩٦، حاشية (٣).
هو الفيلسوف، برع في علوم الأوائل، ولد سنة ٥٩٠ هـ/ وصنّف الموجز في المنطق وكشف الأسرار في الطبيعي، وشرح مقالة ابن سينا وغير ذلك. ولي قضاء الديار المصرية بعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام. السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٤١.

(٢) ابن المقنشع: «الرجل المقنشع لحمه كبراً» أي المتيبس. الفيروزابادي القاموس المحيط (قشع).

(٣) نسبة إلى دوين: بلدة من نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس. منها ملوك الشام بنو أيوب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٨.

وخرج معه من دمشق، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وقدم إلى الديار المصرية، وأقام بالقاهرة واشتغل الناس عليه، وله مُصَنَّفٌ في مذهب الإمام مالِك - هو من أجود مُختصرات المالِكية، ما حَفِظَه طالب منهم إلا وأشير إليه بالفِقْه. ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية للإقامة به، فلم تَطُلْ مدة إقامته بالثغر. وكانت وفاته في ضحى يوم الخميس، سادس عشر شوال، ودفن بخارج باب البَحْر - رحمه الله تعالى.

وفيها، في شهر رمضان، توفي الوزير: أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى بن أحمد بن محمد إسحاق، القِفْطِي - المعروف بالقاضي الأكرم، وزير حلب.

كان جَمَّ الفضائل ذا فُنون، مُشارِكاً لأرباب كل علم في علومهم: من القِراءات، والحديث والفقه، والنحو واللغة، والأصول والمنطِق، والنجوم والهندسة، والتاريخ، والجَرْح والتَّعْديل - يتكلم في كل عِلم مع أربابه أحسن كلام. وله شِعر حسن.

وصنف كتباً كثيرة، منها: كتاب الضاد والظاء، وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في الخط، وكتاب الدُّرّ الثَّمِين في أخبار المُتَيَّمِين. وكتاب مَنْ أَلْوَت الأيامُ عليه فَرَفَعَتْهُ، ثم أَلْوَتْ عليه فَوَضَعَتْه. وكتاب أخبار المُصَنِّفين، وما صَنَّفُوه. وكتاب أخبار النَّحَوِيِّين، وكتاب تاريخ مصر، من ابتدائها إلى حين مَلَكَها الملكُ الناصرُ صلاح الدين يوسف بن أيوب - في ستّ مُجلدات. وكتاب تاريخ الأَلَمُوت[(١)]، ومن تولاَّها. وكتاب تاريخ اليَمَن، منذ اخْتُطَّتْ إلى زمانه. وكتاب الحِلَى والشيآت. وكتاب الإصلاح لما وقع من الخَلَل في كتاب الصِّحَاح[(٢)]. وكتاب الكلام على المُوَطَّأ[(٣)] وكتاب الكلام على صَحيح البُخاري، وكتاب تاريخ محمود بن سُبُكْتُكِين وبَنِيه، إلى حين انقراضِ دولتهم، وكتاب تاريخ السَّلْجَقِيَّة، من ابتداء أمرهم إلى انتهائه. وكتاب الإيناس في أخبار آل مِرْدَاس، وكتاب الرد على النصارى. وغير ذلك.

وكان رحمه الله - سَخِيّ الكَفِّ، طَلْقَ الوجه. وكان مُحِباً للكتُب، جَمَّاعاً لها، جَمَعَ منها ما لم يجمعه أحدٌ من أمثاله. واشتهر بالرغبة فيها، والمُغالاة في أَثْمانِها، فَقَصَدَه الناسُ بها من الآفاق. فاجتمع له منها أُلوف كثيرة، بالخطوط المَنْسُوبَة، وخطوط المشايخ والمُصَنِّفِين. ولم يَقَعْ له كتابٌ مَلِيح فَرَدَّه، بل يبالغ في إرضاء صاحبه بالثَّمَن،

---

(١) قلعة الموت: وهي قلعة بالطالقان بناها السلطان ملكشاه السلجوقي والموت معناه تعليم العقاب. اعتصم بها الحسن بن الصباح فنالت شهرتها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) صاحب كتاب الصحاح هو الجوهري. وهذا الكتاب هو معجم لغوي كبير.

(٣) وهو تأليف مالك «أقدم كتاب في الحديث والفقه».

فإذا ملكه استَوْعَبَ قِراءته، ثم جعله في خَزَائِنِه، ثم يَشِحُّ في إِخْرَاجِه، فلا يكاد يُظْهِرُ عليه احَداً، صِيانةً له وضَنًّا به!.

قال الحافظ مُحِبُّ الدين بن النجار: كُنَّا عنده ليلة، في شهر رمضان، فَجَرَى بَحْثٌ أَفْضَى إلى اعتبار كَلِمة وكَشْفِها من كتاب الصِّحَاح. فقال لبعض مماليكه: اذهبْ إلى المُؤَيَّد ـ يعني أخاه ـ وأحضِر من عنده نسخة من الصِّحَاح. قال: فقلتُ له: والمَوْلَى ما عنده نُسخةٌ من الصِّحَاح؟! فقال: وحياتِك ـ يا مُحِبّ ـ عندي خمسُ نسخ، وما يطيبُ على قلبي أن أُخْرِجَ منها نسخة ـ لا سيما بالليل، ونحتاج إلى إدخال الضوء. وله في شغَفِه بالكتب حكايات كثيرة، أَضْرَبْنا عن ذكرها، وأَوْصَى بكتبه بعد وفاته للملك الناصر: صلاح الدين يوسف، ابن الملك العزيز، صاحب حلب. وكانت تساوي خمسين ألف دينار. ودفن بحلب ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي عماد الدين بن سديدِ الدين، محمد بن سليم بن حِنَّا ـ وهو أخو الصاحب بهاء الدين.

واستهلّت سنة سبع وأربعين وستمائة

والسلطانُ الملك الصالح نجم الدين بدمشق، وهو مريضٌ. فعاد إلى الديار المصرية في مِحَفَّة[١]، لشدة ما ناله من المرض. وكان خروجه من دمشق في يوم الاثنين، رابع المحرم، ونادى في الناس: من كان له عَلَيْنا أو عندنا شيء، فليحضُر لقبضِه. فطلع الناس إلى القلعة، وأخذوا ما كان لهم.

وفي هذه السنة؛ رَسَمَ السلطانُ لنائبه بدمشق ـ الأمير جمال الدين بن يَغْمُور ـ بهَدْم دار أُسَامة، وقَطْع أشجار بُسْتَان القَصْر بالقَابُون، وهَدْمِ القصر. فتوقف عن ذلك مدة، ثم تَرَادَفَتْ عليه الكُتب بذلك، ففَعَلَ.

ذكر استيلاء الفرنج على ثغر دمياط

وفي سنة سبعٍ وأربعين وستمائة[٢]، وصل رِيدَا فَرَنْس[٣] بعساكره وجموعه إلى ثَغْرِ دِمياط.

---

(١) المحفّة: مركب كالهودج إلا أن الهودج يقبّب والمِحفّة لا تُقبّب أي بدون قبة. ابن منظور: لسان العرب (حفف).

(٢) «في الساعة الثانية يوم الجمعة لتسع بقين من صفر وصلت مراكب الفرنج صحبة ريدافرنس» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٣٣.

(٣) ريدا فرنس: لقب بلغة الفرنج معناه ملك افرنس من أعظم ملوك الفرنجية وأشدهم بأساً وهو الملك =

وخرج السلطانُ الملك الصالح بعساكره إلى المنصورة، ونزل بها. وجَرَّدَ إلى ثغر دمياط جماعةً من الأمراء، فالتقوا مع ريدَا فْرَنْس، واقتتلوا قتالاً شديداً فقُتل الأمير شهاب الدين ابن شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين أَزْبَك الوَزِيري.

وخرج أمراء الكِنَانِيَّة من دمياط وأَخْلوها، فاستولي عليها رِيدَا فْرَنْس في يوم الأحد، لسبع بقين من صفر، من السنة، فشقّ السلطانُ أمراءَ الكِنانية ـ وكانوا نَيِّفاً وخمسين أميراً ـ بعد أن استَفْتَى في شَنْقِهِم ـ لخروجهم عن الثّغْر بغير أَمْرِه. وكان قد جَعَلَ عندهم من المِيرَة ما يَكْفِيهم زَمَناً طويلاً(١).

ذكر استيلاء السلطان على قلعة الكَرَك وبلادها

وفي هذه السنة، مَلَكَ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب قلعة الكَرَك، وبلادَها.

وسببُ ذلك أن صاحبها الملك الناصر داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ـ توجه منها إلى بغداد، واستَخْلَفَ أولادَه بها. فكاتَبوا السلطانَ، واتفقوا معه على تسليمها. واشترطوا عليه شروطاً، وتولى ذلك من أولاده: الملكُ الأمجد أبو علي الحسن.

فأجاب السلطانُ إلى ما التمسوه، وتسلم القلعة، ووفى لهم بما اشترطوه ـ وذلك في جمادى الآخرة. وأخرج عِيالَ الملك المعظم وأولادَه وبناته. وأُمَّ المِلك الناصر، وجميعَ من كان بالحصن. وبعث الملك الصالح إلى الحصن ألفَ ألف دينار ـ عَيْناً ـ وجواهرَ وذخائر وأسلحة، وغير ذلك.

ولما عاد الملك الناصر من بغداد، ووجد الأمرَ على ذلك، توجه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، وأقام عنده، إلى أن ملك دمشق. وحضر في خِدمته إليها، ثم بلغه عنه أسباب رَدِيَّة، فأخرجه إلى البُوَيْضَا بظاهِر مدينة دمشق. فمات بها حَتْفَ أَنْفِه.

وكانت وفاته في سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ونقل من البُوَيْضَا، وصُلِّي عليه عند باب النصر، ودفن عند أبيه بالتربة المُعَظَّمِيَّة، بقاسِيون ـ رحمه الله تعالى.

= لويس التاسع وحملته هي الحملة الصليبية السابعة، وافرنس هي أمة من الفرنج. وكان افرنس متديناً بدين النصرانية مرتبطاً به، فحدّثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج إذ هو بيت معبودهم على ما يزعمون، وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(١) عن تفاصيل هذه الأحداث انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٨.

ذكر وفاة الملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب[(١)]

كانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ بِمَنْزِلَة المنصورة، في ليلة الاثنين النصف من شعبان، سنة سبع وأربعين وستمائة. ومولده بالقاهرة المُعِزِّيَّة في سنة ثلاث وستمائة.

ولما مات، كُتِم أمرُ وفاته، ودُفن بالمنصورة. ثم نُقل ـ في سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ إلى تربته، التي بُنِيت بعد وفاته، بجوار مدرسته بالقاهرة المحروسة، بين القَصْرَين. فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية عشرَ سنين، إلا خمسين يوماً.

وكان مَلِكاً، مَهِيباً، شجاعاً حازماً، ذا سَطْوة. وكان البلاد في أيامه آمنة، والطرق سابِلة. وكان عفيفَ الذَّيْل. غير أنه كان عظيم الكِبْر، غليظ الحِجاب. وكان مُحَبًّا لجمع المال. ويقال: إنه عاقَبَ امرأةَ أبيه ـ أمَّ أخيه الملك العادل ـ وأخذ منها الأموال والجواهر. وقتل أخاه وجماعة من الأمراء ومات في حبسه ما يزيد على خمسة آلاف.

ولما مات، كانت سُرِّيَّتُه ـ والدةُ خليل ـ في صُحْبَتِه بالمنصورة، فكُتِم أمرُ وفاته إلا عن خَواصِّ الأمراء. وكان السِّمَاط يُمَدُّ على العادة. والأمراء، ومن جرت عادته بحضور السِّمَاط، يدخلون ويأكلون ويَنصرفون. ويظنُّون أن السلطان إنما احتجابه بسبب مرضه. وكانت والدةُ خَليل تكتب خَطًّا يشبه خَطَّ السلطان، فتَخْرُجُ العَلاَئِم[(٢)] بِخَطِّها.

واتفق الأمراءُ على إحضار ولده: الملك المُعَظَّم غياثِ الدين تُورَانْشَاه من حصن كَيْفَا. وكان السلطان الملك الصالح قد كتب كِتاباً بِخَطِّه، يشتمل على وصيته لوَلَدِه الملك المعظم، تَذْكُرُ ـ إن شاء الله تعالى ـ مضمونَه في أخبار الملك المعظم فتوجَّهَ لإحضاره الأمير فارس الدين أَقْطَاي الصالحِي ـ مملوك والده. وقام بتدبير الدولة ـ فيما بين وفاةِ السلطان الملك الصالح ووصولِ الملك المعظم ـ الأميرُ فخر الدين: يوسفُ ابن الشيخ، إلى أن قُتِل.

ذكر خبر الأمير فخر الدين أبي الفضل يوسف[(٣)] ابن الشيخ، وقتله

لما مات السلطان الملك الصالح، قام بتدبير الأمر بعده ـ إلى أن يصل ولدُه

---

(١) عن سبب وفاته وعن سيرته: انظر كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٧، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٤. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٢.

(٢) العلائم: جمع علامة. وهنا المقصود العلامة السلطانية أي إشارة: قول مأثور أو دعاء أو اسم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٢١.

(٣) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٤٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٩٠. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢١.

الملك المعظم ـ الأمير فخر الدين أبو بكر أبو الفضل: يوسف، ابن شيخ الشيوخ صَدْرِ الدين[١]. وكان هو وزيرَ السلطان ومُقَدَّمَ جيوشه، والمُشار إليه في دولته.

فدَبَّرَ الأَمرَ أحسن تدبير، وأَقْطَعَ البلاد بمَناشِيره [وأخذ يطلق المسجونين ويتصرف في إطلاق الأموال والخلع على خواص الأمراء][٢]. وأطلق السُّكَّرَ والكِتَّان كي يسافِر به التُّجَّارُ إلى الشام ـ وكان ذلك قد مُنِع، وأراد جماعةٌ من العسكر أن يَمْلِكُوه، فامتنع من ذلك.

وتنكر له بعض الأمراء المماليك الصالِحِية، وعزموا على قتله فاستدعى أكابرَ الأمراء، وأَعْلَمَهُم أنه لا طمَع له في الملك ولا رغبة، وأنه إنما يحفظه للملك المُعَظَّم إلى أن يَصِل. فاعتذروا له وحَلَفُوا. وكان المُتَّهَم بإغراء الأمراء الطواشي مُحْسِن، وجماعة. وجَهَّزَ جماعةً يستحث الملك المعظم من دمشق، بعد وصوله إليها.

فلما كان يوم الثلاثاء ـ رابع ذي القعدة أو خامسه ـ هجم الفرنج على عساكر المسلمين، واندفع المسلمون بين أيديهم. وكانت وقعة عظيمة.

فركب فخر الدين في وقت السحَر ليَكشِف الخبر، وأَنْفَذَ إلى الأمراء والحَلْقَة ليركبوا. وساق بنفسه في طائفة من مماليكه وأجْناده. فصَدَمَه طُلْبُ الدَّاوِيَّة وحملوا عليه. فهرب من كان معه، وثَبتَ هو. فطُعِن في جَنْبِه، فوقع عن فرسه، فضربوه ضربتين في وجهه، طُولاً وعَرْضاً، بالسيف فقتلوه!

وجاء مماليكُه إلى داره، فكسروا صناديقَه، ونهبوا أكثر ما فيها. ونُهِبت أموالُه وخيله. وأخذ الجَوْلَانِي[٣] قُدُورَ حَمَّامِه، والدِّمْيَاطيُّ أبوابَ داره. ثم أُخْرِجَ من المعركة بقميصٍ واحد، وجُعِلَ في حَرَّاقَة وأُرسل إلى مصر. وحُمل إلى تربته بالقَرافة الصغرى، بجوار تربة الإمام الشافعي، فدفن عند والدته. واشتد بُكاءُ الناس عليه، وعُمِلت له الأَعْزِية. وكان له من العمر، يوم مات ست وستون سنة ـ رحمه الله تعالى[٤]. وكان له شِعرٌ جَيِّد، كثير، فمن شعره: [من الطويل]

عَصَيْتُ هوى نفسي صَغِيراً، فعِنْدما ... رَمَتْنِي الليالي بالمَشِيبِ وبالكِبَرْ

---

(١) سبقت الإشارة إلى ترجمة الشيخ صدر الدين. راجع صفحة ٩٦ من هذا الجزء حاشية (٢)، وحاشية (٦).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٤٤.

(٣) الجولاني: نسبة إلى جولان وهي قرية من نواحي دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) «فكانت مدة تدبير الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعد موت الملك الصالح لمملكة مصر خمسة وسبعين يوماً» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥١.

أَطَعْتُ الهوى، عَكْسَ القَضِيَّةِ لَيْتَنِي خُلِقْتُ كَبيراً، وانْتَقَلْتُ إلى الصِّغَـر

ذكر أخبار السلطان الملك المعظم(١) غياث الدين تُورَانْشَاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وهو التاسع من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية والشام، بعد وفاة والده السلطان الملك الصالح وكان مُقِيماً بحصن كَيْفَا(٢)، وما مع ذلك، منذ تركه والدُه هناك ـ كما تقدم. فلما مات السلطان، اجتمع رأيُ الأمراء على إقامته، وجهزوا لإحضاره الأميرَ فارس الدين أَقْطَاي، كما ذكرنا آنِفاً.

وكان السلطانُ الملك الصالح، في مرض مَوْتِه، قد كتب إلى ولَدِه الملك المعظم هذا كِتاباً، أَسْنَدَ فيه المُلْكَ إليه، واشتمل كتابُه على جُمْلَةٍ من الوَصايا. وقد وَقَفْتُ على الكِتاب المذكور ـ وهو بخَطِّ السلطان الملك الصالح بجُمْلَتِهِ. وقد رأيتُ أن أشْرَحَ ما تَضَمَّنَهُ، لِمَا فيه من الوَصَايا التي يتعين على الملوك التمسكُ بها والرجوع إليها، والاعتمادُ عليها.

ابتدأ السلطانُ الملك الصالح كِتَابَه هذا(٣) ـ الذي منه نَقَلْتُ ـ بأن كَتَبَ في طُرَّتِه قبل البَسْمَلَة: والده أيوب بن محمد.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الوَلَد تورانشاه ـ أصلحه الله ووفَّقَه يا ولدي، أنت تعلم ما سبب تأخير طَلَبِك إلا ما أَعْلمهُ منك، من الصِّبيانية والجُرْأة وقلة الثبات، والمُلْكُ ما يَحتمِل هذا. والوالد ما يشتهي لولده إلا الخير والخصائل التي أعرفها منك اتركْها، يدوم لك المُلْك. وإن أنت

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥١، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٧، ص ٣٧٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٢، وذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٨٥. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٤١، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٧٩. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ١٩٢.

(٢) حصن كيفا: ويقال: كيبا، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٣) هذه الوصية هي تاريخية ولها أهميتها. مكتوبة بأسلوب الخطاب الدارج بين العربية والعامية تركها المحقق كما هي عليه وكما وردت في الأصل.

خَالَفْتَ أمري وبَقِيتَ على ما أعلمه منك، يروح منك المُلْك. واثبت في جميع أمورك. وسُنَّ سِيرَتي في العسكر. واترك الأشياء على ما هي عليه: كل أحد مُتَوَلِّي الشغلَ الذي هو فيه، ولا تُحْدِثْ حادث.

والوصيةَ بجميع الأمراء، وأَكْرِمْهم واحْتَرِمْهُم، وارفع منزلتهم. فهم جناحُك الذي تطير به، وظهرُك الذي تركن إليه. وطَيِّب قُلوبَهم، وزِدْ في إقطاعهم. وزوّد كلَّ أمير على ما معه من العِدَّة عشرين فارس. وأنفِق الأموال وطَيِّب قلوب الرجال، يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو. ولا تُؤَاخِذْ بما جَرَى في دِمْياط. فهذا أمرٌ سَمَاوِيّ، ما لأَحَدٍ في هذا حيلة.

والأخ فخر الدين ابن الشيخ ما عندي من أَقْدَمُ سواه، فأَكْرِمْهُ، واحتَرِمْه كما تحترمني. واجعله عندك كالوَالِد. واسمع قولَه ورأيَه ولا تُخَالِفْه. واجعل له من العِدة مائتي فارس.

يا ولدي: الوصيةَ بأم خليل، فلها عليَّ من الحقوق والخِدمة ما لا أقدر أَصِفُه، ارْعَ جانبَها وأكرمها واحْترمها، وارفعْ منزلتها، فهي عندي بمنزلةٍ عظيمة. وكنت طَيِّبَ القَلْب بصُحْبَتِها، آمِناً على نفسي من جهتها، فاجعلها لك مثلَ الوالِدَة. واجتهد في اتصال الراحة إليها، وطَيِّبْ قلبَها، واجعلها حاكِمَةً على جميع أمورِك وأموالك. ولا يبدو منك كلمةٌ تُضَيِّق صدرَها، ولا توجع لها قلباً أبداً، ولا من يتعلق بسببها، ولا من يضيق صدرها بسببه.

ولا تَخْرُجْ عن رأيها وتدبيرها، وهذه وصيتي فلا تخالفْ أمري. واخدمها كما تخدمني، واحترمها كما تحترمني. ولا تَجْعَلْ على يدها يد. والوصية بجميع العِيال، أَحْسِنْ إليهم فلهم عَليَّ خِدْمَة. ولا تُقَصِّر في حق الصغير منهم والكبير. واحفظ وصيتي، فمتى خالَفْتَنِي يروح منك المُلْك، وتكون عاقًا لي. وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد، لئلا يضيق صدورهم. وكتبتُها في مدة طويلة.

واعلمْ يا ولدي أن المِلك في ابتداء مُلْكِه كمثل الشَّجَرة في ابتداء طُلوعها، فيأتي ريحُ يهب عليها يُحَرِّكها، وربما يَقْلَعُها من أصلها. فإذا مَضَتْ عليها الأيامُ والسنين قَوِيَ أَصْلُها، واشتد ساقُها، فلا تحركها الرياحُ العواصف. فاعلم يا ولدي إشارتي، وتَنَبَّهْ لغَرَضِي. وإن ضاق صدرُك من شخص فاحْتَمِلْهُ، وأَحْسِنْ إليه تحسن سِيرتُك، ويُحِبُّك عدوُّك. ولا تعجل بالعُقوبة. واعلم أن الناس أعداءٌ لبعضهم البعض. فلا تسمع كلامَ أحد دون أن تُقَابِلَ بينه وبين خَصْمه، ولو أتاك مقطوعَ اليد. فربما خصمُه أسوأ حالاً منه. فإذا عُرِفَ هذا منك، تَقِلُّ الشَّكَاوي والرِّفَاعات(١)، ويستريحُ خاطرُك.

---

(١) مفردها الرفاعة: أي ما يرفع من الشكاوى المكتوبة. بطرس البستاني: محيط المحيط (رفع).

والذي أُعَرِّفُكَ به يا وَلَدِي: لَمَّا نَزَلَ العَدُوُّ على زمن الشَّهِيد[١] ـ رحمه الله ـ على دِمياط، ما كان فيها سوى الوالي والكِنَانِيَّة، وأَهْلُها حَفِظُوها إلى أن وَصَلَ الشَّهِيدُ من القاهرة، وعسكرُ مصر من الشام. وما قدر العدو ينزل بَرَّ دِمياط، وما كان فيها ذخيرةُ شهرٍ واحد.

فلما اختلف العسكرُ على الشَّهِيد[١] ـ رحمه الله ـ وَتَحَزَّبُوا ـ مثل ابن المَشْطُوب[٢] والأَكْرَاد ـ مع الملك الفائز، غَضِبَ الشَّهِيدُ، وساق إلى أُشْمُوم. وتبعه العساكر، وتركوا جميعَ الخِيَم والقُماش. وخرج من دمياط من خرج، والوالي.

وما بقي فيها إلا أهْلُها وغَلَّقُوها وقَعَدُوا فيها وحَفِظُوها، إلى أن مات أكثرُ من فيها والباقي تَكَشَّحُوا، وخلت الأَصْوارُ من المُقَاتِلِين. فَصَعَدَت الفِرِنْجُ وأخَذَتْها، بعد أن تَعِبُوا من النُّقُوب من تحت الأرض، وشربوا بالبتاتي، والزحف عليها من جميع الجهات، وما قدروا أن يأخذوها.

وأنا قَوَّيتُ دمياط، ومَلأْتُها ذَخائر من كل شيء، يكفيها عشرين سَنَة، مع ما كان عند أهلها من الذخائر، واكْشِفْ من الديوان يُعَرِّفُوك ما كان فيها من الخَيْرَات. وقَوَّيْتُها بجميع عسكر الديار المصرية، من فارس وراجِل، ونقدي، وما خليت لها عُذْر، حتى بَقِيتُ وَحْدِي في أُشْمُوم بسبب المرض.

فلما أن أَقْبَلَ العدو وشاهدوه وطلبوا البَرَّ بالحَراريق، انهزموا وسَلَّمُوا لهم البَرّ، واشتغلوا بالنساء ونَقْلِهم من دمياط، وهَرَبَت العَوَامُّ وتَبِعَهم الأجناد. وكان المُقَدَّمَ عليهم الأخ فخر الدين سَاقَ خَلْفَهم ورَدَّهُم، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير. فلما أصبح، ما وجد في المدينة أحد. هربوا الكِنانية في الليل، وكسروا الخُوَخ[٣] ونزلوا من السُّور، وتركوا أموالَهم وذخائرهم نهبوها المسلمين بعضهم بعض. وأخلوا دمياط، حتى أخذتها الفرنجُ ثاني يوم. وهذا كله بقضاء الله وقَدَره. واصبرْ تنال ما تريد.

وهذا العدو المَخْذُول، إن عَجَزْتَ عنه، وخرجوا من دمياط وقَصَدُوك، ولم يكن لك بهم طاقَةٌ وتأَخَّرَتْ عنك النَّجْدَة، وطلبوا منك الساحِلَ وبَيْتَ المقدس وغَزَّة وغيرها من الساحل ـ أعطيهم ولا تَتَوَقَّفْ على أن لا يكون لهم في الديار المِصرية قَعْر قَصَبَة.

---

(١) يقصد والده الملك الكامل ابن العادل. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٠٦ (تسلسل نسب الأيوبيين).

(٢) تقدم ذكر ابن المشطوب، راجع صفحة ١٥، حاشية (٦).

(٣) الخوخ: كوة في الحائط ينفذ منها الضوء إلى البيت، وهي مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب. بطرس البستاني: محيط المحيط (خوخ).

وإن نزلوا مَنْزِلَةَ من تَقَدَّمَهُم من العدوّ قُبالَة المنصورة، فَرَتِّبَ العسكر يكونوا ثابتين خلف السَّتَائِر مع البحر، لَيْل ونَهار. فهم ما لهم زَحْفٌ إلا بالشَّوَانِي، فقَوُّوا الشَّوَانِي، كيفما قَدِرْتُم. واجهدوا أن يكون بعضُ الحَرَارِيق على بَحْر المَحَلَّة من خلف مراكِبِهم، تقطع عنهم المِيرَة. وهو يكون ـ إن شاء الله ـ سببَ هلاكهم. فتلك المَرَّة ما انتصر الشهيدُ ـ رحمه الله ـ عليهم إلا من بَحْر المَحَلَّة.

وتكون العرب مع الخُوَارِزْمِية مع ألفين فارس بينهم وبين دمياط. واستَخْدِم، الفارسَ والراجِل. وأنفق الأموال ولا تتوقف. وإن كان الشَّرْقُ لا يُنْجِدُوك لأجل الناصر وإسماعيل، واشْتَرطُوا أن تَرُدَّ عليهم بلادَهم، ورأيتَ الغُـلُوبِيَّة، ولا بدَّ من ذلك وإلا ذهب المُلْك ـ فالضرورات لها أحكام.

اعْلَمْ يا وَلَدي ـ أن الديارَ المصرية هي كُرْسِيُّ المملكة، وبها تَسْتَطِيلُ على جميع الملوك. فإذا كانت بيدك، كانت بيدك جميع الشَّرْق. ويَضْرِبُوا لك السِّكَّة والخُطْبَة.

فاتَّفِقْ أنت والأخ فخر الدين، وأرْضِ الناصِر[1] بما يطيب به قلبُه. فالناصرُ ما أَخْرَجَه من يدِي إلا تَغَيُّري عليه، بسبب أوراقٍ كانت تصل إليَّ عنه أنه فَعَلَ وصَنَع. وكَشَفْتُ عن ذلك، ما رأيت لها صِحَّة. فلما انقطع رَجاهُ مِنِّي لِتَغَيُّرِي، استند إلى إسماعيل وابن مَمْدُود، وجَرَى منهم ما جرى. كل ذلك من إسماعيل وابن مَمْدُود، وهو يشارِكُهم في جميع ما يفعلوه.

وأما الذي فَعَلَه معي على نابُلُس فما كان إلا مصلحةً عظيمة، أنا أشْكُرُه عليها. طَلَع بي الكَرَك إلى أن ذَهَبَتْ أيامُ القُطُوع. لولا ذلك أَخَذَني إسماعيل[2]، لأنه ضَيَّقَ عَلَيَّ أرضَ الشام بالعسكر في طَلَبِي، فما فعل في حقي إلا خيْر. فهو كان السبب في خروجي، في الوقت الذي كان قَدَّرَ اللهُ بتوجهي فيه إلى الديار المصرية بالمُلْك. فلا يضيع له هذا القَدْر.

وكنت نَوَيْتُ له كلَّ خَير. فإن حصل بينكما اتِّفاق، وصَفَتْ نَيَّتُه في محبتك، ووَفى لك باليمِين، فخاطِرُك به مُسْتَرِيح في أَمْرِ الساحِل. فما ذُنُوبُه عندي ذنوبُ إسماعيل، الذي بارَزَنِي، وأخذ مِنِّي دِمشق، واعْتقَل ولَدي، وفعل في حَقِّي ما فَعَل، وأعطى الساحلَ والحصونَ التي فيه لعَدُوِّ الدِّين، واستعان بالكُفْر[3] عليَّ، وعَلَى أَخْذِ بلادي. فارضه بشيء يستعين به: بُصْرَى مع السَّوَاد، ولا تُعطى له قَلْعَةَ بعلبك. وتُحسن إلى

(١) يقصد الناصر داود صاحب الكرك ابن المعظم عيسى.
(٢) يقصد الملك الصالح إسماعيل، وهو عمه.
(٣) بالصليبيين.

أولاده وأهله، وينفذوا إليه. فالله يقابِل المسيء، ويُجازِي المُحْسِن وأَطْلِق المُحْتَسِبين كلهم، إلا من كان له تَعَلُّقٌ في قَبْضِ عمك، أو مُفْسِدٌ في الدولة.

فإنْ قَدَّرَ اللهُ لك بالنصر على هذا العَدُوِّ المَخْذُول[١]، وأَخَذْتَ دِمياط ـ إن شاء الله تعالى ـ ابْنِي بَاشُورَة[٢] تكون طولَ قامة، وبَسْطَة بشَراريف، ومَرَامِي من فوق وأسفل، وتكون البَاشُورة عَرْض يُتَمَكَّن القتالُ عليها، إما بالحَجَر أو بالطوب الأحمر، ويكون لها سلالِم، بَيْنَ كل سُلَّم وسُلَّم ثلاثين خَطوة. تعمل هذه الباشورة من قُبَالَة بُرْجِ السِّلْسِلَة، قريب من الماء البحر إلى البَرْزَخ، إلى المكان الذي نزلوا فيه الفرنج، وفوق منه بثلاث رَمْيَات نُشَّاب. ومن آخر هذه الباشورة تَحْفِر خَنْدَق، من البحر المالِح إلى البحر الحلو، مثل ما حَفَره الشَّهِيد[٣] تلك المَرَّة، بحيث إذا جاء العدُو لا يقدر على الماء الحلو، ولا يبقى له منزلة ينزل فيها. وبين كل سلمين لعبتين يرموا بالحجارة، والعسكر تُقَاتِل من على الباشورة والمِنْجَنِيق والرُّمَاة تَرْمِي من خلف الباشورة من المَرَامِي، ما يقدر أحد يقرب البر. وعجبت كيف غَفَل عن هذا الشَّهيدُ ـ رحمه الله ـ وعمل قلعة.

فهذه الباشورة فيها ألفُ مصلحة قَسِّطْها على الأمراء وعلى بيتِ المال والأَسْرَى الفرنج تعمل فيها. واجْتَهِد في عملها تَأْمَنْ على دمياط وتستريح وإن لم يخرج العدوُّ من دِمياط وتَطَاوَل الأمر ينتظروا نجدة تصل إليهم، ازحَفْ عليهم من بَرِّ دمياط ومن برّ البَرْزَخ، بالفارس والراجِل وبالشَّوَانِي من البحر، لعل أن تملكوا بَرَّ البَرْزَخ. فإذا مَلَكْتُمُوه مَلَكْتُم فم البحر، ومنعتوا أن يدخل إليه مركب، أو يخرج.

ويا وَلدي: قَلَّدْتُ إليك أمورَ المسلمين، فافعل فيهم ما أَمَرَكَ اللَّهُ به ورسولُه: يا ولدي إياك والشُّرْب، فإن جميع الآفات ما تأتي على الملوك إلا من الشُّرْب، ولا تخالفني تَنْدَم، وتُدْخِلْ عليك العَارِض[٤]. فما يَسْقِيك إلا من تَأْمَنُ إليه، ولا يَدْخُلُ عليك العارِض إلا من القَرِيب. يا ولدي: وامنع المسلمين والنصارى أن يَعْصِروا الخمر. وطَهِّر العساكر من القِحاب، والمدن، ولا تجلس مع من يشرب، فيزين لك الشيطان فتشرب، فتكون قد خالَفْتَنِي، وتُدْخِل عليك العارِض. وأنا قد جَرَّبْتُ الأشياء وَوَقَعْتُ

---

(١) المخذول: العدو أي الصليبيون.

(٢) سد أو حائط لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهام إلى مواضع المحاربين وتجمع على بواشير، ويقابلها في الفرنسية كلمة Bastion أو Gérite. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٥٠ وDozy. Supp Dict. Ar.

(٣) والده السلطان الكامل.

(٤) العارض: المرض. بطرس البستاني: محيط المحيط (عرض).

فيها، وتحقَّقْتُ الخطأ من الصواب، وندِمت وقت لا ينفع الندَم. فاجتنب يا ولدي ما حَذَّرْتُكَ منه. فقد أخبرك مُجَرِّب صادق، مُشْفِق عليك.

وانْظُرْ يا ولَدِي في ديوان الجيش. فهم الذين أفسدوا البلاد وأَخْرَبُوها ـ وهم النَّصارَى ـ أَضْعَفُوا العساكر، وكأن البلاد مِلْكُهم يَبِيعوها بيع. إذا كُتِبَ منشور لأميرٍ يأخذوا منه المائتين وأكثر، ومن الجندي من المائة ونازِل. ويكون الجندي خُبْزُه[1] ألفَ دينار يفرقوا خُبْزَه في خمس وست مواضع: في قُوص وفي الشرقية والغَرْبِيَّة، فَيُرِيدُ الجندي أربع وُكَلاَء، يَرُوح الخُبْزُ للوُكَلاَء. ومتى يحصلُ للجندي من خُبْزِه شيء، إذا كان مَثَلاً في بَيْكَار[2] ويُقَاسي العَلِيقَة بثلاثة نُقْرَة[3]، كيف يكون حالُه؟ يَخْرَب بيتُه ويَهْلَك! فهذا سبب هلاك الجندي. والنصارى يقصِدوا هذا، لخَرَابِ البلادِ وضَعْفِ الأَجْنَاد، حتى تروح منا البلاد، وجُندي يَحْصُلُ له وجندي ما يحصل له شيء أصلاً.

تَرُدّ عِبْرَةَ البلاد[4] إلى ما كانت عليه في زمن صلاح الدين ـ رحمه الله. والجُندي لا يكون خُبْزُه مُفَرَّق، بل في موضع أو موضعين قريبَيْن. فتَعْمُر البلاد ويقوى الجندي ويقوى الفلاح. فإذا كانوا جماعة في بلد، وكل أحد يخرب من ناحية ويَجُورُ المُقْطَعِين على الفلاَّحين، تخرب البلاد. وهذا كله فِعْلُ النصارى.

وبلَغني أنهم بَعَثُوا إلى ملوك الفِرنْج في الساحل في الجزائر، وقالوا لهم. أنتم ما تجاهدوا المسلمين، بل نحن نجاهِدُهم الليلَ والنهار، بأَخْذِ أموالِهم ونَسْتَحِلُّ نساءهم، ونُخَرِّبُ بلادَهم ونُضعف أجنادهم. تعالوا خُذوا البلادَ، ما تركنا لكم عَاقَة. فالعَدُوُّ معك في دولتِك ـ وهم النصارى. ولا تركن لمن أَسْلَمَ منهم ولا تَعْتَقِدْ عليه، فما يسلم أحد منهم إلا لِعِلَّة، ودينُه في قلبه باطنٌ كالنارِ في الحَطَبِ!

يا ولدي، أكثر الأَجْنَادَ اليوم عامَّة، وباعة وقَزَّازِين: كل من لَبِس قَبَاءً، ورَكِبَ فَرَس، وجاء إلى أميرٍ من هؤلاء الترك، وقدم له فرس، ويُبَرْطِل نَقِيبَه وأُستاذَ داره[5] على

---

(١) الخبز في اصطلاح ذلك العصر هو الإقطاع. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٠.

(٢) بيكار: لفظ فارسي معناه الحرب عامة، وأوجه استعمال هذا اللفظ في القلقشندي: «مهمات الغائبين في البيكار المنصور تلحظ ويسد من نوابهم في أمورهم ومصالحهم. وعبارة «ولا يحصل من أحد من الولاة مكاشرة ولا إهمال، ولا يطمع في الوكلاء لأجل غيبة الأمراء، والمقطعين في البيكار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٩٤، ٩٧ .

(٣) هي الدراهم التي كانت تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٣٠.

(٤) عبرة: أي نظام البلاد. بطرس البستاني: محيط المحيط (عبر).

(٥) الاستدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وتنفذ فيه أوامره. وهو فارسي مركب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠، وج ٥، ص ٤٥٧.

خُبْزِ جندي، من جندي معروف بالشجاعة والحرب ـ طرده أميره، وأعطى خُبْزَه لذاك العامي الذي لا ينفع وأكثرهم على هذه الحالة. فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هَرَبُوا، وينكسروا العسكر، لأنهم ما يعرفوا قِتال، ولا هو شُغْلُهم. فينبغي أن لا يُستخدم إلا من يعرف اللعب بالرمح على الفرس، ويرمي بالنُّشَّاب والأُكرَة، وتظهر فُروسيته ـ حينئذٍ يُستخدم.

واحْفَظْ يا ولدي ما أقوله لك، فهذا جميعه ما عَرَّفَنِي به إلا الأخُ فخر الدين، وأخبرني أنه وقفَ علي كتابٍ بخط صلاح الدين، أن الفَيُّوم وسَمَنُّود والسواحل والخَرَاج للأسطول. فالأُسْطولُ أحد جناحي الإسلام. فينبغي أن يكونوا شِبَاعاً، ورجال الأسطول إذا أُطلِق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه، جاؤوا من كل فَجٍّ عميق، ورجال معروفين بالقَذْفِ والقتال. وإنما تِجُوا[١] وقتَ الحاجة تقبضوا ناس مستورين لهم أطفال وبنات، وهو الذي يُطعمهم ويَسقيهم، تأخذوه في الأسطول ولا ينفع فتموت أطفاله بالجوع، ويدعو علينا! كيف تنتصر على العدو؟! وتأخذوا إلى البحر عند قبض الأسطول كل يوم ألف دينار، لأنه يقبض من الصبح إلى المغرب، مساتير وبياعين وأرباب معايش، يجيء أهاليهم إلى بيت الوالي، كل أحد يَزِنُ الذهب ويُخَلِّص نفسَه. والفقير الذي ما له قدرة تُحَدِّرُوه في المراكب. فقد نَبَّهْتُ الولَدَ على هذه الأشياء. والأخ فخر الدين عرفني بهذه الأحوال جميعها، فاسمع ما يَقُوله لك.

الولَد يَتَوَصَّى بالخُدام: مُحسن ورَشيد والخدام المُقَدَّمِين، لا تغيرهم. فما قَدَّمْتُ أحد من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نُصحه وشفقته. وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم. وكذلك الحُسام لا تغيرهم. فإني أعتمد عليهم في جميع أموري.

القَيْمُرِيَّة[٢]، الولَد لا يَسْمَعْ كلامَ بعضهم في بعض. وناصرُ الدين عنده كذب وخُبث. وما باطنه جَيِّد. وقد عَرَّفْتُ الأخَ فخر الدين الرُّسُل الذين مُسِكوا من دمشق إلى حلب من عنده. والحسام يكون بمفرده لا حَلٌّ ولا رَبْط. وضيا الدين القَيْمُرِي، إن احتاجوا إلى أن يَخْرُجَ عسكرٌ إلى جهة من الجهات، يكون مُقَدَّم. وناصرُ الدين رجل لا يَخْرُجَ مع عسكر. وسيف الدين القَيْمُري تعمل معه، ما يُقَرَّر مع الأخ فخر الدين، يكون مُقَدَّم العسكر في دِمشق. وابن يَغْمُور مُشِدّ[٣]، وناصر الدين على المَظَالِم. فابن يَغْمُور

---

(١) أي تجيئون. (٢) القيمرية: طائفة من أمراء الجنود الكردية.

(٣) مشد: الشد ترادف كلمة تفتيش ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد. أو مشد وفيها شد الدواوين. وشاد الدواوين مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢. وج ١٢، ص ٤٥٧. وانظر أيضاً النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين للدكتور حسنين ربيع، ص ٨٢.

يصلح أن يكون مُشِدّ ووالي وجابِي الأموال، ولا يصلح أن يكون مُقَدَّم على عسكر، ولا يصلح لجُنْديه. ولا تُؤْمِنْ إليه كل الأَمْنِ. بل تُمَشِّي به الحالَ في مكان مُدة، ثم يُنْقَل إلى غيره. وهو بالكُتَّاب أَلْيَق.

وكذلك قرائبُ فخرِ الدين عثمان كلهم لا يصلحُوا لجندية. ابنُ العزيز الرأي عندي أن تؤخذ جماعته، ويبقى هو ومماليكه بمفردهم، ويُقْطَع له ولمماليكه، وحاشيته ودُوره، ما يقوم بهم من خاصة. فالأخ فخر الدين يعرف ما جرى منه، فهو نَحْس مفسد مخسخس. وقد عَرَفَ الأخُ فخر الدين حالَه وما جرى منه في دمياط وغير دمياط، فما يصلُح لصالِحَة.

مُتَوَلِّي ديوان الأَحْبَاس(١) اصْرِفه ووَلِّ ابنَ النَّحْوِي، فقد سألني المتصدرين ذلك. وطرائق ابن الجباب غير صالحة. والوكيل اصرِفْه. وَوَلِّ ابن الفقيه نصْر، فهو رجل جيِّد فقِيه عنده خوفٌ من الله.

وقد عَيَّنْتُ في ورقةٍ عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تُقَدَّمُهم، تعطي لكل واحد كُوس(٢) وعَلَم وتُحسِن إليهم.

وَتَتَوَصَّى بالمماليك غايةَ الوَصية. فهم الذين كنت أعتمِد عليهم، وأثق بهم. وهم ظَهري وساعِدي. تتلطَّف بهم، وتُطَيِّب قلوبهم، وتوعدهم بكل خير. ولا تخالفْ وصيتي. ولولا المماليك ما كنتُ قدرتُ أن أركب فرس، ولا أروح إلى دمشق، ولا إلى غيرها، فتكرمهم وتحفظ جانبَهم.

فهذه وصيتي إليك، فاعمل بما فيها ولا تخالفْ وصيتي، وكل يوم طالِعْها، وقف عليها، ولا تَعملْ شيئاً دون أن تشاورَ الأخ فخر الدين. والله يقدر بما فيه الخير ـ إن شاء الله تعالى.

يا ولدي، إن ألزموك ـ الحلبيين ـ أن تدفع الكَرَك(٣) إلى الناصر، فأعطه الشَّوْبَك.

(١) ديوان الأحباس: هو ديوان الأوقاف، وكان ناظر هذا الديوان يشرف على رواتب العلماء والفقهاء والقراء وأرباب الحديث، وأئمة المساجد التابعين لذلك الديوان فضلاً عن المدرسين في مختلف المدارس التي أوقفها أصحابها على التعليم. واختصوا هذا الديوان بالإشراف على إيراداتها ومصروفاتها. وانفرد ناظر هذا الديوان دون سائر الدواوين بإصدار المراسيم دون حاجة إلى مرسوم أو توقيع سلطاني. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٩٠، والنظم المالية للدكتور حسنين ربيع، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) كوس: هي صنوج من نحاس يدق بها في المواكب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٣، وخليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٣.

(٣) قلعة الكرك: بفتح أوله وثانيه، وكاف أخرى، كلمة عجمية: اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام =

وإن لم يَرْضَ زِدْهُ من الساحل، حتى يَرْضَى. ولا تخرج الكَرَك من يدك. اللَّهَ اللَّهَ احفظ وصيتي. فلا تعلم ما يكون من هذا العدو والمخذول، لعله ـ والعياذُ بالله ـ أن يتقدم إلى مصر يكون ظهرُك الكَرَك، تحفظ فيه رأسَك وحريمَك، فمصر ما لها حِصْن. ويجتمع عندك العسكر وتتقدم إليهم، تردهم عن مِصر، وإن لم يكن لك ظهر مثل الكَرَك، تفرقت عنك العساكر. وقد عزمتُ أن أنقل إليها المال والذخائر والحَرَم، وكل شيء أخاف عليه، واجعلها ظَهْرِي. والله ما قوي قلبي واشتد ظهري، إلا لما حَصَلَتْ في يدي.

الحمد لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد نبيه ـ وآله وصحبه ـ وسلامه.

هذا آخر ما تضمنه كتاب الوصية. وقد نقلتُه بنَصِّه وهيئته ـ على ما فيه من لَحْنٍ في بعض ألفاظه، ونقص أَلِفَات في بعضه.

ولم يَعْتَمِد الملكُ المعظم ما أوصاه به، ولا رجع إليه ولا عَرَّجَ عليه، بل خالَفَه في جميع ما تضمنته وصيتُه، وكان من أمره، وزوال ملكه، ما نذكره.

ولْنَرْجعْ إلى سِياق أخبار الملك المعظم:

قال: ولما وصل إليه الأميرُ فارس الدين، وهو بحصِن كَيْفا، رَحَلَ[1] وسَلَكَ البَرِّيَّة[2]. وأَخْفَى أمرَه عن الملوك المجاورين له. خَشْيَةً من غائِلتهم. وترك بالحصن ولدَه الملك الموحد، وسار حتى انتهى إلى دمشق.

فكان وصولُه إليها في يوم السبت. سَلْخَ شهر رمضان، سنة سبع وأربعين وستمائة. وعَيَّدَ بها عيد الفِطْر. وخَلَعَ وأنعمَ على الأمراء، وأَقَرَّ الأميرَ جمال الدين موسى بن يَغْمُور على النِّيَابَة بدمشق، وأفرج عن كل من كان في حَبْسِ والده، قال أبو المظفر: وبلغني أنه كان بدمشق ثلاثمائة ألف دينار، فأخذها صُحْبَتَه، وتجهز إلى الديار المصرية.

وكان رحيله من دمشق في الخامس والعشرين من شوال، منها. وكان سبب تأخره بدمشق، هذه المدة، أن الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ كان قد سَيَّرَ إليه جماعة من المماليك الصالِحية، يستحثه على سرعة الحضور. فأوهمه بعضُهم أن فخر الدين حَلَّفَ العساكرَ لنفسه، وأنه متى حَضَرَ قَتَلَه، واستقَلَّ بالأمر. فأَنْفَقَ الملكُ المعظم الأموالَ

= من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القُلزُم، وبيت المقدس، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٤.

(١) «سار من حصن كيفا إلى دمشق لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥١.

(٢) البرية: البادية بين العراق والشام، في الشمال. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٣، ١٠٧.

بدمشق، واستَحْلَفَ العساكر. وحَلَّفَ المماليكَ الذين حضروا من جهة الأمير فخر الدين، على قَتْلِ فخر الدين. فحَلَفُوا له. فاتفق قَتْلُ فخرِ الدين قبل وصول الملك المعظم كما تقدم.

وجهز الملك المعظم كاتبَه - معينَ الدين، هِبة الله بن أبي الزَّهْر حَشِيش - إلى قلعة الكَرَك، في مُستهل ذي القعدة، فحَقَّقَ ما بها من الأموال والذخائر، وحمل إليه من حاصِلها مائتي ألف دينار، عَيْناً، مما كان الملكُ الصالح قد نَقَلَه إليها. ولحق معينُ الدين السلطانَ إلى الرَّمْل[1]. وكان نَصْرَانِياً فوعده بالوزارة. فأَسْلَم. ووصل السلطانُ بالعساكر إلى الديار المصرية، بمَنْزِلَة المنصورة - في يوم الثلاثاء سابع عشر ذي القعدة، من السنة.

ولما وَصَلَ، وضَع يدَه على ما سَلِمَ من تركة الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وأخذ مماليكَه الصغار، وبعضَ قُماشه - وثُمِّنَ ذلك بخمسة عشر ألف دينار - وهي دون نصف القِيمة، فيما قيل. ولم يُعَوِّض الوَرَثَة عن ذلك شيئاً، فإنه قُتِل قبل ذلك.

ذكر عدة حوادث كانت في سنة سبع وأربعين وستمائة، غير ما تقدم

في هذه السنة تَأَمَّرَ بمكة - شَرَّفَها الله تعالى - أبو سعد علي بن قَتَادَة، وذلك في العشرين من ذي القعدة.

وفيها قُتل الأمير شِيحَة، صاحب المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وولي بعده ولدُه عيسى بن شِيحَة.

وفيها في خامس عشر شعبان، تُوفِّي الطَّوَاشِي مسرور بالقاهرة، ودفن بتربته بالقرافة.

وفيها، توفي الشيخ صالح أبو الحسن علي بن أبي القاسم بن عربي بن عبد الله الدِّمْيَاطي، المعروف بابن قُفْل - في يوم الأحد الرابع والعشرين من ذي الحجة، بِرباطه بالقَرافة، وبه دفن.

وفيها، توفي شهابُ الدين ابن قاضي دَارا[2]. وكان من النُّظَّار في الدولة الكامِلية، وبعدها، وَلِيَ نظر الأعمالِ القُوصِيَّة[3]. وكان السلطان الملك الكامل يكتب إليه بخَطِّه،

---

(١) الرمل: البادية بين الشام ومصر. ومن العريش إلى الصالحية. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٠١.

(٢) وهي بلدة من لحف جبل بين نصيبين وماردين، وهي من بلاد الجزيرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٧.

(٣) الأعمال القوصية وهي الأعمال التابعة لقوص: وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦٩.

ويأمره وينهاه. ويقال إنه كان من ظَلَمَة النُّظَّار، يُضْرَب بظُلمه المَثَل. سامَحَه الله - وإيانا بكَرَمِه.

واستهلَّت سنة ثمان وأربعين وستمائة

ذكر هزيمة الفرنج وأَسْرِ ملكِهم رِيدَا فْرَنْس

قال المُؤَرِّخ: لما وصلَ السلطانُ الملك المعظم إلى المنصورة، كان ملك الفرنج رِيدَا فْرَنْس(١) - بعساكره وجُموعه بالجزيرة التي قُبالة المنصورة، وهي الدَّقَهْلِيَّة. فرحل بمن معه طالباً دِمياط. وذلك في ليلة الأربعاء، مستهل المحرم، من السنة.

فتَبِعَتْهُ عساكرُ المسلمين إلى فَارِس كُور(٢)، وقاتلوه قِتالاً شديداً وأخذوه أَسِيراً - هو وأخوه - واستولوا على عساكر الفرنج، وقتلوا منهم زِيادةً عن عشرة آلاف فارِس. وأُسِرَ من الخَيَّالَة والرَّجَّالة ما يُناهِزُ مِائةَ ألف وجِيء بِرِيدَا فْرَنْس وأخيه إلى المنصورة، فاعتُقِلا في دار فخر الدين بن لُقْمَان(٣) بها. ورَتَّبَ السلطانُ الأميرَ فخر الدين الطُّوري(٤) لقتل أَسْرَى الفرنج فكان يَقْتُل منهم في كل ليلة ثلاثمائة نَفَر، ويَرْمِيهم في البحر.

وكتب السلطانُ الملكُ المعظم - كِتاباً بخَطِّه إلى الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور النائب بدمشق، مَضمونُه بعد البسملة:

«ولده تُورَانْشَاه. الحمد لله الذي أَذْهَبَ عنا الحَزَنَ. وما النصرُ إلا من عند الله. ويَومئذٍ يَفرحُ المؤمنون بنصر الله، ينصرُ من يشاء هو العزيز الرحيم. وأما بِنِعْمَةِ ربك فحَدِّثْ. وإن تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تُحْصُوها. يُبَشِّرُ(٥) المجلِسَ السامي(٦) الجَمَالِي - بل

---

(١) المقصود لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة. انظر عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للعيني، ج ١، ص ١٧.

(٢) فارس كور: هي البلدة المشهورة على شاطىء النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٥٦.

(٣) هو إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الوزير فخر الدين كاتب الإنشاء في الدولة، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. العيني: عقد الجمان ج ١، ص ١٩، حاشية (١). انظر أيضاً النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٤.

(٤) «سيف الدين بن الطودي (أحد من وصل معه من بلاد الشرق) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٦.

(٥) «نبشر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٦) المجلس السامي: كان هذا اللقب في أوائل الدولة الأيوبية مقصوراً على السلطان وحده ثم تعداه إلى =

يُبَشِّرُ[١] الإسلامَ كافَّة ـ بما مَنَّ اللَّهُ به على المسلمين، من الظفَر بعَدُوِّ الدين. فإنه كان قد استفحل أمرُه، واستحْكَم شَرُّه، ويَئِسَ العِبادُ من البلاد والأهل والأولاد. فنُودُوا: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[٢] [الآية][٣]».

ولما كان في يوم الأربعاء[٤] ـ مُسْتَهَلَّ السنة المُبَارَكة ـ تَمَّمَ الله على الإسلام بركاتها ـ فَتَحْنَا الخَزَائِنَ، وبَذَّلْنا الأموال، وَفَرَّقْنَا السِّلاح، وجمعنا العُرْبَان والمُطَّوِّعَة. واجتمع خَلْقٌ لا يحصيهم إلا الله تعالى، وجاؤوا من كل فَجٍّ عميق، ومن كل مكان بعيدٍ سحيق. ولما رأى العدُوُّ ذلك أرسل يطلبُ الصلح، على ما وقع[٥] الاتفاق بينهم وبين الملك الكامِل، فأبَيْنَا. ولما كان الليلُ، تركوا خِيامهم وأموالَهم وأَثْقَالِهم، وقصدوا دِمياط هارِبين، ونحن في آثارهم طالِبين. وما زال السيفُ يَعْمَلُ في أَدْبَارِهِم، عَامَّةَ الليل، وحَلَّ بهم الحَرب[٦] والوَيْل.

فلما أصبَحْنَا نَهارَ الأربعاء قَتَلْنَا منهم ثلاثين ألفاً، غيرَ من ألقى نفسه في اللُّجَج. وأما الأَسْرى فحَدِّثْ عن البحر ولا حَرَج. والتجأ الإفْرَنْسِيسُ إلى المِنْيَة[٧]، وطَلَبَ الأمان فأَمَّنَّاه، وأخَذْنَاهُ وأَكْرَمْنَاه. وتَسَلَّمْنَا دِمياط بعَوْنِ الله تعالى، وقُوته وجلاله وعظَمتِه. وذكر كَلاماً طويلاً.

وبَعَث مع الكتابِ غِفَارَة[٨] رِيدَا فُرَنْس إلى الأمير جمال الدين، فَلَبِسَها. وهي

= أعيان الدولة من الوزراء وكبراء الأمراء. والسلطان أصبح يلقب بالمقام و«المقر» انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٩٧. والألقاب الإسلامية للدكتور حسن الباشا، ص ٨٣. وفيه أن هذا اللقب استعمل في مكاتبات الأسرة الأيوبية وتعداهم إلى كبار رجال الدولة وكتابها. انظر أيضاً معالم الكتابة لابن شيت القرشي، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١) «نبشر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٢) سورة يوسف من الآية ٨٧ والآية هي: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٤) «يوم الاثنين» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٦.

(٥) «عليه» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٦) «يدخل فيهم الخزي والويل» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٥.

(٧) وفيه أبي عبد الله من ناحية شارفساح: وهي قرية كبيرة من القرى القديمة على الضفة الشرقية لفرع دمياط، وهي حالياً تابعة لمركز فارسكور من أعمال محافظة دمياط. انظر: القاموس الجغرافي لمحمد رمزي. ج ١، ق ٢، ص ٢٤٣.

(٨) غفارة: المعطف. بطرس البستاني: محيط المحيط. (غفر).

اسْقِلَاط[(١)] أحمر، تحته سِنْجَاب[(٢)]، وفيها شكل بُكْلَة[(٣)] ذهب. فنظَمَ الشيخُ نجمُ الدين محمد بن الخضْر بن إسرائيل[(٤)]، مُقَطَّعَات ثَلاَثاً، ارْتِجَالاً، وهي:

إن غِـفَـارَةَ الـفَـرَنْـسِـيس الـتـي جا ءتْ حِـبَـاءً لِـسَـيِّـدِ الأُمَـراء
كبياض القِرْطَاسِ لَوْناً[(٥)]، ولكِنْ صَبَغَتْـهَـا سُيـوفُـنـا بـالـدِّمـاء

وقال ـ يخاطبُ الأميرَ جمال الدين: [من السريع]

يـا واحـدَ الـعَـصْـرِ الـذي لـم يَـزَلْ يَـجُـوزُ فـي نَـيْـلِ الـمَـعَـالِـي الـمَـدَا
لا زِلْـتَ فـي عِـزٍّ وفـي رِفْـعَـةٍ تَـلْـبَـسُ أَسْـلاَبَ مُـلـوكِ الـعِـدَا

وكتب عن الأمير جمال الدين مُقَدِّمَةَ كتاب، للسلطان: [الملك المعظم][(٦)] [الطويل]

أَسَيِّدَ أَمْلاَكِ الـزمـان[(٧)] بـأَسْـرِهـمُ تَـنَـجَّـزْتَ مـن نَـصْـرِ الإلـه وُعُـودَه
فـلا زالَ مـولانـا يُـبِـيـحُ حِـمَـى الـعِـدَا ويُـلْـبِـسُ أَسْـلاَبَ الـمُـلـوك عَـبِـيـدَه

ولما وصل هذا الكتابُ بهذه البشرى، اجتمع عَوَامُّ دمشق في العشرين من المحرم، ودخلوا كنيسة مَرْيَم بالمغَانِي والبشائر، وهَمُّوا بهدْمها. وأما النصارى ببعلبك، فيقال إنهم سوَّدُوا وجوه الصُّوَر، التي في كنائسهم، حُزْناً على هذه الحادثة. فعلم بهم مُتَوَلِّي البلد، فجَنَّاهم جِنَايةً شديدة[(٨)]، وأَمَرَ اليهودَ بصفْعِهم وضربِهِمْ وإهانتِهم.

وفيها نَفَى السلطانُ الملك المعظم الملكَ السعيدَ مجيرَ الدين حسن، ابن الملك العزيز عثمان، ابن الملك العادل ـ وهو ابن عم أبيه ـ من الديار المصرية إلى الشام. ووصل إلى دمشق، واعتُقِل بعزَّتا[(٩)]، ثم أُفْرِجَ عنه، على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى.

---

(١) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي «اشكرلاط»، ج ١، ص ٣٥٧. وكلا اللفظين تعريب محرف للفظ الفرنسي écarlate. وهو اللون القرمزي. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٦ ورد اللفظ برسم «سقراط». وهو نوع من القماش لونه قرمزي كان يرد من بلاد ايرلنده.

(٢) أي فرو سنجاب.

(٣) بُكلة: معرب اللفظ الفرنسي. والمعنى مشبك. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٥٧، والعيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٢٢، حاشية (٢).

(٤) هو نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل الشيباني الدمشقي الشاعر، توفي سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٢٦، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٩٩، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٩.

(٥) «في اللون» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٢، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٨٤.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٣٢٦.

(٧) «الزمن» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٨.

(٨) أي عقوبة قوية. الفيروزابادي: القاموس المحيط: (جني).

(٩) مضبوطة هكذا بالأصل. وهي قلعة قرب دمشق (المحقق).

ذكر مَقْتَلِ السلطان الملك المعظم

كان مَقْتَلُه - رحمه الله تعالى - في يوم الثلاثاء، السابع والعشرين من المُحَرَّم، سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وسببُ ذلك أنه لما مَلَكَ شرع يُبْعِدُ مماليكَ والده وغِلمَانَه وتَرَابِيَه ويُقَرِّبُ غلمانه الذين وصلوا معه من بلاد الشرق، وجَعَلَ خادمَه الطواشي مسْرُور استاذَ داره، والطَّواشِي صَبِيح أميرَ جَانْدار - وكان عَبْداً حَبَشياً فَحْلاً - وأمر أن يُصاغَ عَصَاه من ذهب، وأنعم عليه بالأموال والإقطاعات. وتوعد جماعةً من مماليك والده، وأهانَهم، وكان يسميهم بأسمائهم، من غير أن يَنْعَتَ أحداً منهم.

وكان قد وَعَدَ فارس الدين أَقْطَاي بالإِمْرَة، فلم يَفِ له. فاستوْحَشَ منه. وكانت والدةُ خليل - سُرِّيَّة أبيه - قد توجهت إلى القلعة لَمَّا وصل إلى الشام، فأرسل إليها يتهدَّدُهَا، ويطلب منها الأموالَ والجواهر. فيقال إنها خافَتْه، وكتب إلى المماليك الصالِحِيَّة بسببه.

فاجتمع منهم جماعةٌ، واتفقوا على قَتْلِه. فلما كان يوم الاثنين - سادس أو سابع عشرين المحرم، جلس السلطانُ على السِّمَاط، واجتمع الأمراءُ على العادة، فلما تفرقوا، تقدم أحد مماليك والده، وضرَبَه بالسيف، فالتقى الضربةَ بيده، فانهزم الضاربُ فقامَ السلطانُ، ودخل إلى بُرْجِ خشب كان في خَيْمَتِه، وقال: من ضَرَبَني؟ قالوا: الْحَشِيشِيَّة[١]. فقال: لا واللَّهِ، إلاَّ البَحْرِيَّة[٢]! واللَّهِ لا أَبَقَيْتُ منهم بَقِيَّة! وقد عَرَفْتُ الضارِب[٣]، واستَدْعَى الجَرَائِحِيَّ[٤] ليَخِيطَ يدَه.

فاجتمع الجماعةُ الذين اتفقوا على قتله، وهجَموا عليه، وبأيديهم السيوف مَجْذوبة. فهرب إلى أعلى البُرْج، وأغلق بابَه. فحرقوه بالنار، فنزل من البُرْج، وهرب

---

(١) الحشاشون: هو الاسم الذي يطلق على فريق من الإسماعيلية ومؤسسها الحسن بن الصباح. وقد أبيدت في العهد المغولي. انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة «الحشاشون».

(٢) المقصود طائفة المماليك البحرية التي أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٥٩، العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٢٥.

(٣) تتفق الروايات حول مقتل المعظم ففي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٩، وعقد الجمان للنعيمي، ج ١، ص ٢٧، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٨٥، أن الذي ضربه هو واحد من البحرية اسمه بيبرس البندقداري. والبندقداري نسبة إلى البندقدار: وهو لفظ فارسي مركب معناه حامل جراوة أي كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٧ وج ٥، ص ٤٥٨.

(٤) «استدعى المزيّن ليداوي يده» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٥٩. وهنا الجرائحي معناه: الطبيب الجراح.

إلى البحر. فأدركوه، وضربوه بالسيوف! فَرَمَى نفسه في البحر، وهو يستغيثُ بهم، وتعلق بذيل أَقْطاي، واستجارَ به، فما أجارَه. وهو يقول: دَعُونِي أعودُ إلى الحصن، فواللَّهِ ما أريد المُلْك. وهم لا يَلتفتون إلى قوله. وقتلوه في الماء، فمات قَتِيلاً حَرِيقاً غَرِيقاً! وكانت مدةُ سلطنته واحِداً وسبعين[1] يوماً، وانهزم أصحابه الذين وصلوا صُحْبَتَه من الشَّرْق، واختفوا.

وكان الذين باشَروا قتلَ الملك المعظم من مماليك أبيه، أربعة حُكي عن سعد الدين مسعود بن تاج الدين شيخ الشيوخ، أنه قال: أخبرني صادقٌ أن السلطان الملك الصالح، لما أَمَر الطَّواشي مُحْسِن الخادم بقتل أخيه الملك العادل ـ أَمَرَه أن يأخذ معه من المماليك من يَخْنُقُه، فَعَرَضَ مُحْسِنٌ ذلك على جميع المماليك، فامتنعوا بأَسْرِهِم، إلا هؤلاء الأربعة، فإنهم أجابوه وتوجهوا معه، وخَنَقُوا المِلكَ العادل. فسلَّطَهم اللَّهُ تعالى على وَلَدِه الملك المعظم هذا، فَقَتَلُوه.

قال أبو المُظَفَّر يوسف سِبْطُ ابن الجَوْزِي: وحَكَى لي العِمادُ بن دَرْبَاس، قال: رأى جماعةٌ من أصحابنا الملكَ الصالحَ نجم الدين في المنام، وهو يقول: [من مجزوء الرمل]

قَتَلُوه شَرَّ قِتْلَه ... صار للعالم مُثْلَه
لم يُراعوا فيه إلاًّ[2] ... لا، ولا مَنْ كان قَبْلَه
ستراهم عن قَلِيلٍ[3] ... لأَقَلِّ الناس أُكْلَه

والملك المعظم هذا هو آخرُ ملوك الدولة الأيوبية، بالديار المصرية، المستقلين بالملك، وملكت بعده شَجَرُ الدُّرّ.

ذكر ملك شجر الدر[4]:
والدة خليل سرية الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال: ولما قُتِلَ الملك المعظم، اتفق الأمراءُ الصالِحية والبَحْرِيَّة على إقامة شَجَر

(١) في الأصل «أحد وسبعين».
(٢) إلاًّ: أي عهداً وحلفاً. ابن منظور: لسان العرب (ألل) (إلّ).
(٣) «قريب» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٨، وانظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٨٣.
(٤) ترجمتها وأخبارها في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦١، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٨٦، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٦٨، وعقد الجمان للعيني، حوادث سنة ٦٤٨ هـ.

الدُّرّ[١] ـ سُرِّيَّة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ وحَلَفُوا لها، واستَحْلَفُوا جميعَ العساكر الشامية والمصرية.

وكانت المَنَاشِير والتَّوَاقِيع[٢] تَخْرُجُ باسمها ويُكْتَبُ عليها ما صورتُه: والدة خَليل، ويَكْتُبُ المُوَقِّع: خَرَجَ الأمرُ العالي المَوْلَوِي السُّلْطاني الخَاتُوني الصالحِي، الجَلاَلِي العِصَمي الرَّحيمي ـ زاده الله شَرَفاً ونَفَاذاً. وقد شاهدتُ منشوراً منها، هذه ترجمتُه. وتواقيعُها موجودةٌ بأيدي الناس، إلى وقتنا هذا. وخُطب باسمها على المنابر. واستقرَّ الأميرُ عز الدين أَيْبَك ـ التُّرْكُمَانِي الصالِحي ـ أَتَابِكَ العساكر.

ذكر استعادة ثغر دمياط من الفرنج وإطلاق ريدا فرنس

قال: ثم حصل الاتفاقُ بين الأمراء ورِيدَا فُرَنْس ـ مِلِكِ الفرنج ـ على أن يُسَلِّمَ ثَغْرَ دمياط، ويَحْمِلَ إليهم وَظِيفَةً[٣] تَقَرَّرَتْ بينهم، ويُطْلِقُوه. فَسَلَّمَ الثَّغْرَ في يوم الجمعة، ثالث صفر، سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة. وتوجه هو ـ وأخوه وزوجته، ومن بَقِيَ من الفرنج إلى بلادهم. فكانت مدةُ استيلائهم على الثَّغْر أحدَ عشر شهراً، وتسعة أيام.

ذكر خلع شَجَرِ الدُّرِّ نفسها من الملك وانقراض الدولة الأيوبية من الديار المصرية

كان سببُ ذلك أن الأمراء اتفقوا على أن يتزوج الأميرُ عز الدين أَيْبكَ التُّرْكُمَانِي[٤] شجرَ الدر، فتزوجها، وخَلَعَتْ نفسَها من المُلْك، وسَلَّمَت السَّلْطَنَةَ إليه ـ في التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة. وكانت مدةُ مُلْكِها ثلاثةَ أشهر، وقد قيل إن زواجه بها كان في سنة تسع وأربعين وستمائة.

وانتصبَ الأميرُ عِزُّ الدين في السلطنة، وتَلَقَّبَ بالملك المُعِزّ. وأقام معه الملِك الأَشْرَفَ: مُظَفَّر الدين موسى بن صلاح الدين يوسف ابن الملك المسعود صلاح الدين

---

(١) وتسمى أيضاً «شجرة الدُّرّ» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٣٢، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٢١٢. وهي «عصمة الدين أم خليل» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦١.

(٢) التواقيع: جمع توقيع ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٤٤، حاشية (١)، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٤٤.

(٣) وظيفة: مبلغاً معيناً من المال يُدفع في وقت محدد.

(٤) كان من أكبر مماليك الصالح نجم الدين بن الكامل، مكث في الملك نحواً من سبع سنين ثم قتلته زوجته شجرة الدر أم خليل وقام بالملك بعده ابنه نور الدين علي، ولقب بالمنصور، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١١.

أَقْسِيس ملك اليمن ابن الملك الكامل ـ وكان عمره ست سنين. فأقام على ذلك زَمَناً، ثم حَجَبَهُ الملك المُعِزُّ، واستَقَلَّ بالمُلْك.

وانقرضت الدولةُ الأَيوبية من الديار المصرية.

الأيوبيون في غير الديار المصرية(١)

وبَقِيَ من ملوكها مَنْ نَذْكُرُهم: بالشام، وحصن كَيْفَا، ونَصِيبين، ومَيَّافَارِقِين، وهم:

الملكُ الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز غِياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادِي ـ صاحب دمشق وحلب وحمص، وما مع ذلك.

وليس من الذُّرِّيَّة الصَّلاَحِيَّة من يُخْطَب له بمملكة، سِواه. ومن الذُّرِّيَّة العادِلية من نذكرهم.

وهم:

الملكُ المُغِيث فَتْحُ الدين عمر ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب ـ صاحب الكَرَك والشَّوْبَك.

والملك المُوَحِّد: تَقِيّ الدين عبد الله، ابن الملك المعظم غياث الدين تُورَانْشَاه، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ـ صاحب حصن كَيْفا ونَصِيبين، وأَعمال ذلك.

والملك الكامل ناصرُ الدين محمد، ابن الملك المُظَفَّر شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ صاحب مَيَّافَارِقِين.

ومن الذُّرِّيَّة الأيوبية:

الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تَقِيّ الدين محمود ابن الملك المنصور محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين أبي سعد عُمَر بن شَاهِنْشَاه بن أيوب، صاحب حَماه.

ومن الذُّرِّيَّة الأَسَدِيَّة هؤلاء بنو أيوب: شِيركوه بن شادِي.

الملكُ الأشرف مظفر الدين موسى، ابن الملك المنصور إبراهيم، ابن الملك المجاهِد أسد الدين شيركوه، ابن الأمير ناصر الدين محمد، ابن الملك المنصور أَسَد

(١) هذا العنوان من وضع المحقق كما يقول: «ولا بد منه ليدل على المواد القادمة وهي تكوّن فصلاً مستقلاً قائماً بذاته بعد انقراض الدولة الأيوبية من مصر». (المحقق).

الدين شِيركوه، ابن الأمير ناصر الدين محمد، ابن الملك المنصور أَسَدَ الدين شِيركوه ابن شادي ـ صاحب تَلّ بَاشِر والرَّحْبَة.

وسنورد في هذا الموضع نُبَذاً من أخبارهم، تدل على مُلَخَّصِ أحوالهم، إلى حين وَفاة كل منهم، ومَنْ قَام بعده من أولاده، إن كان على سبيل الاختصار.

أما السلطان الملك الناصر(١) صلاح الدين يوسف، ابن الملك العزيز، ابن الملك الظاهر، ابن الملك الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ فإنه كان بيده مُلْكُ حلب وأعمالها

مَلَك ذلك بعد وفاة والدِه الملك العزيز ـ كما تقدم ـ في سنة أربع وثلاثين وستمائة. ثم استولى على حِمْص، في سنة ست وأربعين وستمائة: انتزعها من الملك الأشرف موسى، ابن الملك المنصور إبراهيم بن شِيركوه، وعَوَّضَه عنها تَلَّ باشِر ـ وقد تقدم أيضاً. ثم استولى على دمشق.

ذكر استيلاء الملك الناصر [صاحب حلب](٢) على دمشق

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ بعد مَقْتَل الملكِ المعظم تورانشاه ـ تجهز الملك الناصر من حلب بعساكره، فوصل إلى قَارَا(٣) في مستهل شهر ربيع الآخر(٤).

وسبب ذلك أن الأمراء القَيْمُرِيَّة(٥)، الذين بدمشق، كاتَبوه وباطَنُوه على أَخْذِها. فإن الأمير جمال الدين موسى بن يَغْمُور ـ نائب السلطنة بها ـ اتفق هو والأمراء الصالِحِيَّة النَّجْمِيَّة، الذين كانوا بدمشق، وتظافروا، واجتمعت كلمتهم. فتَغَيَّرَت بواطن الأمراء القَيْمُرِيَّة، فكاتَبُوه، فسار إلى دمشق، ولما اتصل خبر مَقْدَمِه بالأمير جمال الدين ابن يَغْمُور، أحضر الملكَ السعيد ابن الملك العزيز عثمان، من قلعة عَزَّتَا إلى دمشق ـ وكان قد اعتقله بها ـ كما تقدم، وأنزله في دار فَرُّخْشَاه.

---

(١) هو يوسف بن محمد بن غازي توفي سنة ٦٥٩/ ١٢٦١، في عقد الجمان للعيني ج ١، ص ٣٢. ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٧٨ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٣٢.

(٣) قارا: اسم قرية كبيرة على حدود حمص من أعمال دمشق وأهلها كلهم نصارى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٣٤.

(٤) «يوم السبت ثامن ربيع الآخر» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٣٣.

(٥) الأمراء القيمرية هم: ناصر الدين القيمري، وضياء الدين وشهاب الدين الكبير في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٣٣.

وتقدم الملِكُ الناصر بعساكره، ونزل القَصْر، ثم انتقلوا إلى دَارَيَّا، في يوم السبت سابع الشهر. وزحفوا على المدينة يوم الأحد ثامنه، وجاؤوا إلى باب الصغير ـ وكان مُسَلَّماً إلى الأمير صارِم الدين القَيْمُرِي، وإلى باب الجَابِيَة وكان مُسَلَّماً إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِي. فلما انتهى العسكرُ الناصِري إلى البَابَيْن، كُسِرَت أَقْفَالها من داخل المدينة، وفُتح البابان، ودخل العسكر الناصِري منهما.

ونُهِبت دار الأمير جمال الدين بن يَغْمور، وسيف الدين المُشِدّ. ونُهِبَ عسكرُ دمشق، وأُخِذَت خيولهم من إِسْطَبْلاتِهم، ودخلَ الأميرُ جمال الدين بن يَغْمُور القلعة، وبها الملك المجاهد إبراهيم، ثم نُودي بالأمان.

ونزل الملكُ الناصر في دِهْلِيز[١] ضُرْبَ له بالمَيْدَان الأخضر. ونزل الأمير شمس الدين لُؤْلُؤ ـ أَتَابِكه ـ في الجَوْسَق[٢] العادِلي. ثم انتقل الملك الناصر بعد ذلك إلى القلعة، واستولى على ما بها من الخزائن والذخائر واعتقلَ الأميرَ جمال الدين بن يَغْمُور، ثم أَفْرَجَ عنه وأَحْسَنَ إليه، واعْتَقَلَ الأمراءَ الصالِحِية، وأرسلهم إلى الحصون، وأَقْطَعَ أصحابَه أَخْبَازَهُمْ[٣].

وكان الملكُ الناصر داود ـ ابن الملك المعظم ـ قد نزل بالعُقَيْبَة[٤]، فجاءه الملك السعيدُ ابن الملك العزيز عثمان. فبات عنده ليلة. ثم هرب إلى قلعة الصُّبَيْبَة[٥] ـ وكان بها أحد خدامه، وقد كاتَبَه ـ فوصل إليها وفتح له الباب، فدخلها واستقرَّ بها.

وتَسلَّم الملك الناصر داود بعلبك من الحُمَيْدِي. وتسلم بُصْرَى وصَرْخَد. ثم قَبَضَ عليه الملكُ الناصر يوسف بعد ذلك ـ في ثاني شعبان من السنة. وذلك أن السلطان كان قد مرض ونزل بالمِزَّة[٦]، ونزل الناصر داود بالقصر بالقَابُون[٧]، فأرسل إليه الأميرَ

(١) دهليز: الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب وتختلف عن غيرها من الخيم. والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٣٨.

(٢) الجوسق: القصر. الفيروزابادي: القاموس المحيط. (جسق).

(٣) الخبز في اصطلاح ذلك العصر هو الإقطاع: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٠، حاشية (٢).

(٤) العقيبة: ضاحية بدمشق سبق ذكرها. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٨.

(٥) قلعة الصبيبة: وهي قلعة منيعة ببانياس من عمل دمشق. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٨.

(٦) المزّة: بالكسر ثم بالتشديد. وهي قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نصف فرسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٧) القابون: على مسافة ميل واحد من دمشق في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩.

ناصر الدين القَيْمُرِي ونظامَ الدين بن المَوْلَى، فأحضراه إلى المِزَّة، وضُرِبت له خيمة واعتُقِلَ بها.

واختُلِفَ في سبب القبض عليه: فنُقِل أنه كان قد طلب من السلطان دُسْتُوراً إلى بغداد. فأَذِنَ له وأعطاه أربعين ألف درهم. فأنفقها في الجُند وعَزَم على قصد الديار المصرية، وقيل: إن الملك الصالح إسماعيل جاءه كتاب من الديار المصرية، فأوقف الأتابك شمس الدين لؤلؤ عليه. وأخبر القاصدُ أنه أحضر إلى الناصر داود كتاباً، فسئل عن ذلك، فأنكره فنَقَمَ عليه السلطان بسبب ذلك. وقيل: بل أشار عليهم الملك الصالح إسماعيل بالقبض عليه، وقال: أنتم ما تعرفونه، نحن نَعْرِفُه. وأنتم على قصد الديار المصرية، والمصلحةُ أن لا نتركه خلفنا، ولا نَسْتَصْحِبُه.

فقُبض عليه، واعتُقِلَ بالمِزَّةِ أياماً، ثم نُقل في قلعة حمص، واعتقل بها. وأُسْكِنَ أهلُه ووالدته وأولاده في خانقاه الصوفية. التي بناها شِبلُ الدولة كافور الحُسَامِي. ثم نُقِل إلى البُوَيْضَا ـ وهي قرية قِبْلِيّ دمشق، كانت تكون لعَمِّه الملك المُعِزّ مجير الدين يعقوب بن العادل، وتُوفي بها، كما تقدم.

ذكر توجه رسول السلطان الملك الناصر يوسف إلى الديوان العزيز ببغداد، وما جهزه صحبته من الهدايا والتقادم، وما أورده الرسول في الديوان العزيز من كلامه

ولما استولى الملك الناصر على دمشق، جهز الصاحبَ كمال الدين أبا حفص عمر بن أبي جَرَادة ـ المعروف بابن العَدِيم[(١)] إلى الديوان العَزِيز[(٢)].

قال تاجُ الدين علي بن أَنْجَب ـ المعروف بابن السَّاعي ـ في تاريخه: كان وصولُ كمال الدين بن أبي جَرَادَة إلى بغداد، في شعبان، سنة ثمانٍ وأربعين فأُكْرِمَ، وخرج إلى لقائه مَوْكِبُ الديوان العَزِيزي، مُصَدَّراً بعارِض الجيش مُجَنَّحاً بخادِمَيْن من خَدَم الدار

(١) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين بن العديم. مؤرخ، محدث، من الكتّاب ولد بحلب ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق. توفي بالقاهرة له كتاب «زبدة الحلب في تاريخ حلب» وله شعر حسن. ولد عام ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م توفي عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م. الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ٤٠، ترجمته وأخباره في: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ٣، ص ١٢٦. وفيه ولد سنة ٥٨٦ هـ، وتوفي سنة ٦٦٦ هـ. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٠٣، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٤٩.

(٢) هو ديوان الخلافة ببغداد والخليفة في تلك الأيام هو المستعصم بالله.

العزيزة. فالتقاه ظاهرَ البلد، ودخل معه، وقَبَّلَ صخرةَ باب النُّوبِي على العادة، وانْكَفَأَ إلى حيث أُنْزِل.

وحضَرَ ـ في اليوم الثالث من قدومه ـ دارَ الوزير، وأدى رسالَته. وعرض ما صحبه من تُحف وهدايا. ومن جملة ذلك: دار خشب بديعة الصنعة، وخمسة وعشرون[1] جملاً، وعشرة أرؤس من الدواب: منها أربع بغلات، وبقيتها من جِيَاد الخيل، مُجَلَّلَة بالأَطْلَس وزَرَدِيَّات وخُوَذ ـ عمل الفرنج ـ ومائة وخمسين طَقْشاً[2]، وثلاثمائة تُرْس لليد، وعشرين ثوباً سِقْلاط. ومن الثياب: الأطلس والرُّوسي والخِطَائي[3] والمُمَوَّج، ومَقاصِير ونَقايِير وخياشي مذهبة، وحَريري ألف وخمسمائةِ قطعة، وصناديق بها أواني ذهب وفضة مجوهرة، وثلاثمائة مُجَلَّد بخطوط مَنْسُوبَة، وأصولِ صحيحة الضَّبْط، ومصحف كريم بخط ابن الخَازِن، وكتب عليه من نظمه قوله: [من الكامل]

وعليكُمُ نَزَلَ الكِتابُ وفيكُمُ   وإلى رُبُوعِكُمُ نَحِنُّ ونَرْجِعُ

قال: وكان قد جلس له الوزيرُ في الشُّبَّاك العَالِي، وجَلَسَ بين يديه على الصُّفَّة الطويلة، ظاهِرَ الشباك، حاجِباً باب النُّوبِي ـ وذكر جماعةً قال: ثم أُذِنَ للرسول في الدخول، وجَلَسَ إلى جانب حاجِب باب النُّوبِي. وقرأ القُرَّاء، ثم نهض الرسولُ، وخطب خُطبةً بليغة من إنشائِه.

قال ابن أنجب: وكنت حاضراً، ومن خَطِّه الرائقِ نقلتُها، وهذه نُسختُها.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي أَسْبَغَ علينا جَزِيلَ النِّعْمة، ودَفَعَ عنا وَبِيلَ النِّقْمَة. ومَنَّ علينا بالخلفاء الراشدين، والأئمة المَهْدِيِّين. وجعلنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بأنوارهم خيرَ أُمَّة.

أحمدُه على هِباته السَّنِيَّة وصلاتِه الهَنِيَّة، ومِنَنِهِ التي لا تُحصى بحَدّ ونعَمِه التي لا تُسْتَقْصَى بِعَدّ ـ حَمْدَ من لَزِمَه الحمدُ وَوَجَبَ. وتمسك من الطريقة المُثْلَى بأقوى سَبَب. وأَحَلَّنَا اللَّهُ دارَ المُقَامَةِ من فَضْلِه، لا يَمَسُّنَا فيها نَصَب.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده، شهادةَ من أزال عنه الشكَّ ونَفَى، وخَلَصَ منه

(١) في الأصل: وعشرين.

(٢) هكذا في الأصل. لفظ فارسي الأصل معناه: الكنانة، أو الجعبة التي توضع فيها السهام، أصلها تركاش أو طركاش. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧١.

(٣) نسبة إلى بلاد الخطا، من بلاد الترك في أواسط آسيا. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠٦.

الإيمانُ وَصَفَا. وتَبَوَّأَ من مَنازِلِ الفَوْزِ غُرَفاً، واكتسب بطاعة إمَامِه فَخْراً وشَرَفاً. وأشهد أن محمداً عبدُه المصطفى المُجْتَبى، ورسولُه الذي اقْتَعَدَ ذِرْوَةَ الشَّرَفِ واحْتَبَى. وتَبَوَّأَ على المَقَاماتِ رُتَباً. وفَضَلَ العالَمِين أَصْلاً، ونَسَبا ـ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابِه، ما هَبَّتْ شَمالٌ وصَبا.

والصلاةُ والسلام على قَسِيمِ النَّبيِّ في النَّسَب، وشَرِيكِه في مَدَارِجِ الفَخَارِ والرُّتَب، وَاحِدِيّ ما لَه من المَنَاقِبِ والحَسَب: خليفةِ الله في أرضه. القائم بسُنَنِه وفَرْضِه. المُسْتَخْرَج من عُنْصُر النبوة، المَخصوص بفضيلتي. العلم والأُبوة.

إمام الزمان، المُتَهَجِّد بتلاوة القرآن. الذي هَجَرَ في حِفْظِ دين الله وسَنَه[١] ودَعَا إلى سبيلِ ربه بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحسنة. ذي الفضل المُبِين، والحَقِّ اليَقين. الإمام الأَوَّاه: المُسْتَعْصَم بالله، أميرِ المؤمنين[٢] لا زالت جِبَاهُ المُلوك العظماء بثَرَى عَتَبَاتِه الشريفة مَوْسُومَة. وأرزاقُ العِباد بما جرى من أوامره اللطيفة مَقْسُومة. والأقضيةُ والأَقْدَارُ جاريةً بما يوافق حُكْمَه مَرْسُومَة. والأَقْذِيَةُ والأَقْذَار بطُول بقائه مَنْفِيَّةً مَحْسُومَة: [من البسيط]

ماذا يقولُ الذي يتلو مدائحَه وقد أتتْنا بها الآياتُ والسُّوَرُ
إن قالَ، فالقولُ يَفْنَى دون غايتِها وإن أطالَ، ففي تطويله قِصَرُ
خليفةَ الله، لا تُحْصَى مَنَاقِبُكُم إنَّ البليغَ بها في حَصْرِها حَصِرُ[٣]
أما الشفاعةُ عنكم في المَعَادِ لنا لذي الكبائِرِ والزَّلَّاتِ تُدَّخَرُ
أَما النَّدَى من نَدَاكُمْ جَادَ صَيِّبُهُ[٤] من بعد ما ضَنَّ، فاسْتَسْقَى به عُمَرُ[٥]
فالغَيْثُ في هذه الدنيا لنا بِكُمُ والغَوْثُ تَرْجُوهُ في الأُخْرَى ونَنْتَظِرُ

وبعدُ: فإن اللّهِ ـ وله الحمدُ ـ جعل لنا أَئِمَّةً خِيَرَة، راشِدِين بَرَرَة يُهْتَدَى بهُدَاهم، ويُجْتَدَى[٦] نَدَاهُمْ. دَفَعَ عَنَّا الشُّبَه واليَأْس، ورَفَعَ بهم النِّقْمَةَ والالْتِبَاس. وآخرِ نَسْلِ عَمِّ نَبِيِّهِ العَبَّاس، مَنْ تَمَسك بهُدَاهم اهْتَدَى. ومن حَادَ عن طريقِهم حَادَّ[٧] اللّهَ واعْتَدَى.

(١) الوسن: النوم: الفيروزابادي: القاموس المحيط (وسن).
(٢) هو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، توفي سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٥٩.
(٣) حصر: أي عَيّ. ابن منظور: لسان العرب (حصر).
(٤) الصَّيب: المطر المنهمر. ابن منظور: لسان العرب (صيب).
(٥) المقصود: عمر بن الخطاب.
(٦) يجتدي: يطلب: بطرس البستاني: محيط المحيط (جدا).
(٧) حادّ: شاقق، ابن منظور: لسان العرب (حدَد).

بحُبِّهِمْ يُدْرِكُ الأَمَل والسُّول. وطاعتُهم مَقْرُونَةٌ بطاعةِ الله والرسول، تعظيمُهم واجب مُفْتَرَض. وبِمُوَالاَتِهِم يُدْرَك الفَوْزُ والغَرَض. أقربُ الناس إلى الله من هو في ولايتهم عَرِيق، وأَوْلاَهُمْ بالنجاةِ من هو في بحر مَحَبَّتِهِمْ غَرِيق.

ولما كان عبدُ الديوان العَزِيز: يوسفُ بن محمد بن غَازِي ـ المُسْتَعْصِمِي[١] ـ مِمَّنْ تَقَمَّصَ بِلِباسِ هذه الأوصاف، وتخصص باقْتِباسِ هذه الشِّيَم الشِّرَاف. وتَرَدَّى بالتمسك في هذه الحُلَّة الجَمِيلة، وتَبَدَّى بالتَّنَسُّكِ بهذه الخِلَّة الجَلِيلَة. واغْتَدَى متَقَلِّباً في صدَقات الدِّيوان. واغْتَذَى من نِعَمِه بِلِبَان الإحسان، ووَرِثَ ولاءَ هذا البيت النبوي الفاخر، كابراً عن كابر، وأصبح أوَّلاً في العُبُودِيَّة، وإن أَمْسَى زَمَنُه الآخِر. وكان أَحَقَّ العبيدِ بأن يُقْبَلَ ـ لسَلَفه سَوَالِفَ الخِدَم. وأَوْلاَهُمْ بأن يُسْبَلَ عليه مَعَاطِفُ أَذْيَالِ الجُود والكَرَم ـ أَحَبَّ أَنْ تَظْهَرَ عليه آثارُ هذه النِّعْمَة. وأن يُدْرِكَ بها الفضلَ في الدنيا، كما يَرجو في الآخرة الرَّحْمَة.

فارْتَادَ من رَعِيَّتِه من يقومُ مَقَامه في تقبيلِ الأرض، ويقفُ عنه هذا الموقِفِ الجميل لأداء الفَرْض. ووجَدَ هذا العبدَ المملوكَ ـ المائلَ بين يديْ مولانا: سلطان الوزراء وسيدِ المُلوك ـ أَقْدَمَهُمْ في وِلاَياتِ هذه الدولة النَّبَوِيَّة المُعَظَّمَة أَصْلاً، وأَبْلَغَهُمْ في مُوالاة المواقف المقدسة المكرمة نَسْلاً، وأَصْلَبَهم، عند العَجْم[٢] في دَعْوَى الرِّقِّ والوَلاَء عُودا. وأَثْبَتَهم في التَّعَلُّق بدولة الحقِّ والانْتِماء عَمُودَا. فَنَدَبَهُ إلى المَسِير إلى دارِ السلام. والنيابةِ عنه في هذا المَقَام. والطَّوَاف حول كَعْبَة الرجاء والاسْتِلام. وإنْهَاءِ ما تَجَدَّدَ من الأَحوال بمصرَ والشَّام. وأَنْ يَضْرَعَ إلى عَواطِف الإفضال، ومَشَارِعِ النَّوَال. ويَخْضَعَ لمواقِف الآمال، وشَوَارِع الإقْبال في أن يَحْفَظَ له حَقَّ الآباءِ والجُدُود.

وقد وَقَفَ العبدُ المملوكُ عنه في هذا الموقِف الجليل، وحَجَّ عن فَرْضِه إلى كَعْبَةِ الجُود والتَّأْمِيل. وحَظِيَ باستلام حِجْرِ رُكْنِها وفازَ بالتَّقْبِيل. ويَوَدُّ مُرْسِلُه لو فَازَ به أو استطاع إليه سَبيل. فإنه قد حَصَلَ للعبدِ من القَبُول والثواب. ما أَفَاءَ على الأمل وزاد على الحِسَاب. وتُصُدِّقَ عليه من الديوان العزيز بصدَقة، يبقى فخرها في الأَعْقَابِ، ولا يَنْسَخُ حُكْمَها مَرُّ السِّنِين والأَحْقَابِ. واللَّهُ تعالى يُسْبِغُ ظِلَّ الدِّيوان العَزِيز على كافَّةِ أَوْلِيائِه، ويُمَتِّعُهم بدوام اقتدار سلطانه وطول بَقائِه، ويُوَزِّعُهم[٣] شُكْرَ مولانا سلطانِ الوزراء وجَزِيلِ آلائِه. ويَتَوَلَّى حُسْنَ مُجَازاته عنهم، فإنهم عاجِزون. والحمدُ لله رب

(١) المستعصمي: نسبة إلى الخليفة المستعصم بالله.

(٢) عجم العود: اختبار مدى صلابته، ابن منظور: لسان العرب (عجم).

(٣) يوزعهم: أي يلهمهم. ابن منظور: لسان العرب (وزع).

العالَمين. وصلّى اللّهُ على سيدنا محمد وآلِه وصحبه، وسلم تسليماً.

قد سَيَّرَ عبدُ الديوان العزيز: يوسفُ، إلى الخزائِنِ المقدسة، والمواطن التي هي على التَّقْوى مُؤَسَّسَة - خِدْمةً على يد أقلِّ مماليكِ الديوان وعبيدِه من طارِف إنعام الديوان العَمِيم وتَلِيدِه، وسالِفِ الإحسان القديم وجديدِه، وهو يَضْرَعُ إلى العواطِف الرحيمة، ويَسْأَلُ من الصَّدَقاتِ العَمِيمَة، أنْ يُنْعِمَ عليه بقَبُولِها، والتَّقَدُّم بحَمْلِها إلى الخزائن الشريفة ووُصولِها، وأَنْ يُكْسَى بذلك فَخْراً لا يُبْلى جِدَّتَه مَرُّ الليالي والأيام. ولا يُذْهَبُ نَضْرَتَه كَرُّ السِّنين والأعوام، والسلام.

فعند ذلك، أَذِنَ الوزيرُ مُؤَيِّدُ الدِّين بن العَلْقَمِي في إحضار الهَدَايا والمَدّ، المُقَدَّم ذكره، فأُدْخِلَ شيئاً فشيئاً - والرسولُ قائم - إلى أن أُحْضِرَ جميعُه، وعُرِفَ قَبُولُه ثم انْكَفأَ إلى مَنْزِله، واسْتُحْسِنَ إِيرَادُه، واستُجِيدَ إنْشَادُه، وزيد في احْتِرامِه، وبُولغ في إكْرَامِه.

الحرب بين الملك الناصر والملك المعز

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة - أيضاً - كانت الحربُ بين الملك الناصر، والملك المعز صاحب الديار المصرية.

وذلك أنه لما استقر له مُلْكُ دِمشق، وأضافها إلى ما بيده، حَسَّنَ له أَتَابَكُه - شمسُ الدين لُؤْلُؤ [بن عبد الله، مقدم عسكر حلب](1) - والأمراءُ القَيْمُرِيَّة، أَنْ يَقْصِدَ الديارَ المصرية، وينتزعَها من الملك المُعِزّ: عِزِّ الدين أَيْبَك التُّرْكُماني. وكان شمسُ الدين لؤلؤ - المذكور - يستقِلُّ عساكرَ الديار المصرية، ويقول: أنا آخُذُ الديارَ المصرية بمائتي قِنَاع(2)!.

فسار بجيوشه إليها، فخرج إليها الملك المعزُّ بالعساكرِ المصرية، والتَقُوا واقتَتَلُوا بمَنْزِلَة الكُرَاع(3)، بالقرب من الخَشَبِي(4). فكان الظفر له أَوَّلاً، وبلغت الهزيمةُ بالعسكر المِصري إلى القاهرة. ومنهم من فَرَّ إلى جهة الصَّعِيد، وذلك في يوم الخميسِ العاشر من ذي القعدة من السنة. واتصل خبرُ الهزيمة بمَنْ بقلعة الجَبَل، فخُطب للملكِ الناصر بها - في يوم الجمعة الحادي عشر من الشهر.

ولما حَصَلَتْ هذه الهزيمةُ على العسكر المصري. ثَبَتَ الملكُ المعز في نحو

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٧.
(٢) القناع: هو ما تتقنع به المرأة. ابن منظور: لسان العرب (قنع).
(٣) الكُراع: وهي قرية من العباسة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧٤.
(٤) وهو بين بلبيس والصالحية يعرف اليوم بالسعيدية. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧٤.

ثلاثمائة فارس أبطال أصحابِهِ. وحمل بهم على الصَّنَاجِقِ الناصِرية، رجاءَ أن يكون الملك الناصر تحتها. فيظفر به. وكان الملك الناصر قد احتاط لنفسه، واعتزل المعركة، وتَحَيَّزَ إلى فِئَة. فرجَعَ إلى الشام ـ وصحبه نَوْفَل الزَّبِيدي، وعلي السَّعْدِي. وكان من انهزام عساكره وتمزيق جيوشه، وقَتْلِ أتابِكه، ما نذكره في أخبار الملك المعز ـ جَرْياً على القاعدة.

وكان الأتابك شمس الدين لؤلؤ قد أُسِر، فأراد الملك المعز إبقاءَه، وأشار عليه بذلك الأميرُ حسام الدين بن أبي علي، وقال: لا تَقْتُلْه، فإنك تأخذ به الشامَ. فقال الأمير فارس الدين أَقْطَاي: هذا الذي يقول: إنه يأخذُ مصرَ بمائتي قِناع! فضربوا عُنُقَه! وكان ـ رحمه الله تعالى ـ أَرْمَنِيَّ الجنس، صالحاً عابِداً، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقُتِل وقد نَافَ على ستين سنة[١].

ولما حَصَلَتْ هذه الوَقْعَةُ، تَأَكَّدَتْ أسبابُ الوَحْشَةِ بين الملكين: الناصِر والمُعِزّ، وثارت الفِتَنُ بينهما، وتَجَرَّدَت الجُيوش من كل من الطائِفَتين مُقَابِلَةَ الأخرى، إلى أن قَدِمَ الشيخُ نجمُ الدين البادَرَائِي رسولُ الخليفة، فأصلحَ بين المَلِكَيْن. ووقَعَ الاتفاقُ على أن يأخذ الملكُ المعز من الملك الناصر القُدْسَ وغَزَّة، وجميعَ البلاد الساحلية، فَتَسلَّمَ ذلك. وحَلَفَ كُلٌّ من الملِكين للآخَر. ثم استعاد الملكُ الناصِر ذلك من الملك المُعِزّ، لَمَّا التحق بها الأمراءُ البَحْرِيَّة عند هربهم من الديار المصرية، بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي ـ على ما نذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى. فلنذكرْ خلافَ ذلك من أخباره.

ذكر اتصال السلطان الملك الناصر بابنه السلطان علاء الدين كيقباذ

وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وصلت الخاتُون الكبرى، ابنة السلطان علاء الدين كَيْقُبَاذ السَّلْجُقِي[٢] ـ صاحبِ الروم[٣]، وأُمُّها ابنةُ السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ـ صُحْبَةَ الشريف عز الدين المُرْتَضَى ـ وكان السلطان قد عَقَدَ نِكَاحَها قبل ذلك، فزُفَّتْ إليه الآن. ووصلت إلى دمشق، واحتُفِل لها احتفالاً عظيماً، وتلقاها القضاةُ والأكابر، وقَدَّمُوا لها التَّقَادم[٤] الكثيرة، وتَجَمَّلَ الملكُ الناصر لقدومها تَجَمُّلاً، لم يَرَ الناس مثلَه.

---

(١) «قتل في يوم الخميس عاشر ذي القعدة» المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٠.

(٢) هو علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان، كان أصغر الإخوة الثلاثة الذين شاركوا في حكم البلاد السلاجقة الروم. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٠، حاشية (١) وص ٤٠٨.

(٣) أي الدولة السلجوقية التي كانت ببلاد الروم.

(٤) التقادم جمع تقدمة. وهي الهدية. ابن منظور: لسان العرب (قدم).

وفي هذه السنة، توفي الملك القاهر: نُصْرَةُ الدين ابن الملك الناصِر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وهو عَمُّ والدِ الملك الناصر. وكانت وفاته بحلب ـ رحمه الله تعالى.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة

فُتحت[١] المدرسة الناصرية[٢]، التي عَمَرَها الملكُ الناصرُ داخلَ باب الفَرَادِيس[٣] بدمشق، وذُكِرَ بها الدرس بحضرةِ السلطان [الملك الناصر يوسف][٤].

وفيها شَرَعَ الملك الناصر في عمارة ترتبه ورِباطه، غربيَّ قاسِيون.

وفيها وصل الشيخ نجم الدين البادَرَائِي[٥] رسولاً من جهة الخليفة [المستعصم بالله][٦] إلى دمشق. فرُتِّبَ له في كل يوم مائةُ دينار، والإقامات الوافِرة، وبُنِيَتْ له المدرسة البادَرَائِيَّة بدمشق ـ وكانت قبل ذلك الدارَ المعروفة بأسامة.

وفيها ـ أيضاً ـ كانت وفاةُ الملك المُعِزّ مجيرِ الدين يعقوب، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. ودفن بتربة والده بالمدرسة العادِلية بدمشق، وحضر السلطان جنازته وغلق البلد، وخلَّف ولديْن وهما: شهاب الدين غازي المعروف بالأسود، وسيف الدين أبو بكر، وابنه ـ رحمه الله.

وفيها كانت وفاةُ الشيخ الإمام، العالم الواعظ، شمس الدين أبي المُظَفَّر يوسف بن قَزْغْلِي: سِبْط الشيخ جمالِ الدين أبي الفَرَج بن الجَوْزِي. كان والدُه قَزْغْلِي تُرْكِيًّا من عُتَقَاءِ الوزير عَوْنِ الدين بن هُبَيْرَة[٧]، زوجه أبو الفرج بن الجَوْزِي ابنتَه، فَوَلَدَتْ شمسَ الدين هذا. فنُسِبَ إلى جَدِّه. لا إلى أبيه.

وكانت وفاته بدمشق في ليلة الثلاثاء، حادي عشر ذي الحجة، بمنزِله بقاسِيون.

---

(١) فتحت في سابع المحرم سنة ٦٥٤ هـ. العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ١٢١.

(٢) «المدرسة الجوانية» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٢١. والدارس للنعيمي، ج ١، ص ٣٥٠. وحضر فيها المدرس قاضي البلد صدر الدين بن سني الدولة، وحضر عنده الأمراء والعلماء وجمهور أهل الحل والعقد. والمدرسة الناصرية: نسبة إلى الملك الناصر.

(٣) الفراديس: باب من أبواب دمشق.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٢١.

(٥) هو الشيخ الإمام نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي البادرائي ولد في سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧ م. وسمع الكثير وتفقه وبرع ولي قضاء القضاة ببغداد، وتوفي سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م.

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٩٧.

(٧) هو يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة أبو المظفر، الوزير عون الدين المتوفى سنة ٥٦٠ هـ. وزر للمقتفي والمستنجد العباسيين. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٥. حاشية (٢).

ودفن هناك. ومولده في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد. وشَهِدَ السلطان جنازته. وكان كريماً على الملوك الأيوبيّة. تَقَدَّمَ من أخباره ما يدلُّ على ذلك. وله مُصَنَّفَات منها: «مِرآة الزَّمَان» ـ رحمه الله تعالى.

وفي سنة ست وخمسين وستمائة

كانت وفاة الأمير سيف الدين: علي بن عمر بن قَزَل التُّرْكُمَانِي، اليَارُوقي، المصري المولِد والمَنْشَأ، الدِّمَشْقِي الوَفَاة، المعروف بالمُشِدّ[١]. ودُفن بقاسِيون. ومولده في شوال سنة اثنتين وستمائة. وكان فاضلاً أديباً. وله ديوان شعر مشهور ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ محيي الدين: محمد بن علي بن محمد بن أحمد، الطائي الحاتمي، المعروف بابن العَرَبي، بدمشق ـ في ثاني جُمادي الآخرة، ودفن بقاسِيون. ومولدُه في سابع عشر رمضان، سنة ثمان عشرة وستمائة.

ذكر سِيَاقَةِ أخبار الملك الناصر ومراسلته هُولاكو، وغير ذلك من أحواله ـ إلى أن قُتِلَ ـ رحمه الله

قالوا: ولمَّا اتَّصَلَ بالملكِ الناصر صلاح الدين ما ذكرناه، من أخبار هولاكو[٢]، واستيلائه على الممالِك، وتَقَدُّمِ جيوشه، ارْتَاع لذلك وسُقِطَ في يدِه. وكان قبل ذلك قد تَغَافَلَ عن مُرَاسلة هولاكو منذ وَصَلَ إلى العِراق، فاستَدْرَكَ الفَارِط، وجَهَّزَ وَلَدَه الملكَ العزيزَ إلى خِدمته، وبَعَثَ معه كِتاباً إلى بَدْر الدين لؤلؤ صاحبِ الموصل، والتمس منه أن يُحْسِنَ السِّفَارَة بينه وبين هُولاكو، ويعتذر عنه. وكتب علاءُ الدين بن يَعِيش ـ كاتبُ الملك الناصر ـ كِتاباً إلى صاحب الموصل، يَذْكُرُ أنه سَيَّرَ ولدَه إلى خِدمة هولاكو، واستَشْهَدَ فيه بقول الشاعر:

* والـجُـودُ بـالـنـفـسِ أَقْـصَـى غـايـةِ الـجُـود *

فقال الملكُ الناصر: لو استَشْهَدْتَ بِبَيْتَيْ أبِي فراس كان أَنْسَبَ. فقال: وما هما؟ قال: قوله: [من الطويل]

---

(١) راجع صفحة ٢٢٦، حاشية (٣).

(٢) هو قائد التتر المشهور ويقال له «هلاون» وهو هولاكو بن تولي خان بن جنكزخان المغلي. عن أخباره انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٤٢. وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٥٤، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٤، ص ٣٠٨، (طبعة دار الكتب العلمية) ومؤرخ المغول الكبير لرشيد الدين فضل الله الهمذاني ص ٢٨ ـ ٣٥.

فَـدَى نَـفْـسَـهُ بـابْـنٍ عـلـيـه كـنَـفْـسِـه   وفـي الـشِّـدَّةِ الـصَّـمَّـاء تَـفْـنَـى الـذَّخَـائِـرُ
وقـد يُـقْـطَـعُ الـعُـضْـوُ الـنَّـفِـيسُ لـغَـيْـرِه   ويُـدْفَـعُ بـالأَمْـرِ الـكَـبِـيـرِ الـكَـبَـائِـرُ

فأصلح الكاتِبُ الكتاب.

وتوجه الملك العزيزُ بالهدايا النفيسة والتُّحَف، وسيَّرَ الملكُ الناصر زينَ الدين الحافِظِي الأميرَ سيف الدين الجاكي، وجماعةً من الحُجَّاب ـ وذلك في سنة خمس وخمسين وستمائة.

فلما وصلوا إلى هولاكو وقَدَّموا التقادم، سأل عن سبب تأخر الملك الناصر عن خِدمته. فاعتذروا أن الفرنج بجوار بلاده، وأنه خشي إن فارقَها أن يستولي عدوُّه عليها، وأنه سيَّرَ ولدَه ينوب عنه. فأظهر هولاكو قبولَ العذر ـ وباطنُه بخلاف ذلك ـ وأعادَهم. وكان وصولُهم إلى الملك الناصر في سنة سبع وخمسين وستمائة.

فَعَرَّفَ الزينُ الحافظي المِلِكَ الناصرَ أن هولاكو أقبلَ عليهم، وأحسنَ إليهم. فقال بعضُ الأمراء، الذين في صحبة الملك العزيز: ليس الأمرُ كذلك، وإنما الزَّيْنُ الحافظيّ كان يتردد إلى هولاكو ويجتمع به سِرًّا، وأطمعَه في البلاد، وكان الأمر كذلك.

وفي خلال ذلك، وصل الأمراءُ الشَّهْرَزُورِيَّة[1] إلى الشام، عند انهزامهم من هولاكو ـ وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، فأشار الأمراء القيمُرية باستخدامهم، ليكثر بهم جمعه ويستظهر بهم على أعدائه، فاستَخْدَمَهم، وأنعم عليهم وأحسن إليهم، ووصلهم بالأموال، وهم لا يزدادون إلا طَلَباً.

ثم بلغه عنهم أنهم مالوا إلى الملك المُغِيث صاحب الكَرَك، فزاد في الإحسان إليهم، فلم يُفِدْ ذلك فيهم. ثم فارقوه، وقصدوا الملكَ المغيث واتصلوا به. فاجتمع عنده البَحْرِيَّة والشَّهْرَزُورِيَّة، فقويت نفسه وطمِع في أخذ دمشق، وكاتب جماعةً من الأمراء الناصرية وكاتبوه.

فاتصل ذلك بالمِلِك الناصِرِ، فأنعم على أمرائه وطَيَّبَ خواطرهم، وجَدَّدَ عليهم الأَيْمَان. فامتنع جماعةٌ من الأمراء العَزِيزِيَّة ـ مماليكِ والِده ـ من الحِلْف، فزادهم وبالغ في الإحسان إليهم. ولم يُكَلِّفْهم اليمين.

(١) الشهرزورية: نسبة إلى شهرزور، إحدى جهات كردستان حيث توجد مدينة بهذا الاسم. وكانت بتلك الجهات جماعة الأكراد الكومسية، وقد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد، وتقدمت جيوشه شمالاً نحو شهرزور وغيرها. نفر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤١١، حاشية (٣).

ثم بلغه أن الملك المغيث خرج من الكَرَك لقصد دمشق، فخرج بعساكره في أوائل سنة سبع وخمسين، ونزل ببركة زَيْزَا(١)، وخَيَّمَ بها نحواً من ستة أشهر، ثم وقع الصلح بين الملِكَيْن. وحصل الاتفاق على أن يسلم الملك المغيثُ إليه البَحْرِيَّة، فَسلَّمَ إليه من نذكره منهم.

وعاد إلى دمشق. فلما استقر بها، بلغه أن هولاكو وصل إلى حَرَّان، ونازلها بعساكره. فاستشار الأمراءَ فيما يفعله. فأشاروا عليه أن يخرج بالعسكر الشامي إلى ظاهر دمشق، وصمموا على قتال هولاكو، فخرج بعسكره وخيموا بظاهر بَرْزَة(٢). فصار نجمُ الدين الحاجب والزَّيْنُ الحافِظي ـ وجماعةٌ معهما ـ يذكرون شِدة عزم هولاكو، ويُعَظِّمُونَ أمرَه، ويقولون: من الذي يلتقي مائتي ألف فارس؟! فضَعُفَتْ نفسُه عن ملاقاته.

ثم بلغه أن هولاكو ملك قلعة حَرَّان، وأنه عزم على عبور الفرات إلى جهة الشام، ومنازلة حلب، فازداد ضعفاً إلى ضعفه. فاجتمعت آراءُ الأمراء والعساكر أن يُسَيِّرُوا نساءهم وأولادهم إلى الديار المصرية، ويقيمون هم في خدمة الملك الناصر جرائدَ، ففعلوا ذلك. وبعث الملك الناصر زوجتَه: ابنة السلطان علاء الدين كَيقُبَاذ بن كِيخَسْرو السَّلْجُقي صاحبِ الروم ـ وكان قد تزوج بها في سنة تسع وأربعين وستمائة ـ إلى الديار المصرية، وبعث معها ولدَه وأمواله وذخائره. وكذلك فعل جميعُ أمرائه وأجْناده، وصار الجندُ يتوجهون بنسائهم على أنهم يوصلونهم ويرجعون، فمنهم من يعود، ومنهم من لا يعود. فتَفَلَّلَت العساكرُ وتفرقت الجنود، وضعفت النفوس، ولم يبق مع الملك الناصر إلا جماعة من أمرائه جَرَائِد.

ونازل هولاكو مدينةَ حلب في المحرم، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. وفتحها عَنْوَة. وسَفَكَ فيها من الدماء ما لم يسفك مثله، ببلاد العجم! وأسر التتارُ من النساء والصبيان ما يزيد على مائة ألف.

ثم فتح قلْعة حلب، في حادي عشر ربيع الأول من السنة، وأخذ جميعَ ما فيها. وأسر أولادَ الملك الناصر وأمهاتِهم. وخرج إليه الملك المعظم تُورَانْشَاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ وكان شيخاً كبيراً ـ فلم يتعرض هولاكو إليه، وأَمَّنَهُ على نفسه. ومات الملك المعظم بعد أيام يسيرة. واستَمَرَّ هولاكو بالوزير المؤيد بن القِفْطِي، على حالِه.

---

(١) زيزاء: من قرى البلقاء كبيرة وأصله في اللغة المكان المرتفع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٤.

(٢) برزة: قرية من غوطة دمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٥.

فورد الخبرُ على الملك الناصر بأخذ حلب، وهو نازل على بَرْزَة. فاستشار الأمراءَ، فأشاروا عليه أن يتأخر إلى غَزَّة، وأن يكاتب الملكَ المظفر قُطُز ويستدعيه بعساكر الديار المصرية، ليجتمع الكل على لقاء هولاكو، ودفعه عن البلاد.

فعمل برأيِهم، ورحلوا يوم الجمعة بعد الصلاة، منتصف صفر، سنة ثمان وخمسين وستمائة. فانْقَضَتْ مملكةُ الملك الناصر في ذلك اليوم.

وكانت مدةُ ملكه بحلب ثلاثاً وعشرين سنة، وسبعة أشهر، ومدة ملكه منها بدمشق عشر سنين، إلا خمسين يوماً. ونزل الملك الناصر بمن معه على غزة، وأقام بها.

ولما توجه الملك الناصر، دخل الزَّيْنُ الحافِظِي[(١)] إلى دمشق وجَمَعَ أكابرَها، واتفقوا على تسليم دمشق لنُوَّابِ هولاكو، وأن يحقِنوا دماءَ أهلها. فتسلمها فخر الدين المَرْدَغَاوِي وابن صاحب أرْزَن والشريف علي ـ وكان هؤلاء رسلَ هولاكو إلى الملك الناصر ـ وكانوا عنده بظاهر دمشق: فلما دخلوا إليها وتسلموا قلعتها، كتبوا بذلك إلى هولاكو. فسير إليها المان التتري وعلاء الدين الكازي العجمي، نُوَّاباً، وأمرهما هولاكو أن يخرجا عن إشارة الزَّيْنِ الحَافِظِي، وأوصاهما بالإحسان إلى أهل دمشق.

ثم بلغ هولاكو وفاة أخيه مَنْكُوقَان[(٢)]، فعاد من حلب ـ كما قدمناه في أخباره.

وبعث كَتْبُغَا نُوين[(٣)] في جيش كثيفٍ إلى الشام فوصل كَتْبُغَا إلى دمشق، وأقام بها أياماً، ورحل عنها إلى مَرْج بَرْغُوث[(٤)]. ثم وصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو ـ وكان قد توجه إلى خدمته وهو بحلب ـ فعاد وبيده مَرْسُومَة، أن يكون نائبَ المملكة بدمشق وحلب، وجميع البلاد الشامية.

فاجتمع بكَتْبُغَا في مَرْج بَرْغُوث. فبعث إلى الزَّيْن الحافِظِي ونوابِ دمشق بالاتفاق مع الملك الأشرف، على مصالح البلاد، ثم عَصَى بعد ذلك محمد بن قَرَمَجَاه، وجمال الدين بن الصَّيْرَفِي ـ نَقِيب قلعة دمشق ـ وأغلقوا أبواب القلعة. فحصرها كَتْبُغَا ومن معه وقاتل قتالاً شديداً، ثم تسلمها بالأمان، فكتب الزينُ الحافظي بذلك إلى هولاكو، فعاد

(١) هو سليمان بن علي بن عامر العقرباني الملقب الزين الحافظي. كان أبوه خطيب عقرباً من قرى دمشق. اشتغل بالطب، وخدم به أرسلان شاه بن العادل صاحب جعبر. ثم انتقل إلى خدمة الناصر بحلب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٢٣.

(٢) هو ابن تولوي بن جنكزخان ملك التتر. توج وأعلن خاقاناً على بلاد المغول سنة ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١ م. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٥٣.

(٣) كتبغا: اسم القائد. ونوين لفظ أعجمي فارسي ومعناه مقدم. انظر: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٢٤. وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٦، ص ٣٣.

(٤) مرج برغوث: بالقرب من دمشق. انظر: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٢٥.

جوابُه بقتل محمد بن قَرْمَجَاه وجمالِ الدين بن الصَّيْرَفِي. فقال كَتْبُغَا للزين الحافظي: أنتَ كَتَبْتَ إلى هولاكو بسببِهِم، فاقْتُلْهم أنت. فقتلهما الزينُ الحافظي صَبْراً، بيده وسيفه، بمَرْج بَرغوث.

وبعث كَتْبُغَا نُوين جيشاً إلى نابُلس، وقدم عليهم كَشْلُوخَان، فمَضَى إليها، وبها فخر الدين إبراهيم بن أبي ذكرى، نائب السلطنة بها، فركب ومعه الأمير علي بن الشجاع الأَكْتَع، وفخر الدين دَرْباس المِصري وجماعة، فصادَفَهم كَشْلُوخَان في زَيْتون نابُلس، فقتلَهم بأجمَعِهم.

قال: ولما اتصل بالملك الناصر ومن معه من الأمراء وصول كَشْلُوخَان إلى نابُلس وما فعله، حملهم الخوف على دخول الرَّمْل[1] فبلغ الملكَ المُظَفَّرَ دخولُهم، فتوهم أن ذلك مكيدةٌ لتملك الديار المصرية. فكتب إلى الأمراء الناصِرية والشَّهْرَزُورِيَّة، يَعِدُهم بالإكرام والإحسان إن وصلوا إليه، ففارقوا الملكَ الناصرَ ومضوا إلى المظفر، أَوَّلاً فأَوَّلاً، ولم يبق مع الملك الناصر إلا الملكُ الصالح نور الدين إسماعيل ابن صاحب حمص، والأمير ناصر الدين القَيْمُرِي، وأخوه شهاب الدين، وابن عمه شهاب الدين يوسف بن حسام الدين. فوصلوا إلى قَطْيَا[2].

ثم خَشِيَ عاقبةَ دخوله إلى الديار المصرية، فعطف من قَطْيَا، وسلك البَرِّيَّة إلى الشَّوْبَك بهم. فوصلوا إليها، ولم يبق لكل واحد منهم إلا الفرس الذي تحته، وكل منهم في نفرين أو ثلاثة، وقد نُهِبَتْ خزائنُهم وأموالهم وذخائرهم وبيوتَاتُ الملك الناصر.

ثم توجه الملك الناصر بمن معه إلى الكَرَك. وأرسل إليه الملكُ المغيثُ ما يحتاج إليه من الخيل والأقمِشَة والبيوتات وغير ذلك، وعرض عليه المُقَامَ عنده، والانفراد بالشَّوْبَك. وقصد مكافأتَه، عن سالِفِ إحسانه، فإنه كان قد أحسن إلى ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان، لما توجه إليه إلى دمشق ـ على ما نذكره. فلم يُجِب الملكُ الناصرُ إلى ذلك، ومضى إلى البَلْقَاء وأقام بأطراف البلاد.

وسير حسينَ الكُردِي الطَّبَرْدَار إلى كَتْبُغَا نُوين، يلتمس أمانَه. وقيل: بل حسين الكردي، لما شعر بالملك الناصر، توجه إلى كَتْبُغَا وأعلمه بمكانه فركب كَتْبُغا بنفسه في جيش كثيف إلى الملك الناصر وقَبَضَ عليه، وعلى من معه، فاعتُقِلَ الأمراءُ القَيْمُرِيَّة

---

(١) سبق التعريف به وهو موضع بين حدود الشام جنوباً ومصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٨.

(٢) قَطْية: بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٩. وانظر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي.

بدمشق. وكان الملك الظاهر ـ أخو الناصر ـ نازلاً على قلعة صَرْخَد بحربها، فأمر هولاكو، فأَمر كَتْبُغَا بطلبه، وقُبِضَ عليه. وجاء إلى قلعة عَجْلُون وحاصَرَها ـ والملك الناصرُ معه ـ وقَدَّمَه إلى القلعة، فأمر من بها أن يُسَلِّمُوها، فسلموها بعد امتناع.

ثم جهز الملكَ الناصرَ وأخاه الملك الظاهر، والملكَ الصالح ابن الملك الأشرف، صاحب حمص، إلى هولاكو ـ وصحبتهم الملكُ العزيز فخر الدين عثمان، ابن الملك المُغِيث صاحب الكَرَك. فأخبرني المَوْلَى الملك العزيز المُشار إليه ـ مَدَّ الله في عمره ـ أنهم توجهوا جميعاً إلى هولاكو، واجتمعوا به بتُورِيزْ[1]. فأما الملكُ العزيز فأعاده بعد يومين أو ثلاثة، فوصل إلى دمشق ـ على ما نذكره. وأما الملك الناصر وابنه الملك العزيز، والملك الظاهر، وابن صاحب حمص ـ فإن هولاكو أَخَّرَهُم عنده.

قال: وبلغني أنه سأله عن أحوال الديار المصرية وعساكرها، فهَوَّنَ أمرَها عنده، والتزم له بفتحِها، وحَمْلِ أموالِها وأموال الشام إليه. ولم يزل يتلطف إلى أن أمر بعوده.

فلما رجع من عنده، لقيه من سَلِمَ من الجيش الذين كانوا مع كَتْبُغَا نُوين، لَمَّا كسرهم الملكُ المظفر قُطُز. فَقَبَضُوا عليه وأعادوه معهم إلى هولاكو. وقالوا له: ما كان على عسكرك أَضَرَّ من مماليكِ هذا، ومماليكِ أبيه. وهم الذين قاتلونا وقتلوا كَتْبُغَا نُوينْ، وهزموا عساكرَكَ. فأمر بضرب عنُقِه. وعنقِ ولده الملك العزيز، وأخيه الملك الظاهر، وابن صاحب حمص ـ وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمائة.

واجتمع الناس لعَزَائِه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى، سنة تسع وخمسين وستمائة. ومولده بقلعة حلَب في يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان، سنة سبع وعشرين وستمائة.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ ملِكاً حليماً كريماً، لم يكن لأحد من الملوك قبله ـ فيما سمعنا ـ ما كان له من التَّجَمُّل، فإنه كان يُذْبَح في مطبخه في كل يوم، أربعمائة رأس من الغنم الكِبار ـ خارجاً عن الخِراف الرُّضَّع والأَجْدِيَة والدَّجاج والحَمَام. وكان الغِلمان يبيعون فَضَلاتِ الطعام بظاهر قلعة دمشق، بأبخس الأثمان، حتى اسْتَغْنَى أهلُ دمشق في أيامه عن الطبخ في بيوتهم.

حتى حُكيَ عن علاء الدين علي بن نصر الله، قال: جاء السلطانُ إلى داري بَغْتَة، ومعه جماعة من أصحابه. فمددتُ له في الوقت سِماطاً، فيه من الأطعمة الفاخرة والدجاج المحشو بالسكر والحلويات شيئاً كثيراً. فعجب من ذلك، وقال: في أي وقت

---

(١) توريز: هي تبريز: هي أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة وكان بها كرسي بيت هولاكو. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥.

تَهَيَّأَ لك هذا كلُّه؟ فقلت: واللَّهِ هذا كله من نِعمتك وسِماطك، ما صنعتُ منه شيئاً، وإنما اشتَرَيْتُه من عند باب القلعة.

وحَكَى مباشرو البيوت بدمشق أن نفقة مطابخه كانت في كل يوم تزيد على عشرين ألف درهم. وكان إذا مات أحدٌ من أرْباب الوظائف في دولته، وله وَلَدٌ فيه أَهْلِيَّة، فَوَّضَ ما كان بيده من المناصب لوَلَدِه. فإن كان صغيراً استناب عنه إلى أن يَصْلُح. ومن مات من أرباب الرواتب والصدقات. أقرَّ ما كان باسمه باسم أولاده ـ رحمه الله تعالى.

وكان له شِعر رقيق جيد. فمن شِعره قولُه، يتشوق إلى حلب: [من الطويل]

سَقَى حلبَ الشهباءَ في كل لَزْبَةٍ[1] سحابةٌ[2] غَيْثٍ نَوْؤُهَا ليس يُقْلِعُ

فتلك رُبُوعِي[3]، لا العَقِيق ولا الغَضَا[4] وتلك دياري[5]، لا زَرُودُ ولَعْلَعُ[6]

إلا أنه كان ضعيفَ الرأي، شَغَلَتْهُ المَلاَذُّ والشِّعر والغَزَل وتلحينُ الأقوال عن النظر في أمر دولته، فآل أَمْرُه إلى ما ذكرناه.

هذا ما كان من أمر الملك الناصر ـ على سبيل الاختصار.

وبقي بعد مقتله عند التتار صغارُ أولاده، الذين أُسِرُوا من حلب، زمناً طويلاً بعد أن هَلَك هولاكو. ومات بعضهم هناك. وبقي منهم ولدُه الصغير نجم الدين أيوب، فحضَر إلى الشام، ثم إلى الديار المصرية، ورُتِّبَ له راتب من جهة المُلُوك ـ أُسْوَةَ أولادِ الملوك الأيوبية. وهو باقٍ إلى وقتنا هذا، مقيم بالقاهرة المُعِزِّيَّة ـ حماها الله تعالى.

---

(١) بقعة: في عقد الجمان للعيني ج ١، ص ٢٣٥، واللزبة معناها الشدة: محيط المحيط «سحائب» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) «سحائب» في عقد الجمان للعيني ج١، ص ٢٣٥.

(٣) «مرامي» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥، «فتلك دياري» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٠.

(٤) «اللوى» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥.

(٥) «ربوعي» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٠. وهذه كلها أسماء مواضع في جزيرة العرب ترد في الشعر الجاهلي.

(٦) «وأملع» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٣٥. وفي عقد الجمان أن الملك الناصر لما اجتمع بكتبغا نوين بعث به كتبغا إلى هلاون (هولاكو) وهو على حلب بعد. فلما عاين الناصر حلب وما حلّ بها وبأهلها بكى وأنشد هذين البيتين.

وأما الملك المغيث فتح الدين عمر ابن السلطان الملك العادل، ابن السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل ابن أيوب ـ صاحبُ الكَرَك والشَّوْبَك

فإنه لما قَبَض الأمراءُ على والدِه ـ كما قَدَّمْنَا ذكرَ ذلك ـ وملك عَمُّه الملكُ الصالح نجمُ الدين أيوب الديارَ المصرية، مشى في خدمته مُدة، ثم رَأَى منه نَجابةً ونُبْلاً وشَهامة، فأمر باعتقاله في الدار القُطْبِيَّة[1] عند عَمَّةِ السلطان وعمة والد الملك المغيث ـ وهي ابنةُ السلطان الملك العادل، أخت الملك الكامل ـ رحمهم الله تعالى. فلم يَزَلْ عندها، إلى أن مات الملك الصالحُ وملك ولدُه الملك المعظم تُورانْشَاه. فأمر بإرساله إلى قلعة الشَّوْبَك، واعتقاله بها. ونَدَب لذلك الأميرَ عز الدين الحِلِّي، والأميرَ سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِي، فتوجها به إلى الشَّوْبَك، واعتقلاه بها، وعادا إلى الديار المصرية.

فما كان بأسرَع من أن قُتِلَ الملكُ المعظم تُورَانْشَاه ـ كما ذكرْنا ـ فلما اتصل خبرُ مَقْتَلِه بابن رَسُول، وشهاب الدين عُمَر بن صُعْلُوك ـ وكانا مُتَوَلِّيَيْ[2] أمر الشَّوْبَك ـ نَهَضَا وأخرجا الملكَ المغيثَ من الاعتقال، ومَلَّكَاهُ وحَلَفَا له، وحَلَّفَا مَنْ عِندَهُما ـ وكانوا نحو عشرة ـ وحَلَّفَاه بالوفاءِ لهم. فأرسل إليهما بدرُ الدين بدر الصَّوَابِي الخادِم ـ النائبُ بقلعة الكرك ـ وأَنْكَرَ عليهما إقدامَهما على هذا الأمر بغير إذنِه. فأرسلا إليه يَقولان: بك فَعَلْنَا ذلك. فأعاد عليهما الجواب: إذا كان كذلك، فانقلاه إلى عندي.

فحَلَفَ للملكِ المُغِيثِ وحَلَفَ الملكُ المُغيثِ له، وتَوَثَّقَ كلٌّ منهما من صاحبه بأَكِيد الأَيْمَان. فانتقل الملكُ المغيث من الشَّوْبَك إلى الكَرَك ـ في سنة تسع وأربعين وستمائة. وتَسَلَّمَ ما بها من الخزائن، التي بقيت مما نَقَلَ إليها الملكُ الصالح نجم الدين أيوب ـ بعد ما أَخَذَهُ الملكُ المُعَظَّمُ منها. فوجَدَ بها تسعمائَة ألف وتسعين ألف دينار عَيْناً. واستمَرَّ بالكَرَك والشَّوْبَك، ورُزِقَ بها أولادَه.

وراسل الملكَ الناصرَ صلاح الدين يوسف ـ صاحبَ دمشق وحلب ـ وأرسل إليه والدَه الملك العزيز: فخر الدين أبا المظفر عثمان، برسالة. فأكرمه الملك الناصر وأَبَرَّه وقَرَّبَه، وأجلسه في مجلسه بالقُرْب منه. ورَتَّبَ له في كل يوم ألف درهم، وأربعمائة جِرَايَة وأربعمائة عِلِيقة، وغير ذلك، ونَقَّلَه في مُسْتَنْزَهَاتِ دمشق، وأقام عنده نحو ثلاثة

---

(١) نسبة إلى قطب الدين أحمد ابن الملك العادل، وهو أخو الكامل.
ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣١٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٨٩.

(٢) في الأصل: وكان متولياً.

شهور. ثم رَكَّبَه الملكُ الناصر بشِعار السَّلْطَنَة، وأعاده إلى أبيه. وقد عامله بنهاية البِر وغاية الإكرام.

وكان للملك المغيث أخبارٌ، يأتي ذكرها في أثناء دولة الترك.

وبعث الملكُ المغيثُ ولدَه العزيز إلى هولاكو، يلتمس له أماناً، وجهز معه شهابَ الدين بن صُعْلُوك والنجيب خُزَاعَة ـ وهما أعيان أصحابه.

فأخبرني الملكُ العزيز أنه اجتمع بهولاكو بتُورِيز، فأمره بالجلوس، مع صِغَر سنه في ذلك الوقت. فنظرت إليه الخَاتُون ـ زوجة هولاكو ـ وسألته بتَرْجُمَان عن أُمِّه، وهل هي باقيةٌ أم لا؟ فقال: هي باقيةٌ عند أبي. فقالت للترجمان: قال له: تُحِبُّ أن أَرُدَّكَ إلى أبيك وأمك، أو تقيم عندي؟ قال: فَأَعَدْتُ عليها: أنه لا أَمْرَ لي في هذا، وإنما أبِي أرسلني إلى الْقان يسأله الأمان لنفسه ولِمَن عنده، وأنا تحت أوامره. فَنَهَضَتْ قائمةً وكلَّمَتْ هولاكو، وشَفَعَت. فأشار إليها، فقالت: قد أعطاك القَانُ أَمَاناً لأبيك، ودُسْتُوراً[١] بالعَوْد!.

قال: فَضَرَبْتُ له جُوكاً، ورَجَعْتُ مِن عِنده، وأَرْسَلَ معي مِن التتار من يوصلني إلى الكَرَك، ويكون بها شِحْنَة[٢]. قال: فلما وصلتُ إلى دمشق نزلتُ بدار العَقِيقِي، ونزل التتارُ بمدرسة العادِلية. وكان كَتْبُغَا نُوينْ قد توجه للقاء العساكر المصرية، فكانت الكَسْرَةُ على التتار ـ على ما نذكره.

قال: فاتصل الخبرُ بنا، فتَحَصَنَّا بدار العَقِيقي[٣]، فلما كان في نصف الليل رجع التتارُ هاربين. فقصدوا أَخْذِي معهم، فمانَعَ عني مَنْ معي، وأَعْجَلَهم الهَرَب عن حصار الدار، فتركوني. قال: ولما جاء الأمير جمال الدين المُحَمَّدِي إلى دمشق ـ قبل وصول الملك المظفر قُطُز إليها ـ خرجتُ إليه وتَلَقيتُه، وسلمتُ عليه. فسأل عني، فأُخْبِر أنني ابن الملك المغيث، فعَوَّقَنِي إلى أن قَدِمَ السلطانُ الملك المظفر قُطُز. فأمر بإرسالي إلى قلعة الجَبَل.

فنُقِلَ إليها. فكان بها مُعَوَّقاً في بُرْج، عند الأمير سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِي. إلى أن أعاده الملك الظاهِر بِيبَرْس إلى أبيه الملك المُغِيث ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى، في أخباره.

---

(١) أي إذناً.

(٢) شحنة: أي حامية المدينة. وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في البلاد. انظر Dozy. Supp. Dict Ar، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٣٣، حاشية (٣).

(٣) نسبة إلى أحمد بن الحسن العقيقي بن ضعقن بن عبد الله بن علي بن أبي طالب، الشريف أبو القاسم الحسين العقيقي صاحب الحمام أيضاً المنسوب إليه. توفي سنة ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ م. ولقد اشترى الملك الظاهر بيبرس داره وبناها مدرسة ودار حديث وتربة وبها مقبرة وذلك في حدود سنة ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣١٢.

ولم يزل الملكُ المغيث بالكَرَك والشَّوْبَك، إلى أن استولى الملكُ الظاهرُ على الشَّوْبَك، لأربعٍ بقين من ذي الحجة، سنة تسع وخمسين، عندما جَرَّدَ إليها الأميرَ بدر الدين الأيدُمَرِي. وبقي بيدِ الملك المغيث الكَرَكُ وأعمالُها. ثم حصل الاتفاقُ بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس والملِك المُغيث. وحَلَف السلطانُ الملك الظاهر له يميناً مُسْتَوْفَاة، وأشهد عليه بما تضمنه مَكتوب الحِلْف.

وقد شاهَدْتُ المَكتوبَ. وهو بخط القاضي فخرِ الدين: إبراهيم بن لُقْمَان ـ صاحبِ ديوان الإنشاء. وما فيه من اسم السلطان بخَطِّ السلطان، ومثاله: «بِيبَرْس».

ونسخةُ هذه اليمين ـ على ما شاهدتُه ونقلتُ منه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أقولُ وأنا بيبَرْس. واللَّهِ واللَّهِ، وتاللَّهِ وتاللَّهِ، وباللَّهِ وباللَّهِ، العظيمِ الرحمٰن الرحيم، الطالبِ الغالب الضار النافِع، عالِمِ الغيب والشهادة والسِّرِّ والعَلاَنية، القائم على كل نَفْسٍ بما كَسَبَتْ، والمُجَازِي لها بما احْتَسَبَتْ. وجلالِ الله وعظمةِ الله وكبرياءِ الله، وسائرِ أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ـ إنني من وقتي هذا وساعتي هذه، وما مَدَّ اللَّهُ في عمري، قد أَخْلَصْتُ نِيَّتِي وأَصْفَيْتُ سَرِيرَتِي، وأَجْمَلْتُ طَوِيَّتِي، في موافقة المَوْلَى: الملكِ المغيثِ فتح الدين عُمَر ابن السلطان الشهيدِ الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، ومُصَافَاتِه ومَوَدَّتِه.

لا أُضْمِرُ له سوءاً ولا غَدْراً، ولا خَدِيعَةً ولا مَكْراً لا في نفسه ولا في ماله، ولا في أولاده، ولا في مملكتِه، ولا في قلعتِه، ولا في بلادِه، ولا في أمرائه، ولا في أجناده، ولا في غلمانِه، ولا في مماليكِه، ولا في أَلْزَامِه ولا في عُرْبَانِه، ولا في رَعِيَّتِه، ولا فيما يَتَعَلَّقُ به ويُنْسَبِ إليه، من قليلٍ وكثير.

وإنني والله لا أُعَارِضُه ولا أُشاققه، ولا آمرُ من يعارضه في بلاده الجارية في مملكته، وهي: قلعةُ الكَرَك المحروسة، ورَبضُها وسائر عملها، والغَوْرُ المعروف بِغَوْر زُغَر[1] ـ بكماله، وحَدُّ ذلك من القِبلة الحَسَا، ومن الشمال حد الموجب نصف القنطرة

(١) زُغر: قرية بمشارف الشام ويقول إنها في طرف البحيرة المنتنة (البحر الميت) في وادٍ هناك بينها وبين البيت المقدس ثلاثة أيام وهي من ناحية الحجاز. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٦١. ويقول القلقشندي: هي من أعمال الكرك. وهي مدينة قديمة متصلة بالبادية. صبح الأعشى ج ٤، ص ١٥٧. وقال عن بحيرة زغر: «تعرف ببحيرة سدوم، وبحيرة لوط. وهي بحيرة منتنة (أي البحر الميت) لا يوجد بها سمك. وهي في آخر الغور من جهة الجنوب». صبح الأعشى: ج ٤، ص ٨٣.

والمسيل، ومن الشرق الثنيتين، ومن الغرب السبخة المعروفة بأبي ضابط، ومنتهى حد الغَوْر المذكور من القِبلة الكَثِيب الرمل المعروف بالدبة، ومن الشمال الماء النازل من الموجب إلى البحيرة.

وإنني والله لا آمر ولا أُشِيرُ، ولا أكتب، ولا آذن بصَرِيحٍ ولا بكِنَايَة، ولا بقَوْلٍ لأحد، في التعرض لبلاده المذكورة، ولا السعي فيها بفساد. وإنني واللَّهِ متى حضر المَوْلَى الملكُ المُغيث فتح الدين عُمَر المذكور إلى خِدمتي، عند حُلُولِي بالشام المَحْرُوس، لمنازلة عَدُوٍّ يَطْرُقُ بلادي، أو لعدو يطرُق بلادَه، لا أتعرض إليه بأذِيَّة، ولا أَقْصِدُه بسوء في نفسه ولا في ماله ولا في بلاده، ولا في أُمَرَائِه ولا في أَجناده. ولا في عُربانه ولا في مماليكه، ولا في رعيته، ولا فيمن يصلُ صُحْبَتَه من أصحابه.

وإنني والله لا أطالبُه، ولا أطالبُ أحداً من أمرائه وأجناده، وأصحابه ومماليكه ولا من غلمانه، ولا من رعيته ولا من عُرْبانه، ولا أحداً من سائر أصحابه، بسبب مُتَقَدِّمٍ إلى تاريخ هذه اليمين المباركة، ولا أُمَكِّنُ أحداً من أمراء دولتي، ولا من جُندها، ولا من سائر مماليكي، وأصحابي من الجماعة البَحْرِيَّة وغيرهم، من مُطَالبَته ولا مطالبة أحد من أمرائه وأجناده ومماليكه ورعيته، وسائر أصحابه، أهل الكَرَك وغيرهم، بسببٍ مُتَقَدِّمٍ عن تاريخ هذه اليمين المباركة ـ صامتٍ كان أو غيرَ صامِت ـ من قُماشٍ وأَثاث، وغير ذلك.

وإنني واللَّهِ، لا أستخدمُ أحداً من أمراء المَوْلَى الملك المغيث: فتح الدين عُمَر المذكور، ولا من أجناده ولا من أجناد أمرائه، ولا من مماليكه ولا من مماليك أمرائه، ولا من عُرْبَانه ولا من غلمانه، إلا من انفصل عنه بدُسْتُور. ومتى تَسَحَّبَ أحدٌ من أمرائه أو أجناده، أو أجناد أمرائه أو مماليكه، أو مماليك أمرائه أو غلمانه أو عربه، أو غير ذلك من أصحابه وفلاحي بلاده، وحضَر إلى بلادي أو إلى مملكة من ممالكي، والْتَمَس عَوْدَه إليه ـ تَقَدَّمْتُ بإعادته إليه، بجَهْدِي وطاقتي.

وإنني واللَّهِ متى قصد بلادَ المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور عَدُوٌّ ـ مسلماً كان أو كافراً ـ أَعَنْتُه على دَفْعِه وزجره ورَدْعِه، جَهْدِي وطاقتي. وإنني واللَّهِ، متى تعرض أحدٌ من عرب بلادي إلى بلاد المولى الملك المغيث فتح الدين عمر المذكور، أو إلى جهةٍ من جهات مملكته، أو إلى أحد من رعيته أو أحد من سائر أصحابه، أو سعى بفساد فيما يتعلق بمملكته، واطَّلَعْتُ عليه ـ تَقَدَّمْتُ بزجره وردعه عن ذلك، وفعلْتُ في أمره ما تقتضيه السِّياسة.

وإنني واللَّهِ ـ أَفِي للمَوْلَى الملكِ المغيثِ: فتح الدين عمر، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، بهذه اليمين من أولها إلى آخرها، ما دام وافياً لي باليمين التي يُحَلِّفُه بها نائبي، لا أَنْقُضُها ولا

شيئاً منها، ولا أَسْتَثْنِي فيها ولا في شيء منها، ولا أَسْتَفْتِي فيها ولا في شيء منها، طلباً لنَقْضِها أو نَقْضِ شيء منها، ومتى نَقَضْتُهَا أو نَقَضْتُّها فيها أو في شيء منها، طلباً لنَقْضِهَا أو نقضِ شيء منها، فكُلُّ ما أملِكه من صامتٍ وناطق ـ صَدَقَةٌ على الفقراء والمساكين من المسلمين، وكُلُّ مملوكٍ أو أَمَةٍ في مُلْكِي، أو أتملكهما فيما بَقِي من عمري، حُرٌّ من أحرار المسلمين. وعَلَيَّ أن أفُكَّ عشرةَ آلاف رَقَبَة مُؤْمِنَة من أيدي الكُفار، إن خالَفْتُ هذه اليمين أو شيئاً منها.

وهذه اليمينُ يميني، وأما بِيبَرْس. والنِّيَّةُ فيها بأَسْرِها نِيَّةُ المَوْلَى الملكِ المغِيث فتح الدين عمر، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، ونِيَّةُ مُسْتَحْلِفِي له بها ـ أُشْهِدُ اللَّهَ عَلَيَّ بذلك، وكَفَى به شَهِيداً، فمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه، ومَنْ أَوْفَى بما عاهَدَ عليه اللَّهَ فسَيُؤْتِيه أَجْراً عَظيماً.

وشَهِدَ على السلطان الملِك الظاهِر، بهذه اليمين، من نَذْكُرُهُمْ وهم: الأَتَابك فارس الدين أَقْطَاي، وأَقُوش النَّجِيبِي، وقَلاَوُون الأَلْفِي، وعز الدين أَزْدُمَر[1]، وأَيْدُمَر الحِلِّي، وبَيْسَرِي الشَّمْسِي، وبيلِيك الخزندَار، وأَيْبَك الأَفْرَم، وكاتبُ اليمين إبراهيم بن لُقْمان بن أحمد. وهي مُؤَرَّخَةٌ في الثالث والعشرين من المحرم، سنة ستين وستمائة، وشَهِدَ على السلطان اثنان ممن حضر مِن الكَرَك، وهما: أَمْجَد الكَرَكِي ـ وهو كاتبُ الملك المغيث ـ وكان قد أَمَّرَهُ، وآخرُ لم أُحَقِّق اسْمَه عند قراءته.

وبآخر رَسْمِ خط الشهود خط المُسْتَحْلِف. وصورته:

أَحْلَفْتُ مولانا السلطانَ الكبير، العالِمَ المجاهد، المرابِط المؤَيّد المنصور، الملك الظاهر أبا الفَتْح بِيبَرْس بن عبد الله، الصالِحِي، أَعَزَّ الله سلطانه ـ بهذه اليمين المباركة من أولها إلى آخرها، على الوجه المشروع فيها، تاريخ الثالث والعشرين من المحرم، سنة ستين وستمائة ـ أحسن الله تَقَضِّيها. وكَتَبَهُ خُزاعة بن عبد الرزَّاق بن علي ـ حامِداً لله تعالى ومُصَلِّياً.

وجهز السلطانُ الملكُ الظاهر للملكِ المغيث ولدَه الملكَ العزيز فخر الدين عثمان ـ وكان مُعتقَلاً بالقلعة من الأيام المُظَفَّرِيَّة، كما قدمنا ـ فأَطْلَقَه السلطان الآن، وأَقْطَعَهُ ذِبْيَان[2] بمنشور، ثم سيَّرَ إليه السلطانُ بعد ذلك صَنْجَقاً وشِعَارَ السلطنة، فقَبَّلَ

(١) في الأصل: «وأولاد مر».

(٢) ذبيان: بكسر أوله وسكون ثانيه بلفظ القبيلة: بلد قاطع الأردن مما يلي البلقاء. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤.

الملك المغيث عَقِبَ الصَّنْجَق، ورَكِبَ بِشعار السلطنة.

وظن الملكُ المغيثُ أن الصلح قد انتظم بمُقْتَضَى هذه اليمين. فَرَكَنَ إلى ذلك. ثم جَهَّزَ والدتَه في سنة إحدى وستين وستمائة إلى الملك الظاهِر. فوجدها السلطان بغَزَّة، فأنعم عليها إنعاماً كبيراً، وعلى من معها. وأَجْرَى معها الحديثَ في وصول الملك المغيث إليه، لينتظم الصلح شِفَاهاً، وتتأكدَ أسبابُه. وأعاد عليها العطاءَ ثانياً، وجَهَّزَها إلى الكَرَك. وجهز في خدمتها الأمير شرف الدين الجَاكِي المَهْمَنْدَار[1]، لتجهيز الإِقَامَاتِ للملِك المغيث.

فَاغْتَرَّ الملكُ المغيث بذلك، واستَخْلَفَ ابنَه الملك العزيز فخر الدين بالكَرَك، واستَحلَفَ له من تَرَكَه بقلعة الكَرَك، وترك عنده بقيةَ أولاده ـ إخوة الملك العزيز ـ وكان له سبعة أولاده ذكور، أَسَنُّهُم الملك العزيز فخر الدين عثمان، ووُلد له بعض قبضه ابنان، وكان الملك العزيز، يوم ذاك، صغيرَ السن، فإن مولده ـ كما أخبرني به ـ في اليوم الأول من يوم الاثنين ثالث شوال، سنة اثنتين وخمسين وستمائة.

وفارق الملكُ المغيث الكَرَك، وتوجه إلى السلطان الملك الظاهر، وهو بمنزلة الطُّور. فما بلغ السلطانَ الملك المغيث إلى بَيْسَان، ركب إليه وتلقاه، وساقَا جميعاً إلى مَنْزِلة السلطان. فلما وصلَ الملك المغيث إلى باب الدِّهْلِيز. تَرَجَّلَ ودخل إلى الخَيْمَة. فأُدْخِل على خَرْكَاه، وقُبِضَ عليه وعلى مَن معه ـ وذلك في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى، سنة إحدى وستين وستمائة. وأظهر السلطان لقبضه سَبباً، نَذْكُرُه في أخبار السلطان الملك الظاهر ـ إن شاء الله تعالى ـ تَقِفُ عليه بعد هذا.

ولَمَّا قَبَضَ عليه، جَهَّزَه في تلك الليلة إلى قَلْعَةِ الجَبَل ـ صُحْبَةَ الأمير شمس الدين آقَسُنْقُر الفَارِقَانِي. ولما وَصل إلى قلعة الجبل. أُدْخِلَ البرجَ الذي كان به ولده الملك العزيز فخر الدين عثمان، فقال للأمير سيف الدين بَلَبان النَّجَاحِي ـ مُتَوَلِّي قلعة الجبل ـ: في هذا البُرْجِ كان ولدي عثمان؟ قال: نعم.

ولم يستقرَّ بذلك البُرْج، بل نُقِلَ منه في يومه، وأُدْخِلَ إلى قاعة من قاعات الدور السلطانية، فقُتِل من يومه. وكان آخرَ العهد به.

---

(١) المهمندار: وهو الذي يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويحدث في القيام بأمرهم. وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «مهمن» بفتح الميم ومعناه الضيف، والثاني: «دار» ومعناه الممسك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.
خركاه: الجمع خركاوات وهي كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨. Dozy. Supp. 1 p 366 . والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١١٧.

وتولى ذلك الأميرُ عز الدين أَيْدُمَر الحِلِّي ـ نائب السلطنة ـ بالغيبة. واستُدِلَّ على قتله أن بعضَ الخُدام حَكَى، فقال: لما أُدْخِلَ الملك المغيث إلى القاعة، طُلِب له طعام من الآدُر[١] السلطانية ـ قال الخادم: فتوجهتُ لإحضار الطعام، فأتيتُ به على رأس خادم آخر، فوجدت الأمير عز الدين قد خَرَجَ من القاعة، وأَغْلَقَ الباب! فقلت: قد حَضَر الطعام. فقال: بعد أَن أَغْلَقْنَا البابَ لا نَفْتَحُه في هذه الليلة. فرجعتُ بالطعام. ولم يُفْتَح ذلك الباب، إلى ثلاثة أشهر أو نحوها.

وكان مَوْلِد الملك المغيث ـ رحمه الله تعالى ـ بمَنْزِلة العَبَّاسَة[٢] في شهر ربيع الأول، سنة أربع وثلاثين وستمائة.

ولما قُبِضَ عليهم، جهز الملكُ الظاهر، إلى الكَرَك، الأميرَ بدر الدين بَيْسَرِي، والأمير أيْدُمَر الظاهِري، وكتب إلى مَن بها يَعِدُهم الإحسان. ثم توجه بنفسه إليها، وتَسَلَّمَها على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في أخباره. وأَنْعَمَ على ولده: الملكِ العزيز فخر الدين عثمان بإمْرَةِ مائة فارس. ورَتَّبَ لإخوته وأهلِه الرواتب. ثم قَبَضَ عليه، بعد ذلك، واعتَقَلَهُ ـ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأما الملك الموَحِّد[٣] تقيّ الدين عبد الله ابن الملك المعظم تُورانْشَاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ـ صاحب حصن كيفا ونصِيبين وأعمالها

فإن والده الملكَ المعظم كان قد تركه بحصن كَيْفا، عند قدومه إلى الديار المصرية، وهو دون البلوغ. فاستمر بالحِصن بعد مقتل والده. ودَبَّرَ أَمْرَ دولته خادِمَا أبيه: افتخار الدين ياقوت، وجمال الدين قُطُز. فلم تَزَلْ هذه المملكة بيده، إلى أن استولى هولاكو على البلاد.

فلما قارب بلادَ الملك الموحد خرج إليه بأمان وتلقاه، وقدم له أشياء مما كان

(١) الآدُر: جمع دار. الجمع هو أدْوُر. ثم حصل قلب فأصبحت أأدُر ثم آدر. الفيروزابادي: القاموس المحيط (دور).

(٢) منزلة العباسة: أول منزلة يلقاها القاصد لمصر من الشام. وبينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٥.

(٣) ترجمته في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ١، ص ٤٣٤ (لم يذكر وفاته) وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب للزبيدي ص ٨٣.

عنده من التُّحَف ونفائس الذخائر. فأَقَرَّهُ على عمله، ولم يتعرض لِحِصن كيفا، ولا هَرَاقَ به دماً. وقرر عليه قَطِيعَةً في كل سنة أحد عشر ألف دينار ثمنها[١] ستة وستين ألف درهم. ثم خرجت نِصِيبين عنه. وذلك أن صاحب مارِدِين: الملك المظفر، ابن الملك السعيد بن أُرْتُق ـ ضَمِنَهما من التتار، وأضافها إلى مملكته.

ثم نَقَل أَبَغَا بن هولاكو ـ في أول دولته ـ المِلِكَ المُوَحَّدَ إلى الأَرْدُوَا[٢]، وأخلى قلعة حِصن كَيْفَا، وخَرَّبَها.

وسببُ ذلك أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، لما ملك الديار المصرية وما معها، خَشي عاقبة الملك الموحد، وأنه من البيت الأيوبي، ومُلْك الديار المصرية لأبيه وجده، وجدِّ أبيه وجد جده. فأمر بمكاتبته ومكاتبة خادِمَيْه ـ عن جماعة من الأمراء الصالِحية ـ يستدعون الملك المُوَحِّد إليهم، ليُمَلِّكُوهُ مُلْكَ آبائه. ووصلت الكتبُ بذلك إليهم، فمالت نفوسُ الخُدَّام إلى ذلك ورغبوا فيه، ولم يَخْشَوْا عاقبةَ المَكَايد.

فَحَمَلَهُم حُبُّ ذلك على أن أجابوا الأمراء عن كتبهم: أنهم يصلون إليهم بالملك الموحد. وأخَذَ القُصَّادُ[٣] الكتب ورجعوا، فظفِر بهم مُقَدَّم التتار. فأرسل الكتبَ إلى أَبَغَا، فأحضره، وأحضر الخادِمَيْن، وقتلهما. وأقره بالأَرْدَوَا مدة سبع سنين ـ هذا، ونائبه مقيم بحصن كيفا. ثم أطلقه وأعاده إلى الحصن. فكان به إلى أن تُوفي. وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ ضحى يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وثمانين وستمائة.

وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة عشر، وهم: الأمير سيف الدين أبو بكر شادِي الكبير، وعلاء الدين علي الكبير، ومِغْلَطَاي ـ وإنما سُمِّي بذلك، لأنه وُلد بالأَرْدُوَا[٤]، فأَمَرَتْ قولي[٥] خَاتُون، زوجة هولاكو، أن يُسَمَّى بذلك، وأَرْسَلاَن، ويوسف، وزكري، وعثمان، وخليل، وعلي الأصغر، وإبراهيم شقيقه، وأبو بكر الأصغر ـ وهو ابن أخت ناصر الدين يحيى، بن جلال الدين الحيتي، أحد مُقَدَّمِي التتار. ونجم الدين أيوب، وحسن. ومات من أولاده ـ قبل وفاته ـ الملك المعظم محمد ـ مات قبل والده بسبعة

---

(١) ثمنها: أي قيمة تحويل العملة.

(٢) الأردوا: لفظ مغولي معناه المعسكر، وقد استعمل في المراجع العربية أو الفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر ايلخان الدولة المغولية بفارس. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٦٩.

(٣) أي الرسل الموفدون، الفيروزابادي: القاموس المحيط (قصد).

(٤) راجع الحاشية رقم (٢) في هذه الصفحة.

(٥) هكذا في الأصل. وورد اسم زوجة هولاكو في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٢٧ «دو قوز خاتون».

أيام. واللَّمَسن ـ وهو شقيق أرسلان.

ولما مات الملك المُوَحَّد، ملك حصن كَيفا بعده ولدُه: الملك الكامل سيف الدين أبو بكر شادِي ـ بتقرير التتار، فاستمر إلى شهر رجب، سنة تسع وتسعين وستمائة. ثم قتله قَازَان، ملك التتار، وسبب ذلك أن بعض إخوته شكَوْه له، وذكروا أنه قَتَل بعضهم.

وملك بعده الملكُ العادل سيف الدين أبو بكر الأصغر، مَلَّكَهُ قازان، رِعَايةً لحق أخواله، فملك أربعة أشهر، وقُتِلَ بمَنْزِلَة المَيْدان ـ بقرب إِرْبِل ـ قتله الأكراد، هو وأخوه أرسلان ـ وكانا نازلَيْن بتلك المنزِلة مع جماعة من التتار، كَبَسَهُم الأكراد الشَّهْرِيَّة[1] بها.

وملك بعده أخوه الملك المعظم، حسام الدين خليل ـ أربعة أشهر ـ فعَسَف وظَلَم، فنازعه في المملكة ابنُ أخيه الملك الصالح صلاح الدين يوسف، ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك المُوَحِّد، وشكاه إلى التتار، فسُلِّمَ إليه عَمُّه الملك المعظم، فخَنَقَهُ.

واستقر الملكُ الصالح هذا في المملكة بحِصْن كَيْفا، خمس سنين، ثم نازعه عَمُّه حَسَن، وتوجه إلى التتار فَمَلَّكُوه الحصن، ولُقِّبَ الملكَ الظاهر بدرَ الدين حسن، وأرسلوا معه عسكراً، فهَرَبَ ابنُ أخيه أمامه. وأقام بالحصن سنة.

ولحق الملكُ الصالح بالشيخ الشرف، ابن الشيخ عَدِيّ الهَكَّارِي، بجبل هَكَّار[2]. وأقام سنة، ثم جمع جمْعاً كثيراً من الأكراد، وعاد إلى الحصن، عند خلو البلاد من التتار، وحاصر عَمَّه الملك الظاهر حسن، مدة أربعة أشهر. فوافقه أهلُ القلعة وسلموه إليه. فقَتَله، وعاد إلى مملكته. وأرسل إلى التتار وأرضاهم، فأقروه. فهو إلى وقتنا هذا.

أخبرَنِي بذلك المَوْلَى الأمير علاء الدين علي، ابن الملك المُوَحِّد ـ وهو علي الأصغر، المُقَدَّم الذكر ـ وهو يوم ذاك بالقاهرة المُعِزِّيَّة.

وكان قد فارق الحصنَ، لَمَّا حصل من ابن أخيه هذا: من قَتْلِ إخوته أولادِ الملك المُوَحِّد. ووصل إلى الديار المصرية، في أوائل سنة ثلاث وسبعمائة، واستقر بها. وأقطعه السلطان الملكُ الناصرُ إقطاعاً متميزاً، بحَلْقَتِها. وأخبرني أنه لم يبق من أولاد الملك المُوَحِّد ـ لصُلْبِه ـ سواه. وأن بقية من ذَكَرْنَاهم أفناهم الموتُ والقتل.

وذلك في سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

---

(١) أي الشهرزورية: راجع صفحة ٢٤٧ حاشية (١).

(٢) بلاد الهكارية: بالفتح، وتشديد الكاف وراء، وياء نسبة، قرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٧٠.

وأما الملك الكامل ناصر الدين محمد(١) ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل: سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب مَيَّافَارِقِين

فإنه لم يَزَلْ بها، إلى أن ملك التتار البلاد، فندب هولاكو صَرْطَق نُوِينْ وقَطْغَان نُوِين(٢) لمحاصرته بمَيَّافَارِقِين، بطائفةٍ كثيرة من التتار. فحاصروه مدة سنتين، حتى قلَّت الأَقْوَاتُ عندهم، وأكلوا الكلابَ والسَّنَانِير والمَيْتَة. ففتحها التتار بعد أن فَنِيَ من عنده من الجند من القتال ـ وذلك في سنة ثمان وخمسين وستمائة. وأُسِرَ الملكُ الكامل، وتسعة نفر من مماليكه، وأُحْضِروا بين يدي هولاكو، فقُتِلُوا، إلا مملوكاً واحداً ـ كما تقدم في أخبار هولاكو.

وكان الملك الكامل هذا ـ رحمه الله تعالى ـ ملِكاً حازماً كريماً، كثير الزُّهْد والوَرَع. ولما قُتِل ـ رحمه الله ـ حمل التتارُ رأسَه على رُمْحٍ، وطِيفَ به البلاد. ومَرُّوا به على حلب وحَماه. وأَتَوا به إلىٰ دمشق ـ في سابع عشر(٣) جمادى الأولى من السنة ـ وطافوا به دمشق، وأمام الرأس المَغَانِي والطُّبول! وعُلِّقَ رأسُه بباب الفَرَادِيس، إلى أن دخل الملك المظفر قُطُز إلى دمشق ـ بعد هزيمة التتار ـ فأُنْزِلَ الرأس، ودُفِنَ بمشهد الحسين(٤) داخل باب الفراديس.

فقال الشيخ شهاب الدين أبو شَامَة(٥) في ذلك، من أبيات(٦):

---

(١) ملك ميافارقين سنة ٦٤٥، وحاصره اشموط بن هولاكو سنتين. الزبيدي: ترويج القلوب ص ٧١. ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٥، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١١، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ٢٠٥.

(٢) قائدان من قواد التتر. انظر عقد الجمان (ذكر هلاك طرطق) ج ١، ص ٨٩، والسلوك للمقريزي (واسمه طرطق)، ج ١، ص ٣٩٤.

(٣) «في يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ٢٠٥.

(٤) ودفن في مسجد الرأس داخل باب الفراديس شرقي المحراب في أصل الجدار، وغربي المحراب طاقة يقال إن رأس الحسين رحمه الله دفن بها. أبو شامة: الذيل على الروضتين ص ٢٠٥.

(٥) في الأصل: «ابن أبي شامة». وهذا خطأ. لأن القائل هو أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م. كما صرح بذلك في كتابه: الذيل على الروضتين ص ٢٠٥.

(٦) وردت هذه الأبيات في الذيل على الروضتين لصاحبه أبي شامة ص ٢٠٥. كما يأتي:

ابن غازٍ غزا وجاهد في الـ ... ـله قوماً أثخنوا في المشرقين

والعراقين ظاهراً غالباً وبها ما ... ت شهيداً بعد صبر عليهم عامين

=

ابـنُ غــازِي غَـزَا وَجَـاهَـدَ قَـوْمـاً أَثْـخَـنُـوا فـي الـعِـراق والـمَـشْـرِقَـيْـن
طَـاهِـراً عَـالِـيـاً، ومـاتَ شَـهِـيـداً بـعـد صَـبْـرٍ عـلـيـهـم عـامَـيْـن
لـم يَـشِـنْـهُ إذْ طِـيـفَ بـالـرأس مـنـه ولـه أُسْـوَةٌ بـرأسِ الـحُـسَـيْـن
ثـم وارَوْا بـمَـشْـهَـدِ الـرأس ذاك الـرأ سَ، فـاسـتَـعْـجِـبُـوا مـن الـحَـالَـتَـيْـن

وأما الملك المنصور ناصر الدين محمد(١) ابن الملك المظفر تقي الدين محمود، ابن الملك المنصور أبي عبد الله محمد، ابن الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر، ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب حَمَاه

فإنه كان قد ملك حَماه بعد وفاة والده ـ في ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة. فاستمر في مُلْكِ حَماه، وطالت مدتُه. وكان يتردد إلى الديار المصرية في الأيام الظاهِرية والمنصورية، وهم يُعَظِّمُونَه. وهداياه وتَقَادِمُه تَصِل إلى الملوك، وهو يَشْهَدُ معهم الحروب والوقائع، بعسكر حَمَاه.

وما زال كذلك، إلى أن تُوفي في شوال، سنة ثلاث وثمانين وستمائة. ومولده في الساعة الخامسة من يوم الخميس، لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

ولما تُوفي، رَتَّبَ السلطانُ الملكُ المنصورُ سيفُ الدين قَلاوون في مُلْكِ حَماه ولدَه: الملكَ المظفّر(٢) تقيَّ الدين محمود بن محمد [بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه](٣). وكوتب من ديوان الإنشاء بما كان يُكَاتَبُ به والده. وحُمِلَتْ إليه وإلى أهله وإلى أهل بيته الخلَع، والتشاريف السلطانية، واستقر في ملك حماه إلى أن توفي في يوم الخميس، الحادي والعشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وتسعين وستمائة، ودفن

= لـم يـشـنـه إذ طـيـف بـالـرأس مـنـه فـلـه أسـوة بـرأس الـحـسـيـن
ثـم واروا فـي مـشـهـد الـرأس ذاك الـ ـرأس فـاسـتـعـجـبوا مـن الـحـالـتـين

(١) ملك حماه سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤. ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٨٤، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٣٢٢.

(٢) هو آخر ملوك حماه، ملك حماه سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م. الزبيدي: ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب ص ٥٥.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٣.

ليلة الجمعة. وكان مولده في الساعة العاشرة من ليلة الأحد، خامس عشر المحرم، سنة سبع وخمسين وستمائة.

واستقرت المملكة الحَمَوِيَّة بعد وفاته في يد نُوَّابِ ملوك مصر. وكان أولَ من وليها من النواب: الأميرُ شمس الدين قَرَاسُنْقُر المَنْصُورِي، نُقِلَ من الصُّبَيْبَة إليها. ثم نُقِلَ منها إلى نيابة حلب، في سنة تسع وتسعين وستمائة، بعد وَقْعَة قَازَان[1]. وفُوِّضَتْ نيابة السلطنة بحَماه إلى الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا المنصوري ـ وكان قبل ذلك بصَرْخَد ـ فلم يَزَلْ بها إلى أن مات، في سنة اثنتين وسبعمائة، فَوَلِيَها الأميرُ سيف الدين قَبْجَاق المنصوري، فكان بها إلى أول الدولة الناصرية الثانية، ونُقِلَ منها، في سنة تسع وسبعمائة، إلى نيابة المملكة الحلبية. وفُوِّضَت نيابةُ السَّلْطَنة بحَمَاه للأمير سيف الدين أَسَنْدُمَرْ كُرْجِي[2].

فكان بها، إلى أن فَوَّضَ السلطانُ ـ الملك الناصرُ ـ نِيَابَة المملكة الحَمَوِيَّة إلى الأمير عماد الدين إسماعيل، ابن الملك الأفضل نور الدين علي، ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تَقِيّ الدين عُمَر بن شاهنشاه بن أيوب، في سنة عشرٍ وسبعمائة.

فاستمر في نيابة السلطنة مدة، ثم كوتب بعد ذلك من ديوان الإنشاء بالمقام العالي المَلَكِي العِمَادِي، ولم يَزَلْ كذلك، إلى أن فَوَّضَ السلطانُ الملك الناصر إليه سلطنة حمَاه، ولقبه بالملك المُؤَيَّد. ورَكِبَ بالقاهرة المحروسة بشِعار السلطنة، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم، سنة عشرين وسبعمائة ـ على ما نذكره ذلك، إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة الناصرية. وهو باق إلى وقتنا هذا. ويَصِلُ في كل سنة إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية بالتقادِم والتُّحَف، ويَحْصُلُ له الإنعام السلطاني، والتشاريف، وغير ذلك.

(١) ويقال له غازان. وهو الذي تولى عرش المغول في شهر ذي الحجة سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م. وكان قد اعتنق الإسلام. وبتحول غازان إلى الإسلام تحول معه مائة ألف من أتباعه، وكان أول عمل قام به بعد إسلامه هو أن أعلم الإسلام ديناً رسمياً للدولة المغولية. ثم أصدر أمره بتدمير الكنائس المسيحية واليهودية. وهذا التحول أتاح للمغول فترة هدوء وجدّوا في إصلاح ما أحدثه آباؤهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر استعداداً للمساهمة بنصيبهم في إنهاض الحضارة الإسلامية من كبوتها. انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني ص ٧٠ ـ ٨٥. وانظر الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٢٢٨ ـ ٢٣١، ودول الإسلام للذهبي ص ٣٩٠. والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) «في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٩٢. ضُبط الاسم هكذا: «أَسَنْدَمُر» أي الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر المنصوري نائب طرابلس.

وملوكُ حَماه ـ وإن لُقِّبُوا بأَلقابِ الملوك، وخُوطبوا وكُوتِبوا بما يُخاطَبُ ويُكاتَب به الملوك ـ فلا تُعَدُّ أيامُهم من جُمْلَةِ الدولة الأيوبية، لأنهم في الخدمة السلطانية على رَسْمِ النُّوَّاب. وإنما أَوْرَدْنَا ما ذكرناه من أخبارهم، لِتُعْلَم.

وأما الملك الأشرف مظفر الدين موسى(١) ابن الملك المنصور إبراهيم، ابن الملك المجاهِد أسد الدين شِيركوه ابن الأمير ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شِيركوه بن شادِي.. صاحب تَلّ باشِر والرَّحْبَة

فقد ذكرنا أنه كان بيده حِمْص وتَدْمُر والرَّحْبَة(٢)، إلى أن استولى الملكُ الناصر ـ صاحبُ حلب ـ على حِمص، في سنة ست وأربعين وستمائة، وعَوَّضَه عنها تَلّ باشِر(٣). فلم يَزَلْ بها إلى أن استولى هولاكو على حلب ـ كما ذكرنا في سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ فحضَر إليه، فأكرمه هولاكو، وأعاد عليه حمص، وفَوَّضَ إليه نيابة السلطنة بالشام والسواحل.

فلما هَزَمَ الملكُ المظفر سيف الدين قُطُز التتارَ على عَيْنِ جَالُوت، وَوَصَلَ إلى دمشق ـ أَقَرَّهُ على حِمص والرحبة وتدمر. وأقر الملكُ الظاهرُ ـ بعده ـ ذلك بيده، إلى أن تُوفي في حادي عشر صفر، سنة اثنتين وستين وستمائة(٤).

ولم يكن له عَقِبٌ، فاستقَرَّ ما كان بيده في يد نُوَّاب السلطنة، إلى وقتنا هذا. ولبعض من ذَكَرْنَا أخبارَهم في هذا الوضع، أخبارٌ ووقائع مع الملوك، يأتي ذكرُها في أخبار ملوك الديار المصرية ـ على ما تَقِفُ على ذلك، إن شاء الله تعالى، في مواضعه، وإنما ذكرناهم في هذا الموضع، لتكون أخبارهم مُجْتَمِعَة، على سبيل الاختصار.

---

(١) تولى السلطنة بحمص سنة ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م. وكان آخر ملوك بني أيوب بحمص، توفي سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م. في ترويح القلوب للزبيدي ص ٤١، وانظر حاشية رقم (٤) في هذه الصفحة.

(٢) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠. والرَّحْبَة على شاطىء الفرات الغربي جنوبي قرقيسياء وهي رحبة مالك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨.

(٣) تل باشر: سبق ذكره، وهو قلعة وكورة شمالي حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧.

(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣١١، وفاته (٦٦٢ هـ) والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٩٠ وفاته (٦٦٢ هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٢٥٦، وفاته (٦٦٢ هـ) والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٢، وفاته ٦٢٢ هـ، وله من العمر ٣٥ سنة عندما توفي.

انتهاء الدولة الأيوبية[١]

وكانت هذه الدولةُ الأيوبية بالديار المصرية ـ منذ وَلِيَ الملكُ المنصورُ أسدُ الدين شَيركُوه وزارةَ العاضِد لدين الله العُبَيْدِي، ولَقَّبَه بالملِك المنصور أمير الجيوش، في سابع عشر شهر ربيع الآخر، سنة أربع وستين وخمسمائة، إلى أن مَلَكَ السلطانُ الملكُ المُعِزُّ عزُّ الدين أَيْبَك التُّرْكُمَانِي الصالِحي، في التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة ـ أربعاً وثمانين سنة، وأربعةَ أشهر، واثني عشر يوماً ـ وإلى أن استولى هولاكو على الشام، وهَرَبَ الملكُ الناصرُ، صاحب الشام وحلب، في النصف من صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثلاثاً وتسعين سنة، وعشرة أشهر، تقريباً.

هذا ما أمكن إيرادُه من أخبار هذه الدولة الأيوبية، على سبيل الاختصار. فلْنَذْكُر أخبارَ دولة التُّرْك، وهي فَرعُ الدولة الأيوبية.

(١) هذا العنوان غير موجود في الأصل وضعه المحقق للتوضيح.

ذكر أخبار دولة التُّرْك[١] وابتداء أمر ملوكها، وما ملكوه من الممالك والحصون والأقاليم والثغور والأعمال، وما افتتحوه، وغير ذلك من أخبارهم

كان ابتداء هذه الدولة بالديار المصرية. ثم انتشرت بالبلاد الشامية، ثم امتدت إلى الممالك الحَلَبية والفُراتية. ثم استولت على الثُّغور والقِلاع والحصون الساحلية. واستَنْقَذَتْ حصون[٢] الدَّعْوةِ من أيدي الإسماعيلية[٣]. وبلغت المملكةَ الرومية. ودانت لها الأقطارُ اليمانية والحِجازية.

انتمت إليها الطوائف القَرَمانية[٤]. ورَغِبَ في مُسالمتها الملوكُ الجَنْكِزْخَانِيَّة. وَنَفَذَتْ أَوامرُها واتّصلَتْ أحكامُها ببلاد إفريقية وما يليها، والتَّكْرُور[٥] وما يُدانيها. ودَخَلَ في طاعتها وعَقْدِ ذِمَّتِها من بإقليم النُّوبَة، من بلاد الدَّوّ[٦]، المجاور لثغر أُسوان، إلى بلاد الكَرْسَى والعُرْيان، وهو آخر العَمَلَ بالقرب من مجرى نهر النيل. على ما نورِد ذلك، إن شاء الله تعالى، ونُوَضِّحه ونبيِّنُه ونَشرحه.

---

(١) هي الدولة التي تسمى الآن في كتب التاريخ المختلفة «دولة المماليك».

(٢) حصون الدعوة الإسماعيلية، ذكرها ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨. وقال إنها ثمانية: وهي: الكهف، والقدموس، والمنيفة، والعليقة، والخوابي، والرصافة، ومصياف، والقليعة، ووردت أيضاً في التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٣٦. ولكن ورد اسم قلعة المرقب بدلاً من القليعة. وأما في صبح الأعشى فورد ذكر ست قلاع ما عدا المرقب والرصافة. قال القلقشندي: «سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، وهؤلاء هم المعروفون في ديوان الإنشاء بالقصّاد، وبين العامة بالفداوية، وهذه القلاع عظيمة الشأن رفيعة المقدار، وكانت أولاً مضافة إلى طرابلس ثم نقلت مصياف منها إلى دمشق والبقية على ما كانت عليه من إضافتها إلى طرابلس». ج ٤، ص ١٨٦.

(٣) الإسماعيلية هم الشيعة الباطنية. انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) القرمانية: من الطوائف التركية انظر Encyclopedie Islamique.

(٥) التكرور: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤.

(٦) فيها قلعة «الدو» تقع قريباً من أسوان. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٢٢، حاشية (٦).

ولْنَبْدَأْ بذكر أخبارهم، وسبب الاستيلاء عليهم.

ذكر أخبار الأتراك وابتداء أمرهم وكيف كان سبب الاستيلاء عليهم، واتصالهم بملوك الإسلام. ومن استكثر منهم، وتَغَالَى في اتباعهم وقَدَّمهم على العساكر

قد ذكرنا في أخبار الدولة العَبَّاسِيَّة من اتصل منهم بالخلفاء، وتقدم على العساكر، وعلا قدرُه وطار اسمُه. وذكرنا أيضاً أن أخبار الدولة العُبَيْدِيَّة - في أيام المستنصِر بالله - ما كان من أمرهم، وقيامهم، ومحاربتهم ناصرَ الدولة بن حَمْدَان - تارةً، ومعه أُخْرى.

ثم ذكرنا أن الملكَ الناصر - صلاحَ الدين يوسف بن أيوب - كان ممن اهتَمَّ بتحصيلهم، وأخوه الملك العادل، ثم ابنه الملك الكامل. وكانوا إذ ذاك لا يَجْلُبُهم التُّجَّار إلا خُفْيَةً، ولا يقدرون على تحصيلهم إلا سَرقة، لأن حِمَاهُم كان مَصوناً من التَّجَاهُرِ بِبَيْعِهِم، أو التطرقِ إليهم.

وأما السببُ الموجِب للاستيلاء عليهم، وبيعِهم في الأمصار - فهو أنه لما ظهر جَنْكِزْخَان التمرجي، مَلِكُ التتار، واستولى على البلاد الشرقية والشمالية، وبَثَّ عساكرَه في البلاد، فانتهوا إلى بلاد القَفْجَاق واللَّان[1]، وأَوْقَعوا بهم - على ما قَدَّمْنَا ذِكرُه، في أخبار الدولة الجَنْكِزْخَانِيَّة - فبيعت ذراري التُّرْك والقَفْجَاق، وجَلَبَها التجارُ إلى الأمصار.

ثم رَجَعَتْ عنهم هذه الطائفةُ الذين ندبهم جَنْكِزْخَان إليهم، في سنة ست عشرة وستمائة - وهم التتار المُغَرِّبَة[2] - وعادوا إلى مَلِكِهم جَنْكِزْخَان.

واستقرت طوائفُ الأتراك بأماكنهم من البلاد الشمالية. وهم أصحاب عَمُود[3]، لا يسكنُون داراً، ولا يستوطنون جداراً، بل يُصَيِّفُونَ في أرض ويُشَتُّونَ بأخرى. وهم قبائل كثيرة فمن قبائلهم ما أورده الأميرُ ركن الدين بِيبَرْس، الدَّوَادَارِي المنصوري، نائب السلطنة الشريفة كان - أَحْسَنَ اللَّهُ عُقْباه، وقد فَعَل، وعَامَلَهُ بأَلْطَافِهِ فيما بَقِيَ من الأَجَل - في تاريخه[4]: قبيلة طَقْصَبَا. وتيبا وبُرْجُ أُغْلِي، والبُرْلِي، وقُنْغُر أُغلي، وأُنْجُغْلي.

---

(١) القفجاق والقوقاز: واللان: بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورة للخزر، والعامة تقول علان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩.

(٢) المغربة: هم جماعة من التتر الذين سيرهم «جنكزخان» إلى الغرب أي غرب خراسان.

(٣) قوم رحل ينصبون الخيم. محيط المحيط.

(٤) له كتاب تاريخ «زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلداً، أعانه على تأليفه كاتبه ابن كبر النصراني، توفي بيبرس الدوادار سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م. انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٩، ص ١٩٠.

ودُرُوت. وقَلاَبَا أُغْلِي. وجُرَّتان. وقَرَا تُرْكُلِّي. وكُتُن.

قال: ولم يزالوا مستقرين في موطِنهم، قاطِنين بأماكنهم، إلى سنة ست وعشرين وستمائة. فاتفق أن شخصاً من قبيلة دُروت يسمى مَنْغُوش بن كُتُنْ خرج مُتَصَيِّداً، فصادفه شخص من قبيلة طَقْصَبَا اسمه آق كُبُك ـ وكان بينهما منافسة قديمة ـ فأخذه أسيراً، ثم قتله. وأبطأ خبر مَنْغُوش عن أبيه وأهله، فأرسلوا شخصاً اسمه جَلَنْغَر لكشف خبَره، فعاد إليهم وأخبرهم بقتله. فجمع أبوه أهله وقبيلته وساق إلى آق كُبُك. فلما بلغه مسيرهم نحوه، جمع أهل قبيلته، وتأهب لقتالهم. فالتقوا واقتتلوا، وكان الظفر لقبيلة دُرُوت، وجرح آق كُبُك وتفرق جمعه.

فعند ذلك أرسل أخاه أُنُصْ إلى دُوشي خَان بن جَنْكِزْخَان ـ كان أُوكْدَيْ[1]، وهو المَلِكُ يومئذٍ بكُرْسِي جَنْكِزْخَان[2]، قد نَدَبَه إلى البلاد الشمالية ـ مُسْتَصْرِخاً، به، وشكا إليه ما حَلَّ بقومه من قبيلة دروت القَبْجَاقِيَّة، وأعلمه أنه إن قصدهم لم يجدْ دونهم مَنْ يُمَانِع. فسار إليهم في عساكر، وأوقع بهم، وأتى على أكثرهم قَتْلاً وأَسْراً وسَبْياً، فاشتراهم عند ذلك التجار، ونقلوهم إلى البلاد والأمصار.

وأما أولُ من استكثر منهم وتَغَالى فيهم، وقدَّمَهم على العساكر، فهو الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل.

وقد ذكرنا في أخبار الدولة الكامِلية ـ في سنة سبع وعشرين وستمائة ـ أن الملك الكامل اتصل به أن ابنَه الملك الصالح ابتاع ألفَ مملوك، وأنه تَوَثَّبَ على الملك، فنَقِمَ عليه وأخرجه من الديار المصرية.

فلما أَفْضَت السلطنةُ إليه، استكثر منهم، وأمرهم وقدَّمَهم على العساكر. فكانوا في خدمته، إلى أن مات. وملك بعده ابنه الملك المعظم تُورَانْشَاه، فعاملهم بما يكرهونه. وبَذَلَ لسانَه فيهم، وتواعدهم، فحَمَلَهُم ذلك على قَتْلِه، وطَلَبِ المُلْكِ لأنفسهم. وكان ما ذكرناه من إقامة شَجَرِ الدُّرّ، وخَلْعِهَا.

فلْنَذْكُرْ ملوكَ دولة الترك:

أول من مَلَك من ملوك هذه الدولة:

---

(١) هو اوكداي بن جنكزخان وقد يرسم أوغطاي: انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٤، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) كان ملكاً على التتر خلفاً لجنكزخان، انظر صبح الأعشى القلقشندي، ج٤، ص ٣٠٨.

السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي (١)

وليس بتُرْكُمَانِي، وإنما هي نِسبةٌ إلى أولاد التركماني، لأنه كان عند أحدِهم، ثم مَلَكَهُ الملكُ الصالح نجم الدين أيوب. وهو تُرْكِيُّ الجِنس.

مَلَكَ الديارَ المصرية، في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وأربعين وستمائة. وأقام معه في السلطنة الملكَ الأشرفَ مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ابن الملك المسعود صلاح الدين يوسف، ابن الملك الكامل، وأجلسه على كرسي السلطنة في يوم الأربعاء ـ ثالث جمادى الأولى، سنة ثمان وأربعين. ورَكِبَ وشَقَّ المدينة في يوم الخميس ـ وكان عمره نحو ست سنين.

وكانت المَنَاشِير والتَّوَاقِيع والمَرَاسِيم تَخْرُجُ عن المَلِكَيْن، وليس للأشرف معه إلا مجرد التسمية، والأمر للملك المُعِزّ. ولم يزل كذلك، إلى أن قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي في سنة اثنتين وخمسين ـ على ما نذكره. فاستقل حينئذٍ بالمُلْك. وكان الملكُ الأشرف في هذه المدة قد حُجِبَ عن الناس، واسمه قائم دون شخصه.

ذكر الحرب الكائنة بين الملك المعز والملك الناصر صاحب الشام، وانتصار المعز

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة، كانت الحربُ بين السلطان الملك المُعِزّ وبين الملك الناصر ـ صاحب الشام.

وسبب ذلك أن الملك الناصر، لما استولى على دِمشق في هذه السنة ـ كما قَدَّمْنا في أخباره ـ أشار عليه أتابكُه ـ شمس الدين لؤلؤ ـ والأمراءُ القَيْمُرِيَّة، بقصد الديار المصرية. فسار من دمشق. واتصل خبره بالملك المعز، فخرج إليه بعساكر الديار

(١) هو أول ملوك الترك. ترجمته وأخباره في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣، وما بعدها. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦٨، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٢٨٨، وعقد الجمان للعيني، ص ٣٤ وما بعدها، ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور، ص ١٦٢، ودائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، ص ٢٧٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٦٨، والذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٨٥. هذا الاسم مركب من لفظين وهما: «آي» و«بك» ومعنى أولهما: القمر، ومرادف ثانيهما في العربية لفظ الأمير، ويلاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك، وأسماء كل أمراء دولتهم تقريباً عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات في اللغات التركية والفارسية والتترية. مثل بيبرس ومعناه الأمير فهد، وقلاوون ومعناه البطة، وطوغان ومعناه الصقر، وبكتمر، ومعناه الأمير حديد، ومنها سلار، ومعناه الهاجم، وأزبك ومعناه النبيل، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٦٨، حاشية (٢).

المصرية. والتقيا على مَنْزِلَةِ الكُرَاع، بالقرب من الخَشَبي[١].

واقتتل العسكران، في يوم الخميس، العاشر من ذي القعدة من السنة.

فكانت الهزيمةُ على العسكر المِصري، ووصلت طائفة من العسكر المصري إلى القاهرة. ومنهم من فَرَّ إلى جهة الصعيد. وثَبَتَ الملكُ المعز، واختار من عسكره ثلاثمائة فارس، وحمل بهم على صَنَاجِق الملك الناصر، طَمَعاً أن يكون بجهتها فيظفر به. وكان الملك الناصر تَحَيَّزَ إلى فِئَة، واعتزل المعركة خوفاً على نفسه، واحتياطاً لها. فلما عايَنَ حملةَ الملك المعز، وشاهد إقدامَه، انهزم، ورجع إلى الشام ـ كما تقدم.

وساقت الأمراءُ العَزِيزِيَّة[٢] ـ مماليكُ والده ـ بأَطْلاَبِهِم[٣] إلى خِدْمة الملك المُعِزّ، ودخلوا في طاعته، وهم: الأمير جمال الدين أَيْدُغْدِي العَزِيزِي، والأمير شمس الدين أَقُش البُرْلِي، والأمير شمس الدين أَقُش الحُسَامي، وأمثالهم. وكان سبب انصرافهم عن سلطانهم الملك الناصر أنه أضافهم، يوم الحرب، إلى طُلْبِ الأمير شمس الدين لؤلؤ ـ أتابِكه ـ فعزَّ ذلك عليهم، وفارقوا خدمة الملك الناصر.

قال: واجتمع الأمراءُ القَيْمُرِيَّة، وغيرهم، إلى شمس الدين لؤلؤ، وهَنُّوه بالنصر على زَعْمِهِم ـ وتفرقت جماعتُهم في طلَب المكاسب. فلم يبق معهم من مماليكهم إلا نفَرٌ قليل. فصادفهم الملكُ المُعِزُّ بمَنْ معه من عسكره، فقاتلهم. فقُتل شمسُ الدين لؤلؤ وجماعة من الأمراء القَيْمُرية، وهم: حُسَام الدين، وصارم الدين، القَيْمُريَّان، وسعد الدين الحُمَيْدِي، ونور الدين الزَّرْزَارِي، وجماعة من أعيان مماليك الملك الناصر. وقُتِلَ أيضاً تاجُ المُلوك، ابن الملك المعظم تُورَانْشَاه.

وأُسِرَ جماعةٌ، وهم: الملكُ الصالح ابن العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. ثم قَتَلهُ الملكُ المعز في سنة تسع وأربعين، ودفنه بالقَرافة. وأُسِرَ أيضاً الملك المعظم تُورَانْشَاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخوه نُصْرَةُ الدين، والملك الأشرف صاحب حِمص، وشهاب الدين بن حسام الدين القَيْمُري، وغيرهم.

وأما بقية الأمراء الناصرية، فإنهم ما علموا بشيء من ذلك. بل ساقوا خلفَ من انهزم من العسكر، إلى أن وصلوا إلى العَبَّاسَة وخَيَّمُوا بها. ثم بلَغهم الخبرُ فرحلوا

---

(١) راجع صفحة ٢٤٣ من هذا الجزء الحاشيتين (٢) و(٣).

(٢) طائفة من المماليك تنسب إلى السلطان الملك العزيز محمد بن غازي صاحب حلب. العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٤٠، حاشية (٢)، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٢٩٧.

(٣) أطلاب: طلب: وحدة عسكرية قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون في وظائف البلاط، أو الدولة حتى أنه كان للسلطان نفسه هو الآخر طلبة من الفرسان في عدد صغير، وظهر هذا اللفظ في أيام صلاح الدين الأيوبي، محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

بمكاسبهم وأَثْقَالِهِم. قال: ولما انتصر الملكُ المعز، وقتل من قتل، وأسر من أسر، ساق إلى العَبَّاسَة ليلتحق بعساكرِه. فرأى دِهْلِيزَ المِلِك الناصر وعساكره قد خيم على العَبَّاسَة، فعَرَّجَ عن طريقها. وسار على طريق العَلاَقِمَة[١] إلى بِلْبِيس فلم يَجِدْ بها من العسكر أحداً. وبلغه أن منهم من دخل إلى القاهرة، ومنهم من انهزم إلى الصعيد، فنزل على بِلْبِيس بمن كان معه، إلى أن تحقق عَوْدُ من سَلِمَ من العسكر الشامي. وعاد الملك المعز إلى قَلْعَةِ الجَبَل، مؤيداً منصوراً.

قال: ولما طلع إلى القلعة[٢]، وجد جماعةً من الأمراء المعتقَلين بها، لَمَّا بَلَغَهُم وصُولُ المنهزمين من العسكر المصري، ظنوا أن الهزيمة تستمر، فخَطَبُوا للملك الناصر على مِنْبَر الجامع[٣] بالقلعة، في يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة من السنة. فعَظُمَ ذلك على الملك المعز، وشَقَّ الأميرَ ناصر الدين إسماعيل بن يَغْمُور الصالِحي، وأمينَ الدولة [أبي الحسن بن غزل][٤] وزيرَ الملك الصالح، على شَرَارِيفْ[٥] قلعة الجبل - وكانا من جملة المعتقَلين بها - ومن أشار بالخُطْبَة للملك الناصر. ثم أخرج جميعَ من دخل إلى القاهرة من العسكر الناصرية، وأعادهم إلى دمشق على دَوَابّ - وكانوا ثلاثةَ آلاف نفس - ولم يُرْكِبْ أحداً منهم فرساً، إلا نورَ الدين بن الشجاع الأكتع، وأربعةً من مماليك المِلِك الناصر.

واستهلّت سنة تسع وأربعين وستمائة

في هذه السنة، خرج الملك المعز بعساكر الديار المصرية، لقصد الملك الناصر، فنزل على أُمِّ البَارِد عند العَبَّاسَة. واتصل ذلك بالملك الناصر، فجهز العسكر الشامي إلى غَزَّة، ليكون قُبَالة العسكر المصري. وأقام العسكران في منازِلهما ستين يوماً. ونزل الملك الناصر على غَمَّتَا من الغَوْر، وخَيَّمَ عليها. وأقام بعسكره ستة أشهر.

وفيها في شعبان، عُزِلَ قاضي القضاة: عماد الدين أبو القاسم إبراهيم بن هِبَة

---

(١) العلاقمة: بليدة في الجوف الشرقي من أرض مصر دون بلبيس، وفيها أسواق وبازار يقوم للعرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٦٣.

(٢) قلعة الجبل، انظر عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٤٢.

(٣) «وأما القاهرة فلم يقم بجامعها خطبة، وتوقفوا ليتحققوا» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٤١، وكان بجامع القاهرة عز الدين بن عبد السلام فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين وصلى بجماعة الجمعة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٧٧.

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٧٧.

(٥) «على باب قلعة الجبل» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٤٢.

الله بن إسماعيل بن نَبْهَان بن محمد، الحَمَوِي، المعروف بابن المُقَنْشِع ـ عن القضاء بمصر والوجه القبلي. وأضيف ذلك إلى قاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَارِي. فاجتمع له الآن قضاءُ القضاة بالمدينتين، والوجهين القبلي والبحري، ولم يجتمعا له قبل ذلك.

وفيها، قصد الأميرُ جَمَّاز بن شِيحَة المدينةَ النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ وقَبَض على أخيه عيسى، وأقام بالمدينة.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم بهاء الدين علي بن سَلاَمة بن المُسْلِم بن أحمد بن علي اللَّخَمي المِصْري، المعروف بابن الجُمَّيْزِي [خطيب القاهرة][1].

وكان إماماً فاضِلاً، عالِماً بمذهب الإمام الشافعي، وأَخَذَ العِلْمَ عن الشيخ شهاب الدين محمد الطُّوسي، وعن محمد بن يحيى، وشرف الدين بن أبي عَصْرُون. وتَفَقَّهَ بالشام، وقرأ القرآنَ على جماعة منهم الشاطِبي والبطايحي. وسَمِعَ الحديث الكثير. ورواه. سمع شُهْدَة[2] ببغداد، والحافِظ السِّلَفي بمصر، وأُجِيزَ بالفُتْيَا في سنة خمس وسبعين وخمسمائة. وهو سِبْط الفقيه أبي الفوارس الجُمَّيْزِي.

وكان دَمِثَ الأخلاق، كريم النفس، قل أن يَدْخُلَ إليه أحدٌ إلا وأطعمه وكان يُخالط الملوك، ويُعَظِّمونه. لم يَزَلْ كذلك إلى أن حج في سنة خمس وأربعين وستمائة. فأهدى له صاحبُ اليمن هدية بمكة، فقبلها. فأعرض عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكانت وفاته بمصر في ليلة الخميس، رابع عشر ذي الحجة. ودفن يوم الخميس بالقرافة، قريباً من روزبهان. ومولده يوم النحر سنة تسع وخمسين وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الشيخ، الرِّيَاضي، عَلَم الدين قَيْصَر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر، الحنفي المصري، المعروف بتَعاسِيف. كان إماماً في علوم الرياضة، وفي فنون كثيرة.

وكانت وفاته بدمشق، في يوم الأحد ثالث عشر شهر رجب، ودفن خارج باب شرقي، ثم نقل إلى الباب الصغير. ومولده سنة أربع وسبعين وخمسمائة، بأَصْفُون من

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٥٧.

(٢) هي شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري ثم البغدادي الكاتبة المسندة فخر النساء، وكانت دينة عابدة صالحة سمعها أبوها الكثير وصارت مسندة العراق. توفيت سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤٨.

أعمال مدينة قُوص، من الصَّعيد الأعلى بالديار المصرية[١]. وأصفون بلدة مشهورة هناك.

وفيها، توفي الصاحب الوزير: جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مَطْرُوح.

مِنْ أهل صعيد مصر. ونشأ هناك وأقام بمدينة قُوص مدة وتنقلت به الأحوال في الخِدَم والولايات. ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، في نيابته عن أبيه السلطان الملك الكامل بالديار المصرية. وانتقل في خدمته عند توجهه إلى بلاد الشرق، في سنة تسع وعشرين وستمائة. ولم يَزَلْ هناك إلى أن ملك الملكُ الصالح الديار المصرية، فوصل إلى خدمته، في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة. فَرَتَّبَهُ ناظرَ الخزانة.

ثم نَقَلَهُ إلى دِمشق، لما مَلَكَها ثانياً، من عمه الملك الصالح إسماعيل، وجعله وزيراً وأميراً. واستمر إلى أن وصل السلطان الملك الصالح إلى دمشق في شعبان سنة ست وأربعين وستمائة. فعزله عن الوزارة وسَيَّره مع العسكر لحصار حِمْص. ثم عاد في خدمة السلطان إلى الديار المصرية، وأقام معه بالمنصورة ـ وقد تَغَيَّرَ عليه لأَسْبَابٍ اتصلت به عنه ـ مع ذلك فلم يَزَلْ يُلاَزِمُ الخدمة، إلى أن مات السلطانُ الملك الصالح بالمنصورة، فجاء إلى مصر، وأقام بداره إلى أن مات.

وكان حسنَ الأخلاق. وله ديوان شِعر. وكانت وفاته بمصر في ليلة الأربعاء، مستهل شعبان، سنة تسع وأربعين وستمائة. ودفن بسفح المقطم. ومولده بمدينة سَيُوط من صَعيد مصر، في يوم الاثنين ثامن شهر رجب، سنة اثنتين وتسعون وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى.

واستهلَّت سنة خمسين وستمائة

والاختلافُ بين المَلِكَيْن: الناصر ـ صاحب دمشق والشام ـ والمُعِزّ صاحب الديار المصرية ـ على حاله، والعساكر من الطائفتين مُجَرَّدَة، كل طائفة مُعْتَدَّة للأخرى. ولم يكن فيها من الأخبار ما نذكره[٢].

---

(١) أصفون: بضم الفاء وسكون الواو ونون. قرية بالصعيد الأعلى على شاطىء غربي النيل تحت إشني وهي على تلٍ عال مشرف. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٥١.

(٢) انظر ما ورد من أخبار السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٨٢.

واستهلَّت سنة إحدى وخمسين وستمائة

ذكر الصلح بين الملِكَيْن: المعز والناصر

قال: ولم تزل الفتنةُ بين المَلِكين المعز والناصر قائمة، إلى أن وصل الشيخ نجم الدين البادَرائِي رسول الخليفة، فسعى في الصلح بينهما(١).

فوقع الاتفاق: على أن يأخذ الملكُ المعز من الملك الناصر القُدْسَ وغَزة، وجميعَ البلاد الساحلية ـ إلى حدود نابُلُس. واستَحْلَفَ الشيخ نجمُ الدين المَلِكَيْن على ذلك. فتم الصلح بينهما وانتظم.

وأفرج الملك المعز عن الملك المعظم صلاح الدين يوسف بن أيوب، والملك الأشرف صاحب حمص، وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وغيرهم من الأمراء الذين كانوا قد أُسِرُوا في المُصَافّ، الكائن في سنة ثمان وأربعين وستمائة، وذلك في المحرم من هذه السنة.

وفي هذه السنة، لثلاث خَلَوْنَ من شعبان، قُتِلَ أبو سعد: الحسن بن علي بن قَتَادَة ـ صاحب مكة ـ شَرَّفَهَا الله تعالى.

واستهلَّت سنة اثنتين وخمسين وستمائة

ذكر خبر عربان الصعيد، وتوجه الأمير فارس الدين أقطاي إليهم وإبادتهم

كان من خبر العُرْبَان بالصعيد، أنه لما اشتغل الملك الصالح نجم الدين أيوب وعساكرُه بقتال الفرنج بالمنصورة، وحصَلَ ما قَدَّمْنَا ذِكْرَه: من وفاته، ومقتل ولَدِه الملك المُعَظَّم، واشتغال الملك المعز بحرب الملك الناصر، وتجريد الجيوش إلى جِهَتِه، وعدم الالتفات إلى غير ذلك ـ تمكن العُرْبَان بهذه الأسباب من البلاد، وكثر شَرُّهُم، وزاد طغيانهم وبَغْيُهم. وحصل لأهل البلاد منهم، من أنواع الأذى ونهب الأموال والتعرض إلى الحَرِيم، وأمثال ذلك، ما لا حصل من الفرنج أكثرُ منه.

واجتمعوا على الشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب الجَعْفَرِي(٢) وأطاعوه ظاهِراً،

---

(١) انظر السلوك، ج ١، ص ٣٨٥، وفيه تفاصيل معاهدة الصلح التي تمت بين الملكين.

(٢) هو حصن الدين ثعلب ابن الأمير الكبير نجم الدين علي ابن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبي جميل الجعدي. وأبو جميل هو دحية بن جعفر بن موسى بن أبي طالب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

وانقادوا له، إلا أنه لا يستطيع دفعَهم عن كل ما يقصدونه من أذى. وأخَذَ أَمْوالَهم، وكثُرتْ جُموعهم معه، حتى زادوا على اثني عشر ألف فارس، وستين ألف راجل، بالسلاح والعُدَد.

فلما تم الصلحُ بين المَلِكَين، وتفرغ وجهُ السلطان الملك المعز من جهة الشام، صَرَفَ فِكْرَتَه إلى جهتهم، وانتدب لحربهم الأميرَ فارس الدين أَقْطَاي. واستشار الأميرَ عز الدين أَيْبَك الأَفْرَم الصالِحي في عِدَّة العسكر الذي يقوم بحربهم، فأشار بانتخاب ألفي فارس من العسكر، والتزم أنه يُفَرِّقُ بهذه العِدة جموعهم، ويُبيدهم بها.

فانتخب الأميرُ فارس الدين هذه العِدَّة من العسكر، وتوجه بهم ـ وصُحْبَتُه الأمير عز الدين المذكور ـ وتوجه إلى جهة الصعيد، وقصد العُرْبان. وكانوا قد اجتمعوا بمكان يسمى الصَّلْعَا(١) بمُنْشَاة إِخْمِيم، في البر الغربي ـ وهي أرض وَسِيعَة، تَسَعُ عِدَّتَهم. فساق الأميرُ فارس الدين ومن معه من العسكر. من جهة الحاجز بالبر الغربي، سَوْقاً عظيماً، ما سمع الناس بمثِله، وانتهى إليهم في ثلاث علايق ـ وهذه المسافة لا يستطيع البَرِيدُ أن يصل إليها في مثال هذه المدة، إلا إن أَجْهَدَ نَفْسَه.

وطلع عليهم في صبح اليوم الرابع، ودَهَمهم بغْتةً بهذا المكان. فلما شاهَدَ كَثْرَتَهم، كاد يقف عن ملاقاتهم. وأَنْكَرَ على الأمير عز الدين، وقال: لقد غَشَشْتَنَا، فإن هذه العِدَّة التي معنا لا تقوم بهذه الجموع الكثيرة، فقوَّى نَفْسَه، وقال: أنا أَعْرِفُ هؤلاء، وهذه بلاد ولايتي. وحَمَلَ عليهم، ورَمَتْهُم العسكرُ بالنُّشّاب، فما كان السَّهُمْ يقع إلا في أَحَدِهم. فما كان بأسرع من أن انهزموا أقبَح هزيمة، وأَخَذَهم السيفُ. وتفرقت تلك الجموع، واختفوا، وغَيَّرُوا لِباسهم. وقُتِل منهم في المعركة والطَّلَبِ خلقٌ كثير.

ولما عايَنَ الشريفُ حِصنُ الدين انهزامَ أصحابه، بادر بالهزيمة وحمل معه ألفَ دينار، واستصحبَ حَظِيَّة له، وتوجه إلى الوجه القبلي. ثم قُبِضَ عليه بعد ذلك ـ على ما نذكره، إن شاء الله تعالى. وعاد الأمير فارس الدين إلى القاهرة بعسكره، ومعه جماعة من العُرْبَان، من جملتهم: ابن عم الشريف حصن الدين بن ثعلب. فشُنِقَ تحت قلعة الجبل، ثم قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي، في هذه السنة.

(١) الصَّلعاء: قرية بمصر بالصعيد الأعلى تتبع الآن مركز «سوهاج» انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٧٩.

ذكر خبر الأمير فارس الدين أَقْطَاي[١]، وما كان من أمره إلى أن قُتل

كان الأمير فارس الدين أَقْطَاي، الجَمَدَار[٢] الصالِحي، قد استفحل أمرُه في الدولة المُعِزِّيَّة بالديار المصرية، وقويت شوكته في سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وانضم إليه الأمراء البَحْرِيَّة واعتَضَدَ بهم. وتطاوَل، إلى أن خطب ابنة الملك المُظَفَّر صاحب حَمَاه. وكان الرسول في ذلك الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب بهاء الدين علي ـ قَبْلَ وزارة والدِه ـ فأُجِيب إلى ذلك. وعُقد النكاح، وحُمِلَتْ إليه، فوصلت إلى دمشق، وقُتِلَ، قبل وصولها إليه. ولما تزوج بها زادت نفسُه قوة، وعظَّمَه الأمراء، وخَفَّضُوا من جانب الملك المعز، وألانَ الملك المعزُّ جانِبَه له، ولهم.

واستمر الأمرُ على ذلك إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة. فامتدت أطماعه إلى صلب ثغر الإسكندرية، إقْطَاعاً، فلم يُمْكِن الملك المعز مخالفته، لقوة شَوْكَتِه. وتَطَاوَلَ البَحْرِيَّةُ، واشتطوا في طلب الإقطاعات والزيادات. واتصل بالملك المعز أنهم يُدَبِّرُون عليه، وأنهم قد عزموا على الوثُوب، فبادر عند ذلك بالتدبير والاحتياط.

ولما كان في يوم الاثنين ـ حادي عشر شعبان، من هذه السنة، استدعاه السلطان على العادة، وكمن له عِدَّة من مماليكه، بقاعة الأعمدة. وقرر معهم أنه إذا عَبَر إليه يغتالوه. فحضر في نفَر يسير، ثِقَةً منه واسترسالاً، واطِّرَاحاً لجانب السلطان، وأنه لا يجسُر أن يقدم عليه، ولم يشعر به خُوشْدَاشِيَّتِه[٣]. فلما قَرُب، مُنِعَ مماليكُه من الدخول معه، ووَثَبَ عليه المماليكُ المُعِزِّيَّة فقَتَلوه.

وحُكِيَ عن عز الدين أَيْبَك الفارِسي ـ أحد مماليكه ـ في خبر مقتله، قال: كان قد

---

(١) ويقال له أقطايا: كان من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان أحد الجمدارية عنده ثم ترقت به الحال إلى أن استولى على الديار المصرية، وتقدم البحرية الذين أهلكوا الناس. انظر عقد الجمان للعيني (ذكر ترجمة أقطاي)، ج ١، ص ٨٦، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٥٥، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ج ٨، ص ٧٩٢ ـ ٧٩٣.

(٢) الجمدار: وهو موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما: جاما، ومعناه الثوب، والثاني: دار ومعناه ممسك أي ممسك الثوب، وأصل الكلمة جامادار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) الخشداش: معرب اللفظ الفارسي خواجاتاش أي الزميل في الخدمة والخشداشية أو الخجداشية أو الخداجداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فبنت بينهم رابطة الزمالة القديمة. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، ص ١٢٠.

ركب إلى قلعة الجبل في يوم مقتله، واجتمع بالسلطان. وطلب منه أن يُنْعِمَ على بعض البحرية بمال. فاعتذر الملك المعز أن الخزائن قد خَلَتْ من الأموال، وقال له: تَوَجَّهْ بنا إلى الخزانة لنشاهدها، ونتحققَ حالتها. فتوجها جميعاً إلى الخزانة من جهة الدُّور. وإنما فعل العز ذلك، لأن الوصول إلى الخزانة من جهة الدور حَرِجُ[١] المَسْلَك، ويَمُرُّ المارُّ على بعض قاعات الحَرِيم، فلا يمكن استصحاب الكثير من المماليك. وكان الملك المعز قد كمن في عَطْفَةٍ من عطفات الدهليز مملوكَه الأمير سيف الدين قُطُز ـ ومعه عشرة من المماليك المُعِزِّيَّة، من ذَوي القوة والإقدام. فلما وصلوا إلى ذلك المكان، تأخر السلطان، واسترسل الأمير فارس الدين على ما هو عليه، وتقدم إلى المكان، فوثبوا عليه، وقتلوه. قال: وأمر الملك المعز بغلق قلعة الجبل، فغلقت.

ورَكِبَ مماليكُه وحاشيتُه ـ وكانوا نحو سبعمائة فارس ـ وجماعةٌ من البحرية، وقَصَدُوا قلعة الجبل، وظنوا أنه قد قُبِضَ عليه، ليطلقوه. فلما صاروا تحت القلعة، أمر السلطان بإلقاء رأسه إليهم، من أعلى السور فعلموا فَوَاتَ الأمر فيه، فتفرقوا. وكانت هذه الواقعة شبيهةً بواقعة عَمْرو بن سعيد الأَشْدَق مع عَبْدِ الملك بن مَرْوَان[٢]. وتَفَرَّقَ شَمْلُ البَحْرِيَّة لمقتله، وانْتَشَرَ نظامُهم. وكان من خبره ما نذكره.

ولما قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي، وهَرَبَ البَحريةُ ومماليكه، ركب السلطان الملك المعزُّ بشِعار السَّلْطَنَة بالقاهرة. وذلك في يوم الأحد، سابع عشرين شعبان المذكور. وجَهَّزَ الملِكَ الأشرف، الذي كان قد شَرَكَه معه في الملك إلى دمشق ـ في هذا الشهر. واستقَلَّ بالسلطنة. وانفرد بالأمر، بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي.

ومن المؤرخين من جَعَلَ هذا التاريخَ ابتداء سلطنة الملك المعز، وجعَلَه فيما مضى أَتَابِكاً للملك الأشرف مظفر الدين موسى. إلا أن الأمر منذ خَلَعَت شجرُ الدر نفسَها، كان للملك المعز، مع تَمَكُّنِ الأمير فارس الدين أَقْطَاي من الدولة وتَحَكُّمِه.

وفي هذه السنة، أُقْطِعَ الأميرُ جمال الدين أَيْدُغْدِي العَزِيزِي دِمْياط ـ زِيادةً على إقطاعه ـ وكان مُتَحَصَّلُها يومئذٍ ثلاثين ألف دينار.

وفيها، عُزِلَ قاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَارِي، عن تدريس المدرسة الصالِحِية،

---

(١) المكان الضيق. الفيروزابادي: القاموس المحيط (حرج).

(٢) في الأصل: «مع مروان بن الحكم» وهذا خطأ. لأن واقعة عمرو بن سعيد كانت مع عبد الملك بن مروان لا مع أبيه. وهذه الواقعة هي أن عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد أبي أحيحة بن العاص بن أمية الأشدق (وهو أموي) حاول أن ينتزع الخلافة من عبد الملك، فقبض عليه وقُتل في القصر. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٢٣٨. وانظر تفاصيل الواقعة (ذكر مقتله) في الكامل لابن الأثير، ج ٤، ص ٢٩٧.

بالقاهرة المُعِزِّيَّة. وفوض ذلك لشيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. وتوجه قاضي القضاة بدر الدين السِّنْجَاري إلى الحجَاز الشريف، من جهة البحر، وعاد في البر.

وفي هذه السنة، وصلت الأخبار من مكة ـ شرفها الله تعالى ـ أن النار ظهرت من بعض جبال عَدَن، وأن شررها يطير في الليل ويقع في البحر، ويصعد منها دخانٌ عظيم في النهار. فظن الناس أنها النارُ التي أَخْبَرَ رسولُ الله ﷺ أنها تظهر في آخر الزمان، وهي من أَشْرَاطِ[1] الساعة. فتاب الناسُ، وأقلعوا عما كانوا عليه من الظلم والفساد، وشرعوا في أفعال الخير والصَّدَقَات.

ذكر أخبار الأمراء البحرية،
وما اتفق لهم بعد مقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي

قد رأينا أن نذكر أخبار الأمراء البَحْرِيَّة في هذا الموضع ـ متتابعة ـ من حيث هَرَبِهم، ولا نقطعها بالسنين، لتكون أخبارُهم سِيَاقَةً يَتْلُو بعضُها بعضاً.

كان من خبرهم، أنه لما شاع الخبرُ بمقتل الأمير فارس الدين أَقْطَاي، واتصل ذلك بالأمراء خُوشْدَاشِيَّتِه ـ وفيهم الأمير ركن الدين البُنْدُقْدَارِي، والأمير سيف الدين قَلَاوُون الأَلْفِي، والأمير شمس الدين سُنْقُر الأَشْقَر، والأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدِي، والأمير بدر الدين بَيْسَرِي الشَّمْسِي، والأمير سيف الدين سُكُزْ، والأمير عز الدين أَزْدُمَر السَّيْفِي، والأمير سيف الدين سُنْقُر الرُّومي، والأمير سيف الدين بَلَبَان المُسْتَعْرِبِي، والأمير سيف الدين بَرَامِق، وغيرهم من الأمراء، ومن انضم إليهم من خُوشْدَاشِيهم ـ خرجوا من القاهرة ليلاً[2]، وأحرقوا باب القَرَّاطِين[3]، وتوجهوا إلى الشام. واعْتُقِلَ السلطانُ ـ الملك المعزُّ ـ من بَقِيَ منهم بالقاهرة.

وتوجه الذين خرجوا من القاهرة حتى نزلوا غَزَّة، وكاتبوا السلطانَ الملكَ الناصر صاحب الشام، وسألوه أن يَأْذَنَ لهم في الوصول إليه، فأجابهم إلى ذلك. ووصلوا إليه، فأنعم عليهم بالأموال والخلَع، وأقطعهم الإقْطَاعات. وأقاموا عنده يُحَرِّضُونه على قصد الديار المصرية، فما وَثِقَ بهم. وكان الملك المعز قد كتب إليه وخَيَّلَه منهم. وأَوْهَمَهُ.

---

(١) أشراط: علامات، بطرس البستاني: محيط المحيط. (شرط).

(٢) «خرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذين قصدوا الخروج منه مغلقاً فأضرموا فيه ناراً» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٨٧.

(٣) هو باب القاهرة الشرقي وعرف بعد الحريق باسم الباب المحروق. العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٨٧، حاشية (٢).

فطلب الملكُ الناصرُ من الملك المعز القُدْسَ وجميعَ البلاد الساحلية ـ التي كان قد أخذها منه عند وقوع الصلح ـ بِحُكْمِ أنها كانت جارِيةً في إقطاع البحرية، وأنهم انتقلوا إلى مملكته، واستقروا في خدمته، فأعادها الملك المُعِزّ إليه، فأَمَّرَ الملكُ الناصر كل من له إقطاع في هذه البلاد على إقطاعه، وكَتَبَ مَنَاشِيرَ بذلك. وأقاموا في خدمته إلى سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم فارقوه، لِمَا رأوه من ضعف رأيه، وتوجهوا إلى نابُلس. وقصدوا الملِكَ المُغيث صاحب الكَرَك، فوصلوا إلى خدمته ـ في عاشر شوال ـ فقَبِلَهم وأكرمهم فالتمسوا منه المساعدةَ على قصد الديار المصرية، وأوهموه أن الأمراء بالديار المصرية كاتبوهم، وراسَلوهم في ذلك. فجمع الملك المغيثُ من قدر عليه، وسار بهم وبسائر البَحْرِية ـ وذلك في سلطنة الملك المنصور نور الدين ابن الملك المعز. فخرج إليهم الأمير سيف الدين قُطُز المُعِزِّي بالعساكر المصرية، والتقوا واقتتلوا ـ في يوم السبت الخامس والعشرين، من ذي القعدة، سنة خمس وخمسين وستمائة، فانكسر الملكُ المغيث ومن معه من البحرية. واستولى العسكر المصري على أَثْقَالِهم، وقُتِلَ: الأمير عز الدين الرُّومي الصالحي، وسيف الدين الكافُوري، وبدر الدين إيغان الأَشْرَفِي. وأُسِرَ الأمير سيف الدين قلاوون الأَلْفِي، والأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدي.

ولما أُسِرَ الأمير سيف الدين قلاوون، ضَمِنَه الأمير سيف الدين قِيزَان المُعِزِّي استاذ الدار السلطانية، فما تعرض إليه أحد. وأقام بالقاهرة بُرْهَة يسيرة. ثم تسحب واختفى بالحُسَيْنِيَّة، عند الأمير سيف الدين قَطْلِيجَا الرومي. وقَصَدَ اللحاق بخُوشْدَاشِيَّتِه، فزَوَّدَه وجَهَّزه، فتوجه إلى الكَرَك.

ثم فارق البَحْرِيَّة الملكَ المغيثَ، وتوجهوا نحو الغَوْر[1]. فصادفهم الأمراءُ الشَّهْرَزُورِيَّة[2]، عندما جَفَلُوا من بلادِ الشَّرْق. فاجتمع البحرية بهم، وتزوج الأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي ـ وهو الملكُ الظاهر ـ منهم. فبلغ الملكَ الناصرَ ذلك، فجهز جيشاً لقتالهم. فالتقوا بالغَوْر، واقتتلوا. فانهزم العسكرُ الناصري. فغضِبَ الملك الناصر لذلك، وخرج بنفسه إليهم. فعلموا عَجْزَهم عن مقابلته، فتوجهوا إلى الملك المغيث بالكَرَك، وتوجه الشَّهْرَزُورِيَّة إلى الديار المصرية.

واتَّفَقَ للأمير ركنِ الدين البُنْدُقْدَارِي مع الملك المُغِيث حكاية عجيبة، وهو أنه كان في يده نُتُوءٌ في اللحم شبه خَرَزَة، فجلَس في بعض الأيام بين يدي الملك المُغيث

(١) الغور: أي غور الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٤٥.
(٢) راجع صفحة ٢٤٧ من هذا الجزء، حاشية (١).

ـ وقد أُتِيَ بلَوْزٍ أخضر وعسل، فَجَعَلَ يَفْرِكُ اللَّوْزَ على العسل ـ فنظر الملكُ المغيث إلى النتوءِ الذي في يده، فقال: ما هذا يا رُكن؟ قال: هذه خَرَزَةُ المُلْك! فتغير وجهُ الملك المغيث، وعلِم جُرْأَته، وقصد قتلَه، ثم ترَكه. أخبرني بذلك المَوْلَى شرف الدين أبو الروح، عيسى ابن الملك المغيث، عمن حضَر هذه الواقعة وسَمِعَ ذلك من لَفْظِهِمَا.

قال المؤرخ: ولما بلغ الملكَ الناصرَ عَوْدُ البحرية إلى خدمة الملك المغيث، كتب إليه يطلب منه تسليمهم، ويهدده إن لم يفعل. فدافع عنهم. فسار الملك الناصر بنفسه، ونزل ببركة زَيْزَا، وعزم منازلة الكَرَك ـ إن أصر الملك المغيث على الامتناع من تسليمهم إليه.

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البُنْدُقْدَارِي قد تَخَيَّل[١] من الملك المغيث للحكاية التي قدمناها. فأرسل إلى السلطان الملك الناصر الأميرَ بهاء الدين أمير أَخُور ليلا[٢]، يطلب منه الإذن في حضوره إلى خدمته، ومفارقة الملك المغيث، وأن يَسْتَحْلِفَه له ولجماعة معه أن لا يغدر بهم، وأن يكون السفير في ذلك الأمير عماد الدين بن المجير. فأجاب الملكُ الناصر إلى ذلك. فبعث إليه الأمير ركن الدين الشيخ يحيى، برسالة، مضمونها: أن يحلف له ولعشرين من أصحابه، وأن يقطعه خُبْزَ مائة فارس، وشرط أن يكون قَصَبَة نابُلُس وجِينِين وزرْعِين[٣] مما يقطعه له. فأجاب إلى نابُلس لا غير، وحَلَفَ له.

فَقَدِمَ الأمير ركن الدين إلى الملك الناصر، في العشر الأول من شهر رجب ـ وصُحْبَتُه الجماعة الذين حلف لهم، وهم: الأمير بدر الدين بَيْسَرِي الشَّمْسي، والأمير سيف الدين أَتَامِش المَسْعُودِي، والأمير علاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيري، وجمال الدين أَقُش الرُّومي، وسيف الدين بَلَبَان الدَّاوَدَار، وعلاء الدين كَشْتُغْدِي الشَّمْسِي، وحسام الدين لاجين الدَّوَادَار، المعروف بالدَّرْفِيل، وعلاء الدين أَيْدَغْمُش الحَكِيمي، وعلاء الدين كَشْتُغْدِي المشرفي، وعز الدين أَيْبَك الشيخ، وركن الدين بِيبَرس خاص ترك

(١) تخيل: أي توهم. الفيروزابادي: القاموس المحيط (خيل).

(٢) أمير أخور: وظيفته أنه هو المتولي شؤون الاسطبلات السلطانية من الخيول والإبل، وما يتعلق بذلك. و«آخور» معناها: المعلف. انظر: صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٥، ص ٤٦٠.

(٣) جينين: هي مدينة جنين في فلسطين تقع عند النهاية الشمالية لمرتفعات نابلس فوق أقدام الجبال المطلة على سهل مرج ابن عامر. أما زرعين: فهي قرية تقع على مسافة ١١ كلم شمالي شرقي جنين. وقد طردت سلطات الاحتلال الصهيوني سكان زرعين العرب من ديارهم عام ١٩٤٨ ودمرت قريتهم وأقامت عام ١٩٤٩ على أراضيها مستعمرة «يزرعيل» على بعد ٤ كلم من العفولة. الموسوعة الفلسطينية ج ٢، ص ٨٣ و٥١٢.

الصغير، وسيف الدين بَلَبان المهراني، وعلَم الدين سَنْجَر الأَسْعَدِي، وعلم الدين سَنْجَر الهُمَامِي، وشمس الدين أَبَاز الناصِري، وشمس الدين طُمَان، وعز الدين أَيْبَك العَلاَئي، وحُسام الدين لاجِين الشُّقَيْرِي، وسيف الدين بَلَبَان الأَقْسِيسي، وعلم الدين سلطان الأَلْدُكْزِي ـ فأكرمهم الملك الناصر، ووفَى لهم، وخَلَع عليهم وأحسن إليهم، وأَقْطَعَهم.

ثم أمسك الملكُ المُغيث من بَقِيَ عنده من البحرية، وسيَّرَهم إلى الملك الناصر، وهم: الأمير سيف الدين سُنْقُر الأشقر، والأمير سيف الدين سُكُزْ، والأمير سيف الدين بَرَامِق ـ فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب، واعتقلهم بها. حتى استولى هولاكو على حلب، فأفرج عنهم وأضافهم إلى عسكره.

وبقي الأمير ركن الدين البُنْدُقْدَارِي، والأمير سيف الدين قَلاَوُون، وغيرهما، ممن لم يُمْسَك من خُوشْدَاشِيَّتِهما، في خِدمة الملك الناصر، إلى أثناء سنة ثمان وخمسين وستمائة. ففارقوه، لما ملك التتارُ حلب، وعلِموا عَجْزه عن ملاقاتهم، ففارقوه وتوجهوا إلى غَزَّة.

وكان للبحرية في بعض هذه المدة أحوالٌ يطول شرحها، حتى أعوزهم القُوتُ في بعض الأوقات. ثم اجتمعوا بعد مفارقة الملك الناصر، وتوجهوا إلى خِدمة الملك المظفر سيف الدين قُطُز، وشهدوا معه حربَ التتار ـ على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في موضعه.

فلْنَرْجِعْ إلى سِيَاقِ أخبار الملك المعز.

واستهلَّت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

ذكر مخالفة الأمير عز الدين أيبك الأفرم وخروجه عن الطاعة، وتجريد العسكر إليه وإلى من وافقه، وانتقاض أمره

كان الأمير عز الدين أَيْبَك الأَفْرَم الصالِحي أقام في البلاد، بعد أن هَزَم الأميرُ فارس الدين أَقْطَاي الصالِحي العَربَ ـ كما تقدم ـ وتأخر هو لتمهيد البلاد.

فلما قُتِلَ الأمير فارس الدين أَقْطَاي، تظاهر بالعصيان، واستولى على الأعمال القُوصِيَّة ـ بموافقة مُتَوَلِّيهَا الأمير ركن الدين الصَّيْرَمي. واستولى أيضاً على الأَعْمَال الإِخْمِيمِيَّة والأَسْيُوطِيَّة، وقطع الحُمُولَ عن بيت المال بقلعة الجبل من هذه الأعمال، واقتطع الأموالَ لنفسه. ووافقه الشريفُ حِصنُ الدين بن ثَعْلَب.

فنَدَب السلطانُ العساكرَ لذلك، وقَدَّمَ عليها الصاحبَ شرف الدين هِبَةَ الله بن صاعِد الفائِزي. فتوجه إلى جهة الصعيد، وظَفِرَ بالشريف حِصْن الدين بن ثَعْلَب.

فأحضره إلى السلطان، فاعتَقَله بقلعة الجبل، ثم نقله إلى ثغر الإسكندرية، واعتقله هناك[١]، فلم يَزَلْ في الاعتقال، إلى أن شَنَقَه السلطان الملكُ الظاهر ركن الدين ـ على ما نذكره.

وأما الأمير عز الدين الأفرم، فإنه [...][٢].

وأما الأمير ركن الدين الصَّيْرَمي ـ مُتَوَلِّي الأعمال القُوصِيَّة ـ فإنه كان قد ظن أنه يَستبِدُّ بالأمر، ويستولي على البلاد ويستمر له ذلك، وتَخَيَّلَ ذلك بذهنه، فلما انْتَقَض عليه هذا الأمرُ، تَحَيَّلَ في الهرب، وتوجه إلى دمشق، والتحق بخدمة السلطان الملك الناصر.

وكان وصوله إلى دمشق في جمادى الآخرة، سنة أربع وخمسين وستمائة ـ بعد أن نُهِبَتْ أموالُه، وقُتِلَتْ رجالُه، ولما وصل أُنْزِلَ بالمدرسة العَزِيزِيَّة[٣] على الشَّرَفِ الأعلى، فقال للفقهاء: اعْذُرُوني، فأنتم اخلوا لي الجَوْسَق الذي على الميدان. وما أَنْتَقِلُ إليه إلا بطالِع. وأَحْضَرَ المُنَجِّم، وأخذ له الطالِع، وانْتَقَلَ إلى الجَوْسَق. فاستقل الناس عَقْلَه! فإنه وصل من النَّهْب والهَرَب، والشَّتَات وقتل الرجال، وهو يتمسك بالطوالِع وأقوال المنجمين.

واستهلَّت سنة أربع وخمسين وَستمائة

ذكر تفويض قضاء القضاة بالديار المصرية للقاضي: تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضي الأعز خلف

في هذه السنة، فوَّضَ السلطانُ ـ الملك المعز ـ قضاءَ القضاة بمصر والوجه القبلي، لقاضي القضاة: تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضي الأَعَزّ خَلَف، بن محمود بن بَدْر العَلاَمي[٤] ـ وهو المعروف بابن بنت الأَعَزّ. وكُتِبَ لَه تقليدٌ شريف مُعِزِّي، تاريخُه

(١) «اعتقل في جب تحت الأرض يعرف بجب الشريف» في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٠٨.

(٢) في الأصل بياض. (المحقق).

(٣) المدرسة العزيزية. سبق التعريف بها كانت من كبرى المدارس بدمشق. وهي تنسب إلى العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين.

(٤) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامي (نسبة إلى بني علامة، وهم بطن من لخم). المعروف بابن بنت الأعز. والأعز كان وزيراً للملك الكامل واسمه الأعز مقدام ابن القاضي أبي السعادات أحمد بن شكر، وتاج الدين كان إماماً فاضلاً عالماً ولي المناصب الجليلة، مثل نظر الدواوين والوزارة وقضاء القضاة ودرّس بالشافعي والصالحية. ولد سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م. وتوفي سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٩٥. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣١٩.

تاسع شهر رمضان. وكان ذلكَ جارياً[١] في ولاية قاضي القضاة: بدر الدين يوسف السِّنْجَارِي.

فاستقر القاضي بدرُ الدين ـ قاضي القضاة ـ بالقاهرة والوجه البحري. ثم فُوِّضَ ذلك، في بقية هذا الشهر، لقاضي القضاة تاج الدين ـ المشار إليه ـ بتقليدٍ تاريخُه لثمان بقين من شهر رمضان، من السنة، فَكمُلَ له بهذه الولاية قضاءُ القضاة بالمدينتين: والعَمَلَيْن القبلي والبحري، وسائر أعمال الديار المصرية، وعُزِلَ قاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَارِي عن القضاء.

وقد شاهَدْتُ تقليدَيْ قاضي القضاة تاج الدين، ونسخةُ التقليد الأول ـ بعد البسملة، ومثال العلامة المعزية:

«حَسْبِيَ الله. الحمدُ لله مُقِيمَ مَنَارِ الشريعة الهادِية، وناشِر أعلامها. ورافع مَحَلِّها على الشرائع ومُعْلِي مَقامِها. وهادِي الخَلِيفَة إلى اتباع أَقْضِيَتِها وأَحْكَامِها. وناصر دينه باتِّسَاقها وانتِظامها. ومشيد أركانها بصالحي أَئِمَّتِها وحُكامها، وجاعلهم أئمةً يَهْدُون بأَمْرِه في نقْض الأمور وإبرامها. وصَلَّى الله على سيدنا محمد، خاتم الرسل وإمامها، ومنير المِلَّة بعد إظلامها، وعلى آله وأصحابه، نجوم سماء المعارف وبُدُور تَمَامِها ـ صَلاَةً لا تنقطع مادةُ دوامها، ولا يأتي النَّفَادُ على لياليها وأيامِها.

أما بعد، فإنا لِمَا فَوَّضَ اللَّهُ إلينا من أمور بَرِيَّتِه، واستَحْفَظَنَا إياه من تدبير خَلِيقَتِه، وآتانا بقُدْرَتِه من اليد الباسِطة، وجَعَلَنا بينه وبين عِقْدِ خَلْقِه الواسِطة، وَمَنَحْنَاهُ من السلطان والتَّمْكِين، وخَصَّنَا به من الفضل المُبين ـ لا نزال من حُسْنِ التدبير في تَصعيد وتَصْوِيب، ومن مصالح الإسلام في تَمْهِيد وترتيب، ومن الرأي الأصيل في خَبَبٍ وتَقْرِيب[٢]، عالِمِين بأن الله تعالى يَسْأَلُ كلَّ راعٍ عما استَرْعَاه، وكُلَّ ساعٍ عما سعاه، ويُحَاسِبُه عليه يوم رُجْعَاه، ويَجِدُ عَمَله مكتوباً مُسطَّراً، وتَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَراً ـ وكان أَوْلَى الأمور بالنظر، وأَحَقَّهَا أن يُصانَ صَفْوُها عن الكَدَر، مَنْصِبُ الشريعة، الذي هو مِلاكُ الدين وقِوامُه، وانتظامُ الإسلام والتئامُه، والطريقُ التي فَرَضَ اللَّهُ اتباعها على خَلْقِه، والسبيلُ التي من فارقَها فقد خَلَعَ رِبْقَةَ[٣] الإسلام من عُنُقه ـ.

ارْتَدْنَا لهذا المنصبِ الشريفِ من يرعاه ويصونُه، وتجري على يده حِياطته وتحصينُه. ونَظَرْنَا فيمن يقع عليه سَهْمُ الاختيار، ويُظْهِرُ جوهَره الابتلاء والاختبار. فكان

(١) في الأصل: جار.
(٢) الخبب والتقريب: ضرب من العدو.
(٣) الربق: حبل فيه عرى عديدة يشد به كل عروة ربقة، الفيروزابادي: القاموس المحيط. (ربق).

المجلسُ السامي القاضي الأجلُّ، الإمامُ الصدرُ، الفقيهُ الكبير العالم العاملُ الفاضل، الأعزُّ المُرْتَضَى، الوَرِعُ الكامل المُجْتَبَى، الأشرفُ السعيد، تاجُ الدين جلال الإسلام، مفتي الأنام، شمس الشريعة، صدرُ العلماء، قاضي القضاة، سيد الحكام، خالصةُ أمير المؤمنين: عبدُ الوهاب ابن القاضي الأجل، الفقيهِ العالم الأعز، أبي القاسم خلف ـ أدام الله تأييده وتمكينه، ورفعتَه وتمهيده، وقَرَن بالنُّجح قُصُودَه ـ طَلِبَتَنَا المنشودَة، وإرادَتَنا المقصودة. لِمَا جمع اللَّهُ فيه من الخِلال الفاخرة، والديانة الجامعة لخير الدنيا والآخِرة، والعِلْمِ الذي أمسى به للهداة علَماً، وعلى أئمة وقته مُقَدَّماً. وأصبح كل مانع إليه مُسَلِّماً. وراح بقِدَاحِ الفضائل فائزاً، ولكُنُوز العلوم الشريفة حائزاً. فهو فقيهُ مصره، لا، بل فقيه عَصره، وبَكّار[1] زمانه علماً وورعاً، وسوَّارُ[2] وقته تَقَمُّصاً بالتقوى وتَدَرُّعاً.

قَدَّمْنَا خِيرَةَ الله تعالى، وَوَلَّيْنَاه قضاءَ القضاة وحكم الحكام، بمصر المحروسة، وجميع الوجه القبلي: من البَرَّيْنِ الشرقي والغربي، إلى منتهى ثغر عَيْذَاب[3]، وما يجاورُه ـ من حدود مملكتنا، وبلاد دَعْوَتِنَا، وجميع ما في هذه الولاية من المدارس وأوقافها، وكلِّ ما كان في نظر القاضي الفقيه شرف الدين بن عَيْن الدولة ـ رحمه الله ـ من ذلك، وما استَجَدَّ بعده، واستقرَّ في نظر الحكام. وفَوَّضْنَا إليه ذلك التفويضَ التام، وبَسَطْنَا يده في الولاية والعَزل. وحَكَّمْنَاه في العقد والحَلّ. فليَسْتَخِرِ اللَّهَ في تَقَلُّدِ ما قَلَّدْنَاه، وقَبولِ ما فَوَّضْنَاه إليه ورَدَدْنَاه. ولْيَحْكُمْ بين الناس بما أرادَ الله. فإن قبولَ ذلكَ يَجِبُ عليه وُجُوباً، لما يتحقق أن الله يُجْرِيه في أَحكامه، ويُقَدِّرُه في أيامه، من حِياطة الدين ومصالح المسلمين.

وإذا احتاج الحُكَّامُ ووُلاة الأمور إلى وَصَايا يُطال فيها ويُطْنَبُ، ويُبالَغ في توكيدها ويُسْهَب ـ وَجَدْنَا غَنِيًّا عن ذلك، بما سَنَّاه اللَّهُ له ويَسَّرَه، وخَلَقَه من كَماله وقَدَّره، ومِثْلُه لا يُوَصَّى، ولا يُسْتَوْعَبُ له القولُ ولا يُسْتَقْصَى. واللَّهُ تعالى يُرَقِّيه إلى دَرَجات الكَرَامة،

---

(١) المقصود هنا القاضي بكّار بن قُتيبة بن عبد الله، وقيل: قتيبة بن أسد بن أبي بردعة بن عُبيد الله بن بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي، مولى رسول الله. وكنية القاضي بكار هذا أبو بكرة. القاضي البصري الحنفي ولد بالبصرة سنة ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م. وهو أحد الأئمة الأعلام كان عالماً فقيهاً محدثاً صالحاً ورعاً عفيفاً ثقة، توفي سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٠.

(٢) يقصد سوار بن عبد الله بن قُدامة أبو عبد الله التميمي العنبري البصري، كان إماماً عالماً فقيهاً زاهداً أديباً حافظاً صدوقاً ثقة. توفي سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٨٤.

(٣) عَيْذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٩٣.

ويجعل فيما فُوِّض صَلاحُ الخَاصَّة والعَامَّة.

والاعتمادُ فيه على العَلاَمة الشريفة، السلطانية الملكية المُعِزِّيَّة ـ زاد الله علاها وشرفها، إن شاء الله عز وجل. كُتِبَ في التاسع من شهر رمضان، سنة أربع وخمسين وستمائة. الحمد لله رب العالمين. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطيّبين الطّاهرين. وسلم تسليماً كثيراً. وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ونسخةُ التقليدِ الثاني:

«الحمدُ لله، كافل المَزِيدَ لمن شكَرَه، ورافعِ الدرجات لمن أطاعه فيما نهاه وأَمَرَه، وهادي أُمَّةَ الحق إلى السبيلِ الذي يَسَّرَه، وشَرْعِه الذي ارتضاه لدينه وتَخَيَّرَه. وجاعلِ العلماءَ ورثةَ أنبيائه، فيما أباحه من الأحكام وحَظَّرَه».

«أَحْمَدُه حَمْداً لا يُحْصَى عَدَدهُ. وأَشْكُرُه شُكْراً يتجَدَّدُ كلما طال أَمَدُه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شَهَادَةً تَسْتَنْفِدُ الإمْكَان. ويَشْهَدُ بالإِخْلاص فيها المَلَكَان ـ. وأَشْهَدُ أن محمداً عبدُه ورسوله، الذي اصطفاه وانْتَجَبَه. وفَرَضَ ابتاعَه على خلْقه وأَوْجَبَه. وبعثه رَسولاً في الأُمِّيِّين. وأرسله رَحْمَةً للعالمين.

ونَصَبَ شريعته سبيلاً مُنجياً. وطريقاً إلى الرسل مُؤَدِّياً. وشرف رُتبَتَها وعظَّمَها. وأعلى قَدْرَ من رقي ذِرْوَتَها وتَسنَّمَها ﷺ ما تعاقَب شمسٌ وقَمَر. وذُكِرَ مُبْتَدأٌ وخَبَر وجرى بالكائنات مَشِيئةٌ وقَدَر.

وعلى الأَنْبياء، الذين أَخْلَصَهُمْ بخَالِصَةِ ذِكْرَى الدار، وجعلهم من المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار. وعلى آله أولي الأَيْدِي والأَبْصَار. وأصحابِه المهاجِرين والأَنْصَار. صَلاةً دائمة الاستمرار. باقيةً على تعاقُب الليل والنهار.

أما بعدُ، فإن الله تعالى ـ جعل شريعةَ نَبِيِّه صِرَاطاً مُتَّبَعاً وطَرِيقاً مَهْيَعَا(١) ومَحَلاً مُرْتَفِعاً. وأنزل بتعظيمها قُرْآناً، وجعلها بين الحق والباطل فُرْقَاناً. فقال مُخَاطِباً لِنَبِيِّه ـ تنبيهاً وتعليماً، وتَبْجِيلاً لِقُدْرَتِه وتَعظيماً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وعَظَّمَ قَدْرَ العلماء في آياته المُحْكَمَات، وكَلِمَاتِه البَيِّنَات، فقال عَزَّ وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فَتَعَيَّنَ بذلك على وُلاة الأمور، من الاجتهاد المَأْثُور، أن يَتَخَيَّرُوا لهذا المَنْصِب الشريف، من الوُلاة: من هو أَجَلُّهُم عِلْماً، وأَعْدَلُهُمْ حُكْماً، وأَنْفَذُهُمْ في الحقِّ سَهْماً.

---

(١) مهيعاً: واضحاً متسعاً، الفيروزابادي: القاموس المحيط (هيع).

وأَضْوَاهُم حِسًّا، وأشرفُهم نفساً، وأَصلَحُهم يوماً وأَمْساً. وأَطْهَرُهُم وأَوْرَعُهُم، وأَجْدَاهم للإسلام وأَنْفَعُهُم.

وكنا قد مَثَلْنَا كِنَانَةَ[١] العلماء بمصرِنا، فَعَجَمْنَا عِيدَانَها. واختبرنا أَعْيَانَها. فَوَجَدْنَا المجلِسَ العالي: القاضيَ الأجلّ، الصدرَ الكبير، الإمامَ العالم العامل الزاهدَ العابد، الكامل، الأَوْحَد، المُجْتَبَى المؤيد الأعز الأسعد، تاجَ الدين جلالَ الإسلام، ضياءَ الأنام، بهاءَ المِلَّة، شمس الشريعة سيدَ الحكام، قُدْوَةَ العلماء: يَمِينَ الملوك والسلاطينَ، قاضيَ قضاة المسلمين، خَالِصَةَ أمير المؤمنين: عبدَ الوهاب، ابن القاضِي الفقيه، الأجلِّ الأعز، أبي القاسم خَلَف ـ أدام الله تأييدَه وبَسْطَتَه، وتمكينه ورِفعته ـ قد زادت صفاتُه على هذه الصفات، وأَوْفَتْ عليها أَتَمَّ المُوافَاة. واختَبَرْنَا منه رَجُلاً، لو عُرِضَتْ عليه الدنيا لم يُرِدْها. ولو صَوَّرَ نفسَه لم يَزِدْها. ووَقَعَ على سيادته إجْمَاعُ الحاضِرين والبادِين، والمَسُودِين والسَّائِدِين. وشَهِدُوا بها، ونحنُ على ذلك من الشاهدين.

فَفَوَّضْنَا إليه ما فَوَّضْنَاه: من قضاءِ القُضاة بمصر المَحْرُوسَة، والأقاليم القِبْلِية، وما معها. والأَوْقافِ والمدارس وما جمعها ـ الجارِية في نظر الحُكْم العَزِيز. ثم تَجَدَّدَ لنا نَظَرٌ يَعُمُّ المسلمين شأنُه، ومَنْظَرٌ يَرْمُقُهُمْ بالمَصالح إِنْسانُه. وعَلِمْنا أن هذه الوِلاية بعضُ استحقاقِه، وأنها قليلةٌ في جَنْبِ نُصْحِهِ للمسلمين وإشفاقِه. وأن صدرَه الرحيب لا يضيق بأمثالها ذَرْعاً، ولا يَعجَزُ ـ بحمد الله ـ أن يُرْعِيَها بَصَراً من إيالته وسَمْعاً. إذْ كان قد أحيَى بها السُّنَّةَ السَّلَفِيَّة، وأظهر أسرارَ العدْل الخَفِيَّة. وزاد الحَقَّ بنظره وضُوحاً، والمعروفَ دُنُواً والمُنْكَرَ نُزُوحاً ـ رأَيْنا أن نَجْمَعَ إليه قضاءَ القضاة بالقاهرة المعزية والوجه البحري، وما كان يتولاه من قَبْلَه، من أوقافِ البلاد ومدارسِها، ورُبُطها ومَحَارِسِها، ومَنَابِتِ العلوم ومَغَارِسِها.

وقد أَكْمَلْنَا له بذلك قَضاءَ القُضاة بجميع الديار المصرية: أَرْجَاءً وأَكْنافاً، ومَدَاينَ وأَرْيَافاً، وأَوْسَاطاً وأَطْرَافاً. وجَعَلْنَاهُ الحاكمَ في أَقْضِيَتها، والمتصرفَ في أعمالها ومُدَانيها، وأقاصي بلادها وأَدَانِيها. وأَطْلَقْنَا يدَه في أَحكامِها، وما يراه من تولية وعَزْلٍ لحُكَّامِها. والنظر فيما كان الحُكَّام قَبْلَه يتولونه من الوُقُوف. وهو غَنِيٌّ أن يُوَصَّى بنَهْيٍ عن منكر أو أمر بمعروف. لما فيه من صفات الكَمال، وشريف الخِلال. ولم نستوفِ وصيةً في عَهْدِنا إليه ولم نَسْتَقْصِها، واستَغْنَيْنَا عن مبسوط الأقوال بمُلَخَّصِها ـ تَحَقُّقاً أنه صاحبُ قِياس الشريعة ونَصِّها.

---

(١) الكنانة: جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها أو من خشب لا جلود فيها. ابن منظور: لسان العرب (كنن).

فَلْيَحْكُمْ بِما فَوَّضْناهُ إليه، وبَسَطْنَا فيه يَدَيْه: من الجَرْح والتَّعْدِيل[١]، والإقرار والتَّبْدِيل. واللَّهُ يُوَفِّقُهُ فيما تولاه قائِلاً وفاعلاً، ويُرشده لمَرَاضِيه مسؤولاً وسائِلاً، ويجعلُ الصلاح للكَافَّة به شامِلاً. ويَقْرِنُ التقوى بلسانه وقلبه، ويُلْبِسُه من السعادة مَلْبَساً لا تَتَخَطَّى الخُطوبُ إلى سَلْبه. ويجعله داعياً إلى الله على بَصِيرَةٍ من ربه. إن شاء الله عز وجل.

«كُتِبَ لثمانٍ بَقِينَ من شهر رمضان المعظم، من سنة أربع وخمسين وستمائة. بالإشارة العالية الصاحِبية، الوَزِيرِّية المَوْلَوِيَّة الشَّرَفِيَّة ضاعفَ الله عُلاَها. الحمدُ لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله، وسلم. حسبُنا الله ونعم الوكيل».

وكَتَبَ الوزيرُ الصاحب شرف الدين الفائِزي ـ على كلٍّ من هذين التقليدين، تحت خط السلطان في بيت العَلاَمَة، ما مِثَالُه: «تَمْثِيلُ الأَمْر العالي ـ أعلاه الله وشَرَّفَه».

وقد نَقَلْتُ ذلك من التقليدَيْن، كما شاهدتُه. ولم يتعرض المُوَقِّعَ فيهما إلى ذكر جَامِكِيَّة[٢] ولا جِرَايَة. والله أعلم.

ولم تَطُلْ مدةُ هذه الولاية. فإنه صُرِفَ في السنة التي تليها، سنة خمس وخمسين ـ في ثالث شهر ربيع الأول، وقيل بعد ذلك بقليل. والله أعلم.

ذكر ما حدث بالمدينة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ من الزلازل، والنار التي ظهرت بظاهرها

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة. وردت كُتُبٌ من المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ بخبر هذه الحادِثة. من جملتها، كتاب القاضي شمس الدين سِنَان[٣] بن عبد الوهاب بن نُمَيْلة الحُسَيْنِي ـ قاضي المدينة ـ وإلى بعض أصحابه بدمشق، مضمونُه:

«لما كانت ليلةُ الأربعاء. ثالث جمادى الآخرة ـ حدث بالمدينة في الثُّلُث الأَخِير من الليل، زلزلةٌ عظيمة، أَشْفَقْنَا منها، ودامت بَقِيَّةَ تلك الليلة. تُزَلْزِلُ كل يوم وليلة قَدْرَ

(١) التعديل: الحكم بعدالة الأشخاص. أو نفيها عنهم. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٤٢.

(٢) جامكية: الجمع جوامك، وهي الرواتب عامة، ونص القلقشندي: «أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧.

(٣) هو شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الحسيني قاضي المدينة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥، حاشية (٢).

عشر نَوْبَات. واللَّهِ، لقد زَلْزَلَتْ مرة، ونحن حول حجرةِ النبي ﷺ حتى اضطرب لها المِنْبَر، وسمعنا منه صوتَ الحديد الذي فيه! واضطربت قناديلُ الحَرَم الشريف! ودامت الزلزلةُ إلى يوم الجمعة ضُحًى، ولها دَوِيٌّ مثل دَوِيِّ الرعد القاصف! ثم طلع، يومَ الجمعة، في طريق الحَرَّة(١) في رأس قريظة(٢)، على طريق السُّوَارِقِيَّةِ(٣) بالمقاعد، مسيرة من الصبح إلى الظهر ـ نارٌ عظيمة مثل المدينة العظيمة! وما ظَهَرَتْ لنا إلا ليلةَ السبت. وأَشْفَقْنَا منها وخِفْنَا خَوْفاً عظيماً».

وطَلَعْتُ إلى الأمير وكَلَّمْتُه، فقلت له: قد أحاط بنا العَذَاب، ارْجِعْ إلى الله تعالى. فأَعْتَقَ مماليكَه، وردَّ على جماعةٍ أموالَهم. فلما فَعَلَ هذا، قلت له: اهبِط الساعةَ معنا إلى النبي ﷺ. فَهَبَطَ، وبِتْنَا لَيلةَ السبت، والناسُ جميعاً والنسوان وأولادهم، وما بقي أحد، لا في النخيل ولا في المدينة ـ إلا عند النبي ﷺ.

وأَشْفَقْنَا منها، وظهر لها لسانٌ ـ حتى رُؤِيَتْ من مكة، ومن الفَلاَةِ جميعِها. ثم سال منها نهرٌ من نار، وأَخَذَ في وادي أُحَيْلِين(٤)، وسَدَّ الطريقَ. ثم طلَع إلى بَحْرَةِ الحاج، وهو نهرُ نارٍ يجري ـ وفوقه جَمْرٌ تسير إلى أن قطعت الوادي ـ وادي الشَّظَاة(٥). وما عاد يَجِيءُ في الوادي سيلٌ قط، لأنها حَرَّةٌ، تجيء قَامَتَيْن وثلاثاً عُلُوُّها. وتمت تَسير، إلى أن سَدَّتْ بعضَ طرق الحاج، وبعضَ البَحْرَة، بَحْرَة الحاج. وجاء في الوادي إلينا منها قَتِير(٦). وخِفْنَا أنه يَجِيئُنا. واجتمع الناس، ودخلوا على النبي ﷺ، وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، فَطُفِىءَ قَتِيرُها الذي يَلِينَا، بقُدْرَةِ الله سبحانه.

وهي إلى الآن وما نَقَصَتْ، إلَّا تُرَى مثلَ الجِمَالَ حجارةٌ من نار. لها دِوِيٌّ، ما يَدَعُنا نَرْقُدُ ولا نأكل ولا نشرب. وما أقدر أَصِفُ لك عِظَمَها، وما فيها من الأَهْوال. وأَبْصَرَها أهلُ التَّنْعِيم(٧)، ونَدَبُوا قاضِيَهم ابن أسعد. وجاء وَعَدَّى إليها، وما قدر يَصِفُها

---

(١) الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار والحرة ظاهر المدينة المنورة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) طريق الحاج العراقي. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٥.

(٣) السوارقية: قرية أبي بكر بين مكة والمدينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣١٣.

(٤) أُحَيْلين: هكذا ضبط في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، طبعة القاهرة،ج ٦، ص ١٨. وهو وادٍ قريب من المدينة.

(٥) الشظا: وادي شظا تلقاء جبل أحد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥.

(٦) قتير: رائحة الشيء الذي يحترق والدخان المنبعث وفيه نار. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قتر).

(٧) التنعيم: موضع بمكة في الحل، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة وقيل على أربعة. وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم وآخر عن شماله يقال له ناعم. والوادي نعمان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٨.

من عِظَمِها. قال: وكتبتُ الكتاب، يوم خامس رجب، وهي على حالِها، والناس منها خائفون. والشمس والقمر، من يوم طلعت، ما يطلعان إلا كاسِفَيْن. نسأل الله العافيةَ.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: بَانَ عندنا بدمشق أَثَرُ الكُسوف من ضَعْفِ نورها على الحِيطان. وكنا حَيَارَى من ذلك، لا ندري ما هو؟ إلى أن اتضح، وجاء هذا الخبرُ عن هذه النار.

وجاء كِتابٌ آخر من بعض بني القَاشَاني بالمدينة، يذكر فيه خبرَ هذه الحادثة، نحو ما تقدم، ويقول:

«ومن قَبِل ذلك بيومين، سمع الناس صوتاً مثل صوت الرعد ـ ساعة بعد ساعة ـ وما في السماء غَيْم، حتى يُظَنّ أنه منه. ثم زُلْزِلَت الأرض في يوم الأربعاء المذكور آنفاً، فَرَجَفَتْ بنا رَجْفَةً لها صوتٌ كدوي الرعد. ففزِعَ الناسُ إلى المسجد، وضَجُّوا بالاستغفار والصلاة. ودامت تَرْجُفُ بالناس، ساعة بعد ساعة، من ليلة الأربعاء إلى صبح يوم الجمعة. فارتجت الأرض رجةً قوية، إلى أن اضطرب بنا المسجد، وسُمِعَ لسقف المسجد صَريرٌ عظيم! وسكنت الزلزلة بعض صبح يوم الجمعة، إلى قبل الظهر».

ثم ظهرت نارٌ من الحَرَّة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دُخانٌ عظيم في السماء، ينعقد، حتى بقي كالسحاب الأبيض، يتصل إلى قبيل مَغِيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهر للنار أَلْسُنٌ تصعد إلى السماء حُمْر، وعَظُمَتْ حتى غَطَّت حُمْرَةُ النار السماءَ كلَّها، وبقي الناس في مثل ضوء القمر. وأيقن الناسُ بالهلاكِ والعذاب. وذَكَرَ من تَوْبَةِ الناس، وفعل الأمير بالمدينة وعتقه مماليكَه، ووضعه المُكُوس، نحوَ ما تقدم.

قال: وبقيت النار تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، ولها حِسٌّ كالرعد. فدامت كذلك أياماً. ثم سالت في وادي أُحَيْلِين، فتحدرت في الوادي إلى الشَّظَاة، حتى لحق سيلانُها بالبَحْرة بَحْرَةِ الحاج، والحجارةُ معها تتحدر وتسير، حتى كادت تقارب حَرَّةَ العَرِيض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عاد يخرج من النار حجارةٌ أمامَها وخلفَها، حتى بنت جَبَلَيْن أَمامها وخَلْفَها، وما بقي يخرج منها من بين الجبلين لسانٌ لها أياماً، ثم إنها عَظُمَتْ الآن، وسَنَاها إلى الآن، وهي تَتَّقِدُ كأعظم ما يكون. ولها صوتٌ عظيم من آخر الليل إلى صحوة في كل يوم ولها عجائب ما أقدر أَصِفُها، ولا أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا منها طَرَف. قال: وكتبتُ هذا الكتاب، ولها شهرٌ وهي في مكانها، ما تتقدم ولا تتأخر.

وقال بعضُ أهل المدينة في ذلك شِعْراً، وهو: [من البسيط]

يا كَاشِفَ الضُّرِّ: صَفْحاً عن جَرَائِمِنَا   لـقـد أحـاطـت بـنـا يـا رَبِّ بَـأْسَـاءُ

نَشْكُو إليكَ خُطوباً لا نُطِيق لها ... حَمْلاً، ونَحْنُ بها، حقًّا أَحِقَّاءُ
زَلازِلاً تَخْشَعُ الصُّمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقْوَى على الزلزال شَمَّاءُ
أقام سَبْعاً يَرُجُّ الأرضَ، فانصدَعَتْ ... عن مَنْظَرٍ، منه عَيْنُ الشمس عَشْواءُ
بَحْرٌ من النار، تَجْرِي فوقه سُفُنٌ ... من الهِضَاب، لها في الأرض إرْسَاءُ
كأنما فوقه الأَجْبَالُ، طافِيةً ... مَوْجٌ عَلاَهُ لِفَرْطِ الهَيْجِ غُثَّاءُ[1]
يُرَى[2] لها شَرَرٌ كالقَصْرِ طائشةً ... كَأَنَّها دِيمَةٌ تَنْصَبُّ هَطْلاَءُ
تَنْشَقُّ منها قلوبُ الصَّخْر، إنْ زَفَرَتْ ... رُعْباً، وَيَرْعُد مثل السَّعْفِ رِضْوَاءُ
منها تكاثَفَ في الجَوِّ الدُّخَانُ إلى ... أن عادتِ الشمسُ منه وهي دَهْمَاءُ
قد أَثَّرَتْ سَفْعَةً في البدر لَفْحَتُها ... فَليلَةُ التِّمِّ بعد النور لَيْلاَءُ
تُحَدِّثُ النَّيِّرَاتِ السَّبْعَ أَلْسُنُها ... بما يُلاَقِي بها تحت الثَّرَى الماءُ
وقد أحاط لَظَاها بالبُرُوج، إلى ... أن كاد يُلْحِقُها بالأرض إهْوَاءُ
فيا لها آيةً من مُعْجِزَات رسول[3] ... الله[4] يَعْقِلُها القومُ الأَلِبَّاءُ
فباسمك الأعظم المَكْنُونِ إن عَظُمَتْ ... منا الذُّنُوبُ، وساء القلبَ أَسْوَاء
فاسْمَحْ وهَبْ وتفضَّلْ وامْحُ واعْفُ وجُد ... واصْفَحْ، فكُلٌّ لفَرطِ الجهل خطَّاءُ[5]
فقومُ يونسَ لما آمنوا أَمِنُوا[6] ... كشف العذاب[7]، وعَمَّ القومَ نَعْمَاءُ
ونحن أُمَّةُ هذا المصطفى، ولنا ... منه إلى عفوك المرجوِّ دَعَّاءُ
هذا الرسولُ الذي لولاه ما سُلِكَتْ ... مَحَجَّةٌ في سبيل الله بيضاءُ
فارْحَمْ وصَلِّ على المختار، ما خَطَبَتْ ... على عُلاَ مِنْبَرِ الأوراق وَرْقَاءُ

(١) الغثاء: الهالك من ورق الشجر. الفيروزابادي: القاموس المحيط.
(٢) «قرى» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٩٩ و(يرى) في الذيل على الروضتين ص ١٩٣.
(٣) «رسول الله» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣.
(٤) الشطر الثاني يبدأ بحرف (ـه) في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣.
(٥) ورد البيت في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣ كما يأتي:
«فاسمحْ وهبْ وتفضلْ وامحُ واعفُ ... وجُد واصفح فكل لفرط الجهل خطّاء»
(٦) «كشف الـ» في الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٩٣.
(٧) يبدأ الشطر الثاني من هذا البيت بـ «عذاب» في الذيل على الروضتين.

ذكر خبر احتراق مسجد المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي هذه السنة ـ في ليلة الجمعة أول شهر رمضان ـ احترق مسجدُ المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ابتدأ حريقُه من زاويته الغربية، من الشمال. وكان سببُ ذلك أن أحد القَوَمَة دخل إلى الخزانة، ومعه نار، فعَلِقَتْ في آلات ثَمَّ، واتصلت بالسقْف بسرعة، ثم دَبَّتْ في السقوف، فأَعْجَلَت الناسَ عن قطعها. فما كان إلا ساعة، حتى احترقت سُقوف المسجد أجمع، ووقعت بعضُ أساطِينِه وذابَ رَصاصُها ـ وذلك قبل أن نام الناس. واحترق سقفُ الحجرة الشريفة.

قُلْتُ: وفي وقوع هذه النار مُعْجِزَةٌ لنبينا ﷺ، فإن الخلفاءَ والملوك بعده ﷺ زادوا في عِمارة المسجد بأنواع من العمارة، وتَفَنَّنُوا في النقوش والإِتْقان، وهو ﷺ كَرِهَ ذلك، وقال ـ في مَرضه الذي انْتَقَلَ فيه إلى جِوارِ ربه: «لَعَنَ اللَّهُ اليهودَ والنصارى، اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائهم مساجد». وقالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ ولولا ذلك لأُبْرِزَ قَبْرُه ﷺ. فجاءت هذه النار، فأكلت ما كَرِهَه ﷺ.

واستهلَّت سنة خمس وخمسين وستمائة

ذكر مقتل السلطان الملك المعز وشيء من أخباره، ومقتل شجر الدر الصالحية

كان مَقْتَلُه ـ رحمه الله تعالى ـ في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة.

وسبب ذلك أن شَجَرَ الدُّرِّ ـ سُرِّيَّةَ[1] الملك الصالح زوجته ـ اتصل بها أنه سَيَّرَ يخطب ابنة صاحب الموصل. فتنكرت لذلك. وكان هو أيضاً قد تَغَيَّرَ عليها، بسبب امتنانها عليه، وأنها هي التي مَلَّكَته الديار المصرية، وسلمت إليه الخَزَائِن. وعزم المُعِزُّ على قتلها، فلم يُخِفْها ذلك. فبادرت بالتدبير عليه، واتفقت هي ومحسن الجوجَري الخادم، ونصر العَزِيزي، على قتله.

فلما كان في هذا التاريخ، طلع الملك المُعِزُّ من الميدان إلى قلعة الجبل عقيب اللعب بالكرة ـ فأمر بإصلاح الحَمَّام، وعبر إليها. فدخل عليه محسن الجوجري، وغلام له شديد القوة، فقتلوه في الحَمَّام!

---

(١) السرية: الأمة التي أسكنها صاحبها بيتاً. الفيروزابادي: القاموس المحيط (سري).

وشاع الخبر بقتله، في بُكْرَة نهار الأربعاء، فسُمِّرَ محسن الجوجري الخادم وغلامه على باب قلعة الجَبَل. وأما نصر العَزِيزِي فإنه هرب إلى الشام، وأُحضرت شجر الدر إلى أم نور الدين ابن الملك المعز، فما زالت تَضْرِبُها ـ هي وجواريها وخدمها ـ إلى أن ماتت. وأُلقِيت من أعلى السور إلى الخَنْدَق. وبقيت أياماً عُرْيَانَة ملقاة في الخَنْدَق. ثم حُمِلت ودُفنت في تربتها المجاورة لمشهد السيدة نفيسة.

وكانت شجر الدر هذه سُرِّيَّةَ الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي والدة خليل ابنه. وكانت قد مَلَكَت الديار المصرية، وخُطِب لها وخرجت تواقيعها ومَنَاشِيرِها، بالأرزاق والمُباشَرات والإقطاعات ـ وقد تقدم ذكرُ شيء منها. ولما ملك السلطان الملك المعز وتزوجها، ما زالت تخاطب بالسلطنة، وتخرج تواقيعها بالإطلاقات وإبطال الحوادث وكف المظالم، فتنفذ كنفوذ التواقيع السلطانية.

وقد شاهدتُ منها توقيعاً على ظهر قصة، مترجمها علي بن هاشم، مضمونها: «يُقَبِّلُ الأرضَ بالمقام العالي السلطاني الخَاتُونِي، عصمة الدين، بَسَطَ اللَّهُ ظِلَّها في مشارق الأرض ومغاربها ـ ويُنْهِي أن له خدمةً على مولانا الشهيد ـ قَدَّس اللَّهُ روحَه ـ وله مَلِيكٌ اقتناه في أيامه، ولم يُسَقَّعْ[1] عليه قَطْ وفي هذه الأيام التمسوه، وسأل إجْرَاءَه على عادته، من غير حادث».

وخرج التوقيعُ في ظهرها، ومثالُ العلامة عليه: والدةُ خليل الصالحية: «المرسوم، بالأوامر العالية المولوية السلطانية ـ زداها الله شرفاً وعلواً ـ أن يُجْرَى الأمير الأجل الأخص الأمجد الأعز: نور الدين مترجمها ـ أدام الله توفيقه ـ على عادته. ولا يُطْلَب بسبب تَصْقِيعٍ[2] ولا غيره، ولْيُعْفَ من ذلك ـ رِعايةً لحق خدمته على الدولة الشريفة، ولِقِدَمِ هِجرته وانقطاعه إلى الله تعالى. فلْيُعْتَمَدْ ذلك بعد الخط الشريف أعلاه وثبوته ـ إن شاء الله تعالى. كُتِبَ في ثاني عشرين جمادى الآخرة، سنة ثلاث وخمسين وستمائة ـ برسالة الطواشي شرف الدين مختص الجَمَدَار ـ أَيَّدَه الله تعالى».

وكُتِبَ عليه بالامتثال. ونُفِّذَ حُكْمُهُ وعُمل بمقتضاه. وإنما شرحنا هذا التوقيع، ليُعْلَمَ أن تواقيعها كانت جارِيةً بلفظ السلطنة، في الدولة المُعِزِّيَّة.

وكانت مدة سلطنة الملك المعز لست سنين وأحد عشر شهراً، إلا أربعة أيام. وكان مَلِكاً حازِماً شجاعاً، سَؤُوساً حَسَن التدبير ـ إلا أنه كان سفَّاكاً للدماء. قَتَلَ جماعةً

(١) أي لم تؤخذ عنه ضريبة. انظر الحاشية التالية.

(٢) التصقيع: ورسمت بالسين، وهي نوع من الضرائب فرض بعد إحصاء البيوت والعقارات. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٣٨٤ حاشية (٢).

من خُوشْدَاشِيَّته بغير ذنب. لِيُقِيمَ ناموسَ مُلْكِه.

وَوَزَرَ له الصاحبُ الأسعد: شرف الدين هِبةُ الله بن صاعِد الفائِزي. وتَمَكَّنَ منه تمكناً عظيماً. وقَدَّمَه على العساكر وصَرَّفَه في الأموال.

وكان الوزير المذكور من قِبْطِ مصر. خَدَمَ الملِك الفَائزَ أخا الملك الكامل كاتِباً، ثم تقدم وترقى وتنقل في المراتب، إلى أن وزر. وتحول في الدولة وابتاع المماليكَ لنفسه. وتَعَالَى في أثمانهم، فكان يبتاع المملوك بألف دينار عَيْناً. واجتمع له نحو من سبعين مملوكاً، يركبون في خدمته وينزلون. وكان يقول في وزارته: كنت كاتب المصايد بقنطرة سُيوط، بدِرْهم وثلث في كل يوم، ثم ترقيتُ إلى هذه الغاية.

وكان ظالمَ النفس، أحدث في وزارته حوادث كثيرة ومُكُوساً. واستناب القاضيَ زين الدين بن الزُّبَيْر، لفضيلته وكفايته ومعرفته باللغة التركية. وكان يَحْفَظُ له نِظامَ المجلس.

ولما قُتِلَ الملك المُعِزُّ ملك بعده ولدُه الملك المنصور.

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور[1] نور الدين: علي ابن السلطان الملك المعز وهو الثاني من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية بعد مقتل أبيه ـ رَحِمَهُ الله تعالى ـ في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة[2]. وذلك باتِّفَاقٍ من الأمراء المُعِزِّيَّة ـ مماليك والده ـ فَحَلَفُوا له، واسْتَحْلَفُوا جميعَ العساكر. وجعلوا الأميرَ فارس الدين أَقْطَاي، المُسْتَعْرِب الصالحي ـ خُوشْدَاش[3] والده ـ أَتابكَه، بحكم صغر سِنِّ الملك المنصور. ثم استقرت الأتابكية ـ بعد ذلك ـ للأمير سيف الدين قُطُزْ، المُعِزِّي ـ مملوكِ والده.

ووَزَرَ له الصاحبُ شرف الدين الفائِزي، أياماً قلائل، ثم قُتِلَ وذلك أن الأمير سيف الدين قُطُز عَزَلَه عن الوزارة، وأمر بالحَوْطَة على أمواله وأسبابِه وذَخائره. وكان

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٥ وما بعدها. وعقد الجمان للعيني، ص ١٤٣، ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور ص ١٦٢، والجوهر الثمين لابن دقماق ج ٢، ص ٥٧، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٢٩٦، والخطط التوفيقية الجديدة لعلي باشا مبارك ج ١، ص ٨١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٧.

(٢) وكان عمره عندما ملك الديار المصرية خمس عشرة سنة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٥.

(٣) راجع صفحة ٢٧٧ من هذا الجزء، حاشية (٣).

مُثْرِياً، وله ودائع كثيرة، فتُتُبِّعَتْ واستُخْرِجَت ممن كانت تحت يده. واعتُقِل، فسأل أن يُعْطَى مالاً، فِدَاءً عن نفسه.

حُكِيَ عن الصاحب بَهاء الدين السِّنْجَاري أنه قال: دخلتُ عليه في محبسِه، فسألني أن أتحدث في إطلاقه ـ على أن يَحْمِلَ في كل يوم ألفَ دينار. قال: فقلتُ له: كيف تقدر على هذا؟ فقال: أقدر عليه إلى تمام سَنَة. وإلى انقضاء سنة يفرج الله! ولما بَذَلَ هذا المال، امتنعت والدةُ الملك المنصور من ذلك، ولم تَرْضَ إلا بقتله. لأنها كانت مَجْفُوَّةً من السلطان الملك المُعِزّ، وكان قد اتَّخَذَ سَرَارِيَ[1] وجَعَلَهُنَّ عند الوزير شرف الدين، فنَقِمَتْ ذلك عليه، وأمرت بقتله. فقُتِلَ صَبْراً.

ذكر أخبار الوزراء، ومن ولي وزارة الملك المنصور إلى أن استقر في الوزارة قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز

لما صُرِفَ الصاحب شرف الدين الفائِزِي، فُوِّضَتْ الوزارةُ بعده للفقيه: نور الدين ابن علي بن رضوان القَرافي مؤدّب الملك المنصور هذا، وخُلِعَ عليه خِلَعُ الوزراء. فامتنع أن يَخُطَّ بقلَمه، أو يكتب على توقيع أو منشور، واستمر كذلك عشرين يوماً، واسْتَعْفَى. فأرسل إليه قاضي القضاة بدرُ الدين السِّنْجَارِي، يلتمس منه أن يتحدث له في الوزارة، ويَعِدُه أنه لا يخرج عن أمره. فقال للسلطان، ولوالدته ـ وكانت لا تحتجب عنه، فيما قيل ـ للأتابك: أنَا لا أَصْلُحُ لهذا المنصِب، ولا أنفعُ ولا أنتفع به. وأشار بالقاضي بدر الدين.

فعند ذلك فُوِّضَ للفقيه نور الدين هذا نظرُ الأَحْبَاسِ والأوقاف، والشافعي والخانقاه والتُّرَب، وغير ذلك من الأوقاف وفُوِّضَتْ الوزارة لقاضي القضاة: بدر الدين السِّنْجَاري، فَوَلِيها ثلاثة أشهر وأياماً، ثم عُزِلَ.

وفُوِّضَت الوزارةُ بعده لقاضي القضاة: تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأَعَزّ ـ وكان قد صُرِفَ عن القضاء قبل ذلك، وأعيد قاضي القضاء بدر الدين. وكانت وزارته في العاشر من شهر رمضان، سنة خمس وخمسين وستمائة.

ونُسخَةُ التَّقْليد ـ على ما نَقَلْتُه عنه ـ ومثالُ العلامة السلطانية بعد البسملة:

«الحمدُ لله وبه توفيقي: الحمدُ لله الذي أوضح بعد الغَيِّ سبيلَ الرَّشَد. وتدارك من المجد ما أَخْلَقَ من أَبْرَادِه[2] الجُدُد. وثَقَّفَ[3] قَنَاةَ المُلْكِ حتى لا يُرَى فيها عِوَجٌ ولا

---

(١) سراري: جواري. الفيروزابادي: القاموس المحيط (سري).

(٢) أبراده: الأثواب أو المعاطف. الفيروزابادي: القاموس المحيط (برد).

(٣) سوّى، الفيروزابادي: القاموس المحيط (سوي).

أَوَد[١]. واستغنى في تدبير سلطانه العظيم عن وزيرٍ به يَعْتَضِد».

أحمَدُه على نِعَمٍ سَهَّلَتْ صَعْباً. وسَقَتْ على ظَمَإٍ بارداً عَذْباً، وَرَجَعَ بها ما ضاق من الأمور وَاسِعاً رَحْباً. والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد، الذي أضحى به مَعْهَدُ الإيمان مَعْهُوداً. ونِظامُ المَكْرُمَات مَنْضُوداً. وعلى آله وأصحابه، الذين كان سَعْيُهُمْ في الإسلام مَحْموداً، وأنوارُ مَنَاقِبِهم مُتَوَقِّدَةً لا تعرف خُموداً.

وبعد، فلما كان المجلسُ السامي، الصاحبُ الأجلّ، الصدْرُ الكبير، الإمام العالِم، الوزيرُ الكامل، المُجْتَبَى المختار، تاج الدين، بهاء الإسلام، مجدُ الأنام، شرف الوزراء زين الفضلاء، رئيسُ الأصحاب، صفوة الملوك والسلاطين، مفتي الفِرَق، خالصةُ أمير المؤمنين: عبد الوهاب ابن القاضي الأعز خَلَف ـ أدام الله سعادتَه، وقَرَنَ بالتأييد بَدْأَه وإعادَتَه ـ ممن سَلَكَتْ به التَّجْرِبَةُ حَزْناً وسَهْلاً[٢]، وراضَ جامحَ الأمور ناشِئاً وكَهْلاً، وتَمَّتْ كلِماتُ تفضيله بفضائله صِدْقاً، وعَدْلاً، وجَدَّدَتْ له مساعيه الحَميدة ملابس ثَناء لا تَبْلَى، وأَجلَى من أَبْكَار مَعَانِيه بُدُوراً لا تَعْرِفُ أُفُولاً ولا كُسُوفاً، واسْتَل من آرائه شُعَلاً، فلو طُبعَتْ لكانت سيوفاً. واتَّسَقَ نظامُ بلاغته، فكأنه نظامٌ فريد، واسْتُعِيذَتْ أَلفاظُه فما أَخْلَقَها العَوْدُ على المستعِيد. وحَلَّى بدُرَرِ مَسَاعِيه جِيداً من المُلْكِ عاطِلاً، وعاد رَبْعُ المَكَارِم بمناقبه عامراً آهِلاً.

رُسِمَ بالأَمْر العالي المَوْلَوِي السلطاني، المَلَكي المنصوري النُّورِي ـ شَرَّفَه الله وأعلاه، وأَنْفَذَه وأمضاه ـ أن يُفَوَّضَ إليه أمرُ الوزارة، لِمَا عُلِمَ فيه من السُّودَد الذي اقْتَادَ به صَعْبَ المَكارِمِ والمَفاخِر، التي حَازَ منها ما لم يَحُزْهُ الأوائل، وإن جاء في الزَّمَن الآخِر. والفضائل التي فاز منها بقَصَبِ السَّبْقِ، والأَحْكامُ التي تَحَلَّى فيها بدُرِّ الأَنَاةِ والرِّفْقِ. والسياسة التي سَلَكَ بها نَهْجَ السبيل إلى الحق. والمعالي التي أَبْدَى في كَسْبِها ما أبداه، من ثَغْرِهِ الضاحك ووجهه الطَّلْق. والنزاهة التي أَهَّلَتْهُ لأشرف المناصِب، وقضت له بسلامة العواقب، والصنايع التي غذت مَعَارِفَه عند مُنَاكَرَةِ النوائب، والمَكارِم التي لَحَّتْ في العُلُوّ، فكأنها تحاول أَخْذَ ثَأْرٍ من الكواكب.

ولقد أَمْعَنَّا النَّظَر في ارتيادِه. وانتَقَدْنَاهُ من بين الناس، فلم نَأْلُ جُهْداً في انتقاده. وخُطِبَ لهذه الرُّتْبَةِ الرفيعة لما أوراه في المَكْرُمَات من زِناده. وأُهِلَّ لهذا المنصب الشريف الذي يَدَعُ الآباءَ والأبناءَ من حُسَّادِه.

فلْيَتَوَلَّ ما وَلَّيْنَاه من أمر الوزارة، فهو لها من الأَكْفَاء. وما اصطفيناه إلا هو جَدِيرٌ

---

(١) أود: التواء المصدر نفسه.

(٢) الحزن: أي الأرض الصعبة: بطرس البستاني: محيط المحيط (حزن).

بهذا الاصطِفاء. ولمِثْلِ هذه الرتبة يُتَخَيَّرُ الأَكارِم من الرجال. وإذا تَنَاسَبَت الأشياء، ظَهَرَ عليها نُضْرَةٌ وجَمَال، فَلْيُرْهِفْ لتدبيره عَزْمَه الماضِي الضَّرائب. ولْيَسْتُرْ بمحاسن سَعْيِه ما يبدو له من المَعَايِب. وليهتم بأمر الأموال، فإن الأَغْراض منها مُسْتَفَادَة. ولْيُوَلِّ من الأُمَنَاء من يستحق منا الحُسْنَى وزيادة.

ولْيُمْعِن النَّظَرَ في عِمارة البلاد، واستعمال العَدْلِ الذي به تُدَرُّ أَرزاق العِبَاد. وبنوره يَهْدِي إلى سبيل المراشد كُلُّ هادٍ. وعنده يُوجَدُ تصديقُ ظنون الرُّوَّاد والوُرَّاد. ولْيَكُنْ لأموال وُلاة الأمور مُتَفَقِّداً، وللنظر في أحوالهم مُجَدِّداً. ولْيَضْرِبْ عليهم بالأَرْصَاد مَغيباً ومَشْهَداً، ولْيَصْفَحْ عن من لم يكن منهم للزَّلَّةِ مُتَعمِّداً. فما نُؤثِرُ إلا أن يكون الإحسانُ للناس شامِلاً، والبِرُّ إليهم متواصِلاً. وما تَحْسُنُ السِّيَر إلا إذا تَحلَّتْ بالمناقِب والمفَاخِر. وتضمنت مَحاسِنَها بُطونُ الأوراق وصُدور الدَّفَاتِر.

ولْيَتَنَاوَلْ من الجَامِكِيَّة والجِرَايَة[1]، لاستقبال المباشَرة في الشهر، من العَيْنِ مائةَ دينار من الجَوَالِي[2] بالصَّرْفِ الحاضر. ومن الغَلاَّت، من الأَهْرَاء المبارَكة بمصر المحروسة، خمسين إردباً قمحاً وشعيراً ـ ثلثين وثلث ومن الراتب ـ الشاهِد به الديوانُ المعمور لمن تَقَدَّمَه ـ النصف».

وعَيَّنَ جهاتِ الراتب، فقال: «الخُبْزُ من المَخَابِز، واللحم مع التَّوَابِل، والخُضَر المُثَمَّنَة، وما هو مُقَرَّرٌ على دار الوِكالة مُشَاهَرةً، من عَرْصَتَيْ الفاكهة بالقاهرة ومصر والرِّبَاع، وغير ذلك. والعَلِيقُ المقررُ على الإِسْطَبْلاَت من الأَهراء أيضاً. وإن تَعَذَّرَ حُصول الغَلَّةِ المُقَدَّمِ ذكرها، والعَلِيق المذكور، يُثَمَّنُ بالسعر الحاضر، وتكون جهته من جهة الجامِكية، فلْيَسْتَعِنْ بهذا المُقَرَّر على كُلَفِ أوقاته. ولْيَصْرفْه في وجوه نَفَقَاتِه، بعد العَلاَمَةِ الشريفة أعلاه، وثبوته بحيث يَثْبُتْ مِثْلُه، إن شاء الله تعالى».

(١) راجع صفحة ٢٨٨ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) هي ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة وهي على قسمين: ما في حاضرة الديار المصرية من الفسطاط والقاهرة وما هو خارج عن ذلك، فأما ما بحاضرة الديار المصرية، فإن لهذه الجهة بها ناظراً يولى من جهة السلطان، وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها، فإن جزية أهل الذمة في كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره تجري مجرى مال ذلك الإقطاع، وإن كانت تلك البلد جارية في بعض الدواوين السلطانية فإن ما يتحصل من أهل الذمة بها جار في ذلك الديوان. والجوالي: جمع جالية، وتطلق على أهل الذمة وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة، وإن لم يجلوا من أوطانهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

وكُتِبَ في العاشر من شهر رمضان المبارك، سنة خمس وخمسين وستمائة، بالإشارة العالية المَوْلَوِيَّة الأَتَابِكِيَّة الفارِسية ـ أدام الله عُلُوَّها. الحمدُ لله وَحْدَه. وصلواته على سيدنا محمد نبيه، وآلِه، وسلامه».

وكُتِبَ هذا التقليد في وَرَق بَغْدَادِي في قَطْعِ الرُّبْع. وعادة تقاليد الوزراء ـ في وقتنا هذا ـ تُعَظِّمُ أَرْبَابَها في النُّعُوتِ والكتابة، أكثر من هذا.

وفي هذه السنة ـ وقيل في السنة الآتية ـ كانت الوَقْعَةُ بين العساكر المصرية والملك المُغِيث والبَحْرِية، وانتصر العسكر المِصري، وانهزم الملك المغيث والبَحْرية. وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار البحرية، فلا فائدة في إعادته.

واستهلَّت سنة ست وخمسين وستمائة

في هذه السنة، كانت وفاة بهاء الدين أبو الفضل زُهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصِم المُهَلَّبِي(١) [الهتكي](٢) الكاتب.

كان من فُضَلاَء عصره. وكان قد خَدَم المِلكَ الصالح نجم الدين أيوب، لَمَّا كان ينوبُ عن والدِه الملك الكامل. وتوجه في خِدمته إلى الشَّرْق، ولازَمَه، إلى أن قُبِضَ على الملك الصالح واعتُقِلَ بالكَرَك. فأقام بنابُلُس مُحافظةً لمخدومه، إلى أن خلص، فعاد إلى خِدمته، وحَضَرَ في صُحْبَتِه إلى الديار المصرية، وتمكن منه واطَّلَعَ على سِره.

وكانت وفاته قُبَيْلَ المغرب من يوم الأحد، رابع عشر ذي القعدة. ودُفِن من الغد، بعد صلاة الظهر، بتُربته بالقَرَافة الصغرى، بالقرب من تربة الإمام الشافعي، ومَولده بمكة ـ شَرَّفَها الله تعالى ـ في يوم الأربعاء، خامس ذي الحجة، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وفيها، تُوُفِّي الإمام الحافِظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم، بن عبد القوي بن عبد الله بن سلام بن سعد بن سعيد المُنْذِرِي.

وكانت وفاته بالقاهرة في يوم السبت، أول الساعة العاشرة، ثالث أو رابع ذي القعدة، سنة وخمسين وستمائة. وَصُلِّي عليه في يوم الأحد ـ بعد الظهر ـ بالمدرسة

---

(١) ينتسب إلى المهلب بن أبي صفرة: القائد الكبير في عصر بني أمية ترجمته في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٣، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢، ص ٣٣٢ رقم ٢٤٧. المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٣، ص ١٩٧، الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ٢٠١، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٧٦، عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٨٦، ذيل مرآة الزمان لليونيني، ج ١، ص ١٨٤ ـ ١٩٧.

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ١٨٦.

الكامِلِية بالقاهرة المُعِزِّيَّة. ثم صُلي عليه تحت القلعة، وصُلي عليه عند قبره قبل العصر. ودفن بسفح المقطم. وكان مولده بفُسْطَاط مصر، في غُرَّة شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. وانتهت إليه رياسة الحَدِيث في زمانه ـ رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الشيخ الفقيه الإمام: أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن أبي المجد، الأَسْيُوطي الشافعي.

وكانت وفاته بالقاهرة المُعِزِّيَّة، في عشية اليوم السابع من ذي القعدة، من هذه السنة، ودُفن بسفح المُقَطَّم. ومولدُه في سنة سبعين وخمسمائة ـ تقريباً. وكان أحدَ المشايخ المشهورين بمعرفة مذهب الشافعي.

وكان كثيرَ الإيثَار مع الإِقْتَار، والإِفْضَال مع الإِقْلال، كريمَ الأخلاق. رحمه الله تعالى.

واستهلَّت سنة سبع وخمسين وستمائة

في هذه السنة ـ ثاني عشر جمادى الآخرة ـ جُبِيَ التَّسْقِيعُ[1] بالقاهرة.

وفيها، في شعبان ـ أُمْسِك شخص يعرف بالكُورَاني، فضُرِبَ ضرباً شديداً، وحُبس على بِدَعٍ رؤيت منه وسُمِعَت عنه. ثم جَدَّدَ إسلامَه وتاب على يد شيخ الإسلام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وأُطْلِق من الحبس. وكان مُقامه بالجبل الأحمر.

ذكر القبض على الملك المنصور، وعلى أخيه قاآن، واعتقالهما

كان القبض على السلطان الملك المنصور، ابن السلطان الملك المُعِزِّ، في يوم الجمعة ـ السابع والعشرين من ذي القعدة ـ سنة سبع وخمسين وستمائة.

وسبب ذلك أنه تَشاغَل باللهو واللعب، والمُسابقة بالحَمِير الفُرْه، بين يديه، وأمثال ذلك. وكانت أمه تُدَبِّرُ المملكةَ تدبيرَ النساء، فأطمعت الأميرَ سيفَ الدين قُطُز المُعِزِّي نفسُه بالمُلْك. واتفق خروجُ خُوشْداشِيَّتِه إلى الصيد، فانتهز الفرصة، وقَبَضَ على الملك المنصور، وعلى أخيه قاآن، وعلى والدته. واعتقلهما في بُرْجِ السِّلْسِلَة بثَغْر دِمْياط، ثم سُفِّرَ إلى القسطنطينية في الأيام الظاهِرية الرُّكْنية. فكانت مدة سلطنته سنتين، وثمانية أشهر، ويومين.

(١) هكذا في الأصل وترسم بالصاد. راجع صفحة ٢٩٣، حاشية (٢).

ذكر أخبار السلطان الملك المُظَفَّر[١] سيف الدين قُطُز[٢] المعِزِّي. وهو الثالث من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

مَلَكَ الديارَ المصرية في يوم السبت، لِلَيْلَتَين بقيتا من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة ـ بعد أن قَبَضَ على الملِك المنصور، ابن مولاه الملك المُعِز.

قال: ولما مَلَك، حضر خُوشْدَاشِيَّتُه من الصيد، وتنكروا له، وامْتَعَضُوا من مُلْكِه. فقَبَضَ عليهم واعتقَلَهُمْ، وأَعْجَلَهُمْ عن التدبير. وهم: الأمير علم الدين سَنْجَر الغَتْمي، والأمير شرف الدين قِيزَان[٣] المُعِزِّي، وعز الدين أَيْبَك التَّجِيبي الصغير، وشمس الدين قَرَا سُنْقُر المُعِزِّي. واعْتَقَل أيضاً شمس الدين الدُّوذ[٤]: خال الملك المنصور ابن المُعِز، والطَّوَاشي حسام الدين بلال المُغِيثي اللاَّلاَ[٥].

واستَحْلَفَ الأمراءَ والعساكر، وأظهر الحزم. واستوزر الصاحب زين الدين بن الزبير. وعزل الأمير حسام الدين بن باذ عن وظيفة شاد الدواوين. وولي الأمير نور الدين بن السديد، واستَمَرَّ بالأمير فارس الدين أَقْطَاي المستعرِب على الأتابكة، وفوض إليه أمر العساكر.

واحْتَفَلَ بأمر الجند واستعد للجهاد. وأرسل إلى الملك الناصر صاحب الشام، وطلب منه الاتفاق واجتماع الكلمة. والمظافرة على العدو، وأن يكونا يداً واحدة على حرب التتار. فحَلَفَ له على ذلك. ثم كان من أمر الملك الناصر، واضطراب أمره، وزوال ملكه، واستيلاء التتار على حلب ودمشق وغيرها ـ ما قدمناه.

ومَلَكَ التتارُ الشامَ بأَسْرِه، وجَرَّدَ هولاكو[٦] كَتْبُغَا نُوينْ في جيش كثيف، اختاره

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٧، وخطط علي مبارك، ج ١، ص ٨١، وعقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٢٠، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٥٩، وبدائع الزهور لابن إياس، ج ١، ص ٣٠٣، ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور ص ١٦٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٦٧.

(٢) يقال إن اسمه محمود بن ممدود وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة. الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ٢٠١.

(٣) «قيران» بالراء في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٨.

(٤) «الأمير سيف الدين الدود» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٨،

(٥) ورد في السلوك اسم الطواشي شبل الدولة كافور لالا الملك المنصور. وحسام الدين بلال المغيثي. واللالا: لفظ فارسي معناه الشخص المكلّف بالعناية بالأطفال. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤١٨، حاشية (٣).

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٨ ـ ٤٢٢.

من المُغُل، وبعثه إلى الشام. ومن كان من أمره، وأمر جيوش الشام، وتَحَلُّلِهم بلادَ الشام، ووصولهم إلى نابُلُس، وقتل من قدمنا ذكره بها ـ ما شرحنا ذلك في أخبار الملك الناصر. فلا فائدة في إعادته.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة

توفي الأمير مُنِيف بن شِيحَة، صاحب المدينة النبوية. وقام بعده بالمدينة أخوه، جَمَّاز بن شِيحَة.

وفيها، توفي الشيخ الفاضل الصَّدْر الكبير فتح الدين أبو العباس: أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحَوَافِر ـ رئيس الأطباء بالديار المصرية.

وكانت وفاته في ليلة الخميس، رابع عشر رمضان، ودفن بالقرافة. ووَلِيَ رياسة الأطباء بعده ابنُ أخيه: الصَّدْر شهاب الدين أحمد بن محيي الدين رشيد بن جمال الدين عثمان بن أبي الحَوَافِر.

واستهلّت سنة ثمان وخمسين وستمائة

ذكر وصول البحرية والشهرزورية إلى خدمة السلطان الملك المظفر

في هذه السنة، فارق الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي ـ ومن معه من الأمراء البَحْرِيَّة ـ السلطانَ الملك الناصر صاحب الشام، لِمَا رأوه من ضعف رأيه، وتخاذله عن ملاقاة عدوه. وتوجهوا إلى غَزَّة، واجتمعوا هم والأمراء الشَّهْرَزُورِيَّة.

وأرسل الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس ـ المذكور ـ الأميرَ علاء الدين طَيبَرْس الوَزِيري إلى السلطان الملك المُظَفَّر، يستأذنه في الحضور إلى خدمته ـ وهو ومن معه ـ ويلتمس إيمَانَه لهم. فأجاب الملكُ المظفرُ إلى ما طَلَب. فتوجه من غَزَّة بمن معه. وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم السبت، الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.

فَرَكِبَ الملكُ المظفر للقائهم، وأنزل الأميرَ ركن الدين بدار الوزارة. وأقطعه قصبة قَلْيُوب، لخَاصِّه. فأشار الأميرُ ركن الدين عليه بحرب التتار. وقَوَّى عزائمَه على ذلك.

ذكر خبر المصَافّ[١] الكائن بين السلطان الملك المْظَفّر ومعه معه من الجيوش الإسلامية، وبين جيش التتار على عَيْنِ جَالُوت[٢]. وانهزام التتار وقتل مقدمهم كَتْبُغَا نُوينْ، وما يتصل بذلك من الأخبار

لما مَلَكَ التتارُ الممالك الشامية، وزالت دولةُ الملك الناصِر صلاح الدين يوسف من الشام ـ كما قدمنا ذكرَ ذلك ـ راسل كَتْبُغَا نُوين، مُقَدَّم جيش التتار، السلطانَ الملك المُظَفَّر، وأرسل إليه، يطالبه بِبَذْل الطاعة، وتَعْبِئَة الضِّيَافَة. فَقَتَلَ الملكُ المُظَفَّر رُسُلَه. إلا صبِيًّا واحداً، فإنه استبقاه، وضمه إلى جملة مماليكه.

واستَعَدَّ للجهاد، وخرج بعساكر الديار المصرية، ومن انضم إليه من جيوش الشام ـ الذين فارقوا الملك الناصر ـ ومن حضر إليه من الأمراء البَحْرِيَّة، والأمراء الشَّهْرَزُورِيَّة، وغيرهم.

وراسل الملكَ الأشرفَ مظفر الدين موسى، صاحبَ حمص ـ وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب ـ وفَوَّضَ إليه نيابةَ السلطنة بالشام أجمع، وحلب، وغير ذلك، والملكَ السعيد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل ـ وكان قد أَخَذَ من هولاكو فَرَمَاناً بالصُّبَيْبَة وبَانْيَاس. وسألهما المُظَافَرَة والمُعَاوَنَة على حرب العدُوّ، وأن تكون الكلمةُ واحدة.

فتوجه رسوله، واجتمع بالملك السعيد، فسَبَّه وسَبَّ من أرسله، وقال: من هو الذي يوافقُ هذا الصبي، أو يدخل في طاعته أو ينضم إليه؟! ونحو هذا من الكلام. ففارَقَه وتوجه إلى الملك الأشرف. فخلا الملك الأشرف بالرسول. وقَبَّلَ الأرضَ بين يديه تعظيماً لمُرْسِلِه، وأجلسه مكانه على مرتَبتِه وجلس بين يديه، وسمع رسالته. وقال له: قَبِّلِ الأرضَ بين يدي مولانا السلطان الملك المُظَفَّر، وأَبْلِغْهُ عني أنني في طاعته وموافقته، وامتثال أمره. والحمدُ لله الذي أقامه لنُصْرَةِ هذا الدين. ووَعَدَ أنه، إن حضر المُصَافَّ مع التتار، انهزم بهم، إلى غير ذلك. وأَعْطَى الرسولَ ذهباً جَيِّداً، واعتذر إليه.

فعاد الرسولُ، وأبلغ الملكَ المظفر عن كل من المَلَكين ما قال له فعامل كلا منهما، عند ظفره، بما نذكره.

---

(١) الموقعة الكبيرة.

(٢) عين جالوت: بلدة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيسان على مسافة عشرة كيلومترات على نهر الجالود، بجوار عين ماء يطلق عليها الاسم نفسه ويقول السكان المحليون عين جالود. الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٣٦٨.

قال: وجمع السلطانُ الملكُ المظفر الأمراءَ بالصالِحِيَّة[١]، واستشارهم: أين يكون لقاءُ العدو؟ فأشاروا أن يكون بالصالِحِيَّة. وصَمَّمُوا على ذلك. فوافقهم على رأيهم ظَاهِراً وركب في صَبِيحة ليلة المَشُورَة من مَنْزِلِه الصالِحِيَّة. وحَرَّكَ الكُوسَات[٢] ودخل الرَّمْلَ. فانْجَرت العساكرُ خلفه، ولم يتخلف منهم أحدٌ عنه. وسار بعساكِرِه وجموعه، حتى انتهى إلى عَيْنِ جَالُوت ـ من أرض كَنْعَان[٣]، بالقرب من بَيْسَان، مدينة غَوْرِ الشام.

وأقبل كَتْبُغَا نُوِينْ بجيوش التتار، ومن انضم إليه. والتقوا واقتتلوا ـ وذلك في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من شهر رمضان، سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. وثَبَتَ الملك المظفَّر أحسن ثَبَات. حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال: كنتُ خلف السلطان الملك المُظَفَّرَ، لما التحم القتال ووقعت الصَّدْمَةُ الأولى، فاضطر جناحُ عسكر السلطان، وتتعتع طَرَفٌ منه. فلما رأى الملك المظفر ذلك، رمى خُوذَتَه عن رأسه، وصاح: واإسلاماه! وحَمَلَ، فأعطاه الله تعالى النصر. وكانت الدائرةُ على التتار، وأخذهم السيف والإِسَار. وقُتِلَ كَتْبُغَا نُوِينْ، فيمن قُتِلَ. وانهزم مَن سَلِم من التتار، لا يَلْوُون على شيء. وكان الأمير ركن الدين بِيبَرْس البندقداري ممن شهد هذه الوقعة، وأبلى يومئذٍ بلاءً حسناً.

وكان ممن أُسِرَ من التتار، في هذه الوقعة: كَتْبُغَا المَنْصُورِي ـ وهو يومئذٍ شاب ـ وهو الذي مَلَكَ الديار المصرية ـ بعد ذلك ـ في سنة أربع وتسعين وستمائة، ولُقب بالعادل. ووقع في ذلك حكايةٌ غريبة، نذكرها ـ إن شاء الله تعالى ـ عند ذكرنا لسلطنة الملك العادل كَتْبُغَا.

قال: ولما تمت الهزيمةُ على التتار، جاء الملكُ السعيد ـ ابن الملك العزيز ـ إلى السلطان الملك المظفر، مُسْتَأْمِناً. وكان شَهِدَ الوقعة مع التتار. فترَجَّلَ عن فرسه، وتقدم إلى السلطان ليُقَبِّلَ يدَه. فضربه برجلِه على فَمِه، فأدْمَاه. وجاء أحدُ سلاح دارية[٤]

(١) الصالحية: قرية قرب الرها من أرض الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٤٢. أما المحقق فيقول: بلد معروفة بمصر في طرف محافظة الشرقية من الشرق.

(٢) الكوسات: وهي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوس. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩ و١٣.

(٣) فلسطين: انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٤٩.

(٤) السلاح دار: هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك، ولفظ السلحدار مركب من كلمتين: أولاهما عربية ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية ومعناها ممسك. ويكون المعنى ممسك السلاح. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٢.

السلطان، فضرب عُنُقَه! وفَعَلَ ذلك به، مؤاخذةً له على جوابه، الذي ذكره لرسولِ السلطان.

ذكر مسير السلطان الملك المظفر إلى دمشق ووصوله إليها، وملكه الممالك الشامية، وما قرره من ترتيب الملوك والنواب، وغير ذلك مما اتفق بدمشق

قال المؤرخ: ولما تم النصر، تقدم السلطان الملك المظفر، طالباً جهةَ دمشق. واتصل الخبر بالزين الحافظي ونواب التتار بدمشق، ومن كان قد وصل ـ صحبة الملك العزيز فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث، صاحب الكَرَك ـ من جهة هولاكو من توريز[(١)]، ليكون شِحْنَةً[(٢)] بالكَرَك، وكانوا بدمشق. فخرجوا هاربين إلى هولاكو.

وكان النصارى بدمشق، في أيام التتار، قد استطالوا على المسلمين ومدوا أيديَهم، وبَسَطُوا ألسنتهم فيهم. فلما اتصل خبرُ النصر بالمسلمين، ثار جماعةٌ من العوام، وحرقوا كنيسة مريم، وخربوا بعضها. فأقاموا كذلك من يوم الجمعة إلى يوم الثلاثاء. إلى أن وصل الأمير جمال الدين أَقُش المُحَمَّدِي، بكتاب السلطان الملك المظفر، ودخل دمشق. ونزل دار السعادة، وسَكَّنَ الناسَ وطَمَّنَهُم.

ثم وصل السلطانُ في يوم الأربعاء، سَلْخ شهر رمضان. ونزل على الجَسُورَة، وخَيَّمَ بها. وعَيَّدَ عِيدَ الفِطْر، ثم دخل إلى دمشق، في ثاني شوال، ومَلَكَ البلاد.

ورتَّبَ النُّوَّابَ في المماليك الشامية: ففَوَّضَ نيابة دِمشق إلى الأمير ـ علَمِ الدين سَنْجَر الحلَبي ـ الصالِحي. وجعل معه الأميرَ فخر الدين: أبا الهَيْجَا بن خُشْتَرِين. وأقر الملكَ الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته، بحِمص والرَّحْبة وتَدْمُر. وبعث الملكَ المظفر ابن الملك الرحيم ـ بدر الدين لؤلؤ ـ إلى حلب نائباً بها، ونعته بالملك السعيد ـ لمشاركة النَّعْت. وأقر الملكَ المنصور ابن الملك المظفر على مملكته بحَماه. وأقطع البلادَ الشامية والحلبية وأصلح ما اضطرب من الأمور. وعاد لقصد الديار المصرية، فقُتِل ـ قبل وصوله إليها.

---

(١) توريز: هي «تبريز» رسمها المحقق كما هي في الأصل.

(٢) الشحنة: من فيهم الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان أثبتها مجمع اللغة العربية بدمشق لما يعرف بالبوليس من الجند. الشيخ أحمد رضا: معجم متن اللغة (شحن).

ذكر مقتل السلطان الملك المظفر سيف الدين قُطُز، ونبذة من أخباره

كان مقتله ـ رحمه الله تعالى ـ في يوم السبت، الخامس عشر من ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وستمائة ـ وقيل في سابع عشر الشهر.

وذلك أنه لمَّا قَرَّرَ أمورَ الشام، ورتب الملوكَ والنواب والممالك، عاد من دمشق لقصد الديار المصرية، في سادس عشر شوال. فلما وصل إلى مَنْزِلَةِ القُصَيْر[١] من منازل الرَّمْل، ركب إلى الصيد. وكان الأمير بدر الدين أُنص الأَصْفَهَانِي، وجماعة معه، تظافروا هم والأمير ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْدَارِي، على اغتياله. فقصدوه ـ وهو في الصيد ـ وقتلوه غِيلَةً!

وحُكيَ في كَيفية قتله[٢]: أنه كان قد تغير خاطرُه على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري. فلما تقدّم الأمراءُ إليه، سأله الأمير بدر الدين أُنص الرضا عن الأمير ركن الدين. فقال: قد رضيتُ عنه. فترجل الأمير ركن الدين لِيُقَبِّلَ يدَه. فلما تناولها قَبَضَ عليها، وجذبه عن سَرْجِهِ، وبَدَرَه أولئك الأمراء بالضرب، فقَتَلُوه ـ رحمه الله تعالى.

ويقال: إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله هم: الأمير سيف الدين بَلَبَان الرَّشِيدِي، والأمير سيف الدين بَهَادُر المُعِزِّي ـ خُوشْدَاشُه ـ والأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَانْدَار[٣] المُعِزِّي، والأمير سيف الدين بِيغَان الرُّكْني، والأمير سيف الدين بَلَبان الهَارُونِي، ومن ذكرنا.

وكان الملك الظاهر يَدَّعِي أنه هو الذي قتله بيده. وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله، وإنما كان يَدَّعِي ذلك، افْتِخَاراً. وقد نُقِلَ أن الملك الظاهر لما قَبَضَ على يده، ضربه الأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكَانْ دَار على عاتِقِهِ بالسيف، فأَبَانَه. وألقاه الأمير بدر الدين أُنص عن فرسه. ثم رماه الأمير سيف الدين بهادُر المُعِزِّي بسهْم، أتى على روحه ـ

(١) القصير: بينها وبين عيذاب ثمانية أيام وبينها وبين قوص خمسة أيام، وكان فيها مرفأ سفن اليمن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦٧. والقصير مدينة وميناء على البحر الأحمر، ازدهرت في عصر البطالسة باسم «برينيس» ويربطها بالأقصر طريق معبد. الموسوعة العربية الميسرة: ١٣٨٥.

(٢) قارن بروايات السلوك وعقد الجمان والنجوم الزاهرة خُوشداشُه: راجع صفحة ٢٧٧ من هذا الجزء، حاشية (٣) وهنا المعنى زميله في الخدمة.

(٣) الجوكان دار: نسبة إلى الجوكاندار، وهو لقب الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما: جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان، والثاني دار، ومعناه الممسك فيكون المعنى: ممسك الجوكان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨. وهذه اللعبة تعرف اليوم باسم «البولو».

رحمه الله تعالى - فكأنه المعني بقول الشاعر:

وما كانَ إلا السيفَ، لاَقَى ضَرِيبَة[(١)] فـقـطّـعَـهُ، ثـم انـثـنـى فـتـقـطّـعَـا

وكانت مدةُ ملكه أحد عشر شهراً، وسبعة عشر يوماً.

وأما غير ذلك من أحواله - رحمه الله تعالى -: فقد حُكي أنه كان من أولاد الملوك الخُوَارِزْمِيَّة، وأنه مَحْمُود بن مَمْدُود، ابن أخت السلطان خُوَارِزْم شاه. وإنما أُبيع، لما استولى التتار على البلاد، وملكوا مُلْكَ الخُوَارِزْمِيَّة. وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان، وكان هو ممن أُسر وأُبيع. وقد كان هو يُصَرِّحُ بذلك - فيما حُكِيَ عنه - ويستكتم من يَحْكِيه له.

وقد نقل الشيخُ شمس الدين: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد العزيز بن أبي الفوارس الجَزَرِي، ثم الدِّمَشْقِي[(٢)] - في تاريخه: «حوادث الزمان وأنبائه» أن والده أخبره أن الحاج على الفَرَّاش أخبره، قال:

«لما كان قُطُز في رِقِّ ابن الزَّعِيم[(٣)] بدِمشق - وكان سكنه بالقَصَّاعِين[(٤)] - غضب عليه في بعض الأيام فَلَطَم وجهَه، ولعنه لعن والدَيْه وجَدَّه. قال: فبكى قُطُز بكاءً شديداً، وجعل ينتحِب طولَ نهاره، وامتنع من الأكل. وركب أستاذُه بعد صلاة الظهر إلى الخِدمة، فقال لي: استَرْضِه وأَطْعِمْه، واعْتِبْه على بكائه».

قال الفَرَّاش: فجئتُ إليه وجعلت ألومه على بكائه من لطمة واحدة، فكيف لو ضُربْتَ ألفَ عصاة أو دَبُّوس، أو جُرِحْتَ بسيف؟! فقال: والله ما بُكائي وغيظي من أجل لطمة، وإنما كونه لعن أبي وأمي وجدي. فقلت له: ومن أبوك وجدك وأمك؟ فقال: والله أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وجدي خير من جده. فقلت له: أنت مملوك تركي، كافر ابن كافرين.

فقال: والله، ما أنا إلا مسلمٌ، ابن مسلِمين: أنا محمود بن ممدود، ابن أخت خُوَارِزْم شاه، من أولاد الملوك. قال: فسكَتُّ عنه وطَايَبْتُهُ. وتَقَلَّبَت به الأحوالُ، إلى أن مَلَكَ الديار المصرية والشام. ولما ملك دمشقَ أحسن إلى الحاج على الفراش المذكور،

---

(١) ضريبةُ: أي ما يماثله. الفيروزابادي: القاموس المحيط (ضرب).

(٢) توفي سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٢٣٦ حاشية (٣).

(٣) عبارة عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٥٥: «وحكى ابن أبي الفوارس قال: كان هذا قطز مملوكاً لابن العديم أو قال لابن الزعيم رحل من دمشق فضربه».

(٤) القصاعين: درب بدمشق إزاء سوق الفسقار واسمه اليوم سوق مدحت باشا. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٧٨، حاشية (٢).

وأعطاه خمسمائة دينار، ورتب له راتباً جَيِّداً.

قال الشيخ شمس الدين: وقد حَكَى لي ولِوالِدي، هذه الحكاية عنه. هذا معنى كلامِه ولَفْظِه.

ومما يُؤَيِّدُ هذه الحكاية أيضاً ـ ويشهد لها ـ ما حكاه الشيخُ شمس الدين ـ المذكور ـ عن والده، قال: حَكَى لي الحاج أبو بكر بن الدُّرَيْهِم الإِسْعَرْدِي، والحاج زكي الدين إبراهيم الجَزَرِي ـ المعروف بالجُبَيْلِي، أستاذ الفارس أَقْطَاي ـ قالا:

كنا عند الأمير سيف الدين قُطُز في أول دولة أُسْتاذه: الملك المُعِزّ وقد حَضَرَ عنده مُنَجِّمٌ ورد من بلاد المغرب ـ وهو موصوف بالحِذْق في علم الرَّمْلِ والفَلَك. فأمر قُطُز أكثر مَنْ عنده من حاشيته بالانصراف، فانصرفوا. وهَمَمْنَا بالقيام فَأَمَرَنَا بالجلوس، فَجَلَسْنَا. وما تَرَكَ عنده إلا من يَثِقُ به من خَوَاصِّه. وقال للمُنَجِّم: اضرِب الرمل. فَفَعل. وحَدَّثَه بأشياء كثيرة، مما كان في نفسه.

وكان آخرَ ما قال له: اضرب وانظر من يَمْلِكُ بعد أُستاذِي، ومن يَكْسِرُ التتار؟ فضَرَبَ، وحسب حساباً طويلاً، وبقي يفكر يَعُدُّ أصابعَه. وقال: قد طَلَعَ معي خمسُ حروف بغير نقط، وأبوه أيضاً خمس حروف بغير نقط. وأنت اسمك ثلاث حروف، وابن السلطان كذلك. فقال له: لم لا تقول: محمود بن ممدود[1]؟ فقال المنجم: لا يقعُ غيرُ هذا الاسم. فقال قُطُز: أنا محمود بن ممدود. وأنا أَكْسِرُ التتار، وآخذُ بثأر خالي خُوَارِزْم شاه، ثم اسَتكْتَمَنَا هذا الأمر. وأنعم على المنجم بثلاثمائة درهم، وصَرَفه.

وحُكِيَ عن المَوْلَى المرحوم تاج الدين أحمد بن الأثير ـ رحمه الله تعالى ـ ما معناه:

أن الملك صلاح الدين يوسف صاحب الشام ـ رحمه الله تعالى ـ لما كان على بَرْزَة، في أواخر سنة سبع وخمسين وستمائة ـ وصل إليه قُصَّادٌ[2] من الديار المصرية، بكتب، تتضمن أن قُطُز قد تسلطنَ وملَكَ الديار المصرية، وقبض على الملك المنصورِ ابن أستاذه الملك المعز. قال القاضي تاج الدين: فطلبني السلطان ـ رحمه الله ـ فقرأتُ عليه الكتب.

فقال لي: خُذْ هذه الكتب، وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القَيْمُرِي، والأمير جمال الدين بن يَغْمُور، وأَوْقِفْ كلاً منهما عليها. قال: فأخذتها وخرجت من عنده. فلما

---

(١) في عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٥٥، «محمود بن مودود».

(٢) جمع قاصد وهو الرسول. الفيروزابادي: القاموس المحيط (قصد).

بعدتُ عن الدِّهْلِيز، لقيني حسام الدين البركة خاني[١]، فسلم علي، وقال: جاءكم بَرِيدٌ أو قُصَّادٌ من الديار المصرية فَورَّيْتُ، وقلتُ: ما عندي عِلْمٌ بشيء من هذا. قال: قُطُز يتسلطن، ويملك الديار المصرية، ويكسر التتار. قال القاضي تاج الدين: فعجِبت من كلامه، وقلت له: إيش هذا القول؟ من أين لك هذا؟

قال: والله، هذا قُطُز هو خُوشْدَاشِي. كنت أنا وإياه عند الهَيْجَاوي من أمراء مصر، ونحن صِبيان، وكان عليه قَمْلٌ كثير، فكنت أُسَرِّحُ رأسه ـ على أنني كلما أخذتُ عنه قملة، آخذ منه فَلْساً أو صَفْعَة. فلما كان بعضُ الأيام أخذت عنه قملاً كثيراً، وشرعت أصفعه، ثم قلت في غُضُون ذلك: والله ما أشتهي إلا أن الله يرزقني إمْرَةَ خمسين فارساً، فقال لي: طَيِّبْ قلبك، أنا أعطيك إمْرَةَ خمسين فارساً. فصفعتُه، وقلت: وَالَك، أنت تعطيني إمرة؟! قال: نعم! فصفعتُه! فقال لي: وَالَك، إيش يلزم لك إلا إمرة بخمسين فارس، أنا والله، أُعْطِيك. قلت: وَالَك، كيف تُعطيني؟.

قال: أَمْلِكُ الديارَ المصرية: قلت: تَمْلِكُ الديار المصرية؟! قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: أنتَ تَمْلِكُ الديارَ المصرية، وتَكْسِرُ التتار. وقولُ النبي ﷺ لا شك فيه. فسكَتّ. وكنت أعرف منه الصِّدْقَ في حديثه وعَدَمَ الكذب.

وتَنَقَّلَتْ به الأحوال، وارتفع شأنه. إلى أن صار هو المحتكم في الدولة. وما أشك أنه يملك الديار المصرية ـ مستقبلاً ـ ويكسِر التتار ـ كما أخبره النبي ﷺ في المنام.

قال القاضي تاج الدين: فلما قال لي هذا القول، قلت له: والله قد وَرَدَت الأخبار أنه تَسَلْطَنَ في الديار المصرية. قال لي: والله، وهو يَكْسِر التتار. فما مضى إلا مدةٌ يسيرة، حتى خرج وكسر التتار.

قال المولى تاج الدين ـ رحمه الله ـ فرأيت الأمير حسام الدين البركة خاني، الحاكي لي ـ بعد ذلك ـ بالديار المصرية، بعد كَسْرَةِ التتار، فسَلَّمَ علي وقال لي: تَذْكُرُ ما قلتُ في الوقت الفُلاَني؟ قلت: نعم. قال: والله، حَالَما عاد الملك الناصر[٢] من قَطْيَا، ودخلتُ أنا إلى الديار المصرية، أعطاني إمْرَةَ خمسين فارساً، كما قال ـ رحمه الله ـ لا زَايَدَ على ذلك.

وقد ذكر هذه الحكاية الشيخُ قطبُ الدين اليُونِينِي[٣] في تاريخه، وقال أيضاً:

---

(١) نسبة إلى بركة خان مقدم أو رئيس الخوارزمية. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٨١ «حسام الدين البركتخاني».

(٢) يقصد السلطان قطز.

(٣) نسبة إلى يونين وهي قرية من قرى بعلبك، وتاريخه هو الذيل على مرآة الزمان.

وحَكَى لي الأميرُ عز الدين بن أبي الهَيْجَا ما معناه: أن الأمير سيف الدين بُلْقَاق حدثه، أن الأمير بدر الدين بَكْتُوتُ الأَتَابِكِي حَكَى له، قال:

كنتُ أنا والملك المظفر قُطُز، والملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس ـ رحمهم الله تعالى ـ في حال الصِّبَا، كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك. فاتفق أن رَأَيْنَا مُنَجِّماً في بعض الطرق بالديار المصرية. فقال له الملك المظفر: أَبْصِر نجْمي. فضرب بالرمل وحَسَب، وقال له: أنت تملكُ هذه البلاد وتكسر التتار! فشرعنا نَهْزَأُ به. ثم قال له الملك الظاهر: فأَبْصِرْ نجمي. فضرب بالرمل وحسب، وقال: وأنت تملك الديار المصرية وغيرها. فتزايد استهزاؤنا به! ثم قالا لي: لا بد أن يُبْصِرَ نجمك. فقلت له أَبْصِر لي. فضرب وحسب، وقال لي: وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس، يعطيك هذا ـ وأشار إلى الملك الظاهر. فاتفق أن الأمر وَقَعَ كما قال. وهذا من عجيب الاتفاق.

قال الشيخ قطب الدين اليُونِيني ـ نَفَع اللَّهُ به ـ:

وكان السلطانُ الملك المُظَفَّر بَطَلاً شجاعاً، ولم يكن يُوصف بشُح ولا كرَم، بل كان متوسطاً. وهو أول من اجترأ على التتار، وكَسَرَهم، بعد خُوَارِزْم شاه، كَسْرَةً عظيمة، جُبِرَ بها الإسلام.

قال: ومما حُكِيَ لي عنه: أنه قُتِلَ في يوم المُصَافّ جَوادُه بعَيْنِ جَالُوت، ولم يُصادِفْ في تلك الساعة أَحَدٌ من أُوشَاقِيَّتِه[١]، الذين معهم جَنَائِبُه، فبَقِيَ راجِلاً. ورآه بعضُ الأمراء الشجعان، فترجل عن حصانه وقدمه له ليركبه. فامتنع وقال له ما معناه: ما كنتُ لآخذ حِصانك في هذا الوقت، وأمنعُ المسلمين الانتفاعَ بك، وأعرضك للقتل، وحَلَفَ عليه أن يركب فرسَه. فامتثل أمْرَه، وركِب. ووافاه الأوشاقِيَّة بالجنائب[٢] فركب جَنِيباً.

فلامه بعض خَوَاصِّه على ذلك، وقال: لو صادَفَك ـ والعياذُ بالله ـ بعض المَغُل، وأنت على الأرض راجِلاً، كنتَ رُحتَ، وراح الإسلام! فقال: أما أنا فكنتُ أروح إلى الجنة ـ إن شاء الله تعالى. وأما الإسلام، فما كان الله عز وجل ليضيعه. فقد مات الملكُ الصالح، وقُتِلَ ولدُه الملك المعظم، والأميرُ فخر الدين ابن الشيخ ـ مُقَدَّم العساكر ـ ونَصَرَ اللَّهُ الإسلام، بعد اليَأْسِ من نَصْره ـ يُشير إلى نَوْبَةِ المنصورة[٣].

(١) الأوشاقية والأوجاقية: الذين يتولون ركوب الخيل للتسيير والرياضة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٤.

(٢) الجنائب: الجنيب: هو الحصان الذي يؤخذ مع الفارس احتياطاً ليستبدل به عند الحاجة. ابن منظور: لسان العرب (جنب).

(٣) أي الموقعة التي حدثت بالمنصورة.

قال: ولما قَدِمَ إلى دمشق بعد الكَسْرة[١]، أَجْرَى الناسَ كافَّة، على ما كانوا عليه إلى آخر الأيام الناصِرية، في رواتِبهم ومُقَرَّرَاتِهم وإطْلاَقَاتِهم. ولم يتعرض إلى مالِ أحد، ولا إلى مِلْكِه.

ثم تَوَجَّهَ[٢]، بعد تقريرِ قواعد الشام. فرزقه الله الشهادة، فقُتِلَ مظلوماً، رحمه الله تعالى.

انتهى الجزء التاسع والعشرون من كتاب «نهاية الأرب» للنويري

والحمد لله

(١) أي هزيمة التتار.

(٢) توجه إلى مصر.

المصادر والمراجع

١ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢.

٢ ـ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق لحسن باشا، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

٣ ـ أمراء دمشق في الإسلام للصفدي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٥.

٤ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٢.

٥ ـ البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٩٨٨.

٦ ـ البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الأصفهاني (الجزء الثالث) تحقيق مصطفى الحياري. (الجزء الخامس) تحقيق فالح صالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان ١٩٨٦.

٧ ـ بلدان الخلافة الشرقية لسترانج، ترجمة بشير فرنسيس، وكوكيس عواد، بغداد ١٩٥٤.

٨ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، تحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، ١٩٦٣.

٩ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤.

١٠ ـ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) نسخة مقصورة عن طبعة بولاق.

١١ ـ تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ٧، ١٩٦٥.

١٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٦٩.

١٣ ـ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، بيروت (بدون تاريخ).

١٤ ـ ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب تأليف المرتضى الزبيدي، دمشق ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م.

١٥ ـ التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.

١٦ ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

١٧ ـ الجوهر الثمين لابن دقماق، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

١٨ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تأليف شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق أكرم عثمان يوسف. وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠.

١٩ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة لجلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.

٢٠ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة لابن الفوطي، دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٨٧.

٢١ ـ الخطط التوفيقية الجديدة، تأليف علي باشا مبارك، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.

٢٢ ـ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) للمقريزي ـ تقي الدين بن علي بن عبد القادر بن محمد، مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ.

٢٣ ـ دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي، أحمد الشمنتاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس.

٢٤ ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، تحقيق جعفر الحسني دمشق ١٩٤٨، وط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٢٥ ـ دول الإسلام للذهبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٥.

٢٦ ـ ديوان ابن عُنين (محمد بن نصر الله) تحقيق خليل مردم، دمشق ١٩٤٦.

٢٧ ـ ذيل مرآة الزمان لليونيني، ٤ أجزاء،الهند ١٩٦١.

٢٨ ـ الذيل على الروضتين، كتاب تراجم رجال القرنين السادس والسابع، لأبي شامة المتوفى عام ٦٦٥ هـ، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤.

٢٩ ـ زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩١.

٣٠ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك لأحمد بن علي المقريزي، صححه ووضع حواشيه محمد ومصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢، ١٩٥٦.

٣١ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩.

٣٢ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد ١٩٧٨.

٣٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس أحمد القلقشندي، ط القاهرة.

٣٤ ـ العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي (١ ـ ٥) تحقيق الأستاذين صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد (الكويت) ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦.

٣٥ ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تأليف بدر الدين محمد العيني، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٧.

٣٦ ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدول الرسولية، لجنة حبيب بلندن، ١٩١١ ـ ١٩١٨.

٣٧ ـ العلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

٣٨ ـ فوات الوفيات، تأليف محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٧٣.

٣٩ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة، دار الجيل، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٨٨ هـ.

٤٠ ـ الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.

٤١ ـ كنز الدرر وجامع الغرر لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧٢ م.

٤٢ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ط، حيدر آباد الدكن بالهند، ١٩٥١.

٤٣ ـ المختصر في أخبار البشر، أبو الفدا، ط القاهرة ١٣٢٥ هـ.

٤٤ ـ معالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث القرشي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ١٩٨٨.

٤٥ ـ معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٨.

٤٦ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي للمستشرق زامباور. مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١.

٤٧ ـ معجم محيط المحيط لبطرس البستاني، بيروت ١٨٧٠.

٤٨ ـ معجم القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي.

٤٩ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

٥٠ ـ معجم لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
٥١ ـ معجم الروض المعطار للحموي، تحقيق الدكتور إحسان عباس. بيروت ١٩٧٥ ـ ١٩٨٤.
٥٢ ـ معجم القاموس المحيط للفيروزابادي، القاهرة، ١٩٥٢.
٥٣ ـ معجم ما استعجم للبكري (١ ـ ٤) تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥.
٥٤ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تأليف جمال الدين محمد سالم بن واصل، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠.
٥٥ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي) حيدر آباد الدكن، ١٣٥٩ هـ.
٥٦ ـ مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني، فؤاد عبد المعطي الصياد، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
٥٧ ـ الموسوعة الفلسطينية، دمشق ١٩٨٤.
٥٨ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦ جزءاً ١٩٩٢.
٥٩ ـ النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين للدكتور حسين ربيع، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤.
٦٠ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لشمس الدين أبي العباس بن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٨.
٦١ ـ Dozy. Supplément aux dictionnaires Arabes 2 Vols. Leyden. 1881.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٣٠ - ٣١

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فوّاز و الدكتورة حكمت كشلي فوّاز

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعـة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
9782745138835 90000>

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة[1]

ذكر أخبار السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي[2]

وهو الرابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية المحروسة، وهو تركي الجنس من قبيلة البرلي، ملك الديار المصرية والبلاد الشامية في يوم السبت المبارك الخامس عشر من ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان ذلك بمنزلة القصير[3] من منازل الرمل، في اليوم الذي قتل فيه السلطان الملك المظفّر سيف الدين قطز المعزي[4].

وذلك أنه لما قتل الملك المظفّر ساق الأمراء إلى الدهليز ونزلوا به، وجلسوا كلهم دون طراحة السلطنة، وتشاوروا فيمن يملكونه[5] عليهم، فوقع اختيارهم عليه. ويقال إن الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الصالحي الأتابك قال في ذلك المجلس: «ينبغي ألاّ يلي السلطنة إلاّ من خاطر بنفسه في قتل السلطان وأقدم على هذا الأمر العظيم» فقال الملك الظاهر: «أنا قتلته» ووثب وجلس على طراحة السلطنة،

---

(١) يوافق أولها يوم الخميس ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٥٩ م. قارنها بكتاب عقد الجمان لبدر الدين العيني ج ١، ص ٢٢٩ ـ ٢٨٦.

(٢) انظره في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ١٥٥، ابن شاكر الكتبي، ج ١، ص ٢٣٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧٤.

(٣) قصير الصالحية، وهي على مرحلة من مدينة الصالحية الحالية، واسمها اليوم قرية الجعافرة بمركز فاقوس، راجع النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ١٠١.

(٤) هو قُطُز بن عبد الله الشهيد، الملك المظفّر سيف الدين المعزي، من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً حازماً. توفي سنة ٦٥٨ هـ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ج ٣، ص ٢٠١، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٩٢، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٤٠٩.

(٥) في الأصل يملكوه.

فبايعه الأمير فارس الدين المذكور، وحلف له، ثم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، ثم الأمراء على طبقاتهم. ثم قال له الأمير فارس الدين الأتابك: «إن السلطنة لا تتمّ لك إلاّ بدخولك إلى قلعة الجبل»[١]، فركب لوقته، وركب معه الأمير فارس الدين الأتابك، والأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي، ومماليكه وخواصه.

وتوجه بيبرس إلى قلعة الجبل، ورتّب في مسيره إليها أرباب الوظائف؛ فرتّب الأمير جمال الدين أقش[٢] النجيبي الصالحي أستاددارا[٣]، والأمير عز الدين أيبك الأقرم الصالحي أمير جاندار، والأمير حسام الدين لاجين الدرفيل، والأمير سيف الدين بلبان الرومي في الدوادارية، والأمير بهاء الدين أمير آخور على عادته. ولقيه في طريقه الأمير عز الدين إيدمر الحلي، وكان ينوب عن الملك المظفر بقلعة الجبل، وقد خرج لتلقيه، فأعلمه الملك الظاهر بما اتفق، وعرض عليه أن يحلف، ثم تقدم إيدمر إلى القلعة واجتمع بمن بها، ووعدهم عن السلطان المواعيد الجميلة فأجابوه، ولم يزل على باب القلعة إلى أن وصل السلطان إليها، فدخلها ليلاً وتسلمها.

ويقال إنه لما ملك بيبرس تلقب بالملك القاهر ووصل إلى قلعة الجبل ولقبه ذلك، فأشار الصاحب زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب، وقال: إنه ما لقّب به أحد فأفلح: لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل أيامه وخلع وسمل[٤].

ولقّب به القاهر صاحب الموصل فسم. فنقل السلطان لقبه إلى الملك الظاهر والله أعلم.

قال المؤرّخ[٥]: وكانت القاهرة ومصر قد زُينتا لقدوم الملك المظفّر، والناس في سرور لمقدمه إثر هذا النصر العظيم[٦]، فلم يرعهم إلا ومنادٍ ينادي: «معشر الناس، رحمكم الله، ترحّموا على الملك المظفّر، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين»، فوجم الناس لذلك، وتألموا خوفاً من شدة البحرية وما كانوا[٧] يعتمدونه من

---

(١) ما بين مزدوجتين مأخوذ عن: كتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٠٥.

(٢) كذا في الأصل، أما صاحب النجوم الزاهرة فقد رسمه بالواو (أقوش)، انظر: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٥.

(٣) كذا في الأصل.

(٤) سمل: فقأ. راجع لسان العرب لابن منظور، مادة: سمل.

(٥) هو محيي الدين بن عبد الظاهر، صاحب كتاب السيرة الظاهرية. السيوطي، بغية الوعاة، ص ٢٨٥، مجلة المورد، ج ٢، العدد الثاني ص ٤٣.

(٦) الإشارة هنا إلى وقعة عين جالوت. انظرها في عقد الجمان، ج ١، ص ٢٤٣ - ٢٥٢.

(٧) في الأصل كأنه، والتصحيح يقتضيه السياق.

الظلم والسلطنة في غيرهم، فكيف وقد صارت فيهم. فعاملهم السلطان بما سرهم به، وهو أن الملك المظفّر كان قد جدّد على الناس[١] حوادث في سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة: منها تصقيع الأملاك وتقويمها وأخذ زكاتها، وأخذ ثلث التركَ الأهلية، ومضاعفة الزكاة، وجباية الدينار من كل إنسان، ومبلغ ذلك ستمائة ألف دينار. فأبطل السلطان بيبرس ذلك، وكتب به توقيعاً قرىء على المنابر، فطابت قلوب الناس.

قال: ولما أصبح السلطان بيبرس في يوم الأحد جلس بالإيوان بقلعة الجبل وحلف العساكر لنفسه، واستناب مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار[٢] وأقر الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في الأتابكية.

وكاتب الملوك والنواب والأمراء بالممالك الشامية يخبرهم بما جدده الله تعالى له من أمر السلطنة، ويطلب منهم بذل الطاعة والموافقة.

واستهلت سنة تسع وخمسين وستمائة[٣]

في هذه [السنة][٤] كان للسلطان في ابتداء سلطنته أخبار متشعبة متباينة: منها ما هو في حضرته بمقر ملكه بالديار المصرية؛ ومنها ما هو بدمشق، ومنها ما هو بحلب، وكل ذلك في هذه السنة، وبعضه في أواخر سنة ثمانٍ وخمسين.

وقد رأينا أن نبدأ من ذلك بما كان في مقر مملكته في بعض هذه السنة خاصة، ثم نذكر ما كان بدمشق وحلب من الحوادث والوقائع إلى أن استقرت قواعد سلطنته وتأكّدت أسباب دولته، ثم نذكر ما يشمل المملكة عموماً، ثم نذكر بعد ذلك ما اتفق [له][٥] من الأحوال، وما رتّبه من الأمور، وما أمر به من العمائر والأوقاف وغير ذلك بمصر والشام، ونذكر الأخبار والوقائع على حكم السنين نقدّم ما قدّمه التاريخ ونؤخّر ما أخّره.

لا نستثني مما نورده من أخبار دولته إلا الغزوات والفتوحات: فإنا نذكرها مفردة، ونختم بها أخبار دَولته، فإنها من الفتوحات الجليلة والغزوات المشهورة فأحببنا إيرادها في موضع واحد، لئلا تنقطع بغيرها من أخباره، على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الحوادث هنا بمعنى الضرائب الطارئة. انظر: دوزي.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) يوافق أولها يوم الاثنين، ١ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٦٠ م. قارنها بكتاب عقد الجمان للعيني، ج ١، ص ٢٨٩ ـ ٣٢٤.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

فأما ما كان من الأخبار والحوادث في مقر ملكه بالديار المصرية

فمن ذلك ركوب السلطان من قلعة الجبل في يوم الاثنين سابع صفر من السنة بشعار السلطنة، وساق خارج المدينة إلى باب النصر ودخل منه، وشق القاهرة وخرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل، والأمراء وأعيان الدولة مشاة في خدمته.

ومنه تفويض وزارة الدولة إلى الصاحب بهاء الدين.

ذكر تفويض الوزارة إلى الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن القاضي سديد الدين أبي عبد الله محمد بن سليم المعروف بابن حِنَّا[١]

في هذه السنة، فوّض السلطان إليه وزارة دولته، وخلع عليه، وركب في خدمته الأعيان والأكابر، والأمير سيف الدين بلبان الرومي الداودار[٢]، وجماعة من الأمراء، وذلك في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول وقبيل ثانية، وتمكن [الصاحب بهاء الدين] من السلطان ودولته تمكناً عظيماً. وحكى لي بعض الأكابر الثقات [أن][٣] الصاحب بهاء الدين رأى في منامه قبل وزارته أنه ذبح السلطان الملك الظاهر، فقصّ ذلك على من يثق به ممن له معرفة بالتعبير، فقال له: «تتمكّن منه تمكّن الذابح من المذبوح». وكان منه في أقرب منزلة وأعزّ مكانة.

ذكر القبض على جماعة من الأمراء المُعزّية

وفي شهر ربيع الأول أيضاً، قبض السلطان على جماعة من الأمراء المعزية وسبب ذلك أنه حضر إلى السلطان أحد أجناد الأمير عز الدين الصيقلي[٤] وأنهى أن مخدومه فرق جملة من الذهب على جماعة، وقرر معهم الوثوب على السلطان وقتله، وكذلك الأمير علم الدين الغُتمىء، والأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير شجاع الدين بكتوت وغيرهم. فقبض عليهم، ثم قبض على الأمير بهاء الدين بغدي[٥] الأشرفي، في شهر ربيع الآخر، واعتقله فلم يزل في اعتقاله حتى مات.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٠٧، «الصقلي».

(٢) الداودار: هو الذي يقرأ للسلطان كتب الأسرار الواردة عليه من الملوك وهو الذي يجيب عنها ويسفر بنيه وبين وزرائه وكتابه. انظر فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ١، ص ٢٣٧. وصبح الأعشى ج ٤، ص ١٩.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) انظر صبح الأعشى، القلقشندي، ج ٣، ص ٣٤٣، ج ١١، ص ٢٥٣، ٢٧٠، وج ١٤، ص ١٣٩.

(٥) هكذا بالأصل، ويذكر ابن تغري بردي أنه كان يشغل وظيفة مقدم الحلقة وقتذاك. النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٤٣.

ذكر تفويض قضاء القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز(١)

وفي هذه السنة فوّض السلطان الملك الظاهر قضاء القضاة بالديار المصرية لقاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن القاضي الأعز خلف بن بنت الأعز، وعزل قاضي القضاة بدر الدين السنجاري(٢)، وعُوّق عشرة أيام، ثم أُفرج عنه وعُطّل عن الحكم.

ونسخة التقليد السلطاني: «لقاضي القضاة تاج الدين» ومثال العلامة الظاهرية عليه بعد البسملة: «المستعلي بالله».

«الحمد لله الذي أنار مطالع الهدى، وصان ما ابتذل من الأمور التي ما أهملت سدى، وألبس الشريعة المطهرة ثوباً من الشرف مجدداً، وأعلى منارها بمن أضاءت مساعيه، فلو سرى بها الركب لاهتدى».

«وأحمده على نعم توالى هطل غمامها، ومنن أضحت متناسقة عقود نظامها».

«والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عزت به أمور الإسلام بعد اهتضامها، وعلى آله وأصحابه الذين أضحت بهم عرى الدين الحنيف وثيقة بعد انفصامها».

وبعد، فلما كان المجلس السامي، القاضي الأجل، الصدر الكبير، الإمام العالم، الفقيه الفاضل، المختار المرتضى، الصاحب تاج الدين، عز الإسلام، مجد الأنام، شمس الشريعة، مفتي الفرق، رئيس الأصحاب، ذخر الملوك والسلاطين، قاضي القضاة عبد الوهاب بن خلف، أدام الله سعادته ونعمته، ممن أحرز في الفضايل(٣) قصب سبقه، ووصل سح(٤) غمامه في العلوم الشرعية ببرقه واجتنى ثمارها الدانية القطوف، واجتلى أقمار معانيها التي لا تتوارى عنه بالسجوف وسلك(٥) سبيلاً

(١) ذكر ابن تغري بردي هذا الاسم كاملاً: أبو محمد عبد الوهاب ابن القاضي الأعز خلف ابن بنت الأعز بن محمود بن بدر بن أبي محمد العلامي الشافعي. النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٤١، حاشية رقم (٣).

(٢) هو يوسف بن الحسن علي السنجاري، نسبة إلى سنجار بشمال العراق. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٣، ص ٤٣، حاشية رقم (٢).

(٣) في الأصل الفضايل وهي الفضائل.

(٤) في الأصل «السخ» بالخاء المعجمة، وهو خطأ والراجح أنه السح بالحاء المهملة بمعنى السيل والانهمار والصب. الفيروزابادي، القاموس المحيط (سخ).

(٥) هكذا في الأصل، والسجوف مفردة: السجف، بفتح السين أو كسرها وهو الستر. الفيروزابادي، القاموس المحيط (سجف)، وابن منظور، لسان العرب، (سجف).

من العفاف أضحى به وحيداً منفرداً، ومارس أمور الشريعة فثقف منها أوداً، وأعمل فكرته الصافية فحلّل منها عقداً، وأنعم نظره فيها فأوضح له من الضلال رشداً.

رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني، زاد الله في علائه، وضاعف مواد نفاذه ومضائه[١] أن يفوّض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة، لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تُجتنى، ومساع حميدة ما برح بها إلى الخلائق محسناً، ودين متين يشيد من أمور الآخرة ما بنا، وسؤدد ما زال فيه وفي بيته مستوطناً، وأوصاني جميلة خصّته بنباهة أضحى بها متقدماً وآراء مسدّدة أضاءت من سبل الرشاد ما كان مظلماً، ونزاهة ما زالت له خلقاً لا تخلقاً، وعفاف ما برح منه مثرياً لا معلقاً.

فليباشرْ هذا المنصب الذي أضحى ظل شرفه وارفاً، وكعبة حرمه التي يتوجه إليها من كان بادياً أو عاكفاً، عاملاً فيه بالتقوى التي يحافظ عليها مسراً ومعلناً، ويتمسك بأسبابها إذا صدّ عنها غيره وانثنى، فهي المعقل الذي لا يستباح له حمى، والمقام الذي يجد الخائف أمنه فيه محققاً لا غيباً مُرَجَّماً[٢]، والعصمة التي تنجى من العطب، والمركب الذي تجد به الأنفس راحتها الكبرى بعد التعب.

وليُولّ من القضاة من يُحيي من الحق سنناً، ويميت من الباطل بدعاً، ويكون رجاؤه بالآخرة متصلاً، ومن الدنيا منقطعاً، ليرجعْ به سبيل الحق بعد ضيقه متسعاً، وشمل الباطل بعزيمته مفترقاً لا مجتمعاً.

وليتفقّد أمر العدول الذين أضحوا على الحقيقة عدولاً عن المنهج القويم، راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم. ولا يترك منهم إلا شاهداً كان عن المعايب غائباً أو متورعاً، لا يعتمد من الأمور إلا ما كان واجباً، لتسلم عدالته من وصمه التجريح، وتظهر مساعيه التي تذلل له من العلا كل جموح.

وأموال الأيتام والأوقاف فلا يُباشرْها إلا منْ كان لمباشرتها أهلاً، ومن تتحقق أنه يكون عليها قفلاً. فطالما ابتذلت أيدي الخونة منها مصوناً، وجعلت العين منها أثراً حين مدّت إليها عوناً. ولا تخلها من نظر يحفظ منها مضاعاً ويحسم عنها أطماعاً، ويخصّها بمزية الزيادة بعد النقصان، ويكتب لها من مخاوف الخونة كتاب أمان.

فقد قلّدناك هذه الأحكام التي نرجو بك الخلاص من تبعاتها، ورعينا بك حقّ الرعية، فلا تخل أمورهم من مراعاتها، وأمضى[٣] عزيمتك في إقامة منار الشريعة بعد

---

(١) في الأصل: «مضاية».

(٢) في الأصل: «عيبا مر كما» والتعديل يقتضيه السياق.

(٣) هكذا في الأصل، والصواب وامضِ.

القمود، واعل همتك في نظم ما تبدد له من العقود. واجتهد في أمره الاجتهاد الذي يرفل منه في ضافي البرود، ومتّع الخلائق بأيام بيضٍ من أحكامك غير سود، ففيك من السؤدد ما ينقادُ به المفاخر، ومن الأوصاف الجميلة ما تتميز به على الأوائل وأن جئت من الزمن الآخر.

وقد قررنا لك من الجامكية[١] والجراية[٢] نظير ما كان مقرراً لمن تقدمك، وهو في كل شهر أربعون ديناراً صرف أربعين وستمائة وستة وستون درهماً ناصرية وثلثان وخمسة وعشرون أردباً غلة نصفين.

فليوصل ذلك إليه على تمامه وكماله عند وجوبه واستحقاقه، بعد العلامة الشريفة أعلاه إن شاء الله تعالى.

وكتب في السابع عشر من جمادي الأولى سنة تسع وخمسين وستمائة. الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه، وآله وصحبه الظاهرين وسلامه.

وعين جهة الجامكية على الجوالي بالديار المصرية، والغلة على الأهراء المباركة بمصر المحروسة.

واستمر الصاحب تاج الدين في القضاء بجميع الديار المصرية إلى شوال من السنة، فاقتطع منه قضاء مصر والوجه القبلي، وفوض ذلك إلى القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن بن علي بن الخضر السنجاري[٣] في ثالث شوال، ثم عزل برهان الدين الخضر وأعيد قاضي القضاة تاج الدين بتقليد سلطاني تاريخه الثامن من صفر سنة ستين وستمائة. وقد شاهدت هذا التقليد ووقفت عليه.

ذكر ما اعتمده السلطان في ابتداء سلطنته ورتّبه من المصالح وقرّره من القربات والأوقاف والعماير

كان مما ابتدأ به، رحمه الله تعالى وعفا عنه وأنابه، عمارة الحرم الشريف النبوي وسنذكره.

---

(١) الجامكية: جمع جوامك، وهي الرواتب عامة. ونص القلقشندي «أن نفقة مماليك السلطان، كانت عبارة عن جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٧؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٢.

(٢) الجراية هي كالجامكية، أي الرواتب عامة. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٨، ٢٧٥، ج ١١، ص ٤٢.

(٣) هو برهان الدين، أبو محمد الخضر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٤، حاشية رقم (٤).

ثم وصلت الكتب في سنة تسع وخمسين أن القبة التي بالصخرة الشريفة ببيت المقدس قد تداعت، فكتب إلى دمشق بتجهيز الصناع إليها وما يحتاج إليه من الآلات، ونجزت العمارة بها في سنة ستين.

وكانت عدة ضياع من أوقاف الخليل قد دخلت في الإقطاعات، فأمر السلطان بارتجاعها، وعوّض الأمراء عنها، وأعادها إلى الأوقاف، وأوقف قرية أذنا[١] على الخليل عليه السلام.

ذكر بناء قلعة الجزيرة[٢]

كان السلطان الملك المعز قد أمر بهدمها، وأباح ما بها من الرخام والأصناف التي غرم عليها السلطان الملك الصالح الأموال العظيمة، فرسم السلطان بيبرس[٣] بعمارتها، وندب لذلك الأمير جمال الدين بن يغمور، فشرع في إصلاح ما استهدم من قاعاتها، ورتب فيها الجاندارية[٤]، وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة. وفرّق السلطان الأبراج: فرسم أن يكون برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون[٥] الألفي، وثانيه للأمير عز الدين[٦] الحلي، والبرج الثالث للأمير عز الدين إيغان[٧]، وبرج الزاوية الغربي للأمير بدر الدين بيسري الشمسي. وفرق بقية الأبراج على الأمراء، ورسم أن تكون بيوتاتهم واسطبلاتهم بها، وسلم إليهم المفاتيح.

ورسم بعمارة القناطر بجسر شبرمنت بالجيزية وأكثر ما كانت الجيزية تشرق عنه.

---

(١) هكذا في الأصل، وأيضاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٤٥. وفي معجم بلدانية فلسطين لمحمد شرّاب هي قرية إدنا، وهي شمال غرب الخليل، وقد نشأت هذه القرية على موقع مدينة أشنة الكنعانية، وبقيت بهذا الاسم حتى العهد الروماني، ثم حُرِّفت إلى إدنا، وهي كلمة سريانية بمعنى الأذن. محمد شرّاب: معجم بلدانية فلسطين، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) المقصود جزيرة الروضة، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ٣٢٠، حاشية (٤)، وكذلك ج ٧، ص ١٩٢، حاشية (٧).

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) فئة من مماليك السلطان، أو الأمير، وهي مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما جان: ومعناه سلاح، والثاني دار: ومعناه ممسك، ووظيفة أمير جاندار السلطان، أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة، ويدخل أمامهم إلى الديوان، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٢.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٤٥.

(٧) هكذا في الأصل وفي السلوك (أوغان) بالواو بدل الياء. المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٥.

فبنيت القناطر في هذا الجسر تلتقي صدمة الماء الأولى وتفتح لتصريف المياه أولاً فأولاً.

ورسم بعمارة مشهد النصر بعين جالوت، وكتب بذلك إلى نواب الشام.

وحث على عمارة الأسوار بثغر الإسكندرية وحفر خنادقها، ورتب جملة من الأموال في كل شهر تصرف في نفقة العمائر[١] وبنى مرقباً لثغر رشيد لكشف مراكب الفرنج.

ورسم بردم فم بحر دمياط، وتوغيره بالقراتيص، وتضييقه ليمنع السفن الكبيرة من الدخول فيه.

ورسم بحفر بحر أشموم طناح، وندب لذلك الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي فتوجه لذلك وحفر ما يجب حفره، وغرق المراكب قبلي فم البحر من الجانب الغربي حتى ترد الماء إليه.

واهتم بعمارة الشواني وأعادها إلى ما كانت عليه من الأيام الكاملية والصالحية.

وأمر بعمارة شواني الثغرين وأحضرها إلى ساحل مصر، وكانت تزيد على أربعين قطعة، وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد والسلالير[٢].

وركب الخليفة والسلطان في يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة من القلعة إلى ساحل مصر، وركبا[٣] في الحراريق، وتفرجا، وطلعا إلى قلعة الجزيرة وجلسا بمقعد البانياسي، ولعبت الشواني، ثم عادا إلى القلعة.

ورسم بعمارة القلاع المنصورة بالبلاد الشامية وهي: قلعة دمشق، والصلت وعجلون، وصرخد، وبصرى، وبعلبك، والصبية، وشيزر، وشميس[٤]، وكان التتار قد خربوا أسوارها فرسم بإعادة ما استهدم وإصلاح ما تشعث.

ورسم بعمارة مدرسته التي بالقاهرة، وسيأتي ذكرها، إن شاء الله تعالى.

هذا ما قرره من المصالح العامة ورتّبه من المهمات في ابتداء سلطنته، فلنذكر خلاف ذلك من المتجدّدات.

---

(١) في الأصل العماير.

(٢) السلالير: جمع سلورة، وهي النوع من السفن، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢، ابن منظور، لسان العرب (سلر).

(٣) في الأصل: وركب.

(٤) هكذا في الأصل. ولم أجد تعريفاً لهذا البلد، ولعل المقصود شميمش من كورة حمص. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٤٦ ـ ٩٨٧.

ذكر وصول من يذكر من الملوك إلى خدمة السلطان وما قرره لكل منهم وما عاملهم به من الإحسان

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، وردت كتب النواب بدمشق يذكرون وصول الملك الصالح صاحب الموصل[١] بأهله وغلمانه وأولاده، فكتب السلطان إلى النواب بدمشق بالمبالغة في خدمته وترتيب الإقامات له ولمن معه في الطرقات من دمشق إلى القاهرة، فوصل في شعبان من السنة، فتلقاه السلطان وأنزله في أدر أخليت له.

ثم ورد بعده بأيام الخبر بوصول أخيه الملك المجاهد صاحب الجزيرة[٢] فاعتمد السلطان معه نظير ما اعتمده في حق أخيه. وكان الملك المظفّر[٣] أخوهما قد اعتقله الأمراء بحلب على ما نذكره، فأفرج السلطان عنه وأحضره إلى الديار المصرية، وذلك قبل وصولهما إليه، فلما وصل أخواه استأذن في تلقيهما، فأذن له السلطان في ذلك.

وأنعم السلطان عليهم بالأموال والخيول والخلع والحوائص لهم ولأصحابهم وعين جماعة من البحرية برسم خدمتهم والتصرف في مهماتهم، ثم رسم السلطان بكتابة تقاليدهم ببلادهم. وكان الخليفة قد فوض ذلك إلى السلطان بتقليد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

فكتب تقليد الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بالموصل وولاياتها: بالوصا، والجزيرة [و][٤]مدينة البوازيج[٥]، والزيادة: [عقر[٦] وشوش، ودارا وأعمالها، والقلاع العمادية]، وكنكور وبلدها.

وكتب تقليد الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ببلاد الجزيرة وأعمالها وزيادة حمرين.

---

(١) هو الملك الصالح ركن الدين إسماعيل ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٠، ٢٠٦.

(٢) المقصود هنا جزيرة ابن عمر.

(٣) هو الملك المظفّر علاء الدين علي، صاحب سنجار، المقريزي: المصدر السابق ج ١، ص ٤٦١، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٧، ص ١١٥.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) موضع قرب تكريت عند مصب الزاب الأسفل لنهر دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٦) مكانان متقاربان قرب جزيرة ابن عمر. وقلعة عقر تعرف أيضاً بعقر الحميدية، وأهلها أكراد، ويضرب بها المثل في العلو فيقال: «أعلى من العقر». ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٩٤.

وكتب تقليد الملك المظفّر: سنجار وأعمالها.

وكتب لعلاء الملك ولد الملك الصالح تقليد بقلعة الهيثم.

ولما توجه السلطان إلى الشام وخيم بظاهر القاهرة سيرت هذه التقاليد إليهم ومعها أحمال الكوسات والصناجق والأموال. وأعفوا من الحضور والخدمة عليها، وساروا في خدمة السلطان إلى الشام فسلطنهم.

وذلك أنه أحضرهم مجلسه وجهز لهم خيل النوبة والعصائب[١] والجمدارية[٢]، ولبسوا الخلع وقبّلوا الأرض وخرجوا بشعار السلطنة، والأتابك في خدمتهم، وتوجهوا صحبة الخليفة على ما نذكره.

فاتفق انفصالهم منه في أثناء الطريق لأسباب جرت، وتوجه كل منهم إلى مملكته: فأما الملك الصالح فتوجه إلى الموصل وأقام بها، فاتفق اجتماع التتار عليها وحصارها. وأما أخواه فإنهما خافا مهاجمة العدو فعادا إلى الشام، واستأذنا في الحضور، فأذن لهما السلطان فحضرا، وسألا السلطان إنجاد أخيهما فجرد الأمير شمس الدين سنقر الرومي وجماعة من البحرية والحلقة، فتوجهوا في رابع جمادي الأولى سنة ستين وستمائة، وكتب السلطان[٣] إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين طيبرس[٤] ورحل العسكر المصري والشامي من دمشق في عاشر جمادي الآخرة.

ذكر وصول الخليفة المستعصم بالله إلى الديار المصرية ومبايعته وتجهيزه بالعساكر إلى بلاد الشرق وما كان من أمره إلى أن قتل

قال المؤرخ: وفي العشر الآخر من جمادى[٥] الآخر سنة تسع وخمسين وستمائة

---

(١) العصائب: جمع عصابة، وهي راية عظيمة من حرير أصفر مطرز بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه، الفيروزابادي: القاموس المحيط، مادة: عصب، المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٦٧.

(٢) الجمدارية أو الجمدار، وهم الذين يقومون على شؤون السلاطين والأمراء ويلبسونهم ثيابهم. المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٥٩؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٩٠.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) هو علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٠٠.

(٥) ورد شهر جمادى مذكراً ومؤنثاً، والأصل التأنيث والتذكير جائز مع تقدير لفظ شهر. وقد جرت عادة المؤلف على أن يكتب جمادى الأول وجمادى الآخرة. (المحقق).

ورد كتاب علاء الدين طيبرس، والأمير علاء الدين البندقدار[١] مضمونه أنه وصل إلى جهة دمشق في أول الغوطة رجل ادعى أنه أحمد ابن الإمام الظاهر بن[٢] الإمام الناصر ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب من خمسين فارساً، وأن الأمير سيف الدين قليج البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين وقال: «بهؤلاء يحصل القصد من العراق» فكتب السلطان بخدمته وتعظيم حرمته وأن يسير صحبته حجاب. فكان وصوله إلى القاهرة في يوم الخميس التاسع من شهر رجب من السنة، فخرج السلطان للقائه وساير أهل المدينتين، وكان يوماً مشهوداً، وشق القاهرة وهو لابس شعار بني العباس، وطلع إلى القلعة راكباً، ونزل في المكان الذي أخلي له.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر أحضر السلطان الفقهاء والأئمة والعلماء والأمراء والصوفية والتجار وغيرهم بقاعة العمد، وحضر الخليفة وأثبت نسبه على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة العباسية. ولما ثبت النسب بايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها، ثم قلد الخليفة السلطان الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله من أيدي الكفار. وكتب بذلك تقليد شريف عن الخليفة للسلطان، وبايع الناس الخليفة على اختلاف طبقاتهم. وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذ البيعة له وأن يخطب باسمه على المنابر وتنقش السكة باسمه.

ولما كان في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب خطب الخليفة بالناس في جامع القلعة[٣]، واهتم السلطان بذلك ونثرت جمل من الذهب والفضة. وحصل للخليفة توقف في الخطبة.

وفي يوم الاثنين رابع شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت في البستان الكبير والناس في خدمته، وحملت الخلع صحبة الأمير مظفر[٤] الدين وشاج الخافجي وخادم الخليفة. ودخل السلطان إلى خيمة أخرى ولبس الخلعة الخليفية، وهي عمامة سوداء مزركشة، ودُرّاعَة بنفسجي، وطوق، وعدة سيوف تقلد منها وحملت خلفه، ولواءان

---

(١) هو علاء الدين أيدكين البنقدار، أستاذ السلطان الظاهر بيبرس، المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩٨.

(٢) بن في الأصل، والصواب (ابن).

(٣) هو جامع قديم كان في مواضع الجامع الناصري الحالي القائم إلى جانب جامع محمد علي بالقلعة إلى اليوم. وقد ظل الجامع القديم قائماً إلى عام ٧١٨ إلى أن بنى الناصر جامعه الباقي إلى الآن.

(٤) هكذا في الأصل: انظر: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٥٢.

وسهمان كبيران، وترس، وغير ذلك مما جرت العادة به. وقدم له فرس أشهب في رقبته مشدة سوداء، وعليه كنبوش[١] أسود. وطلب الأمراء وخلع عليهم، وعلى الصاحب بهاء الدين، وقاضي القضاة، وصاحب ديوان الإنشاء الشريف: وهو القاضي فخر الدين بن لقمان، وطلع ابن لقمان على منبر قد جلل بالأطلس الأصفر، وقرىء التقليد على كافة الناس وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم[٢]

الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف. وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف. وقيض لنصره ملوكاً اتفق عليهم من اختلف. أحمده على نعمهِ التي تسرح الأعين منها في الروض الأنف، وألطافه التي وقف الشكر عليها فليس عنها منصرف.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توجب من المخاوف أمناً، وتسهل من الأمور ما كان حزناً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهناً، وأظهر من المكارم فنوناً لافتاً، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى، وأصحابه الذين صحبوه في الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى، وسلم تسليماً».

«وبعد: فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً في تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى سعيه الحميد متقدماً، ودعا إلى طاعته فأجابه من كان مُنجِداً ومتهماً، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني ـ شرفه الله وأعلاه ـ ذكرها الديوان العزيز النبوي[٣] تنويهاً لشريف قدره، واعترافاً بصنعه الذي تنفد العبارة ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان[٤]، وعتب دهرها المسيء فأعتب، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها

---

(١) الكنبوش هو البردعة التي تكون تحت السرج. المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥٢، ابن منظور: لسان العرب؛ الفيروزابادي: القاموس المحيط.

(٢) إن النص في الأصل، أضبط لغة وأسلم نَسْخاً. قارنه بكتاب السلوك للمقريزي: ج ١، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣) لقد وردت ألقاب إضافية في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٤) هكذا في الأصل.

صولة مغضب، وأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً، وصرف لها اهتمامه فرجع كل مضيق من أمرها واسعاً رحباً. ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الاحتفال بأمر الشريعة والبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه، لكن الله أدخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه، ويخفف بها يوم القيامة حسابه. والسعيد من خفف حسابه، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحف صنعه، ومكرمة قضت[1] لهذا البيت الشريف النبوي بجمع شمله بعد أن حصل الإياس من جمعه».

«وأمير المؤمنين يشكر الآن [لك][2] هذه الصنائع. ويعترف أنه لولا اهتمامك بأمره لاتسع الخرق على الراقع. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار الجزرية[3]، والبكرية، والحجازية، واليمنية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حتى أصبحت بالمكارم فرداً. وما جعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون مستثنى ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى».

فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لثقلها حاملاً، وخلص نفسك اليوم لك التبعات، ففي غد تكون مسؤولاً عنها لا سائلاً. ودع الاغترار بأمر الدنيا، فما نال أحد منها طائلاً، وما لحظها أحد بعين الحق إلا رآها خيالاً زائلاً، فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمته غير التقوى مردودة لا مقبولة. وأبسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل والإحسان. وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوباً كتبت عليه آثاماً، وجعل يوماً واحداً منه كعبادة ستين عاماً ما سلمك [أحد][4] سبيل العدل واجتنيت ثماره من أفنان، ورجع الأمن بعد تداعي أركانه مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث الزمان فكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن من الغرر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد».

«وهذه الأقاليم المنوطة بنظرك تحتاج إلى حكام وأصحاب رأي من أرباب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمرك فنقب عليه تنقيباً، واجعل عليه في تصرفاته رقيباً، وسل عن أحواله، ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولاً وبما اجترم

---

(١) زيادة من كتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٤.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) الفراتية في النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١١٢.

(٤) إضافة يقتضيها السياق.

مطلوباً، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوباً. وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق. وألا يعاملوا أحداً على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية إخواناً، وأن يوسعوهم براً وإحساناً، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل لهم الزمان حرماناً، والمسلم أخو المسلم، وإن كان أميراً عليه أو سلطاناً. فالسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله».

«ومما يؤمرون به أن يُمْحَى ما أحدث من سيىء السنن، وجدّد من المظالم التي هي على الخلائق من أعظم المحن، وأن يُشتري بإبطالها المحامد، فإن المحامد رخيصة بأغلى الثمن، ومهما جنى منها من الأموال فإنها فانية[1] وإن كانت حاصلة، وأجياد الخزائن وإن أصبحت بها خالية فإنما هي الحقيقة عاطلة. وهل أشقى ممن احتقب إثماً، واكتسب بالمساعي الذميمة ذماً، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له خصماً، وتحمل ظلم الناس مما صدر عنه من أعماله، وقد خاب من حمل ظلماً. وحقيق بالمقام الشريف السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الأيام مردودة بعدله، وغرائمه تخفف عن الخلائق ثقلاً لا طاقة لهم بحمله[2]، فقد أضحى على الإحسان قادراً، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخراً، فأحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمامُ هدى، وأوجب لك مزية التعظيم وتنبيه الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم. وهذه أمور ينبغي أن تلاحظ وترعى، وأن توالى عليها حمد الله، فإن الحمد يجب عليها عقلاً وشرعاً. وقد تبين أنك صرت في الأمور أصلاً، وصار غيرك فرعاً».

ومما يجب ذكره: الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً، هو والعمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً. وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصّهم بالجنة لا لغو فيها ولا تأثيم».

«وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد، وعرف منك عزمة هي أمضى[3] مما تحت ضمائر الأغماد. واشتهرت لك مواقف في القتال هي أبهى وأشهى إلى القلوب من الأعياد. وبك صان الله حمى الإسلام من أن يبتذل،

(١) في الأصل: «باقية» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «له».
(٣) في الأصل: «ما».

ويعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول، وبسيفك الذي أثر في الكافرين قروحاً لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة المعظمة إلى ما كان عليه من الأيام الأول. فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان هاجعاً، وكن في مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً. وأيد كلمة التوحيد فما تجد في تأييدها إلا مطيعاً سامعاً».

«ولا تخل الثغور من اهتمام تبتسم له الثغور، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور، واجعل أمرها على الأمور مقدماً، وسد منها ما غادره العدو متداعياً متهدماً. فهذه حصون يحصل منها [الانتفاع][1] وبها تحسم الأطماع، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع».

«وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً، والعدو إليه ملتفتاً ناظراً، لا سيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحاً، ورجع خاسراً، واستأصلهم الله فيما مضى حتى ما أقال منهم عاثراً».

«وكذلك الأصطول الذي ترى خيله كالأهلة وركائبه بغير سائق مستقلة، وهو أخو الجيش السليماني، فإن ذلك غدت له الرياح حاملة وهذا تكفلت يحمله المياه السائلة. وإذا لحظها الطرف سائرة في البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع في أيام».

«وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب، وأتاك من أصالة الرأي الذي يريك المغبب، وبسط بعد القبض منك الأمل، ونشط من السعادة ما كان قد كسل، وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتدياً إليها، وألهمك المراشد فلا تحتاج إلى تنبيه عليها، والله تعالى يؤيدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه. فإن النعم تستتم بشكره، بمنه وكرمه»[2].

ثم ركب السلطان وشق المدينة بعد أن زينت، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبي استاذ الدار العالية، والصاحب الوزير بهاء الدين في بعض[3] الطريق وبسط أكثر الطريق للسلطان بالثياب الفاخرة، [و[4]] مشى عليها بفرسه، ووصل إلى القلعة.

وشرع السلطان في الاستخدام للخليفة: فكتب للأمير سابق الدين بوزبا أتابك

---

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) انظر النص كاملاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١١١ ـ ١١٢.

(٣) ذكر ابن تغري بردي: «أن الصاحب بهاء الدين حمل التقليد على رأسه راكباً، والأمراء يمشون بين يديه، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١١١، س ١٣.

(٤) إضافة يقتضيها السياق.

العسكر بألف فارس، وللأمير ناصر الدين محمد بن ضيرم الخازندار بمائتي فارس، وللأمير الشريف نجم الدين استاد الدار بخمسمائة فارس. وأمر جماعة من العربان، وحملت إليهم الطلبخاناة والصناجق، وأنفق فيهم الأموال لعدة شهور. واشترى السلطان مائة مملوك [كباراً وصغاراً ورتبهم[١]] جمدارية[٢] وسلاح دارية[٣] للخليفة، وأعطى لكل واحد منهم ثلاثة أرؤس خيلاً وجملاً لعدته، ولم يبق أحد ممن تدعو الحاجة إليه من صاحب ديوان وكاتب إنشاء وديوان وأئمة ومؤذنين وغلمان وحكماء وجرائمية إلا استخدموا. ولما تكامل ذلك كله تقدم السلطان بتجهيز العساكر.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة ركب السلطان هو والخليفة في السادسة من النهار، ونزل كل منهما في دهليزه، واستمرت النفقة في أجناد الخليفة.

وفي يوم العيد ركب الخليفة والسلطان تحت الجتر، وصليا العيد، وفي هذه الليلة حضر الخليفة إلى خيمة السلطان وألبسه [سراويل][٤] الفتوة بحضور من يعتبر حضوره في ذلك.

وفي يوم السبت سادس شوال رحلا متوجهين إلى الشام، فلما وصلا إلى الكسوة خرج عسكر الشام للقائهما، ودخلا دمشق في يوم الاثنين سابع ذي القعدة. ونزل السلطان بالقلعة، ونزل الخليفة في تربة الملك الناصر بجبل الصالحية [في سفح قاسيون][٥]. وجرد الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير شمس الدين سنقر الرومي إلى جهة حلب، وأمرهم السلطان بالمسير إلى الفرات، وأنه متى ورد عليهم كتاب الخليفة يطلب أحداً منهم إلى العراق يتوجه إلى خدمته لوقته.

وركب السلطان وودع الخليفة، وسير إليه الملوك الذين ذكرناهم.

ثم ورد كتاب الخليفة يذكر أنه وصل إلى حديثه وعانا، وولى فيها[٦] ثم كان ما

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٨.

(٢) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما جاما ومعناه الثوب، والثاني دار ومعناه ممسك أي ممسك الثوب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) سلاح دارية: أي السلحدار، وهو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير. ولفظ السلحدار مركب من كلمتين أولاهما عربية ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية ومعناها ممسك، ويكون المعنى ممسك السلاح. القلقشندي: المصدر نفسه ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٦٢.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٥٩، س ٩.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٠، س ٣.

(٦) هكذا في الأصل. ولتحديد الموضع المقصود انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ص ١١٦، س ٥.

ذكرنا من خروج طائفة من التتار وقتال الخليفة لهم واستشهاده، رحمه الله تعالى، على ما قدمناه في أخباره، في أخبار خلفاء الدولة العباسية.

وحسب ما أنفق في مهم الخليفة والملوك فكان ألف ألف دينار عيناً.

وفي هذه السنة قبل مسير السلطان إلى الشام، كتب منشور الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا[1] بالإمرة على جميع العربان، وأطلق السلطان للعريان الغلال من بلد حلب، وذلك قبل خروج السلطان إلى الشام.

هذا ما كان من الأخبار بالديار المصرية، فلنذكر ما اتفق بالشام من حين ابتداء سلطنة السلطان الملك الظاهر إلى أن استقرت قواعد ملكه.

ذكر استيلاء الأمير علم الدين سنجر الحلبي على دمشق وسلطنته بها، وأخذها منه، وتقرير نواب السلطان بها

قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفّر سيف الدين قطز كان قد فوض نيابة السلطنة بدمشق للأمير علم الدين سنجر الحلبي[2]، فلما اتصل به خبر قتل الملك المظفّر وثب على السلطنة بدمشق وحلف العساكر الشامية لنفسه، ولقب نفسه بالملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الظاهر كتب إليه يقبح فعله ويسترجعه عنه، فعادت أجوبته بالمغالطة. فأرسل إليه السلطان الأمير جمال الدين أقن المحمدي يستميله[3] ويرده عن تعاطي ما لا يتم له، وسير إليه صحبته مائة ألف وعشرين ألف درهم وحوائص وخلعاً وملابس بألفي دينار عيناً. فلما وصل ذلك إليه جلس الأمير علم الدين الحلبي مجلساً عاماً للناس وأشهدهم على نفسه أنه قد نزل عن الأمر الذي كان قد استحلف الناس عليه، وأنه من جملة النواب الظاهرية.

ثم رجع عن ذلك وركب بشعار السلطنة على ما كان عليه أولاً، فركب الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وخرج إلى ظاهر دمشق، ونادى باسم السلطان الملك الظاهر ومعه جماعة فساق بهم إلى جهة السواد، فندب الحلبي جماعة لقتالهم، فانهزم أصحاب الحلبي، ثم رأى انحراف الناس عنه واتفاقهم عليه، ففارق دمشق وتوجه إلى قلعة بعلبك. ودخل الأمير علاء الدين البندقدار دمشق، وحلف الناس للسلطان الملك الظاهر وجهز إلى بعلبك من أحضر الحلبي تحت الاحتياط. وكتب بذلك إلى

---

(١) هو شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع. ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١٦.

(٢) عن النجوم ج ٧، ص ١٥٤، س ١ أنه «يلقب بالكبير».

(٣) في الأصل: يستمليه وهو خطأ ظاهر.

السلطان، فجدد السلطان المناشير للأمراء والجند، وقرر الحديث في الأموال ونيابة القلعة للأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، ورسم بإحضار الحلبي، فلما وصل إليه واعتقله بقلعة الجبل، ثم أطلقه بعد ذلك وخلع عليه، واستمر في الخدمة إلى أن جهزه إلى نيابة حلب. هذا ما اتفق بدمشق.

ذكر ما اتفق بحلب في أمر النيابة

كان السلطان الملك المظفّر قد استناب بالمملكة الحلبية الملك المظفّر علاء الدين ابن صاحب الموصل، ولقبه بالملك السعيد على ما ذكرناه، فتوجه إلى حلب، وحصلت منه أمور أنكرها عليه الأمراء، وكان الملك المظفّر قطز قد أقطع جماعة من الأمراء العزيزية والناصرية بالبلاد الجبلية، فلما اتصل بهم قتل الملك المظفّر اجتمعوا وقبضوا على الملك السعيد ونهبوا وطاقة، وكان قد برز إلى الباب المعروف بباب[(١)] الله للقاء التتار، واستولوا على خزائنه فلم يجدوا فيها مالاً طائلاً، فتهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بالمال، فأخرج لهم من تحت الأشجار مالاً كان قد دفنه، تقدير خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء[(٢)] واعتقلوا الملك السعيد بالشغر[(٢)]، ثم أفرجوا عنه بعد ذلك، وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، فكتب السلطان إليه تقليد بنيابة المملكة الحلبية.

ذكر وصول طائفة من التتار إلى البلاد الإسلامية وما فعلوه بحلب وتقدمهم إلى حمص وقتالهم وانهزامهم وما كان من خبر عودهم

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بلغ التتار أن الأمراء العزيزية والناصرية قد وقع بينهم اختلاف، فتجمعوا من كل جهة وعبروا الفرات، ولما بلغ الملك السعيد خبرهم وأنهم وصلوا إلى جهة البيرة جرد إليهم جماعة قليلة من العسكر الحلبي، وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري، فنهاه الأمراء العزيزية والناصرية عن ذلك، واستقلوا العسكر المجرد، فلم يرجع إلى قولهم، وصمم على إرساله، فسار سابق الدين ومن

---

(١) هكذا في الأصل. وقد ورد بعد عدة صفحات بابلا، وبابِلاً قرية كبيرة بظاهر حلب. وقد ذكرها البحتري فقال: (البسيط)

فيها لِعَلْوة مُصْطَافٌ ومُرْتَبعٌ مِن بانقوسا وبابِلاً وبِطياسِ

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٩، البحتري، ديوانه ج ٢، ص ٤٦٨.

(٢) هكذا في الأصل مضبوطاً بضم الشين وبالغين المعجمة.

معه حتى قاربوا البيرة، فصدمهم التتار، فهرب سابق الدين منهم ودخل البيرة، بعد أن قتل أكثر من معه. فكان ذلك من أكبر الأسباب التي أوجبت القبض على الملك السعيد، ثم توجه التتار إلى جهة حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكندار[١] والعسكر الحلبي بين أيديهم إلى جهة حماة، ووصل التتار إلى حلب في أواخر سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها، وأخرجوا أهلها إلى قرنبيا، واسمها قديماً مقر الأنبياء، فسماها العامة قرنبيا، فلما اجتمعوا بها بذل التتار فيهم السيف فقتلوا أكثرهم. وتقدم التتار إلى جهة حماة، ففارقها العسكر الحلبي وصاحبها الملك المنصور إلى حمص، واجتمعوا هم والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص، واتفقوا على قتال التتار، وانضم إليهم الأمير زامل بن علي أمير العربان، ووصل التتار إلى حمص، والتقوا واقتتلوا في يوم الجمعة خامس المحرم من السنة[٢] فانهزم التتار أقبح هزيمة، وقتل أبطالهم وشجعانهم، فاستشهد فيهم بقول الشاعر:

فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى حمص في قابل

فإن الحسام الصقيل[٣] الذي قتلتم به في يد القاتل

وقد شاهد جماعة كثيرة في هذه الواقعة طيوراً كثيرة بيضاء تحوم حال القتال.

حكي عن الأمير بدر الدين محمد القيمري قال: «والله، لقد رأيت بعيني طيوراً بيضاً وهي تضرب بأجنحتها في وجوه التتار». وقد ذكر ذلك جماعة كثيرة حتى بلغ حدّ التواتر، فما كان بأسرع من انهزام التتار.

قال المؤرخ:

ثم اجتمع من سلم من التتار ونزلوا بسلمية، وعادوا إلى حماة، ورحلوا عنها إلى أفامية، وكان قد وصل إلى أفامية[٤] الأمير سيف الدين الديبلي[٥] الأشرفي ومعه جماعة فأقام بقلعتها وبقي يغير على التتار، فرحلوا عن أفامية وعادوا إلى حلب، فأخرجوا من

---

(١) الجوكندار: لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، ويجمع على جوكان دارية، وهو مركب من لفظتين فارسيتين. إحداهما جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان. والثانية دار ومعناها ممسك، أي ممسك الجوكان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨، البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٤.

(٢) زاد المقريزي بذكر مكان المعركة. انظر السلوك، ج ١، ص ٤٤٢، س ١٠.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كُوَر حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.

(٥) في الأصل بدون نقط.

بها من الرجال والنساء ولم يبق إلا من ضعف عن الحركة واختفى خوفاً على نفسه، ثم نادوا فيهم: من كان من أهل حلب فليعتزل. فلم يعلم الناس ما يراد بهم، فظن الغرباء النجاة لأهل حلب، وظن أهل حلب نجاة الغرباء، فاعتزل بعض كل من الطائفتين مع الأخرى بحسب ما أدَّى كل منهم اجتهاده، فلما تميز الفريقان أخذ التتار الغرباء وتوجهوا بهم إلى بابلّى[١] فضربوا أعناقهم، وفيهم جماعة من أهل حلب وأقارب الملك الناصر، ثم أعادوا من بقي من أهل حلب إليها، وسلموا كل طائفة إلى رجل من الأكابر، ثم أحاطوا بالبلد ولم يمكنوا أحداً يدخل إليه ولا يخرج منه.

ثم فارق التتار حلب في أوائل جمادي الأول سنة تسع وخمسين وستمائة وكان سبب رحيلهم عنها أن السلطان الملك الظاهر جرد في العشر الأول من شهر ربيع الأول الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي والأمير حسام الدين لاجين الجوكان دار[٢] والأمير حسام الدين العين تابي[٣] في عسكر لدفع التتار عن حلب. فلما وصلوا إلى غزة أرسل فرنج عكا إلى التتار بخبرهم فرجعوا وفارقوا حلب.

ولما رحل التتار عن حلب تغلب عليها جماعة من أحداثها لخلوها من العسكر، منهم نجم الدين أبو عبد الله بن المنذر، وعلي بن الأنصاري، وأبو الفتح، ويوسف بن معالي، فقتلوا ونهبوا، وبلغوا أغراضهم ممن كان في قلوبهم منهم ضغائن، فلما قاربوا الأمير فخر الدين الحمصي والأمير حسام الدين العين تابي، ومن معهما هرب هؤلاء عن حلب. ولما دخلها الأمير فخر الدين الحمصي صادر أهلها وعذبهم واستخرج منهم ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم بيروتية، وأقام بها إلى أن وصل الأمير شمس الدين أقش البرلي، ففارقها.

ذكر الغلاء الكائن بحلب

قال الشيخ شمس الدين بن الجزري في تاريخه: وفي سنة تسع وخمسين وستمائة بعد أن توجه[٤] التتار من البلاد الإسلامية غلت الأسعار بحلب، وقلت الأقوات فبلغ رطل اللحم سبعة عشر درهماً، ورطل السمك ثلاثين، ورطل اللبن خمسة عشر، ورطل الشيرج سبعين، ورطل الخل ثلاثين، ورطل الأرز عشرين، ورطل الحب رمان

---

(١) هكذا في الأصل. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج ١، ص ٣٠٩.

(٢) هو الأمير حسام الدين الجوكندار، وقد مرت ترجمته، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٣٩، وانظر شرحاً مفصلاً لكلمة جوكندار في صبح الأعشى للمقريزي، ج ٥، ص ٤٥٨.

(٣) العنتابي في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٩٢.

(٤) توجه بمعنى رحل.

ثلاثين، ورطل السكر خمسين، والحلوى كذلك، ورطل العسل ثلاثين، ورطل الشراب ستين، والجدي الرضيع بأربعين درهماً، والدجاجة بخمسة دراهم، والبيضة بدرهم ونصف[١]، والبصلة بنصف درهم، وباقة البقل بدرهم، والبطيخة بأربعين درهماً، والتفاحة بخمسة دراهم، ولم يذكر سعر الخبز والقمح، ولعل ذلك لعدمه.

قال: وكانت المكاسب كثيرة والدرهم متيسر الحصول.

ذكر اختلاف العزيزية والناصرية، ومفارقة الأمير شمس الدين أقش البرلي البلاد، وتولية الحلبي نيابة حلب وعزله، وعود البرلي إليها وخروجه منها، ونيابة البندقدار وعود البرلي إليها ثانية وخروجه

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة، بعد وقعة التتار، اختلف الأمراء العزيزية والناصرية، وحضروا إلى الساحل، فأعطى السلطان بعضهم الإقطاعات، وحضر الباقون إلى الديار المصرية، وكان الأمير شمس الدين أقش البرلي مقطعاً مدينة نابلس[٢] من الأيام المظفّرية، فزاده السلطان بيسان[٣] وجعل لمملوكه قجقار عدة نواحي وتوجه إلى دمشق، ثم أمر السلطان بإمساك الأمير بهاء الدين بغدي الأشرفي فغضب البرلي لذلك، واجتمع معه العزيزية والناصرية، ونزلوا بالمرج وتوجهوا إلى حلب. وكان السلطان قد استناب الأمير علم الدين الحلبي بحلب قبل حدوث هذه الواقعة، وأمّر جماعة وقرر لهم الوظائف وهم: الأمير شرف الدين قيران[٤] الفخري وجعله أستاذ الدار، والأمير بدر الدين جماق وجعله أمير جاندار، والأمير علاء الدين أيدكين الشهابي وجعله شاد الدواوين. فتوجه الأمير علم الدين ووصل إلى حلب في يوم السبت ثالث شعبان من السنة ووصلت مطالعته إلى السلطان يذكر عبوره إلى حلب، وأن جماعة من العزيزية والناصرية حضروا إليه يطلبون الأمانات. ولما وصل الحلبي إلى حلب جرد جماعة من العسكر خلف البرلي ومن معه من العزيزية والناصرية، فعطف عليهم العزيزية والناصرية فهزموهم، فعزل السلطان الحلبي لذلك. وقيل إنه إنما عزله لأسباب أخر اتفقت أوجبت عزله. ولما عزل الحلبي فارق حلب

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بينها وبين القدس عشرة فراسخ، ولها كورة واسعة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٤٨.

(٣) مدينة بين حوران وفلسطين، ياقوت الحموي: معجم البلدان: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٢٧ - ٥٢٨.

(٤) هكذا في الأصل.

وعاد إلى دمشق، فخلت مدينة حلب، فحضر الأمير شمس الدين البرلي إليها وأقام بها، وسير الأمير بدر الدين أيدمر الحلي رسولاً منه إلى السلطان يبذل له الطاعة، فأبى السلطان إلا حضوره إلى الخدمة، وأقام البرلي بحلب إلى أن وصل السلطان إلى دمشق في سنة تسع وخمسين، فجرد العساكر إليها ففارقها البرلي وتوجه إلى الفرات، وعاد العسكر وأغار على بلاد أنطاكية، وكان في العسكر صاحب حمص وصاحب حماه، فأخذت المينا وأحرقت المراكب، وأخذت الحواصل، وعادت العساكر إلى القاهرة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين وستمائة وصحبتهم ما يزيد على مائتين وخمسين أسيراً[١].

ثم استناب السلطان بحلب الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار[٢]، فتوجه إليها وأقام بها. ثم خشي عاقبة عود الأمير شمس الدين أقش البرلي، ففارق حلب وعاد وأقام بحماة واعتذر أنه إنما فارق حلب لشدة الغلاء وعدم الأقوات.

وكان الأمير شمس الدين البرلي قد أرسل إلى السلطان الأمير علم الدين جكم بكتبه يسأله الصفح، فلما فارق البندقدار حلب عاد البرلي إليها وكتب إلى السلطان يعتذر من رجوعه إلى حلب، وأنه ما رجع إلا طائعاً، وأن الأمير علاء الدين انفصل عن حلب اختياراً منه، ولو أقام لما قصده أحد، وتوالت كتبه بالاعتذار واستأذن في توجهه إلى الموصل، والسلطان يغلظ له تارة ويلين أخرى.

ثم جرد السلطان عسكراً صحبه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نجدة لصاحب الموصل، وأنفق فيهم الأموال. فلما اتصل الخبر بالأمير شمس الدين البرلي توجه إلى سنجار والتقى التتار وقاتلهم قتالاً شديداً. وكان معه نحو ألف فارس وهم في جموع كثيرة فلم تساعده المقادير، وذلك أنه سقط عن فرسه فانكسرت رجله، فركبه أحد مماليكه وساق يوماً كاملاً ولم يعلم من معه أن رجله كسرت، ثم كان من أمره ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

هذا ما اتفق بالشام وحلب.

ذكر ما اتفق للسلطان بالشام في مدة مقامه بدمشق وما وقع في سفرته هذه خلاف ما قدمنا ذكره من أمر الخليفة

من ذلك أنه لما وصل إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور صاحب

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧٢.

(٢) البندقدار: هو الذي يحمل قوس البندق خلف السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨. وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٣.

حماة، والملك الأشرف صاحب حمص والرحبة، فتلقاهما وأكرمهما وأنعم عليهما بخيل النوبة والعصائب وشعار السلطنة، وركب كل منهما بمفرده والأمراء مترجلون في خدمته، وكتب لهما التقاليد، وزاد الملك الأشرف تل باشر والملك المنصور بلاد الإسماعيلية، وتوجها إلى بلادهما.

ومن ذلك أن أمراء العربان حضروا إلى خدمة السلطان فأنعم عليهم ووصل أرزاقهم، وسلم إليهم خفر البلاد، وألزمهم حفظها إلى حدود العراق [وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا][(١)].

ومن ذلك أنه فوض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري، وكان قبل ذلك بنيابة قلعة دمشق، والأموال[(٢)].

ذكر ركوب السلطان إلى الميدان بدمشق ولعبه بالكرة ومن كان في خدمته من الملوك

قال المولوي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: ولعب السلطان في ميدان دمشق، فرأيت في خدمته جماعة من الملوك وهم: الملك الصالح صاحب الموصل [و][(٣)]الملك المجاهد صاحب الجزيرة [و][(٤)] الملك المظفّر صاحب سنجار، [و]الملك علاء الملك، [و]الملك الأشرف صاحب حمص، [و]الملك الزاهر أسد الدين،[و]الملك المنصور صاحب حماة، [و]الملك الأمجد تقي الدين بن الملك العادل سيف أبي بكر بن أيوب[(٥)] [و][(٦)]الملك المنصور [و]الملك السعيد، [و]الملك المسعود، وأولاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، [و]الملك الأمجد وأخوته أولاد الملك الناصر داود، والملك الأشرف ابن ولد أقسيس [و]الملك القاهر بن الملك المعظم، وجماعة كثيرة منهم.

قال: وهذا ما لا رآه ملك آخر.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٥.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٥، س ٤.

(٣) و(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف ابن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٥، س ١.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

ذكر الصلح مع ملوك الفرنج

لما توجه السلطان إلى الشام سير سيرجوان ديكين، كند يافا، يبذل الطاعة. ولما وصل السلطان إلى العوجا سأل الأمان للحضور إلى الدهليز، فتوجه الأتابك إليه وأحضره إلى السلطان. فأكرمه وكتب له منشوراً ببلاده ورده إلى بلده.

قال: ثم وردت رسل ملوك الفرنج يهنون السلطان بالسلامة ومعهم الإقامات الكثيرة.

فلما وصل السلطان إلى دمشق حضر رسول من عكا يسأل أماناً للرسل المتوجهين من سائر[١] البيوت. فكتب إلى متولي بانياس بتمكينهم[٢]؛ فحضر أكابر الفرنج والتمسوا الصلح، فتوقف السلطان واشترط شروطاً كثيرة فتوقفوا، فأهانهم وزجرهم. وكان العسكر قد توجه للإغارة على بلاد الفرنج من جهة بعلبك، فسألوا في رجوعه وتقرير الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية، وإطلاق الأسرى، من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت هذه الهدنة. وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم[٣].

وكذلك تقررت الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت على حكم الأيام الناصرية، وأمنت السبل وكثرت الأجلاب.

وشرع السلطان في جمع الأسارى وسيرهم إلى مدينة نابلس حفظاً للعهود، والفرنج يكاسرون[٤] في أمر الأسارى. فلما طال ذلك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق واستعمالهم في العمائر وبقي الحال موقوفاً[٥].

ذكر الغارة على العرب والفرنج

قال: ولما وصل السلطان إلى بلاد الشام جرد الأمير جمال الدين المحمدي، وجرد معه جماعة من العسكر المنصور، ورسم لهم بالإغارة على بلد الفرنج، فتوجهوا ونهبوا وكسبوا، وعادوا سالمين[٦].

---

(١) في الأصل: «ساير».
(٢) في الأصل بدون رأس الكاف.
(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٣، س ٤.
(٤) يكاسرون: أي يماطلون. ابن منظور: لسان العرب مادة كسر؛ الفيروزابادي: القاموس المحيط.
(٥) و(٦) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٤، س ٤ ـ ٩.

وجرد جماعة من البحرية وكتم خبرهم. وكان السلطان بلغه أن جماعة من عرب زبيد قد كثر فسادهم وأنهم مخالطون الفرنج وموافقوهم في الباطن ويدلونهم على عورات المسلمين؛ فساق البحرية إليهم وانتهبوا أموالهم وقتلوا منهم وذبحوا جماعة كثيرة، وكفى الله الإسلام شرهم[(١)].

وفي هذه السنة والسفرة، عزل السلطان القاضي نجم الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة عن القضاء بدمشق، وفوضه للقاضي شمس الدين أحمد ابن بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن خلكان البرمكي من العريش[(٢)] إلى سلمية[(٣)]، وفوض إليه النظر في جميع الأوقاف بالشام، منها الجامع والبيمارستان والمدارس وغير ذلك؛ وفوض إليه تدريس سبع مدارس وهي: العادلية، والعذراوية، والناصرية، والفلكية، والركنية، والإقبالية، والبهنسية[(٤)]. وكان تدريس هذه المدارس بيد القاضي نجم الدين المعزول، ووكل بالقاضي نجم الدين وأمره أن يتوجه إلى الديار المصرية، وكان مذموم السيرة في ولايته. ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة جملة من معانيه.

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية

قال: ولما استقرت هذه الأمور عاد السلطان إلى الديار المصرية، وكان وصوله في يوم السبت سابع عشر ذي الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة.

ذكر أخذ الشويك[(٥)]

كان السلطان قد جهز الأمير بدر الدين الأيدمري وصحبته جماعة من العسكر، وما أعلم أحداً ممن جرد بالجهة التي يتوجهون إليها، فتوجه إلى الشويك وبذل المال والخلع فسلمت إليه. ووصل الخبر بتسليمها في سادس عشرين ذي الحجة من السنة. وولي نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المحتصبي[(٦)]، واستخدم بها النقباء والجاندارية، وأفرد لخاص القلعة ما كان لها إلى آخر أيام الصالحية النجمية.

---

(١) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٢) مدينة من أعمال مصر، من ناحية الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٣.
(٣) بليدة في الناحية البرية من أعمال حماه. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(٤) عن هذه المدارس، انظر كتاب المدارس في تاريخ المدارس للنعيمي، صفحات مختلفة.
(٥) هكذا في الأصل. وفي معجم البلدان للمقريزي الشوبك. وهي قلعة حصينة في أطراف الشام. المقريزي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٧٠.
(٦) هكذا في الأصل والمختصبي في السلوك، ج ١، ص ٤٤٧، س ٢١.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الصاحب صفي الدين أبي إسحاق إبراهيم ابن عبد الله بن هبة الله بن أحمد بن مرزوق العسقلاني. وكان قد وزر للملك الأشرف ابن الملك العادل بدمشق مدة، ثم عزل بجمال الدين بن جرير، وكان تاجراً مشهوراً بالثروة وكثرة الأموال. وكان ابتداء أمره كما حكى عنه أنه حكاه عن نفسه قال: أرسلني والدي إلى القاهرة من مصر لأبتاع له قمحاً، وكان له طاحون بمصر، فتوجهت إلى دار بعض الأمراء فاشتريت ألف أردب بخمسة آلاف درهم، وتسلمتها، وبت في تلك الليلة بالقاهرة، وأصبحت فتحسن سعرها فبعتها بسبعة آلاف، فأوفيت الثمن، وأخذت ما بقي، وصرفت به مائة وثلاثين ديناراً، وأتيت والدي فسألني عن القمح، فقلت: بعته، فقال: ولم لا أتيت به؟ فقلت له: إنك لم ترسل معي الثمن، حتى ولم تعطني دابة أركبها، وعندك عشرين دابة، ما هان عليك أن أركب منها دابة[١]. وكنت قد مشيت من مصر إلى القاهرة فحقدت ذلك عليه. قال: ثم اتجرت في ذلك المال الذي ربحته من ثمن القمح فبارك الله لي فيه حتى جمعت منه ستمائة ألف دينار عيناً، غير ما اشتريت من العقار والأثاث والخدم والدواب والمسفر وغيره.

وكانت وفاته بمصر ودفن بسفح المقطم[٢]. ومولده في شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة. رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خماردكين[٣]، وهو صاحب صهيون، وجده عتيق الأمير مجاهد الدين صاحب صرخد[٤]. وكانت وفاته في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين وستمائة بقلعة صهيون ودفن بها، وولي بعده ولده سيف الدين محمد. وكان هو قد ولي صهيون بعد وفاة والده ناصر الدين منكورس في سنة ست وعشرين وستمائة. وخلف الأمير مظفر الدين من الأموال ما لا يحصى كثرة. حكى الشيخ شمس الدين ابن الجزري في تاريخه قال: حكى لي الصاحب مجد الدين إسماعيل بن كسيرات الموصلي قال: كان مظفر الدين صاحب صهيون يجلس في كل يوم في باب القلعة ويأخذ قطعاً من الشمع ويختم عليها بخاتمه، فمن كان له دعوى على خصمه أو محاكمة جاء إليه وأحضر معه شيئاً من المأكول فيضعه في الدركاه بين يدي الأمير مظفر

(١) هكذا في الأصل.

(٢) هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٠٦، س ٢ ـ ٤.

(٤) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٠١.

الدين، ويأخذ قطعة من ذلك الشمع المختوم ويتوجه إلى خصمه ويقول: هذا ختم السلطان، فيأخذ الخصم معه شيئاً أيضاً ويحضر إلى بين يديه فيحكم بينهما بنفسه. قال: فسألته عن مقدار ما يحضره الواحد منهم. قال: يأتي كل واحد بحسبه من الرأس الغنم إلى خمس بيضات. ومات وقد ناف على تسعين سنة، رحمه الله.

وفيها توفي الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عيسى بن درياس المارداني[١] الشافعي، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم السبت سادس شوال، ودفن من يومه بسفح المقطم. ومولده في ليلة الثلاثاء ثاني عشرين شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وخمسمية، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ستين وستمائة[٢]

في هذه السنة[٣]، في ثالث عشرين المحرم، أعرس الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري، نائب السلطنة الشريفة على ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان، وكان عقد النكاح قد عقد في ثالث عشر شوال سنة تسع وخمسين وستمائة، وذلك أن السلطان كان قد استدعى الملوك إخوتها في اليوم المذكور وعرفهم مكانة الأمير بدر الدين منه، وأن محله محل الولد، وخطب أختهم له، فأجابوا إلى ذلك، وعقد النكاح. وملكه السلطان في ذلك اليوم بانياس وقلعتها بالبيع الشرعي. ثم كان البناء بها في هذه السنة. وعمل العرس بالميدان الأسود. واحتفل السلطان به احتفالاً عظيماً، وفوض إليه بعد أيام قلائل النظر في أمر الجيش: يقطع الإقطاعات ويزيد وينقص؛ وفوض إليه أمر الرعايا وكشف ظلاماتهم وغير ذلك.

وفيها، حصل الصلح بين السلطان والملك المغيث صاحب الكرك[٤]، وكان ولده الملك العزيز في الاعتقال من الأيام المظفّرية. فإن والده كان قد سيره إلى هولاكو كما ذكرنا فأنفق عوده إلى دمشق عند دخول الملك المظفّر إليها، فأمر بإرساله

---

(١) في الأصل المارانى، والتعديل من النسخة (س). وهو القاضي كمال الدين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك المارداني، الشافعي الضرير. ولقبه: «الصدر العدل». ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧، ص ٢٠٥، س ١٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٩٩.

(٢) قارنها بكتاب عقد الجمان لبدر الدين العيني، ج ١، ص ٣٢٧ ـ ٣٤٤.

(٣) يوافق أولها ـ السبت ٢٦ تشرين الثاني ١٢٦١ م.

(٤) هي قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٣.

إلى قلعة الجبل واعتقاله بها. فأطلقه السلطان الآن، وأقطعه دبنان[١] بمنشور، وحلف السلطان لأبيه. ثم بعد ذلك سير السلطان له صنجقاً وشعار السلطنة، فقبل عقب الصنجق وركب بشعار السلطنة.

وفيها، انتصب السلطان لعرض العساكر بنفسه وحلّف الناس لولده الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان، فحلفوا له، وسيرت نسخ الأيمان إلى القلاع [والممالك][٢] والناس بأجمعهم.

ذكر وصول الأمير شمس الدين سلار البغدادي وشيء من أخباره[٣]

وفي نصف شهر رجب سنة ستين وستمائة وصل الأمير شمس الدين سلار البغدادي من العراق إلى الديار المصرية، وكان رجلاً تركياً من قبيلة دروت[٤] وهو من مماليك الخليفة الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله، ولاه واسط والكوفة والحلة. فأقام بها في الأيام الظاهرية والمستنصرية والمستعصمية. فلما استولى هولاكو على بغداد وقتل الخليفة، اجتمع سلار هذا وصاحب شستر ومن انضم إليهما، وقاتلوا التتار فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرة التتار، فتوجه إلى برية الحجاز، فأقام بها نحواً من ستة أشهر، ثم راسله هولاكو وكتب له فرماناً بإقراره على ما كان عليه في الأيام المستعصمية، فحضر إليه فأقره، فلما أفضت السلطنة بالديار المصرية إلى السلطان الملك الظاهر كاتبه السلطان، وطلب منه الوصول إليه مرة بعد أخرى، فتقرر حضوره إليه، وتأخر ذلك إلى أن يتحيل لنفسه ويجمع أمواله، فاتفق أن السلطان تحدث مع قليج البغدادي في بعض الأيام فقال له السلطان: خوشداشك سلار يصل إلينا؟ فقال: هذا لا يتصور وقوعه، لأن سلار من الملوك بالعراق، فكيف يفارق ما هو فيه ويحضر إلى هذه البلاد؟ فقال السلطان: متى لم يحضر برضاه أحضرته بغير رضاه. وبعث قاصداً يكتب إليه على أنها أجوبة كتبه، وبعث قاصداً آخر وقال له: إذا قربت من الأردو فاقتل هذا القاصد واتركه وما معه، ففعل ذلك. ولما قتل القاصد وجده القراؤل[٥]، فأحضره إلى هولاكو فقرىء ما معه من الكتب فوجدت أجوبة سلار. وكان بمقام هولاكو جماعة من أولاد مماليك الخليفة أخذهم لنفسه وجعلهم خواصاً عنده،

(١) هكذا في الأصل ولم أقف على ترجمة لهذا المكان في المصادر المتداولة.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٣) المقريزي: السلوك ج ١، ص ٤٦٨، س ١١ ـ ١٤.
(٤) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٦٨، حاشية رقم (٣).
(٥) أي ما معه من رسائل.

فسيروا إلى سلار في الوقت يعلمونه الخبر، فعلم أنها مكيدة، ورسم هولاكو بطلبه إلى الأردو، فوصل إليه الخبر قبل ورود مرسوم هولاكو بطلبه. وكان حال وصول الخبر إليه يتصيد، فعلم أنه متى وصل إلى هولاكو قتله، فساق لوقته إلى أن وصل إلى الديار المصرية. وترك جميع أمواله وذخائره وأهله وأولاده. ولما وصل أكرمه السلطان وعامله بإحسان كثير، وأنزله بالكبش، وأمره طبلخاناه(١)، وأقطعه منية بني خصيب. فقال للسلطان: لقد ضيع السلطان على المسلمين أموالاً عظيمة، فإنك لو تركتني حتى أحضر بما جمعته من الأموال والذخائر انتفع بيت المال به، فإني جمعت خراج سنتين. فقال له السلطان: إنما كان قصدي حضورك، ولم أقصد الأموال. ولا تجلس بين يدي السلطان لا يرفع أحداً عليه(٢). ثم جرده السلطان في مقابلة الفرنج بساحل عكا، فكتب إلى السلطان يسأله أن يقيم بالشام فأقطعه [إمرة خمسين في الشام] ونصف [مدينة] نابلس(٣) وأقام ستة أشهر ثم أعاده [السلطان] إلى الديار المصرية.

وكان السلطان قبل وصول سلار البغدادي قد اعتقل الأمير سيف الدين قليج لأمر صدر منه، فأطلقه السلطان بغير شفاعة، وأحسن إليه وأعاده إلى الإمرة ولعب معه الكرة.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأنيرور(٤)

وفي شعبان سنة ستين وستمائة، وصل الأمير سيف الدين الكرزي(٥)، والقاضي أصيل الدين خواجا إمام، وكان السلطان بعثهما إلى الأنيرور، وذكرا أن الأنيرور أهتم بأمرهما اهتماماً عظيماً، وأنه أحضرهما ساعة وصولهما وعرضت عليه الهدية، وكان في جملتها زرافة فأعجبته إعجاباً عظيماً، وشاهد التتار الذين سيروا إليه [ذلك](٦)، وذكر أنه جهز رسولاً وهدية تحضر فيها بعد.

وكان في جملة رسله إلى السلطان نفران من البحرية(٧)، فلما وصلا، أمر

---

(١) كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقى السلطانية أو بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨ ـ ٩، ١٣.
Demombynes: G, La Syrie à L'epoque de Mamlouk, P. L. IV.

(٢) تفيد العبارة أن السلطان التفت إلى جماعة الحاضرين وتحدث عن سلار بصيغة الغائب.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٩.

(٥) هكذا بالأصل.

(٦) إضافة يقتضيها السياق.

(٧) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٩.

السلطان بتأديبهما لما بلغه من سوء اعتمادهما، وسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها.

ذكر عود رسل السلطان من جهة صاحب الروم ووصول رسله إلى السلطان، وما قرره السلطان من بلاده

وفي هذه الشهر، وصل الأمير شرف الدين الجاكي، والشريف عماد الدين الهاشمي. وكان السلطان قد سيرهما إلى السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم ووصل صحبتهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح[١] رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين الخلاطي[٢] رسولان منه، ومعهما كتابه إلى السلطان يذكر أنه نزل للسلطان عن نصف بلاده. وسيَّر درجاً فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمّره [وسأل أن][٣] يكتب له من جهته منشوراً قرين منشور صاحب الروم. فلما وصل الرسل إلى السلطان أكرمهم وجهز جيشاً نجدة لصاحب الروم. وأمر بكتب المناشير، وعين الأمير ناصر الدين أغلمش السلاح دار الصالحي لتقدمة الجيش، وعين له ثلاثمائة فارس، وأقطعه في الروم، وكتب للأمير ناصر الدين الرسول المذكور منشوراً بثلاثمائة فارس وأقطعه آمد وأعمالها، وتقرر سفره صحبة العسكر، وأن يتوجه صدر الدين رفيقه في البحر صحبة رسل السلطان. ووقع الاهتمام في كتب المناشير وتجريد الأمراء من الشام وحلب.

وفي شهر رجب من السنة، وصل الأمير عماد الدين ولد الأمير مظفر الدين صاحب صهيون[٤] رسولاً من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصحبته الهدايا الحسنة. فأحسن السلطان إليه وكتب له منشوراً في بلاد حلب بثلاثين فارساً، وكتب له منشوراً آخر في بلاد الرومية بمائة طواش.

وفي هذه المدة ورد كتاب صاحب الروم يذكر أن العدو لما بلغهم اتفاقه مع السلطان ولوا هاربين، وأنه سير إلى قونية[٥] يحاصرها ليأخذ من بها من أصحاب أخيه.

وفي هذا التاريخ، وصلت كتب الأمير علاء الدين الخزندار مقدم العسكر

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٩.

(٢) هكذا بالأصل. وفي السلوك ج ١، ص ٤٦٩، الأخلاطي.

(٣) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك، للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٩.

(٤) موضع معروف بالبيت المقدس. وصهيون أيضاً، حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٥) من أعظم مدن الإسلام بالروم، ياقوت الحموي؛ المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤١٥.

المتوجه إلى الصعيد بسبب العربان عندما قتلوا الأمير عز الدين الهواش متولي الأعمال القوصية يذكر تبديد شملهم وإبادتهم وأنه أراح المسلمين من فسادهم.

وفي شعبان منها توالى وصول جماعة ممن كان صحبه الأمير شمس الدين أقش البرلي من العزيزية والناصرية، فأحسن السلطان إليهم، ولم يؤاخذهم بما كان منهم.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الأشكري وخبر مسجد القسطنطينية

وفي هذه السنة، وصل الأمير فارس الدين أقش(١) المسعودي الذي كان توجه رسولاً إلى الأشكري، وكان الأشكري قد سير رسولاً إلى السلطان يلتمس بطركاً للنصارى الملكيين(٢) فعين لذلك الرشيد الكحال، وسيّر إليه صحبة الأمير فارس الدين المذكور، فأكرمه الأشكري وأكرم من صحبه من الأساقفة، وصادف وصولهم إلى الأشكري فتح القسطنطينية، فركب يوماً ليفرج فارس الدين المذكور فيها وفي عمارتها. فمر بمكان وقال: هذا جامع، وقد أبقيته ليكون ثوابه للسلطان. فلما سمع السلطان هذا الخبر استبشر به وفرح فرحاً عظيماً. وأمر لوقته بتجهيز الحصر العبداني(٣) والقناديل المذهبة والستور المرموقة والسجادات والمباخر والعنبر والعود والمسك وماء الورد.

وهذا المسجد كانت عمارته في سنة ست وتسعين للهجرة. وكان قد وقع الصلح مع الروم على أن يبني بها مسجد جامع(٤) فبنى. ولما طالت المدة جعلوه حبساً. وقيل: إن الصلح كان قد تقرر على أن يبني مسجد قدر جلد بعير، وتقررت العهود على ذلك فعمد المسلمون إلى جلد بعير فقدوه سيوراً ومدوها. فأنكر ذلك فقال المسلمون: هذا جلد بعير، لم نزد عليه شيئاً، وعليه وقع الاتفاق. فسكتوا وقيل: إن بانيه مسلمة بن عبد الملك(٥) في أيام أخيه الوليد(٦). والله أعلم.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧١.

(٢) هكذا في الأصل، وفي السلوك، ج ١، ص ٤٧١ (الملكية).

(٣) غير مضبوطة في الأصل، والنسبة إلى عبادان ـ فيقال عباداني، وعبداني وعبادي، وهي بلد جنوبي البصرة قرب الخليج الفارسي، وتقع في جزيرة محاطة بمياه مصبات دجلة والفرات، وكانت مشهورة بصنع الحصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٣، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) هكذا في الأصل.

(٥) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. أمير قائد، من أبطال عصره. لُقّب بالجرادة الصفراء. له فتوحات مشهورة. بنى مسجد مسلمة بالقسطنطينية سنة ٩٦ هـ/ ٧١٤ م. قال الذهبي: «كان أولى بالخلافة من أخوته». توفي سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٧ م. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١٤٤؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ١، ص ٦٢، في وفيات سنة ١٢١ هـ/ ٨٣٨ م؛ القلقشندي: نهاية الأرب ص ٣٣٩.

(٦) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، أبو العباس. كان ولوعاً بالعمران، أصلح الطرقات وعمل =

ذكر حضور الأمير شمس الدين أقش البرلي العزيزي إلى الديار المصرية[(١)]

قد ذكرنا من أخباره وتردده إلى حلب وقتاله التتار في سنة تسع وخمسين وستمائة ما قدمناه.

قال المؤرخ: ولم يزل السلطان يكاتبه ويرغبه ويعطيه العهود والمواثيق على الوفاء، وسير إليه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري في رسالة، وشافهه باليمين، فقال له الأمير شمس الدين: «قد جاءتني رسالة هولاكو يطلبني إليه، وحلف لي. وهذه رسالة السلطان ويمينه، وأنا، والله «أعلم أن هولاكو يفي، وأن السلطان لا يفي». وكان أولاده وأهله بالقاهرة فترجح عنده الحضور فحضر، ولما وصل إلى دمشق كتب السلطان إلى النواب بخدمته وترتيب الإقامات له في جميع الطرقات والمنازل إلى أن يصل إلى القاهرة، وكان متمرضاً من جراحة في رجله فجهز إليه الأدوية واهتم بأمره اهتماماً عظيماً، وكان وصوله إلى القاهرة في ثاني ذي الحجة سنة ستين وستمائة، فركب السلطان لتلقيه وحمل إليه من الأموال والأقمشة والخلع والخيول وآلات البيوتات ما لا يكون مثله إلا لملك، ولم يترك شيئاً مما يحتاجه الأمراء إلا سيره إليه. وكتب له منشوراً بستين فارساً، وأعطاه طبلخاناه، وأمر من صحبه من الأمراء، وأعطى كل واحد منهم بحسب حاله. قال: ولما استقر أرسل إلى السلطان يسأله زيادة في الشام[(٢)] أو في نابلس أو بلاد الصلت أو بعلبك أو حران، وينزل عن البيرة، ويقول: إن قدرته تعجز عن حفظها، فشكره السلطان ولم يقبل البيرة منه. وقال: «أنا أرجو لك الزيادة» وصار السلطان يقربه فيسايره إذا ركب، ويستشيره إذا جلس، ويساهمه في كل شيء حتى فيما يكون بين يديه من الطرف، ولازمه حتى لم يفارقه صيد ولا غيره، ثم جدد السؤال في قبول البيرة[(٣)]، فقبلها السلطان منه وأعطاه الرها[(٤)] وغيرها، وأمر

= الآبار، ومنع المجذومين من مخالطة الناس، وأجرى لهم الأرزاق، وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام. وجعل لكل أعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مقعد خادماً. وهو الذي هدم مسجد المدينة ثم بناه من جديد. ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٣، الطبري: تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٩٧ المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ص ٢٩.

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

(٢) المقصود دمشق.

(٣) تقع بين بيت المقدس ونابلس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٦.

(٤) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٦.

مماليكه. وسافر في صحبة السلطان إلى الطور[١] ثم قبض عليه لأسباب نذكرها، إن شاء الله تعالى.

ذكر القبض على علاء الدين طيبرس الوزيري نائب السلطنة بالشام[٢]

وفي سنة ستين وستمائة، بلغ السلطان عن الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري النائب بدمشق أمور أنكرها عليه، فسير الأمير عز الدين الدمياطي، والأمير علاء الدين أيدغدي الحاج الركني فتوجها من الديار المصرية في شوال، ودخلا إلى دمشق في ثالث ذي القعدة. فلما خرج إليهما ليتلقاهما ووصل إلى الأمير عز الدين الدمياطي أهوى ليكارشه على ما جرت العادة به في السلام، فقبض الدمياطي بيده على عضد طيبرس وبيده الأخرى على سيفه، وأنزل عن فرسه وركبوه بغلاً، وقيد وأرسل إلى السلطان، ووقعت الحوطة على أمواله وحواصله بدمشق، وكان قد سير جملة منها مع العرب. وكان طيبرس قد أساء السيرة في أهل دمشق، وضيق عليهم، وتسلم الأمير علاء الدين الركني دمشق ينظر فيها إلى حين حضور نائب مستقل.

ومن عجيب ما وقع في القبض عليه ما حكاه شمس الدين الجزري في تاريخه عن الرشيد فرج الله كاتب البيوتات بدمشق، قال: لما وصل الأمراء الذين قبضوا على طيبرس إلى الكسوة طلبني، وقال: جهز سماطاً جيداً لهؤلاء الأمراء، وأحضره أنت بنفسك واحترز عليه، فأنا لا أحضره. قلت: لأي سبب يتأخر مولانا عنه؟ فأسر إلي وقال: إن هؤلاء جاؤوا ليقبضوا علي قبل دخولهم إلى دمشق. فقلت: يكفيك الله، وبكيت. فقال: هذا أمر لا بد منه، فأبصر أنت كيف تكون. فخرجت من عنده، وجهزت السماط كما رسم، وكان من قبض ما تقدم قال الرشيد: فدخلت يوماً على الأمير علاء الدين الركني وهو يحكم بدمشق، فسألني عن أشياء تتعلق بالديوان والسماط إلى أن ذكر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري وأثنى عليه خيراً، فوجدت مجالاً للكلام، فذكرت له هذه الحكاية. فقال لي: أنا أحكي لك أعجب من هذا: بينا أنا في داري بالقاهرة في وقت القايلة وإذا برسل السلطان تستدعيني إليه، فما شككت حين طلبني في غير الوقت المعتاد أنه يقبض علي. فأوصيت استاداره بما يعتمده، وودعت أهلي، وركبت إلى القلعة، فوافيت الأمير عز الدين الدمياطي وقد طلب كما طلبت، فتحققنا جميعاً، إننا نمسك، ثم دخلنا على السلطان فوجدناه في خلوة، فلما أقبلنا عليه نهض قائماً، وأكرمنا فقبلنا الأرض بين يديه وزال عنها ما كنا نجده، ثم

(١) جبل مطل على طبرية الأردن. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٧.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٢.

أمرنا بالقرب منه، فتقدمنا حتى التصقت ركبنا بركبتيه، ثم أخرج من جيبه ختمة واستحلفنا أننا لا نذيع له سراً، وأن نفعل ما يأمرنا به، فحلفنا، فلما تمت اليمين قال: تتوجها الساعة إلى دمشق وتستصحبا معكما العسكر المقيم بغزة[١]، وتمسكوا[٢] علاء الدين طيبرس نائب الشام، وتكون أنت مكانه، وإن سمعت هذا الحديث من أحد من خلق الله تعالى قبل أن تفعلاه شنقتكما، فخرجنا من عنده فلما صرنا تحت القلعة إذا بحرفوش يقول لآخر: هؤلاء رايحين إلى دمشق يقبضوا على طيبرس نائب السلطنة بها، فأصفر عند ذلك لوني ولون الدمياطي، وحلفنا جميعاً لا نصل إلى بيوتنا، وقال كل منا لاستادداره أن يلحقه بهجين وجنيب إلى البئر البيضاء[٣] وسقنا من وقتنا إليها. فلحقنا غلمائنا وما نحتاج إليه بعد العصر، واستمر بنا السير حتى نفذنا أمر السلطان. وهذا شيء أجراه الله تعالى على ألسنة عوام مصر، لا ينطقون بشيء في غالب الأوقات إلا ويكون كذلك.

ذكر وصول جماعة من التتار إلى خدمة السلطان[٤]

قال المؤرخ: كان السلطان قد جهز كشافة من الأمراء وهم، جمال الدين أقش الرومي السلاح دار من الخواص ومعه الخيول الجياد، ثم جهز الأمير علاء الدين أقسنقر الناصري، وكتب إلى الشام بأردافهم، وأرسل أمراء العربان فساقوا إلى حدود العراق. وكانت الأخبار من جهة القصاد قد وردت أن هولاكو جمع جمعاً كبيراً ولم يعلم قصده، فاحترز السلطان وسير هذه الكشافة. فأمسكوا من وسط التتار جماعة، واستطلعوا منهم الأخبار، وكانوا مسلمين، فأطلقهم الأمير علاء الدين. ولما توالت الأخبار بحركة هولاكو عمل السلطان بالحزم، وتقدم إلى أهل دمشق بالحضور بأهاليهم لتخف ظهورهم وترخص الأسعار فحضر منهم جماعة كثيرة.

وكتب إلى التواب بحلب بحريق الأعشاب، وسير جماعة إلى بلاد آمد ومواضع الأعشاب فأحرقوا من المروج مسيرة عشرة أيام، وكذلك أعشاب بلاد خلاط[٥] حتى صارت كلها رماداً. ثم ورد كتاب الأمير الحاج علاء الدين أقسنقر الناصري أن الكشافة

---

(١) مدينة في أقصى الشام، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٠٢.

(٢) هكذا بالأصل، وهي كلمة عامية.

(٣) بين القاهرة وبلبيس. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٠.

(٤) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥.

(٥) في الأصل «خلاصاً» والتصحيح من كتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٣، س ٧.

وجدوا جماعة كثيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى باب السلطان، وأنهم من أصحاب الملك بركة، وكانوا نجدة عند هولاكو، فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه وإن عجزوا عن ذلك ينحازوا[١] إلى عسكر الديار المصرية وأنهم يذكرون أن العداوة قد استحكمت بين الملكين هولاكو وبركة، وأن ولد هولاكو قتل في المصاف، وأنهم فوق مائتي فارس، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم وترتيب الإقامات لهم في الطرقات وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة، فوصلوا يوم الخميس رابع عشرين ذي الحجة سنة ستين، وخرج السلطان للقائهم يوم السبت السادس والعشرين من الشهر. وكان السلطان قد رسم بعمارة أدر ومساكن لهم بقرب اللوق، فسكنوها، وحملت إليهم الخلع وسيقت الخيول وفرقت فيهم الأموال، ولعبوا الكرة مع السلطان، وأمر أكابرهم بمائة فارس فما دونها، ونزل بقيّتهم في جملة بحريته ومماليكه، وأفردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم. وأسلموا وحسن إسلامهم. وبلغ التتار ما نال هؤلاء من الإحسان وما شملهم من الأنعام فتوافدوا جماعة بعد جماعة، والسلطان يعتمد مع كل من يحضر منهم مثل ما اعتمد مع من قبلهم.

ذكر إنفاذ الرسل إلى الملك بركة[٢]

قال: ولما وصلت جماعة التتار إلى السلطان، واستطلع منهم الحال وعرف أحوال الملك بركة ومقامه والطريق إليه جهز إليه رسله وهم: الأمير سيف الدين كشريك[٣] وهو رجل تركي كان جمدار السلطان خوارزمشاه يعرف البلاد واللغات، والفقيه مجد الدين الروذراوري، وسير صحبتهم نفرين[٤] من التتار الذين وصلوا إليه من أصحاب الملك بركة. وكتب على أيدي الرسل كتاباً يستميله ويحثه على الجهاد، ويصف العساكر الإسلامية وكثرتهم وعدة أجناسهم من الترك وعشائر[٥] الأكراد وقبائل العربان ومن أطاعها من الملوك الإسلامية والفرنجية، ومن خالفها، ومن وافقها، ومن

---

(١) حذف مفعول وقع جائز في العامية، واللفظ وارد هنا بمعناه العامي.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٥.

(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٥، س ٢، كسريك، حيث سمى المقريزي هذا الأمير باسم سيف الدين كشتك، وهو مترجم إلى (Keschtek) في:
Quatremère: Histoire des sultans Mamlouks de L'Egypte V 1, p 181.

(٤) عن السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٤، س ٥ في الحاشية أن اسمهما بلاغيا وطرطشاه.

(٥) في الأصل: وعشاير.

هاداها وهادنها[١]، وأن جميعها في طاعته وسامعة لإشارته إلى غير ذلك من الإغراء بهولاكو وتهوين أمره وتقبيح الغفلة عنه، وأعلمه بوصول من وصل من التتار وادعائهم أنهم من أصحابه، وأن الإحسان إليهم إنما هو من أجله. وكان الخليفة الحاكم بأمر الله قد حضر وبويع بحضور الرسل وكتب نسبته وأذهبت وأشهد على ثبوت نسبه، وسير ذلك إلى الملك بركة. وزود الملك الظاهر الرسل لمدة شهور، وتوجهوا في المحرم سنة إحدى وستين. ووصلوا إلى بلاد الأشكري فأحسن إليهم وصادف وصولهم وصول رسل الملك بركة إلى الأشكري، فسيرهم صحبتهم ورجع الفقيه مجد الدين لمرض حصل له، وتوجه الرسل صحبة رسل الملك بركة: الأمير جلال الدين والشيخ نور الدين علي، ووصلت كتب الأشكري أن رسل السلطان توجهوا سالمين.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير جمال الدين النجيبي الصالحي[٢]

قال: ولما تسلم الأمير علاء الدين الركني مدينة دمشق على ما قدمناه اختار السلطان الأمير جمال الدين أقش النجيبي الصالحي لنيابة السلطنة بدمشق، وجهز معه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير الشام. وكان قد حصل بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس مفاوضات أوجبت حضوره إلى الباب السلطاني صحبة الركاب الشريف فرسم بعوده على [عادة][٣] وظيفته.

وفي هذه السنة في ذي القعدة، خرج أمر السلطان لقاضي القضاة تاج الدين[٤] أن يستنيب نواباً من المذاهب الثلاثة، فاستناب القاضي صدر الدين سليمان الحنفي، والشيخ شرف الدين عمر السبكي المالكي، والشيخ شمس الدين الحنبلي.

وفيها: اشتد الغلاء بالشام[٥]، وأبيعت غرارة القمح بأربعمائة وخمسين درهماً، والشعير بمائتين وخمسين، وأبيع القمح بحماه عن كل مكوك أربعمائة درهم، ثم غلت سائر الأصناف، ومات خلق كثير من الجوع.

وفيها: في ذي الحجة ظهر بالقاهرة عند الركن المخلق معبد وفيه حجر مكتوب عليه هذا مسجد موسى بن عمران عليه السلام، فجددت عمارته. وهو إلى الآن يعرف بمعبد موسى.

---

(١) هكذا في الأصل، والمرجح أن الأسلوب كان يقتضي «من عاداها ومن هادنها».
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٨٠.
(٣) هكذا بالأصل.
(٤) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٧٢.
(٥) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٦.

ذكر وفاة شيخ الإسلام عز الدين أبي محمد بن عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن أبي محمد السلمي الدمشقي الشافعي وشيء من أخباره[(١)]

كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المعزية، في يوم السبت قبيل العصر التاسع من جمادى الأول سنة ستين وستمائة، ودفن يوم الأحد قبل الظهر بسفح المقطم. ومولده تقريباً في سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وولي من المناصب الدينية بدمشق: تدريس زاوية الغزالي، وخطابة الجامع الأموي. وولي بالديار المصرية: القضاء بمصر والوجه القبلي، وخطابة جامع عمرو بن العاص، وتدريس المدرسة الصالحية بالقاهرة، والنظر في عمارة المساجد بالقاهرة ومصر. وكان، رحمه الله تعالى، أحد أئمة المسلمين، إليه انتهت الفتيا في زمانه، وصنف التصانيف المشهورة، منها: الإمام في أدلة الأحكام، وقواعد الفقه الكبرى، والوسطى والصغرى، والغاية في اختصار النهاية، وجمع بين الحاوي والنهاية، واختصر الشامل لابن الصباغ، واختصر الكشاف، واختصر تفسير ابن عباس والماوردي، وفسر سورة البقرة في مجلدة[(٢)]، وفسر من سورة يس إلى سورة الناس، واختصر صحيح مسلم في مجلدين، وعمل عليهما حواشي مفيدة، واختصر الرعاية، وصنف في الزهد شجرة المعارف، وغير ذلك من التصانيف المفيدة. وكان رحمه الله، كثير الزهد والإيثار، لا يعتني بالملابس، ولا يكترث بها، ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى سطوة ملك، لم يزل يصدع الملوك بمر الحق، ويفتي بحكم الله وسنة رسوله ﷺ، وإن خالف ذلك آراء الملوك واعتقادهم، وكرهوه منه، ونهوه عنه فلا يرجع عما علمه، ويطلب المناظرة عليه. واتفقت له وقائع مع الملوك راموا فيها قتله، فحماه الله تعالى منهم، وهي وقائع تدل على صلابة دينه، وحسن يقينه، وتمسكه من السبب الأقوم بمتينه. منها: واقعته مع الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق في مسألة الكلام. وكان الملك الأشرف قد صحب جماعة من مبتدعة الحنابلة من صغره ممن يقول بالحرف والصوت، فاستمالوه إلى مذهبهم وقرروه عنده حتى امتزج بلحمه ودمه، واعتقد كفر من يعتقد خلافه وأنه مباح الدم. وكان في ابتداء سلطنته يميل إلى الشيخ عز الدين لما يبلغه عنه، وقصد حضوره إليه، والشيخ يأبى

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، وفيات عام ٦٦٠؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٦.

(٢) لا يعقل أن تكفي مجلدة واحدة، والراجح أن العدد الذي كان قبل التميز قد سقط.

ذلك ويمنع منه ولا يجيب إليه. فألقى إلى السلطان من صحبه من الحنابلة أن الشيخ مخالف لرأيه مباين لمذهبه، وأنه يقدح فيمن يعتقده ويذمه ويسبه، فأتهمهم السلطان في ذلك، وطلب منهم تحقيقه عنده، فاجتمعوا وكتبوا فتيا في مسألة الكلام وأرسلوها إلى الشيخ، وكان قد اتصل به خبر مكيدتهم، فلما أتته كتب عليها بما يعتقده من تعظيم الله تعالى وتنزيهه وتوحيده، وأنه حي مريد سميع بصير عليم، قدير متكلم قديم أزلي ليس بحرف ولا صوت، ولا يتصور في كلامه أن ينقلب مداداً في الألواح والأوراق، بل الكتابة من أفعال العباد، ولا يتصور في أفعالهم أن تكون قديمة، ويجب احترامها لدلالتها على ذاته، كما يجب احترامها لدلالتها على صفاته. وأطال في الفتيا وبسط الكلام واستدل، ونفى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وأكابر أصحابه خلاف ذلك، وأخرج الفتيا من يده وقد تحقق ما يؤول أمرها إليه، فعرضت على السلطان، ومن عرضها لا يشك أن فيها سفك دم الشيخ. فلما وقف عليها استشاط غضباً وقال: صح عندي ما قالوه عنه، وتكلم في حقه بأشنع الكلام، وكفره، وكان ذلك في شهر رمضان، وقد اجتمع على سماطه القضاة والعلماء، فما استطاع أحد منهم أن يرد عليه لما عنده من الحرج. فقال بعضهم: السلطان أولى بالعفو والصفح لا سيما في مثل هذا الشهر، وموَّه آخرون بكلام يوهم صحة فذهب خصمه، ثم انفصلوا من المجلس. فنهض في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي، رحمه الله تعالى، وهو عالم مذهبه في زمانه. واجتمع بالقضاة والأعيان الذين حضروا المجلس، ووبخهم ولامهم وشدد عليهم النكير كونهم ما ذكروا الحق وكونهم سألوا العفو والصفح، وقال: هذا يوهم الذنب، ولم يزل إلى أن أخذ خطوطهم بموافقة الشيخ. فعند ذلك التمس الشيخ من السلطان أن يعقد مجلساً للشافعية والحنابلة ويحضره المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين. وقال: الذي يُعتقد في السلطان أنه إذا ظهر له الحق يرجع إليه، وأنه يعاقب من موه الباطل عليه، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل، تغمده الله برحمته، فإنه كان قد عزر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيراً بليغاً رادعاً وبدع(١) بهم وأهانهم.

فأجابه السلطان بخطه ما مثاله:

بسم الله الرحمن الرحيم

«وصل إليّ ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام، أصلحه الله، من عقد مجلس وجمع المفتيين والفقهاء. وقد وقفنا على خطه وما أفتى به، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن

(١) هكذا في الأصل، والمعنى بحسب سياق الكلام «نكّل».

الاجتماع به. ونحن فنتبع ما عليه الخلفاء الراشدين الذين [قال][1] ﷺ، في حقهم. «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي». وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه، ويتبع الحق ويتخلص من البدع، اللهم إلا أن كنت تدعي الاجتهاد فعليك أن تثبت، ليكون الجواب على قدر الدعوى لتكون صاحب مذهب خامس.

وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدي، تغمده الله برضوانه، فذلك الحال أنا أعلم به منك. وما كان له سبب إلا فتح باب السلامة، لا لأمر ديني وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانيه العذاب. ومع هذا فقد ورد في الحديث الفتنة نائمة، لعن الله مثيرها؛ ومن تعرض إلى إثارتها قابلناه بما يخلصنا من الله، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله».

فلما وصلت هذه الرقعة إلى الشيخ قرأها، وقال للرسول: إذهب فقد وصلت. فقال: تقدمت الأوامر المطاعة السلطانية بإحضار جوابها، فكتب الشيخ ما مثاله.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

أما بعد حمداً لله الذي جلت قدرته وعلت كلمته وعمت رحمته وسبغت نعمته، فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم لديه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦] وقد أنزل الله تعالى كتبه وأرسل رسله بنصائح خلقه. فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه. وكان فيما أوصى به خلقه أن قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦] وهو سبحانه وتعالى أولى من قبلت نصيحته وحفظت وصيته. وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين. وقد سئل رسول الله ﷺ عن الدين فقال: «الدين النصيحة»؛ قيل لمن؟ يا رسول الله: قال: «لله ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»، فنصح الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولكتابه بالعمل بمواجبه وللأئمة بأرشادهم إلى أحكامه والوقوف عند أوامره ونواهيه، ولعامة المسلمين بدلالتهم على ما يقربهم إليه ويؤلفهم لديه. وقد أديت ما عليّ في ذلك.

والفتيا التي وقعت في هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة، وما يخالف في ذلك إلا رعاع لا يعبأ الله

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

بهم، وهو الحق الذي لا يجوز دفعه، والصواب الذي لا يمكن رفعه. ولو حضر العلماء مجلس السلطان لعلم صحة ما أقول، والسلطان أقدر الناس على تحقيق ذلك. وقد كتب الجماعة خطوطهم بمثل ما قلته، وإنما سكت من سكت في أول الأمر لما رأوا من غضب السلطان. ولولا ما شاهدوه من غضب السلطان لما أفتوا أولاً إلا بما رجعوا إليه آخراً. ومع ذلك فيكتب ما ذكرته في هذه الفتيا وما ذكره الغير، ويبعث إلى بلاد الإسلام ليكتب فيها من يجب الرجوع إليه ويعتمد في الفتيا عليه. ونحن نحضر كتب العلماء المعتبرين ليقف عليها السلطان.

وبلغني أنهم ألقوا إلى سمع السلطان أن الأشعري(١) يستهين بالمصحف. ولا خلاف بين الأشعرية وجميع علماء المسلمين أن تعظيم المصحف واجب. وعندنا أن من استهان بالمصحف أو بشيء منه فقد كفر، وانفسخ نكاحه، وصار ماله فيئاً للمسلمين، وتضرب عنقه، ولا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، بل يترك بالقاع طعمة للسباع. ومذهبنا أن كلام الله سبحانه وتعالى قديم أزلي قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق ولا يتصور في شيء من صفاته أن يفارق ذاته، إذ لو فارقته لصار ناقصاً، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وهو مع ذلك مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالألسنة، وصفة الله القديمة ليست بمداد الكاتبين ولا ألفاظ اللافظين. ومن اعتقد ذلك فقد فارق الدين وخرج عن عقائد المسلمين بل لا يعتقد ذلك إلا جاهل غبي، وربنا المستعان على ما تصفون.

وليس رد البدع وإبطالها من باب إثارة الفتن. فإن الله سبحانه وتعالى أمر العلماء بذلك، وأمرهم ببيان ما علموه. ومن امتثل أمر الله ونصر دين الله لا يجوز أن يلعنه رسول الله.

وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس: فأصول الدين ليس فيها مذاهب فإن الأصل واحد، والخلاف في الفروع.

ومثل هذا الكلام مما اعتمدتم فيه قول من لا يجوز أن يعتمد قوله. والله أعلم بمن يعرف دينه ويقف عند حدوده.

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن. مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم. توفي ببغداد سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٦ م.
ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨٧، ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري ص ١٢٨ ـ ١٤٠.

وبعد ذلك فأنا نزعم أنا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده. وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي.

وأما ما ذكر من أمر باب السلامة، فنحن تكلمنا فيه بما ظهر لنا من أن السلطان الملك العادل، تغمده الله برحمته، إنما فعل ذلك إعزازاً للدين ونصرة للحق. ونحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر(١)، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

وكتب الشيخ هذا الجواب مسترسلاً بحضرة رسول السلطان، ودفعه إليه. فلما قرأه السلطان اشتد غضبه، وأرسل إليه أستاداره غرس الدين خليلاً برسالة، وكان غرس الدين يحب الشيخ ويعتقده، فحضر إليه وجلس بين يديه، وتلطف به واستأذنه في أداء الرسالة، فقال: أدها كما قيلت لك.

فقال: يقول لك السلطان: «إنا قد شرطنا عليك ثلاثة شروط، أحدها: ألا تفتي، والثاني: ألا تجتمع بأحد، والثالث: أن تلزم بيتك». فقال له: إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ، المستوجبة للشكر لله تعالى على الدوام. أما الفتيا: فإني والله كنت متبرماً بها وأكرهها. وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم. ولولا أني كنت أراها متعينة عليّ لما أفتيت. والآن فقد سقط عني الوجوب وتخلصت ذمتي ولله الحمد والمنة. وأما ترك اجتماعي بالناس ولزومي لبيتي: فهذا من سعادتي لتفرغي لعبادة الله تعالى. والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله تعالى إليّ أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان. والله لو كان عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعتها(٢) عليك ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة صلِّ عليها فقبلها الحاجب وقبّلها، وانصرف إلى السلطان وقصَّ عليه ما قاله الشيخ. فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة، أتركوه، بيننا وبينه الله.

وبقي على ذلك ثلاثة أيام، إلى أن ركب الشيخ العلامة جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية حماره وتوجه إلى القلعة، وكان معظماً عند السلطان وقد جمع العلم والعمل، فلما بلغ السلطان وصوله إلى القلعة أرسل خواصه يتلقونه، وأمرهم أن يدخلوا به إلى داره على حماره ففعل. ولما رآه السلطان وثب إليه وتلقاه، وأنزله عن حماره وأجلسه على تكرمته واستبشر به. وكان ذلك عند غروب الشمس. فلما أذّن

(١) في الأصل: السراير.
(٢) لخلعته، والتصحيح يقتضيه السياق.

المؤذن وصلُّوا المغرب قدّم السلطان إليه شراباً وناوله إياه بيده. فقال: ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك. فقال: يرسم الشيخ ونحن نمتثل أمره. فقال: أي شيء بينك وبين ابن عبد السلام؟ هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر الملوك. قال: عندي خطه باعتقاده في فتيا، وخطه أيضاً في رقعة جواب، رقعة سيرتها إليه. فيقف الشيخ عليهما ويكون الحكم بيني وبينه. ثم أحضر الورقتين، فقرأهما الشيخ وقال: هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ونفس المؤمنين، وكل ما فيهما صحيح، ومن خالف ما فيهما وذهب إلى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار. فقال السلطان: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارط في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء.

وأرسل إليه واسترضاه، وطلب محاللته ومخاللته. وتقدم السلطان إلى الفريقين بالإمساك عن الكلام في مسألة الكلام وألا يفتي أحد فيها بشيء سداً لباب الخصام.

ثم وصل السلطان الملك الكامل إلى دمشق. وكانت الواقعة قد اتصلت به، فرام الاجتماع بالشيخ فاعتذر إليه، فطلب أن يكتب له صورة الواقعة مستقصاة، فأمر ولده الشيخ شرف الدين أن يكتب ذلك من أوله إلى آخره ففعل. وأرسله إلى الملك الكامل فقرأه وكتمه. ثم سأل أخاه الملك الأشرف عن الواقعة. فقال: منعت الطائفتين من الكلام في المسألة، وانقطع بذلك الخصام. فقال له السلطان الملك الكامل: ليست هذه سياسة حسنة، تساوي بين أهل الحق والباطل، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأمرهم أن يكتموا ما أنزل الله إليهم. كان الطريق أن تمكن أهل السنة أن يلحنوا بحجججهم وأن يظهروا دين الله، إلى غير ذلك من الكلام. وتحقق الملك الأشرف صحة ما قاله الشيخ وصرح بخجله منه، وصار يترضاه، ويعمل بفتاويه، ويأمر أن يقرأ عليه تصانيفه الصغار مثل: الملحة في اعتقاد أهل الحق، ومقاصد الصلاة، وكرر قراءتها عليه في يوم ثلاث مرات.

واستمر الحال على ذلك إلى أن مرض الملك الأشرف مرضة [موته][1] وأرسل أكبر أصحابه إلى الشيخ وقال: قل للشيخ محبك موسى بن العادل أبي بكر يسلم عليك ويسألك أن تعوده وتدعو له وتوصيه بما ينتفع به غداً عند الله تعالى. فأبلغه الرسول الرسالة، فتوجه إلى السلطان فسر برؤيته، وقال له: اجعلني في حل، وادع لي، وأوصني، وأنصحني: ففعل الشيخ ذلك، وتحدث معه في أشياء منها: إبطال

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

المنكرات بدمشق، فأمر بإبطالها، وتولى الشيخ إزالة بعضها بنفسه، وأطلق السلطان له ألف دينار عيناً، فردها عليه: هذه اجتماعة لله تعالى، لا أكدرها بشيء من الدنيا. ثم مات الملك الأشرف إثر ذلك.

ولما حضر الملك الكامل إلى دمشق وانتزعها من أخيه الصالح إسماعيل كما تقدم، حضر الشيخ إلى مجلس السلطان فأكرمه، وفوّض إليه تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق ثم فوض إليه قضاء القضاة بعد ذلك بدمشق. فاشترط شروطاً كثيرة ولم يله. وقيل إنه تولاه مدة يسيرة وعزل نفسه.

ثم كانت واقعة مع الملك الصالح عماد الدين إسماعيل [بن العادل][١] صاحب دمشق [عندما أذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح... فأفتى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج... وكان الصالح غائباً عن دمشق فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام. وولي خطابة[٢]] دمشق، بعد عز الدين بن عبد السلام، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار.

فلما سلم الملك الصالح صفد والشقيف وغير ذلك للفرنج وصالحهم، كما تقدم، امتنع [الشيخ ابن عبد السلام][٣] من الدعاء له على المنبر الجامع بدمشق فكان من خبر عزله واعتقاله وخروجه من الشام ووصوله إلى الديار المصرية وولايته الخطابة بجامع عمرو بن العاص بمصر، والقضاء بمصر والوجه القبلي، وعزله نفسه مرة بعد أخرى، وغير ذلك من أحواله ما قدمناه في أخبار الدولة الصالحية النجمية.

ولم يزل الشيخ، رحمه الله تعالى، معظماً عند الملك الصالح وغيره من الملوك بعده بالديار المصرية يرجعون إلى رأيه ويعتمدون على فتاويه، ويقف الأكابر عند أوامره إلى أن ملك السلطان الملك الظاهر فزاد في تعظيمه وإكرامه وبره، واستشاره في ابتداء دولته فيما يفعله مما فيه صلاح دولته، فقال له: إن الدولة لا تقوم إلا بأمرين؛ أحدهما: قيام الشرع الشريف. والثاني: تحصيل الأموال من وجوهها، ولا أرى لمنصب القضاء مثل تاج الدين عبد الوهاب، يريد ابن بنت الأعز، وللوزارة مثل بهاء الدين علي. فرجع السلطان إلى رأيه وتمسك بقوله، وفوض المنصبين لهما، فقام كل منهما في منصبه أحسن قيام. وحمدت عاقبة هذه الولاية، وشكر سداد هذا الرأي.

ولما توفي الشيخ، رحمه الله تعالى، تألم السلطان لفقده، وشيع جنازته أمراء

(١) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٤.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٤.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٠٤.

الدولة وأكابرها، وحملوا نعشه إلى أن وضع في قبره، رحمه الله تعالى.

وهذا الذي أوردته من أخبار الشيخ في مسألة الكلام نقلته من خط ولده الشيخ شرف الدين محمد، رحمه الله تعالى. وفضائله ومناقبه، رحمه الله تعالى، كثيرة، وقد أتينا منها بما يدل على مجموعها.

وفيها: أيضاً توفي الصاحب كمال الدين[١] عمر، ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي الحسن أحمد بن هبة الله[٢] بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة الحنفي المعروف بابن العديم الحلبي[٣]، كان فاضلاً أديباً شاعراً كاتباً رئيساً مؤرخاً، وكانت وفاته بمصر في العشرين من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة، ودفن بسفح المقطم، ومولده بحلب في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

واستهلت سنة إحدى وستين وستمائة[٤]

ذكر البيعة للإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد العباسي[٥]

كان وصوله إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة فتلقاه السلطان وأكرمه وخدمه، وأنزله بقلعة الجبل، وأدر عليه النفقات، ثم بايعه في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة على ما قدمنا ذكره في أخبار الدولة العباسية.

ذكر القبض على الملك المغيث صاحب الكرك واعتقاله[٦]

كان القبض على الملك المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأول سنة إحدى وستين وستمائة. وذلك أن السلطان توجه من قلعة الجبل المحروسة لقصد الشام في سابع شهر ربيع الآخر من السنة،

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٦. يكنى بأبي قاسم.

(٢) في السلوك ورد بعد أحمد بن هبة الله: محمد بن هبة الله، المقريزي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٦.

(٣) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين بن العديم، مؤرخ، محدث، من الكتّاب، ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين، والحجاز والعراق. وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٢، ص ١٠٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٨، اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٥٨.

(٤) يوافق أولها يوم الأربعاء ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٦٢ م.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩.

(٦) المقريزي: المصدر نفسه ج ١، ص٤٨١ ـ ٤٨٢.

وخيم بظاهر القاهرة إلى أن تجهز الناس، ورحل في حادي عشر الشهر فوصل إلى غزة المحروسة فوجد والدة الملك المغيث بها، فأحسن إليها وأنعم عليها، وأعطاها شيئاً كثيراً، وحصل الحديث معها في حضور ولدها [إلى السلطان](١)، وتقررت الأمور سراً ولم يعلم أحد بما تقرر، وأعاد عليها العطاء والإنعام وعلى كل من حضر معها، وتوجهت وصحبتها الأمير شرف الدين الجاكي المهندار(٢)، برسم تجهيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر من الكرك.

ونظر السلطان في أمر أمراء التركمان وخلع عليهم. وأحضر أمراء [العربان من](٣) العايد وجرم وثعلبة وضمنهم البلاد وألزمهم [القيام](٤) بالعِداد(٥) [وشرط عليهم إقامة خيل البريد في المراكز](٦).

ثم سار من غزة ونزل الطور(٧)، في ثاني عشر جمادى الأول. وسير الملك الأشرف صاحب حمص إلى السلطان يلتمس الإذن له في الحضور إلى الخدمة فأذن له، فحضر في نصف الشهر فتلقاه السلطان وأحسن إليه. وصارت رسل الملك المغيث تتوالى إلى السلطان وهو ينعم عليهم. وخرج [إليه](٨) الملك المغيث من الكرك وأقام مدة في الطريق. وأظهر السلطان من الاحتفال بأمره شيئاً كثيراً وخدعه أعظم خديعة. ولما وصل الملك المغيث إلى بيسان ركب السلطان لتلقيه فالتقاه وساق الملك المغيث إلى جانبه، فلما وصل إلى باب الدهليز ترجل ودخل إلى الخيمة فأدخل إلى خركاة(٩)

---

(١) إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ٧، نقلاً عن مفرِّج الكروب لابن واصل، ص ٤١٢ ب.

(٢) هكذا بالأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ٩ (المهمندار). والمهمندار، يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ١١.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١، س ١١.

(٥) العِدَاد هنا، زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطعان القبائل العربية والتركمانية .Quatremère: Op. cit, V 1, P 189, N°"69.
وانظر: قاموس المحيط للفيروزابادي، مادة: عدد.

(٦) ما بين المعكوفين وردت هكذا في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨١. «وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه».

(٧) الطور في كلام العرب الجبل، والطور هو الجبل المشرف على نابلس ويعتقد اليهود أن إبراهيم (ع) أُمر بذبح ابنه إسماعيل (ع) فيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧.

(٨) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٢.

(٩) الخركاه: هي كالبيت، تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه، وتحمل في =

واحتيط عليه وعلى أصحابه. وكان السلطان قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق والعلماء وأظهر أن ذلك لمبايعته، ولم يطلع أحد على غير ذلك. فلما وقعت الحوطة على الملك المغيث أحضر السلطان الملوك والأمراء وقاضي القضاة والشهود والأجناد ورسل الفرنج وأخرج كتباً من جهة العدو المخذول إليه. وقال الأتابك لمن حضر: «السلطان يسلم عليهم ويقول ما أخذت الملك المغيث إلا بهذا السبب». وقرئت الكتب. وانصرف الملك الأشرف ومن حضر. وقال للقاضي وجماعة العلماء: ما طلبتكم إلا بهذا السبب. وكتب مكتوب بصورة الحال، وكتب فيه القاضي والجماعة. ثم جهز الملك الأشرف وركب السلطان لوداعه.

وفي اليوم الذي قبض فيه على الملك المغيث جلس السلطان بعد انقضاء المجلس وأمر بالكتب إلى الكرك: يعد من فيها بالإحسان، ويحذرهم عاقبة مخالفته.

وسير الأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير عز الدين أيدمر الظاهري أستاد الدار العالية[١] إلى جهة الكرك وجهز الخلع والأموال ليلحقهما بها[٢]، وجهز الملك المغيث عشية النهار إلى الديار المصرية صحبة من أختاره لذلك، وأطلق أهله وحاشيته، وسير حريمه إلى مصر وأطلق لهم الرواتب.

وكان من خبر وفاة الملك المغيث ما قدمناه في أخباره، رحمه الله.

وفي هذه المنزلة[٣] وصلت رسل دار الدعوة ومعهم الهدايا ووصل ولدا[٤] الصاحبين مقدمي الدعوة، فأحسن السلطان إليهما وتوجها.

وفيها: أغار السلطان على عكا، وكان من أخبار الفرنج ما نذكر إن شاء الله تعالى في غزوات السلطان وفتوحاته.

ولما رجع السلطان من الغارة توجه إلى نحو الكرك، وكان رحيله من منزلة الطور في يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة من السنة. وجرد صحبته جماعة من العسكر وطائفة أخرى صحبة الأمير علاء الدين أمير جاندار إلى الصالحية[٥]. ووصل

= السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨؛ Dozy: Suppl. V 1, P 366.

(١) استادار العالية: من الوظائف العسكرية. والاستادار لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٨١.

(٢) هكذا في الأصل، وهي كلمة عامية.

(٣) المقصود (منزلة الطور) حسب سياق الكلام.

(٤) في الأصل ولد بالمفرد، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) قرية قرب الرُّها من أرض الجزيرة، ويقال قرب الرّقّة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

السلطان إلى القدس الشريف في يوم الجمعة، فزار تلك الأماكن الشريفة وعاين ما يحتاج إليه من العمارة، وكتب إلى دمشق بتجهيز جميع ما يحتاج إليه من الأصناف والصناع. ثم صلى الجمعة، وتصدق وكتب بحماية الأوقاف، وتوجه نحو الكرك.

ذكر أخذ الكرك[١]

وفي يوم الخميس ثالث وعشرين جمادي الآخرة سنة إحدى وستين وستمائة نزل السلطان على الكرك وصحبته العساكر، وأحضرت السلاليم الخشب من الصلت وغيرها. وكان السلطان قد استصحب من الديار المصرية جماعة من الحجارين والبنائين والنجارين والصناع على أنه يبني الطور، وأحضر جماعة من دمشق وغيرها وسيروا إلى عين جالوت[٢]، وأشاع أن ذلك لبناء جامع، ولم يكن ذلك إلا لأجل الكرك. وعزم على الطلوع إليها بنفسه. فخاف أهل الكرك، ونزل أولاد الملك المغيث، وقاضي المدينة، وخطيبها وجماعة من أهلها، ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة، وطلبوا العوض فحلف السلطان على ما طلبوا وأرضاهم بالعطاء، وسير الأمير عز الدين أيدمر أستاد الدار، والصاحب فخر الدين [محمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا][٣] لتسلم الحصن. فطلعا في ليلة الجمعة وقت المغرب وتسلماه. ودعي للسلطان في بكرة الجمعة على أسوارها، ونصبت الصناجق السلطانية على أبراجها. وأصبح السلطان وطلع إلى الحصن في الثالثة من نهار الجمعة وجلس في القاعة الناصرية ورتب أحوال الحصن، واهتم بأمره، وعين للقلعة خاصاً، وأعطى أولاد الملك المغيث جميع ما حواه الحصن من مال وقماش وأثاث، وكذلك سائر غلمانهم وجميع الأمراء والمغادرة والأجناد، ولم يتعرض لأحد منهم في[٤] شيء، ونزلوا جميعهم في ذلك النهار، وصلى السلطان بها الجمعة وخطب له. ونزل وقت المغرب.

وفي يوم الأحد، سير إلى الملك العزيز ولد الملك المغيث الخلع والقماش، وكذلك [إلى][٥] الطواشي بهاء الدين صندل والأمير شهاب الدين بن صعلوك أتابكه[٦].

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.

(٢) بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. كان الروم قد استولوا عليها مدة، ثم استنقذها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٧.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.

(٤) في الأصل (إلى) والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٦) الأتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين: وهما: أطا بمعنى الأب، وبك: بمعنى أمير. وأصله =

وكتب السلطان إلى الشام بحمل الغلال والذخائر والأصناف إليها. وطلع إليها يوم الاثنين وكتب المناشير لعربانها ومن بها. وكانت تزيد على ثلثمائة منشور في وقت واحد، وعلم عليها، وثبتت، وسلمت لأصحابها بعد تحليفهم بين يدي السلطان، كل هذا في بعض يوم. وجرد السلطان بها جماعة من البحرية والظاهرية، واستناب الأمير عز الدين أيدمر أستاذ الدار بالكرك، وأضاف إليه النظر على الشوبك[1] وأعمالها. وحلف مقدمي المدينة وحلف نصارها على الإنجيل. وحمل ما كان معه إلى الحصن من الزردخاناه[2] والأغنام والشعير وغير ذلك من سائر الأصناف والأقمشة وسبعين ألف دينار عيناً، ومائة ألف وخمسين ألف درهم، وأعطى الأمير عز الدين أستاذ الدار ثلاثين ألف درهم، وجملة من القماش.

وتوجه السلطان إلى القاهرة في يوم الأربعاء [تاسع عشر جمادى الآخرة][3] فكان دخوله إليها في سابع عشر رجب، وزينت المدينة أحسن زينة. وشق السلطان المدينة، وخلع على الأمراء والمقدمين والمغادرة وجميع حاشيته وغلمانه وأمّر ولد الملك المغيث الأكبر: مائة فارس.

ذكر القبض على الأمراء وهم: الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي والأمير شمس الدين أقش البرلي والأمير عز الدين الدمياطي، وما نقل من الأسباب الموجبة لذلك[4]

وفي شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين وستمائة، قبض السلطان على الأمراء

=
أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشان ألب أرسلان، كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم، على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به. فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبويه، ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً. وكان يسمى أتابك العساكر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ١٨٤، حاشية رقم (٦)، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٤٦، حاشية رقم (١)، وانظر دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أتابك.

(١) قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة، قرب الكرك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) الزردخاناه: دار السلاح. وهي كلمة فارسية مركبة، وهي تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح وغير ذلك. وتعني أيضاً السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ١١.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٩٣.

المذكورين واعتقلهم. وسبب ذلك أن السلطان كان قد أحسن إليهم إحساناً عظيماً. وكان مما اعتمده مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي أنه فوض إليه أمر المملكة، وأنفذ كلمته، وأطلق له في كل جمعة خوانين من عنده يمدان بجميع ما يحتاج إليه حتى ماء الورد، إلى غير ذلك. ورتب له في كل شهر كَلُّوتَتَين(١) زركشاً بمائة دينار عيناً، وكلبنداتها(٢)، كل كلبند بأربعين ديناراً. كل ذلك زيادة على الإقطاعات العظيمة والمرتبات الكثيرة، وعلى الإنعام، حتى جامكيات البزدارية(٣) والفهادين(٤) وعليق خيلهم. واشتغل الرشيدي بالشرب واللهو.

وأما الأمير عز الدين الدمياطي(٥) فإن السلطان أعطاه وزاده، ومن جملة ما كان بيده نصف مدينة غزة زيادة، وكتب له توقيعاً أنه إذا سافر في جميع المملكة لا يمنع شيئاً يطلبه في الشام من غزة إلى الفرات.

وأما الأمير شمس الدين البرلي فقد تقدم ما عامله به عند وصوله واستمر ذلك إلى آخر وقت.

ثم بلغ السلطان أن الرشيدي قد فسدت نيته فجعل عليه عيوناً، تحفظ جميع ما يجري منه، فكان مما أنكر السلطان عليه أن الأمير أسد الدين أستاد دار الملك المغيث أخبر السلطان أن كتاب الرشيدي وصل إلى الملك المغيث يقول له لا تحضر، فإن السلطان يريد أن يمسكك. وكان جواب السلطان: «إن كان الملك المغيث قد حلف للرشيدي فلا يحضر، وإن كان حلف لي فيحضر». ولم يظهر للرشيدي شيئاً من ذلك. ولما سير السلطان الأمير بدر الدين بيسري الشمسي إلى الكرك كتب إلى السلطان يقول: «إنني أمسكت كتاباً من الرشيدي بالكرك يقول: «لا تسلموها»، ويحسن لهم

---

(١) هذا اللفظ مثنى كلوتة، وهي غطاء الرأس تلبس وحدها، أو بعمامة، وتجمع على كلوتات وكلاوات. وتسمى أيضاً كلفة وكلفتاة وكلفتة، ويقابلها في الفرنسية لفظ (Calotte). انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ١٢، ص ٩٨، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٤، ص ٥ ـ ٦ :Dozy Supp. Dict. Ar.

(٢) ترجم (Quatremère) هذا اللفظ إلى (Turban) أي عمامة. غير أن المفهوم من سياق العبارة أن الكلبند هذا، كان جزءاً من غطاء الرأس، سواء أكان عمامة أو كلوتة. Quatremère: op. cit, V 1, p 211.

(٣) البزدارية: جمع بزدار أو بازدار. والبازدار هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٦٩.

(٤) الفهادة: هم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود.

(٥) عن السلوك للمقريزي، ج١، ص٤٩٣، أنه عز الدين أيبك الدمياطي.

التوقف عن التسليم ويعرض عليهم الاتفاق معه على أن يحضر هو ويتسلمها منهم ويحفظها لهم، فكتم السلطان ذلك وأمر الأمير بدر الدين بيسري بالاحتراز والتحفظ. ولما توجه السلطان إلى الكرك جعل على الرشيدي عيوناً، فبلغ السلطان أنه لما نزل الكفرين ونمرين قصد الركوب في أصحابه ومماليكه ويسبق[١] إلى الكرك فيدخلها هجماً. فركب السلطان إليه ونزل عنده ولاطفه ومازحه، ففاته ما دبره، وحفظ السلطان عليه الطرقات، ثم نزل السلطان بركة زَيْزَاء، فبلغه أن الرشيدي قد عزم على الركوب إلى الكرك، فخدعه السلطان بأن أرسل إليه أحد خواصه يبشره بتسليم الكرك. فلما سمع الرشيدي ذلك وقف عن فعله وخلع على المبشر. فلما رجع السلطان من الكرك ونزل غزة قام ليسبغ الوضوء على العادة، وتفرقت الخاصكية[٢] للوضوء والتهيؤ لصلاة الجماعة. وقام السلطان يتركع قبل الأذان، وإذا بالرشيدي قد أقبل في مقدار ثلاثمائة فارس مستعدة من مماليكه والدمياطي والبرلي، فلما قضى السلطان صلاته شد سيفه، وقال للأمير شمس الدين سنقر الرومي: ما الذي رأيت؟ فقال: «جماعة ما جاؤوا في خير». ثم حضر الأمير سيف الدين قلاون الألفي وركب فرساً جيداً ووقف، واجتمعت الخاصكية. وركب السلطان، وأتى الرشيدي، فوقف بالقرب من السلطان في مكان ما جرت عادته بالوقوف فيه، فحضر الأمير عز الدين إيغان الركني فقال للرشيدي: «أراك في هذا المكان، ما هذا مكانك يا سيف الدين» ومازحه وما زال به حتى ساق من ذلك المكان، وساق الدمياطي والبرلي وتفرقوا. وكان الدمياطي قد جرت منه قضية أخرى وهي أن السلطان لما ملك الكرك وأنزل أولاد الملك المغيث أعطاهم السلطان خلعاً وأقمشة وإنعاماً كثيراً وأنزلهم في المنظرة التي في الوادي تحت الكرك بقرب منزلة السلطان: سير الدمياطي ضَوَّاءً[٣] وجماعة يمشون حولهم بغير أمر السلطان، ثم حضر في الليل إليهم جماعة من مماليكه بالسيوف متلثمين فكسروا الصناديق وأخذوا القماش الذي كان السلطان أنعم عليهم به ظناً منهم أن تقوم فتنة وشوشة في العسكر ولا يعلم أنهم مماليك الدمياطي، فكشف الله ذلك، وظهر القماش عند خواص مماليكه، واطلع السلطان على ذلك، وتحدث الأمير شجاع الدين المهندار مع الدمياطي فما أنصف من مماليكه، وقال: «أنا أغرم عنهم»، وأحضر بعض القماش، وقرر أن تقوم بدارهم عن بقية ذلك. هذا والسلطان لا يتكلم بكلمة بل كتم ذلك إلى أن استقر بقلعة الجبل فلما

---

(١) في الأصل: وبسبق، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته، ويسوقون المحمل الشريف. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٦.

(٣) من طائفة: الضوية أو المشاعلية أو أرباب الضوء.

أصبح طلب الرشيدي فاعتقله، وطلع الأمراء إلى الخدمة في اليوم الثاني، فأمسك الدمياطي والبرلي وأحسن إلى مماليكهم وخواصهم وأقرهم على أخبازهم، ولم يغير على أحد منهم ولا تعرض على بيوت الأمراء.

ذكر وصول [رسل][١] الملك بركة

قال: ولما وصل السلطان إلى غزة عند عوده من الكرك، وصل إليه البريد من الأمير عز الدين الحلي نائب السلطنة بالديار المصرية، يذكر أن رسل الملك بركة وصلوا إلى ثغر الإسكندرية، وهم الأمير جلال الدين بن القاضي، والشيخ نور الدين علي ومعهما جماعة، وبخبر بوصول رسل الملك الأشكري، ورسل مقدم الجَنَوِية[٢]، ورسل السلطان عز الدين صاحب الروم. فكتب بالإحسان إلى جميعهم. ولما استقر السلطان بقلعة الجبل أحضرهم واجتمع بهم بحضور الأمراء وغيرهم، وقرئت الكتب ومضمونها؛ السلام والشكر وطلب الإنجاد على هولاكو والإعلام بما هو عليه من مخالفة[٣] يسق جنكزخان، وأن جميع ما فعله من إتلاف النفوس بطريق العدوان منه، وأنني قد قمت أنا وأخوتي الأربعة بحربه من سائر الجهات لإقامة منار الإسلام، والتمس إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هولاكو، ويوصي على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته. فأنعم السلطان على الرسل إنعاماً عظيماً، ورسم بتجهيز الهدية إلى الملك بركة.

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر: وكان في جملة الهدية ختمة شريفة ذكر أنها خط عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونمزلقات[٤]، وسجادات وذكر أشياء كثيرة من جملتها زرافة، وسافرت الرسل في سابع عشر شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمائة.

ذكر توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية[٥]

وفي سادس شوال سنة إحدى وستين وستمائة، توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية، وذلك بعد أن توجه نحو الصيد وتصيد. وكان دخوله إلى الثغر في يوم

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩٥.
(٢) الجنوية: أهل مدينة جنوة، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٥.
(٣) اليسق: هي القوانين المنسوبة إلى جنكيزخان.
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

الأربعاء مستهل ذي القعدة، ودخل من باب رشيد. ورسم بمكتوب برد مال السهمين، وصلة أرزاق الفقراء، ووضع المظالم، ثم لعب الكرة، وخلع على الأمراء ووصلهم بالأموال والأقمشة. وركب لزيارة الشيخ القباري[١] والشاطبي وجلس بدار العدل في يوم الخميس تاسع الشهر وبسط المعدلة وأمر بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات. ثم رجع السلطان في حادي عشر الشهر.

وفي آخر ذي العقدة من السنة نزل السلطان إلى القاهرة، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير علاء الدين أيدغدي الركني والأمير حسام الدين بركة خان.

وفي ليلة الأربعاء الخامس من ذي الحجة توفي الأمير حسام الدين المذكور، فحضر السلطان جنازته ومشى فيها.

ذكر وصول التتار المستأمنين[٢]

وفي سابع ذي القعدة من السنة، وردت الكتب من البيرة وحلب أن جماعة من التتار مستأمنة واردة إلى الباب العزيز، يزيدون على ألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية. فكتب السلطان بالإحسان إليهم وتجهيز الإقامات لهم. وفي يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة كان وصولهم، فركب السلطان وتلقاهم، فنزلوا عندما رأوا السلطان، وقبلوا الأرض. وكان السلطان قد رسم بعمارة مساكن لهم فعمرت باللوق فنزلوها، وأحسن إليهم. ثم وردت الكتب بقدوم جماعة أخرى كثيرة منهم، فاحتفل بهم وركب لتلقيهم، ثم ورد جماعة أخرى فاعتمد معهم من الإحسان نظير أولئك. وكان الواصل إلى الخدمة في هذه الثلاث مرار من أكابر أمرائهم من يذكر. وهم: كرمون أغا، وهو الذي فتح بلاد الترك جميعها، وامتغا أغا[٣] ونوكا أغا[٤]، وجبراك[٥] أغا، وقنان أغا، وطيشور، وناصغبة[٦] ونبتو، وصجتي[٧]

---

(١) هو الشيخ المعتقد محمد بن منصور بن يحيى، أبي القاسم القبّاري، والقبّاري: نسبة إلى قبّار (Fossoyeur) وهو الرجل الذي يتولى حفر القبور ودفن الأموات. انظر: ..Dozy: Supp. Dict. وفي محيط المحيط أن «القبار هم عمال الصيد الذين يجتمعون لجر ما في الشباك من الصيد». وانظر المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٩٩.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠١.

(٣) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «إمطغية».

(٤) في السلوك، ج١، ص ٥٠١، «نوكيه».

(٥) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «جبرك».

(٦) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «ناصعيه».

(٧) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «صحبي».

وجوجلان، واجقرقا، وأرقدق(١)، وصلاعنة(٢) وميقتدم(٣)، واجتمعوا بمن كان قد وصل قبلهم وهم: صراغان أغا ومن كان قد وصل معه. ثم عرض السلطان عليهم الإسلام فأسلموا على يديه.

وفي هذه السنة أمر السلطان [بعمل جامع خام](٤) يضرب على يمنة الخيمة السلطانية، وعمل له محاريب وعدة أبواب ومقصورة برسم السلطان.

وفيها: أمر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل، وتجديد بنائها.

وفيها: وصلت رسل اليمن بتقادم ومعهم هدايا لخواص الأمراء، فأمر السلطان بإنفادها إلى من عينت له وأذن لهم في قبولها.

وفيها: عرض السلطان العساكر، وكان يجلس لذلك في كل خميس واثنين.

وفيها: جهز السلطان عرب خفاجة، وسير الخلع إلى كبراء العراق، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره بالإغراء بهولاكو.

وفيها: توفي الأمير فخر الدين(٥) أبو الهيجا بن عيسى بن خشترين الأزكشي الكردي أحد الأمراء بدمشق، وكان شجاعاً أبل في وقعة عين جالوت بلاء حسناً، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس ابن(٦) الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن(٧) الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بنابلس في خامس عشر ذي الحجة سنة إحدى وستين وستمائة، ومولده بدار الوزارة بالقاهرة في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وهو الذي كان قد ملك الديار المصرية في أيام الملك المعز عز الدين أيبك كما تقدم.

فلما ملك السلطان الملك الظاهر أمّره بالشام، وخلف، رحمه الله، ولداً اسمه ناصر الدين محمد، ونعته بالملك الكامل.

---

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠١ «ارقرق».
(٢) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «صلاغية».
(٣) في السلوك، ج ١، ص ٥٠١ «متقدم».
(٤) ما بين حاصرتين في السلوك، ج ١، ص ٥٠١: «بعمل جامع من الثياب المفصلة».
(٥) في السلوك، ج ١، ص ٥٠٢ «مجير الدين».
(٦) في الأصل بن والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) في الأصل بن والتصحيح يقتضيه السياق.

واستهلت سنة اثنتين وستين وستمائة(١)

ذكر تفويض أمر جيش حماة إلى الطواشي شجاع الدين مرشد الحموي

وفي أول هذه السنة طلب السلطان الطواشي المذكور [إلى قلعة الجبل](٢) وتحدث في اشتغال(٣) صاحب حماه مخدومه بالملاذ واللهو، وقال: «كتب إليه أو نبهته من هذه الغفلة، وسيرت إليه شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ في ذلك فما أفاد، وقد اعتمدت عليك في مصلحة هذا البلد، لما فيك من الديانة والخير والشجاعة»، وألزمه بتكملة الجيش وإلزام الجند بإقامة البرك والعدة الكاملة. فالتزم بهذه الأمور. وكتب تقليده بذلك وتوجه.

ذكر عمارة المدرسة الظاهرية وترتيب الدروس(٤)

كان الشروع في عمارة المدرسة الظاهرية التي هي بالقاهرة المحروسة بين القصرين في ابتداء الدولة في ثامن شهر ربيع الآخر سنة ستين وتنجر بابها ودهليزها وأبوابها وكتاب السبيل في أواخر شعبان من السنة المذكور. ولم يشرع في بنائها حتى رتب أمور أوقافها. وكان المتولي عمارتها الأمير جمال الدين بن يغمور، ورسم له السلطان ألا يستعمل أحداً فيها بغير أجرة. وكان اجتماع أهل العلم بها في يوم الأحد الخامس من صفر سنة اثنتين وستين وستمائة. وفوض السلطان تدريس الحنفية للصدر مجد الدين بن الصاحب كمال الدين بن العديم، وتدريس الشافعية للقاضي تقي الدين ابن رزين. وصدر الاقراء للفقيه كمال الدين المحلي، والتصدر لإفادة الحديث النبوي للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي شيخنا. وذكرت الدروس بها في هذا اليوم، وحضر السلطان، ومدت الأسمطة وأنشد الشعراء وخلع عليهم.

وفي صفر من سنة، خرج السلطان متصيداً إلى جهة الغربية وتوجه إلى ثغر دمياط(٥) وزار البرزخ ومر في عوده ببلاد أشموم(٦) [وسار من المنزلة إلى الشرقية.

---

(١) يوافق أولها يوم الأحد ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٦٣.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٣.

(٣) يصف المقريزي، صاحب حماه «أنه مخدوم الطواشي» السلوك، ج ١، ص ٥٠٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٠٤.

(٥) دمياط: مدينة قديمة بين تنّيس ومصر. وهي ثغر من ثغور الإسلام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٥.

(٦) أُشمُوم: اسم لبلدتين بمصر، أُشمُوم طنّاح وهي قرب دمياط، وهي مدينة الدقهلية، والأخرى =

وفيه سأل الفرنج أن يؤذن لهم في زراعة ما بيدهم من بلاد الشام وتقويتها بجملة من الغلال، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام، وأذن لهم في ذلك فزرعوا][١]. وتصيد بمنزلة ابن حسون، وأخذ على بلاد الشرقية.

ذكر وفاة الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص والرحبة[٢]

وفي يوم الجمعة حادي عشر صفر من هذه السنة، توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن[٣] الملك المنصور إبراهيم ابن[٤] الملك المجاهد شيركوه ابن[٥] الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي [بن مروان][٦] رحمه الله تعالى. ولم يكن له ولد ولا أخ ولا ولي عهد، فسير السلطان إلى نوابه بتسليمها. فوصل البريد في سابع عشرين صفر بأن بدر الدين بيليك العلائي أحد الأمراء قد تسلما[٧]، وحلف الناس بهما[٨] للسلطان.

وفي هذا التاريخ ورد كتاب الأمير جمال الدين النجيبي النائب بدمشق يذكر أنه ولى حران للأمير جمال الدين الجاكي، والرقة لأمير آخر.

وفي هذا الشهر: سأل الفرنج نواب السلطان أنهم يأذنون لهم في زراعة البلاد وتقويتها من أموالهم وهي جملة كثيرة من الغلال، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد[٩].

وفي هذه السنة: ثُمِّن القرط[١٠] الذي قضمته الخيول السلطانية وجمال

= أشموم الجريسات بالمنوفية. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٠.

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥.

(٢) الرّحبة: قرية قرب القادسية على مرحلة من الكوفة. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣.

(٣)، (٤)، (٥) في الأصل (بن).

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥.

(٧) تسلمها أي ـ الرحبة ـ في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥.

(٨) بهما خطأ ظاهر، والصواب بها، انظر السلوك، ج ١، ص ٥٠٥.

(٩) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٥، وهذه الجملة وردت في شكل آخر. انظر الحاشية رقم (٣)، من صفحة ٩٤.

(١٠) القرط: هو البرسيم. انظر القاموس المحيط للفيروزابادي، مادة: قرط. وهو مترجم في: Dozy: Supp. Dict.. إلى الألفاظ الفرنسية: (Luzerne, foin, Fourrage).

المُناخات[(١)] فكان ثمنه خمسين ألف دينار[(٢)].

وفيها: استدعى السلطان الأمير علاء الدين الشهابي النائب[(٣)] بحلب وأمره أن يستنيب عنه الأمير نور الدين بن محلي[(٤)] ففعل ذلك. ولما وصل الملك إلى الأبواب السلطانية عزله السلطان عن نيابة حلب، وأقر الأمير نور الدين بن محلي في نيابة حلب فأحسن السيرة، وعمر البلاد وأعاد الفلاحين[(٥)]، وأفرد الخاص على ما كان عليه في الأيام الناصرية.

ذكر جلوس السلطان بدار العدل وما رتبه عند غلو الأسعار[(٦)]

قال: وفي شهر ربيع الآخر من السنة غلت الأسعار [بمصر] وبلغ ثمن الأردب إلى قريب المائة درهم نقرة. فرسم السلطان بالتسعير طلباً للرفق. فاشتد الحال وعدم الخبز. فأمر السلطان أن ينادي باجتماع الفقراء تحت القلعة، ونزل إلى دار العدل في يوم الخميس سابع الشهر، فأول ما تكلم فيه إبطال التسعير. ورسم أن يباع من الأهراء في كل يوم خمسمائة أردب بما يقدره الله من ويبتين فما دونها تباع على الضعفاء والأرامل. ونزل الحجاب تحت القلعة وكتبت أسماء للفقراء، وسير إلى كل جهة حاجباً لكتابة الأسماء في القاهرة ومصر وحواضرها، ولما تكامل حصر العالم أخذ السلطان ألوفاً، وأعطى لنواب ولده الملك السعيد كذلك، وأعطى لكل أمير جماعة على قدر عدته، وفرق على الأجناد ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية، [وعزل التركمان والأكراد البلدين][(٧)]، ورسم أن يعطى لكل فقير مؤونته مدة ثلاثة شهور، ويسلم نواب الأمراء والأكابر والتجار الفقراء. ثم قال السلطان: «هؤلاء الفقراء

---

(١) المناخات: جمع مُناخ، وهي هنا الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية، كالإصطبلات لأصناف الخيل. ومنها مناخ الجمال البخاتي ومناخ الجمال النفر ومناخ الهجن والنياق. وكانت هذه المناخات، وكذلك اصطبلات الخيل وغيرها من أنواع الحيوان، كالفيلة والسباع والفهود تابعة لإدارة الاصطبلات السلطانية. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٢٥، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٠٦.

(٣) هو الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي. المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٤٠.

(٤) هو نور الدين علي بن مجلي الهاكري. ويرد اسم (محلي) هنا في متن النويري دون نقط بالحاء المهملة. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٠.

(٥) المقريزي: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤٠.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٧) في السلوك، ج ١، ص ٥٠٧: «وعزل التركمان ناحية والأكراد ناحية».

جمعناهم في هذا اليوم، وقد انقضى نصف النهار فليعط كل منهم نصف درهم يتقوت به خبزاً، ومن غد يتقرر الحال». فأنفق فيهم جملة كثيرة بهذا القدر خاصة. وأخذ الصاحب جماعة العميان والأتابك [جماعة][١] التركمان، ولم يبق أحد من الخواص والحواشي وأرباب المناصب وغيرهم إلا أخذ جماعة. فانحطت الأسعار لذلك وكثر الخبز.

وفي ثالث شهر ربيع الآخر من السنة رسم السلطان بمسامحة بنات الأمير حسام الدين [لاجين][٢] الجوكندار العزيزي بما وجب للديوان في تركة أبيهن، [وكان قد مات بدمشق في رابع عشر المحرم، وهو مبلغ][٣] أربعمائة ألف درهم نقرة.

وفي هذه السنة، قصد متملك الأرمن حلب المحروسة مرة بعد أخرى، فلم يظفر بشيء، وخاب سعيه على ما نشرحه إن شاء الله في غزوات السلطان وفتوحاته.

وفيها: رسم السلطان بحفر خليج الإسكندرية، وكانت قد استدت فوهته، وندب لذلك الأمير عز الدين أمير جاندار فاهتم بذلك وحفر المكان المعروف بالنقيدي، وأمر ببناء مسجد هناك ليكون تذكرة باقية، وجهز الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستاد الدار العالية وأمره بالاهتمام بأمر جزيرة بني نصر لما بلغه قلة ريها، فاحتفل بها كل الاحتفال[٤].

وفيها: في جمادى الأول، تقدم أمر السلطان إلى الأمير سيف الدين بلبان الزيني أمير علم بالتوجه إلى الشام للاهتمام بأمر القلاع والبلاد وعرض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور، والنظر في المهمات الخاصة والعامة، وإلزام الأمراء بتكملة العدد والعدة[٥] وإزاحة الأعذار وأخذ الأهبة للجهاد، وكتب على يده إلى دمشق بحمل خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها، فتوجه لذلك.

وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة حصل الظفر بجاسوسين للتتار، وكانت أخبارهما وحلاّهما وصلت إلى السلطان من جهة القصاد والناصحين بالأردو، وكذلك من كل جهة يصلان إليها، إلى أن ركبا من عكا في البحر، فلما وصلا إلى ثغر دمياط مسكا وأحضرا إلى بين يدي السلطان فذكر لهما الأماير، فأقرّا، ووجد معهما فرمانين[٦] للأتابك من هولاكو، وهو يرغبه ويستميله. فطلب السلطان الأتابك وأراه

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٨.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٩.
(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٠.
(٥) في الأصل: «العدة والعدة» بالتكرار. والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٠.
(٦) الفرمان: جمع فرمانات وفرامين وفرامنة. والفرمان ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد يعلن فيها تنصيبهم ومأموريتهم. Dozy: Supp. Dict. Ar.

ذلك، ولم يصدق ذلك فيه، ومزق ذلك وحرقه، واستدل بذلك على ضعف هولاكو.

وفي هذه السنة تنجَّز البرج الذي أمر السلطان بعمله في قارة[١]، وشرع في بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات وصون الرعية من عوادي الفرنج المجاورين.

وفي جمادى الأول من السنة شرع النواب بالشام في بناء شقيف تيرون.

وفي الشهر أنعم السلطان على عسكر الساحل الذين هم صحبة الأمير ناصر الدين القيمري بمائتي ألف درهم فرقت عليه.

ذكر جلوسه بدار العدل وما قرره من مشاركة أمناء الحكم للأوصياء[٢]

وفي مستهل شهر رجب سنة اثنتين وستين وستمائة، جلس السلطان بدار العدل، فتقدم رجل من الأجناد ومعه صغير، فقال: «أنا وصيّ هذا الصغير» وشكا من قضية تتعلق به. فقال السلطان لقاضي القضاة: «أعلم أن الأجناد يموت الواحد منهم فيستولي خوشداشيته على موجوده ويجعل اليتيم أوشاقية، ويموت اليتيم فيستولي الوصي على الموجود أو يكبر اليتيم ولا يجد شيئاً ولا يقوم له حجة على موجوده. وقد يموت الوصي فينغمس مال اليتيم في ماله، وأنا أرى ألا ينفرد أحد من الأوصياء بوصية، وأن يكون نظر الشرع شاملاً، وأموال اليتامى مضبوطة، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف وطلب نواب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك. واستمرت الحال عليه إلى وقتنا هذا[٣].

ذكر وصول جماعة من عسكر شيراز

وفي جمادى الآخر، بلغ السلطان أن جماعة من عسكر شيراز وصلوا لقصد الخدمة الشريفة، فأمر بالإحسان إليهم، ووصلوا في ثالث شهر رجب ومقدمهم [الأمير سيف الدين] بكلك[٤] ورفقته وهم: سيف الدين أقبار[٥] [الخوارزمي][٦] جمدار

---

(١) في الأصل: قارا: وهي قرية جنوبي حمص، وتقع على الطريق بين حمص ودمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٥، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ٥١.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١١ ـ ٥١٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٢.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٢.

(٥) في السلوك: (اقتبار).

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٢.

السلطان جلال الدين خوارزمشاه والأمراء الأتابكية غلمان أتابك سعد منهم: سنقر جاه وغيره من الأتابكية. ووصل صحبتهم حسام الدين بن ملاح أمير العراق وجماعة من أمراء خفاجة، فتلقاهم السلطان وأحسن إليهم، وأمّر الأمير سيف الدين بكلك وأعطاه طبلخاناه، وكذلك أمراء خفاجة، والأمير مظهر الدين وشاح بن سهري(١)، وأطلق لحسين ابن ملاح قرية في الشام، وجهزهم إلى بلادهم.

وفي شهر رمضان وصل رسول من الملك شارل(٢) أخي الملك افرنسيس وهو صاحب مرشيلية، وصحبته عدة من السناقر الشهب والأمتعة. ومضمون كتابه(٣) المحبة والمشايعة. ووصل كتاب استاد داره يقول: إن مخدومه أمره أن يكون أمر السلطان نافذاً في بلاده، وأن يكون نائب السلطنة كما هو نائبه(٤).

وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان: قرئ مكتوب بجامع مصر بأبطال ما قرره على ولاية مصر من الرسوم وهي مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم [نقرة](٥).

وفي هذا الشهر أحضرت فلوس من جهة قوص وجدت مدفونة فأخذ منها فلس: فإذا عليه صورة ملك واقف، وفي يده اليمنى ميزان، وفي اليسرى سيف، ومن الوجه الآخر رأس مصور بآذان كبيرة، ويداير الفلس سطور، فقرأها راهب يوناني: فكان تاريخه إلى وقت قراءته ألفين وثلاثمائة سنة. وفيه مكتوب: أنا غلياث الملك، ميزان العدل، والكرم في يميني لمن أطاع، والسيف في يساري لمن عصى، وعلى الآخر: أنا غلياث الملك، أذني مفتوحة لسماع كلمة المظلوم، وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح ملكي.

ذكر سلطنة الملك السعيد(٦)

وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة، حصل الاتفاق على سلطنة الملك السعيد، فأركبه السلطان بشعار السلطنة، ومشى بنفسه في ركابه

(١) ورد في السلوك، ج ١، ص ٥١٢: (وشاح بن شهري).

(٢) المقصود هنا شارل انجو (Charles of Anjou) ملك صقلية. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٢، حاشية رقم (١)، وانظر النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٢١.

(٣) إن الكتاب المشار إليه، كان الغرض منه عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك ومملكة صقلية. انظر: Lane - Poole: A history of Egypt in the Middle Ages, P. 266.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٣.

(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٤، س ٢.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٦.

وحمل الغاشية. ثم أخذها الأمراء وحملوها وعليهم الخلع الفاخرة، ورجع السلطان. ولم يزل الملوك والأمراء في خدمته إلى باب النصر، ودخلوا القاهرة رجالة يحملون الغاشية، وقد زينت المدينة أحسن زينة. وشق الملك السعيد القاهرة وأتابكه عز الدين الحلي راكب إلى جانبه. وبسط الأمراء الثياب الأطلس والعتابي وغيرها تحت حوافر فرسه. ولم يزل إلى أن عاد إلى القلعة(١). وكانت [الثياب](٢) بجملة عظيمة تفرقها المماليك السلطانية وأرباب المنافع.

وكتب له تقليد شريف أنشأه المولى محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر، وقرىء بحضور الأمراء وقاضي القضاة والعلماء في سابع عشر الشهر.

وفي العشر الأول من ذي القعدة من السنة، عرض السلطان الجيش، وكان قبل ذلك رسم بتكملة العدة والتأهب للغزاة فجلس في هذا اليوم على الصفة التي بجانب دار العدل عند طلوع الشمس، وساق كل أمير في طُلْبه، وعليهم لامة الحرب(٣)، وجروا الجنائب عليها عدة الحرب دون غيرها من التشاهير والمراوات المتخذة للزينة. وعبرت العساكر خمسة خمسة. فلما طال الأمر عبروا عشرة عشرة، وهلك الناس من الزحام(٤). وإنما قصد السلطان عرض العسكر في يوم واحد حتى لا يقال إن أحداً استعار من أحد شيئاً. وكان الناس يدخلون من باب القرافة ويخرجون من جهة الجبل إلى صوب باب النصر إلى الدهليز المضروب هناك. ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان وساق في وسط العساكر في جماعة يسيرة من سلاح داريته وخواصه، ونزل إلى الدهليز، ورتب المنازل، ورجع إلى قلعته وقت المغرب، ثم اهتم الناس بعد ذلك باللعب بالقبق(٥)،

---

(١) أي قلعة الجبل. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٦.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك ج ١، ص ٥١٦.

(٣) في السلوك: «وهو لابس لامة حربه». المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١٧.

(٤) وقد زاد صاحب السلوك قائلاً: «... منهم أيبك مملوك الأمير عز الدين أيدمر الحلبي. فدفن ثم نبش ودفن في قبر آخر. فقال في ذلك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

ما نقلوا أيبك من قبره ... لحادثٍ كلاّ ولا عن ثبور
لكبه في يوم عرضٍ قضى ... والمرض لا بد له من نشور

المقريزي: السلوك، ج ١، ص٥١٧.

(٥) القبق أو القباق: لفظ تركي معناه نبات القرعة العسلية. وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملاً في لعب الرماية، المعروف باسم القبق أيضاً. وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صار طويل من خشب، يكون في رأسه شكل قرعة من ذهب، أو فضة بمثابة هدف، ويكون في القرعة طير حمام. ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق، وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة له. =

ولبسوا خيولهم التشاهير[(١)] [والبراسم][(٢)] البحرية والمراوات[(٣)] والأهلة الذهب والفضة والأطلس [الخطائي. ونزل السلطان، وجنائبه تجر، فكان منظراً يبهر العيون حسنه. وكان الذي دخل في المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى][(٤)]. وساق السلطان إلى ميدان العيد[(٥)] وبينَ يديه جنائبه العظيمة، وهي مزينة، حكى القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية قال: قال لي القاضي فتح الدين بن سناء الملك وهو صاحب ديوان الخزائن قبل هذا الوقت بمدة سنة: إن الذي دخل في المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدد بعد ذلك لا يحصى. قال: وشرط السلطان لكل أمير يصيب القبق فرساً من خيوله بما عليه من التشاهير، ولكل مفردي أو مملوك أو جندي خلعة تليق بمثله. ودخل الناس بالرماح بكرة النهار، ثم شفع السلطان ذلك برمي النشاب. وحضر رسل الملك بركة في ذلك الوقت ووقفوا مع السلطان وشاهدوا ذلك واستعظموه، وأقام العسكر كذلك أياماً[(٦)].

وفي تاسع عشر ذي القعدة خلع السلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والمفاردة وأرباب المناصب من الوزراء والقضاة وأرباب[(٧)] البيوت. وحظر الناس بالخلع والتشاريف ولعبوا بقية ذلك النهار. فقالت رسل الملك بركة للسلطان:

= Quatremère: op. cit, V 1, p 243, N⁰ᴵᴵ 118; Dozy: Supp. Dict. Ar.).

(١) التشاهير: هي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان. وقد شرحها دوزي بالعبارة الفرنسية التالية: «Les bandes plus ou moins Large, qui srrent La poitrine du cheval». Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) في الأصل (والبراجم) والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨. والبراسم هي السروج الحربية.

(٣) المراوات: قطع في المعدن أو غيره، يزان بها سرج الحصان. وقد شرحها دوزي بالعبارة الفرنسية التالية: «Des plaques de métal ou autres, qui décoralent le harnais du cheval». Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨.
والأطلس الخطائي نوع من الحرير، وأصل صناعته في بلاد الخطأ أي شمالي الصين، وكان في زمن ياقوت من مصنوعات تبريز. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج !، ص ٢١٩. Dozy: supp. Dict. Ar.

(٥) ميدان العيد، هو اليوم المنطقة الواقعة بين باب النصر وباب الحسينية. وهي المنطقة التي يخترقها شارع نجم الدين حالياً. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٧، حاشية رقم (١).

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨ ـ ٥١٩.

(٧) في السلوك: «وذوي» البيوت، ج ١، ص ٥١٩.

«هذه عساكر مصر والشام»؟. فقال: «بل عساكر المدينة خاصة، غير الذين في الثغور، والمجردين والذين [سافروا](١) في إقطاعهم» فعجبوا من ذلك.

ذكر ختان الملك السعيد ومن معه(٢)

قال: وفي عاشر ذي القعدة من السنة رسم السلطان بعمل سماط عظيم، ومد بالقلعة لختان الملك السعيد بن السلطان، فأكل الناس وختن الملك السعيد ثم ختن بعده ابن الأمير عز الدين الحلي [الأتابك](٣) وابن الأمير شمس الدين سنقر [الأشقر](٤) الرومي، وولد الأمير سيف الدين سكر(٥)، وولد الأمير حسام الدين بن بركة خان، وولد الملك المجاهد ابن صاحب الوصل، ثم أولاد الملك المغيث صاحب الكرك الخمسة(٦) وولد فخر الدين الحمصي، وجماعة أخر من أولاد الأمراء. وكان قد تقدم قبل ذلك بكسوة جماعة من الأيتام وأبناء الفقراء بالقاهرة ومصر، فأحضروا إلى القلعة وختنوا. وحمل السلطان عن الأمراء والخواص كلفة التقادم [التي جرت العادة بها للملوك في مثل هذا المهم، فلم يقدّم أحد من الخاصة شيئاً البتة](٧).

ذكر خبر غازية الخنّاقة(٨)

وفي هذه السنة ظهر بخليج القاهرة قتلى، وفقد جماعة من الناس أتهم بهم معارفهم، والتبس أمرهم. ودام ذلك شهوراً، ثم ظهر أن امرأة حسناء وضيئة تسمى غازية كانت تتبرج بزينة فاخرة وتطمع من يراها من الأحداث في نفسها، ومعها امرأة عجوز، فإذا رأت أحداً قد مال إليها تعرضت له وخاطبته في أمرها وقالت: هذه لا يمكنها أن تجتمع بأحد إلا في منزلها خوفاً على نفسها. فمنهم من يحمله الغرض على موافقتها فيتوجه معها، فإذا حصل عندها خرج إليه رجلان فيقتلانه ويأخذن(٩) لباسه وما معه. وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر مخافة الشعور بهم، ثم سكنوا خارج باب

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥١٩.
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ١٠٣.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٩.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.
(٥) (سكر) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.
(٦) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠ (الثلاثة).
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.
(٨) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢١.
(٩) في الأصل: «يأخذا بحذف النون».

الشعرية على الخليج، وكان بالقاهرة ماشطة مشهورة فجاءتها العجوز وقالت لها: عندنا امرأة قد زوجناها ونحتاج إلى قماش وحلي تتجمل به بالأجرة على العادة، فأحضري لها ما يمكنك ونحن نزيدك في الأجرة، وواعدتها أن تأتيها ليلاً ففعلت الماشطة ذلك وأتتها ومعها جارية تحمل القماش والمصاغ، فوصلتها الجارية وعادت، فلما دخلت الماشطة قتلت وأخذوا ما معها، ثم جاءت الجارية من الغد وطلبت الماشطة فأنكروها، فتوجهت الجارية إلى متولي المدينة، فجاء وهجم الدار، فوجد فيها الصّبية والعجوز، فأخذهما وقررهما، فأقرّتا على نفسيهما[١] وعلى رجلين آخرين فحبسهما. وجاء أحد الرجلين يتفقد أمرهما في الاعتقال فقبض عليه وعوقب فأقر ودل على رفيقه وعلى رجل[٢] طواب كان يحرق لهم من يقتلونه[٣] في قمين الطوب. فطولع السلطان في أمرهم، فأمر بتسمير الخمسة فسمروا تحت القلعة، وشفع بعض الأمراء في إطلاق المرأة فأطلقت وفكت المسامير فماتت بعد أيام. وهدم عوام القاهرة الدار التي كانوا يسكنونها ويقتلون فيها. وبنيت مسجداً[٤] بمأذنة، وظهر في الدار حفيرة فيها قتلى كثيرة، [فسُمِّروا جميعاً ثم أطلقت المرأة بعد يومين، فأقامت قليلاً وماتت. ثم عملت الدار التي كانوا بها مسجداً وهو المعروف بمسجد الخنّاقة][٥].

ذكر وصول رسل الملك بركة

قد ذكرنا[٦] أن السلطان كان قد جهز الأمير سيف الدين كشريك والفقيه مجد الدين الروذراوري إلى الملك بركة، وأنهما توجها في المحرم سنة إحدى وستين وستمائة[٧]. وذكرنا عود الفقيه مجد الدين للمرض الذي أصابه، فتوجه الأمير سيف الدين ومن معه من المُفُل. وكان اجتماعهم بالأشكري في أنبه، ثم رحلوا إلى القسطنطينية في عشرين يوماً. ومنها إلى اصطنبول[٨]، ومنها إلى دَفْنِسْيا، وهي ساحل

(١) في الأصل: «فاقرأ على أنفسهما» بالتذكير.
(٢) في هذه الرواية رجل ثالث. أما في السلوك، ج ١، ص ٥٢١، فلا يوجد رجل ثالث.
(٣) في الأصل: «ما يقتلوه» بالعامية. وقد صحح لأن السياق لا يحتمل الاستعمال العامي في هذه العبارة.
(٤) في الأصل: «مسجدٌ».
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢١، والقصة كلها واردة بكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل ص ١٢٤ ـ ١٢٦، وهي أكثر تفصيلاً.
(٦) راجع ما سبق ذكر إنفاذ الرسل إلى الملك بركة.
(٧) يوافق أولها يوم الأربعاء ١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٦٢.
(٨) هنا يميز النص بين القسطنطينية واصطنبول.

السوادق من جهة الأشكري، ثم ركبوا في البحر إلى البر الآخر ومسيرة ما بين العشرة أيام إلى يومين، ثم طلعوا إلى جبل يعرف بسوادق، فالتقاهم والي تلك الجهة في قرية اسمها القرم(١) يسكنها عدة أجناس من القفجاق والروس واللان. ومن الساحل إلى هذه القرية مسيرة يوم، ثم ساروا من القرم إلى برية يوماً واحداً، فوجدوا بها مقدم عشرة آلاف وهو حاكم على تلك الجهات، ثم ساروا عشرين يوماً في صحراء عامرة بالخركاهات والأغنام إلى بحر إتل، وهو بحر حلو سعته سعة نهر النيل، وفيه مراكب الروس ومنزلة الملك بركة على طول ساحله.

قال: وحملت إليهم الإقامات في طول الطرقات. ولما قاربوا الأردو تلقاهم الوزير شرف الدين القزويني.

ثم حضروا عند الملك بركة، وكانوا قد علموا آدابه التي تعتمد معه، وهي الدخول عليه من جهة اليسار، فإذا أخذت الكتب منهم انتقلوا إلى جهة اليمين، ويكون القعود على الركبتين، ولا يدخل أحد معه إلى خركاته بسيف ولا سكين ولا عدة، ولا يطأ برجله عتبة الخركاه، ولا يقلع الإنسان عدته إلا على الجانب اليسار، ولا يترك القوس في القربان، ولا يخليه موتراً ولا يخط في تركاشه نشاباً، ولا يأكل الثلج، ولا يغسل ثوبه في الأردو.

قال: ووجد الملك بركة في خركاه(٢) تسع وخمسمائة رجل مكسوة لباداً أبيض، مستورة من داخلها بالصندات والخطائي(٣) مرصعة بالجواهر واللؤلؤ، وهو جالس على تخت، وإلى جانبه الخاتون الكبرى، وعنده خمسون أو ستون أميراً(٤) على كراسي الخركاه. ولما دخلوا إليه أمر وزيره بقراءة الكتاب، ثم نقلهم عن اليسار إلى اليمين، وسألهم عن النيل، وقال: «سمعت أن عظماء لابن آدم ممتداً على النيل يعبر الناس عليه»؟ فقالوا: «ما رأينا هذا».

قال: وأخذ قاضي القضاة الذي عنده هذا الكتاب وفسره وبعث به نسخة إلى

---

(١) يتحدث القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦٩، عن الطريق البحري إلى هذه المناطق ويأتي على ذكر بحر القرم. ولعل الأصح بالفاء، وقد ورد في السلوك ج ١، ص ٧٣٨، أن الظاهر بيبرس أرسل هدايا برسم عمارة جامع قرم، وأمر أن تكتب عليه ألقاب السلطان.

(٢) الخركاة: جمع خركاوات. وهي كالبيت تصنع من الخشب على هيئة مخصوصة، تغشى بالجوخ ونحوه، وتحمل في السفر لتكون في الخيمة لتقي المعسكر من البرد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٣٨. Dozy: Supp. Dict. Ar. .

(٣) في الأصل: «والخطاي». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٨.

(٤) في الأصل: «أمرا». والتصحيح يقتضيه السياق.

القان[١]. وقرىء كتاب السلطان بالتركي على من عنده، ففرحوا به. وأعادوا الرسل بجوابه، وسير معهم رسله، فكان وصولهم في ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر توجه السلطان إلى الإسكندرية وتقديم سيف الدين عطاء الله على عرب برقة[٢]

قال: ولما فرغ السلطان من هذا المهم توجه إلى ثغر الإسكندرية متصيداً، فعدّي في ذي القعدة من السنة وسار إلى تروجة[٣]، ومنها إلى الحمامات، وسار إلى منزلة الكرش بالقرب من العقبة الصغرى، وضرب حلفة هناك، ووصلت المسيرة إلى قرب العقبة الصغرى، وعَيَّد عيد الأضحى، وصلى صلاة العيد، ونحر الأضاحي، وبلغه أن بعض العربان قد عصوا في البراري، فجرد إليهم جماعة، وحضر جماعة من عرب هوارة وعرب سليم فكتب عليهم الحجج بعمارة البلاد، وألا يقربوا أحداً من العربان العصاة[٤].

وعاد السلطان إلى الإسكندرية، وصلى في الجامع الغربي[٥]، ولعب الكرة بميدانها. وزار الشيخ الشاطبي[٦]، ورجع إلى القاهرة فلما وصل إلى تروجة رسم بتقديم سيف الدين عطاء الله بن عزار على عرب برقة، وتحدث معه في أمر العربان وكونهم ينتفعون من مصر بأثمان الخيول المحلوية والأغنام، وأنهم يستنتجون الأغنام ويزرعون ولا يقومون بحق الله. فالتزم المذكور بحفظ البلاد واستخراج الزكاة من

(١) القان: لقب أطلق على رؤساء الترك في القرن السابع الميلادي. ومعناه رئيس الرؤساء. وقد استعمل الترك لقب قان أو خان أيضاً، بمعنى قاغان. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ٢١ Encyclopaedia of islam: Art khàkan, Khàn..

(٢) برقة: اسم صُقْع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها انطابلس، وتفسيره الخمس مدن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٣) تروجة: قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الاسكندرية. وهي حالياً موضع خرب يقع اليوم جنوبي غربي دمنهور. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٠.

(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص٣٦١.

(٦) هو محمد بن سليمان بن محمد المعافري، أبو عبد الله الشاطبي. عالم بالقراءات. مولده بشاطبة. تفقه وروى الحديث في الأندلس والشام والحجاز ومصر. وانقطع للعبادة في الاسكندرية فتوفي فيها سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٤ م. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٤٣، ٢٤٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٢٨. وفيه: «توفي سنة ٦٧٣ ودفن بمرج سوار».

العربان. وأنعم عليه السلطان بسنجق[(١)] ونقارات[(٢)]، وتوجه [لحفظ البلاد واستخراج الزكاة والعشور من العربان ببرقة][(٣)].

قال: ولما وصل السلطان من الإسكندرية وصل شِحْنَة[(٤)] تكريت[(٥)] ومعه جماعة فأحسن إليهم.

ذكر الواقعة الكائنة بين المسلمين والفرنج ببلاد الأندلس ـ وانتصار المسلمين

كانت هذه الواقعة في سنة اثنتين وستين وستمائة. وورد الخبر بها إلى الديار المصرية في سنة ثلاث وستين بمقتضى كتاب ورد في جمادى الآخرة يتضمن انتصار المسلمين على الفرنج. وأمير المسلمين وسلطانهم يومئذ أبو عبد الله بن الأحمر[(٦)] وكان ألفنش ملك الفرنج قد طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة، ومالقة إلى المرية، وحضر بمجموعة، فاجتمع المسلمون ولقوهم واقتتلوا، فانهزم الفرنج مراراً، وأخذ أخو الفنش أسيراً. ثم اجتمع الفرنج في جموع كثيرة ونزلوا على غرناطة[(٧)] فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وجمعوا من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس، وجعلت تلاً، وأذن المسلمون فوقه. وأسر من الفرنج عشرة آلاف. وذلك في يوم

(١) في الأصل: «بصنجق» والتصحيح يقتضيه السياق. والسنجق، لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح، والجمع سناجق، وهي رايات صفر صغار يحملها السنجقدار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨، ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٥٨.

(٢) النقارات: واحدتها نقارة، وهي من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة. وكانت تحمل على عشرين بغلاً، على كل بغل ثلاث، وتسير في الموكب اثنتين اثنتين. وكانت النقارات تحمل في ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر، وفي الإيذان ببدء القتال. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧١. Dozy: Supp. Dict. Ar. .

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٠.

(٤) الشحنة: وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة، وهو رئيس الشرطة والموكّل بالأمن في بلدٍ من البلاد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٦٢. Dozy: Supp. Dict. Ar. .

(٥) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. وهي غربي دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٦) هو محمد بن يوسف بن محمد، أبو عبد الله. أمير المسلمين. لقب بالغالب بالله. مؤسس دولة بني الأحمر في الأندلس، وتوفي بالدولة النصرية. توفي سنة ٦٧١ هـ/ ١٢٧٣ م. ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ١٧٠، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ٥٩.

(٧) في الأصل: «أغرناطة».

الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة، وانهزم ألفنش إلى إشبيلية، وكان قد دفن أباه بجامعها فأخرجه من قبره، خوفاً من استيلاء المسلمين عليها وحمله إلى طليطلة، واستعاد المسلمون من الفرنج اثنتين وثلاثين بلداً[(١)] من جملتها إشبيلية ومرسية وشريش وغير ذلك.

وفي هذه السنة كانت وفاة الأمير حسام الدين لاجين العزيزي الجوكندار بدمشق، ودفن بسفح قاسيون، وقيل إنه سم، وإن مملوكه جمال الدين أيدغدي واطأ عليه. وكان شجاعاً كريماً متواضعاً يحب الفقراء ويكرمهم ويتولى خدمتهم بنفسه، رحمه الله تعالى.

ذكر مقتل الزين الحافظي[(٢)]

وفي أواخر سنة اثنتين وستين وستمائة، أحضر هولاكو زين الدين أبا المؤيد سليمان بن عامر العقرياني، المعروف بالحافظي، وقال له ما معناه: قد ثبت عندي خيانتك وتلاعبك بالدول، وأنك خدمت صاحب بعلبك طبيباً، فخنته، واتفقت مع غلمانه على قتله. ثم انتقلت إلى خدمة الملك الحافظ الذي عرفت به ونسبت إليه، فلم تلبث أن خنته، وباطنت الملك الناصر حتى أخرجت قلعة جعبر عن يد مخدومك، ثم انتقلت إلى خدمة الملك الناصر فخنته معي، ثم انتقلت إليّ، فأحسنت إليك إحساناً لم يخطر ببالك أن تصل إلى بعضه مني، وقد شرعت تعاملني بما عاملت به الملك الناصر. وعدد له ذنوباً أخر من خيانته في الأموال التي كانت قد ندبه لاستخراجها من البلاد، وأمر بقتله هو وأهله، فقتل هو وأخوته وأولاده وأقاربه ومن يلوذ بهم، وكانوا نحو الخمسين لم ينج منهم إلا ولده مجير الدين محمد وولد أخيه اختفى بالسوق، وقيل إن السلطان الملك الظاهر تسبب في قتله، فإنه أحسن إلى أخيه عماد الدين أحمد، ورتب له راتباً كبيراً، وأمره بمكاتبة أخيه واستدعائه، وأنه إذا وصل كان له ما يقترحه، بشرط المواطأة على هولاكو وإفساد من يقدر على إفساده منهم. فلما وصلت إليه الكتب حملها إلى هولاكو وقال: إن صاحب مصر إنما يكاتبني بمثل هذا لتقع الكتب في يدك فتقتلني، وقد عزمت على أن أكاتب الأمراء القائمين بدولته والأعيان، وأكيده كما كادني. فأبى[(٣)] هولاكو ذلك، فلم يزل يراجعه حتى أذن له. فكاتب جماعة فعلم السلطان أنها مكيدة، فكتب إليه يشكره على عرض الكتب على هولاكو،

---

(١) في الأصل: «بلد».

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٣٢.

(٣) فأبا: هكذا بالأصل، وهو خطأ واضح.

ويستصوب رأيه في عرضها لتزول التهمة عنه، وأمر القصاد أنهم إذا وصلوا إلى شط جزيرة ابن عمر يتجردوا من ثيابهم ويتجيلوا في إخفاء أنفسهم ليظن أنهم قصدوا السباحة فغرقوا، ففعلوا ذلك. وجاء نواب التتار فوجدوا الثياب فأخذوها وجهزوا الكتب إلى هولاكو فقرأها، وكان ذلك من أسباب قتله، والله تعالى أعلم.

واستهلت سنة ثلاث وستين وستمائة(١)

في المحرم منها، وصل الأمير جمال الدين سكز(٢) بن الدوادار، وكان أبوه المجاهد دوادار الخليفة ببغداد، وكانت له نعمة عظيمة، فأحسن إليه السلطان وأمره بطبلخاناه.

وفي صفر من السنة، وقف السلطان الخان بالقدس الشريف، وقرىء كتاب وقفه بحضور السلطان وقاضي القضاة تاج الدين.

ووقف اسطبلين تحت القلعة يعرف أحدهما بجوهر النوبي، وحبسهما على وجوه البر.

وفيها في العشر الآخر من المحرم، أنهى إلى السلطان أن جماعة من الأمراء والأجناد اجتمعوا في دار على أكل ططماج وجرى بينهم كلام كثير أفض إلى الغض من الدولة، فاتصل ذلك بالسلطان وعين له ثلاثة نفراً وسعوا في الكلام في ذلك فأمر بتسميرهم، فسمر أحدهم، وكحل الثاني، وقطعت رجل الثالث. وأفرج عن بقيتهم، وأمر ألا يجتمَع أميران في مكان؛ وألا تعمل وليمة ولا ضيافة عن غير موجب، فحسمت مادة الاجتماعات.

وفي صفر ورد كتاب الأمير عز الدين أيدمر النائب بالكرك أنه رتب راتب الأسمطة والضيافة بحرم الخليل عليه الصلاة والسلام للوافدين، وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة.

وفيها في تاسع عشر شهر ربيع الأول قطع السلطان أيدي جماعة من نواب متولي القاهرة والخفراء وأصحاب الأرباع والمقدمين، وكانوا ثلاثة وأربعين رجلا(٣)، وكان سبب ذلك على ما حكاه الصاحب عز الدين بن شداد، ظهور شلوح ومناسر بالقاهرة وضواحيها ينهبون ويقتلون حتى تعرضوا للعربان الذين تحت القلعة، فارتفعت أصواتهم

---

(١) يوافق أولها يوم الجمعة، ٢٤ أوكتوبر/ تشرين الثاني ١٢٦٤ م.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٤ «يشكر».

(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٤٠.

حتى سمعها السلطان وسأل عن خبرهم فأخبر بصورة الحال، فلما أصبح أتته ورقة الصباح وليس فيها ذكر هذه الحادثة، فأنكر على متولي القاهرة، فاعتذر أن نوابه لم يطالعوه بها، فأمر السلطان بقطع أيديهم فمات بعضهم وسلم البعض.

وحكى غيره، عن الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، أن السلطان خرج ليلة متنكراً وجعل يطوف أزقة القاهرة، وكان يفعل ذلك ويتفقد أمور الناس وأحوالهم ويسمع من ألفاظهم ما لا ينقل إليه، فمر في بعض أزقة المدينة فوجد بعض مقدمي[١] الوالي قد أمسك امرأة وهو يتهددها، وهي تقول له: اتق الله، والله ما أفعل هذا [إلا][٢] من حاجة وأنت تعلم أن عندي خمسة أيتام. فقال: أنا ما أعرف هذا، ولا بد أفعل وأصنع. فقالت له تقدم عني ناحية. وخلعت لباسها وناولته إياه، وقالت: والله ما أمسك سواه فأخذه وأطلقها. فعرفه السلطان ثم لم تكن له همة إلا أن جمعهم وقطع أيديهم، وشاهد فيمن قطع، ذلك المقدم بعينه.

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الصيد بجهة العباسة، وذلك بعد عوده من ثغر الإسكندرية، فرمى البندق، وأصرع جماعة وادعوا[٣] للسلطان[٤]، ومن جملتهم الملك العزيز فخر الدين عثمان ابن[٥] الملك المغيث صاحب الكرك.

وتوجه السلطان من العباسة إلى قلعة الجبل فأقام ليلة واحدة، وجهز العساكر، ثم توجه هو بعدها إلى الشام وصرع بشراً بالقرب من رأس الماء، وذلك في ثالث شهر ربيع الأول. وكان سبب توجهه ما بلغه من محاصرة التتار البيرة[٦] وكان في هذه السفرة من الغزوات والفتوحات ما نذكره، إن شاء الله تعالى في موضعه.

وفي هذه السنة رسم السلطان بتبطيل المزر بالديار المصرية وأن تخرب البيوت

---

(١) في الأصل: «مقدمين» والتصويب مما يقتضيه النحو.

(٢) في الأصل: «ما» والتصويب مما يقتضيه تركيب الجملة.

(٣) المعنى المقصود هنا «ادعى له». والظاهر أن الأمير فخر الدين عثمان، انتسب إليه واعتبره استاذه في الصيد. ذلك أن العادة في دوائر الصيد كانت في تلك الأزمنة، أن المبتدىء لا يصير في زمرة هواة هذا الفن إلا بعد الانتساب لأحد رماة الصيد القدماء، فإذا تم له ذلك قيل إنه ادعى لفلان - أي انتسب إليه. وكانت وسيلة «الادعاء» هذه، أن ينجح المبتدىء في إصابة رميته من طير أو غيره، وعند ذلك يختار الانتساب إلى من يشاء من رجال الصيد المعروفين، سلطاناً كان أو أميراً أو فقيهاً أو عامياً، انظر في ذلك: Quatremère: op. cit, V 1, p.75. N°" 88.

(٤) السلطان هنا هو الظاهر بيبرس.

(٥) في الأصل: «بن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٣.

التي يعمل فيها وتكسر مواعينه ويسقط من الديوان ارتفاعه، ورسم بتعويض المقطعين عنه، وكتب بذلك إلى الأمير عز الدين الحلي فأبطلها[١].

ولما فتح السلطان في هذه السفرة ما نذكره من بلاد الفرنج عاد إلى مقر ملكه، وكان رحيله من أرسوف[٢] في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة، ودخوله إلى القاهرة في يوم الخميس حادي عشر شعبان من السنة، وشق المدينة والأسارى بين يديه، وعم الناس بالخلع والإنعام، من الأمراء والوزراء والمقدمين والمفاردة والخواص حتى البرددارية[٣] وجميع الحاشية، وتصدق بجملة عظيمة من الدراهم والغلال على الفقراء، وفرق كساوي بالجوامع.

ذكر خبر الحريق بالقاهرة ومصر واتهام أهل الذمة وما قرره عليهم من الأموال بسببه[٤]

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة، وقعت نار بحارة الباطلية بالقاهرة، فأحرقت ثلاثاً وستين داراً جامعة. ثم كثر الحريق بعد ذلك بمصر حتى احترق من رباعها المشهورة ربع فرح، وكان وقفاً على الأشراف بالمدينة، وأكثر ربع العادل وغير ذلك. وكانت توجد لفايف من المشاق والكبريت والأصناف النفطية على الأسطحة. وشاع الخبر أن النصارى يفعلون ذلك لأجل ما فعله السلطان ببلاد الفرنج من إحراق الكنائس. فجمع السلطان عند عوده من الشام النصارى واليهود، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهودهم، وأمر بتحريقهم. فجمع منهم عالم كثير تحت القلعة وأحضرت الأحطاب والحَلْفَاء[٥]. فسأل أهل الذمة مراحم السلطان، فقرر عليهم حمل خمسمائة ألف دينار[٦] إلى بيت مال المسلمين، والتزم بتوزيعها واستخراجها بطرك[٧]

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٥.

(٢) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قَيْسارية ويافا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) البردار: هو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة، متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه. وأصله فرادار، وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما فردا ومعناه: الستارة، والثاني: دار، ومعناه ممسك، والمراد ممسك الستارة، وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة، ثم نقل إلى الديوان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥.

(٥) في الأصل: «والحلفا» والتصحيح في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥، س ٧.

(٦) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥ «. . . خمسين ألف دينار».

(٧) كان بطرك النصارى في تلك السنة أثناسيوس الثالث. انظر Butcher: the story of the church of Egypt. V 1. p XIV, V 2. P 165.

النصارى، والتزموا أنهم لا يعودون إلى شيء مما كانوا يعتمدونه من المنكرات، ولا يخرجون عن الذمة وشرطها وحمل المال المقرر شيئاً بعد شيء.

وفي هذه السنة، اعتقل السلطان الأمير نور الدين زامل بن علي(١)، وكان قد حصل منه إساءات وفتن مرة بعد أخرى، وقبض السلطان عليه ثم أطلقه وأصلح بينه وبين الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، والأمير أحمد بن حجي، والأمير هارون، وحلفهم، وأعاد إقطاع زامل إليه وإمرته. فلما توجه لم يتأن إلى أن يصل البلاد بل ساق من أوائل الرمل [وهجم على بيوت عيسى](٢) وأفسد، وأمسك قصاد السلطان ومملوك الأتابك المتوجه إلى شيراز، وأخذ منهم الكتب، وتقرب بها إلى هولاكو، وتوجه إليه وأطمعه في البلاد فأعطاه إقطاعاً في العراق. وتوجه [زامل](٣) إلى الحجاز فنهب وقتل وانتهك حرمة الأشراف، [وحضر إلى أوائل الشام](٤)، وكان السلطان قد أعطى إقطاعه وإمرته لأخيه أبي بكر، فراسل زامل السلطان في طلب العفو، فتقرر حضوره في وقت معلوم وأنه متى تأخر عنه ليس له عهد ولا أيمان، فتأخر عن المدة المعينة، ثم وصل فاعتقله السلطان.

وفيها: حضر إلى السلطان نعجة قد ولدت خروفاً على صورة الفيل له خرطوم طويل وأنياب وإلية خروف.

وفيها: جهز السلطان الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع(٥)، فكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوي. وأنفق فيهم الأموال وجهز معهم المئونة، وندب لذلك الطواشي شهاب الدين محسن الصالحي(٦)، ورضي الدين أبا بكر، والأمير شهاب الدين غازي بن فضل اليغموري مشداً، ومحيي الدين أحمد بن أبي الحسين بن تمام طبيباً إلى البيمارستان الذي بالمدينة، ومعه أدوية وأشربة ومعاجين ومراهم وسكر لأجل من يعتريه من الجماعة مرض. وكان خروجهم من القاهرة في سابع عشر شهر رجب. ووصلوا إلى المدينة في ثاني شوال. واستمر العمل في العمارة إلى سنة سبع وستين وستمائة. وكان السلطان يمدهم بما يحتاجون إليه من النفقات والآلات.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٥.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٦.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٦: «وعاد إلى الشام».

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٢، مع ملاحظة اختلاف التوقيت والتفصيل.

(٦) يرد اسمه مسافراً مع كسوة الكعبة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٢، س ١٩ ـ ٢٠.

وفيها: توجه السلطان إلى بحر أشموم، وغرق عدة مراكب لإصلاحه، وتولى الحفر بنفسه، وشاهد الناس على كتفه قفّة مملوءة تراباً. فلم يبق أحد من الأمراء وغيرهم إلا بادر وفعل مثل ذلك. فتنجز ذلك في ثمانية أيام، وذلك في شوال من السنة.

وفي حادي عشرين الشهر رسم السلطان بإبطال حراسة النهار، وكانت جملة مستكثرة وكتبت التواقيع بإبطالها.

وفي الشهر قرىء مكتوب بجامع إشموم بمسامحة الأعمال الدقهلية والمرتاحية بأربعة وعشرين ألف درهم عن رسوم الولاية والمال المستخرج برسم النقيدي(١).

وفيه توجه شجاع الدين بن الداية الحاجب رسولاً إلى الملك بركة(٢)، في كف غارات الملك بركة عن بلاد الأشكري حسب سؤاله في ذلك، وسير معه ثلاث عُمَر اعتمر بها بمكة للملك بركة [عُمِلت في أوراق مذهبة](٣) وسير معه قمقمان من ماء زمزم، ودهن بلسان وغير ذلك.

وفي ذي القعدة وصل الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام فتحدث السلطان معه في مهمات، وكتب على يده تذكرة(٤)، وعاد في ذي الحجة.

ذكر تفويض القضاة لأربعة حكام(٥)

في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة فوض السلطان القضاء بالقاهرة والديار المصرية لأربعة قضاة، لكل مذهب قاضٍ. وسبب ذلك أن الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي كان يكره قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ويغض منه عند السلطان لتثبته في أحكامه وتأنيه(٦) واحترازه، فاتفق أن السلطان جلس بدار العدل فقدمت له

---

(١) النقيدي: موضع قرب فم خليج الاسكندرية. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٨، حاشية رقم (٥).

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٣٨.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١١٧.

(٤) تذكرة: جمع تذاكر. وهي كما يدل معناها اللفظي، كل مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام، أو إلى قصاده الذين يرسلهم في مهام الدولة، لتذكرتهم بتفاصيل ما يوكل إليهم، وليكون بمثابة ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التي يقصدونها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٧٩ ـ ١٠٤. وانظر: Demombynes: Op. cit, introd. p. LXX.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٨، ٥٤٢. وكذلك النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٢١.

(٦) في الأصل: «ونائبه». والتصحيح يقتضيه السياق.

قصة من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا داراً من القاضي بدر الدين السنجاري وأن ورثته بعد وفاته ادعوا أنها وقفت قبل ذلك، فأخذ الأمير جمال الدين أيدغدي ينتقص المتعممين فقال السلطان للقاضي تاج الدين: «هكذا تكون القضاة»؟. فأجابه بالآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(١)]. قال: «فكيف العمل في هذا»؟. قال: «إذا ثبت الوقف يستعاد الثمن من الورثة من مال مورثهم». فقال السلطان: «فإن عجزوا عن الثمن»؟ قال: «الوقف باقٍ على أصله». فامتعض السلطان لذلك، فلم يتم الكلام حتى تقدم رسول صاحب المدينة النبوية وقال: «حملت كتاب السلطان إلى قاضي القضاة أن يسلم إلي المال الذي تحت يده من الوقف، لأنفقه في فقراء أهل المدينة، فلم يفعل». فسأل السلطان القاضي عن ذلك. فقال: «صدق هذا الرجل، أنا لا أعرفه، ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه وأثق بدينه وأمانته، فإن تسلمه أحضرته بين يديه». فقال السلطان: «تخرجه[(٢)] من عنقك وتجعله في عنقي، لا تسلم المال إلا لمن تختاره وترضاه». وتقدم بعض الأمراء في المجلس وشكى من القاضي تاج الدين في قضية أخرى هي [شهادة][(٣)] لم يثبتها لبعض أولاد خوشداشيته، فقال القاضي: «لم تأتني بينة»[(٤)]. فقال الأمير: حضرت البينة فلم تسمعها. فسأله السلطان عن امتناعه من سماع البينة. قال: «لا حاجة إلى ذكر الجواب». فقال الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي للقاضي نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولي السلطان من كل مذهب قاضياً[(٥)]، فرجع السلطان إلى قوله، وفوض النظر في الأحكام والقضايا إلى حكام أربعة[(٦)] وهم: قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب المشار إليه، قاضي الشافعية. والشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي، قاضي المالكية، والقاضي صدر الدين سليمان [ابن أبي العز بن وُهيب الأذرعي][(٧)]، قاضي الحنفية والشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي، قاضي الحنابلة. وجعل لهم السلطان أن يولوا في الأعمال نواباً عنهم. وخص قاضي القضاة، تاج الدين الشافعي، بالنظر في أموال

---

(١) سورة فاطر، من الآية ١٨ وتتمتها: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩ «تنزعه».

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩ للتوضيح.

(٤) في الأصل: «لم تأتيني» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «قاصد» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٢٢.

(٧) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩.

الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية، بتقليد سلطاني نسخته بعد البسملة، ومثال العلامة السلطانية بين السطرين المستعلي بالله[١].

«الحمد لله مجرد سيف الحق لمن اعتدى، وموسع مجاله لمن راح إليه وأغتدى، وموضح طريقه لمن اقتاد به واقتدى، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس الهدى، الذي أعذب لشرعة الشريعة المحمدية ينبوعاً، وأقامها أصلاً مد بثمار الرشد فروعاً، نحمده على نعمة التي ألزمتنا التشييد [في][٢] مباني الإنصاف شروعاً». «ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نعمر بها من القلوب والأفواه ربوعاً. ونصلي على سيدنا محمد الذي بعثه الله إلى العالم جميعاً، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاة يناجي القائل بها بصيراً سميعاً».

«وبعد: فإن أحق من استوعبت كليات المحامد له بالتبعيض، وطافت الممادح من كعبة العلم بركن منه طواف المفرض لأطواف المفيض وخلد له إرضاء الأحكام وإمضاء التفويض، وريش جناحه وإن لم يك بالمهيض، وفسح مجاله وإن كان الطويل العريض، ورفع قدره على الأقدار، وتقسمت من سحائبه الأنواء، ومن أشعته الأنوار، ووغزر مدّه فجرت منه في رياض الرشد الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب، وتنصب لفتواه الأسماع وترنو لمحياه الإبصار، من أوفد من إرشاده للأمة وللأئمة لطفاً فلطفاً، وأوقد من علمه جذوة لا تخبو، ومن عدله قبساً بالهوى لا يطفأ، وفات النظراء والنظار فلا يرسل أحد معه طرفاً، ولا يمد إليه حياء منه طرفاً، وقد جاز واحتوى من العلوم على ما تفرق في غيره وغدا[٣] خير دليل إلى الحق، فلا يقتدي في المشكلات إلا برأي اجتهاده، ولا يهتدي في المذاهب إلا بسيره، وأصبح لفلك الشريعة المحمدية قطباً، ولجثمانها قلباً ولسوارها قلباً، وأضحى لدليلها برهاناً، ولإنسانها عيناً، ولعينها إنساناً، فكم أرضى بعدله وفضله بنى الأيام عن الأيام، وكم أغضى مع قدرته على الانتقام، وكم أمضى حكماً لا انفصال لعروته ولا انفصام، وكم أفضى بالجور إلى ماله وبالعدل إلى الأيتام، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعديه، ولم يداجه لكونه يستر عليه تعبده في دياجيه، فهو الحاكم بالحق ولو على نفسه، والمسترد الحقوق الذاهبة حتى لغده من يومه وليومه من أمسه».

«ولما كان المجلس السامي القضائي الإمامي، العالمي العاملي، الأشرف

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٩.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في الأصل: «وهذا» ذلك أن الجملة هنا تحتاج إلى فعل لا إلى اسم إشارة.

الزاهدي الأثيري الماجدي الذخيري الأفضلي الجلالي التاجي، حجة الإسلام، شرف الأنام، مجد الأمة، فخر الأئمة، صدر الشريعة مقتدي الفرق، رئيس الأصحاب، لسان الحق، ذخر الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين، قاضي القضاة، عبد الوهاب ابن[١] القاضي الأجل الأوحد الأعز أبي القاسم خلف، حرس الله جلاله، ممن هو في أحسن هذه السمات يتصور، وله أنوار بركات تعدّ ونجوم السماء بها تتكثر، وقد تجوهر بالعلوم فأصبح التاج المجوهر، وله مزايا السؤدد التي لا يشك فيها ولا يرتاب، وسجايا الديانة التي إذا دخل غيره إليها من باب واحد دخل هو إليها من عدة أبواب، وهو شجرة الأحكام ومصعد كلم الحكام، ومطلع أنجم شرائع الإسلام، ومهبط وحي التقدمات والارتسام وعكاظ قضايا الحلال والحرام».

«خرج الأمر العالي المولوي السلطاني المالكي الظاهري الركني، لا زال ماضياً وبالسداد قاضياً: بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية فليحكم جميعها بما أراه الله من مذهب الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وأموال اليتامى على اختلاف أجناسها هي ودائع الأموات، وذخائر كل ممنوع من التصرفات، وقد أوصى الله بها، وأوسع المتعدي عليها إنكاراً وتحذيراً، وخوف من أكلها ظلماً، فقال جل وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]». وقد رأينا أن نخصص المجلس السامي بالنظر في جميع أمورها وإذ قد غدت ذخر كل منقطع فنجعله من ذخرها، فلينظر[٢] في جميع أموال الأيتام على اختلاف أجناسها بالقاهرة ومصر المحروستين والديار المصرية بمفرده وبمن يستنيبه عنه، وليحطها بنظره، ويضبطها بحسن تأثيره وأثره، وكذلك ما يختص بمذهبه من الجوامع والمناصب والمساجد والربط والتصديرات والأوقاف، ينظر في جميعها ويولي في أصولها وفروعها، والأوقاف العامة من الصدقات وغيرها، ينظر فيها بنفسه وبنوابه، حافظاً لأمورها وملاحظاً لتدبيرها، ومجتهداً في صلاحها وتثميرها، وليستصحب من ذلك ما هو ملي باستصحابه، وليستمر على إقامة منار الحق الذي هو موثق عراء ومؤكد أسبابه، عالماً بأن كل إنارة أضأتها من قبسه وأن استضأنا بها في دياجي المنى، وكل ثمرة من مغترسه وإن مددنا إليها يد الاجتنا، وكل جدول هو من بحره وإن بسطت إليه راحة الاغتراف وكل منهج هو من جادته وإن ثنيت إليه أعنة الاستطلاع للإفادة والاستكشاف وهو بحمد الله

---

(١) في الأصل: «بن».

(٢) في الأصل: «فينظر». والتصحيح يقتضيه السياق.

المجتهد المصيب، والمادة للعناصر وإن كان يصيبه منها أوفر تصيب، والصادق الذي ينبىء بالحق إذا وامرته[١] المراسيم، ولا ينبؤك مثل خبير، ووصاياه منها يسترشد، فلا يفاوض فيها، ومنه تتعلم فلا نكرر عليه ما يستفاد منه من معانيها، والله تعالى يسد بأحكامه الذريعة، ويحمي به حمى الشريعة إن شاء الله تعالى، وكتب في ثامن وعشرين ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة بالإشارة العالية المولوية الأتابكية الفارسية وأعزها الله، الحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه».

ولما فوض السلطان القضاء بالديار المصرية لحكام أربعة، فعل مثل ذلك بدمشق[٢]، وجهز التقاليد إلى الحكام الذين وقع الاختيار عليهم، وهم: القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان الشافعي، على عادته، والشيخ زين الدين عبد السلام الزواوي المالكي قاضي المالكية، والقاضي شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعي الحنفي قاضي الحنفية، والشيخ شمس الدين عبد الرحمٰن ابن الشيخ أبي عمر الحنبلي قاضي الحنابلة، ووصلت تقاليدهم بذلك في سادس جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة، فامتنع المالكي والحنبلي من قبول الولاية والدخول في باب القضاء، فطولع السلطان بذلك، فورد جوابه بإلزامهما، وأنهما إن استقرا على الامتناع وصمما عليه يعزلا عما بأيديهما من المناصب ويخرجا من بلاد السلطان، فقبلا الولاية، وامتنعا من قبول المعلوم المقرر للقضاة وقالا: «نحن في كفاية عن قبول المعلوم».

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع

وفي ذي الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة، قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأقرع، وسبب ذلك أن رسول الملك بركة أحضر معه رجلاً ادعى أنه الملك الأشرف ابن[٣] الملك المظفّر شهاب الدين غازي، فطلب السلطان من يشهد له بصحة ذلك. فشهد له المذكور، فبحث السلطان عن أمره، فوجد الأمير شمس الدين المشار إليه بعث إليه واستدعاه من عند الملك بركة لغرض كان في نفسه، فقبض السلطان عليه واعتقله، واعتقل من شهد له بخزانة البنود.

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الرومي[٤] وذنوبه السالفة

وفي رابع وعشرين ذي الحجة من السنة، أمسك السلطان الأمير شمس الدين

(١) هكذا في الأصل. وامرتيه. والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٢.
(٣) في الأصل: «بن».
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٠.

سنقر الرومي. وسبب ذلك؛ أنه كان له مملوك جميل الصورة، فبلغه أن السلطان ربما تعرض إليه يفعل، فغضب لذلك، وشفع السلطان عنده فيه فلم يقبل شفاعته، وضربه وحمى سفوداً من الحديد وجعله في دبره فمات، فطلبه السلطان من وقته وأعتقله. وأما ذنوبه السالفة فإنه كان جمدار الملك الصالح، وكان مؤاخي الملك الظاهر لما كانا في الخدمة الصالحية وبينهما صداقة، ولما كان من أمر البحرية ما قدمناه، كانا جميعاً وكان الملك الظاهر يتفقده بالمال والقماش، ولما قتل الملك المظفّر لم يكن شمس الدين حاضراً، وأعطاه السلطان الإقطاعات العظيمة فصار يخلو بجماعة بعد جماعة ويفرق عليهم المال الذي ينعم به السلطان عليه، فاتصل ذلك بالسلطان فأرسل إليه يحذره مع خوشداشيته، فلم يفد ذلك شيئاً، وبقي ذلك في خاطر السلطان، فلما قتل الآن مملوكه وقبض عليه أرسل يقول: «أشتهي أعرف ذنبي»، فسير السلطان إليه من عدد ذنوبه، فتحسر وقال: «آه، لو كنت حاضراً قتل الملك المظفّر حتى أعاند السلطان في الذي جرى». وكان قد تكلم بهذا الكلام وشافه السلطان به في حال إحسانه إليه، واستمر في الاعتقال إلى أن توفي، وكانت وفاته في يوم الأحد عاشر جمادى الأول سنة ست وسبعين وستمائة.

ذكر وفاة قاضي القضاة بدر الدين السنجاري وشيء من أخباره(١)

وفي هذه السنة في يوم السبت رابع عشر شهر رجب: كانت وفاة قاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن بن علي بن الخضر السنجاري الشافعي، رحمه الله تعالى، فجأة، وكان قد أكل بطيخاً أصفر وسلنجنينيا(٢) عقب خروجه من الحمام. ودفن في يوم الأحد بمدرسته بالقرافة بجوار تربة الإمام الشافعي، وصلى عليه قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. ومولده بسواد إربل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قاضياً بسنجار، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار ما قدمنا ذكره، فلما ملك الملك الصالح دمشق كما تقدم، ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر له معلوماً كثيراً، وكان قد وصل في صحبته، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه، وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي، ثم بالقاهرة والوجه البحري كما تقدم ذكر ذلك. وولي الوزارة كما تقدم أيضاً في أيام

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢١٩، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٣.

(٢) المقصود نوع من المأكولات أو الحلويات. ولم أستطع قراءة اسمه أو التعرف عليه. ومن الممكن قراءة اللام كافاً، حسب عادة الناسخ في النسخ.

الملك المنصور نور الدين ابن[١] الملك المعز، وكان، رحمه الله تعالى، مكيناً عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الأمير فخر الدين ابن[٢] الشيخ يكرهه، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه أنه يأخذ من نوابه الأموال، ومن يعدله من الشهود، وأشباه ذلك، فأجابه السلطان في طرة كتابه: «يا أخي فخر الدين: للقاضي بدر الدين عليَّ حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها، والذي ولينا له قليل في حقه، وما قمت له بما يجب على من مكافأته». فلم يعاوده الأمير فخر الدين في أمره، وبقيت هذه الورقة عنده في جملة أوراقه، فلما قتل وخلف بنتاً صغيرة، احتاط ديوان الأيتام على موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى القاضي بدر الدين، فأوقف الناس عليها، وكان رحمه الله تعالى، كريماً كثير الاحتمال، كثير المروءة، حسن العشرة، يقبل الاعتذار، ولا يكافىء على السيئة بمثلها، بل يحسن لمن ظهرت إساءته، ويبره بماله ويستميله بإحسانه، إلا أنه شهر عنه في ولاية القضاء قبول هدايا النواب، حتى قيل إنه ربما كان قرر على كل منهم ما لا يحمله في كل مدة في مقابلة ولايته على قدر الولاية، وكذلك أيضاً من يقصد إنشاء عدالته حتى كثر المعدلون في أيامه، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها، ولما ولي قاضي القضاة تاج الدين أسقط كثيراً من عدوله، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله فكانوا أميز العدول وأجلّ الناس، ومنهم من لي قضاء القضاة وبلغ، رحمه الله تعالى، خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل شعبان توفي الأمير جمال الدين موسى بن شرف الدين يغمور بن جلدك بلمان[٣] بن يغمور استاددار السلطان الملك الظاهر، وهو الذي كان ينوب عن الملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق، وكان عالي المنزلة عند الملوك الأيوبية ومن بعدهم، ودفن بسفح المقطم، وكان مولده بالقرية اليغمورية بقرب سمهود من الأعمال القوصية[٤] في جمادى الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وهو ياروقي الأصل: وكان عفيفاً كريماً سمحاً جواداً، كيساً لطيفاً، متواضعاً حسن العشرة والسيرة، كثير البر والصدقة، رحمه الله تعالى.

---

(١) و(٢) في الأصل: «بن».

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٩، س ١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢١٨.

(٤) إن الاسم الحالي للأعمال القوصية هو كرم يعقوب. وهو اسم قرية تتبع مركز تجمع حمادي بين سمهود ونجانس إلى الجنوب من سمهود. ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢١٨، حاشية رقم (٣).

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمائة أيضاً: أمر السلطان بشنق الشريف حصن الدين بن ثعلب الجعفري[١] بالإسكندرية، فشنق خارج باب البحر، وكان السلطان قد اعتقله بها، وسبب شنقه أن الشريف السرسناي أحد عدول الثغر كان يتردد إليه في معتقله لتأنيسه وقضاء حوائجه، فاتصل بالسلطان أنه أعمل الحيلة في هروبه، وكان الشريف قد حضر إلى مصر لقضاء حوائج حصن الدين فأحضره السلطان وسأله عن ذلك، فأنكره، فأراه الخطوط الواردة من الإسكندرية بالشهادة عليه بذلك، وأمر بشنقه، فشنق تحت قلعة الجبل. وسير السلطان عز الدين أيبك الأغاحصاري[٢] إلى الإسكندرية فشنق الشريف حصن الدين.

واستهلت سنة أربع وستين وستمائة[٣]

في هذه السنة توجه الملك السلطان الظاهر إلى الشام في مستهل شعبان، واستناب بقلعة الجبل الأمير عز الدين أيدمر الحلي، وجعله في خدمة ولده الملك السعيد هو والصاحب بهاء الدين وتوجه، وكان في سفرته هذه من فتوح صفد والغارات على بلاد الفرنج ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر عمارة جسر دامية

وفي جمادى الأول سنة أربع وستين وستمائة، رسم السلطان ببناء جسر على نهر الأردن، وهو النهر الذي يشق غور الشام، ويسمونه الشريعة[٤]. وهذا الجسر هو بقرب دامية، فيما بينها وبين فراوي. واتفق فيه أعجوبة لم يسمع بمثلها: وذلك أن السلطان ندب الأمير جمال الدين بن نهار المهمندار[٥] لعمارته، ورسم أن يكون خمس قناطر، واجتمع الولاة لذلك ومنهم: الأمير بدر الدين محمد بن رحال متولي نابلس وحصلوا الأصناف وجمعوا الصناع، وعمروه على ما رسم به السلطان، فلما تكاملت عمارته وتفرق ذلك الجمع اضطرب بعض أركان الجسر، فقلق السلطان لذلك وأنكر عليهم وأعادهم لإصلاح ذلك. فتعذر عليهم لزيادة الماء وقوة جريانه، فأقاموا كذلك أياماً

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٨٨.

(٢) هكذا بالأصل.

(٣) يوافق أولها يوم الثلاثاء ١٣ أكتوبر/ تشرين الثاني ١٢٦٥ م.

(٤) أطلق هذا الاسم على نهر الأردن، بعد زمن الحروب الصليبية، وخصوصاً جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية إلى مصب في البحر الميت، ويعرفه البدو بهذا الاسم حتى الآن. Le strange: G, palestine under the Moslems, p 52, Quatremère: op. cit. V 1, p 32. N0m 37.

(٥) في الأصل: «المهندار».

وقد تيقنوا العجز عنه. فلما كان في الليلة المسفرة عن السابع عشر من شهر ربيع الأولى سنة ست وستين انقطع ماء الشريعة حتى لم يبق بها شيء منه، فتبادروا وأشعلوا النيران الكثيرة والمشاعل واغتنموا هذه الحادثة وأصلحوا الأركان وقووها، وأصلحوا منها ما لا كان يمكن عمله. وركبوا من يكشف خبر هذه الحادثة، فساقوا الخيل فوجدوا كتاراً(١) مرتفعاً كان يشرف على الشريعة من الجانب الغربي، والكتار شيء يشبه الجبل وليس بجبل لأن الماء يحله بسرعة كالطين، وقد سقط في الشريعة فسدها، وانسكر الماء وتحامل على جهة الغور ما وراء السكر، فعادوا بالخبر، وانقطع الماء من نصف الليل إلى الرابعة من النهار، ثم تحامل الماء وكسر ذلك الكتار، وجاء طول رمح فلم يؤثر في ذلك البناء لإتقانه، وحمل الماء ما كان هناك من آلات العمارة. وهذه الحادثة من عجائب الأنفاق. وهذا الجسر باقٍ إلى وقتنا هذا(٢).

وفي جمادى الأولى أيضاً تكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر المطل على سوق الخيل [من قلعة الجبل](٣)، وعمل بها دعوة للأمراء.

وفي هذه السنة اهتم السلطان بحفر خليج الإسكندرية، وندب الأمير علم الدين المسروري لذلك، ثم توجه السلطان بنفسه وباشر الحفر وأزيلت الرملة التي كانت على الساحل بين النقيدي وفم الخليج، ثم عدي إلى بر أبيار، وغرق المراكب هناك وبنى عليها بالحجارة، ثم رجع إلى القاهرة.

وفي شهر رمضان من السنة وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك [ابن الإمام المستعصم](٤) الذي كان عند هولاكو، وصحبته جماعة من أمراء العربان. فأنزله الأمير جمال الدين النجيبي في أعز مكان. فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جمال الدين بن الدوادار والطواشي مختار، فما عرفاه، وظهر أنه بخلاف ما ادعاه، فسير إلى مصر تحت الاحتياط.

وفي ذي القعدة وصل شخص آخر أسود ادعى أنه من أولاد الخلفاء، فسير إلى مصر أيضاً(٥).

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) انظر: Le strange: op. cit. p 52; Quatremère: po. cit. V 1. p 32, N⁰" 37.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٤.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩.

(٥) يتضح من العبارة كلها أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماماً بإقامة الحاكم بأمر الله في الخلافة بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢ م. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٧.

ذكر الوثوب على الأمير عز الدين الحلي[(١)] وضربه بالسكين وسلامته وقتل الأمير صارم الدين المسعودي

قال: لما كان في يوم الاثنين منتصف ذي الحجة سنة أربع وستين وستمائة جلس الأمير عز الدين الحلي بدار العدل، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة. [بدار العدل على العادة:][(٢)] وإذا بإنسان يخترق الصفوف ـ وبيده قصة ـ فوقف قدامه، وكان بيده سكين بين أثوابه، فضرب بها حلق الأمير عز الدين، فأمسكها بيده فجرحت يده، ثم رفسه برجله ونام على ظهره [فوقع المجرم][(٣)]، وقصد أن يضربه مرة أخرى أو يضرب الصاحب. فلما رفع يده جاءت السكين في فؤاد الأمير صارم الدين قايماز المسعودي فمات لساعته. وكان فخر الدين متولي الجيزة[(٤)] حاضراً فأمسكه ورماه. فوقع على قاضي القضاة، وضرب بالسيوف فمات. وعرف الضارب أنه من الجاندارية. وكانت به شعبة من الجنون، ولما وصل الخبر بسلامة الحلي إلى السلطان وهو راجع من أفامية[(٥)] أعطى مملوك الحلي ألف دينار عيناً، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم، وأحسن إلى ورثة المسعودي.

وفي هذه السنة فتحت صفد[(٦)] على ما نذكره، إن شاء الله تعالى. ورجع السلطان منها إلى دمشق، وأنعم على أمرائها وقضاتها وأرباب المناصب بالتشاريف.

ونظر السلطان في أمر الجامع الأموي ومنع من مبيت الفقراء به[(٧)].

وفيها: أبطل السلطان ضمان الحشيشة[(٨)] وأمر بتأديب أهلها.

---

(١) في الأصل: «الحلبي» والتصحيح في السلوك، ج ١، ص ٥٥٠.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٠، س ١٤.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥١.
(٤) الجيزة: بليدة في غربي فسطاط مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٠.
(٥) أفاميا: مدينة حصينة من سواحل الشام. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٧.
(٦) صفد: مدينة في جبال عاملة، مطلة على حمص بالشام: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤١٢.
(٧) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩، س ٧.
(٨) قال القاضي ناصر الدين أحمد بن محمد، قاضي الاسكندرية، لما وردت إليه المراسيم بالاسكندرية وعفّى متوليها أثر المحرمات:

ليس لإبليس عندنا أرب ... غير بلاد الأمير مأواه
حَرَمْتَهُ الخمرَ والحشيش معاً ... حَرَمْتَهُ ماءه ومرعاه

وقال أبو حسين الجزار:

قد عُطّل الكوب من حَبابه ... وأُخلي الثغر من رضابه =

وفيها: في ثالث ذي القعدة توفي الأمير كرمون أغا[١] بدمشق بعد منصرفه من فتح صفد فشهد السلطان جنازته، ودفن برأس ميدان الحصا عند قباب التركمان.

وفيها: في ليلة عرفة، كانت وفاة الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي[٢] وكان قد جرح على صفد وبقي مدة والألم يتزايد به إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

وكان من أكابر الأمراء، وسمع الحديث، وحدَّث، وكان مشهوراً بالشجاعة والكرم والديانة وسعة الصدر وكثرة الصدقة، وكان قد رتب على نفسه صلة للفقراء من أرباب البيوت والزوايا في كل سنة تزيد على مائة ألف درهم وألوف أرادب غلة، هذا غير صدقاته. وكان مقتصداً في ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندي والبعلبكي وغيره مما يباح ولا يكره لبسه. وكان من السلطان بالمنزلة العلية لا يخرج عن رأيه ومشورته سيما في الأمور الدينية وأحوال القضاة. ومما يدل على ذلك: ما تقدم[٣] من إشارته بتولية الحكم لأربعة قضاة. فرجع السلطان في ذلك إلى رأيه، وفعله لوقته. وكان رحمه الله من حسنات الزمان، وقد ختم له بالشهادة، فإنه مات من ألم تلك الجراحة. ودفن في مقبرة الملك الناصر بسفح قاسيون[٤]، رحمه الله.

واستهلت سنة خمس وستين وستمائة[٥]

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية وبناء الجامع الظاهري

كان خروج السلطان من دمشق في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وستين وستمائة. فلما وصل إلى منزلة الفوّار [يريد الديار المصرية][٦] فارق العسكر وتوجه إلى الكرك. ولما وصل إلى بركة زَيْزاء [وركب ليتصيد][٧] تقنطر[٨] عن فرسه، وذلك

=
وأصبح الشيخ وهو يبكي على الذي فات من شبابه
انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩، س ٦.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٤، س ٧.

(٣) انظر صفحة ١١٧ من هذا الجزء.

(٤) قاسيون: هو الجبل المشرف على مدينة دمشق. وفيه عدة مغاور وكهوف، فيها آثار الأنبياء. وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح. وبه مغارة تعرف بمغارة الدم، يُقال بها قتل قابيل أخاه هابيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٥) يوافق أولها يوم السبت ٢ اكتوبر/ تشرين أول ١٢٦٦ م.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة من كتاب النهج السديد، ص ١٥٧.

(٨) في السلوك للمقريزي: «فتقطّر». انظر: السلوك، ج ١، ص ٥٥٥، س ٤.

في يوم الأحد ثامن المحرم، فتأخر هناك أياماً، ونزل إليه الأمير عز الدين نائبه بالكرك فأعطاه ألف دينار، وخلع عليه وسير الخلع إلى من بالكرك. ثم توجه في محفة حملها الأمراء والخواص على أكتافهم إلى غزة. ووصل إلى بلبيس[(١)] في ثالث عشر صفر فتلقاه ولده الملك السعيد والأمير عز الدين الحلي، وزينت المدينة لمقدمه.

وفي أول شهر ربيع الأول ركب السلطان فرسه وضربت البشائر لذلك، ونزل بباب النصر وأقام هناك إلى خامس الشهر، ثم توجه إلى بركة الجب لرمي البندق.

وفي شهر ربيع الآخر، سير السلطان الأتابك والصاحب فخر الدين ولد الصاحب لكشف مكان يعمل به جامعاً بالحسينية. فاتفقا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان: «أولى ما جعلت ميداني الذي هو نزهتي جامعاً»[(٢)]. وركب في ثامن شهر ربيع الآخر وصحبته الوزير والقضاة ونزل إلى ميدان قراقوش، ورتب أمور بنائه جامعاً، وأن يكون بقية الميدان وقفاً عليه[(٣)]، ورجع ودخل مدرسته بالقاهرة.

وفي هذه السنة أمر السلطان بإنشاء القناطر على بحر أبي الرجا [بناحية بيسوس][(٤)] فأنشئت، وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار فحصل الرفق بها للمسافرين وكانوا يجدون شدة وإزدحاماً بسبب المعادي.

وفي سابع وعشرين شهر ربيع الآخر وصل الملك المنصور صاحب حماه، وكان السلطان قد توجه إلى العباسية[(٥)] فتلقاه إلى رأس الماء وسير له ولمن معه التشاريف، وعاد السلطان إلى قلعته، وطلب صاحب حماة التفرج في الإسكندرية فسير إليها وسير في خدمته الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري، فوصل إليها وعظم تعظيماً كثيراً، ثم عاد، وتوجه في خدمة السلطان إلى غزة، ثم توجه إلى مملكته[(٦)].

وفي جمادى الآخرة وصلت رسل صاحب الدعوة وصحبتهم جملة من الذهب

---

(١) بلبيس: مدينة بينها وبين فُسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٦، س ٢.

(٣) الجامع المقصود هنا هو الجامع الظاهري. انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٢، ص ٢٩٩ - ٣٠٠، وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦١. وبيسوس قرية صغيرة بمديرية القليوبية الحالية، وموقعها على الشاطىء الشرقي لفرع دمياط، وكانت من مراكز الطير المرتبة من القاهرة إلى دمياط، واسمها الحالي باسوس. مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١٠، ص ٢٥.

(٥) في الأصل: «العباسة» والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٥٦.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٦.

وقالوا: هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، وكان السلطان قد شرط ذلك عليهم عند وصول رسلهم وسؤالهم الصلح وشرطه على بيت الاسبتار في جملة ما اشترط عليهم.

ذكر إقامة الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة وشيء من أخباره(١)

وفي يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة أقيمت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر. وسبب ذلك أن الأمير عز الدين الحلي خاطب السلطان في أمره وتبرع بجملة من ماله في عمارته، وانتزع أشياء من أوقافه كانت مغصوبة في أيدي جماعة، وشرع في عمارته، فعمر ما وهي من أركانه وجدرانه وبيضه وبلطه، وأصلح سقوفه وفرشه. واستجد به مقصورة حسنة، وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار الظاهري فيه مقصورة كبيرة ورتب فيها مدرساً وجماعة من الفقهاء الشافعية، ورتب فيها محدثاً يسمع الحديث النبوي والرقائق(٢)، وسبعاً لقراءة القرآن. ووقف على ذلك أوقافاً، وولى خطابته زين الدين أدريس ابن صالح بن وهيب المصري القليوبي، فاستمر به إلى أن توفي. وكانت وفاته في ليلة السبت رابع عشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وستمائة، ومولده سنة ثمان عشرة(٣) وستمائة.

وهذا الجامع هو أول مسجد جامع وضع للناس بالقاهرة المعزية، وفرغ من بنائه وأقيمت فيه الجمعة في شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلثمائة. فلما ولي العزيز بن المعز جدد به أشياء وعمر به عدة أماكن. ويقال إن به طلسم لا يسكنه بسببه عصفور ولا يفرخ فيه. وفي سنة ثمان وسبعين وثلثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس الخليفة أن يأذن له في صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأذن له. فأطلق لكل منهم كفايته واشترى لهم داراً إلى جانب الجامع، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وذكروا فيه دروس فقه وكان أبو يعقوب قاضي الخندق، وكانوا نيفاً وثلاثين فقيهاً لأن دولة العبيد بين ما كان يستقل فيها بفقيه، ولما عمر الحاكم الجامع نقل الخطبة إليه.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٦ مع اختلاف في التوقيت.

(٢) الرقائق: مفردها رقيقة، ويقال الرقاق أيضاً ومفرده رقيق. لفظ اصطلاحي يطلق في كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوي، وسُمِّيت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه، مما يجعل القلب رقيقاً رحيماً. فيقال: باب الرقائق وباب الرقاق، والتسمية الثانية أكثر شيوعاً. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٥٧، حاشية رقم (١).

(٣) في الأصل: «سنة ثمانية عشر» والتصحيح يقتضيه السياق.

ذكر إنشاء القصر الأبلق بالميدان بظاهر دمشق(١)

وفي سنة خمس وستين وستمائة، أمر السلطان الملك الظاهر بإنشاء القصر الأبلق بالميدان الأخضر بظاهر دمشق، فعمر على ما هو عليه الآن. واتفق في عمارته واقعة غريبة، حكى بعض من كان يباشر عمارته، قال: لما انتهت عمارة القنطرة التي بالإيوان ولم يبق من ختمها إلا وضع حجر واحد أسود، فرفع بالحبال بعد أن نحت وجهز ليوضع في مكانه وتشد به القنطرة، فانقطع الحبل وسقط الحجر إلى أرض الإيوان فانكسر، فتألم المهندس لذلك(٢)، ثم دخل إلى مرحاض القصر العتيق لقضاء الحاجة، [فرأى](٣) في أحد كراسيه حجراً أسود منحوتاً، فقاسه فوجده قدر الحجر الذي انكسر سواء، فاستأذن المهندس، الأمير جمال الدين النجيبي على قلعه ووضعه في رأس القنطرة، فأذن في ذلك، فقلع من كرسي المرحاض وجعل في رأس القنطرة بالإيوان فختمت به. وجاء كأنه عمل لها، ووضع الحجر الذي انكسر مكانه. وهذا من عجيب الإنفاق، وقد وقع نظير هذه الواقعة في أساس سور بغداد وعتبة جامع غزنة، وتقدم ذكر ذلك.

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعمارة قلعة صفد(٤)

وفي العشرين من جمادى الآخرة توجه السلطان إلى الشام في جماعة من أمرائه وأراح بقية العسكر، ولما وصل إلى غزة وردت إليه رسل الفرنج بهدية وجماعة من أسرى المسلمين. وتوجه السلطان إلى صفد بقصد عمارتها فرتب أمورها، وتوجه إلى دمشق مسرعاً عندما بلغه أن التتار عزموا على قصد الرحبة، فأقام بها خمسة أيام واهتم بأمر الرحبة(٥) وعاد إلى صفد في رابع وعشرين شهر رجب، فقسم الخندق على الأمراء، وأخذ نصيباً وافراً لنفسه ومماليكه وحاشيته، وعمل السلطان بنفسه وبيده، فلم يتوفر أحد من العمل. ولما كملت عمارة قلعة صفد رسم السلطان أن يكتب على أسوارها:

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦١، س ٢ ـ ٣.

(٢) ذكر المقريزي في السلوك، ج ١، ص ٥٦١، أن المهندس الذي أنشأ القصر الأبلق هو الأمير أقوش النجيبي.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من النسخة (س).

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٨، ٥٦٣.

(٥) الرحبة: قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٣.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿... أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها، وتكملة عمارتها وتحسينها، بعدما[1] خلصها من أيدي الفرنج الملاعين، وردها إلى أيدي المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين، فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة، وجعلها للكفار خسارة وحسرة، ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد، وبدل الكفر بالإيمان، والناقوس بالأذان، والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، سلطان الإسلام والمسلمين ومسترد صوال الدين، مبيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام، ومن سكنها من المجاهدين المثاغرين على الدوام فليجعل لهذا السلطان فاتحها ومجددها نصيباً من أجره، ولا يُخْلِهِ[2] من الرحمة في سره وجهره في طول عمره، فإنه جعلها دار يمن وأمان، بعد أن كانت دار كفر وطغيان، وصار يقال عمر الله سرحها، بعد أن كان يقال عجل الله فتحِها، والعاقبة للمؤمنين إلى يوم الدين»[3].

ولما كملت العمارة طلع السلطان إلى القلعة فرأى بالبرج صنماً كبيراً كان الفرنج يقولون إن القلعة في خفارته ويسمونه أبا جرج، فأمر بقلعه وتكسيره، وعمر مكانه محراباً.

ورسم بتجديد عمارة حرم الخليل، وكتب بذلك إلى دمشق، وتوجه الأمير جمال الدين بن نهار لذلك، فجدد الأخشاب والمقاصير والأبواب، ودهن ما يحتاج منها إلى الدهان، وجددت الضرائح المقدسة.

ووصلت رسل الفرنج إلى السلطان وهو على صفد، وتحدثوا معه في أمر بلادهم، وأجابوا إلى ما قاله من مناصفة صيدا وهدم الشقيف. ثم أغار على عكا على ما نذكره إن شاء الله، ولم ينتظم أمر الصلح.

ثم حضرت رسل سيس ورسل بيروت[4] ومعهم جماعة من أسرى المسلمين،

---

(١) في الأصل من، والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٣، س ٧.
(٢) في الأصل: «ولا يخليه». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٣.
(٣) ورد نص النقش في السلوك، ج ١، ص ٥٦٣، مع اختلافات يسيرة.
(٤) أتى رسل بيروت تلك السنة من قبل صاحبتها الأميرة (Isabel d'ibelin) وكان سبب مجيئهم أن أخا =

وردوا مال التجار.

وفيها: توفي القاضي صدر الدين موهوب بن عمر بن إبراهيم الجزري الشافعي(١) وهو الذي كان ينوب عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمصر، وولي القضاء بعده كما قدمنا ذكر ذلك. وكان فاضلاً عالماً بمذهب الشافعي ومشاركاً في غيره من العلوم. وكان في مبدأ أمره على قضاء جزيرة ابن عمر. وكان كثير المال مرزوقاً في التجارة، فاكتسب مالاً جزيلاً فمد صاحب الجزيرة عينه إلى أمواله وقصد أخذها، فبلغه ذلك، فأرسل أكثر أمواله إلى مصر والشام صحبة التجار ثم هرب واختفى، ووصل إلى الشام ثم إلى الديار المصرية. ولما ولي الصاحب بهاء الدين الوزارة قصد أذاه فخافه خوفاً شديداً.

حكى عنه أنه قال: لما خفت الصاحب بهاء الدين رأيت رسول الله ﷺ في المنام فسألني عن حالي فقلت: يا رسول الله، إني خائف من الصاحب فقال لي: لا تخف منه وقل له بأمارة كذا وكذا لا تؤذني، فإن رسول الله قد شفع فيّ عندك، قال: فانتبهت فرحاً بمقابلة رسول الله ﷺ، ولما صليت الصبح ركبت دابتي ووقفت للصاحب في طريقه إلى القلعة، فسلمت، عليه وقلت له: معي رسالة، فقال: ممن هي؟ قلت: من رسول الله ﷺ، وهو يقول لك: بأمارة كذا وكذا لا تؤذني فإن رسول الله ﷺ، قد شفع فيّ عندك، فقال: صدقت أنت، وصدق رسول الله ﷺ، وأنت اليوم فقد بقيت أتشفع بك إلى رسول الله ﷺ، والله لا حصل لك مني سوء أبداً، فالمولى يرسم والمملوك يمتثل، ومن اطلع عليه مولانا وله حاجة(٢) من مضرور أو مظلوم ترسل إلي تعرفني حتى أقضي حاجته بنفسي، وأعتذر إليه، وبقي يعظمه، ولو فسح في أجله لولاه القضاء بعد القاضي تاج الدين ولكنه مات قبله. وكانت وفاته في مستهل شهر رجب سنة خمس وستين وستمائة. وقيل بل كانت وفاته فجأة في تاسع الشهر، ودفن بسفح المقطم. ومولده في النصف من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بالجزيرة. ولما مات ترك ما يقارب ثلاثين ألف دينار، وكان له ابنتان: إحداهما بالجزيرة، والأخرى زوجة القاضي بدر الدين ولد القاضي تقي الدين بن رزين، فورثتاه(٣) وشركهما بيت

= هذه الأميرة كان «قد غدر بمركب للأتابك، فيه جماعة من التجار، وكانوا متوجهين إلى قبرس، فطالبهم السلطان بمال التجار، فالتزموا به والتزموا إطلاق التجار وتقرر الصلح». انظر عقد الجمان للعيني، ص ٢٢٥، ونهاية الأرب للنويري، ج ٢٨، ص ٩١. وانظر: King: the knights hospitallers in the Holy Land, p 262.

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وفيات عام ٦٦٥ هـ.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) في الأصل: «فورثاه». وهو خطأ ظاهر.

المال، وكان رحمه الله كثير المروءة والإحسان إلى أهل بلده ومن يقصده.

ذكر وفاة قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز[١] ونبذة من أخباره رحمه الله ومن ولي قضاء الشافعية وغيره من مناصبه بعد وفاته

وفي السابع والعشرين من شهر رجب الفرد سنة خمس وستين وستمائة، كانت وفاة قاضي القضاة، تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب بن القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن رشيد الدين أبي الثناء محمود بن بدر العلامي[٢] ـ وبنو علامة بطن من لخم ـ وهو المشهور بابن بنت الأعز، والأعز هذا هو جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر، أحد وزراء السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وقد تقدم ذكره في أخبار الدولة العادلية. ومولد القاضي تاج الدين بالقاهرة في مستهل شهر رجب سنة أربع وستمائة. ولما مات والده الأعز خلف ـ رحمه الله تعالى ـ ترك دنيا عريضة، فيقال إنه خلف اثني عشر ألف دينار عيناً، وقيل: سبعة آلاف، فأنفقت والدته ابنة الصاحب الأعز جميع ذلك على نفسها ومن يلوذ بها من أهلها، ونشأ فلم يجد شيئاً من ذلك، فما شافهها فيه بكلمة، وكان باراً بها، واشتغل بالعلم، وولي إعادة المدرسة المعروفة بزين التجار بمصر، وولي شهادة بيت المال في الدولة الكاملية. وكان سبب ذلك أن الشريف شمس الدين الأرموي نقيب السادة الأشراف، رحمه الله تعالى، كان يلي تدريس المدرسة المذكورة فتوجه من جهة السلطان الملك الكامل في رسالة واستناب القاضي تاج الدين هذا في التدريس والنظر، فأحسن الخلافة عنه وعمّر الوقف وقام بالوظيفة أحسن قيام، فلما عاد الشريف ووجد الأمر على ذلك، أنهاه إلى السلطان وشكره وأثنى عليه، فرسم السلطان الملك الكامل له بمباشرة شهادة بيت المال فباشر ذلك، وكان إذ ذاك على غاية الفاقة، وسلك طريقي الضبط والأمانة، وهذه الوظيفة هي أول مناصبه الديوانية، فاشتهر بحسن المباشرة والاحتراز، فتقدم في الأيام الصالحية النجمية وما بعدها، وولي نظر بيت المال، ثم ولي نظر الدواوين بالديار المصرية في أيام الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح، بتقليد معظمي، تاريخه لخميس بقين من ذي القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة، نعت فيه بالحضرة السامية: القاضي، ثم كتب له منشور كريم خاتوني بإقطاع لخاصه ولأربعة أتباع. وقد رأيت أن أشرح هذا المنشور بنصه وأبين وضعه ليعلم منه كيف كان الرسم والمصطلح في مثله،

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٢٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، في وفيات عام ٦٦٥.

(٢) في الأصل: «بنو» وهو خطأ.

وهو أن الموقع كتب عن يمين الدرج ما مثاله: (الصالحية) بقلم أغلظ من قلم المنشور، ثم كتب البسملة بعد هذه اللفظة بقدر أصبعين وكتب تلو البسملة ما مثاله: خرج الأمر العالي المولوي السلطاني الخاتوني الصالحي الجلالي العصمي الرحيمي، زاده الله شرفاً ونفاذاً، أن يجري في إقطاع المجلس السامي، القاضي الأجل، الصدر الكبير، الرئيس الفقيه، العالم الإمام، الفاضل الأوحد، العامل المرتضى، الكامل المجتبى، المختار تاج الدين مجد الإسلام بهاء الأنام اختيار الدولة، مجتبى الملوك السلاطين، فخر الرؤساء، علم العلماء، شرف الفقهاء، رضي أمير المؤمنين عبد الوهاب بن خلف الناظر بالدواوين المعمورة، أدام الله رفعته ونعمته، ما رسم له به الآن من الإقطاع لخاصه ولأربعة أتباع معه في السنة ما يأتي ذكره.

خاصة: الثلثان من أبواب الهلالي بمدينة الفيوم. كفور سفط رشين خارجاً عن بني شريان[(١)]، ومعصرة أبي دخان، ودبيس، وهي مشناة ابن مليح، كوم بني مؤمنة، كوم الحمير، كوم مغنين[(٢)]، منشاة حراز، فزونة[(٣)]، قبالة الجعاف[(٤)]. وذلك في الإقطاع لاستقبال مغل سنة سبع وأربعين وستمائة بعد الاعتداد على غايته بما قبضه من الجامكية لاستقبال المدة من جملة ما يعوض به، وفي الخدمة مستهل المحرم منها.

أتباعه وعدتهم أربعة في السنة: ستة عشر ألف درهم ناصرية جهة ذلك من متحصل السدس من بحيرة تنيس لاستقبال تاريخ عرضهم بالديوان المعمور بعد الخط الشريف، أعلاه الله، وثبوته حيث ثبتت مثله.

كتب في ثامن ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة، وبين السطرين الأول والثاني بخطها ما مثاله: والده خليل.

ورأيت في هذا المنشور أشياء تستغرب ويستنكر مثلها في وقتنا هذا: وهو أن بيت العلامة الذي هو بين السطرين كتبت فيه الملكة، وفيه تحت خطها بين السطرين: خط ناظر الدواوين[(٥)] ومثاله: ليثبت بديوان النظر على الدواوين المعمورة إن شاء الله

---

(١) هكذا في الأصل، بغير نقط.

(٢) هكذا في الأصل، مع نقط الغين المعجمة والنون.

(٣) هكذا في الأصل، مع إهمال نقط النون.

(٤) هكذا في الأصل بغير نقط.

(٥) ناظر الدواوين: هو الذي يعبر عنه بناظر الدولة، ويشارك الوزير في التصرف والنظر في المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة ويسمى أحياناً ناظر النظار أو الصاحب الشريف، ومقره ديوان النظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٥.

تعالى، وخط شاد الدواوين[1]: امتثل الخط الشريف، وبينهما في بيت العلامة أيضاً: خط ناظر الفيوم ومثاله: ليثبت إن شاء الله تعالى بديوان نظر الفيوم. وما معه وفي سامتة السطر الثاني ما مثاله: ليثبت بالديوان المعمور مما يختص بالوجه القبلي، وأسفل منه ما مثاله: ليثبت بالديوان المعمور بالوجه البحري، وإلى جانبه عن يساره ليثبت بديوان الجيوش المنصورة إن شاء الله تعالى، ثم بعد ذلك خطوط الكتاب، ولعل ناظر الفيوم الذي كتب في هذا الموضع هو شرف الدين هبة الله الفايزي الذي ولي الوزارة فيما بعد، فإنه كان ناظر الصناعة والفيوم في ذلك الوقت، والله أعلم.

ثم ولي القاضي تاج الدين نظر بيت المال في الأيام المعزية، بتوقيع تاريخه ثالث عشر صفر سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقرر له في كل شهر خمسون ديناراً، وفي السنة مائتا أردب واثني عشر أردباً نصفين، ثم ولي بعد ذلك نظر الدواوين. فهذه مناصبه قبل أن يلي القضاء والوزارة، ثم ولي قضاء القضاة بمصر والوجه القبلي في تاسع شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة، عوضاً عن القاضي بدر الدين السنجاري، وجمع له القضاء بالقاهرة والوجه البحري في الشهر المذكور لثمان بقين منه، وعطل القاضي بدر الدين السنجاري عن القضاء. ولما ولي القضاء شدد على العدول وأسقط كثيراً منهم، فكان يكتب الإسجالات بإسقاط عدالة جماعة بعد جماعة من عدول السنجاري، ويشهد على نفسه بما تضمنته، فقلق الناس لذلك، ولم تطل مدة ولايته هذه، فإنه عزل في بعض شهور سنة خمسة وخمسين وستمائة كما قدمنا ذكر ذلك، ثم فوضت إليه الوزارة بالديار المصرية كما تقدم ذكره، ثم عطل عن الوزارة والقضاء في الأيام المظفّرية - قطز - إلى أن كانت الدولة الظاهرية الركنية، ففوض السلطان الملك الظاهر له قضاء القضاة بجميع الديار المصرية في السابع عشر من جمادى الأول سنة تسع وخمسين وستمائة، عوضاً عن القاضي بدر الدين السنجاري، ثم أفردت عنه مصر والوجه القبلي في السنة المذكورة، وفوض ذلك إلى القاضي برهان الدين الخضر السنجاري، ثم أعيد ذلك إليه في الثامن من صفر سنة ستين وستمائة. وقد شرحنا مضمون تقاليد هذه الولايات في مواضعها. وفوض إليه تدريس المدرسة الصالحية النجمية، بتوقيع ظاهري تاريخه ثاني عشر جمادى الأول سنة ستين وستمائة بعد وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام. ثم فوض إليه النظر العام على الأشراف والأوقاف والأحباس، ومشهد السيد الحسين ومدرسة الإمام الشافعي، والخانكاه والمشاهد بالباب الشريف وبجميع أعمال الديار المصرية بتوقيع ظاهري تاريخه السابع

(١) شاد الدواوين: كانت مهمته مرافقة الوزير، والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢.

من جماد الآخر سنة ستين وستمائة. وفوض إليه تدريس مدرسة الشافعي بتقليد تاريخه نصف ذي الحجة سنة إحدى وستين. ثم قسم القضاء بين أربعة حكام، فكتب له تقليد كما تقدم، تاريخه ثامن عشرين ذي القعدة سنة ثلاث وستين، وخص بالنظر في جميع أموال الأيتام بالقاهرة ومصر والديار المصرية بمفرده والأوقاف، وقد شرحنا ذلك. واستمر كذلك إلى أن مات رحمه الله تعالى. وكان رحمه الله، كثير الاحتراز والتحفظ، وضبط ناموس الشرع، وإقامة الحرمة، وكف الأيدي العادية، والتطلع على جهات الأوقاف، وأخبار العدول، وغير ذلك مما هو متعلق بمنصب الشرع الشريف. ولما مات، رحمه الله تعالى، قسم قضاء الشافعية بعده، ففوض قضاء مصر والوجه القبلي للقاضي محيي الدين بن الصلاح[١] عبد الله بن قاضي القضاة شرف الدين محمد ابن عين الدولة الصفراوي[٢]. وفوض قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين[٣]. وولي النظر على ديوان الأحباس القاضي تاج الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ أبي العباس أحمد المعروف بالقسطلاني. وولي تدريس المدرسة الصالحية القاضي صدر الدين أبو حفص عمر ولد قاضي القضاة تاج الدين المشار إليه. وولي نظر الخانقاه قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي، وولي تدريس مدرسة الإمام الشافعي فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين. وفيها أيضاً: توفي الأمير ناصر الدين الحسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري مقدم الجيش بالساحل[٤]، وكانت وفاته في ثالث شهر ربيع الأول بالساحل، ومولده في سنة ستمائة بقيمر، وهو الذي بنى المدرسة الشافعية بدمشق بناحية مادنة[٥] فيروز. وكان جواداً كريماً جليلاً مقداماً تقدم على جيوش الشام في الأيام الصالحية والناصرية، وكان جميع الأكراد في طاعته وخدمته. وكان أمره في الأيام الناصرية أنفذ من أمر السلطان لانقياد الجيوش إليه. ثم خمل في الأيام الظاهرية إلى أن أقطعه السلطان الملك الظاهر إقطاعاً بالساحل، وقدمه على أمراء الساحل، فصلحت حاله، وكان مقامه بجنين، رحمه الله تعالى.

---

(١) ذكر المقريزي في كتابه السلوك، ج ١، ص ٥٦٢، س ٢ ـ ٣، أنه محيي الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن علي بن صدقة بن حفص المعروف بابن عين الدولة.

(٢) هكذا في الأصل. ولم ترد «الصفراوي» في كتاب السلوك.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٢، س ١.

(٤) سماه المقريزي في السلوك ج ١، ص ٥٦٢، س ٧ ـ ٨: «نائب السلطنة بالساحل».

(٥) هكذا في الأصل.

ذكر وصول الشريف بدر الدين مالك بن منيف[١] وإعطائه نصف إمرة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي سنة خمس وستين وستمائة: وصل الشريف بدر الدين مالك بن منيف ابن شيحة، وكان السلطان على صفد، فشكى من الشريف عز الدين جماز، وقال: إن المدينة كانت بين أبي وبينه نصفين، وتوفي والدي وأنا صغير، فظلمني وأخذ نصيبي، وقد جئت مستجيراً بالسلطان في رد حقي. فكتب السلطان إلى الشريف جماز يأمره بتسليم النصف الذي كان لمنيف لولده مالك، وكتب تقليده بنصف إمرة المدينة ونصف الأوقاف، وسلم إليه نصف الأوقاف التي بمصر والشام، وتوجه. وورد جواب الشريف عز الدين جماز إلى السلطان بامتثال الرسوم، وأرسل خادمين من خدام الضريح النبوي يشهدان بذلك، فكتب السلطان إليه يشكره على ذلك.

ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل. وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجة خمس وستين وستمائة.

ذكر تسمير من يذكر بالقاهرة

وفي العشرين من ذي الحجة من السنة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية أمر بتسمير جماعة كانوا معتقلين بخزانة البنود منهم: أفش القفجاقي أحد المماليك الصالحية، وكان قد ادعى النبوة. وأحضر في شهر رمضان إلى دار العدل، فأمر نائب السلطنة باعتقاله، فلما حضر السلطان من الشام أنهى إليه أمره فاستحضره وسمع كلامه وأمر بتسميره.

ومنهم: الناصح الواحي كان في ابتداء أمره ضامن الواحات، ثم ترقى إلى أن ولي نظر أخميم وأسيوط وغير ذلك بالوجه القبلي. وكان يركب بالطبلخاناه، وقويت نفسه وكثرت أتباعه واتسعت أمواله. فأرسل السلطان وقبض عليه وأمر باعتقاله بخزانة البنود، فأنهى إلى السلطان الآن أنه اتفق مع الملك الأشرف ابن شهاب الدين غازي ومع رجل نصراني على أن ينقبوا خزانة البنود ويخرجوا منها ويتوجهوا إلى الواحات فيتسلطن بها الملك الأشرف ويكون الناصح وزيره والنصراني كاتبه، فأمر السلطان بتسميرهم، فسمروا في يوم واحد.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٨، ٥٦٠.

واستهلت سنة ست وستين وستمائة(١)

ذكر أخذ الزكاة من عرب الحجاز(٢)

كان السلطان قد اهتم بأمر الزكاة من سائر الجهات حتى المغرب والحجاز، وأذعن عربان بلاد برقة لذلك وقاموا بالزكاة.

وفي صفر سنة ست وستين وستمائة: وصل الأمير ناصر الدين بن محيي الدين الجزري الحاجب من المدينة النبوية، وكان قد توجه لاستخراج الزكاة والعشر، فأحضر صحبته مائة وثمانين جملاً وعشرة آلاف درهم فاستقلها السلطان وأمر بردها عليه، ثم وصل بنو صخر، وبنو لام، وبنو عنزة وغيرهم من عربان الحجاز، والتزموا بزكاة الغنم والإبل، وتوجه معهم مشدون لاستخراج ذلك. هذا والسلطان على صفد لعمارتها.

ذكر ظهور الماء بالقدس الشريف(٣)

وفي سنة ست وستين وستمائة: ورد كتاب قاضي القدس أن الماء انتزح من بئر السقاية وعظمت مشقة الناس، فنزل رجل إلى البئر وشاهد قناة مسدودة من زمن بخت نصر الذي هدم البيت المقدس، فأحضر الأمير علاء الدين الحاج الركني [نائب القدس](٤) بنايين وكشف القناة السليمانية، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذي تحت الصخرة المقدسة فوجدوا باباً مقنطراً ففتحوه، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم. وكان خروج الماء في ذي الحجة سنة خمس وستين.

ووردت كتاب الأمير الحاج علاء الدين الركني أنه نقص ماء السقاية الذي ظهر ونزح، ودخل الصناع إليه فوجدوا سداً، فنقب فيه الحجارون مقدار عشرين يوماً ووجد سقف مقلفط به مائة وعشرون ذراعاً بذراع العمل، فخرج الماء وملأ القناة.

وفي هذه السنة: وصلت هدية صاحب اليمن(٥) ورسله، وأحضر فيها من الخيل المسومة عشرون فرساً بالبركسطوانات(٦) الأطلس المزركشة وفيلة وحمارة وحش عنابية اللون، وغير ذلك من المسك والعنبر والعود والصيني(٧) وغيره، فقبلت هديته،

---

(١) يوافق أولها يوم الخميس ٢٢ سبتمبر/ أيلول ١٢٦٧ م.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٨، ٥٦٢ ـ ٥٦٣.
(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٦٠.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٠.
(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٣، س ١٧ ـ ١٨.
(٦) هكذا في الأصل.
(٧) هكذا في الأصل.

وجهزت له هدية وصنجق وخلعة وشعار السلطنة وجوشن وكبش[١] وغيره من آلة الحرب، وسير إليه طيور جوارح. وكوتب[٢] بالمقام العالي المولوي السلطاني، وكاتبه السلطان بالمملوك. وتوجه بالهدية فخر الدين المقري[٣] ووصل صحبة أحد رسوليه ـ وهو ابن الماكساني التاجر ـ بها، وذكر أن[٤] والده صاحب اليمن سير به للمجاهدين ولوجوه البر، فأودع ثمنه بالخزانة، ولما توجه السلطان إلى الغزاة أنفق منه جملة في إقامة مجانيق أفردها لها، وأفتك ببقيته جماعة من أسارى المسلمين.

ذكر خبر الحبيس النصراني ومقتله

هذا الحبيس من نصارى مصر، وكان في ابتداء أمره من كتاب صناعة الإنشاء، ثم ترهب وانقطع في جبل حلوان. فيقال إنه وجد في مغارة منه مالاً للحاكم العبيدي كان قد وضعه هناك، فتصدق هذا الحبيس على الفقراء من سائر الملل. واتصل بالسلطان خبره فطلبه، وطلب منه المال، فقال: «أما أني أعطيك من يدي إلى يدك فلا يتصور، ولكنه يصل إليك من جهة من تصادره، ولا يقدر على ما تطلبه منه، فأساعده بمال يحمله إليك» وشفع فيه، فأطلقه السلطان.

ولما كانت واقعة النصارى المتقدمة، كان يحضر عند مشد المستخرج، ومن عجز عن أداء ما قرر عليه ساعده به وأداه عنه، نصرانياً كان أو يهودياً. وكان يدخل إلى الحبوس ويطلق منها من عليه دين ويقوم بما عليه. وكان يعطي ما ينافر العقول. وتوجه إلى الصعيد، ودفع عن أهل الذمة أكثر ما قرر عليهم، وتوجه إلى الإسكندرية، وعامل أهلها بما هالهم من بذل الأموال. فوصلت فتاوى الفقهاء إلى السلطان بقتله، وعللوا ذلك: «خوف الفتنة». فوافق ذلك رأي السلطان فأحضره في سنة ست وستين وستمائة، وطلب منه المال وأن يعرفه من أين أصله، وكيف حصل له، فلم يعرفه وجعل يغالظه ويدافعه، إلى أن أيس السلطان منه فعذبه حتى مات. وأخرج من القلعة ورمي بظاهرها على باب القرافة. وذكر أن مبلغ ما وصل إلى بيت المال وما واسى به من مدة سنين: ستمائة ألف دينار عيناً، مما أحصي بقلم الصيارفة الذين كان يجعل الأموال عندهم ويكتب إليهم أوراقه بما يعطيه. وذلك غير ما كان يعطيه سراً من يده.

---

(١) في الأصل، كبر. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٦٣، ورد أن الكبش اسم آلة من آلات الحرب.
(٢) في الأصل «كتب» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) هكذا في الأصل، مع أن الرواية لم تذكر الابن قبل ذلك.

ذكر بناء القرية الظاهرية قرب العباسية

وفي سنة ست وستين وستمائة: مر السلطان على وادي السدير قرب العباسية فأعجبه. فاختار منه مكاناً بنى به قرية سماها الظاهرية، وعمر بها جامعاً.

وفيها: توجه السلطان إلى الشام. وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى من الفتوحات.

ذكر إيقاع الحوطة السلطانية على الأملاك والبساتين وما تقرر على أربابها من المال

وفي سنة ست وستين وستمائة: لما كان السلطان نازلاً على الشقيف أمر بإيقاع الحوطة على البساتين والقرى والضياع التي بأيدي أهل دمشق ملكاً وحبساً. وقال: «نحن فتحنا هذه البلاد بالسيف، وانتزعناها من أيدي التتار». وكان قد تحدث بذلك في السنة الخالية. وعقد مجلس حضره السلطان والقضاة والفقهاء، فقال قاضي القضاة شمس الدين بن عطاء الحنبلي: «هذا لا يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه» وقام مغضباً، فتوقف السلطان ثم تقدم الآن بإيقاع الحوطة على البساتين، فاتفق وقوع صقعة باردة على البساتين، فأحرقت أكثر أشجارها، فظن أهل دمشق أن هذه الحادثة تبعث السلطان على الإفراج عنها فلم يفعل، ولما وصل إلى دمشق وعزم على العود إلى الديار المصرية عقد مجلساً بدار العدل حضره القضاة والفقهاء وأهل البلد، وأجرى ذكر البساتين وأخرج فتاوى الفقهاء من الحنفية باستحقاقها، فتوسط الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين عند السلطان على ذلك أن يقرر على أصحاب البساتين ألف ألف درهم، فامتنعوا من ذلك. وقالوا: «لا طاقة لنا بها معجلة»، وسألوا أن يقسطها، فامتنع السلطان، وتمادى الحال إلى أن خرج من دمشق، ولما وصل إلى منزلة اللجون عاوده الصاحب فخر الدين والأتابك والأمراء، فاستقر الحال أن يعجلوا منها أربعمائة ألف درهم ويعقد لهم بما قبضه السلطان من المغل، ويقسط ما بقي، في كل سنة مائتي ألف درهم، وكتب بذلك توقيع وقرىء على المنبر بدمشق.

ذكر وصول الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من بلاد التتار والصلح مع التكفور هيتوم صاحب سيس

كان السلطان قد جهز العساكر إلى سيس، وأسروا ليفون بن هيتوم ولد صاحب سيس على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، فترددت الرسل منه إلى السلطان يعرض عليه

كل ما تقرر عليه من مال وقلاع. فاقترح السلطان عليه أموراً، منها أن يحضر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بلاد التتار، وأن يرد القلاع التي أخذها من المملكة الحلبية، فسأل مهلة سنة إلى أن توجه إلى الأردو، وكشف خبره وأجيب إلى إطلاقه. ثم ورد كتاب صاحب سيس يذكر أنه حصله. وورد كتاب الأمير شمس الدين المذكور بعلائم وأماير. فتوقف صاحب سيس في الإجابة إلى رد بعض القلاع، فرد السلطان رسله وكتب إليه: «إنك إذا كنت قسوت على ولدك وولي عهدك، أنا أقسو على صديق ما بينه وبيني نسب، ويكون الرجوع منك لا مني. ونحن خلف كتابنا. ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر». فلما وصل إليه هذا الكتاب والسلطان إذ ذاك على أنطاكية خاف وبذل ما رسم به السلطان، وتقرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا والدربساك ومزريان ورعبان والروب وشيح الحديد[1]؛ وجميع ما كان أخذه من بلاد الإسلام، وردها بحواصلها كما تسلمها، وإطلاق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وأن يطلق السلطان له ولده وولد أخيه وغلمانهما. وأنه يحضر رهينة باسال أخ الملك، ويسير ريمون أخ زوجة الملك ليفون، ويبقى باسيل المأسور بن كنداصطبل هو وهؤلاء رهائن على تسليم القلاع. وكتبت الهدنة بذلك في شهر رمضان بأنطاكية.

وأرسل السلطان الأمير بدر الدين بجكا[2] الرومي على خيل البريد إلى قلعة الجبل، فأحضر ليفون وتوجه به إلى أبيه على خيل البريد في حادي عشر شوال. ثم توجه الأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار إلى سيس لتقرير فصول رسم بها السلطان. ولما وصل ليفون إلى أبيه أطلق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر. وكان السلطان يتصيد بجرود بالقرب من بلاد حمص مما يلي دمشق، فلما بلغ السلطان قربه، ركب مختفياً والتقاه وأحضره معه إلى الدهليز وباتا جميعاً. ولما أصبح واجتمع الناس للخدمة خرج إليهم السلطان الأمير شمس الدين في خدمته، فبهت الناس لرؤيته. وأنعم عليه السلطان بالأموال والخلع والحوائص والخيل والبغال والجمال والمماليك وجميع ما يحتاجه الأمراء. ولما حضر إلى الديار المصرية أمّره وبنيت له دار بقلعة الجبل. وأما القلاع المذكورة فتسلمها نواب السلطان، وأطلقت الرهائن.

ولما ترتبت هذه المصالح وفتحت هذه الفتوحات العظيمة التي نذكرها، رجع السلطان من أنطاكية ووصل إلى شيزر، وتوجه منها في البرية إلى حمص للصيد. ووصل السلطان إلى دار النائب بحمص في ثلاثة نفر وهم: الأمير بدر الدين

(١) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ ذكر القلاع نفسه ما عدا الروب.

(٢) هكذا في الأصل بدون نقط. والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٦٩.

بيسري[١]، والأمير بدر الدين الخزندار، والأمير حسام الدين الدوادار. ثم دخل دمشق في سادس عشرين شهر رمضان والأسرى بين يديه، وخرج منها في ثامن عشر ذي القعدة، وعيد في أم البارد [وهي السعيدية][٢] ورحل إلى قلعته في حادي عشر ذي الحجة وحمل عن الناس كلفة الزينة.

وفيها: توفي الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور بن محمد بن محمد بن محمد بن وداعة الحلبي[٣]. وقيل إنه كان في ابتداء أمره خطيباً بجبلة، ثم اتصل بالملك الناصر وصار من خواصه، فولاه شد الدواوين بدمشق، وكان يعتمد عليه. فلما ملك السلطان الظاهر ولاه وزارة الشام، فوقع بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس نائب السلطنة مفاوضة اقتضت حضوره إلى الديار المصرية، ثم أعيد إلى الوزارة بالشام عندما فوض السلطان نيابة السلطنة بدمشق للأمير جمال الدين النجيبي كما تقدم، فوقع بينه وبينه [خلاف][٤] أيضاً، فكان يهينه، فكتب إلى السلطان يذكر أن الأموال قد انكسرت، وأن الشام يحتاج إلى مشد تركي شديد المهابة مهسوط اليد، وتكون أمور الأموال والولايات والعزل راجعة إليه، وقصد بذلك رفع يد الأمير جمال الدين النجيبي عن الأموال، وظن أن المشد يكون بحكمه ولا يتصرف إلا عن أمره. فرتب السلطان في المشد الأمير علاء الدين كشتغدي[٥] الشقيري وبسط يده حسب ما اقترح ابن وداعة، فلم يلبث أن وقع بينهما [خلاف][٦] وكان يهينه بأنواع [الإهانات][٧] ويسبه، فيشكو ذلك إلى النجيبي فلا يلبي دعوته، ويقول له: «أنت طلبت مشداً تركياً، وقد جاء ما طلبت». ثم كاتب الشقيري في حقه، فورد الجواب بمصادرته، فصادره وضربه بالمقارع وعصره وعلقه، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه، وباع موجوده وأماكن كان قد وقفها وحمل ثمن ذلك، ثم طلب إلى الباب السلطاني فتوجه، وحدث نفسه بالعود إلى منصبه، فأدركته منيته، فمات في ذي الحجة من السنة، ودفن في مستهل المحرم سنة سبع.

---

(١) في الأصل: «سيبري». والتصحيح من رسم الاسم في نفس المتن في مواضع كثيرة.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧١، س ١١.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٥) في الأصل: «كشغدي» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٢.

واستهلت سنة سبع وستين وستمائة[١]

في هذه السنة في أولها، جهز السلطان من كان عنده من رسل الملوك فتوجهوا إلى مرسليهم.

ذكر تجديد الحَلْفِ للملك السعيد

وفي يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة: جلس السلطان في مرتبته، وجلس الأمير فارس الدين الأتابك والأمير عز الدين الحلي بين يديه، والصاحب بهاء الدين، وكاتب الإنشاء. وكان قبل ذلك يتحدث مع الأمراء في أمر ولد الملك السعيد وتفويض الأمور إليه فأجابوا بالسمع والطاعة، وحلف الأمراء في هذا اليوم وسائر العساكر المنصورة.

وفي ثالث عشر الشهر ركب الملك السعيد في الموكب كما يركب والده، وجلس في الإيوان، وقرئت عليه القصص. وفي العشرين من الشهر قرىء تقليده بتفويض السلطنة إليه. وهو من إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان[٢] وخطه.

ونسخته بعد البسملة والعلامة السلطانية الظاهرية:

«الحمد لله الذي أجزل العطاء والمواهب وضاعف النعماء التي يفيض شعابها، وأمواه العيون نواضب، وضاعف عزا لا يعز معه مقصد، ولا يتعذر معه المطالب، وحلي عطل الأيام بالمحاسن التي تستر بها ما ظهر من المعايب. أحمده على نعمه التي تجلى بنورها ظلم الغياهب، والألطاف التي نظمت من المجد عقدة المتناسق ودره[٣] المتناسب».

«وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغ بها يوم الإشهاد قاصيه المنى، وتجعل كل صعب هيناً. وأشهد أن محمداً عبده الذي صدع بالحق معلناً، ورسوله الذي أظهر الإسلام وما تباحد عزمه ولا انثنى، صلى الله عليه وعلى آله الذين شيدوا من المعالي البنا، وأصحابه الذين أحسنوا والله يحب من كان محسناً».

«وبعد: فإنا لما أتانا الله تعالى من السلطان الذي ملك به من العز ما جمح، والقدرة التي قربت[٤] من الآمال ما نزح، والمهابة التي ملأت عيون الأعداء بالذل لا

---

(١) يوافق أولها يوم الاثنين ١٠ سبتمبر/ أيلول ١٢٦٨ م.
(٢) انظر هذا التقليد مع بعض الاختلاف في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٩.
(٣) في الأصل: «ذروة».
(٤) في الأصل: «قرنت».

الوطف، والعزايم التي أذكرت من مواقف المهاجرين والأنصار ما سلف، والهمم التي نهضنا بها لفتح معاقل الكفار، والجهاد الذي كانت أثارنا فيه من أحسن الآثار، والغزوات التي كان معروفها منكراً، والوقائع التي نصر الله فيها حزب الإيمان فأضحى الدهر ينشر حديثه متعطراً، وشد أزرنا بولدنا الملك السعيد الأجل الكبير العالم العادل ناصر الدين بركة خاقان، أمتع الله الإسلام ببقائه، وأقر عيون المجد بنصر لوائه، وتوسمنا فيه مخايل السعادة بادية الغرر، وظهرت فيه أدلة النجابة، والأدلة إذا ظهرت لا تستتر، وبدت فيه مساع أوجبت له مزية التكريم، وعم فيها فضله فتعين أن يخص بالتعظيم، ولاحت منه إشارات يعرب عن الرشد، وتدل أنه في تدبيره حسن القصد، وسما نور هلاله فاتفقت النفوس أن يكون بدراً كاملاً، ووثقت الآمال أن يرجع حالياً كل ما كان عاطلاً، رأينا أن نفوض إليه حكم كل ما أمضى الله فيه حكمنا من البلاد، وتحققنا أن رائد نظرنا في أمره يصدق فيما اختار من الارتياد. وقلدناه أمر الديار المصرية والبلاد الشامية والقلاع والحصون، وهي: الديار المصرية، البلاد الشامية، البلاد الحلبية، البلاد الحموية، البلاد الحمصية. فهذا الملك إليه ممتد الرواق، ودو نظامه يتزين بحسن الاتساق، ونواحيه مع اتساعها محروسة بهممه، فكأنه خصر اشتمل عليه النطاق، ونعم الله محروسه معه بالشكر، مقيدة عنده بالإطلاق، والدين الحنيفي من عزمه عالي المنار، والنفوس واثقة[١] أن تكون بناصره دائمة الانتصار، وأخبار نصره تحفظها الليالي مما تكرره ألسن العمار، ومهابته تسري إلى قلوب الأعداء فتحول منها الأفكار، والدولة الزاهرة به محاطة[٢] الأرجاء، وسحائب إحسانه متدفق الأنواء، وآثار نعمة الله فيها ظاهرة، والله يحب أن يرى على عبده أثر النعماء. والشريعة المطهرة بتأييده نافذة الأحكام، وأمورها مرعية بهممه التي أضحت المعالي أنها لا تنام، وأطلقنا تصرفه وحكمه في الخزائن والأموال، وتعيين الإقطاعات في الغيبة منا والحضور. وأمرنا أن لا يرد أمره في جميع ما يقتضيه رأيه الشريف من الأمور. فبيديه الحل والعقد، وإلى أبوابه ينتهي القصد. فقد أضحى بحمد الله حلية للمجد، والأيام تزهو به كما تزهو الدرر بواسطة العقد، وإليه في الأمور النقض والإبرام. وعليه المعتمد في فصل الأحكام. وإليه ترجع الولاية والعزل، وهو الفرع الذي زكا، ولا يزكو الفرع إلا إذا كان طيب الأصل. ومن شيمته الاقتداء بنا في بسط الإحسان والعدل

(١) في الأصل: «واقفة» وهو تصحيف.
(٢) في الأصل: «مخلصة» وهو تصحيف.

وإحياء سنتنا مما يضفيه على الأولياء من ملابس الفضل، واقتفاء آثارنا في غزو بلاد الكفار، والمجاهدة التي تطول بها أيدي الكماة بالسيوف القصار، وإلى الله نرغب أن يوفقه لمراضيه، ويلهمه رشده فيما يستقبل من أموره، ويمضيه ويؤيده بالنصر الذي تروى أحاديثه وتتلى، ويمده بتوفيقه الذي يرشده من الضلال ناشئاً وكهلاً، ويساعده بالتأييد الذي يستجد له ذكراً خالداً لا يبلى، والظفر الذي تستحلى أحاديثه إذا أعيدت، وإن كان الحديث المستعاد لا يستحلى. ونسأل كل واقف على هذا التقليد أو من يسمع به من الأمراء والنواب والعساكر المنصورة ـ أيدهم الله تعالى ـ امتثال أمره، والقيام بما يجب عليه من طاعته في سره وجهره، والنهوض في خدمة ركابه، والاجتهاد في تسهيل ما يصعب من طلابه، والمسير عند سيره تحت علمه، والالتجاء في السراء والضراء إلى حرمه، والوفود إلى جنابه المنيع المريع، فهو بحمد الله كعبة تحج إليها الآمال، وحرم يخفف ما على الأعناق من أعباء الخدم الثقال. والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، وكتب في عاشر صفر سنة سبع وستين وستمائة».

وقرىء هذا التقليد بالإيوان بحضور الأمراء وأعيان الدولة واستمر جلوس الملك السعيد وركوبه.

وفي ثاني عشر جمادى الآخرة، توجه السلطان إلى الشام واستصحب أكابر الأمراء وجماعة من العسكر المنصور، وفي غرة شهر رجب شرع السلطان في النفقة في الأمراء الذين صحبته، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها.

ووصل إليه رسل أبغا بن هولاكو، فقرىء على السلطان كتابه، ومعناه الرغبة في الصلح، وأعاد الرسل بالجواب، وكاتب أبغا نظير ما كاتبه به.

ذكر توجه السلطان على خيل البريد إلى الديار متنكراً وعوده إلى مخيمه بخربة اللصوص ولم يعلم من به بتوجهه

قال القاضي عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية عن هذه الوقعة حسبما أملاه السلطان من لفظه: لما خرج السلطان من دمشق، بعد تجهيز رسل أبغا، ودع الأمراء كلهم وتوجهوا إلى الديار المصرية، ولم يبق معه من الأمراء الأكابر غير الأتابك، والمحمدي، والأيدمري، وابن أطلس خان، وأقش الرومي، توجه إلى القلاع، فابتدأ بالصبيبة ومنها إلى الشقيف وصفد، وبلغه وفاة الأمير عز الدين الحلي، فكتب إلى الأمير شمس الدين أقسنقر استاد الدار بالحضور بالأثقال والعساكر إلى خربة اللصوص والعسكر قد خيم بها. وخطر له التوجه إلى الديار المصرية، فكتب إلى النواب بالشام بمكاتبة الملك السعيد والاعتماد على أجوبته، ورتب أنه كلما جاء بريد

يقرأ عليه ويخرج علائم على دروج بيض تكتب عليها أجوبة البريد، واستقرت هذه القاعدة مدة.

وفي رابع عشر شعبان أظهر تشويشاً، وأحضر الحكماء إلى الخيمة، وحصل احتفال ظاهر بهذا الأمر، وأصبح الأمراء فدخلوا وشاهدوا مجتمعاً في صورة متألم، وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة.

وتقدم إلى الأمير بدر الدين الأيدمري وسيف الدين بكتوك جرمك الناصري، بأنهما يتوجهان إلى حلب على خيل البريد، وودعاه وصحبتهما بريدي، وتوجها في ليلة السبت سادس عشر شعبان، وأوصاهم أنهم إذا ركبوا يحيدون إلى خلف الدهليز ليتحدث معهم مشافهة.

وجهز آقسنقر الساقي في البريد إلى الديار المصرية وأعطاه تركاشه[١] وأمره بالوقوف خلف خيمة الجمدارية خلف الدهليز. ولبس السلطان جوخة مقطعة وتعمم بشاش دخاني عتيق، وأراد أن يخرج ولا يعلم به الحرس، فأخذ قماش نوم لأحد المماليك، وطلب خادماً من خواصه وقال له: ها أنا خارج بهذا القماش فامش أمامي، فإن سألك أحد فقل: هذا بعض البابية[٢] معه قماش أحد الصبيان حصل له مرض وما يقدر يحضر إلى الخدمة هذه الليلة، وهذا غلامه خارج إليه بقماشه.

فخرج بهذه الحيلة، وتوجه إلى الجهة التي واعد آقسنقر إليها. وكان قد سير بهاء الدين أمير آخور ومعه أربعة أرؤس من الخيل، وأمره أن يقف بها في مكان، فتوجه إليه، وأخذ أقسنقر الخيل، وسير بهاء الدين أمير آخور إلى التل فأحضر الأيدمري ورفقته، وساق بهم السلطان وهم لا يعرفونه فلما اختلطوا قال للأيدمري: «تعرفني؟» قال: «أي والله»، وأراد النزول لتقبيل الأرض فمنعه. وقال لجرمك: «تعرفني»، فقال: «إيش هذا يا خوند»[٣]؟ فقال له: «لا تتكلم» وكان معهم علم الدين شقير مقدم البريدية

(١) التركاش: لفظ فارسي ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٠٩ Dozy: Supp. Dict. Ar. Quatremère: op. cit. V 2. P 13. N⁰" 14.

(٢) البابية: جمع بابا. وهو حسبما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٧٠ «لقب عام لجميع رجال الطست خاناه، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك. وهو لفظ رومي معناه أبو الآباء. وكأنه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه، من تنظيف قماشه وتحسين هيئة، أشبه بالأب الشفيق، فلقب بذلك». انظر أيضاً: Quatremère: op. cit, V 2, pp 194 - 195.

(٣) خوند: لفظ فارسي واستعمل أيضاً في اللغة التركية ومعناه: السيد أو الأمير. واستعمل لقباً من ألقاب النساء، وأطلق على زوجة السلطان الأشرف قايتباي. القلقشندي: المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٧ - ٨٨. Dozy: Supp. Dict. Ar..

فصاروا خمسة، معهم أربعة جنائب[١] من خيل السلطان الخاص.

وساقوا إلى جهة مصر، فوصلوا إلى القصير[٢] المعيني نصف الليل، فدخل السلطان ليأخذ فرس الوالي، فقام إليه يهاوشه بأربعين خمسين راجلاً، وقال له: «هذه الضيعة ملك السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرساً، فإن رحتم وإلا قاتلناكم». فتركوه وتوجهوا إلى بيسان فأتوا دار الوالي وقالوا: «نريد خيلاً للبريد». فقال: «انزلوا خذوا»، فنزلوا، وقعد السلطان عند رجلي الوالي وهو نايم. ثم قال للأيدمري «الخلائق على بابي وأنا على باب هذا الوالي لا يلتفت إلي، ولكن الدنيا نوب». وطلب من الوالي كوزاً فقال: «ما عندنا كوز، إن كنت عطشان، اخرج واشرب» فأحضر له الأيدمري كوزاً شرب منه. وركبوا فصابحوا جينين، فوجدوا خيل البريد بها عرجاً معقرة، فركب السلطان منها فرساً ما كاد يثبت عليه من رائحة عقوره. ولما وصلوا العريش قام السلطان والأمير سيف الدين جرمك ونقيا الشعير. فقال السلطان للأيدمري: «أين السلطنة، واستاد الدار، وأمير جاندار، وأين الخلق الوقوف في الخدمة؟ هكذا تخرج الملوك من ملكهم، وما يدوم إلا الله سبحانه وتعالى».

ووصلوا إلى قلعة الجبل ليلة الثلاثاء الثلث الأول، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالي. ونزل السلطان في باب الأسطبل وطلب أمير آخور، وكان قد رتب مع زمام الأدر[٣] أنه لا يبيت إلا خلف باب السر، فدق السلطان باب السر، وذكر علائم[٤] لزمام الأدر، ففتح الباب، وأحضر السلطان رفقته إلى باب السر، وأقام هو وهم يومي الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم بهم أحد إلا زمام الأدر، وهو ينظر إلى الأمراء وغيرهم في سوق الخيل. فلما قدّم الفرس للملك السعيد يوم الخميس قدم أمير آخور للسلطان فرساً. ولما خرج الملك السعيد ما أحس إلا والسلطان قد خرج إليه، فخاف، فلما عرفه قبّل الأرض، وركب السلطان وخرج والوقت مغلس، فأنكر

(١) الجنائب: جمع جنب، وهي الخيول التي كانت تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٨١.

(٢) القصر المعيني: هو قصر معين الدين بغور الأردن. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٦.

(٣) صحة هذا الاسم المركب «زمام دار». وقد أخطأ النويري وغيره في رسمه أما الزمام دار فتحريف من الزنان دار. وهو لقب على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان. وهو مركب من لفظين فارسيين. أحدهما: زنان، ومعناه النساء، والثاني: دار، ومعناه ممسك. فيكون المعنى ممسك النساء. بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 65. N⁰ⁿ 77.

(٤) في الأصل: علايم. والتصحيح يقتضيه السياق.

الأمراء ذلك ووضعوا أيديهم على قبضات سيوفهم وطلّعوا[1] في وجه السلطان فلما حققوه قبلوا الأرض. وساق السلطان إلى ميدان العيد، وعاد إلى القلعة، فقضى أشغال الناس، ولعب الكرة يوم السبت، وتوجه يوم الأحد إلى مصر لرمي الشواني، وركب في الحراريق.

وسافر ليلة الاثنين على البريد. ولما قربوا من الدهليز المنصور رد الأيدمري وجرمك إلى خيامهم، وأخذ السلطان جراب البريد على يده وفي كفه فوطة، وتوجه راجلاً ودخل من جهة الحراس، فمانعه حارس وأمسك الحارس أطواقه ونتشه، فانجذب منه ودخل من باب الدهليز. وركب عصر يوم الجمعة، وحضر الأمراء إلى الخدمة، فأظهر أنه كان متغلث المزاج، وضربت البشائر بالعافية، ولم يدر بهذه الأمور إلا الأتابك وأستاد الدار وخواص الجمدارية.

وفي هذه السنة في تاسع جمادى الآخرة رسم السلطان بأبطال الخواطي[2] من القاهرة ومصر والديار المصرية، وأمر بحبسهن وتزويجهن.

وفيها أيضاً وردت الأخبار أن زلزلة حدثت ببلاد سيس[3] أخربت قلاعها مثل سرفند كار، وحجر شعلان، وقتل بسببها جماعة حتى سال النهر دماً.

ذكر وفاة الأمير عز الدين أيدمر الحلي [الصالحي نائب السلطنة][4]

لما خرج السلطان لسماع رسالة الملك أبغا خرج الأمير عز الدين المذكور في خدمته، فلما استقر السلطان طلب دستوراً وتوجه إلى دمشق لملاحظة أملاكه، فلما دخل السلطان إلى دمشق أطلق له شيئاً كثيراً، وزار السلطان فقيراً بجبل الصالحية ومعه الأمير عز الدين، فقام عز الدين ليجدد الوضوء، فقال الشيخ للسلطان: «هذا يموت في هذه الأيام ولا يخرج من دمشق»، وكان إذ ذاك كالأسد قوة، فمرض في اليوم الثاني، وتوفي في أوائل شعبان سنة سبع وستين. وحضر ولده[5] إلى الدهليز بخربة اللصوص فأحسن السلطان إليه وسيره إلى القاهرة. ولما وصل السلطان إلى القاهرة أمره بأربعين فارساً.

---

(١) هكذا بالأصل. وهي كلمة عامية. أما السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٧، فقد أورد: «ونظروا».
(٢) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٧٨.
(٣) المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧٨.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٥) في الأصل: «ولد». والتصحيح يقتضيه السياق.

وفيها: توفي الأمير أسد الدين سليمان بن الأمير عماد الدين بن داود بن عز الدين موسك[١] الدوادي الهذباني، من بيت الإمرة وله اختصاص كبير بالملوك والتقدم عندهم. وجدّه الأمير عز الدين من أكابر الأمراء الصالحية، وترك أسد الدين هذه الخدم وتزهد ولازم مجالس العلماء، ولبس الخشن من الثياب، وكانت له نعمة عظيمة ورثها من أبيه فأذهبها، ولم يبق له سوى ربع أملاكه، فكانت تقوم بكفايته إلى أن توفي في يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأول بدمشق، ودفن بقاسيون، وله شعر حسن، رحمه الله تعالى.

ذكر توجه السلطان الملك الظاهر إلى الحجاز الشريف[٢]

قال: لما قوي عزم السلطان على الحجاز الشريف كتم ذلك، وأنفق ونقى من جيشه، وجرد جماعة صحبة الأمير جمال الدين أقش الرومي السلاح دار، وهم المتوجهون صحبة السلطان، وجرد العساكر التي بقيت صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر أستاد الدار إلى دمشق، فنزلوا بظاهرها.

وتوجه السلطان إلى الكرك في صورة أنه يتصيد، فوصل إلى الكرك في مستهل ذي القعدة، وكان رسم بتجهيز جميع ما يحتاج إليه برسم الحجاز هناك. فسير الثقل في رابع ذي القعدة، وتوجه السلطان في السادس من الشهر إلى الشوبك، وتوجه منه في حادي عشر الشهر، ووصل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في الخامس والعشرين منه، فزار ورحل في السابع والعشرين. فقدم مكة، شرفها الله تعالى في خامس ذي الحجة، فتصدق بصدقات وافرة وكساوى كثيرة، وبقي كأحد الناس بغير حاجب، ثم غسل الكعبة، وبقي في وسط البيت، ومن رمى له إحرامه غسله له بما ينصب من الماء في الكعبة ويرميه إلى صاحبه، ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدي الناس ليطلع بهم إلى الكعبة. وتعلق أحد العوام به، فلم يصل إلى يده لازدحام الناس عليه، فتعلق بإحرامه وكاد يرميه إلى الأرض وهو مستبشر بهذا الأمر، وعلق كسوة البيت الشريف ورفعها بيده على أركان البيت الشريف هو وخواصه. وسبل[٣] البيت الشريف لسائر الناس، وتردد إلى الصالحين. وكان قاضي القضاة صدر الدين سليمان معه في طول الطريق يستفتيه. وكتب إلى صاحب اليمن كتاباً ينكر عليه[٤] أموراً وكتب فيه: «سطرتها من مكة وقد أخذت طريقها في سبع

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٠.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢. وكان التسبيل في مقابل مال وغلال أعطيت لأميري مكة.

(٤) في الأصل: «يذكر». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٨١.

عشرة خطوة[١]» يريد بالخطوة المنزلة. وقضى السلطان فرض الحج ومناسكه كما يحب، حلق ونحر، وأحسن إلى أميري مكة، شرفها الله تعالى: الأمير نجم الدين أبي نمي، والأمير إدريس بن قتادة، وإلى صاحب ينبع و[أمير][٢] خليص[٣]، وزعماء الحجاز كلهم. وطلب أميرا مكة نائباً من السلطان، فرتب شمس الدين مروان، وزاد أمراء الحجاز، إلا جماز[٤] ومالك أميري المدينة، فإنهما انتزحا من بين يديه.

وخرج السلطان من مكة، شرفها الله تعالى، في ثالث عشر ذي الحجة، ووصل إلى المدينة في العشرين سنة، وخرج في بكرة النهار الثاني، ووصل إلى الكرك في يوم الخميس سلخ ذي الحجة.

واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة[٥]

واستهلت سنة ثمان وستين وستمائة والسلطان الملك الظاهر بقلعة الكرك، فأقام بها حتى صلى الجمعة، وركب من الكرك بعد الصلاة مستهل المحرم في مائة فارس جريدة، وعلى يد كل واحد من أصحابه جنيب، وساق إلى دمشق. فلما قاربها والناس لا يعلمون شيئاً من حاله ولا يجسر أحد يتكلم، سير أحد خواصه في البريد بكتب البشائر[٦] بسلامته وقضاء حجة إلى دمشق. فأحضر الأمير جمال الدين النجيبي الأمراء وغيرهم ليقرأ عليهم كتاب البشرى، فبينما هم في ذلك وقد بلغهم أن السلطان في الميدان. فتوجه إليه الأمير جمال الدين النجيبي فوجد السلطان قد نزل بالميدان بمفرده ووهب فرسه لإنسان من منادية سوق الخيل عرفه وقبل الأرض بين يديه، وحضر الأمراء إلى الخدمة وأكلوا شيئاً، وتوجهوا ليستريح السلطان، فقام وركب في جماعته اليسيرة وتوجه إلى حلب، فعادوا إلى الخدمة فلم يجدوا أحداً. ودخل السلطان حلب والأمراء في الموكب فساق إليهم فما عرفه أحد، وبقي ساعة ثم عرفه الصروري[٧]، فنزل الأمراء وقبّلوا الأرض، ونزل بدار السلطنة بحلب، وشاهد قلعتها، وعاد منها، فوصل إلى دمشق في ثالث عشر المحرم، ولعب الكرة وركب في ليلته وتوجه إلى

(١) في الأصل: «سبعة عشر خطوة». وهو خطأ ظاهر.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٣) خليص: حصن بين مكة والمدينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٧.
(٤) في الأصل: «جما». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٢.
(٥) يوافق أولها يوم السبت ٢١ أغسطس، آب ١٢٦٩ م.
(٦) في الأصل: «البشاير».
(٧) وردت هذه النسبة مرات، ولعلها نسبة إلى الصرورات من سواد مدينة الحلة.

القدس والخليل عليه الصلاة والسلام فزار تلك الأماكن المقدسة وتصدق. وكان العسكر[١] المصري قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار إلى تل العجول. هذا كله وما غير عباءته التي عليه، وذلك كله في عشرين يوماً. وركب في تل العجول ووصل إلى قلعة الجبل في ثالث صفر.

ثم توجه إلى ثغر الإسكندرية في ثاني عشر صفر ودخل الثغر في الحادي والعشرين من الشهر. وكان الصاحب بهاء الدين [بن حنا][٢] قد سبقه إلى الثغر وجهز الأموال والتعابي من الأقمشة، فخلع على الأمراء وأنعم عليهم بالتعابي والنفقات. ولعب الكرة بالإسكندرية. وخرج منها إلى الحمامات، ونزل بالليونة[٣]، وابتاعها من وكيل بيت المال.

وبلغه حركة التتار فعاد إلى قلعته، فوصل إليها في ثامن ربيع الأول سنة ثمان وستين وستمائة.

ذكر توجه السلطان إلى الشام جريدة[٤]

قال: ولما بلغ السلطان حركة التتار، وأنهم تواعدوا مع فرنج الساحل، وأن التتار أغاروا على الساجور بقرب حلب، وعلى جهة أخرى وأخذوا مواشي العربان، فأراح العسكر وجرد الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار بجماعة من العسكر ليقيموا في أوائل البلاد الشامية. وركب في جماعة يسيرة من قلعته، وذلك في ليلة الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول ووصل إلى غزة، وتوالت الأمطار، فوصل إلى دمشق في سابع شهر ربيع الآخر، ووردت إليه الأخبار برجوع التتار لما بلغهم خروجه، فأغار على عكا، واستولى على بلاد الإسماعيلية على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وأقام السلطان بالشام بقية سنة ثمان وستين وستمائة.

وفي هذه السنة نصب الدرابزين على الحجرة الشريفة النبوية. وذلك أن السلطان لما توجه إلى الحجاز رأى الضريح النبوي والزوار تقف إلى جانب الحائط، فرأى أن يعمل درابزيناً ليكون حرماً حول الحجرة، فأمر بعمله، فعمل وكمل، وسير إلى المدينة في سنة ثمان وستين صحبة الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الخليلي، فنصب.

---

(١) في الأصل: «المعسكر».
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٤، س ٥.
(٣) الليونة: بلدة من أعمال مريوط. ابن دقماق: كتاب الانتصار، ص ١٢٦.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٤.

وفيها: كانت وفاة قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى بن قاضي القضاة محيي الدين أبي المعالي محمد بن قاضي القضاة زكي الدين أبي الحسن على ابن قاضي القضاة مجد الدين أبي المعالي محمد بن قاضي القضاة زكي الدين أبي الفضل يحيى بن علي بن عبد العزيز العثماني(١). وكانت وفاته بفسطاط مصر في رابع عشر شهر رجب سنة ثمان وستين. ودفن بالقرافة.

ومولده بدمشق في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين وخمسمائة، ورئاسته(٢) وأصالته أشهر من أن يأتي عليها.

وفيها: توفي الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علي، وزير الصحبة، ضحى يوم الاثنين الحادي والعشرين من شعبان ودفن بكرة نهار الثلاثاء بتربتهم بالقرافة. ومولده في اثنين وعشرين وستمائة بفسطاط مصر، وفوضت وزارة الصحبة بعده لولده الصاحب تاج الدين محمد.

وفيها: توفي الصاحب الوزير زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد الزبيري، المعروف بابن الزبير نسبة إلى الزبير بن العوام(٣) الأسدي رضي الله عنه. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر. ومولده سنة ست وثمانين وخمسمائة. وكان عالماً فاضلاً رئيساً يتكلم باللغة التركية. وزر للملك المظفّر فظفر، ثم وزر بعده للسلطان الملك الظاهر أياماً، ثم عزله، فلزم داره إلى أن مات رحمه الله تعالى، وكان له شعر حسن رقيق.

وفيها: توفي الشيخ الإمام الخطيب أصيل الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن عمر بن علي العوفي الأسعردي المولد. قدم دمشق في الدولة الصالحية وولي الخطابة بها. ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعاد ثم عزل بالقاضي عماد الدين بن الحرستاني. وانتقل إلى الديار المصرية صحبة الملك المظفّر في سفرته التي قتل فيها. وتولى خطابة الجامع الصالحي خارج بابي زويلة. وتولى نيابة الحكم بالشارع الأعظم نيابة عن قاضي القضاة بدر الدين السنجاري. واستمر على الخطابة والحكم إلى أن توفي في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وستين في

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٩.

(٢) في الأصل: «ورياسته».

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد، أبو عبد الله. صحابي شجاع أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سلّ سيفه في الإسلام. قتل يوم الجمل بوادي السباع، الديار بكري: تاريخ الخميس، ج ١، ص ١٧٢، أبي نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ٨٩.

بيت الخطابة قبل صلاة الجمعة، وجاء رئيس[1] المؤذّنين كما جرت العادة فوجده ساجداً وعليه ثياب الخطابة وقد قضى نحبه، فأحضر ولده في تلك الساعة وأعلم بموت والده، فطلع المنبر وخطب وصلى بالناس. ودفن الخطيب في بكرة يوم السبت بسفح المقطم بقرافة سارية. وكان لطيفاً حسن العبادة والصوت. وله تصانيف ونظم ونثر، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع وستين وستمائة[2]

في هذه السنة، توجّه السلطان إلى عسقلان[3] في سابع صفر فهدمها[4] وعفى آثار عمارتها ورمى حجارتها في ميناها، وعاد فوصل إلى قلعته في ثامن شهر ربيع الأول.

وفيها: هلك الملك المجير هيتوم بن قسطنطين صاحب سيس[5]، ووردت مطالعة ولده ليفون في سابع عشرين شهر ربيع الأول مضمونها: أنه لما كان في خامس عشرين تشرين الأول ترهب والده وانتقل إلى الدير وخرج عن أمور الدنيا. فلما كان في نهار الثلاثاء ثامن عشرين تشرين الأول وهو حادي وعشرين ربيع الأول مات وقت مغيب الشمس، وسأل شموله بالمراحم السلطانية في ضمه إلى جناح الرحمة، فكتب بتعزيته بأبيه وتهنئته بما صار إليه من الملك، وإطابة قلبه.

ذكر القبض على الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث صاحب الكرك والأمراء الشهرزورية[6]

قد ذكرنا أن السلطان لما تسلم الكرك من المشار إليه بعد القبض على والده أمّره بمائة فارس. واستمر المذكور في الخدمة الشريفة ولازم السلطان في أسفاره وغزواته. وكان يلعب معه بالكرة، ويحضر معه في أوقات الصيد وغير ذلك من مشاهده العامة. وظهرت منه شهامة، وأحسن رماية النشاب وأخذ نفسه في ذلك بمأخذ الفرسان

(١) في الأصل: «ريس». والتصحيح يقتضي السياق.
(٢) يوافق أولها يوم الأربعاء ٢٠ أغسطس/آب عام ١٢٧٠ م.
(٣) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر، بين غزة وبيت جبرين. ويقال لها عروس الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٢٢.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٠.
(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٧، حاشية رقم (٥).
(٦) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٩٥.

الشجعان. ولما كان السلطان على هدم عسقلان أفرد له جانباً يهدمه، فمر السلطان عليه في بعض الأيام وهو قائم يستعمل الرجالة ويحثهم على الهدم ويجتهد فيما هو فيه. فبينما السلطان ينظر إليه ويتأمله إذا انهدم ما تحته من البناء فوثب من مكانه وألقى نفسه إلى الأرض ووثب أخرى فسلم والسلطان ينظر إليه. فعجب السلطان من اهتمامه مع حداثة سنه. ثم عاد إلى ما كان عليه من الهدم ولم يتأثر لذلك. وبينما السلطان في أواخر هدم عسقلان ورد عليه كتاب نائبه الأمير بدر الدين الخزندار يستحثه على العود إلى قلعة الجبل، ويعلمه أنه لا يأمن وثوب الأمراء الشهرزورية، وأن قدرته تضعف عن مقاومتهم في غيبة السلطان. وحال ورود كتابه أمر الناس بالرحيل ورجع لوقته إلى الديار المصرية. ولما رجع رمى الملك العزيز بقرة وحش بيده في أثناء الطريق وحملها إلى السلطان والأمير شمس الدين سنقر الأشقر وغيره من الأمراء عنده. فقال السلطان للأمير شمس الدين المذكور: انظر إلى هذا الصغير وما هو عليه، والله ما يقصر!. فقال له سنقر الأشقر: لقد ربيت حية صغيرة بين ثيابك تنتفع بها إذا كبرت. وكان سنقر الأشقر يكرهه لقبض أبيه عليه وتسليمه للملك الناصر واعتقاله كما تقدم، فأراد مكافأته في ولده. ولما وصل السلطان إلى قلعة الجبل في ثامن شهر ربيع الأول، كما تقدم، نزل إلى الميدان في يوم الثلاثاء الثاني عشر من الشهر ولعب بالكرة، ودخل الملك العزيز على عادته إلى الميدان ولعب بالكرة، فجاء الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ليأخذ الكرة منه، والملك العزيز مجتهد في ضربها، ورفع جوكانه ليضربها فوقع في رأس الأمير شمس الدين ولم يقصد ذلك، فكاد أن يسقط إلى الأرض لولا [أن][1] اعتنق عنق فرسه حتى سكن ما به من ألم الضربة. فجاء السلطان إليه وهو يمازحه، فقال له: «كاد هذا الصغير أن يرميك عن فرسك حتى اعتنقت رقبته». فنظر إلى السلطان وقال: «والله إن كان اليوم ما رماني، فغداً يرميك أنت، وهذا الصبي والله لك بئس الذخيرة». فلما كان في يوم الخميس رابع عشر الشهر جلس السلطان في مجلسه واستدعى الأمراء الشهرزورية وهم عشرة منهم: الأمير بهاء الدين يعقوبا[2]، وتوتل، وسنقران وقبض عليهم، وقبض على الملك العزيز معهم واعتقلوا، ثم أحضر الأمراء الشهرزورية وغيرهم وقررهم، فاعترفوا أنهم قصدوا قتل الملك السعيد ابنه، وقيامهم بالأمر فإن أطاعهم الناس وإلا أقاموا الملك العزيز، فسألهم: «هل كان هذا الأمر عن مباطنته»؟ فحلفوا أنه لم يطلع على ما عزموا عليه ولا باطنهم فيه. واستمر الملك العزيز في الاعتقال إلى آخر أيام الملك السعيد عندما حوصر بالقلعة فأفرج عنه وعن

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥، س ٧.

الأمراء الشهرزورية وغيرهم. وكان قد رزق أولاداً في اعتقاله في الدولة الظاهرية، فلما أفرج عنه الملك السعيد أمره أن ينصرف في حال نفسه ويتوجه إلى الأمراء إن أحب ذلك، أو يقيم بالقلعة إلى أن ينفصل الأمر. وخرج بعض من أفرج عنهم إلى الأمراء فقبضوا عليهم واعتقلوهم، فخشي الملك العزيز من ذلك فسأل أن يرجع إلى معتقله، ويقيم مع أولاده فرجع إليهم، فاستمر في الاعتقال إلى أن ملك الملك الأشرف خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاون فأفرج عنه في سنة تسعين وستمائة(١) على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ولنرجع إلى سياقة أخبار الدولة الظاهرية:

وفي عاشر جمادى الآخرة من السنة توجه السلطان إلى الشام وصحبته ولده الملك السعيد(٢)، فكان دخول الملك السعيد إلى دمشق في ثامن شهر رجب. وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة. وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك ووصل إلى طرابلس، فأغار وقتل وفتح صافيتا وحصن الأكراد(٣) وحصن عكا وبلاد الإسماعيلية، وغير ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها في تاسع شوال: دخل الشيخ خضر شيخ السلطان إلى دمشق، وجاء إلى كنيسة اليهود وأخرجهم منها وجعلها زاوية، وعمل لأصحابه بسيسة عشرة قناطير بالدمشقي، فأكلوا منها، وحضر المغاني تعمل سماعاً ورقصوا على بقية البسيسة بأرجلهم، فما أفلح بعد ذلك. فاجتمع اليهود وخرجوا عن مظالم كانت بينهم، ورفعوا أصواتهم بالدعاء وقالوا: «يا محمد بن عبد الله، نحن في ذمتك وعهدك، لا دولة لنا ولا سلطان، فانتصر لنا». فكانت حادثة السيل، وخروج الشيخ خضر من الكنيسة على صورة منكرة.

---

(١) الموافق ١٢٩١ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٠، س ١٦، ٥٩٢ ـ ٥٩٣.

(٣) كتب السلطان بيبرس بعد تسلم حصن الأكراد إلى رئيس فرسان الاسبتار، خطاباً أورده العيني في عقد الجمان، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ وهذا نصه:
«إلى إفرير أول، جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخّر لجيشه النصر والظفر، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ولا يحمى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر. نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وخليته، وكنت الموفق لو أخليته، وتكلفت في حفظه على أخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العناصر تنزل على حصن ويبقى أو يخدم سعيداً ويشقى». ففي هذه الجملة الأخيرة تورية، فإن المقصود بلفظ «سعيداً» هنا، ابن السلطان بيبرس وولي عهده. وهو الذي حاصر الحصن فعلاً. أما رئيس هيئة الفرسان الاسبتار تلك السنة فهو (Hugh Revel) انظر: King: op. cit. p 271.

ذكر حادثة السيل بدمشق(١)

وفي ثاني عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة، وهو يوم عيد عنصرة اليهود، جاء سيل عظيم إلى دمشق في الساعة الثامنة من النهار، وعلا على سور دمشق قدر رمح، وفي بعض المواضع أحد عشر ذراعاً، ودخل في باب الفراديس بعد أن خرب جسره، وأخرب جسر بابي السلامة وتوما، ووصل إلى المدرسة الفلكية وصار فيها مقدار قامة وبسطة. واستمر ثلاثة ساعات من النهار وهبط. وكان مبدأ هذا السيل أنه انعقد على جبال بعلبك غيم متكاثف فسمع لرعده دوي هائل في يوم السبت حادي عشر شوال، وكان بذلك الوادي ثلوج كثيرة، فوقع المطر على الثلوج فحلها، وسال في يوم الأحد من جهة عين الفيجة بعد أن رمى فيها صخوراً عظيمة ساقها بين يديه، واقتلع أشجار جوز عادية، وانتهى إلى دمشق وخرب عدة كثيرة من دور العقبية، وخرب حيطان الميدان وقطاير(٢) البساتين، وأهلك خلقاً كثيراً من الروم والعجم كانوا قد قدموا حجاجاً ونزلوا بالميدان فغرقوا عن آخرهم هم وجمالهم ودوابهم، وأغرق من الحيوانات على اختلاف أجناسها مما لا يعد كثرة، وردم الأنهار بطين أصفر، واقتلع الأشجار من أصولها. ودخل السلطان بعد ذلك بأيام إلى دمشق فما وجد بها ماء ولا حماماً يدور، وشرب الناس من الصهاريج والآبار. ويقال إنه هلك بهذا السيل عشرة آلاف نفس، وأخذ الطواحين بحجارتها.

وحكي أن فقيراً يعرف بالخبر حضر(٣) إلى دار نائب السلطنة بدمشق قبل هذه الحادثة وقال: «عرفوا الأمير أني أريد أن أعدو إلى بعلبك». فقال له الأمير: «رح، اجر». وضحكوا منه. فتوجه، وعاد وهو ينذر الناس بالسيل. فضحكوا منه ولم يعبأوا بكلامه. فما أحسّوا إلا والسيل قد هجم.

وفي هذه السنة: عزل قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان عن قضاء دمشق، وخرج منها في ذي القعدة. وكانت مدة ولايته عشر سنين سواء. وقلد القضاء بعده بالشام قاضي القضاة، عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصايغ. وكان تقليده قد كتب والسلطان على طرابلس، وتأخر إلى أن حضر السلطان إلى دمشق، وكان وصول السلطان إلى دمشق في يوم الأربعاء خامس عشر شوال(٤).

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٦.
(٢) القطاير: جسور تستعمل في ري البساتين. الفيروزابادي: القاموس المحيط، مادة: قطر.
(٣) في الأصل: «حصر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٣.

ذكر سفر الشواني[١] الإسلامية إلى قبرس وكسرها وأسر من كان بها وخلاصهم

وفي شوال سنة تسع وستين وستمائة: كتب السلطان من الشام إلى الديار المصرية بتسفير الشواني لقصد قبرس[٢]، فأشار ابن حسون برأي كان بئس الرأي، وهو أنه قال: «لو دهنت الشواني سواداً تشبهاً بشواني الفرنج، وعملت لها أعلام بصلبان حتى إذا دخلت إلى بلاد الفرنج يعتقدونها لهم، فتغتنم الغرة منهم» فاتبع رأيه. وتطاير الناس بذلك، وسافرت الشواني فانكسرت بالقرب من قبرس. فورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان وفيه تقريع: «إن الشواني كسرها الريح وأخذتها، وهي أحد عشر شينياً، وأسرت من فيها». فكتب السلطان إلى الديار المصرية وهو بالشام بإنشاء عشرين شينياً، وإحضار خمس شواني كانت بقوص. وأجاب [السلطان][٣] صاحب قبرس بتقريع وتوبيخ، ويعلمه أنه فتح القرين، في كلام كثير تركنا إيراده اختصاراً. وبقي القواد في الأسر هم والرماة. ففادى بهم الفرنج أسرى، وبقي الاحتياط على الرؤساء وهم ستة نفر، منهم ريس الإسكندرية، وريس دمياط، وأبو العباس المغربي وغيرهم. واستمروا في الأسر إلى سنة ثلاث وسبعين وستمائة. وقصد السلطان ابتياعهم وسير الأمير فخر الدين المقري الحاجب إلى صور بسبب ذلك، فتعالى الفرنج فيهم. وكانوا قد نقلوا إلى عكا وحصل الاحتراز عليهم، وجعلوا في حبس حصين. فرسم السلطان للأمير سيف الدين بن خطلبا ـ أحد النواب بصفد ـ بسرقتهم، فأرغب الموكلين بهم بالمال حتى دخلوا إليهم بمبارد ومناشير، وسرقوا من جب القلعة، وخرجوا في مركب. وكانت خيل مهيأة، فركبوا ووصلوا إلى القاهرة ولم يدر بهم أحد بعكا. ثم قامت فتنة بعكا بسببهم[٤].

---

(١) الشواني: جمع شيني أو شينية. وهي سفن حربية كبيرة. ويظهر أن الشواني كانت أكبر السفن الحربية استعمالاً في مصر. انظر: الخطط للمقريزي، ج ٢، ص ١٩٤ ـ ١٩٥، وانظر Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) أصل مشروع غزو قبرس: أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص ركب بجيشه إلى عكا نجدة لأهلها، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشاً كثيفاً من ستة عشر شينياً لأخذ جزيرة قبرس في غيبة صاحبها. انظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٣.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

ذكر عود السلطان إلى قلعته ووصول رسل اليمن واهتمامه بأمر الشواني، وما أنعم به من الخلع والخيول على الأمراء والأجناد

قال: وسار السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعة الجبل في ثاني عشر ذي الحجة سنة تسع وستين، وعند وصوله جهز الأمير شمس الدين آقسنقر استاد الدار بالعساكر إلى الشام، فخرجوا في الشهر المذكور.

ووصلت هدية صاحب اليمن في الشهر [المذكور](١) وفيها التحف الثمينة وفيل ودب أسود.

ووالي السلطان النزول إلى مصر بنفسه والأمراء في خدمته لمباشرة عمل الشواني.

وفي الشهر المذكور خلع وفرق بالميدان على ألف وسبعمائة نفر من الأمراء والحلقة أثمان خيل، وفرق ألفاً وثمانمائة وخمسين رأساً، وذلك في ثاني عشرين الشهر، ثم أعاد العطاء في الثالث والعشرين منه حتى فرغ الناس وعمهم بالعطاء، ولازم صناعة الإنشاء عدة أيام بسبب الشواني.

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء(٢)

وفي هذه السنة في خامس عشر ذي الحجة أمر السلطان بالقبض على جماعة من الأمراء، منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير، والأمير جمال الدين أقش المحمدي، والأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري، والأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت، والأمير شمس الدين سنقر المساح، والأمير سيف الدين بيدغان(٣) الركني، والأمير علم الدين سنجر طرطح(٤) الآمدي وغيرهم، وحبسوا في قلعة الجبل.

وسبب ذلك أن السلطان بلغه عنهم وهو بالشقيف أنهم قد عزموا على القبض عليه، فأسرها في نفسه إلى أن وصل إلى القاهرة وقبض عليهم واعتقلهم، ثم أفرج بعد ذلك عن بعضهم.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥، س ٦ ـ ٧.
(٣) في الأصل: «بيغان». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٩٥، س ١٠.
(٤) في الأصل: «طردح». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٥٩٥، س ١٠.

وفيها: في سابع عشر ذي الحجة تقدم أمر السلطان بإراقة الخمور[١] في سائر بلاده، والوعيد لمن يعصرها بعد ذلك بالقتل والنهب. فأهريقت بأعمال بالديار المصرية وأبطل ضمانها، وكان في كل يوم بالديار المصرية خاصة يزيد على ألف دينار، وكتب بذلك توقيع قرىء على الناس بالقاهرة ومصر.

وفي هذه السنة: أمر السلطان بإنشاء جامع بمنشاة المهراني، وهي التي على نهر النيل، والخليج الحاكمي فارق بينهما وبين مصر، فَعُمِّرَ.

وفيها: توفي قاضي القضاة الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي المالكي، قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية[٢]. وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وستين وستمائة. ودفن من الغد بمقابر باب النصر. ومولده بالصالحية من الأعمال القليوبية في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وخمسمائة. وكان رحمه الله تعالى عالماً، وكان قد ولي الحسبة بالقاهرة مدة وعقود الأنكحة، ثم ولي نيابة الحكم بالقاهرة عن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز. ثم فوض إليه القضاء أحد الأربعة كما تقدم ذكر ذلك، رحمه الله تعالى. وولي بعده قضاء المالكية القاضي نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضي المخلص هبة الله بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر.

وفيها: أيضاً توفي القاضي شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم بن المسلم بن هبة الله ابن البارزي قاضي حماه الشافعي، رحمه الله، وولي قضاء حماه في سنة اثنتين وخمسين وستمائة، واستمر إلى أن توفي الآن.

وفيها: كانت وفاة الملك الأمجد تقي الدين أبي الفضائل عباس ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. وهو آخر من مات من أولاد الملك العادل، وكان محترماً عند الملوك الأيوبية، معظماً عند السلطان الملك الظاهر، لا يرتفع عليه أحد في المجلس ولا الموكب. وكان رحمه الله دمث الأخلاق سمحاً كريماً عاقلاً حازماً. وكانت وفاته بدمشق في يوم الجمعة ثاني عشرين جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون، وليس له عقب.

وفيها: توفي القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد ابن الوزير فخر الدين الأعز أبي الحمايل مقدام بن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر. كان أحد الأكابر المشهورين بالديار المصرية متأهل للوزارة وغيرها. وهو خال قاضي

---

(١) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٩٥، س ١٣ ـ ١٤.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٦.

القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، رحمهما الله تعالى، وكانت وفاته بالقاهرة في السادس والعشرين من شهر رمضان. ودفن من الغد من يوم وفاته بسفح المقطم، وكان يومئذٍ ناظر بيت المال، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير علم الدين سنجر الصيرفي(١) وكان من أعيان الأمراء بالديار المصرية، فلما تمكن السلطان الملك الظاهر أخرجه إلى الشام وأقطعه إقطاعاً جيداً وزاده عدة قرى ببعلبك، فتوجه إليها، فمات في يوم الأربعاء سادس صفر وهو في عشر الستين رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الشيخ العارف قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين المرسي الزقوطي(٢)، أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم، وله تصانيف عدة وجماعة كثيرة ينسبون إليه، وأقام بمكة سنين كثيرة إلى أن توفي بها في الثامن والعشرين من شوال من هذه السنة، ومولده في سنة أربع عشرة وستمائة. والزقوطي نسبة إلى حصن من عمل مرسية يسمى زقوطة، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي العدل الرئيس زين القضاء أبو المكارم عبد الوهاب ابن(٣) القاضي الرئيس فخر القضاء أبي الفضائل أحمد بن المرتضى بن عبد الله محمد بن الجليس أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله بن الحباب التميمي السعدي الأغلبي، سمع وحدّث، وهو من بيت الرياسة والعدالة والفضل بالديار المصرية منذ سكنوها، وهم من ذرية زيادة الله بن الأغلب آخر ملوك بني الأغلب بأفريقية.

وكانت وفاته بمصر في التاسع والعشرين من جمادى الأول من السنة. ومولده في غرة المحرم سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفيها: توفي الطواشي الأمير شجاع الدين مرشد الخادم المظفّري عتيق صاحب حماه ومقدم جيشها، وكان من الشجعان الأبطال، وكان إذا حمل في جيش العدو يقول: أين أصحاب الخِصَى. وكان السلطان الملك الظاهر يعتمد عليه لأمانته وشجاعته. وكان يتصرف في المملكة الحموية تصرف ملوكها للوثوق به.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٦، س ١١.

(٢) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الإشبيلي، أبو محمد. من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ١، ص ٢٤٧؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٢٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٦١.

(٣) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

واستهلت سنة سبعين وستمائة[(١)]

ذكر توجه السلطان إلى الكرك ثم إلى الشام وعزل الأمير جمال الدين النجيبي عن نيابة دمشق وتولية الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك نيابة السلطنة بالشام واستنابة الأمير علاء الدين أيدكن أستادالدار بالكرك

وفي سنة سبعين وستمائة: بلغ السلطان أن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وغيره من العربان تغيرت نياتهم وعزموا على الانضمام إلى التتار. فعلم أنه إن استدعاهم لا يحضرون وينكشف الحال، وإن قصد الشام تسحبوا، فنزل إلى الميدان في سابع المحرم وفرق على خواصه أربعمائة ألف درهم، واثني عشر ألف دينار عيناً، وستين حياصة ذهباً، وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع. وتوجه السلطان من قلعته بعد المغرب من ليلة تسفر عن سابع وعشرين المحرم في جماعة يسيرة من خواصه، وخرج من الزعقة[(٢)] في البرية إلى الكرك وأخفى مقصده، فوصل في سادس صفر، وطلع إلى قلعة الكرك، وكتب تقليد الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك بنيابة الشام، ولم يعلمه بذلك [حتى تسلم أيدكين نيابة الكرك][(٣)] بل أفهمه أنه يستنيبه بحصن الأكراد، وتوجه إلى دمشق فوصل إليها في ثالث عشر الشهر وسير للأمير جمال الدين النجيبي [نائب دمشق][(٤)] تشريفاً وأمره أن يتوجه إلى الديار المصرية، وولي الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نيابة السلطنة بالشام. وركب السلطان في ليلة سادس عشر صفر وتوجه إلى حماة ونزل بظاهرها بالجوسق، ونزل صاحب حماة في خيمة أسوة الناس، ورتب استاد داره وأمير جانداره وحواشيه في خدمة السلطان لأنه كان جريدة. فكان أول ما شرع فيه أمر العربان. وكان سبب نفورهم أشياء من جملتها أخذ أولادهم رهائن.

ولما وصل إلى حماه وجد عثمان بن مانع وعمرو بن مخلول وجماعة من أكابر العربان بغتة فأكرمهم، وما أظهر لهم شيئاً، وكتب إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا يطلب منه فرس فلان، والفرس الفلاني تسكيناً له، وكان عيسى قد كتب إلى السلطان قبل خروجه من الديار المصرية يستأذن في الحضور خديعة، فخدعه السلطان

---

(١) يوافق أولها يوم الأحد ٩ أغسطس/آب ١٢٧١ م.

(٢) الزعقة: بلدة واقعة قرب الحدود بين مصر والشام، يمر بها القاصد من مصر إلى الكرك Demombynes: La Syrie, p 6, N°" 2.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٨.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٨.

ورسم أن لا يحضر حتى يطلب. فكتب إليه الآن: «إنك كنت طلبت الحضور، ونحن الآن بحماه، فإن أردت الحضور فاحضر». فحضر فسأله السلطان عما نقل عنه العربان، فاعترف به، فرعى له حق الصدق. وأحسن إليه وإلى أمراء العربان، وأطلق رهائنهم، وأطلق لعيسى نصف خبزه الذي كان أخذه منه في سنة ثمان وستين من سلمية وغيرها، وهو مائة ألف وثلاثون ألف درهم، وأطلق له من حلب ألف مكوك غلة إنعاماً، وأطلق لغيره من العربان من خمسمائة مكوك إلى ما دونها.

وفي مستهل شهر ربيع الأول، ركب السلطان من حماه بعد العشاء الآخرة ولم يعلم بقصده، وسار على طريق حلب، ثم عرج [من شيزر][١] فأصبح بظاهر حمص، وتوجه إلى حصني الأكراد وعكار فكشفهما[٢]، وتوجه إلى دمشق.

وورد الخبر أن جماعة من التتار أغاروا على عين تاب[٣]، وتوجهوا إلى عمق حارم[٤] في نصف شهر ربيع الأول، فكتب [السلطان][٥] إلى الديار المصرية بتجريد الأمير بدر الدين بيسري بثلاثة آلاف فارس، وتوجه بذلك صارم الدين المشرقي، وخرج من دمشق الثالثة من نهار الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول، ودخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادي عشرينه، فخرج الأمير بدر الدين بيسري والعسكر بكرة نهار الأربعاء المذكور.

ووصل الأمير شمس الدين استاد الدار بالعسكر المجرد وكانوا على جينين وهم خمسمائة فارس. وكان التتار قد أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة، وتأخر ابن مجلي والعسكر الحلبي إلى حماه، وجفل أهل دمشق، وبلغت قيمة الجمل ألف درهم، وأجرته إلى مصر مائتي درهم.

ووصل الأمير بدر الدين بيسري والعسكر إلى دمشق في رابع شهر ربيع الآخر، وتوجه السلطان بالعسكر إلى حلب، وجرد الأمير شمس الدين أستادالدار وجماعة معه إلى مرعش[٦]، وجرد الأمير الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري والأمير شرف الدين

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٩، س ١٣.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٩، س ١٤: «وكشف أمورهما».

(٣) عين تاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٦.

(٤) عمق حارم: حصن حصين تجاه أنطاكية. وهي الآن من أعمال حلب. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦٠٠.

(٦) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٠٧.

عيسى بن مهنا إلى حران[١] والرها[٢]، فتوجها ووصلا إلى حران، فاتصل الخبر بمن فيها من نواب التتار فخرجوا فالتقاهم الأمير شرف الدين عيسى وطاردهم وطاردوه، ثم وصل العسكر فخرج عليهم كمينه، فلما رأوه نزلوا عن خيولهم، وقبلوا الأرض، وألقوا سلاحهم، فقبضوا عن آخرهم، فكانوا ستين رجلاً. ثم سار الأمير علاء الدين طيبرس إلى حران، فلما أشرف عليها أغلق من فيها أبوابها وتركوا باباً واحداً، فخرج منه الشيخ محاسن أحد أصحاب الشيخ حياة ومعه جماعة كثيرة، وذلك في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الآخر، وأخرج لهم طعاماً قليلاً لأجل البركة، فتلقاه الأمير علاء الدين وترجل له. فلما اجتمع به أخرج له الشيخ مفاتيح حران وقال له: «هذا بلد السلطان فتسلمه». فقال له: «طيب قلوب الجماعة ويكونون[٣] على ما هم عليه إلى أن يصل السلطان». وعصى برج باب يزيد وفيه شحنة التتار فطلبه فامتنع، وقال: «إذا جاء السلطان خرجت إليه»، فعاد الأمير علاء الدين طيبرس ولم يدخل حران، وعبر الفرات سباحة.

وبعد توجهه فارق أكابر أهل حران البلد ووصلوا إلى دمشق مثل: أمين الدين بن شقير، وخطيبها الشيخ شهاب الدين بن تيمية، وأولاد بشر، وابن علوان وغيرهم. وأقام جماعة كثيرة من أهل حران بحلب وحماه وحمص، وتفرقوا في البلاد، وبقي جماعة بحران.

فلما كان في الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة، وصل جماعة من التتار إلى حران، فأخربوا أسوارها وأكثر أسواقها ودورها ونقضوا جامعها وأخذوا أخشاب سقوفه، واستصحبوا معهم من بقي فيها، فخرجت وأخليت ودثرت إلى الآن. وكان من المدن الجليلة.

ذكر عود السلطان من حلب ورجوعه إلى الديار المصرية وعوده إلى الشام[٤]

وفي آخر شهر ربيع الآخر بلغ السلطان أن الفرنج أغاروا على قاقون[٥]، وقتل الأمير حسام الدين استاد الدار، وجرح الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق وجرح

(١) مدينة على طريق الموصل والشام. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٢) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٠٦.
(٣) في الأصل: «ويكون».
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.
(٥) قاقون: حصن بفلسطين قرب الرملة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٩.

[بجكا العلائي](١) والي قاقون. فرحل السلطان من حلب، ودخل دمشق وبين يديه التتار الذين أسروا من حران. وأما الفرنج لما قصدهم العسكر المجرد بقاقون تأخروا عنها، ووصل الأمير جمال الدين أقش الشمسي بعسكر عين جالوت، فولوا مدبرين، ولحقهم العسكر واسترجع منهم تركماناً، وقتل من رجالتهم وعرقب من خيولهم [خمسمائة رأس](٢). وخرج السلطان من دمشق في ثالث جمادى الأول وصحبته العساكر بنية الغارة على الفرنج، وقصد عكا فتوالت الأمطار وهو على مرج برغوث حتى كاد الناس يهلكون [لعدم ما يستظلون به](٣). فانثنى عزمه عن الإغارة. ورد العسكر الشامي وصار إلى الديار المصرية. فوصل إلى قلعة الجبل في الثالث والعشرين من جمادى الأول وأقام بقلعته أياماً.

ثم توجه إلى الجيزية للتنزه في يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة في جماعة من أمرائه وخواصه، فحضر إليه مطالبيه، وأخبروه أن بناحية بوصير السدر من الجيزية مغارة بها مطلب. فتوجه إليها وأمر بحفرها. فجمع متولي الجيزية جماعة، فحفروا وأعمقوا، فأخرجوا قطاطاً ميتة، وكلاب صيد، وطيوراً وغير ذلك من الحيوانات، وهي ملفوفة في خرق، فإذا حلت اللفائف عنها وأصابها الهواء صارت تراباً تذروه الرياح، ولم يوجد فيها خلاف ذلك. وعاد السلطان من الجيزية في يوم الثلاثاء العشرين من الشهر.

ذكر إيقاع الحوطة على القاضي شمس الدين الحنبلي واعتقاله(٤)

وفي سنة سبعين وستمائة: أمر السلطان بإيقاع الحوطة على منزل قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين إبراهيم المقدسي الحنبلي.

وسبب ذلك أن تقي الدين شبيب الحراني كان أخوه ينوب عن قاضي القضاة المشار إليه بالمحلة(٥) فعزله، فغضب أخوه المذكور لذلك، وكتب رقعة إلى السلطان يقول: «إن القاضي شمس الدين عنده ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام وغيرهم جملة كثيرة، وقد مات بعض أهلها واستولى عليها». فاستدعاه السلطان وسأله

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٢، س ١٨.

(٥) المحلة: مدينة مشهورة بالديار المصرية. وهي عدة مواضع، منها محلة دَقَلا وهي أكبرها وأشهرها، وهي بين القاهرة ودمياط. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٦٣ ـ ٦٤.

عن ذلك فأنكره وجحد، فطلب منه اليمين فحلف وتأول يمينه. فعند ذلك أمر السلطان بهجم داره، فهجمت ووجد فيها كثير مما ادعاه شبيب، بعضه قد مات أربابه، فأخذت زكاة ما وجد مدة سنتين. وسلم ما بقي لأصحابه. فغضب السلطان عند ذلك على قاضي القضاة، وأمر باعتقاله، وتوجه السلطان إلى الشام وهو في الاعتقال، فتسلط شبيب عليه حينئذٍ وادعى أنه حشوي وأنه يقدح في الدولة. وكتب بذلك محضراً، فأمر الأمير بدر الدين الخزندار نائب السلطنة بعقد مجلس، فعقد له يوم الاثنين حادي عشر شعبان من السنة واستدعى من شهد في المحضر، فنكل بعضهم عن الشهادة فأطلقوا، وشهد الباقون، فأخرق بهم وجرسوا. ثم تبين للأمير بدر الدين الخزندار تحامل شبيب لما ظهر له من إساءته على القاضي شمس الدين والقدح فيه، فأمر باعتقاله والحوطة على موجوده. وأعاد القاضي إلى الاعتقال فاستمر به إلى أن أفرج عنه في النصف من شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة، [ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحداً](١).

ذكر توجه السلطان إلى الصيد ثم إلى الشام(٢)

قال: ولما عاد السلطان من الجيزية، أقام بقلعة الجبل إلى شهر رجب من هذه السنة، وخرج متصيداً إلى جهة الصالحية، فبلغه حركة التتار فرجع إلى القلعة وتجهز.

وخرج إلى الشام في ثالث شعبان من السنة، ونزل بمرج قيسارية وحصلت الهدنة مع الفرنج.

ونزل السلطان بمنزلة الروحاء(٣) وعيّد بها عيد الفطر، ورحل منها في ثاني شوال إلى خربة اللصوص، ثم توجه إلى دمشق.

ووردت رسل التتار، وهم رسل صمغار مقدم عسكر التتار بالروم، ورسل البرواناه، فحضروا بين يدي السلطان وسمع مشافهتهم، وتضمن الكتاب الذي على أيديهم الرغبة في الصلح وطلب رسل من السلطان. فجهز إليهم الأمير مبارز الدين الطوري أمير طير، والأمير فخر الدين المقري الحاجب، فتوجها هما والرسل في نصف شوال سنة سبعين، واجتمعا بصمغار، بين سيواس والجسر، فأكرمهم وأوصلوه ما كان معهم من الهدية، وهي: قسي تسعة، دبابيس تسعة. واعتذروا عن قلتها كونهم حضروا على خيل البريد. وفي اليوم الثاني اجتمعا بالبرواناه وأعطاه قماشاً فاخراً، كان

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٣.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠١ ـ ٦٠٢.
(٣) الروحاء: قرية من قرى بغداد على نهر عيسى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٦.

السلطان قد سيره إليه خفية، وسير معهما هدية لأبغا بن هولاكو، وهي جوشن ريش قنفد، وخوذة كذلك، وسيف، وقوس، ودركاش[1]، وتسع فردات نشاباً، وتوجهوا صحبة البرواناه إلى الأردو، وأوصلوا إلى أبغا هديته، وقال له الأمير مبارز الدين الطوري: «السلطان يسلم عليك ويقول: إن رسل منكوتمر وردوا إليه مراراً، أن السلطان يركب من جهته. ويركب الملك منكوتمر من جهته، وأين وصلت خيل سلطاننا كان له، وأين وصلت خيل منكوتمر كان له» فانزعج أبغا انزعاجاً عظيماً، وقام وركب وخرجت الرسل إلى خيامهم، ثم طلب أمراءه للمشورة[2]، وبعد ذلك خلع على الرسل وأذن لهم في السفر فعادوا.

وأما السلطان فإنه أقام بدمشق حتى ضحى بها، وأحسن إلى صاحب حماه، وأمر بجلوسه معه بطراحة ومسند وكرسي في رأس السماط مسامتاً للسلطان.

ثم توجه بعد ذلك إلى حصني الأكراد وعكار[3] وشاهد العمارة بهما، وعمل بيده، وخلع على من بحصن الأكراد من الأمراء وأرباب الوظائف.

وعاد فتصيّد في الطريق وخلع مقدار خمسمائة تشريف على من أحضر صيداً، ورجع إلى دمشق فدخلها في خامس المحرم سنة إحدى وسبعين.

وفي سنة سبعين وستمائة: كانت وفاة الملك الأمجد أبي الحسن ابن[4] الملك الناصر صلاح الدين داود ابن[5] الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله تعالى، بدمشق فجأة في يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، ودفن بسفح قاسيون وله من العمر ما ينيف على خمسين سنة تقريباً. وكان من الفضلاء، وله مشاركة في العلوم ومعرفة بالأدب، وتنقلت به الأحوال في عمره، وصحب الفقراء والمشايخ، وانتفع بهم وأخذ عنهم. وكان كثير البرّ لمن يصحبه من المشايخ، وكانت همته عالية ونفسه ملوكية، وله صبر على المكاره. وكان جميع أهل بيته يعظمونه ويعترفون له بالتقدمة، حتى عم أبيه الملك الأمجد تقي الدين الذي قدمنا ذكر وفاته. وكان حسن الخط والترسل، وكان واسطة عقد هذا البيت. فإن أمه ابنة الملك الأمجد مجد الدين حسن ابن السلطان

---

(١) هكذا في الأصل، والمؤلف يختار الدال دائماً بدل التاء.

(٢) في الأصل: «المشهور»، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٢، س ١١.

(٤) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) من أمراء الدولة الأيوبية. كان من الفضلاء، له معرفة بالأدب، ومشاركة في كثير من العلوم. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٦٧٠.

الملك العادل الكبير، تسمى باسم جده. وإلى جده لأمه المذكور ابن الملك العادل ينسب الغور الأمجدي وهو الخميلة، والنويعمة[١]، ودامية، والحمام، وورثة أولاد الملك الناصر عن أمهم. وتزوج الملك الأمجد هذا ابن الملك الناصر داود، ابنة الملك العزيز غياث الدين ابن الملك الظاهر أخت الملك الناصر صاحب الشام وأولدها ولداً سماه صلاح الدين محمود.

وفيها: توفي الصدر الكبير وجيه الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن سويد بن معالي بن محمد بن أبي بكر الربعي التغلبي التكريتي التاجر[٢] المشهور بسعة المال والثروة والجاه ونفوذ الكلمة، بلغ ما لم يبلغه أحد من أمثاله. وكانت كتبه تنفذ عند سائر الملوك، حتى عند ملوك الفرنج بالساحل. وكانت النجابون تأتيه من بغداد إلى دمشق في مهمات تتعلق بالخلافة. وكانت متاجره لا يتعرض إليها. وكان خصيصاً بالملك الناصر صاحب الشام لا يخرج عن إشارته ورأيه. وانبسطت يده في دولته. وكان عنده فضة كثيرة، مراود وجسراً[٣]، فاستأذن الملك الناصر على ضربها دراهم فأذن له، وجعل دار الضرب بدمشق بيده، فضرب منها شيئاً كثيراً، وكانت مغشوشة، فخسر الناس فيها أموالهم. ولما ملك هولاكو البلاد وصل إليه فرسان من جهته يتضمن تأمينه على نفسه وماله فما وثق به. وفارق دمشق إلى الديار المصرية. وغرم جملة مقارب ألف ألف درهم بسبب الدراهم المغشوشة وغيرها. ثم تمكن في الدولة الظاهرية تمكناً كبيراً، ووكله السلطان الملك الظاهر، وجعله وصيّه على أولاده من بعده وناظر أوقافه، وخوطب في مكاتباته بالمجلس السامي المولوي. وكان مع تمكنه من الملك الناصر لا يكتب له عنه إلا الصدر الأجل. وكان سبب تمكنه من السلطان الملك الظاهر ما حكاه شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري في تاريخه عن والده، رحمه الله تعالى، قال: كنت عند وجيه الدين في داره في أيام الملك الناصر، وقد جاء إليه الملك الظاهر وهو يومئذٍ في خدمة الملك الناصر من أمرائه، وشكى إليه ضعف إقطاعه، وأنه قد ركبه دين كثير، وليس عنده كسوة لصغاره، وسأله أن يتحدث له مع الملك الناصر، وكان قد وصل إلى وجيه الدين في تلك الساعة من عكا جوخ سقلاط وغيره، فأعطاه منه كفاية عشرة أقبية وخرق كتان فرنجي مائتي دراع، وخمس تقاطيع سكندري، وتفصيلتين حرير، وألف درهم. وقال له: «يا خوند[٤] مهما

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ٣٣٨، س ٢ ـ ٣.

(٣) هكذا في الأصل كأنه جمع «مرود» وجمع «جسر».

(٤) في الأصل: «باخوند».

كان لك من حاجة أو خدمة أطلب ذلك مني، ولا حاجة بقول السلطان». قال: والله لقد رأيت الملك الظاهر وقد أهوى إلى أقدام وجيه الدين ليقبلها، فرعى له السلطان الملك الظاهر حق هذا الإحسان. وملك وجيه الدين المذكور عدة من ضياع دمشق وأملاكها. وكان مع ذلك كله فيما حكى عنه شحيحاً على طعامه، لكنه كان يتكرم بماله. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة سبعين وستمائة. ومولده بتكريت في ذي القعدة سنة تسع وستمائة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى وسبعين وستمائة(١)

ذكر توجه السلطان إلى الديار المصرية على خيل البريد وعوده إلى الشام

قال: لما عاد السلطان من كشف الحصون في خامس المحرم من هذه السنة، استشار خواص الأمراء في أن التتار تواترت الأخبار بحركتهم، وأنهم متى قصدوا البلاد والعساكر والخزائن غير حاضرة صعب الأمر، وعرفهم أنه يتوجه إلى الديار المصرية على البريد.

وركب ليلة السادس من المحرم بعد عشاء الآخرة، وصحبته الأمير بدر الدين بيسري، والأمير جمال الدين أقش الرومي، وجرمك(٢) السلاح دار، وجرمك الناصري، وسنقر الألفي السلاح دار، وعلم الدين شقير مقدّم البريدية. فدخل قلعته يوم السبت ثالث عشر المحرم، ولم يشعر الناس إلا وهو داخل من باب القلعة، فدخل وتوجه إلى الميدان ولعب الكرة، وكتب إلى الأمراء المقيمين بالشام أنه سطرها من البيرة، وسير علائم بخطه ليكتب عليها أجوبة البريد من دمشق إلى الأطراف. وكان الأمير سيف الدين الدوادار بقلعة دمشق لتجهيز الكتب والبريد. وفي يوم الاثنين توجه إلى مصر وركب في البحر ولعبت الشواني. وفي ليلة الأربعاء سابع عشرين المحرم جهز العسكر المجرد إلى الشام، وتوجه هو إلى الشام في ليلة التاسع والعشرين من الشهر هو ومن كان معه من الأمراء. ووصل إلى دمشق في ثالث صفر، ودخل قلعتها ليلاً.

وحضر إليه رسل أبغا وكان مضمون مشافهتهم طلب الاتفاق.

ثم توجه السلطان إلى قلعة البيرة عندما نازلها التتار. وكان من انهزامهم ما نذكره إن شاء الله تعالى في الغزوات والفتوحات.

---

(١) يوافق أولها يوم الجمعة ٢٩ يوليه/ تموز ١٢٧٢ م.

(٢) في الأصل: «جربك» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٤، س ١٧.

ثم عاد السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعته في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وفي السابع والعشرين من الشهر: أفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي[١] وأنزله بدار الوزارة ورتب له الرواتب، وكان في الاعتقال من شهر رجب سنة إحدى وستين وستمائة.

وفي شهر رجب: خلع السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة[٢] والمقدمين، وعم بذلك المسافرين والمقيمين.

وفي هذه السنة: نجزت عمارة قبة الصخرة الشريفة[٣]، وذلك في يوم عرفة، وكان السلطان قد توجه إليها وجميع الصناع لعمارتها كما قدمناه.

ذكر اعتقال الشيخ خضر[٤] والأسباب التي أوجبت ذلك

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة إحدى وسبعين: أحضر الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى العدوي المهراني شيخ السلطان إلى قلعة الجبل، وأحضر جماعة خانقوه على أشياء كثيرة منها اللواط والزنا وغيره فتقدم أمر السلطان باعتقاله. وكان سبب ذلك أنه تعاطى أموراً منكرة وأفحش، ثم شرع يغض من الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة، والصاحب بهاء الدين، وانتقل إلى حد المهاجرة لهما بالقول بحضرة السلطان، وهو أن السلطان أطلق له شيئاً فتوقف الأمير بدر الدين في إمضائه، فقال له بين يدي السلطان: «كأنك تشفق على السلطان وعلى أولاده، كما فعل قطز بأولاد الملك المعز». فخشي عاقبة ذلك. فاتفق هو والصاحب بهاء الدين على التدبير عليه وإطلاع السلطان على ما خفي عنه من حقيقة حاله، ووافقهما على ذلك الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام، ورتبه، وذلك أنه طلب إسماعيل ومظفر نائبه بدمشق وآخر من أتباعه اسمه محمد بن بطيخ وتهددهم أولاً، ثم وعدهم أنهم متى اعترفوا على شيخهم بما يعتمده أحسن إليهم وجعل لهم الرواتب، فذكروا عنه أشياء كثيرة وأشهدوا على أنفسهم بذلك. فكاتب السلطان في أمره، فأمر بإرسالهم على خيل البريد فأرسلوا. ولما حضروا بين يدي السلطان سمع كلامهم. ثم أحضره وقال له: «هؤلاء نوابك بالشام، ما تقول فيهم؟» فذكر من خبرهم وصدقهم وأنه رضي بما يقولونه فيه.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٧، س ١١.
(٢) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٧، س ١٤.
(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٨، س ١٢.
(٤) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٨، س ١.

فذكروا عنه القبائح والمنكرات وارتكاب المحرمات شيئاً كثيراً، وخانقوه على ذلك. فأطلقهم السلطان وأمر بإيقاع الحوطة على موجوده[(١)].

وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه: أنه لما حضر أولئك لمخانقته كان ذلك بحضور الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الأتابك، والأمير سيف الدين قلاون، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين قشتمر العجمي، فخانقه أصحابه على كل عظيمة لا تصدر من مسلم. فقال: «ما أعرف ما تقولون، ومع هذا، أنا ما قلت إني رجل صالح، أنتم قلتم هذا. فإن كان الذي تقولون صحيح فأنتم كذبتم». فقام السلطان وقال للأمراء: «قوموا بنا لئلا نحترق بمجاورته». فقاموا وانتقلوا إلى طرف الإيوان. فاستشار السلطان الأمراء في أمره، فقال له الأتابك: «هذا مطلع على أسرار الدولة وبواطن أحوالها وما ينبغي إبقاؤه»، ووافقه من حضر من الأمراء على هذا الرأي، وقالوا: ببعض ما قيل عنه يباح دمه. ففهم ما هم فيه، فقال للسلطان: «اسمع ما أقول لك، أنا أجلي قريب من أجلك، وما بيني وبينك إلا مدة أيام يسيرة، من مات منا لحقه الآخر عن قريب». فلما سمع السلطان كلامه وجم، وقال للأمراء: «ما تشيرون في هذا»؟ فسكتوا. فقال السلطان: «أرى أن يحبس في مكان لا يصل إليه أحد ولا يسمع كلامه، فيكون كمن قبر وهو حي». ثم أمر به فحبس في مكان منفرد بقلعة الجبل، ولم يدخل إليه إلا من يثق السلطان به غاية الوثوق. وكان يرسل إليه الأطعمة الفاخرة والفواكه والملابس، واستمر في الاعتقال إلى أن توفي في سنة ست وسبعين وستمائة قبل وفاة السلطان بأحد وعشرين يوماً. وسنذكر إن شاء الله تعالى، مبدأ أمره وسياقه أخباره عند ذكر وفاته.

وفيها: هرب الأمير عمرو بن مخلول من آل فضل من قلعة عجلون هو وحامد رفيقه. وكان السلطان قد اعتقلهما في برج من أبراج القلعة، فحفر حفيرة ملاصقة للسور ووقدوا النار حتى تكلس حجر السور، فنقباه وخرجا منه، وقد كانت أعدت لهما خيل سوابق فركباها وتوجها إلى بلاد التتار، ثم ندما على ما فعلاه، فكتبا إلى السلطان يسألان مراحمه، فحلف أنه لا يرضى عنهما إلا أن يعودا إلى قلعة عجلون ويضعا أرجلهما في القيود على ما كانا عليه، ففعلا ذلك. وكان عودهما من بلاد التتار في ذي الحجة سنة اثنين وسبعين وستمائة. ولما رجعا إلى الطاعة وفعلا ما أمر السلطان به عفا عنهما وأطلقهما وأحسن إليهما.

وفي هذه السنة في رابع عشرين ذي الحجة: توفي الملك المغيث فتح الدين عمر

(١) انظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢١٧.

ابن الملك الفائز إبراهيم ابن الملك السلطان العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله تعالى، في معتقله بجب خزانة البنود، ودفن بتربتهم بالقرافة بجوار الإمام الشافعي. ومولده في صفر سنة ست وستمائة، رحمه الله تعالى[١].

وفيها: كانت وفاة الأمير سيف الدين محمد ابن الأمير مظفر الدين عثمان ابن الأمير ناصر الدين منكورس بن بدر الدين جُمردكين[٢] صاحب صهيون وبرزية في شهر ربيع الأول. وكانت وفاته بصهيون وقد ناف على ستين سنة، ودفن بتربة والده، وتسلم صهيون وبرزية بعده ولده الأمير سابق الدين سليمان، ثم أخذهما السلطان منه في هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة الحافظ الخطيب فخر الدين أبي محمد وأبي الفرج عبد القاهر ابن الشيخ علاء الدين عبد الغني بن محمد بن تيمية الحراني. وكانت وفاته بدمشق في ثاني عشر شوال من هذه السنة. ودفن بمقابر الصوفية. ومولده في سنة ثنتي عشرة وستمائة، سمع الحديث من جده ومن ابن اللتي، وخطب بجامع حران وكان فاضلاً ديناً، وهو من بيت معروف بالعلم والفضيلة، رحمه الله تعالى[٣].

واستهلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة[٤]

ذكر الطلسم الذي وجد بباب القصر بالقاهرة

قال المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، رحمه الله تعالى، في السيرة الظاهرية: لما كان يوم عاشوراء من هذه السنة وجد ما سنذكره، وذلك أنه كان قد رسم بنقض علو أحد أبواب[٥] القصر المسمى بباب البحر قبالة دار الحديث الكاملية، لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية، فظهر صندوق في حائط مبني عليه، وللوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة وفتح الصندوق. فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسي شكل الهرم، ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الكرسي، والصنم جالس عليه متوركاً، وله يدان مرفوعتان ارتفاعاً جيداً، يحمل صفيحة يكون دورها قريب الثلاثة أشبار، وفي هذه الصفيحة أشكال بايتة[٦]، الأوسط صورة رأس

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٩.
(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٣٥.
(٣) ابن العماد الحنبلي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٣٤.
(٤) يوافق أولها يوم الثلاثاء ١٨ يوليه/ تموز ١٢٧٣ م.
(٥) في الأصل: «باب» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) هكذا في الأصل. ومن الممكن قراءتها «ناتئة» مع افتراض وجود تصحيف.

بغير جسد، وعليه دوائر مكتوب عليها كتابة بالقبطي بالقَلَفْطِرِيّات(١)، وإلى جانبها في الصفيحة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة، وإلى الجانب الآخر شكل على رأسه صليب، وآخر في يده عكاز وعلى رأسه صليب وتحت أرجلهما أشكال طيور. وفوق رؤوس الأشكال كتابة كثيرة أكثر من نصف الصفيحة. وعلى الأشكال كتابة. ووجد مع هذا الصنم في الصندوق لوح من ألواح الصبيان التي يكتبون فيها في المكاتب مدهون وجهه الواحد(٢) أبيض، ووجهه الآخر أحمر، وفيه كتابة قد تَكَشَّط أكثرها من طول المدة وقد بلي اللوح وما بقيت الكتابة تلتئم ولا الخط يفهم.

قال: والوجه الأبيض مكتوب بقلم الصفيحة القبطيّ. وذكر ما ظهر من الكتابة على الوجه الأحمر وهي ثلاثة عشر سطراً، ذكر ألفاظاً غير ملتئمة، إلا أن المفهوم منها على غير التتامه: «الإسكندر ذو الملك يزجر». وذكر ما ظهر في كل سطر، وأخلي لما تكشط منه مما لا فائدة في ذكره، والذي شرحه من السطر الثاني عشر ما صورته: «شد أيضاً كل امار(٣) أشد به». قال: وقيل إن هذا اللوح بخط الحاكم خليفة مصر. وأعجبُ ما فيه اسم السلطان وهو بيبرس. قال: ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته، فعرض على قراء الأقلام، فقرىء، وهو بالقلم القبطي، ومضمونه طلسم عمل للظاهر ابن الحاكم، وفيه أسماء ملائكة وعزائم وَرُقى وأسماء روحانية وصور ملائكة، وأكثره حرسٌ للديار المصرية وثغورها وصرف الأعداء وكفهم عن طروقهم إليها، وابتهالٌ إلى الله بأقسام كثيرة بحماية الديار المصرية، وصونها من الأعداء، وحفظها من كل طارق ومن جميع الأجناس.

قال: وتضمن هذا الطلسم كتابة بالقلفطريات وأوفاقٌ وصورٌ وخواصٌ لا يعلمها إلا الله تعالى. وحمل هذا الطلسم إلى السلطان فبقي في ذخائره.

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: رأيت في كتاب عتيق رث(٤) سماه مصنفه: وصية الإمام العزيز والد الإمام الحاكم لولده المذكور، وقد ذكر فيه الطلسمات التي على أبواب القصر. وقال: إن أول الكواكب الحمل، وهو قلب المريخ، وشرف الشمس، وله القوة على جميع سلطان الفلك، لأنه صاحب السيف، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة، والمستولي لقوة روحانيته على مدينتنا عندما بنيناها. وقد

---

(١) في الأصل: «بلقد فطريات». ولم أجد معنى لهذه الكلمة.

(٢) في الأصل: «الآخر». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) هكذا في الأصل دون نقط الثاء.

أقمنا لساعته ويومه لقهر الأعداء وذل المنافقين، في مكان أحكمناه على شُرافةٍ عليه[١] والحصن الجامع لقصره مجاور لأول باب بنيناه. هذا نص ما في الكتاب، والله أعلم.

ذكر توجه السلطان إلى الشام[٢]

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة: وردت الأخبار بحركة أبغا بن هولاكو ملك التتار، فخرج السلطان في ليلة السادس والعشرين من المحرم، وصحبته جماعة من أمرائه الخواص، منهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير سيف الدين أوتامش[٣] السعدي. فلما وصل إلى عسقلان بلغه أن أبغا وصل إلى بغداد وقد خرج إلى الزاب متصيداً، فكتب إلى القاهرة يستدعي العساكر. فخرج منها يوم السبت حادي عشر صفر أربعة آلاف فارس مع مقدميهم: الأمير علاء الدين طيبرس الوزير، والأمير جمال الدين أقش الرومي، والأمير شمس الدين أقش المعروف[٤] بقَطْلِيجا، والأمير علم الدين سنجر طردح[٥]. ورحلوا من البركة في يوم الاثنين. ثم قويت الأخبار، وهو في أثناء الطريق بحركة التتار، فكتب السلطان بخروج العساكر جميعها والعربان من الديار المصرية صحبة بدر الدين بيليك الخزندار، ورسم بأن جميع من في مملكته ممن له فرس يركب إلى الغزاة، وأن يُخْرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة على قدر حال أهل البلد، ويقومون بكلفتهم. ودخل السلطان إلى دمشق في سابع عشر صفر. وكان رحيل العساكر من القاهرة في العشرين من صفر، فوصلوا إلى يافا، وورد المرسوم بنزولهم قريباً منها، وركب السلطان من دمشق في نحو أربعين فارساً جرائد، ولم يستصحبوا ركاب دار السلطان ولا غيره[٦]. فوصل وقد طُلِّبت العساكر وقاربوا المنزلة، فاعترضهم السلطان وجماعته وقد ضرب كل منهم على وجهه لثاماً، فظن الحجاب أنهم من التركمان، فرسموا لهم بالترجل فما ترجلوا[٧]. وساق السلطان منفرداً وجاء من خلف السناجق[٨] وحسر اللثام

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٠.

(٣) هكذا في الأصل.

(٤) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢١٨ اسمه «عز الدين قطلبخا».

(٥) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢١٨ «طرطج»، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٠ «ططح».

(٦) في الأصل: «لغير» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٧) في الأصل: «بالترحل فارتحلوا» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٠، س ١٣.

(٨) في الأصل: «الصناجق». والتصحيح يقتضيه السياق.

عن وجهه، فعرفه السلاح دارية فأفرجوا له، فدخل وساق في الموكب فنزل الناس وقبلوا الأرض، وساق السلطان ونزل بدهليزه فرتب المصالح. وأصبح في اليوم الثاني وركب في موكبه، ونزل فقضى حوائج الناس وركب عند المساء، هو ومن حضر معه وعاد إلى دمشق.

ذكر وصول الملك شمس الدين بهادر صاحب شميصاط[١] وشيء من أخباره

هذا المذكور هو الملك شمس الدين بهادر ابن[٢] الملك فرج، أمير الطشت[٣] للسلطان جلال الدين خوارزم شاه منكربرتي، وكان والده قد ملك بعد السلطان جلال الدين قلعة كيران[٤] وست قلاع أخرى في ناحية نقجوان[٥]. ووصل إلى بلاد الروم فأقطع أَقْصَرا[٦]، فكاتب شمس الدين هذا السلطان وراسله، وتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار العدو، وذلك في سنة إحدى وسبعين وستمائة. واتفق السلطان معه على نكتة غريبة قتل بسببها الجاثليق النصراني، وكان قد أهان المسلمين ببغداد وسكن[٧] مواطن الخلافة وأفسد أمور المسلمين. فكتب السلطان كتاباً إلى الجاثليق مضمونه: عرفنا محبتك وتوصيتك على النصارى الذين ببلادنا، وقد أكرمناهم لأجلك، وعرفنا أخبار المغل الباطنة التي أشرت إليها. وذكر في الكتاب أموراً موهمة لا أصل لها، منها: الذي التمسته لمن أشرت قد أجبنا إليه، وتسليم الأمكنة لمن عنيت قد حلفنا على تسليمها، والدواء الذي تقرر السعي في استعماله لمن أشرت إليه قد علم، والله يقدر ذلك، والذي طلبته من دهن البلسان والآثار المسيحية[٨] قد سيرناها، وسيرنا قطعة من صلِيب الصلبوت، وسيرنا ذلك إلى الرحبة، وعرفنا الناتب بها الأَمارة التي

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) في الأصل: «بن».

(٣) في الأصل: «الطست». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١، س ٢.

(٤) كَيْرَان: مدينة بأذربيجان بين تبريز وبيلقان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٧.

(٥) نَقْجَوان: بلدة من نواحي أران وتسمى أيضاً نخجوان. ويذكر ياقوت أن النسبة من نقجوان «نشوى». وقد سأل في آذربيجان عن سبب ذلك الاشتقاق الغريب فلم يستطع أحد أن يخبره بعلته. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٨.

(٦) انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 116.

(٧) هكذا في الأصل.

(٨) هكذا في الأصل.

قررت. فأرسل من تثق إليه بالأمارة ليتسلم ذلك. وسير السلطان هذا الملطف[(١)] إلى النائب بالبيرة، ورسم له أن يجهزه صحبة أرمني يوصله إلى الجاثليق، وأنه إذا جهزه يرسل إلى الملك شمس الدين بهادر يعرفه بخبره وحِلْيَتِه. ففعل ذلك، وأرسل بهادر من أمسك هذا القاصد وسير به إلى أبغا. فلما وقف أبغا على الملطف كان فيه هلاك الجاثليق، وتقرب شمس الدين بهادر إلى السلطان بأشياء كثيرة مثل ذلك. فشعر التتار به فأمسكوه وتوجهوا به إلى الأردو[(٢)]، وهربت حاشيته ومماليكه، فوصلوا إلى باب السلطان وهم يزيدون على ألفي نفر من مماليك وأجناد وغيرهم، فأحسن إليهم ورتب لهم الرواتب. وأما الملك شمس الدين بهادر فإنه هرب ونجا بنفسه ووصل البيرة فتلقاه أهلها، وسير إلى السلطان. وذكر أنه أقام سبعة أيام ولم يأكل شيئاً. ولما وصل تلقاه السلطان وأكرمه وأعطاه الإقطاعات بالديار المصرية وأحسن إليه.

ذكر الظفر بملك الكَرْج

وفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة: ظفر السلطان بملك الكرج. وذلك أنه حضر لزيارة بيت المقدس، فاتصل ذلك بالسلطان، فأرسل من يعرف حليته فأمسك هو وثلاثة نفر من أعيان الكرج من بين الزوار، وسيروا][(٣)] إلى السلطان وهو بدمشق فطيب قلوبهم، وعرفهم أنه متيقظ لمن يدخل إلى بلاده، واحترز عليهم.

ولما سكنت الأخبار عاد السلطان والعساكر فدخل إلى قلعته في رابع عشرين جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفي شعبان من هذه السنة: رسم السلطان بعمارة جسرين قناطر بالقرب من الرملة لعبور العساكر، فعمرت.

وفيها: في يوم السبت عاشر ذي القعدة حضر متولي القرافة إلى مستنيبه الأمير سيف الدين أبي بكر بن اسباسلار متولي مصر، وأخبره أن شخصاً دخل إلى تربة الملك المعز وجلس عند القبر يبكي، فسأله من بالمكان عن بكائه. فأخبرهم أنه قاءان ابن الملك المعز، وكان الملك المظفّر قد أرسله مع أخيه الملك المنصور إلى بلاد الأشكري كما تقدم، فأحضر وقيد واعتقل. وطولع السلطان بأمره، فأحضره وسأله عن

(١) الملطف، رسالة، والمعنى اللغوي: ما يبلغ المراد بلطف، الفيروزابادي، القاموس المحيط، وراجع عن الملطفة، السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٢، حاشية رقم (٣).

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

أمره، فذكر أنه عاد إلى الديار المصرية منذ ست سنين، وأنه يتوكل للجند. فطلب منه من يعرفه، فذكر أن رجلاً معتقلاً بالإسكندرية كان يتردد إلى بلاد الأشكري، فأمر السلطان بإحضاره واعتقال قاءان، فحبس في حبس اللصوص بمصر، وأجرى عليه بعض مماليك المعز نفقة.

وفيها: أفرج السلطان عن الأمير سيف الدين الجوكندار، وكان له مدة في الاعتقال.

وفي ثاني عشر شهر رمضان من السنة: توجه الملك السعيد إلى الشام[١]، وجرد السلطان في خدمته الأمير سيف الدين أستاد دار وجماعة من أكابر الأمراء والخواص. ودخل إلى دمشق في سادس عشرين الشهر، ولم يشعر به نائب السلطنة إلا وهو بينهم في سوق الخيل، فنزلوا وقبلوا الأرض، ودخل الملك السعيد القلعة وخلع على الأمراء في ليلة العيد، وخلع أيضاً على المقدمين والمفاردة والأكابر، وخرج متصيداً بالمرج، ثم توجه إلى الشقيف[٢] وصفد، وعاد إلى مصر في حادي عشر شوال منها.

ذكر ختان الملك المسعود نجم الدين خضر ولد السلطان الملك الظاهر[٣]

كان ختانه في يوم عيد الفطر سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وحمل السلطان عن الناس كلفة التقادم والهدايا وشملهم بالخلع والإنعام والعطاء.

ذكر نكتة غريبة

وفي هذه السنة: ورد كتاب الغَرْس بن شاور والي الرملة[٤] يذكر أنه في هذه السنة حصل لأهل البلاد مرض وحمايات[٥] من شرب مياه الآبار وزاد ذلك، فحضر إليه رجل نصراني فقال: «هذه الآبار قد حاضت كما جرى في السنة التي جاء التتار فيها إلى الشام، وأن الفرنج أنفذوا إلى قرية تسمى عابود[٦] في الجبل أخذوا من مائها

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٢.

(٢) الشقيف: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٦.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٢.

(٤) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين. كانت رباطاً للمسلمين. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٦٩ - ٧٠.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) «عابور»: بالأصل والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٢، س ٢٢.

وسكبوه في الآبار فزال الوخم». فلما سمع ابن شاور ذلك سير إلى الضيعة المذكورة وأخذ من مائها وصبه في الآبار التي بيافا، وكان الماء قد كثر فيها. فلما سكب الماء فيها نقصت إلى حدها المتعارف[١]. وقيل: إن هذه الآبار إناث تحيض، وآبار الجبل ذكور.

ذكر ورود كتاب متملك الحبشة[٢]

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: في هذه السنة وصل كتاب متملك الحبشة إلى السلطان عطف كتاب صاحب اليمن. وهو يقول: «إن سلطان الحبشة قد قصدني في حاجة عند السلطان، وقد سيرت كتابه عطف كتابي» فكان مضمون كتاب متملك الحبشة[٣] إلى السلطان[٤]: «أقلُّ المماليك، مَخرا[٥] ملاك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلد الله ملكه، أن رسولاً وصل من [جهة][٦] والي قوص بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران[٧] وبلادنا بلاد مولانا السلطان ونحن عبيده. فيرسم مولانا يأمر الأب البطرك يعمل لنا مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة، ويسيره إلى مدينة عَوان[٨] وأقل المماليك يسير إلى نواب[٩] الملك المظفّر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى أبواب السلطان. وما كان سبب تأخر الرسل عن الحضور إلى السلطان إلا أنني كنت في بيكار. والملك داود[١٠] توفي، وقد ملك ولده، يا مولانا. وعندي في

= وعابود: قرية جبلية بنواحي بيت المقدس، ياقوت الحموي، المصدر السابق: ج ٤، ص ٦٤، النويري: نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٥.

(١) في الأصل: «المعارف» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٣، س ٣.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٥.

(٣) يعني «الحطّي» وهو الخليفة.

(٤) يوجد في كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل س ٢١٩ ـ ٢٢٢ تفصيلات كثيرة في هذا الصدد، وهي تحت سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م.

(٥) هكذا بالأصل.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٥، س ١١.

(٧) يقابل هذا اللفظ في الفرنسية (metropolitain) ومرادفه في اللغات الأخرى قريب من هذا. وفي صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٧٣ أن المطران كان في عصره هو القاضي الذي يفصل في الخصومات بين أهل طائفته.

(٨) هكذا في الأصل واضحاً. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ١٣ ـ ١٤. (أسوان أو عدن).

(٩) في الأصل: «بواب». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ١٤.

(١٠) في الأصل: «ذلود». والتصحيح في السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ١٦.

عسكري مائة ألف فارس مسلمين. وإنما النصارى كثير لا تعد. وكلهم غلمانك وتحت أوامرك. والمطران [الكبير][(١)] هو يدعو لك، وهذا[(٢)] الخلق كلهم يقولون: آمين بطول بقاء عمر سلطاننا[(٣)] مالك مصر، ويهلك الله عدوه، ويقول الخلق آمين. وكل من يصل[(٤)] من المسلمين إلى بلادنا أقل المماليك يحفظهم ويسفرهم كما يحبون[(٥)]. وإنما الرسول الذي سيره والي قوص فجدر[(٦)] وهو مريض. وبلادنا بلاد وخمة أي من مرض ما يقدر أحد يدخل إليه، وأي من شم رائحته يمرض ويموت. والراهب قال: ما يروح [بغير][(٧)] رفيق. ونحن فنحفظ كل من يأتي من المسلمين، وارسموا فسيروا مطراناً يحفظهم» أنهى ذلك.

هذا نص كتابة ومخاطبة ملك اليمن له بالسلطان.

قال: فكتب جوابه عن السلطان:

«ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في مملكته[(٨)] حطى ملك امْحَره، أكبر ملوك الحُبْشان، الحاكم على ما لهم من البلدان، نجاشي عصره [وفريد مملكته في دهره][(٩)] سيف الملة المسيحية، عضد دولة دين النصرانية، صديق الملوك والسلاطين سلطان الأمحرة، حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسه. فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه. فأما طلب المطران، فلم يحضر من جهة الملك رسول[(١٠)] حتى كنا نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب مولانا السلطان الملك المظفّر ورد مضمونه: أنه وصل من جهته كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير[(١١)] إليه الجواب. وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس[(١٢)] مسلمين، فأخبار البلاد عندنا، ولا تخفى عنا، فالله يكثر عساكر المسلمين. وأما وخم بلاده، فالآجال مقدرة من الله، وما يموت

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ١٧.
(٢) في الأصل: «وهذه». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ١٨.
(٣) في الأصل: «مولانا». إلا أن هذا اللفظ شطب. ووضع بدله «سلطاننا».
(٤) في الأصل: «هيل». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٥) في الأصل: «يحبوا». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) في الأصل: «فجور». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٠.
(٨) في الأصل: «مملكة». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢١.
(٩) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٢.
(١٠) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٥: «أحد».
(١١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦، س ٢٦: «يعود».
(١٢) «فارس» غير موجودة في السلوك.

أحد إلا بأجله، ومن فرغ أجله مات، وكم من جريح بالسيف عاش وصحيح مات، والأمر لله في الجميع»[١].

وفي هذه السنة: كانت وفاة الصاحب محيي الدين أبي العباس أحمد بن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد، في ليلة الأحد التاسع والعشرين من شعبان، ودفن من الغد بسفح المقطم؛ سمع من جماعة، وحدّث ودرّس بمدرسة والده التي أنشأها بزقاق القناديل بمصر][٢]، وكان منقطعاً عن المناصب يحب التخلي والإنفراد كثير الصدقة، وبنى رباطاً بمصر، ومولده بالفسطاط[٣] في سنة ست وثلاثين وستمائة، رحمه الله تعالى.

وفيها: في ليلة الثلاثاء رابع عشر الآخر توفي الشيخ العالم الزاهد الورع أبو محمد عبد الله بن عمر بن يوسف الحميدي القَصْري، ودفن من يومه بالقرافة[٤] الصغرى. كان أوحد أهل زمانه في أصول الدين والفقه، وله معرفة بكلام الفقراء وأحوالهم رحمه الله تعالى.

وفيها: في ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن نهار البكري، خطيب جامع ابن طولون، ودفن بالقرافة. ومولده بالقاهرة في سنة ثلاث وستمائة، رحمه الله تعالى.

وفيها: في يوم الأحد رابع عشر المحرم توفي الصدر الرئيس الأصيل مؤيد الدين أبو المعالي أسعد بن المظفّر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي، المعروف بابن القلانسي[٥] رئيس دمشق وكبيرها والمشار إليه. وكان متواضعاً كريماً سمحاً جواداً متصدقاً[٦] حسن السيرة جميل الطريقة طاهر اللسان. وكان السلطان الملك الظاهر قد عرض عليه نظر الشام فلم يقبل، فألزمه بوكالته الخاصة

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦١٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤١.

(٣) الفسطاط: مدينة عظيمة في مصر. فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩ م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٦١ ـ ٢٦٦.

(٤) القرافة: خطة بالفسطاط من مصر، وهي اليوم مقبرة أهل مصر، وبها أبنية جليلة. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٧.

(٥) هو حمزة بن أسعد بن مظفر بن حمزة التميمي الدمشقي. الصاحب عز الدين أبو يعلى، المعروف بابن القلانسي. رئيس الشام في عصره. ولي وكالة السلطان والوزارة بها. النعيمي: المدارس، ج ١، ص ٩٦؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٤٤.

(٦) في الأصل: «متصعباً».

والنظر في ديوان ولده الملك السعيد، فباشر ذلك. وكانت وفاته بدمشق ودفن بتربته بسفح قاسيون، ومولده بدمشق في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وهو والد الصاحب الرئيس عز الدين حمزة.

وفيها: في ليلة الأربعاء ثالث عشر شعبان توفي الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ النحاة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي[(١)] الجَيَّاني. وكانت وفاته بالمدرسة العادلية بدمشق، ودفن بقاسيون بتربة بني الصايغ، له التصانيف المفيدة في علم العربية، وشهرته أكثر من أن يؤتى على شرحها، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثلاث وسبعين وستمائة[(٢)]

في هذه السنة: وصل الملك المنصور صاحب حماه إلى خدمة السلطان[(٣)]، فأحسن إليه وإلى والده وأخيه وعاد إلى بلاده.

وفي ثامن صفر منها: توجه السلطان إلى الكرك على الهجن من الطريق البَدْرِيّة، فوصل إلى الكرك والشوبك. وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوماً، وعاد إلى قلعته في ثاني عشرين شهر ربيع الأول.

وفيها: في سادس عشر شهر ربيع الآخر توجه السلطان إلى العباسة، وفي صحبته ولده الملك السعيد، فصرع الملك السعيد أوزة خِبِّية[(٤)]، وقيل له: «لمن تدعي»؟ فقال: «لمن أدعو بحياته». فقبّله السلطان. وعاد السلطان بعد خمسة أيام.

وكان سبب عوده أنه ظفر بكتب من جماعة من الأمراء إلى التتار، وهم: قَجَمْقاد[(٥)] الحموي، وتوغان بن مَنْكو، وسريغا، وطَنْغَرى يُوري، وطنغرى يَرْمَس، وأنوك، وبَرْمَش، وبلبان مجلي، والبغلائي المرتد، وبَلاغا، وطغَيني[(٦)]، وأيبك، وسَنْجر الحواشي[(٧)]. وقبض عليهم وقررهم فأقروا. وكان آخر العهد بهم.

---

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٣.

(٢) يوافق أولها يوم السبت ٧ يوليه/ تموز ١٢٧٤ م.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٤.

(٤) في الأصل: «جنية». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٥، س ١. وانظر زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري، ص ١٢٦.

(٥) هكذا في الأصل. وفي السلوك: «قجقاز».

(٦) هكذا في الأصل. وفي النسخة (س) طعسي.

(٧) هكذا في الأصل. ومن المحتمل أن يكون الطواشي.

وفيها: أقبل السلطان على الأمير شهاب الدين يوسف ابن الأمير حسام الدين الحسن بن أبي الفوارس القَيْمَري، وهو من أعيان الأمراء في الدولة الصالحية النجمية والدولة الناصرية. وكان السلطان قد نقم عليه، فإنه تخيل أنه كان يثبط الملك الناصر عن قتال التتار، فواخذه بذلك وقطع خبزه، وعُطِّل، وأطلق له في كل يوم عشرين درهماً، ودام على ذلك فأعطاه الآن إمرة أربعين.

وفيها: توجه السلطان إلى الشام في شعبان بجميع العساكر واستخلف بقلعة الجبل الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني، والصاحب بهاء الدين، واستصحب معه الصاحب تاج الدين وزير الصحبة، وكان في هذه السفرة غزاة سيس على ما نذكر ذلك.

وفيها: رسم السلطان بعمارة ما كان تداعى من منارة الإسكندرية.

وفيها: في يوم السبت تاسع جمادى الآخرة توفي الأمير فارس الدين آقطاي المستعرب الصالحي الأتابك، ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الإمام الشافعي، ومشى السلطان في جنازته، وحضر دفنه، وحزن عليه، وبكى بكاء شديداً. وكان يستحق ذلك منه، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي قاضي القضاة شمس الدين عبد الله بن [محمد بن الحسن بن عطاء ابن الحسن بن](١) عطاء الأذرعي الحنفي بدمشق في يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى. ولما مات عزل قاضي القضاة زين الدين الزَّوَّاوي المالكي نفسه من القضاء حال دفنه، فإنه أخذ بيده من تراب القبر وحثاه عليه وقال: «والله لا حكمت بعدك، فإن لك أربعين سنة تحكم، ثم هذه(٢) مآلك». وعزل نفسه من الحكم، وبقي نائبه القاضي جمال الدين يوسف الزواوي يحكم على حاله.

وفوض السلطان قضاء الحنفية بعده للقاضي مجد الدين أبي المجد عبد الرحمٰن ابن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحنفي(٣) فوصل إلى دمشق في يوم الاثنين سلخ ذي القعدة، وحكم في ذي الحجة من السنة.

وفيها: توفي الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود(٤) [بن أحمد](٥) الأسدي اليغموري(٦) بالمحلة في ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٩.
(٢) انظر السلوك ج ١، ص ٦١٩ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٦.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥١.
(٥) في الأصل: «يحمود» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٩.
(٦) انظر ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٧.

الآخر. كان فقيهاً أصولياً مشاركاً في علوم كثيرة، وصحب الأمير جمال الدين بن يغمور فعرف به. وكان قد توجه لزيارة الأمير شهاب الدين بن يغمور بالمحلة فمات. ومات الأمير شهاب الدين بعده بشهرين ويومين، رحمهما الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير سليمان ابن[١] الملك السعيد ابن[٢] الملك الصالح إسماعيل ابن[٣] الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكانت وفاته بدمشق في حادي عشر صفر رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة أربع وسبعين وستمائة[٤]

استهلت سنة أربع وسبعين وستمائة والسلطان بالشام، فرسم بإحضار ولده الملك السعيد، فتوجه الأمير بدر الأمير بيليك الخزندار نائب السلطنة على خيل البريد لذلك، في الرابع والعشرين من المحرم. ووصل إلى قلعة الجبل، فأرسل إليه الملك السعيد ألف دينار وتشريفاً. وكان السلطان أيضاً قد رسم للأمراء بإحضار أولادهم فتجهزوا.

وتوجه الملك السعيد على خيل البريد، في سلخ المحرم ووصل إلى دمشق في سادس صفر، وركب السلطان للقائه، وحضر بعد ذلك طلبه[٥] ومماليكه.

وفي هذه السنة: وصلت رسل بروانا‌ه، وأخبر بقصد التتار البيرة، وقال إنه اتفق هو وجماعة على أن العساكر إذا أقبلت من بر الشام وشاهدوا الصناجق السلطانية يضع السيف في التتار، فلم يف بذلك.

ثم بلغ السلطان حركة التتار، وأن قصدهم البيرة، فجمع العساكر من جميع البلاد، وأقام ينتظر خبراً محققاً، فوصل الخبر أن التتار، نازلوا البيرة، في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة، وأنهم أقاموا في تلك الليلة أحد عشر منجيقاً، واهتموا بالحصار ونصب المجانيق، وكان مقدّمهم إبتاي[٦]، فأنفق السلطان في العساكر وتولى النفقة بنفسه. وخرج بالعساكر، فلما وصل إلى القُطَيْفة بلغه رحيل التتار لانقطاع الميرة عنهم، فوصل إلى حمص، ثم عاد إلى دمشق في مستهل شهر رجب متوجهاً إلى الديار المصرية، فدخل إلى قلعة الجبل في ثامن عشر الشهر.

---

(١)، (٢)، (٣) في الأصل: «بن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) يوافق أولها يوم الخميس ٢٧ يونيه/ حزيران ١٢٧٥ م.

(٥) جمع طُلب، وهو لفظ كردي، معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، وكان أول من استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام السلطان صلاح الدين، ثم عدل مدلوله، فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٦) هكذا في الأصل.

ذكر شنق الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز وغيره

كان هذا الطواشي المذكور قد تمكن في الدولة الظاهرية وكبر شأنه، وتعاظم في نفسه، وصار في غيبة السلطان يركب إلى الميدان ويلعب بالكرة ويعود إلى القلعة، ثم تعاطى بعد ذلك، فيما نقل، إدمان شرب الخمر في دور السلطان، ويجتمع على ذلك مع الخدام، فاتصل ذلك بالسلطان، فلما عاد أحضره بين يديه ليلاً، وقام السلطان إليه بنفسه ولكمه وقصد أن يؤدبه بالضرب والإخراق[1] ليرتدع بذلك. وكان لهذا الخادم على السلطان إدلال كبير، فحمله إدلاله على أن خاطب السلطان بما لا يليق به أن يخاطب به، فكان مما قال له: «هذا الضرب لا يفيدك، ولكن اشنقني». فغضب السلطان وأمر بشنقه، فشنق بالميدان الأسود تحت قلعة الجبل في ليلته، وشنق إلى جانبه خمسة من الأجناد كانوا قد تخلفوا عن العرض بحمص، وشُفع في جماعة أخر من الجند، فحبسوا بخزانة البنود. وأمر السلطان بمن كان يحضر مع صدر الدين من الخدام على الشراب فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وسملت أعينهم.

وقد حكى لي حكاية عجيبة عن هذا الخادم وهي: أن السلطان، قبل وصوله إلى الديار المصرية، كان قد كتب إلى النائب بقلعة الجبل أن يتقدم بنصب مائة خشبة بالميدان الأسود للشنق فنصبت، وما علم لمن هي، فكان الطواشي إذا توجه إلى الميدان يمر على الخشب فينظر إلى خشبة منها، ويقول: أجد قلبي يحن إلى هذه الخشبة، وتكرر ذلك منه، فشنق عليها. وهذا من عجيب الاتفاق في إحساس الخواطر.

ذكر متجددات اتفقت بعد وصول السلطان إلى الديار المصرية غير ما تقدم ذكره

منها: وصول هدية صاحب اليمن[2]، ومن جملتها الفيل والكركدن والحمار الوحشي العتابي وأصناف من التحف والبهار وغير ذلك، فعرض ذلك على السلطان، وجهز [السلطان][3] له هدية سنية وسيرها صحبة رسله.

ومنها: تجهيز رسل الملوك، وهم: رسل الملك منكوتمر ملك البلاد الشمالية،

---

(١) الإخراق: أحداث الدهش من خوف أو حياء. الفيروزابادي: القاموس المحيط. مادة: خرق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ٩.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ١٠.

ورسل الأشكري، ورسل الفنش[١]، ورسل جَنَوَة[٢]، وإرسال الرسل إلى أشبيلية.

ذكر توجه رسل السلطان إلى أشبيلية وما كان من خبرهم

كان الْفُنْشُ[٣] صاحب أشبيلية قد سير رسولاً إلى سلطان اسمه دينار، وعلى يده هدية سنية ورسالة، مضمونها: استدعاء مودة السلطان، وذلك قبل هذا التاريخ. فسير السلطان إليه الآن رسلاً، وهم: الأمير سيف الدين الجَلْدكي والأمير عز الدين أيبك الكبكي، والفقيه العدل[٤] الدين الحسين ابن همام بن مرتضى، وعلى أيديهم هدية سنية وعقاقير. فتوجهوا من القاهرة في العشر الآخر من شوال وتوجهوا إلى الإسكندرية، وتوجهوا منها في البحر في ذي القعدة، فوصلوا إلى سنقريس[٥]، فعوقهم صاحب بِرَشْنونة أياماً ثم أفرج عنهم، فساروا حتى وصلوا إلى مرعش[٦]، وهي من جملة مملكة الفنش، فأعلم بوصولهم فاستدعاهم، وكان يومئذٍ ببنطورية[٧] فتوجهوا إليه، فكانوا كلما مروا ببلد خرج إليهم أهل البلد وتلقوهم بالأفراح، إلى أن وصلوا إلى بنطورية، فخرج جميع من بها من الخيالة والرجالة، والتقوهم بظاهرها، ثم استدعاهم الملك بعد ثلاث وأكرمهم غاية الإكرام، واستحضرهم في اليوم الثاني وأحضروا الهدية، فاستبشر وطابت نفسه وقبلها، ثم جهز لهم مركباً ببرْشنونة[٨] فتوجهوا في البر إليها، ثم ركبوا منها في المركب في آخر ذي الحجة، فوصلوا إلى الإسكندرية في صفر سنة خمس وسبعين وستمائة.

ذكر اتصال الملك السعيد بابنة الأمير سيف الدين قلاون

وفي هذه السنة: في يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة، عقد نكاح الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان ابن السلطان الملك الظاهر على [غازية خاتون][٩]

---

(١) المقصود هنا: (Alphonso of Seville) ملك إشبيلية. وكان بينه وبين السلطان بيبرس معاهدة تجارية منذ سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م. انظر: (Lane - Poole: A History of Egypt, p 266).

(٢) ضبط هذا الاسم من صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٥، ص ٤٠٥.

(٣) في الأصل: «أدفونش». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ١١.

(٤) بياض في الأصل.

(٥) هكذا في الأصل.

(٦) مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٠٧.

(٧) هكذا في الأصل. ولم أجد ترجمة لها.

(٨) برشنونة: تكتب أيضاً برشلونة.

(٩) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٣، س ١١ ـ ١٢. وكان السبب في =

ابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفي العلائي الصالحي. وكان العقد بالإيوان بقلعة الجبل على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار، المعجل منه ألفا دينار، ومعاملة صرف الدينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم. وكان الوكيل عن الملك السعيد في قبول النكاح، الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة، والوكيل عن الأمير سيف الدين قلاون، الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار العالية، بعد أن ثبت التوكيل في المجلس عند قاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي.

وجرى العقد بين الوكيلين بحضوره، وحضر السلطان والوزراء والقضاة والأكابر وأعيان الأمراء والمقدمين. وكان الصّداق بخط القاضي محيي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، وإنشائه، وقرأه في المجلس، فخلع عليه وأعطى مائة دينار. ونسخه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة، ومصدق الفال لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح بشبيه سلطانه وصهرة مَلِكَه، الذي جعل للأولياء من لدنه سلطاناً ونصيراً، وميز أقدارهم باصطفاء تأهيله حتى حازوا نعيماً وملكاً كبيراً، وأفرد فخارهم بتقربته حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قمرها نوراً، وشرف وَصْلتَهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وأفضاله كثيراً، مهيىء أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كل أملاك من الأفلاك[1] بالشموس والبدور والأهلة أهلة، جامع أطراف الفخار لذوي الإيثار حتى وصلت لهم النعمة الشاملة، وحلت عندهم البركة الكاملة».

«نحمده على[2] [أن] أحسن عند الأولياء بالنعمة لاستيداع وأجمل لتأميلهم الاستطلاع، وكمّل لاختيارهم الأجناس من الغرر والأنواع[3]، وآتى[4] آمالهم ما لم يكن في حساب أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداع».

«وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة حسنة الأوضاع ملية بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع».

= استدعاء السلطان ولده الملك السعيد إلى دمشق هو الشروع في تزويجه بغازية خاتون ابنة الأمير سيف الدين قلاون الصالحي. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ص ١٥٥.

(١) هكذا في الأصل.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) هكذا في الأصل بدون نقط.

«ونصلي على سيدنا محمد الذي أعلا الله به الأقدار وشرف به الموالي والأصهار، وجعل كرمه داراً لهم في كل دار، وفخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار، صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار يانعة الثمار».

«وبعد، فلو كان إفضال(١) كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله(٢) لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله، ولكن ليتشرف بيت يحل به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور، ونضار يتجمل باللآلىء والدرر. وكذلك تَجَمَّلت برسول الله ﷺ أصهاره من أصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، تزوج ﷺ منهم، وتَمَّت لهم به مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنهم. والمرتب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمده الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد الأجِنَّة(٣) منه سعد السعود. وإظهار خطبة يقول الثريا لانتظام عقودها كيف، وإبراز وصلة(٤) يتجمل بترصيع جوهرها متن السيف، الذي يغطيه(٥) [على](٦) إيداع هذا الجوهر به كل سيف، ونسج صهارة يتم بها إن شاء الله تعالى كل أمر شديد، ويتفق بها كل توفيق، تَخْلَقُ الأيام وهو جديد. ويختار لها أبرك طالع، وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد، وذلك أن المراحم الشّريفة السلطانية أرادت أن تخص المجلس السامي الأمير ـ وذكر نعوته ـ بالإحسان المبتكر، وتفرده بالمواهب التي تُزهِفُ بها منه الحد المنتظر، وأن ترفع من قدره بالصِّهارة؛ مثل ما رفعه ﷺ من قدر صاحبيه أبي بكر وعمر، فخطب إليه أسعد البرية وأمنع من تحميها السيوف المشرفية. وأعزَّ من تسبل عليها ستور العيون الخفية، وتضرب دونها خدور(٧) الجلال الرضية، وتتجمل بنعوتها العقود. وكيف لا، وهي الدرة الألفية. فقال والدها الأمير المذكور: هكذا ترفع الأقدار وتزان، وكذا يكون قران السعد وسعد القران. وأما أسعد روضاً أصبحت هذه المراحم الشريفة السلطانية له خميلة(٨)، وأشرف سيفاً غدت منطقة بروج

---

(١) في الأصل: «إيصال»، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) هكذا في الأصل، بدون نقطة الضاد المعجمة.
(٣) في الأصل: «الأخية»، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) وصلة بضم الواو، بمعنى إقامة صلة. الفيروزابادي: القاموس المحيط. مادة: وصل.
(٥) في الأصل: «يعطيه».
(٦) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.
(٧) في الأصل: «ويصرف دونها حدود».
(٨) هكذا في الأصل.

سمائها له خميلة، وما أعظمها معجزة آتت الأولياء من لدنها سلطاناً، وزادتهم مع إيمانهم إيماناً، وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لإبرامها: ليت، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت. وإذ قد حصلت الاستخارة في رفع قدر المملوك(١)، وخَصَّصْته بهذه المزية التي تقاصرت عنها أمال أكابر الملوك، فالأمر لمليك البسيطة في رفع درجات عبيده كيف يشاء، والتصدق بما يتفوه به هذا الإنشاء، وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الخط وأقلام الخَطِّ على تحريره، وتنافست مطالع النّوار ومشارق الأنوار على نظم سطوره، فأضاء نور الجلالة وأشرق، وهطل نوره بالإحسان فأغدق. وتناسبت فيه أجناس من تجنيس لفظ التفضيل، فقال الاعترافُ، هذا ما تصدق، وقال العرفُ، هذا ما أصدق مولانا السلطان ـ وذكر نعوته وألقابه ـ أصدقها ما ملأ خزائن الأحساب فخاراً وشجرة الأنساب ثماراً، ومشكاة الجلالة أنواراً، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصاراً. فبذل لها من العين المصري ما هو باسم والده قد تشرف، وبنعوته قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف».

ثم كان الدخول بها في شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة(٢).

واهتم السلطان بذلك اهتماماً لم يسمع بمثله، وخلع على جميع أكابر دولته من الأمراء والمقدمين والوزراء والقضاة والكتاب. وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتشريف كامل بشربوش كان السلطان قد لبسه ثم خلعه عليه.

ذكر توجه السلطان إلى الكرك واستبداله بمن فيها من الرجال وعوده(٣)

وفي يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة: حالة انقضاء العقد، ركب السلطان على الهجن وتوجه إلى الكرك في جمع يسير من جهة البرية، فوصل إلى قلعة الكرك في ثالث وعشرين الشهر. وكان سبب ذلك أنه بلغه عن بعض رجال القلعة أنهم عزموا على إثارة فتنة ونقل دولة، وأنهم عزموا على الوثوب بنواب السلطان

(١) في الأصل: «الملوك».
(٢) الموافق ١٢٧٦ م.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٤، س ٢.

بالكرك فيقتلونهم ويسلمون الحصن لأخ كان للملك القاهر ابن الملك المعظم لأمه، كَوْنُه ينسب إلى الملك الناصر، وكان مقيماً بالكرك لا يؤبه له. فدخل السلطان إلى الكرك بغتة، واستدعى الرجالة، وكانوا زهاء ستمائة، وأمر بالقبض عليهم وشنقهم، فشفع ما كان معه فيهم، فأخرجهم من الحصن وقطع أيدي وأرحل ستة نفر منهم من خلاف، كانوا سبب الفتنة. وكان السلطان قد استخدم رجالاً يثق بهم، وسفرهم إلى غزة، ولم يعرف أحداً قصده بهم، فأحضرهم إلى الكرك ورتبهم عوض من كان بها من الرجال. واستدعى السلطان الطواشي شمس الدين صواب السهيلي الصالحي ـ وكان يتولى صناعة الإنشاء بمصر ـ وسلم إليه الحصن، وفوض[١] إليه النظر في أمواله وحواصله وذخائره. وخرج متوجهاً إلى دمشق في يوم الجمعة ثامن عشرين ذي الحجة سنة أربع وسبعين وستمائة.

واتفق للسلطان في هذه السفرة أمور، وشاهد أبنية ومنازل غريبة في مسيره من الديار المصرية إلى الكرك. وقد ذكرها المولى محيي الدين بن عبد الظاهر واعتذر في بسط القول فيها[٢] لغرابتها. فأحببنا أن نذكر ذلك تلخيصاً.

قال: رحل السلطان من قلعته يوم الخميس المذكور فنزل بلبيس[٣]، وأقام إلى قرب وقت العصر، ورحل فنزل رأس الماء بوادي السدير، ورحل منه في نصف ليلة السبت، فنزل الكراع وأقام إلى غروب الشمس، وحمل الماء لكفاية يومين، وتوجه على طريق البدرية، وساق سوقاً عنيفاً إلى وقت الفجر من يوم الاثنين، لم يرح ولم يسترح إلا بقدر ما تشرب الخيل الماء وتستوفي العليق، فنزل جبل بدر، ثم ركب بعد الإسفار لشدة الوعر فوصل إلى بدر، ونزل عند العين.

قال: وهي عين تخرج من جبل أخضر ليس فيه نبات، منبعها من جهة الغرب تحت جبل شاهق، وهي شكل مغارة منقوبة، يدخل الإنسان منها مقدار عشرة خطى، فيجد عيناً تنبع عن بسرة الداخل إليها.

وكان السلطان قبل وصوله إلى العين قد بعث جماعة من العرب وأمرهم أن يجمعوا من ماء العين ما يكون حاصلاً للورود، فصنعوا حول العين حياضاً في الأرض شَكْلَ البرك محوطة بالحجارة، وملأوها من ماء العين، فوردها السلطان ومن معه،

---

(١) في الأصل «فوق». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «بها».
(٣) مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٩.

وارتفقوا بها، ولولا ذلك لهلكوا من الازدحام على الماء. ثم دخل السلطان بنفسه إلى المغارة، وجلس عند العين، وكان يملأ لمن معه قِرَبهم بيده ويناول كل قربة لصاحبها حتى ملأوا ما معهم. ثم رحل من بدر فنزل حسنة، وهي بئر واحدة. ورحل منها حتى انتهى إلى عين تعرف بالمليحة فوردها. ورحل وبات تحت جبل يعرف بنقب الرُّباعي، فلما أسفر الصبح صعد إلى الجبل، وإذا هو جبل عظيم به عقاب صعبة - وهي حجارة رخوة تشبه الرمل المتجمد، متغيرة الألوان إلى الحمرة والزرقة والبياض - وثم ثقوب في الجبل يعبر الراكب منها، وبها أمكنة تشبه السلالم من حجارة. وبها قبر هارون نبي الله أخي موسى ابن عمران، عليهما السلام، على يسرة السالك المتوجه إلى الشام. وثم قلعة تعرف بالأصوات(١) صعدها السلطان وشاهدها، فوجدها من أعجب الحصون وأمنعها لا يكون أحصن منها. ونزل من نقوب الرباعي إلى مدائن بني إسرائيل، وهي ثقوب في الجبال من أحسن الأشكال ذات بيوت بالعمد وأبواب، وظواهر البيوت مصوقة(٢) بالنقوش في الحجارة بالإزميل، وكلها مخربة، بها صور أشكال وهي على قدر دور الناس المبنية الآن، وداخل هذه البيوت الأواوين المنورة المعقودة والصفف المتقابلة والخزائن والدهاليز والحرميات(٣). وليس ذلك مبنياً بل جميعه منحوت بالحديد أشكال المغاير(٤).

قال: وقد خلق الله تعالى جبلين متقابلين، بينهما طريق، وكل جبل منهما كأنه شكل سور مرتفع، والدور متصلة يميناً وشمالاً. ثم خرج السلطان من تلك الأمكنة إلى وادي المدرة، ثم منه إلى قرية تعرف بالعذبا، عرفت بذلك لأن بها العين التي يحمها موسى بن عمران عليه السلام بعصاه، وكانت تجري دماً، فقال: «عد بأمر الله ماء عذباً» فعادت العين ماء حلواً رائقاً بارداً، فبات السلطان بها، ورحل منها ليلة السبت حادي عشرين الشهر، فوصل قلعة الشوبك نصف نهار الأحد، وخيم هناك، وحضر أمراء بني عقبة وغيرهم من أمراء العربان، وقدموا الخيول والهجن وغير ذلك، ثم رحل من الشوبك نصف نهار الاثنين على طريق الحسا، فوصل إلى الكرك نصف نهار الثلاثاء ثالث عشرين الشهر.

قال: ولما كان في سابع وعشرين الشهر يوم الجمعة خرج السلطان إلى باب قلعة الكرك، وأحضر رجالها، وذُكر من خبر إخراجهم نحو ما تقدم.

---

(١) لم أقف على ترجمة لها.

(٢) لعل المعنى مُزوقة بالنقوش.

(٣) الحرميات: هي أجنحة متكاملة من الدرر. انظر القاموس المحيط للفيروزابادي (حرم).

(٤) المغاير هي المغايرات.

وفي هذه السنة: توفي الملك المسعود جلال الدين عبد الله ابن[١] الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون. وكان من أجمل الناس صورة وألطفهم خلقاً وأكثرهم أدباً، كثير المكارم وحسن العشرة، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الصاحب موفق الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد المَذْحجي الآمدي، وكان من أعيان الأكابر ممن يرشح للوزارة، وولي نظر الدواوين ثم رُتب آخراً ناظر الكرك والشوبك، فباشر ذلك مكرهاً، واستمر على ذلك إلى أن مات بالكرك. وكانت وفاته في ثامن عشر ذي الحجة، ودفن قريباً من مشهد جعفر التيار[٢] رضي الله عنه.

وفيها: في يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأول كانت وفاة الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير بدمشق ودفن بقاسيون[٣].

وفيها: في العشرين من شهر رمضان توفي الشيخ الإمام الفاضل تاج الدين أبو الحسن علي بن الأنجب البغدادي ـ المعروف بابن الساعي ـ المؤرخ خازن كتب المدرسة المستنصرية[٤]. كان فاضلاً، وله تاريخ مذيل على تاريخ ابن الأثير الجزري، رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة خمس وسبعين وستمائة[٥]

ذكر وصول جماعة من أمراء الروم إلى خدمة السلطان وطاعتهم له

قال: ووصلت الأخبار أن جماعة من أمراء الروم أظهروا طاعة السلطان وتجاهروا بذلك. وأن البرواناه[٦] انفرد عنهم وتقرب إلى التتار ورجع عما كان مشتركاً

(١) في الأصل: «بن» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب. صحابي هاشمي، وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وهو من السابقين إلى الإسلام. حضر وقعة مؤتة حيث مات شهيداً سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م. ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ١، ص ٢٠٥، ابن سعد: الطبقات، ج ٤، ص ٢٢.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٤.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٥) يوافق أولها يوم الاثنين ١٥ يونيه/ حزيران ١٢٧٦ م.

(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١، س ٣.

معهم فيه من طاعة السلطان، وتوجه إلى الأردو وطلب من أكابر أمراء الروم النجاة بأنفسهم[١]. وأخذ[٢] الأمير شرف الدين مسعود بن الخطير وأخوه ضياء الدين محمود: السلطانَ غياث الدين صاحب الروم وتوجها به إلى قلعة نكيدة[٣]، وكاتبوا السلطان. وكذلك الأمير حسام الدين بَيْنَجَار[٤] [الرومي][٥] وولده الأمير بهاء وأولاده، وجماعة من الأمراء وهم إثنا عشر أميراً، وطلبوا من السلطان أنه[٦] يتداركهم بعسكره. فركب [السلطان][٧] من الكرك كما تقدم، ووصل إلى دمشق في رابع عشر المحرم، فوصل الأمير حسام الدين بينجار والأمير بهاء الدين بهادر وولده [أحمد][٨]، ثم وصل بعدهما الأمير سيف الدين جندر[٩] بك صاحب الأبُلُسْتين[١٠]، والأمير مبارز الدين [سوار بن][١١] الجاشنكير وجماعة من أمراء الروم، فتلقاهم السلطان بنفسه وأحسن إليهم ووصل حريمهم وأولادهم، فجهزهم[١٢] إلى الديار المصرية، وكتب السلطان إلى الأمير بدر الدين بيسري والأمير شمس الدين أقش البرلي، وقَطْليجا، فحضرا إلى دمشق على خيل البريد، فطلب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر. وتوجه السلطان إلى حلب، وجهز الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي وصحبته جماعة من العسكر، فوصلوا إلى عين تاب، وقرر معهم التوجه إلى القلعة التي بها السلطان غياث الدين وابن الخطير. فورد كتاب الزيني أنه وصل إلى كرصُو[١٣]، فبلغه أن التتار وصلوا إليها

(١) في الأصل: «لأنفسهم». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩: «وقتل».
(٣) نكيدة: مدينة قديمة صغيرة. بينها وبين قيسارية ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٣.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥، س ٦، وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٣٩.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥، س ٦.
(٦) هكذا في الأصل.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥.
(٨) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٥.
(٩) في الأصل: «حيدر» والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦٢٥.
(١٠) أَبُلُسْتين: مدينة مشهورة ببلاد الروم. وهي قريبة من أَبْسُس مدينة أصحاب الفيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٧٥.
(١١) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦٢٥، وانظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل ص ٢٤٣.
(١٢) هكذا في الأصل.
(١٣) هكذا في الأصل.

أيضاً، وبقي بينه وبين العدو النهر، وجالوا بين العسكر وبين قلعة نكيدة، فرجع العسكر إلى عين تاب، وهرب شرف الدين بن الخطير[١] إلى بعض القلاع فتقرب إلى العدو بتسليمه السلطان إليهم. وبقي أخوه ضياء الدين في خدمة السلطان الظاهر بيبرس لأنه كان حضر إليه مستنجداً وسير هذا العسكر بسبب حضوره. وأما السلطان غياث الدين فعلم التتار أنه محكوم عليه فعفوا عنه، وسلموه إلى الصاحب والبرواناه.

وعاد السلطان إلى دمشق ومنها إلى الديار المصرية، فدخل قلعة الجبل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة، فأقام إلى شهر رمضان من السنة وتوجه إلى الشام في العشرين من الشهر، فكانت غزوة الروم، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى، في الغزوات.

ذكر ظهور المسجد بجوار دير البغل وإقامة شعائر الإسلام به

وفي التاسع عشر من شوال من هذه السنة: خرج جماعة إلى دير القصير، المعروف بدير البغل ظاهر مصر، فرأوا أثر باب بجوار الدير، فدخلوا المكان فرأوا آثار محاريب المسلمين، فأنهوا ذلك إلى الصاحب بهاء الدين، فتقدم إلى القاضي بهاء الدين ناظر الأخباس أن يتوجه وصحبته نواب الحكم والعدول والمهندسون ومن يعتبر حضوره في مثل ذلك. فتوجه وصحبته القضاة والمشايخ: وجيه الدين البهنسي، وظهير الدين التَّزمنْتَيْ، وعلم الدين السمنودي نائب الحكم، ونظام الدين الخليلي، وجماعة من المهندسين، فشاهدوا المكان ورأوا به من الأثار ما يدل على أنه مسجد، وشهدوا بذلك عند القاضي علم الدين السمنودي فأثبته، ونقل الحكم إلى قاضي القضاة محيي الدين بن عين الدولة. وطولع الملك السعيد بذلك، فأمر الصاحب بهاء الدين بعمارته وإقامة من يحتاج إليه من إمام ومؤذن وزيت وفرش، فرتب ذلك له، وهو باق إلى يومنا هذا.

وفي هذه السنة في رابع شوال: كانت وفاة الصاحب بدر الدين جعفر ابن محمد بن علي بن محمد المذحجي الآمدي بدمشق وهو يومئذٍ ناظر النظار بها، ودفن بقاسيون. ومولده في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكان هو وأخوه موفق الدين من أمناء المباشرين وأرباب الستر على الكتاب، ولقب كل منهما بالصاحب، ولم يليا وزارة. ولما حضرا من بلاد آمد في سنة ثلاثين وستمائة هما وابن أختهما شمس الدين، لما نقل الملك الكامل أهل آمد منها. فلما عبرا الفرات قال موفق الدين لهما: «اعلما أننا نقدم على بلاد لا نعرف فيها أحداً، وليس لنا فيها معين إلا الله تعالى،

---

(١) في الأصل: «ابن الخطيب» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩.

فتعاهِدانِي والله تعالى، على الأمانة وألا نخون السلطان ولا الناس». فتعاهدوا على ذلك ودخلوا إلى الديار المصرية. وولوا المناصب فَوَفَيَا بما عاهدا عليه، ونكث ابن أختهما شمس الدين، فسلما في مباشراتهما. وكان شمس الدين كثير النكبات والمصادرات.

وفيها: كانت وفاة الشيخ الصالح برهان الدين أبي إسحاق بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني الحموي بالقدس الشريف يوم عيد الفطر، رحمه الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة القاضي شرف الدين محمد بن يشكور المصري الكاتب، ولي مناصب جليلة، منها: نظر الجيش ونظر الدواوين بالديار المصرية. وكان بينه وبين الصاحب بهاء الدين مصاهرة ووحشة. وكانت وفاته بداره على الخليج بالقرب من مصر في ليلة الأحد خامس عشرين جمادى الأولى. ودفن يوم الأحد بالقرافة الصغرى. ومولده سنة ست عشرة وستمائة.

وفيها: توفي الأمير عز الدين إيغان ولادمر[1] الركني المعروف بسم الموت في محبسه بقلعة الجبل، وسلم إلى أهله في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة، فدفن من يومه بمقابر باب النصر. وكان من الأمراء الأكابر، وقد تقدم ذكر اعتقاله.

هذا آخر ما لخصناه من الحوادث في الأيام الظاهرية، فلنذكر الغزوات والفتوحات الظاهرية.

ذكر غزوات السلطان الملك الظاهر وفتوحاته وما استولى عليه من البلاد الإسلامية

ولنبدأ من ذلك بذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية مما كان بيد غيره من الملوك وأصحاب الحصون. ثم نذكر الغزوات والفتوحات على مساقها بمقتضى ما يقدمه التاريخ ويؤخره توفية للشرط الذي شرطناه.

ذكر ما استولى عليه من القلاع والحصون والبلاد الإسلامية وأضافه إلى ممالكه

كان مما استولى عليه السلطان الملك الظاهر من القلاع والحصون والبلاد بعد أن استقر في الملك: الشوبك، والكرك، وقلعة البيرة، وحمص، والرحبة. وقد تقدم ذكر

(١) هكذا في الأصل. ولم ترد كلمة (ولا دمر) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣، ولا في كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٤٣.

ذلك في أثناء أخباره فلا فائدة في إعادته. واستولى على خلاف ذلك مما نذكره الآن وهو: سواكن من بلاد اليمن، وخيبر من بلاد الحجاز، وقرقيسيا، وبَلاَطُنس، وصَهْيون، وبرزية، وحصون الدعوة من الشام وما والاه.

ذكر فتوح سواكن

كان فتحها في سنة أربع وستين وستمائة. وسبب ذلك أن صاحبها الشريف علم الدين أَسْبَغاني كان قد تعرض للتجار[١]، وأخذ ميراث من مات منهم في البحر ومنع أولادهم منه، وكوتب في ذلك وحذر من العود إليه، فلم تغن المكاتبات شيئاً، فَرُسم الأمير علاء الدين الخزندار متولي الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية، فقصده، فورد كتابه أنه وصل إلى ثغر عيذاب وسير عسكراً إلى سواكن فهرب صاحبها، ثم توجه علاء الدين المذكور إليها من عيذاب في عشرة أيام، وكان معه من المراكب الكبار والصغار نيف وأربعون مركباً، ووصل إليه من القصير[٢] كلالين[٣] مُوَسَّقة بالمقاتلة، ودخل سواكن[٤] وأقام بها ومهدها وقرر أحوالها، ثم رجع إلى مدينة قوص[٥]. ولما فارق سواكن عاد صاحبها إليها فقاتله من بها أشد قتال، وعاد منها.

ذكر فتوح خيبر[٦]

كان فتحها في سنة اثنتين وستين وستمائة، وذلك أن أصحابها عبيد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وصلت كتبهم إلى السلطان يبذلون الطاعة والخدمة، فسير نجابين تستصح[٧] الأخبار، وندب الأمير أمين الدين موسى بن التركماني، وجهز الرماة والمقاتلة، وأنفق فيهم الأموال وجهز الخلع للمقدمين والمشايخ وكتب إلى نائب الكرك بتجهيز أمراء العربان وجماعة من البحرية صحبته، وجهز الغلال والذخائر لهذه القلعة، فتوجه الأمير أمين الدولة وافتتحها.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٠٦، ص ٥٥٠ ص ٥٥٨، س ٢، ص ٧٠٠.
(٢) القُصير: موضع قرب عيذاب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٦.
(٣) مدينة كبيرة في صعيد مصر، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤١٣.
(٤) نوع من السفن. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.
(٥) بلد على سواحل بحر الجار قرب عيذاب. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٦.
(٦) ناحية من المدينة لمن يريد الشام. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٩ ـ ٤١١.
(٧) هكذا في الأصل. ويعتقد أنها تستطلع.

ذكر فتوح قرقيسيا[١]

وقرقيسيا هذه من أقدم المدن، وكانت تعرف بالزبّاء[٢] الملكة. وفيها يقول ابن دريد:

فاستنزل الزباء قسراً وهي في عقاب لوح الجو أعلا منتما

وكان السلطان قد راسل أهلها، وسير إليها الأمير كمال الدين الطوري وملكها وأقام بها مدة، فقصدها التتار، فعاد كمال الدين إلى السلطان وتركها. وفي شهر رمضان سنة ثلاث وستين وستمائة، أرسل مقدموها إلى عز الدين السكندري النائب بالرحبة، وسألوه عفو السلطان وسيروا رهائنهم، فتوجه إليها جماعة من الخيالة والأقحية، وساقوا من أول الليل إلى نصفه وبانوا على ما كسين[٣]، فلما أصبح الصبح أحاط بها المسلمون والعسكر وقتلوا من كان بها من عسكر التتار والكرج، وأسروا من المرتدة نيفاً وثمانين نفراً، وتسلموا الجسر ومراكبه والسلسلة، في نصف الشهر.

ذكر أخذ بَلَاطُنُس[٤] وخبرها

كانت بلاطنس جارية في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام، فلما دخل التتار البلاد استولى عليها الأمير مظفر الدين عثمان صاحب صهيون[٥]، فطلب السلطان منه رد هذا الحصن، فصار يدافع ويقول: «أنا من جملة النواب». فلما توجه السلطان إلى أنطاكية سير إليه هدية ردها السلطان عليه، وسيّر جماعة من عسكر حلب أغاروا عليها. فتوالت رسله بالإذعان بالتسليم ويطلب قرية توقف عليه، فعين السلطان له قرية الحلمة[٦] من بلد شيزر، ووقفها عليه وعلى أولاده، وقرر أن يعطي صاحب بلاطنس شيئاً من بلد صهيون فقرر له السلطان منها

(١) قرقيسيا: بلد على مصب الخابور في الفرات. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) هي الزباء بنت عمرو بن حسان بن أذينة. الملكة المشهورة في العصر الجاهلي. صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة. الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٤١.

(٣) ماكسين: بلد بالخابور قريب من الرحبة. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٣.

(٤) بلاطُنُس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٨.

(٥) صهيون: موضع معروف بالبيت المقدس. وصهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٦) لم أقف عليها.

بلاداً تغل[١] ثلاثين ألف درهم، وتُسُلمت بلاطنس منه في سادس عشر شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة.

وهذا الحصن من جملة معاقل الإسلام الحصينة لأنه بري بحري سهلي، ما أخذ بالسيف قط، بناه رجال يعرفون ببني الأحمر من أهل الجبال وحصنوه، فلما سمع بهم قطبان أنطاكية المسمى ببقيطا عاجلهم قبل إتمامه فملكه بالأمان، وأخذ في تحصينه وإتمام بنائه، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، خرج روجار صاحب أنطاكية فدوخ بلاد الإسلام، وقصد حصن بلاطنس وفيه بنو ضليعة أولاد أخي القاضي شرف الدين، فنزل على بلاطنس في يوم الثلاثاء ثامن عشرين ذي الحجة من السنة، وأجلب عليه فتسلمه في يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة ثنتي عشرة، وعوضهم عنه بأنطاكية ثلاث قرى. فلما كان في يوم السبت سابع وعشرين شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة وثب أهل بلاطنس على من فيه من الفرنج فقتلوهم، فاحتمت عليهم القَلّة. فأرسل أهل الجبال إلى منكجك التركماني صاحب بكسرائيل[٢] يستنجدونه فأتاهم وأقام يحاصرها مدة. فعمل الفرنج الذين بها حيلة عليه، وراسلوه وبذلوا له تسليمها على شرط أن يخفر نساءهم وأولادهم حتى يصلوا إلى جبلة أو إلى صهيون. فإذا جاءت لهم العلامة بوصولهم سالمين سلموها له، فلما وصلهم امتنعوا من التسليم. وكان ذلك حيلة منهم، فإن الأقوات ضاقت عندهم وضاقت الغلة عليهم، فاستراحوا بخروجهم عنهم وقويت نفوسهم. واتصل الخبر بأنطاكية فسيروا إليها عسكراً دفعة عنها. واستقرت بأيديهم إلى أن ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على ما قدمناه.

ذكر تسليم صِهيون وبرزية[٣]

وفي سنة إحدى وسبعين وستمائة: تسلم السلطان صهيون[٤] وبرزية، وذلك أن صاحبها الأمير سيف الدين محمد ابن الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خمردكين توفي في هذه السنة كما تقدم، وكان السلطان يومئذٍ

(١) في الأصل: «تعمل». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) بِكِسْرائيل: حصن من سواحل حمص مقابل جبلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧٥.

(٣) برزية: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٣.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٦، س ١.

بدمشق فاستدعى ولده الأمير سابق الدين سليمان فحضر، وأقطعه إمرة بأربعين فارساً، فكتب إلى عمه جلال الدين بتسليم القلعة إلى نواب السلطان بذخائرها، فتسلموا ذلك في ثاني عشر شهر ربيع الأول منها. وأقطع السلطان عميه جلال الدين مسعود ومجاهد الدين إبراهيم، كل منهما إمرة عشرة طواشية، ووصل أهل صاحب صهيون إلى دمشق.

ذكر أخبار الإسماعيلية وابتداء أمرهم والاستيلاء على حصونهم

أول من قام بدعوتهم الحسن بن الصباح(١) المعروف بالكيال، وهو من تلامذة ابن عطاش الطبيب(٢). قدم مصر في زمن المستنصر العبيدي في زي تاجر في سنة ثمانين وأربعمائة، ودخل عليه وخاطبه في إقامة الدعوة ببلاد العجم فأذن له. وكان الحسن كاتباً للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالرّي(٣). وادعى أنه قال للمستنصر: «من إمامي بعدك»؟ فأشار إلى نزار: فمن هنا سموا بالنزارية. وقال ابن السمعاني في تاريخه: إنما سموا بالإسماعيلية لأن جماعة من الباطنية ينسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لانتساب زعيمهم المصري إلى محمد بن إسماعيل المذكور، وكان أول إظهار دعوتهم بالألموت، وطلوع أعلامه في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة. وجرى لنزار ما قدمناه بعد وفاة أبيه ومسك من الإسكندرية وجيء به إلى القصر فكان آخر العهد به. وانفصل أهل الألموت من العبيديين من ذلك الوقت. وشرع الإسماعيلية في افتتاح الحصون، فأخذوا قلعة وبنوا أخرى وأظهروا شغل السكين. وأول عملهم بالسكين، أن ابن الصباح كان ذا دين في الظاهر، وله جماعة من نسبته يتبعونه، فلما حضر من مصر إلى الألموت وهي حصينة وكان أصحابها ضعفاء، فقالوا لأصحابها: «نحن قوم زهاد نعبد الله ونشتري منكم نصف هذه القلعة ونقيم معكم نعبد الله». فاشترى نصفها بتسعة آلاف دينار. ثم قوي واستولى عليها وصاروا جماعة، فبلغ خبرهم ملك تلك البلاد فقصدهم بعساكره. فقال رجل منهم يعرف بعلي اليعقوبي: «أي شي يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا الجيش»؟ قالوا:

---

(١) هو الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي. داهية، شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم. كان مقدم الإسماعيلية بأصبهان ورحل عنها وطاف البلاد. توفي سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٦ م. غالب الطويل: تاريخ العلويين، ص ٢٧٣.

(٢) هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش. زعيم باطني من أهل أصبهان. قتل سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٧ م. ابن الأثير: المصدر السابق، حوادث سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠١ م.

(٣) الري: مدينة مشهورة، أكبر من أصبهان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٦ ـ ١١٨.

«نذكرك في تسابيحنا» فقال: «رضيت». فنزل بهم وقسمهم أرباعاً في أرباع العسكر وجعل معهم طبولاً. وقال: «إذا سمعتم الصايح فاضربوا الطبول وقولوا يا آل علي» بم هجم بهم على الملك فقتله فصاح أصحابه، فضرب أولئك الطبول، فامتلأت قلوبهم خوفاً وهربوا لا يلوي منهم أحد على أحد، وأصبحت خيامهم خالية، فنقلوا ما فيها إلى القلعة. وسنوا السكين من ذلك الوقت.

ثم بعثوا داعياً من دعاتهم يعرف بأبي محمد إلى الشام فملك قلاعاً من بلاد الناصرية.

ثم ملك بعده سنان: وهو سنان بن سلمان[١] بن محمد البصري[٢]، وأصله من قرية من قرى البصرة تعرف بعقر السدن[٣]. وأقام في الشام نيفاً وثلاثين سنة، وكان يلبس الخشن، ولا يراه أحد يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يبصق، بل يجلس على صخرة، فاعتقدوا فيه التأله.

ثم ولي مكانه أبو منصور بن محمد وكان ابن الصباح، الذي قدمنا ذكره. [و][٤] لما قتل نزار طالبوه به، فقال: «إنه بين أعداء كثيرة والبلاد بعيدة ولا يمكنه الحضور، وقد عزم على أن يختفي في بطن امرأة ويجيء سالماً ويستأنف الولادة». فقنعوا بذلك، وأحضر لهم جارية قد أحبلها وقال: «إنه قد اختفى في هذه» فعظموها فولدت ابناً سماه حسناً. وقال: «نغير الاسم لتغيير الصورة». ومات حسن في سنة خمس عشرة وخمسمائة، وخلف ولده محمداً. ولمحمد ولد اسمه حسن خلف أباه بعد موته. ولما سمع ملك خوارزم شاه قصد بلادهم. فأظهر محمد بن حسن هذا أنه رأى علي بن أبي طالب في المنام يقول له: «تعيد شعار الإسلام وفرائضه وسننه» فعرف جماعته بذلك. ثم قال لهم: «الدين لنا، نتصرف تارة بوضع التكاليف عنكم، وتارة نأخذها منكم». فقالوا: «السمع والطاعة» فكتب إلى بغداد وسائر البلاد بذلك، واستدعى القراء والفقهاء واستخدم أهل قزوين[٥] في ركابه. وسير الخليفة رسولاً صحبة رسوله إلى حلب بتقوية

(١) في الأصل: «سليمان». والتصحيح من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٩٤.

(٢) مقدم الإسماعيلية وصاحب دعوتهم في قلاع الشام. له مع صلاح الدين الأيوبي وقائع وقصص، ولم يذعن بالطاعة له. استمر في استقلاله حتى وفاته سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م. انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤، ص ٢٩٤، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٦، ص ١١٧، ومرآة الزمان لليونيني، ج ٨، ص ٤١٩.

(٣) عقر السدن: من قرى الشرطة بين واسط والبصرة. ياقويت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣٧.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) قزوين: مدينة مشهورة غربي الري. بينها وبين الديلم في الشمال جبل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

يد نوابه وأن يقتل النائب القديم، ويولي هذا الواصل، فخلصوا بذلك من صولة خوارزم شاه.

هذا ابتداء أمر هذه الطائفة. وقد ذكرنا طرفاً من أخبارهم فيما تقدم، فلنذكر سبب الاستيلاء على بلادهم، وكيف انتزعها السلطان الملك الظاهر منهم.

ذكر استيلاء السلطان على بلاد الإسماعيلية وشيء من أخبارها(١)

وهي مصياف(٢) والعليقة والرصافة والكهف والمنيقة والقُدموس والخوابي.

وكان السلطان الملك الظاهر، رحمه الله، قد كسر شوكة هذه الطائفة الإسماعيلية، وأبطل رسومهم التي كانت مقررة لهم على ملوك الديار المصرية، وقرر عليهم قطيعة(٣) يحملونها إلى بيت المال. ثم لم يرضه ذلك إلى أن استولى على حصونهم وانتزعها من أيديهم.

وأول ما استولى عليه من حصونهم مصياف(٤): استولى عليها في العشر الأوسط من شهر رجب سنة ثمان وستين وستمائة. وذلك أن السلطان كان قد حضر في جمادى الآخرة من هذه السنة إلى حصن الأكراد(٥) وأغار على البلاد الساحلية، ونزل بالقرب من البلاد الإسماعيلية، وحضر إلى خدمته صاحب حماه وصاحب صهيون، ولم يحضر نجم الدين [حسن](٦) ابن صاحب الإسماعيلية، ولا ولده شمس الدين. وسيروا يطلبون أن ينقصوا من القطيعة التي كانوا يقدمون بها للفرنج وأبطلها السلطان وتقررت لبيت المال. وكان السلطان قبل ذلك قد غضب على صارم الدين ابن [مبارك](٧) الرضي صاحب العُلَيْقَة(٨) لأجلهم، فتوصل صاحب صهيون في إصلاح أمره، فحضر إلى السلطان فرضي عنه وقلده بلاد الدعوة استقلالاً، وأعطاه طبخاناه، وعزل نجم

(١) انظر السلوك للمقريزي، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧.

(٢) حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٤.

(٣) القطيعة: الضريبة. انظر القاموس المحيط: للفيروزابادي، مادة: قطع. وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٤) مصياف: حصن حصين للإسماعيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٤.

(٥) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٤.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٦، س ١٠.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٦، س ١٢.

(٨) العُلَيْقَة: إحدى حصون الإسماعيلية بالشام. انظر: Le Strange: op. cit. pp 352, 507.

الدين [حسن بن الشعراني][(١)] وولده من نيابة الدعوة. ونعت صارم الدين بالصحوبية على عادة نواب الدعوة، وتوجه في سابع عشر جمادى الآخرة وصحبته عز الدين العديمي أحد مفاردة الشام لتقرير أمره، وجرد صحبته جماعة من شيزر وغبرها، فوصلوا إلى مصياف وتحدثوا مع أهلها، فامتنعوا، فسير السلطان إليهم، فسلموها في العشر الأوسط من شهر رجب.

ومصياف هذه كرسي مملكة الدعوة، وبها أكابرهم، ومنها رسلهم إلى الملوك، فلما علم نجم الدين وولده سرعة هذا الاستيلاء سألوا الحضور. وحضر الصاحب نجم الدين حسن[(٢)] وعمره تسعون سنة، فرحمه السلطان وعفا عنه وولاه النيابة شريكاً لابن الرضي لأنه صهره، وكان أبوه هو المشار إليه. وقرر حمل مائة وعشرين ألف درهم في كل سنة. وتوجه نجم الدين وبقي ولده ملازماً باب السلطان، وتقرر على صارم الدين ابن الرضي حمل ألفي دينار في كل سنة.

[وكانت مصياف قديماً بيد الأمير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس من أمراء بني كلاب في سنة خمس وتسعين وأربعمائة[(٣)]، فملكها ولده ناصر الدين سابق، فباعها لعز الدين أبي العساكر سلطان بن منقذ في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة[(٤)]، وجعل فيها الحاجب سنقر، فقتله الباطنية وملكوا الحصن في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة[(٥)]، وبقي في أيديهم إلى الآن].

ذكر فتوح العليقة والرّصافة

هذا الحصن من أمنع الحصون، وكان مختصاً بالرضى، ثم بولده صارم الدين، فجرت من المذكور أمور أوجبت اعتقاله بمصر، ورسم للعسكر المقيم ببلاطنس بمنازلتها، وسير إلى عبد الظاهر النائب بها وإلى جماعة من أهلها بالترغيب والترهيب، فتسلمها نواب السلطان في يوم السبت حادي عشر شوال سنة تسع وستين وستمائة[(٦)]، واستخدم بها الرجالة، ثم هجم نواب السلطان على الرصافة، وملكت في آخر الشهر المذكور.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٧، س ٢.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٨٦، س ١٠.

(٣) الموافق ١١٠١ م.

(٤) الموافق ١١٢٧ م.

(٥) الموافق ١١٤٠ م.

(٦) الموافق: ١٢٩٩ م.

ذكر فتوح بقية حصون الدعوة

كان قد تقرر على الصاحب نجم الدين عند وصوله إلى السلطان مائة ألف وعشرين ألف درهم في كل سنة، واستقر أن يكون هو وولده في خدمة السلطان، واستقر شمس الدين في صحبة ركاب السلطان، فنسب إليه أنه كاتب الفرنج. فحضر والده نجم الدين في سنة تسع وستين وستمائة عند فتوح حصن الأكراد فاعتذر عنه، وتحدث هو وولده المذكور مع الأتابك في تسليم القلاع، وأنهما يحضران إلى باب السلطان، فأجابهم إلى ذلك. وتوجه شمس الدين إلى الكهف لتدبير أمور أهله في عشرين يوماً ويعود، وسافر أبوه في الخدمة إلى القرين[١] ثم إلى الديار المصرية، فما حضر ولده وصار يعتذر عن الحضور. فكتب إليه السلطان: «أن الذي كنتم سألتموه من تسليم القلاع كأنكم رجعتم عنه، والوعد الذي وعدناكم نحن ما نخلفه، من أننا نعطيك إمرة بأربعين فارساً، وقد تسلم والدك الإقطاع». فورد جوابه يعتذر عن الحضور ويطلب حصن العليقة، وأنه يسلم بقية الحصون. فأجيب إلى ذلك. وسير السلطان الأمير علم الدين سنجر الدواداري وقاضي حمص فَخَلَّفا شمس الدين بحصن الكهف، ثم طالبوه بالتسليم[٢] فامتنع أهل الكهف عن ذلك باتفاق منه، فعادت الرسل بذلك. ثم أعيد إليه الأمير علم الدين الدواداري وعلم الدين شقير مقدم البريدية، فمنعا من الدخول إلى الكهف، ولم تؤخذ منهم الكتب. فأمر السلطان بمضايقتهم، فندم شمس الدين ونزل من الكهف، وجاء إلى السلطان بظاهر حماه في سادس وعشرين صفر سنة تسع وستين [وستمائة][٣]، فأكرمه السلطان، فسير ورقة إلى السلطان يقول: «إن أهل الكهف كانوا جهزوا فداوية إلى الأمراء»، فغضب السلطان وأمر بإمساكه في الوقت وإمساك أصحابه، وسيروا إلى مصر. واستمرت مضايقة حصونهم، وأُمْسِكَ والي الدعوة والناظر بسرمين[٤]، وكان لهم أقارب بالخوابي، فأشار عليهم الأمير سيف الدين بلبان الدوادار بمكاتبة أقاربهم بالتسليم. فحضر منهم جماعة، وأعطاهم السلطان الخلع والنفقات وأجراهم على رسومهم، فسلموا حصن الخوابي في سنة تسع وستين وستمائة. واستمر امتناع أهل الكهف والمنيقة[٥] والقدموس من التسليم، فرسم السلطان

---

(١) القُرين: حصن قرب صفد. انظر: Le strange: op. cit. p 495.

(٢) في الأصل: «من التسليم». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) سَرْمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٥.

(٥) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٧، س ٧، «المَيْنَقة».

للملك المنصور بمضايقة الكهف. واستمر ذلك إلى أواخر سنة إحدى وسبعين وستمائة.

فأما المنيقة: فتسلمها نواب السلطان في ثالث ذي القعدة من السنة.

والقُدْمُوس: حضر جماعة من أكابر أهلها وبذلوا الطاعة وتُسُلِّمت في ذي القعدة.

وأما الكهف: فتسلمه الأمير جمال الدين أقش الشهابي أحد أمراء الشام في ثاني وعشرين ذي الحجة من السنة، وسيرت مفاتيحه صحبة رسلهم ورسل صاحب حماه، وتكمل بذلك قلاع الدعوة.

وأقيمت بها الجمع وترضى عن الصحابة رضي الله عنهم، وأظهرت شعائر الإسلام بها.

ذكر أخبار هذه الحصون

فأما حصن الكهف: فقد ذكر في الكتب أنه الكف بغير هاء، وسمعت أكثر أهل تلك البلاد لا ينطقون في اسمه بالهاء. وكان هذا الحصن في يد نواب العبيديين ملوك مصر، فانتزعه الأمير ليث الدولة بن عمرون وأخذه، وبقي إلى ولاية سيف الدولة بن عمرون، فذبح على فراشه في سنة تسع وعشرين وخمسمائة[١]. وتولى ولده الحسن وهو خائف مما جرى على أبيه، فالتجأ إلى الإسماعيلية، واستدعى قوماً منهم وأسكنهم معه في الحصن ليتقوى بهم على بني عمه الذين يقصدونه. فأخرجوه من الحصن وملكوه إلى هذا الوقت.

وأما القدموس: فإنه كان في يد بني محرز بعد ولاية العبيديين، وكان آخر بني محرز، منير الدولة حمدان بن حسن بن محرز، فتوفي وملكه بعده ولده علم الدولة يوسف، فضعف عن حفظه، فسلمه للإسماعيلية في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة[٢].

وأما حصن المنيقة: وهو في جبل الرواديف، وبانيه رجل اسمه نصر بن مشرف الروادفي كان قد استولى على جميع المسلمين الساكنين بجبل الرواديف وما يليه، واستفحل أمره، فأخذ وحمل إلى أنطاكية، فاستتيب وأطلق، فعاد إلى أذية المسلمين والروم، فأخذ وطلب العفو، وأعطى ولده رهينة، وتنصح للروم وقال: «إن في آخر عمل الروم من آخر جبل الرواديف ضيعة تعرف بالمنيقة، ومكانها يصلح أن يكون به حصن ليحفظ على جميع الأعمال». فأجابوه إلى ذلك. فقال: «إن المسلمين لا

(١) الموافق: ١١٣٤ م.

(٢) الموافق: ١١٢٨ م.

يمكنونكم من بنائه، وإنما أنا أدفع المسلمين عنه، وأفهمهم أنني أبنيه لنفسي، فإذا بنيته سلمته لكم» فاغتر الروم بقوله وأعانوه، فلما بناه استعصى به، وشرع في بناء حصن آخر أمنع منه. ثم إن نقيطاً قطبان أنطاكية أتى إلى الحصن وحاصره في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، فلم يظفر به، ثم عاد إليه ومكله وخرب أبرجته إلى الأرض، ثم عمرت وصارت بعد ذلك للإسماعيلية.

وأما حصن الخوابي: وهو من جبل بهراء، فإن محمد بن علي بن حامد سلمه للروم في سنة إحدى عشرة وأربعمائة[١]، ثم صار للإسماعيلية.

هذا ما أمكن إيراده من أخبار هذه الفتوحات وابتداء أمر هذه الطائفة. فلنذكر خلاف ذلك من الغزوات الظاهرية والفتوحات، وما يتخلل ذلك ويناسبه من الصلح والمهادنات إن شاء الله تعالى.

ذكر غزوات السلطان وفتوحاته وما وقع من المصالحات والمهادنات

ولنبدأ من ذلك بالأمور التي أوجبت انحراف السلطان عن الفرنج بالبلاد الساحلية[٢] وأخذ بلادهم.

قد ذكرنا ما كان قد تقرر من الهدنة عند وصول السلطان إلى الشام في سنة تسع وخمسين وستمائة، وأن الفرنج لم يفوا بما تقرر من إطلاق الأسرى. فلما وصل السلطان إلى جهة الطور[٣] على ما قدمناه في سنة إحدى وستين [وستمائة][٤] عند القبض على الملك المغيث صاحب الكرك، وكان الفرنج قد شرعوا يحيدون عن الحق ويطلبون زرعين، والسلطان يجاوبهم «إنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية ضياعاً من مرج عيون[٥]، وقايضتم[٦] بها صاحب تبنين[٧]». ثم وردت رسلهم الآن يهنئون بالسلامة ويقولون: «ما عرفنا بوصول السلطان». فأجابهم: «إن من يريد يتولى

---

(١) الموافق: ١٠٢٠ م.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤، ٤٨٣.
(٣) الطُور: جبل مطل على طبرية في الأردن. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧.
(٤) زيادة يقتضيها السياق.
(٥) مرج عيون: بسواحل الشام. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٠١.
(٦) في الأصل: «وقايضتوا». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) تبنين: بلدة في جبال بني عاملة، مطلة على بانياس. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤.

أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة، ومن خفي عنه هذه العساكر وجهل ما علمه الوحوش في الفلاة والحيتان في المياه من كثرة هذه العساكر، التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر، ولعل وقع سنابكها قد أصمّ سماع من وراء البحر من الفرنج وفي موقان(١) من التتار. فإذا كانت هذه العساكر تصل إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون بها فأي شيء تعلمون». وانفصل الرسل على هذا الحال.

ووصلت نواب يافا، ونواب أرسوف(٢) بهدية أخذت منهم [تطميناً لقلوبهم، وتسكيناً لهم](٣). وكانت كتبهم وردت قبل ذلك مضمونها: طلب فسخ الهدنة والندم عليها، فصارت ترد الآن ببقائهم عليها وتمسكهم بالمواثيق.

وجرت أمور ومراسلات يطول شرحها اقتضت تغير السلطان، ثم كاتبهم السلطان يقول: «أنتم في أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخرجتم جميعاً خدمته ونجدته، وجرى ما جرى من خذلانه، وقتلكم وأسركم وأسر ملوككم ومقدميكم. وقد نقضت تلك الدولة ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد وأحسن إليكم، فقابلتم ذلك بأنكم رحتم لى الريذافرانس وأتيتم صحبته إلى مصر وساعدتموه حتى حوى عليكم ما جرى من القتل والأسر، فأي مرة وفيتم فيها لمملكة مصر. وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام وطاعة ملكها ونصرته، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي وأنا لا أحتاج إلى نصرتكم، فتردّون ما أخذتموه بهذا الطريق، وتفكون جميع أسرى المسلمين، وغير ذلك لا أقبله». فلما سمعوا هذه المقالة قالوا: «نحن لا ننقض الهدنة ونطلب مراحم السلطان في استدامتها، ونفك الأسرى». فقال السلطان: «كان هذا قبل خروجي في هذا الشتاء ووصول هذه العساكر»، وانفصلوا على هذه الصورة، وأمر أنهم لا يبيتون في الوطاق(٤). ورسم بهدم كنيسة الناصرة وهي أكبر مواطن عبادات النصرانية. فتوجه

---

(١) في الأصل: «موغان». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٣، وموقان: إحدى أقسام آذربيجان. وبها مروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٢٥.

(٢) أرسون: مدينة على ساحل بحر الشام بين قَيسارية ويافا. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٤، س ٣.

(٤) الوطاق: جمعه وطاقات. وهو لفظ تركي معناه الخيمة. انظر محيط المحيط للبستاني، مادة: وطق.

الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إليها وهدمها إلى الأرض، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجية أن يخرج من باب عكا. ثم جرد السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري وصحبته جماعة فتوجهوا إلى جهة عكا وهجموا إلى أبوابها، ثم توجه الأمير المذكور مرة أخرى فأغار على المواشي واستباح منها شيئاً كثيراً، وأحضر ذلك إلى المخيم المنصور.

ذكر مسير السلطان إلى عكا

وفي ليلة السبت رابع جمادى الآخرة سنة إحدى وستين: ركب السلطان وجرد من كل عشرة فارساً صحبته، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلي أمير مهمندار في الدهليز، وساق من منزلة الطور نصف الليل. فلما أصبح وقف قريب عكا في الوادي الذي بقربها، ومنه يشرف عليها. وأمر الناس بلبس السلاح ورتب العساكر وساق وطاف بعكا من جهة البر، وسير جماعة إلى برج كان قريباً منها فيه جماعة فحاصروه، وللوقت عملت فيه الثقوب إلى قرب وقت المغرب والفرنج ينظرون من أبواب المدينة وتل الفضول. ثم رجع السلطان إلى الدهليز قريب البرج المذكور عند الماء. ولما أصبح ركب وساق إليها، وكان الفرنج قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر[(١)] في الطريق. ووقف الفرنج صفوفاً على التل، ورتب السلطان العساكر للقتال بنفسه، وردمت تلك الخنادق بحوافر الخيل وأيدي الغلمان والفقراء المجاهدين. وطلع الناس إلى تل الفضول وانهزم الفرنج إلى المدينة. وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار. وساق العسكر إلى أبواب عكا يقتلون ويأسرون، فقتل جماعة كثيرة من الفرنج في ساعة واحدة، وأسرت جماعة بخيولهم، وجرح أكابرهم ووقعوا في الخندق بخيولهم، وهرب من بقي من الفرنج إلى الأبواب. ثم ساق السلطان وقت العصر إلى البرج الذي كان النقابون علقوه، ووقف حتى رمي وأخرج منه بالأمان أربعة خيالة أخوة، ونيف وثلاثين راجلاً [وبات السلطان على ذلك][(٢)] وأصبح السلطان وكشف بلاد الفرنج مكاناً مكاناً، وعبر على كنيسة الناصرة[(٣)]، ثم رجع وجلس على مسطبة كان قد أمر ببنائها قبالة الطور، وأوقد الشموع

---

(١) المعاثر: جمع العاثور. وهو ما يعد في الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيه أحد. وتأتي أيضاً بمعنى المهلكة من الأرض، وبمعنى البئر. انظر: Quatremère: op. cit, V 1, p 200, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٨٩.

(٣) في الأصل: «الناصرية». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٤٨٩، س ٧.

وأحضر الصاحب فخر الدين وزير الصحبة(١)، وجماعة كتاب الدرج(٢)، وكتاب الجيش، والسديد المعز(٣) مستوفي الصحبة(٤). وجعل الأمير سيف الدين بلبان الزيني أمير علم(٥) جالساً عند ديوان الجيش لكتابة المناشير(٦) وتجهيز الطلبخاناه، والأتابك بين يدي السلطان. واستدعى من جشاراته(٧) خمسمائة فرس برسم الطلبخاناه وخيول

---

(١) وزير الصحبة: يكون صاحب هذا المنصب وزيراً متنقلاً، يرافق السلطان في أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شؤونها معه، وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله. انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 139 N⁰" 171.

(٢) كتاب الدرج: كان كتاب الدرج من موظفي ديوان الإنشاء، وكذلك كتاب الدست. وقد شرح القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ عمل كل من هاتين الطبقتين من الكتاب وعددهما في زمنه وقبله. وكتاب الدرج، هم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير. وسموا: كتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق. والمراد بالدرج في العرف العام: الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو في عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير... انظر أيضاً القلقشندي، المصدر السابق ج ٥، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ وانظر: Demombynes: op. cit. index.

(٣) في الأصل: «الماعز». والتصحيح يقتضيه السياق. لأن «المعز» لقب من ألقاب مستوفي الصحبة.

(٤) مستوفي الصحبة. والمستوفي: من كتاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله. وسُمي لأهميته باسم «قطب الديوان». لأنه كان يقوم بضبط سير الأعمال اليومية بالديوان ومراقبة الموظفين. ومستوفي الصحبة: كان يشارك الوزير ويوصي بإلزام الكتاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلفات وتقدير المساحات، وتمييز قيم بعضها على بعض ومستجد الجرائد وما يقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباش وغير ذلك. القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٦٦، ج ١١، ص ٩٤؛ ابن مماتي: قوانين الدواوين، ص ٣٠١، وانظر: Morier: the Adventure of Hajji Baba of Isphahan, pp 17, 210.

(٥) أمير علم: صاحب هذه الوظيفة هو الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية والطلبخاناه يكون المتحدث عليها من طبقة أمير. وجرت العادة في أيام المماليك أن يكون المتحدث عليها من طبقة أمير. عشرة. للقلقشندي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢، ج ٥، ٤٥٦، ٤٦١، ٤٦٣.

(٦) في الأصل: «الأمثلة». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٧٠، س ٣. والمناشير جمع منشور. ومعنى المنشور هنا ما يكتب في الإقطاعات خاصة. وقد جرى الاصطلاح بهذا التخصيص في عهد دولة المماليك بمصر. وقبلها كان المكتوب بالإقطاع معروفاً **بالتوقيع** أيام الأيوبيين، **وبالسجل** أيام الفاطميين، **وبالمقاطعة** زمن العباسيين. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١٣، ص ١٥٨.

(٧) الجشارات: جمع جشار، وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها. وذكرها (دوزي) في عبارة: «ويعجم على جشارهم، فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومائة من البقر». القلقشندي: المصدر السابق، ج ١١، ص ١٧١، وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

الأمراء، وأحضرت الخلع الكثيرة، ولم تزل المثالات والمناشير تكتب والسلطان يعلم، وكتب بين يديه في تلك الليلة ستة وخمسون منشوراً كباراً بخطب وهو يعلم، والنائب يكتب، وكتاب[١] ديوان الجيش يثبتون، ومستوفي الصحبة ينزل حتى كملت بين يديه. وأصبح السلطان فخلا بنفسه وجهز الطلبخاناه والصناجق والخيل والخلع للأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القميري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية، ورحل من الطور وتوجه إلى الكرك وفتحها على ما قدمنا ذكره[٢].

ذكر قصد متملك الأرمن حلب المحروسة

وفي سنة اثنتين وستين وستمائة: وصل هيتوم بن قسطنطين متملك الأرمن من جهة هولاكو، وتوجه قبل دخوله إلى بلاده إلى السلطان ركن الدين صاحب الروم، فعزم صاحب الروم على الإيقاع به على غرة، ثم ينسب ذلك إلى التركمان، فشعر هيتوم[٣] بذلك، وكان قد استصحب معه قاضي بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين صاحب الروم، وأعطاه عطاء كثيراً واستماله، فقال له هيتوم: «لا أقدر على دخول بلاد الروم حتى تحضر جماعة من التتار يخفرونني[٤]». فكتب القاضي إلى التتار الذين بالروم، فحضر منهم أربعمائة فارس، فتوجه بهم إلى السلطان ركن الدين، فخرج إليه وتلقاه مترجلاً لأجل القاضي، والأرمني لم يترجل، وقدم كل منهما للآخر تقدمة، لكن كانت تقدمة صاحب الروم لهيتوم أكثر، ثم جاءوا جميعهم إلى هرقلة[٥] وتحالفا واتفقا، واهتم هيتوم بجمع العساكر لقصد البلاد الإسلامية. وكان في عسكره من بني كلاب ألف فارس فقصد عين تاب. وكان السلطان قد اطلع على هذا الأمر لاهتمامه بالاستطلاع على الأخبار، فسير إلى عسكر حماه وعسكر حمص بالتوجه إلى حلب، فتوجهوا، وتوجه جماعة من العسكر المصري، فأغاروا على الأرمن وأسر أمير من أمراء هيتوم، وأخذ له مائة جمل من البخاتي فولوا منهزمين، وقتل منهم جماعة، وجرح صاحب حموص[٦] قرابة هيتوم الملك جراحة شديدة، فكتب الأرمني إلى التتار

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤٩١.

(٣) هيتوم: صاحب أرمينيا الصغرى، كان قد انضم إلى هولاكو رغبة منه في حماية مملكته من سلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب. وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس. انظر: Enc. ist. Art: Armenia.

(٤) في الأصل: «يخفروني». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) هرقلة: مدينة ببلاد الروم. غزاها الرشيد بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٦) هكذا في الأصل. وحموص: قلعة شرقي تل حمدون. انظر: Le strange: op. cit. p 543.

الذين بالروم، وهم سبعمائة، فحضروا إليه لقصد الشام؛ فلما وصلوا إلى مرج[١] حارم وقعت ثلوج شديدة، وكان الأرمني قد كتب إلى أنطاكية يطلب نجدة، فأنجد منها بمائة وخمسين فارساً، ولبسوا كلهم السراقوجات تشبهاً بالتتار، واجتمعوا كلهم بالقرب من مرج حارم فكادوا يهلكون من كثرة الثلوج والأمطار، وخرج العسكر المنصور لقصدهم، وانقطعت عنهم الميرة فتأخروا راجعين، فعدم من أصحاب الأرمني مائة وعشرون فارساً، وثلاثون تترياً، وستة من خيالة أنطاكية وجماعة من رجالتهم.

ثم اهتم هيتوم بعد ذلك وجمع العساكر وفَصَّل ألف قباء تتري وألف سراقوج ألبسها أصحابه، ليوهم أنهم نجدة من التتار. فجرد السلطان عسكراً من دمشق إلى حمص وجماعة من حماه، وتوجه الأمير حسام الدين العين تابي فأغار على مرزبان وقتل وأسر وعاد سالماً. وتوالت الغارات من جميع الجهات، فتفرق جمع هيتوم، وعدل العسكر الإسلامي إلى أنطاكية فغنم وقتل وأسر.

وفي جمادى الآخرة منها: أغارت العساكر التي بالساحل صحبة الأمير ناصر الدين القيمري ووصلت إلى أبواب عكا.

وفي شهر رمضان من السنة: وصل كتاب الأمير ناصر الدين المذكور، يذكر أنه بلغه أن الفرنج توجهوا إلى جهة يافا، فأمره السلطان بالغارة على قيسارية وعثليث، فساق إلى باب عثليث فنهب وقتل وأسر، ثم ساق إلى قيسارية واعتمد فيها مثل ذلك. فرجع الذين بيافا.

ذكر محاصرة التتار البيرة[٢] وتجريد العساكر وانهزام العدو

كان السلطان قد توجه إلى جهة العباسة[٣]، في أوائل سنة ثلاث وستين وستمائة، للصيد ورمى البندق كما قدمناه، فأتته الأخبار أن التتار قد جمعوا ونازلوا البيرة، وللوقت أمر الأمير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السوابق إلى القلعة، وأنه ساعة وصوله يجرد أربعة آلاف فارس من العسكر الخفيف. ورجع السلطان إلى القلعة فبات ليلة واحدة، وجهز الأمير عز الدين إيغان، ورسم له بتقدمة العساكر وصحبته الأمير فخر الدين الحمصي، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي وجماعة من الأمراء والحلقة[٤]، وتوجهت هذه

---

(١) مرج حارم: حصن كبير بين حلب وأنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٩٩.

(٢) البيرة: بلد قرب سُمَيْسَاط بين حلب والثغور الرومية. وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٦.

(٣) بلدة على طريق الشام ومصر. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٥.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥١٩.

العساكر في رابع عشر ربيع الأول، وأمر الأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي بالسفر في أربعة آلاف فارس آخر، فخرجوا بعد العسكر الأول بأربعة أيام، وشرع السلطان في التجهيز، وخرج في خامس شهر ربيع الآخر، ورحل في سابع الشهر، ووصل إلى غزة في العشرين منه، فوصلت كتب النواب: إن العدو نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً. فكتب إلى الأمير عز الدين أيغان يستحثه على سرعة الحركة، ويقول: «متى لم تدركوا هذه القلعة؟ وإلا سقت إليها بنفسي جريدة». فساق العسكر وحث السير، فلما كان في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، ورد البريد من جهة الأمير جمال الدين النجيبي نائب السلطنة بالشام وعطف كتابه بطاقة[١] من الملك المنصور صاحب حماه مضمونها: أنه وصل إلى البيرة بالعساكر المنصورة صحبة الأمير عز الدين إيغان، وأن التتار عندما شاهدوهم هربوا، ورموا مجانيقهم وغرقوا مراكبهم، وانهزموا لا يلوي أحد منهم على أحد. ثم وصلت أربعة من مماليك الأمراء بالبشارة. وورد كتاب الأمير جمال الدين أقوش المغيثي النائب بالبيرة يذكر صورة الحال، وأنه لما كثر العدو على القلعة وطم الخندق، حفر أهل البيرة حفيراً قدر قامة، وعملوا منه سرداباً نافذاً إلى الأحطاب التي كان العدو رماها في الخندق فأضرموا فيها النار، فاحترقت جميعها، ثم سد المسلمون السِّرب المحفور. وذكر مصابرة أهل الثغر، وأن نساءهم فعلن من حسن البلاء في مصابرة الأعداء ما لم يفعله الرجال. ومن جملة ما وصف أن برجاً واحداً كان عليه خمسة عشر منجنيقاً وثبت شهرين. فكتب السلطان بإطابة قلوب من بالثغر، وعينت أمثلة بالإقطاعات لمن جاهد من البحرية وغيرهم بالبيرة، واستشهد صارم الدين بكتاش الزاهدي أحد الأمراء المجردين بها بحجر منجنيق، وترك موجوداً كثيراً وبنتاً واحدة، فرسم السلطان بجميع ميراثه لابنته[٢]. واهتم السلطان بأمر القلعة، وكتب إلى جميع القلاع والولايات[٣] بما يحملونه إلى هذا الثغر من الأموال والغلال والأسلحة والعدد وغير ذلك، مما يحتاج أهل هذه القلعة إليه لمدة عشر سنين. وكتب إلى الأمراء والملك المنصور صاحبَ حماه أنهم لا يتحركون[٤] من مكانهم حتى ينظفوا الخندق وينقلوا الحجارة التي فيه، ففعلوا ذلك وأقاموا مدة بسببه. ووردت كتب الأمراء يخبرون أنه لما كانت نوبة الأمير عز الدين إيغان والأمير فخر الدين الحمصي والأمير

---

(١) البطاقة: أي الرسالة. ولفظ بطاقة، وجمعه بطائق معرب عن اليونانية «بتاكيون». انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ١٤، ص ١٢٢. محيط المحيط للبستاني. مادة: بطق، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى للبقلي، ص ٦٥.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٣) في الأصل: «والولاية». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) في الأصل: «لا يتحركوا». والتصحيح يقتضيه السياق.

بدر الدين الأيدمري، وجماعة من البحرية، وكانت خيلهم ترعى في الجانب الشامي وهم يعملون، فأحاط بهم فرقة من التتار المغل مُلَبسين، فأجمعوا ورموهم بالنشاب وأنكرهم بالجراحات، فولوا منهزمين، وساق العسكر خلفهم فوجد منهم جماعة قد هلكوا في الطريق من الجراحات، وقتل جماعة في ذلك اليوم. فاستدعى السلطان من الديار المصرية مائتي ألف درهم ومائتي تشريف، وكتب إلى دمشق بتجهيز مائة تشريف ودراهم، وجهز ذلك إلى البيرة، وكتب إلى الأمير عز الدين إيغان بأن يحضر أهل القلعة جميعهم من الأمراء والجند والعوام ويخلع عليهم وينفق فيهم المال حتى الحراس والضوية[١]. ثم عاد الأمراء بعد أن نظفوا الخندق ونقلوا إلى القلعة زلطاً كثيراً. ولما وصلوا رسم السلطان أن يكون الأمير جمال الدين المحمدي مقدماً على العساكر المصرية والشامية لكبر سنه، والأمير عز الدين إيغان يتحدث في المهمات وإطلاق الأموال وترتيب أمور البلاد.

هذا ما اتفق من أمر البيرة. فلنذكر ما افتتحه السلطان من البلاد الساحلية في هذه السفرة.

ذكر الفتوحات بالبلاد الفرنجية في هذه السفرة

قال: لما وصلت الأخبار إلى السلطان وهو بالساحل بانهزام التتار، واستقر خاطره من تلك الجهة، ثني أعنته إلى جهة الفرنج وجرد العزائم نحوهم. وركب من العوجاء بعد رحيل الأطلاب للصيد في غابة أرسوف. ورتب الحلقة ودخل الغابة وتصيد. ثم ساق إلى أرسوف وقيسارية وشاهدهما وعاد إلى دهليزه[٢]، فوجد أخشاب المجانيق قد وصلت صحبة زرد خاناه. فأمر الأمير عز الدين أمير جاندار أن ينصب عدة مجانيق مغربية وفرنجية، فعمل في ذلك اليوم أربع منجنيقات كباراً وعدة من الصغار. وكتب إلى القلاع يطلب المجانيق والصناع والحجارين ورسم للعسكر بعمل سلاليم وعين لكل أمير عدة منها، ورحل إلى قريب عيون الأساور[٣] [من وادي عارة

---

(١) الضوية: هم الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة. ويقال لهم الضوية والمشاعلية. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٢، ص ١٣٧. وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 4. N⁰ 5, Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) الدهليز هنا الخيمة، التي ترافق السلطان في الحرب. وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه، بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة، كالتي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) عين الأساور: منزلة قرب الرملة من أعمال فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

وعرعرة][١] وأمر العسكر بعد العشاء الآخرة بلبس السلاح وأخذ أهبة الحرب، وركب قريب وقت الصبح وساق إلى قيسارية على حين غفلة من أهلها.

ذكر فتوح قيسارية

نزل السلطان عليها في يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة، وللوقت طاف بها وهاجمها الناس، وألقوا نفوسهم في خنادقها، وعمدوا إلى سكك[٢] الخيل الحديد[٣] والشُبُح[٤] والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب، ونصبت عليها الصناجق، وحرقت أبوابها، فهرب أهلها إلى قلعتها، فنصبت المجانيق على القلعة وهي من أحصن القلاع وأحسنها، وتعرف بالخضراء. وكان الريدافرانس حمل إليها العمد الصوان وأتقنها، ولم ير في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع، لأن البحر حافٌ بها، وجايزٌ في خنادقها، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان المصلبة في بنائها، حتى إذا علقت لا تقع. فاستمر الزحف عليها ورمي المنجنيقات[٥] وعملت دبابات[٦] وزحافات[٧]. وكان السلطان يركب في بعض الدبابات وتجر من

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٦، س ٥. وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 6 وقد ضبط هذين الاسمين على منطوقهما: (Arah et Ararah).

(٢) السكك: جمع سكة، وهي الوتد الذي يربط به مقود الحصان. انظر محيط المحيط للبستاني. مادة: سكة. وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar..

(٣) في السلوك للمقريزي قال: «وأخذوا السكك الحديد التي برسم الخيول مع المقاود والشُبُح. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٦، س ٨.

(٤) الشُبُح: جمع شبحة، وهي السلسلة التي يربط بها قدم الحصان، في أحد طرفيها عروة تزرر في القدم، وفي طرفها الآخر رزة تدق في الأرض. البستاني: محيط المحيط. مادة: شبح.

(٥) المنجنيق: هي من أسلحة الحصار، وقد عرفها المماليك وتقدمت صناعتها على أيديهم. وهي آلات يقذف بها على بعد، الأحجار واللهب وحتى الزرنيخ والأفيون. والقصد من ذلك خنق العدو. وكان المنجنيق يحمل على مائة عجلة. انظر صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٢، ص ١٤٣، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٤، ص ٢٥ ـ ٢٦ والمماليك البحرية لعلي إبراهيم حسن، ص ٣٠٩.

(٦) الدبابات: جمع دبابة، وكانت عبارة عن شبه برج متحرك، له أحياناً أربعة أدوار، أولها من الخشب، وثانيها من الرصاص، وثالثها من الحديد، ورابعها من النحاس الأصفر، ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar..

(٧) الزحافات: مشروحة ضمناً في: Dozy: Supp. Dict. Ar. في العبارة التالية: «... برج الزحف أو آلـــة الـــزحـــف: Est une sorte de toure dans laquelle se trouvent des soldats munis d'arbaléte et de machines de guerre, et qui est placée sur un chariot que L'on pousse contre les murailles d'une place forte, que l'on assiege.

تحته بالعجل حتى يصل إلى الأسوار ويرى الثقوب. وأخذ في بعض الأيام بيده ترساً وقاتل. وما رجع إلا وفي ترسه عدة سهام. وفي ليلة الخميس منتصف الشهر حضر الفرنج وسلموا القلعة بما فيها، وتسلق المسلمون إليها من الأسوار وحرقوا الأبواب ودخلوا من أعلاها وأسفلها، وأذن بالصبح عليها. وطلع السلطان إلى القلعة وقسم المدينة على أمرائه وخواصه ومماليكه وحلقته، وشرع في الهدم وأخذ بيده قطاعة وهدم بنفسه ويده.

وقيسارية هذه من المدن القديمة فتحت في صدر الإسلام في سنة تسع عشرة للهجرة[١]، على يد معاوية بن أبي سفيان، بعد قتال عظيم، ولم يكن معاوية أمير الجيش، إنما كان من قبل أخيه يزيد بن معاوية.

وفي جماد الأول: جرد السلطان الأمير شهاب الدين القيمري بجماعة من عسكر الساحل لجهة بيسان[٢]، فسير جماعة من العربان والتركمان للإغارة على عكا، فأغاروا ووصلوا إلى أبوابها وغنموا وعادوا.

ذكر التوجه إلى عثليث[٣] وأخذ حصن الملوحة[٤] وحيفا

قال: ولما قارب السلطان الفراغ من هدم قيسارية سير الأمير شمس سنقر الألفي الظاهري، والأمير سيف الدين المستعربي. وجماعة فهدموا قلعة للفرنج عند الملوحة وكانت عاصية فدكوها إلى الأرض.

وفي سادس وعشرين جمادى الأولى: توجه السلطان إلى عثليث جريدة، وسير الأمير شمس الدين سنقر السلاح دار الظاهري والأمير عز الدين الحموي، والأمير شمس الدين سنقر الألفي الظاهري إلى حيفا، فساروا إليها ودخلوا قلعتها، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر. وأحضرت الأسرى والرؤوس، وأخربوا المدينة وقلعتها، وأحرقوا أبوابها، وذلك جميعه في يوم واحد.

وأما السلطان فإنه وصل إلى عثليث وأمر بتشعيثها وقطع أشجارها، فقطعت جميعها وخربت أبنيتها في ذلك النهار، وعاد السلطان إلى قيسارية وكمل هدمها.

---

(١) الموافق: ٦٤٠ م.

(٢) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٣) عثليث: حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية، وكان يعرف بالحصن الأحمر. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٥.

(٤) الملوحة: قرية كبيرة من قرى حلب. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٥.

[حتى لم يدع لها أثراً، وقدمت منجنيقات من الصبيبة وزدخاناه[١] من دمشق. وورد عدّة من الفرنج للخدمة، فأكرمهم السلطان وأقطعهم الإقطاعات][٢].

ذكر فتوح أرسوف

وفي تاسع وعشرين جمادى الأولى من السنة: رحل السلطان من قيسارية وسار إلى أرسوف، فنازلها في مستهل جمادى الآخرة، وأمر بنقل الأحطاب فصارت حولها كالجبال الشاهقة، فعملت منها الستائر، وأمر بحفر سربين[٣] من خندق المدينة إلى خندق القلعة، وأسقفت بالأخشاب وسلمها لأكابر الأمراء، وعمل طريق من الخندقين إلى القلعة، فخرج الفرنج لإحراق الأحطاب فطلبهم الأمير سيف الدين قلاون الألفي وغيره، وقلب على الأحطاب المياه فطفئت[٤] النيران. ولما تكامل ردم الخندق بالأحطاب، تحيل الفرنج ونقبوا من داخل القلعة إلى أن وصلوا إلى تحت الردم، وعملوا بتاتي ملآنة أدهاناً وشحوماً وأضرموا النيران وعملوا في النقوب المفاتح، ولم يعلم العسكر بذلك إلا بعد تمكن النيران، فاحترقت تلك الأحطاب جميعها وكان ذلك في الليل. وجاء السلطان بنفسه وسكب المياه بالروايا، فلم تقد شيئاً. فعند ذلك تقدم السلطان إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير بدر الدين بيسري، والأمير بدر الدين الخزندار، والأمير شمس الدين الدكز الكركي، وجماعة من الأمراء، وهم نصف الأمراء الصنجقية، وميمنة الأمراء البحرية، وميمنة الأمراء الظاهرية، وميمنة الحلقة، بأن يأخذوا من مكانهم في باب السرب من حافات الخندق من جهة سوره حفراً إلى البحر الملح. وتقدم الأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير علم الدين الحلبي، والأمير سيف الدين كرمون وجماعة الأمراء، وهم نصف الأمراء الصنجقية من جهة الميسرة وميسرة الحلقة والبحرية، بأن يحفروا من الجهة الأخرى، وأن يحفروا[٥] من كل ناحية من هذه النواحي سرباً يكون حائط خندق وساتراً له. وتحفر في هذا الحائط

---

(١) الزردخاناه: دار السلاح. وهي تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر. وتعني أيضاً السجن المخصص للمجرمين من الأمراء، وأصحاب الرتب. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١. وانظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٢٨.

(٣) السرب: ما يحتفر في حصار المدن والحصون، ليتوصل به إليها من غير أن يصيب السالكين فيه ما يرشقهم به أهلها. البستاني: محيط المحيط مادة: ذنب.

(٤) في الأصل: «فطفت النيران». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «يحفر». والتصحيح يقتضيه السياق.

أبواب يرمى التراب فيها وتترك في هذه السروب حتى يساوي أرضها بأرض الخندق، وعذق[١] هذا الأمر بعز الدين أيبك الفخري أحد أصحاب الأتابك، فاستمر العمل في هذه الخنادق والسلطان طائف فيها بنفسه ويعمل بيده، وهو تارة في السروب، وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر، ويرامى مراكب الفرنج ويجر في المنجنيق ويرمى من الستائر[٢].

وحكى عنه الأمير جمال الدين بن نهار، رحمه الله، قال: «رأيت السلطان في هذا النهار رمى بثلثمائة سهم نشاباً». واتفق أن السلطان حضر إلى السرب وقعد في رأسه خلف طاقة يرمى فيها، فخرج جماعة من الفرنج الفرسان ومعهم الرماح بالخطاطيف فلم يشعر إلا وهم على باب السرب، فقام وقاتلهم يداً بيد، وكان معه الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير بدر الدين بيسري والأمير بدر الدين الخزندار وغيرهم. وصار سنقر الرومي يناوله الحجارة، فقتل بها فارسين، وقطع الأمير حسام الدين الدوادار أحد الخطاطيف بسيفه وجرح في عضده، ورجع الفرنج على أسوأ حال.

وحضر في هذه الغزاة جمع كبير من [العباد والزهاد والفقهاء والفقراء وأصناف العباد، ولم يعهد فيها خمر ولا شيء من الفواحش، بل كانت][٣] النساء الصالحات يسقين الماء ويجررن في المجانيق. وأطلق السلطان لجماعة من الصالحين الرواتب مثل: الشيخ علي المجنون والشيخ إلياس، وأطلق للشيخ علي البكا جملة من المال.

قال: وأهتم بأمر المجانيق وأحضرها من دمشق، وعمل كرمون أغا منجنيقاً بسبعة سهام وأثر أثراً حسناً. وكان للأمير عز الدين أيبك الأقرم أمير جاندار في هذه الغزاة أوفر نصيب، وهو الذي تولى أمر المجانيق.

قال: ولما أثرت المجانيق في هذه الأسوار ونجزت الأسربة التي إلى جانب الخندق من الجهتين وفتحت فيها أبواب متسعة حصل الزحف على أرسوف في يوم الاثنين ثامن شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة، وافتتحت في يوم الخميس. وذلك أن الباشورة[٤] سقطت في الساعة الرابعة من النهار، وطلع المسلمون إليها

---

(١) هكذا في الأصل. وقد تكون الكلمة «علق» بمعنى أسند.

(٢) الستائر: جمع ستارة، وهي حائط خارجي مبني من الخشب أو غيره. يحتمي وراءه المدافعون عن حصن أو سور. ويستخدم المهاجمون الستائر أيضاً للوقاية من قذائف العدو. ويقابل هذا اللفظ في الفرنسية: (Courtine) وفي الإنكليزية: (Curtain). انظر: .Dozy: Supp. Dict. Ar

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٢٩، س ٧ ـ ٨.

(٤) الباشورة هنا سد من التراب، لمنع وصول الخيالة والسهام إلى مواضع المحاربين. انظر: Dozy: .Supp. Dict. Ar

تسلقاً[١]، وما أحس الفرنج بالمسلمين إلا وقد خالطوهم من كل باب. ورفعت الأعلام على الباشورة، وحفت بها المقاتلة، وطرحت النيران في أبوابها. وأعطى السلطان صنجقة للأمير شمس الدين الرومي، وأمره أن يؤمن الفرنج به من القتل عندما طلبوا الأمان. فلما رآه الفرنج بطلوا[٢] القتال، وسلم الصنجق للأمير علم الدين سنجر المسروري الحاجب المعروف بالخياط، ودليت[٣] له الحبال من قلعة أرسوف فربطها في وسطه والصنجق معه، ونشله[٤] الفرنج إلى القلعة فأخذ سيوفهم، وأحضروا في الحبال [إلى السلطان][٥].

ولما خلت القلعة من الفرنج أباحها السلطان للمسلمين بجميع ما فيها من أموال وغلال وذخائر. وكان بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض [السلطان لشيء][٦] منها إلا لما اشتراه بالمال. وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا في تلك الساعة وأخذت قيودهم وقيد بها الفرنج. وجرد جماعة من المقدمين يتوجهون مع الأسرى. وسير لكل أمير جماعة، ولكل مقدم جماعة. وشرع السلطان في تقسيم أبراج أرسوف على الأمراء، وجعل هدمها دستورهم، ورسم بإحضار الأسارى لإخرابها، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿... يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[٧] [الحشر: ٢].

ورحل السلطان عن أرسوف بعد استكمال هدمها في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شهر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة[٨].

ذكر ما ملكه السلطان لأمرائه من النواحي التي فتحها الله على يده

قال: لما فتح الله تعالى على السلطان قيسارية أمر الأمير سيف الدين الدوادار الرومي بكشف بلادها وتحقيق متحصلاتها، وعملت أوراق بذلك. ولما فتح الله أرسوف طلب [السلطان][٩] قاضي القضاة بدمشق وجماعة من العدول ووكيل بيت

---

(١) في الأصل: «تسليقاً». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) كلمة عامية بمعنى توقفوا عن القتال، أو تركوا القتال.
(٣) دليت أي أُنزلت.
(٤) نشله أي رفعه. ونرى هنا الكاتب يتكلم بالعامية.
(٥)، (٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠.
(٧) سورة الحشر من الآية ٢ وتتمتها: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.
(٨) الموافق: ١٢٦٤ م.
(٩) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠.

المال، وتقدم بأن يُملك الأمراء [المجاهدون][١] من البلاد التي فتحها الله على يديه ما يأتي ذكره. وكتبت التواقيع[٢] لكل منهم ولم يطلعوا عليها، ولما كملت قرئت[٣] على أربابها، وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك:

ونسخته بعد البسملة:

أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود، وتمكينه الذي[٤] رفلت الملة الإسلامية منه في أصفى البرود، وفتحه الذي إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت أنه الأمر ما يسود من يسود.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاهد الكفار، وجاهرهم بأعمال السيف البتار، وأعلمهم لمن عقبى الدار، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشي والإبكار.

فإن خير النعم نعمة وردت بعد اليأس، وجاءت بعد توحشها وهي حسَنة الإيناس، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس، وصرعت أبواب الجهاد وقد غلقت في الوجوه، وأنطقت السنة المنابر وشفاة المحابر بالبشائر التي ما اعتقد أحد أنه بها يفوه، فأكرم بها نعمة على الإسلام وصلت للملة المحمدية أسباباً، وفتحت للفتوحات أبواباً، وهزمت من التتار والفرنج العدوين، ورابطت بين الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين، وجعلت عساكر الإسلام تذل الفرنج بغزوهم في عقر الدار، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار، وتملأ خنادقهم بشاهق الأسوار، وتقود مَنْ فَضَلَ عن شِبَع[٥] السيف الساغب في قبضة القيد إلى حلقات الإسار. ففرقةٌ منها تقتلع للفرنج قلاعاً وتهدم حصوناً، وفرقةٌ تبني ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصيناً. وفرقةٌ تتسلم بالحجاز قلاعاً شاهقة وتتسنّم هضاباً سامقة، فهي بحمد الله البانية الهادمة والمفيدة العادمة والقاسمة الراحمة. كل ذلك بمن أقامه الله للأمة الإسلامية راحماً، وجرد به سيفاً قد شحذت التجارب حديه ففرى، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيراً فسار إلى مواطن الظفر وسرى، وكونته السعادة ملكاً إذا رأته في دستها قالت تعظيماً: «هذا ملك ما هذا بشراً». وهو مولانا السلطان الأجل العالم

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠، س ١٠.

(٢) التواقيع: جمع توقيع، ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٤٤. وانظر: Demombynes: op. cit. Introd. p L VIII.

(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٠: «فرقت».

(٤) في الأصل: «الذي». وكذلك في السلوك، ج ١، ص ٥٣٠، س ١٣.

(٥) الضبط من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٠، س ٢١.

العادل المؤيد المنصور، ركن الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيد الملوك والسلاطين، محيي العدل في العالمين، قاتل الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، سلطان بلاد الله، حافظ عباد الله، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك، اسكندر الزمان، صاحب القرآن، ملك البحرين صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، الآمر ببيعة الخليفتين صلاح الجمهور صاحب البلاد والأقاليم والثغور، فاتح الأمصار، مبيد التتار، ناصر الشريعة المحمدية، رافع علم الملة الإسلامية، مقتلع القلاع من الكافرين، القائم بفرض الجهاد في العالمين أبو(١) الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين، جعل الله سيوفه مفاتيح(٢) البلاد وأعلامه أعلاماً من الأسنة، على رأسها نار لهداية العباد، فإنه آخذ البلاد ومعطيها، وواهبها بما فيها، وإذا عامله الله بلطفه شكر، وإذا قدر عفا وأصلح، فكم وافقه قدر، وإذا أهدت إليه النصرة فتوحاً بسيفه قسمها في حاضريها لديه متكرماً، وقال الهدية لمن حضر، وإذا خوله الله تخويلاً من بلاد الكفر وفتح على يديه قلاعاً جعل الهدم للأسوار، والدماء للسيف البتار، والرقاب للإسار، والنواحي المزروعة للأولياء والأنصار، ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الأملاك في الصحائف لصِفَاحِه(٣) من الأجور، وتطوى عليه طويات السِّيَر التي غدت بما فتحه الله من الثغور باسمِه باسمةَ الثغور:

فتى جعل البلاد من العطايا ... فأعطى المدن واحتقر الضياعا
سمعنا بالكرام وقد رأينا ... عياناً ضعف ما فعلوا سماعا
إذا فعل الكرام على قياس ... جميلاً كان ما فعل ابتداعا

ولما كان ـ خلد الله سلطانه ـ بهذه المثابة، وفتح الفتوحات التي أجزل الله بها أجره وثوابه، وله أولياء كالنجوم إنارةً وضياء، وكالأقدار نفاذاً ومضاءً، وكالعقود تناسقاً، وكالوبل تلاحقاً إلى الطاعة وتسابقاً، وكالنفس الواحدة عبودية له وتصادقاً، رأى ـ خلد الله سلطانه ـ أن لا ينفرد عنهم بنعمة، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ، وبعزائمهم تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم(٤) عليهم الأشعة من أنوار شمسه، ويبقى للولد منهم وولد الولد ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته كما عاش الآباء. وخير الإحسان ما شمل،

(١) في الأصل: «أبي». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣١: «مفاتح».
(٣) الصفاح: جمع صفح، عرض السيف، وربما أريد هنا به السيف كله. ويقال للسيف أيضاً الصفيحة، وهي السيف العريض. البستاني: محيط المحيط. مادة: صفح.
(٤) في الأصل: «نفسهم». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣١، س ٢٠.

وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي لا زال يشمل الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري، أن يُمَلِّك جماعة أمرائه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكتوب الشريف يسطرون، ما يعين من البلاد والقرى والضياع على ما يشرح ويبين من الأوضاع وهو:

المولى الأتابك فارس الدين أقطاي الصالحي	عَتِّيل[١] بكمالها
الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي	النصف من زِيْتَا
الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي	نصف طُوركرم
الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري	نصف طوركرم
الأمير شمس الدين الدكز الكركي	ربع زيتا
الأمير سيف الدين قليج البغدادي	ربع زيتا
الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحي	أَفْراسِين[٢] بكمالها
الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي	باقة الشرقية بكمالها
الأمير عز الدين أيدمر الحلي الصالحي	نصف قَلَنْسُوَه
الأمير شمس الدين سنقر الرومي الصالحي	نصف قلنسوه
الأمير سيف الدين قلاون الألفي الصالحي	نصف طَيِّبة الاسم
الأمير عز الدين إيغان الركني سم الموت	نصف طَيِّبة الاسم
الأمير جمال الدين أقش النجيبي نائب سلطنة الشام	أم الفحم بكمالها من قيسارية
الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي	بَتَان[٣] بكمالها

(١) ضبط هذا الاسم من ابن أبي الفضائل في كتابه النهج السديد، ص ١٣٩. وستلي هنا جملة أسماء الجهات التي أقطعها السلطان بيبرس لأمرائه، وهي قرى وضياع حول قيسارية وأرسوف، وليس لأحدها تعريف في معجم البلدان لياقوت. وقد قوبلت جميعها. وضبطت حسبما جاء في ابن أبي الفضائل، ص ١٣٩. كما صححت منه أيضاً أسماء الأشخاص الواردة في النص.

(٢) في الأصل: «أقراصين». والتصحيح والضبط من كتاب النهج السديد، ص ١٣٩.

(٣) في الأصل: «بثان». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٢، س ١٣، ومن النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٣٩.

الأمير جمال الدين أقش المحمدي الصالحي	نصف بُورِين
الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي	نصف بورين
الأمير جمال الدين أيدغدي الحاجبي الناصري	نصف بيّزين
الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري الصالحي	نصف بيزين
الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث	ثلث حَلَمة(١)
الأمير شمس الدين سلار البغدادي	ثلث حلمة
الأمير صارم الدين صُراغان(٢) التتري	ثلث حلمة
الأمير ناصر الدين القيمري	نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي	نصف البرج الأحمر
الأمير سيف الدين إيتامش السعدي	نصف يمّا
الأمير شمس الدين آقسنقر السلحدار الظاهري	نصف يمّا
الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة	نصف دَيَّابة(٣)
الملك المظفّر علاء الدين أخوه صاحب سنجار	نصف ديابة
الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان	دير الغصون(٤) بكمالها
الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار	نصف الشُّوَيْكَة
الأمير سيف الدين كرمون أغا [التتري](٥)	نصف الشويكة
الأمير بدر الدين بيليك الوزيري	نصف طُبَرْس
الأمير ركن الدين منكورس الدواداري	نصف طبرس

(١) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣، س ١: «حَلَبَة».
(٢) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٣، س ٢ «صُراغان».
(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣، س ٥، «دَنَّابة».
(٤) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٣٩: «القُصُون».
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٣.

الأمير سيف الدين قشتمر العجمي	عَلّار بكمالها
الأمير علاء الدين أخو الدوادار	نصف عَرْعَرَا
الأمير سيف الدين سنجق[(١)] البغدادي	نصف عرعرا
الأمير سيف الدين دكاجك[(٢)] البغدادي	نصف فَرْعُوْن
الأمير علم الدين سنجر الأزكشي	نصف فرعون
الأمير علم الدين سنجر طردح الآمدي	أَسْتَابَا[(٣)] بكمالها
الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان	سِيدا بكمالها
الأمير علاء الدين كندغدي الظاهري أمير مجلس	الصَّبر[(٤)] الفوقا
الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري	نصف أرتاح
الأمير شمس الدين سنقر الألفي	نصف أرتاح
الأمير علاء الدين[(٥)] طيبرس الظاهري	نصف باقة الغربية
الأمير علاء الدين علي سكز[(٦)]	نصف باقة الغربية
الأمير عز الدين أيدمر الفخري الأتابكي	القصير بكمالها
الأمير علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري	أَخْصَاص بكمالها
الأمير ركن الدين بيبرس المعزي	نصف قَقّين
الأمير شجاع الدين طغريل الشبلي أمير مهمندار	نصف كفر راعي
الأمير علاء الدين كندغدي الحبيشي مقدم الأمراء البحرية	نصف كفر راعي

(١) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٣، س ١١: «قَفْجَق».
(٢) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «دكجل».
(٣) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «أَقْتَابَة».
(٤) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «الصُّفْرا».
(٥) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «علم الدين».
(٦) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٣: «تنكز».

الأمير شرف الدين يعقوب بن أبي القاسم	نصف كسفا(١)
الأمير بهاء الدين يعقوب بن الشهرزوري	نصف كسفا
الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستادالدار العالية	نصف برويكة(٢)
الأمير علم الدين سنجر الحلبي الغزاوي	نصف برويكة
الأمير علم الدين سنجر [نائب](٣) أمير جاندار	نصف حانوتاً من أرسوف
الأمير سيف الدين بيدغان الركني	فرديسيا بكمالها من قيسارية
الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك	ثلث جبلة من أرسوف
الأمير شمس الدين سنقرجاه الظاهري	ثلث جبلة من أرسوف
[الأمير جمال الدين أقوش السلاح دار الرومي	ثلث جبلة من أرسوف](٤)
الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح	ثلث جلجولية
الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومي	ثلث جُلْجُولِيَّة
الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي الصالحي	ثلث جلجولية

وكتب من كتاب التمليك الشرعي الجامع نسخ، وفرقت لكل أمير نسخة بمكانه، وخلع على قاضي القضاة، وتوجه [السلطان](٥) إلى دمشق.

ذكر قصد البرنس صاحب طرابلس حمص وانهزامه

وفي ثامن صفر سنة أربع وستين وستمائة(٦)، جمع البرنس بيمند بن بيمند جموعه، واستنصر بالدواية والإسبتار، وقصد جهة حمص. وكانت النائب بها الأمير

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٤: «كَسْتَ».
(٢) في السلوك، ج ١، ص ٥٣٤: «بَرْنِيكِيَّة».
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٣٤، س ٤.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٣٤، س ٦.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٦) الموافق: ١٢٦٥ م.

علاء الدين سنجر الباقشردي[١] قد اطلع على حركته، فاحترز وجعل الطلائع على المخائض. فقصد البرنس مخاضة بلالة فسبقه الباقشردي إليها وملكها. فلما جاء البرنس ورآها قد ملكت عدل إلى غيرها فقويت نفوس المسلمين، وعدّوا الماء إليه وتبعوه فانهزم، وساقوا خلفه يقتلون ويأسرون وينهبون إلى أن توغل في بلاده.

ذكر إغارة العساكر على طرابلس بالشام وفتح قلعة حلبا وقلعة عرقا[٢]

وفي سنة أربع وستين وستمائة[٣] في شهر رجب، اهتم السلطان بأمر الغزاة، وطلب الأجناد من إقطاعاتهم من سائر أعمال الديار المصرية، فحضروا بأجمعهم. وخرج السلطان في مستهل شعبان ورحل في ثالثه. ولما وصل إلى غزة جرد الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي والأمير سيف الدين قلاون الألفي وجماعة من العسكر المنصور. وتوجه السلطان لزيارة البيت المقدس والخليل، صلوات الله عليه، فزار وكشف المظالم ومد سماط الخليل، عليه الصلاة والسلام، وأكل منه وأكل الناس، وفرق جملة من المال على الأئمة والفقراء والمؤذنين والعوام وغيرهم. وبلغه أن اليهود والنصارى يؤخذ منهم حقوق زيارة الخليل، والنزول في المغارة، فأنكر ذلك، وكتب مرسوماً بمنع أهل الذمة من دخول المقام الشريف. ثم رحل إلى عين جالوت.

وأما العسكر المجرد: فوصلوا إلى حمص فورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس، فركبوا على غرة من العدو، فأصبحوا على حصن الأكراد، وأغاروا إلى ساحل البحر من جهة طرابلس، ونزلوا على حصن ثيب من عمل حصن الأكراد فأقاموا عليه يوماً واحداً، فأخذوه وأسروا منه جماعة وهرب من كان بحلبا من الفرنج وأخلوها، فدخلها العسكر وكسبوا منها شيئاً كثيراً من نحاس وصناديق وسكر وغيره، ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم، فقتلوهم وأخذوا نساءهم. ولما شاهد[٤] أهل عرقا ما حل بحلبا نجوا بأنفسهم، فأخرب العسكر القلعتين ونزلوا على حصن القليعات فتسلموه في رابع شهر رمضان بالأمان وهدموه، وعادت العساكر. فنزل الأمير سيف الدين قلاون بالقرب من القليعات، وسير بالليل بعض المقدمين ليترقب من يخرج من

(١) هكذا بالأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٣، س ١٠: «الباشقردي».
(٢) عِرْقا: بلدة في شرقي طرابلس. وهي آخر عمل دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٩ ـ ١١٠.
(٣) الموافق: ١٢٦٥ م.
(٤) في الأصل: «شاهدوا». والتصحيح يقتضيه السياق.

الفرنج، فوجد خمسين نفراً متوجهين من صافيتا إلى حصن الأكراد أقجية وجرخية فقتلهم جميعاً، وأحضرت رؤوسهم. وخرج جماعة من الداوية للغارة على الغلمان الذين يحشون لخيل العسكر، وكان الأمير سيف الدين قلاون قد رتب مع الغلمان جماعة من العسكر، فلما جاءهم الداوية خرج عليهم العسكر فقتلوا بعض الفرنج وأسروا البعض. وسير صاحب صافيتا جاسوساً فأمسك وشنق. وكان في جملة هذا العسكر من العربان ألفا[١] فارس وجاهدوا أتم جهاد، وجرح الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا جرحين. ورسم السلطان أنه من عدم له فرس يعوض عنه رأسين من البقر، ورسم بتجريد جماعة حمص وعود العسكر.

ذكر إغارة العسكر على صور

قال: ولما نزل السلطان على عين جالوت رحل منها إلى جهة عكا، وجرد الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين إيغان الركني بجماعة من العسكر إلى جهة صور، فأغاروا عليها وغنموا كثيراً من الجمال والبقر والغنم. وأسر كمندور[٢] صاحب سيس ونفران معه كانوا انحازوا إلى برج فأخذوا بالأمان، وأخذ وزير صور وجماعة من الفرنج. وتوجه الأمير سيف الدين أوتامش إلى جهة صيدا؛ ورسم لهم السلطان بالحضور إلى جهة صفد. وتوجه السلطان إلى عكا، وجرد الأمير بدر الأيدمري، والأمير بدر الدين بيسري[٣] إلى جهة القرين[٤]، وجرد الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة[٥]، فأغارت العساكر [على الفرنج][٦] من كل جهة، وحاصر الأمراء القرين، وأخذت قلعة بالقرب من عكا، وتوالت المكاسب حتى لم يوجد من يشتري الأبقار والجواميس لكثرتها.

(١) في الأصل: «ألفي». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) كمندور: هذا اللفظ تعريب حرفي لكلمة (Commander) باللغة الإنكليزية. والراجح أن مرادفها في اللغة العربية الصحيحة لفظ (المقدم). وهو الذي يلي الرئيس العام في ترتيب الوظائف الكبرى عند الاسبتارية والداوية. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٥، حاشية رقم (٣).

(٣) في الأصل: «سيبري». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٥، س ٥.

(٤) في السلوك، ج ١، ص ٥٤٥، س ٦: «القرن». والقرن لعله قرن الحامرة من إحدى قرى دمشق، انظر: Le strange: op. cit. p 481.

(٥) جبل عاملة: يطلق هذا الاسم على جهة جبلية قرب الساحل، في إقليم صفد. ويوجد بها حصن الشقيف. انظر: Le strange: Ibid. pp 75 - 76.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٥، س ٧.

ذكر فتوح صفد

كان السلطان، قبيل توجهه إلى عكا، قد رسم للأمير علاء الدين أيدكين الشهابي أحد الأمراء بالشام ولجماعة من العسكر أن يتوجهوا إلى بلاد الفرنج، ولم يُعْلم إلى أي جهة. ثم كتب كتاباً وأمره أن لا يقرأه إلا إذا ركب هو والعساكر، وكان مضمونه أن يتوجه إلى صفد، ويتوجه الأمير فخر الدين الفايزي إلى الشقيف. فتوجه الأمير علاء الدين إليها وأحاط بها إحاطة حافظ لا مقاتل، ثم جرد الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح ومعه دهليز إلى صفد، ثم حضر إليها الأمير علاء الدين البندقدار والأمير عز الدين إيغان الركني بعد إغارتهم على صور فنزلوا إليها وضايقوها، وأقام السلطان على عكا. ثم حضرت عساكر الغارات، وعمل [السلطان](١) عدة مجانيق وفرقها على الأمراء ليحملوها، ثم رحل والعساكر لابسة وساق إلى قريب باب عكا ووقف على تل الفضول، ثم دخل إلى عين جالوت، وكان الأمير سيف الدين الزيني قد توجه إلى دمشق لإحضار المجانيق، فأحضرها وحملت على الرقاب، وسار السلطان ونزل على صفد في يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة أربع وستين وستمائة(٢). وأنفق السلطان والعساكر، واتفق أن الناس تناوشوا القتال فساق الأمير عز الدين خاص ترك الظاهري وحمل وواصل(٣) الطعن. فتقدم الحجارون وأخذوا في النقوب ورمي الزراقون(٤) بالنفط فاحترق الباب. وأنعم السلطان على خاص ترك بعشرة آلاف درهم وفرس وجوشن(٥) وخلعة. ثم أقيمت المجانيق ورمت في سادس وعشرين الشهر، وكان وصولها في الحادي والعشرين منه، ولما وصلت إلى جسر يعقوب(٦) عجز الجمال عن نقلها، فندب السلطان الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب، وخرج السلطان بنفسه وخواصه وجر أخشابها بيده. ووصلت العساكر التي كانت في الغارة ببلاد طرابلس، واستمر الحصار وشرع الناس في الزحف في شوال، وأمر السلطان بتحريك الطلبخاناه في نصف الليل، وركب وهجم خندق الباشورة، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وأبلى المؤمنون بلاء حسناً واستشهد جماعة من المجاهدين، وصار الإنسان

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الموافق: ١٢٦٥ م.

(٣) في الأصل: «ووصل». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) الزراقون: جمع زراق. ومعناه هنا رامي النفط من الزراقة. ويقابل لفظ الزراقة في: Dozy: Supp. Dict. Ar. Le tube avec lequelle on Lancait le naphte أي الأنبوبة التي يزرق بها النفط.

(٥) الجوشن: نوع من الدروع. انظر محيط المحيط للبستاني. مادة: جوشن.

(٦) جسر يعقوب: منزلة من صفد. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٦، س ٣.

يرى رفيقه قد قتل فيجره ويقف مكانه، وتكاثرت النقوب ودخلت[١] النقابون إليها، وأعطاهم السلطان ثلاثمائة دينار، وصار كل من عمل شيئاً جزاه السلطان لوقته عنه بالخلع والمال. وفي أثناء ذلك نظر السلطان إلى الناس وقد تعبوا في وقت القائلة من القتال، وتفرق بعضهم وهو راكب ملازم، فأمر خواصه بالسَّوق إلى الصواوين وإقامة الأمراء والجند منها بالدبابيس، وسبَّ الأمراء. وقال: «المسلمون على هذه الصورة وأنتم تستريحون»، ورسم بأمساك الأمراء وكانوا نيفاً وأربعين أميراً فقيدهم ونقلهم إلى الزردخاناه، فوقعت الشفاعة فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضعهم. ووسعت النقوب وشرطت الأسوار، فحرق الفرنج الستائر التي كانت على الباشورة ليحموها[٢] من التسلق[٣]. فأمر السلطان بضرب الطلبخاناه، وقام كل أحد إلى جهته، فضرب المسلمون سكك الخيل في سفح الباشورة، فلما أصبح الصبح إلا والصناجق على أسوار الباشورة من كل جهة، واندفع الفرنج إلى القلعة وسلموا الباشورة في يوم الثلاثاء نصف شوال. وفي هذا اليوم أخذت النقوب في برج اليتيم وغيره من أبراج القلعة. فعند ذلك أنت رسل الفرنج إلى السلطان يسألون الأمان، فاشترط عليهم ألا يستصحبوا[٤] سلاحاً ولا لامة حرب ولا شيئاً من الفضيات، ولا يتلفوا ذخائر القلعة بنار ولا هدم، فعادوا لأصحابهم على ذلك. وبقي السلطان يعطي الأمانات من المرامي ويسير المناديل، وتقرر مع جماعة أنهم يفتحون الأبواب. فتسامع الفرنج بذلك، ووقع بينهم الاختلاف، وحضر خمسة عشر نفراً من القلعة منفردين في وقت واحد فخلع عليهم، ونودي في العسكر بأن لا يرموا أحداً من الفرنج غير الديوية. فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال، وردوا الأمان وقالوا: «ما ندخل في شرط»، ورمى الرسل الخلع والمال المنعم عليهم من الأسوار. ثم أيقنوا بالهلاك، فسيروا رسلهم في يوم الجمعة ثامن عشر الشهر يطلبون ما كانوا طلبوه أولاً، فامتنع السلطان من ذلك. فأخذ الأتابك منديل جمال الدين أقش القليجي مقدم الجمدارية وأعطاه لهم على أنهم لا يخرجون شيئاً[٥] مما ذكرناه. فتوجه الرسل وصاح الفرنج بعد صلاة الجمعة: «يا مسلمين! الأمان» وفتحت أبواب القلعة وقت العصر، وطلعت الصناجق. ووقف السلطان راكباً على باب صفد، ونزل الفرنج أولاً فأولاً وصاروا جميعهم بين يديه،

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) في الأصل: «ليحملوها». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) في الأصل: «التسليق». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) في الأصل: «ألا يستصحبون». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «شيء». والتصحيح يقتضيه السياق.

وأخرجوا معهم الأسلحة والفضيات[١] وأخفوها في قماشهم[٢]، وأخذوا جماعة من أسرى المسلمين وصغارهم على أنهم نصارى. فلم يخف الله ذلك، ورُسم بتفتيشهم فوجد ذلك معهم فأخذ منهم، وأنزلوا عن خيولهم، وجعلوا في خيمة، وقد حصل منهم ما ينقض العهد أن لو كان، فكيف ولم يكن حقيقة. وأمر السلطان بضرب أعناقهم، فضربت رقابهم على تل بالقرب من صفد كانوا يضربون رقاب المسلمين فيه. ولم يسلم منهم غير نفرين، أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان قد شرب قمزاً في النقب[٣] وخرج إليه الرسول فسقاه منه، فعفا السلطان عنه وخيّره في التوجه إلى قومه أو الإقامة عنده، فاختار المقام في خدمة السلطان وأسلم[٤]، فأعطاه السلطان إقطاعاً، وأما الآخر فإن الأتابك شفع فيه فأطلقه السلطان. ودخل السلطان القلعة وفرق على الأمراء ما فيها من العدد الفرنجية والجواري والمماليك، واستناب في القلعة الأمير عز الدين العلائي، وولي الأمير مجد الدين الطوري ومقدم العسكر الأمير علاء الدين أيدغدي السلاح دار، ونقلت إليها الزردخاناه التي كانت صحبة السلطان، وصار يحمل النشاب على كتفه، فنقلت في أسرع وقت، وطلب لها الرجال من دمشق، وتقررت نفقة رجالها في كل شهر ثمانين ألف درهم. واستخدم على جميع بلادها الأمراء، وعمل بها جامع بالقلعة وجامع في الربض، ووقف على الشيخ علي المجنون نصف وربع الحباب[٥] والربع منها على الشيخ إلياس، ووقف على قبر خالد بن الوليد قرية منها.

ورحل منها إلى دمشق في سابع وعشرين شوال، فنزل بالجسورة، وأمر أن العساكر لا تدخل دمشق بل تتوجه إلى سيس[٦].

---

(١) يفهم من كلمة «الفضيات» أن المقصود في هذا الصدد هو المال. انظر: Quatremere: op. cit, V2, p 30.

(٢) أي في أمتعتهم أو ثيابهم.

(٣) النقب: موضع قرب بيت المقدس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٩٨.

(٤) كان الشخص الذي أسلم فارساً من الداوية، وكان الثاني من فرسان الإسبتار. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤٨ حاشية رقم (١).

(٥) في الأصل: «الحفاف». والتصحيح في معجم البلدان لياقوت، ج ٤، ص ٨١. وهي إحدى بلاد وادي القرى بين دمشق والمدينة.

(٦) في الأصل: «حبيس» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٤٩، س ٢. وسيس: عاصمة أرمينيا الصغرى (قليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٩٧. انظر: سِيْسِية.

ذكر غزوة سيس وأسر ملكها وقتل أخيه وعمه وأسر ولد عمه

قال: وجهز السلطان الملك المنصور صاحب حماه، وجرد معه الأمير عز الدين إيغان، والأمير سيف الدين قلاون، ورسم للأمراء بتعظيمه. وتوجهوا في خامس ذي القعدة من سنة أربع وستين وستمائة[١]. فوصلوا إلى الدرب ساك[٢] ودخلوا الدربند[٣]، وكان الملك المجير هيتوم بن قسطنطين بن باساك قد ملّك ولده ليفون وانقطع هو مترهباً، فلما طَلّب[٤] المسلمون وقف ليفون في عسكره وطلّب، وتوهم أن المسلمين لا يقدرون على الطلوع في الجبال لأن التكفور كان قد بنى على رؤوس الجبال أبراجاً، فكانت كقول الشاعر:

وإن يبن حيطانا عليه فإنما   أولئك عقالاته لا معاقله

فطلعت العساكر في رؤوس الجبال، فلما وقعت العين في العين أسر الملك ليفون، وقتل أخوه وعمه، وانهزم كندا سطبل عمه الآخر، وأسر ولده، وهرب صاحب حموص. وكان فيهم اثنا عشر ملكاً تمزقوا كل ممزق، وقتلت أبطالهم. وساقت العساكر في هذا النهار وأقامت على كونجيد من عمل سرفندكار، ونزلت في اليوم الثاني بأعمال تل حمدون، وهي تقتل وتأسر وتحرق. وأحرقوا حموص، ثم توجهوا إلى نهر جهان فخاضته العساكر ونزلوا بقرب العمودين، وهي قلعة حصينة شاهقة للداوية. فلما طافت بها العساكر أذعن أهلها لتسليمها وكان فيها ألفان ومائتان نفراً، فقتل الرجال، وفرقت السبايا على العساكر، وأحرقت هذه القلعة وما فيها من الحواصل والذخائر. ورحلوا إلى سيس فأخربوها وأقامت العساكر أياماً تحرق وتقتل وتأسر. وأقام الملك المنصور صاحب حماه بها. وتوجه الأمير عز الدين إيغان إلى جهة الروم، والأمير سيف الدين قلاون إلى المصيصة وأدنة وإياس وطرسوس فقتلوا وأسروا وأحرقوا. وهدمت قلعة الداوية[٥] المعروفة بالبنية، وحرقت لهم أماكن كثيرة من حصون وبلاد وهدمت.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. وتوافق ١٢٦٥ م.

(٢) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥١: دير بسّاك. وهو قرب أنطاكية، من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٠٠.

(٣) الدربند: جمع دربندات. ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة. والمراد هنا الطرقات المؤدية إلى بلدة سيس. انظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٤) طلّب: أي جمع ما حوله واستعد للقتال. البستاني: محيط المحيط، مادة: طلب.

(٥) لعلها العامدين: وهي حصن بأرمينيا الصغرى. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ١٥١.

ثم عادت العساكر إلى سيس بعد أن غنمت غنائم كثيرة، حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ولم يجد من يشتريه، واستاقت العساكر الغنائم.

ووردت هذه الأخبار إلى السلطان وهو يتصيد بجرود، فأعطى المبشر ألف دينار، ودخل دمشق فتجهز وخرج لتلقي عساكره.

ذكر قتل أهل قارا وسبي ذراريهم

لما توجه السلطان من دمشق ليلقى عساكره الواردة من سيس مر بقارا في سادس ذي الحجة فأمر بنهبها وقتل من بها.

وكان سبب ذلك أن بعض الركابية كان قد خدم الطواشي مرشد مقدم العسكر بحماه لما عاد من الخدمة السلطانية كما تقدم، ووصل إلى منزلة العيون مرض بها وبات ولم يشعر به الطواشي. فأتاه رجلان من أهل قارا وتوجها به إليها ليضيفاه، فأقام عندهما ثلاثة أيام حتى عوفي، ثم أخذاه بالليل وتوجها به إلى حصن الأكراد فأباعاه[1] بها بأربعين ديناراً صورية. واتفق في تلك السنة تَوَجُّه بعض تجار دمشق إلى حصن الأكراد لابتياع أسرى، فاشترى ذلك الركابي في جملة ما اشتراه وحمله إلى دمشق وأطلقه، فخدم بعض الجند وخرج فيمن خرج مع السلطان. فلما وصل إلى قارا حضر الركابي إلى مجلس الأمير فارس الدين الأتابك وأنهى إليه صورة الحال، فسأله هل يعرف الذي باعه؟ قال: «نعم». فسير معه جاندارية، فتوجه ووجد أحد الرجلين فقبض عليه وأحضره. فأنهى الأتابك ذلك إلى السلطان فأحضرهما بين يديه، وتقابلا فأنكر القاري. فقال الركابي: «فأنا أعرف بيته وما فيه»، فعند ذلك اعترف القاري، وقال: «ما أنا أفعل هذا جميع من بقارا يفعله». وكان قد حضر من قارا رهبان بضيافة إلى باب الدهليز، فأمر السلطان بالقبض عليهم، وركب بنفسه وقصد الديرة التي خارج قارا، فقتل من بها ونهبها، ثم عاد وأمر العسكر بالركوب، وقصد التل الذي بظاهر قارا من جهة الشمال، واستدعى أبا العز الريس بها، وقال له: «نحن بقصد الصيد، فمر أهل قارا بالخروج بأجمعهم». فخرج منهم جماعة إلى ظاهر القرية، فلما أبعدوا عنها، أمر بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم إلا من هرب واختفى بالعمائر والآبار، وعصى بالأبرجة بها جماعة فأمّنوا وأخذوا أسرى، وكانوا ألفاً وسبعين نفراً من رجل وامرأة وصبي. وانتمى جماعة إلى أبي العز ريسها فأطلقهم السلطان له، ثم أمر بتوسيط[2]

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) في الأصل: «يتوسط». والتصحيح يقتضيه السياق.

الرهبان الذين حضروا بالضيافة فوسطوا. وتقدم إلى العسكر بنهب قارا فنهبوها[١]، ثم أمر أن يجعل كنيستها جامعاً، ونقل إليها الرعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس، ورتب فيها خطيباً وقاضياً، وكانت قبل ذلك يسكنها النصارى، وكان السبب في إبقاء الرئيس أبي العز أن السلطان الملك الظاهر لما ساق خلف التتار بعد وقعة عين جالوت مر بقارا فخرج إليه هذا الرئيس وأضافه، فرعى السلطان له ذلك وأحسن إليه.

وبيعت أولاد أهل قارا فتربُّوا بين المماليك وتَكَلَّمُوا باللغة التركية، ثم صاروا بعد ذلك أجناداً، وتأمر منهم جماعة وتولوا الأقاليم الكبار والمناصب بالديار المصرية، وتمولوا.

قال: ولما فرغ السلطان من قتل أهل قارا ونهبها توجه إلى حماه، فعيّد بها عيد الأضحى، وسار منها[٢] إلى أفامية[٣]، ورحل للقاء العساكر في ثالث عشر ذي الحجة. وكان قد أُفْرِد نصيب السلطان من الغنائم، ففرق ذلك على عساكره.

وأحسن إلى صاحب سيس ومن معه في الأسر، وعاد إلى دمشق في رابع وعشرين الشهر فدخلها مطلّباً[٤] وصاحب سيس وابن عمه وأصحابه بين يديه، وخلع على الملوك والأمراء والأكابر، وسير لصاحب حماه ولأصحابه الخيول والخلع والأموال، وودعه، وتوجه إلى مملكته.

وخرج السلطان من دمشق في ثاني المحرم على ما قدمناه.

ذكر وقعة مع الفرنج كانت النصرة فيها للمسلمين

وفي المحرم سنة خمس وستين وستمائة[٥]: بلغ العسكر الصفدي[٦] أن العدو أجاز على بلد طبرية، فركب العسكر وطلبوا جهة عكا، فلما وصلوا إلى وادي علين[٧] خرج عليهم الفرنج، وكان قد وصلهم نجدة من قبرص وغيرها، فضرب العسكر معهم

(١) في الأصل: «فنهب». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «معها». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام. وكورة من كور حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.
(٤) مطّلبا: أي في استعراض رسمي.
(٥) الموافق: ١٢٦٦ م.
(٦) أي نسبة إلى صفد. وصفد: مدينة مطلة على حمص بالشام. وهي من جبال لبنان. ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤١٢.
(٧) هكذا في الأصل.

مصافاً فانكسر الفرنج، وكانت عدتهم ألف ومائة فارس فقتل أكثرهم، وعملت أعزبة عظيمة بعكا لمن قتل من ملوكهم في هذه الوقعة.

ذكر إغارة السلطان على عكا

قد ذكرنا أن السلطان توجه إلى الشام لعمارة صفد في سنة خمس وستين وستمائة، وأن رسل الفرنج أتوه بها وتحدثوا معه في أمر بلادهم. وأجابوا إلى ما قاله لهم من مناصفة صيدا وهدم الشقيف.

قال: وأنكر السلطان عليهم إغارتهم على مشغر، وأقيموا قياماً مزعجاً، وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية[١] للغارة. وركب السلطان، والفرنج قد اطمأنوا بإرسال رسلهم إليه[٢]، فما أحسّوا إلا والعساكر قد وصلت إليهم. وساق السلطان ونزل على باب عكا بتل الفضول، وأحضرت إليه رؤوس القتلى من كل جهة، وضرب دهليزه تحت التل وبات فيه، ثم أصبح على تلك الحالة، وعاد إلى جهة صفد.

ووصلت رسل سيس بالهدايا فشاهدوا، هم ورسل الفرنج رؤوس القتلى على الرماح. وأحضر جماعة ممن أسر في هذه الغارة فقتلوا في صفد.

وطلب السلطان رسل الفرنج وقال: «هذه الغارة قبالة إغارتكم على بلاد الشقيف». ولم ينتظر أمر الصلح، فردّ الرسل الفرنجية بغير جواب.

وركب [السلطان][٣] في حادي وعشرين شعبان من السنة وساق [من صفد][٤] إلى عكا، فما علموا إلا وهو على أبوابها، فقسّم الحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار للهدم والقطع. وعمل اليزك بنفسه على باب عكا تحت ذيل التل. وأقام أربعة أيام حتى تكامل الهدم والإحراق والقطع، وسير إلى طاحون كردانة التي لبيت الاسبتار فهدمها.

وفي هذه الأيام أحضر رسل سيس ورسل بيروت [هدايا][٥] وجماعة من أسرى المسلمين وردوا مال التجار، وكتبت أجوبتهم وتوجهوا.

وفي شهر رمضان وصل رسل[٦] صور وسألوا استمرار الهدنة. فقال السلطان:

---

(١) خفية: كان مما فعله السلطان لإخفاء هذه السرية، التي كانت مكونة من فرقتين من الخيالة، أنه ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار، والثانية ملابس فرسان الداوية. King: the knights hospitallers in the Holy Land. p 292.

(٢) في الأصل: «إليهم». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) (٤) (٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٩.

(٦) في الأصل: «رسول». والتصحيح يقتضيه السياق.

«أنا ما فعلت ما فعلت إلا لأنكم قتلتم السابق شاهين غلامي، وإذا قمتم بديته استمرت الهدنة». وأحضر أولاد السابق شاهين فقرر دينه خمسة عشر ألف دينار صورية، أحضر الرسل نصفها وجماعة(١) من أسارى المغازية(٢) واستمهلوا بالبقية. وقال السلطان: «تبنين وهدنين وبلادهما [بلاد](٣) أخذتهما بسيفي وصارت للإسلام فاستقرت للمسلمين». وأجيبوا إلى الصلح وكتبت الهدنة لمدة عشر(٤) سنين.

واستقرت أيضاً قاعدة الصلح ببيروت بعد أن تقرر عليهم أن يردوا أموال التجار الذين كانوا أخذوا بمراكب(٥) الأتابك وإطلاقهم وثمن المراكب. ثم قبلت هديتهم واستمرت هدنتهم.

ذكر الصلح مع بيت الاسبتار على حصني الأكراد والمرقب(٦)

كان بيت الاسبتار قد تقدم طلبهم لذلك. فاستقر هذا الأمر بشرط أن الفسخ يكون للسلطان وحضرت رسلهم الآن، والتمسوا أن يحلف لهم السلطان. فقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر(٧) ساعات وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وهي ألف ومائتا دينار، ومائة مُدّي حنطة وشعيراً، وعن مملكة حماه وهي أربعة آلاف دينار، وعن شيزر وأفامية وهي في كل سنة على أبو قبيس ستمائة دينار مصرية، وعلى عينتاب(٨) خمسمائة دينار صورية، والرسم المعروف بالمفادنة، وهو عن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم. وسير لاستحلاف مقدم الاسبتار، الأمير فخر الدين المقري والقاضي شمس الدين ابن قريش كاتب الدرج.

ذكر فتوح يافا

قال: كان الصلح قد استقر بين السلطان وصاحب يافا جوان ديكين، فصار نوابه يَتَعدَّون، وسيروا مُتَجَرِّمَةً في زي صيادين إلى قطيا. فاتفق هلاك صاحب يافا وقيام

(١) في الأصل: «وجمع». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «المغازية». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٥٩. وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 42.
(٣) زيادة يقتضيها سياق تركيب الجملة.
(٤) في الأصل: «عشرة».
(٥) في الأصل: «مركب». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٠، س ١.
(٧) في الأصل: «عشرة». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٨) في الأصل: «عناب». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٤، ٥٩٩، ٦٠٠.

ولده جاك[١] بعده.

ولما كان السلطان على صفد لعمارتها حضر إليه قسطلان[٢] يافا وسأله في هدنة لولد صاحبها. فامتنع السلطان من ذلك. ثم وصلت الأخبار أن أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا، وكانت ممنوعة عنها. وأقاموا في يافا حانة وأوقفوا فيها عدة من المسلمات، واعتمدوا أسباباً ليست في هدنة.

فلما كان في سنة ست وستين وستمائة[٣]، خرج السلطان من الديار المصرية متوجهاً إلى الشام، وذلك في مستهل جمادى الآخرة، ورحل في ثالثه فوصل إلى غزة، وبلغه أن جماعة من الجمالين تعرضوا إلى الزرع فقطع أنوفهم. وبلغه أن علم الدين سنجر الحموي أحد أمرائه، ساق في زرع فأنزله عن فرسه وأعطاه [وأعطى][٤] سرجه ولجامه لصاحب الزرع، ونزل السلطان على العوجاء فحضر إليه القسطلان وأكابر يافا، فعوقوا إلى أن يخرجوا من الدعاوى. فبذلوا للسلطان تسليم المدينة والقلعة على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم. فأجيبوا إلى ذلك.

وركب السلطان في العشرين من جمادى الآخرة وساق إليها وما أحسّ أهلها إلا والعساكر قد أطاقت بها. وأخذ الأتابك من حصل معه الحديث منهم وحضر به إلى يافا، فما تفاوضوا في الحديث إلا والعسكر قد طلعتها من كل جانب، وفتحت أبوابها. ثم زحفوا على القلعة فسلمها أهلها في اليوم الثاني، ومنع السلطان من نهبها، وطلع إلى القلعة وجهز أهلها إلى مأمنهم، وجرد معهم الأمير بدر الدين بيسري. وشرع في هدم القلعة فهدمت، وأخذ من أخشابها وألواح رخام وجدت فيها ما أوسق بها مركباً وسيرها إلى القاهرة. ورسم بعمل ذلك الخشب مقصورة في الجامع الظاهري بالحسينية والرخام لمحرابه. ورتب السلطان الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس في غيره، وجعل مأكوله ومشروبه منه. وملك الأمير علاء الدين منها قرية، والأمير علم الدين سنجر الحموي قرية. ورتب إقامة التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها، وقرر عليها خيلاً وعدة، ورسم بتجديد مقام الخليل، عليه الصلاة والسلام، وعمل مكان الخوان ناحية من الحرم[٥].

---

(١) هكذا في الأصل.
(٢) معناه حاكم المنطقة أو القلعة. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.
(٣) الموافق: ١٢٦٧ م.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٤.
(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٥.

وهذه يافا فتحها عمرو بن العاص في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويقال: بل فتحها معاوية، ذكره البلاذري[١]. وذكر عز الدين بن عساكر[٢] أن الملك طنكي بناها في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة[٣]، ونزل عليها السلطان الملك الناصر رحمه الله، في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[٤]. فخرج البطرق وجماعة منها وسألوا السلطان على أنهم يسلموها بالأمان ويكونوا أسارى، واستمهلوا في التسليم إلى الصبح[٥] فأمهلهم. فوصل ملك الأنكتير في تلك الليلة إليها ودخل قلعتها، ونقض ما كان تقرر، فرحل السلطان عنها ونزل اللاطون[٦]. ثم نزل عليها الملك العادل بعساكر ولد أخيه الملك العزيز صاحب مصر ففتحها في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة[٧]. هكذا حكاه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في فتحها، وقد تقدم أنها من الفتوح الناصرية[٨].

قال: وما حضر الأنيرور فرديك في أيام الملك الكامل نزلها وحصن قلعتها وبناها. وما حضر الريدفرانس بعد خلاصه من الأسر في سنة ثمان وأربعين وستمائة[٩]، عمّر مدينتها وأنفق عليها أموالاً كثيرة.

قال: ولما فرغ السلطان من هدم يافا رحل عنها في ثامن عشر رجب، ووصل إلى صفد ثم منها إلى الشقيف.

ذكر فتوح شقيف أرنون

كان السلطان قد كتب إلى الأمير جمال الدين النجيبي، نائب السلطنة بالشام،

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن جابر. مؤرخ، جغرافي، نسابة، جالس المتوكل العباسي وتوفي في أيام المعتمد سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م. سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة ص ٥٨٤. مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مجلد ١٦، ص ١٣٩.

(٢) هو علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم. مؤرخ، كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني (صاحب الأنساب) في رحلاته. توفي سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٣٥؛ طاش كبري زادة: مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢١٦.

(٣) الموافق: ١٠٩٩ م.

(٤) الموافق: ١١٨٢ م.

(٥) في الأصل: «الصفح» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٦) هكذا في الأصل.

(٧) الموافق: ١١٧٥ م.

(٨) في الأصل: «الناصري». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٩) الموافق: ١٢٥٠ م.

بتجهيز العسكر الشامي إلى أن يحضر بريدي يسير قدامهم. ولما خرج إلى الشام في هذه السفرة توجه البريدي. وكان السلطان قد قرر مع النجيبي أمارة يمسكها البريدي من يده، فوصل البريدي وأمسك الأمارة من يده. فأحضر الأمراء للوقت ورسم لهم باتباع البريدي، فسار بهم إلى بانياس، فأخرج لهم بريدي آخر كتباً مختومة في بانياس للأمير علم الدين الحصني والأمير بدر الدين الأتابكي متضمنة منازلتهم للشقيف، وأنهم لا يجذبون قتالاً ولا غيره، فما عرف بهم إلا وقد نازلوا الشقيف. وكان جماعة من الفرنج قد توجهوا من الشقيف إلى عكا وصيدا، فنازله[١] العسكر قبل حضورهم[٢]، وسار بعض العسكر إلى جهة صيدا فأسروا وقتلوا. وجهز هذا العسكر أخشاب المجانيق والستائر. ثم جهز السلطان بعد فتوح يافا الأمير بدر الدين بكتوت من عكا[٣] بعسكر مصري فنزلوا على الشقيف. وتوجه السلطان فوصل إليه يوم الأربعاء تاسع شهر رجب، فأقام منجنيقين ورمى بهما في اليوم الثاني من وصوله.

واتفق أن الفرنج الذين بالشقيف كانوا سيروا شخصاً إلى عكا لما نزل عليها العسكر الشامي يعلمونهم بحالهم ويذكرون لهم عورات الحصن[٤]، فسيروا[٥] الجواب. فلما وصل القاصد وحضر إلى السلطان وأحضر رسالة أخوية أهل عكا إليهم[٦] [تتضمن إعلام النواب الشقيفين أن المسلمين لا يقدرون على أخذ الحصن إن احتفظتم به فجدوا في أمركم][٧]. فحصل التحيل في قراءتها، وعلم منها أسماء المقدمين الذين بالشقيف، فكتبت الأمارات لهم بأسمائهم ورمى بها إلى الحصن بالنشاب. وكتب أحد التراجمة عوض رسالة أخوية عكا، وعكس عليهم فيها القضايا. وكان في الكتاب أن الوزير لا يكون خاطره متغلثاً[٨] بسبب المصادرة له، ففي ساعة يمكن تعويضه عن ذلك، فعكس ذلك: وقيل للمقدم بالشقيف يحترز من الوزير كليام، ففي قلبه إحنة من مصادرتنا له، وأغرى بينهم بهذا القول وما يناسبه. ورميت هذه الكتب في سهم فحصل[٩] الاختلاف بينهم، ووجدوا الأمانات التي كانت كتبت

---

(١) المقصود: نازل العسكر حصن الشقيف.
(٢) المقصود: الفرنج الذين توجهوا من الشقيف إلى عكا صيدا.
(٣) في الأصل: بجكا. والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) أي حصن الشقيف.
(٥) أي أهل عكا.
(٦) أي إلى أعيان حصن الشقيف.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٨) في الأصل: «متعلماً».
(٩) في الأصل: «لتحصل».

للمقدمين، فأمسكوا جماعة وتوهموا من الوزير. وكان الفرنج لما تسلموا الشقيف من الملك الصالح إسماعيل، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة[(١)]، هو وصفد، عمروا إلى جانبه قلعة أخرى، فعجزوا في هذا الوقت عن حماية جهتين. فلما كان في ليلة الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب عمدوا إلى هذه القلعة المستجدة وحرقوا جميع ما بها من غلة وقماش وغيره، وانتقلوا إلى القلعة المستقرة، وأصبح المسلمون وتسلموها، وقدمت المجانيق إلى هذه القلعة في سابع وعشرين الشهر ورمى بها. وأقام السلطان في سطح برج من أبراجها بالقرب من العدو، فعرف الفرنج موضعه فرموا حجراً قريباً منه فقتل ثلاثة نفر، ولم ينتقل السلطان عن موضعه. وكان باب هذه القلعة تجاه باب القلعة الأخرى، فعمل السلطان سرباً طويلاً في أعلى القلعة نازلاً إلى أسفلها وصار يتعلق به ويطلع وينزل وهو لابس عدته[(٢)].

قال: واشتد القتال، فبينما الناس في ذلك وإذا بالوزير كليام قد خرج مستأمناً، ثم سألوا الأمان على نفوسهم وأنهم يؤخذون أسارى، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال، فأجاب السلطان إلى ذلك. وفي يوم الأحد سلخ شهر رجب سنة ست وستين وستمائة، استدعوا الصناجق فرفعت على القلعة. وسير الأمير بدر الدين الخزندار فتسلمها، وخرج الفرنج إلى الخنادق فقيدوا، وأخرج النساء والأطفال، وجرد الأمير بدر الدين بيسري الشمسي صحبتهم فأوصلهم إلى جهة صور، وسلم الرجال إلى العساكر[(٣)].

قال: وهذا الشقيف من أحصن المعاقل وأحسنها وكان مضرة على بلاد الصبيبة. وكان الملك العادل الكبير قد جدده، وما زال في يد الإسلام إلى أن سلمه الصالح إسماعيل للفرنج على ما قدمناه.

قال: ولما قدر الله تعالى فتح الشقيف، اتفق [السلطان][(٤)] في جميع العساكر وخلع على الملوك الذين في خدمته، مثل: الملك المنصور صاحب حماه وأخيه، وأولاد صاحب الموصل، والملك الأمجد بن العادل، وغيرهم من أولاد الملوك، وعلى الأمراء والمقدمين، ومن جرت عادتهم بالخلع. وشرع السلطان في هدم القلعة المستجدة فهدمت إلى الأرض ورتب الأمير صارم الدين قايماز الظافري[(٥)] نائباً لهذه

---

(١) الموافق: ١٢٤٠ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٥.

(٣) انظر السلوك، ج ١، ص ٥٦٦.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) هكذا في الأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦، س ٢: «الكافري».

القلعة، ورتب فيها الأجناد والرجالة، ورتب بها قاضياً وخطيباً[(١)]، وأقيمت شعائر الإسلام بهذه القلعة وجميع تلك البلاد، وولي الأمير سيف الدين بلبان الزيني عمارتها، وكان قد خرج منها جماعة من المسلمين حالة الحصار فكتب لهم السلطان فدنا وقفاً عليهم.

ذكر توجه السلطان إلى طرابلس[(٢)] وإغارته عليها

كان بيمند صاحب طرابلس قد كثر تعديه على بلاد الإسلام، وأخذ البلاد المجاورة له بعد زوال الأيام الناصرية واستيلاء التتار على الشام، وكان من أكبر أعوان التتار. فلما رحل السلطان من الشقيف نزل قريباً من جسر بانياس، وجهز الأثقال إلى دمشق وجرد الأمير عز الدين إيغان بجماعة وتوجهوا من جهة، والأمير بدر الدين الأيدمري بجماعة من جهة أخرى، فحفظت الطرقات وامتلأت بالعساكر، وتوجه إلى طرابلس على جهة جبال الطنيين[(٣)]، وكان البرنس قد وعَّر الطرقات، فوصل السلطان في نصف شعبان وملك هذه الجبال التي يقول فيها المتنبي[(٤)]: [الطويل]:

وَجِبَالُ[(٥)] لُبْنَانٍ وَكَيْفَ بِقَطْعِهَا ... وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ

لَبَسَ الثُّلُوجُ بِهَا عَلَيَّ مَسَالِكِي ... فَكَأَنَّهَا بِبَيَاضِهَا سَوْدَاءُ

وخيم السلطان قريباً من طرابلس واستمر على الركوب إليها، والعساكر تناوش أهلها القتال ويرامونهم[(٦)] بالنشاب، وافتتح برجاً قد عصى فيه جماعة من الفرنج [و][(٧)]ضرب رقابهم، وجرد جماعة خربوا الحرث ونهبوا تلك الجبال وأخذوا عدة مغاير بالسيف. وقطعت الأشجار وهدمت الكنائس وقنى المياه والقناة الرومانية، وقسم السلطان الغنائم في العساكر ورحل عن طرابلس في العشر الآخر من شعبان من السنة.

ذكر فتوح أنطاكية[(٨)]

لما رحل السلطان عن طرابلس لم يطلع أحداً على الجهة التي يقصدها، فتوجه

---

(١) في الأصل: «قاضٍ وخطيب». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦، س ١٥.
(٣) هكذا في الأصل.
(٤) ديوانه، ج ١، ص ١٨.
(٥) في الديوان، ج ١، ص ١٨: «وَعِقابُ».
(٦) في الأصل: «ويراموهم». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٨) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧.

إلى حمص في سابع وعشرين شعبان، وأمر ببناء مسجد بحمص، ولما وصل إلى حماه رتب العساكر ثلاث فرق: فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار، وفرقة معه الأمير عز الدين إيغان، وفرقه صحبة الركاب السلطاني.

فتوجه الأمير بدر الدين الخزندار إلى السويدية، وتوجه الأمير عز الدين إيغان إلى الدرب ساك، فقتلوا وأسروا. وتوافوا جميعهم بأنطاكية، ونزل السلطان أفامية، ومنها إلى جسر تحت الشغر وبكاس، وأصبح مغيراً على أنطاكية وذلك في مستهل شهر رمضان.

وتقدم في الجاليش(١) الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار، فصادف جماعة من عسكر أنطاكية، وانتشبت الحرب بينهم، فحمل أحد أجناد الأمير شمس الدين أقسنقر وهو فلان الدين المظفّري على كنداسطبل(٢) فأسره وأحضره إلى السلطان، فأمّره السلطان وأحسن إليه. وأطافت العساكر بأنطاكية من كل جانب. وكان النزول عليها بالخيام والثقل، بكرة يوم الجمعة ثالث شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة(٣). ولما حضر كنداسطبل إلى السلطان رآه رجلاً عاقلاً، فسأل أنه يدخل إلى أنطاكية ويتوسط لأهلها، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة. فسيَّر كنداسطبل [من](٤) أحضر ولده رهينة، ودخل البلد وتحدث، وخرج مع جماعة من القسيسين والرهبان، وأقاموا يترددون ثلاثة أيام فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس. وفي بكرة السبت أنذرهم بالزحف، وصبر حتى دخل الأقساء والرهبان إلى أنطاكية، ورسم بالزحف. فزحفت العساكر وأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، فتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ونزلوا المدينة، فهرب أهلها إلى القلعة. وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر، وما رفع السيف عن أحد من الرجال بالمدينة، وكان بها فوق المائة ألف نفر. وأخذ التركمان من الغنائم ما لا يحصى. ثم رسم السلطان بحفظ أبواب المدينة والاحتراز عليها. وأما القلعة فاجتمع فيها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد، فتحاشروا بها فمات عالم. وأما البالي(٥) والوزير الوالي فإنهم لما شاهدوا هذا الحال

---

(١) الجاليش: هنا مقدمة القلب. وقد سمي بذلك لأن ترتيب جاليش السلطان في المواقع التي يحضرها، يكون عادة في ذلك الوضع من جميع الصفوف. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) كنداسطبل: معناه حاكم القلعة وحارسها. وهو لفظ لاتيني مركب. ويقابله في مصطلح الدول الإسلامية لفظا «الدزدار» و«المستحفظ». انظر: Dozy: Ibid.

(٣) الموافق: ١٢٦٧ م.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) البالي: وظيفة من الوظائف الإدارية الفرنسية في العصور الوسطى. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

هربوا رجالة في الليل، تدلوا بالحبال، وأصبح أهل القلعة فما وجدوا أحداً منهم، ولم يكن بالقلعة ماء ولا طواحين تكفيهم. فسيروا يوم الأحد ثاني يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى. فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من في القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة واستغاثوا للسلطان، فعفا عنهم من القتل، وأحضرت الحبال فربطوا بها، وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى، وكذلك كل مقدم، والكتاب ينزلون ذلك، وكتبت كتب البشائر، ومن جملتها كتاب[١] إلى صاحب أنطاكية: نسخته بعد البسملة:

«قد علم القومص[٢] الجليل [المبجل المعزز الهمام، الأسد الضرغام، بيمند فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة العيسوية][٣] بيمند المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية [منه][٤] من البرنسية[٥] إلى القومصية، ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده. ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمار، وكيف كُنست تلك الكنائس من بساط الأرض، ودارت الدوائر على كل دار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قُتلت الرجال، واستُخدمت الأولاد، وتملّكت الحرائر، وكيف قُطعت الأشجار، ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق [إن شاء الله][٦] والستائر، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب[٧] واستخدم الخديم وركب الماشي».

«هذا وأنت تنظر المغشّى عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً: عليّ هذا الصوت، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود، وأخّرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل

(١) انظر نص الكتاب كاملاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦ ـ ٩٦٩ وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, pp 190 - 191.

(٢) القومص: تعريب اللفظ اللاتيني (Comes) وهو في الفرنسية (Comte) وفي العربية: (الكونت). انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦.

(٥) البرنسية: صفة البرنس وهو معرب اللفظ اللاتيني (Princeps) و(Prince) بالفرنسية والإنكليزية. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٦) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦.

(٧) في الأصل: «العزب» والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٩٦٦.

معدود. وكيف فارقنا بلادك، وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية، ولا سارية إلا وهي في أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود، ولا منعتك[١] تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترفة وللعقول خارقة. وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر. وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك، وإن بعدنا فسنعود على الأثر[٢]. وها نحن نبلغك بما تمّ، ونفهمك بالبلاء الذي عم».

«كان رحيلنا عنك [و][٣]عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان. وفي حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكُسروا، وتناصروا فما نُصروا، وأسر من بينهم كنداسطبل، فسأل مراجعة أصحابك. فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك في إتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وأن رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا: «نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر» فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك، ففي بعض ساعة مرشان المرشان[٤]، وداخل الرهب الرهبان. ولأن للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان»[٥].

«وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة في يوم السبت رابع شهر رمضان، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها. فلو رأيت خيَّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول، والكسّابة[٦] فيها تجول، وأموالك وهي

(١) في الأصل: «منعت». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٩٦٧، س ٤.

(٢) في الأصل: «الأمر». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٩٦٧، س ٧.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) مرشان المرشان: تعريب لفظ (Mareschal) في الفرنسية القديمة، وهو مأخوذ من اللفظ اللاتيني (Mariscalcus) ومعناه في المصطلح الأوروبي في العصور الوسطى: «منظم الحفلات والمجالس في البلاط». وربما كان مرادفه في مصطلح دولة المماليك وظيفة «أمير مجلس». انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٧.

(٦) أي الذين كان همهم كسب الغنائم. انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 193.

توزن بالقنطار، وداماتك[١] وكل أربع منهن تباع، فتشتري من مَالِكَ بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نُثرت[٢]، وقبور البطارقة قد بُعثرت. ولو رأيت عدوّك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دُهموا بَطارقَة، وأبناء الملوك[٣] وقد دخلوا في المملكة. ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق، والقتلى بنار الدنيا قبل الآخرة تحترق، وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان[٤] قد زلّت كل منها وزالت، لكنت تقول: «يا ليتني كنت تراباً[٥]، ويا ليتني لم أُوْتَ بهذا الخبر كتاباً»» ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفىء تلك النيران بماء عبرتك. ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك، ومراكبك وقد أُخِذت في السويدية بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، لتيقنت أن الإله الذي أنطاك[٦] أنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قَلَعَها، ومن الأرض اقتلعها. ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام وهو: دير كوش، وشقيف تلميس، وشقيف كفردنين، وجميع ما كان من بلاد أنطاكية، [و][٧]استنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر، فلو استطاع لما سُمِّي بالعاصي، وقد أجرى دموعه ندماً، وكان يذرفها عبرة صافية، فهو أجراها بما سفكناه فيه دماً».

«وكتابنا هذا يتضمن البُشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر، بكونك لم تكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلاً، وإما أسيراً، وإما جريحاً، وإما كسيراً. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الأموات، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خَبَّرْناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك

(١) أي النساء. وهذا اللفظ تعريب للكلمة الفرنسية (Dames). انظر: Quatremère: Ibid. V 2. p 191.

(٢) في الأصل: «نشرت». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٨، س ٤.

(٣) في السلوك، ج ١، ص ٩٦٨، س ٦: المملكة.

(٤) هكذا في الأصل. انظر: Quatremère: op. cit, V 2, p 191.

(٥) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿... وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

(٦) أنطاك بمعنى أعطاك، انظر السلوك، ج ١، ص ٩٦٨، س ١٢.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك، لتتحق الأمر على ما جرى. وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها مخبراً»(١).

قال: ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب.

ولما تسلم السلطان القلعة سلمها للأمير بدر الدين [بيليك](٢) الخزندار والأمير بدر الدين بيسري الشمسي. وأما كنداسطبل فإن السلطان أطلقه وأطلق أهله وأقاربه، فاختار التوجه إلى سيس، ففسح له في ذلك.

ذكر ملخص أخبار أنطاكية

ذهب المفسرون لكتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣﴾ [يس: ١٣] أن القرية أنطاكية.

وقال أصحاب الأخبار فيها: إن الملك أنتيوخس قصد بناء مدينة يعمرها لتكون نسبتها إليه، فسير حُكَمَاء ووُزراء لاختيار مكان يكون طيب الهواء والماء، قريباً من البحر والجبل، فوجدوا هذا المكان. فاختاروه لأنه جبلي بحري(٣) يحكم عليه الهواء الغربي، وعيون الماء العذبة حوله، والبحيرة الحلوة شرقية، والبحر المقلوب، وهو العاصي، خارج سورها وعليه طواحينها، وفيه المراكب تحمل الغلات إليها وغير ذلك، فعرفوا ملكهم هذه الصفات، فأمر ببنائها، وأخرج النفقات، وطلبوا حجراً جيداً لبنائها، فوجدوه في مسافة يومين منها. فاستخدم لها من الرجال والبنائين ثمانين ألف رجل وثمانمائة رجل، ومن العجل ستمائة عجلة، وألف وتسعمائة حمار، ومائة زورق لنقل الحجارة، خارجاً عما في ميناء السويدية من العجل والرجال والزوارق التي تحمل الرخام والعمد والقواعد. فنجزت في ثلاث سنين ونصف، وبنيب أسوارها وأبراجها وهي مائة وثلاثة وخمسون برجاً، ومائة وثلاثة وخمسون بدنة، وسبعة أبواب، منها خمسة كبار وبابان صغاراً(٤). وجعل فيها سبع عوادي ترمى إلى النهر عند الوادي

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٦ ـ ٩٦٩؛ وكتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، وانظر: Quatremère: op. cit, V 2, pp 190 - 191.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) في الأصل: «جبلياً بحرياً». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) هكذا في الأصل.

المسمى الحسكروت، وجعل منه باب[1] في الجبل ينزل منه إلى المدينة، وعليه قناطر يعبر الناس عليه، وإذا امتلأ يخرج من تحت السور، وساقوا الماء إليها في قناتين: البوليط والعاوية.

ولما فرغت حضر الملك إليها ورآها، فأكرم الصناع ومدّ لهم طعاماً ثلاثة أيام، وأمر ببناء الأدر والدكاكين، فشرع الناس في بنائها، ووهب كل من يحضر إليها وينزل حولها خراج ثلاث سنين، وبنى الكنائس وبيوت عباداتهم فاجتمع العالم إليها.

واتفق أن الملك جلس في بعض الأيام وهو مسرور وفرح، فقال له وزيره: «لو عرفت ما أنفقت في هذه المدينة ما كنت تفرح» فاستيقظ لنفسه، وأمر بعمل حساب ما أنفق فيها سوى الضيافات والجواميس التي أخذت من المروج والبهائم بغير ثمن، فجاءت أربعة آلاف قنطار وخمسين قنطاراً ذهباً، فعظم ذلك عنده، وأمسك عن العمارة، وشرع في بناء مدائن تغل، فبنى سبع مدائن، وأسكن الناس فيها. واستمرت في يد الملك، ومن ملك بعده، وعمارتها تتزايد، وكل ملك يؤثر بها تأثيراً، ويجدد بها طلسماً إلى أن ظهر المسيح عليه السلام.

وما زالت في يد الروم إلى أن فتحها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما قدمناه في خلافته، ولما ولي معاوية بن أبي سفيان نقل إلى أنطاكية في سنة اثنتين وأربعين جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص، وكان منهم: مسلم بن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن مسلم الأنطاكي، ولم تزل بيد عمال الخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية، ثم استقرت في يد بني حمدان. فلما مات سيف الدولة ابن حمدان اتفق أهلها أنهم لا يمكنون أحداً من الحمدانية يدخلها، وولوا شخصاً يسمى بغلوش الكردي، وكان قد ورد الغزاة من خراسان خمسة آلاف رجل فأمسكهم وتقوى بهم واشتد أمره، وكان منهم رجل أسود من الصعاليك يعرف بالزعلي قد جمع طائفة وسموا نفوسهم بالغزاة. فدخل يوماً عليه السلام، فقتل الكردي وهرب أصحابه؛ واستولى الأسود على المدينة هو ومن معه. وكان بغراس نائب للروم اسمه ميخائيل البرجي وبطرس. فحضرا إليها في جمع كبير، فعجز المسلمون عن حفظها لاتساعها، فملكها الروم في يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة[2]. فطرح المسلمون النار بينهم وبين الروم، وفتحوا باب البحر وخرجوا منه. وأسر الروم جميع من كان بها من المسلمين، فقوي الروم بفتحها، وتوجهوا إلى حلب

(١) هكذا في الأصل.
(٢) الموافق: ٩٦٨ م.

فصالحهم أهلها وأهل حمص على مال يحمل في كل سنة إلى ملك الروم وهو عشرة قناطير ذهباً، ومن كل مسلم دينار سوى ذوي العاهات، وأقامت إلى سنة ست وستين وثلثمائة[١]، فسير جعفر بن فلاح غلامه «فتوحاً» إلى أنطاكية فحاصرها خمسة أشهر فلم يظفر بها. وحدثت في هذه السنة زلزلة عظيمة هدمت قطعة من سورها فأنفذ ملك الروم ثانياً، اثني عشر ألف ديناراً وصناعاً[٢] لإصلاح ذلك، فبنيت أحسن ما كانت. وبنى قلعتها لاون بن الفقاس وحصنها، وكان في خدمته جماعة من الأرمن، ومات فكمل عمارتها الملك بسيل وهو الذي وجد له لما مات ستة آلاف قنطار ذهباً، ولما ولي كان في حاصل بيت المال أربعة قناطير لا غير، وهو الذي ملك أرجيش من بلاد أرمينية في سنة خمس عشرة وأربعمائة[٣]، وكان ملكه تسعاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً. وبقيت في أيدي الروم إلى أن فتحها الملك سليمان بن قتلمش السلجقي في سنة سبع وسبعين وأربعمائة[٤] على ما أوردناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل في سنة تسع وسبعين وأربعمائة[٥]، فصارت بيد وزيره الحسن بن طاهر الشهرستاني يتولى أمرها. فلما استرد السلطان ملكشاه بلاد الشام استردها وضمها إلى الوزير المذكور، فأقام بها إلى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة[٦]، ثم فارقها [الوزير][٧] ودخل الروم، فسلمها لباغي شيان بن ألب [أرسلان][٨] وكانت بنته متزوجة للملك رضوان صاحب حلب.

وحدثت زلزلة بأنطاكية في التاسع عشر من شعبان سنة أربع وثمانين وأربعمائة[٩] خربت دورها وأهلكت خلقاً كثيراً، ورمت من أبراجها نحو السبعين برجاً، فتقدم السلطان بعمارة ما انهدم في سنة خمس وثمانين.

واستمرت أنطاكية بيد ملوك الإسلام إلى أن ملكها الفرنج في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة[١٠] على ما قدمناه. وكان قد اجتمع عليها جماعة من ملوك

---

(١) الموافق: ٩٧٦ م.
(٢) في الأصل: «صناع».
(٣) الموافق: ١٠٢٤ م.
(٤) الموافق: ١٠٨٤ م.
(٥) الموافق: ١٠٨٦ م.
(٦) الموافق: ١٠٨٨ م.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٨) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٩) الموافق: ١٠٩١ م.
(١٠) الموافق: ١٠٩٧ م.

الفرنج والملك الكبير المشار إليه منهم اسمه كندفري، فقرر أن كل ملك من الملوك يحاصرها عشرة أيام، ومن فتحت في نوبته فهي له، ففتحت في نوبة ملك منهم اسمه ميمون. فلما اتصل ذلك بملوك الإسلام بالشام اجتمعوا ومقدميهم ظهير الدين طغرتكين صاحب دمشق، وجناح الدولة حسن صاحب حمص، وكربغا صاحب الموصل، وحاصروا أنطاكية، وكان الفرنج في قل، فسألوا الأمان ليخرجوا منها فلم يجيبوهم، ووقع تنافس بين المسلمين فخرج الفرنج إليهم فانهزموا من غير قتال. وبقي ميمون مالكها حتى كسره الدانشمند وأسره وقتل أكثر عسكره، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة[(١)]، فاشترى نفسه بعد ذلك بمائة ألف دينار، واستخلف ميمون فيها ولد أخيه طنكري، وركب في البحر وسار إلى بلاده ليستنجد الفرنج ويعود، فأهلكه الله تعالى. واستمر طنكري مالكاً لأنطاكية وأعمالها إلى أن أهلكه الله تعالى في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ست وخمسمائة[(٢)]، وملكها بعده روجار. وكان طنكي[(٣)] قد استدعاه من بلده وجعله ولي عهده، وهو الذي حضر إلى بيت المقدس في ملك بغدوين، وكان بغدوين شيخاً كبيراً، فاجتمعا بالبيت المقدس وقررا عهداً: أن من مات منهم قبل الآخر انتقل ملكه إلى الباقي منهما. وتزوج روجار بنت بغدوين، فقتل روجار في حرب كانت بينه وبين نجم الدين إيلغازي بن أرتق في يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وخمسمائة[(٤)]. فقتل روجار وجميع من معه، فسار بغدوين إلى أنطاكية وملكها، وأقام بها إلى أن وصل شاب، في ثامن عشر شهر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة[(٥)]، من الفرنج في البحر، وادّعى أنه ميمون بن ميمون الذي كان صاحب أنطاكية، فسلم بغدوين أنطاكية له فملكها. وكان شجاعاً مقداماً، وأقام بها إلى أن سار نحو الدروب فلقيه ابن الدانشمند فكسره وقتل جماعة من عسكره بأرض عين زرية، وذلك في نصف شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة[(٦)]. وملك بعده الأبرنس، ولقي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي على حصن الأكراد في شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[(٧)] فكُسِر المسلمون وقتل جماعة

---

(١) الموافق: ١٠٩٩ م.

(٢) الموافق: ١١١٢ م.

(٣) في الأصل: «صنكي».

(٤) الموافق: ١١١٩ م.

(٥) الموافق: ١١٣٢ م.

(٦) الموافق: ١١٣٩ م.

(٧) الموافق: ١١٤٨ م.

منهم، واستولى الفرنج على أثقالهم. فجمع نور الدين العساكر، والتقاه في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وخمسمائة[١] فقتله وقتل فرسانه واستولى على خيامه. وولي أنطاكية بعده الأبرنس أرناط، فأقام إلى أن لقيه مجد الدين أبو بكر نائب الملك العادل في المملكة الحلبية، وذلك في صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[٢] فكسره وقتل أصحابه وأخذه أسيراً، فأقام في حبس الملك العادل. وملك أنطاكية وهو في الأسر رجل من ذريته اسمه بيمند وخلص أرناد، وتزوج صاحبة الكرك وأقام بالحصن حتى ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقتله.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة[٣] عقد السلطان الملك الناصر الكبير مع بيمند صاحب أنطاكية هدنة لمدة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى آخر آيار، وحلفا على ذلك، ورحل الناصر عنها وتوجه إلى حلب على ما ذكرناه في أخباره. ثم ملكها الأبرنس المعروف بالأسير، وملكها ابنه من بعده، ثم ملكها بيمند ولده أيضاً، وهو الذي أخذت منه الآن في الدولة الظاهرية.

هذا تلخيص خبر أنطاكية من حين عمرت إلى حين فتحت هذا الفتح.

ذكر ما اعتمده السلطان في قسمة غنائم أنطاكية وإحراقه قلعتها وما افتتحه مما هو مضاف إليها وهو: دير كوش وشقيف كفردنين وشقيف كفرتلميس[٤]

قال: ولما فتحت أنطاكية وفرغ الناس من نهبها، رسم السلطان بإحضار المكاسب للقسمة، وركب وأبعد عن الخيام، وحمل ما غنمه وما غنمه مماليكه وخواصه. وقال للأمراء: «ينبغي أن تخلصوا ذمتكم وتحضروا[٥] ما غنمتموه، وأنا أحلّف الأمراء والمقدمين، وهم يحلفون أجنادهم ومضافيهم». فأحضر الناس الأموال والمصاغ من الذهب والفضة، فطال الوزن، فقسمت النقود بالكاسات والشربوشات[٦]، ولم يبق غلام إلا أخذ. وتقاسم الناس النسوان والبنات والأطفال، وبيع الصغير بأثني

(١) الموافق: ١١٤٩ م.
(٢) الموافق: ١١٥٦ م.
(٣) الموافق: ١١٨٨ م.
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) في الأصل: «تخلصون ذمتكم وتحضرون». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) الشربوشات: قلانس طويلة تلبس بدل العمامة، وقد تستعمل الكيل عند الضرورات، كما قد تستعمل الطاقية للشرب في الريف. انظر: Dozy: Supp. Dict. Ar..

عشر درهماً، والجارية بخمسة دراهم، وباشر السلطان القسمة بنفسه، وما ترك شيئاً حتى قسمه من الأموال والقماش والمصوغ والدواب والمواشي. ثم ركب إلى قلعة أنطاكية وأحرقها وعم الحريق أنطاكية.

وكان صاحب طرابلس قد استولى عند أخذ التتار حلب على دير كوش، وهو من أمنع الحصون، وعلى شقيف كفردنين وعلى شقيف كفرتلميس، وكانت هذه الحصون شجى في حلق المسلمين. فلما فتحت أنطاكية انقطعت حيلة هذه الحصون فطلبوا الأمان، على أنهم يسلمون الحصون ويؤسرون، فسير الأمير بدر الدين بيليك الأشرفي الظاهري، فتسلم دير كوش في ليلة الجمعة حادي عشر شهر رمضان، وتسلم بقية هذه الحصون.

ذكر صلح القُصَيْر على المناصفة(١)

كان القصير للبطرك الكبير خاصة، وزعموا أن بأيديهم خط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نزل السلطان في هذه الجهات بذلوا نصف البلاد للسلطان، فكتبت لهم هدنة، وانضاف إلى مملكة الإسلام نصف بلاد القصير.

ذكر فتوح حصن بغراس من الديوية(٢)

قال: ولما فتح الله تعالى هذه الحصون والجهات على السلطان ولم يبق بتلك الجهات سوى بغراس، خاف من بها من الديوية، فانهزموا وتركوه. فجهز السلطان الأمير شمس الدين أقسنقر [الفارقاني](٣) استاد الدار العالية بعسكر فتسلمه في يوم السبت ثالث عشر شهر رمضان من السنة، ولم يجد به سوى امرأة عجوز، ووجده عامراً بالحواصل والذخائر.

وقال البلاذري: كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سبيل البر، ولمّا قصد المسلمون غزاة عمورية صحبة مسلمة، حمل هو والعسكر النساء معهم للجد في القتال. فلما صاروا في عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التي تشرف على الوادي سقط جمل عليه امرأة، فأمر مسلمة النساء أن يمشين، فسميت تلك العقبة عقبة النساء. قال: وكان في تلك الطريق سباع لا يسلك فيها بسببها، فشكا الناس ذلك إلى الوليد بن عبد الملك فبعث أربعة آلاف جاموسة وفحولها، فانكفأت السباع. ثم بناها

---

(١) القُصَيْر: قلعة جنوبي أنطاكية. وكانت لهيئة الفرسان الداوية. انظر: Le Strange: op. cit. p 489.

(٢) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٧٠: «الداوية».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٧٠، س ١٦.

بعد ذلك وحصنها أتم تحصين الملك نقفور ملك الروم الذي خرج إلى بلاد الإسلام في آخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة وقتل وسبى. ولما بنى هذا الحصن، الذي هو حصن بغراس. رَتَّب فيه نائباً له يعرف بالبرجي، ورتب معه ألف رجل، وحصن بغراس. ثم ملكها الفرنج وما زالوا يتداولونه ويحصنونه على طول المدد، إلى أن ملكه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، في ثاني شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة[١]، على ما قدمناه، ثم ملكه الديوية بعد ذلك.

ذكر الإغارة على صور

كانت قد تقررت مهادنة بين السلطان وبين صاحب صور، فلما توجهت الرسل إليه حلف على بعضها، وأسقط فصولاً لم يحلف عليها. فلما كان السلطان بالشام، في سنة سبع وستين وستمائة[٢]، ووقفت له امرأة ذكرت أنها كانت أسيرة في صور، وأنها اشترت نفسها ثم قطعت على بنت لها قطيعة، وحصلت من أوقاف دمشق مبلغاً اشترتها به من صور بمكاتبة عليها خط الفرنج، ولما خرجت بها إلى قرب بلاد صفد سير خلفها جماعة من صور أخذوا البنت منها ونصَّروها. فلما سمع السلطان كلامها غضب الله تعالى، وكتب يطلب هذه البنت، فاعتذروا بأنها تنصرت. وكان بالنواقير من جهة صفد جماعة [من المسلمين][٣] سَيَّر صاحب صور وأمسكهم وقتل منهم نفرين واعتقل الباقين. وطلبهم السلطان فأصروا على منعهم، فركب السلطان في العشرين من شهر رمضان، وساق بنفسه ومن معه من العسكر الخفيف، وتوجه الأمير جمال الدين المحمدي من جهة، والأتابك من جهة، ووصلوا إلى صور، فأمسكوا جماعة من الرجال والنساء والصغار، وهرب في ذلك الوقت مملوك للأمير جمال الدين أقش الرومي فنصَّره صاحب صور لوقته. وطُلِب منه فدافع عنه، وأمسك السلطان عن إتلاف زرعه ورد الحريم والأطفال ورجع إلى المخيم وأمهل عليه مدة، فلما استمر على منع البنت والمملوك، جرد السلطان جماعة لاستغلال بلاده.

ذكر الإغارة على بلاد كركر[٤] وأخذ قلعة شرموشاك

وفي هذه السنة توجهت الغيَّارة من البيرة وغيرها إلى جهة كركر فأحرقوا بلدها

---

(١) الموافق: ١١٨٨ م.

(٢) الموافق: ١٢٦٨ م.

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) كركر: حصن على الفرات بين آمد وملطية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

وأخذوا مواشي، وتوجهوا إلى قلعة بين كركر والكختا[١] اسمها شرموشاك، فزحفوا عليها وأخذوها وقتلوا رجالها ونهبوا من المواشي شيئاً كثيراً، وأخرجوا من الفلاحين إلى البلاد السلطانية خلقاً كثيراً، وأخذ الخمس من الغنيمة للديوان ورسم بترتيب الناجعين في البلاد الحمصية والشيزرية وجهات أنطاكية.

ذكر الإغارة على عكا

وفي سنة ثمان وستين وستمائة[٢]، توجه السلطان جريدة إلى الشام، وكان الفرنج بعكا اعتمدوا أشياء لا يصبر عليها: منها أن أربعة من مماليك السلطان هربوا ودخلوا عكا، فلما طلبهم منهم طلبوا العوض عنهم، فأنكر السلطان ذلك عليهم، فنصّروهم، وذلك في سنة سبع وستين [وستماية][٣]. فكتب السلطان إلى النواب بوقوع الفسخ، فأغار عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسي فقتل وأسر منهم جماعة. واتفقت حركة السلطان إلى الحجاز فأطلق الذين أسروا، وعوق رسل الفرنج على إحضار المماليك، وأطلق منهم وزير الإستبار خاصة، لأنه كان يخدم السلطان. فلما كان في هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل إليهم سفائن من جهة الريدراكون[٤]، أحد ملوك الغرب، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه، يقول فيها: أنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه بالبلاد الإسلامية، وأنه واصل لمواعدته من [جهة سيس في سفن كثيرة][٥]، فأرسل الله تعالى ريحاً مزعجة كسرت عدة من سفائنه ولم يسمع لهم خبر. وأما أهل عكا فإنهم خرجوا هم ومن وصل إليهم من الغرب إلى ظاهر عكا، وخيموا وصاروا يركبون [وتوجهت طائفة منهم إلى عسكر جينين وعسكر صفد][٦]، وبلغهم أن السلطان وصل جريدة فتوهموا أنه لا يقصدهم. واتفق أن السلطان خرج متصيداً إلى جهة الحارسة، وعاد مسرعاً وتوجه على أنه يتصيد في مرج برغوث[٧]. ولما وصل في أثناء الطريق إلى برج الفلوس سير الأمير عز الدين معن الظاهري السلاح دار لإحضار السلاح وسير الأمير ركن الدين إياجي لإحضار العسكر الشامي كله، فتكامل الناس

(١) قلعة قديمة على نهر كختاصو. وتقع على مسافة أربعين ميلاً تقريباً من الجنوب الشرقي من ملطية. انظر: Encyclopaedia of islam. Art: kiakhta.

(٢) الموافق: ١٢٦٩ م.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة يقتضيها السياق. الموافق: ١٢٦٨ م.

(٤) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٦٥: «الريداركون».

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٥٨٥.

(٧) مرج برغوث: جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب. أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٣٨٤.

عنده في مرج برغوث ولما وصل إلى برج الفلوس سير الأمير عز الدين معن الظاهري السلاح دار لإحضار السلاح وسير الأمير ركن الدين إياجي لإحضار العسكر الشامي كله، فتكامل الناس عنده في برج برغوث، في بكرة نهار الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع، وركب وساق فوصل جسر يعقوب عشية النهار، وساق فأصبح الصبح وهو بأول المرج. وكان قد سير إلى الأمير جمال الدين الشمسي مقدم عسكر عين جالوت، والأمير علاء الدين أيدغدي مقدم عسكر صفد بالإغارة في ثاني وعشرينه، وأنهم ينهزمون قدام الفرنج. فخرج جماعة من الفرنج مقدمهم كندلوفير[1] المسمى زيتون، وفيهم أقارب الريدراكون وغيرهم، ودخل السلطان الكمين. فعندما خرج الفرنج لقتال العسكر الصفدي تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني، وبعده الأمير جمال الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام. وساق قدام السلطان الأمير شمس الدين أيتمش السعدي، والأمير علاء الدين كتدغدي الظاهري أمير مجلس ومعهما مقدموا الحلقة. وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وأمسك الأمير عز الدين إيغان فارساً اسمه ريمون[2] دكوك. وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء، فما وصلوا إلى الأمراء المتقدمين إلا والعدو قد انكسر فلم يحصل لهم اختلاط. وكان القتال شديداً تماسكوا فيه بالأيدي، وأكمن زيتون فجال العسكر بينهم وأخذوا عليه وعلى أكابر الفرنج حلقة وقتل أخو زيتون، وابن أخت الريدراكون، وجماعة من الخيالة، ونائب فرنسيس[3] بعكا، ولم يعدم من عسكر الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونيا الفائزي. وعاد السلطان ورؤوس القتلى بين يديه إلى صفد، وتوجه منها إلى دمشق، فدخلها في يوم الأحد سادس وعشرين الشهر، والأسرى والرؤوس بين يديه.

ذكر فتوح قلعة صافيتا

وفي سنة تسع وستين وستمائة[4]، توجه السلطان من الديار المصرية في عاشر جمادى الآخرة، وصحبته ولده الملك السعيد، ودخل الملك السعيد إلى دمشق في ثامن شهر رجب، وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة. وكان السلطان قد توجه من جهة بعلبك وتوجه إلى طرابلس، فقتل من رعاياها وأسر، واتصلت الغارة بصافيتا، فطلب من فيها الأمان، ثم نكثوا، فرحل عنهم السلطان وأنزل

(١) هكذا في الأصل.
(٢) هكذا في الأصل.
(٣) كذا في الأصل في الأصل: «فرسيس». انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٨٥.
(٤) الموافق: ١٢٧٠ م.

جماعة حولهم. فسير كمندور أنطرطوس إلى السلطان يشفع في الإخوة الديوية بصافيتا، على أنه يأمرهم بالتسليم. فأجابهم السلطان إلى ذلك، فأرسل إليهم فنزلوا، وكانوا سبعمائة رجل، خارجاً عن النساء والأطفال، وأحضروا إلى السلطان وهو على حصن الأكراد، فأطلقهم وجهز معهم من أوصلهم إلى مأمنهم، وتسلم السلطان صافيتا وبلادها، وتسلمت الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، مثل تل خليفة وغيره.

وقد ذكرنا ما كان قد وقع من المهادنة على حصن الأكراد والمرقب، ثم اتفق من بيت الإسبتار أمور[١] أوجبت فسخ الهدنة: منها أن السلطان لما أغار على طرابلس في سنة ست وستين وستمائة[٢]، وكتب إلى النائب بحمص بأن يقيم بحدود حصن الأكراد لدفع الضرر عن بلاد الهدنة، وكتب إلى عدة جهات بالوصية بهم، وحضر رسول حصن الأكراد يسأل الوصية، فأعطاهم علماً بِرَنْكِه.

ولما عبرت الأثقال من جهة القصب، عبر أحد الحرافشة ومعه رفقة له على بستان بقرب تل خليفة للحصن[٣] فأخذوا منه شيئاً لا قيمة له، فأخذهم المقدم بتل خليفة وضرب رقاب بعضهم وأسر البعض. فنزل النائب بحمص على تل خليفة وطلب الخصوم. فامتنع النائب بها عن تسليمهم وقال: «أنا قتلت»، وأساء في القول. فحاصرهم نائب حمص، وسير إليهم شجاع الدين عنبر، فاحتال إلى أن استنزل الخصوم، وسيروا إلى السلطان. فحضرت رسل من حصن الأكراد تطلبهم، فأجابهم السلطان إنه لا بد من تحقيق هذه الواقعة؛ فقوت نفوس الذين في الحصن. وعَلَّقَ النائب الفرنجي باب الحصن ومنع الميرة، وألبس جماعة العدد.

ولما رجع السلطان من طرابلس عند توجهه إلى أنطاكية ومرّ تحت الحصن متوجهاً إلى حمص، فسيّر يقول: «ما كان ينبغي لكم تعبرون من ههنا إلا بأمري». وقيل لهم: «لأي معنى غلقتم الأبواب ولبستم العدد، وأنتم صلح»؟. فقال: «ما غلقناها إلا شفقة على عسكر السلطان من الفرنج الغرب الذين عندنا، لأنهم لا يخافون الموت». فعزّ ذلك على السلطان لأن الغرب الذين عنده عدتهم دون المائة نفر. وكان هذا الأمر مقدمة انحراف السلطان عليهم، وبقي ذلك في خاطره. فلما توجه إلى الشام جريدة في سنة ثمان وستين [وستمائة][٤] وتوجه إلى حماه ثم رحل عنها في ثالث

---

(١) في الأصل: «أموراً». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) الموافق: ١٢٦٧ م.
(٣) المقصود حصن الأكراد.
(٤) الموافق: ١٢٦٩ م.

جمادى الآخرة توجه إلى حصن الأكراد بمقدار مائتي فارس بغير عدة، وصعد جبل الحصن في أربعين فارساً، فخرج له جماعة من الفرنج ملبسين، فحمل عليهم وكسرهم، وقتل منهم جماعة ووصل إلى الخندق، وقال ـ وهو متنكر لا يعرف من هو ـ: «قولوا لذلك الرسول الذي حضر سنة طرابلس يخلّي الفرنج الغرب يخرجوا، فما نحن أكثر من أربعين فارساً بأقبية بيض»[١]. وعاد إلى مخيمه، وَرَعَتْ الخيول المروج والزروع، فكان ذلك أحد أسباب الاستيلاء على الحصن لأنه ليس له مادة إلا من زرع بلده. فلما توجه السلطان في سنة تسع وتسعين وستمائة إلى الشام، وأغار على طرابلس كما قدمنا نازل حصن الأكراد، في تاسع شهر رجب من السنة وملك أرباض الحصن في العشرين منه، وحضر الملك المنصور صاحب حماه، فتلقاه السلطان وترجل لترجله، وساق السلطان تحت صناجق صاحب حماه بغير جمدارية ولا سلاح دارية أدباً معه، وسير إليه دهليزاً أمره بنصبه. ووصل الأمير سيف الدين صاحب صهيون، والصاحب نجم الدين صاحب الدعوة. وفي أواخر شهر رجب، تكمل نصب عدة مجانيق، وفي سابع شعبان، أخذت الباشورة بالسيف، وفي سادس عشر الشهر، تشقق برج من أبارج القلعة، وزحف العسكر وطلع الناس إلى القلعة وتسلموها، وطلع الفرنج القلعة الأخرى وأحضرت جماعة من الفرنج والنصارى، فأطلقهم السلطان، ونقلت المجانيق إلى القلعة ونصبت على القلة. وكتب السلطان كتاباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم. ثم طلبوا الأمان، فكُتب لهم أمان على أنهم يتوجهون إلى بلادهم. وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين شعبان، خرج الفرنج من القلعة وجهزوا إلى بلادهم، وتسلم السلطان الحصن. ورتب الأمير صارم الدين [قايماز][٢] الكافري نائباً بحصن الأكراد، وفوض أمر عمارة الحصن إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم وعز الدين أيبك الشيخ.

وهذا الحصن كان قديماً بيد المسلمين، فلما نازل صنجيل طرابلس كان يشن الغارات على هذا الحصن وما قاربه من الحصون، ثم قصده في سنة ست وتسعين وأربعمائة[٣] وحاصره وضيق على من به وأشرف على أخذه، فاتفق قتل جناح الدولة صاحب حمص فطمع فيها ورحل عنه. وهلك صنجيل وملك ابنه، فجرى على عادة أبيه في أذية أهل هذا الحصن وإفساد أعماله، ثم فارقه وتوجه لحصار بيروت. فجاء

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٦٦، س ٢.

(٣) الموافق: ١١٠٢ م.

طنكلي[١] صاحب أنطاكية ونازله، وأهله في غاية الضعف، فسلمه صاحبه إليه، وكان يرجو أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل فأنزله وأهله منه، وأخذه صحبته، ورتب فيه من يحفظه من الفرنج؛ وحكى ذلك ابن عساكر.

وذكر ابن منقذ في كتاب البلدان أن: نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله تعالى، كان قد عامل بعض رجالة التركمان المستخدمين من جهة الفرنج بهذا الحصن، على أنه إذا قصده نور الدين يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن ويرفعون علم نور الدين على الحصن وينادون باسمه. وكان هذا التركماني له أولاد وإخوة قد وثق بهم الفرنج، وكان الاتفاق بينه وبين نور الدين أن يقف على رأس الباشورة، فكتم نور الدين هذا الأمر عن أصحابه وتقدم أوائل العسكر النوري فرأوا التركماني على الباشورة فرموه بالنشاب فمات، واشتغل أهله بوفاته، فلم يتم لنور الدين ما دبره. ولم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين. وكان فتحه على يد السلطان الملك الظاهر الآن.

ذكر صلح أنطرطوس والمرقب[٢]

قال: وسأل كمندور أنطرطوس ومقدم بيت الإسبتار السلطان على الصلح، فأجابهم على أنطرطوس خاصة، خارجاً عن صفيتا وبلادها، وعلى المرقب. واسترجع منهم بلدة وأعمالها وما أخذوه في الأيام الناصرية، وعلى أن جميع ما لهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه. وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين بيت الاسبتار، وعلى أن لا تجدد عمارة بالمرقب، وحلف لهم السلطان على ذلك، وتوجه لتحليف المقدم المذكور بأنطرطوس الأمير فخر الدين المقري الحاجب، وأخلى الفرنج برج قرميص[٣]، وأحرقوا ما لا أمكنهم حمله من موجودهم، وتسلم البرج المذكور في هذه الأيام، وكذلك البرج الذي في بلدة هدم الفرنج بعضه وحرقوه، ورسم السلطان بهدم باقيه.

ذكر فتوح حصن عكّار[٤]

قال: «ولما رتب السلطان أمور حصن الأكراد توجه إلى حصن عكار ونازله، في

---

(١) هكذا في الأصل. ويرد أحياناً: «صنكي وصنكري وطنكري».

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩١، س ٦ - ٧.

(٣) في السلوك، ج ١، ص ٩٧٥: «قرفيص».

(٤) حصن عكار: حصن مبني على جبل يسمى بنفس الاسم. وموقعه شمالي طرابلس، ويسمى هذا الحصن أيضاً: حصن ابن عكار. انظر: Le strange: op. cit. pp 80 - 390.

يوم الأربعاء سابع عشر رمضان، ورتب طلوع المجانيق، وركب بنفسه على الأخشاب فوق العجل في تلك الجبال إلى أن أوصلها إلى مكان نصبت به، وشرع في نصب المجانيق الكبار في العشرين من الشهر. وفي هذا اليوم، استشهد الأمير ركن الدين منكورس الدواداري، وكان يصلي في خيمته فجاء حجر منجنيق فمات، رحمه الله تعالى. وفي التاسع والعشرين من الشهر، طلب أهل الحصن الأمان ورفعت الصناجق السلطانية على أبراجه، وفي يوم الثلاثاء سلخ الشهر، خرج أهل حصن عكار منه، وجُهزوا إلى مأمنهم، وعيّد السلطان بالحصن»، ورحل إلى مخيمه بالمرج.

وهذا الحصن يعرف بابن عكّار[١]، وكان بيد المسلمين، فلما ملك الفرنج طرابلس وغيرها ترددت الرسائل بينهم وبين طغتكين وهو بحمص، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج ثلث بلاد البقاع ويتسلمون حصن المنيطرة[٢]وحصن عكار، وألا يتعرضوا إلى البلاد بغارة. وتقرر معهم أن مصياف وحصن الوادي وحصن الطوبان وحصن الأكراد في الصلح، ويُحمل إلى الفرنج مال عنها. فلما تسلم الفرنج الحصنين عادوا إلى ما كانوا عليه من الغارات، وصار هذا الحصن لما تسلمه الفرنج من أضر شيء على المسلمين المارين من حمص إلى بعلبك، ولم يكن له كبير ذكر فيما مضى، إلى أن وصل ريدافرنس إلى الساحل بعد فكاكه من الأسر بمصر فرآه حصناً صغيراً، فأشار على صاحبه الأبرنس أن يزيد فيه وهو يساعده في عمارته، فزاد فيه زيادة كثيرة من جهة الجنوب، وهو في وادٍ بين جبال محيطة به من أربع جهاته.

ولما فتحه السلطان الملك الظاهر كتب[٣] إلى صاحب طرابلس ما مثاله بعد البسملة:

«قد علم القومص بيمند ـ جعله الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه ـ نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في حَرِّها[٤] على مناكدة الأوحال ومكابدة الأمطار، وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى، وكيف هبطنا تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم تُرى بها ما كان غير جبالها رشاً، وكيف صارت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم، وحسّنت بهم استعانة نائبك الذي انتحى بهم».

(١) انظر التخريج السابق.
(٢) حصن بالشام قريب من طرابلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢١٧.
(٣) قارنه بكتاب السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٢. ملحق رقم (٤).
(٤) في الأصل: «جرها». والتصحيح يقتضيه السياق.

وكتابنا هذا يبشرك بأن عَلَمَنَا الأصفر نُصِب مكان عَلَمِكَ الأحمر، وأن صوت الناقوس صار عوضَه الله أكبر، ومن بقي من رجالك أُطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح[١]، وأطلقناهم ليحدِّثوا القومص بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفتَرَى، وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفاذاً، ولينذروهم لقاء يومهم هذا، ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فَتُعرِّف كنائسك وأسوارك أن المنجنيقات تسلِّم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب أو نُعلِّم أجساد فرسانك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدّوا لها جوعاً، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر، وما أطلقوا إلا لما عاقب شرب دمائهم، وكيف لا، وثلاثة أرباع عكار عكر. يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ويعمل بها، وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده.

وقال[٢] المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر:

يـا مـلـيـك الأرض بُـشْـرَا كَ فَـقَـدْ نِـلْـتَ الإراده
إنَّ عـكّـار يـقِـيـنـاً هِـيَ عـكّـا وزيـاده

ذكر صلح طرابلس[٣]

قال: ولما استقر أمر حصن عكار رحل السلطان من منزلته بالأرزونية هو وجميع العساكر والأثقال، وساق على عزم حصار طرابلس، فوردت الأخبار أن ملك الإنكتار وصل إلى عكا، في أواخر شهر رمضان من هذه السنة، وصحبته ثلاثمائة فرس، وثماني بطس وشواني ومراكب تكملة ثلاثين مركباً، غير ما كان سبقه صحبة استاد داره، وأنه يقصد الحج. ففتر عزم السلطان ونزل قريباً من طرابلس جريدة. وتردد الأتابك إلى جهة طرابلس، والأمير سيف الدين الدوادار واجتمعا بصاحبها. وأراد السلطان قطع ما بقي من الأشجار، فسير البرنس يطلب الصلح وخرج وزراؤه، وكتبت الهدنة لمدة عشر سنين[٤]. وجهز السلطان فخر الدين بن جلبان، وشمس الدين الأخنائي شاهد الخزانة ومعهما ثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى. وتوجه السلطان إلى حصن عكار، ثم عاد إلى مخيمه بالأرزونية، ثم توجه إلى حصن الأكراد،

---

(١) في الأصل: «النوايح».
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٣، س ٤.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٢، س ٩.
(٤) في الأصل: «عشرة». والتصحيح يقتضيه السياق.

ثم رحل فوصل إلى دمشق في نصف شوال.

ذكر فتوح القُرين

كان حصن القرين لاسبتار الأرمن، ولم يكن لهم بالساحل غيره، وكان من أمنع الحصون وأضرها على صفد، فتوجه السلطان إليه من دمشق، في الرابع والعشرين من شوال سنة تسع وستين وستمائة(١)، ووصل إلى صفد وجهز منها المجانيق وسار إلى القرين ونازله. وبينما السلطان واقف لنصب المجانيق وردت رسل عكار. واتفق أن السلطان [كان](٢) يرمي نشاباً على القلعة فمرّ به طائر فرماه فإذا فيه بطاقة من جاسوس في العسكر للفرنج مضمونها أخبار السلطان، وذلك بحضور الرسل، فسلّم السلطان الطائر لهم وقال: «استصحبوه معكم لتقرأ الفرنج هذه البطاقة، ونحن نفرح بمن يخبركم بأخبارنا». وفي مستهل ذي القعدة ملك الربض، وفي ثانيه أخذت الباشورة، وأخذت النقوب في السور، وشرط السلطان للحجارين عن كل حجر ألف درهم. واشتد القتال، فحضر رسلهم، وتقرر خروجهم وتوجههم حيث شاؤوا، وأنهم لا يستصحبون مالاً ولا سلاحاً. وكتب الأمان بذلك، ورفعت الصناجق السلطانية عليها، وركب السلطان وأصبح على أبواب عكا مُطِّلِباً. فما ترك أحد من الفرنج، وعاد إلى مخيمه بالقرين، وأمر بهدم القلعة، فتكمل هدمها في رابع وعشرين ذي القعدة من السنة.

ذكر صلح صور وما تقرر من المناصفة

وحضرت رسلِ صاحب صور، وحصل الاتفاق على أن يكون لهم من بلاد صور عشرة بلاد خاصاً، وللسلطان خمسة بلاد يختارها تخصه، وبقية البلاد مناصفة، وحلف السلطان على ذلك. وجهز الرسل فحلّفوا صاحب صور على ما تقرر(٣).

ذكر منازلة التتار البيرة وكسرهم على الفرات وقتل مقدمهم جنقر(٤)

وفي تاسع شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وستمائة وردت الأخبار بحركة التتار، فجرد السلطان الأمير فخر الدين الحمصي بجماعة من العساكر المصرية

---

(١) الموافق: ١٢٧٠ م.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٥٩٥، س ١ ـ ٣.

(٤) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧. وهناك اختلاف في توقيت الشهر.

والشامية إلى جهة حارم، ثم جهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري بجماعة من العساكر وجماعة من العربان. وعدّى التتار إلى البر الشامي لقصد الرحبة فتقسم فكر السلطان ليقسمهم على البيرة والرحبة، ورحل من ظاهر دمشق، فبلغه رحيل العدو عن الرحبة، فجدّ في مسيره ووصل إلى الفرات إلى مخاضة تعرف بمخاضة الحمام، فوجد التتار قد وقفوا على شط الفرات، وعدتهم قريب الخمسة آلاف فارس، ومقدمهم جنقر أحد مقدميهم الكبار وحفظوا فم المخاضة. وكان السلطان قد استصحب عدة مراكب من دمشق وحمص فرست في الفرات، وركب فيها الرجالة الأقجية لكشف البر. وعمل التتار مكيدة: وهي أنهم تركوا المخاضة السهلة ووقفوا على مكان بعيد الغور وعملوا الستائر، فاعتقد المسلمون أن المكان الذي حفظوه هو المخاضة السهلة فخاضوا منه، وكان العدو قد عملوا سيباً على البر من جانبهم ليقاتلوا من ورائها، فرتبت العساكر الإسلامية نفوسها بخيولها، وعاموا أطلاباً، الفارس إلى جانب الفارس، متماسكين بالأعنة معتمدين على الرماح، كما قال القائل:

فعمنا إليهم بالحديد سباحة ومن عجب أن الحديد يعوم

وازدحم الناس وانسكر الماء بهم فصار كالجبال. وطلع المسلمون، والسلطان في أوائل القوم[1]، فلم يلبث التتار أن انهزموا أقبح هزيمة، وقتل مقدمهم جنقر وجماعة كثيرة منهم وأسرت جماعة، وأقام السلطان إلى العصر وجمع الأسرى ورؤوس القتلى وبات في مكان النصر، والعساكر لابسة والخيل ملجمة. وأصبح يوم الاثنين بمنزلته حتى عاد من كان قد ساق خلف العدو، واستبرىء أمر العدو، ثم عادت العساكر، وكان العود عليهم أشق.

ولما صار السلطان بالبر الشامي بلغه أن التتار الذين كانوا نازلوا البيرة ومقدمهم درباي، قد هربوا وتركوا أزوادهم والمجانيق التي معهم؛ ورموا النار في بعض ذلك، ونزل أهل البيرة وحملوا من ذلك شيئاً كثيراً، فنزل السلطان على جبل مشرف قرب البيرة من الجانب الشامي، وتوجه إليها على الجسر الذي مده العدو وهو جسر كبير تحته المراكب والصواري والسلاسل، ومعه جماعة من الأمراء، وأنعم على النائب بها بألف دينار، و[الأمير سيف الدين][2] الصروي المجرد بها بألف دينار، وعمَّ من بها بالتشاريف، وأنعم على أهل الثغر بمائة ألف درهم، وجرد بها جماعة زيادة على من بها، وعاد إلى مخيمه، وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه.

---

(١) في الأصل: «القول». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

ذكر فتوح كَيْنُوْك(١)

كان قد كثر فساد أهل كينوك وتعديهم على التجار والقصاد، وكُتب إلى صاحب سيس في ذلك فلم تفد فيه المكاتبة، فجرد الأمير حسام الدين العين تأبى مقدم العسكر الحلبي إلى كَيْنُوك، فوصل إليها في ثالث المحرم، فأخذوا الحوش البراني، ودخل الأرمن إلى القلعة، فقاتلهم المسلمون وملكوها وقتلوا الرجال وسبوا الحريم، وأغار العسكر على أطراف طرسوس ونهبوا وسبوا.

وهذه كينوك هي الحدث الحمراء التي بناها سيف الدولة علي بن حمدان، ومعنى تسميتها كينوك أي المحترقة، وكان قسطنطين صاحب سيس قد أخذها من ملوك الروم السلجقية وأحرقها. وهي التي يقول فيها المتنبي عند بنائها يمدح سيف الدولة في قصيدته التي أولها(٢): [من الطويل]

* عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ *

هَلِ الحَدَثُ الحَمْرَاءُ تعرِفُ لونَها ... وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الغَمَائِمُ
سَقَتْهَا الغَمَامُ الغُرُّ قبل نُزُولِهِ ... فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الجَمَاجِمُ
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالقَنَا تَقْرَعُ القَنَا ... وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلاطِمُ
وَكَانَ بِهَا مِثْلَ الجنُونِ فَأَصْبَحَتْ ... وَمِنْ جُثَثِ القَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وكان من خبرها: أن سيف الدولة بن حمدان سار لبنائها، وكان أهلها سلموها بالأمان للدمستق ملك الروم، في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فنزلها سيف الدولة في يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة(٣)، فحط الأساس من يومه، وحفر أول الأساس بيده، وأقام حتى كمل بناؤها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب من السنة.

ذكر إغارة عيسى بن مهنا على الأنبار(٤)

وفي سنة اثنتين [وسبعين](٥) وستمائة: رسم السلطان للأمير شرف الدين عيسى

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠٨.
(٢) ديوان المتنبي، ج ٣، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.
(٣) الموافق: ٩٤٨ م.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.

ابن مهنا [أمير العرب][1] بالإغارة على بلاد العراق، فوصل إلى الأنبار فوجد بها جماعة من التتار، وكان السلطان قد اختفى أمره[2]، فلما وصل عيسى إلى الأنبار توهموا أن السلطان دهمهم، فعدّوا إلى البر الآخر، واقتتل عيسى وخفاجة، ودام القتال نصف نهار، وكانت هذه الإغارة في ثامن عشر شعبان.

ذكر الإغارة على مرعش

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة[3]: توجه عسكر حلب صحبة الأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة مرعش، وأغاروا على بلاد سيس، وحازوا غنائم كثيرة، وقلعوا أبواب ربض مرعش، وغرق ربيعة بن الظاهر بن غنام في نهر هناك[4].

ذكر غزوة سيس[5]

كان صاحب سيس قد اعتمدوا ما يقتضي فسخ الهدنة التي وقع الاتفاق عليها في سنة ست وستين عند إطلاق ولده ليفون، وقطع الهدايا المقررة عليه، وخالف الشروط من أنه لا يجدد بناء ولا يحصن قلعة، وصار لا يطالع بخبر صحيح كما تقرر معه، ثم لم يقتصر على ذلك إلى إن صار يُلبّس الأرمن السراقوجات ويخيف[6] القوافل، ويدّعي أنهم من عسكر التتار، فاقتضى ذلك أخذ كينوك وإخرابها كما ذكرنا[7]، فتصور صاحب سيس من ذلك. فذكر السلطان لرسوله سوء اعتماده، وأرسل إليه يعرفه أنه عزم على قصد سيس، ثم أسر السلطان في نفسه قصده، ولم يبده لأحد، بل أظهر الحركة إلى الشام، وعرض العساكر في يوم واحد تحت القلعة، وخرج ثالث شعبان سنة ثلاث وسبعين وستمائة[8]، ووصل إلى دمشق في سلخ الشهر، وخرج منها في سابع شهر رمضان بجميع العساكر. ولما وصل إلى حماه خرج الملك المنصور صاحب حماه بعساكره، ثم سار وفي خدمته العساكر والعربان. فجرد الأمير شرف الدين بن مهنا، والأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة البيرة بصورة جاليش العسكر

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١١.
(٢) أي انقطعت أخباره.
(٣) الموافق: ١٢٧٤ م.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٦.
(٥) انظر السلوك، ج ١، ص ٦١٨.
(٦) هكذا في الأصل.
(٧) انظر ذكر فتوح كينوك في هذا الجزء.
(٨) الموافق: ١٢٧٤ م.

المنصور فوصلوا إليها. ولما وصل السلطان إلى سرمين رحل منها إلى جهة الدربساك، وأخر الأثقال وبعض العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقرجاه بسرمين، وجرد الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار، والأمير مبارز الدين الطوري لتمهيد جوانب النهر الأسود، فقطعته العساكر بمشقة. ونزل السلطان بين الدربساك وبغراس، وأمر جماعة من مقدمي الألوف أن يتوجه كل منهم إلى جهة، فطلعوا تلك الجبال، وأمر الناس بوقود الشموع فقطعوا تلك الجبال والأوعار والمضايق. وكان السلطان قد حمل ثلاثين مركباً لأجل التعدية، ونزل السلطان داخل باب اسكندرونة خلف السور الذي بناه الملك هيتوم والد ليفون صاحب سيس، ثم رحل إلى قرب المثقب، وملكت العساكر جسر المصيصة وملكوا المصيصة، وغلبت العساكر على ما فيها، وقتلوا من وجدوه بها، وغنم الناس ما لا يحصى كثرة من البقر والجاموس والغنم، وحضر إلى الطاعة جماعة كبيرة من التركمان والعربان بمواشيهم وخيولهم، فجهزهم السلطان إلى البلاد الإسلامية، وساق مُطلَباً في تاسع وعشرين شهر رمضان، فوصل إلى سيس، فعدل عنها ووصل دَرْبَنْد[1] الروم، ووجد بقايا من حريم التتار فسبين، وعاد فبات في تلك الجبال، وعيّد بمدينة سيس، وهي كرسي ملك الأرمن، وبها بستان متملكها ومناظره. فانتهبت مدينة سيس وهدمت وأحرقت وتحصن أهلها بقلعتها. ولما فرغ من إحراق المدينة وهدم قصور التكفور، وعادت الجاليشية بما سبوه من حريم المغول وأولادهم، وسيقت الغنائم، وعاد السلطان ورعت العساكر الزروع. ووصل الأمير جمال الدين المحمدي، والأمير عز الدين الدمياطي إلى طرسوس ووجدوا بها من الخيل والبغال مقدار ثلثمائة رأس فاستاقوها. وتوجه الأمير مبارز الدين الطوري، والأمير عز الدين كرجي إلى قريب البحر وقاتلوا جماعة من العدو، ووجدوا مراكب في البحر فدخلوا إليها وأخذوها وقتلوا من فيها. ووصل الأمير سيف الدين الزيني إلى قلعة البرزين، ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى أذنه، وغنموا نساء وأطفالاً. وأغارت العساكر في تلك الجبال وقتلوا رجالاً كثيرة. ووصل الأمير بدر الدين بيسري والأمير سيف الدين أيتمش السعدي إلى أياس، وكان خبر العسكر قد وصل إلى من بها من الفرنج فنقلوا أموالهم إلى المراكب فأحرقت العساكر وقتلت جماعة كبيرة في البر والبحر، وحضر بعد ذلك كتاب والي إسكندرونة يتضمن: أن العساكر لما قصدت أياس ركب جماعة منها من الفرنج والأرمن قريب ألفي نفس هاربين فغرقوا جميعهم، وأخذ الأمير بدر الدين أمير سلاح جشارات خيول. هذا ما يتعلق بغزوة سيس.

---

(١) في الأصل: «بند». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦١٨، س ٤. وانظر كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٣١.

وأما العسكر والعربان الذين توجهوا إلى جهة البيرة فوصلوا إلى رأس عين وغنموا غنائم كثيرة، وانهزم من كان في تلك الجهة من التتار، وعاد العسكر سالماً منصوراً. ووصل السلطان إلى المصيصة وأحرقت من الجانبين.

ولما تكامل حضور الأمراء بالغنائم وخروج التركمان والعربان الواصلين إلى الطاعة من الدربندات، رحل السلطان وعبر على بحيرة بها أغصان ملتفة مثل الغابة وبها جزائر قد تحصن بها جماعة من تلك البلاد ونقلوا إليها حريمهم وأموالهم، فرمى العسكر نفوسهم فيها عوماً بالخيل، فقتلوا وسبوا. ثم عبروا على تل حمدون، وقلعة النقر فعاثت العساكر فيهما، وخرج العسكر من الدربندات فشاهدوا الغنائم قد ملأت المروج طولاً وعرضاً، فوقف السلطان بنفسه وفرق الغنائم وعمّ بها الناس، وما أخذ لنفسه شيئاً منها. ثم سار بعد القسمة فنزل دهليزه بحارم.

فقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

يا ملك الأرض الذي عزمه كم عامر للكفر منه خرب
قلبت سيساً فوقها تحتها والناس قالوا سيس لا تنقلب

ذكر شيء من أخبار بلاد سيس وسبب استيلاء الأرمن عليها

المصيصة: بناها عبد الملك بن مروان في أيام أبيه، في سنة أربع وثمانين[١] للهجرة النبوية.

وأما طرسوس فهي من المدن القديمة، وفيها دفن الخليفة عبد الله المأمون بن الرشيد كما ذكرنا.

وطرسوس وأذنة وما يليهما تسمى قيليقيا، وتعرف هذه البلاد بالدروب والعواصم، وبها كان الغزو والرباط والجهاد والمثاغرة، وكانت مضافة إلى مملكة مصر في إمارة أحمد بن طولون ومن بعده، حتى استولى الروم عليها كما قدمنا. واستمرت بيد الروم إلى أن استولى عليها مليح بن لاون الأرمني، وذلك في أيام العادل نور الدين الشهيد، بمساعدته، وهزم مليح جيش الروم فقوي عند ذلك البلاد، وكانت هزيمته للروم في يوم الأحد سلخ شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وخمسمائة[٢]، وأسر من مقدميهم ثلاثين أسيراً، فأحسن إليه نور الدين وخلع عليه، وكتب إلى بغداد يعظم أمر الروم ويذكر أن هذا مليح الأرمني من جملة غلمانه، وأنه كسر الروم، ومنّ بذلك على أهل بغداد.

(١) الموافق: ٧٠٣ م.
(٢) الموافق: ١١٧٢ م.

واستمر ملك هذه البلاد في هذا البيت إلى الآن.

نعود إلى أخبار السلطان الملك الظاهر

قال: ثم رحل السلطان وخيم بمرج أنطاكية، وانبثت العساكر في تلك المروج ورعت الأعشاب، ثم رحل.

ذكر منازلة حصن القصير وفتحه[١]

هذا الحصن مما لم يفتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب رحمه الله، وقيل إنه صالح عليه، وما زال لمن يكون بابا بروميه، والبابا خليفة عند الفرنج يَنْفُذ أمره وحكمه في سائر ملوك الفرنج.

وأمر الحصن راجع إلى بتْرك[٢] أنطاكية، والفرنج تميزه وتؤثره. وأهله أهل شره ومنعة وفساد، وكان مضرة على الفرعة وتلك الجهات. ولما فتح السلطان أنطاكية سأل أهل القصير الهدنة والمناصفة، فأجيبوا إلى ذلك كما قدمنا. فما وفوا وأخفوا في المناصفة. ولما وصل صمغار [مقدم التتار][٣] إلى جهة حارم ضرب أهل القصير البشائر، ودلوا على الطريق وأمثال ذلك مما يقتضي فسخ الهدنة. وكان السلطان قد رسم للأمير سيف الدين الدوادار بالتردد إلى كليام النائب بالقصير وإظهار مصافاته. واعتمد ذلك وتوجه المذكور إليه في خامس عشر شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة[٤]، ومعه جماعة من السلاح دارية بصورة أصحابه، فوصلوا إلى القُصَيْر وأظهر الأمير سيف الدين غضباً كون كليام ما خرج للقائه وقصد الرجوع، فبلغه ذلك فخرج مسرعاً ليسترضيه ويرده. فأدركه فامتنع من الرجوع واستدرجه حتى أبعد عن الحصن، ثم قتل من كان معه وأخذ كليام وأحضره إلى السلطان. فكتب إلى أصحابه بالتسليم فما رجعوا إلى كلامه. فجرد السلطان جماعة من أمراء حلب وهم: سيف الدين الصروي وشهاب الدين مروان والي أنطاكية وجماعة من الرجال، فنازلوا القصير.

وتوجه السلطان إلى دمشق واستصحب كليام معه، وكان شيخاً كبيراً وكان ابنه في الأسر، فمات كليام في الأسر بعد اجتماعه بابنه. ولما اشتد الحصار على القُصَيْر وعدموا الأقوات سلموا الحصن المذكور في يوم الأربعاء ثالث وعشرين جمادى الأولى

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٠.

(٢) وردت من قبل: «بطرق».

(٣) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) الموافق: ١٢٧٤ م.

سنة أربع وسبعين [وستمائة][١]. وحمل أهله إلى الجهات التي قصدوها.

ذكر وفاة الأبرنس صاحب طرابلس وما أنفق بعد وفاته

وفي تاسع شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وستمائة: توفي الأبرنس بيمند ابن بيمند صاحب طرابلس. ووصل ملك قبرص، وهو ابن عم الأبرنس إلى طرابلس لتعزية ولده، وكان السلطان قد كتب إلى البرنس يقول: «إن اللاذقية ما برحت للمسلمين، ولما راح صاحب حلب تغلّب أبوك وأخذها ظلماً وعتواً، ونحن لنا في اللاذقية النصف، فتترك النصف الآخر فإنه من حقوق المسلمين». فلما سمع الفرنج ذلك قووا البرج، وخاف المسلمون عاديتهم. فرسم السلطان لركن الدين النائب ببلاطنس بنقل مَنْ باللاذقية من المسلمين إلى البلاد السلطانية. فوصل كتاب نائب البرنس الذي باللاذقية يذكر أنهم ما برحوا في الطاعة، وقد عز عليهم خروج من عندهم. ووردت رسل ملك عكا وهو يشفع عند السلطان في استمرار الصلح، فترك السلطان الحديث في اللاذقية. وكان السلطان قد سير عسكراً للحوطة على عَرْقَا ومغل بلادها، فسير ملك عكا وقبرص يتوسل في أمرهم، وسأل إنفاد من يوثق به لأجل الدعاوى، ويكون منه إلى نواب السلطان ومن ملك عكا إلى نواب البرنس. فسير الأمير سيف الدين الدوادار فتوجه إلى عرقا، وأقام بها، فاجتمع عنده نائب بعلبك، وولاه البر ومشايخ البلاد ومستخدميها ونواب الفرنجية. وكتبت الدعاوى وترددت الرسل. واتفقت وفاة الأمير صارم الدين الظافري النائب بحصن الأكراد، فبقي الفرنج يعتذرون به وأنكروا الدعاوى، ثم سأل الملك حضور الأمير سيف الدين إلى طرابلس فدخلها في ثامن المحرم في تجمل كثير من المماليك السلطانية ومماليكه وأجناده، وتلقاه أبناء الملوك بها، واجتمع بالملك إليه كتاب السلطان، وتقرر على الفرنج القيام بعشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيراً من المسلمين.

ذكر غزوة النوبة[٢]

وفي سنة أربع وسبعين وستمائة: كثر تعدي داود متملك النوبة، وحضر إلى قريب أسوان وأحرق سواقي. وكان قبل ذلك قد حضر إلى عيذاب، وفعل الأفعال الشنيعة. وتوجه الأمير علاء الدين الخزندار والي قوص إلى أسوان فلم يدركه وظفر بنائبه الأمير قمر الدين بقلعة الدو المسمى صاحب الجبل وجماعة معه، فجهزهم إلى

(١) الموافق: ١٢٧٥ م.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢١ ـ ٦٢٣.

السلطان فوسطوا. وأمر السلطان بتجريد الأمير شمس الدين أقسنقر أستاد الدار، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، وصحبتهم جماعة من العسكر ومن أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلي. وكان قد حضر ابن أخت ملك النوبة مرمشكد الذي أخذ داود الملك منه. فجهز العسكر المنصور وتوجه مرمشكد صحبتهم. فأغار الأمير عز الدين على قلعة الدو وقتل وسبى، وسار الأمير شمس الدين في أثره يستأصل[١] شأفة من بقي، ونزل الأمير شمس الدين بجزيرة ميكائيل وهي رأس جنادل النوبة، وهي كثيرة الأوعار وفي وسط البحر، فقتلوا وأسروا. وكان نائب قلعة الدو الذي ولي عوض الموسط قد هرب إلى الجزائر، فأعطي أماناً واستمر على نيابته، وخَحَفَ لمرمشكد المتوجه صحبة العسكر ما دام على الطاعة. وخاض الأمير عز الدين في وسط البحر إلى برج فحاصره وأخذه وقتل به مائتين وخمسين نفراً.

ثم ساق العسكر والتقوا الملك داود، وما زال السيف يعمل فيهم حتى أفناهم وما سلم إلا من ألقى نفسه في البحر، وهرب داود، وأسر أخوه سنكوا. وجُرِّد جماعة من العسكر وساقوا ثلاثة أيام وأمسكوا أم الملك داود وأخته[٢].

وقرروا على الملك مرمشكد المتوجه صحبة العسكر قطيعة في كل سنة، وعرض على أهل النوبة الإسلام أو القيام بالجزية أو القتل، فاختاروا القيام بالجزية وأن يقوم كل واحد بدينار عيناً، وحرقت كنيسة سوس التي كان داود يزعم أنها تحدثه بما يؤديه. وكان داود قد بنى مكاناً سماه عيذاب عمره على أكتاف المسلمين [الذين أسرهم من عيذاب وأسوان][٣] وفيه منازل وكنائس، وميدان صور فيه قتلى المسلمين بعيذاب وأسراهم بأسوان، فمحيت تلك التصاوير منه وخرِّب. وتقرر حمل ما هو مخلف عن الملك داود وأقاربه. وكانت إقامة العسكر بدنقلة سبعة عشر يوماً حتى تمهدت البلاد واستنقذت أسرى المسلمين المأسورين من أسوان وعيذاب، وألبس مرمشكد التاج على عادة ملوك النوبة، وأجلس بمكان الملك [داود][٤] وحلف اليمين العظيمة عندهم على ما تقرر وهي:

«والله، والله والله، وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر، والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية؛ والأنبياء المرسلين والحواريين والقديسين، والشهداء

(١) في الأصل: «يستأثر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٢، س ٧.
(٣) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٣، س ٤.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق. وقد مرت معنا.

الأبرار. وإلا أجحد المسيح كما أجحده يُودس[١]، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه. وإلا أكون يُوذْس الذي طعن المسيح بالحربة، أنني أخلصت نيتي وطويتي من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس، وأني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرّر عليّ في كل سنة تمضي، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصّل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مُخَلّصاً من كل حق، والنصف الآخر أرصُدُهُ لعمارة البلاد وحفظها من عدوٍ يطرقُها، وأن يكون عليّ كل سنة: من الأفيلة ثلاثة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة. وإنني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً، وأن تفرد بلاد العلى والجبل للسلطان. وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمه وأقاربه، ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالي مع من يُرْصَد لذلك. وإنني لا أترك شيئاً منه قلّ ولا جلّ، ولا أخفيه ولا أمكن أحداً من إخفائه، ومتى خرجتُ عن جميع ما قررته أو شيء من هذا المذكور أعلاه كله كنت بريئاً من الله تعالى، ومن المسيح، ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلي إلى غير الشرق، وأكفر بالصليب، وأعتقد ما تعتقد اليهود، وإني لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطاني، ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته، ولا أنفرد بشيء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة، وإنني وَلِيٌ من والى السلطان وعدوٌ من عاداه، والله على ما نقول وكيل»[٢].

[ثم هذا عهد آخر صادر من أمير بطاعة مرمشكد وبطاعة بيبرس].

«وحلّفْتُ الرعية أيضاً بتلك الجهات بأنهم يطيعون نائب السلطان، وهو الملك مرمشكد المقيم بدنقلة، وكل نائب يكون للسلطان أطيعه ولا أرى عليه ولا أخبّىء عنه مصلحة، وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والردية أطالع نائبه به. ومتى علمت على نائبه الملك مرمشكد أمراً يخالف المصلحة لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به في الوقت والساعة. وأنني لا أدخل في حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضي به ملكاً، ورضيت بأن أقوم بدينار عيناً في كل سنة خالية عليّ».

---

(١) في الأصل: «بودس». والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٣، س ١٤.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٣ - ٩٧٤.

وعاد العسكر وأحضر من النوبة ما نذكر، وهو ما وجد في كنيسة سوس من الصلبان الذهب وغيرها: أربعة آلاف وستمائة وأربعون ديناراً ونصف، وأواني فضيات ثمانية آلاف وستمائة وستون ديناراً، والذي أحضر من الرقيق، سبعمائة رأس.

وأما الملك داود فإنه هرب إلى جهة الأبواب، فقاتله صاحبها الملك أدر، وقتل ولده، وأمسكه وسيره إلى السلطان.

ذكر غزوات النوبة في الإسلام

أول ما غُزيت النوبة في سنة إحدى وثلاثين[1] للهجرة النبوية، غزاها عبد الله بن سعد في خمسة آلاف فارس، وأصيب في ذلك اليوم معاوية بن حديج في عينه؛ وأصيب أبرهة الصباح في عينه، وكانوا يسمون النوبة: رماة الحدق. وهادنهم عبد الله ابن سعد بعد أن وصل دنقلة.

وفي ذلك يقول الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقله
ترى الحماة حولها مُجَدلَة   كأن أرواح الجميع مهمله

وقال يزيد بن أبي حبيب: «ليست الموادعة بين أهل مصر والنوبة موادعة هدنة، وإنما هي هدنة أمان، نعطيهم شيئاً من قمح وعدس، ويعطوننا رقيقاً، ولا بأس بما يُشترى من رقيقهم».

وكان البقط المرتب على النوبة وهو الرسم على ما قرر:

في كل سنة أربعمائة رأس من الرقيق، وزرافة واحدة. لأمير المؤمنين ثلاثمائة وستون رأساً، وللنائب بمصر أربعون رأساً.

ويطلق لرسله، إذا وصلوا بالبقط تاماً، ألف وثلثمائة أردب قمح، لرسله منها ثلثمائة.

وقال البلاذري في كتاب الفتوحات: «إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس، يأخذون بها طعاماً؛ أي غلة».

وألزمهم المهدي العباسي بثلاثمائة وستين رأساً وزرافة.

ثم غُزيت في زمن هشام بن عبد الملك بن مروان، ولم تفتح وإنما كان قتال ونهب وسبي.

---

(١) الموافق: ٦٥١ م.

وغزاها يزيد بن أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، على يد عبد الأعلى بن حميد. وغزاها أبو منصور تكين التركي هي وبرقة في عام واحد، ولم تفتح النوبة.

ثم غزاها كافور الإخشيدي، وكان أكثر جيشه السودان.

فقال الشاعر: [من الطويل]

ولما غزا كافور دنقلة غدا ... بجيش لطول الأرض من مثله عرض

غزا الأسود السودان في رونق الضحى ... فلما التقى الجمعان أظلمت الأرض

[ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان، فكبسه السودان، ونُهب جيشه، وأخذت أثقاله، وذلك في سنة تسع وخمسين وأربعمائة](١) في أيام المستنصر العبيدي.

ثم غزاها بعد ذلك شمس الدولة توران بن أيوب أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في سنة ثمان وستين وخمسمائة(٢)، ولم يصل إلا إلى أبريم.

وكل هذه غزوات، وإنما الفتح هذا.

ذكر غزوة الروم وقتل التتار(٣)

قد ذكرنا في أخبار السلطان في سنة خمس وسبعين وستمائة(٤) طاعة أمراء الروم ووصولهم إلى خدمة السلطان، وإكرامه لهم وإحسانه إليهم وما عاملهم به. ولما وصل السلطان إلى الديار المصرية في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وستمائة. أقام بها إلى شهر رمضان منها ثم عزم على السفر. وجهز من وصل إليه من أمراء الروم بالخيول والخيام وغير ذلك، وتوجه من قلعة الجبل المحروسة، بعساكر الديار المصرية في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان من السنة. ورتب الأمير شمس الدين آقسنقر أستاد الدار في النيابة عنه بقلعة الجبل والصاحب بهاء الدين وجعلهما في خدمة ولده الملك السعيد. واستصحب معه الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين وجعله وزير الصحبة، وهي أول سفرة سافرها صحبته، واستصحب أكثر كتاب الإنشاء، وفوض في هذا اليوم نظر الجيوش للقاضي عز الدين إبراهيم ابن(٥) الوزير الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، والشهادة به للقاضي شمس الدين الأرمنتي، واستصحبهما صحبته.

---

(١) الموافق: ١٠٦٦ م.

(٢) الموافق: ١١٧٢ م.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨.

(٤) الموافق: ١٢٧٦ م.

(٥) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

ثم رحل يوم السبت ثاني عشرين الشهر وصحبته أمراء الروم، وسار فما مر بمملكة إلا استصحب عسكرها وخزائنها وأسلحتها، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الأربعاء سابع عشر شوال، وخرج منها متوجهاً إلى حلب في يوم السبت العشرين من الشهر، وكان وصوله إلى حلب في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة، وخرج منها في يوم الخميس ثاني الشهر إلى حَيْلان فترك بها بعض الثقل، وتقدم إلى الأمير نور الدين علي بن مجلي نائب السلطة بحلب أن يتوجه إلى الساجور، ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب، لحفظ معابر الفرات، خشية أن يعبر منها أحد من التتار إلى الشام، ووصل إلى الأمير نور الدين، الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا.

ولما اتصل خبر نزول هذا الجيش بالتتار المقدمين بالعراق جهزوا إليهم جماعة من عرب خفاجة لينالوا من العسكر غِرَّةً، فاتصل خبرهم بالأمير نور الدين [نائب حلب وهو على الفرات][(١)] فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم، وأخذ منهم ألفاً[(٢)] ومائتي جمل. ورحل السلطان من حيلان يوم الجمعة ثالث الشهر إلى عين تاب، ثم إلى دلوك، ثم إلى مرج الديباج ثم إلى كينوك، ثم رحل منها إلى كراصو[(٣)]، ثم إلى أقجا دربند، فوصله يوم الثلاثاء سابع الشهر فقطعه في نصف نهار، وبات في وطأة هناك. وقدم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في جماعة من العسكر جاليشا، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراي، فهزمهم وأسر منهم وقتل، وذلك في يوم الخميس تاسع الشهر. ثم ورد الخبر على السلطان أن عسكر المغل ومقدمهم تتاون وعسكر الروم ومقدمهم [معين الدين][(٤)] البرواناه قد قربوا من العسكر، فرتب السلطان عساكره وطلعت العساكر على جبال مشرفة على صحراء هوني[(٥)] من بلد أبلستين، وكان العدو في تلك الليلة قد بات على نهر جهان[(٦)]، وهو نهر جيحان، فأقبل المسلمون من علو الجبل، وترتبت المغل أحد عشر طلباً، كل طلب منها يزيد على ألف، وعزلوا عسكر الروم عنهم، وجعلوه طلباً بمفرده [لئلا يكون مخامراً عليهم][(٧)].

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٨، س ١٠.
(٢) في الأصل: «ألف».
(٣) في الأصل: «كل صو». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦٢٨.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك، ج ١، ص ٦٢٨.
(٥) هكذا بالأصل. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٨: «هوتي». وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٥٩: «صحراة البلستين».
(٦) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٢، حاشية رقم (١)، س ١٤.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٢.

وكان أبغا بن هولاكو قد انتخب هذا الجيش من عسكره، وكان فيه جماعة من أكابر مقدمي المغل. فوقف السلطان وتقدم إليهم جماعة من مماليكه وخواصه، فأخلدت فرقة منهم إلى الأرض وقاتلوا قتالاً شديداً، وحملت فرقة منهم من ميسرتهم واستدارت خلف الصناجق السلطانية، فحمل السلطان عليهم، فانجلت الحرب عن قتل التتار، وكان من بقي منهم كما قيل:

فلزهم الطراد إلى قتال أحد سلاحهم فيه القذاره

وكانت وقعة عظيمة مشهورة فثبت فيها المغل.

واستشهد من المسلمين في هذا اليوم شرف الدين قيران العلائي أحد مقدمي الحلقة(١)، وعز الدين أخو المحمدي.

ونزل السلطان في المنزلة التي كان العدو نازلاً بها، وأحضرت بين يديه الأسارى من المغل، فاستبقى السلطان بعض أكابرهم وقتل من بقي منهم، وأسر جماعة من أكابر أمراء الروم، ووصل جماعة منهم إلى الخدمة. وكان ممن أسر ووصل من الروم بكلاء بن البرواناه، ومعه ولد أخته، وولد خواجا يونس، والأمير نور الدين بن جاجا، والأمير قطب الدين أخو الأتابك، والأمير سراج الدين جاجا، وسيف الدين سنقرجاه الزوباشي، ونصرة الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين، عارض الجيش بالروم، وحسام الدين بركاول، قريب الرواناه، وسيف الدين بن عليشير التركماني، والأمير سيف الدين جاليش النائب بالروم، وهو أمير داد، ومعناه أمير العدل، وظهير الدين بن(٢) فتوح مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة، والأمير نظام الدين أوحد ابن(٣) الأمير شرف الدين بن الخطير وإخوته، وقاضي القضاة حسام الدين قاضي الروم، ومظفر الدين بن جحاف، وأولاد الأمير صارم الدين بن الخطير، وجماعة من أصحابهم، وسيف الدين كجكنا(٤) الجاشنكير، ونور الدين المنجنيقي وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية(٥) كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر، وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم وأولادهم، وأما البرواناه فإنه هرب.

---

(١) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٢٩.

(٢) ساقطة من الأصل. والإضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩.

(٣) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) هكذا في الأصل. وفي كتاب النهج السديد لابن أبي الفضائل، ص ٢٦١: «قليج» وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩: «قفجاق».

(٥) في الأصل: «ماطية». وملطية: بلدة من بلاد الروم. تتاخم الشام وهي للمسلمين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: وأما البرواناه فأنه شمر الذيل وامتطى هرياً أشهب الصبح وأحمر الشفق وأصفر الأصيل وأدهم الليل، ودخل قيسارية في وقت السحر من يوم الأحد ثاني عشر الشهر، فأفهم سلطانها غياث الدين [كيكاوس بن كيخسرو](١) والصاحب فخر الدين وزيرها، والأتابك مجد الدين والأمير جلال الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، والطغرائي وهو ولد أخي البرواناه: أن جيش الإسلام كسر بعض المغل، وأن بقية المغل انهزموا، ويخشى أن يدخل المغل قيسارية ويقتلون من بها حنقاً على الإسلام، فأخذهم وأخذ زوجته بنت غياث الدين صاحب أرزن الروم، وتوجهوا كلهم إلى توقات(٢). ولهذه كرجي خاتون [امرأة البرواناه] أربعمائة جارية استصحبتهن معها. وكانت أم هذه كرجي خاتون ملكة الكرج.

وتوقات مكان حصين مسيرة أربعة أيام من قيسارية.

وجَرّد السلطانُ الأميرَ شمس الدين سنقر الأشقر بجماعة لإدراك من انهزم من المغل، والتوجه أمامه إلى قيسارية، وكتب بتأمين أهلُها. فمرّ بفرقة من التتار معهم البيوت، فأخذ عنهم جانباً. وحال بينهم الليل، فمر كل منهم من جهة.

ورحل السلطان يوم السبت حادي عشر الشهر من مكان المعركة ونزل قريباً من قرية رمّان، وهي قريب الكهف والرقيم حقيقةً كما نقل، لا ما يقال إن الكهف والرقيم من عمل بيسان(٣) والبلقاء.

وقرية رمّان هذه بيوتها مبنية حول سن جبل قائم كالهرم ويطوف بها جبال كأنها أسوار، ويخرج منها أنهار عليها قناطر لا تسع غير راكب.

واشتدت الأمطار، ثم سار بكرة النهار إلى الليل، ونزل بوطأة من أعمال صاروس العتيق، وبقربها معدن الفضة. فأتى السلطان مُخبر أن التتار في فجوة هناك فركب بالعساكر فعاقته كثرة الأمطار فعاد وبات بتلك المنزلة. وأصبح فسلك جبالاً وعرة، ومر على قرية أوترال ومنها إلى خان قريب من حصن سمندو، وكان السطان قد سيّر كتاباً إلى نائبها، فقبله وأذعن إلى النزول عنها إن أمره السلطان، فشكره وأحسن إليه، وكذلك متولي قلعة درندا، ووالي دوالوا، أجابوا كلهم إلى الطاعة. ثم نزل

(١) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٩، س ٦.

(٢) توقات: بلدة في أرض الروم بين قونيا وسيواس. ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٩.

(٣) في الأصل: «حسبان».

السلطان قرية قريبة من قيسارية شرقي جبل عسيب، وركب يوم الأربعاء، نصف ذي القعدة سنة خمس وسبعين وستمائة[١]، والعساكر في خدمته، وخرج أهل قيسارية، العلماء والأكابر وغيرهم حتى النساء والأطفال فتلقوا السلطان، وكان دهليز صاحب الروم وخيامه قد نصبت في وطأة كينجسرو قريباً من المناظر التي لملوك الروم، فنزل السلطان به، وارتفعت أصوات العالم بالتهليل والتكبير، وضربت به نوبة آل سلجق على العادة، وحضر أصحاب الملاهي فَرُدّوا، واعتمد السلطان على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة، وكان أولاد [محمد بن][٢] قرمان [أمير التركمان][٢] قد رهنوا أخاهم الصغير علي بك بالروم، فخرج إلى السلطان فأكرمه، وطلب منه تواقيع وصناجق له ولأخوته فأعطاه وتوجه، وكتب السلطان إليهم في الحضور إلى خدمته، وأكد في ذلك. فكان من خبرهم في الوصول إلى بلاد الروم بعد رحيل السلطان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثم ركب السلطان في يوم الجمعة سابع عشر الشهر، وعلى رأسه جتر ابن سلجق ودخل قيسارية. وكانت دار السلطنة قد هيئت لنزوله، وتخت آل سلجق قد نصب لحلوله، فجلس في مرتبة السلطنة بكرة النهار، وحضر القضاة والفقهاء والوعاظ والقراء والصوفية وأعيان قيسارية، وذوو المراتب على العادة السلجقية في أيام الجمع، ووقف له أمير المحفل ـ وهو عندهم ذو حرمة ومكانة، وعليه أكبر ثوب وأكبر عمامة ـ فرتب المحفل وقرأ القراء، ثم أنشد أمير المحفل، بالعربية والعجمية مدائح في السلطان. ومد السماط، فأكل من حضر وانصرفوا. وتهيأ السلطان لصلاة الجمعة وحضر إلى الجامع وصلى، وخطب الخطباء في جوامع قيسارية باسمه، وهي سبعة[٣] جوامع. ثم عاد إلى دار السلطنة وأحضر بين يديه دراهم عليها السكة الظاهرية.

وظهر لمعين الدين سليمان البرواناه ولزوجته كرجي خاتون موجود عظيم[٤]، فحمل إلى السلطان وكذلك موجود من نزح؛ ففرق أكثره على أمرائه.

وحكى الصاحب عز الدين بن شداد في السيرة الظاهرية قال: حكى لي من أثق به أن البرواناه بعث إلى السلطان لما دخل قيسارية يهنئه بالجلوس على التخت، فكتب إليه يأمره بالوفود عليه ليوليه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً، وكان مراده

---

(١) الموافق: ١٢٧٦ م.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣، س ٢ ـ ٣.
(٣) في الأصل: «سبع». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) في الأصل: «موجوداً عظيماً». والتصحيح يقتضيه السياق.

أن يصل إلى أبغا ويحثه على المسير [بنفسه][1] والسلطان بالبلاد، فلم يدر ذلك في حدس السلطان. فاجتمع تتاون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر وعرفه قصد البرواناه في طلبه الانتظار، وأن مقصده أن السلطان يتربص حتى يدركه أبغا في البلاد، فكان ذلك سبب رحيل السلطان عن قيسارية.

ذكر رحيل السلطان عن قيسارية وهرب عز الدين أيبك الشيخي ولحاقه بأبغا وعود السلطان إلى ممالكه

كان رحيل السلطان من قيسارية في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة، وقيل في الثاني والعشرين منه، لقلة الأقوات، وقيل للسبب الذي تقدم ذكره، وجعل علي يزكه الأمير عز الدين أيبك الشيخي، وكان السطان قد ضربه لسبقه الناس وتقدمه، فحقد ذلك، وتسحب يومئذٍ والتحق بأبغا بن هولاكو.

ونزل السلطان بقيرلو فورد عليه فيها رسول البرواناه، ومعه رجل آخر اسمه ظهير الدين الترجمان، وهو يستوقف السلطان عن الحركة، وما كانوا علموا بقصد السلطان في مسيره إلى أية جهة، وكان الخبر قد شاع أن حركة السلطان إلى سيواس، فأجاب السلطان البرواناه: «إن كتبك وكتب غيرك كانت تأتيني واشترطتم شروطاً لم تفوا بها ولا وقفتم عندها، وقد عرفت الروم وطريقه، وما كان جلوسنا على التخت رغبة فيه إلا لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن شيء نريده بحول الله وقوته، ويكفينا أخذنا أمك وأبنك وابن بنتك وما منحناه من النصر الوجيز، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز». ثم رحل، ونزل خان كيقباد، فلما نزل به بعث الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى قرية رمّانة فحرقها، وقتل من كان بها من الأرمن وسبى حريمهم، لأنهم كانوا قد أخفوا جماعة من المغل.

ولما رحل السلطان من منزلة روزان كودلوا مرّ في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير الطريق الذي كان توجه عليها إلى قيسارية، ويعرف هذا المكان بقزل صو، ومعناه النهر الأحمر، وهو بعيد المستقى، كثير الزلق والوحل، فوقف السلطان وجرد سيفه حتى بسطت جملة من اللبابيد الحمر تحت حوافر الخيل وأخفاف الجمال، ووقف راجلاً حتى عبر الناس أولاً فأولاً، ثم ركب وعبر ونزل في وادٍ فيه مرعى، ثم رحل إلى صحراء فراحاً بالقرب من بازاريلوا، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

ثم رحل يوم السبت وسار إلى وطأة أبلستين ومر بمكان المعركة لمشاهدة رمم التتار، وحضر جماعة من أهل أبلستين، وسئلوا عن قتلى التتار، فقال رجل منهم: «عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين من المغل خاصة في المعركة غير من قتل خارجها». ولما بلغ السلطان أقجا دربند بعث الأثقال والخزائن والصناجق صحبة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار ليعبر بها الدربند، وتأخر السلطان ساقة العسكر يوم الأحد، ورحل يوم الاثنين فدخل الدربند، وحصل للناس مشقة، ولما خرجوا منه قطعوا النهر الأزرق، وبات.

ثم رحل السلطان فنزل قريباً من كينوك، ثم نزل يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة قريباً من حارم، ونزل بعساكره هناك وعيّد عيد الأضحى، ووصلت إليه رسل الأمير شمس الدين محمد بن قرمان أمير التركمان وكتبه بما اعتمده بالروم بعد عود السلطان، وأنه حضر في عشرين ألف فارس من التركمان وثلاثين ألف راجل متركشة إلى خدمة السلطان فلم يدركه.

ذكر ما اعتمده الأمير شمس الدين محمد بك بن قرمان أمير التركمان في البلاد الرومية(١)

كان الأمير شمس الدين المذكور قد باين التتار ونابذهم، وخرج عن طاعتهم وطاعة الروم، وانحاز إلى السواحل. فلما بلغه خبر كسرة التتار ووصول السلطان إلى قيسارية جمع جموعاً كثيرة من التركمان وقصد أقصرا، فلم ينل منها طائلاً فرحل عنها وقصد قونية في ثلاثة آلاف فارس ونازلها، فغلق أهلها أبوابها في وجهه، فرفع على رأسه صناجق السلطان التي سيرها مع أخيه علي بك، وبعث إليهم يعرفهم أن السلطان الملك الظاهر كسر التتار ودخل قيسارية وملكها، فقال أهل البلد: «أما الأبواب فنحن لا نفتحها، ولكن أحرقوها وأدخلوا فنحن لا نمنعكم»، فأحرقوا باب الفاخراني، وباب سوق الخيل ودخلوا قونية يوم عرفة، وهو يوم الخميس. وكان النائب بها إذ ذاك أمين الدين ميخائيل. فقصد من معه داره ودار غيره من الأمراء، والأسواق والخانات فنهبوها، ثم ظفروا بأمين الدين، فأخرجوه إلى ظاهر البلد وعذبوه إلى أن استأصلوا ماله ثم قتلوه وعلقوا رأسه داخل البلد، وامتنع أهل البلد من تسليمها، فأعملوا الحيلة، ورتبوا رجلاً على أن يتوجه إلى قمين من أقمنة حمام عينوه له، فإذا رأى هناك شاباً رمى نفسه عليه وقبل رجليه، فإذا قال له الشاب: «من أين تعرفني؟»، فيقول: «ما أنت

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٠.

علاء الدين كيخسرو ابن السلطان عز الدين كيقباذ؟ أنسيت تربيتي لك وحملك على كتفي؟». وليكن ذلك بمشهد من العامة، فلما فعل ذلك وسمعت العامة ما دار بين الرجل والشاب ازدحموا عليه، وإذا جماعة من التركمان كان قد رتب معهم أنهم إذا رأوا العامة قد أحدقوا به فيأخذونه[١] من بين أيديهم ويحملونه إلى الأمير شمس الدين محمد بك، ففعلوا ذلك، فلما رآه أقبل عليه وضمه إليه، وعقد له لواء السلطنة وحمل الصناجق على رأسه، وذلك في الرابع عشرين ذي الحجة، فلما رأى أهل قونية[٢] ما فعلوه حملتهم المحبة في آل سلجوق على متابعتهم، ثم نازلوا القلعة، فامتنع من فيها من تسليمها، فحاصروها، ثم تقرر بينهم الصلح على تسليمها ويعطى من فيها سبعون[٣] ألف درهم، فدخلوها وأجلسوا علاء الدين فيها على تخت الملك، ثم بلغ ابن قرمان والتركمان أن تاج الدين محمداً، ونصرة الدين محمود، ابنا الصاحب فخر الدين خواجا علي، قد حشدا وقصداهم، فسار [ابن قرمان][٤] إليهما وعلاء الدين معه، فالتقوا على آمد شهر، فكسرها وقتلهما، وقتل خواجا سعد الدين يونس بن سعد الدين المستوفي صاحب أنطاكية، وهو خال معين الدين البرواناه، وقتلوا جلال الدين خسرو بك ابن شمس الدين يوناس بكلارتكسي[٥]، وأخذوا رؤوسهم وعادوا بهم إلى قونية في آخر ذي الحجة. واستمروا بقونية إلى أن دخلوا[٦] سنة ست وسبعين وستمائة[٧]، فبلغهم أن أبغا وصل بعد خروج الملك الظاهر من الروم إلى مكان الوقعة، فرحلوا عن قونية إلى جبالهم. وكانت مدة مقامهم بقونية سبعة وثلاثين يوماً.

ذكر وصول أبغا إلى بلاد الروم ومشاهدته مكان[٨] الوقعة وما فعله بأهل الروم من القتل والنهب

كان البرواناه معين الدين لما تمت الهزيمة على التتار وعليه، قد كتب إلى أبغا يستنصر به ويستحثه على الوصول إلى بلاد الروم، فتوجه أبغا إلى الروم، ولما شارف

(١) في الأصل: «فيأخذوه». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم. وهي موضع مدينة القيروان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٥.
(٣) في الأصل: «سبعون».
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٢.
(٥) هكذا في الأصل.
(٦) هكذا في الأصل. والصواب: «دخلت».
(٧) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٨) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣.

البلاد خرج إليه البرواناه بمن معه، وتوجه في خدمته بالعساكر إلى أن وصل البلستين، ووقف على موضع المعركة، فتأسف على المغل وبكى، ثم قصد منزلة السلطان الملك الظاهر، فقاسها بعصا الدبوس فعلم عدة من كان نازلاً بها من العساكر وأنكر على البرواناه كونه لم يُعرفه جلية حال العسكر، فاعتذر بأنه[١] ما علم بذلك، وأن العسكر حضر بغتة، فلم يقبل عذره. وكان الأمير عز الدين أيبك الشيخ في خدمة أبغا، فقال له: «أرني مكان الميمنة والقلب والميسرة» فأقام[٢] له في كل منزلة رمحاً، فلما رأى بعد ما بين الرماح قال: «ما هذا العسكر الذي حضر معي يكفي هؤلاء»؟ وكان في خدمته من عسكره ثلاثون[٣] ألف، وكان قد سيرهم إلى الشام فأعادهم من كينوك، وتوجه إلى قيسارية وسأل أهلها فقال: «هل كان مع صاحب مصر جمال»؟، فقالوا: «لم يكن معه إلا خيل وبغال»، فقال: «هل نهب منكم شيئاً»؟، قالوا: «لا، إلا مشترى بالذهب»، فقال: «منذ كم فارقكم»؟ قالوا: «منذ خمس وعشرين يوماً»، فقال: «هم الآن عند جمالهم»[٤]. ثم عزم على قتل من بقيسارية من المسلمين، فاجتمع إليه القضاة والفقهاء، وقالوا: «هؤلاء رعية ولا طاقة لهم بدفع عسكر إذا نزل عليهم، وهم مع الزمان عبيد من ملك»، فلم يرجع إلى ذلك، وأمر بقتل جماعة من أهل البلد، وقتل قاضي القضاة جلال الدين حبيب، وأمر عسكره أن يبسط في المملكة الرومية، فقتل من الرعايا ما يزيد على مائتي ألف، وقيل بلغت عدة من قتل من الرعايا والفلاحين وغيرهم خمسمائة ألف من قيسارية إلى أرزن الروم، [ولم يقتل أحداً من النصارى][٥]، ثم عاد أبغا إلى الأردو، وكان من خبر قتل البرواناه معين الدين ما قدمناه.

نعود إلى سياقة أخبار السلطان الملك الظاهر

قد قدمنا أن السلطان نزل بالقرب من حارم، وعيّد عيد الأضحى هناك، وحضر إلى خدمته أمراء بني كلاب، ثم نزل السلطان بالقرب من أنطاكية في مروجها، ورحل إلى دمشق، فكان دخوله إليها في خامس المحرم سنة ست وسبعين وستمائة[٦] وقيل في سابعه.

---

(١) في الأصل: «أنه». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٢) في الأصل: «فقام». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) في الأصل: «ثلاثين». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) هكذا في الأصل.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٣.
(٦) الموافق: ١٢٧٧ م.

قال المؤرخ: كان السلطان لما توجه إلى الروم كلف أهل دمشق جباية مال بسبب إقامة الخيل، فحضر إليه الشيخ محيي الدين النواوي وكلمه في ذلك بكلام خشن، فلاطفه السلطان، وقال له: «يا سيدي: مد يدك أعاهدك أنني متى كسرت العدو في هذه السفرة أبطل الجباية ويكون خاطرك معي»، فعاهده على ذلك. فلما فتح البلاد وكتب إلى الشام بالبشارة، كتب إلى الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي، شاد الدواوين بدمشق، كتاباً مضمونه: أنه لا يحل ركاباً إلا وقد استخرجت من أهل دمشق مائتي ألف درهم، ومن برِّها ثلثمائة ألف درهم، ومن قراها ثلثمائة ألف درهم، ومن البلاد القبلية تكملة ألف ألف درهم، فتبدّل فرح أهل الشام لذلك حزناً، وتمنوا زوال الدولة، فما كملت خباية نصف المال حتى مات السلطان.

واستهلت سنة ست وسبعين وستمائة(١)

ذكر وفاة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي رحمه الله تعالى

قال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في السيرة الظاهرية: ودخل السلطان دمشق في خامس المحرم وقد رنّح النصر أعطافه، وروى من دماء الأعداء أسيافه، وقدامه مقدمو التتار قد ركبوا وهم في القيود عوض شهب الجياد، وبعد أن كانوا مقترنين صاروا مقرنين في الأصفاد. ونزل بقصره في الميدان الأخضر، معتقداً أن الدنيا في يده قد حصلت، والبلاد التي حلها ركابه عنه انفصلت، وأن سعده استخلص له الأيام وأصفاها، والممالك شرقاً وغرباً لو لم يكن بها غيره لكفاها، وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها، والأمنية وقد وضعت حوبها [و](٢)أوزارها، والعافية وقد شمّرت الذيل، والصحة وقد قالت لطبيه: «أهلك والليل»، ورماح الخط وقد قالت لأقلام الخط: «أصبت في لبس الحداد من المداد»، والقلوب وقد قالت عند شق الجيوب: «نحن أحق منك بهذا المراد»، والحصون وقد قالت لقصره الأبلق: «ما كان بناؤك على هذه الصورة إلا فألا بما تسود الجدران به عند الفجائع من السواد».

قال: وكان ابتداء مرضه الذي اعتل به الوجود، وتباشرت به الأكفان واللحود: ليلة السبت خامس عشر المحرم. فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشرة وكأنه مودع لأخدانه ورؤية موكبه وركوب حصانه، ونزل والتاث جسمه بعض التياث،

---

(١) يوافق أولها يوم الجمعة ٤ يونيه/ حزيران ١٢٧٧ م.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

وأصبح وليس عنده ذلك الانبعاث. فلما انقضت مدة أجله، وانطوت صحيفة عمله، قبض الله روحه الزكية، ورجعت إلى ربها راضية مرضية، وذلك بعد الزوال من يوم الخميس سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة[١].

وكأن نفوس العالم كانت نفساً، وأنزل الله السكينة فلا تسمع إلا همساً، واستصحبت مهابته السكون وخادعت العقول حتى أن ما كان[٢] من وفاته كاد كل يحلف أنه ما يكون.

وحمل في محفة إلى قلعة دمشق في تلك الليلة، وسكنت الشفاه والألسنة، وتناومت العقول من غير نوم ولا سنة. وجُعل في بعض القاعات بالقلعة على سرير يومأ إليه بالترحم والسلام، ولا يزوره غير الملائكة الكرام.

قال المؤرخ: وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه المهتار شجاع الدين عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، ثم جعل في تابوت وعلق في بيت من بيوت قاعة البحرة بقلعة دمشق. وكانت مدة مرضه، رحمه الله تعالى، ثلاثة عشر يوماً، وهي مدة مرض الشهيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى.

وأول ما فتحه السلطان بنفسه: قيسارية الساحل، وآخر ما فتحه قيسارية الروم، واستمر بقلعة دمشق إلى أن ابتاع ولده السلطان الملك السعيد دار العقيقي بدمشق بستين ألف درهم، وحصل الشروع في عمارتها ووضع الأساس في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة من السنة. وكانت النفقة على العمارة من ريع أملاكه، وحمل إليها ليلة الرغائب الخامس من شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة[٣]، [و][٤] بعد أن صلى عليه في صحن جامع دمشق ليلاً، أدخل من باب البريد وخرجوا به من باب النطاقين إلى تربته وتولى حمله الأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بالشام والأمير عز الدين الداودار والطواشي صفي الدين جوهر الهندي، وألحده القاضي عز الدين الشافعي.

ولما تمت له سنة من يوم وفاته عملت له الأعزية بالقرافتين[٥]، ومدت الأسمطة للقراء والفقراء وفرقت على الزوايا، وحضر الناس على اختلاف طبقاتهم. وقرىء له

(١) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٢) في الأصل: «ما كانت».
(٣) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٥) هكذا في الأصل.

عدّة ختمات، وعمل له بعد ذلك عدة أعزية بمدرسة الشافعي، والجامع الطولوني، والجامع الظاهري، والمدارس الظاهرية، والصالحية، ودار الحديث الكاملية، والخانقاه الصلاحية، والجامع الحاكمي، وعمل للتكازرة خوان حضره جماعة من الفقراء والصالحين.

مدة حكمه

وكانت مدة ملكه، رحمه الله تعالى، سبع[١] عشرة سنة وشهرين واثني عشرة يوماً. وكان له من الأولاد: السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد قاءان بركة، وأمه ابنة الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، والملك المسعود نجم الدين الخضر، والملك العادل بدر الدين سلامش، وسبع بنات[٢].

وتزوج أيضاً ابنة الأمير سيف الدين نوكبة[٣] التتاري، وابنة الأمير سيف الدين كراي التتاري، وابنة الأمير سيف الدين تماجي التتاري، وامرأة شهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف الشهرزورية، ثم طلقها لما ملك الديار المصرية.

نائبه: مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار.

وزراؤه: الصاحب زين الدين بن الزبير مدة يسيرة. ثم استوزر بعده الصاحب بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حنا.

قضاته: وقد تقدم ذكر قضاته في أخبار دولته.

(١) في الأصل: «سبعة عشر سنة».
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٠ ـ ٦٤١.
(٣) هكذا في الأصل. وفي السلوك، ج ١، ص ٦٤٠: «نوكلي».

ذكر أخبار السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قاءان[1] ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار الصالحي وهو الخامس من ملوك دولة الترك

ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، بعد وفاة والده السلطان الملك الظاهر، في يوم الخميس سابع عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة[2]، وكان ولي عهد أبيه، على ما قدمناه في أخبار الدولة الظاهرية، في يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة اثنتين وستين وستمائة[3]، وجُدّد له الحلف، في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة[4].

قال: ولما توفي السلطان بدمشق كان الملك السعيد بمصر، وكان الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائب السلطنة وأكابر الأمراء قد أخفوا موت السلطان[5]. وكتب الأمير بدر الدين بيليك الخزندار إلى الملك السعيد كتاباً بخطه يخبره بوفاة السلطان، ويعلمه بما دبره من كتمان ذلك إلى أن يصل بالعساكر والخزائن إلى خدمته، وسأله كتمان الحال إلى أن يصل إليه، وسير إليه المطالعة على يد الأمير بدر الدين الجوكان دار الحموي، والأمير علاء الدين أيدغمش الحكمي الجاشنكير، فلما وصلا بالمطالعة وأنهيا ما معهما من المشافهة خلع عليهما وأنعم على كل منهما بخمسة آلاف درهم، وأظهر أن ذلك بسبب بشارتهما بعود السلطان إلى دمشق. ثم ركب الأمراء في بكرة يوم السبت تاسع عشرين الشهر على العادة إلى سوق الخيل بدمشق.

ثم رحلوا من دمشق في صفر بالجيوش والعساكر، وبينهم محفة محمولة، وجماعة من المماليك السلطانية في خدمتها يظهرون أن السلطان الملك الظاهر فيها

---

(١) هكذا في الأصل. ويرد أيضاً: «قاآن». ويرد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤١ «قان».

(٢) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٣) الموافق: ١٢٦٣ م.

(٤) الموافق: ١٢٧٨ م.

(٥) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤١.

وهو ضعيف، كل ذلك حفظاً للمهابة، وما زال الأمر كذلك إلى أن وصلوا إلى الديار المصرية، وكان وصول المحفة والأمراء إلى قلعة الجبل في يوم الخميس خامس عشرين صفر سنة ست وسبعين وستمائة[١]، وسلم الأمير بدر الدين الخزندار الخزائن والعساكر للسلطان الملك السعيد، وأظهروا عند ذلك وفاة السلطان وحلف الناس للملك السعيد، واستقر له الملك وعمره يومئذٍ تسع عشرة[٢] سنة.

وكتب الملك السعيد إلى دمشق وسائر الممالك الشامية يخبر «النواب» بوفاة السلطان وسلطنته، ويطلب منهم اليمين، فوصل الأمر[٣] في البريد بذلك إلى دمشق في يوم الأحد ثالث عشر شهر ربيع الأول، فجمع النائب عن السلطنة بها وهو الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، الأمراء والمقدمين، وقرىء عليهم كتاب السلطنة فحلفوا، وحلف جميع العسكر والقضاة والأعيان، ثم رسم لمتولي دمشق أن يحلف أهل دمشق، فحلف أهل كل حارة بحضور عدلين، ورسم لمتولي البريد بذلك، فحلف أهل القرى والضياع، ودامت مدة الحلف بدمشق أحد عشر يوماً حتى كملت. ثم خلع على الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان والنظار وكتاب الإنشاء بدمشق في سادس عشر الشهر، وخلع على الأعيان والأكابر بالطرحات، وما كان قبل ذلك خلع بالطرحة، إلا على قاضي القضاة، وحلف أيضاً صاحب حماة وأهل بلده، ونائب حلب وأمراؤها وجندها وأهلها، وسائر الممالك الشامية لم يختلف منهم أحد ولا توقف عن اليمين.

ذكر وفاة الأمير بدر الدين بيليك الخزندار

كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بقلعة الجبل في ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وستمائة[٤]، وذلك أنه لما وصل إلى خدمة السلطان الملك السعيد وقف وحلف الأمراء والخواص والأجناد وغيرهم للملك السعيد، فلما تكامل ذلك توجه إلى والدة السلطان زوجة مخدومه ليعزيها بالسلطان ويهنيها بسلطنة ابنها، فشكرت فعله وما اعتمده من حق ولدها من حفظ السلطنة عليه، ثم أخرجت له هناباً فيه مشروب، وقالت له: «أشرب هذا فإنك قد تعبت في هذا اليوم وما أكلت شيئاً». فقال لها: «والله لي ثلاثة أيام ما آكل في كل يوم نصف أوقية طعام خوفاً على السلطان الملك السعيد، ولم أزل أداري الأمراء منذ وفاة السلطان إلى أن كمل هذا الحلف

(١) الموافق: ١٢٧٧ م.
(٢) في الأصل: «تسعة عشر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٣) في الأصل: «الأمراء». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) الموافق: ١٢٧٧ م.

المبارك». وتناول الهناب وشرب منه جرعتين وأعاده في الثالثة لكثرة إلحالحهم عليه، وتوجه إلى داره فحصل له قولنج، وانقطع وتزايد به الأمر، فمات، رحمه الله تعالى. وهذا الفصل الذي دبرته والدة الملك السعيد من سوء التدبير وقبح المكافأة، فإنه وقع الخيال عندها وعند ابنها منه، ولعل هذا الخيال كان غير صحيح: فإنه أحسن السياسة وأجمل التدبير ووفى لمخدومه، وكان رحمه الله تعالى، تربية السلطان، اشتراه وهو مفردي ورباه من صغره، وكان خزنداره، ثم أستادداره في الإمرة، ونائبه في السلطنة وكانت مكانته عنده مكينة، يرجع إلى رأيه ويعتمد عليه في سائر أحواله ويثق بنصحه، وتمكن في الدولة الظاهرية تمكناً عظيماً، وكان له بالديار المصرية إمرة مائة فارس وبالشام إمرة خمسين فارساً، وجعل له السلطان عند زواجه بابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قلعة الصبيبة وبانياس وأعمالها والشغر[1] وغير ذلك.

ولما مات وقعت الأوهام في نفوس الأمراء وتخيلوا، فإنهم علموا ما أسلفه المذكور من الخدمة للملك السعيد وحفظ الخزائن والعساكر، وأنه أدى الأمانة في طاعته.

واستناب السلطان بعد وفاته الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني الظاهري استاد الدار ونائب السلطنة بالديار المصرية في غيبة السلطان، وأقر الصاحب بهاء الدين على وزارته.

وركب السلطان في يوم الأربعاء سادس عشر شهر ربيع الأول بشعار السلطنة والأمراء في خدمته، وتوجه صوب الجبل الأحمر، وذلك أول ركوبه، وخلع على الأمراء والأعيان.

ذكر القبض على من يذكر من الأمراء والإفراج عنهم ومن مات منهم

كان من سوء التدبير الذي اعتمده السلطان الملك السعيد: أنه قبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي في يوم الجمعة حادي عشرين شهر ربيع الأول، واعتقلهما بقلعة الجبل، وكانا من أكبر الأمراء، وأخصّهم بصحبة السلطان والده، فتغيرت لذلك قلوب الأمراء، ثم اجتمع مماليكه ومماليك الأمير بدر الدين بيليك الخزندار، وحسنوا له القبض على نائبه الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني، واستعانوا بالأمير سيف الدين كوندك الساقي، وأمسكوه وهو جالس

(١) الشغر: قلعة حصينة قرب أنطاكية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٢.

عند باب[١] القلعة وسحبوه إلى الدور وضربوه ونتفوا لحيته، وذلك في يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واعتقل فلم يلبث إلا قليلاً ومات.

ثم أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري في يوم السبت ثاني جمادى الأولى وخلع عليهما وأعادهما إلى ما كانا عليه.

ثم قبض على خاله الأمير بدر الدين محمد بَيْ ابن الأمير حسام الدين بركة خان في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، واعتقله بقلعة الجبل، فغضبت أخته والدة السلطان لذلك، وأنكرته على ابنها، فأفرج عنه في ليلة الثلاثاء خامس عشرين الشهر وخلع عليه وأعاده إلى ما كان عليه. وشرع في خلال ذلك في تقديم مماليكه وترجيحهم وسماع آرائهم.

قال: ولما صدرت منه هذه الأفعال اجتمع الأمراء وتشاوروا، وقصدوا أن يتوجهوا إلى الشام، ثم رجعوا عن ذلك وبعثوا إلى السلطان وقد اجتمعوا في يوم خميس، وامتلأت بهم القلعة، وأنكروا فعله، وحذروه عاقبة ما يطرق إليه، فلاطفهم وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءاً، وتولى الأمير بدر الدين الأيدمري اليمين، فسكنت خواطرهم، واستقر الحال مدة لطيفة.

وكان السلطان لما قبض على الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني رتب في النيابة بعده الأمير شمس الدين آقسنقر الألفي المظفّري، فلم يرضه الخاصكية لأنه غير ظاهري. واتفق أنه ولي خوشداشة الأمير علم الدين سنجر المظفّري، المعروف بأبي خرص، نيابة المملكة الصفدية، وزاده على إقطاع النيابة نواحي من الخاص السلطاني، وهي أريحا وكفرين ونمرين من الغور، فأوهموا السلطان منه وزعموا أنه يقصد إقامة المظفّرية ولا تؤمن غائلته، فعزله عن قريب، وولى الأمير سيف الدين كوندك الساقي نيابة السلطنة [لأنه رُبي معه في المكتب][٢] وقيل إن ولايته كانت في سنة سبع وسبعين [وستمائة][٣]. ولما فوضت إليه النيابة أمر الوزير الصاحب بهاء الدين أن يجلس بين يديه وألا يوقع إلا بأمره.

وتقدم من المماليك السعيدية الأمير حسام الدين لاجين الزيني، وانضم إليه

---

(١) باب القلعة: كان هذا الباب أحد الأبواب الصغرى بداخل قلعة الجبل. ويتوصل إليه من الباب المدرج. وهو أعظم أبواب القلعة. وموقعه في أول الجانب الشرقي منها باتجاه القاهرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٤، ٢١٢.

(٢) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٤.

(٣) الموافق: ١٢٧٨ م.

الخاصكية، وقويت شوكته وأخذ لخوشداشيته الإقطاعات، ونافس النائب. فضم النائب إليه الأمراء الأكابر، ومال إليهم واستجلبهم، هذا كله في سنة ست وسبعين وستمائة(١)، وبعضه في سنة سبع على ما قيل.

وفي سنة ست وسبعين وستمائة أيضاً في يوم السبت سابع ذي القعدة: برز السلطان الملك السعيد بالعساكر إلى منزلة مسجد التبر(٢) لقصد الشام، ثم انتقل بخواصه من هذه المنزلة في يوم السبت حادي عشر الشهر ونزل بالميدان السعيدي وعادت العساكر إلى منازلهم وبطلت الحركة.

وفيها: في شهر رمضان طلعت سحابة عظيمة بصفد، لمع(٣) منها برق عظيم خارق، وسطع منها لسان كالنار، وسمع صوت رعد هائل، ووقع على منارة جامعها صاعقة شقت المنارة من رأسها إلى أسفلها شقاً يدخل فيه الكف.

وفيها: سأل قاضي القضاة صدر الدين سليمان [بن أبي العز](٤) الحنفي أن يؤذن له في الإقامة بدمشق مدرساً ومجاوراً لتربة السلطان، فأذن له، فأقام بدمشق. وفوض قضاء الحنفية بالديار المصرية لنائبه القاضي معز الدين.

ذكر عزل قاضي القضاة محيي الدين عبد الله بن محمد بن عين الدولة وإضافة عمله إلى قاضي القضاة تقي الدين بن رزين(٥)

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة من هذه السنة، عزل القاضي محيي الدين أبو الصلاح عبد الله ابن(٦) قاضي القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة الصفراوي عن القضاء بمصر والوجه القبلي. وسبب ذلك أنه كان قد حصل له فالج منذ خمس سنين، فأقعد وعجز عن الكتابة، وكان يعلّم عنه كاتب الحكم، فعزل الآن. وأضيفت ولايته إلى القاضي تقي الدين بن رزين، وعطل القاضي محيي الدين وانقطع بمنزله إلى

---

(١) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٢) في الأصل: «التبن». والتصحيح من السلوك، ج ١، ص ٦٨٤. ويقع هذا المسجد خارج القاهرة مما يلي الخندق، عُرف قديماً بمسجد البئر ومسجد الجميزة. وتسميه العامة مسجد التبن، وهو خطأ. و«تبر» هذا أحد الأمراء الأكابر في أيام كافور الإخشيدي. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤١٣.

(٣) في الأصل: «بلغ».

(٤) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٨.

(٥) انظر السلوك، ج ١، ص ٦٤٧.

(٦) في الأصل «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

أن مات، وكانت وفاته بمصر في رابع شهر رجب، وقيل في خامسه من سنة ثمان وسبعين وستمائة[١] رحمه الله تعالى.

وفيها: فوض السلطان الملك السعيد قضاء القضاة بدمشق والشام أجمع من العريش إلى سلمية لقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان الشافعي، وعزل القاضي عز الدين بن الصايغ، وتوجه القاضي شمس الدين إلى دمشق في سابع وعشرين ذي الحجة، فوصل إليها في ثالث عشرين المحرم، وخرج الناس للقائه إلى غزة. ومنهم من وصل إلى الصالحية، وكانت الشفاعة قد قويت بولايته قبل وقوعها.

وفيها: كانت وفاة قاضي القضاة الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي، في يوم السبت، ثاني عشرين المحرم سنة ست وسبعين [وستمائة][٢]، ودفن يوم الأحد بتربة عمه الحافظ عبد الغني. وكان مولده في يوم الأحد رابع عشر صفر سنة ثلاث وستمائة بدمشق[٣]، ولما أفرج عنه بعد القبض عليه كما تقدم، لزم بيته بالمدرسة الصالحية وتوفر على اشتغال الطلبة إلى أن توفي. وكان كريماً سمحاً كثير العبادة والذكر، وولي أيضاً مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة، رحمه الله تعالى

ذكر وفاة الشيخ خضر وشيء من أخباره[٤]

وفي سابع المحرم سنة ست وسبعين وستمائة: كانت وفاة الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى العدوي المهراني شيخ الملك الظاهر في معتقله بقلعة الجبل، ودفن بسفح المقطم.

وقد حكى الشيخ شمس الدين محمد بن مجد الدين إبراهيم الجزري في تاريخه، «حوادث الزمان وأنبائه»، مبدأ أمره، وكيف تنقلت به الحال، فقال: كان في مبدأ أمره يخدم الأكابر ببلد الجزيرة، ثم استخدم لِشَيْلِ زبائل دور السلطنة والقلعة بجامكية وجراية. ثم ذكر عنه أنه أفسد بعض جواري الدور، فرسم بخصيه، فهرب إلى حلب، وخدم باباً عند ابن قراطابا فأحبل جارية، فطلب فهرب إلى دمشق، والتجأ إلى الأمير ضياء الدين القيمري، وأقام بمغارة في زاويته بجبل المزة، فيقال إنه اجتمع بجماعة من الصالحين وبشروه بما يكون منه ومن السلطان الملك الظاهر. واتفق اجتماع الملك

---

(١) الموافق: ١٢٧٩ م.

(٢) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٣) الموافق: ١٢٠٦ م.

(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، وفيات عام ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م.

الظاهر به في مدة مقامه بدمشق في خدمة الملك الناصر فبشره بالملك. وكان الشيخ خضر قد احتوى على عقل الأمير سيف الدين قشتمر العجمي أحد الأمراء البحرية، فكان يخبره بسلطنة الملك الظاهر قبل وقوعها، ويخبره بأكثر ما وقع، ثم اجتمع به الأمير سيف الدين إيتامش السغدي، فأخبره أيضاً بخبر الملك الظاهر، ثم كان من سلطنة الملك الظاهر ما قدمناه، وصار هو في صحبة قشتمر العجمي، وخرج معه عند خروج السلطان إلى الشام بسبب الملك المغيث صاحب الكرك، فلما نزل السلطان على الطور سأل عنه الأمير سيف الدين قشتمر العجمي، فأخبره أنه قد انقطع في مغارة عند قبر أبي هريرة، رضي الله عنه، فتوجه السلطان إليه واجتمع به، فأخبره بوقائع كثيرة لم يخرم[(١)]، فاغتبط به ولازمه، وبقي السلطان إذا حاصر بلداً من البلاد الساحلية والجبلية يخبره الشيخ بما يكون من أمره فيها، وبالوقت الذي يفتح فيه، فلا يخرم ذلك. ولما قصد السلطان أن يتوجه إلى الكرك في سنة خمس وستين وستمائة[(٢)] استشاره في ذلك فأشار عليه ألا يتوجه إليها في هذه السفرة، وأن يتوجه إلى الديار المصرية فخالفه وتوجه إليها، فانكسرت فخذه ببركة زيزا قبل وصوله كما قدمنا ذكر ذلك. ولما رأى السلطان ذلك منه عظم عنده وبنى له زاوية بظاهر القاهرة بالحسينية بجوار أرض الطبالة، ووقف عليها أحكاراً بجملة كثيرة، وبالقدس زاوية، وبدمشق زاوية بالمزة، وببعلبك زاوية، وبحماة زاوية، ثم هدم كنيسة اليهود بدمشق، وهي الكنيسة العظمى عندهم، وجعلها زاوية كما تقدم، وهدم كنيسة النصارى بالقدس، وقتل قسيسها بيده وعملها زاوية، وهدم كنيسة الروم بالإسكندرية، وهي كرسي كنائسهم يعقدون فيها البتركية، ويزعمون أن رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام فيها[(٣)]، وهو عندهم يحنا المعمداني الذي عَمَّد المسيح ابن مريم، وجعلها مسجداً وبنى فيها المحاريب وسماها المدرسة الخضراء، وفتح لها شباكاً إلى الطريق، ورتب فيها فقراء من جهته، وكذلك في جميع زواياه: جعل بكل زاوية منها فقراء يقطعون المصانعات ويحمون أرباب الجرائم من اللصوص وغيرهم، ويتعاطون الفسق.

قال: ولقد سأله مرة والدي إبراهيم فقال: «يا أخي، أشتهي أعرف كيف كان سبب وصلتك إلى هذه المنزلة»؟، فقال له: «والله لا أقول لك حتى تقول لي الذي تعرف مني»، فقال له: «أعرفك شيخ نحس، نفوك من الجزيرة ثم من حلب ومن

(١) هكذا في الأصل بالعامية بمعنى الخطأ في التقدير.
(٢) الموافق: ١٢٦٦ م.
(٣) في في الأصل: «فيهما». والتصحيح يقتضيه السياق.

دمشق، وما رأيتك إلا وقد صرت في هذه المنزلة»، فقال: «والله العظيم صدقت، وما صدقني أحد في الحديث إلا أنت يا أخي، لما هربت من الجزيرة طلعت إلى جبل الجودي، فبقيت أحتطب في كل يوم جرزة[١] حطب أبيعها بدرهم ونصف، فلما كان في بعض الأيام إذا أنا بفقير عريان ليس عليه لباس، وقد أنبت الله له شعراً على جسده، يستر عورته، فقال لي: «يا خضر، ايش تعمل»؟ قلت: «أحتطب» فقال: «تعال غداً إلى هذا المكان وخذ منه جرزتين حطب، بع الواحدة لنفسك والأخرى اشتر لي بثمنها موسى ومقصاً ومشطاً». فقلت: نعم. فلما كان الغد قصدت ذلك المكان، فوجدت به جرزتين حطباً، فبعت إحداهما واشتريت له ما طلب، وبعت الأخرى لنفسي، فلما اجتمعت به قال لي: «اذهب إلى الشام، فسوف يكون لك ذلك مع ملكه شأن عظيم». فقدر الله تعالى أنني سكنت هذه المغارة بالمزة، فحصل لي اجتماع بالسلطان الملك الظاهر لما كان في خدمة الملك الناصر، وفتح عليّ بأن بشرته بالملك، فلما ملك كان سبب الوصلة بيني وبينه الأمير سيف الدين قشتمر العجمي. قال: «وكان ذلك الفقير قد أخبرني بجميع ما يقع لي في عمري وبجميع ما يقع للسلطان واقعة بعد أخرى».

قال: قال والدي: وكان في ذلك الوقت قد حصل لي وجع في ظهري، فقلت له: إن ظهري يؤلمني فمسح بيده على ظهري، فسكن الوجع، فقال: «يا مجد الدين، سكن الوجع أم لا»؟. قال: فقلت: أما الوجع فقد سكن، وأما أنني أعتقد أنك رجل صالح فلا، وإنما هذا من جملة السعادة التي حصلت لك. ثم كان من قبض السلطان عليه واعتقاله ما تقدم ذكره، ولم يزل في اعتقاله إلى أن مات. قال: ولما عاد السلطان من غزاة الروم إلى دمشق كتب بإطلاقه فورد البريد بعد وفاته.

وكان واسع الصدر كريم النفس، يُعطي الدراهم والذهب الكثير، ويصنع له الطعام في قدور كبيرة مفرطة في الكبر، وكانت أحواله غير متناسبة والأقوال فيه مختلفة، فمن الناس من يثبت صلاحه، ومنهم من يرميه بالعظائم، وكان يكتب إلى صاحب حماة وغيره من الأمراء في أوراقه إليهم: خضر نياك الحمارة، وكتب بذلك إلى قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ورقة، فأغضى عنها، ثم أخرى كذلك، فلما وصلت إليه الورقة الثالثة أحضر رسوله وقال له: «قل له، والله لئن وصل إليّ ورقة منه بعد هذه فيها مثل هذا: أحضرته إلى مجلس الحكم وقابلته بما يستحقه بمقتضى ما كتب به خطه»، فامتنع بعد ذلك من مكاتبته. ومات وله نيف وخمسون سنة، وكان ربع

(١) الجرزة: الحزمة. انظر القاموس المحيط للفيروزابادي، مادة: جرز.

القامة، كث اللحية، في لسانه عجمة، سامحه الله وإيانا.

وفيها: كانت وفاة الأمير جمال الدين أقش المحمدي الصالحي بالقاهرة في ليلة الخميس ثالث عشر ربيع الأول، ودفن من الغد بتربته بالقرافة الصغرى، وقد ناهز سبعين سنة. وكان السلطان قد نقم عليه وحبسه مدة ثم أفرج عنه وأعاده إلى الإمرة، وكان رحمه الله تعالى عديم الشر.

وفيها: توفي الأمير عز الدين أيبك الدمياطي الصالحي النجمي أحد الأمراء الأكابر المقدمين. وكان السلطان الملك الظاهر قد اعتقله كما تقدم ثم أفرج عنه، وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأربعاء تاسع شعبان، ودفن بتربته التي أنشأها بين القاهرة ومصر، المجاورة لحوض السبيل المعروف به، وقد ناف على سبعين سنة، وكان كريماً جداً، له مروءة تامة، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير عز الدين أيدمر العلائي، وكان ينوب عن السلطنة بقلعة صفد، فجرى بينه وبين النواب مفاوضة أدت إلى أن طلب الدستور من السلطان لينهي مصالح، فأذن له فحضر إلى الديار المصرية فأدركته منيته، فتوفي في ليلة الأربعاء سابع عشر شهر رجب، ودفن في يوم الأربعاء بالقرافة الصغرى. وكان عفيفاً أميناً محباً للعلماء والفقراء، وهو أخو الأمير علاء الدين أيدكن الصالحي العمادي، رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الأمير شمس الدين بهادر المعروف بابن صاحب صهيون، وكان قد قدم إلى خدمة السلطان الملك الظاهر قبل وفاته بثلاث سنين، فأحسن إليه وأكرمه، وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد العشرين من شعبان، ودفن من الغد بتربته التي أنشأها خارج باب النصر، وقد ناف على أربعين سنة، رحمه الله تعالى.

وفيها: كانت وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبي محمد عبد الملك ابن[١] الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، فجأة في يوم السبت خامس عشر المحرم من غير مرض، بل كان راكباً بسوق الخيل بدمشق فاشتكى ألماً في فؤاده، فعاد إلى منزل[٢] كريمته زوجة الملك الزاهد مجير الدين داود بن صاحب حمص، فأدركته منيته، فمات عند دخوله إليها، وقيل: إنه مات في باب الدار قبل الدخول إليها، ودفن بسفح قاسيون. وكان مولده في سنة اثنتين وعشرين وستمائة[٣]، وكان رحمه الله تعالى رجلاً جيداً شجاعاً بطلاً مقداماً،

---

(١) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل: «منزله».

(٣) الموافق: ١٢٢٥ م.

سليم الصدر حسن الأوصاف كريم الأخلاق، لين الكلمة كثير التواضع، حسن الاعتقاد في الفقراء والصالحين، وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا[١] بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم في كثير من أفعاله، رحمه الله.

وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونيني، نفع الله به، في تاريخه، في سبب وفاته، قال: حكى لي تاج الدين نوح ابن[٢] شيخ السلامية حكاية غريبة معناها: أن الأمير عز الدين أيدمر العلائي نائب السلطنة بقلعة صفد حدثه بها، قال: كان السلطان الملك الظاهر مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم، فأخبر أنه يموت بدمشق في هذه السنة، سنة سبع وستين وستمائة[٣] بالسم ملك[٤]، فحصل عنده من ذلك أثر كبير. قال: وكان الملك الظاهر عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة أو بذكر جميل، ولما دخل[٥] الملك القاهر إلى الروم صحبة السلطان، ظَهَر يوم المصاف عن شجاعة، وظهرت نكايته في العدو حتى تعجب من فعله من شاهده، ورآه الملك الظاهر فتأثر منه، وانضاف إلى ذلك أن السلطان حصل منه في ذلك اليوم فتور على خلاف عادته، وظهر عليه الندم كونه تورط في بلاد الروم - بكلمة الملك القاهر في ذلك الوقت - بكلام فيه إشارة إلى الإنكار وتقبيح فعله، فأثر ذلك عنده أثراً آخر، فلما عاد من غزاته وسمع الناس يلهجون بما فعله الملك القاهر تأثر من ذلك أيضاً، وتخيل في ذهنه أنه إذا سَمّه فمات هو الذي ذكره أرباب النجوم لأنه يطلق عليه اسم ملك وله ذكر، فأحضره السلطان عنده لشرب القمز، وأعد له سماً في ورقة وجعلها إلى جانبه، من غير أن يطلع على ذلك أحداً، وللسلطان هنابات ثلاثة تختص به مع ثلاثة من سقاته، لا يشرب فيها غيره إلا من يكرمه ويناوله أحدها من يده، واتفق قيام الملك القاهر لقضاء الحاجة، فجعل السلطان ما في الورقة في هناب وأمسكه بيده، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه فقبل الأرض وتناوله وشرب ما فيه. وقام الملك الظاهر لقضاء الحاجة فأخذ الساقي الهناب من يد الملك القاهر وملأه على العادة وهو لا يشعر بما وضعه السلطان فيه، فلما عاد السلطان تناول ذلك الهناب، فشرب ما فيه وهو لا يظن أنه الذي جعل فيه ما جعل، فلما شربه أحس واستشعر وعلم أنه قد شرب من ذلك الهناب الذي فيه آثار السم، وبقاياه وتخيل وامتد به المرض ومات كما تقدم. وأما الملك

---

(١) في الأصل: «يتزايا». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٢) في الأصل: «بن». والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) الموافق: ١٢٦٨ م.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٥.

(٥) في الأصل: «داخل».

القاهر فمات من غد ذلك اليوم. وذكر الأمير عز الدين العلائي أنه بلغه ذلك من مُطلع لا يشك في أخباره، والله تعالى أعلم[١].

وفيها: قتل الأمير عز الدين أيبك الموصلي الظاهري، كان نائب السلطنة بحمص ثم نقله السلطان إلى نيابة السلطنة بحصن الأكراد وما معه، وكان ذا صرامة ونهضة وذكاء ومعرفة، وكان يتشيع، قتل غيلة ليلة الأربعاء سابع عشرين شهر رجب.

وفيها: كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد الورع محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدين بن مري بن الحسن بن الحسين بن حرام بن محمد النواوي[٢] الشافعي. وكانت وفاته عند أبيه بنوى في يوم الأربعاء خامس عشر شهر رجب سنة ست وسبعين وستمائة[٣]، ومولده بنوى في سنة إحدى وثلاثين وستمائة[٤]، فيكون مدة عمره خمساً[٥] وأربعين سنة تقريباً. وكان رحمه الله تعالى كثير الورع والزهد واسع العلم له مصنفات مشهورة مفيدة منها: كتاب الروضة في الفقه؛ عليه تعتمد الشافعية وبه يحتجون غالباً، وشرح مسلم، ورياض الصالحين، وكتاب الأذكار، وشرح التنبيه، ومات قبل أن يكمله. ولم يكن في زمانه مثله في ورعه وزهده، وكان لا يأكل إلا مما يأتيه من جهة أبيه من نوى، فكان يخبز له الخبز بها ويُقمّر ويرسل إليه فيأكل منه، وما كان يجمع بين إدامين، فيأكل إما الدبس أو الخل أو الزيت أو الزبيب، ويأكل اللحم في كل شهر مرة. وكان يتولى دار الحديث الأشرفية، فيجمع المباشر للوقف جامكيته بها، ثم يستأذنه فيما يفعل بها إذا اجتمعت، فتارة يشتري بها ملكاً ويوقفه على المكان، وتارة يشتري بها كتباً ويوقفها ويجعلها في خزانة المدرسة المذكورة. وكان لا يقبل لأحد هدية، ولا يأكل لأحد من أهل دمشق طعاماً ولا غيره، وكان رحمه الله تعالى يواجه السلطان الملك الظاهر بالإنكار عليه في أفعاله، ويلاطفه السلطان ويحمل جفوة كلامه ويخاطبه يا سيدي، رحمه الله تعالى. وعاش والده الحاج شرف بعده إلى سنة إحدى وثمانين فمات في سابع عشر صفر، وقيل: في سنة اثنتين وثمانين، ودفن بنوى، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦.

(٢) نسبة إلى نوى. ونوى: اسم لبلدتين، إحداهما من أعمال حوران، وبينها وبين دمشق منزلتان، والأخرى قرية من قرى سمرقند. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٦.

(٣) الموافق: ١٢٧٧ م.

(٤) الموافق: ١٢٣٣ م.

(٥) في الأصل: «خمسة».

واستهلت سنة سبع وسبعين وستمائة[١]

ذكر توجه السلطان إلى الشام وإقامته بدمشق وتجريد العساكر[٢]

في هذه السنة: توجه الملك السعيد إلى الشام وصحبته أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر، ووالدته ابنة الأمير حسام الدين بركة خان، واستصحب الأمراء والعساكر. وكان رحيله من قلعة الجبل في ذي القعدة، ووصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة من السنة. ولما رحل ركابه بدمشق أمر بإبطال الجبايات والمظالم التي كانت حدثت في الدولة الظاهرية، فاستبشر الناس بذلك.

ولما استقر السلطان بدمشق جرد العساكر المصرية والشامية، فجرد الأمير سيف الدين قلاون الألفي الصالحي في عشرة آلاف، وأمره أن يتوجه إلى جهة سيس، وجرد الأمير بدر الدين بيسري الشمسي في عشرة آلاف وأمره أن يتوجه إلى قلعة الروم، وأقام هو بدمشق في مماليكه وخواصه، ونائبه الأمير سيف الدين كوندك. وأقام بدمشق من الأمراء الأكابر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، وكان السلطان قد أفرج عنه بعد وفاة والده الملك الظاهر وأحسن إليه.

قالوا: وأراد السلطان بتجريد الأمراء الأكابر وإبعادهم عنه أن يتمكن في غيبتهم من التدبير عليهم، وعزم أنهم إذا عادوا قبض عليهم وأقطع أخبازهم لمماليكه، وظن أن ذلك يتم له، والمقادير بخلاف ظنه. فتوجه الأمراء إلى الغزاة [وفي نفوسهم من ذلك إحن][٣]، وكان من أمرهم عند عودهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر أمر شاد الدواوين[٤]

وفي هذه السنة في رابع عشرين ذي الحجة: حصل بين الأمير بدر الدين بكتوت الأقرعي شاد الدواوين بدمشق، وبين نائب السلطنة بها، مفاوضة أدت إلى شكواه إلى السلطان، فانتصر الأمراء لنائب السلطنة، فرسم بتفويض شاد الدواوين بالشام إلى

(١) الموافق: ١٢٧٨ م.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤٩ ـ ٦٥٠.

(٣) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥٠.

(٤) شاد الدواوين: أقرب مرادف لهذا اللفظ كلمة تفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة الشاد، مضافاً إليها جهة الاختصاص، مثل شاد الجوالي وشاد دار البطيخ والفاكهة، وشاد مراكز البريد وشاد الزكاة. وكان عمل شاد الدواوين بمصر أيام الأيوبيين والمماليك معاونة الوزير في مراقبة الحسابات ومراجعتها انظر: Demombynes: op. cit. index III.

الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وكان من جملة الأمراء بحلب، وخلع عليه وأقطع خبز الأقرعي، ونقل الأقرعي إلى حلب على إقطاع الدواداري.

وفي هذه السنة، في ليلة يسفر صباحها عن يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة وهي سنة سبع وسبعين وستمائة(١): ولد مؤلف هذا الكتاب وجامعه(٢)، فقير رحمه ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم بن عبادة بن علي بن طراد بن خطاب بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق عبد الله ابن عتيق، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، وأبي أصحابه، وجد صاحبه، والخليفة من بعده، وهو ثاني اثنين ابن أبي قحافة عثمان، رضوان الله عليهم، بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، عرف مؤلفه بالنويري، عفا الله عنه ولطف به، وكان مولده بمدينة إخْميم(٣) من صعيد مصر في التاريخ المذكور.

وفي هذه السنة: كانت حوادث ووفاة جماعة من أرباب المناصب، وولاية غيرهم، نذكرها الآن في هذا الموضع. ولا نشترط في إيرادها الترتيب، بل نوردها بمقتضى المناصب، فمن ذلك:

[ذكر](٤) وفاة الأمير جمال الدين أقش النجيبي الصالحي

كانت وفاته بالقاهرة في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر. وكان يلي أستاددارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وتولى أستاددارية السلطان الملك الظاهر في ابتداء سلطنته، ثم نقله إلى نيابة السلطنة بالشام كما تقدم.

وكان رحمه الله تعالى، ديناً كثير الإحسان إلى الرعية والرفق بهم. وكان يكره السعاية في الناس، ومن سعى عنده بأحد أبعده، وكان يحب أهل الخير ويقربهم. وأنشأ

---

(١) الموافق: ١٢٧٨ م.

(٢) يبدو على أن نسخ هذه المخطوطة تم في حياة المؤلف النويري، حيث إنه ولد سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م. وتوفي سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م. انظر الصفحة الأولى من هذا الكتاب، وانظر سيرة حياته والتي كتبها بنفسه في هذه الصفحة، والصفحة التي تليها.

(٣) إخميم: بلد بالصعيد، يقع على شاطىء النيل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

بدمشق مدرسة للشافعية وخانقاه للصوفية على الميدان بالشُرُف الأعلى، وخاناً للسبيل بميدان الحصا. ووقف بالديار المصرية وقفاً على المجاورين. ولم يرزق في عصره ولداً. وكان عظيم الشكل والخلقة، كبير البطن، جهوري الصوت، أكولاً، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الصاحب بهاء الدين

وفي هذه السنة: كانت وفاة الصاحب الوزير [الصاحب][١] بهاء الدين [أبو الحسن][٢] علي بن محمد بن سليم المعروف بابنِ حنا، بمصر وقت آذان العصر من يوم الخميس سلخ ذي القعدة. ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته بالقرافة. ومولده بمصر في سنة ثلاث وستمائة[٣]، ومات وهو جد جد. وكان في ابتداء أمره في دكان يبيع الخام، ثم تنقلت به الأحوال وباشر في الديوان السلطاني حتى انتهى إلى هذه الغاية. وكان من رجال الدهر حزماً وعزماً وتدبيراً، وكتابةً وتحصيلاً للأموال، وقياماً بمصالح الدولة، وكان شديد الغيرة على منصبه، فإذا تعرض أحد من المتعممين المباشرين إلى الاجتماع بالسلطان عمل على إتلافه[٤]، وكذلك[٥] من يجتمع بأكابر الأمراء من هذه الطائفة، ويحسن إلى من يتصل بخدمته وخدمة أولاده، وينتمي إليهم ويقدمهم، وكان حسن الظن بالفقراء والمشايخ كثير الإكرام لهم.

ولا يمل من حوائجهم، ويتشفع الناس عنده بهم فلا يردهم، وكان أميناً في وزارته، ما تكلم عليه ولا على أولاده بخيانة وإنما كانوا كلهم يتجهون تجاه الغل[٦] ويزرعون فاتسعت بذلك أحوالهم وكثرت أموالهم، وعمروا الأبنية العظيمة والمساكن البديعة والمنتزهات، وعمر هو مدرسة بزقاق القناديل بمصر، ووقف عليها أوقافاً، وكان كثير الصدقة، والتزم صوم الدهر في وزارته، وكان يثيب الشعراء[٧] على مدائحهم، وامتدحه الشيخ رشيد الدين الفارقي فقال:

وقائل[٨] في الورى نبه لها عمرا فقلت إن علينا قد تنبه لي
ما لي إذا كنت محتاجاً إلى عمر من حاجة فليتم حسبي انتباه علي

---

(١)، (٢) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥١.
(٣) الموافق: ١٢٠٦ م.
(٤) في الأصل: «تلافة».
(٥) في الأصل: «وذلك».
(٦) الغل: أي الكسب.
(٧) في الأصل: «الشعر». والتصحيح يقتضيه السياق.
(٨) في الأصل: «وقايل».

وكان متمكناً من السلطان الملك الظاهر، يصرح باعتقاد بركته، حتى رام جماعة من الأمراء الأكابر خوشداشية السلطان أذاه عند السلطان وذكر معايبه في أوقات، فكان السلطان إذا تنسم ذلك منهم أو من أحدهم بادره السلطان بذكر محاسنه وأنه في بركته، فيقف من يقصد أذاه عن ذلك. ولما مات وصل الخبر إلى السلطان وهو بمنزلة الكسوة، فأمر بإيقاع الحوطة على الصاحب تاج الدين ولد ولده، وكان صحبته، وأخذ خطه بمائة ألف دينار، وأرسله إلى مصر، ورسم أن يستخرج من أخيه الصاحب زين الدين مائة ألف دينار، ومن الصاحب عز الدين بن الصاحب محيي الدين مائة ألف دينار. وفوض السلطان وزارته للصاحب برهان الدين الخضر السنجاري، وفوضت إليه وزارة الصحبة للصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء في هذا التاريخ، ودخل إلى دمشق متولياً.

ذكر وفاة مجد الدين عبد الرحمٰن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم

وفيها: توفي القاضي مجد الدين [أبو محمد](١) عبد الرحمٰن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم قاضي الحنفية بدمشق، وكانت وفاته بدمشق في يوم الثلاثاء سادس شهر ربيع الآخر، ومولده بحلب في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وستمائة(٢). وكان رجلاً ديناً صالحاً فاضلاً لطيفاً، وتولى تدريس المدرسة الظاهرية بالقاهرة كما تقدم، وخطابة الجامع الظاهري بظاهر القاهرة، ثم نقل إلى قضاء دمشق كما تقدم. ولما مات فوض قضاء القضاة الحنفية بدمشق لقاضي القضاة الشيخ صدر الدين أبي الربيع سليمان بن أبي العز بن وهيب الحنفي، وكان قاضي القضاة الحنفية بالديار المصرية، وتوجه في الصحبة الظاهرية إلى غزوة الروم، فلما عاد واتفقت وفاة السلطان سأل أن يكون مدرساً بدمشق ومجاوراً لتربة السلطان، ففوض إليه تدريس المدرسة الظاهرية بدمشق، وكان ابتداء جلوس المدرسين بها في ثالث صفر من هذه السنة، وولي تدريس الشافعية بها الشيخ رشيد الدين الفازقي، واستمر القاضي صدر الدين في القضاء أربعة أشهر ومات. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الجمعة سادس شعبان، ودفن بسفح قاسيون بتربته وكان له، رحمه الله، التصانيف المفيدة في مذهبه، ولما مات فوض القضاء بعده بدمشق لقاضي القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان قاضي ملطية، وكان قد حضر إلى الشام صحبة السلطان الملك

---

(١) ما بين المعكوفين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥١.

(٢) الموافق: ١٢١٧ م.

الظاهر، ففوض إليه القضاء بدمشق في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وسبعين وستمائة[١]، وقيل: في شوال منها.

وفيها: كانت وفاة الشيخ تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن شاهانشاه ابن غسيان بن محمد بن جلب راغب المعروف بابن ميسر المصري[٢]، وكان فاضلاً جمع تاريخاً لمصر، وقد نقلنا عنه مواضع فيما سلف من كتابنا هذا، وكانت وفاته بمصر في يوم السبت ثاني عشر المحرم، ودفن بسفح المقطم. ومولده في يوم الثلاثاء جَمادي الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة[٣] بمصر، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الشيخ العارف نجم الدين أبو المعالي محمد بن الخضر الشيباني الحريري

وفيها في ليلة الأحد رابع عشر شهر ربيع الآخر: توفي الشيخ العارف المحقق نجم الدين أبو المعالي محمد بن الخضر بن سوار بن إسرائيل الشيباني الحريري بدمشق، ودفن بقبة الشيخ أرسلان بمقبرة باب توما[٤]. ومولده في يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستمائة[٥] بدمشق، وكان ديناً صالحاً كريماً متواضعاً فاضلاً أديباً ناظماً، وله ديوان شعر، وشعره كثير المعاني، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثمان وسبعين وستمائة[٦]

[استهلت][٧] والسلطان الملك السعيد بدمشق، وفي خدمته من الأمراء من ذكر والعساكر مجردة كما تقدم.

وفي هذه السنة في ثامن المحرم: فوضت وزارة دمشق للصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسراني الحلبي، وركب والرؤوساء والأكابر في خدمته وباشر من يومه.

وفيها في شهر ربيع الأول: وقع بين الأمراء الخاصكية وبين الأمير سيف الدين كَوُنْدَك نائب السلطنة فتنة، كان سببها أن السلطان الملك السعيد أكثر من الإنعام على

(١) الموافق: ١٢٧٨ م.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٧٠ ـ ٦٧١.
(٣) الموافق: ١٢٣٠ م.
(٤) باب توما: أحد أبواب مدينة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٠٧.
(٥) الموافق: ١٢٠٦ م.
(٦) يوافق أولها يوم الأحد ١٤ مايو/أيار ١٢٧٩ م.
(٧) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.

الخاصكية وأوسع في العطاء لهم، فاتفق أنه أنعم على بعضهم بألف دينار، فتوقف النائب في إمضاء المرسوم، فاجتمع المنعم عليه ببقية خوشداشيته وعرفهم ذلك، فاجتمعوا وحضروا إلى الأمير سيف الدين كوندك واسمعوه ما يكره، ودخلوا إلى السلطان وصمموا على عزله، فأجابهم إلى ذلك. فخرجوا إليه ليوقعوا به ويقبضوا عليه أو يقتلوه. وكان ذلك بحضور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فمنعهم من ذلك وأخذه وضمه إليه. فخرج منشور السلطان له في اليوم الثاني بأمرة أربعين فارساً بحلب، فاستمر عند الأمير شمس الدين سنقر الأشقر سبعة أيام. ووردت الأخبار بعود الأمراء.

ذكر عود الأمراء من الغزاة وظهور الوحشة والمنافرة بينهم وبين السلطان الملك السعيد وتوجيههم إلى الديار المصرية

قال: ولما عاد الأمراء من الغزاة وقصدوا العبور إلى دمشق، أرسل إليهم الأمير سيف الدين كوندك يخبرهم بجلية الخبر ويعلمهم بما تقرر سراً. ثم ركب وخرج إليهم وتلقاهم، واجتمع بالأمير سيف الدين قلاون الألفي، وبدر الدين بيسري الشمسي، وتحدث معهما فأقاما بالمرج[١] بمن معهما من الأمراء ولم يعبرا [إلى][٢] دمشق، وسيرا إلى السلطان يقولان له: «إن الأمير سيف الدين كوندك حضر إلينا وشكا من لاجين الزيني شكاوى كثيرة، ولا بد لنا من الكشف عنها، فيسيره السلطان إلينا لنسمع كل[٣] منهما وننصف بينهما». فلم يعبأ [السلطان][٤] بقولهما، وكتب إلى الأمراء الظاهرية الذين معهما أن يفارقوهما ويعبروا إلى دمشق. فوقع القاصد بالكتب إلى الأمير سيف الدين كوندك فأحضره إلى الأمراء وأوقفهم على الكتب، فتحققوا سوء رأيه فيهم. ورحلوا من وقتهم من المرج ونزلوا بالجسورة[٥] وأظهروا الأمور الدالة على الخلاف. وندم السلطان وبعث الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير شمس الدين سنقر التكريتي الظاهري أستاذالدار إليهم، وتلطف بهم وقصد رجوعهم، فما وافقوا على الرجوع. ثم خرجت إليهم[٦] والدة السلطان إلى منزلة الكسوة[٧]، واجتمعت

(١) موضع قرب دمشق. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٩، ص ٢٦٦.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٣) هكذا بالأصل. والصواب: «كلاً».
(٤) ما بين المعكوفين زيادة يقتضيها السياق.
(٥) موضع ظاهر دمشق. انظر النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٢٦٧.
(٦) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ١، ص ٢٦٧، س ٣.
(٧) الكُسْوَة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.

بالأمراء وسألتهم الرجوع فما رجعوا. وساروا إلى الديار المصرية، فوصلوا إليها ونزلوا تحت الجبل في شهر ربيع الآخر، فاتصل بالأمراء المقيمين بالقلعة قدومهم، وكان بها الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار، والأمير علاء الدين أقطوان الساقي، وسيف الدين بلبان الزريقي، فتقدموا إلى متولي القاهرة بغلق أبوابها فغلقت، وبني خلف أكثرها الحيطان. فأرسلوا إلى الأمراء الذين بالقلعة في فتح الأبواب ليعبر العسكر إلى بيوتهم، فنزل الأمير عز الدين الأفرم، والأمير علاء الدين أقطوان إلى الأمراء ليجتمعا بهم، فقبض عليهما الأمير سيف الدين كوندك وأرسل الأمراء ففتحوا أبواب المدينة. ودخل الناس إلى بيوتهم بأثقالهم. ولما قبض على الأمير عز الدين الأفرم وعلاء الدين أقطوان نقلاً إلى دار الأمير سيف الدين قلاون بالقاهرة. وأغلق الأمير سيف الدين بلبان الزريقي أبواب القلعة واستعد للحصار.

ذكر وصول السلطان إلى قلعة الجبل وما كان من أمره إلى أن انخلع من السلطنة

قال المؤرخ: ولما رأى السلطان توجه الأمراء إلى الديار المصرية وانفرادهم عنه، جمع من كان بدمشق من بقايا العسكر المصري والعساكر الشامية، واستدعى العربان وأنفق[1] الأموال فيهم بدمشق، وسار إلى الديار المصرية. وكان رحيله من دمشق في يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الآخر، وسلم قلعة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري وجعله نائباً إلى حين عود الأمير عز الدين أيدمر النائب، فلما وصل السلطان إلى غزة تسلل أكثر العربان وتفرقوا، ولم يصل إلى بلبيس ومعه من العسكر الشامي إلا اليسير. فأعطى من بقي منهم دستوراً، فعادوا صحبة الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، نائب الشام، وكان وصولهم في مستهل جمادى الأول. وكان الأمير سيف الدين قلاون لما عاد من غزاة سيس جرد من العسكر الشامي بحلب الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق الصالحي، والأمير عز الدين أزدمر العلائي، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، والأمير جمال الدين أقش الشمسي، وغيرهم في نحو ألفي فارس، فلما اتصل بهم خبر هذا الاختلاف رجعوا إلى دمشق في شهر ربيع الآخر وقدموا عليهم الأمير جمال الدين أقش الشمسي، ووصل الأمير عز الدين أيدمر النائب بالشام إلى دمشق هو ومن معه فخرج الأمراء الذين وصلوا من حلب يتلقونه. فلما التقوه سبه الأمير ركن الدين الجالق والأمير عز الدين أزدمر العلائي وقالا له: «كيف

---

(١) في الأصل: «نفق». والتصحيح يقتضيه السياق.

فارقت السلطان». فلما وصلوا إلى باب[١] الجابية أخذه الأمير جمال الدين أقش الشمسي إلى داره وقال له: «تكون بداري إلى أن يرد مرسوم السلطان، ولا تكون سبب إقامة فتنة». فتوجه معه إلى داره فأقام عنده إلى عشية النهار، وجاء الأمير ركن الدين الجالق وأزدمر العلائي إلى الأمير جمال الدين أقش الشمسي بعد صلاة العصر وأخذا الأمير عز الدين النائب من عنده وتوجها به إلى القلعة وسلماه إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري فتسلمه منهما وجعله بقاعة البحرة، ورسم عليه ومكنه من دخول الحمام. فجاء الأميران إلى القلعة في يوم الاثنين بعد العصر واجتمعا بالدواداري وأنكرا عليه كونه مكنه من دخول الحمام، وقالوا: «تسلمه إلينا نتوجه به إلى الديار المصرية»، فقال: «إنه ما جاءني ولا جاءكم مرسوم بالقبض عليه. وقد قبضتم عليه ووصل إلى عندي، فكيف أسلمه إليكما وبأي عذر أعتذر إلى السلطان». فأغلظوا له في القول. فلما أنكر حالهم وثب من بينهما وأمر رجاله بالقلعة بغلق أبوابها. فوثب الأميران وجردا سيوفهما وخرجا على حمية، وأغلق الدواداري باب قلعة دمشق.

هذا ما كان بالشام.

أما الملك السعيد فإنه لم يبق معه من الأمراء الأكابر إلا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير علم الدين الحلبي، والبقية من المماليك السعيدية، كلاجين الزيني ومن يجري مجراه، فلما وصل إلى قرب المطرية[٢] فارقه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وانفرد عنه وعن الأمراء.

قال: ولما بلغ الأمراء أن السلطان يقصد طلوع القلعة من وراء الجبل الأحمر ركبوا ليمنعوه من الوصول إلى القلعة، فجاء سحاب أسود وأظلم الوقت حتى أن الإنسان لا يرى رفيقه الذي يسايره، فطلع السلطان إلى القلعة، وما رآوه. ولما استقر بها حاصره الأمراء وأحاطوا بالقلعة، واتفق أن لاجين الزيني أنكر على الأمير سيف الدين بلبان الزريقي وشتمه، فتغير خاطره ونزل من القلعة وانحاز إلى الأمراء؛ وتسلل المماليك من القلعة واحداً بعد واحد ونزلوا إلى الأمراء. وأشار الأمير علم الدين سنجر الحلبي على السلطان بالإفراج عن المعتقلين، فأفرج عن الأمراء الشهرزورية وغيرهم، واستشار السلطان الأمير المشار إليه فيما يفعل، فقال: «أرى أن آخذ المماليك السلطانية وأهجم بهم على الأمراء وأفرق شملهم». فلم يوافقه على ذلك

(١) أحد أبواب دمشق. انظر النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٧، حاشية رقم (١).
(٢) المطرية: من قرى مصر. وفي جانبها الشمالي مدينة عين شمس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٤٩.

وتمادى الأمر أسبوعاً، فأرسل السلطان إلى الأمراء وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك. فالتمس من الأمير سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسري أن يعطوه قلعة الكرك، فأجاباه إلى ذلك. ونزل من القلعة بعد أن حلفوه ألا يتطرق إلى غيرها وأن لا يكاتب أحداً من النواب ولا يستميل أحداً من الجند. وحلفوا له أنهم لا يؤذونه في نفسه ولا يغيرون عليه. وسفروه لوقته صحبة الأمير سيف الدين بيغان الركني وجماعة يوصلونه إلى الكرك. فأوصلوه إليها وتسلمها من الأمير علاء الدين أيدكين الفخري النائب بها، وتسلم ما بها من الأموال والذخائر. وكان خروجه من السلطنة في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمائة. فكانت مدة سلطنته بعد وفاة والده سنتين وشهرين وأياماً[١].

ثم ملك بعده أخوه السلطان الملك العادل بدر الدين سُلامش بن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وهو السادس من ملوك دولة الترك بالديار المصرية[٢].

ملك بعد خلع أخيه السلطان الملك السعيد في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمائة. وذلك أنه لما سُفِّر الملك السعيد إلى الكرك عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قلاون فأبى ذلك، وقال: «لم أخلع الملك طمعاً في السلطنة إلا حفظاً للنظام، وألفةً لأكابر الأمراء أن يتقدم عليهم الأصاغر، والأولى ألا تخرج السلطنة عن الذرية الظاهرية، فأقام بدر الدين سلامش هذا وله من العمر سبع سنين، وخطب له على المنابر، وضربت السكة باسمه، ودبر الأمر سيف الدين قلاون أتابكية الدولة، ولم يكن للملك العادل معه غير مجرد الاسم. وأقر الصاحب برهان الدين السنجاري[٣] على الوزارة وعزل قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين بن زين على القضاء بالديار المصرية، وفوضه إلى القاضي صدر الدين عمر ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وذلك في جمادى الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة». وعزل القاضي شمس الدين بن شكر المالكي، والقاضي معز الدين الحنفي عن القضاء. ثم أعيدا بعد مدة يسيرة. وفوض قضاء الحنابلة للقاضي عز الدين المقدس الحنبلي. واستناب الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بالشام وسيره إلى دمشق. وكان وصوله إليها في يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة. وحال وصوله طلب الأمير علم الدين سنجر

(١) انظر النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) انظر النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٦.
(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٢٧٣.

الداواداري نائب قلعة دمشق وأمره بتسليم القلعة للأمير سيف الدين الصالحي. حسب ما رسم به، فتسلمها واستمر نائباً بها.

وفي يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة أمر الأمير شمس الدين بالقبض على الصاحب فتح الدين بن القيسراني وإيقاع الحوطة على موجوده وسير إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط.

قال: وأخذ الأمير سيف الدين قلاوون في القبض على الأمراء الظاهرية[١] وهو في أثناء ذلك يدير الأحوال ويفرق الأموال ويوس الممالك ويمهد لنفسه المسالك.

وأما الأمير بدر الدين بيسري فإنه اشتغل بالشرب واللهو. فاجتمعت آراء الأمراء على استقلال الأمير سيف الدين قلاوون بالسلطنة، فأجابهم إلى ذلك، وخلع الملك سلامش من السلطنة. فكان (كذا) مدة وقوع اسم السلطنة عليه مائة[٢] يوم.

وكان حسن الصورة، جميل الهيئة، كثير السكون والحياء والعقل والأدب والتأني على صغر سنه.

تم الجزء الثلاثون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

يتلوه إن شاء الله تعالى في أول الجزء الحادي والثلاثين منه:

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) انظر النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٨، ٢٩٢.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٨٨.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

ابن أبي الفضائل: مفضل، كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس ١٩١١.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣١ ـ ١٩٤٢. (١٦ جزءاً).

ابن الجوزي: عبد الرحمٰن، (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م): صفة الصفوة، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م. (جزآن).

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي (ت ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩ م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠. (أربعة أجزاء).

تهذيب التهذيب، حيدر آباد الدكن ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م (١٢ مجلد).

ابن الخطيب: لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة ١٩٥٥. (جزآن).

ابن خلدون: عبد الرحمٰن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، القاهرة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م. (سبعة أجزاء).

ابن خلّكان: أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة (لا. ت). (جزآن).

ابن سعد: الطبقات الكبرى، ليدن (١٣١١ (هـ/ ١٨٩٣ م). (تسعة مجلدات).

ابن شاكر الكتبي: محمد (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م)، فوات الوفيات والذيل عليها، القاهرة ١٨٨٢ م (مجلدان).

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مطبعة الجمهورية، باريس ١٨٩٤ م.

ابن عساكر: علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م): تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام الأشعري، دمشق (١٣٤٧ هـ/ ١٩٢٨ م).

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح، عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة (لا. ت). (ثمانية أجزاء).

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م)، تاريخ الدول والملوك، ج ٧، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكية، بيروت ١٩٣٦.

ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر، أبو الوفاء (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م)، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩ م. (١٤ جزءاً في سبعة مجلدات).

ابن مماتي: أسعد بن مهذب بن مينا، أبو المكارم، (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز عطية، القاهرة ١٩٤٣.

ابن منظور: جمال الدين محمد بن مُكَرَّم (ت ٧١١ هـ/ ١٣١١ م)، لسان العرب دار صادر، بيروت (لا. ت) (١٥ جزءاً).

ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. صور شمسية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣١٩ (تاريخ). مأخوذة عن النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس.

أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م)، المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧ م.

أبي نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م. (عشرة مجلدات).

البحتري: ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣. (خمسة أجزاء).

البقلي: محمد قنديل: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.

الديار بكري: حسين بن محمد (ت ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٨ م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان، بيروت (لا. ت). جزآن في مجلد واحد.

الذهبي: شمس الدين محمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م)، دول الإسلام، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨ ـ ١٩١٩ م. (جزآن).

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمٰن (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م)، بقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة ١٩٦٥ (جزآن).

شرّاب: محمد، معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٧.

الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٣ م)، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م. (١١ مجلد).

الطويل: غالب، تاريخ العلويين، دمشق ١٩٢٤.

الفيروزبادي: القاموس المحيط، القاهرة ١٣٣٠ هـ/ ١٩١١ م.

القلقشندي: أحمد بن علي /ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٥ (١٤ جزءاً).
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بغداد (لا. ت).

مبارك: علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨ م. (عشرون جزءاً في أربعة مجلدات).

المتنبي: ديوانه، ط ٢٠، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٦. (أربعة أجزاء).

المقريزي: تقي الدين، أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م):

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، مطابع لجنة التآليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٢. (أربعة أجزاء في ١٢ مجلد).
- التبر المسبوك في ذكر من حَجَّ من الخلفاء والملوك، القاهرة ١٩٥٥.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، القاهرة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م (جزآن).

النعيمي: عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسيني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٨ (جزآن).

اليافعي: عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦ م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩ هـ/ ١٩١٩ ـ ١٩٢٠. (أربعة أجزاء).

ياقوت الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٧٧. (خمسة أجزاء).

ثانياً : المصادر الأجنبية

Butcher: Ers. E. L; the story of the church of Egypt. Smith Elder, London 1897, (2 V).

Dozy (R.); Supplément aux Dictionnaires Arabes, Leiden, Brill 1927. (2 V).

Lane - Poole, S;A History of Egypt in the Middle age. (Methuen, London 1914).

Le strang: G; Palestine under the Moslems. Watt. London 1890.

King: E. J; the knights Hospitallers in the Holy Land. (Methuen, London 1931).

Morier: J; the adventures of Hajji Baba of Isphahan. (Humphrey Miford, Oxford 1924 - 1925).

Quatremère: E; Histoire des Sultans Mamloks de L'Egypte. Paris 1837 - 1845. (2 V).

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الحادي والثلاثون

تحقيق

الدكتور نجيب مصطفى فواز و الدكتورة حكمت كشلي فواز

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

هو حسبي وكفى

ذكر أخبار السلطان الملك المنصور[1] سيف الدين قَلاوُون الألَفي الصالحي النجمي

وهو السابع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية: وهو من خالصة القفجاق[2] من قبيلة بُرْج أُغْلي. وكان مملوك الأمير علاء الدين أقسنقر الساقي العادلي. اشتراه بألف دينار، فعرف بالألفي. واتفقت وفاة أستاذه[3] في الأيام الصالحية، في يوم الجمعة، الثامن والعشرين، من شهر رجب، سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة، فارتجع إلى المماليك السلطانية[4] هو وجماعة من خشداشيته[5]، فهم يعرفون بالعلائية.

---

(١) ترجمته وأخباره في: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٣، والمواعظ والاعتبار للمقريزي، ج ٣، ص ٣٨٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٠٩، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٩٢.

(٢) القفجاق: أو القبجاق: فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض نهر أرتش، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر إثل (الفلجا) في جنوبي الروسيا الحالية، فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماة باسم القبيلة الذهبية، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣، ٣٨. والمقريزي: السلوك ج ١، ص ٦٦٣. وابن دقماق: الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٥١.

(٣) الأستاذ في العصر التركي كان يستعمل ليشير إلى رب النعمة، إذ كان يطلقه المملوك على من جلبه، وهو طفل وتعهده، وقام بتربيته أو حرره، وقد أطلق أيضاً على الصانع على أن لقب الأسطى المعروفة في عصرنا الحاضر، والتي تطلق على بعض الصناع الحرفيين ما هي إلا تحريف للأستاذ والأسطى لقب فارسي هو أصل الأستاذ. د. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية.

(٤) المماليك السلطانية: كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات: هي الخاصكية، والمشتروات، والسيفية والقرانيص: فالخاصكية أقربهم إلى السلطان يليهم المشتروات أو الأجلاب، ثم القرانيص الذين هم مماليك السلاطين القدامى ثم السيفية التي عاش بدون أمل وهدف وهم مماليك الأمراء الذين قتلوا أو سجنوا وأسقطت عنهم الإمارة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥، حاشية (٣).

(٥) جمع خشداش: وهو معرب اللفظ الفارسي خواجاتاشي أي الزميل في الخدمة، والخشداشية أو الخوشداشية أو الخجداشية، أو الخوجداشية في اصطلاح عصر المماليك عصر الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة، يقابلها في الفرنسية Camarades. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٨٨، حاشية (٣)، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد =

وكان السلطان الملك المنصور هذا، في جملة البحرية الذين خرجوا من الديار المصرية، بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاي[١]، ثم تنقلت به الحال إلى هذه الغاية. ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، وما مع ذلك. وجلس على تخت[٢] السلطنة، بقلعة الجبل[٣]، في يوم الأحد، العشرين[٤] من شهر رجب الفرد، سنة ثمان وسبعين وستمائة. واستحلف الأمراء والمقدمين، ومن جرت العادة باستحلافه. وخُطِب له على المنابر، وكتب إلى دمشق، وإلى سائر الممالك يخبرهم بذلك. فوصل البريد إلى دمشق في الثامن والعشرين من الشهر. وساق بعض مماليك المنصور من باب الإسطبل السلطاني، بظاهر قلعة الجبل إلى دمشق، في يومين وسبع ساعات. وخلف الناس له بالشام. وخُطب له على منابر دمشق[٥]، في يوم الجمعة ثاني شعبان.

وكان من أول ما اعتمده السلطان عند جلوسه على تخت السلطنة، أنه أمر بإبطال زكاة الدولية[٦]، بالديار المصرية، وكانت قد أجحفت بالرعية. وأفرج عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم[٧] الصالحي، ورتَّبه في نيابة السلطنة. فتولاها مدة يسيرة، ثم استعفى

= قنديل البقلي ص ١٢٠، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٥١ ـ ٥٢. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٩، حاشية (٦).

(١) هو أقطاي بن عبد الله الجمدار الصالحي النجمي التركي فارس الدين، توفي مقتولاً سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ م. ترجمته في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ج ٨، ص ٧٩٢ ـ ٧٩٣، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٨، ص ٢٤ ـ ٢٦. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٣٨٩ ـ ٣٩١، والمنهل الصافي لابن تغري بردي ج٢، ص ٣٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٥٥.

(٢) التخت: هو المقعد أو السرير الذي يجلس عليه السلطان في الديوان والمواكب ويقال له سرير الملك، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٥.

(٣) قلعة الجبل: وهي على قطعة في الجبل، وتتصل بجبال المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة، وكان موضعها أولاً يعرف بقبة الهواء إلى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أو المملوك بالديار المصرية، في سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧١ م، وأصبحت من بعده دار الملك بديار مصر، انظر المواعظ والاعتبار للمقريزي . دار صادر ج ٢، ص ٢٠٢.

(٤) في الثاني والعشرين من رجب في تاريخ أبي الفداء، والمختصر في أخبار البشر ج ٧، ص ١٧. وفي حادي عشرين وقيل عشر شهر رجب في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٨.

(٥) «وخُطب بجامع دمشق للملك المنصور قلاوون وجوامع الشام بأسرها خلا مواضع يسيرة، ثم خطبوا بعد ذلك». النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٩.

(٦) زكاة الدولية: هي مال مقرر على كل مستخدم الدواليب (الآلات) في الري والغزل أو صناعة السكر. انظر المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٦٤، حاشية (٢).

(٧) هو عز الدين أيبك بن عبد الله الأفرم الكبير الصالحي توفي سنة ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م. ابن دقمان: الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٦٨.

منها فأعفاه، وفوّض نيابة السلطنة بعده، لمملوكه الأمير حسام الدين طرنطاي[١] بن عبد الله المنصوري الأمير [الكبير][٢]، وذلك في يوم السبت الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة. وأقر الصاحب برهان الدين[٣] السنجاري على الوزارة، ورتب مملوكه الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في شد الدولة.

وكان أول ركوب السلطان الملك المنصور بشعار السلطنة، في يوم السبت الثالث من شعبان. وكتب إلى الأمير [شمس الدين][٤] سُنْقَر الأشقر[٥] بركوبه. والكتاب بخط القاضي تاج الدين بن الأثير[٦]، جاء منه:

ولا زالت أيامه بمحابّها تهنى، وترى من النصر ما كانت تتمنى، وتتأمل آثارها فتملأها حسناً. وتشاهد من أماير الظفر ما يوسع على العباد أمناً. ويستزيد الحمد على ما وهب من الملك، الذي أولى كُلاً مِنّا منًّا.

المملوك يهدي من لطيف أنبائه، ووظائف دعائه، وما استقر من عوارف الله لديه، وما حباه به من النعم، التي ملأت يديه، ما يستروح بنسيمه؛ ويستفتح لسان الحمد بتقديمه، وتزداد به مسرة نفسه وابتهاجها، وتزدان عقود السعود، وإنما يزين اللآلىء في العقود ازدواجها، وتقوى به قوى العزائم، وتمثله الأعداء في أفكارها، فتكاد تجر ذيول

---

(١) هو حسام الدين أبو سعيد طرنطاي بن عبد الله المنصوري توفي سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م تحت العقوبة في أيام الأشرف خليل بن قلاوون. ترجمته في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٣٢٣. وفي البداية والنهاية ج ١٣، ص ٣٣٦، واسمه حسام الدين (طرقطاي).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٢٣. اعتمدنا في منهجيتنا على استكمال النواقص في الإضافات التي لم ترد في طبعة الهيئة المصرية العامة ١٩٩٢. في الأجزاء الآتية: (٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١).

(٣) هو الخضر بن الحسن بن علي السنجاري برهان الدين توفي سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م. العيني: عقد الجمان حوادث سنة ٦٨٦ هـ. وانظر أيضاً المنهل الصافي لابن تغري بردي، ج ٣، ص ٤٨٨، حاشية (٥).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٥٢.

(٥) هو شمس الدين سنقر الأشقر الصالحي النجمي «نيابة دمشق» قتل في دولة الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢ م. ابن دقماق: الجوهر الثمين ج ٢، ص ٥٤، انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٤ ـ ٢٥٠، وج ٨، ص ٣١.

(٦) هو تاج الدين (أو نجم الدين) أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن سعيد. ابن الأثير الحلبي الأصل القاهري، تولى ديوان الإنشاء بمصر أيام الأشرف خليل بن قلاوون بعد وفاة القاضي فتح الدين بن محيي الدين بن عبد الظاهر. توفي ابن الأثير المذكور سنة ٧٣٧ هـ. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٩٧. سماه المقريزي «عماد الدين» في السلوك، ج ١، ص ٦٦٤.

العزائم، وتبعث الآمال على تمسكها بالنصر، وتظهر منه المحاب التي لو قصدت الأقلام لحصرها، لعجزت عن الحصر. وهو أن العلم الكريم، قد أحاط بالصورة التي استقرت، من دخول الناس في طاعة المملوك، واجتماع الكلمة عليه، واستقلاله بأمر السلطنة المعظمة.

ولما كان يوم السبت، الثالث من شعبان المبارك، سنة ثمان وسبعين وستمائة، ركب المملوك بشعار السلطنة، وأبهة الملك؛ وسلك المجالس العالية، الأمراء والمقدمون والمفاردة[١] والعساكر المنصورة، من آداب الخدمة، وإخلاص النية، وحسن الطاعة كلّ ما دلّ على انتظام الأمر واتساق عقد النصر.

ولما قضينا من أمر الركوب وطراً[٢]، وأنجزنا للأولياء وعداً من السعادة منتظراً، عدنا إلى قلعة الجبل المحروسة، والأيدي بالأدعية الصالحة لنا مرتفعة، والقلوب على محبة أيامنا مجتمعة، والآمال قد توثقت بالعدل واستمراره، والأبصار قد استشرفت من التأييد مطلع أنواره. وشرعنا من الآن في أسباب الجهاد، وأخذنا في كل ما يؤذن، إن شاء الله تعالى، بفتح ما بأيدي العدو من البلاد. ولم يبق إلا أن تتثنى الأعنة[٣] وتسدد الأسنة، ويظهر ما في النفوس، من مضمرات المقاصد المستكنة.

[ورسمنا][٤] بأن تزين دمشق المحروسة، وتضرب البشائر في البلاد، وأن يسمعها كل حاضر وباد، والله تعالى، يجعل أوقاته بالتهاني مفتتحة، ويشكر مساعيه، التي ما زالت في كل موقف ممتدحة، إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده.

ذكر عزل الصاحب بُرهان الدين السِّنجاري[٥] عن الوزارة، وتفويضها للصاحب فخر الدين إبراهيم بن لُقمان وغير ذلك

وفي هذه السنة، في السادس والعشرين، من شهر رمضان، عزل السلطان، الصاحب برهان الدين الخضر السنجاري عن الوزارة، ولزم مدرسة أخيه قاضي القضاة بدر الدين، بالقرافة الصغرى. واستوزر السلطان بعده، الصاحب فخر الدين إبراهيم بن

---

(١) المفاردة: مفردها مفردي: وهي فئة تشكل جانباً من الحلقة السلطانية والحلقة لفظ يطلق على جند السلطان الأيوبي. وظلت كذلك في أوائل عصر المماليك. انظر Dosy. supp. dict. Ar.

(٢) وطراً: قضيت من أمر كذا وطري أي حاجتي. ابن منظور: لسان العرب (وطر).

(٣) مفردها عنان: السير الذي تمسك به الدابة أعنّ اللجام: حصل له عناناً. ابن منظور: لسان العرب (عنن). الفيروزأبادي: القاموس المحيط (عنن) وبطرس البستاني محيط المحيط.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٥٣.

(٥) تقدمت ترجمته.

لقمان. [صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالديار المصرية][١].

وفيها، في شعبان، رسم السلطان بإعفاء تقي الدين توبة التكريتي بيع[٢] الخزانة بدمشق، من هذه الوظيفة؛ وأن يسامح بما عليه من البواقي[٣]. وفوض إليه نظر الخزانة بدمشق فباشرها، واستمر إلى خامس شوال منها. ثم فوض إليه وزارة الشام، وخلع عليه خلع الوزارة.

وفيها، في أواخر شوال، حضر الأمير عز الدين أيدمر الظاهري، من دمشق، تحت الاحتياط، وجرد معه جماعة، [فلما وصل إلى قلعة الجبل اعتقل بها][٤].

وفيها، فوض السلطان نيابة قلعة دمشق لمملوكه الأمير حسام الدين لاجين السلاح دار[٥]، وهو المعروف بلاجين الصغير، فوصل إليها وسكنها، وذلك في العشرين من ذي الحجة من هذه السنة، فتخيل منه الأمير شمس الدين سُنْقَر الأشقر، نائب السلطنة بالشام. وكان من خروجه عن طاعة السلطان، وسلطنته بدمشق ما نذكره.

وقد رأينا أن نذكر أخباره[٦]، وما كان من أخبار أولاد السلطان الملك الظاهر بالكرك في هذا الموضع إلى آخر أخبارهم، ليكون ذلك سياقه. ثم نذكر الغزوات والفتوحات في الأيام المنصورية بجملتها، على توال واتساق. بمقتضى ما يقدمه التاريخ، ثم نشرح بعد ذلك حوادث السنين، وما وقع فيها من الولاية والعزل والأخبار، والوفيات، إلى انقضاء الدولة، على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى في مواضعه.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٩.

(٢) ورد في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٦٥ «وأعفى تقي الدين توبة التكريتي من البواقي، وفوض إليه نظر الخزانة بدمشق».

(٣) البواقي: لفظ اصطلاحي كان يطلق على ما يتأخر كل سنة عند الضمان والمتقبلين في مال الخراج. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٦٦٥، حاشية (٣).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٥٩.

(٥) السلاح دار: هو المنوط بحمل سلاح السلطان، والأمير الذي هو في خدمته ومن وظيفته أيضاً الإشراف على السلاح خاناه، وما هو من توابع ذلك ولفظ السلاح دار مركب من كلمتين أولاهما: عربية ومعناها آلة القتال، والثانية فارسية: ومعناها ممسك ويكون المعنى ممسك السلاح، القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٣٤، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص ١٨٢.

(٦) منهج النويري هو سرد ما وقع من الأحداث في داخل المملكة ثم ذكر ما جرى من الغزوات والفتوحات مع مراعاة الترتيب الزمني ثم ذكر بعد ذلك حوادث السنين، وما وقع فيها من الولاية والعزل، والوفيات إلى انقضاء الدولة المنصورية، وهذا لم يختلف عن ابن الفرات إلا في ترتيب الأحداث.

ذكر أخبار الأمير شمس الدين سُنْقَر الأشقر وخروجه عن طاعة السلطان، وسلطنته بدمشق، وما كان من أمره إلى أن عاد للطاعة، ورجع إلى الخدمة السلطانية

قد قدمنا أن السلطان الملك المنصور، في زمن أتابكيته[١]، في سلطنة الملك العادل [بدر الدين][٢] سُلامش[٣]. جهزه إلى الشام، نائباً عن السلطنة بدمشق، وكان قد نقل الأمير جمال الدين أقش الشمسي من دمشق إلى نيابة السلطنة بحلب. فلما ملك السلطان الملك المنصور، واستقر بالسلطنة، خطر ببال الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، أن يستبد بسلطنة الشام، ويصير الأمر على ما كان عليه في أواخر الدولة الأيوبية. فجمع الأمراء الذين عنده، وأوهمهم أن الأخبار وصلت إليه، أن السلطان الملك المنصور قد قتل، وهو يشرب الخمر[٤]. ودعاهم إلى طاعته، واستحلفهم لنفسه. فأجابوه، وحلفوا له، وتقلب بالملك الكامل، وركب بشعار السلطنة، [وأبَّهة الملك][٥]، بدمشق، وذلك في الرابع والعشرين من ذي الحجة[٦] سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة. وفي الوقت، قبض على الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطنة بقلعة دمشق، وعلى الصاحب تقي الدين توبة [التكريتي][٧]، وجهز الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي، إلى سائر الممالك الشامية والقرع، ليحلفَّ من بها من النواب وغيرهم. [ويولي فيها من جهته من

---

(١) الأتابك: لفظ مؤلف من الكلمتين التركيتين: «أتا» بمعنى الأب، والشيخ المحترم لسنه، واللقب التركي «بك» بمعنى الأمير. وهو في الاصطلاح: مربي الأمير، ومدبر المملكة. ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب «أتابك العساكر». وكان سلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) يطلقون لفظ «أتابك أو أطابك على كبير أمرائهم. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨ وانظر أيضاً الألقاب الإسلامية لحسن باشا ص ١٢٢، وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل لأحمد السعيد سليمان، ص ١٢، ودائرة المعارف الإسلامية.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٢.

(٣) ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٥٦، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٩٠، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٣٤٦ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤١١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٣.

(٤) في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٢ «القمز» والقمز: نبيذ يعمل من لبن الخيل، واللفظ تتري الأصل، وقد كان الظاهر بيبرس شغفاً بهذا النوع من الشراب. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٦٠٧.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٢.

(٦) «في يوم الجمعة رابع عشرين ذي القعدة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٤٩.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١/٣، ص ٦٧١.

يريد][1]، واستوزر الصدر مجد الدين أبا الفداء إسماعيل بن كُسَيْرات [الموصلي][2]، وجعل وزير الصحبة الصدر عز الدين أحمد بن مُيسّر المصري[3]، وانتقل بأهله من دار السعادة، التي يسكنها نواب السلطنة [بدمشق][4]، إلى القلعة، وأمر عند انتقال أهله، بغلق باب النصر، وفتح باب سر القلعة، المقابل لدار السعادة[5] بجوار باب النصر، ففعلوا ذلك. فتطاير الناس له بأشياء، وقالوا: أغلق باب النصر، وانتقل من دار السعادة، وسكن القلعة، وولى وزارته ابن كسيرات، فهذا لا يتم أمره، وكان كذلك[6].

ذكر التقاء العسكرِ المصري والعسكر الشامي، وانهزام عسكر الشام، وأَسْر عدد من أمرائِه في المرة الأولى

كان السلطان الملك المنصور، قد جهّز الأمير عز الدين أيبك الأفرم إلى الكرك [على سبيل الإرهاب][7]، عندما بلغه وفاة الملك السعيد، على ما نذكر ذلك، إن شاء الله. فبلغ الأمير شمس الدين سُنْقَر الأشقر، أنه خرج من الديار المصرية، في طائفة من عساكرها، فظن أنه يقصده. فكتب إليه ينهاه عن التقدم، ويقول: «إنني مهدت الشام، وفتحت القلاع، وخدمت السلطان، وكان الاتفاق بيني وبينه، أن أكون حاكماً على ما بين الفرات والعريش، فاستناب أقوش[8] الشمسي بحلب، وعلاء الدين الكبكي بصفد، وسيف الدين بلبان الطباخي بحصن الأكراد. وآخر الحال أن يسيّر إليّ من يقصد مسكي».

واتبع سُنْقَر الأشقر كتابه، بتجريد العساكر، فلما وصل الكتاب إلى الأمير عز الدين الأفرم، كتبت مطالعة[9] إلى السلطان، وجهّز الكتاب الذي أرسله سنقر

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٢.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٢.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٢.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٢.
(٥) دار السعادة: هي دار العدل التي أنشأها في دمشق قريباً من باب النصر قبلي قلعة دمشق الشهيد محمود بن زنكي، واشتهرت في عصر المماليك بدار السعادة. وموضعها اليوم قبلي سوق الأروام، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، وكانت دار السعادة مسكناً لنواب السلطنة بدمشق. ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٢.
(٦) عبارة النويري مشابهة تماماً لما يقابلها في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٧١.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٧.
(٨) يرد هذا الاسم برسم أقش أيضاً.
(٩) مطالعة: المكاتبة الرسمية. انظر قوانين الدواوين لابن مماتي ص ٣٣٠ .Dosy. supp. Dict. Ar

[الأشقر][(١)] عطفها[(٢)]. فكتب السلطان إلى الأمير شمس الدين سُنقر الأشقر، وكتب إليه أيضاً الأمراء خوشداشيته، يقبحون عليه فعله، ويحضونه على الرجوع إلى الطاعة. وتوجه بالكتب الأمير سيف الدين بلبان الكريمي العلائي خوشداشه[(٣)]، فوصل إلى دمشق في ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وستمائة. فخرج إليه سُنْقَر الأشقر، وتلقاه وأنزله عنده، بقلعة دمشق وأكرمه، ومع ذلك لم يصغ إلى قوله، ولا رجع إلى ما أشار به خوشداشيته.

قال: ولما وصل كتاب سنقر الأشقر إلى الأمير عز الدين الأفرم، رجع إلى غزة. وعاد الأمير بدر الدين الأيدمري من الشوبك، بعد أخذها، على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، فاجتمعا على غزة[(٤)].

وجمع سنقر الأشقر العساكر، من حلب وحماه وحمص. استدعى علي الكبكي من صفد، والعربان من البلاد، وجهّز جماعة من عسكر الشام، وقدم عليهم الأمير شمس الدين قراسُنْقُر المعزي، فتوجه إلى غزة. والتقوا هم والعسكر المصري. فانكسر عسكر الشام، وأسر جماعة من أعيان الأمراء، منهم بدر الدين كنجك الخوارزمي، وبهاء الدين كجك الناصري، وناصر الدين باشقرد الناصري، وبدر الدين بيليك الحلبي، وعلم الدين سنجر التكريتي، وسنجر [البدري][(٥)]، وسابق الدين سليمان صاحب صهيون، وسُيِّروا إلى السلطان، فأحسن إليهم، وخلع عليهم، ولم يؤاخذهم.

ذكر تجريد العساكر إلى دمشق، وحرب سُنقر الأشقر وانهزامه وإخلائه دمشق، ودخول العسكر المصري إليها

قال: ولما وصل خبر الكسرة، إلى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، المنعوت بالملك الكامل، بدمشق، أخذ في الاهتمام وجمع العساكر. وكتب إلى الأمراء الذين بغزة، [من جهة الملك المنصور][(٦)]، يعدهم ويستميلهم، وعين لكل منهم قلعة. وعسكر بظاهر دمشق، فجرَّد السلطان، الأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بدر

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٨.
(٢) عطف: أي أرفق لكتاب، الفيروزأبادي: القاموس المحيط (عطف).
(٣) خوشداشة:تقدم التعريف به.
(٤) لم يذكر النويري اسم المؤرخ الذي أخذ عنه، ولكن ما أورده النوري نجده مفصلاً في كتاب ابن الفرات.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٨.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٦٩.

الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، بالعساكر ومن معهما من مضافيهما. فاجتمعا بالأميرين عز الدين الأفرم، وبدر الدين الأيدمري ومن معهما. وساروا، والمقدم عليهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي.

وكان سنقر الأشقر، قد برز من قلعة دمشق، بعساكر الشام في ثاني عشر صفر، سنة تسع وسبعين وستمائة، ونزل بالجُسُورة، ووصل العسكر المصري إلى الكسوة. وترتبت الأطلاب[١] وتقدمت. والتقى العسكران بالجُسُورة[٢]، في خامس عشر[٣] الشهر. وعند اللقاء انهزم عسكر حماه والعسكر الحلبي. وانحاز جماعة من الشاميين إلى العسكر المصري. وحمل [سنجر][٤] الحلبي على سنقر الأشقر، فانهزم لوقته. وصحبه من الأمراء الأخصاء به، الأمير عز الدين ازدمر الحاج. والأمير علاء الدين الكبكي، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، والأمير سيف الدين بلبان [الحبيشي][٥]. وكان سنقر الأشقر[٦] من عشية يوم الجمعة، ثالث عشر صفر، قد جهز أولاده، وحريمه إلى صهيون. فلما انهزم توجه به العرب إلى الرحبة[٧]، وكان من خبره ما نذكره.

قال: ولما انهزم سنقر الأشقر غلقت أبواب المدينة، مخافة أن ينهبها العسكر المصري، وامتنعت القلعة أيضاً. ونزل الأمير علم الدين الحلبي بالقصر الأبلق، بالميدان الأخضر، وبات العسكر حوله إلى اليوم الثاني. فجاء الأمير سيف الدين الجوكندار[٨]،

---

(١) الأطلاب: فرق الجيش وكتائبه. ويقول ابن إياس أن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي، ويذكر المقريزي أن «الطلب» في لغة الغز هو أمير له لواء، وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين «محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٦.

(٢) الجُسُورة: موضع بظاهر دمشق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٥١، حاشية (٢).

(٣) وقيل يوم الاثنين سابع عشر، وقيل يوم الأربعاء تاسع عشر صفر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٥١، حاشية (٣). وذكر المقريزي في السلوك ج١، ص ٦٧٦، تاريخ التاسع عشر من صفر.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧٠.

(٦) يشير ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٩ ـ ١٧٠. وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ج ٧، ٢٥١ إلى من قدم إلى سنقر الأشقر من أمراء العرب مثل: الأمير أحمد بن حجي ملك العرب بالبلاد القبلية والأمير عيسى بن مُهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية والشمالية وهو الذي لازم خدمته وحربه بعد أن انهزم. ونزل به ويمن معه على الرحبة. والرحبة قرية من قرى دمشق. ياقوت الحموي: معجم البدان، ج ٣، ص ٣٨.

(٧) مدينة دمشق: ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧١.

(٨) الجوكندار: ويرسم أيضاً الجوكان، والجوكندار: وهو لقب الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما: جوكان، وهو المحجن الذي تضرب به الكرة =

وهو نائب القلعة، من جهة الأمير شمس الدين سُنْقَر الأشقر، إلى الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق، والأمير حُسام الدين لاجين المنصوري، والصاحب تقي الدين توبة، وهم في الاعتقال بالقلعة، وحلَّفهم أنهم لا يؤذونه إذا أخرجهم، ولا يؤذون أحداً من مستخدمي(١) القلعة، وأمنوا الناس. وكان الأمير علم الدين الحلبي قد نادى ظاهر دمشق بالأمان، ثم فتح الأمير حسام الدين [لاجين](٢) المنصوري(٣) باب الفرج، ووقف عليه، ومنع العسكر المصري من الدخول [إلى المدينة](٤) خوفاً أن يشعثوا(٥). ثم نودي بإطابة قلوب الناس، وأمر بالزينة ودق البشائر.

وكتب الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبي، إلى السلطان بالنصر. وسير الأمراء الذين قبض عليهم، فأحسن إليهم، ولم يؤاخذهم. وتوجه بالبشائر إلى السلطان الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، فأنعم السلطان عليه. وأمَّره بعشرة طواشية(٦)، ثم كان من أمر دمشق وأخبار أهلها، وما استقر من أمر النيابة بها، ما نذكره إن شاء الله تعالى، في حوادث السنين.

ذكر توجه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى صِهْيَوْن(٧) وتحصنه بقلعتها

قال: لما انهزم الأمير شمس الدين المشار إليه، من دمشق، كما تقدم توجه إلى

= ويعبر عنه بالصولجان أيضاً. والثاني: دار، ومعناه الممسك. فيكون المعنى: ممسك الجوكان. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨.

(١) و«المستخدمين بالقلعة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧١.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح، حاشية الطبعة المصرية.

(٣) لاجين: اسم تركي بجيم تحتها ثلاث نقط، ويكتبها بعضهم لاشين بحرف الشين أي كما تلفظ الجيم التركية ذات النقط الثلاث. انظر المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج ٧، ص ١٦. وحسام الدين هذا يعرف بلاجين الصغير مات سنة ٧٢٩ هـ/١٣٢٨ م. انظر البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٤، ص ١٥٣.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧١، حاشية الطبعة المصرية.

(٥) «يشغبوا»: في ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧١.

(٦) الطواشية: والمفرد طواشي، ويقصد هنا الجندي الفارسي. ويتقاضى راتباً يتراوح بين ٧٠٠ و١٠٠٠ دينار، ويصل أحياناً إلى ١٢٠ ديناراً. وله برك، وغلام يحمل سلاحه في الحرب. انظر المواعظ والاعتبار: المقريزي طبقة بولاق، ج ١، ص ٨٦.

(٧) صِهْيون: بكسر أوله ثم السكون. حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص وهي قلعة حصينة في طرف جبل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٩٦.

الرحبة، ففارقه أكثر من كان معه، وامتنع الأمير موفق الدين خضر الرحبي، النائب بقلعة الرحبة، من تسليمها إليه. فعند ذلك كاتب أبغا بن هولاكو[١]، ملك التتار، يعرفه بما وقع بين العساكر الإسلامية من الاختلاف، وحثه على قصد البلاد بجيوشه، ووعده الانحياز[٢] إليه، والإعانة والمساعدة على ذلك وكتب إليه[٣]، الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، بمثل ذلك وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وكان سنقر الأشقر، لما تغلب على الشام، كاتب نواب القلاع، فمنهم من أطاعه، ومنهم من امتنع عليه. وكان ممن أطاعه، نائب صهيون وبُرزية[٤] وبلاطُس والشغر[٥] وبكَّاس، وشيزر وعكار[٦] وحمص. فلما انهزم سنقر [الأشقر][٧]، جرَّد السلطان خلفه جيشاً صحبة الأمير حسام الدين [يتمش][٨] بن أطلس خان. فبادر هو، وعيسى بن مهنا، بالهرب إلى صهيون، وذلك في جمادى الأولى[٩] من السنة المذكورة. وعاد ابن أطلس خان ومن معه، واستمر سنقر الأشقر بصهيون.

ذكر انتظام الصلح بين السلطان الملك المنصور، وبين سُنْقَر الأشقر، وما استقر بينهما، وانتقاض ذلك، وأخذ صِهْيون منه

وفي سنة ثمانين وستمائة، انتظم الصلح بين السلطان الملك المنصور، والأمير

---

(١) هو أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيزخان. توفي سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م. ترجمته في المختصر في أخبار البشر لابن الفدا، ج ٤، ص ١٦، والوافي بالوفيات للصفدي، ج ٦، ص ١٨٧، والدليل الشافي لابن تغري بردي ج ١، ص ٣٣، والمنهل الصافي لابن تغري بردي ج ٢، ص ١٨٥ ـ ١٨٧. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٩٤.

(٢) في الأصل الإنجاز: والتصحيح من ابن الفرات، ج ٩، ص ١٧. نشير هنا إلى أن هذه الحاشية وبعض الحواشي التي يُعتمد فيها على الأصل والواردة في الأجزاء ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١ هي من عمل المحقق.

(٣) المقصود هنا أبغا.

(٤) برزية: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق والاسم برزُويه والعامة تقول برزيه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٦.

(٥) في الأصل الشعرة. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧٢، والسلوك للمقريزي: ج ١، ص ٦٨٧.

(٦) في الأصل: عكاره، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧٢، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٧ عكار.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧٢.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧٢.

(٩) في الأصل الأول.

شمس الدين سنقر الأشقر. وذلك أن السلطان جرَّد الأمير عز الدين أيبك الأفرم، والأمير علاء الدين كشتغدي[(١)] الشمسي إلى شيزر، فترددت الرسائل بين السلطان وبين سنقر [الأشقر][(٢)]، وطلب منه تسليم شيزر، فطلب منه الشغر وبكَّاس، [وكانتا قد أخذتا منه][(٣)]، وطلب معهما فامية، وكفرطاب وأنطاكية، وبلادها، [فأجيب إلى ذلك][(٤)]. وتقرر أن يقيم شمس الدين سنقر الأشقر، على هذه البلاد، وعلى ما بيده قبل ذلك من البلاد، [وهي صِهْيون وبلاطُس واللاذقية بستمائة فارس][(٥)]، لنصرة الإسلام[(٦)]، وأن الأمراء الذين معه، [إن أقاموا عنده][(٧)]، يكونون من أمرائه، وإن حضروا إلى السلطان يكونون آمنين، ولا يؤاخذون.

وحضر عنده الأمير علم الدين سنجر الدواداري، [بنسخة اليمين على ما تقرر][(٨)]، فحلف السلطان على ذلك. وكتب له تقليداً بالبلاد، وسأل سنقر الأشقر أن ينعت بلفظ الملك، [فلما أجاب السلطان إلي ذلك، ونعت بالإمرة][(٩)]. وسير السلطان، الأمير فخر الدين أياز المقري الحاجب فخلَّفه، وسير إليه السلطان من الأقمشة والأواني والأنعام شيئاً كثيراً. وانتظم الصلح والاتفاق. وحضر مع السلطان في مصاف[(١٠)] حمص، وعاد

---

(١) في الأصل كشغدي: والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص،٦٨٧.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص،٦٨٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٧.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٩.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٩.

(٦) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧. ورد ما يأتي: «وصدره انتظم الصلح عليه أن سنقر الأشقر يرفع يده عن شيزر ويسلمها إلى نواب الملك المنصور قلاوون وعوّضه قلاوون عنها فامية وكفرطاب وأنطاكية والسويدية وبكاس ودركوش بأعمالها كلها وعدة ضياع معروفة، وأن يقيم على ذلك وعلى ما كان استقر بيده عند الصلح، وهو صهيون بلاطُنس وحِصن برزة وجبلة واللاذقية بستمائة فارس لنصرة الإسلام.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٩.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨.

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨.

(١٠) في الأصل مصنف. والصواب مصاف. وفي هذه السنة أي سنة ٦٨٠ هـ، اشترك سنقر الأشقر مع السلطان المنصور قلاوون في قتال التتار في حمص في يوم الأحد ثالث عشر في شهر رجب. وكان السلطان قد أرسل سنقر الأشقر بالحضور إليه بمن معه من الأمراء والعساكر. ووصلت التتار إلى =

إلى صهيون على ما نذكره إن شاء الله تعالى؛ واستمر ذلك إلى سنة أربع وثمانين وستمائة.

فلما حضر السلطان لحصار المَرْقَب[١]، وهي بالقرب من صهيون، لم يحضر الأمير شمس الدين إلى خدمة السلطان. فتنكر السلطان لذلك، وحنق عليه بسببه. وأرسل سنقر الأشقر ولده ناصر الدين صمغار إلى خدمة السلطان يتلافى ذلك، فمنعه السلطان من العود إلى والده، واستمر إلى سنة ست وثمانين وستمائة. فجرد السلطان نائبه بالديار المصرية، الأمير حسام الدين طرنطاي، إلى صهيون، في جماعة كثيرة من العساكر، فنازلها، وراسله في تسليمها، وذكر له مواعيد السلطان له، فامتنع من ذلك، فضايقه، ونصب المجانيق حتى أشرف على أخذ حصن صهيون عنوة. فلما رأى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ذلك، أرسل في طلب الأمان والأيمان. فحلف له الأمير حسام الدين طرنطاي، إن السلطان لا يضمر له سوءاً. فنزل إلى الأمير حسام، وسلَّم إليه الحصن. فأخبرني من ذكر أنه شهد كيف كان نزوله إليه، وما عامل كل منهما الآخر به، فقال: بينما الأمير حسام الدين جالس في خيمته، إذ قيل له، هذا الأمير شمس الدين قد جاء. فوثب وأسرع المشي، وخرج إليه وتلقاه، فترجل الأمير شمس الدين. وخلع الأمير حسام الدين قباء كان عليه، وبسطه على الأرض، ليمشي الأمير شمس الدين عليه. فرفعه الأمير شمس الدين عن الأرض، وقبَّله ولبسه، فأعظم الأمير حسام الدين طرنطاي ذلك، وعامل الأمير شمس الدين بأتمّ الخدمة وغاية الأدب، ورتَّب في الحصن نائباً ووالياً ورجَّالة. وسار هو والأمير شمس الدين إلى الديار المصرية. فلما قرب من قلعة الجبل، ركب السلطان وولداه الملك الصالح علاء الدين علي، والملك الأشرف صلاح الدين خليل، وأولاد الملك الظاهر، والعساكر. وتلقاه الأمير شمس الدين وتعانقا، وطلعا إلى القلعة، وحمل السلطان إليه الخلع والأقمشة والحوائض الذهب والتحف، وساق إليه الخيول، وأمَّره بمائة فارس، وقدَّمه على ألف. واستمر في الخدمة السلطانية، من أكابر أمراء الدولة.

= حمص في يوم الخميس رابع عشر شعبان فركب الملك المنصور بعساكره وصافف العدو والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ما قيل مائة ألف فارس أو يزيدون، وعسكر المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل. وعظم القتال بين الفريقين. التفاصيل في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٤.

(١) المرقب: بلد وحصن بساحل الشام بينه وبين أنطرسوس ثمانية أميال، وكان حصن المرقب من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وقد بقي بيد فرسان الاسبتارية من الفرنجية، وكان هؤلاء الفرسان الرهبان قد انحازوا إلى المغول، وذهبوا إلى حد القتال إلى جانبهم ضد المسلمين. وهكذا فقد كان تصميم المنصور قلاوون أن يأخذ هذا الحصن مهما كلّف الأمر، وأن يجعل الفرنجة يدفعون ثمن انحيازهم إلى المغول. انظر تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر، ص ٨٥ ـ ٨٦.

فهذا ما اتفق له، في خروجه وعوده على سبيل الاختصار. ثم كان من أخباره بعد ذلك، ما نذكره إن شاء الله تعالى في مواضعه. فلنذكر حال الملك السعيد وأخيه المسعود.

ذكر خبر الملك السعيد[١] وما كان من أمره بالكرك واستيلائه على الشوبك واستعادتها منه

قال المؤرخ[٢]: لما توجه الملك السعيد إلى الكرك، كان السلطان الملك المنصور، قد شرط عليه، أنه لا يكاتب الأمراء، ولا يفسد العساكر، ولا يتطرق إلى غير الكرك. فلما استقر بها حركة مماليكه، وحسَّنوا له التطرق إلى الحصون وأخذها، أولاً فأولاً، فوافقهم على ذلك. وكاتب النوّاب وسيّر الأمير حُسام الدين لاجين، رأس نوبة الجمدارية[٣]، إلى الشوبك، فتغلب عليها، وأقام بها. فكاتبه السلطان الملك المنصور، ونهاه فلم ينتهِ، فجرد الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري إلى الشوبك، فنزل عليها، وضايق أهلها، وتسلّمها في العاشر من ذي القعدة سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة، ورتّب بها نائباً وعاد عنها.

ذكر وفاة الملك السعيد، وقيام أخيه الملك المسعود خضر مقامه بالكرك

[قال][٤]: وفي سنة ثمانٍ وسبعين وستمائة، ركب الملك السعيد، إلى الميدان

---

(١) هو محمد بركة خان ابن الملك الظاهر ركن الدين أبي سعيد بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي ويلقب ناصر الدين وينعت بالملك السعيد صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية، وهو الخامس من ملوك الترك ممن ملك الديار المصرية في الدولة التركية وولي الحكم في المحرم من سنة ٦٧٦ هـ. ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٤١، والخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) ج ٢، ص ٢٣٨ (دار صادر). والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٨٥. وبدائع الزهور لابن إياس ج١، ص ٣٤٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٦٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٢٣. ومعجم الأنساب والأسرات لزامباور ص ١٦٢.

(٢) لم يذكر النويري عنوان الكتاب الذي أخذ عنه ولا صاحبه. ولكنه يلجأ إلى تلخيص الرواية بينما ابن الفرات يفصّل الأحداث.

(٣) الجمدارية: الجمدار: موظف يتصدى لإلباس الأمير ثيابه، هي كلمة فارسية مركبة في لفظين: أحدهما: جاما، ومعناه الثوب. والثاني: دار ومعناه ممسك أي ممسك الثوب، وأصل الكلمة جامادار. فحذفت الألف بعد الجيم، وبعد الميم استثقالاً فقيل جمدار. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩ الطبعة المصرية. ومحمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٠.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦.

بالكرك، ولعب بالكرة، فتقَنْطَر على فرسِهِ، فصدع وحُمَّ أياماً قلائل[١] فمات[٢]. وكانت وفاته، رحمه الله تعالى، في ثالث عشر[٣] ذي القعدة، من السنة.

وعمل السلطان الملك المنصور له عزاء، بقلعة الجبل، في الثاني والعشرين من الشهر. وحَضَرَه وعليه ثيابُ البياض، وحَضَرَ الأمراء والقضاة والعلماء، والوعّاظ. ولما تُوفي صُبِّر، ووُضع في تابوت مدة، ثم حُمل إلى التربة الظاهرية بدمشق، وذلك في سنة ثمانين وستمائة، ووصَلَت والدته إليها في ثامن عشرين شهر ربيع الآخر، والسلطان الملك المنصور يوم ذاك بالشام. فأدخل التربة الظاهرية ليلاً في تابوت، ولم يدخلوا به من باب المدينة، وإنما رفعوا تابوته من أعلى السور، ودلّوه من الجانب الآخر، ووضع في قبره، وألحده القاضي عز الدين بن الصائغ، كما ألحد والده.

وحضر السلطان الملك المنصور في بكرة دفنه إلى التربة الظاهرية، ومعه القُضاة والعُلَماء والقُرّاء والوعّاظ، وأظهر الحزن عليه، وذلك في سلخ شهر ربيع الآخر. ومولده بمنزلة العش[٤]، من ضواحي القاهرة، في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة[٥].

قال: وكان الملك السعيد، لما استقر بالكرك، رتّب في النيابة بها الأمير علاء الدين ايدغدي الحرّاني الظاهري، لما فارقه الأمير علاء الدين الفخري النائب بها إلى الديار المصرية، فلما مات اتفق نائبه الأمير علاء الدين [ايدغدي][٦] الحرّاني ومن معه، وأقاموا أخاه خُضراً مقامه، ولُقّب بالملك المسعود. فشرع المماليك، الذين حول الملك

---

(١) «ودفن بأرض برية عند جعفر الطيار، ثم نقل إلى دمشق» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٦.

(٢) «يوم الخميس حادي عشر ذي القعدة» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٦. يقول ابن الفرات في الصفحة نفسها: «وقيل في ثالث عشر ذي القعدة وقيل في الثامن عشر. واختلف في سبب وفاته، فقيل مات مسموماً، وقيل حصل له مرض. وقيل: لعب بالكرة فتنقطر عن فرسه». وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٣٢ ورد ما يأتي: «لما تسلطن قلاوون بلغه عن الملك السعيد أنه استكثر من استخدام المماليك وأنه ينعم على من يقصده. فاستوحش منه وتأثر من ذلك فمرض الملك السعيد بعد ذلك بمدة يسير وتوفي».

(٣) انظر تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١١.

(٤) منزلة العش: هي القرية التي تعرف اليوم باسم منية شبين إحدى قرى شبين القناطر بمديرية القليوبية. والعش ما زال يطلق على الحوض رقم ٣ المجاور لسكن منية شبين. محمد رمزي: القاموس الجغرافي.

(٥) «وحزنت عليه زوجته بنت الملك المنصور سيف الدين قلاوون وبكت عليه إلى أن ماتت بعده بقليل» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١١.

(٦) يشير إلى المصدر الذي ينقل عنه.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

المسعود نجم الدين خضر، في سوء التدبير، ففرّقوا أموال الذخائر[١]، وأرادوا أن يستجلبوا بها الناس، وانضمّ إليه كل من قطع رزقه. وتوجه منهم جماعة إلى الصلت فاستولوا عليها، وأرسلوا إلى صرخد، وقصدوا الاستيلاء عليها، فعجزوا عن ذلك. وشرعوا في استفساد الناس، وتسامع بهم العربان والطماعة، أنهم يبذلون الأموال فقصدوهم من كل الجهات، وهم يبذلون الأموال لمن يقصدهم ويصل إليهم. فكان جماعة من العربان وغيرهم يقصدونهم من أطراف البلاد، ويجتمعون ويحضرون إلى الملك المسعود، ويبذلون له الطاعة، ويتقربون إليه بالنصيحة، فإذا وثق بهم، وأنفق فيهم الأموال، وحصلوا عليها، وبلغوا الغرض مما راموه تسلّلوا وفارقوه، وعادوا من حيث جاءوا وتفرّقت جماعاتهم. وهو ومن عنده لا يرجعون عن بذل المال لمن يصل إليهم، إلى أن فنيت أكثر تلك الذخائر، التي كانت بالكرك، التي حصَّنها السلطان الملك الظاهر، وجعلها بهذا الحصن ذخيرة لأوقات الشدائد، فنفقوها فيما لا أجدى نفعاً، بل جلب ضرراً، وغَلَّتَ الخواطر، ثم كاتبوا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطنة [بدمشق][٢] في الموافقة [معهم][٣]، واتصل ذلك بالسلطان، فجرد الأمير عز الدين أيبك الأفرم إلى الكرك على سبيل الإرهاب. وكان بينه وبين الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ما قدّمناه[٤].

ذكر الصُّلح بين السلطان والملك المسعود وانتقاض ذلك وإخراجه من الكرك

وفي سنة ثمانين وستمائة، ورَدت رسل الملك المسعود الخضر بن بيبرس البندقداري الصالحي [النجمي][٥] إلى السلطان في طلب الصلح، والزيادة على الكرك، وأَنْ يكون له ما كان للناصر [صلاح الدين][٦] داود، فلم يُجبهُ السلطان إلى ذلك، ولا إلى إقامته بالكرك بالأصالة. وترددت رسائله إلى السلطان، وسأل أن يقرّ بيده الكرك وأعمالها من حدّ الموجب[٧] إلى الحسا[٨]. فأجابهم السلطان، وحلف لهم؛ والتمسوا

(١) الذخائر: المؤن، ابن منظور: لسان العرب (ذخر).
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٠.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٠.
(٤) انظر تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٦٠.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٠.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨.
(٧) الموجب: هو بلد بين القدس والبلقاء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥٥.
(٨) الحسا: وادٍ قرب الكرك، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨، حاشية (٤).

شروطاً: منها تجهيز الإخوة الذكور والإناث، أولاد الملك الظاهر إلى الكرك، وردّ الأملاك الظاهرية عليهم، وتمَّ الصلح وحلف السلطان عليه.

وتوجه الأمير بدر الدين بيليك المحسني السلاح دار، والقاضي تاج الدين[١] ابن الأثير، إلى الكرك، وحلفا الملك المسعود. وكوتب من ديوان الإنشاء، كما يكاتب صاحب حماه[٢]، واستمر الأمر على ذلك إلى سنة اثنتين وثمانين [وستمائة][٣]، فبلغ السلطان أنهم نقضوا ما كان قد تقرر. وحضر الأمير علاء الدين ايدغدي الحراني، نائب الملك المسعود بالكرك، وأنهى إلى السلطان ما اعتمدوه، مما يغلّت[٤] الخواطر. فكتب السلطان إلى الملك المسعود ومن معه ينهاهم عن ذلك، فلم ينتهوا. فجرد إلى الكرك في هذه السنة[٥] الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، وأمره بمراسلتهم، فراسلهم، فلم يرجعوا عن اعتمادهم، فضايق الكرك، ورعت خيول العسكر تلك الزراعات كلها، ثم عاد عن الكرك.

وتراخى الأمر، واستمر الملك المسعود بالكرك إلى سنة خمس وثمانين وستمائة. فجرّد السلطان الملك المنصور، الأمير حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة، بجيش كثيف، وأمره بمنازلة الكرك ومحاصرتها[٦]، فتوجه إليها، وأحضر آلات الحصار، من الحصون الإسلامية، وضايقها وقطع الميرة عنها. واستدعى بعض الرَّجالة[٧]، وأحسن إليهم، فوافقوه[٨] على الملك المسعود. فلما رأى الملك مسعود نجم الدين خضر، وأخوه بدر الدين سلامش الحال على ذلك، أرسل الملك المسعود إلى الأمير حُسام الدين طُرَنْطَاي، في طلب الأمان، فأمّنه عن السلطان، فقال: لا بد من أمان السلطان وخاتمه. فطالع الأمير حُسام الدين السلطان بذلك، فأرسل السلطان بأمانه الأمير رُكن الدين بيبرس الداوادار المنصوري، فاجتمع بهما، وأبلغهما أمان السلطان، فنزلا من قلعة الكرك، إلى الأمير حسام الدين طُرَنْطاي، وذلك في صفر سنة خمس وثمانين وستمائة[٩].

---

(١) «عماد الدين» في السلوك ج ١، ص ٦٨٨.
(٢) «وانبرم الصلح بينهما في العشر الأول من شهر ربيع الأول» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢١٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.
(٤) الغلت والغلط سواء. وغلتِ: غلط. ابن منظور: لسان العرب (غلت).
(٥) هذا الخبر أورده ابن الفرات في أحداث سنة ٦٨٣. وتاريخ ابن الفرات ج ٨، ص ١.
(٦) في الأصل: وحصاراتها.
(٧) المقصود رجّالة الكرك.
(٨) في الأصل: فوافقه.
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

فرتّب الأمير حُسام الدين طرنطاي، وولدا الملك الظاهر صحبته، فلما وصلوا إلى الديار المصرية، وقربوا من قلعة الجبل، ركب السلطان، وتلقاهما وأقبل عليهما، وطلعا إلى القلعة، وذلك في يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول، وأمّر كلا منهما مرة مائة فارس. واستمرار يركبان معه في الموكب والميدان، ونزّلهما منزلة أولاده، ثم بلغه عنهما ما تنكر له، فقبض عليهما واعتقلهما، وبقيا في الاعتقال في أيام السلطان الملك الأشرف فسيرهما إلى القسطنطينية.

هذا ما كان من أخبار هؤلاء المناوئين في الملك، فلنذكر الفتوحات والغزوات، ونوردها في الترتيب، على حكم السنين، إن شاء الله تعالى.

ذكر الفتوحات والغزوات التي شهدها السلطان بنفسه، والتي ندب إليها عساكره المؤيدة

ذكر عبور التتار إلى الشام، والمصاف الذي وقع بينهم وبين العساكر المنصورة، بحمص وانهزام التتار.

قال المؤرخ[١]: وفي سنة ثمانين وستمائة، وردت الأخبار بدخول مَنْكُوتُمر[٢]، إلى بلاد الروم، بعساكر المُغل، وأنه نزل بين قيسارية[٣] وأُبلُستين[٤]، فتوجه كشافة من عين تاب[٥]، فوقعوا بفرقة من التتار بالقرب من صحراء هوتي[٦]، الذي كسر الملك

(١) يتابع النويري بإيراد عبارات قال وقال المؤرخ دون ذكر المصدر الذي يرجع إليه. وتتفق هذه الرواية مع ما ورد في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٢ ـ ٢٥٣. مما يدل على استقائهما من مصدر واحد.

(٢) هو منكوتمر بن هولاكو أخو أبغا بن هُولاكو بن طُلُوي بن جنكيزخان أو «تُولي» توفي سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م. انظر تشريق الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ص ١٨ ـ ١٩، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٨، ص ٢٤٨، والدليل الشافي لابن تغري بردي ج ٢، ص ٧٤٦. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٧٥.

(٣) قيسارية: مدينة كبيرة في بلاد الروم أي آسيا الصغرى، وعاصمتها قيصرية وهي في تركية اليوم. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ١٥٢، حاشية (١)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ج ٤، ص ٤٧٨. قارن بما ورد في الروض المعطار للحميري عن قيسارية (ص ٤٨٦).

(٤) أبلستين: هي ما كان يطلق عليها اسم ارابيسوس (Arabissus) وموقعها في الشرق من قيصرية، وتعد من مدن الثغور في أيام الروم. لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٧٨. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١، ص ٩٧.

(٥) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدُلُوك، ودلوك رستاقها، وهي من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤، ص ١٩٩.

(٦) هكذا في الأصل، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٢٨، صحراء هوتي من بلد أبلستين.

الظاهر التتار عليها. فظفروا منهم بإنسان يسمى حلتار بهادر(١) أمير آخور [أبغا](٢) بن هولاكو، كان قد توجه لكشف المروج، فأمسكوه وأحضروه إلى السلطان إلى دمشق. فوانسه السلطان، وسأله عن الأخبار، فذكر أنهم في عدد كثير يزيدون على ثمانين ألف فارس من المُغل، وعزمهم أنهم يقصدون البلاد، قولاً جزماً، ويركبون من منزلتهم أول شهر رجب.

ثم ورد الخبر في جمادى الآخرة، أنهم ركبوا من منزلتهم، وأنهم يسيرون برفق، وأن فرقة منهم توجهت صحبة أبغا إلى الرّحبة، ومعه صاحب ماردين، فسير السلطان كشافة إلى الرحبة، صحبة بجكا(٣) العلائي. وركب السلطان من دمشق(٤)، ووصل العدو المخذول إلى صوب حارم. وراسل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأشقر عدة مراسلات، إلى أن تقرر أنه ينزل من صِهْيون بمن معه للغزاة، بشرط أن يعود إليها، إذا انقضى المصاف. فنزل ووافى السلطان على حمص هو ومن كان عنده من الأمراء، وهم: ايتمش السعدي، وازدمر الحاج، وسنجر الداواداري، وبجق(٥) البغدادي، وكراي، وشمس الدين الطنطاش وابنه، ومن معهم من الظاهرية. ففرح المسلمون بحضورهم، وكان ذلك قبل المصاف بيومين(٦).

ثم ورد الخبر أن منكوتمر على حماه بعساكر التتار، في ثمانين ألف، منهم خمسون ألف من المُغل، وبقيتهم مرتدة وكرج وروم وأرمن(٧) وفرنج، وأنه نفر إليهم مملوك من مماليك الأمير ركن الدين بيبرس(٨) العجمي الصالحي، الجالق، ودلّهم على عورات المسلمين وأخبرهم بعددهم.

---

(١) «جلنار» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٣. ولم يذكر المقريزي اسم هذا الشخص بل قال: «بعث السلطان الكشافة فلقوا طائفة من التتر أسروا منهم شخصاً وبعثوا به إلى السلطان» المقريزي: السلوك ج ١، ص ٦٩٠.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٣.

(٣) في الأصل: نحكا، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٣، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩١.

(٤) «وركب السلطان من دمشق يريد حمص فنزل عليها في حادي عشر رجب ومعه سائر العساكر» المقريزي السلوك، ج ١، ص ٦٩١.

(٥) «بيجق» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩١.

(٦) «كان ذلك في ثاني عشرة جمادى الآخرة» في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٩١.

(٧) كانت فئة الأرمن من ذلك الجيش بقيادة ملكهم ليون، وكانت فئة الكرج بقيادة ملكها أيضاً واسمه دمتري الثاني. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٩٢، حاشية (١).

(٨) هو بيبرس بن عبد الله الجالق الصالحي المتوفى سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٧ م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج ٣، ص ٤٧٤ رقم ٧٠٩.

ودخلوا ليلة الخميس عن حماه، ورتّبوا جيشهم. فكان طرف ميمنتهم حماه، وطرف ميسرتهم[١]، وساقوا طالبين اللقاء، والمقدم عليهم من قبل أبغا، [منكوتمر بن][٢] هولاكو، أخو أبغا.

ورتب السلطان الملك المنصور عساكره ميمنةً وميسرةً [وقلباً][٣]، وبات المسلمون على ظهور خيولهم. واتفق أن شخصاً من عسكر التتار، دخل حماه، وقال للنائب بها: «واكتب الساعة إلى السلطان، على جناح طائر، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل في القلب، ومنهم أربعة وأربعون ألف من المغل وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، فتقوي ميسرة المسلمين، وتحترز على الصناجق»[٤]. فكتب النائب بذلك إلى السلطان. فلما قرأ الكتاب ركب عند إسفار الصباح، في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب، سنة ثمانين وستمائة، وهو يوم اللقاء. ورتب العساكر المنصورة الإسلامية، على ما نذكره، بمقتضى ما أورده الأمير ركين الدين بيبرس الداوادار المنصوري في تاريخه[٥] هو:

الميمنة المنصورة: فيها الملك المنصور صاحب حماه، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري والأمير عز الدين أيبك الأفرم، والأمير علاء الدين كشتغدي[٦] الشمسي ومضافوهم[٧]، والأمير حسام الدين لاجين نائب الشام

(١) وطرف ميسرتهم سلميّة في عقد الجمان للعين، ج ٢، ص ٢٧٢، بينما ذكر المحقق أن ما بين الحاصرتين بياض بالأصل، ولم يستطع المحقق أن يملأ هذا الفراغ. ولم يرد في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١١ ما أورده النويري واكتفى بالإشارة إلى الميسرة.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٥.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من عقد الجمان للعيني ج ٢، ص ٣٢.

(٤) الصنجق أو السنجق. الجمع صناجق. لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح، وهي رايات صفر صغار يحملها السنجقدار، ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان في الموكب زمن السلم بالسناجق فقط. أما موكب الحرب فكان سير السلطان فيها بالأعلام. ومنها السناجق. ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقابه واسمه وتسمى العصابة ثم راية أخرى عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم. القلقشندي: صبح الأعشى الطبعة المصرية، ج ٤، ص ٨، وج٥، ص ٤٥٦، ٤٥٨. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي ص ١٨٦.

(٥) «زبدة الفكرة» لبيبرس الدوادار الأمير ركن الدين بن عبد الله المنصوري، توفي سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة الجزء التاسع مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨. انظر عقد الجمان للعين، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٦) في الأصل السعدي: والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٢.

(٧) في الأصل: «ومضافيهم». والصواب كما ورد في المتن.

والعسكر الشامي. وفي رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وآل فضل وآل مري(١)، وعربان الشام، ومن انضم إليهم.

الميسرة المباركة، فيها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ومن معه من الأمراء، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بجكا العلائي، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي، والأمير سيف الدين خبرك(٢) التتري، ومن معهم من المضافين. وفي رأس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصن الأكراد.

ذكر الجاليش(٣) وهو مقدمة القلب(٤)، فيه الأمير حسام الدين طرنطاي، نائب السلطنة، ومن معه من مضافيه، والأمير ركن الدين اياجي(٥) الحاجب، والأمير بدر الدين بكتاش بن كرمون، ومن معهم من المماليك السلطانية. ووقف السلطان تحت الصناجق، وحوله مماليكه وألزامه وأرباب الوظائف.

وأشرفت كراديس(٦) التتار [وهم مثلا عساكر المسلمين](٧). وكان الملتقى بوطأة حمص، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد، فالتقى الجمعان، في الساعة الرابعة، من نهار الخميس، [رابع عشر رجب](٨)، وجاءت ميسرة العدو، تجاه الميمنة الإسلامية، وصدموا(٩) الصدمة الأولى، فثبت المسلمون. وانكسرت ميسرة التتار كسرة تامة، وانتهت إلى القلب الذي للتتار وبه منكوتمر.

---

(١) «آل مرا» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٠.

(٢) «جبرك» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٥، و«حيرك» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٢.

(٣) الجاليش: مقدمة القلب، وكان ميسر السلطان في مواكب الحرب بالأعلام ومنها السناجق ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقابه وتسمى العصابة، ثم راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش. القلقشندي: صبح الأعشى الطبعة المصرية ج ٤، ص ٨، وج ٥، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨، والمقريزي: السلوك ج ١، ص ١٢٤، حاشية (١) Dosy. supp. dict. Ar.

(٤) انظر ما تقدم قبل قليل.

(٥) في الأصل «أباجي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٦، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٣.

(٦) الكراديس: جمع كردوس، أو كردوسة، وهي الفرقة الراكبة، والقطعة العظيمة من الخيل. بطرس البستاني: محيط المحيط (كردوس) Dosy. supp. dict. Ar. والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٦٩٣، حاشية (٣).

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك، ج ١، ص ٦٩٣.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك، ج ١، ص ٦٩٣.

(٩) هكذا في الأصل وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢١٦ «وصدموها».

وأما الميسرة الإسلامية، فصدمتها ميمنة التتار، فلم تثبت لترادف كراديسهم، وساق التتار وراء المسلمين، حتى انتهوا إلى تحت حمص. ووقعوا في السوقة والعوام، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ولم تعلم المسلمون ما تهيأ للميمنة من النصر، ولا علم التتار ما أصاب ميسرتهم. فاستقل بعض من انهزم إلى دمشق، وبعضهم إلى قرب صفد. ومنهم من وصل غزة.

ولما رأى التتار، أنهم قد استظهروا، نزلوا(١) عن خيولهم في المرج الذي عند حمص، وأكلوا الطعام، ونهبوا الأثقال(٢) والوطاقات(٣)، والخزانة. وانتظروا قدوم بقيتهم، فلما أبطأوا عنهم، أرسلوا من يكشف خبرهم، فعاد الكشافة وأخبروهم [أن](٤) منكوتَمُر هرب، فركبوا خيولهم، وكروا راجعين.

هذا والسلطان ثابت في موقفه، في نفر يسير من المماليك، والعساكر قد تفرقت. ومنهم من تبع التتار الذين انهزموا، ومنهم من استمر به الهرب. فلما رجعت ميمنة التتار، أمر السلطان أن تلف الصناجق، وتبطل الكوسات(٥)، فمروا ولم يقدموا عليه. وأخذوا على طريق الرستن، ليلحقوا بأصحابهم. وعندما تقدموه قليلاً، ساق عليهم، فانهزموا لا يلوون على شيء. كان ذلك تمام النصر، وهو عند غروب الشمس من يوم الخميس. ومرّ هؤلاء المهزمون من التتار نحو الجبل، يريدون منكوتمر. وكان ذلك من تمام نعمة الله على المسلمين وإلا لو قدر الله أنهم رجعوا على المسلمين، لما وجدوا فيهم قوة. ولكن الله نصر دينه، وهزم عدوه مع قوتهم وكثرتهم. [وانجلت هذه الواقعة على قتلى كثيرة من التتر لا يحصى عددهم](٦). وكتبت البطائق بالنصر.

---

(١) في الأصل «ولوا» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٦.

(٢) الأثقال: جمع ثقل وهو متاع الفارس والجندي. وما يتعلق به من الحشم Dosy. supp. dict. Ar.

(٣) الوطاقات ومفردها وطاق: وفي التركية أوتاق وأوطاق وأوتاغ وليس المقصود بالوطاق الخيمة بل خيام عديدة تعتبر معسكر الجيش، Dosy. supp. dict. Ar. وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٩٥، حاشية (٢).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٩.

(٥) الكوسات: من رسوم السلطان وآلاته، وهي صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ويتولى ذلك الكوسي. القلقشندي: صبح الأعشى الطبعة المصرية ج ٤، ص ٩، ١٣. خليل بن شاهين الظاهرة، زبدة كشف الممالك ص ١١٣. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٩٠.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٧ ـ ٢١٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٥.

وعاد السلطان من يومه إلى المنزلة، [بعد انفصال الحرب](١). وكان قد فرّق(٢) ما بالخزانة من الذهب، في أوساط مماليكه، فسلم بجملته. وبات السلطان بالمنزلة ليلة الجمعة. فلما كان عند السحر، ثار صياح بالوطاقات، فظن الناس عود العدو، فركب السلطان ومعه من كان بالوطاقات، فانكشف الخبر بعد ساعة، أن جماعة من العسكر، الذين تبعوا التتار عند الهزيمة رجعوا. وقتل من التتار في الهزيمة، أكثر من الذين قتلوا في المصاف، واختفت منهم طائفة بجانب(٣) الفرات. فأمر السلطان أن تضرم النيران بالأزوار(٤) التي على الفرات، فأحرق أكثر من اختفى فيها. وهلكت فرقة منهم، كانوا سلكوا درب سليمة.

ولما وصلت البطائق إلى الرحبة، بخبر النصر وهزيمة التتار، كان أبغا ملك التتار يحاصرها، فدقت البشائر، وأعلن الناس بالنصر، ففارقها أبغا وتوجه إلى بغداد.

وعاد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى صخيون، ورجع إلى الخدمة السلطانية ممن كان معه، ايتمش السعدي، وسنجر الداواداري وكراي التتاري وولده، وتماجي(٥)، وجماعة من الأمراء الذين كانوا عنده. وعاد السلطان إلى دمشق، فكان وصوله إليها، في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رجب الفرد. وامتدحه الشعراء، وأكثروا المدائح والهناء بهذا النصر.

وخرج السلطان من دمشق، عائداً إلى الدّيار المصرية، في يوم الأحد ثاني شعبان. وكان وصوله إلى قلعة الجبل، في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، فزينت له المدينة، ودخل، وبين يديه الأسرى، وبعضهم يحمل صناجقهم المكسورة وطبولهم. وخلع السلطان على الأمراء والأكابر.

واستشهد في هذه الواقعة من الأمراء من نذكر: منهم الأمير عز الدين ازدمر الحاج. وهو الذي جرح منكوتمر، وكان من أعيان الأمراء، وكانت نفسه تحدثه أنه يملك، والأمير بدر الدين بكتوت الخازندار، والأمير سيف الدين بلبان الرومي الداوادار الظاهري، والأمير شهاب الدين [توتل](٦) الشهرزوري، رحمهم الله تعالى.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٨.

(٢) «فرّق ما بين الخزائن على مماليكه أكياساً في كل كيس ألف دينار ليحملوه على أوساطهم» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٥.

(٣) في الأصل «بجنب» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٩٥.

(٤) الأزوار والأزيار: جمع زارة. وهي الأجمة ذات الماء والحلفاء والقصب، ابن منظور: لسان العرب.

(٥) في الأصل: «تماحي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٢١.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٩. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٤.

هذا ما كان من خبر هذه الواقعة.

ذكر فتوح قلعة قطيبا[١]

وهذه القلعة كانت في الزمن الأول محسوبة في جملة قلعة آمد، ثم صارت في يد ملك الروم، وصارت في يد العدو المخذول [من][٢] التتار، وفيهم نوابهم. وكانت مُضِرَّة بقلعة كركر والثغور المجاورة لها، وما كان يمكن أخذها بحصار، فتلطف النواب، واستمالوا من كان بها.

فلما كان في سنة اثنتين وثمانين وستمائة. خلت هذه القلعة من الغلال. فجرد السلطان إليها رجالة كركر، فضايقوها. فسأل[٣] أهلها مراحم[٤] السلطان فأجيبوا إلى ملتمسهم. وتسلمها نواب السلطان، واحضروا إليها جماعة من الرجالة من قلعة البيرة وعين تاب والروندان. وجعل فيها ما يحتاج إليه من الغلال والسلاح والعدد. وصارت من حصون الإسلام المنيعة.

ذكر فتوح ثغر الكختا[٥]

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة أيضاً، فتحت قلعة الكختا. وهي من أمنع الحصون وأعلاها وأتقنها بنية[٦]. فاجتهد السلطان في تحصيلها وإضافتها إلى الحصون الإسلامية. ووعد من بها المواعيد الجميلة. فأجابوا بالسمع والطاعة، وقتلوا النائب بها، وهو الشجاع موسى، وراسلوا نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبية، وبذلوا تسليم القلعة. فجهز إليهم الأمير جمال الدين الصرصري[٧]، والأمير ركن الدين بيبرس السلاح

---

(١) قلعة قطيبا: هي إحدى قلاع آمد وتقع بالقرب من قلعة كركر. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧١٤.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٣. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٤.

(٣) في الأصل: «فسألوا» والتصحيح من ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٣.

(٤) في الأصل: «تراحم» والتصحيح من ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٣.

(٥) الكختا: وهي قلعة في شرقي ملطية، وكانت تحت حكم الأرمن، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٤.

(٦) في الأصل: بينة، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٣.

(٧) في الأصل: الصرودي. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٤، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٤١٣، والنسبة إلى صرصر، وهو اسم يطلق على قريتين من سواد بغداد، وهما صرصر العليا وصرصر السفلى، وكلتاهما على ضفة نهر عيسى الذي يسمى أحياناً نهر صرصر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٥٥، انظر الروض المعطار للحميري، ص ٣٥٧.

دار، والأمير شمس الدين أقش الشمسي العينتابي[١]، ومن معهم. فتسلموا الحصن. وحلَّفوا من به للسلطان ولولده الملك الصالح، وألبسوهم التشاريف، ثم جهزوا من كان بها، طائفة بعد أخرى إلى الأبواب الشريفة السلطانية. فأحسن السلطان إليهم، وأقطع منهم من يستحق الأقطاع، وجهزت إليها الزردخانات، وآلات الحصار، واستقرت في جملة الحصون الإسلامية. وصارت هذه القلعة شجي[٢] في حلق الأرمن، وحصل الاستظهار بها على الغارات.

ذكر الإغارة على بلاد سيس[٣]

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة أيضاً، كتب السلطان إلى نائب السلطنة بالمملكة الحلبية، أن يوجه من يغير[٤] على بلاد سيس، بسبب ما كان الأرمن اعتمدوه، من إحراق جامع حلب، لما جاءوا صحبة التتار. وجرد السلطان عسكراً من الديار المصرية، ومن عسكر الشام لذلك. فتوجهوا وأغاروا، ووصلوا إلى مدينة أياس، فقتلوا من أهلها جماعة، ونهبوا وخربوا. فلما عادوا ووصلوا إلى باب الاسكندرونة، أتاهم عسكر الأرمن فاقتتلوا. فانهزم الأرمن، وتبعهم العسكر إلى تل حمدون، واقتلعوا جماعة من خيالتهم، وعاد العسكر الإسلامي بالظفر والغنيمة.

ذكر فتوح حصن المرقب[٥]

وفي سنة أربع وثمانين وستمائة، توجه السلطان الملك المنصور إلى المرقب، ونازله في أوائل شهر ربيع الأول، وذلك أن أهله فعلوا ما يوجب نقض الهدنة، التي كانت حصلت بينهم وبين السلطان، وعلى ما نذكرها في حوادث السنين، ولم يتفقوا عند شروطها. فحاصر السلطان الحصن، وعملت النقوب، وأشرفت الفرنج على أنه يفتح عنوة. فطلبوا الأمان، وسلموا الحصن. فتسلمه السلطان، وذلك في الساعة الثامنة من نهار الجمعة سابع عشر شهر ربيع الأول. وكان هذا الحصن لبيت الاسبتار، وجهز أهله إلى طرابلس.

---

(١) «العنتابي» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٤.

(٢) «شجًّا» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٤. وانظر لسان العرب لابن منظور مادة (شجج).

(٣) بلاد سيس: وصوابه سيسية كما في معجم البلدان، وعامة أهلها يقولون سيس، وهي من مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة. معجم البلدان ج ٣، ص ٣٣٨، وهي اليوم مدينة في تركية في إيالة أطنة، وهي بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٢٥، حاشية (٤).

(٤) في الأصل: يغار. والصواب كما ورد في المتن.

(٥) تقدم التعريف به.

ذكر غزوتي النوبة[١] الأولى والثانية

كانت الغزوة الأولى في سنة ست وثمانين وستمائة. وذلك أن السلطان الملك المنصور، جهز الأمير علم الدين سنجر المسروري، المعروف بالخياط، متولي القاهرة والأمير عز الدين الكوراني، وجماعة من أجناد الولايات، بالوجه القبلي والقراغلامية[٢]. وجرد الأمير عز الدين أيدمر السَّيْفي[٣] السلاح دار، متولي الأعمال القوصية، بعدته، ومن عنده من المماليك السلطانية، المركزين بالأعمال القوصية، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم وهم: أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان الريسية[٤] وبني هلال، فتوجه الأمير علم الدين الخياط بنصف الجيش من البر الغربي. وتوجه الأمير عز الدين أيدمر بالنصف الثاني من البر الشرقي، وهو الجانب الذي فيه مدينة دنقلة، وكان متملك النوبة في ذلك الوقت اسمه سمامون[٥]، وكان ذا دهاء ويأس، وبالنسبة إلى أمثاله.

فلما وصل الجيش إلى أطراف البلاد، أخلا سمامون البلاد، وأرسل إلى نائبه بجزائر ميكائيل وعمل الدّر، وهو جُرَيْس ـ ويسمى من يتولى هذه الولاية، عند النوبة، صاحب الجبل[٦] ـ فأمره بإخلاء البلاد التي تحت يده أمام الجيش. فكانوا يرحلون أمام الجيش منزلة بمنزلة، إلى أن انتهوا إلى متملك النوبة بدنقلة. فأقام بها إلى حيث وصل

(١) النوبة: لهذا اللفظ معانٍ اصطلاحية كثيرة أحدها فرق الجند التي تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان وهي خمس نوبات، ويكون تغييرها في الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح. والنوبة عند المغنين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معاً وربما أطلقت على المطربين بها إذا اجتمعوا ويقال لهم النوبتيجية عند الأتراك، ويقال: ضربت النوبة بطرس البستاني: محيط المحيط. (نوب) Dosy. supp. dict. Ar. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص ٣٥٣.

(٢) القراغلامية: وهم سائر الأجناد. انظر صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٨، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) السَّيْفي: هذه النسبة كثيرة الورود في أسماء أمراء المماليك في كتب المؤلفين المعاصرين، وكان لاستعمالها وترتيبها في الاسم دلالة على معانٍ اصطلاحية مختلفة، فإذا أتت في أول الاسم كالسيفي يلبغا مثلاً كان معناها أن لقب هذا الأمير سيف الدين، وإذا وردت بين اسمين مثل أرغون السيفي دمرداش، كان معناه أن صاحب هذا الاسم من مماليك الأمير دمرداش، وإذا جاءت في آخر الاسم مثل الوارد هنا في المتن، كان معناها ذلك الاسم قد مات عنه سيده وأستاذه، ونقل إلى ديوان السلطان. لهذا كان من بين مماليك السلطان فرقة اسمها السيفية تمييزاً لها من فرقة المماليك السلطانية المكونة من مماليك السلاطين السابقين. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٣٦، حاشية (٦).

(٤) هكذا في الأصل، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٧.

(٥) هكذا في الأصل، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٧.

(٦) في الأصل: «الخيل» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٧٢.

الأمير عز الدين ومن معه، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم سمامون، وقتل من أصحابه خلق كثير. واستشهد من المسلمين أناس قلائل.

ولما انهزم سمامون، تبعه الجيش إلى ميسرة خمسة عشر يوماً من دنقلة، فأدركوا جريس، فأخذوه، وأخذوا ابن خاله متملك النوبة، وهو من أعيان أصحابه، وممن يرجع إليه الملك. فرتب الأمير عز الدين، ابن أخت الملك ملكاً، ورتب جريس في النيابة عنه، وجرد معهما جماعة من العسكر، وقدر[١] عليهما قطيعة، يحملونها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة. وعاد الجيش بعد أن غنموا غنائم كثيرة من الرقيق، والخيل، والجمال، والأبقار، والأكيسة.

ولما فارق الجيش النوبة وعاد، وتحقق سمامون عودهم، رجع إلى دنقلة، وقاتل من بها، وهزمهم واستعاد البلاد. فحضر الملك المستجد وجريس، ومن كان معهما من العسكر المجرد، إلى الأبواب السلطانية، وأنهوا ما اتفق من سمامون، فغضب السلطان لذلك، وجرد جيشاً كثيفاً.

ذكر تجريد الجيش في المرة الثانية إلى النوبة

قال[٢]: وجرد السلطان الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار إلى النوبة، وصحبته من الأمراء، الأمير سيف الدين قبجق المنصوري، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، والأمير عز الدين أيدمر، متولي الأعمال القوصية. وجرد أيضاً من أطلاب[٣] الأمراء، من نذكر: طُلب الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وطُلْب الأمير بدر الدين بيدرا، وطُلْب الأمير سيف الدين بهادر، رأس نوبة الجمدارية، وطُلْب الأمير علاء الدين الطيبرس، وطُلْب الأمير شمس الدين سنقر الطويل. وسار أجناد المراكز بالوجه القبلي، ونواب الولاة من العربان بالديار المصرية، من الوجهين القبلي والبحري، وعدتهم أربعون ألف راجل. وجهز معهم متملك النوبة، ونائبه جريس.

وكان توجه الجيش من الأبواب السلطانية، في يوم الثلاثاء، ثامن[٤] من شوال، سنة ثمان وثمانين. وصحب هذا الجيش من الحراريق والمراكب الكبار والصغار، لحل الأذواد، والزردخاناة، والأثقال، ما يزيد على خمسمائة مركب.

---

(١) «قرّر» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٧.
(٢) يشير هنا إلى المصدر الذي نقل عنه.
(٣) الأطلاب: تقدم التعريف به.
(٤) هكذا في ابن الفرات ج ٨، ص ٨٣ المحقق.

ولما وصل العسكر إلى ثغر أسوان، مات متملك النوبة، فدفن بأسوان. وطالع الأمير عز الدين الأفرم السلطان بذلك. فأرسل إليه، من أولاد أخت الملك داود رجلاً، وكان بالأبواب السلطانية. ورسم له أن يملّكه بالنوبة، فأدركهم على خيل البريد، قبل رحيل العسكر من أسوان. ولما وصل إليهم انقسم العسكر نصفين على العادة. فكان الأمير عز الدين الأفرم، والأمير سيف الدين قبجاق[١]، ونصف العسكر ونصف العربان بالبر الغربي، والأمير عز الدين أيدمر، متولي الأعمال القوصية، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، ونصف العسكر ونصف العربان بالبر الشرقي.

وتوجهوا ورسموا الجريس نائب النوبة أن يتقدمهم، منزلة بمنزلة، ومعه أولاد الكنز، أمراء أسوان، ليطمئنوا أهل البلاد ويؤمنوهم[٢]، ويجهزوا الإقامات للعسكر. فكان الجيش إذا وافى بلداً، خرج من بها من المشايخ وأعيانها، وقبلوا الأرض بين يدي الأمراء، وأخذوا أماناً واستقروا ببلدهم، وذلك من الدّو إلى جزائر ميكائيل، وهي البلاد التي كانت تحت يد جريس، صاحب الجبل[٣]. وأما ما عدا ذلك من البلاد، التي لم يكن لجريس عليها ولاية، فإنها أخليت[٤]، طاعة لمتملك النوبة. فكان العسكر ينهب ما يجده بها. ويقتل من تخلف من أهلها بها، ويرعون[٥] زروعهم، ويحرقون[٦] سواقيهم ومساكنهم، إلى أن انتهوا إلى مدينة دنقلة. فوجدوا الملك قد أخلاها، وأجلى أهلها، ولم يجد الأمراء بها إلا شيخاً كبيراً وعجوزاً. فسألوهما عن أخبار الملك، فذكرا أنه توجه إلى جزيرة وسطى، في بحر النيل، مسافتها من دنقلة خمسة عشر يوماً، واتساع هذه الجزيرة مسافة ثلاثة أيام طولاً. فتبعهم الأمير عز الدين ومن معه إلى الجزيرة المذكورة ولم يصحبهم حراق ولا مركب، لتوعر البحر بالأحجار. فلما انتهوا إلى قبالة الجزيرة، شاهدوا بها عدة من مراكب النوبة، وجمعاً كثيراً. فسألوهم عن الملك، فأخبروهم أنه بالجزيرة المذكورة، فعرضوا عليه الدخول في الطاعة والحضور، وبذلوا له الأمان، فأبى ذلك. فأقام العسكر ثلاثة أيام، وأوهموه[٧] أنهم أرسلوا يطلبون المراكب والحراريق، ويعدون إليه، ويقاتلونه. فانهزم من الجزيرة إلى جهة الأبواب، وهي مسافة

(١) سبق أن ورد هذا الاسم برسم قبجق.
(٢) في الأصل: يأمنوهم.
(٣) تقدمت الإشارة إليه قبل قليل.
(٤) في الأصل: أخلت.
(٥) في الأصل: «ويرعوا» الصواب لغوياً كما ورد هنا.
(٦) في الأصل: «ويحرقوا» الصواب لغوياً كما ورد هنا.
(٧) في الأصل: وأوهموا، والتصحيح يقتضيه السياق.

ثلاثة أيام من الجزيرة، وليست داخلة في مملكته. ففارقه من كان معه من السواكرة[١]، وهم الأمراء، وفارقه أيضاً الأسقف والقسوس، ومعه الصليب الفضة، الذي يحمل على رأس الملك، وتاج المملكة، وطلبوا الأمان، ودخلوا تحت الطاعة. فأمنهم عز الدين المتولي، وخلع على أكابرهم، ورجعوا معه إلى دنقلة[٢]، وهم في جمع كثير. ولما وصلوا إليها، عدّى الأمير عز الدين الأفرم، والأمير سيف الدين قبجاق، إلى البر الشرقي، دون من معهما من العساكر.

واجتمع الأمراء بدنقلة[٣]، ولبست العساكر آلة الحرب، وطلّبوا من الجانبين وزينت الحراريق في البحر، ولعب الزارقون بالنفط، [ومدّ الأمراء][٤] الأخوان [السماط][٥] في كنيسة أُسُوس[٦]، وهي أكبر كنيسة بدنقلة. فلما أكلوا الطعام، ملّكوا الملك الواصل من الأبواب السلطانية. وألبسوه التاج، وحلّفوه للسلطان. وحلّفوا له أهل البلاد. وتقرر عليه البقط[٧] المستقر أولاً، والبقط هو المقرر. وجرّد عنده طائفة من العسكر[٨]. وقدّم عليهم ركن الدين بيبرس العزي، أحد مماليك الأمير عز الدين متولي قوص.

وعاد العسكر، وكان وصوله إلى القاهرة في جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة، وكانت مدة غيبته منذ خرج من ثغر أسوان، إلى أن عاد إليه ستة أشهر، وغنموا غنائم كثيرة.

فلما عاد العسكر عن دنقلة، حضر سمامون إليها ليلاً، وصار يقف على بابه كل سوكري[٩] بنفسه ويستدعيه. فإذا خرج ورآه، قبّل الأرض بين يديه وحلف له، فما طلع

---

(١) السواكرة: أمراء النوبة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٥٢.

(٢) «دمقلة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢.

(٣) «بدمقلة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢.

(٦) كنيسة أسوس، جاء أن هذه التسمية مأخوذة من لفظ عيسى Jesus، والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٥٢، حاشية (٣).

(٧) في الأصل: «النقط» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢، والبقط ما تقرر من الإتاوة على بلاد النوبة منذ فتحها أيام إمارة عمرو بن العاص على مصر، وذلك وفقاً للمعاهدة المعقودة في رمضان سنة ٣١ هـ (مايو ٦٥٢)، وتألفت من أعداد من الرقيق والهدايا. على أن النوبيين كانوا يتلقون من القمح والشعير والنبيذ والملابس والخيول والهدايا ما يعتبر مقابلاً للبقط. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢، و.Dozy. Supp. Dict. Ar

(٨) «وعينوا طائفة عنده من العسكر تقيم عنده» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢.

(٩) سوكري: تقدم التعريف به.

الفجر حتى ركب معه جميع العسكر النوبي. فزحف بهم على دار الملك، وقبض على الملك. وأرسل إلى ركن الدين بيبرس [العزي][١] أن يتوجه إلى مخدومه، بحيث لا يلتقيان[٢]. فتوجه ركن الدين، ومعه معه إلى قوص. واستقر الملك سمامون بدنقلة[٣]. وأخذ الملك الذي ملَّكه العسكر، فعراه من ثيابه، وذبح ثوراً، وقدَّ جلده سيوراً، ولفَّها عليه طِرية، وأقامه مع خشبة. فيبست عليه تلك السيور فمات. وقُتل جُريس أيضاً.

وكتب سمامون إلى السلطان الملك المنصور يستعطفه ويسأله الصفح عنه. والتزم أن قوم بالبقط المقرر في كل سنة، وزيادة عليه. وأرسل من الرقيق والتقادم عدة كثيرة، فوصل ذلك في أواخر الدولة المنصورية، وحصل اشتغال السلطان بما هو أهم من النوبة. فاستقر سمامون بالنوبة إلى أيام العادلية الزيتية كتبغا، وكان من أمره، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر[٤] فتوح طَرابُلُس الشام

كان فتح طَرَابُلُس، في الساعة السابعة[٥]، في يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر، سنة ثمانٍ وثمانين وستمائة، عُنوةً. وذلك أن السلطان الملك المنصور توجه إلى الشام، في شهر المحرم من هذه السنة، وعزم على غزو طرابلس[٦]. لأن أهلها كانوا قد نقضوا قواعد الصلح، ونكثوا أسباب[٧] الهدنة. فكتب السلطان إلى النواب بالممالك الشامية، والحصون الإسلامية، بتجهيز الجيوش إليها، وإنفاذ المجانيق وآلات الحصار.

ووصل السلطان إلى دمشق، بعساكر الديار المصرية، في يوم الاثنين ثالث عشر

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٣.

(٢) في الأصل يلتقيا، والتصيح اللغوي يقتضيه السياق.

(٣) «بدمقلة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٢.

(٤) انظر السلوك ج ١، ص ٧٤٧، وعقد الجمان للعيني، ج ٢، ص ٣٨٠.

(٥) «في الساعة الرابعة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٣.

(٦) كانت طرابلس في ذلك الوقت بيد الأميرة لوسيا (Lucia) أخت الأمير المتوفى بوهيمند السابع الذي مات سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م. ولم يعقب ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٧٢.

(٧) تقرر عقد هدنة في ١٦ يوليه سنة ١٢٨١، بين المنصور قلاوون وبوهمند السابع كونت طرابلس لمدة عشرة سنوات، كيما يتفرغ لقتال المغول، وليمنع تحالفهم مع الفرنج في عكا وطرابلس على أن ما وقع من النزاع على وراثة الحكم في طربلس بعد وفاة بوهمند السابع سنة ١٢٨٧. وانحياز الاسبتارية بحصن المرقب إلى جانب الملك الأرمني ليو والمغول مثل ذلك جعل المنصور قلاوون يتدخل في أحداث طرابلس ويهاجمها في سنة ١٢٨٩. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٥٦، حاشية (١).

صفر من هذه السنة. وتوجه منها في العشرين من الشهر، ونازل طرابلس بالجيوش وحاصرها. ووالى الزحف والحصار والرمي بالمجانيق. وعملت النقوب، فنقبت الأسوار، وافتتحت عنوة في التاريخ المذكور. وكانت مدة المقام عليها، أربعة وثلاثين يوماً. وكات عدة المجانيق التي نصبت عليها، تسعة عشر منجنيقاً[١]، وهي فرنجية ستة، وقرابغا ثلاثة عشر. وعدة الحجارين والزراقين ألف وخمسائة نفر.

ولما فتح المدينة، فرت طائفة من الفرنج إلى جزيرة تعرف بجزيرة[٢] النخالة، حيال طرابلس في البحر، لا يتوصل إليها إلا في المراكب. فكان من السعادة الأزلية للمسلمين، أن البحر زجر وانطرد عن طرابلس فظهرت للناس المخائض. فعبر الفارس والراجل إلى هذه الجزيرة، وأسروا وقتلوا من فيها، وغنموا[٣] ما كان معهم. وكان جماعة من الفرنج قد ركبوا في مركب وتوجهوا، فألقتهم الريح إلى الساحل، فأخذهم الغلمان والأوشاقية. وقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون غنائم كثيرة.

وكان السلطان أمر بإبقاء المدينة، وإنزال الجيش بها. فأشير عليه أن هدمها أولى من بقائها، فأمر بهدمها فهدمت، وكان عرض سورها بمقدار ما يسوق عليه ثلاثة فرسان بالخيل. ووصل إلى الزردخاناة[٤] السلطانية من الأسرى، ألف أسير ومائتا أسير.

---

(١) المنجنيق: لفظ أعجمي معرب، وهو آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، له رأس طويل، وذنب خفيف تقذف منه الحجارة، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه، والمنجنيقات زمن صلاح الدين على أنواع: منها العربي، والتركي والفرنجي. وفي زمن المماليك هناك نوع آخر معروف بقرابغا وهو المغولي. انظر مفرج الكروب لابن واصل ج ١، ص ١٨٠، حاشية (٢)، وصبح الأعشى للقلقشندي، ج ٢، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) اسم هذه الجزيرة في المراجع الأوروبية سنت نقولا. ورد في المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ج ٥، ص ٩٠. وكان بهذه الجزيرة كنيسة تسمى كنيسة سنطماس (St thamas) وقد شهد لقتال مع والده الملك الأفضل وابن عمه الملك المظفر صاحب حماه. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٧، حاشية (٢).

(٣) كان أبو الفدا ممن شهدوا وقعة طرابلس، وقد شاهد بنفسه مبلغ ما حدث بالجزيرة بعد فراغ الناس من النهب، والسلب عبرت إليها في مركب، فوجدتها من القتلى وقد جافت بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى» المختصر في أخبار البشر ص ١٦٢. وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٧، حاشية (٣).

(٤) الزردخاناه: خزينة السلاح الخاصة بالسلطان، وقد جرت العادة أن يحمل ما يتحصل من السلاح في كل سنة إليها مرة واحدة، وفيها من أنواع السلاح المختلفة كالدروع والزرد والقسي والسيوف وغير ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى (الطبعة المصرية) ج٤، ص ١١، وج١١، ص ٣٤٥. والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٦٩.

واستشهد عليها من المسلمين ممن يعرف، الأمير عز الدين معن[١]، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني، ومن الحلقة، خمسة وخمسون نفراً، رحمهم الله تعالى.

وحكى الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه[٢] قال: ولما فتح السلطان طرابلس، تسلم أنفة[٣]، وأمر بإخراب حصنها، وكان حصناً منيعاً، وأبقى على أخت البرنس[٤] صاحب طرابلس قريتين من قراها.

قال: وحضر إلى السلطان، وهو بظاهر طرابلس ولد سيركي صاحب جبيل[٥]، وكان صاحب طرابلس قتل أباه في سنة إحدى وثمانين وستمائة. فخلع السلطان عليه، وأقر جبيل عليه، على سبيل الإقطاع، وأخذ منه معظم أموالها. وتسلم السلطان البِتْرون[٦]، وجميع ما بتلك الخط من الحصون والمعاقل. ثم عاد السلطان بعد النصر إلى دمشق، وكان من خبره ما نذكره، إن شاء الله تعالى في حوادث السنين.

ذكر أخبار طرابلس الشام، منذ فتحها المسلمون في خلافة عثمان إلى وقتنا هذا

وإنما ذكرناه في هذا الموضع ملخصاً مختصراً، لتكون أخبارها مجتمعة، فنقول: وبالله التوفيق:

كان ابتداء فتح طرابلس[٧]، أنه لما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأقر

---

(١) في الأصل: «مغن» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٧.

(٢) ذيل مرآة الزمان لقطب الدين موسى بن محمد توفي سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م. العيني: عقد الجمان ج ٢، ص ٤٩٥.

(٣) أنفة: بلدة على الساحل اللبناني بين طرابلس والبترون، في منتصف المسافة بينهما. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٧٣. حاشية (١).

(٤) هي الأميرة لوسيا (Lucia) أخت الأمير المتوفى بوهيمند السابع الذي مات سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م ولم يعقب. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٧٢، حاشية (٢).

(٥) كان صاحب جبيل في ذلك الوقت بارثولوميو أمير باكو يطمع في الظفر بكونتية طرابلس، وقد صارت إليه جبيل، بعد أن تزوجت ابنته من ابن عمه بطرس أي جاي الثاني (سيركي في المصادر العربية). اليونيني: ذيل مرآة الزمان حوادث سنة ٦٨١ هـ. والذي قتل على يد بوهيمند السابع سنة ٦٨١ هـ. وعندما أدرك قلاوون ما يحدث في طرابلس وما جرى من انتقاض الهدنة من جانب الفرنج عزم على الاستيلاء على طرابلس. ابن تغري بردي: النجوم الزهرة ج ٧، ص ٢٧٣. والمقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٤٧.

(٦) هكذا في الأصل وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٣.

(٧) «وكان فتح طرابلس الأول في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وتنقلب في أيدي الملوك، =

معاوية بن أبي سفيان على الشام، وجه معاوية إلى طرابلس سفيان بن مُجيب[١] الأزدي، وكانت إذ ذاك ثلاث[٢] مدن مجتمعة، فبنى في مرج على أميال منها حصناً، سمي بحصن سفيان. وقطع الميرة عن أهل طرابلس، وحاصرها، فلما اشتد الحصار على أهلها، اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة، وكتبوا إلى ملك الروم، يسألونه أن يمدهم، أو يبعث إليهم بمراكب ينهزمون فيها. فسير إليهم مراكب كثيرة، فركبوها ليلاً وهربوا. فلما أصبح سفيان، وتقدم لقتالهم على عادته، وجد الحصن خالياً، فملكه، وكتب إلى معاوية بالفتح. فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود، وهو الحصن الذي فيه الميناء ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصنه.

وكان معاوية يوجه في كل سنة جماعة من الجند، يشحنها بهم، ويوليها نائباً، فإذا غلق البحر، عاد الجند وبقي النائب في جماعة يسيرة. فما برح أمرها كذلك، حتى ولي عبد الملك بن مروان. فقدم بطريق في بطارقة الروم، ومعه خلق كثير، فسأل أن يعطى الأمان، على أن يقيم بها، ويؤدي الخراج، فأجيب إلى ذلك. فلم يلبث غير سنتين أو أكثر بأشهر، عند عود الجند منها، حتى أغلق بابها، وأسر من بقي بها من الجند، وعدة من اليهود، وتوجه هو وأصحابه إلى بلاد الروم. فقدر الله، عز وجل أن ظفر به المسلمون بعد ذلك، في البحر وهو متوجه في مراكب كثيرة، فأسر وأحضر إلى عبد الملك، فقتله وصلبه، وقد قيل إنه كان تغلبه عليها، وقتل من بها، بعد وفاة عبد الملك، ثم فتحها الوليد بن عبد الملك.

ولم يزل في طرابلس نواب الخلفاء، مدة أيام بني أمية، وأيام بني العباس، إلى أن استولى العبيديون ملوك مصر على دمشق، على ما قدمنا ذكر ذلك في أخباره، فأفردوا طرابلس عن دمشق، وكانت قبل ذلك مضافة إليها. وولوا عليها من جهتهم ريان الخادم، ثم سند الدولة ثم أبا السعادة، ثم علي بن عبد الرحمٰن بن حيدرة، ثم نزال، ثم مختار الدولة بن نزال، ثم تغلَّب عليها قاضيها أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار. ولم يزل بها إلى أن توفي، في سنة أربع وستين وأربعمائة. وكان ابن عمار هذا، رجلاً عاقلاً،

= وعظمت في زمن بني عمّار قضاة طرابلس، وحكامها، فلما كان في آخر المائة الخامسة ظهرت طوائف الفرنج في الشام واستولوا على البلاد فامتنعت عليهم طرابلس مدة حتى ملكوها بعد أمور في سنة ثلاث وخمسمائة. واستمرت في أيديهم إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون في هذه السنة (أي ٦٨٨ هـ) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٧٣.

(١) في الأصل: «مخنف» والتصحيح من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٣.

(٢) في الأصل ثلاثة. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٧، ٢٧٣، «وثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومي».

سديد الرأي. وكان شيعياً، من فقهائهم. وكانت له دار علم بطرابلس، فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً. وهو الذي صنَّف كتاب «ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح»، المنعوت بجراب الدولة. ولما مات أمين الدولة، كان بطرابلس، سديد الملك بن منقذ، هرب من محمود بن صالح. فساعد جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن عمار وعضده بمماليكه، وبمن كان معه من أصحابه، فأخرجوا أخا أمين الدولة من طرابلس، وولى جلال الملك، فلم يزل متولياً عليها، حتى مات في سلخ شعبان، سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وملكها بعده أخوه فخر الدين عمار بن محمد بن عمار(١)، [واستقر](٢) بها، إلى أن نازلها صنجيل(٣)، واسمه ميمنت وهو ميمون، وصنجيل اسم مدينة نسب إليها. فنزل صنجيل بجموعه على طرابلس، في شهر رجب سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وحاصرها وضايقها، وابتنى عليها حصناً، [وبنى تحته ربضاً](٤) يقاتل أهلها منه، ويعرف به إلى وقتنا هذا.

فبعث فخر الملك الهدايا والتحف إلى الملوك واستنجدهم واستنصرهم، فلم ينجده أحد منهم. فلما أيس منهم، بذل لصنجيل في رحيله عنه أموالاً، وبعث إليه ميرة، فلم يجبه إلى ذلك. فلما ضاق ذرعاً بالحصار، وعجز عن دفعه، خرج من طرابلس، بعد أن استناب بها ابن عمه، أبا المناقب، ورتب معه سعد الدولة فتيان ابن الأغر. وأنفق(٥) في العسكر ستة شهور. وسار يقصد السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي. فجلس أبو المناقب في بعض الأيام، وعنده وجوه طربلس وأكابرها، فخلط في كلامه. فنهاه سعد الدولة بلطف فجرد سيفه، وضرب سعد الدولة فقتله. وانهزم من كان في المجلس. وقام أبو المناقب، وصعد على السور، وصفق بإبطيه، فأمسكه أهل البلد وحبسوه، ونادوا بشعار الأفضل أمير الجيوش، شريك الخليفة الفاطمي صاحب مصر، وذلك في شهر رمضان سنة خمسمائة.

ثم مات صنجيل في ثامن وعشرين رمضان، وتولى مكانه مقدم اسمه السرداني(٦).

(١) «لما توفي قام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمار» انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠، ص ٧١.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير ج١٠، ص ٤١١.
(٣) في الأصل: صينجيل. والتصحيح من الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١٠، ص ٤١١، وهو: ريموند دي سان جيل قومس تولوز. Raymond de Saint- Gilles, Comte de Toulouse. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٥، ص ١٤٤.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل لابن الأثير ج ١٠، ص ٤١١.
(٥) في الأصل: «نفق» والصواب كما ورد في المتن.
(٦) السرداني: هو كونت سرادان ابن أخت سان جيل (صنجيل). انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي =

ولما نادى أهل طرابلس بشعار الأفضل، وبلغه ذلك حضر إليهم جيشاً في البحر، وقدم عليهم تاج العجم. فلما وصل إلى طربلس، أخذ جميع الأموال، وما يحفظ به البلد. وبلغ الأفضل أنه يقصد العصيان بطرابلس. فقبض على ما كان حصّله، وولّى بدر الدولة ابن أبي الطيب الدمشقي. فوصل إلى طربلس، وكان أهلها قد ضاقت صدورهم، من طول الحصار. ثم رأوا من خلفه، ما رغبهم عنه، ونفرهم منه، فعزموا على طرده. ثم رأوا إبقاءه، لأنهم لا ملجأ لهم إلا من جهة المصريين.

ثم وصلت مراكب من مصر بالغلات والرجال، فقرر المذكور مع مقدم الأسطول، القبض على أعيان البلد، وأصحاب فخر الملك بن عمار وحريمه. فأخذهم وسيّرهم في البحر إلى مصر. وبعث معهم ما كان في طرابلس من السلاح والذخائر، ما لم يكن عند أحد من الملوك مثله. وبعث مائة ألف دينار عيناً. فلما وصلوا إلى مصر، اعتقل الأفضل أهل بني عمار.

وأما فخر الملك بن عمار، فإنه وصل إلى بغداد، واجتمع بالسلطان محمود، وأقام ببغداد، فما تهيأ له منه ما طلبه، وبلغه رجوع أمر طرابلس إلى المصريين، وأن حريمه وأمواله وذخائره وسلاحه نقل إلى مصر، فرجع إلى دمشق، فدخلها في نصف المحرم، سنة اثنتين وخمسمائة، فأكرمه أتابك طغتكين[١] صاحب دمشق. فسأله أن يعينه على الدخول إلى جبلة، فسير معه عسكراً فدخلها.

وأما الفرنج، فإنهم لازموا الحصار، وضايقوا البلد حتى ملكوه، وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة[٢]. وقد تقدم أن أخذها كان في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وخمسمائة، والله أعلم.

وحكي أن السبب في أخذ طرابلس، أنه لما ضايقها الفرنج، كتب من بها إلى الديار المصرية، يستنجدون الخليفة. ويسألونه الميرة. وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة. فبينما هم في ذلك، إذا بمركب قد أقبل، فلما شكوا أن فيه نجدة. فطلع منه رسول، وقال قد بلغ الخليفة، أن بطرابلس جارية حسنة الصورة، وأنها تصلح

= ص ١٦٣. والظاهر أنه كان متملكاً لعرقه حين قتل سنة ٥٠٢ هـ. أسامة بن منقذ الاعتبار ص ٧٢، حاشية (١٤٢).

(١) في الأصل: طغرلين. والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ١، ص ٤٦٧.

(٢) «في هذه السنة (أي ٥٠٣ هـ) حادي عشر ذي الحجة ملك الفرنج طرابلس» في الكامل لابن الأثير ج ١، ص ٤٧٥.

للخدمة، وقد أمرنا بإرسالها إليه، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي. فعند ذلك آيسوا من نصره، وضعفت قواهم، وخارت نفوسهم وذلوا، وملكها الفرنج في التاريخ المذكور. وكانت مدة الحصار سبع سنين وأربعة أشهر.

ولما ملكها السرداني(١)، تحكم فيها واستقبل بملكها. فبينما هو كذلك، وإذا بمركب قد وصل إليها، وفيه صبي ادّعى أنه ولد الملك صنجيل، واسمه تبران(٢)، ومعه مشايخ من أصحاب والده، يخدمونه ويدبرون أمره. فطلعوا إلى السرداني، وقالوا له هذا ولد صنجيل، وهو يريد تسليم مدينة والده التي فتحها عسكره، فأنكر السرداني ذلك، وقام ورفس الصبي وأخرجه. فأخذه أصحابه، وجعلوا يطوفون به على الفرسان، فرحموه، وتذكروا أيمانهم لأبيه، وقالوا: إذا كان نهار الغد، ونحن عنده، فأَحْضَروا وتحدثوا معه، ففعلوا. وتحدث الصبي ابن صنجيل، فصاح به السرداني، فقام الفرسان كلهم على السرداني، وأخرجوه من المملكة، وسلموها إلى الصبي ابن صنجيل. فأقام ملكاً حتى قتله بزواج، وذلك في يوم الأحد، لأربع خلون من شهر رجب، سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة. وقتل أكثر أصحابه، وأسر بطرس الأعور. واستخلف في طرابلس ولد القومص بدرا، فأسره أتابك زنكي، لما كان في صحبة متملك القدس فلك بن فلك، وذلك بالقرب من قلعة بعرين، فطلع الملك وجماعة معه إلى قلعة بعرين(٣)، فحاصرهم زنكي وضايقهم، فصالحه الملك على تسليم حصن بعرين، واستخلص القومص صاحب طرابلس وجميع الأسرى. وعاد القومص إلى طرابلس، وأقام حتى وثب عليه الإسماعيلية، فقتلوه. فتولى بعده ريمند(٤)، وهو صبي، وحضر الحرب مع

---

(١) ابن أخت صنجيل، انظر الكامل لابن الأثير ج ١٠، ص ٤٧٥.

(٢) هو ابن غير شرعي لريموند كونت تولوز اسمه برتران Bertrand وتولى أمر أملاكه في تولوز أثناء وجود ريموند في الشرق عندما توفي ريموند حاول الابن الشرعي ألفونسو جوردان أن يحوز إرثه في جنوب فرنسا فتناول عن أملاكه في الشرق لبرتران الذي رحل إلى الشرق سنة ١١٠٨ م في أسطول حتى يأخذ أملاكه من وليم جوردان وساعده ملك بيت المقدس بأن ينال طرابلس بعد فتحها سنة ١١٠٩ م. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣.

(٣) دارت المعركة عند حصن بعري سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م، وأحرز زنكي انتصاراً عظيماً. ذلك أن الوقعة انجلت عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب. واحتمى ملوك الفرنج وفرسانهم بحصن بعري لقربه منهم فحصرهم زنكي فيه ومنع عنهم كل شيء حتى الأخبار. فسلموا. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١، ص ٥١ ـ ٥٢. وابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩، وابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٥٩ ـ ٦٢.

(٤) هو ريموند الثالث كونت طرابلس ١١٥٢ ـ ١١٨٧. وقع في أسر نور الدين محمود سنة ١١٦٤. وبقي مسجوناً حتى سنة ١١٧٤ وأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير. انظر الكامل لابن الأثير ج ١١، ص ٤١٩، والتاريخ الباهر لابن الأثير ص ١٢٢ ـ ١٢٦.

الفرنج على حارم[١]. فكسرهم الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بن زنكي، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر. وكان من أسر، القومص ريمند، وذلك في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبقي في اعتقاله إلى أن ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فأعتقه في تاسع عشري[٢] شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة[٣]. وبقي المُلْكُ بيده، ويد أولاده من بعده، إلى أن فتحت هذا الفتح المبارك سنة ثمان وثمانين وستمائة في الأيام المنصورية وهدمت المدينة.

واستقر العسكر على عادته بحصن الأكراد والنائب عن السلطنة الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري، وكان اليزك[٤] ينزل إلى طرابلس، من حصن الأكراد. ثم عمَّر المسلمون مدينة مجاورة للنهر. واختلفوا بها، وعمّروا فيها حمامات وقياسر ومساجد، ومدارس للعلم. وأجريت المياه في دورها بقساطل[٥] وعمرت دار السلطنة، ينزلها نائب السلطنة بالمملكة، وهي عالية مشرفة على المدينة.

واستمر الأمير سيف الدين الطباخي في النيابة، إلى أن نقل إلى حلب، في الدولة الأشرفية، في سنة إحدى وتسعين وستمائة. وولاّها [السلطان][٦] الأمير سيف الدين طغربل الإيغاني، فأقام أياماً، واستعفى فأعفاه السلطان الملك الأشرف. ورتب في النيابة، الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصوري، فبقي في النيابة إلى الأيام العادلة الزينية كتبغا المنصوري، فعزله عنها في سنة أربع وتسعين وستمائة. ودفن بتربته التي أنشأها، وهي بجوار حمامه بطرابلس وفوّضت النيابة بها بعده إلى الأمير سيف الدين كرت الحاجب، فلم تطل أيامه إلى أن كان من دخول التتار البلاد، ما نذكره إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة الناصرية، فشهد الوقعة وعدم، وربما استشهد رحمه الله تعالى، ثم فوضت النيابة بعد خروج التتار من الشام، إلى الأمير سيف الدين قطلبك المنصوري، فتوجه إليها، وأقام بها، إلى سنة سبعمائة. واستعفى من النيابة فأعفي، واستقر في جملة الأمراء بدمشق.

وفوضت نيابة السلطنة إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجي المنصوري، فاستمر

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١١، ص ٣٠٢.

(٢) في الأصل عشرين.

(٣) راجع ما سبق.

(٤) اليزك: لفظ فارسي، معناه طليعة الجيش ويجمع على أيزاك. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٦٤.

(٥) القساطل. المفرد قسطل. وهو أنبوب من الخزف يجري فيه الماء. محيط المحيط.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

بها إلى سنة تسع وسبعمائة[1]. وعمّر بها حماماً عظيماً، أجمع التجار ومن يجوب البلاد، أنه ما عمّر مثله في بلد من البلدان، وعمّر قيسارية وطاحوناً. وأنشأ مماليكه بها مساكن حسنة البناء، تجري إليها المياه بالقنوات، وتجري في طباقها، وعمّر أيضاً بعض القلعة، وأقام أبراجاً. وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس. وتمكّن استدمر تمكّناً كثيراً، وتأمَّر عدّة من مماليكه ثم نقل إلى حماه.

وفوض السلطان الملك الناصر نيابة المملكة الطرابلسية وما معها إلى الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحاجب، كان المعروف بالحلبي فأقام بها إلى أن توفي في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة عشر وسبعمائة. وفوضت النيابة بها إلى الأمير جمال الدين آقش الأفرم، فأقام بها إلى مستهل المحرم سنة ثنتي عشرة وسبعمائة وفارقها، وتوجه إلى بلاد التتار، على ما تذكر ذلك، إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الناصرية.

وفوّضت النيابة بعده إلى الأمير سيف الدين كستاي الناصري، فأقام بها، إلى أن توفي في شهر رجب سنة ست عشرة وسبعمائة. وفوضت النيابة بعده إلى الأمير شهاب الدين قرطاي الصالحي، وهو النائب بها الآن، إلى حين وضعنا لهذا الجزء، وذلك في سلخ شهر رجب، سنة خمس وعشرين وسبعمائة وسنذكر إن شاء الله تعالى، أخبار هؤلاء النواب في موضعها من هذا الكتاب على ما سنقف عليه. وإنما أوردناها في هذا الموضع، لتكون أخبار طرابلس سياقة، وإن كانت على سبيل الإجمال والاختصار. ولنرجع إلى سياقة أخبار الدولة المنصورية.

ذكر ما اتفق عليه في الدولة المنصورية على حكم السنين خلاف ما ذكرناه من إقامة النواب، ومهادنة الفرنج، والحوادث الغريبة، التي يتعين إيرادها والوفيات

سنة ثمان وسبعين وستمائة [٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م]

قد قدمنا بعض حوادث هذه السنة، في ابتداء الدولة المنصورية، وبقي منها تتمة نذكرها في هذا الموضع.

في هذه السنة فوّض السلطان الملك المنصور نيابة السلطنة، بحصن الأكراد، وما معه من الفتوحات، لمملوكه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي.

وفيها، في ذي القعدة، فوّض نظر الدواوين بدمشق، للصدر[2] جمال الدين

(١) في الأصل: «تسعمائة» وهذا تحريف والتصحيح تقتضيه الأحداث.

(٢) هو «صدر الدين».

إبراهيم بن صصري، وذلك بعد وفاة الناظر بها، القاضي علم الدين محمد بن العادلي، وكانت وفاته في يوم الأربعاء خامس عشرين شوال. وتوفي أيضاً قبله، أخوه القاضي تاج الدين ناظر حلب، بها في حادي عشرين شهر رمضان.

وفي هذه السنة، توفي الأمير بدر الدين محمد ابن الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمي، خال الملك السعيد. وكانت وفاته بدمشق، في تاسع شهر ربيع الأول. وصلى عليه الملك السعيد، بسوق الخيل، ودفن بقاصيون رحمه الله تعالى.

وفيها، لما كان العسكر ببلاد سيس، في الأيام السعيدية، توفي جماعة من الأمراء، أصحاب الطبلخانات[١]، منهم سيف الدين البطاح، وعلم الدين بلبان المشرفي[٢]، وناصر الدين بلبان النوفلي، وسيف الدين جمق[٣]، وسيف الدين قلاحا الركني، وجمال الدين أقش الشهابي وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

وفيها، في يوم الأحد، ثامن شوال، توفي شيخ الشيوخ شرف الدين أبو بكر عبد الله ابن شيخ الشيوخ تاج الدين، أبي محمد عبد السلام، ابن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر بن علي بن محمد حمويه بدمشق، ودفن بقاسيون، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع وسبعين وستمائة
[٦٧٩ هـ = ١٢٨٠ م]

في هذه السنة، في يوم الاثنين خامس المحرم، توفي الأمير جمال الدين أقش الشمسي، نائب السلطنة بالمملكة الحلبية، وهو خوشداش[٤] الأمير بدر الدين بيسري، كلاهما كان مملوك الأمير شمس الدين سراسنقر الكاملي. ففوض بعد وفاته، نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية، للأمير علم الدين سنجر الباشقردي.

وفي هذه السنة، كان من خبر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وانهزامه من دمشق، وتوجّهه إلى صِهْيُون ما قدمناه. وكان بدمشق بعد مفارقته لها، أمور نذكرها في هذا الموضع.

---

(١) الطبلخانات: كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقى السلطانية أو بين الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب، والطبلخاناة أيضاً المكان المخصص من حواصل السلطان لطبول الفرقة وأبواقها، وتوابعها من الآلات. القلقشندي: صبح الأعشى (الطبعة المصرية) ج ٤، ص ٨، ٩، ١٣، انظر أيضاً: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص ٢٢٩.

(٢) في الأصل: المشرقي، والتصحيح من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٧٤.

(٣) «حمق» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٧٤.

(٤) خوشداش: تقدم التعريف به.

ذكر ما تجدد بدمشق، بعد أن فارقها الأمير شمس الدين سُنقر الأشقر

لما انهزم الأمير شمس الدين، المشار إليه، كما تقدم، دخل العسكر المصري إلى دمشق، ونزل الأمير علم الدين سنجر الحلبي بالقصر الأبلق، بالميدان الأخضر [خارج دمشق](١). وكان هو المشار إليه في الولاية والعزل، والعطاء والمنع وغير ذلك. فرسم بإيقاع الحوطة على مجد الدين إسماعيل بن كسيرات، وزير سنقر الأشقر، وجمال الدين بن صصري ناظر الدواوين بدمشق، وأخذ خطوطهما بجملة. ورسم على قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان(٢). وضرب زين الدين وكيل بيت المال، ومحيي الدين بن النحاس. ثم ورد بعد ذلك كتاب السلطان بأمان أهل دمشق.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير حُسام الدين لاجين، وشدّ(٣) الدواوين للأمير بدر الدين بَكْتُوت العَلائي، والوزارة للصاحب تقيّ الدين تَوْبَة التّكريتِيّ

كان الأمير بدر الدين بكتوت العلائي(٤)، قد وصل إلى دمشق، في جملة الجيش المجرّد إليها، لدفع سنقر الأشقر عنها، صحبة الأمير علم الدين الحلبي. فلما استقر أمر دمشق للسلطان، تحدث في نيابة السلطنة بدمشق. واستند في ذلك، إلى أن السلطان الملك المنصور، لما جرده رسم له بها(٥) مشافهة. إلا أنه كان في نيابته يلزم الأدب مع الأمير علم الدين الحلبي. واستمر الأمر على ذلك، إلى حادي شهر ربيع الأول من هذه السنة. فلما كان في هذا اليوم، ورد من الباب السلطاني، سبعة نفر على خيل البريد،

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في السلوك ج ١، ص ٦٧٦.

(٢) صاحب كتاب وفيات الأعيان، ولد سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م. وتوفي سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م. ترجمته في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ج ١، ص ١١٠، وقضاة دمشق لشمس الدين بن طولون، ص ٧٦، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ج ٥، ص ١٤. ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ١، ص ٥ والأعلام للزركلي ج ١، ص ٢٢٠.

(٣) الشدّ: ترادف كلمة تفتيش، ويسمى متولي هذه الوظيفة «الشاد» مضافاً إليها جهة الاختصاص مثل شاد الحوالي، وشاد الأوقاف، وشاد الزكاة، وشاد الدواوين، وغير ذلك. وشاد الدواوين كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. القلقشندي: صبح الأعشى (ط. دار الكتب العلمية) ج ٤، ص ٢٢، محمد قنديل البقلي: التعريف بمطلحات صبح الأعشى ص ١٩٣.

(٤) هو بكتوت بن عبد الله التركي بدر الدين، توفي سنة ٦٩٣، ترجمته في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٩٥ حاشية (٣)، والوافي بالوفيات للصفدي ج ١، ص ٢٠٠، ترجمة ٤٦٨٠، والعبر للذهبي ج ٥، ص ٣٧٨.

(٥) في الأصل: «به» والتصحيح يقتضيه السياق.

ومعهم تقليد للأمير حُسام الدين لاجين [الصغير][١] المنصوريّ، بنيابة السلطنة بالشام، وتقليد للأمير بدر الدين بكتوت العلائي، بشد الدواوين، وتقليد للصاحب تقيّ الدين تَوْبَة التكريتي بوزارة الشام، ولكل منهم تشريف[٢]، و[تشريف][٣] لصاحب حماه.

فلما كان في يوم الخميس، ثاني عشر الشهر، اجتمع سائر الأمراء بالميدان الأخضر، ولبس الأمير حُسام الدين لاجين تشريف النيابة، ولبس[٤] الأمير بدر الدين بكتوت تشريف الشدّ. وركب الأمير عَلَم الدين الحلبي، والأمير عز الدين الأفرم، والأمير بدر الدين بيليك الأَيْدَمُرِي، وسائر الأمراء والعساكر المصرية والشامية، وساقوا كلهم في خدمة الأمير حُسام الدين. فلما انتهوا إلى باب سر القلعة، ترجلوا بأجمعهم. وقبَّل الأمير حُسام الدين عَتَبة باب السر، ثلاث مرات. ثم تقدّم الأمير عَلَم الدين الحلبي، والأمير عزّ الدين الأفرم ليعضداه حتى يركب، ويمشيان في خدمته إلى دار السعادة. فسلك سبيل الأدب معهما، وامتنع من الركوب، واستمر ماشياً، والأمير علم الدين عن يمينه، والأمير عزّ الدين الأفرم عن يساره، وبقية الأمراء والعساكر، بين يديه، وكذلك القضاة والأعيان والأكابر. ولم يزل ماشياً، إلى أن دخل دار السعادة، وجلس بها في رتبة النيابة، وقُرىء تقليده. ثم خلع في هذا النهار، بعد الظهر، على الصاحب تقي الدين تَوْبة، وأعطى دواة الوزارة بالشام.

ذكر عزل قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان عن القضاء بدمشق وإعادته، وما اتفق في هذه السنة الحادثة

كان السلطان الملك المنصور، قد رسم بشنق قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان لأنه بلغه أنه أفتى الأمير شمس الدين سُنقَر الأشقر، بجواز قتال السلطان. فلما ورد كتاب السلطان بأمان أهل دمشق، قُرىء بحضور القاضي شمس الدين. فقال الأمير عَلَم الدين الحلبي: هذا كتاب أمان لمن سمعه، وقد سمعه القاضي، فهو آمن. ثم عَزله في حادي عشر صفر، وفوّض القضاء لقاضي القضاة، نجم الدين ابن قاضي القضاة صدر الدين سني الدولة. وكان ابن خلكان بالمدرسة العادلية، فطالبه القاضي نجم الدين بإخلاء مسكنها ليسكن فيه، وكرَّر عليه الطلب. وكان ابن سني الدولة، قد أرسل إلى

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٧٦.
(٢) في الأصل: وفي تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٧٦ «تشريفاً»، والصواب كما ورد في الفتن.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

حلب، لإحضار أهله. فاتفق وصولهم، إلى ظاهر دمشق، في يوم الأربعاء تاسع عشر شهور ربيع الأول. فخرج لتلقيهم، ورسم على القاضي شمس الدين بن خلكان، إلى أن ينتقل من المدرسة، وضيق عليه، وبقي في شدة بسبب ذلك. وسُئل ابن سني الدولة، أن يمهلَ عليه أياماً، إلى أن ينتقِل إلى مكان آخر، فامتنع وشدّد في ذلك وصمّم عليه.

وبقِي القاضي شَمْس الدين في الترسيم، إلى الرابعة من النهار المذكور، وهو يجمع كتبه، ويعبّي قماشه للنقلة، ونقل بعضه. فبينما هو كذلك، وإذا بجماعة من الجاندارية[١] حضروا في طلبه، فظن أن ذلك بسبب خلو المكان فأراهم أنه يهتم[٢] في النقلة. فقالوا له، أنك لم تُطْلب لذلك، وإنما قد حضر بريدية من باب السلطان، فطلبت لذلك. وظن أن الطلب لأمر، هو أشد من النقلة. وخاف، وتوجه إلى نائب السلطنة. فإذا كتاب السلطان قد ورد، وهو ينكر ولاية ابن سني الدولة القضاء وهو أطروش. ويقول[٣]: نحن بيننا وبين القاضي شمس الدين معرفة، من الأيام الصالحية. وسيّر إليه تقليداً بالقضاء على عادته. فرجع إلى المدرسة قاضياً واستقر بها. وعدّت هذه الواقعة من الفرج بعد الشدة. ويقال: إن ابن سني الدولة كان قد أعطى الحلبي على ولايته القضاء ألف دينار، والله أعلم.

ذكر إعادة الصاحب برهان الدين السنجاري إلى الوزارة وعزله

وفي هذه السنة، في أواخر الآخرة، أعيد الصاحب برهان الدين الخضر السنجاري إلى الوزارة، وعزل الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لُقمان، فعاد إلى ديوان الإنشاء. وكتب من جملة الكتاب، وتصرف عن أمر صاحب الديوان. وولى الصاحب برهان الدين الوزارة. واستمر إلى أن عزل وقبض عليه، وعلى ولده وألْزَامه، في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة. واعتقل إلى يوم عرفة من السنة، فأفرج عنه في اليوم المذكور ولزم داره.

وفيها، جرد السلطان، الأمير عز الدين أيبك الأفرم لحصار[٤] شيزر[٥]، وبها

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير ومثلها الخاصكية، وهي مركبة من لفظين فارسيين: أحدهما «جان» ومعناه سلاح، والثاني: «دار» ومعناه ممسك. ووظيفة الجاندار أنه يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان. القلقشندي: صبح الأعشى ج٤، صفحة ٢٠. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٦، ص ١٢٠، حاشية (١).

(٢) في الأصل: «مهم» بدون نقط. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٧٤.

(٣) في الأصل: «ونقول» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٧٥.

(٤) في الأصل: «لحار» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرّة بينها وبين حماه يوم في وسطها نهر الأردن عليه =

الأمير عز الدين أيبك كرجي من قبل الأمير شمس الدّين سُنقر الأشقر. فبينما هو يحاصرها، وردت الأخبار، أن التتار قد وصلوا على ثلاث[١] فرق: [فرقة][٢] من جهة الروم، ومقدمتهم[٣] صمغار[٤] وتنجي[٥] وطونجي[٦]، وفرقة من الشرق ومقدمتهم بيدو[٧] بن طوغاي[٨] بن هولاكو، وصحبته صاحب ماردين، والفرقة الثالثة فيها معظم العسكر، شرة[٩] المغل صحبة منكوتمر بن هولاكو. فرحل الأمير عز الدين عن شيزر، وكتب السلطان إلى سنقر الأشقر يستميله وذلك قبل انتظام الصلح فجنح إلى السلم، ونزل من صِهْيون، على عزم اتحاد[١٠] المسلمين، وجفل عسكر حلب وحماه وحمص، ولم يحصل قتال التتار هذه السنة.

ذكر[١١] تفويض السلطنة ولاية العهد للملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان الملك المنصور

في هذه السنة، في شهر رجب[١٢]، فوَّض السلطان الملك المنصور ولاية عهده وكفالة السلطنة لولده السلطان الملك الصالح علاء الدين أبي الفتح علي، وذلك عندما

= قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان تعد في كورة حمص وهي قديمة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٤٣٤.

(١) في الأصل: «ثلاثة» والصواب ما ورد في المتن.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) «ومقدمهم» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٥.

(٤) هكذا رسم في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٥، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨١.

(٥) في الأصل: «وسحى» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٥، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨١.

(٦) في الأصل: «طرنجي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٥ والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨١

(٧) في الأصل: بيدر، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٥، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨١.

(٨) في الأصل: طرغاي: والتصحيح من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٨١.

(٩) في الأصل: وشره، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٥، ورد في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٦٨١ «شرار المُغل».

(١٠) في الأصل: «وإيجاد» والصواب كما ورد في المتن.

(١١) انظر تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٦.

(١٢) «في سابع عشر جمادى الآخرة» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٦، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٩.

عزم على التوجه للقاء التتار. وركب الملك [الصالح][(١)] بالقاهرة بشعار السلطنة، وخُطب له على سائر المنابر بعد والده. وكُتب تقليده[(٢)] بذلك، وهو من إنشاء المولى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر وبخطه، أجاد فيه وأبلغ، تركنا إيراده اختصاراً.

وفيها، في شهر رمضان، عزل السلطان القاضي صدر الدين عمر ابن قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بنت الأعز، عن القضاء بالديار الصرية. وكان قد سلك في ولايته، طريق الخير والصلاح والصلابة، وتحرى الحق والعدل في أحكامه. ثم مات رحمه الله تعالى، في عاشر المحرم سنة ثمانين وستمائة، ولما عزل، أعيد قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين إلى القضاء بالديار المصرية[(٣)].

ذكر توجه السلطان إلى غزة،وعوده إلى الديار المصرية

وفي هذه السنة، توجه السلطان إلى الشام، وصحبته العساكر الإسلامية، لدفع التتار، فوصل إلى غزة. وكان التتار قد وصلوا[(٤)] إلى عين تاب[(٥)] وبغْراس[(٦)] والدربساك[(٧)]، وتقدموا إلى حلب، فوجدوها خالية[(٨)]، وقد جفل العسكر وأهلها منها، فأحرقوها[(٩)] وذلك في العشر الأوسط من جُمادى الآخرة. ولما بلغهم اهتمام السلطان وخروجه، تفرقوا إلى مشاتيهم. وعاد السلطان إلى الديار المصرية؛ لاستحقاق الربيع.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) انظر نص التقليد بولاية العهد من الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين علي، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠، ص ١٧٠ ـ ١٧٥، وتاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ١٨٧ ـ ١٩٠.

(٣) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٩٥.

(٤) في الأصل: وصل، والصواب كما ورد في المتن.

(٥) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك ودُلوك رستاقها، وهي من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤، ص ١٩٩.

(٦) بغراس: مدينة في لحف جبل اللُكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٥٢. انظر الروض المعطار للحميري، ص ٣٩.

(٧) الدربساك: وهي قلعة من جند قنسرين، وهي حصينة ذات أعين وبساتين وبها مسجد جامع ولها من شرقيها مروج متسعة حسنة المنظر كثيرة العشب يمر بها النهر الأسود. القلقشندي: صبح الأعشى طبعة دار الكتب العلمية ج ٧، ص ١٩٣.

(٨) «ودخلوها من غير مانع يمنعهم عنها» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٥٤.

(٩) «وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الأمراء، وأفسدوا إفساداً كبيراً على عادة أفعالهم القبيحة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٥٤.

وجرد الأمير بدر الدين بكتاش النَّجمِي إلى حمص، والأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحي، إلى الساحل في غزو الفرنج بالمرقب، لأنهم لما بلغهم قدوم التتار، قويت نفوسهم، وامتد طمعهم، فأذن السلطان له في ذلك. فجمع جيوش الحصون، وأمر التركمان والرجالة، واستصحب المجانيق وآلات الحصار. وتقدم إلى حصن المرقب، ونزل بالقرب منه، فاختفى أهله، ولم يتحركوا في مبدأ الحال. فقوي طمع العسكر فيهم، وتقدموا إلى جانب الحصن، فرشقهم الفرنج بالسهام والجروخ[١] من أعلى الحصن، وسهام المسلمين لا تصل[٢] إليهم. فاضطرب العسكر، وأمرهم الطباخي أن يتأخروا عن الحصن، فظنوها هزيمة، وولوا، فما أمكنه إلا أن يتبعهم. وخرج الفرنج في أعقابهم ونالوا من المسلمين، وجرحوا منهم جماعة، ونهبوا، وأسروا جماعة من الرجالة. وبلغ السلطان ذلك، فأنكره وكبر لديه، وعزم على السفر.

ذكر توجه السلطان إلى الشام

وفي سنة تسع وسبعين وستمائة أيضاً، عاد السلطان إلى الشام. وكان خروجه من قلعة الجبل، في مستهل ذي الحجة، ونزل بها ولده الملك الصالح، ورتب في خدمته الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، لاستخراج الأموال، وغير ذلك.

وفي هذه السنة، في ذي الحجة، وصل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا من العراق، إلى خدمة السلطان. وعاود الطاعة، وسأل الصفح، عن ما فرط من ذنبه، من إعانة سُنْقُر الأشقر، وما كان عزم عليه من الانضمام إلى التتار، وكان اجتماعه بالسلطان بمنزلة الروحاء. ولما وصل إلى الخدمة، ركب السلطان إليه، وتلقاه وأكرمه، وبالغ في إكرامه وأحسن إليه.

وفيها، في يوم الأربعاء، وقت العصر، رابع عشر المحرم، توفي الشيخ نور الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ جلال الدين أبي العزائم همّام ابن راجي الله سرابا بن أبي الفتوح ناصر بن داود الشافعي، إمام الجامع الصالحي بظاهر القاهرة، خارج باب زُوَيلة، ودُفن من الغد بسفح المقطم، رحمه الله تعالى. وولي الإمامة بالجامع الصالحي بعده، ولده الشيخ تاج الدين أبو محمد عبد الله محمد.

وفيها، في يوم الثلاثاء، ثاني عشر شوال، توفي الأديب جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي المصري، المعروف بالخرَّاز الشاعر

---

(١) الجروخ: المفرد جرخ. نوع من القسي يرمى عنه السهام Dozy. Supp. Dict. Ar..

(٢) في الأصل: «لا يصل»، والتصحيح يقتضيه السياق.

المشهور، مولده بمصر، سنة إحدى وستمائة. سمع أبا الفضل أحمد بن محمد الحباب، وروى وسمع من غيره. وكان أديباً فاضلاً، جيد البديهة حلو المجون، حسن المحاضرة، كثير النادرة، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير سيف الدين أبو بكر، المعروف بابن اسباسلار، متولي مصر. وكان قد سمن، وأفرط به السمن، حتى منعه الأطباء من الرقاد على فرش وطي، ومن النوم إلا إغفاء، وقالوا: إنه متى استغرق في النوم مات. فكان كذلك إلى أن مات. وكانت وفاته في شهر ربيع الآخر، ودفن بتربته بالقرافة، وله في ولايته بمصر أخبار كثيرة مشهورة من المصريين، سامحه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير نور الدين علي بن عمر الطوري. كان من أبطال المسلمين وشجعانهم وفرسانهم. وله صيت عظيم عند الفرنج، ومعرفة بالبلاد الساحلية ومرابطة وآثار جميلة، ومواقف محمودة. وكان ممن جمع الله له، بين قوة البدن والقلب. كان يقاتل بلتّ(١) حديد، لا يستطيع الشباب حمله، ولازم المرابطة ببلاد الساحل، وفي وجه العدو سنين كثيرة. وكان كريماً ديِّناً، وتنقل في الولايات بالشام. وكان محترماً في الدولة، مكرماً عند الملوك، يعرفون قدره، وحضر المصاف الكائن بين عسكر مصر وسُنقُر الأشقر، فجرح ووقع تحت حوافر الخيل. ومات في أواخر صفر أو أوائل شهر ربيع الأول، بجبل الصالحية وقد ناف على تسعين سنة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثمانين وستمائة
[٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م]

ذكر ما تقرر من المهادنات مع الفرنج وبيت الاسبتار(٢)

في هذه السنة، وصل إلى السلطان، وهو بمنزلة الروحاء، رسل الفرنج يسألونه الهدنة، والزيادة على الهدنة الظاهرية، وما زالوا يترددون إلى أن تقررت الهدنة، بين السلطان وولده معاً، ومع مقدم بيت الاسبتار(٣)، وجميع الإخوة الاسبتارية،

(١) اللت: لفظ فارسي، والجمع لتوت. ومعناه القدوم أو الفأس الكبيرة. محيط المحيط لبطرس البستاني (لتَّ).

(٢) انظر تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٤.

(٣) الاسبتار أو الاسبتارية، الاسبتار: تعريب لكلمة Les Hospitaliers الفرنسية، وقد أنشأ الفرنجة في القدس مشافي يشرف عليها الرهبان، وتأسست حينذاك ثلاث منظمات رهبانية عسكرية هدفها إيواء ومداواة المرضى والجرحى من الجنود والحجاج المسيحيين. وهي: منظمة فرسان القديس يوحنا =

[بعكا][(١)]، لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة ثمانين وستمائة[(٢)]، الموافق للثالث من شهر أيار، سنة ألف وخمسمائة واثنتين وتسعين للإسكندر بن فيليبس[(٣)] اليوناني، [وذلك][(٤)] على جميع بلاد السلطان [وولده][(٥)] وما اشتملت عليه من الأقاليم والممالك والقلاع والحصون، والمدن والبلاد والقرى، والمزارع والأراضي، والموانى والبحور، والمراسي، والثغور، وسائر البلاد من الفرات إلى النوبة، وعلى التجار

= ومنظمة فرسان الهيكل الفرنسينان، ومنظمة الفرسان التوتونيني الألمان. وعندما استولى الصليبيون على القدس سنة ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٩ م تأسست منظمة فرسان القديس يوحنا أو فرسان بيت المقدس وهم الاسبتارية. ولم تلبث المنظمة أن أصبحت ذا سلطة واسعة لها نفوذها نتيجةً للمساعدات المادية والأموال التي كانت ترسل إليها من جميع أنحاء أوروبا المسيحية. ثم رحل الاستبارية من مدينة القدس إلى عكا عندما استرد العرب مدينة القدس بعد معركة حطين عام ٥٨٣ هـ. وبعد تحرير عكا سنة ٦٩٠. وانتقلوا إلى قبرس ثم إلى رودس سنة ٧٠٩ هـ. وأقاموا مؤسساتهم الدينية والدنيوية وعرفوا بفرسان رودس. ونعمت المنظمة بفترة ازدهار وامتدت سيطرتها على سواحل البحر المتوسط وفي سنة ٩٢٩ هـ/ ١٥٢٢ م لم يستطيعوا الثبات أمام جحافل السلطان سليم الأول القانوني فنزحوا عن رودس، ومنحهم مقرهم الرئيسي وعرفوا باسم فرسان مالطة. وانصرفوا بعد زوال تعصبهم الديني وضعف الروح العسكرية فيهم إلى أعمال البر والإحسان. كان لهذه الطائفة الدينية العسكرية واجبات من أهمها إعداد الفرسان ولهم إشارات، وهي قطعة من النسيج الأبيض يرسم الصليب فوق سترتهم التي يختفي تحتها السلاح. والواضح أن مقدمي طائفتي الاستبارية والداوية، كانوا أمراء مستقلين ومنظمة الداوية هم فرسان المسيح الفقراء أو فرسان الهيكل **Les Templiers** وسماهم العرب الداوية أو الديوية. وكانت أهدافها مثل منظمة الاسبتارية. وكانت مؤسسة غنية اختلط تاريخها بتاريخ الحروب الصليبية. وأصدر البابا كليمان الخامس سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م مرسوماً بإلغاء المنظمة في جميع أنحاء أوروبا المسيحية وحرمان كل من يرتدي ملابسها ثم أمر البابا بإحراق رئيسها الأعلى جام دي مولاي حياً. انظر الموسوعة الفلسطينية ج ١، ص ٢٠٥، ٢٠٦، ج٢، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٤. انظر نسخة الهدنة التي عقدت بين السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي صاحب الديار المصرية، والبلاد الشامية وولده الملك الصالح «علي» ولي عهده، وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في صبح الأعشى للقلقشندي، ج ١٤، ص ٥٦.

(٢) «أولها يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة النبوية الموافق للثالث من حزيران سنة ألف وخمسمائة وأربع وتسعين» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤، ص ٥٧.

(٣) في الأصل: «فيلس» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٥ وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٤، (ملحق ٦).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤، ص ٥٨، وتشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ص ٣٤.

المسافرين في البر والبحر، والسهل والجبل، في الليل والنهار، وعلى قلعة المرقب، والربض المرقبي بحقوقه وحدوده.

وتقررت الهُدنة مع متملك طرابلس بيمند[١] بن بيمند، لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمانين وستمائة، الموافق للخامس من تموز سنة ألف وخمسمائة، واثنتين وتسعين للإسكندر وآخرها سابع عشر ربيع الأول سنة تسعين وستمائة [للهجرة النبوية][٢]. وذلك على بلاد السلطان الملك المنصور والملك الصالح ولده، قريبها وبعيدها، سهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس ومحادد لها، من المملكة البعلبكية، وجبالها وقراها الدخلية[٣] والجبلية، وجبال الصنين والقصبين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة: وهي حصن الأكراد وافليس القليعات وصافيتا، وميعار، واطليعا، وحصن عكار ومرقية، ومدينتها وبلادها، ومناصفاتها، وهي بلاد اللكمة، وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها، ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاسبتار وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى، وبلاد الست وبِلاطُنُس وبلادها، وقرقص[٤] وبلادها، وجبلة ولاذقية وأنطاكية والسويدية وبلاد ذلك، وحصن بغراس، وحصن دير كوش[٥] وصهيون، وبرزية[٦]، وحصون الدعوة[٧]، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية[٨]، وما سيفتحه

---

(١) المقصود هنا بوهمند السابع الذي خلف على الحكم أباه بوهمند السادس على طرابلس منذ ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م. والمقريزي: السلوك ج ١، ص ٦٨٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٥.

(٣) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٥، «الرحلية».

(٤) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٥ «قرفيص».

(٥) في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٤، ص ٦٢ «شقيف دركوش»، وهو حصن قرب أنطاكية من أعمال العواصم. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢، ص ٥١٥.

(٦) معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٦، «برزُويه» بالفتح وضم الزاي وسكون الواو، وفتح الياء والعامة تقول برْزَيَة: هو حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، يُضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة.

(٧) حصون الدعوة هي: القدموس، والكهف، والمينفة، والخوابي، والرصافي، والقليعة، والعليقة. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٩٧٥.

(٨) ورد منها في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٧. «المملكة الحلبية وحصونها ومدنها وبلادها، وشيزر، وأبو قبيس وبلادها، والمملكة الحموية، وبلادها والمملكة الحمصية وبلادها، وجميع ما للسلطان من ممالك وحصون وبلاد، وقلاع وثغور، وأبراج وموان، وسواحل، وبرور وأنهار، وبساتين، ومصايد، وملاحات، وسهل، وجبل، وعامر، وداثر، وجميع الأمصار مصريها وشاميها، =

الله تعالى، على يد السلطان ويد ولده، وعلى المواني والسواحل والأبراج وغير ذلك، وعلى بلاد الإبرنس، وعلى طرابلس وما هو داخل فيها، وأنفة والبترون وجبيل وبلاد ذلك، وعرقا وبلادها المعنيَّة في الهدنة، وعدتها إحدى وخمسون ناحية، وما هو للخيَّالة والكنائس، وعدّتها أحد وعشرون بلداً، وما هو للفارس روجار دلا(١) لولاي، من قبل طرابلس، يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وميناؤها في استخراج الحقوق والجنايات(٢) والغلات وغيرها مناصفة. ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية(٣)، وعلى أن يكون على جسر أرنوسية(٤)، من غلمان السلطان ليحفظ الحقوق [والغلات](٥) ستة عشر نفراً، وهم: المشدّ والشاهد والكاتب وثلاثة(٦) غلمان لهم، وعشرة رجَّالة في خدمة المشد، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنونها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعون(٧) ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا، من الغلات الصيفية والشتوية، وغيرها، لا يعارضهم المشد فيه. وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان، يؤخذ عليه الحقوق. ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس ولا غيره، ويؤخذ الموجب عليها؛ وعلى أن البرنس لا يستجد خارج ما وقعت الهدنة عليه، بناء يدفع ولا يمنع، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد، التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون آمنة، كل طائفة من الأخرى. ولا ينقض ذلك بموت أحدهما. ولا بتغييره، وأن لا يُحسِّن لأحد من أعداء مولانا السلطان، ولا يتفق عليه، برمز ولا خط، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة، وتقرر الحال على ذلك وعادت الرسل، وتوجه الأمير فخر الدين أياز الحاجب ليحلف الفرنج ومقدم بين الاسبتار، على ما انعقد عليه الصلح، فحلفهم.

= وساحليها وحجازيها، وغربها وشرقها».

(١) هكذا في السلوك للمقريزي، ج١، ص ٩٧٦.

(٢) الجنايات: ما تقرر على أشخاص مذنبين من أموال على سبيل العقوبة. Dozy. Supp. Dict. Ar.

(٣) الهدنة الظاهرية: هي التي عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» سنة ٦٦٩/ ١٢٧٠ م مع بوهمند السادس صاحب طرابلس. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٩٧٢.

(٤) هكذا في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٦.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٧٦.

(٦) في الأصل، وتاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٦ «ثلاث».

(٧) في الأصل: وتاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٦، «يمنعوا».

ذكر حادثة[١] الأمير سيف الدين كوندك ومن معه، والقبض عليه

وفي هذه السنة، بلغ السلطان وهو بمنزلة الروحاء، أن الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية، قد توافقوا على الغدر به، ووصلت إلى السلطان كتب المناصحين من عكا يقولون له احترز على نفسك، فإن عندك جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتلك، وكاتبوا الفرنج، وقالوا لهم لا تصالحوا فالأمر لا يبطىء. وعزم كوندك ومن معه، أن يهجموا بالليل على السلطان في الدهليز ويغتالونه. ووافقهم جماعة من الظاهرية الجوانية[٢]. فاحترز السلطان ورحل[٣] من الروحاء. وتقدم وتلاطف الأمر، حتى اجتمع[٤] الأمراء عنده بحمرة[٥] بيسان، فوبخ كوندك ومن معه، وذكر لهم ما اعتمدوه من مكاتبة الفرنج فاعترفوا بذلك، وقرّوا به. وسألوه العفو. فأمر السلطان بالقبض عليهم، فقبض [على][٦] كوندك[٧] وايدعمش[٨] الحكيمي وبيبرس الرشيدي، وساطلمش السلاح الدار الظاهري في الدهليز، وأمر السلطان بإعدامهم، وسير إلى الخيام فأمسك من كان قد وافقهم من الأمراء[٩] البرانيين والمماليك الجوانية، وكانوا ثلاثة وثلاثين نفراً، وخاف جماعة فهربوا، فساق العسكر خلفهم، فأحضر بعضهم من جبال بعلبك، وبعضهم من ناحية صرخد، وأخذ كوندك الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ومضى به إلى بحيرة طبرية وضرب عنقه ثم غرقه بها [هو والبقية][١٠].

---

(١) انظر ما ورد في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٦.

(٢) في الأصل «الخوابية» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧.

(٣) في الأصل: «ودخل» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦.

(٤) في الأصل: «أجمع» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧.

(٥) في الأصل: «بجمرة بيسان» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧.

(٧) في الأصل: أوندك، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦.

(٨) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦ «أيدغمش» بالغين. وفي الأصل: «أيدعمش» بالعين. نقلاً عن المقريزي: السلوك ج ١، ص ٦٨٦ حاشية (٢).

(٩) يطلق هذا الاسم حسبما جاء في القلقشندي ج ٣، ص ٣٧٦، وج ٤، ص ٥٦ على المماليك والأمراء ليسوا من الخاصكية ويقال لهم الخرجية. أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانية وهم الذين يلازمون السلطان ويتجهزون في المهمات الشريفة انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١١٤، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري ص ١١٦، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦ حاشية (٣) و٦٤٤ حاشية (٤).

(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦.

وفيها، هرب الأمير سيف الدين أيتمش [١] السعدي. وسيف الدين بَلَبان الهاروني[٢]، وجماعة من البحرية الظاهرية. والتتار الوافدية[٣]، يقال: كانوا نحو ثلثمائة فارس، وتوجهوا إلى صهيون، ولحقوا بالأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر، وذلك قبل انتظام الصلح الذي قدمناه، وجرد السلطان خلفهم، الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، [والأمير ركن الدين بيبرس طقصوا الناصري][٤] وجماعتهم فلم يدركوهم. [وأوقعت الحوطة على موجود من قتل ومن هرب][٥].

ورحل السلطان إلى دمشق، وكان وصوله إليها في يوم السبت العشرين من المحرم[٦]، وهو أول دخوله إليها. [وكان يوماً مشهوداً وقد اجتمع له عسكر عُدته خمسون ألفاً][٧]. وكان من انتظام الصلح بين السلطان الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر والملك المسعود ما قدمناه. وكانت الوقعة مع التتار على حمص، وقد تقدم ذكرها في الغزوات.

وفي هذه السنة، في يوم الاثنين الثامن[٨] والعشرين من المحرم، والسلطان بدمشق، فوَّض السلطان قضاء القضاة بدمشق، على مذهب الإمام الشافعي، لقاضي القضاة عز الدين بن الصائغ [الشافعي][٩]، وعزل القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان، وفوَّض أيضاً قضاء الحنابلة بدمشق للقاضي نجم الدين أحمد ابن الشيخ شمس الدين عبد الرحمٰن الحنبلي. [وكان القضاء على مذهب أحمد بن حنبل][١٠]، قد شغر من [دمشق][١١]، منذ عزل الشيخ شمس الدين نفسه من القضاء، وتوجه إلى الحجاز،

---

(١) في الأصل: «ايتامش».
(٢) في الأصل: «الهدوني» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦.
(٣) تقدم التعريف به.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦. ويرسم أيضاً «طقصو».
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦.
(٦) «في تاسع عشر المحرم» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك ج ١، ص ٦٨٦.
(٨) «الثاني والعشرين» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٧ والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٦. «والتاسع والعشرين» في عقد الجمان ج ٢، ص ٢٦٦.
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧.
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٠٧.
(١١) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٧.

في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ففوضه السلطان الآن لولده المذكور، بإشارة والده وخلع على القاضيين، واشترط القاضي عز الدين شروطاً فأجيب إليها.

وفيها، في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول، دارت الجهة المفردة(١) بدمشق وأعمالها وضمنت، فقيل(٢): إنها ضمنت في كل سنة بسبعمائة ألف(٣) درهم. ثم تزايد فيها الضمان حتى بلغت ألفي ألف درهم في كل سنة. فلما كان في يوم الأحد، الخامس والعشرين من الشهر، خرج مرسوم السلطان بإراقة الخمور وإبطال هذه الجهة الخبيثة فبطل ذلك ولله الحمد.

وفيها، في شعبان، فوض السلطان شاد الدواوين بالشام، للأمير علم الدين سَنْجَر الدواداري(٤)، [فوض](٥) نظر النظار للقاضي تاج الدين عبد الرحمٰن بن الشيرازي.

وفي هذه السنة، وصلت رسل الملك المظفر يوسف بن عمر، صاحب اليمن إلى السلطان بالهدايا والتحف، وكان من جملة سؤال صاحب اليمن أن يرسل السلطان إليه قميص أمان(٦)، ويكتب عليه هو وابنه الملك الصالح، فأجابه السلطان إلى ذلك، وجهَّز له هدايا وتحفاً وقطعة زمرد وخيلاً من خيل التتار الأكاديش(٧)، وشيئاً من عُدَدهم(٨).

---

(١) هذه العبارة ومعناه أن الجهة أي الضريبة المفردة أعلنت في المزاد لمن يتعهد بها. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨ حاشية (٥).

(٢) في الأصل فقال. وفي تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢١٠ «قيل» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) «بألفي درهم في كل سنة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٨٨.

(٤) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٦٧ «الدويداري».

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٦) وهذه نسخة الأمان أوردها بيبرس المنصوري في زبدة الفكرة ج ٩، ص ١٢٣ أ ـ ب ومنه يتضح أن ملك اليمن كان يفي عقد حلف مع السلطان المنصور قلاوون:
«بسم الله الرحمٰن الرحيم: هذا أمان الله سبحانه وتعالى، وأمان سيدنا محمد ﷺ، وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس: إنا داعون له، ولأولاده، مسالمون من سالمهم معادون من عاداهم ناصرون من نصرهم، خاذلون من خذلهم لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا، وإنا لا نقبل في حقه سعاية ساعٍ ولا قول واشٍ، ولا تناله منا مضرة مدى الدهر وأعمارنا، ما دام ملازماً لشروط مودتنا، التي شافهنا بها الأمير مجد الدين رسوله فكتب له ذلك على قميص، وكتب له أيضاً في يوم السبت سادس شهر رمضان المعظم سنة ثمانين وستمائة، هذا خطنا شاهد علينا، والله على ما نقول وكيل. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٠٢ حاشية (٦).

(٧) الأكاديش جمع الكديش، وهو لفظ فارسي الأصل، معناه الإنسان أو الحيوان الذي يكون أبوه من جنس، وأمه من جنس آخر، وأطلقه المؤرخون على خيول التتار، لاستخدامها في حمل الأثقال. Dozy, Supp. Dict. Ar. انظر السلوك للمقريزي ج ١، ص ٧٠٣، حاشية (١).

(٨) انظر تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٢٨.

وفيها، في شهر رمضان، قبض السلطان على الأمير ركن الدين أياجي[١] الحاجب. [وكان من الأسباب التي نقمت عليه انهزامه في وقعة حمص][٢]. وفي ذي القعدة، قبض على الأمير سيف الدين أَيتَمُش[٣] السَّعديّ، وجماعة من الأمراء، وقبض بدمشق على الأمير سيف الدين بلبان الهاروني، وسنقر[٤] الكردي وغيرهم. وكان أيتمش والهاروني قد عادا إلى الخدمة من جهة سنقر الأشقر بعد المصاف، كما تقدم ذكر ذلك[٥].

وفيها، رسم السلطان بإبطال زكاة الدولبة[٦]، والزكاوات المقررة بالديار المصرية. وكان الناس يجدون مشقة كبيرة لذلك، لأن المال كان ينفد والزكاة باقية، وإذا مات رجل طولب ورثته بالزكاة المقررة عليه.

ذكر وفاة قاضي القضاة تقي الدين رزين، وولاية القاضي وجيه الدين، واستعفائه من قضاء القاهرة، وولاية القاضي شهاب الدين الخُوييّ[٧]

وفي هذه السنة، في ليلة الأحد ثلث شهر رجب، كانت وفاة قاضي القضاة، تقي الدين أبي عبد الله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى بن عيسى بن موسى بن نصر الله بن هبة الله العامري الشافعي[٨]، ودفن بالقرافة، ومولده في يوم الثلاثاء، ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة بحماه، رحمه الله تعالى. وفضائله وعلومه مشهورة، وسماعاته عالية. ولما مات، فوّض السلطان قضاء القضاة بالديار المصرية، للقاضي وجيه الدين عبد الوهاب بن حسين البهنسي المهلبي، في سلخ شعبان، فولي ذلك إلى آخر جمادى الآخرة، سنة إحدى وثمانين [وستمائة][٩]. ثم استعفى من قضاء القاهرة والوجه

---

(١) في الأصل: أباجي، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٢٨.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٢٨.

(٣) «وفي يوم الاثنين خامس ذي القعدة» في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٣٣، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٤.

(٤) اسمه «سيقران» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٤، وتاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٣٣ اسمه «سنقران».

(٥) راجع تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٣٤.

(٦) زكاة الدولبة: مال يقرر على كل ما يستخدم من آلات ري الأرض وغزل الحرير، وصناعة السكر. Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٧) نسبة إلى خويّ من بلاد أذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٦.

(٨) «توفي عن سبع وسبعين سنة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٤.

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

البحري، وذكر أنه يضعف عن الجمع بين قضاء المدينتين والوجهين. فأعفي من قضاء القاهرة والوجه البحري، وفوّض السلطان ذلك إلى القاضي شهاب الدين الخويّي[(١)]، وكان يلي قضاء الغربية. فنقل إلى قضاء[(٢)] القضاء بالقاهرة والوجه البحري. واستمر إلى أن نقل إلى الشام، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها، توفي قاضي القضاة، نفيس الدين أبو البركات محمد، ابن القاضي المخلص، ضياء الدين هبة الله ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات أحمد بن شكر المالكي، قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية، في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة، ومولده في سنة خمس وستمائة. وَولّي القضاء من بعده للقاضي تقيّ الدين أبي علي الحسين، في سنة تسع وستين وستمائة. ولمّا مات فوّض السلطان القضاء بعده، للقاضي تقيّ الدين أبي عليّ الحسين ابن الفقيه شرف الدين أبي الفضائل عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام مفتي[(٣)] الفرق جلال الدين أبي محمد عبد الله بن شاس الجذامي السعدي المالكي.

وفيها، توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو بكر محمد ابن قاضي القضاة صدر الدين أبو العباس أحمد ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي البركات يحيى بن هبة الله، المعروف بابن سني الدولة الشافعي [عن أربع وستين سنة][(٤)]، وكانت وفاته بدمشق، في ثامن المحرم، ودفن بتربة جده، بقاسيون جوار المدرسة الصاحبية، رحمه الله تعالى.

وفيها، في ثالث عشر شهر ربيع الآخر، توفي الشيخ الصالح [مجد الدين][(٥)] عبد العزيز بن الحسين بن إبراهيم الخليلي الداري[(٦)] بدمشق، ودفت بقاسيون. وهو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر الخليلي.

وفيها، في سحر يوم الجمعة، ثامن ذي الحجة، توفي الشيخ الإمام، بقية العلماء، علم الدين أبو الحسن محمد[(٧)] ابن الإمام أبي علي الحسين بن عتيق بن عبد الله بن

---

(١) تقدم التعريف به قبل قليل.

(٢) في الأصل: «قاضي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٤٧.

(٣) في الأصل: «سني الفرق» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٣٥، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٤.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٤.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٤١ وفي الصفحة نفسها «ولد في سنة عشر وستمائة».

(٦) انظر ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٣٩ ـ ٢٤١، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٤.

(٧) انظر ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٤١.

رشيق الربعي المالكي الفقيه، شيخ مشايخنا. ودفن بالقرافة، وكانت جنازته مشهودة. ومولده في يوم الأحد، العشرين من شهر رجب، سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمصر، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير بهاء الدين ابن الأمير حسام الدين بيجار[١]، وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم. وكانت وفاته بغزة، وهو منصرف من الديار المصرية، في رابع عشر شعبان، وهو في عشر السبعين تقريباً، ووالده الأمير حسام الدين البايبرتي باق[٢]، وقد كف بصره.

وفيها، توفي الأمير شمس الدين سنقر الألفي. وهو الذي ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية، بعد الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني كما تقدم. وكانت وفاته في معتقله بثغر الإسكندرية، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير نور الدين أحمد، ويدعى ربالة، ابن الملك الظاهر علي ابن الملك العزيز محمد، ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وأمه زوجة الأمير بدر الدين بيسري الشمسي المعروفة، بوجه القمر. وكانت وفاته بالقاهرة، في شوال، [وكان][٣] عمره يومئذٍ ستاً وعشرين سنة. وكان بديع الحسن، تام الخلقة، عنده شجاعة وكرم وسكون، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي موفق الدين خضر بن محاسن الرحبي، النائب بالرحبة. وكان يعد من رجال الدهر شجاعة وإقداماً وحزماً، وتدبيراً ومكراً، وحيلاً ومداراة وسياسة. وكان في بدايته جمَّاساً[٤] بالرحبة، لإنسان من أهلها، فمات، فتزوج بامرأته، وحاز موجوده، فصلحت حاله. وخدم من جلة قراغلامية[٥] الرحبة لما كانت الرحبة للملك الأشرف، صاحب حمص، وخدم النواب الرحبة، وتنقلت به الأحوال، وترقى إلى أن ولي نيابة السلطنة بالرحبة. وكانوا بعد ذلك يسمونه الموفق صاحب الرحبة. فلما كان في هذه السنة، حضر إلى دمشق، يتقاضى مواعيد كانت سبقت له من السلطان بالإمرة، فمات بدمشق، ودفن بمقابر باب الصغير، وعمره نحو سبعين سنة، رحمه الله.

---

(١) في الأصل: بدون نقط. وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٦٦، «بيجار»، وذيل مرآة الزمان لليونيني ج٢، ص ٢٠٢.

(٢) وكذلك في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٣٧، نسبة إلى بايبرت.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) هكذا في الأصل، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٣٨. والجماز هو الشخص الذي يقوم بعمل القساطيط وآلة الجمازات.. Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٥) قراغلامية: تقدم التعريف به.

واستهلت سنة إحدى وثمانين وستمائة
[٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م]

ذكر تفويض نيابة السلطنة بحلب للأمير شمس الدين قراسُنقر المنصوري

في هذه السنة، فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية، إلى الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصوري. فاستأذن السلطان في عمارة جامع مدينة حلب وقلعتها، وكان التتار قد أخربوهما[١] فأذن له في ذلك، فعمّرهما[٢] أحسن ما كانا.

وفيها، في حادي شهر ربيع الآخر، فوَّض السلطان الوزارة للقاضي الصاحب نجم الدين حمزة بن محمد الأصفوني، وكان قبل ذلك يلي نظر الدواوين. وكان في ابتداء ترقيه لي نصف مشارفة الأصل[٣]، بالأعمال القوصية. ثم ولي في الدولة الظاهرية، نظر الأعمال القوصية، ثم وضع إلى نظر الأعمال الإخميمية. ثم تنقّل فولي نظر النظار بالديار المصرية، ثم الوزارة. ولم تطل مدة وزارته، فإنه مات بعد سنة من يوم وزارته، رحمه الله تعالى. وفوضت الوزارة بعده، للأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري.

وفيها، وفد إلى خدمة السلطان، شخص من أولاد الأُوَيْراتية[٤]، يسمى الشيخ علي. كان قد دخل في دين الإسلام، وخدم المشايخ، وعانى أسباب الرياضة والانقطاع.

---

(١) «أخربوها» في الأصل، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٨.

(٢) في الأصل: «فعمرها» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٨.

(٣) من وظائف الديوان، عمله طلب التفاصيل الكاملة عن أية جهة من الجهات الضريبية التي تقع في دائرة عمله ويدخل في عهدته جمع المتحصلات المالية بعد ختمها، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣١٢، انظر قوانين الدولة لابن دقماق ص ٣٠٢.

(٤) في الأصل: «الأويراتية» ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥٠، والأويراتية: نسبة إلى لفظ أويرات، ويقال عويرات، وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من حوض نهر ييني بأواسط آسيا، وهم أصل جنس الكالموك، وكانت قبائل الأويراتية أو العويراتية قد خضعت لسيادة جنكيزخان وآزرته في حروبه، وتزاوجت بيوتها في بيته، ومن إحدى تلك الزيجات كان بغا تيمور الذي خدم بفئة من الأويراتية مع هولاكو في فارس وغربي آسيا. وقد بقيت تلك الفئة هناك حتى عهد إيتخان غازان حين رحل إلى بلاد الدولة المملوكية. المقريزي: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٨، حاشية (٣).

فظهرت له كرامة من كرامات الفقراء، فتبعه جماعة من أولاد المغل. فخرج بهم من تلك البلاد إلى الشام، ثم إلى الديار المصرية. ومثلوا بين يدي السلطان، فأحسن إليهم، منهم الأقوش وتمر وعمر، ثلاثة إخوة، وجويان[١] وجماعة، رتب السلطان بعضهم في جملة الخاصكية، وتنقلوا إلى الإمرة، ثم ظهر من الشيخ علي أمور أنكرت عليه فسجن، ثم سجن الأقوش، ومات تمر[٢] وعمر في الخدمة.

وفي هذه السنة، في صفر، قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي وغيرهما، واعتقلوا. واستمر الأمير بدر الدين بيسري في الاعتقال إلى الدولة الأشرفية، فأفرج عنه، على ما نذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفيها، في يوم عرفة، قبض بدمشق على الأمير عز الدين أيبك كرجي، والأمير علم الدين الروباسي[٣]، والأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير عز الدين أيدمر الظاهري[٤]، نائب السلطنة، والده بدمشق كان[٥]، وعلى زين الدين ابن الشيخ عدي[٦]، واعتقلوا.

وفيها، في حادي عشرين، شهر رمضان احترق سوق اللبادين وسوق جيرون بدمشق، إلى حيطان الجامع. واتصل الحريق إلى حمام الصحن، ودار الخشب، وكان ابتداء الحريق من وقت المغرب، واستمر ثلاثة أيام، وركب بسببه نائب السلطنة وسائر الأمراء، والعسكر، والحجارين والنجارين، حتى خرَّبوا[٧] قدم النار فانقطعت. واحترق سوق الكتبيين، فكان ما احترق فيه لشمس الدين إبراهيم الجزري الكتبي، خمسة عشر ألف مجلد، غير الكراريس والأوراق. وكان سبب هذا الحريق، أن بعض الذهبيين[٨] غسل ثوبه ونشره، وجعل تحته مجمرة نار وتركها، وتوجه للفطور، فتعلقت النار بالثوب، واتصلت ببارية[٩] كانت معلقة، ومنها إلى السقف، وسلم أربعة دكاكين من ناحية درج اللبَّادين.

---

(١) «وجُوْبان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٩.
(٢) «ومات تمر» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٩.
(٣) في الأصل: «الزوباشي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥١.
(٤) «الداهري» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥١.
(٥) كان والده نائب السلطنة بدمشق.
(٦) هكذا أيضاً في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥١، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٩ الشيخ علي.
(٧) «أخربوا» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥٠.
(٨) الذهبيون: جماعة يشتغلون بطلاء المعدن بالذهب الفيروزأبادي: القاموس المحيط (ذهب).
(٩) البارية: الحصير المنسوج. الفيروزأبادي: القاموس المحيط (بري).

ذكر وصول رسل أحمد سلطان، وهو توكدار بن هولاكو، ملك التتار

وفي هذه السنة، وصل رسل أحمد(١) [أغا](٢) سلطان ابن هولاكو، وهو الذي ملك بعد أبغا، وهم قطب الدين محمود الشيرازي، قاضي سيواس، والأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد ابن الصاحب، وهو من أصحاب صاحب ماردين. وعند ورود الخبر بوصولهم إلى البيرة، أمر السلطان، الاحتراز عليهم، بحيث لا يشاهدهم أحد، فساروا بهم في الليل، إلى أن حضروا بين يدي السلطان. وأحضروا كتاباً من أحمد سلطان، يتضمن أنه قد ملك التتار، وهو مسلم. وقد أمر ببناء المسجد والمدارس والأوقاف، وأمر بتجهيز الحاج، إلى غير ذلك من أنواع وجوه البر والقربات. وطلب اجتماع الكلمة، وإخماد الفتن والحروب. وذكر أن أصحابه وجدوا جاسوساً في زي الفقراء فمسكوه، وإن عادة مثله القتل. وجهزه إلى الأبواب السلطانية. وقال إنه لا حاجة إلى الجواسيس ولا غيرهم، بعد الاتفاق واجتماع الكلمة، إلى غير ذلك مما فيه استجلاب خاطر السلطان. وظهرت رغبته في الصلح، وأنه كتب من واسط، في جمادى الأولى. فأجابه السلطان جواباً حسناً، يتضمن تهنئته بالإسلام، وأجابه إلى ما طلب من الصلح، وأعاد رسله مكرّمين، فوصلوا إلى حلب في سادس شوال، وتوجهوا إلى بلادهم(٣).

وفيها، بنى السلطان ببنت(٤) سكتاي بن قراحين بن جنغان نوين. وكان سكتاي هذا، قد ورد إلى الديار المصرية، وهو وقرمشي، في سنة أربع وسبعين وستمائة، صحبة بيجار(٥) الرومي، في الدولة الظاهرية. وهذه هي والدة السلطان الملك الناصر.

وفيها، تزوج الملك الصالح ابن السلطان الملك المنصور بمنكبك(٦)، ابنة الأمير

---

(١) كان اسم هذا السلطان في الأصل تكدار، وقد اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل سلطنته، وهو الذي خلف أبغا على مملكة إيلخانات المغول بفارس. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٠٤. وانظر أيضاً السلوك للمقريزي ج ١، ص ٧٠٧، حاشية (١)، وفيه نص الكتاب الذي أنفذه هذا السلطان المذكور أعلاه إلى أهل بغداد يعلن فيه إسلامه وسلطنته.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٧.

(٣) راجع ما ورد في تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٧ ـ ٧٠٨.

(٤) في الأصل: «بيت» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥١.

(٥) في الأصل: «بانيجار» والتصحيح من ذيل مرآة الزمان لليونيني ج ٢، ص ٢٠٢..

(٦) في الأصل: «مبلبك» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥١.

سيف الدين نوكية بن شان[١] قطعان. وكان نوكية إذ ذاك معتقلاً بثغر الإسكندرية. فرسم السلطان بالإفراج عنه، وأحضره إلى الأبواب العالية، وشمله الإنعام. وتقرر العقد على خمسة آلاف دينار عيناً، قُدِّم منها ألفا دينار.

وفيها، استقرت الهدنة بين السلطان والمقدم افرير[٢] كليام ديباجوك[٣]، مقدم بيت الديوية بعكا والساحل وديوية[٤] انطرطوس[٥]، لمدة عشر سنين، أولها خامس المحرم، سنة إحدى وثمانين وستمائة.

ذكر الظفر بملك من ملوك الكرج وإمساكه

وفيها، بلغ السلطان الملك المنصور، أن ملكاً من ملوك الكرخ، خرج من بلاده، لزيارة القدس الشريف ويعود خفية، واسمه توما سوطايس كلياري. ووضعت له صفته، ومعه رفيق يسمى طبيغا بن انكوار، وأنهما ركبا المراكب من ساحل بوط[٦]، فحفظت عليه الطرقات من كل جهة، فلم يصل إلى موضع إلا وخبره قد سبق إلى السلطان. فلما وصل إلى القدس الشريف، أمسك هو وترجمانه[٧]، وأحضرا[٨] إلى الديار المصرية، واعتقلا بها.

وفي هذه السنة، ولي القاضي بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن جماعة الكناني الشافعي، تدريس المدرسة القيمرية، وذكر الدرس بها، في تاسع عشر شوال. وحضر دروسه القضاة والعلماء.

وفيها، في يوم الثلاثاء، ثامن شهر رجب، كانت وفاة الشيخ الإمام العالم الزاهد، زين الدين أبي محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، بدمشق. ومولده بظاهر بجاية في سنة تسع أو ثمان وثمانين وخمسمائة. ووصل إلى دمشق في سنة ست عشرة وستمائة، وأقام بها إلى حين وفاته، وولي القضاء في الدولة الظاهرية، بعد امتناع منه، كما تقدم، ولم يأخذ عنه جامكية، ولا لبس تشريفاً. ثم عزل نفسه، في سنة ثلاث

---

(١) في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥١ «سان قطعان».

(٢) افرير: هذا اللفظ ترجمة حرفية للكلمة الفرنسية frére ومعناها الأخ عامة.

(٣) المقصود بهذا الاسم Guillaume de Beau jeu، انظر السلوك للمقريزي ج ١، ٩٨٦.

(٤) في الأصل: «ديومه» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥٢.

(٥) في الأصل: «انطروس» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥٢.

(٦) بدون نقط في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥١ حاشية ١٠.

(٧) «قبض عليه وعلى ترجمانه» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥٢.

(٨) «وأحضروا» في الأصل، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٥٢.

وسبعين وستمائة. وحلف إلا يلي القضاء بعدها. فأقر السلطان نائبه وصهره القاضي جمال الدين يوسف، وقد تقدم ذكر ذلك في مواضعه. وكان رحمه الله تعالى، كثير التواضع، يشتري حاجته ويحملها بنفسه[١].

وفيها، في يوم الأحد سادس عشرين شعبان، توفي الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن شيخ الإسلام، عز الدين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام، ودفن بتربة والده بالقرافة. ومولده بدمشق، في سنة خمس وستمائة، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الملك الظاهر شادي ابن الملك الناصر داود ابن الملك المعظم سيف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل، سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بالغور، في السابع والعشرين من شهر رمضان. ونقل إلى البيت المقدس، فدفن به. ومولده بقلعة دمشق، بعد صلاة الجمعة، سبع عشر ذي الحجة، سنة خمس وعشرين وستمائة.

وفيها، توفي القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي. الشافعي الأربلي. وكان وفاته بالمدرسة النجيبية بدمشق، في عشية يوم السبت سادس عشر شهر رجب، ومولده بمدينة إربل، في يوم الخميس[٢] بعد صلاة العصر، حادي عشر، شهر ربيع الآخر[٣]، سنة ثمان وستمائة. وقد تقدم ذكر ولايته[٤] القضاء بالشام. وكان رجلاً عالماً، وحاكماً عادلاً، وأديباً بارعاً، ومؤرخاً جامعاً، وكريماً سمحاً، جواداً مدارياً. يحب الرفق بالناس، وكان طاهر المجلس، لا يغتاب أحد أحداً في مجلسه. وله مناقب مشهورة، وحكايات مذكورة، تدل على حسناته وستره، رحمه الله تعالى[٥].

وفيها، توفي الشيخ الصالح، أبو الفدا[٦] إسماعيل بن إسماعيل بن جوسلين البعلبكي بها، في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من صفر. ومولده سنة أربع وستمائة. سمع صحيح البخاري، على ابن الزبيدي وأسمعه، رحمه الله تعالى.

وفيها، كانت وفاة السديد هبة الله النصراني القبطي المعروف بالماعز، مستوفي

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥٦.

(٢) «مولده في ليلة الأحد» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٩٩.

(٣) «حادي عشر جمادى الآخرة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٩٩.

(٤) في الأصل: ولاية، والتصحيح يقتضيه السياق.

(٥) انظر هذه الترجمة في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١١.

(٦) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٥٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٢.

الصحبة بالديار المصرية. وكان قد تمكن في هذه الوظيفة عند الملك الظاهر، وتقدم على أبناء جنسه، وله معرفة تامة بالديار المصرية والبلاد الشامية، لم يشاركه أحد في زمانه من أبناء جنسه كلّهم، وقد أقر له بالفضل في صناعته، وكان متعففاً عن الأموال، وعنده ستر على الكتاب والمتصرفين. ولما مات، رتب السلطان في وظيفته، ولده الأسعد جرجس. وتمكن الأسعد في الدولة المنصورية تمكناً كثيراً، ما سمع بمثله لمثله.

واستهلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة
[٦٨٢ هـ = ١٢٨٣/ ١٢٨٤ م]

في هذه السنة، توجه السلطان إلى البحيرة، لحفر الخليج المعروف بالطيرية[١]. وتوجه صاحب حماه في خدمته، وكان قد وصل إلى الأبواب السلطانية في هذه السنة. فحفر هذا الخليج، وكان طوله ستة آلاف وستمائة[٢]، وعرضه ثلاث قصبات، وعمقه أربع قصبات، بالقصبة الحاكمية[٣]، وكان إنجازه في عشرة أيام، وروي بسببه من أعمال البحيرة[٤]، ما لم يكن يروى قبله، في سنة من السنين.

وفيها، في عاشر شهر ربيع الأول، فوَّض السلطان إلى الصاحب برهان الدين الخضر السّنجاري، النظر والتَّدريس بمدرسة الإمام الشافعي [بالقرافة][٥]، بالجامكية[٦] والجراية. والرسم الشاهد به، كتاب الوقف الصلاحي، يوسف بن أيوب، رحمه الله

(١) في الأصل: «الطبرية» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٢، وترعة الطبرية تخرج من النيل قرب قرية مسماة بهذا الاسم، وهي الآن ترعة الحاجر. المقريزي: السلوك ج١، ص ٧١٢، حاشية (٢).

(٢) «وخمسمائة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٦٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٢.

(٣) كانت القصبة الحاكمية إحدى مقياسين مستعملين لضبط الأراضي الزراعية في مصر، وهما القصبة الحاكمية، والقصبة السّندفاوية وقد عرفت الأولى وهي الأكثر شيوعاً بالحاكمة لأنها حرّرت زمن الخليفة إلى بلدان سندفا بالقرب من مدينة المحلة الكبرى، وكانت تستعمل في بعض بلاد الوجه البحري فقط. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥١٢.

(٤) في الأصل: «البحرية» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦٠.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٢، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٣.

(٦) الجامكية: تجمع على جوامك وجامكيات، وهي الرواتب عامة، وأصل اللفظ فارسي: «جامه» بمعنى اللباس، ومعناها اللغوي كما يرى دوزي هو مصروفات دولاب الملابس، وقد جرى استعمالها الاصطلاحي بمعنى الجراية الشهرية، محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٢، انظر أيضاً تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل لأحمد سليمان ص ٥٩.

تعالى، وهو عن [معلوم][(١)] التدريس، في كل شهر أربعون ديناراً معاملة. صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم وعن النظر عشرة دنانير [والجراية][(٢)]، والرسوم في كل يوم، من الخبز ستون[(٣)] رطلاً، بالرطل المصري، وراويتان[(٤)] من الماء الحلو، وكانت هذه المدرسة خلت من مدرس، من ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين[(٥)]، وهم عشرة. واستمر الحال على ذلك، إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة. فولي تدريسها قاضي القضاة تقي الدين بن رزين، عند عزله من القضاء، وقرر له نصف المعلوم. ثم انتقلت بعد وفاته إلى غيره بربع المعلوم. وبقي الأمر على ذلك إلى الآن[(٦)]، ففوضت إليه بتوقيع شريف سلطاني منصوري.

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده

وفي هذه السنة توجه السلطان إلى الشام، في النصف من جمادى الأولى، ووصل إلى غزة، في سابع جمادى الآخرة، وأقام بها أياماً، ثم رحل[(٧)] إلى دمشق، فدخلها في ثامن شهر رجب، ونزل بالقلعة.

ذكر عزل قاضي القضاة عز الدين ابن الصائغ الشافعي عن القضاء، وتولية قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن الزكي

كان سبب عزل قاضي القضاة عز الدين ابن الصائغ عن القضاء بدمشق، أن تاج الدين بن السنجاري [قاضي قضاة][(٨)] حلب، أثبت محضراً، أن الطواشي ريحان الخليفتي، أودع شرف الدين بن الإسكاف، ثمانية آلاف دينار، وأن ذلك انتقل إلى يد القاضي عز الدين المذكور بحكم الوصية. فطلب القاضي عز الدين، في يوم الجمعة حادي عشرين شهر رجب، وكان قد حضر إلى الجامع الأموي، لسماع خطبة القاضي جمال الدين بن عبد الكافي، وكان قد ولي الخطابة والإمامة بدمشق. فتوجه من الجامع

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٢.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٢.
(٣) في الأصل: ستين، والتصحيح يقتضيه السياق.
(٤) في الأصل: روايتين.
(٥) في الأصل: «بالمعتدين» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٢.
(٦) العبارة واردة عند النويري وابن الفرات على الرغم من أنهما يعيشان في زمنين مختلفين. فالنويري عاش في زمن سابق على ابن الفرات.
(٧) في الأصل: «دخل»، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٤.
(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٥.

إلى القلعة، وحضر[١] إلى الأمير بدر الدين الأقرعي مشد الصحبة، والقاضي شهاب الدين بن الواسطي، الناظر بالصحبة. فرسم المشدّ على القاضي بمسجد الحبالة[٢]، ولم يصلّ الجمعة. وفوّض عليه الأمر، وعزل عن القضاء في يوم الأحد ثالث عشر من الشهر. وفوّض القضاء للقاضي بهاء الدين يوسف ابن القاضي محيي الدين بن الزكي. ومنع الناس عن الدخول على القاضي عز الدين والاجتماع به، إلا من لا بد منه، ثم ادعى عليه أن عنده حياصة[٣] وعصابة[٤]، القيمة[٥] عنهما خمسة وعشرون[٦] ألف دينار، وأنهما كانا عند عماد الدين ابن الشيخ محيي الدين بن العربي[٧]، للمالك الصالح إسماعيل بن أسد الدين شيركوه، وانتقل ذلك إلى عماد الدين ابن الصائغ، ومنه إلى أخيه القاضي عز الدين. ثم ادعى عليه، أن الأمير ناصر الدين ابن الأمير عز الدين أيدمر، نائب السلطنة والده، كان أودع عنده جملة كثيرة، واشتد عليه الأمر، ووكّل الملك الزاهر[٨] في مطالبته، فظهر الأمر بخلاف ذلك. وهو أن القاضي عز الدين أثبت عداوة تاج الدين السنجاري، [الحاكم بحلب][٩]، وعجز الخصم عن تحقيق حال العصابة والحياصة، وما فيهما من اللؤلؤ والبلخش[١٠]. وظهرت براءته من الوديعة بأمور يطول شرحها. وانتصر له الأمير حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام، واستمال حسام الدين طرنطاي، فخاطبا السلطان في أمره فأفرج عنه، في ثامن عشرين شعبان من السنة، واستمر معزولاً إلى أن مات، وكانت وفاته بحمص، ظاهر دمشق، في عشية يوم الأحد، تاسع شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وقد بقي من النهار ساعة.

---

(١) «احضر» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٥.

(٢) في الأصل: «الخيانة» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٥.

(٣) في الأصل: خاصة، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٥، والحياصة: سيرٌ في الحزام، ابن منظور: لسان العرب (حيص).

(٤) عصابة: راية عظيمة من الحرير، مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان . القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٧ ـ ٨، والمقريزي: السلوك ج ١، ص ٤٣٣ حاشية (١).

(٥) في الأصل: القيامة، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٥.

(٦) في الأصل: وعشرين. والصواب كما ورد في المتن.

(٧) في الأصل: ابن المغربي، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٥.

(٨) هكذا في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٥.

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٥.

(١٠) البلخش: من الأحجار الكريمة يستخرج من موضع يقع بالقرب من بذخشان بإقليم ما وراء النهر. وهو أحمر شفاف، مثل الياقوت في لونه، ولكن يقل عنه صلابة. ومنهما هو مائل إلى البياض ومنه ما هو مائل إلى اللون البنفسجي. ابن الأكفاني: نخب الذخائر في أحوال الجواهر، ص ١٥، انظر كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاشي ص ٢٥٧.

ودفن في يوم الاثنين بتربته بقاسيون، رحمه الله تعالى.

وأما السلطان، فإنه أقام بدمشق، إلى أن رتب أحوالها، وقدم مصالحها ثم عاد إلى الديار المصرية، وكان استقلال ركابه من دمشق، في يوم الأربعاء ثاني شهر رمضان، ووصل إلى قلعة الجبل، في الخامس والعشرين من الشهر.

وفيها، وصلت رسل عكا، وتقررت الهدنة(١) مع الديوية والاسبتار [والملك المنصور](٢) لعشر سنين، وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات. أولها خامس شهر ربيع الأول منها.

وفيها، تزوج السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور باردكين ابنة الأمير سيف الدين نوكيه، وهي أخت زوجة أخيه الملك الصالح.

ذكر وصول الشيخ عبد الرحمٰن ومن معه من جهة أحمد سلطان، ووفاة مرسلهم، وما كان من خبرهم

وفي هذه السنة، وصل الشيخ عبد الرحمٰن، من جهة أحمد سلطان ملك التتار، وصحبته، صمداغوا(٣)، والأمير شمس الدين محمد بن التيتي، المعروف بابن الصاحب وزير صاحب ماردين، وجماعة من صحبتهم نحو مائة وخمسين نفراً.

وكان هذا الشيخ قدوة أحمد سلطان ملك التتار، وهو الذي استسلمه، وقرر قواعد الصلح بينه وبين السلطان، وبلغ منه مبلغاً عظيماً، إلى أن كان يقف بين يديه، وظهرت منه أمور للمغل استمالهم بها. وتحدث في سائر الأوقاف وعظم ذكره ببلاد الشرق. وركب بالجتر(٤) والسلاح دارية والجمدارية. وظن أنه إذا حضر إلى السلطان تمكن منه، ويتم له في هذه المملكة، ما تم له بالعراق. فلما وصل إلى البيرة، تلقاه الأمير جمال الدين أقش الفارسي، أحد الأمراء بحلب، ومنعه من حمل الجتر والسلاح ونكب به عن الطريق المسلوك، إلى أن أدخله إلى حلب، ثم إلى دمشق، كان وصوله إلى دمشق، في ليلة الثلاثاء، ثاني عشر ذي الحجة، ولم يتمكن أحد من الناس أن يراه ولا يكلمه.

---

(١) انظر نص هذه الهدنة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٨٥، ملحق رقم ٨.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦٢.

(٣) «صمداعوا» في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٩.

(٤) الجتر: من شعار السلطنة، ويعرف بالمظلة. وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، يعلوها طائر من فضة مطلية بالذهب. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤. وهي في الدولة التركية في المشرق على زمن ابن خلدون بمعنى الراية العظيمة. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٤، حاشية (١).

ولما وصل إلى دمشق، أنزل في قلعتها بقاعة رضوان، إلى أن وصل السلطان إلى دمشق. ويقال إنه رتب للشيخ ولمن معه، في كل يوم ألف درهم نفقة وأطعمة وحلوى، وغير ذلك بألف درهم أخرى. واستقر بالقلعة، إلى أن وصل السلطان بين يدي السلطان ألف مملوك وخمسمائة مملوك، عليهم الأقبية الأطلس الأحمر، بالطرز[١]. والكلوتات[٢] الزركش. وقدم بين يديه ألف شمعة وخمسمائة شمعة. وحضر الشيخ عبد الرحمٰن والأمير صمداغوا وشمس الدين ابن الصاحب، وأدوا الرسالة فسمعها السلطان، وأعادهم إلى مكانهم، ثم استحضرهم مرة ثانية وثالثة، حتى استوعب ما عندهم من الأخبار، وما وردوا به من الرسالة. ثم أعلمهم السلطان في المرة الثالثة، أن مرسلهم قد قتل، وجلس على تخت المملكة أرغون بن أبغا. وكانت القصاد قد وصلت بهذا الخبر.

ونُقلوا من قاعة رضوان، إلى بعض قاعات القلعة، ورُتب لهم بقدر الكفاية. ثم سيّر إليهم الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، استاذ الدار، وقال: قد رسم السلطان بانتقالكم إلى غير هذا المكان، فليجمع كل واحد منكم قماشه، ففعلوا ذلك. فلما صاروا في دهاليز الدار فتشوا، فأخذ منهم جملة كثيرة من اللؤلؤ وغيره. ويقال: إنه كان بيد الشيخ عبد الرحمٰن سبحة لؤلؤ، قيمتها تزيد على مائة ألف درهم، فأخذت في جملة ما أخذ، واعتقلوا. فمات الشيخ عبد الرحمٰن، في ثامن وعشرين شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين بقلعة دمشق، ودفن بمقابر الصوفية. وهذا الشيخ المذكور، هو تلميذ شيخ الإسلام موفق الدين الكواشي، ثم رباه الشيخ المشار إليه، واشتغل عليه وخدمه. وقيل: إنه علم منه الاسم الأعظم، ويقال: إن الشيخ أعطاه كتاباً في علم السيمياء[٣]. وقال له: توجه بهذا إلى النهر واغسله، فأخذه وأخفاه. وعاد إلى الشيخ، وأخبره أنه غسله. ثم اشتغل بهذا العلم، وتوجه إلى التتار، واجتمع بالخوانين وأراهم، من هذا العلم، ما

---

(١) الطرز: أي مرقمة بالزركش، الفيروزأبادي: القاموس المحيط (طرز).

(٢) الكلوتات: جمع كلوتة وهي غطاء الرأس وتسمى أيضاً كلفة وكلفتاه وكلفته. يقول البعض أنها من أصل لاتيني، ويقول آخرون أنها معرفة عن الفارسية. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص ٢٨٨. وصبح الأعشى: القلقشندي، ج ٤، ص ٣ ـ ٤.

(٣) في الأصل: السمياء: والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٨، والسيمياء لفظ مشتق من سيماء بمعنى العلامة والشارة، أما اللفظ الذي جرى الاصطلاح عليه بأنه من أنواع السحر فإنه مشتق من لفظة سريانية بمعنى العلامات والحروف وللفظ معنيان الأول بمعنى السحر والطلسمات وهي استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر. والمعنى الثاني ويسميه ابن خلدون علم أسرار الحروف. ابن خلدون: المقدمة. ص ٤٢٢. دائرة المعارف الإسلامية ج ١٣، ص ٢٠.

اقتضى تمسكهم به، وحظي عند والدة السلطان أحمد، في صغر أحمد، وتألّف به، فلما ملك التتار، حكّمه في سائر ممالكه. ورسم له أن يركب بالجتر، فركب به، ثم جهزه في هذه الرسالة فمات. وبقي أصحابه في الاعتقال مدة، وضُيِّق عليهم. ثم كتب الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، إلى السلطان بسببهم، فرسم بإطلاقهم. واستمر الأمير شمس الدين في الاعتقال، ونقل إلى قلعة الجبل، واعتقل بها مدة طويلة. ثم فرج عنه بعد ذلك، وولي نيابة دار العدل بالديار المصرية.

وفي سنة اثنتين وثمانين أيضاً، وصل من جهة تدان منكو(١)، الجالس على كرسي الملك، بيت بركة، نفران من فقهاء القفجاق، وهما مجد الدين أطا ونور الدين وأحضرا على أيديهما كتاباً من جهته بالخط المغلي، فقرىء فكان مضمونه، أنه دخل في دين الإسلام، وأنه أقام شرائع الملة المحمدية، وأوصى على الفقيهين الواصلين بكتابه، وأن يساعدا على الحج المبرور. وذكرا من ألسنتهما مشافعة، أن الملك سأل السلطان، أن ينعته نعتاً، يتسمى به من أسماء المسلمين، ويرسل إليه علماً خليفتياً، وعلماً سلطانياً، يقاتل بهما أعداء الدين. فجهز السلطان الفقيهين(٢) إلى الحجاز ولما عادا جهزهما(٣) إلى مقصدهما.

وفيها، أمسك تبرك(٤)، كان بالحدث من جبال طرابلس، وكانت شوكته قد قويت، وانضم إليه جماعة كثيرة من أهل تلك الجبال، وتحصن بالحدث. فقصده التركمان، وتحيلوا عليه، حتى تمكنوا منه وأسروه وأحضروه(٥)، وكفى الله المسلمين شره.

وفيها، خرج صاحب(٦) قبرص غازياً، لقصد الساحل، فرمته الريح إلى جهة بيروت، فخرج منها، وقصد الإغارة على تلك الجهات. فكمن له أهل جبل الخروب، وخرجوا عليه، فقتلوا وأسروا من جماعته ثمانين رجلاً، وأخذوا له شيئاً كثيراً من المال والخيل والبغال، وركب في البحر، وتوجه إلى صور، ولم يلبث أن هلك.

---

(١) في الأصل: «تدان مسكو» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٠٨، حاشية ٢، ٧١٦. ولي الحكم في دولة القبجاق بعد وفاة أخيه منكوتمر في سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م. وبقي في الحكم حتى سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٠٨، حاشية (٢).

(٢) في الأصل: الفقهاء.

(٣) في الأصل: جهزهم.

(٤) هكذا في الأصل وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٧.

(٥) في الأصل: وحضروه. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٧.

(٦) كان الملك هيو الثالث على رأس هذه الحملة، وهو ملك قبرص وبيت المقدس وكان قد انسحب من الشام إلى قبرص لكثرة مؤامرات القوى الصليبية ضده، ثم عاد إلى الشام يريد استرداد حقوقه في مملكة بيت المقدس من مغتصبيها من الصليبيين. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧١٦، حاشية (٣).

وفيها وصل إلى السلطان رسول أبونكيا[(١)]، ملك سيلان، وأحضر كتاباً في حُقّ مِنْ ذَهبٍ. وقال الرسول، وهو الحاج أبو عثان. هذا الكتاب بخط الملك، فلم يوجد من يقرأه. فسألوا عن مضمونه. فقال مضمونه. إن سيلان مصر، ومصر سيلان، وأنه قد ترك صحبة صاحب اليمن، في محبة السلطان. وقال أريد رسولاً من جهة السلطان، يُحْضِره رسولي، ورسولاً[(٢)] يقيم[(٣)] في عدن. والجواهر واليواقيت واللؤلؤ عندي كثير، والمراكب والقماش وغيره عندي. والبقم والقرفة، وجميع ما يجلبه الكارم[(٤)] [عندي][(٥)]. والرماح الكثيرة عندي. وعندي الفيلة[(٦)]. ولو طلب السلطان كل سنة عشرين مركباً، سيرتها إليه وأطلق تجار السلطان. وأنا عندي سبع وعشرون قلعة، وفيها [معادن][(٧)] جواهر ويواقِيت والمغاص[(٨)]، كل ما يحصل منها فهو لي. فأكرم السلطان هذا الرسول، وكتب جوابه وجهزه.

وفيها، نجزت عمارة تربة، كان السلطان قد رسم، لشاد الأمير علم الدين سنجر [الشجاعي][(٩)] بعمارتها لوالده وولده الملك الصالح، بالقرب من مشهد السيدة نفيسة وعمرت، ونزل السلطان وولده إليها، وتصدقا، ورتبا وقوفها. ورسم السلطان بعمل تربة ومدرسة وبيمارستان بالقاهرة.

---

(١) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٣ «أبو نكبة» وقد اهتمت الدولة المملوكية بشؤون التجارة مع الشرق منذ زمن السلطان بيبرس البندقداري، وأحسّ ملك اليمن وقتذاك، وهو المظفر يوسف بأهمية إنشاء علاقات تجارية في الشرق أيضاً فأرسل إلى ملك سيلان يعرض عليه حلفاً تجارياً غير أن ملك سيلان أثر التجارة مع مصر ولهذا أرسل سفارته إلى السلطان قلاوون عن طريق الخليج العربي والعراق والشام حتى تتجنب اجتياز بلاد اليمن. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧١٣، حاشية (٣).

(٢) هكذا في الأصل. أما تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٦١، فقد وردت العبارة كما يأتي: «ويسأل أن يحضر إليه رسول من عند مولانا السلطان صحبه رسله إلى عنده، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق».

(٣) في الأصل: مقيم. والتصحيح يقتضيه السياق.

(٤) الكارم: فئة من التجار تعمل في تجارة البهار من الهند إلى مصر. والأكثرية كانوا من أهل بلاد الكارم الإسلامية الواقعة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان العربي. فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي ثم حرف هذا اللفظ فأصبح «الكارم» وبعد ذلك أطلق على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٩.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦١.

(٦) في الأصل: الفيول، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦١.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦٢.

(٨) في الأصل: المغاضات، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦٢.

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٦٢.

ذكر عمارة[١] التربة المنصورية والمدرسة والبيمارستان[٢] ومكتب السبيل

قال[٣]: ولما رأى السلطان الملك المنصور التربة الصالحية[٤]؛ أمر بإنشاء تربة [له][٥]، ومدرسة وبيمارستان ومكتب سبيل. فاشتريت الدار القطبية[٦]، وما يجاورها - وهي بين القصرين - من خالص مال السلطان، وعوض سكان الدار القطبية بالقصر المعروف بقصر الزمرد، وكان انتقال الدار القطبية منها إلى قصر الزمرد، ثاني عشر ربيع الأول من السنة.

ورتب الأمير علم الدين الشجاعي، مشداً على العمارة، فأظهر من الاهتمام بالعمارة والاحتفال، ما لم يسمع بمثله. فعمرت في أيسر مدة، ونجزت العمارة في شهور سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وإذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة، وسمع أنها عمرت في هذه المدة القريبة، ربما أنكر ذلك[٧].

ولما كملت العمارة، وقد السلطان من أملاكه القياسر والرباع[٨]، والحوانيت والحمامات، والفنادق والأحكار، وغير ذلك من الضياع[٩] بالشام، ما يحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته، في كل شهر جملة كثيرة. وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم التربة بالقبة[١٠]. ورتب وقف المدرسة، إلا أنه يقصر عن كفايتها. ورتب لمكتب السبيل،

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٩٧، ملحق رقم (٩) وفيه وصف الأبنية والعمائر التي شيدها السلطان الملك المنصور قلاوون.

(٢) البيمارستان: مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم. وهو لفظ فارسي مركب من بيمار أي مريض، وستان: أي محل، ويقال له بالتركة خستة خان أي محل المرضى، ويطلق البيمارستان على المحل المعد لإقامة المجانين أيضاً. بطرس البستاني: محيط المحيط. وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٦، حاشية (٦).

(٣) لم يشر النويري إلى المصدر الذي أخذ منه.

(٤) المقصود بالتربة الصالحية: تربة السلطان الملك الصالح أيوب. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٩٩٧.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٨.

(٦) الدار القطبية: نسبة إلى الملك المفضل. قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فقد ظلت في ورثته حتى أخذها السلطان قلاوون، وكانت في الأصل قاعة ست الملك ابنة الملك العزيز بالله الفاطمي. العيني: عقد الجمان ج ٢، ص ٣٠٨، حاشية (١). المقريزي: الموعظ والاعتبار، طبعة بولاق، ج ٢، ص ١٤٧.

(٧) في الأصل: «انكرت» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٨) في الأصل: «الدباغ» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٧٨.

(٩) في الأصل: «والضياع» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٢٨٨.

(١٠) في الأصل: «القبة» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٩.

من الوقف بالشام ما يكفيه.

ولما تكامل ذلك، ركب السلطان وشاهده، وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء، والقضاة والعلماء. فأخبرني من شهد السلطان، وشهد عليه، أنه استدعى قدحاً من الشراب فشربه. وقال: قد وقفت هذا على مثلي، فمن دوني، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك، والجندي والأمير [والوزير](١) والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى. وجعل لمن يخرج منه، من المرضى، عند برئه كسوة، ومن مات جهَّزه، وكُفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية(٢)، والكحالين(٣) والجرائحية(٤) والمجبرين(٥)، لمعالجة الرمدى والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء. ورتب به الفراشين والفراشات، والقومة، لخدمة المرضى، وإصلاح أماكنهم وتنظيفها، وغسل ثيابهم، وخدمتهم في الحمام. وقرر لهم على ذلك. الجامكيات الوافرة.

وعملت التخوت والفرش والطراريح والأنطاع والمخدات واللحف والملاوات لكل مريض فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم. فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة، للمرضى بالحميات، وغيرها، وجعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجرحاء، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للممرورين(٦) من الرجال ومثله للنساء، والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن. وأفردت أماكن، لطبخ الطعام، والأشربة والأدوية، والمعاجين وتركيب الأكحال، والشيافات(٧)، والسفوفات،

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات ج ٧، ص ٩.

(٢) الطبائعية: جمع طبائعي Physicien وهو المعروف الآن باسم طبيب الأمراض الباطنية. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: القلقشندي، ص ٢٢٨ وDozy, Supp. Dict. Ar.

(٣) الكحالين: جمع كحال، وهو طبيب العين Dozy, Supp. Dict. Ar oculiste. ومحمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٨٦.

(٤) الجرائحية: جمع جرائحي، وجارحي: وهو طبيب الجراحة Chirurgien محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٨٣، ومحيط المحيط، Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٥) المجبري: المفرد: مجبر: وهو طبيب جبر العظام Orthopédiste محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٩٨Dozy, Supp. Dict. Ar ..

(٦) الممرورون: والمفرد: ممرور: من غلبت عليه المرة وهي المادة الصفراء تفرزها المرارة، بطرس البستاني: محيط المحيط (مرر)، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٩٩٩، حاشية (٢).

(٧) الشيافات والأشياف: جمع شياف: وهو دواء مسحوق يستعمل للعيون والشياف دواء يجعل قمقماً أو تلبيسه أو فرزجه Suppositoire لمعالجة أمراض المستقيم Anus انظر Dozy, Supp. Dict. Arفي محيط المحيط لبطرس البستاني، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٩٩، حاشية (٣).

وعمل المراهم والأدهان، وتركيب الترياقات[١]، وأماكن لحواصل العقاقير، وغيرها من هذه الأصناف المذكورة. ومكان يفرّق منه الشراب، وغير ذلك من جميع ما يحتاج إليه، ورُتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء، لإلقاء درس طب، ينتفع به الطلبة، ولم يحصر[٢] السلطان، أثابه الله، هذا المكان المبارك، بعده في المرضى، يقف عدتها المباشر، ويمنع من عداها، بل جعله سبيلاً، لكل من يصل إليه، في سائر الأوقات، من غني وفقير. ولم يقتصر أيضاً فيه، على من يقيم به للمرضى، بل يرتب لمن يطلب، وهو في منزله ما يحتاج يه، من الأشربة، والأغذية والأدوية، حتى أن هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات، على ما تبين، من غير من هو مقيم بالبيمارستان.

ولقد باشرته[٣] في شوال، ثلاثة وسبعمائة، وإلى آخر رمضان سنة سبع وسبعمائة. فكان يصرف منه، في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة، ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري، في اليوم الواحد، للمرتبين والطوارىء، غير السكر والمطابيخ من الأدوية، وغير ذلك من الأغذية والأدهان والترياقات وغيرها ورتب في البيمارستان من المباشرين والأمناء، من يقوم بوظائفه، واتباع ما يحتاج إليه من الأصناف، وضبط ما يدخل إلى المكان، وما يخرج منه خاصة، من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، وإنما يبتاعون الأصناف، ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر، عمل استحقاق[٤] لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف، والمباشرين، يكتبه العامل، ويكتب عليه الشهور. ويأمر الناظر بصرفه، ويخلد [في][٥] ديوان الصندوق[٦] ويصرف على حكمه. وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان، هم مباشرو الإدارة.

وأما مباشرو الصندوق والرباع، فإليهم يرجع تحرير جهات الأوقات، في الخلق

---

(١) في الأصل: الدرقات. والدرياقات. والتصحيح من كامل الصناعة في الطب للمجوسي ج ٢، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧. والدرياقات في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٩٩، وفي محيط المحيط أن الدرياق هو الترياق ويقال الدراق أيضاً وهو دواء مركب يؤخذ لوضع السموم. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٩٩ Dozy, Supp. Dict. Ar ..

(٢) في الأصل: «يحضر» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) ظل النويري متولياً لهذا البيمارستان نحو أربع سنوات (المحقق).

(٤) عمل استحقاق: إجراء سجل بما هو مستحق لأرباب الجامكيات والجرايات. Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيه السياق.

(٦) صندوق المستخرج: ديوان الصندوق وهو يختص بالنظر في جهات الأوقاف وفي استخراج الأموال، ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال. انظر Dozy, Supp. Dict. Ar.

والسكون والمعطل، واستخراج الأموال، ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال، بمضي حوالة مباشري الإدارة، ومباشرة العمارة، وعمل الاستحقاق لا يتصرفون في غير ذلك، كما لا يتصرف مباشرو الإدارة، في صرف الأموال، إلا حوالة بأوراقهم.

وأما العمارة، فلها مباشرون ينفردون بها، من ابتياع الأصناف، واستعمال الصناع، ومَرَمَّة(١) الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق من المال، ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة. ويكتبون في كل شهر، عمل استحقاق، بثمن الأصناف وأرباب الأجر، ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق، وما وصل إليهم من المال ويسوقونه إلى فائض أو متأخر.

وترفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حسباناتهم، مياومة ومشاهرة ومسانأة إلى الناظر(٢) والمستوفي(٣). هذا ما يتعلق بالبيمارستان.

وأما القبة المباركة المنصورة(٤)، وهي التربة، فإنه رُتِّب فيها خمسون مقرئاً، يقرأون كتاب الله تعالى، ليلاً ونهاراً بالنوب، وجُعِل لكل منهم، في كل شهر عشرون درهماً. ورتب بها إمام، على مذهب الإمام أبي حنيفة، رحمه الله تعالى، وله في كل شهر ثمانون درهماً، من أصل الوقف، وفي كل سنة في ليلة ختم صلاة قيام رمضان، خلعة من خزانة السلطان، كاملة مسنجبة(٥) [مقتدرة] ورُتِّب بها ريس ومؤذنون(٦)، يعلنون الأذان، بالمأذنة الكبرى، ويقيمون الصلاة ويبلغون خلف الإمام. وهم سبعة نفر. الرئيس، وله في كل شهر أربعون درهماً، والمؤذنون ستة، لكل منهم في كل شهر ستون(٧) درهماً.

ورتب بها درس تفسير لكتاب الله تعالى، فيه مدرس يلقيه، رتب له في كل شهر

---

(١) انظر وصف المدرسة الناصرية والقبة التي كمل إنشائهما السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م، في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٤٠ ـ ١٠٥٠ ملحق ١٧.

(٢) الناظر: وموضوعه النظر في الشؤون المالية وما يجري صرفه، وتقدير الخراج والكشوفات والحسبانات. وناظر الجيش هو الذي يحكم في المحاكمات الديوانية وولاية هذا الناظر من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) المستوفي: وهي وظيفة رئيسية وعلى متوليها مدار أمور الدولة في الضبط والتحرير ومعرفة أصول الأموال، ووجوه مصارفها. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٣٠.

(٤) القبة: هي داخل البيمارستان الذي أنشأه السلطان المنصور. انظر صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٤٩٩.

(٥) مسنجبة: مصنوعة من فراء السنجاب Dozy, Supp. Dict. Ar. في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠ «مقندرة» وهي مصنوعة من جلد القندر أو السمور Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٦) في الأصل: «مؤذنون»، (١٠) في الأصل «يقلبون».

(٧) «ثلاثون درهماً»، في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠.

مائة درهم، وثلاثة وثلاثون درهماً، وثلث درهم، ومعيد [له][(١)] في كل شهر أربعون درهماً، وطلبة عدتهم ثلاثون [نفراً][(٢)]، لهم في كل شهر ثلاثمائة درهم، ودرس حديث يذكر فيه حديث رسول الله ﷺ، له مدرس ومعيد وطلبة، لهم في كل شهر نظير ما لمدرس التفسير ومعيده وطلبته، وزيادة على ذلك قارىء، يقرأ الحديث، بين يدي المدرس، في أوقات الدروس، ويقرأ ميعاداً[(٣)] للعوام بين يديه أيضاً، في صبيحة كل يوم أربعاء، رتب له في كل شهر ثلاثون درهماً، ورُتِّب لخازن كتبها في كل شهر أربعون درهماً، ولخزانة كتبها من الختمات الشريعة، والربعات المنسوبة الخط، وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة، والطلب والأدبيات، ودواوين الشعر شيء كثير، ورُتب بها[(٤)] لخدام أزمة، يقيمون بالقبة، لحفظ حواصلها، ومنع من يعبر إليها في غير أوقات الصلوات، وهم ستة لكل منهم في كل شهر خمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين.

وأما المدرسة المباركة المنصورية، فإنه رتب بها إماماً شافعي المذهب، له في كل شهر ثمانون درهماً، وريّساً ومؤذنين[(٥)]، يعلنون بالأذان بالمئذنة الكبرى المذكورة، هم ومؤذّنو القبة بالنوبة[(٦)]، وهم ريس وأربعة مؤذنين، لهم في كل شهر نظير ما لمؤذني القبة، ورُتِّب بها متصدر لإقراء كتاب الله، عز وجل، ورتب له في كل شهر أربعون درهماً، ورتب بها دروس للمذاهب الأربعة، الشافعية والمالكية، والحنفية والحنابلة، لكل طائفة مدرس، له في كل شهر مائتا درهم، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة وسبعون درهماً، وخمسون طالباً لجميعهم في كل شهر سبعمائة درهم وخمسون [درهماً][(٧)]، وغير هؤلاء من القومة والفراشين وبواب[(٨)].

وأما مكتب السبيل، فإنه رُتِّب فيه فقيهان يعلمان [ستين][(٩)] صغيراً من أيتام

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠.
(٣) ميعاداً: المقصود هنا الدرس في الدين.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.
(٥) في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠ «مؤذنون» والتصحيح يقتضيه السياق.
(٦) في الأصل: «بالتربة» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠. وللفظ النوبة معانٍ اصطلاحية كثيرة: أحدها فرق الجند التي تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان، وهي خمس نوبات، والنوبة أيضاً بمعنى الوقعة الحربية، ويقال: ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٥٣.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠.
(٨) «وتواب بجوامك مختصة بهم» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠.
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠.

المسلمين، كتاب الله تعالى. ورتب لهما جامكية في كل شهر، وجراية، في كل يوم، وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف، ورُتِّب للأيتام، لكل منهم في كل يوم رطلان خبزاً، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف. وتنوَّع السلطان، أجزل الله ثوابه، في وجوه البر والقربات. وهذه الجهات المباركة المبرورة باقية مستمرة، يزيد وقفها، وينمو، بحسن نية واقفها، قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه.

ولنرجع إلى بقية حوادث سنين اثنتين وثمانين وستمائة

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام، عماد الدين أبو الفضل محمد ابن قاضي القضاة، شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله الشيرازي، ببستانه بالمزة، في يوم الاثنين، سابع عشر صفر. وصلى عليه بعد صلاة العصر، بجامع الجبل، ودفن بتربة فيها قبر أخيه علاء الدين، رحمهما الله تعالى. وكان شيخ الكتابة، أتقن الخط المنسوب(١)، وبلغ فيه مبلغاً عظيماً، حتى يقال إنه أتقن قلم المحقق(٢) وكتبه أجود من شيخ الصناعة ابن البواب(٣).

وفيها، توفي الصاحب مجد الدين أبو الفدا إسماعيل بن إبراهيم بن أبي القاسم ابن أبي طالب بن كسيرات الموصلي. وكانت وفاته في سابع عشرين شهر رمضان، بداره بجبل الصالحية، وكان رحمه الله كثير المروءة، واسع الصدر، كثير الهيبة والوقار، جميل الصورة، حسن المنظر والشكل، كثير التعصب لمن يقصده، محافظاً على مودّة أصحابه وقضاء حوائجهم، كثير التفقد لهم، وأصله من الموصل، من بيت الوزارة، كان والده، وزير الملك المنصور عماد الدين زنكي ابن المالك العادل نور الدين أرسلان

---

(١) لا يوجد في صبح الأعشى: القلقشندي، ج ٣، ص ٥١ ـ ١٣٢، بين أنواع الخطوط المستعملة في ديوان الإنشاء خط اسمه الخط المنسوب، غير أنه ذكر في الصفحة ٦١ أن الكتابة جميعاً منسوبة من نسبة قلم الطومار في المساحة، وذلك أن قلم الطومار أجل الأقلام مساحة. وقلم ثالث منه بمقدار ثلثه، وقلم النصف بمقدار نصفه، وقلم الثلثين بمقدار ثلثين، فلعل المقصود بالخط المنسوب فن الخط عموماً. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٨.

(٢) عرف القلقشندي هذا النوع من الخط تعريفاً قصيراً فقال: «والمحقق: استحدثت كتابته في طغروات كتب القانات» انظر صبح الأعشى: ج ٣، ص ٥٢. وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٣ حاشية (٤)، تعريف مفصل للقلم المحقق.

(٣) هو أبو الحسن علي بن هلال، خطاط مشهور من أهل بغداد، نسخ القرآن بيده ٦٤ مرة، توفي سنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٣٢ م. ترجمته في المنتظم لابن الجوزي ج ٧، ص ١٠، ومعجم الأدباء الياقوت الحموي، ج ١٥، ص ١٨، وعبر الذهبي ج٣، ص ١١٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٣، ص ١١٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٣، ص ٣٤٢، ترجمة ٤٥٧. والأعلام للزركلي ج ٥، ص ٣٠.

شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر. ثم باشر نظر الخزانة، للملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ [صاحب الموصل][١]، ثم نقله إلى نظر الجزيرة العمرية[٢]، لما فتحها. ووصل إلى الشام صحبة الملك المجاهد سيف الدين إسحاق، لما وصل في الدولة الظاهرية. وسكن دمشق، وولي نظر البر بها[٣]. ثم نقل إلى نظر نابلس، ثم أعيد إلى دمشق فباشر نظر الزكاة بها. ثم انتقل إلى صحابة الديوان بالشام، إلى أن ملك سنقر الأشقر دمشق، فاستوزره كما تقدم. وتعطل[٤] بعد ذلك عن المباشرة، وسكن داره التي أنشأها بجبل قاسيون، جوار البيمارستان، فكان بها إلى أن مات. قال شمس الدين الجزري[٥]: قلت له يوماً ـ وقد أضرته[٦] البطالة ـ يا مولانا لو ذكّرت واحداً[٧] من أصحابك بالأمراء، حتى يذكر بك السلطان، أو نائب السلطنة، فكاتب في أمرك فإن لك خدماً وتفضلاً[٨] على الناس، فنظر إلي وأنشد: [من السريع]

لـذَّ خُـمـولـي وحـلا مُـرَّهُ   وصـانـنـي عـن كـل مـخـلـوق
نـفـسـي مَـعـشـوقـي ولـي غِـيْـرَةٌ   تـمـنـعـنـي عـن بـذلـي مـعـشـوقـي[٩]

وفيها، في يوم الخميس عاشر شهر رمضان، توفي الملك العادل سيف الدين[١٠] أبو بكر ابن الملك الناصر صلاح الدين داود، ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨٣، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٨.

(٢) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات. وتحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال، ثم عُمل هناك خندق أُجري فيه الماء، ونُصبت عليه رحًى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٠.

(٣) نظر البر: وموضوع هذه الوظيفة التحدث في أمر الشرطة. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ١٩٤.

(٤) في الأصل، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٩، «هطل» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨٣.

(٥) هو محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد العزيز الجزري الدمشقي، شمس الدين، أبو عبد الله مؤرخ، دمشقي المولد والوفاة، كان به صمم له كتاب «التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه» جزآن. توفي سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م، وكان مولده في سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م. الزركلي: الأعلام ج ٥، ص ٢٩٨.

(٦) «وأضرت به البطالة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٩.

(٧) أحداً: في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٩.

(٨) في الأصل: خدم، تفضل.

(٩) هذه الأبيات واردة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٩.

(١٠) انظر ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٩.

ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وكانت وفاته بدمشق، وصلي عليه بعد صلاة الجمعة، ودفن بالتربة المعظمية، وكان رحمه الله تعالى، قد جمع بين الرئاسة والفضيلة، والعقل الوافر، والخصال الجميلة، وكان مجانب الناس، محبوب الصورة، رحمه الله تعالى.

وفيها، في سادس عشرين شعبان، توفي القاضي عز الدين إبراهيم ابن الصاحب الوزير الأعز، فخر الدين أبي الفوارس مقدام ابن القاضي كمال الدين أبي السعادات، أحمد بن شكر [المصري][١]. وكان قد ولي نظر الجيوش، بالديار المصرية، في شهر رمضان، سنة خمس وسبعين وستمائة، كما تقدم، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الشيخ الإمام العلّامة، العابد الزاهد، شمس الدين أبو محمد عبد الرحمٰن ابن شيخ الإسلام، أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي، شيخ الحنابلة بالشام. وكان قد ولي قضاء القضاة على كره منه، في سنة أربع وستين [وستمائة][٢] كما تقدم. ثم ترك الحكم، وتوفر على العبادة والتدريس، وأشغال الطلبة، والتصنيف. ويقال: إنه قطب بالشام، واستُدِلّ على ذلك بحرائي[٣] توافقت عليها، جماعة تعرفه، في سنة سبع وسبعين وستمائة أنه قطب، وكان أوحد زمانه. وكانت وفاته في يوم الاثنين، سلخ ربيع الآخر منها. ودفن بقاسيون، بتربة والده، قدس الله روحه، ومولده في السابع والعشرين من المحرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة. ولما مات رثاه المولى الفاضل شهاب الدين محمود[٤] كاتب الإنشاء بقصيدة[٥] أولها: [من الكامل]

مـا لـلـوجـود وقـد عـلاه ظـلامُ أَعَـرَاه خـطـبٌ أم عَـدَاه مـرامُ
أم قـد أصـيبَ بـشـمـسـه فـغـدا وقـد لـبـسـت عـلـيـه حـدادَهـا الأيـامُ

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨١. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٠.

(٣) في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢ «بمراءٍ»، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨٦ «بمرائي».

(٤) هو محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي ثم الدمشقي أبو الثناء شهاب الدين: أديب كبير استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً. ولد بحلب وولي الإنشاء في دمشق. وانتقل إلى مصر فكتب بها في الديوان ثم عاد إلى دمشق فولي كتابة السر نحو ثماني سنين إلى أن توفي بها. وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره. له مؤلفات عديدة منها «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» توفي سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م. الزركلي: الأعلام، ج ٧، ص ١٧٢. وانظر أيضاً فوات الوفيات لابن شاكر المكتبي ج ٤، ص ٨٢ ترجمة ٥٠٨.

(٥) هذه الأبيات واردة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢١.

جاء منها:

لكم الكرامات الجليلات التي   لا تستطيع جحودها الأقوام

وهي قصيدة تزيد على ستين بيتاً، ورثاه جماعة، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير علاء الدين كندغدي[١] المشرقي الظاهري، المعروف بأمير مجلس. كان من أعيان الأمراء بالديار المصرية. وظهر قبل وفاته بمدة يسيرة، أنه باق على الرق، فاشتراه السلطان الملك المنصور بجملة وأعتقه، وقرَّبه لديه. وكان شجاعاً بطلاً مقداماً. وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الجمعة مستهل صفر، ودفن بمقابر باب النصر، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير شهاب الدين أحمد بن حجبي[٢] بن يزيد البرمكي، أمير آل مري[٣]، وكانت وفاته ببصرى. وكانت غاراته تنتهي إلى أقصى نجد والحجاز، وأكثرهم يؤدون إليه إتاوة في كل سنة، فمن قطعها منهم أغار عليه. وكان يدعي أنه من نسل جعفر البرمكي، من العباسة أخت الرشيد. ويقول: إنه تزوجها ورزق منها أولاداً. ولما جرى على البرامكة ما جرى، هرب أولاده منها إلى البادية، فأحدهم جده، والله أعلم. وكان يقول للقاضي شمس الدين بن خلكان [البرمكي][٤]، أنت ابن عمي، وكانت بينهما مهاداة. وانتفع ابن خلكان به وباعتنائه، عند السلطان.

وفيها، في سابع عشرين المحرم، كانت وفاة القاضي شمس الدين عيسى[٥] ابن الصاحب برهان الدين الخضر السنجاري. كان ينوب عن والده في الوزارة الأولى، في سنة ثمان وسبعين وستمائة. وولي نظر الأحباس، ونظر خانقاه سعيد السعداء، ثم ولي بعد ذلك تدريس المدرسة الصلاحية المعروفة بزين التجار، ثم قبض عليه مع والده، بعد انفصاله من الوزارة الثانية، كما تقدم. فلما أفرج عنه سكن المدرسة المعزية بمصر، وكان بها إلى أن توفي. وكان حسن الصورة والشكل، رحمه الله تعالى.

وفيها، في سادس شوال، توفيت زوجة السلطان الملك المنصور، والدة ولده،

---

(١) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٣ «كشتغدي» وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٠ «كندغدي».

(٢) ترجمته في المنهل الصافي لابن تغري بردي ج ١، ص ٢٦٢. رقم (١٣٩)، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢١، الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفدي، ج ٦، ص ٣٠٤، رقم (٢٨٠٥) وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٣٦، وعقد الجمان للعيني، ج ٢، ص ٣١٤.

(٣) ويكتب أيضاً آل مرا.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨٢.

(٥) ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص،٧٢١، وتاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨٥.

الملك الصالح علاء الدين علي، رحمهما الله تعالى.

وفيها، في يوم الأحد، ثاني عشر جمادى الأولى، توفي الشيخ ظهير الدين جعفر بن يحيى بن جعفر القرشي التزمنتي الشافعي، مدرس المدرسة القطبية بالقاهرة، وأحد المعيدين بمدرسة الشافعي، رحمه الله تعالى.

وفيها، في يوم السبت، ثاني عشر بن شهر رجب، توفي الأمير علم الدين سنجر أمير جاندار، أحد الأمراء بالديار المصرية، وكانت وفاته بدمشق لما كان السلطان بها. ودفن بظاهرها، عند قباب التركمان، بميدان الحصار(١)، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة
[٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م]

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده

وفي هذه السنة، توجه السلطان الملك المنصور إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق، في يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة، ونزل بقلعتها. وكان جل توجهه إلى الشام، بسبب رسل السلطان أحمد، فاستحضرهم وسمع رسالتهم، كما قدمنا ذكر ذلك. وأقام السلطان بدمشق، إلى أن رتب أحوالها. وعزل الأمير علم الدين سنجر الداواداري، من وظيفته شاد الدواوين(٢) بدمشق، وأضاف هذه الوظيفة إلى الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، وكان استاذ دار السلطنة بالشام. فاجتمع له شاد الدواوين، وأستاذ الدارية(٣). ونقل أيضاً الأمير ناصر الدين الحراني، من ولاية مدينة دمشق إلى نيابة السلطنة بحمص، وأضاف ولاية مدينة دمشق، إلى الأمير سيف الدين طوغان، متولي البر. ثم عزم على الرحيل، والعود إلى مقر ملكه(٤)، فبرز الأمراء أثقالهم إلى ظاهر قلعة دمشق، فكانت حادثة السيل.

---

(١) هكذا في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢١، وتاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٨٤.

(٢) تقدم التعريف به.

(٣) استاذ الدارية: وظيفته هي التحدث في أمر بيوت السلطان كلها في المطابخ، والشرابخاناة والحاشية والغلمان والأستاذ دار هو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم من غلمانه، وباب داره، وله تصرف تام في كل ما يحتاجه بيت السلطان من النفقات والكساوي. القلقشندي: صبح الأعشى، المطبعة المصرية ج ٤، ص ٢٠ وج ٥ ص ٤٥٧.

(٤) «عاد إلى جهة الديار المصرية في الثلث الأخير من ليلة السبت ثالث عشر في شعبان، ودخل مصر في النصف من شهر رمضان». ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٩٦.

ذكر حادثة السيل بدمشق

وفي يوم الأربعاء العشرين من شعبان، سنة ثلاث وثمانين وستمائة، الموافق لأول تشرين الثاني، وهو خامس هاتور، أمطرت السماء، في أول الليل، وتوالى المطر وهطل وكثر، واشتد صوت الرعد، وتوالى البرق طول الليل إلى أول النهار. ثم أقبل السيل وارتفع، حتى بلغ إلى حدّ السيل الذي ذكرناه، في سنة تسعة وستمائة. وحمل جميع أثقال من برز ثقله من الأمراء المصريين والجند، وجمل الخيل والجمال والصناديق وغير ذلك. فيقال: إنه عدم للأمير بدر الدين بكتاش النجمي، ما تزيد قيمته على أربعمائة ألف درهم وخمسين درهم، وصدم السيل باب الفراديس[١]، فكسر أقفاله، وما خلفه من المتاريس، ودخل الماء إلى المدرسة المقدمية، وبقي كذلك، حتى ارتفع النهار. ثم جف[٢] الماء في يومي الأربعاء والخميس. ثم جاء مطر شديد، وهو دون المطر الأول، فهدم عدة مساكن، في جبل قاسيون، وبظاهر دمشق، وحواضرها[٣]، ثم انحط الماء، وتوجه السلطان بعد أن نضب الماء، إلى الديار المصرية، واستقبل ركابه من دمشق، في يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان، ووصل إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر رمضان من السنة.

ذكر وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّا[٤] وشيء من أخباره، وأمر ولده الأمير حُسام الدين مُهَنَّا

في هذه السنة، كانت وفاة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حذيفة أمير العرب. وصُلِّي عليه بدمشق صلاة الغائب، في يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول. وقد ذكرنا ابتداء إمرته، في ابتداء الدولة الظاهرية. وكان رحمه الله رجلاً ديناً خيراً، انتفع الإسلام به، في مواطن كثيرة. وصلحت العربان في أيامه، وقل فسادهم، بل كاد يعدم،

---

(١) هو إحدى أبواب دمشق السبعة: وهي باب كيسان، وباب شرقي، وباب توما، وباب الصغير، وباب الجابية، وباب الفراديس والباب المسدود، وجُعل كل باب من هذه الأبواب الكوكب من الكواكب السبعة، وصُور عليه صورته، فجعل باب كيسان لزُحل، وباب شرقي للشمس، وباب تُوما للزهرة، وباب الصغير للمشتري، وباب الجابية للمريخ، وباب الفراديس لعطارد، والباب المسدود للقمر. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٩٦. الحميري: الروض المعطار ص ٢٣٨.

(٢) في الأصل: «خفّ» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧.

(٣) في الأصل: «وظواهرها» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧.

(٤) ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٨٣، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٧.

مع لينه وحسن سياسته. وكانت الإمرة قبله لابن عمه الأمير علي بن حذيفة. وكان كثير السفك للدماء، ويقتل مفسدي[١] العرب، بأنواع القتل، فكانت له قدر كبيرة منصوبة، لا تزال على النار مملوءة ماء، والنار توقد تحتها، فمتى وقع له مفسد من العرب ألقاه فيها حيًّا، فيسقط لحمه لوقته. وقتل خلقاً كثيراً بذلك وبغيره من أنواع العذاب. هذا والفساد في أيامه مستمر، وأمر العرب لا يزداد إلا شدة. فلما ولي الأمير شرف الدين عيسى بعد وفاته، أنزل القدر وامتنع من سفك دم إلا بحكم الله. فعلم الله صدق نيته، وأصلح له من أمر العرب ما فسد في أيام غيره، وصلحت سيرتهم في أيامه، وانحسمت مادة أذاهم للقفول[٢] وغيرها، مَنًّا من الله تعالى.

ولما مات رحمه الله تعالى، فوض السلطان إمرة العرب بعده، لولده الأمير حسام الدين مهنا. وزاده السلطان إقطاعاً، وبسط يده فسلك سبيل والده في الخير والإحسان. وأطاعه العرب كافة، وعظم شأنه عند الملوك وغيرهم. وهو على ذلك إلى وقتنا هذا. الذي وضعنا فيه هذا الكتاب.

ذكر وفاة الملك المنصور[٣] صاحب حماه وولاية ولده الملك المظفر

في حادي عشر شوال من هذه السنة، توفي الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي ابن الملك المظفر، تقي الدين محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماه، رحمه الله تعالى. ومولده في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، سنة اثنتين وثلاثين وستمائة[٤]. فتكون مدة حياته، إحدى وخمسين سنة، وستة أشهر، وأربعة عشر يوماً. وملك حماه يوم السبت ثامن جمادى الأولى، سنة اثنتين وأربعين وستمائة[٥]، وهو اليوم الذي توفي فيه والده، فتكون مدة مملكته بحماه، إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.

ولما ورد الخبر بوفاته، رسم السلطان الملك المنصور، بتفويض ملك حماه، لولده الملك المظفر تقي الدين محمود وأجراه مجرى والده في التشاريف والمكاتبات.

---

(١) في الأصل: «مفسدين».

(٢) القفول: القافلة: الرُّفقة، الفيروزأبادي: القاموس المحيط (قفل).

(٣) ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٧، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٨٤. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٢٢.

(٤) «سنة ثلاثين وستمائة» في البداية والنهاية ج ١٣، ص ٣٢٢.

(٥) «تملك حماه سنة ثنتين وأربعين وله عشر سنين» في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٢٢.

وجهَّز إليه التشريف والتقليد، صحبة الأمير جمال الدين أقوش الموصلي الحاجب، وجهَّز معه عدة تشاريف لعمه الملك الأفضل، وابن عمه الأمير عماد الدين، وجماعة من أهل بيته وأمرائه.

وفيها، في نصف ذي الحجة، توجه السلطان إلى الشام.

وفيها، في ثالث شهر رمضان، توفي الملك السعيد(١) فتح الدين عبد الملك، ابن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمه الله تعالى. ودفن بتربة جدته، والدة السلطان الملك الصالح، داخل دمشق.

وفيها، توفي قاضي القضاة نجم الدين(٢) أبو محمد عبد الرحيم ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي الطاهر إبراهيم بن هبة الله بن المُسلم بن هبة الله بن حسّان بن محمد بن منصور بن أحمد البارِزيّ، الجُهَنِيّ الشافعي، الحموي، قاضي حماه. وكانت وفاته ليلة الخميس عاشر ذي القعدة، سنة ثلاث وثمانين وستمائة. ومولده يوم الأربعاء، السادس والعشرين، من المحرم سنة ثمانٍ وستمائة بحماه، وتوفي بطريق الحجاز، وحمله أولاده إلى مدينة رسول الله ﷺ، فدفن بالبقيع، وكان رحمه الله تعالى، ممّن صنَّف التصانيف المفيدة، وسمع وحدَّث، وولي قضاء حماه، بعد أبيه مدة طويلة، ثم عزل مدة يسيرة. وله نظم حسن ومشاركة في العلوم الكلامية والحكمية، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي قاضي القضاة جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد الله بن عمر الزواوي، قاضي المالكية بدمشق. وكانت وفاته بطريق الحجاز، قبل الحج بالقرب من تبوك، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي القاضي ناصر الدين(٣) أبو العباس أحمد بن أبي المعالي، محمد بن منصور بن أبي بكر قاسم بن مختار [الجُذامي](٤) الجروي(٥) المالكي الإسكندري

---

(١) له ترجمة في النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٣٠٦، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٢٢.

(٢) ترجمته في البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٢٢.

(٣) ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٦. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٨١.

(٤) في الأصل: «الجدامي» ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢.

(٥) في الأصل: «الحروي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٧.

المعروف بابن المُنَيِّر، وكانت وفاته بالإسكندرية، في ليلة الخميس، مستهل شهر ربيع الأول، ودفن بتربة والده، عند الجامع الغربي، ومولده بالإسكندرية، في ثالث ذي القعدة، سنة عشرين وستمائة. وكان فاضلاً عالماً، وله اليد الطولى في علم العربية والأدب، جيد النظم. باشر بالثغر عدة جهات. ثم ولي القضاء بالثغر، وولي الخطابة مدة يسيرة. ثم نكب في سنة ثمانين وستمائة. وهجم داره، ويقال إن الذين هجموا الدار، أدخلوا معهم قناني خمر، تحت ثيابهم، وادعوا أنها وجدت عنده، فعزل عن مناصبه، ثم توجه إلى باب السلطان، وسعى فيمن سعى به، فنال بعضهم. وأعيدت إليه مناصبه، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير شمس الدين محمد(١) ابن الأمير بدر الدين أبي المفاخر باخل ابن عبد الله بن أحمد الهكاري، متولي ثغر الإسكندرية، وكانت وفاته بالثغر، في يوم السبت حادي عشر شهر رجب. ودفن يوم الأحد، عند رباطه خارج باب رشيد، رحمه الله تعالى.

وفيها، في ليلة الجمعة، ثالث عشرين ذي الحجة، توفي الشيخ الصالح العارف القدوة، أبو القاسم وينعت وقار الدين بن أحمد بن عبد الرحمٰن المراغي. والمراغة التي ينسب إليها، [بلدة](٢) معروفة بإقليم إخميم، من البر الغربي. ودفن بالقرافة، بزاويته المشهورة، في يوم الجمعة، بعد الصلاة، رحمه الله وإيَّانا.

واستهلت سنة أربع وثمانين وستمائة
[٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م]

والسلطان الملك المنصور متوجه إلى الشام. فوصل إلى دمشق في يوم السبت، ثاني عشر(٣) المحرم، وتوجه إلى المَرْقَب(٤)، وافتتح الحصن(٥) على ما تقدم ذكره(٦).

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥ ـ ١٦.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤.
(٣) «ثاني عشرين المحرم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٦٦.
(٤) المرقب: سبق التعريف به، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧ ـ ١٨. «قلعة حصينة تشرف على البحر المتوسط، كانت في يد الاسبتارية. انظر أيضاً تقويم البلدان لابن الفدا ص ٢٥٤.
(٥) «افتتح الحصن يوم الاثنين ثاني صفر»، في النجوم الزاهرة ج ٧، ص ٢٦٧. و«في تاسع عشر ربيع الأول» في صبح الأعشى: للقلقشندي، ج ٣، ص ٤٩٩. و«ثامن عشر صفر» في البداية والنهاية لابن كثير ج، ص ٣٢٢.
(٦) راجع ما تقدم في بداية هذا الجزء.

ذكر مولد[١] السلطان الملك الناصر

كان مولده المبارك الميمون، بقلعة الجبل، في يوم السبت الخامس عشر من شهر المحرم[٢]، سنة أربع وثمانين وستمائة، الموافق للثامن والعشرين من برمهات من شهور القبط. وطالع الوقت السرطان. فوردت البشائر على والده السلطان بمولده، وهو بمنزلة خربة اللصوص[٣]، قبل وصوله[٤] إلى دمشق. فاستبشر السلطان بمولده، وتيمن به، وبلغ مقصوده، من فتح المرقب.

وفيها، بعد عود السلطان من فتح المرقب، دخل إلى الخزانة بدمشق، في يوم الخميس سابع جمادى الأولى. وولّى القاضي محيي الدين بن النحاس الوزارة بدمشق، عوضاً عن الصاحب تقي الدين توبة [التكريتي][٥]. وكان محيي الدين إذ ذاك، ناظر الخزانة، فخلع عليه خلعة الوزارة، وكانت الخلعة جبلة عتابي حمراء، وفوقها فرجية زرقاء، مسنجبة مقندرة وطرحة[٦] وعزل الأمير سيف الدين طوغان، عن ولاية مدينة دمشق، وأقره على ولاية[٧] البر خاصة. وولى مدينة دمشق الأمير عز الدين محمد بن أبي الهيجا، في يوم الجمعة، خامس عشر جمادى الأولى. ثم توجه إلى الديار المصرية، في بكرة نهار الاثنين، ثامن[٨] عشر الشهر. ووصل إلى قلعة الجبل، في يوم الثلاثاء تاسع عشرين شعبان. وكان قد أقام مدة بتل العجول.

وفيها، وصلت رسل ملوك الفرنج، وأحضروا بين يدي السلطان، في يوم الأنبرور، ما حمله اثنان وثلاثون جملاً، سنجاب وسمور أربعة عشر، وسقلاط خمسة، وأطلس

---

(١) عن مولد السلطان الملك الناصر انظر عقد الجمان للعيني، ج ٢، ص ٣٤٠.

(٢) «يوم السبت سادس عشر المحرم» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٧، و«يوم السبت سادس عشر وقيل الخامس عشر» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧.

(٣) خربة اللصوص: موضع يقع على الطريق بين دمشق وبيسان، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٨١، حاشية (١).

(٤) «ولما كان السلطان الملك المنصور على حصار المرقب جاءته البشرى بولادة ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٦٩.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٩.

(٦) «طراحة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢، وهي قطعة من الملابس عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٧) البر: ضواحي دمشق. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ٤، ص ١٠١.

(٨) «ثاني عشر جمادى الأولى» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧١.

وبندقي ثلاثة عشر. وما هو من جهة الجنوية. سارسينا حملان، وسناقر ستة، وكلب أبلق، ذكر أنه أكبر من الأسد، وما هو من جهة الأشكري[١]، حمل أطلس، وأربعة أحمال بسط. فقلبت تقادمهم، وأجروا على عاداتهم في الإحسان والصلة.

وفيها، وصل رسول صاحب اليمن، وصحبته الهدايا والتقادم، وأحضر إلى بين يدي السلطان، في يوم السبت مستهل ذي القعدة، وأحضر من الهدية على ما نقل، ما هو[٢]: خدام[٣] أزمة ثلاثة عشر، خيل فحول عشرة، فيل واحد، كركدن واحد، نعاج يمنية ثمانية، طيور ببغاء ثمانية[٤] قطع عود كبار ثلاثة، حملت كل قطعة منها على رجلين، رماح قنا أربعون حمل جمل. ومن أصناف البهار ما حمل على سبعين جملاً، ومن القماش من حمل على مائة قفص، ومن تحف اليمن ما حمل على مائة طبق نحاس، [فقبل ذلك منه][٥]، وأنعم على رسله وعليه على العادة.

وفيها، في سادس ذي الحجة، وقع الحريق بقلعة الجبل المحروسة، فاحترقت الخزانة السلطانية والقاعة الصالحية.

وفيها، في سلخ شهر رمضان، كانت وفاة الأمير سيف الدين أيتمش[٦] السعدي في محبسه.

وفيها، كانت وفاة الأمير علاء الدين أيدكين البَنْدَقْدَارِيّ[٧] الصالحي، بالقاهرة، ودفن بتربته بالشارع الأعظم.

---

(١) الأشكري: صاحب القسطنطينية، واسمه ميخائيل له ترجمة في المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ج ٤، ص ١٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٤. وتشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ص ٥٤. وهو ميخائيل الثامن باليولوجوس الذي حكم في الفترة من ١٢٥٩ ـ ١٢٨٢، وملك بعده ابنه أندورنيكوس الثاني باليولوجوس الذي تتوج ولقب الدوقس الأنجالوس الثاولوغس. انظر عقد الجمان للعيني ج ٢، ص ٣٢٠، حوادث سنة ٦٨٢ هـ، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٩.

(٢) في الأصل: «وهو» والتصحيح يقتضيه السياق.

(٣) «ثلاثة عشر طواشياً وتقابل خدام أزمة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٩.

(٤) في الأصل: «ثلاثة» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٩.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٢٩.

(٦) في الأصل: إيباش، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٣٣ «ايتامش».

(٧) هو أستاذ الملك الظاهر بيبرس البندقداري. كان أصل أيدكين هذا من مماليك الأمير جمال الدين موسى بن يغمور. توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م. وقد ناهز السبعين. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٠٩.

وفيها، في يوم الأربعاء، سابع عشر صفر، توفي الصاحب المشير عز الدين[١] محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي، بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم، وكان فاضلاً ديناً، رئيساً مؤرخاً، معظّماً عند الأمراء الأكابر محبوباً إليهم. ولازم الصاحب بهاء الدين مدة حياته. وكان الأمراء الأكابر يحملون إليه في كل سنة دراهم وغلّة وكسوة وغير ذلك، رحمه الله تعالى.

وفيها، في منتصف شعبان توفي الأمير ناصر الدين محمد[٢] ابن الأمير افتخار الدين أباز بن عبد الله الحراني، بمدينة حمص، وهو يومئذٍ نائب السلطنة بها، وحمل إلى دمشق، ودفن بقاسيون، في يوم الخميس سابع عشر الشهر.

وفيها، في يوم الأربعاء، سلخ شعبان، توفي الطواشي شبل[٣] الدولة كافور الصفوي الخزندار بقلعة دمشق. ودفن يوم الخميس مستهل شهر رمضان، بتربته بسفح قاسيون، كان رجلاً صالحاً، كثير الصدقة والمعروف والإحسان، رحمه الله تعالى، والحمد لله وحده.

واستهلت سنة خمس وثمانين وستمائة
[٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م]

في هذه السنة، أعيد الأمير علم الدين سنجر الداواداري، إلى شد الشام، عوضاً عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، وباشر الديوان في بكرة يوم الاثنين خامس عشر المحرم.

وفيها، في سلخ ربيع الآخر، وصل تقيّ الدين توبة التكريتي من الديار المصرية إلى دمشق. وقد أعيد إلى الوزارة بالشام، عوضاً عن الصاحب محيي الدين بن النحاس.

ذكر حادثة غريبة اتفقت بحمص

وفي هذه السنة، في سابع عشر صفر، ورد إلى الأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ، نائب السلطنة بالشام، كتاب من الأمير بدر الدين بكتُوت العَلَائي وكان مجرداً بحمص، وصحبته من عسكر دمشق ألفا فارس، من مستهل هذه السنة، مضمونة بعد البسملة:

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٣٣.
(٢) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٣٤.
(٣) في الأصل: سهل. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٣٤.

يقبل الأرض وينهى أنه لما كان في يوم الخميس رابع عشر[١] صفر، وقت العصر، حصل بالغسولة[٢] إلى جهة عيون القصب، غمامة سوداء إلى الغاية، وأرعدت رعداً كثيراً زائداً. وظهر من الغمامة شبه دخان أسود، من السماء متصل بالأرض، وصور من الدخان، صورة أصّلة[٣] هائلة، مقدار العمود الكبير، الذي لا يحصنه جماعة من الرجال، وهي متصلة بعنان السماء، تلعب بذنبها فيتصل بالأرض، شبه الزوبعة الهائلة، وصارت تحمل الحجارة الكبار المقادير، وترفعها في الهواء، كرمية سهم نشاب وأكثر. وصار وقعها، وتلاطم الحجارة بعضها ببعض، يسمع له صوت هائل، من المكان البعيد. وما برح ذلك مستمراً في قوته، واتصل بأطراف العسكر المنصور، وما صادف شيئاً إلا رفعه في الهواء، كرمية نشاب وأكثر. وما صادف شيئاً من الأشياء، من السروج والجواشن[٤]، والعدد والسيوف، والتراكيش[٥] والقسي، والقماس والشاشات. والكلوتات[٦]، والنحاس، والأسطال، إلا صار طائراً في الهواء كشبه الطيور. ومن جملة ذلك، أنه كان في إسطبل المملوك، خرج آدم ملآن تطابيق[٧] بيطارية حمله في الهوا والجو كرمية نشاب. ودفع من جملة ما دفعه، عدة من الجمال بأحمالها، قدر رمح وأكثر، وحمل جماعة من الجند والغلمان، وأهلك شيئاً كثيراً من السروج، التي صدفها، والرماح، وطحن ذلك، إلى أن بقي لا ينتفع به. وأتلف شيئاً كثيراً مما صادفه في طريقه، وأضاع[٨] أشياء كثيرة من العدد والقماش، لمقدار مائتي نفر من الجند وأصحاب الأمراء، إلى أن صاروا بغير عدة، ولا قماش، وغابت تلك الحية عن العين، في عنان

(١) يوم الخميس سابع صفر في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٢٥.

(٢) الغسولة: منزل للقوافل فيه خان على يوم من حمص بين حمص وقارا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٣٢.

(٣) أصلة: حية قصيرة، تساور الإنسان، فلا تصيب شيئاً بنفختها إلا أهلكته ابن منظور: لسان العرب (أصل).

(٤) الجواشن: مفردها جوشن: وهو الدرع: بطرس البستاني: محيط المحيط، وهو مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد، أن الزرد يكون حلقة واحدة فقط، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك، محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٤.

(٥) التراكيش: والمفرد تركاش: لفظ فارسي الأصل ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٧٦.

(٦) الكلوتات: تقدم التعريف به.

(٧) تطابيق: جمع تطبيقة، وهي صفحة من الحديد ينعل بها حافر الدابة لوقايته: الفيروزأبادي: القاموس المحيط (طبق) Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٨) في الأصل: ضاع.

السماء، فتوجهت في البرية، صوب الشرق. والذي عدم من قماش الجند، منه ما راح في الغمامة السوداء، ومنه ما أخذه بعض الجند، مع أن المملوك ركب بنفسه، ودار في المعسكر المنصور، واستعاد كثيراً مما عدم، وبعد هذا، عدم ما تقدم ذكره. وهذه الوقعة ما سمع بمثلها أبداً، ثم وقع بعد هذا يسير من مطر. ثم إن اللواحيق[١] الكبار، حملها الهواء وهي منصوبة، وصارت مرتفعة في الجو، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، أفرج السلطان عن الأمير شمس الدين قطلبجا أخي الرومي.

وفيها، رسم السلطان بهدم القبة الظاهرية، التي بقلعة الجبل بالرحبة، فحصل الشرع في هدمها، في يوم الأحد، عاشر شهر رجب. وأمر ببناء قبة في مكانها، فعمرت. وكان الفراغ منها [في شوال من هذه السنة][٢].

ذكر توجه السلطان إلى الكرك وما رتبه من أمر النيابة وعوده

في هذه السنة، في يوم الخميس، سابع شهر رجب، توجه السلطان إلى غزة، ثم توجه من بعدها جريدة[٣] إلى الكرك، فوصل إليها في شعبان، وصعد إلى قلعتها، ورتب أحوالها، ورسم بتنظيف البركة التي فيها من الطين، فنظفت. وعمل فيها جميع من كان في خدمة السلطان، من المماليك والحاشية مدة سبعة أيام. واستناب بها الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري[٤]، ونقل الأمير عز الدين الموصلي[٥] منها إلى نيابة السلطنة بغزة، وتقدمه العسكر بها. ولم يطل مقامه بها، فإنه نقل منها إلى نيابة قلعة صفد.

وعاد السلطان من الكرك، ونزل بغابة أرسوف، فأقام بها إلى أن وقع الشتاء، وأمن حركة العدو، وعاد إلى الديار المصرية، وكان وصوله إلى قلعة الجبل، في يوم الاثنين رابع عشر شوال منها.

وفيها، في شوال، أفرج عن الأمير بدر الدين بكتوت الشمسي، والأمير جمال الدين أقوش الفارسي.

---

(١) اللواحيق: جمع لحوقي. وهو الإناء الذي يجري فيه تسوية الطعام Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٣٨.

(٣) جريدة: أي دون أن يرافقه أحد من غلمانه. انظر Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٤) هو بيبرس المنصوري مؤلف كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٠.

(٥) «واستقر الأمير عزُّ الدين أيبك الموصلي نائب الشوبك في نيابة الكرك». المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٣١.

ذكر وفاة قاضي القضاة وجيه الدين، وتفويض القضاء بمصر والوجه القبلي، لقاضي القضاة، تقي الدين ابن بنت الأعز

في هذه السنة، في يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى[١]، كانت وفاة قاضي القضاة وجيه الدين عبد الوهاب ابن القاضي سديد الدين الحسين المهلبي، المعروف بالبهنسي، قاضي القضاة بمصر والوجه والقبلي، وولى بعده قاضي القضاة، تقي الدين بن عبد الرحمٰن ابن بنت الأعز، في يوم الأربعاء خامس عشر الشهر. وكان قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري القاضي شهاب الدين الخوييّ[٢].

ذكر وفاة قاضي القضاة تقي الدين بن شاس المالكي وتفويض القضاء لقاضي القضاة زين الدين[٣] علي بن مخلوف المالكي

وفي هذه السنة، في ذي القعدة، كانت وفاة قاضي القضاة تقي الدين الحسين ابن الفقيه شرف الدين أبي الفضل عبد الرحيم ابن الفقيه الإمام مفتي الفرق جلال الدين أبي محمد عبد الله بن شاس الجذامي السعدي المالكي، قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية. وفوّض السلطان القضاء بعده، على مذهب الإمام مالك بن أنس، لقاضي القضاة زين الدين أبي الحسن علي ابن الشيخ رضي الدين أبي القاسم مخلوف ابن الشيخ تاج الدين أبي المعالي ناهض النويري المالكي، وهو يومئذٍ ناظر الخزانة السلطانية. وكان في ابتداء ترقيه يلي أمانة الحكم العزيز بالقاهرة. فاتفق أن السلطان الملك المنصور، في حال إمرته، ابتاع منه، من تركه بعض الأمراء، عدة بجملة، كانت الغبطة فيها للأيتام، فطالبه القاضي زين الدين بالمال، فتوقف عن أدائه، وقصد ردماً ابتاعه. وتحدث في ذلك مع القاضي زين الدين فامتنع عن رده، واقتضى الحال أن شكاه للملك الظاهر، وألزم بالقيام بالثمن. فبقي ذلك في خاطر السلطان، فلما ملك، انتفع بذلك عنده غاية النفع، ورتبه في الخزانة، ووثق به، وتمكن عنده تمكناً عظيماً، ثم فوض إليه القضاء، وأقره[٤] معه على الخزانة، واستمر في القضاء إلى أن توفي، على ما نذكره، إن شاء الله تعالى، في أخبار الدولة الناصرية.

---

(١) في الأصل: الأول.

(٢) هو زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض أبو الحسن المتوفى سنة ٧١٨/١٣١٨ انظر الوافي بالوفيات للصفدي ج ٢٢، ص ١٨٩ رقم ١٣٧.

(٣) ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٣. وتذكرة التنبيه لابن حبيب ج ١، ص ١٠٦.

(٤) في الأصل: «وأقبره» والتصحيح يقتضيه السياق.

ذكر وفاة قاضي القضاة بهاء الدين بن[١] الزكي وشيء من أخباره

وفي هذه السنة، في يوم الاثنين، حادي عشر ذي الحجة، توفي بدمشق قاضي القضاة بهاء الدين أبو الفضل يوسف، ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى، ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي المعالي، محمد، ابن قاضي القضاة، ركن الدين أبي الحسن علي ابن قاضي القضاة، مجد الدين أبي المعالي محمد ابن قاضي القضاة ركن الدين أبي الفضيل يحيى بن علي بن عبد العزيز العثماني الأموي القرشي، المعروف بابن الزكي، قاضي قضاة الشافعية بدمشق. اجتمع فيه وله ما لم يجتمع في غيره، ولا له. كان من أحسن الناس صورة، وأكملهم قواماً، وهيئة وهيبة، وكان من العلماء الفضلاء في المذهب وعلم الأصوليين[٢]، والعربية، والمنطق، وعلم الكلام والحساب، والفرائض، والنظم، وعلم البيان، وحل المترجم، والكتابة الجيدة الحسنة، مع الذكاء المفرط. وكان له دنيا عريضة من المال والعقار. وكانت داره بباب البريد، من أحسن الدور بدمشق وبستانه بالسهم الأعلى من أصح الغوطة وأطيبها هواء. وضيعته الملك قرية الميدانية، من غوطة دمشق. [وكانت][٣] زوجته من أحسن النساء صورة [وكان][٤] أولاده تامّين الصورة، وجُمع له من المدارس بدمشق أجلها، وهي العزيزية والتقوية والفلكية والعادلية والمجاهدية والكلاّسية، وغيرها. وأنظار أوقاف كثيرة، وقضاء قضاة دمشق وسائر أوقافها، فلما كما له ذلك. أتاه الموت الذي لا حيلة فيه ولا دافع له، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأديب الفاضل، الشاعر المجيد، شهاب الدين[٥] أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم بن يوسف بن أحمد الأنصاري اليمني المحتد المصري الدار والمولد، الشافعي الصوفي، المعروف بابن الخَيْميّ، الشاعر المشهور، المبرز على نظرائه. وكانت وفاته بالقاهرة المعزية، بمشهد الحسين، في التاسع والعشرين من شهر

---

(١) ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٣، تذكرة التنبيه لابن حبيب، ج ١، ص ١٠٣، تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٧.

(٢) في الأصل: الأصوليين. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٨.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣١٢. تذكرة التنبيه لابن حبيب، ج ١، ص ١٠٦، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٢٧. وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٩٣، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٣ ترجمة ٤٧٥. وحسن المحاضرة للسيوطي ج١، ص ٥٦٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٣، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٢.

رجب الفرد، سنة خمس وثمانين وستمائة، ومولده تخميناً في سنة اثنتين وستمائة. روى عن ابن باقا، وسمع من ابن البنا وغيره، وحدّث، وكان يعاني الخدم الديوانية، وله نظم كثير جيد. فمنه قصيدته المشهورة البائية، التي ادعاها الشيخ نجم الدين بن إسرائيل. وقد رأينا أن نذكر هذه القصيدة، ما وقع في أمرها، وما قيل في وزنها ورويها، وكيف حكم بها للمذكور. وأول القصيدة[١]: [من البسيط]

يا مطلباً ليس لي في غيره أَرَبُ ... إلا آل التَّقَصِّي وانتهى الطَّلَبُ
وما طمحت لمرأى أو لمستمعٍ ... إلا لمعنًى إلى علياك ينتسب
وما أرانِي أهلاً أن تواصلني ... حسبي عُلُواً، بأني فيك مكتتب[٢]
لكنْ ينازعُ شوقي تارة أدبي ... فأصلبُ الوصلَ، لما يضعفُ الأدب
ولستُ أبرحُ في الحالين ذا قلقٍ ... بادٍ[٣] وشوق له في أضلعي لهب
وناظر[٤] كلّما كفكفتُ أدمعةً[٥] ... صوناً لحبك[٦] يعصيني وينسكب
ويدّعي في الهوى دمعي مقاسمتي ... وجدي وحزني ونجوى[٧] وهو مختضب[٨]
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا ... يزالُ في ليله للنجم يرتقب
يا صاحبي قد عدُت المسعدين فما ... عدني على وَصَبي لا مسَّكَ الوصب
بالله إن جزتَ[٩] كثباناً بذي سَلَمٍ ... قف بي عليها، وقل لي هذه الكثب
ليقيَ الخدُّ في أجراعها وطراً ... من تربها وأؤدي[١٠] بعضَ ما يجب
وملْ إلى البانِ من شرقيِّ كاظمةٍ ... فلي إلى البانِ من شرقيها طرب[١١]

---

(١) وردت هذه القصيدة في تاريخ ابن الفرات ج ٨، ص ٤٢ ـ ٤٦. وفي فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج٣، ص ٤١٥.
(٢) في فوات الوفيات ج ٣، ص ٤١٥ «مكتتب».
(٣) في فوات الوفيات ج ٣، ص ٤١٥ «نامٍ».
(٤) في المصدر نفسه: «ومدمع».
(٥) في المصدر نفسه: «صيبة».
(٦) في المصدر نفسه «لذكرك».
(٧) في المصدر نفسه: «ويجري».
(٨) في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٢ «متخضب».
(٩) في الأصل، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٢، «جئت». والتصحيح من فوات الوفيات ج ٣، ص ٤١٥.
(١٠) في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٥ «ويؤدي».
(١١) في المصدر نفسه: «أرب».

وخذ يميناً لمغنًى[١] تهتدي بشذا — نسيمة[٢] الرطب إن ضلَّتْ النجبُ
حيث الهضاب وبطحها يروِّضها — دمعُ المحبين لا الأنداء والسحب
أكرمْ به منزلاً تحميه هيبتُهُ — عني وأنواره لا السمرُ والقُضُب
دعني أعللُ نفساً عَزَّ مطلبها فيـ — ـه[٣]، وقلباً لعذْر[٤] ليس ينقلب
ففيه عاهدت[٥] قدماً حب[٦] من حسلت — به الملاحةُ واعتزت به الرتب
دان وأدنى وعز الحسن يحجبه — عني وذلي والإجلال والرهب
أحيا إذا متّ من شوق لرؤيته — لأنني[٧] إنما سُقْمي[٨] هو العجب
يا لهف نفسي[٩] لو يحدي[١٠] تلهفها — عوناً[١١] وواحربا[١٢]، لو ينفعُ الحرب
يمضي الزمانُ وأشواق مضاعفة — يا للرِّجال ولا وصلٌ ولا سبب
هبّت لنا نسمات من ديارهم — لم يبق في الركب من لا هزه الطرب
كدنا نطير سروراً من تذكرهم — حتى لقد رقصت من تحتنا النجب
يا بارقاً بأعالي[١٣] الرقمتين بدا — لقد حكيت ولكن فاتك الشنب
أما خفوق فؤادي فهو عن سبب — وعن خفوقك قلْ لي ما هو السبب
ويا نسيماً سرى من جو كاظمة — بالله قل ليَ كيف البانُ والعَذَب
وكيف جيرةُ ذاك الحيِّ[١٤] هل حفظوا — عهداً أراعيه إن شطروا وإن قربوا
أم ضيعوا ومرادي منك ذكرُهم — هم الأحبةُ إن أعطوا وإن سلبوا
إن كان يرضيهمُ إبعاد عبدُهم — فالعبدُ منهمْ بذاك البعد مقترب

(١) في الأصل: «المعنى»، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٣.
(٢) في الأصل: «بشيمة» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٣.
(٣) في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٥ «منه» أول الشطر الثاني.
(٤) في المصدر نفسه: «الغدر».
(٥) في المصدر نفسه: «عاينت».
(٦) في المصدر نفسه: «حسن».
(٧) في المصدر نفسه: «بأنني».
(٨) في المصدر نفسه: «حسمي».
(٩) في المصدر نفسه: «في حبه».
(١٠) في المصدر نفسه: «أجدى».
(١١) في المصدر نفسه: «غوثاً».
(١٢) في الأصل: حزناً. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٣.
(١٣) في الأصل: «باعلي» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٣، وفي فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٥.
(١٤) في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٥ «حي».

والهجرُ إن كان يرضيهم بلا سببٍ   فإنه من قبيل[1] الوصل محتسب

ولما بلغت هذه القصيدة نجم الدين محمد بن إسرائيل، ادعاها لنفسه. فاجتمع هو وابن الخَيْمي بعد ذلك بحضرة جماعة من الأدباء، وجرى الحديث في ذلك، فأصر ابن إسرائيل على أنها له. فتحاكما إلى الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض، رحمه الله، وكان يومئذٍ هو المشار إليه في معرفة الأدب ونقد الشعر. فأشار أن ينظم كل واحد منهما أبياتاً على الوزن الرومي فنظم ابن الخيمي: [من البسيط]

لله قومٌ بجَرعاء الحِمَى غُيُبُ   جَنَوْا عليَّ، ولمّا أن جَنَوْا عَتَبُوا
يا قوم[2] هم أخذوا قلبي فلم[3] سَخِطوا   وإنهم غصبوا عيشي هام غضبوا
هم العُرَيْبُ بنجدٍ مذ عرفتُهم   لم يبقَ لي مَعَهُمْ مالٌ ولا نسب
شاكون للحربِ لكن من قدودهم   وفاترات اللحاظِ السمرُ والقضب
فما ألمُّوا بحيٍّ أو ألمَّ بهم   إلا أغاروا[4] على الأبيات وانتبهوا
عهدتُ في دمن[5] البطحاء عهد هَوى   إليهمُ وتمادت[6] بيننا حقب
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا   لكن لغيريَ ذاك العهد قد نسبوا
مَنْ منصفي من لطيفِ غَنجٍ   لَدنِ القَوام لإسرائيل ينتسب
مبدل القول ظلماً لا يفي بموا   عيد الوصال ومنه الذنب والغضب
في لثغة الراء منه صدق نسبتَهُ[7]   والمنّ منه برور[8] الوعد والكذب
موحدٌ فيرى كلَّ الوجود له   ملكاً ويبطل ما يفضي[9] به النسب
فعن عجائبه حَدِّثْ ولا حرجٌ   ما ينتهي في المليح المطلقِ العجب

(١) في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٤١٦ «الذيد».
(٢) «يا ربِّ» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٦.
(٣) «فلمَ» في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٤١٦.
(٤) «وغاروا» في المصدر نفسه: ج٣، ص ٤١٧.
(٥) في الأصل: «زمن» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٤.
(٦) في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٤ «وعادت».
(٧) «تبين لثغته بالراء نسبته» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(٨) «بروز» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(٩) «يأتي» في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٤١٧.

بـدرٌ[(١)] ولـكـن هـلالاً لاح إذ هـو[(٢)] … بالورديّ من شفق الخدين منتقب
في كـاس مبسمه من حلو ريقته … خـمـرٌ وردُّ ثـنـايـاه بـهـا حَـبَب
فلفظه أبداً سكران[(٣)] يسمعنا … من معربِ اللحن ما ينسى له[(٤)] الأدب
تـجني[(٥)] لواحظه فينا ومنطقه … جنايةً يُجنَى من مُرّها الضَّرَب
قد أظهر السحر في أجفانه سقيماً … البرء منه إذا ما شاء والعطب
حلو الأحاديث وألفاظ[(٦)] ساحرها … تُلقى[(٧)] إذا نطق الألواحُ والكتب
لم يبق منطقه قولاً يروق لنا[(٨)] … لقد شكت ظلمة الأشعارُ والخطب
فداؤه[(٩)] ما جرى في الدمع من مُهَج[(١٠)] … وما جرى في سبيل الحب محتسَب
ويح المتيم شام بارق[(١١)] من أضم … فهزه كاهتزاز البارق الحرب
وأسكن البرقَ من وجد ومن كلف … في قلبه فهو في أحشائه لهبَ
فكلما[(١٢)] لاح[(١٣)] منه بارقٌ بعثت … قطر المدامع من أجفانه سحب
وما أعادت نُسيمات الغويرِ له … أخبار ذي الأثل إلا هـزّه الطرب
واهاً له أعرض الأحبابُ عنه وما … أجدَتْ وسائله الحسنى ولا القرب

ونضم الشيخ نجم الدين محمد بن إسرائيل رحمه الله تعالى[(١٤)]: [من البسيط]

---

(١) «بال» في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٤١٧.
(٢) «لها» في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٤١٧.
(٣) في الأصل: «سكران» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٣، ص ٤١٧.
(٤) «به» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(٥) في الأصل: «يحيى» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٤.
(٦) «والألحاظ» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(٧) في الأصل: «يلقى» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٤.
(٨) «لم تبقِ ألفاظه معنًى يرق لنا» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(٩) «مداده» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٤.
(١٠) في الأصل: «ملج» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٤، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(١١) «البرق» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٤١٧.
(١٢) «وكلما» في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٤١٧.
(١٣) «جاء» في المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤١٧.
(١٤) هو محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن علي بن الحسين، نجم الدين =

لم يقضِ من حُبّكم بعضَ الذي يَجِبُ   قلبٌ متى ما جرَى تَذْكارُكم يَجب
ولي، وَفِيٌّ لرسم الدار بعدكُم   دمع حتى جاد ضنت بالحيا السحب
أحبابنا والمنى تُدني مزاركم   وربما حال من دون المنى الأدب
ما رابكم من حياتي بعد بعدكم   وليس لي في حياة بعدكم أدب
قاطعتموني فأحزاني مُواصِلةٌ   وحلتمُ فحلالي فيكم التعب
رحتم بقلبي وما كادت لتسلبه   لولا قدودكم الخطيّة السلب
يا بارقاً ببراق الحزن لاح لنا   أأنت أم أسلمت أقمارَها النقب
ويا نسيماً سرى والعطر بصحبه   أجزت حين مَشَين الخرّدُ العُرب
أقسمتُ بالمقسمات الزُّهر يحجبها   سُمْرُ العوالي والهنديّةُ القضب
لكدت تشبه برقا من ثغورهم   ما در دمعي لولا الظلم والشنب
وجيرة جار فينا حكم معتدل   منهم ولم يُعْتبوا لكنهم عتبوا
ما حيلتي قربوني من محبتهم   وحال دونهم التقريب والخبب

وعُرِضتا على الشيخ شرف الدين بن الفارض. فأنشد مخطباً لابن إسرائيل عجز بيت من أبيات ابن الخيمي:

* لقد حكيت ولكن فاتك الشنب *

وحكم بالقصيدة لابن الخيمي. واستحسن بعض من حضر المجلس من الأدباء أبيات ابن إسرائيل، وقال: من ينظم مثل هذه الأبيات، ما الحامل له على ادعاء ما ليس له؟. فقال ابن الخيمي: هذه سرقة عادة، لا سرقة حاجة. وانفصل المجلس. وفارق الشيخ نجم الدين بن إسرائيل من وقته الديار المصرية، وتوجه إلى الشام. ولما بلغت هذه الواقعة القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان وهو إذ ذاك يتولى نيابة الحكم بالقاهرة، خلافة عن قاضي القضاة بدر الدين السنجاري، رحمهما الله تعالى، أرسل إلى الشيخ شهاب الدين ابن الخيمي، يطلب منه الأبيات التي نظمها، وادعاها ابن إسرائيل، فذيلها بأبيات وهي: [من البسيط]

إن كان يرضيهم إبعاد عبدهم   فالعبدُ منهم بذاك البعد مقترب
والهجر إن كان يرضيهم بلا سبب   فإنه من لذيذِ الوصلِ محتسب

= أبو المعالي الشيباني الشاعر المشهور. ولد بدمشق سنة ثلاث وستمائة، وتوفي بها سنة سبع وسبعين وستمائة. مدح الرؤساء والقضاة وغيرهم ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٣، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

وإن هم احتجبوا عني فإن لهم ... في القلب مشهور حسن ليس يحتجب
قد نزَّه[١] اللطف والإشراف بهجته ... عن أن تمنعها[٢] الأستار والحجب
لا ينتهي نظري منهم إلى رتب ... في الحسن إلا ولاحت فوقها رتب
وكلما لاح معنى من جمالهم ... لبَّاه شوق إلى معناه منتسب
أظل[٣] دهري ولي من حبهم طربٌ ... ومن أليم اشتياقي نحوهم حرب
فالقلب يا صاحِ متي بين ذاك وذا ... فلب لمعروف شمس الدين منتهب
إن الحديث شجون فاستمع عجباً ... حديث ذا الحبر حسناً كله عجب

وشرع في مدحه وذكر أوصافه. إلى نهاية سبعة وثلاثين بيتاً، تركنا إيراد بقيتها اختصاراً[٤]. وشعره، رحمه الله تعالى، كثير جيد مشهور. فلنرجع إلى سياق أخبار الدولة المنصورية.

واستهلت سنة ست وثمانين وستمائة
[٦٨٦ هـ = ١٢٨٧ م]

في هذه السنة، تسلم الأمير حُسام الدين طُرَنْطَاي صِهْيُوْن، وعاود الأمير شمس الدين سُنْقُر[٥] الأشقر الطاعة. وقد تقدم ذكر ذلك.

وفيها، كانت غزوة النوبة الأولى. وقد تقدم ذكرها.

(١) في الأصل: «نوه» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٥.
(٢) في الأصل: «يمنعها» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٥.
(٣) في الأصل: «أطل» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٥.
(٤) هذه العبارة واردة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٦.
(٥) كان سنقر الأشقر مقيماً بصهيون منذ سنة ٦٧٩ هـ، ولما كان ما بينه وبين السلطان قلاوون قد انتهى بالصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠ هـ فقد اعتقد السلطان، وهو بالمرقب أن سنقر سيسير إليه وهو بها أداء الواجب التابع نحو المتبوع، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وبعث إليه ابنه ناصر الدين صمغار فأسرّها السلطان في نفسه، ولم يمكن صمغار من العود إلى أبيه، بل حمله معه إلى مصر، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٢٨في المصدر نفسه: ج ٣، ص ٧٣٤.

ذكر تفويض قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي برهان الدين[١] السنجاري، ونقله القاضي شهاب الدين الخويي إلى الشام ووفاة السنجاري، وإضافة قضاء القاهرة للقاضي تقي الدين ابن بنت الأعز

كان سبب هذه الولايات ما قدمناه، من وفاة قاضي القضاة بدمشق، بهاء الدين بن الزكي، في حادي عشر ذي الحجة، سنة خمس وثمانين. فلما اتصل خبر وفاته بالسلطان، رسم بتعيين قاضٍ للشام. فعين قاضي القضاة شهاب الدين الخُويي لذلك، فيما بلغني، القاضي شرف الدين إبراهيم بن عتيق، وكان إذ ذاك ينوب عنه، وأحضره لذلك. وسعى قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز، أن ينقل القاضي شهاب الدين الخويي إلى الشام، ويستقل هو بقضاء المدينتين والعملين، فنتج سعيه الآن في أخذ الطرفين. وذلك أن القاضي شهاب الدين الخويي، طلع في يوم الأحد، خامس عشر المحرم، من هذه السنة، إلى قلعة الجبل، وصحبته القاضي شرف الدين بن عتيق، الذي عينه لقضاء الشام. وحضر قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز المجلس، وطلب [السلطان][٢] قاضي القضاة برهان الدين الخضر السنجاري، فخلع عليه، وفوض له قضاء القاهرة والوجه البحري ونقل القاضي شهاب الدين الخويي إلى قضاء الشام، فتوجه إلى دمشق، في ثالث عشر صفر، ووصل إليها في يوم الاثنين ثالث عشر شهور ربيع الأول. وأما القاضي برهان الدين، فإنه جلس للحكم بالقاهرة بالمدرسة المنصورية. وتقدم في الجلوس بدار العدل، وعلى قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز، فتألم لذلك، وندم على سعيه في نقلة القاضي شهاب الدين الخويي إلى الشام، وسعى أن يتوفر من حضور دار العدل. فبينما هو في ذلك، توفي قاضي القضاة برهان الدين السنجاري. وكانت وفاته في تاسع صفر من السنة، بالمدرسة المعزّيّة بمصر، ودفن بتربة أخيه بدر الدين بالقرافة. فكانت مدة ولايته أربعة وعشرين يوماً، ومولده في سنة ست عشرة وستمائة. ولما مات، فوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحري لقاضي القضاة، تقي الدين عبد الرحمٰن ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. وخلع عليه، وجمع له القضاء بالمدينتين والعملين. وبلغني أنه صلى على القاضي برهان الدين، وعليه خلعة القضاء[٣].

---

(١) ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٨، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٥٧. وعقد الجمان للعيني، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٤٨.

(٣) ينفي النويري وابن الفرات في هذه الرواية مما يدل على أنهما اقتبسا من مصدر واحد.

ذكر خبر واقعة ناصر الدين بن المقدسي وأعيان دمشق، ومصادرة أكابر دمشق، وتوكيل ناصر الدين بن المقدسي عن السلطان

وفي هذه السنة، وصل ناصر الدين محمد ابن الشيخ عبد الرحمٰن المقدسي، إلى الأبواب السلطانية. وكان قد حضر، ليرفع[١] على قاضي القضاة [بدمشق][٢] بهاء الدين ابن الزكي أموراً. فاتفقت وفاة القضاة كما تقدم، فبطل عليه ما دبره من أمره، فعدل عن ذلك إلى غيره. واجتمع بالأمير علم الدين [سنجر][٣] الشجاعي، وزير الدولة، وتحدث معه في أمر بنت[٤] الملك الأشرف موسى ابن السلطان الملك العادل، وأنها أباعت أملاكها بدمشق، وأنه ثبت أنّها حالة البيع كانت سفيهة، وقد حجر عليها عمها الملك الصالح، عماد الدين إسماعيل، ويستعيد الأملاك ممن ابتاعها، ويرجع عليهم بما تسلموه من الريع، في المدة الماضية، ويشتري هذه الأملاك للخاص السلطاني، فأجابه إلى ذلك. وكتب يطلب سيف الدين أحمد السامري من دمشق، وكان قد ابتاع منها حرزما[٥]. فحضر في شهر رمضان، والسلطان إذ ذاك بغزة، فسيره إلى الديار المصرية. فطلب منه ابتياع حرزما. فادعى أنه وقفها من مدة. فعند ذلك، سطر محضر، يتضمن ابنة الملك الأشرف، كانت في مدة كذا وكذا سفيهة، وذلك في زمن البيع. ولم تزل مستمرة السفه، إلى تاريخ كذا وكذا. ثم صلحت واستحقت رفع الحجر عنها من مدة كذا وكذا. ولفَّق بيِّنَة شهدت بذلك، وثبت على أخذ قضاء القضاة بالديار المصرية، وقد شاهدت أنا هذا المحضر. ولما ثبت ذلك في وجه سيف الدين السامري، بطل البيع من أصله، ثم طولب بما تحصل له من الريع، لمدة عشرين سنة، وكان مائتي ألف درهم وعشرة آلاف درهم، بعد الاعتداد له، بنظير الثمن الذي دفعه. فاشترى منه سبعة عشر سهماً، من قرية الزنبقية، بسبعين ألف درهم، وحمل مائة ألف وأربعين ألف درهم. وفوض

---

(١) «ليرافع قاضي القضاة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٥٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٥.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٥٠.

(٤) هي ملكة خاتون تزوجها الجواد يونس بن العادل أبي بكر ثم طلقها فتزوجها المنصور محمد بن الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر فولدت له ولدين، وكان أبوها قد أوصى لها بجميع جواهره، ووقف دار السعادة وبستان النيرب، وتوفيت في عاشر شعبان سنة٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٣٥، حاشية (٢).

(٥) حَرْزَم: بالفتح ثم السكون وزاي مفتوحة وميم، اسم بليدة في وادٍ ذات نهر جارٍ وبساتين بين ماردين ودُنيسر من أعمال الجزيرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢، ص ٢٧٨.

السلطان وكالته، لناصر الدين المقدسي المذكور، فشرع في أذى أهل دمشق وأعيانها، فطلب جماعة منهم، في سنة سبع وثمانين، وهم الصدر عز الدين حمزة بن القلانسي، والصدر نصير الدين بن سويد، وشمس الدين ولد جمال الدين بن يمن، وجمال الدين ابن صصري، وطلب[١] أيضاً قاضي القضاة حسام الدين الحنفي، والصاحب تقي الدين توبة، وشمس الدين بن غانم، فصودر هؤلاء فأخذ من الصدر عز الدين بن القلانسي، فيما قيل، مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم، ومن جمال الدين بن صصري، ثلاثمائة ألف درهم، قيمة ملك ودراهم. وحمل [من][٢] نصير الدين ثلاثون ألف درهم، ومن ابن أيمن، عن قيمة أملاك، مائة ألف درهم وتسعون ألف درهم، ومن شمس الدين بن غانم خمسة آلاف درهم، ومن قاضي القضاة حسام الدين ثلاثة آلاف درهم. واعتذر أكابر الدماشقة، أنهم حضروا على خيل البريد، وأن أموالهم وموجودهم بدمشق. وسألوا أن يقرر عليهم ما يحملونه. فطلب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي [وزير الديار المصرية][٣]، جماعة من تجار الكارم[٤] وأمرهم أن يقرضوا الدماشقة مالاً يحملونه، ففعلوا ذلك. وكتب عليهم الحجج، وأعيدوا إلى دمشق، وقاموا بالمبلغ لأربابه. وإنما فعل الأمير علم الدين الشجاعي ذلك، خشية أنهم إذا توجهوا إلى دمشق، استشفعوا فيسامحوا. فأراد أن يكون ذلك في ذمتهم، لغير بيت المال. ثم عاد الدماشقة إلى دمشق، وولى جمال الدين بن صصري الدواوين بدمشق، وذلك في سنة سبع وثمانين وستمائة.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة أيضاً، توجه السلطان إلى جهة الشام، واستقل ركابه في قلعة الجبل، في يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب، ووصل إلى غزة، وأقام بتل العجول، ثم عاد إلى قلعة الجبل. وكان وصوله إليها، في يوم الاثنين ثالث عشرين، شوال من السنة.

وفيها، في تاسع عشر محرم، كانت وفاة علاء الدين ابن المالك الناصر، صاحب

---

(١) في الأصل: طولب له، والتصحيح ليستقيم المعنى.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٢.

(٤) تجار الكارم: فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن فعرف ذلك بهم، وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم. ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٧٣.

الشام، الذي كان في الاعتقال، وكان قد اعتقل، في أوائل الدولة المنصورية، في سابع عشر رمضان، سنة ثمان وسبعين وستمائة. وكان قد حصل له مرض المالنخوليا. فلما اشتد به، قتل نفسه، ومولده في سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

وفيها، في ليلة السبت، الثامن والعشرين، من شهر المحرم، توفّي الشيخ الإمام، قطب الدين(١) أبو بكر، محمد بن أحمد علي بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن ميمون القيسي الشاطبي، المعروف بابن القسطلاني، بالمدرسة الكاملية، دار الحديث بالقاهرة، وهو مدرسها، ودفن من الغد، بالقرافة الصغرى. وكانت جنازته مشهورة، رحمه الله تعالى.

وفيها، كانت وفاة الأمير سيف الدين قجقار(٢) المنصوري، نائب السلطنة بالمملكة الصفدية. وكان السلطان قد رباه في صغره، كالولد، رحمه الله تعالى.

وفيها، كانت وفاة الأمير علم الدين(٣) سنجر الباشقردي الصالحي بالقاهرة، في ليلة الثلاثاء، تاسع عشر، شهر رمضان، ودفن بالقرافة. وكان من أكابر الأمراء المقدمين بالديار المصرية. وتولى نيابة السلطنة بحلب كما تقدم، وعزل بالأمير شمس الدين قراسُنْقُر المنصوري.

واستهلت سنة سبع وثمانين وستمائة [٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م]

ذكر عزل الأمير علم الدين(٤) سنجر الشجاعي عن الوزارة ومصادرته، وتفويض الوزارة لقاضي القضاة، تقي الدين ثم إلى الأمير بدر الدين بيدرا(٥)

وفي هذه السنة، في يوم الخميس، ثاني عشر شهر ربيع الأول، عزل السلطان

---

(١) ترجمته: في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٣٩٧، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٥٩، والوافي بالوفيات للصفدي ج ٢، ص ١٣٢، رقم (٤٨٠)، وتذكرة التنبيه لابن حبيب، ج ١، ص ١١٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٨؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣١٥؛ وعقد الجمان للعيني ج ٢، ص ٣٧٥ (طبعة بولاق).
«وقد أناف على السبعين» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٨.

(٢) ترجمته في عقد الجمان للعيني، ج ٢، ص ٣٦٧، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٥٩.

(٣) ترجمته في: الوافي بالوفيات للصفدي ج ١٥، ص ٤٧٣ رقم (٦٣٨)، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٥٨.

(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٣، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٢، وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٨، ص ٢٨١، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٩٧.

(٥) هو بيدرا بن عبد الله المنصوري المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي =

الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، عن الوزارة، وصادره وأخذ أمواله. وكان سبب ذلك، أن النجيب المعروف بكاتب بكجري، أحد مستوفيي[١] الدولة، برز له، وانتدب لمرافعته، بموافقة تقي الدين بن الجوجري، ناظر[٢] الدواوين ومباطنته له، وحاققه بين يدي السلطان. وكان من جملة ما حاققه[٣] عليه، وأغرى السلطان به، أنه قال للسلطان بحضوره، إنه أباع جملة من الرماح والسلاح، الذي كان في الذخائر السلطانية للفرنج. فاعترف الأمير علم الدين بذلك. وقال: نعم أنا بعته بالغبطة[٤] الوافرة، والمصلحة الظاهرة. فالغبطة أني بعتهم من الرماح والسلاح، ما عتق وفسد، وقلّ الانتفاع به، وبعته بأضعاف قيمته، والمصلحة، ليعلم الفرنج أنا نبيعهم السلاح هواناً بهم، واستحقاراً لأمرهم، وعدم مبالاة بهم. فكاد السلطان يصغي إلى ذلك. فأجابه النجيب عن ذلك، بأن قال له يا مكثل[٥]، الذي خفى عنك أعظم مما لمحت هذا الكلام، الذي صورته أنت بخاطرك، وأعددته جواباً. وإنما الفرنج والأعداء لا يحملون بيع السلاح لهم، على ما ظننت أنت وزعمت. وإنما الذي يشيعونه بينهم وينقله الأعداء إلى أمثالهم، أن يقولوا، قد احتاج صاحب مصر، حتى باع سلاحه لأعدائه، أو ما هذا معناه من الكلام. فعند ذلك احتد السلطان عليه، غاية الاحتداد، واشتد غضبه، وأمر بمصادرة الأمير علم

= ج ٣، ص ٤٩٣، رقم ٧٣٤. انظر ترجمته أيضاً في الوافي بالوفيات للصفدي، ج ١، ص ٣٦٠: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٧٨٧؛ وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٨؛ وتشريف الأيام لابن عبد الظاهر ص ٢٨٠.

(١) مستوفيي الدولة: مفردها مستوفي، عمله ضبط كليات المال في كافة المملكة في الشام ومصر وعمله كعمل مستوفي الصحبة وليس من السهل تمييز عملها، وكان يعاونها عدد من المستوفين، منهم الكبار مثل مستوفي أصل ومستوفي مباشر، ولكل منهما أعمال مالية تخصه، ومما يدل على أهمية مستوفي الصحبة أو مستوفي الدولة أن الأول يوصف بأنه قطب ديوان المال ويطلق عليه الصاحب مثل الوزير أو ناظر المال، وأن أحد السلاطين أطلق عليه أيضاً وزير الوزراء. أما مستوفي الدولة فإنه يعني بسجل مثل كبار الدولة، انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد البقلي. ونظم دولة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد، ج ١، ص ٦٧.

(٢) ناظرُ الدواوين: هو الذي يعبر عنه بناظر الدولة. ويشارك الوزير في التصرف والنظر في المالية، وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة، ويسمى أحياناً ناظر النظار، أو الصاحب الشريف ومقره ديوان النظر، ويعاونه في أعماله متولي الديوان، وهو ثاني رتبة الناظر. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٣٧.

(٣) في الأصل: «وخانقه»، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٣، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٣٩.

(٤) الغبطة: أي الربح والكسب. انظر Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٥) المكثل: السلة والقفة Dozy. Supp. Dict, Ar.

الدين، على جملة كثيرة من الذهب، وألزمه أن لا يبيع فيما طلب منه، شيئاً من خيله وسلاحه ولا [من][١] عدة الإمرة ورختها[٢]، وأنه لا يحمل المطلوب منه إلا عيناً، ففعل ذلك. وبلغ السلطان، أن الأمير علم الدين، قد ظلم الناس وصادرهم، وأن في اعتقاله جماعة كثيرة، قد مرّ عليهم شهور وسنون، وباعوا موجودهم، وصرفوه في أجرة المترسمين[٣] عليهم. واحتاج بعضهم إلى أن استعطى من الناس بالأوراق[٤]. فرسم السلطان للأمير بهاء الدين بُعْدي[٥] الداوادار، أن يكشف أمر المصادرين، ويطالع السلطان به. فخرج إليهم وسألهم، فذكروا ما هم فيه من الضرورة والفاقة، فأعلم السلطان بخبرهم. فرسم للأمير حسام الدين طرنطاي بالكشف عنهم، فأفرج عن جميعهم. ثم أفرج عن الأمير علم الدين في يوم الأربعاء، تاسع شهر ربيع الآخر من السنة.

ولما عزل السلطان الأمير علم الدين عن الوزارة، فوضها السلطان للأمير بدر الدين بيدرا، في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول في السنة. ثم فوضت الوزارة لقاضي القضاة، تقي الدين عبد الرحمٰن ابن بنت الأعز، في يوم الخميس التاسع عشر من شهر ربيع الآخر، مضافة إلى ما بيده من قضاء القضاة، ونظر الخزائن. ولم يترك نظر الخزانة، فربما جلس في اليوم الواحد في دست الوزارة، ومجلس الحكم، وديوان الخزانة. واستمر على ذلك مدة يسيرة، ولم يوف منصب الوزارة حقه العادي، لتمسكه بظاهر الشرع الشريف. ثم توفر من الوزارة، وفوضت للأمير بدر الدين بيدرا المنصوري، وكان أمير مجلس[٦] السلطان، ثم نقل إلى الاستادارية، ثم إلى الوزارة. واستقر كذلك إلى آخر الدولة المنصورية.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٣.

(٢) الرخت: بالفارسية اسم للقماش، ومعناه هنا المتاع. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٥٨، Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) الترسيم: الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة شخص بوصفه تحت المراقبة. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٤٠، حاشية (٥).

(٤) الأوراق: جمع ورقة أي: الصك يكتبه المدين للدائن. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٤٠، حاشية (٦).

(٥) في الأصل: «عدى» بدون نقط والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٢، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤١.

(٦) أمير مجلس: كان صاحب هذه الوظيفة هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ١٩، وذكر المقريزي في موضع آخر من كتابه، أن أمير المجلس هو الذي يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره. صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٢٨، ويظهر في هذين التعريفين المتباينين أن تلك الوظيفة، كانت تشمل الناحيتين المذكورتين.

وفيها، في ليلة يسفر[١] صباحها عن يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول، وقع الحريق، في خزائن السلاح والمشهد الحسيني بالقاهرة، ثم طفىء.

وفيها، بنى السلطان الملك المنصور بابنة الأمير شمس الدين سنقر التكريتي الظاهري، وأفرج عن والدها من الاعتقال، وأمَّره بالشام، ثم فارقها السلطان، فقيل في سبب فراقه لها، إن والدها زوج أختها من أحد مماليكه، فكره السلطان، وأنف منه، وفارقها بسببه. وقيل: بل تعاطت نوعاً من الكبر وأقامت لها من الجواري سلاح دارية وجمدارية وسقاة وغيرهن، مما يتعلق بالسلطنة، ففارقها السلطان لذلك. ولما انقضت عدّتها، أمر السلطان أن تزوج لأردى أولاد الأمراء سيرة، نكاية لها. فكشف عن سير أولاد الأمراء ممن اشتهر بسوء السيرة، فوقع الاتفاق على جمال الدين يوسف بن سنقر الألفي، فزوجت منه.

وفي هذه السنة، ولي القاضي بدر الدين[٢] محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن جماعة الشافعي الكناني[٣]، قضاء القدس الشريف، [والخطابة به][٤]. وتوجه من دمشق، في رابع شوال[٥]، ووصل إلى القدس في يوم الاثنين حادي عشر الشهر. وولي الخطابة بالقدس[٦] بعد وفاة الشيخ قطب الدين أبي الذكاء عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم القرشي القدسي[٧]. وكانت وفاته رحمه الله تعالى، بالقدس الشريف في يوم الجمعة، سابع عشر شهر رمضان، من هذه السنة.

وولي بعد القاضي بدر الدين، تدريس المدرسة القيمرية، القاضي علاء الدين أحمد ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. وجلس لإلقاء الدرس بها، في يوم الأحد تاسع عشر شوال.

وفيها، في [شهر][٨] رمضان، فوض نظر الحسبة بدمشق للصدر شمس الدين بن السلعوس. ووصل توقيعه بذلك من الأبواب السلطانية، عوضاً عن شرف الدين أحمد بن

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص،٧٤١.

(٢) انظر ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٤.

(٣) «كان ذلك بعناية الأمير علم الدين سنجر الدواداري لصحبة بينهما، في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٥.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٥.

(٥) «في ثاني شهر رمضان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٥.

(٦) «أي السيرجي» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٥.

(٧) انظر ترجمته من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٤.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

عز الدين عيسى بن الشيرحي(١). وكان ابن الشيرحي قد وليها، في جمادى الآخرة من السنة.

وفيها، فوض قضاء المالكية بدمشق، لقاضي القضاة جمال الدين الزواوي.

ذكر توجه ناصر الدين بن المقدسي(٢) [إلى دمشق](٣)، وما فوض إليه من مناصبها، وما اعتمده

في هذه السنة، توجه ناصر الدين بن المقدسي، من الأبواب السلطانية، إلى دمشق. وقد فوض له السلطان الملك المنصور [وكالته](٤)، ونظر الأوقاف بدمشق والشام أجمع. ومن جملة ذلك، نظر الجامع الأموي، والبيمارستانات الثلاثة، ونظر الأشراف والأسرى، والأيتام والصدقات، والأسوار والخوانق والربط وغير ذلك. وحضر صحبته مشدان، من الأبواب السلطانية، وهما بدر الدين القشتمري، وصارم الدين الأيدمري. فتردد الناس إلى خدمته، وخافوا شره. ولزم أرباب السعايات والمرافعات بابه. وشرع يتتبع الناس فيما ابتاعوه من الأملاك، وقصد إثبات سفه من أباع، وأن يسلك في ذلك، الطريق الذي سلكه في أمر ابنة الملك الأشرف(٥)، فامتنع القضاة بدمشق، من موافقته على ذلك، وعضدهم الأمير حسان الدين نائب السلطنة. فمنع ناصر الدين القضاة الجامكية المرتبة لهم على مصالح الجامع الأموي. فلم يردهم ذلك إلا امتناعاً من موافقته على أغراضه. وشرع في عمارة الأملاك السلطانية، واستجد حوانيتاً على جسر باب الفراديس من الجانبين. وأصلح الجسر، قبل عمارة الحوانيت. ثم أصلح باب الجابية الشمالي، وكان مستقلاً فهدمه وعمره. ولم يكن له حسنة، غير إصلاح هذين الجسرين والباب، ومساطب الشهود بباب الجامع.

وفي هذه السنة، في شهر رمضان المعظم، كبس بدر بن النفيس النصراني الكاتب بدمشق، وعند امرأة مسلمة وجماعة، وهم يشربون الخمر. فطولع الأمير حسام الدين نائب السلطنة بدمشق المحروسة بذلك. فأمر أن يحرق النصراني، فبذل في نفسه جملة من المال، وسأل مخدومه الأمير سيف الدين كجكن في أمره، فلم يجب نائب السلطنة

---

(١) «متحدثاً في وكالة السلطان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤١.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧١.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧١.

(٥) هي بنت الملك المنصور قلاوون، ورد خبر وفاتها في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٣١، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٥، حاشية (٣).

إلى إيفائه. وأضرمت له نار بسوق الخيل، وألقي فيها. وأما المرأة، فقطع بعض أنفها، وشفع فيها فأطلقت.

وفي هذه السنة، في مستهل رجب، توفيت الست غازية خاتون زوجة الملك السعيد، ودفنت عند والدتها، بالقبة الصالحية، بجوار مشهد السيدة نفيسة، بظاهر القاهرة.

ذكر وفاة الملك [الصالح](١) وتفويض ولاية العهد إلى الملك الأشرف

في هذه السنة، في يوم الجمعة رابع شعبان، توفي الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور [بقلعة الجبل](٢)، وكانت علته دوسنطاريا كبدية. وصلى عليه بالقلعة، قاضي القضاة، تقي الدين ابن بنت الأعز، وصلَّى خلفه والده السلطان الملك المنصور، وأخوه الملك الأشرف، وصلى عليه خارج القلعة، قاضي القضاة معز الدين الحنفي. ودفن بتربته المجاورة لمشهد السيدة نفيسة. وحصل لوالده السلطان عليه من الآلم، ما لا مزيد عليه. وخلف ولداً واحداً، من زوجته منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكيه، وهو الأمير مظفر الدين موسى، وله أخبار، ترد إن شاء الله تعالى.

ولما مات الملك الصالح، فوض السلطان ولاية العهد بعده، لولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل. وركب بشعار السلطنة، في حادي عشر شعبان من قلعة الجبل، إلى باب النصر. وشق المدينة، وخرج من باب زويلة، وعاد إلى القلعة، والأمراء في خدمته، وكتب بذلك إلى الشام، وسائر البلاد، وخطب له بولاية العهد، بعد أبيه على عادة أخيه الصالح. وكتب تقليده فتوقف السلطان على الكتابة عليه. وسنذكر ذلك، إن شاء الله تعالى، في أخبار الملك الأشرف(٣).

وفي هذه السنة، توفي الأمير بدر الدين الأيدمري الصالحي، في ليلة يسفر صباحها عن يوم الاثنين، خامس المحرم. وتوفي الأمير فخر الدين إياز، المعروف بالمعزي الحاجب، وفي ليلة يسفر صباحها، عن يوم الجمعة، العشرين من شهر ربيع

(١) ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٤٦، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٣١؛ وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦٩ ـ ٧٠؛ وتذكرة التنبيه ج ١، ص ١١٥، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ٩٨، وعقد الجمان للعيني ج ٢، ص ٣٧٧، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣١٨.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣١٨.

(٣) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٠.

الأول، وذلك عقيب عوده من الحجاز. وكان رحمه الله تعالى، من حسنات الدهر، وكانت الملوك تعتمد عليه في المهمات الجليلة. وتوفي الأمير سيف الدين[(١)] بلبان العلائي الصالحي النجمي، المعروف بقول الله كريم الدين، رحمه الله تعالى، في يوم الثلاثاء سادس عشرين جمادى الآخرة منها، ودفن بتربته بالقرافة الصغرى. وهو خوشداش السلطان الملك المنصور، وسنقر الأشقر وغيرهما، كانوا كلهم مماليك الأمير علاء الدين اقسنقر الساقي العادلي. وكان السلطان يرعى له حق الخوشداشية ويكرمه. ويزوره إذا مرض في منزله، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي القاضي الخطيب، فخر الدين[(٢)] عبد العزيز ابن قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمٰن بن السكري. وكانت وفاته بالمدرسة المعروفة بمنازل العز بمصر، في رابع عشرين شوال. ومولده في سنة أربع وستمائة؛ رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثمان وثمانين وستمائة
[٦٨٨ هـ = ١٢٨٩ م]

في هذه السنة، في المحرم، توجه السلطان إلى الشام، وافتتح طرابلس، وقد ذكرنا ذلك في الفتوحات.

ولما افتتح السلطان طرابلس[(٣)]، جهَّز الأمير حسان الدين طُرَنْطَاي، إلى المملكة الحلبية، بطائفة من العسكر. [وكان قد وصل إلى السلطان][(٤)]، وهو بطرابلس؛ رسل صاحب سيس، يسألون مراحم السلطان، ويطلبون مراضيه. فطلب منهم السلطان تسلم مرعش، وبهسنا والقيام بالقطيعة[(٥)] على العادة، وخلع عليهم وأعادهم. ورحل عن طرابلس ونزل على حمص، وأقام بها أيَّاماً. فعادت رسل سيس بهدية كثيرة، واعتذارات عن تسلم مرعش وبهنسا، وبذل جملة كثيرة من المال في كل سنة. فرحل السلطان عن حمص ودخل إلى دمشق، في يوم الاثنين خامس جمادى الأولى.

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٤.
(٢) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٥.
(٣) انظر ذكر بعض أخبار طرابلس الشام منذ افتتحت في أيام أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى حين افتتحها الملك المنصور، في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٦ ـ ٧٧.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٨١.
(٥) القطيعة: وهي ما يقرره السلطان من غرامة حربية أو غيرها وما يفرضه على ولاية أو ناحية من المال سنوياً. انظر Dozy. Supp. Dict, Ar. وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٢٤٦، حاشية (١).

ذكر ما اتفق بدمشق من المصادرات

كان السلطان قد استصحب [معه][(١)] في هذه السفرة، الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، بعد عزله من الوزارة. فلما عاد إلى دمشق من طرابلس، أمره أن يتحدث في تحصيل الأموال بدمشق، ومكَّنه من ذلك، فأوقع الحوطة، على الصاحب تقي الدين توبة. فوجد له أخشاباً كثيرة وسكَّراً، فطرح ذلك على أهل دمشق، بأضعاف قيمته. فكان يحفظ لمن يطرح عليه منه الربع فما دونه. فحصل من ذلك تقدير خمسمائة ألف درهم. وكان غرضه بذلك، أن يطلع السلطان، على أن تقي الدين توبة قد حصل الأموال الكثيرة، لعداوة كانت بينهما. ثم شرع في مصادرات الناس، فهرب أكثر الدماشقة إلى القرى والضياع، واختفوا منه. وطلب نجم الدين عباس الجوهري، بسبب ضيعة كان قد اشتراها من ابنه الملك الأشرف، بالبقاع العزيز، فطولب بما أخذه من ريعها، فكان خمسمائة ألف درهم، فحمل جوهراً، قُوّم له، بثمانين ألف درهم. فشدّد عليه الطلب فجاء إلى مدرسته التي أنشأها بدمشق، وحفر في دهليزها، وأخرج خونجاه[(٢)] ذهب، مرصعة بالجوهر، وعليها قرقة مرصعة، فقوم ذلك بأربعمائة ألف درهم. وسبك الذهب، وكان سبعة آلاف دينار، ونقل الجوهر إلى الخزانة.

وأظهر السلطان للأمراء، أن إقامته بدمشق، لانتظار الأمير حسام الدين طرنطاي. فوصل في سابع عشر شهر رجب. وتلقاه السلطان بالعساكر، وأقام بدمشق، إلى يوم الخميس ثاني شعبان. فتوجه في هذه اليوم إلى الديار المصرية، بعد أن حصل الإجحاف بأهل دمشق، واستصحب تقي الدين توبة مقيَّداً. فلما وصل إلى حمراء بيسان، مرَّ عليه الأمير حسام الدين طرنطاي، والأمير زين الدين كتبغا، وهو الزردخاناه، فسبهما أقبح سب، وكانت هذه عادته، وذكر ما فُعل به، وهما يضحكان من سبه لهما. فتوجها إلى السلطان، وسألاه في أمره، وضمناه فأفرج عنه. وأخذاه عندهما. فتألم الأمير علم الدين الشجاعي لذلك ألماً شديداً. وكان قد كتب إلى نابلس والقدس وبلد الخليل والبلاد الساحلية، يطلب الولاة والمباشرين، وأن يجهزوا إلى غزة. فلما حصل الإفراج عن تقي الدين توبة، غضب الشجاعي وأظهر حرداً، [وامتنع من الحديث في المصادرين][(٣)]، فكان ذلك من الألطاف بمن طُلِب. ووصل السلطان إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٨١.

(٢) خونجاه: لفظ فارسي معناه مائدة صغيرة. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٨٢.

وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء ثامن[١] عشري شعبان، وقت الظهر توفي بدمشق الملك المنصور شهاب الدين محمود ابن الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل.

وفيها، كانت وفاة الأمير علاء الدين الكبكي بالقدس الشريف، في شهر رمضان، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع وثمانين وستمائة [٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م]

في هذه السنة، في أولها توجه الأمير حسام الدين طُرَنْطَاي نائب السلطنة [بالديار المصرية][٢]، ومعه جماعة من الأمراء والعساكر، إلى الوجه القبلي في مصر [المحروسة][٣]. فوصل إلى منزلة طوخ[٤] دمنوا، قبالة مدينة قوص. وتصيّد في هذه السفرة، ومهد البلاد، وقتل جماعة من العربان، وحرق بعضهم بالنار، وأخذ خيوطهم وسلاحهم ورهائن أكابرهم، [وعاد إلى قلعة الجبل سالماً][٥].

وفيها، في شهر ربيع الأول، استدعى السلطان الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، [شاد الدواوين][٦]، من دمشق، على خيل البريد. فلما وصل إلى بابه بقلعة الجبل [بمصر المحروسة][٧] أكرمه، وقال له: اعلم أنني ما اشتريتك، وأمّرتك، ووليتك شاد الدواوين بالشام، إلَّا ظناً مني، أنك تنصحني وتحصل أموالي، وتنهض في مصالح دولتي، فالتزم بتحصيل الأموال. فخلع عليه، وفوّض له، مضافاً إلى شدّ[٨] الشام، الحصون بسائر الممالك الشامية والساحل، وديوان الجيش. فعاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق، في يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الآخر، وتعاظم في نفسه وكثر تجبره.

---

(١) في الأصل: «من» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٨٥.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠.
(٤) طوخ: اسم لبلاد كثيرة بالديار المصرية، والمقصود منها هنا طوخ البلاص، وهي قرية بمديرية قنا بمركز قوص على الشط الغربي للنيل بين البلاص ونقاده. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٥١، حاشية (١).
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠. وشاد الدواوين سبق التعريف به.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠.
(٨) أي شد الدواوين بالشام.

وفيها، أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين جرمك الناصري(١)، وذلك في جمادى الأولى.

وفيها، جهز السلطان الأمير سيف الدين التقوي، إلى طرابلس، واستخدم معه ستمائة فارس بطرابلس. وهو أول جيش استخدم بها. وكان الجيش قبل ذلك بالحصون.

ذكر إيقاع الحوطة على ناصر الدين المقدسي(٢) وشنقه

وفي هذه السنة، في جمادى الآخرة، برز أمر السلطان بالكشف على ناصر الدين بن المقدس، وكيله بالشام. فورد المرسوم إلى دمشق، في ثاني عشرين من الشهر، فكشف عليه، فظهرت له مخازي(٣) كثيرة. وسر الناس بذلك، فرسم عليه، وطولع السلطان بما ظهر عليه. فورد الجواب، في يوم الجمعة، تاسع عشر شهر رجب، أن يستخرج منه، ما التمسه، فطولب بذلك، وضرب بالمقارع، في يوم ورود المرسوم. وشرع في بيع موجوده، وحمل ثمنه، واستمر كذلك، وهو بالمدرسة العذراوية في الترسيم، إلى يوم الخميس ثاني شعبان. فورد المرسوم السلطاني، يطلبه إلى الأبواب السلطانية. فلما اجتمع الناس، بكرة نهار الجمعة، دخلوا عليه، فوجدوه قد شنق(٤). فحضر أولياء الأمر والقضاة والشهود، وشاهده(٥) على تلك الصورة، وكتموا محضراً بذلك. ودفن، واستراح الناس من شره.

وفي هذه السنة، رسم السلطان لنائب السلطنة(٦) بالشام، والأمير شمس الدين الأعسر، لعمل مجانيق(٧)، وتجهيز زردخاناه، لحصار عكا. فتوجه الأمير شمس الدين [سنقر](٨) الأعسر، إلى وادي مربين، وهو بين جبال عكار وبعلبك، وفيه من الأخشاب وأعواد المجانيق، أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد مثلها في غيره. وأخبرني(٩) جماعة أثق

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥١.

(٢) انظر حادثة شنق ناصر الدين في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٣، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٠.

(٣) «أفعال منكرة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٣.

(٤) «وجد في يوم الجمعة ثالث شعبان وقد شنق نفسه» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٣.

(٥) الصواب: «وشاهدوه».

(٦) المراد هنا الأمير حسام الدين لاجين. تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٣.

(٧) كان بالشام خزائن للسلاح تعمل بها المجانيق وينقل من الشام وتعمر به البلاد والقلاع. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٩٧.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٣.

(٩) وردت هذه الرواية بصيغة الغائب في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٣.

بأخبارهم، في سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وأنا يوم ذاك. بالقرب من هذا الوادي، أن به عوداً قائماً طوله أحد وعشرون ذراعاً، بذراع العمل، ودوره كذلك، وأنهم حققوا ذلك، بأن صعد رجل إلى أعلاه، ودلَّى حبلاً إلى الأرض، من أعلاه، وأداروا الحبل عليه، فجاء سواء، لا يزيد ولا ينقص. فتوجه الأمير شمس الدين إلى هذا الوادي، وقرر على ضياع المرج والغوطة بدمشق مال، من ألفي درهم إلى خمسمائة درهم، كلَّ ضيعة بحسب متحصلها، لأجرة جر أعواد المجانيق، وكذلك ضياع بعلبك والبقاع، وجنى المال، ونال أهل بعلبك والبقاع شدة عظيمة بسبب ذلك. وبينا الأمير شمس الدين بالوادي المذكور، وهو مهتم في قطع الأعواد وجرها، سقط عليه ثلج عظيم، فركب خيله، وخرج منه، وأعجله كثرة الثلج وترادفه، عن نقل أثقاله وخيامه، فتركها ونجا بنفسه، ولم يلو على شيء. ولو تأخر بسببها، واشتغل بحملها هلك هو ومن معه، وارتدمت أثقاله بالثلوج، وبقيت تحتها إلى فصل الصيف، وتلف أكثرها[١].

وفي هذه السنة أيضاً، فوض السلطان تقدمة العسكر بغزة والأعمال الساحلية، إلى الأمير عز الدين أيبك الموصلي، عوضاً عن الأمير شمس الدين أقسنقر كرتيه، فتوجه إليها من دمشق، في رابع شهر رجب.

وفيها، في شعبان، اشتد الحر بحماه، حتى شوي اللحم على بلاط الجامع، على ما حكاه الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه. ووقعت نار في دار صاحب حماه فاحترقت، وأرسل الله ريحاً واشتدت، فقويت النار واستمرت يومين وبعض الثالث، وما قدر أحد أن يتقدم إليها، فاحترقت الدار بما فيها، وكان صاحب حماه في الصيد.

وفيها، في شعبان، خرج مرسوم السلطان إلى الشام، أن لا يُستخدم أحد من أهل الذمة، اليهود والنصارى، في المباشرات الديوانية[٢]، فصرفُوا منها. وورد مثال[٣] بالإفراج عن المعتقلين.

وفيها، ثار جماعة من الفرنج بعكا، فقتلوا جماعة من تجار المسلمين بها، كانوا

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٤.

(٢) المباشرات الديوانية: ممارسة الأعمال الحكومية Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) المثال: الجمع مثالات: وهو أول كان يكتب من الأدوات الرسمية إيذاناً بإعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات الخالية. وكان المثال يخرج من ديوان الجيش ويقدمه ناصر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان النظر لتسجيله وحفظه، ويكتب بذلك مربعة فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة. ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء، فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع، ويتخذ هذا المنشور الآخر أدوار تلك العملية. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٩٧.

قدموا للمتجر، تمسكاً بالهدنة، وذلك في شعبان. فادعى أهل عكا، أن ذلك إنما فعله الفِرنج الغُرْب، وأنه ليس برضاهم. فكان ذلك من أكبر الأسباب التي أوجبت أخذ عكا، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة قاضي القضاة نجم الدين المقدسي الحنبلي وتفويض القضاء بدمشق بعده للشيخ شرف الدين المقدسي

وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء، ثاني عشر جمادى الأولى، توفي قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد ابن قاضي القضاة شمس الدين أبي محمد عبد الرحمٰن المقدسي، قاضي الحنابلة بدمشق. فعين الأمير حُسام الدين لاجين نائب السلطنة ثلاثة، وكتب في حقهم إلى السلطان، وهم الشيخ زين الدين بن المنجا، والشيخ تقي الدين سليمان، والشيخ شرف الدين الحسن. فورد المثال السلطاني، في غرة جمادى الآخرة، لنائب السلطنة، أن يفوض القضاء بدمشق للقاضي شرف الدين الحسن ابن الخطيب شرف الدين أبي العباس أحمد بن أبي عمر بن قدامة المقدسي. ففوض إليه نائب السلطنة القضاء، حسب الأمر السلطاني. وكُتب تقليده عن نائب السلطنة، وخلع عليه في يوم الاثنين تاسع الشهر. وجلس بجامع دمشق، وحكم بين الناس، على عادة القضاة قبله.

وفيها، توفي الشيخ الإمام العالم، رشيد الدين أبو حفص عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقي الشافعي. وكانت وفاته بالمدرسة الظاهرية بدمشق، في يوم الأربعاء، رابع شهر المحرم، ودفن بمقابر الصوفية. ويقال: إنه وجد مخنوقاً، وكان من العلم والفضيلة بالمكان المشهور، وشهرته بذلك تغني عن وصف محاسنه، رحمه الله تعالى.

وفيها، في ليلة الأحد الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، توفي الطواشي شرف الدين مختص[(١)] الظاهري، مقدم المماليك السلطانية، في الدولة الظاهرية والسعيدية والمنصورية، ودفن من الغد بالقرافة، وكان مهيباً سَلطاً على المماليك السلطانية، مبسوط اليد فيهم، ذا حرمة وافرة، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، رحمه الله

كانت وفاته، رحمه الله تعالى، بمنزلة مسجد تبر[(٢)] بظاهر القاهرة [المحروسة][(٣)]،

---

(١) «شرف الدين بن عبد الله الظاهري» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٥.

(٢) «مسجد التين» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٦. وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٧.

وهي المنزلة الأولى، وذلك في العشر الأخير من شوال[١]، فدامت به علته إلى أن مات[٢]، رحمه الله تعالى، وحمل إلى قلعة الجبل ليلاً، واستمر بها إلى آخر يوم الخميس غرة المحرم سنة تسعين وستمائة. [ففي هذا اليوم قال][٣]: أرسل السلطان الملك الأشرف، إلى التربة المنصورية بالقاهرة جملة يتصدق بها. فلما كان في ليلة الجمعة المسفرة عن ثاني المحرم، نقل رحمه الله تعالى، من القلعة إلى تربته التي أنشأها بالقاهرة وأدخل من باب البرقية، وصُلّي عليه بالجامع الأزهر، ثم حمل منه إلى التربة. ونزل قبره الأمير بدر الدين بيدرا، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي. وفرق في صبيحة ذلك اليوم، جملة من الذهب على القراء. وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين[٤] وأربعة عشر يوماً.

وخلَّف من الورثة؛ أولاده الخمسة، وهم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وهو الذي ملك بعده، والسلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد، وهو سلطان هذا العصر، والأمير أحمد ـ مات في سلطنة أخيه الملك الأشرف ـ وابنتان، وهما دار مختار الجوهري، واسمها التطمش، ودار عنبر الكمالي، وزوجته والدة السلطان الملك الناصر.

ذكر تسمية نواب السلطان الملك المنصور ووزرائه

ناب عن السلطان الملك المنصور، رحمه الله تعالى، بأبوابه الشريفة في أول سلطنته، الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي، ثم استعفى كما تقدم. واستقر في نيابة السلطنة، والأمير حسام الدين طُرَنْطَاي المنصوري، واستمر إلى أن كانت وفاة السلطان. وناب عن السلطان بدمشق، بعد استعادتها من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، الأمير حُسام الدين لاجين السلحدار المنصوري، المعروف بالصغير. وناب عن السلطنة بالمملكة الحلبية في ابتداء الدولة، الأمير جمال الدين أقش الشمسي، إلى أن مات، ثم الأمير علم الدين سنجر الباشقردي إلى أن عزل، وولي الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكان[٥] دار المنصوري إلى آخر الدولة. وناب عن السلطنة بحصن الأكراد، الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري، وبالكرك الأمير عز الدين أيبك الموصل، ثم

---

(١) «في العشر الأخير من شوال نزل بمخيمه بمسجد التين بظاهر القاهرة المحروسة وفي المنزلة الأولى» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٧.

(٢) «وتوفي يوم السبت سادس ذي القعدة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٦، وفي البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٣٥، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٧.

(٤) «وثلاثة أشهر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٢٧٦.

(٥) يرسم أيضاً الجوكندار.

الأمير ركن الدين بيبرس الداواداري[١] المنصوري. وناب عن السلطنة بالمملكة الصفدية في ابتداء الدولة، الأمير علاء الدين الكبكي وغيره، وتقدم ذكرهم. وناب عن السلطنة بغزة وحمص، جماعة قد تقدم ذكرهم.

وأما الوزراء، فوزر للسلطان، رحمه الله تعالى، [ستة نفر][٢]، أربعة من أرباب الأقلام، وهم الصاحب برهان الدين الخضر[٣] السنجاري مرة بعد أخرى، والصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان، والصاحب نجم الدين حمزة بن محمد الأصفوني، وقاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمٰن ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وقد تقدم ذكر ولايتهم في أثناء أخبار الدولة. ومن الأمراء [اثنان][٤] الأمير علم الدين سنجري الشجاعي، كان يتولى شد الدولة المنصورية وتدبيرها. فإذا شغرت الوزارة من متعمم، جلس مكان الوزير، وكتب على عادة الوزراء، وولّى وعزل، واستخدم وصرف. ثم استقل بالوزارة، بعد وفاة الصاحب نجم الدين حمزة بن الأصفوني. وكان في وزارته شديداً على المباشرين. قد أوقع الرعب في قلوبهم، حتى كرهه الخاص والعام، وتمنوا زوال الدولة بسببه، واستمر في الوزارة إلى أن عزل كما تقدم. وولي الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري إلى آخر الدولة. وولي القضاء في الأيام المنصورية، بالديار المصرية والشامية، جماعة قد تقدم ذكرهم.

وملك السلطان الملك المنصور، من المماليك الأتراك والمغل وغيرهم، ما لم يملكه ملك بالديار المصرية في الإسلام قبله. فيقال إن عدتهم بلغت اثني عشر ألفاً، وتأمَّر منهم في الأيام المنصورية جماعة كثيرة. ومنهم من ناب عن السلطنة الشريفة في الممالك الشامية السكة باسمه، على ما نذكر ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى. وبقايا المماليك المنصورية إلى الآن، هم أعيان الأمراء[٥] في وقتنا هذا.

ولما مات الملك المنصور، ملك بعده ولده الملك الأشرف.

---

(١) «الدوادار» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٦، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٥، والدوادار: هو الذي يقرأ للسلطان كتب الأسرار الواردة عليه من الملوك وهو الذي يجيب عنها ويسفر بينه وبين وزرائه وكتابه. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج ١، ص ٢٣٧.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٦.

(٣) في الأصل: «خضر» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٦.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) «هم أعيان الأمراء في دولة الناصر محمد بن قلاوون». تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٨، وذكر المقريزي: أن المنصور قلاوون قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الآص والجركس، جعلهم في أبراج القلعة، وسماهم البرجية، وكان جميل الصورة، مهيباً، عريض المنكبين، قصير العنق: انظر السلوك ج ١، ص ٧٥٦.

ذكر أخبار السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل[1] ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي

وهو الثامن من ملوك دولة الترك بالديار المصرية ملك الديار المصرية والبلاد الشامية، وما أضيف إلى ذلك من الممالك الإسلامية والأقطار الحجازية، بعد وفاة والده السلطان الملك المنصور رحمه الله تعالى.

وكان جلوسه على تخت السلطنة بقلعة الجبل المحروسة، في يوم الأحد المبارك السابع من ذي القعدة، سنة تسع وثمانين وستمائة، ولم يختلف عليه اثنان، لأن الأمراء، أرباب الحل والعقد، ونواب السلطنة بسائر الممالك، مصراً وشاماً، مماليك والده، ومن عداهم من الأمراء الصالحية، لم يظهر منهم إلا الموافقة والطاعة والانقياد، والمبادرة إلى الحلف. وقد تقدم أن السلطان الملك المنصور كان قد جعل له ولاية العهد من بعده، بعد وفاة أخيه الملك الصالح علاء الدين علي، وركّبه بشعار السلطنة، وتأخرت كتابة تقليده، وطلب ذلك مرة أخرى، والسلطان يتوقف في الإذن بكتابة التقليد، ثم تحدث مع السلطان الملك المنصور فرسم بكتابته فكتب - وقد شرحنا مضمونه في الجزء الثاني من كتابنا هذا[2] - فلما قدم إلى السلطان، ليكتب عليه، توقف وأعاده إلى القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء، ولم يكتب عليه. فأرسل الملك الأشرف إلى القاضي فتح الدين، يطلب التقليد، فاعتذر أنه لم يقدمه للعلامة. وقدَّمه ثانياً إلى السلطان، فردّه. وقال: يا فتح الدين: أنا من أولي خليلاً على المسلمين. ثم أرسل الملك الأشرف يطلبه، فخشي [فتح الدين][3] أن يقول إن السلطان امتنع من الكتابة عليه، واعتذر أيضاً. وخاطب السلطان في معناه، وقدمه إليه، فرماه به[4]. وقال:

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٦، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٣٦٥، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٠٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٢٢؛ وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٨، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٤٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣؛ والحوادث الجامعة لابن الفوطي، ص ١٢١، ودول الإسلام للذهبي ص ٣٨٤، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤٠٦.

(٢) انظر الجزء الثامن، صفحة ١١١، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣١.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٨.

(٤) «ورمى إليه التقليد وتم أمره» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣.

قد قلت لك أنني ما أولي خليلاً على المسلمين. فأخذ التقليد بغير علامة، وخرج. واتفق في خلال ذلك، خروج السلطان ووفاته.

فلما تسلطن الملك الأشرف، طلب فتح الدين بن عبد الظاهر، وقال له: أين تقليدي، فأقام وأحضره إليه، وهو بغير علامة السلطان، واعتذر أن السلطان الملك المنصور، شغلته الحركة والفكرة في أمر العدو عن الكتابة عليه. فقال له السلطان الملك الأشرف: يا فتح الدين، إن السلطان امتنع أن يعطيني، فأعطاني الله. ورمى له التقليد، فكان عنده بغير علامة. ثم عند ابنه المرحوم علاء الدين، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

قال بعض الشعراء يمدحه: [من السريع]

فداك[١] يا عادل يا منصف	أرجى من الغيثِ الذي يوصف
أغنى عباد الله عن نيلهم	فجودك البحر الذي يعرف
أطاعَكَ الناسُ اختياراً وما	أذلّهم رمح ولا مرهف
كم ملكت مصر ملوكٌ وكم	جادوا وما جادوا ولا أسرفوا[٢]
حتى أتى المنصورُ أنسى الورى	بفعلِهِ سائر ما أسلفوا
ما قدموا مثل تقاه ولا	مثل الذي خلفه خلفوا
فته على الأملاك فخراً بما	نلت فأنت الملك الأشرف

قال: وخلع الملك الأشرف على سائر الأمراء وأرباب المناصب. ثم ركب بشعار السلطنة، في يوم الجمعة بعد الصلاة، الثاني عشر من الشهر. وسيَّر بالميدان الأسود؛ والأمراء والعساكر في خدمته. وطلع إلى قلعة الجبل، قبل أذان العصر. ويقال إن الأمير حسام الدين طرنطاي، كان قد قصد اغتيال الملك الأشرف، في يوم ركوبه، وأنه عزم على قتله عند ابتداء التسيير، إذا قرب من باب الإسطبل، وأن السلطان شعر بذلك. فلمّا سيّر السلطان أربعة ميادين[٣]، والأمير حسام الدين ومن وافقه عند باب سارية. فلما انتهى السلطان إلى رأس الميدان، وقرب من باب الإسطبل، وفي ظن الناس أنه يعطف

(١) في الأصل: «بذاك» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٩.

(٢) في الأصل: كم ملكت مصر ملوكاً ملوك، وكم جادوا وما جادوا ولا أسرفوا. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٩.

(٣) الميادين: جمع ميدان ومعناه هنا تسيير الخيل وترقيصها في الميدان، وقد ذكر Dozy. Supp. Dict, Ar أن جمعه الاصطلاحي موادين، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٥٧، حاشية (١).

إلى جهة باب سارية. ليكمل التسيير على العادة، عطف إلى جهة القلعة، وأسرع وعبر من باب الإسطبل[1]. ولما عطف، ساق الأمير حسام الدين ومن معه. ملء الفروج، ليدركه. فما وصل إلى باب الإسطبل. إلا والسلطان قد دخل منه، وحف به مماليكه وخواصه، فبطل على طرنطاي ما دبره. وبادر السلطان بالقبض عليه.

ذكر القبض على الأمير حسام الدين طُرُنْطَاي وقتله وعلى الأمير زين الدين كتبغا واعتقاله

لما استقل السلطان الملك الأشرف في السلطنة، وقف الأمير حسام الدين طُرُنْطَاي؛ بين يديه في نيابة السلطنة، على عادته مع السلطان الملك المنصور أبيه. وكان الملك الأشرف يكره الأمير حسام الدين طرنطاي أشد الكراهية لأمور: منها ما كان يعامله به من الاطراح لجانبه، والغض منه، وإهانة نوابه[2]، وأذى من ينسب إليه. ومنها ترجيح جانب أخيه، الملك الصلح علاء الدين علي رحمه الله تعالى[3] على جانبه، والميل إليه. ولما مات الملك الصالح، وانتقلت ولاية العهد بعده، إلى الملك الأشرف مال إليه من كان يميل عنه، وتقرب إلى خاطره من كان يجفوه[4]. ولم يزد ذلك الأمير حسام الدين إلا تمادياً في الإعراض عنه، وجرياً على عادته، في أذى من ينتسب إليه. وأغرى السلطان الملك المنصور، بناظر الديوان الأشرفي، شمس الدين محمد بن السلعوس، حتى ضربه وصرفه على ما نذكر ذلك، وعامله بمثل هذه المعاملة، والملك الأشرف لا يستطيع دفع ذلك، لتمكن الأمير حسام الدين، من السلطان الملك المنصور، ويكتم ما عنده منه، ويصبر من ذلك، على ما لا يصبر مثله على مثله[5].

فلما ملك السلطان الملك الأشرف، تحقق الأمير حسام الدين أنه يحقد عليه أفعاله، وأن خاطره لا يصفو له. فشرع في إفساد نظامه سِرًّا، وإخراج الأمر عنه، وتحقق السلطان ذلك، ووشى به بعض من باطنه. فلما نزل السلطان من الركوب في يوم الجمعة، الثاني عشر من ذي القعدة، استدعاه فدخل عليه، وهو يظن أن أحداً لا يجسر أن يقدم عليه، لمهابته في القلوب، ومكانته من الدولة، وظن أن السلطان لا يبادره بالقبض عليه. ولما استدعاه [السلطان][6]، نهاه الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، عن

---

(١) ورد برسم الاصطبل أيضاً.
(٢) ورد في السلوك للمقريزي، ج،١ ص ٧٥٧، «بل جرى على عادته في أهنة من ينسب إليه.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٩.
(٤) «يحقره» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٩.
(٥) انظر تفاصيل ذلك في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٥٨.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

الدخول على السلطان وحذَّره، وقال له: والله أخاف عليك منه، فلا تدخل عليه، إلا في عصبة وجماعة، تعلم أنهم يمانعون عنك أن لو وقع أمر. وقال له: ـ فيما حكي لي ـ والله لو كنت نائماً، ما جسر[١] خليل ينبهني. وقام ودخل على السلطان، فحمل زين الدين كَتْبُغَا الإشفاق عليه، أن دخل معه. فلما صار طُرَنْطَاي بين يدي السلطان، وكان قد قرر مع الأمراء الخاصكية[٢] القبض عليه، فبادروا إلى ذلك، وقبضوا على يديه، وأخذوا سيفه. فصرخ كتبغا، وجعل يقول: «إيش عمل، إيش عمل»، يكرر ذلك. فأمر السلطان بالقبض على كتبغا، فقبض عليه، ثم أفرج عنه بعد ذلك.

وأما طرنطاي، فإنه لما قبض عليه، أمر بقتله، فقتل، وقيل: إنه عوقب بين يدي السلطان حتى مات. وقيل كانت وفاته في ثامن عشر ذي القعدة، وبقي ثمانية أيام بعد وفاته. ثم أخرج من القلعة، ليلة الجمعة سادس عشرين الشهر، وقد لفّ في حصير، وحمل على جنوية[٣]، إلى زاوية الشيخ أبي السعود. فغسله الشيخ عمر السعودي، وكفنه ودفنه، خارج الزاوية. وتوفي كذلك، إلى أن ملك الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، فأمر بنقله إلى تربته التي أنشأها بالقاهرة، بمدرسته التي بجوار داره بخط المسطاح[٤].

ولما قبض السلطان عليه، ندب الأمير علم الدين سنجر الشجاعي لإيقاع الحوطة على موجوده، واستصفاء أمواله، لما كان بينهما من العداوة. فنزل الشجاعي إلى دار طرنطاي التي بالقاهرة، وحمل ما في خزانته وذخائره. وطلب ودائعه، ونبش مواضع من داره، وشعثها، وحمل من أمواله إلى الخزائن وبيت المال جملة عظيمة، يقال إن جملة ما حمل من ماله، ستمائة ألف دينار عيناً، ومن الدراهم سبعة عشر ألف رطل ومائة رطل بالمصري، ومن العدد الأقمشة والخيول والمماليك ما لا يحصر قيمته كثرة. ويقال: إنه كان قد جمع ذلك وادّخره لطلب السلطنة لنفسه. فلم ينل ما تمناه[٥].

ووقف الأمير علم الدين الشجاعي، بعد القبض على طرنطاي، أياماً قلائل، من

---

(١) في الأصل: «جلس» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٠.

(٢) الخاصِكية: هم الذين يدخلون على السلطان في أوقات خلواته وفراغه، ويركبون لركوبه ليلاً ونهاراً، ويتميزون بسيوفهم وملابسهم الطرز المزركش. ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٥.

(٣) جنوية: النقالة التي تحمل الجرحى والموتى Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٤) ذكر ابن الفرات أن داره تقع بجوار مدرسته الحسامية تجاه سوق الجواري داخل القاهرة المحروسة. انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠١.

(٥) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠١.

غير أن يخلع عليه خلع النواب، ولا كتب تقليده، ولم يشتهر ذلك. ثم فوضت النيابة، للأمير بدر الدين بيدرا.

ذكر تفويض نيابة السلطنة الشريفة للأمير بدر الدين بيدرا المنصوري

لما قبض على الأمير حسام الدين طُرُنْطَاي كما تقدم، قام الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، بوظيفة النيابة أياماً قلائل، كما ذكرناه. ثم فوض السلطان الملك [الأشرف][1] النيابة عن السلطنة، للأمير بدر الدين بيدرا المنصوري. وخلع عليه، على عادة نواب السلطنة، وأجرى عليه، ما كان جارياً على الأمير حسام الدين طرنطاي، من الإقطاعات وغيرها.

وفي هذه السنة، رسم السلطان بطلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر [المنصوري][2]، شاد الدواوين بالشام، فوصل البريد إلى دمشق يطلبه، في رابع ذي الحجة منها، فتوجه إلى الأبواب السلطانية، في ثامن الشهر [المذكور][3]. ولما وصل إلى بين يدي السلطان، ضربه مرة بعد أخرى، وبقي في الترسيم، إلى أن حضر الصاحب شمس الدين بن السلعوس من الحجاز [الشريف][4] فسلّمه إليه. وولّي شاد الدواوين بدمشق[5]، الأمير سيف الدين طوغان المنصوري. وأعاد السلطان الصاحب تقي الدين توبة التكريتي إلى وزارة الشام. فوصل إلى دمشق، في خامس المحرم، سنة تسعون وستمائة. وأوقع الحوطة على موجود الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، حسب المرسوم السلطاني.

وفيها[6]، رسم السلطان الملك الأشرف، بإحضار الأمير بدر الدين بكتوت العلائي، من حمص إلى الباب السلطاني، في ذي الحجة، فحضر.

وفيها، في ذي الحجة، رسم السلطان بتجديد تقليد الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطنة بالشام فكُتب. وزاده السلطان على إقطاعه المستقر، إلى آخر

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٢.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٢.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٢.

(٥) وتفاصيل ذلك أن شمس الدين بن السلعوس كان قد حج في هذه السنة، فلما حضر في سنة تسعين سلم السلطان إليه شمس الدين سنقر الأعسر ولما عزل الملك الأشرف الأمير شمس الدين سنقر من شد الدواوين بدمشق المحروسة ولي عوضاً عنه في شد الدواوين الأمير سيف الدين طوغان المنصوري. ابن افرات ج ٨، ص ١٠٢.

(٦) «في ذي الحجة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٢.

الأيام المنصورية، حرستا[١]، وجهز ذلك على يد مملوكه شمس الدين أقسنقر الحسامي. وأعطى أقسنقر إمرة عشرة طواشية[٢]. فوصل إلى دمشق في ثامن عشر ذي الحجة من السنة.

وفيها، في الخامس والعشرين من ذي الحجة، كان وفاة الأمير الحاج علاء الدين طيبرس بن عبد الله [الصالحي][٣] الوزيري[٤]. وكان ديناً كثير الصدقة والمعروف، قليل الأذى، وخلَّف أموالاً عريضة، فأوصى بثلاثمائة ألف درهم من ماله، تنفق في العساكر وأوقف مدرسة بمصر، على طائفة الشافعية والمالكية. وأوقف خاناً بظاهر دمشق، على الصدقات، ريعه في كل شهر تقدير خمسمائة درهم، وله آثار حسنة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسعين وستمائة[٥]
[٦٩٠ هـ = ١٣٩١ م]

في هذه السنة، في سادس المحرم، أفرج السلطان عن الملك فخر الدين عثمان بن الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل، سديد الدين أبي بكر، ابن الملك الكامل ابن المالك العادل صاحب الكرك والده. وكان قد اعتقل[٦] في الدولة الظاهرية، في رابع عشر، شهر ربيع الأول، سنة تسع وستين وستمائة، كما قدمنا ذكر ذلك[٧]. وكانت مدة اعتقاله عشرين سنة، وتسعة أشهر، واثنين وعشرين يوماً. ولما أفرج السلطان[٨] عنه، رتَّب له راتباً جيداً. ولزم داره، واشتغل بالمطالعة والنسخ، وانقطع عن السعي، إلا للجمعة أو الحمام، أو ضرورة لا بد منها.

---

(١) في الأصل: حرسا. وفي معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٢، ص ٢٧٨ حرستا: وهي قرية كبيرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ.

(٢) الطواشية: تقدم التعريف به.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٤) انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٣٨، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٦) كان قد اعتقله الملك الظاهر بيبرس. المقريزي: السلوك ج١، ص ٧٦٠.

(٧) راجع صفحة ١٧٣ من نهاية الأرب، ج ٣، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة مركز تحقيق التراث، ١٩٩٠.

(٨) أي الملك الأشرف.

ذكر تفويض الوزارة للصاحب شمس الدين ابن السلعوس[١] وشيء من أخباره

كان الصاحب شمس الدين محمد بن فخر الدين عثمان بن أبي الرجاء بن السلعوس قد توجه إلى الحجاز الشريف، قبيل وفاة السلطان الملك المنصور. فاتفقت وفاة السلطان وسلطنة الملك الأشرف في غيبته. فكتب السلطان إليه كتاباً يعلمه أنه قد ملك، ويستحثه على سرعة الوصول إليه. فوصل إليه كتاب السلطان، وهو في أثناء الطريق، قد عاد من الحجاز الشريف. فاجتمع من كان بالركب، من الأعيان والكتاب، وانضموا إليه، وركبوا في خدمته، وسايروه وعاملوه من الآداب بما يعامل به الوزراء وعظموه، فكان كذلك، إلى أن وصل إلى باب السلطان. وكان وصوله، في يوم الثلاثاء، العشرين من المحرم سنة تسعين وستمائة. فاجتمع بالسلطان، ففوض إليه السلطان الوزارة، في يوم الخميس، الثاني والعشرين من الشهر، وخلع عليه. وكان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي يتحدث في الوزارة في هذه المدة، قبل وصوله، من غير تقليد ولا تشريف.

وكان شمس الدين [ابن السلعوس][٢] هذا، تاجراً من أهل دمشق، ولم يكن من التجار المياسير. ولكنه كان يأخذ نفسه بالحشمة والرئاسة. حتى كان التجار فيما بينهم ينعتونه بالصاحب استهزاء به. ثم تعلق بالخدم، وانتمى إلى تقي الدين توبة التكريتي، وزير دمشق، في الدولة المنصورية، فاستخدمه في بعض الجهات. وتنقل إلى أن ولي نظر الحسبة بدمشق، في شهر رمضان، سنة سبع وثمانين وستمائة كما تقدم[٣]. ثم ولي نظر ديوان الملك الأشرف بالشام.

فأظهر الاجتهاد، واستأجر للملك الأشرف ضياعاً بالشام، وعمل له متجراً، وحصل من ذلك أموالاً، فتقدم عند الملك الأشرف، ومال إليه.

وحضر إلى باب الملك[٤] الأشرف، في صفر، سنة ثمان وثمانين وستمائة.

---

(١) ترجمته في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٠٩؛ وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري، ج ٨، ص ٣٠٦، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٤ ـ ١٧٨، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧، والوافي بالوفيات للصفدي ج ٤، ص ٨٦ ـ ٨٨، ترجمة ١٥٥٥؛ وتذكرة التنبيه لابن حبيب، ج١، ص ١٧٣؛ السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٦٠، ـ ٧٩٦، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٤، وعقد الجمان للعيني، ج ٢، ص ٣٨٩.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٦.

(٣) «كما قدمنا» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٦، وذلك دليل التطابق بين روايته ورواية النويري.

(٤) في الأصل: السلطان الملك، حذفت لفظة السلطان لأن الأشرف لم يكن سلطاناً، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.

واستناب عنه في نظر الحسبة [بدمشق][١]، والديوان الأشرفي، القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين محمد بن الشيرازي. ولما حضر إلى باب الملك الأشرف، نقله إلى نظر ديوانه نيابة، عوضاً عن تاج الدين بن الأعمى. وخلع عليه خلع الوزارة. واستمر في نظر ديوان الملك الأشرف ووكالته، إلى جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمائة. فاتفق أن الملك الأشرف، خلع عليه خلعة سنية، تشبه خلع الوزراء. فرآه السلطان الملك المنصور، وعليه تلك الخلعة، فأنكر هيئته، وسأل الأمير حسام الدين طرنطاي عنه. فقال: هذا وزير الملك الأشرف، وذكر مساوئه[٢] للسلطان. فغضب السلطان الملك المنصور لذلك، وأنكره وأمره بإحضاره، فأحضر بين يديه، فأنكر عليه كونه خدم ولده، بغير أمره، ولا أمر نائبه، ولا وزيره، وأمر السلطان بنزع الخلعة، التي ألبسها، فنزعت، وسلمه إلى شاد الدواوين [يومئذٍ][٣]، وهو الأمير زين الدين أحمد الصوابي، وأمر بمصادرته، والإخراق به، وضربه. وأرسل إليه الأمير حسام الدين طرنطاي، أن يوقع به الأهنة والإخراق، [ويبادر بضربه][٤]. وأرسل إليه الملك الأشرف إلى مشد الدواوين[٥]، يستوقفه عند ذلك[٦]، ويتوعده إن ناله منه سوء، فخاف للشد المذكور غائلة الملك الأشرف، وتوقف عن الإخراق به. ورسم عليه في قاعة، كان المشد يجلس فيها، وفي وقت استراحته. ثم تلطف الملك الأشرف في أمره، مع الأمير حسان الدين طُرَنْطَاي، وراسله بسببه. وتكررت رسائله إليه، وإلى غيره في معناه، حتى حصلت الشفاعة فيه عند السلطان، فأطلقه. وأمر السلطان بصرفه، فصرف، ولزم داره. وكانت هذه الواقعة من أضرر شيء على الأمير حسام الدين طرنطاي، ومن أكبر أسباب القبض عليه وقتله.

واستمر الصاحب شمس الدين بداره إلى زمن الحج، فتوجه إلى الحجاز الشريف. واتفقت وفاة السلطان الملك المنصور، وسلطنة الملك الأشرف، كما تقدم، فكتب إليه يعلمه بذلك. ويقال إن السلطان كتب بخطه إليه، بين سطور الكتاب، يا شقير، يا وجه الخير، عجل بالسير، فقد ملكنا. ويقال إنه لما حملت إلى السلطان الملك الأشرف، أموال طُرنطاي، ووضعت بين يديه، جعل يقلبها ويقول:

مــن عــاش بــعــد عــدوه   يــومــاً فــقــد بــلــغ الــمــنــى

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.
(٢) في الأصل: «مساويه»، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.
(٥) مشد الدواوين: تقدم التعريف به.
(٦) «عن» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.

ثم يقول: أين أنت يا ابن السلعوس.

فلما وصل [ابن السلعوس][(١)] إلى السلطان، فوض [إليه][(٢)] الوزارة[(٣)]، ومكَّنه من الدولة تمكيناً عظيماً، ما تمكن وزير قبله مثله في دولة الترك. وجرَّد في خدمته جماعة من المماليك السلطانية، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، ويقفون بين يديه، ويمتثلون أوامره. فعظم بذلك شأنه، وتعاظم في نفسه واستخف بالناس. وتعدى أطوار الوزراء، حتى كان أكابر الأمراء يدخلون إلى مجلسه، فلا يستكمل لهم القيام. ومنهم من لا يلتفت إليه. وكان في بعض الأوقات يستدعي أمير جاندار وأستاذ الدار[(٤)]، على كبر مناصبهما. فكان إذا استدعى أحداً منهما، يقول: اطلبوا فلاناً أمير جاندار، وفلاناً استاذ للدار، يسمى كل واحد منهما باسمه، دون نعته. ثم ترفَّع عن هذه الرتبة إلى الاستخفاف بنائب السلطنة الأمير بيدرا[(٥)]، وعدم الالتفات إلى جهته ومشاركته في بعض وظيفته، والاستبداد عنه، ومعارضته فيما يقصد فعله، وتعطيل ما يؤثره. [هذا، والأمير بدر الدين بيدرا يصبر على جفاه، ولا يمكنه مفاجأته لما يشاهده من ميل السلطان إليه][(٦)]. حتى أخبرني شهاب الدين بن عبادة: قال: رأيت الصاحب شمس الدين في بعض أيام المواكب، قد قام من مجلس الوزارة، يقصد الدخول إلى الخزانة، فصادف ذلك خروج الأمراء من الخدمة، هم ونائب السلطنة، فكان الأمراء الأكابر يبادرون إلى خدمته[(٧)] ومنهم من يقبل يديه، وكلهم يخلي له الطريق، ويوميء بالرجوع بين يديه، فيشير إليه بالانصراف. فلما وطيء عتبة باب القلة برجله، توافى هناك، هو والأمير بدر الدين، نائب السلطنة. فسلَّم كل منهما على الآخر، وأومأ له بالخدمة، إلا أن النائب خدم الوزير، أكثر من خدمة الوزير له. قال: لقد رأيته، وقد رجع مع الصاحب، ولم

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٧.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) «الخميس ثاني عشرة استقر ابن السلعوس في الوزارة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦١.

(٤) استاذ الدار: تقدم التعريف به.

(٥) تقدم التعريف به.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٢.

(٧) المقصود بهذه العبارة أن الأمراء تقدموا نحو الوزير ابن السلعوس وأدوا له التحية المناسبة لمقامه، وهذا الاستعمال الاصطلاحي لفعل خدم ومشتقاته كثير الورود في كتب المؤرخين بمعنى التحية وكان للخدمة في حضرة السلطان صيغ كثيرة منها الإيماء باليد اليمنى إلى الأرض، وخفض الرأس نحو الركوع، وتقبيل الأرض سجوداً، ومس الأرض بالأصابع خمس مرات، ويأتي فعل خدم أيضاً بمعنى أهدى وقدم فيقال خدم فلان الخليفة لمصحف جليل، وقطعه بلخش، وخدم فلان من ماله لخزانة السلطانية بثلاثمائة ألف دينار. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٦٢، حاشية (١).

يسامته في مشيه، بل كان النائب يتقدمه يسيراً، ويميل بوجهه إلى جهة الصاحب ويحدثه. فكانا كذلك إلى أن وصلا إلى المصطبة، التي يجلس عليها أستاذ الدار وناظر البيوت، وهي من داخل الباب الثاني، من باب القلة لجهة الخزانة، على باب الفراش خاناه قديماً. وهذا الموضع الآن من أحد أبواب الجامع الذي عمر في أيام السلطان الملك الناصر. وسنذكر إن شاء الله تعالى، خبر هذا الجامع في الأيام الناصرية. قال[١]: فلما انتهيا إلى ذلك المكان، مسك الصاحب بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة، وأشار إليه بالرجوع. قال: وسمعت الصاحب يقول له: «بسم الله يا أمير بدر الدين»؛ لم يزده على ذلك، وهذا أمر لم يسمع بمثله. والذي شاهدته أنا، غير مرة ولا مرتين، أن الصاحب كان إذا أراد الركوب إلى القلعة، اجتمع ببابه نظار النظار وشاد الدواوين ووالي القاهرة ووالي مصر، ومستوفي الدولة، ونظار الجهات، ومشدّي المعاملات؛ وغير هؤلاء من الأعيان. ثم يحضر قضاء القضاة الأربعة ومن يتبعهم. فإذا اجتمع هؤلاء كلهم ببابه، عرّفه حجّابه أن الموكب قد كمل. وكان كمال الموكب عندهم، حضور قضاة القضاة الأربعة، فيخرج عند ذلك، ويركب ويسوق الناس بين يديه على طبقاتهم. فيكون أقرب الناس إليه، قاضي القضاة الشافعية، وقاضي القضاة المالكية، يكونان أمامه. وأمامهما قاضيا القضاة الحنفية والحنبلية؛ ثم نظار النظار والأعيان، ومستوفيي الدولة، ونظار الجهات على قدر مراتبهم. ويستمر القضاة معه، إلى أن يستقر في المجلس. فينصرفون ثم يعودون عشية النهار إلى القلعة، ويركبون في موكبه بين يديه إلى أن يصل إلى داره، حتى أنه تأخر ليلة بالقلعة إلى قرب العشاء الآخرة، وغلق باب القلعة، وانقلب موكب الصاحب، إلى جهة باب السلطان، وجاء القضاة ووقفوا على بغالهم، بظاهر باب الإسطبل السلطاني، ولم ينصرفوا حتى خرج وركب، وساقوا في خدمته، إلى داره على عادتهم، لم يخلّوا بها. وكان لا ينتصب قائماً لبعض أكابرهم، ولم ينتظم هذا لوزير قبله. ولما عظم موكبه، وبقي الأكابر، يزدحمون في شوارع القاهرة، ويضيق بهم لكثرة من معه، ويزدحم الغلمان، انتقل إلى القرافة، وسكنها بسبب ذلك. ثم كان من أمره ما نذكره، إن شاء الله تعالى في موضعه.

ذكر[٢] القبض والإفراج على من نذكر من الأمراء، وعنه[٣]

وفي يوم الجمعة، سابع صفر، أمر السلطان بالقبض على الأمير شمس الدين سنقر

---

(١) إشارة إلى رواية ابن عبادة الواردة أيضاً في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٠٩.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٣.

(٣) إشارة إلى المصدر الثاني نقل عنه.

الأشقر، والأمير سيف الدين جرمك الناصري، وعدَّد لهما ذنوباً كثيرة. وكان مما عدَّه على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، أن قال هذا ما أحسن إليه أحد، إحسان طرنطاي، فإنه ما زال يدافع عنه السلطان [المنصور](١) ويمنعه من القبض عليه، إذا أراده. ويقول له، والله لا يقبض عليه، حتى يقبض علي قبله. ووفى له طرنطاي بما عاهده عليه، بصهيون، لما استنزله منها. ولم يرع له حق هذا الإحسان العظيم والذب عنه. وكان [هو](٢) أكبر أسباب القبض عليه، فإنه أفشى سره.

وأفرج السلطان في هذا اليوم، عن الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وأعاد عليه إمرته، وأنعم عليه إنعاماً كثيراً. وكان قد قبض عليه، كما تقدم لما همَّ بالمدافعة عن طرنطاي.

ذكر فتوح عكا وصور وصيدا وحيفا

قد ذكرنا أن السلطان الملك المنصور، والد السلطان، كان قد أهمه أمر عكا وتجهز لغزوها. وخرج لذلك، وعاجلته المنية، دون الأمنية. فلما استقر أمر السلطان الملك الأشرف، وخَلَا وجهه، ممن كان يقصد مناوأته، صرف اهتمامه إلى عكا وغزوها. وندب العساكر من الديار المصرية، وسائر الممالك والحصون. وأمر نواب السلطنة بالممالك الشامية والساحلية، ونواب القلاع والحصون، بتجهيز الزردخانات وأعواد المجانيق(٣) والحجارين وغيرهم. وندب الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار(٤) لذلك. فتوجه من الباب السلطاني، ووصل إلى دمشق، في سلخ صفر. فجهزت أعواد المجانيق من دمشق، وبرزت إلى ظاهرها في مستهل شهر ربيع الأول، وتكامل ذلك، في يوم الخميس ثاني عشر الشهر. وتوجه بها الأمير علم الدين سنجر الدواداري، أحد الأمراء بالشام، ثم فرقت على الأمراء مقدمي الألوف، فتوجه كل أمير ومضافوه منها، بما أمر بنقله. ثم توجه الأمير حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام،

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٠.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٠. والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٢.

(٣) جمع منجنيق، وهي من أسلحة الحصار، وقد عرفها المماليك، وتقدمت صناعتها على أيديهم، وهي آلات يقذف بها بعد الأحجار واللهب وحتى الزرنيخ والأفيون. والقصد من ذلك خنق العدو. وكانت بعض المنجنيقات الكبار تحمل على مائة عجلة وكذلك كانت تجرها الأبقار بعد فصل أجزائها بعضها عن بعض، ثم تركب عند الحصار، والمنجنيق اسم أعجمي، لأن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٣٢.

(٤) تقدم التعريف به.

في آخر الجيش، ببقية العسكر، في يوم الجمعة، العشرين من شهر ربيع الأول. وندب السلطان أيضاً، الأمير سيف الدين طغريل الإيقاني[١] إلى الحصون والممالك يستنجدهم على سرعة تجهيز المجانيق والآلات، فبادر النواب إلى ذلك.

ووصل الملك المظفر[٢] صاحب حماه إلى دمشق، في ثالث عشرين شهر ربيع الأول، بعسكر حماه، وصحبته مجانيق وزردخانات. ووصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، نائب السلطنة بالفتوحات، بعساكر الحصون وطرابلس وما معها، بالمجانيق والزردخانات، في رابع عشرين الشهر. ووصل سائر النواب، وتوجهوا إلى عكا. هذا ما كان من أمر نواب الممالك الشامية وعساكرها.

وأما السلطان الملك الأشرف، فإنه لما عزم على التوجه إلى عكا، أمر بجمع القراء والعلماء والقضاة والأعيان، بتربة والده السلطان الملك المنصور. فاجتمعوا في ليلة الجمعة، الثامن والعشرين من صفر، وباتوا بالقبة المنصورية، يقرأون القرآن. وحضر السلطان إلى التربة[٣] في بكرة النهار، وتصدق بجملة من المال والكساوي وفرّقَ على القراء والفقراء مالاً كثيراً، وفرّق في أهل المدارس والزوايا والخوانك والربط [مالاً وثياباً][٤]. ثم عاد إلى قلعة الجبل. واستقل ركابه منها، في ثالث شهر ربيع الأول[٥]. وجهز السلطان آدره العالية[٦] إلى دمشق، فوصلوا إلى قلعتها، في يوم الاثنين، سابع شهر ربيع الآخر. ووصل السلطان إلى المنزلة بعكا، في يوم الخميس، ثالث شهر ربيع الآخر. ووصلت المجانيق إلى عكا في اليوم الثاني، من وصوله، وهي اثنان وتسعون منجنيقاً، ما بين إفرنجي وقرابغا وشيطاني، فنصبت وتكامل نصبها في أربعة أيام، وأقيمت الستائر.

وكان الفرنج، لما بلغهم اهتمام السلطان وعزمه، كاتبوا ملوك البحر، وسألوهم

---

(١) في الأصل: «الإبغاني» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٣.

(٢) رافق المؤرخ أبو الفدا قريبه المظفر صاحب حماه في هذه الحملة. انظر ما قام به وما شاهده من وقعة عكا. وما وضحه من أساليب الحرب في تلك العصور من المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ج ٥، ص ٩٤ ـ ٩٨. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٣ ـ ٧٦٤، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١١.

(٣) أي القبة المنصورية. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٦٤.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٤.

(٥) «يوم الثلاثاء» المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٦٤.

(٦) في الأصل: أوده العالمية. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١١.

إنجادهم، فأتوهم من كل مكان. واجتمع بعكا منهم جموع كثيرة، فقويت نفوسهم. ولم يغلقوا أبواب البلد. واستمر الحصار وعملت النقوب، إلى السادس عشر من جمادى الأولى[١].

فلما كان في يوم الجمعة السابع عشر من الشهر، أمر السلطان أن تضرب الكوسات جملة واحدة، وكانت [على][٢] ثلثمائة جمل. فلما ضربت، هال أهل عكا ما سمعوه منها. وزحف السلطان بالعساكر، قبل طلوع الشمس من هذا اليوم. فما ارتفعت الشمس: إلا والصناجق السلطانية على أسوارها.

ولما أشرف المسلمون على فتح عكا، وتحقق من بها ذلك، خرجت طائفة منهم، نحو عشرة آلاف رجل مستأمنين، فرَّقهم السلطان على الأمراء، فقتلوا عن آخرهم. وأرسل السلطان جماعة من الأسرى، إلى الحصون الإسلامية.

وكان مدة الحصار على عكا، منذ حل ركاب السلطان، إلى أن فتحت، أربعة وأربعين يوماً. واستشهد من الأمراء على حصارها، الأمير علاء الدين كشتغدي[٣] الشمسي، ونقل إلى جلجولية ودفن بها، والأمير عز الدين أيبك المعزي، نقيب العساكر، والأمير جمال الدين آقش الغتمي، والأمير بدر الدين بيليك المسعودي، والأمير شرف الدين قيران السكري، وأربعة من مقدمي الحلقة، وجماعة يسيرة من العسكر.

وكانت عكا بيد الفرنج، منذ استرجعوها من السلطان، الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، في سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وإلى هذا التاريخ، مائة سنة وثلاث سنين، وأمر السلطان الآن بإخرابها، فخربت.

وفتح الله تعالى على يد السلطان، في بقية الشهر، من المدن المشهورة الساحلية، صور، وصيدا، وحيفا، وعتليت[٤]، بغير قتال. وذلك أن الله تعالى، أوقع في قلوب

---

(١) «وكان فتح عكا في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٢٢٩ ملحق رقم (١)، ومنه وصف شاهد عيان لموقعة عكا وهو منقول عن السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٢.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٢، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٥.

(٣) في الأصل: كشغدي. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٢، ومن السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٥.

(٤) عثليث أو عتليت: حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية، وكان يعرف بالحصن الأحمر، ويسميه الفرنج حصن الحجاج، وقد زادت هيئة الفرسان الداوية في تحصينه في أواخر أيام الحروب الصليبية، وجعلته المركز الرئيسي لقواتها بالشام، ولا تزال إلى الشمال الغربي من قرية عتليت في فلسطين بقايا ذلك الحصن من العصور الوسطى. الموسوعة الفلسطينية ج ٣، ص ١٨٨.

أهلها الرعب، لما فتحت عكا، وعلموا أنهم لا يقدرون على حفظها، ففارقوها ونجوا بأنفسهم. فملكها السلطان، فأمر بهدمها جميعها فهدمت. ثم فتحت صيدا وبيروت، على يد الأمير علم الدين الشجاعي، على ما نذكره[(١)] إن شاء الله تعالى.

وأكثر الشعراء ذكر هذا الفتح. فكان ممن امتدح السلطان، وذكر هذا الفتح من الشعراء، الشيخ الفاضل بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجي التاجر المقيم بالقاهرة، فقال: [من البسيط]

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل ... وفُتّ شأو ملوك الأعصر الأول
وحزت رق العلى بالجد مجتهداً ... وجزت غاياتها سبقاً على مهل
ونلت بالحول دون الناس منفرداً ... ما لم ينله[(٢)] ملوك الأرض بالحيل
فطل بدولتك الميمون طائرها ... فإنها غرة في أوجه الدول
واسعد بهمتك العليا التي وصلت ... لك السعود بحبل غير منفصل
فأنت للدين والدنيا صلاحهما ... وفيهما حمل ضيم غير محتمل
فكم بلغت مراداً بت[(٣)] تأمله ... بعزمك الباتر العاري من الفلل
وكم فتحت[(٤)] حصوناً طالما رجعت ... لليأس عنها[(٥)] الملوك الصيد في خجل
حررت من عكة الغراء ما عجزت ... عنه الملوك بعزم غير منتثل
عقيلة المدن أمست من حصانتها ... وصونها من اليالي الدهر في عقل
وقد دعتها ملوك الأرض راغبة ... وعطفها عنهم بالتيه في شغل
صدت عن الصيد لا تلوي فلم تطل ... الأوهام منها إلى وصل ولم تصل
أم لهم بَرَّة كم رام خطبتها ... بعل سواك، فلم تذعن ولم تنل
حتى أمرت فأمست وهي طائعة ... بعد الإباء لأمر منك ممتثل
ما زال غيرك فيها طعاماً وعلى ... يديك، قد كان هذا الفتح في الأزل
فتحاً تطاول عن نثر يحوط به ... وصفا، وعن نظم شعر محصد الطّول

---

(١) انظر ما ورد في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٤.
(٢) «تنله» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٤.
(٣) في الأصل: «أنت» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٤.
(٤) «فتح» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٤.
(٥) «عمّ» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٤.

قصدْتَها فأصيبت بعدما فجعت ... في أهلها من أسود الغيل بالغيل
في جحفل لجب كالليل أنجمه ... تبدو لرائيه من قُضْب ومن أسل
تمم إلمامِه وعر ومن أكم ... وطبّق الأرض من سهل ومن جبل
تخالهم وجياد الخيل تحتهم ... لليأس من الروع آساداً على قلل
لا تنظر العين منهم إن هم لبسوا ... لامات حربهم يوماً، سوى المقل
صدمتها بجيوش لو صدمت بها ... صم الجبال، أزالتها ولم تزل
فأصبحت بعد عز الملك خاضعة ... من ذلة الملك طول الدهر في سمل
أمست خراباً وأضحى أهلها رمماً ... وسطرتها يد الأيام في المثل
فَسَلْبُ بزتها عنها وقد عطلت ... ألذ للطرف من حَلْي ومن حلل
ومحو آثارها منها وقد خربت ... أشْهى إلى النفس من روض الربى بالجدل
بالأشرف السيد السلطان زال عنا ... التثليث وابتهج التوحيد بالجدل
تدبير ذي حكم في عز منتقم ... وعمر مقتبل في رأي مكتهل
راحت وقد سلبت أرواحهم بشبا ... الهندي أموالهم من جملة النفل
هدمت ما شيدوا، فرقت ما جمعوا ... نقضت ما أبرموه غير محتفل
وعندما أصبحت قفراً بلادهم ... من السواحل بعد الأهل في العطل(١)
رحلت عنها، ولكن كم أقمت بها ... من خوف بأسك جيشاً غير مرتحل
لا زلت ذا رتب في المجد سامية ... وسؤدد بنواصي الشهب متصل

وقال المولى شهاب الدين أبو الثنا محمود الحلبي، كاتب الإنشاء، لما عاين النيران في جوانب عكا. وقد تساقطت أركانها، وتهدمت جدرانها: [من الطويل]

مرَرْتُ بعكا بعدَ تخريبِ سورِها ... وزند أوار النار في وسطها وار
وعاينتُها بعد التنصرِ قدْ غدتْ ... مجوسيةَ الأبراجِ تسجُد للنار

وقال أيضاً: [من البسيط]

الحمدُ لِلَّه زالت دولة الصُّلُبِ ... وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربي
هذا الذي كانت الأمالُ لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيتْ من الطلب
ما بعد عكا وقد هُدَّت قواعدُها ... في البحر للشرك عند البر من أرب

---

(١) «عطل» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٥.

عقيلةٌ ذهبتْ أيدي الخطوبِ بها ... دهراً وشدَّتْ عليها كفَّ مغتصب
لم يبقَ من بعدها للكفر إذ خربتْ ... في البرّ والبحر ما ينجي سوى الهرب
كانت تخيلها[1] آمالنا فترى[2] ... أن التفكّر فيها أعجب[3] العجب
أم[4] الحروبُ فكم [قد][5] أنشأت فتناً ... شابَ الوليدُ بها هولاً ولم تشب
سوران برٌّ وبحرٌ حولَ ساحتها ... داراً[6] دار، وأدناهما أنأى من القطب
خرقاء[7] أمنع سوريها وأحصنه ... غُلْبُ الكماة، وأقواه على النوب
مصفّح بصفاح، حولها شرف[8] ... من الرماحِ وأبراجٌ من اليَلَب[9]
مثل الغمامة[10] تهدي من صواعقها ... بالنيل أضعافَ ما تهدي من السحب
كأنما كلّ برجٍ حوله فلكٌ ... من المجانيقِ يرمي الأرض بالشهب
ففاجأتْها جنودُ الله يُقْدِمها ... غضبانُ لله لا للملك والنَّشَب
ليت أبي أن يرد الوجه عن أمم ... يدعون رب الورى سبحانه بأب
كم رامها ورماها قبله ملكٌ ... جمُّ الجيوش فلم يظْفر ولم يصب
لم يلهه ملكه، بل في أوائله ... نال الذي لم ينله الناس في الحقب
لم ترض همَّتُهُ إلا التي قعدت ... للعجز عنها ملوكُ العجُم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين مائلة ... ما بين مضطرمٍ ناراً ومضطرب
جيش من الترك تَرْك الحرب عندهم ... عار، وراحتهم ضرب من الوصب[11]

---

(١) تخيلنا في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١١.
(٢) «فنرى» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١١.
(٣) «غاية» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١١.
(٤) «أما» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١١.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها وزن الشعر.
(٦) «دار» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١١.
(٧) في الأصل: خرق، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ١، ص ١١٦.
(٨) «أكَمٌ» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١١.
(٩) اليلب: الترسة أو الدروع من الجلود أو جلود يُحزز بعضها إلى بعض تُلبس على الرؤوس خاصة وهو الفولاذ خالص الحديد. الفيروزأبادي: القاموس المحيط (يلب).
(١٠) «الغمائم» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١١، و«الغمايم» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٦.
(١١) «الضرب» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١١.

خاضوا إليها الردى والبحر فاشتبه الـ ... ـأمران واختلفا في الحال والسبب
تسنَّموها[١] فلم يترك ثباتهم ... في ذلك الأفق برجاً غير منقلب
تسلموها فلم تخل الرقاب بها ... من فتك منتقم أو كف منتهب
أتوا حماماً فلم تدفع وقد وثبوا ... عنها مجانيقهم شيئاً ولم يثب
يا يوم عكا لقد أنسيتَ ما سبقت ... من الفتوحُ وما قد خُطّ في الكتب
لم يبلغ النطقُ حدَّ الشكر فيك[٢] فما ... عسى يقوم به ذو الشِّعر والخطب
كانت تُمني بكَ الأيام عن أمم ... والحمد لله شاهدناك عن كثب
أغضبتَ عُبَّاد عيسى إذ أبدْتهمُ ... لله أي رضًى في ذلك الغضب
وأطْلَع الله جيشَ النصر فابتدرت ... طلائع الفتح بين السُّمر والقُضُب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف[٣] الأشرف السلطان من قرب
فَقَرَّ عيناً بهذا الفتح وابتهجت ... ببشره[٤] الكعبةُ الغراء في الحجب
وسار في الأرض مسرى[٥] الريح سُمعته ... فالبرُّ في طربٍ والبحرُ في حرب
وخاضت البيض في بحر الدماء فما ... أبدتْ من البيض إلا ساق مختضب
وغاص زرقُ القنا في زُرق أعينهم ... كأنها شَطَنٌ يهوى إلى قُلُب
توقدت وهي تروي[٦] في نحورهم[٧] ... فزادها الري[٨] في الإشراق واللهب
أجرت إلى البحر بحراً من دمائهمُ ... فراح كالراح[٩] إذ غرقاه كالحبب[١٠]
وذاب من حرّها عنهم حديدهم ... فقيدتهم به ذعراً يد الرهب
تحكمتْ فسطتْ فيهم قواضبها ... قتلاً وعفّت لحاويها عن السلب

---

(١) «تسنّمهم» في المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١١.
(٢) «منك» في المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٢.
(٣) في الأصل: «أشرف» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٦.
(٤) «بفتحه» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١٢.
(٥) «سير» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٢.
(٦) «غرقى» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٢.
(٧) «دمائهم» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٢.
(٨) «فزادها الطفح منها شدة اللهب» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٢.
(٩) في الأصل: كالرياح، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٧.
(١٠) الحبب: الفقاقيع التي تطفو كأنها القوارير. الفيروزأبادي: القاموس المحيط (حبب).

كم أبرزت بطلاً كالطود قد بطلت ... حواسه فغدا كالمنزل الخرب
كأنّه وسنانُ الرمح يطلبه ... برجٌ هوى ووراه كوكب الذَّنب
بشراكَ يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ ... بك الممالك واستعلت على الوثب[(١)]
ما بعد عكا، وقد لانت عريكتها ... لديك شيءٌ تلاقيه على تَعَب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها ... مدت إليك نواصيها[(٢)] بلا نصب
كم قد دعت، وهي في أسر العدا زمناً ... صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
لبيتها[(٣)] يا صلاح الدين معتقداً ... بأن ظنَّ صلاح الدين لم يخب
أسَلْتَ فيها كما سالت دماؤهم ... من قبل إحرازها بحراً من الذهب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت[(٤)] ... منه لسرٍّ[(٥)] طواهُ الله في الكتب
وجئتها بجيوش كالسيول على ... أمثالها بين أجام من القُضب[(٦)]
وحطتها بالمجانيق التي وقفتْ ... أمام أسوارها[(٧)] في جحفل لَجِب
مرفوعة نصبوا أضعافها قبلت[(٨)] ... للجزم والكسر[(٩)] منها كل منتصب
ورُضْتَها بنقوبٍ ذلك شمماً ... منها وأبدتْ محياها بلا نقب
وبعد صبحتها بالزحف فاضطربت ... رعباً وأهوت بخديها إلى الترب
وغنتِ البيض في الأعناق فارتقصت ... أجسادها[(١٠)] لعباً منها[(١١)] من اللعب
وخلِّقت بالدم الأسوار فابتهجت ... طيباً ولولا دماء القوم لم تصب
وأبرزت كل خود كاعب نُثرَتْ[(١٢)] ... لها الرؤوس وقد زفت بلا طرب

---

(١) «الرتب» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١٢.
(٢) «فواصلها» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٢.
(٣) «أتيتها» في المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٢.
(٤) «غصبت» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٢.
(٥) «بسرّ» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٧.
(٦) «القصب» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٧.
(٧) «إزاء جدرانها» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١٣.
(٨) «فغداه» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(٩) «للكسر ولحطب» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(١٠) «أبراجها» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(١١) «منهن» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(١٢) «بترت» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٨.

باتت وقد جاورتنا ناشزاً وغدت ... طوع الهوى في يدي جيرانها الجُنُب
ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم ... فاستعقلتهم ولم تطلق ولم تهب
فأحرزتهم ولكن السيوف لكي ... لا يلتجي أحد منهم إلى هرب
وجالت النار في أرجائها وعلت ... فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
أضحت أبا لهب تلك البروج وقد ... وكانت بتعليقها حمالة الحطب
وأفلت البحر منهم من يخبّر من ... يلقاه من قومه بالويل والحرب
وتمت النعمةُ العظمى وقد ملكت ... بفتح صور بلا حصر ولا نَصب
أختان في أن كلا منهما جمعت ... صليبة الكفر لا أختان في النسب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت ... كان الخرابُ لها أعدى من الجرب
إن لم يكن تمَّ كون البحر منصبغاً ... بها إليها والألسن اللهب[١]
فالله[٢] أعطاك ملك البر[٣] وابتدأت ... لك السعادة مُلك البحر[٤] فارتقب
من كان مبدأه عكا وصور معاً ... فالصين أدنى إلى كفيه من حلب
علا بك الملك حتى إن قبته ... على الثريا غدت ممدودة الطنب
فلا برحْت عزيز النصر[٥] مبتهجاً ... بكل فتح قريب[٦] المنح مقترب

وعمل الشعراء في هذا الفتح قصائد كثيرة، اقتصرنا[٧] منها، على ما أوردناه، فلنذكر خلاف ذلك.

ذكر القبض على الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام

وفي هذه السنة، والسلطان على حصار عكا، قُبض على الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطنة بالشام، وسبب ذلك، أن الأمير علم الدين سنجر الحموي المعروف بأبي خرص[٨]، سعى إلى السلطان به، ثم أوهم الأمير حسام الدين

(١) في الأصل: حالت، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٨.
(٢) «الله» في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٤١٣.
(٣) «البحر» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(٤) «البرّ» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(٥) «قرير العين» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(٦) «مبين» في المصدر نفسه: ج ١، ص ٤١٣.
(٧) «اختصرنا» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٨.
(٨) في الأصل: «حرص» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٧.

المذكور من السلطان، وقال: إنه قد عزم على القبض عليه، [فحمله الخوف على أنه ركب من الوطاق][١] بعكا ليلاً، وقصد الهرب. فركب الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وساق خلفه. فأدركه، وقال له، بالله لا تكن سبب هلاك هذا الجيش، فإن هذا البلد قد أشرف [الناس][٢] على فتحه. ومتى علم الفرنج بهروبك، قويت نفوسهم، وركب العسكر خلفك، وانصرفت عزائم السلطان عن حصار عكا إليك. فوافقه، ورجع إلى خيمته، وظن أن ذلك يستتر، ولا يشعر السلطان به. [وكان ذلك][٣]، في ثامن جمادى الأولى. فلما كان في اليوم الثاني من هذه الحادثة، خلع السلطان عليه، وطيَّب قلبه، ثم قبض عليه في اليوم الثالث، وجهَّزه إلى قلعة صفد، تحت الاحتياط، ثم جُهِّز منها إلى قلعة الجبل.

ذكر رحيل السلطان عن عكا ودخوله إلى دمشق وما قرره من أمر النيابة بها، وبالكرك وغير ذلك

ولما قضى السلطان الوطر من فتح عكا وما يليها، عاد إلى دمشق. فكان وصوله إليها، في الساعة الثالثة من يوم الاثنين، ثاني عشر جمادى الآخرة، ودخل دخولاً ما دخله ملك قبله. وزينت البلد أحسن زينة، ونزل بالقلعة. وفي يوم دخوله إلى دمشق، فوض نيابة السلطنة بالشام [إلى][٤] الأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري. ورتب الأمير جمال الدين أقش الأشرقي في نيابة الكرك، عوضاً عن الأمير ركن الدين بيبرس الدواداري المنصوري الخطائي، بحكم استعفائه من النيابة بها. وأقره السلطان في جملة الأمراء بالديار المصرية[٥].

وفي هذا اليوم، قبض السلطان على الأمير علم الدين سنجر أرجواش المنصوري النائب بقلعة دمشق. وسبب ذلك، أنه وقف بين يدي السلطان، وكان الأمير شرف الدين [بن][٦] الخطير الرومي، يكثر من البسط بين يدي السلطان على الأمراء وغيرهم.

---

(١) الوطاق: تقدم التعريف به.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٩.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٩..

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨.

(٥) يشير المقريزي إلى أن انتقال بيبرس من نيابة الكرك إلى إمرة بمصر كانت بناء على رغبة بيبرس نفسه، وقد أشار إلى ذلك في كتابه «زبدة الفكرة» بقوله: «ورسم السلطان لي بالمسير إلى الكرك، فسألته أن أكون في خدمته وأعود في ركابه وصحبته، واعتنيت من العود إلى الكرك، فأجاب إلى الإعفاء من العود إليها، ورتب الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي نائباً عن السلطنة فيها». المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٦٨، حاشية (٢).

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٩.

ويقصد بذلك أن يشرح خاطر السلطان ويضحكه. وكان السلطان في بعض الأوقات، ينظر إليه نظراً يفهم منه مراد السلطان في البسط على من يشير إليه. فنظر إليه السلطان وأومأ إليه أن يبسط على أرجواش. فنظر ابن الخطير إلى علم الدين أرجواش، وكان لا يعرف البسط ولا يعانيه، ولا يزال في تصميم. فقال ابن الخطير للسلطان: كان لوالد المملوك بالروم، حمار أشهب أعور، أشبه شيء بهذا الأمير علم الدين، فضحك السلطان، وغضب أرجواش، وقال: هذه صبيانية، فاشتد غضب السلطان لذلك، وأمر بالقبض عليه. وضرب بين يدي السلطان ضرباً كثيراً مؤلماً. ثم أمر أن يقيد ويلبس عباءة[١]، ويستعمل مع الأسرى، ففعل به ذلك. ثم رسم بحمله على خيل البريد إلى الديار المصرية مقيداً. فتوجه البريدية به، وحصلت الشفاعة فيه، فردّ من أثناء الطريق. ثم أفرج السلطان عنه، بعد أن أوقع الحوطة على موجوده، وكان يحتوي على جملة كثيرة من الأموال والعدد. وأعاده السلطان إلى نيابة القلعة، في شهر رمضان، فاستمر بها إلى أن مات.

وفي يوم الأحد، ثامن عشر جمادى الآخرة، رتب السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، في شد الشام على عادته، وكان قد أفرج عنه قبل ذلك. ونقل الأمير سيف الدين طوغان، من الشد إلى ولاية البر، على عادته الأولى[٢].

وفيها، في يوم الأربعاء، ثاني عشر شهر رجب، ولي القاضي محيي الدين بن النحاس نظر الشام، عوضاً عن تقي الدين[٣] توبة، وبطل اسم الوزارة بدمشق. وولي شرف الدين أحمد بن عز الدين عيسى بن الشيرجي، نظر الحسبة، عوضاً عن تاج الدين بن الشيرازي، في ثاني عشر الشهر[٤].

ذكر فتوح برج صيدا

كان قد بقي بصيدا برج عاص، فندب السلطان لحصاره، الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، فتوجه لذلك، في يوم الثلاثاء رابع شهر رجب. ووصل إلى صيدا وحاصر البرج، وافتتحه يوم السبت، خامس عشر الشهر. وعاد الأمير علم الدين إلى دمشق، بعد

---

(١) العباءة: معطف قصير الأكمام، ومن معانيها القماش الجل الذي يغطي به ظهر الجمل والحصان Dozy. Supp. Dict, Ar. ولعل هذا المعنى الثاني هو المقصود هنا. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٨.

(٢) «في ثاني رجب عزل تقي الدين» المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٦٨.

(٣) «في ثاني عشر شهر رجب» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٠.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٦٩.

فتحه، على خيل البريد، فوصل إليها عند رحيل السلطان إلى الديار المصرية، وذلك في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب.

وكان وصوله إلى قلعة الجبل، في يوم الاثنين تاسع شعبان، ودخل من باب النصر وخرج من باب زويلة.

ذكر فتح بيروت

لما توجه السلطان إلى الديار المصرية، أمر الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، أن يتوجه إليها، فتوجه وافتتحها في يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب. وذلك أن الأمير علم الدين سنجر وصل إليها، وكانت داخلة في الطاعة، فتلقاه أهلها وأنزلوه بقلعتها. فأمرهم أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إلى قلعتها، ففعلوا ذلك، وظنّوه شفقة عليهم. فلما صاروا بالقلعة، قبض على الرجال، وقيدهم وألقاهم في الخندق، وملك البلد. وعاد الأمير علم الدين إلى دمشق، فوصل إليها، في يوم الجمعة سابع عشرين شهر رمضان من السنة. ولم يبق بالساحل أجمع، من الفرنج [أحد](١)، وخلا الساحل بجملته منهم. ولم يتأخر بالبلاد الشامية غير فلاحيها النصارى، وهم داخلون في الذمة، يؤدون الجزية.

ولما فتح السلطان هذا الفتح(٢)، أوقف منه ضياعاً على تربة والده السلطان الملك المنصور، وهي: الكابرة من عكا، وتل المفتوح منها، وكردانة وضواحيها(٣) منها. ومن ساحل صور معركة، وصريفين(٤). وأوقف على تربته ضياعاً، وهي قرية الفرج من عكا، وقرية شفر عمر منها، وقرية الحمراء منها، وقرية طبرنية(٥) من ساحل صور.

ذكر إنفاذ ولدي السلطان الملك الظاهر ووالدتهما إلى بلاد الأشكري(٦)

وفي هذه السنة، أمر السلطان، بإخراج ولدي السلطان الملك الظاهر ركن الدين

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢١.
(٢) «الفتوح» في الأصل وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢١.
(٣) «وطواحينها» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢١.
(٤) الصواب «صريفا» بالقرب من معركة من أعمال صور. انظر معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية لأنيس فريحا ص ١٠٣.
(٥) ترسم طير دبة من أعمال صور.
(٦) تقدم التعريف به.

بيبرس، وهما الملك المسعود نجم الدين خضر، والملك العادل بدر الدين سلامش، من الاعتقال[(١)]، وجهزهما ووالدتهما إلى ثغر الإسكندرية، صحبة الأمير عز الدين أيبك الموصلي، أستاذ الدار العالية. فتوجه بهم، وسفَّرهم منها في البحر المالح، إلى القسطنطينية. فلما وصلاها، أحسن الأشكري إليهما، وأجرى عليهما ما يقوم بهما وبمن معهما. فاتفقت وفاة الملك العادل بدر الدين سلامش هنا، فصيَّرته والدته بالصبرة[(٢)]، وجعلته في تابوت، ولم تدفنه، إلى أن عادت به إلى الديار المصرية، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الإفراج عن الأمير بدر الدين بيسري الشمسي وغيره من الأمراء

وفي هذه السنة، في يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان أمر السلطان الإفراج عن الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي النجمي. وكان السلطان الملك المنصور، قد اعتقله في أوائل دولته، كما تقدم ذكر ذلك[(٣)]، فأفرج السلطان عنه الآن. وكُتِب له إفراج شريف سلطاني، ونسخته بعد البسملة[(٤)]:

«الحمد لله على نعمه الكاملة، ومراحمه الشاملة، وعواطفه التي أضحت بها بدور الإسلام بازغة غير آفلة، ومواهبه التي تجول وتجود وتحيي رميم الآمال [في يومها][(٥)] بعد رمسها بأمسها، في أضيق اللحود[(٦)]، ويقرّ لها بالفضل كل جحوده».

«أحمد حمداً يعيد سالف النعم، ويفيد آنف الكرم الذي خص وعم. ونشهد أن لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة نؤدي حقوقها ونجتنب عقوقها. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، المبعوث بمكارم الأخلاق، والموصوف بالعلم والحلم على الإطلاق، صلاة لا تزال عقودها حسنة الأنساق، ونسلم تسليماً كثيراً».

«وبعد، فإن أحق من عومل بالجميل، وبلغ من مكارم هذه الدولة القاهرة، الرجاء والتأميل، من إذا ذكرت أبطال الإسلام، كان أول مذكور. وإذا وصفت الشجعان، كان إمام صف كل شجاع مشهور. وإذا تزينت سماء الملك بأنجم، كان بدرها المنير. وإذا اجتمع ذوو الآراء على امتثال أمر، كان خير مشير، وإذا عدت أوصاف أولي الأمر كان

---

(١) تقدم ذكرها في أول هذا الجزء.

(٢) «بالصبر» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٠.

(٣) تقدم التعريف به.

(٤) ورد أيضاً في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٢.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٢.

(٦) «من اللحود» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٢.

أكبر أمير. كم تجمّلت المواكب بحلوله بأعلى قدر، وتزينت المراتب منه بأبهى بدر. وهو المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الكبيري وذكر ألقابه، [فقال][١]: البدري بيسري الشمسي الصالحي النجمي الملكي الأشرفي. فهو الموصوف بهذه الأوصاف والمدح، [والمعروف][٢] بهذه المكارم والمنح».

«فلذلك، اقتضى حسن الرأي الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي الصلاحي، لا زالت الكُرب في أيامه تُكْشَف، والبدور تكتسي في دولته الغراء، إشراقاً[٣] ولا تخسف، أن يفرج عنه في هذه الساعة، من غير تأخير، ويمثل بين يدي المقام الأعظم السلطاني بلا استئذان نائب ولا وزير، إن شاء الله تعالى».

وجعل هذا الإفراج في كيس أطلس أصفر، وختم عليه بخاتم السلطان، وتوجه إلى باب الجب[٤]، الأمير بدر الدين بيدرا، والأمير زين الدين كتبغا، وجماعة من أكابر الأمراء، وأخرج الأمير بدر الدين من الجب، وقرىء عليه هذا الإفراج، ورسم بكسر قيده، وأحضر له التشريف[٥] السلطان. فقال بيسري: لا يفك القيد من رجلي، ولا ألبس التشريف، إلا بعد أن أتمثل بين يدي السلطان، وصمم على ذلك. فأُعلِم السلطان بذلك، فرسم بفك قيده، وأن يُحضَر إلى بين يدي السلطان بملبوسه، الذي كان عليه في الجب. فحضر إلى بين يدي السلطان، فانتصب له قائماً. وتلقاه وأكرمه، وألبسه التشريف، وأجلسه إلى جانبه، وأنعم عليه بالأموال والأقمشة، وأمَّره لوقته، بمائة فارس، وأقطعه إقطاعاً وافراً، من جملته منية بني خصيب[٦]، دريستا[٧]، بالجوالي[٨]

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٢.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٢.

(٣) «شرفاً» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٢.

(٤) الجب: بئر بقلعة الجبل، وصفهُ المقريزي بأنه الجب الشنيع لسجن الأمراء وأنه كان مهولاً مظلماً كثير الوطاويط كريه الرائحة يقاسي المسجون فيه كما هو الموت أو أشد منه، وقد بدأه السلطان قلاوون سنة ٦٨١ هـ، ولم يزل يستخدم لذلك الغرض في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. المقريزي: السلوك: ج ١، ص ٧٦٩، حاشية (٣).

(٥) التشريف: لباس خاص ينعم به السلطان انظر تفاصيل معانيه في التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٦) منية بني خصيب: موضع بإقليم الأشموني محافظة المنيا الحالية. ابن حماتي: قوانين الدواوين، ص ١٩٢.

(٧) دربستا: وبالفارسية دربستة، ومعناها الجنة بأكملها. واعتبر هذا اللفظ جزءاً متمماً لاسم منية بني خصيب. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٧٠، حاشية (١).

(٨) الجوالي: ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، والجوالي جمع جالية وتطلق على أهل الذمة، وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم =

والمواريث[١] الحشرية، وقرّبه السلطان لديه، وأدناه إليه. وكان يخلو به ويؤانسه ويبرّه، ويضاعف له الإنعام، حتى أن الأمير بدر الدين بيسري، انتسب إلى الأشرفية. وكان فيما مضى من عمره في الأيام الظاهرية وغيرها، يكتب بيسري الشمسي فصار يكتب بيسري الأشرفي.

وفيها، في يوم الجمعة رابع شهر رمضان، أفرج السلطان عن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير حسام الدين لاجين المنصوري، والأمير ركن الدين بيبرس صقصوا، والأمير شمس الدين سنقر الطويل، من الاعتقال، وأمرهم على عادتهم.

وفيها، أمر السلطان بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الدواداري، فقبض عليه من دمشق، وجهز إلى الأبواب السلطانية مقيداً. وكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس، سابع عشر شهر رمضان.

ذكر عزل قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز عن القضاء ومصادرته

وفي هذه السنة، عزل السلطان قاضي القضاة، تقي الدين عبد الرحمٰن ابن قاضي القضاة، تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز[٢]. من منصب القضاء، بالديار المصرية، لأمور، منها ما كان في نفس الصاحب شمس الدين الوزير منه، ومنها أنه كان في الدولة المنصورية، يراعي خاطر الملك الصالح، ويقدّمه على الملك الأشرف. فذكّر الوزير السلطان بذلك، فعزله وانتدب لمرافعته جماعة، وشهد عليه آخرون بأموره برأه الله منها. وأوغلوا في الكلام عليه، ورموه بالعظائم. وكان محاشاً منها. فرسم عليه، وصودر،

= هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا من أوطانهم. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٤.

(١) المواريث الحشرية: شرحها المقريزي في عبارته: وأما المواريث الحشرية فإنها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من أجل أن مذهبهم يورث ذوي الأرحام، وأن البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه، فلما انقضت أيامهم، واستولت الدولة الأيوبية ثم الدولة التركية صار من جملة أموال السلطان، مال المواريث الحشرية، وهي التي يستحقها بيت المال عند عدم الوارث فتقول فيه الوزارة مرة وتظلم أخرى»، ويعرفها القلقشندي، فيقول: «هي مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعض الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٣٥. والقلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٣٢.

(٢) كان ابن بنت الأعز كالأمير حسام الدين طرنطاي من الكارهين للملك الأشرف خليل أيام أبيه السلطان قلاوون. المقريزي السلوك، ج ١، ص ٧٧١، حاشية (١).

ونكل به(١).

وكان قصد الوزير الإخراق به(٢)، بالضرب، فحماه الله تعالى منه، ثم تشفع فيه الأمير بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة، مع ما كان بينهما من الشحناء، فأفرج السلطان عنه. وكان سبب هذه الشفاعة، أن الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، كان له اعتناء بقاضي القضاة تقي الدين، فلما امتحن بهذه المحنة، [ورسم بمصادرته وبلغه ما اتفق عليه](٣)، ضمّه إليه، وعزم على سؤال السلطان في أمره، والشفاعة فيه. وكان السلطان قد قبض على الأمير سنجر الحموي، المعروف بأبي خرص، وكان الأمير بدر الدين بيدرا به اعتناء، فتحدث مع الأمير بدر الدين أمير سلاح، أن يشفع فيه، فاعتذر عن ذلك، أنه يقصد أن يشفع في قاضي القضاة ولا يمكنه أن يشفع في اثنين في وقت واحد، فاتفقا أن [الأمير](٤) يشفع في قاضي القضاة. وأمير سلاح يشفع في أبي خرص. فشفعا فيهما، فأفرج عنهما.

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي

لما عزل السلطان؛ قاضي القضاة تقي الدين عن القضاء، أشار الصاحب شمس الدين ابن السلعوس الوزير، بتفويض القضاء، للقاضي بدر الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الفضل سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر بن عبد الله الكناني الشافعي الحموي. وكان يتولى قضاء القدس الشريف والخطابة كما قدمنا. فاستدعاه الصاحب شمس الدين، في يوم الأربعاء، تاسع شهر رمضان، فتوجه البريد إليه. وكان وصوله إلى القاهرة في يوم الاثنين، رابع عشر شهر رمضان، سنة تسعين وستمائة. وكانت ولايته من قبل السلطان الملك الأشرف، في يوم الخميس، سابع عشر الشهر. وفوّض إليه مع القضاء، وتدريس المدرسة الصالحية، خطابه جامع الأزهر، وغير ذلك. وهذه ولاية قاضي القضاة بدر الدين الأولى.

وفي(٥) هذه السنة، في شوال، أمر السلطان بإخراج الخليفة الحاكم بأمر الله أبي

---

(١) «ووقع منه في حقه أمور شنيعة وتزايد عليه منه الحال» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٦.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٧.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٧.

(٥) «وفي يوم الجمعة خامس عشري شهر رمضان» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٨؛ وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٣.

العباس أحمد ابن الأمير أبي علي الفتي ابن الأمير أبي بكر ابن الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين [العباسي][1]، وأن يخطب للناس بجامع القلعة، ويذكر السلطان[2] في خطبته. فخطب[3] في رابع عشرين شوال. وعليه شعار بني العباس، [وهو متقلد سيفاً محلى][4]. فلما فرغ من الخطبة. لم يصلِّ بالناس. وقدم قاضي القضاة بدر الدين [محمد بن جماعة][5]، فصلى بهم صلاة الجماعة. واستمر يخطب بالقلعة، واستناب عنه بجامع الأزهر القاضي صدر الدين عبد البر ابن قاضي القضاة تقي الدين بن رزين.

وفيها، في ليلة الاثنين، رابع ذي القعدة أمر السلطان باجتماع القضاة والفقهاء والأعيان والقراء، بتربة والده السلطان الملك المنصور، فاجتمعوا. وبات نائب السلطنة والوزير[6] بالقبة المنصورية في تلك الليلة. فلما كان وقت السحر، من يوم الجمعة، وحضر السلطان والخليفة إلى التربة [المنصورية][7]، والخليفة لابس السواد، وخطب الخليفة خطبة بليغة، وحرّض فيها على أخذ العراق، وكان يوماً مشهوداً، وتصدق السلطان بصدقات وافرة، وعاد هو والخليفة إلى قلعة الجبل[8].

وكتب السلطان إلى دمشق أن يُعْمَل مهم، مثل ما عمل بالقبة المنصورية. فاهتم[9] الأمير علم الدين الشجاعي نائب السلطنة بدمشق بذلك. وجمع الناس له في ليلة الاثنين، حادي عشر الشهر، بالميدان الأخضر، أمام القصر الأبلق. واجتمع الناس لتلاوة القرآن، من ظهر يوم الأحد إلى نصف الليل، من ليلة الاثنين. ثم تكلم الوعاظ، وانصرف الناس في بكرة النهار.

ذكر متجددات كانت بدمشق

في هذه السنة، في شوال شرع الأمير علم الدين الشجاعي، نائب السلطنة بدمشق، في عمارة آدر[10] بقلعتها اقترحها السلطان عليه. واهتم بذلك، وطلب الرخام من سائر

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٨.
(٢) الملك الأشرف، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٤.
(٣) «فخطب يوم الجمعة رابع عشر شوال»، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٧٤.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٤، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٨.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٧٤.
(٦) المقصود هنا الصاحب شمس الدين ابن السلعوس، انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٩.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٩.
(٨) تقدم التعريف بها.
(٩) في الأصل: «فاهتم به» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١١٩.
(١٠) أنشأ الملك محمد ابن الملك العادل أبي بكر أيوب في قلعة الجبل بعد أن أتمّ بناءها الآدر السلطانية =

الجهات. وكملت عمارة ذلك، في آخر سنة إحدى وتسعين.

وفيها، في تاسع شوال، أمر السلطان الملك الأشرف بالقبض على الأمير سيف الدين قرا أرسلان[١]، وجمال الدين أقوش الأفرم المنصوريين، فقبض عليهما الأمير علم الدين الشجاعي واعتقلهما بالقلعة. وأقطع السلطان إقطاعيهما للأميرين عز الدين أزدمر العلائي، وشمس الدين سنقر المسّاح.

وفيها، في ثاني شوال، أمر الأمير علم الدين الشجاعي نائب السلطنة [بدمشق][٢]، بإخراب ما على جسر الزلابية بدمشق، من الحوانيت، وبإخراب جميع ما هو مبني على نهر بانياس ونهر المجدول من تحت القلعة، إلى باب الميدان الأخضر، وإلى الخانقاه، فأخربت المسايح[٣] ودار الصناعة، وبيوت ومساكن وخانات ودار الضيافة، وحمام كان بني للملك السعيد، والمسايح التي على نهر بردى، والسقاية التي تعرف بالعجمي، وسقاية أرجواش، ولم يبق غير المساجد.

وفيها، في يوم الخميس، ثالث عشر ذي الحجة، زاد الأمير علم الدين الشجاعي في الميدان الأخضر الصغير، الذي فيه القصر الأبلق، مقدار سدسه من جهة الشمال إلى قريب النهر، حتى صار بين حائط الميدان والنهر مقدار ذراع ونصف ذراع بالعمل[٤]. وقسم الحيطان على الأمراء والأجناد وبعض عوام البلد. وعمل هو بنفسه ومماليكه، فلم يوفر أحد نفسه من العمل، فكانت عمارة ذلك في يومين.

وفيها، في العشر الآخر من ذي الحجة، قبض على الشيخ سيف الدين الرجيحي[٥] وهو منْ ذرية الشيخ يونس. وجهز من دمشق إلى الباب السلطاني، على خيل البريد.

وفي هذه السنة، في أوائلها، كملت عمارة قلعة حلب. وكان الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، نائب السلطنة بحلب، قد شرع في عمارتها في الأيام المنصورية، فكانت الآن، وكتب عليها اسم السلطان الملك الأشرف. وكان هولاكو قد خرّبها[٦] كما

= وهي الدور الواقعة بداخل القلعة بالقاهرة، وذلك في سنة أربع وستمائة. المقريزي: الموعظ والاعتبار طبعة مصر ١٣٢٥، ج ٣، ص ٣٣٠. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٥٠٥.

(١) هكذا أيضاً في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٨.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٢٨.

(٣) المسابح.

(٤) ذراع العمل: هو الذراع المتعارف عليه في القياس Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٥) نسبة إلى «رُجيح» في معجم البلدان لياقوت الحموي، ج ٣، ص ٣٣، هو موضع في بلاد العرب.

(٦) «وكان لها منذ خرّبها هولاكو نحو ثلاث وثلاثين سنة خراباً» وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٥.

تقدم ذكر ذلك.

وفيها، في يوم الخميس، ثالث عشر رجب، كانت وفاة الأمير بهاء الدين يمك الناصري، مقدم الميسرة بدمشق، ودفن بسفح قاسيون، بمقبرة الرباط الناصري. وكان رجلاً عاقلاً قليل الاجتماع بالناس.

وفيها، كانت وفاة الأمير سابق الدين لاجين [ابن عبد الله](١) العمادي(٢)، رحمه الله تعالى. كان يتولى الأعمال القوصية قديماً، في الدولة المعزيّة، إلى أوائل الظاهرية. وعمّر بمدينة قوص مدرسة معروفة به. ثم ولي في الدولة الظاهرية الأعمال الشرقية. وكانت وفاته بالقاهرة، في العشر الأخير من شهر رمضان منها، وذلك بعد عزله من الأعمال الشرقية، وعمر وعمره نحو اثنتين وثمانين سنة، وكان ديِّناً خيراً، كثير الصدقة والإحسان. أميناً عفيفاً، ما سمع عنه، أنه ارتكب معصية قط، ولا شرب خمراً، ولا ارتشى، ولا أتى مكروهاً. وكان محترماً عند الملوك. وأصله مملوك الصاحب عماد الدين، وزير صاحب الجزيرة. ثم انتقل مع أستاذه في أواخر الدولة(٣) الكاملية، وتقدم في الدولة(٤) الصالحية وما بعدها، وولي الولايات. وكانت الولايات يومذاك لا يصل إليها إلا أكابر الأمراء وثقاتهم، رحمه الله تعالى.

وفيها، في العشرين الآخر، من شهر رمضان. توفي الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي [النجمي](٥)، نائب السلطنة بصفد بها، رحمه الله تعالى.

وفيها، وكانت وفاة الأمير سيف الدين قطز المنصوري. وكان من أكابر المماليك المنصورية، وأكابر الأمراء. وكانت وفاته بحمص. وكان مجرداً بها، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى وتسعين وستمائة

[٦٩١ هـ = ١٢٩١/١٢٩٢ م]

في هذه السنة، في يوم الجمعة، رابع عشر صفر، وقع بقلعة الجبل حريق عظيم في بعض الخزائن، وأتلف شيئاً كثيراً من الذخائر والنفائس والكتب.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٣.

(٢) انظر ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣) هي دولة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل الأيوبي، صاحب الديار المصرية. تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٣.

(٤) هي دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الأيوبي، تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٣.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٣.

وفيها، في يوم الخميس، حادي عشر شهر ربيع الأول، أمر السلطان أن يجمع القراء والعلماء والأكابر، بالقبة المنصورية، لقراءة ختمة شريفة، فاجتمع الناس لذلك. ونزل السلطان من الغد، لزيارة قبر والده، وتصدق بأموال جزيلة.

وفيها، في تاسع عشرين شهر ربيع الأول، في يوم الجمعة، خطب الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد، بجامع قلعة الجبل، خطبة بليغة، حث فيها على الجهاد، وأمر النفير، وصلّى بالناس الجمعة.

ذكر توجه السلطان إلى الشام[١]

وفي هذه السنة، في الساعة الثامنة من يوم السبت، ثامن شهر ربيع الآخر استقل ركاب السلطان إلى جهة الشام، بجميع العساكر. فوصل إلى دمشق[٢] في يوم السبت سادس جمادى الأولى، وأمر بالنفقة على جميع العساكر في ثامن الشهر، ووصل صاحب حماه لتلقي السلطان. ثم عرض السلطان الجيوش، وقدمهم[٣] أمام ركابه إلى جهة حلب، وتوجه هو من دمشق في الساعة الخامسة من يوم الاثنين، سادس عشر جمادى الأولى، ووصل إلى حلب في ثامن عشرين الشهر[٤].

ذكر فتوح قلعة الروم وتسميتها قلعة المسلمين

كان فتوح هذه القلعة، في يوم السبت، حادي عشر رجب، سنة إحدى وتسعين وستمائة. وذلك أن السلطان رحل من حلب بسائر العساكر المصرية والشامية، في رابع جمادى الآخرة، ونزل على قلعة الروم[٥]، يوم الثلاثاء ثامن الشهر وحاصرها وضايقها، ونصب عليها عشرين منجنيقاً، خمسة منها إفرنجية، وخمسة عشر قرابغاً شيطانية. ورمى بالمجانيق[٦]، وعملت النقوب، فيسَّر الله فتحها. وكانت مدة المقام عليها، إلى أن

---

(١) راجع ما ورد في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٥.

(٢) «وصحبته وزيره الصاحب شمس الدين ابن السلعوس» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٦.

(٣) «وقدّم الجيش الشامي» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٦؛ و«قدّم جيش الشام» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٧.

(٤) أي جمادى الأولى، انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٦.

(٥) وهي قلعة الفرات مقابل البيرة وتقع بينها وبين سمسياط، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٣.

(٦) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٨، حاشية (٢). ذكر مواضع تلك المجانيق وهذا نص العبارة: «إن مدة المقام على حصار قلعة الروم ثلاثة وثلاثين يوماً، وعدة ما نصب عليها من المجانيق تسعة عشر فرنجية خمسة وقوابغايية (كذا) وشيطانية أربعة عشر خارجاً عن منجنيق صاحب حماه، =

فتحت، ثلاثة وثلاثين يوماً. وكان للأمير علم الدين الشجاعي في فتحها النصيب الأوفى، فإنه تحيَّل في عمل سلسلة بالقرب من شراريف القلعة، وأوثق طرفها بالأرض، فتمسك الجند بها، [وطلعوا إلى القلعة][١]. وكان ممن طلع إلى القلعة، سيف الدين أقجبا، أحد مماليك الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح، ولم يكن من أعيان مماليكه، بل كان في خدمة ولده صلاح الدين خليل. فتحيل وطلع إلى سور القلعة، وقاتل قتالاً شديداً، وجرح ثم رجع، والسلطان ينظر إليه. فسأل عنه، فعرف به، فأرسل إليه خلعة، وأنعم عليه بمال، ووعده بإقطاع، وأمر أستاذه الأمير بدر الدين، أن يذكر السلطان به، إذا عاد إلى حلب، فلم يفعل. ثم صار بعد ذلك، من جملة مقدمي الحلقة، وتأمّر بعد ذلك، في سنة تسع عشرة وسبعمائة بطبخاناه، وتولى عمل الفيوم من الديار المصرية. وفتحت القلعة عنوة، وقتل من كان بها من المقاتلة، وسبيت النساء والذرية، ووجد فيها بطرك الأرمن، فأخذ أسيراً. ومحا السلطان عن هذه القلعة، تسميتها بالروم، وسماها قلعة المسلمين. ووصل إلى الزردخاناه السلطانية من الأسرى ألف أسير ومائتا أسير. واستشهد عليها من الأمراء: الأمير شرف الدين بن الخطير، وشهاب الدين بن ركن الدين أمير جاندار. ورتب السلطان الأمير علم الدين الشجاعي لعمارة القلعة، وأمره بإخراب ربضها وإبعاده عنها. فتأخر لذلك، وصحبته عسكر الشام.

ولما تم هذا الفتح، أنشئت كتب البشائر إلى الممالك. وكان مما كتب إلى دمشق، كتاب عن السلطان إلى قاضي القضاة شهاب الدين الخوييّ ونسخته[٢]:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، أخوه خليل بن قلاوون.

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي، القاضيّ الأجل، - وذكر ألقابه ونعوته -. خصه الله بأنواع التهاني، وأتحفه بالمسرات التي تُعَوَّذُ بالسبع المثاني. وأورد على سمعه، من بشائر نصرنا وظفرنا، ما يستوعب في وصفه ومدحه الألفاظ والمعاني.

نبشره[٣] بفتح ما سطرت الأقلام إلى الأقاليم أعظم من بشائره، ولا نشرت برد

= على رأس الجبل، وهي الجهة البحرية الفراتية الأفرام اثنان، والسلطان واحد فرنجي، ومن الجهة البحرية الفراتية الأفرم اثنان، والسلطان واحد فرنجي، وفي الجهة الشرقية وعلى جانب الفرات بيسري واحد، ومن الجهة الغربية خمس قوابغايية، وشيطانية في الوادي خمسة عشر.

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٦، ومن السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٨.

(٢) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٥، ملحق رقم (١١) نص كتاب البشارة هذا الوارد إلى دمشق.

(٣) «تبشره» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٥.

المسرات، بأحسن من إشارته وأشائره. ولا تفوهت ألسنة خطباء هذا العصر على المنابر، بأفصح من معانيه، في سالف الدهر وغابره، وهو البشرى بفتح قلعة الروم، والهنا لكل من رام بالإسلام نصراً ببلوغ ما رام وما يروم. [ونَقُصُّ][١] أحسن قصص هذا الفتح المبين، والمنح الذي تباشر به سائر المؤمنين، ونُساوي في الإعلان والإعلام به كل من قرّ عيناً من الأبعدين والأقربين، ونخصّ بمسرى مبشراته الحكام ليعمّوا بنشرها عامة الناس. ونفرض لكل ذي مرتبة عليّة منه نصيباً يجمع من الابتهاج والأنواع والأجناس. وذلك أنا ركبنا لغزوها، من مصر، وقد كان مَنْ قبلنا من الملوك، يستبعد مداها، ويناديها فلا يجيب إلا بالصد والإعراض صداها، ويسائل عن جبالها، فتحيل في الجواب على النسور المهومة، ويستشير أولي الرأي في حصرها، فلا يسمع إلا الأقوال المثلوبة والآراء المثلومة. وما زلنا نصل السرى، ونرسل الأعنة إلى نحوها، فتمدّ الجياد أعناقها إليها مداً، ينقطع بين قوتها وقوته السير. واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى، وعر المنتقى، شاهق لا يلقى به مسلك ولا يلتقى. فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه، والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارته عيونه، والجياد المطهمة ترتقي، مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه. فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان، جعل جبلها دكاً، وحاصرناها حصاراً ألحقها بعكا وأخواتها، وإن كانت أحصن من عكا. ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور، وتقبض[٢] الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور، وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور. هذا والنقوب تسري في بدناتها سريان الخيال، وإن كان جفونها المسهدة، وعمدها الممددة وحفظتها المجندة، ورواسيها على جبل الفرات موطدة. وقد خندقوا عليها خندقاً جرت فيه الفرات من جانب ونهر مرزبان من جانب، ووضعها واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب، وسفح صرحها الممدد فكأنه عرش لها على الماء وإذا رمقها طرف رائيها استبهت عليه بأنجم السماء. وما زالت المضايقة تقص[٣] من حبلها[٤] أطرافه، وتستدر بحلبها أخلاقه، وتقطع بمسائل جلاد معاولها وجدالها خلافه، وتورد عليها من سهامها كل إيراد لا يجاوب إلا بالتسليم، وتقضي عليها بكل حكم لا تقابل توبته إلا بالتحكيم.

ولما أذن الله بالفتح الذي أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب، والمنح الذي

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٧.
(٢) و«تقتنص» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٨.
(٣) «تعض» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٨.
(٤) «جبلها» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٨.

أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب. فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره، في يوم السبت حادي عشر شهر رجب الفرد. فسبحان من سهل صعبها، وعجل كسبها، وأمكن منها ومن أهلها، وجمع شمل المماليك الإسلامية بشملها. فالمجلس السامي يأخذ خطه من هذه البشرى، التي بشرت بها ملائكة السماء، ملك البسيطة وسلطان الأرض. وتكاثر على شكرها كل من أرضى الله طاعة وأغضب من لم يرض، من ذوي الإلحاد، وممن حاد الله وحاد، وممن ينتظر من هذه الإيعاز إنجاز الإيعاد، فلا ينجيه الإمضاء هرباً ولا الإبعاد. فإنه بفتح هذه القلعة وتوقلها، وحيازة ثغرها ومعقلها، تحقق من بسيحون وجيحون، أنهم بعد فتح باب الفرات، بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون أنهم ينجون.

وما يكون بعد هذا الفتح، إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم والعراق، وملك البلاد من مغرب الشمس إلى مطلع الإشراق. والله تعالى يمدنا من دعواته الصالحة، بما تعدو به عقود الآمال حسنة الاتساق، إن شاء الله.

كتب يوم الفتح المبارك سنة إحدى وتسعين وستمائة، حسب المرسوم الشريف.

وكُتب عن الأمير علم الدين الشجاعي، نائب السلطنة بدمشق [المحروسة][(١)]، إلى قاضي القضاة، شهاب الدين الخُوييّ أيضاً. وهو من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسي، ما مثاله[(٢)] بعد البسلمة:

ضاعف الله مسار الجناب العالي المولوي القضائي الشهابي - وذكر ألقابه ونعوته[(٣)] - ولا زالت وفود البشائر إليه تترى، وعقود التهاني تُنَص إليه نظماً ونثراً. وفواتح الفتح تتلى عليه لكل آية نصر يسجد لها القلم في الطرس شكراً، وتشتمل على أسرار الظفر فيأتي الإسماع من غرابتها بما لم يحط به خبراً. وتتحفه بظهور أثر المساهمة فتهدي إليه سروراً وأجراً.

المملوك يستفتح من حمد الله على ما مَنَح من آلائه، وفتح على أوليائه، ووهب من الإعداء على أعدائه، ويسَّر من الظفر الذي أيد فيه بنصره وأمدّ بملائكة سمائه، ما يستديم الإنجاد بحوله، ويستزيد به الأمداد من فضله وطوله. ويوالي من الصلاة على

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٩.

(٢) انظر ما ورد في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٩.

(٣) ذكر المقريزي هذه النعوت كما يأتي: «الإمامي، العالمي، العاملي، الزاهدي، العابدي، الورعي، الشهابي ضياء الإسلام، شمس الشريعة، قاضي القضاة، حجة الأئمة، سيد الحكام، قدوة العلماء، ولي أمير المؤمنين. السلوك، ج ١، ص ١٠٠٧.

سيدنا محمد ﷺ ما يُستدر به أخلاف الفتوح، ويسترهف بيُمنه الصوارم التي هي على من كفر بالله ورسوله دعوة نوح. ويهدي من البشائر ما تختال به أعطاف المنابر سروراً، ويتعطر[١] بذكره أفواه المحابر حبوراً[٢]، وترشف[٣] الأسماع موارد وارده، فيستحيل في قلوب الأعداء ناراً وفي قلوب الأولياء نوراً. ويبادر مساهمةً لحاضر في استماعه كل بادٍ فينقلب إلى أهله مسروراً.

ويُنهى أنه أصدرها والنصر قد خفقت[٤] بنودُه، وصدقت وعوده، وسار بمختلفات البشائر في كل قطر بريده. والأعلام الشريفة السلطانية، قد امتطت من قلعة الروم صهوة لم تَذِلّ لراكب. وحلّت من قُنَّتِها[٥] وقلَّتها بين الذروة والغارب. وأراقت أسنتها من دمائهم ما ترك الفرات لا يحل لشارب. ومدّ الأيمان بها أطنابه، وأعجلت السيوف المنصورة الشرك أن يضم للرحلة أثوابه. واستقرت بها قدم الإسلام ثابتة إلى الأبد. وقتَّلت بأرجائها، سيوف أهل الجمعة، حتى رق أهل السبت لأهل الأحد. وأذهب الله عنها التثليث حتى كاد حكم الثلاثة أن يسقط من العدد، وتبرَّأ منهم من كان يغرهم بإمداده، حتى الفرات لمجاورتهم، ودّت النقص خوفاً أن يطلق على زيادتها اسم المدد. ونطق بها الأذن فخرس الجرس. وعلت بها كلمة الإيمان، فأضحت لها بعد الابتذال آية الحرس. وأسمعت دعوة الحق ما حولها من الجبال فسمعت وهي الصم، ولبَّت الداعي بلسان الصدى الناطق عن شوامخها الشم.

وكانت هذه القلعة المذكورة للثغور الإسلامية بمنزلة الشّجي في الحلق[٦] والغلة في الصدر، والخسوف الطارىء على طلعة البدر. لا تخلوا من غل تضمره، في لين تظهره، وغدر تستره، في عذر توروه وتصدره، وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار، وموادعة التتار، وممالاتهم على الإسلام بالنفس والمال، ومساواتهم لهم حتى في الزي والحال. يمدونهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهم على عورات الأطراف. وهم يتقون بمسالمة الأيام، ويدعون أن قلعتهم لم تزل من الحوادث في زمام، ويغترون بها. ولولا السطوات الشريفة، لحق بمثلها أن يغتر. ويسكنون إلى حصانتها كلما أومض في

(١) «تتعطر» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٩، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٧.
(٢) «جُوْراً» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٧. أي الورد الجوري وهو الشديد الحمرة. بطرس البستاني: محيط المحيط (جدر).
(٣) «ويرشف» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٧.
(٤) «خُفقت» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٨.
(٥) «قبتها» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٩.
(٦) «بمنزلة الشجي في الحلق والتشويه في الخلق والعلة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٣٩.

حلك[١] السحب برق ثغرها المفتر.

وهو حصن صاعد منحدر، بارزه مستدير، لا يطأ إليه السالك إلا على المحاجر، ولا تنظره العيون حتى تبلغ القلوب الحناجر، كأنه في ضمائر الجبال حب يُقتل وهو كامن، ويجرف[٢] الظاهر وهو باطن. قد أرخت عليه الجبال الشواهق ذوائبها، ومدت عليه الغمائم أطنابها ومضاربها. وقد تنافست فيه الرواسي الرواسخ فأخفاه بعضها عن بعض وتقاسمته العناصر فهو للنكاية والرفعة والثبات ومجاورة الفرات مشترك بين النار والهواء والماء والأرض. وقد امتدّت الفرات من شرقيها كالسيف في كفِّ طالب ثأر، واكتنفها من جهة الغرب نهر آخر استدار نحوها كالسور وانعطف معها كالسوار. وفي قُنّة[٣] قُلَّتها جبل يردّ الطرف وهو كليل، ويصل النظر إلى تخيل هضابه فلا يهتدي إلى تصورها بغير دليل،وكذلك من شرقها وغربها، فلا تنظرها الشمس وقت الشروق[٤]، ولا يشاهدها القمر وقت الأصيل. وحولها من الأودية خنادق لا يعرف فيها الهلال إلا بوصفه، ولا الشهر إلا بنصفه.

وأما الطريق إليها فيزل الذرّ عن متنها. ويكل طرفُ الطرف عن سلوك سهلها فضلاً عن حزنها. وبها من الأرمن عُصَب جَمْعُهم التكفور[٥]، ومن التتار فرق زيادتهم للتغوير[٦]، قد بذلوا دونها النفوس، وتدرّعوا للذبّ عنها لبوس. وأقدموا على شرب كأس الحمام، خوفاً أن يكفرهم التكفور، ويحرمهم خليفتهم الحاكم بها، كتبغا نميكوس[٧]. وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وفسح في ميدان الضلالة آمالهم، فلما تراءت الفئتان، نكص على عقبية، وترك كلا منهما بعض من الندم يديه. وحين أمر مولانا السلطان، خلّد الله سلطانه، الجيوش المنصورة بالنزول عليها، والهجوم من خلفها ومن بين يديها، ذللت مواطىء جيادها صهوات تلك الجبال. وأحاطت بها من كل جانب إحاطة الهلال بالهلال. وسلكوا إليها تلك المخارم، وقد تقدمهم الرعب هادياً وأقدموا على قطع تلك المسالك والمهالك، بالأموال والأنفس، ثقة بأنهم لا ينفقون

---

(١) «خلل» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٨.

(٢) «ويحرّف» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٨.

(٣) «قبّة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٠.

(٤) وردت هذه العبارة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٩، كما يأتي: «فلا تنظرها الشمس ولا القمر وقت الشروق ولا يشاهدها وقت الأصيل» والصواب كما أورده النويري وابن الفرات.

(٥) التكفور: لفظ أرمني معناه المتوج، وقد أطلقه الأرمن على ملوكهم، كما أنه يطلق أحياناً على ملوك الدولة البيزنطية. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى. ص ٧٨.

(٦) «للتصوير» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٠.

(٧) «كتياغيكوس» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠٠٩.

نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً. فلم يكن بأسرع من أن طار إليهم الحمام، في أجنحة السهام. وخضَّبت الأحجار تلك الغادة العذراء للضرورة، وللضرورات أحكام. وأزالت النقابة عنها نقاب احتشامها، ودبَّت في مفاصلها دبيب السقم في عظامها، مع أنها مستقرة على الصخر الذي لا مجال فيه للحديد، ولكن الله أعز بالنصر سلطاننا فجاءت أسباب الفتح على ما يريد. وأقيمت المجانيق المنصورة أمامها فأيقنوا بالعذاب الأليم، وشاموا بروق الموت من عواصف أحجارها التي ما تَذَر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرَّميم. وساهموها صلاة الخوف، فلسهامهم الركوع، ولبروجهم السجود، ولقلعتهم التسليم. ولم تزل تشن عليهم غارة بعد غارة، وتسقيهم على الظمأ صوب أحجارها، وإن من الحجارة، وهي مع ذلك تظهر الجلد والجد، وتغضب غضب الأسير، على القيد. وتخفي ما تكابد من الألم، وتشكو بلسان الحال شكوى الجريح إلى العقبان والرخم، إلى أن جاءت من الأنجاد ما كانوا يأملون. وسطت مجانيقنا على مجانيقهم فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. وكلما سقطت أسوارها، وتهتّكت بيد النقوب[(١)] أستارها، وتوهّم الناظر أنها هانت، رآها المباشر في تلك الحالة أشد ما كانت، وثبتت على الرمي والارتماء، وعَزّت على من اتخذ نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء، واستغنت بمكان السور، وانقضت أحجارها على أسوار الحرب انقضاض النسور.

وكان [هذا][(٢)] الفتح المبارك في صباح يوم السبت، حادي عشر رجب الفرد سنة إحدى وتسعين وستمائة بالسيف عنوة، فشفت الصوارم من أرجاس الكفر العلل[(٣)] بقمع العدى وكَبْتِها. وسطا خميس الأمة يوم السبت، على أهل يوم الأحد، فبارك الله لخميس الأمة في سبتها.

فليأخذ[(٤)] [القاضي][(٥)] من هذه البشرى، التي أصبح الدين بها عاليَ المنار، بادي الأنوار. ضارب[(٦)] مضارب دعوته على الأقطار، ذاكراً بموالاة الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين والأنصار. وليشُعها على رؤوس الأشهاد ويجعلها في صحف الفتوح السالفة بمنزلة المعنى في القرينة والمثل في الاستشهاد. ويمدّ الجيش بهمّته التي ترهف

(١) في الأصل: «الثقوب» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤١.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١٠.
(٣) «الغلل» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١٠.
(٤) «فليأخذ حظه» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١٠.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤١.
(٦) الصواب ضارباً.

الهمم، وأدعيته التي تساعد الساعد وتؤيد اليد وتقدم القدم. ويشارك بذلك في الجهاد حتى يكون في نكاية الأعداء على البعد كسهمٍ أصاب ورامية بذي سلم. ويستقبل من البشائر بعدها ما تكون له هذه بمنزلة العنوان في الكتاب، والأحاد في الحساب، وركعة النافلة بالنسبة إلى الخمس، والفجر الأول قبل طلوع طلعة الشمس.

والله تعالى يجعل شهاب فضله لامعاً. ونور عمله في الآفاق ساطعاً، ويتحفه من مفرقات التهاني بكل ما يغدو لشمل المسرَّات جامعاً، إن شاء الله تعالى. كُتب في يوم الفتح المذكور.

وكتب غير ذلك من كتب البشائر، اقتصرنا منها على ما أوردناه.

ثم[١] رحل السلطان من قلعة الروم إلى حلب، فأقام بها بقية شهر رجب، ونصف شعبان. وعزل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري عن نيابتها. ورتب بها الأمير سيف الدين بلبان الطباخي المنصوري. وجعل الأمير عز الدين أيبك الموصلي شاد الدواوين. وقيل إنه ولاه قلعة الروم[٢] وما جمع إليها، فامتنع من قبول هذه الولاية. فغضب السلطان وأمر بالقبض عليه، وفوض ذلك إلى الأمير جمال الدين أقش الفارسي فبقي بها أياماً وتوفي، فأعاد السلطان الأمير عز الدين الموصلي. ورحل السلطان عن حلب إلى دمشق، فكان وصوله إليها، في يوم الثلاثاء العشرين من شعبان[٣] فأقام بها بقية شعبان وشهر رمضان وبعض شوال.

وفيها، حصل لجِمال العسكر مرض، سلَّت منه حتى جافت الوطاقات منها. ولم يجد الأمراء من الجمال ما يحملون عليه أثقالهم، فحملوها على البغال والأكاديش.

ذكر توجه الأمير بدر الدين بيدرا[٤] وبعض العساكر إلى جبال الكسروان واضطراب العسكر

وفي هذه السنة، في شعبان توجه الأمير بدر الدين بيدرا بمعظم العساكر المصرية،

---

(١) ورد في السلوك أن السلطان عاد راجعاً في يوم السبت ثامن عشرة (أي شهر رجب) ثم رحل السلطان من قلعة الروم. المقريزي: السلوك / ١، ص ٧٧٨.

(٢) «قلعة المسلمين» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٢.

(٣) «وبين يديه بترك الأرمن صاحب قلعة الروم وعدة من الأسرى. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٧٨.

(٤) هو بيدرا بن عبد الله التركي المنصوري، يلقب بدر الدين، قتله الأمير زين الدين كتبغا، والأمراء سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٨. والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٠٦.

وصحبته من الأمراء الأكابر، الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين بكتوت[١] العلائي وغيرهم، وقصد جبال الكَسْرُوَان[٢]. وأتاهم من جهة الساحل، والأمير ركن الدين بيبرس طقصوا[٣]؛ والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما. والتقوا بالجبل وحضر [إلى][٤] الأمير بدر الدين بيدرا من اثنى عزمه. وكسر حدته. فحصل الفتور في أمرهم، حتى تمكنوا من بعض العسكر، في تلك الأوعار، ومضايق الجبال، فنالوا منهم. وعاد العسكر شبه المنهزم، وطمع أهل تلك الجبال، فاضطر الأمير بدر الدين إلى إطابة قلوبهم والإحسان إليهم. وخلع على جماعة من أكابرهم، فاشتطوا في الطلب، فأجابهم إلى ما التمسوه، من الإفراج عن جماعة منهم، كانوا قد اعتقلوا بدمشق، لذنوب وجرائم صدرت منهم. وحصل للكسروان من القتل والنهب والظفر، ما لم يكن في حسابهم. وحصل الأمراء والعسكر من الألم لذلك، ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، ونسبوه إلى أنه إنما أهمل أمرهم، وفتر عن قتالهم، حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه، وأنه تبرطل منهم وأخذ جملة كثيرة، ولهج الناس بذلك. وتوجه الأمير بدر الدين بيدرا بالعساكر إلى دمشق. فتلقاه الملك الأشرف، وأقبل عليه وترجل لترجله عند السلام [عليه][٥]. فلما خلا به، أنكر عليه سواء اعتماده وتفريطه في العسكر، فمرض لذلك، حتى أشاع الناس أنه سقي ثم عوفي في العشر الأوسط من شهر رمضان، فتصدق السلطان بجملة كثيرة، شكراً لله تعالى على عافيته، وأطلق جماعة كثيرة ممن كان في السجون. وتصدق هو أيضاً بجملة، ونزل عن كثير مما كان قد اغتصبه من أملاك الناس، بالإيجاز[٦] الذي هو على غير الوجه الشرعي. وجمع العلماء والقضاة والقراء والمشايخ، في العاشر من شهر رمضان، بالجامع بدمشق لقراءة ختمة. وأشعل الجامع في هذه الليلة، كما يشعل في نصف شعبان.

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٨.

(٢) كسروان: وقد سماها بيبرس المصنوري في «زبدة الفكرة» جبال الصنين، وهي جبال الدرزية. الدروز بلبنان، ومنها ينبع نهر إبراهيم. المقريزي: السلوك / ١، ص ٧٧٩، حاشية (١).

(٣) توفي سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م. ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥١، والدليل الشافي لابن تغري بردي، ج ١، ص ٣٦٧، ترجمة ١٢٥٩.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٢.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٣.

(٦) «بالاتجار» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٣.

ذكر هرب الأمير حسام الدين لاجين والقبض عليه واعتقاله، والقبض على طقصوا[(١)]

وفي هذه السنة، في ليلة عيد الفطر، هرب الأمير حسام الدين لاجين من داره بدمشق خوفاً من السلطان [لما بلغه][(٢)] في أنه يريد القبض عليه. فنودي عليه. من أحضره فله ألف دينار، ومن أخفاه شُنق. وركب السلطان في خاصكيته وجماعة من الأمراء. وترك سماط[(٣)] العيد، وساق في طلبه [وأخذ عليه الطُرق][(٤)]، وعاد بعد العصر، ولم يظفر به.

واتفق أنه التجأ إلى طائفة من العرب كان يثق بصحبتهم. فقبضوا عليه وجيء به إلى السلطان فاعتقله. وقبض أيضاً على الأمير ركن الدين بيبرس [طقصوا][(٥)]، وجهز[(٦)] إلى قلعة الجبل، وكان السبب في القبض على طقصوا، أنه كان قد تكلم على الأمير بدر الدين بيدرا. وقال إنه ارتشى من الكسروان. فوجد بيدرا عليه، وأسرها في نفسه، وتربص به الدوائر. فلما قبض على الأمير حسام الدين لاجين، خاطب بيدرا السلطان في القبض على طقصوا، لأن لاجين كان قد تزوج ابنته، فقبض عليه.

ذكر تفويض نيابة السلطانة بالشام والفتوحات وعود السلطان إلى الديار المصرية.

وفي هذه السنة، فوض السلطان نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري، عوضاً عن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وفوَّض نيابة السلطنة بالفتوحات[(٧)] للأمير سيف الدين طغريل الإيغاني، عوضاً عن الأمير سيف الدين بلبان

---

(١) في الأصل: تقصو، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٣، وهذا الرسم «طقصوا» معروف في كل المصادر المعاصرة.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٧٩.

(٣) سماط العيد: كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يمدوا سماطاً في يوم عيد الفطر في الديوان الكبير، وقبل أن يمد سماط الطعام بقاعة الذهب ويوضع على سماط عيد الفطر الأصناف المختلفة من كعك العيد، وبعد عودة الخليفة من صلاة العيد يسمح للناس بالدخول إلى السماط. محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٨٠.

(٥) «حَمي لاجين» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١، ٨٧٠.

(٦) «حُمل هو ولاجين إلى قلعة الجبل بمصر» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٠.

(٧) الفتوحات: هي ما استولى عليه السلطان من الصليبيين من الأماكن مثل طرابلس، وحصن المرقب وغيرهما.

الطباخي، بحكم انتقاله إلى نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية كما تقدم. ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل. وكان رحيله من دمشق، في الثلث الآخر من ليلة الثلاثاء عاشر شوال. وكان قد رُسم لأهل الأسواق بدمشق أن يخرج كل واحد منهم، وبيده شمعة يوقدها، عند ركوب السلطان، فخرجوا بأجمعهم. ورتبوا من باب النصر [أحد أبواب دمشق](١)، إلى مسجد القدم. ولما ركب السلطان، اشتعلت تلك الشموع. وساق وهي كذلك إلى نهاية ذلك الجمع. وكان وصول السلطان(٢) إلى قلعة الجبل، في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة.

ذكر عدة حوادث كانت خلال فتح قلعة الروم وقبله وبعده

في هذه السنة، في أواخر ربيع الآخر، ورد البريد من الرحبة إلى دمشق، يخبر أن طائفة من التتار، أغاروا على ظاهر الرحبة، واستاقوا مواشٍ كثيرة. فجرد نائب السلطنة إليها جماعة من عسكر دمشق، في ثامن عشرين الشهر(٣). وفيها، في العشر الأوسط من جمادى الأولى، تزوج الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، بابنة الصاحب شمس الدين بن السلعوس، على صداق مبلغه ألف دينار وخمسمائة دينار عيناً، عجَّل من ذلك خمسمائة دينار.

وفيها، بعد أن توجه السلطان إلى قلعة الروم بأيام يسيرة، تسوَّر عبد أسود إلى أسطحة أدر الحرم السلطانية بقلعة دمشق، فأُمْسِكَ وقُرّر، فذكر أن أحد المؤذنين بجامع القلعة نصب له سلماً، وأصعده إلى هناك، فطولع السلطان بذلك، فورد المرسوم بقطع أطرافهما وتسميرهما، [ففعل ذلك بهما](٤).

وفيها، في شعبان طلّق الملك المظفر، صاحب حماه، زوجته، وهي ابنة خاله الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ابن الملك العزيز محمد، ابن الملك الظاهر غازي، ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فعاب الناس عليه ذلك واستقبحوه منه(٥). وتوجهت هي من حماه إلى الديار المصرية، فتوفيت بعد وصولها إليها بعشرين يوماً.

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٥.
(٢) «صعد إلى القلعة في باب زويلة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٨٠.
(٣) لم يرد هذا الخبر في تاريخ ابن الفرات.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٢.
(٥) انظر ما ورد في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٥.

وفيها، بعد أن توجه السلطان من دمشق إلى الديار المصرية، استعفى القاضي محيي الدين بن النحاس[١]، من مباشرة نظر الدواوين بالشام، فأعفي من ذلك. ورتب في نظر الخزانة عوضاً عن أمين الدين بن هلال. ورتب في نظر الدواوين جمال الدين إبراهيم بن صصري.

وفيها، أفرج السلطان عن الأمير علم الدين سنجر الدواداري، بعد عوده من قلعة الروم، وأمر بإحضاره من الديار المصرية إلى دمشق، فأحضر. فخلع عليه السلطان، واستصحبه معه إلى الديار المصرية وأمَّره.

وفيها، رتب السلطان الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصوري، في تقدمة المماليك [السلطانية][٢].

ذكر القبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وجرمك الناصري ووفاتهما، ووفاة طقصوا والإفراج عن الأمير حسام الدين لاجين

وفي هذه السنة، لما عاد السلطان إلى الديار المصرية، قبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير سيف الدين جرمك الناصري، وأمر بإعدامهما، وإعدام طقصوا ولاجين. فكان الذي خنق لاجين، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، فتلطف به، وانتظر أن تقع به شفاعة. فشفع فيه الأمير بدر الدين بيدرا، فأمر السلطان بالإفراج عنه، وهو يظن أنه قد مات. فسلَّمه الله تعالى، لما كان له في طي الغيب ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى. وقيل إن السلطان قبض على سنقر الأشقر من دمشق.

وفيها، في منتصف شهر رمضان، توفي القاضي فتح الدين محمد ابن القاضي محيي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بسفح قاسيون. ومولده في أحد الربيعين، سنة ثمان وثلاثين وستمائة. وكان قد تمكَّن في الدولة المنصورية، والدولة الأشرفية تمكناً كثيراً، وتقدم على أبيه وغيره. ولما اعتلّ، رحمه الله، كتب إلى أبيه: [من الكامل]

إن شئتَ تنظرني وتنظر[٣] حالتي قابل إذا هبّ النسيمُ قَبُولا

(١) ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٠.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٠.

(٣) «تبصرني وتبصر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٠.

لتراه[١] مثل رقة ولطافة[٢] ولأجل قلبك لا أقول عليلا
وهو[٣] الرسول إليك مني ليتني كنتُ اتخذت مع الرسول سبيلا

ولما مات، أجرى السلطان الملك الأشرف جامكيته وجرايته وراتبه، على ولده القاضي علاء الدين علي، واستقر في جملة كتاب الإنشاء. وَولي صحابة ديوان الإنشاء، بعد وفاة القاضي فتح الدين، القاضي تاج الدين أبو الظاهر أحمد ابن القاضي شرف الدين أبي البركات سعيد بن شمس الدين أبي جعفر محمد بن الأثير الحلبي التنوخي، فلم يلبث إلا شهراً أو قريباً من شهر، وتوفي إلى رحمة الله تعالى. وكانت وفاته، يوم الخميس، تاسع عشر شوال من هذه السنة، بظاهر غزة، ودفن هناك رحمه الله تعالى. وولى بعده صحابة ديوان الإنشاء، ولده القاضي عماد الدين إسماعيل، واستمر إلى آخر سنة اثنين وتسعين وستمائة[٤].

وفيها، في يوم السبت العشرين من شوال، توفي الأمير سابق الدين الميداني بدمشق، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة اثنتين وتسعين وستمائة
[٦٩٢ هـ = ١٢٩٢/١٢٩٣ م]

في هذه السنة، في أولها[٥] فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والحصون، إلى الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصوري، عوضاً عن الأمير سيف الدين طغربل[٦] الإيغاني، بحكم استعفائه من النيابة، وسؤاله. فوصل إلى دمشق في سابع عشرين المحرم، وصحبته خمسة أمراء بطبلخاناه، وتوجه إلى جهته.

وفيها، في صفر، حصل ببلاد غزة والرملة ولِد والكرك زلزلة عظيمة، كان معظمها بالكرك، فإنها هدمت ثلاثة أبراج من قلعتها. فندب الأمير علاء الدين أيدغدي الشجاعي من دمشق، وصحبته الصناع لعمارة ما انهدم بالكرك.

وفيها، أمر السلطان بالقبض على الأمير عز الدين أزدمر العلائي، أحد الأمراء

---

(١) «تلقاه» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٠.
(٢) «نحافة» في المصدر نفسه: ج ٨، ص ٣٠.
(٣) «فهو» في المصدر نفسه: ج ٨، ص ٣٠.
(٤) راجع تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٤٤.
(٥) «في أول المحرم» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٨٢.
(٦) «طغريل» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٨٢.

بدمشق: فقُبض عليه،وجهز إلى الأبواب السلطانية في غرة شهر ربيع الأول[(١)].

ذكر توجه السلطان إلى الصعيد

وفي هذه السنة، توجه السلطان إلى جهة الصعيد للصيد، واستصحب معه الصاحب شمس الدين [بن السلعوس][(٢)]، وترك الأمير بدر الدين بيدرا [نائباً عنه][(٣)] بقلعة الجبل [وهو ضعيف][(٤)]. وانتهى السلطان إلى مدينة قوص، وتصيد بها. وأمر الحجاب والنقباء أن ينادوا في العسكر أن يتجهزوا لغزو اليمن. ثم عاد السلطان إلى قلعة الجبل.

ولما كشف الصاحب شمس الدين [بن السلعوس][(٥)] الوجه القبلي في هذه السفرة، وُجدت الجهات الجارية في ديوان الأمير بدر الدين بيدرا من الإقطاعات والمشتروات والحمايات[(٦)]، أكثر مما هو جارٍ في الخاص السلطاني. ووجد الشؤون[(٧)] السلطانية بنواحي الوجه القبلي، خالية من الغلال والحواصل، وشؤون الأمير بدر الدين بيدرا مملوءة. فأنهى ذلك إلى السلطان وأطلعه عليه، فتغير السلطان على بيدرا. واتصل هذا الخبر به، فقصد تلافيه. وجهز للسلطان تقدمة عظيمة، كان من جملتها، خيمة أطلس معدني أحمر، بأطناب إبريسم بأعمدة صندل، محلاة ومفصلة بالفضة المذهبة، وبسطها ببسط الحرير، وما يناسب هذه الخيمة من التقادم. وضرب هذه الخيمة بالعدوية[(٨)]، فنزل السلطان بها ساعة من نهار، وما أظهر البشاشة للتقدمة، ولا استحسنها مع عظمها. ثم ركب وطلع إلى قلعة الجبل، [وارتجع بعض جهات بيدرا للخاص السلطاني][(٩)].

---

(١) راجع تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٣.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٣.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٣.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٦) الحمايات: هي مكوس يفرضها الأمير على بعض الأراضي، والمتاجر والمراكب لحمايتها. القلقشندي: صبح الأعشى. الطبعة المصرية، ج ١٣، ص ١٥٧.

(٧) الشؤون السلطانية: عبارة من مخزن تدعو الحاجة إليه لخزن الغلال والأخشاب والأتبان، وهي بخلاف الأهراء، محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٠٨.

(٨) العدوية: بلدة صغيرة خارج القاهرة، وكانت بالقرب من بركة الحبش، وهي ما بينها وبين طرا على ضفة النيل الغربية، المقريزي: السلوك، ج ١، ٧٨٣، حاشية (١).

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٤.

ذكر توجه السلطان إلى الشام وأخذ بهسنا من الأرمن، وإضافتها إلى الممالك الإسلامية

وفي هذه السنة، بعد عود السلطان من جهة الصعيد، تجهز بعساكره إلى الشام، وأمر الأمير بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة [بالديار المصرية](١)، أن يتوجه بالعساكر إلى دمشق على الطريق الجادة. وتوجه الصاحب شمس الدين [بن السلعوس](٢) بالخزانة إليها، وركب السلطان على الهجن، وفي خدمته جماعة من الأمراء والخاصكية. وتوجه إلى الكرك وشاهد حصنها ورتب أموالها، وتوجه منها إلى دمشق. فكان وصوله إليها، في تاسع جمادى الآخرة. ووصل نائب السلطنة والصاحب قبله بثلاثة أيام.

ولما حلَّ ركابه بدمشق، أمر بتجهيز العساكر إلى بلاد سيس، فوصل رسل صاحب سيس، يسألون مراحم السلطان وعواطفه، ويبذلون له الرغائب. فاتفق الحال على أن يسلموا لنواب السلطان بهسنا ومرعش وتل وحمدون. فأعاد السلطان رسله، وصحبتهم الأمير سيف الدين طوغان والي بر دمشق، فتسلمها وبلادها. ووصل البريد بذلك في العشر الأول من شهر رجب. ودقت البشائر لذلك. ورتب السلطان في نيابة السلطنة ببهسنا(٣)، الأمير بدر الدين بكتاش المنصوري، وعين لها قاضياً خطيباً، واستخدم بها رجالاً وحفظة. ثم وصل الأمير سيف الدين طوغان، وصحبته رسل سيس، بالحمل والتقادم، وكان وصولهم إلى دمشق، في ثامن عشرين شهر رجب بعد عود السلطان، فتوجهوا إلى الديار المصرية.

وهذه بهسنا من أعظم القلاع وأحصنها، ولها ضياع كثيرة. وهي في فم الدربند(٤)، وكانت بيد ملوك الإسلام بحلب، إلى أن ملك هولاكو حلب. وكان النائب بها من جهة الملك الناصر، الأمير سيف الدين العقرب، فأباعها لصاحب سيس، بمائة ألف درهم، أعطاه منها ستين ألف درهم، وتسلمها الأرمن [أهل سيس](٥)، وبقيت في أيديهم إلى الآن(٦).

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٥.

(٣) بهسنا: قلعة حصينة بقرب مرعش وسُمسياط، وهي من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٦١١.

(٤) دَرْبند: هو باب الأبواب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١١.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٦.

(٦) أمر السلطان التجهيز إلى بهنسا وأخذها من الأرمن أهل سيس، فقد أرسل سيس يطلبون العفو. فاتفق الحال على تسليم بهسنا ثم التسليم. ودقت البشائر واستقر الأمير بدر الدين بكتاش في نيابة بهسنا. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٨٤.

ذكر القبض على الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى وإخوته

وفي هذه السنة، في ثاني من شهر رجب، توجه السلطان من دمشق إلى حمص، بجماعة من العساكر، وأعاد ضعفة العساكر إلى الديار المصرية. ثم توجه السلطان من حمص إلى سلمية، في ضيافة الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى. فلما قَدَّم للسلطان ضيافته، أمر القبض عليه، وعلى إخوته فقبض عليهم[١]، وهو على الطعام، وجهَّزه تحت الاحتياط، صحبة الأمير حسام الدين لاجين، فوصل به إلى دمشق، في يوم الأحد سابع شهر رجب. ووصل السلطان إلى دمشق، في بقية النهار. وجعل السلطان إمرة العرب، بعد القبض على مهنا، لابن عمه الأمير محمد بن أبي بكر علي بن حديفة[٢]، ثم أمر السلطان الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، أن يتوجه بالعساكر إلى الديار المصرية، هو والصاحب شمس الدين والخزانة، [كما حضرا من حمص][٣]. فتوجها من دمشق في يوم الخميس حادي عشرة شهر رجب. وتوجه السلطان بعدهما، ببعض الأمراء والخاصكية. وركب من دمشق في الساعة السابعة من يوم السبت ثالث عشر الشهر. وأراد بذلك الانفراد بنفسه وخواصه، والانفراد بهم في الصيد، وأن لا يشتغل بالعساكر. ووصل إلى غزة، في بكرة يوم الأربعاء سابع عشر الشهر. ووصل إلى القاهرة في الثامن والعشرين من شهر رجب[٤].

ذكر هدم قلعة الشوبك[٥]

وفي هذه السنة، في شهر رجب، أمر السلطان الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير خاندار أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ويهدمها، وذلك عند توجه السلطان من دمشق إلى حمص. فراجعه في ذلك، وبيَّن له فساد هذا الرأي، فانتهره، فتوجه إليها وهدمها، وأبقى القلعة. وكان هدمها من الخطأ، وسوء التدبير، فإن القلاع والحصون معاقل الإسلام، وذخائر المسلمين، وإليها يلجأون في أوقات الشدائد والحصارات، ومنازلة الأعداء، وهو أمر لا يؤمن[٦].

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٦.

(٢) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٦.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٤) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٥) قلعة الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وإيلة القلزم، قرب الكرك، آنذاك. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج ٢، ص ١٠٣، حاشية (٧).

(٦) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٦.

وبعد عود السلطان [إلى الديار المصرية][١]، رسم السلطان للأمير سيف الدين طوغان، أن يتوجه إلى نيابة السلطنة، بقلعة المسلمين[٢]، عوضاً عن الأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري. وولى الأمير سيف الدين استدمر كرجي بر دمشق، عوضاً عن طوغان.

ذكر حادثة السيل ببعلبك

وفي هذه السنة، في رجب، وصل كتاب النائب ببعلبك، يخبر أنه وقع على مدينة بعلبك، أمطار وثلوج كثيرة جداً، وأن المطر كان ينزل [وكأنه][٣] قد جبل بطين، وأن السيل وصل إلى باب بعلبك، المسمى بباب دمشق، وعلا حتى وصل إلى شرفات السور. ثم انحدر بعد ذلك، واقتلع كروماً كثيرة، ونقل أحجاراً وصخوراً. وطم أكثر الطرقات، وأنه أحصى ما أفسد ببعلبك، وكانت قيمته تزيد على مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار.

وفيها[٤]، أمر السلطان، بالقبض على الأمير عز الدين أيبك الأفرم، أمير جاندار، فقبض عليه في شوال، ووقعت الحوطة على موجوده وحواصله بالديار المصرية والشام.

ذكر ختان الملك الناصر، وما حصل من الاهتمام بذلك

وفي هذه السنة، أمر السلطان بالاهتمام، لختان أخيه الملك الناصر، ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور، وأن ينصب القبق[٥] تحت قلعة الجبل مما يلي

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٢) قلعة المسلمين: وهي المسماة في القديم بقلعة الروم، وهي قلعة من جند قنسرين في البر الغربي الجنوبي من الفرات، في جهة الغرب الشمالي عن حلب على نحو خمس مراحل منها. وفي الغرب عن البيرة على نحو مرحلة، والفرات بذيلها. وهي من القلاع الحصينة، ولها ربض وبساتين، ويمر بها نهر يعرف بمرزبان يصب في الفرات. وقصدها الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون فنزل عليها ولم يزل بها حتى فتحها وسماها قلعة المسلمين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٢٤.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٤) «في شوال من هذه السنة أمر الملك الأشرف» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٥) القبق: أو القباق: لفظ تركي معناه بنات القرعة العسلية، وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملاً في لعب الرماية المعروف باسم القبق أيضاً، وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صارٌ طويل من خشب يكون في رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف، ويكون في هذه القرعة طير حمام، ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب أو السهام، وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام، حاز السباق، وأخذ القرعة المعدنية مكافأه. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٦٨. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥١٨، حاشية (٦).

باب النصر. فنصب [القبق][(١)] في العشرين من ذي الحجة [الشهر المذكور][(٢)]، ورماه الأمراء والأكابر ومن له ولمثله عادة بذلك. وفرّق السلطان المال والخلع][(٣)] على من أصابه. وكان ممن أصابه الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي النجمي [الذي انتسب للأشرف][(٤)]. فرماه ما لم يرمه غيره قبله. وذلك أنه كان قد اقترح سرجاً وطيء الرادفة جداً. فلما رآه السلطان، قال له قد كبرت يا أمير بدر الدين، فاقترحت هذا السرج. يسهل عليك الركوب. فقال: إن كان المملوك قد كبر، فقد رزقت ستة أولاد، وهم في خدمة السلطان ولم أكن أقترح هذا السرج إلا لأجل القبق. ثم ساق الأمير بدر الدين نحو صاري القبق. والعادة جارية أن الرامي لا يرميه إلا إذا صار بجانب الصاري. فساق إلى أن تعدى الصاري، فما شك الناس أنه فاته الرمي. ثم استلقى على ظهر فرسه، حتى صار رأسه على كفل الفرس، فرماه، وهو كذلك، بعد أن تعداه، فأصاب القرعة وكسرها. فصرخ الناس لذلك واستعظموه، وظهرت للسلطان فائدة السرج، فأمر أن ينعم عليه بما بقي في ذلك الوقت، من المال المرصد للإنعام فأعطيه، وكان خمسة وثلاثين ألف درهم. وخلع عليه، وعظم في صدور الناس، زيادة عما عندهم من تعظيمه. وعلموا عجزهم عن الإتيان بما أتى به، وفعل ما فعله[(٥)].

ثم كان الختان المبارك، في يوم الاثنين، الثاني والعشرين من ذي الحجة. ونثر الأمراء الذهب الكثير في الطشوت حتى امتلأت.

وفيها، في ليلة الثلاثاء حادي عشر صفر، توفي الأمير الصالح شمس الدين أبو البيان، نبا ابن الأمير نور الدين أبي الحسن علي ابن الأمير شجاع الدين هاشم بن حسن بن حسين، أمير جاندار المعروف بابن المِحفَّدار[(٦)] بداره بالروضة، قبالة مصر، بعد أن صلى العشاء الآخرة، بسورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ فلما فرغ من الصلاة، سجد سجدة، فمات في سجدته، وكانت عادته أن يسجد عقيب صلاته، ويدعو الله في سجوده. ودفن من الغد في القرابة بتربته، بقرب تربة الإمام الشافعي. وكان رحمه الله تعالى، ديناً حسن السيرة والوساطة، احتوى على أوصاف جميلة، يثق الملوك

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٨.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٨.

(٥) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٥٨.

(٦) المحفدار: مركب من لفظين، مِحفّة، وهي عبارة عن هودج، ودار ومعناه الممسك. والمحفدار هو الذي يتولى محفّة السلطان أو من يقوم بخدمتها. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٤١.

به ويعلمون خيره وديانته، رحمه الله تعالى.

وفيها، في ليلة الأربعاء، ثاني عشر جمادى الآخرة، توفي الملك الزاهر مجير الدين داود[١] ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، ابن الملك القاهر ناصر الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان، ببستانه المعروف ببستان سامة، بالسهم، ظاهر دمشق، وصلي عليه ظهر يوم الأربعاء بالجامع المظفري، ودفن بتربته بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى. ذكر وفاته الشيخ شمس الدين الجوزي[٢].

وفيها، توفي القاضي محيي الدين[٣] عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر. كانت وفاته بالقاهرة في يوم الأربعاء ثالث رجب الفرد، ودفن بالقرافة[٤]، رحمه الله تعالى. وفضائله وشهرته بالرئاسة والآداب، تغني عن شرح. وقد قدمنا من كلامه في كتابنا هذا، ما يقف عليه في مواضعه، وله شعر رقيق.

فمن شعره قوله:

ما غبت عنك لجفوةٍ وملالِ ... يوماً ولا خطر السلوُّ ببالِي
يا مانعي طيبَ المنامَ ومَانِحِي ... ثوب السقام وتاركي كالالِ
عن من أخذت جواز منعي ريقك المـ ... ـعسول يا ذا المعطف العسال[٥]
عن ثغرك النظّام أم عن شعرك الـ ... ـفحام أم عن جفنك الغزالي
فأجابني أنا مالك شرعَ الهوى ... والحسنُ أضحى شافعي وجَمالي
وشقائق النعمان أينع نبتها ... في وجنتي وحماه رشقُ نبالي
والصبر أحمد للمحبّ إذا ابتلا ... ه الحبُّ في شرع الهوى بسؤال
وعلى أسارى الحبِّ في حكم الهوى ... بين الأنام عرفت القَفّالِ[٦]

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦١.

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) تقدم ذكر ولده القاضي فتح الدين في السنة الماضية. ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٢. وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٢، ص ١٧٩ ـ ١٨٤. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٢. والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٥٤، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٢١.

(٤) «ودفن بالقرافة بترتبته التي أنشأها» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٢.

(٥) «العسالي» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٢.

(٦) «بالعقال» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٢.

وتـفـقَّـه الـعُـشـاق فـيَّ فـكـلَّ مَـنْ نقل[١] الصحيح أجزته[٢] بوصالي

وفيها، في يوم الخميس، سابع عشر شعبان، كانت وفاة قاضي القضاة معز[٣] الدين النعمان بن الحسن بن يوسف، قاضي الحنفية بالديار المصرية، ودفن يوم الجمعة بالقرافة، وولي قضاء الحنفية بعده، قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي.

وفيها، كانت وفاة الملك الأفضل نور الدين[٤] علي ابن الملك المظفر محمود، وهو عم الملك المظفر ابن الملك المنصور صاحب حماه. وقد تقدم ذكر نسبه في مواضع من كتابنا هذا. وتوفي بدمشق في يوم الاثنين، مستهل ذي الحجة. وصُلِّي عليه بجامعها، في الثالثة من النهار، ونقل لوقته إلى حماه، فدفن بها، رحمه الله، وهو والد الملك المؤيد عماد الدين أسماعيل صاحب حماه في وقتنا هذا[٥].

وفيها، كانت وفاة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ابن الملك المسعود صلاح الدين أقيسيس[٦]، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، قبل العصر من يوم الخميس، خامس شهر رجب من السنة.

ومولده بالكرك، بعد العشاء الآخرة، من ليلة الأربعاء سادس عشر شوال، سنة تسع وخمسين وستمائة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة
[٦٩٣ هـ = ١٢٩٣/١٢٩٤ م]

ذكر مقتل السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمهما الله تعالى

كان مقتله رحمه الله، في يوم السبت ثاني عشر المحرم، سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وذلك أنه توجه إلى الصيد بجهة البحيرة. وركب من قلعة الجبل في ثالث المحرم، وعزم على قصد الحمامات الغربية. وتوجه الصاحب شمس الدين [ابن

(١) «يقل» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٢.
(٢) في الأصل: أخزنهُ، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٢.
(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٢.
(٤) لم يذكر ابن الفرات هذا الخبر.
(٥) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٣.
(٦) «أقش ابن الملك الكامل» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٣.

السلعوس][١] إلى ثغر الإسكندرية، لتحصيل الأموال، وتجهيز تعابي[٢] الأقمشة. فوجد نواب الأمير بدر الدين بيدرا بالثغر قد استولوا على المتاجر والاستعمالات[٣] وغير ذلك. فكاتب السلطان بذلك، وعرفه أنه لم يجد بالثغر ما يكفي الإطلاقات[٤]، على جاري العادة. فغضب السلطان لذلك غضباً شديداً، واستدعى بيدرا بحضور الأمراء، وأغلظ له في القول، وشتمه وتوعده. فتلطف بيدرا في الجواب حتى خرج من بين يدي السلطان، وجمع أعيان الأمراء من خوشداشتيه، وهم الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريان وغيرهما. فاتفقوا على الوثوب به. وكان السلطان قد أعطى الأمراء الأكابر دستوراً، أن يتوجهوا إلى إقطاعاتهم، وانفرد هو بخاصكيته. وفي أثناء ذلك، ركب السلطان في نفر يسير من مماليكه للصيد بقرب الدهليز، بمنزلة تروجة[٥]، فانتهز بيدرا الفرصة، وركب وصحبته لاجين وقراسنقر وبهادر[٦]، رأس نوبة[٧]، وأقسنقر الحسامي[٨] ونوغيه[٩]، ومحمد خواجا[١٠]، وطرنطاي الساقي، والطنبغا[١١]، ورأس نوبة، ومن انضم إليها. وتوجهوا نحو السلطان، وكان بينهم وبينه مخاضة، فخاضوها وقدموا عليه. فقيل: إن بيدرا ضربه بالسيف، فالتقاه بيده، فلم يعمل

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) تعابي: قطع قماش، ولعل المقصود هنا ما يختص بالفارس من المتاع. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) الاستعمالات: ورد في Dozy. Supp. Dict, Ar لفظ معاملات ومن معانيه أعمال المتاجرة. وهناك لفظ استعمل faire le metier de courtier ومعناه مزاولة مهنة الدلالين. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٨٨، حاشية (٣).

(٤) الإطلاقات: جمع إطلاق. ومعناه «إما تقرير عدل لما قرره أحد الملوك السالفة، أو ابتداء في معروف أو زيادة في إحسان على ما كان مقرراً، ومن معانيه أيضاً قطعة أرض تمنح وتعفى من جميع أنواب الضرائب. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٦Dozy. Supp. Dict, Ar ..

(٥) تروجة: قرية تابعة لمديرية البحيرة، كانت موجودة إلى القرن التاسع الهجري. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج ٢، ص ١٠٨، حاشية (٣).

(٦) هو بهادر بن عبد الله التركي يلقب سيف الدين، توفي سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٧.

(٧) تقدم التعريف به.

(٨) هو أقنسقر بن عبد الله التركي الساقي شمس الدين، توفي سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٧.

(٩) هو نوغية بن عبد الله التركي السلاح دار سيف الدين، توفي سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م، ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٠.

(١٠) ويلقب ناصر الدين، توفي سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٩.

(١١) هو الطنبغا عبد الله التركي الجمدار علاء الدين، توفي سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

عملاً طائلاً. فسبَّه لاجين، وضربه بالسيف ضربة هدلت كتفه، وأخذته السيوف حتى قتل، في التاريخ الذي ذكرناه.

وحكي عن شهاب الدين أحمد بن الأشل، أمير شكار، في كيفية مقتل السلطان، قال: لما رحل[١] الدهليز والعسكر، جاء الخبر إلى السلطان أن بتروجة طيراً كثيراً، فساق، وأمرني أن أسوق في خدمته، فسقت معه. وقال لي: عجّل بنا، حتى نسبق الخاصكية. فسقنا فرأينا طيراً كثيراً، فصرع منه بالبندق. ثم التفت إليّ، وقال لي: أنا جيعان، فهل معك ما آكل. فقلت: والله ما معي غير رغيف واحد وفروج في صولقي[٢]، ادخرته لنفسي. فقال: ناولنيه، فناولته له، فأكله جميعه. ثم قال لي: امسك فرسي، حتى أنزل أبول. وكنت كثير البسط معه. فقلت: ما فيها حيلة، السلطان راكب حصان، وأما راكب حِجْر، وما يتفقان. فقال لي: انزل أنت، واركب خلفي حتى أنزل أنا.

قال: فنزلت وناولته عنان فرسي، فأمسكه. وركبت خلفه. ثم نزل وقعد على عجزه وبال، وبقي يعبث بذكره، ويمازحني، ثم قام، وركب حصانه، ومسك فرسي حتى ركبت. فبينما أنا وهو نتحدث، وإذا بغبار عظيم قد ثار نحونا. فقال لي السلطان: اكشف لي خبر هذا الغبار، ما هو. قال: فسقت وإذا أنا بالأمير بدر الدين بيدرا والأمراء معه. فسألتهم عن سبب مجيئهم. فلم يكلموني ولا التفتوا إليَّ، وساقوا على حالهم، حتى قربوا من السلطان. فابتدره الأمير بدر الدين بيدرا، وضربه بالسيف، فقطع يده، ثم ضربه لاجين على كتفه فحله، وسقط إلى الأرض، وجاء بهادر، رأس نوبة، فوضع السيف في دبره، [وأتكأ عليه][٣] حتى أطلعه من حلقه، واشترك من ذكرنا من الأمراء في قتله[٤].

وهذه الحكاية تدل على أن السلطان، كان قد انفرد عن مماليكه، ولم يكن معه غير شهاب الدين أمير شكار، الحاكي، وبقي الملك الأشرف ملقى في المكان، الذي قتل فيه يومين. ثم جاء الأمير عز الدين أيدمر [العجمي][٥] متولي تروجة وأهلها إليه، وحملوه إليها في تابوت. وغسلوه في الحمام وكفنوه، وجعلوه في تابوت، ووضعوه في

---

(١) في الأصل: «دخل» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٧.

(٢) الصولق: الجمع صوالق، والصولق عبارة عن حقيبة كبيرة يعلّقها المملوك في الجانب الأيمن من حياصته التي يشدها على وسطه، ويثبت فيها منديل. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٢٤، عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ج ١، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٨.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٨٨ ـ ٧٩١.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٠.

بيت المال، في دار الولاية بتروجة، إلى أن حضر من القاهرة الأمير سيف الدين كوجبا الناصري، فنقله في تابوته إلى تربته، التي أنشأها بظاهر القاهرة، بجوار مشهد السيدة نفيسة، ودفن بها في سحر يوم الخميس[١] الثاني والعشرين من صفر، من هذه السنة. وكانت مدة سلطنته، ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام.

وكان رحمه الله تعالى، ملكاً شجاعاً كريماً، خفيف الركاب، مظفراً في حروبه. ولم يخلف ولداً ذكراً. وإنما مات عن بنتين، وزوجته أردكين أمهما ابنة الأمير سيف الدين نوكيه. وورثه معهن أخواه السلطان الملك الناصر، ودار مختار الجوهري.

ذكر خبر الأمير بدر الدين بيدرا[٢]
ومن معه من الأمراء الذين وافقوه، وما كان منهم، ومقتل بيدرا

قال[٣]: ولما قتل السلطان الملك الأشرف، عاد الأمير بدر الدين بيدرا، ومن معه الأمراء إلى الوطاق. فتقرر بينهم أن السلطنة تكون لبيدرا، ولقب بالملك القاهر، وقيل الملك الأوحد[٤]. ثم ركبوا وقبضوا على الأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، أمير جاندار، وقصدوا قتلهما، فشفع فيهما بعض الأمراء. وكان بالدهليز السلطاني من الأمراء: الأمير سيف الدين برلغي[٥]، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي، وجماعة من المماليك السلطانية. فركبوا في آثار بيدرا ومن معه. وكان الأمير زين الدين كتبغا المنصوري في الصيد، فبلغه الخبر، فلحق بهم. وجدوا في طلب بيدرا ومن معه. فلحقوه على الطرانة[٦]، فلما التقى الجمعان، أطلق بيدرا الأميرين اللذين كان قد قبض عليهما، ليكونا عوناً له، فكانا عوناً عليه.

وتقدم الأمراء، وحملوا على بيدرا حملة منكرة، فانهزم هو ومن معه، فأدركوه فقتل. وهرب لاجين وقراسنقر، فدخلا القاهرة واختفيا بها، ثم ظهرا بعد ذلك، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) «الجمعة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٨.
(٢) تقدمت ترجمته.
(٣) يشير النويري إلى المصدر الذي أخذ عنه، ولم ترد هذه الإشارة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٩.
(٤) تلقب بالملك الرحيم في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١١١.
(٥) «برغلي» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٩، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩١.
(٦) الطَّرانة: هي اليوم قرية صغيرة واقعة على الشاطىء الغربي لفرع النيل الغربي. فرع رشيد، ضمن قرى مركز حمادة بمديرية البحيرة، محمد رمزي: القاموس الجغرافي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ١٤، حاشية (٣).

وحكى الأمير سيف الدين أبو بكر بن الجمقدار(١)، نائب أمير جاندار. قال: أرسلني السلطان أول النهار، إلى الأمير بدر الدين بيدرا، أن يتوجه في تلك الساعة، بالعسكر، ويسوق تحت الصناجق، فأتيته فأخبرته بما أمر به السلطان، فنفر [في وجهي](٢)، وقال: السمع والطاعة. ثم قال: لم يستعجلني؟ ورأيت في وجهه أثر الغيظ والغضب، وما لم أعهده منه. ثم تركته، وتوجهت إلى الزردخاناه وحملتها، وحملت ثقلي، وتوجهت أنا ورفيقي الأمير صارم الدين [الفخري](٣) والأمير ركن الدين [بيبرس](٤) أمير جاندار. فبينما نحن سائرون عند الماء، إذ نحن بنجاب سائق، فأخبرنا بمقتل السلطان فتحيرنا في أمرنا، وإذا بالصناجق السلطانية قد لاحت وقربت. والأمير بدر الدين [بيدرا](٥) تحتها، والأمراء محدقون به، فتقدمنا وسلمنا وعليه. فقال له الأمير ركن الدين بيبرس، أمير جاندار، يا خوند، هذا الذي فعلته كان بمشورة الأمراء. فقال: نعم، أنا قتلته بمشورتهم وحضورهم، وها كلهم حاضرون. وكان من جملة من معه، الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير بدر الدين بيسري، وأكثر الأمراء سائقون معه. ثم شرع يعدد مساوىء السلطان [الأشرف](٦) ومخازيه، واستهتاره بالأمراء، ومماليك أبيه، وإهماله لأمور المسلمين، ووزارته ابن السلعوس ونفور الأمراء منه لمسكه الأمير عز الدين الأفرم، وقتله من قتل من الأمراء الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وطقصوا [وغيرهما](٧). قال: ثم سألنا، هل رأيتم الأمير زين الدين(٨) كتبغا؟ قلنا: لا. فقال له بعض الأمراء: يا خوند، هل كان عنده علم من هذا الأمر الذي وقع؟ فقال: نعم، وهو أول من أشار به. فلما كان في اليوم الثاني، إذا نحن بالأمير زين الدين كتبغا، قد جاء في طُلْب كبير، فيه من المماليك السلطلانية نحو ألفي فارس، وجماعة من العسكر والحلقة، والأمير حسام الدين أستاذ الدار؛ فالتقوه بالطرانة في يوم الأحد أول النهار. ففوّق الأمير زين الدين كتبغا نحو بيدار سهماً، وقال له يا بيدرا، أين السلطان. ثم رماه به، ورمى جميع من معه. فقتل بيدرا، وتفرق جمعه.

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٧، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٢.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٧.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٧.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٦٧.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٠.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٠.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٠.
(٨) في الأصل: ركن الدين، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٠.

وكانت الإشارة أن أصحاب كتبغا، شدوا مناديلهم من رقابهم إلى تحت أباطهم، ليعرفوا من غيرهم، ثم حمل رأس بيدرا إلى القاهرة[١]، وطيف به[٢]. هذا ما كان من خبر مقتل بيدرا.

ولما قتل السلطان، كان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب السلطنة، بقلعة الجبل، فاحترز على المعادي، وأمر أهلها أن لا يعدّوا بأحد من الجند من بر الجيزة إلى ساحل مصر. ثم حضر الأمراء الذين قتلوا بيدرا، وهم الأمير زين الدين كتبغا. والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير سيف الدين برلغي، والأمراء الخاصكية، وهم الأمير سيف الدين طغجي، والأمير عز الدين طقطاي، والأمير سيف الدين قطبية، وغيرهم من المماليك السلطانية، فراسلوا الأمير علم الدين [سنجر][٣] الشجاعي في طلب المعادي، فأرسلها إليهم. فعدّوا بجملتهم، وطلعوا إلى القلعة. واجتمعوا واتفقوا كلهم مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، على أن تكون السلطنة، للسلطان ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور. فنصبوه في السلطنة، وكان ما نذكره.

(١) «علّق رأسه بهادر على باب داره الملاصقة لمشهد الحسين بالقاهرة»، في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٩.

(٢) انظر ما ورد في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٢.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

ذكر أخبار السلطان الملك الناصر، ناصر الدين محمد[1]، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي

وهو التاسع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية، وأمُّه أشلُون خاتون ابنة سكناي[2] بن قراجين بن جنكاي[3] نوين، ملك الديار المصرية والممالك الشامية والساحلية والحلبية والفراتية، وغير ذلك مما هو مضاف إلى هذه الممالك من القلاع والحصون والثغور والأعمال.

وجلس على تخت السلطنة بالديار المصرية، بقلعة الجبل، بعد مقتل أخيه، السلطان الملك الأشرف، صلاح الدين خليل، وذلك في[4] رابع عشر المحرم، سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وعمره يومذاك تسع سنين سواء، فإن مولده في يوم السبت، خامس عشر المحرم، سنة أربع وثمانين وستمائة كما تقدم، وذلك باتفاق الأمراء المنصورية، ومن بقي من الأمراء الصالحية النجمية وغيرهم، وإجماعهم على سلطنته.

واستقر أن يكون الأمير زين الدين كَتبْغا المنصوري، نائب السلطنة الشريفة، والأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعي وزير الدولة ومدبِّرها، والأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، وأعطي إمرة مائة فارس وتقدمة ألف. وجعل إليه أمر ديوان الإنشاء في المكاتبات والأجوبة والبريد. وحصلت النفقة في العساكر، واستُحْلِفوا للسلطان الملك الناصر، فحلفوا بأجمعهم.

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك، ج ١، ص ٧٩٣، وخطط المقريزي ج٢، ص ٢٣٩ (دار صادر بيروت)؛ وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٣٧٨، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١١٤، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٢؛ وفوات الوفيات ج ٤، ص ٣٥، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٦، ص، ١٣٤؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٥.

(٢) «سكباي» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٢.

(٣) «جنكان» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٢.

(٤) «يوم الاثنين وقيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرم» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٣٥.

هذا ما كان بالديار المصرية ومقر السلطنة.

وأما بالشام، فإنه كُتِب عن السلطان الملك الأشرف كتاب إلى نائب السلطنة بدمشق، وجهز مع الأمير سيف الدين ساطلمش، وسيف الدين بهادر التتاري. فوصلا به إلى دمشق، في يوم الجمعة رابع عشرين المحرم من هذه السنة. ومضمونه: أنا قد استنبنا أخانا، الملك الناصر، ناصر الدين محمداً، وجعلناه ولي عهدنا. حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدوّ، يكون لنا من يخلفنا. ورسم فيه، أن يحلف الناس له، ويقرون اسمه باسم السلطان[١] في الخطبة. فجمع نائب السلطنة الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري الأمراء والمقدمين والقضاة والأعيان، وحلفوا [على][٢] ذلك. وخطب له في يوم الجمعة هذا بولاية العهد، بعد الملك الأشرف. وكان ذلك بتدبير الأمير علم الدين الشجاعي. واستمر الحال على ذلك، والخطبة للملك الأشرف [ثم][٣] من بعده لأخيه الملك الناصر، بولاية العهد، إلى حادي عشر شهر بيع الأول، فورد المثال السلطاني الناصري بالخطبة له استقلالاً بالسلطنة. فخطب له في دمشق، في يوم الجمعة، الحادي عشر، من الشهر المذكور. وورد البريد إلى الشام، بإيقاع الحوطة على موجود الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير بدر الدين بيدرا وغيرهم من الأمراء أصحاب بيدرا في اليوم الثامن من ورود المرسوم الأول بالخطبة للسلطان بولاية العهد، فوقعت الحوطة على موجودهم وحواصلهم.

ذكر خبر الأمراء الذين وافقوا بيدرا على قتل السلطان الملك الأشرف

لما استقر الحال في سلطنة السلطان الملك الناصر، أمر بطلب الأمراء الذين وافقوا بيدرا على قتل أخيه الملك الأشرف. فأول من وجد منهم. الأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة، والأمير جمال الدين آقش الموصلي الحاجب، فضربت رقبتاهما وأحرقت بالمجاير[٤]. ثم حصل الظفر بعدهما بسبعة من الأمراء[٥] وهم: طرنطاي الساقي، [وسيف الدين][٦] الناق [الساقي][٧] الحسامي [ويقال له عناق][٨] السلاح دار،

(١) «باسم الملك الأشرف» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٢.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.
(٤) المجاير: جمع جيارة، وهي الفرن. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٥.
(٥) «وذلك في العشرين من المحرم سنة ٦٩٣ هـ» تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.
(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.

و[سيف الدين][١] أروس [الحسامي][٢] السلاح دار، و[شمس الدين][٣] أقسنقر الحسامي، و[علاء الدين][٤] الطنبغا الجمدار، وناصر الدين[٥] محمد خواجا، فاعتقلوا بخزانة البنود[٦]. وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، يتوجه إليهم ويعاقبهم، ويقررهم على من باطنهم. واستمر ذلك في إلى يوم الاثنين خامس صفر، ثم قطعت أيديهم وأرجلهم، وسمروا على الجمال، وطيف بهم، وأيديهم في أعناقهم، وماتوا شر ميتة. ثم وجدوا بعد قجقر الساقي، فشنق في سوق الخيل. وأما الأمير حسام الدين لاجين، والأمير شمس الدين قراسنقر، فإنهما هربا واختفيا. وكان من أمرهما، ما نذكره إن شاء الله تعالى. هذا ما كان من أمر هؤلاء.

ذكر أخبار الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس الوزير[٧] وما كان من أمره، منذ فارق السلطان الملك الأشرف إلى أن مات تحت العقوبة[٨]

كان الصاحب شمس الدين المذكور، قد توجه إلى ثغر الإسكندرية كما ذكرنا، وطالع السلطان في حق الأمير بدر الدين بيدرا، بما أوجب هذه الفتنة العظيمة. ولما

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣ والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٥.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٣.

(٦) خزانة البنود: كانت هذه الخزانة من منشآت الدولة الفاطمية. بناها الخليفة الظاهر بين قصر الشوك وباب العيد لخزن أنواع البنود من الرايات والأعلام، عدا أنواع السلاح والآلات الحربية. وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين في سائر الصنائع، وبها مدرسة لتعليم مماليك الدولة أنواع العلوم وفنون الحرب وصنوف حيلها من الرماية والمطاعنة، والمسابقة، ثم احترقت تلك الخزانة بما فيها من أنواع المتاع سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م. وجعلت بعد هذا الحريق حبساً للأمراء والوزراء والأعيان إلى أن زالت دولة الفاطمية، واتخذها ملوك ابن أيوب أيضاً سجناً للأمراء، ثم جعلوها منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية، وظلت مخصصة لذلك الغرض زمن دولة المماليك حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١١٧، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٩٥، حاشية (٤).

(٧) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٤.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٤.

وصل الصاحب[(١)] إلى الإسكندرية، ضيق على أهل الثغر، وشدّد عليهم الطلب، وعزم على مصادرة أعيانهم، وذوي الأموال منهم. وأمر بإيجاد مقارع لعقوبة أهل الثغر. فبقي الناس من ذلك في شدة عظيمة، لا يرجون خلاصاً إلا ببذل الأموال والأبشار؛ وأهان متولي الثغر.

فبينما الناس على مثل ذلك، إذ وقعت بطاقة لمتولي الثغر، في عشية النهار، تتضمن خبر مقتل السلطان. فكتمها المتولي عن الصاحب وغيره، وصبر إلى أن دخل الليل، وجاء إلى باب الصاحب، واستأذن عليه، فأذن له، فوقف بين يديه على عادته. فقال له الصاحب ما الذي جاء بك في هذا الوقت، هل ظهرت لك مصلحة يعود نفعها؟ فقال: يا مولانا، لم يخف عن علمك أن أهل هذا الثغر غزاة مرابطون، وما قصد أحد أذاهم، فتم له مقصوده، والذي يراه المملوك، أن يحسن مولانا إليهم، ويطيب خواطرهم، ويفرج عنهم ـ [هذا اللفظ أو معناه][(٢)] ـ فسبه الصاحب أقبح سب. وهم أن يوقع به، والوالي لا يزيده أن يقول: مولانا يروض نفسه، فلا فائدة في هذا الحرج. والصاحب يزيد في سبه، والإغلاظ له، ويتعجب من إقدامه على مخاطبته بمثل هذه الألفاظ. فلما أفرط الصاحب في سبه، وزاد به الحرج، تقدم إليه بالبطاقة. وقال: يقف مولانا على هذا. فلما قرأها، سقط في يده، وخاطبه بياخوند. فقال له المتولي: ما الذي تختار. فقال: الخروج من هذه الساعة. فلم يؤاخذه المتولي، بما صدر منه في حقه وفتح له باب المدينة، وأخرجه وعرض عليه أن يجهز معه من يوصله القاهرة فامتنع. وخرج من الثغر في ليلته. ولو أصبح به لقتله أهله. واستمر به السير إلى أن وصل إلى القاهرة ليلاً. فبات بزاوية[(٣)] الشيخ جمال الدين ابن الظاهري، ولم ينم في معظم الليل. وركب بكرة النهار من الزاوية، وجاء إلى داره، وهو على حاله وهيئته. وحضر السلام عليه القضاة وأعيان الدولة ونظارها. فعاملهم بما كان يعاملهم به من الكبر، وعدم القيام لأكابرهم. ثم استشار بعض الناس فيما يفعل. فأشار بعضهم عليه، بالاختفاء إلى أن

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٥.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٥.

(٣) هذه الزاوية خارج باب البحر، ظاهر القاهرة عند حمام طرغاي على الخليج الناصري، الذي حفره الملك الناصر محمد بن قلاوون، فلما انحسر هذا الخليج عن ساحل المقس صارت هذه الزاوية تشرف عليه، وكانت أولاً تشرف على بحر النيل الأعظم. وتنتمي هذه الزاوية إلى أحمد بن محمد بن عبد الله بن العباس جمال الدين الظاهري. وكان أبوه عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازي، وبرع حتى صار إماماً حافظاً، مات سنة ٦٩٦ هـ بالقاهرة، ودفن بتربته خارج باب النصر. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٧٩٧، حاشية (١).

تسكن هذه الفتنة، وتستقر القاعدة، فقال هذا لا نفعله ولا نرضاه لعامل من عمالنا. فكيف نختاره لأنفسنا. واستمر على ذلك خمسة أيام.

وكانت رسالة دور السلطان الملك الأشرف قد خرجت إلى الأمير زين الدين كتبغا، مضمونها الشفاعة في أمره، وأنه لا يؤذي. وذكروه بمحبة السلطان له. وأنهم إنما قاموا في طلب ثأر السلطان، وقتل أعدائه. [وما](١) هذا فهو أخلص أولياء السلطان بخدمته، وأدومهم على طاعته - هذا اللفظ أو معناه -، فسكن أمره في هذه الأيام الخمسة الماضية، فغضب الأمير علم الدين الشجاعي، واجتمع بالأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وغيره من أكابر الأمراء. وقال: هذا الصاحب هو الذي أوقع بين السلطان ومماليكه وأمرائه ونائبه. وإنما قُتل السلطان بسبب هذا، فاتَّبع رأيه فيه.

فلما كان في اليوم السادس، وهو اليوم الثاني والعشرين من المحرم، طلع الصاحب شمس الدين [ابن السلعوس](٢) إلى قلعة الجبل، فحضر إلى الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة، فسلَّمه للأمير علم الدين الشجاعي، فسلّمه الشجاعي للأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري، وكان من أعدائه، ليطالبه بأموال فضربه ضرباً شديداً. فأنكر عليه الأمير علم الدين، ثم سيّره إلى الأمير بدر الدين المسعودي، شاد الدواوين، وهو نشو ابن السلعوس، فإنه كان قد طلب من دمشق للمصادرة، لما قتل مخدومه الأمير حسام الدين طرنطاي، وكان يتولى ديوانه بالشام، فأحسن الصاحب إليه، وأفرج عنه، وولاه شد الدواوين بالديار المصرية، فلما سلّم إليه، عاقبه واستصفى أمواله. وكان يجلس لمصادرته وعقوبته في المدرسة الصاحبية(٣) التي بسويقة الصاحب بالقاهرة. ولم يزل يعاقبه إلى أن مات تحت الضرب، وقيل إنه ضرب بعد موته، ثلاثة عشر مقرعة، ولم يعلم أنه مات. وكانت وفاته في يوم السبت عاشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، ودفن بالقرافة(٤).

ذكر الخلف الواقع بين الأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزين الدين كتبغا، ومقتل الشجاعي

كان الأمير علم الدين الشجاعي قد استمر في الوزارة وتدبير الدولة. وأحكم

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٦.

(٣) تنسب هذه المدرسة إلى الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وزير السلطان العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٧٩٧، حاشية (٢).

(٤) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٨، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٦ - ٧٩٧.

أمرها، وهابه الناس وقويت نفسه، وأراد أن يستبد بالأمر، وشرع في أعمال الحيلة والتدبير على قبض الأمير زين الدين كتبغا، [وجماعة من الأمراء][١]. فلما كان في يوم الخميس، ثاني عشرين صفر، من هذه السنة، اجتمع الأمراء بمساطب باب القلعة على العادة، ينتظرون فتح باب القلعة، ليركبوا في خدمة الأمير زين الدين كتبغا، نائب السلطنة في الموكب [على جاري العادة][٢]. فلم يشعروا إلا وقد خرجت رسالة على لسان الأمير جاندار، يطلب جماعة من الأمراء، وهم سيف الدين قبجاق، وبدر الدين عبد الله السلاح دار، وسيف الدين قبلاي، وركن الدين عمر [السلاح دار][٣] أخوتمر، وسيف الدين كرجي، وسيف الدين طرقجي، فدخلوا إلى الخدمة السلطانية. وقام [بقية][٤] الأمراء للركوب، فبينما هم يسيرون تحت القلعة، بالميدان الأسود، جاء اثنان من ألزام الأمير علم الدين الشجاعي، وهما الأمير سيف الدين قنغر، وولده حاروشي[٥]. فأخبرا الأمير زين الدين كتبغا أن الأمراء الذين استدعوا اعتقلوا، وأن الشجاعي قد دبّر الحيلة عليك وعلى الأمراء، إذا طلعتم إلى القلعة، ودخلتم إلى الخوان أن يقبض عليكم. فعرّف كتبغا الأمراء الذين معه في المواكب الصورة. فتوقفوا عن الطلوع إلى القلعة، وتوهموا أن الشجاعي اتفق مع الأمراء المنصورية والأمراء البرجية، والمماليك السلطانية. وكان بالموكب الأمير ركن الدّين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار[٦]، والأمير سيف الدين برلغي، أمير مجلس[٧]، فأمسكوهما في الموكب، وأرسلوهما إلى ثغر الإسكندرية.

وأخبرني الأمير ركن الدين[٨] بيبرس، في ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة، أنه ضرب على رأسه بدبوس، وأراني[٩] أثر الضربة.

وكان قد ذكر لي ذلك، في أثناء ذكره السالف خدمة السلطان، وما لقيه وقاساه.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٩.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٩.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧٩. والسلاح دار هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٠.

(٥) «جاورجي» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٠، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧٩٩.

(٦) استاذ الدار: تقدم التعريف به.

(٧) أمير مجلس: تقدم التعريف به.

(٨) هو بيبرس الدوادار صاحب كتاب زبدة الفكرة. تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٠.

(٩) «ولم يزل أثر الضربة في رأسه» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٠.

ولما أمسكا، حصلت مفاوضة بين الأمير علم الدين سنجر البندقداري، وبين الأمير زين الدين كتبغا. فقال البندقداري له: أين لاجين، أحضره، فقال: ما هو عندي. فقال: بل هو عندك، فجرد البندقداري سيفه ليضرب به كتبغا، فضربه بدر الدين بكتوب الأزرق، مملوك كتبغا بسيفه، حل كتفه ثم ألقوه عن فرسه، وذبح بسوق الخيل.

وتوجه الأمير زين الدين كتبغا ومن معه من الأمراء، إلى الباب المحروق وخرجوا منه ونزلوا بظاهر السور، وأمروا مماليكهم وألزامهم وأجنادهم أن يلبسوا عددهم، وأرسل الأمير زين الدين كتبغا نقباء الحلقة، وطلب المقدمين فحضروا إليه، وأرسل السلطان [الملك الناصر](١)، في طلب الأمير علم الدين الشجاعي. وقال: إن هذا قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء. وبلغنا عنه ما أنكرناه. ونختار حضوره ليحاقق عما نقل عنه. فامتنع عن الحضور. ثم طلع السلطان على البرج الأحمر، وتراءى للأمراء، فنزلوا وقبلوا الأرض من مواقفهم(٢). وقالوا: نحن مماليك السلطان، ولم نخلع يداً عن طاعة، وليس قصدنا إلا حفظ نظام الدولة، واتفاق الكلمة، وإزالة أسباب المضار والفساد عن المملكة. واستمر الحصار سبعة أيام، وكان الشجاعي ينزل إليهم، ويناوشهم القتال ومعه طائفة من الأمراء وهم: الأمير سيف الدين بكتمر، السلاح دار، وسيف الدين طغجي، وجماعة من المماليك السلطانية، ثم فارقه الأمراء والمماليك، فكانوا يتسللون عشرة عشرة. فلما رأى حاله انتهت إلى هذه الغاية، قال: إن كنت أنت الغريم، فأنا أتوجه إلى الحبس طوعاً مني، وأبرأ إلى الأمراء مما نقل إليهم عني. وحضر باب الستارة السلطانية، وحلَّ سيفه بيده، وذهب نحو البرج. وتوجه معه الأمير سيف الدين الأقوش، والأمير سيف الدين صمغار، ليحبساه بالبرج الجواني. فوثب عليه مملوك الأقوش، فقتله وحز رأسه. وأنزلوه إلى الأمير زين الدين كتبغا، وقد لُفَّ في بقجة. فأمر بأن يطاف برأسه القاهرة ومصر، وظواهرهما. فطاف به المشاعلية على رمح، وأشهروا(٣) قتله، ثم طلع الأمير زين الدين كتبغا والأمراء إلى القلعة، في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر، وأفرج عن الأمراء الذين اعتقلوا. وجددت الأيمان، وأُنزل من كان بالأبراج والطباق، من المماليك السلطانية، الذين اتهموا بهذه الفتنة، فأُسْكنَت طائفة منهم في مناظر الكبش، وطائفة في دار الوزارة، وطائفة في الميدان الصالحي والميدان

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨١.
(٢) في الأصل: «موافقتهم» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨١.
(٣) في الأصل: «واشتهروا» والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٣، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠١.

الظاهري. واعتقل منهم جماعة. وكان من خبرهم، بعد ذلك، ما نذكره في سنة أربع وتسعين وستمائة.

ذكر عدة حوادث كانت في سنة ثلاث وتسعين وستمائة خلاف ما قدمناه، من ولاية وعزل وغير ذلك، والوفيات

في هذه السنة، في تاسع عشر صفر، عزل قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي عن القضاء بالديار المصرية. وأعيد قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمٰن ابن بنت الأعز إلى القضاء. واستقر قاضي القضاة بدر الدين في تدريس مدرسة الشافعي ومشهد الحسين. فلم يزل كذلك، إلى أن توفي قاضي القضاة شهاب الدين محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخُوييّ قاضي القضاة الشافعي بدمشق. وكانت وفاته بدمشق في يوم الخميس، خامس عشر، شهر رمضان من هذه السنة. ومولده في رابع عشرين شوال سنة ست وعشرين وستمائة، وقيل: في رجب من السنة. ففوض الملك الناصر [محمد بن قلاوون][(١)]، القضاء بعد وفاته لقاضي القضاة، بدر الدين بن جماعة، فتوجه إلى الشام. وكان وصوله إلى دمشق في رابع عشر ذي الحجة من السنة.

وفيها[(٢)]، في تاسع عشرين صفر فوّضت الوزارة للصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي، المعروف بابن حنا. وفوضت وزارة الصحبة، لابن عمه الصاحب عز الدين ابن الصاحب محيي الدين ابن الصاحب بهاء الدين، وكانا يجلسان جميعاً في شباك الوزارة، ويوقع الصاحب تاج الدين.

وفيها، في سلخ صفر، أفرج عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي. وكان الملك الأشرف قد اعتقله، في يوم السبت ثاني شوال، سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

وفيها، في يوم عيد الفطر أول يوم من شوال [من هذه السنة][(٣)]، ظهر الأمير حسام الدين لاجين [الصغير][(٤)]، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريان، من الاستتار[(٥)]، وكانا عند هربهما، أطلعا الأمير سيف الدين بتخاص الزيني، مملوك كتبغا

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٥.
(٢) «يوم الخميس» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٣.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٤.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٤.
(٥) الاستتار: أي الاختباء، الاختفاء. محيط المحيط.

على حالهما. فأعلم أستاذه بهما، وتطلف في أمرهما. فتحدث الأمير زين الدين كتبغا مع السلطان، فعفا عنهما، وأمَّرهما كما كانا أول مرة. وتلطَّف كتبغا في إظهار لاجين تلطفاً حسناً. وهو أنه تحدث مع الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح في إحضاره. فركب معه، ووقف تحت قلعة الجبل، ولم يزل إلى أن أذن له، وأصلح بينه وبين الأمراء والمماليك السلطانية، وزال ما بينهم من الوحشة، وكان كتبغا في أمر لاجين، كالباحث عن حتفه بظلفه(١). فإنه فعل معه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة، قصر النيل عن العادة [إلى الغاية](٢)، فلم يوف ستة عشر [ذراعاً](٣)، وانتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعاً وثلث ذراع. فارتفعت بسبب ذلك الأسعار [في الغلال](٤). وكان من الغلاء ما نذكره بعد.

وفي هذه السنة، في رابع عشرين ربيع الأول، كانت وفاة الملك شهاب الدين غازي ابن الملك المعز مجير الدين يعقوب ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، بداره بالخور بدمشق، ودفن بتربتهم بقاسيون، رحمهم الله تعالى.

وفيها، كانت وفاة الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان(٥) الأسعردي. وقد قدمنا ذكر وزارته مرة بعد أخرى. وكان إذ عزل عن الوزارة، أخذ دواته وعاد إلى ديوان الإنشاء، وكتب من جملة الكتاب. وأصله من المعدن(٦)، من أعمال أسعرد(٧). فلما فتح الملك الكامل آمد(٨)، كان ابن لقمان يكتب على عرصة الغلة، وينوب عن ناظر البيوت بها. وكان بهاء الدين زهير، صاحب ديوان الإنشاء للملك الكامل، وبعده للملك الصالح، وهو يومئذٍ وزير الصحبة. فكانوا يستدعون من صاحب أسعرد أصنافاً، فتأتي الرسائل بالأصناف بخط ابن لقمان، فتعرض على بهاء الدين زهير، فيعجبه خطه

---

(١) الظِّلف: يقال رِجل الإنسان وقدمه. ابن منظور: لسان العرب (ظلف).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٥.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٥.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٥.

(٥) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٦.

(٦) المعدن: بلد بأرمينية قرب منبع نهر دجلة، نسبة إلى مناجم النحاس والحديد الموجودة، بالقرب منها. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٧) اسعرد: في الأصل سعرد. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٦، وردت أيضاً اسعرت، وسعرت. وهي مدينة واقعة على نهر الرزم الذي ينبع من بحيرة وان بأرمينية، ويلتقي بنهر دجلة. ليسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٨) آمد: هي أعظم مدن ديار بكر. وصفها ياقوت بأنها أجل هذه الديار قدراً وأشهرها ذكراً. معجم البلدان، ج ١، ص ٧٦.

وعبارته. فطلبه فحضر إلى خدمته، وتحدث معه، فأعجبه كلامه، وسأله عن جامكيته. فقال دون دينارين في الجهتين، فعرض عليه أن يسافر صحبته [إلى الديار المصرية][١]، فأجاب إلى ذلك. وسر به، فاستصحبه معه، وناب عنه بديوان الإنشاء إلى الأيام الصالحية. ثم استقل بعد ذلك بصحابة ديوان الإنشاء، ووزر كما تقدم. ولما انفصل من الوزارة [قال][٢]: جاءت فما كثَّرت، وراحت فما أثَّرت. وله نظم حسن، وقد قدمنا ذكر شيء من كلامه، رحمه الله تعالى.

وفيها، في يوم الخميس، منتصف جمادى الآخرة، توفي الأمير بدر الدين[٣] بكتوت العلائي، وكانت وفاته بالقاهرة. وقد عظم شأنه، وسمت همته، حتى تعرض لطلب بعض الأكابر الأمراء الخاصكية الأشرفية مقدمي الألوف. فيقال إنه سُقي سماً فمات، سامحه الله تعالى.

وفيها، في يوم الخميس، خامس شعبان، توفّي الملك الحافظ غياث الدين[٤] أبو عبد الله محمد ابن الملك السعيد معين الدين بن شاهانشاه ابن الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهانشاه بن أيوب، وصُلِّي عليه بعد صلاة الجمعة بجامع دمشق، ودفن بتربة ابن المقدم، بمقبرة باب الفراديس، رحمه الله.

واستهلت سنة أربع وتسعين وستمائة
[٦٩٤ هـ = ١٢٩٤/ ١٢٩٥ م]

ذكر الفتنة التي قصد المماليك السلطانية إثارتها

لما كان في ليلة [الأربعاء][٥] العاشر من المحرم، من هذه السنة، تجمعت المماليك السلطانية[٦] الذين في الكبش، ومناظر الموادين، وحرقوا باب السعادة، ودخلوا منه إلى المدينة. وطلبوا خوشداشيتهم [المعتقلين بها][٧]، الذين بدار الوزارة،

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٦.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٦.
(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٨.
(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٨٩.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩١.
(٦) «المماليك الأشرفية» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٥، وفي تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩١.
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩١.

للركوب معهم، فما أجابوهم لذلك. فكسروا خزانة البنود، وأخرجوا من كان بها من خوشداشيتهم، ونهبوا الإسطبلات التي تحت القلعة. وركبوا الخيول، وداروا عليها تحت القلعة، من جهة سوق الخيل، طول الليل. فلما كان من الغد، ركب الأمراء الذين في القلعة وقصدوهم، وتصافّوا واقتتلوا يسيراً. ثم جاء الأمير سيف الدين الحاج بهادر، السلاح دار، الحلبي، وهو يومئذٍ أمير حاجب، فهزمهم فتفرّقوا في ضواحي القاهرة وشوارعها، فأُخذوا وجِيء بهم. وجلس الأمير زين الدين[1] كتبغا بباب القلعة، وضربت رقاب بعضهم بين يديه[2]، وفرق بعضهم على الأمراء، وغرَّق بعضهم سراً. وكانت هذه الحادثة سبباً لحركة الأمير زين الدين وركوبه في السلطنة.

(١) في الأصل: ركن الدين، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٢.
(٢) ذكر ابن الفرات تفاصيل هذه الحادثة قال: «وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وأكحل بعضهم وكقطع الستة بعضهم وصلب منهم جماعة على باب زويلا أحد أبواب القاهرة المحروسة ونفى بعضهم» تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٢.

ذكر سلطنة السلطان الملك العادل زَيْن الدّين كَتْبُغا المنصوري[1] وهو العاشر من ملوك دولة الترك بالديار المصرية

كان جلوسه على تخت السلطنة في يوم الأربعاء[2]، حادي عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة. وكان سبب ذلك، أنه لما ملك السلطان الملك الناصر، واستقر هو في نيابة السلطنة كما تقدم، شرع يمهد القواعد لنفسه في مدّة نيابته، ويقرر الأحوال، ويستميل الأمراء. فلما كان في أول هذه السنة، انقطع في دار النيابة، بقلعة الجبل، وادّعى الضعف، وإنما كان انقطاعه لتقرير أمر السلطنة له. وركب السلطان الملك الناصر، وجاء إلى دار النيابة للسلام عليه وعيادته، فلما اتفقت فتنة المماليك المتقدمة، جلس الأمير زين الدين [كتبغا][3] في اليوم الثاني كنها، بدار النيابة. وجمع الأمراء، وذكر لهم أن ناموس السلطنة، وحرمة المملكة، لا يتم لصغر سن السلطان الملك الناصر. فاجتمعت آراء الأمراء على إقامة الأمير زين الدين كتبغا في السلطنة. وحلفوا له وقُدم له فرس النوبة بالرقبة الملوكية، وعليها ألقابه. وركب من دار النيابة، وقبل أذان العصر، من هذا اليوم. ودخل من باب القلة[4] إلى الأدر السلطانية، والأمراء مشاة في خدمته. ودخل على تخت السلطنة، وتلقب بالملك العادل. وحجب السلطان الملك الناصر، وجعله في بعض القاعات هو وأمه وعامله بما لا يليق أن يعامله به. فكانت مدة سلطنة السلطان الملك الناصر هذه ـ وهي السلطنة الأولى ـ سنة واحدة إلا ثلاثة أيام. ولم يكن له في هذه المدة من الأمر شيء. وإنما جرى عليه أمر السلطنة، وخطب باسمه على المنابر، وضربت السكة باسمه. وأمر غير ذلك من الأمر والنهي، والولاية والعزل،

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٦، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٣٨٦، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١١٨، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٣، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٦، ص ٥، والدرر الكامنة لابن العسقلاني ج ٣، ص ٣٤٨، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ٣، ص ٢١٨.

(٢) «يوم الثلاثاء» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٢.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٣.

(٤) في الأصل: القلعة، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٣، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٩.

والإطلاق والمنع، والتأمير وإعطاء الإقطاعات، وغير ذلك من الأوامر، فللأمير زين الدين كتبغا النائب، الملقب الآن بالملك العادل[١].

وفي يوم الخميس ثاني عشر المحرم، مد الملك العادل زين الدين كتبغا[٢] سماطاً عظيماً، وجلس على عادة الملوك، ودخل الأمراء، وقبلوا يده، وهنّؤه بالسلطنة وخلع على الأمير حسام الدين لاجين المنصوري، وفوض إليه نيابة السلطنة، وجعل الأمير عز الدين أيبك الأفرك الصالحي، أمير جاندار، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي، وللوزيرين الصاحب تاج الدين وابن عمه عز الدين، وقضاة القضاة وأرباب المناصب، ومن جرت عادتهم بالخلع، والمماليك السلطانية الذين كانوا بدار الوزارة، كونهم لم يوافقوا خوشداشيتهم، على إقامة الفتنة.

وركب الناس بالتشاريف، في يوم الخميس، تاسع عشر المحرم، ولما جلس على تخت السلطنة، كتب إلى نائب السلطنة بدمشق، وسائر النواب بالممالك الشامية والأعمال، يخبرهم بخبر سلطنته، ويطلب منهم بذل اليمين. وكل أجاب بالسمع والطاعة، وبادر إلى الحلف، وما اختلف عليه اثنان.

ومن غريب ما حكي في أمر الملك العادل هذا، أن هولاكو لما استولى على حلب، وملك الشام أجمع، كما تقدم، وعزم على تجريد العساكر إلى الديار المصرية، أحضر نصير الدين[٣] الطوسي. وقال له: تكتب أسماء مقدمي عساكري، وتنظر أيهم يملك مصر، ويجلس على تخت السلطنة بها. فكتب أسماءهم، وحسب ودقق النظر، فما ظهر له، أنه يملك الديار المصرية إلا كتبغا، فذكر ذلك لهولاكو. وكان كَتْبُغا نوين[٤] صِهْر هولاكو، فقدّمه على العساكر وسيَّره، فقتل في وقعة عين جالوت، كما تقدم. وكان كتبغا هذا[٥]، في عسكر كتبغا نوين، فسبي وهو شاب. ولعله كان في سن بلوغ الحلم أو نحوه. وأخّر الله السلطنة بالديار المصرية لهذا الاسم. وكان بين الحادثتين ست[٦] وثلاثون سنة.

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٢.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٢.

(٣) وردت هذه الرواية في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٤٧ ـ ٤٨. ونصير الدين الطوسي هو الذي أغرى رئيس الإسماعيلية بالتسليم إلى هولاكو. وقد دخل نصير الدين في خدمة هولاكو، وهو الذي أقنعه بقتل الخليفة المستعصم العباسي المقريزي: السلوك ج ١، ص ٤٢، حاشية (٥).

(٤) هو غير كتبغا المنصوري صاحب الترجمة، توفي سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٤٨، حاشية (١).

(٥) المراد صاحب الترجمة.

(٦) «نحو خمس وثلاثون سنة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٤٨.

ولما ملك [كتبغا][١]، شرع في تأمير مماليكه وتقدمتهم. فكان أول من أمر منهم أربعة، وهم سيف الدين بَتْخاص، وجعله أستاذ الدار، وسيف الدين أغرلو[٢] وبدر الدين بكتوت الأزرق[٣]، وسيف الدين قطلوبك. وركب هؤلاء [الأربعة][٤] بالإمرة في يوم واحد. وركب هو بشعار السلطنة على عادة الملوك في يوم الأربعاء، مستهل شهر ربيع الأول. وأقر نواب السلطنة على حالهم في الأيام الناصرية وفوَّض الوزارة بدمشق للصاحب تقي الدين توبة التكريتي على عادته، في الأيام المنصورية. وكان وصوله إلى دمشق، لمباشرة هذه الوظيفة، في سادس عشر صفر. وكتب السلطان له توقيعاً، برد ما أخذ منه، في الدولة الأشرفية.

ذكر تفويض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر بن الخليلي

وفي يوم الثلاثاء، خامش عشرين جمادى الأولى من هذه السنة، عزل السلطان[٥] الصاحب تاج الدين ابن حنّا من الوزارة [بالديار المصرية][٦]، وفوض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الخليلي [الداري][٧]. وكان هذا الصاحب فخر الدين قد ولي نظر ديوان الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان الملك المنصور، فلما مرض واشتد به الوجع، دخل الصاحب فخر الدين عليه وبكى، وأظهر الألم الشديد وقال: [يا خوند][٨] أخشى إن قدر الله تعالى أمراً محتوماً، والعياذ بالله، أن أوذي، ويتمكن مني الأمير علم الدين الشجاعي. وطلب الملك الصالح والده السلطان الملك المنصور وأوصاه أن لا يتعرض إليه. ولا إلى أحد من ديوانه بأذية، وأن لا يمكن الأمير علم الدين الشجاعي منهم. فلما مات الملك الصالح، أحسن السلطان [المنصور[٩] إليه[١٠]، وولاه نظر النظار بالديار المصرية، ونظر الصحبة، ثم عزل في

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) يرسم أيضاً: اغرلوا.

(٣) سمي الأمير بكتوت بهذا الاسم لأنه كان أخيف العينين والأخيف هو الذي تكون إحدى مقلتيه سوداء، والأخرى زرقاء، محيط المحيط (خيف) وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٨، حاشية (٣).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٥.

(٥) المقصود الملك العادل كتبغا. انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

(١٠) الضمير الغائب يعود إلى الملك فخر الدين المذكور. انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

الدولة الأشرفية[١]. وباشر نظر ديوان الملك العادل، في مدة نيابته عن السلطنة، وفوض إليه نظر الدواوين، ثم الوزارة.

وفي هذه السنة، قصر النيل ولم يوف، فحصل الغلاء واشتد البلاء بالديار المصرية، وتوقف الغيث بالشام، فاستسقى الناس مرة بعد أخرى، وأجدبت برقة وأعمالها، وبلاد المغرب ونواحيها. وعمَّ الغلاء أكثر البلاد والممالك، شرقاً وغرباً وحجازاً. واختصت مصر من ذلك البلاء العظيم. وبلغ سعر القمح عن كل إردب مائة درهم وخمسين درهماً، والشعير مائة درهم، واستمر إلى سنة خمس وتسعين وستمائة[٢].

وفيها، فوّض السلطان قضاء العساكر بالشام، للقاضي نجم الدين محمد بن صصري وكان بالديار المصرية. فعاد إلى دمشق متولياً هذه الوظيفة، وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء سادس عشرين[٣] شهر رمضان.

وفيها، فوض السلطان الملك العادل، الخطابة والإمامة، بالجامع الأموي بدمشق، لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، مضافاً إلى ما بيده من القضاء والتدريس، فصلّى بالناس صلاة الظهر، من يوم الخامس من شوال، وخطب يوم الجمعة السادس من الشهر، واجتمع له القضاء والخطابة، ولم يجتمع ذلك لقاضٍ قبله بدمشق، فيما عرفناه، ونقل إلينا.

ذكر القبض على الأمير عز الدين أيبك الخزندار نائب السلطنة بالفتوحات، وولاية الأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري

وفي هذه السنة، رسم السلطان الملك العادل، بالقبض على خوشداشه، الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصوري، نائب السلطنة، بالفتوحات الطرابلسية. وندب لذلك أميرين، فتوجها إلى دمشق على خيل البريد، فوصلا إليها، في تاسع عشرين شوال. وجرد من دمشق الأمير عز الدين أيبك كرجي، والأمير سيف الدين استدمر كرجي بسبب ذلك. فلما توجهوا إليه، لم يمتنع عليهم، وقال: قد كنت عزمت على مفارقة هذه المملكة. والتوجه إلى باب السلطان، فقبض عليه. وكان وصوله إلى الأبواب السلطانية،

(١) أي في أيام الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور. تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨١٠.

(٣) «سادس عشرين رمضان» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٩.

في يوم الخميس حادي عشرين ذي القعدة من السنة، فاعتقل. واستمر في الاعتقال، إلى يوم الخميس رابع عشرين صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ولما قبض عليه(١)، فوضت نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات، للأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري.

وفيها أيضاً، رسم بالحوطة على القاضي مجد الدين يوسف بن القباقبي ناظر المملكة الطرابلسية. وندب الأمير شمس الدين الأعسر لذلك. فتوجه إلى طرابلس، في العشر الأوسط، من شوال، وأوقع الحوطة على موجوده. فيقال: إنه وجد في جشاره(٢)، ما ينيف على سبعين رأس بغالاً وأكاديش جياد. وجهز إلى الديار المصرية، فتكمل حمله، فيما أدعاه ألف درهم. ثم أعيد بعد ذلك إلى نظر المملكة الطرابلسية، وكأنه لم يصادر. فبلغني أنه جلس ليلة، وهو يضحك مع أصحابه بطرابلس. فقال له بعضهم: أخذ منك ألف ألف درهم، وأنت تضحك فقال: والله أقدر أنفق في جيش مصر ـ وأرى أن هذا الكلام، إن كان قاله، فهو من التغالي في القول ـ والله أعلم.

ذكر وفاة الملك المظفر(٣) يوسف بن عمر صاحب اليمن

وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك المظفر شمس الدين أبي المظفر يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي ابن رسول، صاحب اليمن، في شهر رمضان، بقلعة تعز [من بلاد اليمن](٤). وكان جواداً شهماً، عفيفاً، عن أموال الرعايا، قليل التطلع إلى ما بأيديهم، حسن السيرة فيهم، يمنع أصحابه من التطرق إلى ظلم أحد. وكانت مدة ملكه، بالبلاد اليمانية، نحو خمس وأربعين(٥) سنة.

وكان للملك المظفر من الأولاد خمسة، وهم: الملك الأشرف، ممهد الدين عمر،

---

(١) أي قبض الملك العادل على الأمير عز الدين أيبك.

(٢) «وشارة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٨، والجشار، جمعه جشارات، وجشير ويقال الدشار أيضاً. الخيل والأبقار التي تساق إلى المراعي وتبقى بها عادة من غير أن تعود ليلاً إلى حظائرها. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٧؛ والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٦٠ ـ ٦٢؛ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٢٧، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٦١.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٦١.

(٥) «وأقام الملك المظفر في الملك نحواً من ست وأربعين سنة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٦٢. و«استمر في الملك سبعاً وأربعين سنة» في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣، ص ٣٦١.

والملك المؤيد هزبر الدين داود، والواثق إبراهيم، والملك المسعود تاج الدين حسن، والملك المنصور زين الدين أيوب. وللملك المسعود هذا ولد اسمه أسد الإسلام محمد. وللملك المنصور ولد اسمه مأمون الدين عيسى. ولما مات الملك المظفر هذا، ملك بعده ولده الملك الأشرف ممهد الدين عمر. وهو ولي عهده. فلما ملك نازعه أخوه الملك هزبر الدين داود في الملك. وكان المؤيد يوم ذلك ببلاد الشحر، فجمع جمعاً من الجحافل، وتوجه إلى ثغر عدن، وحاصر الثغر ثلاثة عشر يوماً. وكان متوليه الأمير سيف الدين بن برطاس، فملك المؤيد الثغر، واستولى على ما به. فافترض أموال التجار وأموال الأيتام التي بمودع الحكم. وتوجه من ثغر عدن نحو تعز. فجرد الملك الأشرف لقتاله الشريف علي بن عبد الله، بجماعة من الجيش، وولده جلال الدين بن الأشرف، فتوجهوا والتقوا، فيما بين تعز وعدن، بمكان يسمى الدعيس. واقتتلوا فخذل الجحافل المؤيد، وتفرقوا عنه، وبقي في نفر يسير. فتقدم إليه جلال الدين ابن أخيه، وأشار عليه بالدخول في الطاعة، وحذر عاقبة المخالفة. وقال له: الملك الأشرف أخوك، ولا يقتلك، وأنت بينك وبين الأشرف حرب قبل هذا الوقت، فإن ظفروا بك قتلوك. وأشار عليه بعض أصحابه بمثل ذلك، فرجع إلى قولهم، ورجع إلى الطاعة، فأراد جلال الدين أن يتوجه به إلى والده، [الملك الأشرف][1] على حاله. فامتنع عليه الشريف علي بن عبد الله، وقال: إن أمر هذا الجيش إليّ. وقيّد المؤيد، وحمله إلى قلعة تعز، فاعتقله بها إلى أن مات الملك الأشرف. وكانت وفاته في سنة ست وتسعين وستمائة. فأخرج من الاعتقال ليلاً، قبل دفن أخيه، فأمر بدفنه، وأصبح الحراس بالقلعة، فدعوا للملك المؤيد وترحَّموا على الملك الأشرف وكان مُلْك المؤيد باتفاق عمته الشمسية، وقيامها في أمره. واستمر في الملك إلى أن مات، في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى، في موضعه.

وفيها، في يوم السبت، رابع شهر ربيع الأول، توفي الأمير بدر الدين[2] بكتوت الأقرعي بدمشق، ودفن بمقابر باب الصغير.

وفيها، كانت وفاة الصاحب عز الدين ابن الصاحب محيي الدين أحمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد، رحمهم الله تعالى.

وفيها، في شهر رجب توفي بالقاهرة، الأمير بدر الدين بكتوت [بن عبد الله][3] الفارسي الأتابكي، رحمه الله تعالى.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٨.

(٢) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠١.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠١.

وفيها، في وقت السحر، من يوم السبت عاشر شعبان، توفيت ملكة خاتون[١]، ابنة الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب. وهي زوجة الملك المنصور ابن الملك الصالح إسماعيل وأم ولديه. وهي التي كان ناصر الدين بن المقدسي أثبت سفهها في الدولة المنصورية، واستعاد أملاكها من سيف الدين المسامري وغيره، كما تقدم ذكر ذلك، رحمهما الله تعالى.

واستهلت سنة خمس وتسعين وستمائة
[٦٩٥ هـ = ١٢٩٥/١٢٩٦ م]

في هذه السنة، اشتد الغلاء[٢] بالديار المصرية، وكثر الوباء وانتهى سعر القمح إلى مائة درهم وسبعة وستين درهماً، عن كل أردب، وقيل: إنه بلغ مائة وثمانين. وأعقب ذلك وباء عظيم. وغلت الأسعار في سائر الأصناف. وبلغ ثمن الفروج عشرين درهماً. وسمعت أن بعض الناس اشترى فراريج لمريض عنده، فوزن لحمها، فكان بوزن الدرهم التي اشتراها بها. فتقوَّم عليه لحم الفراريج، الدرهم بدرهم فضة. وبيعت البطيخة، الرطل بأربعة دراهم نقرة. وبيعت السفرجلة، بثلاثين درهماً، هذا بالقاهرة ومصر. وأما الصعيد الأعلى، وهو عمل قوص وما يجاوره، فإن القمح لم يزد ثمنه، على خمسة وتسعين درهماً الإردب. وأعقب هذا الغلاء بالقاهرة فناء عظيم. كان يُحصر من يخرج من باب المدينة من الأموات في اليوم الواحد، فيزيد على سبعمائة أو نحوها، هذا من داخل المدينة، من أحد الأبواب. والقاهرة بالنسبة إلى ظواهرها، كالشارع الأعظم، والحسينية والأحكار، جزء لطيف. وعجز الناس عن دفن الأموات أفراداً، فكانوا يحفرون الحفرة الكبيرة، ويرص فيها الأموات، من الرجال والنساء، ويُجْعل الأطفال بين أرجلهم، ويردم عليهم. وبعض الأموات لم يجدوا من يواريهم في قبورهم، فأكلتهم الكلاب، وأكل الأحياءُ الكلاب. وكان الفناء أيضاً بالأعمال البرانية عن القاهرة [ومصر][٣]، حتى خلت بعض القرى وأطراف المدينة، لفناء أهلها بالموت.

ثم انحطت الأسعار بالديار المصرية في شهر رجب، ونزل سعر القمح إلى خمسة وثلاثين درهماً الأردب، والشعير بخمسة وعشرين درهماً [الإردب][٤] وكان أكبر أسباب

(١) ترجمتها في البداية والنهاية ج ١٣، ص ٣٦٣.

(٢) قارن بما ورد في إغاثة الأمة للمقريزي ص ٦٧ ـ ٧٦، من أخبار الغلاء والمجاعة في سنوات ٦٩٤ ـ ٦٩٦ هـ.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٠.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

هذا الغلاء وتزايده بالديار المصرية، خلو الأهراء[١] السلطانية من الغلال، وذلك أن السلطان الملك الأشرف، كان قد فرَّق الغلال، وأخلى الأهراء منها بالإطلاقات للأمراء وغيرهم، حتى نفد ما في الأهراء. وقصر النيل بعد ذلك، فاحتاج وزير الدولة إلى مشترى الغلال للمؤونة والعليق، فتزايدت الأسعار بسبب ذلك.

وفيها أيضاً، قلَّ المطر بدمشق وبلاد حوران، وجفَّ الماء حتى شق ذلك على المسافرين. فكان المسافر يسقي دابته بدرهم. ويشرب بربع درهم. فلما اشتد ذلك على الناس، أشار قاضي القضاة، بدر الدين محمد بن جماعة بقراءة صحيح البخاري بدمشق. وتقرر الاجتماع لسماعه بالجامع الأموي، تحت النسر في سابع[٢] صفر. وطُلِب الشيخ شرف الدين الفزاري لقراءته. فأنزل الله تعالى الغيث في تلك الليلة قبل الشروع في القراءة. ثم قرىء الصحيح، ووقع المطر في آخر يوم من كانون الأول، واستمر يومين وبعض ليلة، فاستبشر الناس بذلك وترادف نحو جمعه. ثم جاء بعد ذلك ثلج كثير، في مستهل شهر ربيع الأول. ثم ارتفع السعر، وبلغ [سعر][٣] القمح، عن كل غرارة مائة درهم، وخمسة وستين درهماً. [واشتد الغلاء بالحجاز][٤] أيضاً فأبيعت غرارة الشعير بالمدينة، بسبعمائة درهم، وغرارة القمح بألف درهم ومائة درهم. ثم جاء المطر بدمشق في ثاني جمادى الآخرة.

ذكر حادثة عجيبة بالشام

وفي هذه السنة، في العَشر الأول من المحرم، استفاض بدمشق وشاع، وكثُر الحديث عن قاضي [جُبّة أعسال][٥]، من قرى دمشق، أنه تكلم ثور بقرية من قرى جبة أعسال. وهو أن الثور خرج ليشرب من ماء هناك، ومعه صبي، فلما فرغ من شربه، حمد الله، فتعجب الصبي. وحكى ذلك لمالك الثور، فشك في قوله. وخرج في اليوم الثاني بنفسه، فلما شرب الثور، [حمد الله تعالى][٦]، وحضر في اليوم الثالث جماعة وسمعوه

(١) الأهراء السلطانية: هي الأماكن التي تخزن بها الغلال، والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارىء الاقتصادية، وكانت لا تفتح إلا عند الضرورة، وكان لخاص السلطان شون، وهذه يوضع بها ما يستهلك طول السنة من الغلال والأحطاب والأتبان، وما أشبه ذلك. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٥٢؛ وابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢.

(٢) «تاسع» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١١.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١١.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨١٥.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

يحمد الله، بعد شربه. فكلّمه بعضهم، فقال الثور: إن الله كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدباء ولكن بشفاعة النبي ﷺ، أبدلها الله بالخِصْب. وذكر أن النبي ﷺ، أمره بتبليغ ذلك، وأنه قال له: يا رسول الله، ما علامة صدقي عندهم، قال: «إنك تموت عقيب الإخبار»[١]. ـ قال الحاكي لذلك ـ ثم تقدم الثور إلى مكان مرتفع فسقط ميتاً. فأخذ أهل القرية من شعره للتَّبَرُّك، وكُفّن ودفن. حكى هذه الحادثة، شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري في تاريخه حوادث الزمان[٢] والله أعلم.

وفيها، في العشر الأوسط، من شهر ربيع الآخر، قتل بدمشق جماعة بالليل في الدروب. ومعظم من قتل، من حراس الدروس، واستمر ذلك عدة ليال. وفي كل يوم يوجد قتيل واثنان. ولم يعدم لأحد شيء، مع ذلك، ولا سرق منزل. فاحترز متولي المدينة في ذلك. وبقي يركب طوال الليل، في جماعة كثيرة، ويطوف البلد والأمر يتزايد، فلما كان في العشر الأوسط، من جمادى الأولى، مُسِك فقير مولّه، فاعترف أنه هو الذي قتل الحراس، فسمر وبقي يومين، ثم خنق في اليوم الثالث.

ذكر وفود الأويراتية[٣] من بلاد التتار

في هذه السنة، وردت طائفة من التتار، تسمى الأويراتية، ومقدمهم طرغاي، ووصلوا إلى الشام. وكانوا على ما قيل، ثمانية عشر ألف بيت[٤]، وكان السبب في هربهم من بلادهم، أن طَرْغاي[٥]، هذا المذكور، كان متفقاً مع بَيْدو ابن طَرْغاي على قتل كيختو. فلما صار الملك إلى غازان، خافه طرغاي على نفسه، أن يقتله بعمه كيختو. وكان مقيماً بتمانة [بين بغداد والموصل][٦]. وكان أشتبغا مقيماً بتمانه بديار بكر. فأرسل غازان بولاي ومعه تمان إلى ديار بكر، عوضاً عن أشتبغا، وأوصاه بحفظ الطرقات على طرغاي، وأن يساعد من يندب لقتله، ثم جهز غازان أميراً يسمى قطغوا في ثمانين فارساً للقبض على طرغاي ومن معه، من أكابر قبيلة أويرات. فاتفق طرغاي، ومن معه من الأمراء، وهم: ألوص وكبكاي، وقتلوا قطغوا ومن معه. وعبروا الفرات إلى جهة الشام، فتبعهم بولاي بتمانه، فقاتلوه وهزموه، وقتلوا أكثر من معه.

---

(١) «إنك تموت عقب الإخبار» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٣.

(٢) تقدم في هذا الجزء.

(٣) الأويراتية: تقدم التعريف به.

(٤) «عشرة آلاف بيت» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٥١.

(٥) «هو زوج بنت هولاكو» ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٥١.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٤.

ولما وردت مطالعات نواب الشام إلى السلطان الملك العادل بوصولهم، اهتم بأمرهم. وكتب إلى نائب السلطنة [بدمشق][(١)]، أن يتوجه الأمير علم الدين سنجر الدواداري، بجماعة إلى الرحبة لتقلبهم. فتوجه من دمشق في غزة شهر ربيع الأول. ثم توجه بعده، الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، شاد الدواوين بالشام، ليلقاهم أيضاً، وجهَّز السلطان أيضاً، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، من الديار المصرية إلى دمشق، بسبب ذلك، فوصل إليها في ثاني عشرين شهر ربيع الأول. ثم أردفه بالأمير سيف الدين بهادر الحاج الحلبي الحاجب، فأقاما بدمشق، إلى أن وصل أعيان الأويراتية إلى دمشق، صحبة الأمير شمس الدين الأعسر. وكان وصولهم في يوم الاثنين، ثالث عشرين شهر ربيع الأول، وعدتهم مائة وثلاثة عشر نفراً، والمقدم عليهم طرغاي، ومن أكابرهم ألوص وككباي، فتلقاهم نائب السلطنة والأمراء، واحتفل بقدومهم احتفالاً كبيراً، ثم توجه بهم الأمير شمس الدين قراسنقر، إلى الديار المصرية في يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول. وتوجه بعده الأمير سيف الدين الحاج بَهادُر الحاجب[(٢)]، على خيل البريد إلى الأبواب السلطانية، في حادي عشر الشهر. ولما وصلوا إلى باب السلطان بالغ في إكرامهم، وأحسن إليهم، وخلع عليهم، وأمَّرهم بالطبلخاناه. وهم على دين الكفرة، ويأكلون في شهر رمضان، ولا يذبحون الخيل ذبيحة ولا نحراً، بل يربطون الفرس، ويضربونه على وجهه حتى يموت، فيأكلونه بعد ذلك. وكانوا يجلسون مع الأمراء بباب القلة، فأنفت نفوس الأمراء من ذلك وكرهوه، حتى أوجب ذلك خلع السلطان، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأما بقية الأويراتية، فإن السلطان كتب إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري أن يتوجه بهم إلى الساحل فينزلهم به، فتوجه بهم، ولما مرّوا بدمشق، أنزلهم بالمرج، ولم يُمَكِّنْ أحداً منهم من دخول المدينة. ورسم بإخراج الأسواق إليهم البيع والشراء بالمرج، إلى الكسوة والصنمين[(٣)]. وفعل ذلك في كل منزلة إلى أن وصل بهم إلى

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٤.

(٢) «حاجب الحجّاب» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٥٣، «كتبغا هو أول من أحدث وظيفة حاجب الحجاب وجعلها وظيفة كبيرة، ولم يكن قبل ذلك شيء يقال له حاجب الحجاب. معظم أمرها من يومئذٍ» ابن إياس: بدائع الزهور، ج ١، ص ٣٨٧. ووظيفة حاجب الحجاب في العصر المملوكي إن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٢٠، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٥٣، حاشية (١).

(٣) الصنمان: قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٨٩.

أراضي عتليت، وامتدوا في بلاد الساحل. ورسم السلطان بإقامة الأمير علم الدين [سنجر][(١)] الدواداري معهم، إلى أن يحضر السلطان إلى الشام، ومات منهم خلق كثير. وأخذ الأمراء أولادهم الشباب للخدمة، وكانوا من أجمل الناس، وتزوج الجند وغيرهم من بناتهم. ثم انغمس من بقي منهم في العساكر، وتفرقوا في الممالك الإسلامية، ودخلوا في دين الإسلام. وبقاياهم في الخدمة إلى وقتنا هذا[(٢)].

ذكر وفاة قاضي القضاة تقي الدين[(٣)] عبد الرحمٰن ابن بنت الأعز وتفويض القضاء للشيخ ابن دقيق العيد

وفي هذه السنة، في يوم الخميس، سادس عشر جمادى الأولى، توفي قاضي القضاة، تقي الدين أبو القاسم عبد الرحمٰن ابن قاضي القضاة تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب ابن بنت الأعز، قاضي القضاة الشافعي بالديار المصرية، ودفن بالقرافة، في تربة والده، رحمهما الله. وفي يوم وفاته، توفي كاتبه نور الدين بن السوسي، وكان خصيصاً به، وحملت جنازتاهما معاً.

وقد قدمنا من ذكر أخبار قاضي القضاة تقي الدين هذا وولاياته القضاء والوزارة ونظر الخزائن، ما نستغني الآن عن إعادته، رحمه الله تعالى. ولما مات، فوّض السلطان قضاء القضاة بالديار المصرية، لشيخنا[(٤)] الإمام العلامة، تقي الدين بقية المجتهدين أبي الفتح محمد ابن شيخ الإسلام مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد[(٥)]، وكانت ولايته في يوم السبت ثامن عشر الشهر المذكور. ولما ولي القضاء كان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال[(٦)] البرانية. وكان يذكرهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات، من عواقب الغفلة والإهمال. فكان مما كتب به، إلى بعض نوابه، في سنة سبع وتسعين. وقيل: إنه كتب إلى جميع النواب مثل ذلك. وكان مضمون كتابه الذي نقلت نسخته هذه[(٧)]:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الفقير إلى الله تعالى، محمد بن علي.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨١٣.
(٢) راجع تاريخ ابن الفرات ج ٨، ص ٢٠٥.
(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٥.
(٤) «الشيخ الإمام» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٥.
(٥) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٦.
(٦) الأعمال البرانية: أي المناطق الخارجة عن مصر والقاهرة وضواحيها.
(٧) انظر هذه النسخة في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦] هذه المكاتبة إلى فلان، وفقه الله لقبول النصيحة، وأتاه لما يقربه قصداً صالحاً، ونية صحيحة. أصدرناها إليه، بعد حمد الله الذي ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩]، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور، تذكّره بأيام الله ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وتحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا، فما أحد سواه مغبون. عسى أن يرشده بهذا التذكار وينفعه وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار، فإني أخاف أن يتردى، فيجرّ من ولاه، والعياذ بالله معه.

والمقتضى لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم عن القيام بما يُحبُّ الرب على المربوب، ومن أنسبهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها، ومن علمهم بما بين أيديهم من عقبة كؤود، وهم لا يتحققون[1] منها، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة، على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار، وهمم نحيفة. والله إن الأمر لعظيم، وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمناً، ولا قراراً، ولا راحة، اللهم إلا[2] رجلاً نبذ الآخرة وراءه، واتخذ إلٰهه هواه، وقصر همّه وهمته على حظ نفسه من دنياه. فغاية مطلبه الحياة والمنزلة في قلوب الناس وتحسين الزي والملبس، والركبة والمجلس، غير مستشعر خيبة[3] حاله، ولا ركاكة مقصده، فهذا لا كلام معه، فإنك لا تسمع الموتى، وما أنت بمسمع من في القبور. فاتق الله الذي يراك حين تقوم، وأقصر أملك عليه، فالمحروم من أمله غير مرحوم. وما أنا وأنتم أيها النفر، إلا كما قال حبيب العجمي، وقد قال له قائل: ليتنا لم نخلق فقال: فقد وقعتم فاحتالوا. وإن خفي عليك بعض هذا الخطر، وشغلتك الدنيا، أن تقضي من معرفته الوطر[4]. فتأمل [من][5] كلام النبوة القضاة ثلاثة، وقوله ﷺ لمن خاطبه مشفقاً عليه: لا تأمرن على اثنين، ولا تَلِينّ مال اليتيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وما أنا والسير في متلف   يبرح بالذكر الضابط[6]

هيهات جف القلم، ونفذ أمر الله، ولا راد لما حكم. ومن هناك شَمَّ الناس في

(١) «يتخففون» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.
(٢) «رجل» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.
(٣) «خسة» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.
(٤) الوطر: كل حاجة كان لصاحبها فيها همة فهي وطره. ابن منظور: لسان العرب (وطر).
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.
(٦) ورد هذا البيت في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.

الصِّديق رضي الله عنه، رائحة الكبد المشوي. وقال الفاروق: ليت أم عمر لم تلده. واستسلم عثمان وقال: من أغمد سيفه، فهو حر. وقال عليّ: والخزائن بين يديه مملوءة - من يشتري مني سيفي هذا، ولو وجدت ما أشتري به رداء ما بعته. وقطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز، فمات من خشية العرض. وعلق بعض السلف في بيته سوطاً، يؤدب به نفسه إذا فتر، أفترى ذلك سدى؟ أو وضح إنا نحن المقربون وهم البعداء؟ وهذه أحوال لا توجد في كتاب السلم ولا الإجارة[١] ولا الجنايات. نعم إنما تنال بالخضوع والخشوع، وبأن[٢] تظمأ وتجوع، وتحمي عينك الهجوع[٣]. ومما يعينك على الأمر الذي دعوت إليه، ويزوّدك في سيرك إلى الغرض عليه، أن تجعل لك وقتاً تعمره بالفكر والتدبير، وأناة تجعلها معدة لجلاء قلبك. فإنه [إن][٤] استحكم صدأه، صعب تلافيه. واعرض عنه من هو أعلم بما فيه، واجعل أكثر همومك لاستعداد المعاد، والتأهب لجواب الملك الجواد. فإنه يقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

ومهما وجدت من همتك قصوراً، واستشعرت من نفسك عما بدا إليها نفوراً، فاجأر إليه وقف ببابه واطلب منه، فإنه لا يعرض عمن صدق، ولا تغرب عن علمه[٥] خفايا الضمائر، ألا يعلم من خلق.

وهذه نصيحتي إليك، وحجتي بين يدي الله، إن فَرّطتَ، عليك، اسأل الله لي ولك، قلباً واعياً، ولساناً ذاكراً، ونفساً مطمئنة، بمنّه وكرمه.

وفي هذه السنة، عزل القاضي جمال الدين[٦] بن الشربشي نفسه من نيابة الحكم بدمشق، عن قاضي القضاة بدر الدين [بن جماعة][٧]، وذلك في [يوم][٨] الجمعة، رابع

---

(١) كتاب السلم والإجارة من موضوعات الفقه الإسلامي، فالسلم هو بيع شيء غير موجود بالذات بثمن مقبوض في الحال على أن يوجد الشيء ويسلم للمشتري في أجل معلوم. أما الإجارة فالمقصود بها ما يؤدي عن كراه الأرض من ثمر أو زرع أو مال متفق عليه. ابن حجر العسقلاني: كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ١٥٩؛ عبد الرزاق السنهوري: الوسيط في شرح القانون المدني، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٢) «وأن تظمأ» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٣) الهجوع: النوم ليلاً، ابن منظور: لسان العرب (هجع).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٥) في الأصل عمله، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٨.

(٦) «كمال الدين» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.

عشرين شهر رجب. فوقع اختيار قاضي القضاة، بدر الدين [ابن جماعة][١] في النيابة عنه، على القاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الأذرعي، المعروف بالزرعي قاضي زرع[٢]. فأحضره منها واستنابه بدمشق، وذلك في يوم الاثنين تاسع عشر شوال من السنة.

وفيها، قدمت والدة الملك العادل بدر الدين سلامش ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي [النجمي][٣] من بلاد الأشكري ملك الفرنج[٤]، إلى دمشق. وكان وصولها في حادي عشر رمضان. ونزلت لدار الحديث الظاهرية بدمشق. وأرسل إليها نائب السلطنة [بدمشق][٥] الأمير عز الدين أيبك الحموي [الظاهري][٦]، التحف والهدايا والألطاف، وخدمها أتمّ خدمة، ثم توجهت من دمشق إلى القاهرة في عشية الجمعة، ثامن عشر رمضان.

ذكر توجه السلطان الملك العادل وعزل نائب السلطنة بدمشق الأمير عز الدين الحموي، وتولية الأمير سيف الدين أغرلوا[٧] العادلي وغير ذلك.

وفي هذه السنة، توجه السلطان الملك العادل إلى الشام بجميع العساكر. وكان استقلال ركابه من قلعة الجبل، في يوم السبت سابع عشر شوال، بعد الزوال. ووصل إلى دمشق في الساعة الخامسة من يوم السبت، خامس عشر ذي القعدة، والأمير بدر الدين بيسري حامل الجتر[٨] على رأسه، وحضر في خدمته نائب السلطنة، الأمير حسام الدين لاجين، والصاحب فخر الدين بن الخليلي ونزل الوزير بدار الملك الزاهر. وفي

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.
(٢) زرع: من بلاد حوران والغور جنوبي دمشق، وهي وحدة إدارية (عمل) مستقلة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٢.
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.
(٤) تقدم التعريف بالأشكري وانظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٧١٤، حاشية (٧).
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٢.
(٧) ويرسم اغرلو.
(٨) الجتر: مظلة من حرير أصفر يزركش بالذهب على أعلاها طائر شبه حمامة، من فضة مذهبة تكون على رأس السلطان في المواكب يحملها أمير كبير أو الأتابك الذي يركب بجوار السلطان. د. عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك، ج ٢، ص ٩١ ـ ٩٢؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين ج ٢، ص ١٤١، حاشية (١).

يوم وصوله إلى دمشق، توجه إلى زيارة قبر والده، الشيخ مجد الدين بجبل الصالحية. فلقيه القاضي تقي الدين سليمان الحنبلي، وسلَّم عليه، فعرّف به، فأمر أن يركب بغلَته الجنيب، فركبها، وحضر معه إلى تربة والده. فلما فرغ من القراءة، ولاّه الصاحب قضاء القضاة على مذهبه، فقبل. وخلع عليه في بكرة النهار، وعلى بقية القضاة. وكان قاضي الحنابلة قبله، القاضي شرف الدين الحسن[١] ابن الشيخ شرف الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي قد توفي، وكانت وفاته في أول ليلة الخميس، الثاني والعشرين من شوال، ودفن ضحى يوم الخميس، رحمه الله تعالى.

ولما استقر السلطان بدمشق، خلع على الأمراء والمقدمين، وعلى الصاحب تقي الدين توبة، والشيخ نجم الدين بن أبي الطيب، وولّاه وكالة بيت المال، وعلي شهاب الدين الحنفي.

ثم شرع الصاحب فخر الدين في مصادرات الولاة والمباشرين. ورسّم على الأمير شمس الدين الأعسر شاد الدواوين [بدمش][٢]، وعلى الأمير سيف الدين استدمر [كرجي][٣] والي البر، وعزله عن ولاية البر. وولّى الأمير علاء الدين بن الجاكي عوضه، وطلب منهما أموال، ورسّم على سائر المباشرين، وطلب من كل منهم جامكية سنة. واستخرج من شهاب الدين بن السلعوس ثمانين ألف درهم، وكان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر باقياً على ولايته، وهو الذي تولّى المستخرج من المصادرين، استدمر وغيره. وهو مع ذلك يحمل ما تقرر عليه من الأموال.

وفي يوم الاثنين رابع عشر ذي القعدة، وصل الملك المظفر صاحب حماه إلى خدمة السلطان بدمشق، فتلقاه السلطان وأكرمه. ثم جرد السلطان جماعة من العسكر المصري، وعسكر دمشق إلى جهة حلب.

في يوم الجمعة، ثامن عشرين ذي القعدة، حضر السلطان إلى جامع بني أمية وصلى به الجمعة. وخلع على الخطيب قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وزار مصحف عثمان.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي الحجة، حضر الأمير عز الدين الحموي الظاهري، نائب السلطنة بدمشق، إلى خدمة السلطان. فأنكر عليه سوء اعتماده، وطمع نفسه، وما بلغ عنه من بسط يده في أخذ المصانعات[٤]. وأخذ السلطان خيوله المسوّمة وأمواله

---

(١) انظر تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٣.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٣.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٣.

(٤) المصانعات: أموال الرشوة والمداراة وفي محيط المحيط للفيروزأبادي. صانعه: رشاه وداراه وداهنه.

وأقمشته، ثم عزله عن النيابة، وفوضها لمملوكه الأمير سيف الدين أغرلوا العادلي، وباشر النيابة من يومه. ثم خلع بعد ذلك على الأمير عز الدين الحموي، وأنعم عليه بإقطاع أغرلوا بالديار المصرية. وانتقل الحموي عند عزله من دار السعادة، ونزل بداره المعروفة بالجيشي التي بالقصاعين.

وفيها، في ثامن من ذي الحجة، فوض السلطان وزارة الشام، لوكيله شهاب الدين الحنفي، عوضاً عن تقي الدين توبة، وكان قبل ذلك يلي الحسبة بدمشق. وخلع عليه خلعة الوزارة في يوم عيد الأضحى. ثم توجه السلطان في [ثامن عشر][1] ذي الحجة إلى جهة حمص، وتصيّد في تلك الجهة. ودخل حمص في تاسع عشر ذي الحجة، وحضر إليه نائب السلطنة بحلب، وبقية النواب. وانسلخت السنة، والسلطان بمخيمه على جُوْسِية[2]، وهي قرية من قرى حمص، كان قد اشتراها.

وفي هذه السنة، توفي الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي، أمير جاندار. وكانت وفاته بمصر، في يوم الأربعاء، السادس والعشرين من صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ودفن بتربته بالرصد، وكان رحمه الله تعالى، كثير الخير والإحسان إلى خلق الله تعالى. وعمّر المدارس والمساجد والجوامع، وله بإسنا من عمل قوص، مدرسة موقوفة على طائفة الشافعية، وبقوص مدرسة على ساحل البحر كذلك، وبجوار المدرسة مسجد له، يجتمع فيه الفقراء الأعجام القرندلية[3] في شهر رمضان من كل سنة، ويذبح لهم في كل يوم رأس غنم، وما يحتاجون إليه من التوابل والخبز. وله بمصر مدرسة، وبكرسي الجسر جامع، وبالرصد جامع، وغير ذلك من الأماكن الشريفة المبرورة. ووقف عليها الأوقاف المبرورة الوافرة، رحمه الله تعالى.

وتوفي أيضاً بالديار المصرية جماعة من الأمراء، منهم الأمير بدر الدين[4] بيليك الحسني أبو شامة، وهو الذي كان يندب إلى الكشف بالوجه القبلي بالديار المصرية، في الدولة المنصورية، وما بعدها، رحمه الله تعالى.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٤، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨١٧. «ثاني عشر».

(٢) جوسية: من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٥، المقريزي: السلوك ج١، ص ٨١٧، حاشية (١).

(٣) القرندلية أو القلندرية.

(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢١٦.

واستهلت سنة ست وتسعين وستمائة
[٦٩٦ هـ = ١٢٩٦/١٢٩٧ م]

والسلطان الملك العادل بمخيمه على جُوْسِيَة[١]. ثم رحل منها وعاد إلى دمشق، فدخلها في يوم الأربعاء ثاني المحرم. وفي يوم الجمعة، حضر السلطان إلى الجامع، وصلى بالمقصورة، وأخذ من الناس قصصهم. ورأى شخصاً بيده قصة، فتقدم إليه بنفسه خطوات، وأخذ القصة منه.

وفيها، أمّر السلطان الملك العادل، الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك السعيد ابن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل سيف الدين بن أبي بكر محمد بن أيوب، وجعله من أمراء الطبلخاناه بدمشق، وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم.

وفيها، في يوم الاثنين، حادي عشرين المحرم، قبض على الأمير سيف الدين استدمر كرجي والي البر وولى عوضه علاء الدين [بن الجاكي][٢]، واعتقل بالقلعة، وعزل الأمير سيف الدين سنقر الأعسر، عن وظيفة الشد، وولى عوضه الأمير فتح الدين بن صبرة.

ذكر عود السلطان الملك العادل إلى الديار المصرية وخلعه من السلطنة ورجوعه إلى دمشق

وفي بكرة نهار الثلاثاء، الثاني والعشرين من المحرم، توجه السلطان بعساكره نحو الديار المصرية، وقد أجمع أكابر الأمراء على خلعه. فلما انتهوا إلى منزلة[٣] العوجا، جلس السلطان في الدهليز، وحضر الأمراء إلى الخدمة، وطلب الأمير بدر الدين بيسري الشمسي طلباً مزعجاً. وكان قد توجه إلى الزيارة، فلما حضر، لم يقم له على عادته. ويقال: إنه كلّمه بكلام غليظ ونسبه إلى أنه كاتب التتار، وحصل بينهما مفاوضة، ثم نهض السلطان من المجلس.

وقام الأمراء، واجتمعوا في خيمة الأمير حسام الدين لاجين، نائب السلطنة، وتكلموا فيما وقع. فسأل الأمير بدر الدين بيسري، الأمير حسام الدين عن موجب

---

(١) جوسية: تقدم التعريف بها قبل قليل.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨١٦.

(٣) يشير المقريزي: السلوك ج ١، ص ٨١٩. أن منزلة العوجا موضع قريب من الرملة.

إغلاظ السلطان له. فقال: إن مماليك قد كتبوا عنك كتباً إلى التتار، وأحضروها إليه، ونسبوك إلى أنك كتبتها، ونيته إذا وصل إلى قلعة الجبل، أن يقبض عليّ وعليك، وعلى أكابر الأمراء، ويقدم مماليكه. فأجمعوا عند ذلك على خلعه. وركب الأمير حسام الدين لاجين، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي الحاجب ومن انضم إليهم. استصحبوا معهم حمْل نقَّارات[(١)]، وساقوا إلى باب الدهليز. وحركت النقارات حربياً، وذلك في يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم، سنة ست وتسعين وستمائة. فلما مروا بخيمة بكتوت الأزرق العادلي قتلوه. وركب بتخاص العادلي، وتوجه إلى باب الدهليز فقتلوه أيضاً وجرحوا عدة من المماليك [العادلية][(٢)]. ولما شاهد الملك العادل ذلك. خرج من ظهر الدهليز، وركب فرس النوبة ببغلطاق [صدر][(٣)]، وعبر على القنطرة التي على ماء العوجا، وساق ركضاً [يريد دمشق][(٤)]، وأدركه خمسة أو ستة[(٥)] من مماليكه، واستقر به السير إلى دمشق. ودخل قلعتها، فكان أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

(١) النقّارات: جمع نقارة، من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة بمصر منذ أيام الفاطميين، وكانت تحمل على عشرين بغلاً على كل بغل ثلاث، وتسير في المواكب اثنين اثنين، وكانت النقارات تحمل في ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر في الإيذان ببدء القتال. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٥٢.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٨٢٠.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٠.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٠.

(٥) «ولم يدركه سوى خمسة من مماليكه» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٠.

ذكر سلطنة السلطان الملك المنصور حسام الدين[1] لاجين المنصوري

وهو السلطان الحادي عشر من ملوك الترك، بالديار المصرية. وهو من مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. اشتراه في زمن إمرته مرتين. وكان من مماليك الملك المنصور نور الدين علي [ابن المعز أيبك][2]، فلما سُفِّر إلى بلاد الأشكري، تأخر بالقاهرة، فاشتراه السلطان الملك المنصور، في أيام إمرته بسبعمائة وخمسين درهماً [من غير مالك شرعي][3]. ثم تبيَّن له بعد ذلك أنه من مماليك الملك المنصور ابن الملك المعز، وقيل له إنه غائب ولا يصح بيعه إلا من حاكم [شرعي][4]، فاشتراه ثانياً من قاضي القضاة، تاج الدين ابن بنت الأعز، بما يزيد عن ألف درهم. وباعه على العائب، بالغبطة له. وقد شاهدت أنا عهديته[5] في جملة عُهَد المماليك المنصورية السيفية، وشذَّ عني تحقيق الثمن الثاني، إلا أنه يزيد على ألف درهم. ولعل ذلك ألف وخمسون درهماً. وكان يوم ذاك يدعى شقير. كذا رأيت عهديته (لاجين المدعو شقير)، وكان في البيت المنصوري يعرف بلاجين الصغير. وتأمر وناب عن السلطنة بدمشق، وهو لا يعرف بين الناس إلا بلاجين الصغير. وسألت بعض أكابر الأمراء من المماليك المنصورية، الذين كانوا في خدمة السلطان، في زمن إمرته، عن لاجين الكبير، الذي مُيِّزَ هذا بالصغير بسببه، فما عرفوه. ولعل هذه الشهرة وقعت عليه وقوع القلب، والله أعلم.

وتنقل لاجين هذا من خدمة السلطان الملك المنصور، من وظيفة الأوشاقية إلى السلاح دارية. ولما قبض عليه السلطان الملك الأشرف، بعد عزله من نيابة الشام، ثم

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٠، وبدائع الزهور لابن إياس ج ١، ص ٣٩٤، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٢، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٣٢، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٠، والنجوم الزاهرة ج ٨، ص ٧٠.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي ج ١، ص ٨٢٠.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٢٢.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٢٢٢.

(٥) «عهدتيه» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٢.

أفرج عنه وجعله سلاح داراً كما كان، في خدمة أبيه السلطان الملك المنصور، قبل أن يستنيبه بدمشق. وقد تقدم من أخباره وتنقلاته، ما نستغني الآن عن إعادته.

مُلِّك بمنزلة العوجاء من بلاد الساحل. وذلك أنه لما هرب المالك العادل كتبغا من الدهليز، وتوجه إلى نحو دمشق، في الثامن والعشرين من المحرم، سنة ست وتسعين وستمائة، اجتمع الأمراء وتشاوروا فيمن ينصب في السلطنة. فاتفقوا على إقامته في السلطنة، وتلقب بالملك المنصور، وشرط الأمراء عليه شروطاً فقبلها والتزمها. منها أن يكون معهم كأحدهم، وأن لا ينفرد برأي دونهم، وأن لا يبسط أيدي مماليكه فيهم، ولا يقدمهم عليهم، وحلّفوه على ذلك فحلف عليه. فقال له الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري: ـ وكان من جملة الأمراء المشار إليهم ـ نخشى أنك إذا جلست في المنصب، تنسى هذا الذي تقرر بيننا وبينك، وتقدم مماليكك، وتخُوِّل منكوتمر. فكرر الحلف أنه لا يفعل [ذلك][١]، ولا يخرج عمَّا التزمه. فعند ذلك، حلفوا له وركب بشعار السلطنة، وتوجه بالعساكر نحو الديار المصرية.

ولما وصل إلى غزة، حمل الأمير بدر الدين بيسري الجتر على رأسه. ثم رحل منها، وكان وصوله إلى قلعة الجبل، وجلوسه على تخت السلطنة، في يوم الجمعة عاشر صفر، سنة ست وتسعين وستمائة. ثم ركب بشعار السلطنة، وشَقَّ المدينة[٢] في يوم الخميس سادس عشر صفر.

ورتب في نيابة السلطنة [بالديار المصرية][٣] مقر ملكه، الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، وجعل الأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار أمير جاندار، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي حاجباً. واستمر الصاحب فخر الدين بن الخليلي في الوزارة برهة، ثم عزله على ما نذكره إن شاء الله. وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري.

هذا ما كان بالديار المصرية، فلنذكر أخبار الملك العادل [كتبغا][٤].

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٣.

(٢) «وقدامه التقليد الخليفتي» في تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٤. و«شقّ القاهرة من باب النصر إلى باب زويلة وعليه الخلعة الخليفتية، وهي جبة سوداء» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٣.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٤.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

ذكر أخبار الملك العادل وما اعتمده بدمشق وما كان من أمره إلى أن انتقل إلى صرخد

لما فارق الملك العادل الدهليز والأمراء، توجه إلى دمشق. وقدم قبله أحد مماليكه ليعم مملوكه الأمير سيف الدين أغرلوا نائب السلطنة [بدمشق](١) ما تجدد، ويخبره بوصول السلطان. فوصل أمير شكار(٢) في بكرة نهار الأربعاء، سلخ المحرم. فجمع نائب السلطنة [بدمشق](٣) الأمراء، وركب جماعة من العسكر، وأمرهم بالوقوف خارج باب النصر.

ثم وصل الملك العادل إلى دمشق، في وقت العصر من اليوم المذكور، ومعه أربعة أو خمسة من مماليكه. ودخل إلى القلعة، واستقر بها، وحضر إلى خدمته الأمراء، وخلع على جماعة. وأمر بإيقاع الحوطة على حواصل الأمير حسام الدين لاجين ونوابه، ثم وصل الأمير زين الدين غلبك العادلي في يوم الخميس، مستهل صفر، بجماعة يسيرة من المماليك العادلة. وجلس شهاب الدين الحنفي وزير الملك العادل في الوزارة بالقلعة، ورتب أحوال السلطنة، وأمَّر العادل جماعة من دمشق، ووضع بعض المكوس(٤)، وقرىء بذلك توقيع في يوم الجمعة سادس عشر صفر.

وفي يوم السبت رابع عشرين الشهر، وصل الأمير سيف الدين كجكن وجماعة من الأمراء، كانوا معه بالرحبة مجردين، فلم يدخلوا دمشق، وتوجهوا إلى جهة ميدان

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٤.

(٢) أمير شكار: صاحب هذه الوظيفة يتحدث على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها، وعلى سائر أمور الصيد، وشكار لفظ فارسي معناه الصيد. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤، ص ٢٣.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٤.

(٤) المكوس: مفردها «مكس» ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة في الموانى. وكانت المكوس في عهد المماليك مقرراً على البيوت والحوانيت والخانات والحمامات والأفران والطواحين والبساتين والمراعي ومصائد الأسماك والمعاصر والحجاج والمسافرين والمراكب والصيد والأغنام والجاموس والبقر والأفراح وغير ذلك. وكان الماكس ومعه المستوفون والكتاب والجنود، يتخذون ساحل مصر القديمة وبولاق لجبايتها كما كان يجبيها عرفاء الأسواق في الأسواق أو يتكفل بتحصيلها الضمان أو حتى الضمانات ضامنة الأفراح أو ضمان الحشيش، والواقع أن هذه الضريبة كانت جائرة وغير شرعية، لأنه لم يرد في كتب الشريعة نصوص بشأنها، ولذلك ألغاها بعض سلاطين المماليك وألغوا بعضاً منها. فالسلطان شيخ مثلاً أبطل مكس الفواكه. ونقش ذلك على خامة بالجامع الذي بناه في عام ٨٢٣ هـ، وكانت المكوس تدرّ دخلاً طائلاً للدولة. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٢٥.

الحصا. وأعلن باسم السلطان الملك المنصور حسام الدين [لاجين](١)، وخرج إليه الأمراء بدمشق، طائفة بعد طائفة. فلما علم الملك العادل بذلك، وتحقق انحلال أمره، وتخاذل الناس عنه، وثبات قدم الملك المنصور في السلطنة، وانضمام الناس إليه، أذعن إلى الطاعة، والدخول فيما دخل الناس فيه. وقال الأمراء: السلطان الملك المنصور، هو خوشداشي، وأنا في خدمته، وطاعته، وأنا أكون في بعض القاعات بالقلعة إلى أن يكاتب السلطان، ويرد جوابه، بما يقتضيه رأيه في أمري. فعند ذلك اجتمع الأمراء بباب الميدان، وحلفوا بأجمعهم للسلطان الملك المنصور، وكتبوا إليه بذلك.

وتوجه البريد إليه بالخبر، ودخل الأمير سيف الدين جاغان إلى القلعة ورتب من يحفظ الملك العادل بها، إلى أن يرد جواب السلطان [المنصور](٢) في أمره، وغلقت أبواب دمشق، في يوم السبت خلا باب النصر، وركب عسكر دمشق بالسلاح،وأحاطوا بالقلعة حفظاً لها، وخوفاً أن يخرج الملك العادل منها، ويقصد جهة أخرى قبل ورود جواب السلطان في أمره. ثم دقت البشائر في وقت العصر من يوم السبت المذكور، وأعلن باسم السلطان الملك المنصور، وقرأ المؤذنون في ليلة الأحد الخامس والعشرين من الشهر بالمأذن ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] إلى آخر الآية. ودعوا للملك المنصور، ودعا له قارىء المصحف، بعد صلاة الصبح، وضربت البشائر على أبواب الأمراء، وأظهروا الفرح والسرورة بسلطنته، وفتحت أبواب البلد وزينت، وفتح الناس حوانيتهم.

وفي يوم الأحد المذكور، اجتمع القضاة بدار السعادة، وحضر الأمراء والعساكر، وحلفوا للملك المنصور. وتولى التحليف القاضي شمس الدين بن غانم، بحضور الأمير سيف الدين أغرلوا، نائب السلطنة، وحلف هو أيضاً، وأظهر السرور بسلطنة الملك المنصور. وقال: السلطان، أعز الله تعالى نصره، هو الذي عينني لنيابة السلطنة، وأستاذي كان قد استصغرني، فأشاد هو بي، فأنا نائب السلطان الملك المنصور، ثم توجه هو والأمير سيف الدين جاغان إلى الأبواب السلطانية(٣).

وخطب للملك المنصور حسام الدين لاجين، بجوامع دمشق، في يوم الجمعة، مستهل شهر ربيع الأول، سنة ست وتسعين وستمائة. وكان الأمير شمس الدين سنقر

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٦.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٦.

(٣) الأبواب السلطانية: هي مقام السلطان وتصدر عنها المراسيم والمكاتبات أو هيئة ديوان السلطان. وفيها كتاب الدست وكتاب الدرج وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٣.

الأعسر، قد حضر من جهة السلطان الملك المنصور إلى ظاهر دمشق، في ليلة الأحد رابع صفر، وأرسل إلى الأمراء كتباً كانت معه، وحلف جماعة منهم. وتوجه إلى قارا(١) في ليلته، وكان بها جماعة من الأمراء المجردين، فاجتمع بهم، وقرَّر(٢) الأمر معهم، وكتب إلى السلطان بذلك. ثم رجع وأقام بِلِد بجماعته، حفظ للبلاد بتلك الجهة. فلما بلغه استقرار الأمور بدمشق، توجه إليها، ودخلها في يوم الخميس، سابع عشرين صفر. فتلقاه الناس، واشتعلت الشموع لمقدمه نهاراً، وحضر الأكابر والأعيان إلى خدمته. ونودي بدمشق، من له مظلمة، فليحضر إلى دار الأمير شمس الدين سنقر [الأعسر](٣).

ثم وصل الأمير حسام الدين أستاذ الدار إلى دمشق، بجماعة من العسكر، وجمع الأمراء بدار السعادة، بحضور القضاة. وقرىء عليهم كتاب السلطان، يتضمن استقراره في الملك، وجلوسه على تخت السلطنة، بقلعة الجبل، واجتماع الكلمة عليه، وركوبه بالخلع الخليفية، والتقليد من أمير المؤمنين، الحاكم بأمر الله، أبي العباس أحمد(٤).

ثم وصل الأمير سيف الدين جاغان الحسامي، من الأبواب السلطانية، في عشية يوم الاثنين، حادي عشر شهر ربيع الأول. ودخل في بكرة نهار الثلاثاء، إلى قلعة دمشق، هو والأمير حُسام الدين [الظاهري](٥) أستاذ الدار في الدولة المنصورية [والأشرفية](٦) كُجْكُن، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة [قاضي دمشق](٧)، واجتمعوا بالملك العادل فتكلم معهم كلاماً كثيراً بحيث إنه طال المجلس كالعاتب عليهم(٨)، فحلف للسلطان الملك المنصور يميناً مستوفاة مغلظة، أنه في طاعة السلطان الملك المنصور وموافقته، وإخلاص النية له، وأنه رضي بالمكان الذي عينه له، وهو قلعة صرخد، وأنه لا يُكَاتِب ولا يستفسد أحداً، إلى غير ذلك، مما اشترط عليه. ثم وصل الأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، نائب السلطنة بالشام، إلى دمشق في يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأول، ونزل بدار السعادة(٩)، على عادة النواب(١٠).

---

(١) قارا: هي قرية من أعمال دمشق جنوبي حمص تقع على قارعة الطريق بين حمص ودمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤، ص ٣٣٤.

(٢) «فحلفهم وحلّف عدة من الناس» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٤.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٧.

(٤) راجع تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٧.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٥٦.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٥٦.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٥٦.

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٥٦.

(٩) دار السعادة: تقدم التعريف بها.

(١٠) راجع السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢، وتاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٨.

وخرج الملك العادل، من قلعة دمشق، وتوجه إلى صرخد، في ليلة الثلاثاء تاسع عشر، شهر ربيع الأول. وتوجه معه مماليكه. وجرد معه جماعة من العسكر الشامي، إلى أن وصل إلى قلعة صرخد.

فكانت مدة سلطنة الملك العادل، منذ جلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل، في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، وإلى أن فارق الدهليز بمنزلة العوجا، وتوجه إلى دمشق، في يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم، سنة ست وتسعين وستمائة، سنتين وسبعة عشر يوماً، إلى أن خلع نفسه من السلطنة بدمشق، في يوم السبت رابع عشرين صفر، شهراً واحداً، وأحد عشر يوماً.

ولما وصل الأمير سيف الدين جاغان إلى دمشق، أحضر على يديه توقيعاً للصاحب تقي الدين توبة، بوزارة دمشق على عادته، وتوقيعاً للقاضي أمين الدين بن هلال بنظر الخزانة(١)، عوضاً عن تقي الدين توبة، وتوقيعاً للشيخ أمين الدين العجمي بنظر الحسبة بدمشق. فباشر كل منهم ما فوض إليه. ثم خلع على الأمراء والمقدمين، والقضاة، وأعيان الدولة بدمشق، في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الآخر. فيقال إن عدة التشاريف التي فرقت ستمائة تشريف.

ذكر الإفراج عن جماعة من الأمراء

وفي هذه السنة، أفرج السلطان الملك المنصور عن جماعة من الأمراء المعتقلين، وهم: الأمير ركن الدين بيبرس الجَاشَنْكِير(٢)، والأمير سيف الدين بن برلغي الأشرفي، والأمير شمس الدين الركن السلاح دار، وغيرهم من المماليك السلطانية، وأعطى الأمير ركن الدين بيبرس [الجاشنكير](٣) إمرة بالديار المصرية، والأمير سيف الدين برلغي إقطاعاً بدمشق، فتوجه إليها.

وفيها، أمَّر السلطان الملك المنصور جماعة من مماليكه، وهم: الأمير سيف الدين

---

(١) «خزانة شمايل» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٢٦. وهي من أشنع السجون في القاهرة وأقبحها منظراً وكان يحبس فيها من وجب عليه القتل من السراق وقطاع الطريق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك. راجع السلوك للمقريزي ج ١، ص ٨٢٦.

(٢) الجاشنكير: وهو الذي يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُدَسّ فيه سُمٌّ ونحوه، وهو مركّب من لفظين فارسيين: أحدهما جاشْنا بجيم التي تلفظ كالشين ومعناه الذوق. والثاني كِير وهو بمعنى التعاطي لذلك، ويكون المعنى الذي يذوق. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٣٢.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٩.

منكوتمر، والأمير علاء الدين أيدغدي شقير، والأمير سيف الدين بيدرا، والأمير سيف الدين جاغان، والأمير سيف الدين بهادر المعزي.

ذكر تجديد عمارة الجامع الطولوني وترتيب الدروس به، والوقف على ذلك

وفي هذه السنة، أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بتجديد عمارة الجامع الطولوني [بظاهر القاهرة][١]. وندب لذلك الأمير علم الدين سنجر الدواداري. وأقر لعمارته من خالص ماله، عشرين ألف دينار عيناً. فاهتم الأمير علم الدين، المشار إليه، بعمارته وعمارة أوقافه. وابتاع السلطان من بيت المال منية أندونة[٢]، من الأعمال الجيزية[٣]، ووقفها على المدرسين والمشتغلين وأرباب الوظائف بالجامع. ورتب فيه درساً لتفسير كتاب الله العزيز، ودرساً لحديث رسول الله ﷺ، ودروساً للفقه على المذاهب الأربعة. وجعل لهذه الدروس مدرساً لكل طائفة، ومعيدين وطلبة. ورتّب دروساً للطب، وميعاداً[٤] للرقائق، وشيخاً للسبحة، ومكتب سبيل، وغير ذلك من أنواع البر. ورتب لهم الجامكيات[٥] المتوفرة، واستمر ذلك إلى الآن[٦].

وفي هذه السنة، نقل السلطان، الخليفة الحاكم بأمر الله أبا العباس أحمد العباسي أمير المؤمنين، من البرج الذي كان يسكنه بقلعة الجبل إلى مناظر الكبش. وأجرى عليه

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٢٩.

(٢) أندونة: هي إحدى قرى الجيزة، عرفت بأندونة كاتب أحمد المدائني الذي كان يتقلد ضياع موسى بن بغا التي بمصر فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا، وكان نصرانياً، فأخذ منه خمسين ألف دينار. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٣٦.

(٣) الأعمال الجيزية: كان عمل الجيزية أول أعمال الصعيد بالديار المصرية، وهو أقربها إلى الفسطاط والقاهرة. وكان مقر الولاية مدينة الجيزة. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤٣.

(٤) الميعاد: درس ديني للوعظ والإرشاد والحث على التقوى وفي Dozy. Supp. Dict, Ar, une lecture de devotion وune leçon religieuse ورقائق الحديث النبوي والآيات الوعظية من القرآن كانت أهم مواد تلك المواعيد. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٨٢٧، حاشية (٣) و ص ٥٥٧، حاشية (١).

(٥) الجامكيات: تقدم التعريف بها.

(٦) أشار ابن الفرات إلى السبب في اهتمامه بعمارته قائلاً: وكان سبب اهتمامه بعمارته أنه لما هرب بعد قتل الملك الأشرف اختفى في منارته، وكان الجامع إذ ذاك مهجوراً ليس يوقد فيه غير سراج واحد، وليس أحد يصعد إلى منارته في أوقات الأذان، وإنما يؤذن شخص واحد على باب الجامع. تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٣٠.

وعلى أولاده الأرزاق الواسعة، ووصله بالصلات الجزيلة، وصار يركب معه في الموكب. والتمس الخليفة من السلطان الإذن في الحج، فأذن له في سنة سبع وتسعين وستمائة، وجهزه بما يحتاج إليه.

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية والشام لمن يذكر

وفي هذه السنة، حضر إلى الأبواب السلطانية جماعة من قضاة القضاة والأعيان بدمشق، منهم قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الرومي، وقاضي القضاة جمال الدين المالكي، والقاضي إمام الدين القزويني، والرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي وغيرهم. فلما وصلوا، أكرمهم السلطان، وأحسن إليهم، وخلع عليهم. وفوض إلى قاضي القضاة حسام الدين الحنفي قضاء القضاة بالديار المصرية، وعامله بما لم يُعامِل به أحداً من الإكرام، والتقريب والبر والتشاريف. وأقر ولده القاضي جلال الدين على قضاء الشام. وفوض إلى القاضي إما الدين القزويني الشافعي، قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام الشافعي، وكُتِب تقليده في رابع جمادى الأولى، عوضاً عن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة. واستقر بيد القاضي بدر الدين الخطابة بالجامع الأموي بدمشق، وتدريس المدرسة القيمرية، وأعيد القاضي جمال الدين الزواوي المالكي إلى دمشق على عادته، وخلع عليهما، فكان وصولهما إلى دمشق في ثامن شهر رجب. وجلس القاضي إمام الدين للحكم بالمدرسة العادلية، وامتدحه الشعراء، فكان ممن امتدحه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني(١) بقصيدته التي أولها:

تَبَدَّلت الأيام من عسرها يسراً   فأضحت ثغور الشام تفتر بالبشرى

وأما الرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي(٢)، فإنه تأخر بالديار المصرية مدة، ثم عاد إلى دمشق، فوصلها في الخامس والعشرين من شهر رمضان. وقد خلع عليه خلع الوزراء، تشريفاً كاملاً بطرحه ومنديل هنكري مزركش، وخلع على ولديه. واستعاد [له](٣) من ورثة السلطان الملك المنصور، ما كان قد صودر به، وأُخِذ منه في الأيام المنصورية. وأثبت ذلك في وجه وكيل الورثة المنصورية، وتعوض عنها أملاكاً، من الأملاك المنصورية، فذكر أن قيمتها أضعاف ما أخذ منه، منها حصة بقرية الرمثا وغير ذلك.

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الواحد قاضي القضاة ذو الفنون جمال الإسلام كمال الدين بن الزملكاني الأنصاري السماكي الدمشقي. ولد سنة ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٨ م، توفي سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦ م، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج ٤، ص ٧ ـ ١١، ترجمة ٤٨٨.

(٢) راجع تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٣١.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٣١.

وفيها، ولي الأمير سيف الدين جاغان الحسامي شد الشام، وباشر ذلك في يوم الاثنين العشرين من شهر رجب، عوضاً عن الأمير فتح الدين بن صبرة.

ذكر تفويض الوزارة بالديار المصرية للأمير شمس الدين سنقر الأعسر

وفي هذه السنة، تقدم أمر السلطان بطلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر المنصوري، من دمشق على خيل البريد. فركب منها في سابع عشر جمادى الآخرة. ووصل إلى الأبواب السلطانية في الشهر المذكور، فأكرمه السلطان وأحسن إليه، وشرَّفه وأمَّره بالديار المصرية. ثم فوض إليه الوزارة، وتدبير الدولة، بالديار المصرية والممالك الشامية.

وكان جلوسه في دست الوزارة، في السادس والعشرين، من شهر رجب. وعزل الصاحب فخر الدين بن الخليلي. وسلِّم إليه، ليستخرج منه مالاً. واستمر في الوزارة إلى يوم السبت ثالث عشرين ذي الحجة، فقبض عليه لأمور أنكرها السلطان، وظهرت له منه.

ذكر القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة، وتفويض نيابة السلطنة للأمير سيف الدين منكوتمر

وفي هذه السنة، في يوم الثلاثاء منتصف ذي القعدة، قبض السلطان على نائبه وخوشداشه، الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوريّ واعتقله. وأمر بإيقاع الحوطة على موجوده وحواصله، بالديار المصرية والبلاد الشامية. وفوَّض السلطان، بعد القبض عليه، نيابة السلطنة بمقر ملكه، لمملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي[(١)].

وفي هذه السنة، بعد القبض على الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، ركب السلطان الملك المنصور إلى الميدان[(٢)]، للعب بالكرة، فتقنطر به فرسه، فسقط إلى الأرض، وانكسر أحد جانبي يديه وبعض أضلاعه. ووجد شِدّة عظيمة لذلك. واحتاج المجبرون إلى كسر عظم الجانب الآخر من يده، لأجل صحة الجبر، فإنه لا يجبر أحد

---

(١) هو منكوتمر بن عبد الله الحسامي المنصوري توفي سنة ٦٩٨ هـ ترجمته في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٢، حاشية (٤)، الدليل الشافي لابن تغري بردي ج ٢، ص ٧٤٦، ترجمة ٢٥٤٦.

(٢) الميدان تقدم التعريف به.

الجانبين، وإن انجبر قصر عن الجانب الآخر، فتعذَّر الانتفاع باليد، واضطُرّ إلى ذلك، وتوقف عن الإجابة إليه. فدخل عليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ـ وكان ذلك قبل القبض عليه ـ وقال له: أنا حصل لي مثل هذا، فلما احتجت إلى كسر النصف الآخر، ضربته بدقماق حديد[١]، فانكسر ثم جبر. وكلَّمه في ذلك بكلام فيه غلظ واستخفاف. ولم يسلك ما جرت العادة به من الآداب الملوكية. فكان هذا من أسباب القبض عليه كما تقدم.

واستمر السلطان على الانقطاع لهذه الحادثة، إلى أن كملت صحته، وصح ما جبر من يده وجسده. ثم ركب في حادي عشر صفر، سنة سبع وتسعين وستمائة فاستبشر الناس بذلك، ودقّت له البشائر بمصر والشام.

وفي سنة ست وتسعين وستمائة، في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول كانت وفاة الشيخ الإمام، السيد الشريف ضياء الدين مفتي المسلمين، أبي الفضل جعفر ابن الشيخ العارف القطب اتفاقاً، عبد الرحيم بن أحمد بن مجنون الحسيني الشافعي، رحمه الله، وكان قد ولي وكالة بيت المال، في أول الدولة المنصورية، مدة لطيفة، ثم عزل نفسه.

وفيها، في ليلة الثلاثاء، سادس عشر ربيع الأول، توفي الشيخ الأمام الحافظ جمال الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ محمد بن عبد الله الظاهري، وولده محمد عتيق السلطان الملك الظاهر غازي. ودفن بتربته بمقبرة باب النصر، ظاهر القاهرة، رحمه الله تعالى.

وفيها، في يوم الاثنين ثامن عشر شعبان، توفي الصدر سيف الدين أحمد بن محمد بن جعفر الساوي بدمشق، ودفن بداره، جوار المدرسة الكروسية، داخل دمشق. وكان كبير المحل في النفوس، مشهور المكانة عند الخليفة المستعصم بالله وغيره. وقد تقدم ذكره في الدولة المنصورية. وكان حسن الشعر إلا أنه كان كثير الهجاء. وأهاجيه مشهورة، منها الأرجوزة التي عملها في مباشري الدولة المنصورية الناصرية بدمشق، وهي مشهورة.

وفيها، في ليلة الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة، كانت وفاة الأمير عز الدين أزدمر العلائي، أحد الأمراء بدمشق. وهو أخو الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري، رحمهما الله تعالى.

---

(١) في الأصل: جديد. والتصحيح من تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٣٢، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٠.

وفيها، كانت وفاة الصاحب محيي الدين أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن النحاس الأسدي. وكانت وفاته ببستانه بالمزة، في سلخ ذي الحجة ودفن في مستهل المحرم. ولي الوزارة بالشام مراراً. ولما توفي، كان مدرساً بالمدرسة الريحانية الظاهرية وناظر الخزانة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع وتسعين وستمائة
[٦٩٧ هـ = ١٢٩٧/١٢٩٨ م]

ذكر وصول الملك المسعود نجم الدين خضر[١] ومن معه من القسطنطينية إلى الديار المصرية

كان السلطان قد كتب إلى الأشكري، صاحب القسطنطينية، في سنة ست وتسعين وستمائة، إن تُجهِّزوا أولاد الملك الظاهر إلى الديار المصرية مكرمين، هم ومن معهم. فجهز إليه الملك المسعود نجم الدين خضر ووالدته. وأحضر الملك العادل سلامش في تابوت مصبراً، وكان قد مات بالقسطنطينية. وكان وصولهم في هذه السنة، فأكرمهم السلطان، وأحسن إليهم. وكان قد تزوج إحدى بنات الملك الظاهر، فلذلك كتب بإحضارهم، ودفن الملك العادل بدر الدين سلامش. ثم استأذن الملك المسعود السلطان في الحج، فأذن له، فحج في هذه السنة. وجهزه السلطان بما يحتاج إليه. ولما عاد، سكن القاهرة المعزية.

وفي هذه السنة، كتب تقليد الأمير سيف الدين قبجاق[٢] المنصوري، بنيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس. وجهّز إليه إلى دمشق، فوصل إليه في يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول، يزينه التشريف السلطاني والسيف والحياصة والفرس، ويقال إنه تولى نيابة دمشق في هذه المدة الماضية بغير تقليد، فوصل إليه الآن، فجدّد الحلف للسلطان بحضور القضاة والأمراء. وركب بكرة نهار الخميس، وعليه التشريف، وقبَّل عتبة باب السر بقلعة دمشق على العادة.

(١) هو ابن الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح الصالحي. ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥، ص ٨٧ ـ ٨٨، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج ١، ص ٢٤١.

(٢) قبجق أو قبجاق بن عبد الله المنصوري سيف الدين توفي سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م ترجمته في تذكرة التنبيه لابن حبيب، ج ١، ص ٢١٠، الدليل الشافي لابن تغري بردي ج ٢، ص ٥٣٣، ترجمة ١٨٢٦، الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٤، حاشية (٢).

ذكر توجه الملك السلطان الناصر إلى الكرك وإقامته بها

وفي هذه السنة، جهز السلطانُ الملك المنصور حسام الدين الملكَ السلطان [الناصر][١] إلى الكرك، فتوجه إليها، وتوجه في خدمته الأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار، فوصل إليها في رابع شهر ربيع الأول. فأخبرني قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي، عن خبر إرساله إلى الكرك. قال: طلبني الملك المنصور حسام الدين، وقال لي: «اعلم أن السلطان الملك الناصر ابن أستاذي، وأنا والله في السلطنة مقام النائب عنه. ولو علمت أنه الآن يستقل بأعباء السلطنة ولا تنخرم هذه القاعدة، ويضطرب الأمر، أقمته وقمت بين يديه يديه. وقد خشيت عليه في هذا الوقت، وترجح عندي إرساله إلى قلعة الكرك. فيكون بها إلى أن يشتد عضده، ويكون من الله الخير. والله ما أقصد بأرساله إليها إبعاده، ولكن حفظه، [وأما][٢] السلطنة فهي له». وأمثال هذا الكلام. قال: فشكرته على ذلك، ودعوت له. ولعل السلطان الملك المنصور، إنما قال هذا القول تطبيباً لقلب قاضي القضاة، لا حقيقة، وكان في طي الغيب كذلك.

ولما توجه السلطان لملك الناصر إلى الكرك[٣]، توجه في خدمته جماعة من مماليكه ومماليك أبيه السلطان الملك المنصور، منهم الأمير سيف الدين بهادر الحموي المنصوري وهو أكبرهم سناً، وهو القائم في خدمته مقام اللالا، والأمير سيف الدين أرغون المنصوري الناصري الدوادار، وكان قد تربى في خدمة السلطان من صغره، وسيف الدين طيدمر جوباش، رأس نوبة الجمدارية وغيرهم.

وكان النائب بالكرك يوم ذاك، الأمير جمال الدين أقش[٤] الأشرفي المنصوري وكان في خدمة السلطان الملك الناصر بالكرك، وهو باقٍ على نيابته بها.

ذكر القبض على الأمير بدر الدين بيسري الشمسي وغيره

وفي هذه السنة، في سادس شهر ربيع الآخر، قبض السلطان على الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي. واعتقله بالقاعة الصالحية، بقلعة الجبل. وكان مكرماً

(١) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٣) راجع السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٢، وتذكرة التنبيه لابن حبيب ج ١، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٩١.

(٤) هو أقوش أو أقش بن عبد الله الأشرفي. توفي سنة ٧٣٦ هـ/ ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي ج ٩، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٩ ترجمة ٤٢٦٧؛ الدليل الشافي لابن تغري بردي، ج ١، ص ١٤٦ ترجمة ٥١٧، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٣.

في اعتقاله، وأحضر إليه زوجته المنصورية، والدة أحمد ابن السلطان الملك المنصور. وكان سبب ذلك أن السلطان ندبه في هذه السنة لكشف جسور الجيزية وإتقانها. وهذه الوظيفة بالنسبة له إطراح كثير له ولعظامته، وإن كانت كثيرة في حق غيره. فتوجه إلى الجيزية بسائر مماليكه وألزامه. فاجتمع معه جمع كثير، يقال إنهم كانوا نحو سبعمائة. وكان يحضر إلى الخدمة في يومي الاثنين والخميس، ويعود إلى مخيمه. فلما تكامل إتقان الجسور، استأذن في عمل ضيافة للسلطان هناك. فأذن له واهتم لها اهتماماً كثيراً. وحصل بسببها جملة من الأغنام والأصناف وغير ذلك. وقرر مع السلطان أن يحضر هذه الضيافة. فأوهم نائبه الأمير سيف الدين منكوتمر، السلطان من خروجه وحذره منه. وأحضر بهاء الدين أرسلان، أستاذ دار الأمير بدر الدين بيسري، وهو ابن مملوكه بدر الدين بيليك، أمير مجلس. وكان قد ربى أرسلان هذا كالولد. فلما كبر قدَّمه على جماعة من أكابر مماليكه الذين كانوا في منزلة أبيه، وجعله أستاذ داره، وأحسن إليه إحساناً كثيراً، فخدمه الأمير سيف الدين منكوتمر ولاطفه ووعده بإمرة طبلخاناة، إن هو أنهى إلى السلطان، أن مخدومه الأمير بدر الدين بيسري يقصد اغتياله. فأطمعت أرسلان نفسه، بما وعده منكوتمر، ووافقه على ما قصده. وحضر إلى السلطان وأوهمه من أستاذه أنه حضر ضيافته قبض عليه وقتله. ثم عضَّد ذلك أن الأمير بدر الدين بيسري، أرسل إلى منكوتمر يطلب منه الدهليز السلطاني، ليُنْصَب في مكان المهم، ولم يشعر بما وقع. فرُسم بتسليم الدهليز لمماليك الأمير بدر الدين بيسري، وأن يتوجه مقدم الفراشين السلطانية ومن معه لنصبه، ولم يطلع السلطان على ذلك. فلما حُمل الدهليز السلطاني على الجمال، ومرَّ به المماليك والغلمان، تحت القلعة ليتوجهوا به إلى الجيزية، رآه السلطان من القلعة. فأرسل إلى الأمير سيف الدين منكوتمر، وسأله عن أمره، فأنكر أن يكون اطلع على شيء من حاله. وقال إن مماليك بيسري أخذوه من الفراش خاناه السلطانية من غير استئذان. ثم قال للسلطان، هذا مما تحقق صدق ما نقل عنه، وأغراه به. فأمر السلطان بإعادة الدهليز إلى الفراش خاناة[١].

وكان الحامل للأمير سيف الدين منكوتمر على ذلك أن أستاذه الملك المنصور حسام الدين، كان قد عزم على أن يجعله وليّ عهده بعده، كما فعل السلطان الملك

(١) الفراش خاناه: هي خزانة الفرش وهي التي بها الخيم والبسط والأسمطة والقناديل وما أشبه ذلك، وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك، وكان الخليفة يحضر إليها من غير جلوس ويطوف فيها، ويسأل عن أحوالها ويأمر بإدامة عمل الاحتياطات وحملها إليها ولها مهتار وعدة فراشين عملهم الكنس وفرش البسط والخدمة ومد الأسمطة. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٦١.

المنصور، والملك الظاهر بأولادهما، ويقرن اسمه مع اسمه في الخطبة، لأن لاجين لم يكن له ولد ذكر. فتحدث في ذلك مع الأمير بدر الدين بيسري، فأنكره غاية الإنكار، وأجاب عنه بأقبح جواب، وردَّه بأشنع ردّ. فكان مما حكي أنه قال للسلطان: اعلم أن مملوكك هذا الذي أشرت إليه، لا يصلح للجندية، وقد أمّرته وقدمته، فصبر الناس لك على هذا، وجعلته نائب السلطنة، ومشَّيْتَ الأمراء والجيوش في خدمته، فأجابوا إلى ذلك، طاعة لك، وطلباً لرضاك، مع ما تقدم من أيْمَانَك عند السلطنة، أنَّك لا تقدم مماليكك على الأمراء، ولا تمكنهم منهم، ثم لم تقنع له بما خوَّلته فيه، ومكنته منه، ورفعته من قدره، حتى تقصد أن تجعله سلطاناً مثلك، هذا لا يوافقك الناس عليه أبداً. وحذره من ذلك غاية التحذير، ونهاه عنه، وعن الحديث فيه مع غيره. ولعمري لقد بالغ في النصيحة[١] له. فأعلم السلطان منكوتمر، بما دار بينه وبين الأمير بدر الدين بيسري في أمره، وبما أجاب به في معناه. فرأى منكوتمر أنه منعه مُلْكاً عظيماً، وسلبه أمراً جسيماً. وعلم أنه لا يتم له هذا الأمر، الذي أشار به السلطان، ولا يتمكن منه، مع بقاء بيسري وأمثاله من الأمراء. فشرع في التدبير عليهم، وأغرى مخدومه بهم. وابتدأ بالتدبير على بيسري. وعلم أنه إن ينقل عنه أمراً، ربما أن السلطان لا يتلقاه بقبول، فأخذه من مأمنه. وتحيَّل على أستاذ داره وأرسلان، حتى أنهى عنه ما أنهاه. ثم عضد ذلك بواقعة الدهليز، فتحقق ما نقل عنه. ولما وقع ذلك، أطلع عليه بعض الأمراء الأكابر، فراسلوا الأمير بدر الدين بيسري، وأعلموه، بما اطلعوا عليه وكان ممن راسله في ذلك، الأمير سيف الدين طقجي الأشرفي وغيره من الأمراء، وحذروه من السلطان، وحلفوا له على الموافقة والمعاضدة. فلم يرجع إلى قولهم، ولا أصغى إليهم. ثم أرسل إليه سيف الدين أرغون، أحد مماليك الملك المنصور، وخاصكيته[٢] وأقر بهم عنده، يخبره أن السلطان قد عزم عى القبض عليه، ويحذره من الحضور إلى الخدمة، وإنه إن حضر يكون في أهبة واستعداد. وكان الحامل لأرغون على ذلك، أن أستاذه أمَّر غيره من مماليكه، ولم يؤمره بطبلخاناه[٣] مع اختصاصه به، وإنما أعطاه إمرة عشرة[٤] فوجِدَ في نفسه. ومن العجب أن كل واحد، من السلطان وبيسري، أُتِي في هذا الأمر من مأمنه، وأذاع سره أخص الناس به. فإن أرسلان كان من بيسري بالمكان الذي ذكرناه، كأعز أولاده عنده،

(١) قارن بما ورد في السلوك للمقريزي ج ١، ص ٨٣٣.

(٢) الخاصكية: تقدم التعريف به.

(٣) الطبلخاناه: تقدم التعريف به.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٥، وإمرة عشرة: ممن لم يؤهل لحمل القُضب. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣، ص ٥٥١.

وأرغون هذا كان من أخص المماليك المنصورية الحسامية، حتى لقد بلغني أنه أعطاه في يوم واحد، سبعين فرساً، وغير ذلك. فحمل أرسلان الطمع بالإمرة، وحمل أرغون الغيرة من تقديم أمثاله عليه. ففعلا ما فعلا، ونقلا ما نقلا.

وحضر الأمير بدر الدين بيسري إلى الخدمة، في يوم الاثنين السادس من شهر ربيع الآخر. فأخبرني ركن الدين بيبرس الجمدار، أحد [المماليك][(١)] البدرية، الذين كانوا معه، يوم القبض عليه، أنه لما غبر إلى الخدمة، تلقاه السلطان قائماً على عادته. وجلس إلى جانبه، وبالغ السلطان في إكرامه. ولما قدم السماط، امتنع الأمير بدر الدين من الأكل، واعتذر بالصوم. فأمر السلطان برفع مجمع من الطعام لفطوره، فرفع له. وبقي السلطان يحادثه سراً، ويؤانسه ويشغله عن القيام، إلى أن رفع السماط. وخرج الأمراء، وقام الأمير بدر الدين معهم على عادته. فلما انتهى إلى بعض الإيوان، استدعاه السلطان، فعاد إليه. فقام له أيضاً وجلس معه، وحدَّثه طويلاً، والحجاب والنقباء يستحثون الأمراء على الخروج. ثم قام [بيسري][(٢)]، فاستدعاه [السلطان][(٣)] أيضاً، فعاد إليه، وقام السلطان له، وجلس معه وتحدثا حتى علم أن المجلس والدهاليز لم يبق بها أحد سوى مماليك السلطان فقط فتركه[(٤)].

قال الحاكي لي: ورأيت السلطان قد ناوله شيئاً من جيبه، ما أعلم ما هو، فتناوله الأمير بدر الدين، ووضعه في جيبه. وقبَّل يد السلطان وفارقه. وقد خلي المجلس والدهاليز إلا من المماليك السلطانية. فلما خرج أتاه الأمير سيف الدين طقجي، والأمير علاء الدين أيدغدي شقير الحسامي، وعدلا به إلى جهة أخرى. وقبض أيدغدي شقير على سيفه، وأخذه من وسطه، ونظر إليه طقجي وبكى عند القبض عليه. وتوجها به إلى المكان الذي جهز لاعتقاله به. ولم يزل الأمير بدر الدين معتقلاً إلى أن مات، في الدولة الناصرية على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وقبض السلطان أيضاً على الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي الحاجب، ونُقِل الأمير سيف الدين كرد أمير آخور[(٥)] إلى الحجبة. وقُبِض على الأمير شمس الدين سنقر شاه

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح. كان أرسلان ابناً لبدر الدين بيليك أمير مجلس، وكان بدر الدين هذا مملوكاً للأمير بيسري، ثم قدمه على أكابر مماليكه وعمله استاذ داره. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٨٣٦.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٥.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٥.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٥.

(٥) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على اصطبل السلطان والأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل =

الظاهري. وقبض أيضاً في أواخر السنة على الأمير عز الدين أيبك الحموي الظاهري.

وفي جمادى الأولى، أمر السلطان بمصادرة القاضي بهاء الدين بن الحلي ناظر الجيوش المنصورة، وأخذ خطه بألف ألف درهم، وعزله عن الوظيفة. وأُحْضر عماد الدين بن المنذر، ناظر جيش الشام، فولَّاه النظر. وكان قد جلس في نِظر الجيش، فيما بين عزل بهاء الدين وحضور ابن المنذر، القاضي أمين الدين المعروف بابن الرفاقي. فلما وصل ابن المنذر، فوض إليه النظر، ومرض أمين الدولة، وانقطع في داره لما حصل له من الألم.

وفي هذه السنة، أقيمت الخطبة وصلاة الجمعة بالمدرسة المعظمية بسفح قاسيون، ولم تكن قبل ذلك، وخطب بها مدرسها شمس الدين بن الشرف بن العز الحنفي، في يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر، باتفاق الملك الأوحد(١) ناظر المدرسة.

ذكر إعادة الصاحب فخر الدين عمر بن الخليلي إلى الوزارة

وفي هذه السنة، في جمادى الأولى، رسم السلطان بإعادة الصاحب الوزير فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز الخليلي إلى الوزارة فعاد، وصادر ألزام الأمير شمس الدين [سنقر](٢) الأعسر.

ذكر تجريد العساكر إلى سيس وما فتح من قلاعها

وفي هذه السنة، جرَّد السلطان الأمير بدر الدين بكتاش الفخري الصالحي أمير سلاح، والأمير حسام الدين لاجين الرومي، أستاذ الدار، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاي، ومن معهم من مضافيهم. وأمرهم أن يتوجهوا إلى بلاد سيس. فتوجهوا من القاهرة، في جمادى الأولى، والمقدم على الجيش أجمع الأمير بدر الدين [بكتاش](٣) أمير سلاح.

= والإبل، وغيرهما مما هو داخل في حكم الاصطبلات. وأهم العاملين في الاصطبلات هو المسؤول عن الأعلاف المسمى «بالسلاخور». محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٤٧، وأحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، ص ١١.

(١) الملك الأوحد شادي بن الزاهر مجير الدين داود بن أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الأيوبي. وكان من جملة أمراء الطبلخاناه بدمشق. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٠٩.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٦.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٧.

وكان وصولهم إلى دمشق في يوم الخميس، خامس جمادى الآخرة، وتوجهوا منها في ثامن الشهر. وجرّد معهم من عسكر دمشق، الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق، والأمير سيف الدين كجكن، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصوري ومضافيهم. وجرد العسكر الصفدي، ومقدمه الأمير علم الدين أيدغدي الإلْدِكْزِيّ. وجرّد جماعة من العسكر الطرابلسي، والملك المظفر صاحب حماه بعسكرها.

ولما اتصل خبر تجريد العسكر بصاحب سيس، جهز رسله إلى الأبواب السلطانية، يستعطف السلطان، ويسأل مراحمه، فلم تُجْد رسالته نفعاً. ووصلت هذه العساكر إلى حلب. وأردف السلطان هذه العساكر بالأمير علم الدين سنجر الداوداري، أحد مقدمي العساكر بالديار المصرية، ومضى فيه، فخرج مسرعاً، وأدرك الجيش بحلب، وجرد من العسكر الحلبي الأمير علم الدين المعروف بالزغلي، والأمير علم الدين سنجر [الحلبي][1]، ومضافيهما. وتوجهت هذه الجيوش بجملتها إلى بلاد سيس. فلما نزلوا بالعمق، افترقت العساكر فرقتين. فتوجه الأمير بدر الدين بكتاش، أمير سلاح، والأمير حسام الدين أستاذ الدار، والأمير ركن الدين الجالق، والأمير بهاء الدين قرا أرسلان، والعسكر الصفدي من عقبة بغراس إلى باب إسكندرونة، ونازلوا تل حمدون. وتوجه الملك المظفر صاحب حماه، والأمير علم الدين سنجر الدواداري، والأمير شمس الدين آقسنقر كرتاي، وبقية الجيش من عقبة المريت. وصار نهر جهان[2] بين الفريقين وكان دخولهم إلى دربند سيس، في يوم الخميس، رابع شهر رجب.

ولما صاروا ببلاد سيس، اختلف الأمير بدر الدين أمير سلاح، والأمير علم الدين الدواداري، فأشار أمير سلاح بالحصار ومنازلة القلاع. وأشار الدواداري بالإغارة والاقتصار عليها. وقال: أنا المقدم على هذه الجيوش كلها، وأنا آخركم عهداً بالسلطان، وإنما رسم السلطان بالإغارة. فاضطر أمير سلاح ومن معه، لموافقة الدواداري، وقطعوا جهات من مخاضة العمودين، وتوجهوا للإغارة. فتوجه صاحب حماه الدواداري، ومن معهما إلى سيس نفسها. وتوجه أمير سلاح ومن معه إلى ناورزه[3]، وأقاموا عليها يوماً وليلة، ورحلوا إلى أذنة، واجتمعت الطائفتان بها، بعد أن قتلوا من ظفروا به من الأرمن، واستاقوا ما مرّوا به من الأبقار والجواميس. وعادوا من أذنة إلى المصيصة بعد الإغارة،

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٨ وفي الأصل: «الحلبي».

(٢) هو النهر المعروف بنهر جيحان الذي ينبع من مرتفعات أرمينية الصغرى، ويصب في البحر المتوسط في خليج أياس. لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) ناورزة: هي عين زربة من مدن أرمينية الصغرى جنوب مدينة سيس. لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ص ١٦١.

وأقاموا بها ثلاثة أيام، حتى نصبوا جسراً مرت العساكر عليه، ورجعوا إلى بغراس، ثم إلى مرج أنطاكية. وأقاموا ثلاثة أيام. ورحلوا إلى جسر الحديد بأرض الروج(١)، عازمين على العود إلى الديار المصرية، بالعساكر المصرية إلى مستقرها.

وكان الأمير بدر الدين أمير سلاح، لما نازعه الدواداري في التقدمة، ومنعه من الحصار، وصمم على الاقتصار على الإغارة، قد كتب إلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، نائب السلطنة بالمملكة الحلبية، يعلمه بما وقع والتمس منه مطالعة السلطان بذلك. فطالع بصورة الحال، فورد الجواب من السلطان، والعساكر بالروج، يتضمن الإنكار على الأمير علم الدين الدواداري، كونه ادّعى التقدمة على الأمير بدر الدين أمير سلاح، واقتصر على الإغارة، وأن الدواداري إنما خرج مقدماً على مضافيه خاصة، وإن التقدمة على سائر الجيوش للأمير بدر الدين أمير سلاح. ورسم السلطان أن العساكر لا تعود، إلا بعد فتح تل حمدون. وإن عادت قبل فتحها، فلا انقطاع لهم بالديار المصرية؛ إلى غير ذلك من الحث على فتحها. فعند ذلك، عطفت العساكر من الروج إلى جهة حلب، ووصلوا إليها، وأقاموا بها ثمانية أيام، وتجهَّزوا منها بما يحتاجون إليه. ودخلوا إلى بلاد سيس بأثقالهم، وعبروا بجملتهم من عقبة بغراس. وجرَّد الأمير بدر الدين [بكتاش](٢) أمير سلاح، الأميرين سيف الدين كجكن، وبهاء الدين قرا أرسلان، إلى إياس، فأكمن لهم الأرمن في البساتين، فلم تتمكن العسكر من قتالهم، ورحلوا شبه المنهزمين، فأنكر أمير سلاح عليهم وسبَّهم، فاعتذروا بضيق المسلك والتفاف الأشجار، وعدم التمكن من العدو. ثم رحل بجميع الجيش، ونزل على تل حمدون(٣) فوجدها خالية، وقد انتقل من بها من الأرمن إلى قلعة نُجيمة، فتسلمها، في سابع شهر رمضان، وسلمها للأمير علم الدين الشيباني، النائب ببغراس.

ولما دخل الجيش إلى بلاد سيس، جرَّد الأمير سيف الدين الطباخي، نائب السلطنة بحلب، طائفة من عسكرها، ومن انضم إليهم من التركمان وغيرهم، ففتحوا قلعة مرعش، في عاشر شهر رمضان أيضاً. ثم جاء الخبر إلى العسكر أن وادياً تحت قلعة نجيمة وحمّوص(٤) قد امتلأ بالأرمن، وأن المقاتلة من قلعة نجيمة يحمونهم.

---

(١) الروج: قرية واقعة غربي حلب بينها وبين المعرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ظ، ص ٨٦.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٩.

(٣) قلعة حصينة من بلاد الأرمن لها سور جيد البناء حسنه. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج ٢، ص ١٢٧، حاشية (١).

(٤) في الأصل: حميمصي. وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤٠ حميص وهي قلعة تقع شرقي تل حمدون وردت باسم حمّوص، انظر Dozy. Supp. Dict, Ar. ووردت حمصيص في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٧، حاشية (٢).

فندب إليه طائفة من العسكر، فرجعوا، ولم يبلغوا غرضاً. ثم سيَّر[١] طائفة ثانية، فرجعوا كذلك. فرحل الأمراء بجملتهم في نفر من أعيان الجيش وأقويائه، وقاتلوا أهل نجيمة، حتى ردوهم إلى القلعة.

ثم تقدم الجيش إلى الوادي، وقتلوا من به من الأرمن، وأسروا ونهبوا، ونازلوا قلعة نجيمة ليلة واحدة. ثم خرج العسكر إلى الوطاة[٢]، وبقي صاحب حماه وأمير سلاح، في مقابلة من بالقلعة، حتى خرج العسكر، خشية أن يخرج أهل نجيمة، فينالوا من أطراف العسكر. ثم خرجوا بجملتهم واجتمعوا بالوطاة. فوصل البريد بكتب السلطان، يتضمن أنه بلغه أن تل حمدون أخليت، وأنها أخذت بغير قتال ولا حصار، وانتقل من بها إلى قلعة نجيمة وحصارها، إلى أن تفتح، فعادت العساكر إليها وحاصروها. واختلف أمير سلاح والدراوردي أيضاً، فقال الدواداري: إن هذا الجيش بجملته إذا نازل هذه القلعة، لا يظهر من اجتهد وقاتل، ممن تخاذل وعجز. والقتال عليها إنما هو من وجه واحد. والرأي أن يتقدم في كل يوم مقدم ألف، ويزحف بجماعته ليظهر فعله، واستقل القلعة واستصغرها وحقَّر أمرها. وكان في جملة كلامه أن قال: أنا آخذ هذه القلعة في حجري. فاتفق الأمر على أن يتقدم الدواداري بألفه، للزحف في أول يوم. فزحف بمن معه حتى لاحف[٣] السور. فأصابه حجر منجنيق في مشط رجله، فقطعه وسقط إلى الأرض. فتبادر الأرمن بالنزول إليه، وكادوا يأسرونه. فحمل أمير سلاح بجماعته، حتى حجزهم عنه، وأخرج الدواداري على جنوية[٤]، وحمل إلى وطاقه[٥]. وعادوا إلى حلب، ثم توجه منها إلى الديار المصرية. وقد سكنت نفسه، ونقصت حرمته، عما كانت عليه، وكان قبل ذلك له حرمة وافرة. وقتل الأمير علم الدين سنجر طقصبا الناصري، على هذه القلعة وزحف الأمير شمس الدين آقسنقر كرتاي في اليوم الثاني، وانتهى إلى سورة القلعة ونقبه، وخلَّص منه ثلاثة أحجار. واستشهد من مماليكه وأجناده أحد عشر رجلاً، ونفران من الحجارين.

ثم زحف أمير سلاح[٦]، وصاحب حماه، وبقية الجيش.ورتَّبهم أمير سلاح

(١) من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤٠.

(٢) الوطأة: السهل Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) لاحف السور: أي جانبه. بطرس البستاني: محيط المحيط (لحف).

(٤) تقدم التعريف به. (٥) الوطاق: تقدم التعريف به.

(٦) أمير سلاح: وظيفة عسكرية كبرى في دولة سلاطين المماليك لا يشغلها إلا أمير مائة مقدم ألف، وهو أمير السلحدارية، والمشرف على السلاح خاناه بما فيها من أدوات وأسلحة. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج ٢، ص ١٢٧، حاشية (٦).

طوائف، طائفة تتلو أخرى. وقرر معهم، أن يردف بعضهم بعضاً. وتقدموا بالجنويات، حتى وصلوا إلى السور، وأخذوا مواضع النقوب[١]، وأقاموا الستائر[٢]. ولازموا الحصار عليها واحداً وأربعين يوماً. وقد اجتمع بها جمع كثير من الفلاحين والنساء والصبيان من أهل القرى المجاورة لها، فقلّت المياه بالقلعة. فاضطر الأرمن إلى إخراجهم منها، فأخرجوهم في ثلاث دفعات. فأخرجوا في المرة الأولى مائتي رجل، وثلاثمائة امرأة ومائة وخمسين صبياً. فقتل العسكر الرجال، وتفرَّقوا النساء والصبيان. ثم أخرجوا في المرة الثانية مائة وخمسين رجلاً، ومائتي امرأة، وخمسة وسبعين صبياً، ففعلوا بهم كذلك. ثم أخرجوا جماعة أخرى في المرة الثالثة. ولم يتأخر بالقلعة إلا المقاتلة، وقلّت عندهم المياه، حتى اقتتلوا بالسيف على الماء، فسألوا الأمان فأعطوه، وسلموا القلعة في ذي القعدة من السنة. وخرجوا منها، وتوجهوا إلى مأمنهم[٣].

وفي أثناء هذا الحصار، وصلت إلى العسكر مفاتيح النقير وحجر شغلان وسرقند كار وزنجفرة وحموّص[٤]، وتتمة أحد عشر حصناً من حصون الأرمن. وسلم الأمير بدر الدين أمير سلاح هذه الفتوح إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجي أحد الأمراء بدمشق، وجعله نائباً بها. فلم يزل [استدمر][٥] بهذه الحصون، إلى أن بلغه حركة التتار وقربهم، فأباع ما بها من الحواصل وتركها خالية، فاستولى الأرمن عليها.

ولما تكامل هذا الفتح، عادت العساكر إلى حلب، ونزلوا بها، ليريحوا خيولهم. ترادف عليهم الأمطار وتزايدت، حتى سكنوا الخانات والدور. ثم أردفهم السلطان بتجريدة أخرى، من الديار المصرية، صحبة الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير سيف الدين طقطاي، والأمير مبارز الدين أوليا بن قرمان، والأمير علاء الدين أيدغدي شقير الحسامي. فوصلوا إلى دمشق، في ذي القعدة، وتوجهوا إلى حلب، وأقاموا بها مع العسكر، وجهز صاحب سيس رُسَلاً إلى الأبواب السلطانية يسأل عواطف السلطان ومراحمه. واستمر العسكر بحلب ينتظرون ما يرد عليهم، من أبواب السلطان. فأقاموا عليها شهوراً، إلا أن الأمير حسام الدين أستاذ الدار، فإنه توجه إلى الأبواب السلطانية، على خيل البريد. وكان عود هذا العسكر إلى الديار المصرية،

---

(١) «وأخذوا في النقب» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤٠.

(٢) الستائر: جمع ستارة، ستار من خشب يقف خلفه المقاتلون أثناء الهجوم والدفاع. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) راجع السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤١.

(٤) حموص: تقدم التعريف بها قبل قليل.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

ووصوله إلى القاهرة، في منتصف شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وتسعين وستمائة، بعد مقتل السلطان بثلاثة أيام على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر حادثة غريبة ظهر فيها آية من آيات الله عز وجل

وفي سنة سبع وتسعين وستمائة، في العشر الأول، من جمادى الأولى، ورد على السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، مطالعة مضمونها: أن شخصاً بقرية جينين[١]، من الساحل الشامي، كانت له زوجة، فتوفيت إلى رحمة الله تعالى. فحملت بعد تغسيلها وتكفينها ودفنت. فلما عاد زوجها من المقبرة، تذكر أن منديله وقع في القبر، وفيه جملة من الدراهم. فأتى إلى فقيه في القرية، فاستفتاه في نبش القبر. فقال له في ذلك يجوز نبشه وأخذ المال منه. ثم تداخل الفقيه المفتي في ذلك شيء في نفسه. فقام وحضر معه إلى القبر، فنبش الزوج القبر ليأخذ المال، والفقيه على جانب القبر، فوجد الزوج زوجته مقعدة[٢] مكتوفة بشعرها، ورجليها مكتوفتين بشعرها، [فحاول حل كتافها][٣]، فلم ينحل له ذلك، فأمعن في ذلك، فخسف له وبزوجته. ولم يوجد أو لم يعلم للخسف منتهى. وأما الفقيه فإنه أقام مغشياً عليه يوماً وليلة أو ليلتين[٤]. ـ نسأل الله أن يسترنا ولا يفضحنا، وأن لا يؤاخذنا بسوء أفعالنا ـ. ولما وردت المطالعة على السلطان بهذه الحادثة، عرضها على شيخنا قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد، وغيره. وكتب يستعلم عن سيرة هذه المرأة والزوج المخسوف بهما، فما علمت ما ورد عليه من الجواب في ذلك[٥].

ذكر روك[٦] الإقطاعات بالديار المصرية وتحويل السنة

أمر حسام الدين لاجين، بروك الإقطاعات والمعاملات والنواحي والجهات

---

(١) جينين: قرية بين نابلس وبيسان في ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢، ص ٢٣٥، راجع أيضاً السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٧.

(٢) «جالسة» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٣٧.

(٤) «يوم وليلة» في السلوك ج ١، ص ٨٣٧.

(٥) أورد المقريزي هذا الحادث في السلوك ج ١، ص ٨٣٧.

(٦) الروك: في كتب المؤرخين، مصدر الفعل الثلاثي «راك» ومعناه في الأصل مسح أرض الزراعة من بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال. وكان الخراج أي ضريبة الأرض في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية المصدر الرئيسي لدخل الدولة منذ صدر الإسلام، ومنه تصرف أعطيات الجند ورواتب الولاة وموظفي دواوين الدولة، فما زاد على ذلك من مال الخراج أودع بيت المال، ويسمى هذا النظام بنظام الأعطية، وكانت مصر الإسلامية تدفع خراجاً سنوياً كبقية البلاد الإسلامية =

بالديار المصرية. وندب لذلك من الأمراء الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب، والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري، المعروف بالبريدي.

وتوجه الكشاف إلى الأقاليم البرانية، بالوجهين القبلي والبحري، ومسحوا البلاد مساحة روك، وحرروا الجهات وعادوا. وانتصب لهذا جماعة من الكتاب، كان المشار إليه فيهم، تاج الدين عبد الرحمٰن المعروف بالطويل، وهو أحد مستوفيي[(١)] الدولة، من مسالمة[(٢)] القبط، وممن يشار إليه في معرفة صناعة الكتابة، ويعتمد على قوله، ويرجع إليه فيها، فرتب ذلك على حسب ما اقتضاه رأي السلطان في تقريره.

واستقرَّ في الخاص[(٣)] السلطاني الأعمال الجيزية[(٤)] والأطفيحية[(٥)] وثغر الإسكندرية وثغر دمياط ومنفلوط وكفورها، وهو، والكوم الأحمر[(٦)] من الأعمال القوصية، وفي كل إقليم بلاد.

وتقرر إقطاع نيابة السلطنة من أعظم الإقطاعات وأكثرها متحصلاً. فكان من

= الخراجية، وكان خارجها مقسماً إلى أربعة وعشرين قيراطاً توزع أجزاؤها على القرى توزيعاً متناسباً مع طاقتها، وكانت جباية الخراج سواء في مجموعها الكلي أو في الأجزاء الموزعة على القرى عرضة للتعديل، فإذا زادت عمارة البلاد، وتوفر زيدت الجباية، وإن قلّ أهلها وأجدبت أرضها وخربت نقصت، ويظهر أن ذلك هو على الأقل أحد أسباب تكرار مسح أرض مصر. ولما حل النظام الإقطاعي بمصر ظلت النسبة الخراجية جارية على النظام الجديد وهي أربعة وعشرون قيراطاً للسلطان منها أربعة قراريط، وللأجناد عشرة قراريط وللأمراء عشرة. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ص ١٦٤، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤١، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٧٤ ـ ٧٥، حاشية (٢).

(١) مستوفي الدولة: تقدم التعريف به.

(٢) المسالمة: لفظ يطلق على كل رجل دخل في الإسلام حديثاً من النصارى وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى بالبلاد الإسلامية انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤٣، حاشية (١)، وDozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) كان السلطان محمد بن قلاوون قد أحدث ديواناً خاصاً سُمّي ديوان الخاص وظيفته النظر في خاص أموال السلطان والتحدث في جهاته ومضافاته، وأعظم بلاده وأغناها كانت الإسكندرية. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٧٦، حاشية (٢).

(٤) الأعمال الجيزية: تقدم التعريف بها.

(٥) الاطفيحية: وهي بلاد القسم الواقع شرقي النيل من بلاد مديرية الجيزة. وكانت قاعدتها بلدة إطفيح. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٧٦، حاشية (٣).

(٦) الكوم الأحمر: توجد اثنتان تسمى كل منها باسم الكوم الأحمر بالوجه البحري، إحداها بالقليوبية والأخرى بالمنوفية. المقريزي: السلوك ج١، ص ٨٤٣، حاشية (٥).

جملته بالأعمال القوصية، مرج بني هميم وكفورها، وسَمْهُود[١] وكفورها، ودواليبها ومعاصرها، وَحَرَجَة[٢] مدينة قوص وأدفو. وهذه النواحي يزيد متحصلها من الغلال خاصة، على مائة ألف وعشرة آلاف إردب، خارجاً عن الأموال والقنود[٣] والأعسال والتمر والأحطاب وغير ذلك. وفي كل إقليم من الديار المصرية نواحي ومعاصر، فكان في خاصة سبع وعشرون معصرة، لاعتصار قصب السكر.

وكان نجاز الروك في ذي الحجة سنة سبع وتسعين وستمائة. واستقبل به سنة ثمان وتسعين الهلالية[٤]. وحوّلت السنة الخراجية من سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين. وهذا التحويل جرت به العادة، بعد انقضاء ثلاث وثلاثين سنة، تحوّل سنة، وهو التفاوت فيما بين السنة الشمسية والقمرية. فيجمع من ذلك في طول السنة، ما ينغمس به سنة. وهو حجة ديوان الجيش في اقتطاع التفاوت الجيشي. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥]، إن التسعة هي هذا التفاوت، ما بين السنتين، والله تعالى أعلم. وهذا التحويل لا ينقص بسببه شيء من الأموال البتة، وإنما هو تحويل بالأقلام خاصة.

ولما نجز هذا الروك، أقطعت البلاد للأمراء والأجناد دربسته[٥]، لم يستثن منها غير الجوالي[٦] والمواريث الحشرية[٧]، فإن ذلك جعل في جملة الخاص السلطاني. واستثنيت الرزق الأحباسية[٨] المرصدة لمصالح الجوامع والمساجد، والربط والزوايا،

---

(١) سَمْهُود: بلدة قريبة من قرشوط بمركز نجع حمادي بمديرية قنا الحالية. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٨٤٤، حاشية (١).

(٢) حرجة: الموضع الذي يلتف شجره وهي كورة صغيرة في شرقي قوص بالصعيد الأعلى. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢، ص ٢٧٧.

(٣) القند: لفظ فارسي معرب هو عصير قصب السكر. انظر المخصص لابن سيده، ج ٥، ص ٣.

(٤) يوافق العام الهجري ٦٩٨ أوله من التاريخ الميلادي ٩ أكتوبر ١٢٩٨. انظر كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية لمحمد مختار باشا، المجلد الأول، ص ٧٣١.

(٥) دربسته: في الأصل وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٤٤. دربستا ودربسته لفظ فارسي معناه كاملاً. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٦) الجوالي: تقدم التعريف بها.

(٧) المواريث الحشرية: تقدم التعريف بها.

(٨) الرزق الأحباسية: «هو ما يخرج مرتباً عند نهاية اليوم أو الشهر وعبارة القلقشندي عند تعريفه وظيفة نظر الإحباس المبرورة فقال: «هي وظيفة عالية المقدر وموضوعها أن صاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس». انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٥٨، وصبح الأعشى للقلقشندي ج ١١، ص ٢٢، حاشية (٢).

والخطباء والفقراء. واستقرت في سائر البلاد على ما يشهد به ديوان الأحباس. وما عدا ذلك من سائر الأموال وغيرها، دخل في الإقطاع.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير عز الدين الجناجي، نائب السلطنة ومقدم العسكر بغزة، وكان قبل وفاته قد أودع عند فخر الدين الإعزازي التاجر بقيسارية الشرب بدمشق صندوقاً، ولم يطلع على ذلك إلا خزنداره. وكان الصندوق المودع عنده قبل ذلك وديعة عند بعض أصحاب الأمير المذكور، فأخذ منه، ثم أودعه عند فخر الدين. واتفقت وفاة خزندار الأمير، وهو الذي اطلع على الوديعة قبل وفاة مخدومه بأيام، ثم مات الأمير، فلما اتصلت وفاته بفخر الدين الإعزازي، اجتمع بقاضي القضاة إمام الدين الشافعي بدمشق، وعرفه خبر الوديعة. فأمره بالتأني في أمرها؛ حتى تثبت وفاة المذكور، ويتحقق أمر ورثته، ففعل ذلك. وفي أثناء ذلك، طلب الأمير سيف الدين جاغان؛ شاد الدواوين[١] بالشام، الوديع الأول وطالبه بما عنده من الوديعة. فادعى أن الجناجي استعاد ذلك منه، فلم يصدقه، وقصد ضربه وعقوبته، بسبب ذلك. فأتاه فخر الدين المذكور واعترف أن الوديعة عنده، وأحضر الصندوق إلى الديوان السلطاني، وفُتِح واعتبر ما فيه، فكان فيه من الذهب اثنان وثلاثون ألف دينار، ومائتا دينار، وأربعة وثلاثون ديناراً، وحوائص ذهب، وطرز زركش بتتمة خمسين ألف دينار، هكذا نقل إليّ ثقة.

وفيها، توفي الأمير سيف الدين بلبان الفاخري، أمير نقباء[٢] العساكر المنصورة بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته في رابع عشر ربيع الآخر. وأعطى إقطاعه سيف الدين بكتمر الحسامي الطرنطاي أمير آخور. وكان السلطان، قبل ذلك أمَّره بعشرة طواشية، فنقله الآن إلى إمرة الطبلخاناة. ثم تنقّل بعد ذلك في المناصب والنيابات عن السلطنة والوزارة وغير ذلك، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في مواضعه.

وفيها، في يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى، كانت وفاة الأمير سعد الدين كوجا الناصري، وكان يتولى نيابة دار العدل، وتولى في ثغر الإسكندرية وكان بيده إمرة عشرة طواشية[٣].

---

(١) شاد الدواوين: تقدم التعريف به.

(٢) النقباء: جمع نقيب، وكان عمل صاحب تلك الوظيفة عند السلطان أو الأمير القيام بتأدية لخدمات الصغيرة لسيده. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٥٢.

(٣) طواشية: تقدم التعريف به.

وفيها، توفيت الخاتون الجليلة الكبرى، نسب خاتون، ابنة الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر أيوب، في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول. ودفنت عند والدها بقاسيون، رحمهما الله تعالى.

واستهلت ثمان وتسعين وستمائة
[٦٩٨ هـ = ١٢٩٨/١٢٩٩ م]

في هذه السنة، في أولها[١] جهز السلطان الأمير جمال الدين أقش الأفرم، والأمير سيف الدين حمدان بن صلغاي إلى الشام، وأمرهما أن يتوجها إلى دمشق، ويخرجا نائب السلطنة الأمير سيف الدين قبجاق[٢] وبقية العسكر إلى البلاد الحلبية. فوصلا إلى دمشق على خيل البريد، في يوم الأربعاء سابع المحرم. فتجهز الأمير سيف الدين قبجاق نائب السلطنة، وخرج بسائر عساكر دمشق حتى بحرية القلعة، وجماعة الأمير علم الدين سنجر أرجواش نائب القلعة، وتأخر بدمشق الأمير سيف الدين جاغان.

وكان خروج نائب السلطنة من دمشق، في عشية الأربعاء، رابع عشر المحرم، وبات بالميدان الأخضر. وركب في بكرة النهار، وتوجه بالعساكر إلى جهة حمص. وكان سبب هذه الحركة ظاهراً، أن السلطان بلغه أن التتار قد عزموا على الدخول إلى البلاد الإسلامية بالشام. وعلم الأمير سيف الدين قبجاق، أن الأمر ليس كذلك. فإن القصاد قبل ذلك بيسير، حضروا إليه من بلاد الشرق، وأعلموه أن التتار كانوا قد تجهزوا وعزموا على الحضور إلى الشام. فلما كانوا بأثناء الطريق، وقعت عليهم صواعق كثيرة، وأهلكت منهم خلقاً كثيراً، فتفرقوا في مشاتيهم، ولم يرد خلاف ذلك. والقصاد لا تصل إلى الباب السلطاني بالديار المصرية، إلا بعد الاجتماع بنائب السلطنة بدمشق، فاستشعر الأمير سيف الدين قبجاق السوء، وعلم أن هذه الحركة إنما هي تدبير عليه، وعلى غيره من الأمراء. فأوجب ذلك توجههم إلى التتار.

(١) «في أول المحرم» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٢.
(٢) «قبجق» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٣.

ذكر مفارقة من نذكر من نواب السلطنة والأمراء الخدمة السلطانية، ولحاقهم بقازان[1] ملك التتار

وفي هذه السنة[2]، في شهر ربيع الآخر، توجه الأمير سيف الدين قبجاق[3] المنصوري، نائب السلطنة بالشام، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، أحد مقدمي الجيوش المنصورة المصرية، والأمير فارس البكي[4] الساقي، نائب السلطنة بالمملكة الصفدية، والأمير سيف الدين بزلار، والأمير سيف الدين عزار [الصالحي][5]، إلى بلاد التتار، والتحقوا بملكها قازان محمود.

وسبب ذلك أن الأمير سيف الدين منكوتمر، نائب السلطنة، ثقلت عليه وطأة الأمراء الأكابر. وقصد القبض عليهم أولاً، وإقامة خوشداشيته ليصفو له الوقت، ويخلص له الأمر، ويتمكن السلطان بما قصده من تفويض ولاية العهد بعده له، فحسَّن للسلطان القبض على من تقدم ذكرهم، فقبض عليهم. ثم شرع في التدبير على من بالشام من الأمراء والنواب، والذين يعلم منهم الممالاة والمناوأة. فجهز الأمير علاء الدين أيدغدي شقير إلى حلب، كما تقدم، وأردفه بالأمير سيف الدين حمدان بن صلغاي، وعلى يده كتاب إلى نائب السلطنة بالمملكة الحلبية، بالقبض على الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، [وعلى][6] الأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف

---

(١) هو محمود بن أرغون المغلي الجنكزخاني، وقيل غازان وكلاهما يصح معناه، ولي الملك في سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م. وأسلم في سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م، وفشا الإسلام بإسلامه في ممالك التتار، وأظهر العدل، وتسمى محموداً. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج ٤، ص ٩٧ ـ ٩٨. انظر ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٦٧، والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم ص ١٣١ ـ ١٣٢، والحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٢٢٨ ـ ٢٣١، ودول الإسلام للذهبي، ص ٣٩٠، والدليل الشافي لابن تغري بردي ج ١، ص ٥١٧ ترجمة ١٧٨٣؛ والدرر الكامنة لابن العسقلاني ج ٣، ص ٢١٢ ـ ٢١٤ ترجمة ٥١٤.

(٢) «في يوم الخميس عاشر ربيع الآخر في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٤.

(٣) هو قبجق بن عبد الله المنصوري سيف الدين، توفي سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م ترجمته في تذكرة التنبيه لابن حبيب، ج ١، ص ٢١٠، والدرر الكامنة لابن العسقلاني، ج ٣، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣، ترجمة ٦١٦، والدليل الشافي لابن تغري بردي ج ٢، ص ٥٣٣، ترجمة ١٨٢٦.

(٤) هو فارس الدين التركي الظاهري، توفي سنة ٧٠٢ هـ، ترجمته في الوافي بالوفيات ج ٩، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ ترجمة ٢٨٠، والدرر الكامنة لابن العسقلاني ج ١، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ترجمة ١٠٤٠، والدليل الشافي لابن تغري بردي، ج ١، ص ١٤٧ ـ ١٤٨، ترجمة ٥٢٣.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٢.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

الدين طقطاي، والأمير سيف الدين بزلار، والأمير سيف الدين عزار، ومن يَعْذُر عليه القبض عليه، يتحيَّل في سقيه. فسقى الأمير سيف الدين طقطاي فمات بحلب، في أول شهر ربيع الأول. واتصل الخبر ببقية الأمراء، فاحتاطوا لأنفسهم، واحترزوا في مأكلهم ومشربهم وملبسهم، وأعمل الأمير سيف الدين الطباخي الحيلة للقبض عليهم، وذلك بعد خروجهم من سيس، فجهز سماطاً، واحتفل به، وتحدث مع الأمراء أن يتوجهوا معه، ويحضروا السماط، فامتنعوا من ذلك، واعتذروا له، وتوجهوا إلى خيامهم، فلم تجمع[1] هذه المكيدة. وكان السلطان قد كتب إلى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، أن يجهز طُلْبَه وأثقاله إلى المملكة الطرابلسية، ويكون نائباً عن السلطنة بها، وذلك بعد وفاة الأمير عز الدين أيبك الموصلي. وأن يحضر هو بنفسه إلى الأبواب السلطانية، على خيل البريد، ليوصيه السلطان مشافهة. فأظهر البشر لذلك، وعلم أنه خديعة.

ولما كان مساء النهار، الذي عمل الطباخي فيه السماط، اجتمع الأمير سيف الدين الطباخي النائب بحلب، والأمير سيف الدين كجكن، والأمير علاء الدين أيدغدي شقير، وأرسلوا إلى الأمير بكتمر السلاح دار والبكي ومن معهما، يطلبونهم للحضور لمشورة. وأن سبب هذه الاجتماع، أن بطاقة وردت في البيرة أواخر النهار، تتضمن أن التتار أغاروا على ما حول البيرة، فأجابوا بالامتثال، وأنهم يحضرون إلى الخدمة في إثره. فعاد وركبوا في الوقت على حَمِّيَة.

فأما بزلار فإنه ساق هو وخمسة نفر، وعبر الفرات إلى رأس العين وانتهى إلى سنجار فتوفي بها. وأما الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف الدين عزار، فإنهم توجهوا إلى حمص، واجتمعوا بالأمير سيف الدين قبجاق، وأطلعوه على جلية الحال، وحلفوه لأنفسهم، وحلفوا له. وكتب إلى السلطان يعلمه بما وقع من الاختلاف، وبوصول الأمراء إليه، ويسأل لهم الأمان وأن يطيب السلطان خواطرهم. وسيَّر بذلك الأمير سيف الدين بلغاق[2] ابن الأمير سيف الدين كونجك الخوارزمي على خيل البريد. فوصل إلى دمشق، في يوم السبت خامس شهر ربيع الآخر، وتوجه منها إلى باب السلطان.

وكتب الأمير سيف الدين قبجاق إلى الأمير سيف الدين جاغان، وهو بدمشق، يطلب منه أن يرسل إليه مالاً وخلعاً من الخزانة، لينفق المال على الأمراء، ويخلع عليهم، ويطيب خواطرهم. فلم يجب إلى ذلك. وكتب إليه يلومه على إغفاله أمر

(١) فلم تجمع: أي لم تنجح.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٥.

الأمراء، الذين وصلوا إليه، وهم طلبة السلطان، وكونه تمكن من القبض عليهم، ولم يفعل، وكتب إليه الأميران سيف الدين كجكن، وعلاء الدين أيدغدي شقير، وهما يلومانه وينكران عليه كونه أقر هؤلاء الأمراء عنده، مع تمكنه من القبض عليهم، وقد علم خروجهم على الطاعة وأغلظا له القول، وتواعداه، أنه متى لم يقبض عليهم، حضروا إليه، وقبضوا عليه وعليهم. وكاشفاه في القول مكاشفة ظاهرة. فتسَلَّل عن الأمير سيف الدين قبجاق من معه من العسكر الشامي، وعادوا إلى دمشق، أولاً فأولاً. فكتب إلى جاغان في ذلك، وأن يردّهم إليه، فلم يفعل. وشكر [جاغان][1] من حضر.

فرأى الأمير سيف الدين قبجاق أن أمره قد انتقص، وبلغه أن العسكر المجرد بحلب قد توجه نحوه. فركب في ليلة الثلاثاء، ثامن شهر ربيع الآخر من حمص، هو والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، والأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف الدين عزار، وقبضوا على الأمير علاء الدين أقطوان النائب بحمص، واستصحبوه معهم إلى القريتين، ثم أخذوا فرسه وأطلقوه. وتوجهوا في جماعة، يقال إن عدة من صحبهم من ألزامهم ومماليكهم خمسمائة فارس. وتوجهوا لا يلوون على شيء، وتعقبهم الأمير سيف الدين كجكن والأمير علاء الدين أيدغدي شقير، في طائفة من العسكر إلى الفرات، فما أدركوهم، ووجدوا بعض أثقالهم فأخذوها[2].

ثم ورد عليهم الخبر بقتل السلطان، فانحلت عزائمهم، وتَفَلَّلت أراؤهم. وساق سيف الدين بلبان القصاص البريدي إلى رأس عين، ولحق الأمير سيف الدين قبجاق بها، وأعلمه بمقتل السلطان، وسأله الرجوع بمن معه. وحلف له على صحة ما أخبره به، فظن أن ذلك مكيدة. ثم تحقق الحال بعد ذلك وقد تورط، وصار في بلاد العدو، فلم يمكنه الرجوع.

ولما وصل الأمراء إلى رأس عين، بلغ مقدم التتار بتلك الجهة خبر وصولهم، فخافهم. ثم تحقق أنهم حضروا إلى خدمة الملك قازان، فحضر إليهم وأكرمهم، وخدمهم صاحب ماردين، وقدّم لهم أشياء كثيرة. وقصد بولاي مقدم التتار، بتلك الناحية، أن الأمراء يتوجهون إلى جهة قازان على خيل البريد. ويتأخر من معهم من أتباعهم وألزامهم عن الوصول إلى البلاد، حتى يرد المرسوم. فامتنع قبجاق من ذلك، وأبى إلا الدخول بالطُّلب[3] والجماعة الذين معه، فامتنع التتار عليه. فيقال إنه أخرج

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٥.

(٣) الطلب: تقدم التعريف به.

إليهم كتاب الملك قازان إليه، وهو في بالشت[١] ذهب. فعند ذلك خضعوا له. ومكّنوه مما أراد. من الدخول بالطُّلْب. وتوجهوا كذلك، ودخلوا إلى الموصل بِطُلْبين، والتقاهم أهل البلد، وتوجهوا من الموصل، وانتهوا إلى بغداد. فخرج إليهم عسكر المغل والخواتين والتقوهم. ثم توجهوا إلى قازان، وهو يومئذٍ بأرض السيب[٢] من أعمال واسط. فأكرمهم وأحسن إليهم، وأوجب ذلك وصول قازان بجيوشه إلى الشام على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ونائبه منكوتمر[٣]

كان مقتلهما في ليلة يسفر صباحها عن يوم الجمعة، الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وتسعين وستمائة. وسبب ذلك، أن السلطان كان قد فوَّض الأمور إلى مملوكه نائبه الأمير سيف الدين منكوتَمُر، وقصد التخلي والراحة والدعة، وعزم على أنه خلى وجهه من الأمراء، وقبض على من يخشى غائلته منهم، فوَّض إليه أمر السلطنة، واحتجب هو، على قاعدة الخلفاء. وإنما كان يمنعه من ذلك، وجود أكابر الأمراء، الذين لا يوافقونه على الرأي هذا. فلما قبض على من ذكرنا من أكابر الأمراء، وأبعد من بقي منهم بالتجريد، وآخر ذلك، أن السلطان رسم له أنه إذا كُتِب مرسوم سلطاني بإنعام أو غيره، بغير إشارته، يقطعه بعد العلامة السلطانية. فثقلت وطأته[٤] على الناس، وأنفت نفوس الأمراء من ذلك، وكرهوا بقاء الدولة، وأحبوا زوالها بسببه، مع إحسان السلطان إلى كثير منهم، وكان الأمير سيف الدين كرجي[٥]، أحد الأمراء المماليك السلطانية، قد

---

(١) بالشت: لفظ فارسي، معناه الوسادة ولعل المقصود هنا حقيبة تحفظ بها الرسائل المهمة .Dozy Supp. Dict, Ar. أورد المقريزي أن قبجاق أو قبجق كان يكاتب غازان مدة نيابته لدمشق، وعندما عزم على اللحاق به استدعى منه طمغا البريد التي يركب بها الأمراء عندهم، فبعثها غازان إليه وصارت عنده، حتى ركب من ماردين فحملها إليه، وهذه الرواية قريبة من رواية النويري. فالطمغا علامة متفق عليها، مصنوعة من الذهب أو الفضة، وكان أمراء المغول يحملون «الطمغا» في أسفارهم الخاصة بشؤون المملكة، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٢.

(٢) السيب: كورة في إقليم واسط. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣، ص ٣٣٣.

(٣) ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٨.

(٤) وردت هذه الرواية في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٠ مع شيء من التعديل: «وانتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاجين مرسوماً أو كتب لأحد توقيعاً وليس هو بإشارة منكوتمُر يأخذه مرسوماً من يد المُعطى له ويمزّقه في الملأ ويردّه ويمنع أستاذه منه، فعند ذلك استثقل الأمراء وطأة منكوتمر».

(٥) هو كرجي بن عبد الله سيف الدين، توفي سنة ٦٩٨، ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٨؛ =

اختص بخدمة السلطان، وتقدم عنده، وجعله مقدماً على المماليك السلطانية، على ما كان عليه الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، في الدولة الأشرفية، فبقي كرجي هو الساعي في مصالح المماليك السلطانية والمتلقي لمصالحهم، فانضموا إليه ودخلوا تحت طاعته، وقويت شوكته بهم، وشوكتهم به. فثقل ذلك على منكوتمر، وعمل على إبعاده. وحسَّن إلى السلطان أن يبعثه إلى نيابة السلطنة بالفتوحات ببلاد سيس.

وكان قد تقدم من الأمراء، قبل كرجي، الأمير سيف الدين تمربغا، فعمل عليه منكوتمر وأبعده وأخرجه إلى الكرك. ثم نقله من الكرك إلى طرابلس، في جملة الأمراء، فمات بها، فلما اتصل الخبر بكرجي، حضر إلى بين يدي السلطان، وتضرر واستعفى من هذه الولاية فأعفاه السلطان، وشرع في العمل على منكوتمر. واتفق أن الأمير سيف الدين طقطاي، أحد الأمراء الخاصكية، وهو نسيب الأمير سيف الدين طقجي، خاطب منكوتمر في أمر فأغلظه في القول، وسبَّه، فشكا ذلك إلى الأمير سيف الدين طقجي، فأسرَّها في نفسه. واجتمع هؤلاء الأمراء، وتشاركوا فيما بينهم، وذكروا سوء سيرة منكوتمر فيهم، وقبح فعله واستخفافه بهم. وعلموا أنهم لا يتمكنون منه، مع بقاء السلطان مخدومه، فاجتمع رأيهم على اغتيال السلطان.

فلما كان في هذه الليلة المذكورة، جلس السلطان يلعب الشطرنج مع إمامه [نجم الدين][١] بن العسال، وكان قد تقدم عنده، وعنده قاضي القضاة حسام الدين[٢] الحنفي، وكانت له عادة بالمبيت عند السلطان في بعض الليالي. فدخل عليه كرجي على عادته، فسأله السلطان عما فعل، فقال: قد أغلقت على الصبيان في أماكن مبيتهم، وكان قد رتب بعضهم في أماكن من الدهاليز. فشكره السلطان، وأثنى عليه. وذكر للقاضي حسام الدين خدمته للسلطان، وملازمته الخدمة، فقبَّل كرجي الأرض، ثم تقدم لإصلاح الشمعة التي بين يدي السلطان، فأصلحها وألقى فوطة خدمة كانت بيده على نمجاه[٣] السلطان. وكان سلاح دار التوبة قد وافقه وباطنه على قتل السلطان. قال كرجي للسلطان: ما يصلي مولانا السلطان العشاء، فقال: نعم، وقام للصلاة. فأخذ السلاح دار النمجاه من تحت الفوطة. فعند ذلك، جرد كرجي سيفه، وضرب السلطان به على كتفه،

= والدليل الشافي لابن تغري بردي ج ٢، ص ٥٥٦، ترجمة ١٩٠٥.

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٦.

(٢) هو حسام الدين الرازي، ولي قضاء دمشق مدة، توفي سنة ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م. انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٥٢.

(٣) النمجاة: والنمها، والنمجا، والنمشا، تسمية فارسية معربة تطلق على خنجر مقوس يشبه السيف القصير. ابن دقماق: الجوهر الثمين ج ٢، ص ١٢٥، حاشية (٣).

فأراد السلطان أخذ النمجاه فلم يجدها. فقبض على كرجي، ورماه تحته، فضربه السلاح دار بالنمجاه على رجله، فقطعها. فانقلب [السلطان][١] على ظهره، وأخذته السيوف، حتى قتل. وهرب ابن العسال الإمام إلى خزانة، وصرخ قاضي القضاة حسام الدين عند ضرب السلطان، [لا يحل هذا لكم][٢]، فهمّ كرجي بقتله. ثم تركه، وأغلق كرجي الباب عليه، وعلى السلطان.

ثم خرج [كرجي][٣] إلى الأمير سيف الدين طقجي، وقد استعد هو أيضاً، وهو ينتظر ما يفعله كرجي، فأعلمه بقتل السلطان. ثم توجهوا إلى دار النيابة، وقد أغلقت. فطرق كرجي الباب، واستدعى الأمير سيف الدين منكوتمر برسالة السلطان، فأنكر حاله، واستشعر السوء، وامتنع من الإجابة. ثم قال له: كأنكم قتلتم السلطان، فقال: نعم قتلناه وسبّه. فعند ذلك ذلَّ منكوتمر، وضعفت نفسه، واستجار بالأمير سيف الدين طقجي. فأجاره وحلف له أنه لا يؤذيه، ولا يمكن من أذاه، فاطمأن ليمينه وخرج إليهم. فأرسلوه إلى الجب، وأنزلوه إليه، فلما رآه الأمراء، قاموا إليه، وظنوا أن السلطان نقم عليه، وسألوه عن الخبر. فأخبرهم بقتل السلطان، فسبوه، وذكّروه بسوء فعله، وقصدوا قتله، ثم تركوه.

ثم رجع كرجي بعد اعتقال منكوتمر إلى مجلسه. وقال لطقجي: نحن ما قتلنا السلطان لإساءة صدرت منه إلينا، وإنما قتلناه بسبب منكوتمر، ولا يمكن إبقاءه، ثم قام، وتوجه إلى الجب، وأخرجه وذبحه من قفاه على باب الجب.

فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين، منذ فارق الملك العادل الدهليز، وحلف الأمراء له بمَنزلة العوجا، في يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم سنة ست وتسعين وستمائة، وإلى أن قتل في هذه الليلة، سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوماً[٤]، ومنذ خلع الملك العادل نفسه بدمشق، وحلف له، واجتمعت الكلمة عليه بمصر والشام، في يوم السبت رابع عشرين صفر من السنة المذكورة إلى هذا التاريخ الذي قتل فيه، سنتين وشهرين إلا ثلاثة عشر يوماً، ودفن برتبته بالقرافة، ودفن نائبه منكوتمر بالتربة أيضاً.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٥٧.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) «وكانت دولته سنتين وثلاثة أشهر، وقيل ثلاث سنين وشهرين، والأول أصح» في الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٦. «وسنتين وشهرين وعشرين يوماً» في كنز الدرر لابن أيبك الدواداري ج ٨، ص ٢١٢. و«سنتين وثلاثة أشهر» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٨.

وكان رحمه الله تعالى ملكاً عادلاً، يحب العدل ويعتمده، ويرجع إلى الخير ويميل إليه، ويقرب أهله، وكان حسن العشرة، يجتمع بجماعة من المتعممين والعوام، ويأكل طعامهم. وكان أكولاً، ولم يكن في دولته وأيامه ما يعاب وينكر، إلا انقياده إلى مملوكه نائبه منكوتمر، والرجوع إلى رأيه، وموافقته على مقاصده حتى كان عاقبة ذلك قتلهما. وأثرت موافقته له، من الفساد على العباد والبلاد وسفك دماء المسلمين، ما لم يستدرك. وذلك أن الأمراء الذين فارقوا الشام، وتوجهوا إلى التتار خوفاً منه، أوجب توجههم إلى قازان، وصوله إلى الشام وخرب البلاد، وسفك الدماء، على ما نذكره بعد في موضعه إن شاء الله تعالى.

وبلغني أن الملك المنصور هذا ما زال يستشعر القتل، منذ قتل السلطان الملك الأشرف، وأنه في يوم الخميس بعد العصر، العاشر من شهر ربيع الآخر، وهو اليوم الذي قتل فيه عشيته، أحضر إليه ندب نشاب[١] ميداني، من السلاح خاناة السلطانية. فجعل يقلبه فردة فردة، ويقتل كل فردة منها، ويقول عند قتلها، من قتل قتل، وكرر هذا القول مراراً. فقتل بعد أربع ساعات من كلامه أو نحوها. وأجرى الله هذه الكلام على لسانه، والنفوس حساسة في بعض الأحيان.

وحكى لي بعض من أثق به، عن الأمير بدر الدين بكتوت العلائي حكاية عجيبة تتعلق به، وبالسلطان الملك الأشرف، أحببت ذكرها في هذا الموضع، فالشيء بالشيء يذكر.

قال بكتوت العلائي: كنت في خدمة السلطان الملك الأشرف في الصيد، وأنا يومئذٍ والأمير حسام الدين لاجين سلاح دارية، نحمل السلاح خلف السلطان. فاجتمعنا بحلقة صيد، وكانت النوبة في حمل السلاح[٢] خلف السلطان للأمير حسام الدين. وقد تقدمت إليه أنا، في مكان من الحلقة، وإذ أنا بلاجين قد أدركني، وأعطاني سلاح السلطان. وقال: خذ السلاح، وتوجه إلى السلطان، فإنه قد رسم بذلك. فأخذت السلاح، وتوجهت إلى خدمة السلطان. وساق لاجين في مكاني الذي كنت به من الحلقة. فلما انتهيت إلى السلطان، وجدته وهو على فرسه، وقد جعل طرف عصا المقرعة على رأس النمازين، والطرف بجهته، وكأنه في غيبة من حسه. فلما جئت قال لي: يا بكتوت والله، التفت إلى ورائي، فرأيت لاجين خلفي، وهو حامل سلاحي، والسيف في يده، فخيّل

---

(١) الندب: الحزمة من النشاب Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٢) ورد في السلوك ج ١، ص ٨٦٠. هذه العبارة «وكانت النوبة في حمل السلاح» (في الأصل السلطان).

إليّ أنه يريد أن يضربني به، فنظرت إليه، وقلت له: يا أشقر[١]، أعط السلاح لبكتوت يحمله، وتوجه أنت مكانه، قال بكتوت العلائي: فقلت للسلطان، أعيذ مولانا السلطان بالله، أن يخطر هذا بباله، ولاجين أقل من هذا، وأضعف نفساً أن يخطر هذا بباله، فضلاً، [عن][٢] أن يُقْدِم عليه، وهو مملوك السلطان، ومملوك السلطان الشهيد، وتربية بيته الشريف. هذا معنى كلامه.

قال: شرعت أصرفه عن هذا. فقال لي: والله ما عرفتك إلا ما خطر لي وتصورته. قال بكتوت العلائي: فخشيت على لاجين، كون هذا السلطان يتخيل هذا الأمر فيه، وينكفه عنه. وأردت أن أنصحه، فاجتمعت به في تلك الليلة في خلوة. وقلت له: بالله عليك، تجنب هذا السلطان، ولا تكثر من حمل السلاح، ولا تنفرد معه، فسألني عن موجب هذا الكلام. فأخبرته بما ذكره السلطان لي، وبما أجبته. فشرع يضحك ضحكاً كثيراً ويتعجب. فقال: ما ضحكي إلا من إحساسه، والله لما نظر إليّ، وقال لي: يا أشقر كنت قد عزمت على تجريد سيفه وقتله به. قال بكتوت العلائي: فعجبت من ذلك غاية العجب. ولنرجع إلى سياقة الأخبار بعد مقتلهما، إن شاء الله تعالى.

ذكر ما اتفق بعد مقتل الملك المنصور ونائبه منكوتمر، من الحوادث والوقائع المتعلقة بأحوال السلطنة بمصر والشام، إلى أن عاد السلطان الملك الناصر

لما قتل الملك المنصور حسام الدين لاجين، ونائبه الأمير سيف الدين منكوتمر، كان بالقلعة من الأمراء، غير طقجي وكرجي، الأمير عز الدين أيبك الخزندار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلال [الأستادار][٣]، والأمير حسام الدين لاجين الرومي استاذ الدار، وكان قد وصل على خيل البريد من حلب، بعد خروجه من بلاد سيس، والأمير جمال الدين آقش الأفرم، وكان قد عاد من دمشق، بعد إخراج نائبها والعسكر منها إلى حمص، كما تقدم، والأمير بدر الدين عبد الله السلاح دار، والأمير سيف الدين كرد[٤] الحاجب، هؤلاء الأمراء المشار إليهم. فاجتمعوا، واتفقت آراؤهم على مكاتبة السلطان الملك الناصر وإحضاره من الكرك، وإعادة السلطنة إليه، وأن

(١) «يا شقير» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٠.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٠.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٠.

(٤) «كرت» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٠، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨١.

يكون الأمير سيف الدين طقجي الأشرفي نائب السلطنة، وانفصل الحال على ذلك.

ثم سمت بالأمير سيف الدين طقجي نفسه، إلى طلب السلطنة لنفسه، وتقرير النيابة لكرجي. وتأخر الإرسال إلى السلطان الملك الناصر. وركب الأمير سيف الدين طقجي في يوم السبت حادي[١] عشر، شهر ربيع الآخر، في موكب النيابة والأمراء في خدمته، وعاد إلى القلعة، وجلس. ومدّ السلطان السماط، وقد تفوه الناس له بالسلطنة، ولكرجي بالنيابة[٢].

حكى تاج الدين عبد الرحمٰن الطويل، مستوفي الدّولة، قال: طلبني الأمير سيف الدين طقجي، وسألني عن إقطاع نيابة السلطنة، فذكرت له بلاده وعبرها ومتحصلاتها، وما انعقدت عليه جملة ذلك، فاستكثره، وقال هذا كثير، وأنا لا أعطيه لنائب، ورسم أن يوفّر منه جملة، تستقر في الخاص. ولم يبرز المرسوم بذلك. ثم خرجت من عنده، فطلبني كرجي، وسألني عن إقطاع النيابة. كما سألني طقجي، فأخبرته بذلك، فاستقلّه، وقال: أنا ما يكفيني هذا، ولا أرضى به. وشرع يسأل عن بلاد يطلبها زيادة على إقطاع منكوتمر.

قال: فعجبت من ذلك، كونهما جعلا فكرتهما وحديثهما في هذا الأمر، قبل وقوع سلطنة هذا، ونيابة هذا[٣].

ذكر مقتل سيف الدين طقجي[٤] وسيف الدين كرجي

كان مقتلهما في يوم الاثنين، رابع عشر شهر ربيع الآخر، من السنة المذكورة. وذلك أن الأمير بدر الدين بكتاش الفخري، أمير سلاح وصل من غزاة سيس، في هذا

---

(١) ورد في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: «أنه في يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة وصل الأمير بدر الدين بكتاش» وهذا يدل على أن يوم السبت يوافق ثاني عشر ربيع الآخر.

(٢) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٦، وصف مفصل لما دار من الحديث بين الأمراء على السماط حول السلطنة. واستدعاء الملك الناصر قال كرجي: «يا أمراء! أنا الذي قتلت السلطان لاجين، وأخذت ثأر أستاذي، والملك الناصر صغير، ما يصلح ولا يكون السلطان إلا هذا»، وأشار لطقجي: «وأنا أكون نائبه، ومن خالف فدونه» فسكت الأمراء كلهم إلا كرت الحاجب، فإنه قال: «يا خوند! الذي فعلته أنت قد علمه الأمراء».

(٣) هذه الرواية أتت مختصرة في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٦.

(٤) ورد برسم «طغجي» وهو طغجي بن عبد الله الأشرفي. ترجمته في الدليل الشافي لابن تغري بردي ج ١، ص ٣٦٥، ترجمته ١٢٥١؛ والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٦، والجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٦، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٤٥.

اليوم، هو ومن معه. وقد اتصل به خبر مقتل السلطان فاتفق الأمراء الأكابر على الخروج لتلقيه، وعرضوا ذلك على الأمير سيف الدين طقجي، وأشاروا أن يركب معهم. فامتنع من ذلك، وأظهر عظمة وكِبراً. فقالوا له: إن عادة الملوك تتلقَّى أكابر الأمراء، إذا قدموا من الغزاة، سيّما مثل هذا الأمير الكبير، الذي هو بقية الأمراء الصالحية. وقد طالت غيبته، وفتح هذه الفتوح. ولاطفوه، إلى أن ركب معهم، وخرج للقائه، فلما التقوا، سلّموا عليه، وسلّم عليهم[١]. ثم قال الأمير بدر الدين [بكتاش][٢]، أمير سلاح، للأمراء: «أنا عادتي إذا قدمت من الغزاة، يتلقاني السلطان. وكيف ما أجراني على عادتي». وكان قد علم بمقتل السلطان. وإنما أراد بذلك فتح باب للحديث. فقال له طقجي: ـ وهو إلى جانبه ـ «السلطان قتل». فقال: «ومن قتله»؟. قال بعض الأمراء: «قتله كركي، وهذا» ـ وأشار إلى طقجي ـ فقال: «لا بد من قتل قاتله»، ونفر في طقجي، وقال له: «لا تسوق إلى جانبي». فرفس طقجي فرسه، وبرز عنه. فحمل عليه أحد المماليك السلطانية، فضربه بسيفه، فقتل. واتصل خبر مقتله بكرجي، وكان قد تأخر في طائفة من المماليك السلطانية، تحت القلعة، فهرب وقصد جهة القرافة فأدركوه عند قبور أهل الذمة، ببساتين الوزير، فقتل هناك، ولقي عاقبة بغيه[٣].

قضى الله أن البغي يصرع أهله ... وأن على الباغي تدور الدوائر

ولما قُتل الأمير سيف الدين طقجي، توجه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح إلى داره بالقاهرة، واستقر بها. وكانت غيبته في غزوة سيس هذه، أحد عشر شهراً وأياماً. وحضر إليه بعض الأمراء والأكابر، واستشاره في أمر السلطنة. فأشار بإعادة السلطان الناصر، ووافق رأيه رأيهم واتفقت الأراء على أن ترجع الحقوق إلى نصابها، وتقرّ السلطنة الشريفة بيد من هو أحق وأولى بها، وتعود السلطة إلى من نشأ في حجرها وليداً، وتخول من منصبها الشريف طارفاً وتليداً وندبوا الأمير سيف الدين آل[٤] ملك الجوكندار، والأمير علم الدين سنجر الجلولي، فتوجها إلى خدمة السلطان الملك الناصر بالكرك، على خيل البريد، لإحضاره. وطالعه الأمراء بما وقع، وما اجتمعت الأراء عليه.

وبقي الأمر بالديار المصرية مشتركاً[٥]، بعد مقتل طقجي، بين الأمراء، إلى أن

(١) «وتعانقا وتكارشا» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٥.
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.
(٣) وردت هذه الرواية مع بعض التعديل في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٥.
(٤) في الأصل: «الملك» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٩.
(٥) «واتفق الأمراء على تدبير الأمور» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٩.

وصل السلطان الملك الناصر من الكرك، وكانت الكتب تصدر، وعليها خط ستة من الأمراء وهم: الأمير سيف الدين سلار، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير عز الدين أيبك الخزندار، والأمير جمال الدين آقش الأفرم، والأمير صفي الدين بكتمر أمير جاندار، والأمير سيف الدين كرد(١) الحاجب، وصدرت الكتب في بعض الأوقات، وعليها خط ثمانية، خط هؤلاء الستة والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير بدر(٢) الدين عبد الله السلاح دار، وجميعهم منصورية قلاوونية، وغالبهم قد أخرج من السجن [بعد قتل لاجين](٣).

وجلس الأمير عز الدين أيبك الخزندار، في ابتداء الأمر في مرتبة النيابة. فإن الأمراء دعوا له حق التقدمة في خدمة البيت المنصوري، وكان له رأي فاسد في مملوك، كان عند الأمير سيف الدين طقجي اسمه تستاي، فطلبه وهو في المجلس بالدركاه(٤)، بباب القلعة، وألحَّ في طلبه فأحضر إليه. فلما رآه، لم يتمالك عند رؤيته، أن لفَّ شعره على يده، وقام من الدركاه، وخدم الأمراء، وتوجه بالصبي إلى داره، وكان غرضه من المناصب والتقدم في الدولة، تحصيل هذا المملوك، فاشتغل به عما سواه، وفارق المجلس، وقد ظفر بما تمناه. فعلم الأمراء عند ذلك، سوء تدبيره، فله دينه، وأنه لا يعتمد عليه في شيء، ولا يصلح للتقدم، وأنه لم يكن فيه من الصبر، عن غرضه الفاسد، التأني بعض ساهة، حتى ينقضي ذلك المجلس. ويتفرق ذلك الجمع الكثير، وشاهدوا فعله بحضرتهم، وعدم تحاشيه منهم. فتقدم الأمير سيف الدين سلار عند ذلك وصار يجلس في مرتبة النيابة(٥)، إلى أن حضر السلطان الناصر من الكرك.

هذا ملخص ما كان بالديار المصرية.

وأما دمشق وما اتفق بها، بعد توجه الأمير سيف قبجاق، نائب السلطنة بها، منها:

فإن الأمير سيف الدين بلغاق الخوارزمي، لما توجه إلى الديار المصرية، من جهة

---

(١) «كرت» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٩، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٥.

(٢) «جمال الدين» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٦، وفي السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٦٩.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٨٦.

(٤) الدركاه: لفظ فارسي معناه الساحة، أو الفناء أو الحوش المؤدي إلى بناء كبير مثل قصر السلطان أو قلعة الجبل، ويجمع على دركاوات. انظر صبح الأعشى: للقلقشندي ج ٣، ص ٤٢٤، حاشية (١).

(٥) ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٦٩، ما يأتي: «فأعرضوا عنه إلى سلار ورتّبوه يجلس في رتبة النيابة، فأقام التخت بقلعة الجبل خالياً من سلطان مدة خمسة وعشرين يوماً».

الأمير سيف الدين قبجاق ـ كما قدمنا ذكر ذلك ـ وصل إلى القاهرة، وفي يوم السبت ثاني عشر، شهر ربيع الآخر، بعد مقتل الملك المنصور [لاجين][١]، فاجتمع بالأمير سيف الدين طقجي، وهو صاحب الأمر يومئذٍ، وأوصله ما كان على يده من المطالعات من جهة الأمير سيف الدين قبجاق، فقرأت عليه. وقال نكتب بإطابة قلبه، وقلوب الأمراء. ثم كان من قتل طقجي ما قدمناه. فكتب الأمراء الثمانية على يده إلى الأمراء بدمشق، بما وقع من قتل السلطان ونائبه منكوتمر، وطقجي وكرجي. وأن الحال قد استقر على عود الدولة الناصرية. وإطابة قلوب الأمراء. فوصل إلى دمشق في يوم السبت، تاسع عشر الشهر، وكان المتحدث بها يومئذٍ الأمير سيف الدين جاغان الحسامي. فقبض الأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصوري السيفي على جاغان وحسام الدين لاجين الحسامي، وكان قد ولّي برّ دمشق، في أوائل سنة ثمان وتسعين وستمائة، واعتقلهما بقلعة دمشق، وأوقع الحوطة على نواب الأمراء الأربعة المقتولين، وحواصلهم بدمشق. وجمع الأمراء بدمشق، وحلّفهم للسلطان الملك الناصر، وتحدّث بدمشق حديث نواب السلطنة. ولم تطل مدته، فإنه مات في ثاني جمادى الأولى، فيقال إنه سقي.

ثم وردت كتب الأمراء، مدبري الدولة بالديار المصرية إلى دمشق، في يوم السبت، رابع جمادى الأولى، وهي مؤرخة بالسادس والعشرين من شهر ربيع الآخر، أن يستقر الأمير سيف الدين قطلبك[٢] المنصوري السيفي، في وظيفة الشد بالشام، عوضاً عن جاغان، فباشر في يوم الاثنين[٣] بعد العصر، وكان الملك المنصور لاجين قد جهَّز إلى حلب، يتحدث في الأموال والحصون، ويشارك الأمير سيف الدين الطباخي في الأمر، فوصل إلى دمشق، ونزل بالقصر الأبلق. واتفق قتل السلطان وهو بدمشق، فلم يمكنه التوجه إلى حلب وأقام بالميدان. فلما ورد هذا الكتاب، وانتقل من القصر، وسكن دار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر، وتحدث في الأموال وغيرها. وبقي هو المشار إليه، إلى أن وصل إلى نائب السلطنة بدمشق.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) رُسم «قطلوبك» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٠.

(٣) «فباشر يوم الأحد خامس جمادى الأولى، عن، قدوم البريد إلى دمشق» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٠.

ذكر عود السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى السلطنة ثانياً

قد ذكرنا أن الأمراء أرسلوا إلى خدمة السلطان الأميرين سيف الدين آل[1] ملك الجوكندار[2]، وعلم الدين سنجر الجاولي، فتوجها إلى السلطان، فوجداه يتصيد بجهة بحور الكرك، فلما شاهداه، ترجلا، وقبَّلا الأرض بين يديه، وقدَّما إليه مطالعات[3] الأمراء، وأعلماه بهذه الحوادث. فركب من وقته وعاد إلى الكرك، وتجهز منها، وركب إلى الديار المصرية.

وكان وصوله إلى قلعة الجبل، في يوم السبت الرابع من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة. وجلس على تخت[4] السلطنة، في يوم الاثنين سادس الشهر [المذكور][5] وهو ابن أربع عشرة سنة، فكأنه المغْنيّ بقول القائل:

قد رجع الحق إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلا السيف سلته يد ثم أعادته إلى قرابه

وركب في ثاني عشر الشهر بشعار السلطنة. ولما جلس، استشار الأمراء الأكابر، فيمن يرتبه في النيابة والوظائف. فوقع الاتفاق على أن يكون الأمير سيف الدين سلار[6] المنصوري الصالحي نائب السلطنة بالأبواب الشريفة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار العالية، والأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار المنصوري أمير

---

(١) آل ملك: تقدم التعريف به.
(٢) الجوكندار: تقدم التعريف به.
(٣) مطالعات: تقدم التعريف به.
(٤) التخت: تقدم التعريف به.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الجوهر الثمين لابن دقماق، ج ٢، ص ١٢٩.
(٦) هو سيف الدين سلار بن عبد الله المنصوري، مات جوعاً في الاعتقال بقلعة الجبل سنة ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م. ترجمته في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٣، الدليل الشافي لابن تغري بردي ج ١، ص ٣١٤ ـ ٣١٥، ترجمة ١٠٧٠، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٩، ص ٢٠ ـ ٢١.

جاندار، والأمير جمال الدين أقش الدواداري الأفرم الحاجب، نائب السلطنة بالشام، والأمير سيف الدين[١] كرد الحاجب، نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية وما معها، عوضاً عن الأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري، وكان قد توفي إلى رحمه الله تعالى، في صفر من هذه السنة. وأحضر الأمير سيف الدين قطلبك المنصوري من الشام، ورتِّب أمير حاجب بالأبواب السلطانية. وأقرّ السلطان الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلي على وزارته. وخلع السلطان على الأمراء والأعيان، على جاري العادة.

وتوجه الأمير جمال الدين آقش الأفرم إلى دمشق، على خيل البريد، فكان وصوله إليها، في يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى. وأفرج عن الأمير سيف الدين جاغان الحسامي، في يوم الأربعاء، تاسع عشرين الشهر، حسبما رسم به من الأبواب السلطانية. فتوجه إلى الديار المصرية، فوجد البريد وهو في أثناء الطريق، بإعادته إلى الأمرة بدمشق، فعاد واستقر.

وفي يوم الخميس حادي عشر جمادى الآخرة، خلع على الأمراء والأعيان بدمشق، ولبسوا تشاريف السلطان، ووصل طلب نائب السلطنة، الأمير جمال الدين في هذا اليوم. فتلقاه الأمراء في خدمته، وعليه التشاريف،ودخل دخولاً حسناً.

وفيها، في شهر رجب، توجه الأمير سيف الدين كرد الحاجب، لنيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية.

وفيها، رسم السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين كجكن، أحد الأمراء الأكابر المقدمين بدمشق، فقبض عليه في يوم الجمعة، ثاني عشرين شهر رجب، واعتقل بقلعة دمشق، ثم جُهِّز إلى الأبواب السلطانية مقيداً، ثاني شهر رمضان، هو وحمدان وأخوه، ولدا صلغاي. وجرد معهم مائة فارس من عسكر الشام. فوصلوا بهم إلى الأبواب السلطانية.

ذكر الإفراج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وتفويض الوزارة إليه

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، أفرج عن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر العزّي المنصوري، وفوض إليه وزارة المملكة الشريفة، وتدبير الدولة بالديار المصرية، وعزل الصاحب فخر الدين الخليلي[٢].

---

(١) تقدمت ترجمته قبل قليل.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٨.

ذكر وفود سلامش بن أفال بن بيجو[١] وأخوه قطقطوا ومن معهما، وعود سلامش وقتله

كان سلامش هذا، قد جهزه قازان ملك التتار إلى بلاد الروم، مقدماً على تمان[٢]، وقيل: بل كان معه خمسة وعشرون ألف[٣] فارس. وأمره قازان أن يأخذ عساكر الروم، ويتوجه إلى الشام من جهة سيس، وأن قازان حضر بنفسه، ببقية جيوشه من جهة الفرات، وأن يكون اجتماعهم على حلب، ثم يعبرون بجملتهم إلى الشام. فلما وصل سلامش إلى بلاد الروم، وخلع طاعة قازان، وحدثته نفسه بالملك، وكاتب ابن قرمان أمير التركمان، فأطاعه وانظم إليه في عشرة آلاف فارس. وكتب إلى السلطان المنصور [لاجين][٤]، يستنجده على قازان. ووصل برسالته وكتبه إلى الأبواب السلطانية، مخلص الدين الرومي، فكتب السلطان إلى دمشق بتجهيز العساكر لنصرته وإنجاده.

ولما اتصل بقازان خبر خروجه عن الطاعة، انثنى عزمه عن قصد الشام، في هذه السنة. وجرد العساكر إلى سلامش في أوائل جمادى الآخرة، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً، مع ثلاثة مقدمين، ومرجعهم إلى بولاي. فتوجهوا إلى سلامش، وكان قد جمع نحو ستين ألف فارس، وهو يحاصر سيواس، فإنها كانت قد عصت عليه. فأتته العساكر في شهر رجب، والتقوا، ففارقه من كان معه من عسكر التتار، والتحقوا ببولاي، وكذلك عسكر الروم، ولحق التركمان بالجبال. وبقي سلامش في دون خمسمائة فارس، ففر من سيواس إلى بلاد سيس، ووصل إلى بهسنا في أواخر شهر رجب، ثم وصل إلى دمشق في يوم الخميس، ثاني عشر شعبان، وصحبته الأمير بدر الدين الدردكاش نائب بهسنا[٥]، فتلقته عساكر دمشق بأحسن زي صحبة نائب السلطنة بدمشق.

ثم توجه سلامش إلى الأبواب السلطانية، في يوم الأحد خامس عشر شعبان، على خيل البريد، فوصل إلى الأبواب السلطانية، وهو وأخوه قطقطوا، فأكرمهما السلطان والأمراء، وأحسنوا إليهما. وخيّر [سلامش][٦] بين المقام بالديار المصرية أو

---

(١) «سلامش بن أباجو» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٩٥.

(٢) التمان والتومان وتكتب أيضاً الطومان: فرقة من الجيش يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل. انظر صبح الأعشى: القلقشندي ج ٤، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٧٩.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٩٥.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٦.

(٥) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٩٦، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٧.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

العود. فسأل أن يجرد السلطان معه جيشاً، ليتوجه إلى بلاد التتار، ويأخذ عياله؛ ويرجع إلى خدمة السلطان. فجهزه السلطان إلى حلب. ورسم أن يجرد معه الأمير سيف الدين بكتمر الجلمي، وأعانه. فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من شهر رمضان. وتوجه في الثالث والعشرين من الشهر، صحبة الأمير بدر الدين الدردكاش. ولما وصل إلى حلب، جرد معه الأمير سيف الدين بكتمر الجلمي حسب المرسوم. فساروا في بلاد سيس، فشعر بهم صاحبها والتتار الذين بتلك الأعمال، فأخذوا عليهم الطرق والمضايق، والتقوا واقتتلوا، فقتل الجلمي، ولجأ[١] سلامش إلى بعض القلاع. فأرسل قازان في طلبه، واستنزله فحمل إليه فقتله.

واستقر قطقطوا ومخلص الدين الرومي في الخدمة الشريفة السلطانية بالديار المصرية. فأنعم السلطان على قطقطوا بإقطاع، وعلى مخلص الدين براتب.

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، وصل رسول صاحب سيس ورسول صاحب القسطنطينية بتحف وهدايا وتقادم للسلطان. فوصلوا إلى دمشق في رابع الشهر، وتوجهوا منها إلى الأبواب السلطانية، في سادسه[٢]. ويقال إن مضمون رسالة صاحب القسطنطينية، الشفاعة في صاحب سيس، والله أعلم.

ذكر وصول مراكب الفرنج إلى ساحل الشام وتكسير بعضها، ورجوع ما سلم منها

وفي هذه السنة، في العشر الأخر من شعبان، وصل إلى بيروت مراكب كثيرة. وبطش[٣] للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلة، ويقال: إن البطش كانت ثلاثين بطشة، في كل بطشة منها، نحو سبعمائة. وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البر، وتحصل إغارتهم على بلاد الساحل، فلما قربوا من البر، أرسل الله عز وجل عليهم ريحاً مختلفة. فغرقت بعض هذه المراكب، وتكسر بعضها. ورجع من سلم منهم على أسوأ حال، وكفى الله تعالى شرهم. وحكي عن الرّيس ببيروت، أنه قال: والله لي خمسون سنة، ألازم هذا البحر، فما رأيت مثل هذه الريح التي خرجت على هذه المراكب، وليست من الرياح المعروفة عندنا[٤].

(١) «وفر» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٧.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٨.

(٣) البطشة والبطسة: السفينة الكبيرة Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٤) انظر ما ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٧٥.

وفي هذه السنة، عزل قاضي القضاة حسام الدين الرومي الحنفي عن القضاء بالديار المصرية، وأعيد إلى القضاء بدمشق عوضاً عن ولده القاضي جلال الدين. وكان وصوله إلى دمشق في يوم الخميس، سادس ذي الحجة، ولما عزل فوض القضاء بالديار المصرية، على مذهب الإمام أبي حنيفة، للقاضي شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، على عادته.

وفيها، كانت وفاة الأمير الزاهد بدر الدين الصوابي[١] فجأة في ليلة الخميس، تاسع جمادى الأولى، ودفن بسفح قاسيون بكرة النهار. وكان أميراً ديناً صالحاً، خيراً كثير البر والصدقة. وروى الحديث النبوي، وكان له في الإمرة نحو أربعين سنة. وكان من مقدمي الألوف وأمراء المائة بالشام، رحمه الله تعالى. وفيها، كانت وفاة بدر الدين بيسري[٢] الشمسي الصالحي النجمي، الأمير الكبير المشهور في معتقله، بالقاعة الصالحية، بقلعة الجبل المحروسة، وأخرج ودفن بتربته، وكان الملك الناصر، لما عاد إلى المُلْك، رسم بالإفراج عنه. فوقف الأمراء في ذلك، وحسّنوا للسلطان إبقاءه على ما هو عليه. فرجع إلى رأيهم وأبقاه، فمات بعد ذلك بمدة يسيرة. وكان رحمه الله تعالى، كريم النفس، عالي الهمة، يعطي الكثير ويستقلّه، وكان عليه في أيام إمرته لجماعة كثيرة من مماليكه وأولادهم، وخدامه، الرواتب الوافرة من اللحم والتوابل والجرايات والعليق. فرتب لبعضهم في كل يوم سبعين رطلاً من اللحم بالمصري، وما يحتاج إليه من التوابل والخضراوات والحطب، وسبعين عليقة، ولأقلهم خمسة أرطال، وخمس علائق، ولبعضهم عشرين رطلاً وعشرين عليقة، هذا زيادة من جهته على ما لهم من الإقطاعات السلطانية. وبلغ ما يحتاج إليه في كل يوم بسماطه ودوره المرتب عليه فيما بلغني، ثلاثة آلاف رطل لحم، وثلاثة آلاف عليقة. وكان ينعم بألف دينار عيناً. وبألف إردب غلة، وبألف قنطار من العسل. ويتصدق على الفقراء بألف درهم وخمسمائة درهم. ولا يعطى أقل من ذلك إلا في النادر عند التعذر. ولا يفعل ذلك عن امتلاء ولا سعة. ما زال عليه لأرباب الديوان أربعمائة ألف درهم، وأكثر من ذلك. وإذا وفى ديناً، اقترض خلافه، يتكرم بذلك، ولا يتجاسر أحد من مماليكه، وألزامه أن يعدله عن ذلك، ولا يشافهه في الإمساك عنه، والاختصار منه، وإن كلمه أحد منهم، أنكر عليه، وربما ضربه وأهانه عن وظيفته، وإن كان أستاذ دار أو مباشراً عنده. وكانت مكارمه كثيرة مشهورة وعطاياه وصلاته وافرة مذكورة، ما رأى أهل عصره من أمثاله في المكارم والعطايا والإنفاق والهبات والصلات مثله، رحمه الله تعالى، ومات وعليه من الديون، ما

(١) هو أحد أمراء الألوف بدمشق. ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٤٥.

(٢) تقدمت ترجمته.

يزيد على أربعمائة ألف درهم، ورتب بعده من موجوده وأملاكه. رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك المظفر(١) صاحب حماه

وفي يوم الخميس، الحادي والعشرين من ذي القعدة، كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه بها، ودفن ليلة الجمعة، آخر الليل عنده أبيه رحمهما الله تعالى. ومولده في الساعة العاشرة من ليلة الأحد، خامس عشر المحرم، سنة سبع وخمسين وستمائة. وأمه عائشة خاتون بنت الملك العزيز غياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. فيكون عمره، رحمه الله تعالى، إحدى وأربعين سنة وعشر أشهر وسبعة أيام، ومدة ملكه بحماه خمس عشرة سنة وشهراً واحداً ويوماً واحداً، رحمه الله تعالى. وانقطع ملك حماه بعده من البيت الأيوبي سنين، إلى أن أعاده السلطان الملك الناصر في سلطته الثالثة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في موضعه. ولما مات، فوضت نيابة السلطة بحماه إلى الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، كما تقدم، وتداولها جماعة من النواب يأتي ذكرهم، إن شاء الله تعالى، في مواضعه.

وفيها، توفي الملك الأوحد نجم الدين(٢) يوسف ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، رحمهم الله تعالى في ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة بالقدس الشريف، ودفن من الغد برباطه عند باب خطّه شمالي الحرم، وكان من المشهورين بالجلالة والتقدم في المجالس، وعند الملوك، وكان كثير الإحسان إلى الضعفاء، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي نجم الدين أيوب ابن الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر داود بدمشق، وصلي عليه يوم الجمعة، رابع عشر ذي الحجة، رحمه الله تعالى.

وفيها، كانت وفاة الشيخ الإمام حجة العرب بهاء الدين(٣) أبي عبد الله محمد بن

---

(١) ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٤٧. والمنهل الصافي لابن تغري بردي، ج ٣، ترجمة ٧٤١.

(٢) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٥٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٤، ص ٦.

(٣) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٥٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٢٤٣، والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٤، ص ٦.

إبراهيم بن محمد بن نصر بن النحاس الحلبي النحوي بالقاهرة، في يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى، في الثالثة من النهار. وأخرج من الغد، ودفن بالقرافة، ومولده بحلب، في يوم الأربعاء، سلخ جمادى الآخرة، سنة سبع وعشرين وستمائة، رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي تقي الدين توبة بن علي بن مهاجر التكريتي[١]، في ليلة الخميس، ثاني جمادى الآخرة بدمشق، ودفن بتربته بسفح قاسيون رحمه الله تعالى.

وفيها، كانت وفاة الأمير جمال آقش المغيثي، متولي البيرة، وكان له بها نحو أربعين سنة.

ذكر توجه السلطان إلى الشام

وفي هذه السنة، تواترت الأخبار بحركة التتار، فندب السلطان الجيوش المصرية وجردها. وكان قد جرد في جمادى الآخرة، الأمير سيف الدين بلبان الحبيشي ومضافيه، والأمير بدر الدين عبد الله السلاح دار ومضافيه، والأمير جمال الدين آقش الموصلي المعروف قتال السبع، والأمير مبارز الدين الرومي أمير شكار ومضافيه، فوصلوا إلى دمشق، في سابع شهر رجب. فلما قويت الأجناد الآن، جرّد الأمير سيف الدين قطلبك الحاجب ومضافيه، والأمير سيف الدين نوكيه التتاري ومضافيه، فوصلوا إلى دمشق في يوم الاثنين رابع عشرين ذي الحجة، ثم توجه السلطان بعد ذلك، بالعساكر المنصورة، فاستقل ركابه الشريف من قلعة الجبل في الرابع والعشرين من ذي الحجة. واستناب في غيبته بقلعة الجبل المحروسة، الأمير ركن الدين بيبرس الدواداري المنصوري.

واستهلت سنة تسع وتسعين وستمائة
[٦٩٩ هـ = ١٢٩٩/ ١٣٠٠ م]

والسلطان الملك الناصر متوجه بالجيوش إلى الشام، فوصل إلى غزة في المحرم، ونزل بتل العجول.

ذكر الفتنة التي أثارها الأويراتية[٢] بهذه المدينة

لما حل ركاب السلطان بمنزلة تل العجول، اتفق جماعة من الأويراتية، الذين وفدوا إلى الديار المصرية، في الأيام العادلية الزينية، مع الأمير سيف الدين برلطاي،

(١) انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٥٠، والسلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٨١.
(٢) الأويراتية: تقدم التعريف بهم.

أحد الأمراء المماليك السلطانية الذين كانوا بدار الوزارة، على إثارة فتنة. فبينما الأمراء في الموكب، لم يشعروا إلا وقد شهر برلطاي سيفه، وحمل نفسه، وكرَّ صواب الدهليز المنصور السلطاني، فأمْسِك. وسيره السلطان إلى الأمراء، فقتل لوقته. وقبض على جماعة من المماليك السلطانية، وسيروا إلى قلعة الكرك، واعتقلوا بها. وقبض على جماعة من الأويراتية، فشنقوا بظاهر غزة. وكان من أتهم بمباطنتهم قطلوبرس[(١)] العادلي، فَطُلِبَ فلم يوجد. واختفى مدة، ثم حصل الظفر به، بعد ذلك، فشنق بسوق الخيل تحت القلعة.

وأقام السلطان [الناصر][(٢)] بهذه المنزلة مدة، ثم رحل منها، وتوجه نحو دمشق، فوصل إليها في يوم الجمعة، ثامن شهر ربيع الأول، ونزل بقلعتها. وهذه السفرة، هي أول وصول السلطان الملك الناصر إلى دمشق، وحال وصوله، أمر بخروج العسكر الشامي، فخرج من دمشق، وتلته العساكر المصرية، ثم توجه السلطان في أعقابهم، إلى جهة حمص، لقتال التتار، ودفعهم عن الشام، وكان رحيله من دمشق في وقت الزوال، من يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الأول.

ذكر وقعة غازان[(٣)] ملك التتار بمجمع المروج ببلاد حمص

كانت هذه الوقعة في يوم الأربعاء الثامن والعشرين، من شهر ربيع الأول، سنة تسع وتسعين وستمائة. وذلك أن السلطان الملك الناصر، لما رحل من دمشق، إلى جهة حمص، تواترت الأخبار بوصول التتار إلى وادي الخزندار. فسار السلطان إليهم، وحثّ السير، فقطع ثلاث مراحل، في مرحلة واحدة، فأشرف على مجمع المروج، وقد تعبت خيول العساكر الإسلامية، وركب غازان في جيوش التتار، ومن انضم إليها من الكرج والأرمن وغيرهم، ومعه الأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف بكتمر السلاح دار، والأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف الدين عزاز. والتقى الجمعان في الخامسة من النهار المذكور. فحملت الميسرة الإسلامية على ميمنة التتار، فهزمتها أقبح هزيمة، وقتل من التتار خلق كثير. فلما عاين غازان انهزام ميمنته، اعتزل في نحو ثلاثين فارساً، وعزم على الفرار. فمنعه الأمير سيف الدين قبجاق، وثبته ومناه بالظفر[(٤)]. وكان قصده بذلك، فيما قال بعد عوده، القبض على غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٨.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) انظر أحداث هذه الوقعة في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٩٦ ـ ٩٩.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٨٧.

ثم ركبت فرقة من التتار، كانت لم تشهد الحرب، واجتمعوا كراديس(١)، وحملوا حملة منكرة. وقصدوا قلب العساكر الإسلامية، وضعفت الميمنة الإسلامية، عن لقاء ميسرتهم. فكان من الهزيمة ما كان، وذلك بعد العصر من اليوم المذكور.

ذكر تسمية من استشهد وفقد، في هذه الوقعة من المشهورين

كان من استشهد وفقد من الأمراء المشهورين، في هذه الوقعة، الأمير سيف الدين كرد، نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية، والأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير عز الدين أيدمر الحلبي، أحد الأمراء بالديار المصرية، والأمير سيف الدين بلبان التقوي، من أمراء طرابلس، والأمير ركن الدين بيبرس الغتمي، النائب بحصن المرقب، والأمير صارم الدين أزبك، النائب بقلعة بلاطنس، والأمير بدر الدين بيليك المنصوري المعروف بالطيار، من أمراء دمشق، قتل في عوده بعد الوقعة، والأمير سيف الدين توكيه(٢) التتاري، والأمير جمال الدين أقش كرجي الحاجب، والأمير جمال الدين أقش المطروحي، حاجب الشام، فقدوا نحو ألف فارس من الحلقة والمماليك السلطانية وأجناد الأمراء ومماليكهم. وهؤلاء الأمراء، منهم من استشهد في المعركة، ومنهم من أصابته جراحة، فمات بعد انفصال الوقعة فيعد شهيداً، ومنهم من عدم ولم تتحقق وفاته. وعدم قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الرومي، والقاضي عماد الدين إسماعيل بن أحمد [بن سعيد](٣) ابن الأثير الموقع(٤). وقتل من التتار فيما قبل نحو أربعة عشر ألف ألفاً.

ولما تمت الهزيمة، وشاهد غازان من قتل من أصحابه وكثرتهم، وقلة من قتل من العساكر الإسلامية، بالنسبة إلى من قتل من التتار، ظن أن هذه الهزيمة مكيدة، واستجرار لعساكره، فتوقف عن اتباع العساكر الإسلامية، حتى تبين له صحة الهزيمة. ثم سار من مكان الوقعة إلى حمص، وبها الخزائن السلطانية، فسلمها متوليها محمد بن الصارم، من غير ممانعة، ولا مدافعة. ثم رحل عنها إلى جهة دمشق ونزل بالغوطة(٥).

---

(١) كراديس: جمع كردوس أو كردوسة، وهي الفرقة الحربية الراكبة والقطعة العظيمة من الخيل. محيط المحيط Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٢) «نوكاي» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٨٨.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٨٨.

(٤) الموقع: هو الذي يكتب المكاتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني، وكان يعرف من قبل باسم كاتب الدرج. القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥، ص ٤٣٧. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٨٨٨، حاشية (٣). محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٣٥.

(٥) الغوطة: الكورة التي فيها دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤، ص ٢٤٨.

ذكر ما اتفق بدمشق بعد الوقعة ومفارقة العساكر الإسلامية في مدة استيلاء التتار عليها، إلى أن فارقوا البلاد، وعادوا إلى الشرق

كانت الأخبار وصلت إليهم بانهزام الجيوش الإسلامية، وتحققوها في يوم السبت، مستهل شهر ربيع الآخر، فتوجه من أمكنه السفر إلى الديار المصرية في هذا اليوم. فكان ممن توجه قاضي القضاة إمام الدين الشافعي، وقاضي القضاة جمال الدين الزواوي المالكي، وابن الشيرازي، ومتولي مدينة دمشق، ومتولي برّها، ومحتسب المدينة، وجماعة كبيرة من أهل البلد، ممن قدر على الانتزاح. وفي ليلة الأحد، أحرق المعتقلون بسجن باب الصغير بابه، وخرجوا منه، وكانوا نحو مائة وخمسين، وتوجهوا إلى باب الجابية، وكسروا الأقفال وخرجوا منه. وبقي البلد لا حامي له، ولا ممانع عنه. فاجتمع أكابر دمشق، في يوم الأحد الثاني من الشهر، بمشهد عليّ بالجامع الأموي، واتفقوا على أن يتوجهوا إلى الملك غازان، ويسألوا الأمان لأهل البلد، فتوجه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وهو الخطيب يومئذٍ، والشيخ تقي الدين بن تيمية، والشيخ زين الدين الفارقي، والقاضي نجم الدين بن صصري، والقاضي شمس الدين الحريري، والقاضي جلال الدين ابن القاضي حسام الدين، وفخر الدين بن الشيرجي، وعز الدين بن الزكي، ووجيه الدين بن منجا، والرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي، وابن عمه الصدر شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحراني، والشريف زين الدين بن عدنان، ونجم الدين بن أبي الطيب، وناصر الدين بن عبد السلام، وشريف الدين بن الشيرجي، وشهاب الدين الحنفي، والشيخ محمد بن قوام البالسي، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين، وجماعة كبيرة من القراء والفقهاء والعدل. وتوجهوا بعد صلاة الظهر، من يوم الاثنين، ثالث الشهر، واجتمعوا بالملك غازان، وهو عند النبك[1] وهو سائر. ونزلوا عن مراكيبهم، وقبّل بعضهم الأرض، فوقف غازان بفرسه لهم. وترجل جماعة من التتار عن خيولهم. وتكلم الترجمان بينهم وبين الملك غازان، وسألوا الأمان لأهل دمشق، وكان المخاطب له عن أهل دمشق، فخر الدين بن الشيرجي. فقال غازان: الذي حضرتم بسببه من الأمان قد أرسلناه قبل وصولكم. وقدّموا ما كان معهم من المأكول، فلم يكن له وقع عندهم. وأذن لهم في الرجوع إلى دمشق، فرجعوا. وكان وصولهم بعد صلاة العصر، من يوم الجمعة، سابع الشهر. ولم يُخْطب في هذه الجمعة لسلطان[2].

---

(١) النبك: قرية بين حمص ودمشق، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥، ص ٣٠٠.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٨٩.

وكان قد وصل إلى دمشق في يوم الخميس، سادس الشهر أربعة من التتار، من جهة غازان، ومعهم الشريف القمّي، وكان قد توجه قبل توجه الجماعة، هو وثلاثة من أهل دمشق إلى غازان. فعاد وبيده أمان لأهل دمشق.

ثم وصل بعد صلاة الجمعة، الأمير إسماعيل وجماعة من التتار، فنزلوا بالبستان الظاهري، بطريق القابون. ثم ركب الأمير إسماعيل في يوم السبت، ودخل إلى دمشق، وجاء إلى مقصورة الخطابة بالجامع الأموي، لقراءة الفرمان(١) وقرأه(٢) أحد العجم الواصلين صحبة الأمير إسماعيل، وبلّغ عنه المجاهد المؤذن، ومضمونه(٣):

بقوة الله تعالى، ليعلم أمراء التومان(٤)، والألوف والمائة، وعموم عساكرنا المتصورة، من المغول والتازيك(٥) والكرج(٦) وغيرهم، ممن هو داخل تحت ربقة طاعتنا. إن لله لما نوَّر قلوبنا بنور الإسلام، وهدانا إلى ملة النبي عليه أفضل السلام والسلام ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

ولما أن سمعنا أنّ حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين، غير متمسكين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام، وكان أحدهم إذا تولى، سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية، ومدُّ الأيدي العارية، إلى حرمهم(٧) وأموالهم، والتخطّي عن جادة العدل

---

(١) الفرمان: في اللغة ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد يعلن فيها تنصيبهم ومأموريتهم، والجمع فرمانات وفرامين وفرامنة. انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٦١، وبطرس البستاني: محيط المحيط.

(٢) «قرىء بالمدرسة البادرائية» (بدمشق داخل باب الفراديس) في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠١.

(٣) انظر نص الفرمان في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١١ ملحق رقم (١٢)، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٢٣٠ ملحق رقم (٢).

(٤) التومان: تقدم التعريف به.

(٥) التازيك: كان هذا اللفظ يطلق على العرب والمسلمين عامة ثم استعمله المغول للدلالة على أهل فارس فقط. انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١١، حاشية (٣)، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٢٣٠، حاشية (٢).

(٦) الكُرج: بالضم ثم السكون وآخره جيم: وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ط، ص ٥٠٦.

(٧) «حريمهم» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١١.

والإنصاف وارتكابهم الجور والإعساف، حملتنا الحميّة الدينية، والحفيظة الإسلامية، على أن توجهنا إلى تلك البلاد، لإزالة هذا العدوان، وإماطة هذا الطغيان، مستصحبين الجمّ الغفير من العساكر.

ونذرنا على أنفسنا، إن وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد، أزَلْنا العدوان والفساد، وبسطنا العدل والإحسان في كافة العباد، ممتثلاً للأمر الإلٰهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠]. وإجابةً لما ندب إليه الرسول ﷺ، «أن المُقْسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن، وكلتا يديه يمين الدين، يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» وحيث كانت طويّتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة والنذور الأكيدة. منَّ الله علينا، بتبليج تباشير النصر المبين، والفتح المستبين. وأتمَّ علينا نعمته، وأنزل علينا سكينته، فقهرنا العدوَّ الطاغية، والجيوش الباغية وفرّقناهم أيدي سبا، ومزّقناهم كل ممزق حتى جاء الحق وزهق الباطل، وإن الباطل كان زهوقاً، فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام، منخرطين في زمرة من حبّبَ إليهم الإيمان، وزيّنَه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون، فضلاً من الله ونعمة.

فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثّقة، والنذور المؤكدة، فصدرت مراسيمنا العالية، أن لا يتعرَّض أحد من العساكر على اختلاف طباقاتها لدمشق وأعمالها، وسائر البلاد الإسلاميّة الشامية، أن يكفوا أظفار التعدّي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة، وآمال مفسوحة، بعمارة البلاد، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة، وغير ذلك. وكان هذا الهرج العظيم، وكثرة العساكر، فتعرّض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم، إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم، فقتلناهم ليعتبر الباقون، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر، وغير ذلك من الفساد. وليعلموا أنّا لا نسامح بعد هذا الأمر البتّة، وأن لا يتعرّضوا لأحد من أهل الأديان، على اختلاف أديانهم، من اليهود والنصارى والصابئة. فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم، من الوظائف الشرعية، لقول عليّ عليه السلام: «إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودمائهم كدمائنا» والسلاطين مُوصون على أهل الذمة الطيعين، كما هم مُوَصّون على المسلمين فإنهم من جملة الرعايا. قال ﷺ: «الإمام الذي على الناس، راعٍ عليهم، وكلٌّ راعٍ مسؤول عن رعيته».

فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا، الاستبشار بهذا النصر الهني والفتح السني، أَخَذٌ لحظ الوافر من السرور،

والنصيب الأكبر من البهجة والحبور، مقبلين على الدُّعاء لهذه الدولة القاهرة، والمملكة الظاهرة، أناء[(١)] الليل وأطراف النهار.

وكتب في خامس ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة.

ولما قُرىء هذا الفرمان، حصل للناس بعد الطمأنينة، وجلس التتار بالمقصورة إلى أن صلوا العصر، وعادوا إلى منزلهم بالبستان الظاهري. وأغلق الأمير علم الدين سنجر أرجواش أبواب قلعة دمشق، وامتنع بها في أول هذه الحادثة.

واجتمع أهل دمشق في يوم الأحد تاسع الشهر بالقيمرية، واهتموا في تحصيل الخيل والبغال والأموال، ليرضوا بها التتار، ونزل غازان ملك التتار بالغوطة، في يوم الاثنين العاشر من الشهر، وأحدقت الجيوش بالغوطة، وقتلوا طائفة من أهل القرى.

ووصل الأمير سيف الدين قبجاق، والأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، وغيرهما في هذا اليوم، ونزلوا بالميدان. ولما مروا بالقلعة، وخاطبوا الأمير علم الدين سنجر أرجواش[(٢)]، نائب القلعة، وأشاروا عليه بتسليمها، فسبهم أقبح سب.

وفي بكرة نهار الثلاثاء، حادي عشر الشهر، ورد مثال الأمير إسماعيل نائب التتار، يأمر العلماء والمشايخ والرؤساء، أن يتوجهوا إلى القلعة، ويتحدثوا مع نائبها في تسليمها، وأنه متى امتنع من ذلك، دخل الجيش البلد ونهبها، وسفكت الدماء. فاجتمع جماعة كثيرة إلى باب القلعة، وسألوا الأمير علم الدين سنجر [أرجواش][(٣)]، أن يرسل إليهم رسولاً، فامتنع وسبَّهم أقبح سب. وقال: قد وردت عليّ بطاقة من السلطان، أنه جمع الجيوش بغزة، وكسر الطائفة التي اتبعتهم من التتار، والسلطان يصل عن قريب بعساكره[(٤)].

ثم دخل قبجاق دمشق في يوم الأربعاء، ثاني عشر الشهر، وجلس بالمدرسة العزيزية، وأمر العلماء والأكابر بمراجعة أرجواش في تسليم القلعة، فتوجهوا إليه، فلم يسمع كلامهم، وكُتِبَ في هذا اليوم بالعزيزية فرامانات من شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي [الشهباني][(٥)]، ومقدم من مقدمي التتار، ذكر أنه رضيع الملك غازان، ومن قبجاق، فلم تُجدِ نفعاً.

---

(١) «آناء» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ١٠١٢.

(٢) توفي سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م، ترجمته في الدرر الكامنة لابن العسقلاني ج ١، ص ٣٤٩، ترجمة ٨٦٥، المنهل الصافي لابن تغري بردي، ج ٢، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦، ترجمة ٨٦٥.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٠.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩١.

وفي يوم الجمعة رابع عشر الشهر ربيع [الآخر][(١)] خطب الغازان على منبر دمشق، بما رسم لهم به من الألقاب والنعوت وهي «مولانا السلطان، الملك الأعظم، سلطان الإسلام والمسلمين، مظفر الدنيا والدين، محمود غازان». وصلى بالمقصورة جماعة من المغل. وحضر إلى المقصورة، عقيب الصلاة الأمير سيف الدين قبجاق، وصعد هو والأمير إسماعيل، إلى سدّة المؤذنين. واجتمع جمع كثير من عامة الناس تحت النسر. وقرىء عليهم تقليد بتولية الأمير سيف الدين قبجاق الشام أجمع، وعيّن فيه مدينة دمشق وحلب وحماه وحمص وغير ذلك، من الأعمال والجهات. وجعل إليه، أن يولي القضاة، والحكماء، والخطباء وغيرهم. ونثر على الناس الذهب والدراهم، فاستبشر الناس بولاية قبجاق، ظناً منهم أنه يرفق بهم. وحضر في هذا اليوم شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني، إلى المدرسة العادلية. وأحضرت إليه ضيافة، وأظهر العتب على أهل البلد، كونهم لم يترددوا به. وذكر أنه يصلح أمرهم، ويتفق معهم، على ما يفعل، في أمر القلعة. فقال بعض من حضر إن الأمير سيف الدين قبجاق يَخْبِرُ أمر متولي القلعة، فقال [شيخ الشيوخ][(٢)]: «خمسمائة من قبجاق ما يكونون في خاتمي» وعظّم نفسه تعظيماً كثيراً.

وفي يوم السبت خامس عشر الشهر. ابتدىء بنهب جبل الصالحية، وما به من الترب والمدارس، وغيرها. فتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية، إلى شيخ الشيوخ، فركب إليهم في يوم الثلاثاء. فلما وصل إلى جبل الصالحية، هرب من به من التتار، ودخل أهل الجبل إلى دمشق عرايا في أسوأ حال[(٣)].

وتوجه التتار إلى قرية المزّة[(٤)]، فنهبوها وسبوا أهلها، وتوجهوا إلى داريا[(٥)]، وفعلوا كذلك، وقتلوا جماعة من أهلها، وقتل أهلها جماعة من التتار، فتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية، يوم الخميس إلى الملك غازان، وهو بتل راهط[(٦)]، فدخل عليه ليشكو له ما جرى من التتار بعد أمانه، فلم يُمَكَّن من ذلك. وقيل له: إن شكوت إليه أمراً، يقتل

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٢.

(٤) المِزّة: قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥، ص ١٤٤.

(٥) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩١.

(٦) مرج راهط: وهو المقصود هنا. بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥، ص ١١٨.

بعض المغل، فيكون ذلك سبب الاختلاف، وتدور الدائرة على أهل دمشق، فعدل الشيخ عن الشكوى إلى الدعاء، وفارقه واجتمع بالوزيرين سعد الدين، ورشيد الدين، وتحدث معهما. فذكرا أن جماعة من المقدمين الأكابر، لم يصل إليهم من مال دمشق شيء، ولا بد من إرضائهم، وأمر الوزير بإطلاق الأسرى.

ثم اشتد الأمر على أهل دمشق، في طلب الأموال وحصار القلعة، وجاء منجنيقي، فالتزم بأخذ القلعة. وقرر أن يكون نصيب المجانيق عليها بالجامع الأموي. فأجمع أرجواش رأيه، أنه متى نصب المجانيق بالجامع، رمى عليها بمجانيق القلعة، وكان ذلك يؤدي إلى هدم الجامع. فانتدِب رجال من أهل القلعة، بعد أن تهيأت أعواد المجانيق، ولم يبق إلا نصبها، وخرجوا بالحمية الإيمانية، وهجموا الجامع، ومعهم المناشير، فأفسدوا ما تهيأ من أعواد المجانيق. ثم جددوا غيرها، واحترزوا عليها. وحضر جماعة من المغل يبيتون بالجامع. فيقال إنهم انتهكوا حرمته، وارتكبوا فيه المحارم، من شرب الخمور والزنا، وطرح القاذورات، وقلَّ حضور الناس فيه، حتى أنه لم تقم فيه صلاة العشاء الآخرة، في بعض الليل. ونهب التتار سوق باب البريد.

وتحول الناس من حول الجامع، وزهدوا في قربه لمجاورة التتار. فانتُدِب رجل من أهل القلعة. وبذل نفسه، والتزم بقتل المنجنيقي. وخرج إلى الجامع، والمنجنيقي بين المغل، وهو ترتيب العمل، فتقدم إليه، وضربه بسكّين فقتله. وهجم رجال القلعة، فتفرق المغل عن القاتل، وحماه أصحابه، فلجأ إلى القلعة، وبطل على التتار ما دبروه من عمل المجانيق، واضطر أرجواش إلى هدم ما حول القلعة، من المساكن والمدارس والأبنية ودار السعادة، وطواحين باب الفرج، وغيرك ذلك. كل ذلك احترازاً على حفظ القلعة، وأن يتطرق العدوّ إليها. وحصل من إفساد التتار والأرمن وإخرابهم الأماكن، بإفسادهم الصالحية، وحرق جامع التوبة بالعُقيبة وغير ذلك، ما بقيت آثاره، بعد ذهاب العدو زمناً طويلاً، ثم أعاد المسلمون ذلك، والحمد لله تعالى، إلى أحسن ما كان.

واشتد الأمر على أهل دمشق في طلب الأموال، في أواخر شهر ربيع الآخر؛ وأوائل جمادى الأول، وطلب من البلد ما لا يتحمله أهله. وتولى استخراج الأموال، والمطالبة بها من أهل دمشق، صفي الدين السنجاري، وولد الشيخ محمد ابن الشيخ علي الحريري. وغلت الأسعار بدمشق هذه المدة.

ثم رجع غازان إلى بلاد الشرق، في يوم الجمعة، ثاني عشر جمادى الأولى ونزل قطلوشاه[1] نائبه بدمشق وجماعة كثيرة من التتار معه، وجعل نيابة الشام إلى الأمير

(١) في الأصل: «قطلوشا» والتصحيح من السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٣.

سيف الدين قبجاق، ونيابة حلب وحمص إلى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار، ونيابة صفد وطرابلس والسواحل إلى الأمير فارس الدين البكي، ولما توجه غازان استصحب الوزير معه، من أكابر دمشق بدر الدين ابن فضل الله، وعلاء الدين علي ابن الصدر شرف الدين محمد بن القلانسي، وشرف الدين بن الأثير.

وفي يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى، رسم التتار بإخلاء المدرسة العادلية، ووقف جماعة منهم على بابها يفتشون من يخرج منها، ويأخذون ما أحبوا من أمتعتهم، وعجز أهلها عن نقل أكثر أثاثتهم. ودخل التتار إليها، عقيب خروجهم منها، وكسروا أبواب البيوت، ونهبوا ما بها، وأخلى التتار ما حول القلعة، وطلعوا إلى الأسطحة، ورموا منها النشاب على القلعة، فعند ذلك، أمر أرجواش بإحراق ذلك كما تقدم، وكان إحراق المدرسة العادلية في الحادي والعشرين من جمادى الأولى.

وفي يوم الجمعة تاسع عشر الشهر، قرىء على سدة الجامع كتابان: أحدهما يتضمن تولية الأمير سيف الدين قبجاق النيابة[١] بالشام، والثاني: يتضمن تولية الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الدين شد الشام. وتضمن أحد الكتابين أن يصرف ما كان الخزائن السلاح، من مال الجامع في مصالح السبيل إلى الحجاز الشريف. ويتضمن أيضاً أن غازان يعود إلى الشام في فصل الخريف[٢]، ويتوجه إلى الديار المصرية، وأنه توجه [إلى البلاد][٣] ونزل نائبه قطلوشاه في ستين ألف فارس الحماية الشام، إلى غير ذلك مما تضمنه.

واستمر قطلوشاه بعد توجه غازان أياماً يحاصر القلعة، فلم يتهيأ منها ما يريد، فجمع له قبجاق مالاً من أهل البلد، فأخذه وعاد إلى بلاد الشرق. وكان رحيله في يوم الثلاثاء[٤] الثالث والعشرين من جمادى الأولى. وتوجه الأمير سيف الدين قبجاق لوداعه. وعاد في يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر، ودخل إلى دمشق، من باب شرقي، وشق البلد، وخرج من باب الجابية، وكانا مغلقين في مدة مقام التتار، ففتحا له الآن، ونزل بالقصر الأبلق.

---

(١) انظر نص المرسوم الذي أصدره غازان بتقليد الأمير قبجق بلاد الشام كلها في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ٢٣٢، ملحق رقم (٣).

(٢) هذه العبارة وردت في الكتاب الثاني: «أننا توجهنا إلى البلاد، وتركنا بالشام ستين ألفاً من جيشنا لحفظه، وأننا في فصل الخريف نرجع إلى البلاد، قاصدين الديار المصرية»، انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٥، حاشية (٣).

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٤) «يوم الاثنين ثاني عشرة جمادى الأولى» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٦.

وعاد الأمير يحيى بن جلال الدين والصفي السنجاري بجماعة من التتار، وشقوا البلد، وتوجهوا إلى القصر أيضاً. ثم نودي في البلد في يوم الجمعة، أن يتوجه الناس إلى ضياعهم وقراهم. وكان قد نودي في أول هذا النهار. أن لا يخرج أحد إلى الجبل والغوطة، وأن لا يخاطر بنفسه، ولا يغرر بنفسه.

وفي تاسع عشر جمادى الأولى، دخل الأمير سيف الدين قبجاق، ومن معه إلى المدينة، ونزلوا بدار الأمير سيف الدين بهادر آص، وما يجاورها من الأدر، بقرب مأذنة فيروز.

وفي يوم الثلاثاء، مستهل جمادى الآخرة، وثانيه، نودي في دمشق بأمر الأمير سيف الدين قبجاق أن يخرج الناس إلى أماكنهم، وانظم إلى قبجاق جماعة من الجند في أول هذا الشهر، يركبون في خدمته، ويترجلون في ركابه، وفتحت أبواب البلد، إلا ما بجوار القلعة منها.

وفي يوم الجمعة رابع الشهر، ضربت البشائر بالقلعة. وفي يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة، أمَّر الأمير سيف الدين قبجاق، أستاذ داره علاء الدين، وطاجار، وكربا بالشرابيش[(١)] والطبلخاناه[(٢)]. ثم أمَّر ثلاثة في العشر الأوسط من الشهر، وركبوا بالشرابيش والطبلخاناه. وأمر بإدارة الخمارة بدار ابن جرادة، فأظهرت الخمور والفواحش، وضمنت في كل يوم ألف درهم[(٣)]، واستمر الحال على على ذلك بقية جمادى الآخرة وبعض شهر رجب.

وكان غازان قد جرد عسكره عشرين ألف فارس، صحبه بولاي، وأشبقا وحجك وهولاجو، فنزلوا بالأغوار. وشنوا الغارات ونهبوا، ووصلت غاراتهم إلى بلد القدس والخليل، ودخلوا إلى غزة، وقتلوا بجامعها خمسة عشر نفراً من المسلمين، ثم رجعت هذه العساكر إلى دمشق، وعادت إلى بلاد الشرق، في ثاني شهر رجب، واستصحبوا معهم أمين الدين شقير الحرَّاني.

وعاد التتار بجملتهم في ثامن شهر رجب، لما بلغهم اهتمام السلطان، وخروج العساكر. ولم يفتح غازان شيئاً من القلاع الشامية، بل امتنعت بجملتها. اقتداء بقلعة

---

(١) الشرابيش: جمع شربوش: قلنسوة طويلة أعجمية وتلبس بدل العمامة، وكانت شارة للأمراء، فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم. وكان الشربوش يلبس عادة مع الخلع السلطانية. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٩٧.

(٢) الطبلخاناه: تقدم التريف به.

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٦.

دمشق، وتمسك نواب القلاع، من تسليمها، واعتذروا أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بعد تسليم قلعة دمشق، فسلمت القلاع بجملتها. ثم توجه الأمير سيف الدين قبجاق والأمراء إلى خدمة السلطان الملك الناصر على ما نذكره.

ولما توجه قبجاق من دمشق، دبّر أمر البلد الأمير علم الدين أرجواش. وأعيدت الخطبة بدمشق، باسم السلطان في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب. وكانت انقطعت من سابع شهر ربيع الآخر، فانقطعت مائة يوم. وفي هذا اليوم أبطل ما كان جدّد من المنكرات، وأغلقت الخمارات، وأريق ما فيها، وكسرت المواعين، وشقت الظروف[١]. وتولى ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية وأصحابه.

هذا ما كان بدمشق، فلنذكر ما اعتمده السلطان عند عوده.

ذكر ما اعتمده السلطان الملك الناصر عند عوده إلى الديار المصرية من الاهتمام بأمر الجيوش والعساكر

لما كان من أمر هذه الحادثة ما قدمناه، رجع السلطان من مكان الوقعة إلى الديار المصرية، وتفرقت العساكر، فأخذت كل فرقة طريقاً. وكان وصول السلطان إلى قلعة الجبل، في يوم الأربعاء، ثاني عشر شهر ربيع الآخر، ولم يصحبه في هذه السفر إلا بعض خواصه، والأمير سيف الدين بكتمر الحسامي أمير آخور، والأمير زين الدين قراجا، في نفر يسير. وخدم الأمير سيف الدين بكتمر، المشار إليه، السلطان في هذه السفرة أتم خدمة. فكان يركبه وينزله، ويُشدّ خيله، ويشتري لها العليق، ويسقيها إلى غير ذلك من أنواع الخدمة.

ثم ترادفت الجيوش إلى الديار المصرية متفرقة. ووصل النواب بالممالك الشامية، وكان فيمن وصل الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري، فمشى في خدمة نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار، وجلس بين يديه، وكان يُرَسِّل علامته إذا كتب، ووصلت العساكر، وعدلت خيولهم وأقمشتهم وأموالهم، وأثقالهم وأسلحتهم، فجرد السلطان الاهتمام، وأخرج الأموال الكثيرة، وأنفق في الجيوش، ووسع عليهم، وسلّم إلى كل نائب من نواب الشام نفقة عسكره، فسلم إلى الأمير جمال الدين أقش الأفرم نفقة عسكر الشام، وإلى الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نفقة عسكر حلب، وإلى الأمير سيف الدين كراي المنصوري نفقة عسكر صفد. وسلّم نفقة عسكر طرابلس[٢]

---

(١) الظروف: جمع ظرف وهو الوعاء، الفيروزأبادي: القاموس المحيط (ظرف).

(٢) في الأصل: الطرابلس.

إلى الأمير شرف الدين قيران الدواداري، ثم إلى الأمير سيف الدين قطلبك. وكانت النفقة في الجيوش ذهباً. ورخص سعر الذهب بالديار المصرية، حتى بلغ صرف الدينار سبعة عشر درهماً، وارتفعت أسعار العدد والسلاح والأقمشة والدواب. ومع ذلك فلم تمض الأيام القلائل على العسكر، حتى كملت عدتهم وخيولهم، وجميع ما يحتاجون إليه من الأسلحة والأقمشة[١].

وجهَّز السلطان إلى نواب الحصون بالشام أجمع القصاد بالملطفات يعلمهم ما هو عليه، من الاهتمام وسرعة حركة ركابه، ويحثهم على حفظ الحصون. فوصلت القُصَّاد إليهم، فامتثلوا ذلك، وحفظوا الحصون، فحفظت وسلمت، ولله الحمد والمنة، وأحسن السلطان إلى نواب الحصون، وكافأهم على اهتمامهم بها وحفظها، ولما تكامل ما تحتاجه العساكر، توجه السلطان بهم، لقصد الشام.

ذكر توجه السلطان بالعساكر إلى جهة الشام، ووصوله إلى منزلة الصالحية وإرسال الجيوش إلى دمشق والممالك الشامية، وعود الأمراء إلى الخدمة السلطانية ورجوع السلطان إلى قلعة الجبل، وما تقرر من أمر النواب

وفي تاسع شهر رجب، من هذه السنة، توجه السلطان بجميع العساكر والنواب إلى الشام، لدفع التتار، فاتصل به عود التتار ومفارقتهم الشام، فأقام بالصالحية. وتوجه نائبه الأمير سيف الدين سلار، وأستاذ داره الأمير ركن الدين بيبرس إلى الشام، وصحبتهما سائر النواب والأمراء. ورحلوا من الصالحية في الثاني والعشرين من هذا الشهر. وكانت الملطفات[٢] قد سيرت إلى الأمراء سيف الدين قبجاق، وسيف الدين بكتمر، وفارس الدين البكي، بالحضور إلى الخدمة السلطانية، ومراجعة الطاعة، واستدراك ما فرط، فأجابوا بالسمع والطاعة. وبادروا بالحضور إلى الخدمة الشريفة السلطانية، واجتمعوا بالأمراء بمنزلة سكرير[٣]. وتوجهوا إلى خدمة السلطان، وهو مقيم بمنزلة الصالحية، وذلك في العاشر من شعبان، فركب السلطان وتلقاهم وأكرمهم وأحسن إليهم، وعاد وهم في خدمته إلى قلعة الجبل. وكان وصوله إليها في رابع عشر

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٨٩٦.

(٢) الملطفات: معناها الرسائل، وكانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التأمين تمهيداً لما يزعمه لهم السلطان في عقوبة أو قتل، وكانت الملطفات تكتب بقلم الغبار. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٢٧، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٨٥٢، حاشية (٣).

(٣) لعل المقصود السكرية هي على مسافة مرحلة من الرملة Dozy. Supp. Dict, Ar.

شعبان، وأسكن الأمراء المذكورين بالقلعة، وأجرى عليهم الإقامات، وشملهم بالإنعام.

وأما الأمير سيف الدين سلار والعساكر، فإنهم توجهوا إلى دمشق، وكان وصول الأمير جمال الدين أقش الأفرم نائب السلطنة بدمشق إليها بالعسكر الشامي، في يوم السبت عاشر شعبان.

وفي يوم الأحد وصل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بحلب بعساكرها، وكان قد فوض إليه نيابتها، والأمير سيف الدين قطلبك نائب الفتوحات الطرابلسية جميعاً(١).

وفي يوم الاثنين، ثاني عشر الشهر، وصلت ميسرة الجيوش المصرية، ومقدمها الأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار. في يوم الأربعاء، رابع عشر الشهر، وصل قلب الجيش، وفيه الأمير سيف الدين سلار، نائب السلطنة الشريفة. والمماليك السلطانية، والعادل زين الدين كتبغا المنصوري في خدمته، ونزلت العساكر بالمرج.

وقرر الأمير سيف الدين سلار النواب بالممالك على ما رسم به السطان له عند سفره. فأقر الأمير جمال الدين أقش الأفرم على عادته بدمشق. وفوض إلى الأمير زين الدين كتبغا الملقب ـ كان ـ بالملك العادل، نيابة السلطنة بالمملكة الحموية(٢)، عوضاً عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري المذكور، وذلك بحكم أن الأمير سيف الدين بلبان الطباخي استعفى من النيابة بحلب واستقر في جملة الأمراء المقدمين بالديار المصرية، على إقطاع الأمير شمس الدين آقسنقر كرتيه(٣)، بحكم وفاته. وفوض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات إلى الأمير سيف الدين قطلوبك(٤) المنصوري. وأعاد الأمير سيف الدين كراي المنصوري إلى نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية على عادته.

وفوَّض قضاء القضاة الشافعية بدمشق لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الحموي، في خامس شهر شعبان، بحكم وفاة القاضي إمام الدين عمر ابن القاضي سعد الدين بن الكرجي القزويني القونوي. وكانت وفاته بالقاهرة، في يوم الثلاثاء خامس عشرين، شهور ربيع الآخر، ودفن بالقرافة. وفوَّض قضاء القضاة الحنفية، لقاضي القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ صفي الدين الحريري، في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من الشهر.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٠٠.
(٢) انظر ما ورد في المختصر من أخبار البشر لأبي الفدا ج ٤، ص ٤٤.
(٣) «كرتاي» في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٠١.
(٤) يرسم أيضاً قطلبك انظر ما سبق.

وفوّض شاد[1] الدواوين بالشام، إلى الأمير سيف الدين أقجبا المنصوري. وولى بر دمشق للأمير عز الدين أيبك التجيبي. وفوَّض حسبة دمشق لأمين الدين الرومي، ابن المنصور لاجين[2].

وأقام الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس بدمشق، إلى أن استقرت أحوالها، وترتبت وظائفها. ثم رجعا إلى الديار المصرية. وكان رحيلهما من دمشق بالجيوش المصرية، في يوم السبت ثامن شهر رمضان. ووصلا إلى خدمة السلطان بقلعة الجبل[3]، في يوم الثلاثاء، ثالث شوال. ولما وصلا، فوّض إلى الأمير سيف الدين قبجاق نيابة السلطنة بالشوبك. وأعطى الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار إمرة مائة فارس وتقدمة ألف بالديار المصرية، والأمير فارس الدين البكي الساقي، إمرة بدمشق. واستقرت الحال على ذلك.

ذكر ما اعتمده الأمير جمال الدين [أقش][4]
نائب السلطنة بدمشق، بعد عود العساكر المصرية

لما عاد الأمير سيف الدين سلار والعساكر المصرية من دمشق وخلا وجه الأمير جمال الدين أقش الأفرم، نائب السلطنة بالشام، تتبع مَنْ أذى المسلمين عند التتار، وتجاهر بذلك. فعامل كلا منهم بما نذكره، مما أدى إلى اجتهاده، واقتضاه رأيه البرد دار، وابن خطلبشا المزي، وحملهم على الجمال، ثم أطلق ابن العوني، بعد ثلاثة أيام. وشنق كاتب مسطبة الولاية بدمشق، وإبراهيم مؤذن بيت لهْيا[5]، ورجلاً من اليهود. وقطع لسان ابن طاعن، وقطع يد ورجل أحد من أمّرهم قبجاق، فمات بعد ثلاثة أيام. وكحّل الشجاع همام، فمات بعد ليلة.

ثم توجه في العشرين من شوال إلى جبال الكسروان والدرزية[6]، وقصد

(١) شاد الدواوين: تقدم التعريف به.

(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٠١.

(٣) قلعة الجبل: تقدم التعريف بها.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٥) بيت لهيا: بالفتح ثم السكون وياء مثناة من تحتها خفيفة: موضع على باب دمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٥، ص ٣٣.

(٦) الدرزية أو الدروز: من فئات سكان لبنان، سكنوا جبل كسروان المتصل بجبال لبنان، ونزل الدروز أيضاً حول دمشق، وفي جبال حوران. والاسم مشتق من درزي أحد دعاة الباطنية الذين يعتقدون بألوهية الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ودرزي هذا كان من أصل فارسي وهو محمد بن إسماعيل، قدم إلى مصر سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م وخدم الحاكم بأمر الله. ودعا إلى ألوهيته، وصنف في ذلك =

استئصال شأفتهم، لما عاملوا به العساكر الإسلامية، عند هزيمتها، من السلب والأذى. فالتزموا برد ما أخذوه من أقمشة العسكر، وحمل ما ترد عليهم، وعاد إلى دمشق، في يوم الأحد ثالث ذي القعدة من السنة.

وألزم أهل دمشق أرباب الحوانيت بتعليق الأسلحة في حوانيتهم، وأمروا برماية النشاب، ونودي بذلك. وحضرت رسالة قاضي القضاة بذلك إلى فقهاء المدارس. وعرض عوام البلد في الحادي والعشرين من القعدة، فحضروا بالسلاح، وقدم على أهل كل سوق رجلاً منهم. ثم عرض السادة الأشراف، في يوم الخميس رابع عشرين الشهر، بالعدّة الكاملة، مع نقيبهم نظام الملك.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير الطواشي حسام الدين جلال المغيثي الجلالي، نسبه إلى الملك المغيث ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب. وكانت وفاته في تاسع شهر ربيع الآخر، بمنزلة السوادة(١)، وحمل إلى قطيا(٢)، ودفن بها. وكان قد مرض بدمشق، فأعيد، ولم يشهد الوقعة. وكان رحمه الله تعالى ديناً خيراً.

وفيها، توفي القاضي علاء الدين أحمد ابن قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف بن بدر العلائي(٣). وكانت وفاته..........

وصليت عليه فيمن صلى، وكانت جنازته مشهودة، ودفن بتربتهم بالقرافة رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير سيف الدين جاغان الحسامي بأرض البلقاء من الشام.

وفيها، توفي الأمير علم الدين سنجر الدواداري بحصن الأكراد، في ثالث شهر رجب وكان قد انصرف من الوقعة، والتحق بحصن الأكراد، فمات به، رحمه الله تعالى.

وفيها. توفي والدي، رحمه الله تعالى، تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أبي عبد الله، محمد بن عبد الدائم بن منجا بن علي البكري، التيمي القرشي المعروف بالنويري. وقد تقدم ذكر باقي نسبه، عند ذكر مولدي في سنة سبع وسبعين وستمائة.

= كتاباً قرأه بالجامع الأزهر بالقاهرة، فضجّ الناس وخرج من مصر فلجأ إلى جبال لبنان، وهناك نشر مذهبه. توفي سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٢٠ م. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٩٠٢، حاشية (٣).

(١) السوادة: هي من بلاد إقليم الشرقية، ابن مماتي: قوانين الدواوين ص ٨٦.

(٢) قطيا: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤، ص ٤٢٩.

(٣) ورد اسمه كاملاً في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٠٤، وهو «علاء الدين أحمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر الغلائي المعروف بابن بنت الأعز الشافعي»، ترجمته في المنهل الصافي لابن تغري بردي ج ١، ص ٣٧٨، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ٤٤٤.

وكانت وفاته رحمه الله، قبل أذان المغرب، في يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وتسعين وستمائة، بالمدرسة الصالحية النجمية، بقاعة التدريس المالكية. وكان ابتداء مرضه، في يوم الأربعاء، الرابع عشر من الشهر. ومولده بمصر بالمدرسة المعروفة بمنازل الغر سنة ثمان عشرة وستمائة. ومات رحمه الله تعالى، ولم تفته صلاة. ولقد توضأ لصلاة العصر، من يوم وفاته أربع مرات، وكان به ذرب، ثم صلى صلاة العصر جالساً. ومات قبل أذان المغرب من يومه. وكان آخر كلامه، بعد أن دعا الله تعالى لي بخير، التلفظ بالشهادتين، ثم قبض رحمه الله تعالى، ودفن من الغد، في يوم الجمعة الثالثة من النهار، بتربة قاضي القضاة زين الدين المالكي، بالقرافة، رحمه الله تعالى وإيانا.

واستهلت سنة سبعمائة يوم الجمعة
[٧٠٠ هـ = ١٣٠٠/١٣٠١ م]

والسلطان الملك الناصر بقلعة الجبل، ومدبرو الدولة، ونواب المملكة من ذكرناهم.

ذكر جباية المقرر على أرباب الأملاك والأموال بالديار المصرية والشام

وفي هذه السنة، في أولها قرر ناصر الدين محمد بن الشيخي، أحد الأمراء بالديار المصرية، ومتولي القاهرة، أن يستخرج من أرباب العقارات والأموال مالاً سماه مقرر الخيالة، وانتصب لاستخراج ذلك بدار العدل، تحت قلعة الجبل. وأحضر أرباب الأموال والأملاك، وقرر على كل منهم بحسب قدرته، واستخرج من ذلك تقدير مائة ألف دينار. وتعدّى ضرره إلى سائر الناس، حتى أراد أن يستخرج من العدول[1] الجالسين بسوق الوراقين، من كل عدل عشرين ديناراً، ومن كل عاقد[2] أربعين ديناراً.

(١) العدول: جمع عدل وهو الرجل الصحيح الرواية. وهم جماعة الشهود الذين يختارهم القاضي لمعاونته في أعماله فيجلسون حوله يمنة ويسرة بمجلس الحكم على ترتيب الأقدمية في تعديله لهم، ومنهم من تولى الوظائف الكبرى كالحسبة، ووكالة بيت المال والنيابة أيام الدولة الفاطمية، وكانوا يتزينون بزي خاص بطبقتهم كالمناديل تحت الحلوق. محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٤٢.

(٢) العاقد: هو الذي يتولى تحرير العقود وكتابتها كعقود البيع والزواج، وهو دون القاضي في الرتبة. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٥٠١، حاشية (٣)، محمد البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٢٤٨.

فنهض قاضي القضاة زين الدين المالكي في ذلك، وتحدث مع الأمراء في ذلك. وذكر ضرورة العدل ووفاقتهم واحتياجاتهم، وأن جلوسهم في سوق الورّاقين، لتحصيل أقواتهم، ولو قدروا على القوت ما جلسوا، وقام في ذلك أتمَّ قيام، حتى اندفعت عنهم هذه المظلمة، وأعفوا[١] منها، واستُخْرج من سائر الأعمال والبلاد والقرى بالديار المصرية أموال، قررت على كل بلد من البلاد المقطعة، واستخرجت الأموال من الرعايا والفلاحين.

وأما دمشق، فإنه رُسِم باستخراج أجرة أربعة أشهر من أرباب الأملاك والأوقاف التي بدمشق وظاهرها، ومن الضياع، التي ضمانها أكثر من أمدائها ثلث ضمانها. وإن كانت أمداؤها أكثر من ضمانها، استخرج عن كل مدي، ستة دراهم وثلثا درهم - والمُدي أربعون ذراعاً في مثلها، ويكون تكسيره ألف ذراع وستمائة ذراع، بذراع العمل[٢] - فنال الناس من ذلك شدة. وكان المال المطلوب، عن ما تحصل في سنة تسع وتسعين وستمائة.

وفيها، في المحرم، كثرت الأراجيف بحركة التتار، فجفل أهل الشام أجمع، منهم من التجأ إلى الحصون، وأكثرهم وصلوا إلى الديار المصرية، حتى امتلأت القاهرة ومنهم مصر. وكان سعر القمح، قبل وصول هذه الجفول، عن كل أردب عشرين درهماً. فنزل إلى خمسة عشر درهماً، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[٣].

ذكر توجه السلطان الملك الناصر بالعساكر إلى الشام وعوده

لما كثرت الأراجيف وقويت الشناعة، بقرب التتار، توجه السلطان بالعساكر إلى الشام. واستقل ركابه من منزلة مسجد التبن[٤]، وهي المنزلة الأولى من قلعة الجبل، في يوم السبت ثالث عشر صفر، ووصل إلى غزة، ونزل بمنزلة بدعرش[٥]، وأقام بها.

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٠٧.

(٢) ذراع العمل: مقياس طوله ثلاثة أشبار، بشبر رجل معتدل، المقريزي: السلوك ج ١، ص ٩٠٧، حاشية (٤).

(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٠٨ - ٩٠٩.

(٤) مسجد التبن: هذا المسجد يعرف اليوم بزاوية الشيخ محمد التبري جنوبي سراي القبة بضواحي القاهرة. محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٨، ص ١٠٦، حاشية (٢).

(٥) منزلة بدعرش: هي منزلة الناصر محمد بن قلاوون التي كان ينزل بها إذا أراد السفر من القاهرة إلى دمشق أو أراد العودة منها. المقريزي: السلوك ج ١، ص ٨٢٢، حاشية (٤). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٨، ص ١٠٦، حاشية (٣).

وتوالت الأمطار وكثرت،واشتد البرد، وانقطعت الأجلاب على العسكر، حتى عدمت الأقوات. واستمر السلطان بهذه المنزلة إلى سلخ شهر ربيع الآخر. ثم عاد إلى القاهرة، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الاثنين، حادي عشر جمادى الأولى، بعد أن جرد من منزلته بدعرش، الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار ومضافيه، والأمير بهاء الدين يعقوبا الشهرزوري ومضافيه. فتوجهوا إلى دمشق بألفي فارس، فوصلوا إليها، في سابع جمادي الأولى.

ولما ظهر بدمشق عود السلطان إلى الديار المصرية؛ خرج من بقي من الدماشقة إلى الديار المصرية. وذلك أن متولي دمشق، كان يمر بالأسواق فيقول للناس: ما يجلسكم ها هنا، وأي شيء تنتظرون، وأشباه هذا الكلام. ثم نودي بدمشق في تاسع[(١)] جمادى الأولى، من أقام، فدمه في عنقه، ومن عجز من السفر فليتحصن بالقلعة[(٢)].

وفي مدة مقام السلطان بمنزلة بدعرش، توفي الأمير سيف الدين بلبان الطباخي. واستعفى الأمير سيف الدين كراي المنصوري من نيابة السلطنة بصفد، فأعفي منها؛ وأقطع إقطاع الأمير سيف الدين الطباخي بالديار المصرية. وفوضت نيابة المملكة الصفدية إلى الأمير سيف الدين بتخاص المنصوري، أحد أمراء الشام.

ذكر وصول غازان إلى الشام وعوده وما فعلته جيوشه

كان خبر غازان من هذه السنة، أنه وصل بجيوشه إلى بلاد حلب، ونزل بقرون حماه إلى بلاد سرمين، وبعث معظم جيوشه إلى جبال أنطاكية، وجبال السماق[(٣)]. فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار شيئاً كثيراً، وسبوا من النساء والصبيان وأسروا من الرجال خلقاً كثيراً. وكانوا في سنة تِسع وتسعين وستمائة لم يصلوا إلى هذه الجهة، فظن الناس أنهم لا يقصدونها في هذه السنة. فاجتمع بها خلق كثير، فقُتِلوا وأُسِروا وسُبوا. ورخصت الأسرى من المسلمين، حتى أبيع الأسير والأسيرة بعشرة دراهم. واشترى الأرمن منهم خلقاً كثيراً، وسيروا في المركب إلى بلاد الفرنج. وأرسل الله تعالى على غازان وجيوشه أمطاراً كثيرة وثلوجاً، حتى هلك كثير منهم. فرجع بعساكره إلى بلاد الشرق، وقد نفق من خيولهم ما لا تحصى كثرة، فرجعوا شبه المكسورين،

---

(١) «يوم السبت» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠٧.

(٢) «فليطلع إلى القلعة» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠٧.

(٣) جبال السماق: سلسلة مرتفعات عظيمة بجهات حلب تشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع عامتها للإسماعيلية الملحدة وأكثرهم في طاعة صاحب حلب. سمي كذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢، ص ١١٩.

وعجزت كل طائفة من المسلمين والتتار، عن ملاقاة الأخرى. وكان رجوعهم في جمادى الآخرة وقد خلت دمشق وجميع بلاد الشام [من سكانها][١]. وغلت الأسعار في هذه السنة بدمشق، فأبيعت غرارة القمح بثلثمائة درهم، ورطل اللحم بتسعة دراهم، ثم رخصت الأسعار.

وفيها، استعفى الأمير سيف الدين قطلبك المنصوري من نيابة المملكة الطرابلسية، فأعفي، وفوضت النيابة بها إلى الأمير سيف الدين استدمر كرجي.

وفيها، فنيت الأبقار بالديار المصرية فناء، لم يسمع بمثله. وحُكي لي أن بعض مشايخ البلاد بأشموم طناح، كان يملك ألف رأس وأحد وعشرين رأساً من بقر الخيس، فمات منها ألف رأس وثلاثة رؤوس، وبقي له ثمانية عشر رأساً، وغلت الأبقار بعد هذا الفناء، حتى كادت تعدم. وبيع الثور منها بألف درهم وما يقارب هذا الثمن. واستعمل الناس في السواقي بالديار المصرية لإدارتها، الخيل والجمال والحمير.

ذكر خبر أهل الذمة وتغيير لباسهم وما تقرر في ذلك، والسبب الذي أوجبه

في هذه السنة[٢]، وصل وزير بلاد المغرب[٣] إلى الديار المصرية، بسبب الحج. وتكلم مع الأمراء[٤] في أمر أهل الذمة، وذكر ما هم فيه من الذل والصغار ببلاد المغرب، وأنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل والبغال، ولا يستخدمونهم في المناصب، وذكر أشياء كثيرة من هذا القول. فرسم أن يعقد مجلس بحضور الحاكم، وندب لذلك قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي، فجلس بالمدرسة الصالحية. وحضر القاضي مجد الدين بن الخشاب، وكبار بيت المال، وجماعة من الفقهاء وأحضر بطرك النصارى، وجماعة من أساقفتهم[٥]، وأكابر قسيسيهم، وأعيان ملتهم ودين اليهود وأكابر ملتهم، وسئلوا عما أقروا عليه خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من عقد الذمة. فلم يأتوا عن ذلك بجواب. وبحث الفقهاء في ذلك، فاقتضت

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠٧.

(٢) «في شهر رجب» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠٧.

(٣) «وهو في تلك السنة أبو فارس المتوكل»، المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٩١٠، حاشية (٣).

(٤) «واجتمع بالسلطان وبالأمير سلار نائب السلطنة وبالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فقابلوه بالإكرام وأنعموا عليه واحترموه» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠٧.

(٥) «فحضر بعض كتّاب النّصارى» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١٠٨.

المباحث الشريفة بين العلماء، أن يميز النصارى[١] بلبس العمائم الزرق غير الشعرى[٢]، واليهود بلبس العمائم الصفر. وتميز نساء أهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر. ولا يركبون الخيول ولا يحملون سلاحاً، ويركبون الخيول الحمر بالأكف[٣] عرضاً من غير تزيين لها ولا قيمة، ويتجنبون أوساط الطرق للمسلمين في مجالسهم عن مراتبهم، ولا يرفعون أصواتهم على أصوات المسلمين. ولا يعلو بناؤهم على بناء المسلمين، ولا يظهرون شعانينهم[٤]، ولا يضربون بالنواقيس. ولا ينصّرون مسلماً ولا يهودونه. ولا يشترون من الرقيق مسلماً ولا من سباه مسلم، ولا من جرت عليه سهام المسلمين. ومن دخل منهم الحمام يميز نفسه بعلامة عن المسلمين، بجرس في حلقه. ولا ينقشون فصوص خواتيمهم بالعربية، ولا يعلمون أولادهم القرآن، ولا يستخدمون في أعمالهم الشاقة مسلماً، ولا يرفعون النيران. ومن زنى منهم بمسلمة قتل.

وقال بطرك النصارى بحضرة جماعة العدول: «حرّمت على أهل ملتي وأصحابي مخالفة ذلك، والعدول عنه». وقال رئيس اليهود وديانهم: «أوقعت الكلمة على أهل ملتي وطائفتي في مخالفة ذلك، والخروج عنه»[٥].

ونظمت المكاتيب بذلك، ورسم بحمل الأمراء على حكمها. وكتب إلى سائر أعمال الديار المصرية بإجرائهم على ذلك. [وكتب إلى أمراء][٦] الشام بذلك، فالتزموا به في شعبان من السنة.

وتقرر بدمشق أن تلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود العائم الصفر، والسامرة العمائم الحمر. واستقر ذلك في سائر المملكة، إلا بالكرم فإن النائب بها الأمير جمال الدين آقش الأشرفي، رأى إبقاءهم على حالتهم. واعتذر أن أهل الكرك نصارى، وأن المسلمين بها قليل، وأن هذا القدر[٧] يؤدي إلى ظهور كثرتهم للغريب، وما أشبه هذه

---

(١) أورد المقريزي خبراً تحت عنوان «وقعة أهل الذّمة» قال: إنهم (أي النصارى) كان قد تزايد ترفههم بالقاهرة ومصر، انظر تفاصيل ذلك في السلوك ج ١، ص ٩٠٩ ـ ٩١٠.

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) الأكف: جمع أكاف، وهو برذعة الحمار. الفيروزأبادي: القاموس المحيط.

(٤) عيد الشعانين: ومعناه التسبيح ويطلق عليه أيضاً «عيد الزيتونة»، وهو أحد أعياد القبط في مصر ويقع في سابع أحد من صومهم الكبير، الذي يسبق عيد الفصح، وفيه يخرجون بسعف النخيل، ويرون أنه يوم ركوب المسيح بالقدس، والناس بين يديه يسبحون، ومن شعاراته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. المقريزي: المواعظ والاعتبار ج ٢، ص ٢٤.

(٥) انظر ما ورد في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩١٠ ـ ٩١١.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٧) هكذا في الأصل ولعلها القرار.

الأعذار. فاستقر ذلك بالكرك والشوبك إلى الآن[١].

وأخبرني الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري في سنة إحدى وسبعمائة وهو يومئذٍ أستاذ الدار السلطنة وشاد الدواوين بدمشق، قال: ركبت في الموكب مع الأمير جمال الدين آقش الأفرم، نائب السلطنة بها، فمر بنا طائفة من أهل الذمة، بالأقمشة النفيسة والعمائم اللانس[٢]. قال: فشق ذلك عليّ كونهم لم يتميزوا بعلامة. فذكرت ذلك لنائب السلطان، وقررت معه أن يأمر بتغيير هيأتهم، وأن تلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود العمائم الصفر، والسامرة[٣] العمائم الحمر، وتقرر أن يطالع في ذلك، فورد مثال السلطان بذلك، قبل وصول المطالعة إليه، ووافق تاريخ تلبيسهم بالديار المصرية، التاريخ الذي حدثت نائب السلطان فيه بسببه. ولما منعوا من الاستخدام بالديار المصرية، أسلم جماعة كثيرة من أعيانهم، لأجل مناصبهم. فاستمروا بعد إسلامهم على ما كانوا عليه.

وقد وقفت على كتاب «الدر الثمين في مناقب المسلمين، ومثالب المشركين»، تصنيف محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد الكاتب. وهو كتاب خدم به السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى.

وقد رأيت أن أذكر منه نبذة في هذا الموضع، لتعلقه به، فالشيء بالشيء بذكر. جاء في لكتاب المذكور، في صدره، بعد تفويض السلطان الناصر المشار إليه، نثراً، والاستشهاد بأبيات من الشعر في معناه. ثم قال: وكان مولانا الملك الناصر، خلد الله ملكه، وأبقى دولته، لما ملّكه الله الديار المصرية والشامية وما قاربها. ووعده على لسان عدله، أن يفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها. وانتصر لله، وتعصب لدينه، واجتهد في رضاه، والعمل بحكم كتابه، وسنة نبيه، ولحقته الحميّة الإسلامية، وسار السيرة العمرية. وأمر بصرف الذمة وأن لا يتصرفوا ما بقيت هذه الأمة، وسطرها الكاتبان[٤] في صحائف حسناته. وأثبتها المؤرخون في محاسن سيرته، ونظمها الشعراء في مدائح عقد مدائحه. وشغله النظر في مصالح الإسلام، عن تميم هذا الاهتمام، والأعمال بخواتيمها.

---

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩١٢.

(٢) اللانس: لفظ فارسي معناه الحرير الموسلين. Dozy. Supp. Dict, Ar.

(٣) السامرة: طائفة من اليهود. وهم أتباع السامري الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله في سورة طه الآية ٨٥ ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ وقال بعض المفسرين اسمه موسى بن ظفر. ثم السامرة لهم توراة تخصهم غير التي بيد القرائين والربانيين والنصارى. وهم ينفردون عن غيرهم بمخالفتهم في كثير من الأصول. القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٣، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٤) لعل المقصود هنا العماد الكاتب، والمؤلف الذي نقل عنه النويري هذا النص.

ونرجو من الله، أن يبادر بتكميلها وتتميمها. ولقد قيل إن الشريف مسعود بن المحسن المعروف بالبياضي(١)، رؤي في المنام بعد موته، فقيل له ما فعل الله بك. قال: غفر لي بأبيات قلتها، وكتبت بها إلى الراضي وهي:

يا ابن الخلائف من قريش والأولى ... طهرت أصولهم من الأدناس
قلدت أمر المسلمين عدوهم ... ما هكذا فعلت بنو العباس
حاشاك من قول الرعية أنه ... ناسٍ لقاء الله أو متناسي
ما العذر إن قالوا غداً هذا الذي ... ولّى اليهود على رقاب الناس
أتقول كانوا وفّروا أموالهم ... فبيوتهم قفر بلا أساس
لا تذكرن إحصاءهم وما وفّروا ... ظلماً وتَنْسى مُحْصي الأنفاس
وخَف القضاء غداً إلى وافيت ما ... كسبت يداك اليوم بالقسطاس
في موقف ما فيه إلا شاخص ... أو مهطع أو مُقْنِع للراس
أعضاؤهم فيه الشهود وسحتهم ... نار وخازنهم شديد البأس
إن عطل اليوم الديون مع الغنى ... فغدا يؤديها مع الإفلاس
لا تعتذر عن صرفهم بتعذر المـ ... ـتصرّفين الحُذَّق الأكياس
ما كنت تفعل بعدهم لو أهلكوا ... فافعل وعدُّ القوم في الأرماس

قال المصنف محمد بن عبد الرحمٰن: قرأت أن النصيحة من الدين. وقرأت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]. ثم ذكر ما ورد في كتاب الله تعالى من التحذير، فبدأ بقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

(١) هو مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق البياضي أبو جعفر، شاعر هاشمي من أهل بغداد، والبياضي نسبة إلى لبس البياض، توفي سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م. الزركلي: الأعلام، ج ٧، ص ٢١٨، ترجمته في الكامل لابن الأثير ج ١٠، ص ٨٨ ـ ٨٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٥، ص ١٩٧ ـ ١٩٨، ترجمة ٧١٩.

ثم ذكر نسخة كتاب كتب إلى عمر بن الخطاب، عن أهل الذمة، فقال: قال عبد الرحمٰن بن عثمان: كتبنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في نصارى أهل الشام ومصر ما نسخته[١]:

«هذا كتاب[٢] لعبد الله عمر، أمير المؤمنين، من نصارى أهل الشام ومصر.

لما قدَمتُم علينا، سألناكم الأمان لأنفُسنا وذَرَارِيِّنا وأموالِنا، وأهل ملّتِنا. وشَرْطنا على أنفسها، أن لا نُحدث من مدائننا، ولا فيما حولها، ديراً ولا كنيسةً، ولا قِرية[٣]، ولا صومعة لراهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا ما كان في خِطَطِ[٤] المسلمين، وأن نوسع للمارة ولبني السبيل. وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال، نطعمهم. ولا نأوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسُوساً، ولا نكتمُ عيناً[٥] على المسلمين. ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه أحداً. ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في دين الإسلام، إن أراد وأن نوقّر المسلمين، ونقوم لهم في مجالسنا، إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم، في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر. ولا نتسمى بأسمائهم، ولا نتكنى بكناهم. ولا نركب بالسروج[٦]، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله. ولا ننقش على خواتمنا بالعربية. وأن نجز مقادم رؤوسنا. ونلزم زيّنا حيث كنا، أن نشد الزنانير[٧] على أوساطنا، وأن لا نظهر صلباننا، ولا نفتح كتبنا في طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا، في كنائسنا، في شيء من حضرة المسلمين. ولا نخرج في شعانيننا، ولا طاغوتنا[٨]. ولا نرفع أصواتنا مع موتانا. ولا نوقد النيران في طرق المسلمين ولا

(١) انظر نص كتاب عقد الذمة الذي بعثه نصارى الشام إلى عمر بن الخطاب فوافق عليه وزاد فيه صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٣، ص ٣٥٧.

(٢) نص هذا العهد هو نفس نص عهد أبي عبيدة بن الجراح لأهل دمشق لما افتتحها خالد بن الوليد. انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت، ج ١، ص ١٥١.

(٣) «قِلَيَّة» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٣، ص ٣٥٧. والقلاية: من بيوت عبادات النصارى كالصومعة، وفي لسان العرب: القِليَّة كالصومعة، ونقل عن ابن الأثير في حديث عمر لما صالح نصارى الشام أنه قال: كذا وردت، واسمها عند النصارى القلّاية. وهي تعريب «كلاذة». انظر المصدر نفسه ج ١٣، ص ٣٥٧، حاشية (٢).

(٤) الخطط: جمع خطة (بالكسر): وهي الأرض التي يختطها الرجل لنفسه. محيط المحيط.

(٥) «غشاً» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٣، ص ٣٥٧.

(٦) «ولا نركب السروج» في المصدر نفسه ج ١٣، ص ٣٥٧.

(٧) هو من قبيل لبس الغيار، أي العلامة التي تميز أهل الذمة من يهود ونصارى.

(٨) «باعُوثاً» في صبح الأعشى ج ١٣، ص ٣٥٧. وهو لفظ سرياني كالاستقاء عندنا. انظر لسان العرب لابن منظور.

أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيقِ، من جرت عليه سِهام المسلمين. ولا نطّلع عليهم في مَنازِلهم، ولا تعلو منازلنا مَنَازلهم. فلما أتيت أمير المؤمنين عمر بالكتاب زاد فيه: «ولا نضرب أحداً من المسلمين».

شرطنا ذلك على أنفسنا وملّتِنا، وقبلنا عليه الأمان. فإن نحنُ خالَفْنا في شيء مما اشترطناه لكم علينا، وضمنّاه عن أنفسنا، وأهل ملتنا، فلا دِيّة لنا عليكُم، وقد حلّ بنا ما حلّ بغيرنا، من أهل المعاندة والشقاق، فكتبَ عمر رضي الله عنه: امض ما سألوه، والحقّ فيه حرفين، اشترطهما عليهم، مع ما شرطوه، أنه من ضرب مسلماً عمداً فقد خلَع عهده[١].

قال عبد الرحمٰن بن عثمان: وأجمعَ العلماءُ بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على أنه متى نقض الذمي عهده، بمخالفة شرطٍ من هذه الشروطِ المأخوذة عليهم، فالإمام مخيّر فيه بين القتل والأسر. ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين في اللباس والزي، ولا يشتهرون بهم في أمر من أمور زيهم، ويشدّون الزنانير في أوساطهم. ويكون في رقابهم خواتم رصاص أو نحاس أو جرس، يدخل معهم في الحمام. وليس لهم أن يلبسوا العمائمَ والطيلسان.

وأما المرأة فتشدّ الزنار من تحت الإزار، وقيل من فوق الإزار وهو الأولى، ويكون في عنقها خاتم رصاص، يدخل معها الحمام. ويكون أحد خفيها أسود، ليبقى مشتهراً ظاهراً، والآخر أبيض.

ويركبون الحمير بالأكف، ولا يركبون بالسّروج. ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدأون بالسلام. ويلجأون إلى أضيقِ الطرقِ. ويُمنعون أن يعلو بناؤهم على أبنية المسلمين، وتجوز المساواة، وقيل لا تجوز، بل يُمنعون، ويَجعل الإمام عليهم رجلاً يكتب أسماءهم وحلاهم، ويستوفي عليهم ما يؤخذون به من هذه الشرائط، وأن زنى منهم أحد بمسلمة، أو أصابها بنكاح، برئت منه الذمة. وقال أبو هريرة: أمر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، بهدم كل كنيسة استجدَّت بعد الهجرة، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام. وسيَّر عروة بن محمد، فهدم الكنائس بصنعاء. وصانع القبط على كنائسهم بمصر، وهدم بعضها، ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بعثة النبي ﷺ. هذا آخر ما لخصناه من الكتاب المذكور[٢]. فلنرجع إلى تتمة حوادث سنة سبعمائة.

---

(١) قارن هذا النص مع ما ورد في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ج ٣، ص ٣٥٨. ففيه خلاف في العبارات.

(٢) أورد قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة في كتابه «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام باباً كاملاً =

ذكر وصول رسل غازان ملك التتار وما وصل على أيديهم من المكاتبة وما أجيبوا به

وفي هذه السنة، في ذي القعدة، وصل رسل غازان إلى البلاد الشامية[1]، وهم الأمير ناصر الدين علي خواجا، والقاضي كمال الدين موسى بن يونس، ورفيقهما. فوصل البريد من حلب بوصولهم. فرسم بتوجيه الأمير سيف الدين كراي المنصوري لإحضارهم. فتوجه على خيل البريد فأحضرهم إلى الأبواب السلطانية. وكان وصولهم إلى قلعة الجبل، في ليلة الاثنين، خامس عشر ذي الحجة. وأحضروا بين يدي السلطان، في عشية نهار الثلاثاء. فخطب كمال الدين خطبة في معنى الصلح، واتفاق الكلمة، ورغب فيه. ثم أخرج كتاباً نسخته[2]: بسم الله الرحمٰن الرحيم. بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان.

ليعلم السلطان الملك المعظم الناصر، أنه في العام الماضي، بعض عساكرهم المفسدة، دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها، لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهدوا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله وخرق ناموس الشريعة فأنفنا من تهجمهم، وغرنا من تقحمهم. وأخذتنا الحمية الإسلامية، فحدتنا على دخول بلادهم، ومقاتلتهم على فسادهم. فركبنا بمن كان لدينا من العساكر، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر. وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن سيد المرسلين، واقتفينا آثار المتقدمين. وافتدينا بقول الله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وأنفذنا صحبة يعقوب السكرجي، جماعة من القضاة والأئمة والثقات. وقلنا: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٦ ـ ٥٨].

فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليهم وعلى المسلمين بالإضرار، وأهنتموهم وسجنتموهم. وخالفتم سنن الملوك في حسن السلوك. فصبرنا على تماديكم في غيّكم، وخلودكم إلى بغيكم، إلى أن نصرنا الله، وأراكم في أنفسكم قضاه. ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ

= (الباب السابع عشر) في عقد الذمة وأحكامه أو ما يجب بالتزامه، والمعروف أن ابن جماعة كان معاصراً تلك الأحداث سنة ٧٠٠ هـ انظر (الطبعة المصرية ١٩٩٢) صفحة ٤٢٦ حاشية (٢).

(١) «الديار المصرية» في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١١٠.

(٢) انظر هذا نص هذا الكتاب في السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩١٥، وتتفق روايته مع رواية ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج ٨، ص ١١١ ـ ١١٢. انظر أيضاً نص هذا الكتاب في السلوك ج ١، ص ١٠١٦، ملحق رقم (١٤).

ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وظننا أنهم حيث تحققوا كنه الحال، وآل بهم الأمر إلى ما آل، أنهم ربما تداركوا الفارط في أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، وأوْجه إلينا وجه عذرهم، وأنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية، رسلاً لإصلاح تلك القضية. فبقينا بدمشق غير متحثحثين، وتبطنا تثبيط المتملكين المتمكنين. فصدهم عن السعي في صلاح حالهم التواني، وعلّلوا نفوسهم عن اليقين بالأماني.

ثم بلغنا، بعد عودنا إلى بلادنا، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب أو الفرات. وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه. فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم. ووصلنا الفرات مرتبقين ثبوت دعواهم، وقلنا ولعلهم وعساهم. فما طلع لهم بارق، ولا ذرَّ شارق. فتقدمنا إلى أطراف حلب، وتعجبنا من بطئهم غاية العجب. فبلغنا برجوعهم بالعساكر، وتحققنا نكوصهم عن الحرب. وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا، الباهرة وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعم الضرر العباد، والخراب البلاد، فعدنا بُقْيا عليها، ونظرة لطف من الله إليها.

وها نحن الآن أيضاً مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة، ومنشغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد سيرنا حاملي هذا الفرمان: الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجة، والإمام العالم ملك القضاة، كمال الدين موسى بن يونس. وقد حملناهما كلاماً يشافهاهم به. فلثقوا بما تقدمنا به إليهما. فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما، لنكون كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فيعدوا لنا الهدايا والتحف. فما بعد الإنذار من عاذر. وإن لم يتداركوا الأمر، فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم.

فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره. فقد قال ﷺ: «من ولاه الله أمراً من أمور هذه الأمة، واحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم. احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره». وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر. والسلام على من اتبع الهدى.

كتب في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين.

فقرىء كتباً، ورسم بإنشاء جوابه، فكتب. وهو من إنشاء المولى القاضي علاء لدين علي ابن المولى المرحوم فتح الدين محمد ابن القاضي المرحوم محيي الدين عبد

الله بن عبد الظاهر[١]. وأعاد السلطان رسله، من غير أن تصْحَبَهم رسولاً، بل استحضرهم بمنزلة الصالحية، وأنعم عليهم وجهزهم، فتوجهوا في سنة إحدى وسبعمائة.

ونسخة الجواب[٢]:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملّة المحمدية.

أما بعد حمد الله، الذي جعلنا من السابقين الأوّلين، الهادين المهتدين، التابعين لسنة سيد المرسلين، بإحسان إلى يوم الدين. والصلاة على سيدنا محمد والسلام على آله وصحبه الذين فضل الله من سبق منهم إلى الإيمان في كتابه المكنون. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة: ١٠] بإقبال دولة السلطان الملك الناصر.

كلام محمد بن قلاوون:

«ليعلم[٣] السلطان المعظم، محمود غازان، أن كتابه ورد، فقابلناه، بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام، ورعينا له حق القصد، فتلقيناه منّا بسلام. وتأملنا تأمّل المتفهم لدقائقه، المستكشف عن حقائقه، فألفيناه قد تضمن مؤاخذات بأمور، هم بالمؤاخذة عليها أحرى، معتذراً في التعدي، بما جعله ذنوباً لبعض، طالب بها الكل. والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

أما حديث إغارة من أغار على ماردين من رِجاله بلادنا المتطرفة، وما نسبُوه إليهم من الإقدام [على][٤] الأمور البديعة والآثام الشنيعة، وقولُهم: إنهم أَنِفُوا من تهجُّمهم، وغارُوا من تَقَحمهُم، واقتضت الحمِيَّة ركُوبَهم في مقابلة ذلك، فقد تلمَّحنا هذه الصورة التي أقاموها عذراً في العدوان، وجعلوها سبباً إلى ما ارتكبوه من طغيان. والجواب عن ذلك أن الغارات من الطَّرفين، [و][٥] لم يحصل من المُهادنة والموادعة، ما يكفُّ يدها[٦] الممتدة، ولا يفتر هممها المستعدّة. وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكُفر والشِّقاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق. ولم يزل ملك ماردين ورعيّته منفِّذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم، متولِّين كبْرَ مكرهم، والله تعالى

---

(١) انظر ترجمته في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ حاشية (٤).
(٢) انظر نسخة الجواب في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٥.
(٣) «فليعلم» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٣، ص ٢٦٦.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من صبح الأعشى للقلقشندي، ج ٧، ص ٢٦٦.
(٦) «يدنا» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٦.

يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

«وحيث جعلتم هذا ذنباً، موجباً للحميّة الجاهلية، وحاملاً على الانتصار، الذي زعمتم أن همتكم به مَليَّة، فقد كان [هذا][١] القصد، الذين ادعيتموه، يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف، التي أوجب ذلك فعلها، والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار اتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢]، لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفَّقة، على اختلاف الأديان وتطأوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس، الذي هو ثاني بيت الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله، عليه الصلاة والسلام. وإن احتججتم أن زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعدّيهم من سُنَّتنا. فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والموادعة، أوجب سلوك هذه المسالك».

وأما ما أدعوه من سلوك سنن المرسلين واقتفاء آثار المتقدّمين، في إنفاذ الرسل أولاً، فقد تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة، والجواب عن ذلك أن هؤلاء الرسل ما وصلوا إلينا [إلا][٢] وقد دنت الخيامُ من الخيام، وناضلت السهامِ السِّهام، وشارف القومُ القوم، ولم يبق للقاء إلا يومٌ أو بعض يوم، وأشرعت الأسِنَّةُ من الجانبين، ورأى كلُّ خصمه رأي العين. وما نحن ممن لاحت له رغبة راغب، فتشاغل عنها، ولا ممن يُسالم فيقابل ذلك بجفوه النفار، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. كيف والكتاب بعُنوانه. وأمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: «ما أضمر إنسانٌ شيئاً إلا ظَهر، في صفحاتِ وجهِه وفلتاتِ لِسانِهِ».

ولو كان حضور هؤلاء الرسلِ والسيوفُ وادعةٌ في أغمادها، والأسنة مستكنَّة في أعوادها والسِّهام غير مفوّقةٌ، والأعنةُ غير مُطْلَقة، لسمِعْنا خطابهم وأعدْنا جوابهم.

وأما ما أطلقُوا بهِ لسانَ قلمِهم، وأبدَوْه من غليظ كلِمهم في قولهم: فصبَرْنا على تماديكم في غيّكم، وإخلادكم إلى بَغْيِكم، فأيُّ صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحَة، قبل إرسال رسل المصالحة، وجاسَ خِلال الديار قبل ما زَعَمه من الإنذار والإعذار؟ وإذا فكروا في هذه الأسباب، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب، علموا العُذر في تأخير الجواب، وما يتذكر إلا أولوا الألباب.

وأما ما تحجَجوا به مما اعتَقدُوه من نُصرة، وظنُّوه من أن الله جعل لهم على حزبِه الغالب في كل كرةِ الكرة. فلو تأملوا ما ظنُّوه ربحاً، لوجدوه هو الخُسران المبين.

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح.

ولو أمعنُوا النَظَر في ذلك، لما كانوا به متفخرين، ولتحقَّقوا أن الذي اتفق لهم، كان غُرماً لا غُنماً، وتدبروا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. ولم يخف عنهم من أبلته(١) السيوف الإسلامية منهم. وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا، التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء، ما ظهر خبرٌ عنهم.

فإنا كنا في مفتتح ملكنا، ومبتدإ أمرنا، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد. فلما تحققنا خبركم، وقفونا أثركم، بادرنا نُقدُّ أديم الأرض سيراً، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً، ونؤدي من الجهاد السنة والفرض ونعمل بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة، وثوقاً بقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية، التي كم وطئت موطئاً يغيظ الكفار، فكُتِب لها به عمل صالح، وسارت في سبيل الله، ففتح الله عليها أبواب المناجح. وتعددت أيام نصرتها، التي لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم على أن تنكروها، وفي تعبٍ من يجحد(٢) ضوء الشمس، وما زال الله لنا نعم المولى ونعم النصير. وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ الاستظهار ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله، فلا فخر فيها للغالب، ولا عار على المغلوب، وكم من ملك استظهر عليه، ثم نصر، وعادوه التأييد. فجبر بعدما كسر، خصوصاً ملوك هذا الدين، فإن الله تكفل لهم بحسن العقبى. فقال سبحانه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا، في كوننا لم نُسَيِّر إليهم رسولاً، عندما حلوا بدمشق فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية، لم تزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان. وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان وأنفقنا جزيل الأموال في العساكر والجحافل. ووثقنا بحسن الخلف، لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولمَّا خرجنا من الديار المصرية، وبلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد، وتوقفنا عن المسير، توقف من أغنى رُعْبُه عن حث الركب، وتثبتنا تثبت الراسيات ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨] وبعثنا طائفة من

(١) «نالته» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٨.
(٢) «من يُنكر» في صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٦٨.

العساكر المقاتلة من أقام بالبلاد، فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر. وتقدمت فتخطفت من حمله على التأخر الغرر، ووصلت إلى الفرات فما وقفت للقوم على أثر.

وأما قولهم: أننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام، أنهم فيما بعد يلتقوننا[١] على حلب أو الفرات، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب، مرتقبين وصولنا. فالجواب عن ذلك، أنه من حين بلغنا حركتهم، جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، ابن عم سيدنا رسول الله ﷺ، الواجب الطاعة على كل مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلم، طائعين لله ولرسوله في أداء فرض[٢] الجهاد، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد، عالمين أنه لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته. ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه. ومن عانده أو عاند من أقامه، فقد أذله الله.

فحين وصلنا إلى البلاد الشامية، تقدمت عساكرنا إلى[٣] السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله تعالى في النصر الرجاء والأمل. ووصلت أوائلها إلى أطراف حماه وتلك النواحي، فلم يقدم أحد منهم عليها. ولا جسر أن يمد [حتى][٤] ولا الطرف إليها. فلم نزل مقيمين، حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء، والله لا يخلف الميعاد، فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في [طاعة الله تعالى][٥]، اندفاع السيل، عاملين بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما ما جعلوه عذراً في الإقامة[٦] بأطراف البلاد، وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلا ذلك، ودخلوا بجيوشهم، ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، فقد فهم هذا المقصود. ومتى أَلِفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق؟ ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟ وها آثارهم موجودة [ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة. وهل هذا اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه؟ كيف ورسول الله ﷺ يقول: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه». وأسارى المسلمين عندهم في أشد وثاق، وفي يد الأرمن والتكفور منهم، ما يخالف ما ادعوه من إشفاق.

---

(١) «يتلقونا» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٩.
(٢) «مُفترض» في المصدر نفسه ج ٧، ص ٢٦٩.
(٣) «تملأ» في المصدر نفسه ج ٧، ص ٢٦٩.
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٩.
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٧٠.
(٦) الإقامة: الجمع إقامات. وهو ما يلزم العساكر من المؤن والعلف Dozy. Supp. Dict, Ar.

وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا، وقتلوا من قتلوا من التتار، وحصل لهم التمكن في البلاد والاستظهار، واستولوا][١] على ملك آل سلجوق، وما تعرضوا لدار ولا جار، ولا عفوا أثراً من الآثار. وما حصل لمسلم منهم ضرر ولا أذى في ورد ولا صدر. وكان أحدهم يشتري قوته بدرهمه وديناره، ويأبى أن تمتد إلى أحد من المسلمين يد أضراره. هذه سنة أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه[٢] من الاهتمام بجمع عساكرهم، وتهيئة المجانيق، إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وأما قولهم: وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم [بأن لا][٣] يصدر إليهم عن ذلك جواب، ومن قصد الصالح والإصلاح، كيف يقول هذا القول، الذي عليه فيه من جهة الله، ومن جهة رسوله أي جناح؟ وكيف يضمر هذه النية، ويتبجح بهذه الطوية؟ ولم يخف مواقع الزلل [من][٤] هذا القول وخلله، والنبي ﷺ يقول: «نيةُ المرءِ أبلغُ من عَملِه»، وبأي طريق تهدر دماء المسلمين، التي من تعرض إليها، يكون الله له في الدنيا والآخرة مطلباً وغريماً، ومؤخذاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

وإذا كان الأمر كذلك، فالبشرى لأهل الإسلام، بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد، وجمع العساكر التي يكون لها الملائكة الكرام، إن شاء الله تعالى من الأنجاد، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد، المتكاثرة المدد، الموعودة بالنصر، الذي يحفها في الظعن والإقامة، الواثقة بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة». المبلغة في نصر دين الله آمالاً، المستعدة لإجابة داعي الله إذ قال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

وأما رسلهم، [وهم فلان وفلان][٥]، فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، وأكرمنا

(١) من «ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال» إلى قوله: «لهم التمكن في البلاد والاستظهار واستولوا» غير واردة في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٧٠.

(٢) «وما أبدوا» في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٧٠.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٧٠.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة يقتضيها السياق.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٧١.

وفادتهم، وغزرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم هذا، مع كوننا لم يخْفَ علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم. وأنهم ما دفعوا الأفواه الخطوب إلا لما ارتكبوه من ذنوب. وما كان ينبغي أن يُرْسَل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله. ولا ينتدب لهذا الأمر المهم إلا من يُجْمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتُّحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة، لعوضناهم بأحسن منها. ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم[1] بأجمل عوض عنها. وقد كان عمّهم الملك أحمد[2]، راسل والدنا السلطان الشهيد وناجاه بالهدايا [والتحف][3] من مكان بعيد. وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها، بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب.

والآن، فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم، جنحنا لها، وإذا دخل في الملّة المحمدية، ممتثلاً ما أمر الله به، مجتنباً ما عنه نهى، وانضم[4] في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته، تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنَّان، وتجنَّب التشبه بمن قال الله عز وجل في حقهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ﴾ [الحجرات: ١٧]. وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يرتِّل آيات الصلح ترتيلاً، ويرُوق خطابه وجوابه، حتى يتلو كل أحد عند عوده ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧]. صارت حجَّتنا وحجَّته المركبة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك، ومظافرتنا[5] له تكسب الكافرين هوانا، والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وينتظم إن شاء الله تعالى شمل الصلح، أحسن انتظام. ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة ولا انفصال ولا انفصام. وتستقر قواعد الصلح، على ما يرضي الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، إن شاء الله تعالى.

كتب في ثامن وعشرين المحرم سنة إحدى وسبعمائة[6].

---

(١) «لقابلناها» في المصدر نفسه ج ٧، ص ٢٧١.

(٢) المقصود هنا أحمد تكدار. انظر ما سبق.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٧١.

(٤) «انتظم» في صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٧١.

(٥) «والمظافرة» في صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٧٢.

(٦) هذا الكتاب يطابق ما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٢.

وفي سنة سبعمائة، ولي الأمير فارس الدين البكي الساقي نيابة السلطنة بحمص.

وفيها، توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وزير الدولة ومدبّرها، إلى الممالك الشامية لكشفها، ووصل إلى المملكة الحلبية، وعاد إلى الديار المصرية، في سنة إحدى وسبعمائة، وعزل عن الوزارة في غيبته[١].

وفيها، توجه الأمير سيف الدين بكتمر الجوكان دار، أمير جاندار، إلى الحجاز الشريف؛ وتصدق بصدقات عظيمة. فيقال إنه أنفق في هذه السفرة خمسة وثمانين ألف دينار عيناً[٢].

وفي هذه السنة، توفي الأمير عز الدين أيدمر الظاهري؛ وهو الذي ناب عن السلطنة بالشام، في الدولة الظاهرية والسعيدية، وكانت وفاته برباطه بجبل الصالحية، في يوم الأربعاء ثاني شهر ربيع الأول ودفن هناك رحمه الله تعالى[٣].

وفيها، توفي الشيخ زين الدين عبد الرحمٰن ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، أخو قاضي القضاة بدر الدين. وكانت وفاته بحماه في سابع شعبان. وكان رجلاً صالحاً ديناً خيراً. ومولده في شهور ربيع الأول سنة سبع وعشرين وستمائة رحمه الله تعالى.

وفيها، توفي الأمير عز الدين أيبك كربي الظاهري بدمشق، في عاشر ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون. وكان من أعيان أمراء الشام، مقدمي الألوف. وورثه بناته، وأخوه الأمير بدر الدين بكتوت العديمي المنصوري[٤].

كمل الجزء الحادي والثلاثون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب،
يتلوه إن شاء الله تعالى في أول السفر الثاني والثلاثين
واستهلت سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل

(١) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩١٧.
(٢) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩١٧.
(٣) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩١٧.
(٤) انظر السلوك للمقريزي، ج ١، ص ٩٢٨.

المصادر والمراجع

(١) الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار لحسن باشا، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

(٢) الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٢.

(٣) أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاشي، تحقيق د. محمد يوسف حسن، ود. محمود بسيوني خفاجة، مركز تحقيق التراث، ١٩٧٧.

(٤) الاعتبار لأسامة بن منقذ الشيزري. تحقيق الدكتور قاسم السامرائي دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ١٩٨٧.

(٥) إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٨.

(٧) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٢.

(٨) بلدان الخلافة الشرقية، لسترانج ترجمة بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤.

(٩) بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني، القاهرة ١٣٣٠ هـ.

(١٠) تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل لأحمد السعيد سليمان، دار المعارف بمصر ١٩٧٩.

(١١) تاريخ ابن الفرات لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركية، بيروت ١٩٤٢.

(١٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير، تحقق عبد القادر أحمد طليمات دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ١٩٦٣.

(١٣) تذكرة التنبيه في أيام المنصور وبنيه لابن حبيب، ٣ أجزاء. تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢ ـ ١٩٨٦.

(١٤) تشريف الأيام والقصور لابن عبد الظاهر، تحقيق مراد كامل ومحمد علي النجار، منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة.

(١٥) التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣، ١٩٨٤.

(١٦) تقويم البلدان لأبي الفدا، باريس ١٩٤٠.

(١٧) التواريخ الهجرية لمحمد مختار باشا، المؤسسة العربية للدراسة والنشر ١٩٨٠ م.

(١٨) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب ط ١، ١٩٨٥.

(١٩) جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، تأليف أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.

(٢٠) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين السيوطي (١ ـ ٢) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.

(٢١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة لابن الفوطي ـ دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٨٧.

(٢٢) خطط المقريزي (المواعظ والاعتبار) للمقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد) مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ. ومطبعة بولاق ١٨٥٤. ودار صادر بيروت.

(٢٣) دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية، إصدار أحمد الشنتاوي وإبراهيم زكي خورشيد، القاهرة.

(٢٤) الدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري بردي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكة جامعة أم القرى ١٩٨٣.

(٢٥) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سياد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦.

(٢٦) دول الإسلام للذهبي مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٨٥.

(٢٧) ذيل مرآة الزمان لقطب الدين موسى بن محمد اليونيني ٤ أجزاء الهند ١٩٦١.

(٢٨) ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى حمزة بن القلانسي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

(٢٩) الروض المعطار في خبر الأقطار، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مكتبة لبنان ١٩٨٤.

(٣٠) زبدة كشف الممالك وبنيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩١.

(٣١) السلوك لمعرفة دول الملوك لأحمد بن علي المقريزي، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢، ١٩٥٦.

(٣٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩.

(٣٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا لابن العباس أحمد القلقشندي، طبعة القاهرة، وطبعة دار الكتب العلمية ١٩٨٧.

(٣٤) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (١ ـ ٦) المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٤.

(٣٥) العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٦٠.

(٣٦) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان تأليف بدر الدين محمد العيني، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨.

(٣٧) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٦.

(٣٨) فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٣.

(٣٩) القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي.

(٤٠) قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام) لشمس الدين ابن طولون، دمشق ١٩٥٦.

(٤١) قوانين الدواوين لابن مماتي، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.

(٤٢) كامل الصناعة في الطب للمجوسي، مطبعة بولاق ١٩٢٤/١٨٧٧ م.

(٤٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م.

(٤٤) كنز الدرر، وجامع الغرر لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٣٩١ هـ.

(٤٥) المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٤٦) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل، تحقيق الدكتور، جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٠.

(٤٧) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ط حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٥١.

(٤٨) المخصص لابن سيده، تحقيق لجنة أحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

(٤٩) معجم الأدباء لياقوت الحموي، القاهرة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.

(٥٠) معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية لأنيس فريحة، مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٧٢.

(٥١) معجم لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

(٥٢) معجم محيط المحيط لبطرس البستاني، بيروت، ١٨٧٠.

(٥٣) معجم القاموس المحيط للفيروزأبادي، القاهرة ١٩٥٢.

(٥٤) معجم البلدن لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٩٩٠.

(٥٥) مقدمة ابن خلدون، القاهرة، ١٩٣٠.

(٥٦) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي تأليف يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب المصري، ١٩٨٦.

(٥٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم تأليف أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي. مطبعة حيدر آباد الدكن ١٣٥٩ هـ.

(٥٨) الموسوعة الفلسطينية، دمشق ١٩٨٤.

(٥٩) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢. (١٦ جزءاً).

(٦٠) نخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الأكفاني، نشر الأب أنستاس ماري الكرملي، القاهرة ١٩٣٩.

(٦١) نظم دولة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد. جزءان، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧.

(٦٢) الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق هلموت ريتمر ط ٢ ١٩٨١.

(٦٣) الوسيط في شرح القانون المدني لعبد الرزاق السنهوري ١٩٦٠.

(٦٤) وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان ١٩٧٢.

فهرس المحتويات

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٣٢ - ٣٣

تحقيق

الأستاذ ابراهيم شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9
90000>
9782745138835

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

واستهلت سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية بيوم الأربعاء في هذه السنة

في يوم الجمعة عاشر شهر المحرم ـ فُوِّضَت الوزارة وتدبير الدولة الشريفة الناصرية إلى الأمير عز الدين أيبك البغداديّ المنصوري[١]، وجلس في يوم السبت على قاعدة الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعْسَر المنصوري[٢]. وكان الأمير شمس الدين قد توجه لكشف الممالك الشامية ـ كما تقدم ـ فعاد بعد عزله، واستقر في جملة الأمراء المقدمين.

وفيها ـ في العشرين من المحرم ـ توجَّه السلطان إلى الصيد بجهة العباسة[٣]، وفي خدمته جماعة من الأمراء، وتصيّد بالبرية، وضُرِبَ الدَّهْليزُ في منزلة الصالحية[٤]، ووصل السلطان إلى الدهليز بهذه المنزلة في الثامن والعشرين من الشهر، وخلع على كُلّ مَن كان في خدمته من الأمراء، وأحضر السلطان رسل غازان[٥] لَيْلًا وخلع عليهم، وأمر بعودهم. وقد تقدم ذِكْر ما تضمنه الجواب السلطاني إلى غازان في سنة سبعمائة عند ذكر كتابه، وعاد السلطان من الصالحية إلى بركة الجب[٦] في ثالث صفر والتقى الأمير سيفَ الدين بَكْتَمرُ الجُوكان دَار[٧] وأمير

---

(١) هو أحد الأمراء البرجية. (انظر: النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٠، حسن المحاضرة ٢/ ٢٢٣).

(٢) هو أحد الأمراء الكبار، توفي سنة ٧٠٩ هـ (انظر: النجوم الزاهرة ٨/٢٧٨، الدرر الكامنة ٢/ ٢٧٣).

(٣) العباسة: هي إحدى قرى مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية (معجم البلدان ٣/ ٥٩٩).

(٤) الصالحية: مدينة بناها الملك الصالح أيوب، (انظر: السلوك ١/ ٣٣).

(٥) غازان، ويقال له: قازان، وهو ملك التتار، أسلم، توفي سنة ٧٠٣ (انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٤).

(٦) بركة الجب: هي منتزه شمال شرقي القاهرة (المواعظ للمقريزي ١/ ٤٨٩).

(٧) الجوكان دار: فارسية مركبة من كلمتين: جوكان: وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان، ودار: ومعناها ممسك الصولجان أو صاحب الصولجان، (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠).

جاندار[١] عند عوده من الحجاز الشريف، ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل.

وفي هذه السنة توجه الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر كُرجِي[٢] إلى نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات، عوضًا عن الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك بحكم استعفائه من النيابة، وقد تقدم ذكر ذلك في سنة سبعمائة، وكان عود الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك إلى دمشق في أوائل هذه السنة، وتوجه الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر من دمشق إليها في يوم السبت حادي عشر المحرم.

وفيها في شهر المحرم أيضًا فوض شادّ الدواوين[٣] والأستَادَارِيّة[٤] بالشام إلى الأمر سيف الدين بَلَبَان الجوُكَانْدَار المنصوري عوضًا عن الأمير سيف الدين أقجبا الناصري، ونقل أقجبا إلى نيابة السلطنة، وتقدمة العسكر بغزة عوضًا عن الأمير رُكْنِ الدين بيبرس المُوَفَّقِي[٥] واستقر الموفقي في جملة الأمراء المقدمين بدمشق.

وفيها رُمِيَ فَتحُ الدين أحمد بن البققي[٦] الحموي بالزندقة، واعتقل بسجن الحكم، ونهضت البيِّنة عليه، وسطِّرَ مَحْضَرٌ بما صدر منه من الألفاظ التي لا تصدر

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما: جان، ومعناه السلاح. والثاني: دار، ومعناه ممسك. ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠، حاشية (١) أن الكلمة فارسية مركبة من «جان» ومعناها الروح، و«دار» بمعنى حافظ. والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس.

(٢) الأمير سيف الدين أسندمر كرجي: انظر ترجمته في: الوافي في الوفيات ٢٤٨/٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٥، الدرر الكامنة ١/ ٤١٤.

(٣) شادّ الدواوين: واسم الوظيفة: شد الدواوين، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقًا للوزير متحدثًا في استخلاص الأموال، وما في معنى ذلك، وعادتها إمرة عشرة (صبح الأعشى ٤/ ٢٣).

(٤) أستاذ الدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «إستذ» بهمزة مكسورة ومعناه الأخذ، والثاني: «دار» ومعناه الممسك، فأدمغت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار، ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال، وهناك إستادار الأملاك الشريفة، وإستادار الصحبة، وإستادار العالية، وإستادار المباشرة (انظر: صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠، ١٨٨، ٤٥٧، ٥/ ٤٥٧، ٨/ ٢٢، ٢١٨).

(٥) الأمير ركن الدين بيبرس الموفقي: انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٦، والدرر الكامنة ٢/ ٤٣.

(٦) فتح الدين أحمد بن البققي: انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١.

مع من شم رائحة الإيمان، ولا تخطر بباله، وشهد عليه جماعةٌ من الشهود، تزيد عدتهم على ثلاثين نفرًا، وثَبَتَ مضمونُ المحضرِ على قاضي القضاة زين الدين المالكي، فلما تكامل ذلك عنده أعذر إليه، فلما انقضت مدة الاعتذار حكم قاضي القضاة بإراقة دَمِهِ في عَشيَّة نهارِ الأحد الثالث والعشرين من شهر ربيع الأوّل، وجلس قاضي القضاة في بُكْرَة نهارِ الاثنين الرابع والعشرين من الشهر بالمدرسة الصَّالحية النجمية بين القصرين بالشُّبَّاك الكبير الأوسط، وحضر المجلس قاضي القضاة شمس الدين الحنفي وجماعةٌ من الأعيان والعُدُول، وأُحْضِرَ الفتحُ بن البققي من الاعتقال، وهو يستغيث ويعلن بالشهادتين، فقال له قاضي القضاة شمس الدين الحنفي: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: الآية ٩١] وقال قاضي القضاة زين الدين له: إسلامُك لا يفِيدُك عندي. ثم أمر بضَرْب عنقه، فتقدم إليه علاء الدين آقبرص الموصلي وضرب ضربتين في عنقه بالسيف؛ ضربةً بعد أخرى ولم يُخَلِّصْ رَقَبَته، ثم قطعها رجل من الضوية بسكين فأبان رأسَهُ عن بَدَنِه ورفع رأسه على عصا من عصى النادشتية، وسُحِبَ بدنُه إلى باب زويلة فصلب هناك، ثم دُفِن. وقال علاء الدين أقْبَرص الموصلي، وحلف بالله أنه رافق ابن البققي في سفرة سافرها من حماة، وأنه سمع منه ألفاظًا من الزندقة حتى هَمَّ مِرَارًا أن يضرب عنقه، ثم قدر الله قتله بسيف الشرع بيده، وما اختلف أحدٌ في فساد عقيدته.

وفي هذه السنة في شهر المحرم سقط بَرَدٌ ما بين حماه وحِصْنِ الأكراد، وفي بَعْضِه صُوَرٌ تُشبهُ صُوَرَ بني آدم من الذكور والإناث. وصورُ قرود وغيرها، وطُولِعَ السلطانُ بذلك.

ذكر توجّه العساكر إلى الصعيد للإيقاع بالعربان

كانت عرب الوجه القبلي بالديار المصرية قد كثر فسادُهم، وامتدت أيديهم، وقطعوا الطريقَ على المسافرين، واشتد طمعهم إثر وَقعةَ غَازان، فتوجه الأمير سيف الدين سَلَّار نائب السلطنة، والأمير ركن الدينِ بيبَرْس الجَاشنكِير وجماعةٌ كثيرةٌ من الأمراء بسبب ذلك في أوائل جمادى الآخرة، وانقسم العسكر على ثلاث فرق، فرقة في البر الشرقي، وفرقة في البر الغربي، وفرقة سلكت الحواجر من البر الغربي ممَا يلي الواحات، وضربوا على الوجه القبلي حَلقة كحلقةِ الصيد، وبَقي العربُ في وسطها، وأخذهم السيف من كل مكان، فتمهدت البلاد واطمأنت الرعايا، وزال الخوف وظهر الأمن بعد أن كان العرب قد كادوا يتجاهرون بالعصيان، وحملَ مِن

مَوْجُودِهم وسيقَ خمسةُ آلاف فرس وعشرون ألف جمل ومائة ألف رأس من الغنم، وعدةٌ كثيرة من الأبقار والجواميس والحمر، ومن السيوف والرماح عدةٌ كثيرة، وعاد العسكر في أواخر شعبان من السنة.

وفي هذه السنة رسم بتوجهي إلى دمشق المحروسة لمباشرة الأملاك السلطانية بالشام، وكتب توقيعي(١) بذلك في ثاني عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، وهو من إنشاء المولى الفاضل العابد الصالح بهاء الدين بن سلامة(٢) كاتب الدرج الشريف(٣) وخطِّهِ، وشمل الخط السلطاني الملكي الناصري، وتوجهت إلى دمشق في جمادى الآخرة، وفيه وصلت إلى دمشق وباشرت ما رسم لي بها، وهو أول دخولي إليها.

وفيها في يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى الأولى وصل إلى دمشق الصدرُ علاء الدين بنُ الصدرِ شرف الدين محمد بن القَلَانسي من بلاد التتار بَغْتَة، ووصل قبله رفيقُهُ شرفُ الدين بنُ الأثير، وقد ذكرنا أن التتار لما دخلوا الشام استصحبهما الوزيرُ معه، ثم هَرَبا وسَلِمَا بعد مشقة عظيمة كثيرة، وتوجّها إلى الديار المصرية في شهر رجب، وعادا وقد كتب في ديوان الإنشاء بدمشق.

وفي هذه السنة في رابع صفر تُوفّي السيدُ الشريفُ نجمُ الدين أبو نُمَيّ(٤)، وأبو مهدي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أمير مكة شرفها الله تعالى، وَلِيَ الإمارة بها نحوًا من أربعين سنة، وخلف من الأولاد واحدًا وعشرين ذكرًا،

---

(١) التوقيع: قال القلقشندي في صبح الأعشى ١/ ٨١، ٨٣: مرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها في صناعة الترسل، وأما تسميتها بالتوقيع، فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها، كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كتاب الدست ومن جرى مجراهم بما يعتمد في القضية التي رفعت القصة بسببها، ثم أطلق على كتابة الإنشاء جملة.

(٢) بهاء الدين بن سلامة: هو أحمد بن أبي الفتح محمود بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن فتيان، المعروف بالقطار، توفي سنة ٧٠٢ هـ (النجوم الزاهرة ٨/ ٢٠٣).

(٣) كاتب الدرج: هو الذي يكتب ما يوقع به كاتب السر أو كاتب الدست أو إشارة النائب أو الوزير، وسمّي كاتب الدرج لكتابته هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق، والمراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال. (صبح الأعشى ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٤) انظر ترجمته في: العقد الثمين ١/ ٤٥٦.

واثنتي عشرة بنتًا، وأربعَ نسوة، ولما مات وثب ولداهُ أسدُ الدين رَمَيْثَةُ[1] وعز الدين حُمَيْضَة[2] على أخَوَيهما عُطَيفَة[3] وأبي الغَيْث[4] واعتقلاهما، واستقلا بالأمر دونهما، واتفق في هذه السنة أن الأمير ركن الدين بِيبَرْس الجَاشنكير توجَّهَ إلى الحجاز هو وثلاثون أميرًا، فجاء هؤلاء وشكيا من أخويْهما، فأمْسَك حُمَيْضَةَ ورُمَيْثَةَ واعتقلهما لما صَدَرَ منهما من ذلك وغيره، ورَتَّبَ عُطَيْفَةَ وأبا الغيث في الإمرة بمكة، وأحْضَرَ حميضةَ ورميثة صحبته إلى الأبواب السلطانية، فاعْتقِلا مدة ثم أفْرِجَ عنهما.

وفيها توفي الشيخ الأصيل شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ شرف الدين أبي بكر عبد الله ابن شيخ الشيوخ تاج الدين أبي محمد عبد الله ابن شيخ الشيوخ عماد الدين أبي حفص عمر بن علي بن محمد بن حَمُّويَة الجُوَيْني[5] في يوم الاثنين سابع عشرين شهر ربيع الأول بالخانقاه السُمَيْسَاطِية بدمشق، ودفن من الغد بسفح قاسيون، وولي مشيخة الشيوخ بعده قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[6]، وذلك باتفاق من الصوفية وسؤالهم، فاجتمع له بدمشق قضاة القضاة، وخطابة الجامع الأموي، ومشيخة الشيوخ وغير ذلك من الأنظار والتدريس.

وفيها كانت وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد العباسي في ثامن عشر جمادى الأولى، وبويع ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمان، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار الخلفاء العباسيين.

وفيها توفي الأميرُ علاءُ الدين مُغْلَطَاي التقويّ المنصوريّ أحد الأمراء بدمشق في رابع وعشرين شهر رجب، وأَقْطِعَ خبرُه للأمير سيف الدين بَكْتَمرُ الحسامي أمير آخور[7]، وكان أخرج من الديار المصرية في هذه السنة لقربه من السلطان وخدمته له

---

(١) توفي سنة ٧٤٦ هـ (العقد الثمين ٤/ ٤٠٣). (٢) قتل سنة ٧٢٠ هـ (العقد الثمين ٤/ ٢٣٢).
(٣) توفي سنة ٧٤٣ هـ (العقد الثمين ٦/ ٩٥). (٤) قتل سنة ٧١٤ هـ (العقد الثمين ٨/ ٧٩).
(٥) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ١٧، والدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٥٦، والدرر الكامنة ٤/ ٤٨٢.
(٦) توفي سنة ٧٣٣ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨، شذرات الذهب ٦/ ١٠٥، البداية والنهاية ١٤/ ١٦٣، الوافي بالوفيات ٢/ ١٨، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٨).
(٧) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على اصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الاصطبلات، وأهم العاملين في الاصطبلات هو المسؤول عن الأعلاف والمسمى «بالسلاخور» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٤٧، =

وتمكنه منه، فَعُزِل من وظيفة أمير آخورية، ووليها الأميرُ عَلَم الدين سنجر الصالحي، ووصل الأمير سيف الدين بَكْتَمرُ إلى دمشق بغير إقطاع، فلما مات التَقْوى أنْعَم عليه بإقطاعه، ثم كان من أمره وتَنَقُّله ما نذكره.

وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام الشهيد شرف الدين أبي الحسين علي ابن الشيخ الحسن الإمام العلّامة الحافظ تقي الدين أبي عبد الله محمد بن اليُونِينِيّ الحنبلي(١) ببعلبك في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان في الساعة الثامنة من النار شهيدًا. وسبب ذلك أنه دخل في يوم الجمعة خامس الشهر إلى خزانة الكتب التي بمسجد الحنابلة ببعلبك ليَعْزِلَ كُتُبَهُ مِن كتب الوقف وعنده خادمه الشُّجَاع، فدخل عليه فقيرٌ اسمه موسى غير معروف بالبلد - قيل إنه مصري - فضربه بعصًا على رأسه عدّةَ ضربات، ثم أخرَج سكينًا صغيرة فجرحه في رأسه، فاتقى بيده، فجرحه في يده، ثم مُسِكَ ذلك الرجل وحمل إلى متولي بعلبك فَضُرِب، فصار يظهر منه الاختلال في الكلام، فحبس.

وأما الشيخ فحمل إلى داره، وتحدَّث معه أصحابه على عادته، وأتَمَّ صوْمَ يومه ثم حُمَّ واشتد به المرضُ فمات في التاريخ المذكور، وجاوز الثمانين سنة رحمه الله تعالى روي عن جماعة منهم ابن الزَّبيدي، وإليها عبد الرحمـٰن وابن اللَّتِّي، والإرْبَلِي، وجعفر الهمذاني، وابن رَوَاحة، وابن الجُمَّيْزِيّ وغيرهم واجتهد في خدمة الحديث النبويّ وأسمعه كثيرًا، واعتنى بصحيح البخاري من سائر طُرُقِهِ، وحرّر نسخته تحريرًا شافيًا، وجعل لكل طريق إشارة، وكتب عليه حواشي صحيحةً، وقد نقلت صحيح البخاري من أصله مِرَارًا سبعةً، وحرّرْته كما حرَّرَه وقابلت بأصله وهو أصلٌ سَمَاعِيّ على الحَجّار ووَزِيرَة.

وفي هذه السنة توفي الأمير علم الدين سِنْجَر أرْجَوَاش المنصوري نائب السلطنة بقلعة دمشق، وكانت وفاته في ليلة السبت ثاني عشرين ذي الحجة ودفن بسفح قاسيون وكانت له آثار جميلة في حفظ قلعة دمشق لَمّا ملك التتارُ دمشق، وبسبب حفظها حُفِظَتْ سائرُ القلاح بالممالك الشاميّة، وخلّفَ من الورثة أربع بنات وابن مُعْتِقِهِ السلطان الملك الناصر، وترك دُنْيَا عريضةً، ولما مرض أحضَرَ قاضيَ

= تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ١١).

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/١٩٨، البداية والنهاية ١٤/ ٢٠، الدرر الكامنة ٣/ ٩٨.

القضاة بدر الدين وجماعة من أكابر العدول، وأشهدهم على نفسه أن مجموع ما يَخْلُفُه من الذّهب أربعة عشر ألف دينار ومائتي دينار وستة وستين دينارًا مصرية. وأربعين ألف دِرْهم وحوايص[(١)] ذهب وكلوتات[(٢)] زركش منحوا ألفي دينار، ووقع الإشهاد عليه في سابع عشر ذي الحجة وأعتق مماليكه، وأوصى بحجة وصدقة وفَكّ الحَجْرِ عَن بناته، وأسند وصيَّته إلى خوشداشه[(٣)] الأمير سيف الدين بَلَبَان الجُوكُنْدَار. ولما مات كنت ممن حضر تَركَتَه، واحتوت على أشياء كثيرة، كان فيها من القسِيِّ الحلق ما يزيد على ستمائة قوس، وكثير من الأقمشة والعُدَد والسلاح والأصناف فبيعت الأصنافُ وقُسِّمَتْ بالفريضة الشرعية، وأمْضَى السلطانُ وَصِيَّتَه - أثابه الله تعالى.

واستهلت سنة اثنتين وسبعمائة

في هذه السنة وصل رُسُلُ غازان ملك التتار إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل في ليلة ثاني المحرم، فقُرِئَتْ كتبهم، وسمعت مشافهتهم، وكتب الجواب السلطاني إلى مرسلهم، وأمر السلطانُ بعَوْدِهم فعادوا من الديار المصرية وجَهَّزَ السلطانُ إلى جهتِه الأميرُ حُسام الدين أزْدَمُر المُجيريَّ[(٤)]، والقاضي عمادَ الدين بنَ السكَّرِيّ[(٥)] فوصلوا إلى دمشق في ليلة الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الأوّل، وكان خروجهم من القاهرة في عاشر الشهر، وأقاموا بدمشق ثلاثة أيام، وتوجهوا واجتمعوا بغازان،

---

(١) الحوايص: جمع حياصة، وهي الحزام أو المنطقة، وهي في الأصل السير الذي يشد به حزام سرج الحصان، وفي زمن الناصر محمد وصلت قيمة الحياصة إلى ثلاثمائة دينار، وعملت من خالص الذهب، وكثيرًا ما كانت ترصع بالجواهر، وكان السلطان يفرق منها كل سنة عددًا وافرًا (الخطط التوفيقية ص ١٣٨).

(٢) كلوتات: جمع كلوتة، وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة وتسمّى: كلفة وكلفتاة وكلفته، استحدث لبسها في مصر سلاطين الأيوبيين، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم وذوائب شعورهم مرخاة تحتها... (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٨٨).

(٣) الخوشداس، وخشداش: كلمة فارسية الأصل، أصلها «جوجاناش» ومعناها: الزميل في الخدمة.

(٤) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٥.

(٥) هو علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن، عماد الدين، توفي سنة ٧١٣ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ٣٢).

ومنعهم من العود بسبب الوقعة الكائنة التي نذكرها إن شاء الله تعالى، واستمروا ببلاد التتار إلى أن هلك غازان وعادُوا في أيّام خَرْبَنْدَا[١].

ذكر فتح جزيرة أرواد

وفي المحرم من هذه السنة جهزت الشواني[٢] من مصر إلى جزيرة أرواد وهي جزيرة تقابل مدينة انطرسوس، وكان قد اجتَمع بها جمع كثيرٌ من الفرنج وسكنوها وأحاطوا بها سورًا وحصنوها، وبَقِيتْ مَضَرّة على أهل ساحل طَرَابُلُس فجُهِّزَت الشَّواني لقصدها صحبة الأمير سيف الدين كُهُرْدَاش الناصري، وجُرِّدَ من كل أمير جُنْدِيٌّ، ورسم لكل أمير أن يجهز جُنْديّة بما يحتاج إليه، فكان ممن جُهِّزَ من أصحابه الأميرُ جمال الدين آقُشُ العلائي فامتنع من تجهيز جُنْديّة، فكشَاه الجندي إلى الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة، فأرسل إليه نَقيبًا يأمُرُه بتجهيزه، فشتَم الجنديَّ وضَرَبه، فعاد إلى نائب السلطنة وأخبَره، فَغَضبَ وطلبَ آقُشُ وألْزَمَه بالسَّفَرِ عِوَضًا عن الجنديّ، فتوجه وسُلِّمَ إليه شَاني ورَكبَ فيه، ولعبت الشواني فانقلب الشيني الذي فيه آقُش فغرق، ومَرّ الشاني على الصناعَة وهو مقلوب؛ فتطيَّرَ الناس بذلك وظَنُّوا أن هذه الشواني لا تَفْتَحُ شيئًا، فقال بعض أهل الدين والخير: هذا أوّلُ الفتح بِغَرَقِ آقُش، وكان آقُش هذا ظالمًا عَسُوفًا قبيحَ السيرة، فكان ذلك أوّل الفتوح كما قال، وأصْلِحَ الشاني وتوجَّهت الشَّواني إلى الجزيرة، وجَهَّزَ الأميرُ سيف الدين أَسَنْدَمُر الكُرْجي نائب السلطنة بالفتوحات مَرْكَبًا فيه جماعةٌ من الجند، وتوجّه هو بالعسكرِ الطَّرَابُلْسيّ. ونَزَل قُبَالة الجزيرة بالبر الشرقي، وتوجهت الشواني بالعسكر إليها، فَفُتِحَتْ في يوم الأربعاء ثاني صفر، وقُتِلَ مَن كان بها من الفرنج، وأُسِرَ من بقي، وكان القتلى نحو ألفين، والأسرى نحو خمسمائة، وغنم العسكرُ جميعَ ما بالجزيرة، وجُهِّزَت الأسرى إلى الأبواب السلطانية صحبة الأمير فلان الدين فلان الإبراهيمي من أمراء طَرَابُلْس، فوصلوا إلى دِمَشق في يوم الاثنين حادي عشرين صفر، وفرق بعضهم في القلاع بالشام.

---

(١) خربندا: هو ملك التتار.

(٢) الشواني: جمع شينية، وشونة: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (القاموس المحيط ٤/ ٢٤٣، مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٠٧).

ذكر وفاة قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد(١) وتفويض القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة(٢)

وفي يوم الجمعة حادي عشر صفر توفي شيخنا قاضي القضاة تقي الدين بقية المجتهدين أبو الفتح محمد ابن الشيخ الزاهد العالم مجد الدين أبي الحسن علي بن وهَبْ بن مُطِيع بن أبي الطاعة القشيري المعروف بابن دقيق العيد، والذي جَرَى عليه هذا اللقب هو وهب جَدهُ، وذلك أنه لبس في يوم عيد ثيابًا بيضًا، فرآه جماعة من أهل الريف، فقال قائل منهم: كأن ثيابَه دقيقُ العيد، فلزمه هذا اللقب واشتهر به وكانت وفاته ببستانٍ بظاهر القاهرة بقرب باب اللوق بعد صلاة الجمعة، وحمل يوم السبت وصلّى عليه تحت القلعة وكانت جنازته مشهودة، ودفن بترتبه بالقرافة، ومولده يوم السبت خامس عشرين شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة بساحل يَنْبُع من أرض الحجاز، ونشأ بمدينة قوص، وتفقَّه بها على أبيه وبرع، وكان من أجل من رأينا ديَانَةً وعِلْمًا ووَرَعًا وتَقَشُّفًا، وكان شديد الاحتراس من النجاسة حتى أفرط به ذلك وانتقل من مدينةِ قوص إلى القاهرة، وله رحلةٌ إلى دمشق بعد سنة ستين وستمائة، وولي مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وولي غير ذلك. ثم فوّض إليه قضاء القضاة كما تقدم فوليه، ثم عزل نَفْسَه فسئل العودَ، فامتنع من القبول، وحضر إليه أكابر الأمراء بسبب ذلك وهو يمتنع، فتحيَّل بَعضُ أولاده عليه بأن قال له: إنه قد عُيِّن

(١) ابن دقيق العيد: هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري القوصي، المعروف بابن دقيق العيد المنفلوطي الحافظ، تقي الدين أبو الفتح المصري المالكي ثم الشافعي الفقيه المحدث، نزيل القاهرة، ولد سنة ٦٢٥ هـ، وتوفي سنة ٧٠٢ هـ، من تصانيفه: «الأحكام في شرح حديث سيد الأنام»، «شرح عمدة الأحكام»، «شرح العمدة للشاشي في الفروع»، «شرح عيون المسائل لابن سهل الفارسي»، «شرح مقدمة المطرز في الأصول»، «شرح منتهى السؤال والأمل لابن الحاجب»، «عقيدة مشهورة» وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ١٤٠).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني، بدر الدين، أبو عبد الله الحموي الشافعي، قاضي القضاة بمصر، ولد سنة ٦٣٩ هـ، وتوفي سنة ٧٣٣ هـ. من تصانيفه: «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»، «التبيان لمهمات القرآن» «تجنيد الأجناد وجهات الجهاد»، «تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام»، «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم»، «التنزيه في إبطال حجج التشبيه»، «حجة السلوك في مهاداة الملوك»، «غر التبيان في تفسير القرآن»، «كشف الغمة في أحكام أهل الذمة»، «مستند الأجناد في آلات الجهاد»، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٤٨).

للقضاء عز الدين بن مسكين إن أصررت على الامتناع، فقال: الآن وَجَبَ عَليَّ قَبول الولاية. فقبلها وعاد، وهو الذي نقل خِلَعَ القضاة من الحرير إلى الصوف، وكان يُخْلَع على القضاة قبلَه الحريرُ الكنجي والصمت وله رحمه الله تعالى فضائل كبيرةٌ، ومناقب جمةٌ مشهورة شَهِدَها وعَلِمَها من رآه. وهي أشهر من أن يأتي عليها، وأكثر من أن نسردها.

ولما توفي اجتمعت الآراءُ على ولاية قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن جماعة الشافعي، وهو يومئذٍ قاضي القضاة بالشام، وخطيب الجامع الأموي، وشيخ الشيوخ، فبرزت المراسيمُ بطلبه، وتوجّه البريد لإحضاره، فوصل البريد إلى دمشق في يوم الخميس سابع عشر صفر وتوجّه قاضي القضاة بدر الدين إلى الديار المصرية في يوم السبت تاسع عشر الشهر على خيل البريد، ووصل إلى القاهرة في يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول، وخُلِعَ عليه على عادة الشيخ تقي الدين، وفوّض إليه القضاء بالديار المصرية، وجَلَسَ للحكم في يوم السبت رابع الشهر وأنعم عليه ببغلة من الإسطبلات السلطانية، وفرقت جهاته بدمشق، ففوض قضاء القضاة بالشام لقاضي القضاة نجم الدين أبي العباس أحمد بن صَصْرَى[(١)] وكتب تقليده في عاشر جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعمائة، وقرىء تقليده في يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر بمقصورة الخطابة بجامع دمشق بحضور نائب السلطنة الشريفة، ثم جلس في الشباك الشمالي بالجامع وقرىء ثانيًا.

ووُلِّي الخطابة والإمامة لجامع دمشق الشيخُ نجم الدين عبد الله بن مَرْوَان الشافعي الفَارِقي[(٢)]، وخطب في يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور.

وولي مشيخة الشيوخ القاضي جمال الدين الزَّرْعِي[(٣)] ولم تتم الولاية، ثم ولي ذلك الخطيب ناصر الدين أحمد ابن الشيخ بدر الدين يحيىٰ ابن شيخ الإسلام عز

---

(١) أحمد بن صصري: هو أحمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن الحسن الربعي، ابن صصري، نجم الدين الدمشقي، توفي سنة ٧٢٣ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٥٨، شذرات الذهب ٦/٥٨، طبقات الشافعية للسبكي ٩/٢٠، الدرر الكامنة ١/٢٨٠، فوات الوفيات ١/١٢٥).

(٢) توفي سنة ٧٠٣ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٨، طبقات الشافعية للسبكي ٦/١٠٧، مرآة الجنان ٤/٢٣٩، البداية والنهاية ١٤/٣٠، الدرر الكامنة ٢/٣٠٤).

(٣) جمال الدين الزرعي: هو سليمان بن عمر بن عثمان الزرعي، جمال الدين، توفي سنة ٧٣٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/٣٠٤، البداية والنهاية ١٤/١٦٧، الدرر الكامنة ٢/١٥٩، طبقات الشافعية للسبكي ٦/١٠٥).

الدين عبد العزيز بن عبد السلام[١] في يوم السبت ثالث شعبان، ثم اجتمع الصوفية في يوم الجمعة سادس شوال، وحضروا إلى نائب السلطنة في الشباك بالجامع، وسألوا أن يولى عليهم الشيخ صفي الدين محمد الأرموي المعروف بالهندي[٢]، فأجيبوا إلى ذلك وولي عليهم في التاريخ المذكور.

وفي هذه السنة ولي الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس التَّلاوِيّ شاد الشام وأستاذَ دَارِيَّهِ عوضًا عن الأمير سيف الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار، وخلع عليه في يوم الخميس العشرين من جمادى الأولى، ونقل الأمير سيف الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار المنصوري إلى نيابة السلطنة بقلعة دمشق، عوضًا عن الأمير عَلَم الدين سَنْجَر أرجواش، وكان بالقلعة في هذه المدة الأمير سيف الدين بَلَبَان السَّنْجَرِي، فخرج منها، وانتقل إليها الأميرُ سيفُ الدين الجُوكُنْدَار في الخامس والعشرين من الشهر.

وفيها في جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطان بالشام كتابٌ كُتِبَ على لِسَان قُطُز أحد مماليك الأمير سيف الدين قبجق مضمونهُ فُضولُ نصيحة، منها: أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية[٣] وقاضي القضاة شمس الدين ابن الحريري[٤] يكاتبان مخدومه، ويؤثران أن يكون نائب السلطنة بالشام، وأن القاضي كمال الدين العطار[٥]، وكمال الدين بن الزملكاني[٦] كاتب الإنشاء يطالعانه بالأخبار، وأن

---

(١) توفي سنة ٧٠٩ هـ (انظر: البداية والنهاية ١٤/ ٥٦).

(٢) توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الشافعية ٥/ ٢٤٠، الدرر الكامنة ٤/ ١٤، البداية والنهاية ١٤/ ٧٤، شذرات الذهب ٦/ ٣٧).

(٣) تقي الدين ابن تيمية: هو شيخ الإسلام أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن تيمية، الحافظ، تقي الدين، أبو العباس الحراني، ثم الدمشقي الحنبلي، الفقيه المحدث، ولد سنة ٦٦١ هـ، وتوفي سنة ٧٢٨ هـ، له العشرات من المصنّفات (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٥ ـ ١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١، شذرات الذهب ٦/ ١٨٠، فوات الوفيات ١/ ٣٥، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، الوافي بالوفيات ٧/ ١٥، دول الإسلام ٢/ ١٨٠).

(٤) شمس الدين ابن الحريري: هو محمد بن عثمان بن أبي الحسن، المعروف بابن الحريري الأنصاري الدمشقي، شمس الدين الحنفي، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، من تصانيفه «شرح الهداية للمرغيناني» في الفروع. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٧، شذرات الذهب ٦/ ٨٨، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٨، الدرر الكامنة ٤/ ١٥٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٩٠).

(٥) كمال الدين العطار: هو أبو العباس أحمد بن أبي الفتح محمود الشيباني، كمال الدين، المعروف بابن العطار، سيرد المؤلف ذكر وفاته في وفيات سنة ٧٠٢ هـ.

(٦) ابن الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين أبو=

جماعة من الأمراء في هذا الأمر، حتى ذكر جماعةً من مماليك نائب السلطنة وخواصه.

فلما قرأ الكتاب استراب به، وأطلَعَ عليه بعضَ الكُتَّاب، وأمره بالفكرة فيمن اختلقه، فوقع الحَدْس على فقير يعرف باليَعْفُورِي كان ينسب إلى فُضُول وتزوير، فَمُسِكَ فَوُجِدَ معه منشورةٌ بالكتاب، فَضُرِبَ فأقرَّ على إنسان يعرف بأحمد القَبَّاري، فأخِذَ وضُرِبَ فاعترف على جماعة، وأنّ الذي كتب الكتاب التاجُ بنُ المنَادِيليّ الناسخُ، فلما كان في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة جَرَّسوا الثلاثة بدمشق، ثم أخْرِجُوا إلى سوق الخيل، فأمر نائب السلطنة الأميرُ جمال الدين آقُش الأفْرَم أن يُوَسَّطَ القَباريُّ واليَعفورِيّ فَوُسِّطَا، وقطعت يَدُ ابنِ المناديلي الناسخ.

وفي هذه السنة ظهر بنيل مصر دابة عجيبة

وهي التي تسمى فرس البحر، وكانت تطلع إلى البَرّ وتَرْعَى البرسيم ثم تعودُ إلى البحر، فلما كان في يوم الخميس رابع جمادى الآخرة صِيدَت ببلاد المنوفية. وصفتها أن لونها لون الجاموس، وهي بغير شعر، ولها آذان كآذان الجمل، وفرجٌ مثلُ فرج الناقة تغطيه بذنب طوله شبر ونصف، طرفه كذنب السمك، ورقبتها في غلظ التليس المحشو، وفمها وشفتاها كالكربال[(١)]، ولها أربعة أنياب طول كل ناب دون شبر في عرض أصبعين، وفي فمها ثمانية وأربعون ضرسًا ونابًا وسنًا مثل بيادق الشطرنج، وطول بدنها من بطنها إلى الأرض نحو الذراع، ومن ركبتها إلى حافرها يشبه بطن الثعبان أصفر مجعد، ودور حافرها مثل الأسكرجة[(٢)] بأربع أظفار كأظافير الجمل وعرض ظهرها تقريبًا تقدير ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدمًا، ووجد في بطنها ثلاثة كروش، ولحمها أحمر زفر كزفرة السمك وغلظ

= المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملكاني ولد سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، له من التصانيف: «البرهان في إعجاز القرآن»، «تحقيق الأولى من أهل الرفيق الأعلى»، «الدرة المضية في الرد على ابن تيمية»، «دلائل الإعجاز»، «شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر»، «عجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب»، «المنهاج في تعلقات الإيلاج» في علم الباه، «وفيات الأعيان» في التاريخ والتراجم. (كشف الظنون ١٤٦/٦).

(١) الكربال: كلمة فارسية، الأصل، وتعني القوس الذي يندف به القطن (المعجم الوجيز ص ٥٣٠).

(٢) الأسكرجة: إناء صغير توضع فيه الكوامخ ونحوها من المشهيات على المائدة (المعجم الوجيز ص ١٧).

جلدها أربع أصابع ما تعمل فيه السيوف، ولما صِيدَت سلخ جلدها وحُمِل إليّ بين يدي السلطان بقلعة الجبل، وتَبَدَّلَ على حمله لثقله خمسةُ أجمال، فلا يستطيع الجَمَلُ أن يحمله أكثر من ساعة، ولما صار بين يدي السلطان حُشِيَ تِبْنًا، وأقيم بين يديه، وهذا الحيوان لم يعهد ببحر النيل بمصر وإنما هو موجود ببلاد النُوبَة، وأهل النوبة يتخذون من جلدةِ سِيَاطًا، يسوقون بها الجمال، وهي سياط سُودٌ إذا دُهِنَت بالزَّيْت لا تكادُ تنقطع والله أعلم.

ذكر وصول غازان ملك التتار إلى الرحبة ومحاصرتها، وانصرافه عنها، وتجريد عساكره إلى الشام، ووقعة عُرْض

في هذه السنة تواترت الأخبارُ بحركة التتار، فأخذ السلطان في الاستعداد والتأهب للقائهم، ورسم للأمراء أن يستخدم كل أمير نظيرَ الرُّبْعِ من عُدَّتِه من ماله، ووصل غَازَانِ إلى الرَّحْبَة بجيوشه، ونازلها بنفسه وعساكره، وكان النائبُ بها الأميرُ عَلم الدين سَنْجَر الغتمي، فخرج إليه بالإقَامَات، وقال له: هذا المكان قريب المأخذ، والملكُ يَقْصِدُ المُدْنَ الكِبَار، فإذا مَلَكْتَ البلادَ التي هي أمَامَك فنحنُ لا نمتنع عليك. فأخذ ولدَه ومملوكَه رَهْنًا على الوفاء بذلك؛ فرحل عنها، ثم عاد إليها وجَرَّدَ نائبَهُ قُطْلُوشَاه في اثني عشر تُمَانا[١]، وأمره بقصد الشام، وعاد غازان إلى بلاد الشَّرْق.

وأما العسكر الشامي فإن عسكر حَلَب جَمَعَهُ الأميرُ شمس الدين قَرَاسُنْقُر، والعسكرُ الحمويُّ مع الأمير زين الدين كَتْبُغَا المُلَقَّب بالعادل وعسكر الساحل مع الأمير سيف الدين أَسَنْدَ مُركُزجي، وجماعة من عسكر دمشق مع الأمير سيف الدين بَهَادُر آص والأمير سيف الدين أَنَص الجَمَدَار ونزلت هذه العساكر بالقُرْبِ من حماه، وجاءت طائفةٌ من التتار للإغارة فوصلوا إلى القريتين وبها جمعٌ من التركمان بحريمهم وأولادهم وأغنامهم فأوقع التتارُ بهم ونَهَبُوهم، واتصل خبرهُم بالأمير جمال الدين آقُش الأفرم نائب السلطنة بالشام؛ فجرد طائفةً من عسكر الشام صحبة الأمير سيف الدين قُطْلُبَك المنصوري، وركب معه الأمير ثابت بن يزيد، وتوجّهوا جَرَائِدَ إلى القريتين فوجدوا التتارَ قد فارقوها، فعادوا ولم يظفروا بهم، واتّصَلَ خبرُ هذه الطائفة من التتار بالأمراء المقيمين على حَمَاه؛ فانتدب لذلك الأميرُ سيفُ الدين أسَنْدَ مُركُزجي نائب السلطنة بالفتوحات، وانتُدِبَ معه من عسكر حَلَب الأميرُ سيفُ الدين

(١) تمان: هو التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، وأمير تومان: هو أمير عشرة آلاف، ويسمى النوين (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

كُجْكُن، ومن عسكر الشام الأمير سيف الدين بَهَادُرْ آص والأمير سيف الدين أَنَص الجمدار[١] والأمير سيف الدين أغِزْلُوَ من عسكر حماه، ومن انضم إليهم، وتوجَّهوا في ألف فارس وخمسمائة فارس لا يزيد على ذلك وساقوا في البَرِيَّة إلى مكان يسمى عُرْض لِقَصْد هذِهِ الطائفة من التتار، فتوافوا بها - وعدة التتار عشرة آلاف من المغل - فلما شاهدهم التتارُ أطلقوا من كان معهم من التركمان وحريمهم ومواشيهم؛ ليشغلوا العسكر بهم، فلم يُعَرِّجْ العسكَرُ عليهم، وحملوا على التتار حملة رجلٍ واحدٍ، واقتتلوا أشد قتال فنصر الله جيشَ الإسلام، وقتلوا من التتار خلْقًا كثيرًا، وفَرَّ مَن بقي منهم، وذلك في عاشر شعبان من هذه السنة، وكانت هذه الوقعة مقدمة النصر، واسْتُشْهِدَ في هذه الوقعة الأميرُ سيفُ الدين أنص الجَمَدَار، ومن أمراء دمشق. وحضر إلى دمشق جماعةٌ أُسِرُوا من أعيان التتار في يوم الخميس منتصف شعبان. هذا ما كان بالشام.

ذكر توجّه السلطان الملك الناصر من الديار المصرية بالجيوش الإسلامية إلى الشام، والوقعة بمَرْجِ الصُّفَر، وانهزام التتار

قد ذكرنا اهتمام السلطان واحتفاله وما رسم به من الاستخدام، ثم جَرّد العساكِرَ من مُدُنِه يتلو بعضُها بعضًا، فوصلوا إلى دمشق. فأوّل مَن وصل منهم الأميرُ رُكنُ الدين بِيَبْرس الجَاشنكِير، والأميرُ حسام الدين لاجين الرّوميّ والأميرُ سيفُ الدين كَرَاي المنْصُورِيّ، والأمير ركنُ الدين بِيبَرْس الدَّوَادَار ومُضَافِيهم في يوم الأحد ثامن عشر شعبان. ثم وصل الأميرُ بدر الدين بَكْتَاش الفَخْرِيّ أمير سلاح، والأمير سيف الدين بَكْتمر السِّلَاحْ دَار[٢]، والأميرُ عز الدين أَيْبَكَ الخزَنْدَار[٣] المنصوري، والأميرُ

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين: أحدهما: «جاما» ومعناه: الثوب، والثاني: «دار» أي ممسك. وأصل الكلمة: جامادار. وكانت تستعمل في العصرين السلجوقي والمملوكي، ويقابلها في العصر العثماني لفظ «الجوخدار» وهو موظف غير عسكري يناط به النظر في شؤون ملابس السلطان (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٧١، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٠).

(٢) السلاح دار: هو حامل السلاح، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٥٤ - ٥٥٥: حمل السلاح حول الخليفة في المواكب، وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبصبيان الركاب الخاص أيضًا، وهم الذين يعبر عنهم في زماننا بالسلاح دارية.

(٣) الخازندا: هو صاحب وظيفة الخازندارية، وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، وكانت عادتها طبلخاناه، ثم استقرت تقدمة ألف. (صبح الأعشى ٤/ ٢١).

بهاء الدين يَعْقُوبَا، ومضافيهم، واستقلّ ركابُ السلطان من قلعة الجبل في ثالث شعبان.

وأما التتار الذين سَلِمُوا من وقعة عُرْض فإنهم الْتَحقُوا بقُطلُو شاه وأخبروه أن السلطان لم يخرج من الديار المصرية، وأنه ليس بالشام غير العسكر الشامي؛ فأقبل قُطْلُوشاه بعسكر التتار. فتأخَّرَت الجيوشُ التي بحماه، ونزلوا بالمَرْج بدمشق، ثم اجتمع الأمراءُ الذين بدمشق من العساكر المصرية والشامية، واتفقوا على أن يتأخروا عن دمشق إلى نهر الصُفَّر ويقيموا به إلى أن يصل السلطانُ بعساكر الديار المصرية، بعد أن كانوا اتفقوا على لقاء العدوّ التتار إنْ تَأخَّرَ السلطانُ، ونقلوا حريمَهم إلى قلعة دمشق، ثم لم يَرَوْا ذلك ووَصَلَ الجيشُ الذي كان بالمَرْجِ، ونزلوا بأجمعهم بميدان الحَصَا في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شعبان، واخْتَبَطَ الناسُ بدمشق وجفلوا من الحواضر والقرى إليها، وخرج أكابر أهل دمشق وأعيانها في هذا اليوم منها فمنهم من التحق بالحُصُون، ومنهم من توجّه إلى نحو الديار المصرية، وكنتُ يومَ ذاك بدِمَشْق فخرجْتُ منها بعد أن أعْدَدْتُ لأمة الحربِ، والتحقتُ بالعسكر ووجدتُ الجُفَّال قد ازدحموا بالأبواب زِحَامًا شديدًا، وذُهِلُوا عن أموالهم وأولادهم، وَوَصَلْتُ بعد المغرب إلى منزلة العَسْكَرِ بميدان الحصا، فوجدتهم قد توجَّهُوا إلى مَرْجِ الصُفَّرِ، فلحقتُ الجيوشَ في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر - وهو سلخه، وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة.

فلما كان في ليلة السبت المُسْفِرَةِ عن ثاني شهر رمضان دَارَتْ النُّقَبَاءُ على العساكر، وأخبروهم أن العَدُوّ قد قَرُبَ منهم، وأن يكونوا على أهْبَةٍ واستعداد في تلك الليلة، وأنه متى دهمهم العَدُوُّ يَرْكَبوا خُيولهم، ويكون الاجتماع عند قرية المجَّة بقُرْب خَرِبَةِ اللصوص فبتنا في تلك الليلة وليس منا إلا مَنْ لبس لأمةَ حربه، وأمسك عنان فرسه في يده، وتساوى في ذلك الأميرُ والمأمورُ، وكنتُ قد رافقتُ الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي البَيْسَرِيّ أحدُ أمراء الطبلخانات[١] بدمشق، لصُحْبةٍ كانت بيني وبينه، فلم نَزَلْ على ذلك وأعنةُ خَيْلِنَا بأيدينا حتى طلعَ الفجرُ فَصَلَّينا ورَكِبْنَا، واصْطَفَّت العساكرُ إلى أن طلعت الشمسُ وارتفع النهارُ في يوم السبت المذكور، ثم أرسل الله مَطَرًا شديدًا نحوَ ساعتَيْنِ ثم ظهرت الشمسُ، ولم نَزَلْ على خُيولِنَا إلى وقت الزَّوَالِ، وأقبل التتارُ

---

(١) أمراء الطبلخانات: الطبلخاناه، معناه: بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبوال وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم (صبح الأعشى ٤/ ١٣).

كَقِطَعِ اللّيلِ المُظْلِم، وكان وصولهم ووصولُ السلطان بالعساكر المصرية في ساعة واحدة.

ذكر خبر المصاف وهزيمة التتار

كان المصاف المبارك في يوم السبت ثاني شهر رَمَضَان المعظّم سنة اثنتين وسبعمائة، وهزيمةُ التتار في يوم الأحد بعد الظهر، وذلك أن السلطان الملك الناصر - قرن الله مساعيه بالظفر، وحَكّم مرهفاته في رقاب من طغى وكفر - حالَ وصولهِ إلى مَرْج الصُفّر بالقُرْب من شَقْحَب تولى تَرْتِيبَ عساكره فوقف - خلّدَ الله سلطانه - في القلب وبإزائه الخليفةُ أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان، وفي خدمته الأميرُ سيفُ الدين سَلّار نائبه، والأميرُ ركنُ الدين بِيْبَرس الجَاشنكِير أستاذ الدار، والأمير عز الدين أَيْبَك الخَزِنْدَار المنصوريّ والأميرُ سيفُ الدين بَكْتَمُرُ الجُوْكَنْدَار أمير جَنْدَار[1]، والأميرُ جمال الدين أَقُش الأفرم نائب السلطنة بالشام، ومُضَافِيهم، والمماليكُ السلطانية هؤلاء في القلب.

ووقف في الميمنة الأمير حسامُ الدين لاجين الرُّومِي أستاذ الدار، والأميرُ جمال الدين أَقُش المَوْصِلِيّ أمير علم[2] المعروف بِقَتّالِ السَّبْع، والأميرُ جمال الدين يعقوب الشَّهْرَزُورِيّ، والأميرُ مُبَارِزُ الدين أَوْلِيَا بن قَرَمَان ومُضَافِيهم، وفي جناح الميمنة الأميرُ سيفُ الدين قَبْجَاق، والعُرْبَانُ أجمع - والله أعلم.

ووقف في الميسرة الأمير بدرُ الدين بَكْتَاش الفَخْري أمير سلاح، والأميرُ شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوري نائب السلطنة بالمملكة الحلبيّة، والأميرُ سيفُ الدين أَسَنْدَ مُركُرْجي نائب السلطنة بالفتوحات، والأميرُ سيفُ الدين بَتْخَاص نائب المملكة الصفدية، والأميرُ سيفُ الدين بَكْتَمُر السِّلَاحْ دَار، والأميرُ سيفُ الدين طُغْرِيل الإيغاني والأمير ركنُ الدين بِيبرس الدَّوَادَار المنصورِيّ، والأمير ركن الدين بيبرس الموفقي، وغيره من مقدمي أمراء الشام، وكنت في المَيْسَرَةِ. وأما غير هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمراء مقدمي الألوف من العساكر المصرية وغيرها فلم أتحقق مواقفهم فأذكرها.

---

(١) أمير جاندار: تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(٢) أمير علم: هو صاحب وظيفة إمرة العلم، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثًا على الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفًا بأمرها، وعادتها إمرة عشرة (صبح الأعشى ٤/ ٢٣).

وأقبل التتار وفيهم من مقدمي التمانات قُطْلُوشَاه، وقُرمُشِيّ بن الناق، وسُوتَايْ، وجُوبَان بن تَدَاوُن، وأَقْطَاجي، وبُولاي، وطُوغَان، وسياومي بن قُطَلُوشاه، وطُغْرِيل بن أجاي، وأَبَشْقَا، وأولاجْقَان، وأَلْكَان وطَيْطَق، وهم في مائة ألف من المغُول والكُرْج والأرمن وغيرهم. ولما جاوزوا منزلة الكُسْوَة طَلبُوا تحتَ الجَبلِ المسمى كَنَف المصري، وحملوا على المَيْمَنَةِ فَصَدَمُوها بمعظم جُمُوعِهم؛ فاضطربَتْ وقاتل من بها قتالًا شديدًا، فاستُشْهِدَ الأميرُ حُسَام الدين الرُّومِيّ، والأميرُ مُبَارِز الدين أولِيَا بن قَرَمَان، والأميرُ شمس الدين سُنْقُر الكافُري، والأمير جمال الدين أقُش الشمسي الحاجب، والأميرُ عز الدين أيْدَمُرْ النقيب، والأمير عز الدين أيْدَمُر الرّفا، والأمير عز الدين أيْدَمُر الشمسي القشاش، والأمير علاء الدين علي بن داود التركماني والأمير حُسَام الدين علي بن بَاخِل، ونحو ألف فارس من مماليك الأمراء وأجنادهم، وانهزم بعض الأمراء، فكانَ منهم: الأميرُ سيفُ الدين بُرُلْغي الأشرفي. فأردف السلطانُ الميمنةَ بالقَلْبِ حتى رَدَّ التتار.

وأما المَيْسَرَةُ فقاتلها بُولَاي في حماية من التتار، فلم تكن لهم طاقة بملاقاة مَن فيها من الجيوش؛ فهرب بُولَاي في هذا اليوم بعد العصر في نحو عشرين ألف فارس من غير طائل قتال، وتبعهم بعضُ الجيش الإسلامي وعادوا، ثم حجزَ الليلُ بين الفريقين، فلجأ التتارُ إلى الجبل، وأضرموا النيران، وأحاطت بهم العساكرُ الإسلامية طولَ الليل. فلما أسفرَ الصباحُ عن يوم الأحد ثالث شهر رمضان تقدّمت العساكرُ الإسلاميةُ إلى الجبل، وضايقوهم أشدّ المضايقة، فكان ينزلُ من شجعانهم طائفةٌ وتتقدّم إلى طُلْبٍ من أطْلابِ[1] العساكر وتقاتل فيردها من يقابلها أقبح رَدّ. وكان هذا اليوم بالحِصَارِ أشبهَ منه بالمَصَافّ، واستمر الحالُ على ذلك إلى وقت الظهر فَفرَّجَ لهم الأميرُ سيفُ الدين اسَنْدَمُر كُرْجي فُرجَةً من رأس المَيْسَرَةِ، فَلَمَّا رَأوْهَا بادَرُوا بالفِرَارَ، وخَرجُوا على فِرْقَتَيْنِ. فالفرقة الأولى فيها جُوبَان في نحو ثلاثين ألف فارس حتى أبعد. ثم تلاه قُطْلُوشاه في نحوها، وبَقِيَ منهم فرقةٌ ثالثة فيها طَيْطَق في زُهَاء

---

(١) الأطلاب: جمع طُلْب، بضم الطاء، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء ويعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير، ويقول ابن إياس: إن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ويذكر المقريزي أن الطلب في لغة الغزّ هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٦).

عشرين ألف فارس، فلما فَرُّوا حَمَلَتْ العساكِرُ عليهم وأبادُوهم قَتْلًا وأسْرًا، وتبعتْهم العساكر بقيّةَ النهارِ إلى الليل.

ولما كان في يوم الاثنين رابع شهر رمضان جرّد السلطانُ الأميرُ سيفُ الدين سَلَّار، والأمير عز الدين أيْبَكَ الخَزِنْدَار، وغيرَهم من العساكر يقفُّون آثارهم. ثم ركب السلطانُ في يوم الاثنين من مكان الوقعة وباتَ بالكُسْوَةِ ودَخَلَ إلى دِمَشْقَ في بُكْرَة نهارِ الثلاثاء خامس الشهر، هو والخليفة، ونزل بالقصر الأبْلَقِ، ثم بالقلعةِ، ونزل الخليفةُ بالتُّرْبَةِ الناصرية، وأقام السلطانُ بدمشق إلى ثاني شَوَّال، ورحل من دمشق في يوم الثلاثاء الثالث من شوال ووصلَ إلى القاهرة، ودخل في الثالث والعشرين منه، وشقّ المدينة، ونزل بالمدرسة المنصورية؛ لزيارة قبر والده السلطان الملك المنصور، ثم ركب وطلَع إلى قلعة الجَبَلِ، واحتفل الناسُ لمقدمه احتفالًا عظيمًا، وزُيِّنت القاهرةُ بزينة لم يُشَاهَدْ مِثْلُها فيما مضى، واستمرت الزينةُ بها بعد وصول الأمير بدر الدين بَكْتُوت الفتَّاح بكتابِ البِشَارةِ، في يوم الأحد عاشر شهر رمضان، إلى أن قَدِمَ السلطانُ بعد ذلك بأيّام.

وقد ذكر الناسُ هذه الغزوة نظمًا ونثرًا، ووقَفْتُ ممَّا عُمِلَ فيها عَلَى أشياء كثيرة، وقد رأيتُ أن أورِدَ من ذلك ما نقف عليه من النظم والنثر، فكان ممن عمل في ذلك القاضي الرئيس الفاضل علاء الدين علي بن عبد الظاهر(١) صنَّف في خبر هذه الوقعة جزءًا سماه الرَّوْضُ الزاهِر في غَزْوَةِ الملكِ النَّاصر ابتداه بأن قال: الحمد لله الذي أيّد الدين المحمدي بناصِرِهِ، وحَمَى حِمَاهُ بمن مَضَى هو وسَلَفُه بأداء فرض الجهاد في أوّل الزمان وآخره، وجعل من الذُّرِّيَّة المنصورية مَنْ يُجَاهِدُ في الله حقّ جِهَادِهِ، ويسهر في سبيل الله فيمنع طَرْفَ السيفِ أن يُغْفى في إغْمَادِه، ويَقْدُم يوم الوغى والموتُ مِنْ بُعُوثِه للعِدَى وأجْنَاده نَحمدُه على ما وَهَبَنَا مِن نصره، ونشكره على نِعَمِهِ التي خَوَّلَنا منها بأسًا أذاق العدوَّ وَبَالَ أمْرِه، ونشهد إن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له شهَادَةً ترفعُ مَنَارَ هذا الدين، وتضاعف أجْرَ المجاهدين الذين أضحوا في دَرَجِ المتقين مُرْتَقين، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بَعَثَه وضُرُوعُ الكُفْرِ

(١) علاء الدين علي بن عبد الظاهر: هو علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر، علاء الدين السعدي، المعروف بابن عبد الظاهر، المتوفى سنة ٧١٧ هـ، من تصانيفه: «مرتع الغزلان»، «مفاخرة السيف والرمح». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، شذرات الذهب ٦/ ٢٤٦، حسن المحاضرة ١/ ٥٧١، الدرر الكامنة ٣/ ١٠٩).

حَوَافِل، ورُبُوعُ البَغي أواهِل. فلم يزل يجرِّد الصِّفَاح من مَقَرِّهَا، ويُطْلِقُ جيادَ الغرمِ في مجراها وصعاد الحزم في بحْرِها، إلى أن أخمد نار الشرك والنفاق، وظهرت معجزاته بإطفار نار فارس بالعراق، صلى الله عليه وعلى آله الذين جَرَّدُوا بين يديه سيوفَ الحُتُوف، فاستغلقت الأعمار، وهاجروا إليه ونَصرُوه فَسموا المهاجرين والأنصار، وبعد: فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق، وحُفِظَت بها دِمَاءُ المسلمين من أن تُرَاق، وبَقي بها الملكُ والممالك، وأشرق بها سوادُ الخَطْب الحالك. وسطَّرها الله تعالى في صحائف مولانا السلطان الملك الناصر، وآتاه فيها مِن المُلْكِ ما لم يَبْلُغه أحد، فأوْرَثهُ بِهِ ظَفَرًا مُخَلَّدًا لا يَفْنَى وإن طال المدَارُ والأمَد، وأشبه في ثباتِه وَوَثَباتِه بها أباهُ رَضِيَ الله عنه، والشبل في المخبر مثل الأسد، واستقر بها الملك في مِهَادِ السكون بعد القلق، وتبدّلت بها الملةُ الإسلاميةُ الأمْنَ بعد الفَرَق، وأضحى بها وجهُ الإسلام سافرًا بعد تَقْطِيبِه، وطلع بها بدرُ السرور كاملًا بعد مَغِيبِه، وعَمّت الأيام إحسانًا من الملك وحُسْنَى وعَلَّم المؤمنين بها تحقيقَ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النُّور: الآية ٥٥] حقها أن يسطر فيها ما يعمر ربوع السرور ويؤنس معاهده، ويقف عليه الغائب فيكون كمن شاهده ويذيع أنباء هذه النُّصْرَة في الأقطار، ويتحقق أهل الإسلام أن لهم مَلكًا يناضل عن دين الله بالسُّمْرِ الطِّوَال والبِيضِ القِصَار، وسلطانًا ما أغمد سيفه في جفنه إلا ليستجم لأخذ الثأر ممَّنْ ثَار.

ولما كانت هذه الغزاة المبرورة، والحركات التي عدت حسناتها في صحائف القبول مسطورة، والسَّفْرة التي أسفرت بحمد الله عن الغنيمة والسلامة، وأعلمت الأمةَ بركة قوله ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظَاهِرِينَ عَلَى الحقِّ لا يضُرُّهُم من خَذَلهم إلى يَوْم القِيَامَةِ». وكنْتُ ممن شملته نفحاتُ الرحمة فيها، وهَبَّت عليه رِيَاحُ النَّصر التي كانت تُرَجِّيهَا، وشاهدتُ صدقَ العزائم الملكية الناصرية، التي طلعت في سماء النَّقْع نُجُومًا وَقَّادَة، وشَهِدْتُ في محضر الغَزْوِ على إقرار العِدَى بالعجْزِ، وكيف لا وذاكَ المواطن مُحلُّ الشهادة، ورأيت كيف أثبت السيفُ لنَا الحقَّ لأنه القاضي في ذلك المجال، وكيف نفذت السهامُ لأجل تصميمه في الحكم، فلم تمهل حتى أخَذَت دَيْنَ الآجال وهو حالّ، وقد أحببتُ أنْ أذكر مِن أمرها مُلْحَةً تنشرح منها الصدور، وآتِي بلُمْعَةٍ تعرب عن ذلك النور، وها أنا أذكر نبأ السفر مِنَ افتتاحه، وأشرح حديثَ هذه الغَزَاةِ من وقت صَبَاحِه، فأقول:

ركب مولانا السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه ـ بنيّةٍ صالحة أخلصها في سبيل ربّهِ، وعزيمة ناجحة ماثَلَتْ في المضاء سُمْر عَواليه وبِيضَ قُضُبِه، من قلعة مصر التي هي كِنَانَةُ الله في أرضه، بجيوشه التي نهضت بسُنَنِ الجهَادِ وَفَرْضه، تقدمها أمراؤه الذين كأنهم ليوثُ غَاب، أو غُيُوث سَحَاب، أو بُدُورُ لَيَال، أو عُقُود لآل معتضِدًا ببضعة من الرسول، منتصرًا بابن عمه، الذي لا يسمو أحَدٌ مِنْ غير أهل بيتهِ لشَرفِه، ولا يطول، ملتمسًا بركة هذا البيت الشريف الذي طالما كانت الملائكة من نُجْدِه وجُنْدِه، مسترسلًا بيمنة الإيمان سُحُبَ كرمه، مستدعيًا صادِقَ وَعْدِه. وسار على اسم الله تعالى بالجاريات الجياد، التي تعدو في سبيل الله النجاد، وتعلو الهضاب، وسَرَى يَقْطعُ المنازِلَ، ويَطْوِي المَرَاحِلَ طيّ السِّجِلّ للكتاب، والجيوش المنصورة قد أرهَفَتْ حَدَّ سيوفها وأشرعت أسنة حُتُوفها، وهي تسير كالجبال، وتبعث كالصدى ما يُرْهِبُ من طيف الخيال.

فبينما الركاب قد استقلت في السُّرَى، ورُقِمَتْ في البيداء من أعناق جيادها سُطُورٌ من قرأها استغنى بحسنها عن القِرَى، إذا بالبشير قد وَفَد ونجمُ المَسَرَّةِ قد وَقَد، وأخبر بأن جمعًا مِنَ التتارِ قَصَدُوا القَرْيَتيْن للإغارة، ما علموا أن ذلك مبدأ خمولهم الذي فَتَحَ اللهُ به للإسلام باب الهناء والبشارة، وغرتهم الآمال، وساقتهم الحُتُوف للآجال، فنهض بعضُ العساكر المؤيدة، فأخذتهم أخذ القُرَى وهي ظالمة، وأعلمتهم أن السيوف الإسلامية ما تترك لهم بعد هذا العام ـ بِقُولة يدًا في الحرب مبسوطة، ولا رِجْلًا في المواقف قائمة، وأرى الله العدوَّ مصارِعَ بَغْيِه، وعاقبةَ استحواذه، وتَلا لسانُ الوعدِ الصادقُ على حِزْبِ الإيمانِ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: الآية ٢٠]، ووصل مولانا السلطانُ ـ خَلَّد الله ملكه ـ غزَّة، والإسلام بحمد الله قد زاد قوة وعِزَّة، ثم رحل بحمد الله ـ بعزم لا يفتر عن المسير، وجيش أقسم النصرُ أن لا يفارقه وأن يَصِيرَ معه حيثُ يَصِير، إلى أن وصلوا يوم السبت الثاني من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعمائة، وهو أوّل أيام السعود، واليوم الذي جُمِع فيه الناس ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هُود: الآية ١٠٣] إلى مَرْج الصُّفَّر الذي هو موطن الظَّفَر، ومكان النصر الذي يُحَدِّثُ عنه السُّمَارُ بأطْيَبِ سَمَر. والسلطان بين عساكره كالبدر بين النجوم، والملائكةُ الكرام تحمي الجيوشَ المؤيدةَ بإذن الله، وطيورُ النصر عليها تَحُوم، وهو ـ خلّد الله ملكه ـ قد بايَعَ الله على نُصْرَة هذه المِلّة التي لا يحيد عن نَصْرِها ولا يَرِيم، وعاهَدَه على بَذْلِ الهِمَمِ التي انتظمت في سبيل الله كالعقد النَّظِيم، وخضعَ للهِ

في طَلَبِ النصر ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٦]، وقال: رب قد بذلتُ نفسي في سبيلك فتَقَبَّلها بقَبول حسن، ونويتُ المُصَابَرَةَ في نُصْرَةِ دينك، وأرجو أن أشفع النِّيَّةَ بعملٍ يَغْدُو لِسَانُ السِّنانِ في وَصْفِهِ ذا لَسَن، وَتَلا ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البـقـرة: الآية ٢٥٠] واهزِمْ عدوّنا فقَدْ بايَعْنَاك على المُصَابَرةِ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩]، وابتَهَلَ إلى الله في طلب التأييد، وتضرَّع إليه في ذلك الموقف الذي ما رآه إلّا مَنْ هو في الآخرة شهيد، وفي الدنيا سعيد، هذا والسيوف قد فارَقَت الأغمادَ، وأقسمت أنها لا تَقَرُّ إلا في الرؤوس، والأسنة قد أشْرِعت وآلت أنها لا تَرْوِي ظمأها إلا مِنْ دِمَاء النفوس، والسهامُ قد التزمت أنها لا تتخذ كَنَائِنَها إلّا مِنَ النُّحور، ولا تتعَوَّض عن حنايا القسِيِّ إلا بحنايا الأضالع أو لتَرَفُّعِها لا تَحلُّ إلّا في الصدور، والدروع قد لزمت الأبطال قائلةً: لا أفارق الأبدان حتى تُتْلى سورة الفتح المبين، والجيادُ حرَّمَت وَطْءَ الأرض وقالت لفرسانها: لا أطأ إلّا جُثث القتلى، ورؤوسَ الملحدين. فلا ترى إلا بَحْرًا من حديد، ولا تشاهد إلا لَمْعَ أسِنَّةٍ أو بُرُوق سيوف تصيد الصيد[1]، والسلطان قد أرهف ظُباه[2] ليُسَعِّرَ بها في قلوب العِدى جَمْرًا. وآلى أنه لا يُورِدُ سيوفَه الطُّلى بيضًا إلا ويُصْدِرُها حُمْرًا، والإسلام كأنه بنيانٌ مرصوص، ونبأ النصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص، والنفوسُ قد أرْخِصت في سبيل الله، وإن كانت في الأمْنِ غالية، وأرواح المشركين قد أعِدَّ لها الدَّرْكُ الأسفل من النار، وأرواح المؤمنين في جنة عالية.

ولما كان بعد الظهر أقْدَمَ العدو ـ خذله الله ـ بعزائم كالسيوف الحِدَاد وجاء على قُربٍ من مقدمنا، فكان هو والخِذْلان على موافاة، وجئنا نحن والنصر على ميعاد؛ وأتى كَقِطَعِ الليل المظلم بهمم لا تكاد لولا دفع الله عن بُزَاتِها تحجم، معتقدًا أن الله قد بسط يَدَهُ في البلاد ـ ويأبى الله إلا أن يقبضها ـ متخيِّلًا أنَّ هذه الكَرَّةَ مثل تلك ـ ويأبى الله إلا أن يُخْلِف لهذه الأمة بالنصر ويعوِّضَها ـ متوهمًا أن جيشَه الغالب، وعزْمه القاهر، متحققًا أنه منصور وكيف ذاك ومعنا الناصر!!

والتقى الفريقان بعزائم لم يَشُبْهَا في الحرب نكُولُ ولا تَقْصِير، فكان جَمْعُنا ولله الحمد جَمْعَ سلامَةٍ وجَمعُهُم جَمْعَ تكسير؛ وحَمِي الوَطِيسُ، وحمل في يوم السبت

(١) الصيد: جمع أصيد، وهو البطل الشجاع. (٢) الظبا: حد السيف.

الخميسُ على الخميس[١]، ودارت رحا الحرب الزَّبُونَ[٢]، وغَنَّت السيوفُ بشربِ الكماةِ كأسَ المنون، والسلطان قد ثَبَتَ في مَوْقِف المنايا، حتى كأنه في جَفْنِ الرَّدَى وهو نائم، ورأى الأبطالَ من أوليائه جَرْحى في سبيل الله والأعداء مهزومين. والوجهُ منه وَضَّاح والثغر باسم، وقابَلَ العدوَّ بصدره وقاتل حتى أفنى حَدِيدَ بيضِه وسُمْرِه، وخاطَرَ بنفسه والموتُ أقرب إليه من حبل الوريد. ونكَّب عن ذكر العواقب جانبًا، ولم يستصحب إلا سيفَه المبيد، واشتد أزْرًا بأمَرَائه الذين رأوا الحياةَ في هذا اليوم مَغْرمًا، وعدُّوا الممات فيه مَغْنَمًا وقالوا: لا حياة إلا بنصرِ الإسلام، ولا استقرار حتى تَطَأ بين يدي السلطان سنابكُ الخيول هذا الهَام، وما أعْدَدْنَا العزائمَ إلا لهذا الموقف، ولا أحْدَدْنا الصَوَارِم وَخَبَأنَاهَا إلا لنبذلها في السفك فنسرف، وهم بين يدي سلطانهم يَحْثُونَ جُيُوشَهُم على المُصَابرة، ويقولون: هذا يوم تُصِيبُنَا فيه إحدى الحسنيين، فإما سعادة الدنيا وإما جنةُ الآخرة، وقالت الملائكةُ للجيوش المنصورة: يا خيل الله اركبي ويا يَدَ النصر اكتبي، وقامت الحرب على ساق ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٩، ٣٠]، وأتى العَدُوُّ جملةً واحدة، وحمل حملةً أمست بالنفوس جائدة، ونكب عن الميسرة وقصد الميمنة والقَلْب، وهاله جمعُ الإسلام فأراد أن يخلص بانحيازه من شدة ذلك الكَرْب، واستمرت المناضلةُ تمتد بين الفريقين وتنتشر، والمؤمنون قد وَفَّوْا بما عاهدوا الله عليه. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزَاب: الآية ٢٣]، ومولانا السلطانُ يُرْدِفُ مواكِبَه بحملاته، ويُقْدِم فتخشى الأعداءُ مواقع مهابته وترجو الأولياء منافع هباته، ويرى غمرات الموت ثَمَّ يزورها، ويمر في مجال المنايا فيحلو له مريرها ومزورها، ويقاسم سيوفَ العدى شرَّ قِسْمَة، فعلى عاتقه غواشيها وفي صدورهم صدورها.

ولما كان وقت المغرب لجؤوا - خذلهم الله - إلى هضاب اعتقدوا أن فيها النجاة، وقالوا: نأوي إلى جبل يعصمنا من الموت ونسوا أنه لا عاصِمَ اليومَ من أمر الله. [من الرجز]

راموا النجاة وكيف تنجو عُصْبَةٌ مـطـلوبَـةٌ بـالله والـسـلطـان؟

(١) الخميس: هو الجيش الجرار، سمِّي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة.

(٢) الزبون: يقال: زبنه: دفعه ورمى به، ومنه الحرب الزبون: أي الشديدة الدافعة المرمية.

وحصرتهم العساكرُ الإسلاميةُ بعزائم كالشهاب أو النار، ودارت عليهم كالسَّوَّار والسَّوَار، وصيَّرَتْهُم بقدرة الله في رِبْقَة الإسار، وقاتلتهم الجيوشُ المنصورة غير مُسْتَجِنَّة بِقُرَى محصَّنَةٍ وَلا مِنْ وَرَاء جِدَار، تتلظى كُبُودُهم عَطَشًا وَجُوعًا، ويكادون من شدة الهجير يَشْرَبُون من سَيْل قَتْلاهم نجيعًا(١)، وَيَوَدُّون لو كانوا أولى أجنحة، ويندمون حين رأوْا صفقتهم خاسرة وكان ظنهم أنها تكون مُرْبِحَة، ويأسَفُون على فَواتِ النجاة، ويتحيَّرون عند مُوَاقعَة الجيوش المؤيدة حيث رأوا ما شملها من نصر، ويتضرّمُون بنارِ الخَيْبَةِ على حركتهم التي أدْبَرت لهم مآبًا، وينظرون فيما أسلفوه من ذنوب ولسان الانتقام يتلو عليهم ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: الآية ٤٠].

ودخلتْ ليلةَ الأحدِ وهم في حَصْرِهم وقد أوقعَهُم الله في حبائل مَكْرِهم، وأراهم من الحَصْرِ والضيقِ ما لا رأوه مُدَّةَ عُمْرِهم، وأيقنوا بالهلاك، وتحققوا أن لا خلاص لهم من تلك الأشْرَاك، ولو سَمِعُوا ما سَبَقَ من الإنذار لَمَا أتَوْا للمبارزة مظهرين، ولو عَلموا سُوءَ صَبَاحهم كَفَرُوا عِشَاءً ونَجَوْا من قبل أن يُتْلَى في حقهم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: الآية ١٧٧] وأصبح الإسلام يوم الأحد في قوته المنيعة، وأرواح العِدَى في أجسادهم وديعة، ومولانا السلطانُ يصطبح من دمائهم كما اغتبق، ويُرِيهم عَزْمًا يَنْثُرُ عقد اجتماعهم الذي انتظم واتَّسَق، ويُفْهِمهُم أنَّهُ لا مَرَدَّ له عن مُرَادِ الصَّوَارِم، وأنه لا يفارق الجَبَل حتى يجعل عِوَضَ أحْجَارِه جَمَاجِم، وأمراؤه - أعزَّ اللهُ نصرهم بين يديه - أولو هِمَمٍ في الحرب وأولو عزائم، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] يَعُدُّونَ المُصَابرَة في طاعة الله وطاعة سُلْطَانِهم غنيمةً جمعت لهم أسبابَ الفخار؛ ويمتازون بأنّ منهم مَنْ هاجَرَ إليه، ومنهم من نصره، فَعُدُّوا - حقًّا - كونهم مع محمد تَابعي المهاجرين والأنصار، وزحف السلطانُ وبين يديه أمراؤه وعساكرُه المؤيدةُ فضيقوا عليهم الخِنَاق، وأحْدَقوا بهم إحْدَاقَ الهُدْبِ بالأحدَاق، ورَاسَلُوهم بالسهام، وشافَهُوهم بالكلام لا الكَلام، ورَفَعُوا من راياتهم المنصورة ما طَاوَلَ المنشآت في البحر كالأعلام، وحَمَل بها الأبطال، فكلما رآها العِدَى تَهْتَزُّ بتحريك نسيم النَّصر سَكَنُوا خَوْفَ الحِمَام، ثم فَرَّجُوا لهم عن فُرْجَةٍ من جَانب الجَبَل ظَنُّوهَا فَرَجًا، وخُيّلَ لهم أنَّهُ مَنْ سَلَكَ تلك الفرجة سلك طريقًا مستقيمًا، وَمَا دَرُوا أنه سلك طريقًا عِوَجًا، واستترت لهم الجيوش المنصورة إلى الوطاة لِتُمَكِّنَ

(١) النجيع: الدم.

سيوفها من سفكهم، ويقرب مدى هلكهم، وتُسلمهم إلى الحِمَام الذي لا يُنْجِي منه خَيْلٌ ولا جبل، وتملأ الوطاة من دمائهم، فتساوى السهل من قتلاهم بالجَبْل، وحلّ الحِمام بساحتهم، وامتدت الأيدي لاستباحتهم، وضاقت عليهم المَسَالك، وغُلِبُوا هُنَالِك، وأنزل الله نَصْرَه عَلَى المؤمنين وأيدهم بجُنُودٍ لم يَرَوْها، واشترى منهم أنْفُسَهُم بأنّ لهم الجنة - فيا طِيبَ ما شَرَوْها، وَفَرّت من العدو فِرْقَةٌ، وضلَّت في حالة الحرب عن السيف فأدركهم العزم الماضي الغِرار[1] وتلا عليهم لسان الحق ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ [الأحزاب: الآية ١٦] وما انقضى ظُهْرُ يوم الأحد إلا والنصرُ قد خَفَقَت بُنُودُه، والحقُّ - سبحانه وتعالى - قد صَدَقَتْ وُعُودُه، وطائرُ الظفر قد رَفْرَفَ بجناحه وطار باليُمْنِ والسرور ونسيمُ الريح قد تحمَّلت رسالة التأييد، فصارت إلى الإسلام بالصَّبا وإلى العَدُوِّ بالدَّبُور والألطافُ - ولله الحمد - قد زادت للإسلام قُوَّةً وتمكينًا، ولسان النَّصر يتلو على السلطان ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح: الآية ١] والسيف قد طهَّرَ دِيَارَ الإسلام من تلك الأدْنَاس ومولانا السلطانُ يتلو ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٨]، وأمْسَت الوُحُوش تنوشُ أشْلاءَهَم، والحوائم تَرِدُ دِمَاءَهم، والعساكِرُ في أعقابهم تقتل وتأسر، وتبدي في استئصالهم كل عزيمة وتُظْهِر، وتنظم أسنتها برؤوس القتلى، وتعقد لها على عقائل النصر فَتُزَفُّ لديها وتَجْلي، إلى أن نَاخَتهم بالخيف من مكان قريب، وبسطت فيهم السيفِ فسأل الأسر أن يسمح له بحَظٍّ فأعْطِيَ أيسرَ نصيب، ومُلِئَت من قتلاهم القِفَار، وأمْسُوا حديثًا في الأمصار، وعبرةً لأُولي الأبصار.

ثم رَحَلَ السلطان يوم الاثنين الرابع من شهر رمضان المعظم إلى منزلة الكُسْوَة من مكان النصر، وبقاعُهُ تُنْبيء عَلَى معاليه، وتَشْهَدُ بمضاء قواضبه ونفوذ عواليه، ودمشق قد أخَذَتْ زُخْرُفَها وازَّيَّنَت، وتَبرَّجَت محاسِنُها للنواظر، وما باتَت بل تبيتت، وكادت جُدُدها تسعى للقائه، لِتُؤدِّي السُّنَّةَ من خِدمته والفرض، غير أنها استنابت الأنهار فَسَعَت وقَبَّلت بين يدي جَوادِه الأرض.

ثم رحل في يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان، ودخلها في هذا اليوم والملائكة تُحَيِّيه عن رَبِّه بتحيَّةٍ وإكرام، وتتلو عليه وعلى جيوشه ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحِجر: الآية ٤٦] في موكبٍ كأنه نظام الدُّرَر، أو روضة كُلها زَهَر، بل هو - حقًّا - هالةُ القَمَر، والدنيا قد تاهت به عُجْبًا والناس يدعون لسلطان قد شُغِفُوا

(١) الغرار: حد السيف.

بدولته حُبًّا، ويتعجبون من نضارة مُلْكِه الذي سرَّ النواظر، ويَرَوْنَ أولياءَه في فلك إنْعَامِه، فيقولون:

أَبُدِّلت الأرضُ غير الأرض أو صارت سماءً وإلا فما هذا القمرُ حَوْلَهُ النجومُ الزواهر! وعادت المآتم بدمشق أفراحًا وأعراسًا، وربوع الهناء قد عَوَّضَها أمنُ مقدمِهِ عن الوحشة إينَاسًا، والقلعةُ بآلات حصارها مزينةٌ قائلة: كيف يُسْتَبَاح حِمَايَ وأنا بهذا السلطان مُحَصَّنَة، وشهادته مُحْصنة.

هذا والأنهار تُساير ركابَه وقد صُبِغَتْ من دماء العِدَى بأحمرَ قان، والأشجار تَميلُ طَرَبًا بالهنا، كما يميل النشوان بين الأغاني، والحمام يَطْرِبُ بحسن الألحان والتغريد، وقد أقْسَمت لا تنوخ، وكيف تنوح وقد خضَّبَت كَفَّها وطَوَّقَت الجِيد، والناسُ يقولون: أيا عجبًا في أوّل رمضان يكون عيد، وفي آخره عيد؟! والعزائم للعدى تُرْدِي، وبِنَصْرِ الله تَرْتَدِي، وتهتز بَرَدَى تقول عند تغريد الحمامة:

«يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي» والأقاليم قد تاهت بسلطانها بَهْجَةً وسُرورًا، وهامُ الجوزاءِ تَوَدُّ لو كانت مِنْبَرًا وسَريرًا، والرعايا تقول: هذا الملكُ الذي حَمَى الله بعزائمه الدِّيَار، وأدَارَ العِدَى إلى دارِ البَوَار، ووقف لا يبتغي إلا وَجْهَ ربه، وقابل اليومَ بنفسه وبكتائبه، وناضل الأمس بكتبه، والله لدعائهم سامِعٌ ومُجِيب، ومكافِئُه بكل فتح مبين ونصرِ قريب.

ووصل الميدانَ الأخضر وقد أذاق العدُوَّ الأزرق الموت الأحمر، في يوم السعد الأبيض، بعَلَم النصر الأصفر ـ إلى القصر الأبلق، وقد طلع شَمْسًا في سماء الملك أَنَارَ به أُفُقَ الآفاقِ وأشرق، ففخر القصرُ بحلوله فيه، وقال: هذا اليومُ الذي كنت أرْتَجيه، وهذا الوقتُ الذي ما بَرِحَت تُبَشِّرُني به نَسَمَاتُ البُكر والأصائل. لأنها تَمُرُّ لطيفةً، فأعْلَمُ أن مَعها منه ـ خَلَّدَ الله ملكه ـ رسائل، وهذا الملك الذي أعرِفُ فيه من الله شمائل؛ فغبطته القلعةُ المنصورة، وسألته أن لا تبقى بغير الجسد محسورة، وفاخرت القصرَ بمالها من محاسن، وما شَرُفَت به من إشْرَاف على أنضر الأماكن، وامتازت به من حصانتها الذي ما امتطى سواهُ ذِرْوَتها، ولا علا غيرُه ـ خلَّدَ الله ملكه ـ صهوتها، فأراد أن يعظم لقلعته الشأن ـ فَحَلَّ بها مرةً ثم بتلك أُخْرَى، وطاب بحلوله الواديان.

ثم أذْهَبَ عن أوليائه وجيوشه مشقة التعب، ببذل الذهب، وأنْسَى بمكارمه حاتمَ طيءٍ، فلو عاش لاستجدى ممَّا وَهَب، وأمر بِعَوْدِ نوَّاب مَمَالكه إلى أماكِنِهم المحروسة، وقال: قد خَلَت رُبُوعُكم هذه المدَّة.

وحيثُ حَلَلْنَا بالبلاد نَبْتَغِي أن تكونَ مأنوسة، فتضاعف الشكرُ على إتمام هذه النعمة، وابْتَهَلَت الألسنُ بالمحامِد، وكيف لا وقد طلع صبحُ النصر فَجَلَّى ليلَ تلك الغمة، وشَكَرَ الناسُ منَّةَ الله التي أعادت إليهم بالأمن الوَسَن[1]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطِر: الآية ٣٤] وأقام بدمشق المحروسة يتبوَّأ منها أحسن الغُرُفَاتِ، واستقر من بقَاعها في جَنَّات، فَحَيِيَتْ به بعد الممات، وعادت بمقدمه إلى جسدها الروحُ بعد المفارقة، وتمتعت مُقْلتُها من محاسنه بأبْهَى من رياضها الرائقة، وهو يحمي حِمَاها، ويُحَلي مواطِنَ مُلكِها الزواهر رباها، ويُزيِّنُها بمواكبه التي ماثلت الكواكب في سنائها وسناها، وتطأ سَنَابكُ جيادِه أرضَها فَيُدَانِي الثريا في الافتخار ثَرَاها، إلى أن قَضَى شهْرَ صِيَامِه المقبول. وأتاه عيدُ الفطر مُبشرًا بإدراك آماله في عزٍّ مستَمِرٍّ ونصرٍ مَوْصُول، وأسْبَغَ من عطاياه ما أرْبَى على عَدَدِ أمواج البحر، وتَعَدَّدَت لدولته المَسَرَّاتُ في هذا الشهر الميمون، فآخِرُه عيدُ فطر، وأوَّلُه عيد نحر.

ثم رحل عن دمشق في يوم الثلاثاء ثالث شوال، ويَعزُّ عَلَيْها أن تفارِقَهُ. أو تَبْعُدَ عن مُحيَّاه الذي أنار مغاربَ المُلْكِ ومشارِقَه، أو يُسَيِّرَ عنها عزمَه الذي إن غاب أغْنَتْ مهابته، أو حضر أرهف على العَدُوِّ بوارِقَه، وأغصانُ رياضها تحسد بنود سناجقه، وأوراق رَوْحِها توَدُّ لو كانت مكان أعلامه وخوافقه، وزهرُها يتمنى لو كان وشيًا لحِلَل جِيَادِه، وأرضُها النضرةُ تكاد تنطوي بين يديه لتكون مراكز السعادة، وقصرُها الأبلقُ يَتَوَسَّل إليه في أن يتخذه بَدَلَ خيامه، وستائره لِيُسْرِ مسكنه فيه ومُقَامِه، ومصرُ تبعثُ إليه مع النسيم رسائل، وتبذل له في تعجيل عوده وسائل، وكرسيُّ سلطنتها يَوَدُّ لو سعى من شَوْقٍ إليه، أو شافَهَهُ بالهناء وبالنعمة التي أتَمَّهَا الله عليه، فلَبَّى دعوتَها ولم يُطِلْ جَفْوتَهَا، وسَارَ إليها سَيْرَ الأقمار إلى منازِل الضِّيَاء والنور، وَوَطِىءَ بمواكَبه الأرضَ فظهرت بها من مواطىء جياده أهلَّةٌ، ومن آثار أخفاف مَطِيِّه بدور، وَوَصَل ديارَ مصر المحروسة وقد زُفَّتْ عرُوسًا تُجلى في أبْهَى الحلل، وجمعت أنواعَ المحاسن، فلا يقال لشيء منها كَمُلَ لَوْ أنَّ ذا كَمُلَ، وفَضَحَ الدجى إشراقُها، وبهر العيونَ جمالُها، فإلى أقصى حدائق حُسْنها. رَنَت أحداقها، وسَبَت النفوس منازلها، وكيف لا، وهي المنازل التي لم نَزَل نَشْتَاقُها، وشَغَلَت القلوبَ أبياتُها، وكيف لا وقد زانها ترصيعُها وطباقها، وحوت من البهاء ما لو حَوَتْهُ البدورُ لَمَا شانَهَا بَعْدَ التمامِ

---

(١) الوسن: النعاس والنوم.

مَحَاقُهَا، وأمسَتْ رَوْضَةً أثْمَرَت اللآلي والدرَرَ، وَفَلَكًا زها بالمُشْرِقَات فيه، وكيف لا وفي كل ناحيةٍ من وَجْهِهَا قمر.

وحَلَّ - خَلَّدَ الله ملكه - بظاهر القاهرة فكادت تسير لخدمته بأهلها وجُدْرَانها، غير أنَّهُ أثقلَها الحَلْيُ فأخَّرها لتبدو إليه في أَوَانِهَا المُرَاد، وما أحسن الأشياء في أوانها، وهَمَّ نيلُها أن يجرِي في طريقه لكنه أخَّرَه النقصُ والتقصير، واستحيا أن يقابلَهُ وهو دون غاية التمام، أو يَسِيرَ من مواكب أمواجه في عدد يسير، وخشي أن يتخلَّل السبلَ بين يديه فيحصل في ريها الخلل، أو تظهر عليه - كونه في زمن توحمه - حُمْرَةُ الخجل، وكأنَّ عمود مقياسه قد آلى أن لا يضع أصابعه في اليَمِّ إلا بإذن سلطانه، ولا يلبسَ ثوبَ خَلُوقٍ إلَّا ما يزره عليه ببَنَانِه، ولا يأتي بزيادة إلا بعد مقدمه، وكيف لا ومَدَدُه من إحسانه؟!

وركب سَحَرَ الاثنين الثالث والعشرين من شوال سنة اثنتين وسبعمائة من ظاهر القاهرة في موكب حَفَّ به الظَّفر، وأضحى حديثًا للأنام وذِكْرَى للبشر، وسَيْفُهُ المنصورُ قد أذهَبَ عن المِلَّة الإسلامية لَيْلَ الخَطْبِ ومَحَا، والأمةُ يترقبون طلوع فَجْرِ بَدْرِه، ولسانُ المَسَرَّةِ يتلو عليهم ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: الآية ٥٩] ودخل البلدَ وقد تزايدَت بمقدمه سُرُورًا وبشرًا، وأنْشَدَتْه: [من الخفيف]

أنت غيثٌ إذا وَرَدْتَ إلى الشـ ـامِ ونيلٌ إذا تَيَمَّمْتَ مصرا
أطلع الشرق من جبينك شمسًا ليس تخفى ومن محياك بدرا
كان أمرُ التتار مُسْتَصْعَبَ الحَـ ـالِ فَصَيَّرْتَ عُسْرَ ذلِكَ يُسْرا

وفُتِحَتْ له أبوابُ نصرها التي يُفْضَى منها إلى نعمةٍ ونعيم، وشَاهَدَتْهُ عيونُ أهـلهـا. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٣١] والرعايا قد أصبحوا كما أمْسُوا بالدعاء له مبتهلين، والألسنةُ تتلو عليه وعلى أمرائه ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩] وقد أظلَّته سماءٌ أديمها الحريرُ، ونجومُها الذهبُ، وسُحُبُها تنثر اللؤلؤ المكنون، وَحِيلَ بين سنابك خيله وبين الأرض بأثواب من اسْتَبْرَقٍ تَسْتَوْقِفُ العيون، وكُوفِئَت عن وطء الأحجار بالأمس في سبيل الله بوطء الديباج في هذا اليوم، وكادت الأيدي تلمس معارفها تبركًا بترب الجهاد الذي حملت إليه أكْرَمَ قوم، فرأى فيها جنَّةً أُوْرِدَت من مناهلها كوثرًا، وكان قد أُنْهِي بين يديه حديثُ زينتها فوجد خُبْرَها يجاوز خَبَرًا، ولم يجد بها عيبًا غير أن صَبَاحَها حَمِدَت به الأجفانُ عاقبة السُّرَى، وتبرَّجَت

عَقَائِلُها نُزْهًا للنواظر، وتَظهَرُ كلُّ واحِدة منهن في وَشْيٍ أبْهَى من الزواهر، ولبسَت جدرانُها حُلَلَ السرور النَّضِرَة، وأبْرَزَت بعولتهن ما في ذخائرهم ولم يسألوا نظرةً إلى مَيْسَرة ـ وما ثَنَت أعطافها ـ كما أمْسَت وجوه التهاني بها ضاحكة مستبشرة، ولَمَّا مر بسُبُلها حَلا لَهُ ذلك النُّور، ولَمَّا سلك بين قُصْرَيْهَا تَحقق الناسُ أن أيامَه زَادَتْ على أيام الخلفاء؛ فإنها أنشأت قصرَيْنِ وهَذَا أنْشأ لَهَا قصورًا ما بها من قُصُور، فمن بُرُوج تَمنَّت البدور لو كانت لها منازل، ومن قلاع لو تَحَصَّن بها جَان لَمَا دارت عليه دوائر الدهر الغوائل، ومن قباب عَلَتْ وليس لها غيرُ الهِمَمِ من عُمُد، وضُرِبَتْ على السماحَةِ والنَّدَى فما عدِمَ مُشَيِّدُها حُسْنَ البناء ولا فَقَد، ومن عُقودٍ عُقِدَ لها على عرائس السعود، وتَمَكَّنَت في الصُّعُود، ومن حُلِي لو ظَفِرَ بها الحسنُ بن سهل لاتخذ منها لجهاز ابنته على المأمون مَالًا ألِفَ مِثْلُه في زمنه ولا عُهِد، ولو رآه ابنُ طولون لاعْتَضَدَ به في إهداء عقيلته للمعتضد، ومن أواوينَ تُزْرِي بإيوان كسرى الذي تعظَّم بناؤه وتَحَمَّد، ويُسْتَصْغَرُ في عين من رأى إيوانًا واحدًا من هذه، وكيف لا وذاك هُدِمَ في زمن محمد ﷺ وهذا عُمِّرَ لنصرة محمد، وذاك أهْلِكَ بانيه وزُجِرَ، وهذا أيِّدَ بانيه ونُصِر، ومن سَوَاقٍ جَوَارٍ وجَوَارٍ سَوَاق، وآلات تَبْهر عند رؤية حدائقها الأحدَاقَ، ومن عُرُوش وأشجار، ورياض نَضِرَة تَبْهَتُ الأبصار، وقد أخَذَت من كل المحاسن بِشطر، وحَلَتْ مَذَاقًا. وكيف لا وقد سُقِيَتْ بالقطر؟! ومن سَفَائن قد ترفعت حتى مرت في الجوّ من بحر النسيم في لُجَج، ومن عجائب إذا حدَّث المرءُ عنها قيل له: حَدِّث عن البحر ولا حرج، ومن شخوص بالألحاظ تُغَازل، ودُمًى تسحر العقول بسحر بابل، وصور يُخَيَّلُ للرائي أنها تنطق، وأشكال وضعَت صفة للحرب التي أضْحَت رَايَتُهَا في الآفاق تَخْفِق، ومِنْ هَيبة للعدى التي أبادتها الأبطال، وأعدمت حقيقتها فلم يبق منها إلا مثالٌ يبزر في خيال، ومن جتور(١) ظَهَرَت بها آيةُ مُلْكِه لَمَّا مَرَّتْ بنفسها على رأسِهِ الكريم مر السحاب، وسارتَ بين السماء والأرض فلم تَحْتَجْ مع سعادته إلى عمد ولا إلى أطْنَاب، ومن فُوسان جَمَّلتْ الجيوشَ المنصورة حيث لبسَتْ لأمة حربها، واعْتَقَلَت رِمَاحَهَا وبارَزَتْ الأقْرَانَ فكان النصرُ من حِزْبِهَا.

(١) الجتر: وهي المظلّة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية (صبح الأعشى ٢/١٤١، ٤/٦، ٤٨).

ومن أنواع احتفال يعجز عن وصفها البديع الفطن ولولا خوف الإطالة لقُلْتُ ومِن ومِن ومِنْ إلى أن تَنْفدَ كلمةُ ومِنْ.

والأمة يبذلون في خدمته الجُمَلَ والتفاصيل، ويصنعون له ما يريد من النُّزَه، ويعملون ما شاؤوا من تماثيل، والأسارى قد جُعِلوا بين يديه مقرنين في الأصفاد، يشاهدون مدينةً مَاثَلَت ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾ [الفجر: الآيتان ٧، ٨] وهو ـ خلَّد الله سلْطَانَه ـ يسير الهوينا، وينظر بعين خُبْره هذا المحفل، ويُقْبلُ، وأسراؤه بين يديه كالليث أقبل للفريسة ينقل، وهم يشكرون حلمه على السلامة من رَيْبِ المنون والأفواه تنطق بشكر الله ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ [غافر: الآية ٧١] وقد بُهِتُوا لِمَا رأوه من نعم الله التي تنوَّعَت له ـ خلد الله ملكه ـ حتى أتت كلُّ نعمة في وقتها، وعظمت في عيونهم آيات الله سبحانه، ولسان الأقدار يتلو ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرُف: الآية ٤٨] فلما نظروا بالأمس في إِنْجَادِ الملائكة للعساكر المنصورة آية كُبْرَى، شاهدوا اليوم من سعادة هذا الملك الذي بنت له الأقدار بين السماء والأرض مدينة فقالوا: هذه آية أخرى، واسْتَقَلُّوا ما مَرُّوا به من المدائن والأمصار، وغَدَوْا وعُيُونُهمُ في جنة وقلوبهم في نار، واستصغروا مَلِكَهُم المخذولَ ومُلْكه، وقالوا: غير عجيب لمن أقدم على هذا الملكِ أن يُبَددَ جمعه، ويُفْرط سلكه، وتحققوا أنه مَنْ أوتي هذا السعد لا يُؤَخِّرُ إن شاء الله إمساكَ كبيرهم وهَلْكه، ونُودُوا أن شاطروه في السلاسل والقيود، والسيف يقول: ليس الأمرُ لِمَنْ يُسْمَى ـ خديعة ـ محمودًا، محمود وَوَصَل مولانا السلطان تربةَ والده السلطان الشهيد ـ قدس الله روحه ـ وأمراؤُه قد بذلوا في محبته نفائس النفوس، وجزيل الأموال، وأخايِرَ الذخائر، وركبوا بالأمس للمناضلة عن دولته في سبيل الله، وقد بلغت القلوب الحناجر، وتَرَجَّلُوا اليوم في خدمته تعظيمًا لشعائر سلطنته، وطلعوا في سماء المعالي كالنجوم الزواهر، وصَعَدَ ـ خلد الله ملكه ـ تربة والده ـ رضي الله عنه ـ وأنوار النصر على أعطاف مجده لائحة، ودَخَلها فلولا خَرْقُ العوائد لنهض من ضريحه وصافحه، وشكر مساعيه التي اتَّصلت بها أعماله، وكيف لا وهي أعمالٌ صالحة، وقصَّ مولانا السلطان ـ خلد الله ملكه ـ عند قبره المبارك من غزوته أحسن القصص، وأسْهَمَ مِنْ بركة جهاده أوفر الحِصَص، فلو استطاع رحمه الله أن ينطق لقال: هذا الولد البار، والملك الذي خَلَفَنِي وزاد في نصرة الإسلام وكَسَرَ التَّتار، ولو تَمَكَّنَ رضي الله عنه لأخبره بما وجده من ثواب الجهاد في جنات وعيون، وبشّره بما أعدَّه الله لمن فُقِدَ من المجاهدين في هذه الغزاة المبرورة بين يديه، وتلا عليه ﴿وَلَا

تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ [آل عِمران: الآية ١٦٩] ولأثنَى على أمرائه الذين فعلوا من المصابرة والمحافظة ما أوجبه حسن التهذيب منه رحمه الله وجميل التربية، وشَكَرَ عزائمهم التي ما نَادَاهَا أهل مَمْلكَةٍ لِكَشْفِ خطب إلا أجابوهم بمواقع التَّلْبِيَة، واعْتَدَّ بطاعتهم للمَيِّتِ والحيّ، وموالاتهم التي ذاعت في كل نادٍ وَحَيّ، والقُرَّاء حول ضريحه يتلون آيات الله التي كان رضي الله عنه بها عاملًا، ولم يزل رَبْعُ تَقْوَاهُ بها آهِلًا، فشمِلَ مولانا السلطان ـ خلد الله ملكه ـ الأنام بالصدقات المتوفرة، وسمح مِنَ الذهب والفضة بالقَنَاطِير المقنطرة، وازدحمت الأماني على سَيْبِه كما ازدحمت الأعادي على سَيْفِه، فكان كما قيل: [من الرجز]

(قَدَّاح زَنْدِ المَجْدِ لا تنفَكّ مِنْ نَارِ الوَغَى إلّا إلى نَار القِرَى)

وركب من التُّربة الشريفة والرعايا يدعون بدوام دولته التي أضحت قواعد الأمن بها متينة، ويرتعون بالمدينة في لَهْوٍ ولعب وزينة.

وسَارَ جواده بين حُلِيّ وحُلَل، فاستوقف الأبصار، في مَسْلَكٍ حَفَّتْ به غُرَفٌ من فوقها غرف مبنيةٌ تجري من تَحتها الأنهار.

وعاد إلى قلعته ظافرًا عودَ الحلي إلى العاطل، وغدت ربوعه الموحشة لبعده بِقُرْبِهِ أوَاهِل، وطَلَعُها في أيمن طالع لا يحتاج معه إلى اختبار ولا رصد، وحلّت شمس ملكه في برجها وكيف لا وهو في برج الأسد، فالله تعالى يمتع الدنيا بِمَلِكٍ حَمَى شَامًا ومصرًا، وأذاق التتار بعزائمه مصائب تترى. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولما صَنَّفَ المولى علاء الدين هذه الغزاة، وعُرِضَت على المسامع الشريفة السلطانية شمله الأنعامُ والتشريف السلطاني، وَوَفَّرَ حَظُّهُ من ذلك، وقد سمعت هذه الغزوة من لفظه، ونقلتها من خطه، وقد أتى فيما أورده بالواقعة المشاهدة، وَوَفَّى بقوله: إن الغائب إذا وقف على خبره يكون كَمَنْ شاهده.

وقد وقفت أيضًا على جملة مما صنَّفَه الفضلاء في خبر هذه الغزاة، وهذا الذي أوردته أتَمُّهَا وأكْمَلُها وأكثرها استيعابًا للواقعة من ابتدائها إلى انتهائها. فلذلك اقتصرت على إيرادها دون ما سواه.

وعَمِلَ أيضًا الشعراء قصائد كثيرة يطول الشرح بإيرادها، وها نحن نذكر منها قصيدة نظمها القاضي الفاضل جمال الدين أبو بكر عبد القاهر ابن الشيخ نجم الدين

أبي عبد الله بن محمد بن عبد الواحد بن محمد التبريزي الشافعي قاضي عجلون وخطيبها وهي: [من البسيط]

اللهُ أكبرُ جَاءَ النَّصْرُ والظَّفَرُ والحمدُ للهِ، هَذَا كُنْتُ أنتظر
وأبرز القَدَرَ المحتومَ بارِئُه سبحانه بيديه النفعُ والضررُ
وهوّن الصَّعْبَ بالفتح المبين لكم ربٌّ يَهُون عليه المُقْفَلُ العَسِرُ
ولم تَزَلْ شِرْعةُ الإسلام ظَاهِرَةً أجزم به فبهذا صُحِّحَ الخبَرُ
أين النجوم وتأثير القِران وما تَخَرَّصُوا فيهِ من إفْكٍ وما زَجَروا
قد دَبَّرَ اللهُ أمرًا غيرَ أمْرِهِمَ وخَابَ ما زَخْرَفُوا فينا ومَا هَجَروا
وأقبلَ العَسْكَرُ المنصورُ يَقْدمُه من الملائكِ جُندٌ ليس تنحصر
وقد أحَفُّوا به والأرضُ من زَجَلٍ تَرْتَجُ إن سبَّحُوا الله أو ذكروا
كنانةُ اللهِ مِصرٌ جُنْدُهَا ثَبَتتْ لا ريبَ فيه وجند الله تنتصر
ثَارُوا سِرَاعًا إلى إدْرَاكِ ثأْرِهِمُ وهجُّروا في طِلابَ المجد وابتكَروا
وأسهروا أعيُنًا في الله مَا رَقَدَت أكرم بقوم إذا نام الورى سَهِروا
لله كم دُيِّنُوا في نصر دينهموا وأنفَقُوا في سبيل الله ما ادَّخَرُوا
صَانُوا الجِيَادَ وسَنُّوا كُلَّ ذي شَطبٍ وجُدِّدت للقسيِّ النُّبْلُ والوتر
حماهم الله كما حاموا وكم منعوا وكم أغاثوا وكم آووا وكم نَصَروا
وخلَّفُوا خَلْفَهُم لذَّاتِ أنفسِهِم وهَاجَرُوا ولَذِيذِ العَيْشِ قَدْ هَجَروا
وأوجفوا نفرًا بالخيل ملجمةً وبالركاب وما مَلُّوا ولا فَتَرُوا
حتى أتوا جِلَّقًا في يوم ملحمة فيه الأسودُ أسودُ الغَابِ تهتصر[(١)]
لها السَّنابكُ في المَيْدَانِ قد حُنِيَتْ صَوَالجًا ولها روس العِدا أكَرُ[(٢)]
والجوُّ أغبرُ والتَاتَارُ زاحِفَة مثل الجراد على الدنيا قد انتشروا
وددت لو كنت بين الصف مُنجَدِلًا قد ارْتَوَتْ من دمى الخطيةُ السُّمُرُ
وكوثر الحرب قَدْ رَاقَتْ مشاربُهُ تحتَ العَجَاجَةِ والأبطال تَعْتَكِرُ

---

(١) جلّق: هو الاسم القديم لمدينة دمشق.
(٢) الصوالج: جمع صولج، وهو مضرب تضرب به الكرة، وروس: أي رؤوس خففت لضرورة الوزن. والأكر: جمع أكرة، وهي لغة في الكرة.

والسيفُ يُنْشى بديعًا من فواتره والرُّمْحُ يَنْظِمُ والهاماتُ تَنْتَثِرُ
والنَّبْلُ يَخْقُطُ والأقلام كاتبة والضرب يُعْرِب والأبدانُ تَستَطِرُ
حتى إذا عَبَّ مثل البحرِ جَحْفَلُنا ومدّ فيضًا على أعدائنا جَزرُوا
أصْلَوهُمُ جَاحِمًا يَشْوِي الوجوه وقد حَمِي الوطيسُ ونارُ الحربِ تَسْتَعِرُ
وأحرَقَتْهُم سِرَاعًا كلُّ صَاعِقَةٍ من السيوف بِنِيرَانٍ لها شَرَرُ
لاذُوا بشمِّ شَمارِيخِ الجبالِ فما حمتهُمْ قلل منها ولا مُغَرُ
ومُزِّقُوا شُرُدًا بين الزحام فكم شِلْوِ تنازع فيه الذئبُ النَّمِرُ[1]
أين المفر وقد حام الحمام بهم هَيْهَاتَ لا ملجأ يُرْجَى ولا وَزَرُ
نادَى بِهِمْ صَارِخٌ أغْرَى الفَنَاء بِهم فإنْ سألْتَ فلا خُبْرٌ ولا خَبَرُ
كَمْ قَدْ سَهِرْتُم دُجَى مِن خَوْفِهِم حَذرًا والآن نَامُوا فلا خَوْفٌ ولا حَذَر
قولُوا لِغَازَانَ يَاذَا مَا لَعَلَّكْ أن تَرُوعَ مِنْ مَخْلَبِ الرِّئبال يا بَقَرُ
تلك الجمُوعُ التي وافى يُدِلُّ بِهَا تالله ما بَلَغُوا سُؤْلًا ولا نُصِرُوا
جاؤُوا وَقَدْ حَفَرُوا مِنْ مكْرِهِم قُلُبًا ألقاهُمُ اللهُ قَسْرًا في الذي حَفَرُوا[2]
وسكَّرُوا في أراضينا مبادرةً والآنَ قد حَصَدُوا أضْعَافَ مَا بَذروا
وَافَى بهم أجلٌ يَمْشِي عَلَى مَهَلِ حَتَّى مَحَاهُم فلا عَيْنٌ ولا أثَرُ
لم ينفروا خيفةً مِن كل قَسْوَرَةٍ وفَرَّ جَمعُهُمُ إلّا وهم حُمُرُ
أموا الفراتَ وقد رَامُوا النجاة فكم حَلَّتْ بهم عِبَرٌ فيها ومَا اعتَبَرُوا
مَرَائِرُ القَوْمِ مِن خَوْفٍ قد انْفَطَرت والكُلُّ مِنْ قَبْل عيد الفطر قد نحروا
جمِيعُهُم قُتِّلُوا صَبْرًا وأعظمُهُم جميعُها بضواحِي جِلّق صُبِرُوا[3]
لم يُقْبَرُوا فِي نَواوِيسٍ وَلا جُدُثٍ وإنما في بُطُونِ الوَحشِ قد قُبِرُوا[4]
والطير ترعى نهارًا لَحْمَهُم فإذَا ما الليل جنَّ ففي أقْحَافِهِم تَكِرُ
فَخُذْ عَزَاءَكَ فِيهِمْ إنَّهُمْ أمَمٌ هم اللَّعَاوِس إن قَلُّوا وإن كَثُروا[5]

---

(١) شُرُدٌ: جمع شارد.
(٢) القلب: جمع قليب، وهو البئر.
(٣) قتلوا صبرًا: أي قتلوا وهم مأسورون.
(٤) النواويس: جمع ناووس، وهو التابوت تضع فيه النصارى جثة الميت.
(٥) اللعاوِس: جمع اللعوس، وهو الأكول الحريص، ومنه: قيل للذئب لعوس.

كم كابروا الحِسّ في قصد الشّام وَكَمْ   قد جَرَّبوا حَظَّهم بالشامِ واخْتَبَروا
فَقَاتِلُوهُم جَمِيعًا إنَّهُمْ تَتَرٌ   كَمْ أرسَلُوا رُسْلَهُم تَتْرَى وكَمْ مَكَرُوا
هُبُّوا إلى سِيسَ مِنْ أحْلَامِ رَقْدَتِكُم   وسَارِعُوا في طِلَابِ الثَّأرِ وَابتَدِروا
بكُلِّ غَيْرَانَ أخْذُ الرُّوحِ هِمَّتُهُ   في غير نفس المُرَدَّى مَالَهُ وَطَرُ
أيَرْقُدُ اللَّيلُ في أمْنٍ وَفِي دعَةٍ   عَنْ كَيْدِ قَوْمٍ لَهُم فِي شَأنِكُم سَهَرُ
إنْ تَتْرُكُوهُم فإنّ القومَ ما تركوا   يومًا عليكم ولا أبْقَوْا ولم يذَروا
أمَا رَأيْتُم وَعَايَنْتُم وقد فَعَلُوا   في الصَّالِحِيَّةِ ما لا تَفْعَلِ التَّتَر
اشفوا صُدُورَكُمُ إن كُنْتُمْ غُيُرًا   عَلَى نِسائِكُمْ يا قَوْمُ وَادَّكِرُوا[1]
كَمْ مِنْ عَجُوزٍ وَمِن شيخ ومُكْتَهِلٍ   ومن فتاةٍ نَمَاهَا الحُسْنُ والخَفَرُ
بَيضَاءَ خُرْعُوبَةٍ بِكْرٍ مُحَجَّبَةٍ   لا الشمْسُ تَنْظُرُها صَوْنًا ولا القَمَرُ[2]
وذاتِ بَعْلٍ مُخَبَّاةٍ مُخَدَّرَةٍ   مِنْ دُونِها تُضْرَبُ الأستار قَدْ أسِرُوا
ومُطْفِلٍ أثْكَلُوا وَجْدًا بمخولها   وحَاملٍ أجْهِضَت خوفًا وقد ذُكِرُوا
ومَرْبَعٍ أقْفَروا مِنْ بَعْدِ سَاكِنِهِ   وعِقْدِ شَمْلٍ نَظِيمٍ جَامِعٍ نَثَرُوا
وكَمْ أرَاقُوا وَكَمْ سَاقُوا وَكَمْ هَتَكُوا   وكم تَمَلَّوْا بِمَا نَالُوا وكَمْ فَجَرُوا
وَحَرَّقُوا فِي نَوَاحِيها فَوَا حَرَبَا   وَخَرَّبُوا الشَّامِخَ العَالِي وكَمْ دَثَّرُوا
وجامعُ التَّوْبَةِ المَحْرُوقُ مَهْجَتُهُ   يُشِيرُ لا تَوْبَةً للقومِ إنْ ظَفِرُوا
إشَارَةٌ تَتْرُكُ الأنْفَاسَ صَاعِدَةً   لها الدُّمُوعُ مِنَ الآماق تَنْحَدِرُ
لَهُمْ حزازَاتٌ في قَلْبي مُخَبَّأةٌ   تَكَادُ من حَرِّهَا الأكْبَادُ تَنْفَطِرُ
فما يُثَبِّطُكُمْ عَنْ أخذِ ثأرِكُم   هُبُّوا سِرَاعًا وخَافُوا اللَّومَ يا غُيَرُ
وَقُوهُمُ الحربَ إنْصَافًا ومَعْدَلَةً   وَحَرِّرُوا نُوَبَ الأيَّامِ وَاعْتَبِرُوا
لا يَظْلِمَنْ بعضُكُمْ بَعْضًا بِخَرْدَلَةٍ   ولا يَدَعْ عِنْدَه حَقًّا ولا يَذَرُ
وسَارِعُوا واقْتُلُوهُم إنَّهُمْ قَتَلُوا   وبَادِرُوا وَأسِرُوهُمُ مِثْلَمَا أسَرُوا
جُوسُوا ديارهم واسبُوا حَرِيمَهُمُ   وَأوْقِرُوا ضِعْفَ ما أوْعَوْا وما وَقَرُوا

(١) ادَّكَر: أي تذكّر واتّعظ.
(٢) الخرعوبة: الشابة الحسنة الخلق، البيضاء الجسيمة.

سَجلًا بِسَجْلٍ فإنَّ الدَّهْرَ ذُو نُوَبٍ مَنْ ذَا يُغَالِبُ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ[١]
بُزُّوهُمُ الملكَ قَهْرًا عَنْ جِوَارِكُمُ وخَرِّبُوا كُلَّ ما شَادُوا ومَا عَمَرُوا[٢]
فما يفكر في أَدْبَارِ عَاقِبَةٍ ويَحْزِمُ الأمْرَ إلَّا مَنْ لَهُ نَظَرُ
ولَا يَعَافُ شَرَابَ الذُّلِّ عَنْ ظَمَأٍ ويُومِقُ العِزَّ إلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ[٣]
فَمَهِّدُوا بالظُّبَا مَجْرَى سَوَابِقِكُم ما يَرْفَعُ الذِّكْرَ إلا الصَّارِمُ الذكرُ
وخَلِّدُوا في المعالي ما نُعَنْعِنُه عَنْكُمْ وَتُرْوَى بِهِ الأَخْبَارُ والسِّيَرُ[٤]
فَكُلُّ ذنبٍ جَنَاهُ الدهرُ مُعْتَمِدًا في جَنْبِ ما أَبْقَتِ الأَيَّامُ مُغْتَفَرُ
يا أَهْلَ جِلِّقَ أَمْنًا في مَسَاكِنِكُم وعَامِلُوا اللهَ ربَّ العرشِ وانْزَجِرُوا
صُومُوا وَصَلُّوا وَزكُّوا وَارْحَمُوا وَصِلُوا وابْغُوا النَّجَاةَ وَحِجُّوا البَيْتَ وَاعْتَمِرُوا
ذَرُوا التَّكَاثُرَ فالدُّنْيَا لِمَنْ زُوِيت فِي جَنْبِ مَا وَعَدَ الرَّحمنُ تُحتَقَرُ
فالوقْتُ أقرَبُ والأنفاسُ سَائرةٌ والعُمْرُ منصرِمٌ والمرءُ محتضِرُ
ولا تخافُوا مِنَ التَاتَارِ مَجْلَبَةً مِنْ بَعْدِ ما ارتَفَعَ التَّدْلِيسُ والغرر[٥]
لم يطلبوا جِلَّقًا بَغْيًا بِظُلْمِهِمُ إلا وَرَدُّوا على الأعقاب وَانْكَسَرُوا
حَاشَا دِمَشق من الأسواءِ تَطرُقُها أوْ أنْ تُغَيِّرَهَا عَنْ وَصْفِهَا الغِيَرُ
ملائِكُ اللهِ تَحْمِيها وتَحْرُسُهَا تعاقُبًا وَلَهَا مِن رَبِّها خَفَر
وفِي جِوَارِ خَلِيلِ اللهِ مَا بَرِحَت وحَضْرَةُ القُدْسِ قُلْ لِي: كَيف تُحْتَقَرُ
باللهِ عَدْوِي عَلَى مَنْ رَامها بَأَذَى وبالخَلِيفَةِ والسلطانِ أَنْتَصِرُ
هما ملاذُكُم في كُلِّ نائبَةٍ بالرُّوحِ أفديهما والسمع والبصر
إذَا تَأَمَّلْتَ فَحْوى سِر حُكْمِهِما لم تدر أيُّهما في عَدْلِهِ عُمَرُ
ولو رأيْتَهُمَا يومًا لَخَالَكَ أن موسَى بنُ عِمْرَان قد وافاك والخِضرُ
هما رضيعا لبانِ عفَّةٍ وتقى وحسنِ ذكرٍ شَذَاهُ فَائِحٌ عَطِرُ

---

(١) سجلًا بسجلٍ: أي نصيبًا بنصيب، ومنه قولهم: الحرب سجال.
(٢) بزّه: غلبه. (٣) يومق: يرغب، يحب، يودّ.
(٤) عنعن الرواية: أي قال في روايته: عن فلان، عن فلان، عن فلان.
(٥) دلّس البائع: كتم عيب السلعة عن المشتري، ودلّس المحدّث في الإسناد: أي روى عمن عاصره ما لم يسمع منه موهمًا سماعه، أو سمّى شيخه بما لا يعرف به. والغرر: المخادعة.

فَـذَا مَـلِـيكٌ لـكَـمُ طـابـتْ أرُومَـتـه   وَذَا أمـيـرٌ بـأمـرِ اللهِ يَـأتَـمِـرُ
أبـو الـربيـعِ سُلَيْمانُ الـذي شـهِدَتْ   بِفَضْلِهِ الـمُسْتَفَاضِ البَدْوُ والـحَضَرُ
وزمـزمٌ والـصَّـفَـا والـمـأزمَـانِ مَـعًـا   والبيتُ يعرفه والحِجْرُ والـحَجَرُ(١)
خـلِيفَـةُ اللهِ فـي الـدنـيـا وطَـاعَـتُـه   فَرْضٌ عليكم وهذا القولُ مُخْتَصَرُ
مَـا زَالَ مُـسْـتَـكْـفِيًـا بـاللهِ مُـعْـتَـصِـمًـا   مَسْتَنْصِرًا مُسْتَعِينًا وَهْوَ مُنْتَصِرُ
لـولاهُ فـي الأرضِ قَدْ مَادَتْ جَوَانبُهَا   ومَـا سَـقَـاهَـا إذًا غَـيْـثٌ ولا مَـطَـرُ
خـلـيـفـةٌ مـن بـنـي الـعـبـاس بـاقِـيـةٌ   بـه إلـى الله نَـسْـتَـسْـقِـي فَـنُـمْـتَـطـرُ
ضـاهـت يـداه عـهـاد الـغـيـث فـانـهـملت   والـغـيـثُ مـنـدفـقُ الـشؤبُـوبِ مُـنْـهَـمِـر
لـو مَـسَّ عُـودًا يـبـيـسًـا بَـطْـنُ رَاحـتـهِ   أعـاده وَهْـوَ رطـب يَـانِـع خَـضِـرُ
مـاذَا أقـولُ بِـمَـدْحـيـهِ وَقَـد تُـلِـيَـتْ   فـي مَـدْحِ آبـائـه الآيـاتُ والـسُّـوَرُ
جـاءَتِ بـنَـعْـتِـهِـمُ الـتـوراةُ مُـعْـرِبَـةً   ومـحـكـمُ الـذِّكْـرِ والإنـجـيـلُ والـزُّبُـرُ
بـه إلـى الله ضِـجُّـوا فـي حَـوَائـجكُـم   وبَـعْـدَهُ بـالـمـليـكِ الـنـاصِـرِ انـتَـصِـرُوا
مَـلْـك أعِـيـدَ بـه عـصـرُ الـشَّـبـابِ لـكُـمْ   مُسْتَرْغَدًا صَافيًا واسْتُؤنِفَ العُمرُ
تـرى الـمـلـوكَ صـفـوفًـا حَـوْلـه زُمَـرًا   مِنْ فَرْطِ هَيْبَتِهِ لا يرجع الـبَـصَـرُ
تَـذِلّ أعـنـاقُـهـم صَـغْـرَى لِـطَـاعَـتِـهِ   وَلَـيْـس يَـعْـصُـونَـه أمْـرًا إذا أمِـرُوا
صُونوا جيَادَكُمُ اللَّاتِي بكم لجبت   في بَارقِ الحَرْبِ والرمضاءُ تَسْتَعِرُ
إنَّـا لـنـرْجُـوه مِـنْ بـغْـدَادَ يُـنْـهِـلُـهَـا   بـمـاءِ دِجْـلـةَ يَـرْوِيـهَـا فَـتَـضْـطَـدِرُ
ويَـجْـمَـعُ الـشمل في دارِ الـسَّـلَامِ بِـمنْ   يَـوَدُّهـا ويـؤدون الـذي نَـذَرُوا
يَـؤُمُّـهَـا وإمـامُ الـمُـسْـلِـمِـيـن مَـعًـا   ثِـقُـوا بِـقَـوْلِـي فَـهَـذا مِـنْـهُ مُـنْـتَـظَـرُ
فـالـشـامُ وَافَـاهُ مـعْ بَـغْـدَاد فِـي قَـرنِ   وَمِـصْـرُ فِـي مُـلْـكِـهِ والـبَـرُّ والـبَـحَـرُ
والعُرْبُ والعُجْمُ فِي مَيْمُونِ قَبْضَتِهِ   ومن سُطيَ بَأسِهِ قد حَارَت التتر
تـنـشَّـروا فـي الـفـلا سُـودَ الـوُجُـوه وقـد   طَـوَى بـأبْـيَـضِـه الـبَـتَّـارِ مـا نَـشَـروا
فَـدَامَ لـلـدِّيـن والـدنـيـا يَـسُـوسُـهُـمـا   فَـكُـنَّ فـيـه لـه حِـرْزٌ ومـسـتـتَـر
وعُـمْـرُهُ الـجَـمُّ أعْـيَـادٌ مُـجَـدَّدَةٌ   وأشْـهُـرٌ بِـعَـزيـزِ الـنـصـرِ تَـشْـتَـهِـرُ

---

(١) المأزمان: مضيق بين جمعٍ وعرفة، وآخر بين مكة ومنى.

عَـلَى الـدَّوَام وَلَا زَالَتْ مَـدَائـحـهُ تُـفْـشَـى وغُـرُّ الـقـوافـي فـيـه تُـبْـتَـكَـرُ
وافَـاكُـمْ بِـعَـزِيـزِ الـنَّـصْـرِ فـي نَـفَـرٍ وَقَـاهُـمُ اللهُ مَـا أوْفَـاهُـمُ نَـفَـرُ
قد أيْقَنُوا أنـهـم جَـادُوا بـأنْـفُـسِـهِـم مِن أجْلِ ذَا ظَهَرَ الإسلامُ مُذْ ظَهَرُوا
كم فَرَّجُوا مَأزَقًا ضَنْكًا بِمُعْتَرَكٍ وَكَابَدُوا فِي مَجَالِ المَوْتِ واصْطَبَروا
فَبَيَّضَ اللهُ منهم أوْجُهًا كَرُمَتْ فإنَّهـمُ بِالأيَادِي البِيضِ قد غَمَرُوا
وحاطهم أين ما كَانُوا ولا بَرحُوا فـي ذمَّـةِ اللهِ إنْ غَـابُـوا وإنْ حَـضَـروا

هذا ما كان من خبر هذه الغزوة المباركة ونبذة مما قيل فيها، فلنرجع إلى سياق حوادث سنة اثنتين وما وقع فيها خلاف ما قدمناه. وفي سنة اثنتين وسبعمائة صام الحَنَابلة من أول شهر رمضان على عادتهم في الاحتياط، واستكمل الشافعية والمالكية عدَّة شعبان، فلما مضى ثلاثون يومًا من صوم الحنابلة لَمْ يُرَ الهلال فَأفطَروا تكملةً للعِدَّةِ من يَوْمِ صيَامهِم، وأقامُوا الخُطْبَة، وصَلّوا صلاة العيد، وصام مَنْ عَدَاهُم مِنَ الشَّافعية وغيرَهَم ذلك اليوم الذي عَيَّدَ فيه الحنابلة وعَيَّدُوا في اليوم الثاني. وأقاموا الخُطْبَة، فَحَصَلَ الإنكار الشديدُ مِنْ نائب السَّلْطَنَة في الشام على مُتَوَلِّي نَابُلس، وهو يومَئِذٍ: بَدْرُ الدين الصَّوَابي؛ كَوْنَه مَكَّن مِنْ ذلك ولم يجمع الناسَ على يوم واحد، ولم يُسْمَع بمثل هذه الوقائع في بلَدٍ واحِد. وأما البلاد المتباعدة فقد تختلف مطالعها.

ومِنْ غريبِ مَا وَقَعَ فِي شهر رمضان ما حَكَاهُ ناصرُ الدين محمد بن عليا بن محمود بن سليمة الأغرناطي: أنّ أهْلَ أغِرْنَاطة[1] صَامُوا فِي بعض السنين شهرَ رَمَضَان ستة وعشرين يومًا. وذلك أنّ الغيُومَ تراكَمَتْ عِنْدَهُم عِدَّةَ شُهُور قبل شهر رمضان. فاستكملوا عدتها وصاموا شهر رمضان بعد استكمال شعبان وما قبله. ومن عادة أغِرْنَاطة أنَّ أهلها يحتفلون في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، يوقدون المآذن كما تفعل أهل مصر والشام في نصف شعبان، فلما صعدوا ليوقدوا المآذن ـ على عادتهم ـ أقلعت الغيوم فرأوْا الهلالَ وهو هلال شوال؛ فأفْطَرَ الناسُ وعَيَّدَوا، وقَضوا صيامَ أربعة أيام، وهذا أيضًا غريب.

ومن غريب الاتفاق في رؤية الهلال أن الناس بدمشق طلعوا إلى المئذنة لارتقاب هلال رمضان، والحَاكِمُ يومئذٍ بالشام قاضي القضاة شهابُ الدين الحموي،

(١) أغرناطة: هي غرناطة بالأندلس.

وكانت الغيوم قد عَمَّت السماء، فطلع الناسُ للعادة مع تحقيقهم أنهم لا يرون شيئًا، فاتفق عند ارتقابهم مطلعَ الهلال انفراجُ دائرة من الغيم ظهر من تحتها الهلال، فلما عاينه الناس التأمَ الغيمُ لوقته، وصام الناس عن رؤية ويقين، وما عَلِمْتُ كانَ هذا في أي سنةٍ وإنما نقله لي ثقة أرجع إلى نقله.

ذكر حدوث الزلزلة

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة عند طلوع الشمس، حدثت زلزلة عظيمة بالقاهرة ومصر وأعمال الديار المصرية كلها، ودمشق والشام أجمع والسّواحل والجبال الشامية، وكان مُعْظَمُها بالديار المصرية، فهدَمَت منائر كثيرة، منها: منائر الجامع الحاكمي وشعَّثته، وهَدَمَت بَعْضَ جُدْرَانه، وتشقَّقَتْ مئذنة المدرسة المنصورية على عِظَمِهَا، وإتْقَانِ بنائِهَا، حتى دعت الضرورة إلى هَدْمها وإعادتها، وهدمت منارة الجامع الظافري بالقاهرة ومنارة الجامع الصالحي وغير ذلك، وشعثتْ جُدُرُ جامع عمرو بن العاص بمصر، وانْهَدَم بسببها كثير من العمائر، وأقامت مقدار مِضي خمس دَرَج، وكانت مزعجة، وأثرَّت بالإسْكَنْدَرية أثرًا عظيمًا هدمت أكْثَر المنارات وبعض الأسواق وغرق جماعة كثيرة عند مده وعوده وعدم قماش التجار وجزر البحر الملح حال الزلزلة، وانطرد عن مكانه. ثم مَدّ حتى دخل الصناعة، ووصل إلى الأسوار الذي كان عند القصارين بجملته، وأثرت هذه الزلزلة بصَفَد أثرًا عظيمًا، وسقط جانب من قلعتها، وانطرد البحر بِعَكَّا حتى انكشف ما بين عكّا وبُرْج الذُّبّان الذي بالبحر ومسافته بعيدة، وظهر أنه كان بساحلها أشياء مما ألقاه أهل عكّا في البحر لما حاصرها المسلمون، فتبادر من كان هناك بالنزول لأخْذ مَا ظَهر لهم، فجاء الماء أمثال الجبال فغرقوا، وَوَصَل في مدّه إلى قرب تل الفضول، وخربت دمنهور الوحش - وهذه مدينةُ أعمالِ البحيرة - خرابًا شنيعًا؛ وأبْيَارًا، وغير ذلك من البلاد، ولِعِظم هذه الزلزلة بالديار المصرية أرّخ كثير من العَوامّ بها فهم يذكرونها إلى وقتنا هذا.

ولمَّا أثَّرت هذه الزلزلة بالجوامع ما أثرت، اهْتَمّ الأمراء بالديار المصريةِ بها، فعمَّر الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ما تَشَعَّثَ بجامع عمرو بن العاص بمصر، وعمّر ركن الدين بِيَبرْس الجَاشنكِير أستاذ الدار، جامع الحاكم بالقاهرة، وجدد مآذنه وسقوفه، وبيّضَه وبلّطه، وأصلحه إصلاحًا جَيِّدًا حتى عاد أحسن مما كان، ووقف عليه أوقافًا متوفرة، ورتَّب فيه من الدروس ووجوه البِرّ والخير ما نذكره إن شاء الله تعالى في سنة ثلاث وسبعمائة.

وأعيدت المئذنة المنصورية مِنْ مال الوقف ليصرفه، وصرف في عمارتها في نِصْفِها الذي هُدم وهو من سطح القُبَّة إلى انتهائها ما عدا ما يقارب تسعين ألف درهم، خارجًا عمّا استعمل من أحجارِها المنقوضة منها، وعن تَفاوُتِ أجر الأسرى وما حمل على ذوات مرمات الوقف.

وندب لعمارتها الأمير سيف الدين كهرداش الناصري، وعادت أحسن ما كانت، وعمَّر ما تَشَعَّث من الجامع الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، وعمّر الجامع الصّالحي الذي هو خارج باب زويلة، والجامع الظافري من الأبواب السلطانية، وعمرت سائر الأماكن والمساجد التي تهدمت بالقاهرة ومصر حتى عادت أحسن مما كانت والحمد لله وحده.

وفي هذه السنة تُوفِّي فارس الدين ألبكي الساقي المنصوري[(١)]، نائبُ السّلْطَنة بحمص، في يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة بها، وفُوِّضت نيابةُ السّلْطَنة بحمص بعده إلى الأمير عز الدين أيْبَك الحموي الظاهري نقل إليها من صرْخَد.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين سنقر العين تابي أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بدمشق في ليلة الجمعة ثامن عشر ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله، وتوُفِّي بدَمشق الشيخ الفاضل كمال الدين أبو العباس أحمد بن أبي الفتح محمود الشَّيْبَاني المعروف بابن العطار[(٢)]، أحد أعيان كُتّاب الدَّرْج بدمشق، وكانت وفاته في ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من ذي القعدة، وصُلِّيَ عليه بالجامع، الرابعةَ من النهار، ودُفن بتربته بقاسيون، وكان رحمه الله تعالى فاضلًا دَيِّنًا خيِّرًا، سمع الكثير من الحديث النبوي، وله نظم ونثر.

ذكر وفاة الأمير زين الدين كتبغا المنصوري وهو الملك العادل[(٣)]

كانت وفاته يوم الجمعة رحمه الله تعالى وهو يوم عيد الأضحى من سنة اثنتين وسبعمائة بحماه، ونُقل منها ودُفِن بتُربته بجبل الصالحية بدمشق، وقد قدّمنا من أخباره

(١) فارس الدين البكي الساقي المنصوري: انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٩٦، الدرر الكامنة ١/ ٤٣٢، الوافي بالوفيات ٩/ ٣٥١.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٠٣، البداية والنهاية ١٤/ ٢٧، الوافي بالوفيات ٨/ ١٦٧.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥، النجوم الزاهرة ٨/ ٥٥ ـ ٧٠، الدرر الكامنة ٣/ ٣٤٨، البداية والنهاية ١٤/ ٢٧.

وتنقلاته وتقلب الأيام به من الأسر في حال شبيبته والمبيع، ثم الإمرة ونيابة السلطنة، ثم السَّلطَنَةُ والخَلْعُ، والإمرة والنِّيابة عن السَّلْطَنة بحماه ما يُسْتَغْنَى عن إعادته.

ولـمّا مات فُوِّضَت نيابَةُ السَّلطنَة بحماه بعده إلى الأمير سيف الدين قَبْجَاق المنصوري، نقل إليها من نيابة الشوبك والله أعلم.

واستهلت سنة ثلاث وسبعمائة.

ذكر الجلوس بالمدرسة الناصرية والقبة وأوقاف ذلك وشروطه

في هذه السنة في أوّلها فتحت المدرسةُ المبَاركة النّاصرية، والقُبّة الشريفة، وانتصب المدرسون والفقهاء بالمدرسة، والقراءُ بالقبّة، وجلس شيْخُ الحديث بِرَواق القُبة - وفوّضَ التدريس بالمدرسة لمن نذكرهم، وهم: قاضي القضاة زين الدين علي المالكي[(١)]، والطائفة المالكية جلسوا في الإيوان القبلي بالمدرسة بمقتضى شرط الواقف لهم، وقاضي القضاة شمس الدّين أحمد السروجي الحنفي[(٢)]، والطائفة الحنفية جلسوا في الإيوان الغربي، وقاضي القضاة شرف الدين عبد الغني الحراني الحنبلي[(٣)]، والطائفةُ الحنابلةُ بالإيوان الشرقي وكان جلوسهما بهذين الإيوانَيْن بخلاف شرط الواقف، فإنه جعل الإيوان الشرقي للحنفية، والإيوان الغربي للحنابلة، فجلسا على عكس الشرط، ولعل ذلك عن غير قصد، ثم انتقض ذلك على ما نذكره.

وجلست كل طائفة منها في المكان المعيَّن لها بشرط الواقف، وجلس القاضي صدر الدّين محَمّد ابن الشيخ زين الدين المعروف بابن المرحّل[(٤)]، والطائفة الشّافعية

(١) زين الدين علي المالكي: هو زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض النويري، توفي سنة ٧١٣ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤٩، حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨، الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٢).

(٢) شمس الدين أحمد السروجي الحنفي: هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني الحنفي، توفي سنة ٧١٠ هـ (انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٢٣٤، الدرر الكامنة ١/ ٩١، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠).

(٣) شرف الدين عبد الغني الحراني الحنبلي: هو عبد الغني بن يحيىٰ بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن نصر بن محمد بن أبي بكر الحراني الحنبلي، توفي سنة ٧٠٩ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨، حسن المحاضرة ٦/ ٤٨١، الدرر الكامنة ٢/ ٤٩٨، البداية والنهاية ١٤/ ٥٦).

(٤) ابن المرحل: هو صدر الدين محمد بن زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد بن عطية بن=

بالإيوان البحري، وحضر دَرْسَه الأمير عز الدين أَيْبَك البَغْدادي وزير الدَّوْلة ومُدَبِّرها.

وهذه المدرسة والقبة كان أنشأهما الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا المنصوري في أيام سَلْطَنَته، واشترى أرضهما، وكانت دارًا تعرف بالرشيدي، وحَمَّامًا ومَسَاكِن، فابتاع ذلك وهدمه، وأنشأ قبَّةً ومدرسة. وكملت عمارة القبة، وبُني من المدرسة إيوانُها القبليُّ وبعضُ ما يليه، ثم خُلِعَ الملكُ العادل من السلطنة ـ كما تقدم ـ فغُلِّقت المدرسة وبطلت عمارتها، فلما عاد السلطان الملكُ النّاصر إلى السلطنة ثانيًا في سنة ثمان وتسعين وستمائة. حسَّنَ له قاضي القضاة زين الدين المالكي ابتياعها وتكْملةِ عمَارتها وإتقانها، فابتاعها وعوّض الملك العادل، عن ثمنها حِصَصًا من ضِيَاعٍ من أملاكه بدمشق، وحصل الشروعُ في عمارتها، وعُيِّنَ لها مِنَ الأملاك السلطانيّة ما يوقَف عليها، وكان المعيَّن لذلك قاضي القضاة زين الدين المالكي، وهو يومئذٍ ناظر الأملاك السلطانية التي وَرِثَهَا السلطانُ عن والده وإخوته، والمبتاعة مِنْ أجْرِ أملاكه، وكانت أجْرَتُها في كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تَزِيدُ عَلَى ثمانية عشر ألف درهم.

ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام للقاء غازان وحزبه عند طروقه الشام وَقَفَ القُبّة والمدرسة، ووَقَفَ على مصالحهما من أمْلاكه ما يذكر، وذلك في الثاني والعشرين مِنْ ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة قبل اسْتقلال ركابه الشريف إلى الشام بيومين، وكان قاضي القضاة زين الدين قد رتَّبَ كتاب وَقْف، جعل النظر فيه على الوقف، والمدرسة والقُبَّةَ لنفسه أيام حياته، ثم مِنْ بَعْدِه للأرْشَدِ فالأرْشَدِ من أولادِه وأولادِهم وذُريّتهِم، ثم مِنْ بعْدِهم لِقَاضِي القُضَاة المالكي، وشَرَط أيْضًا التدريس في إيوان المالكية لنفسه ولأولاده مِنْ بعده، وكتبَ الكتابَ ووقَعَ الإشْهَادْ على السلطان فيه بذلك، فضاق شِهَابُ الدين أحمد بن عُبَادَة من ذلك، وكان قاضي القضاة زين الدين قد استخدمَه مشارفًا بالديوان الناصري، وتقدم عند السلطان،

= أحمد الأموي المصري الشافعي، المعروف بابن المرحل، وابن الوكيل، ولد بدمياط سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧١٦ هـ، له من المصنفات: «الأشباه والنظائر»، «شرح أحكام الصغرى» لابن الخراط الإشبيلي في الحديث، «طراز الراز» في ديوان شعره، «الفرق بين الملك والنبيّ والشهيد والولي» (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٣، الوافي بالوفيات ٤/ ٢٦٤، وفيات الأعيان ٤/ ١٣، الدرر الكامنة ٤/ ٢٣٤، البداية والنهاية ١٤/ ٨٠، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٥٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٣، الدليل الشافي ٢/ ٦٦٨، حسن المحاضرة ١/ ٤١٩).

وأوضح للسلطان أمْرَ الوقف وبَيَّنَهُ له، وقال: إن قَاضِي القضاةِ إنَّمَا جَعَلَ هذَا لنفسهِ ولأولادِهِ وذُرِّيَته ولم يجعل للسلطان ولا لِعُتَقَائِهِ في ذلك شيئًا، وحسَّنَ للسلطان تغيير كتاب الوقف، وأن يجعل النظر فيه لعتِيقِه الطواشي شجاع الدينِ عَنْبر اللّالا ومن بعده للأمثل فالأمثل مِنْ عُتَقَاءِ الواقف، ثم عتقاء وَالِدِهِ؛ ففعل ذلك، وجَعَلَ له أن يتناول من ريع الوقف المذكور في كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة[١] مدة حياته. وجعل لمن يَؤول النظر إليه بعده في كل شهر مائتي درهم، وأبطل الكتاب الأوّل وثَبَّتَ الكتاب الثاني.

وسألت شهابُ الدين بن عُبَادة عن السبب الحامل له على إخراج النظر عن قاضي القضاة ونقله إلى غَيره. فقال: إنه جعل النَظَر والتّدريس لنفسه ولأولاده من بعده، وما جعل لي منه نصيبًا، ولا ذكر لي وظيفة، وكنت طلبت منه أن يجعلني مشارفًا بشرط الواقف فشَحَّ عليّ بذلك، فأخرجت النّظر عنه وعن ذُرِّيته.

وقد رأيت أن أذكر مُلَخَّصَ ما تَضَمّنه كتابُ وَقْفِ القُبَّة والمدرسة، وما رتب فيهما فيه من أرباب الوظائف، وما شرط لهم من المعلوم، وما شرط عليهم، والجهات الموقوفة على ذلك، وما يتحصل من أجورها في كل شهر وألخص المقاصد فيه مع عدم الإخلال بها، ولا أحذف منها إلّا حشو الكتاب الذي لا يُخِل حذفَه بالمعنى، وأورِد ذلك بمقتضى كتاب الوقف وارتفاع الجهات الموقوفة بمقتضى حساب المباشرين، والذي حملني على ذلك وأوجب لي إيراده في هذا الكتاب مع ما فيه من الإطالة والخروج عن القاعدة التاريخية ما وقع في مثل ذلك من إخفاء كتب الأوقاف إذا تطاول عليها المدد، وبَعُدَ العَهْدُ بالأوقاف والشروط، وتداولها النُّظّارُ والمباشرون واستولوا على الأوقاف وغَيَّرُوا المصارف عن شروط الواقفين، ونسبوها إلى العادة، فيخرج عن شرط الواقف إلى رأي المباشرين، وعادة الصرف. ثم بعثني على ذلك وأكّدَه عندي ما وقع في هذه المدرسة المباركة في ابتداء أمرها مع بقاء واقفها - خلد الله سلطانه - وتوفر الداعي على ملاحظتها، ونصب قضاة القضاة وأعيان العلماء ونبلاء الفقهاء في دروسها، ومع ذلك كلّه حصل الخروج فيها عن شرط واقفها في كثير من أحوالها، واخْتُصِرَ المرتب عن شرط الواقف مع توفّر المال وزيادته عن كفاية الشروط، وإنما ظهر ذلك عند وفاة ناظرها الطواشي شجاع

---

(١) درهم النقرة: هو الدرهم التي كانت تغلب فيه نسبة الفضة على النحاس (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٤).

الدين في سَنَةِ أربعٍ وعشرين وسبعمائة، وظهور كتاب الوقف، ولَعَلَّ الناظر المذكور لم يفعل ذلك عن علم واطلاع على الشّروط، وإنما فعَلَه عن إغفالٍ وإهمال وجهل وعدم احتفالٍ بإمعان النظر فيما أسند إليه، واعتمد فيه عليه، فلما أَسْنِدَ النّظرُ إلى أهله، وانتهى إلى من يتحرّى الصّوَابَ في قوله وفعله، أجرى الأمورَ فيها على شَرْطِ واقفها، وصَرْفِ أمْوَالِها في وجوه مصارفها، وما عدل عن شرط الواقف ولا خرج، ولا اعتمد ما يترتب عليه فيه أدنى حرج، والذي تضمنه كتاب الوقف الثاني الصادر عن مولانا السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي ـ خلد الله تعالى سلطانه، وأفاض على الكافة عدلَه وإحسانه ـ أنه وقف جميع المكان أرضًا وبناءً، وما هو من حقوقه، والساحة التي هي أمام المكان المذكور التي هي من حقوقه، وذلك بعد أن كملت عمارة القبة، وقبل أن تكمل عمارة المدرسة، وشرط تكملة عمارتها وإنشاء المئذنة، فقال بعد الوصف لها والتحديد ما معناه بعد ذكر ألفاظه وتحرير مقاصده.

أما القبّة فإنه وقفها للقرَّاء بها، وشيخ الحديث والإمام والمؤذنين والقَوَمَة والفراشين والخُدَّام والمترددين والمجتازين لها للصلوات وأداء الفرائض والواجبات، وسماع القرآن العظيم وحديث النبي ﷺ خلا مَوْضِع الضَّرِيح الذي بِوَسَطِ القبة فإنّه مُرْصَدٌ للدَّفن، وخَلَّى بينهم وبين القُبَّةِ المذكورة، وأذِنَ لهم في الدخولِ إليها والصلاة فيها على العادة في مثل ذلك، فصَار لا حَقَّ له فيها إلا كسائر الناس أجمعين، وجعل للناظر أنْ يُرَتِّب بالقبة المذكورة إمامًا يؤمّ بالمسلمين في الصلوات الخمس، ويفعل ما يفعله الأئمة على ما يراه الناظر من المذاهب، ويؤدي إليه اجتهاده، ويصرف له في كل شهر ـ بالهلال ـ ثمانين درهمًا أو ما يقوم مقامها، ويُرَتِّب فيها شيخًا لإقْراء الحديث النّبوي ينتصب في المكان الذي يُعَيِّنه الناظر منها في الوقت الذي يجعله له لمن يقصده، ويشغل عليه به، أو لِسَمَاع الحديث وتصحيحه، ويَصْرِف له من رَيْع الوقف في كل شهر ثلاثين درهمًا نقرة ويرتب بها من القراء الحافظين لكتاب الله العزيز خمسةً وعشرين نفرًا على ما يراه في ترتيبهم في النوبة، يقرؤون ما تيسر لهم قراءتُه لَيْلًا ونهارًا في الوقت الذي يُعَيِّنُه لهم ويَدْعُون عَقِيبَ قراءتهم للواقف ووالديه بالرحمة والرضوان. وجميع المسلمين، ويصرف لهم في كل شهر خمسمائة درهم بينهم على ما يراه من التسوية والتفضيل، ويرتِّبُ بالقبة والمدرسة من المؤذنين ثمانية نفر يَجْعَلُ من العدد رئيسين عارفين بالأوقاف يعلنون بالأذان الشرعي في المئذنة التي

تنشأ على الباب لَيْلًا ونهارًا وإقامة الصلوات والتسبيح، والتذكار في الأسحار على ما يراه الناظر متناوبين أو مجتمعين، وعلى ما يراه من ترتيبهم في القبة والمدرسة، ويصرف لهم في كل شهر مائتي درهم وثلاثين درهمًا نُقْرَة يصرف للرئيسين في كل شهر ثمانين درهمًا على ما يراه من التسوية والتفضيل، ويصْرف للستَّةِ الباقين في كل شهر مائة درهم وخمسين درهمًا على ما يراه من التسوية والتفضيل، ويرتب بالقبة من الْقَوَمَةِ اثنين يقومان بخدمة القبة المذكورة والإيوان والساحة التي من حقوقها، ووقود مصابيحها، والكنس والتنظيف والغسل للصحن المرخم، ودائره والسقاية التي للقُبّة وإمَاطةُ الأذى عن ظاهرها كعادة الْقَوَمَة في مِثْلِ ذلك. ويصرف لهما في كل شهر ثمانية وخمسين درهمًا نقرة أو ما يقوم مقامها على ما يراه من التسوية والتفضيل. ويرتب بها ثلاثة من الفراشين الذين خبروا الخدمة، يقومون بِفَرْشِ الْقُبَّة المذكورة، ورَفْعِ فَرشِها في الأوقات المعهود ذلك فيها، ويفعلون ما يفعله مثلهم في مثل ذلك، ويصرف لهم في كل شهرِ مائة درهم وواحدًا وستين درهمًا نُقْرَة، من ذلك ما يصرف للحاج صُبيح القطبي أحد الفراشين مائة درهم نُقْرَة في كل شهر، أو ما يقوم مقامها من النقود ما دام حَيًّا مُبَاشرًا، وباقيها لرفيقيه بينهما على ما يراه الناظر من التسوية والتفضيل. فإن تُوُفِّيَ صُبَيْح المذكور، أو تعذر مباشرته بسببٍ من الأسباب وزال استحقاقه عوَّضَ الناظرُ مكانَه غَيْرَه مَنْ شاء، ويصرف له أسوة برفيقيه والباقي منه يعود في مصالح الوقف.

ويرتب بها أربعةً من الخدام من عتقاء الواقف، فإن لم يوجد من عتقائه فمن عتقاء والده. ويَصْرِف لهم في كل شهر مائة درهم وستين درهمًا على ما يراه الناظر من التسوية والتفضيل، فإن لم يوجد من عتقائه ولا عتقاء والده وتعذرت مباشرة الخدام بوجه من وجوه التَّعَذُّرَات رجع ما كان يصرف لهم على المصالح المذكورة.

ويرتب بها بَوَّابًا حافظًا لها يحتاط في الداخلين والخارجين، ويمنع المرتبات بهم، ومن يكثر الدخول لغير حاجة، ولا يترك الباب إلا لعذر ويَسْتَخْلِفَ مكانه زَمَانَ غيبته، ويصرف له في كل شهر عشرين درهمًا أو ما يقوم مقامها.

ويصْرِفُ في ثمن زَيْت يُسْتَصْبَحُ به بالقبة المذكورة وما حوته من الأماكن ما يراه، وفي ثمن حُصْرٍ من العباداني الأحمر أو الأبيض بحسب ما يراه، وفيما يحتاج إليه من القناديل والبَصَّاقات والسلاسل والأباريق والكِيزَان، وجميع ما يحتاج إليه ما يراه.

وأما الموضع الذي فيه الأواوين الأربعة وما به من البيوت السفلية والعلوية والقاعة المجاورة للإيوان القبلي وما حواه من الأبنية فإنه وَقَفَ ذلك على المدرسين بها، والمعيدين والفقهاء والمتفقهين بها المشتغلين بالعلم الشريف على مذاهب الأئمة الأربعة، وعلى الإمام والمؤذنين والقَوَمَة والبوّاب بهذه المدرسة وغير ذلك، يسكن بها المدرسون والمعيدون والفقهاءُ والأئمة في بيوتها للاشتغال بالعلم الشريف، ويؤدي كل واحد منهم ما يلزمه بهذه المدرسة على العادة في مثلها وعلى المترددين بهذه المدرسة، والمجتازين للصلوات وأداء الفرائض، وخلّى بين المسلمين وبينها تخليةً شرعية، وأذِنَ لهم في الصلاة فيها، وصار حكمها حكم سائر المدارس.

وجعل للناظر أن يرتب بالمدرسة المذكورة في كل من أوَاوِينِهَا الأربعة مدرسيها على المذاهب الأربعة، ينتصب المدرس المالكي المذهب بالإيوان القبلي، والمعيدون المالكية والطلبة المالكية في الوقت الذي يعين فيه، وهو ما بين طلوع الشمس إلى زوالها، أي وَقْتٍ رآه المدرس من ذلك لإلقاء فروع مذهبه، وما تيسرَ له من إلقائه من تفسير وأصُولٍ وغير ذلك، بحيث يلازم الجلوسَ على العادة في الوقت المعيّن بعد أن يَتَيَمَّن كلُّ واحدٍ منَ المدرسين هو وجماعتهُ بقراءة ما تيسّر من القرآن الحكيم، إمَّا مِن رَبْعَةٍ أو مِنْ صدُورِهم، ويَدْعُون عَقِيب ذلك للواقف، وسائر المدرسين. ويُعَيّن من المعيدين المالكية ما يراه الناظرُ مِنَ العَدَد.

وكذلك يَنتصبُ المدرسُ الشافعي المذهب بالإيوان البحري كما حُكِيَ بأعاليه هو ومَن يُعَيِّنُه الناظرُ من المعيدين والطلبة في الوقت المذكور.

وكذلك يَنْتصِبُ المدرِّس الحنفي المذهب ومن معه من المعيدين والطلبة في الوقت المذكور في الإيوان الشرقي وكذلك ينتصب المدرس الحنبلي المذهب ومن معه من المعيدين والطلبة في الوقت المذكور بالإيوان الغربي، ويعين الناظر لكل مدرس منهم من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد. وينتصب كل معيد ممن عُيِّن في جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته، ويشرحُ لمن احتاج الشرح دَرْسَه ويصحح له مستقبله، ويرغِّبُ الطلبة في الاشتغال، ولا يمنع فقيهًا أو مستفيدًا ما يطلب من زيادَة تِكْرَارٍ وتَفَهُّم مَعْنى، ولا يقدم أحَدًا من الطلبة في غير نَوْبَتهِ إلّا لمصلحة ظاهرة، ويشتغلُ كل واحدٍ من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية، ويراه المدرس له على مذهبه، ويبحث في كل ما أشكل عليه من ذلك، ويراجع فيه، وأن ينظر المدرسُ في طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال، ويجعل من يختاره نقيبًا عليهم، ويقررُ له ما شاء.

ويُصْرَف لكل واحدٍ من المدرسين ولمعيديه وطلبته، والداعي عنده والنقيب، في كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، من ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتا درهم، والمعيدين والطلبة والداعي والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتب بالمدرسة المذكورة بالإيوان القبلي بها إمامًا يؤم بالمسلمين في الصلوات الخمس على أي مذهبٍ كان من المذاهب الأربعة، يقوم بوظيفة الإمامة كجاري عادة المدارس، ويصرف له في كل شهر ثمانين درهمًا.

ويُرَتِّبُ مِنَ المؤذنين الثمانية المشار إليهم من يختاره كما بين فيه، ويرتب بها أربعةً مِنَ القَوَمَة العارفين بما يلزمهم، من ذلك يقومون بخدمة المدرسة، ووقود مصابيحها، وكنسها وتنظيفها، وتنظيف فَسْقِيتها ودائرها، وتنظيف السقاية وغَسْل ما بظاهرها من الأوساخ كجارِي عادة القَوَمَة في مثلها، ويصرف لهم في كل شهر مائة درهم بينهم على ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتب بها شاهدًا لخزانة الكتب يحفظ ما فيها من الكتب، ويَضْبِطُ ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة، ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهمًا أو ما يقوم مقامها من النقود.

ويرتب بالمدرسة بَوابًا بالباب الكبير الجامع للقبة والمدرسة حافظًا محتاطًا في أمور المدرسة والقبة من الداخلين إليها والخارجين، مانعًا مَن يرتاب به، ومَن يُكْثِرُ الدخولَ لغير حاجة، ويلازم حفظ الباب ليلًا ونهارًا، وفتحه وغلقه في الأوقات المعهود ذلك فيها، ولا ينفصل عن الباب إلا بعذر، فإن اتفق له عذر استخلف في موضعه من يختاره عنه حين غيبته، ويَصْرِفُ له في كل شهر ثلاثين درهما نقرة[1] وما يقوم مقامها من النقود ويرتب سوّاقًا لإدارة الساقية، وإجراء الماء من البئر إلى الصحن أمَامَ إيوان القُبة، وإلى الفسقية التي بوسط المدرسة، وإلى المَيْضَأة التي بالمدرسة، ويفعل ما جرت العادة في مثل ذلك، ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهمًا، ويصرف في ثمن ثَوْرٍ لإدارة الساقية المذكورة ما يراه، ويؤدي إليه اجتهاده، ويصرف في ثمن ما تحتاج إليه الساقية من الخشب والآلات والنّجرِ والحديدِ ما يراه.

---

(١) درهم النقرة: تقدم التعريف به، انظر الحاشية السابقة.

ويصرف في ثمن زيت الزَّيْتون أو ما يقوم مقامه مما يُسْتَصْبَحُ به في المدرسة المذكورة، والأواوين الأربعة والمطلع ولسكن الطلبة والمِيْضأة ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

ويصرف فيما تحتاج إليه المدرسة المذكورة من الحصر والقناديل والبصاقات الزّجاج والأطباق النحاس والسلاسل والأباريق والجِرَار وجميع ما يُحْتَاج إليه بالمدرسة المذكورة ما يراه، ويؤدي إليه اجتهاده.

ويصرف الناظر في كل سنة في ملء الصهريج من بحر النيل المبارك ثَمَنَ ستمائة راوية ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

وجعل الواقف أعز الله نَصْرَه النظر في هذا الوقف لعتيقه الطواشي شجاع الدّين عنبر بن عبد الله الحرّ الّلالَا أيام حياته، ثم من بعده يكون النظر للأمثل فالأمثل من عتقاء الواقف فإن استوى اثنان فأكثر قُدّم الأكبر سنًّا مع ظهور الأهلية لذلك، فإن استووا أقرع بينهم ثم بعدهم يكون النظر لعتقاء والد الواقف للمذكور الأمثل فالأمثل صح منهم فإن استوى اثنان فأكثر قدّم الأكبر سِنًّا مع ظَهورِ أهليته لذلك، فإن استووا أقرع بينهم، فإن انقرض عتقاؤه وعتقاء والده أو تعذر نَظَر أحَدٍ منهم كان النظر في ذلك والْوِلَايةُ عليه لحاكم المسلمين، فإن عاد إمكانُ نظر مَنْ تعذّر نظره عاد النظر إليه، فإن تعذر أيضًا كان لحاكم المسلمين يجري الحال في ذلك أبد الآبدين.

وفي ظهر كتاب الوقف المذكور إسْجَالٌ على قاضي القضاة شمس الدين أحمد السُّرُوجي الحنفي، يتضمَّنُ أن الحاكم الآيل النظر إليه يكونُ مالكي المذهب. وشرط الواقف أن لكل مَنْ له وظيفة في هذا الوقف المذكور أن يستنيب عنه عند ضرورةٍ لسفرٍ أو مرض، وأن لكلٍّ من المدرسين والطلبة والمعيدين البِطالة المعروفة في رجب وشعبان ورمضان وعشر ذي الحجة من كل سنة على جاري العادة في مثل ذلك، وأن من شرط هذا الواقف أن يُتَعَاهَد إثباتُه عند الحكام، ويُحْفَظ بتواتر الشهادات، كل ذلك بعد البدأة بعمادة الوقف ومرمَّته وصلاحه وإصلاحه وما فيه الإفضاءُ إلى بقاء عينه، ودوام منفعته، ونُموِّ غَلَّته، وما فَضَلَ بعد ذلك يصرف في المصارف المعينة فيه على أنّ الناظر فيه يُؤَجِّرهُ وما شاء منه مدة سنة فما دونها بأجرة المثل فما فوقها، ولا يزيد على السنة إلّا لمصلحةٍ ظاهرة للوقف، أو ضرورة لا بد منها، ويؤجره إذْ ذَاك مدة تفي أجرتها بالضرورة، ويسلك في ذلك الاستغلال الشرعي بحيث لا يُفرِّط ولا

يُفْرِط، ولا يعدل عن السنن المتوسطة، ومهما حصل من ريع الوقف وهو مَا ذَكَرَه ووصَفَه وحدَّدَه.

ونحن الآن نذكر الوقف المذكور على القبة والمدرسة بمقتضى كتاب الوقف، ونذكر أجْرة كل مكان منه بمقتضى حساب المباشرين، ثم نذكر ما تَجَدَّد من الأماكن الجارية في الوقف المذكور بعد صدور كتاب الوقف المشروح على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

والأماكن الموقوفة بمقتضى الكتاب منها ما هو بالقاهرة المحروسة: قيسارية أمير. على بخط الشرابشيين ظاهرها وباطنها، سُفْلها وعُلْوها ونربيعيتها، وسائر حقوقها وأجرة هذه القيسارية في كل شهر على ما استقر إلى آخر ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ألف درهم وستمائة درهم وتسعة وخمسون درهمًا، والقاعة المجاورة للقيسارية المذكورة يتوصل إليها من الزقاق الشارع بدرب قَيْطُون على يَسْرَة السالك فيه إلى أقصاه، وأجرتها في كل شهر ثمانية وأربعون درهمًا.

وجميع الرَّبع المعروف بالدِّهيشة بخط باب زويلة. فيما بين البابين يعرف سفلها بسكن المجبرين والحريريين، يشتمل على ستة حوانيت ومقاعد فيما بين ذلك، وستة طباق علوية وأجرة ذلك في كل شهر مائتا درهم وثمانية وستون درهمًا.

وجميع الحوانيت الثلاثة المتجاورة بخط باب الزهُومَة ويعرف بسكن العطارين، والسيوفي، ويعلو الحوانيت طبقة ليست من الوقف، وإنما هي من حقوق المسجد المجاور للحوانيت وأجرة هذه الحوانيت في كل شهر خمسة وسبعون درهمًا.

وجميع المسمط والحوانيت التي بظاهره وعدتها سبعة وذلك بالقاهرة بخط باب الخوخة، وأجرة ذلك في كل شهر خمسمائة درهم وخمسة وعشرون درهمًا.

وجميع الحمام المعروفة بالفخرية بالقاهرة المحروسة وتجاور المدرسة السيفية والدار الكبرى المعروفة بالسلطان الملك المنصور، والد الواقف، ويعرف قديمًا بالسيفي وأجرتها في كل شهر أربعمائة درهم وتسعون درهمًا.

وجميع الحمامين المعروفين بالشيخ خضر بظاهر القاهرة بخط بستان ابن صَيْرَم والجامع الظاهري، إحداهما لدخول الرجال، والأخرى للنساء وأجرتهما في كل شهر ألف درهم وخمسمائة درهم وخمسون درهمًا.

وجميع خان الطُّعم بظاهر دمشق المحروسة، وهو مشهور معروف، وقد وصفه وحدده هكذا «تَضَمن كتابُ الوقف جميعَ الخان المذكور» وليس كذلك؛ فإن الخان المذكور من جملة الأملاك الموروثة عن السلطان الشهيد الملك المنصور والد السلطان الواقف ـ قدس الله روحه ـ والذي كَمُلَ للسلطان الملك الناصر ـ خلد الله ملكه ـ من الأملاك المخلفة عن والده السلطان الملك المنصور مما جرَّه إليه الإرث عن والده السلطان المشار إليه وأخيه الأمير أحمد وأخته جهة عنبر الكمالي، وأخيه الملك الأشرف، وبنات أخيه الملك الأشرف، وأخته داره مختار الجوهري، وما خصه من نصيب والدته الذي وهبته له ولأخيه الملك الأشرف ولأخته: داره مختار الجوهري المذكورة، وذلك إلى حين صدور هذا الوقف سبعة عَشر سهمًا ونصفُ سهم وثمنُ سهم وسدسُ عُشر سهم وسُدسُ ثمنُ عُشْر سهم ـ هذا الذي لا خلاف فيه ولا نزاع ـ وهذه الحصة المذكورة هي التي استقرّت في الوقف من هذا الخان، وإطلاق الكاتب في كتاب الوقف جميع الخان غَلَط وغَفْلَة ممن أملاه، أو ذهول ممن عَيَّن ذلك من المباشرين. وأجرة هذا الخان بجملته في كل سنة على ما استقر إلى آخر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة تزيد على سبعين ألف درهم، يخص الوقف منها ما يزيد على خمسة وأربعين ألف درهم، ثم تجدد بعد كتاب الوقف المشروح في الوقف المذكورِ زياداتٌ منها المقاعدُ التي أنشئت بالساحة بباب المدرسة، وعدتها ثمانيةٌ، ومسطبةٌ ومخزنٌ، أجرتها في كل شهر مائةُ درهم وأربعون درهمًا، ومنها ما اشترى من فائض رَيع الوقف وألْحِقَ به، وهو نصفُ وربع وثمن طاحون بمصر. وأجرة ذلك في كل شهر سبعة وثمانون درهمًا، وإسطبل وطبَقَة بخان السبيل أجرة ذلك في كل سنة ستة عشر درهمًا.

وجعل الواقف ـ خلّد الله سلطانه ـ للناظر في الوقف المذكور أن يصرف لمباشري الوقف واستخراجه وصرفه في مصارفه، ولمباشري العمارة بالمدرسة والأوقاف، والجابي، والمعمار وغير ذلك ما يراه، ويؤدي إليه اجتهاده. من عدد المباشرين وتسويتهم وتفضيلهم، وجعل للناظر أيضًا أن يصرف من رَيْع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه في ليالي الجُمَعِ والأعياد والمواسِم وشهرِ رمضان ما يراه من التوسعة عليهم، فإن تعذَّر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلى باقيها، فإن تعذر صُرِفَ ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا، فإن زال التعذرُ عاد على الحكم المذكور، فإن تعذر أيضًا كان على الفقراء والمساكين كما تقدم، يصرفه الناظرُ فيهم على ما يراه من مساواة وتفضيل،

وعلى ما يرى صرفه من نقد أو ثوْبٍ أو كسوة. أو غير ذلك مما يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

ولما تم هذا الوقف وكملت عمارة المدرسة، وجلس المدرسون والمعيدون والفقهاء بالمدرسة، وانتصب كل من ذُكر في هذا الوقف وظيفته صَرَفَ الناظرُ للمدرسين خاصة معلومَهم الشاهدَ به كتابُ الوقف، وصرف للمعيدين والفقهاء بكل إيوان من الأواوين الأربعة على مذهبه من جملة ما شُرِطَ لهم في كتاب الوقف. وهو ثمانمائة درهم في كل شهر ثلاثمائة وخمسون درهمًا صرف منها لِمُعِيدَيْنِ لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، وصرف للطلبة والنقيب والداعي في كل شهر مائتي درهم وسبعين درهمًا، وقطع من هذا المرتب المصروف لهم في كل سنة ثلاثة شهور. واستمر ذلك مدة طويلة.

واتفق في غضون ذلك أن بَاشَرْتُ ديوانَ الخاص السلطاني بالأبواب الشريفة وغيرها، وسَكَنْتُ بالمدرسة الناصرية، واطَّلَعْتُ على متحصل جهات الوقف بالقاهرة وغيرها، ونظرتُ في ذلك، فرأيتهُ يفيض على المصروف في كل سنة جملةً كثيرة، فقمت في ذلك قيامًا أدى إلى أن صرف لهم ذلك مكملًا من غير اقتطاع ثلاثة شهور، واستمر الأمرُ على ذلك إلى أن تُوُفِّيَ الطواشي شجاعُ الدين ناظر الوقف في سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وفوض الأمر إلى الأمير سيف الدين أرغون الناصري نائب السلطنة الشريفة، فأظهر كتابَ الوقف وأذاعه، وحملَ الأمر على حُكْمِهِ على ما نذكر ذلك - إن شاء الله تعالى - في موضعه.

ونقل السلطان إلى القبة المباركة ما تحتاج إليه من البسط والشمعدانات الكفت[(١)]، والأطباق النحاس، وغير ذلك من الآلات مما جعله في حاصلها، ونقل والِدَتَه من مدفنها بالتربة المجاورة لمشهد السيدة نفيسة إلى مدفن هذه القبة، وذلك في سنة ثلاث وسبعمائة، وهي أول مَن دُفِنَ بمشهد القبة، ثم دفن بعد ذلك ابْنَةٌ له توفيت صغيرة رحمها الله تعالى وقد أخذ هذا الفصل حَدَّه من الإطالة، فلنذكر خلاف ذلك من الحوادث، والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة أُفرِجَ عن الأميرين السيدين الشريفين عِزِّ الدين حُمَيْضَة وأسَدِ الدين رُمَيْثَة ولدي الأمير نجم الدين أبي نُمَيّ وأعيدا إلى مكة - شرفها الله تعالى.

---

(١) الشمعدان الكفت: هو الشمعدان المصنوع من النحاس ومشغول بزخارف من سلوك الفضة أو الذهب (الخطط المقريزية ٢/ ١٠٥).

وفيها فُوِّضَتْ نيابةُ السّلْطَنة بِحِمْص إلى الأمير سيف الدين بَلَبَان الجوكندار المنصوري، نُقل من نيابة قلعة دمشق إليها عوضًا عن عز الدين أَيْبكَ الحَمَوي الظاهري بحكم وفاته، وكانت وفاتهُ في يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وتوجَّهَ الأميرُ سيف الدين إليها في ثامن عشر جمادى الأولى وجُعِلَ نائِبُ قلعة دمشق الأمير سيف الدين بهادر السنجري.

ذكر تجريد العساكر إلى بلاد سيس

وفي هذه السنة جُرِّدَت العساكرُ إلا بلاد سِيس؛ وكان سَبَبُ ذلك أنَّ طائفةً من العسكر الحلبي دخلت إلى بلاد الأرْمَن للإغارة، فلما رجعوا كَبَسَهمُ التَّتَارُ ببلاد سِيس، وسَلِموا؛ فَرُسِمَ بتجريد العساكر إليها، وجُرِّدَ من الديار المصرية في شعبان الأميرُ بدر الدين بِكْتَاش الفخري أمير سلاح، وهو المقدَّم على الجيش، والأمير شمسُ الدين سُنْقرُ جاه المنصوري، والأمير علم الدين سَنْجَر الصوابي ومضافيهم، فوصلوا إلى دمشق ودخلوا إليها في ثلاثة أيام، أولها يوم السبت ثاني عشر شهر رمضان، وآخرها يوم الاثنين رابع عَشْرِه، وجُرِّدَ من دمشق الأميرُ سيف الدين بَهَادرُ آص ومن تبعه في ألفي فارس، وتوجهوا بجملتهم في يوم الخميس سابع عشر رمضان، وجُرِّد الأميرُ سيف الدين قَبْجَقَ بعسكر حماه، والأميرُ سيفُ الدين أَسَنْدَمُر كُرْجِي بعسكر الفتوحات، والأميرُ سيفُ الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار بعسكر حمص، والعسكر الحلبي صحبة الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر.

ولما وصل العسكرُ إلى حلب حصل للأمير فخر الدين بَكْتَاش الفخري أمير سلاح مقدم العسكر المصري مرضٌ منعه من الدخول إلى سيس؛ فأقام بحَلَب، وتوجَّهَت العساكر، وافترقوا فرقتين؛ فتوجَّه الأميرُ سيفُ الدين قَبْجَقَ بنصف العسكر من جهة قلعة الرُّوم إلى صوب مَلَطْيَة، والفرقة الأخرى إلى دَرَبَنْد فأغاروا ونهبوا وقتلوا وأَسَرُوا من ظفرُوا به، ثم رجعوا ونازلوا تل حمدون وحاصروها، واستولوا عليها في يوم الخميس ثالث عشر ذي القعدة، ومُلِكَتْ بالأمان، وكان قد اجتمع بها جماعة من أصحاب القلاع المجاورة لها، وسبب اجتماعهم بها أنّ صاحبَ سِيس أرسل إليهم أنْ يجتمعوا بتلّ حَمْدُون، ويقبضوا منها نفقة ويعودوا إلى قلاعهم ويحفظوها، ويقول لهم: إن هذه العساكر إنما دخلت للإغارة والعود. فاجتمعوا بتل حمْدُون لقبْض النفقة، وجاء العسكر إليها وحاصرهم بها، فسألوا الأمان، فلما أُطْلِقُوا وصَلَ رسولُ صاحب سِيس إلى العسكر يقول: هؤلاء الذين بتلّ حمدون هم مُلّاكُ

القلاع، فإن قبضتم عليهم وأردتم المالَ بَذَلُوه لكمْ أو القلاعَ سَلَّمُوها إليكم. وشكا منهم أنهم لا يرجعون إليه ولا يسمعون منه ويخالفونه إذا قصدَ بذل الطاعة للسلطان، أو إرسال الحمول، ويقولون: إذا حضر العسكر خَلِّ بيننا وبينَه. فعند ذلك أرسل الأمراء مَنْ أدركهم قبل وصولهم إلى مأمنهم، وقبضوا عليهم وقتل بقيتهم، وكان الذين قُبِضَ عليهم ثمانية من أصحاب القلاع المشار إليهم، منهم أميرُ اسمه السرمساق صاحب قلعة بخيمة، وبقيتهم لكل منهم قلعة. فلما تحقق السرمساقُ أن صاحب سِيس عمل عليهم أسلم وتَلَفَّظَ بالشهادتين المعظمتين، وقال: أنا لي أخ في خدمة السلطان، وأنا أسَلِّم قلاعِي وألتزم للسلطان بفتح بلاد سِيس بألفي فارس من نهر جهان إلى بلاد قرمان، فعاد العَسْكَرُ بِهِ وبِبَقيّة الواصلين، وكان وُصُولهم إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي الحجة، ورحل العسكرُ المصري منها في تاسع عشرين الشهر، ووصلوا إلى الأبواب السُّلطانية في المحرم سنة أربع وسبعمائة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوال سنة ثلاث وسبعمائة فوضت الوزارة بالديار المصرية للأمير ناصر الدين محمد الشيخي، نقِلَ من ولاية الجيزية إليها عوضًا عن الأمير عز الدين أيبك البغدادي، فأحدث الشيخيُّ مظالم كثيرةً، ولم تطل أيامه.

وفي هذه السنة وصل إلى الخدمة السلطانية من بلاد الشرق الأمير بدرُ الدين جَنكلي بن شمس الدين المعروف بالبابا(١)، وهو أحد مقدمي جيوش التتار، ووصل معه أحَد عشر نفرًا من ألزامه، منهم أخوه نيرُوز، ووصل الأمير بدر الدين بأهله، وكان مقامه ببلاد آمد وكانت مكاتباته ترد على السلطان ببذل النصيحة للإسلام من مدة طويلة، ثم فارق الآن التتار وجاء، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الثلاثاء حادي عشر ذي القعدة، ثم توجه منها بمن معه ووصلوا إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل، وأحسن السلطان إليهم، وشملهم بالخلع والإنعام، وأمَّرَ الأمير بدر الدين جَنْكَلِي بطبلخاناه، واستمر من جملة الأمراء، وظهر للسلطان من أدبه وعقله وجميل نيته وحسن طاعته وصدق إخلاصه في الموالاة والمصافاة، وعدم اجتماعه واختلاطه بمن يرتاب منه من أهل الأهواء والفتن، وغير ذلك من الأوصاف الجميلة ما أوجب تَرَقِّيه وانتقاله إلى إمرة المائة، وتقدُّمة الألف، ثم إلى رتبة الخصوصية والتقريب والدنو، والجلوس في مجلس السلطان بالقرب منه، واستشارته والرجوع إلى كثير من آرائه، وهو كذلك إلى الآن.

(١) توفي سنة ٧٤٦ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/١٤٣، الدرر الكامنة ٢/٧٦).

وفيها أيضًا وصل إلى الأبواب السلطانية رسولٌ من جهة الرندراكون البرشنوني صاحب برشنونة يشفع في النصارى بالديار المصرية أن تفتح كنائسُهم على عادتهم، فَقُبلتْ شفاعتُه، ورسم أن يفتح للطائفة اليعاقبة[١] من النصارى كنيسةٌ بحارة زويلة، وللملكيين[٢] كنيسة بخط البندقانيين، وكتب جوابهُ وأعيد رسولهُ وسفر إليه من الأبواب السلطانية مَع فخر الدين عثمان الأفرمي فتوجها من الأبواب السلطانية إلى ثغر الإسكندرية، وتجهزا منها وركبا في المركب في سنة أربع وسبعمائة، فلما عزما على الإقلاع تفاوضا مفاوضة أدّت إلى أنّ رسولَ البرشنوني طرح فخر الدين عثمان من المركب إلى القارب الذي خرج يشيعهم من الميناء هو وغلمانه، ولم يعطه شيئًا مما كان معه، وأقلع من فوُره، وعاد فخر الدين المذكور إلى الأبواب السلطانية في سنة أربع وسبعمائة. والله أعلم.

وفي سنة ثلاث أيضًا وقع فَنَاء عظيم في الخيول بالشام. حتى كاد يأتي عليها، ونفقت أكثر خيول الناس، وكُنْتُ يومئذٍ بدمشق، وكنت أملك عشرة أرؤس من الخيل الجياد أو أكثر، فنفقت بجملتها، واحتجتُ إلى ابتياع ما أركبه، وكانت الخيل قبل ذلك قد كَثُرت بالشام وهانت، وقلَّتْ أثمانُها، لما هرب التتار من مرج الصفر، حتى أبيع الإكديش من خيل التتار في موضع الوقعة بخمسة دراهم، ثم تزايد ثمنها، ثم أبيع الفرس منها بدمشق بثلاثين درهمًا، فلما فنيت الآن وارتفع الْفَنَاء غلت أثمانها بدمشق لقلتها.

وفيها في شهر رمضان تَوَجَّهْتُ من دمشق إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية مفارقًا لمباشرة أملاك الخاص الشريف، وكان وصولي إلى القاهرة في يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان بعد الظهر، وباشرتُ دِيوَانَ الخَاصّ. والبِيَمارِسْتَان المنصوري، وما معه من الأوقاف المنصورية في بقية اليوم الذي وصلتُ فيه، ورُفِعَ إليَّ حسابُ المياومة قبل غروب الشمس من اليوم المذكور.

---

(١) اليعقوبية: أصحاب يعقوب البراذعي، قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحمًا ودمًا فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: الآية ١٧] (الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٣٠).

(٢) وهم الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة (الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٨).

وفيها توجّه الأميرُ سيف الدين سَلَّارَ نائبُ السّلطنة إلى الحجاز الشريف، وتصدّق صدقاتٍ كثيرةً بمكة والمدينة، سَدَّ بها حاجةَ ذوي الحاجات، ووسّع على المُجاوِرين والمقيمين.

وفيها في أواخر شهر رمضان ولد لمولانا السلطان الملك الناصر وَلَدٌ مَن زوجته أردكين ابنة الأمير سيف الدين نُوكِيه، سَمَّاه عِليًا، ونعت علاء الدين، ثم لُقِّبَ بَعْدُ بالملك المنصور.

وفي هذه السنة كانت وفاة الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار الظاهري أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالديار المصرية، وهو أحد من كان توجَّه إلى غازان ملك التتار وعاد كما تقدم ذكر ذلك.

ذكر وفاة الشيخ زين الدين الفارقي
وما اتفق بسبب مناصبه بدمشق

وفي هذه السّنة في يوم الجمعة تاسع عشر صفر توفي الشيخ الإمام العالم زينُ الدين أبو محمد عبد الله بنُ مرْوان بن عبد الله الفارقي الشافعي(١) الخطيب بدمشق بقاعة الخطابة بالجامع الأموي، وجُهِّزَ وصُلِّيَ عليه في بُكرةِ نهار السّبت في ثلاثة أماكن، فصلًى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة نجمُ الدين بن صصري الشافعي، وصَلَّى عليه بسوق الخيل قاضي القضاة شمس الدين الحنفي، وصلَّى عليه بباب جامع الجبل قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي، ودفن بتربة أهله، وكانت جنازته مشهورة. ومولدُه في المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان بيده من المناصب خطابة الجامع الأموي، وتدريس دار الحديث الأشرفية، ولي مشيختها سبعةً وعشرين سنة، وتدريسُ المدرسة الشامية البرانية، ولما مات رحمه الله تعالى كان نائب السلطنة الأمير جمال الدين آقُش الأفرم بالضَّفةِ القبلية، فوصل إلى دمشق في شهر ربيع الأوّل، فتكلم الناس معه في مناصب الشيخ زين الدين المشار إليه، فعيّن الخطابة للشيخ شرف الدين الفزاري، وتدريس المدرسة الشامية البرانية، ودار الحديث الأشرفية للشيخ كمال الدين الشريشي بحكم أن تؤخذ منه المدرسة الناصرية بدمشق فَيَلِيها الشيخ كمال الدين بن الزَّمْلَكاني(٢)، واستقر ذلك.

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٠٧، الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٤، البداية والنهاية ١٤/ ٣٠.

(٢) ابن الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين أبو=

ولما اتصل خبر وفاته بالأبواب السلطانية سعى الشيخ صدر الدين محمد ابن الوكيل المعروف بابن المرحل في مناصبه بالشام، وأن يعاد إليه معها ما كان بيده قبل انتقاله إلى الديار المصرية، وهو تدريس المدرسة الشامية الجوانية، والمدرسة العذراوية فأجيب إلى ذلك، وكتب توقيعه به.

وولي بعده تدريسَ المدرسة الناصرية بالقاهرة القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب، وكان تدريسها قد عُيِّن له قبل تكملة عمارتها، ثم وليه الشيخ صدر الدين كما تقدم، فوليه القاضي مجد الدين بعده، وجهز توقيع الشيخ صدر الدين صحبة البريد إلى دمشق فزيّن مكاتبات من اعتنى به من الأمراء إلى نائب السلطنة بإمضائه، فوصل البريد بذلك إلى دمشق في يوم الاثنين منتصف شهر ربيع الأول، فكتب نائب السلطنة عليه، وبَطْل ما كان قد تقَرَّرَ من الولايات لمن ذكرنا، ثم وصل الشيخ صدرُ الدين في يوم الاثنين الثاني والعشرين من الشهر إلى دمشق على خيل البريد، وعلى يده أمثلة سلطانية، فاجتمع بنائب السلطنة، وأمضى ولايته، وركب من غده وجاء إلى الجامع الأموي بعد الظهر، ودخل دار الخطابة وصلّى بالناس صلاة العصر بالجامع فتألم الناس لذلك تألمًا شديدًا لاجتماعهم على الشيخ شرف الدين الفزاري، واتفق الأعيان على أنهم لا يُصَلُّون خلفه، واجتمع جماعة كثيرة في يوم الأربعاء رابع عشرين الشهر مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية وتوجهوا إلى نائب السلطنة، وتحدّثوا معه في المطالعة إلى الأبواب السلطانية في أمر صدر الدين وأن لا يخطب إلا بعد ورود الجواب، وثَلبُوه بأمور كثيرة، فأجاب نائب السلطنة سؤالهم، ومنع صدر الدين من الخطابة والإمامة حتى يَرِدَ جوابُ السلطان، وطالع في أمره، وذكر ما قاله العلماءُ والأكابرُ وما صَمَّمُوا عليه من الامتناع عن الصلاة خلفه، وما شرطه الواقفان لدار الحديث الأشرفية، والشامية البرانية في أمر التدريس، واسْتُنِيبَ في الإمامة الشيخ أبو بكر الجزري، وفي الخطابة الشيخ تاجُ الدين الجعبري، وأمضى نائب السلطنة ولاية صدّر الدين فيما عدا ذلك من المدارس، فجلس في بُكْرةِ نهار الأحد الثامن والعشرين

= المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملكاني ولد سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، له من التصانيف: «البرهان في إعجاز القرآن»، «تحقيق الأولى من أهل الرفيق الأعلى»، «الدرة المضية في الرد على ابن تيمية»، «دلائل الإعجاز»، «شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر»، «عجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب»، «المنهاج في تعلقات الإيلاج» في علم الباه، «وفيات الأعيان» في التاريخ والتراجم. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٦، الوافي بالوفيات ٤/ ٢١٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٣١، الدرر الكامنة ٣/ ١٩٢، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ١٩٠، شذرات الذهب ٦/ ٧٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٠).

من الشهر، وألقى الدروس بالمدارس، وهي الشامية البرانية، والجوانية، ودار الحديث الأشرفية، والمدرسة العذراوية، وكانت مع جلال الدين القَزْوِيني، والشامية الجوانية مع كمال الدين بن الزملكاني، واستمر الحال على ذلك إلى يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر، فعاد البريد بالأجوبة أن يُوَلّى الخطابةَ والإمامةَ بدمشق من يتّفق المسلمونُ عليه ويَرْضَوْنَه، وأن يسلك في أمر الشامية ودار الحديث ما شرط واقفاها، فتولّى تدريس الشامية البرانية الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، وذكر الدرس في مستهل جمادى الأولى، وفُوِّضت الخطابة للشيخ شرف الدين الفزاري، وخطب في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، وخلع عليه في يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة.

وفيها في ليلة الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر توفي الصدر فتح الدين عبد الله ابن الصاحب معين الدين محمد بن أحمد بن خالد القيصراني(١) بالقاهرة رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم الاثنين تاسع شهر رجب الفرد الفرد توفي الأمير ركن الدين بيبرس التلاوي(٢) أستاذ الدار العالية، وشاد الدواوين المعمورة بالشام، وكان ظالمًا عَسُوفًا مُتَكَبِّرًا، فابتلاه الله تعالى بالأمراض الشديدة، وكانت مُدَّةُ ولايته الوظيفة ثلاثة عشر شهرًا وتسعة عشر يومًا، مَرِض منها سبعة أشهر وأيامًا، ولما مات ولي شدا الشام بعده الأمير شرف الدين قَيْرَان الدواداري، في يوم الخميس حادي عشر شعبان، نُقِلَ مِن شَدِّ طَرَابُلس إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الصالح العارف القدوة السيد الشريف أبو فارس عبد العزيز عبد الغني بن سرور بن سلامة بن بركات بن داود بن أحمد بن يحيىٰ بن زكريا بن القاسم بن أبي عبد الله بن إبراهيم الغمر طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو المعروف بالمنوفي(٣) وكانت وفاته بمصر في ليلة الاثنين خامس عشر ذي الحجة، ودفن بُكْرَة النهار بالقرافة، وكان من الصلحاء المعمرين، مات عن مائة

---

(١) انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ١/ ٣٨٧، النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٣، شذرات الذهب ٦/ ٩، الدرر الكامنة ٢/ ٣٨٩، البداية والنهاية ١٤/ ٣١، وفي هذه المصادر: «القيسراني» بالسين المهملة.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٠٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٢.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٤، السلوك للمقريزي ١/ ٩٥٧، الدرر الكامنة ٢/ ٣٧٣.

وعشرين سنة، وهو من أصحاب الشيخ أبي الحجاج الأقصري، وله رحمه الله تعالى نظم حسن اجتمعت به في سنة ست وتسعين وستمائة بمدينة قوص، وكان قد توجّه لزيارة شيخه الشيخ أبي الحجاج، ومرض بمدينة الأقصرين في هذه السفرة، فرآه القاضي جمال الدين يحيىٰ بن يحيىٰ الأرمنتي أحد السعداء في الصعيد فوجده قد أغمي عليه، فلما أفاق قال له جمال الدين: كيف تجدك؟ فأنشده: [من الرجز]

هذي الجفون وإنما أينَ الكَرَى مِنْهَا وهذَا الجسمُ أينَ الرُّوحُ

ومُتِّعَ رحمه الله تعالى مع طولِ عُمره بعَقْله وحواسِه.

واستهلت سنة أربع وسبعمائة

في هذه السنة عُزِل الأمير سيف الدين بَنْخَاص من نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية، وأحضر إلى الأبواب السلطانية، واستقر في جملة الأمراء مقدمي الألوف، وفُوِّضَت نيابةُ السلطنة بالمملكة الصفدية للأمير شمس الدين سُنْقَرجاه المنصوري، فتوجّه إليها، وكان من الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية.

ذكر عمارة الجامع الحاكمي بالقاهرة وما رُتِّبَ فيه من الدروس والطوائف

قد قدمنا أن الجامع الحاكمي بالقاهرة تداعت أركانُه وسقط بُنْيَانُه، وأن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار العالية انْتُدبَ لعمارته، فحصل الشروع فيها في أوائل سنة ثلاث وسبعمائة، ووقع الاهتمام بأمر العمارة حتى عاد أحسن ما كان، وانصرف عليه جملةٌ كثيرة، وتكاملت عمارته في هذه السنة، وَوَقَفَ الأميرُ ركنُ الدين من أملاكه على مصالحه ـ التي تَذْكر ـ أملاكًا يتحصل من رَيْعِهَا جملة في كل شهر، ورتَّبَ به من الدروس والتصَدرات وغير ذلك من جهات الْبِرِّما نَذْكُرُه، وقدر لهم من المَعْلُوم، وهو: دروس الفقه على المذاهب الأربعة: الشافعية، والمالكية، والحنفية، والحنابلة، وَوَلّى تدريس ذلك قضاةُ القضاةِ الأربعة وهم: قاضي القضاة بدرُ الدين محمد بن جماعة الشافعي[1]، وقاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي[2]، وقاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي

(١) بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي: تقدمت ترجمته.
(٢) هو زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض النويري، قاضي المالكية بمصر، توفي سنة ٧١٨ هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ١/٢: ١٧٩، الدرر الكامنة ٣/١٢٧، شذرات الذهب=

الحنفي[١]، وقاضي القضاة شرف الدين عبد الغني الحرّاني الحنبلي[٢]، ورَتَّبَ لكل واحد منهم عن وظيفة التدريس في كل شهر مائةَ درهم وثلاثين درهمًا نقرة، وجعل لكُلِّ درسٍ مُعِيدِين، ورَتَّبَ لكل واحد منهما في كل شهر خمسين درهمًا، ورَتَّب للطلبة لكل مَذْهَبٍ في كل شهر ثلاثمائة نقرة، ورتّب درسَ حديث فَرَضَ تدْرِيسَه للشيخ سعد الدين مسعود الحارثي[٣] وجعل له ولمعيدين ولطلبة نظير ما لطائفةٍ من الطوائف المذكورة. ورتب فيه ميعادًا للعامة جعل شيخَه القاضي مجد الدين بن الخشاب، ورتب له في كل شهر مائةً وثلاثين درهمًا. ورتّب متصدرين لأقراء القرآن، لكل منهما ستون درهمًا. ورتّب متصدرين لإلقاء العلوم وهما الشيخ علاء الدين القونوي[٤] والشيخ زين الدين بن الكتاني[٥] ورتّب لكل منهما في كل شهر ستين درهمًا. ورتّب متصدرين لإلقاء النحو، وهما الشيخ أثير الدين أبو حَيَّان[٦]، وتاج الدين محمد البَارْنَبَاري[٧]. رتّب لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتّب مُلقِّنين

= ٦/ ٤٩، البداية والنهاية ١٤/ ٩٠).

(١) شمس الدين أحمد السروجي: تقدمت ترجمته.

(٢) شرف الدين عبد الغني الحراني: تقدمت ترجمته.

(٣) سعد الدين مسعود الحارثي: هو مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي، الحنبلي، سعد الدين، توفي سنة ٧١١ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٨، حسن المحاضرة ١/ ٣٥٨، السلوك للمقريزي ٢/ ١١٣، البداية والنهاية ١٤/ ٦٤).

(٤) علاء الدين القونوي: هو علي بن إسماعيل بن يوسف، علاء الدين، أبو الحسن القونوي الأصولي الشافعي، قدم القاهرة ودرس بها ثم تولى قضاء الشام، ولد سنة ٦٦٨ هـ، وتوفي سنة ٧٢٩ هـ، له من المصنفات: «الإعلام في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»، «التصرف في شرح التعرف في التصوف»، «شرح حاوي الصغير للقزويني» في الفروع، «مختصر المعالم في الأصول»، «مختصر المنهاج». (انظر: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤، طبقات الشافعية ٦/ ١٤٤، شذرات الذهب ٦/ ٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ١٨١).

(٥) زين الدين بن الكتاني: هو عمر بن الجمال أبي الحزم بن عبد الرحمٰن بن يونس، زين الدين، المعروف بابن الكتاني الدمشقي الشافعي، توفي سنة ٧٣٨ هـ (انظر: الدرر الكامنة ٣/ ١٦١، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٢٤٥، شذرات الذهب ٦/ ١١٧، السلوك للمقريزي ٢/ ٤٥٦، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٣).

(٦) أثير الدين أبو حيان: هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الجياني، الإمام أبو حيان، أثير الدين الأندلسي، الشافعي النحوي، ولد سنة ٦٥٤ هـ، وتوفي بمصر سنة ٧٤٥ هـ. له العشرات من المصنفات (انظر: كشف الظنون ٦/ ١٥٢ ـ ١٥٣. الوافي بالوفيات ٥/ ٢٦٧، فوات الوفيات ٤/ ٧١، النجوم الزاهرة ١/ ١١١، شذرات الذهب ٦/ ١٥٤).

(٧) تاج الدين محمد البارنباي: هو محمد بن محمد بن عبد المنعم البارنباي، تاج الدين، توفي سنة=

للقرآن العظيم، رتّب لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتَّب لعشرين مُتَلَقن لكل واحد منهم في كل شهر عشرة دراهم.

ورتّب عشرين مقرِئًا يتلون كتاب الله تعالى عقب صلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب، ورتّب لكل واحد منهم عشرة دراهم.

ورتّب ثلاثة أئمة على ثلاثة مذاهب: مالك بن أنس، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، يصلون بالجامع، ورتَّب لكل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهمًا.

ورتّب فقيهين يعلمان عدَّةً من الصبيان الأيتام، ورتّب لهما في كل شهر خمسين درهمًا. ولعدة من الصِّبْيَان ما يكفيهم على العادة.

وأنشأ بالجامع خزانة كُتُب، وقف بها نحو خمسمائة مُجَلّد من كتب العلوم، والآداب، والتواريخ وغير ذلك، وختماتٍ شريفة، ورَبْعَاتَ، وغير ذلك، ورتّب لشاهدها في كل شهر ثلاثين درهمًا، واستنسخ ختمةً شريفةً سبعة أجزاء، في ورق بغدادي كامل كُتِبَت بالذهب المحلول، بخط شرف الدين بن الوحيد[1]، حلَّ له جملةً من الذهب، وصرف عليها جملة في أجرة كاتب وترميل، وتذهيب آيات وأعشار وسور وفواتح وتجليد، ووقفها بالجامع يُقْرَأ منها في كل جمعة قبل الخطبة، ورتّب للقارىء في كل شهر معلومًا.

ورتّب غير ذلك من وجوه البر والقُرُبات، وجلس المدرسون المذكورون وغيرُهم من أرباب الوظائف بالجامع الحاكمي المذكور في أول شهر ربيع الأول من هذه السنة أثابه الله تعالى وكان الذي حسّن له ترتيب ذلك وحثَّه عليه الشيخُ العارفُ نَصْر المنبجي[2] نفع الله به ـ وكان الأمير ركن الدين لا يخرج عن إشارته.

وفي هذه السنة عاد الأمير سيف الدين قطايا بن يوسف أميرُ بني كلاب، وسلطان، وجماعةٌ من مشايخهم إلى الخدمة السلطانية.

= ٧٤٧ هـ، وقيل: سنة ٧٥٦ هـ، (انظر: النجوم الزاهرة ١/ ٣٢٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٦٧٣، الدرر الكامنة ٤/ ٣١٥، الوافي بالوفيات ١/ ٢٤٩).

(١) شرف الدين بن الوحيد: هو أبو عبد الله محمد بن شريف بن يوسف بن الوحيد الزرعي، شرف الدين، توفي سنة ٧١١ هـ. (انظر: السلوك ٢/ ١١٣، الدرر الكامنة ٤/ ٧٣، فوات الوفيات ٣/ ٣٩، الوافي بالوفيات ٣/ ١٥٠).

(٢) نصر المنبجي: هو نصر بن سليمان بن عمر المنبجي، أبو الفتح، كان محدثًا فقيهًا عارفًا بالقراءات، توفي سنة ٧١٩ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، الدرر الكامنة ٤/ ٣٩٢).

وكان قد خرج عن الطاعة من مدة طويلة، وتوجّه إلى بلاد الشرق، ولحق بالتتار، فعادَ الآن بمن معه، فأحْسَن السلطانُ إليهم، وشملهم بالإنعام والإقطاعات، وفرقهم في بلاد الشام وعفا عن ذنوبهم السالفة، ولم يؤاخذهم.

وفيها في شهر ربيع الأول وصل رسل الملك طُقْطَاي صاحب صَرَاي وبلاد القَبْجَاق، فأكرمهم السلطان وأحسن إليهم، وأنزلهم بمناظر الكَبْش، وأعادهم إلى مرسلهم صحبة رسوله إليه وهو الأمير سيف الدين بَلَبَان الصَّرخدي[١] وذلك في شهر رجب.

وفيها في جمادى الأولى وقد إلى الأبواب السلطانية جماعةٌ من التتار نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم، وكان وُصُولهم إلى دمشق في تاسع الشهر، وقيل: إن منهم أربعةً من سلاح سارية المَلِك غازان.

وفيها عاد القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العُمرِي[٢] من بلاد التتار، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وكان ممنْ استصحبه وزير غازان معه إلى بلاد الشرق في سنة تسع وتسعين وستمائة فعاد الآن.

---

(١) توفي سنة ٧٣٠ هـ (السلوك للمقريزي ٢/٣٢٦).

(٢) المقر البدري ابن فضل الله: هو بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله، وهو أحد أفراد أسرة فضل الله العمري التي تولت لأكثر من قرن من الزمان وظيفة صاحب ديوان الإنشاء، أو كاتب السر في دولتي المماليك البحرية والبرجية. وقد شغل أفراد هذه الأسرة هذه الوظيفة عن جدارة أدبية، وإلى أحد أفرادها، وهو القاضي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يرجع الفضل في وضع المصطلح الشريف الخاص بأصول المكاتبات والمراسلات وغيرها من أعمال ديوان الإنشاء. وكان بدر الدين محمد صاحب فضل كبير على القلقشندي نفسه، فهو الذي ألحقه بالعمل بديوان الإنشاء. وقد تولّى رئاسة ديوان الإنشاء من بين أفراد الأسرة خمسة أشخاص وهم:

١ ـ القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله.

٢ ـ القاضي محيي الدين بن فضل الله، ومعه ابنه القاضي شهاب الدين أحمد، وكان يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

٣ ـ القاضي محيي الدين بن فضل الله، ومعه ابنه القاضي علاء الدين، وكان كأخيه شهاب الدين أحمد يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

٤ ـ القاضي علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله استقلالًا.

٥ ـ القاضي بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله (انظر: القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ص ١٠٦ ـ ١٠٧).

وفيها في شهر رمضان عاد رُسُلُ السلطان الذين كانوا توجهوا إلى غازان، وهما: الأمير حسام الدين أَزْدَمُر المُجيري، والقاضي عماد الدين بن السكري وصحبتهما رسول خَرْبَنْدا ملك التتار القائم بعد أخيه غَازَان، وكان وصولهم إلى دمشق في يوم الأحد رابع عشرين شعبان، فتلقاهم نائب السلطنة بالشام وسائرُ الجيش بظاهر دمشق بأحسن زينة وأفخر ملبوس. ثم توجهوا إلى الأبواب السلطانية في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من الشهر، وكان مضمون رسالتهم ـ فيما بلغني ـ طلب الصلح والموادعة، وكفّ الغارات من الجهتين، وانتظام الصلح، واجتماع كلمة الاتفاق. فأحسن السلطانُ إلى رسله وأكرمهم، وأعادهم صحبة رسوله علاء الدين علي ابن الأمير سيف الدين بَلَبَان القليجي أحد مقدمي الحلقة المنصورة، والقاضي سليمان المالكي الشَّبْرَايْرِيقي، وشَبْرَايرِيق قرية من قُرى الغربية بالديار المصرية، وهو أحد نُوّاب الحكم، وتوجّهُوا في ذي القعدة وعادوا في شهر رمضان سنة خمس وسبعمائة، ومعهم رسل الملك خَرْبَنْدا.

وفيها عُزِلَ الأمير ناصر الدين محمد الشيخي[١] عن الوزارة في أواخر شعبان، ورسم بمصادرته، وصُودِرَ وضُرِب بالمقارع بين يدي عز الدين أيبك الشجاعي شاد الدواوين[٢] إلى أن مات، وكان قد أحدث مظالم كثيرة وقصد تجدِيدَ ما هو أشنع منها وأفحش من المكوس المنكرة والحوادث التي ما سُمِعَ بمثلها، فما أمهله القدرُ، وأخذه الله تعالى شر إِخْذَة، وأراح الناسَ من شره.

وكان ناصر الدين في ابتداء أمره يَخيطُ الأقباع بالقاهرة في كل يوم بنصف درهم، ثم خدم الأمير شمس الدين بن التيتي[٣] وحضر معه من بلاد التتار في الدولة المنصورية، ثم توصَّل وخدم جنديًا من الحلقة فأعطي إقطاعًا بساحل الغَلَّة، فبذل في شد الجهة بذلًا وليها، فظهر منه اجتهاد، ثم نقل إلى شدّ الدواوين مدة، ثم نُقل إلى ولاية القاهرة، وتأمّر بطبلخاناه، ثم ولي الجيزية، ومنها إلى الوزارة.

---

(١) ناصر الدين محمد الشيخي: كذا هنا، وفي الدرر الكامنة ٢/ ١٩٥: ذبيان بن عبد الله المادي الشيخي ناصر الدين، توفي سنة ٧٠٤ هـ.

(٢) شاد الدواوين: هو متولي التفتيش على الدواوين، والشاد هو متولي الوظيفة المخصصة بالكلمة المضافة إليه، وكانت مهمة شاد الدواوين مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظيفها، وعادته إمرة عشرة (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٩١).

(٣) شمس الدين بن التيتي: هو الأمير الكبير الأديب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أبي سعد بن علي بن المنصور بن محمد بن الحسين بن التيتي الشيباني الآمدي، توفي سنة ٧٠٤ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ١١، السلوك للمقريزي ٢/ ١٣).

ولما عُزل فُوضت الوزارة إلى القاضي سعد الدين بن عطايا[١]، وكان يلي نظر البيوت السلطانية فنُقل إلى الوزارة، وخُلِعَ عليه في يوم الأربعاء ثاني عشر شهر رمضان، وكان الذي اعتنى بأمره وعيَّنَه لهذا المنصب الأميرُ عَلَمُ الدين سَنْجرَ، الجاولي[٢] أستاذ الدار العالية. ولقد شَاهَدْتُ الصاحبَ سعد الدين هذا قبلَ وزارته بثلاثة أيام وهو قائم بين يدي الأمير علم الدين المذكور وهو يقرأ عليه ورقة حسابٍ لعلها تتعلق بديوان البيوت، فلما وَلِيَ الوزارة حَضَر الأميرُ علمُ الدين معه إلى مجلس الوزارة، وجلس بين يديه ووقّع الصاحب، وكتب بالامتثال فَرَمَّل على خطه فيما بلغني.

وفي هذه السنة وصل رسول من جهة أبي يعقوب المريني[٣] صاحب بلاد المغرب: وهو علاء الدين الشهرزوري وأصله من أولاد الشهرزورية الذين نُفُوا في الدولة الظاهرية، وحضر صحبته هدايا جليلة كثيرة، كثير من الخيل والبغال بالسروج، وجملةٌ من القماش والذهب على سبيل الهدية والأمداد، فَقُبِلت هديّتهُ، وأنعم على رسول له. في سنة خمس، وأعيد إلى مرسله على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها وصلُ مُتَملِّك دُنْقُلَة وبلاد النوبة إلى الأبواب السلطانية، وأحضر صحبته التَّقْدمة الجاري بها العادة، والبَقْط[٤] من الرَّقِيق والهجن والثمار والسُنْبَاذَج[٥] وغير ذلك، وسأل السلطانُ معه عسكرًا لينهض به على أعدائه الذين يؤخرون مطيعه؛ فجرّدَ معه الأمير سيفَ الدين طَقْصُبَا في طائفة من العسكر فتوجّه بهم وأغَار وأوغَلَ في بلاد النُّوبَة وعاد.

---

(١) سعد الدين بن عطايا: هو محمد بن محمد بن عطايا، سعد الدين، توفي سنة ٧٣٠ هـ (انظر: السلوك للمقريزي ٢/ ٣٢٧).

(٢) علم الدين سنجر الجاولي: هو سنجر بن عبد الله الجاولي، أبو سعيد، علم الدين، توفي سنة ٧٤٥ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٤٢، الدليل الشافي ١/ ٣٢٤، النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٦).

(٣) أبو يعقوب المريني: هو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، أبو يعقوب، ملك المغرب، توفي سنة ٧٠٦ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٣، السلوك ٢/ ١: ٢٣، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٥، الدرر الكامنة ٤/ ٤٨٠).

(٤) البقط: هو ما يقبض من سبي النوبة في كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم (خطط المقريزي ٣/ ٣٥٢).

(٥) السنباذج: نوع من الحجارة تستعمل للجلاء والتنعيم (السلوك ٢/ ١: ٨).

ذكر ما وقع في هذه السنة بدمشق من الحوادث والولايات

كان مما وقع هذه السنة بدمشق أن نائب السلطنة بها الأمير جمال الدين آقُش الأفرم أمر بعقد مجلس لنجم الدين أبي بكر ابن القاضي بهاء الدين خلِّكَان، وسماع ما يدّعيه، وكان قد تكرر منه أنه حكيم الزمان، وأنه يُخَاطَبُ بكلام يشبه الوَحْي بزعمه، وذكر ألفاظًا يدّعي أنه خُوطِب بها وهي: يا أيها الحكيم افعل كذا، وأشباه ذلك، وادعى أنّه قد اطلع على علوم كثيرة؛ منها: عمل طبل إذَا ضُرِبَ به انهزم جيشُ العدوّ، وعمل طلسم إذا كان مع الملك وأحْضرِ إلى مجلسه السُّمُ حصل للملك أعراضٌ، يعْلم ذلك منها، وأشباه هذا من الأعمال، فأحْضر بين يدي نائب السلطة وحضر المجلس الشيخُ صدر الدين ابن الوكيل[١] والشيخ كمال الدين بن الزملكاني[٢] خاصّة، وطُولبَ بإقامة البرْهان على صحَّة دعواه، فلم يأت بما يدل على ذلك، فاعْتُذِرَ عَنْه عند نائب السلطنة أنّه من بيْتِ رياسةٍ، ورجل فقير، وأنه قليل الاجتماع بالناس، وأن هذا الذي يَعْرِض له نوعٌ من الوَسْواس، وتاب هو إلى الله تعالى مما كان يَدَّعيه، واستمر مُدَّة ثم عاد إلى ما كان عليه من الدعوى فعُقِد له مجلسٌ في ثالث شهر رمضان سنة سبع وسبعمائة بدمشق أيضًا بحضور نائب السلطنة المشار إليه وقضاة القضاة والعلماء، وحصل البحث في أمره فأفتى بعض العلماء بقتله، وأفتى بعضهم باستتابته وتعذيره، فَجُدِّدَ عليه مكتوبٌ بالتوبة عن الكلام في المُغيَّبَات، واعتنى به الأمير سيف الدين بَكْتُمُر الحاجب كما أخبرني فأقامه من المجلس وقال: هذا رجل مجنون وأرسله إلى البيمارستان[٣] النوري، فأقام به مدة ثم خرج منه، ثم عاد إلى ما كان عليه، وهذا المذكور مستمرٌّ على دعواه لا يرجعُ عنها إلى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وهو بالقاهرة لا يزال يذكر هذا القول ويلهُج به ويدَّعيه وحضر إليَّ مرَارًا ونهيتهُ عنه فلم ينته ولا يرجع، ويقول: إنه حكيم الزمان، وإنه يُخَاطب بما صورته بيا أيها الحكيم، ويذكر السلطان الملك الناصر ويقول: إنهُ أرْسِلَ إليه، وإنه إذا اجتمع به له من الأوفاق والطلمسات أشياء كثيرة ذَكَرَها لي يطول شرحها، وهو يتردَّدُ إلى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة

---

(١) صدر الدين ابن الوكيل: ويعرف أيضًا بابن المرحل، تقدمت ترجمته.

(٢) كمال الدين بن الزملكاني: تقدمت ترجمته.

(٣) البيمارستان: ويقال له أيضًا: المارستان: وهو دار المرضى (القاموس ٢/ ٢٦٠)، وكان البيمارستان دارًا للعلاج ومكانًا لتدريس الطب (الموسوعة العربية الميسرة ص ٤٧٢)، وأول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط، (صبح الأعشى ١/ ٤٩١).

الشافعي، ويعرض عليه أقواله، ويسأله الحديث له مع السلطان، فيصرفه عن ذلك، ويصرف له من الصدقات الحكمية ما يرتفق به.

ولما تكرر هذا القول منه وشاع وذاع عنه اتَّصل بالأمير سيف الدين أَلْجَاي الدوادار الناصري في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة وأحضره وطالبه. بإقامة البرهان على صحة ما يَدَّعيه فذكر أن الذي يذكره إنما يظهر ويفيد بين يدي السلطان، فقال له: أنا أجمع بينك وبين السلطان، فقال نجم الدين: إنما أمرتُ أن يَتَحدَّثَ لي مع السلطان قضاةُ القضاة، ولم أومَرْ بك، فقال: أنا أَدَعُ القضاة، يتكلّمون مع السلطان في أمْرِكَ، وحَصَرَه وضايقه بكل طريق وأقام عنده بمنزله بالقلعة أيامًا ثم عرض عليه التوبة والرجوع عن هذه الأقوال فتاب ورجع عنها بحضوره، وأخذ منه كتابًا كان يدَّعي أنّه جميعه ممّا خُوطِبَ وأطلقه ثم اجتمع بي بعد ذلك في سنة خمس وعشرين وسبعمائة وهو باقٍ على دعواه مُصرٌّ على مقالته عافاه الله تعالى وهذا الرجل كان قبل هذه الدعوى ينوب عن القضاة بالشام، وناب عن القاضي بدر الدين بن جماعة في بعض الأعمال، فلما غلب عليه هذا الحال ترك الولايات الحكمية وأخذ في هذا النوع.

وفي هذه السنة رسم للأمير ركن الدين بيبرس العلائي أحد الأمراء بالشام أن يكون حاجبًا بدمشق رفيقًا للأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي، فامتنع من ذلك، وسأل الإعفاء، ثم أجاب ولبس التشريف السلطاني ووقف في الخدمة واستمر في الحَجَبَة هو والأمير سيف الدين بكْتَمُر وذلك في منتصف جمادى الآخرة، وكانا حاجبين كبيرين.

وفيها في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب توجه الشيخ تقي الدين بن تَيمية وجماعةٌ إلى مسجد التاريخ ظاهر دمشق، وأحضر جماعة من الحجّارين وقطع صَخْرةً هناك كان الناس يزورونها وينذرون لها، وكان للناس فيها أقاويلُ، فأزالها.

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرين شهر رمضان ضرب عنق الكمال الأحدب رئيس قلعة جديا من غوطة دمشق، وسبب ذلك أنه حضر إلى قاضي القضاة جمال الدين المالكي مستفتيًا وهو لا يعلم أنه قاضي القضاة فاستفتاه في رجل خاصم رجلًا فقال أحدهما للآخر: تكذب ولو كنت رسول الله فسأله القاضي، من قال هذا؟ قال: أنا. فأشهد عليه من حضر مجلسه وذلك في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر، وحكم في يوم الثلاثاء بإراقة دَمِه في دار العدل، فُضرِبَتْ عُنُقُهُ بسوق الخيل، ثم غُسّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفن.

وفيها في يوم الجمعة سادس عشرين من شوال حكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي بدمشق بإراقة دم أبي السرور السامري كاتب الأمير سيف الدين أَسَنْدُمر كُرْجي نائب السلطنة بالفتوحات، وأن ماله فيء للمسلمين، وأشهد على نفسه بذلك بعد أن شهد عنده على المذكور بما يقتضي الحكم عليه بذلك من العظائم، وكان هذا الكاتب المذكور قد تمكَّنَ من الأمير سيف الدين أَسَنْدُمر بطرابلس تمكنًا عظيمًا، فكان يركب معه في الموكب الخيلَ المسوَّمَة بالسروج المذهبة، والكتابيش[1] الحرير، ويسايره في المواكب، وإذا قرب من دار السلطنة وترجّل الأمراء في الخدمة تقدّم هو بفرَسِه والأمراء وغيرهم مشاة، وهو مستمر الركوب إلى باب دار السلطنة، وقصد الأمير سيف الدين بالوج الحسامي أحد الأمراء بطرابلس قَتْلَه ورتَّب له مَن يقتله، فضربه بالسيف بعد المغرب فوقعت عمامته، فظن الضارب أنه ضربَ عُنُقَه، وجَرَى فذلك أمور يطول شرحها أوجبت اعتقال بالوج.

ولما اتَّصَل خبره بالأبواب السلطانية رُسِمَ بطلبه فأخفاه مخدُومُه وادّعى هَرَبَه، وخشي أنه إن أرسله تكلّم عليه بما يؤذيه، فاقتضى رأيه أنه جَهَّزَه إلى دمشق مختفيًا صحبه عزّ الدين أيْدَمُر أحد مماليكه، وأمره أنه إذا قرُبَ من دمشق يقتله ليلًا، ففعل ذلك ووُجِد مقتولًا، وعُرِفَ بأثرٍ كان في جسده.

وفيها في يوم الخميس ثاني ذي القعدة بعد العصر حكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي أيضًا بإراقة دم شمس الدين محمد ابن الشيخ جمال الدين عبد الرحيم البَاجُرْبَقِي[2] وعدم قبول توبته، وكان قد شُهِّد عَليه بأمور تُوجِبُ ذلك، وكان الذين شهدوا عليه الشيخ مجدُ الدين التونسي، وعماد الدين محمد ابن القاضي شرف الدين بن مزهر، والشيخ أبو بكر ابن شرف الصالحي، وجلال الدين ابن البخاري خطيب الزنجيلية ومحيي الدين محمد الرفاعي، وإبراهيم بن إسماعيل اللبناني فهرب المذكور خوفًا من القتل، فلما كان في السابع عشر من رمضان سنة ست وسبعمائة نهضت بينه عند القاضي تقي الدين سليمان الحنبلي أن بين شمس الدين المذكور وبين من شَهِدَ عليه عداوة توجب إسقاط شهادتهم في حقه، وشهد بذلك الشيخ ناصر الدين ابن عبد السلام، والشريفان زين الدين ابن عدلان وأخُوه قطب الدين ابن شيخ السلامية، وشهاب الدين الرومي، وشرف الدين قيران الشمس وغيرهم، قريبًا من

(١) الكتابيش: جمع كتبوش، وهو البرذعة التي تجعل تحت السرج.

(٢) توفي سنة ٧٢٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٤، الدرر الكامنة ٤/ ١٢).

عشرين شاهدًا، فحكم القاضي تقي الدين عند ذلك بحَقْنِ دَمِه وإبطال ما حكم به في حقه، ونفّذ حكمه القاضي شمس الدين الأذرعي الحنفي، فأنكر المالكي ذلك وأشهد على نفسه أنّه باقٍ على حُكْمه بإراقة دمه، ولم يظهر ابن البَاجُريقيّ بسبب هذا الاختلاف.

وفي هذه السنة توفي السيد الشريف

عز الدين جَمَّاز بن شيحة(١) أمير المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان، قد أضر في آخر عمره، وأقام بإمْرة المدينة بعده ولده الأمير ناصر الدين منصور وتوفي الصاحب أمين الدين أحمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف جَدُّه بابن حنًّا، وكانت وفاتُه في ليلة الخميس ثامن صفر، وكان فقيهًا شافعيًا ديّنًا خيّرًا كثير الْبِر والصّدَقَة والمعروف والإيثار مع تَخلّيه عن المناصب، ودُفن في قبرٍ كان قد حَفَره لنفسه بقرب الشيخ ابن أبي حمزة رحمهما الله تعالى وتوفي بدمشق في يوم الأربعاء ثالث عشرين جمادى الآخرة الأمير ركن الدين بيبَرس الموفقي المنصوري(٢)، أحدُ الأمراء مقدمي الألوف بدمشق، وظهر بعد وفاته أنّ مماليكه خنقُوه وهو سكران، ولم يُخلِفَ وارثًا غير من يرثه بالولاية، فادعى أولاد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر أنه مملوك أبيهم باقٍ على رقّه وأن عتْقَ السلطان الملك المنصور له لم يصادف محلًا، فطولبوا بالإثبات فعجزوا عنه، وشهد الأمير شجاع الدين نقيب العساكر بدمشق أن ركن الدين المذكور كان مملوك الموفق نائب الرّحَبَة وأنّه جهّزه في جملة تقدمة إلى السلطان الملك المنصور في ابتداء سلطنته، فوصل إلى دمشق وقد استولى الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشْقُر عليها فوضع يده على التقدمة وأخذ بيبرس هذا في جُمْلة ما أخذ، فلما أخْرِجَ الأمير شمس الدين من دمشق استعيد بِيَبْرس هذا، وأحضر إلى السلطان، وقال الموفق إنه إنما سيّره السلطان الملك المنصور فورثه السلطان الملك الناصر بالولاء الشرعي، ودفع أولاد سُنْقُر الأشقر عن ميراثه.

وتوفي الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعد الآمدي المعروف بابن التيتي(٣) في أحد الجمادين وكان رجلًا فاضلًا سمع

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٥٨، والعقد الثمين ٣/ ٤٣٦.

(٢) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٢٠٥، والدرر الكامنة ٢/ ٤٣، والنجوم الزاهرة ٨/ ٢١٦.

(٣) ابن التيتي: تقدمت ترجمته.

الحديث وأسمعه، وَوَلي نيابةَ دارِ العَدل مدّة في الدولة المنصورية الحسامية، وفيها قتل الأمير سيف الدين بهادر شمس المنصوري[١] أحد الأمراء بدمشق، وكان قد توجه في خدمة نائب السلطنة إلى الصيد بالمرج فكبسهم طائفة من عرب غزْنة، ولم يعلموا أن نائب السلطنة بالعسكر، فركب بهادر سمز هذا وحمل على العرب وجعل يرميهم بالنّشّابِ ويقول: أنا بهادُر دمشق، فرماهُ بعضُ العرب بحربة وقال: خذها وأنا عصفور بن عصفور فقتله، وحُمل إلى تربة قبر ابن الست فدفن هناك، وقتل أكثر العرب، ولم ينج منهم إلّا من أسرع به فرسه، ولما مات ورثه أخوه بهادر الجمالي مملوك نائب السلطنة أثْبتَ أخُوَّتَه، ولم يحصل له من ميراثه إلّا نحو عشرين ألف درهم، فإنه ظهر عليه من الديون ما يقارب ثلاثمائة ألف درهم، فَبِيع مَوجوده وَوُفِّيَتْ ديونهُ وتسلم أخوه ما بقي.

واستهلت سنة خمس وسبعمائة

في هذه السنة عاد علاء الدين أيْدغدي رسول المريني[٢] ملك المغرب والحجاز الشريف، وكتب جوابه وجُهِّز إلى مُرْسله، وأرسِل معه الأمير علاء الدين أيدغُدِي التليلي والأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخَوَارزميّ، وجهّز معهما إلى الملك ما يليق به من الهدايا النّفيسة، وجُهِّز له خمسة عشر مملوكًا من التتار الذين أسِرُوا في وقعة مَرْج الصّفَّر وخمسة مماليك أتراكًا وفيها وصل رسول الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود[٣] وصاحب اليمن ومعه الهدايا والتقادم من البهار والقتا والأقمشة والتحف، وغير ذلك، فَعُرِضتَ هَدِيَّتُه وقُوبِلتْ بما جَرَت العادةُ به من هديتهم فكانت أَقَلّ منها، فصدرت إليه الأمثلة السلطانية بالإنكار والتهديد والإغلاظ له في القول وأرسلت فعاد الرسول بغير جواب فأوجب ذلك ما نذكره من الاهتمام بقصد اليمن وإرسال الرسل والله أعلم.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٧، الدليل الشافعي ١/ ٢٠١، البداية والنهاية ١٤/ ٣٤، الدرر الكامنة ٢/ ٣١).

(٢) المريني ملك المغرب: تقدمت ترجمته.

(٣) هزبر الدين داود: هو داود بن يوسف بن عمر بن رسول التركماني، ولي اليمن بعد وفاة أخيه الملك الأشرف سنة ٦٩٦ هـ. وتوفي سنة ٧٢١ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٤٢٨).

ذكر الإغارة على بلاد سيس وأسر الأمراء

وفي هذه السنة في شهر المحرم أغارت العساكر الحلبية على بلاد سيس وكان الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري قد جَرَّدَ طائفةً من العسكر الحلبي في ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة، وقدم عليهم مملوكه الأمير سيف الدين قَشْتُمر، وكان وَلَدُ قطلوشاه بأطراف الروم في ثلاثة آلاف فارس فأرسل إليهم صاحبُ سيس، وبذَلَ لهم مالًا جزيلًا يقال إنه بذل لكل واحد سبعمائة درهم وكان عنده جمع من الفرنج فاجمعوا هم والتتار في ستة آلاف فارس، فلما كان في مستهلّ هذه السنة بلغ العسكر الحلبي اجتماعهم، فذكر الأمراء ذلك لمقدمهم الأمير سيف الدين قَشْتَمُر وأشاروا عليه أنهم يرحلون بالغنائم قبل أن يلحقهم العدو، فلم يرجع إلى رأيهم وقال: أنا بمفردي ألتقي هذا الجمع فراجعوه فلم يرجع، ففارقه بعضُ الأمراء في نحو ربع العسكر، وساق تلك الليلة جميعها ونجا بمن معه، وبقي بقية العسكر فجاءهم التتار ومن انضم إليهم من الأرمن، فانهزم من بقي من العسكر الحلبي من غير قتال، فأسر التتار منهم وقتلوا، وأسروا من الأمراء بحلب فتح الدين صُبّرَة المهمندار، وشمس الدين آقسُنْقُر الفارسي، وسيف الدين قَشْتَمُر النَّجيبي، وسيف الدين قَشْتَمُر المظفَّري في جماعة من العسكر وأرسلوا إلى الأرْدَوَ وسَلِم الأمير سيف الدين قَشْتَمُر الشَّمْسِيّ مقدم الجيش في جماعة، ووصلوا إلى حلب.

ولما وقع ذلك ندم صاحب سيس وخشي غائلة العساكر، وكتب إلى الأمير شمس الدين قراسنقُر نائب السلطنة بحلب يبذل له الطاعة والأموال، ويسأل الصفْحَ عن ذنبه، وأنه يقوم بالقطيعة المقررة عليه، فَطَالَع قَراسُنْقُر الأبواب السلطانية في ذلك فأجيب سؤالُه.

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رُسُل ملك الكُرْجَ وكان وصولهم من جهة القُسْطَنْطِينيّة، وجهزَهُم الأشكري صحبة رُسُلِهِ، فوصلوا إلى الأبواب السلطانية، وكان مضمون رسالتهم سؤال السلطان أنْ تُعادَ عليهم كَنِيسةٌ مَعْرُوفَةٌ بهم بالقدس تسمى المصالبة كانت قد أخذت منهم فأعيدت إليهم وفيها وصل إلى الأبواب السلطانية من بلاد التتار سيف الدين حنا وفخر الدين داود إخوة الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة، ووصلت والدته أيضًا معهما فأنعم السلطان عليهما وأمرهما طبلخانات.

ذكر توجّه العساكر الشامية إلى بلاد الكسروان وإبادة مَن بها وتمهيدها

كان أهل جبال الكسروان قد كثروا وطَغَوا واشتدت شوكتهم، وتطرقوا إلى أذى العسكر الناصري عند انهزامه في سنة تسع وتسعين وستمائة، وتراخى الأمر وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طُغْيَانُهم وأظهروا الخروج من الطاعة، واغترُّوا بجبالِهم المنِيعة، وجموعهم الكثيرة، وأنه لا يمكن الوصول إليهم، فجهَّز إليهم الشريف زين الدين بن عدنان، ثم توجّه بعده في ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة الشيخ تقي الدين ابن تَيْمِيّة، والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري، وتحدثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابُوا إلى ذلك، فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومملكة من الممالك الشامية، وتوجّه نائبُ السلطنة الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الاثنين ثاني المحرم وجمع جمعًا كثيرًا من الرجال فيقال إنه اجتمع من الرجالة نحو خمسين ألفًا وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه الأمير سيف الدين أسندَمُر بعسكر الفتوحات من الجهة التي تلي بلاد طَرَابُلُس، وكان قد نسب إلى مُبَاطنتِهم، فكُتِبَ إليه في ذلك، فجرّد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحو عنه أثر هذه الشناعة التي وقعت وطلع إلى جبل الكسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العساكر فَقُتِلَ منهم خَلْق كثير، وتبدد شملهم وتمزقوا في البلاد، واستخدم الأمير سيف الدين أسندَمُر جماعة منهم بطرَابُلُس بجامكية وجِرَايَة من الأموال الديوانية، وسمَّاهم رجال الكسروان وأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أخْبَارًا من حَلَقَة طرابلس، وتفرق بقيتهم في البلاد واضمحل أمْرُهم وخَمُل ذكرهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في رابع عشر صفر من السنة وأقطع جبال الكسروانيين والجرديين لجماعة من الأمراء التركمان وغيرهم منهم: الأمير علاء الدين بن معبد البعلبكي وعز الدين خطاب، وسيف الدين بُكْتُمُر الحُسامي، وأعْطُوا الطبلخانات وتوجَّهُوا لعمارة إقطاعهم وحفظ ميناء البحر من جهة بيروت.

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول نقل الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي الحاجب من الحجبة بدمشق إلى شد الدواوين وأستاذ الدارية بالشام فامتنع من ذلك ثم أُلْزِم فاشترط شروطًا فطولع بها فأجيب إليها وباشر الوظيفة، وأوقعت الحوطة على الأمير شرف الدين قيران المشد وفيها أفرج عن الأمير سيف الدين الحاج بَهَادُر الحلبي

وأنعم عليه بإمرة بدمشق، وتوجه إليها وكان في الاعتقال من الأيام المنصورية الحسامية والله أعلم.

وفي هذه السنة كانت بدمشق فتنة بين جماعة من الفقراء الأحمدية والشيخ تقي الدين بن تيمية وذلك أنهم اجتمعوا في يوم السبت تاسع جمادى الأولى عند نائب السلطنة وحضر الشيخ تقي الدين فطلبوا منه أن يسلم إليهم حالهم وأن تقي الدين لا يعارضهم ولا ينكر عليهم وأرادوا أن يظهروا شيئًا مما يفعلونه فقال لهم الشيخ: إن اتِّبَاع الشريعة لا يسع الخروج عنه، ولا يُقَرُّ أحد على خلافه، وهذه البدع التي تفعلونها من دخول النار وإخراج الزبد من الحلق لها حيل ذكرها وقال: من أراد منكم دخول النار فليغسل جسده في الحمام ثم يدلكه بالخل ثم يدخل بعد ذلك فإن قدر على الدخول دخلت معه ولو دخل بعد ذلك لم يرجع إليه بل هو فعل من أفعال الدجال فانكسرت حِدَّتهم وانفصل المجلس على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من أعناقهم، وعلى أن مَنْ خرج منهم عن الكتاب والسنة قوبل بما يستحقه وضبط المجلس المذكور وما وقع فيه وما الْتَزَم الفقراءُ الأحمدية الرفاعية به، وصنّف الشيخ جزءًا يتعلق بهذه الطائفة وأفعالهم.

ذكر حادثة الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمِيَّة

وما اتفق لِطائفَةِ الحنابلة، واعتقال تقي الدين وما كان من خبره إلى أن أفرج عنه أخيرًا كانت هذه الحادثة التي نذكرها في سنة خمس وسبعمائة وانتهت في أواخر سنة تسع وسبعمائة وكان لوقوعها أسباب وموجبات ووقائع اتفقت بالقاهرة ودمشق وقد رأينا أن نذكر هذه الواقعة ونشرح أسبابها من ابتداء وقوعها إلى انتهائها ولا نَقْطعها بغيرها وإن خرجت سنة ودخلت أخرى السبب المحرك لهذه الواقعة الموجب لطلب الشيخ تقي الدين المذكور إلى الديار المصرية فقد أطلعت عليه من ابتدائه وهو أن بعض الطلبة واسمه عبد الرحمٰن العينوسي سكن بالمدرسة الناصرية التي تقدم ذكرها بالقاهرة وكنت بها وبها قاضي القضاة زين الدين المالكي وغيره، فاتفق اجتماعي أنا والقاضي شمس الدين محمد بن عدلان الكناني القرشي الشافعي بمنزلي بالمدرسة المذكورة في بعض الليالي وهو أيضًا ساكن بالمدرسة ومعيد بها فحضر عبد الرحمٰن المذكور إلينا ومعه فتيا وقد أجاب الشيخ تقي الدين عنها فأخرجها من يده وشرع يذكر الشيخ تقي الدين وبسط عبارته وعلمه وقال هذه من جملة فتاويه ولم يرد فيما ظهر أذاه وإنما قصد والله أعلم نشر فضيلته فتناولها القاضي شمس الدين بن عدلان منه وقرأها فإذا مضمونها:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين أن يبينوا ما يجب على الإنسان أن يعتقده ويصير به مسلمًا بأوضح عبارة وأبينها من أن ما في المصاحف هو كلام الله القديم أم هو عبارة عنه لا نفسه وأنه هو حادث أو قديم وأن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طٰه: الآية ٥] هو استواء حقيقة أم لا؟ وأن كلام الله عزّ وجلّ بحرف وصوت أم كلامه صفة قائمة لا تفارق وأن الإنسان إذا أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئًا منه ويقول أومِنُ به كما أنزل هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب عليه التأويل وأن السائل رجل متحير لا يعرف شيئًا وسؤاله بجواب ليّن ليقلد قائله افتونا مأجورين رحمكم الله.

فأجاب الشيخ تقي الدين ما صورته: الحمد لله رب العالمين الذي يجب على الإنسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله واتفق عليه سلف المؤمنين الذين أثنى الله على من اتبعهم وذم من اتبع غير سبيلهم وهو أن القرآن الذي أنزله الله على محمد عبده ورسوله كلام الله وأنه منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وأنه قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون وأنه قرآن مجيد في لوح محفوظ وأنه في أُم الكتاب لدى الله تعالى حفيظ وأنه في الصدور كما قال النبيّ ﷺ «استذكروا القرآن فهو أشد تفلتًا من صدور الرجال من النعم من عقلها» وقال: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب» أن ما بين لَوْحَيْ المصحف الذي كتبه الصحابة كلام الله كما قال النبيّ ﷺ: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن تناله أيديهم» فهذه الجملة تكفي المسلم في هذا الباب وما تفصيل ما وقع في ذلك من النزاع فكثير منه يكون كلام الاطلاقين خطأ ويكون الحق في التفصيل ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق ويكون كل منهما حق صاحبه وهذا من التفرق والاختلاف الذي ذمه الله ونهى عنه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: الآية ١٧٦]، قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٥]، وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢١٣] فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين والسابقين من الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع وأعرض عن الذين فرقوا دينهم

وكانوا شيعًا فإن مواقع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى، وقد بسطت القول من جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف الأمة الذي اتفق عليه العقل والسمع وبيان ما يدخل في هذا الباب من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة ولكن نذكر هنا جملة مختصرة بحسب حال السائل، والواجب أمر العامة بالحمل على الثابت بالنص والإجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله، والتفصيل المختصر فنقول: من اعتقد أن المداد الذي في المصحف وأصوات العباد قديمة أزلية فهذا ضال مخطىء مخالف للكتاب والسنة وإجماع السابقين الأولين وسائر علماء المسلمين ولم يقل أحد قط من علماء المسلمين إن ذلك قديم لا من أصحاب الإمام أحمد ولا من غيرهم ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الإمام أحمد ونحوهم فهو مخطىء في هذا النقل أو متعمد الكذب بل المنصوص عن الإمام أحمد وعامة أئمة أصحابه تبديع من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق كما جهموا من قال اللفظ بالقرآن مخلوق، وقد صنّف أبو بكر المروزي أخص أصحاب الإمام أحمد به في ذلك رسالة كبيرة مبسوطة، ونقلها عنه أبو بكر الخلال في كتاب السنة الذي جمع فيه كلام الإمام أحمد وغيره من السنة في أبواب الاعتقاد وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق فبلغ ذلك الإمام أحمد فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا وبدع من قال ذلك وأخبر أن أحدًا من العلماء لم يقل ذلك فكيف من يزعم أن صوت العبد قديم وأقبح من ذلك من يحكي عن بعض العلماء أنّ المداد الذي في المصحف قديم، وجميع أئمّة أصحاب الإمام أحمد وغيره أنكروا ذلك، وما علمت أنّ عالمًا نقل ذلك إلّا ما بلغنا عن بعض الجهال من الأكراد ونحوهم وقد ميّز الله تعالى في كتابه بين الكلام والمداد؛ فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] فهذا خطأ من هذا الجانب، وكذلك من زعم أنّ القرآن محفوظ في الصدور، كما أن الله معلوم بالقلوب، وأنه متلو بالألسن، كما أن الله مذكور بالألسن، وأنه مكتوب في المصحف، كما أنّ الله مكتوب في المصحف، وجعل ثبوت القرآن في الصدور والألسنة والمصاحف مثل ثبوت ذات الله في هذه المواضع، فهذا أيضًا مخطىء في ذلك، فإنّ الفرق بين ثبوت الأعيان في المصحف وبين ثبوت الكلام فيها بيّن واضح، فإن الأعيان لها أربع مراتب: مرتبة في الأعيان، ومرتبه في الأذهان، ومرتبة في اللسان، ومرتبة في البيان، فالعلم يطابق

العين، واللفظ يطابق العلم، والخط يطابق اللفظ، فإذا قيل: إن العين في الكتاب كما في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝﴾ [القمر: الآية ٥٢] فقد علم أن الذي في الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان وهي اللفظ والخط وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين الصحيفة مرتبة غيرهما بل نفس الكلام يجعل في الكتاب، وإن كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من غير وجه آخر إلا إذا أريد أن الذي في المصحف هو ذكره والخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝﴾، إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝﴾ [الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٧] فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد. إن هذا القرآن لم ينزل على أحد قبله ولكن في زبر الأولين صح ذكر القرآن وخبره، كما فيها ذكر محمد وخبره، كما أن أفعال العباد في الزبر كما قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝﴾ [القمر: الآية ٥٢] فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر وبين كون الكلام نفسه في الزبر، كما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝﴾ [الواقعة: الآيتان ٧٧، ٧٨]، وقال: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝﴾ [البيّنة: الآيتان ٢، ٣] فمن قال: إنّ المداد قديم فقد أخطأ، ومن قال: ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ، بل القرآن في المصحف، كما أنّ سائر الكلام في الأوراق كما عليه الأمة مجتمعة، وكما هو في نظر المسلمين، فإنّ كلّ مرتبة لها حكم يخصها، وليس وجود الكلام من الكتاب لوجود الصفة بالموصوف، مثل العلم والحياة بمحلها حتى يقال: إنّ صفة الله حلت بغيره أو فارقته، ولا وجوده فيه كالدليل المحض، مثل وجود العالم الدال على الباري تعالى، حتى يقال: ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله، بل هو قسم آخر ومن لم يعط كل مرتبة فيما يستعمل فيها أداء الطرق حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيّز وفي المكان، ووجود العرض بالجسم، والصورة بالمرآة ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة ورؤيته بالقلب يقظة ومنامًا، ونحو ذلك، وإلا اضطرب عليه الأمر ولذلك سؤال السائل عما في المصحف، هل هم حادث أو قديم، سؤال مجمل. فإنّ لفظ القديم أولًا مأثور عن السلف ليس وأما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تلي وحيث كتب وهو قرآن واحد وكلام وإن تنوعت الصور التي يتلى بها، وتكتب من أصوات العباد ومدادهم، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئًا، لا كلام من بلغه مؤديًا، فإذا سمعنا محدثًا يحدث

يقول النبيّ ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» قلنا هذا كلام رسول الله لفظه ومعانيه، مع أن علمنا أن الصوت صوت المبلغ لا صوت رسول الله وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر ونحن إذا قلنا هذا كلام الله لما نسمعه من القارىء من قرأه في المصحف فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ ومداد الكاتب، فمن قال: صوت القارىء ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق فقد أخطأ، وهذا الفرق الذي بينه الإمام أحمد لمن سأله وقد قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] فقال: هذا كلام الله غير مخلوق؟ فقال: نعم فنقل السائل عنه أنه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق قد عابه أحمد وزبره زَبْرًا شديدًا وطلب عقوبته وتعذيره وقال: أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ فقال: لا ولكن قلت لي لما قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هذا كلام الله غير مخلوق، فقال: فلم تنقل عني ما لم أقله بين الإمام أحمد أن القائل إذا قال لما يسمعه من المبلغين والمؤذنين هذا كلام الله، فالإشارة إلى الحقيقة التي تكلم بها الله وإن كنا إنما سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته فإذا أشار إلى شيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله وقال هذا غير مخلوق فقد ضلّ وأخطأ، فالواجب أن يقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، والقرآن في المصاحف كما أن سائر الكلام في المصحف ولا يقال إن شيئًا من المداد والورق غير مخلوق، بل كل ورق ومداد في العالم فهو مخلوق، ويقال أيضًا: القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق.

وتبيين هذا الجواب عن المسألة الثانية وهو قوله: أن كلام الله هل هو بحرف وصوت أم لا فإن إطلاق الجواب في هذه المسألة نفيًا وإثباتًا خطأ، وهي من البدع المولدة الحادثة بعد المائة الثالثة لما قال قوم من متكلمة الصفاتية: إنّ كلام الله الذي أنزله على أنبيائه كالتوراة، والإنجيل والقرآن، والذي لم ينزله، والكلمات التي كون بها الكائنات والكلمات المشتملة على أمره، ونهيه وخبره ليس إلا مجرد معنى واحد هو صفة واحدة قامت بالله إن عبر عنها بالعبرية كانت التوراة، وإن عبر عنها بالعربية كانت القرآن، وأن الأمر، والنهي والخبر صفات لها لا أقسام لها وأن حروف القرآن مخلوقة خلقها الله تعالى ولم يتكلم بها وليست كلامه؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت عارضهم آخرون من المثبتة فقالوا: بل القرآن هو الحروف والأصوات وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد وبالأصوات أصوات العباد وهذا لم يقله عالم، والصواب الذي عليه سلف الأمة كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب

خلق أفعال العباد وغيره وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم اتباع النصوص الثابتة وإجماع سلف الأمة وهو أن القرآن جميعه كلام الله تعالى: حروفه ومعانيه ليس شيئًا من ذلك كلامًا لغيره ولكن أنزله على رسله وليس القرآن اسمًا لمجرد المعنى ولا لمجد الحرف بل لمجموعهما وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ولا المعاني فقط بل مجموعهما كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ولا مجرد الجسد بل مجموعهما وأن الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك هو أصوات العباد، لا صوت القارىء ولا غيره فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ولا معانيه تشبه معانيه ولا حروفه تشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن حجد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته وقد بينت في الجواب المبسوط مراتب مذاهب أهل الأرض في ذلك وأن المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفس الأنبياء تفيض عليهم المعاني من العقل الفعّال فتصير في نفوسهم حروفًا كما أن ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الأنبياء من الصور النورانية، وهذا من جنس قول فيلسوف قريش الوليد بن المغيرة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثّر: الآية ٢٥] فحقيقة قولهم إن القرآن تصنيف الرسول لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية، وهؤلاء هم الصابئة(١) فنفرت منهم الجهمية(٢) فقالوا إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ولا قام به كلام وإنما كلامه ما يخلقه من الهواء أو غيره فأخذ بعض ذلك قوم من متكلمة الصفات(٣)

---

(١) الصائبة: قيل: هم قوم يعبدون النجوم، وقيل هم قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية بعيدة عن الشرح ولا يقرون بالإسلام ولا بأية شريعة أخرى، يؤمنون بالمحسوس والمعقول، وربما يتطلون بعازيمون وهرمس، ولقد كانت لهم مناظرات مع الحنفاء ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل ص ٢٥٩، ٢٦٣، ٣١١.

(٢) الجهمية: اتباع الجهم بن صفوان الترمذي، الذي قال بالجبر والاضطرار وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل، ولا فعل ولا عمل لأحد غير الله، وقد أجمع المسلمون وجميع الفرق على تكفير الجهمية (الملل والنحل ص ٩٠).

(٣) هم الصفاتية: قالت الصفاتية: إن الله تعالى: عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، مريد بإرادة، متكلم بكلام، باق ببقاء، وهذه الصفات زائدة على ذاته سبحانه، وهي صفات موجودة أزلية ومعانٍ قائمة في ذاته. وعند المعتزلة ذات الله واحدة لا كثرة فيها بأي وجه من الوجوه، ولهذا لم يجعلوا صفات الله تعالى معاني قائمة بذاتها بل هي ذات الله، فعلمه=

فقالوا: بل نصفه، وهو المعنى كلام الله ونصفه وهو الحروف ليس كلام الله بل هو خلق من خلقه وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق هل يقال: إنه قديم لم يزل لا متعلق المشيئة؟ أم يقال يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء على قولين مشهورين في ذلك وفي السمع والبصر ونحوهما ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة، وذكرهما أبو بكر عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك النزاع بين أهل الحديث والصوفية وفرق الفقهاء من المالكية والشافعية والحنفية بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة في جنس هذا الباب وليس هذا موضع بسط ذلك الفصل.

وأما سؤاله عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] فهو حق أخبر الله به، وأهل السنّة متفقون على ما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن ومالك بن أنس وغيرهما من الأئمة أن الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن الكيف بدعة فمن زعم أن الله مفتقر إلى عرش يقله أو أنه محصور في سماء تظله أو أنه محصور في شيء من مخلوقاته، أو أنه تحيط به جهة من جهات مصنوعاته فهو مخطىء ضال ومن قال إنه ليس على العرش رب ولا فوق السمٰوات خالق بل ما هنالك إلا العدم المحض والنفي الصرف فهو معطل جاحد لرب العالمين مضاه لفرعون الذي قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧] بل أهل السنّة والحديث وسلف الأمة متفقون على أنه فوق سماواته على عرشه بأين من مخلوقاته ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته وعلى ذلك نصوص الكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمة وأئمة السنّة بل على ذلك جميع المؤمنين من الأولين والآخرين وأهل السنّة وسلف الأمة متفقون على أن من تأوّل استوى بمعنى استولى أو بمعنى آخر ينفي أن يكون الله فوق السمٰوات فهو جهمي ضال مضل.

= هو ذاته، وقدرته هي ذاتها، لأنه تعالى عالم بعلم كما قال أبو الهذيل العلاف، كذلك النظام يؤكد وحدة الذات الإلٰهية تأكيدًا قاطعًا نافيًا كل اختلاف فيها ويرى أن صفات الله تعالى هي إثبات لذاته ونفي لمسلوبات هذه الصفات، فمعنى قولي إنه عالم، إثبات ذاته ونفي الجهل عنه، وكذلك في سائر الصفات. وقال أبو علي الجبائي: إن صفات الله تعالى هي لذاته، وجاء ابنه أبو هاشم الجبائي وقال: إن الصفات هي أحوال ثابتة للذات (الموسوعة الفلسفية العربية ص ٤٥١).

وأما سؤاله عن إجراء القرآن على ظاهره فإنه إذا آمن بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تكييف فقد اتبع سبيل المؤمنين ولفظ الظاهر في عرف المستأخرين قد صار فيه اشتراك فإن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو في خصائص المخلوقين حتى يشبه الله بخلقه فهذا ضلال بل يجب القطع بأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله بل قد قال ابن عباس(١) رضي الله عنهما ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني أن موعود الله في الجنة من الذهب والحرير والخمر واللبن يخالف حقًّا بقية حقائق هذه الأمور الموجودة في الدنيا فالله تعالى أبعد عن مشابهة مخلوقاته بما لا تدركه العباد؛ إذ ليست حقيقته كحقيقة شيء منها وأما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة بحيث لا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يلحد في أسماء الله تعالى ولا يفسر القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنّة بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنّة وأجمع عليه سلف الأمة فهذا مصيب في ذلك وهو الحق وهذه جملة لا يسع هذا الموضع تفصيلها والله أعلم.

فلما وقف القاضي شمس الدين بن عدلان على هذه الفتيا أنكر منها مواضع وعرضها على القاضي زين الدين المالكي فقال قاضي القضاة أحتاج أن يثبت عندي أن هذا خط تقي الدين المذكور فإذا ثبت ذلك رتبت عليه مقتضاه، وانفصل المجلس في تلك الليلة على هذا، ثم شهد جماعة عند قاضي القضاة أن الجواب المذكور بخط تقي الدين المذكور فثبت ذلك عنده وأشهد على نفسه به في شعبان من السنّة واجتمع قاضي القضاة زين الدين بالأمراء وعرفهم ما أنكره من فتياه فرسم بطلبه إلى الأبواب السلطانية وتوجه البريد بذلك فتوقف نائب السلطنة بالشام الأمير جمال الدين في إرساله واتفق وصول الأمير سيف الدين الطنقش الجمالي أستاذ دار نائب السلطنة بالشام إلى الأبواب السلطانية في الشهر المذكور في بعض المهمات وملك السلطان مخدومه من أملاكه بالشام أماكن أحتاج إلى إثباتها على قاضي القضاة زين الدين

---

(١) ابن عباس: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو العباس، توفي النبيّ ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة، وولد قبل الهجرة بأربع سنين، قال له النبيّ ﷺ «اللهم علمه الحكمة»، توفي سنة ٦٨ هـ بالطائف، وقيل: سنة ٧٠ هـ. (كتاب الثقات ٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨، وانظر ترجمته أيضًا في: البداية والنهاية ٨/ ٣٠٢ ـ ٣١٤، شذرات الذهب ١/ ٧٥، الإصابة ترجمة رقم ٤٧٧٢، حلية الأولياء ١/ ٣١٤).

المالكي فاجتمع بي بسبب ذلك فدخلت على قاضي القضاة وعرفته مكانة سيف الدين المذكور ومنزلته من أرباب الدولة، ومحل مخدومه والتمست منه الإذن له في الدخول وإكرامه إذا دخل عليه فأذن له في الدخول فلما دخل عليه اطرحه ولم يكترث لدخوله وكلمه بكلام غليظ فكان مما قال له عند دخوله عليه: أنت أستاذ دار جمال الدين؟ قال: نعم. قال: لا بيَّض الله وجهه. وحمله رسالة لمخدومه فقال: قل له عني أنت تعرف كيف كنت، وأنني اشتريتك للسلطان الملك المنصور وكنت على حال من الضرورة في جنديتك وإمرتك ثم خوَّلك الله تعالى من نعمه وأفاض عليك منها ما أنت عليه الآن وألحقك بأكابر الملوك ونُعِتَّ بملك الأمراء، ثم أنت تدافع عن رجل طلبته لقيام حق من حقوق الله عليه، والله لئن لم ترسله ليعجلن الله تعالى هلاكك إلى غير ذلك مما قاله في وقت خروجه فالتزم الأمير سيف الدين الطنقش أنه عند وصوله إلى دمشق لا يبيت ابن تيمية بها، ويرسله إليه، ثم لم يقنع قاضي القضاة بذلك إلى أن اجتمع بالأمراء، وجدد معهم الحديث في أمر تقي الدين فاقتضى ذلك إرسال الأمير حسام الدين لاجين العمري أحد الحجاب بالأبواب السلطانية إلى دمشق بمثال شريف سلطاني بطلبه فتوجه ووصل إليها في خامس شهر رمضان.

هذا هو السبب الموجب لطلبه وانحمال قاضي القضاة زين الدين المالكي عليه نقلته عن مشاهدة واطلاع واتفق في هذه المدة له وقائع بدمشق نحن نوردها ملخصة بمقتضى ما أورده الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجذري[١] في تاريخه ليجمع بين أطراف هذه الحادثة وأسبابها بمصر والشام وهو أنه لما كان في يوم الاثنين ثامن شهر رجب عقد مجلس بين يدي نائب السلطنة بدمشق حضره القضاة والعلماء والشيخ تقي الدين المذكور وسئل عن عقيدته فأملى شيئًا منها ثم أحضر عقيدته الواسطية[٢] وقرئت في المجلس وحصل البحث في مواضيع منها وأخرت مواضيع إلى مجلس آخر ثم اجتمعوا في يوم الجمعة ثاني عشر الشهر وحصل البحث وسئل عن مواضيع خارجة عن العقيدة وندب للكلام معه الشيخ صفي الدين الهندي[٣] ثم عدل عنه إلى

---

(١) توفي سنة ٧٣٩ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٢٤، الدرر الكامنة ٣/ ١٠١، السلوك للمقريزي ٢/ ٢: ٤٧١، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٦، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٢.

(٢) العقيدة الواسطية: رسالة لابن تيمية.

(٣) صفي الدين الهندي: هو محمد بن عبد الرحيم بن محمد، صفي الدين الهندي الأرموي، الأشعري، سافر إلى الهند والروم، وانتقل إلى دمشق وسكن بها إلى أن مات، ولد سنة ٦٤٤ هـ، وتوفي سنة ٧١٥ هـ، من تصانيفه: «الرسالة السنية» في الأصول، «زبدة الكلام في علم الكلام»، «الفائق في أصول الدين»، «نهاية الوصول إلى علم الأصول». (انظر: =

الشيخ كمال الدين بن الزملكاني(١) فبحث معه من غير مسامحة فأشهد الشيخ تقي الدين على نفسه من حضر المجلس أنه شافعي المذهب يعتقد ما يعتقد الإمام الشافعي فحصل الرضى منه وعنه بهذا القول وانفصل المجلس ثم حصل بعد ذلك من بعض أصحاب الشيخ تقي الدين كلام وقالوا: ظهر الحق مع شيخنا فأحضر الشيخ كمال الدين القزويني(٢) نائب قاضي القضاة نجم الدين(٣) أحدهم إلى المدرسة العادلية وعزره وفعل قاضي القضاة الحنفي مثل ذلك باثنين من أصحابه فلما كان يوم الاثنين ثاني عشرين الشهر قرأ الشيخ جمال الدين المزي(٤) فصلا في الرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد من كتاب البخاري وكان ذلك بالجامع الأموي تحت النسر في المجلس العام المعقود لقراءة صحيح البخاري فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وقال: نحن قصدنا بهذا التكفير فبلغ ما قاله قاضي القضاة نجم الدين الشافعي فأحضره ورسم باعتقاله فبلغ ابن تيمية الخبر فقام حافيًا وتبعه أصحابه وأخرجه من الحبس فغضب القاضي(٥) وتوجه إلى نائب السلطنة واجتمع هو وتقي الدين فاشتط تقي الدين عليه وذكر نائبه جلال الدين وأنه آذى أصحابه فرسم نائب السلطان بإشهار النداء في البلد بالكف عن العقائد والخوض فيها، ومن تكلم في ذلك سفك دمه ونهب ماله. وأراد بذلك تسكين هذه الفتنة ثم عقد مجلس في ثاني يوم الثلاثاء سلخ رجب بالقصر الأبلق بحضور نائب السلطنة والقضاة والفقهاء وحصل البحث في أمر العقيدة وطال البحث فوقع من الشيخ صدر الدين كلام في معنى الحروف فأنكره الشيخ كمال الدين بن الزملكاني فأنكر صدر الدين القول، فقال كمال الدين لقاضي القضاة نجم الدين بن صصرى: ما سمعت ما قال؟ فتغافل عن إجابته لتنكسر الفتنة فقال ابن الزملكاني ما جرى على الشافعية قليل إذ صرت رئيسهم يريد بذلك ابن الوكيل فيما يزعم فظن قاضي القضاة أنه أراده بكلامه فأشهد عليه أنه عزل نفسه عن القضاء وقام من المجلس

= كشف الظنون ٦/١٤٣، البداية والنهاية ١٤/ ٧٤، شذرات الذهب ٦/ ٣٧).

(١) كمال الدين بن الزملكاني: تقدمت ترجمته.

(٢) كمال الدين القزويني: هو محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر القزويني. توفي سنة ٧٣٩ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ١٢٣، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٥).

(٣) قاضي القضاة نجم الدين: هو نجم الدين بن صصري أحمد بن محمد بن صصري، توفي سنة ٧٢٣ هـ، تقدمت ترجمته.

(٤) جمال الدين المزي: هو يوسف بن عبد الرحمٰن المزي الشافعي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج، توفي سنة ٧٤٢ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، والبداية والنهاية ١٤/ ١٩١).

(٥) أي نجم الدين بن صصري.

فرسم نائب السلطنة بعوده فأدركه الأمير ركن الدين بيبرس العلائي الحاجب وغيره من الأمراء وأعادوه إلى المجلس، وجرى كلام كثير ثم ولاه نائب السلطنة القضاء وحكم قاضي القضاة الحنفي بصحة ولايته ونفذها المالكي فلما وصل إلى داره انقطع عن الحكم وطالع نائب السلطنة في أمره فعاد الجواب السلطاني باستمراره في القضاة في ثامن عشرين شعبان.

ثم وصل الأمير حسام الدين لاجين العمري في خامس شهر رمضان بطلب قاضي القضاة نجم الدين وتقي الدين بن تيمية وتضمن المثال السلطاني بأن يطالع بما وقع من أمر تقي الدين المذكور في سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته وأن تكتب صورة العقيدتين الأولى والثانية فأراد نائب السلطنة أن يدافع عنه ويكتب في حقه فوصل مملوكه سيف الدين الطنقش من الديار المصرية وأخبر باشتداد الحال عليه وقيام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وذكر له كلام قاضي القضاة زين الدين فعند ذلك أمر بإرساله وإرسال قاضي القضاة نجم الدين فتوجها في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رمضان فتوجه القاضي نجم الدين في الخامسة من النهار وتوجه تقي الدين في التاسعة وصحبته جماعة من أصحابه منهم تقي الدين بن سُنْقُر وزين الدين بن زين الدين بن منجا وشمس الدين التدمري وفخر الدين وعلاء الدين أولاد شرف الدين الصايغ وابن بحبح وشرف الدين عبد الله أخو الشيخ وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم الخميس ثاني عشرين شهر رمضان وعقد مجلس بدار النيابة بقلعة الجبل وحضره الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من الأمراء والقضاة والعلماء وذلك بعد صلاة الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فادعى القاضي شمس الدين محمد بن عدلان[١] دعوى شرعية على تقي الدين في عقيدته عند قاضي القضاة زين الدين[٢] في المجلس وطالبه بالجواب فنهض تقي الدين قائمًا وقال: الحمد لله وأراد أن يذكر خطبة ووعظًا، ويذكر عقيدته في أثناء ذلك فقيل له أجب عما ادعى عليك به ودع هذا فلا حاجة لنا بما تقول فأراد أن يعيد القول في الخطبة فمنع وطولب بالجواب فقال: عند مَن الدعوى عليّ؟ فقيل عند قاضي القضاة زين الدين المالكي فقال: هو عدوي وعدو مذهبي فلم يرجع إلى قوله ولما لم يأت بجواب أمر قاضي القضاة زين الدين باعتقاله على رد الجواب فأقيم من المجلس واعتقل هو وأخواه شرف الدين عبد الله

(١) شمس الدين محمد بن عدلان: توفي سنة ٧٤٩ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٣، شذرات الذهب ٦/ ١٦٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢).

(٢) قاضي القضاة زين الدين: هو علي بن مخلوف بن ناهض النويري، تقدمت ترجمته.

وعبد الرحمٰن وحبسوا في برج فتردد إليه بعض الناس فاتصل ذلك بقاضي القضاة زين الدين فأمر بالتضييق عليه، فنقل إلى الجب في ليلة عيد الفطر وكتب مثال شريف سلطاني وسير إلى دمشق في أمر تقي الدين والحنابلة ونسخته.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الحمد لله الذي تنزه عن التشبيه والتنظير، وتعالى عن المثيل فقال عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] نحمده على أن ألهمنا العمل بالسنّة والكتاب، ورفع في أيامنا أسباب الشك والارتياب، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من يرجو بإخلاصه حسن العقبى والمصير وينزه خالقه عن التحييز في جهة لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: الآية ٤] ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي نهج سبيل النجاة لمن سلك طريق مرضاته، وأمر بالتفكر في آلاء الله، ونهى عن التفكر في ذاته صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين علا بهم منار الإيمان وارتفع وشيّد الله بهم من قواعد الدين الحنيف ما شرع، وأخمد بهم كلمة من حاد عن الحق ومال إلى البدع، وبعد: فإن العقيدة الشرعية وقواعد الإسلام المرعية وأركان الإيمان العلية ومذاهب الدين المرضية هي الأساس الذي يبنى عليه، والموئل الذي يرجع كل أحد إليه، والطريق الذي من سلكها فقد فاز فوزًا عظيمًا ومن زاغ عنها فقد استوجب عذابًا أليمًا فلهذا يجب أن تنفذ أحكامها، ويؤكد دوامها وتصان عقائد هذه الأمة عن الاختلاف وتزان قواعد الأمة بالائتلاف وتغمد بواتر البدع ويفرق من فرقها ما اجتمع، وكان التقى ابن تيمية في هذه المدة قد بسط لسان قلمه ومد عنان كلمه وتحدث في مسائل الذات والصفات ونص في كلامه على أمور منكرات وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون وفاه بما تجنبه السلف الصالحون وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام واتفق على خلافه إجماع العلماء والحكام وشهر من فتاويه في البلاد ما استخف به عقول العوام وخالف في ذلك علماء عصره وفقهاء شامه ومصره وبعث رسائله إلى كل مكان وسمى فتاويه أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

ولما اتصل بنا ذلك وما سلكه مريدوه من هذه المسائل وأظهروه من هذه الأحوال وأشاعوه وعلمنا أنه استخف قومه فأطاعوه حتى اتصل بنا أنهم صرحوا في حق الله بالحرف والصوت والتجسيم قمنا في الله تعالى مشفقين من هذا النبأ العظيم وأنكرنا هذه البدعة وأنفنا أن يشيع عمن تضمه ممالكنا هذه السمعة وكرهنا ما فاه به المبطلون وتلونا قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١] فإنه جلّ

جلاله تنزه عن العديل والنظير ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٠٣] وتقدمت مراسمنا باستدعاء ابن تيمية المذكور إلى بابنا عندما سادت فتاويه شامًا ومصر وصرّح فيها بألفاظ وضعها ذوقهم إلا وتلا ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٤] ولما وصل إلينا أمرنا بجمع أولى الحل والعقد وذوي التحقيق والنقد وحضر قضاة الإسلام وحكام الأنام وعلماء الدين وفقهاء المسلمين وعقد له مجلس شرع في ملأ من الأئمة وجمع فثبت عند ذلك عليه جميع ما نسبه إليه بمقتضى خط يده الدال على منكر معتقده وانفصل ذلك الجمع وهم لعقيدته منكرون، وآخذوه بما شهد به قلمه عليه تالين ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ١٩] وبلغنا أنه كان استتيب فيما تقدم وأخره الشرع الشريف لما تعرض لذلك وأقدم ثم عاد بعد منعه ولم تدخل تلك النواهي في سمعه ولما ثبت ذلك في مجلس الحكم العزيز المالكي حكم الشرع الشريف بأن يسجن هذا المذكور ويمنع من التصرف والظهور ومرسومنا هذا يأمر بأن لا يسلك أحد ما سلكه المذكور من هذه المسالك، وينهى عن التشبه به في اعتقاد مثل هذا أو يغدو له في هذا القول متبعًا ولهذه الألفاظ مستمعًا أو يسري في التجسيم مسراه أو أن يفوه بجهة العلو مخصصًا أحد كما فاه أو يتحدث إنسان في صوت أو حرف أو يوسع القول في ذات أو وصف أو ينطق بتجسيم أو يحيد عن طريق الحق المستقيم أو يخرج عن آراء الأئمة أو ينفرد عن علماء الأمة أو يحيز الله في جهة أو يتعرض إلى حيث أو كيف فليس لمن يعتقد هذا المجموع عندنا إلا السيف فليقف كل أحد عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد، وليلزم كل من الحنابلة بالرجوع عما أنكره الأئمة من هذه العقيدة أو الخروج من هذه المشتبهات الشديدة ولزوم ما أمر الله تعالى به من التمسك بمذهب أهل الإيمان الحميدة فإنه من خرج عن أمر الله تعالى فقد ضلّ سواء السبيل وليس له غير السجن الطويل من مستقر ولا مقيل.

رسمنا بأن ينادي في دمشق المحروسة والبلاد الشامية وتلك الجهات بالنهي الشديد والتخويف والتهديد لمن يتبع ابن تيمية في الأمر الذي أوضحناه ومن تبعه فيه تركناه في مثل مكانه وأحللناه ووضعناه من عيون الأمم كما وضعناه ومن أصرّ على الدفاع وأبى إلا الامتناع أمرنا بعزلهم من مدارسهم ومناصبهم وإسقاطهم من مراتبهم وأن لا يكون لهم في بلادنا حكم ولا قضاء ولا إمامة ولا شهادة ولا ولاية ولا رتبة ولا إقامة فإننا أزلنا دعوة هذا المبتدع من البلاد وأبطلنا عقيدته التي أضل بها كثيرًا من العباد أو كاد ولتكتب المحاضر الشرعية على الحنابلة بالرجوع عن ذلك وتسير إلينا

بعد إثباتها على قضاة الممالك وقد أعذرنا وحذرنا، وأنصفنا حيث أنذرنا وليقرأ مرسومنا هذا على المنابر ليكون أبلغ واعظ وزاجر وأحمد ناهٍ وآمر والاعتماد على الخط الشريف أعلاه وكتب في ثامن عشرين شهر رمضان سنة خمس وسبعمائة.

ولما وصل هذا المثال إلى دمشق قرىء على المنابر كما رسم فيه وأشهر وأعلن وأما قاضي القضاة نجم الدين بن صصري فإنه عومل بالإكرام وخلع عليه ونزل بدار الحديث الكاملية بقاعة التدريس بها وأذن له السلطان أن يحكم بالقاهرة فأثبت مكاتيب كثيرة وجلس كتاب الحكم بين يديه، وخرجت إسجالاته وشهدت عليه في بعضها، ثم عاد إلى دمشق على خيل البريد، وكان وصوله إليها في يوم الجمعة سادس ذي القعدة وفي أثناء هذه الحادثة في غضون هذه المدة كان للحنابلة في القاهرة مع قاضي القضاة زين الدين المالكي وقائع أهين فيها بعض أعيانهم واعتقل وعزر بعضهم.

وكان ممن تعصب لتقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة بالشام قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي(١) وأثبت محضرًا له مما هو عليه من الخير وكتب في أعلاه بخطه ثلاثة عشر سطرًا يقول في جملتها إنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأى الناس مثله وأراني قاضي القضاة زين الدين المالكي هذا المحضر وغضب منه وسعى في عزل قاضي القضاة الحنفية بدمشق شمس الدين بن الحريري فعزل وفوّض قضاء القضاة الحنفية بدمشق بعده لقاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعي الحنفي(٢) مدرس المدرسة الشبلية فوصل تقليده إلى دمشق في ثاني ذي القعدة.

وأما تقي الدين فإنه استمر في الجب بقلعه الجبل إلى أن وصل الأمير حسام الدين مهنا(٣) إلى الأبواب السلطانية في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة فسأل السلطان في أمره وشفع فيه فأمر بإخراجه فأخرجه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر وأحضر إلى دار النيابة بقلعة الجبل وحصل بحث مع بعض الفقهاء ثم اجتمع جماعة من أعيان العلماء ولم تحضره القضاة وذلك لمرض قاضي القضاة زين الدين

---

(١) هو محمد بن عثمان بن أبي الحسن، شمس الدين، المعروف بابن الحريري، تقدمت ترجمته.

(٢) توفي سنة ٧١٢ هـ (انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ١/٥٢٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣، الدرر الكامنة ٣/٢٤٦، الجواهر المضيئة ٢/٢، البداية والنهاية ١٤/ ١٦٨).

(٣) حسام الدين مهنا: هو مهنا بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل، توفي سنة ٧٣٥ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١١٢، السلوك للمقريزي ٢/٢: ٣٨٩، الدرر الكامنة ٥/١٣٨، البداية والنهاية ١٤/ ١٧٢).

المالكي ولم يحضر غيره من القضاة، وحصل البحث وكتب خطه ووقع الإشهاد عليه وكتب بصورة المجلس مكتوب مضمونه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ شهد من يضع خطه آخره أنه لما عقد مجلس لتقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الحنبلي بحضرة المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي السيفي ملك الأمراء سلار الملكي الناصري نائب السلطة المعظمة أسبغ الله ظله، وحضر فيه جماعة من السادة العلماء الفضلاء أهل الفتيا بالديار المصرية بسبب ما نقل عنه ووجد بخطه الذي عرف به قبل ذلك من الأمور المتعلقة باعتقاده أن الله تعالى يتكلم بصوت وأن الاستواء على حقيقته وغير ذلك مما هو مخالف لأهل الحق، انتهى المجلس بعد أن جرت فيه مباحث معه ليرجع عن اعتقاده في ذلك إلى أن قال بحضرة شهود: أنا أشعري ورفع كتاب الأشعرية على رأسه وأشهد عليه بما كتب به خطًا وصورته: الحمد لله الذي أعتقده أن القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت، كتبه أحمد بن تيمية والذي أعتقده من قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: الآية ٥] أنه على ما قاله الجماعة أنه ليس على حقيقته وظاهره ولا أعلم كنه المراد منه بل لا يعلم ذلك إلا الله تعالى. كتبه أحمد بن تيمية، والقول في النزول كالقول في الاستواء أقول فيه ما أقول فيه ولا أعلم كنه المراد به بل لا يعلم ذلك إلا الله تعالى وليس على حقيقته وظاهره كتبه أحمد بن تيمية وذلك في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة.

هذا صورة ما كتب به خطه وأشهد عليه أيضًا أنه تاب إلى الله تعالى مما ينافي هذا الاعتقاد في المسائل الأربع المذكورة بخطه وتلفظ بالشهادتين المعظمتين وأشهد عليه أيضًا بالطواعية والاختيار في ذلك ووقع ذلك كله بقلعة الجبل المحروسة من الديار المصرية حرسها الله تعالى بتاريخ يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة وشهد عليه في هذا المحضر جماعة من الأعيان المقنتين والعدول، وأفرج عنه واستقر بالقاهرة بدار شقير ثم عقد له مجلس ثالث بالمدرسة الصالحية بالقاهرة في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر وكتب بخطه نحو ما تقدم ووقع الإشهاد فيه عليه أيضًا وسكن الحال مدة ثم اجتمع جماعة من المشايخ والصوفية مع الشيخ تاج الدين بن عطاء الله(١) في نحو خمسمائة نفر وتبعهم جمع كثير

---

(١) ابن عطاء الله: هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن عطاء الله الإسكندراني، تاج الدين الشاذلي، الصوفي، توفي بمصر سنة ٧٠٩ هـ، من تصانيفه: «أصول مقدمات الوصول»، =

من العوام وطلعوا إلى قلعة الجبل في العشر الأوسط من شوال من السنة واجتمع الشيخ المذكور وأعيان المشايخ بنائب السلطان وقالوا إن تقي الدين يتكلم في حق مشايخ الطريقة وإنه يقول: لا يستغاث بالنبيّ ﷺ فرد الأمر إلى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي واقتضى الحال أن رسم بتسفيره إلى الشام على خيل البريد فتوجه وكان قاضي القضاة زين الدين المالكي في ذلك الوقت في حال شديدة من المرض وقد أشرف على الموت، فبلغه ذلك عقيب إفاقة من غشي كان قد حصل له فأرسل إلى الأمير سيف الدين سلار وسأله في رده فأمر برده إلى القاهرة فتوجه البريد وأعاده من مدينة بلبيس فوصل وقاضي القضاة زين الدين مغلوب بالمرض فأرسل إلى نائبه القاضي نور الدين الزواوي فحضر به إلى مجلس قاضي القضاة بدر الدين وحررت الدعوى عليه في أمر اعتقاده وما وقع منه فشهد عليه الشيخ شرف الدين بن الصابوني، وقيل إن الشيخ علاء الدين القونوي يشهد عليه فاعتقل بسجن الحاكم بحارة الديلم وذلك في ثامن عشر شوال سنة سبع وسبعمائة واستمر به إلى سلخ صفر سنة تسع وسبعمائة فأنهى عنه أن جماعة يحضرون إليه بالسجن وأنه يعظهم ويتكلم في أثناء وعظه بما يشبه ما تقدم من كلامه، فأمر بنقله إلى ثغر الإسكندرية واعتقاله هناك فجهّز إلى الثغر في هذا التاريخ وحبس ببرج شرقي واستمر به إلى أن عادت الدولة الناصرية ثالثًا فتحدث مع السلطان في يوم السبت ثامن عشر شوال سنة تسع وسبعمائة فأكرمه السلطان وجمع القضاة وأصلح بينه وبين قاضي القضاة زين الدين المالكي فأشرط عليه قاضي القضاة أن يتوب عما تقدم الكلام فيه ويتوب عنه ولا يعود إليه فقال السلطان: قد تاب وانفصل المجلس على خير وسكن الشيخ تقي الدين بالقاهرة ببعض القاعات وتردد الناس إليه واستمر إلى أن توجه السلطان إلى الشام في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فتوجه بنية الغزاة، وأقام بدمشق إلى أن سطرنا هذه الأحرف في سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وكان له في غضون هذه المدة بدمشق وقائع نذكرها في مواضعها إن شاء الله تعالى ولنرجع إلى تتمة سياقة الحوادث في سنة خمس وسبعمائة.

= «تاج العروس الحاوي إلى تهذيب النفوس»، «التنوير في إسقاط التدبير»، «الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة»، «الطريق الجادة في نيل السعادة»، «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن»، «مختصر تهذيب المدونة للبرادعي» في الفقه. «المرقى إلى القدير الأبقى»، «مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/١٠٣، معجم المؤلفين ٢/١٢١، هدية العارفين ٢/١٠٣، الكواكب الدرية ٣/٥، الطبقات الكبرى للشعراني ٢/١٩).

وفيها في العشر الأوسط من ذي الحجة، وفرّ الأمير بدر الدين بكتاش البدري الصالحي النجمي أمير سلاح من الخدمة، وقطع خبره وجعل له مرتب في كل شهر وأقرّ مماليكه وأجناده على إقطاعاتهم، الشاهد بها مدرج عرضه إلى آخر وقت وجعلوا في جملة رجال الحلقة المنصورة، وأضيفوا إلى مقدمين من أعيانهم وارتجع خاصة إلى الخاص السلطاني، ورسم بمسامحته بما يلزمه من التفاوت فيما بين السنة الشمسية والقمرية وكان جملة كثيرة لو طولب بها استقرت أمواله وموجوده ولم يفِ بها، وكان ولده الأمير ناصر الدين محمد قد علم عجز والده عن الخدمة وضعف نظره وتحقق من حال الأمراء أنهم عزموا على قطع خُبْزِه فسعى هو معهم في ذلك وذكر عجز والده فأجيب إلى ملتمسه وتألم الأمير بدر الدين المذكور لذلك ألمًا شديدًا وسبّ ولده الأمير ناصر الدين والذي حضر بالرسالة أيضًا، وهو الأمير بدر الدين الوزيري الحاجب وأرسل إلى الأمراء يقول: إنني لم أتأخر عن الخدمة ولا انقطعت عن مُهِمٍّ من مهمات السلطان وما زلت أتوجه إلى الغزوات والشباب من الأمراء موفرون من ذلك فأمسكوا عن جوابه ولم تطل مدة حياته بعد قطع خُبْزِه فإنه مات في حادي عشرين ربيع الآخر سنة ست وسبعمائة ودفن بتربته خارج باب النصر رحمه الله تعالى.

وفي سنة خمس وسبعمائة أيضًا توفي الملك الأوحد تقي الدين شادي ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ابن شادي بن مروان(١) في يوم الأربعاء ثاني صفر بجبال الجرديين وحمل إلى قاسيون فدفن بتربة والده، وكان من جملة أمراء الطبلخاناه بدمشق رحمه الله تعالى. وتوفي شيخنا الإمام الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن الحسن بن العفيف بن شرف بن الخضر الدمياطي(٢) وكانت وفاته بالقاهرة المحروسة في يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة سنة خمس وسبعمائة من غير مرض وذلك أنه حضر الميعاد بالقبة المنصورية على عادته ثم قام بعد الميعاد ومشى إلى منزله بالمدرسة الظاهرية فمات من ساعته رحمه الله تعالى ودفن من الغد بمقابر باب النصر وكانت جنازته مشهودة وهو آخر من بقي من الحفّاظ ويقال: إنه ما

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٩، الدرر الكامنة ٢/ ٢٨١، البداية والنهاية ١٤/ ٣٩.
(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٢، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٣٢، فوات الوفيات ٢/ ٤٠٩، البداية والنهاية ١٤/ ٤٠.

رأى مثل نفسه في فنه وشهرته ومشايخه، ورحلته أشهر من أن يأتي عليها وشرح ذلك يطول وفيما أشرت إليه كفاية.

واستهلت سنة ست وسبعمائة

في هذه السنة في شهر المحرم عزل الأمير علم الدين سنجر الجاولي[١] أستاذ الدار من وظيفته وقطع خُبْزِه وسفره إلى دمشق بغير إقطاع وذلك لتغير حصل من الأمير ركن الدين[٢] عليه ثم أنعم عليه بعد وصوله إلى دمشق بإمرة طبلخاناه.

وفيها عزل الصاحب سعد الدين عطايا[٣] من الوزارة في الشهر المذكور وصودر على مائة ألف درهم خرجت في ديوان البيوت السلطانية في مدة نظره، فحمل من ذلك إلى بيت المال ثمانين ألف درهم وسُومح بما بقي وأفرج عنه ولزم داره ولما عزل فوضت الوزارة لتاج الدين بن سعيد الدولة الناظر وألبس التشريف السلطاني على كره منه وجلس في المجلس إلى آخر النهار وقام وتوجه إلى بيته بعد العصر ومنع من لهم عادة بالركوب في خدمة الوزير من الركوب معه ولما وصل إلى داره حضر قضاة القضاة للسلام عليه وتهنئته بالوزارة فلم يأذن لهم في الدخول، وخرج غلامه إليهم وإلى من حضر ببابه فقال: من كان له حاجة فليطلع إلى القلعة. فانصرفوا من غير اجتماع به، وهرب هو في تلك الليلة واختفى وأعاد خلعة الوزارة واستمر في اختفائه إلى أن رسم بإعفائه واستقراره على عادته وكان الحامل له على ذلك والذي أوجب له كراهة الوزارة أنه توهم من الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة كراهة ذلك فخاف عاقبته وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار شديد الاعتناء به وفوضت الوزارة بعد ذلك للصاحب ضياء الدين أبي بكر بن عبد الله النشائي، وكان أحد النظار فلم يكن له الوزارة إلا مجرد التسمية والمعلوم وما عدا ذلك من الأمر والنهي والاستخدام والعزل فهو لتاج الدين بن سعيد الدولة لا يخرج عن إشارته ورضي بذلك.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/١٠٩، الدرر الكامنة ٢/٢٢٦.

(٢) هو ركن الدين بيبرس الجاشنكير البرجي، تولى السلطنة سنة ٧٠٨ هـ، ولقب بالملك المظفر، وقتل سنة ٧٠٩ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٥٠٢ ـ ٥٠٧).

(٣) سعد الدين عطايا: هو محمد بن محمد بن عطاء الله الشهير بابن عطايا (انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ٢/ ٢٢٣).

وفي هذه السنة عادت رسل السلطان الملك الناصر من عند الملك طقطاي[١] ملك التتار بالبلاد الشمالية: وهم الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي، وسيف الدين بلبان الحكيمي وفخر الدين أمير آخور الشمسي وصحبتهم رسول من الملك طقطاي واسمه نامون فبولغ في إكرامه وأعيد بالجواب وسفر مع الأمير بدر الدين بكتمش الخزنداري وفخر الدين محمود أمير آخور الشمسي وفيها في شهر ربيع الأول وصلت رسل صاحب سيس بالقطيعة المقررة عليه، وأطلق من أسرى المسلمين مائتين وسبعين أسيرًا وأوصلهم إلى مدينة حلب.

وفي هذه السنة كتب تقليد شريف سلطاني لقاضي القضاة سمس الدين الحنفي الأذرعي[٢] بدمشق وتوجه به البريد فوصل إلى دمشق في يوم العشرين من شهر ربيع الآخر فظن البريدي أن التقليد للقاضي شمس الدين محمد بن الحريري المعزول فتوجه به إليه إلى المدرسة الظاهرية، وشاع ذلك وحضر الناس لتهنئته بالعود واتصل ذلك بالقاضي شمس الدين الأذرعي وهو بمجلس حكمه ففارقه جميع من كان في المجلس من الشهود وغيرهم والمتحاكمون والوكلاء والرسل ولم يبق عنده غير نقيبه، وتوجهوا كلهم إلى القاضي شمس الدين بن الحريري فلما اجتمع الناس عنده أمر الشيخ علم الدين البرزالي بقراءة التقليد على من حضر من اناس فقرأه رافعًا به صوته فلما انتهى إلى ذكر الاسم والنسب سكت فقال له النقيب اذكر ألقاب سيدنا قاضي القضاة ونعوته وقال له القاضي شمس الدين: اقرأ فقال: يا مولانا ما هو لك، هو للأذرعي وطواه وتفرّق ذلك الجمع وأخذه البريدي وتوجه به إلى القاضي شمس الدين الأذرعي وهو بمجلس الحكم لم يقم منه وعاد إلى مجلسه من كان قد فارقه وغيرهم وحصل له جبر بعد كسر وخجل القاضي شمس الدين بن الحريري من الناس للمبادرة بقراءة التقليد قبل تحقيق الحال فيه.

ذكر حادثة غريبة

وفي هذه السنة وردت مطالعة نائب السلطان بحماة تتضمن أن أراضي بارين من بلد حماه جبلين بينهما واد يجري الماء فيه وانتقل نصف الجبل الواحد من موضعه إلى الجبل الآخر والتصق ولم يسقط في الوادي الذي بينهما شيء من حجارته وأن النائب بحماة كشفه بالقاضي ببارين وعمل به محضرًا وطول النصف الذي انتقل من

(١) الملك طقطاي: توفي سنة ٧١٣ هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٦).
(٢) تقدمت ترجمته.

الجبل مائة ذراع وعشرة أذرع وعرضه خمسة وخمسون ذراعًا ومسافة الوادي الذي بين الجبلين مائة ذراع وقرئت المطالعة بمحضر نسخته ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لما اشتهر في البلاد وانتشر في الحاضر والباد أن يعمل حصن الأكراد جبلًا بوادي بارين قد أفضى بعضه إلى التحويل ولم يكن ذلك في القدرة الإلـٰهية بمستحيل واتصل ذلك بالمسامع الشريفة المولوية السيفية كافل الممالك الشريفة الحموية شنفها الله تعالى بما تحب أن تسمع وطوقها بلطائف الخير أجمع فأحب أعلى الله له شأنًا وملأ قلبه نورًا وإيمانًا أن يعلم حقيقة ذلك إيقانًا وأن يكشف كنهه وضوحًا وبيانًا انتدب لتحقيق هذه الصورة الجناب العالي الحسامي نقيب العساكر المنصورة وعلى يده المرسوم الكريم إلى المجلس العالي الشهابي متولي بارين المعمورة أن يخرجا والحاكم الذي سيضع خطه أعلاه ومعهم من الشهود من سيرقم شهادته أدناه وأن ينتهوا إلى الوادي المشار إليه ويشاهدوا هذا الجبل ويقفوا عليه وأن يحققوا في ذلك قصة الحال أحق ما قيل عنه أو محال؟ فبادروا إلى امتثال ما رسم لهم به مسرعين وخرجوا نحو الجبل مهرعين، وحضروا جميعًا بقرية بقعبرا وسألوا أهلها ما حدث على الجبل وطرأ فإذا برجلين قد دخلا في واد بين جبلين وقالا: هذا الجبل الذي نزل به ما نزل وفي قعر الوادي الماء يترقرق ويسيل ويتدفق ووقفوا عند عرقوب في الجبل القبلي ناتىء مستعل صفته بين الانضمام والانسطاح وقد تحلق على صفحة الجبل المقابل له وطاح ولم يقع منه في قعر المسيل إلا النزر القليل مع أن أصله تراب أن هذا الشيء عجاب وبقي ما انسلخ منه متقعرًا في الجبل كهيئة محراب وسفل الوادي على حاله لم يتغير والماء جار على العادة فيه يتكسر ويتحدر لم يحصل له سدة ولا احتقان ولا انتقل جريانه من مكان إلى مكان على أن ما انقلع منه طولًا عشرة أذرع ومائة جملة وتفصيلًا، وعرضًا نصف ذلك قليلًا، وعفا مثل نصف العرض تقريبًا ومدي الحذف كالطول أو يكون منه قريبًا.

وذكر من حضر من أهل المكان أن وقوع ذلك في أواخر رجل وأوائل شعبان ومن وقف على أثر هذا المكان ورآه وعلم من هذا الكتاب فحواه وضع به خطه أدناه وكان ذلك في نهار الخميس ثامن عشرين شعبان سنة ست وسبعمائة وبذيل المحضر خط شهود وما علاه خط الحاكم ببارين ومثاله: الحمد لله حمدًا يرضاه وقفت على الوادي المذكور وشاهدت العرقوب الذي انقلع ونقل ترابه وفيه نبات وحجارة على صفحة الجبل الذي قابله والتأم في ذرعه وعدم وقع التراب في مسيل الماء كما شرح فيه، كتبه أبو بكر بن نصر الهاشمي المعاد الشافعي العباسي الحاكم ببارين ـ عفا الله

عنه وفيها في يوم الجمعة الرابع والعشرين من شوال خطب بالجامع الجديد الغربي بسفح جبل قاسيون الذي أنشأه الأمير جمال الدين آقش الأفرم نائب السلطنة الشريفة بالشام مقابل الرباط الناصري وخطب فيه القاضي شمس الدين بن المعز الحنفي.

وفي هذه السنة ولي قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد الحنفي البصروي(١) القضاء بدمشق عوضًا عن القاضي شمس الدين الأذرعي الحنفي، وكان وصوله إلى دمشق في تاسع عشرين ذي القعدة.

وفيها في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي الحجة أعيد الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي إلى الحجبة بالشام وولي وظيفة الشد بدمشق الأمير جمال الدين آقصي الرستمي نقل من ولاية الولاة بالضفة القبلية إلى هذه الوظيفة ببذل وهو ثمانمائة ألف درهم في أربع سنين واشترط أنه لا يحدث حادثًا ولا يجدد رسمًا وباشر الوظيفة في يوم الخميس العشرين من الشهر وحضر الأمير سيف الدين بكتمر معه إلى الديوان حتى رتبه في الوظيفة وتوجه الأمير عز الدين حسين بن صبرة إلى الضفة القبلية وإلى الولاة وكان خروجه لذلك في ثامن المحرم سنة سبع وسبعمائة.

وفي سنة ست وسبعمائة أيضًا في تاسع جمادى الأولى ورد إلى دمشق فقير أعجمي اسمه براق في جمع كثير من الفقراء، وشعارهم أنهم يحلقون لحاهم ويبقون شواربهم ويلبسون على رؤوسهم كلاوت من اللباد الأبيض يتعممون فوقها وفوق الكلاوت قرون ومعهم أجراس فأنزلهم نائب السلطنة بالمنيبع ورتب لهم راتبًا كثيرًا ثم توجه براق ومن معه إلى القدس وقصد دخول الديار المصرية فلم يؤذن له في ذلك فرجع، ومن سنة هؤلاء أنه من تأخر منهم عن صلاة في وقتها ضرب أربعين سوطًا وفيها توفي الطواشي عز الدين دينار الغزنوي الخزندار الظاهري الدوادار الناصري، كان دوادار السلطان الملك الناصر، وناظر الأوقاف الظاهرية، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول، وكان دَيِّنًا خَيِّرًا، كثير المطالعة، لين الجانب، يحب أهْل الخير ويكرمهم رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الأمير عز الدين أيْبَك الطويل الخازندار المنصوري بدمشق في حادي عشر شهر ربيع الأول، ودفن بقاسيون وكان مشكور السيرة والدِّيانة رحمه الله تعالى.

---

(١) توفي سنة ٧٢٧ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، شذرات الذهب ٦/ ٧٨).

وفي في ذي الحجة توفي الأمير سيف الدين بلبان الجوكان[١] دار المنصوري نائب السلطنة بحمص رحمه الله تعالى وهو من المماليك السلطانية في زمن إِمْرَةِ السُّلطان الملك المنصور، وكان رجلًا جيِّدًا أمينًا ثقة ما رأيت في أبناء جنسه ممن اختبرته في الأمانة والعفة مثله، رافقْتُه مُدَّة في ديوان الخاص بدمشق واطّلعت منه على أمانة غزيرة، ونزاهة وافرة ومعرفة تامة وكان يوم ذاك ينوب عن السلطنة بقلعة دمشق وفوّض إليه السلطان شد ديوان أملاكه بالشام، وكُتِبت يومئذٍ مباشرها، وذلك في شوال سنة اثنتين وسبعمائة إلى أن نقل إلى نيابة السلطنة بحمص فاطّلَعْت من أمانته ونزاهته ومعرفته على ما أشرت إليه، وكان قد اشتهر عنه في مباشرة شدِّ الدواوين عدم المعرفة والغفلة والبلادة، فلما رافقتُه ظَهَرَ لِي منه معرفةٌ تامة، وخبرة واطلاع ينافي ما كان قد اشتهر عنه، فسايرتهُ يومًا وانفردتُ بمُسَايرتِه، وجرى بنا الحديث فسألته عن ذلك، وعَرَّفته ما ظهر لي منه وما كان قد اشتهر عنه، فتبَسّم وقال: والله ما لَمَحَ أحدٌ من أمري ما لمحته، وما سألني أحد عنه قبلك، وأنا أُخْبِرُكَ عن ذلك، وهو أنني والله ما ولّيتُ للسلطان وِلايةً قطُّ وأنا راضٍ بها، وشرع يذكر لي ولايته وتنقلاته من الجندية وما بعدها، ثم قال: ولما نقلت من نيابة قلعة صفد إلى دمشق ووليت شاد الدواوين وأستاد دارية كَرِهْتُ ذلك أشَدّ كرَاهَةً واستعفيْتُ منه فلم أعفُ، والله كان إذا أُحْضِرت إليّ النفقة المقررة لي على بَيْتِ المال عن وظيفة الشد. وهي في كل يوم خمسة وسبعون درهمًا ـ ووضِعَتْ بين يدي يُخَيَّل لي أنها عَقَارِبُ تَلْدَغُنِي ولقد والله كنت أعرض على نفسي أنواع البلاء والعاهات، وولاية الشد فيسهل علي أن أبتلي ببعض العاهات ولا أكون مُشدًا، إلا العمى فإني كنت أسْتَصْعِبه وأختار الشد عليه، وأما لو خيرت أن يبطل إحدى يدي أو رجليّ أو عيْنَيّ تزول إحداهما وأبصر بالأخرى وأعفى من الشد لاخترتُ ذلك، ورَضِيتُه على الشد فقصدت إظهار عدم المعرفة والتغافل عن المهمات والمصالح حتى شاع ذلك عني واتصل بأبواب السلطنة ورجوت بذلك الخلاص من وظيفة الشد، فلم يُجْدِ ذلك لي نفعًا ولا عُزِلْت، ففكرت بعض الليالي في أمر أفعله يكون سببَ خلاصي، فألهمني الله تعالى أنه لا يخلصني من الشد إلا أن أردّهم عن المظالم، وألّا أوافق على فعلها، واتّفَقَ في غضون ذلك أنّ القاضي شرف الدين بن مزهر[٢] ناظر الدواوين حضر إلَيّ وقد عيّن أسماء جَماعة من الولاة

---

(١) الجوكان: هي أيضًا: الجوكندار، وقد تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(٢) شرف الدين بن مزهر: هو يعقوب بن فخر الدين مظفر بن أحمد بن مزهر الحلبي، توفي سنة ٧١٤ هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ١/٢:١٤١، والدرر الكامنة ٥/٢٠٩، وفيه وفاته=

والمباشرين بالأعمال البرانية أن يستخرج منهم مبلغ ثمانين ألف دِرْهَم لبيت المال، فلم أوافقه على ذلك، ورددتهُ عنه، وقبحت عليه فعله، ففارقني واجْتَمَع بنَائب السلطنة الأمير جمال الدين، وشكا إليه ذلك، وكتب تذكرة، وعلم نائب السلطنة عليها وسلمها إليّ في المجلس وقال لي استخرج مبلغها من هؤلاء. فقلت والله لا أفعل هذا أبدًا ولا أوافقُ عليه، وإنما أنا أطلب هؤلاء الذين عينوا في هذه التذكرة، ويحاققهم هذا الناظر وجماعة المستوفيين، فمن ظهرت خيانته اسْتَعدْتُ منه ما التمسه، وأدّبْته أدبًا شافيًا، ومن ظهرت أمانته خَلَعْتُ عليه وأحسنت إليه وأعدته إلى جهته، أو نقلته إلى أجود منها، وأما خلاف هذا فلا أفعل. فطالع شرف الدين بن مزهر الأبواب السلطانية بذلك، فوصلت تذكرة سلطانية من الديار المصرية باستخراج المال المذكور عن ممّن عُيِّن، ووصل إلى قرينها كتاب السلطان باعتماد ما تضمنه، واستخراج المال وحمله، فامتنعت من ذلك وصممت على أن لا أتحدث فيه أبدًا ولا أوافق عليه إلا بعد المحاققة. فلما عَلِموا مني معارضتهم ودفعهم عما يقصدونه من المظالم صُرِفْتُ مِنَ الشَّدّ، وأفادني هذا الرأي. فلما وُلِّيتُ ديوانَ الخاص هذا. وهو أملاكٌ ومواريث شَرْع ليس فيه مظلمةٌ ولا مكس انْبعثْتُ لمباشرته، وطابت نفسي بالحديث فيه، وأظهرت ما أعرفه فهذا هو السبب. واستكْتَمَنِي رحِمهُ الله تعالى ذلك، فكتمته مُدَّة حياته، ثم ذكرته بعد وفاته. وكان رحمه الله حسن الرِّفْقَة لا ينفرد برأي، ولا يستقل بأمر قبل أن يعرضه على رفقته، ولقد كانت تأتيه كتبُ السلطان له فيما يتعلقُ بديوان الخاص فلا يفتحها حتى أحضر ويخرجها إليّ مختومةً فأقرأها عليه ـ وكان يحسن القراءة ـ ثم اتَّفِق معه على الجواب عنها وأكتبه عنه ويكتب عليه، وكان يخصني بذلك دون بقية الرفقة ـ هذا إذا كنت بدمشق ـ وأما إن توجّهْتُ لكشف جهة أو قسمتها فإنه يكتب الجواب إلى من يراه ولما مات ولي بَعدَ وفاته نيابةَ السلطنة بحمص الأمير سيفُ الدين بكتمر الساقي المنصوري وتوجه إليه في المحرم سنة سبع وسبعمائة واستهلت سنة سبع وسبعمائة.

ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الناصر والأمراء

في هذه السنة في أول المحرم ظهرت الوحشةُ بين السلطان والأمير سيف الدين سَلّار، والأمير رُكْن الدين بيبرس، وكان السلطان قد امتنع من العلامة أيامًا، وظنّ الناس أن ذلك لمرض اعتراه ثم عَبَرَا له في ثالث الشهر فتنكر لهما وسبهما،

= سنة ٧٢٩ هـ، والبداية والنهاية ١٤/١٤٦).

فاستعطفاه وألَانَا لَهُ وقالا: نحن مماليك السلطان ومماليك والده السلطان الشهيد وبناة دولته إلى غير ذلك مما استعطفاه، فخلع عليهما وعلى الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجوكَنْدَار أمير جَنْدَار. وخرجا من عنده فلما صار بظاهر باب القلعة قويَتْ نفوسهما، وشرعا في إظهار ما عندهما، وتركا باب القلعة في تلك الليلة مفتوح الأقفال، ورسما بأن تركب جماعة من العسكر تحت القلعة، فركب الأمير شمس الدين سنقُر الأعْسَر في جماعة من مماليكه بعد العشاء الآخرة مظهرين السلاح وشقّ المدينة وخرج من باب زوِيلة إلى تحت القلعة، وكان قبل ذلك قد انقطع في داره، وادَّعى المرض، فلما كانت هذه الفتنة كان أوّل مَن ركب وكان ممن ركب أيضًا أخوه الأمير سيف الدين سلار فخرج لهم بعض المماليك السلطانية الأوشاقية[١] من الإسطبل، فراشقهم بالسهام ورمى الأمير سيف الدين سموك أخو سلار بسهم فوصل إلى الشباك الذي يجلس فيه السلطان، فشق ذلك على السلطان وكَبُرَ لَدَيْه، وبات الأمراء الأكابر في تلك الليلة على مساطب الدّرَكَاه بباب القلعة متلازمين، ولما فُتِحَ باب القلعة وقف أمامه مماليك الأمراء الأكابر وهم مُكَيْزون[٢] سهامهم في قسيِّهم، وظنوا أن المماليك السلطانية يخرجون عليهم إذا فتح الباب، فلم يقع ذلك فصرف الأمراء أكْثَر مماليكهم، وجلس الأمراء بالدّرَكَاه بباب القلعة وترددت الرسائل بينهم وبين السلطان على لسان الأمير جمال الدين أقُش الموصلي والأمير سيف الدين كَرَايْ، والأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري[٣]، وسألوا رضا السلطان والتمسوا منه تسليم بعض الخاصكية[٤] الذين نسبوهم إلى تغيير خاطر السلطان، فما وسع السلطان إلا إخماد هذه الفتنة الثائرة فسيَّرَهم إليهم بعد مراجعات وأيمان أنهم لا يَنَالُهم مِنَ الأمر أذى وهم سيف الدين بَيْبُغَا التركماني، وكان من أخص الناس بالسلطان وأقربهم عنده

---

(١) الأوشاقية: واحدها «أوشاقي» أو «أوجاقي»، وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياض (صبح الأعشى ٥/ ٤٥٤).

(٢) مكيّزون: لعله من تكوّز وتكوّزوا: أي اجتمعوا. والسياق يشير إلى أن يكون معناها: مهيّئون ومعدّون.

(٣) شهد مع المظفر قطز وقعة عين جالوت ضد التتار، ومعه جمع كثير من الشهرزورية، توفي سنة ٧٠٧ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٦).

(٤) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته ويسوقون الحمل الشريف، ويجهزون في المهمات الشريفة ومتعينون للإمرة، والمقربون في المملكة، كان عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسباي نحو ألف خاصكي (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٨١ وما بعدها).

وسيف الدين خاص تُرْك وسيف الدين بَيْتمر الحاج فأنزلهم الأمراء لوقتهم من القلعة وتوجهوا إلى جهة القُدْس ثم دخل الأمراء إلى الخدمة على عادتهم، ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالأمير جمال الدين أقش الأفرم كتب إلى الأمراء يلومُهم ويعنِّفُهم على ما وقع من إخراج هؤلاء المماليك ويلتمس إعادتهم، ويقسم أنهم متى لم يُعَادُوا إلى خدمة السلطان حضر هو بهم، وكتب إلى السلطان مطالعة يقول: إن المملوك بلغه أن الخواطر الشريفة تغيَّرَت على فلان وفلان والمملوك يسأل عَوْدَ العواطِفِ الشريفة عليهم، وشمولهم بالمراحم السلطانية وإعادتهم إلى الخدمة أو نحو هذا ولما وصل كتاب نائب الشام إلى الأمراء بذلك سألوا السلطان في إعادة المماليك المذكورين فرسم بإعادتهم فعادوا، ولم يسكن الأمير سيف الدين بَيْبغَا بالقلعة وإنما سكن بداره بسويقة العِزي وما لبث أن مرض ومات في هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله تعالى وفيها في يوم الاثنين خامس عشر محرم بعد إخراج المماليك السلطانية رسم بإخراج الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجوكَنْدَار أمير جَنْدَار فأخرج من ساعته، وقطع خبره، وبات في تلك الليلة بظاهر القلعة، ورحل في يوم الثلاثاء، وولي وظيفة الأمير جاندارية بعده الأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكنْدار، المعروف بالفتاح، وتوجه الأمير سيف بَكْتَمُر إلى الشام بغير إقطاع، فلما وصل إلى غزة عُيِّنَتْ له الصَّبيبة فتوجه إليها واسترخمها وكَره المُقَام بها، فكتب إلى الأبواب السلطانية وإلى الأمراء شكا من وخمها، وسأل نقلته إلى غيرها فعيّن له صَرْخَدَ، ثم اتفقت وفاة الأمير شمس الدين سُنْقُرجَاه المنصوري نائب السلطنة بصَفَد في شعبان فكُتِبَ منشورة بإقطاعه وتقليده بنيابة السلطنة بها، فتوجّه إليها، ثم كان من خبره ما نذكره وفيها وصل الأمير فتح الدين بن صَبْرَة من أسْرِ التتار، وقد تقدم ذكر أسْرِه في بلاد سِيس.

وفي هذه السنة طلع النيل بالديار المصرية طلوعًا عامًا ورَوَى البلادَ وَزرَعَ وطَلَعَ الزرع طُلُوعًا حسنًا، فلما كان في شوال الموافق لبرمهات ـ وهو وقت كمال الغلال ـ هبّت ريح جَفّفت الزرع قبل أن يشتد فهاف جميعُ ما مَرّت عليه تلك الريح، وهو أكثر الزّرْع حتى ترك أكثرهُ بغير حصاد وارتفعت أسعار الغلال بسبب ذلك فبلغ سعر القمح كل أردب تسعين درهمًا وفيها جُرّد جماعة من العسكر الشامي إلى الرحبة فتوجه الأمير علاء الدين أيْدغُدِي شُقير في طائفة من العسكر في ثاني جمادى الأولى، ثم تلاه الأمير سيف الدين قُطْلُوبك المنصوري في رابع عشر الشهر وتوجه الأمير سيف الدين بهادر آحي في التاريخ المذكور.

وفيها في يوم الاثنين العشرين من شهر رجب توجه الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام إلى القُدْس الشريف لقَصْد الزيارة وتوجّه معه جماعة من أعيان دمشق وعاد إلى دمشق في تاسع شعبان.

وفيها توجه ركبٌ من الديار المصرية إلى الحجاز الشريف في السابع والعشرين من شهر رجب صُحْبَة الأمير ركن الدين الكُونْدِكي وجماعة المشار إليه منهم الشيخ نجم الدين بن عَبّود ونجم الدين بن الرفعة[(١)] وغيرهم ووصلوا إلى مكة في سادس شهر رمضان.

ذكر الاهتمام بقصد اليمن والاحتفال لذلك وتعيين العساكر المجردة إليه وتأخير ذلك وإرسال الرسل

وفي هذه السنة حصل عزم الأمراء ولاة الأمر على قصد اليمن وتجريد العساكر وتقرر أن يتوجه الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة بالجيوش، وعيّن من يتوجه معه، وعرض رجال الحلقة واحتفل لذلك احتفالًا عظيمًا، ورسم لكل أمير مقدم ألف ومضافيه أن ينشئوا مركبًا كبيرًا وفلوه برسم حمل الأزواد وحصل الشروع في ذلك وندب الأمير عزد الدين أيبك الشجاعي شاد الدواوين لعمل المراكب فتوجّه إلى الوجه القبلي، وقطع الأخشاب لذلك، وكان سبب هذا العزم ما حصل للملك المؤيد هزبر الدين داود[(٢)] صاحب اليمن من اختصار الهدايا، وإعادة الرسول المتوجه إليه من الأبواب السلطانية بغير جواب، ولما حصل هذا العزم سأل أعيان الكارم[(٣)] مراحم السلطان في الإمهال إلى أن يتوجه إليه الرسل من الأبواب السلطانية ويعود جوابه، ودخل في هذا السؤال جماعة من المشايخ فأجيبوا إلى ذلك، وكتب لصاحب اليمن عن الخليفة المستكفي بالله أمير المؤمنين العباسي والسلطان، وتوجه

---

(١) نجم الدين ابن الرفعة: هو أحمد بن محمد بن مرتفع، نجم الدين، المعروف بابن الرفعة، توفي سنة ٧١٠ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٢، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠).

(٢) هو الملك المؤيد هزبر الدين داود ابن الملك المظفر يوسف بن عمر التركماني، ملك اليمن، توفي سنة ٧٢١ هـ. تقدمت ترجمته.

(٣) أعيان الكارم: هم التجار الكارمية، وهم فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن فعرف ذلك بهم، وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر (مصطلحات صبح الأعشى ص ٧٣).

القاضي شمس الدين محمد بن عدلان الشافعي أحد المفتيين بالقاهرة، وشمس الدين سُنْقُر السعيدي أحد مقدمي الحلقة المنصورة، فتوجها وحَمَلا مشافهة إليه، وتأخر تجهيز العسكر.

وفيها نزل الأمير سيف الدين كراي المنصوري عن إقطاعه بالديار المصرية، وكان إقطاع إمْرَة مائة فارس، وذلك أنه توجه للصعيد لكشف إقطاعه، وانتهى إلى مدينة إسنا من الأعمال القوصية ـ وهي من جملة إقطاعه وتجهز منها، وحمل ما يحتاج إليه من الروايا والقرب وغير ذلك، وتوجه هو ومن معه في البرية لقصد بلاد التاكة[1] فوردت مطالعة مُتَوَلّي الأعمال القوصية بذلك، فقطع خبره، وأنْعَم به على الأمير سيف الدين بَتْخَاص، وكان إخراج الإقطاع هو غرض الأمير سيف الدين كَراي، ثم رجع إلى الأبواب السلطانية بعد أن أوغل في البرية، وسأل الإعفاء من الإمرة والخدمة، وأن يتوجه إلى القُدْس الشريف ويقيم هناك ـ وما عُلِمَ مُوجِبُ ذلك ـ فأذن له فتوجه بحريمه ومماليكه وأقام بالقدس.

وفيها اهتم الأمير ركن الدين بِيَبرس الجَاشنكِير أستاذ الدار[2] بعمارة دار الوزارة خانقاه ورباطًا وتربة لدفنه ـ اهتمامًا عظيمًا، فعمر ذلك عمارة متقنة وحصَّل الرخام من كل جهة، ودلَّه الأميرُ ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بَكْتَاش الفخري أمير سلاح. على أن يظاهر دورهم بالقصر فَسَاقِي من الرخام الأبيض مدفونة تحت الرَّدْم، وأخرج منه فسقيتان من الرخام على غاية الكِبَر والحُسْنِ وإتقانِ الصنعة، وكل منهما قطعة واحدة، وهي طويلة عميقة متسعة الجوف والوسط، ثم تنخرط من طرفها إلى أن تَرِقَّ فيكون طرفها كالمجراة، فأخرجتا وعمل لإخراجهما آلات مُعِينَة على ذلك، وحصل التعب في جَرِّهما، ثم نشرتا ألواحًا وفرش بهما أرض المكان ووقف الأمير رُكْن الدين على هذا المكان أوقافًا متوفرة جليلة المقدار، وعَيَّن في هذا الوقف عدّة كثيرة من الفقراء الصوفية، والجند البطالين وغيرهم، ورتَّب أن يكون بالمكان شيخين أحدهما بالخانقاه والآخر بالرباط وأئمة ومؤذنين ومقرئين وغير ذلك، وكملت عمارتها والأوقاف عليها في سلطنته، وخُلِعَ ومات قبل فتحها؛ فأغلقت مدة ثم أمر السلطان الملك الناصر بفتحها ففتحت، ورتب فيها جماعة من الصوفية وغيرهم بالخانقاه والرباط، وأما القبة التي بها المدفن فإنها مغلقة على ما هي عليه لم تفتح إلى أواخر

---

(١) بلاد التاكة: المقصود بها بلاد السودان (انظر: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٣٧).

(٢) أستاذ الدار: تقدم التعريف بهذا المصطلح.

سنة خمس وعشرين وسبعمائة ولم تستقر جُمْلَةُ الأوقاف على هذا المكان؛ فإن منها ما حُلَّ ورَجَع إلى بيت المال، واستقر بعضها فصرف لمن استقر بها مِنَ الصوفية وغيرهم.

ذكر وفاة الأمير سيف الدين بيبغا المعروف بالتركماني وأنشأ تربته وما وقف عليها

وفي هذه السنة في العشر الأخير من شعبان توفي الأمير سيف الدين بَيْبُغا الناصري المعروف بالتركماني أحد أمراء العشرات بالديار المصرية، وهو من أكابر أخصَّاء المماليك السلطانية وأحد مَنْ أخرج في هذه السنة إلى الشام وأعيد، وكان متمكنًا عند السلطان خِصِّيصًا بخدمته، لا يتقدم عليه غيره في وقته، وكان السلطان قد مَلَّكَه جملةً من أملاكه بالقاهرة من ذلك تربيعة الجمالون بخط الشرابشين وأجرتها في كل شهر ألف درهم ومائة درهم واشْتُرِيتَ هذه التربيعةُ للسلطان بمائتي ألف درهم وأربعين ألف درهم، وحمامي بن سويد، وقيسارية أخرى وغير ذلك وأنعم عليه بجملة كثيرة من الأموال، والحوايص الذهب والجواهر مما لا يدخل تحت الإحصاء. ولما مات كنت يومئذٍ في خدمة السلطان فأمرني والأميرَ عزّ الدين الحاج أَزْدَمُر رأس نوبة الجمدارية بإيقاع الحَوْطَة على مَوْجُودِهِ ففعلت وحَرَّرْتُ ذلك وعرضت الأوراق على مولانا السلطان وحَمَلْتُ من موجوده وذخائره إلى السلطان ما أمر بحمله ثم أمر لي ببقيّة بَيْع الموجود أو أن أعمر به تُرْبَةً بالقرافة، وقبة على قبره فبادرت إلى امتثال أمره، وشرعت في ذلك، وجمعت جماعة من المهندسين والصُنَّاع لقسمة التربة ووضع الأساس، وحضر السلطان إلى التربة بالقرافة، ونزل عن فرسه، ووقف وقسم التربة وخَطَّها بعصا في يده ورتبها على حسب ما اقتضاه رأيه الشريف ثم رسم إلى أن أوقف عنه على هذه التربة من الأملاك المذكورة آنفًا التي ورثها عن بيْبُغا، وهي مما كان قد وَهبَه له، فوقفت تربيعة الجملون وغيرها على مصالح تربة سيف الدين بيْبُغَا بطريق الوكالة عن السلطان، وذلك بمجلسه بحضور قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي وجماعة من العدول، ولما شرعت في ترتيب الوقف سألت السلطان خلَّد الله ملكه أن أرتبه وأوقفه على أيسر الوجوه وأهنئها، وأطيبها فأذن لي في ذلك، فشرطت في الوقف أن مَن مَرِض من أهل الوقف مِن إمام ومؤذن ومقرئين وغيرهم أو رمد يُصْرَفُ له معلومه الشاهد به كتاب الوقف بجملته ويُسْتَنَابُ عنه في مُدّة مرضه أو رَمدِه مَنْ يقُوم بوظيفته بنظير نصف معلومِه من مال الواقف، وأنّ من حَجّ من أهل

الوقف يُجْعَلُ له معلوم أربعة أشهر، ويستناب عنه بنظير نصف معلومه في مال الوقف، وغير ذلك من التيسيرات، وعرضت، ذلك على السلطان خلّد الله ملكه فأمر لي بإمضائه، فوقفته على هذا الحكم، وهو باقٍ على ذلك والحمد لله تعالى - والوقف ينمو ويزيد إلى وقتنا هذا.

وفي هذه السنة في ليلة يسفر صباحها عن يوم السبت خامس جمادى الآخرة وقت السحر توفي الصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف جده بابن حنا[(١)] بداره ببركة الحَبَش، ودفن بتربته بالقرافة رحمه الله تعالى ومولده في التاسع من شعبان سنة أربعين وستمائة.

وتوفي في دمشق الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي البيسري[(٢)] أحد الأمراء الأعيان بها، في ليلة يُسْفِرُ صباحُها عن يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى، ودفن في يوم الاثنين بقاسيون، وكان رحمه الله تعالى من أحسن الناس عِشْرَة، وأكملهم مروءة وأوفاهم بحقوق أصحابه كان لا يَدّخر عن صاحبه أو قاصده مالًا ولا جاهًا، صَحِبْتُهُ مُدَّةً فلم أر أحسن من صحبته ولا مودته، وكان لنا بهذا البيت البَيْسَري خدمة قديمة، ثم صحبة أكيدة، وتجددت بعد ذلك بيني وبينه بِدمشق عند مقدمي إليها في جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعمائة إلى أن عدت إلى الديار المصرية في رمضان سنة ثلاث وسبعمائة، وكان رحمه الله تعالى من أشجع الأمراء، وهو ذو فهم بالحروب والوقائع وترتيب الجيوش، وممن يُرْجَعُ إليه في ترتيب المحافل والمهمات، وعَرْض التقادم وغير ذلك من أحوال الملوك، وكان أيضًا قد انفرد في معرفة طَيْرِ الجَارح وتَدْرِيبه والاصطياد به وجَيِّده ورديئه، ومُدَاوَاة سقيمه وغير ذلك من أحواله، وكان أصله من مماليك زين الدين الحافظي وزير الملك الناصر صاحب الشام اشتراه الأمير بدر الدين بيْسَري الشمسي بعد هروب الزين الحافظي بما ينيف عن أربعين ألف درهم ويقارب الخمس ألفًا وحرص الملك الظاهرُ رُكْن الدين على تَملّكهِ فما قدر على ذلك، واجتهد بكل طريق فلم يتهيأ له حتى عزم في أواخر أمره على القبض على الأمير بدر الدين بِيْبرس أستاذه ليتمكن من أخذه فمات الملك

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٨، وشذرات الذهب ٦/ ١٤، والسلوك للمقريزي ٢/ ٤١، والوافي بالوفيات ١/ ٢١٧.

(٢) علاء الدين مغلطاي البيسري: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٥٥.

الظاهر قبل ذلك، ولما اعتقل مخدومه الأمير بدر الدين بيسري في أوائل الدولة المنصورية ضبطَ موجودَه وخدم أولاده ورَبَّاهم وحفظهم وكانوا ستة، وأنفق عليهم أمواله، ولازم باب أستاذه في مدة اعتقاله، ورغب السلطان الملك المنصور في استخدامه ورتبه في جمداريته، ووعده بالإمرة، وأسكنه بالقلعة فاستغفى من ذلك وكَرِه مفارقة باب أستاذه والاشتغال عن حفظ أولاده، ولم يزل يتنصلُ من الخدمة حتى أعْفِي منها، وكان إقطاعه في جنديته أمير مَن خاص جماعة من الأمراء، قال لي يومًا بدمشق وهو أمير تسعة وستين فارسًا: وددت أن إقطاعي الآن وإقطاع أصحابي نظير إقطاعي في الجندية فسألته عن متحصل إقطاع جنديته، فأخبرني أنه كان يحصل له منه لخاصة ولأربعة أتباع في كل سنة مائة ألف درهم وخمسة آلاف درهم وخمسة آلاف إردب غلة ومات رحمه الله تعالى وعليه جُملة من الديون، صرفها في المكارم ومَحَاسنُه رحمه الله كثيرةٌ.

وتوفي الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجمدار الصالحي النجمي المعروف بالجالق[1] أحد الأمراء الأعيان مقدمي الألوف بدمشق وكانت وفاته بظاهر الرَّمْلة في العشر الأوسط من جمادى الأولى في خامس عشر الشهر، وقيل في تاسع عشرة، ونقل إلى القدس فدفن هناك، وكان رحمه الله تعالى أميرًا خيّرًا دَيِّنًا، كثير البِرّ، كان يرْصُد من ماله جملةً يُقْرِضُها للجند عند تَجْرِيدِهم، ويصبر عليهم بذلك إلى أن يَتيَسَّر لهم إعادته، وعُدِمَ له جملة كثيرة من أمواله بسبب ذلك، ولا يَرُدُّه ذلك عن هذه الحسنة رحمه الله تعالى.

وفيها ـ في ثاني جمادى الآخر ـ كانت وفاة الشيخ الصالح العابد عمر السعودي[2] بزاويته بالقرافة، ودفن بها رحمه الله تعالى وفيها توفي الشيخ القاضي شرف الدين محمد ابن القاضي فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد القَيْسَرَاني الحلبي، أحد أعيان كُتّاب الدَّرَج بالباب الشريف السلطاني، وكانت وفاته بعد العصر من يوم الجمعة، ودفن يوم السبت بالقرافة الصغرى، وكان رحمه الله تعالى رجلًا جيّدًا خيّرًا ديّنًا متواضعًا فاضلًا أمينًا، لا يَغْتاب أحدًا من الناس، ويكره الغَيْبَة من غيره، ولا يسمعها، وسمع الحديث النبويّ الكثير، وكان متمكنًا من صناعة الإنشاء، طاهر اللسان والقلم كثير الأدب غزير المروءة رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٨، البداية والنهاية ١٤/ ٤٧، الدرر الكامنة ٢/ ٤١.
(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٤١، الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٥.

وفيها في يوم السبت خامس عشر رجب توفي الشيخ تقي الدين الرجيحي بن سابق بن هلال بن يونس[١]: شيخ الفقراء اليونسية بدمشق، وصلى عليه بجامعها، وأعيد إلى داره فدفن بها، وجلس مكانهُ في مشيخة اليونسية وَلده الشيخ حسام الدين فضل.

وفيها في يوم السبت تاسع عشرين شهر رجب الفرد توفي الأمير علي ابن الملك القاهر عبد الملك ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق أيضًا الأمير فارس الدين الردَّادي[٢] أحد الأمراء بها في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم وتوفي بها الأمير سيف الدين كاوركا المنصوري[٣]، وهي من المماليك المنصورية في زمن الإمرة، وكانت وفاته في الخامس عشر من ذي القعدة.

وتوفي الأمير بهاء الدين أسلم بن دَمُرْدَاش أحد الأمراء بدمشق في يوم الجمعة رابع ذي القعدة وتوفي بالكرك الطواشي شمس الدين صواب السهيلي الخازندار[٤]، وقد قارب المائة سنة، وكان الملك الظاهرُ ركن الدين بيبرس قد سلّم إليه قلعة الكَرَك كما تقدم واستمر بها إلى سنة إحدى وثمانين وستمائة في أيام الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر فتوجه إلى الحجاز الشريف في جملة الركب الشامي فلما وصل إلى تَبُوك لحقه الأمير عُبَيَّة أمير بني عُقْبة في نحو مائتي فارس، فقبض عليه وحمله إلى الأبواب السلطانية المنصورية، فلما مَلَك السلطان الملك المنصور قلعة الكَرَك أعاده إليها وثوقًا بأمانته وديانته، فلم يزل بها إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الاثنين حادي عشر شعبان القاضي جمال الدين أبو بكر محمد بن عبد العظيم بن علي بن سالم الشافعي المعروف بابن السقطي[٥] خليفة الحَكمِ العزيز

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٤٤، والدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢١٦، وفيهما: «سيف الدين» بدل «تقي الدين».

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٥، وفيه: سيف الدين بن أسلم بن عبد الله الردّادي.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٠.

(٤) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٣٥٦، والدرر الكامنة ٢/ ٣٠٧.

(٥) ابن السقطي: انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٦، والسلوك للمقريزي ٢/ ١: ٤٢، والدرر الكامنة ٤/ ١٨.

بالقاهرة، ودفن من الغد بالقرافة وولي نيابة الحكم بالقاهرة نحو أربعين سنة وكان دَرِبًا بالأحكام الشرعية، وترك النيابة عن الحكم في آخر عمره، ومولده في سنة ثمان وعشرين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير بهاء الدين يعقوبا بن نور الدين بدر الشَّهْرَزُوريّ أحد الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية قديم الإمرة - وكانت وفاته في ليلة تسفر عن سابع عشر ذي الحجة.

وتوفي الأمير الطواشي شهاب الدين فاخر المنصوري[١]، مقدم المماليك السلطانية، وأحد الأمراء أصحاب الطبلخاناه، بالديار المصرية في سابع عشر ذي الحجة وكان رحمه الله تعالى ذَا مَهَابةٍ وسَطْوَةٍ على المماليك السُّلْطَانِيَة يحترمه كبيرهم ويخافه صغيرهم وكان كريم النفس رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثمانٍ وسبعمائة

في هذه السنة في مستهل شهر ربيع الأول أخرج الأمير نَجْمُ الدّين خِضْر الملقب بالملك المسْعُود ابن الملك الظَّاهِرِ ركن الدّين بيبرس من البُرَج بقلعة الجبل، وسكن مصْرَ على شاطىء النيل بدار الأمير عزّ الدِّين، أَيْبَكْ الأفرم وكانت اشتريت له، ولم تطل مُدَّتُه فإنه توفي خامس شهر رجب بالقاهرة بدار الحلبي.

وتوفي ولده قبل وفاته بيوم، وخَلّفَ ولدًا ذكرًا وابنة، رحمه الله تعالى.

وفيها في ثالث شهر ربيع الآخر فوضَتْ الخطابة بجَامِعِ قَلْعَة الجبل لقاضي القضاة بدر الدّين مُحَمّد بن جماعة عِوَضًا عن الشَّيخ شمس الدِّين محمّد الجزري.

وفيها وصلت رُسُلَ صَاحِبِ سيس بالقطيعة المقررة عليه وهديته، ووصل في جملة ذلك طَشْتٌ وإبريق ذهب مرصع بالجوهر.

وفيها في جمادى الآخرة وصلت طائفة من التّتار الذين هم شرقي الفرات إلى بلد كركَرْ، وأغاروا عليها، وكان هناك سيف الدين بتخاص أحد مماليك الأمير شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة بحلب، فتوجّه بجماعة من الرجالة وكبس التتار، وأوقع بهم واستظهر عليهم، وأَسَرَ بعضهم وحضر إلى الأبواب السلطانية فأنعم عليه.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٩٩، والدليل الشافي ٢/ ٥١٩، وفيه: توفي سنة ٧٠٦ هـ.

ذكر توجه السلطان الملك الناصر إلى الكرك وإقامته بها

وفي هذه السنة أظهر السلطان أنه قد عزم على الحجاز الشريف وأشاع ذلك وأذاعه، وأظهر الاهتمام به وأمر بجهازه: وتجهز معه جماعة من مماليكه الذين اختارهم، وبَرَزَ من قلعة الجبل المحروسة في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رمضان، وركب الأمراء في خدمته لوِدَاعِهِ فأعاد الأمير سيف الدين سَلّار وركن الدّين بيبرس إلى قلعة الجبَل، واستقل ركابه، وعَيَّدَ عيد الفِطْرِ بالصالحية ثم سار ووصل إلى قلعة الكركَ في يوم الأحد العاشر من شوال منها ولما صعد إلى الكرك تقدمت الأثقال والبيوتات السلطانية، ومرت على الجسر الخشب المنصوب على الخندق بباب القلعة، ثم مر السلطان على الجسر المذكور وحوله مماليكه، الخاصكية وأرباب الوظائف، وازدحموا على الجسر فضعف عن حملهم فتكسرت أخشابه، وقد صارت يدا فرس السلطان داخل باب القلعة وأطراف حوافر رجليه على الجسر فوثب الفرسُ به فصادر داخل القلعة، فسلم وانكسر الجسر بمن كان عليه من الخاصكية فسقطوا إلى أسفل الخندق، وهو من أعمق الخنادق وأبعدها، فسقط بعضهم على بعض فسلموا كلهم إلا اثنين منهم أحدهما الأمير عز الدين أزْدَمُر الحاج رأس نوبة الجمدارية فإنه انقطع نخاعه، وبطل نصفه مما يلي رجليه، وعاش كذلك إلى أن مات في سنة عشر وسبعمائة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية.

ولما استقر السلطان بقلعة الكَرَك طلبَ ورقةً بالحاصل بِخَزَانتها من الأموال، فَكُتِبَتْ له ورقة بمبلغ مائتي ألف درهم، وكان الحاصلُ أضعافَ ذلك مِرَارًا وإنما كُتِبَت بأمر النائب بها خشية أن السلطان يأخذ ما بها من المال بجملته. فلما أخذ الورقة أظهر ما كان قد أضمره وأخرج النائب بالكَرَكِ وهو جمال الدين آقُش الأشرفي، وجماعة من البحرية، وجماعة من الرَّجَّالة، واستقر بها بمماليكه الذين رضيهم، وأعد ما كان قد استصحبه من شعار السلطنة والبيوتات إلى الديار المصرية، والممالك الشامية يُعْلمهم أنه قد اسْتَقَرّ بالكرك، ونَزَل عن السلطنة أو أنْ يُدَبِّروا الأمر على ما يختارونه، وإنما فعل ذلك لما حصلَ له من الأمير ابن سيف الدين سلّار ورُكْن الدين بِيَبْرس من المضايَقَةِ والحجر والاستبداد بالأمر دُونه ففعل ذلك وتحقق أنهما لا يتفقان بعده، وأن الأمر يؤول إليه كما يختار، فوردت مكاتباته إلى الأمراء بقلعة الجبل في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة.

ذكر سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس العثماني المنصوري

لما وصلت كتب السلطان الملك الناصر إلى الأمير سيف الدين سلّار والأمراء بما قدمناه اجتمعوا في يوم السبت الثالث والعشرين من شوال بدار النيابة، وتشاورُوا فيمن يُنصب في السلطنة فمال جماعة إلى الأمير سيف الدين سَلّار النائب فقال لمن اخْتَارَهُ أنتم رَضِيتُم بي أن أكون عليكم سلطانًا، وأنا قد رَضِيتُ لي ولَكُم هذا وأشار إلى الأمير ركن الدين بيبرس العثماني أستاذ الدار، وكان ذلك رأي جماعة الأمراء البرجية[١] خواشداشيته[٢]، فوافقَ قَوْله رأيهم، فاجتمعت الكلمة بالديار المصرية عليه وإنما صرفها الأمير سيف الدين سَلّار عن نفسه إليه لعلمه بعاقبة الأمر وأن ذلك لا يتم له، فعند ذلك حَلَف له الأمراء، وركب من دار النيابة بعد العصر من اليوم المذكور ودخل إلى دور السلطنة داخل باب القلعة والأمراء مشاة في خدمته إلى أن استقر على تَخْتِ السلطنة ولُقّب بالملك المظفر، وزُفّت البشائر، وكُتب بذلك إلى سائر الممالك الإسلامية وتوجه إلى الشام الأمير عزُّ الدِّين أيبك البغدادي والأمير سيف الدين ساطي فوصلا إلى دمشق على خيل البريد في مستهل ذي القعدة، وخُطِبَ له بالقاهرة في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة ثماني وسبعمائة وحضر الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان وقلده السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وكتب عهده بذلك وقد تقدم ذكر هذا العهد وما اشتمل عليه فيما سلف من كتابنا هذا في الجزء الثامن منه في ترجمة القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر وركب الملك المظفر في يوم السبت السابع من ذي القعدة بِشِعَار السلطنة وعليه خلعة الخليفة، وهي خلعة سوداء بطرحةٍ وتَقَلّد سَيْفَيْن على العادة، وسَيّر في الميدان الأسود وخَلَعَ على الأمير سيف الدين سلّار وأقرّه على نيابة السلطنة وأقر سائر النواب بالممالك الشامية، ولم يَغيّرْ منهم إلا الأمير ركْن الدِّين بيبرس الْعَلائي النائب بغزة فإنه أعاده إلى الإمرة بدمشق وَوَلّى نيابة غزة الأمير سَيف الدين بَلَبَان البدري وذلك في المحرم سنة تسع وسبعمائة.

---

(١) البرجية: هم من مماليك السلطان، وقد كان السلطان المنصور قلاوون أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف من الجركس والآص، وجعلهم في أبراج القلعة، وسماهم بالبرجية (السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٧٥٦).

(٢) الخواشداش: هي خشداش: كلمة فارسية الأصل، أصلها «جوجاناش» ومعناها: الزميل في الخدمة.

ولما وصل كتاب الملك المظفر إلى دمشق صُحْبَةَ من ذكرنا توقَّف الأمير جمال آقُش الأفرم نائب السلطنة بالشام عن الحَلِف إلا بعد أن يثبت على حاكم من حكام المسلمين أن السلطان الملكَ الناصر نَزَلَ عن السلطنة، وخَلَعَ نفسَه، فأحضر كتابُ السلطان الملك الناصر الذي قد كان وصل إليه وشهد جماعةٌ من الموقعين أن الكتاب بخط القاضي علاء الدين بن الأثير كاتب السلطان وأن الخط الذي أعلاه خط السلطان الملك الناصر، فثبت ذلك لذلك وعمل بمقتضاه، وحَلَف الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام ومَن عنده من الأمراء وغيرهم، وكذلك سائر النواب بسائر الممالك وأقر الملك المظفر الصاحب ضياء الدين النَّشَائي على وزَارته على عادته ـ وليس له من الأمر شيء وإنما الأمر لتاج الدين بن سعيد الدولَة وزاده بسطة وتمكينًا، وكان الملك المظفر لا يكتب على تقليد أو توقيع أو كتاب إلا بعد أن يكتب تاج الدين عليه ما مثاله يحتاج إلى الخط الشريف ورسم للدوادارية أن لا يقدموا له ما يعلم عليه إلا بعد خط تاج الدين صح المذكور، وتطاوَل إلى أن قصد أن يقف على أجوبة البريد إلى النواب وغيرهم ويكتب عليها فقام القاضي شرف الدين بن فضل الله صاحب الديوان في ذلك وَعَرّفَ السلطان ما يترتب على ذلك من المفسدة، من إذاعة أسرار السلطنة وإفشائها، فاستقر الأمر أنه يكتب على ما يتعلق بالأموال والإقطاعات دون ما هو متعلق بِسِرِّ الدولة وكتب الملك المظفر للسُلْطَان الملكِ الناصر تقليدًا بالكرك، ومنشورًا بإقطاع مائة فارس، ثم أبطل المنشور الأول، وكتب منشورًا ثانيًا بريع المغل ولخاصه ولمائة طواشي وقال فيه بعد إبطال ما كتب به أولًا وسَيّر المنشور إلى دمشق وكتب عليه النائب ونزل في الدواوين وكتب عليها الكُتَّابُ ثم لم يلبث الملك المظفر أن كَتَبَ إلى الملك الناصر يَطْلُبُ منه ما عنده من الأموال الحاصلة بالقلعة، ويطلب إعادة المماليك السلطانية الذين استقروا عنده، وكان عدةُ من استقر في خدمة السلطان نحو مائتي مملوك، وطلب أيضًا الخيول التي للسلطان معه، وقال إن القلاع لا تحتاج إلى كثرة الخيول ولا الأموال، فأرسل إليه السلطان الملك الناصر مائتي ألف دِرْهم فأعاد الجواب بتجديد طلب الأموال، فكتب إليه: إن خط نائبكم عندي أنه لم يكن بخزانة الكرك غير مائتي ألف درهم وقد أرسلتها، ولم يرسل غيرها، وأهان رسول الملك المظفر وهو الأمير علاء الدين مغلطاي أبتغلي وأمر بإخراجه ماشيًا من قلعة الكرك إلى الغور وتحقق الملك الناصر سوء رأي الملك المظفر، وأنه لا يبقى عليه، فشرع عند ذلك في التدبير، فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة في ليلة السبت ثاني المحرم توفي الشيخ الصالح أحمد بن أبي القاسم المراغي بمصر ودفن من الغد بالقرافة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن ظافر البرلسي، ناظر بيت المال في خامس صفر، وكان من الفقهاء الفضلاء المالكية ممّن عين لقضاء القضاة، وكان طاهر اللسان عفيف البد كثير المروءة رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الثلاثاء تاسع عشر شوال توفي عز الدين أَيْدَمُر الرشيدي أستاذ دار الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة، وكان رجلًا عاقلًا مُثْرِيًا اتَّسَعتْ أمواله، وعَرُضَ جاهُه، وعلا محله، وكان قد مرض وطال مرضه وحصل له مالينخوليا ـ ثم مات رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ المحدث شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن بن سامة الطائي بمصر في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي القعدة وصلى عليه بجامع عمرو بن العاص ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الإمام الشافعي وكان مشهورًا بقراءة الحديث والاشتغال به والرحلة إليه ومولده في سنة اثنتين وستين وستمائة رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع وسبعمائة

في هذه السنة وصل الأمير علاء الدين أَيْدَغْدِي التليلي، والأمير علاء الدين أَيْدغُذي الخُوَارزْمِي من بلاد المغرب، ووصل معهما الشيخ أبو يحيىٰ زكريا اللَّحْيانِي نائب تونس بطرابلس المغرب لقصد الحج وعاد الأميران المذكوران وقد نَهَبتْ العُرْبَانُ ببلاد المغرب ما كان قد أرسل معهما من الهدية وغيرها وكان في جملة الهدية من الخيل والبغال والجمال سبعمائة رأس.

وفيها أيضًا عاد القاضي شمس الدين محمد بن عدلان الذي كان قد جهز إلى اليمن في الرسالة في الدولة الناصرية، ومات رفيقه شمس الدين سنقر السعيدي ببلاد اليمن، بعد انفصالهما من الملك المؤيد صاحب اليمن.

وفيها في أوائل شهر ربيع الآخر تَوَجّهْت من القاهرة إلى الكرك والتحقت بالأبواب السلطانية إلى أن عاد الركاب الشريف السلطاني الملكي الناصري، وعدتُ إلى القاهرة في سلخ رمضان.

ذكر ما كان من أمر النيل في هذه السنة

كان من خبر النيل في هذه السنة أن زيادته بمقياس مصر انتهت إلى العشرين من شهر ربيع الأوّل وهو الموافق للثالث من أيام النسيء إلى أربعة عشر ذراعًا ونصف فغَلَتْ الأسعار بسبب ذلك وانتهى سعر القمح إلى خمسين درهمًا ثمن كل إردب واستسقى الناس بالمُصلَّى بالقرافة الكبرى، وكسر خليج مصر في التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول بغير وفاء وأيس الناس من زيادة النيل في هذه السنة، وفات وقته المعتاد، ثم أخذ في الزيادة فانتهت زيادته إلى ستة عشر ذراعًا وإصبعين، وذلك إلى آخر الثالث والعشرين من بابه، وزرع الناس على هذه الزيادة.

وفي هذه السنة في ثالث عشر شهر ربيع الآخر فُوِّضَ قضاءُ القضاة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل للشيخ سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي(١)، وخلع عليه يوم الأربعاء، وحكم في يوم الخميس خامس الشهر، وذلك بحكم وفاة القاضي شرف الدين عبد الغني بن يحيىٰ بن محمد بن عبد الله الحراني(٢) وكانت وفاته في ليلة الجمعة رابع عشر شهر ربيع الأول ودفن من الغد بالقرافة ومولده بحران سنة خمس وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى، وكان في مبدأ أمره شافِعي المذهب إلى آخر الأيام الأشرفية بالحسامية الصلاحية وبعدها، ثم قَلَّدَ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بعد ذلك واستقل وولي القضاء.

ذكر اضطراب أمر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير وما كان من أخباره إلى أن خَلَع نفسَه وفارق قلعة الجبل

كان ابتداء اضطراب أمرِ دَولتِه أنه خرج من القاهرة الأمير سيفُ الدين أبغية قبجق والأمير علاء الدين مغلطاي القازاني، والأمير سيف الدين طقطاي أمير مجلس، وجماعة من المماليك السلطانية فارين إلى خدمة السلطان الملك الناصر، وكان خروجهم من القاهرة بعد أذان المغرب من ليلة يسفر صباحها عن يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة ووصولهم إلى خدمة السلطان الملك الناصر إلى الكرك، وطلوعهم إلى قلعتها في بكرة نهار الأربعاء الثامن والعشرين منه، فأحْسَنَ الملك الناصر إليهم، وخلع عليهم، ولما تُوِّجوا اتُّهم بعض المماليك السلطانية

---

(١) سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي: تقدمت ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/٥٧، والدرر الكامنة ٢/٤٩٨.

بمواطأتهم فأمسك منهم نحو ثلاثمائة نفر، وقطعت أخبازهم وأخباز المتسحبين وجرّد الأمير سيف الدين بُرُلْغِي مقدمًا وصحبته الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي، والأمير عز الدين أيبك البغدادي والأمير شمس الدين الدكن ومن معهم من مضافيهم، فبرزوا في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر رجب وخيموا بمسجد التين، ثم عادوا بعد أربعة أيام وكان سبب عودهم أن الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام وَرَدَ كتابه على يد أستاذ داره سيف الدين الطنقش يتضمن أن الملك الناصر وصل إلى البرج الأبيض قاصدًا دمشق، ورجع إلى الكَرَك، ثم وصلت كتبه بعد ذلك تتضمن أن الأمراء بالشام مالوا إلى الملك الناصر وأنه يخشى من انتقاض الأمر فعند ذلك شرع الملك المظفرُ في النفقة العامة على سائر الجيش، وكملت في سبعةَ أيام، وكان الجند يأخذون النفقة ويقول بعضهم لبعض: ادعوا للملك الناصر، وأمر الملك المظفر جماعة من مماليكه، فركب منهم من أمراء الطبلخانات سبعة عشر، ومن أمراء العرب ثلاثة عشر وذلك في مستهل شهر رمضان من السنة.

وفي هذا التاريخ خرج الأمير سيف الدين بُرلغِي مجرّدًا في أربعة آلاف فارس، ثم أردفه بالأمير سيف الدين طُغْرِيل الإيغاني في أربعة آلاف أخر فمرض طُغْرِيل فرجع ومات في عاشر شهر رمضان، وتوفي الأمير عز الدين أيبك الخزندار قبله في سابع الشهر. ولما خرج هذا العسكر أرسل الملك المظفر للأمراء نقودًا ذهبًا غير النفقة الأولى فيقال: إن الذي وصل إلى الأمير سيف الدين بُرلْغي في هذه الحركة ستون ألف دينار عينًا.

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رمضان خرجت جماعة من المماليك السلطانية على الهجن، وقصدوا اللحاق بالسلطان الملك الناصر، فجرّد الملك المظفر في آثارهم فأدركوهم وقد وردوا الماء بمراكع موسى واقتتلوا فجرح الأمير سيف الدين سُمُوك أخو سلّار، وصارم الدين الجرمكي، وقتل من الفريقين ونجا المماليك السلطانية، والتحقوا بالسلطان الملك الناصر، فجرّد الملك المظفرُ جماعة من الأمراء لحفظ الطرقات، من جملتهم الأمير جمال الدين آقش الرومي الحسامي، فساق في إثر هذه الطائفة من المماليك فلم يدركهم، فلما رجع نزل ليستريح ويريح، فوثب عليه من مماليكه فقتلوه، وتوجهوا برأسه إلى الملك الناصر وحملت جثته إلى القاهرة، وفي أثناء هذه المدة تجمع خلق كثير من الغوغاء والعامة والسوقة وجاؤوا تحت القلعة، وأعلنوا بسَبّ الملك المظفر فأمسك بعضهُم وضُرِبَ وطيف به فلم يرتدعوا، ثم جلس المظفر في يوم الخميس الحادي عشر من شهر رمضان جلوسًا عامًا وأحضر

الخليفة المستكفي بالله أبا الربيع سليمان، وجدَّد البيعة لنفسه والتولية بحضور الحكام والأمراء وكتب كتابًا بتجديد البيعة، ورسم بقراءته على المنابر، فلما شرع القارىء له في قراءته استغاثت العامة من كل جانب ليس لنا سلطان إلّا الملك الناصر، وهموا برجم الخطباء وأخرت قراءة كتاب البيعة وكتب إلى الأمير سيف الدين بُرُلْغي ومن معه من الأمراء والمقدمين وغيرهم أن يجددوا الحَلِفَ للسلطان، فاجتمعوا بجملتهم وقرىء عليهم كتابُ الخليفة، ونسخة البيعة الثانية، وطُلب منهم أن يُجَدِّدُوا الحَلِفَ فامتنع بعضهُم وقال بعضهم قد حلفنا وإن كنا لا نفي باليمين الأولى فلا نفي بالثانية، وانفصلوا من المجلس على غير حلف فلما تفرقوا ركب بعض الأمراء وتوجه نحو الشام للقاء السلطان الملك الناصر خدمة، ودخولًا في طاعته وأَنْقَلَ الجيش المجرد، فعلم برُلغي أن النظام قد انحل وأتاه خبر مقتل آقش الرومي، فعند ذلك ركب وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الناصر هو وسائر الأمراء المجردين ورجع بعض الحلقة إلى القاهرة وكان السلطان قد أنفق جملة كثيرةً من الأموال، وفرق خيولًا كثيرة، وعزم على الخروج بنفسه لحرب السلطان الملك الناصر ودفعه فلما بلغه أن بُرُلْغي ومن معه توجهوا إلى السلطان الملك الناصر فت ذلك في عضُدِه وسقَط في يده وعلم أنه لا بقاء لملكه.

ذكر خلع الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير نفسه من السلطنة، ومراسلته الملك الناصر وخروجه من القلعة وتوجهه نحو الصعيد

ولما كان في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان اجتمع الأمير سيف الدين سلّار والأمير بدر الدين بَكْتُوت الفتّاح أمير جندار، والأمير سيف الدين قجماز بتخاص بالملك المظفر وقالوا له: إنا قد رأينا من المصلحة أن نراسل الملك الناصر وتسأله قلعة تكون بها أنت ومن معك من مماليكك وإلزامك فوافقهم على ذلك وتقرر أن يتوجه بالرسالة الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري فتوجه ضحى يوم الثلاثاء وكان مضمون سؤاله أن ينعم عليه بأحد ثلاث جهات إما الكرك وأعمالها، أو حماة وبلادها أو صهيون ومضافاتها ونزل عن الملك وخلع نفسه من السلطة، ثم اضطرب أمره في عشية النهار اضطرابًا شديدًا، فدخل إلى الخزائن واستصحب معه جملةً من الأموال والذخائر، وخرج من القلعة وصحبته مماليكه وهم نحو سبعمائة مملوك، وصحبته من الأمراء الأمير بدر الدين بَكْتُوت الفَتاح أمير جندار، والأمير عز

الدين أيدمر الخطيري أستاذ دار والأمير سيف الدين قجماز بتخاص ومماليكهم، وأخذ الخيول الجياد من الإسطبلات السلطانية، وشعر العوام بخروجه فتجمعوا وسبُّوه وتبعوه فقيل إنه شغلهم بدراهم نثرها عليهم فاشتغلوا بجمعها، وتوجه بمن معه إلى إطفيح ثم منها إلى الصعيد: ولما فارق القلعة خرج من بقي من الأمراء والعساكر لتلقي السلطان الملك الناصر، واستقر الأمير سيف الدين سلّار بالقلعة يحفظها للسلطان وأفرج عن المعتقلين من المماليك السلطانية، وطالع السلطان الملك الناصر بما اتفق، وأعلم باسم السلطان والدعاء له على أسوار قلعة الجبل في صبحة نهار الأربعاء السابع عشر من شهر رمضان، وخُطب له يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وانتهت أيام سلطنة الملك المظفر، وكان مدة جريان اسم السلطنة عليه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا.

ذكر سلطنة السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي وعود دولته ثالثًا

ولنبدأ بسياقة أخباره منذ وصل إلى الكرك إلى أن ملك الممالك الشامية، ثم الديار المصرية.

قد قدمنا آنفًا وصول السلطان الملك الناصر إلى الكرك واستقراره بقلعتها وإخراجه الأمير جمال الدين آقش الأشرفي النائب بها، وجماعة من البحرية[١] وبعض الرجال فيها ولما استقر بها اعْتَبَر ما بها من الأموال والذخائر فوجد بها فيما بلغني سبعة وعشرين ألف دينار عينًا، وألف ألف درهم وسبعمائة ألف درهم، فاحترز على ذلك وادخره ولم يصرف منه شيئًا في النفقات وغيرها بل جعله ذخيرة لمهماته، واقتصر في النفقات، وكلّف الدولة وأقام المملكة على ما يتحصل من الكرك وأعمالها خاصة وسيّر إلى الديار المصرية من جملة الحاصل ما تقدم ذكره وهو مائتا ألف درهم وكان السلطان قد جهّز زوجته أم ولده وولده وحريمه إلى الحجاز الشريف صُحْبَة الركب، فلما استقر بالكرك أرسل الأمير سَيف الدين كُسَتاي في جماعة من المماليك السلطانية إلى عقبة أيلة فأحضرهم إلى الكرك وأمر السلطان بالخطبة للملك المظفر

(١) البحرية: طائفة من الأجناد السلطانية كان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس، وأول من رتب هذه الطائفة وسماها هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (مصطلحات صبح الأعشى ص ٦١).

بجامعي مدينة الكرك وقلعتها فخطب له، وأمر الحراس بذكره في الصباح فكانوا يفعلون ذلك وهو يسمعهم، وانتهت حاله في الأدب معه إلى أن كان يكتب في الكتب الصادرة عنه بعد البسملة الملكي المظفري، وسلك معه من التواضع والأدب ما لا يزيد عليه نواب السلطنة، وقصد بذلك أن تكون الأحوال ساكنة، والأمر ماشيًا على سداد وانتظام واتفاق هذا والمظفر من جملة مماليك والده وليس من أكابرهم وتنازل معه إلى هذه الغاية وسلك معه مسلك النواب لا الملوك، فلم يرْض المظفر منه بذلك، ولا قنع به بل شرع في الغض من عَالِي رُتْبِته والتضييق عليه، فكان أول ما بدأ به أن كتب إليه يطلب منه الأموال الحاصلة بالكراك، والمماليك والخيول التي عنده كما تقدم ذكره، ثم أعاد المكاتبات ثانيًا بتجديد الطلب من غير تحاشٍ ولا حياء منه، ولا مُراعاة لإحسانه وسالف عتق أبيه، ولا حفظ لحق ولا ذمام فعند ذلك تحقق السلطان سوء رأي المظفر فيه، وآيس من خير يحصل له من جهته، وتوقع منه الشر، فأخذ عند ذلك في استئناف ما فرط وراسل من يثق بمودته ومحافظته وموالاته من الأمراء وكاتب الأمير حسام الدين مهنا، وأمراء العرب، ووردت عليه أجوبتهم وترددت قصَّادهم، ولم يزل الأمر على ذلك سرًا إلى أن التحق بخدمة السلطان والأمراء الثلاثة الذين خرجوا من الديار المصرية كما تقدم، ووصلوا إلى خدمته وهم، الأمير سيف الدين أبغية قبجق في ثمانية وعشرين نفرًا من مماليكه والأمير علاء الدين مُغْلَطَاي القازاني في ثلاثة عشر نفرًا، والأمير سيف الدين طُقْطَايَ أمير مجلس في اثني عشر نفرًا ومن المماليك السلطانية نحو أربعين فارسًا، وكان عدة جمعهم يقارب التسعين نفرًا، وكان وصول أوائلهم إلى الكرك يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة، ووصلوا والسلطان بالصيد في برية الكرك، فركب إليه الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي أحد مماليكه من القلعة وتوجه إليه وهو يتصيد، وعرفه خبر من وصل فعاد السلطان من الصيد ووصل إلى الكرك في نصف الليل ففتح له الأمير سيف الدين أرغون نائبه بالقلعة والمدينة وطلع إلى القلعة وأذن في دخول من وصل إليه ممن ذكرنا فدخلوا إلى الكرك في بكرة نهار الأربعاء الثاني والعشرين من الشهر، ومثلوا بين يدي السلطان، فأحسن إليهم وخلع عليهم، وكانوا لما خرجوا من القاهرة وجَدُوا تقدمة الأمير سيف الدين طُوغان نائب السلطنة بقلعة البيرة قد وصلت من جهته إلى الملك المظفر، فأخذوها بجملتها، وأحضروها إلى السلطان ودخلوا إلى قطْيا أوخذوا ما بها من المال الحاصل وأحضروه فأنعم السلطان عليهم به وأحضروا معهم أيضًا خيل البريد التي وجدوها بما مَرُّوا عليه من المراكز،

وكان خروجهم من القاهرة باتفاق من الأمير سيف الدين سلّار ومباطنه، فعند ذلك أظهر السلطان من أمره ما كان يبطنه، وأعلن بما كان يسرُّه وخرج بما كان يخفيه ويضمره، وأمر بالخطبة لنفسه فخطب له بجامعي القلعة والمدينة في يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر، وأنفق فيمن وصل إلى خدمته وتجهز للمسير وأجمع على قصد دمشق واستقل ركابه العالي من قلعة الكرك بمن عنده من مماليكه، ومن وصل إلى خدمته في الساعة الثالثة من يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وترك بقلعة الكرك نائبه الأمير سيف الدين أرغون في طائفة من المماليك السلطانية حتى انتهى إلى منزله الخمان بالقرب من أذرعات، وكان قد كاتب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بحلب وغيره من النواب فلما وصل إلى هذه المنزلة وركب منها لقصد دمشق ورَدَ عليه مملوك الأمير شمس الدين قراسنقر المذكور بأجوبة مخدومة تتضمن وفاة ولده الأمير ناصر الدين محمد وأنه لا يمكنه اللحاق بالسلطان في هذا الوقت ويقول: إن كان السلطان قد خرج من الكرك فيعود إليها ويظهر أنه إنما خرج للصيد ونحو هذا من الكلام المخذل له عن القصد ولم يكن قَرَاسنْقر كتب ذلك وإنما كتب ببذل الطاعة والنصيحة والموافقة فلما وصل مملوكه إلى دمشق ظفر به الأمير جمال الدين آقش الأفرم نائب السلطنة بالشام، فتحيل عليه وبذل له ذهبًا وأخذ منه الكتب وغيّر ما تضمنته إلى هذا القول، فلما وصل كتاب قَرَاسُنْقُر إلى السلطان بذلك عاد إلى الكرك، وكان قد التحق بركابه في هذه السفرة من الأمراء بدمشق الأمير ركن الدين بيبرس الشرفي المعروف بالمجنون، والأمير ركن الدين بيبرس العلمي، وغيرهما من أمراء العشرات والجند، فعاد السلطان بهم جميعًا إلى الكرك وكان وصوله إليها في الساعة السابعة من يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رجب فأسكن الأمراء الذين معه بالكرك، ووصلهم بصلات وأنعم عليهم، وشرع في إعمال الفكرة وتجهّز لقصد دمشق ثانيًا فلما بلغ المظفر عوده إلى الكرك ظنّ أن ذلك عن عجز وخور، فكتب إليه كتبًا وسيّرها صحبة الأمير علاء الدين مغلطاي ابتغلي يتضمن الإنكار، والوعيد وأنه لا بد أن يفعل معه ما فعل بابن الملك المعز أولاد الملك الظاهر، ولم يراقب الله تعالى في مقالته، ولا خشي غيرة الله تعالى فلما وصل كتابه بذلك حملت السلطان أَنَفَةُ الملك على أن ضَرَبَ مُغْلَطَاي ابتغلي ضربًا وجيعًا واعتقله.

وكان أيضًا قد وصل إلى السلطان كتابه عند وصول الأمراء والمماليك السلطانية إلى الكرك على يد بينجار يتضمن أن طائفة هربوا من القاهرة خشية من القبض عليهم،

وتوجهوا نحو الشام وربما يقصدون الكرك فإن وصلوا إليه لا يقربوا، ولا يرجع إليهم ويقبض عليهم ويعيدهم فاعتقل السلطان قاصده الأول أيضًا، وترادفت المكاتبات والرسلُ إلى السلطان الملك الناصر من جهة النواب والأمراء تتضمن أنهم على الطاعة والموالاة وبذل النفوس والأموال بين يديه، ولم يبق من النواب ما لم ترد مطالعته بالانقياد والطاعة إلّا الأمير جمال الدين الأفرم فإنه أظهر المخالفة، وأصَرّ على الامتناع، وكان قد جرّد الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك وأردفه بالأمير سيف الدين الحاج بهادر في أربعمائة فارس وأمرهم أن يكونوا بأذرعات يمنعان السلطان الملك الناصر إن قصد دمشق ويكونا بمن معهما يَزَكًا[1] على تلك الجهة.

فلما كان في يوم الثلاثاء حادي عشر شعبان استقل ركاب السلطان من الكرك وفي خدمته من التحق به من الأمراء والمماليك السلطانية، وترك الأمير سيف الدين أرغون في طائفة بقلعة الكرك.

فلما وصل السلطان إلى بركة زيزا وهي المنزلة الثالثة من الكرك إلى جهة دمشق وصل إلى خدمته الأميران سيف الدين بَهَادُر وسيف الدين قُطْلُوبَك ومن معهما، وقَبَّلا الأرض بين يديه، وبذلا الطاعة والمناصحة والمؤازرة، فسار بهم إلى أذرعات ورسم بجميع خيل البريد وسياقتها من المراكز إلى دمشق فجمعت من بَيْسَان من الغور وما بعدها من المراكز إلى دمشق، وقصد بذلك تعذر وصول البريد من الديار المصرية إلى الشام وترادفت الأمراء من دمشق إلى خدمته أولًا فأولًا، ولما شاهد الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام ذلك من حال الأمراء، ولم يكن قد قدَّمَ من الخدمة ما يقضي اللحاق بخدمة السلطان والانضمام إلي، ثم أجمع أمْرَه على مفارقة دمشق، وتوجَّه بعض مماليكه إلى شقيف أرنون وكان خروجه من دمشق في ليلة الأحد سادس عشر شعبان، وصحبه الأمير علاء الدين بن صبح مقدم الجبلي، والتحق بركاب السلطان جماعة من مماليكه، واستمر السلطان على المسير إلى أن وصل إلى دمشق

---

(١) اليزك: كلمة فارسية، ومعناها الطلائع، وقد استعملها القلقشندي في «صبح الأعشى» ١٠/ ١١٠ «وتحريض الجند على تخير واقتفاء جيادها وبذل الجهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم». ويورد الدكتور أحمد السعيد سليمان لفظًا مغوليًا نعتقد أنه الأقرب إلى المعنى المراد في عبارة القلقشندي أعلاه فيقول: «ياساق: في المغولية معناها القانون، وفي التركية معناها المنع، ومنها اليسقي واليسقجي وهو القواس الذي يحرس القناصل والسفراء ويحميهم (انظر: التعريف بمصطلحات الصبح ص ٣٦٥، وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٢٠).

في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان ونزل، بالقصر الأبلق وانتظم له الأمر واستوثق.

وكان كتاب الملك المظفر قد وصل إلى سائر النواب والأمراء بالممالك الشامية: أنه متى استدعاهم الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام لا يتأخرون عن خدمته، فأوّل مَن اسْتُدْعِي الأمير سيف الدين بُكْتُمر الجُوكَنْدَار نائب السلطنة بالشام بالمملكة الصفدية فحضر بعسكر صفد فلما وصل السلطان تلقاه بالطاعة وحَلَفَ له، ثم أرسل السلطان الأمير جمال الدين آقش الأفرم في العود، وبَذَلَ له الزمان، ووعده بمضاعفة الإحسان والعفو عما سلف من ذنبه فحضر إلى الخدمة السلطانية في يوم السبت ثاني عشر شعبان وهو مشدود الوسط بمنديل فتلقَّاه السلطان، وترجّل لترجله وأحسن إليه وخلع إليه، وتحدث معه في النيابة على عادته، ثم ترادف وصولُ نوّاب السلطنة بالممالك الإسلامية وعساكرها، فوصل الأمير سيف الدين تمر الساقي بعسكر حمص ثم وصل الأمير سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحماة، والأمير سيف الدين أسندمر نائب السلطنة بالفتوحات وعساكرهما في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر فركب السلطان وتلقاهما، وعاملهما بما عامل به الأمير جمال الدين الأفرم، ثم وصل الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري نائب السلطنة بحلب في يوم الجمعة ثامن عشرين الشهر، فتلقاه السلطان كما تقدم، ووصل العسكر الحلبي في بُكْرَة نهار السبت بأحسن زي وأفخر ملبوس وأكمل عدة، وقدم سائر النواب من الأموال والمماليك والخيول والأقمشة والتحف وغير ذلك ما يخرج عن الإحصاء، وظهر من حسن إخلاصهم ما لا يزيد عليه، وخُطب للسلطان الملك الناصر على منابر دمشق في يوم الجمعة ثامن عشرين شعبان، وأقيمت الجمعة بالميدان، وحمل إليه منبر وصناجق وخطب خطيب الجامع واستناب عنه، وصلّى السلطان الجمعة بالميدان، والقضاة والنواب والأمراء وكذلك أيضًا في الآتية في خامس شهر رمضان وأعاد السلطان قاضي القضاة تقي الدين سليمان الحنبلي[1]، وكان قد عُزِلَ في أيام المظفر ـ فأعاده السلطان في يوم الاثنين رابع عشرين شعبان وخلع عليه في يوم الأربعاء، وحكم في يوم الخميس.

---

(١) تقي الدين سليمان الحنبلي: هو سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي، تقي الدين قاضي القضاة، توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٥، طبقات الحنابلة ٢/ ٢٦٤، الدرر الكامنة ٢/ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣١، البداية والنهاية ١٤/ ٧٥).

ولما تكامل وصول النواب والعساكر أمر السلطان بالنفقة في سائر الجيوش، وابتدى بها في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان وجُرِّدت العساكر أولًا فأولًا، فجرّد السلطان الأمير سيف الدين اسندمُر والأمير سيف الدين تُمر الساقي وأمرهما أن يتقدما إلى غزة بمن معهما، فتوجها، واستدعى السلطن الأمير سيف الدين كراي المنصوري - وكان بالقدس كما تقدم ذكر ذلك - فوصل إلى دمشق مسرعًا بهمة عالية، ورغبة في الخدمة ظاهرة، فرسم السلطان له ولمن معه من مماليكه بالنفقة، فامتنع من قبولها وسأله أن يُؤْذَن له في النفقة من ماله على جماعة من العسكر فشكر له ذلك، وخلع عليه وسأل أن يتقدم إلى غزة فأذِنَ له بالتقدم بمن معه، وجمع طائفة من العرب ونفق فيهم من ماله ووصل إلى الخدمة السلطانية في ثامن شهر رمضان من الديار المصرية أربعة من المماليك السلطانية، وأنْهَوْا له الأحوال على جَليَّتها وأن جماعة من الأمراء المصريين يترقبون قرب ركاب السلطان ليحضروا إلى الخدمة وأنهم على وجل أن يُعْلَم بحقيقة حالهم فيقبض عليهم فبرز السلطان بالعساكر والنواب من دمشق في بكرة نهار الثلاثاء تاسع عشر رمضان، وصَحِبَه قاضيًا القضاة نجم الدين الشافعي وصدر الدين الحنفي، والخطيب جلال الدين، وكاتب الدرج[1] وجماعة من الأعيان.

ووصل إلى الخدمة الشريفة بين منزلتي إربد والقصير قبل وصوله إلى العقبة جماعة من المماليك السلطانية، وهم يستحثون ركاب السلطان، فساق في هذا اليوم منزلتين في منزلة، ثم ترادف وصول المماليك وبعض الأمراء إلى أن حَلّ ركابُ السلطان بغزة في يوم الخميس ثامن عشر الشهر، وكانت المياه بها قليلة والعساكر ومن انضم إليها قد طبقت الأرض، وشق على الناس قلةُ المياه، وازدحموا عليها، فأرسل الله تعالى سحابة في بقية ذلك اليوم فأمطرت مطرًا كثيرًا غزيرًا إلى أن جَرَت منه الغُدْرَان، واجتمع منه ببركة بِغَزَّة ما شاهدتُ في اليوم الثاني منه الخيل تسبح في البركة، فحصل للعسكر بذلك غاية الرفق.

ولما استقل رِكَاب السلطان بغزة وصل إلى باب الدّهليز الشريف الأميرُ رُكْنُ الدين بيبرس الدَّوادار والأميرُ سيف الدين بَهَادُر آص وكان بهادر آص قد توجّه إلى الملك المظفر في شهر رجب وتأخر عوده فعاد الآن في ليلة السبت العشرين من الشهر، وكان وصول الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار بمطالعة المظفر يسأل قَلْعَة كما تقدم، ثم وصل الخبر بعودته.

---

(١) كاتب الدرج: تقدم التعريف به.

وفي يوم السبت العشرين من الشهر وصل إلى الخدمة السلطانية الأمراء الذين كانوا جُرِّدوا من الديار المصرية، وهم الأمير سيف الدين بُرلْغي، والأمير جمال الدين أقش الأشرفي والأمير عز الدين أيبك البغدادي، والأمير شمس الدين الركن وغيرهم من الأمراء فتلقاهم السلطانُ وأحسن إليهم، وخلع عليهم.

واستقل ركاب السلطان بسائر العساكر من غزة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان ثم ترادف الأمراء بعد ذلك في طول منازل الرمل يصل منهم في كل منزلة جماعة، والسلطان يشمل مَنْ وصل إليه منهم بخلعه وإنعامه، وجهز الأمير سيف الدين سلّار إلى السلطان الكوسات[١] والعصائب[٢]، وكان وصولها بمنزلة السعيدية ثم وصل السلطان إلى بركة الجب في يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان وتلقاه الأمير سيف الدين سَلّار وبات السلطانُ بهذه المنزلة وعيّدَ بها عيد الفطر، وركب منها ووصل إلى قلعة الجبل في التاسعة من يوم الأربعاء، وهو يوم العيد وبات بالإسطبل ثم أصبح وصعد إلى القلعة وجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في يوم الخميس ثاني شوال، وسأل الأمير سيف الدين سَلّار دستورًا في التوجه إلى الشُّوبَك وكانت جارية في إقطاعه ـ فأجيب إلى ذلك وخلع عليه خلعة العزل من النيابة وأنعم عليه بحياصة[٣] من الذهب مجوهرة وكان توجهه إلى الشوبك في يوم جمعة ثالث شوال، وودعه الأمراء فكانت مدة نيابته عن السلطان منذ فوضها السلطان إليه في يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة وإلى أن عزل إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر وستة وعشرين يومًا ورسم بإقامة ولده علاء الدين أميرًا على الأبواب السلطانية، وأنعم عليه بأمره عشرة طواشية.

وفي يوم الخميس سادس عشر شوال جلس السلطان بالإيوان الكبير بقلعة الجبل وحضر الأمراء إلى الخدمة على العادة، فأمر بالقبض على اثنين وعشرين

---

(١) الكوسات: هي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وشبّابة، يدق بها مرتين في القلعة كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة، ومرة قبل التسبيح وعلى المآذن، وتسمّى الدورة بذلك في القلعة، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه (صبح الأعشى ٤/٨).

(٢) العصائب: هي من الأعلام السلطانية، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرّزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه، وتسمّى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمّى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمّى السناجق (صبح الأعشى ٤/٧).

(٣) الحياصة: هي الحزام أو المنطقة، وهي في الأصل السير الذي يشد به حزام سرج الحصان. تقدم التعريف بها.

أميرًا من جملتهم عز الدين أيبك البغدادي، وسيف الدين بتاكز وغيرهم واعتقلوا.

ذكر استعادة ما أخذه الملك المظفر بيبرس من أموال الخزائن وعود الأمراء الذين توجهوا صحبته والقبض عليهم

ولما استقر السلطان الناصر بقلعة الجبل أرسل الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري والأمير سيف الدين بهادر آص إلى المظفر ركن الدين بيبرس فتوجها إلى الأعمال الإخميمية من الصعيد وحلفاه للسلطان واستعادا ما اعترف أنه التمسه من أموال الخزائن وتسلمها الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار وحضر بها في البحر، وسافر المظفر بيبرس ومن معه والأمير سيف الدين بهادر آص في البر الشرقي ليتوجه إلى صهيون فلما وصل إلى إطفيح فارقه الأمراء الذين كانوا معه وهم الأمير بدر الدين بكتُوت المفتاح والأمير عز الدين الخطيري والأمير سيف الدين قجماز بجاص وحضروا إلى الأبواب السلطانية وصحبتهم من مماليك المذكور نحو ثلاثمائة مملوك والخيل التي كان قد أخذها من الإسطبلات السلطانية، فخلع السلطانُ على الأمراء الثلاثة، وأمر بسياقة الخيل والبغال إلى الإسطبلات، وفرّق أكثر المماليك على الأمراء، وأقر بعضهم في الخدمة السلطانية، ثم أمر بالقبض على الأمراء الثلاثة واعتقلهم.

ذكر ما رتبه السلطان وقرره من النواب والوزارة وأرباب الوظائف بأبوابه وممالكه الشريفة

لما عزل الأمير سيف الدين سلَّار وتوجه إلى الشَّوبك جلس الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري في مرتبة النيابة من غير تقليد ولا تفويض، ثم رسم له بنيابة السلطنة بالشام عوضًا عن الأمير جمال الدين الأفرم، ونقل الأمير جمال الدين المذكور إلى صَرْخَد وأنعم عليه بمائة فارس، وفَوّضَ السلطان نيابة السلطنة بمقر مملكته وكرسي سلطنته للأمير سيف الدين بكتمر الجُوكُنْدَار وأمير جند أركان وفوّض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الخليلي وذلك في الثاني والعشرين من شوال وعوّق النشائي عوضًا عن الصاحب ضياء الدين النشائي بالقلعة أيَّامًا، ثم أفرج عنه من غير مصادرة، وفوّضت نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية للأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، ونيابة السلطنة الحموية للأمير سيف الدين

أسندمُركُرجي، ونيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات للأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي، ونيابة السلطنة بالمملكة الصَّفَدِيَّة للأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري، وعيّن للأمير سيف الدين أَبْغِية قَبْجَق إقطاع الأمير سيف الدين قُطْلُوبك بدمشق، واقتطع ما كان فيه من الزيادات وأقرَّ السلطان الأمير شمس الدين سُنْقُر الكمال في الحَجَبَة على عادته، والأمير سَيف الدين بَلَبَان المحمّدي المعروف طُرْناه أمير جَنْدَار، والأمير حسام الدين قَرالاجِين أمير مجلس إستاد دار العالية، والأمير ركن الدين بِيَبْرس الدّوادار المنصوري في نيابة دار العدل الشريفة، ونظر الأحباس والأوقاف بالديار المصرية والبلاد الشامية.

وفي يوم الأربعاء الخامس عشر من شوال أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء الذين اعتقلوا في الأيام الزينية كتبغا وهم: الأمير علاء الدين الشيخ علي، وسيف الدين جاورشي قنقز وموسى وغازي ملك أخوا حَمْدَان بن صلغاي، أخوا حمدان وناصر الدين منكلي التتاري، وسيف الدين منكجار وغيرهم، وأنعم عليهم بالإقطاعات بالشام، وأفرج عن الشيخ تقي الدين بن تيمية وقد تقدم ذكر ذلك.

وفي الشهر المذكور أيضًا حضر ناصر الدين محمد ابن الأمير جمال الدين آقش الرومي الحسامي مُطَالبًا بدَم أبيه فأمر السلطان بالقصاص ممّن قتله فَقُتلوا ـ وكانوا سبعة.

وفي نفس الشهر أمَّر السلطان جماعة من مماليكه وغيرهم منهم من المماليك السلطانية الأمير سيف الدين تَنْكز، والأمير سيف الدين طغاي والأمير سيف الدين خاص ترك، والأمير عز الدين أَيْدَمُر الخازن، ثم أمّرَ طائفة أخرى بعد هذه منهم: الأمير سيف الدين أَرْغُون الدوادار، ولم يؤخره عن هؤلاء إلا أنه كان قد تأخر بالكرك حتى أحْضَر أدُر السلطان[1] وولده الملك المنصور علاء الدين علي.

ذكر القبض على المظفر ركن الدين بيبرس وقتله

لما فارقه الأمراء والمماليك من إطفيح كما تقدم توجَّه وصحبته الأمير سيف الدين بَهَادُر آص، وعز الدين أَيْدَمُر الشجاعي إلى قصد صهيون، وساروا على الطريق البرية فلما انتهى إلى شرقي غزة على أميال منها اعترضه الأمير شمس الدين قراسُنْقُر المنصوري نائب السلطنة بالشام ومن معه من الأمراء، وقبضوا عليه وعلى من معه من

(١) أدر السلطان: أي حريمه وجواريه.

المماليك من غير ممانعة ولا مدافعة، وعاد به الأمير شمس الدين المذكور بشرذمة يسيرة من مماليكه، وهو على بغل مشدود الوسط بمنديل، ووصل به إلى مَنْزلة الخطارة ـ وهي على مسافة يومين من القاهرة ـ فوافاه لها الأميرُ سيف الدين أسندمر كُرْجِي نائب السلطنة بحماة وقد جُرِّدَ من الباب الشريف في جماعة من المماليك السلطانية ـ فتسلَّمه بهذه المنزلة من الأمير شمس الدين، وعاد به إلى القاهرة، ووصل إلى قلعة الجبل سحر يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعمائة، وأدخل من باب الإسطبل السلطاني، ومثل بين يدي السلطان في مجلس خلوة حضرة الأمراء الخاصكية، ويقال إن السلطان وبَّخَهُ وأنكر عليه تجرّيه وتطاوله إلى ما لا يستحقه من الملك وآخر الأمر أن السلطان سأله عن مُغْلَطاي السَّويْدِي أحد رَجَّالة الحلقة، وكان قد حضر بين يدي نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلَّار وتضرر من ضعف إقطاعه فعارضه بيبرس في حال إمرته، فقال له السُّوَيْدي: أنت قد وَسَّعَ الله عليك أو أعطاك ما أعطاك، وأنا رجل جنديّ أشكو لنائب السلطان ضَعْف إقطاعي، فما يحل لك أن تتعصَّبَ عليَّ فغضب منه وأحضره إلى داره وضربه بالدبابيس ضَربًا مؤلمًا فمات ويقال إن بيبرس اعترف بذلك، فأمر السلطان بقتله قَوَدًا بمُغْلَطَاي السُّوَيْدي، فقُتلَ خَنْقًا في بقية يوم الخميس المذكور، ودفن ليلة الجمعة منتصف ذي القعدة، وأخرج من باب السِّرِّ من جهة القرافة وعُفِّيَ أثر قبره، ثم أمر السلطان في سابع وعشرين الشهر بنقله إلى تربته التي بالقرافة، فنقل إليها ودُفن بها ليلًا، ثم أمر السلطان بنقل الأمراء الذين قبض عليهم من قلعة الجبل إلى ثغر الإسكندرية، فتوجه بهم الأمير ناصر الدين ابن أمير سلاح.

وفي هذه السنة أمر السلطان بالقبض على الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي القازاني أحد من توجه إليه إلى الكَرك، وسبب ذلك أنه شرع يُدِل بخدمته، وأنعم السلطان عليه بإقطاع بالديار المصرية فرده فأعطاه غيره فرد الثاني والثالث فنقم السلطان عليه ذلك، وأمر باعتقاله له بالزردخاناه[1] ثم نقله إلى البُرج في عشية النهار إلى الجب، ثم إلى الإسكندرية، وبلغه أيضًا عن الأميرين سيف الدين أبغيه قبجق وركن الدين بِيَبْرس

(١) الزردخاناه: ومعناها بيت الزرد، وربما قيل السلاح خاناه، ومعناها بيت السلاح. وتشتمل على أنواع السلاح: من السيوف، والقسي العربية والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد الماتع (أي الجيد البالغ الجودة) والقرقلات (نوع من الدروع)، المتخذة من صفائح الحديد المغشّاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك من الأطبار (هو الفأس). وسائر أنواع السلاح. (صبح الأعشى ٤/ ١١).

العلمي بدمشق أنهما تطاولا على الرعيّة ومد أيديهما إلى الظلم فأمر بالقبض عليهما: فقبض علي أبغية في يوم الأحد ثالث عشرين ذي الحجة وقبض على بيبرْس العلمي في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر، واعتقلا بقلعة دمشق، فمات أبِغْية في معتقله في جمادى الآخرة سنة عشر وسبعمائة.

وفيها في العشر الآخر من ذي الحجة رسم السلطان للأمير سيف الدين سَلَّار بأمرة مائة طواشي وعَيِّن لخاصة وأصحابه من بلاد الكَرَك أجْودَ ضِيَاعِهَا مُضَافًا إلى الشَّوْبك، فنظر إلى ذلك مع كثرته فوجَدَه يسيرًا بالنسبة إلى ما كان بيده بالديار المصرية.

وفي هذه السنة توفي القاضي عز الدين بن عبد العزيز ولد القاضي شرف الدين بن محمد بن القيسراني[١] أحد أعيان كتاب الدرج الشريف وفضلائهم، والمدرس بالمدرسة الفَخْرِيّة، وكانت وفاته في يوم الخميس عاشر صفر، ودفن بكرة نهار الجمعة بالقرافة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعْسر المنصوري[٢] بداره بالقاهرة في شهر ربيع الأول، ودفن بتربته التي أنشأها خارج باب النصر، وكان من الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالديار المصرية.

وتوفي الشيخ العارف العالم تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله بن عبد الرحمـٰن بن محمد بن الحسن الجُذَامي الإسكندري[٣] في ليلة السبت حادي عشر جمادى الآخرة، وكان من الصلحاء، يتكلم على كرسيّ ويعظ الناس، وله معرفة بكلام الصوفية وأرباب الطريق والسلف، وله كلام حسن مفيد في هذا الشأن رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي نبيه الدين حسن بن بدر الدين نصر بن الحسن الإسْعَرْدي[٤] بالقاهرة في مستهل جمادى الآخرة، وكان قد ترشَّح للمناصب العالية رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٠، الدرر الكامنة ٢/ ٤٩٢.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨، الدرر الكامنة ٢/ ١٧٧، البداية والنهاية ١٤/ ٥٧.
(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، الدرر الكامنة ١/ ١٤٢، طبقات الشافعية ٥/ ١٧٦.
(٤) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٠، الدرر الكامنة ٢/ ٤٧.

وتوفي الأمير عز الدين أيبك الخَزِنْدَار المنصوري في سابع شهر رمضان وكان من أكابر أمراء الديار المصرية مقدمي الألوف ومن المماليك المنصورية في زمن الإمرة.

وتوفي الأمير سيف الدين طُغْريل الإيغاني[١] في عاشر الشهر وقد تقدم ذكر ذلك.

وتوفي من الأمراء بدمشق الأمير شرف الدين قيران الدواداري[٢] المنصوري المشد ـ كان ـ بدمشق في يوم الجمعة سابع عشرين شهر ربيع الآخر ودفن بقاسيُون وكان بعد انفصاله من شد الشام ونكبته قد أمِّر بحلب، ثم قطع خُبْزَه، وحضر ليتوجه إلى الأبواب السلطانية فأدركته منيته، فمات رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين بلغاق ابن الأمير بدر الدين كونجك الخوارزمي في سابع جمادى الأولى بقرية المغاربة من عمل بيروت الجارية في أوقاف القدس، وحمل إلى قاسيون فدفن به، وكان أميرًا صالحًا جيّدًا سمع الحديث وولي آخر عمره نظر أوقاف القُدْس والخليل رحمه الله تعالى.

وتوفي أيضًا الأمير علاء الدين أقْطَوان الدواداري[٣] بدمشق.

واستهلت سنة عشر وسبعمائة

في هذه السنة في المحرم ولي الأمير سيفُ الدين بكْتَمر الحاجب نيابةَ السلطنة وتقدمة العسكر بغزة، عوضًا عن الأمير سيف الدين بَلَبَان البدري، وتوجّه إلى دمشق في رابع عشرين الشهر، واجتمع بنائب السلطنة، وتوجه إلى غزة في يوم الجمعة سابع عشرين الشهر.

وفيها فُوّضَت وزارة دمشق لنجم الدين البَصْروي[٤] على عادة تقي الدين توبة التكريتي[٥] فوصل إلى دمشق سابع صفر.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩.

(٢) الداوادار والدواتدار والدويتدار والدوالدار، من الكلمة العربية: دواة، ومن اللاحقة الفارسية: دار، ومعناها الصاحب والقيم، أي صاحب الدواة (تأصيل الدخيل ص ١٠٩).

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٩٤.

(٤) هو نجم الدين محمد بن عثمان البصروي، انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٥٨.

(٥) تقي الدين توبة التكريتي: هو توبة بن علي بن مهاجر بن شجاع الدين بن توبة الربعي التكريتي. تقي الدين، ولي وزارة دمشق سبع مرات، توفي سنة ٦٩٩ هـ (انظر ترجمته في: شذرات=

وفي هذه السنة رُسم لي أن أتوجه إلى المملكة الطرابلسية صاحبَ الديوان بها وكُتِبَ توقيعي بذلك وهو من إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي، وبخط ولده القاضي جمال الدين إبراهيم، وهو مُؤَرخ في الخامس عشر من المحرم، وتوجهتُ في مستهل صفر، ووصلت إلى طرابلس وباشرتُ الوظيفة ثم انتقلت إلى نظر الجيوش بها في مستهل شوال من السنة عوضًا عن نجم الدين القصير، واتَّفَقَتْ وفاته في سابع شوال قبل وصول توقيعي بذلك فباشرت في أول هذه السنة عوضًا عن التاج الطويل، وفي آخرها عوضًا عن النجم القصير.

ذكر الاستبدال بقاضي القضاة الشافعي والحنفي بالديار المصرية

وفي هذه السنة في يوم السبت التاسع والعشرين من صفر عزل قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة[١] عن القضاء بالديار المصرية وفوّض ذلك إلى نائبه القاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الأذرعي المعروف بالذرعي[٢] وخلع عليه واستَقَلّ بالقضاة، وطُلب قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ صفي الدين الحريري الحنفي من دمشق إلى الديار المصرية لولاية قضاء القضاة على مذهب أبي حنيفة فوصل البريد بطلبه إلى دمشق فركب منها في العشرين من شهر ربيع الأول، ووصل القاهرة، وفوّض إليه قضاء القضاة الحنفية في رابع شهر ربيع الآخر عوضًا عن القاضي شمس الدين أحمد السَّروجي وخلع عليه ولم تطل مدة القاضي شمس الدين السُّروجي بعد العزل فإنه مات في هذه السنة على ما يذكر إن شاء الله تعالى.

وفيها بلغ السلطان عن إخوة الأمير سيف الدين سلّار ما أوجب القبض عليهم واعتقالهم وكتب إلى أخيهم يعرفه ذلك وقبض أيضًا على جماعة من الأمراء بالديار المصرية، وكتَبَ إلى الشام بالقبض على جماعة من أمراء دمشق في شهر ربيع الأول؛ فقبض على سبعة منهم الأميرُ علاء الدين أقْطَوان الأشرفي، والأمير سيف الدين

= الذهب ٥/ ٤٥١، فوات الوفيات ١/ ٢٦١، الدليل الشافي ١/ ٢٢٩، النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٨، السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٨٨١).

(١) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، قاضي القضاة، بدر الدين الكناني الحموي الشافعي، توفي سنة ٧٣٢ هـ. تقدمت ترجمته الوافية.

(٢) جمال الدين الذرعي: تقدمت ترجمته.

الأَقُوش، والأمير علاء الدين الشيخ علي التتاري وغيرهم وكتب إلى طَرَابُلس بالقبض على الأمير حسام الدين طَرُنْطَاي المحمدي، وناصر الدين مَنْكُلِي، وسيف الدين منكجار ومرسي وغازي أولاد صُلْغَاي.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين سلَّار
ووفاته رحمه الله تعالى

وفي هذه السنة قبض على الأمير سيف الدين سلَّار المنصوري الصالحي العلائي وسبب ذلك أن السلطان اتصل به أنه كاتب جماعة من الأمراء، وشرع في استفسادهم وإثارة فتنة، فبادر السلطان بالقبض على من ذكرنا من الأمراء ممن اتهم بمباطنته، وكتب إلى الأمير سيف الدين سَلَّار المذكور يستدعيه إلى الأبواب السلطانية، وجهز إليه الأمير ناصر الدين محمد ابن أمير سلاح، فتوقَّف واعتذر عن الحضور، فأرسل إليه الأمير علم الدين سَنْجر الجاولي، ثم الأمير ركن الدين بيبرس الدَّوادَار المنصوري، فحضر وكان حضوره في سلخ شهر ربيع الآخر تحت الطاعة، وحَالَ وصوله اعتُقل واسْتَرجعَ السلطانُ قرية المُعيْصِرَة والإسطبل من قرى المرْج بدمشق، وكان السلطان قد ملَّكه من هذه القرية الذي انتقل إليه من ميراث الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وزوجته الأشرفية، وهو الربع والسدس في سنة ثلاث وسبعمائة، ثم ابتاع سلَّار من الورثة ما بقي منها، فاسترجعها السلطان منه الآن بمكتوب شرعي، ولم تطل مدة اعتقال سلَّار فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى في رابع عشرين جمادى الأولى من السنة، ودفن في الخامس والعشرين من الشهر بتربته التي أنشأها بجوار الكبش بظاهر القاهرة، ووقعت الحوطة على موجوده وأمواله وحواصله وذخائره، ووصل طُلْبُهُ[1] من الشَّوْبك ففُرّقَت مماليكهُ على الأمراء ثم ماتت والدته بعده بأيام يسيرة ودفنت عنده.

وسلَّار هذا رحمه الله تعالى كان من مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون في أيام إمرته، وهو من كسْبِ التتار في وقعة ابلُستين في أواخر الدولة الظاهرية، وأعطاه السلطان لولده الملك الصالح علاء الدين، فاختص به وخدمه وتقدم عنده، أخبرني الأمير بدر الدين بكتُوت الشرفي المنصوري، وكان من الدَّوَادارِيَّة المنصورية - قال: توجه الملك الصالح ابن السلطان الملك المنصور إلى الصيد فأرسل

---

(١) الطلب: تقدم التعريف به.

إلى السلطان من صَيْدِه خمسين جِمْلًا، وأرسل إلى الأمير حسام الدين طرنْطَاي خمسة أحمال، وأرسل إلى غيره وأرسل بذلك الأمير سيف الدين سلَّار قال: ففرح السلطان بذلك فرحًا شديدًا، وحضر الأمير حُسَام طُرُنْطاي إلى خدمة السلطان والصيد بين يديه، فأراه ذلك وقال له أي شيء تنعم به على سَلَّار، فقال له طُرَنْطَاي، سلَّار مملوك مولانا السلطان ومملوك ولده الملك الصالح، والسلطان الملك الصالح يُحبّ أن يفرح بمملوكه أمير عشرة، قال فنظر إليه السلطانُ وقال: يا طُرنْطَاي، والله إن دَوْلَة يكون فيها سلَّار أمير عشرة دولة كذا وأمر له بخمسة آلاف دِرْهم إنعامًا ولم يسمح له بإمرة عشرة، ثم أمِّرَ بعد ذلك، وبلغ في نيابته من التمكن ونفاذ الكلمة والاستقلال بالأمر وكثرة الإقطاعات، وسعة الأموال والمتاجر وغير ذلك ما لم يبلغه نائب سلطنة قبله، وكان يُعَد من الشجعان، ومن عقلاء الناس رحمه الله تعالى.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية للأمير جمال الدين الأفرم

في هذه السنة فوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات للأمير جمال الدين آقش الأفرم وسبب ذلك أن الأمير سيف الدين بَهَادر الحلبي الحاج ـ نائب السلطنة بها ـ توفي إلى رحمة الله تعالى في يوم الأحد ـ العاشرة من النهار ـ ثامن عشر ربيع الآخر بطرابلس، ودفن بها، وطولع السلطان بذلك، فرسم للأمير جمال الدين المذكور أن يتوجه إليها من صَرْخَد، فاستعفى من ذلك، فرسم بعود الأمير سيف الدين أسنْدُمر كُرْجِي إليها، فاستعفى أيضًا، وصمم أن لا يعود إلى طرابلس، فرسم ثانيًا للأمير جمال الدين أن يتوجه إليها وكتب تقليده بالنيابة ومنشوره بالإقطاع، وتوجّه إليه بذلك من الأبواب السلطانية الأميرُ ركن الدين بيبرس الأوْحَدي، فنقله من صَرْخَد إلى طرابلس، وكان وصوله إليها في نصف شهر رجب سنة عشر وسبعمائة.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالمملكة الحموية للأمير عماد الدين إسماعيل وانتقال الأمير سيف الدين أَسَنْدُمر إلى حلب

وفي هذه السنة وصل الأمير حُسَام الدين مُهَنّا[1] إلى الأبواب السلطانية فعامله السلطان بالإحسان والقبول على عادته فشكا من الأمير سيف الدين أسنْدُمر كُرْجي

(١) حسام الدين مهنا: تقدمت ترجمته.

نائب السلطنة بحماة أو ذكر سوء اعتماده، ففوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الحموية للأمير عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل علي، ورسم بانتقال الأمير سيف الدين أسندُمر إلى طَرَابُلس، فتوقف عن العَوْد إليها، ووصل الأمير عماد الدين إلى مدينة حماة ونزل بظاهرها في أواخر جمادى الآخرة، وما أمكنه الدخول إليها، والأمير سيف الدين أَسَندَمُر بها، واتفقت وفاة الأمير سيف الدين قَبْجَق المنصوري نائب بالمملكة الحلبية، فتوجه أَسَندَمُر من حماة إلى جهة حَلَب، وكتب إلى السلطان يقول: إن المواعيد الشريفة تقدمت للملوك أنه متى شَغَرَتْ نيابة حلب تكون للمملوك، وقد شغرت الآن وتوجَّه المملوك إليها حسب المواعيد الشريفة فأجابه السلطان إلى ذلك وأدركه تقليدُ النيابة ومنشورُ الإقطاع قبل دخوله إلى حلب، واستقر بها الأمير عماد الدين بحماة.

وفي شهر ربيع الأول قبض على الأمير فخر الدين إياز نائب السلطنة بقلعة المسلمين، وأوقعت الحوطةُ على موجوده، ووصل إلى دمشق في أواخر الشهر، ونسب إلى أنه كان يظهرُ الطاعة ويضمر العصيان ثم فوض إليه شاد الدواوين بدمشق عوضًا عن الأمير سيف الدين كَتْبُغَا المنصوري رأس نوبه، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين رابع عشر رمضان، وباشر في يوم الخميس سابع عشر الشهر، وكان كَتْبُغَا قد وَلِيَ شاد الشام في الثالث والعشرين من شوال سنة تسع وسبعمائة، عوضًا عن الأمير سيف الدين أقجبا المنصوري.

ذكر تفويض الوزارة بالديار المصرية للأمير سيف الدين بكْتمُر الحسامي الحاجب

في هذه السنة اسْتُدْعِيَ الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحُسَامِي من نيابة السلطنة بغزة إلى الأبواب الشريفة، وفُوّضَت إليه الوزارة وتدبيرُ الدولة في حادي عشر رمضان، وعزل الصاحب فخر الدين عُمَر الخليلي من الوزارة، وولي نيابة غزة الأمير سيف الدين قَطْلُقْتَمُر وفيها وصلت رسل الأشكري وصحبتهم رسل الكرج إلى الأبواب السلطانية يسألون إعادة كنيسة المصلبية بالقدس الشريف إليهم وكان الشيخ خضر قد انتزعها في الدولة الظاهرية وجعلها زاوية ـ كما تقدم ـ فأعيدت إليه بمقتضى فتاوى العلماء أنه لا يجوز اغتصابها. . . وسأل الأشكري إجراء أهل الذمة بالديار المصرية على عادتهم، وفتح كنائسهم، فأجيب إلى ذلك وفتحت لهم كنيستان للملكية

واليعاقبة، وكنيسة لليهود بمصر، ورسم لهم بالاستواء، في الركوب وكانوا قبل ذلك يركبون عرضًا من جهة واحدة.

ذكر تفويض الوزارة بدمشق
للرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي

وفي ذي القعدة من سنة عشر وسبعمائة وصل تقليد الوزارة بدمشق للرئيس عز الدين بن القلانسي فتوقف عن القبول واستعفى فألزم بالمباشرة، ولَبِسَ التشريف في يوم الخميس ثالث ذي القعدة وركب من داره وشاد الدواوين في خدمته، وأرباب الدولة توجه إلى نائب السلطنة وباشر وجلس بالدار الحسامية المشرفة على الديوان.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين أسنْدُمر كُرْجِي
وتفويض نيابة السلطنة بحلب للأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري
وتفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير سيف الدين كَرَاي

وفي هذه السنة اتصل بالسلطان عن الأمير سيف الدين أسندمر نائب السلطنة بحلب أشياء لا يمكن الإقرار عليها من الظلم والعسف وأخذ الأموال وأضاف إليها ما اعتمده بحماة، فجرّد السلطان من الديار المصرية الأمير سيف الدين كَرَاي المنصوري والأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي الحاجب، والأمير سيف الدين بَايْنْجار والأمير عز الدين أيْبَك الرُّومي ومضافيهم، وجعل التقدمة على الجيش للأمير سيف الدين كراي المذكور، وتوجهوا ووصلوا إلى دمشق في يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة، ونزلوا بمنزلة القابون، وجُرِّدَ من دمشق جماعة والمقدم عليهم الأمير سيف الدين بَهَادُرآص، وتوجهوا بجملتهم وجرِّد جماعة من الجيش الطرابلسي واجتمعوا بجملتهم على حِمْص ووقعت الشائعة أن قصد العسكر الدخول إلى بلاد الأرمن، ثم ركب هذا الجيش من حِمْص في ليلة عيد النحر قبل غروب الشمس، فساقوا طول الليل ونهار العيد بجملته، وثلث الليلة المستقبلة، فوصلوا إلى حلب وقد تقطعت أكثرُ الجيوش لشدة السوق، ووصلوا والأمير سيف الدين أسنْدُمر بدار السلطنة، فأحاطوا بها، وكان الخبر قد وصل إليه فأغلق باب الدار، وكان بالقرب من دار السلطنة أخشاب وعَجَل قد هيئت لجرِّ أعوادِ المجانيق إلى سِيس، فأمر الأمير سيف الدين كَرَاي بجرها إلى رحبة باب الدار وتوعير الطريق بها خوفًا من أن يركب ويهجم على العسكر، واستمرت

العساكر تتواصل في طول تلك الليلة، ثم أرسل إليه ناصر الدين أمير سلاح فدخل عليه واجتمع به، ودخل إليه أيضًا غيره من الأمراء، ثم خرج هو في بكرة نهار السبت حادي عشر ذي الحجة، ونقل إلى قلعة حَلَب وقد أوقعت الحوطة على موجوده، ثم جهز إلى الأبواب السلطانية صحبه جماعة من الأمراء منهم الأمير سيف الدين مَنْكُوتَمُر الطباخي، فوصلوا به فاعتقل بقلعة الجبل، ثم نقل إلى الإسكندرية، ثم إلى قلعة الكَرَك ومات بها.

وفيها أيضًا بعد القبض على أسندُمر قبض على الأمير سيف الدين طُوغَان نائب قلعة البيرة وكان القبض عليه باتفاق من رجّالة القلعة. وذلك أن الأمراء كتبوا إليه أن بعض مماليك أسندُمر قد خربوا فَرَكِّبْ مماليكَكَ ومَن تثق به خلفهم إلى أن تعيدهم، ففعل ذلك، وبقي بالقلعة وحده، فقبض عليه رجال القلعة واعتقلوه إلى أن حضر من العسكر من تسلّمه وسُيِّر إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط.

ولما قبض على الأمير سيف الدين أسندُمر رسم بنقل الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري من نيابة السلطنة بالشام إلى حلب بسؤاله لذلك، وتوجّه الأمير سيف الدين أرْغُون الدوادار الناصري إلى الشام بتقليدين أحدهما للأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر بنيابة السلطنة بحلب، والثاني للأمير سيف الدين كَرَاي المنصوري بنيابة السلطنة بدمشق، فوصل إلى دمشق في يوم السبت خامس عشر ذي الحجة، فتجهز الأمير شمس الدين للسفر، فلما كان في يوم الثلاثاء ورَدَ عليه كتابٌ من أحد مماليكه بحلب يذكر أن الأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي تحدث في نيابة السلطنة بحلب، فخشي قراسُنْقُر أن يكون الغرض القبض عليه فشاع أنه فرَّقَ ما في خزانته من الذهب على مماليكه، وعزم على الهرب، ونقل حريمه من القصر إلى داره التي بدمشق داخل باب الفراديس، واتصل هذا الخبر بالأمراء فركب الأمير ركن الدين بيبرس العلائي وجماعةٌ من العسكر وأحاطوا بالقصر الأبلق في ليلة الأربعاء فلما أصبح اجتمع هو والعلائي وسأله عن السبب الحامل له على ما فعل، فذكر ما بلغه عنه، ثم توجّه الأمير شمس الدين إلى حلب من دمشق في يوم الأحد ثالث محرم سنة إحدى عشرة وسبعمائة وتوجه الأمير سيف الدين أرغون إلى حلب لإحضار الأمير سيف الدين كَرَاي إلى دمشق، في سنة إحدى عشرة وسبعمائة على ما نذكره.

ذكر حادثة الأميرين مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح وسيف الدين بتخاص والقبض عليهما

كان القبض على الأمير سيف الدين بتخاص في سلخ ذي الحجة سنة عشر وسبعمائة، وسبب ذلك أن السلطان بلغه أن المذكور حسَّن للأمير مظفر الدين موسى ابن أخيه السلطان الملك الصالح الخروج على عمه السلطان الملك الناصر، وطلب الملك لنفسه، واتفقا على ذلك وعزما على إثارة فتنة، واعتضد بمماليك بيبرس المنعوت بالمظفر، وكانوا قد تفرقوا عند الأمراء، فقرر معهم أن كل مملوك يثب على أميره فيقتله ثم يتجمعون على الأمير مظفر الدين وبَتْخَاص، وتثور الفتنة. فلما تحقق السلطان ذلك جلس في ليلة الخميس سلخ ذي الحجة، وطلب الأمير سيف الدين بَتْخاص. وكان يسكن بقلعة الجبل بدار العدل الكاملية. فعلم المراد بطلبه وتحقق أن السلطان بلغه ما اتفقا عليه فأغلق داره وامتنع من الإجابة؛ ووقف مماليكه بأعلى الدار وبأيديهم قسيهم للممانعة عنه، وترددت الرسائل من السلطان في طلبه وهو لا يجيب إلى الحضور، وقصد خلع الشباك الكبير الذي بالدار المطل على دركات القلعة والخروج منه، فأرسل السلطان جماعة من المماليك الأوشاقية وغيرهم، فوقفوا تحت الشباك، فتعذر عليه ما دَبَّرَه وحضر إليه الأمير ركن الدين بَيبرَس الدوادار المنصوري وعَنَّفَه ولامه على ما فعله، وقال له إن السلطان في هذا الوقت قد طلب سائر الأمراء وطُلبتَ من جملتهم، فلا تجعل لك ذنبًا. وكان قد لبس عدة الحرب فنزعها وخرج وحضر بين يدي السلطان، فأمر بالقبض عليه واعتقاله، وطلب السلطان الأمير مُظَفَّر الدين موسى ابن أخيه الملك الصالح، فهرب من داره بالقاهرة، فرسم السلطان بهدم الأماكن التي يُظَنُّ أنه اختفى بها وندب لذلك الأمير علاء الدين أيدغُدي شُقَير(١) وغيرَه، فهدموا بعض الأماكن واشتد الأمر يومي الخميس والجمعة مستهل محرم سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى بعد الصلاة، فحضر بعض فقهاء المكاتب وذكر أنه اختفى عند سيف الدين بَلَبَان أستاذ دار قُطُز بن الفَارقانية في حارة الوزيرية، فقبض عليه وأحضر إلى السلطان، فأمر أن يسمر الذي أخفاه، فسمر وطِيفَ به على جمل، ثم شفعُ فيه فأطلق، وأحضر السلطان الأمير موسى وبَتخاص وقررهما فأقر كل منهما على الآخر فَعرفُ الأمير موسى ببعض قاعات القلعة، ثم أخرج منها في سنة إحدى عشرة

---

(١) الأمير علاء الدين أيدغدي شقير: كان من مماليك لاجين، قتل سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٢٥).

وسبعمائة، وأشيع أنه جهز إلى اليمن، ثم أظهر السلطان موته في العشر الأول من صفر سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، وأمر بعمل عزائه فعملته أمّهُ منكبك ابنة الأمير سيف الدين نُوكيه، وثبتت وفاتُه على الحكام، وكان ممن شهد بوفاته الطواشي شجاع الدين عَنْبر الّلالَا، ولما قبض السلطان عليهما أمر بالقبض على جماعة من المماليك الركنية وقَطَعَ يَد أحدهم، وكان للأمير سيف الدين بتْخَاص؛ لأنه رَمَى فَردة نُشاب عند طلب بتخاص، ثم شفع في بقيتهم.

وفي سنة عشر وسبعمائة توفي قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السّروجي الحنفي[١] معزولًا عن القضاء وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الخميس ثاني عشرين شهر ربيع الآخر، ودفن بالقرافة الصُغرى، بقرب تربة الإمام الشافعي، ومولده سنة سبع وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي عز الدين الحسن بن الحارث ابن مسكين الشافعي[٢]، بداره بمصر في ليلة السبت ثامن جمادى الأولى، ودفن من الغد بالقرافة، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، عين لقضاه القضاة ولم يَلِ.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد بن علاء الدين بن عبادة وكيل الخواص الشريفة، وكانت وفاته بباب داره بالقاهرة، في ليلة الأحد سادس عشر جمادى الأولى ودفن من الغد بتربته بالقرافة، ووَلِي وَكالة الخَواصّ بعْدَه، القاضي كريم الدين عبد الكريم[٣]، وهو الذي كان ناظر ديوان بيبرس الجاشنكير المنعوت بالمظفر، وكان السلطان شديد الكراهية له، وصمم على قتله، ثم انتقل من هذه الرتبة إلى منزلة الخصوصية والتمكن من الدولة وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وتوفي القاضي أمين الدين أبو بكر ابن وجيه الدين عبد العظيم بن يوسف المعروف بابن الوقاقي ناظر الدواوين بالديار المصرية في ليلة الأحد الثالث والعشرين من جمادى الأولى، ودفن بتربته بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى جَيدًا خيِّرًا كثير المروءة والإحسان إلى خلق الله تعالى.

(١) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٣٤، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠، الدرر الكامنة ١/ ٩٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٢.
(٢) انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ١/ ٤٢٢، السلوك للمقريزي ٢/ ١ : ٩٥.
(٣) كريم الدين عبد الكريم: هو عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري، ناظر الخواص، قتله السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٧٥، الدرر الكامنة ٣/ ١٥).

وتوفي في ثالث عشرين جمادى الأولى الأمير خضر ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان(١)، ودفن بتربته بجوار مشهد السيدة نفيسة.

وتوفي القاضي بدر الدين أبو البركات عبد اللطيف ابن قاضي القضاء تقي الدين محمد بن الحسين بن رزِين الحموي(٢) بالقاهرة في يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الآخر، ودفن من يومه عند والده بالقرافة، وكان قاضي العساكر المنصورة، ومولده بدمشق في تسع وأربعين وستمائة.

وتوفي الأمير سيف الدين بُرلْغي الأشرفي(٣) في ليلة الأربعاء ثاني شهر رجب ودفن، وذلك بعد القبض عليه واعتقاله، رحمه الله وتوفي الملك المنصور علاء الدين على ابن الملك الناصر في ليلة الجمعة المسفرة عن حادي عشر رجب بقلعة الجبل، ودفن من الغد بتربته بالقبة الناصرية بالقاهرة، وكان السلطان والده في الصيد، فنزل نائب السلطنة الأمير سيف الدين بكتمر والأمراء مشاة أمام تابوته إلى أن دفن، وكان عمره ست سنين وشهورًا، ولما مات وقفت والدته أردكين ابنة الأمير سيف الدين نوكيه ما خصها بالإرث الشرعي عن زوجها الملك الأشرف وابنتها منه من خان دار الطعم بدمشق وهو ثلاثة أسهم وثلث سهم وربع سهم وثمن سهم وسدس عُشر سهم، وشرطت أن يُرصد ما يُتَحصَّل من ربع هذه الحصة المذكورة لثمن خُبْز ويُفَرق على أهل المكان من القراء والمؤذنين والقومة وغيرهم.

وتوفي القاضي بهاء الدين عبد الرحمٰن ابن القاضي الخطيب عماد الدين علي بن عبد العزيز بن السّكري بمصر عشية الجمعة حادي عشر شهر رجب، ودفن بالقرافة في حياة والده رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد بن الرِّفعة(٤) بمصر في ليلة الجمعة

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٨٤.

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٦، وفيه توفي سنة ٧١١ هـ.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٩، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦.

(٤) ابن الرفعة: هو أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع بن صارم بن الرفعة الأنصاري، نجم الدين أبو العباس المصري، المعروف بابن الرفعة الشافعي، ولد سنة ٦٤٥ هـ، وتوفي سنة ٧١٠ هـ، له من المصنفات: «الإيضاح والتبيان في المكيال والميزان»، «رسالة الكنائس والبيع»، «كفاية النبيه في شرح التنبيه لأبي إسحٰق الشيرازي» في الفروع، «المطلب العالي في شرح الوسيط للغزالي»، «النفائس في هدم الكنائس». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٣، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٤، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٩٥، طبقات الشافعية ٩/ ٢٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣، شذرات الذهب ٦/ ٢٢).

ثامن عشر شهر رجب، ودفن من الغد بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى من فضلاء الشافعية وأكابر المفتين، وصنّف كتابًا في الفقه على مذهب الإمام الشافعي[(١)] في نحو عشرين مجلدًا. وتوفي الأمير جمال الدين آقُش المُوصلي المعروف بقتال السبع[(٢)]، أمير علم أحد الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية، في ليلة السبت تاسع شهر رجب رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ العارف كريم الدين أبو القاسم عبد الكريم بن الحسين الطبري[(٣)] شيخ الشيوخ بخانقاه الملك الناصر صلاح الدين في ليلة السبت سابع شوال رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الطواشي شهاب الدين مرشد الخزنْدار المنصوري بداره بالقاهرة في ليلة الخميس ثالث ذي القعدة، ودفن من الغد بالقرافة، وكان من الخدام المنصورية في زمن إمرة السلطان الملك المنصور، وكان رجلًا جيّدًا خيّرًا. رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ المسند بهاء الدين أبو الحسن علي بن الفقيه عيسى بن سليمان بن رمضان الثعلبي المعروف بابن القيم[(٤)] بمنزله بالقاهرة، في يوم السبت سادس عشرين ذي القعدة، ودفن من الغد بالقرافة، وكان قد انفرد بالرواية عن الشيخ نجم الدين الفارسي سمع عليه في سنة عشرين وستمائة وروي عن ابن باقا وسبط السِّلفي، ومولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة، ومات وقُوّتُه جَيّدة، وحواسُّه صحيحة رحمه الله تعالى.

---

(١) هو الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف الهاشمي القرشي المكي، أبو عبد الله، أحد أئمة المذاهب الأربعة، وإليه ينسب الشافعية، توفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ، ويتلخص مذهبه في إيثار العودة إلى نصوص القرآن والسنة، إلى جانب أخذه بفتاوى الصحابة لإثبات بعض الأحكام. (انظر: وفيات الأعيان ٤/ ١٦٣ ـ ١٦٩، الفهرست ص ٢٦٣، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦ ـ ٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٩، تهذيب التهذيب ٩/ ٢٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ١٤٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦، الدرر الكامنة ١/ ٤٣٢، الوافي بالوفيات ٩/ ٣٥١.

(٣) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٤٢٥، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٩٥، الدرر الكامنة ٢/ ٣٩٧.

(٤) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٣، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٩٦، تاريخ دول الإسلام ٢/ ١٦٤، الدرر الكامنة ٣/ ٩١.

وتوفي من الأمراء بدمشق الأمير سيف الدين قشتُمر الشمسي مملوك الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري، كان من الأمراء بدمشق، وتقدم على الجيوش بحلب، وكانت وفاته في عشية الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الأول رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أقجبا المنصوري بدمشق، في ليلة الاثنين تاسع عشرين شهر ربيع الآخر، ودفن من الغد بتربته خارج باب الجابية، وكان أميرًا كبيرًا خيّرًا أمينًا، ولي نيابة السلطنة بدمشق، وتقدمة العسكر بغزة، وولي شاد الدواوين وأستاذ الدوادارية بدمشق رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة

في هذه السنة عادت رسل السلطان الملك الناصر من جهة الملك طقطاي فأسرهم الإفرنج هُمْ درسل الملك طقطاي إلى السلطان، وكانوا هم وأتباعهم وغلمانهم نحو ستين نفرًا، وذلك في شهر ربيع الأول ومرُّوا بهم على البلاد الساحلية، وقصدوا بيعهم ووصلوا بهم إلى طرابلس الشام، وعرضوا بيعهم بها واشتطوا في الثمن، وطلبوا ستين ألف دينار عينًا ثم توجهوا بهم إلى أياس وعرضوهم على صاحب سيس بهذا الثمن، فامتنع أن يبتاعهم فتوجهوا بهم إلى جزيرة المصطكي، فعند ذلك أمر السلطان بالقبض على تجار الفِرنْج الذين بثغر الإسكندرية والاحتياط على أموالهم، والتزم أنه لا يطلقهم ولا يفرج عن أموالهم إلا بعد حضور رسله، فخرج سكران الجنوي التاجر إلى المَصطكي وخلصهم وأرسلهم إلى الديار المصرية وكان مثولهم بين يدي السلطان في سادس عشر ربيع الأول سنة ثنتي عشرة وسبعمائة.

ذكر انتقال الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي من الوزارة إلى الحجبة وتفويض الوزارة للصاحب أمين الدين عبد الله

في هذه السنة في مستهل ربيع الآخر نقل الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي من الوزارة، وتدبير الدولة إلى الحجبة، ورسم للأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي أمير حاجب بالجلوس، فجلس في رأس الميمنة، وفوّض السلطان الوزارة للصاحب أمين

الدين عبد الله بن الغنام[١] وخلع عليه في سادس الشهر وكان قبل ذلك قد ولي نظر النظار في وزارة الأمير سيف الدين بكتمر.

وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر أعيد قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة الشافعي إلى قضاء القضاة بالديار المصرية واستقر القاضي جمال الدين الأذرعي قاضي العسكر، وجلس بين قاضي القضاة شمس الدين الحنفي، وقاضي القضاة تقي الدين الحنبلي.

وفيها في مستهل جمادى الأولى فوّض السلطان نيابة السلطنة بغزة وتقدمة العسكر بها للأمير علم الدين سنجر الجاولي وقبض على نائب السلطنة بها للأمير سيف الدين قطلقتمر[٢] ولبس الأمير علم الدين في التّشريف ثالث الشهر.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين بكتمر نائب السلطنة وإلزامه، وتفويض نيابة السلطنة للأمير ركن الدين بيبرس الدوادار

وفي يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأول أمر السلطان بالقبض على نائبه الأمير سيف الدين بَكْتُمرَ وعلى إلزامه فقبض عليه وعلى صهره الأمير سيف الدين بكتمر وصهره الثاني علاء الدين أيْدُغْدي العثماني، والأمير سيف الدين مَنْكُوتُمر الطباخي والأمير بدر الدين بُكمُش الساقي وعز الدين أيدمر الشمسي المعروف بالصفدي، وذلك بعد صلاة الجمعة، وقبض في يوم السبت على الأمير عز الدين أيدمر الشيخي واعتقلوا كلهم. وكان سبب ذلك أنه اتصل بالسلطان أنه شرع في التدبير عليه وطلب الأمر لنفسه، وأن هؤلاء ممن باطنه فقبض عليهم، وقتل منكوتمر الطباخي لوقته، لأنه فاجأ بالإقرار، وتكلم بكلام قوي فيما قيل، ولما قبض السلطان على الأمير سيف الدين بكتمر فوّض نيابة السلطنة للأمير ركن الدين بيبرَس الدوادَار المنصوري.

ذكر جلوس السلطان بدار العدل

وفي هذه السنة في يوم الاثنين العشرين من جمادى الأولى ـ جلس السلطان بدار العدل الشريف، وجلس معه قضاة القضاء الأربعة بعد أن نُودِي في المدينتين. أنه

(١) هو عبد الله بن تاج الرياسة بن الغنام، الوزير أمين الدين، أمين الملك، أبو سعيد (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٢٥، الدرر الكامنة ٢/ ٢٥١).

(٢) هو صهر الجالق، ولي نيابة غزة قبل الجالق (انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٢٢١).

من كانت له مظلمة فليحضر إلى دار العدل، ويرفع قصته ويشكو حاله. فحضر الناس وقرئت قصصهم بين يدي السلطان، وكان جلوسه بالإيوان الذي جدَّدَه في موضع الإيوان الكبير المنصوري، واستمر الملك يجلس بدار العدل في كل يوم اثنين إلى هذا الوقت في سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

وفي جمادى الآخر عَزَلَ السلطان قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي[1] عن القضاء، بسبب مكتوب أَثْبَتَه فأراد السلطان أن يرجع عن إثباته فأبى قاضي القضاة وطعن السلطانُ فيمن شهد عند قاضي القضاة من الخدام، فلم يرجع قاضي القضاة، وصمم على حكمه، فقال له السلطان: قد أعزلتك. فقال: قد راحني الله، وقام من المجلس ولم يُول غيره، وسعى من له تَشَوّفَ إلى القضاء، فلما اتصل خبر سعيهم بالسلطان، أعاد قاضي القضاة زين الدين، وخلع عليه في يوم الأحد سادس شهر رجب من السنة.

ذكر عدة حَوَادث بالشام في سنة إحدى عشرة وسبعمائة

في هذه السنة في ثالث المحرم توجه الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصوري من دمشق إلى نيابة السلطنة بحلب كما تقدم، ولما توجه رسم للأمير سيف الدين بهادر السَّنْجري نائب السلطنة بقلعة دمشق بتنفيذ الأمور إلى أن يصل نائب السلطنة، فجلس بالقلعة، وحضر إليه الصاحب عز الدين وغيره، واستخدم الصاحبُ المذكور جماعةً من المباشرين في هذه المدة، فتغيّر الأمير سيف الدين كَراي عليه عند وصوله بسبب ذلك، ثم وصل نائب السلطنة الأمير سيف الدين كَراي إلى دمشق في يوم الخميس العشرين من المحرم، ونزل بدار الأمير علم الدين سَنْجَر الجَاولي المشرفة على الميدان، ونصب بالميدان خيمةً، ولبس تشريف النيابة في يوم الاثنين خامس عشرين الشهر، وقرىء تقليدهُ بالميدان بحضرة الأمراء، ثم قرىء ثانيًا في يوم الجمعة سلخ الشهر بالجامع، ثم توجه الأمير سيف الدين أرغون إلى الأبواب السلطانية في مستهل صفر، وكان لما عاد من حلب عرَّج إلى طرابلس، واجتمع بالأمير جمال الدين الأفرم نائب السلطنة بها، وأحضر إليه أمثلة السلطان تتضمن ذكر السبب الموجب القبض على أَسَنْدُمر، ويُطَيِّبُ قلبه. ولما حضر تَلَقَّاهُ نائبُ السلطنة والأمراء، وبات ليلةَ واحدة، وركب من الغد في الموكب، وجلس بدار العدل مع نائب السلطنة، ثم توجه

(١) زين الدين علي بن مخلوف: تقدمت ترجمته.

في بقية يومه، وركب نائبُ السلطنة والأمراء لوداعه، وسكن خاطر الأمير جمال الدين الأفرم بعد قلق كثير.

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر وصل الأمير سيف الدين طُوغَان المنصوري من الأبواب السلطانية إلى دمشق متوليًا وظيفةَ الشاد بها عوضًا عن الأمير فخر الدين إياز وقَبَضَ على إيَاز في يوم الثلاثاء من عَشر الشهر، وقرَّرَ عليه ثلاثمائة ألف درهم يحملها إلى بيت المال، وسلمه إلى الأمير سيف الدين طُوغَان يستخرج منه ذلك. وفي شهر ربيع الآخر رُسم للأمير ركن الدين العلائي أن يكون نائب السلطنة بحمص، فتوجه لذلك.

ذكر عزل الصاحب عز الدين بن القلانسي عن وزارة الشام وانتداب أعدائه لمرافعته وخلاصه

وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر أوقع نائبُ السلطنة بدمشق الأمير سيفُ الدين كراي الحوطة على الصاحب عز الدين حمزة بن القَلانِسي، ورسم عليه بالدار الحسامية، ومنع الناس من الاجتماع به، وأمر بالكشف عليه ومحاققته على مباشرته، وهل تعرض للأموال؟ فما وجد في مباشرته ما يشينه، فَعُدِل عن ذلك إلى مطالبته بما انساق من البواقي على ضمان الجهات في مدة مباشرته: وهو أربعون ألف درهم، فحملها إلى بيت المال.

ولما ظهر انحمال نائب السلطنة عليه انتدب لمرافعته نجم الدين عبد الرزاق بن الشهاب الدُّنَيْسَرِي، وكَتَبَ محضرًا يتضمن أنه لما اشترى من وكيل السلطان الحصة من الرمثاء والفضالية، والتوجه كانت القيمة عن ذلك مائتي ألف درهم وأربعين ألف درهم وأنه ابتاع ذلك بمائة ألف وخمسين درهمًا، وشهد في المحضر جمال الدين ابن شمس الدين ابن الشيخ صدر الدين سليمان الحنفي، وشرف الدين، وبهاء الدين أولاد عز الدين بن الشِّيرجي، وشمس الدين بن أُفتكين. وقام في ذلك الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك السعيد ابن الملك الصالح إسماعيل وحضر من حماه وهو الذي كان توكَّل عن السلطان في بيع الحصص المذكورة للرئيس عز الدين، فأحْضَر محضرًا يتضمن أنه عزل نفسه قبل البيع من الوكالة السلطانية بخمسة عشر يومًا، وثبت ذلك على القاضي نجم الدين الدمشقي، وأشهد عليه في مستهل جمادى الأولى ببطلان البيع، لأنه بدون القيمة، ولعزل الوكيل البائع نفسه قبل صدور المعاقدة، ولوجود ما يوفَّى منه الدينُ غير العقار ثم نَفَّذَهُ القضاة في يوم الجمعة ثالث جمادى

الأولى، وأحضر الرئيسُ عز الدين في يوم الاثنين سادس الشهر في مجلس نائب السلطنة، وادَّعى عليه بما تَحَصَّل من ريع المِلْكِ المذكور منذ تَسَلُّمه، واعتقل بدار السعادة، واستمر بها إلى أن وصل الأمير سيف الدين أرغون وقبض على نائب السلطنة في ثالث عشر الشهر، فأفرِجَ عنه، ثم وصل تقليدُه باستمراره على وكالة الخواص الشريفة في حادي عشرين جمادى الآخرة، وتوجه إلى الأبواب السلطانية في يوم السبت رابع عشرين الشهر، فشمله الإنعام السلطاني بالتشريف، والإشهاد بإمضاء البيع، والمسامحة بالريع في المدة الماضية، وعاد إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني شعبان من السنة، ثم أثبتَ على قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي مكتوبٌ بعداوة القاضي نجم الدين الدمشقي له، وإبطال ما حكم به عليه، ورسم السلطان أن يعاد إليه ما كان حُمِّله منسوبًا إلى البواقي، فأعيد إليه كملًا.

ذكر طلب أعيان دمشق وما قرر عليهم من استخدام الخيالة وما وقع بسبب ذلك من الفتن

كان سبب هذا الطلب أن الشناعة قويت بحركة العدو المخذول التتار فورد المرسوم السلطاني في عاشر شهر ربيع الآخر أن يستخدم الأمراء بدمشق على خواصهم نظير عدتهم من الجند، وأن يكونوا على أهْبَةٍ متى طلبوا، وأن يستخرج من أهل الشام خيل الحجر المقررة قديمًا فلما كان في يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى طلبَ أكابر دمشق وقرر عليهم استخدام ألفٍ وخمسمائة فارس، وكانت العادة المقررة مائتي فارس، فاجتمع الأعيانُ لتقرير ذلك على الناس، فقرروا استخدام ثمانمائة فارس على نحو ثلاثمائة إنسان، وعجزوا. فسألوا أن يقرروا على أهل الأسواق وخواص البلد، فأجيبوا إلى ذلك، وجلسوا في خامس الشهر بالمدرسة القليجية لتقرير ذلك، فَغُلِّقت أسواق البلد يومين، وتَعطَّلت جهاتُ الهلال بسبب ذلك، ثم فتحت الأسواق وحصل الشروع في تسقيع الأملاك، والأوقاف، وتحقيق أمرها والمطالبة من نسبتها، فضجّ الناس لذلك، واجتمعوا بالقضاة والخطيب، وتواعدوا كلهم على الاجتماع بنائب السلطنة فلما كان في يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى أخرج الخطيب جلال الدين القزويني[1] المصحف الكريم العثماني

(١) جلال الدين القزويني: هو محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر، جلال الدين القزويني، ولد بالموصل، قدم دمشق ومصر، صار قاضيًا بالشام، وتوفي سنة ٧٣٩ هـ، من تصانيفه: «الإيضاح على صاحب المفتاح» في المعاني والبيان، «تلخيص المفتاح للسكاكي»، «المشذر المرجاني من=

ونعل النبيّ ﷺ، وصَحِبَهُ العلماءُ والفقهاءُ والقراء والمؤذنون وعامةُ الناس وحُملت صناجقُ الجامع، وخرجوا بجملتهم من باب الفرج إلى سوق الخيل، وكان قد تقدمهم العميانُ واستغاثوا وشكوا أنه قرر على الأوقاف التي عليهم أجرة أربعة شهور. فصرفهم الحاجبُ وقال قد أعفيتُم من الطلب، ثم تلاهم الجذماء وشكوا مثل ذلك، فقيل لهم مثل ذلك، ثم جاء صبيان مكاتب السبيل الأيتام، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل، فبكى الأمراء ومن حضر الموكب من الناس. ثم جاء الجمعُ الكثير وتقدمُوا الخطيبَ إلى الموكب، وهم يستغيثون، فضربهم النقباء بأمر نائب السلطنة وسقط المصحف الكريم والنعل المكرم النبوي إلى الأرض، والصناجق، ثم رفعت وأعيدت إلى البلد، ورسم أن يتوجه الخطيبُ إلى القصر فتوجه. فلما حضر إلى نائب السلطنة لكمه بيده ثلاث لكمات، وسبَّ قاضي القضاة نجم الدين كونه ما أنهى إليه هذه الصورة قبل وقوعها، ثم توجها إلى بيوتهما، وَمُدَّ السماط على العادة فما تقدم إليه أحد من الأمراء ولا نائب السلطنة ولا حاشيته، ثم تفرق الناسُ وطلب نائب السلطنة الخطيب جلال الدين، والشيخ مجد الدين التُّونسي فَضَربَ التونسي بين يديه تسعينَ عصاه ضربًا وجيعًا، ورسم عليه وعلى الخطيب، ثم ضُمِّن عليهما، وأفرج عنهما، ثم تقرر الحالُ في يوم الجمعة سابع عشر الشهر على استخدام أربعمائة فارس، وأن يؤخر استخراج المال إلى أن يحل ركاب السلطان بالشام، وسكن الحال بعض السكون، وتوقع الناس لنائب السلطنة حلول النقمة لما أمر بضرب العوام وحملة المصحف والنعل النبوي، وكان الأمر كما توقعوه.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين كراي نائب السلطنة بالشام والأمير سيف الدين قطلوبك نائب السلطنة بالمملكة الصفدية

كان القبض على الأمير سيف الدين كراي في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وذلك أن الأمير سيف الدين أرْغُون الدَّوادَار الناصري وصل على خيل البريد في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من الشهر، ووصل أيضًا في هذا اليوم مملوك نائب السلطنة من الأبواب السلطانية بأجوبة تقادمه، وأحضر لمخدومه تشريفًا وحياصة وسيفًا، وكان على يد الأمير سيف الدين أرغون عِدَّة كتب من السلطان إلى الأمراء بالقبض على الأمير سيف الدين كراي. فلما وصل وجد الأمير سيف الدين

= شعر الأرجاني». (كشف الظنون ٦/ ١٥٠).

كُجْكُن[١] بظاهر دمشق وصحبته رسل التتار يتوجه بهم إلى الأبواب السلطانية، فاجتمع به وأوصله كتاب السلطان إليه، والكتب لبقية الأمراء، ورَدَّه إلى دمشق، ففرق كُجْكُنُ الكتبَ السلطانية على أربابها من أعيان الأمراء الأمير سيف الدين بَهَادُر آص وغيره في ليلة الخميس، وقَرَّر معهم الحال، وركب الأمير سيف الدين كَرَاي في يوم الخميس بالتشريف السلطاني، وقبَّل عتبة باب السر على العادة، ورجع من الموكب، ومد السماط، وكان قد احتفل به بسبب التشريف، وحضور رسل التتار، فلما رفع السماط رسُم للرسل بالانصراف فانصرفوا، ونهض الأمير سيف الدين أرغُوْن والأمراء، وأحدقوا بنائب السلطنة وأخرج مثال[٢] السلطان فقرىء عليه فإذا هو يتضمن القبض عليه، فأجاب بالسمع والطاعة، وقلع شاش التشريف والكلوتة وضرب بهما الأرض، وليس تخفيفة[٣] ونزع التشريف، وقيد في المجلس، وحمل على بغل وسُلِّم للأمير سيف الدين أغرلو وركن الدين بيبرس الشرفي المعروف بالمجنون، فتوجها به من ساعته إلى جهة الكرك، واعتقل بها، ورسم للأمير سيف الدين بَهادور آص أن يتحدث في النيابة إلى أن يصل نائب السلطنة.

وقبض على الأمير سيف الدين قُطْلوبَك نائب السلطنة بالمملكة الصفدية في يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر، ونُقلَ إلى الكركَ أيضًا، وما علم الناسُ ذنبًا للأمير سيف الدين كَراي فيما سلف وقيل إن القبض عليه إنما وقع خوفًا من تغيره بسبب القبض على خوشداشه الأمير سيف الدين بُكْتُمر النائب.

---

(١) سيف الدين كجكن: هو كجكن بن عبد الله المنصوري، توفي سنة ٧٣٩ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٦٥).

(٢) المثال: أمر دون الفرمان والمنشور، استعمله سلاجقة الروم، وكان للوزير عندهم الحق في إصدار المثالات، واستعمله أيضًا الإيلخانيون، فقد كانت المثالات من المحررات التي تعد في ديوان الرسائل. وكان المثال في العصر المملوكي أمرًا يصدر عن ديوان الجيش بمنح إقطاع أو بتحويله أو بإعادته أو بزيادته، والظاهر في أصل التسمية أنه كان يحرر بترتيب خاص، فمثلًا: كان يعبر عن الإقطاع بكلمة «خبز» وتكتب في سطر واحد، ثم تكتب بقية الكلام في سطر ثان، ثم تكتب تحته عبارة كذا وكذا دينار، وتكون هذه العبارة بالقلم القبطي، ويوقع السلطان على المثال بكلمة (يكتب) ثم يوقع ناظر الجيش بعبارة (يمتثل الخط الشريف). وهكذا صار المثال كالورقة التي نسميها اليوم أنموذجًا أو أورنيكًا. وأما عند العثمانيين فلم يكن يفرق بين المثال والفرمان والتوقيع والنشان، بل ربما جمع بين الفرمان والمثال في عبارة واحدة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

(٣) التخفيفة: هي العمامة الصغيرة. وقوله: ليس تخفيفة ونزع التشريف: إشارة إلى أنه صار من المغضوب عليهم.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير جمال الدين آقش الأشرفي المنصوري ونيابة السلطنة بالمملكة الصفدية للأمير سيف الدين بَهادرْ آص

لما قبض على الأميرين التائبين سيف الدين كراي وسيف الدين قُطْلوبك فوّضَ السلطانُ نيابةَ السلطنة بالشام للأمير جمال الدين آقُش الأشرفي المنصوري، وتوجه إلى دمشق، وكان وصوله إليها في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة، ووصل معه لتقريره في النيابة الأميرُ عز الدين أيدمر الخَطِيريّ، وأَحْضَرَ على يده مثالًا شريفًا بالمسامحة بالبواقي، وإبطال ما كان قد قرر على الرعايا، والإحسان إليهم، فقرىء في يوم الجمعة سادس عشر الشهر بالجامع بدمشق، فاطمأن الناسُ وتضاعفت أدعيتهم للسلطان، ثم خلع على الأمير سيف الدينَ بهَادُر آص بنيابة المملكة الصفدية في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر، وتوجه إليها يوم الثلاثاء العشرين من الشهر.

وفي يوم السبت ثامن شهر رجب قُبِضَ بدمشق ـ على السماط ـ على الأمير بدر الدين بَكْتُوت الشُّجاعي، وسيف الدين جَقَّار[١]، وكانا من أمراء طرابلس، فرسم بنقلهما إلى دمشق على إقطاع الأمير سيف الدين بَهَادُر آص، فقبض عليهما الآن واعتقلا بقلعة دمشق، ثم سُفِّر إلى الكَرَك في ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة.

وفي ثامن شهر رمضان وصل إلى دمشق بتقليد للأمير بدر الدين بَكْتُوت القَرَماني بولاية شاد دمشق، وأستاذ دارية عوضًا عن الأمير سيف الدين طُوغان، ورسم للأمير زين الدين كتبغا المنصوري رأس نوبة أن يكون حاجبًا بالشام عوضًا عن الأمير سيف الدين قطلوبكَ الجاشْنَكير، وخلع عليهما.

وفي ثامن عشر شهر رمضان ورد المرسوم السلطاني إلى دمشق بولاية الأمير سيف الدين بَلَبان البدري نيابة قلعة دمشق، عوضًا عن الأمير سيف الدين بَهادُر السنجري، وكان المرسوم على يد الأمير عز الدين أيْدَمُر الخازن، وتوجّه هو إلى نيابة السلطنة بقلعة المسلمين، وتوجه السنجري إلى الأبواب السلطانية بالهدايا والتقادم،

(١) سيف الدين جقّار: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤٩٨/١، والسلوك للمقريزي ١/٢ : ١٠٥، وفيه «جنقار» بدل «جقّار».

فرسم له بنيابة قلعة البيرة، وعاد وتوجه من دمشق إليها بعد عَوْدِهِ في ثاني شوال من السنة.

وفيها وصلت رسل مُتَملِّكِ اليمن إلى الأبواب السلطانية بالهدايا والتقادم، فقدمت هديتهم وقبلت في ثالث ذي الحجة وخلع عليهم في سابع المحرم.

وفيها في ذي الحجة فَوّض السلطان صحابة ديوان الإنشاء للقاضي علاء الدين علي ابن القاضي تاج الدين أبي الظاهر أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي(١) عوضًا عن القاضي شرف الدين بن فضل الله العُمري، وتوجّه شرف الدين إلى دمشق بمعلومه عوضًا عن أخيه الصدر محيي الدين، واستقر محيي الدين في جملة كُتَّاب الإنشاء بدمشق بمعلومه، وسبب نقل المذكور إلى دمشق ثِقَل سَمْعِه وشيخُوخَته.

ذكر مفارقة الأمير شمس الدين قُرَاسُنْقُر المَنصُوري المملكة الحلبية، وخروجه عن الطاعة، ولحاق الأمير جمال الدين آقُشْ الأفرم ومن انضم إليه من الأمراء به، وتجريد العساكر إليهم وما كان من خبرهم إلى أن توجَّهُوا للعراق

كانت هذه الحوادث في سنة إحدى عشرة وبعض شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وقد رأينا أن نسردها بجملتها في هذا الموضوع إلى نهايتها لتعلق بعضها ببعض.

وذلك أن الأمير شمس الدين قراسُنقُر المنصوري كتب إلى السلطان في سنة إحدى عشرة وسبعمائة يسأل دستورًا إلى الحجاز الشريف، وأرسل في ذلك مملوكَهُ علاء الدين مُغْلَطَاي، فأذن له في ذلك، وأنعم عليه بألفي دينار عينًا، فتوجه من حلب وفوّض السلطان نيابة حلب في غيبته إلى الأمير شهاب الدين قَرَطَاي الحاجب، فلما وصل الأمير شهاب الدين إلى أطراف بلاد البلقاء بلغه أن السلطان قد جرد جماعة من مماليكه جرائد بالخيل والهجن، فخشي أن يكونوا جُرّدُوا لقصده والقبض عليه، فرجع إلى حلب وقصد الدخول إليها، فاجتمع الأمراء مع الأمير شهاب الدين قَرَطَاي ومنعوه من ذلك، وأرسل إليه الأمير شهاب الدين يقول إنك توجّهت إلى الحجاز بدستور سلطاني، ونحن فلا نمكنك من العبور إلا بعد عودك من الحج وبمرسوم سلطاني.

---

(١) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٤٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٨٢، البداية والنهاية ١٤/ ٦٣.

فطلب موجودَه الذي بحلب فمنع من ذلك، فجاء الأمير حسام الدين مهنا وأرسل إلى الأمراء في تمَكُّنِه من موجوده، وحلف أنهم متى استمروا على منعه منه هجم بمجموعة حَلَب ونهبها، فمكنُوه من أخذ موجوده وانصرف عن حلب، وقصد جهة البرية. ثم جهز ولدَه الأميرَ عز الدين فرج ونائبه عبدون إلى الديار المصرية، وجهز مع ولده جملة من أمواله، فوصل إلى القاهرة في أواخر ذي الحجة سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وما علم مراده بذلك ولما وصل ولده عز الدين أحسن السلطان إليه وأنعم عليه بإمرة عشرة طواشية، واستقر بالقاهرة بدار أبيه مع أخيه الأمير علاء الدين علي - وهو أحد أمراء الطبلخاناه بالقاهرة - وبعد أن أرسل قَرَاسُنْقُر ولدَه المذكور وأموالَه ونائبه أظهر العصْيان وتجاهر به، وخلع الطاعة وكاتب الأمراء، ورَاسَلَ الأمير جمَال الدين آقش الأفرم نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية، وبذَلَ له الطاعَةَ، وأن يكون هو صاحب الأمر دون قَرَاسُنْقُرَ، وبذل له المال مع ذلك ليُعينه به، فأرسل إليه مرة ثلاثة آلاف دينار عينًا، ومرة أخرى، ومرة ثالثة فوافقه على ذلك وباطنه وكتب إلى السلطان يخبره بما كاتبه به قَراسُنْقُر وَمُهَنًّا، وبقي ذلك في يُسْر حَسْوًا في ارتغاء، واستمر الأمير جمال الدين يدافع الأيام، ويقدم رجلًا ويؤخر أخرى، ويكاتب السلطان ويرد عليه الأجوبة في بقية سنة إحدى عشرة وسبعمائة وكنت يوم ذاك - ناظر الجيش الطرابلسي وكان لي عليه إدلال كثير، فشرع يَكْتُم ذلك عنّي وعن غيري إلا مَن عَلم أنَّهُ يُوافقُه على رأيه ويباطنه على مقصده، وظهر لي من صفحات وجهه وحركاته واضطراب أمره وشلش بعض مماليكه ما دَلَّني على مُرَادِه، فدخلت عليه في أثناء ذي الحجة وهو بطرابلس، وكاشفته، وتحدثت معه وحذرته عاقبة هذا الأمر، وبذلت له النصيحة فكاد يكشف لي عن باطنه ويخبرني بما أضمره وعزم عليه، فلحظت بعض أكابر مماليكه وهو يغمزه ويشير إليه أن لا يفعل، فعدل عما أراد أن يخبرني به، ثم قال لي أنا أتحقق محبتك ونُصْحَك، وأنه ما حَمَلَك على أن ذكرت ما ذكرت إلا الشفقةَ علي. وجزاني خيرًا، ثم قال لي: هذا الأمر الذي لحظته وظننته قد طالعتُ السلطان مما وقع فيه، وأرسلت إليه ما ورد عليَّ من كتب قَرَاسُنْقُر والعرب، وهذا الذي يظهر لك أنني أفعله هو عن أمر السلطان، وسوف يظهر لك. فَما شَكَكْتَ في قوله، واستَكْتَمَني هذا الأمْر فكَتمتهُ، ثم ظهر أن الأمر في باطنه بخلاف ما أظهر لي.

ولما اتصل بالأبواب السلطانية أظهر قَرَاسُنْقُر العصيان جهز السلطان الأمير حسام الدين قرا لاجين أستاذ الدار والأمير سيف الدين أرغون الدَوادار الناصري،

والأمير سيف الدين أَيْدمُر الخطيري، والأمير حسام الدين لاجين الجاشنكير المعروف بالزيرباج ومضافيهم، فوصلوا إلى دمشق في العشرين من ذي القعدة، وجرَّد معهم من دمشق جماعةً من عسكرها، وتوجَّهوا إلى حِمص ثم إلى حَلَب لتمهيد البلاد ومنع قَرَاسُنْقر إن قصد الهجوم على المملكة الحَلبيّة، ثم أردف السلطان هذه العساكر المذكورة بالأمير سيف الدين قُليٍّ السلاحدار، والأمير بدر الدين جَنكلي بن البابا، ومضا فيهما فوصلوا إلى حمص في ذي الحجة، ونزلوا بمرجها، فقلق الأمير جمال الدين الأفرم غاية القلق، وارتاع لنزولهم بالقرب منه، وخشي أن يُقْبَضَ عليه، وكان قد حذر منذ قُبِضَ على الأمير سيف الدين كَراي، والأمير سيف الدين قُطْلُوبَك، ورأى أن السلطان قد قبض على من لم يُسْلفْ ذَنْبًا ولا وَقَع منه مُخالفة فيما مضى - وإنما مُسِكا احتياطًا لما تقدم من القبض على خوشداشيتهما، فكيف يكون حال مَن له ذُنُوب قديمة، ومخالفة في ابتداء الأمر. فبقي ولا يزال في الصيد وهو يتنقل في المملكة الطرابلسية، فتارة يكون بالجون وتارة يكون باللاذقية وجبلة، ومرة بالجبال.

فلما كان في مستهل محرم سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ركب من طرابلس وتوجه إلى الصيد بمرج جبلة على عادته، ونزل على رأس العين بالقرب من مدينة طرابلس مما يلي الجبل، فوصل إليه مملوكُه مُغْلَطَاي الحلبي على خيل البريد بأجوبة السلطان يتضمن أنه أنعم عليه بنيابة السلطنة بالمملكة الحلَبِيّة، ولم يحضر تقليدًا ولا تشريفًا، وذكر أن السلطان شافهه بطلبه إلى الأبواب الشريفة ليجدّد عهدًا برؤية السلطان، ويلبس التشريف، ويأخذ التقليد، ويتوجه إلى حَلَب وشافهه عن الأمير علاء الدين أَيْدغدِي شُقير الحسامي بكلام رديء، وهو أنه أخبر عنه أنه قال له: قل له إياك أن تتأخر عن الحضور، فوالله لو اختار السلطان القبض عليك أرسل إليك من قدر وقبض عليك. فارتاع لهذه المشافهة، وخشي عاقبةَ حضوره، وركب من رأس العين إلى مرج جبل على مرحلتين من طرابلس، فلما استقر بالمرج جاءه الأمير عز الدين أيدمُر الزّرْدكاش المنصوري أحد الأمراء مقدمي الألوف، وكان الأفرم زوج انتبه والأمير سيف الدين أحد أمراء الطبلخاناه وبدر الدين بَيَسَري الحسامي أحد أمراء العشرات، وكلهم من أمراء دمشق، وكانوا قد خرجوا عقيب المواكب من دمشق في نيابة الأمير جمال الدين آقش الأشرفي، ولم يجرد خلفهم من يدركهم، وحال وصولهم إليه ذكروا أن الكلمة اجتمعت عليه فركب من المرج لوقته، واستصحب معه من كان في صحبته من أمراء طرابلس وهم علاء الدين مُغْلِطَاي الشيخي، وسيف الدين قَطَليجا الجاشنكير

من أمراء الطبلخاناه، من أمراء العشرات ستة وهم: علاء الدين أَيْدغدِيْ التّقوي، وركن الدين بيبرس بن عبد الله، وعز الدين حسن بن يوسف السّيْفِي الحاجب، وناصر الدين محمد الفارقِي، وشمس الدين طشلق الشويخي، وعلاء الدين مُغْلطَاي الجمالي ومن أمراء التركمان أصحاب الطبلخاناه خمسة وهم: علاء الدين علي بن الدربساكي مقدم التركمان وعلاء الدين علي بن إلياس الفتقي، وحسام الدين حسن بن أسيجا وسيف الدين أبو بكر بن الحاج طُوغَان، وسيف الدين بن إليا، ومن أمراء العشرات منهم صارم الدين صاروجا بن ناصي وتوجه من مرج الجبل إلى مرج الأسل، وحُكِيَ أنه تلَقَّب بالملك الرحيم، وكتب لوقته كتبًا إلى الأمراء بطرابلس يتضمن: وصل إلى مخيمنا الكريم المقر العالي الأميري. الغِرّي الزردَكاش، والجناب العالي الأمير السيفي بلَبَان الدمشقي، والمجلس العالي الأميري البَدْرِي البَيْسَري الحسامي، وقد اجتمعت الكلمة علينا ولم يبق إلا الركوب. ويقول في كتابه لكل منهم فَمن قَدَم خيّره الله تعالى ويَعْجل بسُرْعة الحضور، ليكون من السابقين الأولين، ويحصل له فضيلة السبق، ويُعلم أنا لم نطلبه لحاجة بنا إليه. وإنما عرفناه بما حدده الله لنا يتأخر ويعتذر حيث لا ينفعه العذر. إلى غير ذلك، وتضمن كتابه للأمير شمس الدين سُنْقر الرُّومي. وقد حقق الله تعالى مناماتك التي كنت تراها وتخبرنا بها، ونحو هذا من الكلام.

ولما وصلت كتبه إلى الأمراء كنت يومئذ بطرابلس لم أتوجه في صحبته، وكان قد كتب إليّ يَطْلُبني وهو بمرج الجبل، فاعتذرت ولم أتوجّه إليه ـ لطفًا من الله بي ـ فقمت حين وصَلَتْ كتُبه واجتمعت بأعيان الأمراء ونهيتهم عن الدخول في الأمر، وعرفتهم سُوء عاقبة الخروج عن الطاعة، ومفارقة الجماعة، وجدّدتُ على أكثرهم الأيمان للسلطان الملك الناصر فحلفوا، واجتمع جماعة منهم عند الأمير شمس الدين سُنْقُر الرومي. فتأخروا عن اللحاق به ولم يتوجه من طرابلس إليه غير علاء الدين أيْدُغدي الأتقوي أحد أمراء العشرات فإنه هرب إليه ولم يُشعر به، وكنت قد حذرته هذا الأمر قبْل ذلك بيوم أو يومين، وحلفته فحلف، وتوثقت منه أنه لا يفارق الطاعة والجماعة فلذلك أهملته عند وصول المكاتبات إلى الأمراء، وانتظر الأمير جمال الدين وصول العسكر الطرابلسي إليه وهو بمرج الأسل ليكبس بهم العسكر المصري الذي بحمص، فلم يلتحق به غير أيْدغدي الأتقوي المذكور، فلما أيس منه ركب من مرج الأسل، ونزل إلى منزل القصب بالقرب من حمص ومرّ على جانب خيام العسكر المصري، وقصد جهة البرية، فركب بكتمر خلفه الأمير سيف الدين وبكتمر الجمدار

الناصري في شرذمة يسيرة، وتتبعه فلحق أثقاله فأخذها ورجع، واستمر السير بالأفرم ومن معه حتى دخل البرية.

ولما بلغ الأمير شَمس الدين قَرَاسُنْقُر دخوله إلى البرية خَلْفَه ظن أن ذلك مكيدة عليه، وتقدم في البرية، وبقي الأفرمُ إذا نزل منزلة وجد قَرَاسُنْقُر قد رحل عنها، فاستمر كذلك أيامًا، ثم أرسل إليه من أدركه وأعلمه أنه إنما جاء في ميعاده، فأرسل إليه يقول: إن كان الأمر كذلك فتحضر إلى عندي بمملوكين، وتؤخر هذا الجمع حتى نجتمع. فركب إليه على الهجن هو ومملوكان من مماليكه، وأدركه واجتمعا. فلما تحقق قَرَاسُنْقُر أنه حضر لموافقته اطمأن إليه، وتربَّص حتى التحق به بقية أصحاب الأفرم، فاختار الأفرم ممن معه ومع قَرَاسُنْقُر أربعمائة فارس، وأمرهم أن يتوجهوا ويكبسوا الأمير سيف الدين أَرْغُن الناصري ليلًا في خيامه ويقتلوه، وكان الأمير سيف الدين أرْغُن بقرب حلب ـ وقال: إنه إذا قتل هذا احتاج مَن معه إلى الانضمام إلينا خوفًا من السلطان كَوْنَ مملوكه قتل بينهم، وتمَّ لنا الأمر بهذا ولا يختلف علينا أحدٌ بالشام، فتوجّه أولئك غير بعيد ثم رَدَّهم قَرَاسُنْقُر وجَهّز الأفرم لمضاء هذا الأمر فلم يوافق عليه، ثم قال له قَرَاسُنْقُر، إن هذا الجمع الذي معك لا نقدر أن نملك بهم البلاد، ولا نلقى بهم الجيوش، وهؤلاء يضيقون علينا، ويأكلون ما معنا، ولا يحصل لنا بهم انتقاع، والمصلحة تقتضي أن نردهم. فأعمل الأفرم الحيلة وجردهم على أن يكونوا يَزَكًا في مكان عَيّنه لهم، وقال: لا تفارقوا هذا المكان حتى نأتيكم بما تعتمدونه، وركب هو وقَرَاسُنْقُر ومماليكها والأمراء الثلاثة الذين وصلوا من دمشق ومغلطاي الشيخي وقطليجا الجاشنكِير وتوجهوا هم والأمير حسام الدين مُهَنا إلى الرحبة، وعاد بقية الأمراء العشرات، وأمراء التركمان إلى طرابلس ثم فارق الأميرَ جمالَ الدين الأفرم جماعةٌ من أعيان مماليكه وعادوا إلى طرابلس وتبع العسكرُ الناصري الأفرمَ وقَرَاسُنْقُر ومن معهما إلى الرهبة ففاتوا ولزموا البرية، ثم كتب الأفرم وقراسُنْقُر إلى خَرْبَنْدَا ملك التتار يستأذناه في الوصول إليه بمن معهما، وسيَّرا بذلك بدر الدين بيسري الحسامي، فتوجّه إليه وعاد بجوابه إليها وخلعه عليهما، فتوجها إليه وصحبتهما بعض مماليكهما والأمير عز الدين الزردكاش والأمير بَلَبَان الدمشقي وبيسري الحسامي ورجع بقية الأمراء الذين كانوا مع الأفرم.

فأما أمراء التركمان وأمراء العشرات الذين ليسوا من مماليك السلطان وهم: حسن السيفي، ومحمد الفَارقي وطشلق الشويخي، فاستمروا في الخدمة بطَرَابُلس على عادتهم، وقبض على أمراء التركمان ثم أفرج عنهم واستمروا في الخدمة.

وأما بيبرس بن عبد الله، وأيدغدي الأتقوي فورد المرسوم بالقبض عليهما، فقبض عليهما وسُيّرا إلى الأبواب السلطانية، فماتا في محبسهما.

وأما قطليجا الجاشنكير فإنه غَيَّر هيأته واختفى إلى أن وصل إلى الأبواب السلطانية، فما شعر السلطان به إلا وهو قائم بين يديه في الإيوان، فأمر باعتقاله، ثم نقل إلى ثغر الإسكندرية، وقيل إنه مات.

وأما علاء الدين مُغْلَطاي الشَّيخي فإنه توجّه إلى الأمير فضل بن عيسى ودخل إليه، فحضر به إلى الأبواب السلطانية وشفع فيه، فأمر السلطان بإرساله إلى مدينة قوص، ثم إلى ثغر أسوان، ورتب له كل يوم أربعة دراهم، فأقام هناك مدة، ثم طُلب إلى الأبواب السلطانية، ورتّب في جملة المماليك أرباب الجامكيات(١) ثم أنعم عليه بإقطاع، وجُعلَ من جملة مقدمي الحلقة، هذا ما كان من أمر هؤلاء.

وأما الأمراء الذين توجهوا إلى خَرْبَنْدا فإنه أكرمهم وأقاموا في خدمته مدة، فأعطى الأمير جمال الدين الأفرم همذان، فَتوجَّه إليها ومات بها ودفن بها. وبلغنا أنه عَمَّر له تربة، ووقف عليها في كل سنة جملة من أموال هَمَذَان.

ومات الزَّردكاش، وبَيْسرِي الحسامي فيما بلغنا واستمر قَراسُنْقُر عند التتار إلى أن مات في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نعود إلى سياقة الأخبار في سنة إحدى عشرة وسبعمائة

فيها كانت وفاة القاضي مجد الدين أبي الرَّوح عيسى بن عمر بن عبد المحسن بن الخشاب المخزومي الشافعي(٢) بالقاهرة، في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول، ودفن بتربته بالقرافة، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، ومن رجال الدهر دَهَاءً، وولي المناصب الجليلة: وكالة بيت المال سنين كثيرة، وولي نظر الحسبة بالقاهرة، ودرس بأجلِّ المدارس، وعين للقضاء مرار وحرص على ذلك فلم ينله، وفرقت مناصبه بعده، فولى القاضي بدر الدين محمد بن جماعة تدريس الناصرية، وولي ولده صدر

---

(١) الجامكيات: جمع جامكية، من الفارسية: جامة، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٥٩).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٦.

الدين أحمد وكالة بيت المال، وولي الصاحبُ ضياء الدين النشائي تدريس زاوية الشافعي بمصر.

وتوفي القاضي جمال الدين أبو الفضل محمد ابن الشيخ الإمام جلال الدين أبي العز المكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري الخزرجي الإفريقي(١) الأصل من ولد رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وكانت وفاته بالقاهرة في حادي عشر شعبان، ودفن بالقرافة، ومولده بالقاهرة في يوم الاثنين الثالث والعشرين من محرم سنة ثلاثين وستمائة، وكان من أعيان كتاب الإنشاء وفضلائهم، رَوَى الحديثَ النبوي، وكان عَالِي السَّند رحمه الله تعالى، وله شعر وقصائد.

وتوفي الصاحب الوزير فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسن الخليلي التَّيمِي الدّارِمِي(٢) وكانت وفاته في يوم عيد الفطر، معزولًا عن الوزارة ـ ودفن بالقرافة الصغرى، ومولده في سنة أربعين وستمائة، وقد تقدم ذكر مناصبه وولايته الوزارة، رحمه الله تعالى.

وتوفي الحكيم الفاضل الرئيس شرف الدين عبد الله بن شهاب الدين أحمد بن محيي الدين رشيد ابن الشيخ جمال الدين أبي عمر وعثمان بن أبي الحوافر في ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال، ودفن من الغد بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى من أجود الناس صحبة، وأكثرهم مروءة، وأحسنهم أخلاقًا وأصحهم عقيدة رحمه الله تعالى.

---

(١) هو ابن منظور صاحب لسان العرب، وهو: محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد الأنصاري الرويفعي الإفريقي، جمال الدين أبو الفضل المعروف بابن منظور، الأديب اللغوي، نزيل مصر، ولد سنة ٦٣٠ هـ، وتوفي بمصر سنة ٧١١ هـ، من مصنفاته: «تهذيب الخواص من درة الغواص للحريري»، «الجمع بين صحاح الجوهري والمحكم لابن سيده»، «ذيل على تاريخ ابن النجار»، «سرور النفس في مختصر فصل الخطاب للتيفاشي»، «لسان العرب» في اللغة، «لطائف الذخيرة في محاسن أصل الجزيرة»، «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني»، «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر»، «نثار الأزهار في الليل والنهار» في الأدب، «نوادر المحاضرات» وغير ذلك. (انظر: كشف الظنون ٦/١٤٢، الدرر الكامنة ٤/٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/٥٤، وفوات الوفيات ٤/٣٩، شذرات الذهب ٦/٢٦، الدليل الشافي ٢/٧٠٦).

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٢٨، السلوك ٢/١: ١١٣.

وتوفي تاج الدين عبد الرحمٰن المعروف بالطويل(١)، ناظر النظار بالديار المصرية، وكانت وفاته في ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة، وهو من مسالمة القبط، وكان علم صناعة الكتابة الديوانية انتهى إليه في زمانه.

وتوفي القاضي محيي الدين قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف(٢) المالكي ليلة الخميس حادي عشر ذي الحجة، وكان رحمه الله تعالى ينوب عن والده في القضاة في حياته، ورُسم باستقلاله بعد وفاته، فمات قبل والده ـ أصيب ـ وكان يعد من نجباء الأبناء رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة الشيخ الإمام الحافظ سعد الدين أبو محمد مسعود بن محمد بن مسعود بن زيد الحارثي الحنبلي(٣) بالمدرسة الصالحية بالقاهرة، في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة، ودفن من يومه بالقرافة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير بدر الدين بكتوت أمير شكار(٤) متولي ثغر الإسكندرية ـ كان ـ في ثامن عشرين شهر رجب، وكانت وفاته بالقاهرة بعد أن نُكِبَ وصُودر.

وتوفي في التاريخ المذكور الشيخ الصالح محمد العُريان رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق الأمير شجاع الدين يوسف نقيب نقباء العساكر المنصورة بالشام، في يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى، بمولده فيما قيل وفي ثلاثة عشرة وستمائة، وَلِي نقابة العساكر بدمشق في الأيام الناصرية إلى أن توفي، وكان عدلاً مقبول القول عند قضاة القضاة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شمس الدين سُنقر جاه الظاهري(٥) بدمشق في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة، ودفن بكرة الثلاثاء بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/١: ١١٤.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/٩٠. (٣) سعد الدين مسعود: تقدمت ترجمته.

(٤) أمير شكار: هو لقب على الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد، وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير، والثاني فارسي وهو شكار (بكسر الشين المعجمة وكاف وألف ثم راء مهملة في الآخر) ومعناه الصيد فيكون المراد «أمير الصيد» (صبح الأعشى ٥/٤٣٣ ـ ٤٣٤).

(٥) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/١٧٤.

واستهلت سنة ثنتي عشرة وسبعمائة

في هذه السنة كملت عمارة الجامع الناصري بساحل مصر في صفر، وكان موضعه بشونة التبن، وكان الابتداء بعمارته في بعض شهور سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وولي خطابته قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، ورسم أن يبني في سطح الجامع المذكور بيوتًا لشيخ وجماعة من الصوفية، وطهارة ومزملة، وبني في أسفله مزملة، ولما كملت عمارته حضر إليه السلطان وشاهده، ووقف على مصالحه مَوَاضع من أملاكه، منها قيسارية العنبر بالقاهرة، وحمام بن سويد، وأنشأ رَبْعًا بجواره، ووقفه عليه، وعَمَّرَ بظاهره طهارة للسبيل، وبها فسقية، وساقية ورتب السلطان بالجامع إمامًا ومؤذنين وقَوَمة وشيخهم وشحنة وبوابًا، وجعل لكل منهم جامكية وجراية، ورتب بالخانقاه الشيخ قوام الدين الشيرازي شَيخًا للصوفية، وثمانين صوفيًا أربعين مجردًا بسطح الجامع في البيوت التي عُمِّرت لهم وأربعين متأهلين، ورَتَّب لكل صوفي منهم في كل شهر خمسة عشر درهمًا، وفي كل يوم ثلاثة أرطال من الخبز العلامة، وللمجردين خاصة في كل يوم ثلث رطل لحم مطبوخ، وزبدية مرق، ورتب للشيخ مثل ما رتب للصوفيين منهم، وأفرد للصوفية مقصورة بالجامع بحائطه الغربي. وهو البحري، يجتمعون فيها لصلاة العصر في كل يوم، ويقرؤون القرآن بعد الصلاة، ويَدْعُون للواقف، وينصرفون ويحضرون أيضًا لصلاة الجمعة، وليس بشرط.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية والمملكة الطرابلسية للأميرين سيف الدين سَودي الجمدار[١] وسيف الدين تَمُر الساقي[٢]

وفي هذه السنة فَوَّضَ السلطانُ نيابةَ السلطنة بالمملكة الحلبية للأمير سيف الدين سَودي الجَمَدار في صفر، وتوجه إليها من الديار المصرية، ووصل إلى دمشق في ثامن شهر ربيع الأول. وفوّضَ نيابةَ السلطنة بالمملكة الطَرَابلسية للأمير سيف الدين تمر الساقي، فوصل إلى دمشق في ثامن عشرين شهر ربيع الأول بطُلبِه[٣] وجماعته،

(١) سيف الدين سودي الجمدار: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/١٧٩.

(٢) سيف الدين تمر الساقي: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٥١٩.

(٣) الطلب: تقدم التعريف به.

ووصل إلى طَرابُلس في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر. وكان سبب تأخره هذه المدة تَوَجّهُهُ إلى حمص للقبض على نائبها على ما نذكره.

وفيها: في عاشر ربيع الأول أمر السلطان بالقبض على القاضي فخر الدين ناظر الجيوش، وكان قد تقدّم عنده وعَظُمَ شأنُه، وارتفع محلهُ وعَلَت كلمتهُ، فَحُسد على ذلك، ونُقل إلى السلطان عنه ما غيَّر خاطِره عليه، فأمر بالقبض عليه ومصادرته، فأخذ من أمواله ـ فيما قيل ـ أربعمائة ألف درهم، وفوّض نظر الجيوش للقاضي قُطب الدين ابن شيخ السلامية ناظر جيش الشام نَقَلهُ إلى الديار المصرية، فلم يَقم مقام القاضي فخر الدين، ولا نَهضَ بسَد الوظيفة وتَصَحَّفَتْ عليه أسماء البلاد، ثم أفرجَ السلطانُ عن القاضي فخر الدين في خامس عشر شهر ربيع الآخر، واستقر صاحب ديوان الجيوش مُدّة، ثم شَركَهُ في النظر، فصارا ناظِريْن بغير صاحب ديوان، ثم أعادَه إلى النظر مُستقلًا به منفردًا، وأعاد قُطَب الدين إلى الشام على عادته، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها في عاشر شهر ربيع الأول فُوِّض قضاء القضاة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل للقاضي تقي الدين أحمد ابن قاضي القضاة عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي.

ذكر القبض على الأمير ركن الدين بيبرس العلائي نائب السلطنة بحمص ومن يذكر من الأمراء بدمشق

كان الأمير ركن الدين بِيبرْس العلائي المذكور في هذه السنة قد طالع الأبواب السلطانية وسأل دستورًا في الحضور إلى الأبواب، فأذِنَ له، فحضر على خيل البريد في العشر الآخر من صفر وشمله الإنعام السلطاني بالتشريف، وعاد إلى نيابته في العشر الأول من شهر ربيع الأول، ثم تحقق السلطان منه سوء طويَّتِهِ وخبث نيته وأنه كان قد باطن الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقر، والأمير جمال الدين الأفرم، وأنه كان يُظْهر خلافَ ما يُبْطن. فكتب السلطان إلى الأمير سيف الدين تَمُر الساقي قبل وصوله إلى طرابلس أن يتوجه إلى حمص ويقبض عليه، وكتب بمثل ذلك إلى الأمير بَدْر الدين بَكْتُوت القَرمَانِي أحد الأمراء بدمشق، وكان مجردًا بجهة حِمصْ، فتوجّها إليه وقَبَضَا عليه في بكرة نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، وتوجّها به إلى دمشق، ورسم عليه الأمير سيف الدين كُجْكُن، وقبض على جماعة من الأمراء بدمشق، وهم: الأمير ركن الدين بِيبرْس الشَّرفي المعروف بالمجنون، والأمير علم الدين سَنْجر البَرْواني، والأمير

سيف الدين طُوغان المنصوري، والأمير ركن الدين بيبَرس التاجي، وذلك في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الآخر، وصل في هذا اليوم إلى دمشق الأمير ركن الدين بِيبَرس العلائي، وحال وصوله قبض عليه الأمير سيف الدين كجكن، وهو المرسوم عليه، وسُيِّرُوا في ليلة الأربعاء ثاني عشر الشهر إلى قلعة الكرك، واعتقلوا بها وفيها في سادس شهر ربيع الآخر.

ذكر القبض على الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري نائب السلطنة بالباب الشريف، والأمير جمال الدين آقش الأشرفي نائب السلطنة بالشام وغيرهما من الأمراء بالديار المصرية

وفي هذه السنة استدعى السلطان الأمير جمال الدين آقش الأفرمي نائب السلطنة بالشام إلى الأبواب العالية، فحضر على خيل البريد، وكان ركوبه من دمشق في ثاني شهر ربيع الأول، ووصل إلى الأبواب السلطانية يوم السبت تاسع الشهر، ولما وصلا إلى الأبواب السلطانية أكرمه السلطان وأحسن إليه وشمله بالإنعام، واستقر عَوْدُه إلى نيابة السلطنة بالشام. فأُنهِيَ إلى السلطان عنه أنه كان ممن باطنَ الأمراء المنسحبين الثلاثة الذين لحقوا بالأمير جمال الدين الأفرم، وأنه كان يقدر على التجريد خلفهم والقبض عليهم وما فعل، وإنما كان امتنع من التجريد خلفهم أنه توهم من كثير من الأمراء بدمشق مباطنة الأمراء المخالفين فخشي إن هو جرّد من يَرُدّ هؤلاء أن يلتحق بهم فيضطرب الأمر وتعم المفسدة، فاقتصر على حفظ من بقي عنده، وترك الإرسال خلفهم، لهذا الأمر وبلغهم وبلغ السلطان أيضًا عن جماعة من الأمراء مثل ذلك، فأمر بالقبض عليهم، وهم: هذا المقدم الذكر والأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي الحاجب - كان - والأمير علاء الدين مُغْلطاي المسعودي، والأمير شمس الدين الدُّكن الأشرفي والأمير حسام الدين لاجين الجَاشنكير، والأمير سيف الدين باينجار وكل هؤلاء من مقدمي الألوف بالديار المصرية، وقبض أيضًا على الأمير حسام الدين لاجين العمري، وذلك في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر من السنة، وشغرت نيابة السلطنة بالباب السلطاني بقية الشهر والله أعلم.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير سيف الدين تنكز

وفي هذه السنة بعد القبض على الأمير جمال الدين فوّض السلطان نيابة السلطنة بالشام للأمير سيف الدين تنكز وتوجه إلى دمشق على خيل البريد، فكان وصوله إلى

دمشق في الخميس والعشرين من شهر ربيع الآخر، ووصل معه جماعة من المماليك السلطانية على أخبار الأمراء المعتقلين منهم الأمير سيف الدين الحاج أرقُطاي الجمدار[١].

وفيها أمر السلطان بعرض أجناد الحلقة بالديار المصرية، وانتصب لذلك بنفسه وأعرضوا بين يديه، وابتدىء بالعرض في خامس عشر شهر ربيع الآخر وكمُل في مستهل جمادى الآخرة، وأبْقَى منهم من صَلُح للخدمة على إقطاعه، وقطع من ظهر عجزه، ورتب للمشايخ العاجزين عن الخدمة الرواتب.

ذكر تفويض السلطنة بالباب الشريف للأمير سيف الدين أرغن

وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى فوّض السلطان نيابة السلطنة بأبوابه الشريفة لمملوكه وعَتيقه وغذي نعمته، ومن نشأ من صغره في خدمته، وقرأ القرآن معه، الأمير سيف الدين أرغن الدوادار، وهو من المماليك المنصورية السيفية وكان السلطان الملك المنصور قد ابتاعه هو وأمه، وخَصَّه بخدمة السلطان الملك الناصر ولده من صغره وحال طفولتيه، فنشأ معه ولم يفارق خدمته في وقت من الأوقات، وتوجّه في خدمته إلى الكرك في السفرتين، ففوّض السلطان إليه نيابة السلطنة الآن، وهو أعرف الناس بخلق السلطان، وأكثرهم سياسة وسكونًا وديانة وخيرًا وعفة وطهارة، واشتغل بالعلوم الشرعية، وسمع الحديث وكتب صحيح البخاري بيده، وحصل الكتب النفيسة، وهو مستمر في نيابة السلطنة إلى وقتنا هذا في سنة خمسة وعشرين وسبعمائة، وجرت أحوال الدولة في مدة أيام نيابته على أحسن سداد وأكمل نظام.

وفي جمادى الأولى سنة ثنتي عشرة وسبعمائة أيضًا فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية للأمير سيف الدين بَلَبان طُرْنَا أمير جاندار[٢] ورسم بعود الأمير سيف الدين بهادر آص إلى دمشق أميرًا على عادته فكان وصوله إلى دمشق في تاسع عشر الشهر.

وفي يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى ولي نيابة قلعة دمشق الأمير عز الدين أيبك الجمالي عوضًا عن الأمير سيف الدين بَلَبان البَدْري.

(١) سيف الدين الحاج أرقطاي الجمدار: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٤.
(٢) توفي سنة ٧٣٦ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٤، الدرر الكامنة ١/ ٤٩٢).

ثم رَسَم في شهر رمضان من السنة أن يكون الأمير سيف الدين بَهَادُر الشمسي في القلعة شريكًا للأمير عز الدين الجمالي، فدخلها في سادس عشر شهر رمضان.

وفي هذه السنة حصل انفصالي من نظر الجيش بالمملكة الطرابلسية في منتصف جمادى الأولى، فتوجهت إلى الديار المصرية، فكان وصولي القاهرة في العشرين من شهر رجب من السنة.

وفي شهر رجب في أواخره وَصَلَت رسل الأشكري، ومثلوا بين يدي السلطان في عاشر شعبان بقلعة الجبل، وقدموا ما معهم من الأقمشة والسكلاط(١) والطيور الجوارح.

ذكر عرض العساكر والنفقة فيها وتجريدها وتوجه السلطان إلى الشام

كان السلطان قد توجه إلى الصيد في شهر رجب، وأقام بمنزلة الأهرام، وكثر الإرجاف وتواترت الأخبار بوصول خربندا ملك التتار بجيوشه وقصده الشام، فعاد السلطان إلى قلعة الجَبَل وجرد الاهتمام ونفق في عامة العساكر، واستخدم جماعة، وأقطعهم ساحل الغلة في شعبان، وأمر الأمراء والمقدمين بالعرض في سوق الخيل والخروج إلى الشام فابتدأ الجيش بالعرض والخروج في حادي عشر رمضان، واستمر ذلك إلى يوم الثلاثاء ثاني شوال، فركب السلطانُ في هذا اليوم من قلعة الجبل وتوجّه لقصد الشام ولقاء العَدُوّ ودفعه.

فلما وصل إلى منزلة السعيدية وهي على مسافة يومين من القاهرة وردت مطالعةُ الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام قرين مطالعة نائب الرحبة يخبر أن جيش التتار كان قد نازل الرَّحبة في ثاني عشرين شعبان، وأنه في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان عاد التتار إلى بلاد الشرق، وما عُلم سبب عودهم وأن النائب بالرحبة ركب في آثارهم، وحمل إلى القلعة ما كانوا قد أعدُّوه من آلات الحصار، وما تركوه من أثقالهم وخيلهم، وكانوا قد حاصروا الرحبة وأشرفوا على

(١) السكلاط: وهو السقلاطون، وهو نوع من الملابس الحريرية الفاخرة ملونة بالألوان القرمزية وغيرها، وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه، وكانت تصنع أيضًا ببغداد وتبريز (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٨١).

أخذها، فاستمر السلطان على المسير، ووصل إليها في يوم الثلاثاء سادس عشر شوال.

ذكر توجه السلطان إلى الحجاز الشريف

لما وصل السلطان إلى دمشق وتعذّر عليه الغزو، لعود التتار. صرف ذلك إلى الحج وقضاء الفرض الواجب عليه حين أمكنه، فأقام بدمشق أيامًا وجرد عساكره إلى الجهات بالشام صوب حلب وحمص وحصن الأكراد وغيرهما أرغون نائب السلطنة ونزل الأمير سيف الدين أرْغُون نائب السلطنة بدمشق، والصاحب أمين الدين لتحصيل الأموال وتقرير المصالح، وتوجَّه السلطانُ بجماعةٍ من مماليكه وأمرائه، وانتقل ركابه الشريف من دمشق في يوم السبت ثاني ذي القعدة، ووصل إلى الكرك، ومنها إلى المدينة النبوية فزار ثم توجّه إلى مكة شرفها الله تعالى يقضي فرض الحج ومناسكه، وتصدق وعاد إلى المدينة النبوية، وزار رسول الله ﷺ ثانيًا، وعاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

وفي ذي الحجة ورَد البريد من دمشق بإيقاع الحوطَة على دار الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصوري، وحمل ما يوجد بها من خزائنه، فوقعت الحوطةُ عليها وأخذ منها صناديق كانت وصلت مع ولده عز الدين فرج، فوُجِد في أحدها فيما قيل اثنان وثلاثون ألف دينار عينًا، وفي بعضها مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم، وعدة سروج مسقطة محلاة بالذهب والفضة وغير ذلك فحمل إلى بيت المال.

وفي هذه السنة توفي الشيخ تاج الدين عبد الرحيم بن تقي الدين عبد الوهاب بن الفضل بن يحيىٰ بن السنهوري أحد النظار بالديار المصرية ـ كان ـ وكانت وفاته بمصر في سابع عشر ربيع الآخر، وكان من الأمراء الأخيار، والكتاب المشهورين، الذين يَرجعُ الكتَّاب إلى قولهم، وتَنقَّل من المباشرات في عمره إلى أن انتهى إلى نظر النظار، وعين للوزارة مِرارًا فكَرِهَهَا، وكان الوزراء يرجعون إلى قوله، ولا يخرجون عن رأيه في جليل الأمر ولا حقيره، ثم عُطّل قبل وفاته عن المباشرة، وتجاوز المائة سنة أخبرني والدي رحمه الله غير مَرّة أنه أسن منه بخمس عشرة سنة، وكان مولد والدي في سنة ثماني عشرة وستمائة فعلى هذا يكون عمره مائة سنة وتسع سنين تقريبًا رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي شهابُ الدين غازي بن أحمد بن الواسطي(١) ناظر حلب بها في ثامن عشر ربيع الآخر، وكان يتنقل في المناصب الجليلة، ولي نظر الدواوين بالديار المصرية، ونظر الصحبة(٢)، ونظر دمشق وحلب وطرابلس، وكَتَب بديوان الإنشاء مدة رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين محمد بن هبة الله الشيرازي الدمشقي(٣) ببُسْتانه بالمزة في رابع عشر رجب، ودفن بقاسيون رحمه الله وكان من أعيان أهل دمشق، وولي نظر الدواوين بها وغير ذلك.

وتوفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب(٤) بالقاهرة بعد العصر من يوم الاثنين ثاني عشر رجب.

وتوفيت زوجته وهي ابنة عمة الملك المغيث ابن الملك المعظم وقت عشاء الآخرة، وخرجت جنازتهما جميعًا في يوم الاثنين، وكان قد حج وزار البيت المقدس، وتوجه إلى دمشق ثم عاد إلى القاهرة، فأقام نحو خمسة أيام ومات رحمه الله تعالى وكان من خيار المسلمين محترمًا مبجلًا معظمًا في صدور الناس، متواضعًا في نفسه، له فضيلة تامة، وروي الحديث، ومولده في ليلة السبت عاشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وستمائة بقلعة الكرك.

وتوفي القاضي نور الدين أحمد ابن الشيخ شهاب الدين عبد الرحيم بن عز الدين بن عبد الله بن رواحة الحموي الأنصاري كان رأس كتاب الدرج بطرابلس، فلما هرب الأمير جمال الدين الأفرم في هذه السنة استصحبه معه، ثم رجع من البرية ووصل إلى طرابلس ومرض، فلما وصل الأمير سيف الدين تُمر الساقي إلى نيابة طرابلس عَزَله، فتوجه إلى حماة فمات بها في سادس عشر شعبان رحمه الله تعالى وكان رجلًا صالحًا جيدًا أمينًا طاهر القلم، رافقتهُ مدةً في السفر والحضر، فلم أر منه إلا خيرًا وعفةً وأمانةً ونزاهة رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٩٤.

(٢) نظر الصحبة: هي من الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحاب التواقيع، وموضوعها أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه ويوقع في كل ما يكتب فيه الوزير (صبح الأعشى ١١/ ٣٢٤).

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٠، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٢٠.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤، شذرات الذهب ٦/ ٣١، البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٨.

وتوفي في يوم الاثنين خامس عشرين شعبان بالقاهرة شرف الدين محمد بن خليل المقدسي(١) الكاتب المنشىء، كان كاتبًا فاضلًا متمكنًا من صناعة الإنشاء، حسن النظم جيّد النثر، لكنه كان كثير الهجاء ـ سامحه الله تعالى وإيانا.

وتوفي الأمير سيف الدين قُطلوبك الشّيخي المنصوري(٢) أحد الأمراء بدمشق في خامس عشر شهر ربيع الآخر، وهذه النسبة إلى الشيخ عمر ابن الشيخ جاه.

وتوفي الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي البهائي(٣) أحد الأمراء بطرابلس في حادي عشر شهر ربيع الآخر، وكان قد رسم بالقبض عليه، فوصل البريد بذلك بعد وفاته بيوم أو يومين رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة والسلطان الملك الناصر ـ خلّد الله سلطانه ـ ببرية الحجاز عائدًا

ففي يوم السبت مستهل محرم وصل إلى دمشق الأمير سيف الدين قجليس السلاح دار الناصري، وبَشَّر بعافية السلطانِ وعوده من الحجاز بعد أن قضى فريضة الله في الحج، وأخْبَر أنه فارقه من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ثم وصل البريد بعد ذلك وأخبر أن السلطان وصل إلى الكرك في ثاني محرم، ثم وصل السلطان إلى دمشق في يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم ونزل بالقصر الأبلق، وصلى الجمعة في رابع عشر بجامع دمشق، وكذلك الجمعة التي تليها ولعب بالكرة بالميدان الأخضر في يوم السبت خامس عشر المحرم، وفوَّض نظر الدواوين بالشام لشمس الدين عبد الله بن غبريال، في سادس عشر الشهر، وكان قبل ذلك يَلي نظر البيوت السلطانية، وتوجّه في خدمة السلطان إلى الحجاز فرأى منه نهضة وكفاية فنقله إلى نظر دمشق، وولي فخر الدين أياز الشمسي(٤) شدّ الدواوين بالشام نقله من شدّ مصر إليها، عوضًا عن الأمير بدر الدين القرماني، وولي القرماني نيابة الرحبة عوضًا عن الأمير بدر الدين موسى الأزكشي(٥)، ثم توجه السلطان إلى الديار المصرية، وكان استقلال ركابه من دمشق في بكرة نهار الخميس سابع

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٢، الدرر الكامنة ٥/ ٣٩، فوات الوفيات ٤/ ٤٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤، البداية والنهاية ١٤/ ٦٨.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤.

(٤) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٢٠.

(٥) توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٨٤).

عشرين المحرم، وكان وصوله إلى قلعة الجبل في الساعة الثالثة من يوم الجمعة ثاني صفر.

وفي هذه السنة كملت عمارة الميدان الذي أمر السلطان بإنشائه تحت قلعة الجبل من الجانب الغربي مما يلي سوق الخيل، وكان الشروع في عمارته في جمادى الأولى سنة ثنتي عشرة وسبعمائة، وأدخل فيه بعض السور ما يلي باب القرافة إلى جهة القلعة، وجعل الحائط الدائر على هذا الميدان من جهات ثلاث سورًا، وردم قرار الميدان بالطين الأبليز، وأَمر السلطان بسد باب سارية، وفَتْحِ باب إلى جانبه، ثم أمر في هذه السنة بإدارة السواقي على البئر التي كانت عمرت في الدولة الأشرفية الصالحية خارج باب القنطرة بمصر بِشادّ الأمير عز الدين الأفرم، فركب على فوهتها أربع مُحال وعُمل لها أربع مجاري على السور يجري الماء فيها إلى حُفْرَة ثانية على شكل بئر في أثناء الطريق، يتحصل الماء الجاري من البئر الأولى فيها. ورُكّب عليها ثلاث مُحال، ويجري الماء إلى بئر ثالثة تحت القلعة، ولم يزل ينقله إلى أن جرى الماء العذبُ من بحر النيل أعلى إلى قلعة الجبل وقسم على أماكن وقاعات بها.

ذكر تفويض نيابة دار العدل وشد الأوقاف للأمير بدر الدين محمد بن الوزيري

وفي هذه السنة في يوم الخميس السادس عشر من شهر ربيع الأول فَوَّض السلطان نيابة دار العدل الشريفة وشَدّ الأوقاف بالديار المصرية للأمير بدر الدين محمد بن الوزيري، أحد الحجاب، وكانت وظيفة نيابة دار العدل قد تَوفّرت منذ نقل الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار منها إلى نيابة السلطنة، وخلع عليه، وبسطت يده فأساء التصرف، ووسع الطلب، وضَيّق على الناس، وتعرض إلى العُدُول والأئمة وغيرهم، فلم تطل أيام ولايته، فإن السلطان اتصل به لسوء فعله فعزله، وأقره على وظيفة دار الحجبة خاصة على عادته الأولى، ولم تكن خرجت عنه، ثم أخرجه السلطان إلى الشام بعد ذلك فمات بدمشق.

ذكر عزل الصاحب أمين الدين عن الوزارة وترتيب الأمير بدر الدين بن التركماني في الشد

وفي هذه السنة في مستهل جمادى الآخرة عزل الصاحب أمين عبد الله من الوزارة، وصُودر وحُمل من أمواله ثلاثمائة ألف درهم، ثم أُفْرِجَ عنه. ورُتّب في شادّ

الدواوين الأمير بدر الدين محمد ابن الأمير فخر الدين التركماني، وكان قبل ذلك يلي الأعمال الجبرية وألزم الصاحب أمين الدين داره إلى التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة، فَطُلِبَ في هذا اليوم ورُتّب ناظرَ النّظار والصحبةِ عَوضًا عن الصاحب ضياء الدين أبي بكر النشائي، ونقل النشائي إلى نظر الخزانة عن سعد الدين الأقفاصي بحكم وفاته.

ذكر روك[1] الإقطاعات بالشام

وفي هذه السنة رسم بكشف البلاد الشامية والقرى والضياع والنواحي والجهات بدمشق وأعمالها، وحِمْص وبَعَلْبَكَ وغَزَّة، والمملكة الصفدية، وانتصب لذلك بدمشق وأعمالها القاضي معينُ الدين بن هبة الله بن حشيش[2] ناظر الجيوش بالشام، فكان يَتَلقّى ما يرد من الكشوف ويحررها، وانتصب معه جماعة من الكُتَّاب، ثم وصل إلى الأبواب السلطانية في شهر رمضان بعد إنجاز العمل بدمشق، ووصل القاضي شمس الدين عبد الله ناظر الشام، ورسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب السلطنة بغزّة أن يَحْضُر ذلك، فوصل أيضًا فانتصب مباشرو الجيوش بالديار المصرية: القاضي فخر الدين، وقطب الدين ابن شيخ السلامية، وجماعة من الكتاب لتحرير الرّوْك وقسمةِ الإقطاعات، وكان جلوسهم لهذا العمل داخل باب القلعة والرحبة في مكان أفرد لجلوسهم. فلما انتهى العمل حُوّلتْ سنةُ ثنتي عشرة وسبعمائة الخراجية إلى سنة ثلاث عشرة بحكم دَوران السنين وكتبت الأمثلة بالإقطاعات، ثم رسم أن يستمر القاضي فخر الدين محمد في نظر الجيوش بمفرده على عادته، ورُتّب القاضي معين الدين هبة الله بن حشيش صاحب ديوان الجيوش، وأعيد القاضي قطب الدين ابن شيخ السلامية إلى نظر جيش الشام على عادته الأولى، وذلك في ذي الحجة، وخلع على كل

---

(١) الروك: الروك في الاصطلاح التاريخي معناه مسح أرض الزراعة في بلد من البلدان لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال، وقد مسحت الأراضي المصرية لأول مرّة على يد ابن رفاعة عامل الخراج بمصر في خلافة الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك الأموي حوالي سنة ٩٧ هـ/ ٧١٥ م. والمرة الثانية كانت على يد ابن الحجاب في خلافة هشام بن عبد الملك في سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م. والمرة الثالثة كانت على يد ابن مدبّر في خلافة المعتز بالله العباسي حوالي سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م. ثم كان في عصر المماليك الروك الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين وتلاه الروك الناصري (انظر: خطط المقريزي ١/ ٨٧ ـ ٨٨، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٦٥).

(٢) توفي سنة ٧٢٩ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٩٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٢: ٣١٥، الدرر الكامنة ٥/ ١٧٧).

منهم. وتوجه قطب الدين إلى دمشق وصحبته الأمثلة، فكان وصوله إليها في سادس عشرين ذي الحجة وقُرِنَت الأمثلة، وحصل في تفريقها اختلاف واضطراب، فاعتذر قطبُ الدين أنَّ الرَّوْكَ إنما رتَّبَهُ معين الدين فاقتضى ذلك توجهه إلى دمشق، فتوجه في سنة أربع عشرة وسبعمائة على خيل البريد، وفرقت الأمثلة بحضوره على ما استقر بالأبواب السلطانية، ثم عاد إلى الديار المصرية.

ذكر تجريد جماعة من الأمراء إلى مكة

وفي هذه السنة جرد السلطان جماعة من الأمراء إلى مكة شرفها الله تعالى وهم سيف الدين طُقصُبا الناصري وهو المقدم على الجيش، وسيف الدين يلوا، وصارم الدين صارُوجا الحسامي، وعلاء الدين أيْدغدِي الخَوارزمي، وتوجَّهوا في شوال في جملة الركب، وجُرِّدَ من دمشق الأمير سيف الدين بَلبان التتري، وسبب ذلك ما اتصل بالسلطان من شكوى المجاورين والحجاج من أميري مكة حُميْضَة ورُميثة ولدي الشريف أبي نمي، فَنَدب السلطانُ هذا الجيش وجهَّز أخاهما الأمير أبا الغَيْث بن أبي نُمَيّ، فلما وصل العسكر إلى مكة فارقها حميضة وأقام الجيشُ بمكة بعد عود الحاج نحو شهرين فقصّر أبو الغيث في حقهم، وضاق منهم ثم كتب خطه باستغنائه عنهم فعادوا، وكان وصولهم إلى الأبواب السلطانية في أواخر شهر ربيع الأول سنة أربع عشرة وسبعمائة، ولما علم حُميضةُ بمفارقة الجيش مكة عاد إليها بجمع، وقاتل أخاه أبا الغيث، ففارق أبو الغيث مكة والتحق بأخواله من هذيل بوادي نخلة وأرسل حَميضةُ إلى السلطان رسولًا وخيلًا للتقدمة، فاعتقل السلطانُ رسوله.

وفي يوم الاثنين لست بَقيْن من شوّال أمر السلطان بالقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومي، واعتقاله فاعتقل.

وفيها في يوم السبت سادس عشرين ذي الحجة وصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل رسل الملك أزبك الجالس على كرسي المملكة بصراي وما معها وهي مملكة بَيْت بَركة، ومعهم رسل الأشكري على العادة، فأنزل رسلُ الملك أزبك بمناظر الكَبش، وشملهم الإحسانُ السلطاني.

وفيها في ذي الحجة تسحّب جماعة من الجند البطالين يقال إن عدتهم نحو مائتي فارس، وتوجهوا إلى بلاد المغرب، وتقدم عليهم ابن المحسني فرسم السلطان للأمير حسام الدين القليجي أن يتوجه خلفهم، فسار في آثارهم وجَدّ السيرَ فلم يدرك

منهم إلا رجلًا واحدًا كان قد ضلّ عن الطريق فأحضره في المحرم سنة أربع عشرة فاعتقل.

وفي هذه السنة في ذي الحجة أنشأ السلطان بقلعة الجبل القصر الأبلق، وهو مطل على الميدان الجديد وسوق الخيل، ولما كملت عمارته عمل السلطان وليمةً عظيمة، وجلس فيه وأحضر الأمراء وأنعم عليهم بمبلغ جملته ألف ألف درهم وأربعمائة ألف درهم وذلك في يوم الاثنين سابع عشر شهر رجب سنة أربع عشرة وسبعمائة.

وفي هذه السنة رسم السلطان أن يساق الماء من عين بلد الخليل إلى القدس الشريف، فتولى ذلك الأمير علم الدين سَنْجر الجاولي، ووصل الماء إلى القدس، وارتفق الناس به.

وفي سنة ثلاث عشرة أيضًا توفي القاضي عماد الدين أبو الحسن علي ابن القاضي فخر الدين بن عبد العزيز ابن قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحيم بن السكري[١]، وكانت وفاته بالمدرسة المعروفة بمنازل العزّ في سحر يوم الجمعة سادس عشرين صفر ودفن بالقرافة، ومولده في الخامس والعشرين من محرم سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وهو الذي كان قد توجّه في الرسالة إلى غازان، وكان يلي تدريس مدرسة منازل العزِّ هو وأبوه وجده، وتدريس المشهد الحسيني بالقاهرة، وخَطَابَة الجامع الحاكمي، فَوَلِي ولدهُ القاضي تاج الدين التدريس بمنازل العز والخطابة وَوَلي تدريس المشهد الحسيني صدر الدين محمد بن المُرحِّل.

وتوفي الخطيبُ قطب الدين يوسف ابن الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي العُوفي الأسعردي[٢]، خطيبُ الجامع الصالحي خارج باب زويلة في ليلة السبت العشرين من شهر رجب فجأة ودفن بسفح المقطم وولي الخطابة بعده الشيخ زين الدين عمرو بن مؤنس الكتاني[٣] الشافعي.

وتوفي الشيخ تاج الدين محمد بن علي بن همام بن راجي الله بن أبي الفتوح ناصر بن داود بن عبد الله بن أبي الحسن العسقلاني الشافعي[٤] الإمام بالجامع

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٥، السلوك للمقريزي ٤/ ١: ١٣٣.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٥/ ٢٤٣. (٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١١٧.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٥، الدرر الكامنة ٢/ ٣٨٣.

الصالحي، وكانت وفاته بمسكنه بالجامع في ليلة السبت الحادي عشر من شعبان رحمه الله تعالى ومولده في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وستمائة، وولي الإمامة بعده بالجامع وَلَدُه القاضي تقي الدين محمد.

وتوفي عز الدين بن عبد العزيز بن منصور الكولمي التاجر الكارمي بثغر الإسكندرية في شهر رمضان، وكان والده من يهود حلب يُعْرف بالحموي، وأسلم والده في أول الدولة الظاهرية هو وأخواه وتوفي أول الدولة المنصورية فجمع عز الدين هذا ما يملكه وتوجّه إلى بغداد ويقال إن جملة ما توجه خمسة عشر ألف درهم أو دونها، وانحدر من بغداد إلى البصرة، ثم توجه إلى كبش وركب منها في الزو إلى بلاد الصين فدخل الصين وخرج منه خمس مرات ودخل إلى الهند، وكان يحكي عجائب كثيرة يذكر أنه شاهدها، لا يقبل بعضها العقل، والقدوة صالحة أغضينا عن ذكرها، وما كان يُتَّهم بكذب، ثم عاد من الهند إلى عدن من بلاد اليمن في الزَّو الهندي، وأخذ صاحبُ اليمن جملةً من ماله، وما أحضر من تحف الصين، والصيني زيادة على ما جرتْ عادتهم بأخذه، ثم وصل إلى الديار المصرية أرى في سنة أربع وسبعمائة ومعه ما قيمته أربعمائة ألف دينار عينًا، ولما مات خَلَّفَ تركة جليلة، وكان كثير الصدقة والمعروف والبر رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير جمال الدين آقش الكنجي النائب بحصن مصياف به يوم الأحد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد بلغ تسعين سنة، وولي نيابة الحصن سنين كثيرة، وكان أهل الحصن الفداوية(١) يحبونه ويجيبون إلى ما أمرهم به من بذل نفوسهم وهو يكرمهم ويبرهم ويحسن إليهم رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة أربع عشرة وسبعمائة

في أول هذه السنة ـ في يوم الأربعاء مستهل محرم الموافق الحادي والعشرين من برمودة القبطي ـ تغيَّر نهر النيل بمصر تغيُّرًا ظاهرًا مائلًا إلى الخضرة، وتغير طعمُه

---

(١) الفداوية: هم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وهم فرقة من الشيعة معتقدهم أن الإمامة بعد النبيّ ﷺ انتقلت بالنص إلى علي بن أبي طالب ثم إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم تنقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق، ثم هم يدعون انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم تنقلت في بنيه. وسمّوا الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه، ويسمّون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يبطنون مذهبهم ويخفونه، وهم يسمّون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية. (صبح الأعشى ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

وريحه حتى شرب كثير من الناس من الآبار العَذْبَة والصهاريج التي يخزن بها الماء والعادَة أن يكون ماء النيل في هذا الفصل في غاية الصفاء، وما عُلِمَ سبب تَغَيُّرِه، ثم عاد إلى صَفْوِه بعد ذلك.

ذكر واقعة الشيخ نور الدين علي البكري(١) وغضب السلطان عليه وخلاصه

كان سبب ذلك أن الشيخ نور الدين المذكور انتصب بمصر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حسبةً من غير ولاية سلطانية ولا إذْن حُكْمي، ورأى أن ذلك قد تَعَيَّن عليه، وهو من أعيان الفضلاء وأكابر المفيدين، واجتمع معه جماعة من البكْريِّين وغيرهم يأتمرون بأمره، فاتصل به في شهر المحرم من السنة أن النصارى بمصر اجتمعوا في كنيسة من كنائسهم لعيد لهم، وأنهم استعاروا من الجامع العمري بمصر قناديل وبَصَّاقات وأطْبَاق وأشعلوها في الكنيسة، فما صبر على ذلك، وجاء إلى الكنيسة ودخلها بمن معه وأخذ ما استعاروه من قناديل الجامع وماعُونِه، وأعاد ذلك إلى الجامع، وأحضر مُباشرَ الجامع وأنكر عليه إقدامه على عارية ذلك للنصارى، فاعتذر أن الخطيب هو الذي أمر بذلك، فطلبه الشيخ وأنكر عليه، وكلّمه بكلام غليظ فانضم للخطيب القاضي فخر الدين ناظر الجيش، وأنهى إلى السلطان ما فعل الشيخُ بالخطيب، وعرّفه أن الخطيب رَجلٌ صالح من بيت كبير، وأن مثله لا يعامل بمثل هذه المعاملة، وأنهى إلى السلطان أن الشيخ نور الدين فيه جُرْأة عظيمة واطِّرَاح للدولة وغضٌّ منها، إلى غير ذلك من الإغراء، وطلع الشيخ نور الدين إلى قلعة الجبل في يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر محرم، واجتمع بنائب السلطنة وبات عنده ليلة السبت، واجتمع أيضًا بالأمير رُكْن الدين بيبَرْس الأحمدي أمير جَانْدار وقصد الاجتماع بالسلطان وكان طُلب في بكرة نهار الخميس الثالث والعشرين من محرم إلى مجلس السلطان، وأحضر قضاة القضاة والعلماء، فحصل للشيخ قُوّة نَفَس، وكلَّم السلطان بما لا يَليق أن يكلَّم به الملوكُ عُرْفًا، فكان مما قال له: أنتَ ولّيْتَ القبط والمَسالمة وحَكَّمتهُم في دولتك وأموال المسلمين، وأضعتَ أموال بيت المال في العمائر والإطلاقات التي لا تجوز، إلى غير ذلك من

---

(١) نور الدين علي البكري: هو علي بن يعقوب بن جبريل البكري، نور الدين، توفي سنة ٧٢٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٤، طبقات الشافعية ٦/ ٢٤٢، الدرر الكامنة ٣/ ٢١٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٤).

الكلام الخشن الذي لا تَصْبِرُ الملوكُ على مثله، فغضب السلطانُ لذلك غضبًا شديدًا، وانزعج له انزعاجًا عظيمًا، وظهر منه اضطرابٌ وألفاظٌ دلّت على أنه نُقِلَ إليه عن الشيخ ما أوجب انحماله، فكان فيما قال السلطان ـ فيما بلغني ـ إما أنا وإما هذا؟ وقال أما أنا ما أخذت الملكَ بخلافة وإنما أخذته بسيفي إلى غير ذلك من الكلام الدال على شدة الحرج، وقال السلطان للقضاة، ما الذي يَلْزَمُ هذا عَلى تجرئه على ما قال؟ فقال قاضي القضاة زين الدين المالكي: هذا لا يلزمه عندي شيء. وقال قاضي القضاة بدر الدين الشافعي يلزمه التعزير بحسب رأي الإمام. فقال الشيخ لقاضي القضاة بدر الدين كيف تقولُ هذا القول؟ وقد صَحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمةُ صِدق عند سلطان جائر»(١) ورفع بها صوته، وأشار بيده إلى جهة السلطَان، بها صوته، وأشار بيده إلى جهة السلطان، فعند ذلك اشتد غضب السلطان، ورسم بقطع لسانه، وما تجاسر أحد أن يشفع فيه إلا الأمير سيف الدين طُوغاي، فإنه بالغ في أمره حتى نزل وانفصل المجلس، ورسم عليه، ثم طُلِبَ مَرّة ثانية قبل العصر من اليوم إلى مجلس السلطان، فكان المجلس فيما بلغني أشد من الأول، حتى هَمَّ السلطان بقتله فتقدم إليه الأمير سيف الدين طُغاي أيضًا وقال: والله لأقتل السلطان هذا أبدًا ويكون الصدِّيق جدّه خَصْمَ السلطان عند الله يوم القيامة. فاستكان السلطانُ لمَّا سَمع هذا الكلام وأطلقه. وهذا يدل على حِلْم السلطان وخَيْره، ولولا ذلك لما أبقاه لما خاطبه به. وكان القاضي كريمُ الدين وكيل الخاص الشريف أيضًا قد اعْتنَى به عند السلطان موافقة للأمير سيف الدين طُغَاي، وخرج هو والشيخ من مجلس السلطان بعد العصر من اليوم المذكور، فشرع بعض الجماعة يقول للشيخ وهو إلى جانب القاضي كريم الدين: ما فَعَلَه القاضي كريم الدين في أمره من الاعتناء به وتسكين حرج السلطان فقال: نعم هو كان من خيار الظلمة، وكريم الدين يسمع ذلك فما أجابه عنه بشيء، واجتمع تحت القلعة خلقٌ كثير من العوام حتى امتلأت بهم تلك الجهة، وهم يظهرون الفرح بسلامة الشيخ نور الدين، فأشار كريمُ الدين ألا يتوجَّه الشيخ إلى مصر بهذا الجمع خشية أن يشاهد السلطان ذلك فيَخرج بسببه. فصرفهم وتوجَّه من جهة أخرى، وانقطع

(١) وروي الحديث أيضًا بلفظ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر» أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في الفتن باب ١٣، والنسائي في البيعة باب ٣٧، وابن ماجة في الفتن باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/ ١٩، ٦١، ٤/ ٣١٤، ٣١٥، ٥/ ٢٥١، ٢٥٦.

بمنزله، ولم ينقطع الناسُ وبعضُ الأمراء عن التردد إليه وسلامتهُ من هذه الواقعة دَلَّت على أن قيامَه كان لله تعالى.

وفيها في صفر أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين بَلبان الشمسي أمير الحاج واعتقاله، لسوء اعتماده على الحجّاج وكان ساق سوقًا مزعجًا، ووصل إلى القاهرة بالمحمل قبل الوقت المعتاد بأيام فهلك كثير من المشاة بسبب ذلك فرسم السلطان أن يتوجه جماعة على الهجن بالماء والزاد بسبب من انقطع والله أعلم.

وفي هذه السنة أمر السلطان بمسامحة البلاد الشامية بحملة كثيرة من البواقي لاستقبال سنة ثمان وتسعين وستمائة وإلى آخر ثلاث عشرة وسبعمائة وقرىء كتاب المسامحة بجامع دمشق في يوم الجمعة عاشر المحرم بحضور نائب السلطنة بدمشق، ثم قرىء في يوم الجمعة التي تليها بالجامع بدمشق مثال بإطلاق ضمان السجون وأن لا يؤخذ ممن يسجن أكثر من نصف درهم يكون أجرة السجانين، وكان قبل ذلك يؤخذ من المسجون ستةُ دراهم فما دونها، وتضمن المثال أيضًا إعفاء الفلاحين من السُّخَر ومُقرّر القصب، وكان جملةً، فتضاعفت الأدعيةُ بسبب ذلك للسلطان، ثم قرىء مثال ثالث في مستهل صفر بإطلاق ضمان القَّواسِين ونقابة الشَّد والولاية.

وفي شهر ربيع الأول وصلت الأخبارُ بإغارة طائفة من العسكر الحلبي على دُنَيْسِر، وقتل جماعة بها وأسر جماعة، ووصل بعض الأسرى إلى دمشق في شهر ربيع الآخر.

ذكر وفاة الأمير سيف الدين سَوْدي(١) نائب السلطنة بحلب وتفويض نيابة السلطنة بها للأمير علاء الدين الطنبغا الحاجب

وفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر رجب وردَ الخبر إلى الأبواب السلطانية بوفاة الأمير سيف الدين سودي الجمدار نائب السلطنة بالمملكة الحلبية، وكانت وفاته بعد العصر من يوم السبت منتصف الشهر، فَفوَّض السلطانُ للأمير علاء الدين الطنبُغا الصالحي أحد الحجاب نيابة السلطنة بها في هذا اليوم، وتوجَّه على خيل البريد في يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤٠، الدرر الكامنة ٢/ ٧٩، البداية والنهاية ١٤/ ٧١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٩.

وورد الخبر أيضًا بوفاة بهاء الدين أبي سوادة[١] كاتب الدرج بحلب، وكانت وفاته في ضحى منتصف شهر رجب، فَرُتِّب وظيفته في القاضي عمادُ الدين إسماعيل ابن القاضي المرحوم شرف الدين بن القصيراني[٢]، وتوجه إلى حَلَب بعد أن سأل واستعفى من الوظيفة، ثم لما عزل سعى في الاستمرار فلم يُجَبْ.

ذكر عزل الأمير سيف الدين بلبان طرناه نائب السلطنة بالمملكة الصفدية، والقبض عليه، وتفويض النيابة للأمير سيف الدين بَلبان البَدْري

وفي شوال من هذه السنة تكررت مطالعات الأمير سيف الدين طرناه نائب السلطنة بالمملكة الصفدية يسأل الإقالة، ثم أُنْهِيَ عنه أنه قال والله لئن لم يُقلني السلطان من النيابة بصفد حَلَقْت رأسي ولحيتي وتركت الإمارة. وكان سبب ذلك أن المملكة رجع أكثرها إلى دمشق عند الرَّوْك، وصارت مراسيم السلطنة بدمشق والمشد ترد إلى صَفد، فضاق من ذلك. ضيقًا كثيرًا واستعفى، فبرز المرسوم بعزله، وأن يتوجّه إلى دمشق من جملة الأمراء على إقطاع الأمير سيف الدين بلَبان البدري، وأن يتوجّه البدري إلى نيابة السلطنة بصفد، فتوجَّه إلى دمشق، وكان وصوله في يوم الخميس حادي عشرين ذي القعدة، فقبض عليه حال وصوله واعتقل، ثم نقل إلى قلعة الجبل فاعتقل بها، وتوجه الأمير سيف الدين بَلَبان البدري من دمشق إلى صفد في يوم الجمعة ثاني عشرين ذي القعدة.

وفي يوم الجمعة سلخ ذي القعدة ثار بالقاهرة رجلُ اسمه علي بن السابق، من سكان الحُسَيْنية، فركب فرسًا، وجرّد سيفًا، وشقّ المدينة وصار يضرب بالسيف من يظفر به من اليهود والنصارى، فَجَرح ثلاثةً، منهم مَن قطع يده، ومنهم من ضربه في وجهه، ثم قُبِضَ عليه خارج باب زويلة مما يلي جهة القلعة، وسئل عن سبب فعله فقال: قمت لأنصر دين الله وأقتل أهل الذمة فأمر السلطان بقتله؟ فَضُرِبَت عنُقه.

---

(١) بهاء الدين أبي سوادة: هو بهاء الدين علي بن أبي سوادة الحلبي (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٨).

(٢) توفي سنة ٧٣٦ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١١٣، الدرر الكامنة ١/ ٤٠٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٣١١).

وفي يوم الجمعة تاسع عشرين شهر رجب قتل بدمشق موسى بن سمعان النصراني الكركي، كاتب الأمير سيف الدين قُطلوبك الجَاشَنْكير لتجرئه على رسول الله ﷺ، وكان قد استمال رجلًا من ضعفة العقول والقلوب من المسلمين ونَصّرَه وكَوَاه على يده مثال صَلِيب، فحكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي بقتله فقتل.

وفي ذي الحجة من هذه السنة تسحّب جماعة من الجند البطالين[1] إلى بلاد الغرب، لم نحرر عُدَّتَهم.

وفيه منها جردت العساكر إلى ملطية، وكان من فتحها ما نذكره إن شاء الله تعالى في سنة خمس عشرة وسبعمائة.

وفي هذه السنة في ليلة الثلاثاء سادس عشر صفر توفي الشيخ الصالح شرف الدين أبو الهدى أحمد ابن الشيخ الإمام قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن القسطلاني المالكي[2] وكانت وفاته بزاويته بالكؤكؤة من القاهرة، ودفن من الغد بالقرافة، ومولده بمكة في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الصالح المُعَمَّر محمد حيَّاك الله بسلام بن محمود بن الحسين بن الحسن الموصلي[3] بزاويته بسويقة الريش ظاهر القاهرة في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأول ودفن بكرة نهار الجمعة بالقرافة بقرب مدفن الشيخ محمد بن أبي حمزة، وكان من الصلحاء الأخيار المعمّرين، عمّر نحو مائة وستين سنة فإنه سئل عن مولده فذكر أنه وصل إلى القاهرة في أوائل الدولة المعزيَّة وله يومئذٍ خميس وثمانون سنة، وكان مع ذلك حاضر الحس جيد القوة، وله شِعْر حسن.

وفيها توفي الأمير عماد الدين إسماعيل ابن الملك المغيث شهاب الدين عبد العزيز ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي

---

(١) البطّال أو الطرخان: هو اصطلاح مملوكي يقصد به الذي يعيش من إقطاعه فقط، وكانت الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية، وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم يعدد فيها من مزاياهم واستحقاقهم (انظر: صبح الأعشى ١٣/٤٨ ـ ٥١، ٥٢، ونزهة النفوس ١/٤٩، ١٦٢).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٢٥٩، والعقد الثمين ٣/١٤٦.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٣٥، والنجوم الزاهرة ٩/٢٢٧.

أحمد بن أيوب[١] وكانت وفاته بحماة في ثامن عشر شهر ربيع الآخر، سَمع الحديث من خطيب مَرْدًا وغيره، وحدَّث رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير فخر الدين أقْجبا الظاهري[٢]، أحد الأمراء بدمشق، في ليلة الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بقاسيون، وكان رجلًا جيّدًا ملازمًا للصلوات الخمس بجامع دمشق، ثابت العدالة قديم الهجرة في الإمرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين مِلْكتَمُر الناصري المعروف بالدم الأسود[٣] أحد الأمراء بدمشق بها في يوم السبت ثالث عشر جمادى الآخرة وكان يُنسبُ إليه ظلم فاحش في جهات إقطاعه.

وتوفي القاضي شرف الدين يعقوب بن مجد الدين مَظفر بن شرف الدين أحمد مُزْهِر[٤] بحلب وهو ناظرها في الثامن والعشرين من شعبان، ومولده في سنة ثمان وعشرين وستمائة وتَنَقّلَ في الأنظار الكبار فلم تبق مملكة بالشام إلا باشرها وعاد إليها، رافقته بطرابلُس مدة، وكان من أرباب المروءات، إذا سئل أجاب، وإذا عُونِد نفر، وكان أجود ما يكون إذا باشر، وإذا عُطّل عن المباشرة أكثَرَ القول في المباشرين والأكابر رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين كهرداش الزرّاف[٥] أحد الأمراء بدمشق في ليلة الاثنين سلخ شعبان رحمه الله تعالى حكى الشيخ شمس الدين الجَزري عنه أنه كان قد حَجَّ في صحبة السلطان في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة، فلما وصل إلى المدينة النبويّة عاهد الله تعالى أنه لا يشرب الخمر أبدًا، ولا يرتكب مُحرَّمًا، وعقد التوبة، وحَلَفَ على ذلك، وغلَّظ اليمين. فلما عاد إلى دمشق لم يلبث أن نقض التوبة حال وصوله، وفعل ما حلف أنه لا يفعله، فأصابه فالج وبطل نصفه، وعولج بالأدوية فلم ينجح، ومات ولم يصح. قال: وربما كان ركب في بعض الأحيان مع مرضه ـ سامحه الله تعالى وإيانا.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/١: ١٤١.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٢٢٨/٩.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٢٢٩/٩، الدرر الكامنة ١٢٨/٥.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٢٢٣/٩، السلوك للمقريزي ٢/١: ١٤١، الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٦.

(٥) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٢٢٨/٩، السلوك للمقريزي ٢/١: ١٤١، الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٩.

وتوفي القاضي صدر الدين أحمد ابن القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب، وكيل بيت المال بالديار المصرية، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الاثنين تاسع شعبان رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ العالم علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد خطاب الباجي الشافعي[(١)] بالقاهرة في يوم الأربعاء سادس ذي القعدة، ودفن من يومه بالقرافة، وكان رجلًا عالمًا فاضلًا يَرجعُ الناسُ إلى فتاويه، ويعتمدون على نقله رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي سعد الدين محمد بن فخر الدين عبد المجيد بن صفي الدين عبد الله الأقفهسي[(٢)] ناظر الخزانة فُجاءَةً في ليلة الجمعة ثامن عشرين ذي الحجة بعد أن باشر بقلعة الجبل وظيفته إلى آخر نهار الخميس ونزل إلى بيته. فمات رحمه الله تعالى. ونقل الصاحب ضياء الدين النشائي من نظر الدواوين إلى نظر الخزانة في يوم السبت سلخ ذي الحجة.

واستهلت سنة خمس عشرة وسبعمائة
ذكر إرسال العسكر إلى مَلْطيَة
صحبة الأمير سيف الدين تنكر وفتحها

كان السلطان في ذي الحجة سنة أربع عشرة قد أمر بتجريد جماعة من الجيوش المنصورة المصرية وهم، الأمير سيف الدين بكتمر الأبو بكري، والأمير سيف الدين قُليّ، والأمير علم الدين سنَجْر الجَمْقدار، والأمير بدر الدين محمد بن الوزيري، والأمير ركن الدين بيبرس الحاجب الناصري، والأمير سيف الدين أركْتَمرُ الجمدار، ومضافيهم، وكتب إلى الشام أن يتوجّه الأمير سيف الدين تَنْكُز بعساكر الشام، ويتقدم على سائر الجيوش، فَنَدب الجيوش الشامية وأمرهم بالخروج، فتوجهت ميسرة العسكر الشامي في السابع والعشرين من ذي الحجة، والميمنة في يوم الجمعة الثامن والعشرين، ووصل العسكر المصري في يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر إلى دمشق، وتوجه الأمير سيف الدين تنكُز نائب السلطنة بالشام في يوم الاثنين مستهل محرم من هذه السنة ببقية العسكر، واستصحب معه قاضي القضاة نجم الدين

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٤، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤١، الدرر الكامنة ٣/ ١٠١.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤٢.

صَضْرَى، وشرف الدين بن فضل الله، وجماعة من الموقعين، وجردت العساكر الصفدية والطرابلسية والحمصية، وصاحب حماة وعسكرها، وركب الأمير سيف الدين تنكُزْ بالكُوسَات والعصائب على عادة الملوك، ووصل إلى حلب في يوم الجمعة ثاني عشر محرم، وترجّلَ في خدمته الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة فمن دونه من سائر النواب والأمراء مقدمي الجيوش وغيرهم، ورحل منها في يوم السبت ثالث عشر، فلما وصل عينتاب أقام قاضي القضاة نجم الدين بها، وتوجَّهت العساكر إلى ملطية في بكرة الأحد الحادي والعشرين من المحرم، وتقدمهم الجاليش[1] وهو الأمير سيف الدين أركتمر ومن معه، وحَاصَر مَلطْية، فتحصن أهلها وضايقها ثلاثة أيام. فلما وصلت العساكر صحبة الأمير سيف الدين تُنكُز خرج مُتَوَلي ملطية وقاضيها وسألوا الأمان فأمنوا وفي خلال ذلك فتح الأمير سيف الدين أركتمر البلد مما يليه عنوة فسير إليه الأمير سيف الدين تنكز يأمره بكف أصحابه عن النّهب، وقال إن البلد قد فتح بالأمان. فأجاب إنني فتحته بالسيف وحاصرته ثلاثة أيام، وقاتلني أهلهُ قبل وصول العسكر، ومَكّن من مَعَه من الدخول والنّهب، ومنعهم من الازدحام على الباب، فكان يمكنهم من الدخول مرة بعد أخرى حتى دخلوا البلد، فنهَبوا وقُتل خلق كثير من الأرمن والنصارى، وأسرُوا خَلْقًا كثيرًا منهم حتى تعدّى ذلك إلى جماعة من المسلمين، واختفى أكثر الأرمن بالمقابر، وخَرَّبَ قطعة من البلد، ورمى النارَ فيه، ورجع الجيش عنها في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من المحرم إلى عينتاب، ثم إلى مَرْج دَابقٍ.

ولما فتحت مَلْطية جُهّزَ الأمير سيفُ الدين قجليس السلاح دار إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد بالبشارة، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس الثالث من صفر، وذكر أنه وجد بمَلَطْيَة عند الاستيلاء عليها تسعةَ عشر ألف نول ينسج الصوف، ونقل أهلها إلى حلب، ولما عادت العساكر عن ملطية نزل بها نائب السلطنة الأميرُ بدر الدين مُوسى الأزْكشي في طائفة من العسكر، وبعد توجّه العسكر منها بثلاثةُ أيام ظهر مَنْ كان قد اختفى بها من الأرمن وغيرهم، فوصل إليها أهل كَخْتَا

---

(١) الجاليش: كلمة فارسية ومعناها: الحرب والمعركة، والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل، وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يومًا قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخانة (مكان في القلعة)، والجاليش أيضًا تستعمل بمعنى طليعة الجند، وقد ذكرها المقريزي بشينين «شاليش» وتجمع على «جواليش» (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٥٨، وصبح الأعشى ٤/٧).

وكَرْكَر فأحاطوا بها وقتلوا ثلاثمائة من الأرمن، وأسروا مائة أسير وغنموا جملة كثيرة من الأقمشة والأمتعة، ونقلوا جملة من الغلال والحبوب وجُهّز إلى الأبواب السلطانية نائب مَلَطْية وهو بدرُ الدين ميزامير ابن الأمير نور الدين وولدُه وصهره في نحو ثلاثين نفرًا، فوصلوا في صفر ثم وصل قاضي ملطْيةَ وحريم نائبها وجماعة منهم في نحو مائة وخمسين نفرًا إلى دمشق في نصف صفر، ورسم لقاضيها بالإقامة بدمشق، وأحسن السلطان إلى نائب مَلْطية وولده وصهره، وجعل لكل منهم إقطاعات وعُدّة، واستمرت الجيوش مقيمة ببلاد حلب إلى شهر ربيع الأول، فرحلت يوم الخميس ثامن الشهر، ووصل نائب السلطنة إلى دمشق في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول، ثم وصلت بقية العساكر إلى الديار المصرية، ودخلوا القاهرة في يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الآخر، وشملهم السلطان بالإنعام والتشريف.

وأما ملطية فإنه بعد أن عادت العساكر منها وصل إليها جُوبان نائب خَرْبَنْدا ملك التتار، وكان خَرْبَنْدا قد أعطاها له فآمن مَن بَقي بها من المسلمين، وسَدَّ ستّة من أبوابها، وترك بابًا واحد، وجرّد بها ألفي فارس يحمونها، وأمرهم بعمارة ما خرب منها.

وفيها بعد عود العسكر من مَلطية أغارت طائفة من العسكر الحلبي على بلاد سيس مَرَّة بعد أخرى، وغنموا وقتلوا وسبوا.

ذكر القبض على مَن يذكر من الأمراء بالديار المصرية

وفي يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول أمر السلطان بالقبض على الأميرين سيف الدينَ بكُتُمر الحسامي أمير حاجب، وعلاء الدين أيْدُغدِي شُقَير الحسامي وهما من أمراء المائة مقدمي الألوف، وطلب الأمير سيف الدين بكْتمر بعد نزوله من الخدمة. ووصوله إلى داره وطَلَع إلى دار النيابة فَقبُض عليه بين يدي نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُن. وقبض على أيْدُغْدي شُقَير بداره بالقلعة واعتقلا، فأما أيْدُغدي شُقير فكان آخر العهد به، واستمر سيف الدين بكُتمر في الاعتقال إلى يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة ست عشرة وسبعمائة فأفرج عنه على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت العاشر من الشهر المذكور قبض أيضًا على الأمير سيف الدين بَهادر الحسامي المعروف بالمعزي وهو أيضًا من أمراء المائة، واعتقل بها وإنما أَخّر عمن قُبضَ عليه قبله لأنه كان قد توجّه لكشف الصعيد الأعلى، وحَفْرِ تُرعِهِ وإتقان

جُسُوره، فوصل إلى مدينة إسنا من الأعمال القوصية، فلما عاد ومثل بين يدي السلطان وأنهى ما اعتمده وخرج من بين يدي السلطان وقُبِضَ عليه واعتقل، وكان السبب في القبض عليهم أن السلطان كان قبل ذلك بأيام قد قبض على سيف الدين جَاوُلجين الخازن أحد المماليك الخاصكية لأمر أنكره منه وعذّبه عذابًا شديدًا فأقر على هؤلاء وغيرهم، فلما أيس من الحياة أبرأ الأمير سيف الدين بَكْتُمر الحاجب، وقال للسلطان إنما ذكرته من ألم الضرب والعقوبة، وهو بريء مما قلته، فلا ألقى الله تعالى بذنبه، وأما من عداه ممن ذكرته فلم أقل عنهم إلا الحق، ومات رحمه الله تعالى، وتكلم على الأمير سيف الدين طُغاي في جملة من تكلم عليه، فأثر كلامه فيه بعد ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى وأراد السلطان الإفراج عن الأمير سيف الدين بَكْتمر الحاجب إثر القبض عليه فلم تقتض سياسةُ السلطنة ذلك، لكنه كان موسَّعًا عليه في اعتقاله ورتب له في كل يوم من اللحم خمسة وأربعون رطلًا يطبخ له من أفخر الأطعمة ودَجاج وحلْوى وأقسماء وفاكهة وغير ذلك، ووهبه السلطان نجارية جميلة من جواريه في معتقله، فاحتملت منه وولدت له ولده محمدًا ولم يُمنع في معتقله غير ركوب الخيل والاجتماع بالناس، وأخبرني أنه كان يكاتب السلطان في اعتقاله ويَرُد عليه الجواب الخير.

ذكر القبض على الأميرين سيف الدين تمر الساقي[(١)]

نائب السلطنة الطرابُلسية، وسيف الدين بَهَادُرآص[(٢)] أحد الأمراء بدمشق وتفويض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية للأمير سيف الدين كُسْتَاي[(٣)].

وفي العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر جَهَّزَ السلطان الأمير سيف الدين قجليس السلاح دار على خيل البريد، فوصل إلى دمشق في يوم الخميس رابع عشر الشهر، وتوجّه إلى طَرابُلس، وكان الأمير سيف الدين تمرُ النائب بها قد خرج إلى الصيد، فوصل إليه وهو بمخيمه وكان قد أرسل إلى الأمير شهاب الدين قَرَطاي النائب

(١) هو الأمير سيف الدين تمر بن عبد الله الساقي الناصري أحد أمراء الألوف، وأعيان الخاصكية للناصر محمد بن قلاوون، توفي سنة ٧٤٢ هـ (انظر: النجوم الزاهرة ١٠/ ٧٧).
(٢) سيف الدين بهادرآص: توفي سنة ٧٣٠ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨١، الدرر الكامنة ٢/ ٢٩).
(٣) سيف الدين كستاي: توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٧، الدرر الكامنة ٢/ ٢٩).

بحمص أن يوافيه بعسكر حمص في وقت السّحر إلى منزلة تمرُ الساقي. فلما وصل الأمير سيف الدين قَجْليس إليه أظهر أنه حضر لكشف القلاع، وشكا من التعب فأنزله في خيمة وأرسل إليه بعض مماليكه ليخدموه، وأمرهم أن يحفظوا ما يقول، وكان قد خشي من حضوره، وأدرك قجْليس ذلك، فشرع يسأل المماليك عن القلاع والحصون ونوابها، وما يحصل له من جهتهم، لا يزيدهم على هذا فتوجهوا إلى مخدومهم وأعلموه بمقاله، فما شَكّ في ذلك، وطابت نفسه، واطمأن ونام. بخيمته، فما طلع الفجر إلا والأمير شهاب الدين قَرَطاي النائب بحمص والعسكر قد وافاه بالمنزلة، وأحاطوا بخيمته فقبضوا عليه، ورجع به الأمير سيف الدين قَجليس إلى الأبواب السلطانية، فوصل إلى دمشق عائدًا في بكرة الاثنين ثامن عشر الشهر، وقبض على الأمير سيف الدين بَهَادُر آص في هذا اليوم، واعتقل بالكرك، وتمر الساقي بقلعة الجبل، وفوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية إلى الأمير سيف الدين كُسِتاي أمير سلاح، فاستعفى من النيابة، فلم يعف، فتوجه على كره منه، ووصل إلى دمشق في ثاني عشر جمادى الأولى يطلبه، وتوجّه إلى طرابلس.

وفي مستهل شهر ربيع الآخر رسم السلطان بالإفراج عن الأمير سيف الدين قجماز بَتْخَاص، وفخر الدين داود، وحسام الدين جيًا أخويّ سَلّار وأنعم على الأمير سيف الدين قَجْمَاز، بَتَخاص ذلك بإمرة طبلخاناه.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى وصلت رسل صاحب اليمن الملك المؤيد هزبر الدين داود بالتقادم والتحف والهدايا والخيول وغير ذلك، فقبلت هديته، وأنعم على رسله وعليه، وكتب جوابه وجهز رسوله بما جرت العادة به من الإنعام والهدايا، والله أعلم.

ذكر وصول السيد الشريف أسد الدين رُمَيثة إلى الأبواب السلطانية وتجريد العسكر معه إلى الحجاز الشريف

وفي هذه السنة في ثالث جمادى الآخر ـ وصل الأمير السيد الشريف أسد الدين أبو عَرَادةَ رُمَيْثَة بن أبي نُمي من الحجاز الشريف إلى الأبواب السلطانية، وأظهر التوبة والتنصل والاعتذار من سالف ذنوبه، وأنهى أنه استأنف الطاعة وسأل العفو عنه، وإنجاده على أخيه عز الدين حُمَيضة، فقبل السلطان عُذْره وعَفا عن ذنبه وجرد طائفة من العسكر مقدمهم الأمير سيف الدين دَمُرْخَان بن قرمان، والأمير سيف الدين طَيْدُمَر

الجمَدَار، فتوجها هما والأمير أسد الدين رميثة إلى الحجاز الشريف في ثاني شعبان، ورحلوا من بركة الْجُبّ في رابعه، فلما وصلوا إلى مكة - شرّفها الله تعالى - فارقها حُمَيْضَةُ، فقصدوه وكَبسُوا أصحابه وهم على غرة فقتلوا منهم ونهبوا، وفرّ هو في نفر يسير من أصحابه إلى العراق، والتحق بخربندا ملك التتار واستنصر به، فمات خرْبَنْدَا قبل إعانته.

ذكر الإفراج عن الأمير جمال الدين آقش الأفرمي

وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر رجب رسم السلطان بالإفراج عن الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي المنصوري فأفرج عنه، وخلع عليه على عادة نواب السلطنة تشريفًا أطلس أحمر معدنيًا بطُرز زركش، وقباء أطلس أصفر وشاشَ رقْم وكِلوتة زركش، وحياصة ذهبًا، ونزل إلى داره بالقاهرة واتفقت وفاة الأمير حسام الدين قرالاجين المنصوري أستاذ الدار في يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان، فأنعم السلطان عليه بإقطاعه، ووفِّرتْ وظيفة أستاذ الدارية بعد وفاة قرالاجين، وقام بالوظيفة الأمير سيف الدين بكتمر أحد نُواب أستاذ الدارية، ونَقَصتْ هذه الرتبة عما كانت عليه بعد أن كانت عظمت إلى الغاية التي تقدم ذكرها.

وفي أول شعبان من هذه السنة توَجَّهت طائفة من العسكر الحلبي، والأمير ناصر الدين العين تابي عليهم إلى حصار قلعة آفقين وهي قلعة من أعمال آمد، فتسلموها من غير قتال، وقُتِلَ أخو مندو وقُطع رأسُه وعُلق على باب القلعة، وكان الغرض من هذه الإغارة القبضَ على مندو فلم يوجد هناك، وأغار العسكر على عدة ضياع للأكراد والأرض، ويقال إن الخمس بلغ خمسة آلاف رأس غنم وخمسًا وعشرين جارية.

وفيها في شعبان وصل إلى الإسطبلات السلطانية مُهْرةٌ تعرف ببنت الكرْكَا كان السلطانُ قد طلبها من العرب، وبذل في ثمنها مائتي ألف وسبعين درهم وضيعة من بلاد حماه قيل إنها تقوَّمت على السلطان بستمائة ألف درهم.

وفي هذه السنة في ثالث شوال ضربت عنق رجل بدمشق اسمه أحمد الرُّويس الأقباعي، وسبب ذلك أنه شُهد عَليه في شهر رمضان بارتكاب أمور من العظائم من تَرْك الواجبات، واستحلال المحرمات، والتهاون بالشريعة والغض من منصب النبوة، وثبت ذلك على قاضي القضاة المالكي، وأعذر إليه فلم يأت يدافع، عن نفسه فحكم بهَدْرِ دمه فَقُتِل.

وفيها في ثالث شعبان توجّه السلطان إلى الصيد بجهة الصعيد، ووقعت النار في غيبته في سابع شهر رمضان في البرج المنصوري، وطباق السلحدارية. بقلعة الجبل، واستمرت طول الليل، ثم أطفئت.

وفيها في العشر الآخر من شهر رمضان عادت رسل السلطان من جهة الملك أزْبُك فتوجّه رسل السلطان إليه وهم الأمير سيف الدين أرج، وحسام الدين حسين بن صارُو، وصحبتهم رُسل الملك أزبك فتوجّه رسل السلطان إليه إلى الصعيد، ومثلوا بين يديه، أعاد السلطان إلى قلعة الجبل بعد أن قضى من الصيد وَطرًا، وكان وصوله في ثامن عشرين شوّال، واستحضر رسل الملك أزبك، ورسل الأشكريّ، ورسل صاحبَ مازدين، وسمع رسائلهم وأعادهم وسيّر إلى الملك أزْبك من جهته الأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخُوارزمي، وحسين بن صارُو، وأرسل صحبتهما الهدايا والتحف.

وفي ذي القعدة ورَدَت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن طائفة من العسكر الحلبي توجَّهُوا وفتحوا قلعة بقرب مَلَطية تسمى درنده، وكان فيها نحو ألف رجل من الأرمن، فقتلوا بجملتهم، وأخربت القلعة وغنم المسلمون ما فيها من الأموال، وسبوا النساء والصبيان.

وفي أواخر ذي القعدة أغار سليمان بن مهنا بن عيسى وجماعته من العرب والتتار تزيد عدتهم على ألف فارس على جماعة من التركمان والقريتين وذلك بغير رضًا من أبيه.

وفي ثامن ذي الحجة وُلد لمولانا السلطان الملك الناصر ـ أعز الله أنصاره ـ ولد مبارك لم يعلم اسمه، وزفت البشائر لمولده والله أعلم.

ذكر ما أمر السلطان بإبطاله من المكوس والمظالم وما أسقطه من أرباب الوظائف

وفي شعبان سنة خمس عشرة وسبعمائة ندب السلطان أعيان الأمراء لقياس الديار المصرية وجهز إلى كل عمل أميرًا من المقدمين ولبعض الأعمال أمراء ورسم أن لا يستخرج على هذا القياس أجرة من الفلاحين ولا غيرهم ورسم لسائر الأمراء أن يكون عودهم إلى قلعة الجبل بعدما توجهوا بسببه في نصف شوال وتوجه مع كل أمير مستوف من مستوفيّي الدولة وتوجه السلطان إلى الصعيد الأعلى ورتب الأمراء

والكتاب في أعمال الوجه القبلي في مسيرة وأظهر الاحتفال بذلك والاهتمام به فانتهت مساحة الديار المصرية أجمع وتحرير نواحيها في نحو أربعين يومًا فإن الشروع في ذلك حصل في مستهل شهر رمضان والعود إلى أبواب السلطان والوصول إلى قلعة الجبل في نصف شوال وأعان على سرعة ذلك تقسيم البلاد شققًا، ولما تكامل هذا الكشف أمر السلطان القاضي فخر الدين ناظر الجيوش ومن عنده من المباشرة ونظار النظار والمستوفين بالانتصاب لتحرير ذلك ورتبه على ما اقتضاه رأيه الشريف وهم بين يديه فانتهى العمل وكتابة الأمثلة في ذي الحجة من السنة فعند ذلك جلس السلطان لتفرقة الأمثلة بين يديه وجعل لكل أمير بلادًا معينة وأضاف إليه جميع ما في بلاده من الجيوش السلطانية والجوالي[1] وغير ذلك فصارت البلاد لمقطعيها دربستا[2] وكذلك جهات الحلقة وأفرد لخاصيّه بلادًا ولحاشيته بلادًا مقررة مرصدة لجامكياتهم، ولجامكيات نظار الدولة ومباشري الباب جهات مقررة لهم وكذلك أرباب الرواتب وجعلت سائر المعاملات بمصر والقاهرة في جملة الخاصة وكان هذا برأي تقي الدين ناظر النظار المعروف بكاتب برلغي وترتيبه فأخرج عن الخاص الجوالي التي ما زال الملوك يجعلونها مرصدة لمأكلهم لتحقق حلها، وجعلها في الأقطاع وأرصد لراتب السماط السلطاني ونفقات البيوتات ودار الطراز ومشتري الخزانة جهات المكس التي ما زال الملوك يحذرونها وأكثر المقطعين يتنزهون عنها ويستعفون من أخذها والذي تحققته من أمره وغرضه في هذا الترتيب أنه من مسالمة القبط ممن أكره على الإسلام فأظهره وجَرت عليه أحكامه وكان ميله ورغبته واحتفاله بالنصارى، فأراد تخفيف الجالية عنهم فجعلها في جملة الأقطاع فانتقل كثير من النصارى من بلد إلى آخر فتعذر على مقطع بلده الذي انتقل منه طلبه من البلد الذي انتقل إليه وإذا طالبه مباشرو البلد الذي انتقل إليها اعتذر أنه ليس من أهل بلدهم وأنه ناقله إليه فضاعت الجوالي بسبب ذلك واحتاج مقطعو كل جهة إلى مصالحة من بها من النصارى النوافل على بعض الجوالي فأخبرني بعض

---

(١) الجوالي: جمع جالية وتطلق على أهل الدمة. وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا من أوطانهم، وقال المقريزي: أما في زماننا هذا فإن الجوالي قلّت جدًا لكثرة إظهار النصارى للإسلام في الحوادث التي مرّت بهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٤، وخطط المقريزي ١٠٧/١). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٥٣٠/٣: الجوالي هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة.

(٢) الدربست: لفظ فارسي، معناه: كامل.

العدول الثقات شهود دواوين الأمراء أنهم يستأدون من النصراني أربعة دراهم ونحوها، وكانت قبل ذلك ستة وخمسين درهمًا ولما كانت الجوالي جارية في الخاص السلطاني كانت الحشار تسافر إلى سائر البلاد ويستأدونها منسوبة إلى جهاتها، وإذا وجد نصراني في ثغر دمياط وهو من أهل أسوان أو من أهل حلب أو عكس ذلك أخذت منه الجزية في البلد الذي يوجد به، ويكتب المباشرون بها له وصلًا فيعتد له ببلده ويأخذ من كل بلدة منسوبة إلى جهتها، فانفرط ذلك النظام وهي الآن على تقريره، ولعمري لو ملك هذا التقي المسلماني البلاد وعليه جريان اسم الإسلام ما تمكن أن يحسن إلى النصارى، ويخفف عنهم بأكثر من هذا.

وأبطل السلطان في هذه السنة عند عدم الروك جملة عظيمة من الأموال المنسوبة إلى المكوس[1] والمظالم، منها سواحل الغلال وكان يتحصل منها بساحلي مصر والقاهرة نحو أربعة آلاف درهم نقرة وأبطل نصف السمسرة[2] ورسوم الولاية ونوابهم والمقدمين وتقرير الحوايص والنعال وحق السجون وطرح الفراريج، ومقرر الفرسان ورسوم الأفراح، وثمن العبي التي كانت تستأدى من البلاد، ومقرر الأتبان التي كانت تؤخذ لمعاصر الأقصاب بغير ثمن وحماية المراكب وزكاة الرجالة بالديار المصرية، وغير ذلك من المظالم سطر الله هذه الحسنات في صحيفته ورسم بالمسامحة بالبواقي الديوانية والإقطاعية إلى آخر مغل سنة أربع عشرة وسبعمائة، ورسم بإسقاط وظيفتي النظر والاستيفاء من سائر أعمال الديار المصرية، ورسم أن يستخدم في كل بلد من بلاد الخاص شاهد وعامل، ورتب بالقاهرة ناظر الجهات الهلالية ولمصر ناظرًا، ثم استخدم في بعض الأعمال النظار، وجعل هذا الروك الهلالي لاستقبال صفر سنة ست عشرة وسبعمائة والخراجي لاستقبال مغل سنة خمس عشرة وسبعمائة ورسم بإسقاط متوفر الجراريف السلطانية، وأن يرصد جميعها لعمل الجسور، وكان يتوفر منها بعد عمل الجسور أموال جليلة كثيرة.

وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة توفي الشيخ العالم القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام بن جميل العونسي المالكي[3] بالقاهرة،

---

(١) المكوس: جمع مكس: وهي الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخلون البلد من التجار.

(٢) السمسرة: وهو أن من باع شيئًا فإن دلالته على كل مائة درهم درهمان، يؤخذ منها واحد للسلطان، والثاني للدلّال. وسمسر فلان: توسط بين البائع والمشتري نظير أجر معين، والسمسار: الوسيط بين البائع والمشتري لتسهيل الصفقة.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٧، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٥٨، الدرر الكامنة=

في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من صفر، ودفن بالقرافة، ومولده في سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان قد ولي قضاء الإسكندرية، وكان قبل ذلك ينوب عن الحكم بالحسينية عن قاضي القضاة زين الدين المالكي، وهو أول من درس من المالكية بالمدرسة المنكوتمرية بالقاهرة، وكان من علماء مذهبه ومن الفضلاء المشهورين رحمه الله تعالى وإيانا.

وتوفي الصدر الرئيس شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن العدل الرئيس جمال الدين أبي الفضل محمد بن أبي الفتح نصر الله بن المظفري أسعد بن حمزة بن أسعد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي بن القلانسي(١)، وكانت وفاته بداره بدمشق، في ليلة السبت الثاني عشر من صفر، ودفن من الغد بقاسيون بمقبرة بني صَصْرَى، ومولده بدمشق في السابع والعشرين من شعبان سنة ست وأربعين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى من أكابر أعيان دمشق، رافقته مدة تزيد على سنتين ونصف في ديوان الخاص الناصري بدمشق، وكان حسن العشرة والرفقة، كثير الاحتمال والإغضاء والحياء والسكون، ولما انفصلت عن المباشرة، وعدت إلى الديار المصرية. ما زالَتْ كُتُبه تَرِدُ تدل على استمرار مودته، وجميل تعهده، وتصل إلى هداياه وهو ممن سُعِدَ في أولاده، فإنهم من نجباء الأبناء ورؤساء الشام أبقاهم الله تعالى ورحم وَالدهم.

وتوفي الشيخ العالم صفي الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي، المعروف بالهندي الشافعي(٢)، بمنزله بالمدرسة الظاهرية بدمشق في ليلة الثلاثاء ثالث عشرين صفر، ودُفنَ من الغد بمقابر الصوفية، ومولده في ليلة الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة وكان رجلًا فاضلًا، وله تصانيف مفيدة في الأصول، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير عز الدين الحسين بن عمرو بن محمد بن صبرة بطرابلس، وكان قد نقل إليها من دمشق، وكانت وفاته في يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب، وكان قبل ذلك ولي حَجَبة الشام مدة، وكان حسن العشرة كثير البسط رحمه الله.

وتوفي الأمير بدر الدين موسى ابن الأمير سيف الدين أبي بكر محمد الأزكشي، بداره بميدان الحصى ظاهر دمشق، في يوم الجمعة ثامن شعبان، ودفن عند القبيبات،

= ٤/١٤٩، الوافي بالوفيات ٤/١٤٩.

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/٧٣. (٢) هو صفي الدين الهندي: تقدمت ترجمته.

وكان أميرًا شهمًا شجاعًا مقدامًا، أظهر في مصاف مرج الصفر عن شهامة وفروسية وإقدام، وكان يومئذ من مقدمي الحلقة المنصورة الشامية فلما شاهد السلطان فعله أمَّره بطبلخاناه، وولاه نيابةَ قلعة الرحبة رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر ابن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قُدَامة المقدسي[١] قاضي الحنابلة بدمشق في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ذي القعدة بعد صلاة المغرب بمنزله بقاسيون، ودفن بكرة الاثنين بتربة جده، ومولده في نصف شهر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى حسن الأخلاق، غزير الفضيلة، سمع الحديث وأسمعه.

واستهلت سنة ست عشرة وسبعمائة بيوم الجمعة

في هذه السنة في يوم السبت الثالث والعشرين من المحرم الموافق للثاني والعشرين من بَرْمودة من شهور القِبْط بعد العصر سُمِعَ بالقاهرة هَدَّةٌ عظيمة تشبه الصاعقة ورَعْد وبرق، ووقع مَطر كثير وبرد على قلعة الجبل والقاهرة وضواحيها ولم يكن مثل ذلك بمصر، ووقع مطرٌ كثير بمدينة بُلْبَيْس حتى خرَّب كثيرًا من البنيانَ بها، وكان ذلك كلّه في مُضِيّ ساعة ونصف ساعة.

وفي هذه السنة فُوّض قضاة القضاء الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع الحنبلي[٢] أعاد الله من بركته ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر، وقرىء بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان، وخرج القاضي شمس الدين المذكور من الجامع ماشيًا إلى دار السعادة، فسلم على نائب السلطنة ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجّه إلى جبل الصالحية، وجلس للحكم في سابع عشر صفر وما غير هيئته ولا عادته في مشيه وحَمَل حاجته، ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط، بل يضعه بيده ويجلس عليه، ويكتب في محبرة زجاج، ويحمل نعله بيده فيضعه على مكان، وإذا قام من مجلس الحكم حَمَله بيده أيضًا حتى يصل إلى آخر الإيوان فيلقيه ويلبسه، هكذا أخبرني من أثق بأخباره، واستمر على ذلك، وهذه عادة السلف.

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣١، شذرات الذهب ٦/ ٣٥، البداية والنهاية ١٤/ ٧٥.

(٢) توفي سنة ٧٢٦ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٧٣، الدرر الكامنة ٤/ ٢٥٨، البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦).

ذكر حادثة السيول والأمطار ببلاد الشام
وما أُثِر ما وقع من العجائب التي لم تُعْهَد

وفي هذه السنة في أوائل صفر وقع بالشام مطر عظيم على جبال قارا وبعلبك، وعلى مدينة حمص والمُنَاصَفَات، وامتد إلى بلاد حماه، وحلب، وسقط مع المطَر بَرَد كبارٌ، البردَةُ منها قدر النارِنجة وأكثرُ منها وأصغر، ووُزِنَ بعضُها بعد يومين أو ثلاثة فكان وزن البردة ثلَاثَ أواقي بالشامي، وجرى من ذلك المطر سيلٌ عظيم من سائر تلك الجبال، وملأ الأودية وتحامل وجاء على جُوسية إلى قرية الناعمة وقَدَس، وانصب في بحرة حِمْص فَفَاضَتْ منه، ومَرّ السيلُ بقرية جسمل، وهي بالقرب من الناعمة، فاقتلعَها بجميع ما فيها من الغلال والحواصل، وأهلك أهل القرية، ولم يسلم منهم إلا خمسة أنفس: ثلاثة رجال وصبي وصبيّةٌ وكانت سلامتهم من الغرائب، وذلك أنهم وجدوا ثَوْرًا عائمًا في السيل فتعلق رجلان بقرنيه، وركب الصبي والصبية على ظهره، ثم أدركه رجلٌ ثالث فتعلق بذنبه، وحملهم الثورُ وهو عائم إلى أن انتهوا إلى أرض جلدة مرتفعة، فوقفوا عليها وسَلِمُوا، وحمَلَ هذا السيلُ عدَّةً كثيرةً من خركاهات[1] التركمان، وبيوت العرب والأكراد الذين بتلك الأرض، فاحتملهم وأهلكهم، وأهلك مواشيهم، وألقاهم ببحرة حِمْص، وعَلِقَ خلقٌ كثير من الغرقاء والدواب بأشجار جُوسِيَّةَ لمَّا مرَّ بهم السيلُ عليها.

وأما الْبَرَدُ الذي سقط فإن معظمه وقع في وادٍ بين جَبَلَيْن فملأه، وبقي كذلك مدةً، وخرج إليه الولاةُ والقضاةُ من حمص وبَعْلَبَك وشاهدوه، هكذا نَقَلَ الأميرُ جَلالُ الدين الصَّفَدِيَ أحد الأمراء البريدية بالديار المصرية، وكان قد توجّه إلى الشام في بعض المهمات السلطانية، وهو ثقَة فيما ينقله.

وأخبرني الأمير العدلُ علاء الدين أيْدُغْدِي الشهرَزُوري أستاذ دار الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقر المصري ـ وهو عدل ثقة في أجناده ـ أن كتاب والده شهاب الدين أحمد وصل إليه من حَلَب أنه وقع إليه في التاريخ المذكور مَطَرٌ عظيم على مدينة غَرَار، وهو المطر الذي تقدم ذِكرُه، وأنه سقط مع المطر سَمَكٌ كِبَارٌ وصغَارٌ، وجُمِعَ منه شيء كثير وأكِلَ، وأن المطر الذي وقع في التاريخ على بلد سرمين وحارم سقط فيه ضفادع فيها الرُّوح باقيةٌ، وأنه شاهد ذلك.

---

(١) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/ ١٤٦).

ذكر تفويض إمرة العرب بالشام للأمير شجاع الدين فضل وانفصال الأمير حُسَام الدين مُهَنّا، ودخوله إلى بلاد التتار وعودِه وإعادة الإمرة إليه

وفي شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وسبعمائة فوّض السلطان الملك الناصرُ إمْرَة العرب بالشام للأمير شجاع الدين فضل ابن الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّا، وخلع عليه تشريفًا أطلس معدنيًا بطرد وحش[1]، على عادة أخيه مُهنا، وأقطعه خبز مُهَنَّا، وعاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر، وأقام بدمشق إلى يوم الخميس غُرة جمادى الأولى، وتوجّه إلى بلاده.

وسبب ذلك أن الأمير حسام الدين مُهَنَّا كان قد امتنع من الحضور إلى الأبواب السلطانية منذ أعان الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصور ووافقه كما تقدم، وعلم أنه أسلَف ذنبًا كبيرًا، وجُرْمًا عظيمًا لا يتَجَاوَزُ الملوكُ عن مِثْلِه، فخاف على نفسه إنْ هو حضر أن يقابَلَ على ذلك بالقتل وإن شمله الإحسان فالاعتقال، واجتهد السلطانُ في ملاطفته، والإحسان إليه وتأمينه، وزيادةٍ في الإقطاعات، وشموله بالإنعام، وَوَسَّعَ على أولاده وأهله وألْزَامِهِ في الإنعامات والإطلاقات والزيادات، وفعل في ذلك ما لم يفعله ملك قبله مع أمثالهم، وراسله مِرَارًا فلم يزدد إلا تماديًا على إصراره، فلما آيس منه جعل الإمرة لأخيه الأمير شجاع الدين هذا، وتوجّه الأمير حسام الدين مُهَنّا إلى العراق، وتُلُقِّيَ من جهة التتار وأكْرم غاية الإكرام ببغداد، ثم توجه إلى الأردو واجتمع بالملك خَرْبَنْدَا فأكرمه وأحسن إليه وأقطعه، وخيّره في المقام ببلاده أو العود، فاختار العودَ إلى الشام لإصلاح ذات البين، وعاد واجتاز الفُرَات في شهر رَمَضَان، ونزل بالقرب من أخيه فضل، ووصل أخوه الأمير شمس الدين محمد بن عيسى إلى الأبواب السلطانية في سنة سبع عشرة، وأخبره بمراجعة الأمير حسام الدين أخيه الطاعة، فأنعم عليه بجملة عظيمة من الأموال، وكذلك على أخيه الأمير حسام الدين مُهَنّا، وكتب تقليدَه بالإمرة على عادته، وجُهِّز إليه وقَرِينه الخِلَع، وذلك في أوائل شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وسبعمائة.

---

(١) طرد وحش: هو نوع من القماش الحرير المنقوش بمناظر الصيد والطرد (السلوك ١/ ٢: ٧٨٨).

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ست عشرة - ولي قاضي القضاة نجم الدين أحمد بن صَصْرَى مشيخةَ الشيوخ بدمشق، وجلس بالخانقاة السميساطية، وقرىء تقليده، وكانت ولايته بسؤال الصوفية لذلك، وذلك بعد وفاة شيخ الشيوخ السيد الشريف شهاب الدين أبي القاسم محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الكاشْغَريّ، وكانت وفاته في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر المذكور رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الأمير سيف الدين كستاي(١) نائب السلطنة بالفتوحات وتفويض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية وحِمْص والكَرَك لمن يذكر

كانت وفاة الأمير سيف الدين كُسْتَاي نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية في ليلة الأربعاء تاسع عشرين جمادى الآخرة بطرابلس، ودفن بها، وكانت مُدّة مرضه نحو عشرين يومًا، وكان قبل ذلك قد توجَّه من طرابلس لكشف المملكة الطرابلسية وما هو مضاف إليها من الحصون، وأظهر النَّزَاهة عن قبول تقادم النواب، فكان مَن قَدَّم له شيئًا من الخيل والقماش عرضه وأمر بكتابته، وأعاده على مَن قَدَّمه، ولما سمع نُوَّاب الحصون بذلك أكثروا في التقادم، وأرادوا بذلك التجمل عنده، وعلموا أن ذلك يعود إليهم، وكان من عزم على تقدمة شيء ضاعفه، واستعار بعضهم من بعض، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن وصل إلى ثغر لاذقية، وهو آخر العمل، فقدم له الأمير بدر الدين بكتوت التاجي مقدم العسكر بالثغر تقدمة جليلة من الأقمشة والبخاتي وغير ذلك، وتجمل وظن أن ذلك يعاد إليه كما أعيد على غيره، فقبل جميع ذلك وقال: أنت خوشداشي ولا يليق أن أرد عليك، ولما عاد من لاذقية مرّ على وادٍ هناك به عدة من البخاتي للأمير بدر الدين بكتوت التاجي المذكور، فانتقى ثلاثين بختيًا من خيارها، وأرسل إليه يقول: إنني مررت على جمالك وأخذت منها خمسة قطر لضرورة التقدمة للسلطان، فأرسل ولدك لتقرير ثمنها وقبضه. ثم كتب إلى سائر من كان قد قدم له تقدمة يطلبها بجملتها، وكان من استعار من النواب قماشًا من صاحبه قد أعاده عليه، فاضطروا إلى إرسال قصادهم إلى حماه وغيرها، لابتياه عِوَضِ ما كانوا استعاروه وكملوا تقادمهم وأرسلوها إليه، وحصل لهم الضرر بذلك، ولَم تطل

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٢٣٧/٩، الدرر الكامنة ٣٥٣/٣، الدليل الشافي ٥٥٨/٢.

مدته بعد ذلك ووعد الجميع في تركته، وكانت تركة طائلة، وورثه أخواه الأمير سيف الدين قجليس أمير سلاح، وسيف الدين أولاق وزوجته، ولم يتعرض السلطان من تركته إلى شيء.

ولما مات فوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات للأمير شهاب الدين قرطاي الصالحي العلائي. نقله من نيابة حمص إليها، وفوّض نيابة السلطنة بحمص للأمير سيف الدين أرقطاي الجمدار أحد مقدمي الألوف بدمشق، فتوجه إليها في يوم الأحد السابع من شهر رجب، واستناب بالكرك الأمير سيف الدين طقطاي الناصري، أحد الأمراء بدمشق، فتوجه في شهر رجب، ونقل الأمير سيف الدين بيبغا الأشرفي من نيابة الكرك إلى الإمرة بدمشق، وجعله من أمراء المائة مقدمي الألوف بها.

ذكر تجريد العسكر إلى النوبة
وملك عبد الله برشنبوا النوبة، ومقتله

وفي شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وسبعمائة رسم بتجريد طائفة من الأمراء إلى بلاد النوبة، وهم: الأمير عز الدين أيبك الجهادكسي عبد الملك، وهو المقدم على العسكر، والأمير صلاح الدين طرخان ابن الأمير المرحوم بدر الدين بيسري، والأمير علاء الدين علي الساقي، والأمير سيف الدين قيران الحسامي، كل أمير منهم بنصف عدته، ورسم أن يكون سفرهم في العشرة الآخرة من شعبان، فبرزوا من القاهرة مطلبين في يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان من السنة، وصحبتهم سيف الدين عبد الله برشنبوا النوبي، وهو ابن أخت داود ملك النوبة، وكان قد رُبِّيَ في البيت السلطاني من جملة المماليك السلطانية، فرأى السلطان أن يقدمه في ذلك الوقت على أهل بلاده ويملكه عليهم، واتصل خبر هذه الحادثة بالملك كرنبس متملك النوبة، فأرسل ابن أخته كنز الدولة ابن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى الأبواب السلطانية، وسأل شموله بالإنعام السلطاني في توليته الملك، وقال: إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولي البلاد لمسلم، فهذا مسلم وهو ابن أختي والمُلك ينتقل إليه بعدي، فوصل كنز الدولة إلى الأبواب السلطانية فلم يجب إلى ما طلب، ورسم السلطان بمنعه من العود إلى بلاده، فأقام بالأبواب السلطانية، وتوجه العسكر وصحبته عبد الله برشنبوا، فلما وصلوا إلى دنقلة فارقها متملكها كرنبس وأخوه إبرام، وتوجها إلى جهة الأبواب، واستجار كرنبس متملكها فقبض عليه، وتركه في

جزيرة، وكتب إلى مقدم العسكر فخبره أنه قبض عليه وعلى أخيه واحترز عليها، وسأل أن يسير إليه من يتسلمهما فسير إليه جماعة من رجال الحلقة، فتسلموهما وأحضروا إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط، واعتقلا، وملك عبد الله برشنبوا دنقلة، واستقر ملكه، وعاد العسكر إلى القاهرة. فكان وصوله في جمادى الأولى سنة سبع عشرة وسبعمائة، ولما وصل متملك النوبة وأخوه إلى الأبواب السلطانية سأل كنز الدولة الإذن له في العود إلى ثغر أسوان، وأنهى أن له بالثغر سواقي وعليه خَرَاجًا للديوان السلطاني، فرسم بعوده إلى بلده، فتوجه إلى الثغر ثم توجه منه إلى جهة دنقلة، وكان عبد الله برشنبوا لما ملك غيّر قواعد البلاد، وتعاطى نوعًا من الكبر لم تجر عادة ملك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة، فكرهوا ولايته. فلما قصدهم كنز الدولة ووصل إلى بلد الدو ـ وهي أول بلاد النوبة ـ استقبله أهل البلاد بالطاعة وحيّوه بتحية الملك، وهي قولهم: موشاي موشاي، وهذه لفظة لا يخاطب بها غير الملك، وانضموا إليه ودخلوا تحت طاعته، فتقدم إلى دنقلة، فخرج إليه برشنبوا والتقوا، فقتل برشنبوا، وملك كنز الدولة بلاد النوبة إلى أنه لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله، وتعظيمًا لهم، وحفظًا لحرمتهم. ووصل الخبر إلى الأبواب السلطانية بقتل برشنبوا في شوال سنة سبع عشرة وسبعمائة، فعند ذلك رسم السلطان بالإفراج عن إبرام أخي كرنبس وأرسله إلى النوبة، وأمره أن يحتال في القبض على ابن أخته كنز الدولة وإرساله إلى الأبواب السلطانية، ووعده أنه إذا فعل ذلك أفرج عن أخيه كرنبس وملكه وأرسله، وتوجه إبرام إلى دنقلة فاستقبله ابن أخته كنز الدولة بالطاعة، وسلم إليه الملك، وصار في خدمته، وخرجا لتمهيد البلاد مما يلي ثغر أسوان، فلما قرب إلى الدو قبض إبرام على الكنز الدولة وقيده، وعزم على إرساله، فمرض إبراهم وهلك بعد ثلاثة أيام من حين القبض على ابن أخته، فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فَمَلَكَ البلاد حينئذٍ ولبس تاج الملك، واستقل بالمملكة، وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه، وكان من خبره بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى في مواضعه على ما نقف عليه.

ذكر تجريد العسكر إلى العرب ببرية عيذاب ودخوله إلى بلاد هلنكة وغيرها وعوده

وفي سنة ست عشرة وسبعمائة أمر السلطان بتجريد جماعة من العسكر إلى جهة الصعيد، وأن يتوجهوا خلف العَرَبِ حيث كانوا من البرّيّة. فجرد الأميرَ علاء الدين

مُغْلَطَاي أمير مجلس وهو المقدم على الجيش، وهو من جملة مُقَدَّمي الألوف، والأميرَ عزّ الدين أَيْدُمُر الدَّوَادَار، والأمير علمَ الدين سَنْجَرَ الدُّمَيْثَري، والأمير علاء الدين علي ابن الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري، والأمير سَيف الدين بَهَادُر التَّقوي، والأمير سيف الدين الدمْيَاطي، والأمير صارمَ الدين الجَرْمَكي، والأمير سيفَ الدين طقْصُبَا متولي الأعمال القُوصِيَّة والإخميمية، وسبعةً من مقدمي الحلقة المنصورة، وتوجهوا في نحو خمسمائة فارس، وكان رَحِيلُهم من القاهرة في يوم الأربعاء العشرين من شوال من السنة، وكان سبب ذلك أن العُرْبَان ببرِّيّة عَيذَاب قطعوا الطَّرِيقَ على رسول اليَمنَ الواصل إلى الأبواب السلطانية، وأخذوا ما كان معه من التقادم ومَنْ رافقه من غِلْمَان التُّجَّار، والذي حملهم على ذلك أن الأمير سيف الدين طَقْصُبَا متولي الأعمال القوصيّة اعتقل فَيَّاضًا أميرَ هذه الطائفة من العرب، فحملت أصحَابَهُ الحَمِيَّةُ على فعل ذلك، فلما اتصل فعلهُم بالأبواب السلطانية جَرَّدَ هذا العسكر في طلبهم، ورَسَمَ أن يتوجهوا إلى مدينة قُوص ويتوجهوا منها إلى البريّة ويَتْبَعُوا العَربَ حيثُ كانوا، فأخبرني الأمير عز الدين الدَّوَادَار أحد الأمراء الذين توجَّهُوا - وهو الثقة في أخباره - أنهم توجّهوا في التاريخ المذكور حتى انتهوا إلى مدينة قُوص، فأقاموا بظاهرها خمسة وخمسين يومًا، وفي مدة مُقَامهم توجّه متولي الأعمال، والأمير صَارِمُ الدين الجرْمَكِي إلى البَرِّيّة ليجتمعا بالعُرْبَان في رَدِّ ما أخذوه من الأموال، ومراجعة الطاعة، فاجتمعا بهم ولم تتهيأ الموافقةُ على ما أرادوا ولما توجَّها طُولِعَ السلطانُ بتوجههما وأنّ العسكر تأَخّر لقلة الظَّهر وسعة البرية، وقلّة الماء، وجهز بذلك الأمير بدر الدين بكتَمُش الحسامي أحد مقدمي الحلقة المنصورة.

فلما وصل إلى الأبواب السلطانية حَصَل من السلطان الإنكار الشديد بسبب تأَخّر العسكر عن دخول البَرِّيّة، فعندها توجّه العسكرُ من مدينة قُوص في العشر الأول من المحرم سنة سبع عشرة ودخلوا إلى البرية فانتهوا إلى ثغر عَيذاب في خمسة عشر يومًا، واجتمع العسكر بالأميرين سيف الدين طَقْصُبَا، وصارم الدين الجَرْمَكِي بَعيْذَاب، وأقاموا بها اثني عشر يومًا، وكان متولي الأعمال قد استصحب معه فَيَّاضًا أمير العَرَبِ الذي كانت الفتنة بسبب اعتقاله، ثم رحل الجيشُ من ثغر عيذاب، وساروا حتى انتهوا إلى سَوَاكِن في اثني عشر يومًا يسلكون رؤوس الجبال والأوعار، وحصل لهم ضررٌ كثيرٌ بسبب المياه وقلّتها حتى كادوا يهلكون في ماء منها يقال له دَنْكنَام، فإن العُرْبَان كانوا قد غَوَّرُوا المياه أمام العسكر، فأقام الجيش أربعة أيام،

ووصل إلى ذلك الماء في اليوم الخامس، فوجدوا جِفَارًا واحدًا وهو متغيِّر اللون والطعم والريح، فبينما هم كذلك إذ قدمت كَشَّافةُ العسكر وكانوا قد قَدَّمُوا مَن يَسْتَقرِىء لهم خبر تلك الجبال علّهم يجدون ماءً، فأخبروهم أنهم وجدوا مياه الأمطار بتلك الجبال فرحلوا من هناك وقت المغرب، وانتهوا إلى مياه قد اجتمعت من الأمطار، فأقاموا بها بقية تلك الليلة إلى نصف النهار من اليوم الثاني، وحملوا منها وارتحلوا حتى انتهوا إلى سَوَاكِن، فخرج إليهم متملكها بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرَّر على نفسه قطيعةً يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة، وهي من الرقيق ثمانون رأسًا، ومن الجمال: ثلاثمائة رأس، ومن العاج: ثلاثون قنطارًا، واستقر بسَوَاكِن نيابةً عن السلطنة، وأقام العسكرُ بسواكن ستة أيام، واستصحب معه أولاد مُهَنَّا، وكان فَضْلُ أحد مُقَدَّمِي العُرْبَان قد التحق بالعسكر فيما بين سَوَاكِن وعِيذَاب وصحبهم، وتوجّه الجيشُ خَلْفَ العُرْبَان ودخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يومًا، وفي أثناء مسيرهم ظفرُوا بطوائف من السودان بقرب المياه في أودية هناك، فَقَتَلَ العسكرُ منهم، وأسَرَ وسَبَى وغنم من مواشيهم من الأبقار والأغنام ما ارتفق به الجندُ، وانتهوا إلى وادي إيتريب في اليوم السابع عشر، فأقاموا بها يومين، ولم يجدوا من سواكن إلى هذا الوادي غير ماء واحد، وكان شربهم من مياه الأمطار، وأمطِرَت البَرِّيَّة في غير الوقت المعتاد، لطفًا من الله تعالى بعباده وإبقاءً عليهم.

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى أرنيباب وهو جبل صغير على شاطىء نهر أتبرا وهو فرع من فروع نيل مصر يخرج من بلاد الحبشة، فأقاموا عليه يومًا واحدًا، ثم توجهوا يتبعون آثار الغرماء وهم يسيرون على شاطىء ذلك النهر ثلاثة أيام والنهر على يمين العسكر، ثم فَوَّزُوا ودخلوا البَرِّيّة إلى أرض التاله فانتهوا في اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كشلاب وهو جبل أقرع ليس في تلك البرية غيره، وجبل ألوس وبين الجبلين وادٍ، وهذا الجبل هو حد بلاد التاله من الحبشة، فلما وصلوا إليه وقد قربوا من الماء، وهم في أرض صفراء التربة تشبه أرض بَيْسَان من غور الشام، وهي كثيرة الأشجار من السنط وأم غيلان وشجر الأهليلج والأبنوس والبقس والحمر وهو الذي يطرح التمر هندي، إذْ طلعَ عليهم غبار أمامهم، فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السُودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كثير، فتقدم العسكر إليهم وقد عبؤوا أطلابهم، ولبسوا لأمة حربهم، واجتمع العسكر في أرض خالية من الأشجار، وهي من طُرُق السيول وقد صارت مثل

البركة ولها فَجَّة يدخل العسكر منها، فتبعهم الأثقال فسَدّت جمالُ أثقالهم تلك الفجة، وهلنكة من أعلا البركة وبأيدي هلنكة الحراب والمزاريق والسيوف، ومع بعضهم النبل، فوقف العسكر وأرسل إليهم: إنَّا لم نأت لقتالكم وإنما جئنا في طلب طائفة من العرب أفسدوا وعَصَوْا وقطعوا السبيل، وأمّنُوهُم، فَرَدُّوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكرُ ورموهم رَشْقًا واحدًا واحدًا بالسهام، فقتل من هلنكة أربعمائة وستون نفرًا، وجرح منهم خلق كثير، ولم يتمكن العسكر من أسرهم فإنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر، وقُتِلَ منهم اثنان من ملوكهم على ما حكاه مَن اجتمع بهم من غِلْمَان العسكر، وكان سبب اجتماعهم بهم وسلامتهم منهم أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا، فلحقهم كشافة هلنكة فمسكوهم وأتوا بهم إلى أكابرهم، فسألوهم من أين أنتم؟ وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا: نحن تجار أغار علينا هذا العسكر ونهبونا، وأخذوا أموالنا وأسرونا. فلما قاتلتموهم هربنا منهم، فَرَقُّوا لهم وأطلقوهم، وذكروا لهم عدة من قُتِل منهم.

ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم فأخذ العسكر منها ما قدروا على حمله من الذرة ـ وليس لهم طعام غيرها ـ وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك في سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة، وعادوا حتى انتهوا إلى أرنيباب، ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذي دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوفات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا فساروا على شاطئه عشرين يومًا، وكانت دوابهم ترعى من الحلفاء، ثم انتهوا إلى قبالة الأبواب فأقاموا هناك يومًا وتوجه سيف الدين أبو بكر بن وَالِي الليلَ في الرسلية من جهة متولي الأعمال القوصية الأمير سيفُ الدين طَقْصُبًا إلى متملك الأبواب، فخاف ولم يأت إلى العسكر، وأرسل إليهم بمائتي رأس بقر وأغنام وذرة، ونهب العسكر ما وجدوه بتلك الجهة من الذرة، وتوجهوا إلى مدينة دُنْقُلة في سبعة عشر يومًا في أرض كثيرة الأشجار والأفيلة والقرود والنسانيس والوحش الذي يسمى المرعفيف، فأقاموا ثلاثة أيام ـ ومَلِكُها عبدُ الله برشنبوا كما تقدم ـ وأضافَ العسكَر وزوَّدَهم، وتوجهوا إلى ثغر أسوان ثم إلى مدينة قوصي، وأقاموا بها خمسة عشر يومًا، وحصل للعسكر في هذه السفرة مشقة كثيرة وكلفة عظيمة، حتى أُبِيعَت تطبيقة النعال بينهم بخمسين درهمًا، وأبيع رطل البَقْسَماط بدرهم ونصف إذا وُجِد، ونَفَق أكثر خيل العسكر وجمالهم، ورجع أكثرهم إلى ساحل مصر في المراكب لأمور، منها: عدم الظهر،

ومنها أن النيل كان قد عَمّ البلاد، وقطع الطرق إلا الجبال، وكان وصول العسكر إلى القاهرة المحروسة في يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وسبعمائة.

ذكر الإفراج عن الأمير سيف الدين بُكْتمر الحُسَامِيّ الحاجب وإرساله إلى نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الصفدية

وفي يوم الخميس الرابع عشر من شوال رَسَمَ السلطانُ بالإفراج عن الأمير سيف الدين بُكْتمر الحسامي الحاجب ـ كان ـ وخلع عليه تشريفًا كاملًا طرد وحش مذهب، وقباء، وكَلُّوتَه زَرْكَش، وشاش رقم، وحياصة ذهب، ورسم له نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية والفتوحات الأشرفية، وخَلَع عليه تشريفًا ثانيًا كاملًا وسيفًا وحياصة، وأنعم عليه بمائتي ألف درهم، وتوجّه على خيل البريد في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر إلى دمشق، وكان نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنْكُز قد توجّه لزيارة القُدْسِ والخليل، وطلب الصيد بجهة الساحل، فاجتمع به ووصل معه إلى دمشق، وتوجّه منها إلى صفد في عاشر ذي القعدة.

وفي هذه السنة توجه الأمير سيف الدين أرْغُن نائب السلطنة الشريفة إلى الحجاز الشريف بعد سفر المحمل بأيام

وفي يوم السبت العشرين من ذي الحجة منها وردت مطالعةُ الأمير علاء الدين الْطنْبُغَا نائب السلطنة بالمملكة الحلبية إلى الأبواب السلطانية يتضمن أن جماعة من التتار المغول نحو ألف فارس أغاروا على أطراف البلاد الحلبية، وانتهوا إلى قرب قلعة كختا فنزل إليهم من القلعة نحو مائتي فارس ومن انضم إليهم من التركمان، واقتتلوا يومًا كاملًا حتى حجز بينهما الليل، ثم باكروا القتال واقتتلوا حتى أشرف التتار على أخذهم، وأنهم لما تحققوا الموت صدقوا في القتال وحملُوا حملة رجل واحد فكانت الهزيمة على التتار، فقتل أكثرهم وأسر منهم ستةٌ وخمسون فارسًا من أعيانهم، فمنهم: ثلاثة من مقدمي الألوف، واسترجع العسكرُ ما كانوا نهبوه من أطراف البلاد، وغنموا ما كان معهم من الخيل والعدة، فرسم السلطان بالإنعام والزيادة لهذه الطائفة المجاهدة، وكتب إلى نائب السلطنة بحلب بحمل الأسرى ورؤوس القتلى إلى الديار المصرية، وأن يؤدي خمس الغنيمة في المجاهدين، فوصلت الأسرى في صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة.

وفي ذي الحجة من هذه السنة وردت الأخبار إلى الأبواب السلطانية بوفاة خربندا ملك التتار، وذُكِر أنه توفي في سادس شوال من السنة، وأنه كان قد أمر بإشهار النداء أن لا يُذْكَر أبو بكر وعُمَرُ رضي الله عنهما، وكان ذلك في يوم سبت فمات قبل أسبوع، وذكر أنه كان قد عزم على تجهيز ثلاثة آلاف فارس مع حُمَيْضَة بن أبي نُمَيّ إلى المدينة النبوية، لنقل أبي بكر وعمر من مدفنهما، فعجّل الله هَلْكَه، وهذه عادة الله تعالى فيمن طَغَى وتجبَّر.

وفي هذه السنة في مستهل شهر رجب تُوُفِّيَ القاضي عز الدين أحمد بن جمال الدين محمد بن أحمد بن مُيَسِّر المِصْري[1] بدمشق، ودفن بقاسيون، ومولده بمصر في ليلةٍ يُسْفِرُ صباحُها عن الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان رجلًا ساكنًا، وَلي المناصَب الجليلة: نظر الدواوين بالشام، ونظر المملكة الطرابلسية، ونظر النُّظّار بالديار المصرية، وغير ذلك، وكان سَيِّء التدبير رَدِيء التصرف في حق نفسه، لا يزال يزرع الأقصاب لنفسه بالديار المصرية، ويُدَوْلِبُ المعاصر وهو يَغْرَمُ ولا يستفيد، ويَقْتَرِضُ الأموال ويعيد الدَّوْلبة ويغرم، ولم يزل على ذلك إلى أن مات وعليه جملة كثيرة من الديون الشرعية أصلها من المتاجر والدَّوَالِيب، ولو اقتصر على معلوم مباشراته كان يزيد على كفايته رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الخميس عاشر شعبان توفي الطواشي الأمير ظهير الدين مختار المنصوري المعروف بالبلبيسي[2] أحد الأمراء والخزندار بدمشق، وكان شهمًا شجاعًا زكيًا دَيِّنًا خبيرًا رماحًا كريمًا، حسن الشكل واللباس، يتلو القرآن بصوت حسن، وفرق أمواله وجواريه وخيوله وعدده على عتقائه قبل وفاته، ووقف أملاكه على تربته وعتقائه، وقد رافقتُه بدمشق في ديوانه الخاص، فكان حسن الرِّفقة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير بدر الدين محمد بن الوزيري[3] أحد الأمراء المقدمين بدمشق في يوم الأربعاء سادس عشر شعبان ودفن برأس ميدان الحصى رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٧٧.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٧، الدرر الكامنة ٤/ ٣٤٤، البداية والنهاية ١٤/ ٧٨.
(٣) انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٤/ ٧٩.

وتوفيت شيختنا أم محمد وزيرةُ ابنةُ الشيخ عمر بن أسعد بن مُنَجَّا الشَّوخِيَّة[١] بدمشق في الليلة المسفرة عن ثامن عشر شعبان سنة عشر وسبعمائة، ومولدها في سنة أربع وعشرين وستمائة ـ كذا نقلته من خط الشيخ علم الدين البِرْزَالي[٢].

وقال الشيخ شمس الدين الجَزَرِي في تاريخه سنة ثلاث وعشرين، رَوَتْ صحيح البخاري عن ابن الزبيدي، وسمعته عليها بالقاهرة في جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة، وسُمِعَ عليها وعلى الحَجَّار في هذه السنة بقلعة الجبل والقاهرة وظاهرها ومصر خمسَ مرات، أوَّلُها بقلعة الجبل بدار النيابة بالطبقة الحسامية في السادس والعشرين من صفر، وآخرها بالقلعة في أواخر جمادى الآخرة وأوائل شهر رجب رحمها الله تعالى.

وفي هذه السنة ـ في يوم الثلاثاء رابع عشر شعبان ـ توفي القاضي جمال أبو محمد عبد الله ابن شيخنا قاضي القضاة بدر الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي[٣]، وكانت وفاته بجامع الأقمر عند آذان العصر ودفن من الغد بتربة والده بالقرافة الصغرى بخط الخندق، وكان رحمه الله تعالى شابًا حسن الصورة والعشرة كريمًا كثير التردد إلى الناس والاستمالة لخواطرهم، وكان يدأب في نسج المودة بين والده والأكابر، ويجتهد في قضاء حوائج الناس، وكان يتصدق على الفقراء رحمه الله تعالى وأصيب والده فيه فصبر صبرًا جميلًا.

وتوفي الصاحب ضياء الدين أبو بكر بن عبد الله النشَّائي[٤] في الليلة المسفرة عن تاسع شهر رمضان بالقاهرة بحارة الجودرية، وهو يومئذٍ ناظر الخزَانة، ودُفن بالقرافة رحمه الله تعالى. ولما مات وَلِيَ نظرَ الخزانة بعده قاضي القضاة تقي الدين أحمد ابن قاضي القضاة عز الدين الحنبلي.

---

(١) هي ست الوزراء أم محمد وزيرة بنت عمر بن أسعد بن منجا الشوخية (انظر ترجمتها في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٧، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٦٩، شذرات الذهب ٦/ ٤٠، البداية والنهاية ١٤/ ٧٩).

(٢) البرزالي: هو القاسم بن بهاء الدين محمد بن يوسف الحافظ، علم الدين أبو محمد البرزالي (بضم الباء الموحدة، بطن من البربر) الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد سنة ٦٦٥ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩ هـ، من مصنفاته: «تاريخ البرزالي» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، «معجم الشيوخ» يشتمل على ألفي شيخ. (كشف الظنون ٥/ ٨٣٠).

(٣) بدر الدين ابن جماعة: تقدمت ترجمته.

(٤) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٧، والبداية والنهاية ١٤/ ٧٩.

وتوفي القاضي محب الدين علي ابن شيخنا الإمام العالم العلامة تقي الدين محمد بن وهب بن علي القُشَيْرِيّ المعروف بابن دَقِيق العيد[١]، وكانت وفاته في ليلة يسفر صباحها عن العشرين من شهر رمضان، ودفن بالقرافة في تربة والده رحمهما الله تعالى وكان قد انقطع بعد وفاة والده انقطاعًا حسنًا، وأكَبّ على الاشتغال بالعلم الشريف، وكان يدرس بالمدرسة الكهارية، ومولُده بمدينة قوص في ثاني صفر سنة سبع وخمسين وستمائة.

وفيها في عاشر ذي القعدة توفي الشيخ الكاتب المجيد المحمود نَجمُ الدّين مُوسَى بن عليّ بن محمد الحلبي ثم الدمشقي المعروف بابن البُصَيْص[٢]، ودفن بمقابر باب الصغير، ومولده سنة إحدى وخمسين وستمائة، وكان شيخ الكتابة بدمشق، كتب وهو صغير، يقال: إنه كتب نحو خمسين سنة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ صدر الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد العُثْماني الشافعي المعروف بابن المُرَحِّل وابن الوكيل وابن الخطيب[٣]، وكانت وفاته في بكرة نهار الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة بالقاهرة، ودفن بالقرافة بتربة القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة، ومولُده بثغر دمياط في تاسع عشرين شوال سنة خمس وستين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى عالمًا فاضلًا كريمًا حسن الأخلاق والعشرة رقيق الشعر جيد البديهة رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع عشرة وسبعمائة بالأربعاء

في هذه السنة في صفر حصل الشروع في إنشاء جامع بظاهر مدينة دمشق خارج باب النصر، أمَر بإنشائه الأمير سيف الدين تَنْكِزُ نائب السلطنة بالشام، وحضر القضاةُ والموقتون لتحريرَ سمتِ القبلة به، وتكرروا مِرَارًا حتى وضعوا محرابه وضعًا صحيحًا، وذلك في الخامس والعشرين من الشهر.

---

(١) هو ابن الحافظ الفقيه تقي الدين ابن دقيق العيد. (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٢، الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٦، البداية والنهاية ١٤/ ٧٩).

(٢) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ٢/ ٦٦٨، شذرات الذهب ٦/ ٤٠، طبقات الشافعية ٦/ ٢٣، تاريخ دول الإسلام ٢/ ١٧٠، الدرر الكامنة ٤/ ١١٥، الوافي بالوفيات ٤/ ٢٦٤، البداية والنهاية ١٤/ ٨٠).

(٣) تقدمت ترجمته.

ذكر حادثة السيل ببعلبك

وفي هذه السنة في العشر الأول من شهر ربيع الأول ورَدَ إلى الأبواب السلطانية مطالعةُ نائب السلطنة بدمشق تتضمن: أنه لما كان في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر جاءت سيولٌ عظيمةٌ إلى مدينة بعلبك، فهدمت أسوارها ودُوَر المدينة، وأُحْصِيَ مَن دفن إلى يوم تسطير مطالعة نائب بعلبك إلى نائب السلطنة بالشام فكانوا ألفًا وخمسمائة نفر ـ خارجًا مَن هو تحت الردمُ.

وحكى الشيخ شمس الدين محمد إبراهيم الجَزَري[1] في تاريخه: أن هذه الحادثة لما وقعت جَهَّز نائبُ السلطنة بدمشق الشيخَ جمال الدين بنَ الشَّريشِي وكيلَ بيتِ المال إلى بعلبك لكشفها وإيقاع الحَوْطَة على موجود مَنْ هَلَكَ بسبب السيْلِ ولا وراث له غير بيت المال، وأن الشيخ توجّه لذلك وعاد في شهر ربيع الأول، وأحضر أوراقًا بصورة الكشف، قال: وقفتُ عليها ونقلها في تاريخه، وملخصها: أن الذي هدمه السيل الواقع بمدينة بعلبك في التاريخ المذكور، وسِعَتُهُ من الجامع والمساجد والسور والدور والحوانيت والحمامات والطواحين والاصطبلات، وما عدم فيه من الرجال والنساء والأطفال والخيول والدواب وغير ذلك، وخَصّ بيتَ المالِ منه نصيبٌ، وذلك مما أمكن ضبطه من المعروفين، خارجًا عن الغرباء الذين كانوا بالجامع والمساجد والطرقات ولم يعرفوا، وذلك خارجًا عن الكُرُوم والبساتين ظاهر المدينة، ما عِدَّتُه من الرجال والنساء والأطفال: مائة وسبعة وأربعون نفرًا، وبيوت ثمانمائة وخمسة وسبعون بيتًا «خرابًا» أربعمائة وواحد وثمانون، ومشعثةً: أربعمائة وأربعة عشر بيتًا، حوانيت: مائة وواحد وثلاثون حانوت خراب: أربعة وخمسون، ومشعثة: سبعة وسبعون. بساتين داخل البلد: أربعة وأربعون، الجامع المعمور والمدارس والمساجد: ثلاثة عشر عددًا أفدنه سبعة عشر دِمَن خراب: اثنتان، قنى السيل: أربعة، طواحين: إحدى عشرة، خراب: اثنتان، ومشعثة: تسع، المدبغَة: مشعثة، خيل: أربعة وبغال: اثنان، ودواب: خمسة وباقر رأس واحد، وذكر في الأوراق تفصيل ذلك بحاراته وبقاعه، وهَدَمَ من السور برجًا كاملًا ذرعه ثلاثة عشر ذراعًا في السُّفْلِ وارتفاعه ثمانية وثلاثون ذراعًا وبعض بَدَنَتَيْن، وذكر أشياء كثيرة من هذا النوع، وهذا لا ينافي ما تضمنته المطالعة الواردة

---

(١) شمس الدين محمد إبراهيم الجزري: كذا بالأصل، ولعله محمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزري المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، له «تاريخ دمشق» (كشف الظنون ٦/ ١٥٠).

إلى الأبواب السلطانية، فإن الأوراق إنما اشتملت على من لبيت المال نصيبٌ في ميراثه، والمطالعة شاملة.

ذكر حادثة الهواء بالبلاد الحلبية وما حصل بسببه

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الأول في الساعة الثامنة من النهار ثارَ بمدينة حَلَب هواءٌ عظيم مزعجٌ أثار غبارًا عظيمًا، واقترن ببرق مترادف ورعد قوي، وأظلم الجَوُّ حتى لا يبصر الإنسان رفيقه إلى جانبه، ولا يستطيع أن يفتح عينه، حتى تَيَقَّنَ الناسُ الهلاكَ، ثم وقع مطرٌ عظيم وبَردٌ مع وجود الهواء، وامْتَدَّ الهواء والمطرُ على إقليم جبل سمعان غربي مدينة حلب، فاقتلع أشجارًا كثيرةً رومَانِيَّة من البَلُّوط والزيتون والكروم، وكان يقتلع الشجرة العظيمة من الأرض بعروقها، وأهلك من مرّ عليه من المسافرين، ومَا مَرّ على بلد إلا خَرَّبَه خرابًا فاحشًا، فأخرب عشر قرى وهي: تذبل، وكفر عمه وكفر جور، وبالّا، وأم تحنين، والربيعية، ومعاد، وعين جارا، وبراطون والأبزمو وأهلك مَن بهذه القرى من الناس والدواب والوحش والطير، واجتمع من المطر سيل عظيم مَرّ على وادي العَسَل وهو وادٍ كبيرٌ فيه الدَّرْب السلطاني، يسلكه المارون من مدينة حلب إلى جميع إقليم جبل سَمْعَان، وإلى أعمال حَارِم وغيرها، فامتلأ وغرَّق ما مَرّ عليه من الناس والدواب، وامْتُنِع من سلوكه مدة، وخرج من الهواء المذكور عمودٌ يرمي بشرر من نار، وجاء إلى كنيسة الربيعية، وهي كنيسة قديمة رومانية مبنية بحجارة هرقلية كل حجر منها لا يشيله عشرة من العتالين، محكمة البناء، ودخل العمود إلى هذه الكنيسة واقتلعها من أساسها وحملها في الجو صعدًا مقدار رَمْيَةِ نِشَابٍ وأكثر، وهي بحالها لم يتغير حجر عن حجر، وشاهدها على ذلك من سلم من الناس ممن كان خارجًا عن هذا العمود من الهواء، وجعلوا يستغيثون ويجأرون إلى الله تعالى، ويسبحونه ويستغفرونه، ولما انتهت الكنيسة في العلو إلى هذه الغاية انتقضت أحجارها وتساقطت إلى الأرض، فمن الحجارة ما غاض في الأرض وغاب، ومنها ما غاص نصفه وأقل من ذلك وأكثر، وبقي مكان أساس الكنيسة شبه الخنادق. أخبرني بذلك الأمير علاء الدين أيدُغْدِي الشهرزوري المتقدم ذكره عن كتاب شهاب الدين أحمد ولده إليه، قال: ولما وصل إليّ كتابُه بذلك أعَدْتُ جوابَه أسأله عن تحقيق هذا الأمر، فكتب إليّ: هذا أمر محقق وإن نائب السلطنة جهَّزَ جماعةً لكشف هذه الحادثة، وكان هو ممن ندب لكشف ذلك، وقد بلغتني هذه الواقعة من غير الأمير علاء الدين المذكور، واشتهرت، وآيَاتُ الله تعالى ومعجزاته كثيرة، نعوذ بالله تعالى من سخطه، ونسأله رضاه وعفوه ومغفرته.

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول أيضًا ورد كتابُ الأمير أَسَد الدين رُمَيْثَه أمير مكة إلى الأبواب السلطانية يتضمن: أن أخاه عز الدين حُمَيْضَة قَدِمَ من بلاد العراق، وكان قد تَسَحَّبَ إليها والتحقَ بَخَرْبَنْدَا كما تقدم، وأنه وصلَ الآن على فرس واحد ومعه اثنان من أعيان التتار، وهما: دَرْقَنْدِي ـ وقيل فيه دلقندي ـ وملك شاه ومعهم ثلاث وعشرون راحلة، وأنه كتب إلى أخيه رُمَيْثَة يستأذنه في دخول مكة؛ فمنعه إلا بعد إذن السلطان. فكتب السلطان إلى حُمَيْضَة أنه إن حضر إلى الديار المصرية على عزم الإقامة بها فله الأمان ويسامحه بذنوبه السالفة، وأما الحجاز فلا يقيم فيه، وكتب إلى درقندي ومَلِكْشَاه بالأمان، وأن يحضرا، وأخبر من وصل أنهم لقوا في طريقهم شدة من العراق إلى الحجاز، وأن العربان نهبوهم، فَنُهِبَ لدَرْقَنْدِي أموالُ جمة وأنه وصل على فرس واحد مسافة عشرين ليلة، وقد حكي عن الأمير محمد بن عيسى أخي مُهنَّا أن الملك خَرْبَنْدا كان قد جَهَّز دَلقَنْدِي المذكور في جمعٍ كثير مع عز الدين حُمَيْضَة قبل وفاته إلى الحجاز لِنَقْلِ الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من جوار رسول الله ﷺ وأن الأمير محمد المذكور جمع من العُرْبَان نحو أربعة آلاف فارس وقصد المقدم المذكور وقاتله ونَهَبَهُ، وكسب العرب منه جملةً عظيمة من الذهب والدراهم، حتى إن فيهم جماعة حَصَل للواحد منهم نحو ألف دينار غير الدواب والسلاح وغير ذلك، وأخذوا الفؤوس والمجارف التي كانوا قد هيؤوها لنبش قبر الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان ذلك في الحجة سنة ست عشرة وسبعمائة، ولما ورد كتابُ الأمير أسد الدين رُمَيْثَة إلى السلطان بما تقدم ندب السلطان إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ الأميرين سيف الدين أَيْتَمُشْ المحمدي، وسيف الدين بَهَادُر السَّعيدي أمير عَلَم، وأمرهما أن يَسْتَصْحِبَ كلُّ واحدٍ منهما عشرة من عدته وجَرَّد معهما من كل أمير مائةٍ جُنْدِيَّيْنِ، ومن كل أميرِ طبلخاناه جنديًا واحدًا، وتوجَّها إلى مكة لإحضار حُمَيْضَة ومن حضر من التتار، فتوجها في يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بمن معهما، ووصلا إلى مكة وأرسلا إلى حُمَيْضَة في معاودة الطاعة، وأن يتوجّه معهما إلى الأبواب السلطانية، فاعتذر أنه ليس معه من المال ما يُنْفِقُهُ على نفسه ومن معه في سفره، وطلب منهما ما يستعين به على ذلك، فلما قبضَ المالَ تَغيَّبَ، وعَادا إلى القاهرة فوصلا في يوم الأحد السادس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة.

وفي هذه السنة فُوِّضَ قضاءُ القضاة بدمشق على مذهب الإمام مالك بن أنس للقاضي فخر الدين أحمد ابن القاضي تاج الدين سَلامة بن سَلَامَة الإسكندريّ

المالكي، في الثالثة والعشرين من شهر ربيع الآخر، عوضًا عن قاضي القضاة جمال الدين الزواوي، وكان قد عجز عن القضاء، واشتدت به الرعشة، وثقل لسانه، فعزل بسبب ذلك، وتوجّه القاضي فخر الدين إلى دمشق، فوصل إليها في السابع والعشرين من جمادى الأولى، ولم تطل مُدَّة القاضي جمال الدين بعد وصوله، فإنه مات في تاسع جمادى الآخرة على ما نذكُرُ إن شاء الله تعالى.

ذكر توجه السلطان إلى الشام، ووصوله إلى الكرك وإفراجه عمن يذكر من الأمراء، وعوده

وفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى من السنة توجّه السلطان إلى جهة الشام، وكان قد كَتَم مَقْصِدَه عن سائر الناس حتى عن خواصه، وأظهر أن مقصده بسبب الصيد واستكثر من الروايا فكان معه لخاصّه ما يزيد على ألف راوية، وحمل الأمراء كل أمير بحسب حاجته من ثمانين راوية إلى عشرين، وكذلك من معه من مقدمي الحلقة المنصورة، وصحبته جماعة من الأمراء والمقدمين، وتوجّه فوصل إلى غزة في الثامن عشر من الشهر، وتوجّه إلى زيارة القُدْس والخليل عليه السلام، ثم إلى الكَرَك، وحضر إلى خدمته بالكرك الأمير سيف الدين تَنْكِزْ نائب السلطنة بالشام، ثم توجّه السلطان من الكَرَك إلى الشَّوْبَك وتَصَيَّد هناك، وأفرج في هذه السَّفْرَةِ عن الأميرين ركن الدين بِيبَرْس الدَّوادار، وسيف الدين بَهَادُر آص المنصوريين في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة، وعاد السلطانُ إلى مَقَرِّ مُلْكِه، فكان وصولهُ إلى قلعة الجبل في الساعة الأولى من نهار الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة من السنة، ووصل الأميران إلى قلعة الجبل، فَخَلع السلطانُ عليهما، وأمَّرَ كلَّ واحدٍ منهما وقدَّمَه على ألف على عاداته.

واستقر الأمير ركن الدين بِيَبرس الدَّوادَار بالديار المصرية، وجلس رأس المَيْسَرَة، وأعيد الأمير سيف الدين بَهَادرُ آص إلى دمشق على عادته، فكان وصوله إليها في يوم الاثنين رابع شهر رجب.

ذكر خبر النيل المبارك في هذه السنة

وإنما خصصنا هذه السنة بذكره لأنه وقع فيه من الغرائب في أمره ما لم تَجْرِ بمثله عادة، وذلك أن النيل المبارك وَفَّى بمقياس مصر في يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى الموافق التاسع عشرين أبيب سِتَّةَ عَشَر ذِرَاعًا، وحصل التخليق وكُسِرَ

سَدُّ الخليج في هذا اليوم، وما وقع مثل ذلك في هذا العصر؛ فإن العادة في غالب السنين أن يكون الوفاء في الآخر من مِسْرَى وفي الأوسط منه، وربما تأخَّر عن ذلك فيكون في أيام النسيء، وأوائل توت، ثم زاد بعد ذلك وأخذ في النقص والزيادة، فكانت زيادته إلى آخر مِسْرَى ذراعًا واحدًا، ثم وقف مدةً وزاد أُخْرَى، فبلغت زيادته إلى آخر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة الموافق لتاسع توت سبعة عشر ذراعًا وتسع أصابع، وزاد في يوم الأربعاء عاشر توت خمس أصابع، وفي بُكْرَة الخميس الذي يَلِيه تسع أصابع، وفي يوم الجمعة ثاني عشر توت خمس أصابع، وفي يوم السبت والأحد أربع أصابع في كل يوم أصبعين؛ فكملت زيادته بمقياس مصر ثمانية عشر ذراعًا وست أصابع، ولمّا غلق الذراعَ الثامنَ عشر غرَّق كثِيرًا من الأدر المجاورة له بساحل مصر والروضة، وغَرّق الأقصاب والبساتين، وقطع الطريق فيما بين القاهرة ومصر في عدة مواضع، فأمر السلطان بقطع الخُلْجَان التي عادتها تُكْسَرُ في عيد الصَّلِيب، مثل بحر أبي الرّجا والكينونة وغيرها، وذلك قبل الوقت المعتاد، والعادة جارية أن هذه الخلجان إذا قطعت ينقص بحر النيل بسبب قطعها نحو ثلثي ذراع؛ لما ينصب فيها منه، فلم يضطرب النيلُ لقطعها ولا تَوَقَّفَ، بل زاد ما ذكرناه، ولعله لو لم تُقْطع هذه الخلجان العظيمة كانَ بَلَغَ في الزيادة إلى أكثر مما انتهى إليه، وعم فسادُه، ثم ثبت النيل بعد ذلك على البلاد ثبوتًا حسنًا إلى حد الاستغناء عنه، فأخذ في النقص، فكان ينقص قليلًا، ثم يثبت مدة، ثم ينقص، حتى أخذت الأراضي حاجتها من الري وهبط والحمد لله.

ذكر إفراد مصر عن قاضي الحنفية

وفي يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر رجب فُوِّضَ قضاءُ القضاة الحنفية بمصر للقاضي سراج الدين عمر بن شهاب الدين محمود، وخُلِعَ عَليه بطرحه على عادة القضاة، وجلس بجامع مصر، وحكم في هذا اليوم، واختزل ذلك من ولاية قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي، واستقر بالقاهرة خاصة، وصار القضاة الأصول خمسة، وهم: قاضي القضاة بدر الدين الشافعي، وقاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف، وقاضيا القضاة الحنفيان المذكوران، وقاضي القضاة تقي الدين أحمد الحنبلي، وكان السبب في ولاية سِرَاج الدين المذكور القضاء أن قاضي القضاة شمس الدين الحنفي المذكور طُلِبَ منه أن يحكم بتعويض الورثة الظاهرية عن قرار إسطبل الأمير سيف الدين بكتُمر السّاقي المُطِلّ على بركة الفيل بظاهر القاهرة. ويمكّن هو قرار إسطبله. فامتنع من ذلك، ووافق سراجُ الدين على الحكم بصحة

ذلك إن هو وُلِّيَ، فَوُلِّيَ ذلك، ولم تطل مدته في القضاء فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى في الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة، وأعيد قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري إلى ولاية القضاء بمصر على عادته، وخُلِعَ عليه، ونَفَعَهُ الامتناعُ من الحكم بما فيه شبهة وما ضرَّهُ العزل ـ وجزاه الله خيرًا.

وفي هذه السنة في أواخر شعبان قطع جماعةٌ من التتار الفُرَاتَ إلى جهة الشام، ووصلَ إلى دمشق في سادس شهر رمضان مُقَدَّمُ ألفٍ من التتار اسمُه طاطي، كان منشؤه من العراق وديار بكر بمكان يعرف بقفر ابن زغل ووصَلَ صحبَتَه نحوُ مائة فارس بنسائهم وأولادهم، ثم تجهزوا من دمشق في الشهر المذكور فوصلوا إلى القاهرة في شوال من السنة.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الملك أزبك ووصول رسله

وفي شهر رمضان من هذه السنة عادت رسل السلطان من جهة الملك أزبَك، وهم الأميرُ علاء الدين أيْدُغْدِي الخوارزمي ومن معه، وصحبهم رسلُ الملك أزْبَك، فمثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس رابع الشهر، وكان السلطانُ قد خَطب إلى الملك أزْبَك امرأةً من بنات الملوك من البيت الجنكزخاني، وبعث مع رسله هديةً طائلة جليلة المقدار، فلما جاءت الرسل اشتطوا في المهر فطلبوا مائة طمان من الذهب، والطمان عشرة آلاف دينار، فيكون جملة ذلك ألف ألف دينار، وألف ألف فرس، وألف عدة كاملة للحرب، وغير ذلك، واشترطوا أن يحضر لتسليمها جماعةٌ من الأمراء الأكابر ونسائهم، وغير ذلك من الشروط التي لا يمكن الإجابة إليها، فنزل السلطانُ عن هذه الخِطبة وعَدَل عنها إلى ما جرت العادة به من المكاتبات بينه وبين الملك أزْبَك، ثم كان من خبر إرسال المخطوبة من غير استدعاء من السلطان والصلة بما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر روك المملكة الطرابلسية وما يتصل بذلك من إبطال الجهات المنكرة بها وأخبار النصيرية[1]

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة رسم السلطانُ بروك المملكة الطرابلسية وما أضيف إليها من الأعمال والقلاع والحصون والثغور، فكُشِفَت النواحِي، ونُصِبَ

(١) النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة، نسبة إلى رئيسها محمد بن نصير النميري من القرن الثالث الهجري المتوفى حوالي العام ٢٧٠ هـ. قالوا: حلّ الله في علي رضي الله عنه (موسوعة الفرق والجماعات ص ٣٩٤، معجم الفرق الإسلامية ص ٢٤٩).

لتحريك ذلك وإتقانه القاضي شرفُ الدين يَعْقُوب ناظر المملكة الحلبية، فحضر إلى طرابلس حسبَ الأمر الشريف، وانتصبَ لتحرير ذلك، وفي خدمته جماعةٌ مِن الكتاب، ولم يُعْتَمَدْ فيه على ناظر المملكة الطرابلسية شرف الدين يعقوب الحموي، ولما تكامل ذلك حضر القاضي شرف الدين يعقوب ناظر المملكة الحلبية ومعه المكتوب إلى الأبواب السلطانية، وجلس القاضي فخر الدين ناظر الجيوش ومن معه من المباشرين، وانتصبوا لقسمة الإقطاعات وتقرير الخواص، وأفراد جهات القلاع والحصون، وكلَتِ المملكة، فكمل ذلك في شهر رمضان من السنة واستقر لاستقبال شهر رمضان في الهلالي والخراجي لاستقبال فعل سنة سبع عشرة وسبعمائة وتوفر بسبب هذا الرَّوْك ما أقيم عليه ستَّة أمراء أصحاب طبلخاناه وثلاثة أمراء أصحاب عشرات، وخمسون نفرًا من البحرية والحلقة، ورُسِمَ بإبطال جهة الإفراج والسجون، وغير ذلك بالمملكة الطرابلسية فأبطلت، وجملة ذلك نحو مائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم في كل سنة، رسمَ أن يُبنَى بقرى النصيرية في كل قرية مسجدٌ ويُفْرَد من أراض القرية رزقة برسم المسجد، وتمنع النصيرية من الخطاب ومعناه أن الصبي إذا بلغ الحلم وأنِسَ منه الرشد يتطاول إلى المخاطبة ويتوسل إلى أبيه وقرائبه في ذلك مدة، فيجمعون له مجتمعًا، يجتمع فيه أربعون من أكابرهم، ويذبح هو أو وليه رأس بقر وثلاثة أرؤس من الغنم، ويفتح لهم خابية من الخمر فيأكلون ويشربون، فإذا خالطهم الشراب أخذ كل واحد منهم يحكي حكاية عمن خُوطِب، وبَاح بما خُوطِب به أنه قُطِعَت يده، أو عمى أو سقط من شاهق فمات أو ابتُلي بعاهة، كل ذلك تحريض للمخاطب على كتمان ما يودع إليه من الذهب. فإذا استوثق منه تقدّم إليه المعلمُ فحلّفه أربعين يمينًا على كتمان ما يوجب إليه، ثم يوضح له الخطاب وكيفيته على ما نُقِلَ بإلَهِيَّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأن محمدًا بن عبد الله كان حجابًا عليه بواسطة جبريل، ويسمون رسولَ الله ﷺ بالسيد صندل ويرفع عن المخاطب التكليف وعَرّفَه أن لا صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج إلا إلى مكان يزعمون أن فيه ضريح علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن الروح الإلٰهي الذي كان فيه ينتقل في واحد واحد وأنه الآن في هذا العصر في رجل يسميه المخاطبة ويعرفه بأن يقف عندما يأمره به وينهاه عنه، ويحل له ويحرم عليه، ثم يعرفه أنْ لَا غُسْلَ من جنابة، ويأخذ عليه العهد أن لا ينصح مسلمًا في أكل ولا شرب ولا يسايِرُه ولا يعامله، ويعرفه أن مالَ المسلمين فيء له إن استطاع ولهم سلام بينهم يَعْرِفُ بعضُهمْ بَعْضًا به عند المصافحة والمكالمة له.

وأخبرني من أثق به في هذه السنة، أن الذي تزعم النصيرية أن الروحَ الإلـٰهي حلّ بِه رجلٌ اسمُه شرف، وهو رئيس قرية سَلَغْنُو من عمل صِهيون. ومن ظريف ما بلغني عن شرف هذا أن بعض أهل تلك الناحية مَرِضَ فجاءه ولدُ المريض وسأله أن يعافى أباه فوعده بذلك، وأن أباه لا يموت في هذه المرضة فاشتد به الوجع فعاوده فأجابه بمثل ذلك، ثم مات المريض، فجاءه ابنه وقال له: لا أدعك حتى تُعِيدَه حَيًّا كما وعدتني فقال له شرف: دعْ هذا فإن الدولة ظالمة ولا تفتح هذا الباب فإنه يؤدي إلى إلزامنا بإحياء من أرادوا إحياءه ممن يموت.

وأخبرني المخبِرُ أنَّ شرفًا هذا المذكور فيه كَرَمُ نفسٍ وخدمةٌ لمن يَردُ عليه من الأضياف وغيرهم.

ولما رسَم بإبطال ما ذكرناه وبناء المساجد بقرى النُّصَيْريّة كُتِبَ مرسومٌ شريف سلطاني من إنشاء القاضي كمال الدين ابن الأمير مضمونه:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم «الحمد لله الذي جعل الدين المحمديّ في أيامنا الشريفة قائمًا على أثبت عماد واصطفانا لإشادة أركانه وتنفيذ أحكامه من بين العباد، وسهل علينا من إظهار شعائره ما رام منْ كَان قبلنا تَسْهيلَه فكان عليه صَعْبَ الانقياد، وادّخر لنا من أجور نصره أجلَّ ما يدَّخرُ ليوم يُفْتَقَرُ فيه لصالح الاستعداد، نحمده على نعم بَلَغَتْ من إقامة مَنَار الحق المراد، وأخمدتْ نارَ الباطل بمُظَافَرَتِنا ولولاها لكانت شديدة الاتقاد ونكَّست رؤوس الفحشاء فعادت على استحياء إلى مُسْتَسِنّها أقبح معاد. ونشكره على أن سطَّر في صحائفنا من غرر السِّيَرِ ما تَبْقَى بهجتُه ليوم المعاد، ونشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة يجدها العبدُ يوم يقوم الأشهاد، وتَسْرِي أنوارُ هَدْيها في البرايا فلا تزال آخذة في الازدياد ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بعثه الله بالإنذار ليوم التناد والإعذار إلى من قامت عليه الحجة بشهادة الملكين فأوضح له سبيل الرشاد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ـ الذين منهم من رَدَّ أهْل الرِّدَّةِ إلى الدين القويم أحسن ترداد ومنهم من عم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سائر العباد والبلاد، ومنهم من بذل مَالَه للمجاهدين ونَفسَه في الجهاد، ومنهم من دافع عن الحق فلا بَرِحَ في جِدَالٍ عنه وفي جلاد صلاة تهدي إلى السداد ويقوّمُ المعوج وتثقف الميّاد، وسلَّم تسليمًا كثيرًا وبعد فإن الله تعالى منذ ملكنا أمورَ خلقه، وبَسَط قُدْرَتَنا في التصرف في عباده، والمطالبة بحقه، وفوَّض إلينا القيام بنصرة دينه، وفهَّمنا أنه تعالى قبض قبل خلق الخلائق قبضتين فرغبنا أن نكون من قبضة يمينه، وألقى إلينا مقاليدَ المماليك، وأقام

الحجة علينا بتمكين البسطة وعدم التشاقق في ذلك ومَهَّد لنا من الخير ما على غيرنا توعَّر، وأعد لنا من النصر ما أجْرانا فيه على عوائد لطفه، لا عن مَرَح في الأرض ولا عن خدٍّ مصعّر وألهمنا إعلاء كلمة الإسلام، وإعزاز الحلال وإذلال الحرام، وأن تكُون كلمة الله هي العُلْيَا وأن لا نختار على الدار الآخرة دارَ الدنيا، وأن نَدُور مع الحقّ حيث دار، ونرغبَ عن هذه الدار بما أعدَّه الله من جنَّاتِه في تلك الدار، فلم نزل نقيمُ للدين شعارًا ونُعْفي المنكر ونعلن في النصيحة لله ورسوله ونسرّ إسرارًا، ونتتبع أثَرَ منكر نُعَفّيه، وممطول بحقه نُوَفّيه ومعْلَم قُربَه نُشَيِّدُه ومَخذُولًا استظهر عليه الباطل نؤيِّده، وذَا كُرْبَةَ نُفَرِّجُها وغريبة فحشاء استطردت بين أدواء الحيل نخرجها وميتةَ سيئة تَسْتَعْظِمُ النفوس زوالها فنجعلها هباء منثورًا، وجملة عظيمة أسست على غير التقوى مبانيها فيحطمها كَرَمُنا إذا الجزاء عنها كان موفورًا.

فاسْتقْصينا ذلك في ممالكنا الشريفة مملكة مملكة واستطردنا في إبطال كل فاحشة موبقة مهلكة، فَعَفَّيْنَا من ذلك بالديار المصرية ما شاع خَبَرُه، وظهر بين الأنام أثره، وطُبّقَتْ محاسنه الآفاق ولهجت به ألسنة الرعايا والرفاق، من مُكوسٍ أبْطَلْنَاها، وجهات سوء عَطَّلناها، ومظالم رددناها إلى أهلها، وظلمةَ زجرناها عن ظلمها وغيّها وبواق تسامَحْنا بها وسمحنا وطلبات خففنا عن العباد بتركها وأرحنا، ومعروفًا أقمنا دعائمه وبيوتًا لله عَزّ وجَلّ آثرنا منها كل نائية، ثم بثثنا ذلك في سائر الممالك الشامية المحروسة، وجَنيْنا ثَمرَاتِ النصر من شجراتِ العَدْل التي هي بِيَدِ يَقْظَتِنَا مغروسة».

ولما اتصل بعلومنا الشريفة أن بالمملكة الطرابلسية آثار سوء ليست في غيرها ومواطن فَسْقٍ لا يقدر غيرنَا على دفع ضررها وضيرها، ومظان آثام يجد الشيطان فيها مجالًا فسيحًا، وقُوَى لا يوجَدُ بها من كان إسلامه مقبولًا ولا من كان دينه صحيحًا، وخمورًا يُتَظَاهَرُ بها، ويَتَّصِلُ سببُ الكبائر بسببها، وتُشاع في الخلائق، تجاهُرًا وتشاع على رؤوس الأشهاد فلا يوجد لهذا المُنْكَر مُنْكِرًا، ويحتج في ذلك بمقررات سُحْتٍ لا تجدي نفعًا، وتبقى بين يَدَي آخذها كأنها حية تسعى.

ومما أُنهِي إلينا أن بها حانةَ عُبّر بالأفراح قد تطائر شررُها، وتفاقم ضَرَرُها، وجُوهِرَ فيها بالمعاصي وآذنت ـ لولا حلم الله وإمهاله ـ بزلزلة الصياصي[1] وغَدت

---

(١) الصياصي: جمع صيصية، وهو الحصن، وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٦].

لأولي الأهوية مجمعًا، ولذوي الفساد مَرْبَعًا ومَرْتَعًا، يُتَظَاهرُ فيها بما أمرَ بستره من القاذورات، ويُؤتى ما يجب تَجَنُّبه من المَحْذُورَات، ويُسْتَرْسَلُ في الانشراح فيها إلى ما يؤدي إلى غضب الجبار وتهافتُ النفوس بها كالفراش على الاقتحام في النار.

ومنها أن السجون إذا سُجِنَ بها أحدٌ يجمع عليه بين السجن وبين الطلب وإذا أفرج عنه ولو في يومه ـ انقلب إلى أهله من الخسارة أسوأ منقلب، فهو لا يجدُ سرورًا بِفَرَجِه ولا يَحْمَدُ عقبى مخرجه.

ومنها أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرىً سكانُها يُعْرَفُون بالنُّصيريَّة لم يَلِج الإسلام لهم قلبًا ولا خالط لهم لُبًّا، ولا أظهروا له بينهم شعارًا، ولا أقاموا له منارًا، بل يخالفون أحكامه، ويجهلون حَلَالَه وحرامَه، ويخلطون ذبائحهم بذبائح المسلمين، ومقابرهم بمقابر أهل الدين، وكل ذلك مما يجب رَدْعُهُم عنه شرعًا، ورجوعهم فيه إلى سواء السبيل أصْلًا وفرْعًا، فعند ذلك رَغِبْنَا أن نفعل في هذه الأمور ما يبقى ذكره مفخرة على ممَرِّ الأيام وتدوم بهجته بدوام دولة الإسلام ونمحو منه في أيامنا الشريفة ما كان على غيرها عارًا، ونسترجعُ للحق من الباطل ثوبًا طالما كان لَدَيْه مُعارًا ونُثْبِتُ في سيرة دولتنا الشريفة عوارفَ لا تزال مع الزمن تُذْكَرَ ونَتْلو على الأسماع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النحل: الآية ٩٠].

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري ـ لا زال بالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا وزاجرًا، والامتثال لأوامر الله مسارعًا ومبادرًا ـ وأن يبطل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتي ذكره، وهو جهات الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجًا عما لعله يستقر من ضمان الفرح الخيِّر وتقديرها سبعون ألف درهم، السجون بالمملكة الطرابلسية خارجًا عن سجن طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدم التاريخ، وتقديرها عشرة آلاف درهم سُخر الأقصاب المحدث ما بين أقصاب الديوان المعمور التي كان فلاحو الكورة بطرابلس يعملون بها، ثم أعْفَوا عن العمل، وقرر عليهم في السنة تقدير ألفي درهم أقصابًا؛ أقصاب الأمراء بحكم أن بعض الأمراء كانت لهم جهات تَزْرَعُ الأقصاب، وقدروا على بقية فلاحيهم العمل بها أو القيام بنظير أجرة العمل، وتقدير ذلك، ثلاثة آلاف درهم، عفاية النيابة بكورة طرابلس وأَنَفَه البثرون وما معه بحكم أن المذكورين كانوا يبيتون على المراكز بالبحر، فلما سُدَّتْ المراكز بالعساكر المنصورة قرر على كل نفر في السنة ستة دراهم، وتقدير ذلك عشرة آلاف درهم حق الديوان بصهيون وبِلاطُنُس عمن كان

يعاني حصيها وتقدير متحصل ذلك ثلاثة آلاف درهم. هبة البيادر بنواحي الكهف، مستجدة مما كان يُسْتَأدى عن كل فدان ثلاثة دراهم، وتقدير متحصله ألف درهم ضمان المستغل بطرابلس مما كان أولًا بديوان النيابة بالفتوحات ثم استقر في الديوان المعمور في شهور سنة ست عشرة وسبعمائة وتقديره أربعة آلاف درهم. ما استجد في إقطاعات بعض الأمراء على الفلاحين مما لَمْ تَجْرِ بِهِ عادةً من حق حشيش وملح وضيافة، وتقديرهُ ستة آلاف درهم فَلْيَبْطُل ذلك على مَرّ الأزمنة والدهور إبطالًا باقيًا إلى يوم النشور، لا يُطْلَب ولا يستأدى ولا يَبْلُغ الشيطانُ في بقائِه مرَارًا وليقرأ مرسومنا هذه على المنابر ويشاع ويستجلب لنا به الأدعية الصالحة فإنها نعم المتاع.

وأما النصيرية فليُعَمّ في بلادهم بكل قرية مسجد وليطلق له من أرض القرية المذكورة قطعة أرض تقوم به، وبمن يكون فيه للقيام بمصالحه على حسب الكفاية، بحيث يستنيبُ الجنابُ العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي الزعيمي الكافلي الممهدي المشيّدي الذخري الشهابي نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والحصون المحروسة ضاعف الله نعمته - من جهته من يَثِق إليه لإفْراد الأراضي المذكورة، وتحديدها وتسليمها لأئمة المساجد المذكورة، وفصلها عن أراضي المقطعين، ويعمل بذلك أوراقٌ وَيَخُلّدُ بالديوان المعمور حتى لا يبقى لأحد من المقطعين فيها كلام، ويُنَادى في المقطعين وأهلِ البلاد المذكورة بصورة ما رسمنا به فذلك وكذلك رسمنا أيضًا بمنع النصيرية المذكورين من الخطاب وأن لا يمكنوا بعد ورود مرسومنا هذا من الخطاب جملة كافة وتؤخذ الشهادة على أكابرهم، ومشايخ قراهم بأن لا يعود أحدٌ إلى التظاهر بالخطاب، ومن تظاهر به قوتل أشد مقاتلة فَلْتُعْتَمد مراسمُنَا الشريفة ولا يُعْدل عن شيء منها، ولتجر المملكة الطرابلسية مَجْرَى بقيّة الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات وتعْقبه آثار الفواحش وإقامة شعائر الدين القويم ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٨١﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨١] والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله عزّ وجلّ.

كتب في السابع من شوال سنة سبع عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

هذا ما تضمنه المرسوم السلطاني ومنه نقلت وقد كانت كتبت فتيا في أمر النصيرية وتضمنت اعتقادهم وما هم عليه، وأجاب عن ذلك الشيخ تقي الدين بن

تَيْمِيَة، وقد رأينا أن نذكر نص الفتيا والجواب في هذا الموضع، لما في ذلك بيان ما تعتقده هذه الطائفة الملعونة، والذي كتب هذه الفتيا التي تُذْكَر، شهاب الدين أحمد بن محمود بن مري الشافعي ونُسْخَتُهَا بعد البسملة.

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد الشغب المُبْطلين، في النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسُخِ الأرواح، وقِدَم العالم، وإنكارِ البعث والنشور، والجنة والنار في غير الحياة الدنيا وبأن الصلواتَ الخمس عبارةٌ عن خمسة أسماء وهي: علي، وحسن، وحسين، ومحسن، وفاطمة، فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يُجْزِيهم عن الغُسْل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوات الخمسة وواجباتها وبأن الصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلًا واسم ثلاثين امرأة يعدونهم في كتبهم، ويضيق هذا الموضع عن إيرادهم وبأن إلهَهُم الذي خلق السمٰوات والأرض هو، عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فهو عندهم إلـٰه في السماء والإمام في الأرض، وكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذا الناسوتَ على رأيهم أنهُ يؤنس خلقه وعبيده وليعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه.

وبأن النصيري عندهم لا يصير نُصيريًا مؤمنًا يجالسونه ويشربون معه الخمر ويطلعونه على أسرارهم، ويزوّجونه من نسائهم حتى يخاطبه معلمه. وحقيقة الخطاب عندهم أن يُحَلِّفُوه على كِتمانِ دينِه ومعرفة شيخه وأكابر أهل مذهبه وعلى أن لا ينصح مُسْلمًا ولا غيرَه إلا ما كان من أهل دينِه وعلى أن يعرِفَ ربَّه وإمامهُ بظهوره في أكواره وأدواره فيعرف انتقال الاسم والمعنى في كل حين وزمان فالاسم عندهم في أول الناس آدم، والمعنى شيث والاسم هُوَ يعقوبُ والمعنى يوسف، ويستدلون على هذه الصورة ـ كما يزعمون ـ بما في القرآن العزيز حكايةً عن يعقوب ويوسف عليهما السلام، فيقولون: أما يعقوب فإنه كان الاسم فما قدر أن يتعدى منزلته فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٨] وأما يوسف فإنه كان المعنى المطلوب، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: الآية ٩٢] فلم يُعَلِّق الأمْرَ بغيره لأنه علم أنه هو الإلـٰه المتصرف، ويجعلون موسى هو الاسم ويوشع هو المعنى ويقولون يُوشَع ردت له الشمس لما أمَرَها فأطاعت أمرَه. وهل ترد الشمس إلا لربها؟! ويجعلون سليمان هو الاسم وآصف هو المعنى ويقولون سليمان عجز عن إحضار عريش بلقيس، وقدَرَ عليه آصف؛ لأن سليمان كان الصورة وآصف كان المعنى القادر المقتدر، وقد قال قائلهم: هابيل سام يوسف يوشع آصف شمعون الصفا حيدر.

ويعدون الأنبياء والمرسلين واحدًا واحدًا على هذا النمط إلى زمن رسول الله ﷺ فيقولون: محمد هو الاسم وعلي هو المعنى ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا هذا.

فمن حقيقة الخطاب والدين عندهم أن يُعْلَم أنّ عليًا هو الرَّبُّ وأن محمدًا هو الحجاب، وأن سليمان هو الباب وأنشدنا بعض أكابر رؤسائهم وفضلائهم لنفسه في شهور سنة سبعمائة فقال: [من المجتث]

أشهد أن لا إلـه إلا ... حيدرة الأنزع البَطِين
ولا حجاب عليه إلا ... محمد الصادق الأمين
ولا طريق إليه إلا ... سليمان ذو القوة المتين

ويقولون إن ذلك على هذا الترتيب لم يزل ولا يزال، وكذلك الخمسة الأيتام، والاثنا عشر نقيبًا، وأسماؤهم مشهورة عندهم ومعلومة من كتبهم الخبيثة فإنهم لا يزالون يَظْهَرون مع الرب والحجاب والباب في كل كَوْر ودَوْر أبدًا سَرْمَدًا على الدوام والاستمرار، ويقولون إن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويليه في رتبة الإبليسية أبو بكر ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين وشرفهم وأعلى رتبتهم على أقوال الملحدين، وانتحال أنواع الغالين والمفسدين فلا يزالون موجودين في كل وقت دائمًا حسبما ذكر من الترتيب. ولمذاهبهم الفاسدة شعب وتفاصيل ترجع إلى هذه الأصول المذكورة.

وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من بلاد الشام، فهم معروفون مشهورون متظاهرون بهذا المذهب وقد حقق أحوالهم كُلٌ من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم، ومن عامة الناس أيضًا في هذا الزمان، لأن أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء الفرنج المخزولين على البلاد الساحلية، فلما صارت بلاد الإسلام انكشف حالهم وظهر ضلالهم، والابتلاء بهم كثير جدًا. فهل يجوز لمسلم أن يزوجهم أو يَتَزَوَّجَ منهم أو يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وما حكم الجبن المعمول من أنفحة ذبيحتهم؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟ وهل يجوز استخدامهم في ثغور المسلمين وتسليمها إليهم، أم يجب على ولي الأمر قطعهم واستخدام غيرهم من المسلمين الكفاة؟ وهل يأثم إذا أخر طردهم؟ أم يجوز له التمهل مع أن في عزمه ذلك وإذا استخدمهم وقطعهم، أو لم يقطعهم هل يجوز له صرف أموال بيت المال عليهم؟ وإذا صرفها

وتأخر لبعضهم بقية من معلومه المسمى فأخره ولي الأمر عنه وصرفه على غيره من المسلمين أو المستحقين، أو أرصده لذلك، هل يجوز له فعل هذه الصور؟ أم يجب عليه؟ وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة وأموالهم فَيء حلال أم لا؟ وإذا جاهدهم ولي الأمر أيده الله تعالى بإخماد باطلهم، وقطعهم من حصون المسلمين، وتحذير أهل الإسلام من مناكحتهم وأكل ذبائحهم وأمرهم بالصوم والصلاة، ومنعهم من إظهار دينهم الباطل - وهم الذين يلونه من الكفار هل ذلك أفضل وأكثر أجرًا من التصدي والترصد لقتال التتار في بلادهم وهدم بلاد سيس، وديار الفرنج على أهلها أم هذا أفضل؟ وهل يُعَدُّ مُجَاهِدُ النّصيْريَّة المذكورين مرابطًا؟ ويكون أجره كأجر المرابط في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الفرنج أكبر أم هذا أكثر أجرًا؟ وهل يجب على مَنْ عَرَف المذكورين ومذاهبهم أن يُشَهّرَ أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم، وإظهار الإسلام بينهم فلعل الله تعالى أن يَهْدِيَ بعضهم إلى الإسلام، وأن يجعل من ذريتهم وأولادهم ناسًا مسلمين بعد خروجهم من ذلك الكفر العظيم، أم يجوز التغافل عنهم والإهمال؟ وما قَدْر أجْر المجتهد على ذلك والمجاهد فيه، والمرابط له والعازم عليه؟ وليبسطُوا القول في ذلك مُثَابين مأجورين إن شاء الله تعالى إنه على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فأجاب الشيخ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني عن هذه الفتيا.

الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكْفَر مِنَ اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضَرَرُهم على أمّة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع، وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمْرٍ ولا بنهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يَفْتَرُونَها يَدَّعُونَ أنها علم الباطن، من جنس ما ذكره السائل ومن غير هذا الجنس، وأنهم ليس لهم حَدٌّ محدود مما يَدَّعُونه من الإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف كلام الله ورسوله عن مواضعه، ومقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكره السائل؛ من جنس قولهم: إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، و«الصيام

المفروض» كتم أسرارهم، و«حج البيت العتيق» زيارة شيوخهم وإن «يَدَا أبي لهب» هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وإن النبأ العظيم والإمام المبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مُكْنَة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مَرَّةً الحُجّاجَ وألقوهم في بئر زمزم وأخذوا مَرَّةً الحجر الأسود فبقي عندهم مُدَّة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يُحْصِي عَدَدَه إلا الله تعالى وصنفوا كتبًا كثيرة بها ما ذكره السائل وغيره وصنّف علماء المسلمين كتبًا في كشف أسرارِهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة، والإلحاد الذي هم فيه أكبر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام، وما ذكره السائل في وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء في وصفهم.

ومن المعلوم عندهم أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائمًا مع كل عَدُوٍّ للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل وانقهار النصارى؛ بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين، فإن ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين حتى جزيرة قبرص يَسَّرَ الله فتحها من حين فتحها المسلمون في ولاة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتحها معاوية بن أبي سفيان، ولم تزل تحت حكم المسلمين إلى أثناء المائة الرابعة فإن هؤلاء المحاربينَ لله ورسوله كَثُروا بالسواحل وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى؛ كنُور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتْباعهما وفتحوا السواحل من النصارى وممن كان بهم منهم، وفتحوا أيضًا أرض مصر، فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى فَجَاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية.

ثم إن التتار مَا دَخَلُوا دِيارَ الإسلام، وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك الأمصار إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن مُنَجّم هولاكو الذي كان وزيره وهو النّصِيرُ الطُّوسِي(١)

(١) الطوسي: هو نصير الدين الطوسي، محمد بن محمد بن الحسين الطوسي، الفيلسوف، أصله=

كان وزيرًا لهم بالموت وهو الذي أمرهم بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحِدَة، وتارة يسمون القرامطة[١] وتارة يسمون الباطنيَّة، وتارة يسمون الإسماعيلية وتارة يسمون النُّصَيْرِيّة، وتارة يسمون الخرمية[٢]، وتارة يسمون المحمرة[٣]، وهذه الأسماء منها ما يَعُمُّهُم ومنها ما يَخُصُّ بعض أصنافهم كما أن الإسلام والإيمان يَعُمُّ المسلمين، ولبعضهم اسم يخُصُّه، إما لنسب، وإمَّا لمذْهَبٍ، وإما لبلد، وإما لغير ذلك. وشرح مقاصدهم يطول كما قال بعض العلماء فيهم ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكُفْر المحض، وحقيقة أمرهم أنهم لا

= من جهرود ساوة من أعمال قم، وولد بطوس واشتهر بها، ولد سنة ٥٩٧ هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٧٢ هـ. من تصانيفه: «آداب المتعلمين»، «إثبات العقل الفعال»، «أخلاق الناصري»، «تجريد الكلام»، «تحرير الاعتقادات»، «تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي» في الكلام، «حل مشكلات الإشارات لابن سينا»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «فرائض النصيرية»، «قواعد العقائد»، «كتاب البلاغ»، «المتوسطات بين الهيئة والهندسة»، «مدخل إلى علم النجوم»، «نقد المحصل لفخر الدين الرازي» وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٣١). وفي البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٨: النصير الطوسي محمد بن عبد الله الطوسي، كان يقال له المولى نصير الدين، ويقال الخواجا نصير الدين، اشتغل في شبيبته وحصّل علم الأوائل جيدًا. وصنّف في ذلك في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في وقعة بغداد، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكو خان بقتل الخليفة فالله أعلم.

(١) القرامطة: فرقة باطنية إسلامية، أسسها حمدان قرمط ونسبت إليه (تاريخ العرب السياسي والثقافي ٢/ ٥٣٤). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠: القرامطة من فرق الشيعة الإسماعيلية، خرجوا من البحرين، نسبة إلى رجل منهم اسمه قرمط، خرج فيهم وادّعى النبوة وأنه أنزل عليه كتاب، ثم ظهروا بالمشرق بأصبهان، في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية، وبالملاحدة، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة، فيما حول طرابلس، كمصياف والخوابي وقدموس، ولما افترقوا إلى مستعلوية ونزارية، أخذ من فهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية، عملًا بدعوة ابن الصباح وأخذ من فهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر، واشتهروا باسم الفداوية، ووثبوا على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالشام مرات وهو راكب ليقتلوه فلم يتمكنوا منه، ثم صالحهم بعد ذلك على قلاعهم بأعمال طرابلس في سنة ٥٧٢ هـ، ثم انتموا إلى ملوك مصر في أيام الظاهر بيبرس، واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه.

(٢) الخرمية: هي من فرقة القرامطة، وسمّوا بالخرمية لإباحتهم المحرمات والمحارم، وهم أتباع بابك الخرمي، وهي طائفة نشأت بخراسان.

(٣) المحمّرة: سمّوا بذلك للبسهم الحمرة في أيام بابك الخرمي.

يؤمنون بنبيٍّ من الأنبياء والمرسلين، لا نوح ولا إبراهيم ولا موسى، ولا عيسى، ولا محمد صلوات الله عليهم، ولا بشيء من الكتب المنزلة؛ لا التوراة، ولا الإنجيل، ولا القرآن، ولا يُقِرُّونَ بأنَ للعالم خالقًا خلقه ولا بأن له دينًا أمر به، ولا أن له دارًا يجري الناس فيها على أعمالهم غير هذه الدار.

وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين والإلـٰهيين، وتارة يبنونه على قول المجوس[(١)] الذين يعبدون النُّور ويضمون إلى ذلك الرفض، ويحتجون لذلك من كلام النبوات، إما بقول مكذوب ينقلونه؛ كما ينقلون عن النبيّ ﷺ أنه قال: أول ما خلق الله العقل. والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، ولفظه أن الله لـما خلق العقل قال له: أقْبِل. فقال له: أدبر. فأدبر[(٢)]، فيحرفون لفظه ويقولون أول مَا خَلَقَ اللهُ العقل ليوافق قول المتفلسفة اتباع أرسطو[(٣)] في أن أول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل، وإمّا بلفظ أنابت عن النبيّ ﷺ فيحرفونه عن مواضعه كما يصنع أصحابُ رسائل إخوان الصفا ونحوهم، فإنهم من أئمتهم، وقد دخل كثير من باطلهم على كثير من المسلمين، وراج عليهم حتى صار ذلك في كتب طوائف من المنتسبين إلى العلم والدين وإن كانوا لا يوافقونهم على أصل كفرهم؛ فإن هؤلاء لهم إظهار دعوتهم الملعونة التي يسمونها الدعوة الهادية. وهي درجات متعددة، ويسمون النهاية البلاغ الأكبر والناموس الأعظم ومضمون البلاغ الأكبر جحد الخالق تعالى، والاستهزاء به وبمن يُقرُّ بِهِ حتى قد يَكتُبُ أحدُهم اسمَ الله في أسفل رجله، وفيه أيضًا جحد شرايعه ودينه وما جاء به الأنبياء، ودعوى أنهم كانوا من جنسهم طالبين للرئاسة فمنهم من أحسن في طلبها ومنهم من أساء في طلبها حتى

(١) المجوس: عم عبدة النيران القائلين إن للعالم أصلين نور وظلمة. وقال في كشاف اصطلاحات الفنون: المجوس فرقة من الكفرة يعبدون الشمس والقمر. وفي الملل والنحل: إنهم طائفة كان لهم كتاب فبدّلوه في الأصل، فأصبحوا وقد أسري بذلك الكتاب إلى السماء، فهم ليسوا من أهل الكتاب (كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٤٧٩).

(٢) لفظ الحديث: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٠، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨/٨، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٥٣.

(٣) أرسطو: ولد سنة ٣٨٥ ق.م، في إحدى مدن مقدونيا، وكان أبوه طبيبًا للملك فنشأ أرسطو في البلاط المقدوني، تتلمذ على أفلاطون، وتولى هو تربية الإسكندر الأكبر. أنشأ أرسطو مدرسة يعلم فيها، وسمي أتباعه المشاؤون. له مؤلفات كثيرة في الطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة، توفي سنة ٣٢٢ ق.م.

قتل. ويجعلون محمدًا وموسى من القسم الأول، ويجعلون المسيح من القسم الثاني، وفيه من الاستهزاء بالصلاة والزكاة، والصوم والحج وتحليل نكاح ذوي المحارم وسائر الفواحش ما يطول شرحه.

ولهم إشارات ومخاطبات يَعْرِفُ بها بعضهم بعضًا، وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين التي يكون فيها أهل الإيمان فقد يخفون على من لا يعرفهم وأما إذا كثروا فإنه يعرفهم عامة الناس فضلًا عن خاصتهم.

وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا يجوز مناكحتهم ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم.

وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان مشهوران للعلماء كسائر أنفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس، وذبيحة الفرنج، الذين يقال عنهم إنهم لا يذكون الذبائح، فذهب أبو حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين أنه يحل هذا الجبن، لأن أنفحة الميتة طاهرة على هذا القول، لأن الأنفحة لا تموت بموت البهيمة، وملاقاة الوعاء النجس في الباطن لا ينجس، ومذهب مالك والشافعي، وأحمد في الرواية الأخرى: أن هذا الجبن نجس؛ لأن الأنفحة عند هؤلاء نجسة، لأن لبن أنفحتها عندهم نجس؛ ومن لا تؤكل ذبيحته فذبيحته كالميتة. وكل من أصحاب القولين يحتج بآثار ينقلها عن الصحابة فأصحاب القول الأول نقلوا أنهم إنما أكلوا جبن المجوس وأصحاب القول الثاني نقلوا أنهم إنما أكلوا ما كانوا يظنون أنه من جبن النصارى فهذه مسألة اجتهاد للمقلد أن يقلد من يفتي بأحد القولين.

وأما أوانيهم وملابسهم فكأواني المجوس وملابس المجوس على ما عرف من مذاهب الأئمة والصحيح في ذلك أن أوانيهم لا تستعمل إلا بعد غسلها فإن ذبائحهم ميتة فلا بد أن يصيب أوانيهم المستعملة ما يطبخونه من ذبائحهم فيتنجس بذلك. فأما الآنية التي لا يغلب على الظن وصول النجاسة إليها فتستعمل من غير غسل كآنية اللبن التي لا يضعون فيها طبيخهم أو يغسلونها قبل وضع اللبن فيها، (وقد توضأ عمر بن الخطاب) رضي الله عنه من جرة نصرانية فما شك في نجاسته ولم يحكم بنجاسته بالشك ولا يجوز دفنهم بين مقابر المسلمين ولا يصلي على من مات منهم؛ فإن الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين كعبد الله بن أُبَيّ ونحوه وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والصيام، والجهاد مع المسلمين ولا يظهرون مقالة تخالف دين المسلمين، لكن يسرون ذلك فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ

عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ [التوبة: الآية ٨٤] فكيف بهؤلاء الذين هُمْ مع الزندقة والنفَاق يُظْهرون الكُفْر والإلحاد؟

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة وهم شر من المخامر الذي يكون في العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض، إما مع أمير العسكر وإما مع العدو وهؤلاء لهم غرض مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها، وخاصتها، وهم أحرصُ الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجُنْد على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته.

ويجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المعاملة، ولا يتْرَكُون في ثغر ولا في غير ثغر، وضررهم في الثغور أشَدّ. وأن يَسْتَخدِمُوا بَدَلهم من يحْتَاج إلى استخدامه من الرجال المأمُونِينَ على دين الإسلام، وعلى النُّصْح لله ولرسولِهِ ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إذا كان وليُّ الأمر لا يستخدم من يَغُشّه وإن كان مسلمًا، فكيف يستخدم من يغشه ويغش المسلمين كلهم؟!

ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر على الاستبدال بهم وَجَب عليه ذلك.

وإما إذا استُخْدِمُوا وعَمِلُوا العمل المشروط عليهم فلهم إما المسمى وأما أجرة المثل، لأنهم عُوقِدُوا على ذلك، فإن كان العقد صحيحًا وجب المسمى، وإن كان فاسدًا وجب أجرة المثل، وإن لم يكن استخدامهم من جنس الإجازة فهو من جنس الجعالة الجائزة، لكن هؤلاء لا يجوز استخدامهم فالعقد عقدٌ فاسد فلا يستحقون إلا قيمة عملهم، فإن لم يكونوا عملوا عملًا له قيمة فلا شيء لهم، لكن دماؤهم مباحة وكذلك أموالهم إذا لم يكن لهم ورثة من المسلمين وإن كان لهم ورثة من المسلمين فقد يقال إنهم بمنزلة المرتدين، والمرتد هل يكون ماله لورثته المسلمين؟ فيه نزاع مشهور. وقد يقال إنهم بمنزلة المنافقين، والمنافقون يرثهم ورثتهم المسلمون في أصح القولين لكن هؤلاء المسؤول عنهم لا يكاد يكونُ لهم وارثٌ من المسلمين وإذا أظهروا التوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقر أموالهم عليهم. ومن لم يقبلها لم تنقل إلى ورثتهم من جنسهم، فإن مالهم يكون فَيْئًا لبيت المال، لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة إذ أصْلُ

مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يُعْرَف ومَن قد لا يُعْرَف. فالطريق في ذلك أن يُحتَاطَ في أمرهم، ولا يتْركُون مجتمعين، ولا يمكَّنُون من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة، ويُلْزَمُون بشرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن ويترك بينهم من يُعَلِّمُهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين مَعَلِّميهم، فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة لما ظهروا على أهل الرِّدَّةِ وجاؤوا إليه قال لهم الصديق: اختاروا منِّي إما الحربُ المجلية وإما السلم المخزية؟ قالوا: يا خليفة رسول الله هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية؟ قال: تدرون قتلانا ولا ندري قتلاكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ونغنم ما أصَبْنَا من أموالكم وتُردُّون ما أصبتم من أموالنا، وننزع منكم الحلقة والسلاح، وتُمْنَعُون من ركوب الخيل، وتُتْرَكُون تَتْبَعُون أذناب الإبل حتى يُرِيَ الله خَليفَةَ رسوله والمؤمنين أمرًا يعذرونكم به فوافقه الصحابة في ذلك إلا في تضمين قتلى المسلمين، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: هؤلاء قُتِلُوا في سبيل الله وأجورهم على الله؛ يعني هم شهداء فلا دية لهم فاتفقوا على قول عمرَ في ذلك.

وهذا الذي اتفق الصحابة عليه هو مذهب أئمة العلماء، الذي تنازعوا فيه تنازع فيه العلماء فذهب أكثرهم أن من قتله المرْتَدون المجتمعون المحاربون لا يُضْمنُ كما اتفقوا عليه آخر، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين، ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: هو القول الأول. فهذا الذي فعله الصحابة، فأولئك المرتدين بعدَ عوْدِهِم إلى الإسلام يُفْعَل بمن أظهر الإسلام والتهمة ظاهرة فيه فَيُمْنع من أن يكون من أهل الخيل والسلاح والدروع التي يَلْبَسُها المقاتلة، فلا يترك في الجند كما لا يترَكُ في الجُنْد من يكون يهوديًا ولا نصرانيًا، ويلزمون بشرائع الإسلام حتى يظهر ما يفعلونه من خير أو شر، من كان من أئمة ضُلَّالِهم وأظهر التوبَة أُخْرِجَ عنهم، وسُيِّر إلى بلاد المسلمين الذين ليس لهم بها ظهور فإما أن يهديه الله تعالى وإما أن يموت على نفاقه من غير مضرة المسلمين. ولا ريب أن جهادَ هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب فإن هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد الإسلام، وينبغي أن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد

من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال مقدم على الربح.

وأيضًا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يَقْدِرُ عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكْتُمَ ما يعرفُه من أخبارهم بل يُفْشيَها ويُظْهِرُها ليَعرفَ المسلمونُ حقيقةَ حالهم، ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند والمستخدمين ولا يحل لأحد أن ينهي عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التحريم: الآية ٩] وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين، والمعاون على كفِّ شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم كما قال الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] قال أبو هريرة[1] رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس؛ تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم في الإسلام. فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله منهم سَعِدَ في الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كُفَّ ضَرَرُه عن غيره.

(١) أبو هريرة: الدوسي، وقد اختلف في اسمه في الجاهلية والإسلام، واسم أبيه على أقوال متعددة، والأشهر أن اسمه عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي اليماني، وهو من الأزد، ثم من دوس ويقال: كان اسمه في الجاهلية عبد شمس، وقيل: عبد نهم، وقيل: عبد غنم، ويكنى بأبي الأسود، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله، وقيل: عبد الرحمٰن، وكناه أبو هريرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال له: «أبا هر». وثبت أنه ﷺ قال له: «يا أبا هريرة». كان أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ بلغت مروياته ٥٣٧٤ حديثًا، قال البخاري: روى عنه نحو من ٨٠٠ رجل أو أكثر من أهل العلم، من الصحابة والتابعين وغيرهم. توفي سنة ٥٩ هـ. (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٨/١٠٩ ـ ١٢١، الكواكب الدرية ١/ ٨٤. الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٠/٢٤٢، كتاب الثقات لابن حبان ٣/ ٢٨٤، كتاب الوفيات ص ٧١، تهذيب الكمال ٢٢/ ٩٠، المعارف لابن قتيبة ٢٧٧، حلية الأولياء ١/ ٣٧٦، النجوم الزاهرية ١/ ١٥١، تاريخ الخميس ٢/ ٢٩٦، صفة الصفوة ١/ ٢٢٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٢٢، تهذيب التهذيب ١٢/ ٢٦٢).

ومعلومٌ أن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أفضل الأعمال، كما قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى»(١) وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله»(٢) وقال ﷺ: «رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطًا مجاهدًا وجرى عليه عمله وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتن»(٣) والجهاد أفضل من الحج والعمرة كما قال تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٩ - ٢٢] والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ذكر ظهور رجل ادّعى أنه محمد بن الحسن المهدي وقتله

وفي سابع عشر ذي الحجة سنة سبع عشرة وسبعمائة ظهر رجل من أرض قرطياؤس من عمل جبلة فادعى أنه محمد بن الحسن المهدي، وقال للناس إنه بينما هو يحرث إذ جاءه طائر أبيض فنقب جنبه وأخرج روحه منه، ونقل إليه روح محمد بن الحسن. وصدقوه فيما ادعاه ودعاهم إلى طاعته فاجتمع عليه طائفة من النصيرية تقدير خمسة آلاف رجل وأمرهم بالسجود له ففعلوا وأحل لهم شرب الخمر وترك الصلاة وأعلن هو وأصحابه بقولهم لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد ورفع راية حمراء وشمعة كبيرة توقد بالنهار يحملها شاب أمرد ادعى أنه

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ٨، وابن ماجة في الفتن باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٥٣٠، والبيهقي في السنن الكبري ٩/ ١٥، ١٥٩، وابن كثير في تفسيره ٢/ ٣٤٢، والطبري في تفسيره ١٦/ ٣٠.

(٣) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٣، ومسلم في الإمارة حديث ١٦٣، والنسائي في الجهاد باب ٣٩، وابن ماجه في الجهاد باب ٧، والدارمي في الجهاد باب ٣١، وأحمد في المسند ١/ ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٥، ٢/ ١٧٧، ٣/ ٤٦٨، ٥/ ٣٣٩، ٤٤٠، ٤٤١.

إبراهيم بن أدهم[(١)] وأنه أجباه وسمي [أخاه المقداد بن الأسود الكندي][(٢)] وأباه سلمان الفارسي[(٣)] وسمي آخر جبريل وكان يقول له، اطلع إليه فقال له كذا وكذا يشير إلى الباريء جلّ وعلا وهو يزعمه علي بن أبي طالب فيخرج ذلك المسمى جبريل عنه، ويغيبُ قليلًا ثم يعود فيقول: رأيتك أنت ثم جمع هذا الدعي أصحابه ودخل بهم مدينة جبلة في يوم الجمعة بعد الصلاة الثاني والعشرين من الشهر، وفرق جماعته ثلاث فرق عليها، فرقة أتت من قبلي البلد مما يلي الشرق فخرج عليهم العسكر المقيم بجبلة فكسرهم وقتل منهم مائة وأربعة وعشرين نفرًا واستشهد من المسلمين نفر يسير، وانهزمت هذه الفرقة الثانية التي أتت من قبلي البلد مما يلي الغرب على جانب البحر والفرقة الثالثة أتت من شرقي البلد لجهة الشمال، وكثروا على أهل البلد وكسروهم وهجموا على البلد ونهبوا الأموال وسبوا الحريم والأولاد وقتلوا جماعة من رؤوس المسلمين بجبلة وأعلنوا بقول لا إلٰه إلا عليّ ولا حجاب إلا محمد ولا باب إلا سلمان وبسب أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما ولَعْنِ هذه الطائفة، وجمَعَ هذا الخارجيّ ما انتهبه أصحابُه من جبلة وقَسَّمه على أصحابه بقرية وجاء الأمير بدر الدين التاجي مقدم العسكر باللاذقية إلى جبلة في آخر هذا اليوم وحماها ومَنَع الخارجيّ من العَوْد إليها، وكان مما قاله الخارجيُّ الدعي لأصحابه إنه لا حاجة لكم إلى القتال بالسيوف ولا السلاح وإن الرجل منهم يشير إلى عَدُوِّه بقضيب ريحان فينقطع هو وفرسه، فاتصل ذلك بالأمير شهاب الدين قرطاي نائب

---

(١) هو إبراهيم بن أدهم، أبو إسحٰق، من كبار الصوفية والزهاد، صحب سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦٢ هـ (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٠/ ١٤٠ ـ ١٥١، طبقات الصوفية ص ٢٧، الرسالة القشيرية ص ٨، نفحات الأنس ١٠٤، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، النجوم الزاهرة ٢/ ٢١، الكواكب الدرية ١٠/ ١٤٢، صفة الصفوة ٢/ ٧٨٧، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٩، كشف المحجوب ١٢٩، مختصر دول الإسلام ١/ ١١٠).

(٢) مقداد بن الأسود: هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود. أبو عمرو، المعروف بابن الأسود، صاحب رسول الله ﷺ، شهد بدرًا والمشاهد كلها، توفي سنة ٣٣ هـ، وهو ابن سبعين سنة. (انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١١٩، كتاب الثقات لابن حبان ٣/ ٣٧١، البداية والنهاية ٧/ ١٦١، تهذيب الكمال ١٨/ ٣٤٩، مجمع الزوائد ٩/ ٣٠٧، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٥٥، الإصابة ترجمة رقم ٨١٨٥، الكواكب الدرية ١/ ١٣٨، حلية الأولياء ١/ ١٧٢، صفة الصفوة ١/ ١٦٧، كتاب الوفيات ص ٥٣).

(٣) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، أصله من قرية بأصبهان، وهو الذي يقال له: سلمان الخير، قال عنه رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»، سكن الكوفة، وتوفي في خلافه علي بن أبي طالب، بالمدائن سنة ٣٦ هـ، بعد الجمل. (كتاب الثقات لابن حبان ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

السلطنة بالمملكة الطرابلسية فجرد إلى هذه الطائفة المارقة من العسكر الطرابُلسيّ الأمير بدر الدين بيْليك العثماني المنصوري والأمر شرف الدين عيسى البرطاسي والأمير علاء الدين علي بن الدربساك التركماني في ألف فارس، والتقوا بقرية من عمل جبلة بالجبل فاقتتلوا ساعة من النهار فانجلَت الحربُ عن قتلِ الدَّعِيّ ونحو ستمائة رجل من أصحابه وتفرّق بقية ذلك الجمع، ثم استأمنوا فأمّنُوا، وعادوا إلى أماكنهم واستمروا على عمل فلاحتهم وطفيت هذه الثائرة وكان بين خروج هذا الدعِيّ وقتله خمسة أيام والله أعلم.

وفي هذه السنة في يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة توفي بدمشق قاضي القضاة جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الربيع سليمان بن سومي الزواوي المالكي(١) وصُلّي عليه بعد صلاة الجمعة ودفن بمقبرة باب الصغير، ومولده في سنة ست وعشرين وستمائة وقدم ثغر الإسكندرية في سنة خمس وأربعين وستمائة قبل احتلامه كما حكى عن نفسه قال: ثم بلغني وفاة أبي في سنة سبع وأربعين فلم أعد إلى المغرب واشتغل بالعلم وولي المناصب بالديار المصرية ثم ولي قضاء دمشق كما تقدم في عاشر جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وستمائة، وحصل له ارتعاش من سنين كثيرة، ثم ثقل لسانه آخر عُمْرِه فَعُزِل عن القضاء كما تقدم ومات عقيب عزله رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان توفي القاضي عماد الدين محمد ابن القاضي صفي الدين محمد بن شرف الدين يعقوب النويري وهو ابن خال والدي رحمهما الله وكانت وفاته بطرابلس، وهو يومئذ صاحب الديوان بها وولي قبل ذلك عدة أنظار منها: المملكة الصَّفَدِية مِرَارًا، ونظر المملكة الحموية، ونظر الكرك، وكان كريمًا شجاعًا خَيِّرًا اشتهر بالمكارم وبذل المال والإحسان إلى وليِّه وعَدُوّه، فكان يستديم مودة صديقه ويستجلب خاطر عدوه ويستزيلُ ما عنده بمكارمه، وكان لا يدخر شيئًا رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي الرئيس الفاضل شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن الصاحب جمال الدين فضل الله بن المجلي القرشي العدوي العمري(٢) نسبه متصل بأمير

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٩، وشذرات الذهب ٦/ ٤٥.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٠، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٧٩، الدليل الشافي ١/ ٤٣٣، البداية والنهاية ١٤/ ٨٥، الدرر الكامنة ٣/ ٤٢، فوات الوفيات ٢/ ٤٢١.

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه متولي ديوان الإنشاء بدمشق وكان قبل ذلك يلي صحابة ديوان الإنشاء بالديار المصرية ثم نقل إلى دمشق وكانت وفاته بها في يوم الثلاثاء الثاني من شهر رمضان، ودفن بقاسيون ومولده في سابع ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بدمشق وكان رجلًا فاضلًا أمينًا على أسرار الدولة حافظًا لها، يكتمها حتى عن أهله وأخصائه لا يتفوه بسر من أسرارها ولا يشير إليه.

وولي ديوان المكاتبات بدمشق بعده القاضي الفاضل شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي، وكان أحد كتاب الدَّرج الشريف بالأبواب السلطانية في ديوان البريد، ووصل إلى دمشق في ثامن عشرين شوال وباشر الوظيفة.

وتوفي في آخر الليلة المسفر صباحها عن يوم الخميس رابع شهر رمضان القاضي الرئيس الفاضل علاء الدين أبو الحسن علي ابن القاضي الرئيس فتح الدين محمد ابن القاضي محيي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السَّعْديّ(١) أحد أعيان كتاب الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية، وأحد من يجلس بين يدي السلطان ويوقع نقله في دار العدل الشريف ويوقع بين يدي نائب السلطنة الشريفة وكانت وفاته بداره بالقاهرة بدرب شمس الدولة، ودفن بعد الظهر بتربتهم بالقرافة بجوار جامع أبيه، وكان رحمه الله تعالى حسن الإنشاء لم يرث ذلك عن كلالة، غزير المروءة، ظاهر الرئاسة أبيّ النفس حسن الأخلاق والصحبة وقد ذكرنا من كلامه في السفر الثامن من كتابنا هذا ما هو مترجم باسمه هناك وذكرت من أوصافه ما استغنى به عن إعادته، ولما مات نتجت قريحتي بأبيات رَثَيْتُه بها، لولا التزامي أن لا أدوِّن شعرًا إليّ لأوردتها، ورثاه القاضي شهاب الدين محمود الحلبي(٢) المذكور آنفًا بقصيدة أولها: [من الرجز]

الله أكــــبــــرُ أيُّ ظِــــلٍّ زالا عــن آمـليـه وأيّ طَـوْدٍ مـالا

جاء منها:

أنعي إلى الناس المكارم والندا والـجـود والإحـسـان والإفـضـالا

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨٣، شذرات الذهب ٦/ ٤٦.

(٢) شهاب الدين محمود الحلبي: هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي الحنبلي، كاتب الدست المعيد بدمشق الشام المعروف بابن فهد، ولد سنة ٦٤٤ هـ، وتوفي سنة ٧٢٥ هـ، من تصانيفه: «أهنى الفاتح وأسنى المدائح» قصائد في مدح النبيّ ﷺ، «حسن التوسل في صناعة الترسل»، «مقامات العشاق»، «منازل الأحباب ومنارة الألباب». (كشف الظنون ٦/ ٤٠٧، وفيات الأعيان ٤/ ٨٢، ٩٦).

أنعي علاء الدين صدْرَ زمانهِ ... خُلقًا وخَلْقًا بارعًا وجلَالَا
ومهذبا ملأ القلوب مهابة ... والسمع فضلًا والألف نوالا

وتوفي الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار(١) في الثالث والعشرين من شهر رمضان وكان هو والقاضي علاء الدين المذكور صديقين، ومرضا في وقت واحد بعلة واحدة وخلف بهاء الدين المذكور تَرِكَةً طائلة استَكْثَرَها السلطان على مثله مع قرب مدته في الوظيفة والإمرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الصدر الرئيس شرف الدين محمد ابن القاضي الرئيس جمال الدين إبراهيم ابن الصدر شرف الدين عبد الرحمٰن ابن أمين الدين سالم ابن الحافظ بهاء الدين أبي المواهب الحسن بن عبد الله بن محفوظ بن صَصْرَى البعلي الدمشقي(٢)، وكان وفاته في يوم الجمعة السابع من ذي الحجة حاجًا مليًا مُحْرمًا بظاهر مَكة، ودفن ضحى يوم السبت يوم التروية بمقبرة الحجون على باب مكة شرفها الله تعالى وكان قد مرض بِبَدر، واستمر مريضًا سبعة أيام، ومات وله خمس وثلاثون سنة وكان رحمه الله تعالى كثير المكارم والإنفاق والبر والعطاء أنفق أموالًا كثيرة وبذل جملة عظيمة في المكارم، وكُنْتُ إذا قدِمْتُ دمشق أستحي من كَثرةِ تَفَضُّله وخدمته، وأتجنب النزول عنده فيحضر إليّ ويحلف عَلَيَّ وينقلني إلى داره، ولا يزال يعاملني بأنواع البر والإكرام والأدب والخدمة حتى انفصل عن دمشق فإذا فارقتها وتوجهت ركب معي وودعني إلى ظاهر البلد حتى يبعد وارده وهو يأبى ذلك حتى أحلف عليه فيرجع وختم الله له بخير كثير بوفاته في هذا المكان الشريف على هذه الحال رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الفاضل الأديب الكاتب شرف الدين محمد أحمد بن يعقوب بن إبراهيم الطيبي الأسدي(٣) أحد كتاب الدرج بطرابلس في السادس والعشرين من شهر رمضان وكان رجلًا فاضلًا أديبًا شاعرًا، وكان في لسانه عجمة، وفي قلمه فصاحة رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤١، الدليل الشافي ١/ ١٠٥، السلوك ٢/ ١: ١٧٩، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٢، الوافي بالوفيات ٨/ ٣٤٦.

(٢) انظر ترجمته في: العقد الثمين ١/ ٣٩٨، البداية والنهاية ١٤/ ٨٦.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٠، الدرر الكامنة ١/ ٣٣٦.

واستهلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة بيوم الأحد الموافق لتاسع برمهات

في هذه السنة في أوائل صفر توجه القاضي كريم الدين ناظر الخواص الشريفة السلطانية ووكيلها إلى الشام، فكان وصوله إلى دمشق في يوم الاثنين سابع الشهر وتلقاه نائب السلطنة وأنزله عنده بدار السعادة، وأَحْضَرَ مِنْ جهته إلى نائب السلطنة هدية جليلة المقدار تساوي جملة عظيمة وأحضر معه كتابًا ببرود ليوقفها على مصالح الجامع الذي عمره نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تنكز وورد مثال السلطان إلى نائبه بقبول هديته بجملتها فقبلها وجهز له تقدمة لها قيمة كثيرة فلم يقبل كريم الدين منها غير إكديش[١] واحد وأعاد بقيتها وأقام بدمشق أربعة أيام وأمر بإنشاء جامع ينفق على عمارته من ماله ـ وهو بالقبيبات ـ فحصل الشروع في عمارته وعاد إلى الديار المصرية، وحدث في غيبته بالأبواب السلطانية حوادث كانت من تقريراته، خرج إلى دمشق قبل إبرازها فنفدت في غيبته، منها: إرسال الصاحب أمين الدين إلى طرابلس، وعزل الأمير بدر الدين محمد بن التركماني عن شاد الدولة، وأعظم من ذلك إخراج الأمير سيد الدين طغاي إلى صفد سنذكر هذه الوقائع مفصلة.

ذكر إرسال الصاحب أمين الدين إلى نظر المملكة الطرابلسية

وفي يوم الاثنين خامس عشر صفر من هذه السنة رسم السلطان بتفويض نظر المملكة الطرابلسية وما هو مضاف إليها إلى الصاحب أمين الدين عبد الله[٢] وكان قد عزل في شهور سنة سبع عشرة عن نظر الدواوين والصحبة ولزم داره إلى هذا التاريخ، فرسم له بهذه الوظيفة فاستعفى فلم يعف ورسم أن يتوجه على خيل البريد وخلع عليه تشريف كنجي[٣] وأنعم عليه بدواة ومرملة[٤] ولم يجر بمثل ذلك عادة

(١) إكديش: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/١٤: الأكاديش هي البراذين والهماليج وكانت تجلب من بلاد الترك وبلاد الروم. دخلت التركية بصيغة (إيكيديش) بالكاف اليائية ومعناها في التركية الفرس الهجين (انظر: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل).

(٢) هو أمين الدين عبد الله بن غنام، انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٣٥٧.

(٣) تشريف كنجي: أي مصنوع في كنجة من أعمال إيران، وهو مصنوع من قماش منسوخ من قطن وحرير (السلوك ١/٢: ٨٤٧).

(٤) المرملة: ما يوضع به الرمل لتجفف به الكتابة.

لناظر هذه المملكة وزيد في معلومها فاستقر له في كل شهر نظير ما كان له في نظر النظار بالديار المصرية، وتوجه في يوم الثلاثاء سادس عشر صفر ووصل إلى دمشق في يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول وتوجه منها إلى طرابلس.

ذكر عزل الأمير بدر الدين محمد بن التركماني عن وظيفة الشاد بالديار المصرية

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من صفر عزل الأمير بدر الدين محمد بن التركماني عن وظيفة شاد الدواوين بالديار المصرية، وذلك بسؤاله وسعيه واستقر في جملة الأمراء على عادته ولم يتعرض إليه بطلب مال ولا غيره واستقر القاضي كريم الدين في النظر وغير ذلك.

ذكر إرسال الأمير سيف الدين طغاي نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية، والقبض عليه ووفاته

كان الأمير سيف الدين طغاي الحسامي الناصري(١) قد تمكن في هذه الدولة الناصرية تمكنًا عظيمًا وعظم شأنه، وترشح للأمير الكبير، وكثرت أتباعه وعظَّمه الأمراء وغيرهم وبلغ من تمكنه أن السلطان أنعم عليه بدار أبيه السلطان الملك المنصور بالقاهرة، وأنعم عليه بغيرها، وميّز أقطاعه، فكان من جملته منية بني خصيب وغيرها ورتب له على الحوائج خاناه والمطبخ في كل يوم ما يصرف عليه نحو ثلاثمائة درهم، إلى غير ذلك، وارتفع بعد ذلك عن هذه الرتبة إلى أن حُكِي أن السلطان في مرضه في شهور سنة سبع عشرة أوصى أن يكون الأمر له من بعده وأن لا يختلف الناسُ عليه، وكان حسن الوساطة عند السلطان، لا يتكلم إلا بخير، ويُحْسن إلى من يَعْرِفه ومن لا يعرفه، فاجتمعت عليه قلوبُ الناسِ ومالوا إليه، وكان قد تكلم عليه جاولجين الخازن في جملة من كلمه كما تقدم فقبض السلطانُ على مَن سواه من الأمراء وأرجأ أمر الأمير سيف الدين هذا، فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة دخل إلى الخدمة السلطانية على عادته، فرسم السلطان له أن يتوجه إلى نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية فلم يمتنع ولا استعفى ولا توقف، بل بادر بتقبيل الأرض بين يدي السلطان ولبس التشريف، وأخرجه السلطان من ساعته، فتوجه وقد ذرفت عيون الأمراء والمماليك السلطانية بالبكاء

(١) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٣٦٤، الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٢.

لخروجه، وتألم السلطان لذلك تألُّمًا شديدًا؛ لما فقده من حُسْن وساطته وجميل اعتنائه، ووصل إلى صفد في يوم الخميس تاسع عشر شهر ربيع الأول، وأُحْضِرَ الأمير سيف الدين بُكْتُمر الحاجب النائب بصفد إلى الأبواب السلطانية، واستمر في جملة الأمراء مقدمي الألوف، ورسم له بالجلوس في مجلس السلطان، وأقام الأمير سيف الدين طغاي بصفد إلى جمادى الأولى فأرسل السلطان إليه الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي الجمالي المعروف بخرز[1] على خيل البريد وأصْحبه تقليدًا له بنيابة السلطنة بالكرَك وتشريفًا وأراد بذلك إخراجه من المملكة الصفدية والقبض عليه، فوصل إلى صفد في ثامن الشهر فعلم المراد منه فلم يمتنع ولا أحْوج إلى إمضاء هذا التدبير، وجاء تحت الطاعة إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد، ولما وصل إلى مدينة بلبيس خرج إليه الأمير سيف الدين قجليس وقيده بأمر السلطان، ونقله إلى قلعة الجبل فكان وصوله إليها في رابع عشر الشهر، فاعتقل بها أيامًا ثم رسم بنقله إلى ثغر الإسكندرية فنقل إليه وكان آخر العهد به، فلما كان في مستهل شعبان أمر السلطان عائلته بعمل عزائه رحمه الله تعالى.

ولما أخرج من صفد نقل الأمير سيف الدين أرقْطَاي الناصري من نيابة السلطنة بحمص إلى نيابة المملكة الصفدية فتوجّه إليها، وولي نيابة السلطنة بحمص الأمير بدر الدين بَكْتُوت القَرَماني، ونقل الأمير عز الدين أيبك الجمالي من نيابة قلعة دمشق إلى نيابة الكرك، واستقر بقلعة دمشق الأمير سيف الدين بَهَادُر الشمسي، وذلك كله في جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم وليَ نِيابة السلطنة بقلعة دمشق الأمير علم الدين سنجر الدميثري وتوجه إلى دمشق على خيل البريد في عشية يوم الاثنين العشرين من ذي الحجة وخلع عليه بُكْرَة الثلاثاء، وجلس بالقلعة على عادة النواب، والله أعلم.

ذكر إنشاء الجامع بقلعة الجبل

وفي صفر من هذه السنة رسم السلطان بتوسعة الجامع بقلعة الجبل، وأمر بهدم بعض مساكن الأمراء التي كانت تلي الحائط القبلي من الجامع الأول فهدمت، وهدم الفراش خاناه، والحوائج خاناه، والمطبخ والطشتخاناه وأضاف ذلك كله إلى الجامع، وحصل الشروع في بنائه في الشهر المذكور، وتكملت رواقاته القبلية في شهر رجب

(١) توفي سنة ٧٣٢ هـ، انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩١.

من السنة، وصلى فيه ورخّم صدره وجلس السلطان بالجامع في شعبان، وعرض سائر المؤذنين بالقاهرة ومصر بين يديه واستنطق كل واحد منهم وسمع صوته، واختار للجامع منهم ثمانية عشر مؤذنًا وثلاثة رؤساء وجعلهم ثلاث نوب ورُتِّبَ فيه أرباب وظائف، ووقف عليه أوقافًا أثابه الله تعالى.

ذكر وثوب الأمير عز الدين حميضة بن أبي نمي[١] بمكة شرفها الله تعالى وإخراج أخيه الأمير أسد الدين رُميثة منها

وفي صفر من هذه السنة وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى أن الأمير عز الدين حُمَيْضَة بن أبي نُميّ بعد عود الحاج من مكة وثَبَ على الأمير أسد الدين رُمَيْثَة[٢] بموافقة العبيد، وأخرجه من مكة، فتوجه رَمَيثة إلى نخلة وهي التي كان حُمَيْضَة بها، واستولى حميضة على مكة شرفها الله تعالى وقيل إنه قطع الخطبة السلطانية، وخطب لملك العراقيين، وهو أبو سعيد بن خَرْبَنْد بن أرْغون بن أبغا بن هولاكو، فلما اتصل ذلك بالسلطان أمر بتجريد جماعة من أقوياء العسكر فجرد الأمير صارم الدين الجرمكي والأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمي وجماعة من الحلقة وأجناد الأمراء من كل أمير مائة فارس ومن كل أمير طبلخاناه جندي وأمرهم بالمسير إلى مكة وأن لا يعود إلى الديار المصرية حتى يظفروا بحميضة فتوجهوا في العشر الأواخر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، ثم جرد السلطان صحبة الركب الأمير بدر الدين محمد بن التركماني إلى مكة في جماعة مددًا لهؤلاء فتوجه وأقام بمكة وقبض على الأمير أسد الدين رميثة وجهزه إلى الأبواب السلطانية، وعاد هؤلاء وكان من أمرهم ما نذكره.

وأقام الأمير بدر الدين بن التركماني بمكة شرفها الله تعالى إلى أن وصل الأمير عظيفة أميرًا على الحجاز الشريف واستقر في الإمرة فعاد وكان وصوله إلى القاهرة في يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رجب سنة تسع عشرة.

ذكر حادثة الريح بالجون من طرابلس

وفي يوم الأربعاء ثاني صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة ثارت ريح شديدة وقت صلاة الظهر بأرض الجون من بلاد طرابلس ومرت على بيوت الأمير علاء

(١) انظر ترجمته في: العقد الثمين ٤/ ٢٣٢. (٢) انظر ترجمته في: العقد الثمين ٤/ ٤٠٣.

الدين علي بن الدربساكي مقدم أمراء التركمان بالجون بين قريتي الوكيل والمعيصرة، وكان خروجها من جهة البحر، فكسرت أخشاب بيوته ثم تقدمت إلى بيوت الأمير علاء الدين طوالي بن أليكي فلما انتهت إليه تكونت عمودًا أغبر متصلًا بالسحاب على صورة تنين وبقي ذلك العمود على بيوته ساعة يمر عليها يمينًا وشمالًا ثم يعود فما ترك ذلك العمود في البيوت شيئًا ولا منها إلا أهلكه واحتمله، فحكي عن طوالي أنه لما عاين ذلك قال: يا رب قد أخذت جميع الرزق، وتركت العيال بغير رزق فأي شيء تركت لهم حتى أطعمهم؟ فعاد ذلك العمود من الريح بعد خروجه عنه إلى بيوته فأهلكه وأهلك زوجته وابنته وابنتي ابنته وجاريته وأحد عشر نفسًا، وجرح ثلاثة أنفس من ملاقاة الأخشاب والحجارة عند هبوب تلك الريح وحملت الريح جملين ورفعتهما في الجو مقدار عشرة أرماح وتقطع القماش والأثاث وحملته الريح حتى غاب عن العين وطويت القدور النحاس والصاجات الحديد فصار بعضها على بعض، وحملت الريح جارية طوالي من مكان إلى مكان آخر مسافة وكان إلى جانب بيوت طوالي بيوت عرب فاحتملت الريح لهم أربعة أجمال وارتفعت في الجو وعادت قطعًا، وهلك دواب كثيرة، ووقع بعد ذلك برد ومطر زنة القطعة من البرد ثلاث أواق ودونها ورسم نائب السلطنة بكشف هذه الحادثة، وندب من جهته من توجه لكشفها فكشفت ونظم بصورة الحال محضرًا وقع الأشهاد فيه على مَنْ شَاهده وجهزت نسخة المحضر إلى الأبواب السلطانية وغيرها.

ذكر هدم الكنيسة بحارة الروم

وفي يوم الاثنين الخامس من شهر ربيع الآخر أمر السلطان بهدم الكنيسة المعروفة بكنيسة بربارة بحارة الروم بالقاهرة، وكان سبب ذلك أن النصارى أنهوا أنه قد استهدم بعضها وسألوا تمكينهم من إعادته واعتنى لهم من اعتنى ممن كان منهم فرسم لهم بذلك فلم يقتصروا على إعادة ما رسم لهم بإعادته بل تحيلوا وتمحلوا وعمروها ظاهرًا بالأسرى والآلات العظيمة والمشدين من جنس المسلمين تجاهر النصارى بذلك ولا يكتمونه ولا يتحاشون من فعله فانتدب المسلمون لذلك ورفعوا قصصًا للسلطان وأنهوا فيها صورة الحال فأمر بهدمها فهدمها العوام في ساعة واحدة وبنوا بصدرها محرابًا وعلقوا فيه قنديلًا وأقاموا شعار الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح وقراءة القرآن، ثم رسم بعد ذلك بمنع المسلمين من الصلاة فيها وسد بابها في بقية الشهر، وجعلت مزبلة ألقى السكان من المسلمين الذين حولها زبائل بيوتهم

فيها، فلما كان في سلخ جمادى الأولى من السنة رسم بإعادة ما هدمه المسلمون فيها بالقصب دون البناء وسد بابها وعطلت.

ذكر الجوامع التي خطب وأقيمت صلاة الجمعة بها بظاهر مدينة دمشق في هذه السنة

وفي هذه السنة خطب بظاهر دمشق في ثلاثة جوامع مستجدة منها الجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام وهو بظاهر دمشق خارج باب النصر في الشارع المسلوك منه إلى القصر الأبلق بالميدان، وقد تقدم ذكر الشروع في عمارته وكملت في هذه السنة وأقيمت الخطبة به في يوم الجمعة العاشر من شعبان وخطب فيه وصلى بالناس الشيخ نجم الدين علي بن داود الحنفي المعروف بالقحفازي[(١)]، وحضر الصلاة فيه نائب السلطنة وسائر القضاة والأعيان وقراء القرآن وأنشدت المدائح في بانيه.

وخطب أيضًا في يوم الجمعة التي تلي هذه الجمعة في سابع عشر شعبان بالجامع الذي أنشأه القاضي كريم الدين[(٢)] وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ عبد الواحد بن يوسف ابن الوزير الحراني ثم الآمدي الحنبلي[(٣)] ثم أجرى إليه الماء من نهر داريا وعمل له قناة من النهر إلى كفر سوسية وكان وصول الماء إلى الجامع في العشر الأول من شوال سنة عشرين وسبعمائة وانتفع أهل تلك الناحية به انتفاعًا كثيرًا وخطب في يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة بالجامع الذي أنشأه شمس الدين عبد الله[(٤)] ناظر النظار بالشام وهو بظاهر دمشق خارج الباب الشرقي بجوار قبر ضرار بن الأزور وخطب فيه الشيخ المقرىء محمد

---

(١) توفي بعد العشرين وسبعمائة (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١١٦، وفيه وفاته سنة ٧٢٥ هـ، وفاة الوفيات ٣/ ٢٣، وفيه وفاته سنة ٧٤٤ هـ، الدليل الشافي ١/ ٤٥٥، شذرات الذهب ٦/ ١٤٣، البداية والنهاية ١٤/ ٢١٤).

(٢) القاضي كريم الدين: هو عبد الكريم بن هبة الله، انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٤١٦.

(٣) توفي سنة ٧٤٣ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٨٩، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٤١٨).

(٤) شمس الدين عبد الله: هو عبد الله بن صنيعة، المعروف بغبريال الأسمري، توفي سنة ٧٣٤ هـ (انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٨ ـ ٩).

المعروف بالنيرباني[١] وكان ابتداء الشروع في عمارة هذا الجامع في شعبان من هذه السنة.

ووقف على كل من هذه الجوامع الثلاثة من الأوقاف ما يعرف ريعها في مصالحه أثاب الله تعالى واقفيها

وفيها في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة عقد السلطان بدار السعادة مجلسًا حضره القضاة والفقهاء وأحضر الفقيه زين الدين عبد الرحمٰن بن عبيدان البعلبكي الحنبلي وأحضر خطه أنه رأى الحق سبحانه وشاهد الملكوت الأعلى ورأى الفردوس ورفع إلى فوق العرش وسمع الخطاب وقيل له: قد وهبتك حال الشيخ عبد القادر[٢] وأن الله تعالى أخذ شيئًا كالرداء فوضعه عليه وأنه سقاه ثلاثة أشربة مختلفة الألوان وأنه قعد بين يدي الله تعالى مع محمد وإبراهيم وموسى وعيسى والخضر عليهم السلام، وقيل له إن هذا مكان لا يجاوزه وليًا قط وقيل له إنك تبقى قطبًا عشرين سنة وذكر أشياء أخر فاعترف أنه خطه فأنكر عليه فبادر وجدد إسلامه وحكم قاضي القضاة الشافعي بحقن دمه وأمر بتعزيره فعزر وطيف به في البلد وحبس أيامًا ثم أفرج عنه، وكان قد أذن له في الفتيا وعقود الأنكحة فمنع من ذلك.

وفي هذه السنة في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي الأمير شمس الدين سنقر الكمالي الحاجب[٣] كان في معتقله بقلعة الجبل، وكان قبل

---

(١) محمد النيرباني: هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن محمد بن يوسف بن أبي العيش، أبو عبد الله الأنصاري النيرباني، توفي سنة ٧٣٤ هـ (البداية والنهاية ١٤/ ١٦٧).

(٢) الشيخ عبد القادر: هو عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيىٰ الزاهدي بن محمد بن داود، محيي الدين، أبو محمد الجيلي، الجيلاني، البغدادي، العارف بالله الصوفي الحنبلي، ولد سنة ٤٧٠ هـ، وتوفي سنة ٥٦١ هـ، من تصانيفه: «تحفة المتقين وسبيل العارفين»، «حزب الرجاء والانتهاء»، «رسالة الغوثية»، «الغنية» في التصوف، «فتوح الغيب»، «الفيوضات الربانية في الأوراد القادرية»، «الكبريت الأحمر في الصلاة على النبي ﷺ»، «مراتب الوجود»، «معراج» لطيف المعاني، «يواقيت الحكم» وغير ذلك. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ٥٩٦، الإعلام للزركلي ٤/ ٤٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٧١، شذرات الذهب ٤/ ١٩٨، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٨، الكواكب الدرية ١/ ٦٧٦، فوات الوفيات ٢/ ٢، معجم المؤلفين ٥/ ٣٠٧، هدية العارفين ١/ ٥٩٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٦).

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٣.

ذلك معتقلًا بالكرك فرسم بإحضاره وإحضار الأمير سيف الدين كراي فأحضرا وما شكا ولا شك الناس في الإفراج عنهما، فاعتقلا بقلعة الجبل ببرج فمات الأمير شمس الدين الآن رحمه الله تعالى وتوفي قاضي القضاة زين الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ رضي الدين القاسم مخلوف بن تاج الدين أبي المعالي ناهض المالكي النويري الجزولي[1]، وكانت وفاته في ليلة الأربعاء الحادي عشر من جمادى الآخرة بمنزله بالقاهرة، ودفن في يوم الأربعاء عند الزوال بتربته بسفح المقطع رحمه الله تعالى ومولده في سنة ست وعشرين وستمائة وكان رحمه الله تعالى كثير المروءة كثير الاحتمال والإحسان إلى الناس يحمل الجفوة من أصحابه ويصبر منهم على كثير من الأذى خصوصًا من أهل بلده وكانت أفعاله جميلة، ومقاصده حسنة وولي القضاء بالديار المصرية في سنة خمس وثمانين وستمائة، وكانت مدة ولايته ثلاثًا وثلاثين سنة تقريبًا، وعرضت عليه الوزارة في الدولة المنصورية فأباها وتنصل منها كل التنصل وبالغ في ردها كل المبالغة وانتهى حاله في التنصل منها إلى أن حضر إلى الدركاه بباب القلعة وقلع طيلسانه وقلع عمامته وفوقانيته، وبقي بقبع ودلق وهو قائم فقام الأمراء لقيامه وصاروا حوله حلقة وهم لا يعرفون موجب فعله لذلك ثم جاء نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي وهو على هذه الصورة فتألم وسأله عن خبره فقال له: أنا إنما وصلت من بلدي بمثل هذا الملبوس الذي عليّ، وأنا اكتسبت بصحبتكم وخدمة السلطان زيادة على ما جئت به هذا الطيلسان وهذه الجبة والعمامة فإن ضمنت لي عند السلطان إعفائي من هذا الأمر الذي طلبني بسببه وإبقائي على ما أنا عليه وإلا فلا أرجع إلى لباس هذا أبدًا وأرجع إلى بلدي بهذه الحالة، فبكي الأمراء وعظموه وألبسه نائب السلطنة قماشة، وضمن له صرف الوزارة عنه واندفعت وأمن بذلك غائلة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي فإنه كان إذا ذكر أحد للوزارة أو ذكرها عمل على هلاكه.

ولما مات قاضي القضاة زين الدين فوض السلطان القضاء بعده لنائبه القاضي تقي الدين محمد ابن الشيخ شمس الدين أبي بكر بن عتيق الإخنائي[2].

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤٩، الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٢، البداية والنهاية ١٤/ ٩٠.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الإخنائي، توفي سنة ٧٣٢ هـ (انظر ترجمته في: الدليل الشافي ٢/ ٥٨٢، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٦٩، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٣٠٩، شذرات الذهب ٦/ ١٠٣، البداية والنهاية ١٤/ ١٦٠، الدرر الكامنة ٤/ ٢٧٠، السلوك ٢/ ٢: ٨١٤ وفيه وفاته سنة ٧٥٠ هـ، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٠، وفيه وفاته سنة ٧٥٠ هـ).

وفيها في عاشر شهر رمضان توفي الأمير علاء الدين أقطوان الساقي[١] الظاهري أحد الأمراء بدمشق بها، وصلى عليه بجامعها ودفن بالقبيبات وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الاثنين سلخ شوال الشيخ العالم كمال الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سجمان البكري الوايلي الشريشي[٢] بمنزلة الحسابين الكرك ومعان وهو متوجه إلى الحجاز الشريف ودفن بالمنزلة ومولده في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة سنجار وكان شيخًا فاضلًا من أعيان الشافعية المدرسين المفتيين وولي المناصب الجليلة الدينية بدمشق من التدريس ووكالة بيت المال ونيابة الحكم، وتعين لقضاء القضاة ولم يل ذلك رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة فخر الدين أبو العباس أحمد ابن القاضي تاج الدين أبي الخير سلامة ابن القاضي زين الدين أبي العباس أحمد بن سلامة الإسكندري المالكي[٣] قاضي المالكية بدمشق، وكانت وفاته بالمدرسة الصارمية في بكرة الأربعاء غرة ذي الحجة وصلى عليه بالجامع الأموي ودفن بمقابر باب الصغير، ومولده في شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين الشمسي[٤] بقلعة دمشق في يوم السبت حادي عشر ذي الحجة ودفن بسطح المزة رحمه الله تعالى.

ذكر الغلاء الكائن بديار بكر والجزيرة وغيرها من بلاد الشرق

وفي هذه السنة وردت الأخبار إلى الشام بما حصل بديار بكر والموصل وإربل وماردين والجزيرة وميافارقين وغيرها من الغلاء العظيم والجلاء وخراب البلاد وبيع الأولاد.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٢.

(٢) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٩١، الدرر الكامنة ١/ ٢٥٢.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤٧، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٨٧، الدرر الكامنة ١/ ١٤٠، البداية والنهاية ١٤/ ٩٢.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٤.

أما ماردين فبلغ ثمن الرطل الخبز بالدمشقي بها من ثلاثة دراهم إلى أربعة دراهم وعُدم غالبًا مع عدم بقية الأقوات، ومات خلق كثير من أهلها وأكل الناس الميتة، ومنهم من باع أولاده.

وأما الجزيرة العُمرية فقيل إنه مات منها من أول هذه السنة إلى سلخ شهر ربيع الآخر خمسة عشر ألفًا بالجوع والوباء وأبيع من الأولاد نحو ثلاثة آلاف صبي، وكان الصبي يباع من خمسين درهمًا إلى عشرة دراهم ويشتريهم التتار وكان المار بها يمر من باب الجبل إلى باب الشط فلا يجد أحدًا إلا أنه يشم روائح الجيف خارجة من البيوت وصارت الكلاب تأكل جيف الناس وتأوي إلى المسجد الجامع، وبطلت الجمعة نحو شهر.

وأما ميافارقين فمات غالب أهلها بحيث إن المار بأسواقها لم يجد غير ستة حوانيت وأما الموصل فكان الغلاء والجلاء وبيع الأولاد فيها أشد من ماردين حتى خلت الدور من أهلها بعد أن باعوا كل عزيز ونفيس وأكلوا الميتة وحكى أن بعض أهلها باع ولده باثني عشر درهمًا وقال هذا الولد أنفقت على ختانه خمسين دينار وكان المشترون يمتنعون من شراء أولاد المسلمين وكانت المرأة والصبية تقول: إنها نصرانية لتشتري.

وأما مدينة إربل فأكل أهلها جميع النبات الموجود ثم أكلوا لحاء الأشجار وقلوبها ثم أكلوا الميتة وجاءهم الموت الذريع ثم شرعوا في الجلاء فنزح منهم جماعة من الحواضر نحو أربعمائة بيت لقصد مدينة مراغة فسقط عليهم ثلج وأصابهم برد شديد فماتوا بأجمعهم وخرجت طائفة أخرى أكثر من الأولى من البلد والسواد والفلاحين صحبة أردوا التتار(١) فوصلوا إلى عقبة فتركهم التتار أسفل العقبة، ومنعوهم من الصعود معهم لعجزهم عن إطعامهم فماتوا بجملتهم ووصل كتاب من البلد إلى الموصل وفيه إنا اعتبرنا جملة من بقي من أهل البلد فكانوا خمسمائة بيت من خمسة عشر ألف بيت المتعينون بمن بقي نحو خمسين بيتًا والباقون ضعفاء وفقراء.

وأما أهل سنجار فكان أمرهم أخف وكذلك أهل العراق خصوصًا بغداد ولم يصل آمرهم إلى بيع الأولاد وأكل الميتة ومما حكي أن رجل دخل ثلاثمائة وستين قرية زرع منها ست قرى وخرب باقيها لانقطاع ماء دجلة عنها والنخل أصابه في سنة

(١) الأردو: لفظ مغولي معناه العسكر، وقد استعمل في المراجع العربية والفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس (مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٦).

سبع عشرة وسبعمائة برد وسقط عليه ثلج أفسد بعضه وأضعف بعضه وانقطع المطر في سنة ثماني عشرة فلم يحصل منه شيء وكان سبب هذا الغلاء أولًا بمدينة سنجار وديار بكر ظهور الجراد في سنة ست عشرة وسبعمائة فأفسد المزروعات.

واستهلت سنة سبع عشرة بغير مطر فاشتد الغلاء وتضاعف فلما هلت سنة ثمان عشرة اشتد الغلاء وعظم البلاد لقلة الأمطار وموت الفلاحين وجلاهم من البلاد لما نالهم من جور التتار وغارات كانت ببلادهم من جهة الشام والأكراد ثم ارتفع الوباء في شهر رجب وشعبان ورمضان وقل الموت لكن الغلاء مستمر بالموصل والعراق وماسنجار وماردين فرخص القوت فيهما ونقلت هذه الحادثة من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي[١] وبعض ألفاظها أوردتها بالمعنى وقال المذكور إنه نقل ذلك من خط عز الدين الحسن بن أحمد بن ذفر الإربلي الصوفي الطبيب[٢] واختصر بعضه ـ نسأل الله العافية من بلائه.

ذكر مقتل الرشيد المتطبب

وفي النصف الثاني من جمادى الأولى من هذه السنة قتل رشيد الدولة أبو الفضل فضل الله بن أبي الخير بن غالي الهمداني الطبيب[٣] وهو الذي كان قد وصل صحبة غازان إلى الشام، وكان يتحدث في دولته حديث الوزراء، ولما مات خربندا عزل الرشيد من وظائفة ومناصبه، وداری عن نفسه بجملة كثيرة من الأموال، ثم نسب إليه سقي الملك خربندا السم فمات وطُلب على البريد إلى المدينة السلطانية، وأحضر بين يدي جوبان نائب الملك أبي سعيد وقيل له: أنت قتلت الملك؟ فقال كيف أفعل ذلك وقد كنت رجلًا يهوديًا عطارًا طبيبًا ضعيفًا بين الناس فصرت في أيامه وأيام أخيه أتصرف في أموال المملكة ولا تتصرف النواب والأمراء في شيء إلا بأمري وحصلت في أيامهما من الأموال والجواهر والأملاك ما لا يحصى فأحضر الطبيب الجلال ابن الحزان طبيب خربندا وسئل عن موت خربندا وقيل له: أنت قتلته فقال إن الملك أصابته هيضة قوية فانسهل بسببها نحو ثلاثمائة مجلس وتقايأ قيئًا كثيرًا، فطلبني وعرض عليّ هذا الحال فاجتمع الأطباء بحضور الرشيد على إعطائه أدوية قابضة

---

(١) علم الدين البرزالي: تقدمت ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في: تاريخ دول الإسلام ٢/ ١٧١، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٨٩، شذرات الذهب ٦/ ٤٤، الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٢، البداية والنهاية ١٤/ ٨٧.

(٣) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٨٨، الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٢.

مخشنة للمعدة والأمعاء فقال الرشيد عنده امتلاء وهو يحتاج إلى الاستفراغ بعد فسقيناه برأيه دواء مسهلًا، فانسهل بسببه نحو سبعين مجلسًا ومات وصدَّقه الرشيد على ذلك فقال جوبان فأنت يا رشيد قتلته، وأمر بقتله فقتل واستأصلوا جميع أملاكه وأمواله، وقتلوا قبله ولده إبراهيم من أبناء ست عشرة سنة، وحمل رأس الرشيد إلى تبريز ونودي عليه: هذا رأس اليهودي الذي بدل كلام الله، لعنه الله، وقطعت أعضاؤه وحمل كل عضو إلى بلد وأحرقت جثته وقام في ذلك الوزير تاج الدين علي شاه التبريزي، وقتل الرشيد وهو من أبناء الثمانين، وخلف عدة أولاد، وكان يتستر بالإسلام فيما قيل عنه.

وفيها في التاسع عشر أو العشرين من شهر رمضان قتل الحاجي الدلقندي قتله جوبان نائب الملك أبي سعيد وسبب ذلك أنه بلغه أنه اتفق هو وجماعة من الأمراء على قتله وقتل الوزير علي شاه فبادر بقتله ودلقند قوية من عمل منسوب إلى مدينة سمنان من مدن خراسان نقلته وما قبله من تاريخ البرزالي.

واستهلت سنة تسع عشرة وسبعمائة بيوم الجمعة

وفي أول ليلة من المحرم هبت ريح شديدة بمدينة دمشق رمت كثيرًا من الستائر[١] والطبلات[٢] وسقط بسببها جدران كثيرة، وهلك تحت الردم جماعة واقتلعت أشجار كثيرة من أصولها وقصفت أغصانًا وامتنع كثير من الناس من النوم بسببها واجتمع خلق كثير بالجامع يتضرعون إلى الله تعالى في سكونها فسكنت، ثم ثارت في ليلة الثلاثاء المسفرة عن تاسع عشر الشهر، وهو أول الاعتدال الربيعي ولم يبلغ مبلغ الأول.

وفي يوم الخميس السابع من المحرم وصل الأمير شمس الدين آق سنقر الناصري أحد الأمراء من الحجاز الشريف إلى قلعة الجبل بعد أن وقف بعرفة مع الحاج في سنة ثمان عشرة وسبعمائة وصحب الركب إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وصلى بها الجمعة وركب لست بقين من ذي الحجة سنة ثمان عشرة وردت الأخبار معه أنه قبض على الأمير أسد الدين رميثة أمير الحجاز الشريف

---

(١) الستائر: هي من آلات الحصار (كما سماها القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، وهي آلات الوقاية من الطوارق وما في معناها مما يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك.

(٢) الطبلات: كذا بالأصل، ولعلها الطبول.

وعلى الأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمي أحد الأمراء وهو الذي كان قد جرّد بسبب الأمير عز الدين حميضة والذي ظهر لنا في سبب القبض عليهما أن رميثة نسب إلى مباطنة أخيه حميضة وأن الذي يفعله بحميضة هو القبض عليه ولكنه ركب إليه وتقاربا من بعضهما بعضًا، وباتا على ذلك ولم يقدم الإبراهيمي على مهاجمته والقبض عليه فاقتضى ذلك سجنه، واتصل بالسلطان أيضًا أن الإبراهيمي ارتكب فواحش عظيمة بمكة شرفها الله تعالى، فرسم بالقبض عليهما ووصل الأمير أسد الدين رميثة ورسم عليه بالأبواب السلطانية أيامًا، ثم حصلت الشفاعة فيه فرفع عنه الترسيم وأقام يتردد إلى الخدمة السلطانية مع الأمراء إلى أثناء شهر ربيع الآخر من السنة فحضر إلى الخدمة في يوم الاثنين رابع عشر ثم ركب في عشية النهار على هجن أعدت له وهرب نحو الحجاز فعلم السلطان بذلك في يوم الثلاثاء فجرد خلفه جماعة من الأمراء وهم: الأمير سيف الدين أقبغا آص والأمير سيف الدين قطلوبغا المعزي والأمير ناصر الدين الجرمكي وجماعة من عربان العايد فتوجهوا خلفه وتقدم الأميران المبدأ بذكرها ومن معهما من العربان فوصلوا إلى منزلة حقلي وهي بقرب أيلة مما يلي الحجاز فأدركوه بالمنزلة فقبضوا عليه وأعادوه إلى الباب السلطاني، فكان وصوله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر فرسم السلطان باعتقاله في الجب فاعتقل واستمر في الاعتقال إلى يوم الخميس الثامن من صفر سنة عشرين وسبعمائة فرسم بالإفراج عنه وخلع عليه.

وفي العاشر من صفر نودي بدمشق بالصلاة للاستسقاء وقرىء صحيح البخاري بجامع دمشق تحت النسر في سبعة أيام واستسقى الخطيب على المنبر في أيام الجمع مرار ثم برز الناس كافة نائب السلطان والقضاة وغيرهم مشاة إلى ظاهر البلد عند مسجد القدم في يوم السبت نصف صفر وهو سابع نيسان، وصلى بهم الخطيب صدر الدين سليمان الجعبري، وخطب واستسقى وعاد الناس، وأمطروا بفضل الله تعالى ورحمته في بكرة يوم الأحد ويوم الاثنين حتى خرب المذاريب، ووصلت الأخبار بنزول الغيث على البلاد البرانية، وفي آخر صفر فوضت نيابة السلطنة بحمص للأمير سيف الدين بلبان البدري عوضًا عن الأمير بدر الدين بكتوت، فتوجه إليها، ووصل القرماني إلى دمشق في رابع شهر ربيع الأول، واستقر على عادته في جملة الأمراء المقدمين.

وفي هذه السنة فوض السلطان قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام مالك بن أنس للقاضي شرف الدين محمد ابن القاضي معين الدين أبي بكر ابن القاضي سديد

الدين مظفر الهمداني المالكي الفيومي(١) وكان ينوب عن قاضي القضاة تقي الدين بن الإخنائي المالكي بالجامع الصالحي خارج باب زويلة، فنقل إلى دمشق، وتوجه إليها وكان وصوله يوم الثلاثاء خامس جمادى الآخرة، وكان المعتني به والقائم في حقه القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة، وكان قد عين للقضاء بدمشق الشيخ فخر الدين أبو عمر ابن الشيخ القدوة العابد علم الدين يوسف النويري المالكي وأثنى عليه جماعة من الأمراء والأكابر في مجلس السلطان منهم الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا(٢) واستقرار من أمره في الولاية ورسم السلطان بذلك وحضر الأكابر إليه وهنؤوه بالولاية فنهض القاضي فخر الدين في ولاية القاضي شرف الدين المذكور وبالغ في أمره أتم المبالغة وجوَّد الاعتناء حتى ولي ورسم السلطان بتعويض الشيخ فخر الدين عن القضاء بما يليق به فولي إعادة المدرسة الناصرية، ونيابة الحكم بالجامع الصالحي نقل إليه من نيابة الحكم بالجامع الطولوني فولي ثم عزل نفسه، واقتصر على حضور الدروس ومشيخة الخانقاه الفخرية بمصر وتعاهد الحج نفع الله به.

وفي هذه السنة عاد الأمير سليمان ابن الأمير حسام الدين منها من بلاد العراق وكان قد التحق بالتتار فعاد الآن ووصل إلى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وتلقاه نائب السلطنة وحضر إلى الأبواب السلطانية وأحضر عدة من الخيل الجياد، ومثل بين يدي السلطان وسأل الصفح عن ذنبه وتنصل وأظهر التوبة والندم على ما صدر منه، فشمله العفو السلطاني والصفح وأنعم عليه بالأموال الجزيلة والتشاريف وأنعم عليه من الأموال بدمشق بمائتي ألف درهم وخمسين ألف درهم وزاده السلطان على إقطاعه الذي كان بيده وعاد إلى دمشق في شهر رجب.

ذكر الخُلْف الواقع بين جوبان نائب سلطنة أبي سعيد بن خدبندا ملك التتار وبين الأمراء مقدمي التوأمين(٣) وقتالهم وانتصار جوبان عليهم وقتلهم

وفي هذه السنة تواترت الأخبار بوقوع الخلف بين مقدمي التتار والحرب بينهم وقد نقل الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه أن الشيخ محمد بن أبي بكر القطان

(١) توفي سنة ٧٤٨ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٢، الدرر الكامنة ٣/ ٤٤، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠).

(٢) توفي سنة ٧٤٦ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٣، الدرر الكامنة ١/ ٥٣٩).

(٣) مقدمو التوامين: هم أمراء التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، أي أمير عشرة آلاف (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

الإربلي ورد إلى دمشق وأخبره تفصيل ذلك على جليته قال: كان سبب هذه الحرب أن الملك أبا سعيد بن خربندا حصل له الحصار من نائبه جوبان وأنه استقل بتنفيذ الأمور دونه ولم يبق له في المملكة إلا مجرد التسمية، وأبعد أقوامًا كانوا مقربين من الملك أبي سعيد وقتل الأمير ربنوا وهو الذي تولى ترتيب الملك لأبي سعيد فذكر الملك ما حصل له من القلق للأمير إيرنجي خال أبيه خربندا، والأمير قرمشي ابن التياج، والأمير دقماق وهم من مقدمي التمانات فقالوا للملك: إن أردت أن نخرج عليه ونكبسه ونقتله فعلنا وإن أحببت أن ننابذه الحرب فعلنا ما أردت؛ فوقع الاتفاق على أنهم يفعلون به كيف ما تهيأ لهم فاتفق الحال من الأمراء الثلاثة ومن وافقهم الأمير أَرُسْ أخو دُقْمَاق، ومحمد هرزه ويوسف بكا وبهاء الدين يعقوبا وهم من أعيان الأمراء على أن يعملوا لجوبان دعوة ويقبضوا عليه فيها، فسأله قُرمُشي أن يعمل له دعوة في نواحي عمله بالقرب من بلاد كرجستان وأرسل إليه تقادمَ وهدايا كثيرة، فقبلها جُوبان وأجاب إلى حضور الدعوة فعمل قُرْمُشِي الدعوة في مكان يسمى سرماري من نواحي كرجستان، وهي منزلة قرمشي ومَنْ انضاف إليه، وتهيأ جُوبان لحضور الدعوة، فبينما هو على ذلك إذ جاءه رجل أقطي من جماعة قرمشي في خفية وأخبره بما انطوى عليه الجماعة خفية وأخبره بما انطوى عليه الجماعة وأشار عليه بمفارقة مخيمه وقال له: الآن يكْبِسُوك. فرجع جُوبان إليه واحتاط لنفسه، وركب لوقته وترك مخيمه وخزائنه وخيوله بحالها، ولم يُخْبِر أحدًا من أصحابه، ولم يستصحب غير ولده حسن، وأقبل قُرْمشي في عشرة آلاف فارس من التتار والكُرْج والفُرْس، فسأل عن جوبان فقيل له، هو جالس في مخيمه ينتظر حضور الدعوة فقصده وهجم على مُخَيَّمِه وشهر السيف وثار أصحاب جُوبَان وهم لا يدرون ما الخبر، وقاتلوا قتالًا شديدًا، قتل من الفريقين نحو ثلاثمائة فارس، وخلص قُرمشي إلى خَيْمةِ جُوبَان فلم يجد غير إنسان اسمه أخي أبو بكر فسأله عن جُوبَان فقال: هرب ولم يعرفنا فضرب قرمشي عنق أخي أبو بكر، ونهب مخيم جُوبَان، وأمواله وخيوله وغير ذلك، وذلك في جمادى الأولى وساق خلف جُوبَان فلم يدركه.

وأما جوبان فإنه استمر به السير إلى مدينة مرند فوصل إليها وليس معه غير نفرين من أصحابه، فتلقاه الأمير ناصر الدين ملكها وأمده بالخيل والمال والسلاح، ووصل معه إلى قرية بالقرب من تبريز تسمى دية صوفيان، ووصل خبرُه إلى تَبرِيز فخرج إليه الوزير تاج الدين علي شاة التبريزي - وزير الملك أبي سعيد - ومعه ألف

فارس فأنزله وأكرمه، وأخرج إلى لقائه أهل تبريز بالفرح بمقدمه، ونُصِبَتْ له القبابُ، وأمدوه بالخيول والسلاح، فبات بتبريز ليلة واحدة، وتوجّه إلى المدينة السلطانية، وصحبته الوزير علي شاه وتقدم الوزير واجتمع بالملك أبي سعيد وتلطّف في أمر جُوبَان وأحسن الثناء عليه، وذكر شفقته على الدولة واهتمامه بأمرها وحرمته وغض ممن نازعه، وخرج عليه، وقال: إن هؤلاء يحسدونه ويقصدون أن يتغير خاطر الملك عليه، فإذا قتله تمكنوا من الدولة وفعلوا ما أرادوا، وبلغوا أغراضهم الفاسدة قال: وقد بلغني عن الأمير إيرنجي أنه يقول إن ابنه عليًا أحق بالملك، لأنه من العظم الثاني، وأغراه به غاية الإغراء فمال إلى قوله ورضي عن جُوبان، وأذن له في الدخول عليه فدخل ومعه كفنه وبكى بين يدي الملك بكاءً شديدًا أو قال قتلت رجالي وأعواني الذين انتخبتهم لخدمة القان ونهبت أموالي التي جمعتها من نعمه، وانكسرت حرمتي التي أقامها فإن كان القان يقصد قتلي فها أنا بين يديه، وأنا من جملة مماليكه. فتبرأ أبو سعيد من ذلك وقال: لم أقصد بك سوءًا قط وهَؤلاء أعداؤك وقد حسدوك على قربك مني وخرجوا علي وعليك وقد مكنتك منهم، فإنهم ارتكبوا هذا الأمر بغير أمري. فاستأذنه في حربهم فأذن له فسأله، أن يمده بالجيش، فأمده بعشرة آلاف فارس يَقْدُمهم الأمير طاز بن كَتْبُغَانُوَيْنَ، الذي قُتِلَ بعَيْنَ جَالُوت، وركب قَراسُنْقَر المنصوري في ثلاثمائة فارس بالسلاح التام على عادة العساكر المصرية، وجاء ابنه تمرتاش من جهة ثغر الروم بطائفة كثيرة من الجيوش وركبوا وركب الملك أبو سعيد أيضًا في خاصته وساق معهم ليتحقق جُوبان أنه معه لا معهم.

وأما قرمشي وإيرنجي ودقماق فإنهم ساقوا خلف جُوبان إلى أن وصلوا إلى بتبريز، فغلقت أبوابها دونهم، وخيف منهم القتل والنهب وخرج إليهم نائبها وهو الحاجي قطق بمأكول ومشروب وعلوفات فعلقوه برجليه وأخذوا منه سبعين ألف دينار - الصرف عن كل دينار ستة دراهم - كَوْنَ أهل البلد تلقوا جُوبَان وخدموه وأغلقوا الأبواب دونهم، ثم ساقوا من يومهم حتى وصلوا إلى مدينة من أعمال أذربيجان اسمها ميانه، ثم ساقوا منها إلى مدينة زنكان[1] ومنها إلى ضيعة اسمها دية منارة فتوافوهم وجُوبَان في هذا المكان فلما شاهد الأمير إيرنجي الملك أبا سعيد وأعلامه تحيّر في أمره واستشار من معه فيما يفعل فقال له قُرمشي لا بُدّ من الحرب

(١) زنكان: هي زنجان من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها.

فإن الملك في الباطن معنا، فتصاف الجيشان، وخاف إيرنجي أنْ يَبْدَأ الملك بالحرب، وكذلك مَن معه إلا قُرمُشِي فإنه سيّر إلى جُوبَان يقول له اجعل لي إشارة أقصدها وأحضر إلى خدمتك وطاعتك، فرفع له جُوبَان علمًا ولم يقف تحته بل تحيّز إلى جهة أخْرى، فحمل قُرْمُشي على ذلك المكان بمن معه حَمْلَةً مُنْكَرَة، ظنًا أن جُوَان ثم فلم يجده فالْتَحم القتال، وقاتل الأمير طاز وقراسنقر المنصوري قتالًا شديدًا، فانهزم إيرنجي ومن معه وانضم أكثرهم إلى عسكر الملك جُوبان وقبض على إيرنجي وقرمشي ودقماق وأخيه وغيرهم. وحملوا إلى المدينة السلطانية وعمل لهم يزغو ومعناه عقد مجلس، وسئلوا عن سبب تعديهم وخروجهم وارتكابهم لهذا الأمر العظيم، فقالوا بأجمعهم إنما فعلناه عن أمر الملك وإذنه وقال قرمشي لجوبان: أنا جاءني يوسف بكا، ومحمد هرزه برسالة الملك أبي سعيد في حَرْبِك وقَتْلك، فأحضرهما جوبان وسألهما عن ذلك فاعترفا به فأنكر الملك ذلك وقال كذبا علي فافعل معهما ما يجب عليهما من حد الكذب والافتراء علي. فحكم على جميعهم بالقتل بمقتضى ياسا جنكيزخان(١)، فعند ذلك أخرج إيرنجي من خريطته ورقة وقال للملك أبي سعيد هذا خَطُّكَ مَعِي بقَتْل جُوبَان. وشتم الملك واجترأ عليه، لأنه خال والده، فأنكر الملك ذلك وقال لجوبان أعمل معهم بمقتضى الياسا؛ فإن هؤلاء خرجوا عليَّ وعليكَ وقصدوا إفساد الحال. فتسلمهم جُوبان وقتلهم، وبدأ بإيرنْجِي وقال: هذا ينبغي أن يعذب قبل قتله. فقيدوه من أضلاعه بقناطير الحديد فبسط لسانه بالسب الفاحش للملك، فأرادوا قطع لسانه فعجزوا عن ذلك، فضربوه بسيخ حديد تحت حنكه خرج من دماغه فمات وبقي مقيدًا يومين ثم قطعوا رأسه وطافوا به بلاد خراسان وأذربيجان، والعراقين والروم، وديار بكر وقتلوا قرمشي ودقماق نقلت ذلك ملخصًا، وبعضه بالمعنى من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي.

---

(١) ياسا جنكيزخان: ياسا: كلمة مغولية تعني: السياسة. وياسا جنكيزخان: هي قوانين خمنها جنكيزخان من عقله وقرّرها من ذهنه، ورتب فيها أحكامًا وحدّد فيها حدودًا. بما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك، سماها الياسة الكبرى، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزانته تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته. منها أن من زنى قتل، ومن أعان أحد الخصمين على الآخر قتل، ومن بال في الماء قتل، ومن أعطي بضاعة فخسر ثم أعطي ثانيًا فخسر ثم أعطي ثالثًا فخسر قتل، ومن وقع حمله أو قوسه فمرّ عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل، ومن وجد أسيرًا أو هاربًا أو عبدًا ولم يردّ، قتل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنهم قتل، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها (صبح الأعشى ٤/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

وقال في تاريخه ثم ورد علاء الدين علي بن التخت التاجر السَّفار من المدينة السلطانية، وأخبرني بنحو الذي تقدم، وقال: كنت بالمدينة المذكورة وجوبان قد تتبع الأمراء الذين خرجوا عليه فقبض منهم من أول جمادى الآخرة إلى آخر شوال نحو ستة وثلاثين أميرًا فقتلهم، وأخذ أموالهم، وصادر عمالهم وتجارهم، وحَصَّل من الأموال أضعاف ما عُدِمَ له قال: وبقي إيرنجي ثلاثة أيام مقيدًا ميتًا وقتل معه في يومه دقماق وأخوه أرس والأمير بكتوت.

قال: وفي اليوم الثاني قتلوا يوسف بكا وأخاه الأمير نوماي، وفي اليوم الثالث قتل لدقماق ابنان عمر كل واحد منهما سبع سنين وفي اليوم الرابع قتلوا ابنًا لإيرنجي اسمه وفادار من أبناء خمس عشرة سنة وقتل له ابن في الوقعة اسمه الأمير علي وقطعوا رأسه وألقوه إلى أمه كيخشك ابنة السلطان أحمد بن أبغا وكانت حاضرة المصاف، فحملت على أبي سعيد فصرعت وماتت تحت أرجل الخيل قال: وفي اليوم السابع أحضروا قرمشي بن النياج فحلقوا ذقنه وألبسوه طرطورًا وسمروه، وطافوا به المدينة السلطانية، ثم أحضروه بين يدي جوبان وقتل بالنشاب إلى أن مات، ثم أحضروا أخاه من ثغر خراسان، وقتل حال وصوله قال: وأحضروا بنت إيرنجي واسمها قطلو شاه خاتون وكانت إحدى زوجات الملك خَرْبَنْدَا فقال أبو سعيد: هذه سقت أبي السَمّ فقصد قتلها فشفع فيها الوزير، علي شاه وزوجها في الحال بخواجا دمشق أحد أولاد جُوبَان.

قال: وأما امرأة دُقْماق فتزوجت بالأمير طاز بن كتبغانوين، وولي وظيفة قرمشي على ثغر خراسان، وسكنت الفتنة وأحرق جميع من قتل بالنار ولم يدفنوا.

وفي هذه السنة في الساعة الثانية من يوم السبت الخامس من شهر رمضان الموافق للعشرين من تشرين الأول والثالث عشر من بابه جاء سيل ظاهر مدينة دمشق وارتفع على وَجْه الأرض مقدار قامة وكان جريانه من جبل عربا وآيل السوق ووادي هريرة والحسينية وأمطرت هذه الأماكن مطرًا عظيمًا وسال منه هذا السيل وحمل ما كان أمامه من الحجارة حتى سد عين الفيحة وانقطع جريان الماء منها يومين وليلتين، ثم خرجت على عادتها ومر إلى البحيرة.

وفي عاشر شهر رمضان أمر نائب السلطنة بدمشق بهدم العمائر التي على جسر باب الحديد إلى باب الفراديس فهدم منها إلى حد باب الفرج، ثم أقر ما بقي على حاله.

وفي التاسع والعشرين من شهر رمضان جمع القضاة والفقهاء بدار السعادة في مجلس نائب السلطنة، وقرىء عليهم مثال سلطاني يتضمن الإنكار على الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية بمسألة الطلاق(١) وكان أيضًا قد تقدم المرسوم قبل ذلك بمنعه من الفتيا بها، فامتنع ثم أفتى بها فحصل الإنكار عليه الآن وتأكد المنع وصنف في هذه المسألة كلامًا كثيرًا ليس هذا موضع إيراده.

ذكر توجه السلطان إلى الحجاز الشريف وهي الحجة الثانية

وفي هذه السنة أمر السلطان بتجهيز ما يحتاج إليه إلى الحجاز الشريف وأظهر لذلك احتفالًا عظيمًا قبل الخروج إلى الحجاز بستة أشهر وحمل من الإقامات والحوائج خاناه والشعير بالمنازل شيئًا كثيرًا، وتوجّه في صحبته جماعة من الأعيان الأمراء والملك عماد الدين صاحب حماه وعدة من أصحاب الوظائف ورسم بجميع من توجه في خدمته أن تكون كُلفهم وما يحتاجون إليه من المآكل والعليق على البيوت السلطانية والإسطبلات فكان يحتاج في كل ليلة من العليق خاصة ألف إردب شعير وقيل ألف إردب ومائة إردب. وجهز معه في هذه السفرة ما لم يسافر به مَلِكٌ قبله ـ فيما بلغنا ـ فكان مما حمل معه على الظهر ثلاثة عشر حمْلًا من المحاير(٢) المحكمة المقيَّرَة، وجعل فيها الطين الإبليز وزرع فيه الرياحين والخضراوات وهو بنفسج حمْلَان هُنْدُبًا ثلاثة أحمال، فِجْل حِمْل واحد أسفا ناخ، حمل واحد كُسْفَرة خضراء حمْلٌ واحد طرخون: حمل نعناعَ: حمَل ـ سلق: حمل ـ حوائج بقل: حمل ـ شمار: حمل ـ وعمَل له مطبخ يطبخ عليه وهو محمول على الظهر، وكان يطبخ فيه والجمل سائر فلا يصل إلى المنزلة إلّا وقد تهيأ الطعام، وحمل له من ماء النيل ماء، شربه مدة سَفَرِه ومقامه وعوده هو وجماعة ممن معه، وحملت الخراف المسمنة المعلوفة في المحاير على الجمال وهي تُعلف وتسقى في طول الطريق في ذهابه ومقامه وعوده، وضحى منها بمنى، ولما عزم على الرحيل أمر نائبه الأمير سيف الدين أرغون بالمقام بقلعة الجبل ورسم لمن تأخر من الأمراء أن يتوجهوا إلى نواحي

---

(١) مسألة الطلاق: رأي الإمام ابن تيمية أن طلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به إلا طلقة واحدة رجعية، ورأى ألا يقع الطلاق بالحلف به بدل الحلف بالله، ولكن الحالف إذا حنث في يمينه فعليه كفارة اليمين المعروفة في القرآن الكريم. وهذه المسألة تفرد بها ابن تيمية في عصره بالقول بها. فأثارت ضجة وجدلًا واستنكارًا كبيرًا من معاصريه من أئمة المذاهب.

(٢) المحاير: جمع محارة، وهي شبه الهودج، أي أشبه بصندقين يشدان على جانبي الرحل (القاموس المحيط مادة «محر»).

أقطاعهم فيكون كل منهم ببلاد أقطاعه إلى حين عوده، ولا يجتمع أمير بأمير في غيبته، وكتب إلى النواب بالشام أن يستقر كل نائب بمقر مملكته ولا يتوجه إلى صيد إلى حين عوده، فامتثلت أوامره.

وكان ركوبه من قلعة الجبل في يوم السبت مستهل ذي القعدة، وأقام بظاهر القاهرة ما بين قلعة الجب ومنزلة العش إلى يوم الخميس السادس من الشهر، واستقل ركابه في هذا النهار إلى الحجاز الشريف في أمن الله ورعايته ثم توجه بعد ركاب السلطان الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة فكان توجهه من القاهرة في يوم الاثنين سابع عشر ذي القعدة وأدرك الحج ووصل والسلطان بمكة شرفها الله تعالى، وتصدق السلطان بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ بصدقات مبرورة وصلات موفورة وإنعام دان فأغنى بذلك الفقير وسد حاجة ذوي الحاجات وأحسن إلى أهل مكة إحسانًا عامًا شمل غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم.

واتفق في هذه السنة وصول ركب من العراق وفيه جماعة من التتار صحبه ثلاثة من أكابر مقدميهم فلما علموا بوصول ركاب السلطان أخفوا أنفسهم خشية أن يقبض عليهم فاطلع السلطان على ذلك فأمر بإحضارهم فحضروا بين يديه فأحسن إليهم وأنعم عليهم، وشملهم بالخلع السنية بالكلاوت الزركش ومكنهم من العود إلى بلادهم.

ولما قضى السلطان مناسك حجه ولم يبق إلا عوده تسحب ثلاثة من مماليك الأمراء الخاصكية مملوكان من مماليك الأمير سيف الدين طقز دمر مملوكًا من مماليك الأمير سيف الدين بَكْتَمر الساقي، والتحقوا بالأمير عز الدين حميضة فظن السلطان أنهم انضموا إلى التتار فسار إلى مقدميهم وأمرهم بالكشف عنهم فقام المشار إليه من مقدميهم الثلاثة وأحضر منْ معه، فلم يجدهم معهم، وأقسموا على ذلك، ثم تحقق السلطان وهو بالمدينة النبوية أنهم التحقوا بحميضة وكان من خبرهم ما نذكره.

ولما عاد السلطان من الحجاز الشريف تبعه جماعة من المشاة، فكان السلطان يسوق في آخر الناس فإذا مرّ في طريقه بمن انقطع منهم وعجز عن المشي يقف عنده ويحدثه ولا يفارق مكانه إلى أن يستصحبه معه، فإذا علم ذلك الرجل أنه السلطان انبعثت نفسه ونهض ومن عجز منهم عن المشي أمر بحمله ففعل ذلك حتى حمل على جميع ما معه من الظهر الذي يمكن الحمل عليه ثم مرّ بعد ذلك بمن عجز عن المشي

فتحدث معه على عادته وأمره بالقيام فقال: لا أقدر على ذلك فقيل له إن السلطان يحدثك، فقال: قد علمت أنه السلطان ولكن علي والله لا أستطيع المشي فأمر بحمله، فقيل له: إن الظهر قد حمل عليه، فأمر بطرح ما في المحاير من الطين والخضراوات والبقولات وغيرها، وأن يُحْمَل على جمالها من عجز عن المشي، فامتثل أمره ورفق بالناس غاية الرفق واتصل به أن كريم الدين وكيله قد ضيق على بعض من معه في العطاء والرواتب، فنقم عليه وضربه وهمّ بقتله مع تمكنه من دولته ثم استعطف عليه فسكن غضبه ووصل إلى السلطان هدايا النواب وتقادمهم والإقامات الوافرة والفواكه من حين خرج من مكة شرفها الله تعالى.

ولما وصل السلطان إلى وادي بنس سالم في عَوْدِه وهو من المدينة على ثلاث مراحل جهز الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير سيف الدين أرغون، والأمير سيف الدين قطلوبغا المُعزِّي بالبشارة بمقدمه، فوصلا إلى القاهرة في يوم الثلاثاء مستهل المحرم، وعلى أيديهما كتب البشائر فضربت البشائر وزينت المدينتان أحسن زينة وبات الناس في حوانيتهم ليالي واستبشروا بسلامته.

وكانت غيبة السلطان الملك ناصر الدين محمد عن القاهرة في ذهابه وحجه وعوده ثلاثة وأربعين يومًا.

ثم وصل السلطان إلى قلعة الجبل في بكرة نهار السبت الثاني عشر من المحرم ستة عشرين وسبعمائة، ولما مر بعقبة أيلة وشاهد ضيقها وصعوبة مسلكها أمر بترتيب جماعة من الحجارين لإصلاح طريقها، وقطع ما بها من الصخور المانعة من السلوك المضيقة على الناس فسطرت هذه المثوبة العظمى في صحائف حسناته.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة توفي الأمير سيف الدين كراي المنصوري(١) بمعتقله بالبرج بقلعة الجبل في يوم السبت سادس عشر المحرم رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أغزلوا العادلي(٢) أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بدمشق، في يوم الخميس سلخ جمادى الأولى بداره بظاهر دمشق ودفن بتربته بقاسيون، وكان أميرًا شجاعًا مقدامًا، شهد الحروب وأبلى فيها بلاء حسنًا، وقد تقدم ذكر نيابة دمشق في الأيام العادلية الدينية رحمه الله تعالى وتوفي الصدر بدر الدين

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٥، الدرر الكامنة ٣/ ٣٥١.

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٢، البداية والنهاية ١٤/ ٩٤، الدليل الشافي ١/ ١٣٥، الدرر الكامنة ١/ ٤١٧، الوافي بالوفيات ٩/ ٢٩٤، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٩٩.

محمد بن الصدر ناصر الدين منصور بن إبراهيم بن منصور بن الجوهري الحلبي[١] وكانت وفاته بدمشق بالعادلية يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون، ومولده بحلب في ثالث عشر صفر سنة اثنتين وخمسين وستمائة سمع الحديث النبوي وأسمعه، وكان يعد من الرؤساء بالقاهرة، وتمكن في سلطنة الملك العادل كتبغا تمكنًا عظيمًا وعرض عليه وزارته فأباها، وكان من ذوي الأموال العريضة ثم نفدت أمواله في آخر عمره واستدان ومات وعليه جملة من المال رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي فخر الدين أبو عمر وعثمان بن علي بن يحيىٰ بن هبة الله بن علي بن إبراهيم بن مسلم بن علي الأنصاري الشافعي المعروف بابن بنت أبي سعيد[٢] وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ودفن من الغد بالقرافة ومولده في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة تسع وعشرين وستمائة بقرية داريا من قرى دمشق وكان رحمه الله من العلماء الفضلاء الذين يرجع إلى فتاويهم، وكان حسن العشرة والمودة والمذاكرة لطيفًا ولي نيابة الحكم بالقاهرة مدة وولي قبل ذلك قضاء الأعمال القوصية وغيرها رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الصالح العابد العارف العلامة القدوة الورع الزاهد أبو الفتح نصر بن سليمان بن عمر المنيخي[٣] تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه بزاويته المشهورة، ومولده تخمينًا في سنة ثمان وثلاثين وستمائة وكان قدس الله روحه عالمًا زاهدًا عابدًا، مخشوشنًا في مأكله ومشربه وملبسه سمع الحديث بحلب على أبي إسحٰق إبراهيم بن خليل بن عبد الله الدمشقي وقدم إلى الديار المصرية بعد الستين، وقرأ القرآن على الشيخ كمال الدين بن علي بن شجاع وصدره في مجلسه ثم قرأ على الشيخ جمال الدين بن فارس، والشيخ علي الدهان وأجازوه بذلك وأتقن القراءات ووجوهها وعللها وسمع صحيح البخاري على الشيخ كمال الدين الهاشمي وصحيح مسلم على ابن البرهان وكتاب السنن لأبي داود على أبي الفضل محمد بن محمد البكري، والسنن للنسائي على أصحاب أبي بكر بن باقا، وسمع علي النجيب الحراني، وعبد الهادي القيسي وابن عملاق وغيرهم، وأجاز له الرشيد العطار وغيره

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٦، الدرر الكامنة ٤/ ٢٦٦.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٧، البداية والنهاية ١٤/ ٩٥.
(٣) هو المنبجي وليس المنيخي، انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٢، حسن المحاضرة ١/ ٥٢٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٤، الدرر الكامنة ٤/ ٣٩٢.

وحدث بذلك مرار وقرأ عليه القرآن جماعة فأجاز منهم الشيخ أبا عبد الله محمد بن حسن الضرير دون غيره لإتقانه وكان يقول قرأ على خلق من أهل البلد وما جاز لي أن أجيز غير أبي عبد الله وقرأ الشيخ رحمه الله النحو والتصريف على الشيخ بهاء الدين بن النحاس واشتغل على مذهب الإمام أبي حنيفة واشتغل بأصول الفقه على أبي عبد الله محمد بن الحراني، وكتب الحديث هذا كله مع الزهد والانقطاع والعبادة وأقبل عليه ملوك عصره وأكابر أمراء الدول والأعيان وترددوا إليه في الدولة الظاهرية وما بعدها وكان أكثرهم به خصوصية واجتماعًا وترددًا إليه وامتثالًا لأمره ورجوعًا إلى إشاراته الأمير ركن الدين بيبرس العثماني المنصوري الجاشنكير، وهو الذي ملك الديار المصرية ولقب في سلطنته بالملك المظفر فكان يقضي عنده حوائج الناس، ويصل أرزاقهم واستماله الشيخ إلى الخير وحسن فعله فوقف بأمره وإشارته ما قدمنا ذكره بجامع الحاكم والخانقاه والرباط وغير ذلك من وجوه البر، وكان الشيخ يكره الاجتماع بالأكابر وتلجئه الضرورة إلى ذلك لما يحصل بسبب اجتماعهم به من النفع المتعدي إلى غيره، ومما يدل على كراهته لذلك أنه كان ينقطع عن الاجتماع بالناس ومشافهتهم أربعة أشهر في السنة وهي رجب وشعبان ورمضان وذو الحجة ثم انقطع ستة أشهر من السنة ثم جعل انقطاعه في آخر عمره ثمانية أشهر وفي مدة انقطاعه لا يشافه بكلامه غير خادمه وابن أخته الشيخ قطب الدين عبد الكريم وأخبرني المشار إليه أن الشيخ ما زال يسأل الله تعالى أن يخفف عنه تردد الناس إليه فاستجاب الله تعالى له وانقطع الناس عنه قبل وفاته مدة تفرغ فيها لعبادة ربه، وكنت أجتمع به في بعض الأحيان بزاويته وأخلو به في خلوته فيتحدث معي ويدعو لي وتظهر لي منه دلائل المحبة والميل إلي، وكنت أقصد رؤيته في زمن انقطاعه عن الاجتماع بالناس فأحضر إلى الجامع الحكمي في يوم الجمعة قبل حضوره فإذا جاء قمت إليه وتلقيته وسلمت عليه وصافحته فيرد علي السلام الشرعي لا يزيدني ولا غيري عن ذلك، وأما في غير زمن انقطاعه فيسألني عن حالي وما تجدد لي، وأخبرني الشيخ قطب الدين ابن أخيه نفع الله به أن الشيخ سأله في الساعة الثالثة من يوم وفاته هل قارب أذان العصر؟ قال فقلت له: يا سيدي بقي للعصر كثير، ثم ذكر ذلك في الخامسة، ثم أعاده وقت أذان الظهر قال: ورأيته يفرح بأذان العصر فلما أذن المؤذن بالعصر خرجت روحه الطاهرة المطمئنة ورجعت إلى ربها راضية مرضية قدس الله تعالى روحه ونفعنا ببركاته.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن الملك القاهر ناصر

الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه الكبير ابن شادي[(١)] بالقاهرة بدار الشريف ابن ثعلب في ثامن عشر ذي القعدة وكان قد حضر إلى الأبواب السلطانية يسعى في الإمرة، فأنعم عليه بإمرة طبلخاناه بدمشق فمات قبل عوده إلى وطنه ومولده بدمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وستمائة.

ذكر الحرب الكائنة بجزيرة الأندلس بين المسلمين والفرنج وانتصار المسلمين عليهم

كانت هذه الوقعة المباركة التي أجلت عن الظفر والغنيمة في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة، ووصل الخبر بها إلى الديار المصرية في سنة عشرين وسبعمائة، واجتمع بي من حضر هذه الوقعة وقصّ علي نبأها وعلقت ذلك منه ثم فقدته ورأيت هذه الواقعة قد ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه عن الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن يحيىٰ بن ربيع المالقي وملخص ما نقله عنه: أنه لما بلغ النصارى حال، أمير المسلمين بجزيرة الأندلس وهو السلطان الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن كبير الرؤساء أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر سبط أمير المؤمنين المجاهد الغالب بالله أبي عبد الله محمد ابن أمير المسلمين يوسف بن منصور المعروف بابن الأحمر وأنه أخذ بالعزم في تحصين البلاد والثغور وإصلاح حال الرعية وحياطتهم كبر ذلك عليهم وعزموا على منازلة الجزيرة الخضراء وانتدب لذلك سلطان قشتالة واسمه دون بطره وجهز المراكب والرجالة وجاء إلى طليطلة، وهي مقام بابهم الذي يرجع الملوك إليه ويقفون عند أمره، وعرفه ما عزم عليه من غزو الجزيرة الخضراء واستئصال من بها من المسلمين وسأله أن يتقدم أمره لملوك جزيرة الأندلس بمساعدته وإعانته على ذلك فسره ذلك وتقدم إلى الملوك بالاهتمام في هذا الأمر وإعانته عليه، واتصل خبر اهتمامهم بأمور المسلمين أبي الوليد إسماعيل فكتب إلى سُلطان بلاد المغرب أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وعرفه ما دهم المسلمين من هذا العدو الثقيل واجتماعه وكلبه على البلاد الإسلامية، وسأل إنجاده بطائفة من جيشه وسير إليه بكتابه أبا عبد الله الطنجالي محدثًا الأندلس وعالمها، وأبا عبد الله الساحلي عابد الأندلس وأبا جعفر بن الزيات الصوفي، وأبا تمام غالب الأغرناطي التتاري الصالح

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ١/٢: ٢٠٠، النجوم الزاهرة ٩/٢٤٧.

الزاهد وصحبتهم جماعة من الناس، فتوجهوا إليه في البحر والبر حتى انتهوا إلى مدينة فاس واجتمعوا به وسألوه إغاثة المسلمين وإعانتهم فتقاعد عن نصرتهم واستصعب هذا الأمر فعادوا عنه وقد أيسوا من نصره فلجأ المسلمون إلى الله تعالى وأخذوا في إصلاح الجزيرة الخضراء وتحصينها واتصل خبر تقاعد المريني بالفرنج فاستبشروا بذلك وتحققوا أنهم يملكوا البلاد ويستأصلون المسلمين، وقدموا في جيوش عظيمة اشتملت على خمسة وعشرين ملكًا منهم صاحب أشبونة وقشتالة والفرنتيرة، وأرغونة وطلبيرة ووصلت إليهم الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب التي جهزوها وانتهت المراكب بذلك إلى جبل الفتح وطريف لمجاورتهما للجزيرة الخضراء ووصل إلى الزقاق ثلاث عشرة جفنًا كبار غزوانية وترددوا بين الجزيرة والمرية ووصلت جموع الفرنج إلى أغرناطة ونزلوا منها على عشرة أميال بموضع يقال له قنطرة بينوش بالقرب من جبل البيرة فامتلأت بهم تلك الأرض وامتدت جيوشهم في طول وادي شنيل ولم يكن لهم بدٌّ من النزول على الوادي بطوله بسبب الماء ولما علم المسلمون بوصولهم إلى هذا المكان عزم أمير المسلمين على أمير جيشه الشيخ الصالح أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء أن يخرج إليهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم في صبيحة يوم الاثنين الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة فتأهب الناس لذلك في الأحد.

ولما كان في عشية يوم الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من ضياع السلطان القريبة من البلد فخرج إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة المعروفين برماة الديار فقطعوهم عن الجيش وفروا أمامهم بجهة أرض المسلمين فتبعوهم طول الليل وأصبحوا بأرض لوشة فاستأصلهم المسلمون بالقتل والأسر، وكان ذلك أول النصر وأصبح المسلمون في يوم الاثنين وقد غاب من جمعهم هذه الطائفة المشهورة بالشجاعة والرمي، فلم يتوقف الشيخ أبو سعيد عن لقاء العدو بسبب غيبتهم وعزم على الخروج لقتالهم، وذلك يوم عيدهم عيد العنصرة وهو الرابع عشرين من حزيران، فخرج إليهم في طائفة يسيرة من الفرسان مع أبناء أخيه وهما الشيخان الشقيقان أبو يحيىٰ وأبو معروف أمير جيش مالقة ابنا الشيخ الشهيد أبي محمد عبد الله بن أبي العلاء ومنهم أخوهم الشيخ أبو عامر خالد أمير جيش رنده ومنهم الشيخ العارف أبو مسعود محمد بن الثابتي ومنهم أمير جيش الخضرا، الشيخ المرابط أبو عطية مناف بن ثابت المغراوي وأمير لوشه والشيخ أبو المكارم ريان بن عبد المؤمن ولكل واحد من هؤلاء أولاد وأتباع، وأمرٌ مطاع، وخرج مع هؤلاء

الفرسان جماعة رجال أنجاد نحو خمسة آلاف رجل من أهل أغرناطة وسلكوا مع الشيخ أبي سعيد طريق الجبل لكونه أمنع، وأوصاهم، أن يكونوا بموضع عينه لهم ووصل فرسان المسلمين الثالثة من النهار إلى قرب الجيش فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم عليهم مع قلتهم بالنسبة إلى كثرة الفرنج، وخرج إليهم وزير ملك الفرنج، فقال ما هذا الذي فعلتموه، وكيف أتيتم والملك في يوم عيده؟ فارجعوا وابقوا على أنفسكم فإنه إن علم بكم ركب لقتالكم ولا ملجأ لكم منه فعند ذلك حصل للشيخ أبي سعيد حال أخرجه عن عقله فنزل عن فرسه باكيًا متضرعًا إلى الله تعالى، وارتفعت أصوات المسلمين بالدعاء لهم ثم أتاهم من كان قد بقي بأغرناطة من فرسان المسلمين يتبعون آثارهم فحرض الشيخ أبو سعيد المسلمين على قتال عدوهم، وصلى ودعا وبينما هو في صلاته ركب العدو بجملتهم وحملوا على المسلمين ـ ولم يعلموا برجال المسلمين التي وصلت من أغرناطة فنزلوا بجهة العلياء من المنزلة الخالية، وقصدوا المسلمين فلم ترعهم كثرتهم واستمر الشيخ أبو سعيد في صلاته حتى أكملها، ووقف المسلمون ينتظرون ركوبه، ولما رأى العدو ثباتهم توقفوا وتهيؤوا وخرج من الفريقين فرسان يحركون القتال فاستشهد أمير رندة فاجتهد أقرباؤه في أخذ ثأره وأمر الشيخ أصحابه أن يقصدوا طرف المحلة ففعلوا فأفادهم ذلك، ومال الروم إلى جهة المحلة بجملتهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم فانهزموا أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف الإسلامية فما زال المسلمون يقتلونهم من الساعة السابعة إلى الغروب، ولما أظلم الليل أخذ الفرنج في الهرب وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وغاب الجيش عن أغرناطة ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة بجمع الأموال وأخذ الأسرى، فاستولوا على الأموال وأسروا وسبوا ما يزيد على خمسة آلاف من الرجال والنساء والأولاد، وأُحْصِيَ من قتل من العدو فزادوا على خمسين ألفًا، ومنهم من قال ستين ألفًا، ويقال إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لقلة معرفتهم به وثقلهم بالعدد ولم تبلغ القتلى من المسلمين بالمحلة عشرة وأما الذين قتلوا بالجبال والشعارى وسائر بلاد المسلمين من العدو فلا يحصى عدده كثرة ووجد الملوك الخمسة والعشرون بالمحلة قتلى، منهم دون بطره وعمه دون جوان وعلق دون بطره على باب الحمراء بأغرناطة وأما عمه وكان ممن يخدم المسلمين ففديت جثته بشيء كثير وأسارى وأسر من العدو في بقية الشهر خلق كثير فكان المسلمون يحتاجون في كل يوم لقوت الأسرى وقوت من يحرسهم ويحفظ الدواب خمسة آلاف درهم قال: وزعم الناس أن الذي وجد من الذهب والفضة بالمحلة

كان سبعين قنطارًا ولم يظهر سوى ربع هذا المقدار وأما الدواب والعدد والأخبية فشيء كثير.

قال ولقد عزم على بيع ما يحصل من ذلك وقسمته فتعذر ذلك، واستمر البيع في الأسرى وبعض الأسلاب والدواب ستة أشهر متوالية ولم يكمل قال وبعضها باق إلى الآن وضجر الناس وملوا من كثرة البيع قال ونهاية عدد ما كان من فرسان المسلمين في ذلك اليوم بعد رجوع الرماة مما كانوا فيه ألفان وخمسمائة ولم يستشهد منهم غير أحد عشر رجلًا، منهم خالد بن عبد الله المذكور وعمر بن باحرزت، وكان من خيار المسلمين رحمه الله تعالى هذا آخر كلامه في هذا الفصل وبعضه بمعناه.

وأخبرني من شهد هذه الوقعة كما زعم وظاهره غير مُتَّهَم فإن عليه آثار الخير أنه شاهد رجلًا يقاتل العدو ويقتل منهم في هذه الوقعة قال فشبهته ببعض من أعرفه فجعلت أحرضه على القتال ثم دنوت منه فلم أجده ذاك وشبهته بآخر فحرضته كذلك فلما قربت منه نظر إلي وقال لست فلانًا ولا فلانًا النصر من عند الله، ثم غاب عني وفي هذا دلالة على أن الله تعالى أمد هذه الطائفة بالملائكة في هذه الغزاة، فإن القدرة البشرية تضعف عن مقاومة هذه الجموع الكثيرة بهذه الطائفة اليسيرة.

وقد ورد كتاب إلى الديار المصرية من أغرناطة من جهة الشيخ حسين بن عبد السلام تضمن من خبر هذه الغزاة أنه قال جاء دون بطرا وجوان وهما مَلِكا قشتالة جيّشا جيشًا هائلًا ما رأى المسلمون قط مثله، وعزموا على دخول أغرناطة فأول نزولهم على حصن يقال له طشكر وفيه صاحبه ابن حمدون فلما نازلوه بعث إليهم صاحب الحصن في تسليمه على إبقاء المسلمين فأجاب ملك الروم إلى ذلك واستقر أن يسكن المسلمون والروم في الحصن فواعدهم صاحب الحصن أن يبعثوا إليه في نصف الليل خمسمائة فارس من الشجعان فبعثهم الملك إليه مع قائد يقال له أرمند فلما دخلوا الحصن فرقهم صاحب المجالس وقتلهم عن آخرهم ولم يشعر بعضهم ببعض فلما علم ملك الروم أنه عذر بهم حلف أن لا يرجع إلى بلاده حتى يدخل مدينة أغرناطة غلبة وقهرًا فنازلها بمن معه على أربعة أميال منها فلم يخرج إليه أحد ثم تقرب حتى صار منها على ميلين فلما رأى المسلمون قربه من المدينة وقع في نفوسهم رعب عظيم وتضرعوا إلى الله تعالى، فلما رأى سلطان البلد ما نزل بالمسلمين بعث إلى ملك الفرنج يقول له: ارحل عني بأجنادك وأنا أعطيك عشرين حملًا من المال

ولا تفسد زرع البلاد، فامتنع من قبول ذلك وأبى إلا أخذها غلبة وقهرًا فبعث إليه ثانيًا وبذل له خمسة وعشرين حملًا من الذهب، وفي كل يوم مائة دينار وفي كل جمعة ألف دينار. فامتنع ملك الروم من القبول وحبس رسول المسلمين، فعلم المسلمون حينئذٍ أنه لا ينجيهم إلا النصر من الله تعالى فبعثوا إلى أمير يعرف بأبي الجيوش من بني مرين وسألوه إنجادهم بنفسه، فجاء ومعه ألف فارس ونزل بموضع يقال له إلبيرة، وخرج عثمان بن أبي العلاء وهو من بني مرين في ألف فارس فكمن في موضع آخر وخرج ملك المدينة بعد خروج عثمان المذكور وخرج بعد الملك أمير يعرف بالمغراوي في ثلاثمائة فارس من بني مرين ومع كل طائفة منهم نقارتان[١] وصناجق ووقع عليهم ملك المدينة واقتتلوا فانهزم المسلمون أمامهم إلى جهة المدينة استجرارًا لهم فتبعهم الفرنج طمعًا فيهم ثم عطف المسلمون عليهم وخرج عليهم الكمناء من كل جهة، ورفعوا أصواتهم بذكر الله تعالى، فهزم الله تعالى الكفار وألقى الرعب في قلوبهم فقتل منهم ثمانون ألفًا وسبى من الأولاد والنساء تسعة آلاف وأسر ما لا يحصى كثرة قال:

وأما ما وزن من الذهب من المغنم منهم فثلاثة وأربعون قنطارًا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارًا ولم يفلت من الفرنج إلا من نجا به فرسه وقتل الملكان فيمن قتل وجميع زعمائهم وحصلت امرأة جوان وأولاده في الأسر فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنًا فلم يقبل المسلمون ذلك قال: واستشهد من المسلمين سبعة، ثلاثة من بني مرين وأربعة من الأندلسيين من أعيانهم، قال: ثم وصلنا أنه خرج من إشبيلية أربعة عشر مركبًا، ونزلوا على سبتة فخرج إليهم المسلمون فأخذوا منهم أجفانًا وأسروا من بها، قال: ووقعت الغزوة المباركة في الخامس عشر من الشهر فكان بين الوقعتين ليلة واحدة، هذا ملخص كتابه ومعناه ونقل الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن يحيىٰ الحاكي الأول قال: ولما كان في يوم الخميس مفتتح سنة عشرين وسبعمائة هكذا قال يوم الخميس مفتتح سنة عشرين وهي استهلت عندنا بيوم الثلاثاء عزم الشيخ أبو يحيىٰ أمير جيش مالقة أن يتوجه إلى رندة ويجتمع فيها بابنه مسعود الذي تولى أمر جيشها بعد عمه الشهيد خالد ويصل إليه الشيخ أبو عطية مناف بن ثابت ويتوجهوا للإغارة على شريش من

---

(١) النقارة: من الآلات الملكية مختصة بالمواكب العظيمة بمصر، وكانت تحمل في ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر وفي الإيذان ببدء القتال (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٥٢).

بلاد النصارى فعلم بذلك النصارى المجاورون لمقالقة ولبلاد المسلمين فعزموا على أن يغيروا على قامرة وحصن نوح من شطر مالقة وبالقرب منها، فارتقبوا يوم انفصاله وكان يوم الخميس، فاجتمعوا في نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل من أهل استجة وسبتباله وأشونة وستبة وبلى وأليسانه وقبرة ومرشانة وكان الفرنج في الحشد الأول قد خافوا على هذه البلاد المجاورة للمسلمين فتركوا أهلها بها لحراستها فوصلوا صبيحة السبت ودخلوا قامرة فأخذوا جميع كسب سلطان المسلمين وكثيرًا من كسب الرعية وخرجوا مطمئنين. وكان قد خرج فارسان من المسلمين ليلحقا الجيش فظفر الفرنج بأحدهما وهرب الآخر، فأدرك الشيخ أبا يحيىٰ بحيطين خضر الوزير ابن الحكيم يعرفه الحال وهو بجماعة مالقة خاصة فرجع لقصد العدو فحضر على حصن طبية فتبعه من فرسانها نحو ثلاثمائة فارس ممن يعتمد عليهم، وترك الضعفاء والثقلة البقلة ونهض إلى حيث ذكر له الفارس أنه لقيهم في أول الليل في دخولهم فوجدهم قد خرجوا بالمغنم بموضع يقال له برجمه من تحت حصن سم لي وذلك بعد الظهر فارتفع الفرنج في كدية عالية، ونزل أنجاد فرسانهم للقتال فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا فقتلوا أكثرهم، واستشهد من المسلمين رجل واحد يقال له سعد الهمداني، ثم ظهرت ساقة المسلمين، فارتفع من سلم من مقاتلة النصارى إلى الكدية وتحصنوا بها بالبرادع والدرق والدواب وامتنعوا ووصل الرماة من أنتقيرة وحصن المنشأة، وكان العون من الله تعالى عليهم فما زالوا يجاولونهم ويقاتلونهم إلى ثلث الليل الآخر فأذعن من سلم من النصارى إلى الإسار، فنزل نيف على خمسمائة فأسروا وقتل بقيتهم بالرماح والسهام ورجع الشيخ أبو يحيىٰ بهم إلى مالقة وجعل منهم أربعمائة أسير اثنين وثمانين أسيرًا في حبل واحد، وسائرهم مثقلون بالخراج وأركبهم على دوابهم وأخذ منهم قاضي النصارى بأستجة وحمل ما غنم من عدوهم من السيوف والرماح على خمسة وأربعين جملًا ومن القسي على خمسة وأربعين دابة، والدرق على نحو من ثلاث عشرة دابة، وأراح الله تعالى من هؤلاء الأعداء ونصر عليهم وله الحمد والمنة.

واستهلت سنة عشرين وسبعمائة بيوم الثلاثاء

في هذه السنة في شهر المحرم عاد السلطان الملك الناصر من الحجاز الشريف كما قدمنا ذكر ذلك في سياقة أخبار حجته ولما عاد إلى الديار المصرية شمل نواب السلطان وأكابر الأمراء بالإنعام والتشاريف على عادته.

ذكر تفويض السلطنة بحماة
للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل

كان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد توجه في خدمة السلطان إلى الحجاز الشريف في سنة تسع عشرة وسبعمائة فلما عاد في هذه السنة رأى السلطان أن يفوض إليه السلطنة بحماة على عادة عمه وأجداده، فأمر بذلك وأركبه بشعار السلطنة في يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة عشرين وسبعمائة ولبس التشريف بالمدرسة المنصورية التي بين القصرين بالقاهرة وهو بغلطاق[١] أطلس معدني أحمر بطرز زركش، بسنجاب مقندز[٢] وقباء تحتاني أطلس معدني أصفر، وشاش تساعي مقصب بقصبات زركش وكلوتة[٣] زركش وسيف وحياصة[٤] ذهب وركب فرسًا أشهب من مراكيب السلطان نرناري أطلس أحمر بداير أصفر برقبة سلطانية مزركشة وسرج سلطاني محلّى بذهب وحمل السلاح له الأمير سيف الدين قجليس أمير سلاح، وحملت الغاشية السلطانية[٥] بين يديه، وركب في خدمته الجمدارية السلطانية والحجاب، والنقباء وحملت العصائب على رأسه، وخلع على أرباب الوظائف من الأمراء الأكابر، وكان يومًا ما مشهودًا وطلع إلى قلعة الجبل وقبل الأرض بين يدي السلطان وجلس رأس الميمنة ثم أعطى الدستور الشريف فتوجه من يومه على خيل البريد محبورًا مجبورًا، ووصل إلى دمشق في يوم الخميس الرابع والعشرين من المحرم وأقام بعض يوم وتوجه إلى حماة والله أعلم.

وفي هذه السنة أعفى الصاحب أمين الدين عبد الله من نظر المملكة الطرابلسية وكان قد تكرر سؤاله في الإعفاء وأن يكون مقامه بالقدس الشريف فأجيب سؤاله

---

(١) بغلطاق: هو القباء بالفارسي، وهو بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جدًا (خطط المقريزي ٢/ ٩٩).

(٢) مقندز: أي محبوك بفراء القندس.

(٣) الكلوتة: هي غطاء للرأس وتسمى أيضًا كلفة وكلفتا، وكلفتة. يقول البعض إنها من أصل لاتيني ويقول آخرون إنها معربة عن الفارسية (مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٨٨).

(٤) الحياصة: هي الحزام أو المنطقة، تقدم التعريف بها.

(٥) الغاشية السلطانية: وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها الركاب دارية، رافعًا لها على يديه يلفتها يمينًا وشمالًا (صبح الأعشى ٤/ ٦).

وتوجه من طرابلس إلى القدس في شهر المحرم ورتب له في كل شهر ثمانمائة درهم، وأربع غرائر قمحًا بكيل القدس، واستقر مقامه بالقدس إلى أن أعيد إلى الوزارة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الإفراج عمّن يذكر من الأمراء المعتقلين

وفي العشر الأوسط من صفر من هذه السنة أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء المعتقلين الذين اعتقلوا في ابتداء الدولة وهم الأمير علم الدين سنجر البرواني والأمير علم الدين الشيخ علي التبريزي والأمير سيف الدين طوغان المنصوري والأمير سيف الدين طاجار تكبري، والأمير صارم الدين أزبك العينتابي، والأمير علم الدين أيدمر الشيخي، والأمير علاء الدين مغلطاي السيواسي والأمير شمس الدين سنقر الكمالي الصغير والأمير بدر الدين الحاج بيلبك، وسيف الدين منكجار وناصر الدين منكلي وشرف الدين موسى وشهاب الدين غازي أخو حمدان بن صلغاي وخلع عليهم خلع الجند ورتب جماعة منهم في البحرية ثم أمر بعضهم بطبلخاناه، وقدم بعضهم على رجال الحلقة، ولما أفرج السلطان عن هؤلاء هرب من الاعتقال بثغر الإسكندرية من الأمراء علاء الدين أيدغدي التتري وسيف الدين بهادر الإبراهيمي فمسكا وجيء بهما إلى السلطان وكان معهما في الاعتقال أحد المماليك السلطانية واسمه رمضان فلم يوافقهم على الهرب فلما جيء بهم أفرج السلطان عنه وأمر بسمل أعين بهادر الإبراهيمي وأيدغدي التتري فسملت أعينهما في يوم الأربعاء خامس عشرين صفر من السنة.

ذكر إسماعيل الزنديق[1] ومقتله

وفي هذه السنة رمى هذا المذكور بالزندقة وادعى عليه بمجلس الحكم عند القاضي علاء الدين الجوجراي أحد نواب قاضي القضاة تقي الدين بن الإخنائي المالكي، وشهد عليه جماعة كثيرة بأمور شنيعة تقتضي الزندقة نعوذ بالله من ذلك واعتقل مدة حتى استوضح الحاكم أمر الشهود وعرف عدالة بعضهم فقبل شهادته وزكى عنده بقيتهم وتضمن المحضر أقاويل شهد عليه بها لا يصدر مثلها عمن يعتقد بعثًا ولا نشورًا فثبت ذلك كله على الحاكم المذكور وأعذر إلى إسماعيل المذكور هل

(١) هو إسماعيل بن سعيد الكردي المقرىء (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٤٩، الدرر الكامنة ١/٣٦٧).

له مطعن في الشهود يدفع به شهادتهم؟ وأمهله ثلاثة أيام أولها يوم الجمعة الثالث والعشرون من صفر فلما انقضى الأجل جلس قاضي القضاة تقي الدين المالكي ونائبه القاضي علاء الدين الجوجراي المذكور، وغيره من نواب الحكم، وجماعة من فقهاء المالكية وغيرهم بالمدرسة الناصرية بالقاهرة فلما صلوا المغرب ودخلت ليلة الاثنين وانقضت مدة الإعذار ولم يأت يدافع حكم عليه النائب بما ثبت عليه عنده من أمره وأشهد عليه أنه هدر دمه ونفذ قاضي القضاة تقي الدين المالكي المذكور ما حكم به نائبه وحكم به، وكان هذا الرجل قد حكى عنه كلام كثير منه ما ثبت بمقتضى المحضر ومنه ما شاع مما تنزه كتابنا عن ذكره وأخبرني الشيخ زين الدين أبو بكر بن الفرج الهيثمي في يوم الأحد لخمس بقين من صفر سنة عشرين وسبعمائة قال: رأيت في الليلة المسفرة عن هذا اليوم رسول الله ﷺ وكأنه بجامع الحاكم في صحنه مما يلي الدرابزين من الجهة القبلية ومعه لوط عليهما السلام وهما قائمان فسلمت عليهما فردوا عليّ السلام فقال رسول الله ﷺ قل لتقي الدين بن الإخنائي بقتل هذا أما سمعت ما قال أو ما سمع ما قال الشك من الراوي في سيدنا رسول الله ﷺ لوط وكان قد ذكر عن هذا الزنديق في حق لوط عليه السلام كلام شنيع، وقال لي الراوي وغيره ممن أثق بهم إنهم في تلك الليلة كانوا قد ذكروا عن هذا الرجل ما وقع فيه، فلما نام رأى هذه الرؤيا وقصها على قاضي القضاة تقي الدين وأبلغه رسالة رسول الله ﷺ وكان ذلك اليوم آخر أيام الإعذار فهدر دمه كما تقدم فلما كان في يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر اجتمع القضاة بدار العدل في مجلس السلطان على العادة وطولع السلطان بما حكم به من هدر دم إسماعيل المذكور، وكان قد طولع قبل ذلك بخبره فسأل السلطان من الشهود الذين شهدوا عليه؟ وكان بعض الناس قد أراد الاعتناء به فلم يفده ذلك وقال قضاة القضاة بأجمعهم للسلطان، هذا لا بد من قتله إسنادًا لحكم الحاكم فأمر السلطان متولي القاهرة يومئذٍ وهو الأمير علم الدين سنجر الخازن بالركوب في صحبة القضاة وامتثال ما يأمرونه به في أمره فاجتمع قضاة القضاة الأربعة وغيرهم من النواب والعلماء في المدرسة الصالحية بالإيوان المرصد للمالكية واتفقوا على ضرب عنقه فراجع متولي القاهرة السلطان في ذلك، فأمره بتنفيذ ما أمر به القضاة، فضرب عنقه بعد صلاة العصر من يوم الاثنين وعرض عليه قبل ذلك أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لعل ذلك ينفعه فيما بينه وبين الله تعالى إن أخلص فلم يقل ذلك وشرع يخلط في كلامه ويذكر ألفاظًا غير مستقيمة وظن أن ذلك التخليط ينفعه أو يشكل على القضاة بزوال عقله فيؤخروه، فلم يفده ذلك

وضربت عنقه كما تقدم وألقيت جثته ورأسه بين القصرين إلى بعد المغرب من يوم مقتله، ثم حمل أعاذنا الله مما قال بمنه وبكرمه.

ذكر قتل رجل ادّعى النبوة بدمشق

وفي هذه السنة ادعى رجل بدمشق اسمه أقجبا رومي الجنس، من مماليك الأمير ركن الدين بيبرس التاجي أنه نبي وتسمى عبد الله وكان قبل ذلك يلازم الجامع بدمشق ويكثر من تلاوة القرآن فادعى ذلك وأصرّ عليه ورجع فلم يرجع وخوف بالقتل فلم يفد ذلك فاعتقد أولياء الأمر أن يكون قال هذا القول من حاجة مسته أو فاقة، فوعد بإزالة ضرورته وأن يرتب له كفايته، فأبى قبول ذلك وأصرّ على دعواه فضربت عنقه بظاهر دمشق في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول.

ذكر تجريد طائفة من العسكر إلى مكة شرفها الله تعالى وخبر مقتل حميضة بن أبي نمي

كان السلطان لما كان بمكة شرفها الله تعالى سأله المجاوزون بمكة ومن بها من التجار أن يخلف بها عسكرًا يمنع عز الدين حميضة بن أبي نمي إن هو قصد أهل مكة بسوء، فجرد ممن كان معه الأمير شمس الدين آق سنقر ومعه، مائة فارس فأقام بمكة فلما عاد السلطان إلى قلعة الجبل جرد الأمير سيف الدين بيبرس الحاجب كان وهو من الأمراء مقدمي الألوف ببعض عدته وجرد معه جماعة من المماليك السلطانية، فكانت عدة من توجه معه مائة فارس وخرج من القاهرة في يوم الأربعاء السادس من شهر ربيع الأول من هذه السنة ووصل إلى مكة شرفها الله تعالى، وأقام بها ومنع أهلها من حمل السلاح السكين فما فوقها وبعث إلى الأمير عز الدين حميضة وكان بقرب نخلة تستميله إلى مراجعة الطاعة والتوجه إلى الأبواب السلطانية فسأل رهينة عنده من أولاد الأمير ركن الدين تكون عند أهله ويحضر فأجاب الأمير ركن الدين إلى ذلك وجهز أحد أولاده، وهو الأمير علي وجهز معه هدية لحميضة ولم يبق إلا أن يتوجه فأتاه في ذلك اليوم رجل من العرب وأخبره بقتل حميضة فأنكر وقوع ذلك وظن أن ذلك مكيدة لأمر ما، لكنه توقف عن إرسال ولده حتى يتبين له الحال، فلما كان في مساء ذلك اليوم طرق باب المعلى بمكة ففتح فإذا مملوك اسمه أسندمر، وهو أحد المماليك الثلاثة الذين كانوا قد التحقوا بحميضة من مماليك الأمراء كما تقدم وهو راكب حجرة حميضة التي تسمى جمعة وكان السلطان قد طلبها من حميضة فشح

بإرسالها وأخبر أنه قتل حميضة غيلة وهو نائم، وجرد سيفه فإذا به أثر الدم وذلك في جمادى الآخرة فأرسل الأمير ركن الدين ولديه ناصر الدين محمد وشهاب الدين أحمد إلى الأبواب السلطانية بهذا الخبر فوصلا إلى السلطان فأنعم عليهما وجهزا الأمير ركن الدين من توجه لإحضار سلب حميضة والمملوكين اللذين بقيا فأحضر السلب وأخذا المملوكين وقيل إن الثالث مات وهو مملوك الأمير سيف الدين بكتمر الساقي فألزم صاحب نخلة بإحضاره وتوعده إن تأخر فأحضره واستمر الأمير ركن الدين بمكة إلى أن عاد الجواب السلطاني بطلبه، فتوجه من مكة ـ شرفها الله تعالى ـ في مستهل شعبان وصحبته المماليك الثلاثة الذين كانوا قد هربوا، وكان وصوله إلى الأبواب السلطانية في العشر الأول من شهر رمضان، ولما وصل شمله الإنعام والتشريف، وأمر السلطان بقتل أسندمر قاتل حميضه قودًا به في شوال من السنة.

ذكر تجريد جماعة من العساكر الشامية إلى بلاد سيس ورجوعهم

وفي هذه السنة أمر السلطان بتجريد العساكر من الشام والسواحل، فجرد جماعة من دمشق وهم الأمير سيف الدين جوبان المنصوري، والأمير سيف الدين بكتوت القرماني، والأمير بدر الدين بكتوت الشمسي ومضافيهم والمقدم عليهم جوبان المذكور وتوجهوا في يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر رجب وجرد العساكر بجملتها والعسكر الصفدي وبعض العساكر الحلبية وتوجهوا إلى جهة سيس والمقدم على سائر العساكر الأمير شهاب الدين قرطاي نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية.

وسبب ذلك أن الهدنة التي كانت بين السلطان وبين صاحب سيس انقضت فسأل صاحب سيس تجديد هدنته على ما كانت عليه فامتنع السلطان من ذلك وطلب منهم عدة قلاع كانت قد أحدثت في الأيام المنصورية الحسامية كما تقدم فتوقفوا في إعطائها ثم بذلوا بعضها فلم يوافق السلطان على ذلك، وجرد هذه العساكر، ودخلوا إلى بلاد سيس، ولما وصلوا إلى نهر جان وأرادوا قطعه غرق من العساكر نحو ألف فارس أكثرهم من عسكر طرابلس والتركمان، ثم دخل العسكر وأغاروا وشعثوا وأقاموا ببلاد سيس سبعة عشر يومًا، ثم خرج العسكر وأقام بسليمة ثم رسم السلطان لهم أن يسوقوا خلف العرب حتى يخرجوهم من المملكة الشامية، ومات في هذه السفرة من الجيش المجرد من دمشق الأمير بدر الدين بكتوت الشمسي، وكانت وفاته بحلب، ولم يدخل إلى سيس لمرضه رحمه الله تعالى.

ذكر وصول الخاتون دلنبية
وقيل فيها طولونية ابنة وبناء السلطان الناصر بها

كان السلطان الملك الناصر قد خطب إلى الملك أزبك بن طغولجا بن منكوتمر بن طغان بن باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان ملك البلاد الشمالية من تكون الذرية الجنكيزخانية، وجهز إليه الأمير علاء الدين أيدغدي الخوارزمي وغيره كما تقدم في سنة ست عشرة وسبعمائة، فلما عرضت كتب السلطان على الملك أزبك قال الترجمان للرسول لما أراد أن يتكلم بالمشافهة: إن القاضي يعني الملك أزبك يقول إن كان في مشافهتك غير السلام فخاطب به الأمراء، ثم جمعت الأمراء مقدمي التمانات، وهم سبعون أميرًا، فكلمهم الرسول في ذلك فنفروا منه، وقالوا هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكزخان وإلى هذا الوقت. وفي مقابلة ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكزخانية إلى الديار المصرية، وتقطع سبعة بحور؟ ونحو هذا من الكلام، ولم يوافقوا على ذلك في أول يوم، ثم اجتمعوا في يوم آخر بعد أن وصلت إليهم هداياهم التي جهزها السلطان إليهم وأعيد الحديث في ذلك فأجابوا إليه وسهلوه، وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك. وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ما طلب إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين سنة كلام، وسنة خطبة، وسنة مهاداة، وسنة زواج، واشتطوا في طلب المهر والشروط فلما اتصل ذلك بالسلطان فرجع عن الخطبة والحديث فيها وتكررت رسله إلى الملك أزبك ورسل الملك أزبك إليه والسلطان لا يذكر أمر الخطبة ولا تتضمن رسائله غير السلام والمودة على العادة، ثم توجه الأمير سيف الدين أطرجي[1] من جهة السلطان إلى الملك أزبك بالهدايا والتحف وخلعة سلطانية مزركشة مكللة فلبسها الملك أزبك ثم ابتدأ الأمير سيف الدين أطرجي بذكر الزواج، وقال: قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب، وقد عينت له ابنة من البيت الجنكزخاني من نسل الملك بركة بن باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان، فقال أطرجي: إن السلطان لم يرسلني في هذا الأمر، وهذا أمر عظيم لو علم السلطان بوقوعه جهز لهذه الجهة المعظمة ما يليق وما يصلح لها وأراد بذلك رفع الأمر إلى وقت آخر فقال الملك أزبك: أنا أرسلها إليه من جهتي فما وسع الرسول إلا مقابلة أمره بالسمع والطاعة فلما استقر هذا الأمر قال الملك أزبك للرسول: أحمل مهر هذه الجهة فاعتذر أنه لا مال معه. فقال: نحن نأمر

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٣١٧، السلوك ٢/١: ٢٠٤، كنز الدرر ٩/٣٠٢.

التجار أن يقرضوك ما تحمله فأمرهم بذلك. فاقترض عشرين ألف دينار عينًا وحملها ثم قال له إنه لا بد لها من عمل فرح يجتمع فيه الخواتين، فاقترض مالًا آخر قيل إنه سبعة آلاف دينار، وعمل الفرح وجهزت الخاتون، وصحبها جماعة من الرسل، وعدة في الخوايتن وقاضي مدينة صراي، وتوجهوا من جهة الملك أزبك وركبوا البحر في ثاني شهر رمضان سنة تسع عشرة وسبعمائة، وحصل لهم مشقة عظيمة إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة.

ولما طلعت الخاتون من المركب جعلت في خركاة مذهبة على عجلة وجرها المماليك إلى دار السلطنة بالثغر، وأجريت لهم الإقامات المتوفرة، وجهز السلطان إلى خدمتها جماعة من الحجاب وثمان عشرة حراقة[1] فركبت الخاتون في الحراقة الكبرى السلطانية وركب بقية من معها في بقية الحراريق، ووصلت الخاتون إلى الساحل المقابل للقاهرة من بحر النيل في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة وفرشت مناظر الميدان السلطاني لنزولها، ولما وصل ركب الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة الشريفة وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الأكابر، وتوجهوا إلى خدمتها وحملت من الحراقة في محفة على أكتاف مماليك نائب السلطنة إلى أن استقرت بقاعة الميدان السلطاني، وضرب لها أيضًا بالميدان دهليز أطلس معدني كان قد عمل للسلطان، ومد لها ولمن معها أسمطة تصلح لمثلها، وأجريت عليهم الإقامات.

فلما كان في يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر أحضر السلطان الرسل وهم رسل الملك أزبك ورسل ملك الكرج ورسل الأشكري فمثلوا بين يديه، أو أدوا ما معهم من الرسائل وأحضروا الكتب والتقادم، ثم أمر السلطان نائبه الأمير سيف الدين أرغون والأمير سيف الدين بكتمر الساقي وهو من أخص مماليكه أن يتوجها إلى الميدان وينظرا الخوند الخاتون الواصلة، فتوجها إليها ورأياها ـ فيما بلغني ـ ونقلت في بقية النهار إلى قلعة الجبل وحملت على عربة يجرها بغل يقوده أحد مماليكها حتى استقرت بقاعة أعدت لها بقلعة الجبل كان السلطان قد أنشأها لم يبن بالمملكة الإسلامية مثلها ثم عقد العقد المبارك في يوم الاثنين السادس من شهر ربيع الآخر

(١) الحرّاقة: وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرامٍ تلقى منها النيران على العدو. وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحملِ الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٠٤).

على ثلاثين ألف مثقال عينا حالة منها ما قدم وهو عشرون ألف دينار التي تقدم ذكرها وعقد العقد قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة وقبل العقد عن السلطان بوكالته نائبه الأمير سيف الدين أرغون وبنى السلطان بها ثم أعاد الرسل ومن حضر في خدمتها بعد أن شملهم بالإنعام الوافر وجهز معهم الهدايا الجليلة إلى الملك أزبك وغيره وكان عودهم في شعبان وتأخر منهم قاضي مراي بسبب الحج فحج وعاد إلى بلاده في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

ذكر تسحب الأمير حسام الدين مهنا وأولاده ومَن يلوذ به من العربان آل فضل من البلاد الشامية ولحاقهم بالعراق وإمرة الأمير محمد شمس الدين محمد بن أبي بكر

وفي سنة عشرين وسبعمائة تسحب الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى وأولاده وإخوته وغيرهم ممن يلوذ بهم وينسب إليهم من آل فضل وفارقوا البلاد الشامية وتوجهوا نحو العراق وسبب ذلك أن السلطان الملك الناصر كان قد أحسن إلى هذه الطائفة من العربان وقدمهم على غيرهم، ووصلهم بالعطايا الجزيلة والإقطاعات الوافرة التي لم يسمع بمثلها، ولا يسمح الملوك بها ولا ببعضها الأكابر النواب وأعيان الأمراء، وكان ينعم على الرجل الواحد من أولاد مهنا بثلاثمائة ألف درهم فما دونها وأقطعهم جُلّ الخواص بالبلاد الشامية زيادة على ما بأيديهم ثم طلبوا أكثر خواص القلاع بالممالك الإسلامية فأقطعهم ذلك وأخذوا أيضًا بعض إقطاعات الأمراء بالشام وهم لا يطلبون شيئًا إلا أنعم عليهم به وأقطعه لهم السلطان في غضون هذا الإحسان يقصد وصول الأمير حسان الدين مهنا إلى بابه وهو يأبى ذلك ويمتنع منه، وتكررت رسائل السلطان إليه وهو يظهر الطاعة ولا يوافق على الوصول إلى الأبواب السلطانية، ثم خشي عاقبة السلطان، وارتاب من كثرة إنعامه على العربان، فكاتب السلطان مرارًا في استرجاع ما أعطاه لأولاده وإخوته من الزيادات في الإقطاعات واختصار كثرة الصلات وأن يجري الأحوال على ما كانت عليه من العوائد والسلطان يأبى ذلك، فظن أن الإنعام على هذه الطائفة إنما هو بسببه فلما كان في شهر ربيع الأول رسم السلطان بتجريد العساكر إلى بلاد سيس فغلب على ظنه أنها تقصده ففارق البلاد ووصل إلى عانة فأمر السلطان بإيقاع الحوطة على إقطاعات العربان من يومه والاحتراز على متحصلاتها، فوض إمرة العرب للأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن حذيفة وجهز السلطان الأمير سيف

الدين قجليس إلى الشام بنصف عدته وأمر أن يتوجه معه جيش من دمشق لإخراج العربان، فجرد الأمير سيف الدين كجكن في جماعة من العسكر، ووصل الأمير سيف الدين قجليس إلى دمشق في حادي عشر جمادى الأولى، فتوجه منها الجمعة ثاني عشر الشهر وصحبته جماعة من العسكر الشامي والأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر، واجتمعوا هم والجيوش المجردة إلى بلاد سيس وساقوا خلف العرب حتى أخرجوهم من بلاد الشام، وكانت مدة غيبة الأمير سيف الدين عن دمشق أربعة أشهر، وعاد في خامس شهر رمضان إلى دمشق، وكان تأخره هذه المدة بسبب ضبط ما يتحصل من أقطاع العربان النازحين.

وأما الجيش المجرد من دمشق إلى سيس فإنه عاد في يوم السبت حادي عشر جمادى الآخرة ثم ورد الخبر إلى دمشق من الرحبة في يوم الأحد ثاني شعبان إلى أن جماعة من عرب مهنا وصلوا إلى بلاد الرحبة لرعي زرعها، فجهز جماعة من الأمراء وقدم عليهم الأمير سيف الدين بهادر آص، وتوجهوا في يوم الاثنين ثالث شعبان.

وفي جمادى الآخرة من السنة عاد إلى الأبواب السلطانية بعض العربان الذين توجهوا مع مهنا فأمر السلطان بالإفراج عن إقطاعاتهم وإجرائهم على عاداتهم.

ذكر إبطال مكس الملح بالديار المصرية

وفي العشر الآخر من شهر ربيع الآخر رسم السلطان بإبطال مكس الملح وكتب بذلك مثال شريف سلطاني، وقرىء على المنابر في يوم الجمعة الخامس من جمادى الأولى من سنة عشرين وسبعمائة، وكان المقرر على ذلك جملة كبيرة في كل سنة فبطلت هذه المعاملة، واجتثت من أصلها وسطر الله هذه الحسنة في صحائف حسناته. وفي هذه السنة في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل صاحب اليمن الملك المؤيد هزبر الدين داود بالتقادم والهدايا والتحف، وكان مما أحضروه حمار وحشي أبلق مخططًا قدر البغل لم يصل إلى الديار المصرية مثله فيما سلف فقبلت هديتهم وشملهم بالإنعام السلطاني ثم أعيدوا إلى مرسلهم بما جرت العادة به.

وفي هذه السنة تجهز ركب إلى الحجاز الشريف فيه جماعة من الأعيان وطلبة الحديث وغيرهم والمقدم على الركب بأمر السلطان الأمير جمال الدين عمر بن كراي أحد أمراء العشرات وكان رحيل هذا الركب في السابع عشر من رجب، ووصل إلى

مكة شرفها الله تعالى في يوم الأحد مستهل شهر رمضان، ولم يجدوا في سفرهم إلا خيرًا ورفقًا وتيسيرًا والله أعلم.

ذكر منع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الفتيا واعتقاله بقلعة دمشق

قد قدمنا أن المراسم الشريفة السلطانية كانت قد تقدمت بمنع الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية من الفتيا في مسألة الطلاق وتكررت مرة بعد أخرى، ثم اتصل بالأبواب السلطانية أنه لم يمتنع عن ذلك فلما كان في بكرة نهار الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب سنة عشرين وسبعمائة عقد المجلس بدار السعادة بدمشق بحضور نائب السلطنة، وقضاة القضاة الأربعة وجماعة من الأعيان، وحضر الشيخ تقي الدين وسئل عن فتياه في مسألة الطلاق، وأن المراسيم الشريفة السلطانية تكررت بمنعه من ذلك وهو يفتي بها، فأنكر أن يكون أفتى بها بعد المنع فحضر خمسة نفر ذكروا أنه أفتاهم بها بعد ذلك فأنكر وصمم على الإنكار فشهد عليه تقي الدين بن طليس أنه أفتى بها لحَّامًا اسمه قمر، وأن ذلك كان في بستان شرف الدين ابن منجا فقام شرف الدين وعلاء الدين أبناء زين الدين بن منجا ليشهدا بخلاف ما شهد به ابن طليس، فقال قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى لهم: أنتما فاسقان لا تقبل شهادتكما ثم أمر بإخراجهما من المجلس فأخرجا، وقيل للشيخ اكتب خطك أنك لا تفتي بها ولا بغيرها فكتب أنه لا يفتي بها، ولم يكتب بغيرها فأمر قاضي القضاة نجم الدين باعتقاله وحكم بذلك، فقال له: حكمك باطل فإنك عدوي فلم يرجع إلى قوله وحبس بقلعة دمشق واستمر في الاعتقال إلى يوم عاشوراء سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فأفرج عنه حسب الأمر السلطاني، واستمر بداره بدمشق.

ذكر القبض على الأمير علم الدين الجاولي نائب السلطنة بغزة

وفي شعبان سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الجاولي[١] نائب السلطنة ومقدم العسكر بغزة، وكان قد تقدم في الدولة وعظم شأنه وكثرت أتباعه ومماليكه وميز إقطاعه حتى كان فيما قيل ـ يقارب إقطاع نائب السلطنة بدمشق، ولم يكاتب من ديوان الإنشاء بما كان يكاتب به من قبله من النواب،

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٤٢، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٠٩، الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٦.

بل ألحق بنواب الممالك الشريفة في رسم المكاتبة السلطانية وغيرهم وكان قد استأذن على الحج وتجهز لذلك تجهزًا عظيمًا فاتصل بالسلطان عنه من أحد أستاذ دارية المذكور أمورًا أنكرها عليه ونسب إليّ ما لعله بريء منه فأمر السلطان بالقبض عليه وتوجه الأمير سيف الدين الماس الحاجب لذلك وأظهر أنه إنما توجه لزيارة البيت المقدس والخليل صلوات الله عليه وسلامه، ولما عاد من الزيادة قبض عليه وأوقع الحوطة على موجوده، وذلك في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شعبان وجهز إلى الديار المصرية، فلما وصل أمر السلطان بإرساله إلى ثغر الإسكندرية واعتقاله، فأرسل من وقته واعتقل بالثغر وكان أحسن الله عاقبته كثير الصدقة على الفقراء المقيمين بغزة والواردين إليها وغيرهم ممن هو بالقدس الشريف وحرم الخليل صلوات الله تعالى عليه وأثر بتلك الجهات أثارًا حسنة، فانقطع كثير من الفقراء بسبب اعتقاله، عامله الله تعالى بلطفه وبمنه وكرمه.

ذكر إبطال المعاملة بالفلوس عددًا بالديار المصرية وبيعها بالرطل

وفي هذه السنة في مستهل ذي الحجة رسم بإبطال المعاملة بالفلوس عددًا وكانت المعاملة بها حسابًا عن كل درهم ثمانية وأربعين فلسًا، وكان سبب ذلك أنها كثرت في أيدي الناس وهم يتعاملون بها عددًا على العادة فضربها الزغلية[1] وخففوها إلى أن صار كل ستة فلوس منها زنة درهم، وكان السلطان قبل ذلك قد رسم بإبطال المعاملة في الشام بالفلوس على ما كانوا يتعاملون بها بينهم بالقراطيس والقرطيس ستة فلوس عدد أخفافًا، وكان الناس يتعاملون بها بالشام حسابًا عن كل درهم أربعة وعشرون قرطاسًا، فأبطلها السلطان وأمر بضرب فلوس جدد ناصرية، زنة كل فلس بها درهم وتعامل الناس بها بالشام على عادة الديار المصرية كل ثمانية وأربعين فلسًا بدرهم فنقل الناس تلك الفلوس الخفاف من الشام إلى الديار المصرية وخلطوها مع فلوس المعاملة، فخرجت فيها وتمادت عليها الأيام إلى أن كثرت وقلت الأولى، فتوقف الناس في المعاملة بها وتزايد الأمر إلى أن غلقت الدكاكين وارتفعت الأسعار وتضاعفت، وكان السلطان قد توجه إلى الصيد بجهة الصعيد، ووصل إلى الأعمال القوصية، فلما عاد أنهى إليه حال الناس ووقوف معائشهم فأمر بإبطالها عددًا وأن تدور بين الناس بالميزان حسابًا عن كل رطل بالمصري ثلاثة دراهم، وأمر بضرب

(١) الزغلية: هم مزيفو النقود. من الزَّغَل: وهو الغش.

فلوس جدد بدار الضرب عليها اسم السلطان وتاريخ ضربها زنة كل فلس منها نصف وربع وثمن، وأن يتعامل الناس بهذه الجدد عددًا على العادة فمشت معائش الناس في شهر ذي الحجة لكن غرم الناس جملة كثيرة فيما بين العدد والميزان، فكان الرطل منها إذا عد يكون سبعة دراهم عددًا أو أكثر من ذلك وأقل ثم كان من أمر وقوفها ما نذكره في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وما بعدها.

ذكر خبر الحاج في هذه السنة

في هذه السنة وقف الناس بعرفة في يوم الجمعة بغير خلاف بينهم وحج من الديار المصرية خلق كثير فكانت الركوب التي خرجت من الديار المصرية سبعة وهم ركب توجه في شهر رجب كما تقدم وأربعة ركوب في شوال على العادة صحبة المحمل، رحل الركب الأول منهم في يوم الاثنين سادس عشر شوال من بركة الجب، وآخرهم في يوم الجمعة وتوجه نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرغون بجماعة في ذي القعدة وسبق الناس إلى مكة شرفها الله تعالى وتوجه القاضي فخر الدين ناظر الجيوش في جماعة معه من مصر إلى البيت المقدس ومنه إلى مكة شرفها الله تعالى وتوجه من جهة البحر من ثغر عيذاب خلق كثير واجتمع بالموقف بعرفة ما يزيد على ثلاثين ركبًا، ووصل ركب العراق إلى مكة وفيه خلق كثير وجماعة من أمراء التتار ومحمل من جهة الملك أبي سعيد بن خربندا، عليه غشاء أطلس، مرصع بأنواع الجواهر واليواقيت واللآلىء والزمرد، وكان إذا وضع عن ظهر البختي ضرب عليه جسر عظيم واحتفال كثير، وكان مع أمراء الركب العراقي صناجق سلطانية ناصرية وصناجق عليها رقوك[1] الأمراء فجعل المحمل العراقي وصناجقهم، خلف محمل السلطان وصناجقه، ومحمل صاحب اليمن خلف محمل العراق، وكانت عادة الركب العراقي إذا قصد الحج ومر أهله على منازل العربان يأخذون منهم خفرًا جملة من الأموال فلما وصل هذا الركب والمحمل في هذه السنة ومروا على تلك الأعراب دفعوا إليهم ألف دينار وخمسمائة دينار فامتنع العربان من تمكينهم من العبور إلا بثلاثة آلاف دينار فقالوا: نحن إنما جئنا بأمر السلطان الملك الناصر صاحب الديار المصرية والحجاز وكتابه إلينا فأعادوا عليهم الذهب وقالوا إذا كنتم جئتم بأمر السلطان فلا نأخذ

(١) رقوك: كذا بالأصل، ولعلها «رنوك»، وهي جمع «رنك» وهو لفظ فارسي معناه اللون، وقد استعمل في مصطلح المؤرخين بمعنى الشعار الذين يتخذه الأمير عند تأمير السلطان علامة على وظيفة الإمارة التي يعين عليها (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٦٣).

منكم خفرًا ومكنوهم من الجواز بغير شيء فلما اتصل ذلك بالسلطان أحسن إلى تلك الطائفة من العربان وأثابهم على ذلك بجزيل الإنعام والخلع السنية.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الفقيه العالم القاضي زين الدين أبو القاسم محمد ابن الشيخ علاء الدين محمد بن الحسين بن عتيق بن عبد الله بن رشيق المصري المالكي[١] وكانت وفاته بمصر في ليلة الجمعة الحادي عشر من شهر المحرم سنة عشرين وسبعمائة ودفن في يوم الجمعة بتربتهم بالقرافة الصغرى، وكان من فضلاء المالكية وأعيانهم ومفتيي المذهب ولي القضاء بثغر الإسكندرية نحو اثنتي عشرة سنة، وولي مرة نحو سنة قبل ولاية القاضي شرف الدين بن الرفقي ولما عزل من الثغر عاد إلى مصر فكان بها إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي شيخنا المحدث الفاضل العدل شرف الدين يعقوب ابن الشيخ الإمام المقري جمال الدين أحمد بن يعقوب بن عبد الله الحلبي، المعروف بابن الصابوني، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رجب من هذه السنة، ودفن من يومه بمقبرة باب النصر، رحمه الله تعالى وليس هو من بني الصابوني وإنما عرف بذلك لتربية الشيخ جمال الدين بن الصابوني له، وكان قد تزوج خالته ورباه وقرأ عليه شيئًا من الحديث ولازمه فعرف به، وغلبت عليه هذه النسبة.

سمعت عليه رحمه الله تعالى كتاب السنن لأبي داود وسليمان بن الأشعث السجستاني بالقاهرة بالمدرسة الناصرية بقراءة ولده الشيخ جمال الدين أحمد في جماعة.

وسمعت عليه أيضًا وعلى الشيخ زين الدين أبي محمد عبد الحق بن فتيان بن عبد المجيد القرشي جمعا كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ بسندها إلى مؤلفه القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، وذلك بالمدرسة الناصرية أيضًا بقراءة الشيخ شهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسين الهكاري، في مجالس ثمانية آخرها في اليوم الثاني عشر من شعبان عام ثمانية وسبعمائة، وتوفي القاضي زين الدين أبو بكر بن بدر الدين نصر بن شمس الدين الحسين الأسعردي وكيل بيت المال بالديار المصرية وناظر الحسبة بالقاهرة وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان وكان كثير السكون والعقل رحمه الله تعالى وإيانا.

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥، الدرر الكامنة ٤/ ١٧٤.

ذكر إراقة الخمور بالمدينة السلطانية وتبريز وغيرها من ممالك التتار

وفي العشر الأول من شعبان أمر أبو سعيد بإراقة الخمور فأريقت، وكان سبب ذلك أنه وقع في شهر رجب بالمدينة السلطانية برد كبار وزنت واحدة منها فكانت ثمانية عشر درهمًا، وأهلك ذلك مواشي كثيرة، وأعقبه سيل خيف منه على البلد، واشتد الخوف ولجأ الناس إلى الله تعالى ثم سلم البلد فسأل الملك أبو سعيد الفقهاء عن سبب ذلك، فقالوا: من الجور والظلم، وإظهار الفواحش، وأنه بالقرب من المساجد والمدارس والخوانق خمارات وحانات، فأمر بتبطيل الخمارات والحانات في سائر مملكته، وأبطل مكس الغلة، ورسم على الخمارين بالمدينة السلطانية، وألزموا بإحضار الخمور في الظروف إلى تحت القلعة، وأحضرت، فاجتمع منها أكثر من عشرة آلاف ظرف ولما كمل جمعها حضر الوزير تاج الدين علي شاة راجلًا وأعوانه، وخواص الدولة معه، وأريقت الظروف جميعها في الخندق، ثم أحرقت الظروف وبقيت النار تعمل فيها يومين ـ نقلت ذلك من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي المترجم بالمقتفي، وقال فيه: حكى ذلك تاجر موصلي، حضر الواقعة قال: وسافرت بعد ذلك إلى تبريز، فرأيت الخمور مراقة في الأزقة وقد فعل من ذلك بتبريز دون ما فعل بالسلطانية.

قال: ثم قدمت الموصل فرأيت الذي فعل بها من ذلك دون ما شاهدته بمدينة تبريز بكثير.

نجز الجزء الثاني والثلاثون
من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب
والحمد لله وحده وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

فهرس المحتويات

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

الجزء الثالث والثلاثون

تحقيق

الأستاذ ابراهيم شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه توفيقي

ذكر وصول أوائل الحاج الذين وقفوا بعرفة في سنة عشرين وسبعمائة

واستهلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة بيوم السبت المبارك، وفي أول ليلة يُسْفر صباحُها عن يوم الاثنين الثالث من المحرم من هذه السنة وصل إلى مصر المحروسة القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة الإسلامية من الحجاز الشّريف بعد أن وقف بعرفة في يوم الجمعة، ولم يبلغنا أن أحدًا ممن وقف بعرفة وصل في مثل هذا التاريخ، وكما وصل الأمير شمس الدين آقْسُنْقُر الناصري شادّ العمائر[1] من الحجاز في سابع المحرم سنة تسع عشرة وسبعمائة ـ كما تقدم ـ استعظم الناس ذلك، وكان الناس قبل ذلك إذا أسرع من يحضر منهم بالبِشَارة يصل يوم عاشوراء.

ولما وصل القاضي شمس الدين توجَّهْتُ إليه، وسلَّمْت عليه، وسألْتُه عن خبر سفره في ذهابه وإيابه، فأخبرني أنه ركب من داره بمصر المحروسة في سادس عشر شوال سنة عشرين وسبعمائة، وتوجه إلى زيارة الخليل عليه الصلاة والسلام، فزاره، وتوجه إلى بيْت المَقْدس، وأقام به أيامًا، وأحرم من بيت المَقْدِس، ووصَل مكّةَ شَرَّفها الله تعالى، فأقام بها شهرًا كاملاً، ووقف يوم الجمعة بعرفة، وتعجَّل من مِنى في يوم الاثنين ثاني عشر من ذي الحجة، ووصل إلى المدينة النَّبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ في يوم الجمعة السادس عشر من الشهر، فصَلَّى الجمعة،

---

(١) شدّ العمائر: وموضوعها أن يكون صاحبها متكلمًا في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وهي إمرة عشرة (صبح الأعشى ٤/ ٢٣).

وخرج منها في يوم السبت السابع عشر، وساق على الدَّرْب الشامي مراحل، ثم عطف إلى أيْلَة، ومنها إلى مصر، فكانت مدةُ مسيره من مِنى إلى مصر واحدًا وعشرين يومًا، منها مُقامه بالمدينة النبوية ـ شرفها الله تعالى.

ومع هذا السَّوْقِ الشَّديد، والسّير العنيف، كان من خبره عند وصوله إلى منزله أنه طلب المُيَاومات التي أُنفقَت في غَيْبَته، مما يتعلق بالجيوش، فتصفحها، وتأملها، وشطب منها على حسابه ما يحتاج إلى شطبه، ثم ركب في الثلث الأخير من الليلة المذكورة إلى قلعة الجبل المحروسة، وجلس على بابها إلى أن فتحت بعد طلوع الفجر، ودخلها، وانتهى إلى الأبواب السلطانية، فدخل بعض الجَمَدارية[1] إلى السلطان وأخبره بوصوله، فأنكر السلطان ذلك؛ لخروجه عن العادة. فأعيد عليه القول أيضًا بوصوله، ثم قيل له: إنه قد وصل إلى الباب الشريف، فأذن له، وعجب من سرعة وصوله، وجلس بين يدي السلطان، وباشر وظيفته على عادته لوقته، ثم خُلع عليه في اليوم الثاني من مقدمه. وتأخر وصول نائب السلطنة إلى يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر المحرم، وهذا السوق الذي ساقه القاضي «فخر الدين» ما ساقه حاجّ قبله.

وأما غير الحاج، فبلغني من الثقات أن الشيخ شرف الدين بن القسطلاني ـ رحمه الله تعالى ـ لما أرسله الشريف الأمير نجم الدين أبو نمي أمير مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ منها إلى السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون، وصل إلى قلعة الجبل المحروسة في اليوم الثالث عشر من يوم مسيره من مكة، واجتمع بالسلطان، وقرأ كتابه، وكتب جوابه في يومه. وسأله السلطان عن راحلته: هل يعود عليها إلى مكة؟ فقال: إنها خَلأت[2]، فأمره السلطان أن يختار لنفسه راحلة من الهُجُن السلطانية، فاختار منها هجينًا، وترك راحلته، وركب وعاد في بقية يومه إلى مكة شرّفها الله تعالى بعد مضي اثني عشر يومًا، فكانت مدة غيبته عن مكة منذ ركب منها إلى أن عاد إليها ثلاثة وعشرين يومًا كوامل، ويوم خروجه منها، ويوم دخوله إليها، وهذا ما لم يسمع بمثله، ولا استطاعه أحد قبله، والله أعلم.

---

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وهي كلمة فارسية مركّبة من لفظين: أحدهما: «جاما» ومعناه الثوب، والثاني: «دار» أي ممسك، وأصل الكلمة: جامادار. وكانت تستعمل في العصرين السلجوقي والمملوكي، ويقابلها في العصر العثماني لفظ «الجوخدار» وهو موظف غير عسكري يناط به النظر في شؤون ملابس السلطان (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٧١، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٩٠).

(٢) خلأت الناقة: إذا بركت ولم تقم، أو حرنت من غير علة.

ذكر إبطال المعاملة بالفلوس العتق[١]، بالقاهرة ومصر، وأعمال الديار المصرية

قد ذكرنا إبطال المعاملة بالفلوس عددًا واستقرارها حسابًا عن كل رطل ثلاثة دراهم، وفي يوم الاثنين العاشر من المحرم توقف أرباب المعايش عن المعاملة بها بهذه القيمة لكثرتها، فرسم بالمعاملة بها حسابًا عن كل رطل درهمين ونصف درهم، فتعامل الناس بها، ثم توقفوا فيها، فلما كان يوم الجمعة الحادي والعشرين من المحرم نودي في المدينتين بالأمر السلطاني بإبطال المعاملة بالفلوس العتق، وأن تكون المعاملة بين الناس بفلوس جدد أمر بضربها بدار الضرب فاضطرب الناس لذلك اضطرابًا شديدًا، وأغلق كثير من أرباب المعايش حوانيتهم. وأبيعت الفلوس في بقية يوم الجمعة، وبكرة نهار السبت كل رطل منها بدرهم واحد ونصف درهم. ووقفت معايش الناس، فإنه لم يكن قد ضرب من الفلوس الجدد الناصرية ما يدور في أيدي الناس. ونودي في المدينتين في بكرة نهار السبت أنه من كان عنده شيء من الفلوس يحمله إلى دار الضرب، ويأخذ ثمنه حسابًا عن كل رطل درهمين، هذا والناس يتعاملون بها فيما بينهم على حسب اتفاقهم بدرهم ونصف، وأقل منه، وأكثر، وأحوال الناس في المعاملة بها على غاية الاضطراب، ثم رسم بالمعاملة بها الرطل بدرهمين، والفلوس الجدد عددًا على العادة القديمة، وخرجت الفلوس الجدد من دار الضرب، وعلى أحد وجهيها اسم السلطان، وعلى الوجه الآخر مثال بقجة مربعة، وزنة كل فلس منها نصف وربع وثمن درهم، فتعامل الناس بذلك إلى شهر رجب من هذه السنة، إلى أن كثرت الفلوس الجدد، وضربها الزغلية[٢]، وخففوا وزنها، فصار الفلس منها زنة نصف درهم، ونحو ذلك، فعاد الناس وتوقفوا في أخذها، فرسم في يوم السبت السادس والعشرين من شهر رجب بالمعاملة بالفلوس الجدد والعُتُق، الرطل بدرهمين ونصف، واستمرت الحال إلى سادس المحرم سنة أربع وعشرين وسبعمائة على ما نذكره.

---

(١) الفلوس العتق: كانت الفلوس في مصر على نوعين: أحدهما المطبوع بالسكة، وثانيهما غير المطبوع، وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأصفر أو الأحمر ويعبر عنها بالعتق. والفلس لفظ يوناني معرب، وقد أخذته اليونانية قبلاً عن اللاتينية، ومعناه: كيس النقود، وكذلك يقال عن الدراهم فقد أخذها العرب عن الفارسية «Diram» وهو يوناني في الأصل (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٦٣).

(٢) الزغلية: هم مزيفو النقود، من زَغَل، أي غشّ.

ذكر وصول هدية الملك أبي سعيد بن خربندا[١] ملك التتار إلى الأبواب السلطانية

وفي هذه السنة وصل مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السَّلامي التاجر إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد، وعلى يده كتاب الملك أبي سعيد ملك التتار، ثم وصلت الهدية في يوم السبت التاسع والعشرين من المحرم من هذه السنة إلى قلعة الجبل، وهي ختمة شريفة ستون جزءًا كبارًا، وخَرْكاه[٢] عظيمة مُكلّلة، وغير ذلك من التحف الجليلة والنفائس، فقبلت الهدية، وجهز السلطان له هدية تليق به.

ذكر تفويض نظر أوقاف الجامع الطولوني للقاضي كريم الدين وكيل الخواص الشريف

وفي شهر ربيع الأول فوّض السلطان نظر أوقاف الجامع الطولوني الذي هو بظاهر القاهرة المحروسة للقاضي كريم الدين عبد الكريم ناظر الخواص الشريفة السلطانية ووكيلها، كان النظر في ذلك على شرط الواقف لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، وكان بيده من سنين كثيرة، فرفعت يده الآن عنه.

وكان سبب ذلك أن الوقف ضاق ريعه عن المرتب عليه، فأراد قاضي القضاة اختصار بعض المرتَّبين، ليتسع الريع على من بقي، وعزم على قطع درس الطب وغيره، فقام في ذلك مدرس الطب بالمكان، وهو علم الدين الشوبكي[٣]، وسعى في مباشرة الوقف، ووقع في ذلك تشنيع كثير، وشكاوى ممن حصل الغُرم على توفيرهم، واتصلت الشكاوى بعلم السلطان، ففوّض النظر فيه وفي أوقافه لوكيله المشار إليه، ففعل في أمر الوقف ما لا يتمكن القاضي بدر الدين من فعله ولا يمكِنه، وذلك أنه نجّز توقيعًا شريفًا سلطانيًا بمسامحة الوقف بما على ناحية «منية اندوانة» من عمل الجسور السلطانية وغيرها مما كان يحمل إلى بيت المال، وهو في السنة نحو

---

(١) هو أبو سعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، ملك التتار (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٧٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٧).

(٢) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/ ١٤٦).

(٣) علم الدين الشوبكي: هو توما بن إبراهيم الطبيب، كان من أطباء السلطان الناصر (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٢٨).

عشرة آلاف درهم، ووفر جامكية[١] جماعة من المباشرين بشرط الواقف، وتقديرها نحو ذلك، واسترجع جهات من الوقف كانت مؤجَّرة بأجاير شرعية، فأخذها ممن هي في يده بالإيجار الشرعي، وحماها فتميز ريعها، وتحدّث مع السلطان في عمارة الجامع من أموال الخاص، فرسم بذلك، فعمر، ووقف السلطان عليه وقفًا من جهته، وحمى أوقافه المسقفة، ونقل السكان إليها، فحصلت الزيادة فيها جملة في كل سنة، فاتسع المال بهذه الأسباب، وفاض المتحصل عن كفاية المرتبين عليه، وعلم القاضي كريم الدين أنه لا يستحق جامكية النظر التي شرطها الواقف للناظر، وهي في كل شهر أربعمائة درهم، فامتنع من أخذها، وبعثها إلى قاضي القضاة بدر الدين، فردّها ولم يقبلها، فتوفرت هي وجامكية نيابة النظر، وهي في كل شهر مائة درهم، وكان قد تأخر في مدة قاضي القضاة للمدرسين والمعيدين والطلبة خمسة أشهر، فامتنع كريم الدين من صرف ذلك إليهم، لاستقبال مباشرته، واستمر الصرف لهم كل شهر في مستهل الشهر الذي يليه.

ذكر حفر البركة الناصرية

وفي هذه السنة أمر السلطان الملك الناصر بحفر بركة بخط الزهري ظاهر القاهرة المحروسة مساحتها سبعة أفدنة وأن يجري الماء إليها من نهر النيل المبارك، وأن يحكّر ما حولها بنسبة بركة الفيل وغيرها من البرك، وكان في جملة هذه الأرض سبعة أفدنة جارية في وقف، فأمر السلطان وكيله باستئجارها للسلطان بأجرة معلومة، وكانت أرض هذه البركة قبل ذلك مقاطع يقطع منها الطين الإبليز برسم العماير، ثم رمى الناس فيها زبايلهم، فصار في مواضع منها كيمان كثيرة، وفي بعضها حُفر من آثار القطع، ورسم السلطان أنه مهما قطع من أتربة تلك البركة يرمى في البركة المجاورة للميدان التي هي مقاطع الطين الإبليز، وأن يُمهد ويضاف إلى الميدان توسعة له، فحصل الشروع في حفرها في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول، ورسم للأمراء بحفرها، فوزعت عليهم على قدر مراتبهم، وندب الأمراءُ أجنادهم، والأجنادُ غلمانهم، وعملوا بأنفسهم وبأتباعهم، وأخرج كل أمير صَنْجَقَة[٢]

---

(١) الجامكية: من الفارسية، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٩).

(٢) الصنجق: من الأعلام، وهي على ثلاثة مراتب: الجاليش، والصنجق، والراية (صبح الأعشى ٥/٤٥٨).

وطبلخاناه[١]، وجماله وبغاله، واهتمُّوا بحفرها اهتمامًا عظيمًا، ورتّب السلطان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب مُشِدًّا على حفرها، فنزل بها ولازمها، إلى أن كمل حفرها، ونُجزت في أقرب مدة.

وفي أثناء حفر هذه البركة وقعت حادثة الكنايس، وكان بسبب ذلك من الحوادث ما نذكره إن شاء الله.

ذكر حادثة الكنايس

وفي يوم الجمعة ـ بعد الصلاة ـ التاسع من شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة اجتمع جماعة من الغلمان والعوام والفعلة، الذين كانوا يحفرون البركة المستجدة الناصرية، وتقدموا إلى كنيسة كانت مجاورة للبركة المذكورة، وارتقوا عليها، وحُركت طبلخاناة الأمراء حربيًا، فكان ذلك على صفة الزحف، فهدمها أولئك، ولم يتمكن الأمير ركن الدين بيبرس المندوب لحفر البركة، ولا الأمير شهاب الدين أحمد بن المَهْمَنْدار[٢] أمير النقباء من ردِّهم، ولا قدروا على منعهم لكثرتهم، ونهبوا ما كان في الكنيسة بعد تشعيثها بالهدم، وكسرت أبوابها وما كان بها من الأواني، وأريق ما بها من الخمور.

---

(١) الطبلخاناه: معناه: بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم (صبح الأعشى ٤/ ١٣).

(٢) المهمندار: هذا اللفظ مركب من لفظين فارسيين أحدهما: مهمن، بفتح الميمين، ومعناه الضيف، والثاني: دار، ومعناه ممسك. والمعنى إجمالاً: القائم على أمره (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٣٣٤).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠: «النائب» والمراد نائب صاحب الباب المعبَّر عنه في زماننا بالمهمندار. قال ابن الطوير: ويعبّر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفة. قال: وهي رتبة جليلة، يتولاها أعيان العدول وأرباب الأقلام، وصاحبها ينوب عن صاحب الباب في تلقّي الرسل الواردين على الخليفة على مسافة وقفة نوّاب الباب في خدمته. ويُنزل كلاً منهم في المكان اللائق به، ويرتب لهم ما يحتاجون إليه، ولا يمكّن أحدًا من الاجتماع بهم، ويتولى افتقادهم، ويذكّر صاحب الباب بهم، ويسعى في نجاز أمرهم، وهو الذي يسلّم بهم على الخليفة أو الوزير ويتقدمهم ويستأذن عليهم، ويدخل الرسول وصاحب الباب قابضٌ على يده اليمنى، والنائب قابضٌ على يده اليسرى فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم، ويجتهد في انفصالهم على أحسن الوجوه، وإذا غاب أقام عنه نائبًا إلى أن يعود، ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمةً ولا طُرفة إلا بإذن. قال ابن الطوير: هو المسمى الآن بالمهمندار.

ولما اتصل خبر هدمها بالسلطان غضب، لانتهاك حرمة السلطنة، وتجرّي العوام وإقدامهم على هذا الأمر، ثم لم يكتفِ العوام بذلك إلى أن تقدموا إلى عدة كنايس، بالقاهرة ومصر، فنهبوها، ونبشوا قبور بعض أموات النصارى وحرقوهم، وشعّثوا الأبنية، واجتمع بعض عوام مصر، وتوجهوا إلى الكنيسة المعلّقة، وقصدوا هدمها، فما مُكِّنوا من ذلك، فاشتد حرج السلطان، وأمر بالقبض على من أقدم على ذلك، فمُسك بعض العوام وحُبسوا، واستفتى السلطان القضاة فيما يلزم هؤلاء الذين انتهكوا الحرمة، فأفتوه بتعزيرهم بحسب رأي الإمام، فضُرب بعضهم، وشقّ مناخير بعض، وأخرج من الاعتقال من أرباب الجرائم من وجب عليهم القتل، فوسّط منهم جماعة، وعلقوا في أماكن تخويفًا للعوام، ثم أعقب هذه الحادثة من الفتن ما نذكره.

ذكر خبر الحريق بالقاهرة ومصر

لما وقع ما ذكرناه من هدم الكنائس، وقع أثر ذلك الحريق بمصر المحروسة، فكان أول ذلك أن احترقت دار الوكالة بالقاهرة في شهر ربيع الآخر، وهي التي عند باب البحر، وتعرف بفندق الخَزّ، فاحترق فيها متاجر الناس من الزيت والعسل والأصناف، فعدِم لهم جملة كثيرة، وظن الناس أن ذلك عن غير قصد، وأنها إنما احترقت على جاري العادة في وقوع النيران في أماكن على سبيل الغلط وعدم التحفظ والاحتراز، ثم سكن ذلك إلى يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأولى، فوقع الحريق في القاهرة ومصر، وكان أول الحريق بخط حارة الدَّيلم، فاحترقت دار الشريف بدر الدين نقيب الأشراف، وما يجاورها من دور الأشراف والمسلمين، فكان جملة ما احترق من الدور المتجاورات ما ينيف على ثلاثين دارًا يقارب المائة مسكن، واشتدت النار وعظمت، واستمرت بذلك المكان أيامًا، وخيف أن تتصل بدار «القاضي كريم الدين» ناظر الخواص السلطانية ووكيلها، وبها أموال السلطان والأقمشة وغير ذلك من التحف، وهو يوم ذاك بثغر الإسكندرية، فرسم السلطان بركوب الأمراء لذلك، فحضر الأمراء وغلمانهم، والسقائين والقصارين وغيرهم، وركب نائب السلطنة والحجاب وأمير جاندار[1]، وغيرهم من أعيان الأمراء، واجتهدوا في أمر النار إلى أن

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما: جان، ومعناه السلاح، والثاني: دار، ومعناه: ممسك. ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠ حاشية (١): أن الكلمة فارسية مركبة من «جان» ومعناها الروح، و«دار» بمعنى حافظ، والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس.

طفيت، بعد أن هُدم وعُدم بسببها من الدور والأموال والأقمشة والأصناف ما لا تحصى قيمته.

واختلفت الأقاويل، فقائل يقول: إنها من السماء، وقائل يقول: لعلها من قبل الملوك والأعداء، وآخر يقول: إنما فعله البطّالون[١] من الجند والحرافيش[٢] لقصد النهب، وقائل يقول: إنما هو من فعل النصارى. وترادف الحريق، وتوالى، فاحترقت عدة دور من مساكن الأمراء، وكانت النيران تقع في أعالي الدور والباذَهَنجات[٣]، فاحتفل الناس لذلك وتأهبوا، واستكثروا من الدِّنان والخوابي، وملئُوها ماء، ووضعوها في الطرقات وعلى أبواب الحوانيت والأسواق والقياسير والاصطبلات والدروب والدور، والحريق لا يفتر، وهو لا يقع غالبًا إلا في النهار، وصار الناس يسهرون طول الليل بالنوبة، خصوصًا على دور الأمراء، فإن مماليكهم وغلمانهم كانوا يبيتون على أسطحة دورهم، ويضربون الطبول بازات، ويصرخ بعضهم لبعض، وامتنع كثير من الناس من حضور الجمعة لملازمتهم أسطح بيوتهم.

ولقد صلّيت في بعض الجمع بالجامع الحاكمي مع أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف، وكانت عادته أن يصلي معه من مماليكه وألْزَامه جماعةٌ كثيرة، فرأيت الذين حضروا إلى الجامع نحو الربع ممن كان يحضر، فسألته عن سبب تخلُّفهم عن الحضور، فأخبرني أنه تركهم لحراسة داره خوفًا أن تقع النار فيها، فيتداركوها بالإطفاء قبل تمكُّنِها.

فلما كان في يوم الخميس العشرين من الشهر وُجد ثلاثةٌ من النصارى في حارة العطوف، وقد رموا نارًا في بعض الدور، فما شكّ الناس عند ذلك أن الحريق من النصارى، وانتقلوا من الظن والاختلاف إلى اليقين والإجماع، وضرب هؤلاء وقُرِّروا، فاعترفوا بالحريق، ثم اعتنى بهم، فقيل: إنهم من الفلاحين، وإنهم لم يفعلوا ذلك،

---

(١) البطّال أو الطرخان: هو اصطلاح مملوكي يقصد به الذي يعيش من إقطاعه فقط. وكانت الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية، وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم يعدد فيها من مزاياهم واستحقاقهم (صبح الأعشى ٤٨/١٣ ـ ٥١، ٥٢، ونزهة النفوس ٤٩/١، ١٦٢).

(٢) الحرافيش: هم العامة والرعاع.

(٣) الباذهنجات: من الفارسية: باذ وآهنج أي ساحب الهواء، أو مدخله، وهي نافذة أو فتحة للتهوية (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٣٥).

وإنما أقرُّوا لما حصل لهم من ألم الضرب، فأطلقوا، هذا والسلطان ينكر أن يكون ذلك من فعل النصارى؛ لما يُلقيه إليه من له اعتناء خاص بهم، ويقول المعتنى بهم: النصارى أضعف أبدانًا وقلوبًا من الإقدام على هذا الأمر الكبير، ويستدلون على ذلك ويوجهونه، فيقولون: إن النار غالبًا إنما تقع في رؤوس الباذْهَنْجات، وأعالي الدور، ودور أكابر الأمراء، ومن أين يصل النصارى إلى ذلك؟ فيرجع السلطان إليهم، ويقول: هذا لا يتوصل إليه إلا بالنُّشّاب، وأشاع بعضهم أنه رأى بعض الجند بمصر يرمي النشاب إلى بعض الدور، وأن السهم لما أبعد عن القوس وأصابه الهواء أورى نارًا، وكان السلطان قبل ذلك قد عرض جماعة من الجند، وقطع أخباز جماعة منهم نحو السبعين، واعتقلهم بخزانة البنود لما بلغه عنهم من اللعب والتفريط في إقطاعاتهم، وصرفها في المحرَّمات، فكان اعتقالهم لطفًا بهم، ولو كانوا في بيوتهم ما شكّ السلطان أن هذا من فعلهم، ثم أمسك في يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر أربعة من النصارى الروم المَلْكِيين(١) فاعترفوا أنهم أحرقوا الدور والأماكن، ولم يتحاشَوا ولا توقفوا، بل أقروا بذلك من غير ضرب ولا تهديد، وقالوا: نحن فعلنا هذا في مقابلة هدم كنائسنا، ونحن جماعة خرجنا عراة، واعترفوا على رُهبان دير البغل، فأنهى إلى السلطان أن هؤلاء من النصارى العرب الملكيين، وأنهم ليسوا من اليعاقبة(٢) الذين هم نصارى البلاد، وإنما فعل هؤلاء هذا لجهلهم، وحسَّن من له اعتناء باطن بالنصارى وميل إليهم أن يأمر بقتلهم، وإنما قصد تعجيل إعدامهم خشية أن يُقرُّوا على غيرهم، فأمر السلطان بهم، فحُرقوا في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، والسلطان بالميدان.

---

(١) الملكيون: أو الملكانيون: طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي، سمّوا بالملكيين لأنهم أيدوا قرار خلقيدونية سنة ٤٥١م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية، ومنهم الروم الكاثوليك الذين يعترفون برياسة بابا روما، والأرثوذكس الذين لا يعترفون بهذه الرياسة (الموسوعة العربية الميسرة ١٧٤٢).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١١/ ٣٨٧: النصارى الملكية هم أتباع ملكا (المقصود الملك مرقيانوس) الذي ظهر قديمًا ببلاد الروم، وأن الروم والفرنج كلهم أتباعه، وبالديار المصرية منهم النزر اليسير، ولهم بطرك يخصهم.

(٢) اليعاقبة: يدور مذهبهم على القول بأن المسيح هو الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح، وأكثرهم يذهب إلى أن المسيح جوهر واحد وأقنوم واحد (الموسوعة الميسرة ١٩٨٢).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١١/ ٣٩٠: اليعاقبة قيل إنهم أتباع ديسقرس، وإنه كان اسمه في الغلمانية يعقوب، وقيل: هم أتباع يعقوب البرذعاني، وجميع نصارى الحبشة أتباعه.

ثم قيل للعوام والناس: هؤلاء الذين كانوا يُحرّقون حرّقناهم، فمن احترقت بعد هذا داره فليمسك جاره ونحن نقابله، فاشتد ذلك على الناس، واستغاث العوام، واتهموا القاضي كريم الدين وكيل السلطان بالاعتناء بالنصارى والذّب عنهم، وكان ذلك يظهر عليه، فلما ركب من الميدان بعد الظهر للانصراف إلى داره شغَب جماعة من العوام عليه، واستغاثوا ورفعوا أصواتهم بسببه، ورجموه بالحجارة والطوب، فعطف نحو الميدان، وركض فرسه وخلص منهم، وأنهى ذلك إلى السلطان، فحرج السلطان حرجًا كثيرًا، واشتد غضبه، وانضاف ذلك إلى ما عنده من الحرج على العوام، فإنه لما كان ركب من القلعة إلى الميدان في بُكرة نهار السبت المذكور استغاث العوامُ والحرافيش، وبلغني من جماعة أنهم رفعوا أعلامًا ثلاثة: أحدها أبيض، والثاني أحمر، والثالث عليه صليب، فتغافل السلطان عن ذلك، ولم يأمر فيهم بشيء، فلما وقع منهم هذا الفعل اشتد غضبه، وجَرَّد جماعةً من الحجّاب والنقباء والمماليك حتى أوصلوا كريم الدين إلى داره.

ثم ذكر السلطان هذه الواقعة لأكابر الأمراء كل منهم على انفراده، فبدأ بالأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري[1]، واستشاره فيما يفعل في ذلك، والمذكور رجل تركي جافي الطبع، عديم السياسة، فقال للسلطان: المصلحة أن السلطان يرسل إلى العوام فيقول لهم: يا خُوشْداشيّة[2] أنتم رعايانا والسواد الأعظم، وإن كنتم قد كرهتم هذا الخنزير عزلناه عنكم، وولينا غيره، ونُطيِّب خواطرهم، فغضب السلطان من كلامه، وشتمه واستقلّ عقله، وسفَّه رأيه، وواجهه بالسب، ونفر في وجهه، وكان من أمره ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

ثم استشار الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي[3] بعده، ولم يعلم ما قاله الأمير سيف الدين المذكور، ولا ما قيل له، فقال: يا مولانا السلطان، الناس قد كرهوا هذين الرجلين ـ يشير إلى كريم الدين الوكيل، وكريم الدين الناظر ـ والمصلحة عزلهما، وصدقات السلطان كثيرة تشملهما في العطلة كما تشملهما في العمل ـ أو

---

(١) سيف الدين بكتمر الأبوبكري: من أمراء السلاح في دولة الناصر، غضب عليه السلطان سنة ٧٢٢هـ فسجنه بالقلعة، فبقي في السجن إلى أن مات سنة ٧٢٨هـ (انظر الدرر الكامنة ١/ ٤٨٢).

(٢) الخوشداش، وخشداش: كلمة فارسية الأصل، أصلها «جوجاناش» ومعناها: الزميل في الخدمة.

(٣) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٣٩٥.

نحو هذا ومعناه من الكلام ـ وإذا عزلهما السلطان سكنت هذه الفتنة، فكره السلطان كلامه أيضًا، لكنه لم يواجهه بما واجه به الأبِي بكري، بل قال له: والله لا بد أن آمر بوضع السيف في العوامّ، وسفك دمائهم، حتى لا يتجرّأ مَنْ بعدَهم من العوام على الملوك.

ثم استدعى الأميرين: سيف الدين بَكْتَمُرَ الحسامي الحاجب كان، وسيف الدين الملك الحاج، وهما من الأمراء الأكابر الخِصِّيصين بخدمة السلطان ويعرفان أخلاقه، ويبتغيان مراضيه، فسايراه بالميدان، فذكر لهما ما فعله العوامُّ بكريم الدين، وقال: هذا الرجل هو وكيلي ووزيري، والمتصرف في دولتي، وحرمته من حرمتي، وقد تجرأ العوام عليه، ورجموه وأخْرقوا حرمته، فما الذي تريان أن أفعله في ذلك؟ فاستعظما فعل العوام، وقالا: لقد وقع العوامُّ في أمر عظيم ما سبقهم أمثالهم إلى مثله، وكان ينبغي أنهم لما فعلوا ذلك أن يُمسك منهم جماعة، ويوقع بهم من النَّكال ما يكُفُّ غيرهم عن التجرِّي والتعدِّي.

فرسم السلطان أن يتوجَّه الحاجب ونقيب النقباء، وجماعة معهم، ويقبضوا على من ظفروا بهم من العوام، فأخبرني الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي المشار إليه قال: والله لما قال السلطان ذلك دخل عليّ وعلى رفيقي من الألم ما عَلِمه الله تعالى، وعلمنا أننا قد تكلمنا بكلام أوجب سفك دماء جماعة من المسلمين، فتلطَّفْنا بالسلطان، وقلنا: إن الذي فعل هذا الفعل، وأقدم على هذا الأمر العظيم علم أنه صاحب ذنب وهرب، واختلط المذنب بالبريء ونخشى أن نُمسك من لا أذنب ولا أقدم على هذا الأمر، فنعاقب البريء بذنب المجرم، فيكون ذلك في ذمة السلطان، ونحن لا نختار هذا، ولكن المصلحة أن يخرج القاضي كريمُ الدين على عادته، وتتفرق جماعة من المماليك السلطانية، فيكونوا بالقرب منه، لعل البعض يتعرض إليه، فيُمسك منهم من فعل ذلك، ويعاقب المذنب حقيقة، ويَسلم البريء، وتبرأ ذمة السلطان، قال: ولم نزل نتلطف به، ونسكن غضبه، إلى أن سكن حرجه بعض السكون.

ولما قرب وقت انصراف السلطان من الميدان أمر الحاجب والنقباء قبل خروجه بضرب العوامّ والحرافيش، وطردهم عن طريق السلطان فيما بين الميدان والقلعة، فطردوا، وركب السلطان إلى القلعة وهو على غاية الحَرَج، والحِدَّة والغضب، وكان قد أمر بالقبض على العوام، فمُسك منهم جماعة كثيرة، فأحضر السلطان القضاة في يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر، واستفتاهم في أمرهم، وأنهم انتهكوا الحرمة،

وتعدَّوْا على وكيله، مع جلالته عنده، ورجموه، فأفتوه بتعزير من ثبت عليه أنه رَجم، فلم يُرضه ذلك، فأمر بقطع أيدي من عُرف بالفساد منهم، فقطعت أيدي أربعة، وجُرِّسوا[١]، ولم يحسم أيديهم، فمات بعضهم، وأمر السلطان أن يقيد بقية من مسك، ويستعملوا في جسور الجيزية، ففعل ذلك بهم، والعوام لا يرتدعون ولا يتركون العاثة.

وفي يوم الأحد المذكور أمسك بالجامع الظاهري ثلاثة من النصارى قد لبسوا العمائم البيض، وتراءوا في زي المسلمين، ودخلوا الجامع، وقصدوا إحراقه، فجيء بهم إلى مُتَوَلّي القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن[٢]، فأنكر على نائبه بالحسينية ـ وهو الذي أحضرهم ـ وقال: من يشهد على هؤلاء أنهم حرقوا؟ وشتمه، وإنما فعل ذلك رعاية لخاطر من يعتني بهم، فتوجه النائب المذكور، وهجم بيوت هؤلاء النصارى الذين وجدوا في الجامع، فوجد فيها آلات الحريق، وفتايل قد عملت بالزيت والكبريت، وغير ذلك من الأصناف المحرقة، فضرب أولئك ضربًا خفيفًا، فاعترف اثنان، وأنكر الثالث، فاعتُني بهم فأُطلقوا، ولم يُنْه خبرهم إلى السلطان، وقرر عنده أنه لم يحرق من النصارى إلا أولئك الغرب الذين حُرقوا، وهو لا يشك في ذلك.

ولما كان في يوم الاثنين الرابع والعشرين من الشهر جلس السلطان بدار العدل على العادة، وحضر القضاة والأمراء وغيرهم على جاري العادة، فاستفتى القضاة في أن يلبس النصارى العمائم البيض على عادتهم القديمة، وقال: هذا إنما جُدِّد عليهم في أيامي، وقد رأيت أن أعيدَهم إلى ما كانوا عليه، فقالوا له: هذه سُنة كانت أُميتت، وقد أحياها الله تعالى في أيام السلطان، ولا ينبغي إزالتُها، وقال له قاضي القضاة، شمس الدين الحنفي: «مذهب أبي حنيفة[٣] أن السلطان إذا قرر شيئًا على

---

(١) جرَّس بالقوم: سمَّع بهم وندَّد، ويقال: جرّس الأمور وجرّسته فعرفها وحنكته، فهو مجرّس، وأصله أن من يشهّر يجعل في عنقه جرس، ويركب على دابة مقلوبًا، أي وجهه لجهة مؤخرة الدابة.

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٧٢.

(٣) أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز مرزبان بن بهرام الإمام الأعظم المجتهد أبو حنيفة الكوفي البغدادي، ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ، وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، توفي سنة ١٥٠هـ. من تصانيفه: «رسالته إلى عثمان البتي قاضي البصرة»، «الفقه الأكبر» وعليه شروح، «كتاب الرد على القدرية»، «كتاب العالم والمتعلم»، «المسند» في الحديث (كشف الظنون ٦/ ٤٩٥).

أهل الذمة فليس له ولا لغيره نقضُه؛ وقرأ له النص في ذلك، فسكت ولم يُرْضِه ذلك.

وكان سبب ذلك أن من له اعتناء بالنصارى حسّن ذلك للسلطان، وقال: إن النصارى يُحَمِّلُون على ذلك مالاً، فتكلم في ذلك فأجيب بهذا الجواب.

ولما انقضى مجلس دار العدل، وانصرف القضاة، وقُدِّم إلى السلطان طعام الطارىء، أخرج الأمير جمال الدين يَغْمور، أحد أستاذداريّة السلطان، من صَوْلَقه فتيلة من الفتائل التي أخذت من النصارى الذين وجدوا بالجامع الظاهري، ورآها الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي[1] أمير جَنْدار[2]، فتقدم بها أمير جاندار إلى السلطان، وعرضها عليه، فسأله عنها، فقال: هذه مما وجد مع النصارى الذين قصدوا إحراق الجامع الظاهري، ولم يكن السلطان أطلع على ذلك، فغضب وسأل عنهم، فقيل: إنهم أطلقوا، فألزم متولي القاهرة بإحضارهم، فأحضرهم، فاعترف اثنان أنهم حَرقوا، وقالوا: إنهم جماعة كبيرة، منهم من يحرق المدينة، ومنهم من خرج إلى الأرياف ليحرق الزروع، وأنكر الثالث، فسلّمه السلطان للأمير سيف الدين «الْدَمُر» أمير جاندار، فقرَّره، فأقر، بالتهديد والتخويف قبل الضرب، واعترف على راهب بالخندق، فما شكّ السلطان عند ذلك في أن الحريق من قبل النصارى اليعاقبة، فغضب عند ذلك، وأنكر غاية الإنكار، ثم قبض على جماعة من النصارى، وجيءَ بهم، وهم يعترفون، ومنهم من اعترف على بعض كُتّاب ومُتَولّي النصارى أنهم أعانوهم بالمال حتى أقدموا على ذلك، فلم يُزادوا على الاعتقال، لتظافر العناية بهم ممن تقدم إسلامه من القِبْط.

فلما كان في يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر جلس السلطان على العادة، وحضر الأمراء وغيرهم إلى الخدمة، فخاطب السلطان أكبار الأمراء في هذا الأمر، وقال: قد قررت على النصارى مضاعفة الجِزْية فيؤخذ منهم جِزْيَتان، وأمر أن ينادى في المدينتين أن يلبسوا الثياب الزُّرْق مضافة إلى العمائم، وأن يشدوا الزنانير فوق ثيابهم، وأن يميِّزوا إذا دخلوا الحمام بجُلْجُل يجعلونه في أعناقهم، وألا يُسْتَخْدَموا في الدواوين السلطانية، ولا في دواوين الأمراء، ولا في الأعمال والبرور، فنودي بذلك.

---

(١) توفي سنة ٧٤٦هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٠٢).
(٢) الجاندار: تقدم التعريف به قبل قليل.

وخرجت الأمثلة الشريفة السلطانية به، وقرئت على المنابر بالمدينتين، وأُنفِذَت إلى العاملين، وتضمن المثال[1] المُجهَّز منها إلى الوجه القبلي الذي قرىء على منابر المدن ما مثاله ـ بعد البسملة:

«الحمد لله مُظْهر هذا الدين المحمدي على كل دين، ومؤيد بنا الإسلام وأهله وما حق بنا المشركين، الذي قهر بتأييدنا جميع الأعداء، وحقن بعفونا وحلمنا دماء الكافرين، نحمده على ما أولانا من فضله العميم، ونصره المبين، ونشكره شكرًا نستزيد به من كرمه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصة باليقين، ونشهد أن سيد البشر محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء الذين أرسلهم إلى العاملين، وأن عيسى ابن مريم عبده ورسوله الذي بشر بمبعثه، وآمن برسالته قبل ظهور دينه المبين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خصوصًا على مؤيد شرعه أول خلفاء المسلمين، وعلى من فتح البلاد، وضرب الجزية على أهل الكتاب في كل ناد، وأعلن بالتأذين، وعلى من جهز جيش العسْرة وثوقًا بضمان سيد المرسلين، وعلى مُمَزِّق جموع الكفر وجامع شملِ المسلمين، صلاة باقية مستمرة إلى يوم الدين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: فإن الله تعالى لما أقامنا لنصرة الإسلام وأهله، وصرفنا في عقد كل أمر وحَلِّه، وأيّدنا بنصره وعصمنا بحبله، لم نزل نعلي كلمة الإيمان، ونُظهر شعائر الإسلام في كل مكان، ونقف عند الأوامر الشرعية، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى، وكَلِمَة الله هي العليا، وكان جماعة من مفسدي النصارى قد تعدُّوا وطمعوا، وتمادوا في المخالفة إلى ما يقتضي نقض العهود، وبغوا ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح:

---

(١) المثال: أمر دون الفرمان والمنشور، استعمله سلاجقة الروم وكان للوزير عندهم الحق في إصدار المثالات، واستعمله أيضًا الإيلخانيون، فقد كانت المثالات من المحررات التي تعد في ديوان الرسائل، وكان المثال في العصر المملوكي أمرًا يصدر عن ديوان الجيش، بمنع أقطاع أو بتحويله أو بإعادته أو بزيادته. والظاهر في أصل التسمية أنه كان يحرر بترتيب خاص. فمثلًا: كان يعبر عن الإقطاع بكلمة «خبز»، وتكتب في سطر واحد، ثم تكتب بقية الكلام في سطر ثان، ثم تكتب تحته عبارة كذا وكذا دينار، وتكون هذه العبارة بالقلم القبطي، ويوقع السلطان على المثال بكلمة (يكتب) ثم يوقع ناظر الجيش بعبارة (يمتثل الخط الشريف)، وهكذا صار المثال كالورقة التي نسميها اليوم أنموذجًا. وأما عند العثمانيين فلم يكن يفرق بين المثال والفرمان والتوقيع والنشان، بل ربما يجمع بين الفرمان والمثال في عبارة واحدة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص١٨٣ ـ ١٨٤).

٢٢] ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وتعرضوا لرمي نيران أطفأها الله بفضله، ومكروا مكرًا سيئًا ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] اقتضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف في كل قضية، ونجدد عليهم العهود العُمَرية، وأن يقرر على مَن شمله عفونا ممن ضَعُف منهم ضِعْفُ الجزية ما تكون به أنفسهم تحت سيوفنا مُرْتهَنة، ونضرب عليهم في لباسهم وحرماتهم الذِّلة والمسكنة، فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري، لا يزال ناصر الدين بجوده وعَدْله، مظهر دين الحنيفية على الدين كُلِّه، أن تستقر الجزية على سائر النصارى بالوجه القبلي ضِعْفَ ما عليهم الآن، فيؤخذ من كل نصراني مالِيّتان: المستقرة أولاً واحدة، والزيادة نظير ذلك، للخاص الشريف، مهما كان مستقرًا بسائر النواحي في الوجه القبلي في الإقطاع حسب ما قُررت في الرُّوك المبارك الناصري، يكون للمُقطعين، والزيادة الثانية المضاعفة الآن تكون للخاص الشريف، وأن يلبس سائر النصارى عمائم زرقاء، وثيابًا زرقًا، ويشدوا الزنّار في أوساطهم، وألا يُسْتَخدم أحد من النصارى في جهة من الجهات الديوانية، والأشغال السلطانية، وكذلك لا يَسْتَخدِم أحدٌ من الأمراء أحدًا من النصارى عنده، وأن يبطلوا جميعُهم من الجهات التي كانوا يخدمون بها، والحَذَر ثم الحَذَر من أن أحدًا منهم يخرج عما رسمنا به، ومن فعل ذلك منهم كانت روحه قَبَالة ذلك، ولا ينفعه بعدها فدية ولا جزية، ويحسم مادة فسادهم، وينكشف بذلك ما أظهروه من سوء اعتمادهم، فليثبت حُكْم هذا المرسوم الشريف، وليَدخل تحت أمره المطاع كل قوي وضعيف، وليستقر ضرب هذه الجزية استقرارًا بلا زوال، مستمرًا بدوام الأيام والليال، باقية بدوام الأعوام والسنين، مخلَّدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فإنها حسنة ساقها الله تعالى لدولتنا الشريفة ومثوبة، وذخيرة صالحة لم تزل في صحائفنا الطاهرة مكتوبة، ومَعْدَلة نشرها الله تعالى على يدينا في الآفاق، وأجر يكون ثوابه عند الله باق، وسبيل كل واقف عليه ـ واليًا ونائبًا، وحاضرًا وغائبًا، وناهيًا وآمرًا، وشاذًا وناظرًا، ومأمورًا وأميرًا، وكبيرًا وصغيرًا ـ الانتهاءُ عند هذا التحذير، فيبادرون إلى امتثال هذا المرسوم الشريف ويسمعونه، ويسارعون إلى العمل بما فيه وينفذونه، ويقفون عند حكمه ويمتثلونه ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٨١]، والله تعالى يُعْلِي منار الإسلام ويزيده قوة وإظهارًا، ويجعل الدائرة على أعداء الدين، ولا يذر على الأرض من الكافرين ديّارًا، يُعَدُّ الخط الشريف أعلاه حجة بمقتضاه، وكتب في سابع عشرين جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة حسب الأمر الشريف.

ولما برز هذا المثالُ، وغيره من الأمثلة، لم يَنفذ حكمها، ولا طُولب نصراني بزيادة، ومُنِع النصارى من المباشرات أيامًا قلائل، وأسلم بعض كتّاب الأمراء، فاستقروا على وظائفهم، ثم استقر سائر المباشرين من النصارى على مباشراتهم، وذلك أن كريم الدين الناظر أنهى إلى السلطان أن جماعة منهم في الأشغال السلطانية، ومتى صُرفوا قبل انتهاء السنة فسدت الأحوال، وتعطلت المصالح، وسأل أن يستمِرُّوا بقية هذه السنة، وينفصلوا بعد رفع الحساب، ووافقه السلطان على ذلك، وتدافعت الأيام فاستمروا.

ولما رُسِم في حقهم بما رُسم، ونودي بما تقدم ذكره، كفَّ عوام المسلمين أيديهم عن النصارى، وظهروا بعد استتارهم، وكان عوامّ المسلمين في هذه الأيام المتقدمة يضربون من ظفروا به من النصارى الضرب الذي يبلغ بهم حد الموت، مع إشهار النداء بالأمر السلطاني ألا يتعرض أحد إلى ذمة السلطان للنصارى، ومن تعرض إليهم بأذِيَّة سُفِك دَمُه، والعوام لا يزيدهم ذلك إلا تماديًا، وحصل للسلطان حرج على العوام شديد، فلما شاع هذا الأمر أمسكوا عنهم.

ونودي في يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الأولى ألا يفتح أرباب المعايش حوانيتهم التي على طريق الميدان ما بين الميدان والقلعة في يوم السبت خاصة، وذلك بسبب ركوب السلطان إلى الميدان، وألا تُفتح طاقات الدور التي ينظر سكانها إلى الطريق الذي يسلكه السلطان في مروره إلى الميدان وعَوْدِه، ومنع العوام من الخروج لرؤية السلطان، وركب السلطان إلى الميدان في يوم السبت سلخ الشهر، ولعب بالكرة على جاري عادته.

وفي اليوم المذكور، وقع الحريق بقلعة الجبل في الدار المعروفة بسكن الأمير سيف الدين ألْماس الحاجب، وكان ذلك والسلطان بالميدان، ثم طفيت.

وأنكر السلطان على متولي القلعة أشد إنكار كونه أهمل هذا الأمر، وأحضر نائب السلطنة والأمراء الخاصَّكِيّة، فاجتمعوا للفكرة في هذا الأمر.

ووقعت النار أيضًا في ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة بقَيْساريّة بقلعة الجبل أيضًا، وهي سكن جماعة من المماليك السلطانية تجاور باب القرافة، ففتح باب القلعة ليلًا، واجتمع الأمراء الذين بالقلعة، والمماليك السلطانية واجتهدوا في إطفائها، فطفيت، وهدم ما حول ذلك المكان من الدروب، ورسم السلطان أن ينتقل مَنْ بالقلعة في المكان المعروف بخراب التَّتَر إلى المدينة.

ثم وقعت النار في وقت الظهر في يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة بدار نائب السلطنة بقلعة الجبل، فاحترق منها مكان يعرف بالمنظرة الحسامية بأعلى الدار، فتبادر الأمراء والمماليك السلطانية وغيرهم من الغلمان والسقّايين إلى إطفائها فطفئت، وسكن أمر الحريق بعد ذلك.

وفي يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة مُنع المُنَجِّمون وأربابُ الخِلَق من المشعوذين وغيرهم من الانتصاب لذلك، ورسم بغلق قاعات العلاج وغيرها، ورسم أيضًا بالقبض على جماعة من الحرافيش، وأن يعملوا بالجسور السلطانية بالجيزية، فقبض على جماعة منهم، وعملوا في الجسور إلى يوم الثلاثاء العاشر من الشهر، ثم أمر السلطان بإطلاقهم، فأطلقوا.

وفي يوم الاثنين الثاني من جمادى الآخرة سُمِّر اثنان من النصارى، وطيف بهم على الجِمال، أما أحدهما: فإنه كان قد أسلم تبعًا لأبيه، واستمر في دين الإسلام مدة تزيد عن عشر سنين، ثم ارتَدّ، فأحضر في هذا الوقت، وسئل فاعترف أن أباه أسلم وهو دون البلوغ، وعرض عليه الآن الإسلام فأباه، فرسم السلطان بتسميره، وأما الآخر: فإنه من النصارى الذين اعترفوا بالحريق وماتا على ذلك.

وفي يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ظهر النصارى بعد استتارهم، وفتحوا دكاكينهم، وانتصبوا في معايشهم على عادتهم قبل وقوع هذه الحادثة.

وفيها، في يوم الخميس السادس والعشرين من جمادى الآخرة أمر السلطان بالقبض على الأمير صلاح الدين طَرْخان بن الأمير المرحوم بدر الدين بيسرى الشمسي الصالحي، النجمي والدُه، ولم يكن لذلك سبب إلا أنه حصل بينه وبين ابن أخيه علاء الدين علي بن فارس الدين ألكبيه محاكمة شرعية، فرُسم له بإرضائه، فامتنع أن يعطيه إلا ما يثبت له شرعًا، فرُسم بالقبض عليه. وأودع الزَّرَدْخاناه[1]، ثم نقل إلى البرج، ثم إلى الإسكندرية، ورسم ببيع موجوده، وإعطائه لابن أخيه المذكور، فأُبيع من موجوده بمبلغ تسعين ألف درهم، وقُبِضت لابن أخيه المذكور، واستمر الأمير صلاح الدين في الاعتقال أحسن الله تعالى خلاصه بمنّه وكرمه.

---

(١) الزردخاناه: ومعناها بيت الزرد، لما فيها من الدروع الزرد، وتسمّى أيضًا السلاح خاناه: ومعناها بيت السلاح. وتشتمل على أنواع السلاح: السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع (صبح الأعشى ٤/ ١١).

وفي هذه السنة أمر السلطان أن يتوجه الأمير شرف الدين حسين بن جَنْدَر بك الرومي أمير شِكار[١]، أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالديار المصرية إلى دمشق وكان قبل ذلك من أمراء الطَّبْلخاناه[٢] بها، فلما عاد السلطان إلى الديار المصرية في سنة تسع وسبعمائة حضر في خدمته، فأمَّره في الديار المصرية، ثم جعله من أمراء المائة مقدمي الألوف، وأمير شِكار، وتقدم عند السلطان، وقرُب منه، ووفر إقطاعه وميَّزه، ثم أعاده الآن إلى الشام على إقطاع الأمير سيف الدين جُوبان المنصوري، وكان نائب السلطنة بدمشق قد غضب على جُوبان لأمر صدر منه، وضربه، فطُلب إلى الأبواب السلطانية، وأقرَّ في جماعة الأمراء بها، وأُعطي إمرة ستين فارسًا، وتوجه الأمير شرف الدين حسين بن جَندر إلى دمشق، فكان وصوله إليها في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة إحدى وعشرين.

وفيها في يوم الأربعاء ثامن عشر شوال جلس قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[٣] لإلقاء الدروس بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر عوضًا عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصاري، وذلك أن الفقهاء بالزاوية المذكورة شكَوا منه، وقالوا: إنه استولى على الوقف، واختص بأكثره، فعزل من هذه الزاوية وغيرها، ثم اعتُني به فولي وكالة بيت المال بحلب، فتوجه في ذي القعدة من السنة، ولم يطُل مقامه بها.

---

(١) أمير شكار: هو لقب على الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد، وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي، وهو أمير، والثاني فارسي وهو شكار ومعناه الصيد فيكون المراد «أمير الصيد» (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).

(٢) أمير طبلخانات: قال في صبح الأعشى ٤/ ١٣: الطبلخاناة ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم.

وأمراء الطبلخاناه عدة كل منهم في الغالب أربعون فارسًا، قال في مسالك الأبصار: وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارسًا.. ولا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين، وهذه الطبقة لا ضابط لعدّة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخاناه فجعلت إمرتي عشرين أو أربع عشرات، أو ضم بعض العشرات ونحوها إلى جعلت طبلخاناه، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشّاف بالأعمال، وأكابر الولاة (انظر صبح الأعشى ٤/ ١٣ ـ ١٥).

(٣) بدر الدين محمد بن جماعة: هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني، بدر الدين، أبو عبد الله الحموي الشافعي، قاضي القضاة بمصر، ولد سنة ٦٣٩هـ، وتوفي سنة ٧٣٣هـ. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٨).

ذكر عود رسل السلطان من جهةِ الملك أزبَك ووصول رسله صحبتهم وعَودهم

وفي هذه السنة - في ذي القعدة - عادت رسل السلطان الذين كان قد بعثهم إلى الملك أزبَك، وهم: الأمير سيف الدين طُقْصُبَا الظاهري[١]، ومن معه، وحضر صحبتهم رسل الملك أُزبَك، ومثل طُقصُبا بين يدي السلطان حال وصوله، وأرجأ السلطان الرسل إلى أن عاد من الصيد، واستقر بقلعة الجبل، ثم استحضر الرسل في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة، فأدوا الرسالة ولم يكونوا على عادة أمثالهم من رسل مرسلهم، ولا خُلع عليهم، وعادوا إلى المكان الذي رسم بإنزالهم فيه، وهو مناظر الكبش، ثم أحسن السلطان إليهم بعد ذلك، وخلع عليهم، وأعادهم إلى مرسلهم صحبة رسله.

ذكر توجه أدُر السلطان إلى الحجاز الشريف ومن توجه في خدمتهم

وفي هذه السنة - في شوال - توجهت الخَوَنْد[٢] طُغاي المحمودية[٣]، وهي إحدى زوجتي السلطان، إلى الحجاز الشريف، وجهزت أعظم جهاز سمع الناس بمثله وجهز لها عدة أربات ومَحَفَّات، والأربات: مقاعد من الخشب يُجْلس عليها، وهي مركبة على عجل أمثال أتراس السواقي، تجر بكَدِيشٍ[٤] واحد، أو جملٍ بُخْتيّ، وتسرع في المرور غاية الإسراع، وجهّز في خدمتها عدة من نساء الأمراء، وجماعة

(١) توفي سنة ٧٤٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٥٥).

(٢) الخوند: بفتح الخاء وضمها، كلمة فارسية بمعنى السيد المعظم، استعملت في العربية لقبًا بمعنى السيد والسيدة، وربما أدخلت عليها تاء للتأنيث فيقال: خوندة (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٩١ - ٩٢، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٠).

(٣) طغاي المحمودية: من محظيات السلطان الناصر، وولدت له ابنه آنوك (انظر: الدرر الكامنة ٢/ ٢٢١، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣١).

(٤) الكديش: عرّفت الأكاديش بأنها العجميات في مقابل الخيول العراب، وفي صبح الأعشى ١٤/ ٢ أنها البرافين والهماليج، وكانت تجلب من بلاد الترك وبلاد الروم، ودخلت التركية بصيغة (إيكيديش) بالكاف اليائية. ومعناها في التركية: الفرس الهجين (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل).

من الأمراء المشار إليهم، منهم: الأمير سيف الدين قِجْليس[١]، وتوجه أيضًا القاضي كريم الدين وكيل السلطان، وجهز معها عدةُ أحمال من الكوسات والصناجق الخليفتية والسلطانية.

وتوجه أيضًا من الشام إلى الحجاز الأمير سيف الدين تَنْكِز، واستناب السلطان عنه بدمشق في مدة غيبته الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب (كان)، فتوجه من الأبواب السلطانية إلى دمشق، فوصل إليها في سابع شوال، ونزل بالمدرسة النَّجِيبيّة ظاهر دمشق، وكان يحضُر إلى دار السعادة في يومي الخميس والاثنين، ويجلس وكُتاب الإنشاء بين يديه، ويقف الحُجّاب وغيرهم، وتُقضى الأشغال، ويُمد السِّماط، ثم يركب في الرابعة من النهار ويعود إلى النَّجيبية، وينتصب بها في بقية النهار لقضاء الأشغال، ولم يزل كذلك إلى أن بلغه عَود الأمير تَنكِز من الحجاز، ففارق دمشق في يوم الأحد تاسع عشر المحرم سنة اثنتين وعشرين، وتوجه إلى الديار المصرية، والتقى الأمير سيف الدين تَنكِز[٢] بها بمنزلة الصمّان، وسلم عليه وودعه، فخلع تَنكِز عليه، وأنعم عليه بمالٍ، وتوجه إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية.

ذكر وصول بعض من وقف بعرفة في هذه السنة إلى القاهرة المحروسة

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وصل إلى القاهرة المحروسة سيف الدين أوجي، أحدُ مماليك الأمير سيف الدين قِجليس، وحسام الدين طُرُنْطاي أحد مماليك القاضي كريم الدين بعد أن وقفا بعرفة، فذكر لي حسام الدين طُرُنْطاي المذكور أن خروجهما من مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ كان في يوم السبت ثالث عشر الشهر بعد العصر، وأن الوقوف بعرفة كان في يومي الثلاثاء والأربعاء، ونحروا يوم الخميس، فكانت مسافة مسيرهما من مكة إلى القاهرة اثني عشر يومًا ونصف وربع يوم، على التحرير، وحضرا بين يدي السلطان، وتضمنت الكتب سلامة الأذُر السلطانية، فخلع السلطان عليها، وأنعم عليهما من بيت المال بخمسة آلاف درهم، وعادا إلى مرسلهما في اليوم الثاني بالأجوبة السلطانية، ولم يُسمع أن أحدًا ممن وقف بعرفة وصل إلى القاهرة في سنته، وفيما مضى من الزمان وإلى الآن، وقد صغر ذلك ما كان استعظم من مجيء من تقدم ذكره في ليلة ثالث المحرم.

---

(١) سيف الدين قجليس: توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٢) سيف الدين تنكز (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٤).

ذكر حوادث كانت بدمشق في هذه السنة

في يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة أُقيمت الخطبة، وصلاة الجمعة بمسجد القصب خارج باب السلامة ظاهر دمشق، وخطب فيه وصلّى بالناس علاء الدين علي الباخلي وهو من أولاد الجند، منسوب إلى ابن باخل.

وفيها ـ في يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان ـ أقيمت الخطبة وصلاة الجمعة بجامع استَجَدّه القاضي كريم الدين وكيل مولانا السلطان بأرض القابون ظاهر دمشق، وكان الشروع في عمارته، والاجتماع على تحرير محرابه في مستهل جمادى الأولى من هذه السنة وكمل، وخطب به في التاريخ المذكور، وفوضت خطابته للشيخ الصالح جمال الدين عبد الوهاب التركماني الحنفي إمام القابون، وحضر الخطبة قضاة القضاة والأعيان.

ذكر هدم كنيسة اليهود القَرّائين بدمشق

وفي هذه السنة برزت المراسيم السلطانية بهدم كنيسة اليهود القَرّائين بدمشق بدَرْب الفواخير، فهُدمت في يوم السبت التاسع عشر من شهر رجب، وسبب ذلك: أن جماعة من المسلمين ادّعوا أنها مُحدَثة، فأثبت اليهود أنها قديمة مستمرة بأيديهم ـ عند بعض الحكام ـ فأُقرت بأيديهم، ونجزوا مرسومًا سلطانيًا بالحمل على ما ثبت وإبقائها، فعارضهم المسلمون بإثبات عند حاكم أنها محدثة، فورد المرسوم السلطاني بالحمل على ما ثبت آخرًا، وهدمها.

قال الشيخ شمس الدين الجَزَرِيّ(١) في تاريخه: إن هذه الكنيسة كانت من نحو مائة سنة بيتًا يجتمع فيه طائفة من اليهود القَرّائين، ثم أضيف إليها شيء بعد شيء، حتى كبرت واتسعت، وأصلحت عمارتها، فلما كان في سنة تسع وتسعين وستمائة عند دخول التتار إلى دمشق تمكن اليهود من إصلاحها؛ وعملوا بها منبرًا، كل ذلك والمسلمون لا يعلمون؛ وذلك أنها بدرب الفواخير وغالب سكانه اليهود، وهي في درب داخل درب جوار سور باب كَيسان، والباب يومئذ مسدود، وبذلك تمكنوا من عمارتها وما شعر بهم المسلمون، ثم ظهرت في ذلك الوقت، فهدمت.

---

(١) شمس الدين الجزري: هو شمس الدين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزري المتوفى سنة ٧٣٩هـ، له «تاريخ دمشق» (كشف الظنون ٦/ ١٥٠).

وفي هذه السنة - في الثامن من شهر ربيع الأول - توفي القاضي الخطيب مجد الدين أحمد بن القاضي مُعين الدين أبي بكر بن ظافر الهمداني(١) المالكي الخطيب والمدرّس بمدينة الفيوم، وكانت صورته كبيرة عند الأكابر، وولي قضاء القضاة بدمشق في سنة عشر وسبعمائة، وخلع عليه، ولبس التشريف، ثم امتنع من ذلك واستعفى فأُعفي، وكان رحمه الله تعالى رجلاً كريمًا سمحًا مشهورًا بالمكارم، تزيد مكارمه على رَيع أملاكه، وتأبى نفسه الاختصار، فاحتاج إلى أن استدان الأموال، واضطُر إلى وفاء الدَّين بالدِّين، كل ذلك رغبة في المكارم.

وكان رحمه الله تعالى جميل الصورة كامل الخَلق، حسن الزي والملبس والمركب، جيد الشِّعر، أرسل إليّ مرة يلتمس أن يقف على مقدمة كتابي هذا الذي ألّفته، فأرسلت إليه المجلدة الأولى، فوقف عليها وكتب إليَّ بيتين من نظمه وهما:

كتاب جلَّ أن نُخصِيه وصفًا ... حوى علمًا وآدابًا وظَرفا
رأينا منه عُنوانًا بديعًا ... وعُنوان المحاسن ليس يخفى

وتوفي القاضي تاج الدين أبو الهدى أحمد بن محيي الدين أبي الفضل محمد بن الشيخ كمال الدين علي بن شجاع بن سالم القرشي الهاشمي العباسي، المعروف بابن الأعمى(٢)، والأعمى - الذي عرف به - هو جده الشيخ كمال الدين المقرىء وكانت وفاته بداره بمُنشأة المهراني، ودفن بالقرافة، ومولده في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكان يلي نظر ديوان الملك الأشرف بن السلطان الملك المنصور قبل سلطنته، ثم عزل بالصاحب شمس الدين محمد بن السَّلْعوس(٣) وعطل مدة، ثم ولي نظر الكرك، وعزل في سنة ثمان وسبعمائة، وحضر إلى الديار المصرية، فولي نظر بيت المال مُدة لطيفة، ثم عطل عن الخدمة، ورتب له في آخر عمره راتب، فكان يتناوله إلى أن مات رحمة الله عليه، وكانت وفاة جده الشيخ كمال الدين الضرير في سنة إحدى وستين وستمائة.

---

(١) هو أحمد بن أبي بكر بن ظافر مجد الدين بن معين الدين المالكي سبط الشيخ المجد الإخميمي (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ١١١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٤).

(٢) انظر ترجمته في: (السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣٣، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٢).

(٣) هو محمد بن عثمان، شمس الدين المعروف بابن السلعوس (انظر ترجمته في تاريخ أبي الفداء ٤/ ٣١).

وتوفي الصدر الرئيس شهاب الدين أحمد بن محمود بن أبي الفتح بن الكويك التاجر الكارمي، وكانت وفاته بداره بمصر في ليلة الأربعاء التاسع عشر من شوال، وترك دنيا عريضة وأملاكًا، وورثه أولاده، وكان من بقايا أعيان التجار الكارِميَّة(١)، ومشايخهم يرجعون إليه ويقتدون برأيه، رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي الفاضل كمال الدين محمد بن القاضي عماد الدين إسماعيل بن القاضي تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير الحلبي، أحد أعيان كُتّاب الإنشاء، وكانت وفاته بالقاهرة في بُكرة نهار الاثنين للنصف من ذي الحجة، وصُلي عليه تحت القلعة، ودُفن بالقرافة، وكان رحمه الله فاضلاً خيِّرًا لطيفًا حسن العشرة والمذاكرة، جيد الإنشاء، قد ذكرنا من إنشائه في أثناء هذا التاريخ ما يقف عليه من يقصده، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير زين الدين كَتْبُغا الصغير المنصوري(٢) رأس نوبة الحاجب بالشام في آخر نهار الجمعة الثامن والعشرين من شوال بداره بظاهر دمشق ودفن من الغد بتربته برأس ميدان الحصار، رحمه الله تعالى، وولي الحِجْبة بعده الأمير علاء الدين أيْدُغْدي الخوارزمي، جهز من الأبواب السلطانية على إقطاع سُنْقُر الإبراهيمي، فقدم دمشق في يوم الأحد عاشر صفر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة.

وتوفي في يوم الاثنين السادس عشر من ذي الحجة ـ عز الدين إبراهيم ابن الملك الحافظ غياث الدين محمد بن الملك السعيد شاهنشاه بن الملك الأمجد بهرام شاه بن عزّ الدين فرخان شاه بن شاهنْشاه بن أيوب، وكانت وفاته بقرية جِسرين من غُوطة دمشق، ودفن بتربتهم بباب الفراديس، ومولده في الخامس من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وستمائة بحَمرانَيسان عند مرجعهم من القدس، سمع الحديث من إسماعيل العراقي، ورواه عنه، وكان رحمه الله تعالى كثير التواضع والاحتمال حسن المودّة.

---

(١) التجار الكارمية: هم فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن فعرف ذلك بهم، وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر (مصطلحات صبح الأعشى ص٧٣).

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣٤، الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٤.

وتوفي الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول[١] صاحب اليمن، وكانت وفاته في مستهل ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وحصل بعد وفاته من الاختلاف والفتن بين ولده وأخيه ما نذكره بعد - إن شاء الله تعالى - عند ذكرنا لأخبار اليمن.

وتوفي الشيخ الصالح العابد نجم الدين عبد الله بن محمد الأصفهاني[٢] بمكة شرّفها الله تعالى، وورد الخبر بوفاته في شعبان، وكان شخصًا جليلاً صالحًا فاضلاً مشهورًا مقصودًا للزيارة منقطعًا عن الناس، جاور بمكة سنين كثيرة رحمه الله تعالى.

ذكر ما وصل إلينا من الحوادث الكائنية ببغداد في هذه السنة

في نصف شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كَبَس الحرامِيَّة بغدادَ وقت الظهر ونهبوا سوق الثلاثاء، وخرج الناس، وقتلوا منهم نحو المائة وأُسر منهم جماعة، وكان ذلك جُرأة عظيمة منهم. نقلت ذلك من تاريخ الشيخ علم الدين بن البِرْزالي[٣]، وقال: كنت قرأت ذلك في كتاب وصل إلى شمس الدين ابن مُنتاب البغدادي، وفيها أيضًا ورد كتاب من بغداد من جهة أحمد البالوادي إلى شمس الدين بن مُنتاب بدمشق، وهو مؤرخ بالحادي والعشرين من جمادى الآخرة، وكان وصوله إلى دمشق في مدة عشرين يوماً، وفيه «. . والذي أعرفكم به أنه جرى في بغداد شيء ما جرى في زمان الخليفة إلى هذا التاريخ: خَرَّبوا البازار[٤] من أوله إلى آخره، وما يَعلم ما عزموا عليه إلا الله تعالى، وما خَلّوا في البلد خاطِيَةً إلا تَوَّبُوها وزوّجوها، وما خلّوا أحدًا يعصر في البلد شرابًا، وبدَّدُوا الشراب العتيق، ولو بَدَّدُوه من الشط غرقت بغداد، وبعد ذلك نادت المنادية أن كل من تَخَلّف عنده شيء من الشراب يكون دمه

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٤٢٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٣٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٣.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٢.

(٣) البرزالي: هو القاسم بن بهاء الدين محمد بن يوسف الحافظ علم الدين أبو محمد البرزالي (بضم الباء الموحدة، بطن من البربر) الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد سنة ٦٦٥هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩هـ، من مصنفاته «تاريخ البرزالي» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، «معجم الشيوخ» يشتمل على ألفي شيخ (كشف الظنون ٥/ ٨٣٠).

(٤) البازار: السوق، وهي فارسية الأصل.

وماله للسلطان، وطلع بعد ذلك عند شخص من العقبة جَرّه، فعَلّقوها في حلقه، وقتلوه في باب النوبة، وطلع عند عبد الله بن الجبّار الذي من درب دينار جَرَّتين من الشراب فقطعوا رأسه في باب النوبة، وجعلوا جرة عند رأسه، وجرة عند رجليه، ودفع فيه ألف وخمسمائة دينار فما خلاه محمد حسيناه، وعَلّمُوا اليهود والنصارى، وأسلم الرّفي الجوهري، وبركة، وإبراهيم الكاغدي، والعماد الصيرفي، وكل يوم جمعة يسلم أربعة خمسة» نقلته من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي أيضًا.

واستهلت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة يوم الأربعاء الموافق الخامس والعشرين من طوبة من شهور القِبْط.

ذكر وصول أُدُر السلطان من الحجاز الشريف

كان وصول الأدُر السلطانية من الحجاز الشريف في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من المحرم، فركب السلطان لتلقيهم، ومدّ سماطًا، ثم طلعت الأدر السلطانية إلى قلعة الجبل على أربة، وتقدمها نِساء الأمراء على الأَرْبات، والكوسات تُضرب، والعصائب منشورة، وكان يومًا مشهودًا.

ذكر تجريد العساكر إلى بلاد سيس، وفتح مدينة آياس وأبراجها

وفي هذه السنة رسم السلطان بتجريد العساكر إلى جهة سيس، فجرَّد من الأمراء المقدمين بالديار المصرية خمسة وهم: الأمير جمال الدين أَقُش الأشرفي، وهو مقدّم الجيوش، والأمير علم الدين سَنجر الجُمَقْدار، والأمير سيف الدين أَلْماس أمير حاجب، والأمير سيف الدين طُرجي أمير مجلس، والأمير سيف الدين أَصْلم السلاح دار، ومُضافيهم من أمراء الطبلخانات، وهم: قلبرس بن طيبرس محمد ابن أمير سلاح الدمر أمير جَندار أَيْدَمُر العمري، وأروم بُغا، قُطلوبغا الجمالي، وطرمحي الساقي، وخضر بن نوكيه، وطيفر الجَمدار، وطُرُنْطاي السلاح دار، وأَيْدُغْدِي البلبلي، أراق السلاح دار، خاص ترك الجمدار، بيلك الجمدار، أَقْسُنْقر السلاح دار، بيبرس السلاح دار، أيبك عبد الملك، سنقر السعدي، بهادُر الغنمي، وأمير العراواب خليل بن الأربلي، علي بن دامر بن علي بن سَلار، علي بن التركماني، ومحمد بن مِلكشاه، كجكن الكرموني، وبهادر بن قَرَمان، ومحمد بن أيبك الخزَندار، وما جار فتحي بكا، وجماعة من الحلقة المنصورة، والمماليك السلطانية، وكان خروجهم من القاهرة المحروسة في يوم السبت الثاني من صفر.

وجُرد من الشام الأمير سيف الدين بهادر والأمير سيف الدين كُجْكُن[1]، والأمير شرف الدين حسين بن جندر، ومضافيهم، والعسكر الحلبي بكماله، والأمير شهاب الدين قَرَطاي نائب السلطنة بالمملكة الطرابُلسية، وجماعة من العسكر الطرابُلسي، وخرج المرسوم السلطاني لهم أن يتوجهوا إلى بلاد سيس، ولا ينتظروا مرسومًا، ولا يقيموا بمدينة من مدن الشام.

وكان سبب إرسال هذه الجيوش أن السلطان كان قد أرسل الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر - أحد الأمراء بطرابلس - رسولاً إلى مُتملك سيس في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، فتوجه وأخذ منه القطيعة المقررة على بلاده، وهي ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم فضة حجر، والمقرّر من الخيل والبغال وتطابيق النعال والمسامير وغير ذلك، وجهزها إلى الأبواب السلطانية من غير عهد ولا عقد، ولا تقرير هدنة، فأخبرني الأمير بدر الدين المذكور عند وصوله إلى الأبواب السلطانية أنه لما توجه إلى سيس اجتمع بمتملك بلاد الأرمن وهو صغير يكون عمره نحو ثمان سنين جمع متملك بلاد سيس أكابر مملكته وحضر خليفتهم بزعمهم واستشاروه في إرسال القطيعة قبل تقرير الهدنة واليمين، فأشار عليهم بدفعها، وإطفاء الثائرة. وتعريف السلطان أنهم بأجمعهم دخلوا تحت طاعته وانتسبوا إلى غلمانيته وعبوديته، وخلعوا طاعة من سواه من التتار وغيرهم. وسألوا مراحم السلطان، وبذلوا له الرغبات، فكان مما عرضوه على الرسول المذكور أن قالوا له: إن اختار السلطان أن يقاسمنا على متحصل البلاد، وأن يقرِّر علينا الجزية عن كل إنسان دينارين حتى على رأس الملك فمن دونه فَعَلْنا ذلك، ويرسل إلينا نُوّابه يستخرجون ذلك، وإن أحب أن يُسلَّم إلى نوابه ما هو قاطع نهرجهان مما يلي المملكة الحلبية من القلاع والبلاد فعلنا ذلك على أن يضع عنا في مقابلة هذه القلاع والأعمال ثلثَ المال المقرّر، وهو أربعمائة ألف درهم فضة.

وأرسل الأرمن امرأة من عند الملك تسأل مراحم السلطان، فلم تُمكن من الوصول إلى الأبواب السلطانية وأعيدت من حلب.

وجَرَّد السلطان هذه العساكر وأرسل الأمير بدر الدين المذكور على خيل البريد أمام العسكر المنصور ليطالبهم بتسليم البلاد والقلاع وتقرير الهدنة على ذلك، فإن سلّموها تسلمها نواب السلطان، وكفَّ العسكر عنهم، وإن شغَبوا أو توقَّفوا أدخل العسكر إلى بلادهم.

(١) سيف الدين كجكن: توفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٤).

وكان موجب خروجهم عن طاعة التتار وغيرهم أن مقدم التتار بالروم ـ وهو تَمُرْتاش بن جُويان ـ اجتمع هو وابن قَرَمان ودخلوا إلى بلاد سيس في أواخر سنة إحدى وعشرين، وغاروا وشعَّثوا ونهبوا، وعادوا إلى بلادهم، فتوجه العسكر الآن ووصل إلى دمشق في يوم الخميس الثامن والعشرين من صفر، ثم توجه منها إلى حلب فوصل إليها في العشر الأول من شهر ربيع الأول. وتوجهت العساكر منها إلى مدينة آياس في أوائل شهر ربيع الآخر، واستصحبوا المجانيق من بَغْراس محمولة على العَجل وأعناق الجند.

ولما وصل العسكر إلى ثغر آياس وجد أهلها قد أخلوا المدينة من الأموال والرجال وغير ذلك، وبقيت خالية، فدخلها العسكر بغير ممانع ولا مدافع، وانتقل أهلها إلى القلعة، وهي قلعة مستجدة عمَرها الأرمن في أول المائة السابعة، ولها باب من جهة البر وبقيتها في البحر، فتقدم العسكر لمحاصرتها وأخذ النقّابون في النقوب يومًا وليلة، فانتقل من كان بها إلى قلعة هناك في وسط البحر تسمى قلعة أطلس، وإلى أبراج ثلاثة، منها برج مثمَّن وأشعلوا النيران بالليل فيها، وأحرقوا ما تركوه بها من أعواد المجانيق والأمتعة وغير ذلك، فملكها المسلمون، وارتفع الصنجف السلطاني عليها، وشَرع العسكر في إخرابها فعلّقها النقابون، وأُطلقت فيها النيران، فهدمت في البحر وحُصر الأرمن بالقلعة والأبرجة التي في البحر، والوصول إليها متعذر لبُعدها عن البر، فنصبت المجانيق السلطانية على القلعة الكبرى، ونَصَب الأرمن أيضًا مَجانِيقَهم على العسكر، وتراموا بها فاتفق الأمراء على أن العسكر يَردم ما بين المدينة وبين القلعة والأبرجة من البحر، فتعذر علهيم لعمق البحر، وبُعد المسافة، فنصبوا جسورًا من الأخشاب والبَتاتِيّ، فانتهت إلى مقدار ثُلُثي المسافة إليها، هذا والمجانيق ترمي بأحجارها من كل من الطائفتين ووصل النقابون إلى البرج المُثَمّن، فسأل من به الأمان على أن يسلِّموه فأجيبوا إلى ذلك، ثم نكثوا، ورجعوا عن التسليم، فوصل المسلمون إليه، وشرع النقابون في تعليقه ثم يسّر الله تعالى الفتح، فحصل الاستيلاء على ذلك برًا وبحرًا في يوم الأحد والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودخل العسكر إلى بلاد سيس، وأغاروا ووصلوا إلى قلعة كوارا، ثم عادت العساكر المنصورة إلى مستقرها من الممالك، ولما حصل هذا الحصار أمر الباب[1] ـ وهو الحاكم على ملوك الفرنج ـ مَن تحت يده وطاعته منهم أن يتوجهوا إلى ثغر

---

(١) الباب: هو البابا في روما، وفي صبح الأعشى ٥/٤٤٣: هو لقب على القائم بأمور دين النصارى الملكانية بمدينة رومية.

اللاذقية ويحاصروه لعلهم ينالون منه منالاً، لاشتغال العساكر الإسلامية بثغر آياس، فَعَمَّر الفرنج نحو تسعين شينيًا وشحنوها بالرجال والمقاتِلة، وقصدوا ثغر اللاذقية وبه يومئذ الأمير شرف الدين عيسى بن البرطاسي فاجتهد في أمر الثغر، واحترز فأقامت تلك الشواني أيامًا في البحر قبالة ثغر اللاذقية، ثم عادت إلى أماكنها ولم يظفروا بشيء، وكفى الله تعالى شرهم وله الحمد والمِنّة؛ ولنذكر خلاف ذلك ما اتفق.

ذكر اجتماع المماليك السلطانية وشكواهم وما حصل بسبب ذلك

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من صفر اجتمع جماعة من المماليك السلطانية الساكنين بالطِّباق بباب السلطان، واستغاثوا وشكوا إلى السلطان أنهم نقصوا من مرتبهم، وغيرت عادتُهم في طعامهم وتأخرت جَامَكِيَّتُهم عنهم وكساويهم، وبالغوا في الشكوى والأساة، فأرسل السلطان إليهم أن يختاروا من أعيانهم من يَعْبُر إليه، ويشكوا ضررهم، ويشافهوه بحالهم، فامتنعوا من ذلك، وكانوا في جمع كثير، فخرج السلطان إلى الرحبة، وسمع شكواهم، ولطف بهم، وقابل جهلهم بحلمه وسياسته ووعدهم إزالة ضررهم، وأنه يتولى ذلك بنفسه، وصرفهم إلى أماكنهم فانصرفوا إليها وكشف عمن حملهم على الجرأة ممن يعلم أحوال المماليك، فعُين جماعة من المماليك أرباب الإقطاعات، فرسم بإخراجهم من القلعة وإسكانهم المدينة، فخرجوا في يوم السبت سلخ صفر، وأخرج أيضًا جماعة من الخُدّام المقدمين والسوّاقين، ورسم بالنفقة في أرباب الجامَكِيّات، وزيادة مرتبهم، وإصلاح أطعمتهم، ففعل ذلك، وسكنت أمورهم.

ذكر وصول الأمير «علاء الدين الطُّنْبُغا»(١) نائب السلطنة بالمملكة الحلبية إلى الأبواب السلطانية وعوده

وفي يوم السبت سلخ صفر وصل الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا نائب السلطنة بالمملكة الحلبية إلى الأبواب السلطانية، وكان قد رُسم بحضوره، فأرجف الناس به، وظنّ كثير منهم أنه لا يحضُر، وأنه إذا حضر اعْتُقِل، فلما وصله شمله الإنعام

(١) علاء الدين الطنبغا: مات مخنوقًا بالإسكندرية سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).

السلطاني بالتشريف والخيل والإحسان، وقدم له أعيان الأمراء التقادِم[١]، وبالغ القاضي كريم الدين وكيل السلطان في خدمته وإكرامه، وأرسل إليه عدة كثيرة من الأقمشة والتعابي والتشاريف ليخلعها على من يحضر إليه بتقادم الأمراء، وأعطاه خيلاً وجملة من المال، وحضر هو صحبة القاضي كريم الدين إلى داره، وتَرَجَّل عند قربه من الدار، ومشى والقاضي كريم الدين مستمر الركوب على ما هو عليه إلى أن نزل في مكانه المعتاد، هكذا أخبرني جماعة ممن ذكروا أنهم شاهدوا ذلك، ثم رسم بعود الأمير المذكور إلى المملكة الحلبية، فعاد في يوم السبت ثاني شهر ربيع الأول على خيل البريد، وأدرك العسكر بحلب، ودخل معهم إلى آياس.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد ملك التتار

وفي العشر الآخر من ربيع الأول وصلت رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا ـ ملك العراقين وخراسان وما والى ذلك ـ إلى الأبواب السلطانية، وهم: الأمير حسن بن شادي بن سونجاق، ومعه أمير آخور، وقاضي قضاة تبريز نصر الدين محمد بن محمد القزويني الشافعي، فأمر السلطان بإنزالهم في قلعة الجبل، ومثلوا بين يديه في يوم الاثنين مستهل ربيع الآخر، فاستقبلهم بدر الدين بيبرس الصالحي.

* * *

ذكر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر قبض على كريم الدين الكبير

بعدما تجهز ليسافر يوم الجمعة خامس عشرة إلى الشام، فعندما طلع إلى القلعة على العادة، ووصل إلى الدَّرَكاه منع من الدخول إلى السلطان، وعوق بدار النيابة هو وولده علم الدين عبد الله، وكريم الدين أكرم الصغير ناظر الدولة، ووقعت الحوطة على دور كريم الدين الكبير[٢] خاصة التي بالقاهرة وبركة الفيل، ونزل شهود الخزانة بولده إلى داره ببركة الفيل، وحملوا ما فيها إلى القلعة، وتوالت مصادرته، فوجد له شيء كثير جدًا ووجد له عدة من المماليك والجواري الأتراك، وكان من مماليكه جماعة قد أخذ لهم الإقطاعات الوافرة في جملة رجال الحلقة المنصورة، فأمر

(١) التقادم: جمع تقدمة، وهي الهدايا التي جرت العادة بتقديمها في المناسبات.
(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٤، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٤٣.

السلطان بقطع أخبازهم، وبيع المماليك الأرقاء والجواري، وأنعم على ثلاثة منهم بأخباز غير ما كان بأيديهم قليلة العَبرة بالنسبة إلى ما كان بأيديهم، وعادت الخزانة التي كان قد جهزها إلى ثغر اللاذقية في يوم الاثنين ثامن عشر الشهر، فعُرض ذلك على السلطان، وكان في جملة ما وجد بها ثلاثة حوايص ذهبًا مجوهرة كان قد أعدها لمن نذكر في جملة خلعه عليهم، وهم: الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه، والأمير سيف الدين تَنكِز نائب السلطنة بالشام والأمير علاء الدين الطُنبُغا نائب السلطنة بحلب.

ولما رسم بالحَوْطة عليه، وقعت الحوطة على أملاكه وأوقافه وحواصله وغير ذلك، فاعترف أن سائر الأملاك التي أنشأها وابتاعها وما وقفه كان قد اشتراها وعَمَرها من مال السلطان دون ماله، فأفاد هذا الاعتراف في الأملاك، فحكم أنها ملك السلطان دون ملكه وشهد جماعة من المعدِّلين أن الأملاك التي وقفها ابتاعها من أموال السلطان دون ملكه فحُكم بإبطال أوقافه، ونُقضت بعدما أُبرمت، وكتبت بذلك مكاتبة حُكمية ثبتت على قضاة القضاة.

ولما اشتد الطلب عليه وخشي على نفسه أن يُقتل، أرسل إلى السلطان يقول: إن أموال السلطان كثيرة، وهي مفرَّقة في أقطار الأرض، منها ما سفَّرته إلى بلاد الإفرنج ومنها ما أرسلته إلى العراق وإلى اليمن وإلى الهند، ومنها ما هو مفرَّق بأعمال الديار المصرية بالوجهين القبلي والبحري، ومنها ما هو بالشام، وإذا عَدِمت عَدِم ذلك كلّه، وطمع فيه من هو عنده، فاقتضى ذلك إبقاءه، وأفرج عنه السلطان، ورسم أن يستقر مقامه بتربته التي أنشأها بالقرافة، فنزل إليها هو وولده علم الدين، وأقام بها، ثم شملته عواطف السلطان، وأنعم عليه بمبلغ عشرين ألف درهم، فقبضها، وأرسل إليه فرسين من جملة خيله، وقماش ملبوسه، والخِلَع التي كان السلطان قد خلعها عليه، وأعيدت إلى الخزانة عند إيقاع الحَوْطة، وأُفرج عن معصرتين من معاصر الأقصاب التي كانت له بالوجه القبلي، ثم رسم السلطان بعد ذلك بسفره إلى الشَّوْبك يقيم هناك، ورتب له في كل شهر ألف درهم على حكم الراتب، فتوجه هو وولده وأهله وألزامه، وكان خروجهم في يوم السبت تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة، فأقام بالشوبك إلى أثناء شهر رمضان من السنة، وطالع الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة، وسأله أن ينتقل إلى القدس، فلم يجَب إلى ذلك أولاً، ثم تلطَّف نائب السلطنة في أمره إلى أن رُسِم بانتقاله إلى القدس الشريف، فكان وصوله إلى القدس في يوم الجمعة تاسع عشر شوال، وأقام إلى أن تغيَّر خاطر السلطان عليه لأسباب نُقِلت عنه.

فلما كان في يوم الأربعاء السابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وعشرين وسبعمائة رسم السلطان بتجديد الحَوطة عليه، وعلى أسبابه، وتوجه لإحضاره من القدس الأمير سيف الدين قُطلُوبُغا المغربي الناصري، وكان وصوله إلى قلعة الجبل هو وولده عشية نهار الخميس الخامس والعشرين من الشهر، ولما وصل سُلم للأمير سيف الدين قِجليس أمير سلاح، فأنزله بداره، وسُلّم ولده عبد الله ومملوكه طُوطاج إلى الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي استادار، وطُولب بحمل المال، فاعتذر بأنه لم يبق له ما يحمله إلا ثمن الأملاك التي كان السلطان قد أفرج له عنها، فأُمر ببيعها، فبيعت بمبلغ أربعمائة ألف درهم، وحُمل عنها، واستمر على ذلك إلى يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، فرُسم باعتقاله، فاعْتُقل في برج الأتابكي بقلعة الجبل بمفرده بغير غلام يخدمه، وسُدّدت المرامي والمناور، ورُتب له في كل يوم ثمانية أرطال لحم وكُماجه، واستمر بالبرج إلى يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر، فأُخرج من البرج وسُفّر إلى الصعيد الأعلى، ورُسم باستقراره بثغر أسوان، وكان قد سُفر ولده عبد الله قبله، وقطع السلطان أخباز مملوكيه طُرُنْطاي، وطوطاج من الحلقة.

فلما كان في ليلة يسفر صباحها عن يوم الاثنين حادي عشريه حضر إلى الصاحب أمين الدين مَنْ ذكر أن لكريم الدين وديعة عند رجل موّان نصراني، فطُلب، وطُولب بالوديعة، فأحضر صندوقًا ضمّنه من المصوغ والجوهر ما قيمته ـ فيما بلغني ـ نحو عشرين ألف دينار.

ولما استقرّ كريم الدين بثغر أسوان أمر السلطان أن يُرتّب له ولولده في كل شهر ستمائة درهم وستة أرادب لنفسه، ولولده عبد الله مائة درهم وإردبان، واستمرت إقامته بثغر أسوان إلى أن مات به، وكانت وفاته في ليلة الخميس العشرين من شوال سنة أربع وعشرين وسبعمائة، ووصل الخبر إلى الأبواب السلطانية في يوم الاثنين مستهل ذي القعدة، وأنه شنق نفسه، ووُجد في بكرة النهار وهو معلق بسَلَبة في الدار التي كان قد نزل بها، وتُعرف بدار «ابن يحيى» هذا هو الذي ظهر من أمر وفاته.

وأخبرني مُتَولّي ثغر أسوان ـ وهو أحد من تَولّى قتله ـ أنه وصل إلى الثغر في ليلة الأربعاء ركن الدين بن موسك، نائب متولّي الأعمال القُوصية، وصحبتُه بعض مماليك متولي الأعمال، فأقام بالثغر يوم الأربعاء، وأظهر أنه إنما حضر لتحرير ما سقط من النخل في شهر رمضان بسبب هواء كان قد هبّ فسقط لهبوبه نخل كثير، وطلب أرباب السواقي في ذلك اليوم، وشاع أنه إنما وصل إلى الثغر بسبب ذلك.

فلما كان في ليلة الخميس توجه المتولي بالثغر، وابن موسك ومن معهما إلى داره، وطرق المتولي الباب على كريم الدين فخرج إليه غلام، فقال له من وراء الباب: من هذا؟ فقال: عرِّف القاضي أن مملوكه فلان حضر «يعني المتولي نفسَه» فأعلمه الغلام، وعاد ففتح الباب فقال متولي الثغر: فلما صِرت من داخل الباب أرسلتُ الغلام الذي فتح لي الباب إلى الاعتقال، وخرج غلام ثان ففعلت به كذلك، فدخل غلام آخر وأخبر كريم الدين بذلك، ودخلت في إثره فوجدت كريم الدين على تخت، وابنه عبد الله عنده فسلّمت عليه، وقلت لولده عبد الله: يا علم الدين تعالى إليّ أعرفك، فلما جاء إليّ أخذته وخرجت من عند أبيه، فصرخ بي كريم الدين، وجعل يقول: يا شمس الدين، يا شمس الدين، يكرر هذا القول، فلم ألتفت إليه، ودخل عليه أولئك القوم فخنقوه، وعلقوه بسلبة بعد أن أغلقوا بينه وبين نسائه بابًا، وأغلق باب الدار من داخله وتوجه القوم فعرَّفت ولده الحال، وقررت معه أن يقول في بكرة النهار إذا طُلب: إنه تخاصم مع أبيه وخرج من عنده، وأنه حرِج منه، ففعل ذلك بنفسه، قال: فلما كان من بُكرة النهار توجه المتولي وابن موسك إلى باب دار كريم الدين، وطرقوا الباب، فلم يجبهم أحد، فتوجه المتولي إلى دار قاضي البلد، وهو القاضي شرف الدين شعيب بن القاضي جمال الدين يوسف السيوطي[1] وهو يصرخ ويقول: هرب كريم الدين، والله لئن تم هربه لأشنقن بني الكنز، وأخذ القاضي وجماعة من العدول وحضروا إلى الدار، وكسروا الباب، ودخلوا الدار، فوجدوا كريم الدين مشنوقًا، فأخبر القاضي شرف الدين المذكور حاكم الثغر بأنه وُجد في عنقه سلبة ليف كانت وَشِيجة لفرس، وعليها آثار زبل الدواب، وطُلب ولده، وسئل عن خبره، فقال ما لقَّنه؛ أنه تخاصم معه بالأمس وخرج من عنده، وقد أغضبه، فكأنه وَجَدَ في نفسه من ذلك فشنق نفسه، فنُظم بذلك مشروح وسُير إلى الأبواب السلطانية في التاريخ المذكور. ودفن بثغر أسوان ولما وصل الخبر بوفاته إلى الأبواب السلطانية رسم بطلب ولده من ثغر أسوان، ولما تحقق الناسُ موته، وعلموا طلب ولده خشي من كان عنده وديعة له أن ولده إذا وصل يعترف عليهم، فظهر من ودائعه جملة عظيمة منها ما أحضره الأمير علاء الدين علي بن هلال الدولة[2] ـ فيما بلغني ـ ذهب مصكوك بثمانية عشر ألف دينار، ومصوغ، وزركش وجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، أحضر صارم الدين أستاذ دار كريم الدين ـ وهو الذي كان أستاذ دار الأمير

---

(١) توفي في حدود سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٩٤).

(٢) توفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ١٣٦).

علم الدين سَنجَر الجاولي - صندوقًا كبيرًا ضمنه من الجواهر والحوايص المجوهرة والفصوص وغير ذلك ما قيمته - فيما قيل - مائة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك.

ولما حضر ولده علم الدين طُولب بالمال، وسُعط بالخل والجير، فاعترف أن له وديعة عند صارم الدين أستاذ دار والده، فطلب فأحضر نحو عشرة آلاف دينار، وأُنكر عليه كونه أخّر إحضار هذا المال، فقال: هذا كان وديعة عندي لهذا، وقد أحضرته الآن، فلم يؤاخَذ بذلك. ثم أفرج عن ولده علم الدين عبد الله بعد ذلك، واستقر بحارة الدَّيْلم بدار أبيه الصغرى.

هذا ما كان من خبر القبض على كريم الدين ووفاته. فلنذكر خلاف ذلك من أخباره.

* * *

ذكر شيء من أخبار كريم الدين المذكور وابتداء أمره «وتَنقّلاته وما كان قد انتهى إليه من القُرب من السلطان والتمكّن من دولته»

كان كريم الدين المذكور في ابتداء أمره في حالة شبيبته في خدمة خاله تاج الرياسة بن سعيد الدولة(١)، وكان معه بمدينة قوص لما كان كاتبًا للأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري البريدي متولي الأعمال القوصية - كان - في الدولة المنصورية السيفية، وكان هو وخاله إذ ذاك - وبعده بسنين كثيرة - على دين النصرانية، وتوجَّه معه إلى الأعمال القوصية، ورُتب كريم الدين في كتابة المِسْطَبة بقوص، وهي كتابة نائب الولاية، ثم خدم بعد ذلك الأمراء، فكان ممن خدمه منهم: الأمير سيف الدين جاوَرْشِي الحسامي، والأمير سيف الدين قَجْقَرا وغيرهما، وباشر بعد ذلك وظيفة كتابة في البيوت السلطانية، ثم أسلم في الدولة الناصرية، وباشر نظر ديوان الأمير ركن الدين بيبرس أستاذ دار العالية؛ إذ تمكَّن منه، وظهر اسمه، وشاع ذكره ونَوّه الناس به، وأظهر المكارم، وبذل ماله، فمدحه الشعراء، ورغب الناس في صحبته والاجتماع به، ولم يزل على ذلك وحاله تتزايد إلى أن استقر بيبرس الجاشنكير في السلطنة كما تقدم، فعظم عند ذلك شأنه، وارتفع مكانه، وعلت رُتبته، وسمت هِمَّته، وهو مع

---

(١) هو تاج الدين بن سعيد الدولة القبطي، توفي سنة ٧٠٩هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥١٥).

ذلك تبع لخاله تاج الدين بن سعيد الدولة[1]، يأتمر بأمره، ويتصرف عن رأيه، ويقف بين يديه، وإذا خاطبه تاج الدين لا ينعته غالبًا بل يكنّيه بأبي الفضائل لا يزيده على ذلك، سمعته يخاطبه بذلك، وكان تاج الدين المذكور قد تمكن في دولة بيبرس الجاشنكير المنعوت بالملك المُظَفَّر، وكان يباشر نظر الدولة، ويجلس إلى جانب نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلاّر بدركاة باب القُلّة، ويكتب على سائر ما يكتب عليه السلطان قبل خط السلطان ما مثاله «يحتاج إلى الخط الشريف» ولا تقدم الدَّواداريّة[2] للعَلامة إلا بعد مشاهدة خطّه بذلك، إلا كتب البريد خاصة، وكانت كتب السلطان الملك المظفر إلى النواب والولاة وغيرهم بالشام وغيره لا تُخْتم إلا بعد عرضها عليه إذا كان فيها ذكر الأموال، فلما مات تاج الدين بن سعيد الدولة في سنة تسع وسبعمائة في سلطنة المظفر بيبرس استقر كريم الدين في وظيفته، فلم تطُل المدة إلى أن خلع بيبرس من السلطنة كما ذكرناه، فكانت هذه الولاية كسحابة صيف، أو زيارة طيف.

ولما توجه المُظّفر بيبرس إلى الصعيد توجه كريم الدين معه، فلما استقر السلطان الملك الناصر بقلعة الجبل حضر كريم الدين إلى الأبواب السلطانية برسالة مخدومه، وأعاد الخِزانة التي كانت معه، فخلع السلطان عليه بسبب ذلك، ثم قُبض عليه لما قُبض على بيبرس، ورُسم بمصادرته، وسَلّمه السلطان للأمير جمال الدين آقُش الأشرفي، وأمره باستصفاء أمواله، وإعدامه بعد ذلك من الوجود، لما كان يبلغ السلطان عنه في زمن خدمته لبيْبرس الجاشنْكير، عند ذلك بذل كريم الدين الأموال، وفَرّقها فيمن يقْبلها من مماليك السلطان وغيرهم، فأعطى مالاً كثيرًا، فيقال: إنه أعطى للأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجوكانْدار نائب السلطنة يومئذ عشرة آلاف دينار، وأعطى غيره، وأقلّ ما بذل خمسمائة دينار عَيْنًا فيما بلغني، فمال إليه المماليك السلطانية، واعتنوا به، وتكلم الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي مع السلطان في أمره، وتلطف غاية التلطف من غير أن يأخذ منه مصانعة، ولا قبل له بذلاً، ولا حسّن للسلطان

---

(١) سماه المؤلف قبل قليل: تاج الرياسة بن سعيد الدولة.

(٢) الدوادار: من الكلمة العربية: دواة، ومن اللاحقة الفارسية: دار، بمعنى الصاحب والقيم، أي صاحب الدواة (تأصيل الدخيل ص١٠٩)، وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٩/٤: الدوادارية: وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار، وكاتب السر، ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب.

إبقاءه، وقال للسلطان: هذا مطَّلع على أموال بيبرس ومتاجره، وهي كثيرة ببلاد الفرنج وغيرها، ومتى مات ضاعت على السلطان، فلم يزل يتلطف إلى أن رسم السلطان بالإفراج عنه، ورسم له أن ينظر الخاصّ بالوجه القبلي وهو الخاصّ الذي كان لبيْبرس في زمن إمرته، وأقرّ له في السلطنة، فسأل كريم الدين المذكور شهاب الدين أحمد بن علي بن عبادة(١) ـ وكيل الخاص الشريف السلطاني ـ أن يكون وكيله فيما يختص بنفسه، فأجابه إلى ذلك ووكَّله، وكان يتردد إلى خدمته في كل يوم، ويسلُك معه من الآداب ما لا مزيد عليه، ولا يخرج عن أمره، وهو مع هذا يجتمع بالمماليك السلطانية، ويتقرب إليهم بالهدايا والألطاف، ويبذل لهم الرغبات، فرُسم له بنظر ديوان الملك المنصور «علاء الدين علي»(٢) ولد السلطان.

ثم مرض شهاب الدين أحمد بن عبادة ومات في سنة عشر وسبعمائة، فتكلم الأمراء المماليك السلطانية مع السلطان في أمره، فوكَّله وجعله ناظر خواصّه على عادة شهاب الدين بن عبادة، وذلك في جُمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة، فباشر هذه الوظيفة، وخدم الأمراء، وبالغ في ذلك، وأفرد السلطان لخاصّه ثغر الإسكندرية، فاستقلّ كريم الدين بمباشرته، وانفرد به دون وزير الدولة وغيره، وأخذ من السلطان مالاً للمَتْجَر، فحصل منه فوائد كثيرة، وأخذ أمره في التَّمَكُّن، وانتمى إلى الأمير سيف الدين طُغاي الحُسامي(٣) الناصري، فكان يحمل إليه الألطاف والتحف، ويبالغ في خدمته، وهو يقرِّبه من السلطان، ويشكره، ويذكر محاسنه، واحتفاله بالمصالح، وحسن مباشرته، فتمكن بذلك عند السلطان، وظهر اسمه وعلت رتبتُه، فعلم أنه لا يستقيم له ما يرومه، ويحصل تمكنه على ما في نفسه مع بقاء الوزير، فتلطف إلى أن كان من عزل الصاحب أمين الدين ما ذكرناه، وحَسّن للسلطان اختصار الوزارة، وأنّ السلطان يشاور في جميع الأمور، ويتصرف فيها عن أمره، ويطّلع على أحوال دولته، ما قَرُب منها وما بَعُد، فوقع ذلك من السلطان بموقع، ووافق عليه، واختُصرت الوزارة، وأضاف السلطان إلى كريم الدين ما كان بيد الصاحب أمين الدين من نظر البِيمارستان المنصوري والقُبة والمدرسة، ومكتب السَّبيل، وأوقاف ذلك، فعندها استقلّ كريم الدين بالأمر، وأظهر القوة برفق، ولم يزل أمره يأخذ في الازدياد والظهور والتقدم وعُلو الشأن، وهو مع ذلك يراجع الأمير سيف الدين طُغاي؛ ويتردد

(١) توفي سنة ٧١٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٢١٠).
(٢) توفي سنة ٧١٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ١١٥).
(٣) مات بالحبس سنة ٧١٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

إليه، ولا يخالف أمره، ثم مال إلى غيره من الأمراء المماليك السلطانية، ورأى في نفسه أنه قد كبر على مراجعة طُغاي أو غيره، فظهر ذلك لطُغاي، فتنكر له، وغضب لميل كريم الدين إلى غيره، فأعمل كريم الدين الحيلة والتلطف إلى أن كان من إخراج طُغاي إلى نيابة صفد والقبض عليه ما قدّمنا ذكره، فلم يبق له عند ذلك منازع ولا مشارك في الكلمة، ومال السلطان إليه ميلاً عظيمًا، وقَرُب منه قُربًا ما قَرُبَه منه أحد، ولا سمع بمثله، حتى ولا ما بلغنا عن الرشيد والبرامكة ما لو شرحناه لطال، وزاده السلطان في التشاريف، فكان يخلع عليه أولاً «كنجي» مطلق ثم خلع عليه «كنجي» منقوشًا ثم رفعه عن هذه الرتبة فخلع عليه أطلسًا معدنيًا أبيض، وتحتانية أطلس أخضر بطرْزَ زركَش على الفُرْجَتين، ولم يخلع مثل ذلك على متعمِّم قبله، ولا على نائب سلطنة، وبلغني أنه رُسم له أن يلبس في خلعته الشاش المثمر الذي لا يخلع إلا على صاحب حماة، وهو شاش سكندري مقفّص بحواش زُرق بقبضات ذهب مصري، فاستعفى من ذلك.

ثم فوَّض السلطان إليه بعد ذلك جميع ما بيده من التصرُّف في الأموال والولايات، والبيع والابتياع والنكاح والعتق وغير ذلك، أقامه في جميع ذلك مَقام نفسه، وقال السلطان في مجلس عام: «فوّضت إليه ما هو مفوَّض إليّ». وزاد معلومه المُقرّر له على الدولة، فقرر له ما لم نعلم أنه قُرِّر لمُتَعَمِّم قبله، وكان يستدعي من الحوايج خاناه والمطبخ السلطاني ما يحتاج إليه من الطاري، فيُحمل إليه من غير استئذان أحد، وأضاف السلطان إليه النظر على أوقاف الجامع الطولوني عوضًا عن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، وكان قاضي القضاة يلي ذلك بشرط الواقف، فانتزعه منه، وفوّضه إلى كريم الدين، فباشره أحسن مباشرة، وحصل له من السعادة في مباشرته أنه كان إذا اختلت جهة من الجهات ففوضت إليه صلح أمرها، وتميَّزت أموالها، وصار هو الآمر في الدولة مصرًا وشآمًا، وكان أمره يصدر لفظًا لا خطًا، ولا يراجع إذا أمر بولاية أو عزل أو طلاق أو منع أو زيادة أو توفير، فكان يرسل إلى القاضي علاء الدين علي بن الأثير[1] صاحب ديوان الإنشاء أن يوقع بكذا، أو يكتب بكذا، فيفعل ذلك من غير مراجعة ولا توقف على استئذان السلطان، بل يكتب لوقته ما يأمر به، ويكتب في آخر المرسوم أو التوقيع حسب الأمر الشريف، فتصرَّف كريم الدين في أموال المملكة وولاياتها ووظايفها بلفظه، فكان سائر أرباب الوظائف يتصرفون عن أمره.

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٤. وسيورد المؤلف ترجمته في حوادث سنة ٧٣٠هـ.

ولقد انتهى أمره في التعاظم إلى أن حضر الأمير علاء الدين الطُنْبُغا[١]، نائب السلطنة بحلب إلى الأبواب السلطانية في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وركب في خدمة كريم الدين إلى داره، فلما قرب من الدار ترجل عن فرسه ومشى وكريم الدين راكب ما تغير عن حاله إلى أن انتهى إلى المكان الذي عادته أن يركب منه وينزل فيه، وانتهى تمكنه إلى أن ركب السلطان إلى داره، مرارًا، فركب مرة إلى تربته بالقرافة، ونزل ودخل الخانقاه التي أنشأها كريم الدين بها، وأكل طعامه فيها، وركب مرة ثانية إلى داره التي أنشأها ببركة الفيل، ووقف السلطان بنفسه، وقَسّمها المهندسون بحضوره، والسلطان يشاركهم في الهندسة والقسمة.

ولقد مرض قبل أن يأمر السلطان بالقبض عليه بأيام، فأظهر السلطان عليه من القلق والألم ما لا مزيد عليه، وكان يرسل إليه في كل يوم جماعة من مماليكه الأمراء الخاصَّكِية[٢] يسألون عنه، ويعودون إلى السلطان بخبره، ثم يرسل آخرين بعدهم، هذا دأبه في طول نهاره، وأرسل إليه جملة من المال يتصدق بها في مرضه. ولما عوفي زينت له القاهرة أحسن زينة، كما تزين للفتوحات الجليلة، ولعود السلطان من الغزوات المنصورة عند هزيمة أعدائه، وبات الناس بالأسواق، ونُصِب في بعض الجهات أبراج من الخشب، ولبست الأطلس، والذهب وغيره، وكانت الملاهي في عدة مواضع من القاهرة بالأسواق أيامًا، وبظاهر القبة المنصورية، وفعل مثل ذلك في مرضه عند عافيته في غير هذه المرة، وإنما كانت أكثرها احتفالاً المرة الأخيرة.

ولما عوفي من المرضة الأخيرة أمر أن يُتَصَدّق بقمصان بالبِيمارستان[٣] من وقفه، فاجتمع الفقراء لذلك، وازدحموا قبل وصوله إلى البيمارستان، فمات منهم من شدة الازدحام ثلاثة عشر إنسانًا من الرجال والنساء، وتأخر عن الحضور في ذلك اليوم. هذه حاله في أمر الدولة والتمَكّن منها، والقرب من السلطان، ونفوذ الكلمة.

---

(١) مات مخنوقًا أو مسمومًا سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٢) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته ويسوقون الحمل الشريف، ويجهزون في المهمات الشريفة ومتعينون بالإمرة، والمقربون في المملكة، كان عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسباي نحو ألف خاصكي (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٨١ وما بعدها).

(٣) البيمارستان: ويقال: المارستان: وهو دار المرضى، معرّب، وكان البيمارستان دارًا للعلاج ومكانًا لتدريس الطب (الموسوعة العربية الميسرة ص٤٧٢).

وأما حاله في نفسه وأمواله ومتاجره، فإنه اتسعت أمواله ونمت، وكثرت أملاكه، وتضاعفت متاجره، إلى أن منع التجار أن يَتَّجِروا في صنف من الأصناف إلا أن يبتاعوه من حواصله بما يختاره من الثمن، واحتكر الأصناف قليلها وكثيرها حتى حبال القنب للورّاقات وقصب الغاب، وقش الحصر، وما بين ذلك إلى المسك والعنبر والعود، وماء الورد، وسائر الأصناف، لا يستثنى منها شيئًا؛ وكان في كل مدة ينادي بجمع التجار إلى داره وإصطبله لحضور حلقة البيع، فتغلق الأسواق، ويحضر الناس على اختلاف طبقاتهم، فيُخرج الأصناف من الأقمشة وغيرها، فيبيعها عليهم بما يختاره هو أو أتباعه، لا يقدر أحد منهم على الامتناع.

فلما كثرت الشَّناعة في ذلك صار يجمع الناس ويُخْرِج إليهم من القماش الكمخا والصوف والنَّصافِي وغير ذلك، فيُنَادي منه على خمسة قطع أو عشرة من أجوده، ويقول للتجار: اشتروا بالقيمة، فينتهي إلى قيمتها ثم ترفع إلى حاصله، ويُخْرج من جنسها ما يساوي أقل من نصف قيمتها، فيعطاه الناس بما انتهت إليه قيمة الجَيِّد منه، ويفرق عليهم، فكان الذي يأخذه الناس لا يقوم لهم بنصف الثمن الذي يعطونه، ومنه ما لا يحفظ الثلث - وحكى لي بعض من أثق به من التجار العدول كثيرًا من ذلك - ثم يستخرج الثمن منهم بأشد طلب وأعنفه، فتضرّر الناس لذلك، وانكسر جماعة منهم، وغَلَّقوا دكاكينهم، ومنهم من تسحب.

ثم خرج عن هذا الحد إلى تعطيل الأحكام الشرعية، والعمل بغير حكم الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، فكان يخرج مالاً في بعض الأوقات إذا بُرِض[1]، ويرسم أن يصالح أرباب الديون على ما لهم في ذمة من اعتقلوه، ويفرج عنهم، فيطلب المعتقل ومن اعتقله، ويسأل رب الدين عن دينه، ويلزم بإحضار وثيقته، فإن اعتذر عن إحضارها رسم عليه حتى يحضرها، فإذا أحضرها أخذت منه، وأمر أن يصرف له عُشْر مبلغها، أو أقل منه، أو أكثر بيسير، فإن رضي بذلك وإلا قطعت وثيقته، وأفرج عن المعتقل، ويرسم في بعض الأوقات على بعض أرباب الديون حتى يشهدوا عليهم ببراءة غرمائهم فإذا تكامل ذلك أمر كريم الدين أن تغلق أبواب السجون الحُكْمِية، ويمنع نواب الحكام من سماع الدعاوى في الديون الشرعية، فتعطلت الأحكام الشرعية، وتضرر الناس، وكان هذا الفعل من أشد ما فعله، ولا يتجاسر أحد أن يذكر ذلك له، ولا يعيبه عليه، حتى صار المُنْكِر لذلك ينكره بقلبه، وهو أضعف الإيمان.

وكان كثير من المرائين يحسنون له فعله، ويشكرونه عليه، ويدعون له، فحصل للناس التضرر التام، حتى كادت المعاملات أن تنقطع من بين الناس.

---

(١) برض: يقال بُرِضَ فلان (بالبناء للمجهول) إذا نفد ماله من كثرة العطاء.

وعمل نوابه مع بعض من اعتنوا به من التجار عكس هذا، فكان بعض التجار يبيع السلعة الكاسدة على بعض المضرورين من التجار وغيرهم إلى الأجل الطويل، فيرغبون في ابتياعها لطول المدة، ويرجون بذلك أن يتسببوا فيها لصلاح أحوالهم، ويشترونها بمثلي القيمة، فإذا استقر البيع، وتسلم المشتري السلعة، وأشهد على نفسه بالثمن أحال التاجر البائع إلى ديوان كريم الدين بالثمن، فيطلب المشتري، ويرسم عليه، ويستخرج الثمن بالضرب والاعتقال، ولا يحملون فيه على حكم الشرع، ولا يستنكف نوابه من ذلك ولا يتحاشَوْن، فتضرر الناس من هذا الوجه أيضًا، حتى كان منهم من يبيع السلعة بعينها بنصف ما ابتاعها به من الثمن، ويعطيه، ويكلف ما بقي، فيستدينه ويعطيه.

وأما غير ذلك من حال كريم الدين فإنه كان قد تعاظم في نفسه، فيخلع الخلع السنية أشرف من خلع السلطان، فكان السلطان إذا خلع على أحد مُلَونًا خلع كريم الدين مُصْمَتًا، وإن خلع مُصْمَتًا خلع هو طَرْدَوَحش[١]، وإن خلع طَرْدَوَحْشٍ خلع طَرْدَوَحشٍ مُقَصَّبًا، وإن خلع السلطان مقصَّبًا خلع الأطلسَ المعدني بالطرز الزركشي، وأنعم بالحَوايص الذهب والكَلُوتات الزركشي وغير ذلك، وإذا خلع على من يخلع السلطان عليه الأطلس بطرز الزركش خلع عليه المزركش المُكَلّل باللُّؤلؤ والمُرَصَّع بالجوهر، وأنعم عليه بالخيول المُسَوَّمة، ويغالي الأقمشة وغير ذلك، وإذا أنعم السلطان بمال أنعم بأضعافه، فكان ذلك مما حَقَده السلطان عليه، وذكره من عيوبه، وتعاطيه ما لا يصلح.

وكان مما فعله أنه جعل لنفسه بيوتات نحوَ بيوت السلطان من شَرابْخاناه[٢]، وطست خاناه[٣]، وفراش خاناه[٤] وغير ذلك، وفي كل بيت منها من الآلات المناسبة

(١) طرد وحش: هو نوع من القماش الحرير المنقوش بمناظر الصيد والطرد (السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٧٨٨).

(٢) الشرابخاناه: ومعناه بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان (صبح الأعشى ٤/ ٩).

(٣) طست خاناه: ويقال لها: طشت خاناه (بالشين المعجمة): ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت التي تغسل فيه الأيدي، والطشت الذي يغسل فيه القماش، وقد غلب عليهم استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء (صبح الأعشى ٤/ ٩).

(٤) فراش خاناه: ومعناها: بيت الفراش، وتشتمل على أنواع الفرش في البسط والخيام (صبح الأعشى ٤/ ١٠).

له ما لا يكون مثله إلا عند أكابر الملوك، ثم أخذ لنفسه أخيرًا بما يفعله الملوك، فكان يمدّ سِماطه وأمامه أستاذ الدار[١]، ومقدم المماليك، والجاشْنكير[٢]، والمشرف، ويأكل من ذلك الطعام من حضر من الأكابر وغيرهم، وهو بارز عنه لا يأكل منه شيئًا، فإذا رفع ذلك السماط استدعى الطاري بعد ذلك فيأكل منه، وكان في ليالي شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة يمد بين يديه السماط الذي لا يمد لنائب سلطنة مثله، ويتقدمه المشروب، ويأكل من حضر السماط من الأعيان وغيرهم، فيأكلون بعد المشروب، ثم تُمدّ الحلوى بعد السماط، وهو جالس على مرتبته لا يأكل من ذلك شيئًا، ثم يؤذن للناس في الانصراف، ويمد له طعام الطاري فيأكل منه، وبلغني أنه كان يفعل ذلك في أسفاره إلى الشام وغيره، وكانت رواتبه وافرة لم يكن لنائب سلطنة نظيرها، وعطاياه وصلاته وإنعامه وتشاريفه متواصلة بمن يتعلق بالسلطان من خواصه وأمرائه ومماليكه وغلمانه، لا ينقضي يوم إلا وقد أنعم فيه بالجُمَل الكثيرة.

وكان الذي أعانه على ذلك أنه تَخَوَّل في أموال الدولة، واتسع جاهه، وكثرت متاجره، وتقرب الناس إليه ببذل فوائد المتاجر، وضايق الناس فيما بأيديهم حتى كان يرسل كل سنة إلى تجّار الكارم ـ عند وصولهم من اليمن إلى ثغر عَيْذاب ـ من يأخذ منهم جملة من الفلفل بأقل من قيمته بعدن، ويلزمهم بحمله والقيام بما عليه من الحقوق والمكوس[٣] إلى أن يصل إلى ساحل مصر، ويقبض منهم، فإذا وصل تجّار الكارم إلى ثغر الإسكندرية لا يمكنون من البيع على تجار الفرنج إلا بعد بيع ما عنده، وحواصله كثيرة جدًا فأضرّ ذلك بالتجار من الكارمية والفرنج حتى لو استمرت ولايته لأدت إلى انقطاع الواصل عن الديار المصرية، وكانت له عدة معاصر أقصاب،

---

(١) أستاذ الدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «إستذ» بهمزة مكسورة ومعناه: الأخذ، والثاني «دار» ومعناه الممسك، فأدغمت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار، ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال (صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠، ١٨٨).

(٢) الجاشنكير: هو الذي يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يدس عليه فيه سمّ ونحوه. وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «جاشنا» ومعناه: الذوق، ولذلك يقولون في الذي يذوق الطعام والشراب الشيشنيّ، والثاني «كير» وهو بمعنى المتعاطي لذلك، ويكون المعنى الذي يذوق (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٢).

(٣) المكس: هي الضريبة التي تؤخذ من التجار على ما يدخلونه البلد من البضائع للتجارة.

ودواليب بالوجه القبلي والبحري، بحيث أنه لا يخلو إقليم من أقاليم الديار المصرية، ولا بلد كبير إلا وله فيه تعلُّق من دواليب أقصاب وبساتين، أو زراعة أو متجر أو مسلف أو معاملة أو مخرج على صنف من الأصناف التي تكون بذلك البلد.

ولما عزله السلطان أمر بإبطال هذه المتاجر، ومكن الناس من ابتياع الأصناف وبيعها، ورفع عنهم الحجر في ذلك، فاستبشر الناس بذلك، وانبسطت آمالهم، وطابت نفوسهم، وتحقّقوا عدلَ السلطان، وانحلّت أسعار الأصناف التي كان يحتكرها، فتضاعفت الأدعية بدوام دولة السلطان، وعلموا أن تلك الأفعال الشنيعة لم تكن عن أمر السلطان، ولا برضاه، وقد كان يوهم الناس ويصرح لبعضهم أنه لولا ما يفعله من إرضاء السلطان بما يحصل له من فائدة المتاجر والدواليب، وسَدّ ما يحتاج إليه السلطان بتدبيره كان السلطان قد استصفى ما في أيدي الناس من الأموال، فعلم الناس الآن أن الأمر ليس كذلك، فرجوا من الله تعالى دوام الخير، وزيادة العدل والإنصاف.

ولما عزله السلطان فَوّض ما كان بيده لمن نذكر: فَوّض نظر خواصّه ووكالته للقاضي تاج الدين أبي إسحاق إبراهيم وكان قبل ذلك يلي نظر الدواوين بالديار المصرية، وفَوّض النظر على البيمارستان المنصوري والقُبّة والمدرسة ومكتب السبيل وأوقاف ذلك للأمير جمال الدين آقُش الأشرفي، وهو رأس الميمنة، وفَوّض نظر الجامع الطولوني وأوقافه للأمير سيف الدين قِجْليس أمير سلاح.

ذكر تفويض الوزارة للصاحب الوزير أمين الدين عبد الله(١) «وهي الوزارة الثانية له»

قد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا أن الصاحب الوزير أمين الدين عبد الله بعد عزله من الوزارة في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فوّض إليه نظر النظار والصحبة، ثم عزل عن ذلك، ولزم داره، ثم رسم له بنظر المملكة الطرابلسية، ورُتّب له على هذه الوظيفة نظير معلومه الذي كان له على وظيفة نظر النظار بالديار المصرية، فتوجه إليها كارهًا في سادس عشر صفر سنة ثماني عشرة وسبعمائة، وأقام بها إلى أن سأل أن يُفْسَح له في التوجه إلى الحجاز الشريف، فأذن له في ذلك، فحجّ ولم يعد إليها،

(١) هو عبد الله بن تاج الرياسة القبطي، أمين الدين الوزير، توفي سنة ٧٤٠هـ أو ٧٤١هـ (انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ٣٤٨/٢، كنز الدرر ٣١٢/٩، الدرر الكامنة ٢٥١/٢).

واستعفى من المباشرة، فرسم له بالإقامة بالقدس الشريف، فأقام هناك، ورُتِّب له على سبيل الراتب في كل شهر ثمانمائة درهم وثمانية غراير، فلم يزل بالقدس الشريف إلى أن قبض على كريم الدين كما تقدم، فرسم السلطان بطلبه إلى الأبواب العلية، وكتب بذلك إلى نائب السلطنة الشريفة بالشام على يد الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي، فتوجه إلى دمشق، وأرسل إليه البريد منها، فحضر إلى الأبواب السلطانية.

وكان وصوله في بكرة نهار الأحد الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، فمثل بين يدي المقام الشريف، فأقبل عليه غاية الإقبال، وألبسه تشريفًا، ونزل إلى داره، فلم يستقر به الجلوس حتى طلبه ثانيًا، ففوّض إليه الوزارة، وأنعم عليه بالدواة والبغلة، وأقام بالقلعة إلى عشية النهار يُنفِّذ الأشغال، ثم ركب منها إلى داره واجتمع الناس ببابه، وامتلأت الأزقة والشوارع والرحبة التي أمام الدار على سعتها، وازدحموا حتى كاد يعجز عن الوصول إلى باب داره والدخول إليها إلا بجهد كبير.

وأصبح في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، وركب في موكب الوزارة، وجلس بدار العدل الشريف مع السلطان إلى أن انقضى المجلس، وقام إلى قاعة الوزارة، وفُتِحَ له الشبّاك بها، وكان قد أُغلق بعد عزله عن الوزارة، فلم يفتح إلا في هذا اليوم، فجلس فيه، وأظهر الإحسان إلى الناس، ونشر فيهم العدل، ووعدهم عن نفسه وعن السلطان بكل جميل، فسُرَّ الناس بمقدمه، وازدحموا عليه حتى منعوه من تنفيذ أشغال الدولة، فكانت قلعة الجبل تغص بالناس من أرباب الأشغال والوظائف والبطّالين[1] والمُتَفرِّجين، إلى أن رسم بمنع كثير من العوام من طلوع القلعة، وأقام على ذلك أيامًا حتى خفّ الناس، ولما ركب إلى مصر في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من الشهر تلقاه الناس بالفرح والسرور والدعاء له، وازدحموا عليه فيما بين مصر والقاهرة، حتى امتلأت بهم الطرق.

ولما استقرّ في الوزارة رسم للقاضي شرف الدين عبد الهادي بن زُنْبُور مستوفي الصحبة أن يكون ناظر النظار والصحبة، رفيقًا للقاضي موفق الدين، ورتب في استيفاء الصحبة القاضي شمس الدين بن قَزْوينة وهو صهر الصاحب أمين الدين على ابنته، وأحضر الصاحب جماعة من أصحاب كريم الدين وألزامه، فصادرهم بمال حمل من جهتهم إلى بيت المال، وكان في الطلب لين، ثم أفرج عنهم في أثناء جمادى الآخرة.

---

(١) البطّال: تقدم التعريف به.

ذكر القبض على كريم الدين الصغير[١]
«وشيء من أخباره»

كان كريم الدين هذا يخدم الأمراء الأصاغر، وكان ممن خدمه الأمير علاء الدين أيْدُغْدي التليلي أستاذ دار الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر، وهو من أمراء الأربعين، ثم توصل إلى أن باشر من جملة عمال الجيش بالديار المصرية، فلما قوي أمر كريم الدين ـ وهو من أقاربه ـ نقله من عمالة الجيش إلى نظر النظار والصحبة ليس بين ذلك وظيفة أخرى، فباشر مدة، ثم عزل عن نظر النظار خاصة، ثم أعيد إلى الوظيفة ثانيًا كما تقدم، فلما باشر عَسَف بالناس وظلمهم، واستخفّ بالأكابر، وشدّد على المباشرين والتجار والرعايا، وعاقب بين يديه، واقترح نوعًا من العقوبة سماه «المُقْتَرَح»، وبسط يده ولسانه في أبشار الناس وأعراضهم حتى ضاقوا بذلك ذرعًا، وبلغت منهم القلوب الحناجر، وهو لا يزداد إلا تماديًا، واستخفافًا بخلق الله تعالى، ثم ترقَّى عن ذلك إلى الاستخفاف بأمراء الدولة الأكابر مقدّمي الألوف، وتزايد ظلمه وتفاحش، وضرب جماعة بين يديه حتى ماتوا، وكان إذا علم أنه يُشْتَكى إلى السلطان من أمر من الأمور بادر بالدخول إلى السلطان، وأنهى إليه أنه فعل كذا وكذا مما يعود نفعه على الدولة، وأن الناس قد كرهوه وربما شكوه، وأنه لا غرض له إلا في مصلحة السلطان، ويقرر معه ذلك، فإذا اشتكى للسلطان لا يسمع فيه شكوى، ولا يلتفت إلى قول قائل، ويقرر في ذهن السلطان أنه أنصح الناس له، وأن سائر الناس كرهوه بسبب نصحه للسلطان، وتحصيل أمواله، فبقي لا يسمع فيه شكوى، فكفّ الناس عن شكواه.

فلما قبض السلطان على كريم الدين الكبير، استمر هذا على وظيفته في النظر إلى آخر يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الآخر، فرتبه السلطان في صحابة ديوان الجيوش المنصورة عوضًا عن القاضي مُعِين الدين هبة الله بن حشيش، وخلع عليه على عادة من تقدمه، وباشر الوظيفة في يوم الاثنين الثامن عشر من الشهر، وأعيد القاضي معين الدين إلى نظر الجيوش بالشام عوضًا عن قطب الدين بن شيخ السلامية، واستمر كريم الدين في هذه الوظيفة، وهو مع ذلك يكتب على عادته في نظر الدواوين، وينفذ الأشغال إلى أن حضر الصاحب أمين الدين وفوضت إليه

---

(١) قتل سنة ٧٢٦هـ، وسيأتي ذكره في وفيات سنة ٧٢٦هـ (انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧١).

الوزارة، فمنع من ذلك، واستمر في صحابة ديوان الجيوش، والناس في أشد ألم بسبب سلامته.

فلما كان في يوم السبت سلخ ربيع الآخر أمر السلطان بالقبض عليه، فقبض عليه هو وولده سيف الدين، وألزم بالحمل، واعتقل بالبرج بباب القرافة، ولو تمكن الناس منه أو ظهر لهم قتلوه، وكان ولده سيف الدين يخرج في الترسيم ويركب حمارًا، ويبيع قماش أبيه، ويحمل الثمن عنه، وأبيعت أملاكه، ثم سأل أن يحمل أربعمائة ألف درهم، ويتصدّق السلطان عليه بالإفراج عنه، فأجيب إلى ذلك، ثم نقل من البرج إلى القرافة، فأقام هناك بتربة الأمير سيف الدين طُقْتَمُر الدمشقي[(١)]، بجوار تربة كريم الدين الوكيل، واستمر على ذلك إلى أن رسم بتوجهه إلى مباشرة نظر المملكة الصَّفَدية، فتوجه إلى ذلك في يوم السبت الثاني عشر من جمادى الآخرة من السنة، وخرج من القرافة ليلاً خوفًا على نفسه أن يُقتل، وضَمِن على ولده «سعد الدين فرج الله» أن يبيع بقية أملاك والده، ويحمل عنها ليكمّل ما قُرِّر على أبيه، ولم يكن طلبه شديدًا على العادة في مثل ذلك إذا طُولب أمثالُه بحمل الأموال.

واستمر بصفد إلى أن رسم بإحضاره منها عندما أحضر كريم الدين الوكيل من القدس، فعُزل منها في شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين، وكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الآخر منها، وعند وصوله اعتقل بالبرج بباب القرافة بقلعة الجبل، وطولب بحَمْل المال، فحمل من جهته مائة ألف درهم، وأفرج عنه في يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وكان من أمره بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وصول رسل متملك الأرْمَن إلى الأبواب السلطانية

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في العشر الأُخَر من جمادى الأولى وصل رسل مُتَمَلِّك الأرمن إلى الأبواب السلطانية، وفيهم الخليفة عليهم بزعمهم، وأم الملك، وجماعة من أكابرهم يسألون مراحم السلطان في الكفّ عنهم، وأن يحملوا إلى الخزانة السلطانية قطيعة في كل سنة ألف ألف درهم ومائتي ألف درهم، وما جرت به العادة من البغال المُساقة إلى الإسطبلات، والنعال الحديد، وغير ذلك من التقادم، وسألوا أن يأذن لهم في عمارة ثغر آياس، وأن يكون ما يتحصّل منه مناصفة

(١) سيف الدين طقتمر الدمشقي: توفي سنة ٧١٦هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٤).

بين السلطان وبينهم، فامتنع السلطان من إجابتهم إلى المناصفة إلا أن يبذلوا عن الثغر في كل سنة ثمانمائة ألف درهم لتكملة ألفي ألف درهم.

ثم وصلت رسل الملك أبي سعيد ملك التتار، وكان في جملة رسالتهم سؤال السلطان في أمرهم، والشفاعة فيهم، فاستقر حالهم على حَمْل القطيعة المذكورة، ولم تحصل الموافقة على عمارة ثغر آياس، وأعيدوا إلى بلادهم.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبندا ملك العراقين وخراسان وغير ذلك، وكان وصولهم إلى قلعة الجبل في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة، ومثلوا بين يدي المقام الشريف في هذا اليوم، وكانوا ثلاثة، المشار إليه منهم من مقدمي التَّوَامِين[١].

ولما وصل هذا الرسول إلى حلب، أظهر كبرًا عظيمًا، وحمقًا زائدًا، فتلطف الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا نائب السلطنة بحلب به، وأكرمه وعامله بنهاية الإكرام والاحترام والأدب، فتمادى على حمقه، ولما وصل إلى حمص تلقاه نائبها، فمدّ يده إلى النائب ليقبلها، واتصلت هذه الأخبار بالأمير سيف الدين تَنكِز نائب السلطنة بالشام المحروس، فأرسل للقائه الأمير سيف الدين جوبان أحد الأمراء المقدّمين، فلما قدم على الرسول لم يكرمه، ولم يقم له، بل مدّ إليه يده ليقبلها، فصرف الأمير جوبان يده، ووَلّى ولم يسلم عليه.

ولما قرب الرسول من دمشق المحروسة أمر نائب السلطنة بها العسكر الشامي بالركوب في أتم زينة، فركبوا بالكلاوت الزَّركش والطُّرز الزركش والخيل المُسوَّمة، والعُدد المذهبة والمزركشة، والكنابيش الحرير المذهبة، وخرجوا في أحسن زي وأجمله، وأمرهم أن يقفوا سِماطَين من القابون إلى باب دار السعادة، وهي سكن نائب السلطنة، ففعلوا ذلك وما ركب نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنكِز للقائه، ولا خرج من دار السعادة، ولما حضر الرسول قدم بين يدي نائب السلطنة، وقد حفّت به الحجاب، فلم يتحرك له ولا نظر إليه كل النظر، وأوقف بين يديه، فسأله عن جوبان نائب الملك أبي سعيد، وعن الأمراء، فأجابه الرسول أنهم في عافية، ثم

---

(١) مقدمو التوامين: هم أمراء التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، أي أمير عشرة آلاف (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

أمر بإخراجه ليستريح، فأخرج، وأنزل بالميدان في جِتر[1] أمر بنصبه له، فلما صار الرسول بالدِّهليز سأل العود إلى نائب السلطنة فاستؤذن على ذلك، فلم يؤذن له، فأرسل الرسول إليه يقول: أنا إنما أتيت من قبل الملك، ولم أجِيء من قبل جوبان النائب، ولا الأمراء، فكيف سألني نائب السلطان عنهم، ولم يسألني عن الملك؟ فأجابه الأمير سيف الدين (تَنكِز) بقوله: أنا نائب سلطنة لا أسأل إلا عن نائب سلطنة مثلي أو أمير، وأما الملك فإنما يسأل عنه السلطان خَلّد الله ملكه، ثم أرسل إليه يُعَنّفه على ما صدر منه من الحمق والترفع على الأمير الذي سيّره للقائه، وقال: «إن ما وراء الفرات من البلاد الحادثة في مملكتكم هي بلاد كفر ونفاق وخوارج، وأما ما وراء الفرات مما يلي الشام فهي بلاد إسلام، ومساكن أنبياء، ومقر العُبّاد والصُّلَحاء والعلماء والفقهاء، فينبغي لمن يحضر إليها أن يتأدّب بأدب الله تعالى»، فاستعظم الرسولُ نائبَ السلطنة بالشام، وتهذبت أخلاقه وتأدب بعد ذلك مع من يصل إليه، ثم أمره بالمسير إلى الأبواب السلطانية، فتوجه وطالع نائب السلطنة السلطان بصورة الحال، فشكر فعله.

ولما وصل الرسل إلى الأبواب السلطانية، ومثلوا بين يدي السلطان أحسن إليهم وأكرمهم، وأجلسهم في مجلسه، وأدُّوا الرسالة، فكان مضمونها طلب الصلح، والحلف على ذلك، فحلف لهم السلطان.

وكان الأمير سيف الدين أيتمُش المحمدي لما توجه في الرسالة إلى الملك أبي سعيد حلفه أيضًا على انتظام الصلح، وإطفاء نايرة الحرب، وكف الغارات من الجهتين، وأحضر الرسل معهم هدية من جهة الملك إلى السلطان حياصَتَين وقماشًا، فقبل السلطان تقدمتهم، وذكروا أن التقادم واصلة صحبة تاجر الملك أبي سعيد، فأقبل السلطان عليهم، وأنزلهم برواق بدار النيابة بقلعة الجبل، ورتب لهم الرواتب الوافرة من المأكل والحلويات والفواكه وأنواع الأشربة المباحة وغير ذلك، ثم أحضرهم يوم الخميس وخلع عليهم؛ فخلع على المشار إليه منهم أطلسًا معدنيًا بطرززركش، وحياصة وكَلُوتة وسيفًا مُحلى بالذهب، وخلع على الاثنين [الآخرين] طردوحش مقصبًا بذهب وحوايص وكلُوتات، وخلع على من معهم من الأتباع والكبلجية والغلمان ما يناسبهم.

---

(١) الجتر: هي المظلّة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية (صبح الأعشى ٢/ ١٤١، ٤/ ٦، ٤٨).

ولما كان في يوم السبت تاسع عشر جمادى الآخرة أمر السلطان بركوبهم بين يديه إلى الميدان، وأنعم عليهم بثلاثة أرؤس خيل، فركبوا في خدمته وشاهدوا مواكبه العظيمة، فرأوا ما لم يروا مثله، ثم أحضرهم السلطان في يوم الاثنين الحادي والعشرين من الشهر، وخلع عليهم ثانيًا نظير تلك الخلع، وأجابهم عن رسالتهم، وأنعم عليهم بالأموال الكثيرة، وأحسن إليهم غاية الإحسان.

وكان في جملة رسالتهم سؤال السلطان أن يزوج ابنته من ابن الأمير جوبان نائب الملك أبي سعيد، فاعتذر السلطان عن ذلك بصغرها، وقال: إن هذه عمرها خمس سنين، وإذا صلحت للتزويج أجبنا سؤالكم إن شاء الله تعالى، وأعادهم مكرمين، فكان توجههم من قلعة الجبل في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر، وتوجه معهم الأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي حتى أوصلهم إلى غزة، هذا ما كان من خبرهم.

ذكر تجريد طائفة من العسكر إلى بلاد النوبة

وفي هذه السنة ـ في شوال منها ـ أمر السلطان بتجريد طائفة من العسكر المنصور المصري إلى بلاد النوبة، فجرد ثلاثة من الأمراء وهم: سيف الدين طُقصُبا الناصري الحسامي(١)، وهو المقدم على العسكر، وعلاء الدين علي بن قرا سنقر المنصوري(٢)، وعز الدين أيدَمر الكَبْكِي(٣)، وجَرّد جماعة من المماليك السلطانية، ومن الحلق، ومن أجناد الأمراء، من كل أمير مائة جنديان، ومن كل أمير طَبْلَخاناه جندي، فبلغت عدتهم نحو خمسمائة فارس، وكان خروجهم من القاهرة في مستهل ذي الحجة.

وسبب تجريد هذا العسكر أن كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز، لما تملك النوبة بعد وفاة خاله إبرام أخي كُرُنْبُس ـ كما تقدم ـ واستقل بالملك، واتصل ذلك بالسلطان أفرج عن كُرُنْبُس، وجهزه إلى النوبة، وجَرّد هذا العسكر لنصرته فتوجهوا، فلما قاربوا البلاد فارقها كنز الدولة، وتوجه وصحبته من انضم إليه من العربان، فتبعه العسكر إلى الأبواب، فلم يظفروا به، فلما حصل أمانهم منه، عادوا إلى دُنقُلة، وملكوا كرنبس بها، وعاد العسكر وتركه، ولما علم كنز الدولة بعود العسكر جمع العربان وعاد إلى دنقلة، وأخرج كرنبس منها، واستقل

(١) توفي سنة ٧٤٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٥).
(٢) توفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٩٥).
(٣) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٠.

بملكها، ووصل كرنبس إلى ثغر أسوان، فرسم له بالمقام به، فأقام به إلى أواخر سنة ست وعشرين وسبعمائة، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة أيضًا، في ليلة يسفر صباحها عن نهار الثلاثاء ثالث المحرم توفي الملك المجاهد أنس بن الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري الضرير[١] بالقاهرة، ودفن بتربة والده بالقرافة، وقد جاوز خمسين سنة، وكانت زوجته ابنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي قد اشترت منه ما يخصه من الدار المعروفة بإنشاء والده بالقاهرة، وحصل بينها وبينه خصام قبل وفاته أوجب انتقالها عنه إلى دار الشريف بن ثعلب، وسكنتها بالأجرة، فلما مات حصل بينها وبين إخوته خصام، فباعت ما ملكته من الدار الزينية لوكيل زوجة السلطان طُغاي أم ولده، واشترى الوكيل من بقية الورثة ما يخصهم من الدار بستمائة ألف وثلاثين ألف درهم، وأخرج أولاد العادل منها، وتفرقوا بالقاهرة، وسكنوا في عدة مساكن بالأجرة.

وتوفي الصدر الأمير نجم الدين محمد بن الشيخ فخر الدين عثمان بن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد بن عثمان البصروي الحنفي[٢]، وكانت وفاته بمدينة بُصرى في يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان، ودفن بها، وهو من أبناء الخمسين، وكان قد تقدم واشتهر بتحصيل الخيول الجياد، وسياقتها إلى الأبواب السلطانية، وتقدمتها إلى أعيان الأمراء، فأوجب له ذلك التقدم، فولي نظر الحسبة بدمشق، ثم نظر الخزانة، ثم وزر بالشام، ثم سعى في إقطاع فأنعم عليه بإمرة عشرة، وأقطع إقطاعًا جَيدًا، وكان قبل ذلك مدرسًا ببصرى، وكان يذكر بكرم رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من شعبان توفيت بدمشق محمودة خاتون ابنة الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب[٣] توفيت بدارها وتعرف بدار كافور، وصلى عليها بجامع دمشق عقيب صلاة المغرب من ليلة الجمعة ودفنت بالمدرسة الصالحية داخل دمشق بتربة جدتها، وكانت جليلة، ولم تتزوج قط، ولم يكن في بيت العادل من هو في درجتها رحمها الله تعالى. نقلت وفاتها من تاريخ الشيخ علم الدين القاسم بن البِرْزالي.

* * *

(١) ويقال له: أنص، بالصاد المهملة (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦١، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٢، الدرر الكامنة ١/ ٤١٧).

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٢، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٢.

(٣) انظر ترجمتها في: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣١٨.

واستهلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة بيوم الجمعة الموافق للثالث من طوبة من شهور القبط.

وفي يوم الأربعاء السادس من المحرم نودي بالقاهرة ومصر المحروستين أن يتعامل الناس بالفلوس حسابًا عن كل رطل درهمين، وكانت قبل ذلك بدرهمين ونصف، فجرت على ذلك، تُضرب بدار الضرب فلوس جُدُد[1]، زنة كل فلس منها أرجح من درهم، مكتوب على أحد وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وعلى الوجه الآخر ـ بدائرة ـ «السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد» في وسط حلقة مستديرة في وسط الفَلْس، واستمر الأمر على ذلك إلى يوم الخميس الحادي عشر من شهر ربيع الأول من السنة، فرسم السلطان بإبطال المعاملة بالفلوس العُتُق جملة. ونودي بذلك، وأن من كان عنده شيء منها يحمله إلى دار الضرب ويتعوض عنه، وأن يتعامل الناس بالفلوس الجُدُد الناصرية عددًا وحسابًا، عن كل درهم ثمانية وأربعين فلسًا على ما كانت عليه قديمًا.

وإنما أوردنا ذكر الفلوس في كل واقعة منها؛ لأن كل دفعة من إبطال المعاملة بها غرم الناس فيها الجمل الكثيرة من أموالهم، حتى اضمحلت أموال بعضهم، وكانت قد كثرت بالقاهرة عند أرباب الأموال ودواوين الأمراء، حتى اجتمع عند بعضهم منها مائة ألف درهم وأكثر من ذلك وأقل، وهي باقية محفوظة عند أكثر الناس يرجون أن يُتَعامل بها عددًا.

ذكر وفاة الخوَنْد أَرْدُكِين ابنة نوكاي[2] زوج السلطان الملك الناصر

كانت وفاتها في يوم السبت عشية النهار الثالث والعشرين من المحرم من هذه السنة بدارها بالقاهرة، وكان السلطان قبل ذلك قد أخرجها من القلعة، وأنزلها بدارها

---

(١) الفلوس: مفردها «فلس» وهي لفظة يونانية معربة، وقد أخذته اليونانية قبلاس من اللاتينية، ومعناه: كيس النقود، وكذلك يقال عن الدراهم، وقد أخذها العرب عن الفارسية Diram، وهو يوناني الأصل (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٦٣).

وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥١٠ ـ ٥١١: الفلوس صنفان مطبوع بالسكة، وغير مطبوع، أما المطبوع، ويعبَّر عنه بالجدد، فكان في الزمن الأول إلى أواخر الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون. وأما غير المطبوع، فنحاس مكسر من الأصفر والأحمر ويعبَّر عنها بالعتق.

(٢) انظر ترجمتها في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٥، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٨، الدرر الكامنة ١/ ٣٤٧.

التي بالقاهرة التي بحارة زويلة، وأجرى عليها في كل شهر خمسة آلاف درهم ومائة وخمسين درهمًا، وفي كل يوم من اللحم والتوابل والفواكه والقلويات والسكر والحلوى والكساوى وغير ذلك ما تزيد قيمته في كل شهر على خمسة عشر ألف درهم، ولما خرجت من القلعة شاع عند الخواص والعوام أن السلطان طلقها، إلا أن السلطان ما صَرّح بطلاقها، فلما توفيت حضر أخوها الأمير جمال الدين خضر بن نوكية إلى دارها، وقصد عرض ما خلّفته، وطلب الجواري المتسلمات قماشها ومالها، وتهددهن بالقتل إن عُدم من مالها شيء، فبينا هو على ذلك إذ دخل الطواشي شجاع الدين عنبر[١] أمير لالا[٢]، وزمام الأدُر، وأنكر عليه فعله، وأخرجه من الدار، فتوجه إلى منزله، ولم يشهد جنازتها، ثم ورد مرسوم السلطان قبل دفنها ـ وكان السلطان يتصيد بأعمال الجيزية ـ بمنع الأمير جمال الدين أخوها[٣] من التعرض إلى تركتها والإنكار عليه، والاحتراز على الموجود وضبطه، وإقرار ما كان باسمها من المرتب على جواريها، وخدمها إلى أن يعود السلطان إلى القلعة.

ولما كان في يوم الأحد مستهل صفر أرسل السلطان إلى أخيها المذكور مائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم، ووقع الإشهاد عليه بالبراءة من جميع ما خلّفته أخته من الأموال والمصوغ والأملاك وسائر الأصناف على اختلافها، وأشهد عليه أنه وصل إلى حقه من ذلك كله، وأبرأ ذمة السلطان.

وفي هذه السنة أمر السلطان بحفر خليج الذكر من فمه مما يلي نهر النيل إلى أن ينتهي إلى الخليج الحاكمي، فقسم ذلك على الأمراء، وحفر حفرًا جيدًا حتى نبع الماء في بعضه، وأصرف الأمراء على هذا الحفر الحفير جملة كثيرة من أموالهم وكان الشروع في الحفر في العشر الأخر من جمادى الآخرة فلما فُتح كادت القاهرة أن تغرق لكثرة المياه الجارية منه وحدّتها، فاقتضى ذلك سد القنطرة التي عليه وكان قد بنى لها عضادتان مما يلي البحر؛ ليدفعا عنها صدمة الماء، فتحامل الماء على القنطرة فاقتلعها، ولم يفد ما عُضّدت به، ولم يحصل منه من الإفادة ما كان يظن به، فأمر السلطان بحفر خليج مستجد، على ما نذكره في سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٥٨، والدرر الكامنة ٣/ ١٩٩.
(٢) اللالا: أي المربي من الخدم (شفاء الغليل ص٢٠١).
(٣) أخوها: بالرفع، والصحيح أخيها بالجر.

ذكر خبر النيل في هذه السنة

وفي سنة أربع وعشرين وفَى النيل المبارك بمقياس مصر في يوم الأربعاء تاسع شعبان الموافق للثامن من مِسرى، وحصل التحليق والكسر في يوم الخميس عاشر الشهر، ثم أخذ في الزيادة على تدريج إلى أن انتهى إلى ثمانية عشر ذراعًا وتسعة عشر أصبعًا بمقياس مصر، ولم ينتهِ في الزيادة في هذا العصر إلى مثل هذه الغاية، فغرقت البساتين والأقصاب، وفاض الماء على الجُرُوف حتى أخبرني جماعة ممن حضر من الصعيد الأعلى أنهم سافروا من مدينة قوص إلى ساحل مصر لم يجدوا من السواحل ما يضرب فيه أوتاد المراكب إلى ساحل أخميم، وكوما بمنية بنى خَصِيب، وما عدا ذلك من السواحل فإن الماء طما عليها، وثبت الماء على ذلك زمنًا، حتى خشي الناس من بقائه، ثم أخذ في الهبوط عند الحاجة إلى نقصه، فانكشفت الأراضي، وزرع الناس، ولولا هذا الثبات ـ الذي كره الناس ـ كان قد شرِق جملة من الأراضي مع وجود هذه الزيادة العظيمة، فإن سائر الجسور التي تحبس المياه تقطعت وخرج الماء منها، فلما حصل ثبات النيل بقي الماء على المزارع، حتى استوفت حقها من الري، فسبحان اللطيف الخبير القادر.

وقد ذكرنا في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ـ في أيام الحافظ عبد المجيد(١) ـ أن زيادة النيل انتهت إلى تسعة عشر ذراعًا وأربعة أصابع بمقياس مصر، وبسبب هذه الزيادة العظيمة في سنتنا هذه شَرِق إقليم الفيّوم، لأن سِكر النهر انقطع، وخرج الماء بجملته إلى البحيرة، فغرق ما حولها، وشرق ما سوى ذلك، واجتهد السلطان بعد ذلك في إصلاح السِّكر، وندب لذلك الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي الحاجب ـ كان ـ وهو من أكابر أمراء المشورة الذين يجلسون في مجلس السلطان، فأصلحه وأتقنه إتقانًا جيدًا، فتدارك الناس بسبب إصلاحه زراعة الصيفي خاصة بإقليم الفيوم.

وفيها ـ في شهر ربيع الآخر ـ وصلت رسل الملك أَزْبَك(٢) متملك صَراي(٣)

---

(١) الحافظ عبد المجيد: هو الحافظ لدين الله عبد المجيد بن أبي القاسم بن المستنصر العلوي، المتوفى سنة ٥٤٤هـ، ومدة خلافته بمصر عشرون سنة، وقام بالأمر بعد ولده الظافر بأمر الله إسماعيل (انظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٨).

(٢) أزبك: هو أزبك خان بن طقطاي بن منكوتمر بن طغاي بن جنكزخان، ملك التتار، توفي سنة ٧٤٢هـ، (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٦).

(٣) صراي: هي مدينة عظيمة كانت قاعدة البلاد الشمالية من مملكة التتار (السلوك ٢/ ٦١٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٦).

والبلاد الشمالية إلى الأبواب السلطانية، ومثلوا بين يدي السلطان، وأحضروا ما معهم من الهدايا فقُبلت، وشملهم الإنعام، وأعيدوا إلى مُرسلهم بالهدايا صحبة رسل السلطان إليه.

وفيها وصل إلى الديار المصرية الملك موسى[١] متملك بلاد التَّكْرور[٢] لقصد الحج، وتوجه إلى الحجاز الشريف، ورجع إلى بلاده في سنة خمس وعشرين، وكان قد أحضر صحبته جملة كثيرة من الذهب، فأنفقها بجملتها وفرّقها، وتعوّض ببعضها قماشًا، واحتاج إلى أن استدان جملة من التجار وغيرهم قبل سفره.

ذكر عزل الصاحب أمين الدين[٣] عن الوزارة وصرف من نذكر من ولاة المناصب، وتفويض الوزارة إلى الأمير علاء الدين مُغلطاي الجمالي وترتيب من نذكر

وفي يوم الخميس الثامن من شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة عزل الصاحب أمين الدين عبد الله عن الوزارة، وسبب ذلك أنه لما فُوِّض إليه أمر الوزارة ألان جانبه للناس، وكفّ لسانه ويده عن أذاهم، وأخذ نفسه بالتأني والسكون وعدم القلق، فطمع الناس، وقصر الولاة والمباشرون في استخراج الأموال، وتحصيل الغلال، فانساق بعضها إلى الباقي، واتصل ذلك بالسلطان، فأجمع رأيه على عزله، وشاع ذلك بين الناس في أوائل الشهر، فلما كان في هذا اليوم رسم السلطان بانفصاله، وعامله حالة العزل بإحسان كثير، وذلك أنه رسم له في يوم الخميس هذا تنفيذ الأشغال والكتابة على عادته إلى ما بعد صلاة العصر، ثم قام من مجلس الوزارة، وخرج وحجّابه بين يديه، ومن جرت العادة بركوبه في موكبه من أرباب المناصب، وركب والناس يدعون له، ويستبشرون ببقائه واستمراره، فلما وصل إلى داره بالقاهرة، واستقر بها خرج خادمه، وصرف من على بابه من الغلمان والمقدمين والسعاة وغيرهم، وأعلم من كان على الباب بانفصاله، ولم يستقر في خدمته من غلمانه إلا من كان في خدمته من قبل وزارته، وانقطع بداره ولم يركب في يوم

(١) هو الملك الأشرف موسى بن أبي بكر (انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١١٢، السلوك ٢/ ٢٥٥).

(٢) بلاد التكرور: في الجنوب الغربي للسودان، وتكرور مدينة على النيل (صبح الأعشى ٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

(٣) هو أمين الدين عبد الله بن تاج الرياسة القبطي، توفي سنة ٧٤٠هـ أو سنة ٧٤١هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

الجمعة إلى الجامع، ولا أذن لأحد في الدخول عليه، ثم رسم السلطان ألا يتعرض إليه، وأقر باسمه ما كان قد رتب له عند انفصاله من طرابلس، وأذن له أن يتصرف ويركب في مصالحه.

واستوزر السلطان بعده مملوكه الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي، وهو يومئذ أستاذ الدار العالية، وأقره في الوظيفتين، وخلع عليه في يوم الجمعة التاسع من الشهر، وأمر السلطان بصرف ناظري النظار، وهما: القاضي موفق الدين والقاضي شرف الدين بن زُنْبُور[1]، ورتب القاضي شهاب الدين بن سعد الدين الأقفاصي[2] في نظر الدواوين، وكان يلي نظر البيوت السلطانية، وخلع عليه بغير طرحه، وكتب إلى الشام بطلب القاضي شمس الدين غبريال[3] ناظر الشام، فحضر على خيل البريد، وكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر فرتب ناظر النظار والصحبة، وخلع عليه.

ورُتب كريم الدين عبد الكريم المعروف بالصغير في نظر الشام عوضًا عن شمس الدين غبريال، وخلع عليه في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رمضان، وتوجه من الشام على خيل البريد في يوم السبت السادس عشر من شوال، فوصل إلى دمشق في يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر، وخلع عليه بدمشق أيضًا في يوم الأحد، وباشر الوظيفة.

وكان قد رسم بطلب الأمير علم الدين سَنْجَر الحمصي - شادّ الدواوين[4] بحلب - ليرتب في شد الدواوين بالأبواب العالية، فحضر، وخلع عليه، ورُتب في وظيفة الشد، وحضر مع الوزير في المجلس وشاركه في الكلمة والتنفيذ، فرسم له ألا يتعدى عادة المشدين في الجلوس على باب دار الوزارة، فامتنع من ذلك، فلما وصل القاضي شمس الدين من الشام رتب علم الدين المذكور في ولاية الجيزية، وأظهر له أن الوظيفتين معه ورسم له أن يتوجه إلى الجيزية، ويحضر إلى القلعة في يومي

---

(١) شرف الدين بن زنبور: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/٢٥٦، وفيه: شهاب الدين بن الأقفهسي.

(٣) شمس الدين غبريال: هو عبد بن صنيعة القبطي، أسلم سنة ٧٠١هـ، وتوفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٢٦٢).

(٤) شاد الدواوين: هو متولي التفتيش على الدواوين، والشاد هو متولي الوظيفة المتخصصة بالكلمة المضافة إليه، وكانت مهمة شاد الدواوين مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها، وعادته إمرة عشرة (مصطلحات صبح الأعشى ص١٩١).

الخميس والاثنين، ويعود في بقية النهار إلى الجيزية، وندب معه شهاب الدين الناظر، ثم رسم بعد ذلك أن يتوجه الأمير علم الدين المذكور إلى طرابلس على وظيفة الشد بها، فتوجه وباشر الوظيفة المذكورة مدة يسيرة ثم عزل عنها.

وأما ناظرا النظار المنفصلان فإن القاضي شرف الدين بن زنبور لما أُفصل من النظر، رتب في نظر خزائن السلاح، وخلع عليه، ونُقل ناظر خزائن السلاح - وهو القاضي علاء الدين بن القاضي برهان الدين البرلسي - إلى نظر بيت المال على عادته القديمة، وأعيد القاضي تاج الدين بن السكري ناظر بيت المال إلى شهادة الخزانة.

وفي ذو القعدة من السنة طولب الصاحب أمين الدين والقاضي موفق الدين ناظر النظار - كان - بتفاوت ثمن كتان كان الصاحب قد رسم بأخذه من بعض فلاحي الجيزية من جملة ما عليهم من البواقي بمبلغ مائة ألف درهم، ولم يحفظ القيمة وقرر على الصاحب أمين الدين خمسون ألف درهم، وعلى القاضي موفق الدين خمسة وعشرون ألف درهم، ورسم باستخراج جامكية شهرين من سائر مباشري الدواوين السلطانية، فاستخرج ذلك منهم.

وفي هذه السنة سقط من منارة الإسكندرية أكثرها، وكان سقوط ذلك شيئًا فشيئًا، وفيها - في ذي الحجة - وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد صاحب خراسان والعراقين وما مع ذلك، ومثلوا بين يدي المقام الشريف السلطاني بقلعة الجبل المحروسة في يوم الاثنين ثامن الشهر، وأحضروا صحبتهم من التقادم والهدايا ما لم تجرِ بمثله عادة لكثرته، وخلع السلطان عليهم، وشملهم بالإنعام الوافر، ورسم بعودهم في يوم الخميس حادي عشر الشهر.

ذكر متجددات وحوادث كانت بالشام

في هذه السنة غلت أسعار الغلال بالشام وانتهت غُرارة القمح بدمشق إلى مائة وعشرين درهمًا، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الناصر - خلد ملكه - برز أمره المطاع بما أوجب انحطاط الأسعار، وذلك أنه رسم بإبطال ما على الغلال من المَكْس في سائر البلاد الشامية، وذلك في شهر ربيع الآخر، ثم رسم للنائب بالكرك المحروس أن ينقل إلى دمشق المحروسة جملة من الغلال التي بها، فانحلّت الأسعار، ثم رسم لسائر الأمراء بالديار المصرية أن يحملوا الغلال إلى دمشق، وقرر على كل أمير حَمْلُ جملة معينة من الغلال، وأن يحضر نائبه ما يدل على وصول ذلك إلى دمشق، فحملت الغلال، وانحطت الأسعار انحطاطًا كثيرًا، ولله الحمد.

وفيها ـ في شهر ربيع الآخر ـ رسم بعزل قاضي القضاة بالشام جمال الدين الزَّرعي(١) بسبب شكوى نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنكِز(٢) منه، فوصل المثال السلطاني إلى دمشق بعزله في الخامس والعشرين من الشهر، وعرض القضاء على الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين فامتنع عن الإجابة إلى ذلك، واعتذر بالعجز والمرض، وصمم على الامتناع، فعند ذلك طلب الخطيب القاضي جلال الدين محمد بن قاضي القضاة سعد الدين عبد الرحمٰن بن قاضي القضاة إمام الدين عمر القزويني(٣)، فوصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل المحروسة في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الأولى، واجتمع بمولانا السلطان وخطب بجامع القلعة، وصلى بالسلطان في يوم الجمعة، وفوّض إليه القضاء بالشام، وخلع عليه في يوم الخميس ثالث عشر من جمادى الآخرة، وأنهى إلى السلطان أن عليه دَينًا شرعيًا، فأنعم عليه بألف دينار ومائة دينار وستين دينارًا عينًا، وأُرسل الذهب صحبة البريد إلى نائب السلطنة بالشام وكره أن يحضر أرباب الديون، ويعطوا أموالهم بمقتضى حججهم، ففرق ذلك عليهم، وتوجه القاضي جلال الدين المذكور من الأبواب السلطانية إلى دمشق في يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، ووصل إلى دمشق في خامس شهر رجب، وفُوض قضاء العسكر الشامي للقاضي جمال الدين أحمد ابن القاضي الصدر المرحوم شرف الدين محمد بن محمد القلانسي التميمي(٤)، وخُلع عليه في سادس شهر رجب بدمشق، وخوطب بقاضي القضاة، هكذا ذكر الشيخ علم الدين البِرْزالي(٥) في تاريخه وأقام القاضي جمال الدين الزرعي بدمشق بعد أن عزل عن القضاء إلى أواخر سنة ست وعشرين ففارقها، وحضر إلى القاهرة المحروسة فوصل إليها في يوم الأربعاء منتصف ذي الحجة منها، واجتمع بالسلطان في تاسع المحرم سنة سبع وعشرين، ولم يفوض إليه ولاية، وسكن قرب السلمية خارج باب النصر.

---

(١) جمال الدين الزرعي: هو سليمان بن عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الشافعي، جمال الدين الزرعي، توفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٢).

(٢) سيف الدين تنكز، أبو سعيد (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٨).

(٣) ولد سنة ٦٦٦هـ، وتوفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٨، الدرر الكامنة ٤/ ٣).

(٤) توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٣٠٠).

(٥) علم الدين البرزالي: تقدمت ترجمته.

وفيها فوّض السلطان قضاء القضاة بحلب المحروسة للقاضي كمال الدين ابن الزَّمْلَكاني(١)، وجهز إليه التقليد السلطاني بالولاية إلى دمشق، فوصل في يوم السبت تاسع عشر شعبان، فامتنع من قبول ذلك، فطولع السلطان بذلك، فغضب منه، وأمر بعزله من مناصبه بدمشق، ثم شُفِّع فيه، فعاد المرسوم بتوجهه، ووصل المثال بذلك إلى دمشق في ثاني عشر شهر رمضان، فقبل الولاية، وتوجه إلى حلب في يوم الخميس رابع عشر شوال، ووصل إلى حلب في السادس والعشرين منه، وكان سبب هذه الولاية أن قاضي القضاة زين الدين عبد الله بن محمد بن عبد القادر الأنصاري الشافعي(٢) قاضي حلب توفي إلى رحمه الله تعالى بحلب في يوم الخميس تاسع عشر شهر رجب منها.

وفي هذه السنة يوم الاثنين ـ عند الزوال ـ سابع شهر ربيع الآخر توفي الشيخ الإمام العالم نور الدين علي بن يعقوب بن جبريل بن عبد المحسن بن يحيى بن الحسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب بن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه(٣)، وكانت وفاته بمصر بدار القاضي فخر الدين بن مسمار المعروف بابن شكر، ودفن بالقرافة الصغرى في بكرة نهار الثلاثاء بتربة ابن عم والده الشيخ عبد المؤمن بن إسماعيل بن عبد المحسن البكري، ويعرف بالطواشي عطا الله، وكان رحمه الله تعالى من العلم بالمكان الذي لا يجهل وله مصنفات منها: شرح التسهيل لابن مالك في مجلدين، وكتاب في علم البيان، وغير ذلك مما لم يكمله رحمه الله تعالى وإيانا.

وفيها توفي الطواشي الأمير شجاع الدين عنبر أمير لالا الخزندار(٤)، وزمام الأدُر، السلطانية، وكانت وفاته بقلعة الجبل في ليلة الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة بجوار الدينوري، وكان يتولى نظر المدرسة الناصرية والمدرسة الأشرفية والتربة الخاتونية ونظر الأحواض، ومشيخة الخدام

---

(١) كمال الدين ابن الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين، أبو المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملكاني، ولد سنة ٦٦٧هـ، وتوفي سنة ٧٢٧هـ (انظر ترجمته في كشف الظنون ٦/ ١٤٦، الدرر الكامنة ٤/ ٧٤ ـ ٧٨).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٣٩.

(٤) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٥٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢.

النبوية، وله إمرة عشرة طواشيه، وكان سيِّء الخلق، كثير الحمق شحيحًا، يستقل لنفسه الكثير، ويستكثر لغيره القليل، وكان كثير التحصيل يبيع ما يهدى إليه من المآكل وغيرها، ومع ذلك فلم يوجد له طائل موجود، ولما ولي نظر المدرسة الناصرية حجب كِتاب وقفها أن يطَّلِعَ عليه أحد من مستحقي الوقف، ولم يسلك فيها شرط واقفها، وصرف للفقهاء والمعيدين نصف ما شرط لهم في كتاب الوقف، واقتطع مما صرفه أولاً في كل سنة ثلاثة أشهر، فلما مات وفوّض السلطان نظر المدرسة لنائبه الأمير سيف الدين أرغن الناصري أظهر كتاب الوقف، وتتبع ما شرطه السلطان الواقف فيه، وصرف بمقتضاه، وزاد عدة الفقهاء، وضاعف معلومهم، أثابه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين أبو المنصور محمد بن أحمد بن أحمد بن الشيخ صفي الدين الحسين بن علي بن ظافر بن حسين الأنصاري الخزرجي المعروف بابن أبي المنصور المصري المالكي، وكانت وفاته بمصر في العشر الأخر من جمادى الآخرة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير نصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بَكْتاش الفخري[١] أمير سلاح، أحد أمراء الطبلخانات، وكانت وفاته بداره بالقاهرة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، ودفن بتربة حَمِيه الأمير شمس الدين قَشْتَمُر العجمي خارج باب النصر، وكان رحمه الله حسن المعاملة، كثير الصدقة من بقايا الخير.

وتوفي الأمير محمد بن الأمير شرف الدين عيسى بن مُهنا[٢] وكانت و فاته بسلمية في يوم السبت سابع شهر رجب، ودفن عند والده بقرية الأساود رحمه الله تعالى.

وفيها ورد الخبر بوفاة الوزير تاج الدين علي شاه بن أبي بكر التبريزي[٣] وزير الملك أبي سعيد بن خربَنْدا، وأن وفاته كانت في ثامن جمادى الآخرة بأرجان، وحمل إلى تبريز، فدفن بتربته، وكان شيخًا جليلاً، ولي الوزارة بعد مقتل سعد الدين الساوي في شوال سنة إحدى عشرة وسبعمائة، واستمر في الوزارة إلى أن مات رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢، الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٥.
(٢) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ١١٤.
(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٤.

وفيها في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من شعبان توفي الشيخ المحدِّث نجم الدين أبو بكر عبد الله بن علي بن عمر بن سبل بن رافع بن محمود الصنهاجي الحمزي[١] بالقرافة الصغرى ودفن بها، ومولده في سادس عشر شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، سمع الكثير من الحديث، وأسمع قبل وفاته، وكان سهلاً في الإسماع رحمه الله.

واستهلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة بيوم الأربعاء الثالث والعشرين من كيهك من شهور القبط.

في هذه السنة ورد إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية رسل الملك المجاهد سيف الإسلام علي بن الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول[٢] متملك اليمن يستنجد السلطان، ويستغيث به، ويستصرخ به على ابن عمه الملك الظاهر أسد الدين عبد الله بن الملك المنصور زين الدين أيوب بن الملك المظفر شمس الدين، وغيره ممن خرج عليه من المماليك، واستولوا على بلاده، وحصروه بقلعة تعز على ما نذكر ذلك.

وقد رأينا أن نبدأ في هذا الموضع بذكر أخبار بلاد اليمن، وسياقة أخبار ملوكها، إلى أن انتهى المُلك إلى الملك المجاهد هذا المرسل الآن.

* * *

ذكر أخبار اليمن ومن وليه من العمال ومن استقل بملكه وسميت أيامهم بالدولة الفلانية

اعلم ـ وفقك الله تعالى وإيانا ـ أيها المطالع لهذا الكتاب، المتأمل لما اشتمل عليه من الفصول والأبواب، الباحث عن جمله وتفصيله، المستوعب لتراجمه وفصوله، أننا لم نترك إفراد بلاد اليمن بباب مستقل يشتمل على أخبارها، ويستدل من مضمونه على آثارها، ويعلم منه أخبار من وليها من العمال في السنين السالفة، ومن استقل بملكها في المدد الماضية والآنفة، ذهولاً عنه ولا إهمالاً، ولا أخرناه استخفافًا بقدرها ولا استقلالاً، لكنا لم نقف فيما سلف على تاريخ جُرِّد لذكرها وأُلِّف، ولا كتاب أُفرد في أخبارها وصُنِّف، وإنما كنا نقف من أخبارها على النُّبْذة الشاردة،

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٧٦ ـ ٢٧٧.
(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٤٩ ـ ٥٠.

والإشارة التي تكون في أخبار غيرها من الدول واردة، فنورد من ذلك ما نقف عليه في أثناء أخبار الدولة الأموية والعباسية، والملوك الأيوبية، والأيام المنصورية والناصرية، ونحن مع ذلك نَتَوَكَّف أن نقف على مؤلِّف يجمع سيرها وأخبارها، ومُصَنَّف يكشف أستارها ويبرز أسرارها، ونسأل عن ذلك كل قادم ووارد، فلا نجد من يرد ضالَّةَ هذه الشوارد، إلى أن وصل إلى الديار المصرية المولى القاضي الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني[(١)] كاتب دَرْج[(٢)] الملك المؤيد داود ـ كان ـ من البلاد اليمنية وهو الذي أشرنا إليه فيما سلف من هذا الكتاب، وذكرنا جملة من رسائله البليغة، وآدابه البديعة، فأوقفني على كتاب ألّفه لما عاد إلى البلاد اليمنية سماه: «بهجة الزمن في تاريخ اليمن»[(٣)] وهو في مجلَّدة خدم بها الملك الظاهر المذكور آنفًا، فلخصت منه ما أورده الآن، فاجتمعت أخبار اليمن في هذا المكان بحسب الإمكان، وهي نبذة يستدل بها على أخباره، ولمعة تهدي المتأمل إليها إلى آثاره، وإذا انتهينا ـ إن شاء الله تعالى إلى آخر ما أورده من أخبار اليمن ـ إلى آخر سنة أربع وعشرين وسبعمائة، عدنا إلى سياقة أخبار الدولة الناصرية لسنة خمس وعشرين وسبعمائة وما بعدها.

قال ـ أدام الله الانتفاعَ بفوائده، وأجزاه من ألطافه على أجمل عوائده ـ في كتابه ما مختصره ـ وفي بعض ألفاظه ما أوردناه بالمعنى ـ:

توفي رسول الله ﷺ وولاة اليمن ثلاثة، وهم: أبان بن سعيد بن العاص بن أمية على صنعاء وأعمالها، ومُعاذ بن جبل الأنصاري على الجَنَد ومخاليفها، والمهاجر بن أبي أمية المخزومي على حَضْرَمَوت.

فلما ظهر الأسودُ العَنْسي باليمن ـ كما قدمناه ـ لحق الأمراء المذكورون بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فاستخلف معاذ على عمله عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي،

---

(١) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني ثم المكي، تاج الدين، أبو المحاسن السماوي، الأديب اللغوي، ولد سنة ٦٨٠هـ، وتوفي سنة ٧٤٣هـ، له من المصنفات: «الأكتفا في شرح الشفا للقاضي عياض»، «ذيل وفيات الأعيان لابن خلكان»، «زهر الجنان في المناظرة بين القنديل والشمعدان»، «طبقات النحاة»، «مطرب السمع في شرح حديث أم زرع» (كشف الظنون ٥/ ٤٩٥).

(٢) كاتب الدرج: هو الذي يكتب ما يوقع به كاتب السر، أو كاتب الدست، أو إشارة النائب، أو الوزير، وسمّي كاتب الدرج لكتابته هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق، والمراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال (صبح الأعشى ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٣) هذا الكتاب لم يذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، انظر الحاشية ما قبل السابقة.

وهو والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور، واستخلف أبان بن سعيد على عمله يَعْلَى بن منبه التميمي حليفَ بني نوفل بن عبد مناف، واستخلف المهاجر عِكْرِمة بن أبي جهل.

فلما قُتِل العنسي، وفاء أهل اليمن إلى الإسلام، أقرّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه عبد الله بن أبي ربيعة على الجَنَد ومخاليفه، ويَعْلَى على صنعاء وأعمالها، واستمر أهل حضرموت على الردة والعصيان.

فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقرّ عبد الله ويعلى على عمليهما، ثم عزل عمر يعلى لشكاية، واستعمل المغيرة بن شعبة على صنعاء، فشخص يعلى إلى عمر يظهر بطلان الشكاية وأن الحق كان بيد يعلى، فرده عمر إلى عمله بعد سنتين، فأقام ما شاء الله، ثم شكى إلى عمر، فأمر بإشخاصه إليه ماشيًا، فخرج حتى إذا كان على أميال من صنعاء لقيه الخبر بقتل عمر وخلافة عثمان، وإقراره على عمله، فعاد راكبًا، فلم يزل على عمله إلى أن قُتِل عثمان، وكذلك ابن أبي ربيعة.

فلما استُخْلِف علي بن أبي طالب رضي الله عنه استعمل على جميع اليمن ابن عمه عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، ففارق يعلى وابن أبي ربيعة اليمن، وأتيا مكة، وانضمَّ يعلى إلى طلحة والزبير وعائشة، وخالف عليًا، وأعان بمال وإبل كما قدمنا في أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستمر عبيد الله باليمن أيام علي، ثم تخاذل عنه أصحابه.

وأرسل معاوية بُسْرَ بن أرطأة إلى اليمن، فسفك الدماء وارتكب الأفعال الشنيعة، وقتل ابني عبيد الله كما تقدم، فلما ولي معاوية بعث إلى اليمن عثمان الثقفي، ثم عزله وجمع اليمن بكماله لأخيه عتبة بن أبي سفيان، فولي ثلاث سنين، ثم مات فاستعمل معاوية على اليمن النعمان بن بشير الأنصاري، فمكث سنة ثم عزله واستعمل سعيد بن دادوية من أبناء الفرس، فولي تسعة أشهر، ومات، فاستعمل الضحاك بن فيروز، فولي بقية أيام معاوية.

فلما مات معاوية استعمل يزيدُ بُجَيْرَ بن زيان الحميري على المخلافين: مخلاف صنعاء ومخلاف الجَنَد، قاطعه عليهما بمال عظيم في كل سنة يرسله إليه، وكان بجير عاتيًا متجبرًا، فكان باليمن حتى هلك يزيد بن معاوية، وظهر عبد الله بن الزبير بمكة فأطاعه أهل اليمن إلا القليل منهم، فاستعمل ابن الزبير الضحاك بن فيروز فمكث سنة، ثم عزله بعبد الله بن عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، فولي سنة، ثم عزله بعبد الله بن أبي وداعة السهمي، فمكث سنة وثمانية أشهر، ثم عزله بأخيه عبيدة بن

الزبير، فمكث خمسة أشهر، وعزله وولى قيس بن يزيد السعدي أحد بني تميم، فمكث عشرة أشهر، ثم عزله واستعمل ولاة كان الرجل منهم يلي أربعة أشهر وخمسة أشهر ويعزله، حتى قتل عبد الله بن الزبير.

وولي الحجاج بن يوسف لعبد الملك بن مروان، فبعث الحجاج على اليمن أخاه محمد بن يوسف، فولي إلى آخر أيام عبد الملك وتوفي، وكان قد جمع المجذومين بصنعاء، وجمع لهم الحطب ليحرقهم، فمات قبل ذلك، فاستعمل الحجاج ـ بأمر الوليد بن عبد الملك ـ ابن عمه أيوب بن يحيى الثقفي، فولي مدة أيام الوليد.

فلما تولى سليمان بن عبد الملك استعمل على اليمن عروة بن محمد السعدي، فولي ست سنين.

فلما ولي يزيد بن عبد الملك استعمل مسعود بن عوف الكلبي، فولي أيام يزيد.

فلما ولي هشام بن عبد الملك بعث يوسف بن عمر الثقفي على جميع مخاليف اليمن، فمكث عليه ثلاث عشرة سنة، ثم نقله هشام بن عبد الملك إلى ولاية العراق، كما قدمناه في سنة ست وعشرين ومائة، واستخلف على اليمن ابنه الصلت، فولي خمس سنين إلى أن توفي هشام.

وولي الوليد بن يزيد، فاستعمل مروان بن محمد بن يوسف، وهو ابن أخي الحجاج.

فلما ولي يزيد بن الوليد الناقص استعمل الضحاك بن واصل السَّكْسَكي.

فلما غلب مروان بن محمد على الأمر استعمل القاسم بن عمر الثقفي أخا يوسف بن عمر.

وكان قد ثار بحضرموت الأعور الخارجي، فلم يلبث القاسم أن قصده الأعور إلى صنعاء فانهزم عنه، وقتل ابن أخيه الصلت بن يوسف، وغلب عبد الله بن يحيى الأعور على اليمن سنة وأربعة أشهر، واستولى نائبُه أبو حمزة الخارجي على مكة، وقتل أهل قُدَيْد، وسار فاستولى على المدينة فأقام بها أربعة أشهر، ثم سار يريد الشام، فبلغ وادي القُرى، فلقيه جيوش الشام الذين بعثهم مروان بن محمد مع عبد الملك بن عطية السعدي، فقتلهم عبد الملك بوادي القرى حتى أصفى اليمن منهم، وسار إلى حضرموت، فأتاه كتاب مروان بتوليه الموسم، فصالحهم وسار في

ركب قليل، فقتل كما قدمنا، فبعث مروان الوليد بن عروة بن محمد على اليمن، فكان عليه إلى أن انقضت الدولة الأموية.

ذكر عمال اليمن في الدولة العباسية

لما بويع أبو العباس السفاح بالخلافة في سنة اثنين وثلاثين ومائة بعث على الحجاز واليمن عمه داود بن علي بن عبد الله بن العباس، فاستخلف داود على اليمن عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن يزيد بن الخطاب العدوي القرشي، فمكث خمسة أشهر ومات، فاستعمل أبو العباس على اليمن محمد بن زيد بن عبد الله بن زيد بن عبد المَدان الحارثي، فقدمها لسبع مضين من شهر رجب سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وبعث أخًا له على عدن، وقصد إحراق المجذومين بالنيران بصنعاء، وجمع لهم الحطب، فمرض أيامًا يسيرة ومات قبل إحراقهم، ومات أخوه بعدن، وكانت ولاية محمد بن زيد خمسة أشهر فبعث السفاح عبد الله بن مالك الحارثي، فمكث أربعة أشهر ثم عزله واستعمل علي بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان، فولي أربع سنين وأشهرًا.

فلما استُخْلِف أبو جعفر المنصور استعمل على اليمن عبد الله بن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي، فأقام مدة وسار نحو المنصور، واستخلف ابنه، فأقام باليمن حتى قدم عليه معن بن زائدة الشيباني في شهر ربيع الأول سنة أربعين ومائة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وبعث معن ابن عم له يقال له سليمان إلى المَعَافر، فقتلوه، فغزاهم، فقتل منهم وأكثر، ثم انتقضت حضرموت على معن فسار إليهم، وأوقع بهم عدة وقعات قيل بلغت قتلاهم خمسة عشر ألفًا، فأعظم الناس ذلك، ثم رجع إلى صنعاء وكتب إلى المنصور بذلك فاستصوب فعله؛ لأنهم بقية الخوارج الذين قتلوا أهل قُدَيْد ومن أهل المدينة.

ثم سار معن إلى المنصور، واستخلف ابنه زائدة، فلما قدم العراق استعمله المنصور على سِجستان، فكانت ولايته اليمن ـ بمقام ابنه ـ تسع سنين.

وبعث المنصور على اليمن الضَّراب بن سالم العبسي، فمكث ثلاث سنين، ثم عزله بيزيد بن منصور الحميري ابن خال المهدي، وذلك في سنة أربع وخمسين ومائة، فأقام بقية خلافة أبي جعفر، وأقره المهدي بعده، فلما كان الموسم كتب إليه بموافاته ففعل، واستخلف عبد الخالق بن محمد الشهابي فولي شهرين ونصفًا، وقدم عليه رجاء بن روح الجذامي في ذي الحجة سنة تسع وخمسين ومائة فأقام رجاء ثلاثة عشر شهرًا.

ثم بعث المهدي على اليمن علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فقدمها في المحرم سنة إحدى وستين ومائة، فأقام إلى سنة اثنتين وستين، وسار نحو العراق واستخلف رجلاً يقال له واسع بن عقيمة، فأقام أحد عشر شهرًا، ثم بعث إلى اليمن عبد الله بن سليمان أخا علي، فقدم لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين ومائة، فأقام سبعة عشر شهرًا، وبعث المهدي منصور بن زيد بن منصور الحميري، فقدم في سنة خمس وستين ومائة، فمكث سنة، ثم عزله بعبد الله بن سليمان النوفلي فمكث سنة، ثم عزله بسليمان بن يزيد بن عبد المدان فأقام بقية خلافة المهدي.

فلما ولي الهادي - في المحرم سنة تسع وستين ومائة - استعمل عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن عباس، ثم عزله بإبراهيم بن سليمان بن قتيبة بن مسلم الباهلي، فمكث أربعة أشهر، وتوفي الهادي.

فلما ولي الرشيد في شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة استعمل خاله الغطريف بن عطاء فقدم اليمن والفتنة ثائرة بين الجند وأهل صنعاء، فأصلح أمرهم، وأقام على اليمن ثلاث سنين وتسعة أشهر، ثم سار نحو الرشيد واستخلف عبّاد بن محمد الشهابي، فبعث الرشيد على اليمن الربيع بن عبد الله بن عبد المدان فقدم آخر سنة أربع وسبعين، فمكث سنة ثم عزله الرشيد بعاصم بن عتبة الغساني، فمكث سنة، ثم عزل بأيوب بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله، فمكث سنة، ثم عزل بالربيع بن عبد الله الحارثي، والعباس بن سعيد مولى بني هاشم: الربيعُ على الصلاة والحرب، والعباس على الجباية، فأقام سنتين، وعزلا بمحمد بن إبراهيم القاسمي، وقد جمع له الحجاز واليمن، فأقام بالحجاز وبعث ابنه العباس فشكاه الناس، فعزله، وولي الرشيدُ اليمن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن الزبير، وكان رِزْق عامل صنعاء في الشهر ألف دينار، فجعل له الرشيد ألفي دينار، فقال له يحيى بن خالد: هذا يفسد عليك من توليه من أهل بيتك، فردّ رزقه إلى ألف دينار ووصله بصلة جليلة، فأقام سنة ثم عزله، واستعمل أحمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي في سنة إحدى وثمانين ومائة، ثم عزله واستعمل إبراهيم بن عبد الله بن طلحة بن أبي طلحة، من بني عبد الدار، فأقام سنة ووثب به الجند، فعزله الرشيد، واستعمل محمد بن خالد بن برمك، فدخل صنعاء في شوال سنة ثلاث وثمانين، فأقام سنة ثم عزله الرشيد، واستعمل مولاه حمادًا البربري، فقدم في شوال سنة أربع وثمانين، فلم يزل على اليمن بقية خلافة الرشيد إلى سنة ثلاث وتسعين، وعمّر اليمن في أيامه، وأمّنت السبل، وظفر بالهيصم بن عبد الحميد لما خالف عليه.

ولما ولي الأمين الأمر أقرّ حمادًا مديدة، ثم سار نحو العراق واستخلف ابن أخيه، فكتب أهل اليمن إلى الأمين يشكونه، فعزله واستعمل محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي، فقدم خليفة له، ثم قدم فاستخرج من عمال حماد أموالاً جليلة، وعدل في الناس ثم عزله الأمين واستعمل سعيد بن السرح الكناني، فقدم صنعاء في شعبان سنة خمس وتسعين، فأقام حتى ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون، وسار طاهر بن الحسين لمحاربة الأمين، وضعف أمره.

فبعث طاهر بن الحسين على اليمن يزيد بن جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْري، فقدم صنعاء آخر سنة ست وتسعين، فقَبُحت سيرته في الناس، ثم آتاه رجل من أهل العراق يكنى أبا الصلت قدم عليه طالبًا، فلم يعطه شيئًا، فرجع حتى إذا كان بِضَمر من بلد هَمْدان وجد عمر بن إبراهيم بن واقد بن محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان نازلاً مع أخواله أرحب من السلمانيين، فأخبره خبره، فقال: بئس والله ما صنع يزيد، ووصله بعشرين دينارًا، فقال أبو الصلت: لا جرم، لأحسنن مكافأتك إن شاء الله تعالى، فخرج من عنده ومكث وقتًا، ثم قدم عليه بكتاب افتعله بولايته اليمن، فقدم عمر ابنه محمدًا في نفر من الأعراب وقوم جمعهم، فقدم صنعاء في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وحبس يزيد بن جرير، ثم قدم أبوه فأقام وقتًا، وأخرج يزيد من الحبس ميتًا، وكانت ولاية عمر شهرًا، ثم عزله المأمون بإسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي، فقدمها في ذي القعدة سنة ثمان وتسعين [ومماية]، فأقام بها سنة تسع وتسعين [ومماية]، ثم سار يريد الحجاز، واستخلف ابن عمه القاسم بن إسماعيل وذلك حين بلغه ظهور محمد بن إبراهيم المعروف بابن طَباطَبا بالكوفة، واستيلائه عليها، وإرساله جماعة من الطالبيِّين نحو الحجاز، فاستولوا على المدينة ومكة، فلما انتهى إسحاق إلى ضَمْر وثب به الأعراب فقاتلوه، فرجع إلى صنعاء، فاتصل به قدوم إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد الطالبي واليًا على اليمن بعثه الحسين بن الحسن الطالبي المعروف بالأفطس لما استولى على مكة والموسم، فقدم إبراهيم اليمن في صفر سنة مائتين، فأسرف في القتل حتى سمي الجزّار، ولم تزل أموره مستقيمة باليمن حتى ثار محمد بن إبراهيم، وقام بعده محمد بن محمد بن محمد بن زيد بن علي، فلما أسر محمد، وقتل أبو السرايا ـ كما قدمناه ـ انحلت أمور الطالبيِّين بالحجاز واليمن، فبعث المأمون محمد بن علي بن عيسى بن ماهان، فكانت بينه وبين إبراهيم وقائع استظهر فيها ابن ماهان على إبراهيم، فأقام إبراهيم يتردّد في القرى التي حول صنعاء حتى قدم عليه عهد المأمون بولاية اليمن، فأبى ابن ماهان أن

يسلمها إليه، فالتقيا عند صنعاء فهزمه ابن ماهان، فعاد إبراهيم، ولم يستقم له أمر بعد ذلك، فقدم عيسى بن يزيد الخلودي التميمي واليًا، فجمع ابن ماهان عشرة آلاف مقاتل وخرج إليه ولده عبد الله من صنعاء، وقد خندق الخلودي على نفسه، فالتقوا فهزمه الخلودي، ودخل صنعاء، واستمرت الهزيمة بعبد الله حتى دخل مكة، واختفى أبوه بصنعاء، فقبض عليه الخلودي وحبسه، وفرّق عماله في المخاليف، وشخص نحو العراق.

* * *

ذكر أخبار دولة بني زياد

كان المأمون قد قلّد محمد بن عبد الله بن زياد الأعمال التهامية، وما استولى عليه من الجبال، فقدم اليمن في سنة ثلاث ومائتين ومعه رجل تغلبي يسمى محمد بن هارون قاضيًا، وهو جد بني عُقَامة، ولم يزل الحكم فيهم يُتَوارث حتى أزالهم ابن مهدي حين أزال دولة الحبشة على رأس الخمسين وخمسمائة، فاستولى ابن زياد على تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب، واختط مدينة زَبِيد في سنة أربع ومائتين، وكان مع ابن زياد مولى له يسمى جعفر، وهو الذي نسب إليه مخلاف جعفر، وكان فيه دهاء وكفاية حتى كانوا يقولون: «ابن زياد بجعفره» واشترط على عرب تهامة ألا يركبوا الخيل، وسيره مولاه إلى المأمون في سنة خمس ومائتين بهدايا جليلة وأموال عظيمة، فعاد في سنة ست ومعه ألفا فارس فيهم من مسودة خراسان تسعمائة فعظم أمر ابن زياد، وملك حضرموت وديار كِندة والشحر ومِرباط، وأبْيَن ولحْج وعَدنَ والتَّهايم إلى حَلْي، وملك من الجبال أعمال المعافر والجَنَد والمِخلاف وقلده جعفرًا، فاختط به مدينة المُذَيخِرة في جبلٍ ذي أنهار ورياحين واسعة، وخُطب لابن زياد بصنعاء وصَعْدة ونجران وبَيْحان، ومات سنة خمس وأربعين ومائتين.

وقام بعده زياد بن إبراهيم فلم تطل مدته.

فملك بعده أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، فامتنع عليه أهل الأطراف، وانقطعت الخُطبة له في الجبال، واستولى سليمان بن طَرَف على المخلاف، وهو من الشَّرْجة إلى حَلي، وجعل السِّكة والخُطبة باسمه، فكان مبلغ ارتفاع عمله في السنة خمسمائة ألف دينار عَثَرِية، وهذا المخلاف هو المعروف بالسليماني، نسبته إلى سليمان هذا، وخرج أيضًا من ولاية أبي الجيش ـ لحج وأبين وما عداها ـ إلى البلاد الشرقية.

ومات أبو الجيش في سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة عن طفل اسمه عبد الله، وقيل زياد، فتولت كفالته أخته هند بنت أبي الجيش وعبدٌ لأبيها يسمى رشدًا، أستاذ حبشي، فقام بأمر الطفل، فلما مات رشد قام بكفالته حسين بن سلامة، وصيف من أولاد النوبة، وينسب إلى أمه، وقد كان هَذّبه رشد وأحسن تأديبه، فخرج حازمًا عفيفًا وقام بالأمر، ووزر لولد أبي الجيش وأخته، وكانت دولتهم قد تضعضعت أطرافها، وغلبت ملوك الجبال على الحصون والمخاليف، فقام الحسين بحربهم حتى استرجع أكثر مملكة ابن زياد الأولى، واختطّ مدينة الكدرا أعلى وادي سَهام، ومدينة المَعْقِر على وادي ذُؤال، وكان عادلاً في الرعية، كثير الصدقات، وأنشأ الجوامع الكبار، والمنارات الطوال والقُلُب العادِيّة في المفاوز المنقطعة، وبنى الأميال والفراسخ والبرد على الطرقات من حضرموت إلى مكة شرّفها الله تعالى.

ومات حسين في سنة اثنتين وأربعمائة، وقد انتقل الأمر إلى طفل آخر من آل زياد، فتولت كفالته عمة له وعبد أستاذ اسمه مرجان من عبيد الحسين بن سلامة، وكان له عَبْدان فَحْلان من الحبشة رباهما صغيرين، وولاهما الأمور كبيرين، أحدهما يسمى نَفِيسًا جعل إليه تدبير الحضرة، والثاني يسمى نَجاحًا، وهو والد سعيد الأحوال وجيّاش، وكان يتولى أعمال الكدْرا والمَهْجَم ومَوْر والواديين، فوقع التنافس بين نجاح ونفيس على وزارة الحضرة، وكان نفيس غشومًا مرهوبًا، ونجاح ذا رفق بالناس عادلاً محببًا إلى الرعية، وكان مولاهما مرجان يميل إلى نفيس، فنمى إلى نفيس، أن عمة ابن زياد تكاتب نجاحًا، وتميل إليه، فأعلم مولاه، فأمره بالقبض عليها وعلى ابن زياد، فقبض عليهما، وبنى عليهما جدارًا وهما حيان يناشدانه الله حتى ختم عليهما، فكان بموت هذا الصبي انقراضُ دولة بني زياد، وكانت مائتي سنة وثلاثًا وستين سنة.

وكان بنو زياد قائمين بخدمة خلفاء الدولة العباسية، وتولى صلتهم بالهدايا والأموال، فلما اختلّ أمرهم، وغلب أهل الأطراف على ما بأيديهم، فغلب بنو زياد على ما بأيديهم من أعمال اليمن، وركبوا بالمظلة، وساسوا قلوب الرعية بإبقاء الخطبة العباسية.

قال: «ولما بلغ نجاحًا ما فعله نَفِيس في مواليه استنفر الناس، وجمع العرب وقصده بزَبِيد، فجرت بينهما عدة وقائع قُتِل نفيس في آخرها على باب زبيد، واستولى نجاح على زبيد في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وقال نجاح لمرجان مولاه: ما فعل مواليك وموالينا؟ قال: هم في ذلك الجدار فأخرجهما وصلّى عليهما، وجعل مرجان في موضعهما وبنى عليه حيًا، وركب بالمظلة، وضربت السكة باسمه، وكاتب أهل العراق، وبذل لهم الطاعة.

وقد كان حين توفي الحسين بن سلامة، واختلف عبيده، هرب ملوك الجبال من سجنه، ولحقوا ببلادهم، فغلب بنو معن على عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت، وغلب بنو الكِرْنَدى ـ وهم قوم من حمير كانت لهم سلطنة ومكارم ظاهرة ومفاخر ـ على السوا والسَّمدان والدُّملُوة وحصن صَبِر وحصن ذَخِر والتَّعكَر ومخاليفها، والمعافِريّة والجعفرية والجَنَدية، وتغلب على حَبّ وحصن الشعر رجل يعرف بالحسين بن التُّبَّعِي، وبنو عبد الواحد على بُرَع والعمد ونَعمان، ولم يزل نجاح متوليًا على الأعمال التِّهامية حتى ملكها الصُّليحي على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ثم كانت لهم دولة يأتي ذكرها بعد أخبار الصليحي ـ إن شاء الله تعالى ـ فنرجع إلى أخبار صنعاء، ومن وليها بعد الخلودي.

ذكر أخبار صنعاء ومن وليها بعد الخلودي

قال: ولما شخص الخلودي إلى العراق قيل: إنه استخلف رجلاً يقال له حُصن بن المِنهال، فأقام حتى قدم عليه إبراهيم الإفريقي، وهو رجل من بني شيبان بن ربيعة، فأقام على اليمن مدة، ثم عزل بنُعَيم بن الوضاح الأزدي، والمظفّر بن يحيى الكِندي اشتركا في العمل، فقدما صنعاء في صفر سنة ست ومائتين، وسار المظفر يجبي الجند ومخاليفها، وقام بها مدة، ورجع إلى صنعاء فمات بعد أيام من رجوعه، فاستقل نعيم بالأمر حتى عزل بمحمد بن عبد الله بن مُحْرِز مولى المأمون، فقدم اليمن سنة ثمان ومائتين ولم يلبث أن شغب عليه الجند، فخرج نحو الحجاز واستخلف عَبّاد بن الغَمر الشهابي، فأقام حتى قدم إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس اليمن، وهي ولايته الثانية وكان مقدمه آخر شهر رجب سنة تسع ومائتين فأساء السيرة، وظلم الناس، ونال من التِّهامية كل منال، فكان لا يسأل أحدًا عن نسبه فينتسب إلا ضرب عنقه، حتى كان من سأله بعد ذلك عن نسبه قال: مولى بني العباسي، ولم يترك بحمير ذكرًا ولا رسمًا، ولم يزل كذلك حتى مات سنة عشرة ومائتين، وقيل: إن أهل صنعاء شَكَوْه إلى المأمون، فأمر بإشخاصه، فلما مثل بين يديه، قال له المأمون: ضع يدك على رأسي، ففعل، قال: قل: وحياة رأسك لا ضربت عنقًا، فقال، فقال له: «عد إلى عملك» فعاد، فكان بعد ذلك يُوَسِّطُ الناس.

ولما مات إسحاق استخلف عند موته ابنه يعقوب، فحاربه أهل الجند وأهل صنعاء فسار إلى ذمار، وقدم إلى صنعاء ـ من قبل المأمون ـ عبد الله بن عبيد الله بن العباس الهاشمي، فكان بها حتى توفي المأمون سنة ثمان عشرة ومائتين، فلحق بالعراق واستخلف عباد بن الغمر الشهابي، وبايع الناس للمعتصم بالله بن الرشيد، فأقر الغمر سنين.

ثم ولى المعتصم صنعاء ومخاليفها عبد الرحيم بن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي، فقدم صنعاء آخر المحرم سنة إحدى وعشرين ومائتين، فأقام مدة، وحبس عَبّاد بن الغمر الشهابي، وابنه عند يعفر بن عبد الرحيم الحوالي.

ثم عزل عبد الرحيم بجعفر بن دينار، مولى المعتصم، فقدم خليفة له يقال له منصور بن عبد الرحمٰن التَّنُوخي في صفر سنة خمس وعشرين، فضبط البلد ووجه عماله، ثم قدم عليه عبد الله بن محمد بن علي بن ماهان، وقد أشْرِك مع جعفر في الولاية، فأقام مع منصور وقتًا، ثم عزل جعفر بإيتاخ التركي مولى المعتصم، فأقر منصورًا وعبد الله على عمليهما.

ومات المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الواثق، فأقرّ إيتاخ على اليمن فوجه أبا العلا أحمد بن العلاء العامري، فلما وصل صعدة أرسل يعفر الحوالي غلامه طريف بن ثابت في عسكر نحو صنعاء، فخرج إليه مَن بها من الجند مع منصور بن عبد الرحمٰن الذي كان خليفة لجعفر بن دينار، فقاتلوه فهزموه، وقتلوا من موالي يعفر نحو ألف رجل، وأسروا أسرى ثم ضرب منصور أعناقَهم، وقدم أبو العلاء صنعاء بعد الوقعة بأيام، فأقام حتى توفي، واستخلف أخاه عمرو بن العلاء، فأقام واليًا حتى ولى إيتاخ هرِثمة بن البَشير مولى المعتصم، فورد كتاب هرثمة على منصور بن عبد الرحمٰن يستخلفه، وقدم هرثمة آخر المحرم سنة ثلاثين ومائتين فأقام أيامًا، وخرج لمحاربة يعفر بن عبد الرحمٰن وهو بشبام، فنزل بالجيش أسفل وادي ضُلَع، وأقام هنالك محاربًا ليعفر وقتًا، ثم عاد.

وعزل الواثق إيتاخ عن اليمن، وولاه جعفر بن دينار مولاهم، فقدم وحاصر يعفر مدة، وعاد إلى صنعاء فأقام بها سنة، وسار نحو العراق، واستخلف ابنه محمدًا، فأتته ولايته من المتوكل، فلم يزل على ولايته حتى قتل المتوكل وأقره المنتصر والمستعين ومَنْ بعدهما إلى أن انتهت الخلافة إلى المعتمد على الله، وفوّض الأمور لأخيه أبي أحمد الموفَّق، فوردت كتب الموفّق في سنة ثمان وخمسين ومائتين على محمد بن يعفر بولاية اليمن، فوجه عماله على المخاليف، وفتح حضرموت وكانت قد امتنعت على مَن قبله.

ثم إنه استخلف في سنة اثنتين وستين ومائتين على عمله ابنه إبراهيم بن محمد، وحجّ وجدّد له عهدًا من الموفق، واستمر إبراهيم على ولايته إلى سنة سبعين ومائتين، وأمره جده يعفر بقتل ولديه محمد وأحمد ابني يعفر، فقُتلا بعد المغرب في صومعة مسجد شِبام، فانتشرت الأمور عليه، وخالف عليه الفضل بن يونس المرادي بالجوف، وولدُ طريفٍ غلامه بيحصُب ورُعَيْن والمكرمان ببَيْجان، ومالوا إلى جعفر بن إبراهيم المَناخِي فوجه ابن يعفر إلى المخالفين عليه من حاربهم فكانت سجالاً، وولى

إبراهيم محمد الدَّعَّام الجوفين، ثم تغير عليه الدعام ونصب له الحرب، فسارت إليه عساكر إبراهيم فالتقوا بوَرْوَرَ، فهزمهم الدعام وقتل منهم بشرًا كثيرًا، وقدم عهد بن يعفر على صنعاء ومخاليفها من الوزير صاعد بن مخلد وزير المعتمد، فاعتزل إبراهيم بن محمد عن الإمارة، وولى أبو يعفر ابنه عبد الرحيم، فأقام بصنعاء مدة، ثم عزله أبوه حين قدم صنعاء سنة ثلاث وسبعين ومائتين، واستعمل على صنعاء ولاة كثيرة، وكان أكثر مقامه بشَبَام، ثم اجتمع أهل صنعاء - من الأبناء وغيرهم - والشهابيون على عماله بصنعاء، فقاتلوهم فقتل منهم خلق كثير، ثم طردوهم، ونهبوا دار أبي يعفر، وأحرقوها، ولم يلبث أبو يعفر بعد ذلك أن قتل بشِبام آخر المحرم سنة تسع وسبعين ومائتين، فقام بالأمر بعده عبد القاهر بن أحمد بن أبي يعفر أيامًا حتى قدم من العراق علي بن الحسين المعروف بجُفْتُم في صفر من السنة عاملاً على صنعاء وأعمالها، فقاتله الدعّام بمدينة صنعاء فهزمهم جُفْتُم، وأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين ومايتين، ورجع إلى العراق فسار الدعام نحو صنعاء، فدخلها ثم هرب منها، ورجع الأمر إلى بني يعفر ومواليهم.

ثم إن أبا العتاهية بن الرَّوِيَّة المَذْحَجي استدعى الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من صَعْدة إلى صنعاء، فدخلها في آخر المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين، فدعا الهادي إلى نفسه، فبايعه الناس، وضرب اسمه على الدينار والدرهم، وكتب في الطُّرز، ووجه عماله إلى المخاليف، فقبضوا الأعشار، وخرج إلى يحصب ورعين ونواحيها، واستخلف على صنعاء أخاه عبد الله بن الحسين، فأقام أيامًا، وعاد إلى صنعاء، ثم خرج منها إلى شبام واستخلف ابن عمته علي بن سليمان على صنعاء، وكان بنو يعفر وآل طريف بعضهم في سجن صنعاء، وبعضهم في سجن شبام، فاجتمعت همدان وسواها، وقصدوا الهادي إلى شبام، فقابلوه بها، ووثب مَنْ بصنعاء على نائبه فأخرجوه، وكسروا السجن، وأخرجوا من به من آل يعفر وآل طريف، فاستولى عبد القاهر بن أبي الخير بن يعفر على صنعاء وخرج الهادي من شبام فأقام بريدة وبيت زُود شهرًا ثم عاد إلى صنعاء في جيش كبير وجعل صاحب جيشه أبا العتاهية فلقيته جيوش آل يعفر بالرحبة، فهزمهم، ودخل صنعاء، وانحاز آل يعفر إلى شِبام، ومتولي الأمر فيهم أسعد بن أبي يعفر، وابن عمه عثمان بن أبي الخير، فأقامت الحرب بينهم سجالاً مدة، ثم رجع الهادي إلى صعدة في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين، فعادت صنعاء إلى آل أبي يعفر، ودخلها مولاهم إبراهيم بن خلف، وصالح أبا العشيرة ابن الرَّوِيّة على أن مخاليف مذحج في جميع اليمن إليه.

ولما توفي المُعْتَضِد بالله في سنة تسع وثمانين ومائتين، وولي ولده المكتفي، ولي اليمن مولاهم نُجْح بن نجاح، فوردت كتبه على عثمان بن أبي الخير، وأسعد بن أبي يعفر بتجديد ولايتهم، ثم قدم جفتم للمرة الثانية واليًا على اليمن، فلما وصل إلى يأزل (قرية من قُرَى بني شِهاب) خرج إليه جَرّاح وإبراهيم ابنا خلف كالمُسَلِّمين عليه، فقبضا عليه، وصار جيشه إليهما، وحبساه مدة، ثم احتال وخرج، وسار إلى صنعاء فانضم إليه الجند الذين بها، وأصحابه الذين وصلوا معه، وأسعد وعثمان يغدوان عليه في كل يوم يسلمان عليه، وسألهما تسليم الأمر إليه فاستنظراه أيامًا، فجمع أصحابه وكبسهما، فأراد الهرب، فلم يمكنهما، فخرجا في مواليهما ومن انضم إليهما من أهل صنعاء فقاتلاه، فقُتِل في نفر من أصحابه، ومال الجيش إليهما وأكل قوم من أهل صنعاء من لحم جُفتُم، ثم وثب أسعد على ابن عمه عثمان فحبسه، واستبدّ بالأمر إلى سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

ذكر أخبار علي بن الفضل والمنصور بن حسن بن زادان دعاة عبيد الله المنعوت بالمهدي

قال: ودخل علي بن الفضل القَرْمَطِيّ، وأصله من اليمن من حمير، والمنصور وهو ابن الحسن بن زادان بلاد اليمن داعيين لعبيد الله المنعوت بالمهدي، وتحيّلا وتلطّفا، واستمالا الناس حتى غلبا على أكثر البلاد، وكانت لهما حروب باليمن، وقتلى كثيرة يطول الشرح بذكرها، وخرج الأمر في غالب بلاد اليمن عن بني العباس سنين كثيرة، ثم ظهر الزَّيْدِيّة والإمامِيّة، وكانت لهم حروب كثيرة، ووقائع مشهورة، حتى استولى علي بن الفضل على صنعاء، فانهزم منه أسعد بن أبي يعفر، فعند ذلك أظهر ابن الفضل مذهبه الخبيث، وادعى النُّبُوَّة، وكان يؤذن في عساكره بالشهادة أنه رسول الله، وأباح المحرمات، وفي ذلك يقول شاعر في عصرهم:

خُذِي الدفَّ يا هذه واضرِبي ... وغني هَزارِكِ ثم اطربي
تولَّى نبي بني هاشم ... وهذا نبيُّ بني يعربِ
لكلِّ نبيٍّ مضى شرعةٌ ... وهذي شريعةُ هذا النبِي
فقد حَطَّ عنا فروض الصلاة ... وحطَّ الصيام ولم يُتْعِبِ
إذا الناس صلُّوا فلا تنهضي ... وإن صَوَّموا فكلي واشْرَبِي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زَوْرَة القبر في يَثْرِبِ
ولا تمنعي نفسَك المُعْرِسِيـ ... نَ من الأقربين ومن أجنبي

فمن أين حُلِّلْتَ للأبعدين وصرت محرَّمة للأب؟
أليس الغراسُ لمن أسَّه وسقّاه في الزمن المُجْدِبِ
وما الخمر إلا كماء السماء حلال فقدِّست من مذهبِ

وجعل دار ملكه المُذَيخِرَة. ولما ادعى ابن الفضل النبوة، وأسقط اسم عبيد الله المهدي، وغضب المنصور بن الحسن بن زادان ـ وهو صاحب مِسْوَر ـ لذلك، وخالف على ابن الفضل، خرج ابن الفضل لحربه، وذلك في سنة تسع وتسعين ومائتين، فذكَّره المنصور حقوق عبيد الله المهدي وابنه، وأنهما نعمة من نعمهما، فلم يلتفت إليه ابنُ الفضل وحَصَره ببيت دحان أشهرًا، ثم انصرف عنه ابن الفضل.

ومات المنصور في سنة اثنتين وثلاثمائة، ثم مات ابن الفضل بالمُذَيخرة في سنة ثلاث وثلاثمائة، وذلك أنه احتاج إلى الفصاد، فأحضر طبيبًا وجرده من ثيابه، وغسل المِفصد، وهو ينظر إليه، وكان الطبيب قد جعل السمّ في شعر رأسه، فلما غسل المِفصد مَسَحه على شعره كالمجفف له، فعلق به السم، فلما فصده أهلكه الله تعالى، فاجتمعت رؤساء اليمن مع الحوالي، وقصدوا المُذَيخرة، فحصرها سنة ورماها بالمجانيق، حتى تسلمها، وسبى منها بنات علي بن الفضل، ففرقهن في رؤساء العرب، واضمحل أمر القرامطة الدعاة للعُبَيْديين باليمن إلى أن قام بأمرهم علي بن محمد الصُّلَيْحي في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، على ما نذكر ذلك، إن شاء الله تعالى، فلنذكر أخبار الزيدية.

ذكر نُبْذة من أخبار الزيدية(١) وغيرهم

قال: وقام الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بعد موت أبيه، واعتزال أخيه المرتضى، فاستولى على أكثر اليمن الأعلى، ودخل عدن في ثمانين ألفًا، ومات في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وكان أسعد بن أبي يعفر قد صالح ابن الفضل، فولاّه صنعاء، فلم يزل عليها وعلى مخاليفها إلى سنة اثنتين وثلاثين

(١) الزيدية: فرقة من الشيعة المنسوبون إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، وكانت لهم آراء مخالفة للشيعة الإمامية والإسماعيلية، ثم انقسموا إلى ثلاث فرق أساسية: الأولى: الجارودية أصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر الهمذاني، الثانية: السليمانية أصحاب سليمان بن جرير الزيدي، الثالثة: البتيرية أصحاب بتير التومي (كشاف اصطلاحات الفنون ١/ ٩١٧ ـ ٩١٨، الملل والنحل ص١٥٤، الفرق ص٢٩، مقالات الإسلاميين ١/ ١٣٢).

وثلاثمائة، ومات بحصن كحلان، ودامت صنعاء بيد بني يعفر ومواليهم مع كثرة اختلافهم وقيام من قام عليهم بسبب ذلك إلى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، ووصل المختار بن الناصر بن الهادي إلى رَيْدَةَ، فخرج مَن بصنعاء من بني الضحاك إليه، فولاها المختار أبا القاسم بن يحيى بن خلف، ولم يلبث الضحاك أن غدر بالمختار، فحبسه في قصر رَيْدَةَ في صفر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، فاستمر في الحبس إلى شوال من السنة، وقتله، وكان علي بن وَرْدان ـ من موالي آل يعفر ـ قد غلب على صنعاء، وثار الأسمر يوسف ابن أبي الفتوح ـ وقام معه قومه خَولان ـ يعارض بني يعفر وبني الضحاك، فقصدوه وهو بجدان، فهزمهم، وقتل من همدان خلقًا كثيرًا، ثم مات في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة واستخلف أخاه سابورا، فسار إليه الضحاك وابن أبي الفتوح إلى بلد خولان فلم يظفرا منه بشيء، فعاد الضحّاك إلى صنعاء، وسار سابور يريد ذِمار، فلحقه الأسمر فقتله في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وكاتب الضحاك أبا الجيش ابن زياد صاحب زبيد بالطاعة، وخطب له بصنعاء في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة.

ولما تعطلت المخاليف من يَحْصُب ورُعَيْن، وظهر أمر السفهاء اجتمع الوجوه إلى الأسمر بن أبي الفتوح، وسألوه أن يكاتب الأمير عبد الله بن قحطان بن أبي يعفر ـ وهو يومئذ بشبام ـ أن يقوم بالأمر، فخرج الأمير إلى السِّر فأقام به مع ابن أبي الفتوح أيامًا، ثم سار نحو كحلان، فأقام به مدة، ورجع إلى صنعاء، فدخلها في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فانهزم الضحّاك منها، ولم يلبث ابن قحطان أن خرج من صنعاء واستعادها الضحاك، وأعاد الخطبة لابن زياد، فلم يستقر له أمر، وعاد أمر البلاد لابن قحطان، فأقام يتردد من شبام إلى كحلان إلى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وتجهز للنزول بزَبِيد، فلقيه صاحبها ابن زياد، واقتتلوا، وكانت الدائرة على ابن زياد، وقتل من عسكره خلق كثير، ودخل ابن قحطان زَبِيد في شهر ربيع من السنة، فنهب دور ابن زياد، ونهب عسكر زبيد أقبح نهب، وأقام بها ستة أيام، وعاد نحو كحلان، وخطب للعزيز صاحب مصر، وقطع ذكر بني العباس، ثم قصد ابنُ قحطان مخلاف جعفر، فملكه في سنة ثمانين وثلاثمائة، وأقام بإِبّ، فاضطرب عليه أهل المخلاف، فأمر بعمارة المنظر، وتحول إليه من إب وجعل أمر ألهان إلى أسعد بن أبي الفتوح.

ثم مات في سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، فقام بما كان إليه بعده ولده أسعد بن عبد الله، وكان ظهور الإمام يوسف بن يحيى بن الناصر بن الهادي في سنة ثمان

وستين وثلاثمائة، وكانت له حروب مع ابن أبي الفتوح وابن الضحاك وغيرهما، ودخل صنعاء ثم فارقها، وكان يحارب ابن أبي الفتوح مرة ويصالحه أخرى، ولم يزل أمر صنعاء في غاية الاضطراب إلى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، تارة يغلب عليها الإمام وابن أبي الفتوح، وتارة الضحّاك، وتارة حاشد، والعرب من هَمْدان وحِمْيَر وخَوْلان وبني شهاب مفترقة على هؤلاء، فمن كثر جمعه غلب عليها، ولم يكن الإمام يوسف هذا من الأئمة السابقين عند أهل البيت، ولا عَدّوه من أئمة الزيدية.

فلما كان في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وصل الإمام المنصور القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم، وهو أحد أئمة الزيدية فاضلاً فيهم مصنفًا، وكان مقامه قبل ذلك بترح من بلد خَثعَم، ثم أقام بتَبَالة، ووصل صَعْدَة وملكها، وسار إلى نجران، وأرسل إلى صنعاء من قِبله شريفًا يعرف بالقاسم بن الحسين الزيدي، فتصرف في صنعاء بأحكام الإمامية، ثم خالف أهل نجران على الإمام، وكانت له حروب إلى أن مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، فوصل ابن أبي حاشد إلى صنعاء، وخطب للزَّيْدِي، ثم تغيرت عليه الأحوال، فخرج منها بغير سلطان، ودامت الفتنة بصنعاء، وهي في أكثر أوقاتها بغير سلطان، والغالب عليها الضحاك إلى سنة أربعمائة، فسار جماعة من هَمْدان وبني شهاب إلى الزيدي إلى ذمار، فسار معهم إلى صنعاء، فدخلها في ذي القعدة من السنة.

فلما كان في صفر سنة إحدى وأربعمائة وصل الحسين بن القاسم بن علي إلى قاعة وادعى أنه المهدي الذي بَشَّر به النبي ﷺ، فأجابه حِمْيَر وهَمْدان وسائر أهل المغارب، وتخلوا عن الزيدي، فوصل إلى صنعاء اليمن، وكانت بينه وبين الزيدي حروب، فقُتِل الزيدي في حقل صنعاء في سنة ثلاث وأربعمائة، ورجع الإمام الحسين بن القاسم الزيدي إلى رَيْدَة وترك أخاه جعفرًا بصنعاء، ثم كانت له حروب مع محمد بن القاسم الزيدي، وكان ابن الزيدي قد جمع جموعًا كثيرة، فانهزم ابن الزيدي، واستولى الحسين على صعدة وغيرها، ثم خالفه المنصور بن أبي الفتوح بصنعاء وبنو شهاب وبنو حريم وغيرهم، ونهبوا داره، وخرجت الشيعة من صنعاء بعد أن نُهبت دورهم، فجمع الإمام عسكرهم، فقاتلوه فهزموه، وقُتِل من عسكره خلق كثير، وأعاد الناس أبا جعفر قيس بن الضحاك إلى إمارة صنعاء، فأقام بها إلى المحرم سنة أربع وأربعمائة، فبلغه ما جمع الإمام من العساكر، فخرج من صنعاء محتقرًا مهزومًا، وكانت القبائل المخالفة على الإمام تجتمع إليه فاضطربوا، ثم قويت قلوبهم وساروا إلى الإمام فقاتلوه فهزموه، فبقي في مائة فارس، فعلمت به همدان فلقوه

وقاتلوه فغَشِيَهم بنفسه مرارًا في كلها. يخرق صفوفهم، ثم قتلوه، وذلك في صفر سنة أربع وأربعمائة، وقتل وهو لم يبلغ الثلاثين سنة.

ولما قتل سار ابن أبي حاشد إلى صنعاء فأقام بها إلى ذي الحجة من السنة ولم يتم له أمر مع همدان، فخرج منها، وتعطلت من السلطنة إلى النصف من شوال سنة خمس وأربعمائة، ووصلها أبو جعفر أحمد بن قيس بن محمد بن الضحاك الهمداني فأقام بها إلى ربيع سنة ست وأربعمائة وخرج منها، ورفع أيدي عماله، فتعطلت أيضًا إلى سنة ثمان وأربعمائة، وراجعت همدان أبا جعفر في الرجوع إلى الإمام، فأجابهم.

وفي سنة عشر وأربعمائة ثار يزيد بن القاسم الزيدي مع قوم من بني شهاب بن مروان، فقتلوه بأشْيَح، فسار إليهم ابن أبي الفتوح، وأمده القائد مرجان صاحب الكَدْرَاء، وعاضده ابن أبي حاشد، ثم نزل ابن أبي الفتوح إلى تهامة، فتلقاه القائد بالكدراء بأحسن لقاء، وعاد فأقام بألْهَان، حتى خرج زيد من أشيح وسلّمه للقائد، وتحالفت همدان والأبناء على بني شهاب بأمر القائد، فحاربوهم مرارًا، ثم اصطلحوا، ووصل جعفر بن القاسم أخو الحسين من صعدة إلى محلة عَيَان، فاستدعته همدان وحمير، فسار إلى صنعاء، فدخلها آخر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، فأقام بها إلى المحرم، وسار إلى صعدة بطائفة من الناس، فنهبها، وخَرّب دورًا، وقتل ناسًا، وقد كان ذَعْفان وابن أبي حاشد خالفا عليه عند مسيره إلى صنعاء، فلما رجع جعفر إلى عيان سألته همدان العود إلى صنعاء فكرهه، ثم وقع الخلف بين همدان وذعفان وابن أبي حاشد، فاستدعوا جعفر بن القاسم، فأدخلوه صنعاء في صفر سنة خمس عشرة، وطالب الناس مطالبة شديدة، وأقام بها مدة يحارب ذعفان وابن أبي الفتوح ثم اصطلحوا ونزل ذَعْفان إلى القائد في الكدراء فأحسن القائد تلقيه، وأمده بأموال جليلة، وكتب معه إلى المُنْتاب صاحب مِسْوَر، وأمرهم جميعًا بحرب جعفر، فاجتمعوا عليه، فخرج إلى بيت شعيب، فحصرته همدان وحمير، وأعادوا ابن أبي حاشد إلى إمارة صنعاء، وهجم أهل بيت خولان على محطة حمير، وقتلوا منهم مائة رجل، وانهزم عسكر المُنْتاب، وذلك في المحرم سنة ست عشرة وأربعمائة، ثم تهادنوا إلى آخر السنة.

ولما كان في ثمان عشرة وأربعمائة ظهر إنسان بناعِط، ولم يعرف الناس اسمه، وذكر أنه يتسمى عند ظهور رايته من المشرق، وسار إلى مأرب وبها المؤمن بن أسعد بن أبي الفتوح، وتلقاه أحسن لقاء، وأقام عنده وسطر كتبه من عبد الله الإمام المُعِيد لدين الله الداعي إلى طاعة الله الدافع لأعداء الله، وأنفذها إلى النواحي، فبلغ

القائد مرجان قيام المؤمن بن أسعد معه، فغضب على المنصور بن أسعد، وأعاد كتبه مختومة، فغضب المنصور، وانضم إلى هذا الإمام، ودخل صنعاء في شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة وخطب له بها ابن التَّقوى قاضي صنعاء بالإمامة، ثم خرج منها، وخالف عليه من كان انضم إليه، فقتلوه في آخر ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، واشتد القحط باليمن من هذه السنة إلى سنة اثنتين وعشرين، وصنعاء خالية من السلطنة.

وفي شهر رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ظهر الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمٰن إمامًا، وتسمى بالنفس الزَّكِيَّة، ومعه ولده حمزة بن أبي هاشم وإليه ينسب الأشراف الحمزيون، فقصد صنعاء، فهرب منه ابن أبي حاشد، ووصل المنصور بن أبي الفتوح، فبايعه ورجع إلى بلده، واستمر هذا الإمام إلى سنة تسع وعشرين، فخالفت عليه همدان، فدخل ابن أبي حاشد صنعاء، ثم خرج منها فتعطلت من السلطنة إلى سنة إحدى وثلاثين، فاستدعت همدان جعفر بن القاسم، فدخل صنعاء في ربيع من السنة، ثم كان بينهم اختلاف يطول شرحه، وخلت صنعاء أيضًا من السلطنة إلى شوال سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

ووصل الإمام أبو الفتح الناصر بن الحسين الدَّيْلَمِيّ مُدَّعيًا للإمامة، وانضمت إليه همدان وجميع العساكر، ونهب صعدة، وخرب دورًا، وقتل من خولان مقتلة عظيمة، ودخل صنعاء في ذي القعدة من السنة، وأقام إلى صفر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، ودخل ابن أبي الفتوح، فبنى له في حصن عَلَب قصرًا بالجص والآجر، وكاتب له المنصورُ عبسًا، فأقبل من رؤسائهم مائة فارس، فدخلوا في طاعة الإمام، وبايعوه، والتحق به أيضًا الأمير جعفر بن القاسم، فجعله أمير الأمراء بينهما، ولم يتم.

وتمالأ جعفر وابن أبي حاشد على حرب الإمام، وخرجا من صنعاء فأمر الإمام بخراب دور بني الحارث، وبني مروان، فغضب ابن أبي الفتوح وابن أبي حاشد لذلك، ودخلا صنعاء، ورفعا أيدي ولاة الإمام، وقطعا اسمه من الخطبة، فخرج هاربًا، ثم رجع إلى بلد عَنس، ووصل إليه جعفر، وأقاموا بصنعاء، ثم مات السلطان يحيى بن أبي حاشد في أول سنة أربعين وأربعمائة، فأغلقت أبواب صنعاء ولم يبايع الناس ثلاثة أيام، وأقام الناس ابنه أبا حاشد، وحلفت له همدان.

ذكر أخبار دولة علي بن محمد الصُّلَيْحِيّ

وفي ليلة الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ظهر علي بن محمد الصليحي واستولى على اليمن في أقرب مدة داعيًا إلى الدولة العُبَيدية، وكان من خبر قيامه وابتداء أمره أنه لما مات المنصور الحسن بن زادان صاحب مِسور الذي قدمنا ذكره ـ وهو أحد الداعيَين لبني عبيد الله في سنة اثنتين وثلاثمائة ـ كما ذكرنا ـ استخلف على أهل دعوته رجلًا من بني شاور يقال له «عبد الله بن عباس» وابنه حسين بن المنصور، وأمرهما بالمحافظة على دينهما، وألا يقطعا دعوة بني عبيد الله، وأمرهما بمكاتبة المهدي، فإذا ورد أمره بولاية أحدهما سمع الآخر له وأطاع، وكان المهدي يعرف عبد الله بن عباس فكتب إليه ابن عباس يعرفه وفاة المنصور، وأنه قد قام بالدعوة فوصلت إليه كتب المهدي بولايته، وعزل أولاد المنصور، وبعث إليه سَبْعَ رايات، فسار أبو الحسين بن المنصور إلى المهدي بإفريقية، فأمره بطاعة ابن عياش وقد أيس من الرئاسة، فعمل على قتل ابن عياش فنهاه أخوته فلم ينتهِ، واستولى على الأمر، ولم يدع مكاتبة المهدي، ثم خرج أبو الحسين بن منصور إلى عين محرم، وفيه رجل من قبله يقال له ابن العرجي واستخلف على مسور إبراهيم بن عبد الحميد السباعي، وهو جد بني المنتاب، فوثب ابن العرجي على أبي الحسين فقتله، فاستولى إبراهيم على مسور، وادعى الأمر لنفسه، وأخرج أولاد المنصور وحريمهم عن مسور إلى جبل بني أعسب، فوثب عليهم المسلمون، فقتلوهم الصغير والكبير، وسَبَوْا حريمهم.

ثم اتفق إبراهيم وابن العرجي، فاقتسما المغرب نصفين، لكل واحد منهما ما يليه، ورجع إبراهيم إلى مذهب السُّنِّيَّة، وخطب للخليفة العباسي، وتتبع القرامطة بالقتل والسبي، ونصَّب من بقي منهم داعيًا يعرف بابن الطُّفَيْل، فقتله إبراهيم، ثم مات إبراهيم، فولى بعده ابنه المُنتاب بن إبراهيم، وانتقلت الدعوة الخبيثة بعد ابن الطفيل إلى رجل يعرف بابن أقحم، فخاف على نفسه من المُنْتاب، فكان لا يستقر في موضع واحد، وكاتب المعز بعد وصوله إلى مصر، فلما حضرته الوفاة استخلف رجلًا من شبام يعرف بيوسف بن الأسد، فأقام دعوتها مدة حياته، واستخلف رجلًا من شبام اسمه سليمان بن عبد الله الزواحي من حمير، فدعا إلى الحاكم ومن بعده، وكان كثير المال والجاه، فاستمال الرعاع والطغام إلى مذهبه، وكان إذا هَمّ به المسلمون يقول: «أنا رجل مسلم فكيف يحل قتلي؟»، وكان فيه كرم نفس، وإفضال على الناس.

وكان الصُّلَيْحي كثير الاختلاط به، والحظوة لديه، فتفرّس فيه، فلما حضرته الوفاة أوصاه بالدعوة، وأعطاه مالاً كثيرًا كان قد جمعه من أهل دعوتهم، وأقام الصُّلَيْحي باليمن دليلاً للحاج على طريق السراة خمس عشرة سنة، وهو مع ذلك يُعْمل الحيلة في ظهور أمره، فطلع مَسارًا، وهو أعلى ذروة في جبال حراز، ومعه قوم قد بايعوه على الموت، فأحاط بهم جميع أهل حراز، وتهددوه بالقتل، فدافعهم بالحِيَل، وقال: إنما لزمته خوفًا أن يلزمه الغير فتلحقنا جميعًا المَضرَّة، ولم يمض عليه أشهر حتى بناه وحَصَّنه وأمرُه يستفحل، وشأنه يظهر، فلما ظهر بمسار ـ ومعه قوم من الحجاز وسِنحان ويام وجُشَم وهَبْرة ـ حصره جعفر بن القاسم في الأحبوش، وهم خلق كثير، ورجل يسمى جعفر بن العباس شافعي المذهب سار مع جعفر لحصاره في ثلاثين ألفًا، فأوقع الصُّلَيْحي بجعفر بن العباس في محطته في شعبان من السنة، فقتله في جمع عظيم، فتفرق الناس عنه، ثم طلع إلى جبل حَضُور فافتتحه، وأخذ حصن يناع، وجمع له ابن أبي حاشد صاحب صنعاء فالتقوا بصَوْف، فقتل ابن أبي حاشد وألف رجل، وسار إلى صنعاء فملكها، وطوى اليمن طيًّا بسهله وجبله.

وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة استقرّ ملكُ الصُّلَيْحي بجميع اليمن من مكة إلى حَضْرَموت سهلها وجبلها، واستقر بصنعاء، وأسكن معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، واختط بصنعاء عدة قصور، واستعمل صهره ـ أخا زوجته ـ أسعد بن شهاب على زبيد، فدخلها في سنة ست وخمسين وأربعمائة، وأحسن سيرته في الرعية، وفسح لأهل السنة في إظهار مذاهبهم، وكان يحمل من تهامة إلى صنعاء في كل سنة ـ بعد أرزاق الجند الذين بها وغير ذلك من الأسباب اللازمة ـ ألف ألف دينار عَيْنًا.

ذكر مقتل الصُّلَيحي وقِيام ابنه المُكرَّم

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة توجه الصُّلَيْحي إلى مكة شرّفها الله تعالى، واستخلف ابنه المكرم على الملك، وسار في ألفي فارس منهم من آل الصُّلَيْحي مائة وستون رجلاً واستصحب معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم خوفًا أن يثوروا بعده في البلاد، وسار حتى نزل بظاهر المَهْجَم بضيعة تعرف بأم الدُّهَيْم وبئر أم مَعْبَد، وخيمت عساكره حوله، فلما كان في الثاني عشر من ذي القعدة لم يشعر الناس في نصف النهار إلا وقد قيل لهم قُتِل الصُّلَيْحي.

وكان سبب قتله أنه لما استولى على زَبِيد في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وقَتَلَ صاحبَها نَجاحًا بالسم، وكان قد أهدى له جارية وأمرها فسَمَّته، فهرب أولاد

نجاح: سعيد الأحول وجَيّاش وغيرهما، فلحقوا بأرض الحبشة، وشاع على ألسنة المُنَجِّمين وأهل المَلاحم أن سعيدًا الأحول قاتلُ علي بن محمد الصُلَيْحي، وبلغ ذلك الصُلَيْحي فاستشعره، وبلغ سعيدًا فترقت إليه همته، وتهَيّأ لأسبابه، فلما بلغه مسير الصُلَيْحي إلى الحجاز خرج من أرض الحبشة، فعارضه في خمسة آلافِ حربة كان قد انتقاها حين خرج من ساحل المَهْجم، وهجم على الصُلَيْحي في نصف النهار، والناس مقيلون في خيامهم غير مستعدين لحرب، فدخل عليه خيمته في أهل بيته، وعنده دوابّ النوبة، وهو يريد الركوب، فقَتَلوه، وقتلوا أخاه عبد الله، وتَفَرّقوا في المحطة، فقتلوا من وجدوا، واستولى سعيد الأحول على خزائن الصُلَيْحي وأمواله، وكان قد استصحب منها أموالاً جليلة، وجمع آل الصُلَيْحي خاصة فقتلهم رميًا بالحراب، وأخذ أسماء بنت شهاب، فأركبها هودجًا، وجعل رأس الصُلَيْحي ورأس أخيه أمام هودجها حتى دخل زبيد، وتركها في دار والرأسان منصوبان قبالة طاق الدار التي هي فيها، وفي ذلك يقول شاعرهم العثماني من قصيدة:

بكرت مظَلَّتَه عليه فلم تَرُح ... إلا على المَلك الأجلِّ سعيدِها
ما كان أقبحَ وجهَه في ظلها ... ما كان أحسنَ رأسَه في عُودِها
سود الأراقم قابلتْ أسْد الشَّرى ... يا رَحْمَتا لأسودها من سُودِها

فأقامت تحت الأسر سنة، ثم تلطفت في الكتابة إلى ابنها المُكَرّم تقول: إنها قد حملت من الأحول، ولم يكن رآها قطُّ وإنما أرادت أن تستنفر حفائظ العرب، فلما وصل الكتاب إلى ابنها جمع رؤوس القبائل، وقرأه عليهم، فثارت حفائظهم، وخرج من صنعاء في ثلاثة آلاف فارس غير الراجل، فخطبهم في الطريق، وقال: «إنما تقدمون على الموت، فمن أراد أن يرجع فمن مكانه» فيقال: إنه رجع بعضهم وسار في الباقين، وبلغ الأحول، فجمع جموعه في عشرين ألف حربة، فطحنتهم خيل العرب، وقتل أكثرهم، فركب الأحول في خواصِّه وأهل بيته خيولاً مُضَمَّرة كان أعدّها للهرب، وهرب إلى الساحل، وقد أعدت له هناك سفن فركبها، وتوجه نحو دهلك، ودخلت العرب زبيد، فكان أول فارس وقف تحت طاق أسماء ولدها المكرم، فسلّم عليها، فلم تعرفه، وقالت: مَن أنت؟ فقال: أحمد بن علي، فقالت: أحمد بن علي في العرب كثير، وأمرته أن يرفع المِغْفَر، فرفعه، فقالت: مرحبًا بمولانا المكرم، فأصابته ريح ارتعش لها، واختلج وجهه، فكان كذلك سنين كثيرة حتى مات، وأعاد المُكَرَّمُ خالَه أسعدَ بن شهاب إلى ولاية زبيد والأعمال التهامية، ورجع بأمه إلى صنعاء فأقامت مدة وماتت.

ثم جمعت الحبشة لأسعد بن شهاب، فأخرجوه من زبيد، وعادت إلى ملكهم على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

قال: ثم إن المكرم بن الصُّلَيْحي فَوّض الأمور إلى زوجته الحرة، واسمها سَيِّدة ابنة أحمد بن جعفر الصُّلَيْحي، وكان الصُّلَيْحي يكرمها قبل مقتله، ويقولون لزوجته أسماء: هي والله كافلة ذرارينا، القائمة بهذا الأمر لمن بقي منا، فلما ماتت أسماء فوّض المكرم الملك والأمر لزوجته الحُرّة، وخلا للشراب واللذات، فارتحلت من صنعاء حتى بنت دارها بذي جِبْلة، وتعرف بدار العز، ونقلته إليها، فاستخلف على صنعاء عمران بن الفضل اليامي، حتى مات في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، فأسند الأمر إلى ابن عمه.

السلطان سَبَأ بن أحمد بن المُظَفَّر الصُّلَيحي

وكان دَمِيم الخَلْق لا يكاد يظهر من السرج بطائل، وكان جوادًا شاعرًا قائمًا بأحوال الملك، وإياه عنى ابن القم بقوله:

ولما مدحتُ الهِبرِزِيّ[1] ابن أحمد   أجازَ وكافاني على المدحِ بالمدحِ
وعوّضني شِعرًا بشعري وزادني   عطاءً فهذا رأسُ مالي وذا رِبحي
شققتُ إليه الناسَ حتى رأيتُه   فكنت كمن شَقّ الظلام إلى الصُّبحِ

وكان مستقر ملكه حصن أشْيَحَ وما إليه من الجبال المُطلَّة على زبيد، وكانت الحرب بينه وبين أهل نجاح سجالاً، فبَيَّتُوه في بعض الليالي، وكبسوا عسكره، فقتلوا أكثرهم، ونجا سبأ على قدميه عامة ليلته حتى وجد من حمله على فرس في آخر الليل، فلم تعد العرب بعد ذلك إلى تهامة.

وخطبَ سَبَأ الحُرّةَ السيدة، فلم تُجبه، وأنكرت ذلك غاية الإنكار، فتحاربا مدة، فقيل له: ما تجيب إلا بأمر المستنصر خليفة مصر، فأرسل في ذلك إلى المستنصر رسولين، فعادا ومعهما خادم من أكابر خُدّام المستنصر بألفاظ حسنة، فردت بأحسن منها، وقال لها: أمير المؤمنين يقول لكِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] قالت: وما ذاك؟ قال: «قد زَوَّجَك أميرُ المؤمنين من الداعي الأوحد المظفر عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبي

---

(١) الهبرزيّ: كلمة يمانية، ومن معانيها: الجيد الرمي بالسهام والحسن الثبات على ظهر الفرس (لسان العرب: هبرز).

حِمْيَر سَبَأ بن أحمد بن المُظَفَّر الصُّلَيْحي على ما حَضَر من المالِ، وهو مائة ألف دينار عَيْنًا، وخَمْسُون ألفًا من التحف والألطاف والطيب والكساء»، فقالت: أما كتاب مولانا صلوات الله عليه، وأمره فأقول فيه: ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٢٩، ٣٠] ولا أقول في أمرِ مولانا ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٣٢] وأجابت إلى العقد، فأقبلَ سبأ في جموع عظيمة إلى ذي جِبْلَة، فتلقتهم من الضِّيافات والعطايا الواسعة للناس، والنفقات على العساكر بما بهر سبأ، وصَغُر قدر نفسه عنده، وأقام هو ومن معه على ذلك شهرًا، ثم استأذَنَها في الدخول عليها، فأذنت له، فقِيلَ: إنه اجْتَمع بها ساعة واحدة، وقيل بعثت إليه بجاريةٍ تشبهها، وأصبح سائرًا، فلم يجتمعا بعد ذلك، وماتَ سبأ، فأقامت الحُرة للذبِّ عن ملكها، والقيام بأمرها.

المُفَضَّل بن أبي البركات بن الوليد الحِمْيَرِي

وهو تربيتها، فعظم شأنه وعلت كلمته، وغزا تهامة مرارًا، وكان إليه ولاية التَّعْكُر وبه ذخائر بني الصُّلَيْحي وأموالهم، وكان يتولاه من قبله رجل من الفقهاء فطلع إليه جماعة من الفقهاء السُّنِّيَة من المِخلاف، فحسنوا له الخلاف، فخالف على المفضل، واستولى على الحصن وما فيه من الذخائر، فجاء المُفَضَّل، وحصره أشد حصار، فقال بعض الفقهاء: والله لا بت حتى أقتل المُفَضَّل، فعمد إلى حظايا المُفَضَّل اللواتي يميل إليهن، فألبسهن فاخر الحلي والحلل، وأطلعهن أسطح القصور، فضربن بالدفوف والمعازف بحيث يراهن المُفَضَّل وجميع عسكره، وكان المُفَضَّل أشد الناس غيرة، فمات من ليلته كمدًا وقيل: امتص خاتمًا فأصبح ميتًا والخاتَم في فمه، فعند ذلك طلعت الحرة من ذي جِبْلَة، فخيمت بالرَّبادي، وكاتبت الفقهاء ولاطفتهم، وكتبت لهم خطها بما اقترحوه من أمان وأموال، وتسلمت الحصن فولّته أحد مواليها.

وقدم على أثر ذلك علي بن أحمد المعروف بابن نَجِيب الدولة رسولاً من قبل الخليفة بمصر إلى الحرة، وكان عاقلًا حسن التدبير فقام بأمر الحرة، وغزا أهل الأطراف، فاستقر أمره، واشتدت شوكته، واستخدم أربعمائة فارس من هَمْدان وغيرهم من عرب اليمن، فقوي بهم، وغزا ملوك زبيد، ولم تزل أموره مستقيمة حتى بلغ الحرة عنه أنه قال: إنها قد خَرِفت ولا تصلح لتدبير الملك، فتنكرت له، وأغرت به ملوك اليمن، وكانوا تحت طاعتها كعمران اليامي، وعمرو الجنبي، وكل منهما

يسير في ألف فارس، فحصروه حتى جهد، فلما اشتد به الحصار فرقت الحرة عشرة آلاف دينار مصرية، وأشاعت في الناس أنها من ابن نجيب الدولة، فطلبت العساكر من ملوكها الأموال والأرزاق، فغالطوهم فارتحلوا، وتفرق الناس، فقيل لابن نجيب الدولة: هذا من تدبير التي قلت إنها قد خرفت، فركب إليها إلى ذي جبلة، فاعتذر إليها.

ثم قدم رسول من الديار المصرية، فلم يحتفل به ابن نجيب الدولة، فشقّ عليه ذلك، والتحق به أعداء ابن نجيب الدولة، فقال لهم: اكتبوا على يدي كتابًا «أنه دعاكم إلى البيعة لنزار، واضربوا سكة نزار، وأنا أوصلها إلى الخليفة الآمر بأحكام الله» ففعلوا ذلك وفعل، فبعث الآمر أميرًا، فقبض عليه، وسيره إلى مصر، فأرسلت الحرة إلى مصر رسولاً، فشفع فيه، فلما توسطوا البحر غَرَّقهم الموكَّلُون بهم بمواطأة ذلك الأمير، وانتقلت الدعوة إلى آل زُرَيع.

ذكر أخبار ملوك الدولة الزُّرَيْعِيَّة

قال: ولما جهز ابن نجيب الدولة إلى الديار المصرية انتقلت الدعوة إلى الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم بن يام بن أصبى، من حاشد من هَمْدان، وهو من بيت شرف ورئاسة، وكان لجده العباس سابقة محمودة، وبلاء حسن مع الصُّلَيْحي في القيام بالدعوة، ومع المكرم في نزول زبيد.

ولما تغلب بنو مَعْن على عدن وافتتحها المكرم، ونفى بني معن، ولاها العباس ومسعود ابني المكرم، فكانا كذلك إلى أن سارا مع المُفَضَّل بن أبي البركات إلى زبيد لقتال الحبشة، فقُتِلا على باب زبيد، فانتقل الأمر بعدن إلى أبي السعود بن زريع، وأبي الغارات بن مسعود حتى ماتا، فولى الأمر بعدهما الداعي سبأ بن أبي السعود، ومحمد بن أبي الغارات، فلما مات محمد ولي ما كان إليه من الأمر أخوه علي بن أبي الغارات، وبيد الداعي سبأ مع عدن تَبالة، وله في الجبال حصن الدُّمْلُوَة، والسَّانة، ومطر، وغَيْدان، وذُبْحان وبعض المعافِر وبعض الجَنَد، ثم وقع بينه وبين ابن عمه خلاف وقتال أُجلت الحرب عن هزيمة أبي الغارات واستقلال الداعي سبأ بالأمر بمفرده، وصَفَت له البلاد، ودخل عدن، وأقام بها سبعة أشهر، ومات في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فولى الأمر بعده ولده علي الأعز، ووصل القاضي الرشيد أحمد بن الزبير من مصر بتقليده الدعوة، فوافاه قد مات في سنة أربع وثلاثين، فقلدها أخاه.

محمد بن سَبَأ، ولقبه المُعَظّم المُتَوَّج المَكِين

وكان الداعي محمد هذا ممدَّحًا يقصده الشعراء، فيجزل لهم العطاء، وكان جوادًا كريمًا، وتوسع في الملك، وغلب على أكثر البلاد، وتوفيت الحرة السيدة بذي جِبْلَة سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وانتقل ما كان بيدها من الحصون والذخائر إلى المنصور بن المُفَضَّل، فابتاع الداعي محمد بن سبأ هذا منه الحصون والبلاد في سنة ست وأربعين وخمسمائة، مثل مدينة جِبْلَة والتَّعْكُر وحب وغيرها من حصون المخلاف وسواه، وطلع الداعي المخلاف، فسكن بذي جِبلة، وكانت وفاته في سنة ستين وخمسمائة، ولم يزل الأمر في ذراريهم إلى أن نفاهم سيف الإسلام بن أيوب.

وأما صنعاء فملكها بعد الداعي سبأ بن أحمد الصُّلَيْحي رجل من هَمْدان يعرف بحاتم بن الغشْمِ، وكان ناهضًا كافيًا، وكان له ولد اسمه محمد لم يشاركه أحد في شجاعته وجوده، إلا أنه كانت فيه لوثة واختلاط عقل، فكان إذا تزوج امرأة وأحبها قتلها، فتحاماه الناس فلم يزوجه أحد بعد ذلك، فخطب إلى بني الصُّلَيْحي أهل قيضان، فأبوا أن يزوجوه، فألحّ عليهم فقالوا: «إذا ضمن أبوك زَوّجناك»، فلم يزل بأبيه حتى ضمن، وقال له أبوه: «إن قتلتها قتلتك» فقتلها بعد مدة، ولحق بحصن بَرَاش صنعاء، فلم يزل أبوه يخادعه ويلاطفه، حتى التقيا تحت المدرج، فوثب عليه أبوه فقتله، وقطع برأسه ودخل به صنعاء على رمح، وكانت لمحمد بنية في بيت جدها، وقد سمعت أن جدها خرج ليأتي بأمها، فلم يفاجأها إلا رأس أبيها على الرمح، فماتت فجأة، ثم مات حاتم بن الغشم، فانتقل ملك صنعاء ومخاليفها إلى:

السلطان حاتم بن أحمد بن عِمْران اليامِي

وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وكانت له حروب مع الإمام أحمد بن سليمان، ومات حاتم بن أحمد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فولى بعده ابنه حَمِيد الدولة علي بن حاتم، فخالفت عليه هَمْدان، وقتلوا أخاه عِمْران، ثم استقاموا له، وقويت شوكته ونزل اليمن الأسفل لقتال بني مهدي، فأوقع بهم في الجبال، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وذلك في ربيع سنة تسع وستين وخمسمائة.

ذكر أخبار سعيد الأحول، واستيلائه على زبيد ثانيًا ومن ملك بعده من آل نجاح

قد ذكرنا أن المكرم هزم سعيدًا الأحول، وقتل رجاله واستولى على زبيد، وأعاد إليها خاله أسعد بن شهاب في سنة ستين وأربعمائة، فلما رجع المكرم بأمه إلى صنعاء

وثب سعيد الأحول، فطرد أسعد بن شهاب من زبيد فلحق بابن أخته، واستولى سعيد الأحول على زبيد والأعمال التهامية بها إلى أن تحيلت الحرة السيدة على قتله، فأمرت والي الشعر أن يكاتبه، ويباطنه أنه يسلم إليه جبل الشعر، ومنه يستولي على الحرة وما بيدها من الأعمال، فطمع في ذلك فخرج للميعاد، وأمرت الحرة ملوك اليمن الأعلى بحشد عساكرهم وراءهم ونزولهم من الجبال المطلة على زبيد، وأن يطووا المراحل خلف سعيد، فلما صار تحت الشعر أطبقت عليه جيوش العرب وجيوش الحرة، فقتل هو وأكثر من معه، وذلك في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة.

وعادت زبيد إلى المُكَرّم، وأعادت الحرة إليها أسعد بن شهاب، ثم انتزعها منه «جيّاش بن نجاح» أخو سعيد، وذلك أنه كان عند مقتل أخيه ببلاد الهند، وكان قد توجه إليها متنكرًا في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، فلما عاد وجد أخاه قد قُتل، وخرجت زبيد عنهم، فدخل زبيد متنكرًا، ولم يزل يتَحَيَّل ويتَلَطَّف حتى اجتمع له من مواليه وأصحابه خمسة آلاف حربة، وساعده على ظهوره علي ابن القم الشاعر، وكان وزيرًا لأسعد بن شهاب، فوثب بزبيد، وملكها وأعانه عوام المدينة، وأتى بأسعد بن شهاب أسيرًا، فأكرمه وأطلقه، وكان جياش قد أحضر معه جارية من الهند حاملاً، فولدت له ابنه فاتكًا، وفي ساعة وضعها كان وثوبه بزبيد، ولم يزل جيّاش في ملك زَبيد وتِهامة من سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة إلى سنة ثمان وتسعين، فمات في ذي الحجة منها، وقيل في شهر رمضان سنة خمسمائة. قال: والأول أظهر، وخلف من الأولاد الفاتك ـ ابن الهندية ـ ومنصورًا وإبراهيم وعبد الواحد والذخيرة ومعاركًا، فولى بعده ابنه الفاتك، وخالف عليه أخوه إبراهيم، وخالف عليه أيضًا أخوه عبد الواحد، وجرت بينهم وقائع وحروب، فظفر فاتك بأخيه عبد الواحد، فعفا عنه، وأكرمه، ونزل إبراهيم بن جيّاش بأسعد بن وائل بن عيسى الوَحَاظي، فأكرمه إكرامًا عظيمًا، وكانت عبيد فاتك بن جياش قد عظم شأنهم، وكثروا واشتدت شوكتهم، ثم مات فاتك في سنة ثلاث وخمسمائة، وترك ولده المنصور بن فاتك صغيرًا، فملكه عبيد أبيه، وحشد إبراهيم بن جيّاش بعد موت أخيه فاتك، فتواقعوا، وحين خلت زبيد منهم وثب بها عبد الواحد بن جيّاش فملكها، وحاز دار الإمارة، فأخرج الأستاذون والوصفان مولاهم منصور بن فاتك ودلوه من سور البلد خوفًا عليه، ولحق بعبيد أبيه.

ولما بلغ إبراهيم بن جيّاش أن أخاه عبد الواحد قد حصل على زبيد وسبقه إليها، توجّه إلى الحسين بن أبي الحِفاظ الحَجُوري.

وأما عبيد فاتك، فإنهم توجهوا بالمنصور ابن مولاهم، ونزلوا بالملك المفضل بن أبي البركات الحميري صاحب التَّعْكُر، وبالحرة السيدة بنت أحمد الصُلَيْحي بذي جِبْلة، فأكرما مثواهم، والتزم عبيد فاتك للمُفَضّل بريع البلاد على نصرتهم على «ابن جيّاش» فأخرجه من زبيد، وملكهم إياها، وهَمَّ المفضَّل أن يغدر بآل فاتك، ويملك البلاد، فبلغه ما كان من أمر الفقهاء، واستيلائهم على حصن التَّعْكُر، ففارق زبيد، وتوجه إليهم، وكان من أمر وفاته ما قدمناه.

واستقر الأمر بتهامة للمنصور بن فاتك وعبيد أبيه، فمن أولاد فاتك الأمراء ومن عبيده الوزراء، فأما الأمراء فمنهم المنصور بن فاتك، ثم فاتك بن المنصور وهو ابن الحُرَّة الصالحة الحاجة.

ثم مات فاتك بن منصور، فانتقل الأمر إلى ابن عمه، واسمه أيضًا الفاتك بن محمد بن منصور بن فاتك بن جيّاش في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وقتله عبيده في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وعنهم زالت الدولة إلى علي بن مهدي الخارج باليمن في شهر رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة، ولم يكن لأولاد فاتك بن جَيّاش من الأمر شيء سوى النَّوامِيسِ الظاهرة، من الخطبة لهم، بعد بني العباس، والسكة، والركوب بالمِظَلّة في أيام الموسم، وعقد الآراء في مجالسهم، وما عدا ذلك من الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود، وإجازة الوفود، فلعبيدهم الوزراء، وهم عبيد فاتك بن جيّاش، وعبيد منصور ابنه.

وأول من وَزَر منهم أنيس الفاتكي، وكان من بطن في الحَبَشة يقال لهم الجرليون، وملوك بني نجاح من هذا البطن، وكان أنيس هذا جبارًا غشومًا مهوبًا، وبنى قصورًا عظيمة، ولما اشتدت شوكته عزم على قتل مولاه المنصور بن فاتك، وتهيأ للاستقلال بالملك، فبدره ابن مولاه، بأن عمل وليمة واستدعاه، فقطع رأسه واسْتَصْفى أمواله. ووَزَر بعده الشيخ أبو منصور مَنُّ الله الفاتكي، وكان كريمًا شجاعًا، وله وقعات مشهورة في العرب، ومآثر مذكورة، ولما وزر لمنصور بن فاتك بن جيّاش في سنة تسع عشرة وخمسمائة لم يقدم شيئًا على قتل منصور ابن مولاه بالسم، ومَلَّك ابنه فاتك بن منصور، وهو طفل صغير، ثم تعرض إلى حريم مولاه، فيقال: إن منصور بن فاتك وأباه فاتك بن جيّاش، وغيرهما من آل نجاح، ماتوا عن أكثر من ألف سُرِّية، ما منهن واحدة سلمت من الوزير «منّ الله» إلا عشرة نساء من حظايا منصور بن فاتك منهن الحُرَّة الملكة أم فاتك بن المنصور الملك، وكانت من جواري الوزير أنيس ابتاعها منصور من ورثته، وكانت حبشية مغنية، واسمها علم، فخرجت

امرأة صالحة خَيِّرة كانت تحج بأهل اليمن برًّا وبحرًا في خفارتها من الأخطار والمكوس، فاعتزلت القصر، وسكنت خارج المدينة، وبنت لها دارًا. هذا والملك ولدها.

قال: ولما أراد الله تعالى هلاك الوزير «منّ الله» حاولَ بنت معارك بن جيّاش وراودها، وكانت موصوفة بجمال، فافتدت نفسها منه بأربعين بكرًا فذكرت ذلك لعبيد عمها فاتك، وعبيد ابن عمها منصور بن فاتك فهابوه، ولم يقدروا على شيء فقالت لهم الحرة أم أبي الجيش ـ وكانت مولدة ذات جمال ـ: أنا أكْفيكُمُوه، ثم أرسلت إلى الوزير مَنّ الله تقول له: «إنك أسأت السُّمْعَة علينا وعليك فيما تقدم، ولو كنت أعلمتني خَدَمتُك أتمَّ خدمة، ولم يعلم بك أحد، ففرح الوزير بذلك، وتواترت الرسائل بينه وبينها، حتى قال: فإني أزورك في هذه الليلة إلى دارك متنكرًا، فقالت لرسوله: إن الله قد أجَلَّ قدر الوزير عن ذلك، بل أنا أزورُه في داره، وأتته عند المساء، فغَنَّته وشرب وطرب، فيقال: إنها مَكَّنَتْه من نفسها، فوقع عليها، فلما فرغ مسحته بخرقة مسمومة، فتَهَرَّأ ومات من ليلته، فدفنه ولده منصور في إسطبله، وسوّى به الأرض، فلم يعرف له قبر، وكانت وفاته في ليلة السبت خامس عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ثم وَزَرَ بعده لفاتك بن منصور زُرَيْق الفاتكي «وكان شجاعًا كريمًا، وكان له من الأموال والأراضي ما لا تحصى قيمته، وكان له ثلاثون ولدًا إلا أنه لم يكن له نفاذ في سياسة العسكر، ولا خبرة بإقامة نواميس السلطنة، فاستقال من الوزارة، واستدعى لها الوزير أبا منصور مُفْلِحًا الفاتكي، وهو من بطن من الحبشة يقال لهم «سَحَرْت»، وكان يكنى بولده منصور، وكان منصور هذا من الأعيان أهل الخبرة والفقه والأدب والصباحة والسماحة والشجاعة والرئاسة الكاملة، وكان مُفْلِح يُنْبَزُ في صغره «بالبَغْل»، وكان يقال: «مفلح البغل» ولا يغضب من ذلك، وكان عفيفًا لم تعلم له صبوة في صغر ولا كبر، ولما عظم شأنه في الوزارة ثقل على أهل الدولة، فتُحُيِّل في إخراجه، فأُخْرِج من الوزارة، وكانت له حروب مع سُرُور الفاتكي، ثم مات في سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

وكان لمنصور ابنه مع العساكر حُروب، ثم خَذَله أصحابه وتَفَلَّلوا عنه، فاستأمن إلى القائد «سرور» ودخل معه إلى زبيد، والوزير يومئذ «إقبال» الفاتكي، فخلع على منصور، وأنزله في دار أبيه، ثم قبض عليه من الغد، وقتل في دار الوزير «إقبال»، فأنكر الملك فاتك ذلك، وهَمَّ بإقبال، ثم أبقاه على دَخَنٍ، فتلطف إقبال، حتى سقى مولاه فاتكًا السم، فمات فاتك بن منصور في شعبان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ومنهم القائد «أبو محمد سُرور الفاتكي» وجنسه من الحبشة «أمْحَرَة»، وكانت له مآثر وصدقات وصلات يطول الشرح بذكرها. وكان كثير الصلاة والعبادة والخير والبر، فكانت هذه حاله من سنة تسع وعشرين وخمسمائة إلى أن قتل في مسجده بزبيد في الركعة الثالثة من صلاة العصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، قتله رجل يُقال له «محرّم» من أصحاب علي بن مَهْدي، ثم قُتِل قاتله في تلك العشية بعد أن قَتَل جماعة من الناس، ولم تلبث الدولة بعد قتله إلا يسيرًا حتى أزالها علي بن مَهْدي، وملك زبيد وأعمالها في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، في آخر يوم من شهر رجب.

ذكر أخبار دولة علي بن مَهْدي الحِمْيَرِيّ وبنيه

وهم من أهل قرية يقال لها العَنْبَرة من سواحل زبيد، وكان أبوه رجلاً صالحًا سليم القلب، ونشأ ولده عَلِيٌّ هذا على طريقة أبيه في العُزْلة والتمسك بالصلاح، وحجّ وزار ولقي حاجَّ العراق وعلماءها ووُعّاظها، وتضَلَّع في معارفهم، وعاد إلى اليمن، فاعتزل وأظهر الوعظ، وإطلاق التحذير من صحبة العسكرية، وكان فصيحًا صبيحًا أخضر اللون طويل القامة مخروط الجسم بين عَيْنيه سَجّادة، حسن الصوت، طيب النغمة، حلو الإيراد، غزير المحفوظات، قائمًا بالوعظ والتفسير وطريقة الصوفية، وكان يُحَدِّث بشيء من أحواله المستقبلات فيَصْدُق، وكان ذلك من أقوى عُدَده في استمالة قلوب العالم، وظهر أمره بساحل زبيد بقرية العَنْبَرة وقرية واسط وقرية القضيب والأهْواب والمقتفى وساحل الفازة وكان يتنقل بينها. وكانت عَبْرَته لا ترقأ على ممر الأوقات، ولم يزل يعظ الناس في البوادي من سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فإذا دنا الموسم خرج حاجًّا على نجيب له إلى سنة ست وثلاثين وخمسمائة.

ثم أُطلقت الحرة أم فاتك ابن منصور له ولأخوته وأصهاره ومن يلوذ بهم خراج أملاكهم، فلم تمضِ بهم هنيهة حتى أثروا، واتسعت حالهم، فركبوا الخيل.

ثم حالفه قوم من أهل الجبال على النصرة، فخرج من تهامة إليهم في سنة ثمان وثلاثين، فجمع جموعًا تبلغ أربعين ألفًا، وقصد بهم مدينة الكَدْراء، فلقيه القائد إسحاق بن مرزوق السحرتي في قومه، فهزموا أصحابه، وقتلوا خلقًا من جموعه، وعفوا عن أكثرهم، وعاد ابن مهدي إلى الجبال، وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين

وخمسمائة، ثم كاتب الحرَّة بزبيد، وسألها في ذِمَّة له ولمن يَلُوذ به، ويعود إلى وطنه، ففعلت له ذلك على كره من أهل دولتها، ومن فقهاء عصرها، لِيَقْضِيَ اللّهُ أمرًا كان مَفْعُولاً.

وأقام ابن مهدي يستغل أملاكه سنين عدة، وهي مطلقة الخراج، فاجتمع له من ذلك مال، وكان يقول في وعظه: «أيها الناس، دنا الوقت، أزِف الأمر، كأنَّكم بما أقولُ لكم وقد رأيتموه عيانًا»، فما هو إلا أن ماتت الحرة في سنة خمس وأربعين حتى أصبح في الجبال في موضع يقل له الداشر «من بلاد خَوْلان» ثم ارتفع منه إلى حصن يقال له الشرف، وهو لبطن من خولان، يقال لهم خَيْوان ـ بإسكان الياء ـ وسماهم الأنصار وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين، ثم ساء ظَنّه بكل أحد ممن معه خوفًا على نفسه، فأقام للأنصار رجلاً من خولان يسمى سبأ بن يوسف وكناه «شيخ الإسلام» وللمهاجرين رجلاً يسمى التُّويتي لقبه أيضًا شيخ الإسلام، وجعلهما نقيبين على الطائفتين، ولا يخاطبه ولا يصل إليه أحد سواهما، وربما احتجب فلا يرونه وهم يتصرفون في الغزو، فلم يزل يغادي الغارات ويراوحها على تهامة حتى أخرب الحزوز المُصاقِبة للجبال، والحبشة يومئذ تبعث الأبدال في المراكز، فلا يغنون شيئًا، فلم يزل ذلك دأبه مع أهل زبيد إلى أن أخلى جميع أهل البوادي، وقطع الحرث، ومنع القوافل، وكان يأمر أصحابه أن يسوقوا الأنعام والقوافل، وما عجز عن السير عَقَروه، ففعلوا من ذلك ما أرعب وأرهب، وقضى بخراب الأعمال، ثم توجه إلى الداعي محمد بن سبأ صاحب عدن إلى مدينة ذي جِبلة في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، يستنجده على أهل زبيد، فلم يجبه إلى ذلك، فعاد إلى حصن الشرف، ودبر في قتل القائد «سرور الفاتكي» فقتل في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة كما تقدم.

وانشغل رؤساء زبيد بالتنافس والتحاسد على رتبة القائد سرور، فكان ذلك مما أعان ابن مهدي، وفارق ابن مهدي حصن الشرف، وهبط إلى الداسر، وبينه وبين زبيد أقل من نصف يوم، فانضمت إليه الرعايا وعرب البلاد، فلما كثر جمعه زحف إلى زبيد في جموع لا تحصى كثرة وحصر أهل زبيد بها، فصبروا، وقاتلوه اثنين وسبعين زحفًا يُقتل من أصحابه مثل ما يقتل منهم، واشتد بهم الضر والبلاء والجوع حتى أكلوا الميتة، فاستنجدوا بالشريف الزيدي ثم الرَّسي، أحمد بن سليمان صاحب صعدة، وشرطوا له أن يملكوه عليهم، فقال: «إن قتلتم مولاكم فاتكًا حلفت لكم

ونصرتكم، فوثب عبيد فاتك بن محمد بن فاتك بن جيّاش بن نجاح مولى مرجان، ومرجان مولى أبي عبد الله الحسين بن سلامة، والحسين بن سلامة مولى رشد الزمام، ورشد مولى زياد بن إبراهيم بن أبي الجيش إسحاق بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن زياد ـ فقتلوه في شهور سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، ثم عجز الشريف عن نصرهم على ابن مهدي، ثم كانت بينهم وبين ابن مهدي حروب، وهم يتحصنون بالمدينة إلى أن فتحها في يوم الجمعة رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين، وأقام بها علي بن مهدي بقية شهر رجب وشعبان ورمضان، ومات في شوال من السنة، فكانت مدة ملكه أحد وثمانين يومًا.

ثم انتقل (الملك) بعده إلى ولده «المهدي» ثم إلى ولده «عبد النبي»، ثم إلى ولده «عبد الله»، ثم عاد الأمر إلى عبد النبي والأمر في اليمن بأسره إليه ما عدا عدن، فإن أهلها هادنوه عليها بمال في كل سنة، واجتمع لعبد النبي هذا ملك الجبال والتهايم، وانتقل إليه ملك جميع ملوك اليمن وذخائرها، يقال: إنه حصل في خزائن ابن مهدي ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن.

قال: «وكان ابن مهدي يَتَمَذْهَب بمذهب أبي حنيفة في الفروع، ثم أضاف إلى عقيدته التكفير بالمعاصي، والقتل بها وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة، واستباحة الوطء لنسائهم، واسترقاق ذراريهم، وكان اعتقاد أصحابه فيه أن الواحد من آل مهدي إذا قتل جماعة من عسكره ثم قَدَروا عليه لم يقتلوه دينًا وعقيدة، وإذا غضب ابن مهدي على رجل من أكابرهم وأعيانهم حبس المغضوب عليه نفسه في الشمس، ولم يطعم ولم يشرب ولم يصل إليه ولد ولا زوجة، ولا يقدر أحد أن يشفع فيه حتى يرضى عنه ابتداء من نفسه، ومن طاعتهم له أن كل واحد يحمل ما تغزله زوجته وبناته إلى بيت المال، ويكون ابن مهدي هو الذي يكسوهم هم وأهاليهم من عنده، وليس لأحد من العسكرية فرس يملكه ولا يرتبطه، ولا عدة من سلاح ولا غيرها، بل الخيل في إسطبلاته، والسلاح في خزائنه، فإذا عنّ له أمر دفع من الخيل والسلاح ما يحتاجون إليه، ومن سيرته قتل من انهزم من عسكره ولا سبيل إلى حياته، وقتل من شرب المسكر، ومن سمع الغناء، ومن زنى، وقتلُ من تأخر عن صلاة الجماعة، أو عن مجلس وعظه في يومي الخميس والاثنين، وقتل من تأخر فيهما عن زيارة قبر أبيه، هذه رسومه في العسكرية.

ولم يزل أمره على ذلك حتى اتصل خبره بالسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب(١)، واتصل به أن عبد النبي يزعم أن دولته تطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس، فجهز أخاه الملك المعظم فخر الدين(٢) في شهر رجب سنة تسع وستين وخمسمائة، وملك زبيد، وأسر عبد النبي، وقتله على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار الدولة الأيوبية.

ذكر أخبار ملوك الدولة الأيُوبية باليمن

قد ذكرنا أخبار الدولة الأيوبية بالديار المصرية والشام وبلاد الشرق، فيما تقدم من كتابنا، وأتينا على أخبار ملوكها ملكًا ملكًا، وأشرنا إلى نُبَذٍ يسيرة من أخبار ملوكهم باليمن، ونحن الآن نذكر أخبار ملوكهم ببلاد اليمن بما هو أبسط مما تقدم، لتكون أخبار اليمن سياقة يتلو بعضها بعضًا.

كان من خبر دولتهم باليمن أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ملك الديار المصرية، وأزال الدولة العُبَيْدية كان من جملة من اتصل بخدمته عُمارة اليمني الشاعر(٣)، فذكر له أخبار اليمن قال:

---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب: هو السلطان صلاح الدين، أبو المظفر، يوسف بن أيوب بن شاذي، صاحب الديار المصرية والشامية والفراتية واليمنية، استوزره العاضد الفاطمي، وبعد مرض العاضد، قطع صلاح الدين خطبته وخطب للعباسيين وانتهى بذلك أمر الفاطميين، وهو الذي كسر الصليبيين في معركة حطين، حرر بيت المقدس منهم سنة ٥٨٣هـ، توفي سنة ٥٨٩هـ (انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/ ٣ ـ ٧، الفتح القسّي في الفتح القدسي للعماد الكاتب، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة، الأعلام ٨/ ٢٢٠، ابن خلكان ٧/ ١٣٩ وما بعدها، الجوهر الثمين ٢/ ١٣ وما بعدها).

(٢) هو الملك المعظم توران شاه بن يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المفاخر، فخر الدين، ولد بمصر سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وهو آخر من بقي من إخوته، سمع الحديث بدمشق من محيي الدين الثقفي، وأجازه ابن بري، وكان ذا شجاعة وعقل، وكان مقدم الجيش الحلبي، وهو كان المقدم لما التقوا مع الخوارزمية سنة ٥٣٧هـ، بقرب الفرات، فأُسر يومئذٍ وهو مثخن الجراح، وانهزم عسكره هزيمة قبيحة. توفي سنة ٥٧٦هـ (انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٣) عمارة اليمني الشاعر: هو عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي المذحجي، الفقيه، نجم الدين أبو محمد، الشاعر اليمني الشافعي، المتوفى مصلوبًا بمصر سنة ٥٦٩هـ، من تصانيفه: «ديوان شعره»، «شكاية المتظلم ونكاية المتألم»، «المفيد في أخبار زبيد»، «النكت العصرية في أخبار وزراء المصرية» (كشف الظنون ٥/ ٧٧٩).

في سنة تسع وستين وخمسمائة، توجه إلى مكة شرّفها الله تعالى، ومنها إلى مدينة زبيد، فلما شاهده أهلها انهزموا عن الأسوار إلى المدينة، فلما انتهى العسكر إلى السور وجده خاليًا، فنصب عليه السلاليم، وصعدوا عليها إلى السور، فنال البلد عَنْوة، وذلك في يوم الاثنين التاسع من شوال من السنة، وأسر عبد النبي بن علي مهدي، فسلّمه الملك المعظم إلى الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فاستخرج منه شيئًا كثيرًا، وأظهر دفائن كانت له، ودَلَّتهم الحُرّة على ودائع لها كثيرة. ومات عبد النبي في أسره، وقيل شنقه، وخطب من بعده لأخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

ثم سار من زَبيد إلى ثغر عدن، وصاحبها يومئذ بلال بن جرير المحمدي. نائب آل زريع بها، فخرج إليه وقاتله، فانهزم هو ومن معه، فسبقهم عسكر المعظم إلى الثغر، فدخلوه، وأسر صاحبه، وقصد العسكر نهب البلد، فمنعهم الملك المعظم، وقال: «ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها».

ثم توجه من عدن إلى صنعاء في أول المحرم سنة سبعين وخمسمائة، فملكها، وبنى بها المباني، ثم ملك الحصون والمعاقل منها: قلعة تعز، وهي الدُّمْلُوَة، ورتب النواب في بلاد اليمن: فرتب في زبيد سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وبثغر عدن عز الدين عثمان الزنجيلي، وفي تعز ياقوت التعزي وفي ذي جِبْلة مظفر الدين قايماز، ورتب في كل حصن نائبًا، ولم يعجب الملك المعظم المقام باليمن، ففارقها وعاد إلى أخيه السلطان الملك الناصر إسماعيل إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، وكان وصوله في سنة إحدى وسبعين.

قال: ثم ادّعى كل من النواب المُلك لنفسه، وضرب سكة باسمه، وكان كل واحد لا يتعامل بسكة الآخر، فأما سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ فإنه مرض، وكره المُقام باليمن، فعاد إلى الملك الناصر، واستناب أخاه خطاب بن منقذ بزبيد، وأما مظفر الدين قايماز فإنه ضعف أمره ولم ينقذ بلده.

ولما علم الملك الناصر بفساد الحال، وما وقع باليمن، أرسل الأمير المقدم فارس الدين خطلبا في البحر إلى فخر الدين عثمان الزنجيلي بعدن، فلما وصل إليه قابله بالإجلال والتعظيم، واتفقا على المسير إلى خطاب بن منقذ، وسارا فلقيهما ياقوت التعزي وقايماز، فاصطلحوا وساروا جميعًا إلى خطاب، فلما سمع بذلك خطاب ارتفع إلى حصن قوارير، وأخلى زبيد، ودخل خطلبا زبيد، وملكها في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وكان خطاب يغير في بعض الأوقات على أطراف زبيد، ثم

مرض خطلبا وأشرف على الموت، فراسل خطابًا سرًا، وقال له: أنت أولى بالأمر من عثمان الزنجيلي، فدخل خطاب زبيد مختفيًا، وبلغ ذلك عثمان، فسار بجيشه إلى زبيد فخُذِل، ومات خطلبا، واستمر خطاب بزبيد إلى سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

ولما اتصل ذلك بالملك الناصر بعث أخاه الملك العزيز أبا الفوارس سيف الإسلام طُغْتَكين بن أيوب(١)، ومعه ألف فارس وخمسمائة جبَلي، فتوجه في سنة تسع وسبعين وخمسمائة، ودخل مكة معتمرًا في شهر رمضان، وبها صاحبها الشريف فليتة بن مطاعن الهاشمي، فتلقاه الشريف، وخلع عليه الملك العزيز خلعة سنية قيمتها ألف دينار، وتوجه إلى اليمن قبل الحج، فوصل إلى زبيد في أواخر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، فتلقاه خطاب، فخلع عليه الملك العزيز وعلى عسكره، ودخلا جميعًا زبيد، فأقام معه أيامًا، واستأذنه خطاب في المسير إلى الشام، فأذن له، فأخرج جميع أثقاله وأمواله إلى ظاهر زبيد، فعند ذلك أمر سيف الإسلام بالقبض على خطاب، والاحتياط على أثقاله، وخُنِق بعد ليالٍ بحصن تعز، وأما ياقوت، فسلَّم إليه حصن تعز ومَغْشاره، وأما مظفر الدين قايماز فتغلب على جِبْلة ومخاليفها، وأرسل إليه من أخذه، وأما عثمان الزنجيلي فعمر سفنًا عظيمة وشحن فيها جميع ما يملكه من الصامت والناطق، وتوجه إلى العراق.

وملك سيف الإسلام اليمن كله وَعْرَه وسَهْله، ودخل أماكن ما دخلها أحد قبله بالسيف، وجرت بينه وبين الإمام عبد الله بن حمزة عدة وقائع على صنعاء، وأقام خمس سنين وصنعاء ليست في ملكه.

وفي سنة خمس وثمانين استولى على حصن كَوكَبان ودان له ملك اليمن بكماله، وأزال ملك بني حاتم من صنعاء، وسوَّر زبيد سورًا جديدًا، وسوَّر صنعاء بعد أن أخرب سورها، ورمى النفط في دورها، واستمر في الملك إلى أن مات بالمنصورة بين الجَنَد وجِبْلة في شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، وكان حسن السيرة، إذا تعرض له أحد وهو في موكبه وقف له، ولا ينصرف من مكانه حتى يكشف ظلامته، وكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة، وكان قبل وفاته قد سلطن مملوكه «همام الدين أبو زبَا» وأرسله إلى البلاد العليا، ولما مات ملك بعده ولده.

---

(١) هو الملك العزيز، أبو الفوارس، سيف الإسلام طغتكين بن أيوب بن شاذي، ملك اليمن، توفي سنة ٥٩٣هـ (انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/ ١٥ ـ ١٦).

الملك المُعِزّ فتح الدين أبو الفدا إسماعيل(١)

وكان الملك المُعِزُّ هذا قبل وفاة والده قد غضب على أبيه وفارقه، وأراد اللحاق بأعمامه بالديار المصرية، فأدركته الرجال على النُّجُب بوفاة والده، وهو على ساعد حَرَض فجزّ شعره، ولبس السواد حزنًا على أبيه، وعاد، وملك البلاد وقتل جماعة كثيرة من غلمان أبيه، ثم صعد إلى صنعاء فقبض على «همام الدين أبو زَبَا»، وقتله، وذلك في المحرم سنة أربع وتسعين، وعاد إلى اليمن.

ثم أقام الإمام المنصور الدعوة في سنة أربع وتسعين، وانضم إليه جماعة من عسكر سيف الإسلام، فبلغ ذلك المُعزَّ، فرجع من فوره إلى صنعاء، فوجد الإمام على الحَقل ومعه الأمير جَكَوا في مائتي فارس، فلما تراءى الجمعان انحاز أصحاب جَكَوا إلى المعز، وثبت جَكَوا، وقاتل إلى أن قتل وانهزم الإمام، ودخل المعز صنعاء، وعاد منها إلى زبيد، وبنى المدرسة المعروفة بالمِيْلَيْن، ثم داخلته الخيلاء في عقله، وادعى الخلافة، وانتمى إلى بني أمية، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المُعزّ لدين الله أمير المؤمنين، فكتب إليه أعمامُه ينكرون هذه الدعوى، ثم أخاف مماليك أبيه، فهرب منهم سُنْقُر الأتابِك في طائفة كبيرة من المماليك، وبقي أكثر من معه من الأكراد.

ولما تفاحش أمره بدعوى الخلافة قتله الأكراد على باب زبيد في سنة ثمان وتسعين، ونهب الأكراد زبيد نهبًا شنيعًا، وكانت ولايته ست سنين.

ولما مات أرجع الأتابك سُنْقُر حصون حَجَّة، فوصل إلى تهامة، فتلقاه الأكراد والعساكر، وجعلوه أتابكًا للملك الناصر أيوب بن سيف الإسلام(٢)، وهو يومئذ صغير، وقيل: إن الأكراد لم يمكنوا الأتابك من زبيد، وكان للأتابك عدن، ومخلاف

---

(١) هو إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذي، الملك المعز، شمس الملوك، ابن العزيز صاحب اليمن، كان منهمكًا في اللهو والشرب، طرده والده إلى الحجاز لأمر نقمه عليه، ولما توفي أبوه سنة ثلاث وتسعين كان بالسرين، أرسل إليه جمال الدولة كافور مَن عرّفه بوفاة والده، فحضر وملك اليمن، ثم ادّعى أنه أموي ورام الخلافة، ولبس شارتها، وسمّى نفسه المهدي، وأرسل إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك وينكر فعله، وقيل: ادّعى النبوة، ثم اتفق جماعة من الأكراد وقتلوه سنة ٥٩٨هـ، وقيل: سنة ٥٩٩هـ بالقور من أعمال زبيد، وداروا برأسه زبيد ونهبوها سبعة أيام، وأقاموا أخاه الناصر أيوب (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٧١ ـ ٢٧٢، وانظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢/ ٥٢٤، مفرج الكروب ٣/ ١٣٦، السلوك ١/ ١٥٩، العبر ٤/ ٣٠١، بلوغ المرام ص٤١، النجوم الزاهرة ٦/ ١٨١، الذيل على الروضتين وفيات سنة ٥٩٩هـ، شذرات الذهب ٤/ ٣٣٤).

(٢) توفي سنة ٦١١هـ (انظر البداية والنهاية ١٣/ ٦٩).

جعفر، ومخلاف تعز، وصنعاء وأعمالها، ونائبه فيها وفي حرب الإمام المنصور علم الدين وَرْد سار، ونزل الأتابك إلى تهامة، فقتل الأكراد قتلاً ذريعًا بقرية الزّربيّة، وهزمهم إلى زبيد، ودخلها الأتابك، وأمر بغلق مدرسة المعز، وأخرج الفقهاء الشافعية منها، وأخرج وقفها، وبنى مدرسة كبيرة بزبيد تعرف الآن بمدرسة ابن دُحمان وبنى بالدمْلُوة قناطر ومباني، واستقامت أحوال الأتابك إلى سنة ثمان وستمائة، فمات بحصن تعز، والأتابك هو والد بنت جورا.

واستقل الملك الناصر أيوب بالأمر، ووزر له غازي بن جبريل، وطلع إلى صنعاء في جيوش عظيمة، فلما استقر بها سمَّه أستاذ داره غازي بن جبريل في المحرم سنة إحدى عشرة وستمائة، واستقل بالملك، وخطب له، وضربت السكة باسمه، فلما صار بالسّحُول وثب عليه مماليك الملك الناصر فقتلوه، ورجع الإمام المنصور إلى صنعاء بعد أن كان المالك الناصر أخرجه منها.

ثم وصل سليمان بن موسى الحَمْزي إلى ذمار بعسكر جرّار، فمر على طريق بني حبيش، فغزا لَحْجًا، فأخذها، وأقام بالرَّعارع أيامًا، وعاد فافتقر أهل اليمن إلى سلطان فوجدوا:

سليمان بن شاهنْشاه بن تقي الدين عمر بن شاهَنْشاه بن أيوب[(١)]

وكان قد تَجَرّد وخرج في زي الصوفية، فوصل إلى اليمن، وأهله على هذه الحال، فملكوه عليهم، وأطلعوه حصن تعز، وذلك في أواخر سنة إحدى عشرة وستمائة، وتزوج بأم الملك الناصر، وكانت أموره ضعيفة.

ذكر مُلْك المَلِك المسعود صلاح الدين أتْسر

هو أقْسيس بن السلطان الملك الكامل بن السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب[(٢)].

(١) قال في البداية والنهاية ٦٩/١٣: ولما مات صاحب اليمن تلاها سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق الأمراء عليه، فأرسل العادل إلى ابنه الكامل أن يرسل إليها ولده أضسيس، فأرسله فتملكها فظلم بها وفتك وغشم، وقتل من الأشراف نحوًا من ثمانمائة، وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقًا وأقلهم حياءً ودينًا، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتتكره القلوب.

(٢) هو أخسس كما في البداية والنهاية، انظر الحاشية السابقة.

كان من خبر ملكه اليمن أنه لما اتصل خبر اليمن بالسلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد، وكان ينوب عن والده السلطان الملك العادل بالديار المصرية، جهز ابنه الملك المسعود المذكور إلى اليمن في سنة إحدى عشرة وستمائة، فرحل من بركة الجُبِّ ظاهر القاهرة في يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان، ومعه ألف فارس، ومن الجاندارية والرماة خمسمائة، فتوجه إلى مكة شرّفها الله تعالى، وحجّ، ثم توجه إلى اليمن، فكان دخوله إلى زبيد في مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة وستمائة، فملكها من غير قتال، وندب قطعةً من العسكر لحصار تعز، وكان سليمان قد تحصّن بها، ففتح الحصن في ثالث صفر من السنة، وقبض على سليمان واعتقله، ثم جهزه إلى الديار المصرية هو وزوجته، وتزوج الملك المسعود بنت جوزا وشغف بها، وكانت صنعاء في يد الإمام المنصور، فخرج منها في شهر ربيع، ودخلها الأتابك فُلَيت بطائفة من العسكر المسعودي في مستهل جمادى الأولى، ونزل الإمام بموضع يسمى الليطة، وقامت الفتنة بينهما، وكانت بينهم وبين عز الدين محمد ـ ولد الإمام ـ وقائع كثيرة.

ثم مات الإمام بكوكبان في المحرم سنة أربع عشرة وستمائة، فدفن ثم نقل إلى مشهده بظفار، وتوفي الأتابك فُلَيت بعده بصنعاء في شهر ربيع الأول من السنة.

ثم وقع الصلح بين الملك مسعود وبين عز الدين بن الإمام على تسليم كوكبان، فسلمه، ولحق عز الدين ببلاده، وتسلم الملك مسعود حصن بِراش صنعاء في جمادى الآخرة، وعاد إلى اليمن في شهر رجب، وعاد إلى صنعاء في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة، وعاد إلى اليمن في شهر ربيع الآخر، ثم عاد إلى صنعاء مرة ثالثة في شهر رمضان من السنة، وعاد عنها، ورجع إليها مرة رابعة في شهر رجب سنة سبع عشرة، فحط على حصن بُكُر، وهو بيد عماد الدين يحيى بن حمزة، وبه من أولاد الإمام وأمهات أولاده طائفة، فأقام عليه تسعة أشهر، وأنفق أموالاً جليلة، فجمع عز الدين جموعًا كثيرة، وقصد تهامة، فخالف عليه علم الدين سليمان بن موسى الحمزوي، ووصل إلى محطة بُكُر، فتلقاه الملك المسعود وأكرمه، وأعطاه العطايا الجليلة، وجهز معه جيشًا لحرب عز الدين، فكانت بينهما حروب عظيمة، وتسلم الملك المسعود حصن بُكُر في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة وستمائة، وسار إلى مكة لقتال الشريف حسن بن قتادة، فدخلها بالسيف في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة، وعاد إلى اليمن، ثم فارق تعز في شهر رمضان سنة عشرين وستمائة، وتوجه إلى الديار المصرية لخدمة والده السلطان الملك الكامل، واستناب باليمن الأمير

نور الدين عمر بن علي بن رسول، وهو أتابك عسكره، ووصل إلى الديار المصرية في سنة إحدى وعشرين وستمائة كما ذكرنا، ولما فارق اليمن أقام مُرغم الصوفي فتنةً في الحَقْل وبلاد زبيد، فسار إليه عسكر من جهة الأمير نور الدين النائب، عليه راشد بن مظفر بن الهَرِش، فهزمهم مُرغم، وقتل راشد، وذلك في سنة اثنتين وعشرين، وكانت وقعة عُصْر بين الأمير بدر الدين حسن بن علي بن رسول، وهو مُقْطَع صنعاء وأعمالها، وبين عز الدين بن الإمام بعد العصر في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وعشرين.

ثم عاد الملك المسعود من الديار المصرية في سنة أربع وعشرين وستمائة، وقبض على بدر الدين حسن بن علي بن رسول وإخوته في سنة ست وعشرين، وسَيَّرهم مُقَيَّدين إلى مصر، ثم توجه إلى الديار المصرية في سنة ست وعشرين، واستناب نور الدين عمر بن علي بن رسول، فمات الملك بمكة شرّفها الله تعالى في ثالِث عشر جمادى الأولى من السنة، كما ذكرنا في أخبار والده الملك الكامل. ثم كانت الدولة الرسولية.

ذكر أخبار الدولة الرسولية ببلاد اليمن

أول من ملك منهم الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول بن هارون بن أبي الفتح بن نوحي من ولد جَبَلة بن الأيهم كما زعموا، وذلك أنه كان ينوب عن الملك المسعود، كما ذكرنا، فلما مات بمكة استولى على زبيد والأعمال التِّهامية في سنة ست وعشرين وستمائة، وتلقب بالملك المنصور، وتزوج زوجة الملك المسعود، وهي بنت جوزا، وأقام بزبيد حتى قرر قواعدها، وسار منها إلى حصن تَعِزّ وتسلم التَّعْكُر في سنة سبع وعشرين، ثم استولى في السنة على الأعمال الصنعانية. فأقطعها ابن أخيه الأمير أسد الدين محمد بن بدر الدين، وتسلّم حصني بيت عِز وحَبّ في سنة ثمان وعشرين وستمائة.

وفيها طلع إلى صنعاء، وحصل الصلح بينه وبين الأمير شمس الدين بن الإمام، وعمه عماد الدين يحيى بن حمزة، وعقدوا صلحًا عامًا بينهم، وطلع المنصور صنعاء مرة أخرى في سنة تسع وعشرين، وتسلم حصني بُكُر وكوكبان، وحصن بِراش، واستولى على بلد علوان بن عبد الله بن سعيد الجُحْدَري وحصونه في سنة ثلاثين، وتسلم حصون حَجَّة والمخلافة، ومخلافيهما في سنة أربع وثلاثين، وهي من حصون الإمام، ثم أعادهما عليه، وتم الصلح بينهما، ثم طلع المنصور مرة ثالثة إلى صنعاء

في سنة سبع وثلاثين، وتسلم حصن الكميم، وأتاه وهو بصنعاء خبر مقتل نجم الدين بن أبي زكرى بحضرموت، وتسلم جبل حُفاش، وهو من معاقل اليمن المشهورة في سنة إحدى وأربعين، واستولى على جبال العوادر وحصونهم في سنة خمس وأربعين، وكانت بينه وبين الإمام أحمد بن الحسين القاسمي الحسني في سنة ست وأربعين حروب وعاد إلى صنعاء في شهر رمضان سنة ست وأربعين، ورجع منها في شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين، فلما استقر بمستقر ملكه، ونزل قصر الجَنَد، وَثَبَتْ عليه جماعة من مماليكه فقتلوه وذلك في سنة سبع وأربعين وستمائة باتفاق من أسد الدين محمد، وفخر الدين أبي بكر ولدي أخيه بدر الدين حسن، وكان سبب ذلك أن أسد الدين استشعر من عمه أنه يقصد أخذ صنعاء منه، ويقطعها لابنه الملك المظفر يوسف، فكره ذلك، وباطن مماليك عمه ووعدهم، وحسَّن لهم قتله، فقتلوه، وكان ملكًا حازمًا كريمًا سريع النهضة حسن السياسة.

ومن جملة سياسته ودهائه أنه لما ملك اليمن، جَهَّز الملكُ الكامل إليه أسد الدين جفريل وصحبته ألفي فارس، فلما اتصل به ذلك كتب أجوبة عن كتب الأمراء الذين كانوا مع الأسد جفريل، وتَحيَّل في وصولها إلى الأسد جفريل، فلما ظفر بها وقرأها ظن أنها حقيقة، وأن العسكر قد فسدت نياتهم، فرجع بالعسكر قبل وصوله إلى مكة، والتحق بالمنصور من العسكر الكاملي من أمراء الطبلخاناه ابن برطاس وفيروز.

وملك بعد المنصور ولده الملك:

المُظَفَّر أبو المنصور شمس الدين يوسف

وهو الثاني من ملوكهم، وذلك أنه لما قُتل والده كان الملك المظفر بإقطاعه بالمَهْجَم، وكانت المماليك المنصورية لما قتلوا الملك المنصور بالجَنَد أقاموا الأمير فخر الدين أبا بكر بن بدر الدين حسن بن علي، ولقبوه بالملك المعظم، وساروا به نحو تهامة، وكانت الشمسية ابنة الملك المنصور بزبيد وزمام دارها الطواشي تاج الدين بدر الصغير في السجن، فحين بلغها قتل والدها أخرجت الخادم، واستولت على المدينة، وحفظتها، فجاء فخر الدين والمماليك، فوجد المدينة قد حفظت، فنزل على باب المجرى.

أما الملك المظفر فإنه لما بلغه قتل والده سار من المَهْجم بمن معه، وكان كلما مر بقوم من العرب استصحبهم معه، فارسهم وراجلهم، حتى نزل بالأقواز، فراسل مماليك والده ووعدهم، وكان من جملة رسالته لهم: «لا تجمعوا علينا بين قتل أبينا

وخروج المُلك منا» فأجابوه، ودخلوا على فخر المعظم وهو في خيمته، فكتفوه بطنب من أطناب الخيمة، وساروا بأجمعهم إلى ابن مولاهم الملك المظفر يوسف، فقبض على فخر الدين، ودخل زبيد في موكب عظيم، واستولى عليها وعلى الأعمال التهامية، ثم سار في سنة ثمان وأربعين إلى عَدَن فاستولى عليها وعلى لَحْج وأَبْيَنَ في صفر من السنة، وطلع الجبال، فاستولى على بلد المَعافر وحصونها في الشهر أيضًا، وحَطّ على تعز، وبه الخدام والأمير علم الدين سنجر الشعبي في ربيع الأول، وتسَلّمه في جمادى الأولى، وتَسلّم حصن حَبّ، وطلع صنعاء في ذي الحجة آخر السنة.

وكان الأمير شمس الدين بن الإمام اتفق هو والإمام أحمد بن الحسين وقصدا أسد الدين بصنعاء فأخرجاه منها إلى حصن براش، وقابلته عساكر الأشراف بالمدْرَج، فكانت هناك وقائع مشهورة، فلما قرب السلطان من صنعاء، خرج منها الإمام إلى سناع، وترك الحسن بن وهاس الحمزي رتبه في صفوة فقصده الأمير أسد الدين بعساكر المظفر فأسره وطائفة من أصحابه، وعاد الملك المظفر إلى اليمن فاستولى على حصن التَّعْكُر سنة تسع وأربعين وستمائة ووصل الأمير بدر الدين حسن بن علي بن رسول من الديار المصرية في سلخ المحرم سنة تسع، فلقيه إلى حيس، وقبض عليه، وحمله إلى حصن تعز، فأودعه دار الأدب، وبها ولده فخر الدين.

ثم اتفق الأمير أسد الدين هو والإمام أحمد بن الحسين في سنة خمسين، ودخل أسد الدين في طاعته، وباع عليه حصن بَراش صنعاء بمائتي ألف درهم، وسيّره بعساكره وعساكر من قبله عليهم الشريف هبة الله بن الفضل العَلَوي إلى ذمار، واستولى الطواشي المُظَفَّري على حصن الدُّمْلُوة وهو بيد بنت جوزا، وكانت فيه هي وولداها الفائز والمفضَّل، وخدامها، ومعها أربعمائة فارس، وكان الملك المظفر قد هادنها، ورهن ولده الأشرف عندها، ومعه مولاه الخادم ياقوت، وكان خادمًا حازمًا، فغافل أهل الحصن، ثم أمر من قال لها: «إن البقرة الفلانية ولدت عجلاً برأسين بالجوة»، فنزلت لتنظر إلى ذلك، فتسلم الحصن في تاسع عشر ذي القعدة سنة خمسين، وأوقد النار بأعلاه، وكانت هذه إشارة بينه وبين مولاه الملك المظفر، فركب المظفر من فوره وطَلع إلى الحصن، وسيّر الطواشي تاج الدين بدر إلى ذمار، ففرّ عنها أسد الدين وهبة بن الفضل، ثم عاد أسد الدين إلى طاعة السلطان، فأكرمه السلطان، وأمدّه بالعساكر، فعاد إلى صنعاء، فخرج منها الإمام، وطلع الملك المظفر إلى صنعاء، ثم عاد في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وستمائة، واختلف الأمير شمس الدين الإمام وأصحابه، فاستنصروا بالمظفر، وأمر أسد الدين بمساعدتهم،

فخرج إليهم إلى البيون، وتسلم المظفر حصن براقش والزاهر، وسار شمس الدين وأسد الدين إلى صعدة إلى الإمام، فخرج منها وترك بها السيد الحسن بن وهاش، فدخلا عليه قهرًا بالسيف فأسراه وعاد أسد الدين إلى صنعاء وشمس الدين إلى الظاهر، ثم اجتمعا وقصدا الإمام بالظرف من بلد ابن شاور، فالتقوا بِحِلَمْلِم فانكسر الإمام، وقتل من عسكره طائفة، وأسر شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة، وكان بعسكره مع الإمام، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين.

وجهز المُظَفَّرُ مُبارزَ الدين بن برطاس إلى مكة في شوال من السنة، فجرت الوقعة المشهورة بينه وبين الشريف ابن أبي نمي، وإدريس بن قتادة، فكانت الدائرة عليه، فانهزم، وقتل بعض عسكره، وأخذ ما كان معه.

قال: «ولما ضعف الأمير شمس الدين بن الإمام عن مناوأة الإمام أحمد بن الحسين قصد الملك المظفر بزبيد، فأكرمه المظفر، وأعطاه أموالاً جزيلة، وأقطعه مدينة القَحْمَة، وذلك في شوال سنة اثنتين وخمسين، فعاد وسكن بصنعاء.

ثم اختلف الزيدية على الإمام، وطعنوا عليه في شيء من سيرته، وكان بينهم اختلاف وحروب، قتل فيها الإمام أحمد بن الحسين، ووقع الخلاف بين الملك المظفر وبين عمه أسد الدين، فأخرجه من صنعاء، فتوجه إلى ظَفَار.

ولما قتل الإمام أحمد بن الحسين طلع شمس الدين علي بن يحيى، فحطّ على الكُمَيم بعسكره المظفر، فتسلم المظفر حصن أشْيَح في ذي الحجة سنة ست وخمسين، وتسلم الكُمَيْم وهَدَاد في سنة سبع، وطلع نحو رُدَاع، فأخذ بَراش العرش بالسيف، وأسر منه ولد أسد الدين في جماعة كثيرة، وقصد الملك المظفر صنعاء ودخلها في المحرم سنة ثمان وخمسين، وقد خرج منها أسد الدين، فأقام المظفر بصنعاء أيامًا، ورتب بها جيشًا، وعاد إلى اليمن، فجمع أسد الدين جيشًا، وكانت له حروب مع عسكر صنعاء، فجهز الملك المظفر الأمير علم الدين سَنْجر الشعبي إلى صنعاء، فارتحل أسد الدين، ولحق ببلاد الأشراف، ولم تقم له بعد ذلك راية، ثم حصل له ضرر شديد، حتى باع ثيابه، فاضطر إلى مكاتبة المظفر وكتب إليه:

«فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلٍ وإلا فأدركني ولما أُمَزَّق»[(١)]

---

(١) البيت من الطويل، وهو للممزّق العبدي (شأس بن نهار) في الأصمعيات ص١٦٦، ولسان العرب (مزق) (أكل).

ثم سار إلى زبيد في شوال سنة ثمان وخمسين، فقبض عليه وعلى شمس الدين بن علي بن يحيى وأرسلهما إلى تعز، واجتمع أسد الدين بها بابنه وأخيه في حبس المظفر، وكان أسد الدين في حبسه إلى أن مات في ثالث عشر ذي الحجة سنة سبع وسبعين وستمائة.

وفي سنة تسع وخمسين في رجب تسلّم الملك المظفر حصن براش صنعاء من الشريف أحمد بن محمد وعوضه عنه بالمَصْنَعة وعِزَّان ببلاد حمير، وبمال أعطاه إياه، ثم استعادهما في سنة أربع وستين، وعَوَّضه حصن اللحام ومال.

وفي شوال سنة تسع وخمسين طلع الأمير علم الدين سَنْجَر الشَّعبي إلى صنعاء مُقْطَعًا لهما، وفيها في شوال أيضًا توجه الملك المظفر لقصد الحج، فحج، وعاد في صفر سنة ستين.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة تسلم المظفر حصن الجاهلي وحَجَّه وسَراة من الشريف أحمد بن قاسم القاسمي بمال.

وفي سنة اثنين وستين تسلم حصن مُدَع من بني وهيب، وعوضهم حصن بيت أنعم ودراهم اشترطوها، وفيها دخلت عساكره صعدة.

وفي سنة ثلاث وستين قبض على محمد بن الوشّاح الشهابي، وقبض على حصون بيت بُرام وصوايب، وفيها في شعبان تسلم حصن ذي مَرْمر وبعده الفص الكبير، وفي جمادى الآخرة سنة أربع وستين تسلم الشعبي حصن ونعان وهو للأمير شجاع الدين يحيى بن الحسن.

وفيها تسلم المظفر حصن الفَصّ الصغير، وفيها تسلم حصن بيت ردم وحصن اللحام بالابتياع من الأشراف أولاد سليمان بن موسى.

وفيها توجه بَكْتُمر الغلاب بعسكر المظفر لعمارة الزاهر في الجوف فقصده الأشراف الحمزيون، فقتلوه في بعض عسكره، وانحاز من سلم إلى براش. وفيها تسلم الملك المظفر حصن مَبْيَن بحَجَّة وتسلم المُوقَّر وحصونه والمخلافة من الشريف أحمد بن قاسم القاسمي، وأعطاه مالاً جزيلاً.

وفي المحرم سنة ست وستين تسلم حصن العرايس وبلادها من عُلوان الجُحْدُري.

وفي سنة سبع وستين تسلم حصن براش صعدة من عز الدين محمد بن شمس الدين، وكان في سجنه، ففدى نفسه به.

وفيها كان بين جيوش المُظَفَّر وبين الأشراف اختلاف وحروب استمرت إلى سنة اثنتين وسبعين، ثم صالحهم واستقر كل منهم ببلده.

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة كان باليمن قحط شديد، ومات خلق كثير، وأكل من عاش الميتة.

وفي سنة أربع وسبعين توجه الأمير علم سنجر الشعبي إلى مخلاف ذمار لقبض الحقوق، وترك الأسدية بصنعاء مع ابن الغلاب، ومعه منهم رجل، فوقع بينه وبين مملوكه المعروف بالداوي خصومة على شراب، فقتله الداوي، فلما بلغ ذلك الأسدية استولوا على صنعاء، وقبضوا ما وجدوه للشعبي، وذلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر، وكاتبوا الأشراف بالوصول إليهم، فوصل إليهم الشريف علي بن عبد الله يوم السبت التاسع والعشرين بسبعة آلاف رجل، فسكن القصر، وجاء الإمام والأمير صارم الدين داود، وعز الدين، وسار الأشراف في خامس جمادى الأولى، فأقاموا بصنعاء إلى نصف الشهر، وخرجوا متوجهين نحو ذمار لقصد الشعبي، وظنوا أن الملك المظفر لا يبادر بالحضور، فلما وصلوا جَهْران أتاهم الخبر بطلوعه، فهمُّوا بالرجوع واستقبحوه، فانحازوا إلى أَفَق، وسار إليهم المظفر، والتقوا في يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى، فانهزم الأشراف بعد قتال يسير وكان الإمام منحازًا في الحصن، فقبضت عليه العساكر، وأُحْضِر إلى المظفر، فأكرمه وآنسه وأركبه بغلة، وكان يسايره حتى دخل حصن تعز، ودعا الإمام المطهر إلى نفسه.

ثم كانت بين الأشراف وبين الأمير علم الدين الشعبي حروب، وانتصر عليهم فيها، فصالحوه على تسليم الحصون الحَضُورية، وتسليم رَذْمان، وعلى خروج من فيها من الأشراف.

ذكر استيلاء المظفر على ظَفار وحَضْرَمَوْت ومدينة شِبام

كان سبب ذلك أن شواني[١] سالم بن إدريس الحَبُوظِي أغارت على ثغر عَدَن، فعظم ذلك على المظفر، ونزل إلى ثغر عدن، وجهز الجيوش في البر والبحر، وسارت ثلاث قطع: قطعة في البحر، وهم معظم الرَّجَّالة ومعهم الأزواد، وقطعة فيها أربعمائة فارس مع شمس الدين أُزْدمَرَ المظفري أستاذ الدار وطريقهم على الساحل

(١) الشواني: جمع شينية وشونة: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (القاموس المحيط ٤/ ٢٤٣، مصطلحات صبح الأعشى ص٢٠٧).

معارضين لسفنهم، والقطعة الثالثة فيها الشيخان عبد الله بن عمرو الجند، وشهوان بن منصور العبيدي وهم مائتا فارس من فرسان العرب وطريقهم حضرموت، فالتقت العساكر الثلاثة قريبًا من ظَفار، وقصدوا سالمًا، فلما قاربوا المدينة خرج إليهم سالم، وصَفَّ لهم، والتقوا، فأجلَت المعركة عن قتله في جماعة كثيرة من عسكره، وذلك في يوم السبت السابع والعشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، ودخلت أعلام المظفر المدينة في الثامن والعشرين، ودخل شمس الدين أزدمر والعساكر في سلخ الشهر، وخطب للمظفر بها، ورتب بها أزدمر سُنقر البرنجلي، والخادم ألتوزيري، وعاد إلى اليمن، وتسلم حضرموتُ ومدينة شبام، واستعاد المظفر حصن كَوْكَبان من الحواليِّين بحصن رَذْمان، ومالٍ يسير، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة.

وفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة في الثامن عشر من شهر ربيع الآخر سقط القصر بصنعاء على مُقْطَعها الأمير علم الدين سَنْجَر الشعبي، فمات ومات معه تحت الهدم الأمير علي بن حاتم وصهره محمد بن الجحافي وجماعة من مماليكه وكتّابه، وأقطع الملك المظفر صنعاء لولده الملك الواثق نور الدين إبراهيم، فطلع إليها، ودخلها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، وتسلم حصن براش صنعاء، وقبض على الأمير سيف الدين بَلَبان الدوادار العلمي، واستمرت صنعاء في إقطاع الواثق إلى أن أخرجها الملك المظفر عنه لولده الملك الأشرف في سنة ست وثمانين وستمائة، ثم أقطعها هي وأعمالها لولده الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود[1] في سنة سبع وثمانين فدخلها في رابع عشر ذي القعدة.

وفي صفر سنة تسع وثمانين توفي الأمير صارم الدين داود بن الإمام، وكانت له فيما تقدم حروب وخلاف وطاعة للملك المظفر يطول بذكرها الشرح، وقام مقامه بعده ابن أخيه الأمير همام الدين سليمان بن القاسم، وملك حصون ظفار، فقبض تَلُمُّص صَعْدَة.

وكان سبب استيلائه على ذلك أن الملك المُظَفّر نزل إلى زبيد ليَخْتِن أولاد أولاده، ونزل بسبب ذلك الملك المؤيد، والشريف علي بن عبد الله، والأمير

---

(١) هزبر الدين داود: هو داود بن يوسف بن عمر بن رسول التركماني، ولي اليمن بعد وفاة أخيه الملك الأشرف سنة ٦٩٦هـ، وتوفي سنة ٧٢١هـ (انظر ترجمته في شذرات الذهب ٦/ ٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٤٢٨).

نجم الدين موسى بن أحمد بن الإمام، فخلت تلك النواحي منهم، فاستولى على ذلك، وكان بسبب ذلك حرب بين المؤيد والأشراف، انتصر فيها المؤيد، واستولى على تَنْعُم في سنة تسعين وستمائة، وأخْرَبها وعاد إلى صنعاء وأقطع الملك المُظَفّر ولده الملك الواثق ظفار الحَبُوظي، فركب البحر من عدن في سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

وفي السنة المذكورة خالف الأشراف، واجتمعت كلمتهم على الخلاف، وكان بينهم وبين المؤيد بصنعاء حرب إلى سنة أربع وتسعين، فنزل المؤيد من صنعاء إلى اليمن، وطلع الملك الأشرف إلى صنعاء للصلح، ودخل إليه الشريف علي بن عبد الله، وانعقد الصلح العام، وذلك أول المحرم من السنة.

ثم نزل الملك الأشرف من صنعاء إلى اليمن، فقلده والده الملك المُظَفّر المملكة بإقليم اليمن جميعه، وأسكنه حصن تعز، وأقام هو بثُعَبات، وتوجه الملك المؤيد إلى جهة المشرق ـ الشِّحر وحَضْرَمَوت ـ وفي نفسه ما فيها من تخصيص الأشرف بالأمر، وسارت معه عمته الشمسية.

ذكر وفاة الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ومُلْك ولده الأشرف

كانت وفاته آخر نهار الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان سنة أربع وتسعين وستمائة وهو ابن أربع وسبعين سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات تقريبًا، ومدة ملكه ستة وأربعون سنة وعشرة أشهر وأحد عشر يومًا، وكان ملكًا جوادًا كريمًا كثير البذل للأموال في الحروب خاصة، حسن السياسة، وكان له من الأولاد خمسة، هم: الملك الأشرف مُمَهِّد الدين عمر، والملك المُؤَيَّد هِزَبْرُ الدين داود، والملك الواثق نور الدين إبراهيم، والملك المسعود تاج الدين حسن، والملك المنصور زَنْدُ الدين أيوب، ولما مات ملك بعده ولده.

الملك الأشرف مُمَهِّد الدين عمر

ولما اتصل خبر ملكه بأخيه الملك المُؤَيَّد أقبل من الشِّحْر لطلب الملك، ولما قرب من اليمن وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره التقدم إلى جهة اليمن، وعرض عليه حصن السَّمَدان، وكان بيد المنصور، ولم يقع بينه وبين أخيه الأشرف اتفاق، فمال إلى المؤيد، ثم وصله كتاب الوزير موفق الدين علي بن محمد

يخبره أن الملك الأشرف أرسل إليه نفرين من الفِداويّة، وأوصاه أن يحترز على نفسه، فعند ذلك جهز حريمه وأثقاله إلى السَّمَدان، وتوجه إلى عدن، فاستولى عليها في مدة ثلاثة عشر يومًا، وكان النائب بثغر عَدَن الأمير سيف الدين بن برطاس.

ولما اتصل الخبر بالملك الأشرف جهز ولده الملك الناصر جلال الدين في ثلاثمائة فارس، وألحقه بجيوش صنعاء منهم الأمير الشريف جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي، وولدا أزدمر: نجم الدين وبدر الدين، ومع المؤيد ولداه المُظَفّر والظافر، وعسكره الذي وصل معه من الشِّحْر، وجماعة من الجحافل مقدمهم عمر بن سهل، فالتقوا فيما بين تعز وعدن بمكان يسمى الدُّعَيْس. وذلك في آخر المحرم سنة خمس وتسعين، فحمل المؤيد على جيش الأشرف، فضعضعه، ثم خذله الجحافل، وتفرقوا عنه، وبقي في نفر يسير، فتقدم إليه الملك الناصر جلال الدين بن الملك الأشرف، وألان له القول، وأشار عليه في الدخول في الطاعة، وحذره عاقبة المخالفة، فمال إلى ذلك، ورجع إلى الطاعة، فأراد الناصر أن يتوجه به إلى والده على حالته، فامتنع الشريف جمال الدين علي بن عبد الله الحمزي وقال: أمر هذا الجيش إليّ وقيد المؤيد، وحمله إلى الملك الأشرف، ووصل إليه وهو بالجُوَّه، وهو تحت حصن الدُّمْلُوَة، فنقله إلى الحصن، واعتقله ببعض القاعات، فاستمر في الاعتقال إلى أن مات الملك الأشرف، وكانت وفاته لسبع خلون من المحرم سنة ست وتسعين وستمائة والله أعلم.

ذكر مُلْك الملك المُؤَيّد هِزَبْرُ الدين داود

وهو ابن الملك المُظَفّر شمسِ الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عُمَر بن علي بن رسول.

ملك في ليلة وفاة أخيه الملك الأشرف لسبع خلون من المحرم سنة ست وتسعين وستمائة، وذلك أنه لما مات الأشرف كان ولداه: الملك الناصر بالقَحْمَة، والملك العادل صلاح الدين بصَنْعاء، فنهضت عمته الشمسية في أمره، واستمالت الخُدّام ومَن بالحصن، فامتثلوا أمرها، وحضر الخدام إلى الملك فظن أنهم يقصدون قتله، فأخبروه بوفاة أخيه الملك الأشرف، وأخرجوه من الدار التي هو معتقل بها إلى دار السلطنة، فلما شاهد أخاه ميتًا سكن روعه عند ذلك، وأصبح الحراس، فأعلنوا بالترحُّم على الملك الأشرف، والدعاء والصياح للملك المُؤَيَّد، وكانت حاشية الملك المؤيد قد تفرّقوا، فأعلن المنادي من رأس الحصن بجمعهم من تلك الليلة، فاجتمعوا

من خادم ومملوك، وغلام، وحُمِلوا في المَكاتِل والحبال، فلما وثق بمن اجتمع له من حاشيته وغلمانه أمر بفتح أبواب الحصن، فكان أول من صعد إلى الحصن، الصاحب حسام الدين حسان بن محمد العِمْراني، وزير أخيه الملك الأشرف، فاجتمع بالمؤيد، وحلف له الأيمان المؤكدة، واستحلف له الأمراء والجند وأعيان الدولة، وأمر بتجهيز الملك الأشرف وأُخْرِج من الحصن في تابوته، وأمامه ولدا المؤيد المظفر والظافر، وأعيان الدولة، ودفن بمدرسته التي أنشأها بمُغْرِبة تَعِز، وأنشأ تاج الدين بن الموصلي في ذلك اليوم الكتب عن المؤيَّد إلى بلاد التّهايم، وبلاد الجبال بأجمعها، وإلى جهة صنعاء والأشراف يُعْلِمُهم أمر سلطنة المؤيد، فدخل الناس في الطاعة، وأتته كتب الأشراف ورسلها بالتهنئة بالملك، وعقد الصلح، وكانوا عقيب موت الأشرف استولوا على عدة حصون وعلى صَعْدَة فوقع الصلح، وأعيدت الحصون.

وكان حصن الدُّمْلُوَة بيد الطواشي «فاخر الأشرفي» قد ولاه إياه الملك الأشرف، ونقل إليه ذخائره التي كانت بالتَّعْكُر، وأربعًا من بناته، فراسله الملك المؤيد مرارًا، فامتنع فاخر من تسليم الحصن، فجهز إليه المؤيد الأمير شمس الدين الطُّنْبا «أمير جانْدار» بالعسكر، فحاصروه، فلم يتمكنوا منه، وامتنع الخادم من تسليمه إلا أن تصل إليه كتب أولاد مولاه الناصر والعادل، فكتب المؤيد إليهما في ذلك، فكتبا إلى الخادم وأمراه بالتسليم، فامتنع من قبول الكتب، وقال: لا أقبلها حتى يأتيني ثُقَتَيْهما، فثقة الناصر خادمه مِسْك، وثقة العادل أنيس، فأرسل الملكان خادميهما إليه بالرسالة، فاشترط فاخر أن ينزل بجميع المال الذي طلع به من التَّعْكُر، فأجابه المؤيد إلى ذلك، فنزل ببنات مولاه الأربع، وبما كان عنده، واقتسمه الورثة الأشرفية، ولم يكن فيه نقد غير الأقمشة النفيسة، وتسلم نواب الملك المؤيد حصن الدملوة في السنة المذكورة، وزوج المؤيد ولديه الظافر والمظفر باثنتين من بنات عمهما الأشرف، واستمر الوزير حسام الدين بالوزارة، وفي خاطر المؤيد منه ومن أخوته ما فيه.

ثم استوزر الصاحب مُوَفَّق الدين علي بن محمد في جمادى الأولى سنة ست وتسعين وستمائة، وتمكن منه تمكنًا عظيمًا، وكان بين الملك المؤيد وبين الفقيه رضي الدين محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر اليحيوي صحبة متأكدة، ومودة قديمة، وكان من الصلحاء العلماء الفضلاء، فكره وزارة أخيه، فلم يجتمع به منذ وَزَر.

ثم قبض الملك المؤيد على جماعة من الأمراء، وهم: نجم الدين وبدر الدين ولدا أزدَمُر، وابن الهكاري، وقبض بعدهما على الطُّنْبا أمير جاندر، ونقلهم إلى حصن الدملوة، واعتقلهم بمكان يعرف بدار الأدب.

ثم قبض على الوزراء العِمْرانيين: حسام الدين حسان، وأخوته، لأمور بلغته عنهم، وأحضرهم قبل القبض عليهم، وقال لهم: «أنتم قضاة القضاة وبأيديكم أموال الأيتام ودفاترها وحساب الأوقاف». فقالوا: «لا نعلم شيئًا منها»، فراجعهم مرارًا، فأصرُّوا على الإنكار، فأمر بهجم منازلهم، فوجد بها عدة صناديق فارغة، فسئلوا عما كان فيها، فقالوا: أثاث، ولم يقرُّوا بشيء، وأمر بهم إلى عدن، وبُنِيَ لهم سجن مفرد على باب دار الولاية فحُبِسوا به، وأمر بقبض أملاكهم لبيت المال. فقبضت، وكانت كثيرة.

ذكر وصول أولاد الملك الأشرف إلى عمِّهما الملك المؤيد، ونزولهما عما بأيديهما

قال: ووصل الملك الناصر جلال الدين محمد، وكان مُقْطَعًا بالقحمة، ثم وصل إليه أخوه الملك العادل صلاح الدين، وكان بصنعاء فأكرمهما، وأحسن إليهما، وعرض عليهما أن يستمرا على إقطاعيهما، فاستعفيا من الخدمة، وقالا: «لا نحب الخدمة بعد أبينا، ولكنا نكون في ظلِّ أسياف السلطان» وحَلِفا له على المناصحة، وعدم المنازعة، وحلف لهما على ما أرادا، وتوثقوا بالعهود بواسطة الفقيه رضي الدين، فعند ذلك عقد السلطان الألوية لولديه المظفر والظافر، وأقطع المظفر ضرغام الدين صنعاء، والظافر عيسى الفخرية والحازّتَين، وتوجه المظَفّر إلى صنعاء في شهر رجب سنة ست وتسعين، واستعاد حصن ود من بني الحارث في شعبان بالمنجنيق.

وتوجه الملك المؤيد إلى زبيد في جمادى الآخرة من السنة، ففرح به أهلها، ثم رجع إلى تَعز في شعبان، وفي آخر السنة أخذ الحصون الحَجِّيّة والمِخْلافية من الأمير الصارم إبراهيم بن يوسف بن منصور وكانت في يده من سنة إحدى وتسعين وستمائة، واشترط الصارم شروطًا منها: إقطاع مَوْزَع ونصف خَيْس والذمة الأكيدة والعفو عما جناه.

ذكر خلاف الملك المسعود تاج الدين الحسن ابن الملك المظفر على أخيه الملك المُؤيَّد

قال: «ولما ولي الملك المؤيد كان أخوه الملك المسعود مقطعًا للأعمال السُّرْدَدية من جهة أخيه الملك الأشرف، فتألم أن أفضت السلطنة إلى المؤيد، فلما

استقر الصلح بين السلطان والأمير الصارم إبراهيم بن يوسف، وسأل الأمان على تسليم الحصون الحِجِّية على ما تقدم، سأل أن يكون تسليمها إلى الملك المنصور زَنْد الدين أيوب أخي المؤيد، والقاضي الوزير موفق الدين، وأن يحضر معهما إلى الملك المؤيد، فأمر الملك المؤيد أخاه ووزيره بذلك، فقيل للملك المسعود: إن ذلك أحبولة ومكيدة للقبض عليه، وأخذ المَهْجم منه، وكان طريقهما عليه، فاستوحش من ذلك، وكتب إلى أخيه المؤيد يستعطفه ويترَقَّق له، ويقول: «إنه خائف، ويسأله أن يكون هو الذي يقبض الحصون الحِجِّية، وأنه لا فرق بينه وبين أخيه المنصور، فأجابه الملك المؤيد: أن إبراهيم لم يطلب إلا صِنْونا الملك المنصور، والوزير، ولو طلبك لفعلنا، فاتركهما يَمُرّان الطريق، ولا يكن لك إليهما سبيل اعتراض، فلم يجب إلى ذلك، فكتب إليه ثانيًا ذِمَّة أنه باق على ما بينه وبينه، وأن ليس القصد في تجهيز العسكر إلا أخذ الحصون الحِجِّيّة، وإذا كرهت أن أخاك المنصور لا يصل إلى المَهْجم أمرناه بطريق الحازة، فلا يصل إليك، وكتب إلى المنصور أن يتوجه على طريق الحازَة، ففعل ذلك، ولما صار المنصور بالفخرية حسّن أتباع الملك المسعود له الخروج، فخرج وقصد المحالب، وتم إلى حَرَض، وأقام الفتنة، وأما المنصور والوزير فطلعا إلى جهة حَجَّة، وقبضا الحصون الحجِّية.

وجمع المسعود العربان من كل ناحية، وكان عقيد رأيه والمدبر لجيشه علي بن محمد بن إبراهيم، وكان مقدمًا بحَرَض في الدولة الأشرفية، فلما اتصل خبره بالملك المظفر جهز ولده الملك الظافر عيسى، وكتب إلى المنصور والصاحب علي بن محمد اليحيوي أن يكون مع ولده، وفوّض تدبير الحرب إليهما، فتوجهوا إليه والتقوا فيما بين حَرَض والمحالب، فلم يكن للمسعود بهم طاقة، وتفرق جمعه، وقبض على المسعود وولده أسد الإسلام في المحرم سنة سبع وتسعين وستمائة، فلما أحضرا إلى الملك المؤيد جعلهما في «دار الأدب»، فكانا فيها دون السنة، ثم أطلقهما وأسكنهما حَيْس، وقرر لهما ولغلمانهما جامْكِيَّة.

ذكر مُتَجددات كانت في شهور سنة سبع وتسعين وستمائة

في شهر ربيع الأول منها قُتِل الأمير علم الدين سليمان بن محمد بن سليمان بن موسى، قتله عبيده بالوادي الحار.

وفيها في جمادى الآخرة توجه الملك المظفر من صنعاء إلى خدمة والده الملك المؤيد متبرِّمًا من الأعمال الصنعانية، ثم عاد إليها في السنة المذكورة، واستولى على

حصن غِراس، وأخذه بالسيف، ثم انتقل إلى حصن إرياب فاستولى عليه بعد حرب، وطلع إلى جهة صنعاء مقطعًا لها.

وفي جمادى الآخرة وقع مطر شديد عظيم لم ير مثله عم القطر اليماني بكماله، وحصل رعد شديد، وريح باردة، وكان معظم ذلك بتهامة، وأخرجت الريح سفنًا ـ من الأهواب وساحل الشَّرْجَة ـ بما فيها إلى البر، وكسرت بعضها ببعض، وهدمت حصونًا شامخة، واقتلعت أشجارًا كبارًا بأصولها.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر من شهر رمضان من السنة توفي الشريف المطهر بن يحيى بن حمزة بحصنه بذَرْوان.

وفي شعبان تجهز العسكر المؤيدي إلى جهة حجة، وتقدمه الأمير بدر الدين محمد بن عمر بن ميكائيل أستاذ الدار، والفقيه شرف الدين أحمد بن علي بن الجنيد ونزلا على «ابن الصليحي» بمَبْيَن، وعلى عمر بن يوسف بظَفَر، وأخذا منهما الحصنين، ونزلا على الذمة.

وفي السنة المذكورة توجه الملك المؤيد إلى البلاد العليا، وذلك عند امتناع الأشراف من الصلح، ودخل صنعاء لخمس مضين من ذي القعدة، وطلع إلى الظاهر عن طريق حَدَّةَ في رابع عشر ذي الحجة، واستقر فيه بعسكره، ثم سار نحو الميقاع بعساكره، فقاتل عليه وعاد إلى منزلته، وأقام بالعسكر ثمانية عشر يومًا، وفي انتهائها دخلت عساكره صَعْدة مع جمال الدين علي بن بَهْرام، والأمير أسد الدين محمد بن أحمد بن عز الدين.

وفي يوم الخميس أول المحرم سنة ثمان وتسعين وستمائة نهض الملك المؤيد من محطته «وهي منزلة العسكر»، طالبًا للظاهر لقطع الأعناب فوقف بها ثمانية أيام، ثم نهض منها إلى جَهْران، فأقام بها ثمانية أيام، وحط بالظاهر الأسفل، وسار نحو جبل ظفار، فتأهب الأشراف للحرب، وأخرب ما حوله من الأعناب ونهض في يوم الاثنين ثالث صفر من محطته بالسُّبَيْع، فبات عند الكَوْلة، ثم سار منها وحط على المِيقاع، وهو إذ ذاك بيد الأمير جمال الدين علي بن عبد الله، ونصب المجانيق على الحصن، وبه الأمير عماد الدين إدريس بن علي، وتوالى الزحف على الحصن، ثم حصل الاتفاق، وحضر الأمير عماد الدين علي إلى خدمة الملك المؤيد، فلما قرب من مُخَيَّمه ركب إليه وتلقاه وانعقد الصلح بينهم، وأخذ لأصحابه الأشراف ذمةً سبعة أشهر، ودخلت الأعلام المؤيدية الميقاع، لإظهار الطاعة، وأنعم عليه المؤيد بالطبلخاناة والأموال والكساء والخلع، وأعاد عليه بلاده التي كانت بيده.

ثم توجه الملك المؤيد في يوم السبت أول شهر ربيع الأول قاصدًا صنعاء، ولما استقر بها وصل إليه الأمراء الأشراف ومشايخ العربان، وفي جملتهم الأمير أحمد بن علي بن موسى لتمام صلح الأشراف، فتم صلح الأشراف على تسليم نعمان واللحام وصعدة، وقسمة بلاد مُدَع كما كانت في زمن الملك المظفر، ثم توجه إلى تعز وصحبته الأمير جمال الدين علي بن عبد الله، والأمير أحمد بن علي، والأمير ابن وهّاس، وأمراء العرب، ثم توجه إلى زبيد في جمادى الآخرة، وصحبته الأشراف والأمراء، وطلع من زبيد في آخر شعبان، فلما كان عيد الفطر ودّعه الأمير جمال الدين على السِّماط، وتوجه إلى البلاد العليا، والذي حصل له من الإنعام من حين خرج من الميقاع إلى أن عاد إلى بلاده ما يزيد على سبعين ألف دينار «الدينار: أربعة دراهم، والدرهم: عشرة قراريط».

وفي شوال من السنة توجه الملك المؤيد إلى عَدَن، فأقام إلى ثاني ذي الحجة وعَيَّدَ عيدَ النحر بفور، وعاد إلى تعز في آخر ذي الحجة سنة ثمان وتسعين.

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة توفي الأمير جمال الدين علي بن عبد الله المُقَدَّم الذكر، وكان من أكابر الأشراف وأعيانهم، ورؤسائهم وصدورهم، وقد ناف عمره على السبعين، ولما مات أجمع أهله على تقديم ولده الأمير عماد الدين إدريس، وكاتب الملك المؤيد في ذلك، فكوتب بأن يصل إلى بابه فطلب ذِمّةً، فكتب إليه، وحضر إلى الملك المؤيد في ذي القعدة، والمؤيد يومئذ بثُعَبات.

فلما كان بعد عيد النحر تقررت الحال على أن يُسَلِّم الحصونَ التي بيده ـ وهما المِيقاع والعظيمة ـ فتسلمهما نواب الملك المؤيد في سنة سبعمائة، وأنعم على الشريف عماد الدين إدريس بعشرة أحمال طبلخاناة، وثمانية عشر ألف درهم، وسَنْجَقًا وخِلَعًا وملابس ومماليك وخيول وبغال، وركب معه الأمراء، وأعطى القَحْمة.

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة حطَّ الملك المظفر على أشْيَحَ، وأخذ حصن إرْياب وغِراس بالحَقْل قَهْرًا، فزينت صنعاء لذلك.

وفي سنة سبعمائة توجه الملك الظافر عيسى بن المؤيد مُقْطَعًا لصنعاء وأعمالها، فدخل صنعاء في العشر الأخر من شهر رمضان.

وفي رابع عشر شهر رجب من السنة أخذ الأمير صارم الدين داود بن علي حصن الجميمة بجبال شَظَب والأمير علي بن أحمد حصن العجرد بشظب بموافقة من فيها.

وفي سنة إحدى وسبعمائة خالف الأشراف السلمانيون، وقتلوا المقدم خُطْلُبا، وكان مقيمًا بالراحة، فأخذوا من خيله أربعين فرسًا، فرسم الملك المؤيد إلى الأمير عماد الدين إدريس بالتوجه إلى الراحة، وأضاف إليه عسكرًا من الحلقة، وأمر الأمير شهاب الدين أحمد بن الخرتبرتي شادّ تهامة، وأمر متولي حَرَض بالمسير، فسار العسكر، بكماله، ودخلوا الراحة، وأحرقت بلاد المفسدين، وتتبعوهم إلى قُرَيْب اللؤلؤة، وسألوا الصلح، وأعادوا الخيل التي أخذوها، وتسلم نائب الملك المؤيد ـ وهو الشريف علي بن سليمان ـ الراحة وبلادها، وعاد العسكر.

وفيها أوقع الأمير سيف الدين طُغْرِيل ـ وهو مُقْطَع لَحَج ـ بالجحافل والعجالم، وقتل منهم ما ينيف على أربعين رجلاً، واتفقت له وقعة أخرى بالدُّعَيْس، فقتل منهم ما ينيف على سبعين.

ذكر ما وقع بين الأشراف من الاختلاف
وما وقع بسبب ذلك من الحرب والحصار

وفي سنة إحدى وسبعمائة توجه الملك المؤيد إلى البلاد العليا، فأقام بالجَنَد أيامًا، وبالمَوْسَعة أيامًا، وبصنعاء أيامًا، ثم خرج منها إلى الظاهر، وطلع من نُقَيل عجيب، والموجب لطلوعه ما جرى بين الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى، وبين الشيخ قاسم بن منصور الضَّرَبْوَه ـ صاحب ثُلا ـ من التشاجر على البلاد التي بينهما، فأخرب كل منهما على الآخر بعض بلاده، وكان الشيخ ممن يحالف الملك المؤيد، فاجتمع الأشراف إلى ظفار: منهم الأمير همام الدين سليمان بن القاسم، فسألهم تاج الدين القيام معه لمحاربة صاحب ثُلا، فذكروا أنه حليف الملك، ولا يمكن حربه إلا بمحاربة السلطان، ورأوا إخراب القُنّة، وبعض ثغر ظفار من المصلحة، وأن يرسلوا القاضي أحمد بن محمد الذماري إلى الملك المؤيد ليتحقق رأيه، فأرسلوه، وعاد كل منهم إلى بلاده.

فأما الأمير موسى بن أحمد فإنه لما وصل إلى صعدة قبض بعض بلاد الأمير سليمان بن القاسم، وكتب إلى الأمير شرف الدين شكر بن علي يستدعيه إلى صعدة، فوصل إليه فأرسله إلى الملك المؤيد، وسيَّر معه ابنه الأمير علم الدين موسى، وقبض منه رهينة، فلما وصل إلى صنعاء ترك الرهينة في حصن ذَهَبان عند الأمير محمد بن أحمد الحاتمي الهمداني، ثم وصل إلى المؤيد وهو على الحركة إلى البلاد العليا، فأكرمه المؤيد، وأنعم عليه، وسار معه إلى الموسعة، ومن هناك تقدم إلى صوب ابنه.

وأما الأمير تاج الدين فإنه تقدم إلى الجهات الغربية، وأوقد نار الحرب في بلاد المُوَقَّر والعارِضة وما يليها من بلاد السلطان، ومال إليه بنو شاور، وجماعة من قبائل العرب ودخل المؤيد صنعاء، وأقام بها أيامًا، ثم سار إلى اليمن، ولقيه الأمير نور الدين موسى بن أحمد، والأمير عبد الله بن وهّاس، وطلع الملك المؤيد القُنّة من طريق جبل صُبَيْح، وتسنّم سعده القُنّة، ونزل فيها بجميع عساكره، وذلك يوم العيد، وأشرف على أخذ ظفار من الجهة التي تلي القاهرة من غربيها، ولم يبق إلا أخذها، وعاد المؤيد إلى القنة، وأقام بها ثمانية أيام، وشرع في عمارتها، وسماها المنصورة، وحصل للعسكر ضرر شديد، لعدم الماء والطعام والعلف، حتى بيعت القربة بعشرة دراهم، والزبدي الدقيق بعشرة دراهم، فعند ذلك أمر السلطان بضرب مخيمه بورور، ورتب في القنة الأمير نجم الدين موسى بن أحمد، ورتب في تعز وهو الحصن المقدم الذي أخربه الأمير سليمان بن قاسم ـ الحسام بن مسعود بن طاهر، وأمر بعمارة الموضعين، ونصب في تعز منجنيقين ترمي إلى ظفار وإلى المدينة فأضرهم المنجنيق غاية الضرر، وعيد الملك المؤيد عيد الأضحى في محطة وَرور.

ثم طلع المؤيد إلى تعز ليشاهد العمارة، ورَمْيَ المنجنيق، فعلم الأمير علم الدين سليمان بن قاسم صاحب ظفار أنه إن دام هذا الأمر أدى إلى خراب بلاده فأعمل الحيلة، وأخرج بني أخيه وجماعة من الأشراف إلى خارج درب ظفار ومعهم وزيره علي بن دحروج، وصاح بأعلى صوته أن الأمير والأشراف قصدهم أن يخدموا السلطان، وسؤالهم أن يشرف عليهم، فأشرف عليهم فخدموا بأجمعهم، وقالوا: نحن غلمان السلطان، وهذه المواضع مواضعه، وأشار ابن دَحْروج أن معه خطابًا يفضي إلى المصلحة، ويسأل أن يرهن به الفقيه شرف الدين، فأجيب إلى ذلك، ونزل الشيخ ابن دَحْروج، واجتمع بالملك المؤيد بحضور القاضي الوزير موفق الدين، واستقر الأمر أن الأمير سليمان بن قاسم يبيع المؤيد حصن تَلَمُّص بخمسين ألف دينار، ويرهن بذلك ولدي أخيه محمدًا وداود، ووزيره علي بن محمد بن دحروج، وأن يخرب الملك المؤيد تعز المعمورة على ظَفار والقُنّة، فأشار من حول الملك المؤيد عليه بذلك وقالوا: السلطان يملك صعدة بغير شريك، والرهائن توثقة لمن صدق، فركن إلى ذلك، وقبض الرهائن، ونزل الفقيه شرف الدين أحمد بن علي من ظفار، وأطلع لهم المال المشروط، وأرسل الملك المؤيد الفقيه شرف الدين أحمد بن علي (الجنيد) بعسكر لقبض تَلَمُّص، وأرسل الشريف سليمان بن قاسم ثقة منه، وتقدموا إلى جهة صعدة.

وتوجه المؤيد من محطة ورور، والرهائن صحبته، وقصد صنعاء في يوم الجمعة نصف ذي الحجة، فانتهى إلى جَرَبان في يوم الأحد سابع عشر الشهر، فزحف العسكر في اليوم الثاني، وقاتلوا قتالاً عظيمًا وبلغ الشفاليت باب الحصن، ونزل للشفاليت الكسوة، فأخرب أهل الحصن الحمولة وعاد الشفاليت فوجدوها خرابًا، وكان قد تجمع إليه خلق كثير من همدان وغيرهم، ونصب الملك المؤيد المنجنيق، وأقام ثمانية أيام على جَرَبان، ثم توجه إلى صنعاء، وتولى الحصار الأمير شمس الدين عباس بن محمد، والأمير عماد الدين إدريس والأمير محمد بن حاتم، ومحمد بن أحمد بن عمرو، ووصل المؤيد إلى صنعاء في المحرم سنة اثنين وسبعمائة.

وأما سليمان بن قاسم صاحب ظَفار، فإنه لما نظر إلى المال عنده والخلع، وقد أخربت القُنّة وتعز، وارتفعت عساكر السلطان عنها، نوى الغدر، وزهد في الرهائن، فكتب إلى المقيم بتَلَمُّص أن يسلم تَلَمُّص إلى الشريف أبي سلطان، ففعل ذلك، وكتب سليمان بن قاسم إلى الملك المؤيد: أنه غلب على تَلَمُّص أبو سلطان، وأنه قد صار في حرزه، وانتقض ما كان تقرر، فأرسل المؤيد شكر بن علي إلى صاحب ظفار يطالبه بإعادة المال، وأخذ الرهائن، فغالظ في الجواب، وبادر بعمارة تعز الذي كان أخربه، وأكد بناءه، وعاد الذين توجهوا ليتسلموا تَلَمُّص، وتهدد السلطان صاحب ظفار أنه إذا لم يعد المال أشهر رهائنه، فلم يحتفل بالرهائن، فتقدم المظفر بإشهار ولديه، وولد عمه، ونعاه بالعيب، كعادة العرب في الغادر بعد الوفاء، ولما نظر الشيخ علي بن محمد بن دَخروج أن الشهرة لاحقته لا محالة، بذل للملك المؤيد الخدمة والنصيحة، ووثقه من نفسه، وأرسله صحبة سيف الدين طُغْريل - بعد إقطاعه صنعاء، وذلك في يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعمائة - بالعساكر إلى عمارة المنصورة وهي القُنَّة، وكان عند الأشراف أن العسكر لا يطلع إليها، ولا يعمرها فطلعها العسكر قهرًا، وتسنموا القنة، وعمرت المنصورة، واستمرت العمارة بها، واستمرت المحطة بورور، ولحق الناسَ قحطٌ شديد، بلغ الزيدي في ورور أربعة دنانير وأكثر من ذلك، فخلا كثير من أهل البلاد.

فلما كان في أثناء شهر رجب تداعى الناس إلى الصلح على رد المال المسلم في تلمص، فردوا منه ستة عشر ألف دينار نقدًا، وحريرًا وحليًا بإثني عشر ألف دينار، ورهنوا على ما بقي ولدي الأمير أحمد بن قاسم وحصن المدارة على يد الأمير ابن وهاس إلى عشرة أيام في شوال والقنة للسلطان.

ومالت قبائل المرقان وبنو أسد الصيد، وبنو حسن ومخلاف تلمص وبنو دحروج إلى جنب السلطان، وما كان إليهم من مال وغيره، وأخرجوا حريمهم من ظفار وسكنوا صنعاء، وسلم الأمير تاج الدين الحَدّة وخَرّب شُرَيب، ورهن ولده مع رهينة الأمير همام الدين سليمان بن القاسم، وانعقد الصلح بين الملك المؤيد وبين أصحاب ظفار وتاج الدين، على أن المؤيد يحارب تلمص، ويعمل فيه ما شاء.

وعاد الملك المؤيد إلى اليمن في الثامن عشر من شعبان سنة اثنتين وسبعمائة ووصل تعز في غرة رمضان منها.

وفيها توفي الملك العادل صلاح الدين أبو بكر ابن الملك الأشرف بن الملك المُظَفّر، ودفن في أول شهر رمضان في ضِراس.

وتوفي الأمير نجم الدين موسى بن شمس الدين بنواحي صعدة.

وفيها أمر الملك المؤيد بإنشاء مدرسة بمَغْربة تعز، ووقفها على طائفة الشافعية، ورتب بها مدرسًا ومعيدًا وعشرة من الطلبة، ومتصدرًا لإقراء القراءات السبعة، ومعلمًا يقرىء جماعة من الأيتام القرآن، وإمامًا يصلي بالناس الخمس، ووقف بها خزانة كتب، ونقل إليها كتبًا كثيرة من كتب العلوم والتفاسير.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة في العشرين من المحرم توفي الملك الظافر قطب الدين عيسى بن الملك المؤيد بحصن تعز، ودفن بمدرسة أبيه، ورتب والده قراء يقرأون القرآن على قبره، وتألم والده عليه، وأمر بذبح خيله الخواص فذبحت، وتَصَدَّق بلحمها حالة حمله إلى قبره، وعملت له الأعزية في سائر المملكة.

وفيها توفي الأمير أبو سلطان المتولي على تَلَمُّص المتقدمة الذكر، فغلب المرتبون في الحصن عليه، وباعوه من الأمير علي بن موسى بن شمس الدين، فسار نحوه، ونقل إليه الطعام، ووقعت الحرب بين عسكر السلطان والأشراف بسبب ذلك، وذلك في النصف الأخير من شعبان، ثم حصل الصلح، وانعقدت الذمة إلى سلخ ذي الحجة على إخلاء صَعْدة من الفئتين.

وفي سنة أربع وسبعمائة أمر الملك المؤيد بالقبض على الأمير أسد الدين محمد بن أحمد بن عز الدين، وولده، والشريف شكر بن علي، وسبب ذلك أنه بلغه مباطَنَتُهم في صعدة وتلمص.

وفي ذي الحجة من السنة فارق الأمير سيف الدين طُغْرِيل الخزندار صنعاء وأقطعها السلطان ولده الملك المظفر، وأقطع طغريل الخزندار المذكور الأعمال

الأَبْيَنِيّة، ونزل إليها في المحرم سنة خمس وسبعمائة، ثم فارق المظفر صنعاء في آخر شعبان من هذه السنة، وتوجه إلى أبيه، فأَقْطِعَت الأمير سيف الدين طغريل المذكور، وأقطع الأمير عماد الدين إدريس بن علي الأعمال الأبينية، وفيها تم الصلح بين الملك المؤيد والأشرف، وقبض رهائنهم، ورجع أهل مدينة صعدة إليها وسكنوها.

وفي سنة سبع وسبعمائة ملك الملكُ المؤيد حصن القَرانع وهو مُزاحمُ الطويلة بينهما رمية حجر، وحصلت الحرب بين تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة وبين الأمير سيف الدين طغريل مُقْطَع صنعاء.

وفيها في جمادى الأولى خالف ابن أصْهب بأصاب وأخذ حصن السانة بها، وهو حصن منيع مرتفع، فتوجه الملك المؤيد إليه بعسكر، وحصره به، فراجع ابن أصهب إلى الطاعة، ونزل على الذِّمة هو وأولاده وحريمه، واستعاد الحصن ومعه حصونًا أخر، ورجع إلى زبيد، وأقيمت التهاني والأفراح بسائر المملكة، ومدحه الشعراء.

ذكر إنشاء القصر المَعقلي والمنتخب

وفي سنة ثمان وسبعمائة في النصف من صفر من عمارة القصر المسمى بالمعقلي بثَعَبات، وهو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا بسقفين مذهَّبين بغير أعمدة بأربع مناظر بأربع رواشن[1]، وفيه طشتيات من رخام شكل حلزون، وفي صدره شبابيك تفتح على بستان، وكذلك الرواشين وأمامه بركة طولها مائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا على حافتيها الأوزّ الصُفْر ترمى بالماء من أفواهها، ويقابل المجلس شاذَرْوان[2] بعيد المدى ينصب ماؤه إلى البركة، ولما كَمل أمَرَ الملك المؤيد بمجتمع حضره الأمراء والوزراء والفقهاء والأعيان والعامة من أهل البلد، وجلس الملك في الطبقة الثانية ينظر إلى الناس، وخلع على الأعيان وامتدحه الشعراء.

وعند الفراغ من هذا القصر أمر ببناء قصر ثان سمّاه المُنْتَخب، وبستان وفي السنة المذكورة توجه الملك المؤيد إلى زبيد في رابع جمادى الأولى، فأقام بها نصف

---

(١) الرواشن: جمع روشن: وهو لفظ فارسي، بضم الراء وفتح الشين، بمعنى الكوة والنافذة، وتكون أيضًا بمعنى الشرفة (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص١١٨).

(٢) الشاذروان: أساس يوضع حول القناطر ونحوها، فارسية الأصل، وهو ما يترك من عرض الأساس في الجدار خارجًا (شفاء الغليل ص١٣٥).

شهر، وتوجه إلى المَهْجم، فأقام به إلى تاسع عشر شهر رجب، وسار إلى جهة حَجَّة، ورجع منها في تاسع عشر شعبان، ودخل المَهْجم في الثالث والعشرين منه، وخرج منه وعيَّد بزبيد.

وفي السادس عشر من شوال وصل الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة إلى الملك المؤيد، ولم يطأ بساطه قبل ذلك، وهو من أعيان الأشراف ورؤسائهم، وله حصون منها كَحْلان والطويلة وعدة حصون غيرهما، فأكرمه المؤيد، وأنعم عليه، وتوجه به إلى صوب البحر، وركب الملك المؤيد فيلًا، وأردف الشريف تاج الدين خلفه، ودخل البحر فلجج الفيل بهما في الماء، فبادر الفيّال بأن ركب فيلة، ودخل البحر، واتبع الفيل وأسرع حتى أدركه، فلما شمّ الفيل رائحة الفيلة رجع إليها، ورجع الفيّال بالفيلة أمامه، واتبعه الفيل إلى البر، وهذا دليل على خفة وطيش، وعدم ثبات وتغرير بالنفس، وكانت سقطة من الملك المؤيد، ثم عاد إلى زبيد، ثم إلى تعز، ودخلها في السابع والعشرين من ذي القعدة والشريف تاج الدين معه، وفرّجه في قصور ثعبات.

وفي سنة تسع وسبعمائة رسم الملك المؤيد للأمير عماد الدين إدريس أن يتوجه إلى صوب الشرفين لاستفتاحهما بعد أن استخدم له مَذْحِج، وأصحبه جماعة من العسكر فتوجه وطلع من الطهرة إلى الشرف الأعلى، واستولى على جبل سعد ببلد الجبر، وحصن القاهرة ببلد المحابسة، وأخذها من أهل الشرفين، وتوجه إلى الشرف الأسفل وحطّ بقِلْحاح، وتسلم في ذلك اليوم حصن القُفْل وكان يومئذ بيد ابن مقرعة مولى الشريف إبراهيم بن قاسم، ثم توجه إلى جبل الشاهل، فاستولى على حصن أقتاب وحصن الناصرة واستولى على الشرف الأسفل بكماله، ولم يبقَ إلا حصن المسوكة للأشراف أهل جبل حرام، ومنهم عند الملك المؤيد محمد بن علي، وأخوه يقصدان بيع الحصن عليه، فأخذه الأمير عماد الدين بمصالحة على ألفي دينار، وكتب إلى المؤيد بذلك فصادف وصول كتابه وقد عقد القاضي الصاحب موفق الدين مجلسًا لشراء الحصن من الشريف محمد بخمسة آلاف دينار وكساوى، ولم يبق إلا وقوع المعاقدة، فقرأ الملك المؤيد الكتاب، وأمر بنقض المجلس، ثم تسلم الأمير عماد الدين حصن المفتاح في سنة عشر، وسلم جميع ذلك إلى غلام الدولة حسن بن الطماح بن ناجي بحكم ما بيده من ولايتها من جهة الملك المؤيد.

ذكر مقتل الأمير سيف الدين طُغْرِيل مقطع صنعاء

وفي سنة تسع وسبعمائة غدر الأكراد بالأمير سيف الدين طُغْرِيل الخزندار مقطع صنعاء، وقتلوه في يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وسبب ذلك أنهم توهموا أنه يريد القبض عليهم، وأتاه النذير بذلك في تلك الليلة، فلم يعبأ به، فخرج الأكراد من المدينة، وقصدوا عسكر صنعاء فعقروا خيلهم، وتوجهوا نحو القصر الذي به الأمير المذكور، فاستولوا على إسطبله وحالوا بينه وبين مراكبيه، وسألوه الخروج إليهم على ذمة، فامتنع، فحصروه إلى أن طلعت الشمس، فخرج إليهم على ذمتهم، فقتلوه، وقُتِل معه صهره وهو أستاذ داره، وكاتبه، ووالي ذمار، ونقيبه، وأربعة من مماليكه، فوصل عسكر صنعاء إلى الملك المؤيد فعوضهم ما أخذه الأكراد، وجَرّد الأمير شجاع الدين عمر بن القاضي العماد أمير جانْدارة، والأمير شمس الدين عباس بن محمد إلى جهة صنعاء من طريق تهامة، فدخلا ذمار، وانحازت الأكراد بجملتها إلى الوادي الحار، فقصدهم العسكر، وقاتلوهم ثلاثة أيام، وقتل من الأكراد ثلاثة نفر، وأخذت خيلهم، ثم تفرقت الأكراد في كل ناحية، وعاد الأميران إلى ذمار، ثم حصر الأميران الأكراد بمَصْنَعة عُبَيدة ثلاثة أشهر إلى نصف رمضان، وأنفقت أموال جليلة، فلم تجد المحاصرة شيئًا، فتركا الحصار، وسار الأمير عباس بعسكر صنعاء إلى صنعاء، واجتمع الأكراد إلى الإمام ابن المطهر(١)، وحالف بني شهاب وأهل الحصون، فقويت شوكته، وقصد حصن ظفار، فأخذه وحط في حَدّة، فقاتل من بصنعاء، ووقعت حرب عظيمة على باب صنعاء ولم يكن فيها إلا الأمير شمس الدين عباس في جمع قليل من عسكرها، فثبت حتى وصلت إليه عساكر السلطان، وابن المُطَهَّر مقيم في حَدّة، وظهره بلاد بني شهاب، فلما اتصل ذلك بالملك المؤيد بادر بنفسه إلى صنعاء، فدخلها في يوم الخميس الثالث والعشرين من شوال، ووجه ولده الملك المظفر إلى قاع بيت الناهم فنزل به يوم الاثنين السادس من ذي القعدة، واستولى على بيت خبص، وانهزم ابن المطهر هو ومن معه من الأكراد إلى حاقد، ثم طلعوا إلى سبأ، وأقام ابن المطهر بجَبَل رَهْقَة، والأكراد في البروية، ثم افترقوا فسار الأكراد نحو طوران، وقد باطنوا أصحابه، وسار ابن مطهر نحو ذَرَوان.

---

(١) الإمام ابن المطهر: هو الإمام محمد بن المطهر بن يحيى، توفي سنة ٧٢٨هـ (المقتطف ص١٢٧).

وفي سنة عشر وسبعمائة تسلّم الأمير شمس الدين عباس حصن عزّان، ونقل محطته نحو ظفار فحط بالطَّفة، ونصب المنجنيق على حصن تعز، فرغب الأشراف في الصلح، فوقع، وعاد الملك المؤيد من صنعاء إلى تعز في الخامس والعشرين من صفر سنة عشر وسبعمائة، وأقطع صنعاء للأمير أسد الدين محمد بن حسن بن نور، وفي سنة تسع توفي الفقيه رضي الدين أبو بكر بن محمد بن عمر صاحب الملك المؤيد، وأخو وزيره، وكانت وفاته بزبيد، وفيها توفي الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة.

وفي عشر وسبعمائة في سابع عشر جمادى الآخرة دخل الأكراد في الطاعة، وبذلوها من أنفسهم، ورهنوا رهائن وأعطوا حصن هِران واستخدم من أراد الخدمة منهم. وفيها أقطع المؤيد الأمير جمال الدين نور بن حسن بن نور الأعمال الصعدية والجوفية والجَثّة بتهامة وعوض الإمام عماد الدين عن الجَثّة بالقحمة.

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة توفي الملك الواثق نور الدين إبراهيم بن الملك المظفر يوسف بن عمر، وكانت وفاته في آخر المحرم بظَفار الحَبُوظي.

وفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وفي شهر رجب احترقت دار المرتَّبة بتعز، واحترق فيها أشياء كثيرة.

وفيها في يوم الأحد سادس ذي القعدة توفي الملك المظفر ولد الملك المؤيد بتعز وأوصى قبل يوم وفاته ألا يُصاح عليه، ولا يُشق عليه ثوب، ولا يُغطى نعشه إلا بثوب قطن، وأن يُدفن في مقابر المسلمين، وألا يُعقر عليه شيء من خيله، فنُفذت وصيته في جميع ذلك إلا الدفن، فإنه دفن مع أخيه الظافر في المدرسة المؤيدية، وكان من جملة وصيته أن يعمل له في تربة المحاريب مدرسة، وأن يُجْرى لها الماء، ويُجْرَى الماء منها إلى حوض تحتها، ففعل ذلك، ورتب بها جماعة من الطلبة.

وفي ثالث ذي الحجة توفي الصاحب القاضي موفق الدين وزير الملك المؤيد المقدم الذكر، وكان مكينًا عند السلطان كما تقدم.

وفي السنة المذكورة أمر الملك المؤيد بإنشاء قصر ظاهر الشَّبارق بزبيد في البستان الذي أمر بإنشائه هنالك.

قال: وصورة بنائه أن وضع به أيوان طوله خمسة وأربعون ذراعًا، وفي صدره مقعد عرضه ستة أذرع، وله دهليز متسع، وفوق الدهليز قصر بأربعة أواوين، والجميع جملون، وفيه المباني الغريبة المشرفة على البستان المذكور من جميع نواحيه.

وفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة توجه الملك المؤيد من تعز إلى الجَنَد، وكان قد رسم للأمير أسد الدين محمد بن نور أن يخرج من ذمار، وينازل حصن هرّان الذي هو بيد الأكراد، وينصب عليه المنجنيق، ففعل ذلك، وقتل الأكراد بعض المماليك وجماعة، فأردفه الملك المؤيد بالأمير شمس الدين عباس في خمسين فارسًا غير عسكره الذين معه، فراسل الأكراد السلطان المذكور، ما سبق لهم من الذمة، فأبقى عليهم لشهامتهم، وأمر بحضور أعيانهم، فحضر الأميران إبراهيم بن شكر، والجلال بن أسد إلى السلطان بالجَنَد، فاستقرت الحال بينهم على أن يسلموا هرّان، وعادوا إلى ذمار على عادتهم، وذلك في مستهل شهر رجب من السنة، وتوجه الملك المؤيد إلى زبيد، فدخلها في ثاني عشر شهر رجب.

وفي سنة أربع عشرة توفي الأمير عماد الدين إدريس المُقدّم ذكره.

ذكر وصول الأمير علاء الدين كشتغدي إلى خدمة السلطان الملك المؤيد

وفي سنة خمس عشر وسبعمائة وصل الأمير علاء الدين كُشْتُغْدي من الشام إلى خدمة الملك المؤيد باستدعاء من المؤيد، وكان قبل ذلك أستاذ دار الملك المُظَفَّر صاحب حماه، وكان خبيرًا باللعب بالجوارح، فتقدم عند الملك المؤيد تقدمًا عظيمًا، ونادمه في خلواته، ثم استنابه بعد ذلك، وردّ إليه أمور دولته على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها ولي القاضي جمال الدين محمد بن الفقيه رضي الدين أبي بكر ـ الذي تقدّم ذكر والده وعمه ـ قضاء الأقضية وعمره عشرون سنة، وكان الملك المؤيد يكرمه ويعظمه لحقوق أبيه السالفة.

فلما كان في سنة ست عشرة مرض الملك المؤيد مرضًا خيف عليه فيه التلف، وأرجف الناس بموته، فراسل القاضي المذكور الملك الناصر جلال الدين بن الملك الأشرف بالأمور الباطنة، وأشار عليه بنشر الدعوة، وآيسه من عمه، فلما اتصل بذلك المؤيد خرج من تعز إلى الجَنَد، وبه بقية التوعك، فخاف ابن أخيه الناصر من ذلك، ولجأ إلى جبل يقال له السَّوْرق، وهو جبل حصين، وحوله أناس من العربان، وهو مطل على مدينة الجند، فجهز له المؤيد العساكر، ومقدمها الأمير جمال الدين بن نور، فنزل الناصر بذمّة، وحضر إلى خدمة عمه الملك المؤيد، ووقع الصلح بينهم والاتفاق، ويقال: إنه عرفه ما وصل إليه من كتب القاضي، فعزله عن القضاء، واعتقله بحصن تعز، وفوّض القضاء إلى القاضي رضي الدين أبي بكر بن أحمد الأديب الشافعي.

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة، وصل القاضي الفاضل تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد من دمشق إلى اليمن إلى خدمة الملك المؤيد باستدعاء منه له، وولاه كتابة إنشائه، وأكرمه وقرّبه.

وفيها دخل عسكر المؤيد فَلَلَة وملكوها، وضربت البشائر في سائر البلاد.

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة وصل صفي الدين عبد الله بن عبد الرازق الواسطي، وهو من جملة الكتاب ببلد حماة، وباشر كتابة بيت المال بطرابلس الشام، فلما استقر علاء الدين كُشْتُغْدى في الخدمة المؤيدية نوّه بذكره وشكره، وأثنى عليه، وذكر معرفته ونهضته، فاقتضى ذلك طلبه، فطلب طلبًا حثيثًا وأنفق عليه إلى حين وصوله من الذهب العين ألفي مثقال، ولما وصل فَوّض إليه شادّ الاستيفاء، وحظي عند المؤيد وانبسطت يده في الدواوين، والمذكور زوج ابنة الأمير علاء الدين كشتغدي، وتوجه المذكور في السنة المذكورة إلى عدن وحمل منها ثلاثمائة ألف دينار، وعاد بها والمؤيد بالجَنَد فأكرمه وعظّمه.

وفي السنة المذكورة رتب الأمير علاء الدين كشتغدي الجيش اليمني على قاعدة الجيوش المصرية، وجعل له حاجبًا للميمنة، وحاجبًا للميسرة، ورتَّب خلف السلطان إذا ركب العصايب والجَمْدارية[١] والطَّبَرْدَارِيّة[٢]، فركب المؤيد بهذا الزي.

وفي سنة تسع عشر وسبعمائة فوّض الملك المؤيد للأمير علاء الدين كشتغدي نيابة السلطنة وأتابكية العسكر، وتقدم عنده تقدمًا لم يسمع بمثله، وقرىء منشوره بأيوان الراحة، وكان يومًا مشهودًا، ووقع بينه وبين صهره صفي الدين منافسة ظاهرًا، وباطنًا، ثم كانت وفاة كشتغدي في سنة عشرين وسبعمائة.

وفي سنة عشرين وسبعمائة حصلت مرافعات من الكتاب على صفي الدين، وحاققه الكتّاب بمجلس الملك المؤيد، ونسبوا إليه أنه أخذ جملة من المال، ولم يظهر عليه أثر ذلك، فعزله المؤيد عن شد الاستيفاء، وفوّض ذلك إلى الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد.

---

(١) الجمدارية: من الفارسية، مركب من لفظين: «جاما» ومعناه: الثوب، و«دار» أي ممسك، والجمدار موظف يتصدى لإلباس السلطان.

(٢) الطبردارية: هم الذين يحملون الأطبار حول السلطان، والطبر باللغة الفارسية: الفأس (صبح الأعشى ٢/ ١٥٠).

وفيها وصل القاضي محيي الدين يحيى بن القاضي سراج الدين عبد اللطيف التكريتي الكارمي من الديار المصرية على طريق مكة، واجتمع بالملك المؤيد، وقدّم له جملة من الزُّمُرُّد واللآليء، وتقدم عنده تقدمًا كثيرًا، وأحلّه محل الوزارة، وفوّض إليه الوكالة، وصَرّفه في عدن تصرفًا عامًا تامًا مطلقًا، وأعطاه من ماله - على حكم المتجر - مائة ألف دينار، وأطلق له من عَدَن خمسين ألف دينار، وتوجه إلى عَدَن، وعاد منها في سنة إحدى وعشرين، وحصل بينه وبين صفي الدين مرافعات بمجلس السلطان، ولم ينتصر أحدهما على الآخر، وركب السلطان ومحيي الدين في يوم العيد في موضع الوزارة، وركب بالطرحة على عادة وزراء مصر.

ذكر وفاة الملك المؤيد هزبر الدين داود(١)

كانت وفاته رحمه الله تعالى في نصف الليلة المسفرة عن يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وكان قد همّ بالنزول من تعز إلى زبيد على عادته، فنزل قصر الشجرة، وحصل له وجع، فأقام بالقصر عشرة أيام، ومات وغسل بدار العدل أسفل الحصن، ودفن بمدرسته التي أنشأها بمغربة تعز وكانت مدة ملكه خمسًا وعشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا. وكان ملكًا حازمًا فاضلًا محبًا للعلوم مقرّبًا لأهلها يستميلهم إليه حيث كانوا، ويرغب فيهم، ويرغبهم فيما عنده، ويكرم من وفد عليه من الديار المصرية وغيرها، وكان محبًّا لجمع الكتب والتحف، جمع من مصنفات العالم على اختلافها وتباينها ما ينيف على مائة ألف مجلدة، وحملت إليه الكتب والتحف من كل جهة، وكان عنده مع ذلك زيادة على عشرة نساخ ينسخون الكتب، وترفع إلى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها، رحمه الله تعالى.

وملك بعده ابنه سيف الإسلام.

ذكر ملك الملك المجاهد سيف الإسلام علي ابن الملك المؤيد هزبر داود بن الملك المنصور عمر ابن علي بن رسول وخلعه من الملك

ملك بعد وفاة والده رحمه الله تعالى، وعمره يوم ذاك خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، فإن مولده في ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست وسبعمائة.

---

(١) هزبر الدين داود: تقدمت ترجمته.

وكان سبب ملكه أنه لما مات والده نزل الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد ـ وكان الملك المؤيد قد فوّض إليه الأستادارية والأتابكية، ونيابة السلطنة ـ فتوجه إلى الشجرة حفظًا للجهات السلطانية، ومعه جماعة من العسكر وأعيان الأمراء، وثبت ثباتًا حسنًا في تلك الليلة وحفظ نظام السلطنة، وضرب بركًا على الشجرة. وكان الملك المجاهد عصر تلك الليلة قد تقدم إلى الحصن ودخله، فكاتب الأمراء والأعيان، ورغّبهم فرغبوا إليه، وصعدوا إلى خدمته، وتمّ له نظام السلطنة، فلما استقر في الملك عزل الأمير جمال الدين، وفوّض النيابة والأتابكية إلى الأمير شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور، وكان شاد الدواوين، وكُتِبَ له منشور وقرىء في دار الضيف، وفي ذلك اليوم عقد لولدي أخيه المفضل والفائز الألوية، ورفع لهم الطبلخاناة، وقرىء منشور شجاع الدين بحضورهما، فتغيرت قلوب الأمراء والجند من تلك الساعة، وحصل بينه وبين ابن عمه الملك الناصر مراسلة اقتضت أيمانًا وعهودًا، فأرسل إليه من جهته الطواشي صلاح الدين، والفقيه وجيه الدين عبد الرحمٰن معلمه، فحلف الناصر اليمن المغلظة.

ولما تمكن شجاع الدين من الملك المجاهد، حسّن له أشياء منها أن يقبض على الناصر، وسعى شجاع الدين في خلاص المعتقلين بمعقل الدملوة، وكان فيه الأميران نجم الدين وبدر الدين ولدا أزدمر المظفري، وشمس الدين الطُّنْبا أمير جندار والشريفان داود وأخوه، ولدا الشريف قاسم بن حمزة، ونجم الدين أحمد بن أيدمر الخزندار الفارس المظفري، وكانت لهم مدة طويلة، ومنها أن يغير مماليك أبيه، ويستجد له عسكرًا، وكان هو والفقيه عبد الرحمٰن مدبري دولته، وفوّض قضاء الأقضية للفقيه عبد الرحمٰن المذكور، فأرسل شجاع الدين جماعة رايَتُهم الشيخ عيسى بن الحريري ناظر المخلاف، وبدر الدين محمد بن الصليحي، والشيخ أحمد بن عمران رأس مذحج، للقبض على الناصر، فلما علم بذلك لجأ إلى تربة الفقيه عمر بن سعيد بذي عقيب من أعمال جِبْلة، فأحاطوا به، وأخذوه من التربة، ودخلوا به تعز، ثم نقل إلى عدن.

ونزل الملك المجاهد من الحصن في ثالث المحرم إلى الشجرة، فلبث بها إلى مستهل شهر ربيع الأول، ثم تقدم إلى الجند فلبث بها أيامًا، ثم توجه إلى الدُّمْلُوة، فدخلها وخرج منها، ولم يعط أحدًا مما جرت به العادة إلا قليلاً ممن يختص به، ومنع الملوك من الدخول إلى المنصورة، فتغيرت قلوب الناس عليه، ولما نزل من الدملوة توجه إلى ثَعَبات، وعزم على أخذ حصن السمدان من عمه الملك المنصور.

فلما علم الأمراء البحرية وأكابر الدولة ما أضمره شجاع الدين لهم، بادر جماعة منهم في النصف الأخير من جمادى الآخرة، فقتلوا شجاع الدين المذكور في داره بالمحاريب هو وقاضيه الفقيه عبد الرحمٰن، ثم قبضوا على الملك المجاهد وهو بثَعَبات، ونهبت تلك الليلة دور كثيرة بالمغربة والمحاريب.

ذكر مُلك الملك المنصور زَنْد الدين أيوب بن الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن علي ابن رسول، وخلعه

قال: ولما قبض الأمراء والعسكر على الملك المجاهد بادروا إلى عمه الملك المنصور ومَلّكوه، وحلفوا له، وصعد إلى الحصن، وبذل الأموال، وأنفق في العساكر وصرف في مدة سلطنته سبعمائة ألف دينار خارجًا عن التشاريف، وكاتبه الأشراف، وهنئوه، فبعث إلى كل شريف منهم ما جرت العادة به، وفوّض نيابة السلطنة إلى الأمير شجاع الدين عمر بن علاء الشهابي فأقام أيامًا، ثم حصل بينه وبين الأمراء البحرية منافرة أوجبت أن استبدل به الأمير جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد المقدم ذكره، وفوّض إليه أمر بابه بكماله.

قال: وفي ليلة جلوس الملك المنصور أرسل إلى الملك الناصر جلال الدين ابن أخيه الملك الأشرف يطالبه، فلما وصل إلى الجَنَد تلقاه بالطبلخاناة، وأقطعه المَهْجم، وعقد أيضًا للأمير بدر الدين حسن بن الأسد الألوية، ورفع له الطبلخاناة وأقطعه صَعْدة وما والاها، وعقد للأمير نجم الدين أحمد بن أزدمر الألوية، ورفع له الطبلخاناة، وأقطعه حَرَض، وعقد لولديه الملك الكامل تامور الدين، والملك الواثق شمس الدين الألوية، ورفع لهما الطبلخاناة وعيَّن لهما الإقطاعات، وأرسل ولده الملك الظاهر أسد الدين عبد الله إلى حصني الدملوة والمنصورة، وفي خدمته الشيخ افتخار الدين ياقوت العزيزي فتسلّم الحصنين.

ذكر عود الملك المجاهد إلى الملك والقبض على عمه الملك المنصور ووفاته

وكان الملك المنصور لما ملك أبقى على حاشية أخيه الملك المؤيد، ولم يغير أحدًا منهم، وكان منهم من يميل إلى الملك المجاهد ولد مخدومهم، فتقدم بعض غلمان المجاهد إلى بلاد العُرَيبين، واتفق هو وجماعة منهم مقدمهم بشر الذهابي،

وكانوا عاملوا شخصًا يقال له صالح بن القواس على طلوع الحصن من ورائه باتفاق جماعة من عبيد الشراب خاناة وكانوا مؤيديه، فوصل العرب إلى المكان الذي تقرر طلوعهم منه، وكان بينهم وبين العبيد إشارة، فلما علم العبيد بهم أرسلوا لهم الحبال التي أعدوها للطلوع، فطلع الحصن أربعون رجلًا، وباتوا تلك الليلة في الشراب خاناة، وهي الليلة السادسة من شهر رمضان، فلما نزل الطواشي شهاب الدين موفق الخادم بمفاتيح أبواب الحصن خرجوا عليه فضربوه بالسيوف وأخذوا منه المفاتيح، ودخلوا على الملك المنصور، وطلع العرب بظاهر البيوت، ونادوا باسم المجاهد، فترامى العرب المنصورية من الحصن، وقاتل شمس الدين الطُّنُبا والي الحصن قتالاً عظيمًا، فقُتِل.

ولما علم الناصر بهذه الحادثة ركب في جماعة من العسكر إلى أسفل الحصن، فلم يتهيأ لهم ما أرادوا، وقام سواد البلد على الناصر، ونادوا بشعار المجاهد، وحمل الناس إلى المجاهد بالحبال، وملك الحصن ثانيًا، واستولى على ما فيه، وقبض على عمه المنصور، فلم يزل في اعتقاله إلى أن مات في المحرم سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ودفن بمدرسة أبيه المُظَفّر.

ولما ملك المجاهد ثانيًا حلف لمماليك أبيه، وكتب لهم ذُرّاعة بالأمان والوفاء، وجمع ملوك بني رسول كلهم عنده تحت الاحتياط ما خلا ولدي الواثق، فإنه لم يعثر عليهما، واستناب في السلطنة الأمير جمال الدين نور، وكان شديد الكراهية له، وطلب من عمه الملك المنصور أن يكتب إلى ولده الملك الظاهر بتسليم الدملوة، فكتب إليه كتابًا شافيًا، فامتنع الظاهر من تسليمها، فأرسل إليه عسكرًا مقدمه الأمير شجاع الدين عمر بن علاء الدين والشيخ أحمد بن عمران الغياتي، والشيخ عمران بن أبي بكر المغلسي، فخامر جماعة من الأشعوب على الظاهر مقدمهم، ومكنوا عسكر المجاهد من طريق يفضي بهم إلى الصليّ، وحاصروا حصن المنصورة، وحصل بينهم وبين عسكر الظاهر زحوف كثيرة، ولم ينالوا من الحصن شيئًا، فرجعوا وتركوا أكثر أثقالهم وخيامهم، فخرج أصحاب الظاهر من المنصورة، فانتهبوا ذلك.

وفي آخر سنة اثنتين وعشرين اختل أمر المخلاف، وخرج عن السلطنة، وثار به مشايخ العربان والقبائل، وملكوا أملاك الملوك، ونهبوا جِبْلة، وأخذوا جميع ما فيها حتى حصر المسجد الجامع، وخالف بنو فيروز وعسكر الدروب، واتسعت دائرة الخلاف.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة التحق جماعة من الجند إلى الملك الظاهر، وجماعة من عرب ذمار، فأكرمهم، وصاروا يغيرون على أطراف بلاد الملك المجاهد، وسار جماعة من المماليك إليه، ووصل إليه الأمير غياث الدين محمد بن يحيى بن منصور الشبابي، فأكرمه، وكاتب الأمير بدر الدين حسن بن الأسد والي ذمار، فأجابه.

وكان في جملة المماليك البحرية جماعة يكاتبون الظاهر، ويميلون إليه، منهم: الأمير عز الدين أيبك الدوادار المؤيدي فجيش الأمير بدر الدين حسن بن الأسد، وجمع وحشد، ودخل إلى الجند قاصدًا حصار تعز، وأمده الظاهر بأموال جمة من الذهب والفضة، فخرج إليه العسكر المجاهدي، ومقدمهم إبراهيم بن شكر، وكان قد نزل إلى المجاهد من بلاده لما عاد الملك إليه، ومعهم الفائز قطب الدين بن أخي المجاهد، فلما تراءى الجمعان نكس جماعة من المماليك والجند رماحهم، والتحقوا بعسكر الظاهر، وصار العسكر بكماله ظاهريًا، وعاد الفائز من ليلته بمساعدة إبراهيم بن شكر، وحصل بين ابن شكر وبين الأمير بدر الدين حسن بن الأسد أيمان وعهود، وأجمع العسكر على دخول تعز، ولاقاهم الأمير غياث الدين بن الشبابي من ناحية الدملوة، وضربت الخيام بمزارع عدنية، وأقامت المحطة سبعة أيام، وكان أهل تعز في أشد ما يكون من التعب من قوة الحصار، ثم التحق جماعة من العسكر بالمجاهد، فارتفعت المحطة.

ثم اضطربت أحوال المجاهد واختلفت آراء من حوله، فأشار عليه بعض من عنده - ويقال إنه ابن شكر - بالقبض على الأمراء البحرية والمماليك، وكان المحرّض له عبد الرحمٰن المعروف بابن العنقاء، وهجموا عليه سحرًا، فنجا بعضهم، وقبض على جماعة كثيرة، ونهبت منازلهم، وشنق بعضهم، والتحق من هرب بالظاهر وانضموا إليه، فلما تحقق نفورهم عن المجاهد، ووثق بمناصحتهم، وكان منهم الأمير بهاء الدين بَهادُر الصقري، أرسلهم الظاهر إلى الخوخية، وكان للظاهر بها محطة تبلغ مائتي فارس، وكانوا بين إقدام وإحجام، فلما انتهوا إليهم، وكان الحاث لهم على النزول، والمتدرك لهم بالبلاد بَهادُر الصقري فنزلوا إلى تهامة، ودخلوا السلامة، وتوجهوا إلى حيس، ثم توجهوا إلى زبيد، فلما صاروا بالقرتُب اختلفت آراؤهم، فهمّ جماعة منهم بالتوجه إلى جهة أخرى، وهمّ آخرون بالرجوع إلى الظاهر، ثم جمعهم الصقري، وثبتهم، وتوجه هو وجماعة من المماليك إلى زبيد، وكان بها الأمير بدر الدين محمد بن طُرنطاي، وأمر البلد إليه، فكاتبه الصقري، فلم يعد إليه جوابًا، وأصرّ على حفظ البلد.

وكان أهل زبيد يرغبون في الصقري، ويميلون إليه لتقدم ولايته عليهم في الأيام المؤيدية، ووقع بين أهل زبيد اختلاف على قتيل، فخرج جماعة من عوارين[(١)] البلد إلى الصقري والعسكر بكماله قد نزل بستان الراحة بباب الشبارق، فتكفلوا للعسكر أنهم يطلعون رجالهم بالحبال، فبادر عسكر الظاهر إلى ذلك ودخلوا البلد في مستهل شهر رجب سنة ثلاث وعشرين وقت الظهر، ونهبت بيوت مخصوصة منسوبة إلى المجاهد: كدور بني النقاش، ومن والاهم، وكان بها جملة من الطعام، وظفر الصقري بآلات وتحف للمجاهد منها: حياصتان مرصعتان بالجواهر النفيسة، وكانت للملك المؤيد، وسرموزه مُرصّعة بالجوهر يقال أنها كانت لبنت جوزا، أخذها المجاهد من الدملوه حال طلوعه، فأحضرها الصقري إلى الظاهر، واستولى الظاهر على زبيد والبلاد التهامية. وقامت دعوته بها، وضُرِبت السِّكّة باسمه، وخطب له في التهايم كلها، وسكن عسكر الظاهر بكماله زبيد.

ولما اتصل ذلك بالمجاهد جهز عسكره، وقدم عليهم الأمير نجم الدين أحمد بن أزدمر: وابن العماد، والزعيم بن الافتخار، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة فارس، وأربعمائة راجل، ومقدم الرجّالة أخو الورد بن الشبيلي، ولما دخلوا إلى السلامة نهبوا أكثر بيوتها، وساروا إلى جهة زبيد، فخرج إليهم جماعة من العسكر وأقام الصقري بالبلد، فالتقوا بالمنصورة، فانهزم عسكر المجاهد، وقتل منهم خلق كثير، وأخذ العَلَم والحمل الذي كان مع ابن أزدمر وأسروه، ودخل رديفًا خلف الشريف صارم الدين داود بن قاسم بن حمزة، وقتل أخو الورد بن الشبيلي، وابن العماد، وتفرّق العسكر، واستأمن منهم جماعة، وقوي الظاهر بذلك.

وكانت عدن بيد الملك المجاهد، وواليها ابن النقاش، فوقع بينه وبين الأمير شجاع الدين عمر بن بلبان العلمي منافرة، فكتب إلى المجاهد يشكو منه، فظفر بعض

---

(١) عوارين: كذا بالأصل، ولعله يقصد «العيّارون» والعيّار من الرجال هو الكثير التجوال والطواف والذي يتردد بلا عمل، وهو الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها، وقد ورد اللفظ عند ابن خلدون: «. . . حتى لا يبقى إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيّارة وسواد العامة».
وقد وجد في بغداد في العصر العباسي جماعة من مختلف الأوساط الشعبية أطلق عليهم اسم «العيّارون» وكانوا عادة من الفقراء اللصوص وقطّاع الطرق، إلا أنهم يحملون مبادىء إنسانية مثالية لا توجد عند اللصوص العاديين، فالعيّارون لا يعتدون على النساء ولا يسرقون الفقراء، وإنما يسرقون أموال الأغنياء الذين امتنعوا عن أداء الزكاة، ولهم مواقف مشهودة في الدفاع عن بغداد (المعجم الوسيط مادة «عير»، ومقدمة ابن خلدون ص٦٦٩، والأعلاق الخطيرة - عن نفاضة الجراب - ٣/ ٩٣٠ ملحق).

غلمان الظاهر بإنسان وصل من عدن ومعه كتب فقتله، وأخذ كتبه، وأحضرها إلى الظاهر، فوجد في جملتها جوابًا لابن النقاش، وفيه فصول تتعلق بالأمير شجاع الدين المذكور وإخوته لا ترضى، وكان قبل ذلك قد توجه شجاع الدين إلى المجاهد بمال، وصحبته جماعة من الجحافل، فلم يقابلهم المجاهد بما جرت به العادة، فنفروا، ونفر شجاع الدين معهم، وانضم إلى ذلك أن المجاهد طلب من شجاع الدين أن يقرضه سبعين ألف دينار فرفض فزاد نفوره مع مشاحنة ابن النقاش.

فلما وقف الظاهر على الكتاب أرسل به إلى الأمير شجاع الدين، فلما وقف عليه أعلن أنه ظاهري، وتوجه من ساعته، وحاصر عدن، فأقام عليها عشرين ليلة، ثم افتتحها في الثامن والعشرين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة برجال أدخلهم، وتَحيّلوا على فتح الباب، ودخلوا البلد دخولاً صعبًا، نهبت فيه أكثر البيوت الخصوصية، وعاث الجحافل في البلد، وقبضوا على ابن النقاش، ونهبوا داره، واستقر الثغر للأمير نجم الدين يوسف بن علي الصليحي، وهو رجل شهم من بيت الزعامة والرئاسة، واستقرت المملكة كلها بيد الظاهر ونوابه، ولم يبق مع الملك المجاهد غير حصن تعز، وهو يبذل لأهل صبر في كل شهر جملة من المال، خوفًا منهم أن يقطعوا عنه الماء ويحاصروه.

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة ثار الزعيم ابن الافتخار ببلاد المحالب، وتوجه إليه البحرية من قبل الظاهر، وكسروه كسرة شنيعة، وقتلوا من أصحابه جماعة.

وفي السنة المذكورة عقد الظاهر للأمير بهاء الدين بَهادُر الصقري الألوية ورُفعت إليه الطبلخاناة، ودخل زبيد دخولاً لم يعهد مثله، وعامله الظاهر بأتم إحسان، وهو مع ذلك «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتِغاء»(١).

وفي السنة المذكورة خالف أهل صبر على المجاهد، وقطعوا المياه عنه، وضعف حاله، وشعث أهل المغربة وعدنية بين أهل صبر والمجاهد فجهز الظاهر الأمراء البحرية ومقدمهم الأمير نجم الدين محمد بن طرنطاي، ووافاه الأمير شجاع الدين عمر بن بلبان الدوادار العلمي من عدن، فحطُّوا على الحصن وحاصروه.

وكان غياث الدين بن بوز من خواص أصحاب المجاهد قد فوّض إليه أمر أستاذ داريته، وأتابكية عسكره، فلما حوصر المجاهد استأذنه غياث الدين في اللحاق بهم،

---

(١) يسّر حسوًا في ارتغاء: مثل يضرب لمن يظهر طلب القليل وهو يسرّ أخذ الكثير (انظر مجمع الأمثال ٢/ ٣١٢، ولسان العرب مادة: ر غ و).

وقال: إنه إذا وصل إليهم تَحيَّل على استمالتهم إليه، فإن مالوا إليه، وإلا تحيل أن يسقي ابن الدوادار السم، فأذن له: فلما التحق بهم قالوا له: لا نقبلك ونتحقق نصحك إلا إذا نصبت المنجنيق على تعز، ورميتها به، وبالغت بالنصيحة للملك الظاهر، فراسل المجاهد في ذلك، وقال له: إنهم لا يرضون مني إلا أن أرميك بالمنجنيق، فأذن له في ذلك، فنصب عليه المنجنيق ورموه بها، وأزالوا ما بتعز من المناظر والمنازل.

قال القاضي تاج الدين: فأخبرني المحقق للحال، أن الذي وصل إلى الحصن من الحجارة المنحوتة أربعة آلاف حجر، وحصل قتل كثير، وخربت تعز خرابًا لا يتدارك، وخلت أكثر بيوتها، واستمر الحصار إلى ذي الحجة سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

ولما اشتد الحصار على المجاهد، ورأى تَألُّبَ الناس عليه، وخروج البلاد عنه، راسل السلطان الملك الناصر في ذلك، واستغاث به، وتضرع إلى مراحمه، والتزم تحمل الأموال، والتحف والنفقة في العساكر، فوصلت رسله إلى الأبواب السلطانية وذلك في سنة خمس وعشرين كما تقدم، فكان من تجهيز العساكر المصرية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: واتفق أن الأشراف كانوا قد استولوا على صنعاء بعد وفاة الملك المؤيد عندما وقع الاختلاف بين الملكين باليمن، فلما علموا أن الصقري ومن معه من المماليك استولوا على زبيد وبلاد تهامة، وأنهم مظهرون الطاعة للملك الظاهر بن الملك المنصور، مخالفون على المجاهد، وأنهم استقلوا بأموال البلاد لا يحملون منها إلى الظاهر شيئًا، تحرك الأشراف عند ذلك، ونزلوا في جمع كبير يقال إن عدتهم كانت خمسمائة فارس وكثير من الرجال، وراسلوا الأمير بهاء الدين بهادر الصقري أن يعطيهم نصف بلاد تهامة، فقال: لا جواب لكم عندنا إلا السيف، فوقعت الحرب بينهم على وادي سهام من عمل الكدراء، فكانت الدائرة على المماليك، وأسر الأشراف جماعة من أعيانهم، فعند ذلك اضطربت المحطة الذين كانوا يحاصرون المجاهد بتعز، وفارقوا الحصار، وتوجهوا لإنجاد أصحابهم، وأظهر الأشراف عند ذلك الانتصار للمجاهد.

وكان الحامل لهم على ذلك ولدا المظفر أخي المجاهد، وهما: الملك المفضَّل شمس الدين يوسف، والملك الفائز قُطْب الدين أبو بكر، فإنهما التمسا من الأشراف نصرة عمهما الملك المجاهد.

ولما حصل من الأشراف ما حصل رجع المماليك البحرية - الصقري وغيره، وغياث بن نور - إلى خدمة الملك المجاهد، ورجعت زبيد وتهامة إليه.

هذا ما أورده المولى تاج الدين في تاريخه، وبعضه شافهني به، فلنرجع إلى سياقة أخبار الدولة الناصرية لسنة خمس وعشرين وسبعمائة، وما بعدها.

ذكر تجريد طائفة من العساكر المنصورة إلى البلاد اليمنية وما كان من خبرها إلى أن عادت

قد ذكرنا وصول رسل الملك المجاهد سيف الإسلام علي بن الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية يستغيث به، ويستنجده لتفريج ما به من الكرب، وإعادة ما أخذ من بلاده إليه، فبرزت المراسيم الشريفة السلطانية في يوم الاثنين الخامس من صفر سنة خمس وعشرين وسبعمائة بتجريد طائفة من العساكر المنصورة لإنجاده، فجَرَّد لذلك من نذكر من الأمراء والمماليك السلطانية، ورجال الحلقة، وأجناد الأمراء، وهم:

الأمير ركن الدين بيبَرْس الحاجب، كان وهو مُقَدّم العسكر، وصحبته من طلبة خمسين خمسون فارسًا، ومن المماليك السلطانية سبعة عشر فارسًا ومن الأجناد والأمراء ثلاث وسبعين فارسًا، ومضافيه ومن أمراء الطبلخاناة خمسة وهم: الأمير سيف الدين أقول الحاجب، وصحبته اثنين وخمسين فارسًا من طلبة عشرين، ومن المماليك السلطانية عشر، ومن أجناد الأمراء اثنين وعشرين.

والأمير سيف الدين قجماز بنخاص وصحبة ثمانية وأربعين فارسًا من طلبه عشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر.

والأمير سيف الدين بَلبان الصَّرْخَدِي، وصحبة ثلاثة وخمسين فارسًا من طلبة خمسة وعشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر.

والأمير سيف الدين بَكْتَمُر العلائي أستاذ الدار، كان، وصحبة خمسة وخمسين فارسًا من طلبة خمسة وعشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء عشرين.

والأمير سيف الدين أَلْجَاي الساقي الناصري، وصحبته ثلاثة وخمسون فارسًا من طلبة خمسة وعشرين، ومن المماليك السلطانية عشرة، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر. ومن أمراء العشرات الأمير عز الدين أَيْدَمُر الكَوْنْدَكِي، وثلاثة من أصحابه.

والأمير شمس الدين إبراهيم التُّرْكُماني كذلك، ومن مقدمي الحلقة المنصورة خمسة، وهم: سيف الدين كُكْتَمُر بن كراي الظاهري، ومضافية ثلاثين فارسًا. علاء الدين علي بن أميرك الدَّوادار، ومن مضافية ثلاثة وثلاثين. عز الدين أيْدَمُر الحسامي، ومن مضافية اثنين وثلاثين، بهاء الدين بَكْمش الحُسامي ومضافية كذلك، عز الدين أزْدَمُر السيفي[١]، ومن مضافية تسعة وعشرين. هذه التقدمة الأولى.

والتقدمة الثانية: الأمير سيف الدين طَيْنال حاجب الميسرة، وهو أحد مُقَدّمي الألوف، وصحبتُه من طلبة أربعين فارسًا، من المماليك السلطانية، خمسة عشر فارسًا، ومن أجناد الأمراء اثنين وأربعين فارسًا، ومضافيه من أمراء الطبلخاناة خمسة، وهم: الأمير سيف الدين ططقر العفيفي الناصري[٢] وصحبة أربعة وخمسين فارسًا من طلبة خمسة وعشرين فارسًا، ومن المماليك السلطانية تسعة نفر، ومن أجناد الأمراء عشرين، والأمير سيف الدين كوكاي طاز وصحبة تسعة وأربعين فارسًا من طلبة عشرين فارسًا، ومن المماليك السلطانية تسعة، ومن أجناد الأمراء عشرين فارسًا، والأمير علاء الدين علي ابن الأمير سيف الدين طُغْرِيل الإتْقاني[٣] وصحبته كذلك، والأمير عز الدين أيْبَك الكَوْنْدَكي، وصحبة ستة وأربعين فارسًا من طلبة عشرين فارسًا، ومن المماليك السلطانية ثمانية، ومن أجناد الأمراء ثمانية عشر، والأمير سيف الدين جَرِباش[٤] أمير علم، وصحبة أحد وأربعين فارسًا من طلبة خمسة عشر، ومن المماليك السلطانية تسعة، ومن أجناد الأمراء سبعة عشر، ومن أمراء العشرات: الأمير سيف الدين بَلَبان الدَّوادارِي، وثلاثة من أصحابه، والأمير حسام الدين طُرُنْطاي الإسماعيلي كذلك.

ومن مُقَدّمي الحلقة المنصورة خمسة، وهم: سيف الدين سوندك الجاشْنَكير، ومن مضافية ثلاثين فارسًا بدر الدين بيليك أمير آخُور، ومن مضافية تسعة وعشرين: سيف الدين طاجار الفَخْري، ومن مضافيه كذلك شمس الدين سُنْقُر الشمسي، ومن مضافية ثمانية وعشرين سيف الدين أسَنْدَمُر السَّيفي، ومن مضافية كذلك.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٥.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٠، النجوم الزاهرة ٩/ ٧٨.

(٣) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٠، والدرر الكامنة ٢/ ٢٢٢.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٧٨، والسلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٠.

فكانت عدة هذا العسكر ألف فارس وخمسة وسبعين فارسًا، ومن أمراء الطَّبْلَخاناة اثني عشرة، عدتهم ثلاثمائة، وخمسة من أمراء العَشَرات ممن عدتهم ستة عشر، ومن المماليك السلطانية مائة وستة وعشرين، ومن مقدمي الحلقة المنصورة ومضافيهم ثلاثمائة ومن أجناد الأمراء ثلاثمائة وستة، فتجهز هذا العسكر أحسن جهاز وأجمله، وجهز السلطان ـ خلّد الله ملكه ـ معهم خزانة مال، ورسم لمقدم الجيش الأمير ركن الدين المذكور أن ينفق المال لمن نفق له فرس، أو تَنَبَّل[1] له جمل، وجهز صحبة المقدم المذكور عدة تشاريف لملك اليمن، وأمراء الحجاز، وغيرهم من العُربان.

قال: وكان بروز هذا العسكر من القاهرة المحروسة في يوم الخميس خامس شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ورحل أوائل العسكر من بركة الجب بظاهر القاهرة المحروسة في يوم الاثنين التاسع من الشهر، وتكامل رحيله في يوم الأربعاء حادي عشر، واستمر بهم السير إلى أن وصلوا إلى مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ معتمرين في السادس والعشرين من جمادى الأولى، وأقاموا بمكة عشرة أيام، وكتب الأمير ركن الدين مقدم العسكر الأمانات، وسيّرها أمامه إلى العُرْبان، وإلى أهل حَلْي بني يعقوب، وإلى الأشراف بالمخلاف السليماني، وضمنها ما برزت به الأوامر السلطانية من الوصية بمن تَمُرُّ العساكر عليه منهم، وعدم التعرض إلى أموالهم وغلالهم، والإحسان إليهم، فاستقرت خواطرهم بذلك، ولم ينفروا من العسكر.

وحضر الرسل إلى مقدم العسكر وهو بمكة، وسألوه أن يكتب إلى الملك المجاهد كتابًا يخبره فيه بوصول العسكر، فكتب إليه، وجهز الكتاب على يد بعض رفقتهم إليه في البحر، ورحل العسكر من مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ في السادس من جمادى الآخرة، وفي صحبته الأمير السيد الشريف سيف الدين عُطَيْفة[2] أمير مكة، والأمير الشريف ناصر الدين عُقَيل أمير يَنْبُع، وتأخر الأمير عز الدين رُمَيْثَة[3] عن الحضور، حتى حلف له مقدم العسكر وأمنه، فلحق بالعسكر المنصور في الخامس والعشرين من الشهر في أثناء الطريق، ووصل العسكر إلى حَلْي بن يعقوب في سادس عشر الشهر، وأقام العسكر به يومين للراحة والاستراحة، ورحل في تاسع عشر

(١) تنبّل الرجل، أو البعير: مات.

(٢) سيف الدين عطيفة: هو عطيفة بن محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس الحسني (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٤٥٥).

(٣) عز الدين رميثة: توفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١١١).

الشهر، ونزل جَعْل، وتعرّف بعَمْق وهو أول بلاد المين، ووصل إلى حَرَض في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة، وهي أول بلد يُجْبَى خراجه لملك اليمن، وهي خاص الملك، وعند الوصول إليها أشهر مقدم العسكر النداء بالعَدْل، وألا يتعرض أحد للرعية، ورحل منها ووصل إلى المَحالِب في ثالث شهر رجب.

ووصل جواب الملك المجاهد إلى مقدم العسكر بهذه المنزلة، وظهر من فحوى جوابه ما دلّ على أنه سُقِطَ في يده، وندم على طلب العسكر، وخاف على نفسه، فأعيد جوابه صحبة جمال الدين عبد الله الدواداري البريدي بما يُسكّن خاطره، ويُطَيّب نفسه، وكان الحصار قد ارتفع عن الملك المجاهد لما بلغهم إقبال العسكر، وأطاعه جماعة ممن كان خالفه، وخرج عليه كما تقدم، وقبض المجاهد عند ذلك على ابن عمه جلال الدين بن الملك الأشرف وابن طُرُنْطاي وحضر إلى مدينة زبيد، ليتلقى العسكر، فلما قرب العسكر من زبيد قويت إشاعة أن الملك المجاهد عزم على ألا يتلقى العسكر، وأن يعود إلى تعز، ووصل العسكر إلى بلد تسمى فَشَال في ثامن رجب، فأرسل مقدم العسكر إلى المجاهد مُلَطَّفًا كان على يده من جهة السلطان يخبره فيه بما رسم فيه باطنًا وأرسله على يد الأميرين: عز الدين أَيْدَمُر الكَوُنْدكِي[1]، وحسام الدين طُرُنْطاي الإسماعيلي، وهما من أمراء العشرات، فتوجها إليه، وعرفاه أن يقف على الملّطف، ويكتم ما تضمنه، وإذا وصل المثال السلطاني، وقرىء في المجلس العام تقابَلُ الأوامر فيه بالسمع والطاعة.

ثم وصل العسكر إلى زبيد في يوم الأحد عاشر رجب الفرد، وخرج الملك المجاهد للقائه، فتلقاه بالقرب من أسوار البلد، وألبسه مقدم العسكر التشريف السلطاني، وعاد المجاهد والعساكر في خدمته إلى داره، وترجل مقدم الجيش والأمراء في خدمته حسب ما أمرهم السلطان، ومشوا حتى انتهوا إلى الإيوان الذي يمد فيه الإخْوان[2]، فعضده الأمير ركن الدين بِيبَرْس عند نزوله عن فرسه، وبذلك كله كان السلطان أمره عند توجهه، وقرىء عليه المثال السلطاني، في المجلس العام بعد أن قبّل الملك المجاهد الأرض عند رؤية المثال، ومدّ المجاهد للعسكر إخوانًا.

وتحدّث مقدم العسكر مع الملك المجاهد في إرسال رسول إلى الملك الظاهر بقلعة الدُّمْلُوَة بالمثال السلطاني إليه، فوافق على ذلك، ثم كرهه بعد الموافقة، فجهز

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٨٧.
(٢) الإخوان: هو الخِوان (بضم الخاء وكسرها)، وهو ما يوضع عليه الطعام.

إلى الظاهر عز الدين الكَوُنْدَكِي، وحسام الدين طُرُنْطاي الإسماعيلي، فتوجها من زبيد نحو الدُّمْلُوَة ولما توجها تحدّث الملك المجاهد مع مقدم العسكر أن يجرد معه مائتي فارس، ليتوجه أمامه إلى تعز، وذكر له أنه بلغه أن الملك الظاهر قد عزم على مفارقة الدُّمْلُوَة، واللحاق بحصن السَّمَدان، وأنه حصن حصين، ومتى صار به تعذر الوصول إليه، وذكر أن الطريق لا تسع العساكر بجملتها، فجرد معه الأمير سيف الدين ططقر العفيفي السلاح دار، والأمير سيف الدين قَجْماز بنخاص، وتوجهوا من زبيد في سادس عشر رجب، ووصلوا إلى تعز في العشرين من الشهر.

ثم توجه الأمير ركن الدين ببقية العسكر إلى تَعِزّ، فوجد رسله الذين أرسلهم إلى الملك الظاهر قد منعهم نائب قلعة تَعِزّ من التوجه إلى الدُّمْلُوَة، واعتذر أنه خشي عليهم من الطرقات، فجهز معهم الأمير سيف الدين عُطَيْفة أمير مكة، وتوجهوا إلى الملك الظاهر، واجتمعوا به، فوقف على المثال السلطاني، وكان يتضمن الاتفاق بين الملكين، فسأل الظاهر الكشف عن سيرته وسيرة المجاهد، وأن تكون قلعة الدُّمْلُوَة للسلطان، ويكون نائبه بها، وأكرم الرسل غاية الإكرام، وأعادهم.

وحصل من الملك المجاهد في خلال ذلك اضطراب كثير، وعدم موافاة بما كان التزم به، وقرره على نفسه من النفقة على العسكر، وكان جميع ما أعطاهم في جملة ثمن ما تَنَبَّلَ للجند من الجمال ثمانية وأربعين ألف درهم، وطولب بعُلُوفات دوابهم، فاعتذر أن خيله لها سبعة أيام ما أكلت عليقًا، وأنه لا شيء عنده، فالتمس منه أن يأمر رعيته ببيع العليق للجند، والجند يقومون بالثمن، فقال: ما عندي إلا ما تأخذونه بسيوفكم.

ولم يكن مع المقدم مرسوم بالقبض على المجاهد، ولا نهب البلاد، فلذلك كفّ العسكر عنهم، وضاقت المِيرَةُ على العسكر، ومرض جماعة منهم، وتوجه جماعة من أجناد الحلقة إلى بعض الجهات ليبتاعوا ذرة برسم عليق دوابهم، فخرج عليهم جماعة من أهل جبل صَبِر، فأخذوا الجمال، وجرحوا الجَمّال، فوصل الخبر إلى مقدم العسكر، فأرسل جماعة لكشف الخبر، فقاتلهم أهل الجبل وكاثروهم، فركب بنفسه، وتوجه إليهم، فاعتصموا منه بالجبل، وهو جبل وَعْر صعب المسلك لا ماء فيه، فصعد جماعة من العسكر إلى الجبل مشاة، وقتلوا من أهله نحو ثلاثمائة نفر، واشتد العطش بالعسكر، فمات منهم خمسة أحدهم من المماليك السلطانية، والآخر من الحلقة، وثلاثة من أصحاب الأمير سيف الدين قَجْماز بنخاص.

وظهر لمقدم العسكر أن الملك المجاهد قد ضاق من العسكر، وعمل على ما يحصل به الضرر التام، وسأل أن يفرق العسكر، ويتوجه بعضه إلى عَدَن، وبعضه إلى لَحْج وأبْيَن وضُبا ونواحيها، وبعضهم إلى مخلاف جعفر، وبعضهم إلى بلاد المُغَلسي وغير ذلك من الجهات، وقصد بذلك أن يفرق العسكر في البلاد خوفًا على نفسه منه، وقابل إحسان السلطان بالإساءة على ما نقل مقدم العسكر عنه.

ثم بلغ المقدم أن بَهادُر الصقري قرر مع المجاهد أن يمنع أهل البلاد من بيع العلوفات على العسكر، وربما شهر النداء بذلك، وكان الأمر السلطاني قد برز لمقدم العسكر أنه متى ظفر ببَهادُر الصقري يقتله، فأخر المقدم قتله ليطمئن غيره ممن كان قد خالف الملك المجاهد، ويحضروا، ثم ينفذ فيهم أمر السلطان.

فلما تحقق المقدم سوء طويته ركب إلى خيمة بَهادُر الصقري، وقبض عليه وعلى الغياث بن نور، وكانا ممن خالف المجاهد وألّبا عليه كما تقدم، ثم رجعا إلى طاعته لما بلغهم قرب العسكر، ثم عملا على إفساد العسكر، ولما قبض على الصقري، وَسَّطَه لوقته، وقيّد الغياث بن نور، وهو أيضًا ممن رسم السلطان بقتله، وشهد عليه جمال الدين محمد بن مؤمن، والزعيم عند مقدم العسكر ـ على ما حكاه المقدم في مطالعته للسلطان ـ أنه عمل على الإضرار بالعسكر، ومنع الأجلاب عنه، فلم يزل في القيد إلى أن رجع العسكر، ووصل إلى حرض فوَسّطه المقدم بالقرب من المخلاف السليماني.

وأما الملك المجاهد، فإنه لما ضاق بالعسكر، واشتد خوفه منه، قال للمقدم: إن كان السلطان قد رسم لكم بالإقامة باليمن فالأمر إليه، وإن كان إنما أرسلكم لنصرتي فارجعوا إلى أبواب السلطان، وأحضر القاضي والشهود، وأشهد على نفسه أنه أذن للعسكر في العود، ثم طلع المجاهد إلى القلعة، وامتنع من النزول إلى العسكر، فأرسل إلى المقدم أن يرحل بالجيش، وأنه يلحقه إلى زبيد، فعاد العسكر من تَعِزّ في التاسع من شعبان، ووصل إلى زبيد، وأقام بها في ميعاد المجاهد، فوصل الزعيم إلى مقدم العسكر، وأخبره أن الملك المجاهد تَوجّه من تَعِزّ إلى بعض الجهات، فانتظره المقدم ثمانية أيام، فلم يصل فعاد بالعسكر.

ولما وصل إلى منزلة بالقرب من بئر علي، توفي الأمير سيف الدين ططقر العفيفي السلاح دار الناصري، وكان رحمه الله تعالى رجلاً جيدًا كريمًا، صادق اللهجة، ووصل أوائل العسكر إلى مكة شرّفها الله تعالى عائدًا إلى الديار المصرية في عاشر شهر رمضان، وآخره في ثالث عشره وأقام بها بقية شهر رمضان، ثم توجه منها إلى الديار المصرية.

وكان وصول جاليش[١] العسكر إلى القاهرة المحروسة في يوم الخميس مستهل ذي القعدة من السنة، ووصل المقدم وبقية الجيش في يوم السبت ثالث الشهر، ومثلوا بين يدي السلطان في يوم الاثنين خامس الشهر، وخلع على الأمراء في هذا اليوم، فخلع على الأميرين المقدمين خِلَعًا كاملة بكَلُّوتات زَرْكَش، وحوائص ذهب، وخلع على بقية الأمراء خلعًا كاملة على عادتهم، وزيد الأمير سيف الدين كوكاي في خلعته كَلُّوتَة زركشًا، ثم كان بعد ذلك من أمر الأمير ركن الدين بِيبَرْس الحاجب، والقبض عليه ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

وفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة أيضًا، في العاشر من شهر ربيع الأول وصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل بالمحروسة الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة بالشام المحروس على خيل البريد، وشمله الإنعام السلطاني والتشاريف، وعاد إلى دمشق على عادته في النيابة، وكان وصوله إليها في يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

ذكر حفر الخليج الناصري

وفي هذه السنة أمر السلطان بحفر خليج مُسْتَجَدّ سمي الخليج الناصري عوضًا عن خليج الذكر، وجعل فوهته من قبلي خليج الذكر، وتولى أمره نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرغون الناصري، وولاه الأعمال البرانية، وابتدأ بحفره من فم البحر، ومر به على باب اللوق، ثم إلى بركة قرموط، واتصل الحفر إلى أن انتهى إلى الخليج الحاكمي، وبطل خليج الذكر، وسدّ فمه وبنى على هذا الخليج الناصري عدة قناطر في عدة أماكن منه، لسلوك المارّة عليها فأنشأ القاضي فخر الدين ناظر الجيوش قنطرة عند فم الخليج بقرب البحر، وأنشأ الأمير سيف الدين قُدودار متولي القاهرة قنطرة عند باب اللوق، وأنشأ القاضي شمس الدين عبد الله غبريال قنطرة عند دائرة بركة قرموط، وأمر السلطان بإنشاء قنطرة عند باب البحر بظاهر القاهرة، وأنشأ بعد ذلك في سنة ست وعشرين الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي ـ الحاجب كان ـ قنطرة

(١) الجاليش: كلمة فارسية، ومعناها: الحرب والمعركة، والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل، وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يومًا قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخاناه (مكان في القلعة). والجاليش أيضًا تستعمل بمعنى طليعة الجند، وقد ذكرها المقريزي بشينين «شاليش»، ويجمع على «جواليش» (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٨، وصبح الأعشى ٤/ ٧).

في أرض الطَّبّالة خارج باب الشعرية، وأنشأ الأمير جمال الدين آقُوش الأشرفي المعروف بنائب الكَرَك قنطرة قبلي قناطر الأوز عند اجتماع الخليجين الحاكمي والناصري، وحصل بهذا الخليج نفع كثير، وجرى مدة طويلة بعد انقطاع الخليج الحاكمي، ثم نشف.

وفيها في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر ضُرِب عنق نصراني تعرض إلى ذكر دين الإسلام، وأغض منه، وأصَرّ على إظهار ذلك، فحكم قاضي القضاة تقي الدين بن الأخنائي المالكي[١] بإراقة دمه، وأنهى أمره إلى السلطان، فرسم بتنفيذ حكمه، فجلس بعد صلاة العصر من اليوم المذكور بالمدرسة الصالحية بإيوان المالكية، وضربت عنقه بين يديه.

ذكر عمارة القصر والخانقاة[٢] بسماسم والجلوس بالخانقاة

وفي هذه السنة كملت عمارة القصر والخانقاة الناصرية بأراضي سماسم بالقرب من سَرْياقُوس، وحصل الجلوس في يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة، ورسم السلطان بحضور قُضاةِ القضاة، والعلماء، وسائر مشايخ الزوايا والخوانق والربط بالقاهرة ومصر المحروستين والقرافتين، ومن معهم من الفقراء، وحضر السلطان ونائبه، وأكابر أمراء دولته، واجتمعوا بالخانقاة، ومدت الأسمطة الكثيرة من الأطعمة اللذيذة، والأشوية، والحلويات والمشروب، وخلع على شيخ الشيوخ علاء الدين القونوي[٣]، وشيخ الخانقاة المذكورة الشيخ مجد الدين

---

(١) تقي الدين بن الأخنائي: هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الأخنائي المالكي، ولد سنة ٦٦٠هـ، ولي قضاء المالكية بالديار المصرية، وكان الملك الناصر يحبه ويرجع إليه في أمور كثيرة، مات بالطاعون سنة ٧٥٠هـ، وقال السيوطي في حسن المحاضرة: له تصانيف حسنة (انظر ترجمته في كشف الظنون ٦/ ١٥٧، الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٩).

(٢) الخانقاه: كلمة فارسية معناها «بيت» وأصلها «خونقاه» أي الموضع الذي يأكل فيه الملك (خطط المقريزي ٢/ ٤١٤).

(٣) علاء الدين القونوي: هو علي بن إسماعيل بن يوسف، علاء الدين، أبو الحسن القونوي الأصولي الشافعي. قدم القاهرة ودرس بها، ثم تولى قضاء الشام، ولد سنة ٦٦٨هـ، وتوفي سنة ٧٢٩هـ، له من المصنفات: «الإعلام في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»، «التصرف في شرح التعرف في التصوف»، «شرح حاوي الصغير للقزويني» في الفروع، «مختصر المعالم في الأصول»، «مختصر المنهاج» (انظر: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤، طبقات الشافعية ٦/ ١٤٤، شذرات الذهب ٦/ ٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ١٨١).

الأقْصُرائي(١) وغيرهما من المشايخ والقضاة، وفرقت الأموال الكثيرة على سائر فقراء الخوانق والزوايا والربط من الذهب والفضة، وكان يومًا مشهودًا.

ورتب السلطان بالخانقاة أربعين صوفيًا، ورتب لهم فوق الكفاية، ورتب لكل منهم في كل شهر أربعين درهمًا، وفي كل يوم ثلاثة أرطال خبز، ورتب سِماطًا عامًا يمد في كل يوم يأكله الفقراء المقيمون بها، والواردون إليها، وجعل للواردين إليها ضيافة، وأنشأ بها حمامًا للسبيل، وجامعًا، ورتب له خطيبًا، واحتفل بالمكان غاية الاحتفال، وأنشأ به بساتين، ووقف على الخانقاة أوقافًا كثيرة، يفضل ريعها عن كفايتها، ثم زاد بعد ذلك عِدَّة الصوفية، فجعلهم مائة، ووَصَلَهم بالافتقاد الوافر، ورتب لهم في كل شهر عند وصوله إلى الخانقاة سبعة آلاف درهم يخص الشيخ منها بألفي درهم، وتفرق منها خمسة آلاف على الفقراء، وليس هذا المال من الوقف، وإنما هو من ديوان الخاصّ السلطاني، وسمع السلطان في هذا اليوم أحاديث نبوية على قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة(٢) بقراءة ولده القاضي عز الدين عبد العزيز، وانفصل هذا الجمع بأوفر الصلات، وأتم الإنعام.

ذكر رَوْك(٣) الإقطاعات بالمملكة الحلبية

وفي هذه السنة أمر السلطان برَوْك المملكة الحلبية، فإنه لم يتأخر من الممالك بغير رَوْك سواها، وتوجه لذلك الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي(٤) الناصري مُدَبِّر المملكة في العشر الأخر من جمادى الآخرة وصحبته مكين الدين إبراهيم بن قَزْوِينَة مُستوفِي الصحبة، وكان عوده في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان، وحصل الانتصاب لتحرير الرَّوْك، وتعين فيه جملة أقطع عليها جماعة من المماليك السلطانية والحلقة.

---

(١) مجد الدين الأقصرائي: هو موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائي الحنفي، مجد الدين، توفي سنة ٧٤٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٢٤).

(٢) بدر الدين محمد بن جماعة: تقدمت ترجمته.

(٣) الروك: في الاصطلاح التاريخي معناه مسح أرض الزراعة في بلد من البلدان لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال. والروك مأخوذ من الكلمة القبطية «روش» ومعناها قياس الأرض بالحبل (انظر خطط المقريزي ١/ ٨٧ ـ ٨٨، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٦٥، السلوك للمقريزي ٢/ ١٤٦).

(٤) هو الأمير علاء الدين مغلطاي بن عبد الله الجمالي، كان يلقب بخرز، ومعناه: ديك، توفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤/ ٣٥٤).

وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رمضان عادت رسل السلطان من جهة الملك أُزْبَك صاحب البلاد الشمالية، وهم: الأمير سيف الدين بُكْمَش الجَمَدار الظاهري، والأمير بدر الدين بيليك السَّيفي السَّلاري المعروف بأبي غُدَّة، وصحبتهما رسله ورسل الأشْكَرِي(١)، ومعهم التقادم، فسمع السلطان رسالتهم، وأنعم عليهم، وأعادهم صحبة رسله، وهم الأمير سيف الدين أضجلي أحد الأمراء، وسيف الدين قَرادَمُر أحد المقدمين، وأصحبهم الهدايا، فتوجهوا، وكان خروج رسل الملك أُزْبَك من بين يدي السلطان في يوم الاثنين السادس من شوال، بعد أن شملهم بالخلع والإنعام، وتوجهوا في يوم الجمعة عاشر الشهر.

ذكر وفاة الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري(٢)

وفي ليلة الخميس المسفر صباحها عن خامس عشرين شهر رمضان المعظم من هذه السنة كانت وفاة الأمير ركن الدين بِيبَرْس الدَّوادار المنصوري، وهو من أكابر مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون في زمن إمرته، وكان رحمه الله تعالى أجلّ الأمراء في وقته لا يَتَخطّاه أحد، ولا يجلس في مرتبته، وهو رأس الميسرة، وتَأمَّر في ابتداء الدولة المنصورية السيفية، ثم فوّض السلطان الملك المنصور إليه نيابة قلعة الكَرَك كما تقدم، ونقل منها إلى الديار المصرية في جملة الأمراء في الدولة الأشرفية الصّلاحية، وَرُدَّ إليه في ابتداء الدولة الناصرية أمر ديوان المكاتبات لصغر سن السلطان في ذلك الوقت، وتنقّل في المراتب؛ فكان ينوب عن السلطنة الشريفة في الغَيْبة، ثم ولي نيابة دار العدل الشريف، ونظر البِيمارِسْتان المنصوري في أول الدولة النّاصِريّة الثالثة، ثم فوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة استقلالاً، ثم قُبض عليه بعد ذلك، وأُفرج عنه كما تقدم ذكر ذلك، واستقر في جملة أكابر الأمراء، وجلس رأس الميسرة، وكان رحمه الله تعالى مُولعًا بالتاريخ، يُديم مطالعته، وألّف كتابًا سماه: «زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلدًا، وتاريخًا مختصرًا منه في مجلدين، واستعان على تأليفه في ابتدائه بكاتبه

---

(١) الأشكري: هو ملك بيزنطية (انظر النجوم الزاهرة ٩/ ٣٤٣).

(٢) هو ركن الدين بيبرس (ويقال بكبرس) بن عبد الله المنصوري الخطائي الدواداري، له من المصنفات: «تفسير القرآن»، «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» (انظر ترجمته في كشف الظنون ٥/ ٢٣٣، الدرر الكامنة ١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٩، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٣).

شمس الرئاسة بن كبر النصراني[١]، وكان الأمير ركن الدين رحمه الله تعالى من بقايا الخير.

ولما مات فرق السلطان إقطاعه، فأعطى الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي مُدَبِّر الدولة وأستاذ الدار العالية منه خمسين فارسًا على ما بيده، وقدّمه على ألف فارس، وأعطى بقيته للأمير سيف الدين بَلَبان السَّنائِي[٢] أحد أمراء العشرات وأمَّرَه بطبلخاناه، وجعل الأمير عز الدين أَيْدَمُرَ الخَطِيري[٣] رأس الميسرة.

وفي سنة خمس وعشرين أيضًا كان عيد الفطر بالقاهرة، والديار المصرية في يوم الأربعاء، وأما دمشق فإن الناس ارتقبوا الهلال في ليلة الثلاثاء فلم يره أحد، فصلّى الناس التراويح، وسَحَّر المُؤَذِّنون بالمواذن، وأصبح الناس صيامًا إلى نصف النهار، ثم ثبت على الحكام بدمشق رؤية الهلال، ونودي بذلك، وأفطر الناس بقية النهار، وصلّى صلاة العيد في يوم الأربعاء قضاء بالجامع الأموي دون المصلّى، نقلت ذلك من تاريخ الشيخ علم الدين القاسم بن البِرْزالي...

وفيها توجه الحاج على العادة وكان رحيل المحمل السلطاني من بركة الجب في يوم الجمعة سابع عشر شوال، وأمير الحاج الأمير سيف الدين طُرْجِي[٤] أمير مجلس، فلما وصل الناس إلى منزلة السويس، حصل حر شديد مفرط، وقلّ الماء، فرجع من الناس خلق كثير من الأعيان وغيرهم.

ذكر القبض على الأمير ركن الدين بِيبرس الحاجب وتنقل الأمراء في الإقطاعات والتَّقادِمِ

قد ذكرنا في هذه السنة أن الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب[٥] عاد من بلاد اليمن بمن معه من العسكر في يوم السبت الثالث من ذي القعدة، وأنه خلع عليه وعلى الأمراء في يوم الاثنين خامس الشهر، وقدم تقدمته، وأهدى للأمراء هداياه، وقبل ذلك منه، ثم أعطى بعد ذلك بأيام قَبَاء الشِّتاء بطَرْدوحش.

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤، والسلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٩، والدرر الكامنة ١/ ٥١٠.

(٢) توفي سنة ٧٥٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٩٣).

(٣) توفي سنة ٧٣٨هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٢، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٩، الدرر الكامنة ١/ ٤٢٩).

(٤) توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٧).

(٥) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٥٠٨).

فلما كان في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر المذكور، وحضر إلى الخدمة السلطانية على عادته، ومشى في خدمته نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُون(١) إلى دار النيابة، فقال له نائب السلطنة: قد برز أمر السلطان أن تتوجه إلى نيابة السلطنة وتقدمة العسكر بغَزّة، فظنّ أن المراد بذلك القبض عليه، فامتنع من قبول الولاية، فقال: ما المملوكِ من هذا القبيل، أنا من جملة أوشاقية(٢) السلطان، فإن كان قد رسم فيّ بأمر فمن الآن، وحلّ سيفه بيده، فغضب نائب السلطنة منه، وعوّقه بدار النيابة، واجتمع بالسلطان، وأخبره بذلك، فأرسل السلطان إليه الأمير سيف الدين قِجْلِيس(٣) أمير سلاح، وأمره بأنه متى أصرّ على الامتناع يقتله، فكلمه في ذلك وراجعه، فصمم على أنه لا يتوجه إلى غزة أبدًا، واختار الاعتقال على ذلك، فاعتقل في برج عند باب القلعة وخرج إقطاعه للأمير سيف الدين طيْنال، وفرق إقطاع طينال، فكمل للأمير سيف الدين أيْتَمُش المحمدي مائة فارس، وقدم على ألف، وأمر في يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر اثنان بطبلخاناة، أحدهما: على ما بقي من الإقطاع المحلول عند تنقل الأمراء، والثاني: على إقطاع الأمير سيف الدين، ونقل بَهادُر البدري إلى نيابة السلطنة بقلعة الكرك، وتضمن تقليده أن يكون نائبًا عن أولاد السلطان بالكَرَك، ونقل نائب السلطنة بالكَرَك إلى نيابة السلطنة وتقدمة العسكر بغزة المحروسة.

وعرض السلطان في يوم الخميس المذكور المماليك الكتابية، وعيّن منهم سبعين مملوكًا لخدمة ولده الذي تقرر إرساله إلى الكَرَك.

وفيها، في يوم الاثنين ثالث ذي الحجة أمر السلطان بالقبض على الأمير أبي إسحاق إبراهيم ولد أخي الخليفة أبي الربيع سليمان(٤)، واعتقاله، وسبب ذلك أنه تزوج امرأة مغنية تعرف بفالِحَة بنت المغربية، فوقفت أمها للسلطان، وشكته، وادعت أنه تمم على الشهود، وأحضر امرأة غيرها، وسماها باسمها، واستأذنها الشهود

(١) هو أرغون بن عبد الله الناصري، توفي بحلب سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في السلوك للمقريزي ٢/ ٢٦٨، ٣٣٩، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٨، الدرر الكامنة ١/ ٣٥١).

(٢) أوشاقية: ويقال أيضًا «أوجاقية» بالجيم المعجمة، واحدها «أوشاقي» أو «أوجاقي» وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة (صبح الأعشى ٥/ ٤٢٧).

(٣) هو قجليس بن عبد الله، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٧، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٣٩، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) هو الخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان بن أحمد، أبو الربيع، توفي بقوص سنة ٧٤٠هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٤١).

فأذنت، وعقد العقد عليها ولم تكن هي، وادعى هو أن العقد إنما وقع عليها دون غيرها، وشهد الشهود بصحة العقد، فأمره السلطان بطلاقها، وأرسل إليه يقول: إنكم من بيت الخلافة، ولا يصلح أن تفعل مثل هذا، وزواج هذه عارٌ عليك، فصمم على ألا يفارقها، واعتذر أنه يمسكها خشية أنه إذا فارقها تعود إلى الغناء، فيكون عليه عارها، فرسم السلطان أنها لا تمكن من الغناء، وراجعه في طلاقها، فأصرّ وأبى ذلك، وامتنع منه، فأمر باعتقاله، فاعتقل بالبرج في قلعة الجبل، وادعى أنه غَرِم عليها نحو خمسين ألف درهم، وأمر السلطان أن يستخرج ذلك منها، واعتقلت عند الشيخة البغدادية، وأخذوا جوارِيَها المغنيات، وبقي الأمير إبراهيم المذكور في الاعتقال أيامًا أفرج عنه نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُن، وأرسل إليه مع بَهادُر العلمي نائب الفتاح يقول له: رسم لك السلطان إن لم تطلقها حصل لك ما لا يمكن أن تستدرك فارطه، وأشهد عليه بطلاقها، فعرفه بَهادُر المذكور الرسالة، وشدّد عليه الجواب، وما فارقه إلى أن شهد عليه بطلاقها، فتوجه بهادر، وعرف الأمير سيف الدين أرْغُن أنه تلفظ بالطلاق، فشاور عليه السلطان فأفرج عنه حين أذن، ففارقها وعادت لما كانت عليه من الغناء.

ذكر توجه السلطان إلى الصيد والإفراج عمن نذكر من الأمراء

وفي هذه السنة في يوم الخميس الثالث عشر من ذي الحجة توجه السلطان إلى الصيد المبارك، وقصد جهة البحيرة.

ولما قارب ثغر الإسكندرية أرسل الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي مدبر المملكة وأستاذ دار العالية إلى الثغر، وأمره بالإفراج عن الأميرين سيف الدين طاجار المحمدي(١)، وسيف الدين كيتم(٢)، وأمره أن يكشف أحوال الأمراء المعتقلين بالثغر، ومن اختار أن يكتب قصة فليستصحبها معه، ففعل ذلك، وكتب الأمراء قصصًا بما أحبُّوا، وامتنع الأمير بهادر النقوي(٣) أمير جاندار ـ كان ـ والأمير سيف الدين بَلَبان الشمسي من كتابة قصة، وقالوا: نحن لنا ذنوب عند السلطان، وبأي وجه نرفع إليه قصة، فلما عاد الأمير علاء الدين إلى السلطان عرض على السلطان قصص الأمراء

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٢١٣، النجوم الزاهرة ٩/١٤٦، السلوك للمقريزي ٢/٢٦٩.
(٢) توفي سنة ٧٤٩هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٢٧٠).
(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٤٩٨، السلوك ٢/٢٦٩.

وأخبره بامتناع الأميرين المذكورين من كتابة قصة، وبما قالاه، فشملتهما عواطفه، وأمر بالإفراج عنهما، وأحضرا إلى المخيم المنصوري، وخلع على الأمراء الأربعة المذكورين، وحضروا إلى القاهرة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذي الحجة.

وفيها في ليلة الأحد ثامن عشر صفر توفي الشيخ الإمام المقرىء المتقن المعمر تقي الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكي المصري الشافعي المعروف بالصائغ(١) شيخ القراءات في وقته، وكانت وفاته بمصر، وصلّى عليه يوم الأحد بعد صلاة الظهر بالجامع العمري بمصر، وأَمَّ الناسَ في الصلاة عليه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جَمَاعة الشافعي، ودفن بالقرافة، ومولده في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وستمائة بمصر، قرأ القرآن على الكمال الضرير، وسمع الحديث من الرشيد العطار، وابن البُرهان، وغيرهما رحمهما الله تعالى.

وتوفي في ليلة السبت مستهل شهر ربيع الأول الخطيب جمال الدين محمد بن الخطيب تقي الدين محمد بن مجد الدين الحسن بن الشيخ تاج الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن القَسْطَلاني(٢) خطيب جامع قلعة الجبل المحروسة، وإمام الجامع العمري بمصر، ودفن من الغد بالقرافة، سمع من ابن خطيب المِزَّة، وصحب الشيخ العارف أبا محمد المَرْجاني، وحجّ معه ولازمه، ومولده سنة ثلاث وستين وستمائة تقريبًا، وخطب بالجامع العمري بمصر بعد والده في سنة خمس وتسعين وستمائة، وخطب والده بالجامع المذكور قبله ثماني عشرة سنة.

ولما مات الخطيب جمال الدين، عرض جماعة من الخطباء على السلطان وخطب كل منهم بجامع القلعة، ومنهم من خطب في مجلس السلطان في غير يوم الجمعة، ثم استقرت الخطابة بجامع قلعة الجبل باسم ابن أخيه الخطيب تقي الدين بن الخطيب نور الدين، واستقر ولده الخطيب زين الدين أحمد بن جمال الدين في خطابة جامع عمرو بمصر، وإمامته ونظره.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٢٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٧٣.

وتوفي في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة الشيخ الفقيه المفتي شرف الدين يونس بن أحمد بن صلاح القَرْقَشَنْدِي الشافعي[١]، أحد المفتين، وأحد المعيدين بزاوية الإمام الشافعي بالجامع العمري بمصر، ودفن من يومه بالقرافة، رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الآخر، توفي القاضي الفقيه الإمام العالم سراج الدين يونس بن عبد المجيد بن علي بن داود الهُذَلي الشافعي الأرْمَنْتِي[٢] قاضي الأعمال القوصِيَّة، وكانت وفاته بظاهر مدينة قوص بالمشهد الذي يسكنه الحكام بقوص من لسعة عقرب، ومولده بأرمَنْت من عمل قوص في المحرم سنة أربع وأربعين وستمائة، وكان فقيهًا فاضلاً أصوليًا وله مصنفات وشعر لَيِّن، رحمه الله تعالى.

وتوفي في الليلة المسفرة عن ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة القاضي فتح الدين محمد بن القاضي كمال الدين أحمد بن عيسى السَّعْدي المعروف بابن القَلْيُوبي[٣] وكان فيما مضى ينوب عن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعي في بعض الأعمال، ونقل إلى قضاء صَفَد نيابة عنه أيضًا، ثم صرف منها، وعاد إلى الديار المصرية، فناب في أعمال الدقهلية والمرتاحية عن قاضي القضاة المشار إليه، ونقل إلى قضاء أبْيار، ثم عزل وعطل مدة، حتى ضاق عليه الحال، فتوجه إلى مدينة المحلة، وناب بها عن القاضي عز الدين الحاكم بالغربية مدة تقارب أربع سنين، ثم فارق الجهة، وحضر إلى القاهرة وهو مُضْعَف، فاستمر به المرض، واشتدت علته إلى أن مات رحمه الله تعالى، ودفن بالقرافة، وكان رحمه الله رجلاً كريمًا فاضلاً جيد الشعر والنثر، جيد البديهة لَسِنًا حسن الفكاهة والمحاضرة والمذاكرة، رحمه الله وإيانا، وكان بينه وبين نجم الدين سعيد بن أحمد بن عيسى الغِماري المالِكي[٤] عداوة مستحكمة ثابتة على الحكام، فلما أيس من الحياة أرسل إليه، وسأله الصلح عما مضى والمُحالَلَة، ففعل، ثم لم تطل حياة نجم الدين المذكور بعده، فإنه مرض أثر ذلك، ومات بالمدرسة الصالحية النجمية في ليلة الخميس ثاني جمادى الآخرة ودفن من الغد بمقبرة باب النصر رحمه الله تعالى وإيانا.

---

(١) ويقال أيضًا «القلقشندي» باللام بدل الراء، وقلقشندة بلدة في القليوبية بمصر. (وانظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٨٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٥، السلوك ٢/ ٢٧٠).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/٤٨٨.

(٣) ابن القليوبي: هو محمد بن أحمد بن عيسى بن رضوان، القاضي فتح الدين الكناني العسقلاني الشافعي، المعروف بابن القليوبي، له من المصنفات «نتف الفضيلة في نتف اللحية الطويلة» (كشف الظنون ٦/ ١٤٥).

(٤) توفي سنة ٧٢٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ١٣٤).

وتوفي في عشية الأربعاء قبل أذان المغرب في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة الشيخ المحدّث نور الدين أبو الحسن علي بن جابر بن علي بن موسى بن خلف بن منصور بن عبد الله بن مالك الهاشمي الشافعي المعروف باليَمَنِيّ(١) شيخ الحديث بالقبة المنصورية، وكانت وفاته بالمدرسة الظاهرية، وصلّى عليه في يوم الخميس بالمدرسة المذكورة، وأمَّ الناسَ في الصلاة عليه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، ثم صلّى عليه بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، وكانت جنازته مشهودة، ودفن بالقرافة. ومولده بمكة شرّفها الله تعالى، في سنة ثمان وأربعين وستمائة تقريبًا، وكان رحمه الله جيد النظم، ورحل إلى الهند وغيره من البلاد، وخلف كتبًا كثيرة جدًا.

وولي تدريس الحديث بعده بالقبة المنصورية الشيخ العالم زين الدين عمر بن أبي الحزم بن يونس الشافعي المعروف بابن الكَتّاني(٢) وجلس لإلقاء الدروس بالقبة في يوم الأربعاء رابع عشر رجب، وتكلم الناس عليه لقبوله الولاية، فإنه لم يشتهر بطلب الحديث، ولا الاشتغال به وأما فقهه ومعرفته بمذهب الإمام الشافعي فغير مدفوع عنه.

وفيها في ليلة الخميس السادس من شعبان كانت وفاة الشيخ الصالح الإمام العالم القاضي عز الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ كمال الدين أبي العباس أحمد بن الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن يحيى بن أبي المجد اللخمي المعروف جده جمال الدين بالأسيوطي(٣)، قاضي الكرك بها، وكان قد وليها في شهر رجب سنة ست وتسعين وستمائة من قبل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجِين المنصوري، واستقر بها إلى أن مات، ومولده بالقاهرة المعزية بالجامع الظافري المعروف الآن بالفاكِهي عند أذان الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، ودفن بمقبرة تعرف بالقبر الجديد، وكان رحمه الله فقيهًا عالمًا متقنًا محققًا من أجلِّ مشايخ القراءات، والعلوم مقتصدًا في مأكله وملبسه وسائر أحواله، وكان من قضاة العدل والحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يخشى سطوة ملك، تساوى عنده في الحق الآمر والمأمور، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٥.

(٢) توفي سنة ٧٣٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ١٦١).

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

وتوفي في ليلة السبت الثاني والعشرين من شعبان الشيخ الفاضل العالم البارع شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي(١)، ثم الدمشقي كاتب الإنشاء بدمشق، وصلّى عليه بجامعها، ثم بسوق الخيل، ودفن بسفح قاسيون، بتربة بناها لنفسه، ومولده في شعبان سنة أربع وأربعين وستمائة، وكان رحمه الله رجلاً فاضلاً، كاتبًا أديبًا شاعرًا، انتهت إليه كتابة الإنشاء، ولو قيل فيه كاتب الشرق والغرب لاستحق ذلك غير مدفوع عنه ولا منازع فيه، وكان يكتب التقاليد والتواقيع والمناشير من رأس القلم(٢)، ويأتي فيها بما لم يأت به سواه مع الفكرة والرويّة، رحمه الله تعالى، وولي بعده كتابة الإنشاء بدمشق ولده شمس الدين محمد، رسم له بذلك في شهر رمضان من السنة باعتناء نائب السلطنة بالشام به، وقدم على غيره لهذه الوظيفة مع توفر الأعيان والأكابر بدمشق.

وفيها في يوم الخميس رابع شهر رمضان توفيت الست الجليلة فالحة ابنة الملك الأمجد، مجد الدين حسن بن الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، ودفنت من يومها بالتربة المعظمية بسفح قاسيون، وتعرف هذه المتوفاة «بداردينار» وكان لها بر ومعروف وإيثار، رحمها الله تعالى.

وتوفي في يوم الجمعة خامس شهر رمضان الأمير شرف الدين عيسى بن عمر البِرْطاسِي الكردي(٣)، أحد أمراء الطبلخاناة بمدينة طرابلس، وشادّ الدواوين بها، وكان رحمه الله تعالى رجلاً شهمًا شجاعًا مقدامًا، وأنشأ مدرسة بمدينة طرابلس، رافقته في سنة عشر وسبعمائة بطرابلس، فكان حسن المرافقة، كثير الاحتمال، رحمه الله تعالى.

وفيها في الرابع والعشرين من شهر رمضان قتل الأمير السيد الشريف ناصر الدين أبو عامر منصور بن الأمير عز الدين جَمّاز بن شِيحة الحسيني(٤) أمير المدينة النبوية

---

(١) هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي، الحنبلي، كاتب الدست المعيد بدمشق الشام، المعروف بابن فهد، ولد سنة ٦٤٤هـ، وتوفي سنة ٧٢٥هـ، من تصانيفه: «أهنى النائح وأسنى المدائح» قصائد في مدح النبي ﷺ، «حسن التوسل في صناعة الترسل»، «مقامات العشاق»، «منازل الأحباب ومنارة الألباب» (انظر ترجمته في كشف الظنون ٦/ ٤٠٧، الدرر الكامنة ٤/ ٣٢٤، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠).

(٢) أي لديه بديهة وقدرة على الارتجال.

(٣) ولد سنة ٦٦٥هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٨).

(٤) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٦٩، الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤.

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، قتله شاب من أقاربه بالبرية، وكان قد كبر وأسن، وولي إمرة المدينة بعده الأمير بدر الدين كُبَيْش[١].

وفيها في يوم السبت ثالث ذي القعدة توفي نجم الدين أبو بكر بن القاضي بهاء الدين محمد بن الشيخ بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، كان بالمدرسة الناصرية بالقاهرة وكان يقول: إن ما يخاطب به يستغني الآن عن إعادته، ولم يزل يدعي ذلك إلى آخر وقت، رحمه الله تعالى، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر غرق مدينة بغداد

وفي جمادى الأولى من هذه السنة زادت دجلة زيادة عظيمة، وكان ابتداء الزيادة في يوم السبت ثالث عشر الشهر، واستمرت الزيادة إلى يوم الثلاثاء، وعظمت فغرق دائر البلد جميعه، بحيث أنه ما بقي أحد من الناس يستطيع الخروج من البلد، وانحصر الناس واجتهدوا في عمل السُّكُورة، وتساوى في العمل الرئيس والمرؤوس، والكبير والصغير، ونَقَل الترابَ - حتى الحكام والقضاة والمترفين - في حُجُورهم وبقيت بغداد جزيرة في وسط الماء، واستدار الماء عليها، ودخل الماء الخندق وكان له هدير عظيم، وغرق ما حول البلد، وخربت أماكن كثيرة منها البازار[٢]، وسائر التُرَبِ والبساتين والسواد[٣] والجانبين المتقابلين لسوق الخيل والدكاكين والساباط[٤]، وخرب بستان الصاحب جميعه، والمصلى، وبعض الكُمُش، وسائر البساتين التي حوله، ووصل الماء إلى الثلاث نخلات، ووقعت قبة الجعفرية، وخربت مدرسة عبيد الله، وغرقت خزانة الكتب التي بها، وكانت فيما قيل تساوي عشرة آلاف دينار، وسَطَّح الماءُ وعلا بمقدار عشر قامات، وكان الإنسان إذا وقف لم ير ما امتد بصره إلا ماء وسماء، وفَتَح في الرَّقَّة وخَرّب إلى الحارِثية، وما ترك طُرْفه قائمة، وغرق خلق كثير من المزارعين الذين كانوا عند زروعهم ممن لم يحسن السباحة، وغرقت بساتين الرَّقَّة مثل بستان القاضي، وبستان ابن العفيف، والخاتوني، وبستان جمال الدين الدكروالي، وغرقت بساتين الحارثية، مثل: بستان الخادم، وابن الأمليس، وسديد الدولة، وبقي الناس في خلقة ضَيِّقة،

---

(١) في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٤: كبيش بن منصور بن جماز الحسيني المدني.

(٢) البازار: السوق (فارسية).

(٣) السواد: جماعة الشجر والنخل والنبات.

(٤) الساباط: سقيفة بين حائطين أو دارين، يمر من تحتها طريق نافذ.

وامتنعوا من النوم ليلاً والمعايش نهارًا من شدة الزَّعقات، وخوف الغرق، وغلق البلد ستة أيام، والناس ينظرون إلى الخندق والشط هل زاد أو نقص، وتحول كثير من الناس إلى المحال العالية مثل تل الزينية، وتل اللوازه بالمُستَضِيئِيَّة، وأسْكِرت سائر أبواب المحال العالية ببغداد، وأبواب الخانات بها، وسد باب خان السلسلة، وبقي إذا انفتح من الخندق فتح تداركه الناس بالسد، والناس يدورون في الأسواق مكشوفي الرؤوس، والرقعات الشريفة على رؤوسهم، وهم يضجُّون بالبكاء ويَخِرُّون إلى الله تعالى، ويسألونه كشف هذه الحادثة عنهم، ووَدّع بعض الناس بعضًا، ولو انخرق إليهم من الخندق أدنى شيء لغرقوا، وزاد الماء في الخندق حتى ركب القنطرة الجديدة بسوق الخيل، وعلا فيها أكثر من ذراعين، وبلغ الماء إلى شباك دار شيخ المشايخ، ولو لم يُعَلُّ السور بالسُّكْر كان انقلب إلى البلد، ولولا ما حصل من هذه البُثُوق ـ بثق الخَنْدق، وبثق الرَّقَّة، وبثق التعسار ـ لغرقت بغداد.

قال الناقل: ومع ذلك فإلى عشر سنين ما يمكن عمارة ما خرب بالجانب الغربي؛ فإنه غرق أكثره، وغلت الأسعار أيامًا، ثم نقص الماء بعد أن أشرف الناس على الهلاك، وكان ابتداء النقص يوم الأربعاء، وذكر القاضي ابن السباك[(١)]: أن جملة ما خرب من البيوت بالجانب الغربي خمسة آلاف وستمائة بيت. نقلت ذلك ـ وبعضه بمعناه ـ من تاريخ الشيخ علم الدين القاسم بن البِرْزالي، وقال في تاريخه: إنه كتبه من كتاب ابن الساعي[(٢)]، وأنه اختصر بعضه.

ومن غريب ما وقع في ذلك الغرق أن مقبرة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل[(٣)]

---

(١) ابن السباك: لم أجد له ترجمة في المصادر والمراجع التي بين يدي.

(٢) ابن الساعي: لعله تاج الدين أبو طالب علي بن الحسين بن عثمان بن عبد الله البغدادي خازن الكتب المستنصرية المعروف بابن الساعي الفقيه المؤرخ الشافعي، ولد سنة ٥٩٣هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٧٤هـ (انظر ترجمته في كشف الظنون ٥/ ٧١٢).

(٣) أحمد بن حنبل: هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، أصله من مرو، ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ، وتوفي سنة ٢٤١هـ. له من التصانيف: «تفسير القرآن»، «طاعة الرسول ﷺ»، «كتاب الأشربة الصغير»، «كتاب الإيمان»، «كتاب الرد على الجهمية»، «كتاب الزهد»، «كتاب العلل في الحديث»، «كتاب الفرائض»، «كتاب الفضائل»، «كتاب المسائل»، «كتاب المسند» يحتوي على أربعين ألف حديث، «كتاب المناسك»، «كتاب مناقب الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه»، «كتاب الناسخ والمنسوخ من القرآن». (انظر ترجمته في كشف الظنون ٥/ ٤٨، البداية والنهاية ١٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٦، الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٢٥٣، كتاب الثقات لابن حبان ٨/ ١٨، حلية الأولياء ٩/ ١٦١١، كتاب الوفيات ص١٧٦، تهذيب الكمال ١/ ٢٢٦).

تهدمت قبورها، ولم يبق إلا قبر الإمام أحمد فإنه سلم من الغرق، واشتهر هذا الأمر بها واستفاض.

قال: وورد كتاب شمس الدين بن مُنْتاب يتضمن أن الماء حمل خَشَبًا عظيم الخلقة، وزنت خشبة منه فكانت بالبغدادي ستمائة رطل، وجاء على الخشب حَيّات كبار خلقتهن غريبة منها ما قتل، ومنها ما صعد في النخل والشجر، وكثير منها مات، ولما نضب الماء أنبت على الأرض نباتًا صورته صورة البطيخ، وشكله على قدر الخيار وفي طعمه محوحة، وأشياء غريبة الشكل من النبات. قال: ومحلة الصَّراصرة صعد الماء في دورها إلى الوسط وأكثر وأقل، وذكر أشياء من أمر الغرق اختصرتها، قال: وأما محلة الرقيقة فإنها بقيت أرضًا بغير حائط قائم، وغرقت مقبرة معروف، وتُربة بنت المُنْذر وغيرها.

هذا ملخص ما حكاه مما لخصه هو، والله تعالى أعلم بالصواب.

* * *

واستهلت سنة ست وعشرين وسبعمائة بيوم الأحد الموافق لثاني عشر كيهك من شهور القبط، والسلطان الملك الناصر بالوجه البحري من الديار المصرية يتصَيَّد، والديار المصرية المحروسة في غاية ما يكون من الرخاء والأسعار في غاية الرُّخْص، والخبز العلامة ثمانية عشر رطلاً بدرهم نقرة، والقمح الطيب الإردب بثمانية دراهم، والشعير الإردب بخمسة دراهم، والفول بستة دراهم، وسائر الحبوب رخيصة الأسعار إلى الغاية.

هذا، وقد قَصّر النيل في سنة خمس وعشرين وسبعمائة بحيث أن غالب بلاد الصعيد الأعلى صارت قليلة الري جدًا، ومع ذلك فإن الأسعار في سائر أعمال الديار المصرية رخيصة متساوية، أو متقاربة في الرخص.

وفي شهر المحرم من هذه السنة عاد السلطان من الوجه البحري وتوجه إلى «دَهْشور» من الأعمال الجيزية، وعاد إلى قلعة الجبل فصعد إليها في الساعة الثالثة من يوم الخميس ثاني عشر الشهر، وأقام بها إلى يوم السبت الحادي والعشرين من الشهر، وتوجه في بكرة هذا النهار إلى جهة سرياقوس، ودخل الخانكاه الناصرية، ورسم بزيادة عدد القراء بها، لتكملة مائة، ثم توجه منها وعَدَّى إلى بر الجيزية، ورسم بإنشاء جسر بها يحبس الماء ويصرف منه إلى جهة البحيرة، وأمر الأمراء ورجال الحلقة المنصورة بعمله، فعمل في صفر.

وتوجه السلطان إلى جهة الحمامات، وتصيد، ثم عاد إلى قلعة الجبل في الساعة الثالثة من نهار الخميس ثاني شهر ربيع الأول، وتوجه إلى جهة سرياقوس، ثم توجه منها إلى الجيزية، ورتب من أحوال المباشرين ما نذكره، وتوجه من صَفَد إلى جهة الكحيليات لصيد الرخمة، فتصيد وعاد إلى قلعة الجبل في العاشرة من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.

ذكر وصول رسل مُتَمَلِّك الحبشة

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل مُتَمَلِّك الحبشة(١)، ومثلوا بين يدي المقام الشريف السلطاني بقلعة الجبل المحروسة في يوم الاثنين سادس عشر المحرم.

وكان مضمون رسالتهم عن ملكهم أنه بلغه أن كنائس النصارى بالديار المصرية غُلِّقَت، وأن النصارى في ذِلَّةٍ وهوان، والتمس من السلطان الإحسان إلى النصارى، وفتح كنائسهم، وأنهم متى لم يعاملوا بالإحسان عامل من ببلاده من المسلمين وما بها من المساجد كما يفعل بأهل دين النصرانية وكنائسهم بالديار المصرية، وذكروا عنه أنه قال: نيل مصر الذي به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها مجراه من بلادي، وأنا أسده، ونحو هذا من الكلام، فضحك السلطان من كلامهم، واستقل عقل مرسلهم، وعوملوا بغاية الإطِّراح والإهانة، وعادوا إلى مرسلهم.

ذكر عزل وتولية من يذكر من أرباب المناصب الديوانية بالدولة الناصرية

وفي هذه السنة ـ في يوم الجمعة ثامن عشر صفر ـ رسم بإفصال القاضي شمس الدين عبد الله المعروف بغِبْريال من نظر النُّظّار والصحبة بالديار المصرية، وخلع عليه، ورسم له بعوده إلى دمشق على عادته الأولى، عوضًا عن كريم الدين عبد الكريم المعروف بكريم الدين الصغير، وتوجه على خيل البريد في يوم الاثنين الحادي والعشرين من الشهر، فوصل إلى دمشق في بكرة نهار الاثنين ثامن عشر من الشهر، ورسم بطلب كريم الدين إلى الأبواب السلطانية، فوصل إلى المخيم المنصور

---

(١) متملك الحبشة: هو جبرة مصقل، واسمه الأصلي (عمد سيون) ومعناه ركن صهيون، وكان حكمه من سنة ٧١٢هـ حتى ٧٤٣هـ، (انظر السلوك للمقريزي ٢/ ٢٧٠، صبح الأعشى ٥/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

السلطاني بالجيزية في يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الأول، وكانت الشاعَةُ[١] قد قويت أن السلطان يُفَوِّض إليه نظر الدولة، ومن الناس من أشاع أنه يلي الوزارة، ومنهم من أشاع أنه يفَوِّض إليه نظر الوكالة السلطانية، وقلق الناس لذلك قلقًا عظيمًا، فلما وصل إلى المُخَيَّم السلطاني لم يجد قبولاً من السلطان، وأنكر عليه إنكارًا شديدًا، ثم رسم له بملازمة داره بظاهر القاهرة، وطلب القاضي شرف الدين عبد الرحمٰن الخَطِير ـ وهو ناظر ديوان نائب السلطنة الشريفة ـ في ليلة الثلاثاء سادس شهر ربيع الأول، وفوّض إليه نظر النُّظّار والصحبة، على عادة شمس الدين غِبْريال، وخلع عليه، وذلك بمنزلة سَفْط من الأعمال الجيزية، وباشر ذلك، واستمر كريم الدين بمنزله بخط بركة قرموط، ومنع من فتح بابه، واجتماع الناس إليه إلى أن عاد السلطان إلى قلعة الجبل، فكُتِبَ له توقيع بإشارة الوزير الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي بنظر منفلوط، ورُسِم له بتشريف على عادة نُظّار الجهة، فقلق لذلك قلقًا شديدًا، فاعْتَنَى به نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُون، وخاطب السلطان في أمره، وأوضح له التحامل عليه، فقطع التوقيع، وبطل ما كان قد رسم به فيه.

وفي ليلة الاثنين رابع شهر ربيع الآخر توجه كريم الدين المذكور إلى الحَمّام فرصده جماعة إلى أن خرج منه، فوثبوا عليه، وضربه أحدهم بسيفه، فالتقى الضربة بدبوسه، ثم هرب بفرسه، فسلم، وقتل اثنان ممن كانوا معه، وجرح الثالث، فأما أحد المقتولَيْن فاحتمله الرجال الذين وثبوا على كريم الدين، فلم يعلم خبره، وأما الثاني فأثخنته الجراحة فمات في يوم الاثنين صبيحة تلك الليلة، وأمسك الذي جرح وكان من الجند من أصحاب كريم الدين ممن كان معه في الحمام، وقيل له: إنما كنت مع الذين قصدوا قَتْله، فاعتقل بسجن الولاية، وكان معه أيضًا نفران من خير الحَرَسة، فمسكوا وقُيِّدوا، واستعملوهم في جملة المقيدين بالعمارة السلطانية، وسأل كريم الدين عقيب هذه الحادثة أن يفسح له في سكن القاهرة، فرسم له بذلك فسكنها.

فلما كان في يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر رسم السلطان بطلب كريم الدين وأولاده، فطُلِبوا إلى قلعة الجبل أشد طلب، وأحْضِروا بين يدي الوزير، فطالبه بالمال، فقال: لا مال عندي، وأنا ما تعرضت لمال السلطان، وأشباه هذا من الكلام، فضُرِب ابنه سعد الدين فرج الله بالمَقارع، وسلم ولده الصغير لمتولي القاهرة، وعُرِض كريم الدين على الضرب فوجد في كُمِّه أوراقًا تشتمل على مرافعات، وقصد

(١) الشاعة: أي الشائعة.

الوزير أخذها منه، فامتنع، وقال: لا أسلمها إلا للسلطان، فطولع السلطان بذلك، فأرسل الأمير سيف الدين بَلَبان الساقي إليه، فتسلمها منه، وعرضت على السلطان، فطلب الأمير علاء الدين مُغْلطاي الجمالي الوزير، وأمره بالإفراج عن أولاد كريم الدين، وأن يكون هو عنده في مكان من داره، ففعل ذلك في اليوم المذكور، ثم رسم في بقية النهار بعقوبة كريم الدين، وتقريره على المال، فسَعَّطَه بالخل والجير، فناله من ذلك شدة عظيمة، حتى خرج الدم من حلقه، ورسم عليه وعلى ولده سعد الدين فرج الله في بقية يوم السبت والأحد، ثم رسم بإخراجهما وإرسالهما إلى ثغر أسوان، فسأل كريم الدين أن يكون اعتقاله بغَزّة، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وأخرج من باب القرافة من في أول يوم الاثنين الحادي عشر، شهر ربيع الآخر، هو وولده سعد الدين، فتسلمهما متوليا القاهرة ومصر وشادّ الصناعة، فتوجهوا بهما وحُجِّلا في سَلُّورَة[1]، وأرسلا إلى ثغر أسوان، وفُرِّق بينهما، فجعل كل منهما في خُنّ[2] لم يجتمع أحدهما بالآخر على ما بلغني من المحقق للحال إلى أن وصلا إلى ثغر أسوان، فكان وصولهما في ليلة الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، فأنزل بدار تعرف بدار يحيى، وهي الدار التي أنزل بها من قبل كريم الدين الوكيل، فبات بها بعض ليلة الاثنين، ويوم الاثنين بكماله، وتوفي في ليلة الثلاثاء في الثلث الأول، ودفن في بقية الليلة، ولم يصل عليه، ودفن بين مقابر المسلمين وأهل الذمة، أخبرني بذلك القاضي شرف الدين شُعَيب بن القاضي جمال الدين يوسف السّيُوطي، وهو الحاكم بثغر أسوان يومئذ.

ذكر وصول رسل الملك المجاهد متملك اليمن بالتَّقادِم

وفي هذه السنة في سادس عشرين شهر ربيع الأول وصل إلى الأبواب الملكية السلطانية الناصرية رسل الملك المُجاهد سيف الإسلام علي[3] ـ المتقدم ذكره ـ وهو صاحب زَبِيد وتَعِزّ وما مع ذلك من بلاد اليمن، وهما: جمال الدين محمد بن يونس، وابن الجَلال، وأحضرا على أيديهما كتاب مرسلهما، وتَقادِم وتحفًا سنية، فمثلا بين يدي السلطان بعد عوده من الصيد، وقدّما له ما أحضراه، فقبل ذلك، وأنعم عليهما بما جرت به عادة أمثالهما، وأعيدا إلى مرسلهما.

---

(١) السلّورة: نوع من السفن.

(٢) الخنّ: مقصورة صغيرة تكون في السفن، يأوي إليها الركان من البرد وعند النوم.

(٣) هو الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، نور الدين، توفي سنة ٧٦٤هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣/ ٤٩).

ذكر إرسال الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي إلى أبي سعيد

وفي يوم الخميس سابع جمادى الأولى من هذه السنة جهز السلطان الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي الناصري ـ أحد الأمراء مقدمي الألوف ـ برسالة وهدية جليلة إلى الملك أبي سعيد صاحب العراقين وخُراسان وما مع ذلك، فتوجه في هذا التاريخ، وأقام بحلب مدة، ثم رسم بتوجهه، فتوجه وكان عوده إلى الأبواب السلطانية في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شعبان من السنة المذكورة.

ذكر إرسال السلطان ولده إلى الكَرَك المحروس

قد تقدم أن السلطان الملك الناصر فَوّض نيابة الكَرَك إلى الأمير سيف الدين بَهادُر البدري، فتوجه إليها، وتضمن تقليده أن يكون نائبًا عن أولاد مولانا السلطان بالكَرَك، وجهز أيضًا من ذكرنا من المماليك السلطانية، ولَهِج الناس أن السلطان قد عزم على إرسال ولده إلى الكرك.

فلما كان في يوم الخميس السادس من جمادى الأولى، توجه السلطان في أوائل النهار من قلعة الجبل إلى القصور بسَرياقوس بعد أن قرر خروج ولده الأكبر الأمير أحمد[1] ـ وسنه يومئذ نحو ثماني سنين ـ فتوجه من قلعة الجبل وقت المغرب من ليلة الجمعة السابع من الشهر، وتوجه في خدمته الأمير سيف الدين قِجْلِيس الناصري ـ أمير سلاح ـ ليوصله إلى الكَرَك، وأصحبه السلطان خزانة المال فيما بلغني، وجهزها صحبة الأمير سيف الدين طَقْتَمُر الخزندار، وتوجهوا إلى الكرك، ووصلوا إليها، واستقر ولد السلطان بها، وعاد الأمير سيف الدين قِجْلِيس، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

ذكر تجديد عمارة البيمارستان المنصوري والقُبّة والمدرسة

وفي مستهل هذه السنة حصل الشروع في إصلاح البِيمارستان المنصوري والقبة والمدرسة، وكان الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي ـ ناظر الأوقاف قبل ذلك ـ قد رسم ألا يترك أحدًا من المرضى بالبيمارستان، ومن هو في أوائل يُخرَج منه، فخلت بذلك الأواوين من المرضى وأكثر القاعات، ولم يبق بالبيمارستان إلا المَمْرُورون

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٢٩٤.

وبعض المرضى، وحصل الشروع في العمارة، فأصلحت العمران وجُدِّد البياض والأدهان، ونحت ظاهر القبة والمدرسة والمئذنة بالأزامِيل، واستمرت العمارة إلى أواخر جمادى الأولى، وخلت الأواوين الأربعة بالبيمارستان من مستهل هذه السنة إلى يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الأولى، فرُسِم في هذا اليوم بتنزيل المرضى، وكان جملة ما صرف على هذه العمارة يقارب ستين ألف دينار.

ذكر تجريد طائفة من العسكر إلى بُرْقة

وفي هذه السنة حضر الأمير فايد بن غَرّاز ومعه سليمان بن خالد، وأنهيا إلى السلطان أن العربان ببرقة منعوا الزكاة، وهي مقطعة لهما، ولمن معهما من رُفْقَتِهما، بمنشور سلطاني، فأمر السلطان بطائفة من العسكر المنصور، وهم: الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر العمري وهو المقدم على الجيش، والأمير سيف الدين بَلَكْتَمُر الإبراهيمي السلحدار، والأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا الطويل، والأمير عز الدين أَيْدَمُر العلائي الجُمَقْدار، وجماعة من أجناد الأمراء من كل أمير مائة جنديان، ومن كل أمير طبلخاناه جندي واحد، وتوجهوا في العشر الأَخَر من جمادى الأولى، وكان عودهم في يوم الاثنين السابع والعشرين من شعبان من السنة.

ذكر تفويض نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات إلى الأمير سيف الدين طَيْنال[1] الحاجب

وفي يوم الخميس رابع جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وسبعمائة، فوّض السلطان نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات إلى الأمير سيف الدين طَيْنال الحاجب ـ وهو حاجب الميسرة ـ عوضًا عن الأمير بهادر قَرَطاي الصالحي العلائي، وخلع عليه، ولم يجر في التشريف على عادة من تقدمه، فإنه خلع عليه طَرْدوَحْش، وعادة نائب هذه المملكة الأطلس المعدني بالطُّرْز الزَّرْكش، ونقل الأمير بَهادُر قَرَطاي[2] المذكور إلى دمشق من جملة الأمراء مقدمي الألوف، وأقطع إقطاع الأمير بدر الدين بَكْتُوت القرماني، وكان القرماني قد اعتقل في تاسع عشرين جمادى الأولى، وسبب اعتقاله أنه رسم له أن يتوجه إلى مُتَمَلّك سيس، لإحضار ما عليه من القطيعة في كل سنة، فاستعفى من ذلك، وامتنع من الإجابة إليه، فرسم باعتقاله بدمشق، فاعتقل بقلعتها.

---

(١) توفي سنة ٧٥٢هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٣٢).
(٢) توفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٧٢).

واستمر بالاعتقال بها إلى ليلة الأحد حادي عشر شوال سنة سبع وعشرين، فأخرج من القلعة مقيدًا، وحمل على خيل البريد إلى الديار المصرية بعد أن وَكَّل وأوصى، ولما فوضت نيابة السلطنة بالمملكة الطرابُلُسِيّة إلى الأمير سيف الدين طَيْنال المذكور تألّم لذلك، ومرض وانقطع في بيته أيامًا، ثم عوفي، وتوجه إلى المملكة الطَّرابُلُسِية على خيل البريد في يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور، وتوجه طلبه بعد ذلك، فكان خروج طلبه من القاهرة يوم الثلاثاء منتصف شهر رجب، من السنة، ورسم بقيمة الإقطاع الذي كان لطَيْنال بالديار المصرية ـ وهو الإقطاع الذي انتقل إليه عن الأمير ركن الدين بِيبَرْس الحاجب ـ فأعطى الأمير سيف الدين قَوْصُون منه «فاتوا وتقليفه» من الأعمال الفيومية زيادة على إقطاعه، وكمل له بذلك مائة فارس، وقُدِّم على ألف، وأعطى أُطْفِيح ودَلْجَة للأمير ناصر الدين محمد بن نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُون الناصري عوضًا عن إقطاعه، وخرج إقطاعه الذي كان بيده لغيره.

ذكر الجلوس بخانقاة الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي بالقرافة

وفي يوم الثلاثاء ثامن رجب الفرد من السنة حصل الجلوس بخانقاة أنشأها الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي الناصري بالقرافة، وحصل الاحتفال بذلك، وحضر مشايخ الصوفية وغيرهم، ومُدّ سماط عظيم، ورُتِّب في مشيختها وإمامتها الشيخ شمس الدين الرومي المعروف بالطُّويل، وكان قبل ذلك إمامًا بصُفَّة النفيس بالخانقاة الصلاحية بالقاهرة، ورتب له على وظيفة المشيخة في كل شهر مائة درهم، وعن الإمامة خمسون درهمًا، ورُتِّب بها عشرون صوفيًا، لكل منهم في الشهر ثمانون درهمًا من غير خبز ولا طعام ولا غيره.

ذكر وصول رسل التتار وأقارب السلطان إلى الأبواب السلطانية

وفي يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الأمير جوبان نائب الملك أبي سعيد، وصحبتهم ـ من أقارب السلطان ـ سيف الدين طايَرْبُغا وولده يحيى، فمثل الرسل بين يدي السلطان في هذا النهار، وشملهم الإنعام بالتشاريف، وكان طايَرْبُغا وولده قد وصلا في يوم الأحد ثالث عشر الشهر، ومثلا بين يدي السلطان، وذكر طايَرْبُغا ما دلَّ على صدق دعواه في انتسابه، فلما كان في يوم الخميس سابع عشر الشهر أمر السلطان الأمير سيف الدين طايَرْبُغا بطَبْلخاناه، وأمر

ولده يحيى بعشرة، وأمر أيضًا أخا الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي بطَبْلخاناة، وأمر أحد المماليك بحلب وذهبوا بشعار الإمْرَة من المدرسة المنصورية بالقاهرة على العادة، وخُلِع على الرسل مرة ثانية، وأعيدوا إلى مرسلهم في يوم الخميس رابع عشرين الشهر.

ذكر وصول رسل جُوبان(١)

ثم وصل من جهة الأمير جُوبان المذكور في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر رمضان ثلاثة من أعيان الصوفية على خيل البريد برسالة مضمونها: السؤال في مُصاهرة السلطان لابن الأمير جُوبان على إحدى بناته، فمثلوا بين يدي السلطان، وكان من جملة سؤالهم عن مُرسلهم، أن يكون الذي يمشي بينهم في الخِطْبة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وكان قد اعتقل على ما نذكره، فأجيبوا عن ذلك أن المذكور في حبس الشرع لأمور صدرت عنه، ورسم السلطان للقاضي بدر الدين أن يسمع كلام الرسل، فسمع كلامهم، ثم أعيدوا إلى مرسلهم على خيل البريد.

وفيها في يوم الاثنين السابع والعشرين من شعبان أفرج السلطان عن الأمير سيف الدين بَلَبان طُرْنا(٢) نائب المملكة الصَّفَدِية كان، وكان في الاعتقال منذ انفصل من نيابة السلطنة بالمملكة الصَّفَدِية، وأنعم عليه بإمرة طبلخاناة بدمشق، ثم نقل بعد ذلك إلى مقدمة ألف.

وفيها ـ في سلخ شعبان ـ احترقت مدينة بَيْسان من غَوْر الشام حريقًا فاحشًا، وأكثر عمارتها بالقصب، فلذلك أسرعت النار فيها. ثم طفئت، وأعيد ما احترق.

ذكر وصول صاحب حصن كَيْفا إلى الأبواب السلطانية، وعوده إلى بلاده، وخبر مقتله ومُلْك أخيه

وفي يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان من هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية في قلعة الجبل المحروسة الملك الصالح صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر شادي ابن الملك المُوَحِّد تقي الدين عبد الله بن الملك المعظم غياث الدين طُورانْشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل

---

(١) جوبان: هو الأمير الكبير نائب المملكة القانية، (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٤١).

(٢) توفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٤، السلوك ٢/ ٢٧٤).

ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وهو صاحب حصن كَيْفا.

وكان سبب حضوره أنه أقام مدة سنين لا ينزل من الحصن إلى نواب الملك أبي سعيد إذا حضروا إلى البلاد على جاري عاداتهم، بل يرسل إليهم الهدايا والتقادِم الجارية بها العادة، وتحصن بالحصن، ثم شرع بنَهْب من ينفرد من التتار، ويتعرض إلى إقطاع الأمير الذي أُقْطِع له أعمال حصن كيفا، فشكاه الأمير المُقْطَع إلى الملك أبي سعيد، وقال: إنه يأخذ أكثر ما يتحصل من إقطاعه، وأنهى إلى الملك أنه عصي بالحصن، وأنه لا ينزل إلى نائب الملك إذا وصل، فكتب أبو سعيد إلى نائبه في تلك الجهة يستعلم منه: هل هو في الطاعة على عادته أو خرج عنها؟ فأجابه النائب أنه على عادته في الطاعة، وأنه ينزل إليه إذا حضر إلى جهة الحصن، وأرسل النائب إلى الملك الصالح المذكور يعرفه ما ورد عليه، وما أجاب به، وقدم إليه تقادم كثيرة بسبب ذلك، وواعده أنه إذا وصل إلى الحصن ينزل إليه، ثم خاف على نفسه أنه إن نزل إليه قبض عليه، فحضر إلى الأبواب السلطانية، وأشاع أنه إنما حضر بسبب الحج. أخبرني بذلك المحقق للحال، وهو الأمير علاء الدين علي بن الملك المُوَحِّد، وهو عم الملك الصالح.

ولما وصل الملك الصالح إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية شمله الإنعام السلطاني بتشريف طَرْدوَحش(١) بقصب وكَلُوته(٢) بزَرْكش، وحياصة(٣) ذهب، وثلاثين ألف درهم، ورسم له بعوده إلى مملكته بحصن كَيْفا، وكتب على يده كتابًا إلى الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد يتضمن الوصية به، والإحسان إليه، وأعاده في العشر الأوسط من الشهر على خيل البريد إلى دمشق المحروسة، وتوجه منها على خيله بمن حضر معه من إلزامه، وكتب السلطان إلى نائب السلطنة بحلب المحروسة أن يجرد

---

(١) طرد وحش: هو نوع من القماش الحرير المنقوش بمناظر الصيد والطرد (السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٧٨٨).

(٢) كلوتة: هي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة وتسمّى: كلفة وكلفتاه وكلفته، استحدث لبسها في مصر سلاطين الأيوبيين فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٢٨٨).

(٣) حياصة: هي الحزام أو المنطقة، وهي في الأصل السير الذي يشد به حزام سرج الحصان، وفي زمن الناصر محمد بن قلاوون وصلت قيمة الحياصة إلى ثلاثمائة دينار، وعملت من خالص الذهب، وكثيرًا ما كانت ترصع بالجواهر، وكان السلطان يفرق منها كل سنة عددًا كبيرًا (الخطط التوفيقية ص١٣٨).

معه من العسكر الحلبي خمسمائة فارس ومائتي فارس من العربان ـ من كلاب ـ إلى أن يصل إلى مأمنه، فتوجهوا معه إلى أن شارف بلاده وأعادهم وحال وصوله إلى الحصن وثب عليه أخوه شقيقه الملك العادل محيي الدين فقتله، وملك الحصن بعده، وكتب إلى الملك أبي سعيد، وأنهى إليه أنه إنما قتله لأنه كان باغيًا، وتوجه إلى الديار المصرية، وحضر إلى البلاد بعسكر، وقصد إفساد البلاد، فأقره الملك أبو سعيد على الحصن، وطالع الملك العادل محيي الدين هذا الأبواب السلطانية بذلك، واعتذر عن قتله، وجَهَّز مختصرًا يتضمن سوء سيرته، وطالع نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس أيضًا بمثل ذلك، وسأل الصفح عنه فيما فعل، وأنه إنما قُتِل لسوء سيرته، ومَنْ قتله من أهله، فسكن الحال في ذلك.

وفيها في يوم الخميس خامس شوال توجه الأمير سيف الدين أرْغُن الناصري[١] نائب السلطنة الشريفة إلى الحجاز الشريف هو وأولاده وابنة السلطان زوجة ولده، الأمير سيف الدين وأولاده، وكان استقلال ركابه من قلعة الجبل في الثالثة من هذا اليوم.

وفيها ـ في يوم الجمعة خامس ذي القعدة ـ قرىء بالجامع على المنابر بالقاهرة ومصر مثال[٢] شريف سلطاني، مضمونه الإعفاء من المظالم، وطرح الأصناف على التجار والمُبْعَثين، ومنع الولاة من الضرب بالمقارع، وإبطال المقدمين من أبواب الولاة.

ذكر خبر مولود وُلد في هذه السنة

أخبرني ركن الدين عمر بن الشيخ الصالح ناصر الدين محمد بن الشيخ الصالح العارف إبراهيم بن مِعْضاد بن شَدّاد بن مالك بن ماجد القشيري الجعبَري[٣] نفع الله به وببركات أسلافه الصالحين أنه ولد له في الساعة الرابعة من الليلة المسفرة عن رابع عشر ذي الحجة سنة ست وعشرين وسبعمائة ولد من موطُوءَته سماه موسى، وأنه أقام في بطن أمه منذ حملت به سنتين وشهرين، وحين وضعته لم ترَ معه دمًا كثيرًا ولا ماءً، بل أزمَت على عادة الحوامل لتسعة أشهر وأنه وضع قوى اليافُوخ غير ليّنة على عادة المولود حين يولد، قال: وطلعت أسنانه لشهرين وثلاثة أيام من مولده، وقال: ومشى في غُرّة الشهر الخامس من مولده، أنشأه الله تعالى نشأة صالحة.

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٨٩، السلوك للمقريزي ٢/٢٧٧.

(٢) المثال: تقدم التعريف به.

(٣) ولد بقلعة جعبر سنة ٦٥٠هـ، وتوفي سنة ٧٣٤هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٩٧).

ذكر خبر إجراء الماء إلى مكة شرّفها الله تعالى

وفي هذه السنة أجريت عين إلى مكة شرّفها الله تعالى، وكان وصول الماء إليها في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وسبعمائة وذلك أن الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد صاحب العراقين وخراسان اهتم بهذا الأمر اهتمامًا عظيمًا، وأرسل بعض التجار بجملة كثيرة من المال، يقال: إنه نحو ثلاثمائة ألف درهم، فبذلها في إجراء الماء إلى مكة، ويسّر الله تعالى ذلك له، وحصل الظفر بآثار العيون القديمة التي كانت أجريت فيما سلف من السنين، وقطع التراب الذي كان يمنع جريان الماء، ونظف فجرت العين بماء كثير.

وهذه العين قد كانت قديمة، وقد ذكر الشيخ أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي[١] في (أخبار مكة) ما أجري في الحرم من العيون، فقال: ما ملخصه ـ وبعضه بمعناه ـ: أن رجلًا من بني سليم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بمكة: يا أمير المؤمنين، أقْطِعْني خَيْف الأرين حتى أملأه عجوة، فقال له عمر: نعم، فبلغ ذلك أبا سفيان بن حرب، فقال: دعوه فليملأه ثم لينظر أينا يأكل جناه، فبلغ ذلك السلمي فتركه، فكان أبو سفيان يدعيه، ثم كان معاوية هو الذي عمله وملأه عجوة، وذلك أنه أجرى في الحرم عيونًا عشرة، واتخذ لها أخيافًا[٢]، فكانت حوائط فيها النخل والزرع، ذكرها أبو الوليد في كتابه، قال أبو الوليد: واتخذت بعد ذلك ببَلْدَح عيون سواها، ومنها: عين سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ببَلْدَح، وحائط سفيان، والخَيْف الذي أسفل منه.

قال ثم انقطعت عيون معاوية تلك وذهبت، فأمر أمير المؤمنين هارون الرشيد بعيون منها فعملت وأحييت وصرفت في عين واحدة يقال لها الرشاد؛ لتسكب في المَأجلين[٣] اللّذين أحدثهما الرشيد بالمَعْلَى، ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام، ثم كان الناس بعد تقطع هذه العيون في شِدّة الماء، وكان أهل مكة والحاج يلقون من ذلك المشقة، حتى أن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأكثر وأقل.

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق المزيقي، أبو الوليد الأزرقي المكي، المتوفى سنة ٢٢٣هـ، صنف تاريخ مكة شرّفها الله تعالى وأخبارها وجبالها وأوديتها، كتاب كبير (كشف الظنون ٦/ ١١).

(٢) الخيف: هو ما انحدر من غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء.

(٣) المأجل: مستنقع الماء.

فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن المنصور، فأمرت في سنة أربع وتسعين ومائة بعمل بركتها التي بمكة، فأجرت لها عينًا من الحرم، فجرت بماء قليل لم يكن فيه ري لأهل مكة، وغرمت في ذلك غرمًا عظيمًا، فبلغها ذلك، فأمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيونًا من الجبل، فأرسلت بأموال عظيمة، ثم أمرت من نَزَف عينها الأولى، فوجدوا فيها فسادًا، فأنشأت عينًا أخرى إلى جنبها، وأبطلت تلك العين، وعَمِلت هذه العين بأحسن ما يكون من العمل، حتى بلغت ثنية جبل، وإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل إلا بعمل شديد، وضرب في الجبل، فأمرت بالجبل فضُرِب فيه، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لا يمكن أن تطيب به نفس كثير من الناس حتى أجراها الله عزّ وجل لها، وأجرت فيها عيونًا من الحِلِّ منها: عين من المُشَاش واتخذت لها بِرَكًا تجتمع فيها السيول إذا جاءت، ثم أجرت لها عيونًا من حُنَين، واشترت حائط حُنَيْن، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سدًّا يجتمع فيه السيل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد قبلها.

قال: ثم إن أمير المؤمنين أمر صالح بن العباس في سنة عشرين ومائتين أن يتخذ لها بركًا من السوق خمسًا، لئلا يَتَعَنَّى أهل أسفل مكة والثَّنِيَّة وأجْيادين والوسط إلى بركة أم جعفر، فأجرى عينًا من بركة البَطْحاء عند شِعْب ابن يوسف من وجه دار ابن يوسف، ثم تمضي إلى بركة عند الصَّفا، ثم تمضي إلى بركة عند الحَنّاطِين، ثم تمضي إلى بركة بفُوَّهَة سكة الثنية دون دار أُوَيْس، ثم تمضي إلى بركة عند سوق الحطب بأسفل مكة، ثم تمضي في سرب ذلك إلى مَأجِل أبي صَلاية، ثم إلى المَأجِلَين اللذين في حائط ابن طارق بأسفل مكة، فهذه العين التي أجريت الآن إنما هي من ذلك الأصل القديم.

وكان السلطان الملك الناصر قد عزم على إجراء هذه العين، فصرفه بعض أرباب الأمر من أتباعه عنها، وقال: «إن هذا متعذر الإمكان» فلما أجريت الآن تألّم السلطان من كون هذه الحسنة العظيمة لم تَجْرِ على يديه.

ذكر عدة حوادث كانت بدمشق
في سنة ست وعشرين وسبعمائة خلاف ما ذكرنا

في هذه السنة وصل إلى دمشق في يوم الأحد منتصف المحرم الأمير محمد بن عبد القادر بن يوسف بن الأمير أبي القاسم عبد العزيز بن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، فرسم نائب السلطنة بالاحتياط عليه، وطُولِع في أمره الأبواب السلطانية، ورُسِم أن يعود إلى أهله، فرجع، ولم يدخل مدينة دمشق.

قال الشيخ علم الدين بن البِرْزالي في تاريخه عنه: وهو رجل حسن فيه أدب ومعرفة وديانة، اجتمعت به وسألته عن مولده، فذكر أنه قبل دولة اليهود بسنة، وكانت دولة اليهود سنة تسعين وستمائة، وسألته عن مولد أبيه، فذكر أنه قبل سنة براق في الدولة العباسية، قال: وسألته عن مولد جَدّه، فذكر أنه في واقعة بغداد كان عمره سبع سنين أو ثمان سنين، وذكر أن جد والده عبد العزيز توفي قبل أخذ بغداد بسنة أو نحوها.

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول ضربت عنق ناصر بن أبي الفضل بن إسماعيل الهيتي المقرىء الصالحي بسوق الخيل بدمشق، وسبب ذلك أنه ثبت عليه الزندقة، وكان المذكور حسن الصوت بالقراءة، وصحب ابن الباجُرْبَقِّي، وابن المِعمار وغيرهما، فانحلت عقيدته، وشهد عليه في ذلك بما تقدم، فهرب إلى بلاد الروم، ثم عاد إلى حلب في أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وحضر عند قاضي القضاة بها كمال الدين ابن الزَّمْلَكانِيّ الشافعي، وتاب وقبل توبته، وحقن دمه، ثم عاد إلى ما كان عليه من الزندقة فحمل إلى دمشق، وثبت عليه ما تلفظ به، فحكم بإراقة دمه فنسأل الله العافية في ديننا وفي دنيانا.

وفيها في يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الأولى ضُرِبَت عنق «تُوما بن عبد الله النصراني» من قرية الحِمّان، كان قد أسلم على يدي الشيخ تقي الدين ابن تيمية قَديمًا، وجاور بالمئذنة الشرقية بجامع دمشق مدة، ثم ارتد، وتكلم في القرآن بكلام، وقامت البينة عليه بذلك عند قاضي القضاة شرف الدين المالكي بدمشق، فحكم بإراقة دمه، فقتل.

ذكر اعتقال الشيخ تقي الدين بن تيمية

وفي هذه السنة ـ في يوم الاثنين السادس من شعبان ـ اعْتُقِل الشيخ تقي الدين أحمد بن تَيْمِيَةَ[1] بقلعة دمشق المحروسة، حسب الأمر الشريف

(١) هو شيخ الإسلام أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن تيمية، الحافظ تقي الدين، أبو العباس الحراني، ثم الدمشقي الحنبلي، الفقيه المحدّث، ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ، له العشرات من المصنفات (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٥ ـ ١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١، شذرات الذهب ٦/ ١٨٠، فوات الوفيات ١/ ٣٥، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، الوافي بالوفيات ٧/ ١٥، دول الإسلام ٢/ ١٨٠).

السلطاني، واعْتُقِل معه أخوه زين الدين عبد الرحمٰن[١]، ومنع من الفُتْيا واجتماع الناس به.

وسبب ذلك أنه أفتى أنه لا يجوز زيارة قبر رسول الله ﷺ، ولا قبر إبراهيم الخليل، ولا غيرهما من قبور الأنبياء والصالحين، وتوجه بعض أصحابه وهو الشمس محمد بن أبي بكر[٢] إمام المدرسة الجَوْزية في هذه السنة لزيارة البيت المقدس، فرقي منبرًا في حرم القدس الشريف، ووعظ الناس وذكر هذه المسألة في أثناء وعظه، وقال: ها أنا من هنا أرجع ولا أزور الخليل، وجاء إلى نابُلُسَ، وعمل مجلس وعظ، وأعاد كلامه، وقال: ولا يزار قبر النبي ﷺ، ولا يزار إلا مسجده، فقصد أهل نابلس قتله، فحال بينهم وبينه مُتَوَلِّيها، وكتب أهل القدس وأهل نابلس ودمشق بما وقع منه، فطلبه قاضي القضاة شرف الدين المالكي، فتغيب عنه، وبادر بالاجتماع بقاضي القضاة شمس الدين محمد بن مسلم الحنبلي قاضي الحنابلة، وتاب عنده، وقبل توبته، وحَقَن دمَه، ولم يُعَزِّره.

فنهض الفقهاء بدمشق عند ذلك، وتكلموا على الشيخ تقي الدين، وكتبوا فُتْيا تتضمن ما صدر منه، وذكروا هذه المسألة وغيرها، فأفتى العلماء بكفره، وعرضت الفتيا على نائب السلطنة بالشام، الأمير سيف الدين تَنْكِز، فطالع السلطان بذلك، فجلس السلطان في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر رجب بالميدان الذي هو بذيل قلعة الجَبل، وأحضر القضاة والعلماء، وعرض عليهم ما ورد في أمره من دمشق، فأشار قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جَماعة الشافعي باعتقال تقي الدين المذكور، فرسم باعتقاله ومنعه من الفتيا، ومنع الناس من الاجتماع به، وأن يُؤَدَّب من هو على معتقده، وتوجه البريد بذلك، فوصل إلى دمشق في يوم الاثنين سادس شعبان، فاعتقل، وقرىء المثال السلطاني بعد صلاة الجمعة العاشر من الشهر على السدة بجامع دمشق.

---

(١) كان يشتغل بالتجارة مع ما كان له من علم وفضل، حبس نفسه مع أخيه تقي الدين بالإسكندرية وبدمشق محبة له وإيثارًا لخدمته، ولد سنة ٦٦٣هـ، وتوفي سنة ٧٤٧هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٩).

(٢) ابن القيم: هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي الإمام شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ، له العشرات من المصنفات (انظر: كشف الظنون ٦/ ١٥٨ ـ ١٥٩، الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٠، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠، السلوك ٢/ ٢٧٣).

ثم طلب قاضي القُضاة القزويني جماعة من أصحاب تقي الدين في يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر إلى المدرسة العادلِيّة، وكانوا قد اعتقلوا بسجن الحكم، فادعى على العماد إسماعيل صهرَ الشيخ جمال الدين المِزِّي أنه قال: إن التوراة والإنجيل لم يُبَدَّلا، وأنهما كما أنزلا، فأنكر، فشهد عليه بذلك، فضرب بالدِّرّة، وأشهر وأطلق.

وادعى على عبد الله الإسكندري، والصلاح الكتبي، وغيرهما بأمور صدرت منهم، فثبت ذلك عليهم، فضربوا بالدرة، وأشهروا في البلد.

وطلب الشمسي أمام المدرسة الجَوْزية وسئل عما صدر منه في مجلس وعظه بالقدس ونابلس، فأنكر ذلك، فشهد عليه من حضر مجلسيه بما تلفظ ممن كان قد توجه من عدول دمشق لزيارة البيت المقدس، فثبت ذلك عليه فضرب بالدِّرّة، وأشهِر على حمار بدمشق والصالحية، وقُيِّد، واعتُقل بقلعة دمشق، فلم يزل في الاعتقال إلى يوم الثلاثاء العشرين من ذي الحجة سنة ثمان وعشرين، فأُفرج عنه في هذا اليوم، وحضر إلى قاضي القضاة الشافعي، فشرط عليه شروطًا، فالتزمها، وأُطلق.

وفي هذه السنة في ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الشيخ عز الدين بن أبي زكريا يحيى بن الشيخ الخطيب شمس الدين إبراهيم بن شيخ الإسلام عز الدين أبي محمد بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي، وكانت وفاته بالقاهرة بسكنه بحارة بهاء الدين، ودفن بالقرافة بتربة جده الشيخ عز الدين، وتوليت تجهيزه ودفنه بوصية منه إليّ، وكان قد أوصاني ألا أدفنه إلا خارج باب التربة، فدفنته هناك حيث أوصى، وكانت قد طالت مَرْضَتُه، مرض في أثناء شوال، ومولده بدمشق في يوم الأحد عاشر صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، وسمع من النجيب فراس بن العسقلاني، وابن الأوحد وغيرهما، وحدّث قبل وفاته، وكان رحمه الله تعالى يباشر الأشغال الديوانية، والأوقاف، وآخر مباشراته شهادة الحوائج خاناه السلطانية بقلعة الجبل المحروسة.

وفيها في ثامن شهر ربيع الأول توفي الشيخ الصالح شرف الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ العارف القدوة السيد الشريف أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف الشاذلي الحسني، وكانت وفاته بدمنهور الوَحْش، وهو من المشايخ الصلحاء المشهورين. ويقال: إنه كان في صحبة والده لما توجه إلى الحجاز الشريف. ومات في سَمُرَة عَيْذاب بمنزلة حَمْتِيرة في سنة ست وخمسين وستمائة، وكان إذ ذاك صغير السن رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة السبت سادس جمادى الآخرة توفي القاضي شرف الدين عبد الهادي بن زنبور، وهو إذ ذاك يباشر نظر خزائن السلاح بالقاهرة المحروسة. ولي ذلك بعد انفصاله من نظر الدواوين بالديار المصرية، ودفن من الغد بالقرافة. ومولده في سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى رجلاً عاقلاً قليل الشر، وهو خال القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة.

وفيها في العشرين من شهر رجب توفيت الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الملك المعز فخر الدين يعقوب بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وهي في درجة الملك الصالحي نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، ودفنت بقاسيون، ومولدها تقريبًا في سنة خمسين وستمائة، ولم يكن في البيت الأيوبي أقرب إلى السلطان الملك العادل منها، رحمهما الله تعالى.

وفيها في عشية نهار الثلاثاء تاسع عشر شهر رمضان توفي الأمير صلاح الدين أبو الحسن محمد بن الملك الأمجد مجد الدين حسن بن الملك الناصر داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب، وكانت وفاته بظاهر دمشق ببستان النعامات، ودفن في يوم الأربعاء بالتربة المعظمية بقاسيون، وهذه التربة هي دَيْرُ مُرّان المذكور في أشعار المتقدمين، ومولده في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة أربع وستين وستمائة سمع حضورًا من والده وروى عنه، وسمع من ابن البخاري، ومن الشيخ عز الدين الفاروثي(١) وغيره، وأسمع، رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الخميس ثالث عشر شوال توفي ببعلبك الشيخ قطب الدين أبو الفتح موسى بن الشيخ الإمام القدوة الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي الحسين أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن اليونيني البعلبكي الحنبلي(٢)، ودفن ضحى يوم الخميس بمقبرة باب سطحا، ومولده في بكرة الجمعة ثامن صفر سنة أربعين وستمائة بالديار الفاضلية بمدينة دمشق. سمع من والده ومن الشيخ شرف الدين الحسين الأرِبْلي، وشيخ الشيوخ شرف الدين الحَمَوِي، وابن عبد الدايم، وحدّث عنه بصحيح مسلم، وسمع بالديار المصرية من الشيخ رشيد الدين العطار وغيره، وكان له

---

(١) عز الدين الفاروثي: هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن سابور بن علي بن غنيمة، الفاروثي الواسطي، ولد بواسط سنة ٦١٤هـ، وتوفي بها سنة ٦٩٤هـ، (انظر ترجمته الوافية في: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٣٥٥ وما بعدها).

(٢) له من المصنفات: «الذيل على مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي»، «الشرف الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر»، «مختصر مرآة الزمان» (كشف الظنون ٦/ ٤٧٩).

تعلق بالتاريخ، اختصر (مرآة الزمان) لابن قزاوغلي[١] وذَيَّل عليه، وقد نقلنا عنه مواضع يسيرة في كتابنا هذا، نقلت وفاته من تاريخ الشيخ علم الدين بن البِرْزالي رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة توفي قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالحي الحنبلي[٢]، قاضي الحنابلة بدمشق، وكانت وفاته بالمدينة النبوية، وكان قد توجه لقصد الحج في هذه السنة، فمرض عند رحيل الركب من منزلة العلا، واشتد به المرض، فيقال أنه سأل الله تعالى أن يصل إلى المدينة النبوية، ويزور رسول الله ﷺ قبل وفاته، فاستجاب الله له، ووصل إلى المدينة في يوم الاثنين قبل وصول الركب بيوم، فسلّم على رسول الله ﷺ، وصلّى بالحرم النبوي، وبات في تلك الليلة ببعض الرُّبُط، ومات من ليلته، فدفن بالبقيع بجوار قبر عَقِيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ومولده بالصالحية بظاهر دمشق في سنة اثنتين وستين وستمائة، وولي القضاء بدمشق في ثامن صفر سنة ست عشرة وسبعمائة، بعد وفاة قاضي القضاة تقي الدين سليمان الحنبلي، وسلك في ولايته سيرة السلف الصالح، ولم يغير هيئته ولا لباسه، ولا جدّد مركوبًا بسبب ولاية القضاء، وكان يمشي غالبًا من الصالحية إلى دمشق، ولا أضاف إلى نفسه ولاية مدرسة، ولا نَظَر وقف بمعلوم، وكان رحمه الله تعالى رجلًا صالحًا دَيِّنًا خَيِّرًا فاضلًا عالمًا محدثًا، سمع الحديث من ابن عبد الدايم، وابن البخاري، وغيرهما، فسمع من مائتي شيخ وعشرة شيوخ، وسمع بمكة والمدينة والقدس ونابلس وبعلبك، وحضر عدة غَزَوات وفتوحات منها طرابُلُس وعكّا وقلعة الروم، وخَرَّج له الشيخ جمال الدين المزِّي[٣] أربعين حديثًا تُساعِيًا، وخَرَّج له غير ذلك.

---

(١) هو سبط ابن الجوزي: هو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي بن عبد الله التركي البغدادي الحنفي، نزيل دمشق، ولد سنة ٥٨١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٤هـ، من تصانيفه: «الانتصار لإمام أئمة الأمصار»، «إيثار الإنصاف»، «الإيضاح لقوانين الإصلاح»، «تذكرة الخواص من الأمة في ذكر مناقب الأئمة»، «تفسير القرآن»، «تلخيص الجامع الكبير للشيباني» في الفروع، «جوهرة الزمان»، «شرح الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج»، «كنز الملوك في كيفية السلوك»، «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، «معادن الإبريز» في التاريخ، «منتهى السول في سيرة الرسول ﷺ» (كشف الظنون ٦/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٢٥٨.

(٣) جمال الدين المزي: هو يوسف بن عبد الرحمٰن المزي الشافعي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج، توفي سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، البداية والنهاية ١٤/ ١٩١).

وفيها في يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة توفي الأمير مجد الدين يعقوب ابن الملك الأشرف شرف الدين عبد الحق بن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب[١]، وكانت وفاته ببستانه بالمِزَّة ظاهر دمشق. وصُلِّيَ عليه بجامع المِزَّة في يوم عرفة، ودُفن بمقبرتها، رحمه الله تعالى، وكان رجلاً خَيِّرًا كثير التواضع، وله مكارم، كان يحفظ شعرًا كثيرًا.

وفيها في ذي الحجة توفي الأمير بدر الدين حسن بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر محمد بن الملك المنصور[٢] بحماة وهو أخو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، وهو من جملة الأمراء بحماة، رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع وعشرين وسبعمائة بيوم الخميس الموافق لأول كيهك من شهور القبط.

ذكر عزل الأمير سيف الدين أرغون الناصري نائب السلطنة الشريفة، وانتقاله إلى نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية

قد ذكرنا في سنة ست وعشرين وسبعمائة أن الأمير سيف الدين أرْغُون الناصري نائب السلطنة الشريفة توجه إلى الحجاز الشريف في يوم الخميس خامس شوال، وصحبته ابنة السلطان زوجة ولده الأمير سيف الدين أبي بكر، وزوجة السلطان دَلَنْبِيه وهي التي وصلت من جهة الملك أزْبَك.

فلما كان في هذه السنة عاد بهم من الحجاز الشريف بعد قضاء الحج والمناسك والزيارة، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في الساعة الأولى من نهار الأحد حادي عشر المحرم من هذه السنة، وحال وصوله رسم السلطان للأمير سيف الدين قجليس الناصري أمير سلاح بالقبض عليه وعلى ولده الأمير ناصر الدين محمد، فلما عبر إلى الخدمة السلطانية، وساز في الدِّهْليز، قبض عليه الأمير سيف الدين المشار إليه وعلى ولده، وأخذ سيفيهما، وعدل بهما إلى قاعة رُسم أن يكونا بها، وأعلم السلطان بذلك، فأرسل السلطان إليه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي وأرسل له مأكولاً، ولم يضيق عليه. وبات تلك الليلة بالقاعة، فلما كان في يوم الاثنين أحضره السلطان بين يديه، وخلا به، وحَدَّثه طويلاً، وبَكَيا، وأفرج عنه وعن ولده، وخلع على الأمير

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٤.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٧.

سيف الدين تشريفًا على عادته، ورسم له أن يتوجه إلى نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبية عوضًا عن الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا، فخرج من بين يدي السلطان من ساعته، في عشية نهار الاثنين، وصحبته الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي أحد الأمراء مقدمي الألوف، وتوجها إلى دمشق فوصلاها في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم.

وكان السلطان ـ حال القبض على الأمير سيف الدين أرْغُون ـ أرسل الأمير سيف الدين ألْجاي الدوادار على خيل البريد إلى حلب، لإخراج الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا نائب السلطنة الشريفة منها، وإحضاره إلى الأبواب السلطانية، وإخلاء مساكن النيابة للأمير سيف الدين أرْغُون، فتوجه ووصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم، وتوجه منها إلى حلب، وعاد هو والأمير علاء الدين الطُّنْبُغا فوصلا إلى دمشق على خيل البريد في عشية نهار الخميس ثاني عشرين الشهر، فوصلوا كلهم الجمعة، بدمشق، وتوجه الأمير سيف الدين أرغون إلى حلب، فوصل إليها في يوم الجمعة سلخ المحرم.

وتوجه الأمير علاء الدين الطُّنْبُغا إلى الأبواب السلطانية فكان وصوله في يوم السبت مستهل صفر، وخلع عليه السلطان على عادته تشريفًا وحِياصة، وأنعم عليه بخيل، وأسكنه بقلعة الجبل، وأنعم عليه بإمرة مائة فارس من جملة الإقطاع المحلول عن الأمير سيف الدين أرغُون، وقدمه على ألف، وفرق السلطان إقطاع النيابة، فأعطى الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي منه «مُنْيَة بني خصيب» وكمل الأمير سيف الدين طايَربُغا مائة فارس، وتقدمه ألف من جملة تقدمه نائب السلطنة، فزادت التقادم تقدمة، فكَمُلَت بهذه التقدمة خمسة وعشرين تقدمة، وأعطى السلطان بقية إقطاع النيابة زيادة على إقطاعات الأمراء مماليكه، وقطع أخباز جماعة من مماليك الأمير سيف الدين أرغون وألْزامه.

ثم توجه طلب الأمير سيف الدين أرغون وصحبته ولده الأمير ناصر الدين محمد في يوم الأربعاء خامس صفر، وتوجه معهم الأمير سيف الدين بُلَك[1] الجمدار، ورسم ألا ينشر علمًا، ولا يحرك طبلخاناه، ولا يَشُدّ مَن معه دركاشًا إلى حين وصولهم إلى حلب، فأوصلهم الأمير سيف الدين بُلَك، وعاد إلى الأبواب

(١) سيف الدين بلك: هو بلك الجمدار الناصري، توفي سنة ٧٤٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٥).

السلطانية في يوم الخميس ثامن عشر شهر ربيع الأول، وتأخر بالأبواب السلطانية من أولاد الأمير سيف الدين أرغون الأمير سيف الدين أبو بكر، والأمير ركن الدين عمرو، والأمير شهاب الدين أحمد إلى أثناء جمادى الأولى، ثم رسم أن يتوجَّهوا إلى حلب، فتوجهوا هم وعائلة الأمير سيف الدين أرغون، وابنة السلطان زوجة الأمير سيف الدين أبي بكر في يوم الاثنين خامس جمادى الأولى، وصحبتهم الأمير سيف الدين آقْبُغا بن عبد الواحد(١) رأس نوبة الجمدارية، ليوصلهم ويعود، فوصلوا إلى دمشق في ليلة السبت رابع عشرين الشهر، فنزلوا بالقصر الأبلق، وتوجهوا إلى حلب في ليلة الأحد، واستقر أولاد الأمير سيف الدين أرغون الثلاثة في جملة الأمراء بحلب المحروسة، وخرجت إقطاعاتهم التي بالديار المصرية لغيرهم من الأمراء.

ثم رسم السلطان ببيع ما نقل من جهاز ابنته زوجة الأمير سيف الدين أبي بكر، فأبيع بالمدرسة الناصرية بالقاهرة، وكان في جملة ما أبيع قَصْر فضة، وتَخْت، ودِكَّة فضة، الجميع مُلَبَّس على خشب، وأبيع غير ذلك.

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء ثالث عشر من المحرم فوّض السلطان نظر النُّظّار والصحبة إلى القاضي مجد الدين إبراهيم بن القاضي المرحوم مكين الدين عبد الله بن لُفَيْتَة(٢) وخلع عليه.

وأفصل القاضي شرف الدين عبد الرحمٰن الخَطِيري من الوظيفة المذكورة، وفُوِّض إليه نظر البيوت السلطانية عوضًا عن القاضي مجد الدين المذكور، واستقر أيضًا في أشغال الأمير سيف الدين أرغون في غيبته على عادته قبل مباشرة نظر النظّار.

وفيها في يوم الأحد الثامن عشر من المحرم وُلِد للسلطان الملك الناصر ولد ذكر من زوجته عتيقته طُغَاي، وكان السلطان قد توجه في هذا اليوم إلى الصيد بجهة القصور بناحية سرياقوس، فطولع في ذلك، فعاد في يوم الخميس الثاني والعشرين من الشهر وعُمل مُهِمّ(٣) في يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر وأقام السلطان بقلعة الجبل إلى آخر يوم السبت مستهل صفر.

---

(١) توفي سنة ٧٤٤هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٩١).

(٢) توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٢، السلوك ٢/ ٢٨٠).

(٣) المهم: يطلق على الوليمة والسماط العام في المناسبات الهامة كولادة ابن للسلطان وغيره.

وتوجه في يوم الأحد ثاني الشهر إلى جهة القصور بسرياقوس، ثم توجه من هناك، وعَدَّى إلى جهة المنوفية، فتصيد هناك، وعاد إلى الجيزية، فأقام بها أيامًا، وحضر الرسل الذين وصلوا من جهة الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد بين يدي السلطان، فسمع كلامهم، وخلع عليهم، وأعادهم، وعاد السلطان إلى قلعة الجبل في يوم الخميس العشرين من صفر.

وفي يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الأول من السنة انتقل ركاب السلطان من قلعة الجبل المحروسة إلى جهة القصور بسرياقوس، فأقام إلى يوم السبت، وتوجه إلى جهة الأهرام، واستقر بتلك المنزلة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر، ثم توجه إلى جهة البحيرة للصيد المبارك، وناب عنه في الغيبة الأمير سيف الدين قِجْلِيس أمير سلاح، وأمر أن يركب في مماليكه الخاصة، وأن جميع من تأخر من الأمراء وأمراء العشرات، ومقدمي الحلقة، بالقاهرة وبقلعة الجبل لا يركبون في مدة غيبة السلطان لموكب ولا لغيره، وأن يلزم كل منهم بيته إلى حين عودة ركاب السلطان فلم يزل الأمراء على ذلك إلى أن عاد السلطان وكان عوده ووصوله إلى قلعة الجبل المحروسة في يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول.

وفيها في يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر ربيع الأول أنعم السلطان على الأمير سيف الدين أُلماس الحاجب بسكن دار النيابة خلا القاعة الحُسامية، فإنه رسم بإفرادها، فأفردت، وسكن فيما عداها من المساكن.

ذكر وصول الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس إلى الأبواب السلطانية والقبض على الأميرين سيف الدين طَشْتَمُر البدري[١] وسيف الدين قُطْلُوبُغا[٢] الفخري والإفراج عنهما

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين تَنْكِز[٣] نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس على خيل البريد، وكان ركوبه على خيل البريد من غزة، فإنه وصل إليها بطلبه

(١) يلقب بحمص أخضر (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢١٩، السلوك ٢/ ٢١٨).
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٩، والدرر الكامنة ٣/ ٢٥٠.
(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ١٣، ٣٤.

ومماليكه يتصيد، فرسم له بالحضور إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد فوصل، وتَلَقّاه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي إلى سرياقوس، وتصيد معه في تلك الجهة، ولما وصل توجه، فمثل بين يدي المقام الشريف، وشمله الإنعام السلطاني على عادته، ونزل عند الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي بداره بقلعة الجبل.

ولما كان في يوم الأحد سادس الشهر جلس السلطان، ووقف الأمير سيف الدين تَنْكِز بين يديه والأمراء المماليك السلطانية، فنظر السلطان إلى الأميرين سيف الدين طَشْتَمُر البدري، وسيف الدين قُطْلُوبُغا الفخري، وقال لقُطْلُوبُغا: قد ضجرت مما أسمع عنك، وهذا كلام كثير، وما أعرف رضاكم في أي شيء حتى أفعله، وأشباه هذا من الكلام، وأظهر الغضب الشديد، والحرج والحِدَّة، وأمر الأمير سيف الدين قِجْلِيس أمير سلاح بالقبض عليهما، فتقدم إلى كل منهما وأخذ سيفه، وتوجه بهما إلى الاعتقال، فاعتقلهما، وكان ذلك ببرج السباع بالقلعة واشتد الأمر عليهما، وقيل: إنهما قُيِّدا.

فلما كان عشية النهار اضطرب المماليك السلطانية سكان الطباق لذلك اضطرابًا شديدًا، ويقال: إنهم امتنعوا من الدخول في الخدمة، وقالوا نُحْبَس جميعًا، فإن هؤلاء هم أكابرنا، وأخص الناس بالسلطان، فإذا قبض عليهما بغير ذنب فكلنا نُحْبَس، فطالع الأمير سيف الدين صواب ـ المقدم عليهم ـ السلطان بذلك، فطلب الأمير سيف الدين تنكز، وعرفه ذلك، فتلطف في أمرهما وقبّل الأرض مرارًا بين يدي السلطان، وشفع فيهما، فأفرج عنهما في بقية النهار. وأقرّ الأمير سيف الدين طَشْتَمُر على إقطاعه، وأسكنه في القاعة الحسامية التي أفردت من دار النيابة، وكان قبل ذلك يسكن داخل باب القلعة بقرب مساكن السلطان.

وأما الأمير قُطْلُوبُغا الفخري، فإن حرج السلطان عليه كان أشد، لما كان يتكلم به بين يديه من الرد عليه، وكثرة الإدلال، فأنزل إلى إسطبله، ورسم السلطان بإخراجه إلى الشام، فعيّن له إقطاع الأمير علاء الدين أَيْدُغْدِي التَّلِيلي[1] وهو من جملة أمراء الطبلخاناه، وكان قد أنهى إلى السلطان أنه عجز عن الخدمة، وقَلّ نظره، وتغير ذهنه، فوَفَّره من الخدمة، وأنعم عليه براتب، وأخرج إقطاعه للأمير المذكور، وزاد

(١) توفي سنة ٧٢٨هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٢٥).

عليه قرية عَنْجَرا، وعَبْرَتها[١] في السنة عشرون ألف درهم، وتوجه صحبته الأمير سيف الدين تَنْكِز إلى الشام، وذلك في يوم السبت ثاني عشر شهر ربيع الآخر، وقدم السلطان على ألفه الأمير سيف الدين طُغَيْتَمُر العمري الناصري[٢].

ولما توجه الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا الفخري إلى الشام أوصى ألا يُسكَّن اصطبله لأحد من الأمراء، فاتصل ذلك بالسلطان، فأمر بهدمه، وهو الأصطبل الذي كان قد أنشأه الأمير سيف الدين طُغاي، وهو تحت القلعة فيما بين القلعة وبين البرقية، وله باب آخر من جهة التبانة فيما بين المصلى وقلعة الجبل، وبه حوض سبيل لسقي الدواب، فهدم الأصطبل وحوض السبيل، وعُفِّي أثرهُ، وبُنِي بِنقْضِه، وصار طريقًا يسلكه من يمر إلى القلعة من خارج السور، كما كان أول مرة قبل عمارته.

وفي هذه السنة في يوم السبت الثاني عشر من شهر ربيع الآخر الموافق الحادي عشر من برمهات من شهور القبط - وذلك في أواخر فصل الشتاء - حصل بالقاهرة ومصر حر شديد، وزاد في يوم الأحد، واشتد في يوم الاثنين، وهبّت في هذه الأيام ريح شرقية حارة جدًا، وكان أشدها يوم الاثنين، وحصل من الحر ما لا يحصل في أيام الصيف أكثر منه، حتى لبس الناس في هذه الأيام في فصل الشتاء ما يلبسونه في فصل الصيف من القمصان الرفاع، وكانت الأيام قبل ذلك شديدة البرد، واستمر ذلك كذلك بقية يوم الاثنين، وهبّت ريح غربية قبيل العشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء خفّ الحر بسببها يسيرًا، ثم سكنت بسرعة، وعاد الحر في ليلة الثلاثاء، وتزايد إلى الثلث الأخير من الليل، ثم نقص الحر في يوم الثلاثاء، وحصل غيم مطبق قبيل المغرب من يوم الثلاثاء، ورعد وبرق شديد فيما بين المغرب والعشاء من ليلة الأربعاء، وانهلّ مطر يسير لكنه غليظ القطر حار جدًا، كأنه سخن بالنار، وعاد البرد إلى ما كان عليه في يوم الأربعاء السادس عشر من شهر ربيع الآخر، وهو الخامس عشر من برمهات، فسبحان من يُدَبِّر ملكه كيف شاء، لا إله إلا هو الكبير المتعال، وبسبب هذا الحر حصل في الزرع نقص، وهاف بعضُه في كثير من البلاد بالديار المصرية.

---

(١) العبرة: من التعابير الخاصة بنظام الإقطاع، ومعناها القيمة المالية التي يدفعها المقتطع للدولة بدل إقطاعه قطعة من الأرض أو منطقة معينة (صبح الأعشى ٣١٦/١١).
وفي النجوم الزاهرة ٥٣/٩ حاشية (١): العبرة في الاصطلاح المالي القديم تعني مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض، وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨٩/٩، الدرر الكامنة ٢٢٣/٢.

ذكر حادثة وقعت بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وفي يوم السبت العشرين من شهر ربيع الأول وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير طُفَيْل أخو الأمير بدر الدين كُبَيْش بن منصور بن جمّاز بن شِيحَة من المدينة النبوية، وأخبر أن أخاه الأمير بدر الدين كُبَيْش توجه من المدينة إلى البر لبعض أوطاره، وأن عمه الأمير وَدِيّ[1] لما علم خلو المدينة منه وصل إليها بجموع من العرب، وحاصرها في ثامن عشر صفر، واستولى عليها في الخامس والعشرين من الشهر بعد أن حرق بعض أبوابها، وقتل القاضي شهاب الدين هاشم بن علي بن سنان قاضي الشيعة بالمدينة، وجرح بعضهم، وقُتِلَ نفر يسير، واستولى وَدِيّ على حواصل الأمير كُبَيْش وذخائره وأمواله، ثم وصل الأمير بدر الدين كبيش إلى الأبواب السلطانية، وجرد معه طائفة من العسكر إلى المدينة، فوصل إليها في العشر الأخر من شوال، وخرج من كان بالمدينة من أصحاب وَدِيّ، وأقام العسكر بالمدينة ثلاثة أيام، وعاد إلى الديار المصرية.

ذكر القبض على من يُذْكَر من الأمراء، وإعادة الأمير شرف الدين حسين بن جند ربيك إلى الديار المصرية

وفي هذه السنة في يوم الخميس مستهل جمادى الأولى بعد العصر أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين القَفْجَاقِي أحد الأمراء مقدمي الألوف، وعلى أخيه سيف الدين قُرْمُشي واعتقالهما، وأمر أيضًا بالقبض على طائفة من المماليك السلطانية القَفْجاقية، وجهز ـ في ليلة الجمعة إلى ثغر الإسكندرية ـ ممن كان في الاعتقال بقلعة الجبل بالجب من الأمراء صلاح الدين طَرْخان بن الأمير بِيبَرْس الشمسي[2]، وسيف الدين بُرُلْغِي وهو ابن عم السلطان، ورسم باعتقالهم بالثغر، أحسن الله تعالى خلاصهم.

---

(١) هو وُدَيّ بن جماز بن شيحة، أبو مزروع، ولاّه الناصر محمد بن قلاوون إمارة المدينة سنة ٧٣٦هـ، توفي سنة ٧٤٣هـ (الأعلام ٨/ ١١٢).

(٢) توفي سنة ٧٣٥هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢١٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٨٩، السلوك ٢/ ٢٨٢).

ولما قبض على أَصْلَم أمر السلطان بإعادة الأمير سيف الدين حسين بن جندر بيك إلى الخدمة الشريفة بالأبواب السلطانية ـ وقد قدمنا خبر إرساله إلى الشام ـ فوصل إلى الأبواب السلطانية في يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى، وشمله الأنعام بالتشريف الأطْلس بالطَّرْزالزَّرْكش، والكَلُّوتة الزَّرْكش والحياصة الذهب المُجَوْهَرة، وأنعم عليه بإقطاع الأمير سيف الدين أَصْلَم وتقدمته.

وفيها في يوم الاثنين خامس جمادى الأولى توجه الأمير حسام الدين حسين بن خَرْبَندا إلى بلاد التتار، وكان هذا الأمير قد حضر إلى الأبواب السلطانية من مدة سنين، وشمله الإنعام السلطاني بأمرةِ طبلخاناه بالديار المصرية، فتكرر طلب التتار له لما وقع الصلح، وسألوا السلطان إرساله إليهم، وذكروا أن له إخوة وعيالاً يبكون عليه، فعرض السلطان عليه العود إلى بلاده فيما تقدم، فأبى، فلما كان في هذا الوقت عاد سيف الدين كِرماس أحد مماليك الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي من جهة الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد ـ وكان قد توجه إليه برسالة ـ فأكد عليه في سؤال السلطان في إعادته، فرسم بعوده إلى بلاده، وخلع السلطان عليه وزَوَّدَه، فتوجه في هذا التاريخ، ثم عاد الأمير المذكور في هذه السنة رسولاً من جهة الملك أبي سعيد، فسمع السلطان رسالته، وخلع عليه وأعاده.

ذكر اتصال الأمير سيف الدين قَوْصُون بابنة السلطان الملك الناصر

وفي يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من هذه السنة عُقِدَ نكاح الأمير سيف الدين قَوْصُون الناصري على إحدى بنات السلطان الملك الناصر بحضور قضاة القضاة وأمراء الدولة الشريفة، وذلك بقلعة الجبل، وتولى عقد النكاح بالإذن السلطاني قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي، وبنى بها في ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رجب، وكان ابتداء الفرح من يوم الاثنين تاسع الشهر.

وهذا الأمير ـ سيف الدين قَوْصُون المذكور ـ لم يكن قديم الهجرة في الخدمة السلطانية، وإنما ابتاعه السلطان من سُنَيّات من رسل أَزْبَك، فأحسن إليه، وأمَّره، وزاد في الإحسان إليه حتى انتهى إلى هذه الغاية، ثم قدّمه على ألف، وعظم شأنه، وارتفع محله، وتميز إقطاعه، وكثرت عصائره، واتسع ملكه، وتقدم في الدولة تقدمًا عظيمًا، ووصل إخوته من بلاد الملك أَزْبَك، وتزوج السلطان بعد ذلك بأخته، وكان من تمكنه وبسطته ما نذكره إن شاء الله تعالى في موضعه.

وفي هذه السنة في العشر الأول من جمادى الأولى وصل إلى الأبواب السلطانية رسل صاحب إسطنبول، فلما مثلوا بين يدي السلطان، وأدُّوا الرسالة أسلم أحدهم وهو آقْسُنْقُر الرومي، وتلفظ بالشهادتين المعظمتين، فسُرّ السلطان بإسلامه، وأحسن إليه، وأنعم عليه، ثم أمّره بعشرة طواشية، ولبس بالإمرة في يوم السبت رابع عشرين شوال من السنة وأسلم أيضًا أخٌ لهذا الرسول اسمه بَهادُر ونزل في جملة المماليك السلطانية، والله أعلم.

ذكر استعفاء قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[١] الشافعي من القضاء بالديار المصرية، وإجابته إلى ذلك، وتفويض القضاء بعده لقاضي القضاة جلال الدين القَزْويني[٢]

وكان سبب ذلك أن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن جماعة الشافعي ضَعُف بصره، ونزل الماء في إحدى عينيه، وكمل، وتحدر إلى العين الثانية، فقلّ نظره جدًا، وتبين ذلك وظهر في أواخر جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فلما كان في يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة حضر إلى دار العدل، وأنهى ذلك إلى السلطان، وسأله أن يعفيه من الحكم، وانفصل المجلس ثم أتته الرسالة السلطانية بالإجابة إلى الإعفاء.

واستدعى السلطان ولده القاضي عز الدين عبد العزيز إلى بين يديه في يوم الجمعة السابع من الشهر، وتحدّث معه في مَغْنِيِّ والده، وسبب ضعف بصره، وسأله عن الجهات التي بيده، ثم حضر قاضي القضاة بدر الدين في يوم الاثنين عاشر الشهر أو حادي عشره إلى مجلس السلطان بدار العدل الشريف، وأعاد السؤال في الإعفاء، فأجابه السلطان إلى ذلك من غير أن يصرح له بعزله، ثم سأله السلطان عمن يصلح للقضاء، وأن يعين له من يوليه، فاستعفى من ذلك، ولم يعين، ورسم له في ذلك

---

(١) بدر الدين محمد بن جماعة: تقدمت ترجمته.

(٢) جلال الدين القزويني: هو محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر، جلال الدين القزويني، ولد بالموصل، قدم دمشق ومصر، وصار قاضيًا بالشام، وتوفي سنة ٧٣٩هـ، من تصانيفه: «الإيضاح على صاحب المفتاح» في المعاني والبيان، «تلخيص المفتاح للسكاكي»، «المشذر المرجاني من شعر الأرجاني». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٥٠، السلوك ٢/ ٢٨٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٩٦، الدرر الكامنة ٣/ ٤، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٤٢).

المجلس أن يحكم في قضية كانت بين الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحاجب وبين خصومه، فنزل إلى المدرسة الصالحية بالقاهرة، وجلس في قاعته، وحكم في عشية نهار الاثنين المذكور بين الأمير سيف الدين وغرمائه، وبلغني أنه قال لمن حضر مجلسه: «هذا آخر الحكم» وتوجه إلى داره التي بساحل مصر بقرب الجامع الناصري، واستقر بها وأخلى قاعة التدريس بالمدرسة الصالحية بالقاهرة.

ورسم له السلطان أن يُرَتَّبَ له من مال مُنَجَّزِ الخاصّ الشريف في كل شهر ألف درهم نُقْرَة بحكم استعفائه من الحكم، فكتب له توقيع سلطاني بذلك، ولم يكتب له فيه ما جرت العادة به من النعوت، واستقر بيده من جهاته تدريس زاوية الإمام الشافعي(١) بجامع عمرو بن العاص بمصر، فاستمر يلقي فيها الدرس، واستمر نوابه في القاهرة ومصر والأعمال على ولايتهم منه، وأحكامهم نافذة.

وذكر بين يدي السلطان من يصلح للقضاء بالديار المصرية، فعيّن جماعة لم يقع اختياره على أحد منهم، فاجتمع رأي السلطان على إحضار قاضي القضاة جلال الدين محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين عبد الرحمٰن ابن قاضي القضاة إمام الدين عمر القزويني قاضي القضاة بدمشق، وخطيب الجامع الأموي بها، فرُسِم بطلبه وأن يحضر على خيل البريد.

وتقرر أن ينقل القاضي كمال الدين بن الزَّمْلَكاني قاضي حلب منها إلى دمشق، ويتوجه القاضي جمال الدين الزرعي ـ الذي كان قاضي الشام وعزل بالقاضي جلال الدين ـ إلى حلب، ولم ينعقد في ذلك ولاية.

---

(١) الشافعي: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبت الشافعية كافة، ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ، وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ، له من التصانيف: «إثبات النبوة والرد على البراهمة»، «أحكام القرآن»، «اختلاف الحديث»، «أمالي الكبير في الفقه»، «الإملاء الصغير»، «تعظيم قدر الصلاة»، «التنقيح في علم القيافة»، «الحجة العراقي»، «رسالة في بيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة»، «سنن في الحديث»، «الفقه الأكبر»، «كتاب الأسماء والقبائل في اختلاف العراقيين»، «كتاب الأم في الفقه»، «الكتاب الجديد»، «الكتاب القديم»، «الكتاب المبسوط» في مذهبه، «مختصر البويطي»، «مختصر الربيع»، «مختصر المزني»، «معاني القرآن»، وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ٩، وانظر ترجمته أيضًا في: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٩، طبقات الشافعية ١/ ١٨٥، طبقات الفقهاء الشافعية ٦/ ١١٤، كتاب الوفيات ١٥٥، شذرات الذهب ٢/ ٩، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، البداية والنهاية ١٠/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩).

وتوجه البريد لإحضار قاضي القضاة جلال الدين المذكور إلى الأبواب السلطانية، فوصل إلى دمشق في يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة، وتوجه القاضي جلال الدين من دمشق إلى الأبواب السلطانية في يوم الأربعاء التاسع عشر من الشهر، فوصل إلى الخانقاة الناصرية بسماسم في يوم الجمعة الثامن والعشرين من الشهر، ونزل عند شيخها، مجد الدين الأقْصُرائي(١)، وسأله الشيخ والفقراء أن يخطب لهم بالجامع، فاستأذن الخطيب شهاب الدين أحمد بن السَّبتِي في الخطبة، فأذن له، فخطب وصلّى بالناس بالجامع الناصري بالخانقاه الناصرية، وركب من الخانقاة، ووصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل المحروسة بكرة نهار السبت التاسع والعشرين من جمادى الآخرة، وهو سلخه، وحضر بين يدي السلطان، فأكرمه وشافهه بالولاية، وأنعم عليه، وخلع عليه خِلْعة القضاء، وأنعم عليه ببغلة بسرج وزُنّار من جوخ، وقام من المجلس السلطاني، وجلس بمَصاطب باب القلعة وكتب على الفتيا على عادة القضاة في ذلك، ونزل من القلعة إلى المدرسة الصالحية، وحكم بين الناس، وأقرّ النوابَ على ما كانوا عليه من جهة قاضي القضاة بدر الدين، ثم أنعم السلطان عليه بزيادة على معلوم القضاء، واستقر بيده ـ مما كان بيد القاضي بدر الدين ـ تدريس المدرسة الصالحية، والمدرسة الناصرية، ودار الحديث، بالكاملية، وخطب بجامع قلعة الجبل من غير معلوم مع استمرار خطيبه ابن القَسْطلاني، فصار يخطب جمعة وقاضي القضاة جمعة، هذا إذا كان السلطان بقلعة الجبل، وإذا كان السلطان بالصيد أو غيره خطب الخطيب المُسْتَقِرُّ بمفرده، والجامكية للخطيب خاصة.

وكان قد حضر مع قاضي القضاة جلال الدين ولده القاضي بدر الدين محمد، ففوّض السلطان إليه خطابة الجامع الأموي بدمشق، وتدريس المدرسة الشامية الجُوّانية، وعاد إلى دمشق على خيل البريد، وكان وصوله إليها في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، وجلس للتدريس بالمدرسة الشامية في يوم الأربعاء سابع عشر شعبان من السنة.

* * *

(١) مجد الدين الأقصرائي: هو أبو حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائي، الحنفي، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٢٤).

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد ملك العراقين وخُراسان إلى الأبواب السلطانية

وفي يوم الأربعاء الرابع من شهر رجب من هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية الملكية الناصرية رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا ملك العراقين وخُراسان وبلاد الروم وغير ذلك، وكان المشار إليه منهم سيف الدين أَسَنْدَمُر، وهو من أكابر الأمراء مقدمي التَّوامين[1]، ووصل صحبتهم محمد بيه بن جمق أحد أقارب السلطان، وهو ابن أخت الأمير سيف الدين طايربُغا، فمثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس، فسمع رسالتهم، وقَبِل هدية مرسلهم، وأحسن إليهم، وأنزلهم عند الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي بقلعة الجبل، وشملهم السلطان بالتشاريف والإنعام.

وكان مضمون رسالتهم من الملك أبي سعيد ـ فيما بلغني من المحقق لها ـ خطبة ابنة السلطان للأمير خواجًا دمْشَق بن الأمير جُوبان نائب الملك أبي سعيد، فأجاب السلطان إلى ذلك، واشترط حضور بن جُوبان إلى أبوابه، وتوجه الرسل في خدمة السلطان إلى الميدان في يوم السبت سابع الشهر، وشاهدوا من مواكبه العظيمة ما لم يروا مثله، وتوجهوا إلى القبة المنصورية لزيارة ضريح السلطان الملك المنصور والد السلطان، وذلك في يوم الجمعة ثالث عشر الشهر، ودخلوا المدرسة، ومُدّ لهم سِماط بالإيوان القبلي، وحضر الفقهاء بجملتهم في الإيوان البحري.

ثم توجه الرسل أيضًا في خدمة السلطان في يوم السبت إلى الميدان، وعادوا إلى مرسلهم بعد أن شملهم الإنعام الوافر من الخِلَع والأموال، وكان توجههم في يوم الاثنين السادس عشر من شهر رجب، وجَهّز السلطان معهم الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا المغربي الحاجب.

وأما محمد بيه بن جمق الواصل صحبتهم فإن السلطان أنعم عليه بإمرة طَبْلخاناة، وأقطعه إقطاع الأمير عز الدين أَيْبَك البكتوتي أمير عَلَم، ونقل البكتوتي إلى صَفَد على إقطاع نجم الدين فيروز، وكان قد قبض عليه واعتقل بها.

وفيها في يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب أمر السلطان بالقبض على أولاد الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري[2] الثلاثة وهم: علاء الدين أمير علي،

---

(١) مقدمو التومان: هم أمراء التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، أي أمير عشرة آلاف (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

(٢) توفي سنة ٧٢٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٨٢).

وسيف الدين أَسَنْبُغا[١]، وشهاب الدين أحمد، فقبض عليهم وعُوِّقوا بدار الأمير سيف الدين أَلْماس الحاجب أيامًا إلى أن سكنت الفتنة التي وقعت بثغر الإسكندرية، ونقل الأمراء منها على ما نذكره إن شاء الله تعالى، ثم أفرج عنهم، ورسم لهم بالدخول إلى الخدمة السلطانية، فدخلوا، ووقفوا مع الجند، فأمر السلطان الحجّاب أن يرفعوا منزلتهم، وأن يقفوا مع الأمراء، وأن يَلْبَسوا أَقْبِيَة فَوقانية على عادة الأمراء في ذلك.

ذكر الفتنة الواقعة بثغر الإسكندرية

وفي يوم الخميس خامس شهر رجب سنة سبعٍ وعشرين وسبعمائة، وقع بثغر الإسكندرية المحروس فتنة عظيمة بين أهل الثغر ومُتَولِّيه ركن الدين بِيبَرْس الكركي.

وسبب هذه الفتنة أن جماعة من عوام الثغر اجتمعوا في هذا اليوم ليتفرجوا على عادتهم، فوقفوا على حَلْقَة قاصٍّ ظاهر الثغر بين بابي الأخضر والبحر، وكان في الحلقة فِرِنْجِي من أتباع رسل صاحب إسطنبول، فشرع القاصُّ إذا ذكر في قصصه النبي ﷺ رفع المسلمون أصواتهم بالصلاة على عادة المسلمين في ذلك، فقال بعضهم: أخرجوا هذا الفرنجي من بيننا، فإننا نحن نصلي على النبي ﷺ وهو لا يصلي عليه، فأرادوا إخراجه من الحلقة، فامتنع من الخروج، فدُفِع منها، فأعانه بعض رَجّالَة الولاية بالثغر، وقال: هذا من أتباع الرسل الذين وصلوا إلى السلطان، فضرب بعض العوام ذلك الراجل، فاستنفر بجماعة من رفقته رجالة الولاية، فكاثرهم العوام وضربوهم، وثارت الفتنة، فركب المتولي ليرد الناس، فرجمه أهل الثغر، فغَلّق أبواب البلد بين العوام وبين مساكنهم، وتحصن منهم، وأحضر إليه رَيِّس الخلافة[٢] قاربًا فيه نُشّاب، فرمى العوام بالنُّشاب، فقتل منهم جماعة.

وحضر القاضي بالثغر عماد الدين الكندي، وأشار على المتولي بالكَفِّ، فلم يوافقه، واستمر هو وأصحابه على رَشْق العوام بالنشاب، فقيل: إن القاضي قال

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٣٨٦.

(٢) رئيس الخلافة: هو رئيس الحرّاقة، وهو الذي يحكم على رجال الحراقة السلطانية ويتولى أمرها، وكان في الزمن المتقدم يقال له رئيس الخلافة جريًا على ما كان الأمر عليه في الخلافة الفاطمية بالديار المصرية (صبح الأعشى ٥/٤٣٩).

والحرّاقة: جمعها حراريق وحرارق: وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية، كالنار الإغريقية (انظر: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص١٠٤).

للعوام: قد حلّ لكم قِتالُهم، فعند ذلك عظمت الفتنة، وحوصر المتولي، وتوجه جماعة من العوام إلى دار رَيِّس الخلافة، فانتهبوا جميع ما فيها، وقتلوا جماعة من العوام، وتوجه بعضهم وكسروا السجن، فأخرجوا ما فيه من المعتقلين، وكان عبيد أهل الثغر قبل ذلك قد خرجوا للعب في عيد النَّنجات على عادتهم، فضرب المتولي منهم جماعة واعتقلهم، فخرجوا الآن، وقصد العوام إخراج الأمراء المعتقلين بالثغر، فامتنعوا من ذلك.

فعند ذلك بادر المتولي بمطالعة السلطان بهذه الحادثة، فوصلت مطالعته في بكرة يوم الأحد ثامن شهر رجب، فندب السلطان الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي مدبر الدولة وأستاذ الدار العالية، وصحبته من الأمراء: الأمير سيف الدين أَلْدَمُر[(١)] أمير جاندار، والأمير سيف الدين طُوغان شادّ الدواوين، وغيرهما، فتوَجَّهوا إلى الثغر في بقية نهار الأحد لكشف هذه الحادثة، ومقاتلة من تَعَدّى، ورسم بإهانة القاضي عماد الدين الكندي الحاكم بالثغر، والإخراق به، وعزله عن القضاء، وفُوِّض قضاؤه إلى القاضي علم الدين بن الأخنائي الشافعي في العشر الأوسط من شهر رجب، وهو أول شافعي ولي قضاء الثغر.

ولما وصل الأمير علاء الدين مُغْلَطاي والأمراء إلى الثغر أحضر القاضي عماد الدين الحاكم، وأهانه، وصادره هو وشمس الدين المؤذن البُلْبَيْسي نائبه وجماعة من أهل الثغر والتجار، فأخذ من جهتهم نحو خمسين ألف دينار. منها من التجار الكارِمِيّة[(٢)] نحو عشرين ألف دينار وبقية ذلك من أهل الثغر، ووَسَّط جماعة من العوام، ومسك جماعة من العبيد بالثغر وغير العبيد، وأحضر منهم نحو تسعين رجلاً، فقيِّدوا واستُعملوا في العمارة، وحصل لأهل الثغر ضرر عظيم.

وكان ممن وُسِّطَ رجل صاحب قاعة فَزارة يعرف بابن رَوَاحة كان قد حضر إلى الأمير علاء الدين، والتزم بحفظ ميناء الثغر، وأنه مقيم من رجاله من يحفظها بغير جامكية، ويوفر جامكية الرماة بالبحر، وكان هذا الرجل عنده أربعمائة عُدَّة يلبسها الرجال المقاتلة إذا دُهِم الثغر عدو، فأخرجوا من البلد فتوجهوا إلى منية مُرْشِد إلى الشيخ محمد المرشدي، وطولع في أمره، وأنهى المتولي إلى السلطان أن هذا الرجل رأس فتنة، فطلب وأحضر إلى الثغر ووُسِّط، وأخليت قاعات الرماة بالثغر.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٠٧.

(٢) التجار الكارمية: تقدم التعريف بهم.

وعاد الأمير علاء الدين والأمراء إلى الأبواب السلطانية في يوم الأربعاء خامس عشرين الشهر، والثغر وأهله على أسوأ الأحوال.

ورسم السلطان بنقل جماعة من الأمراء المعتقلين، أحضر منهم في يوم الأحد الثاني والعشرين من الشهر عشرة نفر جُهِّز منهم إلى الكَرَك الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري، وسيف الدين تَمُر الساقي واعتقل ببرج السباع بقلعة الجبل الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي، والأمير سيف الدين بَهادُر المغربي، واعتقل بالجُبِّ ستة وهم: سيف الدين طُغْلُق، وأمير غانم بن أطلس خان وسيف الدين قُطْلُوبك المعلائي المعروف بالأوشاقي، وعز الدين أَيْدَمُر اليونسي، وسيف الدين كجكن، وفخر الدين أياز ـ نائب قلعة الروم كان ـ ثم أفرج عن فخر الدين أياز المذكور في يوم الخميس السادس والعشرين من الشهر لكبر سنه وعجزه، وخُلِع عليه على عادة مقدمي الحلقة المنصورة، وسكن بالقاهرة عند أولاده.

وتأخر بثغر الإسكندرية من الأمراء المعتقلين به صلاح الدين طَرْخان بن بَيْسَرِي، وسيف الدين بَلاط الجُوكَنْدار[(١)]، وسيف الدين بُرُلْغِي، وحسام الدين لاجين العمري، وسيف الدين ايتزا، وركن الدين بِيبَرْس العلمي، وسيف الدين طَشْتَمُر أخو بَنْحاص أحسن الله خلاصهم.

وفيها في يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر رجب ـ وهو سَلْخه ـ جلس الأمير علاء الدين مُغْلَطاي بقاعة الوزارة التي استجدت له بقلعة الجبل المقابلة لديوان الإنشاء، وجلس نظّار الدولة والمُسْتَوفون وكُتّاب الدَّرْج بين يديه خارج الشُبّاك على مصطبة بنيت برسم جلوسهم، ووقف شادّ الدواوين سيف الدين طُوغان وحجّاب الوزارة من أسفل المصطبة التي جلس عليها من ذكرنا أمام الشباك، ولم يَعْبُر إليه أحد بداخل القاعة التي هو بها ـ وبها الشباك ـ سوى مماليكه وحاشيته.

(١) الجوكان دار: فارسية مركبة من كلمتين: جوكان: وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان. ودار: ومعناها ممسك وصاحب. والجوكان دار: ممسك الصولجان أو صاحب الصولجان. (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠).

ذكر تفويض قضاء القضاة بالشام لشيخ المشايخ علاء الدين القُونَوي[(١)]

وكان السلطان لما نَقَل قاضي القضاة جلال الدين القَزْوِيني من دمشق إلى الديار المصرية المحروسة رسم بطلب القاضي كمال الدين بن الزَّمْلَكانِي قاضي حلب منها ليفوض إليه قضاء الشام، فتوجه البريد إليه في أوائل شعبان، ووصل البريد إلى دمشق في ثامن شعبان، وتوجه إلى حلب، وعاد صحبة القاضي كمال الدين المذكور، فكان وصوله إلى دمشق في يوم السبت العشرين من شعبان، وتوجه إلى الأبواب السلطانية في يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان على خيل البريد.

فلما وصل إلى مدينة بُلْبَيس درج بالوفاة إلى رحمة الله تعالى على ما نذكره إن شاء الله في الوفيات، ولما اتصلت وفاته بنائب السلطنة بالشام طلب القاضي بدر الدين أبا اليُسْر محمد بن قاضي القضاة عز الدين محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق بن خليل الأنصاري المعروف بابن الصايغ[(٢)]، وكان معتكفًا بالجامع الأموي، فخرج من اعتكافه، وتوجه إليه، فتحدث معه نائب السلطنة في ولاية القضاء، وتلطف به، فامتنع كل الامتناع، وصمم على ألاّ يلي القضاء أبدًا، فلم يزل يتلطف به إلى أن قال: أستخير الله تعالى في ذلك، فكتب نائب السلطنة إلى الأبواب السلطانية في ولايته القضاء، فكتب تقليده بالقضاء، وسُيِّر إلى دمشق، فوصل في يوم الخميس خامس عشر شوال، فحمل إليه التقليد والتشريف، فامتنع من قبول الولاية، وأصرّ على الامتناع، ومرض بسبب ذلك، ورَدَّ التقليد والتشريف.

فطالع نائب السلطنة بذلك، فاتفق رأي السلطان على تفويض القضاء لشيخ الشيوخ علاء الدين أبي الحسن علي بن الشيخ نور الدين إسماعيل بن جمال الدين

---

(١) علاء الدين القونوي: هو علي بن إسماعيل ين يوسف، علاء الدين، أبو الحسن القونوي، الأصولي الشافعي، قدم القاهرة ودرس بها ثم تولى قضاء الشام، ولد سنة ٦٦٨هـ، وتوفي سنة ٧٢٩هـ، له من المصنفات: «الإعلام في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»، «التصريف في شرح التعريف في التصوف»، «شرح حاوي الصغير للقزويني» في الفروع «مختصر المعالم في الأصول»، «مختصر المنهاج». (انظر: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤، طبقات الشافعية ٦/ ١٤٤، شذرات الذهب ٦/ ٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ١٨١).

(٢) ولد سنة ٦٧٦هـ، وتوفي سنة ٧٣٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٢٢٦، الوافي بالوفيات ١/ ٣٣٢).

يوسف القُونَوِيّ الشافعي، فأحضره السلطان إلى مجلسه في يوم الاثنين السادس والعشرين من شوال سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وفوّض إليه قضاء القضاة بالشام، وخلع عليه في هذا اليوم، وأذن له في الحكم بالقاهرة، فأثبت كتبًا تتعلق بالشام، وأنعم السلطان عليه بمبلغ ألف درهم وخمسمائة درهم، ورسم أن يجهز له من ديوان الخاص ما يَنْقُل عليه عياله إلى دمشق، فجهز له أربعة مَحايِر وعِدَّة جمال، وصرفت أجرتها من ديوان الخاص السلطاني، ورسم لعائلته في كل يوم - من حين سفرهم إلى أن يصلوا دمشق - بثلاثين درهمًا نقرة، عن عشرين يومًا ستمائة درهم.

وتوجه هو إلى دمشق على خيل البريد بعد صلاة الظهر من يوم السبت التاسع من ذي القعدة، ووصل إلى دمشق في بُكرة نهار الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، واجتمع بنائب السلطنة بدار السعادة، ولبس التشريف وتوجه إلى المدرسة العادِلِيَّة، وقُرِىء تقليده، وجلس للحكم، وسلك في ولايته سبيل السلف الصالح، ولم يحتجب عن أحد من الناس، ثم فوض إليه مشيخة الشيوخ بدمشق عوضًا عن قاضي القضاة شرف الدين المالكي، وذلك في ذي الحجة من السنة، وجلس بالخانقاة السُّمَيْساطِيّة في يوم الجمعة رابع المحرم سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ذكر تفويض ما كان بيد الشيخ علاء الدين من الجهات لمن يُذْكَر، وما وقع في أمر الصوفية بالخانقاة الصلاحية

لما توجه شيخ الشيوخ إلى دمشق المحروسة فوّض ما كان بيده من تدريس المدرسة الشريفية بالقاهرة لقاضي القضاة جلال الدين، وفُوِّضَت مشيخة الشيوخ بالخانقاة الصلاحية للشيخ مجد الدين الأَقْصُرائي شيخ الخانقاة الناصرية بسماسم، ورسم له أن يَسْتَنِيب عنه بالخانقاة الصلاحية الشيخ جمال الدين الحُوَيزائي، وتولى مشيخة الخانقاة الركنية الشيخ افتخار الدين الخَوارِزْمي، ونقل شيخها الشيخ مجد الدين الزَّنْكَلوني(١) إلى تدريس الحديث بالقبة الركنية، ورتب معه معيد وقارىء وطلبة بمقتضى شرط الواقف، وهو أول من دَرّس بهذه القبة، وكانت قبل ذلك مُعَطَّلة منذ وقفت.

---

(١) مجد الدين الزنكلوني: هو أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٤١).

ولما ولي الشيخ مجد الدين الخانقاة الصلاحية تحدّث مع السلطان في أمر الفقراء بالخانقاتين المذكورتين، فنَدَب السلطان لذلك الأمير سيف الدين قِجْلِيس الناصري أمير سلاح، وقاضي القضاة جلال الدين القَزْوِيني، فحضرا إلى الخانقاة في يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة، وعرض الفقراء بها وبالخانقاة الركنية، فأخبرني الأمير سيف الدين قِجْلِيس المشار إليه أنه أنهى إلى السلطان أمر العرض، وأنه رسم أنه من حضر إلى الخانقاة في وقت الوظيفة وأدّاها يستمر ولا يُقْطَع، ومن كانت له وظيفة تعارضه في الوقت يُخيَّر في إحداهما، ثم حضر الشيخ مجد الدين واجتمع بالسلطان، وقَرَّر معه قطع جماعة العُدُول الجالسين بسوق الورّاقين من الخانقاة، وأرباب الوظائف، فقُطِع من الخانقاة الصلاحية من له عدالة بارزة، وجلوس بسوق الوراقين، وقطع أيضًا جماعة من أرباب الوظائف، فصارت العدالة البارزة وَصْمَة عليهم، وسببًا لحرمانهم، وقَوِيت الشناعةُ في ذلك، فأعيد بعض من قُطِع، وكره الناس من الشيخ مجد الدين هذه الواقعة، أشد الكراهة، وتكلموا عليه وعلى ابن أخيه أوحد الدين أحمد بهذا السبب، ثم انفصل الشيخ افتخار الدين من مشيخة الخانقاة الركنية، ولم يطل مقامه بها، ثم سكنت الأحوال في ذلك.

وفيها في ليلة الجمعة ثالث عشر ذي الحجة بنى الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي الركني الناصري[1] بابنة الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة بالشام، وكان قد تقدم عقد النكاح عليها عند حضور والدها في هذه السنة إلى الأبواب السلطانية، ووصلت من دمشق في ليلة الجمعة مستهل ذي القعدة، وحصل الاهتمام بأمر الفرح، ووصل بسببه الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة، وقَدّم التَّقادِم الوافرة، وكان بسبب هذا المُهِمّ من الاحتفال والتقادم وحمل الشموع شيء كثير.

ذكر وصول رسل الباب[2] فرنسيس إلى الأبواب السلطانية

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الباب، وهو القائم ببلاد الفِرِنْج مقام الخليفة، ورسل الملك فرنسيس، واسمه ديكردين فِلِب، ومثلوا بين يدي السلطان، وأحضروا ما معهم من التقادم، وكان مضمون رسالتهم سؤال السلطان أن يُبْرِز أمرَه بالوصاة بالنصارى، وذكروا أن ببلاد الفِرِنج جماعة كثيرة من المسلمين، وأن

(١) ولد سنة ٧١٣هـ، وتوفي سنة ٧٣٢هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ١١٤).
(٢) الباب: أي بابا روما.

السلطان إن أحسن إلى من في مملكته من أهل الذمة النصارى أحسنوا إلى مَنْ ببلادهم من المسلمين، فسمع السلطان رسالتهم، وقبل تَقْدِمَتَهم، وأكرم وفادتهم، وأعادهم إلى مرسلهم، ولم يصل إلى الديار المصرية من جهة هذا الملك رسول من الأيام الصالحية النجمية إلى حين وصول هؤلاء الرسل الآن.

ذكر متجدّدات كانت بالشام في هذه السنة خلاف ما ذكرناه

في هذه السنة في شهر ربيع الأول فوض قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» لقاضي القضاة عزّ الدين محمد بن قاضي القضاة تقي الدين سليمان الحنبلي(١) عوضًا عن قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم بحكم وفاته، كما تقدم، ووصل تقليده إلى دمشق في يوم الخميس الثامن عشر من الشهر، وخلع عليه، وقرىء تقليده في يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وجلس للحكم بالمدرسة الجَوْزِية على عادة والده رحمه الله تعالى.

وفيها في مستهل شعبان فوضت مشيخة المشايخ بدمشق لقاضي القضاة شرف الدين محمد بن القاضي مُعِين الدين أبي بكر المالكي(٢) مضافة إلى الحكم، وجلس بالخانقاة السُّمَيْساطية لذلك في يوم الجمعة السادس والعشرين من الشهر.

وفيها في سابع شهر رمضان فوض قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام أبي حنيفة للقاضي عماد الدين أبي الحسن علي بن محيي الدين أحمد بن عبد الواحد الطَّرَسُوسي الحنفي(٣) عوضًا عن القاضي صدر الدين البُصْرَوِي(٤) بحكم وفاته على ما نذكره، ووصل تقليده إلى دمشق في يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان، وخلع عليه في يوم الخميس سابع عشر الشهر، وجلس للحكم بالمدرسة النُّورِيَّة.

---

(١) هو محمد بن سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن أبي عمر بن قدامة، عز الدين الحنبلي، ولد سنة ٦٦٥هـ، وتوفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٤٤٨).

(٢) توفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/٦٢١).

(٣) ولد سنة ٦٦٩هـ، وتوفي سنة ٧٤٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/١٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/٦٢١).

(٤) سيذكره المؤلف في وفيات هذه السنة.

وفيها فوض قضاء القضاة بحلب المحروسة للقاضي فخر الدين عثمان بن محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم البارِزِي الحموي الشافعي[١]، وكان يلي الخطابة بحماة، وينوب عن عمه قاضي القضاة شرف الدين في الحكم بحماة.

وفيها في نصف رمضان وصل إلى دمشق المحروسة جماعة من الأسرى المسلمين من بلاد الفِرنج نحو مائة وأربعين أسيرًا، ومعهم جماعة من تجار الفِرنْج تولوا استيفادهم، فجُعِلُوا في المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق، ورسم بإعطاء التجار الفرنج ما ذكروا أنهم صرفوه وأنفقوه عليهم، بعد تحليفهم وتحليف الأسرى وكان ذلك نحو ستين ألف درهم، فلما قبض التجار ذلك من رَيْع الأوقاف على فِكاك الأسرى أُطْلِقَ الأسرى وكان سبب سعي التجار في فِكاك هؤلاء الأسرى أن قاضي القضاة جلال الدين القزويني أشهد على نفسه أنه جعل لكل من يحضر أسيرًا من المكان الفلاني مبلغًا عَيَّنه، وكتب بذلك مكتوبًا، وعرف التجار ذلك، فسعوا فيه، وجعلوه من جملة متاجرهم، و«نقلت هذه الواقعة من تاريخ الشيخ علم الدين بن البرزالي».

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة فوضت نيابة السلطنة بقلعة دمشق المحروسة إلى الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الخازن أحد الأمراء بدمشق عوضًا عن الأمير علم الدين سَنْجَر الدميثري[٢] واستقر الدميثري من جملة الأمراء بدمشق المحروسة.

وفيها في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي القعدة أيضًا خلع على الأمير سيف الدين بلبسطي، وفوض إليه نيابة بحمص عوضًا عن بَلَبان البَدْري، رحمه الله تعالى، وكانت وفاة البدري في ليلة عيد الفطر من السنة بحِمْص، وحمل إلى دمشق، وصلي عليه بسوق الخيل، ودفن يوم السبت بسفح قاسيون.

وفيها في التاريخ أيضًا فُوِّض نظر أوقاف القدس الشريف، وحرم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى الأمير سيف الدين إبراهيم بن الأمير علم الدين الجاكي، وخُلِع عليه، وتوجه.

---

(١) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٢/ ٤٤٨.

(٢) هو علم الدين سنجر بن عبد الله الأيدمري، توفي سنة ٧٢٩هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠).

وفيها في العشر الأول من ذي الحجة كمل تَرْخيم الحائط الشمالي بالجامع الأموي بدمشق، وكان في الدولة الظاهرية الركنية قد رُخِّمَ من جهة الشرق إلى باب الكَلاّسة، ولم يكمل، واستمر كذلك إلى الآن، فرسم بتَرْخِيمه، فكان ذَرْعُ الذي استجد الآن من باب الكَلاّسة إلى زاوية الغزالي ستون ذراعًا طولاً وفي الارتفاع ستة، وعمل بأعلاه طِراز مُذَهّب.

وفي هذه السنة توفي أحد أولاد السلطان الملك الناصر وهو طفل، ولعله الذي ذكرنا أنه ولد في ثامن عشر المحرم من هذه السنة ودفن بتربة الخَوَنْد أَرْدكِين ابنة نوكاي زوج السلطان.

وتوفي في ليلة الاثنين المسفرة عن السادس والعشرين من جمادى الأولى قبيل العشاء الآخرة الشيخ الصالح ضياء الدين محمد المعروف بالمَعْبَدِي وهي نسبة إلى مَعْبَد الشيخ محيي الدين الفارسي بالقرافة، وكانت وفاته بمنزله بجوار الزاوية المعروفة به بخُطّ مَوْرِدَة الخلفاء بمصر، بشاطىء نيلها، وصُلِّي عليه بالجامع الناصري، وأمّ الناس في الصلاة عليه قاضي القضاة بدر الدين الشافعي، ثم صُلِّي عليه ثانيًا في جامع عمرو بن العاص بمصر، ودفن بالقرافة بتربته في قبر كان قد حفره لنفسه، وأعده لدفنه في حال حياته، وكان رحمه الله تعالى كثير الخدمة للفقراء، والتكرُّم عليهم والإنفاق، وله مروءة وافرة، كثير التعصب والقيام مع من يقصده، يَطِّرِح الكلفة جدًا، كان ينفق على الفقراء الواردين وغيرهم ممن يقصده النفقات الكثيرة، ويطعمهم الأطعمة اللذيذة الفاخرة، ويُفَرِّجُهم في المُسْتَنْزهات، وهو في غالب أوقاته يلبس الدِّلْق المُرَقَّع بغير قميص، وكان حسن المحاضرة، كثير النوادر، مشهورًا بالخلاعة والانبساط رحمه الله تعالى.

وتوفي في يوم الأحد الثامن من شهر رجب القاضي الإمام الفاضل العالم نجم الدين أبو العباس أحمد بن صدر الدين محمد بن رشيد الدين حرمي الشافعي القَمُولي[١] نائب الحكم العزيز بمصر، وناظر الحسبة بها، وكانت وفاته بداره بمصر،

---

(١) القمولي: أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي المخزومي، نجم الدين أبو العباس القمولي الشافعي المحتسب بالقاهرة، توفي سنة ٧٢٧هـ، له من المصنفات: «البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي»، «تحفة الطالب في شرح كافية ابن الحاجب»، «تكملة مفاتيح العلوم للفخر الرازي»، «جواهر البحر في تلخيص البحر المحيط»، «شرح أسماء الله الحسنى»، «غاية أماني الطالب شرح كافية ابن الحاجب». (انظر: كشف الظنون ٥/ ١٠٥، شذرات الذهب ٦/ ٧٥، الدرر الكامنة ١/ ٣٠٤، السلوك ٢/ ٢٩٠).

وصُلِّي عليه بجامع عمرو بن العاص عَقِيب صلاة الظهر من اليوم المذكور، وكانت جنازته مشهودة، حضرها القضاة والحكام والأكابر وغيرهم من العوام، ومولده في سنة ثلاث وخمسين وستمائة تقريبًا بقَمُولة من غربية مدينة قُوص، وكان رحمه الله تعالى رجلاً دينًا فاضلاً فقيهًا عالمًا، صنف: «كتاب البحر المحيط في شرح الوسيط» في نحو ثمانية عشر مجلدًا كبارًا، واختصره في ثماني مجلدات وسمي المختصر: «جواهر البحر» وشرح مقدمة الشيخ أبي عمر بن الحاجب في النحو في مجلدين وشرح الأسماء الحسنى، وغير ذلك من التآليف رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الأحد خامس عشر شهر رجب الشيخ الصالح أبو القاسم عبد الرحمٰن بن موسى بن خلف الحدافي وكانت وفاته بالبرج بقلعة الجزيرة مقابل مصر، وبه كان يسكن، وصُلِّي عليه بجامع عمرو بن العاص بعد صلاة الظهر، ودفن بسفح المُقَطَّم بتربة الشيخ تاج الدين بن عطاء الله، بجوار تربة الشيخ أبي محمد بن أبي حمزة، وكان الشيخ عبد الرحمٰن رجلاً صالحًا زاهدًا عابدًا منقطعًا متخلِّيًا عن الدنيا، رحمه الله تعالى.

وتوفي بحلب الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين أرغُون الناصري[1] نائب السلطنة الشريفة والده، وكانت وفاته في يوم السبت ثالث عشر شعبان، ونقل الشيخ علم الدين بن البِرْزالي في تاريخه أنه توفي في يوم الجمعة ثاني عشره، ودفن يوم السبت، وكان قد استقر عند انتقال والده إلى نيابة السلطنة بحلب في جملة الأمراء مقدمي الألوف بحلب، فمرض ومات، فوصل الخبر إلى الأبواب السلطانية في يوم الأربعاء رابع عشرين الشهر، وكان قبل ذلك قد توفي أخوه الصغير أحمد، وهو من أمراء العشرات بحلب، ووصل الخبر أيضًا بمرض والده وأخوته، فرسم السلطان أن يتوجه صلاح الدين بن البُرْهان أحد الأطباء بالباب الشريف، فتوجه إليهم على خيل البريد في يوم الجمعة تاسع عشر الشهر.

وتوفي في يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان القاضي عز الدين عبد العزيز بن أحمد بن عمر بن عثمان بن الخضر الهَكّارِي قاضي الأعمال الغربية، ويعرف بابن خطيب الأشْمُونين[2]، وكانت وفاته بالقاهرة، وكان قد حضر من المحلة للسلام على قاضي القضاة جلال الدين فمرض ودامت به العلة إلى أن مات، وكان فقيهًا فاضلاً نزهًا كريم الأخلاق، رحمه الله تعالى.

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٣٧٩، النجوم الزاهرة ٩/٢٦٩، السلوك للمقريزي ٢/٢٩١.
(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٧٧، الدرر الكامنة ٢/٣٦٨.

وتوفي في يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان أيضًا الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله المغربي الناصري الحاجب(١)، وكان قد توجه صحبة الرسل إلى حلب كما ذكرنا، فمرض في سفره، وعاد فعجز عن الركوب، فحمل في مِحَفّة، ورحل إلى القاهرة في يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان، فبات بداره ليلة واحدة، ومات رحمه الله تعالى، وكان السلطان قد أعده لمُهمّاته، ووعده بتقدمة ألف، فعاجلته المنية عن بلوغ الأمنية.

وفيها في آخر ليلة الأربعاء سادس شهر رمضان توفي القاضي كمال الدين أبو المعالي محمد بن الشيخ علاء الدين علي بن الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن خطيب زَمْلَكا زين الدين عبد الكريم بن خَلَف بن نَبْهان الأنصاري الشافعي، المعروف بابن الزَّمْلَكاني(٢)، وكانت وفاته بمدينة بُلْبَيْس مدينة الأعمال الشرقية من الديار المصرية، وكان قد اسْتُدْعِيَ من حلب بالأمر السلطاني، ليُنْقَل إلى قضاء الشام، فجاء على خيل البريد، فلما انتهى إلى منزلة الصالحية مرض، فوصل إلى بلبيس، وقد اشتد به المرض فمات، وحمل إلى القرافة في ليلة الخميس، فدفن بالقرب من قبر قاضي القضاة إمام الدين القَزْوِيني جوار قبة الإمام الشافعي، ومولده في ليلة الاثنين ثامن شوال سنة سبع وستين وستمائة، وكان من أعيان العلماء بمذهب الإمام الشافعي ومن الفضلاء، ولي كتابة الدَّرْج بدمشق مدة طويلة، وتنقل في الولايات ودرس في أجَلِّ مدارس دمشق، ثم نقل إلى قضاء حلب، كما تقدم، وله شعر حسن، وتَرَسُّل جيد، رحمه الله تعالى.

وتوفي في يوم الأحد تاسع عشرين ذي الحجة الأمير سيف الدين كُوجَرِي بن عبد الله أمير شكار(٣)، وهو من أمراء المائة مقدمي الألوف، رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق في مستهل شهر ربيع الأول الأمير ناصر الدين إبراهيم بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك الزاهد داود بن الملك المجاهد أسد الدين شِيركُوه بن الملك القاهر ناصر الدين محمد بن الملك المنصور أسد الدين شِيركُوه بن شادِي، ودفن بقاسِيُون، وكان من جملة مقدمي الحَلْقة بدمشق المحروسة، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٦٩.

(٢) كمال الدين ابن الزملكاني: تقدمت ترجمته، وانظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٧٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٠، السلوك ٢/ ٢٩٠، الوافي بالوفيات ٤/ ٢١٤، شذرات الذهب ٦/ ٧٦، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٩٤.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٦٨.

وتوفي بدمشق أيضًا في عشية نهار الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة الملك الكامل، وهو الأمير ناصر الدين محمد بن الملك السعيد فتح الدين عبد الملك بن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب(١)، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر بالجامع الأموي، وحمل إلى تربة الملك الكامل بن الملك العادل وهو عم أبيه، وجده لأمه ربيعة خاتُون ابنة الملك الكامل، فأغلق باب التربة دون تابوته عامل التربة موسى بن أخت صاين الدين خطيب مُصَلَّى العيدين، وامتنع من الموافقة على دفنه بها، فتألم الناس لذلك، وضربوا موسى المذكور، ولم يفتح الباب، فتوجَّهوا بجنازته إلى تربة أم جده الملك الصالح، وكشفوا الأزَج(٢) فوجدوه مملوءًا بالأموات فجاؤوا به إلى قبر أبيه فوجدوه ضيقًا، فأحضروا الحجّارين فشقُّوا له قبرًا ودفن عند مغيب الشمس وكان نائب السلطنة يومئذ بالمرج، فطولع بذلك، فرسم أن يدفن عند والدته، فامتنع أهله من نقله، ومولده في ليلة الاثنين بطريق الحجاز الشريف، بمنزلة تسمى العقاب، بثَنِيَّة راطية خامس ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة سمع صحيح مسلم من ابن عبد الدايم وسمع من غيره، وحدث وكان من أمراء الطبلخاناة بالشام، كثير التواضع والمجون حسن المذاكرة والمداعبة، كثير النوادر، ولما مات أنعم السلطان على ولده صلاح الدين بإمرة طبلخاناه، وعلى ولده الأصغر بإمرة عشرة، وركبا بالخلع في رابع عشرين رجب بدمشق.

وتوفي بدمشق أيضًا في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى الشيخ العالم شرف الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ الإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحَرّاني الحَنْبَلي(٣)، وهو أخو الشيخ تقي الدين، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر بجامع دمشق، ثم صلّي عليه بباب قلعة دمشق، وكانت جنازته مشهودة، ثم حمل إلى ظاهر باب النصر فصلي عليه مرة ثالثة، ثم صلي عليه مرة رابعة، ودفن بمقبرة الصوفية عند والده وأهله رحمهم الله، ومولده بحران في الحادي والعشرين من المحرم سنة ست وستين وستمائة.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٩، والسلوك للمقريزي ٢/ ٢٩١.

(٢) الأزج: بناء مستطيل مقوس السقف، والمراد به هنا القبور القديمة المطمورة.

(٣) ولد سنة ٦٦٦هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٧٦، الدرر الكامنة ٢/ ٢٦٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٢٩٠).

وتوفي في يوم الأربعاء بعد العصر الثالث من شعبان قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي بن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد البُصْرَوِي الحنفي(١) ببستانه بأرض سطرا ظاهر دمشق، وصُلِّيَ عليه بكرة الخميس بسوق الخيل، ودفن بسفح قاسيون، وأوصى بثلث ماله في بكرة نهار وفاته صدقة على الفقراء والمساكين، ومولده في ثالث شهر رجب سنة اثنتين وأربعين وستمائة بقلعة بُصْرَى، وسمع من ابن عبد الدايم وابن عطاء وغيرهما، وحدث رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق الصدر شمس الدين محمد بن الشيخ الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي(٢) صاحب ديوان المكاتبات بدمشق في ليلة السبت عاشر شوال، وصلّي عليه بالجامع الأموي، ودفن من الغد بتربة والده بسفح جبل قاسيون، ومولده في يوم الأحد ثامن شوال سنة تسع وستين وستمائة رحمه الله تعالى، ولما توفي استقر في كتابة الدَّرْج(٣) بعده بدمشق القاضي محيي الدين بن فضل الله، ولبس التشريف، وباشر الوظيفة في يوم السبت الثالث والعشرين من ذي القعدة، واستقر شرف الدين ولد شمس الدين في التوقيع بين يدي نائب السلطنة على ما كان عليه القاضي محيي الدين بن فضل الله، وخُلِعَ عليه أيضًا في اليوم المذكور، والله أعلم.

* * *

واستهلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بيوم الثلاثاء الموافق للعشرين من هاتور من شهور القبط، ورئي في كثير من البقاع يوم الاثنين، والسلطان الملك الناصر ـ خلّد الله ملكه ـ بمقر ملكه بقلعة الجبل المحروسة، ولا نائب للسلطنة بالأبواب العالية، فإنه منذ عَزْل الأمير سيف الدين أرغون الناصري عن النيابة، وتَوَجُّهه إلى حلب، لم يُفَوِّض السلطان النيابة إلى غيره، وإنما الأمير سيف الدين أَلْماس أمير حاجب يتحدث في أمر الجند، والأمير علم الدين مُغْلَطاي الجمالي الناصري في وظيفتي الوزارة وأستاذ الدّارية العالية على عادته، والديار المصرية والشام والبلاد الحلبية والساحلية والجبلية وغيرها، من الممالك الإسلامية الداخلة في مملكة السلطان الملك الناصر، على غاية الرخاء والخير، وانحطاط الأسعار.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، الدرر الكامنة ٣/ ٩٦، شذرات الذهب ٦/ ٧٨، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٢٠.

(٢) تقدمت ترجمته، وانظر ترجمته أيضًا في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٨، السلوك ٢/ ٢٩٠، شذرات الذهب ٦/ ٨٠، الدرر الكامنة ٤/ ٢٥١.

(٣) كاتب الدرج: تقدم التعريف به.

وفي يوم الخميس ثالث المحرم من هذه السنة أمر السلطان أن يتقدم الأمير سيف الدين بَشْتاك[١] على ألف فارس، وهي التقدمة التي انحلت عن الأمير سيف الدين كُوجَري[٢] أمير شكار، وأعطاه السلطان من خبز كوجري مَلُّوي، وكمل له على ما بيده من الإقطاع مائة فارس، وأمر الأمير سيف الدين نوروز بطبلخاناة، وأمر ناصر الدين بن كوجري بعشرة طواشِيَّة، وأمر سيف الدين چِهازكَس[٣] بعشرة طواشية، وجُعِل أحد أمراء شكارية، وركب الأمراء في يوم الخميس ثالث شهر المحرم بالتشاريف والشَّرابِيش[٤] على عادة أمثالهم.

وفيها في يوم الاثنين السابع من المحرم توجه السلطان إلى جهة القصور بسرياقوس، فتصيد بتلك الجهة إلى يوم الاثنين رابع عشر الشهر ورجع، ومرّ تحت قلعة الجبل ولم يصعد إليها، ومرّ على طريق سوق الخيل إلى الصَّلِيبة إلى قناطر السباع، حتى انتهى إلى بولاق، فركب إلى جهة الجيزية، واستقر في نيابة السلطنة ـ في مدة غيبة السلطان ـ الأمير سيف الدين قِجْلِيس الناصري أمير سلاح.

ووصل إلى الأبواب السلطانية رسل المَلك

أبي سعيد بن خَرْبَنْدا ملك العراقين وخراسان، فكان وصولهم إلى باب الدِّهْليز المنصوري بمنزلة الأهرام في يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم، فمثلوا بين يدي السلطان، وسمع رسالتهم، وأحسن إليهم، ورسم بإعادتهم إلى مرسلهم، فتوجهوا بعد دخولهم إلى القاهرة في يوم السبت رابع صفر، واستمر السلطان بمنزلة الأهرام أيامًا، ثم توجه منها إلى جهة المنوفية، وعاد إلى قلعة الجبل المحروسة في منتصف نهار الأحد ثاني عشر صفر، فأقام بقلعة الجبل إلى يوم الخميس سلخ صفر، وتَوَجَّه في بكرة النهار إلى جهة القصور بسرياقوس، ثم عدى البحر إلى الجانب الغربي، وتَوَجَّه إلى جهة المنوفية، وتصيد هناك وعاد، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول من السنة، والله أعلم.

---

(١) سيف الدين بشتاك الناصري: قتل سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٧٧).

(٢) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٤٧٨.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٤.

(٤) الشرابيش: جمع شربوش، وهو غطاء للرأس كان على هيئة خاصة، وكان من شارات الإمارة (انظر: السلوك للمقريزي ٢/ ٣٤٣).

ذكر وفود الأمير تَمُرتاش بن الأمير جوبان بن تُلْك ابن بِداون[١] نائب الملك أبي سعيد بمملكة الروم إلى الأبواب السلطانية

وسبب وفوده. وما كان من خبره إلى أن قُبِض عليه وقُتِل، ولنبدأ بذكر السبب الذي أوجب مفارقته المملكة الرومية، وحضوره إلى الديار المصرية، وهو ما وصل إلينا من أخبار والده وإخوته ومقتلهم، ثم نذكر أخبار تَمرتاش فنقول:

كان الأمير جُوبان بن تُلَكَ بن بداون نائب الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا صاحب العراقين وخراسان والروم وأولاده قد استولوا على مملكة التتار ما قرب منها وما بعد، وتحكموا فيها تحكم الملوك من غير منازع لهم ولا مناوىء، وزاد تحكمهم حتى لم يبق للملك أبي سعيد معهم إلا اسم السلطنة، وانفرد جوبان بالأمر كله بعد وفاة الوزير علي شاه، وقد تقدم من أخبار جُوبان وتمكنه وقَتْلِه من قَتَل من أكابر الأمراء وأقارب الملك ما ذكرناه في حوادث سنة تسع عشرة وسبعمائة ما لا يحتاج إلى إعادته، فلما كان في سنة سبع وعشرين وسبعمائة توجه الأمير جُوبان وولده الأمير حسن إلى بلاد خراسان، واستصحب معه معظم الجيوش، وتوجه لقصد محاربة أولاد الملك كِبك على عادة التتار، وتأخر بالأردو[٢] من أولاد جُوبان دَمْشَق خواجا، فأنهى إلى الملك أبي سعيد عنه أنه قد عزم على الوثوب عليه وقتله، حتى صحّ ذلك عنده، واتهم أيضًا ببعض نساء الملك خرْبَنْدا والد أبي سعيد، فعند ذلك أمر الملك أبو سعيد بقتله، واتصل الخبر به فركب في طائفة يسيرة من مماليكه، وقصد الهرب إلى أبيه فأُدْرِك لوقته، وقُتِل بظاهر مدينة سُلْطانية، وترك مُلْقىً بعد قتله، وذلك في شوال سنة سبع وعشرين.

ولما اتصل خبر مقتله بوالده الأمير جُوبان أظهر الخلاف، وعزم على حرب الملك أبي سعيد، ورجع بالعساكر التي كانت معه من خراسان، وتوجه الملك أبو سعيد لقتاله بمن بقي عنده من العساكر، وتقدم كل منهما بعساكره إلى الآخر، حتى

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك ٢/٢٩٢، النجوم الزاهرة ٩/٢٧٢، الدرر الكامنة ١/٥١٨.

(٢) الأردو: لفظ مغولي معناه العسكر، وقد استعمل في المراجع العربية والفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس (مصطلحات صبح الأعشى ص٢٦).

بقي بينهما منزلة أو نحوها، ففارقه أكثر من كان معه من الأمراء أولاً فأولاً، والتحقوا بالملك أبي سعيد، فعند ذلك رجع جُوبان بمن بقي معه إلى خراسان، ففارقه من بقي معه من الأمراء إلى خدمة الملك، وبقي في نحو ستمائة فارس من ألزامه ومماليكه، فتوجه بهم، ولم يتبعه الملك أبو سعيد، ولا جَرّد خلفه عسكرًا، بل رضي كل منهما من الغنيمة بالإياب، ولعله إنما ترك ذلك خشية أن يكون لحاق من كان مع جوبان من العساكر به مكيدة، وعزم جوبان على اللحاق بأولاد الملك كِبِك، والاستنصار بهم على حرب الملك أبي سعيد.

فلما وصل إلى هَراة ـ من أعمال خراسان ـ خرج إليه نائبها، وهو أمير جريء مقدام، له فتكات معروفة، وهو ممن أنشأه جوبان وقدمه فتلقاه وخدمه وعرض عليه الدخول إلى هَراة والإقامة بها إلى انقضاء فصل الشتاء، ويتوجه بعد ذلك إلى حيث أحب، فركن إلى قوله، ووثق به، ويقال: إن ابنه حسن كره ذلك ونهى والده عنه، وذكره بغَدَراته، وكان قد حصل لجُوبان مرض منعه من إدامة الحركة والسير، فترجح عنده الدخول إلى هراة، فدخل إليها، وفارقه ابنه حسن، والتحق بالملك أزْبَك صاحب صراي والبلاد الشمالية، فأكرمه أزْبَك، وأحسن إليه، ولما صار جوبان بهراة بادر نائبها بالقبض عليه وقتله، وكتب إلى الملك أبي سعيد بذلك.

وقُتِل أيضًا ولد لجُوبان بكردستان، ثم حُمِل جوبان في تابوت، وجيء به إلى بغداد في سابع عشرين شوال سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وصلي عليه بالمدرسة المستنصرية، ثم حمل إلى مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ في جملة الركب العراقي وطِيفَ به، وحمل إلى عرفة، ثم إلى منى، وأعيد إلى مكة، وحمل منها إلى المدينة النبوية ليدفن في تربته التي أنشأها بالمدينة، فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الناصر كتب إلى أمير المدينة النبوية ألا يدفن في التربة، فدفن في البقيع، وكان السبب في الاحتفال به، وحمله إلى مكة والمدينة أن الملك تزوج ببَغْداد خاتُون ابنة جُوبان بعد مقتل والدها وأخويها، وحظيت عنده، وشغف بها، وكان يحبها قبل ذلك، وقصد زواجها، فزوجها والدها من الأمير الشيخ حسن بن الجتيه، فلما قتل جوبان أمره الملك أبي سعيد بطلاقها، وتزوجها وشُغِف بها، وتمَكّنت من دولته أكثر من تَمَكُّن أبيها على ما نذكر مما يصل إلينا إن شاء الله تعالى من أخبارها، فأمرت بحمل أبيها إلى الحجاز الشريف، هذا ما بلغنا من أخبار جوبان.

وأما الأمير دمرداش بن جوبان(١)

وهو نائب الملك أبي سعيد بالمملكة الرومية، وكان قد استقل بأمرها، واستولى على أموالها وعساكرها من غير منازع له فيها ولا معارض، فإنه لما اتصل إليه خبر مقتل أخيه دَمْشق خواجا، وما كان من خلاف أبيه علم أنه لا يمكنه الإقامة بالمملكة الرومية، وأنه متى يفرغ وجه الملك أبي سعيد من أمر جوبان يقصده بالعساكر، فكتب إلى السلطان الملك الناصر يسأله الإذن له في اللحاق به، والانضمام إليه والالتجاء إلى حرمه، فأذن له في ذلك، وكتب السلطان إلى نوابه بالشام بتلقيه وإكرامه.

ولما ورد عليه جواب السلطان حصّن أهله وولده وأمواله بقلعة حصينة، وجعل فيها ذخائره وحَصَّنها بالعُدَد والأقوات الكثيرة، ثم ركب في عسكر الروم. وأظهر أنه يتوجه في مُهم بأمر الملك أبي سعيد، فلما كان بأثناء الطريق نزل بمنزلة، ولبس لأمَةَ حرْبه هو ومن يعتمد عليه من ألزامه ومماليكه، وقال لمن معه من العسكر: أنا متوجه إلى الديار المصرية، فمن أحب أن يصحبني فليعتزل العسكر، ومن أحب الرجوع إلى بلاد الروم فليرجع، ومن أحب القتال فَلْيَبْرُز للحرب، فما جَسَر أحد منهم على قتاله، ولا أقدم على حربه، بل تَرَجَّلُوا وخدموه، ورجعوا إلى بلادهم، وتقدم هو إلى الشام في نحو ستمائة فارس، فكان وصوله إلى دمشق في يوم الأحد خامس عشرين صفر سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فتلقّاه نائب السلطنة بها الأمير سيف الدين تُنْكُز وأكرمه وجهّزه إلى الديار المصرية، فوصل إلى خدمة السلطان، والسلطان بمنزلة أوسِيم من الأعمال الجيزية في ليلة الخميس المسفرة عن سابع عشر شهر ربيع الأول، ومثُل بين يدي السلطان في بُكْرة نهار الخميس المذكور، فأكرمه السلطان، وأحسن إليه، وأنعم عليه بتشريف أطلس معدلي بَطرززَركش وكَلُّوته زَرْكش، وشاش رقيم وحياصه ذهب مجوهرة على عادة نواب السلطنة الشريفة، وحضر في خدمة السلطان في بقية نهار الخميس إلى قلعة الجبل المحروسة، وأسكنه السلطان بالقلعة بدار كان يسكنها خاصّ تُرْك الناصري(٢)، ثم رسم بتجديد عمارة دارين بقلعة الجبل وإصلاحهما، فأُصلحا، وأسكنه بهما هو ومن معه من الأمراء أصحابه، ووكّل السلطان بخدمته وملازمته وقضاء حاجته الأمير سيف الدين طُرْغاي الجاشْنَكِير(٣)، وأنعم السلطان عليه بالأموال

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٥١٨، السلوك ٢/٢٩٢.

(٢) هو الأمير سيف الدين خاص ترك بن عبد الله الناصري (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٤).

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٧، السلوك ٢/ ٢٩٤.

والأقمشة والخيول، ورتب له ولمن معه الرواتب المتوفرة، فرتب له في كل يوم من اللحم ثلاثمائة وأربعين رطلاً، وغير ذلك مما يحتاج إليه.

وركب في يوم الاثنين حادي عشر الشهر في الموكب بالأقْبِيَة الإسلامية والكَلُّوتَة والشاش على عادة العساكر المصرية، وحضر إلى الخدمة السلطانية، وأجلس في مجلس السلطان بدار العدل الشريف بالإيوان إلى جانب سيف الدين آل مَلك[١] الجُوكان دار[٢] دونه بلواء تلو الأمراء مقدمي الألوف.

ووصل في يوم السبت تاسع عشر شهر ربيع الأول الأمير شاهَنْشاه وهو ابن عم الأمير جُوبان، وكان وصوله من جهة الرحبة، وذكر أن ابن عمه جوبان أرسله إلى خدمة السلطان يعرفه ما وقع، وذكر أنه فارقه من بلاد خراسان عند عزمه على دخول غَزْنَة إلى أولاد الملك كِبك، ولعله فارقه قبل وصوله إلى هَراة، فخلع السلطان على شاهَنْشاه تشريفًا كنجيًا أحمر، وكَلُّوتَة زركش، وأنزله عند تَمُرتَاش، ثم وصل طلب تَمُرتاش وأثقاله إلى القاهرة المحروسة في يوم الخميس ثامن عشرين شهر ربيع الأول، فأُنزلوا بدار الضّيافة، وهم نحو ستمائة فارس، فرسم السلطان بعرضهم في يوم الأحد مستهل شهر ربيع الآخر، فعرضوا وفُرِّق أكثرهم على الأمراء، ورسم للأمراء أن يقوموا بكُلَفِهم من خواصّهم من غير إقطاع، وسأل جماعة منهم العود إلى بلادهم، فأذن لهم السلطان، وزَوَّدَهم وكتب إلى نواب الشام بتمكينهم من العود، فتوجه منهم نحو تسعين فارسًا.

ووصل إلى الأبواب السلطانية في يوم الأحد مستهل شهر ربيع الآخر رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا، وهما اثنان، فمَثُلا بين يدي السلطان لوقتهما، وأديا رسالتهما، وخُلع عليهما، وذكرا أنهما توجها من جهة الملك قبل وصول الخبر إليه بمفارقة تَمرْتاش البلاد الرومية، ولحاقه بالديار المصرية، ثم مَثُلا بين يدي السلطان في يوم الاثنين، وأقام بالأبواب السلطانية إلى يوم الاثنين تاسع الشهر، فأعيدا إلى مرسلهما وجهز السلطان من جهته الأمير سيف الدين أرُج مِملوك قَبْجَق وكتب معه إلى الملك أبي سعيد يشفع في تَمُرْتاش ويستوهبه منه ويسأله إطلاق عياله وألزامه من بلاد الروم، واستمر تَمُرْتاش في الخدمة السلطانية، والسلطان يضاعف له الإكرام، ويصله بالإنعام الواصل والخيول، وتوجه في خدمة السلطان إلى الصيد بجهة البحيرة وعاد ثم

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤١١، والنجوم الزاهرة ٩/ ١٠٢، والسلوك ٢/ ٢٩٤.

(٢) الجوكاندار: تقدم التعريف بهذا المصطلح.

رسم السلطان له أن يرسل في إحضار ولده وأهله وأمواله من بلاد الروم، وكتب في ذلك إلى الأمير ابن قَرَمان صاحب الجبال ورئيس التركمان، فتوجه رسوله صحبة رسول السلطان إلى القلعة التي بها ولده، فلم يوافق على الحضور، وقال: إن بينه وبين أبيه أمارة لم تصل إليه، وظهر للسلطان من تمرتاش خبث طوية، وسوء نية، فأمر عند ذلك بالقبض عليه وعلى الأعيان الذين معه، فقبض عليه وعلى الأميرين شاهَنْشاه ومحمود في يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة، واعتقل تمرتاش ببرج السباع، ومحمود وأخوه عثمان وشاهَنْشاه بالبرج الصغير.

ووصل رسل الملك أبي سعيد إلى الأبواب السلطانية

في يوم الأربعاء حادي عشر شهر رمضان، وهم ثلاثة نفر، المشار إليه منهم أياجِي أمير جاندار الملك أبي سعيد، ومَثُلوا بين يدي السلطان، وشملهم الإنعام بالتشاريف على عادة أمثالهم، وأرسلهم السلطان إلى تَمُرتاش في معتقله صحبة الأمير سيف الدين قِجْلِيس أمير سلاح، فاجتمعوا به، وتحدثوا معه، وقيل كان مضمون رسالتهم طلب تمرتاش من السلطان، وأنه إذا أُسلم إليهم أرسل الملك أبو سعيد إلى السلطان في مقابل ذلك الأمير شمس الدين قَرا سُنْقُر المنصوري، فمال السلطان إلى ذلك، ورسم للأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي أن يتوجه إلى الملك أبي سعيد برسالة السلطان لتقرير الحال في ذلك، وتوجه طلبه في يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان، ثم عَدَل السلطان عن هذا الأمر، وترجح عنده أنه لا يرسله إلى الملك أبي سعيد.

فلما كان في ليلة الخميس رابع شوال من هذه السنة أُخْرِج تَمُرتاش من معتقله بالبرج، وفتح باب السِّرِّ من جهة القرافة، وأُخْرِج منه وهو مقيد مغلول وقد جُمعت يداه إلى عنقه وطُلب رسل الملك أبي سعيد، وشاهدوه على هذه الحال، ثم خُنِق وشاهدوه بعد موته، وقُطع رأسه وسُلخ وصُبِّر وحُشي وأرسل السلطان الرأس إلى أبي سعيد، ودفن الجسد بمكان قتله، وحضر الرسل إلى الخدمة السلطانية في يوم الخميس رابع شوال، وركبوا في خدمة السلطان في يوم السبت إلى الميدان، ثم حضروا إلى الخدمة في يوم الاثنين ثامن شوال، وشملهم بالخِلَع والإنعام، وأعيدوا إلى مرسلهم في هذا اليوم، وتوجه أيضًا الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي برسالة السلطان إلى الملك أبي سعيد.

هذا ما كان من أخبار تَمُرتاش على سبيل الاختصار، والله تعالى أعلم بالصواب.

فلنرجع إلى سياقة الحوادث في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

وفي هذه السنة توجه السلطان أيضًا إلى الصيد بالوجه البحري في يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الآخر، وتصيد بجهة البحيرة وغيرها، وعاد إلى قلعة الجبل في الثانية من نهار الخميس سادس عشرين الشهر، وهي السفرة التي كان تَمُرتاش معه فيها.

ذكر وصول الأمير سيف الدين تُنْكِز نائب السلطنة بالشام المحروس إلى الأبواب السلطانية وعوده

وفي يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة وصل الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس إلى الأبواب السلطانية وشمله التشريف والإنعام والزيادة في إقطاعه ثم رُسم بعوده إلى الشام، فعاد وتوجه في عوده لزيارة الخليل صلوات الله عليه، والبيت المقدس، وشاهد العين التي أجريت إلى القدس الشريف، وكان قد جَرَّد إليها من دمشق في شوال سنة سبع وعشرين وسبعمائة الأمير سيف الدين قُطْلُوبك بن الجاشْنكير فتوجه ولازم العمل، واجتهد فيه، ووجد آثار قُنِيّ قديمة قد سدت، وقُلْفِطَت، فيسّر الله تعالى فتحها، ووصل الماء إلى القدس في شهر ربيع الأول من هذه السنة، ولما شاهد نائب السلطنة المذكور العين رسم بعمارة حمام على فائض الماء.

ذكر وفاة قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري الحنفي وتفويض القضاء بعده إلى القاضي برهان الدين إبراهيم بن عبد الحق

وفي يوم السبت خامس جمادى الآخرة بعد أذان العصر توفي القاضي شمس الدين محمد بن صفي الدين عثمان بن زكي الدين أبي الحسن بن عبد الوهاب الأنصاري الحنفي المعروف بابن الحريري[١] قاضي الحنفية بالديار المصرية، وكانت وفاته بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المحروسة، وكان قد مرض وطالت مرضته،

(١) انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٧، شذرات الذهب ٦/ ٨٨، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٨، الدرر الكامنة ٤/ ١٥٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٩٠، السلوك ٤/ ٩٣.

فركب في أثناء مرضه مرارًا إلى المدارس لإلقاء الدروس، وحضر دار العدل الشريف، ثم عاوده المرض غير مرة، وتمادت العلة به حتى مات، رحمه الله تعالى ودفن في يوم الأحد بالقرافة الصغرى بتربته التي أنشأها، ومولده في عاشر صفر سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وخلّف تركةً طائلة، وكان رحمه الله تعالى قاضيًا عالمًا بمذهبه، شديدًا في أحكامه، غير متحاش من أرباب الدولة من الأمراء وغيرهم.

ولما توفي رحمه الله تعالى تُحُدِّث مع السلطان في ولاية القضاء، واعْتُنِيَ عنده بقوم، ثم وقع الاختيار على القاضي بُرهان الدين إبراهيم المذكور بن القاضي كمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي بهاء الدين أحمد بن الشيخ زين الدين علي بن عبد الحق(١)، فرسم بطلبه من دمشق، وكتب لنائب السلطنة بها، وتوجه البريد بذلك في يوم الثلاثاء ثالث الشهر، وكان وصوله إلى القاهرة المحروسة في يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخرة، ومثل بين يدي السلطان، وفوض إليه القضاء، وما كان بيد القاضي شمس الدين الحَرِيري من المدارس والأوقاف، وخلع عليه وأنعم عليه ببغلة، وأنزل إلى المدرسة الصالحية بالقاهرة، وحكم في بقية يومه، وجلس بدار العدل في يوم الاثنين الثامن والعشرين من الشهر، وأجْلِسَ دون قاضي القضاة تقي الدين بن الأخْنائي(٢) المالكي على العادة القديمة.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الملك أزْبَك ووصول رسله، وعودهم إلى مرسلهم

وفي يوم السبت العاشر من شهر رجب عاد الأمير سيف الدين أُطُوجي ورفيقه من جهة الملك أزْبَك صاحب صراي والبلاد الشمالية، وصحبته رسل الملك أزبك، فمثلوا بين يدي السلطان، وأحْضروا ما معهم من الهدايا والتقادم، وأدُّوا الرسالة، فشملهم الأنعام والخِلَع على عادة أمثالهم، وأنزلوا بالميدان، وتكرر حضورهم بين يدي السلطان، ثم أحضروا في يوم الخميس حادي عشر شوال من السنة إلى مجلس السلطان، وعاد وخلع عليهم تشاريف طَرْدوَحْش مُذهّب، ورسم بعودهم إلى مرسلم، فتوجهوا إلى ثغر الإسكندرية في يوم السبت العشرين من الشهر، وتوجه من جهة السلطان الأمير سيف الدين أطارس أنان أحد أمراء العشرات، وصحبته عمه تيلق.

---

(١) توفي سنة ٧٤٤هـ (انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٦٥٨، الدرر الكامنة ١/ ٤٦ - ٤٧).

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الأخنائي المالكي (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٧، شذرات الذهب ٦/ ١٠٣، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٢).

وفيها في يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر رجب الفرد عُقِد نكاح الأمير سيف الدين طُغَيْتَمُر العمري الناصري أحد الأمراء المماليك السلطانية مقدمي الألوف على إحدى بنات السلطان، ورسم السلطان بإعفاء الأمراء من التقادم، وحمل الشمع، وأنعم على الأمير المشار إليه من مال السلطان بأربعة آلاف دينار عوضًا عما كان يصل إليه من تقادم الأمراء.

ذكر مقتل الأمير بدر الدين كُبَيش أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وتولية أخيه طُفَيل

وفي يوم السبت مستهل شعبان من هذه السنة وثب أولاد الأمير وَدِيّ بن منصور بن جمّاز بن شِيحَه على الأمير بدر الدين كُبَيْش أمير المدينة النبوية فقَتلوه خارج المدينة، ووصل الخبر بذلك إلى الأبواب السلطانية في أواخر الشهر، ففَوَّض السلطان الإمرة لأخيه الأمير سيف الدين طُفَيل، وكان قد حضر إلى الأبواب السلطانية، فخُلِع عليه، وتوجه إلى المدينة النبوية.

وفيها في شهر رمضان فَوَّض السلطان قضاء المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - والخطابة بها لصاحبنا وأخينا في الله تعالى القاضي شرف الدين محمد بن القاضي عز الدين محمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن الشيخ جمال الدين إبراهيم بن يحيى بن أبي المَجْد اللَّخْمي المعروف جد أبيه جمال الدين بالأسيوطي، ولي القضاء عوضًا عن شرف الدين يعقوب المدني، والخطابة عوضًا عن القاضي بهاء الدين موسى بن سلامة، وخُلِع عليه، ورُسِم له بمال، يوفي منه ما عليه من الدَين، ويتجهز ببقيته، وكانت ديونه تزيد على سبعة آلاف درهم، وتجهز أحسن جهاز، وتوجه صحبة الركب في شوال، كتب الله سلامته، وأعانه على ما ولاه.

ذكر ما قرر من استيمار الدولة الناصرية ومن رتب من المباشرين

وفي هذه السنة في شوال منها حسن جماعة للسلطان أن يُوفِّر من جامكية[1] مباشري الدولة الشريفة، ومباشري المعاملات بالقاهرة ومصر والأعمال البرانية وأرباب الوظائف جملة، ومنهم من وُفِّر.

---

(١) الجامكية: من الفارسية: جامة، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح هي الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص٥٩).

فلما كان في يوم الأحد رابع عشر شوال قُرىء الاستيمار على السلطان وتعين من توفر، ثم أحضر مباشري الدولة في يوم الاثنين، وتجدد الحديث في ذلك، فلما انفصلوا من بين يديه رُسم بطلب الصاحب أمين الدين عبد الله، فطلب من داره فحضر ومثل بين يدي السلطان بعد العصر، وخُلع عليه وعلى القاضي مجد الدين بن لُفَيْتة[(١)] بغير طرحات، ورَتَّبهما السلطان في نظر النظار والصحبة، ونقل القاضي شمس الدين بن قَزْوِينة ناظر الدواوين إلى نظر البيوت السلطانية، وخلع عليه أيضًا معهما، وباشر الصاحب أمين الدين النظر وكشف الرواتب، وأوقف أربابها إلا بعد العرض على من ندب لذلك، ومن عُرِض شُطِب اسمه، وكتب إلى سائر الممالك الشامية الساحلية بأوقاف أرباب الرواتب المقيمين بالديار المصرية المُرَتَّبين على الشام، ولا يصرف لأحد منهم شيء إلا بتوقيع جديد لاستقبال شوال من السنة، وشدّد في ذلك، فاجتمعت به، وسألته عن هذا الحال ومقصده فيه، فحلف لي بالله أنه لا غرض له في قطع مُستحق، وأن غرضه في الكشف، والعرض أن جماعة من أرباب الرواتب دَرَجوا بالوفاة، وتسمى غيرُهم بأسمائهم، وقبض مرتبهم ممن للكُتّاب بهم عناية، وأن ذلك لا يتميز له إلا بالعرض والكشف، ثم كتب قِصصة بعد ذلك إلى السلطان يطلب فيها الإعفاء من المباشرة، فلم يُجَب إلى ذلك، فكتب قِصَّة ثانية، فأُجِيب إلى سُؤْله، وأعفي من المباشرة بعد العصر من يوم الأربعاء تاسع عشرين ذي القعدة، وهو سَلْخة، فكانت مدة مباشرته أربعة وأربعين يومًا تحريرًا.

وفيها في يوم الاثنين تاسع شوال عُقِد نكاح الأمير سيف الدين منكلي بُغا السلاح دار الناصري على الخوند دُلَنْبيه زوج السلطان - كانت - وهي التي وصلت من بلاد أُزْبَك وهي من البيت الجَنْكِزخانِي، وكان السلطان قد أبانها بالطلاق، وبنى الأمير سيف الدين بها في ليلة الخميس ثاني ذي القعدة.

ذكر الإفراج عمن يذكر من الأمراء والمعتقلين

وفي هذه السنة في يوم الخميس ثامن ذي الحجة أمر السلطان بالإفراج عن الأمير حسام الدين لاجين الجاشنكير المنصوري المعروف بزِيرباج وقد ذكرنا اعتقاله في يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الآخر لسنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام، وأفرج أيضًا في هذا اليوم عن الأمير

(١) مجد الدين بن لفيتة: هو إبراهيم بن لفيتة، مجد الدين ناظر الدولة، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٣).

جمال الدين فرج بن الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصوري وأفرج في يوم الجمعة - يوم عرفة - عن الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي، وقد ذكرنا أنه كان قبض عليه في يوم الجمعة ثامن عشرين شعبان سنة عشرين وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله ثماني سنين وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا.

وفيها في يوم الاثنين ثاني عشر ذي الحجة توجه السلطان إلى الصيد بجهة سرياقوس، وتصيد بتلك الجهة، وعاد إلى قلعة الجبل عشية نهار الجمعة سادس عشر الشهر، فأقام بقلعة الجبل إلى آخر يوم الأربعاء الثامن والعشرين من الشهر، وتوجه في بكرة نهار الخميس تاسع عشرين الشهر إلى الصيد بجهة سرياقوس.

وفيها في آخر نهار الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة وصل إلى الأبواب السلطانية من الحجاز الشريف - ممن وقف بعرفة في هذه السنة - سيف الدين ألناق السيفي أحد مماليك الأمير سيف الدين الحاج آل ملك الجُوكَنْدار ورفيقه أحد مماليك الأمير سيف الدين طُقُزْدَمُر العمادي ومَثُلا بين يدي السلطان في بكرة نهار الأربعاء، وشملهما الإنعام والتشاريف على عادة أمثالهما، وأخبرني سيف الدين ألناق المذكور أن الوقفة بعرفة كانت يوم الجمعة من غير شك في ذلك، وأن الحاج في خير ورخاء، وأن المياه كانت كثيرة متيسرة ولله الحمد على ذلك، وسألته عن يوم مفارقته الحاج، فذكر أنه ركب من مكة شرّفها الله تعالى بعد المغرب من نهار الاثنين ثاني عشر الشهر، فمدة سفره خمسة عشر يومًا وتسع ساعات، وقد ذكرنا في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وصول أوجي مملوك قِجْلِيس وطُرُنْطاي الكريمي في اثني عشر يومًا وتسع ساعات.

ذكر متجددات كانت بدمشق في هذه السنة

من ذلك كانت عمارة الحائط القبلي بالجامع الأموي، وذلك أنه في أول شهر ربيع الأول فُكَّ الرخام الذي بالجدار القبلي من الجهة الغربية ليُصْلَح ويُعاد، فظهر في الحائط عند كشفه ميل ظاهر، فأخر إصلاحه إلى أن عاد نائب السلطنة من الديار المصرية، فطُولع بذلك، فحضر في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر إلى الجامع، وصحبته قاضي القضاة علاء الدين وغيره، وأحضر المهندسين، وعُمِل تقدير ما يحتاج إليه لنَقْضِه وإعادته، فكان مائة ألف درهم، فطولع السلطان بذلك، فورد المثال السلطاني بهدمه وإعادته في يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى، فهدم الحائط بعد صلاة الجمعة، فنقض منه ثمانية مَعازِب وعشرة أوتار جسورة، وانتهوا إلى نقض

الحجارة في يوم الجمعة ثالث جمادى الآخرة، وحضر نائب السلطنة، وشاهدها قبل نقضها، فنقضت، وهي حجارة كبار تشبه عمارة القلاع، وانتهوا إلى الأساس في يوم الجمعة سابع عشر الشهر، وحصل الشروع في البنيان في يوم الأحد تاسع عشر الشهر، وانتهت عمارة الحائط في خمسة وعشرين يومًا.

وجُدِّد في الحائط محراب يشبه المحراب المعروف بمحراب الصحابة الذي في الجهة الشرقية بين باب الزيارة وباب الخطابة، واستقر أن يُصَلِّيَ فيه أمام الحنفية، وكملت العمارة وإعادةُ السقف وغيره في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب، وخلع على ناظر الجامع والمشد والمغاربة في هذا اليوم، وفرش الجامع على عادته في يوم الجمعة ثالث عشرين شهر رجب، وصُرِف على عمارته ـ فيما قيل ـ نحو خمسين ألف درهم، ووُجِد سُلَّمٌ عظيم لصومعة مبني بالحجارة المنحوتة، فنقض السلم، وحملت حجارته على العتّالين إلى هذا الحائط، فعُمِّر به، وأعان ذلك إعانة كبيرة، ولولا ذلك لاحتاج إلى كُلْفة عظيمة، ورُخِّمَ الحائط، فكان الفراغ من ترخيمه في يوم الخميس سادس عشرين صفر سنة تسع وعشرين، وصُلِّيَ تحت الحائط بعد ترخيمه في يوم الجمعة سابع عشرين الشهر، وفتح باب الزيارة ـ وكان قد أغلق بسبب العمارة ـ واستقر في أمر الأئمة وترتيبهم في الصلاة في صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث عشرين شهر رجب من هذه السنة ما نذكره، فصلّى إمام الكَلاّسة أولاً على عادته، وصلّى بعده إمام مشهد علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه، وصلى الخطيب بعدهما، وهو إمام الشافعية، وصلّى بعده إمام الحنفية في المحراب المستجد، ثم إمام المالكية نقل إلى محراب الصحابة، وبعده إمام الحنابلة صلّى بالمحراب الذي كان المالكي يصلي فيه غربي الجامع بمقصورة الخطابة، ووسع المحراب المذكور، ورفع عنه العمارة، وصلّى بعده إمام مشهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبعده إمام مشهد ابن عُرْوَة، ونقل الإمام الذي كان يصلي بمحراب الصحابة إلى محراب الكلاّسة القديم بالمعلوم الذي كان له بمحراب الصحابة، واستقرت الحال على ذلك.

وفيها في أول ليلة السبت خامس جمادى الأولى وقع حريق عظيم بسوق الفَرّانين بدمشق، كان مبدأه من دكان قَطّان في طريق قَيْسارية الفرش، وامتد إلى سوق الفَرّانِين وإلى القَيْسارية المستجدة وقَيْسارية البِيمارِسْتان وبعض حوانيت سوق علي، وعجز الناس عن طَفْيِه، واستمرت النار إلى يوم الأحد، ثم طُفِي.

وفيها أمر نائب السلطنة بدمشق بعمارة المدارس بها، ومنع من التصرف في شيء من رَيْع الأوقاف إلى أن تكمل عمارتها، ففعل ذلك، ورسم بتقرير مال يُجْبَى لعمارة قُنًى بدمشق، فقُرر لذلك نحو ثلاثمائة ألف درهم، وندب لعمارة القنى ناصر الدين النَّجِيبي، فعمر منها في هذه السنة إلى آخر سنة تسع وعشرين إحدى وعشرين قناة، وبقي نحو أربع قنى تُعْمَر إن شاء الله في سنة ثلاثين وسبعمائة.

وفيها في يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة ورد مرسوم شريف سلطاني إلى دمشق بمنع الشيخ تقي الدين أحمد بن تَيْمِيَة من الكتابة مطلقًا في التصنيف والفُتْيا، فأخذ ما عنده من الكتب والأوراق والدواة والأقلام وأودع ذلك عند متولي قلعة دمشق، فكان عنده إلى مستهل شهر رجب، ثم أرسل المتولي ذلك إلى قاضي القضاة علاء الدين، فجعل الكتب في خزانة المدرسة العادلية، لأنها كانت عارِيَة، وأما الأوراق التي كانت بخطه من تصانيفه فكانت نحو أربع عشرة ربطة، فنظر القضاة والفقهاء فيها، وفُرِّقت بينهم.

وكان سبب ذلك أنه وُجِد له جوابٌ عما رَدَّه عليه قاضي القضاة تقي الدين المالكي، فأعلم السلطان بذلك، فاستشار قاضي القضاة، فأشار بذلك، فرسم به، فحينئذ عدل الشيخ عن ذلك إلى تلاوة القرآن.

وفيها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة رسم القاضي الصدر علاء الدين علي بن الصدر المرحوم شرف الدين محمد بن محمد التميمي القَلانِسِيّ(١) ـ أحد كتاب الإنشاء بدمشق المحروسة ـ أن يجلس بين يدي نائب السلطنة يوقع على القِصَص المَرْفوعة، عِوَضًا عن أخيه جمال الدين القاضي، بما كان له من المعلوم على وظيفة الكتابة، وأن يستقر ما كان باسم القاضي جمال الدين من المعلوم عن الوظيفة المذكورة له على قضاء العسكر الشامي، وخُلِعَ عليهما بسبب ذلك، والله أعلم.

ذكر حادثة السيل بعَجْلُون

وفي هذه السنة في يوم الأربعاء ثامن عشرين ذي القعدة كانت حادثة السيل بمدينة عَجْلُون، وورد محضر بذلك إلى دمشق نسخته:

---

(١) ولد سنة ٦٧٣هـ، وتوفي سنة ٧٣٦هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١١٨).

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. الحمد لله الذي يُرْسِل آياته تخويفًا للعباد، ويريهم باهرات قدرته ليسلكوا سبل الرشاد، ويظهر لهم جَبَرُوتَه في ملكوته، ليحسنوا لأنفسهم الارتياد، ويعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله لا يخلف الميعاد، ثم يدركهم برأفته ورحمته، ويكشف ما نزل بهم من المعضلات الشداد، ولما كان في يوم الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أرسل الله تعالى بقدرته ومشيئته بمدينة عَجْلُون ريحًا عاصفًا، فأثارت سحابًا ثقالاً هطلت بماء منهمر يُدَوِّي وريح زَعْزع، فلم تزل الأمطار متواترة الهَطْل والبروق تلمع، وأصداء الجبال والأودية بأصوات الرُّعود للقلوب تَصْدَع، حتى ظن أهلها أنها قد أزفت الآزفة، فارتفعت الأصوات بأن ليس لها من دون الله كاشفة، ولفت الرؤوس، ووجلت القلوب، وذرَفت العيون، وطاشت الألباب، وخضعت الرقاب، ومُدت الأيدي بالدعاء لمن بيده أمر الأرض والسماء، وعاينوا في ذلك اليوم هولاً عظيمًا، وأشفقوا أن يكون أرسل الله عليهم عذابًا أليمًا، فبينما الناس على ذلك الحال ذاهلين، يقولون ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] إذ دهمهم سيل عظيم ماؤه، طام عبابه هام سحابه، له دوي شديد، قد اجتمع من عيون الجبال وبطون الأودية وقرار الوهاد، فالتقى الماء على أودية بأمر قد قدر، إن في ذلك لآية فهل من مُدَّكِر، فارتفع العويل، وسُكِبَت العَبَرات، واشتد الخوف، وتضاعفت الحسرات، وفر كل واحد من الناس يطلب النجاة لنفسه، واحتسب عند الله جميع ماله وعقاره وغرسه، فأخذ هذا السيل العظيم ما كان في مَمَرِّه من الدور والقياسير والأسواق، ودخل الطواحين والبساتين، وأخذ جانبًا من حارة المشارقة المجاورة للوادي، وأخذ العرصة وسوق الأدمِيِّين، وسوق القطانين، وبعض دار الطعن وسوق الأقباعين، وسوق الخليع، وقيسارية التجار المعروفة بإنشاء الأمير سيف الدين بَكْتَمُر، والقيسارية القديمة، وأخذ من قيسارية ملك الأمراء الموقوفة على البِيمارستان بصَفَد عشرين حانوتًا، وضعضع بقية الجُدُر، وهدم الأبواب وهدم سوق الصاغة، وهدم سوق النامية، الذي بقرب العين، وهدم وقف الجامع، وسوق السقطيين، وأما السوق المعروف بإنشاء الأمير علاء الدين بن معبد وسوق اللحامين وحوانيت الخَبّازين فإنه أخذه، وأخذ السوق المعروف بإنشاء الأمير سيف الدين النائب كان بقلعة عجلون، والحوانيت المعروفة بوقف القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية الموقوفة على مدرسته بنابلس وأخذ المدرسة النفيسِيَّة وهدم رُواق الجامع القبلي وباب الجامع الشرقي، وهدم جانبًا من الحمام الصالحي المعروف بأمير موسى، وبعض الحمام السلطاني، وأخذ ظهارة الجامع والمربعة والمسلخ المعروف بابن معبد، وأخذ

ما كان في مجراه من الجسور والقناطر والأقباء التي كان يجوز الناس عليها عندما تَمُدّ الأودية وعدم من عجلون تقدير عشرة أبقار، وهذه قدرة الملك الجبار، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وكان مدة تواتر الأمطار والسيل من أول ساعة من النهار المذكور إلى وقت العصر، وفي ذيل المشروح خط جماعة من الشهود.

هذا ما أورده الشيخ شمس الدين الجَزَرِي في تاريخه.

ونقل الشيخ علم الدين بن البِرْزالي في تاريخه نسخة الكتاب الوارد من عجلون فقال:

الحمد لله المحمود في السراء والضراء، المشكور على الشدة والرخاء الذي يُخَوِّف عباده بما شاء من معضلات اللأواء، ويريهم باهرات قدرته في ملكوت الأرض والسماء، ثم يعود عليهم برحمته، ويجللهم بسوابغ النعماء، أحمده حمدًا يزيد على الإحصاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العظمة والكبرياء، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خاتم الأنبياء، ومبلغ الأنباء صلى الله عليه وعلى آله الأمناء، وأصحابه الأتقياء، صلاة دائمة بلا نفاد ولا انقضاء، وبعد: فإنه لما كان بتاريخ نهار بكرة الأربعاء ثاني عشرين ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أرسل الله تعالى بقدرته ريحًا عاصفة، فأثارت سُحُبًا واكفة في خلالها بروق خاطفة، ليس لما جاءت به من دون الله كاشفة فطبقت الوهاد، وجللت الآكام، وأطبقت على مدينة عجلون وما قاربها من أرض الشام، ثم أرخت عَزَالِيها كأفواه القِرَب، حتى خُيِّل لمن رآها أن الوعد الحق قد اقترب، فلم يكن إلا كحلب شاة من الضأن، أو ما قارب ذلك من الزمان، حتى صارت مدينة عَجْلُون كما قال الله تعالى في كتابه المكنون: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١ - ١٢] فوَجِلت القلوب لهول ذلك وتصدعت، وكادت الحوامل أن تضع حملها وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، واندهش أهل البلد عند معاينة هذا الهول الكبير، واختلفت همومهم، فكل إلى ما اشتمل عليه قلبه يشير، فمن باك على ما في يده من متاع الدنيا الحقير، ومن مشفق خائف على ولده الصغير، ومن غريق عدم نفسه النفيسة، ما له من ملجأ يومئذ وما له من نَكِير، ومن ناج يقول: أشهد أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، ومن ضارع إلى من ليس كمِثْلِه شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ، ومن قائل: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] ولسان الحال يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] ولم تزل الأمطار متواترة، والسيول من

كل فج متواترة، حتى تحير من حضر ذلك من الإنس والجان، وشغلوا بما عاينوه عن الأموال والأولاد والإخوان، وظنوا أنهم أحيط بهم، وجاءهم الموج من كل مكان، فتلاقى على البلد واديان: أحدهما من شمالها يسمى الجود والآخر من شرقها يسمى جنان، فأخرب وادي الجود بهذه الآية الخارقة جانبًا من حارة المشارقة، ودَمَّر وادي جنان ما كان على جانبه من البنيان، ثم اختلطا فرأى الناس منهما ما لا يطاق، وأخربا ما مرا عليه من رباع وقياسير وأسواق، فأخربا العَرصة والمصبغة والفرانين والعلافين، وحوانيت الدق وسوق الأدميين وسوق البُر العتيق والأقباعية والقطانين، وحوانيت الصاغة وما يليها من البساتين، وردم أمام دار الطعم - بعد إخراب بعضها - أحجارًا وصخورًا، وكل ذلك ليَتَّعِظ أهل المكر وما يزيدهم إلا نُفُورًا، وذهب هذا السيل العظيم الطامي بجميع سوق الخليع لبَكْتَمُر الحسامي، وأخرب من قيسارية ملك الأمراء للتجار نحو عشرين حانوتًا، وذهب بكل ما فيها من ثمين، ثم ردم باقيها على ما فيه بالأخشاب والأحجار والطين، حتى رجعت قيمةُ ما سلم من المائة إلى العشرين، وأخرب ما جاوز بحر المدينة من سوق أم معبد واللّحّامين، ومن وقف السقطيين والحضريين وحوانيت العجز وسوق الأمير ركن الدين ثم دمر في وقف الجامع على ما فيه من الأمتعة والبضائع، ثم ردم العين بالأحجار والخشب والصخور، حتى خشي عليها أهل البلد أن تفور، ثم أخرب حوانيت الطبّاخين وجانبًا من حمام الأمير موسى، وكان ذلك على من لم يرض بقضاء الله يومًا منحوسًا ثم أخرب الدباغة وجانبًا من حمام السلطان وما يلي ذلك من المِطْهَرة ومسلخ المعز والضأن، وأعظم من ذلك إخرابه المدرسة النفيسية والرواق القبلي من المسجد الجامع، وفي ذلك ما يحرق قلب كل منيب وخاشع، ورُدِمَ داخل الجامع بُغثاء السيل والطين والأخشاب، فاعتبرا يا أولي الألباب. وبلغ الماء في داخل الجامع إلى القناديل المعلقة، وذلك بتقدير من يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة، ولم يَقْرَب شيئًا من غالب ما ذكر إلا أتى على ما فيه من الأمتعة والبضائع والأموال، حتى أتيح لكثير من أرباب ذلك أن يمد يده للسؤال، وكان مدة استدامته من بكرة النهار إلى وقت العصر ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [هود: ٤٤]، وكان عرض السيل قدر رمية بحجر، وارتفاعه على بسيط الأرض قدر قامتين أو أكثر، وقُدِّر ما ذهب فيه من الأمتعة والبضائع والأموال وقيمة الأملاك بهذا القضاء المبرم، فكان ذلك يزيد على خمسمائة ألف درهم، وذلك خارج عن الغلات والمواشي والبساتين والطواحين ظاهر مدينة عجلون ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ومن جملة لطف الله تعالى مجيئه بالنهار، فحذر الناس منه، فلم يُعلم في البلد

غريق إلا سبعة أنفار ولو كان ـ والعياذ بالله ـ ليلاً لزادوا على الإحصاء في المقدار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وليس الخبر في جميع ما ذكرنا كالعِيان، ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان.

وفي هذه السنة في يوم الخميس سادس عشر صفر توفي الشيخ الصالح المعروف بقوام الدين عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازي شيخ الخانقاة بالجامع الناصري بساحل مصر المحروس، ومولده ـ كما أخبرني ـ رحمه الله تعالى ـ في تاسع عشر صفر سنة ثمان وثلاثين وستمائة بشيراز، وكان عمره تسعين سنة إلا ثلاثة أيام. سمع من الشيخ عز الدين الفارُوثي، وله إجازة بخطه شاهَدْتُها، وقد جعل فيها لكل من جعل خطه تحت خطه فيها أن يروي عن الشيخ عز الدين المذكور ما يجوز له روايته، وكتبتُ خَطِّي تحت تلك الإجازة، فصار لي بهذا الاعتبار أن أروي عن الشيخ عز الدين الفاروثي بالإجازة.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين جُوبان المنصوري(١) أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بدمشق وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء العشرين من صفر بداره بظاهر دمشق، ودفن بتربته بالمِزَّة، وأنعم بإقطاعه على الأمير شهاب الدين قَرَطاي الصالحي العلائي، عوضًا عما كان بيده من الإقطاع.

وتوفي في النصف من يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من صفر القاضي موفق الدين عبد الرحيم بن الأسعد بن المعتمد، وهو من مَسالِمَة القِبْط، وكان في ابتداء أمره يتولى عِمالَة قَلْيُوب، ثم تنقل في المباشرات إلى أن ولي استيفاء ديوان الأمير سيف الدين سَلاَّر نائب السلطنة كان، وحصل أموالاً جليلة، ثم ولي استيفاء النظر بالباب السلطاني، وانتقل منه إلى نظر الدواوين، إلى أن عزل في سنة أربع وعشرين وسبعمائة ـ كما ذكرنا ـ ولزم داره، ورتب له من الصدقات السلطانية في كل شهر ثلاثمائة درهم، إلى أن مات في التاريخ المذكور، وكانت وفاته بداره بشاطىء النيل بمصر بقرب صناعة الإنشاء، ومولده في سنة أربع وخمسين وستمائة.

وفيها في ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الإمام العالم الصالح الورع السيد الشريف تقي الدين أبو الفتوح محمد بن الشيخ ضياء الدين جعفر بن الشيخ محمد بن الشيخ القطب عبد الرحيم بن أحمد بن أحمد بن حَجُّون الحَسَني الشافعي(٢) شيخ خانقاة الأمير بهاء الدين أرسلان الدّوادار بمنشأة المِهْراني، وصُلِّي

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٤، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٠٤، الدرر الكامنة ١/ ٥٤٢.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤١٥، الوافي بالوفيات ٢/ ٣٠٧.

عليه بكرة النهار، ودفن بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى حسن الصحبة والعشرة والمودة، وله نثر جيد، ومولده في سنة خمس وأربعين وستمائة تقريبًا.

وتوفي في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة الشيخ كمال الدين. . .[1] الغماري المغربي، وكان رجلاً مُنقطعًا، لا يتردد إلى أحد، حسن اللباس والمأكل، يأكل غالبًا خبز الشعير، ويطعم أهله ما يختارونه من الأطعمة وكان من فقهاء المالكية، وكنت أعهد له كشفًا، اجتمعت به في سنة سبعمائة وهو يوم ذاك بالمدرسة الشريفية بالقاهرة، وكاشفني في قضية تتعلق بي، فوقعت كما قال، ثم ذكر لي بعد ذلك قضية أخرى تتفق بي، فاتفق بعضها كما قال، وتأخر بعضها، فاجتمعت به بعد ذلك في سنة ست وسبعمائة، وسألته عن حاله وما كنت أعهده فيه من الكشف، فأجاب: قد زال ما كنت تعهدُه منذ استقليت بهذه النُّمَيْلة - يشير إلى ابنته فاطمة - وكان قد رُزِقَها، وكانت من الذكاء على أمر عظيم لم يشاهَد مثلُه من سرعة الحفظ، وجودة الإتقان مع صغر السن. أحْضِرت إلى مجلس شيخنا شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي[2] رحمه الله تعالى لتسمع عليه جزءًا من مَسْمُوعاته، فامتنع أن يكتبَ اسمها إلا حُضورًا، وقال: هذه صغيرة السن عن السماع، فلقَّنها معلمها سري الدين أبو القاسم الزيدي الحديث الذي كانت تريد أن تسمعه، فحفظته بسنده، وأحضرها إلى الشيخ فجلست بين يديه، وعمرها يوم ذاك أربع سنين أو نحوها، فقالت مُخاطبةً الشيخ: حدثك - رضي الله عنك الشيخ فلان - وسردت السند إلى رسول الله ﷺ، والحديث إلى آخره من حفظها فبُهت الشيخ من ذلك، واستعظمه منها، وكساها فُوطة حرير، وكتب اسمها سماعًا، أخبرني بذلك معلمها سري الدين المذكور، وكان صدوقًا رحمه الله، ثم اشتغلت بعد ذلك وقرأت الكتاب العزيز بالسبع، وأتقنت قراءته واشتغلت بالفقه والعربية والأصول وغير ذلك من العلوم، وكتبت الخط الجيد المنسوب عدة أقلام، فكانت تكتب الدُّرُوجَ المشتملة على عدة أقلام كتابة جيدة، وتكتب في آخرها: «كتبته فاطمة الغِمَارية» واشتغل والدها بأشغالها اشتغالاً كثيرًا، فلذلك قال لي ما قال، وأصيب بها، وكان رحمه الله تعالى صعب الخُلُق شديد الحَرَج كبير الحِدَّة ما اجتمع به أحد من الأمراء والأعيان والأكابر وفارقه عن رضى، وكان يَسُب من يجتمع به ويتركه أقبح سب عن غير تحاشٍ، ولعل ما حصل له من سوء الخُلُق نتج عن خشونة مأكله، رحمه الله تعالى وسامحه.

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) ولد سنة ٦١٣هـ، وتوفي سنة ٧٠٥هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٢، الدرر الكامنة ١/ ٤١٧).

وتوفي في ليلة الأربعاء سابع شهر رجب القاضي كمال الدين أبو القاسم عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن محمود الحلبي البِسْطامي الحنفي[١] ناب في الحكم ودَرّس بالمدرسة الفارقانية بالقاهرة، ودفن من الغد بالقرافة، وكان قد مرض من مدة، وطالت مرضته وعجز عن الحركة وانقطع ولزم بيته، ونزل عن جهاته لولده الفقيه سراج الدين عمر[٢]، سمع كمال الدين بن النجيب عبد اللطيف وحدَّث، ومولده في سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

وتوفي في يوم السبت خامس عشر شعبان الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الأبي بكري[٣] في معتقله ببرج السباع بقلعة الجبل، وكان السلطان قد رسم بإحضاره من الكَرَك هو والأمير سيف الدين تَمُر الساقي[٤]، فأحضرا في شهر رجب من السنة، وقويت الشناعة أنه يفرج عنهما فاعتقلا ببرج السباع، واعتل المذكور ومات رحمه الله تعالى، وقد تقدم ذكر اعتقاله، وأنه كان في ليلة الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله ست سنين إلا ثمانية عشر يومًا.

وتوفي في ليلة السابع عشر من شعبان صاحبنا ووالد صاحبنا الشيخ الصالح العدل شرف الدين أبو حفص عمر بن الشيخ مُعين الدين عبد الرحيم بن أبي القاسم بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن منصور بن حيدر الجَزَرِي الشافعي المعروف بالخياط، ويعرف أيضًا بإمام قَفْجاق، وهو صاحب الشيخ أبي إسحاق اللّوزي، وكانت وفاته بالقدس الشريف، وصلي عليه من الغد بالمسجد الأقصى، ودفن بمقبرة ماملا، ومولده في المحرم سنة سبع وأربعين وستمائة بالموصل، سمع من النجيب عبد اللطيف وغيره، وأسمع، وكان يؤم نواب السلطنة بدمشق الأمير حسام الدين لاجين المنصوري في نيابته بدمشق قبل سلطنته، ثم كان إمامًا عند الأمير سيف الدين قَبْجاق بدمشق وحماة، وهو من بيت مشهور معروف بالجزيرة العمرية بالتجارة والحشمة والاتصال بالملوك، وكان هو من أعيان الصوفية حيث حلّ بدمشق والقاهرة والقدس. صحبته رحمه الله تعالى، وصحبت ولده الشيخ أمين الدين محمد من سنة تسع وسبعمائة، وتأكدت الصحبة بيننا، فكانا من خيار من صحبت،

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٦.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٧، ٣/ ١٦٩.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٨٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٤، السلوك ٢/ ٣٠٤.

(٤) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٥١٩).

وكان لي بهما اجتماع قبل ذلك، وكان رحمه الله كريمًا حسن الصحبة والمودة، وجلس مع العدول بدمشق والقاهرة وشهد على القضاة، وما زال يعظمه الأكابر والأمراء والوزراء ويُجِلُّونه رحمه الله تعالى.

وتوفي في آخر ليلة السبت المسفرة عن رابع عشر شهر رمضان الأمير جمال الدين خضر بن نُوكِية(١) أحد أمراء الطبلخاناة بداره، بخط الهلالية بظاهر القاهرة، ودفن في ليلة السبت، وكان قد مرض نحو ثلاثة أشهر وعوفي، وطلع إلى الخدمة السلطانية قبل وفاته بيومين، في يوم الخميس ثاني عشر الشهر فبلغني أن السلطان سأله عن حاله، فلما خرج من الخدمة، قال السلطان لبعض خواصه من الأمراء لمن يُعْطَى خبزُ هذا؟ فقيل له: وكيف يقطع السلطان خبزه؟ فقال السلطان: «هذا ما يعيش أكثر من يومين» فكان كذلك، ولعمري لو قال هذا القول من يتصدى للناس ممن يُنسب إلى الصلاح والكشف لعُدت من كراماته، ولهُرِع الناس إليه، وبلغني أنه صلى الجمعة ببركة الحَبَش، وأفطر في ليلة السبت، وتسحّر، ومات قبيل أذان الصبح.

وفيها في ليلة السبت المسفرة عن سابع عشرين شوال كانت وفاة الأمير شمس الدين قَرا سُنقُر المنصوري(٢) بمدينة مَراغة من عمل أذْرِبيجان، ودفن في مستهل ذي القعدة، وكان سبب تأخير دفنه أنه كُتِب إلى الملك أبي سعيد بخبر وفاته، واستُؤْذِن في دفنه، فتأخر إلى أن ورد جوابُه، ورد الخبر إلى الأبواب السلطانية بوفاته في يوم الثلاثاء حادي عشرين ذي القعدة، وقد ذكرنا ما كان من تَسَحُّبه إلى بلاد التتار في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، ولما اتصل خبر وفاته بالسلطان رسم بالإفراج عن جماعة من مماليكه كانوا قد اعتقلوا بعد تَسَحُّبه، ووعدهم الإحسان، ثم رسم بإخراج ولديه الأميرين: علاء الدين علي، وعز الدين فرج إلى دمشق، وأقطع الأول إمرة طبلخاناة، وفرج إمرة عشرة بدمشق، وتَوَجَّها في سنة تسع وعشرين، ووصلا إلى دمشق في ثالث شهر ربيع الآخر، واستقرا بها.

وفيها في الثلث الأخير من ليلة الاثنين المسفر صباحها عن العشرين من ذي القعدة كانت وفاة الشيخ العالم الورع تقي الدين أحمد بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٨٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٥، السلوك ٢/ ٣٠٥.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٣، السلوك ٢/ ٣٠٥.

أبي القاسم بن محمد بن تَيْمِيَةَ الحَرّاني ثم الدمشقي[١] في معتَقَلِه بدمشق، ومرض سبعة عشر يومًا، ولما مُنِع من الكتابة والتصنيف عكف على تلاوة كتاب الله تعالى، فيقال إنه قرأ ثمانين ختمة، وقرأ من الحادية والثمانين إلى سورة الرحمٰن، وأكملها أصحابه الذين دخلوا عليه حال غسله وتكفينه، وتولى غُسْلَه مع المُغَسِّل الشيخ تاج الدين الفارِقِيُّ، والشيخ شمس الدين بن إدريس، وصُلِّيَ عليه في عدة مواضع فصُلي عليه أولاً بقلعة دمشق وأمَّ الناسَ في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام الصالحي الحنبلي، ثم حمل إلى الجامع الأموي، ووضعت جِنازته في أول الساعة الخامسة، وامتلأ الجامع بالناس، وغُلِّقت أسواق المدينة، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر، ثم حمل وأخرج من باب الفرج، وازدحم الناس حتى تفرقوا في أبواب المدينة وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر، ثم حمل فخرجوا من باب النصر وباب الفراديس وباب الجابية، وامتلأ سوق الخيل بالناس، وصلي عليه مرة ثالثة وأمّ الناس في الصلاة عليه أخوه الشيخ زين الدين عبد الرحمٰن[٢]، وحمل إلى مقبرة الصوفية، فدُفن قريبًا من وقت العصر لازدحام الناس عليه، ومولده بحَرّان في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع والده في حال صغره، واشتغل عليه وسمع من جماعة من المشايخ، وكان شيخًا حافظًا مُفْرِط الذكاء، حسن البديهة، وله تصانيف كثيرة منها ما ظهر، ومنها ما لم يظهر، وشهرته بالعلم تغني عن بسط القلم فيه، وكان علمه أرجح من عقله، وقد قدمنا من أخباره ووقائعه ما يغني عن إعادته، وكانت مدة اعتقاله من يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة إلى حين وفاته سنتين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، رحمه الله تعالى، ولما مات أُفرِج عن أخيه الشيخ زين الدين عبد الرحمٰن في يوم الأحد سادس عشرين ذي القعدة، وكان قد اعتقل معه، فلما مات كان يخرج في كل يوم إلى تربة أخيه، ويعود عشية النهار يبيت بقلعة دمشق، إلى أن حضر نائب السلطنة من الصيد، فأفرج عنه.

* * *

واستهلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة بيوم الجمعة الموافق لثامن هاتور من شهور القبط، والسلطان الملك الناصر يتصيد بجهة سرياقوس، فأقام بتلك الجهة إلى يوم الاثنين، وعاد إلى قلعة الجبل المحروسة في بكرة نهار الاثنين رابع المحرم، وفي

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) ولد سنة ٦٦٣هـ، وتوفي سنة ٧٤٧هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٩، شذرات الذهب ٦/ ١٥٢).

يوم السبت ثاني المحرم وصل القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة من الحجاز الشريف إلى خدمة السلطان بالقصر بسماسم، وخلع عليه ووصل إلى داره بمصر في يوم الأحد ثالث الشهر.

وفيها في يوم الأحد سابع عشر المحرم فَوّض السلطان صحابة ديوان الإنشاء السعيد بالأبواب العالية للقاضي محيي الدين يحيى بن جمال الدين فضل الله بن المُجَلّي القُرَشي العَدَوِي(١) وسبب ذلك أن القاضي علاء الدين علي بن الأثير(٢) كان قد حصل له مرض فالج في شهور سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، واستمر مدة شهور، وهو يتكلف الدخول مع البريد وحضور دار العدل بين يدي السلطان، فلما دخل فصل الخريف اشتد به المرض، وتمكن من جسده، وتزايد الحال به، فعجز عن المشي، واعتُقِل لسانه، وبطلت يده، فرُسم بعد ذلك بتوفيره، ونزل من القلعة في يوم الخميس رابع عشر الشهر، واستقر بداره، وكان ولده في الحجاز الشريف، فوصل في يوم السبت الثاني من المحرم وخلع عليه، وجلس في مرتبة أبيه، وظن الناس أنه يستقر في الوظيفة، وكان السلطان قبل ذلك قد رسم بطلب القاضي محيي الدين المشار إليه من دمشق فطلب، وكان رأس كتاب الدَّرْج بها، فتوجه منها في يوم الجمعة ثامن الشهر، ووصل إلى الأبواب السلطانية في هذا اليوم هو وولده القاضي شهاب الدين أحمد(٣)، وشرف الدين بن شمس الدين بن شهاب الدين محمود، ومثلوا بين يدي السلطان وهو بالإسطبل، وخلع عليهم، واستقر القاضي محيي الدين صاحب ديوان الإنشاء وولده شهاب الدين أحمد كاتب السر الشريف، وشمس الدين بن شرف الدين رأس كُتّاب الدرج بدمشق في وظيفة القاضي محيي الدين، وتوجه إلى دمشق المحروسة.

وفي هذه السنة في يوم الأحد رابع عشرين المحرم أنعم السلطان على الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي بإمرة طبلخاناة، وأقطعه إقطاع الأمير علاء الدين علي بن الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر، ونقل علاء الدين إلى دمشق كما تقدم، وأنعم على

---

(١) هو يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن علي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عمر العدوي، محيي الدين أبو المعالي، ولد بالكرك سنة ٦٤٥هـ، وتوفي بمصر سنة ٧٣٨هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٢٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٣١٦، السلوك للمقريزي ٢/ ٣٠٩).

(٢) هو علي بن أحمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير الحلبي الأصل، ولد سنة ٦٨٠هـ، وتوفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٤).

(٣) ولد سنة ٧٠٠هـ، وتوفي سنة ٧٤٩هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٣١).

الأمير حسام الدين لاجين الجاشْنكير المعروف بزيرباج بإمرة طبلخاناة بالديار المصرية، وأقطع إقطاع الأمير ناصر الدين محمد بن جمق الذي كان قد وصل من بلاد التتار، وذكر أنه من أقرباء السلطان، فعاد الآن إلى بلاد التتار بطلب من الملك أبي سعيد، فرسم بعوده.

وفيها في يوم الأحد الرابع والعشرين من الشهر وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي، عاد من جهة الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا على خيل البريد، ووصل الرسل بعده، وفيها في بكرة نهار الثلاثاء ثالث صفر استقل ركاب السلطان من قلعة الجبل لقصد الصيد، فتوجه إلى الجيزية، وعدى من ساحل بولاق، وأقام إلى يوم الخميس، وتوجه في بكرة نهار الجمعة إلى جهة المنوفية، وفَرّق الأمراء مماليكه بالجهات ولم يستصحب من مماليكه إلا أرباب الوظائف.

وفي يوم السبت سابع صفر وصل إلى الأبواب السلطانية الملك أبي سعيد، وجُهِّزُوا إلى السلطان إلى جهة المنوفية، فمثلوا بين يديه، وأدُّوا رسالتهم وأمر أن يتوجهوا إلى قلعة الجبل، وأقاموا بها إلى حين عود السلطان، وكان عوده من الصيد المبارك في الساعة الثانية من يوم الخميس تاسع عشر صفر.

وفيها في يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأول أعيد القاضي شمس الدين بن قَزْوِينَةَ إلى نظر الدواوين على ما كان عليه، نُقِل إلى هذه الوظيفة من نظر البيوت السلطانية، وأضيف نظر البيوت إلى القاضي مجد الدين إبراهيم بن لُفَيْتَةَ ناظر النظار والصحبة، وخلع عليهما.

وفيها في يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول توجه السلطان إلى الصيد بجهة سرياقوس، ثم توجه منها إلى الجيزية، وأقام بها إلى بكرة نهار الاثنين الحادي والعشرين من الشهر، وعاد إلى قلعة الجبل، وكان صعوده إليها في الساعة الأولى من النهار المذكور، واستقر بها بكرة نهار الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر، وتوجه إلى جهة القليوبية، وعاد ظهر يوم الأربعاء رابع عشر الشهر، وأقام بقلعة الجبل إلى يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى، فتوجه في الأول من النهار وعَدّى من جهة بولاق لقصد الصيد بجهة البحيرة، وعاد إلى قلعة الجبل في الساعة الثالثة من يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى.

وفيها في يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى رسم السلطان بهدم الجُبِّ الذي يعتقل به الأمراء بقلعة الجبل وردمه، وألا يعتقل به أحد من الناس فهدم ورُدِم بما نُقِض من الإيوان الكبير الذي بالرحبة عند جامع القلعة، وكان قد رسم بهدمه وإنشاء غيره أصغر منه، ففعل ذلك.

وفيها في هذا اليوم المذكور وصل إلى الأبواب السلطانية رسل نائب الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا الذي استقر في النيابة بعد جوبان وهو الشيخ حسن بن الجتية، وهو ابن عمة الملك أبي سعيد، أمُّه أخت غازان وخَربَنْدا، وحسن هذا هو الذي كان زَوْجَ بَغداد خاتُون ابنةِ جُوبان، وأحضر رسله قماشًا وفهدين تقدمة من جهته إلى السلطان، فقبلت تقدمته، وعومل رسله بما جرت به عادة أمثالهم.

وفيها في يوم الثلاثاء عاشر جمادى الآخرة وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين أرغون الناصري نائب السلطنة الشريفة بحلب، وأكرمه السلطان إكرامًا كثيرًا، وخلع عليه على عادته في نيابة السلطنة بالأبواب السلطانية، وأنزله بمناظر الكَبْش، وأنعم عليه بخيل وقماش، وأقام إلى يوم الخميس سادس عشرين الشهر، فخلع عليه في هذا اليوم قَباء مُقَصَّبًا بطَرْززَرْكَش، وعاد إلى حلب، بعد انقضاء الخدمة السلطانية في هذا اليوم المذكور من التاريخ من السنة المذكورة.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد ورغبته في الاتصال بمصاهرة السلطان

وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخرة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد بن خربندا، والمشار إليه منهم اسمه تَمُرُبغا المَرْغِيناني أحد مقدمي التَّوامِين، ومثُلوا بين يدي السلطان بقلعة الجبل في يوم الاثنين سلخ الشهر، وقدموا ما معهم من الهدية، فكان منها اثنا عشر أكديشًا عشرة منها مُجَلَّلة بالجُوخ الأحمر المبطن بالصندات، واثنان بغير جِلالٍ، ذُكْرانٌ لها قيمة كثيرة، وأحضروا غير ذلك من التحف مما خفي أمره، وكان مضمون الرسالة رغبة الملك إلى السلطان الاتصال بابنته، فأجاب السلطان الملك الناصر سؤاله إلى ذلك، فاعْتَذَر بصغر سنها الآن، ووعدهم إلى انقضاء ثلاث سنين، فعند ذلك أحضر الرسول ثُمانًا دراهم، وهو ستون ألف درهم، وسأل عن مرسله، أن يُعمل بذلك مُهِمٌّ، ويُمَدُّ سِماط يأكله الأمراء، فرسم السلطان بقبول ذلك، وعمل المُهِم في يوم الخميس عاشر شهر رجب، وسلك السلطان في ذلك نائب التتار، وشرط السلطان عليهم شروطًا منها: أن طلب في مَهْرِها أعمال «ديار بكر» وخلع على الرسل في يوم الخميس ثالث شهر رجب، ثم خلع عليهم مرة ثانية في يوم الاثنين سابع الشهر، ثم رسم بإعادتهم إلى مرسلهم، وتوجهوا في يوم الاثنين رابع عشر الشهر، ووصلوا دمشق في مستهل شعبان، وتوجهوا منها في يوم السبت رابع الشهر.

وفيها في يوم الخميس عاشر رجب وصل إلى الأبواب السلطانية الأمير سيف الدين طَيْنال الساقي(١)، نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية، وخلع عليه تشريف أطلس أحمر بطَرْززَرْكش على أطلس أصفر وشاش رقم، وكَلُوتَة زَرْكش، وحِياصة ذهب مُجَوْهرة، وأنعم عليه بثلاثة رؤوس خيل، وأقام في الخدمة السلطانية إلى يوم الخميس رابع عشرين الشهر، وتوجه إلى طرابلس على عادته في يوم الجمعة خامس عشرين الشهر، وأثَّر حضوره أثرًا سيئًا، فإنه شكا إلى السلطان ما على المملكة الطرابلسية من الكُلَف، وأن خالصها لا يقوم بالمرتب عليها، وحَسَّن للسلطان قطعَ ما على المملكة المذكورة من الرواتب لأرباب الصلات المقيمين بالديار المصرية ومرتبهم بطرابلس، فقطع جميع ذلك بطرابلس، وشمل هذا القطع ما هو مرتب لهم على سائر الممالك الشامية والحلبية والصَّفَدية، فحصل للناس الضرر التام بذلك، ثم سأل الزيادة لنفسه على ما بيده من الإقطاع، فأنعم عليه بزيادة ثلاثين ألف درهم في كل سنة أو نحوها من الذي يُوَفّر بطرابلس.

ذكر الاستبدال بمن يذكر من مباشري الدولة، ومصادرتهم وإفصال الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي من الوزارة

وفي يوم الأحد العشرين أو الحادي والعشرين من شهر رجب من هذه السنة رسم السلطان بعزل القاضي مجد الدين إبراهيم بن لُفَيْتَةَ عن نظر النظار بالديار المصرية والصحبة، وشمس الدين بن قَرْوِينَةَ عن نظر الدواوين، وفوّض نظر النظار والصحبة للقاضيين: علم الدين إبراهيم بن القاضي تاج الدين إسحاق(٢) وكيل الخواص الشريفة وناظرها، وتقي الدين عمر بن الصاحب شمس الدين محمد بن فخر الدين عثمان الشوخي المعروف بابن السَّلعوس(٣) الدمشقي وزير الدولة الأشرفية الصلاحية والده كلف وكان قبل ذلك يتولى صحابة الديوان بدمشق، ذكره بعض الأمراء الأكابر بين يدي السلطان وأثنى عليه، فرسم بطلبه فتوجه من دمشق في يوم

(١) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٣٢، السلوك للمقريزي ٢/ ٣١١).

(٢) هو المعلم إبراهيم بن عبد الوهاب بن عبد الكريم الوزير، شمس الدين بن تاج الدين إسحاق القبطي، تسمى والده إسحاق لما أسلم بعبد الوهاب (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ١٣٦).

(٣) هو عمر بن عثمان بن أبي رجاء بن أبي الزهر بن شمس الدين بن السلعوس، توفي سنة ٧٣١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨٨).

الخميس العاشر من رجب ووصل إلى الأبواب السلطانية في يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، فرُسِم له بالمباشرة، وخلع عليهما في اليوم المذكور، وفوض نظر خزانة الخاص الذي كان يباشره علم الدين المذكور لأخيه شمس الدين موسى[(١)] وباشر الناظران ـ علم الدين وتقي الدين ـ مدة والأمير علاء الدين الجمالي الوزير على حالته في الوزارة، إلا أنه مشغول بما حصل له من المرض، يترددان إلى خدمته، ويستأذنانه، فلما كان في يوم الأحد ثاني شوال رسم بتوفير الوزارة، واستقر الأمير علاء الدين في الأستاذ دارية خاصة مع ملازمة المرض به، وهو مع ذلك يتجلّد في بعض أيام المواكب، ويَعْبُر إلى الخدمة، ويقف على عادة الأستاذ دارية يسيرًا، ثم يعود إلى داره بقلعة الجبل، فلما كان في يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة جلس السلطان في الميدان تحت قلعة الجبل، وعرض كتاب الأمراء ليستصلح منهم من يستخدمه، ثم طلب القاضيين مجد الدين بن لُفَيْتَةَ وشمس الدين بن قَرْوِينَةَ الناظرين المنفصلين، ومكين الدين بن قَرْوِينَةَ مستوفي الصحبة وأمين الدين مستوفي الخزانة المعروف بقُرْمُوط، وأمر بالترسيم عليهم، وسلمهم للأمير سيف الدين الدَمُر أمير جندار، ورسم أن يُسْتَخْرج منهم ستمائة ألف درهم.

وسبب ذلك أنه كان قد رسم بكشف الجيزية، فكُشِفَت فوجد فيها بواقيًا كثيرة، فرسم بمصادرة واليها سيف الدين قَشْتَمُر، وهو من ألزام الأمير علاء الدين الجمالي الوزير ـ كان ـ ومستوفيها ابن سَقْرون، فحمل من جهة قَشْتَمُر مائتي ألف درهم، ومن جهة ابن سَقْرون المستوفي ما يزيد على سبعين ألف درهم، فاضطر المستوفي المذكور إلى أن أنهى إلى السلطان ما أخذ من الجيزية، فرسم عند ذلك بمصادرة من ذكرنا، وإفصال المستوفين.

وكان السلطان قبل ذلك قد عرض مُشِدِّي الجهات بالقاهرة ومصر، ورسم بقطع أخبازهم من الحلقة، واستبدل بهم، وانتصب السلطان بنفسه أيامًا لمصالح دولته، وأحضر مشايخ بلاد الجيزية، وسجلوا بلادها في مجلس السلطان، وهذا ما لم يسمع بمثله في دولة من الدول، وشرع بالاستبدال بالمباشرين، وصار يستخدم بنفسه، ويتحدث مع كل مباشر، ويسأله عن مباشراته، وغير ذلك، ثم أفرج السلطان عن الناظرين المنفصلين والمستوفين، بعد أن استخرج منهم ـ بعدما قرر عليهم ـ جملة من المال.

---

(١) هو شمس الدين موسى بن إسحاق بن عبد الكريم المصري القبطي، توفي سنة ٧٧١هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٤).

وفيها في خامس شهر رمضان رسم السلطان للأمير علاء الدين قلبرس ابن الأمير علاء الدين طَيْبرس الوزيري[١] أحد أمراء الطبلخاناة أن يتوجه إلى دمشق المحروسة من جملة الأمراء مقدمي الألوف، وأنعم عليه بإقطاع الأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخوارزمي[٢] الحاجب بدمشق، وزاده عليه إمرة عشرة طواشية، وتوجه من القاهرة المحروسة في خامس عشر شوال من السنة، ووصل إلى دمشق في الاثنين سادس عشر ذي القعدة، وكانت وفاة الأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخوارزمي ـ الحاجب المذكور ـ في ليلة الأحد ثاني عشر شعبان من السنة.

ذكر رؤيا رأيتها في المنام أحببت إثباتَها لدلالتها على صحة نسبي

وفي ليلة الجمعة ثالث عشر ذي القعدة رأيت رسول الله ﷺ في المَنام، وهو جالس بالإيوان البحري بالمدرسة الناصرية، التي هي بين القصرين، من الجهة اليمنى لمن يقصد صدر الإيوان في ذيل الإيوان بينه وبين الحائط نحو ذراعين، أو أقل من ذلك، وأنا جالس بين يديه الكريمتين، وهو يذكر عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها بخير، فقلت له: يا رسول الله هي عمتي، ثم قلت ثانيًا: يا رسول الله عائشة أم المُؤمنين عمتي؛ لأنني أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم بن منجا بن علي بن طَرّاد بن خَطّاب بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم. فلما انتهيت في سرد نسبي إلى إبراهيم قال النبي ﷺ ابن جعفر، قلت: نعم يا رسول الله، ابن جعفر بن هلال ابن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، فعائشة أم المؤمنين يا رسول الله عمتي، فقال رسول الله ﷺ: نعم، واستيقظت من النوم، وسُرِرت بهذه الرؤيا، وأثبتها ولله الحمد.

ذكر متجدّدات كانت بدمشق في سنة تسع وعشرين وسبعمائة

في هذه السنة في أوائل شهر ربيع الأول تَجَرّأ رجل يقال له محيي الدين بن الحَكَم الكاتب جُرْأةً عظيمة لم يسبق إلى مثلها فيما بلغنا، وذلك أنه اتفق مع أربعة

(١) توفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٥).
(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٢٥.

من الرسل المُتصَرِّفين بباب الحُكْم العزيز، وجلس في قاعة تعرف بدرب البلساني بخُطِّ عَتَبة الكتاب بدمشق، وسمى نفسه عماد الدين، وأحضر نصرانيًا له مال، وأوهمه هو والرسل أنه نائب قاضي القضاة المالكي بدمشق، وقال للنصراني: قد ثبت عندي أنك قلت لرجل مسلم أنك أخي وأنا أخوك ولا فرق بيني وبينك، وبمقتضى هذا القول تكون مسلمًا، وتَهَدَّده بالقتل، وتحدّث الرسل مع النصراني، وأشاروا عليه أن يعطيه مالاً، فتقررت الحال على ألف درهم ومائتي درهم عَجَّل النصراني منها ستمائة درهم، وأحضر شهودًا إلى باب الدار، وكتب عليه حجة بستمائة درهم، ورَفَع عنه الترسيم، فلما أطلق النصراني توجه إلى القاضي شمس الدين ناظر النظار، وأنهى له الصورة، وأحضر نائب قاضي القضاة المالكي، فلما رآه النصراني قال: ما هو هذا، ثم أحضر عماد الدين نائب قاضي القضاة الحنفي، فقال كذلك، فسيّر جماعة إلى الدار وهُجِمَت فمُسِك، وأحضر إليه والدراهم والحجة معه، فاستُنْقِذَ ذلك منه وأطلقه شمس الدين الناظر، فلما اتصل الخبر بمتولي دمشق اعتقله، وطالع نائب السلطنة بأمره، فرَسَم بضربه وضرب الرسل الذين اتفقوا معه على ذلك، وشَقِّ مناخيرهم، وإشهارهم على الحمر، ففعل بهم ذلك في يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول، واعتقلوا.

وفيها في يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى أنعم على الأمير علاء الدين ولد قاضي القضاة نجم الدين أحمد بن صَصْرَى(١) بإمرة عشرة طواشية بدمشق، ولبس التشريف في اليوم المذكور.

وفيها في شهر ربيع الأول دخل نائب السلطنة بدمشق الأمير سيف الدين تَنْكِز إلى المدرسة القَلِيجِيّة، وهي بجوار داره التي جدد عمارتها المعروفة بدار الفُلُوس فنظر إلى بيوت المدرسة، فرأى على بعضها أقفال حديد مغلقة على الأبواب، فسأل عن البيوت وهل هي للفقهاء؟ فقال قيم المدرسة: هذا البيت لفخر الدين بن شهاب الدين الحنفي، وهذه البيوت لجماعة آخرين ـ سماهم ـ لهم فيها قُماش وغيرُه، فطلب فخر الدين المذكور، وأنكر عليه كونه ضيّق على الفقهاء في مساكنهم مع استغنائه عنها، فقال: ما انفردت بهذا، وشمس الدين بن حُمَيد ـ رفيقي في ديوان الإنشاء ـ له

(١) هو أحمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن الحسن الربعي، ابن صصري، نجم الدين الدمشقي، توفي سنة ٧٢٣هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٨، شذرات الذهب ٦/ ٥٨، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٢٠، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٠، فوات الوفيات ١/ ١٢٥، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٣٢).

بيت بالمدرسة الغَزِيزية وجماعة غيره، فرسم نائب السلطنة لشادّ الأوقاف بطلب كل مَن أشغل بيتًا من بيوت المدارس وليس هو من الفقهاء، وتقويم أجرة البيت، وإلزامه بالقيام بالأجرة منذ أشغله وإلى ذلك اليوم، فأحضر شهود القيمة وقوّموا أجرة البيوت فأخذ من شمس الدين بن حميد ستمائة درهم، ومن شهاب الدين أحمد بن المُهَذّب ستمائة درهم وثلاثة عشر درهمًا، ومن أولاد عفيف الدين الحنفي أربعمائة درهم، وهؤلاء من الذين كان لهم بيوت بالمدرسة العزيزية، وأخذ من غيرهم.

وفيها في شهر رجب خُلِع ما كان بجامع دمشق عند قبر يحيى بن زكريا عليه السلام من الخشب بين العامودين وبين الحجارة، ورُخّم البناء المُجَدَّد من جهة القبلة، والتأم، وكتب بالرخام الأبيض بالرخام الأسود قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

وفيها في أول شهر رمضان رسم نائب السلطنة بدمشق أن يُوَسَّعَ طَرِيقًا سُوَيقة مسجد القَصَب خارج باب سلامة، وأن يُوَسّع من كل ناحية قدر ذراعين، فهدم في ثالث شهر رمضان ثم عُمر في مدة شهر، إلى أن انتهى العمل إلى خان دار الطُعم والمدرسة الزّنجيلية، ثم رسم في أول شوال بهدم مَساطِب حوانِيت القَوّاسِين لتوسيع الطريق، فهُدِمت من الجانبين، واستقرت الحوانيت بغير مساطب، وجلس أهلها داخل الدكاكين، فاتسع ذلك نحو أربعة أذرع، ثم رسم بعِمارة رُصْفان الكعبين وباب البريد، فحصل الرّفق بذلك للمارّة، ثم رسم بهدم جميع المساطب وبعض الحوانيت التي هي خارج باب الجابِيَة إلى قرب باب النصر لتوسعة الطريق، وهُدمت في يوم الثلاثاء رابع عشرين ذي القعدة، واستمر العمل فيها؛ فمنها ما أزيل بجملته، ومنها ما أزيل نصفه وبقي النصف، وبقي ذَرْع الطريق من عشرين ذراعًا إلى عشرة أذرع.

وفيها في يوم الاثنين خامس ذي الحجة رسم نائب السلطنة بدمشق بقتل الكلاب بدمشق وظواهرها، فقتل منها من بُكرة النهار إلى بعد العصر أكثر من خمسة آلاف ثم رُسم إلى متولي دمشق أن يبني مقبرة للكلاب في آخر الخندق ما بين الباب الصغير وباب كَيْسان، يفصل بينها بحائط، يكون أحد الموضعين للكلاب الذكور والآخر للإناث، فحصل الشروع في البناء في يوم السبت في العشرين من ذي الحجة إلى يوم الأحد ثامن عشرين للشهر، وجمعت الكلاب، وأنزلت في المكانين، فصار الذكور في خمسة ألايات في جهة، ورُسِم للنادشتية بإلقاء الجيف بعد سلخها فيها.

وفي هذه السنة في يوم الخميس رابع عشر المحرم توفي الشيخ الإمام العالم المفتي نجم الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ شمس الدين عَقِيل بن الخطيب

جلال الدين أبي الحسن بن عقيل البالسي[١]، نائب الحكم العزيز بمصر المحروسة، وكانت وفاته بالمدرسة الطَّيْبَرْسِية بمصر المحروسة وكان آخر ما تكلم به - فيما بلغني - «أنا عند ربي يطعمني ويسقيني»، وكان رحمه الله تعالى من العلماء العاملين، ولم يُخَلِّف دينارًا ولا درهمًا، ومولده في سنة ستين وستمائة.

وفيها في النصف من ليلة الخميس سابع المحرم توفي الأمير الكبير شرف الدين حسين بن الأمير سيف الدين أبي بكر بن إسماعيل بن جَنْدَربك الرومي[٢]، وهو من الأمراء مقدمي الألوف بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته بالقاهرة بالدار المعروفة بشاطىء، ودفن في يوم الخميس بتربته الملاصقة لجامعه بظاهر القاهرة بالحِكْرِ وهذا الأمير قدم من بلاد الروم في الدولة الظاهرية الرُّكْنية في سنة خمس وسبعين وستمائة، ولما مات أنعم السلطان على ابن أخيه بإمرة طبلخاناة بصَفَد المحروسة، وأنعم بإقطاعه وتقدمته على الأمير سيف الدين أَقْبُغا عبد الواحد رأس نوبة الجَمْدَارِيّة، وأنعم بإقطاع آقْبُغا على الأمير سيف الدين سُوسُون أخي الأمير سيف الدين قَوْصون.

وفيها في الساعة الحادية عشر من يوم الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الآخر توفي الأمير الكبير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي[٣] - الحاجب كان - رحمه الله بداره التي أكمل عمارتها خارج باب النصر المعروفة قبله بدار نهرداس، ودفن بتربته التي أنشأها الملاصقة لداره المذكورة في الساعة الأولى من يوم الأربعاء وكان قبل ذلك قد حَصَل له نَهَج[٤] إذا مشى في الخدمة السلطانية، فجمع جماعة من الأطباء لذلك وقالوا: إنه حدث من ريح مجاور للكبد، وعولج منه وبرأ، ثم عاوده، وحصل له دوخة في دماغه، فلما كان في يوم الخميس ثامن الشهر طلع إلى الخدمة السلطانية، فلما خرج من مجلس السلطان وهو يمشي في قلعة الجبل قريبًا من دار الأمير سيف الدين طُرْجي - والتي كانت دار عدل - حصلت له الدوخة، فسقط منها على الأرض، فاحتمل وأجلس على مسطبة ظاهر الدار المذكورة حتى سكن ما حصل له، وقام ومشى إلى ظاهر القلعة، وركب وعاد إلى داره، وعولج، ثم ركب إلى الخدمة السلطانية على عادته، وتوجه في خدمة السلطان إلى جهة القليوبية في يوم الاثنين

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، الدرر الكامنة ٤/ ٥٠، السلوك للمقريزي ٢/ ١٣٥، شذرات الذهب ٦/ ٩١.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٢١٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٦، الدرر الكامنة ٢/ ٥٠.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٨٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٨، السلوك للمقريزي ٢/ ٣١٥.

(٤) النَّهَجُ: الربو، وتواتر النفس من شدة الحركة.

ثاني عشر الشهر، وعاد في الخدمة في يوم الأربعاء رابع عشرة، فلما كان في يوم الجمعة سادس عشر الشهر المذكور واجتمعتُ به بعد صلاة العصر، وقد صلى وتوجه ليعود الأمير علاء الدين الجمالي لمرض حصل له، وعاد إلى داره فرأيته وهو يشكو من النَّهَج، واجتمع بعض الأطباء عنده، وشكا ذلك لهم، فَهوَّنوه عليه، وقالوا: إنه يزول.

وكان قبل ذلك قد نُقِبَت خزانته التي بداره من ظاهرها، وسُرِق منها ما يزيد على تسعين ألف درهم، وظهر ذلك في يوم السبت تاسع المحرم، فانزعج لذلك، واتهم جماعة بالمال، فطلبوا وعاقبهم متولي القاهرة، فأقرّ بعضهم على بعض مماليكه أنه عاملهم على ذلك، فحصل له من ذلك نكد كثير، فاجتمعت به في يوم الجمعة المذكور بهذا السبب، وكان لي عليه دالَّة كثيرة، فتحدثت معه فيما حدث له، وهَوَّنته عليه، وذكّرته بما ضاع له من الأموال الكثيرة قبل ذلك عند اعتقاله، وما له من البواقي الكثيرة عند من داينه ومات أو عجز عن القيام به، ولم أزلْ به إلى أن هوّنت له ما عدم له، وكان السلطان قد رسم له أن يعاقب خَزَنْداره بَخشي الذي أقرّ عليه الذين اتهموا وعوقبوا فسألته عنه، وقلت له: اتّهمه بالمواطأة على مالك، وتتهم غيره من مماليكه، وقال: لا والله هم برايا من مالي، ولا أتهِمهم بخيانة ولا مواطأة، قلت له: فإذن لا يجوز لك أن تعاقبهم، وإن فعلت أثمت، ولم أزل به إلى أن أشهدني على نفسه أنه ترك الحديث عن المال الذي عدم له، وأنه لا يطالب به، وأنه إن وجد يكون صدقة للفقراء أو لبيت المال، وقررت معه أن يسأل السلطان أن يفرج عن المعتقلين بسبب ماله، وفارقته على ذلك بعد أن توثقت منه أن يفعل ففعل، وأفرج عنهم في يوم السبت في سابع عشر الشهر، فلما كان في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر ركب إلى الخدمة السلطانية على عادته، فلما انتهى إلى سوق الخيل قال له الحاجب: رسم السلطان ألا تَتَكَلَّف الطلوع إلى الخدمة حتى تستقل من الضعف، فعاد إلى داره، وجلس، ومَدّ سِماطه على عادته، وأكل هو مما أشار به الأطباء، ثم اشتد به المرض في ليلة الثلاثاء، وتزايد في يوم الثلاثاء فمات رحمه الله تعالى، وكان من أجود الناس وأحسنهم لقاء لأصحابه ومعارفه، وتفقدًا لأحوالهم، وسؤالاً عنهم إذا حضروا إليه، وأكثرهم بذلاً بجاهه، لا يبخل به على أحد ممن يقصده، سواء كان قديم الصحبة أو حديثها، لكنه يرعى لمن يقصده حق قصده، وإذا طالت غيبة أحد أصحابه عنه ثم جاء إليه لا يجد مودته قد تغيرت عليه عما يعهد، بل يسأله عن حاله، ويظهر له البشاشة والبشر، وكان شجاعًا حسن الرأي، رحمه الله تعالى.

وكان هذا الأمير المذكور من جملة مماليك الأمير حسام الدين طُرُنْطاي المنصوري ـ نائب السلطنة كان ـ أخبرني عن نفسه أنه كان في صغره في جملة مماليك السلطان حسام الدين كَنْجِيز، وابن السلطان ركن الدين بلج أرْسلان السَّلْجُوقي صاحب الروم، فلما عبر السلطان الملك الظاهر إلى الروم، ودخل قَيْسارية كما ذكرنا في سابع عشر ذي القعدة سنة خمس وسبعين وستمائة، وفارقها السلطان غياث الدين كَيْخُسْرو والبرواناه إلى تَوْقات أخذ هذا الأمير في ذلك اليوم من جملة ثمانية عشر مملوكًا من مماليك السلطان غياث الدين، وعرضوا على السلطان الملك الظاهر فأمر بإرسالهم إلى الدِّهْلِيز السلطاني، قال: فسرقني الذي توجه بي، وباعني، ثم اشتراني الأمير حسام الدين طُرُنْطاي بعد ذلك، ولم يزل في جملة مماليكه إلى أن أعتقه، ولما قُتِل الأمير حسام الدين المذكور، كان الأمير سيف الدين بَكْتَمُر هذا عنده أمير آخور[١]، فانتقل إلى المملكة السلطانية الأشرفية، وجعله السلطان الملك الأشرف صلاح الدين[٢] في جملة أمراء آخورية في الإسطبل السلطاني، واستمر على ذلك إلى أن ملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، فأَمَّرَه بعشرة طواشية، ثم أَمَّره بطبلخاناة، وأقطعه إقطاع الأمير سيف الدين بَلَبان الأنصاري أمير النقباء، وقد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا تنقله في المناصب والولايات، وكان في الدولة الناصرية الثانية[٣] أمير آخور، ثم نقل إلى دمشق وأُمِّرَ بطبلخاناة بها، ثم ولي الحِجْبة بالشام، ونقل منها إلى أستاذ داريته وشادّ الدواوين، ثم أعيد إلى الشام، وحضر في ركاب السلطان في سنة تسع وسبعمائة إلى الديار المصرية المحروسة، ورسم له بتقدم العسكر بغزة في السنة المذكورة ثم نقل منها إلى الأبواب السلطانية، وولي الوزارة، وأُعطِيَ تَقْدِمة ألف وإمْرَة مائة في سنة عشر وسبعمائة، ثم نقل في سنة إحدى عشرة إلى الحجبة إلى الأبواب السلطانية، إلى أن قبض عليه، ثم توجه بعد الإفراج عنه إلى نيابة المملكة الصَّفَدِية، وأعيد إلى الأبواب السلطانية في سنة ثمان عشرة وسبعمائة،

(١) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الإصطبلات، وأهم العاملين في الإصطبلات هو المسؤول عن الأعلاف ويسمى «السلاخور» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٤٧، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص١١).

(٢) هو الملك الأشرف، صلاح الدين خليل بن قلاوون (انظر: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٨، السلوك ٢/ ٣١٤).

(٣) كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطنة في مصر في المرة الأولى سنة ٦٩٣هـ، وكانت ولايته الثانية سنة ٦٩٨هـ، وكانت ولايته الثالثة سنة ٧١٠هـ.

واستقر في جملة الأمراء المائة مقدمي الألوف، ورسم له بالجلوس في مجلس السلطان، فكان يجلس أخيرًا ثاني الميسرة، وقَرُب من السلطان قربًا كثيرًا، وكان يرجع إليه في أكثر ما يتحدث فيه.

ولما تمكن من السلطان بعد عوده من صَفَد أنهى له ما قدمنا ذكره من أخباره، وأنه كان من مماليك السلطان غياث الدين كَيْخُسرُو فأحضر السلطان قضاة القضاة إلى مخيمه وهو يتصيد بالقرب من طَنان وذلك في سنة [......][1] وسبعمائة، واستفتاهم في ذلك فأفتَوْه أنه بهذا الاعتبار باق على الرِّقّ لسلطان غياث الدين وذريته، فتَحَيَّلوا في ذلك، وفكروا في طريق يخلصه من الرق، فأبيع على الغائب، وأرث السلطان غياث الدين بإذن قاضي القضاة نور الدين الشافعي بمبلغ خمسة آلاف درهم، اشتراه ولدا الأمير حسام الدين طُرنطاي، وهما الأميران: ناصر الدين محمد وعلاء الدين علي بالثمن المذكور، وأنعم السلطان بالثمن من ماله، وأودع للغائب، وعَتَقاه، وجُدِّد نكاحه وأعتق ثانيًا جميع من كان أعتقه أولاً.

ولم يزل رحمه الله في الخدمة السلطانية على غاية الإكرام والقرب من السلطان وملازمته في أسفاره وصيده، ولو غاب يومًا واحدًا كان معه إلى أن مات رحمه الله تعالى، وأوصى بثلث ماله صَدَقَةً، وثبتت وصيته ونفذت، وخلف تركة جليلة، وأحسن السلطان إلى ورثته بعده؛ فأنعم على ولده الأمير ناصر الدين محمد بإمرة عشرة طواشية، وعمره يوم ذاك نحو ثلاثة عشرة سنة، وأنعم على ولده الأمير عبد الله بإقطاع، وعمره نحو خمس سنين، وعرض مماليكه، فنزل جماعة منهم في جملة المماليك السلطانية، وفَرَّق السلطان إقطاعه، فكمل منه للأمير سيف الدين طُرْغاي الجاشْنَكِير على ما بيده، فأكمل له مائة فارس، وقدمه على ألف، وأعطى جُوجَر للأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد وجعله شاد الدواوين، وأعطى الأمير سيف الدين طوسبون منه منية زِفْتَى، عوضًا عما ارتجعه من إقطاعه.

وفيها في سحر يوم الجمعة السابع من جمادى الأولى توفي الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد العلامة بُرْهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ الإمام العلامة تاج الدين أبي محمد بن عبد الرحمٰن بن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن سِباع بن ضياء الفَزاري

(١) بياض بالأصل.

البدري الشافعي المعروف والده بالفِرْكاح(١)، سمي كذلك لعرج كان برجله، وكانت وفاته بمنزله بمدرسة البادِرائِيَّة، وصلى عليه بجامع دمشق عقيب صلاة الجمعة، وكانت جنازته مشهودة، وصُلِّيَ عليه ثانيًا عند باب جامع جَرّاح، ومرة ثالثة عند باب التُّرْبة، ودفن بتربتهم بمقبرة الباب الصغير، ومولده بدمشق في شهر ربيع الأول سنة ستين وستمائة، ومحله من العلوم والزهد والنزاهة المحل الذي لا يُجْهَل، وامتنع من قبول قضاء القضاة بدمشق مرارًا، ولم يوافق على قبول الولاية، وله تصانيف في العلوم، وسمع من نحو مائة شيخ، منهم ابن عبد الدائم، وابن أبي اليُسْر، وحَدَّث بصحيح البخاري وغيره.

قال الشيخ علم الدين البِرزالي في تاريخه عنه: وله اختصاص بمعرفة الفرائض، وله فيها تصنيف، وله تعليقة كبيرة على كتاب التنبيه في عدة مجلدات، وله مصنفات صغار وأشياء مفيدة، وله مشاركة في معرفة الأصول والنحو، وله مصنف في المنطق، وغير ذلك.

قال: وطلبت من الشيخ كمال الدين بن الزَّمْلَكانِي أن يكتب لي ترجمته فكتب: هو إمام فاضل، وفقيه عالم، كثير الديانة غزير الفضائل، متقشف متزهد متورع متواضع حسن الصمت، لطيف الكلام، مُتَصَدٍّ للنفع والإفادة وشُغْل الطلبة وإفتاء المستفتين، وإرشاد الطالبين، تقدم في معرفة مذهب الشافعي ونقله، وأفتى ودرس في شبيبته، وعرضت عليه المناصب فأباها، وترك الخطابة بجامع دمشق بعد أن وليها وامتنع منها، وروجع في ذلك فلم يَقْبَل، وتصدّر ليلاً ونهارًا للإقراء والإفتاء، والجمع والإفادة، ملازم الخير وحسن الطريقة، متقللاً من الدنيا مُتَحَرِّزًا في فتواه، لا يفتي إلا فيما تحقق نقله، وإذا أفتى احترز وقَيّد ألفاظه، ولو بالقيود العامة، لئلا يكون عليه مطعن أو مأخذ، وكان بيده تدريس المدرسة البادِرائية، وليها بعد والده، واستقر بها،

---

(١) ابن الفركاح: هو إبراهيم بن تاج الدين عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء، برهان الدين الشافعي، المعروف بابن الفركاح الفزاري المتوفى بدمشق سنة ٧٢٩هـ، له من المصنفات: «الإعلام بفضائل الشام»، «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس»، «تعليقة الفوائد من تنبيه أبي إسحاق» في الفروع، «حل القناع في حل السماع»، «الرخصة العميمة في أحكام الغنيمة»، «رسالة في مسألة الخلع»، «شرح الألفية لابن مالك»، «شرح منتهى السول والأمل لابن الحاجب»، «الفتاوى»، «فضائل العشرة المبشرة»، «ما يفتقر ويحتاج إليه المعتمر والحاج في المناسك»، «مقاصد الحج والاعتمار على سبيل الإيجاز والاختصار»، «المنائح لطالب الصيد والذبائح» (انظر: كشف الظنون ١/ ١٤، المنهل الصافي ١/ ٨٠، الدرر الكامنة ١/ ٣٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٠٨، شذرات الذهب ٦/ ٨٨).

واقتصر على شرح واقفها، وإذا فرغ من تدريسه بها تصدّر في الجامع للإقراء والتعليم والفتوى، وإذا رجع إلى منزله عاوده الشغل والمذاكرة، ولم يزل هذا دأبه، انتهى كلام الشيخ كمال الدين فيه، رحمهما الله تعالى.

وفيها في ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخرة توفي القاضي معين الدين أبو المواهب هِبَةُ الله بن مُعِين الدين مسعود بن عبد الله بن أبي الفضائل أو المفضل حشيش[١]، صاحب ديوان الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته بالقاهرة بدار كان يسكنها برأس حارة الجُوجَرية، ودفن في يوم الاثنين بالقرافة الصغرى بتربة القاضي فخر الدين ناظر الجيوش، ومولده في أواخر شهور سنة ست وستين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى حسن المودة والمحاضرة والمذاكرة، وله شعر جيد ونثر، وكان كاتبًا أتْقَن صناعة كتابة التصرف، ما رأيت أجود من ذهنه وإتقانه وضبطه، سألته في سنة ست عشرة وسبعمائة عن بلدة تسمى (بَدَوَيْه) من أعمال الدقهلية والمرتاحية، لمن أقطعت في الرَّوْك الناصري[٢]، فذكر لي أنها كانت قبل الروك لسبعة من رجال الحلقة المنصورة، وسمى بعضهم، ثم ذكر من أقطعت باسمه في الرَّوْك الناصري من غير أن يكشف حسابه، فقلت له: أرني الحساب الذي يدل على هذا، وقصدت بذلك تحقيق نقله، فأخرج حسابه، فتأملته، فما وجدته أخلّ بشيء منه، حتى كأنه كان يشاهده، فعجبت من ذلك، وحكيته عنه رحمه الله تعالى، واشتغل بأنساب العرب، ونظر في التاريخ رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم السبت رابع عشر ذي القعدة ـ بعد أذان العصر ـ توفي قاضي القضاة شيخ المشايخ علاء الدين أبو الحسن علي بن الشيخ نور الدين أبي الفداء إسماعيل بن جمال الدين أبي المحاسن يوسف القُونَوِيّ التبريزي الأصل الشافعي[٣] قاضي القضاة بدمشق، وكانت وفاته ببستان بالسَّهْم ظاهر دمشق، وصُلِّيَ عليه بمصلى الجامع المُظَفَّرِي بكرة نهار الأحد، وأمّ الناس في الصلاة عليه الخطيب بدر الدين

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٠٤، السلوك ٢/ ٣١٥.

(٢) الروك الناصري: نسبة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد عمل الروك الناصري في سنة ست عشرة وسبعمائة ٧١٦هـ (صبح الأعشى ٣/ ٥٠١)، والروك في الأصل معناه مسح الأرض الزراعية في بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال، وهو المعبَّر عنه «بفك الزمام» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص٦٤).

(٣) انظر ترجمته في: (الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٦١، السلوك للمقريزي ٢/ ٣١٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، شذرات الذهب ٦/ ٩٠ ـ ٩١، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤ ـ ٢٨).

محمد بن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جلال الدين القَزْوِيني[(١)]، وحمل إلى تربة اشتراها له الأمير حسام الدين طُرُنْطاي البَشْمَقْدار الحاجب بمبلغ أربعمائة درهم بوصية منه أن يدفن في أرض لم يدفن فيها أحد، فاشترى له دارًا كانت لأولاد قَمَر الدولة، واحترقت لما دخل غازان الشام، فحُفِر له في وسط الدار، وله يومئذ نحو ستين سنة، فإن مولده بقُونِيَةَ في سنة ثمان وستين وستمائة تقريبًا، وقد ذكرنا من أخباره وحسن سيرته في ولاية قضاء الشام ما فيه كفاية، رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة السبت سادس ذي الحجة ـ بعد أذان العشاء الآخرة ـ توفي الرئيس الصاحب عز الدين أبو يَعْلَى حمزة بن الصدر الرئيس مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن الصدر عز الدين أبي غالب المظفر بن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن الرئيس العميد أبي يَعْلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي، المعروف بابن القَلانِسِيّ[(٢)]، مولده في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وستمائة، وكانت وفاته ببستانه بسفح جبل قاسيون، وصُلِّيَ عليه بمصلى الجامع المُظَفَّرِي، وأمَّ الناسَ في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام، ثم صلّي بعد ذلك عليه وأمّ الناس قاضي القضاة عز الدين الحنبلي، ودفن بتربة والده بسفح قاسيون.

وكان رحمه الله تعالى رجلاً دَيّنًا صَدْرًا جليلاً معظّمًا، لا يرتفع عليه أحد في المجلس، ولي وكالة الخواص السلطانية الملكية الناصرية في سنة سبع وسبعمائة، ثم ولي وزارة الشام كما تقدم، وانفصل منها، واستقر في ولاية الخواص، ثم انفصل من ذلك كله، وكان من أغنياء الناس وأكابرهم، وله عدة مماليك في جملة رجال الحلقة المنصورة الشامية، وكان رحمه الله تعالى حسن المودة، قدمت إلى دمشق سنة ثنتي عشرة وسبعمائة عند عودي من طَرابُلُس بعد وزارته، فجاءني للسلام علي، وكنت نزلت عند قاضي القضاة نجم الدين صَصْرَى[(٣)] بدار ابن عمه شرف الدين رحمهم الله، وأظهر الألم من كوني لم أنزل عنده، وعتب على أصحابي كونهم ما عرفوه قبل قدومي، ليتلقاني وينزلني عنده.

وفيها في يوم الخميس حادي عشر ذي الحجة توفي الصاحب ناصر الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن الشيخ

---

(١) ولد سنة ٧٠١هـ، وتوفي سنة ٧٤٢هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٧٥، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٩٦.

(٣) نجم الدين صصري: هو أحمد بن محمد بن سالم، نجم الدين بن صصري، تقدمت ترجمته.

فخر الدين محمد بن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف جد أبيه بابن حِنّا أحد وزراء الدولة الناصرية والده، ووزير الدولة الظاهرية الركنية جد أبيه، وكان يلقب بالصاحب، ولم يلِ وزارة ولا ما يقاربها، وإنما يلقب بذلك على عادة أسلافه، وكانت وفاته بداره ببركة الحَبَش، ودفن يوم الجمعة بالقرافة عند قبر والده رحمهما الله تعالى، وكان مباشر صِحابة ديوان الأحباس، باشر هذه الوظيفة لفاقة نالته، وحاجية مسته، والله أعلم.

* * *

واستهلت سنة ثلاثين وسبعمائة بيوم الأربعاء الموافق الثامن والعشرين من بابة من شهور القبط، والسلطان الملك الناصر يتصيَّد بجهة سَرْياقوس، وكان قد توجه لذلك من قلعة الجبل في يوم السبت السابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وعشرين وسبعمائة، ووصل إلى مُخَيَّمه المنصور الأمير سيف الدين تَنْكِز نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس، وكان وصوله في يوم الثلاثاء سلخ ذي الحجة، ثم وصل السلطان إلى قلعة الجبل في هذا النهار، وهو مستهل المحرم، وصحبته الأمير سيف الدين تَنْكِز، وقد لبس للتشريف على عادة، وأقام في الخدمة السلطانية يركب على عادة نواب السلطنة إلى بكرة نهار السبت الحادي عشر من الشهر، فتوَجَّه في خدمة السلطان إلى سَرْياقوس في بكرة يوم السبت المذكور، وتوجه منها إلى دمشق، واستمر السلطان بتلك الجهة إلى نهار الثلاثاء رابع عشر الشهر، فعاد إلى قلعة الجبل في هذا النهار، وأقام بها، ثم توجه أيضًا إلى سرياقوس، وعاد.

وأما الأمير سيف الدين تَنْكِز فإنه لما فارق الخدمة السلطانية عائدًا إلى الشام توجه إلى القُدْس الشريف وبلد الخَلِيل ـ صلوات الله عليه ـ فزار، وكان قد أنشأ مدرسة بالقدس الشريف، فشاهدها، ثم توجه إلى دمشق، فكان وصوله في يوم الجمعة رابع عشرين المحرم.

* * *

ذكر تفويض قضاء القضاة بالشام إلى القاضي علم الدين بن الإخنائي

لما اتصل بالسلطان ـ خَلَّد اللّه سلطانه ـ وفاة قاضي القضاة الشيخ علاء الدين القُونَوِيّ قاضي الشام، استشار فيمن يفوض إليه القضاء بالشام، فوقع الاختيار على قاضي القضاة علم الدين محمد بن القاضي زين الدين أبي بكر بن القاضي ضياء الدين

عيسى بن بدر بن رحمه السعدي الإخْنائِي[(١)] وكان يلي قضاء الإسكندرية، كما قدمناه، فطلب إلى الأبواب السلطانية، فحضر من الثغر في أوائل ذي الحجة سنة تسع وعشرين وسبعمائة، ففوّض السلطان إليه القضاء بالشام، وخلع عليه تشريف القضاة، وأنعم عليه ببغلة، وذلك في يوم السبت رابع المحرم من هذه السنة، وتوجه من القاهرة المحروسة على خيل البريد، في بكرة نهار السبت حادي عشر الشهر، صحبة نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تَنْكِز، ووصل معه لزيارة الخليل صلوات الله عليه والبيت المُقَدَّس، وألقى الدرس بمدرسة نائب السلطنة التي أنشأها بالقدس الشريف، ثم توجه إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الجمعة رابع عشرين المحرم، وقُرِىء تقليده في الشُبّاك الكمالي لجامع دمشق في يوم الجمعة مستهل صفر، وجلس لإلقاء الدروس بالمدرسة العادِليّة والغَزاليّة في يوم الأحد ثالث صفر من السنة.

وفيها في يوم الاثنين ـ سادس المحرم ـ توجه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر العلائي ـ أستاذ الدار كان ـ من الأبواب السلطانية إلى نيابة السلطنة. وتقدمة العسكر بغزة المحروسة عوضًا عن الأمير عز الدين أَيْبَك الجمالي، ونقل الجمالي إلى نيابة ألبِيْرَة بحكم وفاة نائبها الأمير حسام الدين لاجِين المنصوري الحسامي، ولما توجه الأمير سيف الدين بَكْتَمُر إلى غزة أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير سيف الدين بَهادُر الناصري، وهو من مماليك تَمُرْتاش بن جُوبان.

ذكر وصول الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل[(٢)] صاحب حماة إلى الخدمة السلطانية وتوجهه في خدمة السلطان إلى الصيد وعوده إلى حماة

كان وصوله إلى الأبواب السلطانية في يوم الاثنين العشرين من المحرم وخُلِع

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٣١٦، شذرات الذهب ٦/ ١٠٣، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٦٩، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٤٥، الدرر الكامنة ٣/ ٤٠٧.

(٢) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل: هو إسماعيل بن علي بن المظفر تقي الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، أبو الفداء الأيوبي الشافعي، صاحب حماه، ولد بدمشق سنة ٦٧٢هـ، ثم رحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر الذي أقامه سلطانًا مستقلاً على حماه، وهو مؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والفلسفة والطب، توفي سنة ٧٣٢هـ، له من المصنفات: «الأحكام الصغرى» في الحديث، «تقويم البلدان»، «كتاب الكناش»، «كتاب الموازين»، «كشف الوافية في شرح الكافية لابن الحاجب»، «المختصر في أخبار البشر» في التاريخ، «نظم الحاوي الصغير» في الفروع، «نوادر العلم». (انظر: كشف الظنون ١/ ٢١٤، الأعلام ١/ ٣١٩، فوات الوفيات ١/ ١٨٣).

عليه وعلى ولده في هذا اليوم قبل طلوعهم إلى الخدمة، فطلعا إلى الخدمة السلطانية وعليهما التشاريف، واستمرا في الخدمة السلطانية، وتوجَّها في خدمة السلطان إلى الصيد في الوجه القبلي، وكان استقلال الركاب السلطاني من قلعة الجبل في يوم السبت تاسع صفر، وأقام بمنزلة الأهرام بالجيزية إلى بكرة نهار الأربعاء ثالث عشر صفر، وعاد إلى قلعة الجبل.

وكان سبب عوده أنه حصل له في يده اليسرى دُمَّل صغير قلق بسببه، واشتد به الألم، فاقتضى ذلك عوده في هذا اليوم، وأقام بقلعة الجبل حتى فتح الدمل وبرىء منه، ثم توجه في يوم الخميس حادي عشرين الشهر إلى الأهرام، واستقل ركابه إلى الصيد المبارك بالوجه القبلي، فانتهى إلى ناحية «هُوْ والكوم الأحمر» وعاد إلى مكان وصوله - إلى قلعة الجبل المحروسة - في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر وقت الصلاة، والملك المؤيد وولده في خدمته، وفي يوم الاثنين ثامن الشهر خلع السلطان عليهما على عادة الملوك أصحاب حماة ورسم بعوده إلى مقر ملكه بحماة، فعاد في هذا اليوم بعد أن شمله الإنعام السلطاني على عادته.

ذكر توجه السلطان إلى الصيد وعوده
وسبب ما حصل في يده من التصدع ومعالجة ذلك وبرئه

لما عاد السلطان من الصيد بالوجه القبلي أقام بقلعة الجبل إلى يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الآخر، وتوجه في بكرة النهار إلى الصيد بالوجه البحري، ثم عاد في عشية نهار الجمعة.

وسبب عوده أنه تَقَنْطَر عن فرسه في يوم الجمعة المذكور، فانكسرت يده اليسرى، فعاد واستقر بقلعة الجبل، وعُولج وكان الأمراء يركبون في أيام المواكب إلى سوق الخيل، ويطلعون إلى الخدمة على العادة إلى أن ينتهوا إلى دركاة باب القلعة، ثم يُؤْمَروا بالانصراف، ولا يصل السلطان غير مماليكه الأمراء الخاصكية، واستمرت الحال على ذلك إلى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة.

وفي بكرة النهار جلس السلطان بالقصر الأبلق بقلعة الجبل، ودخل عليه أمير جاندار والحجاب، فخلع على أرباب الوظائف، وهم: الأمير ركن الدين بِيبَرْس الأحمدي أمير جاندار[1] ومن معه، والأمير سيف الدين أُلْماس الحاجب[2]، والأمير

---

(١) توفي سنة ٧٤٦هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٠٢).
(٢) توفي سنة ٧٤٧هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤١٠ - ٤١١).

علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي أستاذ الدار خِلَعًا كاملة بكَلُّوتات زَرْكش، وحوايص ذهب، وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والمماليك السلطانية، ثم جلس في يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة بالقصر الأبلق أيضًا جلوسًا عامًا، ودخل إلى الخدمة سائر الأمراء الأكابر مقدمي الألوف، وأمراء الطبلخاناة والعشرات، ومقدمي الحلقة وغيرهم، ولما عوفي السلطان استبشر الناس بذلك، وزُيِّنَت المدينتان زينة عظيمة في يوم الأحد رابع الشهر، ولازم الناس الأسواق ليلاً ونهارًا، ولم يقتصر في الزينة على قصبة المدينتين بل سائر الأسواق والقياسير وغيرها، وأنشئت كتب البشائر بعافية السلطان وصحته إلى النواب بسائر الممالك السلطانية، وتوجه بها الأمير سيف الدين آقْبُغا عبد الواحد الجَمَدار أحد الأمراء مقدمي الألوف، وكان توجهه بعد صلاة الجمعة تاسع الشهر، ووصل إلى دمشق في يوم الأربعاء رابع عشر الشهر، وتوجه منها إلى حلب وعاد.

وفي يوم الجمعة تاسع الشهر أيضًا حضر السلطان إلى الجامع بقلعة الجبل، وصلى الجمعة، وزفت البشائر بباب الإسطبل السلطاني، وعلى أبواب الأمراء بقلعة الجبل والقاهرة، واستمر ذلك إلى الظهر من يوم الأحد حادي عشر جمادى الآخرة، فرسم بإزالة الزينة والطبلخاناة، وكانت هذه الأيام المذكورة أيامًا مشهودة حتى غصت المدينة بالناس لكثرة الازدحام، حتى عجز الناس في بعض الأوقات عن المرور بقصبة المدينة، وكانوا يمشون في بطائن الأزقة.

ذكر إقامة الخطبة وصلاة الجمعة بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة المحروسة

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاثين وسبعمائة حضر الأمير جمال الدين أقش الأشرفي المنصوري المعروف بنائب الكَرَك، وهو أجل أمراء الدولة وأقربهم من السلطان مجلسًا إلى المدرسة الصالحية النجمية التي بالقاهرة بخُطِّ بين القصرين، وجلس بإيوانها القبلي، ومعه قاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي في جماعة من أعيان الفقهاء الأكابر، وأحضر منبرًا استجده، وأمر بنصبه بالإيوان القبلي المذكور من المدرسة المذكورة، وهو الإيوان الموقوف على طائفة الفقهاء الشافعية، فنُصِب، وأحضر دِكَّة يُقرأ عليها المصحف الشريف، ويُؤَذِّن عليه المؤذنون الأذان الثاني، ويُبَلِّغون عن الخطيب، وأقيمت الخطبة بها وصلاة الجمعة في يوم الجمعة حادي عشرين الشهر، خطب بها القاضي جمال الدين إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الغَزِّي.

ورتب الأمير المشار إليه من ماله في كل شهر ما يذكر، وهو للخطيب المذكور خمسين درهمًا، ولستة نفر من المؤذنين أحدهم يقوم أمام الخطيب لكل منهم عشرة دراهم، ولقارىء المصحف عشرة دراهم، ولفراشين لفرش الحصر في يوم الجمعة ورفعها بعد الصلاة خمسة وعشرين درهمًا، ولمن يحمل المصحف الشريف ثلاثة دراهم وثلث درهم، ولمن يَنْحَر يوم الجمعة ثلاثة دراهم وثلث درهم، ولسَقّاء يسقي الماء ثلاثة دراهم وثلث، ولخدام القبة الصالحية في كل سنة خمسين درهمًا، ولجماعة من التَّكْرُور بالمدرسة خمسين درهمًا في السنة.

ذكر إنشاء الخانقاة العلائية بالقاهرة

كان الأمير علاء الدين مُغْلَطاي الجمالي الناصري أستاذ الدار العالية قد أنشأ خانقاه قُبالة داره برأس دَرْب مُلُوخيا بالقاهرة المعزية، وكملت عمارتها في هذه السنة، وحصل الجلوس فيها في يوم الأربعاء السابع من جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعمائة.

ورتب المشيخة بها والتدريس للقاضي علاء الدين علي بن القاضي فخر الدين عثمان الماردِيني الحنفي المعروف والده بالتُّرْكُماني[(١)]، وشرط أن يجلس في أول النهار لإلقاء درس على مذهب الإمام أبي حنيفة، ويجلس بعد صلاة العصر هو وجماعة الصوفية، ورتب له في كل شهر عن المشيخة والتدريس ستين درهمًا، وثمن خبز ولحم أربعين درهمًا، ورتب بها عشرين من الصوفية، يحضرون الدرس لكل منهم في كل شهر واحدًا وعشرين درهمًا من ذلك جامكية سبعة دراهم ونصف، وثمن خبز ستة دراهم، وثمن طعام سبعة دراهم ونصف درهم، ورتب الواقف من فائض الوقف أحد عشر طالبًا لحضور الدرس خاصة، وجعل للمُنْتَهِي منهم في كل شهر عشرة دراهم، وللمُبْتَدِىء ثلاثة دراهم وما بين العشرة والثلاثة، ورتب أيضًا من فائض الوقف لخادم الفقراء في كل شهر تسعة دراهم، ورتب من أصل الوقف لإمام بالمكان في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتب لعشرة نفر من القُرّاء يقرؤون القرآن العظيم بالمدفن الذي أنشأه لنفسه لكل منهم في كل شهر عشرة دراهم، شَرَط في كتاب الوقف أربعة، وزاد من الفائض ستة، ورَتَّب لهم أن يقرؤوا في الأوقات التي تذكر: عند طلوع الشمس نفرين، وبعد صلاة الظهر ثلاثة، وبعد صلاة المغرب نفرين، وبعد صلاة

(١) علاء الدين ابن التركماني: ولد سنة ٦٨٣هـ، وتوفي سنة ٧٥٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٨٤).

العشاء نفرين، ولوظيفة الصوفية قارئًا، ورتب لقارىء الميعاد في كل شهر عشرة دراهم، ومن الفائض درهمين، ورتب للمؤذنين في كل شهر أربعين درهمًا، ولخادم زمام بالمدفن في كل شهر خمسين درهمًا ولفراش في كل شهر عشرين درهمًا ومن الفائض عشرين درهمًا في الشهر، ورتب لمن يتولى المِزْوَلة[١] في كل شهر من الفائض عشرة دراهم، ورتب للبواب في كل شهر عشرين درهمًا، وللقَيِّم عشرين درهمًا، وللسَّوّاق في كل شهر عشرين درهمًا، ورتب زيتًا برسم الوقود في كل شهر خمسين رطلاً، ورتب مكتب سبيل فيه عشرون نفرًا من الأيتام رتب لكل منهم في كل يوم ثمن درهم يكون في كل شهر ثلاثة دراهم ونصف وربع درهم، ورتب لهم كسوة في فصل الشتاء والصيف، لجميعهم ستمائة درهم، وثمن أدوية ومِداد في كل شهر درهمًا ونصف، ورتب غير ذلك ممّا يحتاج إليه المكان في كل شهر ثمن مُشاق للفَتايِل ثلاثة دراهم، وثمن عبي لمسح الرخام ومكانس ثلاثة دراهم، وغير ذلك من عُلُوفة ثور الساقية وثمن طونس وقواديس، ورتب في السنة لمَلْو الصَّهْرِيج من الماء العذب، وأجرة غسله، وثمن أضحية مائة درهم، وثمن حلوى في شهر رمضان خمسين درهمًا، وثمن زيت زيادة في شهر رمضان، وثمن قناديل مائة درهم، ووقف على ذلك من أملاكه ما يقوم به وزيادة، أثابه الله تعالى.

ذكر وصول رسل ريدافرنس إلى الأبواب السلطانية

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل ريدافرنس فِلِيب[٢] ـ بالفاء وبعدها لام وياء مثناة من تحت وآخره باء ـ وهو صاحب فرانسة، وانتهت بهم سفنهم إلى ميناء عَكّا من الساحل الشامي، وكان وصولهم إليها في يوم الخميس خامس عشرين ربيع الأول، وعدتهم مائة وعشرون نفرًا، ومثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة، وكان قد جلس بالإيوان جلوسًا عامًا، وذلك بعد صحته مما كان حصل له.

وكان مضمون رسالتهم ـ فيما قيل ـ طلب بلاد الساحل الشامي والبيت المقدس، فأنكر السلطان عليهم وعلى مرسلهم، وأهانهم ورَتَّب لهم في كل يوم مائة

(١) المزولة: هي الساعة الشمسية التي يُعيَّنُ بها الوقت بظلّ الشاخص الذي يثبّت عليها، جمعها: مزاول.

(٢) ريدا فرنس فليب: المقصود به بالفرنسية: «Roi de Franc» أي ملك فرنسا، وفليب هو فيليب السادس، ملك فرنسا ما بين سنة ١٣٢٨م ـ ١٣٥٠م.

درهم وخمسين درهمًا، زيادة على ذلك، ثم استحضرهم ثانيًا في يوم الخميس بدار العدل، ورسم بعودهم.

ذكر الإفراج عن الأمير سيف الدين بَهادُر

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعمائة أمر السلطان بالإفراج عن الأمير سيف الدين بَهادُر المُعِزِّي[١]، وهو من المماليك المنصورية الحسامية، وكان قد اعتقل ـ كما ذكرنا ـ في يوم السبت العاشر من شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وسبعمائة، فكانت مدة اعتقاله خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يومًا، وأنعم عليه بإقطاع الأمير سيف الدين سَنْجَر الجمَقْدار أحد أمراء المائة ومقدمي الألوف، إلا أنه اختصر من إقطاعه صَنَبُو من الأعالي أضيفت إلى الخاص السلطاني، «وبِجام» من القليوبية أعطيت للأمير سيف الدين بَهادُر الناصري التَّمُرْتاشي زيادة على ما بيده، وتوجه الأمير علم الدين سَنْجَر الجمقدار إلى دمشق على إقطاع الأمير سيف الدين بَهادُر آص المنصوري[٢] على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

ذكر وصول رسل الملك أبي سعيد

وفي هذه السنة في يوم الخميس العشرين من شهر رجب وصل إلى الأبواب السلطانية رسل الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا، والمشار إليه منهم الأمير حمزة، فمثلوا بين يدي السلطان في يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر، وأجراهم السلطان على عوائدهم في الإنعام والتشاريف.

وبلغنا أن مضمون رسالتهم السلام على السلطان، وتهنئته بالعافية والسلامة، وغير ذلك من الكلام المحبب للخواطر المستميل للقلوب، وعاد إلى مرسلهم في يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر المذكور، وتوجه لوداعهم الأمير سيف الدين أَيْتَمُش المحمدي، فوصلهم إلى قَطْيا، وعاد.

ووصل قبل توجههم إلى الأبواب السلطانية رسل نائب الملك أبي سعيد الشيخ حسن الجلايري، فأُخِّروا عن المثول بين يدي السلطان إلى يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر بعد رحيل الأمير حمزة، ومثلوا بين يدي السلطان يوم الخميس

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٤٠، ١٠٢، السلوك ٢/ ٣١٩.

(٢) توفي سنة ٧٣٠هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٩٧).

السابع والعشرين من الشهر في اليوم المذكور، وأدوا الرسالة، وخلع عليهم دون عادة رسل الملك، وأعيدوا إلى مرسلهم.

وفيها في شهر رجب احترقت كنيسة النصارى المَلْكيين(١) التي بمصر حريقًا عظيمًا، وصار بعض عواميدها الرخام جيرًا لشدة الحريق، وكان بجوار الكنيسة مسجدان لم ينلهما من النار شيء، ثم رسم بإعادة الكنيسة المذكورة، فأعيدت.

وفيها في يوم الأربعاء ثالث شعبان فوّض السلطان قضاء ثغر الإسكندرية للقاضي علم الدين صالح بن القاضي المرحوم نجم الدين عبد القوي الإسنائي، وكان قبل ذلك يلي قضاء الأعمال الغربية نيابة عن قاضي القضاة جلال الدين القَزْويني، فلما شَغَر ثغر الإسكندرية عن القضاء عند انتقال قاضيه علم الدين بن الإخنائي إلى دمشق - كما تقدم - عين السلطان لقضاء الثغر القاضي العالم شمس الدين محمد بن عَدْلان الشافعي، فامتنع من قبول الولاية، واستعفى، واعتذر بضعف، فأجيب إلى الإعفاء، وعين جماعة وعرضوا على السلطان فلم يول أحدًا منهم، وعَيَّن القاضي علم الدين المذكور، فطلب من مدينة المحلة - وهي كرسي الغربية - في يوم الخميس السابع والعشرين من رجب، فحضر إلى الأبواب السلطانية في يوم الأحد سلخ الشهر، ومثل بين يدي السلطان في يوم الأربعاء المذكور، وشافهه بالولاية، وشمله الإنعام بالتشريف الصوف والطِّرحة - على عادة القضاة - في يوم الاثنين ثامن الشهر، ومثل بين يدي السلطان ثانيًا في يوم الثلاثاء، وتوجه إلى الثغر، ووصل إليه في يوم الثاني والعشرين من شعبان، ولم تطل مدة إقامته بالثغر، فإنه عزل عن القضاء في يوم الاثنين ثاني عشر شوال منها.

وفيها في يوم الجمعة حادي عشري رمضان أقيمت الخطبة بالجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين قَوْصُون الناصري خارج بابي زُوَيْلة بالشارع الأعظم بجوار حمامي قاتِل السَّبع بخُطِّ حوض ابن هِنّس وولي خطابته القاضي فخر الدين محمد بن يحيى بن

---

(١) النصارى الملكيون: أو الملكانيون: طائفة مسيحية من الطقس البيزنطي، سمُّوا بالملكيين لأنهم أيّدوا قرار خلقيدونية سنة ٤٥١م ضد بدعة أوطيخا المونوفيزية، ومنهم الروم الكاثوليك الذين يعترفون برياسة بابا روما، والأرثوذكس الذين لا يعترفون بهذه الرياسة (الموسوعة العربية الميسرة ص١٧٤٢).
وفي صبح الأعشى ١١/٣٨٧: النصارى الملكية هم أتباع ملكا (المقصود الملك مرقيانوس) الذي ظهر قديمًا ببلاد الروم، وأن الروم والفرنج كلهم أتباعه، وبالديار المصرية منهم النزر اليسير، ولهم بطرك يخصهم.

مِسْمار المعروف بابن شُكْر[١]، ولم يخطب به في هذه السنة، بل خطب قاضي القضاة جلال الدين القَزْوِيني الشافعي، ثم استمر خطيبه المذكور في الخطابة.

وفيها في يوم الاثنين تاسع عشر شوال وصل إلى الأبواب السلطانية رسل متملك اليمن، وهو الملك المجاهد سيف الإسلام علي بن الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود بالهدايا والتحف، ومن جملتها فيلان، فقبلت هدية مرسلهم، وحصل الإنكار الشديد عليه وعليهم، فإنه اتصل بالسلطان أن ملك مدينة دهلي وبلاد الهند أرسل إلى السلطان هدية عظيمة لم يرسل مثلها لملك قبله، وأنها لما وصلت إلى ثغر عَدَن قُتِل الرسول باتفاق من الملك المجاهد ووزيره، واستولى الملك المجاهد على الهدية بكمالها، وأن الذي أهداه الملك المجاهد إنما هو شيء يسير من جملتها، فغضب السلطان لذلك، وأمر باعتقال رسله وخاله، وهو ابن النَّقّاش، واعتقلوا مدة، ثم أفرج عنهم بعد ذلك، والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خبر يوسف الكيماوي ومقتله

وفي هذه السنة في يوم الخميس سابع عشر شهر رمضان وصل إلى الأبواب السلطانية إنسان اسمه يوسف الكَرَكِي، ويعرف جوك من جهة نائب السلطنة الشريفة بالشام، وهو من مسالمة نصارى الكَرَك، كان يَدَّعِي أنه وصل إلى علم الكيمياء، واشتهر أمره بالشام، واتصل ببعض الأمراء، وهو بَهادُر التَّقوى الجُمَقْدار[٢] بدمشق، وتحيَّل عليه، وأخذ منه جملة من المال، وتنقّل في مدن الشام وقراها، وتحيّل على أهلها، وأفسد عليهم أموالهم، واعْتُقِل بقلعة صَفَد مدة، ثم أُفرج عنه، وعاد إلى دمشق، وسلك طريقه، فانتهى أمره إلى نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنْكِز، فأحضره، واتضح له حاله، فهَمَّ بقتله وإعدامه، فقال له: أرسلني إلى السلطان فإنني إذا وصلت إليه ملأت له قلعة الجبل ذهبًا وفضة، فجهزه إلى الأبواب السلطانية، فوصل في التاريخ المذكور، ومثل بين يدي السلطان، وادَّعى أنه يعرف صناعة الكيمياء، فسلّمه إلى الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي، فتحيل، ودَاكَ شيئًا من الفضة الحَجَر، وألقى عليه الزِّئْبَق فصعد الزئبق واستقر ما كان داكه فلم يشك السلطان في صدقه، وخلع عليه خلعة سنية، وطلب من السلطان فضة مصفاة مشحرة، وذهبًا

---

(١) توفي سنة ٧٤٣هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٦٣٨).

(٢) الجمقدار: هو حامل الدبوس، ويسمّى: العامود، وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة ومن في معناه (صبح الأعشى ٢/ ١٥١).

أفلوريًا[1]، وزئبقًا، فطلب الزئبق من القاهرة ومصر والإسكندرية، واستنفد جميع ما عند الناس من الزئبق، وأخذ جملة من الذهب، وأحضر إلى السلطان ألف دينار، وادّعى أنها من صنعته، فأنعم عليه بها، وخلع عليه خلعة سنية، وأنعم عليه بفرس بسرج ولجام وكَنْبُوش حرير، وبقي يَعِد ويُمَنِّي، ثم رجع إلى الكَرَك على خيل البريد لإحضار حشائش، فتوجه وصحبه من يحفظه، وعاد وقد ظهر للسلطان كذبه، فضَيَّق عليه فتحيل وهرب في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، فخرج السلطان لذلك، وشدّد على الولاة في طلبه، فنودي عليه في المدينتين، وكتب إلى الوجهين - القبلي والبحري - بطلبه حيث كان، وكتب إلى الشام بطلبه، وإلى سائر الجهات، فقبض عليه في ذي الحجة من السنة بمدينة أخميم من الصعيد، وجهز إلى الأبواب السلطانية، فوصل في يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة والسلطان بالميدان، فسأله عن المال الذي أخذه، فقال: المال راح، فرسم بضربه، فضرب ضربًا شديدًا، وحمل في قفص إلى خزانة شمائل، فاعتقل بها ومات في ليلة الأحد خامس عشري ذي الحجة، فرسم السلطان بتَسْمِيره، فسُمِّرَ في عشية نهار الأحد المذكور بعد أن مات وورم، وبات ليلة الاثنين على خشب التسمير، وحمل في يوم الاثنين على جمل شق به المدينة إلى باب النصر ودفن. هذا ما كان من أمره.

وفي هذه السنة في ذي القعدة أمر السلطان بإخراج المَجْذُومين والبَرْصَى من القاهرة ومصر إلى بلدة من أعمال الفيوم، فجمعوا، واعتقلوا حتى كملوا، وأخرجوا في ليلة السبت سادس عشر الشهر، فوصلوا إلى تلك القرية، وهي خراب لا ساكن بها، فتفرقوا في البلاد، ثم عاد بعضهم إلى القاهرة ومصر، وسكن أمرهم، والله تعالى أعلم.

ذكر الفتنة بمكة شرّفها الله تعالى

وفي هذه السنة في يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة وقعت الفتنة بمكة - شرّفها الله تعالى - وسبب ذلك: أن الحاجّ لما قَضَوْا مناسك الحج توجه بعضهم عائدًا إلى الديار المصرية، منهم الأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي، ومن صحبه في يوم الأربعاء ثاني عشر الشهر، وتأخر أمير الركب، وهو الأمير سيف الدين خاص تُرك الجَمَدار الناصري، والأمير سيف الدين الدَمُر أمير جانْدار، والأمير شهاب الدين أحمد، ومن معهم من بقية الحاج، لصلاة الجمعة بمكة، فلما كان الخطيب على المنبر تَعَبَّث

(١) ذهب أفلوريا: نسبة إلى مدينة «Florino» الإيطالية.

بعض عبيد الأشراف ببعض حاج العراق، الذين حضروا في الركب العراقي، وتخطفوا شيئًا من أموالهم، والشريف عُطَيْفة بن أبي نُمَيّ أمير مكة جالس إلى جانب أمير الركب، فاستصرخ الناس، واستغاثوا بالأمير سيف الدين الدَمُر أمير جاندار، فنهض وتقدم لمنعهم، وتقدمه ولده خليل وضرب بعض العبيد، فطعن بحربة، فمات، فاحتدّ والده، وبادر لطلب ثأره، فقُتِل أيضًا بحربة، وقتل معه أحد أولاد الأمير ركن الدين بِيبَرْس التاجي ـ متولي القاهرة كان ـ فوثب الأمير عُطَيْفة، وجرد سيفه، وتوجه نحو العبيد ليردهم، فلم يصنع شيئًا، وظهر من ذلك أن إثارة هذه الفتنة كان برأيه وأمره، وذكر أن الذي قتل الدَمُر هو مبارك بن عُطَيْفة، وثارت الفتنة، فعجل الخطيب الصلاة، وخرج الناس من المسجد الحرام إلى رحالهم وخيامهم، واستحل الحرم في هذا اليوم، وتلطف أمير الركب في الخروج بالناس إلى خيامهم، ووقف في وجوه القوم من الأشراف والعبيد، فمنعهم من التعرض إلى الحاج، ومن غريب ما وقع في هذه القضية أنه شاع بالقاهرة المعزية الخبر بقتل الْدَمُر في يوم مقتله وهو يوم الجمعة المذكور، وسمعت أنا بعض الناس يتحدث بذلك بعد صلاة العصر من يوم الجمعة المذكور ورَدَدْت القول على ناقله.

وكان الركب العراقي قد حضر في هذه السنة إلى مكة شرّفها الله تعالى وأحضر متوليه المندوب من جهة الملك أبي سعيد بن خَرْبَنْدا معه فِيلاً صغيرًا، وشهد به الموقف بعرفة، فتطاير الناس، وتشاءموا بمقدمه، وقال بعضهم: «هذا عام الفيل» فوقع ما وقع، فلما رجعوا به، وقربوا من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وانتهوا إلى الفَرْش الصغير قبل البيداء الذي ينزل منها إلى ذي الحُلَيْفة، وقف الفيل وتقهقر، وكلما أرادوه على التقدم تأخر، فضربه المُوَكَّلون به، وبقي يرجع إلى ورائه القهقرى، فلم يزل على ذلك إلى أن سقط على الأرض ميتًا، وذلك في يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة، ويقال: أنه صرف على كلفة هذا الفيل منذ جُهِّزَ من العراق إلى أن مات زيادة على ثلاثين ألف درهم، وما علم مقصد الملك أبي سعيد في إرساله إلى مكة شرّفها الله تعالى.

ذكر متجددات كانت بدمشق المحروسة في سنة ثلاثين وسبعمائة مما نقلته من تاريخي البِرْزالي، والجَزَري

في هذه السنة في مستهل شهر ربيع الأول حضر نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تَنْكِز إلى الجامع الأموي بدمشق وصُحبته قاضي القضاة علم الدين

الشافعي، وشاهد الجامع، فاقتضت الآراء أن ينقض الرخام القائم بالجدار القبلي من الجهة الشرقية ومحراب الصحابة، وأن يجدد بشَبَه الجهة الغربية، فحصل الشروع في ذلك، وكمل في أواخر ذي الحجة من السنة، وصرف على العمارة من فائض وقف الجامع، فإنه كان قد تَحَصّل به بعد كُلَفِه ونفقاته ـ فيما قيل ـ نحو خمسة وسبعين ألف درهم.

وفيها ـ في مستهل ربيع الآخر ـ حصل بدمشق اضطراب بسبب الذهب، وأن عياره قد تغير ونقص، فأحضر محمد بن اليَخْشُور ضامن دار الضرب بدمشق، والصَّيْرَفِي، وعلق الذهب، فنقصت المائة دينار خمسة عشر دينارًا، ووجدت عدة سكك متقدمة التواريخ وأسماء الملوك، ونسب ذلك إلى أن القاضي شمس الدين عبد الله غبريال ناظر الشام أمر بذلك، وصرف منه جملة كبيرة خارج دار الضرب، وخرج ما صرف من الذهب وسافر به التجار والعربان والتركمان الذين يجلبون الأغنام من بلاد الشرق وغيرها إلى سائر الأمصار، فاضطرب الحال في ذلك اضطرابًا شديدًا، وبقي ما يوجد من هذا الذهب يصرف في القاهرة من ثمانية عشر درهمًا الدينار إلى أحد وعشرين درهمًا، وصرف الدرهم الجيد بخمسة وعشرين درهمًا.

وفيها في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، أصبح الناس بدمشق فوجدوا الأنهار قد امتلأت ماء متغير اللون من غير سبب ظاهر لهذه الزيادة، فسُقِيَت البساتين والزراعات، واستمر ذلك إلى يوم الأحد سابع الشهر، ونقص قليلاً، وكان المطر في هذه السنة قد تأخر بدمشق، فأمطرت في ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر مطرًا خفيفًا، وفي ليلة السبت، ثم حصل الغيث الكثير في ليلة الأحد سابع الشهر، وذلك في آخر كانون الثاني، وفيها ـ في جمادى الآخرة ـ كملت عمارة مصلّى العيدين بظاهر دمشق، وتجديد سقوفه وبياضه وإصلاح أبوابه، وكان قد تداعى، فرسم السلطان بعمارته، فجُدِّد، وصلّى خطيبه في صدره، وخطب في يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وكان في مدة العمارة يخطب ويصلي الجمعة بظاهره، وجعلت أبوابه أحد عشر بابًا جدد الآن منها سبعة، وكانت أبوابه مرتفعة بثلاث درجات بنيت كذلك خوفًا من عبور الدواب إليه فألصقت الآن بالأرض، وفيها في العشر الأوسط من شهر رجب ذكر الدرس بمحراب الحَنَفِيّة بجامع دمشق، ودرس به الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق الحنفي، ورتب معه عشرة فقهاء، والذي رتبه القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش، وكان قد رتب قبله درسًا للمالكية في محراب الصحابة الذي استقر محراب المالكية، وفوض تدريسه لقاضي القضاة شرف الدين المالكي، ورتب فيه جماعة من الفقهاء المالكية.

وفيها - في يوم الخميس ثامن عشر شعبان - رسم نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تَنْكِز بإخراب الحوانيت والبيوت التي بظاهر دمشق المجاورة لباب النصر من حد الجسر إلى المسجد الذي في وسط الطريق، فهدمت، وأخرجت أخشابها وصارت الأبنية كومًا، ثم أحضرت الأنفار والجراريف ومهدت أتربتها حتى تساوت بالأرض، ومرّ نائب السلطنة المذكور أيضًا في هذا اليوم بالحويرة بالقَوّاسين، فوصل رأسه إلى السقف، فرسم بإخراب السقف ورفعه، فقيل له: إن الأرض قد علت، فرسم أن تحرث الأرض، وينقل التراب منها، ففعل ذلك.

وفيها - في يوم السبت رابع شوال - رسم نائب السلطنة بتوسعة الطريق بسوق الخَوّاصين، وندب لذلك شادّ الدواوين، ومتولي دمشق، وناظر الحِسْبة، فهدمت مساطب الحوانيت بالجانبين، وجعلت كل مسطبة منها قدر ذراع واحد ونصف بالقاسمي، فاتسع الطريق لذلك.

ورسم أيضًا في يوم السبت سابع عشر شوال بإخراب الجانب القبلي من سُوَيْقة دار بطيخ، لأجل توسعة سوق الخيل، فأخرب ذلك وهو نحو عشرين حانوتًا، ومُهِّد ترابه بالأرض.

وفيها - في يوم الأربعاء تاسع عشرين شوال - حكم قاضي القضاة شرف الدين المالكي بإراقة دم نصراني كان أسلم ثم ارتد، فضربت عنقه بسوق الخيل بدمشق، ثم حرقه العوام بالنار حتى صار رمادًا، وذُرِّي رَماده بنهر بَرَدَى.

وفي هذه السنة توفي القاضي علاء الدين علي بن القاضي تاج الدين أبي الطاهر أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي(١) - صاحب ديوان الإنشاء السعيد كان - وكانت وفاته في بكرة نهار الأربعاء خامس عشر المحرم بداره بالقاهرة بجوار الجامع الأزهر، ودفن في يوم الخميس سادس عشر الشهر، وكان قد مرض وحصل له فالج، واشتد به الأمر، وتزايد به المرض إلى أن عجز عن الحركة والنطق وتحريك شيء من أعضائه، وعطل عن المباشرة - كما تقدم - فلزم داره في يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة تسع وعشرين، فكانت مدة انقطاعه سنة كاملة، وولي صحابة ديوان الإنشاء في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وسبعمائة، فكانت مدة ولايته ثماني عشرة سنة وأيامًا، رحمه الله تعالى.

---

(١) ولد سنة ٦٨٠هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ٣٢٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٣، الدرر الكامنة ٣/ ١٤ - ١٥).

وتوفي ليلة الأحد الثاني عشر من المحرم الشيخ العالم الفاضل الوزير أبو القاسم محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن سهل بن أحمد بن سهل الأزدي الغَرْناطِي الأندلسي(١) بالقاهرة عند مقدمه من الحج، ودفن بمقبرة باب النصر، ومولده يوم عرفة سنة اثنتين وستين وستمائة، وهو من بيت كبير مشهور بالرياسة والملك، وله اشتغال بالعلم، ورغبة في طلبه. رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ فخر الدين عثمان بن الشيخ جمال الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري(٢) جده، وهي نسبة إلى الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب كان، فإنه عتيقه، وكانت وفاته في ليلة الخميس سادس شهر رجب، ودفن من نهاره عند قبر والده بتربة الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الساقي العزيزي، ومولده في تاسع عشرين المحرم سنة سبعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الصدر الفاضل ناصر الدين شافع بن نور الدين علي بن الفقيه عماد الدين أبي الفضل عباس بن إسماعيل بن عساكر بن شافع بن رافع بن عبد الله بن فارس الكناني العسقلاني(٣) سبط الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر، وكانت وفاته في ليلة الأربعاء رابع عشرين شعبان المكرم سنة ثلاثين وسبعمائة، ومولده في ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وأربعين وستمائة، وكان قد أُضِرَّ عقيب وقعة حمص، أصابه سهم في رأسه من التتار فانصب من دماغه إلى عينيه ما أعماه. رحمه الله تعالى.

وتوفي الصدر نور الدين علي بن شرف الدين يوسف بن مظفر الدين مجاهد مشارف الكَحّالين بالأبواب السلطانية، وكانت وفاته في ليلة الخميس ثامن شوال، ودفن يوم الخميس ثامن شوال بتربته بالقرافة، ومولده في سنة ثلاث وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الصاحب سعد الدين محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عطايا(٤) في يوم السبت بعد صلاة العصر السابع والعشرين من شهر رمضان، ودفن بالقرافة في يوم الأحد، وكان إذ ذاك يتولى نظر الأحباس، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١/٢٣٦، الدرر الكامنة ٤/١٧٨ ـ ١٧٩، السلوك للمقريزي ٢/٣٢٧.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٤٢٦.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/١٨٤، السلوك ٢/٣٢٧.

(٤) انظر ترجمته في: السلوك ٢/٣٢٧، الدرر الكامنة ٤/١٨٧.

وتوفي بدمشق الأمير الكبير سيف الدين بَهادُر آص المنصوري في تاسع عشر صفر، وكان من الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالشام، وهو أكبر أمراء الشام تأمّر في الدولة المنصورية السيفية، وصّلي عليه بجامع دمشق ثم صلّي عليه مرة ثانية بظاهر البلد، ودفن بتربته التي أنشأها ظاهر باب الجابية رحمه الله تعالى، ولما مات أنعم السلطان بإقطاعه على الأمير علم الدين سَنْجَر الجُمَقْدار المنصوري، وهو من أكابر أمراء الدولة مقدمي الألوف ممن يجلس في مجلس السلطان، وتوجه إلى دمشق في يوم السبت السابع والعشرين من شعبان.

وتوفي بدمشق أيضًا الأمير سيف الدين بَلَبان المعروف بالكَرْكَنْد، من مقدمي الألوف بالشام، وأنعم بإقطاعه وتقدمته على الأمير سيف الدين طيبغا حاجي ووصل إلى دمشق في يوم السبت سابع عشرين شعبان.

وتوفي شيخنا المُعَمَّر المحدّث شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن نعمة الصالحي الحجار المعروف بابن الشِّحْنَة(١) قبيل العصر من يوم الاثنين خامس عشرين صفر سنة ثلاثين وسبعمائة بقاسيون، وصلّي عليه يوم الثلاثاء بالجامع المظفري عقيب صلاة الظهر، ودُفن بتربته بقاسيون، وكان قد تفرّد برواية صحيح البخاري، فإنه سمع على ابن الزبيدي في سنة ثلاثين وستمائة، وكان يقول: كنت أنصرف من السماع على ابن الزبيدي، وأسبح في نهر لورا مع الصبيان، وذكر أن مولده في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأخبر عن نفسه أنه يذكر وفاة الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، وكانت وفاة المعظم في سلخ ذي القعدة أو مستهل ذي الحجة سنة تسع وعشرين وستمائة، وحدّث هذا الشيخ أيضًا بغير البخاري سمعت عليه صحيح البخاري، في سنة خمس عشرة وسبعمائة، ومُتِّعَ بحواسه إلى حين وفاته، وكان قوي التركيب، وتزوج قبيل وفاته ببكر، وافترعها. رحمه الله تعالى.

وتوفي بحلب قاضي القضاة فخر الدين عثمان ابن القاضي كمال الدين محمد بن قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن المسلم هبة الله بن البارِزِي الجُهَنِي الشافعي(٢) فجأة، وكان يُعَلِّم على كتاب، فسقط القلم من يده، واستند إلى الحائط فمات وقت العصر من يوم الأربعاء العشرين من صفر، وصلّي عليه بكرة الخميس، ودُفن داخل المقام وكان رحمه

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، السلوك ٢/ ٣٢٦، الدرر الكامنة ١/ ١٤٢.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك ٢/ ٣٢٥، شذرات الذهب ٦/ ٩٤، الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٢٦٨، الدرر الكامنة ٢/ ٤٤٨.

الله تعالى حسن السيرة في ولايته، ومولده في ذي الحجة سنة ثمان وستين وستمائة بحماة، رحمه الله، وفُوِّضَ قضاء حلب بعده للقاضي شمس الدين بن النَّقِيب[١] قاضي طَرابُلُسَ نقل منها إلى حلب، وولي قضاء المملكة الطرابلسية القاضي شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود البعلبكي المعروف بابن المجد[٢] وذلك في شهر ربيع الآخر من السنة ولم يطل مقامه بطرابلس فإنه مات في يوم الأحد سادس رمضان. رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الأربعاء سابع شوال الصدر جلال الدين محمد بن وجيه الدين سليمان بن همّام بن مرتضى المعروف بابن البياع[٣] أحد كتّاب الدرج بدمشق ودُفن من الغد بسفح قاسيون، ومولده في سنة خمس وخمسين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة بدمشق الأمير علاء الدين قلبرص ابن الأمير الكبير علاء الدين طيبرس الوزيري[٤] أحد الأمراء مقدمي الألوف بالشام، وكانت وفاته ببستان قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَى، وصلّي عليه عقيب صلاة الجمعة بالجامع المُظَفَّرِي، وخلف ولدًا ذكرًا اسمه ناصر الدين محمد عمره نحو عشرين سنة، وابنتين: خديجة وعائشة، وأوصى لألْزامه وعُتَقائه بجملة كبيرة من الذهب تقارب عشرة آلاف دينار، وكان رحمه الله تعالى رجلاً جيدًا خيِّرًا عفيفًا حسن المعاملة. . كثير الصدقة رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق أيضًا في ليلة الخميس رابع عشر ذي القعدة الفقيه الفاضل بدر الدين محمد بن فخر الدين عثمان بن أبي الوفا بن نعم الله بن أبي الوفا العَزّازي[٥] أحد كتّاب الدَّرْج بدمشق، وصلّي عليه ظهر يوم الخميس بالجامع الأموي، ودُفن بتربة والده بمقبرة الباب الصغير، ومولده في سنة ست وسبعين وستمائة. وكان رحمه الله تعالى حسن الصورة والهيئة والكتابة، كتب في ديوان المكاتبات مدة بدمشق زيادة على عشرين سنة، وكان حسن الصحبة، كثير المودة وله نظم ونثر، رحمه الله تعالى وإيانا.

---

(١) ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٤٥هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٤٤، الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩، السلوك ٢/ ٣٢٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٣٩، الدرر الكامنة ٤/ ١٣٩.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٥٠.

(٤) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٥، السلوك ٢/ ٣٢٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٢.

(٥) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٥٥.

وتوفي أيضًا بدمشق بعد العصر - من يوم الخميس العشرين من ذي الحجة - صاحبنا الصدر محيي الدين محمود بن محمد بن محمد التميمي شرف الدين محمد بن محمد بن نصر الله بن المظفر بن سعيد بن حمزة التميمي المعروف بابن القَلانِسِيّ[(١)] ببستانه بقَرَى، وصلّي عليه عقيب صلاة الجمعة بالجامع المُظَفَّرِي، ودُفن عند والده بتربة قاضي القضاة نجم الدين بسفح قاسيون، وكانت جنازته مشهودة، وكان رحمه الله تعالى رجلاً حسنًا جيدًا عاقلاً متواضعًا، ومولده في سنة سبع وسبعين وستمائة.

وتوفي قُدُودَار[(٢)] مُتَوَلّي القاهرة المحروسة في يوم الأربعاء سادس عشر صفر، وأنعم بإمرته على الأمير ماجار القَبْجاقي، وأصل قُدادَار هذا من مماليك الأمير بُرُلْغِي الأشرفي، وترقى إلى أن ولي كشف الغربية، وولاية البحيرة من أعمال الديار المصرية، ثم ولاية القاهرة، وتمَكّن منها تَمَكُّنًا زائدًا، وكان جريئًا على الدنيا، ثم صرف عن ولاية القاهرة بناصر الدين محمد بن المحسني، وأقام في داره إلى أن خرج للحج، ثم عاد وهو مريض، فلزم الفراش إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وتوفي الأمير بَلَبان الديسني في الخامس عشر من ربيع الأول، وانتقلت إمرته إلى بُرُلْغِي الناصري.

وتوفي من أمراء العشرات القَفْجاقي الذي كان قد راح رسولاً لبلاد أوادر في تاريخه.

وتوفي الأمير سيف الدين نائب السلطنة، وانتقلت إمرته إلى بكمان.

وتوفيت زوجة أمير مسعود الحاجب خامس شوال، وتوفيت بنت بيكتا الساقي في سادس صفر.

وتوفي محمد بن محمد الرومي شيخ خانقاة بَكْتَمُر الساقي بالقرافة يوم الأحد ثالث وعشرين ذي الحجة، وتولى مكانه الشيخ شمس الدين زاده الدَّوْقاتي، رحمه الله تعالى وإيانا.

وتوفي بمكة - شرّفها الله تعالى - أواخر جمادى الآخرة - الشيخ الإمام الفاضل القاضي نجم الدين أبو حامد محمد بن القاضي جمال الدين محمد بن الشيخ الإمام

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٣٨.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٣، والدرر الكامنة ٣/ ٢٤٤، السلوك ٢/ ٣٢٧.

المحدّث محب الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المكي[١]، قاضي مكة شرّفها الله تعالى، ودفن بمقبرة المَعْلَى، ومولده بمكة في سنة ثمان وخمسين وستمائة، رحمه الله وإيانا، وولي قضاء مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ بعده ولده شهاب الدين أحمد[٢].

تمّ الكتاب

(١) انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ١/٢٢٨ ـ ٢٣٠، شذرات الذهب ٦/ ٩٤ ـ ٩٥، الدرر الكامنة ٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) ولد سنة ٧١٨هـ، وتوفي سنة ٧٦٠هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/١٨٨، الدرر الكامنة ١/٢٩٧ ـ ٢٩٨).

فهرس المحتويات